بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (١)

حول التفسير والمفسِّر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

ترجمة ابن كثير:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فهذه أولاً خلاصة مختصرة عن الكتاب الذي بين أيدينا والمسمى بـــ(المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، وفي ترجمة مؤلفه، فالكتاب هو المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، وأصل كتاب المصباح المنير هو تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير -رحمه الله– ومؤلفه مشهور معروف وإمامٌ من أئمة الدين، كانت له الإمامة في عصره في الفقه والحديث والتفسير وفي جملة العلوم.

اسمه:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البُصروي -نسبةً إلى بُصرى- ثم الدمشقي؛ لأنه انتقل إليها بعد ذلك في صغره.

مولده ونشأته:

ولد بمِجدل، وهي قريةٌ من أعمال بصرى، وذلك سنة إحدى وسبعمائة للهجرة، وكان أبوه خطيب قريةٍ، مات وهو في الرابعة من عمره، فرباه أخوه الشيخ عبد الوهاب، وعلمه في مبدأ أمره، ثم انتقل إلى دمشق الشام سنة ستٍ وسبعمائة في الخامسة من عمره.

شيوخه:

من أشهر شيوخه: الحافظ المزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، والحافظ الذهبي، وكان شديد الالتصاق بالحافظ المزي -رحمه الله-، ثم تزوج ابنته.

مؤلفاته:

مؤلفات ابن كثير كثيرة ومشهورة من أجلِّها هذا التفسير، وله كتاب كبير معروف في التاريخ، وهو المسمى بكتاب: "البداية والنهاية".

وفاته رحمه الله:

كانت وفاته -رحمه الله- بعد ما عمي بصره بدمشق سنة أربعٍ وسبعين وسبعمائة.

حول كتاب المصباح المنير:

الذين اختصروا هذا التفسير هم جمع، والذي أشرف عليه هو الشيخ صفي الدين، أو صفي الرحمن المباركفوري، وهو من مشايخ أهل الحديث من أهل الهند، وهو موجودٌ في المدينة النبوية في الجامعة الإسلامية[1]، ولديَّ منه إسناد من طريق الشوكاني بكل ما رواه الشوكاني من كتب التفسير والحديث وغيره.

أما ما يتعلق بطريقة هذا المختصر، فهي طريقةٌ وصفوها في أوله، ومشوا عليها، وطبقوها إلى حدٍ كبير، ويعرف ذلك بالمقارنة، فإذا قارنت بين هذا التفسير، وبين تفسير ابن كثير -رحمه الله- الأصل- عرفت ذلك، فهذا يمكن أن نقول بأنه من أجل مختصرات هذا التفسير ومن أحسنها ومن أنفعها، ونستطيع أن نقول بكل اطمئنان: إن من قرأ هذا الكتاب فقد قرأ ابن كثير، وإنما حذفوا منه الروايات الضعيفة، وبعض ما لا حاجة له أيضاً كالروايات الإسرائيلية -وهي قليلة أصلاً- وأما عبارة ابن كثير فقد أبقوها كما هي تقريباً.

ومن مختصراته أيضاً عمدة التفسير وهو قريب الشبه جداً بهذا المختصر، حتى إنك لا تكاد تجد فرقاً بين الكتابين من حيث الجملة، وإن وجدت بعض الفروق فهي قليلة غير مؤثرة.

وممن اختصر تفسير ابن كثير الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- وهو أهلٌ لاختصار هذا الكتاب إلا أن المصباح المنير يتميز عن مختصر أحمد شاكر بأمرين:

الأمر الأول: هو أنهم هنا جعلوا الآيات والأحاديث مضبوطةً مشكولة.

والأمر الثاني: أنهم استغنوا عن الروايات الصحيحة المكررة في المعنى الواحد، فلم يبقوا إلا الرواية التي يُحتاج إليها كأن تكون تفيد معنى جديداً.

وعلى كل حال هذا المختصر مع مختصر أحمد شاكر هما أفضل هذه المختصرات جميعاً، بل إن بعض تلك المختصرات الأخرى لا يصلح أن تقتنى إطلاقاً، وليعلم طالب العلم وغيره أن الاختصار فنٌّ وليس مجرد شطبٍ بالقلم.

منهج ابن كثير في التفسير:

إن ما يتعلق بمنهج الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في التفسير يمكن أن نذكره على سبيل الإجمال فنقول: إن تفسير الحافظ ابن كثير يعد من كتب التفسير بالمأثور من حيث الجملة، ويوجد فيه قدر صالح من التوجيه والتعليل والترجيح، وبيان المعاني مما يتعلق بالاجتهاد والنظر والرأي، ولهذا لو قال قائل: إن تفسير الحافظ ابن كثير يجمع بين الدراية والرواية، وبين التفسير بالمأثور والتفسير بالنظر والاجتهاد والرأي، لما كان ذلك بعيداً عن مطابقة الواقع، فهذا التفسير هو كذلك.

كانت التفاسير التي تذكر الروايات قديماً كتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وأمثال هذه التفاسير -وعلى طريقتها سار السيوطي في الدر المنثور- كانت تورد الروايات فقط، تسردها سرداً من غير ترجيح، ولا بيان وجه روايةٍ ولا معنى.

إلى أن جاء كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فصار يرجح ويعلل، ويبين من المعاني ما يتعلق بالتصريف واللغة وما إلى ذلك، فصار تفسيره جامعاً بين هذا وهذا.

---

1 - توفي المباركفوري -رحمه الله- في الهند يوم الجمعة العاشر من شهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧هـ.

وجاء الحافظ ابن كثير -رحمه الله- واستفاد من هذه الطريقة، فجمع بين هذا وهذا، لكن ينبغي أن يُعلم أن كتاب التفسير لابن كثير تفسيرٌ مستقل وليس مولداً من تفسير ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وليس بتهذيب ولا مختصرٍ له، بل أنشأه الحافظ ابن كثير –رحمه الله- وقصد تأليفه من غير ارتباط بكتابٍ آخر يكون أصلاً له، خلافاً لما يظنه بعض الناس من أن هذا التفسير يعتبر تهذيباً، أو اختصاراً لتفسير ابن جرير، فهذا غير صحيح إطلاقاً، ولا يقول هذا من عرف الكتابين.

المقدمة:

"**الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، قال الشيخ الإمام الأوحد البارع الحافظ المتقي عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن أبي الخطيب أبي حفص عمر بن كثيرٍ الشافعي -رحمه الله تعالى ورضي عنه-: "الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(١-٣) سورة الفاتحة]، **وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ}** [(١) سورة الأنعام]، **واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٧٥) سورة الزمر]".

ليس من شأننا الاشتغال بشرح المقدمة، لكن يُعلَّق على ما يحتاج إلى تعليق، وهكذا الأمر في التفسير، لكن هنا في قوله: "**الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: {الحمد لله رب العالمين}**" هذا بناءً على القول بأن ترتيب السور أمرٌ توقيفي، وهذا القول لا شك أنه مرجوح.

وعلى كل حال إذا قلنا: إنه ليس توقيفياً فمعنى ذلك أن القرآن لم يفتتح بالحمد، ولكنه شيءٌ ارتضاه الصحابة -رضي الله عنهم-، فسورة الحمد ليست هي أول ما نزل قطعاً، بل أول ما نزل: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [(١) سورة العلق]، وليست سورة الحمد أيضاً هي أول ما افتتح به القرآن من حيث الترتيب الذي جاء من عند الله -عز وجل-، وإنما الترتيب الذي رتبه الله -تبارك وتعالى- إنما هو ترتيب الآيات في السورة الواحدة، كما قال زيد بن ثابت –رضي الله عنه-: "كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نؤلف القرآن من الرقاع"[(٢)]: يعني ترتيب الآيات.

وأما ترتيب السور فأحسن ما قيل فيه -والله أعلم- هو قول الإمام مالك -رحمه الله-: إن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- راعوا فيه ما رأوا من غالب حال النبي -صلى الله عليه وسلم- في قراءته.

"**ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [(٧٠) سورة القصص]، **فله الحمد في الأولى والآخرة، أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. والحمد لله الذي أرسل رسله {مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** [(١٦٥) سورة

---

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب – باب: في فضل الشام واليمن (٣٩٥٤) (ج ٥ / ص ٧٣٤)، وأحمد (٢١٦٤٧) (ج ٥ / ص ١٨٤)، وابن حبان (١١٤) (ج ١ / ص ٣٢٠)، والحاكم (٢٩٠٠) (ج ٢ / ص ٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٤٩٣٣) (ج ٥ / ص ١٥٨)، وابن أبي شيبة (١٩٤٤٨) (ج ٤ / ص ٢١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٩٩).

النساء]، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي، الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام]، فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان، فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود]، فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى، كما قال تعالى: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [(٤٤) سورة القلم]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[3]، قال مجاهد: يعني الإنس والجن.

فهو -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز، الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى فهمه، فقال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء]، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [(٢٩) سورة ص]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [(٢٤) سورة محمد].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [(١٨٧) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٧) سورة آل عمران].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ* اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٦-١٧) سورة الحديد]، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان

3 - أخرجه أحمد (١٤٣٠٣) (ج ٣ / ص ٣٠٤)، والدارمي (٢٤٦٧) (ج ٢ / ص ٢٩٥)، وابن حبان (٦٤٦٢) (ج ١٤ / ص ٣٧٥)، والطبراني في الأوسط (٧٤٣٩) (ج ٧ / ص ٢٥٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٦٤٣) (ج ٦ / ص ٣٠٣)، وإسناده صحيح كما قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج ١ / ص ٣١٧).

والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل والمسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم".

إن الركنين اللذين يقوم عليهما الاتعاظ بمواعظ القرآن والتأثر به هما: فهم معاني القرآن، وتجلية القلب.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}**، ثم قال بعده: **{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}**: فيه إشارةٌ إلى هذا المعنى، بمعنى أن تدبر القرآن وفهم معانيه يحصل به المقصود من التأثر والاتعاظ، وحياة القلب، وما أشبه ذلك مما هو مقصودٌ للمسلم حينما يقرأ كتاب الله -عز وجل-، فإنه يقرأ هذا القرآن من أجل العمل بما فيه، وفهم معانيه، ومن أجل أن يؤجر وأيضاً من أجل أن يتعظ بمواعظه، وللأسف نحن نقرأ من أجل البركة ومن أجل أن نؤجر.

"**فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن**".

هذا الكلام الذي سيذكره فيما يتعلق بطرق التفسير، وما يتصل بأصول التفسير في هذه المقدمة عامته من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الرسالة التي تسمى: "مقدمة في أصول التفسير".

"**فما أُجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر**": يعني أصح طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن، فيفسر القرآن بالقرآن يعني من حيث جنس الطريقة، لا من حيث الآحاد والأفراد؛ فإن ذلك يدخله الاجتهاد، بحيث إن المفسر ربما ربط بين آيتين وليس بينهما ارتباط، ولكن وقع ذلك في ذهنه فأخطأ، ومن هنا نقول: إن تفسير القرآن بالقرآن هو أفضل طرق التفسير من حيث الجنس، ولا يعني هذا أن كل من فسر القرآن بالقرآن في المثال المعين أنه مصيب، وأن تفسيره يجب أن يوقف عنده، إطلاقاً، وإنما هنا وقع اجتهاد من المفسر، فقد يصيب وقد يخطئ، فينبغي أن نفرق في هذا.

ولهذا فإن تفسير القرآن بالقرآن منه ما هو ظاهر واضح كتفسير: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}** [(٦ - ٧) سورة الفاتحة]، مع قوله: **{فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [(٦٩) سورة النساء].

ومنه ما يكون بعيداً غاية البعد، ومنه ما يكون بين ذلك، يعني فيه احتمال ولكنه لا يقطع به، فليس تفسير القرآن بالقرآن على مرتبةٍ واحدة من حيث الأفراد والتطبيقات.

"**فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا} [(١٠٥) سورة النساء]، وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٦٤) سورة النحل]، وقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [(٤٤) سورة النحل].**

ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه))[٤]، يعني السنة، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن" وهكذا يقال في تفسير القرآن بالسنة، فهو على قسمين من هذه الحيثية، بمعنى أن من تفسير القرآن بالسنة ما يدخل فيه اجتهاد المفسر، وذلك أن يربط بين الآية وبين حديثٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يقصد به النبي -صلى

---

4 - أخرجه أبو داود في كتاب: السنة – باب: في لزوم السنة (٤٦٠٤) (ج ٢ / ص ٦١٠)، بلفظ: ((الكتاب)) بدل: ((القرآن))، وأحمد (١٧٢١٣) (ج ٤ / ص ١٣٠)، واللفظ له، وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٦٣).

الله عليه وسلم- تفسير الآية، ولم يذكرها أصلاً، فمثل هذا قد يخطئ فيه المفسر وقد يصيب، وهو أيضاً على هذه المراتب الثلاثة التي ذكرتها.

ومن هذا النوع: ما يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- تعرض للآية، إما ذكرها، وإما أنه سئل عنها، وإما أن أصحابه اختلفوا فيها، فبين لهم المعنى، أو غير ذلك، فهذا إذا صح إسناده فإنه لا يطلب غيره ولا يجوز تعديه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بكتاب الله -عز وجل- كما قال تعالى: **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}** [(٣ - ٤) سورة النجم].

"والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم-.

روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الله -يعني ابن مسعود- قال: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"[٥]**.**

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عمِّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وترجمان القرآن؛ ببركة دعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- له، حيث قال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[٦]**.**

وروى ابن جرير عن عبد الله -يعني ابن مسعود- قال: "نِعم ترجمان القرآن ابن عباس" وهذا إسناده صحيح.

وقد مات ابن مسعود -رضي الله عنه- في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمِّر بعده عبد الله بن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.

وقال الأعمش عن أبي وائل: "استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة -وفي رواية: سورة النور- ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا."

على كل حال تفاسير الصحابة لا نقول: إنها حجة بإطلاق، ولا نقول: إنها ليست بحجة هكذا بإطلاق، وإنما يقال: تفاسير الصحابة على أنواع، فهذه التفاسير المنقولة عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- إذا صح إسنادها تارةً تكون حجة، وذلك في أحوالٍ متعددة، منها: إذا أجمع الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- على أمرٍ فإن هذا الإجماع لا يجوز الخروج عنه أو مخالفته.

ومنها: إذا كان تفسير هذا الصحابي مما لا يتصل بالرأي، ولا يتعلق بالاجتهاد، ولا مدخل لذلك فيه بحالٍ من الأحوال، ولم يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل، فمثل هذا يكون حجة، وذلك مثل الكلام في أسباب النزول؛ فإنها لا تقال من جهة الرأي، كذلك الإخبار عن الأمور الغيبية، فهذا يكون له حكم الرفع، وكذلك فيما إذا قال قولاً ولم يُعلم له مخالف من الصحابة فإنه في هذه الحالة لا تجوز مخالفته.

---

5 - أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤٢٩) (ج ٩ / ص ٧٣)، والبزار في المسند (١٩٦٩) (ج ٥ / ص ٣٤٣)

6 - أخرجه أحمد (٢٣٩٧) (ج ١ / ص ٢٦٦)، وابن حبان (٧٠٥٥) (ج ١٥ / ص ٥٣١)، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤) (ج ١٠ / ص ٢٦٣)، وفي الأوسط (١٤٢٢) (ج ٢ / ص ١١٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٢٣) (ج ٦ / ص ٣٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٨٩).

هذه ثلاث حالات يوقف فيها عند تفسير الصحابي ولا يخالف، سواء كان مستنده في ذلك اللغة، أو ما فهمه من بعض الأدلة فإنه لا يتعدى.

الحالة الأخرى: وهي أن يختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في تفسير الآية، فبهذه الحال لا يكون قول الواحد منهم حجة على الآخر، ففي هذه الحالة نتخير من أقوالهم ما يُعتقد رجحانه، يعني يرجح بينها بالأدلة.
إذن: إذا سئلت هل تفسير الصحابي حجة أو غير حجة؟ فلا تقل: حجة مطلقاً، ولا تقل: غير حجة، وإنما فيه التفصيل المذكور.

"**ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين، ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب**" طبعاً للأسف إن عامة المرويات عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- لا تصح، لا يصح من هذا الكم الهائل المنتشر في كتب التفسير الذي لا تكاد تفتح صفحة من كتب التفسير بالمأثور إلا وتجد فيها مرويات عن ابن عباس لا يصح منه إلا القليل جداً.

فعلى كل حال الإمام أحمد –رحمه الله- قال: إن ثلاثة كتب لا أصل لها، وذكر منها التفسير، وبغض النظر عن توجيه هذه الكلمة له –رحمه الله- لكن لا شك أن الرواية في التفسير دخلها الكثير، ولم يُعتنَ بها العناية التي حظي بها الحديث، ولذلك إذا أردت أن تطبق شروط المحدثين على جميع المرويات التي في التفسير فإنك في النهاية لن تخرج إلا بالقليل بالنسبة لهذا الكمّ الموجود من الروايات الكثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة وعن التابعين.

"**ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث قال: ((بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))**[7]**، رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو، ولهذا كان عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد؛ فإنها على ثلاثة أقسام**" نعم، تذكر للاستئناس بها فقط لا للاعتضاد، بمعنى أنه لا يعتمد عليها، ولا يفسر بها القرآن، فنحن لا نفسر القرآن بالأحاديث الضعيفة، فكيف نفسره بهذه الروايات التي لا يعرف لها إسناد أصلاً، ولا يمكن الوقوف على صحتها؟ إلا ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- فحسب، وأما هذه التي في كتبهم، والتي تنقل عنهم عن كعب الأحبار، أو غيره، فإن هذه لا يمكن أن يعرف أنها صحيحة أو غير صحيحة بمجرد روايتها عنهم، ولكن ما وافق ما عندنا في الكتاب والسنة فإنه يعلم صحته بهذا الاعتبار فقط، أما من جهة الأسانيد، ودراسة الروايات فليس عندهم هذه الأسانيد أصلاً، وبالتالي فإنه على كل الأحوال هذه الروايات الإسرائيلية لا يفسر بها القرآن، والصحابة -رضي الله عنهم- حينما أوردوها لم يكن ذلك اعتماداً لها في بيان معاني كلام الله -عز وجل-، وإنما من باب الاستئناس فيما لا يخالف ما في الكتاب والسنة.

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء – باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤) (ج ٣ / ص ١٢٧٥).

ولم أر أحداً تكلم على هذه المسألة مثل الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- في مقدمته في اختصاره لهذا التفسير في كتابه (عمدة التفسير)، فهو تكلم على هذه الروايات الإسرائيلية من هذه الحيثية بأنه لا يجوز الاحتجاج بها، وأنه لا يجوز أن يفسر بها القرآن.

ولا شك أن الأكمل والأفضل أنها لا تورد في التفسير أصلاً، ولذلك فإن من مميزات التفسير التي تذكر عادةً، بل إن ذلك ما عمِد إليه كثيرٌ من المفسرين وذكروه في أول كتبهم أنهم أرادوا أن يجردوه من الروايات الإسرائيلية، ولكن عامة من ذكر ذلك لم يستطع التخلص من إيراد شيءٍ منها، لكنهم بين مقلٍ ومكثر، فمنهم من أورد كثيراً من هذه الروايات، ومنهم من أورد قليلاً منها.

وابن كثير -رحمه الله- وقع في هذا في تفسيره، حيث له بعض الروايات القليلة، ولكنه عالمٌ نقاد ينتقد، وقد بين حال الروايات الإسرائيلية في أكثر من موضع من هذا التفسير، فهو تكلم عليها وأنه لا يحتج بها، وردَّ على هؤلاء الذين يكذبون ويفترون على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

"**أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق**" هذا حكم الروايات الإسرائيلية وهو أن الروايات الإسرائيلية لا تخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن توافق ما عندنا فتقبل، وإما أن تخالف ما عندنا -أي: تناقضه- فترد؛ لأنها كذب، وإما أنها لم يرد في الكتاب والسنة ما يوافقها ولا ما يخالفها فنتوقف فيها، لا نصدقها ولا نكذبها، وهذا الكلام ذكره الحافظ ابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، فهو معروف عند العلماء بطريق الاستقراء

"**أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته؛ لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم**" هذه تفصيلات تركها الله -عز وجل-؛ لأنه لا فائدة في ذكرها، إنما القضية تتعلق بالمعنى، كإحياء الموتى، وأن الله نجَّى أهل الإيمان بالسفينة مع نوح -صلى الله عليه وسلم-...الخ، ويبقى الجدل ما عدد أدوار هذه السفينة؟ وما نوع الخشب الذي صنعت منه؟ وأين السفينة الآن؟ وماذا بقي منها؟ ومن أول من ركب؟ ومن آخر من ركب؟ وكيف كانوا في أدوار هذه السفينة؟ وتفاصيل أخرى ليس لها حاجة ولا فائدة.

"**وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم.**

فصـــل:

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كـل آية منه وأسأله عنها".

وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة قال: "رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله"، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً، فيحكيها أقوالاً وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء، بعينه والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي". يعني هذا فيه إشارة إلى الاختلاف الواقع في عبارات المفسرين من التابعين، وهذا الاختلاف الواقع عامته هو من اختلاف التنوع، وذلك أن هذا الاختلاف إنما هو اختلافٌ صوري وليس باختلاف حقيقي، فهو اختلاف في العبارة واللفظ، فتارةً هذا يفسر بالمثال وهذا يفسر باللازم، وهذا يفسر بعبارةٍ قريبة من عبارة الآخر، وما إلى ذلك مما هو معروف، فتقع الاختلافات في العبارات، لكن المعنى والمآل واحد، ومثل هذا لا يصح أن يعد من الخلاف فيقال: القول الأول والثاني والثالث والرابع..، ثم نحاول أن نجمع بين هذه الأقوال.

وأما الاختلاف الحقيقي -الذي يسمى اختلاف التضاد- فهو قليل فيما نقل من تفسير الصحابة -رضي الله عنهم- مقارنةً بتفسير التابعين، والواقع في تفسير التابعين من الاختلاف الحقيقي قليل بالنسبة إلى من جاء بعدهم؛ وذلك أن الناس كلما بعُد العهد كلما ازدادت العجمة، واحتاج الناس إلى بيانٍ وتفصيل، وكلما ازداد التكلف عندهم أيضاً، فصاروا ينقّرون عن أمورٍ لم يكن من سبقهم ينقّر عنها، وكذلك أيضاً تقع من المستجدات والحوادث وما إلى ذلك مما يحتاجون معه إلى استنباط معاني ذلك وأحكامه من القرآن، فيقع بينهم الاختلاف بطبيعة الحال، وهذا أمرٌ لا بد منه، والله المستعان.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ لما رواه محمد بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس".

هو الآن تكلم عن التفسير بالمأثور، تفسير القرآن بالقرآن، وبأقوال الصحابة، وبأقوال التابعين، وبين أحكام ذلك، وهذا هو الذي يسمى التفسير بالمأثور، فكل ذلك هو من قبيل التفسير بالمأثور؛ لأنه مما يؤثر أن ينقل، وليس معنى ذلك أنه حجة، فليس هناك ملازمة إطلاقاً بين الحجية وبين التفسير بالمأثور، وبالتالي لسنا بحاجة إلى أن نشتط فنقول: إن التفسير بالمأثور هو ما نقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة مما يكون حجةً، فالتعريف بهذه الطريقة غير صحيح، وإنما التفسير بالمأثور هو كل ما يمكن أن يؤثر، فيدخل في ذلك أقوال الصحابة والتابعين.

ولو قلت: التفسير بالمنقول -بعيداً عن الاصطلاح لكلمة المأثور- فيمكن أن تُدخِل في التفسير بالنقل التفسيرَ بالقرآن وبأقوال الصحابة وبأقوال التابعين وبالإسرائيليات -مع أن هذا غير مرضي أصلاً- وبالسنة، وباللغة، فأنت حينما تنقل عن فلان من أئمة اللغة فهذا تفسيرٌ بالمنقول، لكنه لم يصطلح الناس على تسميته تفسيرًا بالمأثور، وأقصد بهذا الكلام أن نجعل القضية ثنائية تفسير بالمنقول يدخل فيه هذا كله بحيث إن المفسر لا يكون له كد ولا جهد ولا اجتهاد في مثل هذا، وإنما هو يعزو فقط.

القسم الثاني الذي يقابله: هو التفسير بالاجتهاد، وهو الذي يسمونه التفسير بالرأي، فمثل هذا التفسير بالرأي، قال عنه: "**وأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام**"، فقوله: "**بمجرد الرأي**" يقصد الرأي المجرد الذي لم يستند على أصل، فهذا هو المقصود، لا أن التفسير بالرأي حرام.

ولذلك تجد ابن جرير الطبري -رحمه الله- في مقدمته لتفسيره ذكر الآثار التي تدل على النهي عن تفسير القرآن والقول فيه بالرأي والتشديد في ذلك، ثم بعد ذلك ذكر جملةً من الآثار الدالة على تسويغ ذلك، يعني في الوقت الذي يتحرج فيه من تحرج، أو يرِد النهي فيه عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- أو ورد فيه بعض الآثار المرفوعة تجد في هذا الوقت نفسه ما يدل على تسويغ ذلك أيضاً، فيحمل النهي والتشديد والامتناع الذي حصل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- على لونٍ من التفسير بالرأي هو ما كان بالرأي المجرد من غير أن يستند إلى ما يجب أن يستند إليه التفسير من معرفة القرآن والسنة وأقوال السلف، ومواضع الإجماع، وقواعد الفن، وما أشبه هذا.

ويحمل توقف بعض الصحابة عن ذلك أيضاً على أنه كان من باب التورع، وإلا فيوجد في المقابل ما يدل على أن ذلك يسوغ إذا كان ذلك مما يبنى على خلفية علمية، وأصلٍ صحيح وما أشبه ذلك.

فمثلاً: إذا أردنا أن نفسر آية من الآيات، كقوله تعالى: **{الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [(١-٣) سورة البقرة].

{الم}: هذه الحروف المقطعة هي من حروف المباني التي تبنى منها الألفاظ والكلمات، ليس لها معنى في أصلها، وإنما تشير إلى معنى وهو التحدي بهذا القرآن والإعجاز.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}: **{ذَلِكَ}**: قد تستعمل للبعيد، ويدل على شرف القرآن ورفعته ومنزلته العالية.

{الْكِتَابُ}: أصله المكتوب، وأصل الكلمة من الضم والجمع، والمقصود به هذا القرآن وهو أحد أسمائه المشهورة.

{لاَ رَيْبَ فِيهِ}: نفى عنه الريب، وهذا يدل على اشتماله على اليقين الكامل..الخ..

هذا تفسير بالرأي، فهل هذا حرام؟ هل هذا الذي سمعتموه الآن يعتبر تفسيراً باطلاً؟

لا ليس باطلاً، بل هذا الكلام صحيح لا إشكال فيه، وليس هذا هو المعنيّ بالذم، لكن من قال في القرآن برأيه بمعنى أنه يتخرص ويتقول على الله -عز وجل-، ولا يبني ذلك التفسير على أصلٍ صحيح فهذا هو التفسير بالرأي الذي يُذم صاحبه ويُذم تفسيره، ويقال عمّن يفسر بهذه الطريقة: أخطأ وإن أصاب، بمعنى أن وقوعه على الصواب إنما كان ذلك مصادفةً، ولم يكن ذلك من باب أنه أتاه من وجهٍ صحيح، فهو ما بناه على مقدمات وأصول صحيحة، وإنما وقع على الصواب مصادفة، فهذا لا يجوز لا في التفسير ولا في غيره من الكلام في الأحكام، وبهذا نعرف المراد حينما يذم التفسير بالرأي ويشدد فيه، وإلا فإن تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- هو لا شك أنه من التفسير بالرأي.

"فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ لما روى محمد بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار))[٨]**، وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.**

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى ابن جرير عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: "أي أرضٍ تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم!"[٩]**.**

وروى أيضاً أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [(٣١) سورة عبس]**، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر"**[١٠]**.**

وهذا محمول على أنه -رضي الله عنه- إنما أراد استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، كقوله تعالى: {فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [(٢٧- ٢٨) سورة عبس]**، الآية".**
يقصد أن معرفة نوع هذا النبات بالتحديد هو التكلف، يعني يكفي أن يعرف أن هذه نباتات امتن الله -عز وجل- بإخراجها لهم مما يأكلون منه ومن ثمره، وكذلك تأكل منه دوابهم وأنعامهم، فيكفي أن يعرف هذا القدر، أما الاشتغال بتحديده بعينه فهذا الذي قصده -رضي الله عنه- بأنه من قبيل التكلف؛ لأن الله لم يكلفنا ذلك.

"وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها [إسناده صحيح][١١]**.**

وروى أيضاً عن ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ}؟ [(٥) سورة السجدة]**، فقال له ابن عباس: فما {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}؟** [(٤) سورة المعارج]**، فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: "هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما"، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم"**[١٢] ترك الجواب تورعاً، وإلا فإن ابن عباس -رضي الله عنه- يوجد عنه من الروايات الصحيحة ما جمع فيه بين مثل هذه الآيات التي ربما يفهم منها من لا يعرف وجه ذلك التعارض، فابن عباس تكلم في مثل هذه الأشياء وبيّنها، لكنهم قد يتركون الكلام من باب التورع.

"وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن[١٣]**، وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة -يعني السلماني- عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيمَ أنزل القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد**[١٤]**.**

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير – باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٢٩٥١) (ج ٥ / ص ١٩٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (١١٤).

9 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠٣) (ج ٦ / ص ١٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧٨) (ج ٢ / ص ٤٢٤)،

10 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠٥) (ج ٦ / ص ١٣٦).

11 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢).

12 - أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٨٠٣) (ج ٤ / ص ٦٥٢).

13 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢).

وروى الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن الصحابة وأئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [(١٨٧) سورة آل عمران]، **ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق: ((من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار))**"[١٥] ومما يدل على أنهم تكلموا كثيراً بما فهموا هذه الروايات المنقولة عنهم، وكذلك ما وقع بينهم من الاختلاف -اختلاف التضاد- فلو كان ذلك جميعاً مما أخذوه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما وقع بينهم مثل هذا الاختلاف.

فعلى كل حال من نظر في الروايات المنقولة عن الصحابة -رضي الله عنهم- وعن التابعين، وجد في ذلك الكثير مما يقطع بأنهم قالوه باجتهادهم، ومنه ما رجعوا فيه إلى لغة العرب كما يظهر ذلك في أمثلةٍ واضحة، ومن أراد أن يقف على طرفٍ من آثار السلف -رضي الله عنهم- التي تدل على تورعهم من التفسير وتحرجهم من الكلام على الله -عز وجل- بغير علم فلينظر في مثل: مقدمة الدارمي، وكذلك في كتاب: جامع بيان العلم، للحافظ ابن عبد البر، وجمع شيئاً من ذلك الشاطبي في كتابه: الموافقات، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

14 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠٩٩) (ج ٦ / ص ١٣٥).

15 - أخرجه أبو داود في كتاب: العلم – باب: كراهية منع العلم (٣٦٥٨) (ج ٢ / ص ٣٤٥)، والترمذي في كتاب: العلم – باب: ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩) (ج ٥ / ص ٢٩)، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم – باب: من سئل عن علم فكتمه (٢٦٤) (ج ١ / ص ٩٧)، وأحمد (٧٥٦١) (ج ٢ / ص ٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٢)

متابعة المقدمة بين يدي السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد.

أقسام التفسير:

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "**قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه أحدٌ إلا الله**" هذا الأثر المشهور عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يتحدث عن أنواع التفسير من جهة معرفة الناس له، وهكذا ينبغي أن يحمل هذا الأثر وأن يفسر، فهو يدل على هذا المعنى؛ وذلك أن الناس في فهمهم لكلام الله -عز وجل- منه ما يعرفونه بلغتهم –أي: تعرفه العرب بكلامها-، وهذا كالذي سأل عنه عمر -رضي الله تعالى عنه-: ما الأبُّ؟ فهذا يعرف من لغة العرب، ولما سأل عن التخوف في قوله تعالى: **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}** [(٤٧) سورة النحل]، فأجيب بجواب مأخوذٍ من كلام العرب، واستشهد له على ذلك ببيت:

تَخَوَّفَ السيرُ منهـا تامكـاً قَـرِداً ... كما تَخوّف عُـودَ النَّبْعـةِ السَّفَنُ

فهذا كله يرجع فيه إلى لغة العرب ويعرف منها، كالألفاظ الغريبة وما شابه ذلك.

وطائفة من كلام الله لا يعذر أحد بجهله فهو يعرفه كل أحد، وليس المقصود بأنه لا يعذر أحد بجهله بمعنى ما يتعلق بالفرائض، بل هو يتحدث عن إمكانية الوصول إليه، وطريق الوصول إليه، فهذا يعرف من جهة اللغة، وهذا لا يعذر أحد بجهله لمعرفه كل أحد به، وهذا في الأشياء الواضحة جداً التي لا تخفى، فهي تُعرف بمجرد سماعها.

والقسم الثالث: ما يعرفه العلماء، وهذا الذي يحتاج إلى استنباط، ويحتاج إلى دقة نظر، وذلك مثل الآيات التي ظاهرها التعارض، وذلك مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}** [(٢٤) سورة الصافات]، مع قوله: **{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}** [(٣٩) سورة الرحمن].

وكذلك في مثل قوله تعالى: **{هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ}** [(٣٥) سورة المرسلات]، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}** [(١٠٨) سورة طـه]، مع قوله عن الكفار أنهم يقولون: **{وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** [(٢٣) سورة الأنعام]، وأشباه ذلك كثير مما يحتاج إلى استنباط ويحتاج إلى جمع بين الآيات، ويحتاج إلى دقة نظر، فهذا لا يعرفه عامة الناس وإنما يعرفه العلماء.

والقسم الرابع: هو ما لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، وذلك في الأمور التي لا يمكن أن يوقف عليها، وهو ما يسمونه بالمتشابه المطلق، أما الذي يشكل على بعض ويعرفه آخرون فهو من قبيل المتشابه النسبي، وذلك من جهة المعنى، وأما ما يتعلق بالأمور الغيبية كحقائق الصفات، وحقائق ما أخبر الله -عز وجل- عنه من نعيم الجنة، أو عذاب النار، وما أشبه ذلك، فقد وصفه -عز وجل- لنا، أو وصف لنا بعضه، فنحن نفهم معاني ما وصف لنا، ولكن حقائق هذه الأشياء لا ندركها، مثل: كيف يدُ الله -عز وجل-؟ وكيف سمعه؟ وكيف بصره؟ كذلك حينما يذكر نعيم الجنة كأن يذكر مثلاً أن فيها أنهاراً من ماء، وفيها أنهاراً من لبن، وأنهاراً من خمر إلى آخره، فما هي مركبات هذا اللبن ونحوه؟ فنحن لا ندري ما هي مركباته.

وكذلك أيضاً حينما يخبرنا –جل وعلا- عن الماء الذي في الجنة كما في قوله تعالى: **{عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا}** [(١٨) سورة الإنسان]، ما هي مركبات هذه المياه؟ هل تتركب مما تتركب منه مياه الدنيا؟

لا ندري؛ لأن هذه أمور غيبية لا ندركها، وهكذا في بقية الأمور الغيبية الأخرى..

فما لا يمكن الوقوف عليه من حقائق الغيب فهذا يقال له: المتشابه المطلق، وليس ذلك من جهة المعنى وإنما من جهة الكُنه والكيفية، ولهذا إذا سئلنا: هل يوجد في القرآن شيء لا يعرف معناه أحد من الأمة؟

نقول: لا؛ إذ ليس في القرآن متشابه مطلق من جهة المعنى؛ فالله خاطبنا بما نفهم، وبما نعرف، ولم يخاطبنا بأمورٍ هي من قبيل الألغاز.

وأما من جهة الكنه والكيفية فإن القرآن يوجد فيه متشابه مطلق، وهذان المعنيان يفسر به قوله -تبارك وتعالى- في آية سورة آل عمران: **{مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ}** [(٧) سورة آل عمران].

فعلى الوصل والوقف في الآية يتغير المعنى، فإذا وصلت: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}**، فهذا بمعنى المتشابه من جهة المعنى الذي يشكل على البعض ويعرفه آخرون.

وإذا وقفت وقلت: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** ثم قرأت: **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}**، فعلى هذه القراءة يكون المقصود به المتشابه المطلق -يعني من جهة الكنه والكيفية والحقيقة- وكلاهما –الوقف والوصل- ثابت عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

المكي والمدني من سور القرآن:

"**روى همام عن قتادة قال: "نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة**" يعني مثل هذه الروايات حينما يرويها قتادة -وقتادة من التابعين- فهو يتحدث عن قضايا تتعلق بزمن الوحي، فمثل هذه الروايات لا تعتبر ثابتة صحيحة في منهج المحدثين، وإنما هي من قبيل المرسل وهذا إذا قلنا: إن هذا مما لا يقال من جهة الرأي، وهو يتحدث عن نزول القرآن وأماكن النزول، مع أن كثيراً من العلماء يتكلمون في هذا من جهة النظر والرأي باعتبار المعاني التي تلوح لهم في بعض الآيات فيها.

فعلى كل حال هذا على أحد الأقاويل في المكي والمدني، ويوجد غير ما ذكر، بل إن بعضهم عدَّ من المختلف فيه هل هو مكي أو مدني -من السور وليس من الآيات- اثنتين وثلاثين سورة من المختلف فيه، فمثل هذا حينما تسرد في مثل هذه السور على أن هذه مكية وهذه مدنية فليس ذلك بقاطع، وهذا هو المقصود.

"نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبي لم تحرم، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت وإذا جاءنصرالله، هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر السور بمكة.

عدد سور القرآن وآياته:

فأما عدد آيات القرآن العظيم فست آلاف آية" هنا لم يتعرض لعدد السور، بل تكلم فيما بعد عن معنى السورة واشتقاقها، ولم يتحدث عن عدد السور؛ ربما بناء على أن المعروف والمشهور أن سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة، فبعضهم ينقل عليه الإجماع فيقول: هذا بالإجماع لا خلاف فيه، لكن لو قيل: إن هذا هو القول المعروف المشهور المستقر عند العلماء لكانت هذه العبارة أدقَّ؛ وإلا فإن من أهل العلم من قال: إن سور القرآن أكثر من ذلك، ومنهم من قال: إنها أقل؛ وذلك بناءً على أن بعضهم عدَّ سورتين منسوختين في اللفظ وهما سورتا الخلع والحفد -وهما مما يقال في القنوت- فإذا أضفت هاتين السورتين صار العدد ست عشرة ومائة سورة، قالوا: وهما في مصحف أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- يعني نسخ لفظهما، لكن كأنه أبقاهما في آخره على أنهما من الدعاء الذي يقال في القنوت.

فهما سورتان قصيرتان قد نسخ لفظهما ولكن المعنى لم ينسخ، فسورة الخلع هي: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك".

وسورة الحفد هي: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك"، وفي بعض الروايات: "ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق".

فإذا كان هذا مما نسخ من القرآن، فهل ما نسخ من القرآن يعد منه؟

بالإجماع أنه لا يُعد، وعلى هذا فمثل هذا القول: إن سور القرآن ست عشرة ومائة لا يلتفت إليه.

أما أبي –رضي الله عنه- إن كانت في مصحفه فهو لم يعدها أصلاً، إلا إن كان لم يبلغه النسخ، وإلا فما مغزى كونها موجودة في آخر المصحف ومكتوبة؟ فنقول: كتبها للدعاء، لا على أنها سورة، وما قال بأنها سورة؛ إذ لم ينقل عنه إطلاقاً أنه يقول :إن سور القرآن ست عشرة ومائة سورة.

وبعضهم يقول: عدد سور القرآن اثنتاعشرة ومائة سورة، والسبب في ذلك كما قالوا؛ لأن سورتي المعوذتين غير موجودتين في مصحف ابن مسعود، وهذا مشهور، ولكن ابن مسعود -رضي الله عنه- لم يكن يخفى عليه أنهما من القرآن ولكن لم يكتبهما؛ لأنهما محفوظتان لا تخفيان فهو لم يكتبهما في مصحفه وذلك أن مصاحفهم –رضي الله عنهم- كانت مصاحف شخصية، كل إنسان يكتب لنفسه مصحفاً.

وبعضهم يقول: ظن أنها تعويذة ورقية.

ولكن على كل الأحوال هما قطعاً من القرآن بلا شك، فمن زعم بأن سور القرآن مائة واثنتا عشرة سورة فهو قولٌ شاذ بناءً على ما ذكرنا.

ومنهم من يقول: هو خمس عشرة ومائة سورة، وهذا القول بناءً على أنه عدَّ سورتين من القرآن سورةً واحدة، مثل سورة الفيل وإيلاف قريش، قالوا: هذه سورة واحدة أصلاً، ومنهم من عد سورة الشرح مع سورة الضحى، وقال: هذه سورة واحدة، ومنهم من عد غير ذلك سورة واحدة بالطريقة نفسها، وهذه أقوال شاذَّة أيضاً.

لكن كل هذه الأقوال شاذة لا يلتفت إليها، وإنما ذكرت هذا ونبهت عليه؛ لأنه قد يعرض لأحد في بعض كتب التفسير، أو كتب متعلقة بالتفسير أو كتب خادمة له، فيشكل عليه مثل هذا ويلتبس عليه.

فالمستقر الثابت الذي وقع عليه ما يشبه الإجماع هو أن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة..

"فأما عدد آيات القرآن العظيم فست آلاف آية، ثم اختُلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه "البيان" على كل حال أبو عمرو الداني -رحمه الله- إمام كبير من أئمة القراءة، وله مصنفات كثيرة جداً ربما تصل إلى أربعين مصنفاً في شتى الفنون والعلوم المتعلقة بالقرآن، وله مصنفات في غير ذلك أيضاً، فهو من كبار أئمة القراءة، وكتابه معروف مشهور، وعهدي به مخطوط في الجامعة الإسلامية لم يخرج للطبع، وعلى كل حال اسم كتابه: [البيان].

يقول:" **حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه [البيان]**" [اسمه البيان في عد آي القرآن]، والكتب المؤلفة نظماً ونثراً في عدِّ الآيات كثيرة جداً، والأقاويل في عدد آيات القرآن أكثر مما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- وهي أكثر من هذا، والخلاف في هذا كثير جداً.

والعلماء حينما يختلفون في عدد الآيات فليس معنى ذلك أن أحداً منهم يسقط آيةً من كتاب الله وآخر يزيد آية، وقل مثل ذلك حينما نتحدث عن خلافهم في عدد الكلمات، وعن خلافهم في عدد الحروف، فهم متفقون على هذا المصحف الذي بين أيدينا، ولكن كيف وقع بينهم الاختلاف في العدد؟

هناك جواب مجمل، وهو أن العلماء من القراء -أئمة القراءة في المدينة ومكة والشام، والكوفة، والبصرة رحمهم الله جميعاً- لهم طريقة في العدِّ، فأهل الشام لهم طريقة في العدِّ، وأهل البصرة لهم طريقة، وأهل الكوفة لهم طريقة، وقد وقع بينهم هذا التفاوت ويمكن أن يرجع ذلك إلى القراءة، ومعلوم أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأقرب مثالٍ يوضح هذا المعنى: أن البسملة على بعض القراءات آية من سورة الفاتحة، وعلى بعضها ليست بآية، وفي بعض الوجوه من القراءات أنها آية من كل سورة عدا سورة براءة، فإذا عددت البسملة على بعض الأوجه من القراءات آية من كل سورة عدا براءة، صار عندنا آيات زيادة عددها ثلاث عشرة ومائة، ومن لم يعدها اختلف عنده العدد، وليس ذلك من جهة الرأي إطلاقاً.

ووجه الجمع بين هذه الأقاويل هو ما ذكره صاحب المراقي بقوله:

وبعـــضهم إلـــى القـــراءة نظـــر وذاك للوفـــــاق رأيٌ معتبـــــــر

من قرأ بقراءة كقراءة ابن كثير -وهي قراءة أهل مكة، وهي التي كان يقرأ عليها الإمام الشافعي -رحمه الله- فإنه يعد البسملة آية من الفاتحة، وهكذا.

فعلى كل حال هذا مثال بسيط يوضح وجه ذلك، وهناك أشياء أخرى يمكن أن تذكر في هذا المجال.

الخلاف في عدد آيات القرآن:

سور القرآن من حيث عدد الآيات يمكن أن تجعل على ثلاثة أقسام:

قسم اتفق العلماء على عدده جملةً وتفصيلاً، وهذه يمكن أن يقال: إنها تبلغ أربعين سورةً.

ومنه ما حصل الاتفاق على عدده جملةً لا تفصيلاً، بمعنى أنهم متفقون على أن عدد آيات هذه السورة مثلاً: عشرون آية لكنهم مختلفون في رأس الآية، هل هي هذه أو تلك؟ وذلك حصل في نحو أربع سور.

ومنه ما اختلفوا فيه جملةً وتفصيلاً، وهذا هو الأكثر، وذلك في سبعين سورة، والمعنى أن هذا يقول: عدد الآيات مثلاً: عشر، وهذا يقول: بل إحدى عشرة آية، فضلاً عن الخلاف فيما يقال له: الفاصلة أو المقطع، أو أين تنتهي الآية، وأقرب مثال لذلك سورة الفاتحة، فإنهم مختلفون فيها، فبعض العلماء -كما هو المشهور- يقول: هي سبع آيات بالإجماع، لكن هذا الكلام فيه نظر؛ لأننا إذا قلنا: إنها سبع آيات مثلاً -وهو ما عليه عامة أهل العلم وهذا هو المشهور- فالسؤال هو: أين السابعة؟ هل هي البسملة، أو أن ذلك عند قوله -تبارك وتعالى-: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}؟

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}: هنا رأس آية، ثم {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}: هذه آية أخرى، هذا عند من قال: إن الفاتحة ليست البسملة آيةً منها وهي سبع آيات، نقول: فأين السابعة، يقولون: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} هذا رأس آية، وبعضهم قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: هذا رأس آية، فعلى هذا لم ينقص شيء ولم يزد شيء، ومن هنا نعرف كيف يقع التفاوت في العدد، فالقرآن هو القرآن الذي بين الدفتين، لا يدعي أحد فيه زيادة حرف ولا نقصان حرف، لكن لا بد من فهم وجه مثل هذه الاختلافات، وسيأتي أيضاً مثل هذا الكلام في عدد الحروف وفي عدد الكلمات.

فعندنا الآن الاختلاف في البسملة، وعندنا الاختلاف في أوائل بعض السور مثل الحروف المقطعة فيها خلاف مشهور هل تعد آية أم لست بآية؟ فبهذا يفترق العدد، وكذلك في مثل بعض أوائل السور كقوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [(١) سورة العصر]، ومثل: {وَالضُّحَى} [(١) سورة الضحى]، ومثل: {وَالنَّجْمِ} [(١) سورة النجم]، وما أشبه ذلك، وكذلك مثلاً حينما يقول الله -عز وجل- في أول سورة القصص: {طسم} [(١) سورة القصص]، هذه اختلفوا فيها هل هي آية مستقلة أو أنها ليست بآية مستقلة؟.

وفي السورة نفسها -سورة القصص-: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص]، {يَسْقُونَ} هل هذه رأس آية؟ بعضهم يقول: نعم، هنا موضع الفاصلة.

وكذلك في سورة العنكبوت، اختلفوا في {الم}، وكذلك في قوله: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [(٦٥) سورة العنكبوت]، هل هي رأس آية؟ وكذلك في قوله سبحانه: {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ} [(٢٩) سورة العنكبوت]، هل هي رأس آية؟

وفي قوله تعالى في سورة الجن: {لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ} [(٢٢) سورة الجن]، هل هذه رأس آية؟، وفي سورة العصر أيضاً: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} [(٣) سورة العصر]، هل هذه رأس آية، أم أنها آية واحدة هكذا: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [(٣) سورة العصر]؟، وهكذا فيما ذكرت من سورة الفاتحة.

إذا اعتبرت هذا كله تبين لك وجه هذا الاختلاف في العدد.. لكن هل هذا أمر يؤثر؟ الجواب: هذا لا يؤثر؛ فالقرآن محفوظ لم يتطرق إليه زيادة ولا نقصان، وما جاء أحد فقال عن آية: إنها ليست من القرآن، أو قال: هذه زيادة، أو نحو ذلك، أبداً، بل كل ذلك من القرآن، ولكنهم يختلفون فيما ذكرنا.

سبب الاختلاف في مواضع فواصل الآيات:

سبب الاختلاف في موضع الفاصلة ما ذكره بعض أهل العلم من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ عليهم القرآن، ويقف عند رأس كلِّ آية، فتلقوا ذلك عنه؛ لأن أخذ ذلك والحكم بأن هذه آية أو ليست بآية هذه أمور توقيفية وليست قضايا اجتهادية في الأصل، إنما كانوا يتلقون ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهناك ما وقف عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً، وهناك ما وصله النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً، وهناك أشياء وقف فيها ووصل فيها، فربما أنه لما أفهمهم -صلى الله عليه وسلم- بقراءته أن هذه رأس آية قرأها بعد ذلك اتكالاً أو اعتماداً على ما فهموا، فظن بعضهم أنها ليست رأس آية في هذا الموضع.

وقضية الآيات ورءوس الآيات كانت معروفة لدى الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وجاء ذلك في الأحاديث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يوضح لهم ولا يذكر لهم شيئاً إلا ويخاطبهم بما يعرفون.

فحينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال))[1]، وفي بعض الروايات: ((من آخر الكهف))[2]، فبماذا يخاطبهم؟ إنه يخاطبهم بشيء يعرفونه.

وحينما يقول عن سورة تبارك -صلى الله عليه وسلم-: ((سورة من القرآن ثلاثون آية))[3]، فهذا شيء معروف عندهم.

وكذلك حينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عن آخر آيتين من سورة البقرة: ((من قرأهما في ليلة كفتاه))[4].

وكذلك ما جاء في الروايات الكثيرة في قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران، حينما قام من الليل[5].

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩) (ج ١ / ص ٥٥٥).

2 - صحيح مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩) (ج ١ / ص ٥٥٥)، وأبو داود في كتاب: الملاحم - باب: ذكر خروج الدجال (٤٣٢٣) (ج ٢ / ص ٥٢٠)، وأحمد (٢٧٥٥٦) (ج ٦ / ص ٤٤٦).

3 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة – باب: في عدد الآي (١٤٠٠) (ج ١ / ص ٤٤٥)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩١) (ج ٥ / ص ١٦٤)، وأحمد (٧٩٦٢) (ج ٢ / ص ٢٩٩)، والحاكم (٢٠٧٥) (ج ١ / ص ٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٩١).

4 - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي – باب: شهود الملائكة بدراً (٣٧٨٦) (ج ٤ / ص ١٤٧٢)، وفي كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٥٥٥).

فعندنا شواهد كثيرة، لو أراد الإنسان أن يؤلف في ذلك كتاباً لوجد من الروايات ما يكفيه، فهو أمرٌ مشهورٌ ذائع معروف.

ما الفائدة من معرفة أن هذه آية كاملة أو جزء من آية؟:

معرفة هذا الأمر قد يحتاجه الإنسان فيما لو نذر –مثلاً- أن يقرأ عشر آيات، وقرأ من الآيات التي فيها هذا الخلاف، هل يكون قرأ تسعاً أو عشراً، فهو يحتاج لمعرفة ذلك حتى يتحقق من وفائه بنذره.

كذلك حينما يأتي ليطبق بعض الأحاديث في الفضائل فإنه يحتاج لمعرفة العدّ، كحديث: ((من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين))[٦].

حتى إن بعض أهل العلم في الأجزاء الأخيرة كالحافظ ابن حجر -رحمه الله- عدَّ من أين يبدأ حتى يكون قد قرأ ألف آية يصلي بها قبل أن ينام، ففي مثل هذا يحتاج إلى العد.

وكذلك أيضاً يحتاج إلى معرفة ذلك من قال: إن خطبة الجمعة لا بد فيها من قراءة آية كاملة، فلو قرأ في الخطبة قول الله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}، فهل هذه آية كاملة أم لا بد مما بعدها لتتم له آية كاملة؟

كذلك في قضية الإعجاز، فلو قلنا: بماذا يثبت الإعجاز؟ فالجواب: يثبت بأقصر سورة من القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات.

إذن: هل نقول: أو ما يعادلها من آية طويلة، أو ثلاث آيات أخرى من القرآن على قول بعض أهل العلم؟ فهذا أيضاً يحتاج فيه إلى معرفة، وهكذا..

ولذلك العلماء اعتنوا بهذه القضية وألفوا فيها نظماً ونثراً، بل إن كثيراً من الكتب المؤلفة في هذا لأئمة كبار مخطوطة لا زالت لم تطبع.

فعلى كل حال هذا يمكن أن يرجع فيه إلى ما ذكرت من تنوع القراءات الناتج عن تعدد الأحرف التي نزل بها القرآن، فالقرآن نزل على سبعة أحرف.

طبعاً كان لا بد من ذكر هذا الكلام؛ لئلا يقع إشكال في ذهن أحد فيلتبس عليه الأمر، وإلا فنحن ما نطيل بهذه الطريقة، وإلا لن ننتهي ولا بعد ثلاثمائة سنة من هذا الكتاب، لكن هذه قضية لا بد من الوقوف عندها طالما أن المؤلف ذكرها.

"وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً، وقال الفضل عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً، وقال سلام أبو محمد الحماني: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء - باب: قراءة القرآن بعد الحدث وغيره (١٨١) (ج ١ / ص ٧٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣) (ج ١ / ص ٥٢٥).

6 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة - باب: تحزيب القرآن (١٣٩٨) (ج ١ / ص ٤٤٤)، وابن خزيمة (١١٤٤) (ج ٢ / ص ١٨١)، وحسنه الألباني في المشكاة برقم (١٢٠١).

ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً" على كل حال عدد الكلمات وعدد الحروف الأقاويل فيها كثيرة جداً أيضاً، وهي مبنية على ما سبق.

ومبنية أيضاً على أمر آخر، خذ مثالاً يوضح لك القضية في سورة لا تلتبس على أحد: الكلمة الواحدة أحياناً يختلفون فيها هل هي كلمة واحدة أو أكثر؟، فالله -عز وجل- يقول: **{سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ}** [(٥٠) سورة إبراهيم]، فهل كلمة: **{قَطِرَانٍ}** كلمة واحدة "قطران"؟ أم هي كلمتان "قطر" و"آن"، أي: قطر حار؟

القطر معروف، و"آن" يعني حاراً، فعلى هذا هي كلمتان، وإلا فهي كلمة واحدة؟ فهم في مثل هذا يختلفون.

وكذلك يختلفون في نفس الكلمة من جهة أخرى من حيث عدّ الضمائر وعدم العدّ، فهل يعدون الضمائر مستقلة أو يعدون الكلمة الواحدة بما يرتبط فيها من ضمائر، كقوله تعالى: **{أَنُلْزِمُكُمُوهَا}** [(٢٨) سورة هود]؟

هذه الكلمة إذا عددتها كلمة واحدة بما ارتبط بها فهذا وجه، أو أنك تقول "أنلزم" هذه كلمة، و"الكاف" للخطاب، وتعد الضمائر مثل "الهاء"، فهل تعد هذه كلمة واحدة أو تعدها كلمات؟

كذلك قوله تعالى: **{أَنعَمتَ}**، هل تعدها كلمة واحدة؟ أو تقول "أنعم" كلمة و"التاء" كلمة أخرى؟ فهم يختلفون في العد بهذا الاعتبار.

وقل مثل ذلك بالنسبة لعد الحروف بناءً على أي شيء يتم العد؟ هل يكون بناءً على ظاهر الرسم؟

كذلك قوله تعالى: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة] كيف كتبت في القرآن **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**؟ كتبت من غير ألف فتعدها ثلاثة أحرف، أو تعدها بحسب النطق **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** فتصير أربعة أحرف؟

هناك حروف تكتب ولا تنطق، وهناك حروف ينطق بها ولا تكتب، فما هو المعتبر في العد؟

من عد كل حرف مرسوم فإن عده يختلف عن عدِّ من قال بعدّ الحروف التي ينطق بها، وقل مثل ذلك في الكلمات، فيقع اختلاف كثير في عدد الحروف بهذا الاعتبار، كما يقع الخلاف في عدد الكلمات.

وعلى كل حال، العلماء تكلموا عن هذا كثيراً، فالحجاج كان من أكثر الأمراء عنايةً بالقرآن، وهذا من العجائب والغرائب في التناقضات، وهذا يدل على أن شخصيته كانت غير طبيعية، بل كانت متناقضة، لا يعرف من الأمراء من كان أكثر عناية بالقرآن من الحجاج، فقد كان يقرأ كل ليلة ربع القرآن، وجاء بمجموعة كالحسن البصري وجماعة وأعطاهم حب شعير، وبقوة السيف أرهبهم وأمرهم أن يعدوا كل حرف في القرآن بحبات الشعير، ويبينوا له أين ينتهي الربع الأول، وينتهي النصف؛ على أساس أنه يقرأ إلى الحرف الأخير الذي يقف عنده في نهاية الربع، وفي نهاية النصف وهكذا، فعملوا له ذلك حتى انتهوا من هذا كله في نحو أربعة أشهر، فكان كل ليلة ما ينام حتى يقرأ ربع القرآن.

فالحاصل أن العلماء اعتنوا بهذا عناية كبيرة جداً، وتجدون الكلام على مثل هذه الأشياء في الكتب التي تتكلم عن العد وهي كثيرة، وتجدونه في كتاب: [البرهان في علوم القرآن للزركشي]، وكذلك: [الإتقان للسيوطي]، وكذلك في كتاب: [جمال القراء للسخاوي علم الدين]، والكتاب عبارة عن مجموعة من الرسائل في موضوعات تتعلق بعلوم القرآن، جمعها في كتابٍ واحد، وفي إحدى هذه الرسائل كان يتحدث عن قضية العد.

وتجد مثل ذلك في كتاب: [بصائر ذوي التمييز] تجد على سبيل المثال: كيف كانوا يعتنون بهذه القضية، والخدمة التي لقيها كتاب الله -عز وجل- من قبل هؤلاء العلماء -رحمهم الله- وتكلم على عدد الآيات، وعدد

الكلمات، يقول مثلاً: قراء الكوفة عدوا قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} آية، والباقون لم يعدوها آية، ويقول: بل جعلوا آخر الآية: {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [(٢) سورة ص].

وقراء الكوفة عدوا: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} [(٨٤) سورة ص] آية، والباقون لم يعدوها، بل جعلوها: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [(٨٥) سورة ص].

فالحاصل أنه تكلم على هذا، ثم بدأ يتكلم على عدد كلمات القرآن، وعدد الحروف، ثم بدأ يتكلم عما هو أغرب من ذلك حيث تكلم عن عدد النقط في القرآن.

ثم بدأ يتكلم عن عدد الألفات في القرآن، حيث أتى بكل الحروف الهجائية، فذكر كل حرف وكم مرة تكرر، وهو تفنن عجيب.

ومثل هذا الكتاب أيضاً كتاب: [فنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي]، تجد فيه أشياء عجيبة جداً، وهو مولع بهذه الأشياء، يذكر مثلاً أسئلة أو قل: ألغازاً فيقول: سبع آيات متواليات، آخر كلٍ منها اسمان لله -عز وجل-؟ آيات أول كل حرف منها حرف الشين؟ آية تحتوي على حروف المعجم كاملة؟ سور ليس فيها لفظ الجلالة؟

ثم تكلم على تحزيب القرآن، وذكر تقسيمات عجيبة جداً -فتأمل حتى تعرف شدة عناية العلماء بهذا القرآن- تكلم عن عدد الآيات والحروف، وتكرار حروف المعجم في القرآن حرفاً حرفاً كما سبق، وعدد النقط في القرآن، وذكر أجزاء القرآن، وأين النصف، وأثلاث القرآن، وأرباع القرآن، أين ينتهي الربع، وأين ينتهي الخمس إذا أردت أن تقرأ في كل يوم خمس القرآن، أين الأسداس، الأسباع، الأثمان، الأتساع، الأعشار، أنصاف الأسداس، أنصاف الأسباع، أنصاف الأثمان، أنصاف الأتساع، أنصاف الأعشار، ثمانية وعشرين جزءاً، ثلاثين جزءاً وهكذا، قسموه بهذه الطريقة.

إذا أردت أن تحفظ القرآن في سنة، فأين ينتهي بالضبط مقدار كل جزء من هذه الأجزاء المقسمة على أيام السنة، فعدوا الحروف، حتى عدوا نصف القرآن أين ينتهي يعني إلى أي حد، وتعرفون الكلام على تفسير الجلالين هل يمسه غير المتوضئ أو لا؟، باعتبار القول: إنه إذا كان التفسير أغلب فإنه لا بأس، فعدوا حروف الجلالين مع حروف القرآن، فوجدوها متساوية أظن إلى سورة المزمل، فهذه العناية لم يحظ بها كتاب مثل هذا القرآن.

"**قال: فأخبروني عن نصفه؟ فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف:** {وَلْيَتَلَطَّفْ} [(١٩) سورة الكهف]" نقل عنه أنه كان يقرأ إلى هذا الموضع في الليلة الثانية حيث كان كل يوم يقرأ ربع القرآن، والأصل أن هذه الطريقة غلط، حيث ينبغي للإنسان أن يكمل الآية، والأفضل أن يكمل السورة، وهذا كان يقف على الحرف في الربع وفي النصف وهكذا، فما كان يريد أن يزيد عليها حرفاً واحداً، وهذه الطريقة غير شرعية.

"**وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره، وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى:** {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ} [(٥٥) سورة النساء]، **والسبع الثاني إلى التاء في قوله تعالى في سورة الأعراف:** {حَبِطَتْ} [(١٤٧) سورة الأعراف] } **والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد:** {أُكُلُهَا} [(٣٥) سورة الرعد] **والرابع إلى الألف في الحج من قوله:**

{جَعَلْنَا مَنسَكًا}" الذين يتكلمون الآن على ما يسمونه بالإعجاز العددي بناءً على عدد الآيات، وعدد الكلمات وعدد الحروف، هل يمكن أنهم يأتون بشيء يبنى عليه قولٌ بالإعجاز؟

هذه المعاني العجيبة التي يستنبطونها في نهاية الدنيا، وقيام القيامة وانتهاء دولة اليهود، هذا الكلام يمكن أن يعتمد عليه؟ كيف يعدون وأكثر هؤلاء ما يعرفون طريقة العد أصلاً، ولا سمعوا بخلاف أهل العلم في عدِّ الآي وطريقتهم في العد!، وتكلمنا على هذا في التفسير العلمي والإعجاز العددي، وبينت الأعداد التي يذكرونها، وأين هي من الواقع.

"والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ} [(٣٦) سورة الأحزاب]، والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} [(٦) سورة الفتح]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: علمنا ذلك في أربعة أشهر، قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى: {وَلْيَتَلَطَّفْ} من سورة الكهف، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن، وقد حكى الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، فالله أعلم.

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس" الربعات: جمع ربعة، وهي كما تقول: المكان أو الصندوق الذي يوضع فيه أوراق المصحف، أو توضع فيه المصاحف أو نحو هذا.

"وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة: أنه سأل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلثاً وخمساً وسبعاً وتسعاً وأحد عشر وثلاثة عشر وحزب المفصل حتى تختم" على كل حال التجزئة هذه على ثلاثين جزءاً لم تكن في زمن الصحابة -رضي الله عنهم-، وشيخ الإسلام -رحمه الله- تكلم على هذا، وبين أن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كانوا يجزئون بالسور، وما كانوا يجزئون بهذه الأجزاء؛ لأن التجزئة بالسور أكمل وأتمّ بحيث إن السورة تقرأ كاملةً، وأما في التجزئة فقد يكون رأس الجزء في وسط قصة وبالتالي فالمعنى لم يكتمل، فيتوقف الإنسان بناءً على نهاية الجزء، فالتجزئة بالسور أفضل من التجزئة بالطريقة المنتشرة المشهورة.

وعلى كل حال هذه الرواية التي ذكرها، فالذي أذكر أنها غير صحيحة بل هي ضعيفة من جهة الإسناد، ويمكن أن يراجع هذا، وهي في سياق ذكر الوفود الذين يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان يأتي إليه مثلاً وفد ثقيف، ويقف يراوح بين قدميه، وتأخر عليهم ذات ليلة، وقال: إنه قد شغلني وردي أو حزبي من القرآن، فسئل الصحابي كيف تقسمون؟ فلتراجع على كل حال.

لكن على كل حال التقسيم المشهور هو بالسور، هذا هو المعروف، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((((لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث))[7].

وقال لعبد الله بن عمرو أيضاً: ((اقرأ القرآن في أربعين))[8].

---

7 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة – باب: في كم يقرأ القرآن؟ (١٣٩٠) (ج ١ / ص ٤٤٢)، والترمذي في كتاب: القراءات – باب: ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٩) (ج ٥ / ص ١٩٨)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها – باب: في كم يستحب ختم القرآن؟ (١٣٤٧)، وأحمد (٦٥٣٥) (ج ٢ / ص ١٦٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٢٠١).

وفي الرواية المشهورة عنه كما في البخاري: ((اقرأ القرآن في شهر))، قال: قلت: إني أجد قوة، حتى قال: ((فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك))(٩).

فتقسيمه إلى سبع على كل حال تقسيم مشهور وهو الذي كان يرتضيه ويختاره عامة أهل الحديث، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: (١٣) حديث رقم (٢٩٤٦) (ج ٥ / ص ١٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٥٤).

9 - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [(٢٠) سورة المزمل] حديث رقم (٤٧٦٧) (ج ٤ / ص ١٩٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٣)

معنى السورة واشتقاقها وذكر ما ورد في فضل سورة الفاتحة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"**فصل: واختلف في معنى السورة ممَا هي مشتقة، فقيل من الإبانة والارتفاع.**

قال النابغة:

ألــم تــر أن الله أعطــاك ســورة ترى كــل ملــك دونهــا يتذبــذب

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

تعريف السورة في اللغة:

يقول ابن كثير -رحمه الله- عن السورة: "**قيل: من الإبانة والارتفاع**" بعض أهل العلم من يرجع الكلمات إلى أصولها، وهي طريقة فذَّة وجيدة في تفسير الألفاظ كالطريقة التي يسلكها أحمد بن فارس -رحمه الله-، فعلى طريقته هو يرجع هذه اللفظة إلى العلو والارتفاع، فيقول: كل استعمالات هذه الكلمة تدل على علوٍّ وارتفاع، أو ترجع إلى معنى العلو والارتفاع.

وهنا يقول ابن كثير: "**قيل من الإبانة والارتفاع**" لو قال: فقيل من الإبانة أو الارتفاع لكانت العبارة أدقَّ؛ لأن القول بأنها من الارتفاع غير القول بأنها من الإبانة، فالقول بأنها من الارتفاع يعني أنها برفعةِ شأنها وجليل قدرها وعلو شأنها قيل لها: سورة، ومنه قول الشاعر يمدح ملكاً:

ألــم تــر أن الله أعطــاك ســورة ترى كــل ملــكٍ دونهــا يتذبــذب

أي: أعطاك منزلةً رفيعة، فهذا هو المعنى إذا كانت مأخوذة من العلو والارتفاع.

وإذا قيل: إنها مأخوذة من الإبانة -وهو المعنى الثاني الذي ذكره هنا- فهي باعتبار أنها منفصلة عن غيرها، الإبانة: بمعنى أنها منفكة عن غيرها، فهي وحدة مستقلة من الآيات، منفصلة عما قبلها وعما بعدها، وهذا كله إذا قلنا: إنها مأخوذة من الإبانة والارتفاع، وعلى كل حال بعضهم يقول غير هذا، كقول من يقول بأنها مأخوذة من الشدة، أو مأخوذة من القوة، كقولك: سَوْرة الأسد، وكقولنا: سَوْرة الغضب، وكقولنا أيضاً: سَوْرة الشراب أي: المسكر –يعني قوة الإسكار وشدته، فبسبب قُوَّتها قيل لها ذلك، لكن هذا فيه بُعد.

وبعضهم يقول: مأخوذة من الجمع كما يقولون: هذا سَورٌ من الإبل، بمعنى جماعة من الإبل، فيقولون: هذه السورة باعتبار أنها مجموعة من الآيات، وأقل السور ثلاث آيات فقيل لها ذلك.

وبعضهم يرجع ذلك إلى معنى الإحاطة، وبعضهم يجمع بين الإحاطة والارتفاع، مثل سور المدينة؛ لارتفاعه ولإحاطته بالبنيان في داخله، فقديماً كانت المدن والقرى لها أسوار تحيط بها، فهذا السور يكون محيطاً بما في داخله من البيوت.

"**فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة، وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان**" الآن سور البلدان ليس له علاقة بالشرف، وإنما له علاقة بمعنيين هما: الارتفاع والإحاطة، لكن الشرف يتعلق بالعلو والارتفاع، بمعنى: لشرفها، فالشريف رفيع، وهي رفعة معنوية، فهي منزلة كما قال: "**ألم تر أن الله أعطاك سورةً**": يعني منزلةً رفيعة، فقيل لها ذلك بمعنى الارتفاع، أي: لعلو مكانتها ومنزلتها وشرفها، فهذه المعاني تفترق بهذه الطريقة، وبالتالي لا نرجعها إلى سور المدينة بمعنى العلو والشرف، وإنما يكون بمعنى الإحاطة والعلو.

والأمر في هذا سهل؛ إذ لا يوجد أحد تخفى عليه السورة، فالسورة هي التي تعرفون من القرآن، سور طوال، وسور قصار، وسور متوسطة، لا تخفى على أحد.

"**وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذٌ من أسئار الإناء وهو البقية**" هذا المعنى بناءً على أنها مهموزة؛ لأن السورة من غير همز (سورة)، وبعضهم يجعلها مهموزة فيقول: (سؤرة) بالهمز، فإذا قلنا: سؤرة فبعضهم يقول: من السؤر وهو البقية، فهي كأنها بقية من القرآن، يعني بعض من القرآن؛ لأن السؤر هو جزء من الشيء، فإذن: هذا المعنى يرجع إلى ما كان بالهمز (سؤرة وليست سورة) إلا على التسهيل.

"**وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً؛ لانضمام ما قبلها، وقيل: لتمامها وكمالها؛ لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة**" هذا أحد المعاني اللغوية للسورة، أي: وقيل لها سورة لتمامها وكمالها، وليس المقصود بكلامه هنا أنه بسبب تمامها خففت الهمزة كما قد يُتوهم.

فلو قال قائل: لماذا قيل للسورة سورة؟ يقال: قيل لها سورة لكمالها وتمامها، كما قال هنا: "**العرب يسمون الناقة التامة سورة**".

"**قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها، كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره، وجمع سورة سُوَر -بفتح الواو- وقد يجمع على سُوْرات وسُوَرات**" يجمع على سُوْرات -بضم السين وسكون الواو- وسُوَرات بضم السين وفتح الواو.

تعريف السورة في الاصطلاح:

السورة في الاصطلاح يذكرون لها معانى كثيرة متقاربة، فيمكن أن يقال فيها: إنها قرآن مشتمل على آيات أقلها ثلاث.

وقلنا: ثلاث باعتبار الاستقراء؛ إذ لا دليل عندنا على أن أقلها ثلاث إلا الاستقراء حيث وجدنا أقصر سورة في القرآن هي عبارة عن ثلاث آيات، فأقل السور ثلاث آيات ذات مطلع ومقطع تمثل وحدة مستقلة من القرآن.

معنى ذات مطلع ومقطع:

هذه عبارة نجدها كثيراً في التعريفات، ولكن لا تكاد تجد أحداً يشرحها، بل ما رأيت أحداً شرحها، فأقول: معنى ذات مطلع ومقطع: أي لها بداية ونهاية، مطلع مبتدأ، ومقطع أي يفصلها عن منتهى يحدها ويفصلها عن غيرها.

تعريف الآية في اللغة:

"**وأما الآية: فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها**" المعنى اللغوي للآية: إما أن تكون من العلامة.

ثم إن قوله: "**انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها**" هذا تعليل، أي: لماذا سميت الآية علامة بهذا الاعتبار؟ فيقال: قيل لها علامة لأنه يعرف بها المقطع وأنها منفصلة أو قل: إن لها حداً يعرف به حد الآية عما بعدها، وتتميز عما قبلها، فهذا تعليل التعريف الأول للآية لغة، وهذا على أحد المعاني اللغوية لها.

ومن معاني الآية في اللغة: أنها علامة على صدق من جاء بها، أو لكونها علامة على ما تضمنته من الأحكام فهي دالة عليه، فهذا إذا قلنا: إنها من العلامة.

إذن: العبارة إذا أردنا أن ندقق في ضبطها نقول: معنى الآية قيل: من العلامة؛ إما لأنها علامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها، فنعرف بها حدود الآيات والوحدات داخل السورة، فهي علامة يعرف بها ذلك، أي هي بائنةٌ عن أختها ومنفردة، وإما أنها علامة على صدق من جاء بها، أو لكونها علامة على ما تضمنته من الأحكام فهي دالة عليه، أو أن الآية هي كما قال الله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ} [(٢٤٨) سورة البقرة]، فالآية هنا بمعنى العلامة، والمقصود علامة ملكه.

"**أي هي بائنةٌ عن أختها ومنفردة، قال الله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}، وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها**" الآن هذا ما له علاقة بالعلامة، الآن هذا معنى آخر من معاني الآية، فالآية إما من العلامة وهذا هو المعنى الأول الذي ذكرناه، أو أنها آية أي من العجب، بمعنى أن الشيء العجيب يقال له: آية، كما يقال: آية ليس له في الحسن نظير، بمعنى ليس له في الحسن مماثل، وكأن تقول: رأيت إنساناً هو آية في الذكاء، فالمعنى: رأيت إنساناً هو عجب في الذكاء، وهكذا..

"**قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل...**" هذا الاشتقاق، لكن حتى الآية قيل فيها غير هذا، فقيل: هي بمعنى أنها جماعة من الكلمات، وربما الجمل تمثل هذه الوحدة التي يقال لها آية، وهو معنى معروف أيضاً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر وهو برج بن مسفر:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا ... بآيتنا نجزي اللقاح المطافل

بآيتنا: يعني بجماعتنا، أي: خرجنا بجماعتنا، فممكن أن تكون بمعنى الجماعة.

"**قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة، مثل أَكَمَة وشجرة**"، هذا التصريف للآية، أصلها أيية وهذا هو المشهور.

"**تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصارت آية بهمزة بعدها مدة، وقال الكسائي: أصلها آيِيَة على وزن آمنة، فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها، وقال الفراء: أصلها أَيَّة بتشديد الياء، فقلبت الأولى ألفاً كراهية التشديد فصارت آية، وجمعها آيٌ وآيات وآياي**" على كل حال المشهور هو الأول.

المعنى الاصطلاحي للآية والفرق بين الآية والسورة:

معنى الآية في الاصطلاح يمكن أن يقال: إنها قرآنٌ مركب من جمل ولو تقديراً، وبعضهم يقول: أو إلحاقاً، ذو مطلعٍ ومقطع مندرج في سورة.

والفرق بين الآية والسورة أن السورة مجموعة من الآيات، والآية ليست كذلك، فهي قرآن مركب من جمل ولو تقديراً.

والمقصود بقولهم: مركب من جمل ولو تقديراً، يعني أقصر آية ما هي؟ هي قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [(٦٤) سورة الرحمن]، فهذا مثال الجمل التقديرية لأن التقدير: (هما مدهامَّتان).

والمقصود بقولهم: أو إلحاقاً مثل الحروف المقطعة، فقوله تعالى: {الم} [(١) سورة البقرة]، وقوله: {الَر} [(١) سورة الحجر] هذا يسمى إلحاقاً، ولا يصح أن يقال: إن الحروف المقطعة من الجمل التقديرية؛ لأنك لا تقدر فتقول: (هم ألف لام ميم، أو هم ألف لام راء) كما قدرت في قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [(٦٤) سورة الرحمن]، فقلت: (هما مدهامَّتان).

ومن الأمثلة على الجمل التقديرية في القرآن قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [(١) سورة العصر]، فالتقدير: (أقسم بالعصر)، فالواو واو القسم، أقسم بالعصر، فإذن: الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، فـ (مدهامَّتان) آية وما هي جملة في الظاهر، لكن تقديراً هي جملة: (هما مدهامَّتان) فحذف (هما) للعلم به، وهكذا.

وعلى كل حال يمكن أن يختصر هذا فيقال: الآية طائفة من القرآن ذات مطلع ومقطع مندرج تحت سورة.

والآية لا تخفى فهي معروفة، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، هذه آية ما يخفى على أحد.

"**وأما الكلمة: فهي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل: "ما" و "لا" ونحو ذلك، وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم} [(٥٥) سورة النـــور]، و {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} [(٢٨) سورة هود] {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [(٢٢) سورة الحجر]، وقد تكون الكلمة الواحدة آية**" طبعاً هذا الذي ذكره هو باعتبار أنه يرتبط بعضه ببعض، فجاء بهذه الجمل، لكن إذا أردنا أن نفصِّل هذا فنحذف الضمائر، فسيخرج عندنا أقل من هذا بكثير، فإذا أتيت إلى قوله تعالى: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم}، ليستخلفنهم أصلها من: استخلف، وقوله: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا}: من ألزم، وقوله: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ}: من سقى، وهذا إذا أرجعناها إلى الأفعال، وإلا فنقول الأولى أن ترجع إلى الاستخلاف، والثانية إلى الإلزام، والثالثة إلى السقي.

"**وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل: {وَالْفَجْرِ} [(١) سورة الفجر]، {وَالضُّحَى} [(١) سورة الضحى]، {وَالْعَصْرِ} [(١) سورة العصر]**" على خلاف كما ذكرت فيما سبق.

وكذلك {الم} [(١) سورة البقرة] و {طه} [(١) سورة طـــه] و {يس} [(١) سورة يـــــس] و {حم} [(١) سورة الدخان] في قول الكوفيين و {حم* عسق} [(١-٢) سورة الشورى] عندهم" طبعاً عندما يقول: في قول الكوفيين ليس هذا رأي الكوفيين، وإنما المقصود بهم قراء الكوفة أمثال الكسائي، إذ قرأ بها الكوفيون: يعني الكوفيين الثلاثة -مشاهير هؤلاء الأئمة- وقراءتهم ليست من جهة الرأي، وإنما ذلك كله بتوقيف، فكله قرآن، وكما سبق في الكلام على عد الآي بأن ذلك ربما يرجع إلى القراءة، فعلى قراءة الكوفيين يكون ذلك آية.

"**وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور، وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} بسورة الرحمن.**

فصل: قال القرطبي: وأجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية، كـ(إبراهيم ونوح ولوط)" نوح اسم أعجمي لكنه من الأعلام الأعجمية المصروفة؛ لأن الأعجمي إذا كان أوسطه ساكناً فإنه يصرف، وبالنسبة لـ هود ما ذكر هنا؛ لأن هود -عليه الصلاة والسلام- أصله عربي على قول طائفة كما في حديث أبي ذر -رضي الله عنه-.

وهذا الحديث حسنه بعض أهل العلم، حيث ذكر أن أربعة من الأنبياء من العرب، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهود، وشعيب، وصالح، فـ(هود وصالح) من العرب البائدة كما يقولون، وهذا على قول من يقسم العرب إلى هذا التقسيم.

فعلى كل حال بناءً على أنها أسماء عربية فهي منصرفة، وبناءً على أنها أعجمية فهي مصروفة؛ لأن وسطها ساكن، كـ(لوط وهود).

"**وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كـ(إبراهيم ونوحٍ ولوط)، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية، فأنكر ذلك الباقلاني والطبري، وقالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات**"، هذه المسألة هي وجود ما يسمى بالمعرّب، وقد مر بنا في درس المراقي في أصول الفقه:

ما استعملت فيما لهوجا العرب	في غير ما لغتهم معرب
ما كان منه مثل إسماعيل	ويونس قد جاء في التنزيل
إن كان منه.....	....

فهذا يدل على أن في الأعلام هذه خلافاً.

قال: "**وأجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية**" وفي المراقي يقول: إن كان منه، يعني حتى الأعلام بعض أهل العلم يقول: هي هكذا في كل اللغات، وبالتالي لا يحكم عليها بأنها أعجمية أو عربية، لكن هذا القول فيه نظر؛ لأن الأسماء منها ما هو أعجمي، ومنها ما هو عربي، وهذا معروف لا ينكر، وحتى العلماء تكلموا في التسمية بالأسماء الأعجمية، وفيما لا يعرف معناه من أسماء الأشخاص وأسماء عموم الأشياء من الذوات والمعاني وغير ذلك، وقالوا: لا يطلق أسماء لا يعرف معناها؛ لأنها قد تكون فيها أشياء شركية و نحو ذلك، ثم إن وجود الأسماء الأعجمية أمرٌ مشاهد.

فعلى كل حال من أهل العلم من يقول: لا يحكم على أسماء الأعلام بأنها أعجمية، ولهذا قال هنا في المراقي:

إن كان منه واختيار الأكثر	والشافعي النفي للمنكَّر

فصار عندنا القسمة ثلاثية، فعندنا الأعلام، ومعنى الأعلام: أسماء الأشخاص مثل: إسماعيل، وإبراهيم، ويونس، ويوسف، هذه أسماء أعجمية، وبعضهم نقل عليها الإجماع، فهذا لا إشكال في وجوده في القرآن؛ لأن الأسماء الأعجمية تطلق في الأصل كما هي وإن كانت العرب تتصرف في الألفاظ الأعجمية بعض التصرف، مما يتلاءم مع لغاتها، فالعرب لا ينطقون باللفظة الأعجمية كما ينطق بها الأعجمي بحيث يلوي لسانه كما في لغة القطط، وإنما القاعدة عندهم في هذا هي: أعجميٌّ فالعب به.

ولذلك بعض الناس إذا سمع إنساناً ينطق لفظة إنجليزية أو غيرها على غير وجهها، يضحك منه أو يبتسم ابتسامة ساخرة، وينظر إلى هذا الإنسان على أنه بدوي؛ لأنه لا يعرف كيف ينطق الكلمات الحضارية، وهذه نظرة خاطئة؛ إذ لا بأس عليك أن تنطق بها بما يتلاءم مع لغتك.

فالراديو مثلاً لا بأس أن تقول رادو، ومثله التلفون وأشباه ذلك مما ينطق به عامة الناس، والأحسن أن تسميها بالأسماء العربية، فتقول: مذياع، وهاتف، وما أشبه هذا، لكن لا تلوي لسانك بها كما يلويه الأعجمي؛ فليس ذلك من شأن العرب.

فالحاصل أن الأسماء الأعجمية موجودة بلا شك في القرآن مثل: إسماعيل، وإبراهيم، ويونس، ويوسف..الخ، وهذه يكاد يتفق العلماء عليها.

والقسم الثاني الذي يقابله يتفق العلماء على أنه غير موجود قطعاً وهو التراكيب، فلا يوجد جملة أعجمية في القرآن أبداً؛ إذ كيف يوجد ذلك والله -عز وجل- قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [(١٩٥) سورة الشعراء]، ولا يدعي هذا أحد إطلاقاً، وما قال أحد: إنه يوجد في القرآن تركيب أعجمي أبداً، وقائل ذلك لو قاله فهو مكذب بالقرآن.

الألفاظ المنكَّرة:

الألفاظ الأعجمية المُنكَّرة مثل: مشكاة، قسطاس وإستبرق، وسندس، وأشباه ذلك من الألفاظ المنكرة، فهذا هو الذي وقع فيه الخلاف بين أهل العلم، فإذا قيل: هل يوجد في القرآن ما يسمى بالمعرّب، والمعرّب يعني الألفاظ الأعجمية التي استعملتها العرب فيما وضعت له في الأعجمية، أي: نقلوه إلى لغتهم، أي: نقل إلى اللغة العربية للمسمى نفسه، فهل هذا موجود أو غير موجود؟

هذا الذي فيه الخلاف الكثير بين أهل العلم.

فمن قائل: إنه موجود، قيل: وكيف تقولون في قوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [(١٩٥) سورة الشعراء]؟ قالوا: نقول: إن وجود الكلمة والكلمتين لا يؤثر، فالألفاظ القليلة لا تؤثر في بحر القرآن، والعبرة في الغالب.

وبعض أهل العلم يقول: هذه الأسماء أو الألفاظ ليست لغة العجم أحق بها، فأنتم لماذا تقولون: أصلها أعجمية ونقلها العرب إلى لغتهم، فلماذا لا تعكسون القضية وتقولون: هي عربية والعجم أخذوها منا؟ والدليل عندنا أن الله -عز وجل- قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}، إذن: هي عربية أصلاً فالعجم أخذوها؟

وبعضهم يقول: لماذا يُدّعى أنها أعجمية، هذه الأشياء قد تكون مشتركة بين اللغات.

وبعضهم يهون من شأن هذا، ويقول: على كل حال إذا فرض أن أصولها أعجمية فإن العرب أخذتها، ونطقت بها واستعملتها بطريقةٍ تتلاءم مع لغة العرب ومخاطباتهم فذابت في لغتهم، وأصبحوا يعرفون معناها عند الإطلاق، ولا يخفى ذلك عليهم، فصارت من جملةِ لغتهم وإن كان أصلها أعجمياً، فنزل القرآن بلغة العرب، وكانت هذه الألفاظ مما يستعملون في لغتهم ويتداولونها فيما بينهم فنزل القرآن بذلك، فهذا موافقٌ لقوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} إذ إن هذه الألفاظ ذابت في لغة العرب، وصارت في جملة لغتهم..

فعلى كل حال، المسألة هذه خلاصة ما قيل فيها، وهذه الألفاظ -فيما أعرف- من أكثر من جمعها وتتبعها، وقال بأن هذه أعجمية هو السيوطي في كتابٍ له مطبوع في المغرب، اسمه: [المعرَّب]، حيث جمعها ووضعها في جداول.

"**سورة الفاتحة**: {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(١ – ٧) سورة الفاتحة].

يقال لها: الفاتحة أي: فاتحة الكتاب خطاً، وبها تفتتح القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضاً: أم الكتاب عند الجمهور" هذا شروع في ذكر أسماء سورة الفاتحة، وأسماء الفاتحة أكثر بعض العلماء من تعدادها، حتى إن بعضهم ربما أوصلها إلى نحو من ثلاثين اسماً، بل عد لها بعضهم كالسيوطي في "الإتقان" ما يزيد على العشرين اسماً، وكثير من هذه الأسماء التي يذكرونها هي أوصاف، ومنها أشياء لا تثبت أصلاً، فأسماء الفاتحة هي أقل من ذلك.

لو وقفنا مع الأشياء التي يصح أن تكون أسماء مما صح فيه الدليل لكان هذا هو اللائق، فمن أسمائها: الفاتحة، وسميت الفاتحة؛ لأنه يفتتح بها القرآن، وهذا إذا قلنا: إن ترتيب السور توقيفي فهو واضح جداً، وإذا قلنا: إنه ليس بتوقيفي فهي مفتتحٌ بها المصاحف على كل حال، لكن أن يكون ذلك هو سبب التسمية ربما يكون فيه إشكال.

كذلك سميت الفاتحة؛ لأنه تفتتح بها القراءة في الصلاة، حيث تقرأ الفاتحة أولاً ثم تقرأ سورة، وليس العكس، وهذا واضح أيضاً.

"**وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:** ((الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم))[1]، **ويقال لها: الحمد، ويقال لها الصلاة**" يقال لها: الحمد –كما في الحديث- باعتبار أنها مبدوءة بالحمد ومشتملة على الحمد، ويقال لها: أم القرآن -كما يقول بعض أهل العلم- باعتبار أنها تشمل معاني القرآن وذلك أنها تدور عليها، وترجع إليها، ولهذا قيل لراية الجيش: أُمّ، ويقال للجلدة التي تجمع الدماغ: أُمُّ الدماغ، فهي أمٌّ باعتبار أنها جامعة لمعاني القرآن، فمعاني القرآن ترجع إليها، فهي أم القرآن، وهي أم الكتاب كذلك.

وأما تسميتها السبع المثاني؛ فلكونها سبع آيات، والله -عز وجل- وصف القرآن جميعاً بأنه مثانٍ، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} [(٢٣) سورة الزمر]، بمعنى أنه مشتملٌ على الثناء على الله -عز وجل-، أو لأنه يثنى بالقراءة أو غير ذلك.

والمثاني أيضاً هو القسم المعروف في القرآن، وهي الآيات التي تقرب من المائة وهي دون المائة، ومن الأوجه في تسمية القرآن بالمثاني أنها تذكر حال أهل الجنة ثم تثني بذكر حال أهل النار.

---

1 - أخرجه دون قوله: ((والقرآن العظيم)) أبو داود في كتاب سجود القرآن – باب: فاتحة الكتاب (١٤٥٧) (ج ١ / ص ٤٦١)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن – باب: تفسير سورة الحجر (٣١٢٤) (ج ٥ / ص ٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٩٣).

والفاتحة مثانٍ باعتبار أنها تثنى، وهي سبع آيات كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}** [(٨٧) سورة الحجر]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))[٢].

"**ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين..))**[٣] قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)) يبدو -والله أعلم- أن هذا ليس من الأسماء للسورة، وإن كان ثَمّ ذكر ذلك بما يدل على أن المقصود بها الفاتحة، فإنه أطلق عليها ذلك ربما لأهميتها في الصلاة، ومكانتها، وأنها ركنٌ فيها؛ فإن الشيء قد يسمى ببعض أجزائه وقد يكون العكس.

"**((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي))، الحديث، فسميت الفاتحة صلاة؛ لأنها شرط فيها، ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما يدريك أنها رقية))**[٤]" على كل حال أقرب ما يمكن أن يقال: إن ذلك من أوصافها، يعني أنه يرقى بها لا أن سورة الفاتحة تسمى سورة الرقية.

"**وهي مكية قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقتادة ، وأبو العالية؛ لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} [(٨٧) سورة الحجر]، والله تعالى أعلم**" وجه الاستدلال بهذه الآية على أن سورة الفاتحة مكية هو أن هذه الآية من سورة الحجر، وسورة الحجر سورة مكية، فهي تتحدث عن الفاتحة، فهذا دليلٌ من القرآن على أن سورة الفاتحة نازلة بمكة، وهذا هو المعروف عند أهل العلم، ولا يلتفت إلى غيره.

بعض أهل العلم قال: نزلت في المدينة، واستدلوا على هذا بحديث مشهور في صحيح مسلم: ((بينما جبريل قاعد عند النبي -صلى الله عليه وسلم- سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة))[٥]، فإن قيل: هذا كان في المدينة، فكيف جاء بفاتحة الكتاب وهي نزلت بمكة؟

يقال: هو لم يأتِ بها أصلاً، وإنما بشر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والبشارة يمكن أن تكون أيضاً على أمرٍ قد مضى، فبين له المزية لسورة الفاتحة وآخر آيتين أوتيهما -صلى الله عليه وسلم- من سورة البقرة، فالبشارة يمكن أن تكون عن شيء كان في الماضي، وهو كذلك، فلا يفهم منه أنه هو الذي نزل بها كما قال بعض المعاصرين: إن بعض القرآن قد ينزل به غير جبريل، فالأمر واضح أن جبريل هو الذي نزل

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٢٠٤) (ج ٤ / ص ١٦٢٣).

3 - أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة – باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

4 - أخرجه البخاري في كتاب: الطب – باب: النفث في الرقية (٥٤١٧) (ج ٥ / ص ٢١٦٩).

5 - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤).

به كما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [(١٩٣) سورة الشعراء]، فالقول بأن هذا في الجملة ولا يؤثر على ذلك أن ينزل غيره بآيةٍ أو نحو هذا، فهذا قول غير صحيح.

ومعروف قطعاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي بمكة، وكان يقرأ الفاتحة، وآية الحجر تدل على نزولها بمكة، فبعض أهل العلم أراد أن يوفق وأن يجمع فقال: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولا حاجة لمثل هذا.

بل أغرب بعضهم فقال: إن نصفها نزل بمكة، والنصف الآخر نزل بالمدينة، على كل حال هي نازلةٌ بمكة قطعاً.

"**وهي سبع آيات بلا خلاف**" هنا بلا خلاف يعني إلا الأقوال الشاذة، وإلا فقد سبق بالأمس قول من قال: إنها ست آيات بإسقاط البسملة، ووصل: {أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} مع ما بعدها، وقول من قال: إنها ثمان آيات، باعتبار أن البسملة آية، و{أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} آية، بل إن بعضهم عدَّ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} آية، لكن هذه الأقوال شاذة لا يلتفت إليها، والله -عز وجل- قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} فكيف يقال: إنها تسع أو ثمان أو خمس أو ست؟

"**والبسملة آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة، وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلَف**" القول هنا بأن البسملة آية هذا على قولٍ كما ذكر هنا، والخلاف في هذا كثير، وقد سبق الكلام عليه، وتعرفون أن من أهل العلم من يقول: إنها آية مستقلة تأتي للفصل بين السور فقط، أي: يعرف بها الفصل وليست من السورة، وهذا اختيار جمع من الأئمة المحققين، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يقول: إنها آية من كل سورة إلا سورة براءة، والخلاف في هذا -كما سبق- يمكن أن يكون عائداً إلى القراءة.

"**قالوا: وكلماتها خمسٌ وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً**" كلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً، تأكدوا من ذلك وعدوا..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٤)

مما يختص بالفاتحة - الاستعاذة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أمَّ الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة[١]، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته، قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر -إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع- أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمًّا، قال: وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد سبق الكلام على بعض هذه المعاني في سبب تسمية سورة الفاتحة بأم القرآن، وعلى كل حال فتلك تعليلات يلتمسها العلماء في بيان وجه التسمية، ولا يقطع بشيء من ذلك، ولكن لعل أوجه الأقوال هو القول بأنها سميت بهذا؛ لأنها تجمع معانيه، ولا شك أن ما جمع ما تفرق في غيره يقال له ذلك في كلام العرب، سواء كان ذلك في الذوات، أو كان في المعاني، وكذلك التقدم أيضاً فإنه يصح فيه مثل هذا، وعلى كل حال يبقى في القول بأنها سميت بذلك من أجل أنها كتبت في أول المصحف إشكال بناءً على أن ترتيب سور القرآن ليس توقيفياً، والله أعلم.

"روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في أم القرآن: ((هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم))[٢].

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني))[٣].

روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- في مسنده عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنت أصلي فدعاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟)) قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، قال: ((ألم يقل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]))[٤]."

---

1 - صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٢١).

2 - أخرجه أحمد (٩٧٨٧) (ج ٢ / ص ٤٤٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

3 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (ج ٢ / ص ٤٥) وفي السنن الصغرى (ج ١ / ص ١٢٤).

4 - سيأتي تخريجه..

هناك فائدة خارجة عن موطن الاستشهاد من هذا الحديث وهي أن هذا الحديث يستدل به في أصول التفسير، وقواعده على أن الآية قد ترد لمعنى، ولكن تحتمل في ظاهرها وعمومها معانِيَ أخر، وإن لم يكن ذلك المعنى الذي وردت فيه من قبيل سبب النزول، لكنه معنى متبادر، فتحمل على هذه المعاني جميعاً إن لم يوجد معارض، فالذي يدل على هذا من السنة هذا الحديث، فالأصل المتبادر من قوله تعالى: {اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال] أن يستدل بها على أنها تدعو إلى طاعة الله -عز وجل- وعبادته وطاعة رسوله –عليه الصلاة والسلام- وهنا استدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه إذا ناداك باسمك فإن عمومها يشمل هذا.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [(٥٤) سورة الكهف]، وذلك أنه لما جاء النبي - صلى الله عليه وسلم- لعلي وفاطمة، ووجدهما نائمين، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه- : إن أرواحنا بيد الله متى شاء أن يبعثها بعثها، فخرج –عليه الصلاة والسلام- ورجع وهو يلطخ فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[5] مع أن الآية إنما نزلت لبيان حال جدل الكافر بالبعث.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ} [(١٠٨) سورة التوبة]، {أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}، فقد وقع الخلاف بين الرجل الخدري والآخر الذي من بني عمرو بن عوف، فقال العوفي: إنه مسجد قباء، وقال الخدري: إنه مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه مسجدي هذا.

كذلك في قوله صلى الله عليه سلم: ((يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً))، ثم قال: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [(١٠٤) سورة الأنبياء]))[6].

فالآية سيقت في الاستدلال بالنشأة الأولى على البعث، فالذي خلق الخلق قادرٌ على أن يعيدهم ثانياً، فساقها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام ليبين أنهم يبعثون كما ولدتهم أمهاتهم، فتعود إليهم أجزاؤهم التي فقدوها فقال: ((غرلاً))، وبين أيضاً أنه لا يكون معهم شيئ من اللباس والنعل، وما أشبه ذلك.

"ثم قال: ((لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد)) قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: ((نعم، {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)) وهكذا رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه[7].

---

[5] - أخرجه البخاري في أبواب التهجد - باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل والنوافل من غير إيجــاب (١٠٧٥) (ج ١ / ص ٣٧٩).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ١٦٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٧٣٨٠) (ج ٨ / ص ١٥٧).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٢٠٤) (ج ٤ / ص ١٦٢٣).

روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنا في مسير لنا فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إنّ سيد الحي سليم، وإنّ نفَرَنا غيب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبناً"."

إن سيد الحي سليم: تعني أنه لديغ، وسمي اللديغ سليماً من باب التفاؤل، كما يسمون الأرض البيداء مفازة.

ما كنا نأبنه برقية: يعني ما كنَّا نعرفه برقية.

"**فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي؟ فقال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((وما كان يدريه أنها رقية، اقسموا لي واضربوا لي بسهم))**[٨]."

قوله: **((وما كان يدريه أنها رقية))** هذا الأقرب فيه أنه من أوصاف سورة الفاتحة وليس من أسمائها فهي توصف بأنها رقية يرقى بها، وهذا يدل على أن الرقية لا يشترط لها شخص معين يتجشم الناس الذهاب إليه، ويجتمعون عنده كما هو حاصل الآن، فمثل هذا غير صحيح، وإنما يمكن لكل أحد أن يرقي بفاتحة الكتاب.

"**روى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبرائيل -عليه السلام- إذ سمع نقيضاً فوقه**"."

قوله: **إذ سمع نقيضاً فوقه**، يعني أنه سمع مثل صوت الباب إذا فُتح.

"**فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: ((هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط))، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته" وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوه**[٩]."

البشارة هنا لا تعني أنه نزل بسورة الفاتحة في تلك اللحظة وإنما نزلت سورة الفاتحة قبلُ في مكة، وهذا الحدث كان في المدينة.

"**روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام)) فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله -عز وجل-: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي -وقال مرة-: فوض إليَّ عبدي..))**."

هذا الحديث جاء به هنا لبيان فضل سورة الفاتحة، وأخذ من هذا الحديث أيضاً تسمية سورة الفاتحة بسورة الصلاة وهذا من قوله: ((قسمت الصلاة..)).

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب فضل فاتحة الكتاب (٤٧٢١) (ج ٤ / ص ١٩١٣).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤) والنسائي واللفظ له في كتاب صفة الصلاة - باب فضل فاتحة الكتاب (٩١٢) (ج ٢ / ص ١٣٨).

ويمكن أن يستدل بهذا على أن البسملة ليست آية منها؛ لأنه على هذا لا تكون منقسمة على نصفين، كما يفهم من هذا الحديث أن معنى الحمد غير معنى الثناء، فالحمد هو إضافة المحامد وصفات الكمال إلى المحمود، والثناء هو إعادة الحمد ثانياً أي تكرره وتثنيه من التثنية.

"((فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل))."

أي أن قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يكون لله -عز وجل- حيث يتوجه المكلف إلى الله -عز وجل- بأعماله له سبحانه ويتقرب إليه، وقوله: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي أنه يطلب منه العون.

"((فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)) وهكذا رواه النسائي[١٠].

وفي لفظٍ عند مسلم والنسائي: ((فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))[١١] وهو أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة والمراد القراءة، كقوله تعالى: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [(١١٠) سورة الإسراء]."

قوله: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} أي بقراءتك، والمراد به قراءة الفاتحة على وجه الخصوص، فالصلاة والعبادة قد تسمى بجزئها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الحج عرفة))[١٢] فدل ذلك على أنه ركنٌ فيها، والقاعدة في هذا الباب هي أنه إذا سميت العبادة بجزئها فإن ذلك يدل على أنه ركنٌ فيها، أو أنها لا تصح بدونه، ففي قوله -تبارك وتعالى-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [(٧٨) سورة الإسراء]، يدل هذا على ركنية القراءة في الصلاة؛ لأن تسمية العبادة بجزءٍ منها يدل على أنه ركنٌ فيها.

"كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهكذا قال في هذا الحديث: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))، ثم بيّن تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها".

هذا يدل أيضاً على أن إطلاق العبادة على جزءٍ منها يجعله من أركانها، فسورة الفاتحة ليس من أسمائها الصلاة، وإنما أطلقت الصلاة على جزءٍ منها وهي الفاتحة فصدق عليها أن تكون ركناً في الصلاة.

"إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزءٌ واحد منها وهو القراءة، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [(٧٨) سورة الإسراء]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء

---

[10] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٩٠٤) (ج ٢ / ص ١٠)، والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب (٩٠٩) (ج ٢ / ص ١٣٥).

[11] - صحيح مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٩٠٦) (ج ٢ / ص ٩)، والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب (٩٠٩) (ج ٢ / ص ١٣٥).

[12] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب مَنْ لَمْ يُدْرِكْ عَرَفَةَ (١٩٥١) (ج ٢ / ص ١٤١) والترمذي في كتاب الحج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٤٤) (ج ٥ / ص ٢٦٤) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥) (ج ٢ / ص ١٠٠٣) وصححه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٧١٤).

مصرحاً به في الصحيحين إنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء.

وقد دل عليه الحديث المذكور حيث قال -صلوات الله وسلامه عليه-: ((من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج))[١٣] والخداج: هو الناقص، كما فسر به في الحديث: غير تمام.

وأيضاً قد ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))[١٤] وفي صحيحي ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن))"[١٥].

على كل حال فإن البحث في حكم قراءة الفاتحة في الصلاة مما يذكر في الفقه، لكن ذكره ابن كثير هنا، ومعلوم أن من منهجه -رحمه الله- أنه يشير إلى الأحكام الفقهية في هذا التفسير، فهو –رحمه الله- يفسر القرآن بالقرآن، ويفسر القرآن بالسنة وبالآثار، وكذلك أيضاً يذكر الأحكام لكنه لا يستطرد ولا يتوسع فيها كما يفعل بعض من عني بمسائل الأحكام كالقرطبي -رحمه الله- في تفسيره، والشنقيطي في "أضواء البيان"، وأمثالهما، وأما ابن كثير فلا يتوسع لكنه يشير إلى الأحكام في هذا التفسير إشارة.

وقراءة سورة الفاتحة في الصلاة أظن أنها ركن لا تسقط لا خلف الإمام ولا في حال الانفراد، ولا بحالٍ من الأحوال، فيجب على الإنسان أن يقرأها، اللهم إلا إن جاء والإمام راكع أو يهم بالركوع أو نحو هذا، فمثل هذا دل عليه حديث أبي بكرة لما جاء وركع دون الصف، فدل على أن ذلك يسقط لفوات محله، وتحتسب له هذه الركعة، وهذه مسألة فيها خلاف مشهور وكثير فيما إذا كان خلف الإمام في الصلاة الجهرية، لكن ظواهر الأدلة تدل على أنه يقرأ بفاتحة الكتاب، ولا يترك ذلك، فإن كان للإمام سكتات قرأ في سكتاته، وإن لم يكن له سكتات قرأ أثناء قراءته قراءة يسرع فيها حتى ينهي الفاتحة امتثالاً لأمر الله -عز وجل-.

وهذه المسألة من المسائل التي لا يمكن فيها الخروج من الخلاف، لكن ينبغي العمل بالأحوط؛ لأنه إن قرأ فعند الآخرين أنه عاصٍ لله؛ لأن الله يقول: {فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ} [(٢٠٤) سورة الأعراف]، وعند من يقول بأنه يجب عليه أن يقرأ ويستدلون بمثل هذه الأحاديث، إذا ترك القراءة يقولون: لا تصح صلاته، فهو على هذا عند هؤلاء يأثم، وعند هؤلاء صلاته باطلة، لكن من اجتهد فأداه اجتهاده إلى أنها لا تقرأ خلف الإمام، أو سأل عالماً فأفتاه بهذا فلا يقال ببطلان صلاته بحالٍ من الأحوال، بل صلاته صحيحة، والله -عز وجل- لا يكلفه بأكثر من هذا، وهذا من لطف الله -عز وجل-.

---

[13] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

[14] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٢٣) (ج ١ / ص ٢٦٣) ومسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٤) (ج ١ / ص ٢٩٥).

[15] - أخرجه ابن حبان (ج ٥ / ص ٩١) وابن خزيمة (ج ١ / ص ٢٤٨) وعدّه الألباني من الأحاديث الصحيحة كما في حاشية كتابه "أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم".

ولذلك فالمسائل المختلف فيها مما يقْوى فيها الخلاف أو يخفَى مأخذ المسألة فإنها تعد من المسائل الاجتهادية وإن وردت فيها الأدلة الصريحة مثل هذه المسألة، فالأدلة واضحة وصريحة لكنها متقابلة، فهذا التقابل صيّرها من مسائل الاجتهاد وليست من المسائل المقطوع بها، والله تعالى أعلم.

والله -عز وجل- في مثل هذه المسائل لم يجعلها مما يترتب عليها النجاة، فالمسائل التي تترتب عليها النجاة بيّنها الله وحسمها، مثل وجوب الصلاة، ووجوب الصيام والحج وما أشبه هذا، وأما باقي التفاصيل التي تحتها فهذه لا تتوقف عليها النجاة، بل يجتهد فيها العلماء ويختلفون.

"والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فعلى المصلي أن يقرأ فاتحة الكتاب إماماً كان أو مأموماً أو منفرداً في جميع الصلوات وفي كل ركعة ولا بد.

قال الله تعالى: **{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [(١٩٩-٢٠٠) سورة الأعراف]، **وقال تعالى:** **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}** [(٩٦-٩٨) سورة المؤمنون]، **وقال تعالى:** **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(٣٤-٣٦) سورة فصلت]، **فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعة في معناها.."**.

هذه من اللطائف التي في تفسير ابن كثير، فهذا التفسير يشتمل على لفتات ولطائف جميلة لو أن الواحد دوَّنها مع الأشياء الأخرى التي تمر به من قواعد التفسير، والقواعد التي تتعلق بالأحكام، فإنه ستجتمع عنده مجموعة من تلك الفوائد واللطائف والأحكام قد تصل إلى أن تكون بحثاً مستقلاً، فالقواعد التي في تفسير ابن كثير تصل إلى سبعين صفحة إذا كان مختصراً.

"فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعةٌ في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليردَّه عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم؛ لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم".

يعني دائماً مع العدو الإنسي **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** كما في هذه الآيات الثلاث، وأما العدو من الجن فليس فيه حيلة، فإنك إن تحسن إليه فليس لذلك معنى ولا فائدة، وإنما يزداد شراً وعتواً، بل لا تستطيع الوصول إليه أصلاً حتى تحسن إليه، ولذلك فهو إنما يدفع بالاستعاذة.

"لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: **{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ}** [(٢٧) سورة الأعراف]، **وقال تعالى:** **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [(٦) سورة فاطر]".

الإنسان قد يبتلى بأضدادٍ وخصوم، وهؤلاء الأضداد والخصوم يتسلطون عليه إما بسبب زلةٍ زلها أو سقطةٍ وقعت منه، أو ذنب أذنبه فيقابله هؤلاء الأضداد والخصوم إما بإساءة فحسب وإما بعداوة.

وتارةً يكون تسلطهم عليه من غير كسبٍ منه ولا إساءة لكنهم أعداء للمروءة، وأعداء لأهل الفضل، فإذا رأوا أحداً قد ميزه الله -عز وجل- وأعطاه وأفضل عليه، تحركت نفوسهم وعادوه، وطلبوا كل سبيل يوصلون

الأذى فيه إليه، وهؤلاء إمامهم إبليس، فآدم –عليه السلام- لم يصنع به شيئاً أصلاً، ومع ذلك أبرم هذه العداوة وتوعد ذريته: {قَالَ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} [(٦٢) سورة الإسراء] حتى إنك تجد العبارات التي توعد بها عبارات قوية، فقوله: {لأَحْتَنِكَنَّ} هو توعد على أعلى المستويات مع أن آدم لم يصنع شيئاً به لكنها بلوى.

والمقصود أن العداوة إن صدرت من شياطين الجن فعلاج ذلك الاستعاذة، وإن كانت صادرة من شياطين الإنس فالبعد والسلامة، فهذه العداوة هي مثل النار التي في الهشيم لا تبقي ولا تذر، فالبعد عنها هو العافية.

"وقال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [(٥٠) سورة الكهف]، وقد أقسم للوالد آدم -عليه السلام- أنه له لمن الناصحين وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٨٣) سورة ص].

وقال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [(٩٨-١٠٠) سورة النحل].

ومعنى قوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٩٨) سورة النحل]، أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ..} [(٦) سورة المائدة] الآية".

هذا من تفسير القرآن بالقرآن، بمعنى أننا إذا أخذنا بظاهر اللفظ مجرداً {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} نجد أن قرأت فعل ماضي، يعني إذا فرغت من القراءة، وهكذا ربما يفهم السامع، وهكذا فهم بعضهم، فقال: إن الاستعاذة تكون بعد الفراغ من التلاوة، فهذا قاله بعض أهل العلم، لكنه قولٌ شاذ، وهذه الآية {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} لا شك أن معناها إذا أردتم القيام، إذ لا يكون الوضوء بعد الفراغ من الصلاة قطعاً؛ لأنه لا تصح الصلاة إلا بوضوء، وكذلك فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يفسر الآية، حيث كان يستعيذ قبل القراءة، ولذلك لجأ بعض أهل العلم للجمع بين هذا وبين ما فهموا من الظاهر فقالوا: إن الاستعاذة تكون في أول القراءة وبعد الفراغ منها؛ باعتبار أن الاستعاذة في البداية تكون امتثالاً ولطرد الشيطان عنه فلا يشغل بوساوسه، وبعد الفراغ من أجل ألا يحصل له عجبٌ والتفات إلى العمل وغرور وتعاظم بعد هذا العمل الطيب الذي تعبد الله -عز وجل- به، إلا أن هذا القول غير صحيح، فالاستعاذة إنما تكون في أول القراءة.

"أي إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك، روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: ((سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)) ثم يقول: ((لا إله إلا الله)) ثلاثاً، ثم يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه))[١٦] رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هو أشهر شيء في هذا الباب".

هذا يدل على أن الاستعاذة تكون قبل القراءة، وفي الصلاة تقال في الركعة الأولى قبل قراءة الفاتحة ولا تردد في كل ركعة، كما أنها لا تقال قبل قراءة السورة التي بعد الفاتحة.

---

[16] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٨١) والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) (ج ٢ / ص ٩) والدارمي (١٢٣٩) (ج ١ / ص ٣١٠) وأحمد (١١٤٩١) (ج ٣ / ص ٥٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٢١٧).

ومن هذا الحديث يستفاد أن من الصيغ المشروعة في الاستعاذة أن تقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، وهكذا السنة تفسر القرآن، فالله -عز وجل- أمر بالاستعاذة بقوله: {فَاسْتَعِذْ}، وبعض أهل العلم فهم من ذلك الإطلاق، وأن المقصود أن يستعيذ، فإذا قال الإنسان مثلاً: استعذت من الشيطان الرجيم، أو استعذت بالله من الشيطان، وهكذا استحسن بعضهم صيغاً من عند أنفسهم وقالوا هكذا يستعيذ المرء بالله من الشيطان الرجيم، وهذا كلام غير صحيح، فالله أمر بالاستعاذة كما أمر بالصلاة وكما أمر بالحج، والنبي -صلى الله عليه وسلم- علمنا كيف نصلي، وكذلك علمنا كيف نستعيذ، فنقول كما قال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)) وهذه أكمل صيغ الاستعاذة، ولها صيغ أخرى صحت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

والهمز هو الخنق، فالشيطان يخنق ويصرع، كما قال الله -عز وجل-: {كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [(٢٧٥) سورة البقرة] أي: يخنقه فيصرعه، والنفخ يعني الكبر والتعاظم، والنفث يعني الشعر أو السحر.

"**وقد فسر الهمزة بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر**".

المقصود بالنفث الشعر السيء الذي يمدح الإنسان فيه بالباطل على سبيل التملق كما قال تعالى: {وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [(٢٢٤) سورة الشعراء]، وقد قيل: لا تصاحب شاعراً، فإنه يمدحك بالثمن ويهجوك مجاناً، أي أنه إذا رأى منك ما رأى تولاك بالهجاء من غير أن تدفع له ثمناً، ولكنه لا يمدحك إلا وهو يرتقب منك العوض، والمقصود بهؤلاء الشعراء هم الشعراء القدامى أما الآن فقد مات الشعر وتركه الناس وصار الشاعر إذا مدح وهجا لا يلتفت إليه ولا يعبأ به ولا يقرأ شعره، أما في الماضي فقد كانت القصيدة هي لسان البيان.

"**كما رواه أبو داود وابن ماجه عن جبير المطعم عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دخل في الصلاة قال: ((الله أكبر كبيراً -ثلاثاً- الحمد لله كثيراً -ثلاثاً- سبحان الله بكرة وأصيلاً -ثلاثاً- اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه))، قال عمرو: همزه الموتة، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر**[١٧].

وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر قال حدثنا ابن فضيل قال حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه))[١٨] قال: همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر".

هذه من صيغ الاستعاذة، ومن الصيغ كما سبق: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وكذلك قول الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وله أن يتخير من هذه الصيغ ما شاء.

---

[17] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة – باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٤) (ج ١ / ص ٢٧٩) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧) (ج ١ / ص ٢٦٥) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٨١٧).

[18] - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٢٦٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (ج ٢ / ص ٣٨٠).

ولا يقال: إن قوله: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)) يختص بصلاة الليل، وإنما هي صيغة من صيغ الاستعاذة، وإذا اختار الإنسان الصيغة الأكمل فلا شك أن ذلك أكمل، وإذا نوَّع تارة بهذا وتارة بهذا فهو حسن أيضاً.

"وروى الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: تلاحى رجلان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فتمزع أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)) وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة[19].

وروى البخاري عن سليمان بن صُرَد -رضي الله تعالى عنه- قال: استب رجلان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: "إني لست بمجنون" وقد رواه أيضاً مع مسلم وأبي داود والنسائي[20].

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال والله أعلم.

وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها، وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية: {فَاسْتَعِذْ} وهو أمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط، فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك".

قوله: **فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك**، يعني يكون قد تحقق المطلوب.

قوله تعالى: {فَاسْتَعِذْ} جاء بصيغة الأمر، والأصل أن الأمر للوجوب، فاستدل القائلون بوجوب الاستعاذة عند قراءة القرآن بدليلين من المنقول ودليلين من النظر إلا أن الأخير منهما ليس دليلاً ولكنه مما يندب إليه المكلف، وهو العمل بالأحوط، والعمل بالأحوط يندب إليه في الأحوال التي تحتمل ذلك وليس في كل قضية يندب إليه، فهناك قضايا لا يتأتى فيها العمل بالأحوط.

والمقصود أن أدلة القائلين بوجوب الاستعاذة من القرآن قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٩٨) سورة النحل] وذلك أنه جاء بصيغة الأمر، ومن أدلة ذلك من السنة مواظبة النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، واستدل على ذلك من النظر بأن ذلك يدرأ شر الشيطان، والعبد بحاجة إلى هذا بين يدي القراءة.

---

[19] - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ٩٤) وفي مسنده (ج ٢ / ص ٣٥٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ج ٦ / ص ١٠٤) وأصله في البخاري كما سيأتي.

[20] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب (٥٧٦٤) (ج ٥ / ص ٢٢٦٧).

وعلى كل حال فالقول بوجوب الاستعاذة عند كل قراءة فيه إشكال، وذلك أنه إما أن يقال: إنه يوجد صارف وهو أنه لم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في صفة صلاته في كل الأحوال أنه استعاذ، وإما أن يقال:إن خطب النبي -صلى الله عليه وسلم- المنقولة عنه لم يرد فيها أنه كان يستعيذ إذا أراد أن يستشهد بآية أو آيات، وإما أن يقال: قد لا يوجد له صارف معلوم لدينا، وهذا باعتبار أن القواعد أغلبية، ويكون هذا من الأمثلة على نوع العبادات التي جاء الأمر فيها صراحةً ولكنه لا يحمل على الوجوب مع عدم وجود الصارف الظاهر، فالقواعد أغلبية بمعنى أنه إذا قيل: الأمر للوجوب فهذا يكفي أن يصدق على ثمانين في المائة أو خمسة وسبعين في المائة أو تسعين في المائة من الأمثلة، ويبقى قسم منها لا يعلم له صارف ومع ذلك لا يحمل على الوجوب.

"**ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث**".

هذه من لطائف هذا التفسير، فالطهارة للبدن تكون بالماء وضوءاً وغسلاً أو بما يقوم مقامه كالتيمم، فالإنسان يتهيأ للصلاة ويتهيأ للقراءة فيكون متوضئاً حتى تحصل له هذه الطهارة، فهذه طهارة حسية، ويشرع له إذا أراد القراءة أن يجمع بين الطهارة الحسية والطهارة المعنوية وذلك بالاستعاذة، فهو كما يطهر بدنه بالغسل أو بالوضوء تهيؤاً للصلاة مثلاً، فكذلك يتهيأ للقراءة بطهارةٍ معنوية هي تطهير الفم من اللغو وما أشبه ذلك، والتنزه من الشيطان وملابسته، ووسوسته وما أشبه ذلك.

"**وهو لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}** [(٦٥) سورة الإسراء].

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان".

هذه الجملة من كلام ابن كثير فيها ثلاث لطائف:

الأولى: أن يجمع الإنسان بين الطهارة بالماء وطهارة الفم من اللغو، والتطهر المعنوي أيضاً بالتباعد عن الشيطان بهذه الاستعاذة.

الثانية: أن هذا يتضمن الاعتراف بالعجز عن دفع الشيطان، وأن المصانعة للشيطان لا حيلة للعبد فيها إلا أن يستعيذ منه.

الثالثة: أنه ذكر الفرق بين العدو الإنسي والعدو الجني، وأن الذي يغلبه عدوه من شياطين الجن يكون طريداً بخلاف ما إذا غلبه عدوه من الإنس، فالأول يكون فاجراً ضالاً بعيداً عن هدى الله -عز وجل-، قد تمكن منه الشيطان واستحوذ عليه، وأما الثاني فهو مأجور إذا غلبه عدوه من الإنس.

ويتصل بهذه اللطيفة ما ذكره هنا من كون الشيطان يرى الإنسان ولا يراه، فحيلة الإنسان أن يستعيذ منه بالله الذي يرى الشيطان ولا يراه.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٥)

الاستعاذة والبسملة

الشيخ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير الاستعاذة: "والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمعنى الاستعاذة أي طلب العوذ؛ لأن السين والتاء للطلب، تقول: الاستغفار يعني طلب المغفرة، وتقول: الاستعطاف يعني طلب العطف، والاستعاذة أي طلب العوذ، والعوذ يأتي بمعنى الإجارة أن يمنعك وأن يعصمك وأن يجيرك من الشيطان الرجيم.

وبعض أهل العلم كما أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يفرق بين العوذ واللوذ، فيقول: العوذ هو طلب الإجارة من المكاره، واللوذ هو الالتجاء لأجل تحصيل المطلوبات والمحبوبات، ويذكرون في هذا قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

وبعض أهل العلم يقول: العوذ يكون في هذا وفي هذا، قد يكون الغالب في الاستعمال والمتبادر عند الإطلاق في الاستعاذة أنها طلب العوذ بالإجارة من المكاره، أي مما يخافه الإنسان ويطلب الخلاص منه، والله أعلم.

"ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرِّير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه.

وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [(١٩٩) سورة الأعراف]، **فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال:** {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٠٠) سورة الأعراف] **وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون:** {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} [(٩٦-٩٨) سورة المؤمنون] **وقال تعالى في سورة حم السجدة:** {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٣٤-٣٦) سورة فصلت]".

هذه فائدة كان قد ذكرها قبلُ وهي في كيفية التعامل مع شياطين الإنس، والتعامل مع شياطين الجن، وهي من اللطائف التي في هذا الكتاب.

"الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار".

هذا الشيطان الذي نستعيذ منه المشهور أن مادته مشتقة من شطن كما ذكر أولاً، تقول شطن بمعنى بعد، وتقول شطنت البئر بمعنى أنها بعد قعرها حتى لا تصلها الدلاء، وتقول: شطنت ديار زيد، بمعنى بعدت.

وقال الشاعر:

نأتْ بسعاد عنك نوىً شطون فبانت والفؤاد بها حزين

فقوله: نأتْ بسعاد عنك نوىً شطون يعني صارت ديارها بعيدة لا يوصل إليها إلا بمشقة.

وقيل: للشيطان ذلك لأنه بعيدٌ عن الخير وعن طاعة الله -عز وجل-، وبعيد عن الإيمان والهدى وكل معروف، وبعيد عن رحمة الله -عز وجل-، فكل ألوان البعد هو موصوفٌ بها، وهذا المعنى الأول هو المشهور عند العلماء وهو أنه مأخوذٌ من شطن.

والمعنى الثاني الذي ذكره هنا هو أنه مأخوذ من شاط يشيط فهو شيطان، واللفظة دالة على الامتلاء عموماً، تقول: غضبان على وزن فعلان، وظمآن وعطشان وجوعان، وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على الامتلاء.

فإذا قيل: إنه من شاط يشيط، بمعنى عتا وتمرد، فازداد عتوه وتمرده، وخروجه عن طاعة الله -عز وجل-، وإفساده للخلق بما يلقيه إليهم من الوساوس، ويزين لهم من الشرور، تقول: استشاط فلانٌ غضباً، أي امتلأ غضباً وبلغ به الغضب مبلغه، وتقول: اشتط فلان في هذا الأمر.

وهذا المعنى الثاني -شاط يشيط- يطلق عند العرب على كل عاتٍ متمردٍ سواء من الإنس أو من الجن، ومنه البيت المشهور المعروف:

أيام يدعونني الشيطان من غضبٍ وكنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

أي يوم أن كان عاتياً متمرداً في أيام شبابه.

وقال الشاعر يمدح سليمان -عليه الصلاة والسلام-:

أيما شاطنٍ عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

"وقيل مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح، وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل فِعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط".

هذا الكلام من سيبويه -رحمه الله- تعليل لماذا كان الأول أصح من جهة تصريف الكلمة، فيقول: **العرب تقول: تشيطن إذا فعل فِعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تشيط"**، فيقال: شاط فهو متشيط، لكن شطن فهو شاطن، وشيطان للمبالغة والدلالة على الامتلاء كما سبق معنا.

"فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح، ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن))، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: ((نعم))[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقطع الصلاةَ المرأةُ والحمار والكلب الأسود))، فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: ((الكلب الأسود شيطان))[2].

وروى ابن جرير أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- ركب بِرْذَوْناً فجعل يتبختر به فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: "ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي"[3] **[إسناده صحيح]".**

إذا قال الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان، فــ "أل" هذه هل هي للعهد، فأنت تستعيذ بالله من الشيطان المعهود الذي هو إبليس مثلاً، أم أنها للجنس بمعنى أنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان أي من كل شيطان؟

يحتمل هذا وهذا، فبعض أهل العلم يقول: هي للجنس، فأنت تستعيذ بالله من كل الشياطين، ومعلومٌ أن الذي يوسوس ليس هو إبليس فقط، وإنما إبليس وجنوده، أعوذ بالله من الشيطان أي من كل شيطان.

"والرجيم فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله".

باعتبار أن رجيم مصدر، فأصل المادة إذا أرجعناها إلى الفعل من رجم، وتقول: رجماً فهو رجيم، والمصدر يطلق ويراد به الفاعل تارةً، ويراد به المفعول تارةً أخرى، وبهذا فإن لفظة رجيم يمكن أن تكون بمعنى مرجوم، والمعنى الذي ذكره هنا فعيل بمعنى مفعول، يعني مرجوم، فإن شئت فقل: هو مرجومٌ بالشهب، كما قال تعالى: **{وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [(٨-١٠) سورة الصافات].

والله -عز وجل- أخبر عن النجوم أنه جعلها رجوماً للشياطين، فالشيطان يرجم بالشهب، ويرجم أيضاً بالذم والسب واللعن وما أشبه ذلك من كل قبيح يوصف به ويضاف إليه، وأيضاً هو مرجوم بمعنى مبعد ومطرود عن رحمة الله -عز وجل-.

وقد يكون بمعنى فاعل، أي رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجُم الناس بالوساوس والخواطر السيئة ويرجمهم بما يزين لهم من المنكر والباطل، لكن المعنى الأول هو المشهور، ولو قال قائل: إنه يحمل على المعنيين جميعاً فليس ذلك ببعيد والله أعلم، فهو مرجوم بالاعتبار الأول وهو راجمٌ بالاعتبار الثاني، والقرآن يعبر به بالألفاظ

---

[1] - أخرجه أحمد (٢١٥٩٢) (ج ٥ / ص ١٧٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

[3] - انظر تفسير الطبري (ج ١ / ص ١١١).

القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقاعدة أن اللفظ إذا احتمل معنيين فأكثر من غير ممانعة من حمله على أحدها فإنه يحمل على الجميع والله أعلم.

"**والرجيم فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى:** {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [(٥) سورة الملك] **وقال تعالى:** {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ* وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ* لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [(٦-١٠) سورة الصافات].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ* وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ* إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} [(١٦-١٨) سورة الحجر] **إلى غير ذلك من الآيات وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث، والأول أشهر وأصح.**

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(١) سورة الفاتحة] **افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من كل سورة".**

المذاهب التي أشار إليها هي:

الأول: أنها أول آية من كل سورة -إضافة إلى كونها بعض آية من سورة النمل- سوى سورة براءة.

الثاني: أنها ليست آية من كل سورة وإنما تكون في بداية كل سورة لا على أنها من آيات السورة وإنما تكون للفصل بين السور.

وبعضهم يقول: هي آيةٌ من سورة الفاتحة فحسب، وبعضهم يقول: لا هذا ولا هذا، أي أنها ليست آية مستقلةً أصلاً، لا للفصل بين السور ولا من الفاتحة، وليست بآية من كل سورة، وإنما هي بعض آية من سورة النمل التي قال الله فيها: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(٣٠) سورة النمل].

والبحث في هذا طويل ومعروف ومشهور، ومن طلبه وجده في الكتب المطولة، وهناك مصنفات خاصة بالبسملة مستقلة، وبعضها مخطوط، وتجدون هذا في كتب التفسير، لا سيما كتب أحكام القرآن، وبعضهم يطيل فيه جداً، وتجدونه في شروح الحديث والفقه، فالمسألة ليست خفية على أحد وإنما هي من المسائل المشهورة، والخلاف فيها كبير وكثير ومشهور، ومذاهب الأئمة فيها معروفة، وإن كانت هذه المذاهب تحتاج إلى تحرير سواء فيها أو في غيرها من كثير من المسائل، إلا أن هذه المسألة من أبرز المسائل التي إذا نظرت فيها عرفت أن هذه المذاهب لا ينبغي أن تؤخذ إلا من كتب أصحابها، وإلا فإنك تجد أشياء تنسب إلى الأئمة لم يقولوا بها في مثل هذه المسألة وفي غيرها وذلك إذا أخذت ذلك من الكتب الأخرى.

وأما المنقول عن الصحابة والتابعين فهو يحتاج أيضاً إلى تحرير وإلى مراجعة في صحته وثبوته، ذلك أنه من أعجب الأشياء المنتشرة أنك تجد المسألة ينسب فيها أحد الأقوال إلى الخلفاء الأربعة وينسب القول الآخر الذي يخالفه تماماً إلى الخلفاء الأربعة كذلك!

فالحاصل أن هذه المسألة نموذج على ما ذكرت من شدة الحاجة إلى التحقق من نسبة الأقوال إلى قائليها، سواء من الصحابة أو من غيرهم ممن جاء بعدهم من أصحاب المذاهب أو غيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

"وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي - -رضي الله تعالى عنهم-.

ومن التابعين: عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام -رحمهم الله-".

هذا هو القول الأول، وهو أنها آية من كل سورة إلا براءة، أي أنها معدودة من كل سورة وليست للفصل بين السور.

وهؤلاء يستدلون بأدلة، لكن ليس هنا مقام ذكر الأدلة والجواب عنها وإلا فلن ننتهي، لكن من أشهر أدلتهم حديث أنس في سورة الكوثر: "بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً، ثم أفاق وهو يضحك، فقال: ((أنزلت علي آنفاً سورة، ثم قرأ: **{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}** [(١) سورة الكوثر]))[٤].

وكذلك ما جاء في وصف قراءته -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أم سلمة[٥]، وكذلك في حديث أنس من أن قراءته -صلى الله عليه وسلم- كانت مداً يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم[٦].

هذه من أدلتهم الصحيحة الثابتة لكنها ليست صريحة في الدلالة على أن البسملة آية من كل سورة، فحديث أنس في سورة الكوثر مثلاً يبين أنه قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- البسملة كما نبسمل في أوائل السور، فقد تكون مستقلةً تقال بين يدي قراءة السورة للفصل بين السور، فالمقصود أن هذا الدليل ليس بقاطع على أن البسملة آية من كل سورة، بل يوجد ما يدل على خلاف ذلك، فسورة **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص] يقول العلماء: إنها بالإجماع أربع آيات من غير البسملة، وسورة الكوثر يقولون بالإجماع: إنها ثلاث آيات، فالبسملة تكون رابعة على هذا، ويقولون: إنها أقصر سورة، والإعجاز يتحقق بأقصر سورة هي ثلاث آيات.

ثم إن أثر ابن عباس الثابت عنه صريح في أنها ليست آية في كل سورة حيث قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم[٧].

وأصرح من هذا كله قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في سورة تبارك: ((إن سورةً ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له))[٨] وسورة تبارك ثلاثون آية من غير البسملة.

ومما يدل على أنها ليست آية في كل سورة ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من حديث أبي هريرة أنه كان يفتتح القراءة بــ**{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة][٩].

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠) (ج ١ / ص ٤٠٠).

5 - سيأتي تخريجه.

6 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب مد القراءة (٤٧٥٩) (ج ٤ / ص ١٩٢٥).

7 - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة – باب من جهر بالبسملة (٧٨٨) (ج ١ / ص ٢٨٨).

8 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب – باب ثواب القرآن (٣٧٨٦) (ج ٢ / ص ١٢٤٤) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢١٥٣)..

9 - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب افتتاح القراءة (٨١٤) (ج ١ / ص ٢٦٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٨١٤).

فالمقصود أن هذه الأدلة وغيرها تدل على أن ما فهمه أصحاب هذا القول من مثل حديث أنس لما قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- سورة الكوثر، وقرأ البسملة أن هذا الفهم ليس بقاطع أنها منها أبداً، كما أنه توجد أدلة أخرى يفهم منها خلاف ذلك، وإنما غاية ما في الأمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ البسملة عند قراءته لسورة الكوثر، ولا يلزم أنه قرأها بناءً على أنها الآية الأولى من سورة الكوثر إطلاقاً، وعلى كل حال هذا هو القول الأول.

"**وقال مالكٌ وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور**".

مالك وأبو حنيفة يقولان: ليست البسملة آيةً من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وهذا يضيفونه إلى طائفة كثيرةٍ من القُرَّاء، من قراء مكة والمدينة والشام، وهو منسوب إلى الأوزاعي ورواية عن الإمام أحمد -رحمه الله-، ويقولون: إنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها مع إقرارهم أنها جزء من آية من سورة النمل.

ويلاحظ أن هذا قول لطائفة من القراء، كما أن القول الأول أيضاً منسوب إلى طائفة من القراء، ولذلك فإن مثل هذا أظنه يرجع إلى القراءة فهي ثابتة على أنها آية من كل سورة سوى براءة في بعض القراءات، وفي بعضها ليست كذلك، لا في الفاتحة ولا في غيرها، ولذلك كما هو معلوم أن من أوجُه القراءات الصحيحة الثابتة المتواترة إسقاط البسملة أصلاً، فيصلون السورة بالسورة من غير بسملة، فلو أعيد هذا إلى القراءة أظن أن هذا سيحل الإشكال من أصله، فمن قرأ بقراءةٍ البسملةُ آيةٌ فيها من كل سورة سوى براءة فإنه لا يتركها أبداً، وتكون في عداد آيات السورة، ومن قرأ بقراءة فيها الإسقاط فله أن يسقط ويصل السور من غير بسملة، ويترك ذلك عند قراءته للسور في الأذكار كالمعوذات و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، وكذلك إذا قرأ في الصلاة لا يبسمل، بمعنى أنه لا يجب عليه أن يبسمل إذا قرأ بقراءة أخرى في الصلاة، وهذا يُحلُّ به الإشكال.

قال صاحب المراقي:

وبعضهم إلى القراءة نظر   وذاك للوفاق رأيٌ معتبر

والخلاف شهرته أكثر في سورة الفاتحة، هل البسملة آية منها أم لا؟ وليست شهرة الخلاف في السور الأخرى بقدر ما هي بسورة الفاتحة، مع أنه خلاف موجود في هذا وفي هذا كما هو مشاهد، وكما قلت آنفاً: يمكن أن يرجع هذا إلى القراءة، لكن الذين يختلفون لا يلزم أنهم يقولون: إن هذا يرجع إلى القراءة وإلا لكان الموضوع قد انتهى ولصار الاختلاف اختلاف تنوع أما الآن فالخلاف خلاف تضاد.

وأما لماذا أسقطت البسملة من سورة براءة؟ فالعلماء يتكلمون عنه ويلتمسون فيه بعض التعليلات لكن لا يقطع بشيء منها، فبعضهم يقول: لأنها نزلت بالبراءة فلا يحسن أن تُبتدأ بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وبعضهم يقول: إن الصحابة -رضي الله عنهم- وقع عندهم تردد هل هي سورة مستقلة أم هي من الأنفال؛ لأنها تشبهها إلى حدٍ كبير، وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

"**وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل**".

هذا القول قول داود الظاهري، يقول فيه: "**وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل**"، بل هو مذهب الإمام، بل هو المنصوص عنه صراحة أنها كما قال هنا: آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، أي أنها تنزل للفصل

فقط بين السور وليست في عداد السورة، وهذا هو مذهب عبد الله بن المبارك -رحمه الله- واختاره جمعٌ من الأئمة من المتقدمين والمتأخرين كابن قدامة صاحب المغني، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وتلميذه ابن القيم، وحتى ابن جرير هذا ظاهر المنقول عنه، وكذلك الإمام ابن خزيمة.

لكنه لم يذكر القول المشهور الذي هو من أشهر ما يذكر عند ذكر الخلاف في البسملة، وهو هل هي آية من الفاتحة أم لا؟ فهذا مذهب ومن أشهر المذاهب في هذه المسألة لم يذكره هنا، فالقول بأنها آية من الفاتحة وليست آية من كل سورة هذا منسوب إلى كثير من القراء، بل نسبه بعضهم إلى أكثر القراء، وينسب إلى جمعٍ من الأئمة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهذا يحتاج إلى تحرير أيضاً في نسبته وصحته عنهم، وقد نُسب إلى سعيد بن جبير، والشافعي -رحمه الله-، وهي قراءة نافع أصلاً -قراءة أهل مكة- والشافعي -رحمه الله- كان من أهل مكة، ورواية عن أحمد، وهو قول ينسب لإسحاق بن راهويه-رحمه الله- ولأبي عبيد القاسم بن سلام، ولأبي ثور، وجمع كثير جداً.

"**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية في أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا**".

مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة:

من رأى أنها ليست من الفاتحة ولا من غير الفاتحة فهذا قطعاً لا يجهر بها، لكن يبقى الكلام في من قال: إنها آية من الفاتحة أو أنها آية من كل سورة، فمن يقول: إنها آية للفصل بين السور، أو أنها آية من كل سورة أو غير ذلك لا يلزم منه القول بالجهر؛ لأننا إذا رجعنا إلى الأدلة المنقولة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فنجد أن الثابت عنه -صلى الله عليه وسلم- وعن خلفائه الراشدين هو ترك الجهر بالبسملة، يعني لو كان الإنسان يتخير القول بأنها آية من الفاتحة أو آية من كل سورة بناءً على ما ثبت في بعض أوجه القراءات، فهل نقول: السنة له أن يجهر؟

قد لا يقال له ذلك؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يجهر بقراءة البسملة.

قوله: "**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية في أولها**"، في ظني أن هذه العبارة تحتاج إلى تحرير ومراجعة وضبط؛ لأنها عبارة فيها إشكال، والله أعلم.

"**وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا، فذهب الشافعي -رحمه الله- إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً**".

إذا كانت القضية تتعلق بالقراءة خارج الصلاة فالأمر في هذا واسع، واختار كثيرٌ من القراء أنه يجهر بها إن جهر بالقراءة ويسر بها إن أسرَّ، وهذا واضح ولا إشكال فيه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قرأ سورة الكوثر قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا الكلام خارج الصلاة.

لكن حينما نقول: الجهر بها في الصلاة فهذه قضية عبادة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي بأصحابه، فالذين يقولون: إنه يجهر بها في الصلاة يستدلون بأدلة ومنها قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- سورة الكوثر، حيث قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فأسمع أصحابه، فيقال: هذا يستدل به للقراءة خارج الصلاة

بحيث إذا جهر بالقراءة جهر بالبسملة، وإن أسر بالقراءة أسر بالبسملة، بل لا إشكال حتى إن جهر بالقراءة أن يسر بالبسملة إنما الإشكال في القراءة في الصلاة؛ لأن هذه قضية تتعلق بصفة الصلاة.

فالذين يقولون يجهر يستدلون بمثل حديث أنس(١٠)، ويستدلون بحديث أنس الآخر في وصف قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كانت قراءته مداً يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم(١١)، وبحديث أم سلمة: "كان يقطع قراءته.."(١٢).

والحاصل أن هذا الوصف لقراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يلزم منه أن يكون الجهر بالبسملة داخل الصلاة، أي أن ذلك ليس بقاطعٍ على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بقراءة البسملة في الصلاة، وإذا وصلنا إلى هذا القدر فعندئذٍ نحتاج إلى دليلٍ آخر أوضح من هذا وأقوى منه في الدلالة على أنه يجهر بها، والحقيقة أنه توجد أدلة واضحة وصريحة في الجهر بها لكن لا يصح من هذه الأدلة شيء، فجميع الأدلة الصريحة الواردة في الجهر بالبسملة لا يصح منها شيء.

والعلماء أطالوا في الكلام عليها، وفي بيان عللها ووجوه ضعفها، فهي لم يصح منها شيء، ولو كانت صحيحة لارتفع بها الخلاف، أو كان سيقال على الأقل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أحياناً يجهر وأحياناً لا يجهر مثلاً، فأقول: لو صحت تلك الأدلة لقيل بهذا أو هذا، لكنه لم يصح منها شيء، مع وجود أدلةٍ أخرى تدل على أنه لم يكن يجهر، وهي أدلة صحيحة صريحة، مثل حديث أنس في الصحيحين: "صليت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر، فما كانوا يجهرون بـــ"بسم الله الرحمن الرحيم""(١٣)، وكذلك حديث عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه-(١٤).

فالمقصود أن عندنا أدلة صحيحة ثابتة صريحة في عدم الجهر، وأما في الجهر فأدلة صحيحة غير صريحة، أو أدلة صريحة غير صحيحة، ولذلك كان الأقرب في هذه المسألة هو أنه لا يسن الجهر بها، لكنه لو فعل ذلك ليعلّم الناس، أو لدفع مفسدة، كأن يكون بين أناسٍ يرون الجهر بها ولا يفهمون، وإذا لم يجهر ربما أعاد بعضهم صلاته أو شك في صحتها، وربما أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ففي هذه الحالة يجهر بها دفعاً لهذه المفسدة، فجمع القلوب وتأليفها في هذا معتبر.

"**فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية -رضي الله تعالى عنهم-**".

طبعاً هذا يحتاج إلى تحرير، يعني مثل ما نقل عن معاوية -رضي الله عنه- أنه لما جاء إلى المدينة صلى ولم يجهر بها، فأنكر عليه المهاجرون والأنصار، فصلى بهم بعد ذلك وجهر، فقالوا: كيف ينكر عليه المهاجرون والأنصار في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم الذين تلقوا قراءته عنه وعرفوا

---

[10] - سبق تخريجه في الحاشية رقم ٤.

[11] - سبق تخريجه في الحاشية رقم ٦.

[12] - سيأتي تخريجه.

[13] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب ما يقول بعد التكبير (٧١٠) (ج ١ / ص ٢٥٩) ومسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

[14] - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب افتتاح القراءة (٨١٥) (ج ١ / ص ٢٦٧) وأحمد (١٦٨٣٣) (ج ٤ / ص ٨٥) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن في الشواهد.

الصلاة منه، فيدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر، فنقول هذا الحديث أصلاً لا يصح، فهو لم يثبت عن معاوية، كما أن هناك أدلة أخرى صريحة لكنها في غاية الضعف، وبالمناسبة فإن الشيعة والرافضة يرون الجهر بالبسملة، وبعض ما دخل في هذا من الأحاديث هو بسبب كذب هؤلاء فهم أكذب الطوائف.

لكن يبقى أن القائل: إن السنة هي الجهر بالبسملة لا يشك في صحة صلاة من أسر بها، والقائل: إن السنة هي الإسرار لا يشك في صحة صلاة من جهر بها، فغاية ما في الأمر هو ما السنة في ذلك؟، لكن المسألة تكون أكثر تأثيراً في إسقاط قراءتها بالكلية على أنها ليست من الفاتحة، فالإشكال هاهنا.

"**وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلي -رضي الله تعالى عنهما- ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة**".

هذا كله لا يثبت لا عن عمر ولا عن الخلفاء الأربعة -رضي الله تعالى عنهم-.

"**ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله تعالى عنهم- وهو غريب**".

طالب العلم إذا رأى مثل هذا في مسألة فإنه يتوقف ويهاب، إذ كيف يقول الخلفاء الأربعة بهذا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين))[١٥] ثم يأتي من يقول: الجهر بها ليس من السنة؟! فالجواب أن يقال: إن هذا لا يثبت عنهم أصلاً، ولذلك حتى في التفسير تجد من يقول: قال ابن عباس ومجاهد وفلان وفلان، وأكثر هذا لا يثبت عنهم.

"**ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القرظي وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله بن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والأزرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن معقل بن مقرن، زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية، زاد ابن عبد البر: وعمرو ابن دينار، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها**".

يقول: "**والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة**"، وقال قبلُ: "**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال: إنها آية في أولها**" وقد سبق أن قلت: إن هذه العبارة تحتاج إلى تحرير، وعلى كل حال حتى على القول بأنها من الفاتحة فالمرجع في ذلك هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يقرأ ولا يجهر، والله يقول: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** [(٢١) سورة الأحزاب].

---

[15] - أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في لزوم السنة (٤٦٠٩) (ج ٤ / ص ٣٢٩) والترمذي في كتاب العلم - باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) (ج ٥ / ص ٤٤) وابن ماجه في سننه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢) (ج ١ / ص ١٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٦٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٣٥).

"وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم"[16] [وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم]".

وضعفه جمع من أهل العلم، وعلى فرض صحته قالوا: ربما فعل ذلك أبو هريرة تعليماً لهم فقط، لا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر، وربما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرؤها يُسمع أصحابه كما كان يُسمعهم في الصلاة السرية بعض الآيات أي أن ذلك كان للتعليم، ففهم أن السنة في ذلك الجهر، فيكون فهماً من أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، فالمقصود أن قوله: "**إني لأشبهكم صلاة برسول الله -صلى الله عليه وسلم**" لا يلزم منه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بالبسملة وهذا على فرض صحته.

"وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بـــ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم"[17].

وهذا يستدل به من يقول بالجهر، ويستدل به من يقول: إن البسملة آية من الفاتحة، مع أن هذا ليس فيه دليل على أنها آية من الفاتحة كما هو واضح وإلا فالحديث ثابت وصحيح، وفيه وصفٌ لقراءته -صلى الله عليه وسلم- ولا يعني أنه كان يجهر بها في الصلاة؛ فالحديث ليس فيه ما يدل على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يفعل ذلك في صلاته.

"وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقطِّع قراءته: {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(١-٤) سورة الفاتحة]، وقال الدارقطني: إسناده صحيح"[18].

هذا الحديث ثابت من حديث أم سلمة، لكنه لا يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بها في الصلاة فليس فيه ذكر للصلاة أبداً، وهكذا نجد أن الأدلة الصحيحة غير صريحة، وهذا يستدل به من يقول: إن البسملة آية من الفاتحة، وهذا أيضاً ليس صريحاً.

"وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي والحاكم في مستدركه عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن معاوية -رضي الله تعالى عنه- صلى بالمدينة فترك البسملة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل"[19].

قوله: "**فلما صلى المرة الثانية بسمل**"، يعني جهر، لكن هذا لا يصح.

---

16 - أخرجه النسائي في كتاب صفة الصلاة - باب قراءة {بسم الله الرحمن الرحيم} (٩٠٥) (ج ٢ / ص ١٣٤) وضعف إسناده الألباني في ضعيف النسائي برقم (٩٠٥).

17 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب مد القراءة (٤٧٥٩) (ج ٤ / ص ١٩٢٥).

18 - أخرجه أبو داود في كتاب العتق - باب الحروف والقراءات (٤٠٠٣) (ج ٤/ ص ٦٥) والترمذي في كتاب القراءات - باب في فاتحة الكتاب (٢٩٢٧) (ج ٥ / ص ١٨٥) وأحمد (٢٦٦٢٥) (ج ٦ / ص ٣٠٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٠٠١).

19 - مسند الشافعي (ص ٢٥٠).

"وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل -رضي الله تعالى عنهم- وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل".

في كتابٍ واحد بل في صفحة واحدة ينسب إلى الخلفاء الراشدين أولاً أنهم يرون الجهر بالبسملة، أو أنهم كانوا يجهرون بها، ثم في نفس الصفحة يأتي القول الآخر، وهو مضاد ومناقض للقول الأول تماماً وهو أنهم ما كانوا يجهرون بها.

"وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهراً ولا سراً".

هذا بناءً على مذهبه من أنها ليست آية مستقلة أصلاً لا من السورة ولا من غير السورة، لكن هذا القول يبقى فيه إشكال، وإن كان يمكن أن يقال به على بعض الأوجه في القراءة، أما أن يقال: إنها ليست آية بإطلاق فهذا فيه إشكال كبير؛ لأن الأدلة على أنها آية واضحة.

"واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـــ الحمد لله رب العالمين"[٢٠].

هذا يستدل به على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يجهر بالبسملة، لكن لا يلزم من ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يبسمل سراً، إنما فيما يُسمعهم كان يفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين.

ويلاحظ أنه إذا جمعت هذه الأدلة جميعاً فإننا نخرج منها بنتيجة وهي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يجهر لكن لا يعني هذا أنه لا يبسمل، فالبسملة ثابتة وعدم الجهر بها هو السنة، ومن أسقطها فهذا يصح على بعض أوجه القراءة المتواترة، والقول بالجهر بها في الصلاة يحتاج إلى دليل آخر.

"وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: صليت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بـــ الحمد لله رب العالمين"[٢١]، ولمسلم: ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها"[٢٢] ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل -رضي الله تعالى عنه-".

هذه أدلة صريحة وصحيحة في عدم الجهر لا يوجد مثلها عند القائلين بالجهر.

"فهذه مآخذ الأئمة -رحمهم الله- في هذه المسألة، وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، ولله الحمد والمنة".

---

20 - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب من لم ير الجهر بـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) (٧٨٣) (ج ١ / ص ٢٨٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٧٨٣).

21 - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب ما يقول بعد التكبير (٧١٠) (ج ١ / ص ٢٥٩) ومسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

22 - صحيح مسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

قوله: "**وهي قريبة**"، يعني أن ذلك لا يترتب عليه كبير أثر من صحة الصلاة وعدم ذلك، فالقضية في العمل المسنون هل هو الجهر أو الإسرار؟.

وبعض أهل العلم لما رأى أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء قال: إن الإنسان مخير بالجهر وعدم الجهر، وهذا قول ابن حزم الذي خالف فيه شيخه داود.

"**وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "عثر بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب))**[23].

وقد روى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره عن أسامة بن عمير -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكره، وقال: ((لا تقل هكذا فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة))[24]، فهذا من تأثير بركة بسم الله.

ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة لما جاء، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك[25]، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهم- مرفوعاً: ((لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه))[26] وهو حديث حسن.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لربيبه عمر بن أبي سلمة -رضي الله تعالى عنه-: ((قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك))[27]".

عمر بن أبي سلمة هذا هو ولد أم سلمة؛ وذلك أنه لما مات زوجها وتزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- كان معها هذا الولد.

"**ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه**".

على كل حال قراءة البسملة أو قول البسملة في افتتاح كل أمر عند الأكل ثبت فيه هذا الحديث: ((سم الله يا غلام)) ومسألة الوضوء: ((لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)).

---

23 - أخرجه أحمد (٢٠٦١١) (ج ٥ / ص ٥٩) والنسائي في السنن الكبرى (١٠٣٨٨) (ج ٦ / ص ١٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤٠١).

24 - أخرجه النسائي في اليوم والليلة (ج ١ / ص ٣٧٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٢٨).

25 - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٠٣) (ج ٣ / ص ١٦١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٧١٤).

26 - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب التسمية على الوضوء (١٠٢) (ج١ / ص ٣٧) والترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء في التسمية عند الوضوء (٢٥) (ج١ / ص ٣٧) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها - باب ما جاء في التسمية في الوضوء (٣٩٧) (ج ١ / ص ١٣٩) وأحمد (١١٣٨٨) (ج ٣ / ص ٤١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٥١٤).

27 - أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة - باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٠٦١) (ج ٥ / ص ٢٠٥٦) ومسلم في كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢) (ج ٣ / ص ١٥٩٩).

والخلاف في هذا مشهور ومعروف، ومن أهل العلم من يضعف الحديث، ومنهم من حسَّنه، فيقولها الإنسان من باب الاحتياط على الأقل؛ لقوة الخلاف في هذا، والحديث محتمل، فيحرص الإنسان ألا يترك البسملة، وأما حديث: كل أمرٍ لا يبدأ فيه بـــ بسم الله، فمثل هذا الحديث لا يصح.

"وكذلك تستحب عند الجماع؛ لما في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً))[٢٨] ومن هاهنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بـــ الباء في قولك: بسم الله.."

قوله: "**ومن هاهنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بـــ الباء في قولك: بسم الله**"، هنا يبدو أنه يوجد اختصار في الكلام بمعنى أنه حذف منه شيئاً، ثم قال بعده هذا، والخلاصة أنه ذكر أشياء متعددة كحديث: ((سم الله يا غلام)) و ((لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)) بمعنى أنه يريد أن يقول: إن البسملة يصح أن يكون المتعلق فيها كوناً عاماً، ويصح أن يكون خاصاً في كل شيء بحسبه، ويصح أن يكون اسماً ويصح أن يكون فعلاً، فعندنا أشياء معينة مخصوصة مثل قوله تعالى: **{وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا}** [(٤١) سورة هود]، فهنا اسم مصدر خاص، أي أن جريها كائنٌ وواقعٌ بسم الله.

ومثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا غلام سم الله وكل بيمينك)) يصح أن يقال في قوله: سم الله: إن التقدير فيه بسم الله آكل، أو بسم الله أبدأ، فهو لم يحدد فيه شيئاً وإنما أمره أن يقول البسملة في بداية الأكل.

وجاء أيضاً قوله تعالى: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [(١) سورة العلق] فذكر الفعل وقدمه، وكل هذا لا إشكال فيه، فالتنقير في مثل هذا أظنه لا يجدي كثيراً، فيمكن أن يكون المتعلق أو المقدر اسماً، فتقول: بسم الله أي: أكلي بسم الله، أو بسم الله قراءتي، أو بسم الله ابتدائي، أو ابتدائي بسم الله، ويمكن أن يكون مقدماً أو مؤخراً، ويمكن أن يكون فعلاً خاصاً أو عاماً نحو: أقرأ بسم الله، آكل بسم الله، أمشي بسم الله، أدخل بسم الله، أو بسم الله أدخل، أو دخولي بسم الله، أو تجعله فعلاً عاماً فتقول: أبدأ بسم الله، أي أبدأ في الأكل أو الشرب أو الدخول أو النوم.. الخ.

وبعض أهل العلم يستحسن أن يكون التقدير خاصاً؛ لأنه أعلق وألصق بالمراد، وبعضهم يستحسن أن يكون عاماً لتصلح البسملة في كل شيء، وبعضهم يقول: الأفضل أن يكون اسماً؛ لأن الاسم أدل على الثبوت، وبعضهم يقول: أن يكون فعلاً؛ لأن الفعل يدل على التجدد، وبعضهم يقول: يؤخر؛ لئلا يتقدم شيء على اسم الله -عز وجل- ولأن ذلك أبرك، وعلى كل حال فأمر هذه المسألة سهل، فالمطلوب منك أن تقول: بسم الله ودع عنك هذه التقديرات يقدرها من شاء كيف شاء.

---

[28] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا أتى أهله (٦٠٢٥) (ج ٥ / ص ٢٣٤٧) ومسلم في كتاب النكاح - باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤) (ج ٢ / ص ١٠٥٨).

إنه لمن المؤسف أن ننقّر عن أمور لا داعي ولا حاجة لتنقيرها لوضوحها، ففي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً: ((لا يدخل الجنة قاطع))[29] تجد إنساناً له رحم لا يعرفونه ولا يعرفهم ومع ذلك ينقِّر في هذه المسألة ويتكلف غاية التكلف في معرفة هل المقدر اسم أم فعل وهل هو مؤخر أم مقدم؟ حتى ينوي هذا أو هذا، والله سبحانه لم يكلفه بهذا أصلاً وإنما حذره من قطع رحمه، فليصل أرحامه، وليقل: بسم الله إذا أراد فعل شيءٍ وانتهى الأمر، وليس معنى هذا أن الإنسان يترك مسائل العلم وإنما المقصود أن ينزل الأمور كما ينبغي.

"**وكلٌ قد ورد به القرآن، أما من قدره باسمٍ تقديره بسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى:** **{وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٤١) **سورة هود**]".

يقصد هنا أن هذا نظير هذه الآية باعتبار أنه اسم لكنْ هنا في الآية خاص بخلاف تقدير ابتدائي، فإنه عام.

"**ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو: ابدأ بسم الله، أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى:** **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [(١) سورة العلق] **وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بد له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً، أو قراءة أو وضوءًا أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم**".

قوله: "**ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً**"، كان الأدق أن يقال: قدره بالفعل سواء كان ماضياً أو مضارعاً، فـــ: "أبدأ بسم الله" هذا فعل مضارع، و"ابتدأت أو ابتُدئ بـــ بسم الله، هذا في الماضي.

وعلى كل حال الكتاب له نسخ كثيرة جداً، وهذه النسخ يوجد بينها كثير من الفروقات، ومن هذه الفروقات ما هو بسبب تصحيف النُّساخ، ومنها بسبب أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كان يعيد النظر في الكتاب مرةً بعد مرة، ويغير فيه كعادة المؤلفين، وسابقاً لم تكن توجد مطابع بحيث تأتي طبعة وتكتب أخرى بحيث تكون الأخيرة مصححة منقحة وانتهى الأمر، وإنما الذي حدث أن النُّسخ ليس فيها تاريخ، فانتشرت النسخ الأولى بين العلماء فبعضهم يعدل في النسخة التي بحوزته باعتبار أنها في ملكه ثم تصير هذه النسخة لمن بعده، فيظن من بعده أن هذه التعديلات من تصحيحات المؤلف وقد تكون هذه التعديلات فيها تصحيف فهو يعتمد هذا التعديل الذي في الهامش ويلغي ما هو في أصل النسخة، فالمقصود أن هذه الأخطاء بعضها وجدت بسبب التصحيفات وبعضها من فعل المؤلف نفسه وبعضها من فعل غيره، وهذه المشكلة موجودة في عدد من الكتب بل إن بعضهم يتصرف فيكتب صفحات من عنده، فتفسير السعدي مثلاً توجد له طبعة سابقة فيها صفحات مكتوبة في الداخل وليست للسعدي.

وأحياناً المؤلف نفسه يعيد النظر لما في بعض النسخ التي كتبها، فيقوم بإعادة الصياغة في بعض أوائل السور، بمعنى أنه يصوغها صياغة جديدة، وهذا شيء ليس فيه غرابة؛ لأن الإنسان إذا كتب وأعاد النظر فيما كتب مرةً بعد مرة يجد أنه قد فاتته بعض الأشياء التي تلوح واضحة؛ لأن الإنسان حينما يؤلف ويقرأ ما كتب فإنه يقرأ أفكاره، فلا تستغرب أن تفوت عليه أشياء واضحة أحياناً، والناقد بصير، وليس في هذا عيب.

---

[29] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب إثم القاطع (٥٦٣٨) (ج ٥ / ص ٢٢٣١) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٦) (ج ٤ / ص ١٩٨١).

ولذلك يحسن بالإنسان إذا كتب أو ألَّف أن يترك هذا الكتاب الذي كتبه مدة حتى ينساه، ثم يقرؤه بعد ذلك وسيستغرب كيف كتب بعض الأشياء، سيستغرب من ركاكة بعض العبارات والتراكيب وسينتقدها ويغيرها، وهكذا، بل ربما لو مضى عليه زمن يكفي في النمو فإنه سيغير كثيراً من الكتاب، ويحمد الله أنه لم يخرج هذا الكتاب، لكن الإنسان ما يرى عيوبه، فربما إذا ألف يظن من أول وهلة أن هذا الكتاب مخيوط، وأنه لا يوجد مثله، وأنه قد حقق فيه المسائل بأحسن عبارةٍ، ولكن غيره قد يرى أنه لا تبرأ به الذمة.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٦)

لفظ الجلالة الله - الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر: "**الله: علمٌ على الرب -تبارك وتعالى- يقال إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى:** {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٢٢-٢٤) سورة الحشر]، **فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى:** {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [(١٨٠) سورة الأعراف]، **وقال تعالى:** {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، **وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:** ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة))[١]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمؤلف لا زال في شرح البسملة، وفي قوله هنا: "**الله: علمٌ على الرب -تبارك وتعالى-**" أي أنه لا يسمى به غيره، فهو من الأسماء المختصة، وهذا الاسم لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو يختص بالله -عز وجل- لفظاً ومعنى، فلفظاً بمعنى أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد غيره، ومعنى بمعنى أن الصفة التي تضمنها -وهي صفة الإلهية- لا يصلح شيءٌ منها للمخلوق لا جملةً ولا تفصيلاً.

قال: **يقال إنه الاسم الأعظم،** معلوم أن من أسماء الله الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وهذا الاسم فيه خلافٌ معروف، وأشهر الأقاويل أن هذا الاسم الأعظم هو "الله".

والذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا هو دليل من النظر، وذلك أن سائر الأسماء الحسنى جميعاً ترجع إليه لفظاً ومعنى، وكون الأسماء الحسنى ترجع إليه لفظاً، أي أنها تأتي بعده، ولا يأتي بعدَ شيءٍ منها، كما في الآيات التي ذكرها هنا كقوله: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ..} [(٢٢-٢٣) **سورة الحشر**] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل-، فلفظ "الله" تأتي الأسماء الأخرى بعده ولا يأتي هو بعد شيء منها.

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب إن لله مائة اسم إلا واحداً (٦٩٥٧) (ج ٦ / ص ٢٦٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٢).

هذا في اللفظ، وأما في المعنى فإن هذا الاسم الكريم "الله" يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات، فإن الإله يجب أن يكون هو الرب، العليم، الحكيم، الخالق، البارئ، المصور؛ لأن الرب لا يمكن أن يكون عاجزاً جاهلاً فقيراً، أو متصفاً بشيء من صفات النقص، ولهذا يقال: إن صفة الإلهية متضمنة لصفة الربوبية، وصفة الربوبية من أوسع الصفات، فإن الرب هو السيد والمالك، والمدبر المتصرف، والمربي لخلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهكذا تصور كم يدخل تحت هذا الاسم من المعاني التي هي صفات الكمال؟، فهذه الربوبية داخلة في معنى الألوهية، وهذا معنى كون الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فالذي تقول عنه: إنه هو الرب الخالق الرازق المصور يجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، فلا تصرف العبادة لأحدٍ سواه، فهذا الدليل هو الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- هنا، وهو أن الأسماء الحسنى تعود إليه لفظاً ومعنى.

وأما الأدلة من المنقول على أنه الاسم الأعظم فهي ثلاثة أحاديث، الأول: الحديث الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الاسم الأعظم في ثلاث سور، والاسم المتكرر في هذه السور الثلاث هو: "الله"، و"الحي القيوم"، في سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه، قال تعالى في سورة البقرة: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(٢٥٥) سورة البقرة]، وقال في سورة آل عمران: {الم* اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(١-٢) سورة آل عمران]، وقال في سورة طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} [(١١١) سورة طـه].

فالمقصود أن هذه الأسماء الثلاثة متكررة في هذه السور الثلاث، ولهذا كان القول الثاني في القوة هو أن الاسم الأعظم هو "الحي القيوم" بعد القول الأول بأنه لفظ الجلالة " الله" بمعنى أن أقوى الأقوال في الاسم الأعظم أنه "الله"، ثم يليه في القوة "الحي القيوم".

والذي يدل على أن الاسم الأعظم هو "الله" الحديثان الآخران، في الرجلين حينما دعوا الله -عز وجل- بدعاءٍ يشتمل على ذكر بعض الأسماء الحسنى، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لقد دعا الله باسمه العظيم))[٢] فإذا نظرنا في الأسماء المذكورة نجد أن المتكرر في الجميع هو "الله" وليس "الحي القيوم".

يقول: "**فأجرى الأسماء الباقية كلها صفاتٍ له كما قال تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١٨٠) سورة الأعراف]**" هذا وجه الاستشهاد، فهو لا زال في الدليل النظري الذي ذكره، وهو أن الأسماء الحسنى تعود إليه لفظاً ومعنى –أي لفظ "الله"- قال تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١٨٠) سورة الأعراف] فلم يقل: وللعزيز الأسماء الحسنى، أو وللرزاق الأسماء الحسنى، وإنما أضافها إلى هذا الاسم الكريم فقال: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} فيكون محدَّثاً عنه ومخبَراً عنه، وتضاف إليه سائر الصفات، كما قال في الآية الأخرى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، فقوله: {فَلَهُ الأَسْمَاء} أي لله.

---

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الوتر - باب الدعاء (١٤٩٧) (ج ١ / ص ٥٥٤) والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب الدعاء بعد الذكر (١٣٠٠) (ج ٣ / ص ٥٢) والترمذي في كتاب الدعوات – باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣٤٧٥) (ج ٥ / ص ٥١٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٤٩٥).

ومن ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً))[3] فما قال: إن للرزاق وإنما قال: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً))، فهذا الاسم هو أعظمها، والله تعالى أعلم.

"{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: **اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم**".

وجه المبالغة هو أن الرحمن على وزن فعلان، فعدل به عن نظرائه حيث يقال: رحم يرحم فهو راحم ورحيم، فهنا قال: رحمن على وزن فعلان، والغالب أن يقال: على وزن فعيل، أي رحم فهو رحيم، فهنا قال: رحمن، وهذا يدل على الامتلاء، كما تقول: ظمآن وعطشان وجوعان وغضبان وما إلى ذلك، فهذا يدل على المبالغة.

وكذلك الرحيم على وزن فعيل، فهذا يدل على المبالغة، وحينما نقول: المبالغة لا يفهم منها المبالغة التي تكون من قبيل الخروج عن الحقيقة بتجاوزها، فليس هذا هو المقصود حينما يعبر بهذا عند شرح ألفاظ الكتاب والسنة، لذلك سألني أحد الشباب مرةً ونحن في درس من دروس التفسير فقال: كيف تقول بأن هذه صيغة مبالغة، وهل يقال عما في القرآن إنه مبالغة؟

قلت له: المبالغة التي يتحدث عنها العلماء ويذكرها البلاغيون وأهل اللغة، ليست هي ما تعارف الناس عليه من أنه تجاوز الحقيقة وتعديها بزيادة وإنما المقصود بالمبالغة ما يدل على الكثرة والتعاظم، وما أشبه ذلك من المعاني في كل موضع بحسبه.

يقول: "**الرحمن الرحيم**" **اسمان مشتقان من الرحمة**"، و"الله" إما مشتقٌ من أله يأله -بمعنى عبد يعبد- إلهةً أي عبادةً، والله مألوه أي معبود، أو من الإله، أو مشتقٌ من الإلهية، وقيل غير ذلك، لكن هذه أشهر الأقوال في هذا.

وعلى كل حال فـ"الله" اسمٌ مشتق على الراجح، ولا أدري هل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حينما قال: "الله علمٌ على الرب تبارك وتعالى" ولم يذكر مادة الاشتقاق، هل هو ممن يقول بأن هذا الاسم الكريم غير مشتق، وإنما هو علم على الذات الإلهية، وهذا قول لبعض العلماء، لكن الراجح أن هذا الاسم مشتق كما قلت، والأسماء المشتقة أبلغ من الأسماء الجامدة؛ لأن الأسماء المشتقة تتضمن أوصافاً، والاسم الجامد لا يتضمن صفةً، فأسماء الله -عز وجل- أعلام وأوصاف، ولا يتأتى أن تكون أوصافاً إلا إذا كانت مشتقةً، بمعنى أنها تتضمن صفةً، أما إذا كان الاسم علماً جامداً فإنه لن يتضمن صفةً، فهذا الاسم الكريم مشتقٌ ويتضمن صفة الإلهية، وكل أسماء الله -عز وجل- مشتقة وليس فيها شيءٌ جامد.

وهنا يقول: "**الرحمن الرحيم**" **اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة**" فالقدر الذي يدل عليه كل واحد منهما من جهة الصفة التي تضمنها هي صفة الرحمة، فكلاهما يدل على صفة الرحمة، إلا أن ثمة فرقاً بين هذين الاسمين من جهة اللفظ ومن جهة المعنى التكميلي، وأما المعنى الأصلي فإنه يدل على صفة الرحمة، لكن المعنى الزائد على المعنى الأصلي هو أن الرحمن أكثر مبالغةً من الرحيم، ومن هنا فرق العلماء بينهما، أو فرق كثيرٌ منهم بين الرحمن والرحيم، واختلفت أقوالهم في هذا، ولعل من أحسنها أن الرحمن يدل على

[3] - سبق تخريجه.

الصفة الذاتية العائدة على الله -عز وجل- من الرحمة، والرحيم يدل على تعلقها بالمرحوم، يعني القدر المتعدي من صفة الرحمة، يعني أن المعنى في الرحمن يكون صفة لازمة، وفي الرحيم يدل على القدر المتعدي إلى المخلوق، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ولعله أوجه هذه الأقوال وأحسنها، والله أعلم، وإن كان بعضهم يقول غير ذلك، كمن يفرق من جهة سعة الرحمة وخصوصها، وهي إما في الدنيا أو في الآخرة، أو للمؤمنين أولغير المؤمنين، وهذا عند التأمل فيه إشكال.

"وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا".

حينما يقال: إن الرحمن أشد مبالغةً من الرحيم، فيمكن أن نقول: إن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، والوجه الثاني: أنه عدل به عن نظرائه، تقول: رحمن من رحم يرحم فهو رحيم على وزن فعِل يفعَل فهو فعيل، فعدل به فقيل: فعِل يفعَل فهو فعلان، وما عدل به عن زنة نظرائه فإنه يكون أبلغ في المدح أو الذم، وكما قلت قبلُ أن مثل هذا الوزن يدل على الامتلاء، فهو أبلغ من رحيم، لكن على كل حال إذا ذكر الرحمن وحده فإنه يؤدي معنى الرحيم، أي أنه يدل على إثبات صفة الرحمة لله -عز وجل-، لكن إذا ذكر مع الرحيم كان الرحمن يدل على ما يتعلق بالرب من هذه الصفة ويعود إليه، والرحيم يدل على ما يتصل بالمخلوق.

"وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي..))"

هذا دليل واضح وصريح في أن الرحمن اسم مشتق، وهذا يدل على أنه عربيٌ أصيل، وهذا خلافاً لمن قال: إنه عبراني مثلاً، وأن أصله الرخمن، فهذا وإن نقل عن بعض الأئمة لكنه لا يصح إطلاقاً، بل هو اسمٌ عربي، وهو مشتق ليس بجامد، ومما يدل على ذلك هذا الحديث.

"((قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته))[٤]".

هذا يدل على أن الصفة تشتق من الاسم، والأسماء تتضمن أوصافاً، ولكننا نأخذ الصفات من الأسماء -بالنسبة لأسماء الله -عز وجل-، فالقاعدة فيما يطلق على الله -عز وجل- من الأسماء ليس في كون الأسماء تؤخذ من الصفات، وإنما العكس أي نأخذ الصفات من الأسماء، فالله لا يسمى إلا بما سمى به نفسه، لكن عند الكلام على المعنى اللغوي نقول: الرحمن مشتقٌ من الرحمة، والعزيز مشتقٌ من العزة وما أشبه ذلك، لكن الكلام في التسمية، لا يقال فيها: إن الأسماء تؤخذ من الصفات، وإنما نقول: الصفات تؤخذ من الأسماء.

"قال: وهذا نص في الاشتقاق، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له".

---

4 - أخرجه أحمد (١٦٨٠) (ج ١ / ص ١٩٤) والطبراني في الكبير (٢٤٩٧) (ج ٢ / ص ٣٥٥) وفي الأوسط (٣٣٣٩) (ج ٣ / ص ٣٤٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٥٢٨).

يعني في مثل قولهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [(٦٠) سورة الفرقان]، فابن كثير -رحمه الله- هنا صرح بأنهم قالوا ذلك جهلاً، ففي قصة الحديبية، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)) قال سهيل بن عمرو: "لا نعرف الرحمن، وإنما اكتب باسمك اللهم"[5].

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أنهم قالوا ذلك بسبب جهلهم، وكثيرٌ من أهل العلم يرون أنهم قالوا ذلك على سبيل المكابرة، والدليل على أنهم قالوا ذلك على سبيل المكابرة أنهم سموا بعض الناس في الجاهلية بـــ عبد الرحمن، وبدليل أن هذا الاسم جاء في أشعارهم، لكن على كل حال حتى لو سمي به البعض، أو جاء في أشعارهم فإنه يمكن أن يجهله بعض العرب؛ فهم أهل جاهلية أصلاً وبالتالي لا يستبعد عليهم مثل هذا، وعلى كل حال سواء قالوا ذلك على سبيل المكابرة أو الجهل فإنه قد أقر به بعضهم، وثبت في تسميتهم أو في بعض شعرهم "الرحمن".

وهذا الاسم أيضاً هو مختصٌ بالله -عز وجل-، لا يسمى به غيره، والعلماء يقولون: لم يعرف أحد تسمى بالرحمن غير مسيلمة الكذاب لقب نفسه بذلك، فعاقبه الله -عز وجل- بأن قرن اسمه بالكذب، فلا يعرف إلا بمسيلمة الكذاب، ولذلك هم كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، وأعجب ما سمعت في هذا الصيف أن رجلاً في بعض نواحي هذه البلاد التي يكثر فيها الجهل اسمه "الرحمن"، وقد قلنا: إن العلماء يصرحون بأنه لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام غير مسيلمة، والله المستعان.

"**قال القرطبي: ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم، قاله أبو عبيد، وقيل ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك رجل غضبان للرجل الممتلئ غضباً، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول**".

المراد بهذا ذكر الوجوه التي تدل على أن الرحمن أبلغ من الرحيم، فيقول: فعيل يأتي بمعنى فاعل ومعنى مفعول، وفعيل مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول، وما كان على وزن فعيل فهو بمعنى فاعل أو مفعول، مثل: رجيم فهو بمعنى راجم أو مرجوم، وقد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

وعلى كلٍّ فهذا أحد الوجوه في التفريق بين الرحمن والرحيم.

"**قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسمٌ عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى**".

أبو علي الفارسي من أئمة اللغة، وهو من المعتزلة.

"**والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [(٤٣) سورة الأحزاب]**".

قوله: **والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين**" هذا قول فيه نظر؛ والاستدلال بقوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} ليس في محله؛ لأن هذا إنما هو من باب تقديم الجار والمجرور، فأصلها: وكان رحيماً بالمؤمنين، فلما قدم دل على الحصر أو الاختصاص أو نحو هذا، وإلا فالرحمة عامة وخاصة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة]، فهذا عام، وبالتالي فالقول بأن الرحمن

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١) (ج ٢ / ص ٩٧٤).

يدل على الرحمة العامة، والرحيم يختص بالمؤمنين قولٌ فيه نظر وفيه إشكال، لوجود أمثلة كثيرة تخالف ذلك، والله أعلم.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة. وقال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر، سمعت العرزميَّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين، قالوا: ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [(٥٩) سورة الفرقان]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [(٥) سورة طــه]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته".

هذا الكلام ليس لازماً، وإنما هو من الوجوه التي تلتمس في مثل هذا الاقتران، وإلا فلماذا حينما ذكر الاستواء ذكر معه اسم الرحمن؟ يوضحه أن العرش أوسع المخلوقات فيقولون: استوى عليه بأوسع الصفات، فرحمن أي رحمته واسعة كما قال: **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [(١٥٦) سورة الأعراف]، لكن هذا الاقتران لا يلزم منه أن يكون الرحمن يدل على الرحمة العامة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة وإنما يمكن أن نقول: الرحمة صفة متعدية، أما إذا قلنا: إن الرحمن يدل على ما يعود إلى الرب منها، فنقول: يدل على إثبات الصفة الذاتية بهذا القيد، وليس معنى ذلك أن صفة الرحمة صفة ذاتية ولا يوجد أحد يقول بهذا، وإنما هي صفة متعدية، لكن إذا فرقت هذا التفريق بين الرحمن والرحيم، فقلت: إنه يدل على ما يعود إلى الرب منها، فيكون الرحمن دالاً على الصفة الذاتية، والرحيم دالاً على الصفة الفعلية والمتعدية.

"وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [(٤٣) سورة الأحزاب]، فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه".

لكن هذا ليس صريحاً في الدلالة أبداً.

"والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: ((رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما))[(٦)]".

على كل حال هذا الدعاء بغض النظر عن صحته فالعلماء تكلموا عليه وضعّفه من ضعّفه منهم، لكن توجد نصوص واضحة صريحة كقوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(١٤٣) سورة البقرة] فهذا وأمثاله يدل على أن الرحيم ليس بمختص بالمؤمنين، أو مختص بدارٍ دون الأخرى، وعلى كل حال إذا أثبت الإنسان صفة الرحمة، وأن الاسمين متضمنان لهذه الصفة فبعد ذلك مثل هذه الأمور والتفصيلات الخطب فيها يسير.

"واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسمَّ به غيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]".

سبق أن ذكرنا أن اسم "الله" مختص بالله تعالى لفظاً ومعنى، وقلنا: إن معنى قولنا: مختص لفظاً أي: أنه لا يصلح أن يسمى به غيره، ومختص معنىً أن صفة الإلهية التي تضمنها هذا الاسم لا يصلح شيء منها للمخلوق لا جملةً ولا تفصيلاً، وبالنسبة لاسمه "الرحمن" يقال فيه: هو مختصٌ بالله تعالى لفظاً لكنه ليس مختصاً به معنى؛ لأن المخلوق يوصف بالرحمة.

---

[6] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٨٠) (ج ٢٠ / ص ١٥٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨٢١).

"**وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [(٤٥) سورة الزخرف]**".

يعني أن قوله تعالى: {أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ}، وقوله: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ} [(١١٠) سورة الإسراء] ذكر فيهما اسمه الرحمن مع اسمه "الله" الذي هو أشهر الأسماء وأعظمها وأوسعها من جهة المعنى، وهذا الاقتران لا تكاد تجده في غير لفظ الجلالة "الله" إلا في الرحمن.

"**ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمَّى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به، ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة**".

الذين كانوا مع مسيلمة تابعوه وهم يعلمون أنه كذاب، والحاصل أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى وجه تقديم "الله" على "الرحمن"، فيمكن أن يقال: إن لفظ "الله" قُدِّم لأنه أعظم هذه الأسماء، وهي تعود إليه لفظاً ومعنى، وتأتي معطوفةً عليه، ويخبر بها عنه، ثم جاء بعده "الرحمن" الذي يختص بالله -عز وجل- من جهة اللفظ دون المعنى، ثم جاء "الرحيم" وهو اسمٌ غير مختص من جهة اللفظ وإنما يسمى به المخلوق كما أنه يوصف بصفة الرحمة، فإذا أردت أن ترتب هذه الأسماء الثلاثة فالذي يأتي في المرتبة الأولى هو "الله"؛ لأنه مختص لفظاً ومعنى، ثم "الرحمن" فهو مختص باللفظ دون المعنى، ثم "الرحيم" فهو ليس مختصاً لا لفظاً ولا معنى.

"**وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، قال: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٨) سورة التوبة]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه، كما قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(٢) سورة الإنسان].**

والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها مالا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخصُّ وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

وقد جاء في حديث أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً: {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(١-٤) سورة الفاتحة] فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة، ومنهم من وصلها بقوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة]".

من قوله: "**وقد جاء في حديث أم سلمة**.." هذا كلام جديد وقضية جديدة لا أدري لماذا لم يضع لها عنواناً كعادة المختصر؟، والمقصود أنه بدأ يتكلم عن قضية ثانية، حيث انتهى من الكلام عن معاني هذه الأسماء الحسنى.

وقوله في آخر الكلام: إنه بدأ بالأشرف وهو اسم الله، أو أن الرحمن هو أشرف من الرحيم، أو حينما يقال: هذا أبلغ في التسمية أو نحو هذا فهذا لا إشكال فيه، وليس المقصود بهذا أن ما سواه غير موصوف بهذه الصفة، وإنما يقال ذلك في الأشياء الكاملة دون أن يكون المقصود غمط الأسماء الأخرى، وهذا يقال في القراءات كما في كثير من كتب التفسير، حيث تجده يقول: هذه القراءة أبلغ من هذه القراءة وليس المقصود غمط القراءة الأخرى.

وأما ما يفعله بعض أصحاب الكلام على تفسير معاني القرآن، وأصحاب توجيه القراءات مما يحدو بهم إلى ترجيح إحدى القراءتين ترجيحاً يشعر بغمط الأخرى أو توهينها وهي ثابتة متواترة فهذا أمرٌ لا يليق مع القرآن، وإلا فإن سور القرآن تتفاوت وتتفاضل، فسورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص] تعدل ثلث القرآن، وهذا معروف وأهل السنة يقررونه خلافاً لبعض من أنكر ذلك وقال: إن هذه المفاضلة لا تقال، وإنها تشعر بغمط غير المخبر عنه أو غير الموصوف بذلك، وأنه لا يقال ذلك في أسماء الله -عز وجل-.

والجواب عمن قال بمنع ذلك أن يقال: بل إنها تتفاضل وقد بلغت الغاية في الكمال، فالتفاضل إنما هو في الكمالات وليس في الكمال والنقص، ومراتب الكمال متفاوتة، ولهذا قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [(٢٦٠) سورة البقرة]، فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- متردداً في هذه القضية بحيث يقال: إنه كان يشك في قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى والبعث، ولكنه أراد أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال وهي علم اليقين إلى مرتبة أعلى منها وهي عين اليقين، فبعضهم يسمي المسافة بين هذين الأمرين شكاً، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه الصلاة والسلام))[٧] فالمقصود أن إبراهيم أراد أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال إلى مرتبة أعلى منها.

وقل مثل ذلك حينما نتكلم عن أسماء الله الحسنى أو عن سور القرآن، فنقول: هذه السورة أفضل من هذه السورة، أو هذه الآية أعظم في كتاب الله -عز وجل- فهذا دلت عليه الأدلة، وإلا فما معنى الاسم الأعظم، وما معنى كون آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن، وسورة الفاتحة أعظم سور القرآن؟ إنما أطلق ذلك بهذا الاعتبار.

وفي قول ابن كثير: "**وقد جاء في حديث أم سلمة**" هذا بداية الكلام على مسألة أخرى هي وصل البسملة بأول السورة، فهذا أحد الوجوه المعروفة، ولك أن تقطع بأن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم ثم تقف ثم تأتي بالحمد لله رب العالمين، وهكذا.

"**قال أبو جعفر بن جرير: معنى {الْحَمْدُ للّهِ} [(٢) سورة الفاتحة] الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد**".

يلاحظ في كلام ابن جرير -رحمه الله- أنه فسر الحمد بالشكر، وهذا يعني أن ابن جرير الطبري -رحمه الله- لا يفرق بين الحمد وبين الشكر، فيرى أنهما بمعنى واحد، فالحمد هو الشكر، وهذا قول لطائفة من أهل العلم.

---

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قوله -عز وجل- : {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} [(٥١) سورة الحجر] (٣١٩٢) (ج ٣ / ص ١٢٣٣) ومسلم في كتاب الفضائل - باب من فضائل إبراهيم الخليل -صلى الله عليه وسلم- (١٥١) (ج ٤ / ١٨٣٩).

"**بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً.**

وقال ابن جرير -رحمه الله-: الحمد لله ثناءٌ أثنَى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله".

تفسير ابن جرير الحمد بالثناء يدل على أنه لا يفرق بين الحمد وبين الثناء، بمعنى أن ابن جرير -رحمه الله- يرى أن الحمد بمعنى شكر الله -عز وجل- والثناء عليه، فيفسر الحمد بالشكر ويفسره بالثناء.

وكثير من أهل العلم يفرقون بين الحمد وبين الشكر، وبعضهم يفرق بين الحمد وبين الثناء.

وهنا يقول: "**وفي ضمنه أمْرُ عبادِه**، أو **في ضمنه أَمَرَ عبادَه أن يثنوا عليه**" أي في ضمن الحمد، بمعنى أنه حينما قال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] فهذه الصيغة ليست أمراً وإنما هي صيغة خبر لكنه يتضمن تعليم عباده أن يحمدوه، بأن يقولوا: الحمد لله، فحينما قال ذلك فهو يعلمهم كيف يقولون، وهذا هو معنى أن في ضمنه الأمر بحمده، فالصيغة صيغة خبر، لكن هي تعليمٌ من الله لعباده كيف يحمدوه.

"**قال: وقد قيل: إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه**".

ابن جرير هنا أشار إلى القول الآخر فقال: **وقد قيل**... وهو جاء بهذه الصيغة كأنه يضعف ذلك، وهذا واضح من كونه ذكر المعنى الآخر أولاً.

قال: "**وقد قيل إن قول القائل: الحمد لله ثناءٌ عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والشكر ثناءٌ عليه بنعمه وأياديه**" يقصد بهذا أن الشكر يكون على النعمة المتعدية إلى المخلوق، والحمد على هذا القول يكون بإضافة المحامد لله -عز وجل- وذكره بأوصاف الكمال –تبارك وتعالى-.

فإذا أثنيت على إنسان بصفاتٍ لازمة مثل: الهيبة، والعظمة، وما أشبه ذلك، فهذا حمد، وإذا أضفت إليه، أو أثنيت عليه على صفة متعدية كالكرم فإن هذا يكون من قبيل الشكر، ولهذا فإن بعض أهل العلم يفرق بين الحمد والشكر، فيقول: الحمد إنما يكون باللسان، ويكون على النعمة وغيرها أي على كل حال، والشكر لا يكون إلا على نعمة، ويكون باليد واللسان والجوارح، فصار بينهما عمومٌ وخصوص، كل واحد منهما أعم من الآخر من جهة وأخص من جهة، هذا وجه من وجوه التفريق بين الحمد والشكر.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٧)

مالك يوم الدين - إياك نعبد وإياك نستعين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في الفرق بين الحمد والشكر: "والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال شكرته لفروسيته، وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليَّ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قول ابن جرير ومن وافقه بأن الشكر والحمد بمعنىً واحد لا فرق بينهما، وهو قولٌ معروف، ومن فرّق -كالحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختلفت أقوالهم، فمن أشهرها ما ذكره هنا من أنهما يفترقان إذا ذكرا معاً.

وعلى كل حال يكون الحمد أعم من جهة وأخص من جهة، فالحمد أعم من جهة أنه يكون على النعمة وعلى غير النعمة، فالله محمودٌ على كل حال -على النعمة وغير النعمة- ويكون على الصفات المتعدية والصفات اللازمة، فالله -عز وجل- يحمد لما يتصف به من أوصاف الكمال، يحمد لعظمته ولمجده ولجلاله ولعزته، وهذه صفات لازمة، ويحمد لكرمه ولرحمته وجوده وعطائه وبره وإحسانه وإفضاله، وهذه كلها أوصاف متعدية.

وأما الشكر فيقولون: إنه لا يقع إلا بإزاء نعمة، أي بمقابل نعمة، فهو من هذه الناحية أخص من الحمد، ويكون على الأوصاف المتعدية؛ لأن الإنعام إنما يكون بالوصف المتعدي، مثل الرزق، والكرم، والإحسان وما أشبه ذلك، فمن جهة ما يقعان عليه يكون الحمد أعم من الشكر، ومن جهة مورد الحمد والشكر فإنه يكون بالنسبة للحمد أخص؛ لأن الحمد إنما يكون باللسان، وهذا ولا بد مع مواطأة القلب حتى لا يكون منافقاً، وأما الشكر فيكون باللسان وبالقلب -أي باستحضار النعمة وشكرها بالقلب- ويكون أيضاً بالجوارح.

أفـــادتكم النعمـــاء منــــي ثلاثـــةً ... يدي ولساني والـضمير المحجبـا

أي: إنعامكم وإفضالكم أثر شكراً بالقلب واللسان والجوارح، فيلهج اللسان بالشكر، والجوارح بالخدمة كما يقال، كأن تصلي وتحسن إلى الناس ونحو ذلك، قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [(١٣) سورة سبأ].

فهذا من أشهر الفروق عند من فرق بين الحمد والشكر، وبعضهم يقول غير هذا، وعلى كل حال ليس هذا مقام تطويل.

"**وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد نقيض الذم**".

من الفروقات أن يقال: إن الحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفر.

"**تقول حمدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة، فهو حميدٌ ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر.**

وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، وأما المدح فهو أعم من الحمد.."

قوله في الشكر: "**هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف**" يعني على الأوصاف المتعدية ويكون بإزاء النعمة.

وقوله: "**هو الثناء على المحسن**" هذا بناءً على تفسير الحمد بإضافة المحامد ونسبتها إلى المحمود، أي أوصاف الكمال، فلا يكون بمعنى الثناء، وإنما الثناء هو إعادة الحمد ثانياً، وكثير من أهل العلم لا يفرق، وبعض أهل العلم يضيف قيداً آخر في الفرق بين الحمد والشكر وهو قيد يتعلق بقضية الأوصاف أو الكمالات الاختيارية، ولتوضيح معنى الأوصاف الاختيارية نذكر مثلاً الجمال فهو كمال لكنه ليس اختيارياً بالنسبة للإنسان، أما الكرم فهو كمال اختياري، فهذا يذكرونه في الفرق بين الحمد وبين المدح.

يقول: "**يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح**" المشهور باللام وهو الأكثر استعمالاً، قال تعالى: **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}** [(١٤) سورة لقمان]، وقال تعالى: **{وَاشْكُرُواْ لِلّهِ}** [(١٧٢) سورة البقرة]، ويأتي متعدياً بنفسه كما في قوله تعالى: **{وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ}** [(١١٤) سورة النحل].

وفي قول الشاعر:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى   وما كل من أوليته نعمة يقضى

فقال شكرتك، مع أن الغالب في الاستعمال أن يقول: شكرت لك.

"**وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضاً، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم**".

يعني أن الحمد أو الشكر لا يكون للحيوانات ولا للجمادات، فلا تقول: حمدت هذه السارية، ولا تقول: حمدتُ هذه الدابة، وإنما يكون لمن يعقل فتقول: حمدتُ زيداً، وتقول: فلان يحمد صاحبه، وفلان يشكر صاحبه، وما أشبه هذا.

وبالنسبة للمدح فإنه يكون على الصفة اللازمة والمتعدية، ويكون بسبب النعمة والإنعام والإفضال، ويكون من غير ذلك، ويكون على الأوصاف الاختيارية وعلى الأوصاف غير الاختيارية، فتُمدح المرأة لجمالها، ولطولها، ولسواد عينيها، وما أشبه ذلك، لكنها لا تشكر على هذا، فلا يقال: شكراً على بياض وجهك وطول قامتك، ولكن يمكن أن تمدح على ذلك، فالمدح سائغ على أوصاف الكمال الاختيارية وغير الاختيارية وعلى الأوصاف اللازمة والمتعدية، فتَمدح المرءَ لعزته وهيبته، وتمدحه أيضاً لكرمه وبره وجوده وإحسانه، وهكذا. وكذلك قد تَمدح الصِّبْغَ، وتمدح الخشب، وتمدح الجهاز، وتمدح اللباس، وفلان يمدح السيارة الفلانية، وتمدح نوعاً من الأشجار، وهكذا فهو أعم.

"ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال: قال عمر لعليٍّ -رضي الله تعالى عنهما- وأصحابه عنده: لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال عليٌّ: كلمة أحبها الله تعالى لنفسه.."

قد يقول قائل: إنه لم يذكر معنىً جديداً في تعريف الحمد في قوله: كلمة أحبها الله لنفسه، والسؤال هو عن معنى الحمد، وهذا يدل على نبذ السلف للتكلف، فهم أبعد ما يكونون عن التكلف، والتشقيق لم يكن من أفعالهم وإنما وجد هذا عند المتكلفين من بعدهم، ونحن مهما حاولنا أن نتخلص من هذا الأمر إلا أنه للأسف أمرٌ كأنا طبعنا عليه، حيث تجد الواحد منا يتلقى العلم بهذه الطريقة، ثم لا يستطيع أن ينفك من إسارها.

"قال عليٌّ: كلمة أحبها الله تعالى لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد الحمد لله قال: شكرني عبدي، رواه ابن أبي حاتم".

ابن عباس إمام في التفسير وفي اللغة ومع هذا لم يفرق بين الحمد والشكر، وعلى كل حال فالأمر في هذا سهل، والمقصود أن نشتغل بحمد الله والثناء عليه وشكره، وهذا يتحقق بأن يلهج اللسان بهذه الأمور، ولكن للأسف أنه يغلب علينا الاشتغال بمثل هذه التشقيقات مع التقصير في العمل.

"وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي -تبارك وتعالى- فقال: ((أما إنّ ربك يحب الحمد))[1] ورواه النسائي.

وروى أبو عيسى الحافظ الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله))[2]، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد الله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ))[3].

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدثهم ((إن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب إنه قال: لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها))[4].

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: ((اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله..)) الحديث[5].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) (ج ٣ / ص ٤٣٥) وضعفه شعيب الأرنؤوط.

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات - باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣) (ج ٥ / ص ٤٦٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤).

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل الحامدين (٣٨٠٥) (ج ٢ / ص ١٢٥٠) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٥).

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل الحامدين (٣٨٠١) (ج ٢ / ص ١٢٤٩) وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه برقم (٣٨٠١).

[5] - أخرجه أحمد (٢٣٤٠٣) (ج ٥ / ص ٣٩٥) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٩٦٣).

والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله -عز وجل- وقد قيل: إنه الاسم الأعظم".

قال: "**والرب هو المالك المتصرف** ثم قال: **ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله**" لو قيل: الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشئون خلقه، المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة وهو السيد بحيث تُذكر هذه المعاني جميعاً كان أولى؛ فهذه كلها ثابتة لله -تبارك وتعالى-، فالمعاني التي يذكرونها في معنى الرب هي نحو سبعة معانٍ كلها ثابتةٌ لله -عز وجل- ومنها أن يقال الرب لصاحب الشيء، قال تعالى: {**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**} [(١٨٠) سورة الصافات]، فرب العزة معناه صاحب العزة، وكذلك الرب تطلق بمعنى السيد، فالرب هو السيد والمالك كما قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وفي الحديث: ((لا يقل أحدكم: أطعم ربك))[6] بمعنى سيدك.

ومن معاني الرب كذلك أي المربي لخلقه بالنعم الظاهرة والباطنة وبأنواع التربية المعنوية بما يفيض عليهم من الرحمات، وألوان الإحسان المعنوي من هدايتهم للإيمان، وإرسال الرسل، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون، وكذلك ما يفيض عليهم من ألوان اللذة والسرور بمعرفته -سبحانه وتعالى-، وما يلهمهم من الصبر ونحو ذلك، كما يربيهم التربية الحسية المتمثلة في نقلهم من طورٍ إلى طور في بطون أمهاتهم، ثم يخرجهم من بطون أمهاتهم، وما يكلؤهم به من ألوان النعم وهكذا، فهذا كله من تربيته لهم -سبحانه وتعالى- فالرب يأتي لهذه المعاني كلها.

وإذا نظرت في الرب باعتبار أنه السيد يكون ذلك صفة ذات، وإذا نظرت إليه باعتبار أنه المتصرف المربي لخلقه وما أشبه ذلك فهي صفة فعل، وبهذا نعرف أن أوصاف الله -عز وجل- منها ما يكون صفة ذات باعتبار، ويكون صفة فعل باعتبارٍ آخر، ومن الاعتبارات في ذلك تنوع القراءات وسيأتي ذكر هذا في قوله تعالى: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} [(٤) سورة الفاتحة] فعلى قراءة "ملك" يكون ذلك صفة ذات، وعلى قراءة "مالك" يكون صفة فعل.

قوله: "**وأما الرب فلا يقال إلا لله -عز وجل-**" يعني هذا إذا أطلق من غير قيد، فأما قولك: أنا رب الإبل، أنا رب الدار، أنا رب السيارة فهذا لا إشكال فيه، لكن الرب هذا لا يطلق إلا على الله -عز وجل-.

وقد جاء في بعض شعر العرب إطلاق الرب على بعض البشر من الناس، وهذا تعدٍّ وتجاوز بالمخلوق قدره، فهذا لا يجوز بحالٍ من الأحوال، ووقوعه في شعر بعض العرب حاصل لكنه نادر.

"**والعالَمين جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله -عز وجل- والعالَم جمع لا واحد له من لفظه**".

العالَمين جمع عالم، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: إن هذا اسم جمع وليس جمعاً للعالَم لكن هذا القول فيه نظر.

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢٤١٤) (ج ٢ / ص ٩٠١) ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها - باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٢٢٤٩) (ج ٤ / ص ١٧٦٤).

يقول: "**والعالَم جمع لا واحد له من لفظه**" فالعالَم جمعٌ، وعالَمين جمع عالَم، فإذا كان العالَم جمع لا واحد له، فالعالَمين جمع الجمع، وجمع الجمع لا واحد له من لفظه.

"**والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات وفي البر والبحر، وكل قرنٍ منها وجيل يسمى عالَماً أيضاً**".

يعني أن العالَمين جمع للجمع ليشمل ذلك سائر الأصناف، فالملائكة عالَم، والجن عالَم، والطيور عالَم، وهكذا.

وكذلك أصناف الأمم أيضاً يقال لهم: عالَم، فنقول مثلاً: العالَم العربي، فهذا إطلاق صحيح في اللغة، وكذلك الأجيال والقرون، فكل جيل يقال له: عالَم، فالله رب العالَمين، رب الأولين والآخرين، رب السماوات والأرض وما بينهما، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال موسى -صلى الله عليه وسلم- جواباً لفرعون لما قال له: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [(٢٣-٢٤) سورة الشعراء]، فالعالَمين يشمل ذلك جميعاً، أي: العالَم العلوي والعالَم السفلي وما بينهما بكل ما يحويه من المخلوقات.

"**قال الفراء وأبو عبيد: العالَم عبارة عما يعقل، وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالَم**".

هذا قول لبعضهم، ولكنه ليس محل اتفاق.

"**وعن زيد بن أسلم وأبي محيصن: العالَم كل ما له روح ترفرف**".

وهذا القول أعم أوسع، فذاك يقول: ما كان له روح ويعقل، وهذا يقول: ما كان له روح ترفرف، فيدخل فيه الحشرات والطيور والحيوانات.

"**وقال قتادة: رب العالمين كل صنف عالَم، وقال الزجاج: العالَم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح، إنه شامل لكل العالَمين، كقوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ}** [(٢٣-٢٤) سورة الشعراء] **والعالَم مشتق من العلامة، قلت: لأنه عَلَم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته**".

هذا هو المشهور عند أهل اللغة وعند المفسرين وهو أن العالَمين جمع عالَم، والعالَم مشتقٌ من العلامة؛ لأنه يدل على قدرة الصانع -سبحانه وتعالى- وعلمه.

وبعض أهل العلم يقول: إن العالَم مشتقٌ من العِلم؛ وذلك أنه نتج عنه وصدر عنه، فإن هذا الخلق لا يمكن أن يصدر إلا عن علم، ثم إن الإحاطة به لا يمكن أن تتأتى إلا بالعلم، فهو يعلم أحوال هذا العالَم.

ويقول بعضهم ممن قالوا: إنه مشتق من العِلم يقولون: لأن هذه المخلوقات توصف بالعلم، وهذا يأتي على قول من يحصرها بمن يعقل إلا على وجهٍ من التكلف وذلك إذا قلنا: إن ما لا يعقل من هذه الأشياء قد أعطاها الله علماً يناسبها.

"**وقوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** [(٣) سورة الفاتحة] **تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـــ {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** [(٣) سورة الفاتحة] **بعد قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة] **ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ}** [(٤٩-٥٠) سورة الحجر]".

قوله: "**ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب**" وجه الترهيب في قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} هو أن الرب هو السيد، فرب العالمين أي هو سيدهم ونواصيهم بيده، والسيد لا شك أنه يُهاب وتخاف سطوته ويرهب جانبه، فلذلك جاء بعده بـــ {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة]، أي ليجمع لهم بين الترغيب والترهيب، ولكن ذلك أوضح بما بعده أي في قول الله -عز وجل-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] فيوم الدين هو يوم الجزاء والحساب، الذي قال الله -عز وجل- فيه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [(١١١) سورة طـــه]، ويقول الله -عز وجل- فيه: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر]، فلا أحد يدعي الملك في ذلك اليوم، بل الملوك كلهم خاضعون ذليلون في ذلك اليوم، فلذلك يكون قوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٣-٤) سورة الفاتحة] أوضح في الجمع بين الترغيب والترهيب.

وهذه الآيات فيها من الدلالات على معانٍ من علم الله -عز وجل- وعدله وصفات كماله الشيء الكثير.

"**وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام]، قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب.**

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد))[7]".

نخرج من هذا بأن ربوبية الله -عز وجل- مبنية على الرحمة، وليست مبنية على العسف والقهر ومجرد التسلط، وإنزال البأس والعقوبات بهؤلاء المخلوقين، إنما هي ربوبية مبنية على الرحمة، فإذا عرف العبد ذلك سكن إلى ربه -تبارك وتعالى- وأقبل عليه وأحبه.

"**{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه**".

هذا جواب على سؤال تقديره: إن الله مالك للدنيا والآخرة، فلماذا خصَّ يوم الدين بالذكر؟

الوجه الأول في الجواب أن يقال: إنه قال قبله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] فهذا فيه ملك الدنيا والآخرة، فهو رب العالمين وسيدهم بإطلاق، ثم خص يوم الدين لعظمته، أو لأنه هو اليوم وما دونه كساعة، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [(٥٥) سورة الروم]، أو لأنه هو الغاية وما قبله من الأيام مراحل تطوي الناس إليه، فإذا وصلوا إلى ذلك اليوم فهو اليوم الأبدي السرمدي، وفي ذلك اليوم يقول الله -عز وجل-: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [(١٦) سورة غافر] فلا أحد يجيب، ثم يقال: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر] فلا أحد يدعي أن له شيئاً من الملك في ذلك اليوم.

فالحاصل أن الله -عز وجل- أفرد يوم الدين لشيء من هذه الاعتبارات أو لغيرها فالله أعلم، فهذه وجوه يذكرها أهل العلم.

---

[7] - أخرجه مسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).

"وإنما أضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يدعي أحدٌ هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [(٣٨) سورة النبأ]، وقال تعالى: {وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [(١٠٨) سورة طـه]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [(١٠٥) سورة هود]، وقال الضحاك: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] يقول لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا.

قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر".

يعني أن الدِّين هو الجزاء، ومنه كما تدين تدان، قال تعالى: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(١٦) سورة الطور]، ومنه قول الشاعر: دِنّاهم كما دانوا، بمعنى جزيناهم كما فعلوا أو كما عاملونا، وهذا معروف ومشهور.

"والمَلِك في الحقيقة هو الله -عز وجل- قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [(٢٣) سورة الحشر].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك، ولا مالك إلا الله))[8].

وفيهما عنه -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟))[9].

وفي القرآن العظيم: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} [(٢٤٧) سورة البقرة] {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} [(٧٩) سورة الكهف] {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} [(٢٠) سورة المائدة]، وفي الصحيحين: ((مثل الملوك على الأسرة))[10]".

قوله عليه الصلاة والسلام-: ((مثل الملوك على الأسرة)) هذا في الجيش الذي يركب البحر غازياً في سبيل الله، وعلى كل حال فإن الملك في الدنيا ملكٌ محدود إنما يكون على فئةٍ من الناس، وفي رقعةٍ محدودة، ولأجلٍ محدود، فمن أعطي شيئاً من الملك فإنه يسلب منه لا محالة إما بالموت أو العزل، وصاحب هذا الملك كان فاقداً له في الأصل، ثم إنه يعتوره من ألوان النقص والعبودية ما لا يخفى، كما قال شيخ الإسلام في كتاب "العبودية: تجد الرجل ملكاً في الظاهر وهو عبدٌ ذليلٌ لمن لا يقوم ملكه إلا بهم في الباطن.

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب أبغض الأسماء إلى الله (٥٨٥٣) (ج ٥ / ص ٢٢٩٢) ومسلم في كتاب الآداب - باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك (٢١٤٣) (ج ٣ / ص ١٦٨٨).

9 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦١٥٤) (ج ٥ / ص ٢٣٨٩)ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٧٢٢٧) (ج ٨ / ص ٤٢).

10 - أخرجه البخاري في كتاب فضل الجهاد والسير - باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء (٢٦٣٦) (ج ٣ / ص ١٠٢٧) ومسلم في كتاب الإمارة - باب فضل الغزو في البحر (١٩١٢) (ج ٣ / ص ١٥١٨).

ولهذا يقول الله -عز وجل- في سورة البقرة في آية الكرسي: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [(٢٥٥) سورة البقرة]، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه لكمال عظمته وملكه؛ لأن ملوك الدنيا يُشفع عندهم من غير إذن، فهم لا يُستأذنون عند الشفاعة، وقد يقبلون ذلك وهم لا يرغبون فيه إما خوفاً من غائلة من الشافع ومن تنكره لهم؛ لأن ملكهم لا يقوم إلا به، أو لحاجتهم إليه في مصالح أخرى، أو حياءً منه وحرجاً وخجلاً، أما الله -عز وجل- فلا أحد يستطيع أن يمارس عليه ضغوطاً، أو يُحرَج من أحد أو يخاف من أحد، أو يضطر لقبول شفاعة أحد؛ لأنه يحتاجه في أمور أخرى حتى لا يرده، وما أشبه ذلك، بل ملكه -تبارك وتعالى- كامل ليس فيه نقص، بينما في الدنيا تجد الملك يعتوره أشياء من هذا النقص، ثم إن الذي يهب ذلك أولاً وآخراً هو الله -عز وجل- ولهذا يقول الله -عز وجل-: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٦) سورة آل عمران].

"والدِّين الجزاء والحساب، كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} [(٢٥) سورة النـــور]، وقال: {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} [(٥٣) سورة الصافات] أي مجزيون محاسبون.

وفي الحديث: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت))[11] أي حاسب نفسه، كما قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [(١٨) سورة الحاقة][12]".

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]، والعبادة في اللغة من الذلة، يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف".

قوله: "**وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف**" هذه تسمى أركان العبادة، والعبادة تطلق في المعنى الشرعي على أمرين، الأمر الأول: بالنظر إلى فعل العبد، والثاني: بالنظر إلى المفعولات والأعمال التي تعبَّد الله -عز وجل- الناس بها.

فإذا قلنا: إن العبادة اسمٌ جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فهذا بالاعتبار الثاني أي باعتبار المفعولات والأعمال التي شرعها الله -عز وجل- لعباده ليتقربوا بها إليه.

وإذا نظرنا إلى العبادة بالاعتبار الأول، أي باعتبار أنها نفس فعل العبد الذي هو صفة من صفاته، نقول: إن العبادة هي الانقياد لله -عز وجل-، بمعنى الإسلام، أي إسلام الوجه لله -تبارك وتعالى- والخضوع له بالطاعة، يعني فعل العبد لا نفس العبادات التي شرعها الله -عز وجل-؛ لأن العبادة مصدر، تارةً يراد بها المفعول، وتارةً تطلق على نفس الفعل، كما تقول القرآن يطلق على نفس المقروء الذي هو الكتاب الذي بين أيدينا، ويطلق على القراءة، وكذلك الوحي يطلق على هذا القرآن أنه وحي، يعني ما نتج عن الإيحاء وهو هذا الكتاب، وتارةً يطلق على نفس العملية التي هي الإيحاء، فتارةً يطلق على هذا المعنى، وتارةً يطلق على المعنى الآخر، فهما إطلاقان معروفان.

---

11 - أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ٢٥ (٢٤٥٩) (ج ٤ / ص ٦٣٨) وابن ماجه في كتاب الزهد – باب ذكر الموت والاستعداد (٤٢٦٠) (ج ٢ / ص ١٤٢٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٣٠٥).

12 - انظر مصنف ابن أبي شيبة (ج ٨ / ص ١٤٩).

"وقدم المفعول وهو إياك، وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك".

هذه قاعدة عامة وهي أن تقديم المعمولات على عواملها يفيد الحصر، وقد يكون التقديم لمعنىً آخر كأن يكون للاهتمام به أو غير ذلك مما يذكره أهل العلم، فقوله هنا: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي لا نعبد إلا إياك، **"أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك".**

لو نظرنا إلى قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} بدون تقديم وتأخير فسنقول: نعبدك، فيكون الذي تقدم هو الفعل وتقدم الضمير الذي يعود إلى المخلوق، والكاف للخطاب وهي متوجهة إلى الرب -سبحانه وتعالى-، فكأنه قُدِّم الفعل والمخلوق على ذكر الخالق المعبود -سبحانه وتعالى-، فلذلك قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}؛ لئلا يتقدم على المعبود شيءٌ سواه، وهذا أليق وأكمل في الأدب.

ونفس هذا الكلام يقال في قوله تعالى: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة].

"أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله -عز وجل- وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٢٣) سورة هود]، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [(٢٩) سورة الملك]، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [(٩) سورة المزمل]، وكذلك هذه الآية الكريمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]".

بعض أهل العلم مثل ابن القيم -رحمه الله- يذكر أكثر من عشرة أوجه في وجه تقديم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ويمكن أن تراجع في كتابه مدارج السالكين.

"وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى".

هنا التفات، والالتفات لا شك أنه تفننٌ في الخطاب، وله من الدلالات البلاغية في كل مقامٍ ما يناسبه، وهو في الجملة لا شك أنه أدعى إلى تنشيط السامع، وهو أدلُّ على الفصاحة والبلاغة والقدرة على التفنن بالكلام، فهذا الالتفات تارةً يكون من الغائب إلى المخاطب مثل هنا، فهو يتحدث عن الله -عز وجل- على سبيل الغيبة، الحمد لله هو رب العالمين، هو الرحمن الرحيم، ثم قال: إياك، فتوجه إلى المخاطب، وعلل ذلك هنا فقال: كأنه لما أثنى عليه اقترب منه فناسب أن يوجه الخطاب إليه، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]، وهذا مثل قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ} [(٢٢) سورة يونس]، فالكلام للمخاطب، ثم قال: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [(٢٢) سورة يونس] حيث تحول عكس ما عليه الحال هنا، أي تحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة، وعلى كل حال فالالتفات أنواع، والكلام عن هذا الموضوع يوجد في كتب البلاغة مفصلاً.

"فلهذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] وفي هذا دليلٌ على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجمال صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح

صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))[١٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: الله: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[١٤]"

---

[13] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٢٣) (ج ١ / ص ٢٦٣) ومسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٤) (ج ١ / ص ٢٩٥).

[14] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٨)

اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر: "قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك، {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] على {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] لأن العبادة له هي المقصودة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقول: العبادة مصدر، فتارةً تطلق على المتعبد به فتكون اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، مثل ما تقول: القراءة والكتابة والرقية والكلام، وما أشبه ذلك من المصادر، فنحن حينما نريد أن نأتي إلى مصدر من هذه المصادر نقول مثلاً: الكلام، القراءة، العبادة، الأكل، وما أشبه ذلك.

فالأكل يطلق على معنيين، حيث يطلق على نفس العملية ويطلق على المأكول، فتقول: خذ هذا الأكل، أو ارفع هذا الأكل.

والكلام يطلق على العملية نفسها ويطلق على المتكلَّم به، فتقول هذا كلام فلان، وهذا كلامك، وكذلك الكتابة تطلق على عملية الكتابة من قِبَلي ومن قِبَلك، وتطلق على المكتوب فتقول هذه كتابة خالد.

وكذلك القراءة تطلق على عملية القراءة من قِبَلي ومن قِبَلك ومن قِبَل فلان، وتطلق على المقروء.

والعبادة تطلق على معنيين: أولهما حركة العبد ونشاطه وفعله الذي يقوم به والذي هو التعبد، وهو صفة من صفاته، وتطلق على عملية التعبد من الأقوال والأفعال وما يتعبد به، فالصلاة عبادة، والصيام عبادة، والحج عبادة، والزكاة عبادة، والذكر عبادة، فهي تطلق على المعنيين، تطلق على نفس فعل العبد وعلى ما يتعبد به، وهي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والعبادة تكون بطاعة الله -عز وجل- فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

فهذه التعريفات للعبادة لا تختلف لكنها تارةً تطلق على نفس فعل العبد، وتارةً تطلق على ما يتعبد به.

قال المؤلف: "**قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا**" {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} هذا هو الشق الأول من كلمة الإخلاص المتضمنة للنفي والإثبات، فهذا حظ الإثبات، ومثل هذا قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [(١٢٣) سورة هود]، ومفهوم المخالفة يؤخذ منه الشق الآخر الذي هو النفي، فحينما تقول: إياك نعبد يدل على الحصر، ومفهوم مخالفته أننا لا نعبد غيرك.

فالشارع تارةً ينهى عن الشرك كما في قوله تعالى: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ} [(١٣) سورة لقمان]، وتارةً يأمر بالتوحيد، كقوله تعالى: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ} [(١٤) سورة الزمر]، وتارةً يذكر الأمرين معاً، وتجمعهما كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

والمراد بذلك من حيث منطوق الكلام أما من حيث المفهوم فإن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] يشتمل بمنطوقه على التوحيد وإفراد الله -عز وجل- بالعبادة وبمفهومه على الشق الآخر.

قال: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي على طاعتك وعلى أمورنا كلها، نستعين على كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، ومعنى نستعين: السين والتاء للطلب، أي نطلب العون منك لا من غيرك.

"**وقال قتادة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم**" يعني أن ذلك يتضمن تعليماً من الله -عز وجل- وأمراً وإن كانت الصيغة صيغة خبر، لكنه تعليمٌ من الله -عز وجل- لعباده أن يوحدوه وأن يفردوه في العبادة وفي الاستعانة.

"**وإنما قدم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم**".

هناك وجوه أخرى كثيرة جداً ذكرها الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في وجه تقديم العبادة على الاستعانة في المدارج، والحاصل أن مما ذكر هذا الوجه.

ومن الأوجه التي ذكرها في ذلك قوله: الاستعانة حظ العبد والعبادة حظ الرب، وما كان للرب فهو أولى وهو مقدم، ومن ذلك أن العبادة أشرف وأعظم وأشمل وأكمل من الاستعانة؛ لأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من المخلص ومن غيره، ثم إن العبادة تتضمن الاستعانة؛ لأن الاستعانة لونٌ من العبادة، فهي أعم منها والاستعانة أخص، وعلى كل حال فليس المقصود هنا ذكر كل ما قيل في ذلك.

"**وقد سمى الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعبده في أشرف مقاماته فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [(١) سورة الكهف]، وقال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [(١٩) سورة الجن]، وقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} [(١) سورة الإسراء]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به**".

مما يدل على شرف العبادة ومنزلتها أن الله -عز وجل- سمى بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- في أشرف المقامات، فلم يذكره باسمه، ولم يذكره بوصفٍ آخر، وإنما ذكره بوصف العبودية، ففي مقام الإسراء قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} [(١) سورة الإسراء]، وفي مقام الدعوة قال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [(١٩)

سورة الجن]، وفي مقام الإيحاء وإنزال الكتاب قال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [(١) سورة الكهف] وهكذا.

"وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة الحجر]".

هذا كله تابعٌ لما سبق من بيان منزلة العبادة وعظيم شرفها ومكانتها، ومن ذلك أنه يؤمر بها لرفع الضيق؛ حيث إن الله تعالى أرشد نبيه -صلى الله عليه وسلم- إليها؛ ليكون ذلك سبباً لرفع الضيق عنه والحزن.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [(٩٧-٩٩) سورة الحجر]".

يعلم من هذا أنه ليس هناك طريق لأولئك الذين يعانون من أمراض الاكتئاب والحزن كطريق التعبد لله -عز وجل- والتقرب إليه بألوان القربات.

والعجيب أن بعض الناس يفهم عكس هذا، فتجدهم يظنون أن سماعهم للقرآن يؤثر فيهم تأثيراً سلبياً لقوته على نفوسهم، وبالتالي يحصل عندهم انتكاسة في المرض، بل إن بعض الأطباء يطلبون من هؤلاء المرضى أن يناموا الساعات الطوال جداً، فيتركون الصلوات، بل ربما قالوا: لا توقظوه لصلاة الفجر، فكيف يصح ويبرأ من هذا حاله إلا بالتعبد لله -عز وجل-!!.

"{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] لما تقدم الثناء على المسئول -تبارك وتعالى- ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: ((فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))[1]، وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله إليه؛ لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى -عليه السلام-: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [(٢٤) سورة القصص]، وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول، كقول ذي النون -عليه السلام-: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [(٨٧) سورة الأنبياء]".

في قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [(٢٤) سورة القصص] هذا فيه تعريض بالمسألة، هو يخبر عن فقره وحاجته، فهو تعريض بالمسألة، أما ترك السؤال أصلاً فهذا ليس بمشروع، وما ورد فيه لا يصح، ولذلك فالله -عز وجل- يحب من عبده أن يسأله، وأن يتقرب إليه، وأن ينطرح بين يديه وأن ينكسر، فهذه من العبادات التي يحبها الله -عز وجل-.

وجه الإتيان بصيغة الجمع في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهدِنَا}:

هذا المقام هو مقام إعلان العجز والضعف والافتقار والعبودية لله -عز وجل- وهذه النون في نعبد ونستعين واهدنا هي للجمع وليست لتعظيم المرء نفسه إذ لا يصح في هذا المقام أن يعظم الإنسان نفسه، لذلك يقال: إن

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

الإتيان بصيغة الجمع هنا كان لأمرين هما: أولاً: لدفع العجب عن النفس وذلك من جهة أنه لا يجعل من نفسه أنه الذي يحقق العبودية وحده في قوله إياك أعبد وإياك أستعين، وإنما هو واحد من هؤلاء العباد.

الثاني: أن ذلك أبلغ في التعظيم لله -عز وجل- حيث إن العابدين لله -عز وجل- كثير، فإذا قال: إياك نعبد فهذا أبلغ من إياك عبدت؛ لأنك لو أردت أن تمدح ملكاً وقلت: أنا وحدي الذي أطيعك، وأنا وحدي الذي أحترمك، وأنا وحدي الذي أقوم على خدمتك وطاعتك والانقياد لما تأمر به يكون هذا ذماً وليس مدحاً.

وبعض العلماء فهم أن هذا تعبير عن حاله وعن حال غيره، وعلى كل حال سواء قلنا هذا الجواب أو غير هذا الجواب فهذا أسلوب عربي معروف، يعبر به الصغار والكبار، الفقير والغني والكبير، والمعظم لنفسه، والبائس المعترف بفقره وحاجته، كلهم يعبرون بهذه الطريقة، ولا يقصدون التعظيم إطلاقاً.

"وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول، كقول الشاعر:

أأذكـــر حـــاجتي أم قـــد كفـــاني	**حيـــاؤك إن شـــيمتك الحيــــاء**
إذا أثنـــى عليـــك المـــرء يومـــاً	**كفـــاه مـــن تعرضـــه الثنـــاء**

الهداية هاهنا الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا.."

قوله: "**الهداية هاهنا الإرشاد والتوفيق**" الهداية تطلق على المعنيين، لكن قوله في هذه الآية: {اهدِنَا الصِّرَاطَ} [(٦) سورة الفاتحة] يشمل المعنيين جميعاً، هداية الإرشاد وهداية التوفيق، فهداية الإرشاد يدخل فيها الهداية إلى سلوك طريق العلم، فالله لا يعبد إلا بما شرع، ويدخل فيه أيضاً أن يهديه الله -عز وجل- للعلم الصحيح إذ إن الكثيرين لا يوفقون لطلب العلم أصلاً، فهم بمنأى عنه، ومن يسلك طريق العلم منهم من يقال له: ليتك ثم ليتك ما عرفت؛ لأنه يدرس ويقرأ ويبحث، ويخرج بنتائج معكوسة، فما كل الناس يوفق إلى معرفة الحق، ولذلك العبد مطالب أن يدعو ربه أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، وإذا وفق إلى معرفة الحق فهو مطالب أن يدعو ربه أن يوفقه للعمل به، فكثير من الناس يعلمون لكنهم لا يعملون، ثم إذا عمل به هو بحاجة إلى تثبيت على هذا العمل؛ لأن الكثيرين يعملون فترةً ثم بعد ذلك يتركون العمل.

فعندنا هداية إلى العلم، والعلم لا شك أنه مخالف لداعية الهوى في نفس الإنسان؛ لأن العلم يحتاج إلى مشقة، تترك النوم، تتعنى، تتعب في الجلوس، وطلب العلم أيضاً فيه تواضع وكثير من الناس لا يوفقون؛ لأنهم لا يريدون أن يراهم الناس وهم جالسون في مجلس العلم؛ لأن الواحد منهم يربأ بنفسه عن التعلم، والواقع أنه لا أحد كبير على العلم، وليس هناك درس تربوي عملي، وإنما الأفضل لتربية النفس أن يجلس الإنسان ليتعلم، فلا يوجد شيء أنفع للإنسان من العلم؛ فالمتعلم يعرف قدره ويتعلم ولن يخلو من فائدة، وتحفُّه الملائكة، ويعلم نفسه الأدب والتواضع، والعلم إنما يكون في الأرض كالمطر للأرض المطمئنة.

وإلا فالعلم حربٌ للفتـــى المتعـــالي	كالـــسيل حـــربٌ للمكـــان العـــالي

فالعبد بحاجة إلى هذا؛ لأن الهوى يدفعه إلى خلاف ذلك من الإخلاد إلى الراحة والكسل فيبقى جاهلاً، وتجد أن تلاميذ تلاميذه يخرجون أحسن منه أضعاف المرات، حيث تجد شاباً صغيراً عمره ١٥ سنة ما شاء الله قد أتقن القرآن، وحفظ بعض المتون، ويعرف من المسائل والعلم ما لا يعرفها أستاذه الذي هو أكبر منه بكثير.

فالناس يحتاجون إلى هذه الهداية، ويحتاجون إلى هداية من ناحية العمل بالعلم، فكثير من الناس ليست مشكلتهم الجهل في تركهم الصلوات وإنما المشكلة أنهم لا يعملون، ثم إنهم بحاجة إلى التثبيت على العمل أيضاً حتى يختم لهم بهذا، وهكذا يحتاجون إلى ألوان هدايات أخرى، وهناك أشياء أخرى ليست داخلة في هذا وإنما تدخل في عموم سؤال العبد ربه الهداية لغير هذا المقام، وهي الهدايات الأخروية عند سؤال الملكين وعند الحساب بحيث يُلهَم حجته، وكذلك حينما يكون على الصراط بحيث يهدى إلى الجنة، ويهدى إلى منزله في الجنة، نسأل الله الهداية والتوفيق..

"وقد تعدَّى الهداية بنفسها كما هنا: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] فتضمّن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا".

التضمين كما سبق هو على نوعين: تضمين الحرف معنى الحرف -أعني حروف الجر- وتضمين الفعل أو ما يقوم مقامه فعلاً آخر أو معنى فعلٍ آخر، مثل هنا: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] فمعناها إذا عديت بنفسها ألهمنا ووفقنا وما أشبه ذلك، وهذا أبلغ، وهو داخلٌ تحت عموم قولنا: إن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة..

"{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [(١٠) سورة البلد]، أي بينا له الخير والشر".

هداية الإرشاد تكون بـــ"إلى" أي هديناه إلى الصراط المستقيم، وهنا لما قال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] معناه ألهمنا أي وفقنا وارزقنا سلوكه واتباعه.

وقد تعدى بـــ"إلى" كقوله تعالى: {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٢١) سورة النحل] وقال تعالى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [(٢٣) سورة الصافات] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى]، وقد تُعدَّى باللام كقول أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [(٤٣) سورة الأعراف]، أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً".

هذه ثلاثة ألوان في تعدية فعل الهداية، إما بنفسه فهو مضمنٌ معنى وفقنا، وإما بـــ"إلى" فهو بمعنى الدلالة، وإما باللام فهو بمعنى التوفيق.

وبعض العلماء يذكر معاني أخرى مع هذه التعديات المختلفة، والقاعدة في هذا الباب هي أن الفعل الذي تتعدد تعديته يكون له مع كل حرفٍ معنى يناسب ذلك الحرف، فمثلاً في قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [(٦) سورة الإنسان] نجد أن الباء في {بِهَا} ضمن معنى "من" أي عيناً يشرب منها، والأبلغ في ذلك أن يكون الفعل يشرب بمعنى يرتوي ويلتذّ وما أشبه ذلك وتبقى الباء على حالها.

وليعلم أنه حتى على القول بأن الحرف ضمِّن معنى حرف آخر فإنه يبقى من الحرف الأول شيئاً من معناه، أي أن معناه الأصلي لا يزول بالكلية، وهذا ستأتي له أمثلة إن شاء الله.

"وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أميـــر المـــؤمنين علـــى صـــراط ... إذا اعـــوجَّ المـــوارد مـــستقيم

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل".

يعني أن الأصل في استعمال الصراط أن يكون للطريق المستقيم الواضح، والمستقيم هو أقرب خط يربط بين نقطتين كما يقولون، فالقوس أبعد؛ لأنه متعرج، وأما المستقيم فهو أقرب هذه الخطوط للربط بين هاتين النقطتين.

وعلى كل حال إذا قلنا: إن الصراط بمعنى الطريق الواضح المستقيم، بمعنى إذا راعينا فيه أصل الإطلاق في المعنى فتكون المستقيم صفة كاشفة فقط لا تقيده؛ لأن الصفات منها ما تكون مقيدةٍ مثل قولك: رجلٌ طويل، فإنه قد خرج الرجل المتوسط والقصير، وكقولك: رجلٌ مسلم، يخرج جميع أصناف الكفار، فهذه صفات مقيدة، وأما الصفة الكاشفة فهي التي تبين حقيقة الأمر من حيث هو لا أن تضيف إليه قيداً جديداً كقوله تعالى: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، فلا يوجد طائر يطير بغير جناحيه، وهذا بغض النظر عن المعاني البلاغية التي تذكر هنا.

ومن ذلك قوله تعالى: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة]، وقوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران].

لكن إذا قلنا: إن الصراط هنا يشمل في استعمال العرب المعوج والمستقيم فهنا تكون المستقيم صفة، يخرج بها الصراط المعوج.

وعلى كل حال فإن بعض أهل العلم يذكر أموراً لا بد أن تتوفر حتى يطلق على الشيء أنه صراط، وفي بعض هذه الأمور التي يذكرها نظر، فابن القيم -رحمه الله- مثلاً يقول: الصراط لا بد فيه من السعة، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأن الصراط المنصوب على متن جهنم دقيق جداً.

"**قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه، والمراد به الإسلام**".

الصراط المستقيم هو الإسلام وهو القرآن، وكل ما ذكره السلف فيه فهو صادقٌ عليه؛ فهذا من اختلاف التنوع، والحاصل أن هذا الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- من استعمال العرب له في المعوج وغير المعوج يكون ذلك على سبيل التوسع، فالعرب يتوسعون، فالجَلْد قيل في أصله: إنه الضرب بالجلود، ثم توسعوا فيه وصار يطلق على الضرب بكل شيء، سواء كان بالعصا أو بالسوط أو غير ذلك.

وكذلك اليمين، فهو يطلق على الحلف حيث كان الواحد -من العرب- يأخذ بيمين صاحبه توثيقاً لهذا الحلف، ثم توسعوا فيه فصار يطلق على كل حلف ولو لم يكن فيه هذا الوصف.

"**روى الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه**

فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم))[٢].

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك، فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟".

هذا هو السؤال الذي أجبت عليه قبل قليل، وكثير من العلماء يقولون: إن المقصود بذلك التثبيت، يعني {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] أي ثبتنا على الصراط المستقيم، وقد سبق بيان أن الهداية أوسع من هذا، فإذا عرف العبد الحق وهُدي إلى العلم الصحيح وعرف الصواب فإنه بحاجة أيضاً إلى معرفة الأفضل في العمل في غير الفروض، وللأسف فإن كثيراً من الناس يقضي عمره القصير في أمورٍ مفضولة، فقد يجلس الإنسان في مثل هذه الساعة مثلاً وهو يقول: أنا أريد أن أذكر الله -عز وجل- فأيهما أفضل أن يذكر ربه أم يشتغل بالعلم؟ قطعاً بلا تردد أن الأفضل له أن يشتغل بالعلم.

ومن الأمور المتفاضلة على سبيل المثال أن يتردد الإنسان بين أن يعتكف في المسجد يوماً أم يذهب في ذلك اليوم لإعانة فلان المسكين أو فلانة الأرملة، فالأفضل بلا شك هو أن يذهب لإعانة المحتاجين، ومثال ذلك أيضاً أن يتردد بين أن يقرأ القرآن أو يعود مريضاً، فعيادة المريض أيضاً أفضل، وأفضل الأعمال إذا أذّن المؤذن هو الذهاب إلى الصلاة.

فهكذا فالعبد بحاجة إلى هذه الهداية المتمثلة في معرفة الأفضل، فالعمر قصير والأعمال كثيرة، وشرائع الإسلام متنوعة، فإذا دخل في بابٍ فربما استغرق وقته وجهده، ولذلك يحتاج أن يوفق للعمل الفاضل، والمقصود أن كل هذه هداياتٌ العبدُ بحاجة إليها.

"فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها".

الهداية ليست محصورة في الثبات عليها؛ فالإنسان تعرض عليه في كل ساعة أشياء وأشياء، وتحدث أمور كثيرة قد يضطرب فيها كثير من الناس، ويتقلبون ويتلونون وتتغير أحوالهم، فالعبد بحاجة إلى هداية في كل هذه الأمور، وأن يعرف الحق ويتبصر به إضافةً إلى ثباته على هذا الحق.

"فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ}... الآية [(١٣٦) سورة النساء]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم".

---

[2] - أخرجه أحمد (١٧٦٧١) (ج ٤ / ص ١٨٢) والحاكم (٢٤٥) (ج ١ / ص ١٤٤) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ} ليس المقصود بذلك الثبات فقط، فالثبات أحد المعاني الداخلة تحته، ولكن شرائع الإيمان كثيرة والأعمال الصالحة كثيرة، فالصلاة إيمان قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، ولهذا لما ذكر الله -عز وجل- كفارة الظهار قال بعدها: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [(٤) سورة المجادلة]، فلزوم حدود الله -عز وجل- ومنعه من مس هذه الزوجة -مع أن نفسه تطلبها- حتى يعتق رقبة، أو يصوم شهرين متتابعين، أو يطعم ستين مسكيناً -على الخلاف في الإطعام- كل هذا من الإيمان، وإخراج الكفارة من الإيمان وإلا فكيف يعرف الناس عنه أنه أخرج كفارة أو لم يخرج كفارة، فقد لا يعلم به أحد أصلاً أنه ظاهر من امرأته، فالمقصود أن ذلك كله من الإيمان، من تصديق الحكم والإقرار به والانقياد بالتوقف عن الاستمتاع بهذه المرأة أو مجامعتها -على الخلاف في هذا- كل هذا من الإيمان، ولذلك قال بعده: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [(٤) سورة المجادلة] أي بعد الكفارة.

فشرائع الإيمان كثيرة، إذ إن الله -عز وجل- أول ما فرض عليهم من الإيمان التوحيد، ثم فرض عليهم الصلاة، ثم فرض عليهم الزكاة -كما في حديث ابن عباس- فلما أقروا بذلك زادهم إيماناً وهكذا إلى آخره، فكل هذه الأشياء داخلة في الإيمان، وكل شيء مما شرعه الله -عز وجل- يجب على الإنسان أن ينقاد له، ويسلم به، وأن يعمل به إن كان واجباً، وهذا من الإيمان، فانقياده وتسليمه إيمان والعمل بالحكم إيمان.

"**وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا:** {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران]، **فمعنى قوله تعالى:** {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] **استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره** {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة].."

قول ابن كثير: "**استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره**" هذا معنى ثبِّتنا وهو نوعٌ منها يقوله من استكمل جميع أنواع الهدايات السابقة، ولا يمكن للعبد أن يستكملها؛ لأنه بين أمورٍ هو بصددها وبين أمورٍ يستقبلها أصلاً، فمثلاً هؤلاء الناس الذين يسألون عن مساهمات، وأشياء، أليسوا بحاجة إلى هداية حتى يعرفوا الصواب في هذه المسائل بحيث يدخلون فيها أو لا يدخلون؟

وكذلك من يعرض له خوف وطمع في هذه الأمور وما أشبه ذلك هو بحاجة إلى هداية، فلا يمكن للعبد أن يستكمل هذه الأشياء، لكن لو فرضنا أن إنساناً قد استكملها من أولها إلى آخرها وحققها ظاهراً وباطناً، فعندئذٍ يقال: ما بقي عليه إلا شيء واحد وهو التثبيت.

"**وقد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد:** {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] **إلى آخرها أن الله يقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.**

وقوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [(٧) سورة الفاتحة] **مفسر للصراط المستقيم، وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم**".

عطف البيان والبدل حقيقتهما واحدة، لكن عطف البيان أوضح، أي إذا كان الثاني أوضح من الأول فهذا هو عطف البيان، وهذا في بدل الكل من الكل، ففي قوله تعالى: {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} وقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} يتضح أن الثاني أوضح؛ لأنه مقيد مفسر مبين لا يلتبس، وهكذا فمثل هذا يكون عطف بيان، وأما إذا كان دونه في الوضوح، أو مساوياً له فإنه يقال فيه: إنه بدل، فلو قلت مثلاً: جاء عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة، يكون أبو هريرة عطف بيان لأنه أوضح، لكن إذا قلت: جاء أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر، فإن عبد الرحمن يكون بدلاً لا عطف بيان؛ لأنه ليس أوضح من الأول.

"**والذين أنعم الله عليهم المذكورون في سورة النساء، حيث قال تعالى:** {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا} [(٦٩-٧٠) سورة النساء].

وقوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} **المعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق.**

وأكد الكلام بـــ "لا" ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى ليجتنب كل واحد منهما، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه".

قوله: "**وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه**" لمّا عرف النصارى أن الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الحق تركوه، فصاروا من أهل الغضب إضافةً إلى ما عندهم من ألوان الضلال.

"**لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى عنهم:** {مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} [(٦٠) سورة المائدة]، **وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم:** {قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [(٧٧) سورة المائدة] **وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بيِّن.**

روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- قال: "جاءت خيل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ منَّ الله عليك، قال: ((من وافدك؟)) قالت: عدي بن حاتم، قال: ((الذي فر من الله ورسوله))، قالت: فمُنَّ عليَّ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه عليٌّ قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر لها، قال: فأتتني فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها...".

قوله: "**قال: فأتتني**" أي عدي يقول: فأتتني يعني أختي.

قوله: "**فقالت: لقد فعل**" يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قولها: "**فعلة**" يعني من الجود والكرم والإحسان.

قولها: "**ما كان أبوك يفعلها**" يعني حاتماً.

وفي بعض الكتب "**لقد فعلت فعلة**"، فتكون محمولة على أن عديًّا فرَّ؛ لأنه ذهب إلى منتهى بلاد الإسلام كما جاء في بعض الروايات، فأخبرته بما وقع لها وقالت له: اقدم عليه، وذكرت أنه قدِم عليه فلان فأعطاه، وقدم فلان فأعطاه، وقدم فلان فأعطاه، فأطمعته بالقدوم على النبي -صلى الله عليه وسلم- في حال الرضا أو السخط، فجاء من غير جوار.

"..لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيَّان، وذكر قربهم من النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: ((يا عدي ما أفرك؟ أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرك؟ أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء أكبر من الله عز وجل؟)) قال: فأسلمت فرأيت وجهه استبشر، وقال: ((إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى))[3] وذكر الحديث ورواه الترمذي وقال: حسن غريب".

هذا حسنه أيضاً بعض أهل العلم مثل الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، والجملة الأخيرة منه: ((إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى)) يوجد ما يشهد لها، وهو الحديث الثابت عن بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه -صلى الله عليه وسلم- أن المغضوب عليهم هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى[4].

"وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه، آمن بما وجد من الوحي رضي الله عنه".

أصل هذه الرواية في البخاري، وهي أنه لقي حبراً من أحبار اليهود فسأله عن دينه، وأخبره أنه يرغب في الدخول في دينهم، فقال له هذا الكلام.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

3 - أخرجه أحمد (١٩٤٠٠) (ج ٤ / ص ٣٧٨) وقال شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح وفي هذا الإسناد عباد بن حبيش لم يرو عنه غير سماك بن حرب ولم يوثقه غير ابن حبان.

4 - أخرجه ابن حبان (٧٢٠٦) (ج ١٦ / ص ١٨٣) والطبراني في الأوسط (٣٨١٣) (ج ٤ / ص ١٣٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٦٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٩)

آخر سورة الفاتحة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "اشتملت هذه السورة الكريمة -وهي سبع آيات- على حمد الله وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية -تبارك وتعالى-، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه المعاني التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مما اشتملت عليه سورة الفاتحة هي المعاني الظاهرة المتبادرة، وإلا فإن هذه السورة لو أردنا أن نستخرج منها المعاني التي دلت عليها بطرق الاستنباط المختلفة، وتوظيف ألوان الدلالة، فإن هذا أمرٌ سيطول، ومعلومٌ أن من أهل العلم من يستخرج من البسملة بمجردها ما يقرب من ثلاثين وجهاً من القضايا المتعلقة بالتوحيد، وبعضهم يزيد على هذا، وأما الفاتحة فحدّث ولا حرج، وتجد أن الموضوع الواحد يستخرج له من ألوان الدلالات من سورة الفاتحة ما يثبته، إما بطريق اللزوم، وإما بطريق التضمن أو غير ذلك.

فمثلاً يمكن أن يستخرج من سورة الفاتحة موضوع الإيمان باليوم الآخر وذلك من قوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة]، ووجه ذلك أن رحمته -تبارك وتعالى- بخلقه تقتضي أن يثيب المحسن بإحسانه، وألا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه -سبحانه وتعالى- لا يترك الظالم يأخذ حق المظلوم ويفوت ذلك من غير اقتصاصٍ له، فكثير من الناس -كما نرى- يكون ظالماً في الدنيا بأخذ حقوق الناس وبقتلهم وما أشبه ذلك، ثم يموت ولم يلق جزاءه بعد.

وإذا بدأت بالحمد، فإن "أل" هذه تدل على الاستغراق، فالذي يوصف بالحمد المطلق من كل وجه يقتضي ثبوت ما يحمد عليه، ومن ذلك أنه يقيم داراً للناس يقيم فيها العدل التام، ويعطي كل ذي حقٍ حقه، ويجزي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، كما قال الله -عز وجل-: {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٧٥) سورة الزمر]، أي في الآخرة.

وقل مثل ذلك في قوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] فإن ربوبيته -سبحانه وتعالى- أيضاً تقتضي إثبات اليوم الآخر، وكذلك الأمر صريح في قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] فإنه يدل على ذلك بدلالة المطابقة.

ثم في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] فإنه إنما يعبد من أجل تحصيل رضاه، والظفر بدار النعيم في الآخرة.

وفي قوله: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي نطلب العون على كل مطلوب دنيوي أو أخروي، ثم {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] يدل على ذلك أيضاً، فإنه صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهكذا.

وإذا أردت أن تثبت قضية الإيمان بالرسل فإن ذلك يظهر من قوله: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة]، ومن الحمد؛ فإن حمده يقتضي ألا يترك عباده هملاً لا يأمرهم، وكذلك من الربوبية، فإن ربوبيته تقتضي أن يكون في مملكته أمرٌ ونهي، وهذا هو الذي يأتي به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وتثبت قضية الإيمان بالرسل أيضاً من قوله -تبارك وتعالى-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] فإن ثبوت اليوم الآخر يقتضي أن يكون ثمة ما تقوم به الحجة على الناس، وذلك بإرسال الرسل وإلا فكيف يعذبون ويحاسبون، والله يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، وكذلك في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة]، فالله لا يُعبد إلا بما شرع، فكيف يعبد من غير بعث الرسل؟.

وكذلك في قوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [(٦-٧) سورة الفاتحة] فالذين أنعم عليهم هم من ذكرهم بقوله سبحانه: {مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} [(٦٩) سورة النساء]، وكيف حصل الإنعام والغضب أصلاً بغير بعث الرسل؟، فهم فرقٌ بين الناس.

فهذا مثال على دلالتها على هذه القضايا، فإذا أردت أن تنظر في المعاني التي يمكن أن تستخرج منها في دلالتها على أنواع التوحيد الثلاثة، ودلالتها على كثيرٍ من قضايا الاعتقاد وجدت من ذلك أموراً كثيرة جداً.

ما عليك إلا أن تبدأ من "أل" في قوله: {الْحَمْدُ للّهِ} تجد أن الحمد بدخول "أل" دل على الاستغراق، أي كل المحامد منسوبة إلى الله -عز وجل-، وهذا يقتضي أنه كاملٌ من كل وجه؛ لأنه لا يمكن أن تنسب جميع المحامد إلا لمن كان محققاً للكمال، وإلا فإنه ينقص من حمده بحسب ما نقص من كماله، فالمحمود من كل وجه هو الكامل من كل وجه، بذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهكذا لو أردنا أن نسترسل مع هذه المسائل لاحتاج ذلك إلى وقت كبير.

"وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ} [(٧) سورة الفاتحة] وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم} الآية [(١٤) سورة المجادلة]".

هذه من اللطائف في هذا التفسير، بمعنى أنها ليست من المسائل الداخلة في المعنى الإجمالي، أو المعنى الأساسي للآية الذي جاءت لتقريره، لكنها من اللطائف والملح التي يذكرها بعض أهل العلم وينبهون عليها، وهم بين مكثرٍ ومقل في هذا، فإذا لم يظهر فيها وجه من التكلف فهي حسنة.

لذلك لو تُدوَّن هذه اللطائف والملح التي تذكر في تفسير سورة البقرة وفي التفسير عموماً مع قضايا التوحيد بجميع أنواعها، وكذلك القواعد التي تمر في التفسير، وما يتعلق بتطبيق أصول التفسير وقواعد التفسير، مثل: حمل اللفظ على أعم معانيه، وكذلك قضايا التضمن، وحمل اللفظ على الحقيقة والمجاز عند القائل به، وحمل المشترك على معنييه، وتدون أيضاً الإسرائيليات والموقف منها حيث إن التفسير مليء بالإسرائيليات، كما أن في التفسير كثيراً من القضايا الأصولية يحتاج طالب العلم أن يدونها ليستفيد منها، إذ لو دون كل هذه الفوائد والقواعد فإنه سيخرج بأمثلة بالعشرات بل ربما بالمئات، وعلى قدر تفتُّق ذهن الإنسان وإلمامه واهتماماته بهذه الأشياء والتفطن لها، على قدر ما يكون عنده من الفوائد، ويكون عنده ثروة ممتازة.

"**وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى:** **{مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}** **[(١٧) سورة الكهف]**".

يريد أن يقول: إن هذا من الأدب في التعبير حيث إنه يرِد في بعض المواضع في القرآن ما قد يكون الكمال في عدم نسبته إلى فاعله مباشرةً فيعبر عنه بالمبني للمجهول مثلاً ونحو ذلك، ففي قوله على سبيل المثال: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة] أضاف الله الإنعام إليه سبحانه بطريق الخطاب، ولما ذكر الغضب وإن كان الغضب صفة كمال في موضعها ولا شك لكنه ليس كالإنعام، لذلك قال: **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة]، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذا التعبير استعمل لتهميشهم وإهمالهم فلأنهم لا يستحقون التنويه قال: **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}** والله أعلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قول الله -عز وجل-: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** [(٨٠) سورة الشعراء]، فهو لم يضف المرض إلى الله بحيث يقول: والذي هو يمرضني ويشفين كما في قوله: **{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}** [(٧٩) سورة الشعراء] وإنما قال: **{وَإِذَا مَرِضْتُ}** فأضاف المرض إلى نفسه مع أن المرض إنما هو من الله -عز وجل-.

ومن أمثلة ذلك قول الله -عز وجل- في سورة الكهف عن الخضر: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}** [(٧٩) سورة الكهف]، فالخضر نسب العيب إلى نفسه، وأما في الجدار فقال: **{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}** [(٨٢) سورة الكهف] فلم يقل: فأردت أن يبلغا وإنما نسب ذلك الفضل إلى الله فقال: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}** [(٨٢) سورة الكهف].

فهذا يذكره بعض أهل العلم، ويقولون هو من باب التأدب، ومما يذكرون في ذلك خطاب الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: **{وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** [(١-٣) سورة

الضحى]، قالوا: لم يوجه الخطاب إليه مباشرةً بقول: قلاك مع أن الأصل هكذا وإنما قال: {وَمَا قَلَى}، وبعضهم يقول: هذا الأسلوب أتي به مراعاةً للفاصلة.

وعلى كل حال فالمقصود هو التنبيه على المعنى الذي ذكره ابن كثير أيًّا كان، ولذلك فإن مثل هذه اللطائف لا يُقطع بها، وإنما هي ملح يرِد على بعضها ما يرِد من الاعتراضات، فما ذكر في قوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة] يرِد عليه أن هناك مواضع أخرى أضاف الله -عز وجل- فيها لنفسه أنه أضل أقواماً، وغضب على أقوام، كقوله تعالى: {مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} [(٦٠) سورة المائدة]، وكقوله: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} [(٦) سورة الفتح] وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ} [(١٨٦) سورة الأعراف] وغير ذلك كثير.

فلا ينبغي للإنسان أن يتمسك بشيء من ذلك ويعضَّ عليه بالنواجذ ويصارع عليه، فهي ملح تحتمل الصواب وعدمه، والإمام الشاطبي ما يرى ذكرها أصلاً ولا الاشتغال بها.

وابن القيم -رحمه الله- حينما تكلم على أدب المرأة المسلمة ذكر في قوله تعالى: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(٢٩) سورة الذاريات] أن امرأة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما بشرتها الملائكة، قالت كلمتين تكفي كل واحدة للدلالة على تعذر الولد وهما كبر السن والعقم، ثم قال: أدب المرأة المسلمة ألا تسترسل في الحديث مع الرجال الأجانب بغير حاجة، وهذا الكلام من ابن القيم معناه صحيح، والاستدلال بهذه الآية استدلال جميل لكن يرِد عليه أنها في الموضع الآخر قالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(٧٢) سورة هود]، فهنا تبين أنها لم تقل كلمتين، فالمقصود أنك إذا قرأت شيئاً وأعجبك فلا تظن أن مثل هذه الأشياء يقطع بها وأنها الحق الذي لا محيد عنه، وهكذا

ودع عنك قول: لو قال قائل كذا لكان ذلك له وجه، والذي أظنه أرجح في هذه المسألة كذا، فطالب العلم ما يصلح في مثل هذه المسائل أن يقول هذا أو يقول: والحق الذي لا مرية فيه، والصواب المقطوع به في هذه المسألة كذا وما عداه مطَّرح، وفلان أبعد النجعة، واعلم أنك قد تقتنع بشيء ثم تغير رأيك بعد فترة مع أنك قد جادلت وخاصمت على الرأي الأول وظننت أنه لا تردد ولا إشكال فيه، لذلك اترك هذه العبارات لأهلها وانظر إلى ما ينفعك في دينك ودنياك.

"وقال: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٨٦) سورة الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))"[1].

يعني أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن، والمقصود به هنا في مثل هذا المثال، التشابه النسبي وليس التشابه المطلق من كل وجه الذي لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو حقائق الأمور الغيبية، وإنما التشابه

---

[1] - سيأتي تخريجه ص ٦.

النسبي هو الذي يخفى على البعض ويعلمه البعض، فطوائف القدرية مثلاً يأخذون ببعض النصوص التي تدل على أن الله -عز وجل- قدر الأقدار، وأنه يصرف خلقه كيف يشاء، وأنه يهديهم وأنه يضلهم، فهم يأخذون هذه النصوص ويقولون: الإنسان ليس له حيلة، فالله -عز وجل- هو الذي يهديه أو يضله، فهو كالريشة في مهب الريح.

وتأتي طائفة أخرى ويأخذون من النصوص ما يدل على إثبات فعل العبد، وأن العبد له قدرة وإرادة وما أشبه ذلك، ويتركون النصوص الأخرى ويقولون: إن العبد يستقل بفعله، وإن الرب -تبارك وتعالى- ليس له قدرة على أفعال العباد، فهو أراد هدايتهم فضلوا بإرادتهم واختيارهم ومشيئتهم، فهؤلاء يأخذون جزءًا من النصوص، وهؤلاء يأخذون جزءًا من النصوص، فهذه طريقة أهل البدع، وهي طريقة تكون سبباً للانحراف في أي باب سلكت وليس فقط في باب القدر؛ لأن أي قضية تريد أن تسلك فيها هذا الطريق ستخطئ، فمثلاً: إذا أردت أن تتعامل مع أهل البدع بالنظر إلى النصوص المبثوثة في الكتاب والسنة وأقوال السلف، وأخذت الطريقة التي ليس فيها إلا المفاصلة والمصارمة والهجر وما أشبه ذلك فإنك ستخرج بنتيجة غير صحيحة، وإذا نظرت إلى النصوص الأخرى ستجد أن التعامل الشرعي يختلف عن هذا، وكذلك العكس بالعكس، فمن نظر إلى الجانب الآخر ربما يحصل له مباسطة وانفتاح كامل، ويرى أن هؤلاء منه وهو منهم، وأنه ينبغي أن تذوب هذه الجبال من الجليد التي بينه وبينهم، وأننا نستطيع أن نندمج وأن ننصهر.. الخ، ومن هنا تأتي خطورة البرمجة العصبية حيث تجد هؤلاء المبرمجين ما عندهم مشكلة في أن يندمجوا مع كل أحد ولو كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأنه ينظر إلى الجوانب الإيجابية كما يقال: ينظر إلى نصف الكأس المليان، ولا ينظر إلى الجانب الآخر السلبي، وإنما ينظر من زاوية أن اليهود فيهم جوانب تتفق معهم فيها، والنصراني كذلك تستطيع أن تقترب منه ويقترب منك، وأن تفهمه ويفهمك، وأن يحل الحوار بدلاً من المصادمة والمفاصلة، والمفارقة، فينتهي موضوع الولاء والبراء؛ لأنه مبني على الإقصاء، ورفض الآخر، والانكفاء على الذات، والتقوقع والتمحور... الخ، وأعتذر عن هذه الكلمات التي ابتلينا بها وفي المقابل تركت الألفاظ الشرعية، فالمقصود أنه صار بعض طلاب العلم يسلك هذا الطريق وبالتالي كم جنت هذه الأمور على دين الله -عز وجل- وعلى أصحابها قبل كل شيء.

فالمقصود أن من نظر إلى النصوص من جهة واحدة فإنه يسلك طريقاً معوجة، وهذا الأمر له تعلق بثلاثة أشياء، له تعلق بالعلم، وله تعلق بالقصد، وله تعلقٌ ثالث بالعقل، فتجد أن أمثال هؤلاء يكونون من ذوي العلم الناقص بحيث لم يسمعوا إلا نصين أو ثلاثة ويظنون أن هذه النصوص هي كل شيء في المسألة وانتهى الأمر، والعلامة عند هؤلاء الجهال أنك تجدهم دائماً يعبرون بعبارات قوية جداً ويفاصلون ويصرحون بأنهم مستعدون لكذا وكذا.... الخ.

ومن الأمور المؤدية إلى ذلك: القصد، أعني قصد الإنسان هو الذي يجعل من هذا الإنسان يسير في مثل هذه الطريق، فتجد عنده هوىً يجعله يميل مع الشيء الذي يعجبه.

والأمر الثالث العقل أي عقل الإنسان وتركيبه، وأقصد بالعقل القلب، فطريقة تفكير الإنسان تؤثر تأثيراً واضحاً بيناً في مثل هذه الأمور، فتجده إذا نظر لا يستطيع أن ينظر بنظرة واسعة شاملة، وإنما ينظر بنظرة مبتسرة، فهذه الأمور الثلاثة هي أكثر ما يؤثر في سلوك الإنسان واعوجاجه.

وهناك أمور أخرى ثانوية، لكن هذه الأشياء التي ذكرتها هي في ظني أنها أساسية، وتجعل الناس ينحرفون وخاصةً في أوقات الفتن كهذه الأيام التي نعيش فيها الآن..

"وقد ورد في الحديث الصحيح: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))[٢] يعني في قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران]**، فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرِّقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [(٤٢) سورة فصلت]".

يلاحظ أنه يقول: ليس فيه حجة صحيحة، وأما ما يتعلقون به من القرآن فكل طائفة تقريباً تتعلق بأشياء من القرآن، والقرآن كما جاء في الأثر عن علي -رضي الله عنه- في وصيته لابن عباس: "حمَّالٌ ذو وجوه" أي أنه يحتمل معانيَ كثيرة، ولهذا أوصاه أن يجادل الخوارج بالسنة، وكذلك ثبت هذا عن أنس -رضي الله عنه- لما مر بابنٍ له يتجادل مع رجلٍ من أهل الأهواء، فأمره أن يجادله بالسنة.

وكذلك ورد هذا عن جماعة مثل عمر -رضي الله عنه- وغير عمر، وعلى كل حال كان السلف يرون مجادلة أهل الأهواء بالسنة مع مجادلتهم لهم بالقرآن؛ لأن الاقتصار في المجادلة على ما في القرآن من الآيات قد لا يجدي مع المخالف؛ لأن الآية تحتمل أكثر من وجه، فإذا بينتْها السنة انتفى الاحتمال.

لكن المشكلة إذا كان هذا المجادل ممن ينفي السنة ولا يؤمن بها بحيث إذا جئت له بالأحاديث قال لك: هؤلاء الصحابة أصلاً ارتدوا على أدبارهم، ونحن لا نصدق أحاديثهم ولا نقبلها، ويأتيك بأشياء مكذوبة عن أئمته، ويرى أن هؤلاء لهم العصمة، ثم بعد ذلك يستخرج هذه العقيدة من رأسه؛ لأنه قد ألغى السنة، والقرآن عنده يحتمل أكثر من وجه فهو يحمله على المعنى الذي يظنه، وهكذا نجد أن الشيطان قد عرف كيف الطريق إلى عقول كثير من الناس، والله المستعان.

أحياناً يفكر الإنسان ويقول: كيف يضلون وعندهم الكتاب والسنة؟! لكن إذا نظر نظرة تأمل وجد أن الشيطان قد وضع متاريس بينهم وبين الكتاب والسنة، لذلك إذا جئت إلى الرافضي تجد أنك لا يمكن أن تصل معه إلى نتيجة بطريق الكتاب والسنة؛ لأن السنة هذه كلها مرفوضة عنده، والقرآن عنده فيه آيات زائدة يرى أنها حذفت، ويفسر الآيات بتفسيرات عجيبة، ففي قوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة] يقول: البقرة هي عائشة، والجبت والطاغوت في قوله تعالى: **{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** [(٥١) سورة النساء] يقولون: هما أبو بكر وعمر، فتقول له: ليس الأمر كذلك، فيقول لك: ليس تفسيرك أولى من تفسيري، وهذا في أقل الأحوال أنه يكون ممن درس البرمجة اللغوية، فهو يتنزل معك لمجادلتك على هذا الأساس.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

وإذا جئت للصوفي قال لك: يا أخي أنتم تأخذون علومكم من ميت عن ميت فتقولون: حدثنا فلان حدثنا فلان حدثنا فلان، أما نحن فقد حدثنا الحي الذي لا يموت، وأتى لك بتأويلات فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان.

إذا جئت لمتكلم من المتكلمين فقلت له: كيف تؤمن بهذه العقائد الكلامية الفاسدة؟ قال لك: يا أخي هذا النص الذي أنت تتكلم عنه من الكتاب والسنة إن كان غير متواتر فلا يحتج به في العقائد، وإن كان متواتراً فيرد عليه قوادح عشرة في الدلالة بحيث تجعله محتملاً، وهذه قضايا تحتاج إلى قطع لا تقبل الاحتمال، فتقول له: فما الحل؟ يقول لك: الحل هو العقل؛ لأن هذا الأمر ينبغي أن يكون في القواطع من الأمور، فالعقائد لا تحتمل التشكيك، وهكذا يلغي الكتاب والسنة، ويدخل في متاهات العقول التي يختلف أصحابها غاية الاختلاف.

ولذلك إذا رأيت عقائد أهل الكلام تجدها فلسفة وكأنك تقرأ لأرسطو أو أفلاطون، أو أمثال هؤلاء وما تقرأ كتاباً في العقيدة لأناس أنعم الله عليهم ببعثة خير نبي -عليه الصلاة والسلام-، وأنزل عليهم أشرف كتاب، إذا قرأت أي كتاب من كتب هؤلاء ما تجد قال الله كذا، أو قال رسول الله كذا، فالله المستعان.

"يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، مثل: يس، ويقال: أمين بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب.

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة] **فقال: ((آمين))، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته**[3]**، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهم.**

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا تلا: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} قال: ((آمين)) حتى يسمع من يليه من الصف الأول"، رواه أبو داود وابن ماجه، وزاد فيه: فيرتج بها المسجد"، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن"[٤].

هذه الزيادة: "**فيرتج بها المسجد**" فيها ضعف، والطريقة التي مشى عليها المختصرون هو ألا يذكروا من هذه الأحاديث إلا ما بلغ درجة القبول، سواء كان حسناً لغيره أو نحو ذلك، فبعض أهل العلم يحسّن مثل هذه الرواية -يعني من باب الحسن لغيره- لكن على كل حال هذه الزيادة فيها ضعف لكن الأمر في هذا سهل، والمهم أن ثبوت التأمين لا شك فيه حيث توجد فيه أحاديث صحيحة.

"وعن بلال -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود".

كل هذا وغيره يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يؤمن في الصلاة، أي: يقول آمين، ويجهر بذلك، ويؤمن أهل المسجد ويرفعون أصواتهم، وهي سنة ليست بواجبة في الصلاة، كما أن التأمين ليس من الفاتحة بالإجماع، أي أنه لم يوجد أحد قال: إنه من الفاتحة، ومعنى آمين أي اللهم استجب.

---

3 - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٣) (ج ١ / ص ٣٥١) والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في التأمين (٢٤٨) (ج ٢ / ص ٢٧) وأحمد (١٨٨٦٢) (ج ٤ / ص ٣١٥).

4 - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٥) (ج ١ / ص ٣٥٢) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الجهر بآمين (٨٥٣) (ج ١ / ص ٢٧٨) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٩٣٤).

"**ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين، مثل:** {آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} **[(٢) سورة المائدة]".**

والمعنى قاصدين، لكن هذا معنى بعيد جداً، ولا ينبغي للإنسان أن يقول في صلاته: آمّين، وإنما يقول: آمين بمعنى اللهم استجب.

"**قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة".**

قوله: "**ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة**" هذا يرجع إلى التأمين، أي أنه يستحب أن يقول: آمين، وليس المقصود أنه يرجع إلى قول الحسن وجعفر من أنه يقول: آمِّين بالتشديد.

قال الشافعية: إن التأمين يكون في الصلاة وفي خارج الصلاة، فأنت إذا قرأت الفاتحة خارج الصلاة تقول: آمين، وقالوا: إن قرأ جهراً جهر، وإن قرأ سراً أسر، فهذا هو المقصود، وليس المقصود أنهم يقولون بتشديد الميم من آمين.

"**قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال؛ لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))[٥]، ولمسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه))[٦]، قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص".**

هذه المحامل الثلاثة الأقرب منها والموافق للسياق والذي تدل عليه الروايات الأخرى بشكل أصرح من هذا هو الزمان، بمعنى أنه يقع تأمين هذا الإنسان المصلي موافقاً لتأمين الملائكة في وقتٍ واحد أو في لحظةٍ واحدة، فإذا حصل هذا التوافق حصل الجزاء بالمغفرة.

ومن الروايات التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله- في هذا قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((من وافق تأمينه تأمين الملائكة))[٧] لكن قد يقال: هذه محتملة إلى حد كبير، وذكر أوضح من هذه الرواية وهي قوله: ((فوافقت إحداهما الأخرى))[٨].

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

6 - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

وتوجد عندنا روايات أخرى منها حديث أبي هريرة في رواية له: ((إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا: آمين، فإن الملائكة يقولون: آمين، وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له)) فهذا يدل على أن الموافقة تكون بالقول؛ ليقع ذلك متوافقاً.

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الطويل: ((إنما جعل الإمام ليؤتم به))[٩] وفي آخره زيادة: ((وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين، فإذا وافق كلام الملائكة غفر لمن في المسجد))[١٠]، وهذه رواية صحيحة تدل على أن المقصود الموافقة بالقول، والله أعلم.

"**وفي صحيح مسلم عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((إذا قال -يعني الإمام- ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله))[١١]، وقال الترمذي: معناه لا تخيب رجاءنا**".

يلاحظ أن قوله: ((يجبكم الله)) يدل على أنها دعاء، بمعنى اللهم استجب، لا قاصدين آمّين.

"**وقال الأكثرون: معناه اللهم استجب لنا**".

مسألة:

فهم بعض الفقهاء أن ابتداء تأمين الإمام يكون سابقاً لتأمين المأموم بقليل بحيث يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام، لا أن ينتظر المأموم حتى يفرغ الإمام من التأمين فهذا لا يقول به أحد فيما أعلم، وليس هذا الذي فهمه من أهل العلم بقاطعٍ.

مسألة أخرى:

بالنسبة لموافقة تأمين الإنسان تأمين الملائكة معناه أنه إذا قال الإمام: آمين بعد الفراغ من الفاتحة، فإنه ومن معه يرجو أن تحصل له موافقة الملائكة في التأمين؛ لأن الملائكة تقول: آمين بعد أن يقول الإمام ولا الضالين، فالإنسان يقولها ويرجو أن يحصل له ذلك، لكنه لا يستطيع أن يعلم أو يقطع أنه وافق أو لم يوافق.

تفسير سورة البقرة

"**في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[١٢] وقال الترمذي: حسن صحيح**".

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٥٦) (ج ١ / ص ٢٤٤) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ائتمام المأموم بالإمام (٤١٢) (ج ١ / ص ٣٠٩).

10 - أخرجه بهذه الزيادة ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦) (ج ١ / ص ٢٧٦) وقال السندي: هذا الحديث صححه مسلم ولا عبرة بتضعيف من ضعفه، وقال عنه الشيخ الألباني: حسن صحيح.

11 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة (٤٠٤) (ج ١ / ص ٣٠٣).

12 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

فقوله هنا: ((البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -بالبناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبّدَ الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسٌّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول أن يمد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[13] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه".

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[14].

---

13 - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

14 - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[(١٥)]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق"[(١٦)].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[(١٧)] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه".

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيها أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يرى أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوٍ مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وُكئ على مسك))[(١٨)] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم.

---

[15] - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنـــه منقطع، الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[16] - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[17] - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

[18] - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٥٤١).

معنى: **((جراب وُكئ على مسك))**: يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١)

بين يدي سورة البقرة وتفسير الآية الأولى منها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة البقرة.

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[1] وقال الترمذي: حسن صحيح."

فقوله هنا: ((البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر –مع البناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول مد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[٢] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه."

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[٣]."

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[٤]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق"[٥].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[٦] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه."

---

[2] - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[3] - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف فطر متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي.

[4] - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[5] - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[6] - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))[7] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم."

معنى: **((جراب وكئ على مسك))** يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

"وروى البخاري عن أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير))، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم))[8]، وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته يقول: ((تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))، قال: ثم سكت ساعة ثم قال: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما

---

7 - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم: (٥٤١).

8 - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٤٧٣٠) (ج ٤ / ص ١٩١٦) والطبراني في الأوسط (١٨٠) (ج ١ / ص ٦٤).

أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان أو ترتيلاً))[٩].

وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث في فضل سورة البقرة، أما أوله وهو أن سورة البقرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))** فإن هذا له شواهد، وهو ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان هذا الحديث من رواية بشر بن المهاجر.

وأما بقية الحديث وذلك من قوله بعد ذلك: **((وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))** فإن لبعضه شواهد، ولكن ما قبله له شواهد صحيحة ثابتة من أول الحديث إلى هذا القدر، كما سيأتي فيما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لذلك فإن بعض أهل العلم يصحح أول هذا الحديث ((إن أخذها بركة))، وكذلك ما جاء من قوله: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان..)) إلى آخره، وأما بقية الحديث فبعض الجمل التي لها شاهد يمكن أن تكون من قبيل الحسن لتلك الشواهد.

على كل حال الإشكال في بشر بن المهاجر، ومن ضعَّف روايته رد بقية الحديث، والحاصل أن بشر بن المهاجر فيه كلامٌ كثير، بعضهم يضعفه، وبعضهم يبالغ في هذا، وبعضهم يجعل روايته من قبيل المقبول أو يوثقه، وصنيع المختصر هنا يدل دلالة أكيدة على أنه يحسن الحديث في أقل الأحوال.

قوله: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**: البطلة يعني السحرة.

ومعنى ((لا تستطيعها البطلة)) يعني: أي لا يمكنهم حفظها، أو أن من تحصن بها فإن السحرة لا يقدرون على إيصال سحرهم إليه.

وقوله: **((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان))** المقصود بالأزهر المضيء، يقال: سراج يزهر أي يضيء.

قوله: **((يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان))** وفي بعض الألفاظ: **((غيابتان))** بالباء، الغمام معروف وهو السحاب، و الغيايتان: كل شيء أظلك فهو غياية سواء كان من سحاب أو غبار أو غير ذلك، والغيابتان بـــ الباء: هو أيضاً من هذا المعنى.

((أو فرقان من طير صواف)) أي تصف أجنحتها، وذلك أبلغ في التضليل.

"فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد.

---

9 - أخرج الشطر الأول منه الإمام أحمد (٢٣٠٩٩) (ج ٥ / ص ٣٦١)، وأخرجه بتمامه بألفاظ مقاربة الطبراني في الكبير (٧٥٤٢) (ج ٨ / ص ١١٨)، وذكره الحاكم في المستدرك (٢٠٥٧) (ج ١ / ص ٧٤٧) وأصله في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

وعنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))[10] وقد رواه مسلم في الصلاة.

الزهراوان: المنيرتان، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصوافُّ: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران))، وضرب لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: ((كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما))[11] ورواه مسلم والترمذي وقال حسن غريب."

معنى **((بينهما شرق))**: يعني بينهما فاصل.

وهذا الحديث يفسر الحديث الذي قبله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الذي قبله: **((فإنهما يأتيان يوم القيامة..))** إلى أن قال: **((يحاجان عن أهلهما))**: فما المراد بـــ أهلهما هل هو مجرد الحفظ إن كان حافظاً لهما؟

لا، بل إن المقصود يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))، فأصحاب البقرة وآل عمران هم الذين يحفظونهما ويفهمون معانيهما ويعملون بهما، ولهذا بقي ابن عمر -رضي الله عنه- ثمان سنين يحفظ سورة البقرة، وبقي عمر -رضي الله عنه- اثنتي عشرة سنة يحفظها، ثم نحر جزوراً ودعا الناس فرحاً واستبشاراً بهذا الإنجاز.

ولذلك كان الرجل إذا أخذ البقرة عظم في أعينهم؛ لأنه صار فقيهاً؛ لأنها تشتمل على أكثر الأحكام، فهي أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام وأطول سور القرآن، فمن عرف هذه الأحكام التي في سورة البقرة، فإنه يمر به كثيرٌ مما يذكر في التفسير بعدها، فتكون بقية الأمور التي تذكر في الغالب مكررة، أعني مما يحتاج إليه في فهم التفسير من جهة الأصول، والقواعد وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال هنا سؤال يرد في مثل هذه الأحاديث وهو أن هاتين السورتين تأتيان كأنهما ظلتان أو غيايتان، ومعلوم أن القرآن كلام الله -عز وجل- وهو صفة من صفاته، فما المراد بذلك؟

المراد بذلك الثواب أي: ثواب القرآن أو قل: ثواب وأجر قراءة سورة البقرة وآل عمران وأجر العمل والتدبر لهما، والله أعلم، وهذا الذي ذكره جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد والبغوي، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

10 - صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

11 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) (ج ١ / ص ٥٥٤)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في سورة آل عمران (٢٨٨٣) (ج ٥ / ص ١٦٠).

-رحمه الله- في المجلد الخامس من الفتاوى في صفحة ثلاثمائة وسبعة وتسعين تقريباً، وكذلك ابن القيم في مختصر الصواعق صفحة أربعمائة تقريباً من الجزء الثاني في المختصر، وكذلك ذكره الترمذي قبلهم، ذكره في السنن.

كذلك الأحاديث الأخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين-: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة))، جاء في لفظ البخاري: ((المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة))[١٢]، فلا بد من العمل بالقرآن أي أن مجرد القراءة لا تكفي.

وكذلك الحديث الآخر: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)) جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن وهو يحفظه مع السفرة الكرام البررة))[١٣] يعني مع الملائكة، والسفرة أي: سفراء بين الله وخلقه، فيكون بهذه المنزلة إذا كان يحفظ وليس مجرد أن يقرأ مجرد قراءة، وقوله: ((والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[١٤] يعني يتتعتع في الحفظ، أي أن حفظه فيه ضعف.

وأما بالنسبة لحديث: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله))[١٥] فهي مسألة أخرى إذ يحتمل أن يكون على ظاهره، والمقصود به الأحفظ؛ لأنه قال بعده: ((أعلمهم بالسنة))؛ لأن الفقه يكون بالعلم بالسنة مع القرآن فلا يكون فقيهاً ما لم يعلم بالسنة، فظاهر هذا يدل على أن المقصود الحفظ.

ويحتمل معنىً آخر وهو أن يكون في ذلك الحين أقرأهم أي يكون فقيهاً، كما سبق في ذكر ابن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثمان سنين، ولذلك إذا قيل: القراء في ذلك الوقت -كأن يقال: قتل سبعون من القراء في بئر معونة- فهؤلاء علماء وليسوا مجرد حفاظ أو كثيري القراءة فقط، فهم ما كانوا مثلنا الآن، تجد الواحد يحفظ ولا يفهم شيئاً مما يحفظ، فقول القائل: دخل القراء على عمر -وكان القراء هم أهل مجلسه- المقصود بهم العلماء، وكذلك ما ورد من بعض الآثار بأن أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها فإن المقصود به أهل العلم وطلاب العلم.

"والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن."

سورة البقرة لا شك أنها سورة مدنية، وهذا نقل عليه الإجماع غير واحد، وهي أول سورة نزلت في المدينة، لكنها لم تنزل جملةً.

---

[12] - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٤٧٧٢) (ج ٤/ ص ١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها- باب: فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) (ج ١ / ص ٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[13] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[14] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

[15] - أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة – باب: من أحق بالإمامة (٦٧٣) (ج ١ / ص ٤٦٥).

وهنا ابن كثير يشير إلى أن بعضها قد تأخر نزوله فهي نزلت مفرقةً، ولذلك فإن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على الراجح أنها الآيات التي في آخر سورة البقرة -آيات الربا وقوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ}** وآية الدين، ولذلك فمن قال: إن آخر ما نزل آية الدين فلا شك أنها في الترتيب هي آخر هذه الآيات نزولاً بالترتيب، فيصح أن يقال: إن هذا آخر ما نزل من القرآن، بمعنى أنها نزلت مجتمعة أعني هذه الآيات التي في آخر البقرة، وهذا أقوى ما قيل في آخر ما نزل مطلقاً، كل ذلك مع أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت في المدينة، لكن آخر ما نزل من السور هي سورة براءة ولم تنزل كاملة.

وآخر ما نزل من السور مشتملة على الأحكام سورة المائدة، لهذا تجدون في بعض الروايات أن سورة المائدة هي آخر ما نزل، والمعنى في الأحكام، وسورة براءة آخر ما نزل من السور وليس جميع سورة براءة، إذ من المعلوم أن صدرها نزل عام تسع في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وجملة كبيرة منها نزلت في مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك.

"يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل، وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن."

خالد يسمي هذه السورة بسورة الفسطاط، وسبق الكلام على هذا في الكلام على أسماء السورة، حيث ذكرنا لها نحو سبعة أسماء، وإن كان بعض هذا لا يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث جاء حديث موضوع في تسميتها بفسطاط القرآن، لكن الصحيح أن هذا من كلام التابعين.

والفسطاط يطلق على الخيمة، ويطلق على المدينة، وعلى كل فالفسطاط هو ما يحيط بغيره، فيكون قيل لها ذلك ربما لإحاطتها بكثيرٍ من الأحكام، حيث اشتملت على أحكام لم تشتمل عليها سورة مثلها، فهي أكثر السور اشتمالاً على الأحكام، وربما يكون لعظمها وفضلها ومنزلتها وما أشبه ذلك، وعلى كل حال فسطاط القرآن تشتمل على أحكام كثيرة.

"قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم."

وهذا أيضاً سبق الكلام عليه وذكر الخلاف في عدد كلماتها، وفي عدد حروفها، وذكرنا سبب هذا الخلاف، وأشرت إليه في أول هذه الدروس، فعلى كل حال الأمر في هذا سهل إذا عُرف وجهه؛ لأن ذلك إنما يكون بسبب ما ذكرت من الأمور التي توجب هذا التفاوت، سواء في عد الآيات أو في عد السور، وأن مرجع ذلك إلى القراءة في بعض نواحيه، ومنه ما يرجع إلى طريقة العد، هل يعد الحرف المرسوم وإن لم ينطق به، وهل يعد الحرف المشدد حرفاً واحداً أو حرفين، وكذلك ما ينطق به ولا يكتب من الحروف في الرسم هل يعد أو ما يعد؟

"قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة،

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد -رضي الله تعالى عنه-.

الظاهر أنه عتبة بن فرقد وليس ابن مرثد، هو هكذا في معجم الطبراني الكبير عتبة بن فرقد، صحابي سُلمي.

عن عتبة بن فرقد -رضي الله تعالى عنه-: رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه تأخراً فقال: ((يا أصحاب سورة البقرة))[16] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين."

أي نعم، كان يوم حنين، وجاء هذا في صحيح مسلم وفي غيره من حديث العباس لما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوهم، وجاء أيضاً من حديث شيبة العبدري -من بني عبد الدار- في قصته المعروفة لما خرج وهو يريد أن ينتقم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك جاء من حديث أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك أيضاً جاء عن غيره في بعض الروايات التي فيها ضعف، لكن على كل حال لا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا في يوم حنين أمر العباس أن يدعوهم: ((يا أصحاب الشجرة، أو يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة))[17]، وأصحاب السمرة المقصود بهم أصحاب الشجرة، يعني الذين بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، في صلح الحديبية، بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعضهم يقول: على الموت، والمشهور والراجح أنهم بايعوه على ألا يفروا، وعلى كل حال جاء هذا في عدد من الأحاديث كما سبق، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو غير ذلك.

"وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين، أمر العباس فناداهم: ((يا أصحاب الشجرة)) يعني أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: ((يا أصحاب سورة البقرة))؛ لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم -رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين-."

يوم اليمامة كان جيش المسلمين فيه أعراب كثير، وكان هؤلاء الأعراب في أول الجيش، فلما حصلت المواجهة تضعضعوا وانهزموا، فقام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فجمع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن حضر من أهل بدر، فجعلهم في مقدم الجيش، وكان شعارهم يا أصحاب سورة البقرة، هذا الشعار يوم اليمامة، فثبتوا واشتد الناس، وقتل في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة كبيرة، وكان ذلك سبباً في جمع القرآن لما أشار بذلك عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين، فثبتوا ذلك الثبات العظيم، وفتح الله -عز وجل- عليهم.

على كل حال هذا جاء عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وهو ثابت بإسناد صحيح عند عبد الرزاق وفي المصنف وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور، يعني في يوم اليمامة.

---

16 - أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه علي بن قتيبة وهو ضعيف.

17 - أخرجه أحمد (١٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٠٧) وابن حبان (٧٠٤٩) (ج ١٥/ ص ٥٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

"بسم الله الرحمن الرحيم: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} [(١-٥) سورة البقرة].

{الم} الحروف المقطعة التي في أوائل السور، هي مما استأثر الله بعلمه."

على كل حال تذكرون في درس الجمعة أننا ذكرنا مسائل كثيرة تتعلق بالسورة كالكلام على موضوعها ومقصودها والقضايا التي ناقشتها، وربما حتى فواصل الآية يعني أواخر الآيات، آخر حرف أو آخر كلمة في الآية تنتهي بأي أحرف، مثل القوافي في الشعر، وقلنا: إنها تجمع بكلمتين (قم لندبر) بينما الفاتحة يجمع فواصلها حرفان هما الميم والنون، فالبقرة قم لندَّبَّر، فالعلماء منهم من يجعل ذلك لجميع سور القرآن، يعني كل سورة يذكر لها الحروف التي تنتهي فيها، ويجمعها بجملة أو بكلمة أو بكلمتين أو نحو هذا، فهذه الحروف التي تنتهي فيها الفواصل في هذه السورة مجموعة بـــ (قم لندبر).

كذلك ذكرنا أشياء أخرى منها قضايا النسخ في هذه السورة، ودعاوى النسخ فيها، وقلنا: إن الدعاوى قاربت أو بلغت ستاً وعشرين، لكن لا يثبت منها إلا القليل جداً في البقرة وفي غير البقرة.

"روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-."

ذكرنا أيضاً في ذلك الحين أن الحروف المقطعة فيها أقوال كثيرة، فبعضهم سرد فيها ستةً وعشرين قولاً، وبعضهم يذكر أقل من هذا، وبعضهم ربما أوصلها إلى ثلاثين، وعند الاستقراء يمكن أن ترجع إلى أقوال محصورة، وفي ذلك الحين ذكرنا أنها ترجع إلى ثلاثة أقوال، يعني منهم من يقول: إن هذه الحروف المقطعة هي عبارة عن اقتضاب لأسماء أو أوصاف، أو لكلمات أول لجمل، وإنها عبارة عن رموز، وهذا يدخل تحته ثمانية أقوال مما قيل في ذلك، يعني من يقولون: إنها اختصار لجملة أو كلمة، لو جمعت الأقوال لأكثر من عشرين قولاً ستجد أن ثمانية منها ترجع إلى أنها عبارة عن رموز وإن اختلفوا في فك أو تفسير أو بيان المراد بهذه الرموز، وعلى كل حال هذا فيه نظر.

وبعضهم يقول: إنها عبارة عن أسماء، إما اسم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو للقرآن أو غير ذلك، أسماء أو أوصاف، وهذا وإن اختلفوا فيه لكنه يدخل تحته نحو أربعة أقوال مما قيل في تفسير هذه الحروف.

والثالث أنها حروف هجاء أي حروف المعجم، أو قل: حروف مباني، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين حروف المباني وحروف المعاني، ولكن هذه الحروف هي حروف معجم ليس لها معنى في نفسها بطبيعة الحال إذا قيل: إنها حروف معجم، أي ليس لها معنى في نفسها، وهذا يرجع إليه نحو أربعة عشر قولاً.

المقصود أن هذه الحروف ترمز لشيء معين، ومن أشهر الأقوال أنها ليس لها معنى في نفسها، لكن فيها إشارة إلى قضية التحدي والإعجاز، بمعنى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله.

بل إن بعض أهل العلم مثل ابن العربي قال: إن الحروف الواردة في أوائل السور -الحروف المقطعة- هي نصف الحروف الهجائية!! فهذا فيه إشارة أن القرآن ركب من نصف الحروف، فركبوا قرآناً آخر من النصف الباقي، لكن هذا القول لا يخلو من تكلف، وعلى كل حال الله تعالى أعلم.

لكنْ فيه ملحظ ذكره بعض أهل العلم مثل الشوكاني حيث نبه على قضيتين تفيد في هذا المعنى وهي أن على القول: إن لها معنى في نفسها هذا غير معهود في كلام الناس، وإن حاولوا أن يأتوا ببعض الألفاظ أو بعض الأشعار، كقول من قال: قلت لها قفي قالت قاف، لكن هذا غير متداول، فالناس حينما يخاطبون به لا يفهمون المراد.

الأمر الآخر أنها إذا كانت رموز وتحتاج إلى فك، وذكروا تحتها معاني كثيرة جداً غريبة عجيبة، فهذه الرموز هل عندهم أثارة من علم في فكها وتفسيرها بهذه الطريقة؛ لأنه لا يصل إليها الذهن بالاجتهاد، ولا يوجد شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إطلاقاً في هذا، فمن أين جاءوا بها وقد اختلفوا في فك هذه الرموز؟ فالله أعلم، وعلى كل حال فلعلَّ هذا القول من أقرب هذه الأقوال.

"وقيل: هي أسماء السور، وقيل: هي فواتح افتتح الله بها القرآن."

القول الأول الذي ذكره، حيث قال: هي مما استأثر الله بعلمه، هذا قال به جماعة من الأئمة، وبناءً على ذلك يكون قد وقع في القرآن ما يعرف بالمتشابه المطلق من جهة المعنى، بمعنى أنه يوجد في القرآن أشياء لا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف معناها ولا غيره من الأمة، وهذا القول مشكل، وهو وجهٌ في تفسير آية آل عمران {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران] على الوقف هنا، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الوقف لا شك أنه ثابت صحَّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، والمراد بها على الوقف عند قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} حقائق الأمور الغيبية وكنهها، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي، فليس المراد به التفسير، ولذلك يقال: لا يوجد في القرآن متشابه مطلق أبداً من جهة المعنى، وإنما يوجد فيه متشابه مطلق من جهة الكيفية، فآية آل عمران على الوقف {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} يقال: المتشابه هنا المطلق على الوقف المراد به حقائق الأشياء وكنهها، فالله لم يخاطبنا بألغاز في القرآن، وإنما أخبرنا عن هذا القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه بلسان عربي مبين.

القراءة بالوصل: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، يكون المراد بالتأويل هنا التفسير، يكون المراد به التفسير بالمعنى، وهو ثابت أيضاً عن ابن عباس، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، فكل هذا صحيح، لكن على هذا القول أن الحروف المتقطعة من المتشابه من أن هذا لا يعلمه إلا الله وإنما هو مما استأثره بعلمه، فيكون معنى ذلك أنه من المتشابه المطلق، لكن من قال: لها معنى وفسره فهي بالنسبة لمن لا يعرف ذلك من المتشابه النسبي، عند من يثبت لها معنى.

"وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها: {ق} و{ص} و{حم} و{طسم} و{الر}، وغير ذلك هجاء موضوع."

يعني هذه الفواتح التي مثَّل لبعضها، وكذلك ما لم يمثِّل له، هي هجاء موضوع، يعني بهجاء أنها حروف هجاء (أبجد هوز)، (أ، ب، ت، ث...).

الحروف -كما سبق- تنقسم إلى قسمين: حروف معنى، وحروف مبني. وحروف المعنى هي التي يجعلها النحاة القسم الثالث مما يتركب من الكلام، فهم يقولون: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ويقصدون بحروف المعاني حروف الجر، فـ"إلى" تدل على الغاية، و "في" تدل على الظرفية وما أشبه ذلك.

فالنحاة يقولون في معنى الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والفعل هو ما دل على معنىً في نفسه واقترن بزمان والحرف يقولون: هو ما لم يدل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، وإنما هي للربط والوصل، وكلامهم هذا ردَّ عليهم فيه شيخ الإسلام فقال: إن "في" تدل على الظرفية ولها معنى في نفسها... إلى آخره، مع أنهم يقصدون شيئاً آخر غير ما قصده شيخ الإسلام، والأمر في هذا سهل.

فعلى كل حال الشاهد هنا قوله: **حروف هجاء**: وحروف الهجاء -حروف المعجم- ليس لها قطعاً معنى في نفسها بالاتفاق، فــ "الباء" حينما تكون من حروف المعاني نقول عنها: حرف جر لها دلالة، تدل على المقاربة والملاصقة، لكن حينما نقول مثلاً: "بئر" فهذه الباء ليس لها معنى في نفسها إطلاقاً، وإنما لما تركبت مع غيرها صارت تمثل كلمة، فمن يقول: إن هذه حروف تهجي فمعنى ذلك أنها ليس لها معنى في نفسها؛ لأنه لا أحد يدعي أن حروف التهجي لها معنى في نفسها، وهذا هو المراد والله أعلم.

وهذه الأقوال المنتثرة، والتي ما ذكر منها هنا إلا أقل من القليل، يمكن أن تُرَجع إلى الأقوال الثلاثة الأصلية.

"**وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً.**"

بناءً على أن الحروف العربية تبلغ هذا العدد، وبعضهم يزيد حرفاً، فيقول: تسعة وعشرون على أن "لام ألف" حرف.

"**كما يقول القائل: ابني يكتب في "أ ب ت ث" أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.**"

طريقة ترتيب الحروف بعضهم يجعلها: "أ ب ت ث" وبعضهم يجعلها: "أبجد هوز حطي..."إلى آخره، ولذلك كتب القواميس والمعاجم أحياناً ما تجدها على الترتيب المعروف "أ ب ت ث" فيظن ظانٌّ أنه ترك بعض الكلمات، وهو ما تركها وإنما سار فيها على الطريقة الأخرى في الترتيب.

"**قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً.**"

هي طبعاً جاءت في تسع وعشرين سورة، وعامة هذه السور التي بُدئت بالحروف المقطعة هي من السور المكية، فالمدنية مثل البقرة وآل عمران، لكن عامة السور التي بدئت بالحروف المقطعة إنما هي من السور المكية.

يقول: "**مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً**" ومن غير حذف المكرر تبلغ ثمانية وسبعين حرفاً.

"**وهي "أ ل م ص ر ك هــ ي ع ط س ح ق ن " يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر".**"

يجمعها قولك: "**نص حكيم قاطع له سر**": ويمكن أن تجمعها جملٍ أخرى مثل: "ألم يسطع نور حق كره"، وبعضهم يركب غير هذا من الجمل من أسهلها: "طرق سمعك النصيحة".

"**وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك.**"

نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك: ما معنى أشرف من المتروك؟

الحروف تنقسم إلى حروف استعلاء وحروف استفال، فنجد أن المذكور هو الأشرف دائماً، فأشرف هذه الحروف هي المذكورة في نصف الحروف الهجائية.

"وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة."

بالنسبة للقلقلة حروفها خمسة، والمذكور في أوائل السور منها أقل من النصف وليست النصف.

"وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها."

هناك أشياء أخرى مثل الصفير ثلاثة حروف "السين" و"الصاد" و"الزاي" المذكورة منها في الحروف المقطعة في أوائل السور هي "السين" و"الصاد"، وما ذكرها الزمخشري، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، المذكور منها اثنان "الألف" و"الياء".

يقول ابن كثير: **وقد سردها مفصلة**: ثم جاء بكلام الزمخشري: **فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها**: ما معنى قول الزمخشري: مكثورة بالمذكورة منها؟ أليست هذه الأحرف المذكورة كما قال هو: إنها النصف، فكيف صارت هي مكثورة؟

المقصود بذلك هو أن الأكثر تكرراً قي القرآن واستعمالاً هي الحروف المذكورة في أوائل السور، أي هي أكثر ما يتكرر في تركيب الكلام في جميع القرآن، وقد عدوا كل حرف كم مرة ورد في القرآن، فالحروف المذكورة في أوائل السور هي الأكثر استعمالاً في القرآن، وهذا هو المراد بقوله: إنها مكثورة يعني الحروف المتروكة مكثورة بالمذكورة.

"وقد علمت أن معظم الشيء وجلَّه ينزل منزلة كله."

معنى هذه العبارة أنه في حالة ما إذا أتى سائل معترض وقال: أنت تقول: إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية، والقرآن مركب من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وتقول: إن الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها ولكنها ترمز للتحدي من أن تأتي أحد بمثل هذا القرآن مركباً من هذه الحروف، فأين النصف الباقي من الحروف التي وردت في القرآن، فيقال: إن أغلب ما ركب منه الكلام هو النصف المذكور في أوائل السور، وما كان جلُّ الشيء منه يمكن أن يعبر عنه بأنه الكل أو الجميع أو نحو ذلك من باب التغليب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١)

بين يدي سورة البقرة وتفسير الآية الأولى منها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة البقرة.

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[1] وقال الترمذي: حسن صحيح."

فقوله هنا: ((البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -مع البناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول مد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[٢] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه."

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[٣]."

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[٤]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق"[٥].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[٦] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه."

---

[2] - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[3] - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف فطر متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي.

[4] - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[5] - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[6] - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))[7] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم."

معنى: **((جراب وكئ على مسك))** يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

"وروى البخاري عن أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير))، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم))[8]، وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته يقول: ((تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))، قال: ثم سكت ساعة ثم قال: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما

---

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم: (٥٤١).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٤٧٣٠) (ج ٤ / ص ١٩١٦) والطبراني في الأوسط (١٨٠) (ج ١ / ص ٦٤).

أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان أو ترتيلاً))[٩].

وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث في فضل سورة البقرة، أما أوله وهو أن سورة البقرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))** فإن هذا له شواهد، وهو ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان هذا الحديث من رواية بشر بن المهاجر.

وأما بقية الحديث وذلك من قوله بعد ذلك: **((وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))** فإن لبعضه شواهد، ولكن ما قبله له شواهد صحيحة ثابتة من أول الحديث إلى هذا القدر، كما سيأتي فيما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لذلك فإن بعض أهل العلم يصحح أول هذا الحديث ((إن أخذها بركة))، وكذلك ما جاء من قوله: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان..)) إلى آخره، وأما بقية الحديث فبعض الجمل التي لها شاهد يمكن أن تكون من قبيل الحسن لتلك الشواهد.

على كل حال الإشكال في بشر بن المهاجر، ومن ضعَّف روايته رد بقية الحديث، والحاصل أن بشر بن المهاجر فيه كلامٌ كثير، بعضهم يضعفه، وبعضهم يبالغ في هذا، وبعضهم يجعل روايته من قبيل المقبول أو يوثقه، وصنيع المختصر هنا يدل دلالة أكيدة على أنه يحسن الحديث في أقل الأحوال.

قوله: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**: البطلة يعني السحرة.

ومعنى ((لا تستطيعها البطلة)) يعني: أي لا يمكنهم حفظها، أو أن من تحصن بها فإن السحرة لا يقدرون على إيصال سحرهم إليه.

وقوله: **((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان))** المقصود بالأزهر المضيء، يقال: سراج يزهر أي يضيء.

قوله: **((يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان))** وفي بعض الألفاظ: **((غيابتان))** بالباء، الغمام معروف وهو السحاب، و الغيايتان: كل شيء أظلك فهو غياية سواء كان من سحاب أو غبار أو غير ذلك، والغيابتان بـــ الباء: هو أيضاً من هذا المعنى.

((أو فرقان من طير صواف)) أي تصف أجنحتها، وذلك أبلغ في التضليل.

"فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد.

---

9 - أخرج الشطر الأول منه الإمام أحمد (٢٣٠٩٩) (ج ٥ / ص ٣٦١)، وأخرجه بتمامه بألفاظ مقاربة الطبراني في الكبير (٧٥٤٢) (ج ٨ / ص ١١٨)، وذكره الحاكم في المستدرك (٢٠٥٧) (ج ١ / ص ٧٤٧) وأصله في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

وعنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))[١٠] وقد رواه مسلم في الصلاة.

الزهراوان: المنيرتان، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصوافٌ: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران))، وضرب لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: ((كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما))[١١] ورواه مسلم والترمذي وقال حسن غريب."

معنى ((بينهما شرق)): يعني بينهما فاصل.

وهذا الحديث يفسر الحديث الذي قبله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الذي قبله: ((فإنهما يأتيان يوم القيامة..)) إلى أن قال: ((يحاجان عن أهلهما)): فما المراد بـــ أهلهما هل هو مجرد الحفظ إن كان حافظاً لهما؟

لا، بل إن المقصود يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))، فأصحاب البقرة وآل عمران هم الذين يحفظونهما ويفهمون معانيهما ويعملون بهما، ولهذا بقي ابن عمر -رضي الله عنه- ثمان سنين يحفظ سورة البقرة، وبقي عمر -رضي الله عنه- اثنتي عشرة سنة يحفظها، ثم نحر جزوراً ودعا الناس فرحاً واستبشاراً بهذا الإنجاز.

ولذلك كان الرجل إذا أخذ البقرة عظم في أعينهم؛ لأنه صار فقيهاً؛ لأنها تشتمل على أكثر الأحكام، فهي أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام وأطول سور القرآن، فمن عرف هذه الأحكام التي في سورة البقرة، فإنه يمر به كثيرٌ مما يذكر في التفسير بعدها، فتكون بقية الأمور التي تذكر في الغالب مكررة، أعني مما يحتاج إليه في فهم التفسير من جهة الأصول، والقواعد وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال هنا سؤال يرد في مثل هذه الأحاديث وهو أن هاتين السورتين تأتيان كأنهما ظلتان أو غيايتان، ومعلوم أن القرآن كلام الله -عز وجل- وهو صفة من صفاته، فما المراد بذلك؟

المراد بذلك الثواب أي: ثواب القرآن أو قل: ثواب وأجر قراءة سورة البقرة وآل عمران وأجر العمل والتدبر لهما، والله أعلم، وهذا الذي ذكره جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد والبغوي، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

10 - صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

11 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) (ج ١ / ص ٥٥٤)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في سورة آل عمران (٢٨٨٣) (ج ٥ / ص ١٦٠).

-رحمه الله- في المجلد الخامس من الفتاوى في صفحة ثلاثمائة وسبعة وتسعين تقريباً، وكذلك ابن القيم في مختصر الصواعق صفحة أربعمائة تقريباً من الجزء الثاني في المختصر، وكذلك ذكره الترمذي قبلهم، ذكره في السنن.

كذلك الأحاديث الأخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين-: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة))، جاء في لفظ البخاري: ((المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة))[١٢]، فلا بد من العمل بالقرآن أي أن مجرد القراءة لا تكفي.

وكذلك الحديث الآخر: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)) جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن وهو يحفظه مع السفرة الكرام البررة))[١٣] يعني مع الملائكة، والسفرة أي: سفراء بين الله وخلقه، فيكون بهذه المنزلة إذا كان يحفظ وليس مجرد أن يقرأ مجرد قراءة، وقوله: ((والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[١٤] يعني يتتعتع في الحفظ، أي أن حفظه فيه ضعف.

وأما بالنسبة لحديث: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله))[١٥] فهي مسألة أخرى إذ يحتمل أن يكون على ظاهره، والمقصود به الأحفظ؛ لأنه قال بعده: ((أعلمهم بالسنة))؛ لأن الفقه يكون بالعلم بالسنة مع القرآن فلا يكون فقيهاً ما لم يعلم بالسنة، فظاهر هذا يدل على أن المقصود الحفظ.

ويحتمل معنىً آخر وهو أن يكون في ذلك الحين أقرأهم أي يكون فقيهاً، كما سبق في ذكر ابن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثمان سنين، ولذلك إذا قيل: القراء في ذلك الوقت -كأن يقال: قتل سبعون من القراء في بئر معونة- فهؤلاء علماء وليسوا مجرد حفاظ أو كثيري القراءة فقط، فهم ما كانوا مثلنا الآن، تجد الواحد يحفظ ولا يفهم شيئاً مما يحفظ، فقول القائل: دخل القراء على عمر -وكان القراء هم أهل مجلسه- المقصود بهم العلماء، وكذلك ما ورد من بعض الآثار بأن أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها فإن المقصود به أهل العلم وطلاب العلم.

"والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن."

سورة البقرة لا شك أنها سورة مدنية، وهذا نقل عليه الإجماع غير واحد، وهي أول سورة نزلت في المدينة، لكنها لم تنزل جملةً.

---

12 - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٤٧٧٢) (ج ٤/ ص ١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها- باب: فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) (ج ١ / ص ٥٤٩) واللفظ للبخاري.

13 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ للبخاري.

14 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

15 - أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة – باب: من أحق بالإمامة (٦٧٣) (ج ١ / ص ٤٦٥).

وهنا ابن كثير يشير إلى أن بعضها قد تأخر نزوله فهي نزلت مفرقةً، ولذلك فإن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على الراجح أنها الآيات التي في آخر سورة البقرة -آيات الربا وقوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ}** وآية الدين، ولذلك فمن قال: إن آخر ما نزل آية الدين فلا شك أنها في الترتيب هي آخر هذه الآيات نزولاً بالترتيب، فيصح أن يقال: إن هذا آخر ما نزل من القرآن، بمعنى أنها نزلت مجتمعة أعني هذه الآيات التي في آخر البقرة، وهذا أقوى ما قيل في آخر ما نزل مطلقاً، كل ذلك مع أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت في المدينة، لكن آخر ما نزل من السور هي سورة براءة ولم تنزل كاملة.

وآخر ما نزل من السور مشتملة على الأحكام سورة المائدة، لهذا تجدون في بعض الروايات أن سورة المائدة هي آخر ما نزل، والمعنى في الأحكام، وسورة براءة آخر ما نزل من السور وليس جميع سورة براءة، إذ من المعلوم أن صدرها نزل عام تسع في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وجملة كبيرة منها نزلت في مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك.

"يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل، وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن."

خالد يسمي هذه السورة بسورة الفسطاط، وسبق الكلام على هذا في الكلام على أسماء السورة، حيث ذكرنا لها نحو سبعة أسماء، وإن كان بعض هذا لا يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث جاء حديث موضوع في تسميتها بفسطاط القرآن، لكن الصحيح أن هذا من كلام التابعين.

والفسطاط يطلق على الخيمة، ويطلق على المدينة، وعلى كل فالفسطاط هو ما يحيط بغيره، فيكون قيل لها ذلك ربما لإحاطتها بكثيرٍ من الأحكام، حيث اشتملت على أحكام لم تشتمل عليها سورة مثلها، فهي أكثر السور اشتمالاً على الأحكام، وربما يكون لعظمها وفضلها ومنزلتها وما أشبه ذلك، وعلى كل حال فسطاط القرآن تشتمل على أحكام كثيرة.

"قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم."

وهذا أيضاً سبق الكلام عليه وذكر الخلاف في عدد كلماتها، وفي عدد حروفها، وذكرنا سبب هذا الخلاف، وأشرت إليه في أول هذه الدروس، فعلى كل حال الأمر في هذا سهل إذا عُرف وجهه؛ لأن ذلك إنما يكون بسبب ما ذكرت من الأمور التي توجب هذا التفاوت، سواء في عد الآيات أو في عد السور، وأن مرجع ذلك إلى القراءة في بعض نواحيه، ومنه ما يرجع إلى طريقة العد، هل يعد الحرف المرسوم وإن لم ينطق به، وهل يعد الحرف المشدد حرفاً واحداً أو حرفين، وكذلك ما ينطق به ولا يكتب من الحروف في الرسم هل يعد أو ما يعد؟

"قال ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة،

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد -رضي الله تعالى عنه-.

الظاهر أنه عتبة بن فرقد وليس ابن مرثد، هو هكذا في معجم الطبراني الكبير عتبة بن فرقد، صحابي سُلمي.

عن عتبة بن فرقد -رضي الله تعالى عنه-: رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه تأخراً فقال: ((يا أصحاب سورة البقرة))[16] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين."

أي نعم، كان يوم حنين، وجاء هذا في صحيح مسلم وفي غيره من حديث العباس لما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوهم، وجاء أيضاً من حديث شيبة العبدري -من بني عبد الدار- في قصته المعروفة لما خرج وهو يريد أن ينتقم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك جاء من حديث أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك أيضاً جاء عن غيره في بعض الروايات التي فيها ضعف، لكن على كل حال لا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا في يوم حنين أمر العباس أن يدعوهم: ((يا أصحاب الشجرة، أو يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة))[17]، وأصحاب السمرة المقصود بهم أصحاب الشجرة، يعني الذين بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [(١٨) سورة الفتح]، في صلح الحديبية، بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعضهم يقول: على الموت، والمشهور والراجح أنهم بايعوه على ألا يفروا، وعلى كل حال جاء هذا في عدد من الأحاديث كما سبق، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو غير ذلك.

"وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين، أمر العباس فناداهم: ((يا أصحاب الشجرة)) يعني أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: ((يا أصحاب سورة البقرة))؛ لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم -رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين-."

يوم اليمامة كان جيش المسلمين فيه أعراب كثير، وكان هؤلاء الأعراب في أول الجيش، فلما حصلت المواجهة تضعضعوا وانهزموا، فقام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فجمع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن حضر من أهل بدر، فجعلهم في مقدم الجيش، وكان شعارهم يا أصحاب سورة البقرة، هذا الشعار يوم اليمامة، فثبتوا واشتد الناس، وقتل في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة كبيرة، وكان ذلك سبباً في جمع القرآن لما أشار بذلك عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين، فثبتوا ذلك الثبات العظيم، وفتح الله -عز وجل- عليهم.

على كل حال هذا جاء عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وهو ثابت بإسناد صحيح عند عبد الرزاق وفي المصنف وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور، يعني في يوم اليمامة.

---

16 - أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه علي بن قتيبة وهو ضعيف.

17 - أخرجه أحمد (١٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٠٧) وابن حبان (٧٠٤٩) (ج ١٥/ ص ٥٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

"بسم الله الرحمن الرحيم: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} [(١-٥) سورة البقرة].

{الم} الحروف المقطعة التي في أوائل السور، هي مما استأثر الله بعلمه."

على كل حال تذكرون في درس الجمعة أننا ذكرنا مسائل كثيرة تتعلق بالسورة كالكلام على موضوعها ومقصودها والقضايا التي ناقشتها، وربما حتى فواصل الآية يعني أواخر الآيات، آخر حرف أو آخر كلمة في الآية تنتهي بأي أحرف، مثل القوافي في الشعر، وقلنا: إنها تجمع بكلمتين (قم لندبر) بينما الفاتحة يجمع فواصلها حرفان هما الميم والنون، فالبقرة قم لندَّبَّر، فالعلماء منهم من يجعل ذلك لجميع سور القرآن، يعني كل سورة يذكر لها الحروف التي تنتهي فيها، ويجمعها بجملة أو بكلمة أو بكلمتين أو نحو هذا، فهذه الحروف التي تنتهي فيها الفواصل في هذه السورة مجموعة بـــ (قم لندبر).

كذلك ذكرنا أشياء أخرى منها قضايا النسخ في هذه السورة، ودعاوى النسخ فيها، وقلنا: إن الدعاوى قاربت أو بلغت ستاً وعشرين، لكن لا يثبت منها إلا القليل جداً في البقرة وفي غير البقرة.

"روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-."

ذكرنا أيضاً في ذلك الحين أن الحروف المقطعة فيها أقوال كثيرة، فبعضهم سرد فيها ستةً وعشرين قولاً، وبعضهم يذكر أقل من هذا، وبعضهم ربما أوصلها إلى ثلاثين، وعند الاستقراء يمكن أن ترجع إلى أقوال محصورة، وفي ذلك الحين ذكرنا أنها ترجع إلى ثلاثة أقوال، يعني منهم من يقول: إن هذه الحروف المقطعة هي عبارة عن اقتضاب لأسماء أو أوصاف، أو لكلمات أول لجمل، وإنها عبارة عن رموز، وهذا يدخل تحته ثمانية أقوال مما قيل في ذلك، يعني من يقولون: إنها اختصار لجملة أو كلمة، لو جمعت الأقوال لأكثر من عشرين قولاً ستجد أن ثمانية منها ترجع إلى أنها عبارة عن رموز وإن اختلفوا في فك أو تفسير أو بيان المراد بهذه الرموز، وعلى كل حال هذا فيه نظر.

وبعضهم يقول: إنها عبارة عن أسماء، إما اسم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو للقرآن أو غير ذلك، أسماء أو أوصاف، وهذا وإن اختلفوا فيه لكنه يدخل تحته نحو أربعة أقوال مما قيل في تفسير هذه الحروف.

والثالث أنها حروف هجاء أي حروف المعجم، أو قل: حروف مباني، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين حروف المباني وحروف المعاني، ولكن هذه الحروف هي حروف معجم ليس لها معنى في نفسها بطبيعة الحال إذا قيل: إنها حروف معجم، أي ليس لها معنى في نفسها، وهذا يرجع إليه نحو أربعة عشر قولاً.

المقصود أن هذه الحروف ترمز لشيء معين، ومن أشهر الأقوال أنها ليس لها معنى في نفسها، لكن فيها إشارة إلى قضية التحدي والإعجاز، بمعنى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله.

بل إن بعض أهل العلم مثل ابن العربي قال: إن الحروف الواردة في أوائل السور -الحروف المقطعة- هي نصف الحروف الهجائية!! فهذا فيه إشارة أن القرآن ركب من نصف الحروف، فركبوا قرآناً آخر من النصف الباقي، لكن هذا القول لا يخلو من تكلف، وعلى كل حال الله تعالى أعلم.

لكنْ فيه ملحظ ذكره بعض أهل العلم مثل الشوكاني حيث نبه على قضيتين تفيد في هذا المعنى وهي أن على القول: إن لها معنى في نفسها هذا غير معهود في كلام الناس، وإن حاولوا أن يأتوا ببعض الألفاظ أو بعض الأشعار، كقول من قال: قلت لها قفي قالت قاف، لكن هذا غير متداول، فالناس حينما يخاطبون به لا يفهمون المراد.

الأمر الآخر أنها إذا كانت رموز وتحتاج إلى فك، وذكروا تحتها معاني كثيرة جداً غريبة عجيبة، فهذه الرموز هل عندهم أثارة من علم في فكها وتفسيرها بهذه الطريقة؛ لأنه لا يصل إليها الذهن بالاجتهاد، ولا يوجد شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إطلاقاً في هذا، فمن أين جاءوا بها وقد اختلفوا في فك هذه الرموز؟ فالله أعلم، وعلى كل حال فلعلَّ هذا القول من أقرب هذه الأقوال.

"وقيل: هي أسماء السور، وقيل: هي فواتح افتتح الله بها القرآن."

القول الأول الذي ذكره، حيث قال: هي مما استأثر الله بعلمه، هذا قال به جماعة من الأئمة، وبناءً على ذلك يكون قد وقع في القرآن ما يعرف بالمتشابه المطلق من جهة المعنى، بمعنى أنه يوجد في القرآن أشياء لا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف معناها ولا غيره من الأمة، وهذا القول مشكل، وهو وجهٌ في تفسير آية آل عمران **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران] على الوقف هنا، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الوقف لا شك أنه ثابت صحَّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، والمراد بها على الوقف عند قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** حقائق الأمور الغيبية وكنهها، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي، فليس المراد به التفسير، ولذلك يقال: لا يوجد في القرآن متشابه مطلق أبداً من جهة المعنى، وإنما يوجد فيه متشابه مطلق من جهة الكيفية، فآية آل عمران على الوقف **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** يقال: المتشابه هنا المطلق على الوقف المراد به حقائق الأشياء وكنهها، فالله لم يخاطبنا بألغاز في القرآن، وإنما أخبرنا عن هذا القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه بلسان عربي مبين.

القراءة بالوصل: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}**، يكون المراد بالتأويل هنا التفسير، يكون المراد به التفسير بالمعنى، وهو ثابت أيضاً عن ابن عباس، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، فكل هذا صحيح، لكن على هذا القول أن الحروف المتقطعة من المتشابه من أن هذا لا يعلمه إلا الله وإنما هو مما استأثره بعلمه، فيكون معنى ذلك أنه من المتشابه المطلق، لكن من قال: لها معنى وفسره فهي بالنسبة لمن لا يعرف ذلك من المتشابه النسبي، عند من يثبت لها معنى.

"وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها: {ق} و{ص} و{حم} و{طسم} و{الر}، وغير ذلك هجاء موضوع."

يعني هذه الفواتح التي مثَّل لبعضها، وكذلك ما لم يمثِّل له، هي هجاء موضوع، يعني بهجاء أنها حروف هجاء (أبجد هوز)، (أ، ب، ت، ث...).

الحروف -كما سبق- تنقسم إلى قسمين: حروف معنى، وحروف مبني. وحروف المعنى هي التي يجعلها النحاة القسم الثالث مما يتركب من الكلام، فهم يقولون: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ويقصدون بحروف المعاني حروف الجر، فـ"إلى" تدل على الغاية، و "في" تدل على الظرفية وما أشبه ذلك.

فالنحاة يقولون في معنى الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والفعل هو ما دل على معنىً في نفسه واقترن بزمان والحرف يقولون: هو ما لم يدل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، وإنما هي للربط والوصل، وكلامهم هذا ردَّ عليهم فيه شيخ الإسلام فقال: إن "في" تدل على الظرفية ولها معنى في نفسها... إلى آخره، مع أنهم يقصدون شيئاً آخر غير ما قصده شيخ الإسلام، والأمر في هذا سهل.

فعلى كل حال الشاهد هنا قوله: **حروف هجاء**: وحروف الهجاء -حروف المعجم- ليس لها قطعاً معنى في نفسها بالاتفاق، فــ "الباء" حينما تكون من حروف المعاني نقول عنها: حرف جر لها دلالة، تدل على المقاربة والملاصقة، لكن حينما نقول مثلاً: "بئر" فهذه الباء ليس لها معنى في نفسها إطلاقاً، وإنما لما تركبت مع غيرها صارت تمثل كلمة، فمن يقول: إن هذه حروف تهجي فمعنى ذلك أنها ليس لها معنى في نفسها؛ لأنه لا أحد يدعي أن حروف التهجي لها معنى في نفسها، وهذا هو المراد والله أعلم.

وهذه الأقوال المنتثرة، والتي ما ذكر منها هنا إلا أقل من القليل، يمكن أن تُرَجع إلى الأقوال الثلاثة الأصلية.

"**وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً.**"

بناءً على أن الحروف العربية تبلغ هذا العدد، وبعضهم يزيد حرفاً، فيقول: تسعة وعشرون على أن "لام ألف" حرف.

"**كما يقول القائل: ابني يكتب في "أ ب ت ث" أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.**"

طريقة ترتيب الحروف بعضهم يجعلها: "أ ب ت ث" وبعضهم يجعلها: "أبجد هوز حطي..."إلى آخره، ولذلك كتب القواميس والمعاجم أحياناً ما تجدها على الترتيب المعروف "أ ب ت ث" فيظن ظانٌّ أنه ترك بعض الكلمات، وهو ما تركها وإنما سار فيها على الطريقة الأخرى في الترتيب.

"**قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً.**"

هي طبعاً جاءت في تسع وعشرين سورة، وعامة هذه السور التي بُدئت بالحروف المقطعة هي من السور المكية، فالمدنية مثل البقرة وآل عمران، لكن عامة السور التي بدئت بالحروف المقطعة إنما هي من السور المكية.

يقول: "**مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً**" ومن غير حذف المكرر تبلغ ثمانية وسبعين حرفاً.

"**وهي "أ ل م ص ر ك هــ ي ع ط س ح ق ن " يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر".**"

يجمعها قولك: "**نص حكيم قاطع له سر**": ويمكن أن تجمعها جملٍ أخرى مثل: "ألم يسطع نور حق كره"، وبعضهم يركب غير هذا من الجمل من أسهلها: "طرق سمعك النصيحة".

"**وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك.**"

نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك: ما معنى أشرف من المتروك؟

الحروف تنقسم إلى حروف استعلاء وحروف استفال، فنجد أن المذكور هو الأشرف دائماً، فأشرف هذه الحروف هي المذكورة في نصف الحروف الهجائية.

"وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة."

بالنسبة للقلقلة حروفها خمسة، والمذكور في أوائل السور منها أقل من النصف وليست النصف.

"وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها."

هناك أشياء أخرى مثل الصفير ثلاثة حروف "السين" و"الصاد" و"الزاي" المذكورة منها في الحروف المقطعة في أوائل السور هي "السين" و"الصاد"، وما ذكرها الزمخشري، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، المذكور منها اثنان "الألف" و"الياء".

يقول ابن كثير: **وقد سردها مفصلة**: ثم جاء بكلام الزمخشري: **فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها**: ما معنى قول الزمخشري: مكثورة بالمذكورة منها؟ أليست هذه الأحرف المذكورة كما قال هو: إنها النصف، فكيف صارت هي مكثورة؟

المقصود بذلك هو أن الأكثر تكرراً قي القرآن واستعمالاً هي الحروف المذكورة في أوائل السور، أي هي أكثر ما يتكرر في تركيب الكلام في جميع القرآن، وقد عدوا كل حرف كم مرة ورد في القرآن، فالحروف المذكورة في أوائل السور هي الأكثر استعمالاً في القرآن، وهذا هو المراد بقوله: إنها مكثورة يعني الحروف المتروكة مكثورة بالمذكورة.

"وقد علمت أن معظم الشيء وجلَّه ينزل منزلة كله."

معنى هذه العبارة أنه في حالة ما إذا أتى سائل معترض وقال: أنت تقول: إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية، والقرآن مركب من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وتقول: إن الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها ولكنها ترمز للتحدي من أن تأتي أحد بمثل هذا القرآن مركباً من هذه الحروف، فأين النصف الباقي من الحروف التي وردت في القرآن، فيقال: إن أغلب ما ركب منه الكلام هو النصف المذكور في أوائل السور، وما كان جلُّ الشيء منه يمكن أن يعبر عنه بأنه الكل أو الجميع أو نحو ذلك من باب التغليب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١)

بين يدي سورة البقرة وتفسير الآية الأولى منها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة البقرة.

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[1] وقال الترمذي: حسن صحيح."

فقوله هنا: ((البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -مع البناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول مد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[2] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه."

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[3]."

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[4]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق"[5].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[6] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه."

---

[2] - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[3] - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف فطر متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي.

[4] - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[5] - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[6] - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))[7] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم."

معنى: **((جراب وكئ على مسك))** يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

"وروى البخاري عن أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير))، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم))[8]، وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته يقول: ((تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))، قال: ثم سكت ساعة ثم قال: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما

---

7 - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم: (٥٤١).

8 - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٤٧٣٠) (ج ٤ / ص ١٩١٦) والطبراني في الأوسط (١٨٠) (ج ١ / ص ٦٤).

أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان أو ترتيلاً))[٩].

وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث في فضل سورة البقرة، أما أوله وهو أن سورة البقرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))** فإن هذا له شواهد، وهو ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان هذا الحديث من رواية بشر بن المهاجر.

وأما بقية الحديث وذلك من قوله بعد ذلك: **((وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))** فإن لبعضه شواهد، ولكن ما قبله له شواهد صحيحة ثابتة من أول الحديث إلى هذا القدر، كما سيأتي فيما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لذلك فإن بعض أهل العلم يصحح أول هذا الحديث ((إن أخذها بركة))، وكذلك ما جاء من قوله: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان..)) إلى آخره، وأما بقية الحديث فبعض الجمل التي لها شاهد يمكن أن تكون من قبيل الحسن لتلك الشواهد.

على كل حال الإشكال في بشر بن المهاجر، ومن ضعَّف روايته رد بقية الحديث، والحاصل أن بشر بن المهاجر فيه كلامٌ كثير، بعضهم يضعفه، وبعضهم يبالغ في هذا، وبعضهم يجعل روايته من قبيل المقبول أو يوثقه، وصنيع المختصر هنا يدل دلالة أكيدة على أنه يحسن الحديث في أقل الأحوال.

قوله: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**: البطلة يعني السحرة.

ومعنى ((لا تستطيعها البطلة)) يعني: أي لا يمكنهم حفظها، أو أن من تحصن بها فإن السحرة لا يقدرون على إيصال سحرهم إليه.

وقوله: **((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان))** المقصود بالأزهر المضيء، يقال: سراج يزهر أي يضيء.

قوله: **((يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان))** وفي بعض الألفاظ: **((غيابتان))** بالباء، الغمام معروف وهو السحاب، و الغيايتان: كل شيء أظلك فهو غياية سواء كان من سحاب أو غبار أو غير ذلك، والغيابتان بـــ الباء: هو أيضاً من هذا المعنى.

((أو فرقان من طير صواف)) أي تصف أجنحتها، وذلك أبلغ في التضليل.

"فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد.

---

[9] - أخرج الشطر الأول منه الإمام أحمد (٢٣٠٩٩) (ج ٥ / ص ٣٦١)، وأخرجه بتمامه بألفاظ مقاربة الطبراني في الكبير (٧٥٤٢) (ج ٨ / ص ١١٨)، وذكره الحاكم في المستدرك (٢٠٥٧) (ج ١ / ص ٧٤٧) وأصله في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

وعنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))[10] وقد رواه مسلم في الصلاة.

الزهراوان: المنيرتان، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصوافُّ: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران))، وضرب لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: ((كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما))[11] ورواه مسلم والترمذي وقال حسن غريب."

معنى ((بينهما شرق)): يعني بينهما فاصل.

وهذا الحديث يفسر الحديث الذي قبله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الذي قبله: ((فإنهما يأتيان يوم القيامة..)) إلى أن قال: ((يحاجان عن أهلهما)): فما المراد بـــ أهلهما هل هو مجرد الحفظ إن كان حافظاً لهما؟

لا، بل إن المقصود يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))، فأصحاب البقرة وآل عمران هم الذين يحفظونهما ويفهمون معانيهما ويعملون بهما، ولهذا بقي ابن عمر -رضي الله عنه- ثمان سنين يحفظ سورة البقرة، وبقي عمر -رضي الله عنه- اثنتي عشرة سنة يحفظها، ثم نحر جزوراً ودعا الناس فرحاً واستبشاراً بهذا الإنجاز.

ولذلك كان الرجل إذا أخذ البقرة عظم في أعينهم؛ لأنه صار فقيهاً؛ لأنها تشتمل على أكثر الأحكام، فهي أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام وأطول سور القرآن، فمن عرف هذه الأحكام التي في سورة البقرة، فإنه يمر به كثيرٌ مما يذكر في التفسير بعدها، فتكون بقية الأمور التي تذكر في الغالب مكررة، أعني مما يحتاج إليه في فهم التفسير من جهة الأصول، والقواعد وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال هنا سؤال يرد في مثل هذه الأحاديث وهو أن هاتين السورتين تأتيان كأنهما ظلتان أو غيايتان، ومعلوم أن القرآن كلام الله -عز وجل- وهو صفة من صفاته، فما المراد بذلك؟

المراد بذلك الثواب أي: ثواب القرآن أو قل: ثواب وأجر قراءة سورة البقرة وآل عمران وأجر العمل والتدبر لهما، والله أعلم، وهذا الذي ذكره جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد والبغوي، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

10 - صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

11 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) (ج ١ / ص ٥٥٤)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في سورة آل عمران (٢٨٨٣) (ج ٥ / ص ١٦٠).

-رحمه الله- في المجلد الخامس من الفتاوى في صفحة ثلاثمائة وسبعة وتسعين تقريباً، وكذلك ابن القيم في مختصر الصواعق صفحة أربعمائة تقريباً من الجزء الثاني في المختصر، وكذلك ذكره الترمذي قبلهم، ذكره في السنن.

كذلك الأحاديث الأخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين-: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة))، جاء في لفظ البخاري: ((المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة))[١٢]، فلا بد من العمل بالقرآن أي أن مجرد القراءة لا تكفي.

وكذلك الحديث الآخر: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)) جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن وهو يحفظه مع السفرة الكرام البررة))[١٣] يعني مع الملائكة، والسفرة أي: سفراء بين الله وخلقه، فيكون بهذه المنزلة إذا كان يحفظ وليس مجرد أن يقرأ مجرد قراءة، وقوله: ((والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[١٤] يعني يتتعتع في الحفظ، أي أن حفظه فيه ضعف.

وأما بالنسبة لحديث: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله))[١٥] فهي مسألة أخرى إذ يحتمل أن يكون على ظاهره، والمقصود به الأحفظ؛ لأنه قال بعده: ((أعلمهم بالسنة))؛ لأن الفقه يكون بالعلم بالسنة مع القرآن فلا يكون فقيهاً ما لم يعلم بالسنة، فظاهر هذا يدل على أن المقصود الحفظ.

ويحتمل معنىً آخر وهو أن يكون في ذلك الحين أقرأهم أي يكون فقيهاً، كما سبق في ذكر ابن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثمان سنين، ولذلك إذا قيل: القراء في ذلك الوقت -كأن يقال: قتل سبعون من القراء في بئر معونة- فهؤلاء علماء وليسوا مجرد حفاظ أو كثيري القراءة فقط، فهم ما كانوا مثلنا الآن، تجد الواحد يحفظ ولا يفهم شيئاً مما يحفظ، فقول القائل: دخل القراء على عمر -وكان القراء هم أهل مجلسه- المقصود بهم العلماء، وكذلك ما ورد من بعض الآثار بأن أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها فإن المقصود به أهل العلم وطلاب العلم.

"والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن."

سورة البقرة لا شك أنها سورة مدنية، وهذا نقل عليه الإجماع غير واحد، وهي أول سورة نزلت في المدينة، لكنها لم تنزل جملةً.

---

[12] - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٤٧٧٢) (ج ٤/ ص ١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها- باب: فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) (ج ١ / ص ٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[13] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[14] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

[15] - أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة – باب: من أحق بالإمامة (٦٧٣) (ج ١ / ص ٤٦٥).

وهنا ابن كثير يشير إلى أن بعضها قد تأخر نزوله فهي نزلت مفرقةً، ولذلك فإن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على الراجح أنها الآيات التي في آخر سورة البقرة -آيات الربا وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} وآية الدين، ولذلك فمن قال: إن آخر ما نزل آية الدين فلا شك أنها في الترتيب هي آخر هذه الآيات نزولاً بالترتيب، فيصح أن يقال: إن هذا آخر ما نزل من القرآن، بمعنى أنها نزلت مجتمعة أعني هذه الآيات التي في آخر البقرة، وهذا أقوى ما قيل في آخر ما نزل مطلقاً، كل ذلك مع أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت في المدينة، لكن آخر ما نزل من السور هي سورة براءة ولم تنزل كاملة.

وآخر ما نزل من السور مشتملة على الأحكام سورة المائدة، لهذا تجدون في بعض الروايات أن سورة المائدة هي آخر ما نزل، والمعنى في الأحكام، وسورة براءة آخر ما نزل من السور وليس جميع سورة براءة، إذ من المعلوم أن صدرها نزل عام تسع في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وجملة كبيرة منها نزلت في مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك.

"يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل، وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن."

خالد يسمي هذه السورة بسورة الفسطاط، وسبق الكلام على هذا في الكلام على أسماء السورة، حيث ذكرنا لها نحو سبعة أسماء، وإن كان بعض هذا لا يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث جاء حديث موضوع في تسميتها بفسطاط القرآن، لكن الصحيح أن هذا من كلام التابعين.

والفسطاط يطلق على الخيمة، ويطلق على المدينة، وعلى كل فالفسطاط هو ما يحيط بغيره، فيكون قيل لها ذلك ربما لإحاطتها بكثيرٍ من الأحكام، حيث اشتملت على أحكام لم تشتمل عليها سورة مثلها، فهي أكثر السور اشتمالاً على الأحكام، وربما يكون لعظمها وفضلها ومنزلتها وما أشبه ذلك، وعلى كل حال فسطاط القرآن تشتمل على أحكام كثيرة.

"قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم."

وهذا أيضاً سبق الكلام عليه وذكر الخلاف في عدد كلماتها، وفي عدد حروفها، وذكرنا سبب هذا الخلاف، وأشرت إليه في أول هذه الدروس، فعلى كل حال الأمر في هذا سهل إذا عُرف وجهه؛ لأن ذلك إنما يكون بسبب ما ذكرت من الأمور التي توجب هذا التفاوت، سواء في عد الآيات أو في عد السور، وأن مرجع ذلك إلى القراءة في بعض نواحيه، ومنه ما يرجع إلى طريقة العد، هل يعد الحرف المرسوم وإن لم ينطق به، وهل يعد الحرف المشدد حرفاً واحداً أو حرفين، وكذلك ما ينطق به ولا يكتب من الحروف في الرسم هل يعد أو ما يعد؟

"قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة،

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد -رضي الله تعالى عنه-.

الظاهر أنه عتبة بن فرقد وليس ابن مرثد، هو هكذا في معجم الطبراني الكبير عتبة بن فرقد، صحابي سُلمي.

عن عتبة بن فرقد -رضي الله تعالى عنه-: رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه تأخراً فقال: ((يا أصحاب سورة البقرة))[16] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين."

أي نعم، كان يوم حنين، وجاء هذا في صحيح مسلم وفي غيره من حديث العباس لما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوهم، وجاء أيضاً من حديث شيبة العبدري -من بني عبد الدار- في قصته المعروفة لما خرج وهو يريد أن ينتقم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك جاء من حديث أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك أيضاً جاء عن غيره في بعض الروايات التي فيها ضعف، لكن على كل حال لا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا في يوم حنين أمر العباس أن يدعوهم: ((يا أصحاب الشجرة، أو يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة))[17]، وأصحاب السمرة المقصود بهم أصحاب الشجرة، يعني الذين بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، في صلح الحديبية، بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعضهم يقول: على الموت، والمشهور والراجح أنهم بايعوه على ألا يفروا، وعلى كل حال جاء هذا في عدد من الأحاديث كما سبق، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو غير ذلك.

"وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين، أمر العباس فناداهم: ((يا أصحاب الشجرة)) يعني أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: ((يا أصحاب سورة البقرة))؛ لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم -رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين-."

يوم اليمامة كان جيش المسلمين فيه أعراب كثير، وكان هؤلاء الأعراب في أول الجيش، فلما حصلت المواجهة تضعضعوا وانهزموا، فقام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فجمع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن حضر من أهل بدر، فجعلهم في مقدم الجيش، وكان شعارهم يا أصحاب سورة البقرة، هذا الشعار يوم اليمامة، فثبتوا واشتد الناس، وقتل في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة كبيرة، وكان ذلك سبباً في جمع القرآن لما أشار بذلك عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين، فثبتوا ذلك الثبات العظيم، وفتح الله -عز وجل- عليهم.

على كل حال هذا جاء عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وهو ثابت بإسناد صحيح عند عبد الرزاق وفي المصنف وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور، يعني في يوم اليمامة.

---

[16] - أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه علي بن قتيبة وهو ضعيف.

[17] - أخرجه أحمد (١٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٠٧) وابن حبان (٧٠٤٩) (ج ١٥/ ص ٥٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

"بسم الله الرحمن الرحيم: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} [(١-٥) سورة البقرة].

{الم} الحروف المقطعة التي في أوائل السور، هي مما استأثر الله بعلمه."

على كل حال تذكرون في درس الجمعة أننا ذكرنا مسائل كثيرة تتعلق بالسورة كالكلام على موضوعها ومقصودها والقضايا التي ناقشتها، وربما حتى فواصل الآية يعني أواخر الآيات، آخر حرف أو آخر كلمة في الآية تنتهي بأي أحرف، مثل القوافي في الشعر، وقلنا: إنها تجمع بكلمتين (قم لندبر) بينما الفاتحة يجمع فواصلها حرفان هما الميم والنون، فالبقرة قم لندَّبَّر، فالعلماء منهم من يجعل ذلك لجميع سور القرآن، يعني كل سورة يذكر لها الحروف التي تنتهي فيها، ويجمعها بجملة أو بكلمة أو بكلمتين أو نحو هذا، فهذه الحروف التي تنتهي فيها الفواصل في هذه السورة مجموعة بـــ (قم لندبر).

كذلك ذكرنا أشياء أخرى منها قضايا النسخ في هذه السورة، ودعاوى النسخ فيها، وقلنا: إن الدعاوى قاربت أو بلغت ستاً وعشرين، لكن لا يثبت منها إلا القليل جداً في البقرة وفي غير البقرة.

"روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-."

ذكرنا أيضاً في ذلك الحين أن الحروف المقطعة فيها أقوال كثيرة، فبعضهم سرد فيها ستةً وعشرين قولاً، وبعضهم يذكر أقل من هذا، وبعضهم ربما أوصلها إلى ثلاثين، وعند الاستقراء يمكن أن ترجع إلى أقوال محصورة، وفي ذلك الحين ذكرنا أنها ترجع إلى ثلاثة أقوال، يعني منهم من يقول: إن هذه الحروف المقطعة هي عبارة عن اقتضاب لأسماء أو أوصاف، أو لكلمات أول لجمل، وإنها عبارة عن رموز، وهذا يدخل تحته ثمانية أقوال مما قيل في ذلك، يعني من يقولون: إنها اختصار لجملة أو كلمة، لو جمعت الأقوال لأكثر من عشرين قولاً ستجد أن ثمانية منها ترجع إلى أنها عبارة عن رموز وإن اختلفوا في فك أو تفسير أو بيان المراد بهذه الرموز، وعلى كل حال هذا فيه نظر.

وبعضهم يقول: إنها عبارة عن أسماء، إما اسم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو للقرآن أو غير ذلك، أسماء أو أوصاف، وهذا وإن اختلفوا فيه لكنه يدخل تحته نحو أربعة أقوال مما قيل في تفسير هذه الحروف.

والثالث أنها حروف هجاء أي حروف المعجم، أو قل: حروف مباني، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين حروف المباني وحروف المعاني، ولكن هذه الحروف هي حروف معجم ليس لها معنى في نفسها بطبيعة الحال إذا قيل: إنها حروف معجم، أي ليس لها معنى في نفسها، وهذا يرجع إليه نحو أربعة عشر قولاً.

المقصود أن هذه الحروف ترمز لشيء معين، ومن أشهر الأقوال أنها ليس لها معنى في نفسها، لكن فيها إشارة إلى قضية التحدي والإعجاز، بمعنى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله.

بل إن بعض أهل العلم مثل ابن العربي قال: إن الحروف الواردة في أوائل السور -الحروف المقطعة- هي نصف الحروف الهجائية!! فهذا فيه إشارة أن القرآن ركب من نصف الحروف، فركبوا قرآناً آخر من النصف الباقي، لكن هذا القول لا يخلو من تكلف، وعلى كل حال الله تعالى أعلم.

لكنْ فيه ملحظ ذكره بعض أهل العلم مثل الشوكاني حيث نبه على قضيتين تفيد في هذا المعنى وهي أن على القول: إن لها معنى في نفسها هذا غير معهود في كلام الناس، وإن حاولوا أن يأتوا ببعض الألفاظ أو بعض الأشعار، كقول من قال: قلت لها قفي قالت قاف، لكن هذا غير متداول، فالناس حينما يخاطبون به لا يفهمون المراد.

الأمر الآخر أنها إذا كانت رموز وتحتاج إلى فك، وذكروا تحتها معاني كثيرة جداً غريبة عجيبة، فهذه الرموز هل عندهم أثارة من علم في فكها وتفسيرها بهذه الطريقة؛ لأنه لا يصل إليها الذهن بالاجتهاد، ولا يوجد شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إطلاقاً في هذا، فمن أين جاءوا بها وقد اختلفوا في فك هذه الرموز؟ فالله أعلم، وعلى كل حال فلعلَّ هذا القول من أقرب هذه الأقوال.

"**وقيل: هي أسماء السور، وقيل: هي فواتح افتتح الله بها القرآن.**"

القول الأول الذي ذكره، حيث قال: هي مما استأثر الله بعلمه، هذا قال به جماعة من الأئمة، وبناءً على ذلك يكون قد وقع في القرآن ما يعرف بالمتشابه المطلق من جهة المعنى، بمعنى أنه يوجد في القرآن أشياء لا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف معناها ولا غيره من الأمة، وهذا القول مشكل، وهو وجهٌ في تفسير آية آل عمران {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران] على الوقف هنا، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الوقف لا شك أنه ثابت صحَّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، والمراد بها على الوقف عند قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} حقائق الأمور الغيبية وكنهها، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي، فليس المراد به التفسير، ولذلك يقال: لا يوجد في القرآن متشابه مطلق أبداً من جهة المعنى، وإنما يوجد فيه متشابه مطلق من جهة الكيفية، فآية آل عمران على الوقف {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} يقال: المتشابه هنا المطلق على الوقف المراد به حقائق الأشياء وكنهها، فالله لم يخاطبنا بألغاز في القرآن، وإنما أخبرنا عن هذا القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه بلسان عربي مبين.

القراءة بالوصل: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، يكون المراد بالتأويل هنا التفسير، يكون المراد به التفسير بالمعنى، وهو ثابت أيضاً عن ابن عباس، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، فكل هذا صحيح، لكن على هذا القول أن الحروف المتقطعة من المتشابه من أن هذا لا يعلمه إلا الله وإنما هو مما استأثره بعلمه، فيكون معنى ذلك أنه من المتشابه المطلق، لكن من قال: لها معنى وفسره فهي بالنسبة لمن لا يعرف ذلك من المتشابه النسبي، عند من يثبت لها معنى.

"**وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها: {ق} و{ص} و{حم} و{طسم} و{الر}، وغير ذلك هجاء موضوع.**"

يعني هذه الفواتح التي مثَّل لبعضها، وكذلك ما لم يمثِّل له، هي هجاء موضوع، يعني بهجاء أنها حروف هجاء (أبجد هوز)، (أ، ب، ت، ث...).

الحروف -كما سبق- تنقسم إلى قسمين: حروف معنى، وحروف مبني. وحروف المعنى هي التي يجعلها النحاة القسم الثالث مما يتركب من الكلام، فهم يقولون: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ويقصدون بحروف المعاني حروف الجر، فـ"إلى" تدل على الغاية، و "في" تدل على الظرفية وما أشبه ذلك.

فالنحاة يقولون في معنى الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والفعل هو ما دل على معنىً في نفسه واقترن بزمان والحرف يقولون: هو ما لم يدل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، وإنما هي للربط والوصل، وكلامهم هذا ردَّ عليهم فيه شيخ الإسلام فقال: إن "في" تدل على الظرفية ولها معنى في نفسها... إلى آخره، مع أنهم يقصدون شيئاً آخر غير ما قصده شيخ الإسلام، والأمر في هذا سهل.

فعلى كل حال الشاهد هنا قوله: **حروف هجاء:** وحروف الهجاء -حروف المعجم- ليس لها قطعاً معنى في نفسها بالاتفاق، فـــ "الباء" حينما تكون من حروف المعاني نقول عنها: حرف جر لها دلالة، تدل على المقاربة والملاصقة، لكن حينما نقول مثلاً: "بئر" فهذه الباء ليس لها معنى في نفسها إطلاقاً، وإنما لما تركبت مع غيرها صارت تمثل كلمة، فمن يقول: إن هذه حروف تهجي فمعنى ذلك أنها ليس لها معنى في نفسها؛ لأنه لا أحد يدعي أن حروف التهجي لها معنى في نفسها، وهذا هو المراد والله أعلم.

وهذه الأقوال المنتثرة، والتي ما ذكر منها هنا إلا أقل من القليل، يمكن أن تُرَجع إلى الأقوال الثلاثة الأصلية.

"**وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً.**"

بناءً على أن الحروف العربية تبلغ هذا العدد، وبعضهم يزيد حرفاً، فيقول: تسعة وعشرون على أن "لام ألف" حرف.

"**كما يقول القائل: ابني يكتب في "أ ب ت ث" أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.**"

طريقة ترتيب الحروف بعضهم يجعلها: "أ ب ت ث" وبعضهم يجعلها: "أبجد هوز حطي..."إلى آخره، ولذلك كتب القواميس والمعاجم أحياناً ما تجدها على الترتيب المعروف "أ ب ت ث" فيظن ظانٌّ أنه ترك بعض الكلمات، وهو ما تركها وإنما سار فيها على الطريقة الأخرى في الترتيب.

"**قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً.**"

هي طبعاً جاءت في تسع وعشرين سورة، وعامة هذه السور التي بُدئت بالحروف المقطعة هي من السور المكية، فالمدنية مثل البقرة وآل عمران، لكن عامة السور التي بدئت بالحروف المقطعة إنما هي من السور المكية.

يقول: "**مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً**" ومن غير حذف المكرر تبلغ ثمانية وسبعين حرفاً.

"**وهي "أ ل م ص ر ك هــ ي ع ط س ح ق ن " يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر".**"

يجمعها قولك: "**نص حكيم قاطع له سر**": ويمكن أن تجمعها جملٍ أخرى مثل: "ألم يسطع نور حق كره"، وبعضهم يركب غير هذا من الجمل من أسهلها: "طرق سمعك النصيحة".

"**وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك.**"

نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك: ما معنى أشرف من المتروك؟

الحروف تنقسم إلى حروف استعلاء وحروف استفال، فنجد أن المذكور هو الأشرف دائماً، فأشرف هذه الحروف هي المذكورة في نصف الحروف الهجائية.

"وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة."

بالنسبة للقلقلة حروفها خمسة، والمذكور في أوائل السور منها أقل من النصف وليست النصف.

"وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها."

هناك أشياء أخرى مثل الصفير ثلاثة حروف "السين" و"الصاد" و"الزاي" المذكورة منها في الحروف المقطعة في أوائل السور هي "السين" و"الصاد"، وما ذكرها الزمخشري، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، المذكور منها اثنان "الألف" و"الياء".

يقول ابن كثير: **وقد سردها مفصلة**: ثم جاء بكلام الزمخشري: **فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها**: ما معنى قول الزمخشري: مكثورة بالمذكورة منها؟ أليست هذه الأحرف المذكورة كما قال هو: إنها النصف، فكيف صارت هي مكثورة؟

المقصود بذلك هو أن الأكثر تكرراً قي القرآن واستعمالاً هي الحروف المذكورة في أوائل السور، أي هي أكثر ما يتكرر في تركيب الكلام في جميع القرآن، وقد عدوا كل حرف كم مرة ورد في القرآن، فالحروف المذكورة في أوائل السور هي الأكثر استعمالاً في القرآن، وهذا هو المراد بقوله: إنها مكثورة يعني الحروف المتروكة مكثورة بالمذكورة.

"وقد علمت أن معظم الشيء وجلَّه ينزل منزلة كله."

معنى هذه العبارة أنه في حالة ما إذا أتى سائل معترض وقال: أنت تقول: إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية، والقرآن مركب من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وتقول: إن الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها ولكنها ترمز للتحدي من أن تأتي أحد بمثل هذا القرآن مركباً من هذه الحروف، فأين النصف الباقي من الحروف التي وردت في القرآن، فيقال: إن أغلب ما ركب منه الكلام هو النصف المذكور في أوائل السور، وما كان جلُّ الشيء منه يمكن أن يعبر عنه بأنه الكل أو الجميع أو نحو ذلك من باب التغليب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المفسر -رحمه الله تعالى- حول الحروف المقطعة: ومن هاهنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلامًا، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها -سبحانه وتعالى- عبثًا ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران].
ولم يُجمِع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الخلاف الكثير في هذه الحروف المقطعة، والأقوال التي قيلت في ذلك ليس في ذلك كله شيء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وليس فيه إجماع، ومن ثَمَّ فإنه لا يمكن القطع بشيء من هذه التفسيرات، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن بعضهم من أنه لا بد أن تكون هذه وضعت لمعنى وأنه لا يمكن أن يكون في القرآن شيء من الألفاظ لمجرد التعبد، وليس له معنىً في نفسه أصلاً، فلا شك أن القرآن ليس فيه حشو، وقد سبق الكلام على هذا في درس أصول الفقه، قول صاحب المراقي:

.... ولم يكن في الــوحي حــشو يقــع

ولكن هذه المعاني عموماً إنما تكون في الألفاظ من حروف المعاني والكلمات، سواءً كانت من الأسماء أو من الأفعال، وأما الحروف –أعني المباني- فإنه ليس لها معنىً أصلاً في لغة العرب، فإذا عبر بها فإن هذا التعبير إنما يكون لأمر ما، أي: جيء بها لإيصال معنىً أراد المتكلم أن يصل إلى عباده.
فهذا الذي ذكره بعض أهل العلم -وهو قول كثير من المحققين- من أنها تشير إلى قضية الإعجاز، فهي لم تسق عبثاً، لكن ليس لها معنى في نفسها إلا أنها تشير إلى قضية الإعجاز، فهذا القول ليس فيه نسبة الحشو إلى القرآن، ولكن كلام أهل العلم على كل حال هو في الألفاظ التي وصفت من الأسماء والأفعال وحروف المعاني، وهذا هو كلام العرب، الكلام عند العرب: هو اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأما حروف التهجي فليست من هذه القسمة الثلاثة، وإنما هي حروف يركب منها كلام العرب الذي له معنى، فالعين (ع) إذا ركبت مع اللام (ل) مع الألف المقصورة (ى) صارت على، فصار لها معنى.
والزاي (ز) تركب مع الياء (ي) مع الدال (د) فتكون زيد، أي صارت اسماً، وهكذا، هذا هو المراد والله تعالى أعلم.

ولذلك حتى التشابه المطلق -كما أشرت بالأمس- لا يوجد في القرآن شيء من المتشابه المطلق من جهة المعاني، كل ما في القرآن فالأمة تعرف معناه ولو بعض الأمة وإن خفي على بعضهم، والتشابه في هذا الباب -أعني من جهة المعاني والتفسير- إنما هو تشابه نسبي، وليس تشابهاً مطلقاً، ومعنى تشابه نسبي أي أنه متشابه بالنسبة لبعض الأمة، لذا قال الله -عز وجل-: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٤) سورة المعارج]، وفي موضع آخر يقول: {أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٥) سورة السجدة]، فهذا قد يلتبس على بعض الناس، ولكن من عرف معناه ولم يشكل عليه، لا يكون بالنسبة إليه من المتشابه، فهذا التفصيل في هذا المقام ينفي هذه الإشكالية، والله تعالى أعلم، وبالتالي نقول: لا يوجد في القرآن شيء لمجرد التعبد فقط أبداً، بل كل ما فيه من كلام فهو لمعنى.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها.

من أهل العلم من يرى أن الحروف المقطعة لها معنىً في نفسها، إضافة إلى كونها تشير إلى قضية الإعجاز، فالذين قالوا: إنها تشير إلى قضية الإعجاز، منهم من قال: ليس لها معنى في نفسها، ومنهم من ذكر لها معنى.

فقيل: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكره فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه، ونصره أتمَّ نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المِزِّي، وحكاه لي عن ابن تيمية.

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن.

قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله: {ص} [(١) سورة ص]، {نَ} [(١) سورة القلم]، {ق} [(١) سورة ق]، **وحرفين مثل:** {حم} [(١) سورة غافر]، **وثلاثة مثل:...**

السور التي بُدئت بحرف واحد هي هذه الثلاث فقط، في سور، ن، وص، وق، والتي بدئت بحرفين هي قوله: {حم} في عشر سور، والذي جاء على ثلاثة أحرف اثنا عشر سورة.

وثلاثة مثل: {الم} [(١) سورة البقرة]، **وأربعة مثل:** {المر} [(١) سورة الرعد]، و{المص} [(١) سورة الأعراف]، **وخمسة مثل:** {كهيعص} [(١) سورة مريم]، و{حم* عسق} [(١-٢) سورة الشورى]؛ **لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، لا أكثر من ذلك، ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء.**

نحن حينما نلتمس العلة التي سيقت من أجلها الحروف المقطعة، نجد بعض الأمور التي لربما يستشف منها بعض العلل، فلا تكاد تذكر غالباً إلا ويذكر بعدها القرآن: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١-٢) سورة البقرة]،

وفي آل عمران: {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [(١-٣) سورة آل عمران]، هذا في عامة المواضع، إلا أنه يشكل على ذلك بعض السور، وقد ذكرناها، فمن ذلك سورة مريم: {كهيعص* ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} [(١-٢) سورة مريم]، فبعض أهل العلم حاول أن يربط ذلك بالكتاب فقال: ذكرت هنا الرحمة، ولا شك أن الرحمة تشمل الوحي، فإن الوحي رحمة من الله -عز وجل- للخلق.

والسورة الثانية العنكبوت: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [(١-٢) سورة العنكبوت]، فذكر في سورة العنكبوت قصصاً، وقالوا: القصص هو من خصائص القرآن، ومن الموضوعات التي تدور فيه التوحيد والأحكام والقصص، فالحاصل أن هذه القصص إنما هي من قبيل الوحي كما قال في سورة يوسف: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [(٣) سورة يوسف]، فالحاصل أنهم التمسوا هذا التوجيه.

والسورة الثالثة سورة الروم {الم* غُلِبَتِ الرُّومُ} [(١-٢) سورة الروم]، فقالوا: هذا فيه إخبار عن الأمور الغيبية، فهو أخبر عن أمر من الغيب النسبي وهو الهزيمة التي وقعت للروم في مواجهتهم مع الفرس ولم يعلم بها المسلمون بعد في مكة، وأخبرهم عن غيب مطلق مستقبل وهو أنها ستكون الكرة لهم، وسينتصرون في بضع سنين، فقالوا: هذا الإخبار عن غيبيات ولا شك أنه من الوحي، وبالتالي فالقرآن أو الوحي مذكور بعد جميع الحروف المقطعة، ولكن هذا فيه ما فيه، ويكفي أن الغالب في هذه المواضع إنما يذكر فيه القرآن، فهذا قد يستشف منه ما ذكر من قضية التحدي بهذه الحروف، أي التحدي بهذا القرآن، فهذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، ومن ثم فأتوا بقرآن مثل هذا.

وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١-٢) سورة البقرة]. {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(١-٣) سورة آل عمران]، {المص* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} [(١-٢) سورة الأعراف]، {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [(١) سورة إبراهيم]، {الم* تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة]، {حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(١-٢) سورة فصلت]، {حم* عسق* كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١-٣) سورة الشورى]، **وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم.**

على كل حال هناك أقوال شاذة يقطع تماماً ببطلانها مثل الذين قالوا بأن هذه الحروف تفسير بحساب الجُمَّل، وكذلك قول من قال بأن هذه الحروف ترمز إلى أشياء تتعلق بالسورة، وبدؤوا يتكلفون في تركيب السورة بناءً على هذه الحروف في أولها، وأبعد من هذا كله، وأكثر هذه الأقوال شذوذاً وانحرافاً هو قول بعض الجهلة: إن هذه تفسر على أنها من الحروف الهيكروليفية -هذه باللغة المصرية- يقول: أصلاً اللغة المصرية هي أصل اللغة العربية، فيفسر القرآن بهذه اللغة القديمة المنقرضة -إن صحت- فيأتي بمعان عجيبة غاية العجب، إذ لا يعقل ولا يمكن أن القرآن يخاطب الناس بهذا الغموض بلغة أخرى.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] **الكتاب: القرآن، والريب: الشك.**

قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن مرة الهَمْدانيّ عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}: لا شك فيه.

على كل حال السلف -رضي الله عنهم- يفسرون اللفظة بما يقرِّب المعنى، فلا تكاد تجد في تفسيرات السلف التدقيق والتنقير بالعناية بذكر المعاني التكميلية، والاشتغال بالفروق بين الألفاظ بناءً على ذلك، وإنما يفسرونها تفسيراً يقرِّب معناها فحسب، ولهذا فهم يفسرون الريب بالشك.

وعلى قول من يقول بوجود الترادف في اللغة وفي القرآن يمكن أن يكون هذا منه، والذين يفرقون ويقولون: لا يوجد في القرآن مترادف، يقولون: الريب غير الشك، وإن كان يشترك معه في المعنى الأصلي وهو وجود التردد، لكن الفرق بين الريب وبين الشك هو أن الريب شكٌّ مع قلق، وبعضهم يقول: شكٌّ مع وجود تهمة.

وابن القيم -رحمه الله- يذكر بين الشك والريب سبعة أوجه من الفروقات، في المعنى وفي الاستعمال، ما تقول: أنا والله مرتاب هل الشمس خرجت الآن وإلا ما خرجت، لكن تقول: أنا أشك الآن في خروج الشمس، فلو أن إنساناً دخل في مكان فهذا الدخول قد يكون مريباً فيبعث على القلق أو التهمة، إذ هو ليس مجرد شك.

فعلى كل حال إذا أردنا أن نبحث عن المعاني الزائدة عن المعنى الأصلي، يمكن أن نقول: إن ثمة فرقاً بين الريب والشك، فالله يقول: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة]، يعني ليس فيه شك أو لا يلحقه شك أو تهمة، أو لا يبعث على القلق هل هو حق أو ليس بحق.

المقصود أن قوله: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} أي: لا شك أنه موحى من الله -عز وجل-، هذا هو المعنى المتبادر، ومما يؤخذ من هذه الآية وما تحتمله أيضاً، ويمكن أن يجتمع ذلك جميعاً فتفسر به أنه ليس فيه ريب أنه من عند الله، ولا يتضمن أموراً تبعث على الريب من وجود تناقضات كما في كتب المتقدمين التي حرفت، فالقرآن ليس فيه شيء يبعث على الريب لا في ألفاظه ولا في معانيه.

وأيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} هذا نفي، ومثل هذا النفي إذا ورد في أوصاف الله -عز وجل- أو أوصاف الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو أصاف القرآن فإن القاعدة أنه يتضمن ثبوت كمال ضده، فإذا قال: لا ريب فيه فهذا يتضمن ثبوت معنىً وهو أنه مشتمل أو متضمن لكمال اليقين.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} نفي الريب عنه هذا لا شك أنه واقع موقعه، وأن ريب من ارتاب إنما جاءه إما لفساد قصده، أو لقصور فهمه، وإلا فالقرآن من حيث هو ليس فيه ما يبعث على الريب، ولا ريب أيضاً أنه من عند الله -عز وجل- موحى، وأدلة ذلك كثيرة جداً، ويكفي الإعجاز.

وليس معنى هذا أنه لا يرتاب فيه أحد، فالله قال: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}، والذين ارتابوا إنما أتوا من فساد قصدهم، أو من فساد تصورهم، وقصور فهمهم وعلمهم، فهو لا ريب فيه وإن ارتاب فيه بعض الناس.

وقاله أبو الدرداء وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد، وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافًا.

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب -وهو القرآن- لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: {الم* تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة].

هذه الآية في سورة السجدة ترجح أحد الموضعين في الوقف في الآية، فمن المعلوم أن قوله: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة]، إما أن يكون الوقف على {رَيْبَ} فتقول: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وإما أن تقف على {فِيهِ} هكذا: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، ويختلف المعنى بهذا الاعتبار.

فهذه الآية في سورة السجدة {لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} المعنى واضح جداً فيها حيث نفى عنه الريب، فيكون الوقف على قوله: {فِيهِ}، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}، فنفى عنه الريب، ثم وصفه بأنه هدى للمتقين، وهذا أبلغ من الوقوف على قوله: {لاَ رَيْبَ}، فكأنه يقول: ذلك الكتاب لا ريب ولا شك، فيه هدى للمتقين، فإن وصف القرآن بأنه هدى أبلغ من قولك: في القرآن هدى؛ لأن القرآن كله هدى، فهذا أبلغ من الأول، وبالتالي يكون الوقف على قوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أحسن من الوقف على قوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}، لكن لا يقال: إن الوقف على الثانية منكر وينكر على صاحبه وأنه أفسد المعنى، بل هو محتمل، ومعلوم أن كثيراً من قضايا الوقف هذه إنما مرجعها إلى النظر والاجتهاد بحسب ما يلوح من المعنى.

وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه.

على كل حال هو خبر لا ريب فيه يمكن أن يقال: إنه يتضمن النهي، أي لا ترتابوا فيه، مثل قوله تعالى: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] هذا خبر يتضمن الأمر، بمعنى أن الله يعلمهم كيف يحمدونه، قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ} [(٥٩) سورة النمل]، فالحاصل أن الله علمهم بذلك من أجل أن يحمدوه، وقل مثل هذا أيضاً في مواضع أخرى في كتاب الله -عز وجل- كقوله في سورة البقرة أيضاً: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} [(٢٧٢) سورة البقرة]، فلا شك أن الصيغة صيغة خبر، وهو مع هذا يتضمن طلب الإخلاص، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الآية تدل على اشتراط الإخلاص وطلبه، فهي على سبيل الشرط، وإن لم تكن الصيغة صيغة طلب لذلك.

ومن القراء من يقف على قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ} ويبتدئ بقوله تعالى: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] والوقف على قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة]، أولى للآية التي ذكرناها؛ ولأنه يصير قوله تعالى: {هُدًى} صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: {فِيهِ هُدًى}.

و{هُدًى} يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت، ومنصوبًا على الحال.

طبعاً المرفوع لا تظهر علامة الرفع عليه هنا؛ لأن آخره حرف علة، فالألف من حروف العلة لا تظهر عليه الضمة، ولا الفتحة، ولا الكسرة، لا تظهر عليه حركات الإعراب للتعذر.

وخصّت الهداية للمتقين. كما قال: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [(٤٤) سورة فصلت].

هذا جواب لسؤال هو: لماذا خص الله -عز وجل- الهدى بالمتقين مع أن القرآن هدىً عام للأحمر والأسود، فلماذا خصه بالمتقين كما قال الله -عز وجل-: {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [(١٦) سورة المائدة]، فالقاعدة في هذا الباب أن الشيء قد يكون عاماً فيصح أن يخص

ببعض أفراده لكونهم المنتفعين به، حيث يصح في كلام العرب أن يخص الشيء العام في بعض الأفراد؛ لأنهم هم المنتفعين به مع أنه عام، فالقرآن هدى لجميع الخلق، وعلى كل حال جاء وصف القرآن بهذا، ووصف القرآن بهذا، وجاء فيه التفصيل بأنه هدىً للمتقين، وأن الذين لا يؤمنون يكون سبباً لعماهم، فإذا أنزلت السورة وقع لهم التخبط والعمى فيقولون: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} [(٣١) سورة المدثر]، ويقولون: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [(١٢٤) سورة التوبة]، ويقولون: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [(١٦) سورة محمد]، إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فهؤلاء أهل النفاق لا يفهمون، ويكون ذلك سبباً لمزيد من غوايتهم {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٥) سورة التوبة] نسأل الله العافية.

وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [(٥٧) سورة يونس].

يعني أن القرآن موعظة للجميع وشفاء لما في الصدور، وهو هدىً أيضاً، ولكن لما كان الذي يهتدي به هم أهل الإيمان خصهم بذلك، وإلا فهو عين الهدى، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله -عز وجل-، ومن ثَمَّ فإن وصفه بالهدى بهذا الأسلوب لا شك أنه يدل على أن القرآن مشتمل على حقيقة الهدى في ألفاظه ومعانيه بكل ما يمكن أن تحتمله لفظة {هُدًى}.

قول الله -عز وجل-: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ}: ما قال: ننزل من القرآن ما هو دواء؛ لأن الدواء قد يتخلف معه البرء وقد يحصل عكس المقصود من تعاطيه، لكن الله -عز وجل- قال: شفاء، وكذلك في العسل والنحل قال الله -عز وجل- عنه: {يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ} [(٦٩) سورة النحل]، ما قال: فيه دواء للناس.

وعن ابن عباس وابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهم-: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} يعني: نورًا للمتقين.

على كل حال هدىً يعني نوراً وغير ذلك من المعاني التي يقرب بها هذا، والهدى لا يخفى، لكن هل هذا الهدى هنا المراد به هداية التوفيق، أو هداية الإرشاد، أو أنه مشتمل، أو أن المراد بذلك الأمران؟ كل ذلك محتمل، فبعض أهل العلم يقولون: هدىً للمتقين، المراد هنا هداية التوفيق، وذلك أنه خصهم به، فهم الذين تحققت لهم الهداية، وبعضهم يقول: المراد به هداية الإرشاد، لكن لما انتفعوا به خصوا بذلك، وعلى كل حال كل هذا يصح في تفسير الآية، فيقال: القرآن هدى للمتقين، فهو يبصرهم بالحق وبكل ما يحتاجون إليه مما تكون به سعادتهم ويرشدهم إلى كل خير، فهو إرشاد ودلالة بهذا الاعتبار كما أنه هداية بمعنى الإرشاد ودلالة يدل على الله -عز وجل- لعموم الخلق، يعرفهم بالله وبأسمائه وصفاته، وما يليق به، يأمرهم بتوحيده، فهذا كله من هداية الإرشاد والدلالة، وهو هدى للمتقين الذين آمنوا بالله -عز وجل-، واهتدوا بالقرآن وانتفعوا به، ولا شك أن هذه الهداية التوفيقية حصلت لمثل هؤلاء.

لكن يبقى سؤال آخر وهو أن الله -عز وجل- قال: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] هذا وصف للقرآن كله أنه هدى للمتقين، فهل معنى هذا أنه قبل أن ينزل عليهم كانوا متقين؟

قال الله عن الكتاب: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فهو وصف هذا الكتاب بكامله أنه هدى قبل أن ينزل، ولما نزل كان هدى للمتحققين بالتقوى المتصفين بها.

بعض أهل العلم قالوا: إن الكتاب المقصود به التوراة أو الإنجيل، حيث قالوا الله يقول: {ذَلِكَ الْكِتَابُ} وذلك إشارة للبعيد والإشارة للقريب تكون بـــ(هؤلاء) إذن: ليس المقصود بهم الذين نزل عليهم القرآن وإنما المقصود بالكتاب التوراة أو الإنجيل هدىً للمتقين، لكن هذا القول بعيد جداً، بل هو وصف لهذا القرآن.

والذي جعلهم يقولون هذا القول –وهو موجود في كتب التفسير- أمور:

الأول: أن الكتاب يطلق على جميع القرآن ويصح أن يطلق على بعضه مما نزل منه، كما يصح أيضاً أن ينزل ما لم ينزل منزلة ما نزل بأنه متحقق الوقوع والنزول، فيسمى الجميع -ما نزل وما لم ينزل- بهذا الاعتبار يسمى الكتاب.

الثاني: أن الله -عز وجل- عليم حكيم، يعلم حال الخلق، فهؤلاء الذين وصفوا بالتقوى في قوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] يوفقهم الله -عز وجل- ويهديهم لما علم من صلاح قلوبهم وصحة مقاصدهم، فيهديهم، وهان عليه تعالى أقوام وعلم فساد حالهم وقلوبهم وما انطوت عليه نفوسهم فأذلهم، فلم ينتفعوا بهذا القرآن، ولم يدخلوا في الإسلام أصلاً.

ونجد أيضاً أن هذه القرآن يشتمل على ألوان الهدايات مما فصله الله -عز وجل- في بيان الأحكام التي نزلت تباعاً وبيان حقائق الإيمان وما إلى ذلك، فهذا كله لا شك أنه هدايات لمن دخلوا في الإسلام، وهم الذين يستحقون الوصف المذكور وهو التقوى، والمقصود من تحقق التقوى هنا هو الدخول في الإسلام وإلا فالتقوى تعرفون معناها وما جاء فيها.

عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} قال: هم المؤمنون الذين يتَّقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي.

وعنه -رضي الله تعالى عنه- للمتقين قال: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وقال قتادة {لِّلْمُتَّقِينَ} هم الذين نعتهم الله بقوله: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [(٣) سورة البقرة] الآية والتي بعدها، واختيار ابن جرير: أن الآية تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال.

على كل حال هو ذكر شيئاً من أبرز صفاتهم بعده {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة]، كما يقول الله -عز وجل- في صفات أهل الإيمان، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [(٦٣) سورة الفرقان] وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [(١-٢) سورة المؤمنون] إلى آخره مع أن هذا ليس حصراً لأوصافهم، وإنما يذكر طرفاً من أوصافهم أو قد يذكر أبرز وأهم الأوصاف وهكذا، وهذا لا يشكل على كل حال؛ فكل هذه

الأقوال التي قيلت لا منافاة بينها ولا نحتاج إلى شيء من الترجيح، فنقول: هي أقوال صحيحة، ولا شك أن المتقين هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وهم الموصوفون بكل ما ذكر.

وقد روى الترمذي وابن ماجه عن عطية السعدي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس))[1]، ثم قال الترمذي: حسن غريب.

على كل حال هذه الرواية معروف ما فيها من الضعف، وقضايا التصحيح والتضعيف هي من القضايا الاجتهادية، وبالتالي لا تضيق ذرعاً إذا قال لك أحد: بأنه يشترط أن لا يضع في الكتاب إلا روايات صحيحة، ثم تجد بعض الروايات يقال عنها: إنها ضعيفة؛ لأن هذا كله من قبيل الاجتهاد، فالناس يجتهدون، وقد يختلفون في بعض أصول وقواعد الجرح والتعديل، أو بعض قضايا المصطلح ويقع بينهم التفاوت حتى في تطبيقها، فعلى كل حال المعنى الذي ذكر في قوله: ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا)) لا شك أن هذه من أرفع مراتب التقوى، وهي الورع عن الأمور المشتبهة، والورع عن الأمور المكروهة، والورع عن التوسع في الدنيا مما يقعده عن بلوغ المقامات العالية في منازل العبودية، كل هذه الأنواع الثلاثة في الورع -يعني غير ترك الحرام- لا شك أنها إذا تحققت توصل العبد إلى درجة عالية في التقوى، يترك ما لا بأس به من التوسع في المآكل ونحو ذلك، وكان هذا هو مذهب عمر -رضي الله عنه- وكان يتأول قوله -تبارك وتعالى-: **{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}** [(٢٠) سورة الأحقاف] وتعلمون تنزه بعض الصحابة عن بعض الأشياء من اللباس الفاخر جداً، وكل إنسان في هذا الباب بحسبه.

ولذلك لا يليق بالعالم أن يسكن القصور، لكن هذا قد يصلح لبعض العامة من أهل السعة والغنى أما العالم لا يصلح له هذا، وقد لا يصلح له أن يركب المراكب الفخمة جداً التي تنشد إليها أنظار الناس؛ لأن هذا قد يكون نقصاً في حقه، مع أن العامة يترفعون بمثل هذه الأمور ويكملون نقصهم بمثل هذا البهرج، أما العالم فلا، وكذلك قد لا يصلح للعالم أن يلبس فاخر الثياب ونفيس الثياب ذا الثمن الغالي جداً، لكنه يلبس اللباس النظيف المعتدل الذي يليق بمثله، وهكذا، لكل أحد ما يلائمه ويناسبه، فقد يكون هذا زيناً في حق أحد، وشيناً في حق آخرين.

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله -عز وجل-، قال الله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [(٥٦) سورة القصص]، وقال: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [(٢٧٢) سورة البقرة]، وقال: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ} [(١٨٦) سورة الأعراف]، وقال: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [(١٧) سورة الكهف]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد، قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى]، وقال: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [(٧) سورة الرعد]، وقال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [(١٧) سورة فصلت].

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٥١) (ج ٤ / ص ٦٣٤)، وابن ماجه في كتاب: الزهد - باب: الزهد في الدنيا (٤٢١٥) (ج ٢ / ص ١٤٠٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٢٠)

وجه الاستشهاد بهذه الآية: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} على أنها هداية إرشاد؛ لأنها لو كانت هداية توفيق لكان لا بد أن يكونوا قد دخلوا في الإيمان؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لكنهم ما اهتدوا، بل استحبوا العمى على الهدى فبقوا على الكفر فهي هداية إرشاد، فمعنى هديناهم أي بينا لهم الحق من الباطل، فآثروا الباطل.

وهنا مسألة وهي أن كل هداية مثبتة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهي هداية إرشاد، وكل هداية منفية عنه فهي هداية التوفيق.

وقال: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [(١٠) سورة البلد] **على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح، والله أعلم.**

بل هذا هو قول عامة أهل العلم من السلف والخلف، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}: أي بينا له طريق الخير من طريق الشر، وأما القول الآخر في الآية أي: هديناه الثديين حينما يخرج من بطن أمه فيلتقم الثدي فهذا القول في الآية بعيد ولا يتبادر، وإن كان الله -عز وجل- قد هدى الرضيع إلى هذا، لكن هذه الهداية وهداية المخلوقات عموماً لما تقوم به معائشها ومصالحها كلها تسمى هداية فطرية.

وأصل التقوى التوقي مما يكره؛ لأن أصلها وقوى من الوقاية.

التقوى على وزن فعلى، وأصل مادة التقوى من الناحية التصريفية وقي، فقول الحافظ ابن كثير: وقوى لأنها أحد أطوار التصريف، فالتصريف يمر بأكثر من طور فيما يعللون به في الإبدال، فهي وقي فأولها حرف علة، وآخرها حرف علة، فهي معتلة الأول، ومعتلة الآخر، فأبدل حرف العلة الأول، وأبدل حرف العلة الأخير فصارت بهذا الاعتبار تقوى، يعني تستطيع أن تقول: إن المراحل وقي فأبدل الأول تاء، وصارت تقي، وحتى تعرف أن ابن كثير -رحمه الله- ما أخطا فبدلاً من أن تقول: أبدل الأول قل: أبدل الأخير، أي أبدلت الواو ألفاً، فالذي ذكره ابن كثير يمكن أن تكون المرحلة الوسطى في أطوار التصريف.

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- سأل أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى، قال: فما عملت قال: شمرت واجتهدت قال: فذلك التقوى.

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة] **قال أبو جعفر الرازي عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: الإيمان التصديق.**

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يُؤْمِنُونَ}: يصدقون وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس: {يُؤْمِنُونَ}: يخشون.

هذه ثلاثة أقوال في تفسير الإيمان، الأول فسره بالتصديق، وهذا تجده في كثير من عبارات السلف، ومقصودهم بذلك هو بيان معنى الإيمان إذا ذكر مع العمل، أو إذا ربط بأمر يتعلق بالاعتقاد فقط.

فمثلاً قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}: هل يتأتى فيها العمل هنا؟ يعني هل يعمل بالغيب؟ وبمعنى آخر: هل الإيمان بالغيب هنا يكون عملاً؟ لا يكون عملاً وإنما يكون مجرد التصديق.

نحن ذكرنا من قبل أن السلف -رضي الله عنهم- في التفسير يقربون المعنى، أي يذكر عبارة قريبة تقرب لك المعنى، فإذا جئت على طريقة التدقيق في التفسير وأردت أن تبين المعاني التكميلية في كل لفظة وأنه لا يوجد ترادف فستقول: لا يصح تفسير الإيمان بالتصديق، كما يقول بعض أهل العلم من أهل اللغة ومن بعض المتأخرين، ومنهم شيخ الإسلام -رحمه الله- كما في كتابه الإيمان الكبير حيث ذكر سبعة فروق بين الإيمان والتصديق، ومثل ما قال: ابن القيم في الريب والشك حيث ذكر سبعة فروق بينهما في اللغة، وقال: لا يصح تفسير الإيمان بالتصديق، مع أن المقصود هنا تعريفه لغة لا شرعاً.

المهم أن السلف يقربون المعنى فيعبرون بعبارة قريبة، كما فسروا الريب بالشك، وهنا الإيمان لغة هو التصديق، فلا يشكل عليكم هذا مع كلام شيخ الإسلام فليس بينها تعارض، وهكذا من فهم طريقة السلف يقول: ليس هناك تعارض؛ لأنهم لا يعمدون إلى هذه التدقيقات في التفسير بمراعاة المعاني التكميلية، وإنما يقرب لك المعنى فقط.

على كل حال الإيمان إذا ذكر معناه في اللغة فإنهم يفسرونه في بعض الأحيان بالتصديق، وإذا أردت أن تدقق أكثر يمكن أن تقول: هو الإقرار أو هو التصديق الانقيادي، وهذا ما يتعلق بالقلب، فإنه إذا قيل: الإيمان هو تصديق الجنان، فتصديق الجنان معناه إقرار القلب وانقياده، وإلا فمجرد التصديق لا يكفي، بل لا بد من الإضافة إلى ذلك الإيمان في حقيقته الشرعية وأنه قول وعمل، فهنا القضية تعلقت بالغيب، فـ{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة] يعني يصدقون به.

المعنى الثاني: فسر الإيمان بالعمل، ويكون ذلك من تفسيره ببعض ما تركب منه الإيمان وهو العمل، ولا شك أن العمل ركن من أركان الإيمان، فهو يتركب من تصديق اللسان والجنان والعمل بالجوارح، وكونه فسره بذكر أحد أركانه منها فلا بأس أن يعبر عن الشيء بأحد أركانه كما سبق في الصلاة أنها قراءة والحج عرفة، وما أشبه ذلك، فهذا لا إشكال.

وفسر بعض السلف الإيمان بالغيب بأنه الخشية، لكن المعنى المتبادر والمشهور والذي قاله عامة أهل العلم من السلف والخلف في قوله: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} أي يؤمنون بالأمور الغيبية من الإيمان بالله والملائكة والجن، وغير ذلك سواءً كان من الغيب المطلق أو الغيب النسبي.

النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة لنا غيب؛ فنحن لم نر النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه بالنسبة للصحابة ليس من أمور الغيب، فالمؤمن بالغيب هو الذي يؤمن بهذه الحقائق التي لم يشاهدها، جيد، وهذا هو المعنى المشهور ابتداءً من الإيمان بالله.

والمعنى الثاني لـ{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} أن ذلك يراد به الذي يؤمن في حال الغيب، أي في حال خلوته وانفراده، كما أنه أظهر الإيمان جلوة أمام الناس، فهو في الظاهر مؤمن، فكذلك أيضاً في حال الغيب مؤمن، وليس ممن قال الله عنهم: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ} [(١٤) سورة البقرة]، فهؤلاء ليسوا على الإيمان في حال الخفاء حينما يغيبون على الأنظار، فيكون على هذا التفسير {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} أي: في حال غيابهم عن أنظار الناس، وهذا المعنى كما قلنا ذكره بعض السلف، لكن الأول أرجح وهو المتبادر، وسواءً فسرناه بهذا أو بالمعنى الأول المشهور فإن الإيمان بالغيب

كالإيمان بالله واليوم يورث الخشية؛ لأن من مقتضياته ولوازمه الخشية، وإذا فسرناه بالمعنى الآخر فهو يستحضر رقابة الله -عز وجل- عليه، وأن الله يراه ويشاهده ويطلع على أحواله فهذا يورث الخشية، ويكون هذا من قبيل التفسير باللازم، والسلف قد يفسرون باللازم، وهذا مثال عليه، فالتفسير هذا ليس بخطأ، وإنما يقال: هو من قبيل التفسير باللازم، والكلام قد يفسر بالمطابق، أو بالتضمن أو باللازم، أو بالإشارة التي هي من أنواع الدلالة المعروفة.

إذن: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "العلم الخشية" فهو فسر العلم بالخشية، مع أن العلم هو إدراك المعلوم على ما هو به على حقيقته؛ لأن العلم ما أورث الخشية، وكفى بخشية الله علماً.

قال ابن جرير: ولولا أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل.

توجيه ابن كثير هنا يختلف عما ذكرت بعض الشيء، فلا شك أن الخشية هي جزء من عمل القلب؛ لأن الإيمان قول القلب وهو تصديقه وانقياده وإقراره، وعمل القلب مثل الخشية والتوكل والمحبة والرجاء، وما أشبه ذلك، فهي جزء من الإيمان، فهو هنا فسر الإيمان بجزء منه.

والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى: {يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٦١) سورة التوبة].

{يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}: على هذا التفسير {يُؤْمِنُ بِاللّهِ} يعني يصدق بالله، {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: يصدقهم، وعداه باللام هنا، تقول: صدق له ويعدى بنفسه فتقول: صدقه، وهل آمن يعدى بنفسه فتقول: آمنه؟ لا، بل تقول: آمن له كما قال تعالى: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا} [(١٧) سورة يوسف]، فتقول: آمن به، وصدق به، وصدقه، فهذه من الفروقات في الاستعمال بين الإيمان والتصديق، ومن الفروقات أن الإيمان فيه معنى الأمن، ولا يوجد هذا في معنى التصديق، والإيمان لا يستعمل في كل حال كما يستعمل به التصديق، فلا تقول مثلاً أنا مؤمن الآن أن الشمس طالعة، لكن تقول: أنا مصدق أن الشمس طالعة؛ والسبب في ذك أن الإيمان يكون في الأمور التي من شأنها أن تخفى وتكون غائبة.

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم –عليهم السلام-: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [(١٧) سورة يوسف] **وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}** [(٢٥) سورة الإنشقاق]**، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً.**

هذا هو الصواب، وأما من يفسرون الإيمان بأنه مجرد الإقرار أو التصديق كالجهمية فإن مثل هذا لم يقل به أحد من السلف إطلاقاً، وإنما غاية ما قالوا في معناه اللغوي أو حينما يذكر معه العمل، فيكون الإيمان المقصود به ما يرجع إلى القلب من الإقرار والتصديق، فأما تفسير الإيمان الشرعي بأنه الإقرار أو التصديق أو نحو هذا فهذا لم يقل به أحد من السلف.

وهو يزيد وينقص، وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} [(١٢) سورة الملك] **وقوله: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}** [(٣٣) سورة ق]**، والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}** [(٢٨) سورة فاطر]**، وأما الغيب المراد هاهنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.**

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة]**، قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله وكذا قال قتادة بن دعامة.**

وروى سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- جلوساً فذكرنا أصحاب النبي -صلى الله عليه و سلم- وما سبقونا به فقال عبد الله: "إن أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب".

يقصد ابن مسعود –رضي الله عنه- أن الذين جاؤوا من بعد يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة لهم من أمور الغيب، فيدخل في قوله بالنسبة لنا **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** الإيمان بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك الغيب فيه غيب ماض، وفيه غيب حاضر مما لم نطلع عليه، وهناك غيب مستقبل، فلو قلت لك الآن في هذه اللحظة: ما الذي يدور خارج هذا المكان، أو ماذا يوجد خلف هذا المبنى ستقول: لا أدري؛ لأن هذه من أمور الغيب، وكذلك لو قيل لك: ما الذي يجري في البلد الفلاني؟ ستقول: الله أعلم، وبالنسبة للغيب المطلق فهو المستقبل.

ثم قرأ: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..} [(١-٣) سورة البقرة] **إلى قوله: {الْمُفْلِحُونَ}** [(٥) سورة البقرة]**، وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

الرواية هذه ثابتة معروفة مشهورة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وجاء في هذا المعنى أيضاً بعض المرويات عن غير ابن مسعود.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد عن ابن محيريز قال: قلت لأبي جمعة -رضي الله عنه- حدثنا حديثا سمعتَه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: نعم أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعنا أبو عبيدة بن الجراح قال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال: ((نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني))[٢].

أبو جمعة من الصحابة اسمه حبيب بن سباع، وهذا الحديث جاء من حديث أبي جمعة -رضي الله تعالى عنه- وجاء أيضاً عن غيره، وهو ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- سواءً كان ذلك في حديث أبي جمعة هذا الذي أقل أحواله أنه حسن، أو في غيره مما هو أصح منه، وهذا الحديث مع حديث: ((إن من

٢- أخرجه أحمد (١٧٠١٧) (ج ٤ / ص ١٠٦)، والدارمي (٢٧٤٤) (ج ٢ / ص ٣٩٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٦٢٨٢).

ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم))[٣] فيهما سؤال معروف وهو: هل هذا يدل على أن أحداً بعد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يمكن أن يكون فوقهم؟

هذه مسألة معروفة، الجمهور على أن هذا لا يمكن ولا يتأتى، ويحتجون بأدلة منها: قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))[٤] ومنها قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ} [(١٠٠) سورة التوبة].

وبعض أهل العلم يرى أن ذلك ممكن في غير أهل السبق، والفضل من الصحابة كأهل بدر وبيعة الرضوان، لكن مثل بعض مسلمة الفتح ومن جاء بعضهم، أو الأعراب أو غيرهم ممن أسلم في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: هذا يمكن، وهذا قول معروف لابن عبد البر، ويحتجون لهذا القول بأدلة منها هذان الحديثان.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: بأن كبار الصحابة وأهل بدر وبيعة الرضوان لا يبلغ أحد مرتبتهم، وأما من عدا هؤلاء فيمكن أن يأتي بعض الأفراد ممن بعدهم من هو أفضل منهم، لكنه يبقى شيء واحد لا يبلغهم فيه وهو مرتبة شرف الصحبة، فهذا لا يمكن أن يدرك، وأما القرب من الله -عز وجل- أو العلم، أو العبادة والبذل والنصح لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- وما أشبه ذلك فيرى أنه يمكن أن يأتي بعض الأفراد ممن جاء بعدهم ممن يفوق آحاد الصحابة من مسلمة الفتح أو الأعراب أو غيرهم.

وهذا كله فيه قاعدة معروفة ذكرها القرافي في الفروق، وذكرها غيره تحل شيئاً من الإشكال في هذا الباب وفي غيره من الأبواب وهي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، إلا أن هذه القاعدة يستعملها كل طرف هنا في المسألة فالذين يقولون: يمكن أن يأتي بعض الأفراد أفضل، يقولون: الصحابة لهم شرف الصحبة، والمزية لا تقتضي الأفضلية يعني بإطلاق، فهذا لا يلحقهم أحد فيها، لكن يمكن يكون أفضل منهم في الأشياء الأخرى، فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

والذين يقولون: لا يمكن أن يلحقهم أحد مطلقاً فقد حصلوا هذا الشرف العظيم، ولا يمكن أن يكون أحد بعدهم أفضل منهم بحال من الأحوال، وإن جاء بعض الناس بعدهم وهو في غاية الاجتهاد أو العبادة ممن قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لهم أجر خمسين، أو كما ورد هنا في حديث أبي جمعة يقولون: هذه مزية للمتأخرين، والمزية لا تقتضي الأفضلية.

ولا شك أن ذكر الأجرين لا يقتضي الأفضلية مطلقاً، وذلك مثل حديث: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[٥]، فالذي يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجر

---

[٣] - أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم- باب: الأمر والنهي (٤٣٤١) (ج ٢ / ص ٥٢٦)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣٠٥٨) (ج ٥ / ص ٢٥٧)، وابن ماجه في كتاب: الفتن – باب: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٤) (ج ٢ / ص ١٣٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٨٩) (ج ١٧/١١٧)، وفي الأوسط (٣١٢١) (ج ٣ / ص ٢٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٩٤) <

[٤] - أخرجه أبو داود في كتاب: السنة- باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٤٦٥٨) (ج ٢ / ص ٦٢٦)، والطبراني في الأوسط (٦٨٧) (ج ١ / ص ٢١٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٩٨٨).

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

على القراءة وأجر على التتعتع لكنه ليس أفضل من الماهر الذي مع السفرة الكرام البررة، مع أن ذاك لم يذكر له أجران.

كذلك ما ورد من الذين يؤتون أجرهم مرتين في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران..))[6] الحديث، فالرجل الذي كان على دين أهل الكتاب ثم أسلم له أجران لكن لا يمكن أن يكون أفضل من أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- الذي لم يكن على دين أهل الكتاب أبداً، فالمزية لا تقتضي الأفضلية، ولا تقتضي الفضل مطلقاً، فأجر أبي بكر الصديق أعظم منه، فقد يكون الشيء أعظم، وقد يكون الشيء كما سبق على أجرين أو ثلاثة أو نحو هذا.

ومثل هذا أيضاً الرجل الذي أدى حق الله وحق سيده، وأشباه ذلك، فهؤلاء يقال أنهم يؤتون أجرهم مضاعفاً أو نحو هذا لكن لا يعني ذلك أنهم أفضل من غيرهم مطلقاً؛ فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

كذلك نقول: إنّ عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- هو زوج فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- وقال فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي؟))[7]، وقال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: ((لأعطين الراية غدا أو ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله))[8] إلى غير ذلك من مزاياه -رضي الله عنه- لكن مع ذلك هو ليس أفضل من أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم أجمعين-؛ فالمزية لا تقتضي الأفضلية، وهكذا في أبواب كثيرة، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير- باب: فضل من أسلم من أهل الكتابين (٢٨٤٩) (ج ٣ / ص ١٠٩٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٤) (ج ١ / ص ١٣٤)، واللفظ لمسلم.

[7] - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي- باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤١٥٤) (ج ٤ / ص ١٦٠٢)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب: من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (٢٤٠٤) (ج ٤ / ص ١٨٧٠).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي- باب: باب غزوة خيبر (٣٩٧٢) (ج ٤ / ص ١٥٤٢)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب: من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (٢٤٠٧) (ج ٤ / ص ١٨٧٢)، وهذا لفظ البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٣)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة]

"قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} أي: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا إقامتها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وغيرها مما قاله السلف -رضي الله عنهم- في معنى إقامة الصلاة كلها صحيحة، وهي داخلة في معناها، والمراد أنهم يأتون بها مقيمين لأركانها كما في قول ابن عباس هنا: **أي يقيمون الصلاة بفروضها**: يعني يأتون بما افترض عليهم فيها من أركان وواجبات، وهكذا أيضاً الأقوال الأخرى يحافظون على الأوقات، ويحققون ما شرط لصحتها كالطهارة، واستقبال القبلة، وما أشبه هذا، كل هذه الأمور هي من إقامة الصلاة.

وعلى كل حال فالصلاة لم يأمر الله -عز وجل- بها في القرآن إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} [(٤٥) سورة العنكبوت]، وكذلك نجد ذلك غالباً حينما يذكرها الله -عز وجل- في القرآن، كقوله تعالى: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ} [(١٦٢) سورة النساء]، ولم يرد ذكر المصلين من غير إقامة إلا في ثلاثة مواضع.

الموضع الأول قوله تعالى: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [(٤٣) سورة المدثر]، وليس هذا على سبيل الأمر ولا على سبيل المدح، وإنما الإخبار عن حال أهل النار وما أوجب لهم من الدخول فيها.

والموضع الثاني قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} [(٤) سورة الماعون]، وهذا أيضاً في مقام الوعيد.

الموضع الثالث قوله تعالى: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [(٢٢) سورة المعارج].

هذه هي المواضع الثلاثة التي لم تذكر الإقامة مع ذكر الصلاة، وأما ما سوى ذلك فإنه يقول: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ} [(١٦٢) سورة النساء]، {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ} [(١١٤) سورة هود]، {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(٤٣) سورة البقرة]، وما أشبه ذلك، ويدل ذلك على أن المراد هو إقامة الصلاة وليس مجرد أداء الصلاة وأما في الزكاة فيقول: {وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٤٣) سورة البقرة]، فالصلاة التي تقام هي التي تؤثر في الإنسان.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد أخبر أن المصلي ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فقد صح ذلك عنه أنه قال: ((إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها))[1].

فهي تسقط عنه التبعة إن لم تكن كما ينبغي من الخشوع واستحضار القلب بما يقوله ويفعله الإنسان في هذه الصلاة، فيخرج ليس له من صلاته إلا كما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أي: بحسب ما عقل منها.

ولذلك لما قال الله -عز وجل-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت]، فإنه قد علق هذا الحكم بوصف، فنهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر هو حكم مترتب على وصف وهو الإقامة، ومعلوم أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر إقامتك للصلاة تؤثر في انتهائك عن الفحشاء والمنكر، وهذا جواب للسؤال الذي يطرح دائماً وهو لماذا لا تؤثر الصلاة في كثير من المصلين، وربما تسمع إجابات كثيرة عن هذا السؤال منها ما هو متكلف، لكن هذا هو الجواب الصحيح.

"وقال علي بن أبي طلحة، وغيره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} قال: زكاة أموالهم.

وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم- {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} قال: نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة."

القول الأول بأن قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} **قال: زكاة أموالهم**، قالوا هذا بناءً على القول بأن هذه السورة هي أول سورة نزلت في المدينة، ولم تفرض الزكاة بعد، وإنما فرضت بعد ذلك.

ويوجد خلاف معروف في الزكاة متى فرضت، والأقرب أن أصل الزكاة فرض في مكة، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأنعام: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام]، وسورة الأنعام سورة مكية قطعاً، فكانت الزكاة مفروضة بمكة لكن الأنصباء والأموال الزكوية لم تفصل إلا في المدينة.

ومن أهل العلم من يقول: إن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة ونزل أول سورة البقرة قبل فرض الزكاة، فبعضهم يقول: هي النفقة على الأقارب، وبعضهم يقول: هي الزكاة بناءً على التفسير بجزء المعنى، وعلى هذا يمثلون على العام بأحد الأفراد ولا يقصدون بذلك الحصر، فهنا قال: يؤتون زكاة أموالهم وهو أعم.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة]، النفقة أعم، وهذا من باب البيان والإيضاح بجزء المعنى، وإلا فالنفقة أوسع من هذا {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} من الزكاة ومن غير الزكاة.

"وقال جُوَيْبر عن الضحاك: كانت النفقات قرباناً يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات، سبعُ آيات في سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المثبِتات."

---

1 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة - باب: ما جاء في نقصان الصلاة (٧٩٦) (ج ١ / ص ٢٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبـي داود بـرقم (٧١٤).

بعض أهل العلم يقول: إن في المال حقاً غير الزكاة، وعلى كل حال آية الأنعام كانت قبل فرض التقادير والأنصباء وبيان الأنواع التي تجب فيها الزكاة، فكان قدراً غير محدد يخرجه الإنسان عند الحصاد يعطيه من حضره من الفقراء.

{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ} "من" هنا تبعيضية، ووجه دخولها هنا أنك لست مطالباً بأن تخرج كل المال، وإنما المطلوب منك أن تخرج بعض المال فقط، فهي دخلت على هذا الأساس.

وبعض العلماء يقول: لأن المقصود إنما هو إخراج الأموال الطيبة وبالتالي {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ} أي من المكاسب الصحيحة؛ لأن الرزق يشمل الحلال والحرام، وهذه عقيدة أهل السنة، خلافاً للمعتزلة.

فكل ما حصله الإنسان فهو من الرزق، لكن منه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً وبالتالي فقوله: {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ} يستدلون بها على أن الإنسان يتحرى بصدقته، وأنه لا يخرجها إلا من كسب طيب، لكن على كل حال ليس المراد إخراج الكل.

"قلت: كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}."

هذا أحد الأجوبة في سبب الاقتران بين الصلاة والزكاة، وهو أمر يتكرر كثيراً كقوله تعالى: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٨٣) سورة البقرة]، وكقوله تعالى: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [(١٦٢) سورة النساء]، فلماذا يحصل هذا الاقتران؟

الجواب الأول: أن الصلاة هي صلة بين العبد وبين ربه، والزكاة هي إحسان إلى المخلوقين، فسعادة العبد دائرة بين الأمرين.

ويمكن أن يقال: إن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية؛ لأنه ما تقرب المتقربون إلى الله بشيء أحب إليه مما افترض عليهم، فالزكاة مفروضة، وهي أفضل من الصدقة المستحبة، ومن أهل العلم من يقول: إن الصلاة هي طهارة للنفس والبدن، بسبب الطهارة التي هي من شروطها، وأما الزكاة فهي طهارة للمال، فجمع له بين الأمرين.

"ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت))[2]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة."

---

[2] - كتاب الإيمان - باب: الإيمان وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بني الإسلام على خمس)) (٨) (ج ١ / ص ١٢)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) (ج ١ / ص ٤٥).

الصلاة معناها اللغوي عموماً هو الدعاء، ثم صارت في الشرع الصلاة المعروفة، والعلماء يتكلمون في هذا هل هي باقية على أصلها اللغوي، ثم زيد عليها؟ هذه مسألة معروفة عند الأصوليين، وهل ما يسمى بالحقائق الشرعية والمصطلحات الشرعية -مثل الصلاة والصوم والجهاد والحج العمرة، وما أشبه هذا- هل هذه باقية على أصلها اللغوي ثم زيد عليها أشياء، أو أن الشارع استعملها في شيء آخر غير المعنى اللغوي، بمعنى هل هي مرتجلة من قبل الشارع؟ ما معنى مرتجلة؟ أي: أن الشارع جاء باستعمال جديد غير المعهود عند العرب، يعني أنها أشياء غير معهودة وغير معروفة قبل خطاب الشارع، فالعرب قبل خطاب الشرع إذا قيل لهم: ما هي الصلاة؟ يكون الجواب هي الدعاء في لغتهم إلا ما عرفوا عن حقيقة الصلاة عند الأنبياء السابقين.

كذلك الصيام كان معروفاً عند العرب، وكان أهل الجاهلية يصومون يوم عاشوراء، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} [(١٨٣) سورة البقرة]، فهذا المعنى جاء به الشارع لكن أصل كلام أهل اللغة في الصيام هو الإمساك.

وكذلك العمرة في اللغة هي الزيارة، والحج هو القصد، مع أنه كان معروفاً عندهم بمعناه الشرعي الذي عرف من قبل الشارع، وهذه مسألة مشهورة وهي أن الشارع يأتي بمصطلحات جديدة -الحقيقة الشرعية- أو أنها هي المعنى اللغوي ثم زاد عليها بعض الأشياء.

فالعلماء يتكلمون على هذا، فمنهم من يقول: هي المعنى اللغوي وزيد عليها، وبعضهم ينكر هذا، ويقول: كيف تكون الزيادات أصولا وأركانا، بمعنى أن الدعاء –مثلاً- واجب في الصلاة مثل: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم" أين هو من الركوع والسجود وتكبيرة الإحرام والقيام، وما أشبه ذلك من هيئات الصلاة التي هي أركان فيها؟ فيقولون: كيف تكون هذه الزيادات العظيمة الكثيرة غير الدعاء من الأقوال والأفعال في الصلاة ثم تكون الصلاة هي الدعاء وزيد عليها؟!

المقصود أن هذه حقائق شرعية سواء كانت مرتجلة من قبل الشارع أو منقولة، فالشارع إذا ذكر الصلاة فالأصل أنها ذات الركوع والسجود إلا لقرينة، كقوله: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ} [(١٠٣) سورة التوبة]، و((اللهم صلِّ على آل أبي أوفى))[3]، فهنا المقصود بالصلاة الدعاء لهم، أما إذا قال: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(٤٣) سورة البقرة]، فلا يحمل على المعنى اللغوي، والقاعدة هي أن ألفاظ الشارع تحمل على المعنى الشرعي، فإن لم يوجد فالعرفي -يعني عرف المخاطبين- ثم المعنى اللغوي.

"{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(٤) سورة البقرة] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} أي: **يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم.**

{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي: **بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا."**

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات- باب: هل يصلي على غير النبي -صلى الله عليه وسلم- (٥٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٣٣٩)، ومسلم في كتاب: الزكاة- باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) (ج ٢ / ص ٧٥٦).

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} يعني: القرآن، والتعبير في هذه الرواية التي ذكرها عن ابن عباس والتي قال فيها: يصدقون يدل على أن السلف يفسرون اللفظة بما يقرب المعنى، وإلا الإيمان لا يفسر بمجرد التصديق، وإنما هو تصديق خاص، أي: يصدقون بما جئت به من الله، وبما جاء من قبلك.

قال: "**لا يفرقون بينهم ولا يجحدون**": هذا كقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي: **بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا**؛ الآخرة بعد الدنيا لأنها متأخرة، ولفظ الآخرة مؤنث على تقدير الدار الآخرة، فحذفت الدار هنا لغلبة الاستعمال، فصار يقال: الآخرة، ثم صارت علماً بالغلبة على اليوم الآخر، فإذا قيل: الآخرة فهي اليوم الآخر، مع أن ذلك يصدق على اليوم الآخر، وعلى غيره مما يوصف بالتأخر لكن صارت علماً بالغلبة.

"**والموصوفون هنا هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى**: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة].

عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامَّات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به مَنْ قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإيقان بالآخرة."

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كلاماً جيداً، ففيه بيان لمعنى الآية مع توجيه للقول الذي اختاره؛ إذ في هذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة، هي:

الأول: أن هذه الآيات الأربع على ما ذكره ابن كثير، وهو الظاهر، وهو الذي يدل عليه السياق، وهو أيضاً ما تدل عليه النصوص، وتعليله ما ذكره ابن كثير من أنه لا يصح الإيمان إلا باجتماع هذه الأمور جميعاً.

والقول الثاني: أن ما قبلها إنما المقصود به العرب الذين خاطبهم القرآن، ودخلوا في الإسلام، وأن هذه الآية والتي بعدها، {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} قالوا: هذه في أهل الكتاب.

القول الثالث: أنها جميعاً في من آمن من أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(١-٣) سورة البقرة]، قالوا: هذه في غير أهل الكتاب.

فقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(٤) سورة البقرة]، قالوا: هذه في أهل الكتاب حيث إن عندهم كتابا آمنوا به فمدحهم الله -عز وجل- على إيمانهم بهذا وهذا، {يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}، وهذا هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، وجمع من السلف.

قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥) سورة البقرة] إذا قلنا: إن الآيات الأربع في طائفة واحدة، سواء قلنا بأنهم عموم أهل الإيمان من عرب وعجم وأهل كتاب -كما قال ابن

كثير هنا- أو قلنا القول الثالث –وهو قول بعيد- وهو أنها جميعاً في من آمن من أهل الكتاب فإن قوله {أُوْلَئِكَ} يرجع إلى الجميع، وإذا قلنا بقول ابن جرير ومن وافقه: إن الآيتين قبلُ في غير أهل الكتاب، وهذه الآية والتي بعدها في أهل الكتاب فيكون قوله: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} يعود على إحدى الطائفتين، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الراجح.

وقد ردَّ شيخ الإسلام على من فرق بين هذه الآيات الأربع ممن جعل الآيتين الأوليين في من آمن من غير أهل الكتاب، والثالثة والرابعة فيمن آمن منهم.

مسألة:

هل يصح إيمان من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم- وإيمان من لم يؤمن بالأنبياء السابقين؟

لا يصح أبداً إيمان من لم يؤمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، ولا يصح إيمان من لم يؤمن بالأنبياء السابقين.

يقول الله تعالى: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(١-٤) سورة البقرة].

ويقول تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [(١٣٦) سورة النساء].

فالله –جل وعلا- أمرهم بالإيمان به، وأمرهم بالإيمان بملائكته ورسله وكتبه وما أشبه ذلك، سواء يذكر ذلك على سبيل الثناء عليهم أو على سبيل التعليم أو على سبيل الأمر أو غير ذلك، فهذه الأمور كلها مطلوبة، ولا يحصل الفلاح إلا باجتماعها جميعاً، فكل هذه الآيات الأربع في طائفة واحدة هي طائفة أهل الإيمان.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ} [(٢-٣) سورة البقرة] فقد سبق الكلام عليها أيضاً، وهو أن هؤلاء إما أن يكونوا على حال صدق النية في طلب الحق والتمحض لذلك ومفارقة الهوى، فهم متهيئون للهداية، فالقرآن هداية لأمثالهم، أو يكون هؤلاء ممن أسلم فالله -عز وجل- يهديهم بهذا القرآن إلى التفاصيل، فلا إشكال في الآية.

"كما أن هذا لا يصح إلا بذاك، وقد أمر الله المؤمنين بذلك، كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} **[(١٣٦) سورة النساء] الآية.**

وقال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} **[(٤٦) سورة العنكبوت] الآية.**

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم} **[(٤٧) سورة النساء].**

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} **[(٦٨) سورة المائدة].**

وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} [(١٥٢) سورة النساء]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على جميع أمر المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه."

المقصود أن الإيمان بالكتب السابقة ليس مختصاً بأهل الكتاب حتى يقال: إن قوله تعالى: {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} [(٤) سورة البقرة] المقصود بهم أهل الكتاب؛ لأنهم خوطبوا به، وإنما الصواب أن ذلك يشمل الجميع.

وكذلك لا يشكل قوله: {بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} بأن يقال: كيف يؤمنون مع ما يوجد ويقع فيها من التناقضات؟ لأنها حرفت بما يتعارض مع القرآن، ولأنها منسوخة أصلاً، إذ إن حقائق الإيمان واحدة عند جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فما دخله التحريف فلا يؤمنون به، وإنما يؤمنون بأصل المنزل، وما نسخ فهم مطالبون باتباع الناسخ وهو القرآن، لكن يؤمنون بأن هذه الكتب في أصلها نزلت من عند الله -عز وجل-.

وهنا فيما ذكره ابن جرير -رحمه الله- لاحَظوا التفريق في التعبير في ذكر هذه الأوصاف، حيث قال: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} ثم لما ذكر هؤلاء قال: {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} [(٢-٤) سورة البقرة]، حيث جاء بالواو العاطفة مع الاسم الموصول "الذين" فأشعر ذلك أنهم طائفة أخرى، وهذا هو السبب الذي حدا بهؤلاء أن يقولوا: إن هذه طائفة، وهذه طائفة، وعلى كل حال هذا كله من عطف الصفات، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [(١-٣) سورة الأعلى] فتارة يذكر الواو وتارة مع حذف الواو العاطفة {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(٣-٤) سورة الأعلى]، فهذا كله لموصوف واحد، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

"لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً، كما جاء في الصحيح: ((إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم))[٤]، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد -صلى الله عليه وسلم- أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام؛ فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم يحصل له من التصديق ما يُنيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم."

هذا يخرَّج على قاعدة ذكرتها سابقاً وهي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، فهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين، ولكن لا يقتضي أنهم أفضل من غيرهم، فأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- لم يكن على دين أهل الكتاب، ومع ذلك

---

[٤] - أخرجه أبو داود في كتاب: العلم - باب: رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٤) (ج ٢ / ص ٣٤٢)، وأحمد (١٧٢٦٤) (ج ٤ / ص ١٣٦)، والحاكم (٥٥٣٨) (ج ٣ / ص ٤٠٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٠٥٢).

فإن منزلته وأجره عند الله -عز وجل- أعظم من الكتابي الذي دخل في الإسلام، وكما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، قال: ((فله أجران))[٥] والآخر الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، فالماهر أفضل أجراً ومنزلة وحالاً ووصفاً، فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

"{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥) سورة البقرة]، **يقول الله تعالى:** {أُوْلَئِكَ} أي: **المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل –عليهم السلام- والإيقان بالدار الآخرة، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات.**"

يقول تعالى: {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} معنى اليقين الثبوت والرسوخ والاستقرار والسكون، يقال: يقن الماء إذا استقر وسكن، وهو يدل هنا على سكون العلم وثبوته ورسوخه، والعلم هو المبدأ، واليقين هو المنتهى، فإذا زاد العلم واستقر ورسخ وثبت بحيث لا يقبل التشكيك صار ذلك من قبيل اليقين، فأنت تعرف مثلاً أن هذه المسألة حكمها كذا، فإذا ترددت في هذا فهذا شك، وإذا غلب صار ظناً، فإذا قطعت وجزمت به فهو علم، وإذا صار ذلك العلم ثابتاً لا يقبل التشكيك فهو اليقين.

واليقين ثلاث مراتب هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فحقائق ما أخبر الله -عز وجل- عنه إذا صدقته وثبت هذا عندك فهذا علم اليقين، فإذا شاهدته في الآخرة فهذا علم اليقين، فإذا دخلت في بحبوحة الجنة فهذا حق اليقين.

وكما يقول شيخ الإسلام وابن القيم: إذا رأيت العسل ووصف لك وعرفت حلاوته بوصف الثقة فهذا علم اليقين، فإذا رأيته فهذا عين اليقين، فإذا ذقته فهذا حق اليقين[٦].

"{عَلَى هُدًى} أي: **نور وبيان وبصيرة من الله تعالى.**"

كثيراً ما يأتي في الهدى استعمال "على" وفي الضلال استعمال "في" كما قال تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [(٢٤) سورة سبأ]، وكأن المراد أن من كان مهتدياً فهو مستعل بهداه، وأما من ضل فهو منغمس في ضلالته، لذلك كان الأنسب في الضلال أن يستعمل "في"، وفي الهدى أن تستعمل "على".

"{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥) سورة البقرة] أي: **في الدنيا والآخرة، بأن أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا، ففازوا بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب.**"

{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الفلاح خلاصته تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، وقد يطلق الفلاح على بعض معانيه مثل البقاء في الدنيا، أو البقاء في الآخرة، والبقاء يعني الخلود، كما قال القائل:

لـو أن حيـاً يـدرك الفـلاح ... لنالـه ملاعـب الرمـاح

فالفلاح في البيت يعني البقاء، وهذا كثير في كلام العرب.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص ٥٤٩).

[6] - مجموع الفتاوى (ج ١ / ص ٦٤٥)، ومدارج السالكين (ج ٢ / ص ٤٠٣).

المقصود أن قوله: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: الذين يحصل مقصودهم ومطلوبهم بنيل المنى والفوز العظيم في الدنيا وفي الآخرة، ويحصل لهم النجاة من المرهوب الذي هو عذاب الله -عز وجل- .

وعلى كل حال فالآيات فيها معان كثيرة وملاحظ دقيقة وفوائد جليلة وجوانب بلاغية يمكن استنباطها.

"{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(٦) سورة البقرة]، **يقول تعالى**: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: **غَطوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به.**"

في الآيات الأربع الأولى ذكر تعالى صفات أهل الإيمان الذين هم أهل الفلاح، والآن يذكر صفة الكفار، ثم بعد ذلك سيذكر صفة من أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر ممن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: **غَطوا الحق وستروه**، هذا هو التعريف اللغوي للكفر؛ لأن أصل هذه المادة (كَفَرَ) تدل على الستر والتغطية، كما قال الشاعر:

يعلـــو طريقـــة متنهـــا متـــواتراً	في ليلـــة كفـــر النجـــوم ظلامهـــا

بمعنى غطاها وسترها.

والكفر في المعنى الشرعي لا يختص بالستر والتغطية، وإنما قد يكون هذا الإنسان إنما وقع في الكفر لكونه شاكاً، أو لكونه أصلاً لم يعلم بشيء إطلاقاً، فهو كافر بغض النظر عن كونه يعذر أو لا يعذر، فهو وإن لم يبلغه دين أصلاً فإنه موصوف بالكفر، والكفر أسبابه كثيرة فلا يختص بالجحود أو بمجرد الستر والتغطية.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: لم يحققوا الإيمان المنجي من عذاب الله، أياً كان السبب.

"**كما قال تعالى**: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) **سورة يونس**].

وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} [(١٤٥) **سورة البقرة**] **الآية.**"

في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} جواب عن إشكال في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [(٦-٧) سورة البقرة]، وهو كيف أن الله أخبر عن الكفار بأنهم لا يؤمنون، ويستوي في حقهم الإنذار وعدم الإنذار حيث إن ظاهر اللفظ العموم؛ لأن الاسم الموصول من صيغ العموم، وعلل ذلك بأن الله ختم على قلوبهم، مع أنه من المعلوم أن من الكفار من خرج من الكفر فآمن بالله بعد الإنذار!

والجواب هو أن المقصود بالذين لا يؤمنون من الكفار مع حصول الإنذار وعدم حصوله هم من حقت عليهم كلمة الله، أي من قضى الله -عز وجل- عليهم وسبق في علمه أنهم لن يؤمنوا، فهم لا يفارقون الكفر ولا يتحولون إلى الإيمان بحال من الأحوال، ولهذا قال ابن كثير في تفسيره: إنهم المعاندون.

ولهذا ذهب ابن جرير -رحمه الله- وطائفة من السلف إلى أن المعنيون بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} هم طائفة معينة مخصوصة من المشركين واليهود.

وبعضهم يقول قولاً يشبه هذا وهو أنهم قادة أهل الأحزاب من المشركين، وكبارهم ورءوسهم، وهذا لا ينافي القول الأول.

وبعضهم يقول: هم الذين قتلوا في بدر.

وعلى كل حال فهذه الآية لا بد أن يقال فيها: إنها خاصة وليست على ظاهرها في العموم، والذي جاءنا بهذا التخصيص هو الواقع، وبالتالي يمكن أن يكون المقصود بها أهل العناد ومن سبق في علم الله -عز وجل- أنه لن يؤمن، فهؤلاء يستوي في حقهم الإنذار وعدم الإنذار، وليس هذا القول بلازم، إلا أنه قول له وجه؛ لأن من كان شاكاً أو غير ذلك، كالذي ذهب وترك النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يؤمن بعد أن ناقش النبي -صلى الله عليه وسلم- مناقشة فيها تورع، فهذا يدخل في الآية مع أنه ليس معانداً، إلا أن القول في هذه الآية إنها في المعاند هو الأقرب، لكن بعض أهل العلم حينما يفسرون الكفر يقولون: هو الستر والتغطية من قولهم للزارع فلاح، يقال له: كافر؛ لأنه يدفن البذر في التربة، فهو يغطيها ويسترها، لكن ليس هذا فقط هو المعنى الشرعي.

"أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِد له، ومن أضلَّه فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلّغهم الرّسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يُهِمنَّك ذلك؛ {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد]، **{إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** [(١٢) سورة هود].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}، قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحرصُ أن يؤمن جميع النَّاس ويُتَابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأوّل، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأوّل."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٤)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} [(٧) سورة البقرة].

"قال السّدي: {خَتَمَ اللّهُ} أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ} قال: الطبع، ثبتت الذنوب على القلوب فحثت به من كل نواحيه، حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جُرَيْج: وحدثني عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهدًا يقول: الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله."

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فأؤكد على أن عبارات السلف -رضي الله عنهم- عند تفسيرهم للألفاظ أو الجمل أنهم يقصدون بتفسيرهم تقريب المعنى بعبارة يفهم منها المراد من غير تكلف، وهذا ما نجده في هذه التفسيرات.

يقول في قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ} **قال السدي: طبع الله**، ففسر الختم بالطبع، مع أن الختم ليس معناه الطبع في لغة العرب، وحتى في أصل معناه المقصود بالآية عند طائفة من أهل العلم، فبعضهم يرى أن الختم بمعنى الاستيثاق من الشيء بحيث لا يدخل فيه ما كان خارجاً منه، ولا يخرج منه ما كان بداخله.

فلو أن عندك جرة أو قربة -مثلاً- مختوم عليها فمعنى ذلك أنه قد أحكم إغلاقها فلا يدخل فيها شيء من خارج، ولا يخرج منها شيء مما في داخلها، هذا هو الختم.

والمعنى هنا أن هذه القلوب صارت لا تستقبل ولا تتأثر ولا تنتفع فهو قلب أقفل، هذا هو المراد، وبعض أهل العلم يرى أن هذا الختم درجة من درجات إغلاق القلب عن الهدى، والدرجة التي فوقها وهي أعظم منها هي درجة الطبع، وإذا أردت أن تجعل الدرجات أكثر من هذا فيمكن أن تدخل درجة الرَّان كذلك، لكن الرَّان أيسر من الطبع على القلب، فيرون أن الران بمعنى طبقة تغطي القلب، وتغلفه بحيث لا ينفذ إليه ما يؤثر فيه ويحركه، فلا ينتفع، وهذه الطبقة التي هي الران يمكن أن تزول ثم يعود القلب إلي حياته وعافيته، لكن من طبع على قلبه فقد استحكم الغواية والضلال، فلا ينفع معه موعظة ولا تأثير، كما قالوا {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [(٥) سورة فصلت] نسأل الله العافية.

وقتادة فسر الختم بما لا يفسر به عند المتأخرين؛ إذ إنه في تفسيره أعاد اللفظ ثانية فقال: **استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم**: ومعنى استحوذ عليهم أي غلبهم وتمكن منهم، فهو لم يفسر معنى الختم، لكنّ المتأخرين -لشدة تنقيرهم وتكلفهم- يعدون أي إعادة للفظة المراد تعريفها من عيوب التعريف، ويقولون: يلزم منه الدور.

ومعنى الدور مثل ما لو قلت لي: ما هي الساعة؟ فقلت لك:الساعة هي الساعة التي يعرف بها الوقت، فهنا سأعيد عليك السؤال مرة أخرى وأقول لك: وما هي الساعة؟

لذلك ينبغي أن تقول -مثلاً: الساعة هي آلة يعرف بها الوقت، أما أن تعيد لفظة الساعة في التعريف فهذا عند المتأخرين يعتبر خطأً.

وقل مثل ذلك فيما لو قلنا: ما هو الباب؟ فينبغي أن تقول: الباب في المحسوسات هو المنفذ الذي يكون منه المدخل والمخرج، وفي المعنويات هو طائفة من العلم مخصوصة مندرجة تحت كتاب، أي: مسائل من العلم مخصوصة تندرج تحت كتاب، أما أن تقول: الباب هو الباب الذي يكون منه المدخل والمخرج، فهذا خطأ في التعريف.

المقصود أن السلف كانوا يبتعدون عن التكلف، أما المتأخرون فقتادة عندهم لم يفسر الختم بل لا يزال بحاجة إلى تفسير، ومعاذ الله أن نقول مثل هذا الكلام.

وبالنسبة لابن جريج فقد فسر الختم بالطبع أيضاً، ثم فسره بما يصدق على الران، وعلى هذا الاعتبار فالطبع والختم، والران في تفسير السلف كلها بمعنىً واحد.

فالذنوب تجتمع على القلب فتغلفه وتكسوه طبقة، وهذه الطبقة إذا استحكمت فإنه لا ينفع فيه موعظة، ولا ينفذ إليه ما يؤثر فيه، فعبارات السلف قربوا بها هذا المعنى، ومن فرق جعل ذلك على مراتب.

والمقصود على كل حال أن القلب يحصل له مثل هذه العوارض بسبب الذنوب، ولذلك اختار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن أحسن ما تفسر به هذه الآية هو الحديث الثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في مقارفة الذنوب، حيث يقول -صلى الله عليه وسلم-: ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عــوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه))[1].

الكوز معروف إذا قُلِب أي نُكس فلا يمكن أن يجتمع المائع بداخله، وكذلك القلب ينكس إذا كثرت عليه الذنوب بعد أن تغطيه الطبقة التي يقال لها: الران، فلا يتأثر ولا ينتفع بعد ذلك، والعياذ بالله.

قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، قول ابن جريج -رحمه الله- هذا لم يرد ابن جريج أن يبين المعنى، وإنما قصد شيئاً آخر، وهو أن يبين أن قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [(٧) سورة البقرة] مرتبط، بعضه ببعض، فكما أنه يختم على القلب فكذلك يختم على السمع، فلا يسمع ما ينتفع به، وأما البصر فلا يختم عليه، وإنما يحصل له ما يغشيه أي: يغطيه فلا يرى الأشياء على

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤) (ج ١ / ص ١٢٨).

حقيقتها، فيزين له المنكر والباطل، ويرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، فتنعكس الموازين والمقاييس عند هذا الإنسان، وليس المقصود بالبصر هنا النظر بالعين، لكن المقصود أنه لا يبصر إبصاراً ينتفع به، ويتعظ به.

الحاصل أن ابن جريج بهذه العبارة، ما أراد أن يفسر المعنى، وإنما يريد بيان وجه الارتباط أو ما الذي يرتبط بعضه ببعض من هذا الكلام، فيكون الوقف في الآية على هذا الاعتبار، {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} ثم {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}، وفي قراءة بنصب (غشاوة)، وعلى هذه القراءة يمكن أن تكون على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويمكن أن تكون على سبيل الإتباع فقط، فتكون جاءت منصوبة إتباعاً لما سبق على محل ختم على قلوبهم، فالقلوب مفعول به في الواقع من ناحية المحل، والأسماع كذلك تكون من باب الإتباع فقط، لكن الختم في الواقع لا يتعلق بها.

يقول مجاهد: **الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله**: الران هو الطبقة التي تغطي القلب، ثم يطبع عليه، ثم بعد ذلك يحصل إقفال للقلب.

"**وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه -يعني الكف- فإذا أذنب العبد ذنبًا ضُمَّ منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضُمّ، وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمّ. وقال بأصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع**" أي إلى أن يصير القلب مغلقاً بعد أن كان مفتوحاً يتلقى ما ينفعه.

"**وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك: الرين.**

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله -عز وجل- قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين؛ مجازاة لكفرهم كما قال: {بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [(١٥٥) سورة النساء]، **وذكر حديث تقليب القلوب ((يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك))**[2].

وذكر حديث حذيفة -رضي الله تعالى عنه- الذي في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا)) الحديث[3]."

يعني تعرض الفتن على القلوب كالحصير الذي أعواده متتابعة، فالإنسان تعرض عليه فتن الشبهات، وفتن الشهوات شيئاً بعد شيء، فإذا نجا من هذه عرضت الأخرى، وإذا نجا من هذه عرضت الأخرى، وهكذا في سيره إلى الله -عز وجل- حتى يحصل له التمحيص، فمن أشربها فإن ذلك يكون نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب انجلت، فإن أمعن واسترسل جاءته الفتنة الأخرى والثالثة والرابعة وعند ذلك يطمس على قلبه فما ينتفع بعد ذلك بشيء.

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: القدر - باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) (ج ٤ / ص ٤٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٧) (ج ٤ / ص ١٨٢)، والحاكم (٣١٤٠) (ج ٢ / ص ٣١٧)، وصححه الألباني برقم (٧٩٨٨) في صحيح الجامع.

[3] - سبق تخريجه.

لذلك ترون الجماعة من الناس يسمعون الموعظة الواحدة في مكان واحد، فمنهم من يبكي ويتأثر وينيب ويستجيب ويعمل، ومنهم من لا يحرك لذلك فيه ساكناً، وكل ذلك مع أن التوجيه واحد من بيان الأحكام والحلال والحرام، وغير ذلك، يسمعها اثنان فهذا يقبل غاية الإقبال ويطبِّق، والآخر كأنك لا تحدثه، أو كأنك تحدث جماداً، بل قد تجده يستنكف ويستهزئ، وسبب هذا كله أن كل شخص عنده من القبول بقدر ما عنده من سلامة القلب، وصحة التقوى في نفسه، فهو يستجيب ويتأثر بقدر ذلك.

قوله: ((أسود مرباداً)): الأسود المرباد هو السواد المشوب بحمرة، فهذا لون قلبه أسود معه لون آخر كالحمرة، وهذا الختم والطبع واللون كله أشياء معنوية وليست حسية؛ فقلوب الناس لو فتحناها لوجدناها كلها سواء من الناحية الحسية.

"وقال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صَحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ما رواه أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتَة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزعَ واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [(١٤) سورة المطففين] [رواه الترمذي والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح]."

هذا الحديث جيد الإسناد، وثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يترك ثلاث جمع.

وفي قول القرطبي: **وأجمعت الأمة على أن الله -عز وجل- قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين؛ مجازاة لكفرهم**، المقصود إجماع من يعتد به، وإلا فإن بعض طوائف الضلال يؤولون مثل هذه الأشياء، تأويلات بعيدة وفاسدة كالمعتزلة الذين لا عبرة بقولهم في الإجماع، لكن أهل السنة يقررون ما أثبته الله -عز وجل-، فهنا أخبر الله –جل وعلا- عن نفسه أنه يختم على بعض القلوب، وذلك جزاءً وفاقاً؛ وذلك أن الخلق خلقه، والملك ملكه، والهداية ملكه المحض، فإن أعطاك ففضل، وإن حرمك فعدل، ثم إن الله عليم خبير، يعلم أحوال الخلق وما تنطوي عليه نفوسهم وسرائرهم، فيوفق أقواماً ويخذل آخرين.

والله يقول: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(٥-١٠) سورة الليل]، فليس لأحد أن يحتج بالقدر على غوايته، فعلى العبد أن يصدق مع الله -عز وجل-، والله يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة التوبة]، ويقول تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة]، فلا يترك الإنسان العمل الصالح والاستقامة والهدى، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- قال- كما في حديث سراقة-: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))[4].

"واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [(٧) سورة البقرة]."

لو جيء بالعبارة التي قالها ابن جريج هنا لكان ذلك أليق بمحلها، وهي قوله: "**الختم على القلب والسمع**".

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: قول الله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(١٠) سورة الليل] (٧١١٢) (ج ٦ / ص ٢٧٤٥)، ومسلم في كتاب: القدر - باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) (ج ٤ / ص ٢٠٣٩).

"وقوله {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة -وهي الغطاء- يكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن ابن عباس وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم في قوله: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، يقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون."

ابن كثير -رحمه الله- يتكلم هنا عن موضع الوقف التام، هل هو على قلوبهم فتكون الآية: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ} ثم {وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [(٧) سورة البقرة]، فيكون الختم فقط على القلب، والغشاوة على السمع والبصر، أم الختم يكون للقلب مع السمع وتكون الغشاوة خاصة للبصر، فيكون الوقف التام في الآية هكذا: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} ثم {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}.

والقول الثاني هو الراجح، ويدل لذلك قوله تعالى: {فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} [(٢٤) سورة الشورى]، ويوضح ذلك أكثر الآية الأخرى في سورة الجاثية، وهي قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [(٢٣) سورة الجاثية].

"لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق."

قوله: **ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق**، هذا جواب على سؤال مقدر هو لماذا أطال في ذكر صفات المنافقين؟

فأمر المنافقين قد يلتبس ويخفى بخلاف الكافر الواضح، ثم إن هؤلاء أخطر من الكفار المجاهرين بكفرهم؛ لأن هؤلاء داخل الصف فهم يطلعون على عورات المسلمين ويهدمون من الداخل، ويطعنونهم من الظهر، فهم يخالطونهم صباح مساء في المساجد، ومعهم في الجهاد ومعهم في كل مكان، فيطلعون على كل صغيرة وكبيرة، فمثل هؤلاء هم الخطر، كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ} [(٤) سورة المنافقون]، يعني هم العدو الحقيقي، وكأن المؤمنين ليس لهم عدو آخر.

"ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٨-٩) سورة البقرة].

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغيبه."

هذه حقيقة النفاق من حيث هو، لكنه في معناه الشرعي ينقسم إلى أكبر وأصغر، فالأكبر هو الذي جاء في مثل هذه الآيات، والمقصود به النفاق المخرج من الملة، وهو أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وليس مجرد المنافاة بين الظاهر والباطن بإطلاق، وإنما المقصود أنه يبطن الكفر ويظهر الإسلام، فهذا نفاقه أكبر، وأما ما

يحصل فيه المخالفة بين الظاهر والباطن كإخلاف المواعيد، والخيانة للأمانات فهذا من النفاق، لكنه من النفاق العملي، وهو المراد بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[5]، فهذا يمكن أن يجتمع مع الإيمان، كما يكون في الإنسان جاهلية مع الإيمان، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[6]، ويمكن أن يجتمع مع الإيمان فسق وبدعة وفجور، وكذلك يكون فيه نفاق.

هنا يقول: **هو إظهار الخير وإسرار الشر**، لكن هذا ليس مطلقاً، والمقصود هنا أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وإلا فمن الناس من يظهر الخير ويبطن الشر وهو مسلم، لكنه يظهر الشر في جوانب مما يمكن أن تجتمع مع الإيمان، كالذي يظهر للناس الخير ويطلق لحيته –مثلاً-، وهو في نفس الوقت يبطن لهم الشر.

ولفظة (نفق) تشعر بمعنى الرواج وتدل عليه، يقال: فلان ينفق سلعته بالحلف الكاذب، بمعنى أنه يروج سلعته بالحلف الكاذب.

وقيل: لفظ النفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع، فاليربوع في الظاهر ليس له إلا جحر واحد، لكن لا تستطيع مسكه فهو في الحقيقة له مخارج كثيرة مغطاة بطبقة خفية لا تراها، فبمجرد أن تأتي لتحبسه من هذا المخرج خرج من مخارج أخرى متعددة، وهكذا المنافق، وهذا المعنى وإن كان ليس محل اتفاق إلا أن له وجها.

فهذا الإنسان الذي أظهر الكفر وأبطن الإسلام، وكذلك من وجد فيه خصلة من خصال النفاق، يحصل له بهذه الخصلة تمرير لحال أو موقف محرج أو تمرير لطمع في شيء ما، ويكون هذا التمرير بطريقة لا تحل له، كأن يخون من ائتمنه أو يخلف في المواعيد أو يكذب في الحديث، فهو ينفِّق نفسه بإظهار الموافقة، كما يقال: دارِهم ما دمت في دارهم.

فالمنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر يريد أن يحقن ماله ودمه، فهو ينفِّق نفسه عند هؤلاء الناس بإظهار الموافقة لهم أنه منهم ومعهم، وغير مخالف لهم، حتى يحصل مطلوبه وينجو مما يحذر، حتى إنهم يبعثون يوم القيامة على حال كحالهم التي كانوا عليها في الدنيا، كما قال الله -عز وجل- عنهم: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}** [(١٨) سورة المجادلة]، فهم لما رأوا ذلك يروج في الدنيا حصلوا به مقصودهم من إجراء أحكام الإسلام في الظاهر عليهم، وإحراز الأموال وحقن الدماء وظنوا أن ذلك يروج في الآخرة، فمجرد ما قاموا من القبور جلسوا يحلفون، ولذلك عبر الله عنهم بأنهم اتخذوا الأيمان لهم ديدناً للصد عن سبيل الله، قال تعالى: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** [(١٦) سورة المجادلة]، والاتخاذ يدل على أن هذا الإنسان جعل هذا العمل ديدنه، فهم اتخذوا أيمانهم غطاء ووقاية، فتجدهم يقولون: والله ما قلنا هذا، والله ما حصل منا هذا، والله ما تكلمنا فيك، والله ما تلفظنا بهذه العبارات التي نقلت عنا، والله ما وقفنا هذا الموقف، وكل ذلك كذب!.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: علامة المنافق (٣٤) (ج ١ / ص ٢١)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: بيان خصال المنافق (٥٨) (ج ١ / ص ٧٨).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠) (ج ١ / ص ٢٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١) (ج ٣ / ص ١٢٨٢).

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي أنهم استروحوا لصد أنفسهم وصد غيرهم، فكلمة "صدَّ" تأتي متعدية وتأتي لازمة، والقرآن بالألفاظ القليلة الدالة على المعنى الكبير، فهم صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله بتخذيلهم عن التمسك بالدين، وصدوا المؤمنين عن إقامة حكم الله فيهم بهذه الأيمان الكاذبة، كل هذه المعاني الثلاثة داخلة في هذا اللفظ.

"وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَها، وهو في الباطن مؤمن."

في مكة من شدة التعذيب والأذى كان بعضهم يظهر الكفر ويخفي إسلامه وهو عكس النفاق، ولا حاجة في مكة إلى النفاق؛ لأن من أظهر الإسلام سيضطهد ويخسر كل شيء، من دنياه وربما قتل، لكنه وجد بعد غزوة بدر أي بعد ظهور شوكة الإسلام في المدينة، كما قال عبد الله بن أبيّ: إن هذا أمر قد توجه.

فدخل في الإسلام مجموعة من اليهود ومجموعة من الأوس والخزرج بعد ظهور شوكة الإسلام، وإلا فإن أول الهجرة أيضاً لم يوجد نفاق، لكن لما صارت للإسلام صولة وجولة بدأ هؤلاء يدخلون في الإسلام؛ وذلك لأنهم يحتاجون إلى مداراته، ويحتاجون إلى مصانعته وموافقته وهكذا

وبالنسبة لعصرنا هذا فالنفاق صار أكثر من ذي قبل لأسباب كثيرة، منها الخوف، وهذا الخوف أنواع، فبعضهم يخاف من العامة بل وحتى من أقاربه وذويه أن ينقلبوا عليه ويؤذونه ويسقطونه ويتكلمون في حقه، ويعيبونه ويذمونه، وبعضهم يفعل هذا على سبيل الطمع بشيء يحصله، كطمع بمال، أو منصب أوظيفة.

وبعضهم يخاف على مصلحة دنيوية، فتجد بعضهم –مثلاً- يقول: أنا مبتلى بتخصصي الشرعي، فقد حفظت القرآن، وبيتي بيت المسجد، وأنا إمام مسجد، فأنا مطوَّق من كل جهة، ولذلك بعضهم ذهب وانتسب في تخصص آخر؛ من أجل أن ينفض الماضي ويرتاح على حد زعمه؛ لأنه لم يحقق شيئاً من تخصصه الشرعي، وهذا والعياذ بالله يعتبر نفاق.

وهكذا تعددت الأسباب والنفاق واحد، فالنفاق في هذا الزمان أكثر منه في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ويظهر هذا تماماً في أيام الفتن التي تحرك الناس، وتزلزلهم، فيظهر المؤمن الصادق، ويتلوَّن آخرون ممن يتنكرون لدينهم ولعقيدتهم.

"فلمَّا هاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس.

فلمَّا قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلَام -رضي الله تعالى عنه- ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكة تخاف، بل قد كان -عليه الصلاة والسلام- وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته، وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام

وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مُكرَهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} [(٨) سورة البقرة] **يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم، وكذا فسَّرها بالمنافقين أبو العالية والحسن وقتادة والسدي.**

ولهذا نبَّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يُظن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} [(١) سورة المنافقون] **أي: إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة بـــ(إنّ) و(لام) التأكيد في خبرها."**

قوله تعالى: {قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} في قوله: إنك تدل على أن الشخص يحتاج إلى المؤكدات كلما شعر أنه بحاجة إلى مزيد تأكيد؛ لأنه يشعر أنه متهم وأن الذي أمامه ليس مقتنعاً بما يقول، وهذه حقيقة المؤكدات في اللغة.

واللام في قوله: {لَرَسُولُ اللَّهِ} تسمى لام القسم، والتقدير والله إنك لرسول الله، وهذا يدل على كثرة الحلف عند المنافق؛ لأنه يشعر أنه متهم، ،وأن الذي أمامه غير مصدق له، فهؤلاء حلفهم كثير من غير استحلاف ومن غير داعٍ أصلاً، بينما تجد المؤمنين لا يحتاجون لمثل هذه الأمور دائماً، فما دام قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، انتهت، لكن هؤلاء كلما دخلوا قالوا: نشهد إنك لرسول الله.

وعبد الله بن أبيّ يجلس عند المنبر في كل جمعة قبل خطبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ينادي: أيها الناس لقد بعث الله لكم هذا النبي فاسمعوا له وأطيعوا، وهكذا يحدثهم عن هذه النعمة المسداة والرحمة المهداة، حتى وقع منه ما وقع، لما قال: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [(٨) سورة المنافقون]، فلما رجع إلى المدينة قام ليقول ذلك في الجمعة التي تليها، فأخرجوه من المسجد إخراجاً، حتى قابله بعض الصحابة عند باب المسجد، فسئل ما بالك؟ فقال: هؤلاء إن قلت لهم: اسمعوا له وأطيعوا غضبوا!!.

"أكَّدوا أمرهم قالوا: {آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ} وليس الأمر كذلك، كما كذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم، هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [(١) سورة المنافقون]."

أي أن الرد جاء موافقاً لكلامهم، فهم قالوا: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، فقال الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} هذه قضية، ثم قال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ} فهم استعملوا لفظ الشهادة وأكدوها بـــ"إنَّ"، فرد الله عليهم بالتوكيد بـــ"إنَّ" فقال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ}، وأكدوا بلام القسم {لَرَسُولُ اللَّهِ} فرد عليهم بالمثل فقال: {لَكَاذِبُونَ}.

إن الحديث عن المنافقين حديث ذو شجون، ومن عجائبهم أنهم كما قال ابن كثير -رحمه الله-: المنافق يقدر أن يبكي من عين واحدة فقط، ثم يوقفها ويبكي من العين الثانية، ثم يبكي من العينين معاً، أي إن له قدرة على التمثيل، ومهارة على اللعب بمشاعر الناس والضحك عليهم.

"وبقوله: {وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر."

قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} الخداع أصله في اللغة الإفساد كما يقول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: أصل الخداع هو الإخفاء، وهذا أقرب، فالذي يخادع يظهر شيئاً ويخفي غيره.

ولهذا فإن مخدع المرأة هو أقصى المكان الذي يكون في حجرة داخل حجرة، والذي يوضع فيه نفيس المتاع، ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها))[7] وقيل لهذا المكان مخدع؛ لأنه خفي جداً، فالمخادع يخفي شيئاً ويظهر شيئاً آخر.

والنفاق أنواع وأشكال وصور كثيرة جداً، ومن ذلك أن المنافق إذا وجد فرصة ليتكلم في المؤمنين تكلم، فيوم أن تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- بزينب، قال الله -عز وجل- عنه: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}** [(٣٧) سورة الأحزاب]؛ لأن المنافقين سيكون حديثهم عنه كيف تزوج امرأة مولاه زيد بن حارثة، فهذه فرصة لهم في الحديث، وهذه صفتهم وقد أخبر الله عن صفتهم هذه في القرآن فقال تعالى: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** [(٣٠) سورة محمد].

وهذا عبد الله بن أبيّ قال: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [(٨) سورة المنافقون]، وهذا هو عين الكفر، وقال: سمِّن كلبك يأكلك، وقال: ما نحن ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وهكذا تكلم المنافقون على النبي -صلى الله عليه وسلم- بأقبح الكلام وأقذره، وقالوا: يدعي أنه يأتيه الوحي وراحلته ضلت لا يدري أين هي!

ولما أجدبوا وقلّت المياه والأزواد وصاروا يعصرون الفرث ليشربوا منه، فرفع النبي -صلى الله عليه وسلم- يديه فجاءت السحاب ولم يكن في السماء سحابة واحدة فنزل المطر، قال بعضهم لبعض: ألا تنظر فقال:إنما هى سحابة عارضة، ومثل هذا قاله المنافقون في بعض البلاد لما قام الدعاة إلى الله واستسقوا فنزل المطر، حيث كتبت الصحف في تلك البلاد أن هؤلاء درسوا الأحوال الجوية، وأن هناك ما يسمى بالهبوط والارتفاع في الضغط الجوي ونحو ذلك، وأن هؤلاء الدعاة درسوا الوضع الجوي وعرفوا أن المطر سينزل فمثلوا بصلاة الاستسقاء ليقولوا: إن المطر نزل بدعائنا، إلى غير ذلك من الكلام القبيح، نسأل الله السلامة والعافية.

---

7 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة – باب: ما جاء في خروج النساء إلى المسجد والتشديد في ذلك (٥٧٠) (ج ١ / ص ٢١١)، وصححه الألباني برقم (٣٨٣٣) في صحيح الجامع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٥)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [(٩) سورة البقرة]: "أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [(١٨) سورة المجادلة].

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٩) سورة البقرة]، يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(١٤٢) سورة النساء]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

عرفنا أن المخادعة أصلها من الإخفاء، وذلك أن هذا الإنسان الذي يخادع أهل الإيمان يخفي أمراً غير ما يُظهر؛ ليروج عندهم أو ليحصِّل شيئاً من المطامع، كأن يحرز ماله، أو يحقن دمه، وما أشبه ذلك، فأصل المخادعة مأخوذ من معنى الإخفاء.

وفي قوله: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم} في قراءة ثلاثة من السبعة، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو، {وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم}، فهي قراءة متواترة، والأصل في المعنى واحد، إلا أن المفاعلة تأتي عادة لما يكون بين اثنين فأكثر، وإن كان ذلك ليس بلازم.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ} قال: يظهرون "لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك."

هؤلاء يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وهذا هو النفاق الأكبر المخرج من الملة، وأما النفاق الأصغر والذي يسمى بالنفاق العملي، فهو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[1] فذكر أربعة أمور عملية.

"وقال سعيد عن قتادة: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٨-٩) سورة البقرة] نعت المنافق عند كثير: خَنِعُ الأخلاق يصدّق بلسانه وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبَّت ريح هبّت معها."

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: علامة المنافق (٣٤) (ج ١ / ص ٢١)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: بيان خصال المنـــافق (٥٨) (ج ١ / ص ٧٨).

أي أنه ليس له مبدأ يلتزمه، وإنما هو يتلون بحسب ما يرى أن مصلحته تقتضيه، فهو مع من غلب كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا} أي: المدينة {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [(١٤) سورة الأحزاب]، ومعنى سئلوا الفتنة أي: لو سئلوا الكفر لاستجابوا.

"**{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** [(١٠) سورة البقرة]، **قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم في هذه الآية {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قال**: شَكٌّ، {فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [(١٠) سورة البقرة] **قال: شكًا**."

إذا ذكر المرض في كتاب الله -عز وجل- فتارة يراد به مرض الشك والنفاق، وتارة يراد به ضعف الإيمان، وهذا بناء على القول بالتفريق في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [(١٢) سورة الأحزاب]، فعلى أن الواو هنا عطفت طائفة على طائفة يكون أهل النفاق غير الذين في قلوبهم مرض، فيكون المقصود بالذين في قلوبهم مرض أي ضعفاء الإيمان الذين اهتزت ثقتهم في يوم الأحزاب.

ومن أهل العلم من يقول: إنها طائفة واحدة، وأن هذا العطف من باب عطف الصفات كما سبق في قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [(١-٣) سورة الأعلى]، وكذلك في أول سورة البقرة: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(٢-٤) سورة البقرة].

ومن باب قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

فكلها طائفة واحدة في موصوف واحد، فالذين في قلوبهم مرض تارة يراد بهم أهل النفاق كما هنا، وتارة يراد به ضعف الإيمان وتارة يراد به مرض الشهوة والميل المحرم إلى النساء كما في الموضع الوحيد من القرآن في سورة الأحزاب {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [(٣٢) سورة الأحزاب]، بمعنى الميل المحرم إلى النساء.

وعلى كل حال إذا رأيت المرض في القرآن فالغالب أن المراد به مرض النفاق أو ضعف الإيمان إلا في موضع واحد، وهنا لا شك أن المراد به مرض النفاق، وإلا فالقلوب على كل حال تمرض وتعتل بصور شتى، فتارة بالشك وما أشبهه، وتارة يكون ذلك بضعف الإيمان، وتارة تمرض بالقسوة، وتارة تمرض بالرياء وحب المحمدة، وتارة تمرض بالعجب والزهو، وغير ذلك مما يعتريها من الأمراض.

"**وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والرّبيع بن أنس، وقتادة.**

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قال: هذا مرض في الدين وليس مرضًا في الأجساد."

يقصد أن هذا المرض الذي يصيب هذه القلوب هو مرض معنوي، وليس مرضاً حسياً مما يحتاج الإنسان معه إلى عملية جراحية أو نحو ذلك.

"قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد وهم المنافقون، والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام.

{فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} قال: زادهم رجسًا، وقرأ: {الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة] **قال: شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم.**

وهذا الذي قاله عبد الرحمن -رحمه الله- حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} [(١٧) سورة محمد].

وقوله: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وقرئ: "يكذّبون"."

قوله: "**وقرئ**: "**يكذّبون**" هذه قراءة متواترة وهي قراءة ابن كثير من السبعة، والفرق بين القراءتين أن يكذِبون -بالتخفيف- تعني أن الكذب يصدر منهم، أي أنهم يكذبون في قولهم وفي دعواهم للإيمان.

ويكذّبون -بالتشديد- هي أشمل في المعنى إذ تدل على الكثرة؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فيكذْب يعني لا يكون صادقاً فيما صدر منه من الأقوال والأفعال، ويكذّب أي بالقرآن وبالوحي وبالنبوة، فهو مكذب في ذلك كله، ولا شك أن هذا جميعاً من الكفر، وبالتالي لما أظهر الإسلام وأبطن هذا التكذيب صار كاذباً في دعواه الإيمان.

وهذه المعاني متلازمة، فالقاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين بينهما ملازمة فإنها تحمل عليهما جميعاً، ومن أمثلته **{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** [(٣) سورة الفلق]، فمنهم من قال: إنه القمر، ومنهم من قال: إنه الليل، فنقول: إنما يظهر القمر ليلاً، كما قال تعالى: **{فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ}**، يعني القمر، **{وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}** [(١٢) سورة الإسراء] يعني الشمس، فهما قولان متلازمان لا نحتاج أن نرجح بينهما.

ومثل ذلك قوله -تبارك وتعالى- في آية الكرسي: **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}** [(٢٥٥) سورة البقرة]، هل يقال: المقصود أنهم لا يحيطون بشيء من علم ما بين أيديهم وما خلفهم أو من علم الله، يقال: لا تعارض بين المعنيين؛ لأن علم ما بين أيديهم وما خلفهم هو جزء من علم الله، والباء في قوله: **{بِشَيْءٍ}** سببية.

يقول تعالى: **{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}** [(١٠) سورة البقرة] أي تعاطوا الأسباب التي أوقعتهم في الريبة والشك حتى ابتلوا بهذا النفاق، فلما أعرضوا عن الصدق قولاً وفعلاً وحالاً، عاقبهم الله -عز وجل- بما يصلح ويناسب لفعلهم القبيح فزادهم من هذا المرض، وهذا بخلاف من أقبل على الله -عز وجل- بصدق ولجأ إليه واهتدى بالقرآن فإن الله يزيده إيماناً وينقله من هداية إلى هداية؛ فهو أرحم بعباده كما قال -عز وجل-: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}** [(٤٣) سورة الأحزاب]، فهو ينقلهم من رحمة إلى رحمة، ومن هدى إلى هدى، حتى يتم لهم هذا الإيمان، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}** [(١١٥) سورة التوبة].

هذا هو تفسير هذه الآية عند أهل السنة والجماعة، وهو أن الله -عز وجل- يجازيهم على هذا النفاق وهذا الكفر وهذا الرجس وتعاطي أسباب الشر أن يزيدهم مرضاً إلى مرضهم، وهذا أصل معروف دلَّ عليه القرآن

في مواضع كثيرة، فمن أعرض عما هو مطالب به من الحق والعمل الصالح والإيمان ابتلي بالاشتغال بما يضره.

والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في كتابه القواعد الحسان تكلم على هذا الأصل وجاء له بأمثلة كثيرة، من ذلك أن اليهود لما تركوا التوراة والعمل بها ابتلوا باتباع الشياطين، كما قال تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

ومن أعرض عن كتاب الله -عز وجل- فلا يسمعه ولا يقرؤه ولا يتدبره ابتلي بسماع الأغاني واللهو والغيبة والكذب والباطل والزور وما أشبه ذلك، وهكذا كل من أعرض عما هو بصدده مما طولب به ابتلي بالاشتغال بضده.

"وقوله: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وقرئ: "يكذّبون" وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا."

دلالة القراءة الثانية -أعني قراءة يكذّبون بالتشديد- فيها زيادة، وهي أنها تدل على التكثير، أي على كثرة الكذب منهم، أضف إلى ذلك أنها دلت على معنىً آخر وهو أنهم يكذبون بالقرآن وبالوحي والرسالة.

وصنيع ابن كثير -رحمه الله- بناءً على أنه حمل الآية على معنييها، والقاعدة أن تعدد القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات، فإذا كان لكل قراءة معنىً يخصها فإنها تنزل منزلة الآية المستقلة، ومن ثم يفسر القرآن بهذه المعاني جميعاً.

وهذا التفسير أنواع: منه ما يرجع إلى ذات واحدة فيكون من باب زيادة الأوصاف، مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [(٨٦) سورة الكهف]، أي: منتنة متغيرة من طول المكث، وعلى القراءة السبعية الأخرى: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ} يعني حارة، فهذا من باب تعدد القراءات؛ لأنه يرجع إلى ذات واحدة موصوفة هي العين، وهو من باب زيادة الأوصاف، فهي عين متغيرة منتنة وحارة.

وتارة تكون كل قراءة عائدة إلى معنىً آخر، مثل قول الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} [(٢٢٢) سورة البقرة]، في القراءة الأخرى (يطَّهَّرْنَ)، فعلى قراءة يَطْهُرْنَ يعني انقطاع الدم، وعلى قراءة يطَّهَّرْنَ يعني الاغتسال، ومن هذا النوع قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} ويُكَذِّبونَ.

"(تنبيه) قول من قال: كان -عليه الصلاة والسلام- يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة ابن اليمان -رضي الله تعالى عنه- في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ظلماء الليل عند عقبةٍ هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة.

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [(١٠١) سورة التوبة] **الآية.**

وقال تعالى: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [(٦٠-٦١) سورة الأحزاب]، **ففيها دليل**

على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم، وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: {وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [(٣٠) سورة محمد].

وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول."

من أهل العلم من يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أطلعه الله بعد ذلك على المنافقين، وأسر بذلك إلى حذيفة، ولهذا كان عمر -رضي الله عنه- يسأل حذيفة هل سماه له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، مع أن عمر يعلم قطعاً أنه ليس من النفر الأربعة عشر الذين نفروا ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند العقبة، حتى إن عمر -رضي الله عنه- كان لا يصلي على ميت حتى ينظر هل صلى عليه حذيفة أو لا يصلي عليه.

"وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم -رضي الله تعالى عنه-، وقد عاتبه -صلى الله عليه وسلم- عمرُ بن الخطاب -رضي الله عنه- ."

يعني أن عمر –رضي الله عنه- عاتب النبي -صلى الله عليه وسلم- لماذا تصلي على هذا المنافق!.

ومما يدل على نفاق ابن أبيّ ما حدث في غزوة المريسيع حيث اختصم الجهجاه -وهو رجل من غفار كان مولى لعمر- مع رجل من جهينة كان مولى لعبد الله بن أبيّ، اختصما على الماء، فلطم الجهجاه الجهني، وكان الجهجاه كما في بعض الروايات كثير الدعابة، فكسع الجهني، أي ضربه بظهر قدمه على دبره، وكان العرب يكرهون هذا النوع من الضرب، ويكرهون الضرب على القفا أيضاً، كما قال القائل:

وكنت أُرى زيداً كما قيل سيداً ... إذا إنّه عبد القفا واللهازم

فالعبد هو الذي يضرب على قفاه، أما الحر فلا يضرب هكذا، ولذلك فالأستاذ الذي يضرب الطلاب بهذه الطريقة مخطئ؛ لأنه بهذا يذلهم.

الحاصل أن ذلك الرجل غضب، فقال: يا للأنصار، فقال الجهجهاه: يا للمهاجرين، فقال عبد الله بن أبيّ لما بلغه ذلك: أو قد فعلوها، والله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [(٨) سورة المنافقون]، ثم لام قومه، فقال: إني نهيتكم عن إيوائهم لكنكم خالفتموني وساكنتموهم وأطعمتموهم ولو تركتموهم لطلبوا داراً أخرى غير المدينة.

وقد صور الله تعالى ذلك بقوله: **{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}** [(٧) سورة المنافقون]، أي: اقطعوا عنهم الأموال فيتفرقوا عنه.

وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم -رضي الله تعالى عنه-، شهد عليه زيد لما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل.

"وقد عاتبه -صلى الله عليه وسلم- عمرُ بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فيه فقال: ((إني أكره أن تتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه))[2]."

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب قوله: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [(٨) سورة المنافقون] (٤٦٢٤) (ج ٤ / ص ١٨٦٣)، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب- باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤) (ج ٤ / ص ١٩٩٨)، ولفظهما: ((دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)).

مع أن الرجل قال كفراً، وشتم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأقبح الشتم، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتله من باب ارتكاب أخف الضررين بدفع أعلاهما.

وكذلك في تسمية المنافقين، لم يسمهم النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة، وإنما أعطاها لحذيفة، فلم يخبر بها حذيفة -رضي الله عنه-؛ لئلا يؤدي ذلك إلى مفسدة أعظم، فيكفي معرفة الأوصاف ليحتفظ كل إنسان بمعلوماته لنفسه، فإذا أظهر هذا وحكم على الناس علناً بمثل هذه الأمور فإنه يحصل من المفاسد ما لا يخفى، يكفي أن هذه أوصافهم فمن وجدت فيه هذه الأوصاف فهو منافق.

"ومع هذا لما مات صلى عليه -صلى الله عليه وسلم- وشهد دفنه، كما يفعل ببقية المسلمين."

لأن كل من أبطن الكفر وأظهر الإسلام يجري عليه حكم الظاهر وأمره إلى الله -عز وجل-، لكن هذا غير مسألة الاغترار به، والثناء عليه، وتوليته، وما أشبه ذلك، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يولِّ أحداً منهم، لا على سرية ولا على أكثر من ذلك ولا أقل.

"وفي الصحيح ((إني خيرت فاخترت))[3] وفي رواية: ((لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت))[4]."

هذه أخلاق الكبار قلَّ من يصل إليها، رجل يتكلم بهذا ويرمي عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتهم عائشة -رضي الله عنها- بالزنا، وينشر هذا في الناس، ويقول: سمن كلبك يأكلك، ولئن رجعنا إلى المدينة..، ولا يزال يفسد في داخل الصف كالسوسة تنخر ثم يصلي عليه ويكفنه في قميصه -عليه الصلاة والسلام- ويقول: ((لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت))، من يفعل هذا؟

تصور الآن واحداً يفعل هذه الأشياء كلها ووصل أذاه إلى عرضك وهو منافق يفسد في المجتمع، ويفسد في الناس، هل ستقول: أستغفر له سبعين مرة، وأكثر من سبعين مرة، وأدفنه في ثوبي؟

ستقول: اللهم كفنه في جهنم، وهذا هو الذي يقوله الناس عادة إلا من روض نفسه وغلبها وقهرها وارتفع.

هذه أمور لا يصلها كثير من الناس، بل كثير من الناس يتمرغ في دائرة ضيقة في داخل نفسه تغمرها الأحقاد والحسد وتصفية الحسابات، فلا يستطيع أن يرتفع، كلما ارتفع قعدت به نفسه فلا يسمو، وقد يكون هذا مع أقرب الناس إليه.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [(١١-١٢) سورة البقرة].

"قال السدي في تفسيره عن ابن عباس، وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} قال: هم المنافقون، أما {لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ}، قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية.

---

3 - أخرجه بهذا اللفظ البخاري في كتاب: الجنائز – باب: ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠) (ج ١ / ص ٤٥٩).

4 - أخرجه البخاري أيضاً في كتاب: التفسير – باب: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ} [(٨٠) سورة التوبة (٤٣٩٤) (ج ٤ / ص ١٧١٥).

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ} قال: يعني: لا تعصُوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض."

هذا هو المعنى العام للإفساد في الأرض، ويدخل فيه الإيقاع بين الناس، والتثبيط عن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الجهاد معه، {وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [(٨١) سورة التوبة].

والتثبيط عن النفقة {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [(٧) سورة المنافقون].

{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [(٤٧) سورة التوبة]، خبالاً: يعني وهناً وضعفاً، {ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [(٤٧) سورة التوبة]، أي الدسائس والمؤامرات للإفساد بينكم مع قلة الجدوى.

وإذا حضروا أرض المعركة فهم كما قال الله -عز وجل-: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب]، فالمنافق ما حضر إلا لدفع التهمة عنه وللحصول على شهادة حضور، فإن حصلت غنيمة فهو معهم، فهو يحضر أرض المعركة حتى يُرى أنه حضر ولكنه لا يفعل شيئاً، فإذا ذهب الخوف وجاء وقت تقسيم الغنائم فهو كما قال الله: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} [(١٩) سورة الأحزاب].

فإذا جاء الخوف {رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [(١٩) سورة الأحزاب]، فهو من شدة الخوف من الموت لا يستطيع أن يلتفت؛ لأنه يخاف أن يؤتى من هنا أو من هنا، وإنما العين فقط هي التي تدور يمنة ويسرة.

{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [(١٩) سورة الأحزاب]، والسلق هو البسط، والمعنى أنه إذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك.

فالحاصل أن هذا كله من الإفساد في الأرض، وأعظم الإفساد في الأرض هو الكفر بالله -عز وجل- والصد عن سبيله

"وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطَّاعة، وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكَذِبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً."

ومثل هذا ما فعلوه مع يهود بني النضير في القصة المعروفة لما قالوا: لا تنزلوا عن دياركم وأموالكم، ولا تطيعوا محمداً فنحن معكم، وقالوا: نحن نعينكم بأربعة آلاف مقاتل، ثم خذلوهم.

قال الله -عز وجل-: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [(١٢) سورة الحشر] فهم وعدوا بني النضير لما طالبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالاستسلام والنزول على حكمه فاستشاروا عبد الله بن أبيّ فقال لهم: لا تفعلوا، كيف تنزلون عن دياركم وتخرجون من المدينة وتنزلون على حكمه، بل اثبتوا ونحن معكم.

وكانوا قد وعدوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في بداية الأمر بشيء من هذا، ثم رجعوا إليه، وقالوا: لا، ليس بيننا وبينك شيء، ووضعوا المتاريس واستعدوا للقتال، وتباطئوا عبد الله بن أبيّ الذي وعدهم بأنه سيمدهم بالمقاتلين، فأرسلوا إليه رجلاً فوجدوه يتعشى، فقالوا له: أين ما وعدتنا؟ فقال: سنبعث إلى حلفائنا في غطفان، ولم يلتفت إلى الرجل، وهكذا خذلهم فلم يقاتل معهم، ولم يخرج معهم حينما أخرجوا.

وهكذا هو إفسادهم وهذه صورة من إفسادهم.

ومن صور إفساده أنه إذا لم يستطع أن يفعل شيئاً فلا أقل من أن يشوش على الناس ويرجف، كما قال حينما قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- رجالات بني قريضة: يقتل أربعمائة دارع في غداة واحدة؟!

وهكذا بدأ يثير بلبلة، كيف يقتل أربعمائة دارع في خنادق في صبيحة واحدة، فهو يستغل مثل هذه الفرص ويثير هذه البلبلة مع أنه ليس له وسائل إعلام كما هو الحال اليوم، فكيف ستكون النتائج لو كانت وسائل الإعلام في ذلك الوقت كاليوم وطُلب لمقابلة في قناة من القنوات!!.

"فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها.

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]."

ولذلك لما كانت هذه الوشيجة موجودة بينهم وبين الكفار، كانوا يقولون لأهل الإيمان يوم الأحزاب: هلم إلينا، قال تعالى: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [(١٨) سورة الأحزاب].

على أحد التفسيرات المشهورة في الآية، أنهم كانوا يقولون: نحن بيننا وبين هؤلاء الأحزاب خطوط اتصال، وصلة، وكانوا يحرضونهم أن يدخلوا المدينة ويعدونهم بأنهم سيحمونهم ويدافعون عنهم وسيدَّعون أن هؤلاء ليسوا من الأحزاب فلا يقع عليهم القتل والأسر، وستكون فرصة للبطش بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه على حدِّ اعتقادهم.

ولذلك لما ذهبت الأحزاب لم يصدق المنافقون ذلك؛ فهم كانوا متيقنين أن الأحزاب سيدخلون ويبطشون ويقتلون النبي -صلى الله عليه وسلم- ويأسرون المسلمين، ويضعونهم في أقفاص كما قال تعالى: **{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}** [(٢٠) سورة الأحزاب]

والحقيقة أنهم جبناء كما قال تعالى: **{وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ}** [(٢٠) سورة الأحزاب]، أي أنهم يسألون عن أنبائهم من بعيد من خلال تلقي الركبان وسؤال الناس الذين يأتونهم بالأخبار، وإلا فلو كانوا في المدينة لم يقاتلوا معهم إلا قليلاً، كما قال تعالى: **وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}** (٢٠) سورة الأحزاب].

"فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا} [(١٤٤) سورة النساء]، ثم قال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [(١٤٥) سورة النساء].

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غَرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأول

لكان شرّه أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح ونجح؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء."

في أول سورة الأحزاب الله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(١-٢) سورة الأحزاب].

جاء بعض كبراء قريش سراً إلى المدينة، فنزلوا عند عبد الله بن أبيّ، فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يطرح له رأياً وهو أن ينزع الفتيل -كما يقال- فلا تكون هناك حرب إعلامية، ولا أي مناوشات، أي: لا يتعرض للمشركين ولا لدينهم، ولا لآلهتهم، .

والمشركون بالمقابل يكفون عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن أصحابه، وتكون القضية بهذا علاقات، فالمنافقون بهذا الطرح كانوا يزعمون أنهم يريدون توفيق العلاقات بين المسلمين والكافرين، فيصطلحون مع هؤلاء ومع هؤلاء، فقال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [(١-٣) سورة الأحزاب] أي: لا تخف فالله لن يضيعك.

ثم يقول الله: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [(٤) سورة الأحزاب]، ومن معانيها المشهورة أنه لا تجتمع طاعة الله -عز وجل- وطاعة غير الله من المنافقين والكافرين.

"أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [(١١) سورة البقرة] أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب.

يقول الله تعالى: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [(١٢) سورة البقرة] يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً."

لاحظ القول الذي قالوه وكيف قابلهم به، {قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [(١١) سورة البقرة] فوصفوا أنفسهم بالإصلاح، بل حصروا ذلك في أنفسهم وقصروا فعلهم عليه بأسلوب الحصر "إنما" وهي من أقوى صيغ الحصر.

فقابلهم الله بالمثل فقال: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ} فهذا ينادي به عليهم كأنه يحصر الإفساد فيهم، وذلك أنهم استحقوا أكمل ما يمكن أن يتصور من هذا الاتصاف بالإفساد، فهم قالوا: {إِنَّمَا نَحْنُ} فحصروا أنفسهم في هذا، فهو قابلهم بمثله {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ} وجاء بضمير الفصل "هم" بين طرفي الكلام؛ وذلك لتقوية النسبة.

ثم عقبه بقوله: {وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}، فلاحظ الفرق بين هذا التعقيب {وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} وبين التعقيب في قوله في الآية الأخرى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ} [(١٣) سورة البقرة].

الفرق من حيث إن الشعور بالشيء هو إدراكه بأحد الحواس الخمس أو بغير الحواس الخمس كما يقول بعضهم: إن هناك حاسة فوق الحواس الخمس المعروفة، وعلى كل حال الشعور بالشيء يكون أبلغ من العلم

به؛ لأن العلم بالشيء قد يأتي عن طريق المُخبِر، ولكن الشعور به لا يكون عن طريق المخبِر غالباً، ولذلك عبر هنا بالشعور؛ لأن الإفساد في الأرض أمر يدرك وليس من شأنه أن يخفى، ومع ذلك فهؤلاء خفي عليهم هذا بطمس بصائرهم، فظنوا أن هذا الإفساد هو عين الإصلاح مع أن فعلهم لا يخفى على ذي عينين أنه من الإفساد، فأي طمس للبصائر أعظم من هذا،؟! فهذا هو الفرق بين التعبير بالشعور بالشيء وبين العلم به، والله أعلم.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ} [(١٣) سورة البقرة].

"يقول تعالى: وإذا قيل للمنافقين: {آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ} أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر، {قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء} يعنون -لعنهم الله- أصحابَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم-.

قاله أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار."

قوله تعالى: {قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء} أي إنهم لما قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إيماناً ثابتاً صحيحاً، تطيعون الله فيه ورسوله، وتقفون عند حدوده وتلتزمون أوامره، قالوا: تريدنا أن نفعل فعل هؤلاء السفهاء الذين ليس عندهم تدبير ولا حكمة ولا رأي حصيف، وإنما يفعلون الأفعال التي من شأنها أن تستعدي الناس عليهم، وتوقع بينهم وبينهم الحروب، وما أشبه ذلك، أما نحن فعن طريق الحكمة نوفق ويكون لنا وشيجة مع هؤلاء ومع هؤلاء، وتكون هناك روابط حسنة طيبة مع الجميع، ونُرضي الجميع، وليس عندنا أي إشكال في أن نتفاوض مع الجميع، وأن نتنازل مع الجميع بحيث تنزع أسباب الشر بين الناس، ويحصل بينهم التقارب والتآلف والتعايش والاجتماع على الإنسانية، وهذا أمر مطلوب وهو عين الحكمة والصواب، ونحن لا ننظر إلى الجانب المظلم عند الآخرين، بل لا بد أن عندهم جوانب ثانية مشرقة وسنتفق معهم فيها، فالذي يتمحض للشر هو الشيطان فقط، لكن الآخرين مهما كان عندهم من شر وفساد فعندهم أيضاً جوانب خير لمن بحث وفتش بنية صحيحة طيبة، وبالتالي نتفق معهم فيها، فلو ركزت النظر في هذه الجوانب فإنك تستطيع أن تمتزج معهم، وتتعاون معهم في مثل هذه الأمور التي يحصل فيها الاتفاق، وأما الأمور التي يحصل فيها الاختلاف فكل إنسان يحتفظ بما يعتقده لنفسه، وهذه هي الحكمة، وأما من يقف ضد هذا الفكر ويقول عن هذه الأفكار: إنها أفكار فاسدة، وأن الولاء لا يكون إلا بين المؤمنين، ويؤمن بمبدأ البراءة من الكافرين فهذا سفيه لا يفهم، وهذا شخصية تصادمية!!.

إن هذا الكلام في حقيقته هو فلسفة أهل النفاق، ومشكلة هؤلاء القوم في الحقيقة هي مع القرآن، ولو قرأنا سورة براءة لرأينا أعظم من هذا الذي ذكر في سورة البقرة من فضح لحقائق هؤلاء المطموسين، ولذلك فالمؤمن يعرف الحق ويتعبه، ولا يضل بما يسمعه من أعداء الله -عز وجل-.

"**والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى:** {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً} [(٥) سورة النساء]. **قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان.**"

إذا سمع النساء هذا الكلام أو قرأنه من تفسير ابن كثير فإنهن سيلفظن تفسير ابن كثير؛ إذ كيف يقال: إن النساء سفيهات والمرأة اليوم هي السيدة، وهي التي أثبتت وجودها في جميع المجالات وصارت نداً للرجل، فصارت تزاول ما يزاوله الرجل فلا فرق بين المرأة والرجل، فلا بد من أن نعيد كتابة التفسير، ولا بد من تجديد الخطاب الديني، إلى غير ذلك من سحب النفاق التي نسمعها اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"**وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال:** {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء} **فأكد وحصر السفاهة فيهم.**

{وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ} **يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى.**"

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٦)

الشيخ/ خالد السبت

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ* اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٤-١٥) سورة البقرة].

"يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: {آمَنَّا} وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، ولِيَشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم.

{وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} يعني: إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم.

وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدَتُه، ويكون الشيطان من الإنس والجن، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

وقوله: {قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ} روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أي: إنا على مثل ما أنتم عليه {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} ساخرون بأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم، وكذلك قال الرّبيع بن أنس وقتادة.

وقوله تعالى جواباً ومقابلة على صنيعهم: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة]، قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [(١٣) سورة الحديد] الآية.

وقوله تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا} [(١٧٨) سورة آل عمران] الآية.

قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله -تعالى ذكره- وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به، فهذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [(٤٠) سورة الشورى]، وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله -عز وجل- بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى- عن هؤلاء المنافقين: **{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** [(١٤) سورة البقرة] يقول ابن جرير –رحمه الله تعالى-: شياطين كل شيء مردته.

ويكون الشيطان من الإنس ومن الجن، فعن أبي ذر –رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في المسجد فجلست فقال: ((يا أبا ذر هل صليت)) قلت: لا، قال: ((قم فصلِّ)) قال: فقمت فصليت ثم جلست، فقال: ((يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن)) قال: قلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟! قال: ((نعم))[1].

وعن عائشة –رضي الله عنها- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر))[2]

وعن أبي ذر –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الكلب الأسود شيطان))[3].

فالكفرة من الجن شياطين، والذين يضلون الناس ويغوونهم من الإنس هم شياطين.

فهؤلاء الذين ذكرهم الله في سورة البقرة إذا خلوا بشياطين الإنس ممن يوافقونهم وينكرون عليهم إظهار الإسلام والدخول فيه، يعاتبونهم على ذلك فيقولون: نحن معكم في حقيقة الأمر، ولكننا نفعل ذلك استهزاءً بهم، أي بالمؤمنين.

فردَّ الله عليهم بقوله: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** [(١٥) سورة البقرة]، والمراد باستهزاء الله -عز وجل- بهؤلاء كما يقول ابن كثير: **فهذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان.**

ابن كثير -رحمه الله- هنا لم يصرح بأن ذلك من قبيل المشاكلة، ولكن كلامه لا يفهم منه إلا هذا، وهو أن الاستهزاء والمكر والكيد والمخادعة إنما يكون على سبيل المقابلة فيكون من باب استعمال اللفظ في مقابل لفظ آخر عبر به عن فعل هؤلاء فحسب ولكن المعنى ليس بمراد.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة - باب: الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٥٥٠٧) (ج ٨ / ص ٢٧٥)، وأحمد برقم (٢١٥٨٦) (ج ٥ / ص ١٧٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١) (ج ٨ / ص ٢١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف"، وكذا ضعفه الألباني كما في سنن النسائي.

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب – باب: في مناقب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- (٣٦٩١) (ج ٥ / ص ٦٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٩١٤).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة - باب: قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

وهذا ما يسميه البلاغيون بالمشاكلة، وهذا كثير لدى بعض من يكتب في التفسير وفي موضوعات شتى، سواء المعاصرون أو غيرهم ممن هم من أهل السنة ومن غيرهم.

وهذه مسألة تحتاج إلى تحرير، وذلك أن المشاكلة نوع من المجاز ومنهم من يجعل المشاكلة قسماً مستقلاً بذاته وليس من المجاز، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنها لا حقيقة لها في الطرف الآخر، وإنما هي فقط مشاكلة لفظية، فحقيقة هذه المشاكلة أن يستعمل لفظاً في مقابل لفظ عبر به عن فعل الفاعلين، وإن لم يرد معنى هذا الفعل حينما استعمله أولاً في المقابلة.

ومن أوضح الشواهد أو من أشهر الشواهد التي يحتجون بها قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لــك طبخــه ... قلت اطبخوا لــي جبــة وقميــصا

فيقولون: الجبة والقميص لا تطبخ، لكنه استعمل هذا اللفظ فقط في مقابل لفظهم الذي عبروا به.

وقالوا: إذا قال هؤلاء: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [(١٤) سورة البقرة]، فقال الله: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [(١٥) سورة البقرة]، فإن الله ليس من شأنه أن يستهزئ؛ لأن الاستهزاء صفة نقص وهي مذمومة ولا تليق بالله -عز وجل-، وإنما أتى بهذا اللفظ في مقابل قولهم: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} فقابلهم على ذلك، وليس ذلك يعود إلى الله -عز وجل- منه شيء.

قالوا: فإن قيل: ما المراد بقوله: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}، يقال: المراد أنه يجازيهم ويعاقبهم على هذا الاستهزاء، أو أنه يستدرجهم، أو يمدهم في طغيانهم يعمهون -كما ذكر ذلك في ختام الآية- فإذا جاء يوم القيامة ذهب عنهم ذلك النور، وحصلت لهم الظلمة على الصراط كما وصف الله -عز وجل-.

وبهذا الجواب أجابوا عن قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(١٤٢) سورة النساء]، فقالوا: الله -عز وجل- لا يخدع ولا ينسب إليه الخداع، وإنما المراد أنه عبر بعبارة إزاء العبارة التي وصف بها فعل هؤلاء دون أن يعود من ذلك على الله -عز وجل- شيء، وهكذا.

وهذا الكلام ليس بصحيح، وليس ذلك قول أهل السنة، فهذه الصفات التي لا تكون من صفات الكمال بإطلاق، تكون كمالاً في بعض الأحوال، فالله -عز وجل- لا يوصف بهذا بإطلاق، فلا يقال عن الله -تعالى الله وجل وعز- لا يقال عنه: كائد، ولا يقال عنه: خادع، ولا يقال عنه: مستهزئ لكن إن صدر ذلك في حق من يستحق ذلك ممن يستهزئ فإن ذلك يكون كمالاً، فالله يستهزئ بهم، كما قال هو سبحانه وتعالى.

والذي يخادع الناس ويستهزئ بهم ويمكر بهم ويستخف بمبادئهم ومشاعرهم ودينهم وما أشبه ذلك إذا عامله أحد من الناس معاملة يستدرجه فيها حتى يوقع به كان ذلك كمالاً؛ لأنه خلص الناس من شره بأسلوب مجاراته في هذا الأمر بعض المجاراة حتى أوقعه.

فالله -عز وجل- يستهزئ بهؤلاء الذين يستهزئون، ولذلك فإن الصحابة -رضي الله عنهم- لم يستغربوا من مثل هذا الاستعمال، كما وقع ذلك للمتأخرين، ولا توقفوا فيه؛ وذلك لسلامة فطرهم، وأيضاً لكمال ذوقهم اللغوي، فهم يفهمون المراد من هذا في كلام العرب، وقل مثل ذلك في المخادعة والمكر إلى آخره.

ومن هذه الأوصاف ما يقول بعض العلماء من أهل السنة عنها: إنها لا تكون بحال إلا على سبيل المقابلة، وهذا لازم في بعض هذه الصفات لا في كلها، فما جاء على سبيل المقابلة فإنه يقال: هذا لا يكون كمالاً إلا

على سبيل المقابلة، وما جاء من غير ذلك فإنه يكون كمالاً في المقامات التي تصلح لمثله مثل الكيد، فالكيد جاء على سبيل المقابلة كما في قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا} [(١٥-١٦) سورة الطارق]، لكنه جاء في غير هذا المقام مثل قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف].

ومثل المكر في قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [(٣٠) سورة الأنفال]، فهو قابل فعلهم بمثله، وجاء من غير ذلك مثل: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف].

وعلى كل حال نحن ندور مع هذه النصوص، وكل ذلك كمال في حق الله -عز وجل-، لكن الله لا يوصف بشيء من ذلك وصفاً مطلقاً في كل الأحوال، فلا يقال: الله كائد، ولا يقال: الله ماكر، ولا يقال: الله مخادع فهذا لا يليق ولا يصلح؛ لأن ذلك ليس بكمال في جميع الأحوال، إنما يكون كمالاً في حال دون حال، والله تعالى أعلم.

فالحاصل أن ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك من قبيل المشاكلة، وهذا فيه نظر، حتى إننا نقرأ لبعض الكاتبين من أهل السنة في هذا العصر من يقول: هذا على سبيل المشاكلة، وسمعت بعض المتخصصين في العقيدة من يقول: هذا مشاكلة لا حقيقة له، بينما تجد هذه المسائل في كتب أهل السنة من الأئمة المتقدمين أنهم لا يجدون أي إشكال في بيان المراد منها من غير اللجوء إلى المجاز، أو تأويل هذا بالتأويلات المتكلفة.

وبالنسبة لمعنى استهزاء الله -عز وجل- بهم في قوله: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} هو ما ذكره هنا في قوله: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة].

فالله -عز وجل- يستدرجهم ويزيدهم من الأسباب التي تزيد في غوايتهم وهلاكهم، حتى إذا لقوا الله -عز وجل- حصل لهم شيء من النور، ثم يذهب هذا النور ويبقون في ظلمة على الصراط وهم أحوج ما يكونون فيه إلى النور، فهذا كله من استهزاء الله -عز وجل- بهم، وهذا كله كمال في حق الله لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ لأنه إذا كان ذلك على سبيل المقابلة والعدل فإنه كمال.

يقول: **قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته**: هل كل ما بعد هذا الكلام هو من كلام ابن جرير، حتى ما وضع له عناوين؟

هذا يعتبر خللا في الاختصار؛ لأن ظاهر هذا الكلام جميعه أن ابن كثير يذكر هذا من عنده، وإنما نقل ذلك عن بعضهم ثم بين المراد، فنقلُه بهذه الطريقة فيه نظر.

قوله: **فهذا إخبار من الله أنه مجازيهم**: هذا كلام ابن جرير يحكي عن أقوام، وليس هذا كلام أهل السنة، فنحن نقول: إن الله لا يمكر بالماكرين فقط، بل يمكر بمن يستحق المكر، وكل ما ورد في مقابل فعل الفاعلين ممن فعلوا جنس هذا الفعل، فهذا يثبت في المقابل، وما ذُكر استقلالاً يذكر استقلالاً، لكن لا يوصف الله -عز وجل- بالأوصاف التي ليست هي كمال من كل وجه على سبيل الاستقلال.

"وقوله تعالى: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] روى السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم- {وَيَمُدُّهُمْ} يملي لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

وقال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون].

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوّهم وتَمَرّدهم، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١١٠) سورة الأنعام]."

{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } يعني جزاءً على كفرهم به أول مرة ختم الله -عز وجل- على قلوبهم فقلَّب هذه القلوب والأبصار فصارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، واستحسنوا ذلك، وزين لهم، فحصل لهم من الأسباب التي تزيد في غوايتهم حتى لم يبق لهم عند الله -عز وجل- نصيب، نسأل الله العافية.

"والطغيان: هو المجاوزة في الشيء كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [(١١) سورة الحاقة].

قال ابن جرير: والعمه: الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموهاً إذا ضل.

قال: وقوله: {فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى، وأغشاها فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٦) سورة البقرة]، روى السدي في تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقال مجاهد: آمنوا ثمّ كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [(١٧) سورة فصلت]."

من هذه العبارات التي أوردها -رحمه الله- في معنى {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}، وهي: **أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، آمنوا ثم كفروا، استحبوا الضلال على الهدى**، ما الذي أرادوا الوصول إليه من خلالها؟ هل يوجد إشكال متبادر في الآية حاولوا أن يبينوا المراد على وجه يرتفع به هذا الإشكال فعبروا بمثل هذه العبارات؟

ظاهر الآية أن ثمة معاوضة، كما قال الشاعر:

بـــدلت بالجمـــة رأســـاً أزعـــرا	وبالثنايـــا الواضـــحات الـــدردرا
كمـــــــــا اشـــــــــترى المـــــــــسلم إذ تنـــــــــصرا	

فهذا له جمة وشعر جميل ثم تحول إلى شيء آخر، وله ثنايا واضحات تحولت إلى شيء آخر، وبالإسلام استعاض النصرانية.

فمعنى المعاوضة أن أقول مثلاً: بدلت بالقلم الساعة، أو اشتريت بالقلم الساعة، أو نحو هذه العبارات فهذه معاوضة، فهؤلاء أهل النفاق اشتروا الضلالة ودفعوا الثمن الهدى.

وهنا يرد سؤال عن هذه المعاوضة في طرفيها، هل هؤلاء كانوا أصلاً يملكون شيئاً من الهدى استعاضوا به الضلالة، هل حصلت لهم معاوضة بأن دفعوا الهدى وأخذوا الضلال؟

إذا قلنا: إن هؤلاء آمنوا ثم كفروا، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} [(٣) سورة المنافقون]، وقوله في الموضع الآخر في وصف المنافقين في سورة براءة لما توعدهم حينما استهزءوا في تبوك: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(٦٦) سورة التوبة]، من قال من أهل العلم: إنهم كانوا مؤمنين ثم تحولوا إلى النفاق لسبب أو لآخر، فالمعاوضة واضحة، فهم بذلوا الهدى والإيمان واستعاضوا عنه بالكفر.

وعلى القول الآخر وهو أن هؤلاء من غير المؤمنين أصلاً، بل هم كفار منذ البداية في الباطن، فأي هدىً دفعوه وبذلوه؟

فهنا يكون معنى العبارات لا تدل على حصول المعاوضة، ويكون معنى اشتروا الضلالة أي: استحبوا العمى على الهدى، بمعنى اختاروا وآثروا.

وواقع الأمر أن المنافقين على قسمين: قسم آمنوا ثم نافقوا، فهؤلاء واضح أنهم بذلوا الهدى وأخذوا مكانه الضلال والنفاق والكفر.

وقسم من هؤلاء لم يؤمنوا أصلاً، مثل عبد الله بن أبيّ الذي قال: إني أرى أن هذا الأمر قد توجه فادخلوا فيه، وكلامه هذا في الظاهر وإلا فهو يخفي الكفر، كما قال الله -عز وجل- عن اليهود: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٧٢) سورة آل عمران]، أي أنه لما يرى الناس هؤلاء العلماء من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام فهذا يعتبر انتصاراً ضخماً للإسلام، فإذا ارتدوا قالوا: لا بد أنهم لم يرتدوا إلا لأنهم رأوا أموراً لا يمكن أن تتفق مع دين صحيح.

فالحاصل أن هؤلاء على نوعين، والآيات جميعها لا إشكال فيها، فآية براءة مثلاً: {قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، إذا قلنا: إن بعضهم كانوا على الإيمان ثم كفروا، فهذا لا إشكال فيه، وإذا قلنا: إنهم منافقون أصلاً فهذا لا إشكال فيه؛ إذ المعنى: قد كفرتم بعد إيمانكم الذي أظهرتموه، أي بعد إيمانكم المزعوم المظهر الذي أجريت عليكم أحكامه، حيث نطقتم بالشهادتين.

ويكون معنى قوله: {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} كقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} [(١٧) سورة البقرة]، أي عرف دلائل الحق، وعرف أحقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأى أنوار الإسلام وبراهينه، ثم بعد ذلك نكص، وترك ذلك وأدار ظهره له، نسأل الله العافية، فـــ{اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} أي: استحبوا وآثروا أن لم يكونوا على الإيمان ابتداءً، ومن هنا يزول الإشكال، فابن كثير -رحمه الله- ما صرح بالإشكال، لكنه أتى بعبارات السلف، وهذا توجيه عبارات السلف ومحاملها، والله أعلم.

"وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة] أي: بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [(٣) سورة المنافقون]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم."

هذا كلام جيد ومعناه أن الفريق الأول الذين كانوا على الهدى استعاضوا الضلال بالهدى، والفريق الثاني الذين لم يكونوا على الهدى آثروا واستحبوا الضلال على الهدى.

"فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: {فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٦) سورة البقرة] أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، {وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

وروى ابن جرير عن قتادة {فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}، قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، بمثله سواء."

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [(١٧) سورة البقرة].

في قوله تعالى: **{فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}** هذا الختام مناسب غاية المناسبة لما ذُكر قبله، حيث قال: **{اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}**، فناسب أن يختم ذلك بقوله: **{فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}**، أي: ما ربحت تجارتهم، بل هذه صفقة خاسرة.

وأصل التجارة إنما تستعمل في البيع والشراء الذي يقصد به الربح في المعاوضات، وصار يستعمل في مثل هذه المعاني، فالعمل بطاعة الله -عز وجل- هو تجارة مع الله -تبارك وتعالى-، فالإنسان له رأس مال وهو هذه الدقائق والثواني والساعات يتجر فيها مع الله -عز وجل-، فمنهم من يغبن في هذه التجارة فيشغل وقته بمعصية الله -عز وجل-، ويشمر في ذلك، ويدفع الأموال ويبذلها ليشتري منزلاً في النار، فإذا جاء يوم القيامة حصل التغابن، قال تعالى: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** [(٩) سورة التغابن]، فهؤلاء شمروا واستغلوا رءوس هذه الأموال فحصلوا أعلى المنازل في الجنة، وأولئك حجزوا فيها مقاعد في النار، وليس ذلك فحسب، بل إن أهل الجنة ورثوا منازل أهل النار في الجنة والعكس.

وهذا غاية التغابن بين الناس، مع أن الغبن أصله يكون في الصفقة في التجارة، حيث يغبن التاجر إذا باع سلعة بيعاً بُخس فيه في الثمن، كأن يكون ثمن السلعة يساوي مائة –مثلاً- وباعها بعشرة، أو اشتراها بمائة وهي تساوي عشرة، فهذا مغبون.

"{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة]، **تقدير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأنَّس بها فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغَيّ على الرّشَد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم."**

قال ابن كثير -رحمه الله-: آمنوا ثم كفروا أخذاً من قوله تعالى: {اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة]، فالمقصود بالنار هنا على قول ابن كثير -وهو قول طائفة من السلف- أنهم دخلوا في الإيمان، ثم بعد ذلك نكصوا فلم يرجعوا إليه، فهذا مثل الذي استوقد ناراً ثم انطفأت عليه تلك النار، وبالمناسبة فهذا هو أول مثل في القرآن.

وقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة] هذا أول مثل في القرآن، وقد قال الله تعالى عن الأمثال: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [(٤٣) سورة العنكبوت].

وهذا المثل والذي بعده، الذي هو قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ} [(١٩) سورة البقرة] كلام أهل العلم فيهما كثير جداً، ويمكن أن نشير إلى بعض الملاحظ التي ينطلقون منها في تفسير هذين المثلين.

فالمثل الأول وهو قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [(١٧) سورة البقرة]، إذا تأملت في لفظ {اسْتَوْقَدَ} ربما تشعر وكأنه استعار شيئاً وهو النور، ثم إن هذا النور إنما كان من النار ولم يكن من عند أنفسهم، فهو شيء منفصل عنهم، وهذا قد يشعر بخلاف ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لأنه نور مستعار كقميص استعاروه، وذلك لغرض في نفوسهم، ثم ما لبثوا أن تحول إلى شيء آخر، ومعنى هذا الكلام أنهم أظهروا الدخول في الإسلام، أو دخلوا في الإسلام على القول الآخر وهو الذي أشار إليه ابن كثير، ويكون المقصود أن هذا حصل لمدة مؤقتة بحيث إنهم لما أظهروا هذا الإسلام حصلت لهم مصالح كالذكر الجميل -الذي لا يستفيض- وإجراء أحكام الإسلام عليهم، فصاروا يأخذون من الغنيمة والفيء من بيت مال المسلمين، وصار لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فحقنوا دماءهم، وأحرزوا ممتلكاتهم، وصاروا كغيرهم بخلاف الآخرين من قبائل الكفار الذين يقاتلون، فيُقتلون ويؤسرون ويسترقون، وتؤخذ أموالهم غنائم.

وبعض أهل العلم فسرها بقوله: {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ} [(٦٤) سورة المائدة]، أي أنه استوقد ناراً للفتنة ثم أطفأها الله، وهذا القول في غاية البعد، وهو من تفسير القرآن بالقرآن الذي يخطئ فيه المفسر بالربط، حيث إن الاجتهاد له مدخل في تفسير القرآن بالقرآن، وهذا مثال عليه.

ويقول بعض أهل العلم: إن هذا المثل مضروب لهم في الدنيا، وبعضهم يقول: في البرزخ، وبعضهم يقول: في الآخرة، والصواب أنه يحمل على الأحوال الثلاثة، فهم أظهروا هذا فهتكهم الله -عز وجل- في الدنيا، وفي البرزخ يلقون العذاب، وفي الآخرة تحصل لهم الظلمة ويتساقطون في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [(١٤٥) سورة النساء].

وكما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [(١٣) سورة الحديد].

وسواء قلنا: إنهم دخلوا في الإسلام فعلاً، أو كانت القضية مجرد إظهار للإسلام فهذا كله لا منافاة فيه، فمنهم من كان كذا، ومنهم من كان كذا، وبالتالي هم في الواقع سواءٌ، فالذين دخلوا في الإسلام عرفوا حجج الدين وبراهينه، وصدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان مآلهم أن انتكسوا وارتكسوا، والذين

تظاهروا بالإسلام وكانوا داخل الصف الإسلامي ويصلون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويأتون الغزوات ويرون المعجزات، هم في الحقيقة لا يؤمنون.

وعلى كل حال فالمعاني الدقيقة التي تذكر في هذا المثل، وتنذيل كل لفظة فيه على معنى يتعلق بالمنافقين، ومن العلماء من نحى منحىً آخر عند ذكرها فقال: هذا المثل مثل مركب، وأصل الأمثال المركبة لا تحتاج أن تنزل كل لفظة أو جملة فيها على من ضربت له من أجل أن يحصل تفسير هذه اللفظة والجملة بناءً على حال هذا الإنسان، وإنما يؤخذ المثل ككل، بمعنى أن هذه الأمثال لا تفسر جملة جملة إلا على سبيل إيضاح غريب الألفاظ، لا على سبيل التنزيل على من ضربت له كلمة كلمة، وجملة جملة؛ فقد تكون بعض الجمل إنما ذكرت ليفهم منها المراد على سبيل الإجمال، وإن لم يكن لهذه الجملة معنىً يخصها يتعلق بمثل هذا الإنسان الذي ضربت له بمفردها، وإنما هي مع غيرها تعطي تصوراً على هذا.

وبناء على ذلك يقولون: المراد بهذا المثل الذي ضربه الله في هذه السورة أن هؤلاء القوم قد تظاهروا بالدخول في الإسلام فحصلت لهم مكاسب وعرفوا براهين الحق، ثم تركوا ذلك وأداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه، فصاروا فاقدين للنور، وصاروا في ظلمة كما وصف الله -عز وجل- هذا الإنسان الذي أوقد النار في مكان مظلم، فلما سُرَّ بها وفرح بها وحصل له بها الدفء وشعر بالأمن بعد أن كان خائفاً من شدة الظلام من حوله، وحصلت له منها منافع أخرى فهو يستدفئ بها ويصنع طعامه فإذا بها انطفأت في وقت هو أحوج ما يكون إليها، وهكذا حال هؤلاء المنافقين حيث ينطفئ هذا النور عنهم في الآخرة على الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-[٤] نسأل الله العافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

[4] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣) (ج ١ / ص ١٦٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [١٧-١٨ سورة البقرة]: "تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك، إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشَد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقوله تعالى: {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} أي: ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان، وتركهم في ظلمات، وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق.

{لاَّ يُبْصِرُونَ} لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك صم لا يسمعون خيراً، بكم لا يتكلمون بما ينفعهم، عميٌ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [(٤٦) سورة الحج]، فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذا المثل ضربه الله -عز وجلَّ- للمنافقين، {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة]، والسين والتاء للطلب، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يشعر بأن هذا مستعار، فهذا الإيمان أو هذا الذي حصل لهم مما انتفعوا به في الدنيا بحقن الدماء وإحراز الأموال لم يكن نابعاً من داخل نفوسهم، وإنما هو شيء استقدموه واستفادوه من غيرهم، وذلك أنهم أظهروا الإيمان للمؤمنين، ودخلوا معهم في الإيمان ظاهراً، فحصلوا هذه الغنيمة البائسة، وهي أنه لم يكن لهم من ذلك إلا إحراز الأموال وحقن الدماء، دون أن يكون ذلك مؤثراً فيهم في انشراح الصدر ونور البصيرة، والانتفاع بالحق الذي يسمعونه صباح مساء عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان نتيجة ذلك أنهم أبعد ما يكونون عن الهدى والحق، فلا يتكلمون به ولا يصدر عنهم، ثم ما يلبث ذلك أن يتلاشى جميعاً، كما ينطفئ نورهم في الآخرة عند الصراط ويبقون في ظلمات فكذلك هذا النور الذي استعاروه واقتبسوه ما يلبث أن يذهب ثم بعد ذلك يعرفون الحقائق، وتنجلي لهم الأمور وتنكشف، ويذهب ذلك الضياء الذي استضاءوا به مؤقتاً، ثم بعد ذلك تبقى حرارة النار التي أوقدوها وإحراقها ودخانها، وهذا يصور حال هؤلاء المنافقين {كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ}هذا دخوله في الإيمان

ظاهراً، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: هذا يدل على أنهم دخلوا في الإيمان ثم رجعوا عنه، على قول هؤلاء الذين ذكرنا لا يكون لازماً أنهم دخلوا في الإيمان، إنما دخلوا فيه ظاهراً فاستفادوا هذه الفوائد الدنيوية، ولهذا فإن الله -عز وجل- يقول في مثل هؤلاء: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(٦٦) سورة التوبة]، فهم لم يكونوا مؤمنين في حقيقة الأمر، وإنما المقصود -والله تعالى أعلم- قد كفرتم بعد إيمانكم الذي أظهرتموه.

{فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} فهذا المنافق ادعى الدخول في الإسلام فاستفاد، مثل صاحب النار الذي أوقدها، أضاءت له المنطقة المحيطة القريبة منه، ثم بعد ذلك ما تلبث أن تنطفئ.

{ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [(١٧) سورة البقرة] ذهب النور وبقيت الحرارة.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة] لا يتكلمون بالحق ولا يبصرونه مهما كانت دلائله ظاهرة، -نسأل الله العافية- يحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتتزل الآيات ويسمعها فإذا خرج قال: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [(١٦) سورة محمد]، إلى هذا الحد، {مَاذَا قَالَ آنِفًا}!!

حاضر مع الحاضرين عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتظن أنه استفاد وأنه تأثر مع الآخرين بالآيات التي تليت عليهم، فإذا خرج إذا به يسأل: ماذا كان يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-، كما حصل حينما كان يستسقي النبي صلى الله عليه وسلم إذا أجدب الناس في أسفاره وفي حضره، فيأتي الله بالخير، فيقول أحدهم: إنما هو سحاب عارض!.

في بعض البلاد قام الدعاة واستسقوا – قبل سنوات- ثم أنزل الله المطر، فقام المنافقون من أرباب الصحف والكتاب والمحاربين لله ورسوله، وبدءوا يتهكمون ويقولون: هؤلاء درسوا الأحوال الجوية، وعرفوا أنه يوجد منخفض أو مرتفع جوي، ووقتوا صلاتهم في هذا الوقت من أجل أن يضحكوا على الناس، ويقولون: استسقينا فنزل المطر.

مثل هؤلاء مهما جاء من الآيات لا تزيدهم إلا كفراً وإعراضاً، والذي جعلهم كذلك هو الله تبارك وتعالى؛ لأنهم هانوا عليه فأذلهم، لذلك تجد الواحد منهم لا ينتفع بما يسمع فهو أصم، ولا ينطق بالحق فهو أبكم لا ينطق إلا بالباطل ولا يكتب إلا الباطل، ولا يدعو إلا إلى الباطل، فهو شر محض، وجندي من جند الشيطان، وكل ما قرأت له مقالة أصابك ما يصيبك من الغم والحزن ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [(١٨) سورة البقرة] لا يرون الحق ولا يرون دلائله أبداً، فهم لا يرجعون إليه؛ لأن المنافذ قد سدت.

أحياناً ترى عبراً فتقول: هذه كافية لمن كان له قلب، أو ترى إنساناً يموت من يموت له، فيذهب في جنازته، وتقول: لعله يرجع ويتأثر، لكن أنَّى له هذا وقد قفل عليه كل شيء.

فمثل هؤلاء لا يؤسف عليهم، فالله -عز وجل- لو شاء لما كانوا كذلك، فله حكمة بالغة في ذلك، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} [(٩٩) سورة يونس].

إن ما نشاهده هذه الأيام من حرب الله ورسوله عن طريق هؤلاء الكتاب، حيث أظهروا كل المستور، وأعلنوا عن عداوتهم للإسلام، بكل مناسبة وبدون مناسبة، فمثل هؤلاء هانوا على الله -عز وجل- فـأذلهم وأهـانهم، ولن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم.

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٩-٢٠) سورة البقرة].

"هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تـارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم كصيِّب، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقتادة وعطية العوفي، وعطاء الخرساني، والسدي والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب، والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق.

{ورَعْدٌ} وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [(٤) سورة المنافقون]، وقال: {وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [(٥٦-٥٧) سورة التوبة].

والبرق:هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، ولهذا قال: {يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ} [(١٩) سورة البقرة]، أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ} [(١٧-٢٠) سورة البروج]، بهم.

ثم قال: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} أي لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ} يقول: كلما أصاب المنافقين من عزِّ الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} [(١١) سورة الحج].

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة]، أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا، أي متحيرين، وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وهو أصح وأظهر والله أعلم.

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور، بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك، وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية، وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [(١٣) سورة الحديد].

وقال في حق المؤمنين: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [(١٢) سورة الحديد] الآية، وقال تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٨) سورة التحريم].

ذكر الحديث الوارد في ذلك:

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}.

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً، فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون، أشفقوا فقالوا: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}."

هذا المثل الثاني كما يقول ابن كثير: **هذا مثل آخر ضربه الله لضرب آخر**،بمعنى أن المثل الأول لطائفة من المنافقين، والمثل الثاني لطائفة أخرى من المنافقين.

بطبيعة الحال فإن المثل الثاني على قول ابن كثير ومن وافقه لحال المنافقين أحسن من أصحاب المثل الأول؛ لأن صاحب المثل الأول استوقد ناراً استفاد منها فترة ثم بعد ذلك انطفأ النور وانتهى كل شيء، {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة].

أما صاحب المثل الثاني فنوره يتقطع أي: يضيء له تارة ثم ينطفئ، ثم يضيء ثم ينطفئ وهكذا، فصاحبه يسير سيراً متعثراً.

وعلى كل حال فإن منشأ ذلك الكلام في "أو" {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} إضافة إلى ما تضمنه هذا المثل من الفروقات عن المثل الأول.

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} فـ "أو" كما هو معلوم، تأتي لمعان متعددة، فتأتي للشك -وهذا غير مراد هنا- فأنت تقول: سافر زيد الليلة أو قبلها، فهنا أتت "أو" للشك، وتأتي للتخيير، فتقول: خذ هذا أو هذا، كما أنها تأتي أيضاً للتسوية بين الأمرين، تقول مثلاً: صاحب زيداً أو عمراً، فهذه تفيد التسوية، بمعنى أنك لا تشك في هذا، وتأتي عاطفة بمعنى الواو تماماً، كما قال القائل:

وقد زعمت ليلى بأني فاجر   نفسي تقاها أو عليها فجورها

يعني وعليها فجورها.

ومثل ذلك قول القائل:

نال الخلافةَ أو كانت له قَدَراً   كما أَتَى ربَّه موسى على قَدَر

فـ"أو" بمعنى الواو، أي: نال الخلافةَ وكانت له قدراً، كما أتى ربه موسى على قدر.

فهذا المثل الذي ذكره الله تعالىبالأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك جميعاً في صفة المنافقين، وليس في طائفة أخرى منهم، فضرب الله لهم المثل الأول بالذي استوقد ناراً ثم انطفأت، فهم انتفعوا بعض الانتفاع مدة مؤقتة في الدنيا ثم ذهب ذلك جميعاً عنهم وأبصروا الحقائق، وعرفوا ما هم فيه، ولم ينفعهم ذلك الإيمان.

والمثل الثاني لحالهم مع حجج القرآن وبراهينه وبيِّناته، قال تعالى: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** الصيب: المطر، من صاب يصوب إذا نزل، والله -عز وجل- مثل القرآن والوحي بالمطر النازل من السماء، ويسمى ذلك بالمثل المائي، قال تعالى: **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}** [(١٧) سورة الرعد]، وذلك مثل لقلوب العباد، يأخذ منهم وينتفع كل بحسبه.

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} سالت أودية بقدرها، هذا وادٍ كبير، وهذا وادٍ صغير، وهذا إخاذ، وهذا لا يجتمع فيه الماء إطلاقاً، هذه أرض سبخة، وهذه غيرها، فهكذا قلوب العباد **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}** [(١٧) سورة الرعد] وهذا هو الغثاء.

ثم ذكر بعد المثلِ المائي المثلَ الناري، فقال تعالى: **{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}** [(١٧) سورة الرعد] فالذهب مثلاً الذي يدخل في النار، يذهب شوبه ويبقى خالصه، وهكذا الأمر في هذه الحياة الدنيا، الله -عز وجل- يقلب العباد وينقيهم ويصفيهم فلا يبقى إلا الصحيح الخالص، ويذهب الغثاء والشوائب كالزبد الذي يحمله الماء، فالله -جل وعلا- في مواضع كثيرة يشبه الوحي بالمطر النازل من السماء، فهنا قال: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** أي: المطر، **{فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ}** [(١٩) سورة البقرة] الرعد زواجر القرآن، والبرق حجج القرآن وبراهينه تكاد تخطف أبصار هؤلاء المنافقين العمي، فهي حجج بيِّنة واضحة وساطعة وباهرة لا خفاء فيها.

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة] **{كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ}** هذا هو حال المنافق، فإذا جاءت الأمور على وئام وسعة وغنائم وانتصارات فخذ من هذا الكلام الجميل، حيث يقوم عبد الله بن أبي عند المنبر يوم الجمعة قائلا:أيها الناس لقد من الله عليكم بهذا النبي، فاتبعوه وأطيعوه، يقول هذا قبل أن يصعد النبي -صلى الله عليه وسلم- المنبر وذلك كل جمعة، وفي السفر وفي وقت الشدة يقول: أوَ قد فعلوها، والله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأوائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لقد أبلغتكم وأنذرتكم أنتم آويتموه وأطعمتموه فكاثروكم في بلادكم -يعني المهاجرين كانوا أكثر من الأنصار- فلو تركتموهم لطلبوا بلاداً أخرى، قاطعوهم لا تسكنوهم ولا تعطوهم شيئا، دعوهم يبحثوا عن بلد آخر ينتقلون إليها، ويشهد لهذا فضح القرآن لهم مقولتهم: **{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}**

[(٧) سورة المنافقون]، يعني من أجل أن ينفضوا عنه، فهذا حل طرحه لهم، وهو أن يتخلصوا من هؤلاء المهاجرين، لكن {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(٧) سورة المنافقون]، فهو كان يظن بهذا أنه سينهي الإسلام والدعوة.

فنحن حينما نريد أن نعرف صورة هذا وأمثاله، نأتي بمقاطع السور جميعاً من هنا وهناك ونركبها مع بعض فيتضح لنا من هو عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه.

فهذا مثل لطائفة واحدة وهي طائفة المنافقين، هناك ذَكَرَ ما يحصل لهم من الانتفاع في الدنيا، بادعاء الإسلام، وهنا ذكر حالهم في سيرهم في هذه الحياة، فحينما يسمعون القرآن، وما فيه من الزواجر فهذه كالصواعق، إذا بالتصرف الأحمق يصدر منهم بأن يجعلوا أصابعهم في آذانهم، كالإنسان الذي يخاف من الصاعقة أو من صوت الرعد، فيجعل إصبعه في أذنه، فيا ترى هل إذا وضع أصبعه في أذنه ترد الصاعقة عنه إذا جاءت؟ لا تردها لكنه يتصرف مثل هذا التصرف الأحمق ليخفف عن نفسه.

في الأمس القريب حدثني ولدي الذي هو في الصف الثاني الابتدائي عن زميل له -أكرمكم الله- تبول على نفسه، فجلس زملاؤه تعلو أصواتهم يعيرونه ويعيبونه فماذا صنع المسكين؟

وضع أصابعه في أذنيه وجلس يصدر أصواتاً من فمه من أجل أن لا يسمع!! يا ترى هل هذا سيغير من الحال شيئاً؟

ومثل هذا بعض العجائز إذا ركبت في السيارة وشعرت أن السيارة مسرعة فهي طول الوقت متمسكة بها بقوة، وتهدد أنه إذا ما خففتم السرعة فإني سأتركها!! يا ترى هل إمساكها لها ينهي شيئاً من الموضوع؟

كذلك هؤلاء يجعلون أصابعهم في آذانهم -والمقصود رءوس الأصابع- من أجل خوفهم من السماع.

فهذه زواجر القرآن، والبرق هو حجج القرآن وبراهين الحق، تكاد تخطف أبصار هؤلاء، حذر الموت، {واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ} [(١٩) سورة البقرة].

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة] إذا جاءت الأمور السهلة فهم ما شاء الله، و إذا جاءت الشدة انتكسوا، كما حصل في الأحزاب، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا* وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا* وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [(١٢-١٤) سورة الأحزاب] لو دخل الأحزاب المدينة وطُلب منهم أن يكفروا مباشرة سيرتدون وسيتسابقون إلى ذلك، وهكذا هم إذا غلبوا تهافتوا على الكفر.

فتبصروا لمعرفة مثل هذه الأمور؛ فإن ذلك يخفف على الإنسان كثيراً من الهم، مما يراه من تساقط وتسارع وضلال إذا غَلب الكفار، وهذا ليس بشيء جديد بل هذا أمر قديم، ولله في هذا حكمة.

فالحاصل أن المثَلين -والله تعالى أعلم- كلاهما في المنافقين، وليس هذا في طائفة وهذا في طائفة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،وبعد.

أقسام القلوب:

"روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن، فسراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق الخالص،عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى، غلبت عليه)) [وهذا إسناد جيد حسن]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن وجه إيراد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لهذا الحديث عند تفسير هذه الآية هو أن المثَلين المضروبين للمنافق في قوله سبحانه: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [(١٧-١٨) سورة البقرة].

والثاني في قوله سبحانه: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ}** [(١٩) سورة البقرة]، **{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ}** [(٢٠) سورة البقرة].

فالأول: هو حال المنافق الخالص بحيث أنه لا رجاء فيه ولا رجعة له وقد أغلق منافذه جميعاً فهو لا ينتفع بموعظة ولا بوحي ولا بغير ذلك.

والثاني يبين أن هؤلاء إذا أضاء لهم يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن كلَّ مثل من هذين المثلين لطائفة غير الطائفة الأخرى، فالمثل الأول **{كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** هو مثل للمنافق الخالص الذي طبع على قلبه، فوصفهم الله بالصمم والبكم، والعمى.

والمثل الثاني: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ}** كالمطر، فهو يقول: هؤلاء كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، فهذا مثل لطائفة أخرى من المنافقين -عند الحافظ ابن كثير- والمراد بهم من تستقيم حالهم تارة وتنتكس أخرى، فإذا أصابتهم النعمة والأمن والرخاء صلح حالهم وسكنوا إلى الإسلام واطمأنوا إليه، وإذا أصابتهم شدة ونكبة نجم النفاق وانتكسوا كالذي يعبد الله على حرف، فمثل هؤلاء تارة هكذا وتارة هكذا بحسب الحال، وهذا على قول الحافظ ابن كثير أن كل مثل لطائفة مغايرة، من المنافقين، فالأول أشد، والثاني من كان تارة وتارة.

وطائفة من أهل العلم كما سبق، يرون أن المثلين المائي: {أَوْ كَصَيِّبٍ} [(١٩) سورة البقرة]، والناري: {الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة]، كلاهما في طائفة واحدة، وهم أهل النفاق، وسبق الكلام على معنى المثلين.

وعلى كل حال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هذا الحديث ليدلل به على ما قال من أن المنافقين على نوعين:

النوع الأول: هذا الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن قلبه منكوس، وهو قلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، ثم ذكر القلب المصفح، وهو القلب الذي فيه إيمان ونفاق، وهذا للمثل الثاني، على قول ابن كثير، فهو من أجل هذا أورد هذا الحديث.

ولا شك أن النفاق كالكفر ليس على مرتبة واحدة، وإنما هو على مراتب، فالنفاق في الشخص الواحد المعين، تارة يزداد وينقص، كما أنه يتفاوت من شخص إلى آخر، فمن الناس من يكون مغموصاً عليه بالنفاق، ومنهم من يكون بين بين، ومنهم من يكون من ضعفاء الإيمان الذي يحصل له شيء من التردد والتشكك في بعض الأوقات، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأحزاب لما ذكر أحوالهم:{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [(١٢) سورة الأحزاب]، فالذين في قلوبهم مرض هنا، عطفوا على المنافقين، فبعض أهل العلم يقول: هذا من أوصاف المنافقين، حيث تتابع الأوصاف، كما في قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المزدحم

يعني هي أوصاف متعددة لشخص واحد، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم طائفة واحدة عند بعض أهل العلم، وعند بعضهم أن الأمر يختلف، فالمنافقون هم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان، لما حصلت الشدة والحصار حصل لهم تزلزل، وتشكك بوعد الله -عز وجل-.

فعلى كل حال هذا تحتمله الآية، ولا شك أن النفاق يتفاوت، ومن قال بأن المثلين لطائفة واحدة هي طائفة المنافقين، فهو يصور أحوالهم، وهذا لربما يكون هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٠) سورة البقرة].

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته.

{إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير".

أي أن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} متعلقة بما قبلها، وهنا عمم المعنى، تعميماً ليس مطلقاً، وإنما متوسطاً، بحيث إنه ما قال: إن الله على كل شيء قدير أي بإذهاب سمعهم وأبصارهم، هذا هو ربط خاتمة الآية بما ذكر فيها، وما تضمنته من ذهاب سمعهم وأبصارهم، فهنا قال: على ما أراد بعباده من نقمة أو نعمة، ومن ذلك: إذهاب السمع والأبصار، وإذا عممتها تعميماً مطلقاً تقول: إن الله على كل شيء قدير كما هو ظاهر اللفظ من حيث هو، أي: على كل شيء قدير فيما يتعلق بالخلق والتدبير، وما يتعلق بالعذاب والإنعام وغير ذلك، فهو كذلك.

على كل حال {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا شك أن مما يدخل بذلك دخولاً أولياً هو الذهاب بسمعهم وأبصارهم.

"وقال ابن جرير إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير".

هذا الذي يسمونه بالمناسبة، علم المناسبات من أنواعه ما يكون في الربط بين خاتمة الآية وبين موضوعها.

لماذا قال في خاتمة الآية هنا: {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}؟

يقال: هذا نوع من علم المناسبات، إذ إنه لما ذكر -سبحانه وتعالى- وعيده بالذهاب بسمعهم وأبصارهم، ذكر قدرته الكاملة، وأن ذلك لا يعجزه، فهذا لون من المناسبات.

كذلك ختم الآيات كما هو معلوم، بالأسماء الحسنى كما في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة]، فهذا في غاية المناسبة.

وهناك أشياء قد تشكل ولربما عرضنا لبعضها في بعض المناسبات مثل قوله تعالى: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة]، والجواب عنها معروف، ذكرته في المرات السابقة، أو في بعض الدروس.

"وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون "أو" في قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} بمعنى الواو، كقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}" [(٢٤) سورة الإنسان].

يعني لا تطع منهم آثماً أو كفوراً: لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً، نعم، لا تطع لا هذا، ولا هذا؛ لأن "أو" تارة تكون للتخيير والإباحة، وتارة تكون للتقسيم، وتارة تكون بمعنى الواو.

تارة تكون للتقسيم مثل قول الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة]، فليس هذا للتخيير قطعاً؛ لأن اليهود لا يمكن أن يقولوا: كونوا نصارى تهتدوا، والنصارى لا يمكن أن يقولوا: كونوا على دين اليهود تهتدوا؛ لما بينهم من الخلاف والشر، والعداوة، ولكن هذه للتقسيم، وقالت اليهود كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، فهي للتقسيم.

{وَقَالُواْ}: يعني اليهود والنصارى، {كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى}: أي كل طائفة قالت: كونوا كذا تهتدوا، أي على دينها، فإذن "أو" هذه للتقسيم.

وهنا "أو" في قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} ليست للتقسيم على قول ابن جرير، فتكون هنا بمعنى الواو، يعني أن المثلين لطائفة واحدة، وهي حال أهل النفاق من غير تنويع لهم.

وعلى قول ابن كثير لا تكون "أو" بمعنى الواو هنا، وإنما يمكن أن تكون بمعنى التقسيم، أي أن المثل الأول لطائفة، والمثل الثاني لطائفة أخرى.

"أو تكون للتخيير، أي اضرب لهم مثلاً بهذا، وإن شئت بهذا، قال القرطبي: أو للتساوي، مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري أن كلاً منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢١-٢٢) سورة البقرة].

توحيد الألوهية:

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي مهداً كالفراش."

{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}: هذا يسمونه دليل الإيجاد والخلق والاختراع، وهو كثير في القرآن.

ثم قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ} [(٢٢) سورة البقرة]: وهذا يقال له: دليل الحكمة والتعليل، وهذا كثير في القرآن أيضاً، حيث يذكر الله -عز وجل- لهم أنه الذي خلق ويستدل لهم على ذلك، ومن ثم يتوصل بهذا إلى إلزامهم بتوحيد الإلهية، الذي خلق ينبغي أن تكون العبادة مختصة به، ومن هنا قيل: إن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية، إذا أقررتم بأن الله -عز وجل- هو المنفرد بالخلق والإيجاد والتصرف فينبغي أن يكون ذلك حاملاً لكم على توحيده وإفراده بالعبادة.

ودليل الحكمة الآخر الذي يبين فيه علة هذا الخلق أنه خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتنتفعوا به، وجعل لكم الأرض فراشاً ممهدة تستطيعون السير عليها والضرب في جنباتها، وأخرج لكم منها النبات، وأنزل لكم من السماء المطر، وكل ذلك من أجل أن تنتفعوا بهذا الإنعام والإفضال، فيكون حاملاً لكم على مزيد من العبودية لله عز وجل والشكر له.

ثم قال لهم: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٢) سورة البقرة]: أي: من كان بهذه المثابة من الخلق والإيجاد والإنعام والإفضال، فينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، وهذا الأسلوب كثير في آيات القرآن.

"**بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقررة موطئة مثبتة بالرواسي الشامخات**" الآن في قوله: {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً} [(٢١-٢٢) سورة البقرة]، أي: اعبدوا ربكم، العبادة المعروفة، وهذا أمر بتوحيد الإلهية، وما يندرج تحته ويتضمنه ويستلزمه.

{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} أفردوه بالعبادة والتوجه، فلا تتوجهوا إلى أحد سواه، وذكر اسم الرب -تبارك وتعالى- هنا وهو في غاية المناسبة، فقوله: {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} أي: أن المربي بالنعم الظاهرة والسيد هو الذي ينبغي أن يوحد ويفرد، فليس لكم رب سواه، فكيف تعبدون غيره، وتتوجهون بالشكر والعبادة، وتضعون ذلك في غير من خلق؟ فهذا غاية الظلم كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]، فالرب هو الذي يستحق أن يعبد.

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} تحتمل أن تكون بمعنى الترجي، وهنا يرد الإشكال المعروف، وهو كيف يقع الترجي من الله -عز وجل- وهو عالم ما كان وما يكون من الخفيات، وإنما يترجى من كان لا يعلم عواقب الأمور.

فنحن نترجى نزول المطر، ونترجى قدوم زيد، نرجو حصول كذا، ولا ندري هل يحصل أم لا، فإذا كان قريب المنال فهذا هو الرجاء، وإذا كان من المحال أو البعيد جداً، فهذا هو التمني، نتمنى نزول المطر.

وعلى كل حال فإن الله –عز وجل- لا يترجى، فمن قال: {لَعَلَّكُمْ} للترجي، قال: ذلك بحسب حال المخاطب، المخاطب يخاطب بحسب نظره، كما سمى معبودات المشركين آلهة، وهي ليست آلهة، وسمى الترَّهات والشبهات التي يحتجون بها سماها حجة، قال تعالى: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ} [(١٦) سورة الشورى] وهي ليست بحجة، لكن هم يعتقدون أنها حجة فسماها حجة، وهذا إذا قلنا: إن لعلَّ للترجي، وإذا قلنا: إنها للتعليل في جميع المواطن في القرآن -إلا في قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [(١٢٩) سورة الشعراء] أي: كأنكم تخلدون، وباقي المواضع كلها تكون للتعليل- فهنا في قوله تعالى: {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} لا إشكال؛ إذ يكون المعنى اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم من أجل أن تحصل لكم التقوى.

فقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} هنا هل يكون عائداً إلى ما ذكر من الأمر بالعبادة، اعبدوا ربكم لعلكم تتقون، أو يكون عائداً إلى ما ذكر من الخلق، الذي خلقكم لعلكم تتقون، أي من أجل أن تتقوه.

بعض أهل العلم، يقول: إنه يعود إلى الأمر بالعبادة، اعبدوا ربكم من أجل أن تحصل لكم التقوى، فالله يأمرنا بالعبادة لتربية التقوى في نفوسنا.

وعلى المعنى الآخر يكون ذلك عائداً إلى الخلق، فهو خلقنا من أجل أن نحقق التقوى، من أجل أن نتقيه سبحانه وتعالى.

فإذا قلنا: إنه عائد إلى العبادة، فقد يشكل عليه أن العبادة هي التقوى، أليست التقوى هي فعل ما أمر واجتناب ما نهى؟ وفعل ما أمر واجتناب ما نهى هو العبادة، فهذا قد يلزم منه ما يسمى بالدور.

فعلى هذا يمكن أن يقال: إن الله أمر بعبادته لتحصل التقوى، وهي أن يجعل العبد بينه وبين عقاب الله وقاية، بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، فيكون متقياً إذا امتثل، وإذا كان عابداً يكون متقياً، ويحتمل أن يكون المعنى الآخر، أن الله خلقنا من أجل أن نتقيه بتحقيق العبودية، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [(٥٦) سورة الذاريات].

فإذا أردنا أن نرجح بين المعنيين فالمعنى الثاني هو أقرب، ويشهد له هذه الآية، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [(٥٦) سورة الذاريات]، فعبادته هي تقواه، بفعل ما أمر واجتناب ما نهى.

ويمكن أن نقول: إن الآية تحمل على المعنيين، فيقال: إن الله -عز وجل- يأمرنا بعبادته لتربية التقوى في النفوس وقد خلقنا أيضاً من أجل تحقيق التقوى، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيكون خاتمة الآية: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} تعليلاً للأمر بالعبادة، وتعليلا للخلق والإيجاد، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول المصنف -رحمه الله-:

"شرع -تبارك وتعالى- في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، والسماء بناء وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [(٣٢) سورة الأنبياء] {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء} [(٦٠) سورة النمل] والمراد به السحاب ها هنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن.

ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٦٤) سورة غافر].

ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٢) سورة البقرة].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) الحديث.

وكذا حديث معاذ -رضي الله عنه-: ((أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...)) الحديث.

وفي الحديث الآخر: ((لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شاء فلان))".

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء}** [(٢٢) سورة البقرة]، مع قوله: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا}** [(٣٢) سورة الأنبياء] دليل على أن السماء سقف محفوظ ومحسوس، خلافاً لما يزعمه بعض أهل الفلك من المعاصرين، حيث يقولون: إن السماء ليست

جسماً محسوساً وسقفاً كما هو مقرر في القرآن، وإنما يقولون: إن هذه السماء هي عبارة عن غازات..، وما أشبه ذلك مما يقولونه في هذا المقام، بحيث إنه ليس هناك سقف محيط بالعالم.
وعلى كل حال هذا تكذيب بما جاء في القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [(٢٢) سورة البقرة] المقصود به العلو، فيصدق على السحاب، فكل ما علا فهو سماء، وبالتالي فهذا المطر النازل من السحاب هو نازل من السماء.

فكلام أهل العلم في مصدر هذا المطر -أي: من أين يأتي- كثير، وذلك لا يمنع أن يكون متركباً من أبخرة تتصاعد من مياه البحار وغيرها، أي: تصعد إلى أعلى ثم تتكثف... إلى آخره، ثم تتنزل، فالله يجعل هذه السنة في خلقه، فينزل لهم بها المطر، وقد يكون له مصدر آخر مع هذا، والله -عزَّ وجلَّ- على كل شيء قدير، لكن هذا أمر مشاهد، والعلم عند الله -عزَّ وجلَّ-.

" **وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى.**"

هذه قضية لا تحتاج إلى تقرير، يعني وجود الصانع أظهر من كل شيء.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولذلك لما مر الرازي مع كوكبة من تلامذته بامرأة عجوز فهالها ما رأت من هذا التجمهر على هذا الرجل، والحفاوة به فسألت من هذا؟ فقالوا: هذا الذي يعرف على وجود الله ألف دليل، فقالت: لو لم يكن في قلبه ألف شك لما عرف ألف دليل.

يعني أن هذه القضية لا تحتاج إلى استدلال لظهوره فهو أمر معلوم بالفطر، أمر بيِّن ظاهر أظهر من كل شيء، فلا حاجة إلى العناء في تقريره والاستدلال عليه، فقد كان المشركون وهم على شركهم يقرون بوجوده وصنعه سبحانه، قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [(٦١) سورة العنكبوت].

وبالتالي فإن المتكلمين من أمثال الرازي يبذلون جهداً كبيراً وعناء طويلاً في تقرير هذه القضية -وجود الصانع- فإن انتقلوا منها انتقلوا إلى تقرير توحيد الربوبية، وهذه من آفات علم الكلام، حيث إنهم يجادلون ويطيلون في تقرير القضايا البدهية التي لا ينازع فيها أحد.

وهذا الكلام قد تحتاج إليه مع ملحد، وذلك نادر؛ لأن طوائف أهل الإشراك يقرون بوجود الله -عزَّ وجلَّ- لكنهم يجعلون معه شريكاً، فتحتاج إلى مناقشتهم في توحيد العبادة.

لكن هؤلاء يناقشون في البدهيات، ولذلك مقدماتهم سقيمة، فالقرآن الكريم لا يتحدث عن قضية وجود الله -عزَّ وجلَّ- مثلاً، ولا يتحدث عن تقرير توحيد الربوبية إلا ليدلل به على توحيد

الألوهية، أما أهل الكلام فإن المقدمات عندهم لا تأتى بأن الله هو الخالق، إذن يجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له.

والصواب ليس كذلك، بل أثبت المقدمة الأولى أن الله هو الخالق، ثم أثبت بعد ذلك أنه المستحق وحده للعبادة.

فانظر كم يحصل بسبب هذا من التطويل من غير فائدة، وهذا هو أحد الفروق بين الأدلة الكلامية المنطقية الفلسفية وطرائق أهل الكلام في الاستدلال، وطريقة القرآن في تقرير قضايا الاعتقاد، هذا واحد من هذه الفروق، وبهذا نعرف ما جره علم الكلام على العقيدة الإسلامية وعلى الأمة من مفاسد وجدل عقيم لا طائل تحته، فاشتغلوا بالقيل والقال، والجدل في المسلمات، وتقرير الثوابت بأطول الأدلة، والتطويل في المقامات التي لا تحتاج إلى تقرير أصلاً، فكثر كلامهم وشغبهم والتمسوا الاعتراضات والقوادح وحاولوا الجواب عنها فشككوا في المسلمات.

هذا هو الذي حصل، ولذلك تجدون مثل الجهم بن صفوان لما قابل طائفة من السمنية وقالوا له: تقر بأن لك رباً؟ قال: نعم، قالوا: هل وجدت له حساً؟ قال: لا، قالوا: هل سمعت له صوتاً؟ قال: لا، قالوا: هل شممت له رائحة؟ قال: لا، إلى أن قالوا له: كيف إذن تدعي أن لك رباً ولم تدركه بحواسك؟

فبقي شاكاً لا يصلي أربعين يوماً، ثم خرج عليهم بكلام أشبه ما يكون بكلام النصارى -كما قال الإمام أحمد -رحمه الله- وغيره في الرد على الزنادقة والجهمية- حيث جاءهم فقال لهم: تقول بأن لك روحاً، قال: نعم، قال: هل وجدت لها صوتاً، قال: لا، وجدت ريحاً؟ قال: لا، قال: إذن كيف تقول بأن لك روحاً؟ وظن أنه حاجَّهم في هذا، وهو يقول: بأن الله مثل الروح، فصار أعظم من قول النصارى بأن المسيح هو روح الله وأنه حل في المسيح، فهو يقول بأن الله مثل الروح يحل ويتجلى في هذه المخلوقات.

وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى وهي دالة على ذلك بطريق الأولى.

مع أن القرآن ساقها لا لتقرير وجود الصانع، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(٢١) سورة البقرة]، جاء بها من أجل العبادة، {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} [(٢١) سورة البقرة]، وهم ما استدلوا بها حتى على توحيد الربوبية الذي هو مسلَّم وما سيقت لتقريره، لكنه أشار إلى هذا، وهو أمر يقرون به أنه هو الرب وحده، فإذن ينبغي أن يكون المعبود وحده، فذهب الرازي إلى ما قبل قبل ذلك، وهو وجود الصانع، ثم بعد ذلك تأتي مرتبة أخرى وهي أنه الرب، فهو يريد أن يثبت أنه موجود، والآية ما جاءت لهذا.

" فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال:..."

شوف الآن الفرق بين هذا وبين الجهم بن صفوان، على كثرة من تبع الجهم بن صفوان من أهل خراسان، وفي البصرة من أتباع عمرو بن عبيد، وغير هؤلاء من المعتزلة الذين يزعمون أنهم أصحاب عقول، حيث انكفأ كثير منهم خلف هذا الرجل المبطل، وتتعجب في ذلك الزمان -في زمان التابعين- مع وجود علماء مثل الجبال وقرب العهد من شمس النبوة، كيف توجد عقول تفكر بهذه الطريقة وتتبع مثل هذا الرجل على جهله وغباوته وظهور فساد عقله، فكيف بزمانك هذا الذي لا ننتظر فيه إلا الدجال؟

فهذا أمر في غاية العجب، فلو أن الإنسان تأمل في التاريخ وظهور الفرق، كيف وجدت هذه الألوف المؤلفة، الذين تبعوها وصاروا يموتون دونها، ويتحمسون لها، ثم تقوم الخلافة على فراخ هؤلاء الجهمية وهم المعتزلة، ويمتحنون الناس؟

نعجب كيف وجدت مثل هذه الأشياء في ذلك الزمان؟ فكيف بزماننا هذا؟ نستغرب إذا انحرف الناس وحادوا عن الجادة!

" كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

فمن تأمل هذه السموات بارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار، والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقرَّ ويسكن ساكنوها، مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال الله تعالى: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [(٢٧-٢٨) سورة فاطر].

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييج والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم، وإحسانه إليهم، وبره بهم، لا إله غيره، ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب.

والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً."

على كل حال هذه الطريقة هي الشائعة في القرآن، وذلك أن يستدل بهذه المخلوقات والكائنات والأجرام العلوية والسفلية على وحدانية الله -عزَّ وجلَّ- وصفاته، يستدل بهذه المشاهدات وما

يقع في هذا الكون على المعبود -سبحانه وتعالى- فيُتعرف عليه -تبارك وتعالى- بآثاره وخلقه.

والطريقة الثانية -وهي طريقة الخاصة- هي الاستدلال، أي التعرف على ما يجري في الكون بناء على المعرفة بالله -عزَّ وجلَّ-.

يعني أن يجعل معرفته بالله وأسمائه وصفاته طريقاً إلى معرفة ما يقع ويجري في هذا العالم.

وشتان بين الطريقتين، فالطريقة الأولى هي الشائعة الكثيرة، وهي التي تناسب عامة الخلق، تقول: الأثر يدل على المسير، وهذه الأكوان والأفلاك العظيمة في جريها ودقة خلقها وعظمتها تدل على عظمة الخالق وعلى علمه وعظيم سلطانه، وتدل على قدرة تامة وغنى مطلق، وملك لا يقادر قدره، وما إلى ذلك من المعاني، وتستدل بما ترى من هذه الخلائق التي تأتيها أرزاقها في قعر البحار على أن الله رحيم وأنه رزاق وأنه بصير وأنه خبير يعلم دقائق الأشياء والخفيات، وأنه لطيف بعباده وما أشبه هذا.

الطريقة الثانية: هي طريقة خديجة -رضي الله عنها- لما جاءها النبي -صلى الله عليه وسلم- مذعوراً فقالت بناء على ما عرفت من أوصاف الله الكاملة، قالت: "كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف" إلى آخر ما ذكرت.

فهي بناء على ما عرفت من أوصاف الله وكماله استنبطت وعرفت أن ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس أمراً مخوفاً يتبعه ويلحقه من جرائه الضرر، فقالت: لا، فمثلك لا يخاف، ولا يلحقه المكروه؛ لأنك بهذه المثابة والله لا يضيع أولياءه.

هذه طريقة موجودة، ولكنه لا يتوصل إليها إلا من كملت معرفته وبلغ مرتبة اليقين، فهو ليس عنده شك ولا تردد ولا ريبة، بل إيمانه جازم ثابت، فهذا يستطيع أن يتعرف على كثير من الأمور الواقعة، ويحكم عليها بناء على معرفته بالله -عزَّ وجلَّ-، فيعرف أن صنع هؤلاء إلى بوار، وأن كيد هؤلاء لا يفلح، وأن العاقبة ستكون لهؤلاء، وأن إدالة هؤلاء على هؤلاء مؤقتة ولن تدوم، وإنما هي كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد]، فهو يعرف هذه الأشياء، ويعرف من أين أتي، ومن أين وقع في هذه الورطة، وكيف يكون المخرج منها، وكل ذلك بناء على معرفته بالمعبود -سبحانه وتعالى-.

فمن وصل إلى هذه المرتبة فإنه قد وصل إلى مرتبة من مراتب الإيمان العالية، وهي أهل اليقين، أهل البصر، أهل المعرفة الصحيحة بالله -عزَّ وجلَّ-.

فهذه مراتب خواص أهل العبودية، ولذلك لا تجد هذه الطريقة الثانية مطروقة كثيراً في القرآن أو في الكتب؛ لأن المناسب لعامة الخلق، هي الطريقة الأولى.

" **يقول الله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [(٢٣-٢٤) سورة البقرة].

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين، {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فأتوا بسورة من مثل ما جاء به...."

تحدثنا في بداية التفسير الذي كان في يوم الجمعة عن مقاصد القرآن والموضوعات الأساسية التي جاء لتقريرها، وقلنا: من ذلك قضية التوحيد بأنواعه الثلاثة، ومن ذلك قضية الوحي والرسالة والنبوة، وذكرناه في موضوعات سورة البقرة والقضايا التي جاءت لتقريرها.

فهنا ذكر قضية التوحيد: **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}** [(٢١) سورة البقرة]، ثم انتقل منها إلى قضية الوحي، وإثبات نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بالمعجزة، وهي هذا القرآن.

قال تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}** والريب، هنا فسره بالشك، وقلنا: إن هذا التفسير بما يقاربه، وإلا فإن الريب كما مضى في أول السورة هو شك مع قلق وتردد، وليس مجرد الشك، يقال له: ريب، وإنما إذا حصل معه شيء من القلق والتردد، يقال له: ريب، يعني أنه أخص من الشك.

" **ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.**

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {شُهَدَاءكُم}: أعوانكم."

{نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} لفظ التنزيل نزلنا يدل على التدريج، بخلاف ما لو قال: أنزلنا، وهذا مما يستدل به على أن القرآن نزل منجماً؛ فإن التفعيل يدل على التكثير، فهو يدل هنا على التدرج في النزول، أي: نزل شيئاً بعد شيء.

{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} هنا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، وقد تحداهم في مواضع من القرآن تارة أن يأتوا بقرآن مثل هذا القرآن، وبكتاب مثل هذا الكتاب، كما تحداهم أن يأتوا بعشر سور كما في سورة هود، وتحداهم أن يأتوا بسورة كما هنا وكما في سورة يونس.

ولذلك يقال: إن القرآن يحصل إعجازه بأقصر سورة، وأقصر سورة ثلاث آيات كسورة الكوثر.

وذهب جماعة من أهل العلم -وهو قول متجه- إلى أن ذلك يحصل أيضاً بما يعادل أقصر سورة، يعني آية أو جزءاً من آية مثل آية الدين التي هي أطول من سورة الكوثر بأضعاف، فيحصل الإعجاز بآية أو بجزء من آية تعادل أقصر سورة.

أما الكلمة الواحدة من حيث هي، فإنها ليس فيها إعجاز، ولكن وضعها في موضعها لا شك أنه مع التركيب والسياق في غاية الإحكام والدقة بحيث كما قال بعض أهل الإعجاز: لو فتشت القواميس والمعاجم ولغة العرب لم تجد أبداً كلمة تقع موقعها بجرسها وسياقها ودلالتها الأصلية والخادمة، أي لا تجد شيئاً يؤدي نفس المعاني ونفس الإيقاع والتأثير في السمع، ويمثلون على هذا بأمثلة، كقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ} [(٧٨) سورة الأنبياء].

فكلمة نَفَشَت قد لا تعرف معناها بالضبط، ولكن مجرد ما تسمعها يحصل لك فهم لا يمكن أن تؤديه لفظة أخرى تقوم مقامها، ولذلك لو قلت: إذ انتشرت فيه غنم القوم، فإنها لا تؤدي نفس المعنى الذي تؤديه عبارة {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ}، والأمثلة على ذلك كثيرة.

يقول تعالى: {وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} قال ابن عباس: أعوانكم، وقال السدي عن أبي مالك: شركاءكم أي: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك، أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدوكم وينصروكم.

وقال مجاهد: {وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} قال: ناس يشهدون به، يعني حكام الفصحاء.

الشهداء: جمع شهيد، والشهيد والشاهد، شهود وشهداء، وهذه اللفظة الشهود والشاهد تأتي مقولة عمن حضر، تقول: فلان شهد الوقعة يعني من حضر، يقال: وقد شهد بدراً، يعني حضر بدراً، فتأتي بمعنى الحضور، وتأتي هذه اللفظة بمعنى الشاهد الذي يؤدي الشهادة، وتأتي بمعنى المعاون.

وهنا قال الله تعالى: {وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} المقصود الأعوان، ومن هنا فسره بعض السلف بالآلهة؛ لأنهم عادة يطلبون المدد منهم، أي: هاتوا أعوانكم من أجل أن تأتوا بقرآن مثل هذا.

{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} أي أعوانكم ومن هنا يمكن أن يقال آلهتكم كما قال بعض السلف، أي: وادعوا آلهتكم، أو ادعوا من شئتم ليحضر ذلك، أو ادعوا شهداءكم أي: الشهود على أن هذا مثل القرآن، ومن هنا قال من قال: ناس يشهدون به، يعني حكام الفصحاء.

حكام الفصحاء كانوا في السابق في أسواقهم كسوق عكاظ في الجاهلية لهم منتديات أدبية، فيأتي الشعراء والخطباء والأدباء ويلقون القصائد والخطب، وكان لديهم لجنة ممن برع في هذا الباب أمثال امرئ القيس -وتعرفون أخبار هؤلاء في التاريخ وكيف يحصل مغاضبات أحياناً في تلك المجالس لما تفضل في تلك الأسواق قصيدة على قصيدة فيغضب ويهجو الحكم- وهذه اللجنة بمثابة طاقم التحكيم، يسمعون القصيدة ويسمعون، فيحكمون أن هذه أفضل

من هذه، وينتقونها، فانتقوا السبع المعلقات وعلقوها على الكعبة؛ باعتبار أنها من روائع الشعر العربي، فهنا {وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} يعني الشهود الذين يشهدون بأن هذا مثل القرآن.

{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} أي من يشهدون لكم بـــذلك، أو ادعـــوا أعـــوانكم كآلهتكم التي تستعينون بها، أو ادعوا من يحضر، ادعوا شهداءكم، وادعوا أعوانكم.

يقول الله تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [(٨٨) سورة الإسراء] يعني لو كان بعـــضهم لـــبعض مظـــاهراً ومعاوناً ومؤيداً ومناصراً ومقوياً ما يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهنا بسورة واحدة.

وقد تحداهم الله تعالى بهذا فعجزوا وما استطاعوا، حتى الذين حاولوا صاروا أضـــحوكة فـــي التاريخ؛ لأن العقلاء منهم كفوا ومزقوا الأوراق التي حاولوا كتابتها، والذين تجرءوا صـــاروا سبة وأضحوكة يضحك منهم الناس.

انظر إلى هذه الترهات والنماذج من هذه المحاولات المضحكة لمسيلمة الكذاب، الـــذي كلمـــا ذُكر، ذكر الكذب معه، حيث يقول في قرآنه: والليل الأضخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلـــم، وما انتهكت أسيد من مُحرَّم.

ما هذا الكلام، هل هذه فصاحة وبلاغة، هل هذا قرآن، ماذا تحت هذا الكلام من معان يمكـــن أن تستنبط؟ لا شيء من ذلك، بل هذا كله كذب وزور.

اجتمع مسيلمة الكذاب مع سجاح بنت الحارث وتزوجها، وهي أيضاً كانت تدعي النبوة، فقالت له: ما أوحي إليك؟

فقال: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحشا.

فقالت: وماذا بعد ذلك؟

قال: أوحي إليَّ: إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل لهن أزواجاً، فنولج فيهن قعساً إيلاجاً، ثـــم نخرجها إذا شئنا إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً نتاجاً.

فقالت هذه التي تدعي النبوة: أشهد أنك نبي، فتزوجته، وحق فيهما قول الله تعالى: {الْخَبِيثَـــاتُ لِلْخَبِيثِينَ} [(٢٦) سورة النـــــور]، فلا غرابة من ذلك.

ولما قدم على أبي بكر –رضي الله عنه- وفد مسيلمة في حروب الردة، أو لما جيء ببعـــضهم فقال: أسمعوني ما يقول صاحبكم، فذكروا له الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل، له خرطـــوم طويل، وذيل قصير، ومما قالوه عنه: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبـــزاً، واللاقمات لقماً، قال: أشهد أن هذا لم يخرج من إل، ومعنى من إل يعني من إله أو مـــن ربٍّ، كما قال تعالى: {لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} [(١٠) سورة التوبـــة] أي لا يرقبون فـــيكم الله ولا العهد.

قال لهم أبو بكر: ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج من إل، فأين كان يذهب بكم؟ أي: أين عقولكم؟ ومع ذلك كانوا يقولون: إن كذاب اليمامة أحب إلينا من صادقي مضر، وتصرفهم هذا خلافاً لابن المقفع الأديب المعروف، الذي قيل له ابن المقفع لأنه ضرب على ظهر يده حتى تقفعت وذلك لما ادعى النبوة، أو ادعى أنه يأتيه مثل هذا القرآن، فحاول وكتب أشياء ومزقها، ومر على صبي يقرأ قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٤) سورة هود]، فرجع ومحا كل ما كتب، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو بكلام البشر، وما استطاع.

وكذلك المتنبي لما بلغ ذروة في الشعر اغتر بنفسه فحاول وادعى كما قيل النبوة فترة -ولذلك قيل له المتنبي- وحاول أن يكتب قرآناً، فكان كلما كتب ورقة مزقها.

وحتى الذي كتبه ابن المقفع أول ما كتبه إنما أخذه من كتابين من حكم فارس وغير ذلك، يقال لأحدهما الدُّرة وللآخر التليمية، فهو جاء بالعبارات من هذين الكتابين حيث لفقها ونمقها ولم يأت بها من عند نفسه فاستحيا ولم يظهرها.

وهذا رجل آخر يقال له يحيى بن حكم الغزال في الأندلس كان من البلغاء توفي سنة ٢٥٠هـ، حاول فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وما استطاع.

يقول: اعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

وهكذا كل من حاول فإن محاولته باءت بالفشل، وإذا أردتم أن تعرفوا شيئاً من هذا فانظروا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، فقد تكلم فيه على قضايا منها: أنه جاء بقصيدة يضرب بها المثل عند العرب في الإعجاز، وهي قصيدة مطلعها: قفا نبك.

هذه مطلع قصيدة بليغة جداً لامرئ القيس، فإذا قيل: قفا نبك، فهم يقصدون هذه القصيدة التي هي عندهم من أبلغ أشعار العرب.

أخذها الباقلاني وحللها، حيث جاء بالقضايا البلاغية، والاستعمالات بأنواعها من جناس ومجاز وطباق وغير ذلك، وبقي يحللها ويحلل المعاني التي تضمنتها ويأتي بأشياء من القرآن ويقول: انظر هذه، وانظر هذه، وكان رجلاً يدرك الإعجاز، فجعل هذه القصيدة لا تساوي شيئاً يذكر أمام إعجاز القرآن، ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة فعليه بكتابه إعجاز القرآن.

نسأل الله التوفيق والسداد والثبات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

يقول المهذب لتفسير ابن كثير -رحمه الله-: "وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٤٩) سورة القصص].

وقال في سورة الإسراء: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [(٨٨) سورة الإسراء].

وقال في سورة هود: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٣) سورة هود].

وقال في سورة يونس: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣٧-٣٨) سورة يونس]. وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة، فقال في هذه الآية: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ} أي شك، {مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [(٢٣) سورة البقرة] يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} [(٢٣) سورة البقرة] يعني من مثل القرآن، قاله مجاهد، وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه، من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم، وبدليل قوله تعالى: {فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ} [(١٣) سورة هود]، وقوله: {لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} [(٨٨) سورة الإسراء].

فهذا التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك.

ولهذا قال تعالى: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ} [(٢٤) سورة البقرة] ولن لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر

الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنَّى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول ابن كثير –رحمه الله في قول الله -عزَّ وجلَّ-: **{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}** [(٢٣) سورة البقرة]، **يعني من مثل القرآن**، هذا القول الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- واقتصر عليه هو القول المشهور الراجح في معنى هذه الآية، بصرف النظر عن تحليل هذه الجملة، وهل في الكلام -كما يعبر بعضهم- زيادة أو ليس فيه زيادة؟ بصرف النظر عن هذه التحليلات التي لا نخوض فيها عادة في مثل هذه القراءة، لكن هذا هو القول الراجح في معنى الآية، **من مثل القرآن**، خلافاً لمن قال بأن الضمير –الهاء- في **{مِّن مِّثْلِهِ}** يرجع إلى غير القرآن وهو التوراة والإنجيل، حيث قالوا: التوراة والإنجيل هو كلام الله -عزَّ وجلَّ- قبل أن تحرف.

ويكون المعنى على هذا القول أنه تحدى هؤلاء الأميين، كما ألمح ابن كثير -رحمه الله- إلى ذلك.

وابن كثير لما رجح الوجه المختار قال؛ لأن ذلك التحدي للجميع، للعرب ولأهل الكتاب، ولا يختص بهؤلاء الأميين، وذلك أن القول بأن الضمير يرجع إلى التوراة والإنجيل يؤدي إلى أن يكون المعنى: فأتوا بسورة من كتاب متقدم كالتوراة والإنجيل تجدونها تشهد بصحة ما في هذا القرآن، وعلى هذا المعنى، لا وجه للإعجاز ظاهر، وليس في هذا المعنى تحدٍّ بكونهم لا يستطيعون الإتيان والاختراع والابتكار لكلام كهذا القرآن؛ لأنه إنما قال: الجئوا إلى الكتب السابقة وستجدونها مصدقة لهذا القرآن، وليس المعنى -على هذا القول- أنكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثل هذا القرآن، ولذلك فإن هذا القول بعيد جداً؛ مع أنه قال به من قال من السلف.

وقال بعضهم: إن الهاء في قوله: **{مِّن مِّثْلِهِ}** عائدة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمعنى على هذا فأتوا بسورة من مثل هذا الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، كيف يصدر عنه مثل هذا الكلام.

وهذا القول لا وجه للإعجاز فيه؛ إذ على هذا القول يلزم أن يكون المعنى أنه إذا جاء رجل ماهر بالقراءة والكتابة وسائر العلوم فيمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، وعلى هذا فلا وجه للإعجاز في أن يكون هذا القرآن صدر أو جاء على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة.

وخلاصة الأمر أن هذين الوجهين في غاية البعد والمجافاة لقضية التحدي، فالله يتحداهم أن ينسجوا كلاماً على منواله، قال سبحانه: **{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}**[(٨٨) سورة الإسراء].

ولذلك لا يمكن أن ترِد مثل هذه الأقوال على هذه الآية وأمثالها، ولذا فإن هذا القول الذي ذكره ابن كثير في تفسير آية البقرة لا يجوز العدول عنه وهو قوله: **أي: من مثـــل هـــذا القـــرآن**، ووجه هذا ظاهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: **{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ}** [(٢٤) سورة البقرة] قال ابن كثير: "**ولن لنفي التأبيد في المستقبل**"، وهذه العبارة يبدو أنها مقلوبة؛ إذ كيف تكون لن لنفي التأبيد في المـــستقبل؟ وإنمـــا يمكن أن يكون الصواب: ولن لتأبيد النفي، ثم إنها أيضاً لا تكون لتأبيد النفي دائماً، وإنما هـــي في كل مقام بحسبه، أي بحسب ما يفهم من السياق وحسب المقام وما يحتف به من القـــرائن، ولذلك لو وعدتك بالزيارة في هذا اليوم، ثم اتصلت بك لك اعتذر لك وقلت لك: لن أزورك، هـــل تفهم من هذا أني لن أزورك أبد الآبدين؟

وكذلك لو قلت لك: أنا أريد أن أسافر اليوم، ثم أرسلت لك رسالة عبر الجوال، وقلت لك: لـــن أسافر، هل تفهم منها أني لن أسافر أبداً أي سفر؟

لا يفهم هذا الفهم أحد، وإنما يُفهم أن المقصود نفي هذه الزيارة المعينة، ونفـــي هـــذا الـــسفر المعين.

ولذلك فإن الله -عزَّ وجلَّ- لما كلم موسى -صلى الله عليه وسلم- قال موســـى: **{رَبِّ أَرِنِـــي أَنظُرْ إِلَيْكَ}** [(١٤٣) سورة الأعراف] فقال الله له: **{لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}** [(١٤٣) سورة الأعراف]، فقوله: **{لَن تَرَانِي}** يعني في هذا المقام؛ لذلك علَّق رؤيته على أمر ممكن، وهو ثبات هذا الجبل أمام تجلي الله -عزَّ وجلَّ-.

لذلك لا يُفهم من هذا أن موسى لن يرى ربه أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، خلافـــاً لقـــول المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن لن تفيد التأبيد.

ولهذا لا بد أن تعلم أن اللغة العربية كغيرها من العلوم كأصول الفقه والمـــصطلح والتفـــسير وشروح السنة دخلها من العلوم الكلامية الفاسدة ما دخلها، ولذلك تجد فـــي كتـــب المتـــأخرين -معاجم القواميس اللغوية- من المعاني ما لا تجده في كتب المتقدمين وما لا يعرفونه، وهـــذه قضية مهمة، ومثال ذلك لو رجعت إلى كتاب لسان العرب -وهـــو مـــن كتـــب المتـــأخرين- وبحثت في كلمة استوى ستجد أنهم يذكرون من معانيها "استولى"، مع أن هذا ليس من معـــاني لفظة استوى في كلام العرب، ولذلك لو بحثت في كتب المتقدمين لن تجد هذا المعنـــى، فهـــذا مما دخل في كلام العرب.

ومثل ذلك "لن" يقول فيها المعتزلة: إنها تفيد التأبيد، وهي لا تفيد التأبيـــد فـــي لغـــة العـــرب، والناس بعضهم عن بعض لا يزالون يفهمون عند استعمال مثل هذه اللفظة –لن- أنها في كـــل مقام بحسبه، فهنا يقول تعالى: **{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ}** [(٢٤) سورة البقرة] فـــ[لن] هنا تفيـــد التأبيد أي: لن تفعلوا في أي وقت من الأوقات.

"ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [(١) سورة هود].

فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام]، أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه.

وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة."

أو كائنة: يعني واقعة أو حادثة من الحوادث.

"أو كائنة أو مخافة أو سبُع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعيَّن على الشيء الخفي أو الدقيق، أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته."

تحدثنا عن قصيدة قفا نبكِ، وذكرنا كيف حللها الباقلاني -رحمه الله-، وذكرنا أنه جاء بالقضايا البلاغية، والاستعمالات بأنواعها من جناس ومجاز وطباق وغير ذلك، وأنه بقي يحللها ويحلل المعاني التي تضمنتها ويأتي بأشياء من القرآن ويقول: انظر هذه، وانظر هذه، فبين وجوه بلاغة القرآن، وكيف لا يدانيه أفضل ما أنتجه العرب من الشعر، فكانت النتيجة أن جعل هذه القصيدة لا تساوي شيئاً يذكر أمام إعجاز القرآن.

ولقد أتى هذا المأفون -أعني سيّئ الذكر، طه حسين- الذي يقول: إن الشعر الجاهلي قد أخفي، وإنما قيلت أشعار نسبت إلى الجاهليين من أجل أن تتطامن أمام فصاحة القرآن، وبلاغته وأن القرآن على منوال شعر العرب في الجاهلية.

ونحن نقول لهذا السيّئ: هاتِ أنت ومن استطعت من شيوخك من المستشرقين من اليهود والنصارى وغيرهم، هاتوا بلاغتكم وفصاحتكم، فالتحدي لا زال قائماً.

ثم أين محاكاته مع تظاهر الهمم عند العرب على النقل، وتميزهم بالحفظ، فكيف ينسون أشعارهم، والشعر هو الطريق إلى حفظ وقائعهم وتاريخهم وكل ما يجري عليهم؟!

ثم لو قام أحد وعارض أحداً من هؤلاء الجاهليين الذين تحداهم وهم أكثر الناس أنفة وإباء وتمنعاً من التحدي لنُقل، فكيف يخفى مثل هذا، ثم كيف يجترئ رجل أمي أن يتحدى الأولين والآخرين من الجن والإنس، ويبقى هذا الأمر قائماً إلى هذه الساعة؟!.

ابن كثير -رحمه الله- هنا يشير إلى وجوه الإعجاز، خلافاً لمن قال: إن الإعجاز في القرآن إنما هو من جهة فصاحته وبلاغته وتراكيبه اللغوية، وإن كان لا شك أن هذا أحد وجوه الإعجاز، وهو من أبرزها وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث في أهل الفصاحة، وكانت قريش هي أفصح العرب على الإطلاق، فبعث منهم وتحداهم وتحدى غيرهم، ولكن وجوه الإعجاز لا تقتصر على هذا؛ فإن منها ما يكون من قبيل الإخبار عن الغيوب بأنواعها -الغيب النسبي والغيب المطلق- كالإخبار عن غيوب غابرة ماضية، ومثال ذلك: أن اليهود لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل من الغيوب الماضية لا يعرفها إلا نبي، كأخبار أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، أخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا، قال الله تبارك وتعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا} [(٨٣) سورة الكهف].

كما أخبر -صلى الله عليه وسلم- عن أمور ستقع فوقعت، ومنها ما ينتظر وقوعه، كما في قوله تعالى: {الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ} [(١-٤) سورة الروم]، فهنا حدد المدة، فمن يستطيع أن يحدد مدة معينة والناس يموجون في خبره، وقد انبرى أكثرهم لعداوته وحربه وتكذيبه، ثم بعد ذلك يأتي بمثل هذا؟ هل يعقل هذا؟!.

أضف إلى ذلك كمال هذا التشريع في كل جوانب الحياة بأحكم النظم التي تهذب الإنسان، ابتداء من قص أظافره وأحكام الفطرة، وانتهاء بتدبير أمور الدولة والسياسة، إلى غير ذلك مما يتعلق بقضايا الاعتقاد والتوحيد والألوهية وكل ذلك، فكل هذه الأمور فصلها أحسن تفصيل بطريقة لا يمكن للنظم البشرية أن تأتي بمثلها، فالنظم البشرية قوانين ومواد تضبط حياة الناس بطريقة آثمة ظالمة تضيع حقوقهم وتهدر كرامتهم، بينما القرآن يهذب النفوس ويروضها ويربيها ويحملها على مكارم الأخلاق وعلى مراقبة الله -عزَّ وجلَّ- في كل الأحوال، فتجد الإنسان تُهيأ له الفرص لأخذ ما لا يحق له أخذه، ويتوقف خوفاً من الله -عزَّ وجلَّ-، وهذا لا يوجد إلا في تشريع رب العالمين -سبحانه وتعالى- فقط، فتجد أن هذا الإنسان يقع في يده ما لا يحل له، ثم يسأل عنه كيف يتخلص منه إن كان لا يحل؛ مع أن له فيه ألوان الطمع، ومع ذلك يترك الأمور المحبوبة إلى النفس اتقاءً لله -عزَّ وجلَّ- رجاء ما عنده، فيبذل أحب الأشياء إليه، ويضحي بنفسه وماله وكل ذلك من أجل الله.

إن هذا القرآن حينما يذكر أحكام الطلاق والحيض والقضايا المتعلقة بالرضاع، ونحوها من الأحكام، يذكر معها {فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٢٧) سورة البقرة]، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [(١٨) سورة النور]، {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٦) سورة الحشر].

وحينما يتحدث عن عوامل النصر والهزيمة يذكر لهم مقومات وأموراً أساسية تربطهم بـــالله - عزَّ وجلَّ- وتصلح واقعهم وحالهم، وغير ذلك.

لذلك فإن إعجاز هذا القرآن يكون في التشريع كما يكون بفصاحته وبإخباره عن الأمور الغيبية وغير ذلك.

فوجوه إعجاز القرآن لا تقتصر على لون واحد، بل على ألوان متعددة من الإعجـــاز، وكـــلٌّ يعرف من ذلك بحسب ما أعطاه الله -عزَّ وجلَّ-، فالذين يهتمون بقضايا الـــنظم والقـــوانين لا شك أنهم يعرفون قدر إعجاز القرآن، وقد تحدث كبراؤهم عن هذا، ولا حاجة لنقل شيء منـــه فهو موجود في مظانِّه.

ونحن حينما نتحدث عن الإعجاز في الفصاحة والبلاغة، نتحدث عنه وقد ضعف هذا الحـــسّ عندنا، وبالتالي فإننا لا نتذوقه كما ينبغي لضعف هذه الحاسة -إن صح التعبير-.

ولو تأملت لوجدت فرقاً بيننا وبين الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ: {فَاصْدَعْ بِمَا تُـــؤْمَرُ} [(٩٤) سورة الحجر]، فسجد، قيل له: لمَ سجدت؟ قال: سجدت لفصاحته، تجد الواحد منـــا يُقـــرأ عليـــه القرآن من أوله إلى آخره وقد لا يجد مثل هذا الذي وجده الأعرابي عند هـــذه الآيـــة؛ وذلـــك لضعف هذا الحس لدى المسلمين العرب والعجم، حتى صار الإنسان العربي ربما يحتاج إلـــى أن يتعلم علوماً كثيرة من أجل أن يصل إلى مثل هذا التذوق، فما مثلنا في هذه الحال إلا كمـــن يحدث عن شيء لم يجد طعمه أصلاً، بل وكأن الواحد منا اليوم إنسان فاقد حاسة الذوق منـــذ ولد، فأنت تتكلم معه أن هذا حلو وهذا حامض وهذا مر وهذا مالح، فمهما شرحت له لا يدرك ما يقال له أبداً.

ومثل ذلك أيضاً لو تحدثت مع إنسان عن لون من الذوق لم يجربه، كأن تقول له: هذا مُزٌّ أي: حامض حلو، وهو لم يجرب هذا قط، فإنه لا يتصور ذلك.

كذلك لما تتكلم مع الطفل عن الحرارة مثلاً، وهو لا يعرف عن الحرارة شيئاً، تقول لـــه: هـــذا حار، فإنه سيجرب لمْسَه فإذا لمسه وجد الحرارة والإحراق، فإذا قلت لـــه: هـــذا حـــار لكـــن قصدت بذلك حرارة الفلفل مثلاً، فإنه سيبتعد عنه ولن يلمسه؛ لأنه يظن أنهـــا مثـــل النـــار، والسبب في ذلك أنه لم يدرك معنى الحرارة إلا في النار، وهكذا.

ولذلك نحن قد نحتاج إلى أن نأخذ آيات من القرآن فتفسر بطريقة تفرع فيها المعاني وتفـــصل، بحيث إن الناس يقفون أمام هذه السورة أو هذه الآية أو الآيات فيقولون: كل هذه المعاني فـــي هذه الآيات التي نقرؤها صباح مساء، ونحن عنها غائبون؟! فيدركون عملياً جزءاً كبيراً مـــن قضية الإعجاز بكثرة المعاني وبعبارات قصيرة، فيكبرون هذا الكـــلام الـــذي تـــضمن هـــذه المعاني، وهكذا.

نحن حينما نتحدث عن قضية التفسير، وأنه ينبغي أن يتحرز الإنسان فيه، وأنه ليس قضية سهلة، وأن القضية ليست مجرد أن يحضر الشخص درساً من تفسير ابن كثير، ومن تفسير السعدي، ومن تفسير القرطبي، ثم يأتي ويقدمه لطلابه، فالذي لم تكن له معاناة مع العلم النظري، ودراسة جيدة فيه فإنه لا يدرك ما يقول.

لذلك عندما تأتي وتذكر لهم قضايا أصول التفسير وقواعد التفسير مفصلة، وتفرع عليها، وتأتي بها بطريقة الدراسة التخصصية -كما يقال- فالنتيجة إما إحباط يحصل عند البعض، فيقولون: هذا أمر بعيد المنال، وإما أن تجد حماساً لدى البعض الآخر، فتجدهم يقولون: نحن أدركنا القضية الآن وأنها ليست كما كنا نظن!.

وهذا شيء جربته حيث تحدثت عن قضية التفسير، وما يحتاج إليه المفسر، وكيف نقدم درساً في التفسير، فوجدت الناس يستروحون لهذا الكلام ويظنون لأول وهلة أنهم يستطيعون تطبيقه.

وتحدثت في دروس كثيرة مع أناس لهم اهتمام بدراسة القرآن وتدريسه والتفسير، فكانت النتيجة أن بعضهم يقول: أنا الآن أشعر أنني متطفل على كلام الله -عزَّ وجلَّ-، ولا يحق لي أن أقدم لطلابي شيئاً، والآخر يقول: أنا أدركت أن الذي كنت فيه إنما هو لون من العبث، فما هو الحل؟ ...الخ.

كذلك أذكر أحد المشايخ الذين درسونا مسائل الإعجاز في القرآن والبلاغة كان يقول وهو يتكلم بوجه معبر: أحياناً أقرأ القصيدة وأبكي كثيراً، وأحياناً أقرؤها فأضحك كثيراً، فكان بعض الطلاب ينظرون إليه بشيء من الاستهزاء، وكان أحدهم يلتفت على زملائه ويعلق قائلاً: ما رأينا شيئاً يستوجب هذا التأثر الذي يتكلم عنه، والسبب في هذا الاستغراب أن الحس معدوم، وبالتالي ما يتحرك الإنسان وما يتأثر.

"وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهاية البلاغة، عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يملُّ منه العلماء وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصمّ الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟"

قرأتُ تقريراً لأحد اليهود في الجامعة العبرية حيث كُلف بوضع ترجمة للقرآن باللغة العبرية الحديثة، فترجم نصف القرآن، فكتب تقريراً ونُشر، وكان مما ذكر في مضامين هذا التقرير أن هذا القرآن لا يمكن أن يترجم، وقال: تبقى قدراتنا عاجزة عن التعبير عن معانيه وعن الأوصاف الدقيقة فيه، فتجد وصفاً للجنة ووصفاً للنار، وتجد تفاصيل لا يمكن أن يعبر عنها المتاح من الكلام.

ويقول: هذا فقط تقريب ومحاولة، ولكن إيصال معاني القرآن كما هي لا يمكن أبداً لأحد أن يفعله، وهكذا وقف عاجزاً عن تحقيق هذه الرغبة.

ولو قرأنا في كتب الإعجاز فإننا سنجد كثيراً من هذه الأمور والقضايا التي أشار إليها ابن كثير كقضية القصص مع أنها تتكرر في أكثر من موضع، وتأمل كيف يأتي بها في كل موضع بحسب المناسبة، فإذا كان في مكان قصم الظالمين جاء بها بطريقة تتناسب مع المقام، وإذا كانت في مقام بيان مناقب الرسل وصبرهم ودعوتهم، وما أشبه ذلك جاء بها بأسلوب يناسب هذا المقام وهكذا، فمن قرأ طريقة هذه الأشياء وما كتب فيها من كتب الإعجاز تنفتح له أبواب من هذه الأمور.

"وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٧) سورة السجدة].

وقال سبحانه وتعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٧١) سورة الزخرف].

وقال في الترهيب: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} [(٦٨) سورة الإسراء].

وقال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [(١٦-١٧) سورة الملك].

وقال في الزجر: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} [(٤٠) سورة العنكبوت].

وقال في الوعظ: {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ* ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [(٢٠٥-٢٠٧) سورة الشعراء]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رديء دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف -رحمهم الله-: إذا سمعت الله يقول في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فأرعها سمعك فإنها خير يَأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] الآية.

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة،

وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم."

الجهل والغفلة هي حجاب كثيف غليظ يغلف الإنسان، والعلم يزيح عنه ذلك ويذيبه عنه، كما تزول الأقذار والأوساخ أو الطبقات المتراكمة على الجلد بكثرة الغسل والفرك والمعالجة، فكلما ازداد الإنسان في العلم كلما اتسع نظره واتسع أفقه وصار يدرك من الكلام ما لا يدركه غيره، وينفتح له من أبواب الفهم ما لا ينفتح لغيره، ولذلك تجد ابن عباس يتمنى أن كل أحد يفهم من كل آية ما يفهمه هو، من كثرة المعاني التي يفهمها ويتمنى أن الآخرين يصلون إليها، ولذلك أقول: كلما استطعت أن تهذب الطبع، وأن ترقق النفس، وأن تجلو حجاب الغفلة عنك بكثرة المعالجة، فستجد أثر ذلك، لا سيما من يتعاطون التعليم، أقصد الذين يدرِّسون.

فلا يصلح أن يكون هذا الإنسان تغلفه هذه الطبقة الكثيفة من الجهل، بل ينبغي أن نجاهد النفس، وهذا يحتاج إلى شيء من المعاناة والتعب في البداية ثم يتحول إلى تلذذ بالعلم، فكلما ازداد الإنسان تبصراً في العلم كلما ارتفع وأشرقت نفسه، فالنفس تشرق، وتحلق وترتفع إلى الأعلى، وحينئذ لا يكون همها في معافسة الملاذ الحسية من المأكول والمشروب وغيره مما يجد الناس فيه غاية لذتهم ممن هم دون صاحب هذه النفس، فهو لذته في المعارف وتحصيل العلوم، واكتشاف الاستنباطات، والعمل بالعلم لمن وفقه الله، والله -عزَّ وجلَّ- يوفق من شاء إلى ما شاء، لكن النفس تحتاج إلى شيء من المعالجة، فالرجل البعيد أمامه حجاب غليظ يؤثر في حسه ويؤثر في عمله، ويؤثر في أخلاقه، ويؤثر في اهتماماته، فإذا هذبه العلم وفركه ظهر الجوهر، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله-: "ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[1] [لفظ مسلم].

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((وإنما كان الذي أوتيته وحياً)) أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم.

وله -عليه الصلاة والسلام- من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به، ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فدلائل النبوة التي يعرف بها صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرة جداً، كما قال الحافظ ابن حجر: تفوق الحصر.

ودلائل النبوة على قسمين، قسم منها ما يكون من قبيل المعجزة، أو ما يسميه المتأخرون بالمعجزات، وقسم منها ليس بمعجز.

فالمعجز كالقرآن، وكنبع الماء من بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم- وتكثير الطعام، وانقياد الشجر، كما في حديث جابر في صحيح مسلم[2]، وغير ذلك مما عرف ونقل في الأدلة الثابتة الصحيحة.

وغير المعجز مثل ما يعرف في وجهه من أنه نبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث في قصة عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- إذ يقول: فما إن رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب[3]، فهذه من دلائل النبوة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة - قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت بجوامع الكلم)) (٦٨٤٦) (ج ٦ / ص ٢٦٥٤)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٢) (ج ١ / ص ١٣٤).

[2] -

[3] -

ومن ذلك أيضاً ما عرف عنه من الأمانة، والصدق قبل أن يبعث وبعد أن بعث، إلى غير ذلك من شمائله -عليه الصلاة والسلام- التي هي من دلائل نبوته.

فهذه يقال لها: دلائل النبوة، ويقال لها: آيات الأنبياء، ثم بعد ذلك صار التعبير عن المعجز منها بالمعجزات.

وبالنسبة لما يقع من الخوارق على يد أتباع النبي من الصحابة فمن بعدهم -رضي الله تعالى عنهم- يقال له: كرامات الأولياء، وإلا فإن ذلك جميعاً، يقال له: آيات الأنبياء ويقال له: دلائل النبوة.

والشاطبي -رحمه الله- ذكر أصلاً وقاعدة، وهي: أن كلَّ ما أعطيه نبي من الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- مثله، يعني سواء وقع ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو وقع لأحد أتباعه؛ لأنه قرر قاعدة أخرى، وهي أن كل آية وقعت لتابع النبي فهي آية للنبي، وهذا صحيح، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مثلاً ألقيَ في النار ولم يحترق، ولم يقع ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه وقع لبعض أتباعه وهو أبو مسلم الخولاني في قصة الأسود العنسي، كما هو معروف، وقل مثل ذلك في الآيات الأخرى للأنبياء، لكن لكل قاعدة استثناءات وإنما يقصد بالقواعد بحيث إنه يدخل تحتها معظم الصور، وإلا فإن انفلاق الصخرة للناقة لم يحصل لأحد من أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وكذلك ما وقع لبعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الآيات كقصة موسى -صلى الله عليه وسلم- مع السحرة بالصورة العظيمة التي وقعت فهذه لم تقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- أما إبطال السحر على يد أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في مقام المناظرات فإن ذلك قد وقع.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا: **((وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ))** هذه العبارة على سبيل الحصر؛ لأن "إنما" هي من أقوى صيغ الحصر، وليس ذلك الحصر هنا مقصوداً، وإنما المراد أن ذلك هو أبرز آيات النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقوله -عليه الصلاة والسلام- مثلاً: ((الحج عرفة))[4]، مع أن من وقف بعرفة فحسب لا يكون حاجًّا، فلا بد من طواف وسعي وما إلى ذلك، مع أن الصيغة تشبه الحصر في قوله: ((الحج عرفة))، وكأنه حصر الحج بعرفة.

---

4 - أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك - باب: من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) (ج ١ / ص ٥٩٩)، والترمذي في كتاب: الصوم - باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧)، والنسائي في كتاب: مناسك الحج - باب: فرض الوقوف بعرفة (٣٠١٦) (ج ٥ / ص ٢٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٧٢).

فقوله هنا: ((وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ))، أي أن هذه أبرز آياته -عليه الصلاة والسلام- وليس المقصود منها الحصر.

"**وقوله تعالى:** {فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقرة]،

أما الوَقود -بفتح الواو- فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه."

يعني ما تتوقد به، مثل ما يقال: الوَضوء، فهو الماء الذي يُتوضأ به، والسَّحور، هو الطعام الذي يؤكل، وما أشبه ذلك.

وأما الوُضوء -بضم الواو- فإنه الفعل، والسُّحور هو أكل الإنسان أي فعله في ذلك الوقت، وهنا {وَقُودُهَا} يعني ما تتوقد به، أي المادة التي تشتعل بها النار هي الناس والحجارة، وليس الحطب وغيره مما توقد به النار، كالزيت وغيره.

"**كما قال تعالى:** {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [(١٥) سورة الجن]، **وقال تعالى:** {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة الأنبياء].

والمراد بالحجارة ها هنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا الله منها.

وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} **الآية."**

القول بأن الحجارة المراد بها حجارة الكبريت لم يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما الذين قالوا ذلك هم طائفة من السلف، وهو قول لا يقال من جهة الرأي، لكن يمكن أن يؤخذ عن بني إسرائيل، والذي حداهم أن يبحثوا عن تفسير لهذه الحجارة هو أن ذكر الحجارة بمجرده، لم يعهد في كونه وقوداً؛ ولذلك فإن بعضهم قال: المراد بالحجارة هنا هي الأصنام التي تعبد من دون الله -عز وجل- وهذا دلّ عليه القرآن، قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}، فأصنامهم يوقد بها النار كما توقد بهم.

وقول من قال: إنها حجارة الكبريت باعتبار أن ذكرها يؤثر في هذا المقام؛ حيث إنها تزيد النار توقداً وحرارة، والمقام مقام ترهيب، فلو قال لهم الحجارة العادية هذه هي وقود النار لربما كان ذلك سبباً لإبهام الأمر عليهم، فلا يدركون المراد منه، والعلم عند الله -عز وجل-.

المقصود أن هذا هو توجيه تفسير بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- للحجارة بحجارة الكبريت، وأنهم لم يقولوه من عند أنفسهم.

"**وقوله تعالى:** {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقرة] **الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان.**"

قوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} أي: أُعِدَّتْ هي، والقاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هي الحجارة، بمعنى أن هذه الحجارة أعدت للكافرين لتُسْجَرَ عليهم فيحصل لهم التعذيب والإحراق.

وقيل: أُعِدَّتْ أي النار، مع أن القاعدة هي عود الضمير إلى أقرب مذكور وهي الحجارة، لكن قالوا: النار؛ لأنها هي المخبر عنها، ثم وصفها بأنها التي وقودها الناس والحجارة، فهو لا يتحدث عن الحجارة، وليس المقام مقام تفصيل وتوضيح للحجارة، وإنما المقام مقام ذكر للنار وتحذير منها.

فحينما تفهم هذا تدرك لماذا يتخطى التفسير القاعدة أحياناً، ولذلك إذا أردنا أن نرجح بين القولين، لا نقول هنا: إن الضمير يرجع إلى آخر مذكور، كما هو مقتضى القاعدة، وإنما نقول: يرجع إلى النار؛ لأنها هي المحدث عنه والمخبر عنه، كما قال أصحاب القول الثاني، فهذا هو الأقرب..

وإذا أردنا أن نجمع بين القولين فلا نحتاج إلى ترجيح، بل نقول: الضمير هنا احتمل أن يعود إلى الموضعين -النار والحجارة-؛ لأن القاعدة تقول: إن الضمير إذا احتمل أن يعود إلى موضعين فأكثر فإنه يحمل على ذلك جميعاً إلا لمعارض.

وابن كثير -رحمه الله- في هذا المثال، يقول: أعدت النار وأعدت الحجارة؛ وقال بذلك؛ لأن هذا المثال من أجلى صور هذه القاعدة، فالضمير إذا احتمل أن يعود إلى موضعين فأكثر فإنه يحمل على ذلك جميعاً إلا لمعارض ولو لم تكن بين المعنيين ملازمة، فكيف إذا وجد بينهما ملازمة؟!.

ووجه الملازمة في هذه الصورة أن النار معدة للكافرين، والحجارة مما تسعر به النار، إذن الحجارة أعدت للكافرين.

فإذا قلت: إن النار معدة للكافرين فإن ما تسعر به أيضاً معد للكافرين، إذن صار بين القولين ملازمة، أي: يلزم من أحدهما الآخر.

"**وأعدت أي رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أعدت للكافرين، أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.**"

قوله تعالى: {فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقرة]، أي هي للكافرين عموماً، وهؤلاء من الكافرين فهم داخلون تحت هذا العقاب.

ولو أنه قال: التي وقودها الناس والحجارة أعدت لكم فقد يفهم من هذا أنها مختصة بهم لأمر ما، لكن حينما يذكر العلة في دخولهم النار، أو في إعدادها لهم -وهي الكفر- فهي تصدق عليهم، وتصدق على كل من جاء بعدهم، أو من كان في زمانهم ممن هو متصف بذلك الكفر، وهذا الأسلوب كثير في القرآن، فتجده يذكر العلة للحكم، فيقول مثلاً: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ} [(٨٠) سورة التوبة].

أو يقول: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [(١٠) سورة محمد]، ويقول: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [(٨٣) سورة هود]، ويقول: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [(١٠٨) سورة المائدة] وأشباه ذلك كثير، فهو يذكر الأوصاف التي نتجت عنها تلك العقوبات في باب الترهيب، وكذلك في باب الترغيب يذكر الأوصاف التي نتجت عنها تلك الجزاءات من النعيم، أو محبة الله -عز وجل- وما أشبه ذلك، فهي مرتبة عليها.

"وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن بقوله تعالى: {أُعِدَّتْ} أي: أرصدت وهيِّئت، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: ((تحاجت الجنة والنار))[5]**".**

قوله تعالى: {أُعِدَّتْ} التعبير هنا بالماضي، فقد يقول قائل: إنه يعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، وهذه قاعدة صحيحة معروفة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى في صدر سورة النحل: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [(١) سورة النحل]، مع أن هذا الأمر الذي هو يوم القيامة لم يأت بعد، فيقولون: يعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، فأنت تقول: أتاك الربيع، وتقول: أتاك المطر، ولم يأت بعد لتحقق الوقوع.

نقول: قوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقرة]، لا يقال فيها أبداً: إن ذلك من باب التعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع؛ وذلك لوجود أدلة أخرى صريحة دلت على أن النار موجودة، فيحمل لفظ أعدت على أن ذلك كان في الماضي، وبالتالي فإن النار موجودة الآن.

والإعداد يدل على عناية بالمعد، وأنها مهيأة لهم وجاهزة، ومما يدل على أن النار موجودة الأدلة التي سيذكرها الحافظ ابن كثير هنا، وغيرها.

وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأى فيها أقواماً كعمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكذلك رأى فيها رجالاً ونساء وغير ذلك.

وكذلك الجنة هي موجودة الآن، وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي كما وصفها الله -عز وجل- عرضها السموات والأرض، وهي في السماء كما قال تعالى: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [(٢٢) سورة الذاريات].

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة ق (٤٥٦٩) (ج ٤ / ص ١٨٣٦)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦) (ج ٤ / ص ٢١٨٦).

وليس هنا مجال للعقل إطلاقاً أن يقول الإنسان: كيف يكون عرضها السموات والأرض، فأين هي أو أين النار أو نحو هذا الكلام؛ فهذه أمور لا دخل للعقل البشري فيها إذ هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

"**ومنها**: **((استأذنت النار ربها، فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفسٍ في الشتاء ونفسٍ في الصيف))**[٦].

وحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "سمعنا وجبة، فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها))[٧] [وهو عند مسلم]."

سمعنا وجبة: الوجبة: هي صوت سقوط شيء، قال تعالى: **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** [(٣٦) سورة الحج]، يعني سقطت.

وهذا الحديث في احتجاج الجنة والنار، وفيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن أشد ما نجد من الحر، فإنه من فيح جهنم، وأشد ما نجد من البرد فإنه من زمهرير جهنم.

"**وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى.**"

رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الجنة والنار في صلاة الكسوف في قبلة جدار المسجد، وكذلك في ليلة الإسراء رأى النار ورأى الذين يعذبون فيها، ورأى مالك وهو يهش النار..

{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥) سورة البقرة].

"**لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به، وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله.**"

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٨٧) (ج ٣ / ص ١١٩٠)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة وينااله الحر في طريقه (٦١٧) (ج ١ / ص ٤٣١)، ولفظهما: ((اشتكت النار إلى ربها)).

[7] - أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤) (ج ٤ / ص ٢١٨٤)، ولفظه: "كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ سمع وجبة فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تدرون ما هذا؟)) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)).

قوله: **لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به**..إلى آخره، هذا ما يسميه المفسرون علم المناسبة، وهو وجه الارتباط بين الآية وبين التي قبلها.

فالله -عز وجل- لما ذكر النار ووعيد الكفار ذكر الجنة وما أعد الله لأهل الطاعة من الثواب، وهذا كثير في القرآن، حيث يذكر هذا وهذا ليجمع لهم بين الخوف والرجاء، وهذا كثير جداً، وبهذا أخذ بعض أهل العلم أن مقصود الشارع من المكلفين فيما يتعلق بهذا الباب أن يجمعوا بين الخوف والرجاء، فيكون العبد سائراً بينهما على حد سواء فلا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون الخاسرون، فليس ذلك من صفة أهل الإيمان، ولا يكون أيضاً مغلِّباً للرجاء معرضاً عن الخوف إلا من حصل له الاغترار والأمن من مكر الله -عز وجل- فلا يغلب الرجاء ولا يغلب الخوف، وإنما يجمع بينهما.

والكلام في هذه المسألة معروف، وقول من قال: إنه في حال الصحة والعافية يغلب الخوف، وعند الموت يغلب الرجاء له وجه.

قوله: **وهذا معنى تسمية القرآن مثاني**، عند ابن كثير وطائفة من أهل العلم أن هذا هو المراد بأن القرآن مثاني كما في قوله تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}** [(٢٣) سورة الزمر]، أي أن الله –عز وجل- يذكر الشيء ومقابله، كأن يذكر نعيم أهل الجنة ثم يذكر عذاب أهل النار والوعيد الذي لهم.

وأن التشابه هو أن يذكر الشيء ونظيره، مثل ذكر قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، كقصة موسى –عليه السلام- تتكرر في أكثر من موضع.

وبعض أهل العلم يفسر بما هو أوسع من هذا، فيقول: مثاني، أي تثنى فيه القصص أي تعاد، وتثنى فيه الأخبار، وتثنى فيه المواعظ، وغير ذلك، أي: ما يذكر أكثر من مرة، وهذا هو القول المشهور في تفسير المثاني.

وبالنسبة لذكر الجنة والنار ونعيم أهل الجنة ونعيم أهل النار فالخلاف فيه كثير، ولو نظرت في كتاب القواعد الحسان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- تجد أنه أفرد لهذه المسألة قاعدة، وتكلم عليها وأتى بأمثلة كثيرة على هذا.

ويؤخذ من هذه الطريقة فائدة تربوية لتربية الناس والوعظ وتعليمهم أنه يجمع بين هذا وهذا، بحيث لا يكون الغالب على كلام الداعية هو ذكر ما يحصل به الطمع لهؤلاء الناس من رحمة الله ومغفرته، ويكون كلامه دائماً مما يستهوي الناس ويروق لهم من ذكر ما ينتظرهم من النعيم المقيم وسعة رحمة الله وأنه غفور؛ لأنه إن اعتاد ذلك فإنه يفسدهم بذلك حيث يفرطون في العمل، وكذلك لا يكون الغالب على حال الواعظ دائماً تخويف الناس، وذكر أمور قد تيئسهم من رحمة الله -عز وجل- وإنما يجمع لهم بين هذا وبين هذا، قال تعالى: **{اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٩٨) سورة المائدة].

"فلهذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي} [(٢٥) سورة البقرة]، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، أي من تحت أشجارها وغرفها.

وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجري في غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم."

أنهارها تجري في غير أخدود: الأخدود هو الشق في الأرض، والنهر معروف، وهو الشق الكبير في الأرض، ودونه الجدول، وأعظم منه البحر، وهو الماء الكثير المستبحر المعروف، فالمعهود في الدنيا أن الأنهار لا تجري على ظهر الأرض المستوية، وإنما تكون في شق من الأرض، أما أنهار الجنة فتجري من غير أخدود، والنهر يطلق على نفس الشق، تقول: حفرت النهر، ويطلق على الماء الجاري فيه، فتقول: جرى النهر، من باب التعبير بالحال، وإرادة المحل، والعكس، فقوله: **تجري من غير أخدود** هذا غير معهود في الدنيا.

في الكوثر قال: **حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف**، يعني يحتمل أن يكون المراد بذلك، أنه يجري أيضاً من غير أخدود وتكون حوافه التي تحجز الماء هي قباب اللؤلؤ.

وعلى كل حال، الله عز وجل على كل شيء قدير، قادر على أن يجري الماء من غير شق في الأرض، فيجريه بما شاء كيف شاء -سبحانه وتعالى-.

يقول: **فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر**، الطين معروف، والحصباء، هي الحجارة الصغيرة التي تفرش بها الأرض، وما إلى ذلك.

فإذا كان هذا هو صفة طين الجنة وحصبائها، فما بالك بالأشياء التي هي أعظم من طينها وحصبائها؟ ما ظنك بجواهر الجنة، وحلي أهل الجنة؟ وما ظنك بأهل الجنة وقصورهم وبأثاثهم ورياشهم ونعيهم؟

قال -عليه الصلاة والسلام- وهو يشير إلى حلة حرير كان الصحابة يمسونها ويعجبون من لينها: ((والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا))[٨].

وقال –عليه الصلاة والسلام-: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))[٩].

"وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك))[١٠].

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٦) (ج ٣ / ص ١١٨٧) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٢٤٦٨) (ج ٤ / ص ١٩١٦).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقائق - باب: مثل الدنيا في الآخرة (٦٠٥٢) (ج ٥ / ص ٢٣٥٨).

[10] - أخرجه ابن حبان (٧٤٠٨) (ج ١٦ / ص ٤٢٣) وقال الألباني: حسن صحيح كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٧٢١).

وروى أيضاً عن مسروق، قال: قال عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: "أنهار الجنة تفجر من جبل المسك".

وقوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة]."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد.

مشابهة ثمار الجنة بعضها ببعض: وقوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة].

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليها الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتمونا آنفاً به، فتقول لهم الولدان: كلوا فاللون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} [(٢٥) سورة البقرة].

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} قال: يشبه بعضه بعضاً ويختلف في الطعم.

وقال عكرمة: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ضبيان عن ابن عباس، "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -عز وجل- ما بشر به أهل الجنة: **{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [(٢٥) سورة البقرة]، ذكر هنا وصفاً لنعيم الجنة وهو أنهم **{كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}**.

فقوله: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}** هل يقصدون به رزقنا به من قبل في الدنيا، **{وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}**، أي يشبه ما في الدنيا من الفواكه والثمار وما أشبه ذلك؟

أو أنهم يقصدون **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}** في الجنة، بمعنى أنهم في كل مرة يأتيهم من هذا النعيم، والطعام المستلذ من هذه الثمار، يقولون: هذا الذي رزقناه قبل ذلك في الجنة، فهو يشبهه.

هذان قولان مشهوران للسلف -رضي الله تعالى عنهم- فمن بعدهم في تفسير الآية، هل المراد متشابهاً أي يشبه ما في الدنيا، أو أنه يشبه بعضه بعضاً في الجنة؟

فما ذكره يحيى بن أبي كثير هنا من أنهم يقولون ذلك؛ لأنه أشبه ما سبقه في الجنة، مما رزقوا به من الثمار، فيقول لهم هؤلاء الولدان: إن اللون واحد والطعم مختلف.

وهذا الذي قاله يحيى بن أبي كثير، في تفسير الآية هو القول الأول الذي قال به جماعة من السلف كثير، واحتجوا له بعدة أمور، وجعلوه مرجَّحاً على القول الآخر، فبماذا احتجوا لهذا القول من أنه يشبه الذي قبله مما رزقوه في الجنة؟

احتجوا له بأشياء منها: أن نعيم الجنة لا يشبه نعيم الدنيا، كما جاء في الأثر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط أما الحقائق فهي مختلفة، فهذه كمثرى، وهذا عنب، فهم عرفوه في الدنيا لكن حقيقته في الجنة وطعمه يختلف تماماً عما في الدنيا، فهذا التشابه بين ثمار الجنة وثمار الدنيا إنما هو في اللون فقط أو في الاسم فقط، لا في الحقائق، فالتشابه الواقع بين ثمار الجنة لا يقاس بالتشابه الواقع بين ثمار الجنة وثمار الدنيا.

فقوله: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}، قالوا: الأولى به أن يكون هذا التشابه بين ما قبله من ثمار الجنة مما رزقوه؛ لأن ذلك هو المتحقق وهو التشابه بين ثمار الجنة، وأما مشابهته لثمار الدنيا فشتان بينهما، المقصود أنهم نظروا إلى التشابه، فقالوا: هو بين ثمار الجنة أعظم، وهذا هو الوجه الأول.

الوجه الثاني: قالوا: ليس كل ما يرزقونه في الجنة له نظير في الدنيا، وما كان له نظير في الدنيا ليس كل هؤلاء الذين في الجنة قد رزقوه، فثمار الدنيا كثيرة جداً، وربما كان أكثر أهل الجنة لم يعرفوا كثيراً منها، وما رأوه وما سمعوا به، ومعلوم أن أكثر أهل الجنة هم الفقراء، وإلى وقت قريب لم يكن يصل كثير من الثمرات التي نراها الآن في أقاصي الدنيا إلى الناس، فكيف يقولون في كل مرة: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} وهو لا نظير له، أو يوجد له نظير لكن ما عرفوه أو ما ذاقوه أو ما رزقوه في الدنيا؟

فقالوا: هذا يكون بالنسبة لما رزقوه في الجنة، وليس بالنسبة لما رزقوه في الدنيا.

وكذلك قوله: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} كأنه تعليل لقولهم: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}.

وقد وردت بعض الآثار عن بعض السلف أن ثمار الجنة كلما قطف منها شيء رجع مكانه غيره، فهو نعيم لا ينقضي ولا ينفد.

هذه أوجه لترجيح القول بأن هذا التشابه إنما هو بين ثمار الجنة، وليس مع ثمار الدنيا.

القول الآخر: إن التشابه مع ثمار الدنيا، وهذا أشهر من اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري.

وأعظم ما احتجوا به لهذا القول ما صرح به ابن جرير وهو يرد على أصحاب القول الأول حيث قال: هل يقولون هذا الكلام في الجنة لأول وهلة؟ بمعنى هل أول مرة يزرقون من ثمار الجنة يقولون: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}.

من المعلوم أنه على القول الأول أنهم لا يقولون ذلك أول مرة؛ إذ كيف يقولون: {هَـذَا الَّـذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة] وهم أول مرة، يذوقون ثمار الجنة؟!

فابن جرير يقول: إذن إذا قلتم: لا، فمعنى ذلك أن هذا يكون من قبيل الكذب، أي أنهم يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل ولم يرزقوه في الجنة قبل ذلك، وكيف يكون ذلك من أهل الجنة، وهم أهل الصدق وهي دار الصدق؟ فهذا لا يمكن.

يقول: وظاهرٌ ذلك -بناء على قولكم- فإن قوله: {كُلَّمَا رُزِقُواْ} هذا أمر يـدل علـى التكـرار والاستمرار والدوام، فهم يقولونه كلما وجدوا هذه الثمار، مع أنهم لا يقولون ذلك لأول مرة.

والجواب عن هذا: أن هذا مما يفهمه المخاطب، فيكون مستثنى يدركه الإنسان بفهمه وعقلـه، أي ليس المقصود أنه يقال من أول مرة، وإنما المقصود كلما تكرر عليهم ذلك، فمع أن ظـاهر الآية العموم، لكن ذلك يفهم ضرورة من الخطاب في كلام العرب، وهذا هو ما أظنـه أقـرب والله تعالى أعلم، وهو أن المقصود بالتشابه هو التشابه بين ثمار الجنة، وأن قولهم: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} يعني في الجنة، وليس في الدنيا، فشتان ما بين ثمار الـدنيا ومـا بـين ثمـار الآخرة، فإذا رأوا ثمار الجنة، فإنهم يندهشون؛ لأنهم يرون حقائق أخرى تمامـاً فـي الكيـف والطعم وحقيقتها، وقد لا يخطر في بالهم ما رأوه في الدنيا ، وإن خطر في بالهم فـإن ذلـك يكون على سبيل الإقصاء مقارنة بنعيم الجنة، والله تعالى أعلم.

في قوله تعالى: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}، بعض أهل العلم يقول: يعني في الجودة، أي أنـه خيـار كله، بينما ثمر الدنيا متفاوت، فمنه الجيد ومنه الرديء من جهة الأنواع، والنوع الواحد أيـضاً متفاوت في جودته، والشجرة القديمة ثمرها أجود من ثمر الشجرة اليافعـة، وتجـد أيـضاً أن الأصناف تتفاوت وإذا مر عليه وقت ذبل، ولذلك تجد الإنسان حينما يريد أن يشتري من أنواع الثمرة الواحدة فإنه يتخير من النوع الواحد أجوده؛ لأنه في غاية التفاوت، بينما ثمر الجنة كلـه جيد ليس فيه شيء مستبعد، ولا شك أن ثمار الجنة كذلك.

"**وقوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ}** [(٢٥) سورة البقـرة] **قال ابن أبي طلحة عـن ابـن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد.**

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وفي رواية عنه: لا حـيض ولا كلـف، وروي عـن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح والسدي نحو ذلك."

الله -عز وجل- لم يحدد هنا شيئاً دون شيء، وإنما قال: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} فوصـفها بهذا وأطلق، والأصل بقاء المطلق على إطلاقه، فلا يقيد إلا بدليل يجب الرجوع إليـه، وهـذا أصل وقاعدة معروفة.

وكذلك قوله: {أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} حذف فيه المتعلق، فما قال: مطهرة من الحيض مثلاً، والأصل في ما حذف منه المتعلق أن يحمل على أعم معانيه، فهنا يقال: أزواج مطهرة من كل دنس حسي ومعنوي، فهي ليست كنساء الدنيا تسمع منها ما يؤذي ويجرح من بذاءة اللسان، أو الكذب والقيل والقال، وكثرة الكلام، كما هو الشائع عند كثير من النساء في الدنيا.

وهي مطهرة أيضاً في نظرها فلا تنظر وتتطلع إلى غير الزوج، قد قصرت طرفها فلا يمتد إلى أحد سواه ولا تتطلع نفسها إلى غيره، فهي لا ترى أكمل من هذا الزوج، بخلاف من في الدنيا لا سيما من ابتليت بالنظر إلى الشاشة، فهي لا شك ترى من هو أجمل من زوجها ومن هو أذكى وأعقل وأعظم قواماً واكتمالاً في الجمال والهيئة والعلم والمرتبة والمكانة، فيا ترى كيف تنظر إلى زوجها مع هذه المقارنات؟!

والزوجة في الجنة مطهرة أيضاً من الأقذار والأدناس الحسية، ويكفي ما ذكره بعض أهل العلم من أن الرأس لوحده فيه خمسة منافذ للأذى والقذر، مع أن هذا الرأس هو أشرف الأعضاء، فما بالك بأشياء أخرى، فهو وإن استمتع بها فإنما يستمتع بجسد قد عبئ بالنجاسة، وأي لذة تستطاب مع هذا لولا ما يغشى الإنسان من الحجاب الذي تفرضه عليه الشهوة، التي ركبت فيه، وإلا فالأذى والقذر لا يفارقها بحال من الأحوال، ولذلك يشمل الحيض والنفاس وغير ذلك مما يُعرف، وكل ذلك مما يستقذر وينفر منه الطبع، وأقل ذلك أنها لو لم تمتشط صارت شعثة ولو بقيت دون اغتسال لما استطاع أي يقترب منها، فالأذى موجود في نساء الدنيا، بينما نساء الجنة ليس لها عرق تُكره رائحته، وإنما رشحهم المسك وليس لها أي لون من الأذى، فهي في غاية النزاهة والطهارة، ولذلك قال سبحانه: {أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ}.

"**وقوله تعالى**: {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥) سورة البقرة] **هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسئول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.**"

هذا التعقيب {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} في غاية المناسبة؛ لأن الإنسان مهما عظمت لذاته فإنه ينغصها ويكدرها الموت، وإذا كان في حال اللذة واجتماع الأحباب فإنه يتذكر المفارقة، وإذا كان يعيش في أعظم نعيم للدنيا، فإنه يتنغص إذا تذكر أنه يفارقه.

هو الموت ليس كالموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فإذا تذكر الغني وهو في كامل لذاته وشهواته أنه سيفارق هذا القصر المشيد، وهذا النعيم، وهذا الفراش الوثير، فإنه يتكدر ويتنغص؛ لأنه سيستلب في أي لحظة ولا يدري متى يكون ذلك.

وإذا تذكر المرء أن هذا الاجتماع مع أحبته من بنيه وزوجاته وخدمه وقراباته لن يدوم، وأنــه سيأتي اليوم الذي يستلبون فيه الواحد بعد الواحد، وقد يكون هو أولهم، وقد يكون بعد أن يرى أحبته يؤخذون ويتجرع حسراتهم، فلا شك أن هذا أعظم ما يكدر على هذا الإنسان لذته.

أما أهل الجنة فقد وصف الله نعيمهم بأنه جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهم يرزقون فيهــا رزقاً متكرراً، ثم هم بعد هذا النعيم لا يتكدرون لاستشعار أنهم سيفارقون هذا النعيم، بــل هــم مقيمون فيه أبداً فلا يزولون عنه ولا يزول عنهم، وهذا يبعث الطمأنينة في نفوســهم، ويرفــع أسباب الكدر التي يعانيها أهل الدنيا.

تجد أهل الدنيا يفترقون ابتداء في طلب معائشهم، فالوالد يكون له مجموعة من الأبنــاء ومــع ذلك لا يتنعم بمجاورتهم والعيش معهم بل كل ولد في بلد يطلب لقمة العيش ويعــاني أســبابه، بينما النادر من الناس من يعيش مع أبنائه ويتحقق له أن يكــون أبنــاؤه حاضــرين عنــده لا يحتاجون للبعد عنه بسبب قلة اليد، كما هو أحد الأقوال المشهورة في قولــه تعــالى: {وَبَنِــينَ شُهُودًا} [(١١-١٣) سورة المدثر]، وهو أرجحها -والله أعلم-.

فأي نعيم أعظم من هذا بالنسبة لهذا الأب مقارنة بمن يتفرق أبناؤه شذر مذر، كل يطلب لقمة العيش ويعاني أسبابه؟.

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِــي الأَرْضِ أُولَئِــكَ هُــمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٦-٢٧) سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر رحمه الله تعالى:

"روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناسٍ من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة]، وقوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء..} [(١٩) سورة البقرة] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٧) سورة البقرة].

وقال سعيد عن قتادة: أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً مما قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت، قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا فأنزل الله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [(٢٦) سورة البقرة].

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلئوا من الدنيا ريَّاً أخذهم الله عند ذلك، ثم تلا: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام].

ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي أي: لا يستكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي أيّ مثَلٍ كان بأي شيءٍ كان صغيراً كان أو كبيراً."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية هي جواب عن قيل من قال مِن أولئك: إن الله -عز وجل- أجلّ شأناً من أن يضرب مثلاً في الذباب وما إلى ذلك، فليس هذا المثل مثلاً للدنيا، والله تعالى أعلم، وأما الدنيا فقد قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[1].

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد - باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) (ج ٤ / ص ٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٢).

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [(٢٦) سورة البقرة]، فكونه لا يستحيي هذا نفي للحياء في مثل هذا المقام الذي يكون فيه بيان الحق بأجلى صوره بضرب الأمثال، وإلا فإن صفة الحياء ثابتة لله -عز وجل-: ((إن الله حيي ستير))[٢].

وليس معنى لا يستحيي يعني لا يخشى، وإنما هو نفي للحياء الذي هو من أوصاف الكمال ثبوتاً، وكونه يوجد في بعض المقامات التي تمنع مما ينبغي أن يكون، ليس ذلك من الكمال، ولهذا نفى الله -عز وجل- ذلك في مثل هذا المقام.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} البعوضة هي تفسيرٌ هنا منصوبة إما على التمييز أو على أنها صفة نعت لما قبلها.

قوله: {أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا}: فقد تكون تفسيراً لـ(ما) الدالة على الاستفهام، وقد تكون عائدةً إلى المثل على خلافٍ بين أهل العلم.

"وقوله تعالى: {فَمَا فَوْقَهَا} أي ما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة.

روى مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من مسلمٍ يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتب له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة))[٣]."

ابن كثير -رحمه الله- فسّر هذه الجملة بالمشهور من أحد المعنيين في تفسيرها، لأن قوله: {فَمَا فَوْقَهَا} يحتمل معنيين، المعنى الأول: يعني فما هو أعظم وأكبر من البعوضة، والمعنى الثاني الذي تحتمله هو أن ما فوقها أي ما هو أدق وأصغر منها، فتقول مثلاً: هذه الإبرة فوق هذه الإبرة، يعني أدق منها، أو تقول: هذا السنّ فوق هذا السن، يعني أنه دونه وأصغر منه.

فتطلق هذه اللفظة بالاشتراك على معنيين اثنين متقابلين تمام المقابلة، الأول ما هو أكبر، والثاني ما هو أصغر.

ولكلٍ قائل في هذه الآية، فبعض أهل العلم يقول: {فَمَا فَوْقَهَا} يعني فما دونها وأحقر منها، والمعنى الثاني: {فَمَا فَوْقَهَا} يعني ما هو أكبر منها، وهذا هو المعنى المتبادر، وهو المشهور، وهو الذي اقتصر عليه الحافظ ابن كثير، وهو الذي عليه أكثر أهل العلم من السلف فمن بعدهم.

---

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب: الحمام - باب: النهي عن التعري (٤٠١٢) (ج ٢ / ص ٤٣٤)والنسائي في كتاب الغسل والتيمم - باب: الاستتار عند الاغتسال (٤٠٦) (ج ١ / ص ٢٠٠)وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧٥٦).

[3] - أخرجه سلم في كتاب: البر والصلة والآداب - باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٢) (ج ٤ / ص ١٩٧٣).

واستدل عليه أو فسره هنا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يشاك شوكةً فما فوقها)). وهذا من قبيل تفسير الشيء بنظيره، فكما يفسر القرآن بالقرآن ويفسر بالسنة، كذلك قد يفسر الشيء بنظيره مما هو ظاهر في مقامٍ آخر، وتفسر لفظة بلفظة، وتفسر جملة بجملة وإن كانت كل جملة من هذه الجمل قد وردت بتقرير معنىً آخر لا تعلق له بالمعنى الأول.

والمقصود بقوله في الحديث: ((شوكةً فما فوقها)) أي ما هو أكبر منها، لأن الشوكة في العادة تقال لأدنى الأشياء التي تصيب الإنسان، كما قال خبيب -رضي الله عنه-: "والله ما أحب أن أكون في أهلي آمن ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشاك بشوكة"[٤].

والمعنى أنه ذكر أدنى ما يقال وإن كان العقل يتخيل ما هو أدنى من الشوكة، لكن عقول المخاطبين تفهم المراد من مثل هذا الخطاب.

فلا يأت متعنت فيقول: لا مانع أن يكون المراد يشاك بشوكة فما فوقها، أي أدنى من الشوكة مما يصيب الإنسان من الآفات والعوارض التي تعرض له؛ لأن هذه ليست طريقة العرب في الخطاب والفهم، وإنما هذا من العجمة في الفهم.

الحاصل أن هذا مثال على تفسير الشيء بنظيره مما يقرب معناه من جهة اتحاد السياق والتركيب وإن كان المعنى مغايراً كل المغايرة بين المفسَّر والمفسَّر به.

فهو أتى بهذا الحديث ليوضح هذه القضية، فالشيء قد يكون خفياً؛ لأن اللفظ يحتمل معنيين في بعض المواضع بسبب التركيب، ويكون في موضع آخر وإن كان لا يمتُّ له بصلة بالمعنى لكنه واضح.

"فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [(٧٣) سورة الحج].

وقال: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [(٤١) سورة العنكبوت].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ* يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ}

---

[4] - المعجم الكبير للطبراني (٥٢٨٤) (ج ٥ / ص ٢٥٩).

[(٢٤-٢٧) سورة إبراهيم]، وقال تعالى: {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ..} [(٧٥) سورة النحل] الآية.

ثم قال: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ} [(٧٦) سورة النحل] الآية.

كما قال: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ..} [(٢٨) سورة الروم] الآية.

وقال مجاهد في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [(٢٦) سورة البقرة]: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها."

الأمثال لا شك أنها عظيمة، وبالنسبة للبعوضة لم يرد ضرب المثل بها في القرآن في موضع من المواضع، وأما قوله تبارك وتعالى هنا: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [(٢٦) سورة البقرة] فهو لم يضرب بها المثل، وإنما يخبر -تبارك وتعالى- رداً على هؤلاء أنه -سبحانه وتعالى- لا يستنكف ولا يمنعه الحياء أن يضرب المثل بها وبما هو أعظم منها أو أكبر منها في الخلقة.

وقوله هنا: {أَن يَضْرِبَ مَثَلاً} هو الذي حمل الربيع -رحمه الله- أن يقول: إن الله ضربها مثلاً للدنيا؛ لأنها إذا زادت نقصت، وإذا اكتملت كان ذلك إيذاناً بزوالها واضمحلالها كالبعوضة، ولكن ليس المراد هنا ضرب المثل به، والعلم عند الله -عز وجل-.

"روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناسٍ من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً} يعني به المنافقين ويهدي به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالةً إلى ضلالتهم؛ لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به.

{وَيَهْدِي بِهِ} يعني المثل، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدىً إلى هداهم، وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به، {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [(٢٦) سورة البقرة]."

{يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً} أي: يضل به المنافقين، ويضل به الكافرين أيضاً، فكلّ من في قلبه رجس. فإن هذا القرآن كما قال الله -عز وجل-: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٥) سورة التوبة].

كما أخبر عن المنافقين كيف يكون حالهم إذا سمعوا آيةً أنزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال تعالى: {فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [(١٢٤) سورة التوبة].

فأهل الإيمان تزيدهم هذه الأمثال والآيات المنزلة على النبي -عليه الصلاة والسلام- إيماناً بخلاف غيرهم من الكفار والمنافقين، كما قال سبحانه: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [(١٢٤) سورة التوبة]، ولهذا قال بعد ذلك: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [(٢٦) سورة البقرة].

ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٧) سورة البقرة]، فالمقصود أن ذلك لا يختص بالمنافقين.

"{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [(٢٦) سورة البقرة] **قال: هم المنافقون، وتقول العرب: فسقت الرطبة.**"

الفاسقون تطلق على كل من خرج عن طاعة الله -عز وجل- خروجاً أصغر أو خروجاً أكبر، فالخروج الأكبر يشمل أهل النفاق ويشمل الكفار، وأهل الخروج الأصغر هم أهل المعاصي، وهذا إطلاق معروف في اللغة وفي الشرع، فهو يطلق على هذه المعاني جميعاً، ولذلك تجد المثال الشهير في أصول الفقه الذي يذكرونه عند الكلام على مفهوم موافقة الأولوي القطعي، -يعني من باب أولى-: قوله تعالى: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [(٢٣) سورة الإسراء] يعني امتنع عن الضرب من باب أولى قطعاً، ومثال الظني قوله تعالى: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [(٦) سورة الحجرات]، ففي هذه الآية يقولون: إن جاء كافر من باب أولى ظناً وليس ذلك قطعياً؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، أي أنه متدين ودينه يحرم عليه الكذب، فلذلك لا يقطع بأنه إن جاءنا كافر بنبأ أننا نتثبت.

لكن هذا المثال مع أنه مشهور جداً إلا أن فيه نظراً؛ لأن قوله تعالى: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ} عام يشمل الكافر ويشمل العاصي، فنحن مأمورون بالتبيّن إلا إذا جاء العدل، والكافر لا يكون عدلاً.

"وتقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال: للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد."

قوله: **يقال: للفأرة فويسقة**، في هذا إشارة إلى الحديث الذي في الصحيحين: ((خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم))[5].

والمقصود أن كل ما خرج عن الجادة يقال له: فاسق وفسق، كما قال تعالى: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [(٥٠) سورة الكهف]، يعني خرج عن أمر ربه في السجود لآدم -صلى الله عليه وسلم-، وهذا كثير ومعروف حتى في كلام العرب وأشعارهم.

يهوين في نجد وغوراً غائراً   فواسقاً عن قصدها جوائراً

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق -باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٣٦) (ج ٣ / ص ١٢٠٤)، ومسلم في كتاب: الحج - باب: ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (١١٩٨) (ج ٢ / ص ٨٥٦)، واللفظ لمسلم.

يعني خارجة عن الطريق.

"**وثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور))**[٦].

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد به في الآية الفاسق الكافر والله أعلم؛ بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٧) سورة البقرة]."

قوله تعالى: **{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ}** [(٢٦) سورة البقرة] عامَّة يدخل فيها الكافر والمنافق، ويدخل فيها أيضاً العاصي من المؤمنين، فقوله: **{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ}**، هل المقصود به أن من خرج من طاعة الله من أهل الإيمان فالله يضلهم بهذه الأمثال؟

الجواب: لا، ليس هذا هو المراد، فالقاعدة أن الآية قد تحتمل معنيين فأكثر، ويوجد في الآية قرينة ترجح أحد هذه المعاني، وهذا له أمثلة كثيرة جداً، هذا واحد من هذه الأمثلة، فالآية تحتمل معنيين ويوجد في نفس الآية قرينة ترجح أحد هذين المعنيين.

فمثلاً قوله تعالى: **{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ}** [(٢٢٨) سورة البقرة] فإن القرء مشترك بين معنيين هما الطهر والحيض، وهما متناقضان، إذ لا توجد امرأة لا طاهر ولا حائض، والمقصود هنا أن ثلاثة قروء، منهم من رجّح أن المراد به الأطهار وقال: إن العدد هنا لحقته تاء التأنيث **{ثَلاَثَةَ}** فلو كان المقصود الحيض فإن العدد ثلاثة لا تلحقه تاء التأنيث إذا كان المعدود مؤنثاً، فأنت تقول: ثلاث نسوة، أما إذا كان مذكراً فإنك تقول: ثلاثة رجال، فهنا هل نقول: ثلاث حيض أو نقول:ثلاثة أطهار؟

الذين فسروا القرء بالطهر قالوا: في الآية قرينة ترجح هذا المعنى وإن كانت لفظة القرء تصدق على الطهر والحيض؛ لأنه من قبيل المشترك، يقال: ثلاثة، هذا مؤنث ولا يكون إلا مع المعدود المذكر، وعلى كل حال فالقول بأن لفظ القرء مذكر ليس بقاطع.

فقوله تعالى: **{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ}** ليس المقصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان وإنما هم الكفار وأهل النفاق، والقرينة في الآية أنه قال: **{الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [(٢٧) سورة البقرة]، وهذه الصفات ليست صفات الفسقة من أهل الإيمان، وإنما هي صفات الكفار، كما جاء ذلك في آياتٍ أخرى.

---

[6] - سبق تخريجه.

"**وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد:** {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} [(١٩-٢١) سورة الرعد] **الآيات، إلى أن قال:** {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٢٥) سورة الرعد]."

هذه نفس الأوصاف والمراد بهذه الآيات هم الكفار هنا؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأول أنه قابلها بصفة أهل الإيمان، والمقابلة عادةً تكون بين المؤمنين والكفار.

الأمر الثاني: ما عقّب به وهو أن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، وهذا إنما يكون للكافرين.

"**والعهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.**"

بعض أهل العلم يقول: هو العهد والميثاق الذي أخذه الله -عز وجل- على بني آدم حينما استخرجهم من ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- على هيئة الذر، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ} [(١٧٢-١٧٣) سورة الأعراف]، فبعض أهل العلم يقول: العهد هو ما أخذه عليهم وهم في ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: ليس هذا هو المراد، وإنما المقصود به هو ما أمرهم به ووصاهم به على ألسن رسله -عليهم الصلاة والسلام- فقد جاءهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يأمرونهم بالتوحيد وبكل عملٍ وأمرٍ طيبٍ صالح، وينهونهم عن الشرك وعما تفرع به من كل أمرٍ سيئ.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ} العهد مفرد مضاف، والمفرد إذا أضيف فإنه من صيغ العموم.

{وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ} أي: عهود الله، فكل عهدٍ لله يصدق عليه ذلك، فالتوبة عهد بين الله وبين العبد، والنذر عهد، والوعد عهد، والإسلام عهد، وما أخذه الله -عز وجل-على بني آدم حينما استخرجهم من ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- عهد، وهكذا ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو عهد من الله لخلقه، فهذا كله يدخل في معنى الآية، والعلم عند الله -عز وجل-.

{مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ}: ميثاق من وثّق الشيء، يعني قوّاه وأكده.

"وقيل: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، والعهد الذي نقضه أهل الكتاب هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم.

قلنا: إن الميثاق هنا مفرد مضاف وهو للعموم، فيدخل فيه ما أخذه الله على أهل الكتاب، حيث عهد إليهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه كما قال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [(٨١-٨٢) سورة آل عمران]، فهذا كله من العهد وهو داخل فيه، فلا تختص هذه الآية بأهل الكتاب بخصوص هذا العهد الذي أخذ عليهم، والله تعالى أعلم.

"ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، وقيل: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهدُه إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهدُه إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله، والشاهدة لهم على صدقهم.

قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبيّنت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا وهو حسن، وإليه مال الزمخشري."

الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه لا شك أنه يشمل الكفار والمنافقين كما سبق ولا يختص بأهل الكتاب، لكن ذلك لا يكون بمجرد ما وضعه من الدلائل الدالة على ربوبيته ووحدانيته، بل لا بد أن ينضم مع ذلك ما ذكر من التصديق برسله -عليهم الصلاة والسلام- واتباعهم، والإقرار بما جاءوا به، والقبول عن الله -عز وجل- بأمره ونهيه.

"وقوله: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} [(٢٧) سورة البقرة]، **قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة، كقوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}** [(٢٢) سورة محمد]**، ورجحه ابن جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك، فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه."**

عادة إذا ذكرت الصلة، وصلة ما أمر الله به أن يوصل فالمراد بها صلة الأرحام، هذا هو المراد بها، وإن كان بعض أهل العلم قال: إنه يدخل فيها من المعاني غير هذا، كصلة القول بالعمل وكذلك صلة الإيمان والتصديق بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيؤمن بهم جميعاً لا

يؤمن بنبي ويكفر بالآخرين، كل هذا فسّر به قوله: {يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} [(٢١) سورة الرعد]، ولكن ليس هذا هو المتبادر من معنى الآية، والآية يجب أن تحمل على المعنى المتبادر دون المعنى الخفي المغمور إلا بدليلٍ يجب الرجوع إليه، فإذا أطلق مثل هذا {يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} فمباشرةً يتبادر إلى الأذهان أنه صلة الأرحام، وأما وعيد أهل القطيعة أو الفسق أو الانحراف بما جاء وصفه في هذه الآيات فهو شيء آخر، لكن الكلام هنا {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ} [(٢٦-٢٧) سورة البقرة]، هؤلاء هم الكفار، وإلا فإن هؤلاء الفسقة من أهل الإيمان لا يقفون عند هذه الأمثال وينكرونها ويقولون: الله أعظم من أن يضرب مثلاً بهذه المحقرات، فالآية من سياقها يعلم أنهم غير داخلين في هذا المعنى وإن كانوا من جملة الفاسقين، ولكن اللفظ قد يخص ببعض ما يدخل تحته لدليلٍ في الآية أو قرينة، فالفاسقين هنا ما تحمل على أعمّ معانيها لما ذكرنا.

"وقال مقاتل بن حيّان في قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٧) سورة البقرة]."

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ينقل عن مقاتل، فهو إذا قال: مقاتل سواء نسبه أو لم ينسبه فهو مقاتل بن حيّان المتوفى سنة ١٥٠ للهجرة، وهناك مقاتل آخر وهو مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ للهجرة أيضاً، فمقاتل بن حيّان لم يتكلم فيه ولم يتهم لا في النقل ولا في الرواية، ولم يتهم أيضاً في الدين والاعتقاد، أما مقاتل بن سليمان فهو متهم في الأمرين، أي: اتهم بالكذب واتهم أيضاً بالقول بالتجسيم، والعلماء -رحمهم الله- يتناقلون كثيراً القول المنسوب لأبي حنيفة بأنه قال: "قد جاءنا من المشرق رأيان خبيثان: مقاتل مجسم وجهم معطل"، فطارت هذه المقولة وتناقلها الكبار كالشافعي -رحمه الله- والذهبي وأئمة كثير، مع أن هذا بالنسبة للتهمة بالكذب أو الضعف الشديد في الرواية أو عدم التوثيق في أقل الدرجات لا شك أن العلماء تتابعوا عليه وكلامهم كثير فيه، لكن تبقى القضية الثانية التي هي رمي مقاتل بالتجسيم، فهو له كتاب من أربعة مجلدات في التفسير مطبوع لكنه قليل التداول، ورأيته قبل سنتين حيث ظهرت له طبعة سقيمة وليس فيه شيء من التجسيم أبداً، وله تفسير خمسمائة آية عندي نسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة لا يوجد شيء فيه من التجسيم، وعلى كل حال لا يوجد في كتبه التي وصلت إلينا شيء من التجسيم، لذلك شيخ الإسلام من دقته -رحمه الله- لما ذكره في بعض كتبه كمنهاج السنة، قال: "ولعله لا يثبت عنه".

ولذلك لما استقرأت هذه الكتب -وهي بين أيدينا- لم يوجد فيها شيء، فما تدري هل هذا مما كان يقال عن أهل السنة: إن من أثبت الصفات فهو مجسم فقيلت عنه، إذ مثل هذا كثير، فتجد الكرامية مثلاً يرمون شيخ الإسلام -رحمه الله- بأشياء ومع ذلك هو من دقته تجده يقول في بعض الأحيان: "وهذا قد لا يثبت عنهم"، مع أن هناك أموراً تكلم عنهم فيها مما هي ثابتة عنهم ككلامهم في الإيمان ونحو ذلك، مثلاً، لكن في بعض الأشياء تجده يقول: "وهذا قد لا يثبت

عنهم"، والكرامية هي أصلاً فرقة من الفرق المنحرفة، لكن أكثر من نشر عنهم السمعة السيئة هو ابن فورك من الأشاعرة؛ لأنه ناظر ابن كرّام أمام الأمير أو الوزير وأفحمه، وبعد ذلك أبعد هذا الأمير أو الوزير ابن فورك والأشعرية وصار يقرب أهل الحديث، وكيف يقرب أهل الحديث بعد مناظرة ابن كرّام؟

أنا لا أقول أبداً: إن ابن كرّام من أهل الحديث، ولكن ما يرمونه به في بعض الأمور إنما نقل إلينا عن طريق خصومه، ولذلك تجد كثيراً مما ينقل عن الفرق في كتب الفرق إنما ينقل عن خصومهم، ولذلك تجدهم ينقلون أشياء غريبة وغير دقيقة، لكنها أشياء غريبة جداً، فلما تنظر إلى الشهرستاني عندما يصنف بعض أئمة السنة كالشعبي وجماعة من الكبار يصنفهم من الرافضة الإمامية، وهذه طوام فلو قال: فيه تشيّع كان يمكن هضمها أما أن يصنفهم من الإمامية مرة واحدة فهذا غير صحيح.

ابن كثير ينقل عن الزمخشري كثيراً في هذا الكتاب، وينقل عن غيره أيضاً كالرازي، وهذا أمر معروف عند أهل العلم، والبخاري -رحمه الله- تراجم الأبواب التي ألفها فيها ألفاظ لغوية عامتها مأخوذة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى الخارجي المعتزلي، فالنقل من كتب أناس عندهم انحرافات أمر معروف عند العلماء ولا زالوا قديماً وحديثاً من عهد السلف -رضي الله عنهم- ينقلون أشياء ويستفيدون منها بلا غضاضة، ما ينقلون الباطل والانحراف إلا للرد عليه، لكن ينقلون الأشياء الصحيحة الجيدة.

الإمام أحمد نقل عنه الإنكار على أبي عبيدة القاسم بن سلام ما كان ينقله عن الفراء وأمثال الفراء فيما يكتبه، أنكر عليه وإن كان الفراء ليس من أصحاب العقائد المنحرفة، لكنه قال بعض الأشياء التي أنكرها عليه الإمام أحمد في التفسير، وهي يقول بها علماء كثير من أهل السنة، مثل قول الله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [(٩) سورة الأعلى]، فهو يقول: إن نفعت وإن لم تنفع فقد ذكر أشرف الأمرين، وهذا من باب الاكتفاء، اكتفى عن القسم الآخر، مثل: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ} [(٨١) سورة النحل]، فلم يذكر البرد مع أنه مراد، وهذا يسمى بالاكتفاء، حيث يذكر أحد الشقّين ليدل على الآخر، فالإمام أحمد ما أعجبه هذا، وردّه ونهى أبا عبيد.

الإمام أحمد كان ينهى عن وضع الكتب، ونقل هذا عن بعض المتقدمين، والآن لا يوجد أحد ينكر تأليف الكتب في غير الحديث، أي: غير ذكر الروايات، بل تتابع العلماء في التأليف؛ لأن الناس احتاجوا إلى ذلك، وأما الإمام أحمد لما نهى عن ذلك فقد كان في وقت الفتنة والشر والابتداع، فأراد أن يقمع ذلك ويقتصر الناس على الأثر لكن الباب لا أقول فُتح بل كُسر، واختلط الحابل بالنابل والخير بالشر، فصار العلماء يضعون الكتب بلا إشكال، وإلا لو قرأت كلام الإمام أحمد -رحمه الله- في النهي عن وضع الكتب وعن تدوين كلامه فإن قراءة ذلك

وغير ذلك من كلام السلف –رحمهم الله- تحتاج إلى فقة، فهذه الكلمات والعبارات التي نسمعها عن السلف تحتاج إلى فقة، أما إذا جاء الإنسان يأخذ عبارة بمجردها ويقول: هذا هو منهج السلف ويعمم هذا ويحكم على الناس بناءً على عبارة واحدة فمعنى هذا أنه لن يبقي ولا يذر، فلذلك ينبغي للمرء أن يبدأ بنفسه ويعتني بها؛ لأنه سيجد نفسه متورطاً في مثل هذه الأشياء.

"**وهذا كما قال تعالى:** {أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٢٥) سورة الرعد].

وقال الضحاك عن ابن عباسٍ -رضي الله تعالى عنهما-: "كل شيءٍ نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسمٍ مثل خاسر فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب"."

هذا ما يسمى بكليات التفسير، كل كذا في القرآن فمعناه كذا، كما يقال: كل آيةٍ يذكر فيها يا أيها الناس فهي مكية إلا الآية التي في سورة كذا، كل آية يذكر فيها يا أيها الذين آمنوا مثلاً، أو كل آية يذكر فيها أهل الكتاب فهي مدنية إلا الآية المذكورة في سورة كذا، وهكذا، هذه تسمى كليات التفسير، وإن كان بعض هذه الأقوال لا تصح من جهة الرواية، وبعضها صحيح من جهة الرواية لكن الاستقراء فيه ناقص بحيث إنه ما يصلح أن يكون من الكليات.

فالكليات لو دونتها وجمعتها فإنك ستجد قدراً صالحاً منها، كل كذا فهو كذا، ويدخل هذا في قضية الحقيقة الشرعية كما هنا في المثال الذي أمامنا، إذا ذكر الخسران في القرآن فالمراد به كذا، ومثله إذا ذكر البرّ فالمراد به كذا، وهكذا.

"**وقال ابن جرير في قوله تعالى:** {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، **الخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخسراناً وخساراً، كما قال جرير بن عطية:**

إن سليطاً في الخسار إنه ... أولاد قومٍ خلقوا أقنّة

هذا جرير الشاعر المعروف يهجو رهطاً من قومه من بني يربوع، حيث إن رجلاً من قوم جرير هجا شخصاً فجرير ردَّ عليه بهذا البيت يهجو هؤلاء الرهط الذين منهم هذا الرجل، وسليط هذا هم بطن من قبيلة جرير.

فقوله: **إن سليطاً في الخسار إنه أولاد قومٍ خلقوا أقنّة**: أي إن هؤلاء الرهط أو الفخذ من هذه القبيلة، أو هذا البطن من القبيلة خلقوا أقنة، والأقنة جمع قِنّ، بالكسر، والقنّ هو الشخص الذي مُلك عبداً مع أبويه، يعني أنه عبد هو وأبوه وأمه، فالإنسان قد يكون ممن استرق في الحرب،

وأهله أحرار، وقد يكون أيضاً رقيقاً مع أمه فقط؛ لأن الأب حرّ تزوج بالأمة فصار الأولاد أرقّاء، فهذا الذي يقال له قنّ.

"{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [(٢٨) سورة البقرة].

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ} أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره.

{وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ}: أي وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود."

قضية كيف تنكرون وجوده وتجحدون وجوده، هذا عند من يجحد وجوده مثل الملاحدة، ولكن هذا لم يكن في المخاطبين من العرب لأول وهلة، وإنما يكفرون به بأن يجعلون معه إلهاً آخر.

قوله في هذه الآية: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} لماذا عقّب الأولى بالفاء، والثانية بـ(ثم)؟

الجواب: قوله: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ} سواء قيل: إن هذا الموت في عالم العدم، أو قيل: النطفة والعلقة والمضغة، فإن نفخ الروح في المضغة بعد مرور أربعة أشهر من إلقاء النطفة في الرحم يؤدي إلى سريان الحياة مباشرة، أما الموت بعد هذه الحياة فإنه إنما يكون بعد أن يعيش هذا الحي فترة من الزمن قد تصل إلى خمسين سنة أو ستين سنة، أو أقل من ذلك أو أكثر، فمن هنا كان التعقيب بـ(ثم) هنا هو الأنسب، لذلك قال: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، فإذا أماتهم -إذا قيل: إن الإحياء الآخر هو البعث كما هو المتبادر- فإنهم يبقون في عالم البرزخ في حياة قبل حياة الآخرة التي هي البعث من القبور، حيث تبعث الأجساد، فمن هنا كان المناسب هو التعقيب بـ(ثم) بهذا الاعتبار، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ} دلت هذه الآية على أن هناك موتتين وحياتين، وذلك أيضاً صريح في قوله تعالى عنهم: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [(١١) سورة غافر].

بعض أهل العلم يفسر الموت في قوله تعالى: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً} أنه حينما كانوا في عالم العدم، فالمعدوم يقال له: ميت، وبعض أهل العلم يقول: ليس المراد به حينما كانوا في عالم العدم، وإنما في عالم النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

قد يقول قائل: كيف تكون النطفة والعلقة والمضغة في حكم الموت والمعروف أن النطفة فيها الحيوانات المنوية وأنها تسبح وتنمو.. الخ؟

يقال: هذا ينبغي أن يفهم بناءً على معهود المخاطبين، فالعرب المخاطبون بهذا القرآن يقولون عن كل ما لا روح فيه إنه ميت، ولذلك فالنطفة يعتبرونها ميتة، وهذا هو الذي دلت عليه لغة القرآن، فيقال عنها ميتة وإنما تكون فيها الحياة بعد نفخ الروح.

فقوله: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً} يعني حينما كنتم في بطون أمهاتكم نطفاً، ثم عَلَقاً ثم مُضغاً، فقبل أن تنفخ الروح كنتم أمواتاً.

{فَأَحْيَاكُمْ} يعني بهذا نفخ الروح.

وقوله: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} أي الميتة المعروفة.

وقوله تعالى: {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي يبعثكم يوم القيامة، وبعض أهل العلم يقول: إن الإحياء الثاني المذكور هنا: {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} هو في البرزخ، وعليه قول بعض أهل العلم: إن الإماتة والإحياء أكثر من هذا، وتتبعوا كل ما قيل وإن كان لا أصل له، فبعضهم كالقرطبي -رحمه الله- عدّ ست إماتات، وست مرات من الإحياء، ومما عدَّ يوم كانوا في ظهر آدم فاستخرجهم على هيئة الذر، قال: كانوا في صلب آدم أمواتاً ثم أحياهم، ثم أعادهم مرة ثانية يعني أماتهم، وهكذا جمّع أشياء وذكرها، ولا يعني أنه يقرّ بها، وإنما يقول على قول من قال كذا، وعلى قول من قال كذا، ومما عدَّه من الإحياءات قضية البرزخ، والجهنميون العصاة الذين يحترقون في النار ثم يخرجون من النار بعد أن صاروا حمماً فيلقون في نار الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فقال: هذه إماتة يموتون في هذه النار ثم يخرجون فيحيون..

لكن هل هذا هو معنى قوله: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ}؟

ليس هذا هو المراد؛ لأن هذا كلام لعموم الخلق، وليس لهؤلاء المعذبين من أهل الإيمان، وإن الكفار لا يموتون في النار ولا يحيون، وكذلك هناك أهل الإيمان الذين لا يدخلون النار، ولا تصير حالهم إلى هذا، وهكذا.

فالمقصود أنهما إماتتان وإحياءتان، ومن أراد أن يراجع كلام أهل العلم في هذا أو مجموع ما قيل في ذلك فلينظر في مثل كلام القرطبي -رحمه الله-.

"كما قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ} [(٣٥-٣٦) سورة الطور]."

هذا يذكِّر الله -عز وجل- به عباده مما يلزمهم به توحيده، كيف تكفرون وهو الذي خلقكم والذين من قبلكم، وكنتم أمواتاً فأحياكم، فينبغي أن تكون العبادة لمن خلق ولا تكون لأحدٍ سواه.

"وقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [(١) سورة الإنسان]، والآيات في هذا كثيرة.

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباسٍ -رضي الله تعالى عنهما-: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ}، أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} موتة الحق، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله تعالى: {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [(١١) سورة غافر]."

بعض العلم يعد أيضاً من الإحياءات والإماتات حينما صور الله -عز وجل- لآدم الذرية، وهكذا يعددون كل هذه الأشياء.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٩) سورة البقرة].

"لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السماوات والأرض فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} أي: قصد إلى السماء فسواهن، أي فخلق السماء سبعاً، والسماء هاهنا اسم جنس فلهذا قال: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}."

هذه الآية: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} يحتجّ بها الأصوليون والفقهاء في موضعٍ معروف وهو أن الأصل في الأشياء الإباحة وليس التحريم والمنع، خلافاً لبعض المعتزلة الذين قالوا: إن الأصل في الأشياء المنع والتحريم؛ وقالوا؛ لأن هذه الأشياء هي ملك لله ولا يجوز التصرف في ملك الغير إلا بإذنه، فلا بد من إذنٍ خاص في كل شيء أنه يحل لنا، والقول الأول هو قول أهل العلم المعتبر بهم والمحتجّ بقولهم فكأنه إجماع.

والآية أيضاً يحتجّ بها بعض أصحاب الأهواء في العصر الحديث الذين يتتبعون الرخص ويسهّلون على الناس في الفتوى، ويقولون: أنتم ضيّقتم على الناس، والله -عز وجل- يقول: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}، فما لم يدل دليل واضح وصريح على تحريمه فينبغي أن لا نمنع الناس منه، وهكذا استحلوا ألواناً من المعاملات المحرمة والحيل على الربا، وأشياء كثيرة احتجاجاً بمثل هذه الآيات.

وقوله: {خَلَقَ لَكُم مَّا} هنا الظاهر عموم النص، أي: كل ما في الأرض فهو خلقه لكم، أي من أجل الانتفاع به وإن خفي عليكم وجه ذلك، يعني هناك أشياء يحصل بها التعادل في هذا الكون، فتظهر فيها حكمة الله -عز وجل- في الخلق، وأشياء يعود نفعها إلى الإنسان ولو بوسائط، لكن نحن قد لا ندرك هذا.

ومن أمثلة ذلك أنه في بعض المناطق في أمريكا توجد أنواع من الوعول منتشرة بشكل كثير جداً، وكانت تتغذى على نوع من الزهور في تلك النواحي من الجبال، ويوجد نوع من السباع –النمور- يتغذى على هذه الوعول، فقام أهل تلك البلاد بقتل مجموعة كبيرة من هذه النمور، فالذي حصل أن هذه الوعول كثرت جداً فأكلت كل هذا النوع من النبات الذي تتغذى عليه عادةً، ولم تجد شيئاً تأكله فمات كثير منها حتف أنفه.

فهناك أشياء قد لا يدركها الإنسان فيتدخل فيها ولكنها تعود بالضرر بعد ذلك إما على حياته مباشرة أو بواسطة، أو يختلّ فيها شيء من النظام الذي أودعه الله -عز وجل- في هذا الكون، والأمثلة على هذا كثيرة جداً.

فقوله: {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} إن قلت لي مثلاً: هذه الوزغ ما الفائدة التي نكتسبها من ورائها؟

أقول لك: أما ترى أنها تأكل الحشرات، كالبعوض والذباب وما إلى ذلك.

كذلك الهرة تأكل الحشرات، وحتى لو لم تأكلها فإنها تقتلها كالفئران مثلاً، كل هذا مع أن الإنسان إذا نظر إليها يقول: ما الفائدة منها، فالمقصود أن هناك أشياء يستفيد منها الإنسان بواسطة، وأشياء يستفيد منها مباشرة، وهذا كثير جداً.

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [(٢٩) سورة البقرة] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسّر استوى بمعنى قصد -في هذا الموضع فقط- وهذا التفسير لم ينفرد به ابن كثير بل قال به غيره، ولكن المشهور عند عامة أهل العلم من أهل السنة خلاف ذلك في هذا الموضع وفي غيره، يقولون: استوى يأتي بمعنيين بمعنى علا وارتفع، وبعضهم يذكر أربعة معانٍ، المشهور منها علا وارتفع.

وهذا الموضع حينما فسّره ابن كثير بأنه (قصد)، غاية ما يقال فيه عند من خالفه من أهل السنة: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، وليس من قبيل الخطأ في العقيدة؛ لأن ابن كثير -رحمه الله- يثبت الاستواء على ما يليق بجلال الله وعظمته في المواضع الأخرى، وهذه قضية مهمة جداً، قد تفسر آية تتعلق بالعقيدة في ظنك أنت أو عند المشهور عند أهل السنة، ولكن قد يفسرها أحد من أهل العلم بغير ذلك، فلا يكون ذلك من قبيل الخطأ في الاعتقاد إذا كان يثبت الصفة بأدلة أخرى، مثال ذلك قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [(٤٢) سورة القلم]، فيها رواية مشهورة عن ابن عباس –رضي الله عنهما- أن المعنى عن كرب، فإذا قال قائل: الساق هنا ليست صفة لله -عز وجل- وإن المقصود بها الكرب، كما يقال: كشفت الحرب عن ساق يعني عن شدةٍ وكرب، وهو يثبت صفة الساق كما ورد في الحديث: ((فيكشف عن ساقه))[٧]، فهل هذا يكون خطأ في الاعتقاد أم خطأ في التفسير؟

هذا خطأ في التفسير فقط، لكن إذا جاء معها بالحديث وأولها فهذا خطأ في الاعتقاد؛ لأن الحديث ما يحتمل تأويلاً، فمن نفى صفة الساق أصلاً فعند ذلك يقال: قوله هذا خطأ في الاعتقاد، ولذلك تجد حتى في مثل قول الله -عز وجل-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [(٨٨) سورة القصص]، كلام شيخ الإسلام فيها أنه لا يعدها من الصفات، بينما ابن القيم يشتط في إثبات أنها من آيات الصفات، فغاية ما في الأمر أن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، فإذا قلنا: إنها من آيات الصفات فهو من الخطأ في التفسير فقط، وهكذا.

---

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد - باب: قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] (٧٠٠١) (ج ٦ /ص ٢٧٠٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣) (ج ١ / ص ١٦٧).

فهنا استوى بمعنى قصد، بعض أهل العلم مثل ابن القيم -رحمه الله- أو مثل شيخ الإسلام لا يفسر استوى بمعنى قصد أبداً، ويقول: هذا لا يعرف في اللغة أصلاً، ولا يوجد في كلام العرب.

فإذا قلنا بهذا فغاية ما في الأمر أن يقال: إن ابن كثير -رحمه الله- هنا فسرها بما لا يوافق عليه، ولكن لا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في الاعتقاد، فابن كثير يثبت صفة الاستواء، فطالب العلم ينبغي أن يفرّق في هذه المقامات ولا يستعجل في الحكم على الناس لا سيما أهل العلم.

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} قال: قصد، بينما الأحسن أن تفسر بمعنى علا وارتفع، وهكذا فسّرها جماعة من السلف، بمعنى علا وارتفع إلى السماء، وفسرها بذلك أيضاً إمام كبير من أئمة اللغة، وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله-.

وبالنسبة للآية: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [(٤٢) سورة القلم]، فهي تحتمل المعنيين، والأقرب أنها تفسر بالحديث.

"{فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٩) سورة البقرة]، أي: **وعلمه محيط بجميع ما خلق كما قال تعالى:** {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [(١٤) سورة الملك]."

في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [(٢٩) سورة البقرة]، قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} ثم جمع فقال: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} كيف ذكر واحدة ثم ذكر الجمع؟

الجواب بكل سهولة هو أن السماء اسم جنس يصدق على الواحد والكثير، ولهذا قال: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، وهذه كقوله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء} [(١٦) سورة الملك]، وإذا قلت: الله خلق السماء فالمقصود بها السماوات، والغالب أن السماوات تذكر مجموعة والأرض تذكر مفردة!، والأجوبة عن هذا متعددة ومعروفة، تجد جملةً منها في مثل كتاب الإتقان للسيوطي والبرهان للزركشي، وفي غيرها من الكتب، ومن أقربها أن الأرض جنس يصدق على الواحد والكثير فهي سبع من الأرضين.

"**وتفسير هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى:** {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(٩-١٢) سورة فصلت]."

قوله تعالى: {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [(٢٩) سورة البقرة] يعني بالضرورة أنه خلق الأرض وخلق ما فيها ثم استوى إلى السماء، فظاهر آية البقرة هذه أن خلق السماء كان بعد الفراغ من خلق الأرض وما فيها، أي بعد أن خلق الأرض في يومين كما دلّت عليه آية فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [(٩) سورة فصلت]، فخلق ذات الأرض كان في يومين، ثم قال: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} [(١٠) سورة فصلت]، يعني خلقها في يومين ودحاها في يومين، كما قال: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [(٣١) سورة النازعات].

فظاهر آية البقرة أنه فرغ من ذلك جميعاً ثم خلق السماء، وآية فصلت بعد أن ذكر هذا وهذا الذي تمَّ في أربعة أيام قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [(١١) سورة فصلت] أي: أن خلق السماء كان بعد ذلك جميعاً.

"ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السماوات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا، إن شاء الله.

فأما قوله تعالى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [(٢٧-٣٣) سورة النازعات]."

في آية البقرة خلْق السماء كان بعد خلق الأرض، وآية فصلت خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها أيضاً، وهذه الآية تفيد أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، لذلك ما قال: والأرض بعد ذلك خلقها، وإنما قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} أي: أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، ففي آية فصلت جاء بـ{ثُمَّ} فقال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}، وفي آية البقرة أيضاً قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}.

"فقد قيل: إن ثُمَّ هاهنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما."

هذا الكلام هو جواب عن هذا الإشكال، لكن هناك أجوبة أقوى من هذا، كما سيأتي.

"وقال مجاهد في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} [(٢٩) سورة البقرة]، قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ} [(١١) سورة فصلت]، {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [(٢٩) سورة البقرة] قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في آيات سورة السجدة الماضية، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء.

وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد حررنا ذلك في سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [(٣٠-٣٢) سورة النازعات].

ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما أكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم."

هذه الآيات مجتمعة: **{خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}** [(٢٩) سورة البقرة]، **{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا}** [(٩) سورة فصلت] إلى أن قال: **{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}** [(١٠-١١) سورة فصلت]، وفي الآية الأخرى: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}** [(٣٠-٣١) سورة النازعات]، بعض أهل العلم تخلص من هذا الإشكال فقال: إن ثمّ بمعنى الواو، وثمّ قد تأتي بمعنى الواو ولا تكون للترتيب، مع أن المعنى المتبادر من ثمّ هو الترتيب مع التراخي، فهم هنا تخلصوا من هذا الإشكال وقالوا: إن ثُمّ المقصود بها معنى الواو، فالله -عز وجل- يذكر أشياء مما خلق -سبحانه وتعالى- ولا يقصد به الترتيب، فيكون المعنى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، قالوا: وما دام لا ترتيب إذاً فلا إشكال عندنا بأن هذه بعد هذه في بعض الآيات وهذه بعد هذه بالعكس في بعض الآيات، فثمّ بمعنى الواو وانتهينا.

وبعضهم لحظ في ثمّ معنى الترتيب لكنه قال: ليس ذلك المراد به الترتيب الواقع في الخارج وإنما هو الترتيب في الأخبار فقط، أي ترتيب خبر على خبر، وليس هذا ترتيباً من قبيل الإخبار عن أشياء وقعت أولاً وثانياً وثالثاً في الخارج، فيكون قوله مثلاً: **{خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}** [(٢٩) سورة البقرة] ترتيب خبر على خبر وإن كان لا يلزم من ذلك أن يكون قبله أو بعده في الواقع، أي ليس المقصود أنه هكذا وقع أولاً هذا ثم هذا، وإنما هو فقط من باب ترتيب خبر على خبر، فتقول مثلاً: إن من ساد ثم ساد أبوه، ثم ساد بعد ذاك جده، فمن الذي ساد أولاً جده وأبوه أم هو؟

الذي ساد أولاً جده ثم أبوه ثم هو، فيقولون هنا ثم بمعنى الواو، أي: إن من ساد وساد أبوه وساد جده أو بمعنى ترتيب خبر على خبر، هو يخبر عن أن هذا حصّل السيادة وأن والده

وجده حصلا السيادة فقال: إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد بعد ذاك جده، هذا ترتيب أخبار، وليس ذلك معنياً به الترتيب في الخارج حيث وقوع الشيء.

فالخلاصة أن منهم من قال: إنها للترتيب لكن ترتيب خبر على خبر، ومنهم من قال: هي بمعنى الواو وليست للترتيب.

ويستدلون على أنها من باب ترتيب خبر على خبر بأمثلة من القرآن، منها قوله تعالى: {فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ} [(١١-١٣) سورة البلد] إلى أن قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [(١٧) سورة البلد]، فهل بعد أن يتصدق ويفك رقبة يكون بعد ذلك في الواقع مؤمناً؟ أي: هل الإيمان يعقب هذه الأشياء أم أن الإيمان يكون قبل هذه الأمور إذ لا يصح العمل إلا به؟

الأمر كذلك، فليس هذا من باب ترتيب الأمور كما تحصل في الواقع، وإنما هو من باب ترتيب خبر على خبر.

ومن أمثلة ترتيب خبر على خبر، أن تقول مثلاً: أكرمتُ زيداً ثم سافرت معه ثم جلستُ معه ثم قدمت له هدية، فقد تكون الهدية هذه هي أول شيء حصل في الواقع، والجلوس معه قد يكون أول شيء وقع ثم أكرمته، ثم سافرت معه، فأنت قد لا تقصد ذكر هذه الأشياء كما حصلت، وإنما رتبتها بثمّ تقصد ترتيب خبر على خبر أو تقصد بها معنى الواو.

هكذا أجاب بعض أهل العلم.

وأحسن ما يجاب به عن ذلك هو ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- هنا، وهو أن الله خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم بعد ذلك دحى الأرض في يومين، والمراد بالدحو كما فسره بعده: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [(٣١) سورة النازعات].

ووجه قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [(٢٩) سورة البقرة]، يجاب عنه بأحد الجوابين:

إما أن يقال: {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} أي: جعل ذلك بالقوة، بمعنى أنها صالحة لذلك بمنافعكم، ثم كان ذلك بالفعل، ولبيان معنى هذا القول نبين الفرق بين حصول الشيء بالقوة وحصوله بالفعل عن طريق ضرب هذه الأمثلة:

إذا كان بجواري أخ صامت لا يتكلم وهو ممن يقدر على الكلام، فأقول: هذا الأخ ناطق، فوصفه بأنه ناطق وهو في تلك اللحظة ساكت يعتبر وصفاً بأنه ناطق بالقوة أي بالقدرة وليس بالفعل، أما أنا حينما أتحدث فأكون ناطقاً بالفعل.

ومثل ذلك أيضاً أن أقول: صالحٌ كاتبٌ، مع أنه لا يكتب الآن، فهو كاتب بالقوة لا بالفعل، ومن يكتب الآن يقال له: كاتب بالفعل.

فالأرض حينما خلقها الله -عز وجل- جعلها مهيأة للانتفاع، ثم أخرج ذلك بعد خلق السماء بإخراج المياه الكامنة فيها والنبات ونحو ذلك، وهذا معناه أنه خلق لكم ما في الأرض جميعاً بالقوة، ثم كان ذلك بالفعل بعد خلق السماء، هذا هو خلاصة الجواب الأول.

الجواب الثاني: أن يقال: إن الخلق بمعنى التقدير، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} فهو خلق الأرض أولاً، وأما ما فيها من المنافع فكان ذلك بعد خلق السماء، فذلك قوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [(١٠) سورة فصلت]، فهذا هو التقدير.

فالخلق له ثلاثة معانٍ، فيأتي بمعنى الإيجاد، ويأتي بمعنى التقدير، ويأتي بمعنى التشكيل والتصوير.

فمثال الإيجاد من العدم قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [(٦٢) سورة الزمر]، ومثال التقدير قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [(٢٤) سورة الحشر]، فالخالق هنا من أحسن ما يفسر به: المقدِّر؛ لأنه قال بعده: {الْبَارِئُ} و البارئ هو الموجد من العدم، إذ معنى برأه: أوجده ابتداءً من العدم.

ومعنى {الْمُصَوِّرُ} أي هو الذي أعطاه شكله وصورته وهيئته التي اختارها له، فهذا هو المعنى الثاني.

والمعنى الثالث بمعنى التصوير: ومثال ذلك ما جاء في الحديث القدسي: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي))[8]، فقوله: ((يخلق كخلقي)) يقصد به التصوير، فتشكيل الأشياء وإعطاؤها هيئة هي خلق، كما قال تعالى: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي}، يعني تشكل الطين بصورة الطير، {فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [(١١٠) سورة المائدة].

فالمقصود أن قوله تعالى: {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} [(٢٩) سورة البقرة] بمعنى قدّر ذلك.

وعلى كل حال هذه الآية معروفة والكلام فيها كثير، لكن هذه خلاصة كلام أهل العلم فيها، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

[8] - أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد - باب: قول الله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون} (٧١٢٠) (ج ٦ / ص ٢٧٤٧) ومسلم في كتاب: اللباس والزينة - باب: تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتا فيه صورة ولا كلب (٢١١١) (ج ٣ / ص ١٦٧١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣١-٣٣) سورة البقرة].

"هذا مقامٌ ذكَر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} يقول الحافظ ا بن كثير -رحمه الله-: **هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة**، يعني بالعلم، وهذا العلم كما ذكر الحافظ ابن كثير -كما سيأتي إن شاء الله- ليس مختصاً بالعلوم الشرعية كالعلم بالله -عز وجل- وأسمائه وذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وشرعه، وإنما علَّمه أسماء كل شيء من هذه المسميات، فكان ذلك تشريفاً له، وبهذا يُعلم أن العلم النافع يشرف به بشرط أن لا يكون من العلوم الضارة كالسحر مثلاً، وإنما العلوم التي تنفع، فالإنسان يشرف بالعلوم النافعة.

ويدل على ذلك هذه الآيات وغير هذه الآيات أيضاً، فهذه الدواب والحيوانات تتفاضل بالعلم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [(٤) سورة المائدة] فهذه الكلاب هي لا شك من أحط درجات الحيوانات ومع ذلك إذا تعلمت فإنه يحل لنا ما صادت، بحيث إذا عدا الكلب على الصيد فصاده فإن كان معلماً حل ولو وجدناه ميتاً، وإن كان غير معلم فإنه لا يحل، فانظر كيف أثر هذا التعليم في مثل هذه القضية -حل الصيد وحرمته- والأدلة على شرف العلم كثيرة جداً، لكن الشاهد هنا أن هذا العلم هو علم بأسماء الأشياء، ومن هنا يقال: إن العلم النافع يشرف به الإنسان ولو كان من العلوم الدنيوية، ويتفاضل الناس في ذلك بحسب مرتبه العلم وشرفه، وبالتالي فإن العلوم متفاضلة ويتفاضل فيها الناس بهذا الاعتبار، فمن كان اشتغاله بعلوم الطب المتعلقة بالحيوان –مثلاً- لا يكون في الشرف والمرتبة كالمشتغل بالعلوم المتعلقة بطب الإنسان، وهذا أمر مشاهد عند الناس، الطبيب البيطري

ليس كالطبيب البشري، وهكذا ألوان الطب البشري، فالذي يتخصص في الأسنان أو في الجلدية -كما يقال- لا يكون كالذي يتخصص في القلب، إذ لا شك أن هذا أشرف من هذا، مع أن كلاهما يعالج الإنسان.

ثم إن من اشتغل بعلوم تتعلق بالله وأسمائه وصفاته لا شك أنه أشرف ممن يشتغل بعلوم دون ذلك، وهكذا فالعلم شريف، وهو يتفاضل ويتفاوت.

وقول الحافظ ابن كثير: "**بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم**"، كل شيء يعني من المسميات، فلا يختص ذلك بشيء دون شيء؛ لأنه لا يوجد دليل يقوم على هذا التخصيص، فالله -عز وجل- يقول: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة]، فأسماء جمع اسم ودخلت عليه (أل) وذلك يفيد العموم، ثم أكد ذلك العموم بما هو صريح في العموم بقوله: **{الأَسْمَاء كُلَّهَا}** أي: كل الأسماء، ومن هنا يقال: هذه الأسماء لا تختص بشيء دون شيء كقول من قال: إنها أسماء الملائكة، وقول من قال: إنها أسماء الملائكة وذرية آدم -صلى الله عليه وسلم- وإنما ذلك يشمل أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم وأسماء الأشياء الأخرى، فهذا قلم، وهذا كتاب، وهذا ثوب، وهذا إناء، وهذا كأس، وهذه دابة جمل، وهذا فرس وهكذا، فهو علمه الأسماء كلها، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، ولا يصح تخصيص ذلك بشيء دون شيء إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا على غير عادته- خص ذلك بأسماء الملائكة وأسماء الذرية فقط، ولا شك أن أقوال السلف مختلفة في هذا كثيراً، ولكن ظاهر القرآن يدل دلالة واضحة على العموم، وأما التخصيص فيحتاج إلى دليل، ولا يوجد حديث مرفوع ثابت صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخصص ذلك، وإنما وجدت آثار عن ابن عباس وغيره وطائفة من هذه الآثار تدل دلاله واضحة صريحة على العموم للأسماء جميعاً المصغر منها والمكبر وأوصاف الأشياء مثل: هذا حسن، وهذا سيئ، وهذا طويل، وهذا قصير..الخ، وعلى كل حال فإن ظاهر اللفظ أنه علمه جميع الأسماء.

يقول ابن كثير: **وهذا كان بعد سجودهم له**، لاحظ الترتيب فيما ذكره الله -عز وجل- في إخباره أولاً الملائكة بأنه سيخلق بشراً، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة] ثم ذكر تعليمه الأسماء، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود، فهذا هو ترتيب الآيات، فإذا سرنا على هذا الترتيب سيقال: إن تعليمه الأسماء كان قبل الأمر بالسجود، أي: علمهم شرفه بعد أن أخبرهم بخلقه وقالوا ما قالوا، فبين لهم شرفه جواباً على استشكالهم وسؤالهم عن الحكمة، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود له، أي: بعد ما تبين لهم مكانه ومنزلته، وأن الله كرمه عليهم ورفعه.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى غير هذا، فيقول: إن تعليمه وإخبارهم عن خلقه كان أولاً ثم أمرهم بالسجود له بعد ذلك، ثم بين بعد ذلك شرفه ومكانته، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة]، ثم ذكر بعد ذلك ما ذكر من سؤالهم وتوصيفها، ثم قال: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}** [(٧٣) سورة البقرة].

لا شك أن قتلهم للنفس كان هو السبب لأمر موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يذبحوا بقرة، وهذا لا شك أنه هو السبب، ولا يمكن أن يقال غير هذا، وهذا ما يسمونه بالمؤخر الذي حقه التقديم، وإن نظرت إلى قوله:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى} فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكن الله -عز وجل- يبتدئ بالشيء لمعنىً؛ إما لأنه هو المقصود أو الأهم أو غير ذلك.

وعلى كل حال لا يوجد في ظاهر الآيات ما يدل على أن ذلك كان أولاً، يعني أنه أمرهم بالسجود أولاً ثم علمه الأسماء، لا يوجد ما يدل على هذا، والأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهره، فلا يدَّعى فيه تقديم وتأخير إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فهذا هو الأصل جرياً مع الظاهر والعلم عند الله -عز وجل-.

وعلى كل حال هذا مقصود ابن كثير بقوله: **وإنما قدم هذا الفصل على ذلك**، والفصل هو قوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] قدمه على قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]، يعني أن الترتيب الذي يرى ابن كثير أنه الترتيب الواقعي هو: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، ثم {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]، ثم {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة].

يقول تعالى في الآية الأخرى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] الفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، وهذا يمكن أن يستفاد منه، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، فمثلاً الله -عز وجل- يقول: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [(١٧) سورة الرعد]، هل بمجرد نزول المطر تسيل الأودية أم أن ذلك يحتاج إلى وقت حتى يجتمع الماء.

كذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [(٦٣) سورة الحـــج]، لا تكون الأرض مخضرة بمجرد نزول الماء عليها بل لا بدَّ أنها تحتاج إلى فترة لتصبح مخضرة.

لذلك قال من قال من المفسرين: إن المقصود بها جبال مكة؛ لأنها تشتمل على عنصر النحاس فإذا نزل عليها المطر صارت تميل إلى الخضرة، وهذا غير صحيح إطلاقا، وإنما الصحيح أن قوله: {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} يعني بالنبات، وهذا لا شك أنه يحتاج إلى وقت.

وكذلك في قول تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [(١٤) سورة المؤمنون]، فهذا كله يحتاج إلى أربعين يوما بين مرحلة ومرحلة، ومن هنا يتبين أن تعقيب كل شيء بحسبه، وإن كان قد يستدل بهذه الآية {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر]، على هذا المعنى، الذي هو التعقيب المباشر، والعلم عند الله تعالى.

"وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفسية."

يقصد ابن عباس أنه تعالى ما ترك شيئاً من الأشياء الصغيرة والكبيرة إلا علمه، والله تعالى أعلم.

"والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حتى الفسوة والفسيه يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر."

قوله: **والأفعال المكبر والمصغر**، هذا باعتبار أن هذا فعل من الأفعال، لكن الواقع أنه اسم، فالله يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء}، فكل ما يصدق عليه اسم فهو داخل في هذا، ولكن من تأمل ونظر فإن ما يطلق على الأفعال

يمكن أن يدخل في حيز الأسماء، فالمشي يمكن أن تقول: إنه صفة، ويمكن أن تقول: إنه فعل، ويمكن أن تقول: إنه اسم لهذه الحركة المعروفة التي ينتقل الإنسان بها، والأمر في هذا سهل.

"وروى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال، وقال لي خليفة: حدثني يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى عليه وسلم- قال: ((يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم..)).

الشاهد من الحديث قوله: **((وعلمك أسماء كل شيء)).**

((فيقول: لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي فيقول: ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيقول: ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيقول: لست هناكم، فيذكر قتل النفس بغير النفس فيستحي من ربه فيقول: ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه فيقول: لست هناكم ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيأذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود))[1].

وقد روى هذا الحديث مسلم والنسائي وابن ماجه، ووجه إيراده ها هنا والمقصود منه قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)) فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ} [(٣١) سورة البقرة] يعني المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال: {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣١) سورة البقرة]، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء} [(٣٠) سورة البقرة] من غيرنا أم منَّا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [(٢٣) سورة البقرة] في قيلكم: إني إنْ جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين."

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: صفة الجنة والنار (٦١٩٧) (ج ٥ / ص ٢٤٠١) ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠).

ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣١) سورة البقرة] هو أحسن ما قيل في تفسيره، ولا حاجة لكثير من التكلفات والمحامل البعيدة التي ذكرها بعض المفسرين هنا.

وقوله تعالى: {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} هو على ظاهره، أي: إن كنتم صادقين في ما قلتم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [(٣٠) سورة البقرة].

والمراد من قوله: **من غيرنا أم منا**، يعني أنهم قالوا: الخليفة هل سيكون من غيرنا أم منا، فنحن الذين نسبح بحمدك ونقدس لك؟

وهذا المقام يتكلم فيه المفسرون عادة عن مسألة لا طائل تحتها وهي التفضيل بين الملائكة وبين صالح البشر، ومن هو أفضل الأنبياء أم الملائكة، ويطيلون ويتكلمون، وكلٌ يذكر ما يظنه أدلة على قوله، وبعضهم أفرد لذلك رسالة خاصة، ويذكرون هذا أيضاً في كتب العقيدة، والحقيقة أن هذه المسألة لا يترتب عليها عمل، ولم نكلف بها ولن يسألنا الله -عز وجل- عنها وبالتالي فإن الاشتغال بها لا طائل تحته، وإنما المقصود من العلم، هو أن يتعلم الإنسان ما ينفعه ويقربه إلى الله -عز وجل- وينبني عليه عمل أو اعتقاد صحيح، فلا يتشاغل المرء في مثل هذه الأمور وإن تكلم عليها من تكلم من المفسرين -رحمهم الله-.

"{قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٣٢) سورة البقرة]، **هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: {سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}، أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام.**"

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣١-٣٣) سورة البقرة].

"هذا مقامٌ ذكَر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} يقول الحافظ ا بن كثير -رحمه الله-: **هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة**، يعني بالعلم، وهذا العلم كما ذكر الحافظ ابن كثير -كما سيأتي إن شاء الله- ليس مختصاً بالعلوم الشرعية كالعلم بالله -عز وجل- وأسمائه وذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وشرعه، وإنما علّمه أسماء كل شيء من هذه المسميات، فكان ذلك تشريفاً له، وبهذا يُعلم أن العلم النافع يشرف به بشرط أن لا يكون من العلوم الضارة كالسحر مثلاً، وإنما العلوم التي تنفع، فالإنسان يشرف بالعلوم النافعة.

ويدل على ذلك هذه الآيات وغير هذه الآيات أيضاً، فهذه الدواب والحيوانات تتفاضل بالعلم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [(٤) سورة المائدة] فهذه الكلاب هي لا شك من أحط درجات الحيوانات ومع ذلك إذا تعلمت فإنه يحل لنا ما صادت، بحيث إذا عدا الكلب على الصيد فصاده فإن كان معلماً حل ولو وجدناه ميتاً، وإن كان غير معلم فإنه لا يحل، فانظر كيف أثر هذا التعليم في مثل هذه القضية -حل الصيد وحرمته- والأدلة على شرف العلم كثيرة جداً، لكن الشاهد هنا أن هذا العلم هو علم بأسماء الأشياء، ومن هنا يقال: إن العلم النافع يشرف به الإنسان ولو كان من العلوم الدنيوية، ويتفاضل الناس في ذلك بحسب مرتبه العلم وشرفه، وبالتالي فإن العلوم متفاضلة ويتفاضل فيها الناس بهذا الاعتبار، فمن كان اشتغاله بعلوم الطب المتعلقة بالحيوان -مثلاً- لا يكون في الشرف والمرتبة كالمشتغل بالعلوم المتعلقة بطب الإنسان، وهذا أمر مشاهد عند الناس، الطبيب البيطري

ليس كالطبيب البشري، وهكذا ألوان الطب البشري، فالذي يتخصص في الأسنان أو في الجلدية -كما يقال- لا يكون كالذي يتخصص في القلب، إذ لا شك أن هذا أشرف من هذا، مع أن كلاهما يعالج الإنسان.

ثم إن من اشتغل بعلوم تتعلق بالله وأسمائه وصفاته لا شك أنه أشرف ممن يشتغل بعلوم دون ذلك، وهكذا فالعلم شريف، وهو يتفاضل ويتفاوت.

وقول الحافظ ابن كثير: "**بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم**"، كل شيء يعني من المسميات، فلا يختص ذلك بشيء دون شيء؛ لأنه لا يوجد دليل يقوم على هذا التخصيص، فالله -عز وجل- يقول: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة]، فأسماء جمع اسم ودخلت عليه (أل) وذلك يفيد العموم، ثم أكد ذلك العموم بما هو صريح في العموم بقوله: **{الأَسْمَاء كُلَّهَا}** أي: كل الأسماء، ومن هنا يقال: هذه الأسماء لا تختص بشيء دون شيء كقول من قال: إنها أسماء الملائكة، وقول من قال: إنها أسماء الملائكة وذرية آدم -صلى الله عليه وسلم- وإنما ذلك يشمل أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم وأسماء الأشياء الأخرى، فهذا قلم، وهذا كتاب، وهذا ثوب، وهذا إناء، وهذا كأس، وهذه دابة جمل، وهذا فرس وهكذا، فهو علمه الأسماء كلها، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، ولا يصح تخصيص ذلك بشيء دون شيء إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا على غير عادته- خص ذلك بأسماء الملائكة وأسماء الذرية فقط، ولا شك أن أقوال السلف مختلفة في هذا كثيراً، ولكن ظاهر القرآن يدل دلالة واضحة على العموم، وأما التخصيص فيحتاج إلى دليل، ولا يوجد حديث مرفوع ثابت صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخصص ذلك، وإنما وجدت آثار عن ابن عباس وغيره وطائفة من هذه الآثار تدل دلاله واضحة صريحة على العموم للأسماء جميعاً المصغر منها والمكبر وأوصاف الأشياء مثل: هذا حسن، وهذا سيئ، وهذا طويل، وهذا قصير..الخ، وعلى كل حال فإن ظاهر اللفظ أنه علمه جميع الأسماء.

يقول ابن كثير: **وهذا كان بعد سجودهم له**، لاحظ الترتيب فيما ذكره الله -عز وجل- في إخباره أولاً الملائكة بأنه سيخلق بشراً، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة] ثم ذكر تعليمه الأسماء، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود، فهذا هو ترتيب الآيات، فإذا سرنا على هذا الترتيب سيقال: إن تعليمه الأسماء كان قبل الأمر بالسجود، أي: علمهم شرفه بعد أن أخبرهم بخلقه وقالوا ما قالوا، فبين لهم شرفه جواباً على استشكالهم وسؤالهم عن الحكمة، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود له، أي: بعد ما تبين لهم مكانه ومنزلته، وأن الله كرمه عليهم ورفعه.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى غير هذا، فيقول: إن تعليمه وإخبارهم عن خلقه كان أولاً ثم أمرهم بالسجود له بعد ذلك، ثم بين بعد ذلك شرفه ومكانته، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة]، ثم ذكر بعد ذلك ما ذكر من سؤالهم وتوصيفها، ثم قال: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}** [(٧٣) سورة البقرة].

لا شك أن قتلهم للنفس كان هو السبب لأمر موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يذبحوا بقرة، وهذا لا شك أنه هو السبب، ولا يمكن أن يقال غير هذا، وهذا ما يسمونه بالمؤخر الذي حقه التقديم، وإن نظرت إلى قوله:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى} فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكن الله -عز وجل- يبتدئ بالشيء لمعنىً؛ إما لأنه هو المقصود أو الأهم أو غير ذلك.

وعلى كل حال لا يوجد في ظاهر الآيات ما يدل على أن ذلك كان أولاً، يعني أنه أمرهم بالسجود أولاً ثم علمه الأسماء، لا يوجد ما يدل على هذا، والأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهره، فلا يدَّعى فيه تقديم وتأخير إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فهذا هو الأصل جرياً مع الظاهر والعلم عند الله -عز وجل-.

وعلى كل حال هذا مقصود ابن كثير بقوله: **وإنما قدم هذا الفصل على ذلك**، والفصل هو قوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] قدمه على قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]، يعني أن الترتيب الذي يرى ابن كثير أنه الترتيب الواقعي هو: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، ثم {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]، ثم {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة].

يقول تعالى في الآية الأخرى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] الفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، وهذا يمكن أن يستفاد منه، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، فمثلاً الله -عز وجل- يقول: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [(١٧) سورة الرعد]، هل بمجرد نزول المطر تسيل الأودية أم أن ذلك يحتاج إلى وقت حتى يجتمع الماء.

كذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [(٦٣) سورة الحـــج]، لا تكون الأرض مخضرة بمجرد نزول الماء عليها بل لا بدَّ أنها تحتاج إلى فترة لتصبح مخضرة.

لذلك قال من قال من المفسرين: إن المقصود بها جبال مكة؛ لأنها تشتمل على عنصر النحاس فإذا نزل عليها المطر صارت تميل إلى الخضرة، وهذا غير صحيح إطلاقا، وإنما الصحيح أن قوله: {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} يعني بالنبات، وهذا لا شك أنه يحتاج إلى وقت.

وكذلك في قول تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [(١٤) سورة المؤمنون]، فهذا كله يحتاج إلى أربعين يوما بين مرحلة ومرحلة، ومن هنا يتبين أن تعقيب كل شيء بحسبه، وإن كان قد يستدل بهذه الآية {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر]، على هذا المعنى، الذي هو التعقيب المباشر، والعلم عند الله تعالى.

"وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفسية."

يقصد ابن عباس أنه تعالى ما ترك شيئاً من الأشياء الصغيرة والكبيرة إلا علمه، والله تعالى أعلم.

"والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حتى الفسوة والفسيه يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر."

قوله: **والأفعال المكبر والمصغر**، هذا باعتبار أن هذا فعل من الأفعال، لكن الواقع أنه اسم، فالله يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء}، فكل ما يصدق عليه اسم فهو داخل في هذا، ولكن من تأمل ونظر فإن ما يطلق على الأفعال

يمكن أن يدخل في حيز الأسماء، فالمشي يمكن أن تقول: إنه صفة، ويمكن أن تقول: إنه فعل، ويمكن أن تقول: إنه اسم لهذه الحركة المعروفة التي ينتقل الإنسان بها، والأمر في هذا سهل.

"وروى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال، وقال لي خليفة: حدثني يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى عليه وسلم- قال: ((يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم..)).

الشاهد من الحديث قوله: **((وعلمك أسماء كل شيء)).**

((فيقول: لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي فيقول: ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيقول: ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيقول: لست هناكم، فيذكر قتل النفس بغير النفس فيستحي من ربه فيقول: ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه فيقول: لست هناكم ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيأذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود))[1].

وقد روى هذا الحديث مسلم والنسائي وابن ماجه، ووجه إيراده ها هنا والمقصود منه قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)) فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ} [(٣١) سورة البقرة] يعني المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال: {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣١) سورة البقرة]، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء} [(٣٠) سورة البقرة] من غيرنا أم منّا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [(٢٣) سورة البقرة] في قيلكم: إني إنْ جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين."

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: صفة الجنة والنار (٦١٩٧) (ج ٥ / ص ٢٤٠١) ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠).

ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: **{أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٣١) سورة البقرة] هو أحسن ما قيل في تفسيره، ولا حاجة لكثير من التكلفات والمحامل البعيدة التي ذكرها بعض المفسرين هنا.

وقوله تعالى: **{إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** هو على ظاهره، أي: إن كنتم صادقين في ما قلتم: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}** [(٣٠) سورة البقرة].

والمراد من قوله: **من غيرنا أم منا**، يعني أنهم قالوا: الخليفة هل سيكون من غيرنا أم منا، فنحن الذين نسبح بحمدك ونقدس لك؟

وهذا المقام يتكلم فيه المفسرون عادة عن مسألة لا طائل تحتها وهي التفضيل بين الملائكة وبين صالح البشر، ومن هو أفضل الأنبياء أم الملائكة، ويطيلون ويتكلمون، وكلٌ يذكر ما يظنه أدلة على قوله، وبعضهم أفرد لذلك رسالة خاصة، ويذكرون هذا أيضاً في كتب العقيدة، والحقيقة أن هذه المسألة لا يترتب عليها عمل، ولم نكلف بها ولن يسألنا الله -عز وجل- عنها وبالتالي فإن الاشتغال بها لا طائل تحته، وإنما المقصود من العلم، هو أن يتعلم الإنسان ما ينفعه ويقربه إلى الله -عز وجل- وينبني عليه عمل أو اعتقاد صحيح، فلا يتشاغل المرء في مثل هذه الأمور وإن تكلم عليها من تكلم من المفسرين -رحمهم الله-.

"{قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٣٢) سورة البقرة]**، هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: {سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}، أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام."**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي ما يتعلق بمسألة تعليم الله -عز وجل- لآدم -صلى الله عليه وسلم- الأسماء كلها، هل كان ذلك بعد سجود الملائكة أو كان قبله حينما خلقه الله -عز وجل- فقد نظرت في جملة من كتب التفسير فرأيت كثيراً منها لا ينوه بالقضية ولا يقف عندها، ويفسر كأنه يرى أن الأمر على هذا الترتيب، خلق آدم، وعلمه الأسماء وأخبر الملائكة أنه سيجعله خليفة، ثم أمرهم بالسجود بعد ذلك، فهم لا يصرحون بهذا، ولكن يفسرونه على هذا الترتيب، مما يشعر بأنهم لا يرون أن المسألة فيها تقديم وتأخير، وبعضهم صرح برأيه في ذلك ولم أتتبع كل التفاسير، ولكن هذه جمله منها.

هذا مثلاً تفسير القاسمي يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]: "لما أنبأهم بأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له على وجه التحية والتكرمة، تعظيماً له واعترافاً بفضله واعتذاراً عما قالوا فيه"، فهذا الكلام صريح في أن الأمر بالسجود كان بعد أن علمه الأسماء، فيكون على نفس الترتيب الوارد في القرآن.

وهذا تفسير الخازن -وهو عبارة عن اختصار للبغوي مع بعض الزيادات- يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] يقول: ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها وذلك أن الملائكة قالوا...الخ، والبغوي يقول: فلما خلقه الله -عز وجل- علمه أسماء الأشياء وذلك أن الملائكة لما قالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا}...الخ.

فالخازن زاد عبارة أصرح من عبارة البغوي حيث قال: لما خلق الله آدم وتم خلقه علمه الأشياء..

فهو زاد هذه الزيادة قصداً؛ لأن هناك من يقول في قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا} [(٢٨) سورة الحجر]: إنه قبل أن يخلقه أخبرهم بخلقة، وقالوا: إن معنى علمه أسماء الأشياء أي: جعل فيه القوة التي تمكنه من معرفة هذه الأشياء حينما أراد خلقه، وهذا القول كله بناءً على عقائد فاسدة عندهم فهو يشير هنا إلى رد هذا القول.

وفي التفسير الكبير يقول: الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقه آدم -عليه السلام - بدليل قوله: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [(٧١-٧٢) سورة ص].

يقول: وظاهر هذه الآية يدل على أنه -عليه السلام- لما صار حياً صار مسجود الملائكة؛ لأن الفاء في قوله: {فَقَعُواْ} [(٢٩) سورة الحجر] للتعقيب، وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة في ذلك حصل بعد أن صار مسجود الملائكة، وهذا بناء على قوله: {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] أي: مباشرة بمجرد نفخ الروح، فالفاء هذه للتعقيب المباشر، وعلى كل حال له عبارات وكلام طويل، لكن هذه الخلاصة.

وهذه جمل مما جاء في تفسير أبي السعود، حيث يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالي –يعني قوله: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} تحقيقاً لمضمونه وتفسيراً لإبهامه، وهو عطف على قال -يعني {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مرَّ من المقاولة –أي: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ}، {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا} {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ}- المحكية، إنما جرت بعد خلقه -عليه السلام- بمحضر منه -من آدم بعد نفخ الروح- وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله -عليه السلام- بأن قيل إثر نفخ الروح فيه: إني جاعل إياه خليفة، فقيل ما قيل كما أشير إليه، وإيراده -عليه السلام- باسمه... الخ.

وفي موضع آخر يذكر الأقوال والاحتمالات ويحاول أن يجمع بين الأقوال فيقول: فالذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الأنيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عن ما فيه من السر المخزون، أن سجودهم له -عليه السلام- إنما ترتب على الأمر التنجيزي المتفرع على ظهور فضله -عليه السلام- المبني على المحاورة المسبوقة.

هو هنا أراد أن يحل الإشكال الوارد في ترتيب هذه الأمور، يعنى أن الفاء للتتعقيب المباشر، و {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}..الخ، كل ذلك كان بعد أن خلق آدم، فكيف الترتيب بين هذه الأمور أو كيف يكون ذلك التحاور بهذه الصيغة بعد أن خلقه؟

يقول جواباً عن هذا: إن الأمر التنجيزي المتفرع عن بيان فضل آدم -صلى الله عليه وسلم- بمعنى أنه أمرهم بالسجود ويتفرع عن هذا الأمر بيان منزلة آدم –صلى الله عليه وسلم- وفضله، بأن علمه الأسماء كلها.

وله عبارات أخرى يقول في بعضها: والذي يحسم مادة الاشتباه أن ما في سورة ص من قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ} [(٧١) سورة ص] الخ بدلٌ من قوله تعالى: {إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٦٩) سورة ص] فيما قبله من قوله تعالى: {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ} [(٦٩) سورة ص]... الخ.

وهذا أنوار التنزيل للبيضاوي يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة] لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافاً بفضله وأداءً لحقه واعتذارا عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوى خلقه؛ لقوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله.

وهذا التحرير والتنوير لابن عاشور يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} عطف على جملة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، يقول: عطْفُ القصة على القصة، وإعادة إذ بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرف تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها؛ لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام.

يقول: فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيته عليهم؛ إذ علم ما لم يعلموه وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكر هذه القصص بعضها بعد بعض ابتداء من خلق السماوات والأرض وما طرأ بعده من أطوار أصول العامرين الأرض وما بينها وبين السماء...الخ.

فهو يقول: إن هذا الترتيب مقصود وإن الأمر بالسجود بعد ما بان لهم فضل آدم -عليه الصلاة والسلام-.

ثم تكلم على قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٨-٢٩) سورة الحجر]، يقول: لأن تلك حكت القصة بإجمال فطوت أنباءها طياً جاء تبيينه في ما تكرر منها في آيات أخرى وأوضحها آية البقرة لاقتضاء الآية السابقة أن فضيلة آدم لم تظهر للملائكة إلا بعد تعليمه الأسماء وعرضها عليهم وعجزهم عن الإنباء بها وأنهم كانوا قبل ذلك مترقبين بيان ما يكشف ظنهم بآدم...الخ، وهذا كلام واضح وصريح في أن السجود كان بعد تعليم آدم.

وعلى كل حال فالإشكال عندهم في قوله تعالى: {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] مع قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ} [(٣٤) سورة البقرة]، فالله أخبرهم عن خلقه أولاً أنه سيخلقه وأنه إذا سواه ونفخ فيه من روحه فعليهم أن يسجدوا له.

وقلنا: إن الفاء تدل على التعقيب المباشر، ولكن ذلك ليس على إطلاقه بل كل شيء بحسبه، كما مثلنا بقوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [(١٧) سورة الرعد]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [(٦٣) سورة الحـج]، وكقوله: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [(١٤) سورة المؤمنون] ومعلوم أن هذا يحتاج إلى وقت، فهي في كل شيء بحسبه، والأمثلة على هذا كثيرة جداً، والمسألة تحتمل، لكن الأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهره، ولا يدعى فيه تقديم وتأخير من غير دليل يجب الرجوع إليه.

ابن القيم -رحمه الله- استخرج من قصه آدم -عليه الصلاة والسلام- أكثر من أربعين فائدة، وغيره يتكلمون عن مسائل في اللغة وهل اللغات توقيفية أو لا، مع أن المسألة لا يترتب عليها عمل أصلاً، وليست مما يحتاج إليه وليس لها أثر، ومثل ذلك ما الذي علمه من الأسماء؟، وكذا الاشتقاق والقياس على اللغات، وكذلك لما أمرهم أن يخبروه عن أسماء هذه الأشياء هل هم لا يعرفونها، وهل يمكن التكليف بما لا يطاق أو لا؟، وهي مسألة أصولية جدلية جاء بها المتكلمون، فلهم مرتع عند تفسير هذه الآيات.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]، "قال زيد ابن أسلم: قال: أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب."

{قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} [(٣٣) سورة البقرة] {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ} [(٣١) سورة البقرة] تأمل في العبارات، {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} هذا للعموم صريح من جهة الأسماء، وذلك لدخول (أل) وكذلك للتأكيد بـــ(كل).

قوله: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ}، عرضهم هذه تستعمل للعقلاء، وأما لغير العقلاء فيقال: عرضها.

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} فهو عرض الأسماء أم المسميات؟ الظاهر أنه عرض المسميات، وبعضهم يقول: عرض الأسماء والمسميات، وبعضهم يقول: عرض الأسماء، لكن يبعد أن يكون عرض الأسماء؛ لأنه قال: {عَرَضَهُمْ} وهذا للعقلاء، فكيف عبر بما يصلح للعقلاء مع أن القصعة والكأس والغراب مثلاً ليست من العقلاء؟

أنت إذا كان لديك سيارات عرضت للبيع مثلاً فإنك تقول: زيد عرضها للبيع، ولا تقول: عرضهم للبيع، كذلك البيوت، تقول: عرضها للبيع ولا تقول: عرضهم للبيع؛ لأن عرضهم من الصيغ التي تستعمل للعقلاء.

وهذا هو الذي ألجأ كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ومن قال بقوله: إن المقصود الملائكة وذرية آدم؛ لأن لفضة عرضهم استعمل معها الضمير الذي يصلح للعقلاء وهو (الهاء ثم الميم)، لذلك قالوا الذي يوصف بأنه يعقل أو يعلم هم الملائكة والبشر فهي أسماء الملائكة وأسماء البشر.

العلماء في التعبير عن الملائكة بلفظة يعقل والعقلاء عندهم تحرز من هذا؛ لأنه لم يرد هذا، ولذلك تجدهم يقولون: إن (ما) لغير العالم، و(من) للعالم، ويقولون ذلك على أساس أنه يدخل فيه الملائكة، فهم موصوفون بالعلم وأما البشر فهم موصوفون بالعلم وبالعقل، فيقولون: (ما) لغير العالم و(من) للعالم.

ابن جرير يقول عن لفظة {عَرَضَهُمْ}: هذا الأسلوب استعمل مع من يوصفون بالعلم ولا يوصف به الغراب والبعير والقصعة وما إلى ذلك، والجواب عن هذا واضح جداً، ولا يخفى على كبير المفسرين، وقد أشار إليه وردّه، وهو أن ذلك التعبير يستعمل كثيراً بما يصلح للعقلاء من الضمائر والصيغ لسبب، وهو إما لاشتراك العقلاء معهم فيكون راعى الأشرف، أو راعى الأكثر أحياناً لأن العقلاء أكثر مثلاً في بعض الاستعمالات أو أنه أراد أمراً أخر كأن يكون نزل غير العقلاء منزلة العقلاء، مثل: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [(٤) سورة يوسف] الأصل أن يقول: رأيتها لي ساجدة، لكنه قال: {رَأَيْتُهُمْ} وقال: {سَاجِدِينَ}؛ لماذا؟ لأنها فعلت فعلا من أفعال العقلاء وهو السجود فنزلها منزلة العقلاء.

وقال تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [(١٩٥) سورة الأعراف] أي: الأصنام، فالأصل أن يقال: ألها أرجل تمشي بها، لكن لماذا قال: {أَلَهُمْ} و{يَمْشُونَ}...الخ؛ لأنهم جعلوها آلهة، وليس فقط عقلاء بل آلهة تدبر أمر العالم، فلذلك جرى الخطاب بحسب اعتقادهم، وهذا كثير في القرآن.

إذن: قوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ} [(٣١) سورة البقرة] من باب التغليب، أو من باب مراعاة الأشرف وهم الملائكة والبشر.

{فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء} [(٣١) سورة البقرة] يعني عرض المسميات فسألهم عنها {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣١) سورة البقرة].

"وقال مجاهد في قول الله: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} قال: اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء، وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر آدم -عليه السلام- على الملائكة -عليهم السلام- في سرده ما علَّمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله تعالى للملائكة: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]: أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [(٧) سورة طــه]، وكما قال إخباراً عن الهدد أنه قال لسليمان -عليه السلام-: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [(٢٥-٢٦) سورة النمل].

وقيل في قوله تعالى: {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس، {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، فكان الذي أبدوه قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء} [(٣٠) سورة البقرة] وكان الذي كتموه بينهم هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم."

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا} [(٣١-٣٢) سورة البقرة]، أي: ننزهك، {لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}: فوضوا الأمر إلى الله -عز وجل-.

{قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ} [(٣٣) سورة البقرة] يعني بأسماء المسميات، {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة].

{وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ} أي: كل ما تظهرون وفي أي شأن، ومن ذلك: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [(٣٠) سورة البقرة]، فهذا مما أظهروه، والآية عامة.

{وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} أي: كل ما كتموه، وكل ما تنطوي عليه النفوس ويتلجلج فيها فإن الله يعلمه، فقد يكون مما كتموا أنهم استشعروا أنهم أفضل من آدم، وأن هذا المخلوق لن يكون أفضل منهم، أو غير ذلك مما يقع في النفوس، فالله يعلم ذلك جميعاً ولا حاجة للتنحل والتكلف في تحديد هذا الذي كتموه فإن الله قد عم علمه - سبحانه وتعالى- المظهر والمكتوم.

وأما قول من قال: إن المقصود بـــ{مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} هو ما كان ينطوي عليه إبليس من الكبر الذي ظهر بعد أن أُمر بالسجود لآدم، فإن النفوس قد تكون منطوية على أشياء لا تظهر، ولكنها تظهر في بعض المقامات التي تُبرز خبايا النفس؛ لأنها منطوية على الكبر أو العجلة أو الحسد أو غير ذلك، ففي بعض المقامات تتبين عجلة الإنسان أو صبره، أو يتبين حسده أو تتبين غيرته أو تتبين أمور أخرى.

المقصود أن بعضهم قال: إن هذا المكتوم إنما هو ما كان ينطوي عليه إبليس، وهذا إن كان بناء على قول الذين قالوا: إن إبليس من الملائكة فهو واضح، حيث قالوا: إن إبليس من الملائكة وكان ينطوي على كبر، وما ظهر هذا إلا بعد الأمر بالسجود لآدم.

لكن قيل لهم: أين أنتم من قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(٧٦) سورة ص]، والملائكة خلقوا من نور؟

قالوا: لا يلزم أن يكون كل الملائكة خلقوا من نور؛ إذ لا دليل على أن كل الملائكة خلقوا من نور، فيمكن أن يكون بعضهم خلقوا من نار؟

وهكذا لو أردنا الجدال في كل حرف ماذا يقال فيه، وكيف يرد عليه، وكيف يرد على الرد، فلن ينتهي المقام، فالجدل بحر لا ساحل له، ولكن فوّت بعضَ الأمور.

وإلا فقد قيل: بعض الملائكة خلقوا من نار، فقيل لهم: من مارج من نار صفته الخفة والطيش؟ قالوا: لا مانع أن يكون بعض الملائكة خلقوا من مارج من نار، قيل: والكبر والامتناع من السجود ماذا تقولون عنه والله يقول: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [(٦) سورة التحريم]، فهم ملائكة معصومون، قيل: ومن قال لك أنهم معصومون، فالملائكة مركبة فيهم الشهوات، لكن الأصل فيهم الطاعة والمعصية شذوذ، ومثال ذلك هاروت وماروت، فهم كانوا ملائكة، ومع ذلك عصوا الله وفعلوا ما فعلوا، وإبليس كان ملكاً وأبى من السجود وكان مستكبراً وكان فيه كل هذه الأخلاق السيئة، فهو مخلوق من مارج من نار، وأمر بالسجود وعصى الله –جل وعلا- وامتنع، فالملائكة الأصل فيهم الطاعة وتقع منهم المعصية، بخلاف الآدميين فالغالب فيهم العصيان وغلبة الشهوات، والطاعة تحتاج إلى تكلف منهم عكس الملائكة.

قيل لهم: إبليس يقول عنه الله: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [(٥٠) سورة الكهف]، فهذه صريحة أنه كان من الجن.

قالوا الجواب عن هذا بعدة أجوبة، منها أن الجن هو كل ما اجتن وخفي مما لا يظهر، أي من الاجتنان، يقال له: جن، فالملائكة لا يظهرون.

ومنها: أن المقصود أنه كان في قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وهذا معنى قول المشركين كما حكى الله عنهم، {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [(١٥٨) سورة الصافات]، قالوا: هذا بطن من الملائكة أو قبيلة منهم يقال لهم: الجن كما قال الله -عز وجل- {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [(١٩) سورة الزخرف]، قالوا بين الجنة وبين الله -عز وجل- نسب، والجنة هم الملائكة وليسوا هم الجن...الخ.

ولهم جواب آخر وهو أنه يمكن أن يكون الأمر أصلاً متوجهاً للجميع للجن وللملائكة، وممكن أن يكون إبليس من الجن وجلس مع الملائكة فشمله الخطاب، وشمله قوله: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]، ويصح أن يشمل الخطاب من كان معهم وإن لم يكن منهم...وهكذا.

وهكذا يكون الجدل بحراً لا ساحل له، وبالتالي كل شيء يمكن أن تجادل فيه، الذي يريد أن يجادل لن يقف عند حد، إذ ستقول له: الآيات واضحة وصريحة، فيقول لك: ومن قال: إنها واضحة وصريحة، إنما هي واضحة وصريحة عندك..

وعلى كل حال فالمقصود أن الله أمر الملائكة بالسجود وكان معهم إبليس، وظاهر القرآن أنه ليس منهم، بل هو من الجن وهو مخلوق من نار كما هو صريح في القرآن، فشمله الخطاب معهم بالأمر بالسجود، وأبى وامتنع واستكبر، وبالتالي يكفي هذا القدر من الكلام في هذه القضية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [(٣٤) سورة البقرة]: **"وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم.**

وقد دل على ذلك أحاديث أيضا -كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، -عليه السلام-: ((رَبِّ أرني آدم الذي أخرجنا ونفسَه من الجنة فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته))[1] الحديث.

ولما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه وإن لم يكن من عُنْصرهم إلا أنه كان قد تشبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر.

وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [(٥٠) سورة الكهف].

ولذا روى محمد بن إسحاق، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمونه جِنًّا."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:
فالمقصود أن إبليس الذي دل عليه ظاهر القرآن هو من الجن، وإنما كان مشمولاً بهذا الخطاب مع الملائكة؛ لكونه كان معهم أو غير ذلك مما الله -عز وجل- أعلم به، ولكن النصوص صريحة وواضحة فيما ذكرت، وهذه المسألة لا تحتاج إلى تطويل، مع عدا ذلك مما يذكر في هذا اسمه عزازيل، وأنه عبَد الله كذا سنة، أو أنه كان مسئولاً عن الجنة الفلانية أو كان مسؤولاً عما بين السماء والأرض أو غير ذلك فهذا كله من الإسرائيليات ولا يثبت به شيء، ولا ينبغي أن يبنى عليه أو يفسر به القرآن.

"وقال قتادة في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة] **فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته.**

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف] **وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا."**

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب: السنة - باب: في القدر (٤٧٠٢) (ج ٢ / ص ٦٣٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٢٣٨).

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو الذي ينبغي أن يقال عند تفسير هذه الآية وأشباهها كما في سورة يوسف، وهو أن ذلك كان جائزاً قبل هذه الأمة، ثم بعد ذلك نسخ في شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- فهو سجود تكريم وليس سجود عبادة، ومع هذا نجد كلام المفسرين كثيراً جداً في توجيه هذا السجود، فمنهم من يقول: السجود هنا ليس على حقيقته وإنما أصله يأتي بمعنى الخضوع والذل في اللغة فيكون المعنى أن الملائكة خضعت لآدم فقط ولم تسجد له؛ لأن السجود لا يجوز إلا لله، ومنهم من يقول: إن السجود إنما يحصل بالانحناء –مع أن الانحناء لغير الله لا يجوز- وبعضهم يقول: إن آدم جعله الله قبلة والسجود لله، وهؤلاء فهموا أن السجود لله فكيف يسجدون لآدم، فلهذا قالوا: جعله قبلة كما أن الكعبة قبلة يسجد الناس تجاهها فصارت قبلة السجود، وقالوا غير ذلك مما لا حاجة إليه، والصحيح أن هذا السجود هو سجود تعظيم وكان جائزاً كما حصل من إخوة يوسف وأبويه.

وبالنسبة لقول ابن كثير: "**وقال بعض الناس**": فهذا أسلوب يستعمله بعض أهل العلم منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي يفعل هذا في كثير من الأحيان، ويفعله غيره، حيث يقولون: قال بعضهم، قال بعض أهل العلم.

والبخاري يذكر بعض الغريب ويقول: قال بعضهم وزعم بعضهم، وأحياناً يأتي بالتفسير الغريب دون أن يقول: قال بعضهم وهو في كثير من الأحيان من كلام أبي عبيدة معمر بن المثنى صاحب مجاز القرآن.

المقصود أن هذا الأسلوب موجود، وهم بهذا لا يذكرون الشخص الذي نقلوا منه لسبب أو لآخر، إما لأنهم لا يريدون أن مثل هذا يصلح أن يكون في محل قدوة، لكن يستفيدون مما ذكر دون أن ينسبوا ذلك لأنفسهم ولا يريدون التنويه بذكره كالزمخشري مثلاً؛ لأنه رأس في البدعة، وتارة يذكرون هذا الأسلوب لسبب آخر كأن يقتضي الحال ذلك، كأن يكون من سمع ذلك بحضرتهم ممن كان في زمانهم ربما ترك الكتاب مثلاً وزهد فيه، فيقول: قال بعضهم.

"**وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ -رضي الله تعالى عنه-: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: ((لا، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها))**[2] **ورجحه الرازي.**"

تفسير ابن كثير -رحمه الله- أكبر وأجلّ من أن يحتاج إلى ترجيحات الرازي، ونقولات ابن كثير -رحمه الله- عن الرازي في التفسير كثيرة، وكذلك عن الزمخشري، وهذا على الطريقة المعروفة عند أهل العلم أنهم ينقلون من كتب التفسير وغيرها مما يصلح ويستفاد منه، فما كانوا يهجرون الكتب لوجود بعض الأخطاء فيها، فهذا أمر لا يعرف عند أهل العلم، لا سيما إذا كان بطريقة انتقائية في كتب دون كتب، أما أن يعمم الإنسان ويطرد قاعدة واحدة في الجميع بحيث كل كتاب فيه انحراف يحرق، فهذا لا قائل به، أما أن يخصص بعض الكتب دون كتب فإن هذا التخصيص ليس له موجب إلا اتباع الهوى.

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع - باب: ما جاء في حق الزوج على المرأة (١١٥٩) (ج٣ / ص ٤٦٥)، وابن ماجه في كتاب: النكاح – باب: حق الزوج على المرأة (١٨٥٢) (ج ١ / ص ٥٩٥)، وأحمد (١٢٦٣٥) (ج ٣ / ص ١٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٤).

فعلى كل حال تفسير ابن كثير له طبعات كثيرة، فكتابه طار في الآفاق، وهذه النسخ متفاوتة تفاوتاً ظاهراً، وهذا التفاوت يمكن أن يجعل على نوعين: نوع من تصرف النساخ أو الأخطاء التي تقع من بعضهم، وهذا علاجه التحقيق، أي: تحقيق الكتاب بمقابلته على نسخ جيدة صحيحة.

والأمر الثاني هو التفاوت الواقع بسبب تصرف المؤلف -وهذا هو المهم جداً- وهذا موجود في تفسير ابن كثير، وهذا لا علاج له إلا بمعرفة تواريخ النسخ، وستبقى إشكالات؛ لأن بعض النسخ ما وصلت إلينا أصلاً، وفيها بعض التعديلات والتغييرات بناء على نسخ كتبها المؤلف أو قرئت عليه، أو قرأها فعدل عليها، أو نحو ذلك، ولذلك تجد زيادات مثل: رجحه الرازي، أو تجد بعض الأشياء التي قد لا تجدها في بعض النسخ، فبعض النقولات عن الرازي قد لا تجدها في بعض النسخ، فيكون إما حذفها بعد أن نُبه أنه ليس بحاجة إلى ترجيحات الرازي؛ لأن كتاب الرازي في التفسير كتاب لا يشرف ابن كثير النقل منه، ولا نقل ترجيحاته لما في هذا الكتاب من أشياء غير مناسبة.

أو أنه أضاف وهذه عادة موجودة عند العلماء، وكل من يؤلف غالباً فإنه يعدل ويزيد على مر الأيام، والعادة أن أهل العلم إذا كتبوا كتاباً يبقونه عندهم مدة ليعيدون النظر فيه، وربما تركه الإنسان حتى ينسى أفكاره التي كتب؛ لأنه إذا قرأه مباشرة قد لا يتبين له حتى الخطأ في اسمه هو، فقد يلوح أمام عينيه خطأ ولا يراه، فهو إنما يحتاج إلى فترة ينسى فيها ما كتب، فإذا قرأ قرأه كأنه شخص آخر فيعرف ما فيه من العيوب والنقص، ثم إن العالم تمر عليه فوائد وتمر عليه كتب جديدة، فهذا موجود في تفسير ابن كثير، فيه زيادات من تصرف المؤلف، فمن الخطأ في التحقيق أن يجمع ذلك جميعاً بما في ذلك الأخطاء المطبعية، ويقابل على نسخ مطبوعة ويجمع ما في ذلك من الزيادة والنقص في نسخة ملفقة واحدة.

الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره أعاد صياغة بعض تفسير السور في أول القرآن من جديد، فهذا أمر يقع، فنحتاج إلى مثل هذا الكلام خاصة في تفسير ابن كثير للاختلاف الواقع بين الطبعات وبين النسخ الخطية.

"وقال قتادة في قوله تعالى: {فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [(٣٤) سورة البقرة]: **حسد عدو الله إبليسُ آدمَ، -عليه السلام-، ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدوُّ الله أن يسجد لآدم -عليه السلام-.**

قلت: وقد ثبت في الصحيح: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر))[3]، وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس."

في قوله: **{قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** [(١٢) سورة الأعراف]، يتكلم العلماء هنا كثيراً على مسألة القياس الفاسد، ويسمونه فاسد الاعتبار، كما قال في المراقي:

وكل ما خالف النص والإجماع دعا   فساد الاعتبار كل من وعى

[3] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١) (ج ١ / ص ٩٣) بلفظ: ((من كبرياء)).

يعني أن كل قياس يصادم النص أو يخالف الإجماع فهو فاسد الاعتبار، يعني أنه لا يلتفت إليه، فقياس إبليس هنا قياس فاسد الاعتبار؛ لأنه في مقابلة النص: {اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف]، فهو قال: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ}، فنظر إلى أصله وقال: الطين أدنى وأحط من النار، فرد كثير من العلماء عليه من وجوه كثيرة، منهم الشنقيطي الذي رد عليه -رحمه الله- في تفسير أضواء البيان، وفي دروسه في المسجد النبوي عند تفسير آية الأعراف، في قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] في درس كامل، حتى إنه لما كتبه بعض تلامذته وعرضه عليه بعد ذلك، وأسمعه كلامه في شريط سجل له قال: لو لا أنك أسمعتني بصوتي وإلا ما ظننت أني أقول هذا الكلام، يعني مما فتح الله عليه في هذا الدرس.

كما رد عليه جمع كثير من أهل العلم، والرد موجود في كتب التفسير عند هذه الآية، أو عند آية الأعراف عموماً وغالباً ما يكون عند هذه الآية، وكذلك ممن رد على ذلك ابن القيم، حيث رد عليه من وجوه كثيرة.

ومما قال العلماء في الرد على هذا القياس الفاسد أنهم قالوا: إن هذا القياس غير صحيح؛ لأنه يقابل النص، ثم أيضاً هو من حيث المعنى والحقيقة باطل؛ لأن الطين أفضل من النار؛ وذلك أن النار من طبيعتها الخفة والطين من طبيعته الرزانة، كما أن النار من طبيعتها الإحراق والإتلاف، فإذا وضعتَ فيها الشيء أحرقته، وأما الطين فإنك تضع فيه الحبة فتكون سنبلة، وتضع فيه النواة فتكون نخلة، بخلاف النار.

وقالوا: إن الطين إذا وضع فيه الشيء حفظه وأما النار إذا وضع فيها الشيء أضاعته، والطين يمكن أن يصنع منه ما نراه ونشاهده مما يحتاجه الناس من الأواني والمساكن وما إلى ذلك، وأما النار فإنه لا يصنع منها شيء إطلاقاً، بل هي محل الإتلاف، فإذا أرادوا أن يتلفوا شيئاً وضعوه في النار.

وقالوا كذلك: الطين يحتاجه الإنسان في كل أحيانه وأحواله حياً وميتاً، وأما النار فإنه لا يحتاج إليها إلا في بعض الوقت، فالطين لا يمكن أن يُستغنى عنه، ويكفي أنه يُمشى عليه ويُجلس عليه، ويُبنى منه، وأما النار فقد يُستغنى عنها الأسابيع بحيث لا توقد ويأكل المرء من غير الحاجة إليها، بل من الناس من لا يوقِد ناراً ويقتصر على النباتات وما أشبه ذلك، فالحاصل أنهم ردوا عليه من وجوه كهذه وغيرها.

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٥-٣٦) سورة البقرة].

"يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رَغَدًا، أي: هنيئًا واسعًا طيبًا.

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويَه عن أبي ذر: قال: قلت: يا رسول الله؛ أرأيت آدم، أنبيًّا كان؟ قال: ((نعم، نبياً رسولاً كلمه الله قِبَلاً))[٤] يعني عياناً فقال: {اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(٣٥) سورة البقرة]."

الثابت أن آدم -صلى الله عليه وسلم- نبي، وما ورد من أنه رسول يضعفه بعض أهل العلم من جهة الرواية، ولكن نبوته ثابتة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وحديث أبي ذر هذا بعض أهل العلم ضعفه، ولكن لا شك أنه نبي، والمشهور عند أهل العلم أن أول نبي هو آدم -صلى الله عليه وسلم- وأن أول رسول هو نوح

[٤] - أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٣٥) (ج ٧ / ص ٢٢٤)، وفيه المسعودي وقد اختلط كما قال الهيثمي في المجمع (ج ٨ / ص ٣٦٤).

-عليه الصلاة والسلام- ومن حسن حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: إن آدم -صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى حواء، ويمكن أن يقال: وإلى بنيه، وعلى كل حال فالمشهور أنه نبي وأن أول رسول هو نوح، وبهذا يطرد الفرق بين الرسول والنبي بأن الرسول يكون قد أرسل إلى قوم كافرين، يدعوهم إلى الإسلام، يدعوهم إلى دين الله -عز وجل-، والنبي هو من أوحي إليه بوحي، فهو مقرر لشريعة نبي قبله.

وما ذكره الله تعالى هنا يدل في ظاهره بأن حواء خلقت قبل دخول الجنة، فهذا هو ظاهر القرآن، لأنه قال: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(٣٥-٣٦) سورة البقرة].

وقد جاء في بعض الروايات المأخوذة عن بني إسرائيل مما يذكر في كتب التفسير أن حواء خلقت حينما كان في الجنة، وهذا لا دليل عليه، بل يخالف ظاهر القرآن.

يقولون: خلقها الله له ثم عرفه كيف يغشاها فغشيها، فقالت: يا آدم هذا طيب فزدنا منه، وهذا كله من كلام بني إسرائيل أو مما أخذ منهم، وإن كان ظاهر الآية ليس بقاطع أنها خلقت قبل دخول الجنة؛ لأن ذلك يمكن أن يقال لمن كان في الجنة، {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(١٩) سورة الأعراف]، فيمكن أن يقال له ذلك تقريراً له في سكناه الجنة، بمعنى أنه من الممكن أن تدخل إنساناً في بيت وتقول له: اسكن في هذا البيت وانتفع به، فهذا أسلوب لا إشكال فيه.

وعلى كل حال فظاهر القرآن يدل دلالة ظاهرة على أن الله خلق حواء قبل إدخال آدم الجنة، وإن كان هذا ليس بقاطع، والله تعالى أعلم، لكن لا يعتمد على الإسرائيليات التي تخالف ذلك.

"وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقد عَلَّمه الأسماء كلها فقال: {يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} [(٣٣) سورة البقرة] إلى قوله: {إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٣٢) سورة البقرة]، قال: ثم ألقيت السِّنَةُ على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره."

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يحاول أن يتحرز من الإسرائيليات، وقد صرح في مقدمة التفسير بأنه إنما ألف التفسير ليخلصه مما وقع فيه كثير من المفسرين من إدخال الإسرائيليات ومع ذلك لما تقرأ تجد الإسرائيليات موجودة، فهذه الأمور يصعب التخلص منها؛ إذ قد كثرت البلوى بها وانتشرت ودخلت في عامة كتب التفسير إما بطريق النقل عن بني إسرائيل مباشرة، أو بطريق بعض الآثار المنقولة عن بعض السلف ممن أخذ عن بني إسرائيل وإن لم يصرح فيه، فتارة يصرحون، وتارة لا يصرحون.

"ثم أخذ ضِلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً وآدم نائم لم يهب من نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كُشِفَ عنه السِّنَة وهبَّ من نومه، رآها إلى جنبه فقال -فيما يزعمون والله أعلم-: لحمي ودمي وزوجتي. فسكن إليها، فلما زوَّجَه الله وجعل له سكناً من نفسه، قال له قُبَلاً {يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ} [(٣٥) سورة البقرة]."

وهذا صريح في أن الله -عز وجل- كلم آدم مباشرة ولا حاجة للتمحل في البحث عن محامل بعيدة لتوجيه مثل هذا النص الصريح الواضح، ولهذا جاء في الحديث أنه كلمه الله -عز وجل- مباشرة.

"**وأما قوله: {وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم، وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟ فقيل: الكَرْم وقيل الحنطة.**"

الكرم يعني العنب، وعلى كل حال فهذه المبهمات في القرآن يشتغلون كثيراً في البحث عن مثلها، وهذا مما لا فائدة فيه، فالله أبهمها لأنه لا فائدة فيها فلا داعي لتطلبها، فهي شجرة غير محددة لنا، ولكن الله -عز وجل- عرَّفها آدم ونهاه عنها.

"**وقيل: النخلة وقيل: التينة.**"

وقيل: التينة وقيل: السنبلة، وقيل غير ذلك، وهذا يدل على أن هذه الأقوال لا تبنى على شيء، وإلا لما اختلفت هذا الاختلاف، فالحنطة أو العنب أو التينة أو السنبلة، هي أشياء متفاوتة مختلفة غاية الاختلاف.

"**وقيل: شجرة من أكل منها أحدث، وقيل: شجرة تأكل ثمرها الملائكة لخلدهم.**"

الملائكة أصلاً لا يأكلون وهذا من كذب بني إسرائيل، وأما القول بأنها شجرة الخلد فهذا كان من تزيين إبليس: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} [(١٢٠) سورة طــه].

"**قال الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله -عز وجل ثناؤه- نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة.**

وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلْمٌ إذا علم ينفع العالمَ به علمُه، وإن جهله جاهلٌ لم يضرَّه جهله به والله أعلم.

وكذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب.

وقوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} [(٣٦) سورة البقرة] يصح أن يكون الضمير في قوله: {عَنْهَا} عائداً إلى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم بن بَهْدَلَة -وهو ابن أبي النَّجُود- فأزالهما، أي: فنحاهما.

ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورَيْن وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادةُ {فَأَزَلَّهُمَا} أي: من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} أي: بسببها."

يقول: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} يصح أن يكون الضمير في قوله: {عَنْهَا}....إلى آخره: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا}، أي بمعنى صرفهما عن طاعة الله -عز وجل- فأوقعهما في الزلة من الزلل، فالزلة تقال على الخطيئة والذنب والإساءة، يقال: فلان زلَّ زلة، وهذه زلة، ويقال: لا يستزلنك الشيطان، وما أشبه ذلك، فيكون بمعنى صرفهما عن طاعة الله -عز وجل- في أمره: {وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} [(٣٥) سورة البقرة]، حيث نهاهما فأكلا منها فكان ذلك زلة من آدم -صلى الله عليه وسلم- وحواء، فيكون هذا الأكل ووسوسة إبليس أو إغواء إبليس سبباً لهذه الزلة التي كانت سبباً لزواله عن الجنة.

إذا قلنا ذلك نكون قد جمعنا بين القراءتين المشار إليهما -قراءة حمزة وقراءة الجمهور- فقراءة الجمهور: فَأَزَلَّهُمَا، وقراءة حمزة: فَأَزَالهُمَا، فيكون بهذا الاعتبار معنى أزالهما من الإزالة، كقولك: أزلت هذا.

كيف نجمع بين القراءتين؟:

بعض العلماء يقول: معنى القراءتين واحد، وإذا قلنا بهذا فلا إشكال، ولكن المتبادر أن المعنى مختلف، فأزلهما من الزلة، أي الزلل المعروف، وهي الخطيئة والذنب والمخالفة، وأزالهما بمعنى نحاهما وأبعدهما عن النعيم الذي كانا يتمتعان به، فهذا معنى وذاك معنى آخر، والقاعدة أن القراءتين إن كان لكل واحدة معنى يخصها فإنهما بمنـــزلة الآيتين، أي كأن عندنا آيتين إحداهما تقول: فأزلهما، والثانية تقول: فأزالهما.

وعلى هذا هل نستطيع أن نجمع بين القراءتين؟

الوجه الذي ذكرته قبل قليل هو طريق للجمع، فيمكن أن يقال: أزلهما بمعنى أنه تسبب في إيقاعهما في الزلة التي أدت إلى الإزالة والتنحية عن الجنة، والله تعالى أعلم.

يقول: **يصح أن يكون الضمير في قوله: {عَنْهَا} عائداً إلى الجنة**"، يعني أزلهما عن الجنة، أي: نحاهما وأخرجهما وأبعدهما عن الجنة.

يقول: "**ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورَيْن وهو الشجرة**"، إذا قلنا: إنه يعود إلى الشجرة، فيكون معنى **{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا}** بسببها، أي أبعدهما عن الجنة ونعيمها بسبب الشجرة.

مسألة: كيف يكون معنى "عنها" بسببها؟!:

معلوم أن "عن" تأتي بمعنى السببية، كما تقول: هذا الجزاء إنما هو عن قولك كذا، يعني بسبب قولك كذا، ويكون معنى **{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا}** أي: بسببها.

وعلى أساس ما يسمى تضمين الفعل معنى الفعل نقول: أزلهما تضمن معنى الفعل أصدر، أي: أصدر الشيطان زلتهما عنها، بمعنى أصدر الزلة عن الشجرة، أي: من ناحيتها ومن جهتها، وفعل أصدر يصلح أن يُعدَّى بــ"عن"، فتقول: هذه الوثيقة صادرة عن مكتب كذا، يعني من جهة مكتب كذا، وبالتالي يكون معنى أزلهما الشيطان استطاع أن يدخل على آدم وحواء من ناحية الإغراء بأكل هذه الشجرة.

كذلك إن قلنا: الضمير يعود على الجنة يكون أزلهما مضمن معنى أبعد، يعني عن الجنة، أي: فأبعدهما عن الجنة، حيث إن الفعل أزل مضمن معنى فعل آخر هو أبعد، وأبعد يصح أن يعدى بــ"عن"، فتقول: أبعدته عن المسجد، وأبعدته عن منـــزله وهكذا، وهذا توجيه للتعدية بــ"عن" على القول بتضمين الفعل الذي هو أزل معنى فعل آخر.

وخلاصة هذا أنه إذا قلنا: إن الضمير يعود إلى الشجرة، فيكون أزلَّ مضمن معنى فعل آخر هو أصدر، وبالتالي فالمعنى أصدر الشيطان زلة آدم وحواء عن الشجرة، وإذا قلنا: الضمير يعود إلى الجنة، فيكون أزلَّ مضمن معنى أبعد، فالمعنى أبعدهما عن الجنة.

يقول: "**فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم بن بَهْدَلَة وهو ابن أبي النَّجُود**": الصواب أن هذه قراءة حمزة، وليست قراءة عاصم، فليتنبه لذلك؛ إذ أن قراءة عاصم موافقة لقراءة الجمهور.

يقول: **فأزالهما، أي: فنحاهما**: يمكن أزالهما هذه أن ترجع إلى قراءة الجمهور من حيث المعنى؛ لأنه يقال: زل عن المكان أي تنحى عنه، فتكون من الزوال، وعلى قراءة الجمهور فَأَزَلَّهُمَا يمكن أيضاً أن تكون من زلل القدم.

وعلى كل حال هذه وجوه في محاولة الجمع بين القراءتين بحيث يمكن إعادة القراءتين إلى معنى متحد، ولكن الأقرب أن كل قراءة لها معنى يخصها هنا، وهو ما ذكرت والله تعالى أعلم.

يقول: "**قال الحسن وقتادةُ**: {فَأَزَلَّهُمَا} أي: **من قبل الزلل**: من قِبَل الزلل يعني من ناحية الزلل.

فعلى هذا يكون تقدير الكلام {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} **أي**: **بسببها**": هذا كما قال تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [(٩) سورة الذاريات]، وهذا مثال على تفسير أسلوب قرآني بأسلوب آخر، وإلا فإن قوله: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} ليس له علاقة بقوله: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} لكن أحياناً يشكل عليك التركيب فتنظر إلى تركيب آخر واضح، يشبه هذا، فقوله: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} ليس فيه إشكال، فيفسر هذا بهذا ليتضح المراد.

فقوله: {يُؤْفَكُ عَنْهُ} أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال: {فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} [(٣٦) سورة البقرة]، أي: من اللباس والمنـــزل الرحب والراحة والرزق الهنيء المريح الواسع الذي لا كلفة فيه ولا تعب ولا معاناة {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} [(٣٦) سورة البقرة].

"يصح أن يكون الضمير في قوله: {عَنْهَا} عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ حمزة: فأزالهما، أي: فنحّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادةُ: {فَأَزَلَّهُمَا} أي: من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} أي: بسببها، كما قال تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [(٩) سورة الذاريات] أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى: {فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} [(٣٦) سورة البقرة] أي: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة] أي: قرار وأرزاق وآجال.

{إِلَى حِينٍ} أي: إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} هذا الخطاب جاء بصيغة الجمع {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ}، وجاء أيضاً بصيغة التثنية في قوله تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا} [(١٢٣) سورة طـه]، وجاء أيضاً بصيغة الإفراد مخاطباً به إبليس، فيحمل ما جاء بصيغة الجمع كما هنا {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ} على أن المخاطب بذلك الثلاثة، آدم وحواء وإبليس.

وقوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} أي أن الآدميين يمثلهم أبواهم آدم وحواء أعداء لإبليس وإبليس عدو لهم.

{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}: هذا عدو لهذا، وهذا عدو لهذا، فهي عداوة من الطرفين مشتركة، وليست من طرف واحد، ليس إبليس هو الذي يعادي الآدميين فقط، بل نحن نعاديه، فهو أشد الأعداء لنا وإنما نعادي غيره؛ لأنهم يتفرعون منه، وينضوون تحت لوائه بين مقل ومكثر.

وما جاء بصيغة التثنية {اهْبِطَا مِنْهَا} فبعض أهل العلم يقول: المراد به آدم وحواء.

وقوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} يعني أنكما أعداء لإبليس، فالهبوط يكون لآدم وحواء والعداوة مع إبليس.

وبعض أهل العلم يقول: قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [(١٢٣) سورة طـه] المراد بذلك هو آدم وإبليس، فإن قيل: وأين حواء؟ يقال: هي تبع لآدم، ولذلك نجد أن الله -عز وجل- يخاطب آدم -صلى الله عليه وسلم- فيقول: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(١٩) سورة الأعراف]، فجعلها تبعاً له.

وكذلك حينما عاتبه على الأكل من الشجرة خاطبه هو، وقال أيضاً في توبته: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [(٣٧) سورة البقرة]، مع أن الله تاب على آدم وحواء فهي تبع له.

وعلى كل حال فالمعنى الآخر في قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا} أي آدم وإبليس، وحواء تبع لآدم، وبالنسبة للعداوة فهي بين الآدميين وبين إبليس وحزبه.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة]: المراد بقوله: {إِلَى حِينٍ} إما أن يكون إلى الموت، أي: لهم في الأرض مستقر ومتاع إلى أن يموتوا، أو إلى قيام الساعة.

وعلى كل حال إذا نظر إلى الأفراد كآدم بشخصه فإن ذلك المتاع ينقضي بالموت، وإذا نظر إلى جنس الآدميين فإن ذلك يكون إلى قيام الساعة، فالأرض مستقر لهم وفيها يتمتعون.

"وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم رجلاً طُوَالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَد في الجنة، فأخذت شَعْرَه شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مني تَفِرُّ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء))[1].

هذا الحديث لا يخلو من ضعف، حتى إن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الأصل أشار إلى ضعفه، والذين اختصروا الكتاب كأنهم حسنوا الحديث باعتبار أن له شاهداً آخر ينجبر به هذا الضعف.

وعلى كل حال فمسألة التصحيح والتضعيف مسألة اجتهادية، فهذا يصحح حديثاً وهذا يضعفه، فهم أدخلوه في هذا الكتاب بناء على أنه يتقوى بذلك الشاهد ويكون من قبيل الحسن، والله تعالى أعلم.

"وروى الحاكم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، قال: "ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس" ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه."

هذا الأثر يفيد أن آدم -عليه الصلاة والسلام- ما أسكن الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وجاء في بعض الآثار الأخرى وهي آثار ترجع في أصلها إلى الإسرائيليات، وهذا الوقت الذي مكثه آدم في الجنة ما بين العصر إلى غروب الشمس يقدرونه بمدد طويلة باعتبار أن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون، فيقدرون المدة لآدم في الجنة بمائة وثلاثين سنة، وهذا على قول الحسن، وبعضهم قال أكثر من هذا، ولكن هذا كله لا يثبت به شيء، والإسرائيليات وما له حكم الإسرائيليات في هذا كثيرة جداً، فلا يعتد بها، فالله تعالى هو أعلم كم بقي آدم في الجنة، ونحن إنما علمنا من الله تعالى خلق آدم في يوم الجمعة، وأن الله -عز وجل- أخرجه من الجنة في يوم الجمعة أيضاً، فهل كان ذلك في نفس اليوم الذي خلقه فيه أدخله فيه الجنة ثم أخرجه منها، أو كان ذلك في جمعة أخرى؟، الله تعالى أعلم.

والاشتغال في مثل هذا لا يعنينا شيئاً ولا يترتب عليه لا علم ولا عمل، فهذا من فضول العلم الذي لا يمكن الوصول إليه؛ لأنه ليس هناك طريق يصح ويوثق به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا تترتب على العلم به فائدة.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أهبط آدم -عليه السلام- إلى أرض يقال لها: دَحْنا بين مكة والطائف.

---

[1] - أخرجه الحاكم (٣٠٣٨) (ج ٢ / ص ٢٨٨) وابن أبي شيبة (٣١٨٠٧) (ج ٦ / ص ٣٢٨) وصححه الذهبي في التلخيص.

وعن الحسن البصري قال: "أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتُمِيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان" [رواه ابن أبي حاتم]."

هذا كله يرجع إلى الإسرائيليات، ومما يدلك على أن هذا الكلام لا يوثق به هذا التناقض الموجود بحيث إنه لا يمكن أن يصح الجمع بين هذه الأقوال، فقول: إنه أهبط في الهند، وآخر: إنه أهبط في جدة، فأين الهند من جدة؟

وأما هذه الحية التي يشيرون إليها فيزعمون أن إبليس توصل إلى آدم في الجنة عن طريق الحية، ويصفون هذه الحية بأنها مخلوق عظيم له أرجل طويلة كالجمل، وأن إبليس دخل في الحية من أجل أن يدخل الجنة، وأن ذلك خفي على الملائكة الذين هم خزان الجنة؛ لأنه تخفى في وسط الحية، فدخل فوسوس إلى آدم من الحية.

ويفترضون في هذا قضايا، منها كيف استطاع الوصول إلى آدم، فبعضهم يقول عن طريق الوسوسة التي تقع في النفس، مع أن ظاهر القرآن يرد على هذا، حيث جاء التصريح بالوسوسة أنها من الشيطان حيث قال: **{يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}** [(١٢٠) سورة طـه]، وكذلك في قوله: **{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}** [(٢١) سورة الأعراف]، فهل يكون هذا الحلف من الوسوسة التي في النفس؟ لا يمكن أن يكون هذا من الوسوسة التي في النفس، وإنما يدل ذلك على أنه خطاب صريح، وأما كيف توصل فهذا لا يعنينا، وهذا من الفضول والاشتغال بما لم نكلف به، وإنما المهم هو أنه خاطبهما بهذا، فقد يكون وهو خارج الجنة، -كما يقول بعض أهل العلم- وقد يكون دخل الجنة من أجل هذا الابتلاء والامتحان لآدم -صلى الله عليه وسلم- أو غير ذلك، فهذا كله مما لم نكلف علمه، فلا ينبغي للإنسان أن يتشاغل بمثل هذه الأمور، ويضيع الوقت من غير طائل، خاصة وأنه لا يستطيع أن يخرج معها بنتيجة حاسمة.

"وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها))[٢]، فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء -كما يقوله الجمهور من العلماء- فكيف تمكَّن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طردًا قدريًّا، والقدري لا يخالف ولا يمانع؟!"

العلماء يتكلمون عن هذه الجنة هل هي في الأرض أو الجنة المعروفة في السماء؟ وظاهره أنها الجنة التي في السماء؛ إذ الأصل أن الجنة إذا أطلقت ليس ثمت إلا الجنة المعروفة.

ويدل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا}** [(١٢٣) سورة طـه]، **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [(٣٦) سورة البقرة]، فالهبوط يدل على أن ذلك نزول في الأصل من أعلى إلى أسفل.

والذين يخالفون في هذا يقولون: إن الجنة كانت في الأرض، وليس عندهم دليل أبداً، ويفسرون الهبوط الوارد في الآيات بأنه بمعنى الانتقال من بلد إلى بلد كما قال الله -عز وجل- لبني إسرائيل، لما أرادوا الأكل مما

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة - باب: فضل يوم الجمعة (٨٥٤) (ج ٢ / ص ٥٨٥).

تخرج الأرض من بقلها وقثائها: {اهْبِطُواْ مِصْراً} [(٦١) سورة البقرة]، أي بلداً أو قرية من القرى، أي: مصراً من الأمصار تجدون فيه بغيتكم، وليس المقصود بمصر البلد المعروفة اليوم.

فالأصل حمل القرآن على ظاهره المتبادر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وظاهره المتبادر إنما هي الجنة المعروفة، وهؤلاء الذين قالوا غير ذلك يشوش عليهم ويلجئهم إلى القول بغيره بعض الأمور مثل هذا التساؤل: كيف يدخل إبليس هذه الجنة -إذا كانت الجنة التي في السماء- وهو طريد لعين؟ وهذا يمكن أن يجاب عنه بمثل ما ذكرت آنفاً.

" فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية.

وأجاب الجمهور بأجوبة:

أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة: إنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره."

من أراد أن يعرف منهج الحافظ ابن كثير في التفسير يدون هذه الأشياء مثل نقل بعض الإسرائيليات، النقل عن الزمخشري، النقل عن الرازي، التصريح مثلاً بنقل ترجيحات الرازي، ذكر الخلاف في المسألة والأقوال فيها، والترجيح بعد ذلك، ومناقشة الأقوال، فالقراءة تختلف اختلافاً كبيراً كما بين السماء والأرض، فقراءة تختلف عن قراءة، لكن هذا ينفع الإنسان كثيراً في المستقبل.

"{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٣٧) سورة البقرة] **قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٢٣) سورة **الأعراف].**

وروي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القُرَظي، وخالد بن مَعْدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال السدي عمَّن حدثه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: قال آدم -عليه السلام-: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: ((بلى))، ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له: ((بلى))، وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: ((بلى))، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: ((بلى))، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: ((نعم))، وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير، وسعيد بن معبد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- بنحوه.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3]."

---

3 - أخرجه الحاكم (٤٠٠٢) (ج ٢ / ص ٥٩٤) وصححه الذهبي.

يقولون: إن هذه الكلمات هي مثل ما جاء في هذا الأثر، وهذا الأثر كما ترون: **قال السدي عمن حدثه عن ابن عباس**، ومثل هذا الإسناد لا يصح بحال من الأحوال إلا إذا جاء ما يقويه، وهم يستشهدون أو يقوونه بمثل الشواهد التي أشار إليها بعده، ولا يخلو منهج إيراد الروايات في مثل هذا الكتاب من شيء من التساهل، والذي يظهر أيضاً أن الآثار المنقولة عن السلف من التابعين في التفسير لم يدققوا فيها ويراجعوا هذه المرويات وينتقوا الصحيح منها -وهذا أمر يحتاج إلى جهد كبير- وإنما نظروا في الأحاديث المرفوعة، واختاروا منها ما يصح.

والتفسير يحتاج إلى عناية وإلى مراجعة هذه الروايات التي تنسب إلى قائليها، كقال ابن عباس، وقال فلان، مع أنه لا يصح من ذلك إلا القليل، مع أن هذه المعاني التي تنسب إليهم تبقى معانى جيدة، وتفتح آفاقاً، لكن الإشكال في نسبتها إلى هؤلاء، مع أن الكثير منها لا يصح عنهم، وقد بُذلت جهود كبيرة في التفسير في محاولة استخراج ما يصح منه، لكن لا زالت العناية بالآثار غير المرفوعة تحتاج إلى جهد ومراجعة.

قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ} [(٣٧) سورة البقرة]، معنى تلقي آدم للكلمات أنه أخذها عن الله حيث علمه إياها، أو ألهمه إياها، أو أوحى بها إليه، وقد يفهم منها القبول أيضاً ولا بد؛ لأن مجرد الأخذ لا يكفي، بل لا بد من القبول، فتلقيه لهذه الكلمات هي أخذه لها وقبوله لها وانقياده وإذعانه، فأقر على نفسه بالخطأ والذنب ورجع إلى ربه -تبارك وتعالى- وتاب وعمل بما أمره الله -عز وجل- فصرح بذلك وقال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف]، مع فهمه لهذه الجملة التي كانت توبة له -عليه الصلاة والسلام-، ومن ثم فلا حاجة لأن يقال: إن هذا التلقي هو فهمه للكلمات فقط، أو كما قال بعضهم: قبوله لها، فليس ذلك فهماً فقط بل لا بد من إقرار لها وقبول، فكل ذلك داخل في تلقي هذه الكلمات، فهو تلقاها عن الله وفهمها وأقر بمقتضاها وأذعن ورجع إلى الله -عز وجل- قائلاً: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}، وأحسن ما تفسر به هذه الكلمات، هي هذه الآية: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف]، وبعضهم يذكر غير هذا لكن هذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن،{ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ} [(٣٧) سورة البقرة]، وهي قوله: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف].

قوله تعالى: {فَتَابَ عَلَيْهِ} [(٣٧) سورة البقرة]، التوبة تكون من العبد لربه بمعنى الرجوع عن الذنب، فالتوبة أصلها الرجوع، وتكون من الرب للعبد فتفسر بالرجوع عليه بالرحمة والقبول والمغفرة بدلاً من السخط والإبعاد، تاب الله على عبده، أي رجع عليه بالرحمة، ويمكن أن تفسر بأن الله وفقه للتوبة وقبلها منه {فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٣٧) سورة البقرة].

"وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٣٧) سورة البقرة] أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [(١٠٤) سورة التوبة] وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [(١١٠) سورة النساء] الآية، وقوله: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [(٧١) سورة الفرقان] وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده لا إله إلا هو التواب الرحيم.

{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٨-٣٩) سورة البقرة].

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: إنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهُدَى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان."

في الآية الأولى يقول تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة].

وفي هذه الآية يقول سبحانه: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٨) سورة البقرة].

يُلاحظ أنه كرر الأمر بالهبوط في الآيتين، ففي الآية الأولى مع الأمر بالهبوط ذكر العداوة بين آدم وإبليس، وذكر أن الأرض صارت مستقراً لهم وفيها يتمتعون، وفي الآية الثانية ذكر مع الأمر بالهبوط مجيء الهدى، فهل الهبوط المذكور في الآية الثانية هو نفسه الهبوط المذكور في الآية الأولى، بحيث إن الأول تعلق بمعنى هو العداوة مع إبليس والاستقرار في الأرض، وكرره هنا من قبيل التأكيد، إضافة إلى تعلق معنى يختص به هنا وهو: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} الآية، أم أن الهبوط المذكور في الآية الثانية غير الهبوط المذكور في الآية الأولى؟

بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الهبوط الأول غير الهبوط الثاني، فالهبوط الأول كان من الجنة، والهبوط الثاني كان من السماء إلى الأرض، مع أن الهبوط الأول قال الله فيه: {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة]، وفي الهبوط الثاني قال: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} [(٣٨) سورة البقرة].

فابن القيم -رحمه الله- بهذا القول جرى على القاعدة المعروفة وهي: أن التأسيس مقدم على التوكيد، بمعنى أنه مهما أمكن أن يحمل اللفظ الآخر المرادف أو المشابه أو المطابق على معنى جديد، فإن ذلك أولى من حمله على نفس المعنى الأول بناء على التأكيد.

فالتأسيس يعني أنك تؤسس معنى جديداً، ولا شك أن ذلك يكثر المعاني القرآنية ودلالتها أكثر من أن يقال: إن ذلك لمجرد التوكيد، فيكون لكل لفظة معنى جديداً يخصها غير المعنى الأول، وهذا هو معنى قاعدة التأسيس مقدم على التوكيد، فابن القيم سار على هذا وإن لم يصرح بالقاعدة.

وعامة أهل العلم لا يتعرضون لمثل هذا في الغالب، وكأنهم يجرون على أن الأمر بالهبوط في الأول هو نفس الأمر بالهبوط في الثاني، أي كله أمر بالهبوط من الجنة، وربما دل على ذلك ظاهر القرآن، وذلك في قوله: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا} [(٣٨) سورة البقرة]، فقوله: {مِنْهَا} يعني من الجنة؛ حيث هي المذكورة في ثنايا الآيات، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(٣٥) سورة البقرة]، ثم أمرهم بالهبوط منها، فيكون ذلك عائداً إلى الجنة؛ لأنها المذكورة المصرح بها.

وابن القيم -رحمه الله- ومن وافقه بماذا يعلل قوله، وكيف يرد على هذا الإشكال؟

هو وإن لم يصرح لكنه يستطيع أن يقول: إن الضمير يصح أن يرجع إلى غير مذكور، وإنما يفهم ذلك من السياق، ومثال رجوع الضمير إلى غير مذكور قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [(١) سورة القدر]، فالضمير في قوله: {أَنزَلْنَاهُ} يعود إلى القرآن ولم يرد له ذكر في السابق لكنه يفهم من السياق، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن، وهذا يدل على أنه لا شك أن الضمير يرجع إلى غير مذكور، لكن هل هذا هو المراد هنا في قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً} [(٣٨) سورة البقرة]؟

الأصل أن الضمير في قوله: {اهْبِطُواْ مِنْهَا} يرجع إلى ما سبق من ذكر الجنة وسكنى آدم فيها دون السماء، وإن كان القول بأنه الجنة أيضاً يتضمن ما ذكره ابن القيم وزيادة، لأن الجنة هي أصلاً في السماء، فيكون: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا} أي من الجنة التي هي في السماء، لكن ابن القيم -رحمه الله- يريد ما هو أكثر من هذا، وهو أنه تم إخراجه من الجنة –كما في الجملة الأولى- وبقي في السماء وأنه الآن يؤمر بالهبوط من السماء إلى الأرض وليس من الجنة، إلا أن ظاهر الآيات يدل على أن الضمير يعود إلى الجنة في الآيتين، والله أعلم.

قوله: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً} [(٣٨) سورة البقرة]، يعني آدم وإبليس وحواء، هذا هو الراجح من أقوال المفسرين.

وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٨-٣٩) سورة البقرة]، هذا الخطاب موجه لآدم وحواء وما دام آدم نبياً فالأصل أن يكون ذلك الخطاب متوجهاً للذرية، حيث بعث الله لهم الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنزل عليهم الكتب، وهذا له نظائر في القرآن، حيث يكون الحديث في بدايته عن شخص أو عن معنى أو عن جهة، ثم بعد ذلك تجد طرفه الآخر متحدثاً به عن قضية أخرى، وهذا يسمونه: الموصول لفظاً المفصول معنىً، وله أمثلة، وهو أنواع، فتارة يكون ذلك من قول أكثر من واحد.

ومن أمثلة ذلك: قول الله -عز وجل- في مناظرة إبراهيم المذكورة في سورة الأنعام، لما خوفوه بآلهتهم قال لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨١-٨٣) سورة الأنعام]، فقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ} هل هو من قول إبراهيم –عليه السلام- أو من قول الله تعالى؟

ظاهر الكلام في تتابعه أنه من كلام إبراهيم، لكن من أهل العلم من يقول: انتهى كلام إبراهيم، فهذا كلام الله -عز وجل- يقرر فيه ما ذكره إبراهيم، وهو أن {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

ويقول الله تعالى في قصة يوسف: {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥١-٥٢) سورة يوسف]، فقوله تعالى: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} هل هذا من كلام امرأة العزيز، أم هو من كلام يوسف عليه الصلاة والسلام؟

الكلام متصل، وامرأة العزيز هي التي تتحدث، فهل انقطع الكلام وصار الكلام الآن ليوسف: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف]؟.

خذ مثالاً آخر: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [(٣٤) سورة النمل]، هذا كلام بلقيس ملكة اليمن، لكن آخر الآية: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} مع أنه متصل لكنه ليس من كلامها وإنما هو من كلام الله -عز وجل- يقرر ما ذكرَته ويثبته.

المقصود أن هذه صور أو أمثلة للكلام المتصل الذي يكون ظاهره لقائل واحد وهو في الواقع لأكثر من قائل. وهناك صور وأمثلة يكون فيها المُتَحدَّث عنه أكثر من موضوع، أو أكثر من معنى، أو أكثر من جهة، أو أكثر من شخص.

ومن أمثلة ذلك آية الأعراف التي يقول الله فيها: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ} هذا الجزء من الآية الكلام فيه عن آدم وحواء.

ثم يقول الله تعالى: {فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [(١٨٩) سورة الأعراف].

ثم انظر ماذا يقول بعد ذلك: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [(١٩٠-١٩١) سورة الأعراف]، هل هذا الكلام عن آدم وحواء، أيصح أن يكون آدم نبياً ويشرك بالله؟

جاءت آثار أنه سمى ولده عبد الحارث، وأن الشيطان جاءهم، وقال لحواء: يخرج له قرن أيل ويشق بطنك، إلى آخر ذلك الكلام الذي لا يظن بآدم -صلى الله عليه وسلم-، وإنما هذا الأسلوب في الكلام هو من المتصل لفظاً المفصول معنىً، وهو من النوع الثاني، حيث بدأ الحديث في الآية الأولى عن آدم وحواء، ثم انتقل الحديث عن الذرية في قوله تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} أي: الأب والأم من الآدميين يقع فيهم من الإشراك أن يجعلا لله شركاء فيما يؤتيهما الله تعالى.

ومما يدل على أن المقصود بذلك ذرية آدم أنه ختم الآية بصيغة الجمع عند تنزيهه لنفسه -سبحانه وتعالى- حيث قال: {فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [(١٩٠) سورة الأعراف]، ثم أرجع ضمير الجمع في استنكاره عليهم فقال: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [(١٩١) سورة الأعراف].

إذن: ليس المقصود في هذا الكلام المتصل آدم وحواء، وإنما هذا الاتصال هو نوع آخر من الكلام المتصل لفظاً المنفصل معنىً، ومثل هذا قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٨) سورة البقرة].

فالأمر بالهبوط إلى الأرض لآدم وإبليس، وحواء تبع لآدم، وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} خطاب لذرية آدم على ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله: {فَمَن تَبِعَ هُدَايَ} [(٣٨) سورة البقرة] "أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(٣٨) سورة البقرة]، أي: في ما يستقبلونه من أمر الآخرة {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال تعالى في سورة طه: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [(١٢٣) سورة طـه]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [(١٢٤) سورة طـه] كما قال هاهنا: {وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٩) سورة البقرة] أي: مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، أما بعد.

ففي قوله تعالى في الآية السابقة: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(٣٧) سورة البقرة]، ينبغي التنبيه إلى أن في هذه الآية قراءتين، القراءة الأولى بضم آدم ونصب كلمات، والقراءة الثانية بعكسها، أي: بنصب آدم وضم كلمات، **{فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ}** فيكون آدم -صلى الله عليه وسلم- هو المتلقَّى، ويكون الذي تلقاه هذه الكلمات، وهذا مثال على ما لا يصح الجمع فيه بين القراءات؛ إذ الخلط بين القراءات يصح بثلاثة شروط، ومن أهم هذه الشروط: أن لا تكون إحدى القراءتين مرتبة على الأخرى، هذا أهم شرط.

يعني أستطيع أن أقرأ مثلاً في سورة الفاتحة: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة]، وأقرأ في الموضع الثاني: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة]، بالسين: اهدِنَا السِرَاطَ على القراءة الأخرى، فلا إشكال أن أخلط بين القراءات دون أن ألتزم بقراءة واحدة؛ لأن ذلك من القرآن المنزل فلا إشكال لكن بثلاثة شروط، أهم هذه الشروط ما ذكرت.

لكن لو خلطنا هنا بين القراءتين فقلنا: فتلقى آدمُ من ربه كلماتٌ -برفع الموضعين- فإن المعنى يفسد إذ أين يكون المفعول به هنا؟ وكذلك لو قرأنا بنصب الموضعين: فتلقى آدمَ من ربه كلماتٍ يفسد المعنى، إذ أين الفاعل حينئذ؟ فلا يصح أن يخلط بين القراءتين في مثل هذه الصورة.

قوله تعالى: **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [(٣٦) سورة البقرة]، العدو مصدر وهو مفرد والمراد به الجمع، فالعدو يصدق على الواحد والكثير باعتبار أنه مصدر، فمثل هذا الاستعمال يحمل على معنى الجمع، وهذا كثير في القرآن، سواء كان ذلك بالإفراد من غير إضافة أو مع الإضافة إلى الضمير، أو بالإضافة إلى الاسم الظاهر، أو كان ذلك بالجمع مع الإضافة، وأمثلته كثيرة في كلام العرب أيضاً، فمن أمثلة المفرد في

القرآن من غير إضافة قوله تعالى: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [(٣١) سورة النـــــور]، فهنا يعني الأطفال.

ومثال المفرد المضاف إلى الضمير قوله تعالى: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــــور] يعني أو أصدقائكم.

ومثال المضاف إلى الاسم الظاهر قوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل]، أي: يعرفون نعم الله.

وفي قول الشاعر:

بها جيف الحسر فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

جلد مفرد مضاف إلى الضمير –الهاء- في جلدها، والمعنى: وأما جلودها فيابسة، وهكذا توجد أمثلة كثيرة جداً، وهذا أمر شائع معروف.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ* وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [(٤٠-٤١) سورة البقرة].

"يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد -عليه من الله أفضل الصلاة والسلام-، ومُهَيِّجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب -عليه السلام- وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [(٣) سورة الإسراء]."

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} هذا مثال على ما سبق ذكره من الكلام حول المفرد المضاف أنه يفيد الجمع، فالنعمة مفرد مضاف إلى الضمير –الياء- {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ} والمعنى اذكروا نعمي عليكم، وهذا الخطاب صريح في أنه موجه إلى بني إسرائيل في تذكيرهم بنعم الله -عز وجل-.

بعض أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن كل ما سبق من الحديث عن خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود له، وإسكانه الجنة، وما أشبه ذلك كل ذلك موجه أيضاً لبني إسرائيل يذكرهم بهذه النعم، وأن الله -عز وجل- أكرمهم بإكرام أبيهم آدم بأن خلقه -سبحانه وتعالى- بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وما إلى ذلك، فهؤلاء العلماء يرون أن ما سبق هو أيضاً موجه إلى بني إسرائيل، مع أن ظاهر ذلك أنه عام، فالله -عز وجل- يحكي خبر آدم -صلى الله عليه وسلم- ومن ضمن ذلك تذكير للناس بنعمته عليهم، وتحذيرهم من عدوهم إبليس، ثم تحدث بعد ذلك عن بني إسرائيل.

وعلى قول ابن جرير -رحمه الله- إن ذلك شروع في مخاطبة بني إسرائيل وتذكيرهم بنعمه -تبارك وتعالى- عليهم، ثم صرح باسمهم بعد ذلك، وإلا فالكلام معهم بدأ قبل ذلك.

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ}، أي: اذكروا نعمي، فتدخل في ذلك جميع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، ولا يختص ذلك بنعمة دون نعمة، وبالتالي ما يذكره السلف في تعداد بعض النعم كله داخل في معنى الآية، والله تعالى أعلم، فمن ذلك أنه أنجاهم من آل فرعون، وأغرق فرعون وقومه، ومن ذلك أنه أنزل عليهم المنَّ والسلوى، وأنه اصطفاهم على عالمي زمانهم، وجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكاً،

وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي يمتن الله بها على بني إسرائيل.

{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: اذكروا نعمي باللسان وبالقلب وبالعمل بالجوارح، بالقيام بوظائف العبودية، فهذا كله داخل في معنى قوله: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}.

هذا الخطاب عن النعم يتوجه إلى الأحياء من بني إسرائيل مع أن تلك النعم التي كانت لهم من إنقاذهم من فرعون، وإنزال المن والسلوى، وجعل الملك فيهم وغير ذلك من النعم التي ذكرها الله تعالى إنما كانت لأجدادهم، فكيف صح مخاطبتهم بذلك مع أنهم لم يدركوا تلك النعم ولم يروها، ولم تحصل لهم وإنما حصلت للأجداد؟

الجواب عن ذلك أن يقال: إن القاعدة أن النعمة التي تكون للآباء تتصل بالأبناء والذرية، وبالنسبة للرزايا فإن ذلك يكون متصلاً بذريتهم إذا كانوا على طريقتهم، ولهذا يقول لهم الله -عز وجل-: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة]، مع أن الذين كانوا في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قالوا هذا، لكن لما كانوا على طريقتهم صح أن يوجه إليهم هذا الخطاب، وهكذا في أمثلة كثيرة، وهذا هو الفرق بين المخاطبة بالنعمة وذكر الرزايا التي قارفوها.

"فإسرائيل هو يعقوب؛ بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فقال لهم: ((هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟)). قالوا: اللهم نعم. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اشهد))[1].

وروى الطبري عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن إسرائيل كقولك: عبد الله."

يقولون: إن إسرائيل هي كلمة أعجمية مركبة، الجزء الأول منها بمعنى عبد، والثاني بمعنى الله، ولهذا يقال: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وما أشبه هذا، وهذا أشهر ما فسرت به، وإلا فقد فسرت بأشياء كثيرة غير هذا، منها قول بعضهم: إن المراد بإسرائيل هو أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- أسر الشيطان، فإيل هو الشيطان، وهذا قول غير صحيح.

"وقوله تعالى: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سِوَى ذلك أن فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذا كقول موسى -عليه السلام- لهم: {يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] يعني في زمانهم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه.

1

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] **قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي -صلى الله عليه وسلم- إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم.**

وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٢) سورة المائدة]."

لعل أحسن ما يفسر به هذا الموضع من كتاب الله -عز وجل- أن يفسر بالقرآن، **{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}** فعهد الله -عز وجل- مصرح به في هذه الآية: **{لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا}** [(١٢) سورة المائدة]، ثم بعد ذلك العهد إن وفوا به يكون لهم الجزاء الحسن، **{لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [(١٢) سورة المائدة]، فهذا عهد الله -عز وجل- لبني إسرائيل، والله أعلم.

"وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبيًا عظيماً يطيعه جميع الشعوب، والمراد به محمد -صلى الله عليه وسلم- فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين."

هذا داخل في قوله تعالى: **{وَآمَنتُم بِرُسُلِي}** الذين منهم محمد -صلى الله عليه وسلم- فهذا من العهد الذي أخذ الله عليهم، كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا}** [(٨١) سورة آل عمران] فهذا من العهد الذي أخذه الله -عز وجل- على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأمم وأتباع هؤلاء الأنبياء تبع لهم كما هو مصرح به في هذه الآية: **{وَآمَنتُم بِرُسُلِي}** [(١٢) سورة المائدة].

" وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بمحمد -صلى الله عليه وسلم-."

الرازي في التفسير الكبير ذكر من الكتب السابقة طائفة من هذه البشارات، وذكر غيرها أيضاً جماعة من المفسرين، فهم حينما يوردون ما ورد في الكتب السابقة من البشارة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- يوردونها في هذا المقام، وبعضهم يوردها في مقام آخر، وهو قوله تعالى: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [(٦) سورة الصف]، فتجد مثلاً صديق حسن خان في كتاب فتح البيان أورد نماذج كثيرة من كتب بني إسرائيل التي تصرح بمجيء النبي -صلى الله عليه وسلم-.

"وقال أبو العالية: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي} [(٤٠) سورة البقرة] **قال: عهده إلى عباده: دين الإسلام وأن يتبعوه."**

وهذا مثال على ما سبق أيضاً من الكلام على المفرد المضاف والذي يؤديه من معنى، وهو أن المقصود أوفوا بعهودي.

"وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] **قال: أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة، وكذا قال السدي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.**

وقوله تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [(٤٠) سورة البقرة] **أي: فاخشون؛ قاله أبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة.**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} أي: أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمَات التي قد عرفتم من المسخ وغيره."

أي أنه يخوفهم، وكل ذلك من التفسير بما يقرب المعنى، وليس ذلك من قبيل التفسير بالمطابق، وإلا فإن الرهبة تفترق عن الخوف في المعنى الزائد أو قل: في المعنى الخادم، وإن كانت تتفق معه في المعنى الأصلي، فالمعنى الأصلي للرهبة هو الخوف كما فسرت به هنا، ولكنها تفترق معه في المعنى التكميلي، فالرهبة نوع من الخوف هي أخص منه، والخوف على مراتب، كما أن المحبة على مراتب، فالخوف منه ما يكون رعباً، ومنه ما يكون من قبيل الرهبة، ومنه ما يكون من قبيل الخشية، فهو في كل مقام بحسبه، فتارة يكون ذلك مع علم بالمخوف منه، فيكون ذلك من قبيل الخشية وتارة يملأ القلب فيضطرب له القلب ويرتجف فيكون ذلك من قبيل الرعب وتارة يكون مع شيء من التعظيم لهذا المخوف..، إلى غير ذلك مما يصاحب الخوف، فيكون له معنىً يخصه.

"وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ ولهذا قال: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ} [(٤١) سورة البقرة] **يعني به القرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- النبي الأمي العربي بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل.**

قال أبو العالية -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ} يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمدًا -صلى الله عليه وسلم- مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك."

الكتب التي يذكر فيها مناظرة النصارى، والرد على النصارى تجد فيها نماذج كثيرة من هذه النصوص المنقولة عن كتبهم.

انظر مثلاً في كتاب إظهار الحق للكرواني الهندي -رحمه الله- في مجلدين مطبوع، وهو من أفضل ما كُتب في مجادلة النصارى والرد عليهم، تجد فيه نصوصاً كثيرة نقلها من كتبهم، وقد اعتنى بهذا طائفة من المعاصرين الذين تصدوا للرد على النصارى ومجادلتهم ومناظرتهم، وجمعوا أشياء من هذا.

"وقوله: {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} [(٤١) سورة البقرة]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.**

قال أبو العالية: يقول: {وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ من كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس."

قوله: **من جنسكم أهل الكتاب،** هو جواب على إشكال مقدر، وهو كيف وصفهم بهذا الوصف {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} مع أنهم سُبقوا إلى ذلك الكفر؛ إذ إن هذا القرآن أول ما طرق إنما طرق أسماع المشركين في مكة، فكفر من كفر من أهل مكة، فكيف خاطبهم بذلك في هذه السورة المدنية؟

فالجواب: {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} يعني من أهل الكتاب، فيكونون بذلك قد سنوا سنة سيئة لمن جاء بعدهم ممن هو على دينهم من أهل الكتاب.

ولا شك أن هؤلاء اليهود الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- أو من جاوروه في المدينة هم أول من طرق سمعهم هذا القرآن من أهل الكتاب، فلما ردوه وكذبوا به، ووصفوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بما وصفوه به كان ذلك إغلاقاً لباب القبول، فتتابع أهل الكتاب على ذلك، وصار عامة اليهود لا يدخلون في الإسلام إلا الواحد بعد الواحد، عبر قرون متطاولة.

"**واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: {بِهِ} عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: {بِمَا أَنزَلْتُ}**."

أي أن القول الأول في قوله {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}، يعني بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، والقول الثاني بالقرآن.

نص الآية: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} [(٤١) سورة البقرة]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يذكر في الآية، فمن قال: إن المراد بقوله: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ} إنه القرآن ، قال: لأنه هو المحدث عنه في الآية، وهذا هو المتبادر، والذين قالوا: إن المقصود به النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: هو الذي جاء بالقرآن فكفروا به، وقالوا إنه كذاب مفترٍ على الله -عز وجل-، وأي القولين أرجح؟

القول الأول أرجح، وعلى القول الثاني: إن المراد به النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون هذا من قبيل المثال على ما سبق ذكره، وهو عود الضمير على غير مذكور، والله أعلم..

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: يمكن أن يجتمع المعنيان لما بينهما من الملازمة، وسبق الكلام على ذكر قاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر وأمكن حملها على الجميع من غير معارض فإنها تحمل عليها؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعنى الكبير.

ومن صور هذه القاعدة -وهو من أجلى صورها التي يحمل فيها هذا على هذا- أن يكون بين المعنيين ملازمة، ولا شك هنا أنه بين المعنيين ملازمة، فالذي كفر بالقرآن لا شك أنه كفر بمن جاء بالقرآن وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-، لأنه إذا قال: هذا القرآن كذب، فالذي جاء به كذلك متصف بالكذب، ولكن حينما تفسر الآية يذكر هذا على سبيل بيان المعنى باللازم، بمعنى أننا لا نفسر به لأول وهلة ونقف عليه، لا نقول: معنى الآية {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أي: بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فهذا من قبيل التفسير باللازم، وإنما يذكر هذا للحاجة، وإلا فالأصل أن يذكر المعنى الأصلي المتبادر -بالمطابق مثلاً-، فنقول: {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أي بالقرآن، ونقول: ولازمه، ولا تكونوا أول كافر بمن جاء بالقرآن؛ لأن من كفر بالقرآن يلزم منه أن يكون كافراً بمن جاء بالقرآن.

والنص القرآني يفسر بجميع أنواع الدلالة، يفسر بالمطابق، وباللازم، وبالتضمن، وبالإشارة، وبالإيماء والتنبيه، فهو كلام حق صدر من عليم حكيم لا يخفى عليه شيء -سبحانه وتعالى-، فيقلِّب الكلام بألوان هذه

الدلالات ويستنبط منه المعاني جميعاً، فإذا جئنا نوجه الآن قول من قال: إن المقصود بالآية محمد -صلى الله عليه وسلم- نقول: هذا مثال على التفسير باللازم، وللعلم فإننا بهذه الطريقة نستطيع أن نوجه عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهذا أفضل من أن نقول: وفي الآية قولان، القول الأول كذا، والقول الثاني كذا، ثم نمضي، فهذا ليس بتفسير، إنما التفسير أن نناقش هذه الأقوال، فنقول: هذا القول محمول على كذا، وهذا القول محمول على كذا، وهكذا نوجه هذه الأقوال أو نختار منها ما هو أرجح، فلا نقول مثلاً: من قال بأنه محمد -صلى الله عليه وسلم- فقوله هذا باطل، بل نقول: هذا تفسير باللازم..

"واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: {بِهِ} عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: {بِمَا أَنزَلْتُ}، وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ومن كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فقد كفر بالقرآن."

من الأمثلة للتفسير باللازم قوله تعالى: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [(٣) سورة الفلق]، قيل: إن الغاسق الليل وقيل: القمر، والقمر والليل بينهما ملازمة؛ لأن القمر هو آية الليل التي في قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} [(١٢) سورة الإسراء]، فإذا ذكر القمر ذكر الليل، وإذا ذكر الليل ذكر القمر.

"وأما قوله: {أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بَشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} [(٤١) سورة البقرة] يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية."

في أول السورة قال الله -عز وجل-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة]، وقلنا: إنهم ما كانوا يملكون الهدى حتى يشتروا الضلالة، لكن لا يخفى عند من سلمت فطرته وسليقته العربية أن يفهم أن المراد بذلك أنهم استعاضوا بالضلالة عن الهدى.

وقوله: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} [(٤١) سورة البقرة] هذا تعبير دقيق ومعناه لا تعتاضوا أو لا تستبدلوا، والباء تدخل على المتروك، تقول: اشتريت الكتاب بدرهم، فالدرهم هو قيمة الكتاب، واشتريت الكتاب بثوب، كلاهما سلعة، فيكون الباء على الشيء الذي خرج من يدك.

قال بعض الرجاز: أبدلت بالجمة رأساً أزعرا، وبالثنايا الواضحات الدردرا، كما اشترى المسلم إذ تنصرا، أي: استعاض عن الإسلام بالنصرانية ولم يكن نصرانياً قبل ذلك،

وهنا {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} أي: لا تعتاضوا عنها، بمعنى أنكم ترتضون الكفر والبقاء على الضلال والانحراف بسبب إحراز الدنيا، وذلك عن طريق ما كانوا يأخذونه من الرشا فيبدلون بذلك أحكام الله -عز وجل- حيث كانوا يجعلونه في قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً منها، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٤) سورة التوبة]، فيأكلون أموال الناس بالباطل بصور شتى، ومنها: الرشا التي يأخذونها، إضافة إلى الأموال الأخرى كالسخرة وغير ذلك

مما كانوا يتعاطونه ويفعلونه بهيمنة رجال الدين والكنيسة والرهبان وما إلى ذلك، وتارة يأخذونه على أنه يصرف في أعمال البر، وهم يأخذونه لأنفسهم في الحقيقة، إلى غير ذلك من أكلهم أموال الناس بالباطل.

فقوله تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} الرشا داخلة فيه، كما أن الثمن القليل لا يشترط أن يكون مالاً، وإنما قد يكون المحافظة على المنزلة والأتباع والمكانة وما أشبه ذلك، واقرءوا ما كتبه الشيخ عبد الرحمن المعلمي –رحمه الله- في أواخر كتاب التنكيل الذي فصل وسمي القائد إلى تصحيح العقائد، ففيه كلام في غاية الجودة عن موانع الهدى، يبين فيه ما الذي يجعل الإنسان يصر على الضلال والانحراف ويبقى شيخ طريقة أو رأساً في البدعة، وذكر أموراً كثيرة جداً، ومما ذكر أن منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة فإذا اهتدى ربما فقد شهرته ومعيشته مما قد يؤدي إلى الرجوع إلى حاله الأول إلا أن يكتب الله له الرجوع الصادق إلى الحق.

ومن أمثلة هؤلاء: كبار الصوفية، وشيوخ الرافضة، وأشباههم ممن يأخذون أموال الناس ولهم في ذلك أتباع، ولهم منزلة عند الناس، فمثل هؤلاء إذا أرادوا الرجوع عن الضلال والانحراف يعلمون أنهم سيفقدون هذه الأمور جميعاً من شهرة ومعيشة، فربما بقوا على ما كانوا فيه من الضلال إبقاء على تلك المنازل والأموال ثمناً قليلاً على حساب دينهم.

ومن أمثلة ذلك أن تجد إنساناً موظفاً في وظيفة محرمة، فيصر على الباطل ويبقى على انحرافه، وذلك إبقاء على هذا الثمن القليل؛ لأنه يعلم أنه إن رجع إلى الحق فسيفقد تلك الوظيفة وما تدر عليه من أموال ونحو ذلك.

"وقوله: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [(٤١) سورة البقرة] **روى ابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب -رضي الله تعالى عنه-، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله."**

بمعنى أن التقوى ليس معناها أن يترك المرء الحرام لعدم رغبته فيه بطبيعته مثلاً، وليست نفسه مما يطلب ذلك ويشتهيه، أو يترك ذلك خوفاً من الناس أو حياءً منهم، وإنما على نور من الله، ترجو ثواب الله، أو تخاف عقاب الله.

"ومعنى قوله: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ* وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}

[(٤٢-٤٣) سورة البقرة]

يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} فنهاهم عن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقال قتادة: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون، أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وروي عن الحسن البصري نحو ذلك."

قوله: **أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله**: معنى ذلك في قوله تعالى: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(٦٧) سورة آل عمران]، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وموسى، وعيسى وغيرهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، حاشاهم من ذلك، وإنما كانوا حنفاء على الإسلام.

بعض أهل العلم يستشكل القول بأن هؤلاء يخلطون الحق بالباطل، ويقول: إذا خلط الحق بالباطل صار كله باطلاً فكيف قال: **{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}**؟ كما أن هناك استشكالاً مشابهاً في آية أخرى ،عن كلمة لا علاقة لها بالموضوع هنا، وهي قوله تعالى: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف].

والحقيقة أنه لا إشكال في هذه المعاني إطلاقاً، إذ يمكن أن يجتمع هذا وهذا فيكون الإنسان قد جمع بين الإيمان والكفر، والنفاق والإيمان، والجاهلية والإسلام، ويكون قد جمع بين الحق والباطل؛ فبعض طوائف اليهود أو طوائف النصارى مثلاً منهم من كان يعترف بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، بعضهم كانوا يقرون بهذا، ولكنهم يقولون: إنه مبعوث إلى العرب خاصة، ولسنا مخاطبين بذلك، فهذا من لبس الحق بالباطل.

وكذلك حينما يعترفون أنه سيأتي نبي ويذكرون أوصافه فهذا من الحق، ولكن حينما يقولون: إنه ليس بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فهذا من لبس الحق بالباطل، وكذلك حينما كان الواحد منهم يقول لصهره أو لرضيعه أو لقريبه من الأوس أو الخزرج هذا هو النبي الذي بشرنا به، فاثبت على هذا الدين -يعني الإسلام- وهذا حق، ومع ذلك هو كافر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وبما جاء به، ولهذا قال بعده: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}** [(٤٤) سورة البقرة].

فهذا من المعاني الداخلة تحته، يقول: هذا حق اثبت عليه، وهو أبعد الناس عنه، فيمكن أن يجتمع هذا وهذا ويخلط الحق بالباطل، وهذا كثير، وقد شابهتهم هذه الأمة في ذلك كما قال عليه الصلاة والسلام-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[2].

إذن: يوجد من يخلط الحق بالباطل، ويلبس على الناس الحق فيجمع بين هذا وهذا، وتجد في الكلام الواحد من اجتماع الحق والباطل الشيء الكثير حتى إن السامع لربما يتحير لهذا القائل ماذا يريد أن يقول، فهو يجمع بين أمور صحيحة وأمور باطلة، وربما كان ذكر الأمور الصحيحة في مقدمة ذلك ومطلعه من أجل الترويض والتهيئة لما سيذكره بعد ذلك من الباطل.

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٤٢) سورة البقرة]، أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في ما تعلمون من الكتب التي بأيديكم."

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) (٦٨٨٩) (ج ٦ / ص ٢٦٦٩)، ومسلم في كتاب: العلم – باب: اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩) (ج ٤ / ص ٢٠٥٤).

هذا من أجلى صور كتمان نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولكن يدخل فيه أيضاً من الكتمان أشياء أخرى كانوا يكتمونها، كما قال الله -عز وجل-: {وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام]، ومن ذلك لما سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حد الزنا فأخفوه وذكروا له التحميم، فلما دعا بالتوراة وضع الحبر أصبعه على آية الرجم، وأنكروا أن يكون ذلك في التوراة، وكل هذا من كتمان الحق، فلما قال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- ما قال، وأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- الحبر أن يرفع أصبعه، ماذا قال الحبر؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فألقمه الله حجراً حيث قال: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام].

"قلت: ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان: الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل."

هذا المعنى الذي ذكره تحتمله الآية، لكن المعنى المتبادر هو أي تقومون بذلك عن علم، ولا يقع ذلك بسبب جهل وخفاء في الحق، وإنما تفعلون ذلك قصداً وعمداً، {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً} [(٧٩) سورة البقرة]، قال: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} ليقرر وليثبت هذه الجريمة عليهم، وهذا من أجلى صور التأكيد.

وفي قوله: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة]، ذكر قضية وهي أنه نهاهم عن أمرين يمكن أن يكون النهي عنهما معاً على قول بعض المفسرين، بمعنى أن الكلام مركب بهذه الطريقة {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة]، يعني نهاهم عن اجتماع الأمرين.

ولا شك أن كل من لبس الحق بالباطل أنه لا بد أن يكون قد كتم الحق، لا بد من هذا إذ بينهما ملازمة، فالحاصل أن بعض أهل العلم يقول: نهاهم عن الأمرين معاً، أي: عن كتمان الحق ولبس الحق بالباطل، {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ}.

وللتوضيح نذكر هذا المثال: لو قلت لشخص: لا تقرأ وتقف، فهل أنت نهيته عن كل واحد من هذين الأمرين على سبيل الاستقلال، بمعنى أنه منهي عن القراءة ومنهي عن الوقوف، أم أنه منهي عن القراءة في حال الوقوف؟

لا شك أنه منهي عن القراءة في حال الوقوف، فهذا بين من السياق، وفي الآية، {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة] هل يوجد أحد يلبس الحق بالباطل، ويكون مع ذلك غير كاتم للحق؟ لا يوجد، ولذلك فالحاصل أن بعض أهل العلم يقول: النهي هنا متوجه لمجموع الأمرين.

لكن إذا قلنا بأن كل واحد أيضاً منهي عنه على سبيل الاستقلال لا تلبسوا الحق بالباطل، ولا تكتموا الحق، ما الإشكال في هذا؟

لا إشكال؛ وبالتالي فعلى الأول يكون: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} في حال كونكم كاتمين للحق، فهو نهاهم عن شيئين لا شك، لكن لا ندقق في هذا كثيراً؛ لأننا في الواقع إذا قلنا: نهاهم عن لبس الحق بالباطل فقد نهاهم -ولا بد- عن كتمان الحق؛ لأنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا إلا بالكتمان، لذا فهو نهاهم عن الكتمان.

"{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة البقرة] **قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} أمرهم أن يصلوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.**

{وَآتُواْ الزَّكَاةَ} أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقوله تعالى: {وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة."

قوله: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} سبق الكلام على معنى الإقامة، وأنه إذا أمر بالصلاة أمر بإقامتها، وما معنى الإقامة، ولماذا يجمع بين الصلاة والزكاة كثيراً؟ كل هذا سبق الكلام عنه في أول السورة.

{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة البقرة] الركوع معروف، وهو يطلق على الركوع المعروف في الصلاة، ويطلق أيضاً على السجود، ويطلق على الانحناء، كل ذلك من الركوع، وكذلك يطلق على الخضوع، فتقول: فلان يركع لفلان بمعنى أنه خاضع له.

والمقصود هنا أن الله أمرهم أن يركعوا مع الراكعين، -كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وهو من أحسن ما تفسر به هذه الآية، والله أعلم.

أي: كونوا مع أهل الإيمان، وشاركوهم في أعمالهم الصالحة الطيبة، ومن أخص ذلك الصلاة المعبر عنها بالركوع، والعبادة قد يعبر عنها بجزء منها كما قال الله -عز وجل-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} [(٧٨) سورة الإسراء]، يعنى صلاة الفجر أي الفريضة، فعبر عنها بجزء منها شريف، ولا شك أن مثل هذا التعبير يدل على أن ذلك من أركانها، إذا عبر عن العبادة بجزء منها فإن ذلك يدل على منزلة فيها، وأنه ركن من أركانها.

وهذه الآية يستدل بها العلماء كما أشار الحافظ -رحمه الله- على أن صلاة الجماعة واجبة، وهذا الاستدلال في بادئ الأمر ربما يتراءى للإنسان لأول وهلة أنه احتجاج واستدلال قوي، ولكن ماذا يقولون في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة آل عمران]، هل هي مأمورة بصلاة الجماعة، مع أنه لم يذكر الركوع فقط وإنما ذكر السجود أيضاً، {وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} فلماذا تقولون هنا: هذا ليس أمراً بالجماعة مع أن السياق واحد؟

على كل حال قوله تعالى: {وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة البقرة] لا يكفي في الاحتجاج على وجوب صلاة الجماعة، ولكننا نأخذ وجوب صلاة الجماعة من أدلة أخرى، مثل همّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحرق على أقوام بيوتهم، وما أشبه ذلك من الأدلة.

"{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٤٤) سورة البقرة] **يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قَصر في أوامر الله؟**

{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنتبهوا من رَقدتكم وتتبصروا من عمايتكم، وهذا كما قال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون، فَعَيّرهم الله، -عز وجل- وكذلك قال السدي.

وقال ابن جريج: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ} أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدَعُونَ العملَ بما يأمرون به الناس، فعيَّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} أي: تتركون أنفسكم {وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، -عليه السلام-: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [(٨٨) سورة هود]، فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف."

قوله: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ} الهمزة هنا للإنكار، أي: كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، ويدخل فيه كل ما ذكره المفسرون، حيث كانوا يأمرون بعض من يعرفون مثلاً باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- والثبات على هذا الدين، ثم هم لا يتبعونه -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك أيضاً ما كانوا يأمرون به الناس من طاعة الله -عز وجل- وهم أبعد الناس عن ذلك، بفسادهم وارتكابهم للموبقات، وأكلهم لأموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله تعالى بأفعالهم قبل أقوالهم.

وهذه الآية موجهة لبني إسرائيل، ولكنها لا تختص بهم، فإذا كان هؤلاء قد نهوا عن مثل هذا الصنيع، فإن هذه الأمة مخاطبة بذلك من باب أولى، فهذا فعل لا يليق بالعقلاء، فضلاً عن أهل الإيمان، ولذلك قال: **{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** [(٤٤) سورة البقرة]، أي: كيف يكون هذا؟ كيف تأمر الناس بشيء وأنت تخالف هذا الشيء، قولك يدلهم عليه وفعلك يصرفهم عنه، بل ينبغي أن تكون كما قال شعيب -صلى الله عليه وسلم-: **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}** [(٨٨) سورة هود]، كذلك عليك أن تتنبه لقوله تعالى:: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [(٢-٣) سورة الصف].

فالإنسان ينبغي عليه أن يجمع بين ما يدعو الناس إليه وبين الامتثال لذلك في نفسه، ولكن كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن التبعة لا تسقط على الإنسان إذا كان غير ممتثل في نفسه، لا تسقط عنه تبعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الشريعة فيها واجبات كثيرة منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع، وما أشبه ذلك من بر الوالدين وصلة

الأرحام وغير ذلك، فإذا ترك الإنسان واحداً من هذه الأشياء، فإن ذلك لا يعني أنه يترك الآخر، فإنه يجمع إلى هذا التقصير تقصيراً غيره، فيكون ذلك أحط لمرتبته، وأعظم في الذنب والجرم.

فالأمر بالمعروف واجب، والنهي عن المنكر واجب، فإذا اقتصر الإنسان على الأمر بالمعروف فقط دون النهي عن المنكر يكون قد ترك واجباً، لكنه أفضل من الذي لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، والذي يقتصر فقط في النهي عن المنكرات ولا يأمر بالمعروف يكون قد ترك واجباً، وكذلك من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن هذا قد ترك واجباً، وترْكُ الامتثال كذلك.

فالناس على مراتب، منهم من يترك الامتثال، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية، هذه مرتبة، وأحط من هذا من يترك الامتثال وينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر، يليها أن يفعل المنكر ويترك المعروف، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه مرتبة فوق التي قبلها -أعلى منها- وهذا أحسن حالاً من الذي قبله في الانحراف، ثم يأتي بعد ذلك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يمتثل، ثم يأتي بعد ذلك من يمتثل في نفسه ولكنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، ثم الذي أحسن منه حالاً هو من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكون ممتثلاً في نفسه.

وقضية الامتثال مطلوبة في الجملة ولكن ذلك متعين في الأمور الواجبة والمحرمة، فيجب أن نفرق بين هذه الأمور.

هناك أشياء واجبة وأشياء محرمة، وحدود الله -عز وجل- لا يجوز أن تنتهك، فيجب على الإنسان أن يقف عندها، سواء كان يأمر أو ما يأمر فإذا ضيعها فإن ذلك لا يسوّغ له تضييع واجب آخر، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا من تضييع حدود الله -عز وجل-.

يبقى القدر المستحب من الامتثال فهذا أمر يتفاوت الناس فيه غاية التفاوت وهو لا يجب على الإنسان ابتداءً، ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بكل ما جاءت به الشريعة فيعمل هذه الأمور جميعاً، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لا غضاضة عليه أن يأمر بلون من ألوان المعروف والطاعة المستحبة وإن كان هو لا يفعل هذا، كالذي يحث الناس مثلاً على لون من العبادة مستحبةً وهو لا يفعلها لسبب أو لآخر، فهو مشتغل بعبادات أخرى، كالذي يحث الناس على إغاثة الملهوف، والقيام على الأرملة واليتيم، وهو لا يفعل هذا، لكنه مشتغل بأمور أخرى من العبادات قد استحوذت على جهده واهتمامه ووقته، فلا يجد وقتاً لمثل هذا.

والذي يحث الناس على أن يعلم الناس الخير وهو لا يعلم الناس بمعنى أنه لا ينتصب للتعليم، فهذا قد لا يكون ملوماً؛ لأنه قد يكون مشغولاً بأمور أخرى أهم من هذا.

فالمستحبات لا يستطيع الإنسان أن يحيط بها، أما الواجبات فيجب عليه أن يلتزم بها، وكذلك عليه أن يترك المحرمات، وبالتالي هذا اللوم يتوجه إلى المفرطين القاعدين عن طاعة الله -عز وجل- المرتكبين لحدوده ومحارمه، لكن هذا التفريط والمعاتبة التي جاءت في حق هؤلاء، لا تعني أن الإنسان يتخلى عن هذه الواجبات جميعاً، ويقول: أنا لن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر لأني أنا غير ممتثل أصلاً، بل التقصير عام عند الجميع، وكل إنسان مقصر، فيجب على الإنسان أن يأمر وينهى وإن كان مقصراً حتى إن بعضهم يقول: يجب على أصحاب الكئوس أن ينهى بعضهم بعضاً، وهذا أمر لا بد منه وإن كان الإنسان غير ممتثل.

"قال الإمام أحمد: عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة -رضي الله تعالى عنه- -وأنا رديفه-: ألا تكلم عثمان -رضي الله تعالى عنه-؟ فقال: إنكم تُرَون أني لا أكلمه إلا أُسْمِعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه."

هؤلاء الناس يقولون لأسامة -رضي الله عنه- لأن عثمان بن عفان كان يقربه، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقربه ويدنيه، يقولون: ألا تكلم عثمان بن عفان يعني في أمور أخذوها عليه -رضي الله تعالى عنه-، يعني ألا تنصح عثمان.

فأسامة -رضي الله عنه- يبين لهم أنه قد فعل، وقد قام بهذا الواجب ونصحه، وبين لهم أن نصحه له لا يعني تعيير عثمان بذلك وأن هذا النصح لا بد من إظهاره للآخرين، فإن النصح يختص بعثمان -رضي الله عنه- وقد حصل، فهو يقول: هل تريدون مني إذا نصحت عثمان أن آتي وأشنع عندكم وأقول قلت له كذا، وأجابني بكذا، إلى آخره.

المقصود أنه يقول: قد نصحته، هل تريدون أن أخبركم عن ذلك؟! هل تريدون أن أظهر لكم ذلك؟! إذ لو كانت النصيحة بهذه الطريقة لصارت فضيحة، وليست نصيحة، وهذا هو الفرق بين النصيحة والفضيحة.

إلا أن هذا الفرق لا يعتد به في عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمنكرات الظاهرة يجب أن تنكر علناً؛ إذ ما ظهر علناً يجب أن ينكر علناً، إلا إذا ترتب على ذلك مفسدة أعظم، فلا يصح الاحتجاج بمثل هذا وتقرير قواعد منه غير صحيحة، وإلزام الناس بها، وامتحانهم بذلك، فإن ذلك كما هو ظاهر إنما هو في النصيحة، فالنصيحة لا تكون تعييراً، ولا تكون تشهيراً، فإذا نصح الإنسان يحتسب ذلك عند الله -عز وجل-، ويرجو الإصلاح بهذا النصح، ولا يأتي بعد أن ينصح فيشنع بهذه النصيحة، أو يتخذ من هذه النصيحة سبباً لنفوقه عند الناس أو لشجاعته وبطولته، وأنه نصح الخليفة وقال له، ورد عليه، وأجابه، لا، بل هذه بينك وبينه، ،أنت نصحته تريد أجرك من الله -عز وجل-، فهذا يختلف عن قضية إنكار المنكر الظاهر، فلذلك علينا أن نجمع بين النصوص ولا نقف عند نص واحد.

في حديث أبي سعيد الخدري لما أراد مروان أن يخطب قبل صلاة العيد أخذه أبو سعيد بثوبه أمام الناس، وقال له: الصلاة أولاً، وكذلك قصة ابن عمر مع الحجاج وهو على المنبر أمام الناس، رد عليه بمحضر الناس في صلاة الجمعة.

وهذا الأسلوب في النصيحة يصح إذا لم يترتب عليه فتنة أو مفسدة أعظم، فالمنكر الظاهر يجب أن ينكر ويعرف الناس هذا الإنكار حتى لا يلتبس عليهم الحق بالباطل، وحتى لا يأتي ملبس بعد مدة ويقول: الشيخ الفلاني رأيته جالس والعمل الفلاني يُفعل ولم ينكره، فهذا يدل على الجواز، وهذا كثيرا ما نسمعه يُردد من بعض من يتكلم وهو ليس بأهل أن يتكلم ويقول على الله -عز وجل- بغير علم، فلذلك لا بد أن نفرق بين هذه المقامات، والنصوص يجب أن تجمع جميعاً ثم بعد ذلك يستخرج منها الأحكام، فلا يقتصر على بعضها أو يكون ذلك بطريقة انتقائية، فإنما يحصل ذلك الخلط بسبب الجهل بالنصوص الأخرى وليس بسبب الهوى.

"فقال: إنكم تُرَون أني لا أكلمه إلا أُسْمِعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميرًا بعد أن سمعت رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: ((يُجَاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه))[٣] [ورواه البخاري ومسلم]."

هذا الوعيد لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يمتثل، فما ظنكم بمن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، ولم يمتثل ألا يكون أشد عقوبة من هذا؟ فما ظنكم بمن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ولا يمتثل، ولا يرفع لهذه الأمور رأساً؟!

وهنا تنبيه وهو أن مثل هذه الآية وهذا الحديث قد يكون سبباً لقعود بعض الناس عن هذا الواجب، وهذا خطأ، وإنما ينبغي للإنسان أن يتقي الله -عز وجل- في نفسه وأن يأمر وينهى قدر استطاعته، ولا يتحمل من البلاء ما لا يطيق، ولا يدخل في أمر لا يعرف المخرج منه، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي إسناده حسن: ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)) فسئل عن هذا، فقال: ((يتعرض من البلاء ما لا يطيق))[٤].

فمن الناس من يتكلم بقوة، ويعجب به كثير من الناس، ثم بعد ذلك يبتلى فينقلب رأساً على عقب، فيقال: ليتك ثم ليتك ما تكلمت، ولا أمرت، ولا نهيت، وهذا كثير، ولو فتشت في حال كثير من الناس اليوم ستجد أنه كان في يوم من الأيام في الجهة المقابلة تماماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات، قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} **[(٤٤) سورة البقرة].**

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} **[(٢-٣) سورة الصف].**

وقوله إخباراً عن شعيب: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} **[(٨٨) سورة هود]."**

المقصود بالقصص هنا وعظ الناس وتذكير الناس بجذبهم وترقيق قلوبهم، وتذكيرهم بحيث يغلب على ذلك بإيراد الأخبار والقصص، والحكايات مع شيء من الوعظ، فيقال: قصص، ويقال: القُصَّاص، وقد جاء عن جماعة من أهل العلم ذم ذلك ومن يقوم به ويتعاطاه، وجاء عن الحسن الثناء عليه، وبهذا نعرف الفرق متى يكون المدح ومتى يكون الذم، فالذم للقَصّاص الذي يريد شد أسماع الناس والتأثير عليهم، والتكثر منهم، ولفت أنظارهم ولو باختلاق القصص أو إيراد ما هب ودب ودرج من غير تحقق ولا تثبت، فيورد القصص المختلقة المكذوبة، وكل ذلك فقط من أجل أن يعرض مادة على هؤلاء الناس تشد انتباههم وتستهويهم أو

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٤) (ج ٣ / ص ١١٩١) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق - باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩) (ج ٤ / ص ٢٢٩٠).

[4]- أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن - باب: ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٤) (ج ٤ / ص ٥٢٢)، وابن ماجه في كتاب: الفتن - باب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٦) (ج ٢ / ص ١٣٣٢)، وأحمد (ج ٥ / ص ٤٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٩٧).

ترقق قلوبهم أو ما أشبه ذلك ولو باختلاق الكذب فهذا هو المذموم، وأما من يتحرى الصدق ويتثبت وينقل الأشياء الصحيحة ونحو ذلك فهذا لا إشكال فيه، وهو الذي أثنى عليه الحسن -رحمه الله-، والله -عز وجل- جعل لكل شيء قدراً، والناس وزع الله بينهم هذه المواهب والهمم، وصار منهم من يشتغل بهذا، ومنهم من يشتغل بهذا، فينفع الله بهذا وهذا وهذا، وقد يكون هذا لا يحسن هذا، ولم يفتح عليه فيه، وهذا لم يحسن هذا، ولم يفتح عليه فيه، وهكذا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(٤٥-٤٦) سورة البقرة].

"يقول تعالى آمرًا عبيده فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل ابن حَيَّان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد.

قال القرطبي وغيره: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث.

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، -رضي الله تعالى عنه- قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

قال: وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر -رضي الله تعالى عنه-."

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} هذا خطاب لبني إسرائيل كما هو ظاهر من هذه الآيات، كما أن السياق يدل على ذلك.

ومعنى {وَاسْتَعِينُواْ} السين والتاء للطلب، أي اطلبوا العون بالصبر والصلاة.

والمعاني التي ذكرها في الصبر وكذلك ما لم يذكره كثير منها يدخل في معناه العام، فالصبر أصله بمعنى الحبس، تقول: صبرت نفسي على كذا، بمعنى حبستها على كذا.

فصبرت عارفة بذلك حرة ... ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والمعنى أنها ثبتت فحبسها عن الفرار في ساحة القتال.

فحبس النفس على طاعة الله -عز وجل- بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وحبس النفس عن التسخط والجزع، كل ذلك من الصبر، الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، و الصبر على أقدار الله المؤلمة، فكل أمر شاق على النفوس مما يتصل بالتروك أو كان من جهة المأمورات فإنه بحاجة إلى صبر، فالله -عز وجل- نهى عن أشياء ومنها التسخط والجزع عند المصائب، وعلى هذا فالإنسان مأمور بأن يصبر؛ لأن النفس تدعوه إلى ما جبلت عليه من الضعف والميل إلى رغباتها ومطلوباتها، فالمدافعة والحبس والمنع عن ذلك يحتاج إلى جهد، فهذا صبر، وكذلك فعل المأمورات يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى عمل من العبد كي

يحمل نفسه على هذه الطاعة وهذا المأمور، وإلا فإن النفس تدعوه إلى الإخلاد والراحة، ومن هنا كان بحاجة إلى الصبر.

ولذا يمكن أن يقال بصفة عامة: إن الصبر هو الثبات على طاعة الله -عز وجل- بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالصبر على الأقدار المؤلمة بهذا الاعتبار داخل في الأمرين، فالله -عز وجل- أمر العبد عند المصيبة بأمور ونهاه عن أمور، فلهذا هو يحتاج إلى حبس للنفس.

ولا شك أن كل مطلوب ترتفع به النفس فهو بحاجة إلى صبر حتى في المطالب الدنيوية، فلا يمكن أن يرتفع الإنسان ويرتقي لا في علم ولا في عمل إلا بالصبر.

وليس هناك شيء لا يحتاج إلى الصبر إلا التوافه والدنايا والشهوات، بل حتى هذه الأمور ليس في كل أحوالها لا تحتاج إلى صبر فأحياناً لا يحصلها الإنسان إلا بشيء من الصبر، فلا يكاد ينفك عن الصبر أمر من الأمور.

فالله -عز وجل- يقول: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} ومن فسر الصبر بالصوم، باعتبار أن الصوم متعلق بالصبر، وأن رمضان هو شهر الصبر فليس بظاهر، وإنما الأقرب أن يفسر الصبر بمعناه الظاهر المتبادر المعروف من كلام العرب، فإذا أطلق الصبر فهو معروف، فلا يلجأ إلى معنىً آخر من غير دليل.

"وأما قوله: {وَالصَّلاَةِ} فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [(٤٥) سورة العنكبوت] الآية."

وجه تعلق الصلاة بالصبر يمكن أن يقال فيه -والله تعالى أعلم- إن الصلاة عبادة يقرأ فيها القرآن في أعظم الأحوال، وذلك حينما يكلم العبد ربه في صلاته، فقراءة القرآن في الصلاة أعظم من قراءة القرآن خارج الصلاة، والقرآن يأمره بالصبر، ويروض نفسه على الطاعة، أضف إلى ذلك أن الصلاة من أعظم ما يروض النفوس، إذ إن النفس فيها تطمئن، ويحصل لها ما يحصل من السكينة، والخضوع، والخشوع، والإخبات، والتواضع، وهذه الصلاة التي تؤثر هذا التأثير ليست أي صلاة، وإنما هي الصلاة التي تقام، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} وليست الصلاة التي تؤدى، وإقامة الصلاة ذكّرنا مرراً بأن المقصود به: أن يأتي بها مستوفية لأركانها وشروطها وواجباتها بخشوعها، وسننها وما إلى ذلك، وعلى قدر إقام الصلاة يكون قدر التأثير.

{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت] ذكرنا مراراً أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، فالحكم هنا: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} هذه النتيجة، والوصف هو قوله: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} فنهيها عن الفحشاء والمنكر مرتب على هذا الوصف الذي هو إقامتها، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر إقامة الإنسان للصلاة على قدر ما تؤثر فيه، فيتفاوت الناس بذلك تفاوتاً عظيماً، فهذه الصلاة التي يحصل بها هذا الخضوع وتذليل الجبهة والوجه وهي أشرف الأشياء، فتستوي مع القدمين في حال السجود، إلى غير ذلك مما يفعله ويقوله الإنسان حينما يمد عنقه وينحني في الركوع في حال يقول فيها: سبحان ربي العظيم، وهو في غاية الذل، فإذا صار في أسفل شيء يقول: سبحان ربي الأعلى، كل ذلك يؤثر في هذه النفس فتُخبت وتستكين، ومن ثم فإن ذلك أدعى وأعون للإنسان على أن يطمئن في أموره كلها عند المصائب، ويكون ذلك دافعاً له على زَمِّ النفس وخطمها وتثبيتها

على طاعة الله -عز وجل- وعن معصيته، فتنقاد له نفسه هينة سهلة، وهذا أمر مشاهد في المصلين إذ إنهم أقل من غيرهم من ناحية الانفلات والتمرد على الله -عز وجل-، ومحادّته بالمعاصي والموبقات، وليست هذه تزكية مطلقة للمصلين وإنما المراد أنهم أقل حالاً في التفلت ممن لا يصلون، وقد يحصل منهم ما يحصل من غيرهم، لكن الذي لا يصلي تتوقع منه أي شيء، ولا تدري ما الذي يأتيك منه، لكن إذا قيل لك: فلان يصلي حتى الفجر في المسجد، فهذا مؤشر أن هذا الإنسان يرجى منه خير كثير، ففيه خير كثير، تطمئن إليه ابتداءً، ثم بعد ذلك تحتاج أن تعرف بعض أحواله إن كان لك حاجة بهذا، لكن إذا قيل لك: لا يدخل المسجد، فإنك مباشرة تنقبض؛ لأن هذا لا تدري ما الذي يأتيك منه؛ لأن إنساناً لا يدخل المسجد إن زوجته فلا تدري كيف يصنع؛ إذ ربما كان القرب منه سبباً لكل كارثة، فنفسه غير مروضة، وإنما هي نفس منفلتة، لا ترعوي عن شيء إلا أن يكون الخوف من الناس أو نحو ذلك، فالمقصود أنه لا بد من الاستعانة بالصبر والصلاة على هذه الأمور جميعاً.

والخطاب وإن كان لبني إسرائيل إلا أن ذلك يشمل غيرهم بالضرورة؛ لأن هذه الأمور هي قضايا أخبر الله عنها أنها تؤثر هذا التأثير، وطالبهم بها، فنحن أيضاً مطالبون بذلك.

على أي شيء نستعين بالصبر والصلاة؟:

نستعين بالصبر والصلاة على تذليل المصاعب والمشاق في أمورنا الدنيوية والأخروية، ومن ذلك المشاق التي تواجهنا عند أداء العبادة، والمشاق التي تحصل بسبب فطم النفس عن الشهوات، والمشاق التي تحصل بترويض النفس عند المصيبة على حال يرضاها الله -عز وجل- من الصبر أو الشكر أو الرضى –والرضى بين الشكر والصبر- فكل ذلك يُحتاج إليه.

ومن ذلك –خاصة وأن الخطاب موجه لبني إسرائيل- فطم النفس عن مطلوباتها من تحصيل الرئاسات والعلو في الأرض، والترفع على الخلق، وهذه من أعظم الشهوات، فقد يستطيع الإنسان أن يقوم الليل ويصوم النهار، ومع ذلك إذا نوزع الرئاسة كشر عن أنيابه واستمات، وربما باع دينه من أجل هذه الرئاسات وقال على الله -عز وجل- الكذب، والإفك والباطل والزور، وكل ذلك من أجل تحصيل رئاسة يطلبها، أو من أجل تثبيت رئاسته، وهذا الأمر أكثر من يحتاج إليه أهل العلم، فهم أكثر الناس حاجة إلى مثل هذا، ولذلك لا بد من أن تطهر النفس وتزكى من الحسد ومن التطلع إلى ما عند الآخرين.

إنك تجد الناس ربما يحصل لهم حث على العلم وعلى طلب العلم، ويفرحون بطالب العلم إذا نشأ، فإذا برز وتميز ربما رماه بعضهم، ونصب نفسه عدواً له، وحاول أن يغمطه حقه، وتمنى زوال هذا الإنسان، مع أن هذا الإنسان قد لا يعرفه ولم يسيء إليه، ولم يجد منه أي تقصير في حقه، ولكن النفس تشتعل بالحسد والغيرة التي تدعو إلى فعل كل قبيح من غيبة وحسد ونحو ذلك من أمراض القلوب، وكلام أهل العلم كثير جداً في هذا الموضوع وفيه بيان كيف أن النفس تحتاج إلى مجاهدة كبيرة لفطمها عن هذه الأمراض الخبيثة، وبالتالي ينبغي للمرء أن يستعين على ذلك بالصبر والصلاة.

"والضمير في قوله: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} [(٤٥) سورة البقرة] **عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.**

ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص]، وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [(٣٤-٣٥) سورة فصلت] أي: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، {وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: يؤتاها ويلهمها {إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}."

قوله: {وَمَا يُلَقَّاهَا}: يعني هذه الخصلة أو الوصية، ومثل ذلك قوله: {وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص].

وقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} [(٤٥) سورة البقرة] القول بأن الضمير يرجع إلى الصلاة، هذا باعتبار القاعدة المعروفة وهي أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فيكون المعنى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا} أي الصلاة.

ومن قال: إن الضمير يرجع إلى ذلك جميعا، فسره بمعنى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} أي: الوصية المذكورة، فالهاء هنا للتأنيث فيرجع إلى معنى الوصية المذكورة بالأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة.

وعلى كل حال لا إشكال بأن يقال: إنه يرجع إلى الأمرين من حيث ما جرى استعماله في القرآن وفي لغة العرب إذا كان مراداً بذلك مجموع الأمرين -الصبر والصلاة- وهذا له أمثلة كثيرة، فتارة يرجع الضمير إلى أحد المذكورين باعتبار أن الآخر يدخل فيه، وتارة باعتبار أنه الأهم، أي يرجع إلى الأهم والمقصود الأعظم، ومن أمثلة ذلك: لما أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، ثم أعاد الضمير، أعاده إليه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} [(٢٠) سورة الأنفال]، والأصل أن يقال: ولا تولوا عنهما، فهذا باعتبار أن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- داخلة في طاعة الله، فهذا مثال على الأول،أي: أن يكون الثاني داخلاً في الأول.

وتارة لأنه الأهم مثل قول الله -عز وجل- في توليهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يخطب يوم الجمعة: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [(١١) سورة الجمعة]، فهو ذكر قضيتين، {تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} ثم قال: {انفَضُّوا إِلَيْهَا} فهذا كما سبق يمكن أن يقال: إنه رجع إلى التجارة؛ لأنها هي المقصودة، وليس اللهو هو المقصود، وإنما اللهو -وهو الطبل على هذا التفسير- كان يضرب به بين يدي القافلة إيذاناً بقدومها، وهذا قبل أن تحرم المعازف، وعموماً فالقافلة أصلاً لدحية الكلبي قبل إسلامه، فأعاد الضمير إلى أحد المذكورين، قبل؛ لأنه هو المقصود، وهو الأهم.

ومنه قول حسان -رضي الله عنه-:

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ... ما لم يعاصَ كان جنوناً

الأصل أن يقول: ما لم يعاصيا، فأرجع الضمير إلى أحدهما فقال: ما لم يعاصَ كان جنوناً، وهذا كثير جداً.

"وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني المصدّقين بما أنزل الله."

معاني الخشوع ترجع إلى معنى التطامن، إذا قلت: أرض خاشعة فإنه يصدق عليها هذا المعنى، وهكذا في كل استعمالاته يرجع إلى معنى التطامن.

وكلام أهل العلم فيه كثير جداً، لكنه معنىً يلتئم من الذل والانكسار والمحبة مع التعظيم، تجتمع هذه المعاني فيه، ولهذا يفسره بعضهم بأنه لين القلب ورقته وخضوعه وانكساره، وكثير من الألفاظ قد لا يمكن تفسيرها بلفظ واحد، تقول: كذا هو كذا، إلا إذا أردت ما يقرب من معناه أو تفسير اللفظ بنوع من أنواعه أو بجزء معناه، فتقول: الخشوع هو التطامن أو التواضع، لكن هذا التفسير لا يكفي، فهو ليس مجرد التطامن، وإنما يكون مع الخضوع والذل والانكسار والمحبة والتعظيم، فإذا اجتمعت هذه في القلب مع لينه ورقته قيل له: الخشوع، ويظهر أثر ذلك على الجوارح؛ لأن أصل الخشوع في القلب، فما يقال عن الخشوع الذي يكون في الجوارح إنما هو أثر من آثاره، والله أعلم.

لذلك لما وصف الله الأرض، وصفها بقوله: {خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [(٣٩) سورة فصلت] ففيها معنى التطامن، فإذا جاءها المطر انتفخت وارتفعت بالنبات، والله أعلم.

"**وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(٤٦) سورة البقرة] هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو الوَصَاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه.**

{وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} قال ابن جرير -رحمه الله-: العرب قد تسمي اليقين ظناً، والشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضدّه، ومنه قول الله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} [(٥٣) سورة الكهف]."

يعني أن هذا من أنواع المشترك؛ لأن المشترك تارة تدخل فيه معان متناقضة، وتارة معان متضادة، وتارة متباينة، فهذه الأنواع الثلاثة كلها تدخل في المشترك.

هنا {الَّذِينَ يَظُنُّونَ} يدخل فيه اليقين، ويدخل فيه أيضاً الظن المعروف وهو الرجحان، أي: رجحان أحد الطرفين؛ لأن القسمة رباعية، فأعلى ذلك اليقين، وهو الذي لا يكون معه شك أو تردد، ثم يلي ذلك الرجحان –الطرف الراجح- وذلك أن يظن ظناً غالباً، يغلب على ظنه، فيقال له: ظن، ويليه الشك، وهو أن يستوي الطرفان بحيث لا يترجح عنده شيء، ثم يأتي بعد ذلك الوهم، فهذه هي القسمة الرباعية.

والوهم هو الطرف المرجوح، فلو قلت لك: ما حكم الصلاة على الحرير؟

إذا كان عندك يقين في الحكم فهذا يقين، وإذا كان عندك ظن راجح تقول: أظنه محرم، وإذا نظرت إلى الطرف المرجوح، بمعنى أن عندك نسبة عشرة بالمائة أنه يجوز فإن الالتفات إلى هذا إنما هو التفات إلى الوهم، وإذا كانت القضية مستوية عندك فهذا هو الشك.

وظـــن ووهـــم وشـــك محتمـــل لـــراجح أو ضـــده أو مـــا اعتـــدل

هذه التقسيمات عند أهل المنطق، وهي موجودة في كتب الأصول، والبيت الذي ذكرته من مراقي السعود.

وفي اللغة يطلق الظن على العلم، كما قال الشاعر:

فقلت ظُنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرج

فقوله: ظنوا بألفي مدجج يعني: أيقنوا، فهو يهددهم بالجيش، فيقول لهم: أيقنوا بأني سأوصل لكم ألفي مدجج بالسلاح، فالظن يأتي في اللغة بمعنى اليقين، وهذا جاء في القرآن في أول سورة البقرة: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(٤٦) سورة البقرة]، وكذلك في قوله في الآية الأخرى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ} (٢٤٩) سورة البقرة]. فهذا لا شك أن المقصود به اليقين؛ لأن الظن في مثل هذه الأمور لا يغني شيئاً.

كما أن الظن يطلق في لغة العرب على الطرف الراجح، وهو أكثر استعمال كثير من أهل العلم والفقهاء وغير ذلك، وغالب الاستعمال في كلام الناس أن الظن هو الطرف الراجح، وقد جاء استعماله في الطرف المرجوح أو الشك أو الوهم، وذلك في مثل قوله تعالى على سبيل الذم: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ} [(١١٦) سورة الأنعام]، فليس المقصود به هنا الطرف الراجح ولا اليقين وإنما المقصود التخرص والتقول بلا علم ولا بصيرة ولا هدى، فمثل هذا يقال له أيضاً: ظن، فإذا رأيت الظن في القرآن في سياق الذم فليس المقصود به اليقين، ولا الطرف الراجح، وإنما المقصود به التخرص، واتباع الأوهام وما أشبه ذلك.

فهنا {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم} أي: يوقنون أنهم ملاقوا ربهم.

وكذلك قوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} [(٥٣) سورة الكهف]، أي أيقنوا أنهم داخلون فيها، فهذه قضية لا تحتمل معنىً آخر.

"**قلت: وفي الصحيح: ((أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترتع؟ فيقول: بلى، فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتني))**[1]".

قوله: ((**أظننت**)): يعني أعلمت أنك ملاقيَّ، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٦٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: "{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة]، يذكرهم تعالى بسَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٣٢) سورة الدخان]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة].

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، في قوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالَماً، ورُوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل- في تعداده لنعمه على بني إسرائيل: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة]، {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ} أي: استحضروها في قلوبكم والهجوا بها في ألسنتكم، واذكروها بأعمالكم وجوارحكم؛ شكراً لله -عز وجل-، وعرفنا أن قوله: {نِعْمَتِيَ} مفرد مضاف يفيد العموم، بمعنى اذكروا نعمي التي أنعمت عليكم.

ومن هذه النعم أنه فضلهم على العالمين: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة]، والعالمين أحسن ما يفسر به هو قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٢٣) سورة الشعراء]، فأجابه موسى قائلاً: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [(٧) سورة الدخان]، فهذا هو الذي يفسر به، والمراد به هنا يفهم مع غيره من نصوص الآيات والأحاديث.

من أهل العلم من قال: {فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي: على الجم الغفير من الناس، فإن الجم الغفير من الناس يقال لهم: عالَم، تقول: رأيت عالَماً عند فلان، وتقول: يوجد في مكة عالَم من الناس، أو عوالم من الناس، يعني أناس كثير، وتقول: رأيت في السوق عالَماً من الناس، فهذا لا إشكال فيه، وسواء قيدته بالناس أو لم تقيده، ولكن يمكن أن يقال هنا: ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ونقله أيضاً عن غيره وهو الذي عليه كثير من أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن المقصود بقوله: {عَلَى الْعَالَمِينَ} أي في زمانهم؛ لأنه لم يكن لبني إسرائيل انفراد في ذلك الزمان في الوجود، أي: لم يكن هؤلاء هم الذين يمثلون الناس فقط، كان يوجد القبط وغير القبط من الأمم من الرومان وغيرهم، ففضل الله -عز وجل- بني إسرائيل، وهم أقلية في ذلك الزمان بالنسبة للأمم الأخرى، ويكفيك قولهم عن العماليق حينما قيل لهم: {ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(٢١) سورة المائدة]، فقالوا: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} [(٢٢) سورة

المائدة]، فهم يرون أن هؤلاء أقوى منهم وأعظم خلقة وبأساً، فالتفضيل هنا على العالمين أي على عالم زمانهم فقط، حيث اختارهم الله -عز وجل- على الناس في ذلك الوقت، وليس ذلك على جميع العالم إلى قيام الساعة؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، بدلالة النصوص الصريحة على ذلك، كقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر]، والاصطفاء والاجتباء لا يمكن إلا أن يكون لمن فضلوا على غيرهم.

وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران]، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه- كما جاء في الأثر: "خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام"[1].

والنصوص الدالة على تفضيل هذه الأمة كثيرة، أضف إلى ذلك النصوص الأخرى التي تدل على طرد بني إسرائيل، ولعنهم وإقصائهم، كقوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٧٨) سورة المائدة]، وكذلك ما ذمهم الله به وأوقع بهم من نقمته كقوله: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا} [(١٦٨) سورة الأعراف]، إلى غير ذلك مما حل بهم، وهذا لا يمكن أن ينزل إلا بأمة ملعونة مبعدة من رحمة الله -عز وجل- فكيف يكون هؤلاء إلى ساعتنا هذه هم أهل الاصطفاء والاجتباء وقد أبعدهم الله -تبارك وتعالى-؟.

إذن: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] أي: على عالم زمانكم فقط، فيكون بهذا الاعتبار من العام المراد به الخصوص، حيث أطلق العالمين ودخلت عليه أل، فظاهر ذلك أنه في جميع العالمين.

والعموم يندرج تحته أربعة أشياء: الأفراد، والأزمان، والأمكنة، والأحوال، فإذا أجريناه على ظاهره فمعنى ذلك أنه في كل زمان ومكان.. الخ، ولكن هذا ليس بمراد، فيكون من العام المراد به الخصوص، يعني أنك تطلق لفظاً عاماً وتريد به معنىً خاصاً هذا هو المراد.

"أمة محمد أفضل من بني إسرائيل، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم؛ لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم} [(١١٠) سورة آل عمران].

وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنتم تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله))[2]، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}."

ومن أدلة تفضيل هذه الأمة على غيرها من الأمم قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [(١٤٣) سورة البقرة]، وما جاء في الأحاديث مثل: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة))[3]،

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران] (٤٢٨١) (ج ٤ / ص ١٦٦٠).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن – باب: سورة آل عمران (٣٠٠١) (ج ٥ / ص ٢٢٦)، وابن ماجه في كتاب: الزهد – باب: صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٢٨٨) (ج ٢ / ص ١٤٣٣) وأحمد (ج ٥ / ص ٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٠١).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة - باب:فرض الجمعة (٨٣٦) (ج ١ / ص ٢٩٩) ومسلم في كتاب: الجمعة - باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥) (ج ٢ / ص ٥٨٥).

وحديث العمل في أول النهار، وفي وسط النهار، وفي آخر النهار[٤]، فكل هذه النصوص تدل على أن هذه الأمة أفضل من بني إسرائيل.

وحتى من الناحية العملية الواقعية -كما سيأتي في هذه الآيات وفي غيرها- لا يصح أن يقال: إن تفضيل بني إسرائيل على جميع العالمين مطلقاً؛ ومما يبين ذلك من الناحية العملية أن الله تعالى قال عنهم: إنهم قالوا: {يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة]، فهل يقول أحد مثل هذا الكلام؟

حتى إن الذين اصطفاهم موسى -صلى الله عليه وسلم- لميعاده لربه في الطور-الذين قال الله عنهم: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا} [(١٥٥) سورة الأعراف]- لما سمعوا موسى يناجي ربه، قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة]، طمعوا في الرؤية، فتأمل كيف يتصرفون وهم خيار بني إسرائيل وأفضلهم، حتى إنه قيل: إنهم لما أخذ عليهم العهد وسمعوا أمر الله قالوا: إن شئت فافعل، وإن شئت فذر، إنهم حتى في هذا المقام يقولون مثل هذا الكلام!!

ولما أمروا بالسجود كما قال الله -عز وجل-: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} [(١٥٤) سورة النساء]، {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [(٦٣) سورة البقرة]، تلكئوا عن التلقي عن الله -عز وجل- فرفع الله فوقهم الطور حتى كاد الطور-أي الجبل- أن يقع فوقهم، حتى إنه قيل: إن سجدة بني إسرائيل كانت على جانب الجبهة ويرفعون العين الأخرى، فهم كانوا في حالة السجود وهم تحت الجبل في غاية الخوف أن يسقط عليهم، ومع ذلك سجدوا هذا السجود الذي يكون بهذه الصفة بحيث ينظرون بالعين الأخرى إلى الجبل، فكان ذلك سنة متبعة لهم في سجودهم إلى غير ذلك.

فهؤلاء ابتلاهم الله -عز وجل- بخوف وطمع، وطمعهم يظهر في قصة الحيتان، قال تعالى: {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ} [(١٦٣) سورة الأعراف]، فاحتالوا الحيلة المعروفة فمُسخوا، وابتلاهم -عز وجل- بخوف كما في قصة الجبارين فلم يثبتوا.

وهذه الأمة ابتلاها الله -عز وجل- بالخوف والطمع فأفلحوا، فلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يستشير أصحابه في يوم بدر: ((أشيروا علي أيها الناس)) قالوا: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"[٥].

وكذلك لما ابتلاهم الله -عز وجل- بالطمع ثبتوا، وهذا له أمثلة كثيرة جداً، منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [(٩٤) سورة المائدة] إلى غير ذلك، فكان الواحد منهم يمر بالظبي حاقفاً لا يثيره ولا يريبه أحد.

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة – باب: الإجارة إلى نصف النهار (٢١٤٨) (ج ٢ / ص ٧٩١).

5 - البداية والنهاية (ج ١ / ص ٢٧٩) وتاريخ الطبري (ج ٢ / ص ٢٧)، وأصله في البخاري في كتاب: المغازي - باب قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال] (٣٧٣٦) (ج ٤ / ص ١٤٥٦).

"{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة]، **لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال: {وَاتَّقُواْ يَوْماً} يعني: يوم القيامة."**

{وَاتَّقُواْ يَوْماً} أي: اتقوا أهوال يوم وأوجال يوم؛ لأن اليوم ظرف زمان، ومثل هذا لا يتقى في الأصل، ولكن جرت عادة العرب أن تحذر من ساعة أو من يوم أو من سنة أو من زمان من الأزمان والمراد بذلك ما يقع فيه من الأهوال والأوجال، فقوله: {وَاتَّقُواْ يَوْماً} أي: اتقوا أهوال يوم.

وقوله: {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} أي: لا تجزيه أو لا تجزي فيه -على القولين المشهورين عند المفسرين وأصحاب معاني القرآن- لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، أو لا تجزيه، والأوضح في المعنى لا تجزي نفس أي: لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئا..

"{لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} **أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال تعالى:** {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام]، **وقال:** {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [(٣٧) سورة عبس]، **وقال:** {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا} [(٣٣) سورة لقمان]، **فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً."**

هذا كما قال الله -عز وجل-: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [(١١) سورة المعارج].

فالحاصل أن قوله: {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [(٤٨) سورة البقرة] يعني لا تكفي أوتقضي أو تغني نفس عن نفس شيئاً، يعني أنه إذا كان أحد من الناس محتاجاً إلى شيء من الحسنات لترجح كفته، ولو كان أقرب الناس كالوالد والولد، فإن أحداً من الناس لا يقضي عنه، قال تعالى: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٨) سورة فاطر]، فمعنى لا تجزي أي لا تقضي، أو لا تغني وهما متقاربان في المعنى، أو لا تكفي -من الكفاية- وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يمكن أن يفسر بها ذلك، والمعنى لا ينفع أحد أحداً.

ويستثنى من ذلك ما ورد في النصوص فيما يتعلق بالشفاعة لأهل التوحيد من أهل الكبائر وغيرهم، أما أن يعطي أحد من الناس أحداً غيره من حسناته أو أنه يعيره شيئاً من ذلك فإن ذلك غير وارد ولو كان أقرب الناس إليه؛ بل هو يتمنى أن يفتدي بهؤلاء جميعاً.

"**وقوله تعالى:** {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [(٤٨) سورة البقرة] **يعني من الكافرين، كما قال:** {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [(٤٨) سورة المدثر]، **وكما قال عن أهل النار:** {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ* وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة الشعراء]."

{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} يعني من الكافرين؛ لأنه يفهم من الأدلة الأخرى إثبات الشفاعة.

{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} لا في قليل ولا في كثير؛ لأن شروط الشفاعة الثلاثة المعروفة منها: أن يرضى الله عن المشفوع له، وأن يأذن بالشفاعة، والله لا يرضى عن الكافرين، فلا تنفعهم الشفاعة.

والشفاعة معروفة وهي من الشفع، ومعناها الشرعي معروف، فالمقصود أن ذلك مخصوص بالشفاعة بأهل التوحيد.

"**وقوله:** {وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(٤٨) سورة البقرة] **أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران]**، وقال:** {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة]**، وقال تعالى:** {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام]**، وقال:** {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ} [(١٥) سورة الحديد] **الآية.**"

يفسَّر قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(١٢٣) سورة البقرة]، وقوله في الآية الأخرى: {وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(٤٨) سورة البقرة] بأن ذلك بمعنى الفداء، كما قال الله -عز وجل-: {لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ} [(١٥) سورة الحديد]، وكذلك في قوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام]، أي مهما قدمت من الفداء الذي تريد الخلاص به، فإن ذلك لا ينفعها ولا يغني عنها عند الله شيئاً.

والعدل كما في قول الله -عز وجل- في الآية الأخرى، {لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا} [(٣٦) سورة المائدة] وكذلك: {مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} [(٩١) سورة آل عمران]، فالذهب وما في الأرض جميعاً ليس من جنس الإنسان، فالإنسان يريد أن يفتدي بأموال الدنيا من الذهب وغيره، وذلك ليس من جنس الإنسان، فإذا افتدى بغير جنسه فذلك يقال له: العدل، فقوله: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} أي فداء، يفتدي بالمال وما إلى ذلك.

والعِدل –بالكسر- ما كان الفداء فيه من جنس المفتدي، فإذا افتدى بإنسان فإن ذلك يكون من قبيل العِدل، ومنه ما يوضع على البعير من الحمل بحيث يستوي الطرف في الجهة اليمنى مع الطرف الآخر في الجهة اليسرى فيقال: هذا عِدل لهذا، وما كان المعاوضة فيه من غير الجنس يقال له: عَدل، فهنا لا يقبل منها عَدل، أي فداء بالمال وما أشبه ذلك، وهذا هو الغالب في لغة العرب، أي: التفريق بهذا الاعتبار، وإن كان يرد هذا أحياناً في مكان الآخر، فيستعمل أحياناً بالكسر وبالفتح مراداً به الفداء مطلقاً، لكن الغالب ما ذكرت، والله أعلم.

"**فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى:** {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ} [(٢٥٤) سورة البقرة]**، وقال:** {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم].

وقوله تعالى: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] **أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف.**"

قوله: "**من جانب التلطف**" يعني كما يقال: بالطرق الدبلوماسية بأن يأتي أحد يتوسط ويشفع، أو يدفع المقابل –المعاوضة- هذه طرق الخلاص، إما أن يأتي أحد يتوسط فيطلق هذا الإنسان الأسير، أو أنه بالمعاوضة بالفداء وبالتفاهم، يدفع مقابل ذلك مالا، ويُطلق وتنتهي المشكلة، أو بالقوة بحيث يأتي أناس يخلصونهم بالقوة،

أما في ذلك اليوم فقد قطع الله -عز وجل- عليهم طرق الخلاص، لا بالفداء ولا بالشفاعة ولا بالقوة؛ لعدم وجود الناصر.

"ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال: {فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} [(١٠) سورة الطارق] أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فِدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} [(٨٨) سورة المؤمنون]، وقال: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [(٢٥-٢٦) سورة الفجر]، وقال: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [(٢٥-٢٦) سورة الصافات]، وقال: {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} [(٢٨) سورة الأحقاف] الآية.

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ} [(٢٥) سورة الصافات] ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال ابن جرير: وتأويل قوله: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بَطَلَت هنالك المحاباة، واضمحلت الرِّشا والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [(٢٤-٢٦) سورة الصافات].

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ* وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٤٩-٥٠) سورة البقرة].

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى -عليه السلام-، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب."

قوله تعالى: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم}** أي: واذكروا إذ نجيناكم، أي: خلصناكم وفككناكم؛ والإنجاء معروف وهو التخليص، وأصله مأخوذ من النجوة، أي: الشيء المرتفع من الأرض البائن منها.

قوله: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** الله –جل وعلا- خلصهم من آل فرعون، يعني من فرعون وقومه، فإن آل تأتي بمعنى أهل، فيقال: آل فلان، وقد يطلق مراداً به ذات الشخص، كما قال تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [(٤٦) سورة غافر]، فليس المقصود هنا أنهم فقط آل فرعون أو أتباع فرعون، لا بل هو على رأسهم، بل إن بعض المفسرين يقول: أدخلوا آل فرعون، يعني أدخلوا فرعون، ومثل هذا قوله تعالى: **{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}** [(٢٤٨) سورة البقرة]، يعني وبقية مما ترك موسى وهارون.

فـ(آل) تأتي أحياناً مرادا بها نفس الشخص، وأحياناً يراد بها نفس الشخص مع قومه وأتباعه، أو أهله وما أشبه ذلك.

هنا قوله تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} يعني من فرعون وقومه؛ لأن الذي كان يلي تعذيبهم هم قوم فرعون بأمر فرعون، ففرعون هو المتحكم فيهم، وإنما أولئك الذين يسومونهم سوء العذاب إنما يصدرون عن أمر فرعون.

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} وفرعون معروف، كل من ملك مصر فهو فرعون،أي أنه لقب، يعني وليس اسماً لشخص معين، فكل من ملك مصر من هؤلاء الكفرة فإنه يقال له: فرعون، وبعضهم يقول: هو لفظ أعجمي، وبعضهم يقول: هو عربي من تفرعن.

{يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}: قال: يسومونكم هنا بمعنى يذيقونكم ويوردونكم ويولونكم، تقول: سامه خطة خسف، بمعنى أذاقه وألبسه، وتقول: سامه الخسف والذل، وسامه العذاب، بمعنى أذاقه وأولاه العذاب.

{يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}: فهذه يمكن أن تكون حالاً، بمعنى يكون الكلام هكذا، وإذ نجيناكم من آل فرعون سائمين لكم سوء العذاب، يعني في حال كونهم سائمين، ويمكن أن يكون وإذ نجيناكم من آل فرعون وكانوا يسومونكم سوء العذاب، فتكون الجملة خبرا لكان، فالمقصود أن الله ذكرهم بهذه النعمة حيث خلصهم من فرعون وقومه.

قال سبحانه: {يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}، ثم قال مفسراً لهذا العذاب: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ} [(٤٩) سورة البقرة] .

"**وذلك أن فرعون -لعنه الله- كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس.**"

هذا جواب لسؤال هو: لماذا كان فرعون يقتل الأبناء ويبقي البنات؟ وقد ذُكرت في هذا آثار وردت عن بعض السلف وهي مبنية على إسرائيليات، فالحاصل أن مما ذكر أن الكهنة أخبروه لما رأى رؤيا ففسرت له، أو أن الكهنة أخبروه ابتداءً بأنه سيولد من الإسرائيليين ولد، وأنه سيكون زوال ملكه على يد هذا الولد، فصار يقتلهم سنة ويتركهم سنة، وسبب تركهم سنة إما أن هؤلاء المنجمين أو هؤلاء الكهنة كما جاء في بعض الإسرائيليات أخبروه عن شيء من ذلك فصار بمقتضاه يفعل هذا سنة وسنة، وإما أن يكون هذا الإبقاء -كما قال بعضهم- من أجل أن يبقى من يقوم على الأعمال المهينة الوضيعة، فكان الفراعنة يترفعون عنها ويكلونها إلى الإسرائيليين، فكانوا يبقون بعضهم من أجل هذا، ويقولون فكان هارون -صلى الله عليه وسلم- في العام الذي لا يقتل فيه الأولاد، هكذا قال بعضهم، والعلم عند الله -عز وجل-.

"**رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها.**"

يعني كأن بني إسرائيل عندهم نبوءة أنه سيخرج فيهم رجل يخلصهم، فبطبيعة الحال هذه القضايا تتنامى وتصل إلى كثير من الناس حتى من أعدائهم وخصومهم، وهؤلاء السمار عند السلطان كأنهم في سوق كما هو معروف، ينفق فيه هؤلاء السمار بحسب حال هذا السلطان، وهؤلاء السمار يعرفون فرعون، ويعرفون حاله، فيوردون له من الحكايات والقصص والأخبار ما يصلح له ويطرب له، فهذا أمر طبيعي؛ إذ لن يتحدثوا

معه عن قيام الليل وصيام النهار وأخبار العبَّاد، وإنما سيحدثونه عن أمور يطرب لها، ولهذا قالوا: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف]؟

هؤلاء هم سماره وجلساؤه وخاصته، فما الظن بمثل فرعون أن يقرب منه إلا مثل هؤلاء، فهو لا يقرب إلا من كان على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.. والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وهاهنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} [(٦) سورة إبراهيم]، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول ابن كثير: وهاهنا فسر العذاب بذبح الأبناء: ولا شك أن هذا من العذاب الذي كانوا يولونهم إياه.

يقول تعالى: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ} [(٤٩) سورة البقرة] وفي الآية الأخرى بالواو: {وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ} فما الفرق بين المقامين، أي لماذا جيء بالواو هناك، وهنا لم بدون الواو؟

الجواب هو أنه لما كان المقام هناك –في سورة إبراهيم- التصريح بتعداد الآلاء عليهم ناسب فيه التكثير، فلهذا قال: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ}، يعني أنه امتن عليهم بنعم كثيرة، منها: أنه أنجاهم من آل فرعون، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب بما كانوا يشغلونهم به من أمور الخدمة العظيمة الشاقة في الأمور المهينة، وكانوا يذبحون أبناءهم، وكانوا يستحيون نساءهم، فهذا هو الفرق بين المقامين.

"ومعنى {يَسُومُونَكُمْ} أي: يولونكم، قاله أبو عبيدة."

أبو عبيدة اسمه معمر بن المثنى، ومعنى {يَسُومُونَكُمْ}: يولونكم، تقول: سامه بمعنى أولاه وأوقع به وأنزل به، ويمكن أن يفهم منه أيضاً معنى الإدامة من الدوام، فـــ{يَسُومُونَكُمْ}: أي يديمون ويواصلون أذيتكم وعذابكم بشكل دائم لا ينقطع.

ومنه يقولون السائمة يعني التي تديم الرعي في المرعى، أو يكون ذلك في غالب أحوالها، فهذه يقال لها: سائمة، أي أن غالب أحوالها ترعى في المرعى إلحاقاً لذلك بالأصل، فإذا كان الأصل فيها دوام الرعي في المرعى فهي سائمة.

فهؤلاء {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} أي يطيلون عذابكم ويواصلون ذلك ويديمونه، فهو عذاب ينزل بكم بشكل دائم لا ينقطع.

" كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، وقيل: معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي.

وإنما قال هاهنا: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} ثم فسره بهذا لقوله هاهنا: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة].

وأما في سورة إبراهيم فلما قال: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ} [(٥) سورة إبراهيم]، أي: **بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك:** {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} [(٦) سورة إبراهيم]، **فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل."**

قوله: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ} [(٥) سورة إبراهيم] الأيام هنا المراد بها الإنعام، وقد تأتي لغير هذا المعنى؛ إذ قد تأتي بمعنى العقوبات والمثلات التي تنزل بالأقوام.

في سورة إبراهيم قال تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ} [(٥) سورة إبراهيم]، فالمقام هناك أرسخ في التذكير بالنعم، فهو يأمره أن يذكرهم بأيام الله، فهو يحتاج أن يقول لهم: اذكروا كذا، واذكروا كذا، وهذا مما يلتمسه المفسرون فيما يسمونه بالمتشابه في اللفظ - والمتشابه المعنوي هو الذي يحتاج أن يرجع إلى غيره ليتبين معناه- فهذا يسمونه المتشابه اللفظي، فيذكرون مثل هذه الوجوه، وقد تكون هذه الوجوه متكلفة وقد تكون قريبة، لكن على كل حال هذا الذي ذكره هنا قد ذكره جماعة من المفسرين وله وجه لكن لا يقطع بمثل هذا، وعامة ما يذكره هؤلاء في المتشابه اللفظي يعني لا يقطع به، لكن يمكن أن يذكر، ومنه ما هو متكلف لا يستحق أن يذكر، ومنه ما لا يتضح وجهه أصلاً.

"وفرعون علم على كل مَنْ مَلَكَ مصر كافرًا من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا، وكسرى لمن ملك الفرس، وتُبَّع لمن ملك اليمن كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة."

قوله: **والنجاشي لمن ملك الحبشة** لم يقل: كافراً؛ لأن النجاشي أسلم، وتُبَّع ورد فيه حديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكره فقال: ((ما أدري أتُبَّع لعيناً كان أم لا))[1] والحديث صححه بعض أهل العلم.

على كل حال تُبَّع هذا المشهور الذي جاب المشرق والمغرب، ولما تقرأ في كتب معجم البلدان، تجد أن عدداً من أسماء بعض الأماكن يقال: إن تُبَّع هو الذي سماها.

يقولون: إنه مر بالمدينة قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه لقي بعض الأحبار من اليهود وكلموه أن هذه الأرض أو البلدة لن يسلط عليها وأنها مبعث نبي، إلى آخره، فذكروا عنه أموراً حسنة في قبوله، ثم أخذ معه اثنين من الأحبار وذهب ناحية مكة، وأخبروه أن هذه البلدة لا يسلط عليها لأن فيها بيت الله، فيقال: إنه أول من كساها بالخز، فالحاصل أنه أجرى عليها بعض الأمور ثم رجع إلى اليمن، ويذكرون أيضاً أنه في بعض الأماكن يوجد وادٍ أو منطقة هي أشبه بالوادي تبعد عن المدينة أربعين كيلو تقريباً اسمها ملل، من نزلها ولو لم يعرف اسمها يدرك أنها تستحق أن تسمى ملل، المقصود أني قرأت في معجم البلدان لما رأيت الاسم مطابقاً للمسمى فإذا هم يقولون: إن تُبَّع نزل بها فملَّ فسماها ملل ثم فارقها!!

وعلى كل حال اسم تبع يطلق على من ملك اليمن، وهل يشترط أن يكون كافراً، الله أعلم.

وكذلك يقولون: من ملك الهند يقال له: بطليموس، **وفرعون** بعضهم يقول: أصله عربي ويزنونه بالأوزان العربية، ويقولون: إنه من تفرعن، وبعضهم يقول: هو اسم أعجمي وهو من العماليق، ويقول بعضهم: إن أصله من فارس من اصطخر، والله أعلم بهذا كله، ويذكرون اسم فرعون موسى فيقول بعضهم: اسمه مصعب بن الوليد بن الريان، وإذا كان اسمه مصعب بن الوليد بن الريان فهو عربي إذن؛ لأن هذه أسماء

---

[1] - أخرجه الحاكم (٢١٧٤) (ج ٢ / ص ١٧) والبيهقي (١٧٣٧٣) (ج ٨ /ص ٣٢٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢١٧).

عربية، ولا أدري من أين جاءوا بهذا الاسم، وبعضهم يقول: اسمه الوليد بن الريان، وبعضهم يقول غير هذا، والآن يقال اسمه رمسيس الثاني، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [(٤٩) سورة البقرة] **قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}** [(٣٥) سورة الأنبياء]**، وقال: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [(١٦٨) سورة الأعراف]**، قال ابن جرير: وأكثر ما يكون في الشر بلوته أبلوه بَلاءً، وفي الخير: أبليه إبلاءً وبلاء."**

وقد يأتي هذا في مقام هذا، وعلى كل حال فقوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي وفي ذلكم الإنجاء بلاء من ربكم عظيم، أي في إنجائهم من آل فرعون، ويمكن أن يعود إلى ما حل بهم من النقمة وهي أنهم يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

{وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي هذا الذي وقع بكم من العذاب والنقمة من تذبيح الأبناء واستحياء النساء، وهذا قول الجمهور، وهو أن اسم الإشارة ذلكم في قوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} يرجع إلى ما حل بهم من العذاب.

وهنا سؤالان، الأول: أن الله -عز وجل- قال: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} والمقصود بالاستحياء للبنت أي أنه يبقيها حية، فإذا كان تذبيح الأولاد عذابا وبلاء أليس إبقاء البنات في الحياة وعدم قتلها هو من باب حنانيك بعض الشر أهون من بعض؟ فكيف كان استحياء البنات عذابا وبلاء لبني إسرائيل؟

الجواب واضح، وهو أن ذبح البنت أسهل من أن يسترقها عدوها، وتبقى أسيرة عنده، يسومها الخسف والذل، ويكل إليها من الأعمال ما يكون فوق طاقتها، وهي عِرض الرجل، وخدشها خدش لكرامته، والعار الذي يلحق بها يلحق بأبيها وأهلها وعشيرتها، فلا شك أن قتل البنت أسهل من أن تقع بيد عدوها، وهذا شيء لا يجادل فيه أحد، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} أي يبقي بنتك حية من أجل أن يوليها ذلك جميعاً، فهذا عذاب أشد من تذبيح الأولاد.

السؤال الثاني: أنه قال: {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} فكيف عبر عن البنات الصغيرات بلفظ: نساءكم مع أن هذا اللفظ لا يقال إلا للمرأة الكبيرة، أما الصغيرة فيقال لها جارية ومعلوم أن استحياءهن من قبل فرعون كان يتم وهن صغيرات؟

الجواب هو أن الصغيرات قد يطلق عليهن نساء باعتبار المآل فالله تعالى أطلق عليهن ذلك بهذا الاعتبار، فهي تكون بيده فيحصل الغبن حينما تكون امرأة تصلح للخدمة و تستطيع أن تعمل، فهذا جواب وهناك أجوبة أخرى، فالله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٠) سورة البقرة] **معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى -عليه السلام- خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه، ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله."**

{فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ} الباء هنا ممكن أن تكون –كما قال بعضهم- بمعنى اللام فيكون {فَرَقْنَا بِكُمُ} أي فرقنا لكم، فيكون في الكلام تضمين حرف معنى حرف آخر من حروف الجر، وهذا القول فيه نظر.

وبعضهم يقول: الباء هنا بمعنى السببية، {فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ} أي: فرقنا بسببكم البحر.

ولعل أحسن من ذلك كله أن يقال: {فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ} حيث إنكم دخلتموه فبمجرد الدخول والضرب بالعصا صرتم فريقين تمشون بينهما، فأنت عندما يكون معك ساطور وضربت به علبة –مثلاً- فتقول: فرقت بها هذه العلبة، فأنت هنا لا تحتاج أن تقول: من أجلها، ولا تحتاج أن تقول: بسببها، وإنما المعنى واضح، فرقت بها أي جعلتها هي الأداة التي يحصل بها هذا الانقسام والانفصال بين أجزاء الشيء الواحد.

فائدة:

يذكر أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- أرسل إليه ملك الروم يشاوره أن يكون هناك تبادل -كما يقال- في بعض الأمور فأرسل له رجلاً طويلاً ورجلاً قوياً -والقصة في محمد بن الحنفية، وقيس بن سعد بن عبادة- فالطويل أعطاه سعد بن قيس بن عبادة سراويله، فلما لبسها بلغت إلى الثديين، وأما القوي فقال له محمد بن الحنفية: تجلس أنت أم أجلس أنا، فجلس فأخذ محمد بن الحنفية بيده فتله بيده، فقال: اجلس أنت وأنا أقوم، فجلس محمد بن الحنفية، فمد الرومي يده، فشده محمد شدة فإذا هو في حجره.

وأرسل ملك الروم لمعاوية أسئلة أيضاً منها: ما هي الأرض التي لم تقع عليها الشمس قط إلا ساعة واحدة؟ فأرسل إلى ابن عباس فقال له: هي الأرض التي كانت في البحر حينما انفلق، قال تعالى: {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ} [(٦٠) سورة الشعراء] فوقعت عليها الشمس تلك الساعة التي عبر فيها بنو إسرائيل، {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا} [(٧٧) سورة طـــه].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "{فَأَنجَيْنَاكُمْ} [(٥٠) سورة البقرة] أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومون؟)) قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله -عز وجل- فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى -عليه السلام-، فقال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أحق بموسى منكم)) فصامه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمر بصومه" [وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه][1].

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ* ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(٥١-٥٣) سورة البقرة]، يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى -عليه السلام- لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [(١٤٢) سورة الأعراف]، قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٠) سورة البقرة] هذا لا شك أنه من مزيد إنعام الله وإفضاله عليهم، وذلك أنه أدْعى للتشفي؛ فإن إهلاك عدوهم وهم ينظرون إليه أشفى لصدورهم مما لو هلك فجاءهم خبره.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ} في قوله: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} قراءتان متواترتان، فهذه التي نقرأ بها هي قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى هي قراءة أبي عمرو، (وإذ وعدنا موسى)، وهذه القراءة الثانية يختارها بعض من تكلم في التفسير وفي معاني القرآن؛ وذلك أنهم استشكلوا قوله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} وذلك أن المواعدة -المفاعلة- إنما تكون بين اثنين، أو بين طرفين، ويقولون: إن الله -عز وجل- لا يتأتى معه هذا، وإنما الوعد يكون من جهته فقط، فاختاروا قراءة (وعدنا)، وجاءوا في مثل هذا الموضع بالآيات الأخرى التي فيها ذكر الوعد كقوله مثلاً: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [(٥٥) سورة النـــور] وما أشبه ذلك، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا الذي ذكروه

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الصوم – باب: صيام يوم عاشوراء (١٩٠٠) (ج ٢ /ص ٧٠٤) ومسلم في كتاب: الصيام - باب: صوم يوم عاشوراء (١١١٣٠) (ج ٢ / ص ٧٩٥).

غير متجه، والله أعلم؛ لأن قوله: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} المواعدة بمعنى الموافاة، ولا يمنع ذلك أن يكون بين الله -عز وجل- وبين أحد من خلقه، فالله -عز وجل- أخبر موسى -صلى الله عليه وسلم- بالميعاد، وموسى -عليه الصلاة والسلام- قبِل ذلك، فذلك مواعدة بينه وبين الله، وليس في ذلك أي محذور في هذا المعنى بالنسبة لما يقال في حق الله تبارك وتعالى، وأما الوعد الذي جاءوا به في الآيات الأخرى فإنه يختلف عما هاهنا، فالوعد هناك هو الوعد بالجزاء وليس من المواعدة التي تكون للتوقيت.

ثم إن بعضهم قال على قراءة الجمهور: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} عند من فسرها أنها من جهة الله فحسب، قالوا: هذا مثال من أمثلة ورود المفاعلة وتكون من طرف واحد، وهذا وإن كان في أصله صحيحاً لكنه لا محذور هنا أن يقال في: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} أن الله أخبر موسى بالميعاد، وأن موسى -صلى الله عليه وسلم- قبِل ذلك، فكانت بمعنى المواعدة على ظاهرها ولا إشكال في هذا إطلاقاً، وإن كان لا يمتنع أن تأتي المواعدة من طرف واحد، كما تقول مثلاً: عالجت الجرح أو عاقبت المجرم، أو نحو ذلك، فأنت حينما قلت: عاقبته، فالمعاقبة هنا لم تقع بين طرفين، وإنما هي صادرة من طرف واحد، كما أن المعالجة صادرة من طرف واحد، والله تعالى أعلم.

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} اسم موسى -عليه الصلاة والسلام- اسم أعجمي كما هو معروف، ويقولون: إن اسم موسى مركب من شيئين (مو) و(سى)، ويقولون إن ذلك لغة قبطية، مع أن المعروف أنه اسم عبراني.

ويقولون أصله (مو) (شى) و(مو) بمعنى ماء، و(شى) بمعنى شجر، والمعنى كما يقولون: إنه لما ألقته أمه في نهر النيل حمله الماء حتى أخذه إلى موضع فيه ماء وشجر، فلما وجده أولئك الجواري من قوم فرعون سمي باسم المكان الذي وجد فيه، والله أعلم.

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} يعني تمام أربعين ليلة، على رأس الأربعين ليلة يكون الميعاد، وهذه الليالي جاءت في سورة الأعراف: {ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}، ويذكر المفسرون هناك تفصيلات في هذا المقام، وأن أصلها كانت الثلاثين، ثم أتم الله بعد ذلك بعشر لأمور يذكرونها هناك.

وعلى كل حال ذكر الله -عز وجل- هنا الليالي، {وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} وذلك باعتبار أن الليلة تكون سابقة لليوم، والعرب تعبر بالليالي وتقصد معها الأيام، وهذا كثير جداً في كلامهم.

"وقوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يعني: التوراة {وَالْفُرْقَانَ} وهو ما يَفْرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(٥٣) سورة البقرة]، وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر؛ كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [(٤٣) سورة القصص]."

في قوله هنا: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} ذكر الله الكتاب ولا شك أنه التوراة، ونقل بعض أهل العلم الإجماع أن الكتاب هنا هو التوراة، ثم عطف عليه بعد ذلك الفرقان، وظاهره أن العطف يقتضي المغايرة، ولهذا فهم بعض أهل العلم أن الفرقان ليس المراد به التوراة، بل هو شيء آخر، واختلفوا في تفسيره وفي بيان المراد به، فبعضهم قال: آتينا موسى الكتاب، وآتينا محمداً الفرقان، وهؤلاء التبس عليهم هذا، وذلك أن

الله سمى هذا القرآن بالفرقان كما في سورة الفرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [(١) سورة الفرقان]، ولا يمتنع أن يسمي الله -عز وجل- القرآن بالفرقان، وأن يصف التوراة بأنها فرقان، كما قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [(٤٨) سورة الأنبياء]، والمراد بذلك التوراة قطعاً.

وبعضهم يقول: الفرقان المراد به ما حصل من الفرق بينهم أي: الفصل والحكم بينهم وبين فرعون وقومه، وبعضهم يقول: المراد به انفراق البحر، وهذا بعيد جداً، عن ظاهر القرآن، بل هو في غاية البعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول المراد بالفرقان: الحجة والبرهان الذي أعطاه الله -عز وجل- لموسى من الآيات كالعصا واليد وما أشبه ذلك، والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الفرقان المراد به التوراة، وهو الكتاب الذي سبق ذكره قبله، {آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} ويكون ذلك من قبيل عطف الأوصاف والموصوف واحد، كما في قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(١-٤) سورة الأعلى]، فالأوصاف تأتي تارة متتابعة، وتارة تأتي بالعطف بالواو مع أن الموصوف واحد، ومن ذلك قول الشاعر يمدح ملكاً:

هو الملك القرم وابن الهُمام — وليث الكتيبة في المزدحم

الموصوف هنا واحد، فوصفه تارة بالتتابع فقال: هو الملك القرم، وتارة بالواو فقال: وابن الهمام، وليث الكتيبة... إلى آخره.

وقوله: إن هذه الأربعين ليلة هي شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة فهذا عليه عامة المفسرين، والله تعالى أعلم.

"{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٥٤) سورة البقرة] هذه صفَةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} [(٥٤) سورة البقرة] فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} [(١٤٩) سورة الأعراف] الآية.

قال: فذلك حين يقول موسى: {يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ} أي: إلى خالقكم.

قلت: وفي قوله هاهنا: {إِلَى بَارِئِكُمْ} تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره."

لهذا يقال: إن الشرك هو أعظم ذنب؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خلق، ولذلك تجد في الآيات التي يقرر الله -عز وجل- فيها المشركين، يذكر الخلق ويلزمهم بذلك بتوحيد الإلهية.

في قوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(٥٣) سورة البقرة] يقول ابن كثير: **وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر؛ كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى:** {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [(٤٣) سورة **القصص**]: الذي في سورة الأعراف ظاهر أن ذلك كان بعد إنجائهم من فرعون؛ لأن الله -عز وجل- لما ذكر انفلاق البحر وإنجاء هؤلاء من فرعون وقومه، ذكر أنهم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم {قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [(١٣٨) سورة الأعراف]، ثم بعد ذلك ذكر ما حصل منهم من عبادة العجل، فكان ذلك بعد إنجائهم، والحلي التي أخذوها إنما كانت معهم من قوم فرعون كما ذكر بعضهم أن نساء بني إسرائيل قد استعرن تلك الحلي، فلما خرجوا هذا الخروج السريع لم يمكنهم إرجاع هذه المصوغات من الحلي، فكان السامريّ هو الذي اقترح عليهم أن يجمعوها وحصل ما حصل، وكان ذلك بعد خروجهم من البحر وإنجائهم من فرعون.

وفي قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة]، هذه توبتهم والمقصود بهذا ليس أن يقتل الإنسان نفسه، ولم يذكر هذا أحد من أهل العلم فيما أعلم، وإنما {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي فليقتل بعضكم بعضاً، ولهذا نظائر، فإن الأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة، ولهذا أمثلة من القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة].

وكقوله في سورة النور على أحد الوجهين المشهورين في تفسير الآية: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} [(١٢) سورة النـــــور]، فظنوا بأنفسهم، أي: ظنوا بإخوانهم.

وكقوله أيضاً في سورة البقرة: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة]، {تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} يعني تقتلون إخوانكم، فإنه يحرم على الإسرائيلي أن يقتل إسرائيلياً مثله، ثم هم بعد ذلك يقتل بعضهم بعضاً، فكانت توبتهم كما قيل: إنهم ألقيت عليهم ظلمة، وقيل: ألقي عليهم الغمام فصار الرجل لا يميز من أمامه، فقتل منهم مقتلة عظيمة في ذلك اليوم، فكان الرجل يقتل أقرب الناس إليه، يقتل أباه وأخاه، حتى تاب الله -عز وجل- عليهم ورفع ذلك البلاء عنهم، ولهذا قال: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة] أي رجع عليكم بالتوبة والمغفرة.

"وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فقال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم كل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال موسى لقومه: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٥٤) سورة البقرة] **قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه -عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظُلَّة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلَّة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة."**

بعض أهل العلم من المفسرين ينقل الإجماع على أن المقصود {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي: فليقتل بعضكم بعضاً.

"{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة البقرة]، يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم."

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ} أي: لما سمعوا الله يناجي موسى -صلى الله عليه وسلم- طمعوا في رؤيته فقالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة]، وكثير من المفسرين يقولون: إن هؤلاء الذين طلبوا هذا الطلب هم السبعون الذين اصطفاهم موسى -صلى الله عليه وسلم- كما في قوله: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا} [(١٥٥) سورة الأعراف]، وهم صفوة القوم وخيارهم، أبوا أن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة فأصابتهم هذه الصاعقة.

والصاعقة -والله تعالى أعلم- تأتي بمعنى الشيء الهائل العظيم، الذي إذا عاينه الإنسان أو رآه فإنه يموت لهوله أو يحترق، أو يفقد شيئاً من حواسه، أو يفقد عقله، أو يفقد بعض أعضائه، المقصود أنه يلحقه عطب تام أو يلحقه بعض العطب من شدة هولها، فتارة تكون بنار محرقة، وتارة تكون بصوت هائل، أو غير ذلك مما يمكن أن يقع، والصاعقة في العصر الحديث تطلق على ما يسمونها بالشحنة الكهربائية العالية التي إذا ضربت الإنسان فإنه يحترق وتكون النتيجة التفحم.

المقصود أن هؤلاء أخذتهم هذه الصاعقة بسبب ما قالوا وكانت نتيجة ذلك الموت الحقيقي -على أرجح القولين في هذا الصعق- فالصعق تارة يكون بالموت، وتارة يكون بما دونه كالإغماء.

والله -عز وجل- أخبر عن موسى -صلى الله عليه وسلم- أنه لما تجلى ربه للجبل قال: {جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف]، فصعْقُ موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن بالموت، وأما صعق هؤلاء كان بالموت، فأحياهم الله -عز وجل-.

{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] بمعنى أنهم رأوا مقدم ذلك ثم بعد ذلك ماتوا، وعلى كل حال فإن معنى {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} أنهم ماتوا موتاً حقيقياً، ولهذا قال الله -عز وجل- بعده: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [(٥٦) سورة البقرة]، فهذا دليل على أن ما أصابهم إنما هو موت حقيقي وليس من قبيل الإغماء؛ فظاهر القرآن يدل على هذا، ولا يجوز العدول عن ظاهر القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

"كما قال ابن جريج، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] قال: علانية، أي: حتى نرى الله.

وقال عروة بن رويم في قوله: {الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء.

وقال السدي: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم {لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} [(١٥٥) سورة الأعراف]؟ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم

فقاموا وعاش رجلٌ رجلٌ ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٦) سورة البقرة].

وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وكذا قال قتادة."

هذا أحد المواضع في سورة البقرة التي تدل على قدرة الله -عز وجل- على البعث، وهي خمسة مواضع.

"قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون.

قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٦) سورة البقرة] فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا، وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق، والثاني: أنهم مكلفون؛ لئلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح؛ لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون، وهذا واضح، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(٥٧) سورة البقرة]**:" لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} وهو جمع غمامة، سمي بذلك؛ لأنه يَغُمّ السماء أي: يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظُلِّلوا به في التيه ليقيهم حر الشمس،كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس.**

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبي مجلز والضحاك والسدي نحو قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال الحسن وقتادة: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس، وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} الغمام: كل ما غم وستر وغطى من قتر وغبار وسحاب أياً كان هذا السحاب، سواء كان من السحاب الأبيض، أو كان من غيره كالجهام ونحوه فكل ذلك يقال له: غمام، ولا يختص بنوع دون نوع، وما ورد من تحديده بأنه سحاب أبيض فإن هذا مما أخذ عن بني إسرائيل، وإلا فإن كل ما غطاك وسترك فإنه يقال له: غمام.

وجاء في الحديث: ((كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف))[1]، ومعنى غمامتان أي أن ذلك يستر ويغطي من تحته من السحاب وغيره، فلا يخص به نوع دون نوع من السحاب إلا بدليل.

"وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ} [(٥٧) سورة البقرة] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان المنُّ ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا.**

وقال قتادة: كان المنُّ ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية."

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ} [(٥٧) سورة البقرة] المن: لم يتفق المفسرون فيه على معنىً، فمنهم من يذكر أنه شيء حلو يشبه العسل، وبعضهم يقول: إنه أبيض اللون ينزل على الأشجار فيعلق بها، بمعنى أنه ليس

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

صمغة متولدة من نفس الشجر كما يظن البعض، وإنما هو شيء ينزل عليها عند الفجر أو نحو هذا، وهو أبيض حلو الطعم يشبه العسل يقال: إنه لا زال إلى اليوم ينزل على الأشجار في بعض الأماكن.

وبعضهم يفسِّر المن بما هو أعم من ذلك -وهذا هو الأقرب- يقولون: كل ما حصل للإنسان من غير جد ولا جهد بحيث لا يحتاج إلى زرع وسقي وحرث وما أشبه ذلك فإنه من المن، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكمأة من المن))[2] وفي بعض الألفاظ: ((من المن الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل))[3].

فيؤخذ من هذا أن المن لا يختص بهذا النوع دون غيره، لكن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من المن)) يدل على عمومه، فيكون قد نزل عليهم من المن ما يكفيهم لطعامهم ويغنيهم عما يزرعه الناس، فلا يحتاجون إلى شيء من هذا العمل والجهد الذي يبذل عادة لتحصيل مثل هذه الثمار والزروع وما أشبه ذلك، فيكون قد قيض الله -عز وجل- لهم من الكمأ، ولا يمنع ذلك أن توجد أنواع أخرى كهذه الصمغة التي يذكرون، أو غير ذلك مما يهيؤه الله -عز وجل- لهم من غير كد ولا تعب.

"فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك رواية البخاري عن سعيد بن زيد، -رضي الله تعالى عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين))[4] وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأخرجه الجماعة في كتبهم إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الترمذي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين))[5] [تفرد بإخراجه الترمذي].

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "السلوى طائر شبيه بالسُّمَّانى كانوا يأكلون منه".

وروى السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- السلوى: طائر يشبه السُّمانَى، وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى."

هذا قال به عامة السلف والخلف حتى إن بعضهم نقل الإجماع -كابن عطية- على أن المراد بالسلوى هو طائر، وإن اختلفوا في توصيف هذا الطائر، فهذا من باب اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب: الطب - باب: المن شفاء للعين (٥٣٨١) (ج ٥ / ص ٢١٥٩) ومسلم في كتاب: الأشربة - باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

[3] - صحيح مسلم في كتاب: الأشربة - باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب: الطب - باب: المن شفاء للعين (٥٣٨١) (ج ٥ / ص ٢١٥٩) ومسلم في كتاب: الأشربة - باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب: الطب: باب: ما جاء في الكمأة والعجوة (٢٠٦٦) (ج ٤ / ص ٤٠٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٢٦).

فبعضهم يقول: السلوى طائر بالهند منقاره أحمر، وبعضهم يقول: هو طائر بين الحمامة والعصفور، وبعضهم يقول: هو طائر يشبه السماني، وبعضهم يقول: هو السماني، فالمقصود أنه طائر.
ونقل عن بعضهم أنه فسره بالعسل، واحتجوا ببعض كلام العرب، ولكن ذلك ليس بمشهور، وهو قليل جداً إن وجد، وربما كان من وهمهم حيث ظن الشاعر أن السلوى هي العسل ربما كان ذلك، واحتجوا ببعض كلامهم من الشعر وهو قليل أيضاً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما نشورها

نشورها يعني: نستخرجها ونجتنيها.
وعلى كل حال ففي مثل هذا لا يلزم أن يكون هذا الشاعر قد أحاط بالمعاني، فالشاعر يسمع الكلمة ويقول فيها بيتاً ويتوهم الشيء على غير حقيقته، وأما القول الأول فقد نقل ما يشبه الإجماع أن السلوى طائر، فلا تفسر السلوى بالعسل، والله أعلم.
"وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك، وقال قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشُرها عليهم الريحُ الجنَوبُ، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.
وقوله تعالى: {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [(٥٧) سورة البقرة] **أمر إباحة وإرشاد وامتنان.**
وقوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(٥٧) سورة البقرة]**، أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ}** [(١٥) سورة سبأ]**، فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات.**
ومن هاهنا تتبين فضيلة أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم- على سائر أصحاب الأنبياء -عليهم السلام- في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرِك الشاة فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملئوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله، مع متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.
{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٥٨-٥٩) سورة البقرة]
يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد وعن دخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى -عليه السلام-، فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا

كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي والرّبيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا} [(٢١) سورة المائدة] **الآيات.**

وقال آخرون: هي أريحا ويحكى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعبد الرحمن بن زيد."

والأول هو المشهور، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وهذا من المبهمات في القرآن، ولا فائدة من معرفة هذه المدينة التي أمرهم الله -عز وجل- بدخولها، ولكن قوله ووصفها بأنها مقدسة يدل بظاهره أو يشعر أن المراد بها بيت المقدس، وأريحيا أو أريحا ليست كبيت المقدس وإن كانت من أطرافه وفي أكنافه إذ لا تبعد عن بيت المقدس كثيراً، وهي الآن في غور الأردن تقريباً، فالحاصل أن الظاهر هنا والله أعلم أنها بيت المقدس، لكن لا حاجة للاشتغال بمثل هذا؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة.

وقوله: **{الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** [(٢١) سورة المائدة] لا يعني أن لهم حقاً في هذا بعد أن بدلوا وغيروا ولعنهم الله وشتتهم في أصقاع الأرض، كما قال تعالى: **{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا}** [(١٦٨) سورة الأعراف]، والذي يريد أن يتمسك بمثل هذا سيقول: هذا أيضاً في أريحيا.

فالمهم أن ذلك كان في زمان ونكلوا، فعاقبهم الله -عز وجل- بالتيه وأخبرهم أنها محرمة عليهم، أو أنها محرمة عليهم أربعين سنة -على أحد الاحتمالين- والمقصود أن الله -عز وجل- ليس بينه وبين أحد نسب، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فأورثها الله عباده المؤمنين وصارت من بلاد الإسلام، فإذا تخلى المسلمون عن دينهم فهم لا يستحقونها ولا يستحقون غيرها، وإنما بلادهم هي بلاد العرب، فالعرب إنما كانوا في الجزيرة وأطرافها، لم يكونوا لا في بيت المقدس ولا في غيره، فإذا تخلوا ورجعوا إلى جاهليتهم وتعلقوا بالتراب فإنهم لا يستحقون لا هذا ولا هذا، وليس لهم شيء إلا التراب.

"وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون -عليه السلام- وفتح الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب -باب البلد- {سُجَّداً} أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر وردّ بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- إنه كان يقول في قوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [(٥٨) سورة البقرة]**: أي ركعاً.**

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} أي: ركعاً من باب صغير، ورواه الحاكم وزاد ابن أبي حاتم: فدخلوا من قبل أستاههم.

وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي."

استبعده الرازي؛ لأنه -على كلام الحسن- لا يتصور أنهم يسجدون على وجوههم حال دخولهم؛ إذ لا يستطيع أن يدخل الإنسان ووجهه على الأرض، فهذا هو وجه الاستبعاد، وذلك أن السجود يطلق على الانحناء في اللغة، فالراكع يقال له: ساجد، والساجد الذي يضع وجهه على الأرض يقال له: ساجد، فهؤلاء

قوم أمروا بالدخول في حال السجود، فقال بعضهم: أمروا بالسجود المعروف الذي هو أبلغ صور السجود وهو وضع الجبهة على الأرض، هذه أوضح صورة للسجود وأبلغ صورة فيه.

وقال بعضهم: إن المراد بقوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [(٥٨) سورة البقرة] أي: أمروا أن يسجدوا، وليس معنى ذلك أن يكون داخلاً وهو يزحف ووجهه على الأرض، لكن هذا أيضاً اعترضه من اعترضه وقال: إن الله أمرهم أن يدخلوا وهم في حال السجود، وليس الأمر لهم أن يسجدوا سجدة إذا كانوا بالباب أو إذا دخلوه وجاوزوه سجدوا شكراً لله -عز وجل- على هذا الدخول من باب المدينة أو باب بيت المقدس؛ لأنه إذا كان كذلك لم يكن الواحد منهم قد دخل في حال السجود.

والتفسير الأقرب -والله أعلم- هو أن المراد بالسجود الانحناء أو الركوع، فأمرهم أن يدخلوا وهم في هذا الحال من التذلل والخضوع والتواضع والشكر لله -عز وجل- ولكنهم عكسوا القضية وأداروا ظهورهم مكابرة وعناداً بعكس ما أمروا به تماماً، فبدلوا الفعل الذي أمروا به بفعل آخر قبيح وبدلوا القول بقول آخر قبيح، حيث قال لهم: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} [(٥٨) سورة البقرة]، فقالوا: حبة في شعرة أو في شعيرة، أو غير ذلك مما روي في هذا المعنى، المقصود أنهم غيروا القول والفعل مقابل نعمة الفتح مع نبيهم الذي حبست له الشمس.

لقد رأوا كل تلك الأشياء ثم يقولون ويفعلون هذا القول وهذا الفعل، فما ظنك بفعلهم مع غير الله تعالى، ما ظنك بفعلهم مع عدوهم؟!

إن هؤلاء ليس لهم شبه إلا الفأرة بل وتكرم الفأرة أيضاً عنهم، ذلك أنك كلما تأملت في أحوالهم لا تجد أقرب ما يشبههم إلا الفأرة، والفأرة ليس لها شفاء ولا علاج إلا أن تباد، فلا يصلح الحال ولا يستريح الناس من شرهم إلا بقتل كل من يدب منهم على الأرض إذا بلغ، وهذا هو الحل الوحيد.

إذا نظرت إلى قضية باكستان مع الهند تجد أن الفأرة موجودة في القضية، وإذا ذهبت إلى المياه وما المياه في تركيا، ستجد الفأرة تظهر لك فيها، وإن ذهبت إلى مشكلة الجزر في البحر والإحاطة بجزيرة العرب وما أشبه ذلك تجد الفأرة ومشاكلها موجودة هناك، وهكذا ففي كل قضية حرب على الإسلام والمسلمين تجد هذه الفأرة موجودة فيها.

"وحكى عن بعضهم أن المراد ها هنا بالسجود الخضوع؛ لتعذر حمله على حقيقته.

وقال خصيف: قال عكرمة قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان الباب قبل القبلة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والسدي وقتادة والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء ببيت المقدس، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القبلة."

هؤلاء أرادوا أن يقولوا: إن السجود الذي أمروا به كان إلى جهة القبلة، وهذا الكلام لا حاجة إليه وهو تكلف، فالمقصود أنهم أمروا أن يدخلوا في حال يكون الواحد منهم خاضعاً فيها بالقول وبالفعل، ولا يشترط أن يكون ذلك إلى جهة القبلة.

"وقال خَصِيف: قال عكرمة: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فدخلوا على شق."

قوله: **فدخلوا على شق**: يعني على جنب، والحديث صريح وواضح أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم(٦) وليس على شق.

"**وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنُود عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: قيل لهم وادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقنعي رءوسهم، أي: رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا.**

وقوله تعالى: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} [(٥٨) سورة البقرة] عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} قال: مغفرة، استغفروا، وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا."

{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}: فِعْلة، يعني أمروا أن يسألوا الله أن يحط عنهم خطاياهم، ويمكن أن يكون ذلك بتقدير مسألتنا حطة، فمسألتهم ودعاؤهم أن تُحط عنهم خطاياهم، ومثل هذا قد يفسر بموضع آخر من القرآن، وإن كان لا يمت له بصلة، لكنه يشبهه في السياق وهو أوضح منه في المعنى، وذلك قوله تعالى: {قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} [(١٦٤) سورة الأعراف]، أي قالوا: نُصحُنا معذرة، وهنا {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} أي: قولوا مسألتنا حطة.

والحطة مثل ما تقول: ارتد يرتد فهو مرتد وهي ردة، فهذه حطة، حط يحط عنه الخطايا حطاً فهي حطة، ويستفاد من قوله تعالى: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} أنهم عُلِّموا كيف يسألون الله -عز وجل- أن يحط عنهم خطاياهم، أي يسألوا ربهم حط الخطايا أي: المغفرة.

"**وقال: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.**

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [(١-٣) سورة النصر].

وقوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [(٥٩) سورة البقرة]، روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطَّة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدّلوا وقالوا: حبة في شعرة))(٧) ورواه النسائي موقوفاً وبعضه مسندًا في قوله تعالى: {حِطَّةٌ} قال: فبدلوا فقالوا: حبة، وروى نحوه عبد الرزاق وعن طريقه البخاري ومسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رءوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا فقالوا: حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: {فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٥٩) سورة البقرة].

---

6 - سيأتي تخريجه.

7 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة البقرة (٤٢٠٩) (ج ٤/ ص ١٦٢٧) ومسلم في كتاب التفسير (٣٠١٥) (ج ٤ / ص ٢٣١٢).

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "كل شيء في كتاب الله من الرِّجْز" يعني به العذاب".

الرِّجز –بالكسر- العذاب، وبالضم كقوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [(٥) سورة المدثر] يعني الأصنام، وبينهما ملازمة؛ إذ إن عبادة الأصنام سبب للعذاب، كما يقال في الإثم، حيث يطلق على نفس الذنب ويطلق على التبعة التي تحصل بالإنسان من جراء الذنب، فيقال: يأثم من فعل كذا، يعني تلحقه فيه تبعة ومؤاخذة عند الله -عز وجل- ويقال: لا تقرب هذا الإثم، فيقال عن الخمر مثلاً إثم، فالمقصود أن الرِّجز –بالكسر- العذاب، والرُّجز –بالضم- الأصنام وبينهما ملازمة، والله أعلم.

وقوله: **كل شيء في كتاب الله**، مثل هذا يسمى كليات التفسير وهي كثيرة.

"وهكذا روي عن مجاهد وأبي مالك والسدي والحسن وقتادة أنه العذاب، وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم- قالوا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الطاعون رجْز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم))[٨] وهكذا رواه النسائي وأصل الحديث في الصحيحين: ((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها)) [الحديث][٩].

روى ابن جرير: عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن هذا الوجع والسقم رجْز عُذِّب به بعض الأمم قبلكم))[١٠] وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين.

---

[8] - أخرجه مسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨) (ج ٤ / ص ١٧٣٧)

[9] - أخرجه البخاري في كتاب: الطب- باب ما يذكر في الطاعون (٥٣٩٦) (ج ٥ / ص ٢١٦٣) ومسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨)(ج ٤/ ص ١٧٣٧).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب: الحيل - باب: ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٦٥٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٥٧) ومسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨) (ج ٤ / ص ١٧٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٦٠) سورة البقرة] **"يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى -عليه السلام- حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد"**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى}، إذ منصوب بفعل تقديره واذكروا إذ، فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **وإخراجه** -يعني الماء- **لكم من حجر معكم**، هذا بناءً على أن (أل) للعهد لقوله: {اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ} [(٦٠) سورة البقرة]، فتكون (أل) عهدية، أي اضرب حجراً معهوداً، ويعني به حجراً معيناً يعرفه موسى -صلى الله عليه وسلم- وكانوا ينقلونه معهم ويحملونه في أسفارهم فيخرج منه الماء، فهو حجر معين وليس أي حجر.

وكثير من السلف المفسرين يقولون: إنه حجر غير محدد وعلى هذا تكون (أل) في قوله: {اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ} للجنس، أي: اضرب أي حجر، وربما كان هذا أبلغ في الإنعام وفي المعجزة وعلى كل حال لا يوجد دليل يدل على أنه حجر معين، وإنما المقصود على كل الأحوال أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عبر بهذه العبارة -**من حجر معكم**- بناءً على هذا المعنى.

"فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك.

{وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٦٠) سورة البقرة] **ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها، وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وجُعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى -عليه السلام- فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول".**

الأسباط هؤلاء المشهور أنهم من تناسل من أولاد يعقوب -عليه السلام- فهم بمنزلة القبائل من غير بني إسرائيل، فكل سبط أشبه ما يكون بالقبيلة يرجعون إلى ولد من أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول غير هذا القول، لكن هذا هو المشهور.

"وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص على رسوله -صلى الله عليه وسلم- ما فعل لهم، وأما في هذه السورة ــ وهي البقرة ــ فهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم، وأخبر هناك بقوله: {فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [(١٦٠) سورة الأعراف] **وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار، فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك، والله أعلم."**

هذه وجوه الفرق يذكرها العلماء في الكتب التي تُعنى بالمتشابه اللفظي الذي يلتمسون له بعض المحامل من جهة المعنى، وكذلك يذكرها بعض المفسرين الذين يعنون بالجوانب البلاغية أحياناً، كما ذكر ابن عاشور مثلاً في الفروقات بين قوله تعالى في سورة الأنعام في الوصايا العشر: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}** [(١٥١) سورة الأنعام]، وفي سورة الإسراء: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** [(٢٣) سورة الإسراء] حيث يقول: الآية التي في سورة الأنعام خطاب للمشركين وهم بعداء غير داخلين في دين الله فهو يناديهم: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}**، وفي سورة الإسراء الخطاب في ظاهره موجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو موجه للأمة؛ لأنها خوطبت بشخص قدوته -عليه الصلاة والسلام- **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** أي حكم ووصى ألا تعبدوا إلا إياه، وهكذا يذكر بقية الفروقات في القضايا الأخرى، وهذا تجده في مثل هذه الكتب كثيراً حيث، يقارنون بين مقطع، ومقطع، أو بين آية وآية.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} [(٦١) سورة البقرة].

"يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم."

قوله: **واذكروا دبركم وضجركم**: الدبر شبيه بالضجر، ويمكن أن يفسر بمعنى النفور من الشيء والكراهية له، أو البعد عنه أو بأقرب ما يمكن أن يفسر به، وإنما يكون ذلك عادة أو غالباً بسبب الضجر منه، فالمعنى واذكروا دبركم وضجركم مما رزقتكم.

قالوا: **{لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ}** الذي هو المن والسلوى، ولا يخفى أن المن والسلوى طعام متعدد وليس بطعام واحد، لكن صح أن يعبر عنه بأنه طعام واحد؛ لأن الشيء الذي يتكرر دائماً ولا يتغير وإن كان متنوعاً يقال له: هذا طعام واحد، وكذلك الشيء الذي يكون على مائدة واحدة يصح أن يقال عنه: إنه طعام واحد، إذ يكون المقصود به مجموع ما على المائدة، أي ما تتكون منه المائدة، يقال له: طعام واحد، بخلاف ما لو فرق فأعطي بعضه في هذا اليوم والبعض الآخر في يوم آخر وهكذا فهذا طعام متعدد.

والمراد في الآية أنهم ملوا المن والسلوى؛ إذ هذا هو المراد الذي لا يخفى، ملوا المن والسلوى لعتوهم وتمردهم، وهذا له ارتباط أيضاً بطبيعة النفس التي من شأنها الظلم والجهل، فكما فعل قوم سبأ لما أنعم الله عليهم بما أنعم عليهم به حيث جعل بينهم وبين القرى التي بارك فيها والتي هي قرى الشام -وقيل غير ذلك- جعل قرى ظاهرة، بحيث صارت المسافات متقاربة كما قال سبحانه: **{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا**

فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} [(١٨) سورة سبأ]، بمعنى أنها مسافات قليلة قصيرة إذا خرجوا من هذه القرية تتراءى لهم القرية الثانية فلا يحتاجون إلى حمل الأزواد ولا يخافون؛ لأنه لا توجد بينهم وبين ما يهدفون الوصول إليه أرض شاسعة مهلكة مخوفة، ومع ذلك قالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} [(١٩) سورة سبأ] فأرادوا الأسفار البعيدة، ومثل هذا الظلم يحصل عند بعض الناس حيث تجده لا يحب السفر المريح القريب الهنيء الذي يكون بوسائل مريحة، وإنما يريد السفر البعيد الذي تحصل فيه مشقة، ولذلك ترى بعض الناس يتعمد الذهاب على الأقدام أو على دراجة أو على وسائل بدائية، وبعض الناس تجده يترك العيش الرغيد والأشياء الطيبة ويبحث عن الأشياء القديمة التي كان الناس لا يتعاطونها إلا بسبب الحاجة والفقر؛ حيث لا يجدون ما يأكلون أو ما يلبسون أو ما يجلسون عليه، فبدأ الناس يرجعون إلى هذه الأشياء؛ لأنهم ملوا ألوان النعيم والرغد التي يتقلبون فيها، وأصبحوا يبحثون عن الأشياء القديمة من المطعومات ويرجعون إليه، وأصبحوا ربما يتفاخرون بمثل هذه الأشياء، وترى من الألوان ما تزدريه العين أحياناً، كل ذلك تشبثاً بالقديم، ويتركون الصناعات التي هي في غاية الحذق والإتقان والجمال كأنهم لا يجدون شيئاً، وربما رأيت شيئاً من ذلك في اللباس لا سيما عند بعض النساء، فربما لبست المرأة الإزار أو ما يشبه الإزار بحيث إذا رأيتها تظن أن هذه المرأة فقيرة مسكينة ليس عندها شيء، بينما هي ترى أنها بهذا قد جاءت بما لم يأت به أحد، والله المستعان، فهذا الذي حصل عند بني إسرائيل وعند أهل سبأ قد يكون له تعلق بمثل هذا المعنى، والله المستعان..

"قال الحسن البصري: **فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم فقالوا:** {يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [(٦١) سورة البقرة] **وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد، فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة وأما الفوم فوقع في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وثومها -بالثاء-**."

يقول: **فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة**، البقول هي النباتات التي لا ساق لها، وهي الأشياء المعروفة مثل الكراث والنعناع والبقدونس والجرجير وغيرها من الأشياء التي يسمونها (الخضرة) فهذا كله داخل في البقول.

وأما القثاء فهو نوع من الخيار لكنه طويل، وهو موجود إلى الآن ومعروف، هذا هو القثاء، وبعض الناس لا زالوا يسمونه قثّاء، وبعضهم يسميه بغير هذا، فالمقصود أنه موجود يعرفه الناس وهو نوع من الخيار.

وأما الفوم فوقع في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وثومها بالثاء.

على هذا القول تكون التسمية هنا من قبيل ما تصنعه العرب كثيراً في كلامها حيث تبدل حرفاً مكان حرف، وهذا موجود وكثير جداً، وله نظائر في أشعارهم وفي كلامهم المنثور، ولا إشكال فيه، تقول: الفوم والثوم، وهذا باعتبار أن الفوم هو الثوم المعروف، وهذا قول مشهور قال به كثير من السلف فمن بعدهم.

والقول بأن الفوم بمعنى الحنطة أيضاً هو قول مشهور وإن كان لا يبلغ ما يبلغه القول الأول من كثرة القائل به، وكونه هو المتبادر إلى الذهن، فبعضهم يقول: هو الحنطة، ومن فسره بأنه الخبز فإن ذلك لا يخرج عن

قول من قال: إنه الحنطة، باعتبار أن الخبز إنما يصنع من الحنطة، فهكذا يوجه قول من قال: إن فومها المقصود به ما يخبز، وهذا كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} [(٥٨) سورة البقرة]، فعلى قول من قال: إن المعنى قولوا: لا إله إلا الله، فإنه يمكن أن يوجه باعتبار أن قول لا إله إلا الله تحط به الخطايا، وهذا كله مما يذكر في مقام توجيه الأقوال المنقولة عن السلف في التفسير، فعلى هذا الاعتبار -وهو أن الفوم هو الثوم- يكون هذا من قبيل ما تستبدل به العرب الحرف مكان الحرف وهو مشهور معروف.

وهذا القول قول له وجه وربما كان هو المتبادر المشهور، ولكن القول الآخر له وجاهته أيضاً وقد قال به كثيرون، ويوجد ما يدل عليه من كلام العرب إذ إن العرب تعبر بالفوم وتريد به الحنطة، وأما ما قيل من غير هذا في تفسيره فإنها أقوال لا تخلو من بُعد، والله تعالى أعلم.

"وقال ابن أبي حاتم: عن الحسن في قوله: {وَفُومِهَا} قال: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الثوم قال: وفي اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا، قال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة."

قوله: **فإن كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة**، يعني إن كان القول بأن الفوم بمعنى الثوم صحيحاً فهو من باب إبدال الحرف مكان الحرف.

"كقولهم: وقعوا في عاثور شر وعافور شر، وأثافي وأثاثي ومغافير ومغاثير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الحنطة وهو البر الذي يعمل منه الخبز، قال البخاري: وقال بعضهم الحبوب التي تؤكل كلها فوم."

من قال: إن الفوم هنا بمعنى الثوم المعروف احتجوا أولاً بأنه هو المتبادر والمشهور، وأن ذلك أشهر عند إطلاقه في دلالته على أنه ثوم من دلالته على أن المراد به الحنطة، والقرآن يحمل على المشهور المتبادر الظاهر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وقد يحتج لذلك أيضاً بأن الله ذكره مع البصل، {وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [(٦١) سورة البقرة] فالله تعالى أعلم.

والحقيقة أن تحديد هذا بعينه أمر لا طائل تحته ولا نستفيد منه شيئاً، فهذا كما قال عمر -رضي الله عنه- حينما تساءل ما معنى الأبّ الذي في قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [(٣١) سورة عبس] ثم رجع إلى نفسه، وقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر" مع أنه كان يدرك تماماً دون شك أن الأبّ هو نوع من النبات، وإن شئت أن تقول: هو نوع من النبات تأكله الماشية، لكن ما تحديده بالذات؟ هذا أمر لا طائل تحته ولا نستفيد من معرفته شيئاً، فالله -عز وجل- يمتن على الناس بأنه أخرج لهم من الأرض الفواكه وغيرها مما يأكلون منه وما تأكل منه دوابهم، لكن تحديد هذا بعينه قد لا يكون مفيداً، فهذا مثل ما ذاك، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [(٦١) سورة البقرة] **فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوه من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع.**

وقوله تعالى: {اهْبِطُواْ مِصْراً} [(٦١) سورة البقرة] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "مصراً من الأمصار".**

وروى ابن جرير عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى -عليه السلام- يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} [(٦١) سورة البقرة] **أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم."**

على هذا يكون ابن كثير -رحمه الله- قد مشى على أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يدع لهم، **{فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}** [(٦١) سورة البقرة]، فيقول: إنه قال لهم: اهبطوا مصراً من الأمصار، يعني أن هذا لا يحتاج إلى أن نسأل الله -عز وجل- أن ينزله؛ إذ كيف ترغبون عن المن والسلوى وتطلبون الفوم والبصل؟ فهذا تجدونه ميسوراً مبذولاً لكل أحد في أي مصر من هذه الأمصار إذا دخلتموها فإن ذلك مما يزرع في القرى، فعلى هذا يكون موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يجبهم إلى سؤال الله -عز وجل- أن ينزل عليهم شيئاً من ذلك.

وبعض أهل العلم يقول: إنه سأل ربه أن يرزقهم هذا، ثم وجههم إلى أن يهبطوا أي: يقصدوا ويتوجهوا إلى تلك الجهة، فالهبوط هنا بمعنى القصد والتوجه، تقول: هبط إلى أرض كذا بمعنى أوى إليها وقصدها وتوجه إليها.

ويلاحظ أن مصراً هنا منكرة وجاءت منونة فربما ظن من سمعها أن ذلك أدل على أن المقصود بها قرية من القرى بمعنى أنها أي بلد من البلدان باعتبار أنه نكرها، وأما مصر المعروفة فلو قصدت لقال: مصرَ –بدون تنوين- باعتبار المنع من الصرف، تكون ممنوعة من الصرف لعلتين هما العلمية والعجمة، لكن هذا فيه نظر؛ لأن مصر ثلاثية، ومعلوم أن الثلاثي وإن كان أعجمياً لكنه جاء ساكن الوسط، فإنه يُصرف، وهذا له نظائر تجده في أسماء الأنبياء، مثل نوح -عليه الصلاة والسلام- تجده يكتب نوحٌ ونوحاً، مع أنه أعجمي؛ لأنه ساكن الوسط، وأما هود فصرف باعتبار أنه عربي، مع أنه ساكن الوسط، لكن على فرض أنه أعجمي إلا أنه أيضاً ساكن الوسط، ومعنى هذا الكلام أن قول من قال: إن قوله تعالى: **{اهْبِطُواْ مِصْراً}** [(٦١) سورة البقرة] يقصد به البلد المعروف اليوم -مصر- غير ممتنع من جهة اللغة، يعني لا يحتج في رده باعتبار أنها جاءت مصروفة هكذا، **{اهْبِطُواْ مِصْراً}**.

لكن القول الآخر ربما كان هو الأقرب والله تعالى أعلم- وهو أن قوله: **{اهْبِطُواْ مِصْراً}** أي مصراً من الأمصار؛ لأن ذلك الذي يدل عليه السياق، فهم لم يطلبوا شيئاً يختص بمصر المعروفة، وإنما طلبوا أشياء متوفرة في أي قرية دخلوها.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٦١) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون."

ضرب عليهم ذلك أي: ألزموا به فلا فكاك ولا مخرج ولا خيار فيه، وهذا كما يقال مثلاً: ضرب الأمير بعثاً فالمعنى أنه ألزم هذا البعث أو الجيش بالخروج إلى ما وجههم إليه، بمعنى صدر قرار بإلزامهم بهذا الأمر، {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ} أي: ألزموا به، فصار ذلك الشيء ملازماً لهم، وحتماً في حقهم لا فكاك ولا خلاص منه.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} أي أنها لا تفارقهم، فهم أذلاء وإن ملكوا الأموال الطائلة، وفيهم مسكنة وإن حصلوا ما حصلوه من أسباب القوة فإنك تجد ذلك لا يفارق وجوههم، فهذا هو الأصل فيهم وإن وجد من بعضهم خلاف ذلك فإن القليل والنادر في وقت من الأوقات أو في بعض الأفراد لا حكم له ولا يخرج عن صحة الحكم على المجموع بأنه كذا، وكذا، وليس تحصيل العز وما إلى ذلك مما يلحق بمعناه، ليس تحصيله بكثرة المال والقوة المادية، فإن الذل والصغار والمهانة والمسكنة أمور تتعلق بالنفس، ولذلك تجد من الناس من يملك الكثير ومع ذلك هو أشبه ما يكون بالفقراء، بل هو فقير؛ لأن الفقر في قلبه، ولذلك ربما لجأ إلى سؤال الناس مع كثرة ما يملك، فإذا كان الفقر في القلب فإن حال هذا الإنسان هي حال الفقراء وإن كان الذي في يده كثيراً.

وإذا كان الذل في القلب فمهما أوتي الإنسان من العرض ومن أسباب القوة فإن ذلك لا يخرجه عن هذا الوصف، وهذا الذل والمهانة شيء مشاهد فيهم، فمن خالط هؤلاء الناس وعرف حالهم، ووصفهم وجد ذلك منطبقاً تمام الانطباق عليهم.

وقد ذكر بعض أهل العلم أشياء من هذا كثيرة، وكأن ذلك من شأن هؤلاء وعادتهم، وإن كانت عندهم الأموال الطائلة والذهب، فإنه يظهر بخلاف ذلك، لا يظهر عليه ما يظهر على غيره ممن يعطيهم الله -عز وجل- الغنى والسعة، فتجده ذليلاً إما خوفاً من الجزية، وإما خوفاً من أن يسطى على ذلك، أو يطالب بشيء من الإتاوات أو الضرائب أو نحو هذا، والحال تشهد بهذا حيث تجد أنه يهاجر مئات الألوف منهم بسبب الهلع والفزع والخوف الشديد من صاروخ -لا أدري ما تأثيره- يسقط على مدينة من هذه المدن المستحدثة، ولذلك إذا حصل أدنى ما يحصل من الخوف تهافت هؤلاء بالطوابير يجمعون الكمامات، ويجمعون الأزواد والأقوات، بصورة لا تكاد توصف، وإذا نظرت إلى حال جنودهم الذين إذا رأيتهم ظننت لأول وهلة أنهم بنات لحداثة سنهم وعنايتهم بأجسادهم وإذا نظرت إليهم وهم يبكون حينما يجرح أو يقتل واحد من زملائهم ظننت أنك في مجمع من النسوة، وليس في جيش قوي يمكن أن يقاتل ويصد الأعداء وما أشبه ذلك، لكن الحقائق قد لا تنكشف لأول وهلة، ولكن لو جاءت المواجهة الحقيقة ترى من العوار الذي يخفونه عشرات السنين، ويوهمون الناس بخلافه، تجد ذلك ظاهراً بيناً لكل أحد، ومن نظر في أحوال هؤلاء ومن شابههم وجد هذا ظاهراً فصار قتلهم أهون ما يكون بعد أن كان الناس يظنون أنهم قوة لا يمكن أن تقهر، ولا يمكن أن يقتل هذا الجندي، ولا يمكن أن تسقط طائرة لهم؛ وذلك لأن عندهم من الاحتياطات والقوة والمنعة وكذا ما لا يمكن أن يحصل معه هزيمة، فإذا جرب الناس مرة ثم مرة وجدوا شيئاً آخر، لكنهم زرعوا المهابة في نفوس الناس، وصوروا لأنفسهم شيئاً ليس بحقيقي، وعند الجد يذهب ذلك جميعاً، ولا تبقى إلا الحقائق.

"وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي: المسكنة الفاقة."

على كل حال الفقر في قلوبهم، ولو قرأتم لعلمتم أن بعض الجنود الإسرائيليين الآن يقومون بالسرقة، وبعضهم يصطفون بالطوابير ليأخذوا القوت، ليس من الجهة التي تعطيهم أقواتهم، بل عند الأماكن التي تبذل الصدقات، يصطفون بالطوابير ليأخذوا الصدقة! وهكذا من كان فقره في قلبه فإنه لا يمكن أن يتغير.

"وقال عطية العوفي: الخراج."

قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} المسكنة الفاقة، وقال عطية العوفي: الخراج، يعني ما يؤخذ من أرضهم التي فتحها المسلمون فصارت أرضاً خراجية، لكن لا تفسر الآية إلا أنه هنا يريد أن يربط بينها.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} الذل معروف أنه يعني الصغار، والمسكنة قال عطية العوفي: الخراج، فهو يريد أن يقول: هو شيء آخر فرض عليهم شرعاً وقدراً فقال الخراج أو الجزية.

والله -عز وجل- قال: {حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة] فهؤلاء ملزمون بالذل سواء كان ذلك بطريق الجزية، أو كان ذلك الوصف الذي أوقعه الله -عز وجل- فيهم فصار وصفاً لا يفارقهم.

قوله: **ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية**، أقول: هذا هو الأصل في حالهم، وهو الاستذلال والاستضعاف والقتل والتشريد إلى آخره، وكان ذلك على مدى هذه القرون المتطاولة، حيث لم يقم لهم ملك ولم ترفع لهم راية، وإنما كانوا يستذلون ويستضعفون ويقهرون حتى إلى عهد قريب جداً، ففي أوروبا كانوا ربما نودي عليهم في بعض البلدان أن يقتلوا جميعاً، واقرءوا في التاريخ المعاصر تجدوا ذلك جلياً.

فالمقصود أن الشيء المؤقت الذي يحصل في سنوات أو سنيات لا ينبغي أن يكون خارجاً عن الحكم والوصف العام فهذه قضية مهمة.

المقصود أن من قاس هذه الأمور بعمر الإنسان فإنه قد يستشكل مثل هذه المعاني، ومن قاسها بعمر الأمم فإن ذلك يظهر له واضحاً، فإذا كان هؤلاء اليهود يستذلهم الرومان منذ عهد قسطنطين وقتلوهم في أنحاء المملكة القسطنطينية أو الرومانية وفعلوا بهم ما هو معروف في التاريخ واستمر ذلك ثم جاء المسلمون وفعلوا بهم ما هو معروف، فلو فرضنا أنهم قامت لهم دولة في القرن الخامس الهجري لمدة خمسين سنة أو سبعين سنة أو ثمانين سنة، ثم بعد ذلك انتهت وأحرقوا في داخلها، فإن هذا لا يخرجهم عن الحكم والوصف العام في خط التاريخ الطويل، وهذا مثل ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم))[1] فإذا وجدت حالة من الارتفاع خلال فترة قصيرة من فترات الانحدار فإن هذا لا يعد في القياس والحساب أنه ارتفاع وانقلاب للحكم وتغير فيه بل هو جزء من هذا الانحدار وإن وجد فيه هذا النتوء اليسير، وهكذا اليهود هم بهذه الطريقة، فلو حصلت لهم قوة في وقت من الأوقات فإن مثل هذا لا يكون رفعة في حقهم، ولا تغيراً في حكمهم، بل يبقى الحكم العام في حقهم فهو الغالب.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٦٦٥٧) (ج ٦ / ص ٢٥٩١).

ولذلك لما ذكر للحسن البصري -رحمه الله- في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يأتي على الناس زمان)) قالوا: فما القول في زمان عمر بن عبد العزيز الذي هو أفضل من زمن الحجاج مع أنه بعده، فقال: لا بد للناس من تنفيس.

فإذا نظرت إلى حال الأمة من عهد الصحابة إلى يومك هذا وجدت أن القضية في نزول، لذلك فوجود عهد مثل عهد عمر بن عبد العزيز في فترة من الفترات لا يغير الحكم العام، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} [(٦١) سورة البقرة] **قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال ابن جرير: يعني بقوله: {وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} انصرفوا ورجعوا."**

تقول: باءَ أصله من المباءة، والمباءة هي المكان الذي يرجع إليه الناس بعد تفرقهم وانتشارهم، ومعنى **{بَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}** أي: رجعوا فيه.

"ولا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بوءاً وبواء، ومنه قوله تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [(٢٩) سورة المائدة] **يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني، فمعنى الكلام إذاً رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط.**

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٦١) سورة البقرة] **يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق."**

وهذا كما يصلح أن يكون مثالاً لما سبق مما ذكرته وهو أن الحكم الخاص قد يعقب بما هو أعم منه، ليدلل بذلك على أن كل من عمل بهذا العمل فإنه قد يناله مثل هذا العقاب، فهم لماذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة؟ لكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، فذلك لا يختص بهم بل إن من فعل فعلهم فإنه يستحق مثل هذه العقوبة، وهذا كثير في القرآن، وتارة يذكر هذا بإبراز العمل الذي حصل فيه دون التعقيب عليه بمثل هذا.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}** [(٦١) سورة البقرة] هنا سؤال يرد وهو هل يعتبر مفهوم المخالفة هنا بحيث إن قتل النبيين يمكن أن يكون بحق؟

لا يمكن أن يكون كذلك؛ وإنما قيده هنا هذا التقييد ليسجل عليهم عظم جرمهم، وعلى كل حال هذا أسلوب عربي معروف، فيكون قوله: **{بِغَيْرِ الْحَقِّ}** من قبيل الوصف الكاشف للحقيقة الواقعة دون أن يكون مقيداً؛ لأن هذا القيد لا مكان له؛ إذ إن قتل النبيين لا يمكن أن يكون بحق إطلاقاً كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}** [(١١٧) سورة المؤمنون] هل يمكن أن يدعو الإنسان إلهاً آخر له به برهان؟

لا يمكن ذلك، وإنما تكون هذه من قبيل الصفة الكاشفة لبيان الحقيقة الواقعة، دون أن يكون ذلك قيداً، وإنما يكون هذا الأسلوب قيداً فيما لو كان النوع الآخر أو المثال الآخر أو الصورة الأخرى يمكن أن تقع، مثل لو قلت: الذي يقتل الناس بغير الحق فإنه متوعد بكذا وكذا، طبعاً الصورة الأخرى هي أنه يمكن أن يكون قتل

الناس بحق، أما هنا فلا يمكن أن يقع قتل الأنبياء بحق أبداً، فيكون ذلك من قبيل التسجيل عليهم شناعة جرمهم، كأنه ينادي عليهم بذلك ويكون ذلك من باب التأكيد، ومثل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] والطائر إنما يطير بجناحيه.

وقوله: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة] والكتابة إنما تكون بالأيدي، لا بالأرجل.

وقوله أيضاً: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران] والإنسان إنما يتكلم بفمه.

وهذا كما تقول: أمشيتَ إليه برجلك؟، كل هذا من باب التأكيد، والله تعالى أعلم.

"ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الكبر بطر الحق وغمط الناس))[٢].

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين))[٣]."

الممثلون يقصد بهم أصحاب التصاوير..

"وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٦١) سورة البقرة] وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة البقرة].

لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاءً الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة يونس]، وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [(٣٠) سورة فصلت]."

قوله: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} هذا باعتبار أن الخوف والغم من أمر مستقبل متوقع، والحزن هو الغم من أمر فائت، فنفى عنهم هذا وهذا.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١) (ج ١ / ص ٩٣).

[3] - أخرجه أحمد (ج ١/ ص ٤٠٧) والطبراني في الكبير (ج ١٠ / ص ٢١١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٨١).

وهذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة البقرة] هي قطعاً في الأمم التي كانت قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن الله -عز وجل- قد أرسل الرسل وأنزل الكتب فمن تبع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وقبل دعوتهم واستجاب لهم فإن الله وعده بالرحمة والجنة، وأما بعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يقبل من أحد سوى الإسلام، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} [(٨٥) سورة آل عمران] والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٤].

وكذلك أيضاً النصوص الكثيرة الواردة في مثل هذا المعنى، وبالتالي فإنه لا يجوز لأحد أن يفتري على الله -عز وجل- ويقول: إن هؤلاء اليهود أو النصارى أو أمم الكفر من البوذيين وغيرهم على شيء، وإنهم تحصل لهم النجاة أو إنهم أهل إيمان، أو أنه يتوقف في أمرهم أو نحو ذلك فهذا محادة لله -عز وجل- وتكذيب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللقرآن، وهو كفر مخرج من الملة؛ إذ لا يجوز لأحد أن يتوقف في أمر هؤلاء، فالنصوص واضحة ومتضافرة على أنهم كفار، وأنهم مخلدون في النار، النصوص في ذلك كثيرة جداً، وهذه الآية تُحمل على من حصل لهم الإيمان في الوقت الذي جاءهم فيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعني إبان بعثة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لهم، ففي زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- مثلاً من آمن به دخل الجنة، ومن كذبه وكفر به دخل النار، وكذلك لما جاء عيسى -عليه الصلاة والسلام- لبني إسرائيل فالذين آمنوا به واتبعوه هم أهل النجاة، والذين كذبوا به لا ينفعهم البقاء على ما كانوا عليه قبل بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم-، ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يقبل من أحد سوى دين الإسلام، والقرآن واضح وصريح في هذا.

"**روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:** {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٦٢) سورة البقرة] **الآية قال: فأنزل الله بعد ذلك:** {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٥) سورة آل عمران] **فإن هذا الذي قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل نجاة، فاليهود أتباع موسى -عليه السلام- الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، واليهود من الهوادة وهي المودة.**"

هذه الآية نظير الآية التي في سورة المائدة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى} [(٦٩) سورة المائدة] ، وقد جاء في سورة الحج ذكر المجوس، ولكنه في ذلك المقام ذكر الفصل بينهم والحكم، {وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [(١٧) سورة الحج]، فالحاصل أن تلك الآية ليست في هذا الموضوع الذي

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

تحدثت عنه آية البقرة وآية المائدة، بل تلك في الفصل بين الأمم، أي بين الطوائف، وهذا في وعد المستجيبين لله -عز وجل- بالجنة والرحمة.

يقول: **واليهود من الهوادة وهي المودة**، بمعنى أنه يود بعضهم بعضاً، فهذه المودة موجودة بينهم والله -عز وجل- قد فرض ذلك عليهم كما هي الموالاة بين أهل الإيمان، وقد حرم الله -عز وجل- على اليهودي أن يقتل اليهودي أو أن يأسره، كما دل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [(٨٥) سورة البقرة] أي أنه يحرم على اليهودي أن يخرج اليهودي من بلده أو أن يقتله أو يعين على قتله، فالله فرض عليهم هذا وألزمهم بهذه المودة.

فبعضهم يقول: الهوادة هي من المودة، وبعضهم يقول: هي من النسب، نسبة إلى جد لهم وهو ابن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- فأحد أولاد يعقوب اسمه يهوذا، والعرب أبدلت الذال دالاً كما يجري ذلك في لغاتها من إبدال الحرف مكان الحرف لا سيما الأعجمي، فإن القاعدة في ذلك كما قيل: أعجمي فالعب به، فالعرب لا تبالي حينما تنقل وتغير وتبدل الأسماء الأعجمية أو الأوصاف أو غير ذلك مما هو في كلام الأعاجم بما يتناسب مع ألسنتها وفطرتها اللغوية دون أن تلوي اللسان بمثل هذه الكلمات كما يلوي الأعجمي لسانه، وكما يفعل بعض الناس اليوم ويظن أن ذلك لوناً من المهارة، والحذق، وما علم أن ذلك من ألوان القططية -إن صح التعبير-.

المقصود أن قوله: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف] يمكن أن يحمل على معنى ثالث مشهور وربما كان هو المتبادر، وربما كان هو أشهر هذه الأقوال، أنه من هاد يهود، أي رجع، {هُدْنَا إِلَيْكَ} بمعنى تبنا إليك، ورجعنا إليك، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ} أي رجعوا إلى الله -عز وجل- وتابوا إليه، أي: قيل لهم يهود بهذا الاعتبار، وهذا مثل قولك: يا صاحب الذنب هُدْ هُدْ، يعني ارجع ارجع، والله أعلم.

"واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهي التوبة كقول موسى -عليه السلام-: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف] أي تبنا، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب."

قوله: **وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب**، مع أنه من ناحية النسب ليس كل اليهود ينتسبون إلى يهوذا وإنما أحد الأسباط هو الذي ينتسب إليه فقط.

"وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة."

هذا معنى رابع وهو بمعنى يتحركون ويهتزون عند قراءة التوراة، وهذا التحرك والاهتزاز يفعله بعض الناس عند قراءة القرآن، لذلك يقول بعضهم: هذه عادة يهودية، لا يجوز للمسلم أن يفعلها؛ لأنها من قبيل التشبه باليهود عند قراءة التوراة، وجاء في هذا بعض الإسرائيليات وبعض الأخبار، وبعض الآثار أيضاً، فالله تعالى أعلم.

" فلما بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم- وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى -عليه

السلام-: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ} [(٥٢) سورة آل عمران] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله: قتادة وابن جريج وروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أيضاً، والله أعلم."

إما أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، أو أن هذه البلدة التي يقال لها: الناصرة في الشام هي قرية المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فنسبوا إليها، وكل ذلك لا يوجد ما يدل عليه، لا في تسمية اليهود، ولا في تسمية النصارى، لكن ربما كان المتبادر أن النصارى قيل لهم ذلك؛ لأن الحواريين منهم قالوا: نحن أنصار الله، والله تعالى أعلم.

"والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان."

أي يقال: نصارى، ويقال: نصراني، فالياء تكون للنسبة وقد تأتي للمبالغة، وإلا فهو نصران، والنصارى جمع نصران، ومثله: نشوان وسكران، فتقول: نصارى ونشاوى وسكارى، وما أشبه ذلك

"وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً."

كل ما سبق ذكره يريد أن يصل به إلى هذه النتيجة، وهي أن هؤلاء الذين وعدهم الله -عز وجل- بنفي الحزن والخوف عنهم إنما كان لمن استجاب منهم للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حينما دعوهم إلى دين الله، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقبل من أحد سوى الإسلام، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: ((والذي نفسي بيده لو أن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني))[5] فلا يقبل من أحد ديناً سوى الإسلام.

وهذه القضية نحتاج إلى تقريرها وتوضيحها للناس الآن مع أنها من البدهيات، فنحن في زمان تعقد فيه المؤتمرات للتقريب بين الأديان مما يدل على أن القضية أخطر مما يتصوره الكثيرون.

وهناك جهود أيضاً تبذل في هذا السبيل قد أعد لها من المنشآت والخطط ما الله به عليم، وإذا نظرت إلى التوصيات أو الخطط التي كتبت في هذا تجد أشياء عجيبة جداً، حيث تجد مَن أول من دعا إليها، ومتى دعي إليها، ومن الذي قام بهذه الدعوة، وماذا يريدون من ورائها، وأمور كثيرة ينبغي أن يعرف الناس بها في مثل هذه الأيام؛ لأن الدعوة تزداد، مع ما يحصل وما ترون تحت مسمى التقريب بين الأديان لتذويب المسلمين، وصدهم عن دينهم تحت هذه الخدعة الكبيرة، ومن أكبر الدعاة لهذا -الآن- في هذا العصر (رجاء جارودي) الفيلسوف الفرنسي المعروف الذي قالوا عنه: إنه دخل في الإسلام، والواقع أنه لم يدخل في الإسلام وإنما دخل في لون من الزندقة، فهو زنديق على طريقة الفلاسفة وعنده من قضايا عقائد أهل وحدة الوجود، وأمور

---

5 - أخرجه أحمد (ج ٣ / ص ٣٨٧) وابن أبي شيبة (ج ٥ / ص ٣١٢) والبيهقي في شعب الإيمان (ج ١ / ص ١٩٩) وحسنه الألباني في المشكاة (١٧٧).

مخزية كثيرة، فمثل هذا لا يفرح به، ولا يفتخر به، ولا يذكر في مقام، فهو له منظمة تتبنى هذه القضية، وعقد عدداً من المؤتمرات وشارك في كثير منها، وهو من أكبر الدعاة لهذا في هذا العصر.

إننا بحاجة إلى أن نطالبهم بما كتبه بابا الفاتيكان في فترة مضت -ليست بعيدة- حينما أقروا أن ما يقال عن المسيح إنما يعرف بما يقوله المسلمون، حيث أصدروا بياناً في هذا تبنى أن قضية المسيح إنما يسأل عنها المسلمون، وذلك بعد أن وجدوا بعض الأشياء في البحر الميت، حيث وجد بعض الرعاة قطعاً من التوراة أو الكتب القديمة، فلما قرئت وجد فيها التصريح ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكر فيها ما يحصل من تبديل اليهود وأن المسيح -عليه الصلاة والسلام- سيأتي ويغلو فيه النصارى ويجاوزون الحد فيه، ثم يأتي النبي الذي يصحح لهم هذا المسار وينفي هذا الغلو، ويدعوهم إلى الإسلام وما أشبه ذلك..الخ.

لما وجدوا هذا الكلام دعا بابا الفاتيكان إلى الاجتماع بالمسلمين، وبعد أن وجه هذه الدعوة وُجد مقتولاً، ثم جاء الذي بعده فجمع النصارى ولم يجمع إليهم المسلمين ثم تشاوروا وتحدثوا عن مثل هذه الموجودات، وما يقال عن المسيح.

الحاصل أنهم أقروا وأصدروا وثيقة بهذا المعنى وأرسلوا صورة منها إلى الأزهر، وصورة منها إلى رابطة العالم الإسلامي، وفيها إدانة كبيرة لليهود والنصارى في العالم، وكان من ضمن التوصيات والقرارات التي ذكروها وصرحوا بها إيقاف التنصير في العالم الإسلامي، باعتبار أن دين الإسلام دين حق وصحيح، وأن حقيقة المسيح إنما تعرف بما يقوله المسلمون.

هذا الذي نحتاج أن نظهره وأن تكتب عنه الصحف وتأتي التعليقات عليه من قبل أهل الفكر، فهذه القضية هي قضية العصر فهي قضية كبيرة، ولكن للأسف الشديد أن الواقع الذي يعلن عنه ويدعى إليه خلاف ذلك، فالدعوة المعاصرة هي دعوة إلى التقريب بين الأديان فهذا الأمر وللأسف هو الذي يسمع عنه الناس اليوم.

والأعجب من ذلك أنك تجد بعضهم يتفلسف فيقول: ذهبنا لدعوتهم! مع أنه يعلم بل هو أول من يعلم أن المقام ليس مقام دعوة، وإنما المقام أن تجلس معهم، وفي أحسن أحوالك أن تجلس جلوس الند على طاولة مستديرة ليس فيها أحد في مجلس الرئيس أو في آخر الطاولة، فهي مستديرة يستوي فيها جميع الأطراف فيحصل التحاور في التقارب بين هذه الأديان والتعايش!.

وقد بنيت بعض المجمَّعات في بعض البلاد الشرقية وفي أوروبا حتى أدخلوا فيها بعد ذلك البوذية وما اقتصرت على اليهودية والنصرانية، فتجد معبداً يهودياً أو كنيسة أو مسجداً وترى فيه بعض الصور والرسومات بحيث تشير إلى وحدة الأديان، بل صارت تقام أحياناً مشاركة في صلوات في مناسبة من المناسبات وغير ذلك، وهذا كله داخل في هذا المعنى، فالمقصود أن مثل هذه الآية {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ} قد يلبس فيها بعض الناس ويقول: إن القرآن دل على هذا، والله المستعان..

ومن الآيات التي يخطئ بعض الناس في فهمها أو يلبس فيها أهل التلبيس قوله -تبارك وتعالى-: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} [(٨٢) سورة المائدة]، فهم يقرءونها دون أن يكملوها ليلبسوا فيها على الناس، وإنما الآية تعرف بما بعدها {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ

{تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [(٨٢-٨٤) سورة المائدة]، فهل هؤلاء يقولون مثل هذا الكلام؟

هذه نزلت في مثل النجاشي وعبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، ولم تنزل في هؤلاء الذين يحاربون الإسلام صباح مساء، فهؤلاء يلبسون بمثل هذه الآيات على الناس، وإلا فإن النصارى هؤلاء ليسوا أقرب مودة إلينا من اليهود بل هم مثل اليهود، وأشد من اليهود، ولا فرق بينهم وبين اليهود، وهم من المغضوب عليهم؛ فإن من عرف الحق وتركه، فإنه يكون من أهل الغضب، فهؤلاء جمعوا بين الغضب والضلال.

"وسميت أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- مؤمنين؛ لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية."

تأمل في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى} [(٦٢) سورة البقرة]، فمع أن الذين هادوا والنصارى حينما بعث إليهم موسى -صلى الله عليه وسلم- آمن منهم من آمن، ومع ذلك خص الذين اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم- بالإيمان والسبب في ذلك أنهم تميزوا بكمال إيمانهم سواء من جهة الثبوت أو من جهة متعلقه بكثرة شرائع الإسلام، فالشريعة الإسلامية أوسع من غيرها، فيكون ذلك أكمل في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، فالتميز بصفة من الصفات يكون سبباً للتسمية أحياناً، ولهذا لما ذكر الله المؤمنين قال -عز وجل-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] فقدم الأمر بالمعروف وأخر الإيمان، ولما ذكر أهل الكتاب قال: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [(١١٣-١١٤) سورة آل عمران] فأخر الأمر بالمعروف وقدم الإيمان في حقهم، فيمكن أن يقال في هذا والله أعلم: إنه لما كانت هذه الأمة متميزة بهذا الأمر -الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- وإن كان موجوداً عند من قبلهم لكنه عند هذه الأمة أظهر قُدم، وأُخر في حق غيرهم، ربما يكون السبب هو ذلك والعلم عند الله -عز وجل-.

"وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال سفيان الثوري: عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين، وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك."

قوله: **قوم بين المجوس واليهود والنصارى** يعني ليسوا من المجوس ولا من اليهود ولا من النصارى، فليس دينهم مشترك، يعني ليسوا على دين المجوس ولا على دين النصارى ولا على دين اليهود.

وأصل الصابئ يقال لمن خرج من دين إلى دين، فمن خرج أو مال من دين يقال له: صابئ، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا عنه صابئ، ويقولون عن من أسلم إنه صبأ فهو صابئ، بمعنى خرج عن دينه.

وبعضهم يقول: إنهم كانوا يقولون ذلك نسبة ينسبونهم فيها إلى الصابئة؛ لأنهم كانوا على غير دين من الأديان التي كانت موجودة آنذاك، أي: ليسوا على الإشراك، ولا على اليهودية، ولا على النصرانية، وإنما هم قوم على الفطرة.

والأقوال في معنى الصابئة كثيرة، والناس مختلفون في هذا، وربما كان ذلك -والله تعالى أعلم- بسبب تعدد من يطلق عليهم أنهم صابئة، فالصابئة تطلق على طائفة من طوائف النصارى، وتطلق على قوم من عبدة الكواكب حتى قيل: هم الذين مر بهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وناظرهم المناظرة المعروفة في سورة الأنعام {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا..} [(٧٦) سورة الأنعام] الآيات، وتطلق أيضاً الصابئة على قوم هم على الفطرة، ليسوا على شيء من الأديان التي كانت موجودة من اليهودية أو النصرانية أو الإشراك، وإنما بقوا على الفطرة فهذه الإطلاقات موجودة ومعروفة.

إذا أردنا هنا أن نفسر الصابئة فلا يصح أن نفسرها بعبدة الكواكب، وهم لا زالوا يوجدون في العراق إلى اليوم، وتسمى طائفة الصابئة، وهذا موجود في بعض الإحصاءات عن الديانات الموجودة في العراق، حيث يذكرون نسبة قليلة جداً، وعلى كل حال فهؤلاء لا يمكن أن تحمل عليهم الآية.

وما بقي إلا أن تحمل الآية على هذه الطائفة من النصارى، أو من أهل الكتاب عموماً حيث يقولون: هم يقرءون الزبور فإن كانوا على التوحيد يمكن أن يفسر به، أو يقال -وهو الأشهر والأقرب والله تعالى أعلم- إنهم قوم على الفطرة ليسوا على دين من الأديان الموجودة -في ذلك الوقت وأما الآن فلا يقبل من أحد سوى الإسلام- فهؤلاء الذين كانوا على الفطرة ولم يقعوا في شيء من الإشراك وإنما يعبدون الله -عز وجل- بحسب ما يتوصلون إليه، فمثل هؤلاء وعدهم الله -عز وجل- بالمغفرة أو بنفي الخوف والحزن عنهم، بمعنى أنهم يدخلون الجنة وينجون من النار.

"**وقيل: فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور، وقيل: قوم يعبدون الملائكة وقيل: قوم يعبدون الكواكب.**"

على كل حال كتبت كتابات خاصة في الصابئة، وكذلك في الكلام على الملل والنحل، ولما تقرأ ما كتبه الشهرستاني تجده تكلم كثيراً عن الصابئة وما يراد بهم، وغيرها من الطوائف، حيث تكلم بكلام طويل مفصل عن الصابئة، وتوجد أيضاً رسائل خاصة للصابئة مطبوعة، وتوجد كتابات هنا وهناك تختص بهم ونشرت في بعض المجلات، كما كتب بعض الكتاب المصريين من طبقة أحمد تيمور باشا -رحمه الله- وأمثاله، حيث كتب رسالة صغيرة في الصابئة طبعت قديماً، والله أعلم.

"**وأظهر الأقوال -والله أعلم- قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك، وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.**"

قوله: **الذين لم تبلغهم دعوة نبي**، يمكن أن يقال: هؤلاء أهل الفترة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [(٦٣-٦٤) سورة البقرة].

"يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رءوسهم ليُقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وهمَّة وامتثال."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك تعالى هنا: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}** يعني واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم، والميثاق سبق الكلام عليه وأنه العهد الموثق، فالعهد الموثق يقال له: ميثاق.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} هذا الميثاق إما أن يكون للعمل بالتوراة، قال تعالى: **{خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}** [(٦٣) سورة البقرة]، وذلك أن يأخذها أخذاً جاداً من غير تشهٍ ولا تذوق، ومن غير إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض، قال تعالى: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** [(٨٥) سورة البقرة] فمن لم يلتزم أحكام شرع الله -عز وجل- وكان مضيعاً مفرطاً أو آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه لا يكون ممن أخذ به بقوة، وقد قال تعالى آمراً بأخذ الدين بقوة: **{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}** [(١٢) سورة مريم] يعني بعزم وجد، والمراد الأمر بالاستقامة على أمر الله -عز وجل- والتلقي عنه تلقياً كاملاً، والعمل بمرضاته من غير تضييع شيء من ذلك، فهذا هون الميثاق، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قد يكون هذا الميثاق الذي أخذ عنهم كان على أمر معين لم يذكر هنا، وعلى كل حال فالله أخذ عليهم الميثاق وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة، ومما يذكر من الأخبار في هذا ما يذكره المفسرون من أنهم أبوا أن يأخذوا التوراة وأن يعملوا بها، وطلبوا من موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يكلموا الله -عز وجل- وأن يكلمهم مباشرة كما كلم موسى، يخاطبهم بالتوراة مباشرة وإلا فإنهم لا يؤمنون، فأخذتهم الصاعقة، ثم لما بعثوا تأبَّوا فرفع فوقهم الطور الجبل من أجل أخذها.

"كما قال تعالى: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧١) سورة الأعراف]."

يعني أنهم تأبَّوا عن أخذها فرفع فوقهم جبل الطور من أجل أن يتلقوها ويقبلوها ويأخذوها، فهم لم يؤمنوا إلا بهذه الطريقة، وعلى كل حال فالطور هو الجبل، وبعضهم يقول: هو بالسريانية الجبل مطلقاً، وبعضهم يقول: الطور هو الجبل الذي فيه شجر، وبعضهم يقول: الطور المقصود به جبل معين، وهو الجبل الذي كلم الله

-عز وجل- عنده موسى، فتكون (أل) عهدية، أي الطور المعهود، وإن كان الطور يطلق على الجبل مطلقاً، لكن (أل) تكون للعهد لجبل معين، وبعضهم يقول: (أل) هنا ليست للعهد، وإنما هي المعرفة، و(أل) المعرفة هي التي تكون دالة على الجنس فحسب دون أن تعود إلى جبل دون جبل، وهذا أمر لا طائل تحته، فالمقصود أنهم لم يؤمنوا إلا برفع جبل فوق رءوسهم، وما هو هذا الجبل؟ هذا أمر ليس تحته طائل ولا يفيد، ولا يترتب عليه عمل، والعلم به لا ينفع، وبالتالي فالخوض في مثل هذه القضايا ينبغي الإعراض عنه، والله أعلم.

"فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر.

وفي رواية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور، وقال الحسن في قوله: {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} [(٦٣) سورة البقرة] **يعني التوراة، وقال مجاهد: {بِقُوَّةٍ} بعمل ما فيه، وقال أبو العالية والربيع: {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ} يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا به."**

قوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ} يعني أن يكون ذلك مذكوراً عندكم بقلوبكم فلا تحصل الغفلة، وبألسنتكم بتلاوتها وما أشبه ذلك، ويكون أيضاً مذكوراً لكم بأعمالكم وجوارحكم، فاذكروا هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة، يعني أن يقوموا بما ألزمهم الله -عز وجل- به وبما ينبغي أن يقوموا به من هذه الجهة، فكل ذلك مطالبون به، بطرد الغفلة والعمل والتلاوة، اذكروا ما فيه ولا تضيعوه وتعرضوا عنه وتكونوا من الغافلين.

"وقوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ} [(٦٤) سورة البقرة] **يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه، {فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ}** [(٦٤) سورة البقرة] **أي: بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم {لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٦٤) سورة البقرة] **بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة."**

{وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(٦٣) سورة البقرة] أي: من أجل أن تتحقق التقوى لكم، وإنما يكون ذلك بالعمل بالتوراة والإيمان بها قبل ذلك، وأن تكون أحكام الله -عز وجل- وأوامره ونواهيه حاضرة في قلوبهم، {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} يعني ما في الكتاب من أجل أن تحصل التقوى في قلوبكم، و(لعل) للتعليل إلا في موضع واحد.

يقول: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} [(٦٤) سورة البقرة] أي من بعد هذا الميثاق، وأصل التولي أن يكون بالبدن، أي يدير الإنسان ظهره للشيء ويعرض عنه ببدنه، ولكنه يستعمل في هذا وفي غيره، فكل من ترك شيئاً وأعرض عنه ولم يتمسك به فإنه يكون قد تولى عنه.

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} أي أعرضتم عن العمل بها والتزام أحكامها، وضيعتموها، جعلتموها وراءكم ظهرياً من بعد لك، والله تعالى أعلم.

{فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} [(٦٤) سورة البقرة] أي رحمة الله واقعة موجودة بأن لم يعجل لكم العقوبة، وكانت رحمته واسعة، وأصل الفضل هو الإفضال ولا شك أن رحمة الله بعباده هي من فضله، وفضل الله -عز وجل- واسع، فهو لا يعاجل الناس بالعقاب، وإنما يرسل إليهم الرسل، وينزل إليهم الكتب، فكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتتابعون على بني إسرائيل يسوسونهم.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [(٦٥-٦٦) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ} يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت."

الشصوص هي تلك السنَّارات الحديدية المنثنية المدببة الرأس التي يصطاد فيها السمك.

والحبائل يعني الشباك.

والبرك بأن تُحفر حفرة قريبة من الشاطئ يصل إليها الماء فتتساقط فيها الأسماك، فإذا سقط السمك بفعل الأمواج لا يستطيع أن يرجع مرة أخرى، وهذه البرك معروفة إلى اليوم إذ تجعل بطريقة معينة بحيث يسقط السمك ولا يستطيع الخروج منها، فيأتون وقد اجتمع في هذه الحفرة فيكون قريب المأخذ.

"فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(١٦٣) سورة الأعراف] القصة بكمالها."

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] هؤلاء احتالوا بهذه الحيلة، حيث كان يحرم عليهم العمل في يوم السبت أياً كان، فابتلاهم الله -عز وجل- بهذا الطمع، حيث صارت الحيتان في سائر أيام الأسبوع تغور في البحر وتبعد فيه فلا يصلون إليها، فإذا كان يوم السبت جاءت شُرَّعاً قريبةً منهم تتراءى لهم، سهلة الأخذ فذلك جعلهم يحتالون بهذه الحيلة، فوضعوا الشباك في يوم الجمعة فوقعت فيها الحيتان في يوم السبت، فهذه حيلة وهم يقولون: يوم السبت نحن وضعنا يداً على يد، ورجلاً على رجل، ولم نحرك ساكناً، ولم نصطد حوتاً، ولم نفعل شيئاً، أخذناها يوم الأحد، فكان ذلك من الحيلة، فالله -عز وجل- يعلم ولا يخفى عليه شيء، فعاقبهم بهذه العقوبة الشديدة بأن مسخهم قردة {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} فكانوا قردة، وهو مسخ حقيقي أي صاروا قردة حقيقيين.

وقوله: {قِرَدَةً خَاسِئِينَ} أي: صاغرين، فالخاسئ هو الصاغر المبعد، فالإبعاد والصغار يقال لصاحبه: خاسئ. فهذا أصل في ذم الحيل، والرد على أصحابها أياً كانت هذه الحيل، وللأسف صار هذا كثيراً في زماننا، لا سيما في ما يسمى بالمعاملات المالية التي يسمون كثيرا ًمنها إسلامية، وهي لا تعدو أن تكون كما فعل هؤلاء أصحاب السبت حيث احتالوا على الله -عز وجل- بهذه الحيلة وسموا هذه المعاملات القرض الحسن أو القرض المبارك والتمويل المبارك، ومن صور ذلك أن يأتي إنسان يحتاج إلى مليون، فيقولون له: نحن نبيع

لك حديدا ويسجلون عليه حديدا، ثم يقولون: بعناه لك بثمانمائة ألف وهو عليك أقساط بمليون، كل هذه اللفة الطويلة وهو لا يريد حديداً، ولا يفكر بالحديد، ولم يخطر في حياته أن يشتري حديداً، ولم ير الحديد..الخ.
وعلى كل حال فمثل هذا من الحيل.
ومن صور الحيل أن يقول له: أؤجر لك هذه السيارة تأجيراً منتهياً بالتمليك، فيحتالون على الناس بهذه الطريقة وهذا كله من هذا الباب.
قوله تعالى: {الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ} [(٦٥) سورة البقرة] السبت المقصود به يوم السبت المعروف، وقيل له ذلك؛ لأن السبت يأتي بمعنى القطع وبعضهم يقول الراحة، ولا فرق بينهما؛ لأنه يوم ينقطعون فيه عن أعمالهم يستريحون فيه، فلا يجوز لهم العمل بشيء من أعمالهم الدنيوية في يوم السبت، يوم القطع ويوم الراحة.
ومن معاني يوم السبت أنه الفرس الذي لا يسبق، وعلى كل حال هو يوم انقطاعهم عن أعمالهم فهم يستريحون فيه، قال تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(١٦٣) سورة الأعراف]، فقوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ} يعني يوم لا يتوقفون ولا ينقطعون عن عملهم.
"**وقال العوفي في تفسيره: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] **فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير.**"
الله -عز وجل- قال: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} لماذا يقال: إن البعض صاروا خنازير والبعض صاروا قردة؟ فما دام ظاهر القرآن أنهم صاروا قردة فمثل هذا الكلام لا يلتفت إليه، فالذي دل عليه القرآن أنهم صاروا قردة، فلا يؤتى بمثل هذه الأشياء، ولا تقبل، ما دامت لا دليل عليها..
كذلك قول من قال -وهو منقول عن أحد السلف وهو قول معروف مشهور لمجاهد-: إن المسخ كان معنوياً ولم يكن حقيقياً، وهذا أبعد ما يكون، فالله قال لهم: {كُونُواْ قِرَدَةً} فكانوا قردة.
وأخبار بني إسرائيل في هذا كثيرة منها أن هذه القرية انقسمت إلى ثلاثة أقسام منهم الذين لم يخرجوا في صبيحة ذلك اليوم من مدينتهم، فبقيت أبوابها مقفلة، فتسور عليهم الذين أنكروا فنظروا فإذا هم قردة، ويزعمون أن الواحد منهم كان يعرف ابن عمه وقريبه فيأتي إليه ويشمه ويبكي، إلى غير ذلك مما ذكر من أخبار بني إسرائيل التي لا يعول عليها، فالمقصود أنهم كانوا قردة، وأخبر الله -عز وجل- عن مصير الذين أنكروا، وسكت عن الذين لم ينكروا هل نجوا أم لم ينجوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله.
"{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} **فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء.**
وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً ثم هلكوا."
معنى فواقاً أي المدة اليسيرة، كما تقول: فواق ناقة، يعني مقدار مدة حلب الناقة، أي مدة قصيرة، ولذلك يقولون: إنهم لم يعيشوا مدة طويلة، ويقولون: إن الذي يمسخ لا يعيش مدة طويلة، وفي بعض الآثار أنه لا

يعيش أكثر من ثلاثة أيام، وأنه لا يأكل ولا يشرب ثم يموت، هكذا يقولون، وهذا الكلام لا دليل عليه لا في الكتاب ولا في السنة.

الذي ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه في أول الأمر -فيما يظهر والله أعلم- لم يطلعه الله -عز وجل- على حقيقة تتعلق بالمسخ وأن الذين مسخوا لا نسل لهم، فلما رأى -صلى الله عليه وسلم- الضب جعل يعد أصابعه بعود معه ولم يأكل منه، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يخشى أنه مما مسخ فهذا بالنسبة للضب، وكذلك الفأرة، لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أمة من بني إسرائيل فُقدت لا يُعرف أين هي، قال: ((لا أراها إلا الفأر))[1] وذكر أنها تقع على السمن ولا تقرب الحليب، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أطلعه الله بعد ذلك أنه لم يجعل لمسخ نسلاً، أي أنهم ينقرضون، لكن هل يبقون ثلاثة أيام فقط، وهل لا يأكلون ولا يشربون أم أنهم يعيشون حتى تنتهي أعمارهم التي جعلها الله -عز وجل- لهم ثم يموتون بعد ذلك وينتهون؟

الله أعلم بهذا، لكن لا يتناسلون، ونحن نعرف أن الفأرة الآن ليست من ذرية أولئك اليهود الذين فقدوا، ونعرف أن هذا الضب ليس أجداده بشر، وأن القردة الموجودة الآن والخنازير ليست هذه أحفادا لليهود، إنما هي قردة حقيقية، فالقردة كانت موجودة قبل مسخ بني إسرائيل، وكذلك الخنازير.

"إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً، ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء.

وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} [(٦٦) سورة البقرة] أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم {نَكَالاً}."

جعل الله هذه القرية، وبعضهم يقول: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} أي القردة، يمسخ أهل الاعتداء إلى قردة، وهذا بعيد، وبعضهم يقول: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً}ا يعني الحيتان جعلت سبباً للنكال بها وهذا أيضاً بعيد، وبعضهم يقول: الأمة التي مسخت جعلها الله نكالاً يعني عبرة وبعضهم يقول: القرية، وبعضهم يقول: العقوبة.

وعلى كل حال فالضمير في قوله: {فَجَعَلْنَاهَا} يمكن أن يرجع إلى القرية، ويمكن أن يرجع إلى العقوبة التي نزلت بها، ويمكن أن يرجع إلى تلك الأمة، وهذه الأمور الثلاثة بينها ملازمة، فالعقوبة نزلت بتلك الأمة فمن نظر في حالها اعتبر حيث جعلها الله عبرة، وكذلك أيضاً تلك العقوبة كانت عبرة.

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} [(٦٦) سورة البقرة] أي ما حل بتلك القرية أي ساكنيها من العقاب، والله تعالى أعلم.

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} يعني عقوبة، فالنكال هو الرجز، وأصله من النكل، والنكل هو القيد، كالقيد يكون في الدابة يمنعها من الانفلات، ونكالاً يعني عقوبة رادعة يعتبر بها الناس.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣١٢٩) (ج ٣ / ص ١٢٠٣) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق - باب: في الفأر وأنه مسخ (٢٩٩٧) (ج ٤ / ص ٢٢٩٤).

{نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [(٦٦) سورة البقرة] يعني بعضهم يقول: نكالاً يعني للناس الذين عاصروها، وموعظة لمن جاء بعدهم ممن بلغهم الخبر، لكن الله -عز وجل- يقول: {نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} فهي عبرة للجميع، ويقول: {وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} فهي موعظة لأهل الإيمان.

"{نَكَالاً} أي: عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [(٢٥) سورة النازعات].

وقوله تعالى: {لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [(٦٦) سورة البقرة] أي: من القرى، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لمن حولها من القرى، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٢٧) سورة الأحقاف]، فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: {وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} المراد بالموعظة ههنا الزاجر أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))[2] [وهذا إسناد جيد والله أعلم]."

الموعظة بمعنى الأمر والنهي، وبعضهم يقول: الأمر والنهي المقرون بالترغيب أو الترهيب، وليس ذلك بلازم في كل الحالات، ولكنه غالباً يكون مقروناً بالترغيب أوالترهيب وربما كان هذا هو الغالب في عرف الاستعمال للموعظة.

وقد تكون الموعظة بغير أمر ولا نهي فتكون بشيء يحصل ويحدث كما في هذه القصة التي أوردها الله -عز وجل- لتكون موعظة.

وأنت تقول لغيرك فيما حصل له أو حصل لغيره: لعل في ذلك الموعظة، ويقال: العاقل من وعظ بغيره، يعني بما يحصل لغيره، وما يراه في غيره مما يحصل به العبرة، والله أعلم.

---

2 - أخرجه ابن بطة كما قال السيوطي في الدر المنثور(ج ٣ / ص ٥٩٢) وضعفه الألباني في غاية المرام برقم (١١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة].

"يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علامَ يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى -عليه السلام- فذكروا ذلك له فقال: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة] **قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشُدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا -لابن أخيه- ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد، ورواه ابن جرير بنحو من ذلك والله أعلم."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة]، وهذه ذكر الله -عز وجل- سببها بعد ذكر هذه القصة حيث قال: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى} [(٧٢-٧٣) سورة البقرة].

فهنا في قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} أي لما وقع فيهم ما وقع من التدارؤ -وهو التدافع- في شأن القتيل، كل يدفعه عن نفسه ويرمي به الآخر، فأمرهم لما لجئوا إليه بوحي الله -عز وجل- أن يذبحوا بقرة، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} والبقرة هنا نكرة في سياق الإثبات، فهي بمعنى المطلق، والمطلق شائع في جنسه، وإنما الشمول فيه على سبيل البدل، بمعنى أنهم إذا ذبحوا بقرة من الأبقار فإن ذلك يجزئهم أياً كانت هذه البقرة، فليس ذلك من العموم في شيء، وليس فيه قيد البتة.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}، والبقرة جنس، بعضهم يقول: التاء فيها للوحدة وبعضهم يقول التاء للتأنيث، فالبقرة جنس يجمع على بقر وأبقار، ويجمع على بيقور، وربما قيل له ذلك؛ لأنه يبقر الأرض بالحفر للحرث.

وقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} لا شك أن هذه الآية من أعجب الآيات حيث إن الله -عز وجل- أمرهم بذبحها ثم بعد ذلك يضربوا الميت بجزء منها بعد أن فارقت الحياة؛ لأنه لو ضرب بشيء حي ربما قال قائل: إنه اكتسب الحياة من حياته، أي انتقلت إليه الحياة من حياة هذا، لكن أن تذبح حتى تفارق الحياة ثم يضرب بجزء منها فهذا لا شك أنه من أعجب الآيات، كما أن الله -عز وجل- من آياته على إحياء الموتى وقدرته على البعث أن يخرج من الشجر الأخضر ناراً.

وهذه الآيات من المواضع الخمسة في تقرير البعث وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، ويوجد في القرآن زيادة على هذه المواضع الخمسة تأتي إن شاء الله تعالى في مواضعها.

{قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً} [(٦٧) سورة البقرة] وهكذا عادتهم، أي أتستهزئ بنا وتتخذنا مسخرة حيث نتحاكم إليك في مثل هذه القضية ثم تأمرنا أن نذبح بقرة؟

فقال لهم: {أَعُوذُ بِاللّهِ} أي ألجأ إلى الله، يعني استعاذ أن يكون من الجاهلين، فدل ذلك على أن الذي يستهزئ بالناس فهو سفيه جاهل، وأن الاستهزاء بعباد الله والسخرية منهم ليس من شأن العقلاء إلا إن كان ذلك في مقام يقتضي هذا فإن ذلك يكون أمراً لا إشكال فيه، فالله -عز وجل- أخبر أنه يستهزئ بالمنافقين كما في قوله تعالى: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [(١٥) سورة البقرة]، والله يستهزئ بمن يستحق ذلك، فالذين يستهزئون بأهل الإيمان يستحقون مثل هذا، وعلى كل حال هذا أدب نتعلمه من هذه الآية.

وهذا الأثر الذي ذكره ابن كثير هو من الآثار المأخوذة عن بني إسرائيل، وبعضهم يقول: لم يجدوها إلا عند امرأة في حجرها أيتام، فهي لهؤلاء الأيتام، وبعضهم يقول غير هذا، وفي سبب القتل الذي وقع بعضهم يقول:إنه أراد أن يرث ابن عمه، وبعضهم يذكر سبباً آخر في قضايا تتعلق بالنكاح وما أشبه هذا، وكل ذلك لا يثبت فيه شيء يمكن أن يعتمد عليه فهي أشياء مأخوذة من بني إسرائيل، وعلى كل حال أياً كان السبب في القتل فهذا لا يعنينا ولا يفيدنا شيئاً، وكذلك الجزء الذي ضربوا به القتيل من البقرة، بعضهم يقول: الفخذ، وبعضهم يقول: الكتف، وبعضهم يقول: هي بضعة من لحم بين الكتفين، وبعضهم يقول غير هذا، فهذا الكلام كله لا فائدة فيه، ولا دليل عليه يمكن أن يوقف عنده، فالله أبهم هذه الأمور فالتشاغل بها مضيعة للجهد والوقت، واشتغال بما لا يغني وترك لمواضع العبر، فيترك الإنسان مثل هذه الأشياء، إذ لن نستفيد شيئاً إذا عرفنا هل ضربوه برجلها أم بيدها.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٦٨-٧١) سورة البقرة].

"أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وعبيدة وغير

واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ} [(٦٨) سورة البقرة] أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة]."

هذا السؤال مكرر بلفظه مع ما بعده، {مَا هِيَ} [(٦٨) سورة البقرة] قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة]، {مَا هِيَ} [(٧٠) سورة البقرة] قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا} [(٧١) سورة البقرة]، والجواب يوضح السؤال، حيث دل ذلك -قطعاً والله أعلم- على أن السؤال الأول إنما كان عن سنها، لا فارض ولا بكر، والسؤال الثالث عن صفتها هل هي مروضة مذللة عاملة أو أنها لا تعمل، ولا حاجة لأن يقال غير هذا، وموسى -صلى الله عليه وسلم- هو نبي الله -عز وجل- وهو يفهم السؤال والمراد والملابسة التي وقعت، وهذه الأشياء إنما تنقل إلينا بالمعنى؛ لأنها من كلام الأعاجم، والترجمة لا يمكن أن تكون حرفية، ولذلك تجدون القصص المذكورة في القرآن تأتي متفاوتة يختصر المقام في موضع، ويبسط في موضع، وكل ذلك حق، ولكنه نقلٌ له بمعناه، مثل: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(٢٩) سورة الذاريات]، {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(٧٢) سورة هود]، فالواقعة هي نفس الواقعة، أي أنها تكلمت مرة واحدة، وكذلك في كلام إبليس مع الله -عز وجل- في قصة آدم، وكذلك أخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما قالوا لقومهم وما أجابهم قومهم به إلى غير ذلك، فالمقصود أن هذا السؤال إنما هو عن السن.

"{إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة] أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل."

لا يصح أن يقال: لم يلحقها وإنما الصواب أن يقال: لم يلقحها الفحل.

قوله: {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} الفارض الكبيرة الطاعنة في السن، يقال: بقرة فارض، وأصل ذلك الفرض يعود إلى معنى السعة، فكأنه قيل لها ذلك لأنها قطعت سنها أي عمرها فهي في آخره، أي عاشت فترة الصغر والشباب حتى وصلت إلى آخر العمر وهو الشيخوخة، يعني هذه بقرة كبيرة في السن، وربما كان لكثرة ولادتها اتسع بطنها لكثرة ما حملت ووضعت، والخلاصة أن الكبيرة يقال لها فارض، ويقال للقديم أيضاً: فارض، وهذا معروف في كلام العرب، وهنا {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}، ويقال أيضاً: ناقة فاطر يعني كبيرة، مثل فارض، وبعض الناس إذا قيل له: أفطر، قال: أنا فاطر، ولا يعلم أن فاطر معناه هرم، أو منشئ أو مبتكر، وإن كان هو يريد أن يقول: أنا أفطرت.

{لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}، البكر يقال للتي لم يفترعها الفحل، كما أن المولود الأول يقال له: بكر، فيقال: فلان بكر فلانة يعني أنه الولد رقم واحد.

وليس هذا المقصود هنا وإنما المقصود بالبقرة أنها متوسطة فليست الصغيرة التي لم يفترعها الفحل، ولا التي قطعت عمرها، أو ولدت كثيراً وحملت بطوناً كثيرة وإنما هي متوسطة في السن، وربما كان ذلك هو الأكمل في خلقها واستوائها.

"أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة،، وقاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} [(٦٨) سورة البقرة] يقول: نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون.

نَصَفٌ فإن أتوك فقالوا إنها نــصف　　　فإنا أفضل نــصفيها للــذي ذهبــا

نَصَفٌ يعني متوسطة في العمر.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وقال السدي: تسر الناظرين."

قوله: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي شديدة الصفرة، فالأصفر يقال فيه: أصفر فاقع، والأسود يقال فيه: أسود حالك، وأسود غربيب وأشباه ذلك من الألفاظ التي تؤكد قوة السواد، والأخضر والأزرق يمكن أن يقال فيه: غامق مثلاً.

وقوله: {فَاقِعٌ} يمنع قطعاً قول من قال: إن قوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} [(٦٩) سورة البقرة] المراد به السواد؛ فهذا لا يمكن أن يراد بكلام العرب مع تأكيده بالفقوع، فالأسود لا يمكن أن يقال عنه فاقع، وإنما يقال: أسود حالك وغربيب، وإنما يقال ذلك في الصفرة، فالبقرة في لونها صفرة في فقوع، وهو أحسن ما يكون في لون الصفرة، فالألوان على درجات، وهذا أفضل ما يكون فيها ولذلك فقوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي صفراء وليست سوداء، كما أن البقر لا توصف بالصفرة مراداً بها السواد أبداً، وإنما يختص ذلك بالإبل، فالذي وصف الإبل قال:

تلك خيلــي منــه وتلــك ركــابي　　　هــن صــفر أولادهــا كالزبيــب

صفر أي تضرب إلى السواد -سوداء- أولادها كالزبيب، ولون الزبيب معروف، فذلك يقال في الإبل، وأما البقر فلا توصف بالصفرة مراداً بها السواد، كما أن الصفرة لا يمكن أن توصف بالفقوع ويراد بذلك السواد، أبداً، وإنما المراد اللون الأصفر، بقرة صفراء تسر الناظرين، والأسود لا يسر الناظرين.

"وقال السدي: {تَسُرُّ النَّاظِرِينَ} [(٦٩) سورة البقرة] أي تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وفي التوراة: أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد والله أعلم."

قوله: **فلعل هذا خطأ في التعريب**، يعني أن المترجم ما نقل العبارة صحيحة؛ لأنه ينقل بفهمه، حيث أراد أن يعبر عن صفراء فاقع لونها فعبر بحمراء، أو أنه مما حرف في التوراة، ونحن ما نقل إلينا من كتب بني إسرائيل مما يخالف ما عندنا يرد بلا شك، فهي ليست حمراء.

"وقوله تعالى: {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} [(٧٠) سورة البقرة] أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلها لنا {وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ} إذا بينتها لنا {لَمُهْتَدُونَ} إليها.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة] أي إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية بل هي مكرمة حسنة.

الذي عليه جماهير المفسرين أن هذا كله يراد به النفي، فهي بقرة لا ذلول أي ليست مذللة، وإنما هي بقرة كما يقال وحشية -لا أقصد أنها من بقر الوحش، أقصد أنها لم تروض- والبقرة أو الناقة إذا كانت لم تروض

فإنها تكون وحشية، وليست معنى وحشية أنها في الصحراء، وإنما المقصود أنها لا يمكن ركوبها أو استعمالها في شيء من الحمل أو الحرث أو السقي أو غير ذلك في البقرة، فالمقصود أن هذه البقرة غير مروضة وغير مذللة، {إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ} [(٧١) سورة البقرة]، لم تذلل، ثم قال: {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} المعنى الذي عليه الجماهير هو أنها غير مذللة بالحرث، أي لا تثير الأرض بالمحراث، وغير مذللة بالسقي.

والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنها غير مذللة بالحرث ولا بالسقي، فالكل منفي، {لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة]، مع أن الآية تحتمل غير هذا، وقد قيل به، وهو أن المعنى {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ}، ثم بدأ بجملة مستأنفة لا تعلق لها بالنفي {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ}، أي من صفتها أنها تثير الأرض ولا تسقي الحرث، وهذا فيما أظن يفسد المعنى، إذ كيف تكون غير مذللة وتكون في نفس الوقت تثير الأرض؟ لأنها إذا كانت تثير الأرض فمعنى ذلك أنها مذللة بالعمل الذي هو الحرث، ولا يمكن اجتماع مثل هذه الأوصاف المتناقضة، فالبقرة لا تفرق بين هذه الأمور ، فهي إذاً ذللت لأنها تستعمل في السقي وفي الحرث، ففي الحرث يربط خلفها المحراث، والسقي توضع عند البئر ويربط بها الدلاء ثم ليس لها شأن إلا أن تذهب إلى الأمام وترجع إلى الوراء، وهكذا في عمل متكرر بحيث يستخرج هذا الدلو العظيم ويسقى في هذه الشواني ثم يجري في السواقي، وعلى كل حال فليس قوله: {تُثِيرُ الأَرْضَ} جملة جديدة استئنافية وإنما هو داخل في النفي، فهي لا ذلول مثيرة للأرض.

"وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: (مسلمة) يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع."

وبعضهم يقول: مسلمة يعني من العمل لا تعمل، لكنه قول بعيد، وإنما المقصود أنها مسلمة من العيوب لا عيب فيها بل هي كاملة.

"وقال مجاهد: مسلمة من الشية، وقال عطاء الخراساني مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها."

قال الله -عز وجل-: {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} [(٧١) سورة البقرة]، أي هي مسلمة من كل عيب من العيوب لا هزال فيها ولا مرض ولا كسر ولا عرج وما أشبه ذلك فهي لا شية فيها.

وعلى قول مجاهد -الشية- تقول: الوشي موشي أكارعه، وهذا وصف لحمار الوحش بمعنى أن القوائم فيها سواد يخالف لونه الذي هو عليه، فالوشي في الثوب أو الثوب الموشى هو الذي داخلَه لون مغاير، فهي صفراء فاقع لونها مسلمة من العيوب {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} بمعنى أن لونها هو الصفرة الموصوفة بالفقوع، دون أن يداخله لون آخر، فهي فعلة من الوشي، أي لون آخر يغاير لون الشيء.

{لاَّ شِيَةَ فِيهَا}: بعض السلف فسرها بأنها صفراء القرن والظلف، وهذا التفسير يمكن أن يوجه، فنقول: إنه قصد أن ظلفها وقرنها لا يخالف لونها، بمعنى أن لونها متّحد حتى في القرن والظلف فهو أصفر، فهكذا يوجه مثل هذا القول؛ لأنه نفى الشية، إذ شية نكرة في سياق النفي، وهذا للعموم فلا يوجد فيها لون آخر، ما فيها بقة سوداء في رأسها أو في قوائمها أو نحو ذلك كما تقول: ثور موشى أي أن قوائمه ورأسه –مثلاً- بلون السواد، وهذا أيضاً لا يوجد في هذه البقرة فهي لا شية فيها.

"{فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٧١) سورة البقرة] **قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف."**

قوله تعالى: **{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}** مثل هذا التركيب وهذا الاستعمال يدل على وقوع الشيء لكن بصعوبة ومشقة فلم يقع ذلك لأول وهلة أو بيسر أو نحو هذا، ما كاد يحصل كذا وكذا، ما كاد فلان يفعل كذا يعني أنه فعل، ولكن بعد التي واللتيا.

{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} يعني أنهم فعلوا ذلك بعد طول سؤال وتعنت، وهذا إنما كان لتعنتهم فهم ما كادوا يفعلون؛ لتعنتهم في الأسئلة، وبعض أهل العلم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لارتفاع الثمن؛ لأن بقرة بهذا الثمن كيف يشترونها بقيمة مرتفعة جداً، وبعضهم يقول: ما كادوا يفعلون من أجل ألا تقع الفضيحة ويكتشف القتلة، فهم لا يريدون انكشاف الحقيقة ولذلك تأبَّوا وتمنعوا وماطلوا وما كادوا يفعلون.

وعلى كل حال بعضهم يقول: إنهم اشتروها بمساهمات حيث دفع مجموعة من الناس هذا الثمن وحصلوه من الذهب ولم يكن بينهم توافق، بل بينهم اختلاف وشجار ولم يحصل بينهم توافق في مثل هذه القضية وبالتالي فإن ذبح البقرة احتاج إلى عقد مجلس للاتفاق وغير ذلك، وبعضهم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لأنهم أصلاً ما حصلوا بقرة بهذه الصفة إلا بصعوبة، والذي يظهر أنهم ما كادوا يفعلون لكثرة تعنتهم وأسئلتهم الفارغة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(٧٢-٧٣) سورة البقرة].

"قال البخاري: {فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} اختلفتم، وهكذا قال مجاهد.

وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختصمتم فيها. وقال ابن جريج: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} قال بعضهم: أنتم قتلتموه. وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

{وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} قال مجاهد: ما تُغَيِّبُون."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} ذهب بعض أهل العلم إلى أنه من المؤخر الذي حقه التقديم، ولا شك أن ذلك من حيث الواقع هو كذلك، ولكن ترتيب الآيات إنما هو شيء توقيفي، ولا شك أن الواو أيضاً لا تقتضي الترتيب، فالله -عز وجل- يذكر خبرهم، فعطف على ما سبق بالواو قولَه: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} ولا يعني ذلك أن هذا التدارؤ حصل بعد ما قال لهم موسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [(٦٧) سورة البقرة].

المقصود أنهم قتلوا هذا القتيل فتدارئوا، فأمرهم موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يذبحوا بقرة، ثم أمرهم: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [(٧٣) سورة البقرة] يعني أن الترتيب في الواقع يكون {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً} ثم {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [(٦٧) سورة البقرة]، ثم {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} هذا إذا أردنا أن نرتب الأحداث ترتيباً بحسب وقوعها، وعلى كل حال هذا التعقيب بعد ذكر القصة ظاهر لا إشكال فيه، ولا خفاء من جهة المعنى، فهو ذكر لهم قول موسى -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر لهم علة هذا القول، موسى -صلى الله عليه وسلم- أمرهم بجملة من الأوامر ومن ذلك أنه أمرهم أن يذبحوا بقرة فحصل منهم هذا الشغب؛ لأن المقصود بذلك هو تعداد النعم على بني إسرائيل، وأيضاً الله -عز وجل- يذكر في ضمن ذلك شغب هؤلاء القوم وتعنتهم وتكلفهم وتمردهم على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فذكر قصة موسى -صلى الله عليه وسلم- معهم حينما أمرهم فأجابوه بما أجابوا به، ثم ذكرهم بنعمته في إحياء القتيل، {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} فهذا تعليل لما قبله وهو أمر موسى -صلى الله عليه وسلم- لهم أن يذبحوا بقرة.

بعض أهل العلم يحاول أن يحمل ذلك على محامل لا تخلو من تكلف وبُعد، وما ذكرته والله أعلم ربما يكون أقرب مما ذكروا.

وقوله: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} نسب القتل إليهم، وذلك لا إشكال فيه في كلام العرب؛ لأن العرب من شأنها أن تنسب الفعل إلى العموم أو المجموع، وإن كان ذلك قد وقع من بعضها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ} [(٦١) سورة البقرة] وما أشبه ذلك، فالفعل أو القول يصدر من بعض الطائفة وينسب إلى المجموع أو الكل؛ لأنهم منه وذلك معروف في كلام العرب وهو كثير جداً في القرآن وفي أشعارهم، فلا إشكال في هذا، فقاتل هذه النفس ربما كان شخصا واحدا، ولكنه حصل أن نسب إليهم هذا الفعل؛ لأنه منهم.

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} [(٧٢) سورة البقرة] ومعنى ادارأتم تدارأتم بمعنى تدافعتم، فالتدارؤ هو التدافع، بمعنى أن كل واحد منهم يدفعه عن نفسه، وكل طائفة تدفع ذلك عن نفسها بمعنى أنها تتنصل من ذلك وتدفعه إلى غيرها، فهؤلاء يقولون: نحن لم نقتله أنتم الذين قتلتموه، وأولئك يقولون: نحن لم نقتله أنتم الذين قتلتموه، وجاء في بعض المرويات التي ترجع إلى أخبار بني إسرائيل أن الذين قتلوه ألقوه بين قريتين، فكل قرية صارت تدفع قتله عن نفسها وترمي به الأخرى، والله أعلم.

وقوله: {وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٧٢) سورة البقرة] أي في شأن هذا القتيل الذي أخفوا قتله، أو أخفوا شأنه وأخفوا قاتله.

"**{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}** [(٧٣) سورة البقرة] **هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا.**"

يقول ابن كثير: **وقد كان معيناً في نفس الأمر**، معنى هذا الكلام أنه لو سألنا سؤالاً، وقلنا: ما هو الجزء الذي ضربوا به القتيل من البقرة، فلا شك أن الجواب هو أنهم ضربوه بجزء من البقرة ورموه به لا بكاملها، إذن هذا الجزء معين في نفس الأمر، أي أن الإحياء لهذا الميت قد وقع برميه بجزء منها لا ندري ما هو، فهو معين في نفس الأمر لا بتعيين موسى -صلى الله عليه وسلم- لهم هذا الجزء، وإنما حصل بضربه بجزء منها لا نعلمه، فهو معين في نفس الأمر، ولو افترضنا إمكانية أن نسأل الذين ضربوه أو حضروا لأخبرونا عنه، لكن لا شأن لنا بمعرفته؛ إذ لا فائدة من جراء ذلك، والله أعلم.

"**ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.**"

في مقدمة أصول التفسير يقول شيخ الإسلام: إن العلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما عليه دليل معلوم، يعني من النظر، ثم ذكر القسم الآخر الذي لا سبيل إلى الوقوف على صحته، والمقصود به مثل هذه الأخبار الإسرائيلية إذ ليس لها أسانيد، فكيف نستطيع أن نحكم أن هذا الراوي ضعيف أو سيء الحفظ، أو أنه رجل متهم أو غير ذلك؛ إذ ليس له أسانيد أصلاً، فهذا لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق الوحي وإلا فتبقى فيها القسمة الثلاثية المعروفة: توافق ما عندنا أو تخالف، أو لا توافق ولا تخالف بمعنى أنه لم يرد عندنا شيء يتصل بها فنتوقف فيها.

"**وقوله تعالى: {كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى}** [(٧٣) سورة البقرة] **أي فضربوه فحيي.**"

معناه كذلك الإحياء يحيي الله الموتى، أو كذلك الإحياء الذي شاهدتموه يحيي الله الموتى..

"**ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل -تبارك وتعالى- ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما**

خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [(٥٦) سورة البقرة] وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت."

في الصعق الذي سبق ذكره قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] قلنا: الراجح أنه موت حقيقي؛ لأنه قال بعده: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [(٥٦) سورة البقرة] وليس الصعق غشية كما قال بعض أهل العلم، فيكون ذلك هو الموضع الأول في سورة البقرة {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} أي أنهم ماتوا فأحياهم الله -عز وجل-.

"وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم -عليه السلام- والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها، وشاهد هذا قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ* لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [(٣٣-٣٥) سورة يـــس].

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(٧٤) سورة البقرة].

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [(١٦) سورة الحديد].

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط."

قوله: **أحيا ما كان قط**، يعني أكمل ما يكون من الحياة.

"فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} يعني أبناء أخي الشيخ {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}."

على كل حال على هذا الخبر المأخوذ عن بني إسرائيل أن قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم} أي ما حصل من الجحد -إن كان حصل- من هؤلاء الذين قتلوه بعد أن نطق وأحياه الله -عز وجل- وأخبر عن قتله، حيث لما مات ثانية جحدوا وكذبوا وقالوا: لم نقتله فأنكروا ذلك، فهذا قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم} وهذا والله أعلم ليس بظاهر، وإنما ظاهر الآية المتبادر {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} أي من بعد رؤية هذا القتيل حيث أحياه الله -عز وجل- وهذه آية كبرى ومعجزة عظمى لموسى -صلى الله عليه وسلم- تبعث على مزيد من الإيمان والإقبال على الله -عز وجل- والخوف منه ومراقبته، ولين القلب وذهاب الغفلة عنه إلا أن الذي حصل هو عكس

ذلك، فمثل هؤلاء الذين رأوا هذا القتيل يحيا ثم يتكلم، ثم يموت مرة أخرى، هذه معجزة عظمى تحملهم على الإيمان ومع ذلك قست قلوبهم ثانية وكأن شيئاً لم يكن.

فمن شهد آيات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإن ذلك يبعث الإيمان في قلبه، والذي أقل ما يعبر عنه بأنه إيمان ثابت راسخ، فحينما يقابل بقسوة القلب، وإنما قست القلوب لأنهم نظروا إلى معنى ذكره بعض أهل العلم، وهو أن أولئك الذين صعقوا من بني إسرائيل لما قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] من العلماء من يقول: هؤلاء انقطع عنهم التكليف؛ لأنهم ماتوا ثم أحياهم الله -عز وجل- فقد عاينوا الحقيقة التي تحملهم على الإيمان القهري، فلا تكليف بعد ذلك.

وهذا الكلام فيه نظر، إذ لم ينقطع عنهم التكليف بل هم مكلفون، ولا دليل على أنهم غير مكلفين.

"فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات."

شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ذكر وجوه مشابهة هذه الأمة لأهل الكتاب وكان مما ذكر قسوة القلب، وأورد هذه الآيات، وهذه الأمة منهية عن التشبه ببني إسرائيل، فأشبهتهم في هذه القضية، وفي غيرها كثير، وقسوة القلوب المراد بها الصلابة والشدة ونحو ذلك.

"فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منه العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه."

يعني أن الله أعطى هذه المخلوقات والكائنات من الإدراك كل بحسبه، فهي تخشى الله حقيقة، كما قال الله -عز وجل-: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [(٤٤) سورة الإسراء]، وقال سبحانه: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(١) سورة الحديد]، وقال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [(١) سورة الجمعة] فهي تسبح الله تسبيحاً حقيقياً، وتخشى الله خشية حقيقية، وفي الصحيح يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))[1].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة] (أو) تأتي أحياناً للشك فتقول: رأيت زيداً أو عمراً، عندي درهم أو نصفه، لكن هذا لا يتأتى بالنسبة لله -عز وجل- الذي يعلم خفيات الأمور، فالله لا يشك في شيء بل علمه محيط بكل شيء، فإذا حملت (أو) هنا على الشك فيمكن ذلك على أن تخرج على قاعدة مفادها أن الخطاب قد يرد باعتبار نظر المخاطب، أي: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} فهي كالحجارة أو أشد قسوة، يعني بالنظر إلى تقييمكم وتقديركم أنتم، فمن نظر إليها وأراد أن يصنفها أو يوصفها فهي عنده كالحجارة أو أشد قسوة.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل - باب: فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٧) (ج ٤ / ص ١٧٨٢).

ومثل هذا قوله تعالى عن يونس –عليه السلام-: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [(١٤٧) سورة الصافات]، إذا خرجناها بهذا التخريج فالمعنى أن من نظر إليهم من الناس فإنه يقدرهم بمائة ألف أو أكثر.

ومثل ذلك أيضاً حينما سمى الله الشُّبه التي يتعلق بها الكفار قال: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} [(١٦) سورة الشورى]، فالله سمّاها حجة لما كانوا هم يعتبرونها حجة، وإن كانت ليست بحجة في الواقع، ومثل ذلك أيضاً لما قال عن معبوداتهم الباطلة إنها آلهة وهي ليست آلهة، لكنه عبر عن اعتقادهم هم.

وكذلك أيضاً حينما أجرى على هذه الآلهة أو ما ليس بعاقل من المخلوقات صيغا مثل جمع العقلاء ومثل بعض ضمائر العقلاء ومثل جمع المذكر السالم كقوله: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [(١٩٥) سورة الأعراف]، لما كانوا يعتبرونها آلهة أجرى الله -عز وجل- عليها مثل هذا الاستعمال {يَمْشُونَ} {يَبْطِشُونَ} {يُبْصِرُونَ} { يَسْمَعُونَ} مع أنها لا تمشي ولا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، فهو خاطبهم بحسب نظرهم باعتبار أنهم جعلوها آلهة،، وهذا الاستعمال كثير جداً.

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة]، تحمل على هذا المحمل إذا خرجناها على أن (أو) للشك، أي بالنظر إلى تقييمكم أنتم هي كالحجارة في قسوتها أو أشد.

وتأتي (أو) أحياناً للتخيير فتقول مثلاً: اقرأ المُغني أو المجموع، يعني أياً قرأت منها حصل المقصود، وتأتي أحياناً بمعنى الإضراب أي بمعنى (بل)، وهذا معروف ومشهور في كلام العرب، والمعنى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة بل هي أشد قسوة من الحجارة، وهذا أقرب المعاني إلى الصواب هنا، والله تعالى أعلم.

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء} [(٧٤) سورة البقرة]."

لمعرفة الفرق بين الانبجاس والانفجار نقول: بداية خروج الماء يسمى انبجاساً، فإذا صار خروج الماء بقوة وغزارة فهذا هو الانفجار، فالانفجار يكون بقوة واندفاع، والانبجاس يكون يسيراً بحيث يبدو منه الماء.

"{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ} [(٧٤) سورة البقرة]، أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: {يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} [(٧٧) سورة الكهف] قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا."

الرازي والقرطبي يثبتان المجاز، ومع ذلك يقولان: **لا حاجة إلى هذا**، يعني هنا؛ لأن الله قال: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء} [(٧٤) سورة البقرة]، فالحجارة يحصل منها هذا حقيقة، فلا حاجة للمجاز.

وحينما نسألهم عن قوله: {جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} [(٧٧) سورة الكهف] فهذا أشهر مثال يمثلون به على وقوع المجاز، ومثله قوله تعالى:{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [(٨٢) سورة يوسف] ولا مجال لمناقشة هذه القضية الآن، وهل يوجد

مجاز في القرآن أو في اللغة العربية أم لا؟، لكن المقصود أنه يمكن لمثبت المجاز أن ينفيه هنا، ويقول: هذه الخشية المذكورة في الآية حقيقة وليست بمجاز، وهذا مما يرد به المجاز.

"ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [(٧٢) سورة الأحزاب]، **وقوله: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}** [(٤٤) سورة الإسراء] **الآية وقال: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}** [(٦) سورة الرحمن]، **{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}** [(٤٨) سورة النحل] **الآية، {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}** [(١١) سورة فصلت]، **{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}** [(٢١) سورة الحشر] **الآية: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ}** [(٢١) سورة فصلت] **الآية.**

وفي الصحيح: ((هذا جبل يحبنا ونحبه))[٢] وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))[٣] وفي صفة الحجر الأسود إنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه."

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الخدمة في الغزو (٢٧٣٢) (ج ٣ / ص ١٠٥٨) ومسلم في كتاب الحج - ٨٥ - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها (١٣٦٥) (ج ٢ / ص ٩٩٣).

[3] - سبق تخريجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"تنبيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة] **بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: "أو" هاهنا بمعنى الواو."**

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله هنا: **بعد الإجماع على استحالة كونها للشك** بمعنى أن لا يكون ذلك بالنسبة لله -عز وجل- المتكلم بذلك، وهذا معلوم؛ لأن الله يعلم خفايا الأمور وبواطنها وعلمه محيط بكل شيء، فلا يمكن الشك من الله -عز وجل- لكن يمكن أن يكون ذلك على سبيل الشك بالنسبة إلى نظر المخاطب بناءً على القاعدة المعروفة، ولذلك نجد بعض أقوال السلف تحمل على هذا، ولا شك أن هذا الإجماع أمر لا تردد فيه؛ إذ لا يمكن أن يكون ذلك من قبيل الشك بالنسبة لله -عز وجل- فهو يعلم كل شيء، لكن قد يكون كذلك باعتبار نظر المكلف، بمعنى أن الناظر إلى أصحاب هذه القلوب وفي أحوالهم ربما يحصل له التردد بين أن تكون قلوبهم كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة، فهذا لا يكون شكًا بالنسبة لله -عز وجل-.

ومثل ذلك قوله تعالى عن فرعون: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [(٤٤) سورة طـه] فالله يعلم أنه لن يتذكر ولن يخشى، لكن إما أن يقال بأن "لعلَّ" هنا بمعنى التعليل أي لأجل أن يتذكر أو يخشى، أي إنها ليست للترجي، أو يقال: لعله يتذكر أو يخشى على رجائكما يا موسى وهارون، فاعتُبر هنا نظر المخاطب، والله أعلم.

"فقال بعضهم "أو" هاهنا بمعنى الواو تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [(٢٤) سورة الإنسان] **وقوله تعالى: {عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}** [(٦) سورة المرسلات]**، وقال آخرون: "أو" هاهنا بمعنى "بل" فتقديره فهي كالحجارة بل أشد قسوة، كقوله: {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}** [(٧٧) سورة النساء] **وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [(١٤٧) سورة الصافات]، **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** [(٩) سورة النجم]، **وقال آخرون: معنى ذلك {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} عندكم، حكاه ابن جرير."**

قول من قال: "**عندكم**"، يعني من جهة الشك عند المخاطبين، أي: هي عندكم كالحجارة أو أشد قسوة.

"وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة."

يعني أن قلوبهم تتنوع هذا التنوع، منها ما يكون قاسياً قسوة الحجر، ومنها ما يكون أشد قسوة من الحجر، وظاهر كلام ابن القيم -رحمه الله- يشبه هذا، حيث يقول: إن هذه القلوب لا تقل قساوة عن الحجارة فإن لم

تزد عليها فإنها لا تنقص منها، فهي كالحجارة أو أشد قسوة لكنها ليست أقل قسوة من الحجر، يعني أن هذه القلوب عظيمة شديدة القسوة، والله تعالى أعلم.

على كل حال هذه الأقوال بينها تقارب فكلها تدور على معنى أن هذه القلوب قاسية قد بلغت القسوة فيها إلى حد مشابهة الحجر في قسوته وأعظم من ذلك، وهذا سواء قلت: إن الواو عاطفة بمعنى كالحجارة وأشد قسوة من الحجارة، أو أن ذلك بالنسبة للشك باعتبار نظر المخاطب هي كالحجارة أو أشد، أو غير ذلك مما قيل، والله أعلم.

"قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة، وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره، قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة] **مع قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** [(١٩) سورة البقرة]."

في هذين المثلين ابن كثير يرى أن المثل الأول {كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} في قوم من المنافقين غير من ضرب لهم المثل الثاني {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}، فأصحاب المثل الأول وصفهم الله بأنهم {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة]، فهؤلاء أشد؛ حيث إنهم مطموسون في النفاق، بينما المثل الثاني يرى الحافظ أنه في طائفة من المنافقين أخف من الأولين بحيث إنهم {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة]، أي: تارة وتارة، فهم في حال الرخاء تستقيم أحوالهم وفي حال الشدائد يظهر نفاقهم ويتراجعون، فهو يرى أن هذا في طائفة وهذا في طائفة أخرى، وكذلك يرى أن قوله: {كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة]، يعني أن منهم من يكون قلبه كالحجر ومنهم من يكون دون ذلك.

"وكقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [(٣٩) سورة النــــور] **مع قوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ}** [(٤٠) سورة النـــــور] **الآية، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.**

{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ* أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٥-٧٧) سورة البقرة] **يقول تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ} أيها المؤمنون {أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ} أي: ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؟"**

الطمع تقول: أطمعته فطمع، والطمع إنما يكون بقوة الرجاء في ذلك الذي طُمع فيه، إذا كان الإنسان يرى الشيء قريب المنال فإن تعلق النفس به يقال له: طمع، يعني إذا كان قريباً يمكن أن يحصل الإنسان عليه ويتأتى له فهذا طمع، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [(٣٢) سورة الأحزاب] أي يرى أنها قريبة المأخذ ويمكن أن تنقاد له.

أما الشيء الذي يكون بعيد المنال فإنه يكون من قبيل التمني، ولا يقال له طمع، فالطمع بهذا الاعتبار يشبه الرجاء.

فقوله: {أَفَتَطْمَعُونَ} يعني أنكم ترجون إيمانهم ودخولهم في الإسلام وترون أن ذلك أمراً قريباً وهم في تلك الحال التي وصفت {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} أي: التوراة، ويقول بعضهم: هؤلاء هم السبعون الذين

كانوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- الذين اختارهم واصطفاهم من بني إسرائيل كانوا يسمعون الله يكلم موسى ثم بعد ذلك يحرفون كلام الله.

فإن قلنا: هؤلاء هم السبعون فمعنى يحرفونه أنهم يقولون: سمعناه يخاطبه ويأمره وينهاه، ثم بعد ذلك قال له: إن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، وهذا القول من الإسرائيليات.

وإذا قيل: إنهم عموم بني إسرائيل، أو العلماء منهم لأنهم هم الذين استحفظوا على كتاب الله وكانوا عليه شهداء فالعوام تبع، والعلماء هم الذين كانوا يحرفون الكتاب حيث يخرجونه قراطيس يحرفون فيها الكلم عن مواضعه، فيكون ذلك ليس في السبعين فقط، بل في عموم بني إسرائيل حيث كانوا يسمعون كلام الله الذي هو التوراة.

قوله: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} [(٧٥) سورة البقرة] هذا كقوله تعالى: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(٤٦) سورة النساء].

"{وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [(٧٥) سورة البقرة] أي: **يتأولونه على غير تأويله**."

يتأولونه على غير تأويله، هذا نوع من التحريف وهو ما يسمى بالتحريف المعنوي، وهذا النوع من التحريف وقعت فيه هذه الأمة وهو كثير عند طوائف أهل البدع، وربما وقع فيه بعض متعصبة الفقهاء، حيث يلوي أعناق النصوص ويتكلف كثيرا في حملها على المحامل البعيدة من أجل أن توافق اعتقاده أو مذهبه، وأما أهل البدع من المعتزلة وغيرهم فلا تسأل عن تحريفهم، وأعظم من هؤلاء جميعاً طوائف الباطنية.

فالمعتزلة مثلاً في قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [(١٦٤) سورة النساء] يقولون: أي: جرحه بمخالب الحكمة؛ لينفوا صفة كلام الله -عز وجل- أليس هذا من التحريف؟ هذا من التحريف ولا شك.

وحينما يقول الرافضة: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [(٦٧) سورة البقرة] يعني عائشة، فهذا من التحريف المعنوي، وحينما يحرف الباطنية الصلاة والصوم والحج، فيقولون مثلاً: الحج قصد الولي، والصوم كتم أسرار المذهب، وأشباه ذلك، فهذا من أعظم التحريف.

وأما التحريف اللفظي فقد وقع لبعض طوائف هذه الأمة مثل الرافضة الذين يزيدون في سورة الشرح: وجعلنا علياً صهرك.

إلا أن التحريف قليل في هذه الأمة؛ لأن هذا القرآن حفظه الله، فلا يقع في تحريفه إلا أكذب الناس وأفجر الناس، فلذلك حاول بعض المعتزلة ببعض أئمة القراءة كأبي عمرو بن العلاء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [(١٦٤) سورة النساء]، أن يقرأها بفتح لفظ الجلالة -وكلم اللهَ- حيث رأى أن معنى جرحه بمخالب الحكمة معنىً بعيداً، فقال له: فما تفعل بقوله: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [(١٤٣) سورة الأعراف]، فألقمه حجراً، ومنهم من قال: وددت لو أمحها من المصحف، فالله المستعان.

"{مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} [(٧٥) سورة البقرة] أي: **فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة**."

التحريف الذي وقع فيه بنو إسرائيل هو تحريف معنوي وتحريف لفظي كما قال الله -عز وجل-: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام] فتارة يكتمون الحكم المنزل فلا يظهرونه كأوصاف النبي -صلى الله عليه وسلم- وتارة يبدلونه، يعني يجدون عندهم في وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ربعة

من الرجال، فيصفونه بأنه طويل، ويجدون في صفته -صلى الله عليه وسلم- مثلاً أنه جعد الشعر، وشعور العرب المعروفة يقال لها جعدة، وشعور الروم -أو الغربيين اليوم- توصف شعورهم بغير ذلك، فيصفون النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه سبط الشعر، ويصفونه بأنه أزرق العينين، وهذه في الحقيقة مواصفات الأوربيين، فهم يحرفون أوصاف النبي -عليه الصلاة والسلام- فقريش لما سألتهم قالوا: ليس ذلك منا، يعني هذا الأزرق الطويل سبط الشعر ليس منا.

فالحاصل أنهم يحرفون تارة بتبديل الكلام وتارة بالمعنى وتارة بالكتمان، وكل ذلك من تحريفهم، والعلماء تكلموا كثيراً على ما وقع في التوراة هل حرفت هي فعلاً أم أن الذي حرف هو ما يبدونه في القراطيس فقط، فهذا قول لبعض أهل العلم، ولكن الواقع يشهد أنها قد حرفت أعظم التحريف، وإذا نظرت إلى كتبهم وجدتها مختلفة متخالفة متباينة غاية التباين والاختلاف حتى في أبسط الأمور، فقد عبثوا بها كثيراً، فالله -عز وجل- يقول: {بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ} [(٤٤) سورة المائدة]، فأضاعوا ما استحفظوه.

"وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(١٣) سورة المائدة].

قال قتادة في قوله: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٥) سورة البقرة] قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم."

لا إشكال في هذا، فهذا لا يخالف ما سبق، فالفعل قد ينسب إلى الأمة وإن كان ذلك قد وقع من طائفة منها، وهو أسلوب معروف في القرآن وفي كلام العرب لا إشكال فيه، فهذا من هذا القبيل، العلماء هم الذين كانوا يقومون بالتحريف ويتبعهم على ذلك العامة، والله قال عن عوامهم: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [(٣١) سورة التوبة] فهم يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال فاتبعوهم في ذلك.

"وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [(٧٥) سورة البقرة] قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس له فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق، فقال الله لهم: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٤٤) سورة البقرة]."

أي أنهم إنما يُبدون بحسب أهوائهم، إن كان طلب الحكم فيه رشوة أخرجوا ما يتناسب مع مطلوب هذا الراشي، فإن كان الذي في الكتاب يخالف هواه حرفوه وبدلوه، وإن كان الراشي هو صاحب الحق أخرجوا له حقيقة ما في الكتاب، فإن لم يكن ثمة رشوة ولا هوى فإنهم يخرجون ما في الكتاب، وخبرهم معروف في قصة الزاني الذي حمّموه وداروا به على حمار وقد نكس، وقالوا: إن هذا هو الحكم الذي عندهم في التوراة، ثمَّ جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألهم عن ذلك، وطلب منهم التوراة فجاءوا بها، فكان الحبر قد وضع أصبعه على آية الرجم في التوراة، فقال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-: "مره يا رسول الله فليرفع أصبعه، فرفع أصبعه فإذا آية الرجم تلوح، فغضب الحبر، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، كابَرَ من

شدة الغضب، فألقمه الله حجراً: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام]، أي: أنت تقول: ما أنزل الله على بشر من شيء، و"شيء" نكرة مسبوقة بنفي فهي للعموم وقد سبقت بـــ"من" فجعلها ذلك منقولة من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، فألقمه الله حجراً بهذا الرد، ومعناه: ينتقض عليك قولك هذا بما نزل على موسى، هل تكفر به؟ وهذا ما يسمونه في علم الجدل بالنقض.

على كل حال التحريف أحياناً هو أن يُبدوا غير الموجود في الكتاب وإن لم يغيروا ما في أصل الكتاب، فكل ذلك من التحريف.

لما سئلوا بعد ذلك عن هذا التحريف الذي وقع في قضية الزنا قالوا: وجدناه قد فشا في كبرائنا، فأردنا على الأقل أن يكون الحكم مستوياً في الناس، يعني ما أرادوا أن يقيموا الحدود على الضعفاء والفقراء والعامة والمساكين ويتركون الكبراء والعظماء فقالوا: نحن نريد حكما يستوي فيه الجميع، فوضعوا هذا التحميم أي يسود وجه الزاني بالسواد، ويوضع على حمار معكوساً ويطاف به.

"**وقوله تعالى**: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٧٦) سورة البقرة] **الآية.**

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله عنه-: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} أي أن صاحبكم محمداً رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم."

طائفة منهم تقول: آمنا أنه نبي ولكنه إلى العرب خاصة، وطائفة أظهروا الإيمان ونافقوا فكانوا يقولون نفاقاً: إن هذا هو النبي حقاً ونحن نؤمن به، فعلى كل حال مشاربهم في ذلك مختلفة، لكن منهم من كان يقول للمؤمنين ذلك.

قوله: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ}.

يقول ابن كثير: **لا تحدثوا العرب بهذا** يعني أنه نبي، **فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم**، معنى تستفتحون هنا يعني تستنصرون؛ لأنهم كانوا يقولون: سيبعث نبي قد أطل زمانه وسنقتلكم معه قتل عاد وإرم ولن نبقي منكم أحداً.

وقوله: {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} يعني من العلم بأوصاف النبي فيكون ذلك حجة عليكم لهم فيلزمكم الإيمان به، وإلا حاجوكم به عند ربكم بما فتح الله عليكم من العلم به.

ويمكن أن يفسر قوله: {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} بمعنى بما حكم عليكم، وهنا يكون معنىً آخر؛ لأن الفُتاحة هي الحكم، والفاتح والفتاح هو الحاكم، كما في قوله تعالى: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٩) سورة الأعراف] يعني احكم، وكقوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [(١٩) سورة الأنفال] يعني إن تطلبوا الفصل والحكم بينكم فقد جاءكم الحكم والفصل بنصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه فيما وقع في غزوة بدر، حيث إن المشركين ومنهم أبي جهل دعوا على الطائفة المبطلة بأن يهلكها الله

-عز وجل-، فقال الله -عز وجل-: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} أي: إن تطلبوا الحكم فقد جاءكم الحكم بالانتصار الكبير للمسلمين عليكم في غزوة بدر.

فيكون على هذا التفسير {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} أي بما حكم عليكم من مسخ بعضكم قردة وخنازير، وأمور وقعت لهم معروفة عاقبهم الله -عز وجل- بها.

ولهذا فإن بعض أهل العلم يورد هنا مثل هذا المعنى، ويقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- لما جاء بعد الأحزاب إلى قريظة وقف عند بعض حصونهم وقال: ((يا إخوان القردة هل أخزاكم الله))[1] فقال بعضهم لبعض: إنما عرفوا ذلك منكم.

فالفتح هنا يكون بمعنى الحكم والفُتاحة هي الحكم، والفاتح هو الحاكم، والفتاح هو الحاكم، استفتح فلان أي طلب الفتح، وهو الحكم، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[1] - تاريخ الطبري (ج٢ /ص ٩٨) وسيرة ابن هشام (ج ٤ / ص ١٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ} [(٧٦) سورة البقرة] الآية: "أي أن صاحبكم محمداً رسول الله، ولكنه إليكم خاصة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، فأنزل الله: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به.

يقول الله تعالى: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة]، وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

وقوله تعالى: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم، وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: {أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ} قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- بما فتح الله عليهم مما في كتابهم؛ خشية أن يحاجهم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- بما في كتابهم عند ربهم.

{وَمَا يُعْلِنُونَ} يعني حين قالوا لأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-: آمنا، كذا قال أبو العالية والربيع وقتادة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد سبق الكلام على هذه الآية {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة].

والمراد بقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة] يشمل هذا ما يكتمونه ويسرونه من نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأنها حق، وكذلك ما يعلنونه من الكذب عليه -عليه الصلاة والسلام- والتحريف والتغيير في أوصافه التي يجدونها في كتابهم.

كذلك أيضاً يعلم ما يسرون وما يعلنون فيما يتظاهرون به أمام المسلمين من قولهم: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم؟، فالله يعلم هذه المقالات وهذه الأحوال، فالآية تتحدث عن قولهم هذا -{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا} [(٧٦) سورة البقرة]- ثم عقبها بقوله: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا

{يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة] حيث ذكر حالهم في السر وحالهم في العلانية فالله -عز وجل- يبين أنه مطلع على ذلك كله.

وقوله: {أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} معلوم أن (ما) تفيد العموم، ومعلوم لكل أحد أن الله يعلم السر والعلانية في كل الأمور، ولكن الآية حينما تكون تعقيباً على مثل هذا فإنها تربط به عادة، فيقال: يعلم ما يسرون وما يعلنون مما يظهرونه ويبطنونه في أحوالهم المختلفة أمامكم وإذا خلا بعضهم إلى بعض، ومن قال بذلك لا يعني أنه ينكر أن الله -عز وجل- يعلم كل شيء، وإنما المقصود أنه يمكن أن تفسر الآية بهذا، وإلا فيقال: أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون في كل شيء، فهذا معنىً صحيح، ولكن جرت العادة في التفسير أن مثل ذلك يكون مرتبطاً بما قبله، ولهذا تجد العبارات التي يذكرها المفسرون هي عبارة عن محاولات لربط هذه الخاتمة بما قبلها، وإلا فأي واحد من المفسرين يستطيع بكل سهولة أن يفسر الآيات فيقول: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة] (ما) تفيد العموم، والله عليم بالسر والعلانية، وانتهى، لكن هذا الربط تجده مطرداً في التفسير وقائله لا ينكر العموم، فمثلاً يقول في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة] يقول: عزَّ فحكم بالقطع، وهذا مع أن الله عزيز تبارك وتعالى في ذاته ولا يغالب ولا تطاق سطوته..الخ.

فالمقصود أن هذه قضية تجدها في التفسير كثيراً فإذا رأيتها أدركت المراد، لماذا يقولون هذا؟، وهذا الاستطراد إنما ذكرناه؛ لأن هذه المسألة قد تشكل في بعض المواضع فيظن الإنسان أنها من قبيل التخصيص، فأردنا أن نبين أنهم إنما يقصدون هذا الملحظ.

"{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ* فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٨-٧٩) سورة البقرة].

يقول تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد."

يذكر الله تعالى مخازيهم فيقول: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} يعني ومن اليهود قوم أميون، أي ومنهم طائفة أمية، والأمي بعضهم يقول: إنه منسوب إلى الأم، أو إلى الأمة الأمية التي هي باقية على أصل ولادتها، وقائل ذلك يريد أنه منسوب إلى الأمة الأمية، ولك أن تقول: منسوب إلى الأم، فهو باق على حالته الأولى لا يعرف الكتابة، ومن لا يعرف الكتابة فإنه لا يعرف القراءة، ولذلك تجدهم في كثير من العبارات التي يفسر بها الأمي يقولون: هو الذي لا يعرف الكتابة، ويقتصرون على هذا، ومنهم من يقول: هو الذي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولا إشكال في هذا على كل حال، فالذي لا يعرف الكتابة لا يعرف القراءة.

ومنهم من يقول: إنه نسبة إلى أم الكتاب الذي عندهم وكأنهم نسبوا إليه لنزوله عليهم، وهذا متكلف وبعيد جداً.

المقصود أن الأمي هو الذي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، كأنه قد بقي على أصل ولادته، فالإنسان إذا خرج من بطن أمه فإنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا شيئاً، والله يقول: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [(٧٨) سورة النحل].

وهنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: والأميون **جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد**، وهو ظاهر في قوله تعالى: {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} [(٧٨) سورة البقرة] أي لا يدرون ما فيه، فنفى عنهم العلم.

"ولهذا في صفات النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [(٤٨) سورة العنكبوت]**، وقال -عليه الصلاة السلام-: ((إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا))**[1] **الحديث، أي لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب، وقال -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}** [(٢) سورة الجمعة].

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَمَانِيَّ} قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِلاَّ أَمَانِيَّ} يقول: إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً، وقيل: إلا أماني يتمنونها، قال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه.

وقال مجاهد: {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} [(٧٨) سورة البقرة] **يكذبون، وقال قتادة وأبو العالية والربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق."**

الأماني يمكن أن يكون جمع أمنيَّة -بتشديد الياء- والمراد بالأمنية القراءة، وهذا معروف وعليه أحد الأقوال المشهورة في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [(٥٢) سورة الحـج] يعني ألقى في قراءته، هذا أحد الأقوال المشهورة في تفسير الآية.

يقولون: جرى ذلك فسمعه الكفار فحصل لهم اشتباه والتباس بما سمعوا، فالشيطان أثناء القراءة يلقي بعض الشيء الذي ليس من كتاب الله -عز وجل- فيكون ذلك سبباً لبلبلة تحصل عند المفتونين.

قيل في الآية: {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} أي تمنى هداية قومه فقد يبعد في الأمنية، فالله لا يقدّر هدايتهم فهو يجنح بعيداً في أمانيه فلا تكون كما قدر الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء أنهم لن يؤمنوا.

فالمقصود أن قوله هنا: إلا أمانيَّ، يمكن أن يكون جمع أمنيَّة بمعنى قراءة، ومنه قول كعب بن مالك -رضي الله عنه- يمدح عثمان بن عفان -رضي الله عنه-:

تمنـــى كتـــاب الله أول ليلـــه ... فـــصادفه حـــتم مـــن المقـــادر

وقول حسان بن ثابت يمدح عثمان أيضاً:

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الصوم - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا نكتب ولا نحسب (١٨١٤) (ج ٢ / ص ٦٧٥) ومسلم فـي كتـاب: الصيام - باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً (١٠٨٠) (ج٢ / ص ٧٥٩).

تمنـــى كتـــاب الله آخـــر ليلـــه تمني داود الزبـــور علـــى رســـل

تمنى كتاب الله بمعنى قرأ كتاب الله أول الليل، أو قرأ كتاب الله آخر ليله أو آخر ليلة.

تمني داود أي قراءة داود الزبور.

على رسل يعني على مهل.

فعلى هذا القول (إلا أماني) يكون الاستثناء متصلاً؛ لأن القراءة هي لون من العلم بالكتاب، فالعلم بالكتاب بقراءته وبفهم معانيه ومعرفة الأحكام، وتفسير الآية أنهم لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لكن لا يعملون به ولا يعرفون أحكامه ولا يعرفون معانيه ولا يتفهمونه وإنما يعرفونه قراءة فقط فهم جهلة، وهذا اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير الآية، وقال به جماعة، وهذا النوع من الجهل واقع عند عامة هذه الأمة.

وإذا كان هؤلاء قد لحقهم الذم وكتابهم ليس كالقرآن، ونبيهم ليس كالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وهم أمة ليست بمثابة هذه الأمة في الشرف والفضل فالعتب الذي يلحق هذه الأمة لجهلها بكتابها أعظم من العتب الذي لحق بني إسرائيل، فمن الرزايا أن يموت الإنسان وهو لا يعرف معاني القرآن، ولم يقرأ كتاباً في تفسيره، وهو أعظم كتاب يحتوي على ما لا يقادر قدره من المعاني والهدايات.

إن من الغبن أن يموت الإنسان وما قرأ كتاب الله وما فهم كثيراً منه، بل ربما ما فك بعض الألفاظ التي يسمعها ويقرؤها صباح مساء في الصلاة وفي خارج الصلاة، هذا أعظم غبن يمكن أن يقع للإنسان بعد حرمان الهداية إلى الإسلام، ومن أعظم ما يوفق إليه الإنسان أن يفتح الله -عز وجل- عليه في هذا الكتاب فيشتغل به قراءة وتفهماً وتدبراً ويجعل لنفسه نصيباً منه في يومه وليلته بحيث يجعل له ورداً في القراءة وتفهم معانيه، وإذا فتح عليه في هذا رأى من العجائب والغرائب من ألوان الهدايات ما لا يقادر قدره، والناس قد فاوت الله -عز وجل- بينهم غاية التفاوت في مثل هذه الأمور

ومـــا كـــل غـــائص وقـــانص يظفـــر بالـــدر وبـــاللآلئ

ولكـــن تأخـــذ الأفهـــام منـــه علـــى قـــدر القـــرائح والفهـــوم

والقول الآخر في تفسير الآية وهو المشهور وهو قول الجمهور: {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [(٧٨) سورة البقرة]، الأماني جمع أمنيَة، والأمنيَة هي أن يود الإنسان ويطلب ما لا يمكن وقوعه أو ما يبعد وقوعه جداً، مثاله:

ألا ليـــت الـــشباب يعـــود يومـــاً فـــأخبره بمـــا فعـــل المـــشيب.

فالرجاء والطمع –كما سبق- يكون في الشيء قريب المنال، والأماني تكون في الشيء بعيد المنال، والأماني على هذا الاعتبار جمع أمنية –بالتخفيف-.

والاستثناء في قوله: {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} يكون منقطعاً؛ لأن الأماني ليست من الكتاب، فهم تمنوا فقالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة]، وقالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة]، وتمنوا فقالوا: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة]، فهم هذه حالهم وهذا شأنهم.

ولو نظرت إلى قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} فإنك تجد فيها قرينة ترجح أحد هذين الاحتمالين وهذه القرينة هي أنه قال: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} فالأمي هو الذي لا يقرأ، فلو قلنا: إلا قراءة فكيف يكون أميًّا وهو ما يعلم الكتاب إلا قراءة؟ فإذا فسرت قوله: {إِلاَّ أَمَانِيَّ} بمعنى إلا قراءة فكأنك ناقضت نفسك؛ إذ كيف تقول: إنهم لا يقرءون، ثم تقول: لا يعلمون الكتاب إلا قراءة دون فهم المعنى، وهذا الذي حدا بعامة المفسرين إلى ترجيح القول الآخر وهو أن المعنى أنهم يتمنون أمانيَ فارغةً لا تستند إلى شيء يمكن أن يوثق به، فليس عندهم عهد من الله -عز وجل- وإنما هم يتخرصون.

قوله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} [(٧٨) سورة البقرة] (إن) نافية، والمعنى وما هم إلا يظنون أي يتخرصون تخرصاً فهم جهلة.

والظن هنا المقصود به الطرف المرجوح، فالظن يطلق على العلم -وليس هذا المراد هنا قطعاً- ويطلق ويراد به طرف الرجحان وذلك حينما تكون القضية فيها احتمال، فالطرف الراجح منها هو الظن.

والطرف المرجوح يقال له أيضاً ظن، يعني يظن القضية بنسبة عشرة بالمائة مثلاً يسمونها عندنا ظاهر، وعندنا مؤول وعندنا شك

ووهـــم وظـــن وشـــك محتمـــل لـــراجح أو ضـــده أو مـــا اعتـــدل

فالشك هو ما اعتدل، والظن هو الطرف الراجح، وضده هو الطرف المرجوح الذي يسمونه في الأصول في أنواع الدلالة (الظاهر والمؤول)، والوسط هو الشك، فقوله: {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} يعني الطرف المرجوح، أي أنها أوهام وتخرصات، وهذا هو الظن المذموم الذي ذم الله أتباعه في القرآن فقال تعالى: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ} [(٢٣) سورة النجم]، وقال تعالى: {وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [(٢٤) سورة الجاثية]، وقال عنهم: إنهم يقولون: {إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [(٣٢) سورة الجاثية]، فهذا الأسلوب دائماً يأتي على سبيل الذم وليس المقصود به الطرف الراجح.

وأما ما في بعض مسائل الفقه التي هي من باب الظن فالمعنى أنه قد لا يكون الدليل فيها قطعياً فهذا ليس من المذموم في شيء، فالذين يقولون: إن هذا من اتباع التخرص والظنون فهؤلاء مخطئون، فالذم الذي ورد في القرآن إنما هو لاتباع الأوهام والتخرصات، فإذا رأيت الظن مذموماً فهذا المراد به، أما الظن الراجح اتباعه فهو مطلوب، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٩) سورة البقرة] **الآية.**

"هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ذكر -تبارك وتعالى- جهلتهم وعوامهم، فقال تعالى: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}** [(٧٨) سورة البقرة]، ثم ذكر هؤلاء المحرفين فقال سبحانه: **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}** [(٧٩) سورة البقرة]، وهذا التحريف كان يقع عادة من علمائهم ومن أحبارهم الذين استحفظوا كتاب الله -عز وجل-، فتوعدهم الله بالويل، **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}**.

يقول: **والويل الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في لغة العرب**، هذه اللفظة التي تتكرر كثيراً يفسرها العلماء في كثير من الأحيان بأنها واد في جهنم، وعلى كل حال هي كلمة للوعيد.

وربما كان أصلها بمعنى الحزن، أو نحو ذلك، فمن أهل العلم من يقول: إن اللام زيدت في آخرها، وإن أصلها (وَي) أي حزن، ثم زيدت عليها اللام، وصارت تستعمل للوعيد أو بمعنى الهلاك والدمار، فإذا توعدت إنساناً قلت له: ويل لك، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول غير هذا، وعلى كل حال يمكن أن تكون بمعنى الوعيد عموماً ويمكن أن تكون بمعنى أنها واد في جهنم، مع أنه لا يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أعلم شيء في تحديد هذا المعنى.

"وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرءونه غضًا لم يُشب."

قوله: لم يُشب: بضم الياء يعني لم يُخلط بغيره أو لم يداخله غيره من التحريف والتبديل، أما يَشِبّ بفتح الياء فيعني يكبر ويهرم، لكنها هنا لم يُشب بمعنى لم يُخلط بغيره ولم يحرف، كما قال القائل:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبت بماء فاستحكمن أبوالا

وقال الآخر:

شيبت بذي بشم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

فالشوب الخلط، والمحض : الخالص الصافيّ، ويَشب يعني يهرم، وذلك لا يقال للكتاب، وإنما يقال لمن من شأنه أن يدركه الشيب.

"تقرءونه غضًا لم يشب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم"[1] [رواه البخاري]."

هذا الأثر عن ابن عباس مهم جداً؛ لأنه ينهى من الأخذ عن بني إسرائيل والتلقي عنهم ورواية الإسرائيليات، ولذلك فإنه ينبغي أن يكون الموقف من هذه الإسرائيليات واضحاً محدداً، مع أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كان يأخذ من كتب أهل الكتاب وينقل ذلك في التفسير، تارة بنسبته إليهم، وتارة من غير نسبة، وتعرفون خبره حينما اختلف مع مروان أو مع معاوية في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}** [(٨٦) سورة الكهف] -أو حامية فيها قراءتان متواترتان- فكتب إلى كعب الأحبار، فقال لهم كعب الأحبار: إنهم يجدونها في التوراة أنها تغرب في ثأط وطين.

على كل حال هذا الأثر يحتاج إليه عند الكلام على الروايات الإسرائيلية، وهو من الآثار المهمة التي يستدل بها على ضرورة تخليص التفسير من هذه الروايات الإسرائيلية.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين حين وآخر في هذا الكتاب سيتحدث عن الروايات الإسرائيلية حديثاً خاصاً يلفت النظر إليها، ويبين أنه لا يلتفت إلى هذه الأقوال من جهة الاعتماد، وأنها أخبار لا تثبت، وهذا في أكثر من موضع في هذا الكتاب سيتحدث عنها بخصوصها، وعلى كل حال تحدث عنها كثيرون، ومن أحسن من تحدث عنها الشيخ: أحمد شاكر في مقدمته لعمدة التفسير، وكان أهم ما ذكره مما لا يكاد يوجد عند من يتحدثون عنها، أن السلف حينما نقلوها لم ينقلوها على أنها مما يفسر به القرآن، وإنما ذكروها من باب ((وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[2] فيذكرونها للاستئناس لا أنهم يفسرون القرآن بها، وهذه قضية مهمة، فالقرآن لا يفسر بهذه الأشياء التي لا ندري ما حالها هل هي صحيحة ثابتة أو غير صحيحة؟، لا يفسر القرآن بهذا، ولكن تذكر من باب الاستئناس مع أنها في أمور لا حاجة إليها، أبهمها الله -عز وجل-، ولو كان فيها فائدة لبينها.

"وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها."

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام-: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[3].

وقوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة] هو كقوله -عز وجل-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] ومعنى يكتبونه بأيديهم أي يكتبونه كتابة محرفة، فهذا

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات - باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها (٢٥٣٩) (ج ٢ / ص ٩٥٣).

2 - أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء - باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤) (ج ٣ / ص ١٢٧٥).

3 - أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد - باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) (ج ٤ / ص ٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٢).

معنى يكتبونه لا أنهم ينسخون منه نسخاً صحيحة؛ إذ هذا لا إشكال فيه، وإلا كيف يتداول الناس الكتاب إلا بهذا، لكن المقصود هنا يكتبون الكتاب على غير وجهه.

وقوله: {بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة]، هذا ليسجل عليهم الجريمة، ومثل هذا الأسلوب كما سبق التنبيه عليه مراراً أنه يأتي للتأكيد، فهو يسجل عليهم جريمتهم وأنها صادرة منهم وهذا كقوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران]، ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد، وإنما يتكلم الإنسان بفيه، وهكذا حينما يقول تعالى: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] والطائر إنما يطير بجناحيه، وأشباه ذلك، وإن كان لكثير منها في موضعه توجيهات أخرى، ولكنها لا تخرج عما ذكرت من حيث الأصل، يعني يقال: إن ذلك ليسجل عليهم هذا أو يقال: هذا للتأكيد، ثم يذكر معه معنىً آخر، في مثل قوله مثلاً: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} يقول: لينبه على أن المراد بذلك الحقيقة وليس المراد بذلك مجرد الإسراع؛ لأن العرب تكني عن السرعة والإسراع بمثل هذا، تقول: طار إليه، طاروا إليه زرافات ووحداناً، فهو يقول: طائر يطير بجناحيه، طائر حقيقي، وبعضهم يقول غير ذلك، والله أعلم.

"**وقوله تعالى:** {فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٩) سورة البقرة] أي: **فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {فَوَيْلٌ لَّهُم} **يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب،** {وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٩) سورة البقرة] **يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.**"

هذا كما سبق في أخذهم للرشا فإنهم كانوا إذا جاءهم من يعطيهم الرشا فإنهم يكتبون له غير ما يجدونه في الكتاب؛ من أجل أن يوافقوا بغيته وهواه، ومن دفع إليهم الرشوة وهو محق أخرجوا له الكتاب على وجهه وهكذا.

"{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٨٠) سورة البقرة] **يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى:** {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا} [(٨٠) سورة البقرة] **أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بـــ"أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.**"

هذه الطريقة في الرد معروفة، وذلك أن الحال لا يخلو بطريقة السبر والتقسيم العقليين من أحد أمرين لا ثالث لهما، فهذا القول الذي قالوه إما أن يكون بطريق عهد من الله -عز وجل- ثابت لهم، وإما أن يكون ذلك قالوه من عند أنفسهم، وليس هناك طرف ثالث في القسمة، فإما أن يكون ذلك من الله بعهد وإما أن يكون من قبيل الاختلاق، هذا ما يسمى بالتقسيم، إما هذا وإما هذا، وهذا أحد أمثلة التقسيم الصحيح وهو حصر الأوصاف المحتملة وشرطه الاستيعاب بحيث أن المعترض لا يقول لك: لا، بقي طرف ثالث في القسمة أو طرف رابع لم تذكره، ثم السبر هو أن تختبر هذه الأوصاف فتقول مثلاً: أما إنه بعهد فهذا غير موجود، فإن كان عندكم عهد فأخرجوه، وبقيت الثانية وهي أنه ما دام ليس هناك شيء آخر فأنتم تقولون على الله الكذب، وتقولون على الله ما لا تعلمون، وهذه الطريقة موجودة في القرآن، وهي من طرق الاستدلال الصحيح، وتذكر أيضاً

في كتاب القياس في أصول الفقه عند الكلام على استخراج العلة -طرق استنباط العلة- فإنّ -كما هو معروف- من أشهر طرقها: المناسب والسبر والتقسيم العقليين وأشباه ذلك.

قوله: **أتى بـــ"أم" التي بمعنى بل،** أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب، و"أم" هذه تحتمل هذا المعنى، وهو معنى بل، أي: أتخذتم عند الله عهداً بل تقولون على الله ما لا تعلمون، وتحتمل أن تكون أم هذه هي أم المعادلة، فعلى كل حال "أم" إذا قلنا بأنها بمعنى بل، فإن ذلك يعني القطع، بمعنى أن ما بعدها ليس بداخل فيما قبلها، وهي بمعنى لكن أو بمعنى بل، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون، وإذا قلنا بأنها معادلة فالمعنى أيّ الأمرين كائن وواقع منكم؟.

"وقال العوفي عن ابن عباس: {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة] **اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره: وهي مدة عبادتهم العجل."**

قوله: **مدة عبادتهم العجل:** أي أنهم يقولون: نعذب بهذا القدر، ثم تخلفوننا فيها، يعنون المسلمين، وجاء عنهم أيضاً فيما نقل عنهم في هذه الكتب أنهم حسبوا المدة التي تقطع فيها النار فوجدوها أربعين، فقالوا: **{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** بمعنى مدة هذا الاجتياز، وفي بعض تلك الأشياء التي تنقل عنهم أنهم حسبوا الدنيا فوجدوا أن عمرها كما زعموا سبعة آلاف سنة، فقالوا: نجلس في كل ألف عام يوماً واحداً، ومعنى ذلك أنهم يجلسون سبعة أيام.

وقولهم: **{إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** هذا الأسلوب يشعر بالتقليل، أي: سنمكث فيها أياماً معدودة قليلة ثم بعد ذلك نخرج منها.

"وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه -رحمه الله-: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاة فيها سم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا)) فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أبوكم؟)) قالوا: فلان. قال: ((كذبتم، بل أبوكم فلان))، فقالوا: صدقت وبَرِرْت، ثم قال لهم: ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟)) قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أهل النار؟)) فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبدًا))، ثم قال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟)) قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: ((هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟))، فقالوا: نعم، قال: ((فما حملكم على ذلك؟)) فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك"[4] [ورواه أحمد والبخاري والنسائي بنحوه]."

على كل حال مثل هذه الآية: **{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** [(٨٠) سورة البقرة] يمكن بطريق الاستقراء -الذي يمكن أن يكون في أغلب المواضع في القرآن- أن يذكر معها القاعدة التي هي أن من عادة القرآن أنه إذا ذكر قول القائلين فإما أن يبطله أو يذكر ما يدل على بطلانه، وإما أن يسكت عنه، فما ذكر معه

---

[4] - أخرجه البخاري في أبواب الجزية والموادعة - باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟ (٢٩٩٨) (ج ٣ / ص ١١٥٦).

ما يدل على البطلان فإنه يؤخذ منه أنه باطل، وما لم يذكر معه ما يدل على البطلان فقد يفهم من ذلك أنه صحيح.

وتارة يذكر أمرين اثنين من قولهم ودعاواهم فيبطل الباطل ويسكت عن الصحيح، مثاله: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [(٢٨) سورة الأعراف] فـ{وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا} هذه دعوى، و{وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} فرد عليهم بواحدة وسكت عن الأخرى، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء} ولم يقل لهم: لم تجدوا آباءكم على ذلك فدل على صحته، وهم فعلاً وجدوا آباءهم على الفواحش.

ومثل هذا قصة أصحاب الكهف في الحديث عن عددهم، فإن الله -عز وجل- لما ذكر قيلهم أنهم {ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ} قال: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [(٢٢) سورة الكهف]، فدل على أنه ليس هذا هو العدد، ولما ذكر {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [(٢٢) سورة الكهف]، ما ذكر ما يدل على بطلانه، فاستنتج منه بعض أهل العلم -ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- أن عددهم كان سبعة وثامنهم كلبهم.

أقول: هذا هو الغالب وإلا فالقواعد عموماً لها استثناءات ويكفي أن تكون قاعدة بمعنى أنها غالبة، ولذلك ففي قوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف عن أولئك الذين قالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [(٢١) سورة الكهف]، لم يعقب على ذلك بشيء، والمفسرون مختلفون في تحديد قائل هذه المقالة؟ هل هم أهل الإيمان، أو أن هؤلاء من أهل الإشراك، لما رأوهم أرادوا أن يقدسوهم فقالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}؟ ولذلك تجد الخرافيين من القبوريين، والصوفية يحتجون بمثل هذه الآية، ويقولون: الله -عز وجل- ما ذكر ما يرد ذلك، فيجاب عنهم بأجوبة، يقال لهم: أولاً القواعد أغلبية، وهذا من استثناءات القاعدة.

والأمر الثاني: أن شرع من قبلنا، ليس بشرع لنا إذا وجد في شرعنا ما يخالفه، والنصوص عندنا كثيرة في التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فهذا واضح وصريح.

وعلى كل حال فالأقرب أن ذلك لم يكن من قول أهل الإيمان؛ فإن تعظيم القبور والبناء عليها ليس من عمل أهل الإيمان، ولا يقر أحد عليه لا في هذه الشريعة ولا قبلها، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[5] ولو كان ذلك سائغاً في شريعتهم لما لحقهم اللعن بسببه فهو أمر غير جائز، وليس ذلك مختصاً بهذه الشريعة، وإنما ذلك يصدر من المشركين الذين يعظمون القبور ويعبدونها من دون الله -عز وجل-.

"{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٨١) سورة البقرة]

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(٨٢) سورة البقرة] أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة."

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز - باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم (١٣٢٤) (ج ١ / ص ٤٦٨) ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٢٩) (ج ١ /ص ٣٧٦).

هذه الآية فيها سؤال معروف عند العلماء وهو أن الله -عز وجل- قال: {بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٨١) سورة البقرة]، فذكر أنهم أصحاب النار، ومعنى أصحاب النار أي الملازمون لها، ولا يقال ذلك إلا لمن كان ملازماً للشيء، وأهل الإيمان ليسوا من أصحاب النار وإن عذبوا فيها بعض الوقت، وفي قوله: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} لم يحدد هذه الخطيئة وإنما وصفها بهذه الصفة وهي الإحاطة بصاحبها، ثم إنه ذكر الخلود بسبب هذه الخطيئة، فما المراد بهذه الخطيئة التي استوجبت هذا الخلود والملازمة لهذه النار؟!

الحافظ ابن كثير فسر ذلك بأن جميع أعمال هذا الذي استوجب هذه الملازمة للنار كانت سيئات وليس له حسنة، ولا شك أن من كان بهذه المثابة فقد أحاطت به خطيئته، ومعنى ذلك أنه ليس من أهل الإيمان؛ لأن الإيمان أعظم حسنة وحديث البطاقة في ذلك معروف، فدل ذلك على أن هذا الإنسان ليس من أهل الإيمان ولم يعمل خيراً قط، فلا شك أن هذا داخل في هذا المعنى - أحاطت به خطيئته- ولكن هل يدخل فيه غيره؟ بعض أهل العلم يقول: هذا في أصحاب الكبائر، وهذا غير صحيح أبداً إلا أن يقيد ذلك بنوع من الكبائر وهو الإشراك، فقوله تعالى: {بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [(٨١) سورة البقرة] تفسر الخطيئة بالشرك؛ لأن الشرك هو الذي يحيط به.

وبعض أهل العلم يقول: هذا رجل تكاثرت ذنوبه فإن ذلك كما مثله النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقوم الذين نزلوا في مكان، فجعل هذا يأتي بعود، وهذا يأتي بعود وهذا يأتي بعود، حتى أوقدوا ناراً فأنضجوا ما معهم.

وعلى كل حال ينبغي أن يفسر هذا بالشرك سواء كان ذلك مع حسنات عنده فذلك لا ينفعه كما قال الله -عز وجل-: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، وكما قال -جل وعلا-: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [(١٨) سورة إبراهيم]، وكما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [(٣٩) سورة النــــور]، وبالتالي لا نحتاج معه إلى أن نقول: ليس له حسنة إطلاقاً، والعلم عند الله -عز وجل-.

ومعنى الخطيئة في أصلها الذنب، وبعض أهل العلم يفرق بين الخطأ وبين الخطيئة، وبين المخطئ وبين الخاطئ، فيقولون: أخطأ يخطئ، فهو مخطئ، وهذا خطأ يراد به الوقوع في المخالفة من غير عمد، ويقولون: فلان خاطئ وهذه خطيئته، ولا يقولون: مخطئ، بل يقولون: خاطئ، وذلك لمن وقع في المخالفة عن قصد وعمد، قال تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [(١٥) سورة الجن]، ما قال المخطئون، وقال: {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [(١٦) سورة العلق]، ما قال: مخطئة، وبعضهم يقول: هما بمعنى واحد، والله أعلم.

"وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا* وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [(١٢٣-١٢٤) سورة النساء]

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه- وأبو وائل وعطاء والحسن: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: أحاط به شركه.

وقال الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خُثَيم: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب، وعن السدي وأبي رزين نحوه."

لكن هذا القول كما سبق فيه إشكال، إذ لا يكون أصحاب الذنوب وأصحاب الكبائر مخلدين في النار إلا على مذهب الخوارج والمعتزلة.

"وقال أبو العالية ومجاهد والحسن في رواية عنهما وقتادة والربيع بن أنس: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} الموجبة الكبيرة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم."

على كل حال هذه الأقوال ينبغي أن تقيد بأن المقصود بالكبيرة الإشراك؛ لأنه ذكر معها الخلود، وهذه الآية مما يحتج به المعتزلة والخوارج على مذهبهم، ويجب على الإنسان أن يجمع بين النصوص؛ لأنه لو بقينا مع هذه الآية فقط فيمكن أن يؤخذ من ظاهرها ما يمكن أن ينزل على هذه الأقوال أو على بعضها، ولكن الشأن هو أن نجمع النصوص الواردة في الباب، فنجد أن النصوص الصريحة الصحيحة تدل على أن الموحدين لا يخلدون في النار وأنهم يخرجون منها حتى إنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، أو حبة خردل من إيمان[٦]، فإذا جمعت هذا وهذا اتضح لك المراد، فنحن لا ننظر إلى النصوص بنظر أعور كما يفعل أهل البدع حيث يأخذون بعض النصوص ثم يعملونها ويخرجون بقول مشوه، وأهل الإرجاء يأخذون النصوص الأخرى التي ينبغي أن تجمع مع هذا -مثل النصوص التي تدل على إخراج الموحدين من النار، وأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله[٧] وأشباه ذلك- يأخذون هذه النصوص ويخرجون بمذهب الإرجاء.

فإذا جمعت هذا وهذا تكون النتيجة أن أهل التوحيد أو أهل الإيمان يعذبون على ذنوبهم وجرائمهم، ولكنهم لا يخلدون في النار، وقد لا يحصل تعذيبهم بسبب حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو توبة قبل الموت، أو شفاعة أو برحمة الله -عز وجل- ولطفه فيغفر لهم هذه الذنوب تفضلاً وتكرماً.

"ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه))[٨].

وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضرب لهُم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأجّجوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها[٩]."

صنيع القوم: يعني الطعام.

---

[٦] - صحيح البخاري في كتاب: التوحيد - باب: قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} (٦٩٧٥) (ج ٦ / ص ٢٦٩٥) وصحيح مسلم في كتاب:الإيمان - باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠).

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: العمل الذي يبتغي به وجه الله (٦٠٥٩) (ج ٥ / ص ٢٣٦٠) ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣) (ج ١ / ص ٤٥٤).

[٨] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٤٠٢) والطبراني (ج ١٠ / ص ٢١٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧). [يحذف ويكتفى بالإحالة التالية لأنه حديث واحد]

[٩] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٤٠٢) والطبراني في الكبير (ج ١٠ / ص ٢١٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٨٧).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٨٢) سورة البقرة] أي من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله، أبداً لا انقطاع له."

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} هذا هو الجمع بين الخوف وبين الرجاء، بين الوعد وبين الوعيد على طريقة القرآن.

"{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ} [(٨٣) سورة البقرة]، يُذكّر -تبارك وتعالى- بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى أن يعبد وحده لا شريك له."

هنا قال: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [(٨٣) سورة البقرة]، ومرَّ بنا أيضاً الميثاق الذي أخذه عليهم في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [(٦٣) سورة البقرة]، وسيأتي: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة].

فقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} مختص بما ذكر معه، وهنا: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [(٨٣) سورة البقرة] يمكن أن تكون هذه الآية مفسرة لقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [(٦٣) سورة البقرة]، أخذ ميثاقهم على أن لا يعبدوا إلا الله وبالوالدين إحساناً إلى آخر ما ذكر، فيكون هذا هو الميثاق الذي أخذه -وقد سبق الكلام على هذا- وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو أن قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [(٦٣) سورة البقرة] يفسره قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [(٨٣) سورة البقرة] فيكون ذلك تفسيراً لهذا الميثاق الذي هو عبادة الله -عز وجل- وحده لا شريك له وما ذكر معه من هذه الأمور.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [(٨٣) سورة البقرة] يلاحظ أنه قال هنا: {أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ} فالفعل تعبدون من الأفعال الخمسة، وهي ترفع بثبوت النون وتجزم بحذفها، وهنا ليست مجزومة بل مرفوعة فدل ذلك على أن (لا) هذه ليست ناهية وإنما هي نافية فارتفع الفعل بعدها بثبوت النون، إذ لو كانت ناهية كان سيقول: لا تعبدوا، وما دامت نافية فمعنى ذلك أن هذا من قبيل الخبر، ولهذا قال بعض أهل العلم -ومنهم سيبويه -رحمه الله-: إن ذلك يجري مجرى القسم، فهنا قسم مقدر يدل عليه ذكر الميثاق -وهو العهد المؤكد- والمعنى إننا استحلفناهم والله لا تعبدون إلا الله فيكون فيه تقدير.

والقاعدة أن الكلام إذا دار بين التقدير والاستقلال فالمقدم هو الاستقلال بمعنى أنه إذا كان يمكن أن يظهر المعنى دون الحاجة إلى تقدير الحذف فالأصل فيه الاستقلال، وهنا يمكن حمل الآية على معنىً صحيح من غير تكلف ودون أن يقال: إن فيها مقدراً محذوفاً، فيمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [(٨٣) سورة البقرة] هذا خبر متضمن لمعنى النهي، ومن أمثلته قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ} [(٢٣٣) سورة البقرة] فهنا الصيغة صيغة خبر لكنه بمعنى الأمر، فهو أمر للوالدات بالإرضاع، وعلى هذا يكون قوله: {لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} هذا خبر عما أخذ عليهم من العهد جاء به بصيغة خبرية ومعناه النهي، ويدل على هذا القراءة الأخرى غير المتواترة.

والقراءة الأحادية إذا صح سندها فإنه يستفاد منها ثلاث فوائد هي: أنه يحتج بها في الأحكام تنزيلاً لها منزلة الحديث، وتفسر بها القراءة المتواترة، ويحتج بها في كلام العرب، أي تكون حجة في لغة العرب، فالحاصل أنه جاء في قراءة غير متواترة -قراءة أبي بن كعب وقراءة ابن مسعود -رضي الله عنهما-: (لا تعبدوا إلا الله) فعلى هذا تكون "لا" ناهية؛ لأن الفعل جزم بعدها، وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله، والمعنى أخذنا ميثاقهم وقلنا لهم: لا تعبدوا إلا الله، ويمكن أن تحمل الآية على معنى قريب لا تكلف فيه، وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل يعني العهد الموثق بأن لا تعبدوا إلا الله وأوصيناكم بالوالدين إحساناً وبذي القربى إلى آخره، والله أعلم.

"ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن -تبارك وتعالى- بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [(١٤) سورة لقمان].

وقال -تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] إلى أن قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [(٢٦) سورة الإسراء].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين))، قلت: ثم أيّ؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))[10]".

لا شك أن الوالدين أقرب الناس إليه وهما سبب وجود الإنسان، ولم يفرق هنا أو لم يقيد ذلك بالإيمان فأحق الناس بالبر الوالدان وإن كانا على الإشراك، فأنت مأمور ببرهما والإحسان إليهما، وإن كان الوالد فاسقاً لا يرعوي، فأنت مأمور ببره والإحسان إليه، فالآيات لم تفرق لكنه لما ذكر المجاهدة على الإشراك قال: {فَلَا تُطِعْهُمَا} [(١٥) سورة لقمان].

"قال: {وَالْيَتَامَى} وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء."

اليتيم من فقد أباه ولما يبلغ، فإذا بلغ لم يكن يتيماً، والبلوغ إما أن يقع له حقيقة بظهور أماراته أو حكماً إذا أتم خمس عشرة سنة وإن لم يظهر ما يعرف به البلوغ، والمقصود أنه بعد البلوغ لا يكون يتيماً، فإذا بلغت البنت وعمرها تسع فإنها تكون قد تجاوزت سن اليتم.

---

10 - أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة - باب: فضل الصلاة لوقتها (٥٠٤) (ج ١ / ص ١٩٧) ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥) (ج ١ / ص ٨٩).

والآدمي يقال له: يتيم إذا فقد أباه، والبهائم توصف بذلك إذا فقدت أمها، ويقولون: إن الطير يوصف بهذا إذا فقد أحد أبويه؛ لأن كل واحد منهما يزقُّه بالغذاء أي يطعمه بوضع الطعام في فمه.

"{وَالْمَسَاكِينِ} الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحًا في قوله: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٣٦) سورة النساء] الآية."

المسكين إذا ذكر فإنه يدخل فيه الفقير، فالمساكين يعني الفقراء، وأما إذا ذكر معه فالعلماء يختلفون في أيهما أشد فقراً، فمنهم من يقول: المسكين أشد، ويحتجون بقول الشاعر:

أما الفقيــرُ الــذي كانــت حَلُوبَتُــه … وَفْقَ العيالِ فلــم يُتْــرَكْ لــه سَــبَدُ

إلا أن هذا بيت شعر لا يحتج به في الأحكام، وبعضهم يحتج بأن الفقير أشد حاجة من المسكين بقوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [(٧٩) سورة الكهف] فهؤلاء مساكين لكن عندهم سفينة يتجرون فيها، فيكون الفقير في حالٍ مُدْقِعة ليس عنده لا سفينة ولا غيرها، فيكون أشد حالاً من المسكين، وعلى كل حال هنا لم يذكر معه الفقير فيشمله، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة] أي: كلموهم طيباً، ولينُوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف."

قوله: **ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف**، من السلف من يذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط دون أن يقول: والنهي عن المنكر بالمعروف، وكلام الحافظ ابن كثير جمع فيه الأمرين، ومقصوده بذلك قوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة] ومن هذا الحسن أو من هذا الكلام الطيب الحسن الذي يقال لهم: أن يؤمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، فهذا من أحسن القول، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا} [(٣٣) سورة فصلت]، فأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر دعوتهم إلى الله -عز وجل-.

{وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، ويدخل فيه أيضاً أن يكون أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر، وهذا الذي أشار إليه أيضاً ابن كثير، حيث قال: **مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر بالمعروف**: يعني من غير إغلاظ ولا تخشين، فهذا مما يدخل فيه، أن نأمرهم ونهاهم وأن يكون ذلك بأسلوب حسن غير منفر لهم، ويدخل فيه سائر ما يمكن أن يتصور من الإحسان إليهم في الكلام من غير أن يفضي إلى المداهنة، سائر ما يمكن أن يتصور من الإحسان إليهم في الكلام بأن تلين الكلام معهم سواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو في غيره، فلا تتكلم معهم بأسلوب فيه فظاظة وجفاء وغلظة أو يجرح المشاعر، أو ما تحسب الكلمات التي تقولها فتؤذيه بما تُسمعه من القول، أو الكلام الفاحش البذيء، أو الرد الغليظ أو نحو ذلك.

وقوله: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} يشمل الناس الذين يسألون كما قال تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [(١٠) سورة الضحى]، وكما قال الله -عز وجل- فيمن لا يجد شيئاً يعطي القرابات إلى آخره كما في سورة الإسراء: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} [(٢٨) سورة الإسراء]، أي إن أعرضت

عنهم انتظار توسعة في الرزق فقل لهم قولاً ميسوراً أي لا يكون إلا خيراً، فتقول مثلاً: إذا يسر الله -عز وجل- أعطيناكم بإذن الله.

كذلك قال الله -عز وجل-: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى} [(٢٦٣) سورة البقرة] فإذا أعطيت السائل شيئاً فلا تزجره، وكذلك يكون التعامل في مخاطبات الناس، فهذه قضية يلاحظ أنه -تبارك وتعالى- أخذ العهد الموثق على بني إسرائيل فيها مما يدل على أهميتها، والكلام في هذا يطول، والنفوس تحتاج إلى معالجة، والنقص كثير، والإنسان يمر في أحوال وأطوار شتى، وتمر به أمور، وربما يغلبه طبعه، وربما تغلبه أحياناً حال من الأحوال فيخرج عن طوره ويسيء إلى الناس أو نحو هذا، لكن ينبغي أن يتذكر دائماً مثل هذه الأصول والوصايا ويعمل بها، ويربي نفسه عليها، ويتخلق بهذه الأخلاق، فيلين الكلام للناس كما قال سبحانه: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة].

"كما قال الحسن البصري في قوله: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} فالحسن من القول يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله."

هناك قراءة متواترة في قوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} هي: (وقولوا للناس حَسَناً) بفتح الحاء والسين.

"وروى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا تحقرن من المعروف شيئًا، وإن لم تجد فَالْقَ أخاك بوجه منطلق))[11] [وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه].

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُتعيّن من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٨٣) سورة البقرة] وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي: تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم.

وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء، بقوله: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا} [(٣٦) سورة النساء]، فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة."

11 - أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب – باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦) (ج ٤ / ص ٢٠٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ* ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٨٤-٨٦) سورة البقرة]

"يقول، -تبارك وتعالى- منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج -وهم الأنصار- كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهوديَّ الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [(٨٥) سورة البقرة] ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة]، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال -عليه الصلاة والسلام-: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[1].

وقوله تعالى: {ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: واذكروا إذ أخذنا عهدكم الموثق أن {لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة]، والسفك يقال على الإراقة، وأما الجراح اليسيرة التي لا يكون فيها إراقة الدماء فإن ذلك لا يقال له السفك، والمقصود بالسفك القتل، فـ{لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} أي لا يسفك بعضكم دم

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: البر والصلة والآداب - باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦) (ج ٤ / ص ١٩٩٩).

أخيه، هذا هو المراد، وليس المقصود بالآية أن لا يسفك الإنسان دمه، وإن كان ذلك يحرم بأدلة أخرى، لكن المقصود هنا لا يسفك بعضكم دم بعض، وقد ذكرنا علته سابقاً، وأشار إليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في هذا الموضع.

قوله: {وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره، وأصل الديار هي الأماكن التي يسكنها الناس سواء كانت من المَدَر أو كانت من غيره، وسواءً كانت ثابتة أو مؤقتة، فيشمل ذلك البنيان ويشمل أيضاً ما حوله من الأراضي الزراعية، وما أشبه ذلك، كما قال الله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [(٢) سورة الحشر] فديارهم تشمل الأراضي والمساحات التي ليس فيها بنيان وإنما فيها زروعهم وأشباه ذلك، كما تشمل البنيان.

قوله: {ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٨٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون ذلك متوجهاً إلى أجدادهم الذين أخذ عليهم هذا الميثاق أنهم أقروا بذلك وشهدوا به، وصح الخطاب للذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم منهم، وعلى طريقتهم ومنهاجهم.

وقد سبق الكلام على أن الخطاب قد يتوجه إلى المعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- مع أن ذلك قد وقع لأسلافهم، وعلى كل حال إذا كان الميثاق أخذ من أجدادهم، فلا شك أن ذلك يشمل الذين كانوا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ كان يحرم عليهم هذا الصنيع وهم لا ينكرونه بل يقرون بثبوته، وصحته.

"{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ} [(٨٥) سورة البقرة] **الآية، روى محمد بن إسحاق بن يسار عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ} الآية، قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فدَاء أسراهم فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج."**

هذا الكلام يحتاج إلى مناقشة فهو يقول: إن بني قينقاع هم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة هم حلفاء الأوس، والصواب أن النضير هم حلفاء الخزرج، وقريظة هم حلفاء الأوس، ففي قصة بني قريظة لما جيء بسعد بن معاذ -رضي الله عنه- إنما اختاروه ليحكم بينهم؛ لأنهم حلفاؤه، فكان ذلك رجاء أن يحكم حكماً مخففاً عليهم للحلف الذي كان بينه وبينهم، ولهذا اجتمع عليه قومه من الأوس وكانوا يقولون له: الله الله في حلفائك؛ حيث أرادوا أن يصنعوا لهم معروفاً إذ كانوا ينافسون الخزرج، فالخزرج شفعوا في حلفائهم وهم بنو النضير وقصة بني النضير معروفة، وخبر عبد الله بن أبي وهو من الخزرج في شفاعته لهم معروف، وقد شفع أيضاً لبني قينقاع، وإنما أظهر تبرمه واعتراضه لحكم النبي -صلى الله عليه وسلم- وسعد بن معاذ في قريظة، وقال: يقتل أربعمائة دارع في غداة واحدة؟ يعني كيف يقتل أربعمائة رجل ممن يلبس الدروع، أي أربعمائة ممن يصلح للقتال، وفي بعض التقديرات أنهم كانوا سبعمائة.

"فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا نارًا،

ولا بعثًا ولا قيامة، ولا كتابًا، ولا حلالاً ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقًا لما في التوراة وأخذًا به؛ بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم؛ مظاهرة لأهل الشرك عليهم.

يقول الله -تعالى ذكره- حيث أَنَّبهم بذلك: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [(٨٥) سورة البقرة] أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة ألا يقتل ولا يُخرج من داره، ولا يُظَاهَر عليه من يُشْرِك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج -فيما بلغني- نزلت هذه القصة.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونعته، ومبعثه ومخرجه ومهاجره، وغير ذلك من شئونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسلام-، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: {فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [(٨٥) سورة البقرة] أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} أي: جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ} [(٨٥-٨٦) سورة البقرة] أي: استحبوها على الآخرة واختاروها.

{فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ} [(٨٦) سورة البقرة] أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة.

{وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٨٦) سورة البقرة] أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه."

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة] قوله -تبارك وتعالى-: {هَؤُلاء} يحتمل أمرين: الأول: أن يكون ذلك من قبيل المنادى الذي حذف فيه ياء النداء، كقوله -تبارك وتعالى-: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} [(٢٩) سورة يوسف] يعني يا يوسف أعرض عن هذا، فيكون المعنى: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم.

ويحتمل معنىً آخر -ربما يكون أكثر تبادراً إلى الأذهان- هو: ثم أنتم قوم تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم، بمعنى أن هؤلاء تكون على سبيل الاعتراض -يعني اعتراضية- تصل الكلام بما بعدها وتكون للتوضيح والبيان، فالآية تحتمل هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

ثم في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [(٨٥) سورة البقرة]، أي ليس له جزاء إلا الخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة، والخزي بمعنى الذل والمهانة والصغار، وذلك يمكن أن يكون المراد به ما يحصل لهم من الهوان مما يسوقه الله -عز وجل- لهم من القتل

والإذلال حيناً بعد حين، كما قضى الله -عز وجل- عليهم ذلك، حيث شردهم وفرقهم وأذلهم، وضرب عليهم المسكنة، فالذل لا يفارق وجوههم بحال، وصار الله -عز وجل- يسوق عليهم من يسومهم الخسف والذل.

ويمكن أن يكون المراد به ما يحصل لهم من الإذلال بدفع الجزية، كما قال تعالى: {حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة]، وهذا المعنى متعلق بالأول لا يخرج عنه.

ويمكن أن يكون المراد به غير ذلك مما يصدق عليه معنى الذل والمهانة والصغار في الحياة الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} [(٨٥) سورة البقرة].

وإذا كان ذلك مما جازى الله -عز وجل- به هؤلاء اليهود لأنهم كانوا يعملون بأحكام التوراة بطريقة انتقائية، فيأخذون ما يشتهون ويتركون ما لا يشتهون، يعملون ببعض أحكام التوراة دون بعض، فإن الخزي والعذاب الذي يستحقه من كان أشرف منهم لا شك أنه أعظم، فهذه الأمة إذا عملت ببعض أحكام القرآن مما يوافق أهواءها، وتركت بعض أحكامه الأخرى فإنها أحق بالذل والخزي والصغار والعذاب في الآخرة من هؤلاء اليهود، ومن هنا كان يجب على هذه الأمة أن تعرف هذه البلية والورطة التي وقع فيها بنو إسرائيل فلا يقعون فيها فيكون ذلك سبباً لعذابهم، وسخط الله -عز وجل- عليهم، وذلهم وصغارهم في الحياة الدنيا.

ولو نظرنا إلى هذه الأمة فهذا هو واقعها اليوم في مشارق الأرض ومغاربها حيث صار اليهود الأذلاء يستذلونهم؛ وهذا بسبب أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يأخذون من الدين أشياء ويتركون الأشياء الأخرى، والله المستعان.

"{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة].

ينعت -تبارك وتعالى- بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء -عليهم السلام- وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى -عليه السلام- الكتاب -وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها.

وأرسل الرسل والنبيين -عليهم السلام- من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء} [(٤٤) سورة المائدة] الآية، ولهذا قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ} [(٨٧) سورة البقرة] قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا."

قوله هنا: {وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ} أي أتبعنا بعث موسى -صلى الله عليه وسلم- بالرسل الذين جاءوا من بعده، وهو مأخوذ من القفا، يعني أنهم جاءوا في أثره -عليه الصلاة والسلام- وكل من جاء تابعاً لغيره وكان مقتفياً لأثره فإنه يقال له: إنه يقفوه، من قفاه يقفوه، كما قال الله -عز وجل- في الأمور المعنوية: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [(٣٦) سورة الإسراء] يعني لا تتبع، وكذلك من كان يمشي خلف أحد يقال: إنه قفاه، يقفوه، ويقفو أثره، بمعنى الاتباع، فقفينا من بعده بالرسل يعني أتبعناه بالرسل.

فالآية التي قبلها بينت أنهم ينتقون من أحكام الله -عز وجل- ما يناسب أهواءهم، وهذه الآية تبين كيفية تعاملهم مع الرسل، فهم يؤمنون ببعض، ويقتلون الآخر.

"قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا، والكل قريب، كما قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} [(٤٤) سورة المؤمنون] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم -عليه السلام- فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام وإخباره بالغيوب وتأييده بروح القدس -وهو جبريل -عليه السلام- ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به."

جاء هذا في سورتي آل عمران والمائدة، ففي آية آل عمران الله -عز وجل- قال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ..}** [(٤٩) سورة آل عمران] إلى آخر ما ذكر.

وفي آية المائدة يقول تعالى: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً..}** [(١١٠) سورة المائدة] إلى آخر ما ذكر.

"فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدُهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى -عليه السلام-: {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] **الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء -عليهم السلام- أسوأ المعاملة ففريقًا يكذبونه وفريقًا يقتلونه؛ وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها فلهذا كان ذلك يشق عليهم فيكذبونهم وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}** [(٨٧) سورة البقرة].

والدليل على أن روح القدس هو جبريل -عليه السلام- كما نص عليه ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب وإسماعيل بن أبي خالد والسدي والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة، مع قوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [(١٩٣-١٩٤) سورة الشعراء]**...."**

روح القدس المشهور أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهذا عليه عامة أهل العلم، وروح القدس من باب إضافة الموصوف إلى الصفة.

والقدس بمعنى الطهر، والقداسة الطهارة والنزاهة، بمعنى الروح المطهرة، المنزهة المقدسة، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والمشهور أنه قيل له ذلك لأن الله -عز وجل- خلقه من غير ولادة، فليس له أب ولا أم، كما قال الله عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(١٧١) سورة النساء] أي روح مخلوقة كانت بتكوين الله -عز وجل- إذ قال له: كن فكان، من غير أب على ما جرت به العادة، فجبريل -عليه الصلاة والسلام- كان بتكوين الله -عز وجل- وخلقه من غير ولادة.

وبعضهم يقول: **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** [(٨٧) سورة البقرة]، أي أيدناه بالإنجيل، وهذا بعيد غاية البعد؛ وذلك أن الله -عز وجل- لما ذكر روح القدس في غير هذا الموضع في قوله تعالى: **{إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** [(١١٠)

سورة المائدة]، قال بعد ذلك: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [(١١٠) سورة المائدة] فلو كان روح القدس هو الإنجيل لكان ذلك من قبيل التكرار، فدل هذا على أن روح القدس ليس هو الإنجيل.

وبعضهم يقول: القدس هو الله، فروح القدس يعني روح الله، بمعنى أن الإضافة تكون للتشريف، كما قال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء]، وهذا أيضاً فيه بعد.

وبعضهم يقول: هي الكلمة التي كان يقولها عيسى -صلى الله عليه وسلم- حينما يريد إحياء الموتى حيث كان يتلفظ بهذه الكلمة: أيدتك بروح القدس، وهذا أيضاً بعيد، فالصواب أن روح القدس هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

"والدليل ما روى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وضع لحسان بن ثابت منْبرًا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك))[٢]، وقد رواه أبو داود في سننه، والترمذي، وقال: حسن صحيح.

وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))[٣]."

قوله: **((نفث في روعي))** يعني في قلبي.

"وقال الزمخشري في قوله تعالى: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة] إنما لم يقل: وفريقًا قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل -أيضًا- لأنهم حاولوا قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسم والسحر، وقد قال -عليه الصلاة والسلام- في مرض موته: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهَري))[٤] قلت: وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره."

قوله: ((أبهري)) هو العرق المعروف في القلب الذي يكون به موت الإنسان إذا انقطع.

وهذه لفتة جيدة نقلها عن الزمخشري وهي من النكات واللطائف اللغوية البلاغية، وهي أن قوله: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ} جاء بصيغة الماضي، أي حصل التكذيب في الماضي.

وقوله: {وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} عبر بالمضارع فيما يتعلق بالقتل، ومعلوم أن الفعل المضارع يدل على الاستمرار والتكرر حيناً بعد حين، فالتكذيب أضافه إلى ما مضى، والقتل عبر به بالمضارع بمعنى أنهم يقتلون الأنبياء باستمرار.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: ذكر الملائكة (٣٠٤٠) (ج ٣ / ص ١١٧٦) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٢٤٨٥) (ج ٤ / ص ١٩٣٢) ولفظهما: ((اللهم أيده بروح القدس)) دون قوله: ((كما نافح عن نبيك))، وعند الطبراني في الكبير (ج ٤ / ص ٣٧) ((اللهم أيده بروح القدس ما نافح عن نبيك)).

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات - باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤) (ج ٢ / ص ٧٢٥) وابن حبان (ج ٨ / ص٣٢٩) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٦٦) كلهم بألفاظ متقاربة، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي - باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٤١٦٥) (ج ٤ / ص ١٦١١).

هذه اللطائف والدقائق يذكرها بعض المفسرين، ويمكن أن يُناقش كثيرٌ منها، فلو أردت أن تناقش هذه مثلاً فإن التكذيب أيضاً كالقتل مستمر منهم، فهم حاولوا قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- وكذبوه، بل حاولوا قتله وما استطاعوا، ولكنهم كذبوه قطعاً، فلو قال مثلاً: فريقاً تكذبون، وفريقاً تقتلون لكان ذلك أيضاً يدل على المقصود، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة البقرة].

"روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي: في أكنة، وقال مجاهد: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} عليها غشاوة، وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي: لا تفقه."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} القراءة المتواترة في هذه الآية هي بإسكان اللام، وهذه الأقوال التي نقلها عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم-هي أقوال متقاربة، بمعنى أن هذا ليس من الخلاف الذي يحتاج معه إلى الترجيح، وإنما ذلك من قبيل اختلاف التنوع، فقول بعضهم أي: في أكنة، وقول الآخرين: عليه غشاوة بمعنىً واحد، فهذه الأكنة هي الغشاوة التي على هذا القلب، فكل شيء أكَنَّه بمعنى غطاه.

وكذا قول من قال: عليها طابع، فإذا كانت القلوب عليها طابع بمعنى أنه غشاها ما غشاها من الكفر والذنوب فطبع عليها فما عادت تقبل الحق ولا تنتفع به، ولا تسمع سماع استجابة، وكذا قول من قال: لا تفقه.

وتفسيره بأنه لا تفقه من قبيل التفسير باللازم، وذلك أن القلوب إذا كان عليها أكنة أو كان عليها الطابع أو الغشاوة فيلزم من ذلك أنها لا تفقه، فهذا مثال على تفسير السلف باللازم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نوجه هذه الأقوال.

وأما قول من قال: إن المراد بها أنها أوعية للعلم فإن ذلك يتنزل على القراءة الأخرى -وهي من القراءات الشاذة، وليست متواترة- وهي (قلوبنا غُلُف) بضم اللام، ومعنى غلْف –بتسكين اللام- أي مغلفة، وغلُف –بضم اللام- أي أنها بمنزلة الوعاء الذي يوضع بداخله الشيء.

فإذا كان المراد بقوله: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي مغطاة عليها غشاوة تغشيها فلا يصل إليها الحق، فمراده بقوله: قلوبنا غلُف –بالضم- على هذه القراءة غير المتواترة أنها أوعية للعلم، والمراد بأنها أوعية للعلم يحتمل أمرين -وبكل واحد منهما قال بعض السلف- أحدهما أن المراد بأوعية للعلم أنها مستغنية عن العلم الذي يقرره ويدعو إليه هذا النبي وما يذكره من ألوان الهدايات.

المعنى الثاني: أنهم يقولون: قلوبنا غلُف، أي أنها أوعية للعلم فما بالها لا تفهم ولا تفقه عنك أيها النبي؟! أي مع أننا لسنا بمنزلة العامة والجهال الذين لا يفهمون ولا يفقهون، ولم يعرفوا العلم، بحيث تحدثهم بحديث لا يفهمونه ولا يدركونه ولا تصل عقولهم إليه، بل نحن قلوبنا أوعية للعلم فلماذا لا نفهم عنك، هذا هو المعنى الثاني.

لكن ما دام أن القراءة الثانية شاذة فبالتالي هذه الآية لا تفسر إلا بالأول، أي: أنها مغطاة عليها غشاوة، ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [(٥) سورة فصلت]، فهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وهذا من أحسن ما تفسر به هذه الآية، والله تعالى أعلم.

وإنما ذكرت ذلك لأن بعض المفسرين يذكر القولين في تفسير قوله تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} فيقول: أوعية للعلم أو أنها مغلفة مغطاة، وهذا فيه نظر؛ إذ إن القول بأنها أوعية للعلم منزل على القراءة الشاذة، ولذلك تجد في تنزيل أقوال المفسرين أو في ذكر أسباب الاختلاف في التفسير أن من الخلاف ما ليس بخلاف حقيقي، ويسمونه خلاف التنوع، والاختلاف الصوري وهو أنواع كثيرة، والشاطبي -رحمه الله- من أكثر من فصلوا فيه، وتجدونه في مقدمة ابن جزي في تفسيره التسهيل، لكن من أكثر من فصل فيه الشاطبي في الموافقات، حيث ذكر نحواً من ثلاثة عشر وجهاً أو صورةً له، ومنها:

أن يتنزل كل قول من هذه الأقوال على قراءة، وبالتالي لا نحتاج إلى أن نقول: القول الأول كذا، والقول الثاني كذا.

وعلى كل حال هذا القول بأنها لا تفقه هو من قبيل التفسير باللازم، وهذا المعنى لا ينبغي العدول عنه، يعني تفسيرها على أنها مغطاة مغلفة فهو اختيار الأئمة الأكابر، ككبير المفسرين ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وأمثال هؤلاء.

"قال مجاهد وقتادة: وقرأ ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- غلُف -بضم اللام- وهو جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية كل علم، فلا نحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعطاء."

هذا توجيه، والتوجيه الآخر على هذه القراءة، فما بالها لا تفقه عنك.

"{بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ} أي: طردهم الله وأبعدهم من كل خير.

{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل."

قول قتادة هو أحد المعاني التي يحتملها قوله: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}، وهو كقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(١٥٥) سورة النساء] يحتمل أن يكون المراد أن الداخل منهم في الإيمان بالله عددهم قليل، وهو شيء مشاهد، فاليهود أقل الناس دخولاً في الإسلام لما في قلوبهم من القسوة وما تنطوي أنفسهم عليه من الشر، فيكون المعنى على هذا: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} أي: قل من يؤمن منهم، أي يدخل في الإيمان.

وتحتمل معنىً آخر: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} أي: أنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كفروا بعيسى -صلى الله عليه وسلم- وكفروا بمحمد -عليه الصلاة والسلام- وكفروا بالإنجيل والقرآن، وقتلوا كثيراً من أنبيائهم، فإيمانهم الواقع هو قليل بالنسبة إلى التكذيب والكفر الذي صاحبه.

وهذا المعنى لا إشكال فيه، فالله -عز وجل- قال عن المشركين: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٦) سورة يوسف] فيجتمع الإيمان والكفر وقد يكون الإيمان منخرماً بسبب ما خالطه من هذا الكفر، فهو عنده إيمان لا ينفع ولا ينجي، وقد يوجد إيمان مع كفر لكنه لا يفضي به إلى الهلاك، أي أن معه إيمان

وجاهلية، إيمان وفسق، إيمان وبدعة، أي يوجد هذا وهذا، وعلى هذا فقوله: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}، يحتمل هذا وهذا، والله أعلم.

"{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [(٨٨) سورة البقرة] هو كقوله: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا} [(٥) سورة فصلت]، ولهذا قال تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة البقرة]، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(١٥٥) سورة النساء]."

قول عكرمة: عليها طابع، مع قوله تعالى هنا: {غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا}، وقوله أيضاً: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}، مع قول ابن عباس: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي: في أكنة، فهذا الكلام كله صحيح.

"وقد اختلفوا في معنى قوله: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} وقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، وقيل: فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى -عليه السلام- من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم."

على هذين الاحتمالين يكون أثبت لهم الإيمان، فإما أن يكون ذلك المثبت لبعضهم بمعنى أن الذي يدخل منهم في الإيمان قلة، مثل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، وإما أن يكون المقصود أن الإيمان الواقع في قلوبهم قليل بالنسبة لما صاحبه من التكذيب الكثير، فيكون على الاحتمالين، أثبت لهم الإيمان أو أثبته لبعضهم، ولا مانع أن ينسب الشيء للطائفة مع أنه إنما وقع ذلك لبعض منها.

{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} أي قل من يؤمن منهم، والاحتمال الذي يقابل هذا أن المقصود به النفي المطلق للإيمان، بمعنى أنهم لا يؤمنون أصلاً، فالعرب تذكر القلة أحياناً وتقصد بها النفي، فيقولون مثلاً: مررت بأرض قل ما تنبت إلا البصل والكراث، أو يقولون: مررت بأرض قليلاً ما تنبت، والمعنى أنها لا تنبت أصلاً، وهذا أحد الاحتمالات في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٦) سورة الأحزاب]، فالمعنى إذا جاءتهم آجالهم ماتوا فلا يمتعون شيئاً؛ لأنهم وإن فروا من الموت فإنهم سيلاقون آجالهم حتماً، فلا وجه لبقائهم يتمتعون لا قليلاً ولا كثيراً..

وكذلك في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب] يمكن أن يكون المراد أنهم لا يأتون البأس أصلاً، أي أن المنافقين لا يأتون للحرب، ويمكن أن يكون المعنى أنهم يأتونه قليلاً فقط دون مشاركة فاعلة، فالمقصود أن الاحتمال الثاني في الآية هو النفي المطلق {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}، أي: أنهم لا يؤمنون.

"ولكنه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء."

هذا يقابل القول الأول، فالقول الأول يتنزل على احتمالين، والقول الثاني: المقصود به النفي المطلق، والقول الثاني لسنا مضطرين إليه، وإنما يحتاج إليه في بعض المقامات التي تكون فيها الحال مقتضية للنفي، أما هنا فيمكن أن يقال: عندهم إيمان قليل مع تكذيب كثير، ويمكن أن يقال: لا يدخل في الإيمان منهم إلا قلة، وهذا أظهر في المعنى من أن يكون المقصود به النفي المطلق؛ لأنه يوجد عندهم إيمان.

ومن قال: إن المقصود النفي المطلق يمكن أن يكون قوله هذا على أن تكذيبهم لنبي من الأنبياء كالنبي -صلى الله عليه وسلم- وعيسى، والتكذيب بكتاب كالقرآن، يرجع وينعكس أثره على سائر الكتب، وسائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فمن كذب نبياً فقد كذب بكل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومن كذب بكتاب فقد كذب بجميع الكتب، قال تعالى: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة]، ولذلك فإن موسى -صلى الله عليه وسلم- أخبرهم بمبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- وجاء خبره في التوراة، فهؤلاء الذين كذبوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- أو بعيسى، هم مكذبون بالتوراة ومكذبون بموسى، فإيمانهم منتف بهؤلاء جميعاً.

"وإنما قال: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط.

{وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة البقرة].

يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ} يعني اليهود {كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ} وهو القرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} يعني: من التوراة.

وقوله: {وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن يَهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، أخو بني سلمة -رضي الله تعالى عنهما-: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه بصفته، فقال سَلام بن مِشْكَم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} الآية.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة البقرة]."

سبق معنا قول الله -تبارك وتعالى- قبلُ: {أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] وقلنا هناك: أحسن ما تفسر به -والله أعلم- بما فتح الله عليكم يعني بما حكم عليكم، وذكرنا أن الفتح يأتي بمعنى القضاء والحكم، ويأتي بمعنى النصر، وقلنا: الفتاح والفاتح هو القاضي والحاكم، والفتاحة هي الحكم، فالمقصود أن قوله هناك: {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} يفسر بما حكم عليكم من اللعن والإبعاد، وجعل

منكم قردة وخنازير، إلى غير ذلك مما حصل من حكم الله -عز وجل- فيهم أياً كان، ولا يخص ذلك بشيء دون شيء كما سبق.

وقوله هنا: {وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ} هنا نفسر الفتح بالنصر، أي يستنصرون عليهم برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث كانوا يهددونهم دائماً بأنه سيبعث -عليه الصلاة والسلام- وأنهم سيقاتلونهم معه فيقتلونهم قتلاً ذريعاً، والله تعالى أعلم.

"{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(٩٠) سورة البقرة].

قال مجاهد: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} يهودُ شَرَوُا الحقَّ بالباطل وكتمانَ مَا جاءَ به مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم- بأن يبينوه.

وقال السدي: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية {أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} ولا حسد أعظم من هذا."

سبق الكلام عن معنى الاشتراء في قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ} [(١٦) سورة البقرة]، فالاشتراء أصله يكون بالبيع والشراء تقول: شرى واشترى، وبعضهم يفرق بين شرى واشترى فيقول: اشترى من الاشتراء وهو أخذ السلعة بعوض عنها من المال ونحوه، وشرى بمعنى باع، لكن هنا {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} فسره بعضهم بأنهم باعوا أنفسهم.

وعلى كل حال نحن إذا بقينا مع أصل المعنى اللغوي لـــ[اشترى] سنقول: باع،لكن ذلك يورث في تفسير الآية إشكالاً.

فالمهم أن {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} و {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} معناه أنهم باعوا أنفسهم بثمن بخس، وهو أنهم استبدلوا الكفر ورضوه واعتاضوه عن الإيمان واتباع الحق، وبالرشا والكذب على الله -عز وجل- وتحريف كتبه.

وإذا أردنا أن نفسر الآية بمعنى أقرب إلى الأذهان، نقول: إن الشراء والبيع يستخدم في المعاوضات بالمال، ولكنه صار يقال ذلك في كل معاوضة، فهؤلاء {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} أي أنهم استبدلوا الإيمان بالكفر، والتصديق واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- اعتاضوا عنه بالتكذيب، والكفر وردِّ ما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام- فهذه هي حالهم وصفتهم.

و[بِئْس] تستعمل للذم، وأصلها [بَئِس] وصار يستعمل مخففاً [بِئْس] ودخلت عليها [ما]، وبعضهم يقول: هي كلمة واحدة، وعلى كل حال هي كلمة تستعمل للذم، والمعنى بئس الشيء ما اعتاضوا به من الكفر والتكذيب بدلاً من الإيمان واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا كما قال القائل:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا ... وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمراً جيدرا ... كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فقوله: كما اشترى المسلم إذ تنصرا يعني كما استعاض الإسلام بالنصرانية، فالمقصود المعاوضة، ومثل هذا قول الشاعر:

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بهـــا   فما أصبت بترك الحج مـــن ثمـــن

يعني بماذا اعتضت بترك الحج من الثمن.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- "وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى -عليه السلام- ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وبالقرآن، وعن عكرمة وقتادة مثله."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل- عن هؤلاء اليهود: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} [(٩٠) سورة البقرة].

سبق الحديث عن قوله تعالى: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ}، وعرفنا معنى بئس وشرى، و[ما] تحتمل أن تكون موصوله، وبعضهم يقول: [ما] موصوفة والمعنى بئس الشيء الذي اشتروا به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله، حيث إن قوله: {أَن يَكْفُرُواْ} تؤول بمصدر هو كفرهم بما أنزل الله.

وكفرهم بما أنزل الله دافعه الحسد والبغي، والبغي هو التعدي على الآخرين، فالتجاوز والإساءة والظلم والعدوان كل ذلك يقال له: بغي.

وقوله: {بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ} أي حسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فبئس شيئاً أو بئس الشيء الذي اشتروا به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله، أو يمكن أن يكون {أَن يَكْفُرُواْ} مؤول بمصدر ويكون هو المخصوص بالذم، أي بئس الشيء كفرهم، والله أعلم.

قوله: {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} [(٩٠) سورة البقرة] يعني الغضب الأول والغضب الآخر، فالغضب الأول هو ما استحقوا به اللعن وهو غضب الله -عز وجل- بارتكاب الأسباب الموجبة لذلك وهي كثيرة جداً، من كفرهم بالمسيح -عليه الصلاة والسلام- وكذلك ما ذكر الله عنهم من تركهم بالأمر المعروف والنهي عن المنكر، ومحادة الله -عز وجل- ورسله -عليهم الصلاة والسلام- وقتلهم الأنبياء وما أشبه ذلك مما استوجبوا به غضب الله -عز وجل- سابقاً، ثم بعد ذلك الغضب الآخر وذلك بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فجمعوا كفراً إلى كفر {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}، وبهذا تعرف أن الكفار متفاوتون غاية التفاوت على النار وليسوا على مرتبة واحدة بل {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا} [(١٧٨) سورة آل عمران]، فالكفار يزدادون من الإثم فتتفاوت أحوالهم في النار وعذابهم بحسب ما عندهم من الجرائم.

"وقوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(٩٠) سورة البقرة]: لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالمهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [(٦٠) سورة غافر] أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

وقد روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يحشر المتكبرون أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار))[1]."

قوله: **{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}** يدل على أنه قد يوجد العذاب ولا توجد الإهانة، فإن العذاب الذي يقع على أهل الإيمان لا يكون موصوفاً بالإهانة، فقد يحصل للإنسان الألم دون أن يحصل له إهانة معه، ولكن ذلك العذاب الذي يقع بالكفار عذاب يهينهم كما أخبر الله -عز وجل- أنهم يسحبون في النار على وجوههم، فالمقصود أن الإهانة هي إيلام للنفس، والعذاب أشمل من ذلك يقع على البدن ويقع على النفس، وربما كان العذاب الواقع على النفس أعظم من العذاب الواقع على البدن، فجمع الله لهم بين هذا وهذا، وذلك في القرآن كثير، حيث يذكر الله -عز وجل- عذاب أهل النار الذين هم أهلها ويذكر معه الإهانة، والأحاديث الواردة في الكِبْر كثيرة جداً، وهذا الحديث الذي ذكره أيضاً منها وهو بإسناد حسن.

ومن الأشياء التي يمكن أن تذكر أن الله -عز وجل- قال: **{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}** ولم يقل: ولهم مع أن الكناية بالضمير تصلح في هذا الموضع، ولهم عذاب مهين لكن الله قال: **{وَلِلْكَافِرِينَ}** فهذا الذي يسمونه الإظهار في موضع الإضمار، يعني أنه يصلح فيه الضمير ويغني، والضمائر إنما تأتي بها العرب لاختصار الكلام وتقليله، فإذا أظهر في موضع الإضمار **{وَلِلْكَافِرِينَ}** بدلاً من أن يقول: ولهم عذاب، فإن ذلك يكون لنكته؛ وذلك لأن يكون المراد بيان السبب الذي استوجبوا به هذه العقوبة، أي: لماذا كان لهم عذاب مهين؟ لكفرهم، وأن هذا الذي فعلوه من كفرهم بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- هو كفر استوجبوا به عذاب الله -عز وجل- فالإظهار في موضع الإضمار تارة يكون لهذا المعنى، وتارة يكون لاستحضار المهابة كما إذا ذكر اسم الجلالة في موضع يصح فيه الإضمار أو غير ذلك من المعاني التي يذكرونها في كل مقام بحسبه، لكن هذا مثال على ذلك.

"{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} [(٩١-٩٢) سورة البقرة].

يقول تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- وصدقوه واتبعوه، {قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا} أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك.

{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} يعني بما بعده {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} أي: وهم يعلمون أنما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} منصوباً على الحال."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}**: كلمة وراء من الأضداد في لغة العرب، ومعنى أنها من الأضداد أي أنها تأتي لمعنى ولضده، أي تستعمل لمعنيين بينهما تضاد، فكلمة وراء تستعمل بمعنى خلف

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ٤٧ (٢٤٩٢) (ج ٤ / ص ٦٥٥) وأحمد (ج ٢ / ص ١٧٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٠٤٠).

وتستعمل بمعنى أمام فقوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف: {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [(٧٩) سورة الكهف] وراءهم ملك يعني أمامهم،وقد جاء ذلك في القراءة الأخرى لكنها غير متواترة: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً).

فقوله هنا: {وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} يمكن أن يفسر بما بعده، فهم يؤمنون بالتوراة وبموسى -صلى الله عليه وسلم- ويكفرون بمن جاء بعده وهو عيسى -صلى الله عليه وسلم- ومحمد -عليه والصلاة والسلام- هذا هو المعروف في الأنبياء الذين كفر بهم اليهود، ويُذكر أنبياء آخرون، لكن لا يثبت ذلك بشيء يجب الرجوع إليه والوقوف عنده كما يقولون: خالد بن سنان في أصحاب الرس، ولكن هذا لا يثبت.

على كل حال {وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} يمكن أن يفسر بما هو أعم من ذلك -يعني بما بعده- فيقال: {وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} أي بما سواه وهو اختيار كبير المفسرين بن جرير الطبري -رحمه الله- {وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} أي بما سواه، وهذا شيء مشاهد.

قوله: {مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} **منصوباً على الحال.**

يعني هذه جمل حالية {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} [(٩١) سورة البقرة] هذه جملة حالية، فعل وفاعل يكفرون ثم {بِمَا وَرَاءهُ} جار ومجرور، فهذه جملة حالية، ثم الجملة التي بعدها أيضاً هي جملة حالية، أي والحال أنه مصدق لما معهم.

ووجه الرد عليهم في ذلك والإلزام أن هؤلاء اليهود يكفرون بغير الكتاب الذي أنزل عليهم وبغير الرسول الذي أرسل إليهم مع أن ذلك حق ثابت، وهو الحق وهو مصدق لما معهم، فكفرهم بهذا الحق المصدق لما معهم يرجع أثره إلى إبطال إيمانهم الأول؛ لأنهم كفروا بالحق الذي صدق الحق الذي كان معهم، فكفرهم به -وهو حق ثابت يصدق ما معهم من الكتاب- هو كفر بكتابهم الأول، هذا وجه الاحتجاج والإلزام لهؤلاء اليهود، وهو لون من ألوان الإلزام المعروفة عند أهل الجدل.

"أي في حال تصديقهم بما معهم من التوراة والإنجيل فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة].

ثم قال تعالى: {فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٩١) سورة البقرة] أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاءوا بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم."

وهذا وجه آخر من الإلزام، فالأول عرفناه والثاني هو أنكم إذا كنتم تدعون أنكم على الحق، وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلِمَ تقتلون الأنبياء الذين هم من بني إسرائيل؟ ولكنكم أصحاب أهواء إنما قتلكم بالتشهي، بالتشهي فحسب، فهم يقتلون من لا يوافق أهواءهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويكذبونهم ويردون ما جاءوا به، فليست القضية تقتصر على بني إسرائيل أن يكذبوهم ولكن حتى أنبياء بني إسرائيل لو صدقتم لما قتلتم أنبياءكم، فاحتج عليهم بوجهين وألزمهم بأمرين، الأول يعود على بطلان الإيمان الأول، أنتم تقولون: إنكم على حق، وهذا حق مصدق لما معكم كفرتم به، فإن ذلك الكفر به وهو حق يرجع إلى إيمانكم الأول بالبطلان، والثاني أنكم تدعون أنكم على الإيمان والحال أنكم تكفرون بما سوى ما جاءكم من الرسل أو ما

جاءكم من الأنبياء والكتب مع أنكم تقتلون أنبياء الله الذين كانوا فيكم يا بني إسرائيل، فهل هذا الإيمان صحيح كما تدعون؟ وأنكم أتباع حق؟ فلمَ قتلتموهم وهم منكم إن كنتم صادقين؟

النتيجة من هذا كله أنكم تتبعون الهوى وما تشتهيه الأنفس وتمليه، وأنكم على باطل.

"قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة]."

قوله: **{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ}** كلما تدل على التكرار.

{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ} كعيسى -عليه الصلاة والسلام- ومحمد -صلى الله عليه وسلم- **{وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}** كما فعلوا مع يحيى -عليه الصلاة والسلام- وزكريا وغير هؤلاء الأنبياء كثير، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً، فهم قتلة الأنبياء.

"وقال السدي: في هذه الآية يعيرهم الله -تبارك وتعالى-: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٩١) سورة البقرة].

{وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} [(٩١-٩٢) سورة البقرة] **أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله.**

والآيات البينات هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتضليلهم بالغمام والمن والسلوى، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها.

{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ} [(٩٢) سورة البقرة] **أي معبوداً من دون الله، أي في زمان موسى -عليه السلام- وأيامه."**

يلاحظ أن العجل إذا ذكرت عبادتهم له في جميع المواضع في القرآن لا يذكر بعده معموله الذي يفسره، والتقدير: ثم اتخذتم العجل إلهاً أو اتخذتم العجل معبوداً، فهذا محذوف يدل عليه السياق، ومعلوم أنهم اتخذوه معبوداً، والعرب تحذف من الكلام ما يفهمه السامع والمخاطب اكتفاء بما ذكر، يعني أنه يفهم المراد مما ذكر.

وبعض أهل العلم يقول: لما كان ذلك غاية في الشناعة حُذف إذ لا يعقل أن يكون ذلك العجل إلهاً معبوداً من دون الله -عز وجل- فهذا أمر لا يمكن أن يتصور، وسواء كان ذلك السبب، أو أنه حذف لكونه معلوماً كما لو قلت مثلاً: من جاء؟ فقيل: زيد، فالمعنى زيد جاء.

وقد قال ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيدٌ بعدَ مَن عندكما؟

فالأصل أن تقول: عندنا زيد، أو زيد عندنا.

وقال أيضاً:

وفي جواب كيف زيدٌ قل: دَنِف ... فزيد استُغني عنه إذ عُرف

وهذا كثير جداً في كلام العرب، يكاد يتكرر في كلام الواحد منا في المجلس الواحد مراراً.

"وقوله: {مِن بَعْدِهِ} [(٩٢) سورة البقرة] **أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله -عز وجل- كما قال تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ}** [(١٤٨) سورة الأعراف].

{وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ} [(٩٢) سورة البقرة]، أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(١٤٩) سورة الأعراف].

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [(٩٣) سورة البقرة].

يعدد -سبحانه وتعالى- عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه، ولهذا قالوا {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} وقد تقدم تفسير ذلك."

هذا سبق الكلام عليه في صدر الآية ولذلك لم يعده ثانياً.

قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} أي اذكروا إذ أخذنا عهدكم الموثق {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} أي ورفعنا فوقكم الجبل، وسبق الكلام على هذا وبيان المراد به.

{خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم} أي ما أعطيناكم من الكتاب {بِقُوَّةٍ} أي بحزم وجد واجتهاد من غير توان وتفريط، {وَاسْمَعُواْ} أي اسمعوا سماع استجابة لا سماعاً بالأذن مجرداً عن القبول، {قَالُواْ سَمِعْنَا} يعني بآذاننا، {وَعَصَيْنَا} أي بقلوبنا وحالنا وفعلنا.

"{وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} قال: أشربوا حبَّه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذلك قال أبو العالية والربيع بن أنس."

هذا أحسن ما يفسر به قوله تعالى: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} وإلا فبعضهم يفسر ذلك بقول هو في غاية البعد وهو أن يفسر الشرب بظاهره المجرد، حيث قالوا: إن موسى -صلى الله عليه وسلم- رجع فوجدهم يعبدون العجل، فقال للسامري: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [(٩٧) سورة طــه]، فالعلماء هناك يتكلمون على قوله {لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} قالوا: كيف ينسف وهو كتلة من الذهب -مع أنه في ظني لا إشكال في أن ينسف في اليم نسفاً، وذلك بأن حرقه فذهبت معالمه فألقاه في اليم- لكن بعضهم هناك يقول: إنه سحله بالمبارد حتى صار مما يمكن أن يُذرّ، ثم نسفه في اليم نسفاً، فيقولون: ثم إنهم شربوا ماءه ذلك الذي سحل فيه في النيل وهذا معنى {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} فأثر ذلك في قلوبهم ونفوسهم، وهذا بعيد.

إنما الصحيح في معنى قوله: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} هو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((فأيما قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء))[2].

فكون القلب يشرب هذه الضلالة أو البدعة أو الانحراف، فمعنى ذلك أنه يتخلله فيؤثر فيه تأثيراً بلغياً لا يكاد يخرج منه أو ينفك صاحبه عنه.

وهذا مثل كلام السلف كما في الآثار في كتب المتقدمين كاللالكائي والآجري وابن بطة والدارمي في مقدمته على السنن وفي رده على بشر المريسي وأمثال هذه الكتب يذكرون فيها بعض الآثار، يقال مثلاً: إذا رأيت الشاب يصاحب صاحب سنة فارجه، وإذا رأيته يخالط صاحب هوى فارفع يدك منه، يعني لا ترجه؛ لأن هذا

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤) (ج ١ / ص ١٢٨).

الإنسان ما دام في مقتبل العمر يصاحب ويخالط أصحاب الهوى فإنه يشرب ذلك في قلبه فلا تستطيع إصلاح حاله غالباً بعد ذلك؛ لأنه شب على ذلك ونشأ عليه، فجعل ذلك تغيير قلبه في غاية الصعوبة، ولذلك يقولون: فاغسل يدك منه، وهذا أمر أغلبي وليس مطلقاً فالهداية بيد الله تعالى.

وعلى كل حال فإن معنى {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} أي حب العجل، وذلك أن الله -عز وجل- ابتلاهم بهذا الإشراك والذنب العظيم الذي وقعوا فيه حتى تغلغل في شغاف قلوبهم، فصار ذلك لا ينفك عنهم، فصارت ضلالاتهم تلك لعنة تلاحقهم، ومن آثارها أنهم يعبدون المال والذهب ويقدمون ذلك على كل ما أمرهم الله -عز وجل- به وعلى كل ما يمكن أن تستحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، فهم يفعلون كل رذيلة من أجل عبادة هذا المال، فمن بقايا عبادتهم العجل أنهم يعبدون الذهب كما هو مشاهد، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [(٩٣) سورة البقرة] "أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمر عليكم؛ إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله.

{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(٩٤-٩٦) سورة البقرة].

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- :يقول الله تعالى عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ} أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ} فسلوا الموت.

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قوله: {فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} قال: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو تمنى يهود الموت لماتوا.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً))[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

[1] - أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٢٦٠٤) (ج ٤ / ص ٤٧١) و قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

[(٦-٨) سورة الجمعة] فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة فقال الله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [(٦١) سورة آل عمران] فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيده بن الجراح -رضي الله تعالى عنه- أمينا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [(٧٥) سورة مريم] أي: من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه -إن شاء الله تعالى-.

وقد فسرت الآية بتمني الموت دون التعرض للمباهلة والأول أولى، وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولاسيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] هذا التمني ظاهره أن المراد به والله أعلم التشهي، وهو التمني المعروف، وهو أن يتشهى الإنسان المتمني حصول شيء يريده ويطلبه، أو يريد وقوعه كما يتمنى الإنسان أن يكون له الولد أو المال أو يتمنى أن يحصل له أمر محبوب في الدنيا أو في الآخرة، أو أن يحصل لغيره أمر محبوب أو مكروه

تمنى رجال أن أموت فإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فهذا التمني بمعنى التشهي، فقوله: **{فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] يفسر بالتمني المعروف، أي أنهم يرغبون في حصوله لهم بما يعلمون ما لهم من المنزلة عند الله -عز وجل- لأنهم يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهودياً كما قال -تبارك وتعالى-: **{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة] يعني اليهود يقولون: إلا من كان يهودياً، والنصارى يقولون: إلا من كان نصرانياً، فـ"أو" هذه للتنويع والتقسيم، فهو سبحانه يقول لهم: إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا الموت لما تفضون إليه بعده من الراحة والنعيم والزلفى من الله -تبارك وتعالى- فأنتم تعلمون مآلكم ومصيركم، فما البقاء في هذه الحياة وهي دار النكد والتعب والشقاء والكبد، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في نفس الآية: **{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] وكذلك في سورة الجمعة: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ}** [(٦) سورة الجمعة]،

ولهذا قال بعده: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [(٧) سورة الجمعة] فهذا ما قبله وما بعده يدل على أن تمني الموت هو التمني المعروف.

القول الآخر الذي رجحه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار الحافظ ابن القيم أيضاً أن المقصود بتمني الموت هنا الدعاء به على سبيل المباهلة، والمباهلة معروفة وهي الدعاء على المبطل من الفريقين بالهلاك أو الموت أو نزول العقوبة التي تعجل به في الدنيا، كما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- نصارى نجران إلى المباهلة.

فبعض أهل العلم يقول: هذا من المباهلة بمعنى أن يُدعى على الفريق المبطل بالموت والهلاك، ومعلوم أنهم لا يقدمون على ذلك لما يعلمون من مصيرهم البائس بعد الموت.

والذي يشهد لهذا القول عندهم هو أن اليهود قد يكون الواحد منهم فقيراً معدماً إلى حد أنه يتمنى الموت على ما يعانيه من الفقر، وقد يكون مريضاً فيشتد به المرض فيتمنى الموت ليستريح من هذا المرض لفرط جزعه، فقالوا هذا يوجد في الدنيا، إذاً هذا على سبيل المباهلة لأنهم لن يقدموا على هذه المباهلة لعلمهم بأنهم على الباطل، هذا هو توجيه هذا القول.

وعلى كل حال وجود أفراد من اليهود على مر العصور والأزمان بحيث يتمنى الواحد منهم الموت عن الحياة لضر نزل به هذا لا يخرم القاعدة العامة من تمسكهم بالحياة ومحبتهم لها، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٦) سورة البقرة] والتنكير هنا يؤخذ منه معنى وهو أنهم يحرصون على حياة ولو كانت بائسة لا قيمة ولا معنى لها، فهم يتمسكون بأهداب الحياة مهما كانت حقيرة حيث يأباها الحر الكريم عزيز النفس فالحياة عندهم هي كل شيء ولو كانوا يفقدون معها كل معاني الإنسانية، ولهذا قال: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(٩٦) سورة البقرة] كما سيأتي في معناه، فهم أحرص من المشركين الذين لا يؤمنون أصلاً بالبعث والآخرة فأهل الإشراك ليس لهم أصلاً إيمان بالحياة الأخروية فهم بالتالي يتمسكون بهذه الحياة إلى آخر نفس لا يرجون داراً بعدها وحياة يئولون فيها إلى النعيم، فهؤلاء أشد الناس حرصاً على الحياة، وأحرص منهم هؤلاء اليهود الذين علموا بالبعث وعلموا بمصيرهم بعد البعث، فالمقصود أن الآية تحتمل هذين المعنيين، وربما كان الظاهر المتبادر والذي يشهد له قرينتان في نفس الآية قبله وبعده، قبله هو قوله: {إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ} [(٩٤) سورة البقرة] وبعده هو قوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٦) سورة البقرة] كل ذلك من القرائن التي ربما يفهم منها أن المقصود به التمني بمعنى التشهي، أي اطلبوا الموت لتستريحوا من عناء هذه الحياة فيكون هنا تمني الموت بمعنى الرغبة في حصوله وليس ذلك بالدعاء به على سبيل المباهلة، والله تعالى أعلم.

"ولهذا قال تعالى: {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٥-٩٦) سورة البقرة] أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيىء وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} قال: الأعاجم، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

وقال مجاهد {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٩٦) سورة البقرة]، قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر."

قوله: **الأعاجم** هذا من قبيل التفسير ببعض ما يصدق عليه المعنى، وإلا فهي في الأعاجم وفي غيرهم، وبعض السلف ينقلها عن بعض الأعاجم تحية يحيي بعضهم بعضاً معناها: عش ألف سنة، ينقلونها بالفارسية عش ألف سنة، لكن هذا لا يختص بالأعاجم، حتى نقل ذلك عن العرب، فمن قال: إنها في الأعاجم فليس المراد بذلك الحصر في الأعاجم؛ فإن الأعاجم لا مزية لهم في هذا على غيرهم وإنما هي في عموم أهل الإشراك من العرب والعجم؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة والأصل بقاء العام على عمومه ولا يجوز تخصيصه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

قوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ} [(٩٦) سورة البقرة] فقوله: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ} هل هو كلام جديد مستأنف بدأ يتحدث عن المشركين أم أنه متصل ومرتبط بما قبله؟

هذا الآية تحتمل ثلاثة معانٍ من هذا الجهة، الأول -وربما كان هو المتبادر- هو أن المعنى هكذا {وَلَتَجِدَنَّهُمْ} أي اليهود {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} أيّاً كانت مهينة أو رفيعة، شريفة أو وضيعة.

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} يعني وأحرص من الذين أشركوا أيضاً؛ لشدة حرصهم على الحياة فاقوا في هذا الحرص أهل الإشراك الذين لا يؤمنون أصلاً بالآخرة، فهذه الحياة هي الغاية عندهم، حيث قالوا: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [(٢٤) سورة الجاثية] فالمقصود أنهم أحرص من المشركين.

ثم إن قوله: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} يرجع إلى اليهود، هم أحرص الناس على الحياة وأحرص من المشركين، قد بلغوا غاية الحرص حتى فاقوا المشركين، حتى إن أحدهم ليود -يعني اليهود- {لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} [(٩٦) سورة البقرة] فالكلام هذا كله في اليهود، حيث بين شدة حرصهم على الحياة فهم أحرص من المشركين حتى إن أحدهم يود لو يعمر ألف سنة، هذا هو الظاهر المتبادر.

والاحتمال الثاني: أن يكون الكلام مستأنفاً، أي في قوله: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} فبعد أن تحدث عن اليهود أنهم {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} انتقل إلى طائفة أخرى تحرص على الحياة، وهم أهل الإشراك، {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} يعني المشركين {لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} فالكلام كله في المشركين حيث ذكر حرص اليهود وذكر حرص طائفة أخرى على الحياة وهم أهل الإشراك وهم لا يؤمنون بالبعث، وهذا قال به جمع من أهل العلم وهو أبعد هذه الأقوال الثلاثة، وإن كانت الآية تحتمله.

والمعنى الثالث {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} يعني ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، يعني يكون معنى يود يعود إلى المشركين، فاليهود هم أحرص الناس على حياة حتى فاقوا أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وهذا المعنى الأخير الثالث هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

والخلاصة أن الآية لها ثلاثة معانٍ: الأول أن يكون قوله: {يَوَدُّ} عائداً إلى اليهود، فهم في غاية الحرص حتى فاقوا المشركين بحيث صار الواحد من اليهود يتمنى أن يعمر ألف سنة.

والثاني: أن اليهود أحرص الناس على حياة وأيضاً يوجد طائفة أخرى حريصة على الحياة وهم أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

والمعنى الثالث: أن اليهود أحرص الناس على حياة حتى فاقوا أهل الإشراك وأحرص من المشركين الذين يود أحدهم -أي المشركين- لو يعمر ألف سنة، وربما كان الأقرب لظاهر القرآن والله تعالى أعلم هو أن يكون المعنى هكذا: ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من أهل الإشراك حتى إن اليهودي يتمنى لو عمر ألف سنة ولكن ذلك لا ينفعه.

"**وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} [(٩٦) سورة البقرة] **أي وما هو بمنجيه من العذاب وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت.**"

{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} أي ما هو بمنجيه من العذاب، الزحزحة هي التحريك، وزحزحته بمعنى حركته، مزحزحه أي أن ذلك ليس بمباعد له وناقل له من العذاب، أي فليس ذلك بمباعد له من العذاب.

{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} الهاء هنا تحتمل أن تعود على يود أحدهم أي بمزحزح أحدهم، فتكون عائدة إلى المذكور من قوله: {أَحَدُهُمْ} أي وما هو بمزحزح أحدهم عن العذاب لو عمر ألف سنة.

والمعنى الثاني: {وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} أي ذلك التعمير وطول البقاء من العذاب، أي ليس ذلك بمباعده من العذاب، أي أن الضمير يرجع إلى التعمير.

"**وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم.**

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودَّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس بمزحزحه من العذاب لو عمِّر كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً."

وقد ود هؤلاء: يعني على الإشراك على قول عبد الرحمن بن زيد.

"{وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} **أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازي كل عامل بعمله.**"

يعني أن بصره نافذ فيهم.

وربما لم يشر الحافظ ابن كثير –رحمه الله تعالى- هنا إلى لماذا كانت المباهلة بالموت؟، وأن ذلك كان لشدة حرصهم على الحياة التي هي أغلى شيء عندهم، والموت بالنسبة لهم من أصعب الأمور.

والمباهلة لون من المحاجة يدعى فيها على المبطل من الفريقين بالهلاك، يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: إنه قد عرف بالاستقراء والتتبع أن المباهل المبطل لم يمهل أكثر من سنة واحدة؛ حيث لا يدور عليه الحول إلا وقد نزل به ما دعي فيه في المباهلة، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة البقرة].

"قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسبب نزول هذه الآية هو أن اليهود ذكروا أن جبريل -عليه الصلاة والسلام- عدو لهم كما نقل عليه الإجماع ابن جرير -رحمه الله تعالى- والروايات الواردة في هذا كثيرة، وكثير منها لا يصح من جهة الإسناد، ولكن بعضها صحيح وهذا الصحيح منه ما ليس بصريح في سبب النـــزول من جهة العبارة واللفظ، يعني تجد مثلاً في الرواية: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ} وتجد في بعضها عبارات ليست بصريحة، وقد عرفنا في بعض المناسبات أن العبارة الصريحة في سبب النـــزول هي أن يذكر حادثة أو سؤالاً ثم يقول: فأنزل الله الآية، فأنزل الله كذا، أو يصرح ويقول: سبب نزول هذه الآية كذا.

أما إذا قال: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ} مثلاً، أو نزلت هذه الآية في كذا، فإن هذا يحتمل أن يكون من قبيل سبب النـــزول، ويحتمل أن يكون من قبيل التفسير، فالروايات الصحيحة منها ما ليس بصريح في أنه سبب نزول، ولكنك إذا تتبعت الروايات الواردة وجمعتها تجد فيها ما يصرح بذلك، ولذلك فالإنسان لا يستعجل في مثل هذه القضايا، ويقول: هذه الرواية ليست بصريحة،؛ لأنك تجد في روايات أخرى أحياناً للحديث عبارة صريحة، فيكون ذلك إنما يرجع إلى نقل الرواة، وقد تجد في الحديث الواحد في أوله ما هو غير صريح، وفي آخر الحديث ما يصرح بأنه سبب النزول، وهذا موجود.

فالمقصود أن سبب نزول هذه الآية هو قول اليهود هذا، ولعل من أصح ما ورد فيه هو أن أولئك النفر من اليهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل متعددة، فأجابهم -صلى الله عليه وسلم- وهم يعلمون أنه لا يعرف الجواب إلا نبي، فأجابهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن تلك المسائل، وبعد ذلك سألوه عمن يأتيه بالوحي؟ فلما أخبرهم أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام- أخبروه بأن جبريل عدوُّهم، وكان ذلك في زعمهم سبباً لتكذيبهم وكفرهم، حيث قالوا: لو كان ميكائيل لاتبعناك، فهم يقولون: إن جبريل -صلى الله عليه

وسلم- هو الذي يأتي بالعذاب والقحط وأن ميكال هو الذي يأتي بالخصب والأرزاق، ومعروف إفكهم وكذبهم على الله -عز وجل- وعلى رسله وذلك ليس بمستبعد منهم فهم من معادن الشر، والكفر كما هو معلوم.

وجاء في بعض الروايات أن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مهاجراً إلى المدينة أتاه فسأله عن مسائل، ثم سأله عن صاحبه، فأخبره أنه جبريل فأخبر عبد الله بن سلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن جبريل عدو اليهود، وفي بعض الروايات أن ذلك أيضاً وقع لعمر -رضي الله تعالى عنه- لما دخل على بعض اليهود في مكان دراستهم وعبادتهم، فسألهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك جرى بينهم محادثة، وأخبروه أن الذي يمنعهم من اتباعه -عليه الصلاة والسلام- أن جبريل هو الذي يأتيه بالوحي، فجاء ليخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- فوجد الوحي قد سبقه بقوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا} [(٩٧) سورة البقرة].

هذه خلاصة لأشهر الروايات الواردة في هذا المعنى، وأصح ما جاء في ذلك هي رواية أولئك النفر الذين جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فسألوه عن مسائل، فأخبرهم فسألوه عن صاحبه فقال: إنه جبريل، فكان منهم ما كان.

قوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ} [(٩٧) سورة البقرة] القاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وعلى هذا {فَإِنَّهُ} يعني جبريل -صلى الله عليه وسلم- و{نَزَّلَهُ} يعني نزل القرآن، وهل جرى للقرآن ذكر؟ لم يجر له ذكر، وهذا مثال على ما ذكرنا مراراً من عود الضمير إلى غير مذكور لكنه يفهم من السياق، فالقرآن ما ذُكر، فعاد الضمير إليه لأن هذا يفهم من السياق، وهذا أسلوب عربي معروف، وقد سبق ذكره مراراً.

ويكون معنى الآية وهو المتبادر: قل من كان عدوا لجبريل فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، وأما ما قيل من أن المراد من كان عدواً لجبريل فإن الله نزله يعني جبريل على قلبك ففيه بعد، وفي الآية قرينة ترده وهي قوله -تبارك وتعالى-: {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(٩٧) سورة البقرة]، والمصدق لما بين يديه هو القرآن كما جاء وصفه في مواضع من كتاب الله -عز وجل-.

إذن: يكون المعنى {فَإِنَّهُ} أي جبريل {نَزَّلَهُ} يعني القرآن، {عَلَى قَلْبِكَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} والله تعالى أعلم، وهذه طريقة في الترجيح بين الأقوال يذكرها المفسرون وهي أن يوجد في الآية قرينة تدل على رجحان قول أو ضعف آخر، وهذا مثال عليها.

"قال البخاري: قوله تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ} قال عكرمة: جبر، وميك وإسراف عبد، و "إيل" الله."

ماذا يعني بقوله: جبر وميك وإسراف بمعنى عبد؟، يعني أن هذه الكلمات الأعجمية مركبة تركيباً إضافياً كما تقول: عبد الرحمن، عبد الله، عبد العزيز، فتكون جبر كلمة وإيل كلمة، وإذا قلنا: إن اللفظة الثانية هي بمعنى الله -وهذا هو المشهور عند كثير من أهل العلم- فإن ذلك يجعلها ذات معنىً متساوٍ، بمعنى أن جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكل هؤلاء جميعاً بمعنى عبد الله، وهذا أمر فيه إشكال لأن هذه الألفاظ مختلفة، ولذلك فإن بعض أهل العلم عكس القضية فقال: اللفظ الموحد هو بمعنى عبد، واللفظ الموحد فيها كلها إيل، قالوا: إيل هو عبد، واللفظة الثانية اسم، كما تقول: عبد الجبار، عبد العزيز، عبد الرحمن، فتكون إيل بمعنى عبد،

وهذا ليس بمستغرب، وعللوا ذلك بأن الأسماء الأعجمية في الإضافة يكون المضاف فيها مؤخرًا، يعني عكس ما عندنا، فالأسماء الأعجمية المركبة عندهم مثل: إسلام أباد، حيدر أباد، فيصل أباد، فما معنى أباد؟

كأنها بمعنى بلاد، فالأولى: بلاد الإسلام، والثانية بلاد حيدر، والثالثة بلاد فيصل وهكذا.

ومثل ذلك: كلمة (ستان) في تركستان، وباكستان، وأوزبكستان، كأن كلمة ستان معناها أرض، فبعض أهل العلم يقول: اللفظ الموحد الذي هو (إيل) هذا بمعنى عبد، وتلك أسماء لله -عز وجل- بالأعجمية، ومثل ذلك إسرائيل قالوا: معناه عبد الله، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [(٩٨) سورة البقرة] فيها لغات كثيرة، فجبرائيل فيه عشر لغات، وميكائيل يذكرون فيه ست لغات ولسنا بصدد ذكرها، ولا حاجة إلى ذلك في نظري، ومن شاء راجعها في بعض كتب التفسير فإنهم يذكرونها، فعلى كل حال ليس مقصودنا هو التوسع في ذكر شيء من ذلك، وإنما بيان وجه ما يذكره ابن كثير -رحمه الله- والتعليق على ما يحتاج إلى تعليق.

"ثم روى عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في أرض يخترف."

يخترف معناه يجني الثمر.

"فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: ((أخبرني بهن جبريل آنفاً)) قال: جبريل؟ قال: ((نعم)) قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة[1] فقرأ هذه الآية: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ} [(٩٧) سورة البقرة]."

هذه الرواية غير صريحة حيث قال فيها: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية، بمعنى أنها قد تكون نزلت قبل ذلك فقرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه، فلو بقينا مع هذه الرواية فقط لم نحكم بحال من الأحوال أنها سبب النزول؛ لأنها غير صريحة، ولأنه يحتمل أن يكون ذلك قاله رسول -صلى الله عليه وسلم- في هذه المناسبة وإن لم يكن نزل بسببها، ولكن إذا نظرنا إلى الروايات الأخرى نجد منها ما هو صريح في اللفظ، بأنه سبب النـــزول، ولذلك هذه الرواية ثابتة صحيحة ولكنها غير صريحة، ولذلك إذا أردنا أن نرجح ما هو سبب نزول الآية فإننا نستطيع أن نقول بإجمال: إنه ما وقع من اليهود من قولهم وزعمهم بأن جبريل عدوهم، لكن إذا أردنا أن نرجح ما هو السبب المعين، هل هو قول عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- أو قول أولئك النفر من اليهود الذين سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أو الذين حاورهم عمر، مثلاً؟ فهنا نستبعد نوعين من هذه الروايات هما أولاً الروايات غير الصريحة، فمثل هذه الرواية صحيحة لكنها غير صريحة وبالتالي نستبعدها، ثم نستبعد الروايات الضعيفة وعامة هذه الروايات ضعيفة، ففي مثل هذا المثال لا يكاد يبقى عندنا إلا رواية أولئك النفر الذين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل ثم سألوه عن صاحبه، فأخبرهم أنه جبريل فيكون ذلك هو السؤال، فربما كان أولئك قد جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-

---

[1] - سيأتي تخريجه.

قبل عبد الله بن سلام، وإذا تعددت عندنا الروايات وصارت صحيحة، والوقت متقارب -أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة- فنقول عندئذ: إن ذلك وقع في وقت متقارب فنـــزلت الآية بعد هذه الأحداث جميعاً، فكلها سبب نزول.

"**قال**: **((أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب))**."

المقصود أشراط الساعة الكبرى التي تكون قبل قيام القيامة، وهذه هي النار التي تخرج من قعر عدن.

"**((وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت))**."

وأولئك النفر الذين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أقروا بأن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، قال لهم: تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، وأقروا به، ففي تلك الرواية جاء ما يدل على أن الشبه أيضاً والذكورة والأنوثة تقع بسبب هذه القضية، فيكون شبهه لأبيه إذا علا ماء الرجل ماء المرأة، ويكون المولود ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل، فإن الشبه يكون للأم، ويكون المولود أنثى بإذن الله، وهو يدل دلالة واضحة وصريحة على أن الإنسان يخلق من مجموع الماءين وذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ}** [(٢) سورة الإنسان] أي: أخلاط، خلافاً لما يذكره أهل الطب من أن المرأة ليس لها ماء أصلاً، فهذا غير صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قيل له: أتحتلم المرأة؟ قال: ((فبم يشبهها الولد؟)) وقال: ((إذا رأت الماء)) لما سئل عن الغسل[2].

"**قال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهوتني فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أي رجل عبد الله ابن سلام فيكم؟)) قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: ((أرأيتم إن أسلم؟)) قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: هو شرنا وابن شرنا، وانتقصوه فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله**"[3] **انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد أخرجه من وجه آخر عن أنس -رضي الله تعالى عنه-.**"

وهذا مما شابههم به بعض هذه الأمة، حيث وجد هذا حتى عند بعض من يتشبث بالعلم ويدعيه، فإذا وافقهم الإنسان صار علامة الزمان النحرير، وإذا خالفهم ولو في قضية اجتهادية صار هالكاً وجاهلاً ولا يفهم شيئاً، وما إلى ذلك من العبارات، بل ربما طُعن حتى في عرضه واتهم بكل رزية، ولا أدري هل كانت هذه الكبائر والجرائم والموبقات التي يُرمى بها الصالح هل كانت موجودة من قبل أم وجدت عند المخالفة فقط؟، فالمهم أن هذا الذي يفعله بنو إسرائيل، فينبغي للإنسان ألا يشابههم في هذا، بل يتقي الله -عز وجل- وإذا أحب

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب: التبسم والضحك (٥٧٤٠) (ج ٥ / ص ٢٢٦٠) ومسلم في كتاب: الحيض - باب:وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٣) (ج ١ / ص ٢٥١).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه (٣٧٢٣) (ج ١ / ص ١٤٣٣).

يقتصد في الحب، فلا داعي للألقاب التي يبالغ فيها، كـ"علامة"، ونحوها، وكذلك عليه إذا أبغض أن يقتصد في البغض، فلا داعي للعبارات أيضاً التي لا يحتاج إليها.

وهنا قاعدة في هذا، وهي أنك إذا رأيت الرجل يبالغ في الحب فلا تأمن أن ينقلب إلى الطرف الآخر تماماً، بل توقع أن هذا الشخص في يوم ما سينقلب مائة وثمانين درجة وستسمع منه عكس ما كنت تسمعه من قبل، وهذا ينبئ عن خلل في طريقة تفكير الإنسان واختلال في مزاحه، وأنه ليس معتدلاً في أموره، وإنما يعيش على المبالغات، فحياته على المبالغات، ولذلك نظره غير مستقيم وغير متزن، وحكمه على الأشياء غير منضبط؛ لأن الذي يحركه نفس تطيش، ومثل هذا أحكامه لا تسلم، سواء في قضايا الأحكام الفقهية ودراستها، أو في حكمه على الأشياء أو الناس أو غير ذلك.

"ومن الناس من يقول: "إيل" عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة "إيل" لا تتغير في الجميع، فوزانه عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل، فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبرائيل وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم."

الذي دعا أصحاب القول الأول -وهو المشهور- أن إيل بمعنى الله أنهم وجدوا في كلام العرب في قوله تعالى: {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} [(٨) سورة التوبة] أن الإل هو الله، ويطلق ذلك أيضاً في كلام العرب على العهد، وكذلك قول أبي بكر الصديق، لما جاءه وفد مسليمة فقال: "اقرءوا عليَّ ما يقوله صاحبكم" فقرءوا عليه بعض الخزعبلات: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً، وغير ذلك من الترهات، فقال: "أشهد أن هذا لم يخرج من إل" بمعنى من رب، لكن يمكن أن يقال: إن إيل غير الإل، وهذا لو قلنا: إنها غير معكوسة، بمعنى أن جبرا وميكا ليست بمعنى عبد، وإنما عبد هي إيل، هذه في اللغة الأعجمية، لكن في اللغة العربية، الإل هو الرب، ويطلق ذلك أيضاً على العهد.

فإذا فككنا الارتباط وهذا أمر لا إشكال فيه؛ لأن هذه اللغة أعجمية وهذه لغة عربية، فصار التشابه في اللفظ، فنقول: هي تقال في لغة العرب كذا، وأما في اللغة الأعجمية، فإن ذلك لا تعلق له بكلام العرب، فهذه الأسماء أعجمية، جبرائيل وميكائيل، ولا إشكال عندئذ.

"وأما تفسير الآية فقوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ} [(٩٧) سورة البقرة]، أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي."

{فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ} خص القلب؛ لأنه محل العلم والعقل، وهذه الأمة أناجيلها في صدورها، فهذا لا إشكال فيه.

{بِإِذْنِ اللّهِ} أي بإذن الله له في ذلك، وسيأتي الكلام عن الإذن في قوله تعالى: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [(١٠٢) سورة البقرة]، فهنا معنى بإذن الله أي بإرادته، وتسهيله وتيسيره.

"ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ

أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ} [(١٥٠) سورة النساء] الآيتين، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [(٦٤) سورة مريم]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [(١٩٢-١٩٤) سورة الشعراء].

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: ((من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب))[4] ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(٩٧) سورة البقرة] أي من الكتب المتقدمة.

{وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٩٧) سورة البقرة]، أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء} [(٤٤) سورة فصلت] الآية، وقال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء] الآية، ثم قال تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٨) سورة البقرة]، يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي -ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [(٧٥) سورة الحـــج]- {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل."

جبريل وميكال هما من الملائكة لكنهما من أفضل الملائكة ومن ثَمَّ جاء هذا العطف، عطف الخاص على العام، كما قال الله -عز وجل-: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [(٢٣٨) سورة البقرة] مع أنها من جملة الصلوات، لكن لشرفها وأهميتها عطفها عليها، فعطف العام على الخاص يكون لنكتة، كالدلالة على شرفه لأهميته ومنزلته.

فجبريل وميكال هما من الملائكة لكن لشرفهما ومنـــزلتهما عند الله -عز وجل- عطفهما على الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منـــزلة التغاير الذاتي، فهما من جملة الملائكة فعطفهما على الملائكة كأنهما من غير الملائكة، لكن كان ذلك العطف لتغاير الأوصاف، فجبريل وميكال من أشرف الملائكة، فنـــزل ذلك منـــزلة التغاير الذاتي، بمعنى كأنهما جنس آخر، كما تقول مثلاً: جاء الرجال والكتب فهذا تغاير ذاتي وليس تغايراً وصفياً، لكن إذا قلت: جاء الرجال وزيد، فزيد من الرجال، لكنك خصصته لمعنى ولسبب من الأسباب بحسب المقام، أو كونه ما يتوقع أنه يأتي مثلاً أو يتوقع تأخره، أو لأهمية مجيئه، أو غير ذلك من الأسباب، فخص بذلك لوصف أو لمعنى قام به، لكن على كل حال المراد أن جبريل وميكال -عليهما الصلاة والسلام- هما قطعاً من جملة الملائكة بالاتفاق، لكن ذلك من باب عطف الخاص على العام لمعنى في هذا الخاص تشريفاً له، وأحياناً يكون العكس، أي يُذكر شيء خاص ثم يذكر بعده العام لقصد التعميم.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: التواضع (٦١٣٧) (ج ٥ / ص ٢٣٨٤) إلا أن لفظه: ((آذنته بالحرب)) وأما لفظ: ((بارزني)) فأخرجه البيهقي (ج ٣ / ص ٣٤٦).

"ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليُّهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً، ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، ولكن جبرائيل أكثر، وهي وظيفته، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قام من الليل يقول: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[5]."

بمعنى أن مكانة هؤلاء الملائكة الثلاثة ترتبط بها حياة البشر، فجبرائيل موكل بالوحي، وهو الروح والحياة الحقيقية التي إذا فقدها الإنسان صار فاقداً لإنسانيته وكرامته وصار بمنـــزلة الحيوان البهيم، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} [(٥٢) سورة الشورى]، فمن دخل في قلبه هذه النفخة كانت له الحياة الأساسية والمهمة الكبرى.

وميكائيل موكل بالأرزاق التي لا قوام للأبدان إلا بها، فالأول لا قوام للأرواح إلا به -أي الوحي-، والثاني لا قوام للأبدان إلا به -أي الرزق-، والثالث إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور الذي يكون به قيام الأجساد وعودة الأرواح إليها، والبعث والنشور، فهؤلاء تعلقت بهم هذه الأنواع الثلاثة من الحياة، فذكرهم النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل..)) وارجع إلى كلام ابن القيم -رحمه الله- في وجه ذكر هؤلاء الملائكة الثلاثة على وجه التخصيص في مثل هذا الدعاء، ذكر كلاماً مفيداً للغاية.

"وقوله تعالى: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٨) سورة البقرة] **فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين، بل قال: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} وإنما أظهر الله هذا الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة))[6]."**

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} يقول: **وإنما أظهر الله هذا الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره.** يقصد بالاسم لفظ الجلالة {فَإِنَّ اللّهَ} أي: إنه لم يقل: فإنه عدو للكافرين، وسبق الإشارة إلى أن الإظهار في موضع الإضمار يكون لنكتة أو لمعنى، فتارة يكون لتربية المهابة بحسب المقام، وهنا يُذكر شيئان: الأول: أن قوله: {فَإِنَّ اللّهَ} يقال فيه: أظهر في موضع الإضمار لرفع الالتباس؛ لأنه لو قال: فإنه عدو للكافرين كان سيلتبس بآخر مذكور من قوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} فالأصل أن الضمير يرجع إلى آخر مذكور وآخر مذكور هو ميكال، ويحتمل أن يكون جبريل؛ لأنه هو سبب النـــزول، ويحتمل أن يرجع إلى الله -عز وجل- ومع أن الأصل أن تذكر الضمائر اختصاراً في كلام العرب عن ذكر ما هي كناية عنه إلا أن الإظهار هنا كان مزيلاً للالتباس الذي كان سيقع لو أضمر، والله أعلم.

فما قال: فإنه عدو للكافرين بل قال: {فَإِنَّ اللّهَ} فأظهر في موضع الإضمار لرفع الالتباس هنا، لكن الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يصلح بدلاً من الكافرين، فلو قال: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل

---

[5] - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠) (ج ١ / ص ٥٣٤).

[6] - سبق تخريجه.

وميكال فإن الله عدو لهم، أي لهؤلاء المعادين لجبريل وميكال إلى آخره، و"من" للعموم تصدق على الواحد والجماعة، أي: أيّاً كان عدواً لهؤلاء الملائكة فإن الله عدو لهم.

فالمقصود أن هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير يتعلق بذلك الموضع لا في هذا الموضع والفرق بينهما واضح، ولذلك فهناك صرح وقال: {عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} ولم يقل: عدو لهم من أجل أن يبين أن عداوة جبريل -صلى الله عليه وسلم- كفر بالله -عز وجل- فهؤلاء ما قالوا: إنهم يكفرون بالله بل هم يدعون الإيمان بالله، لكنهم قالوا: إنهم يعادون جبريل، فلو قال: فإن الله عدو لهم بمعاداتهم جبريل لم يحصل به هذا المقصود صراحة، لكن لما قال: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} كان ذلك تصريحاً بأن عداوة جبريل -عليه الصلاة والسلام- كفر، وهذا هو الذي ربما مشى عليه جميع أهل العلم فلا أعلم أحداً قال: إن قوله: فإنه هنا أظهر في موضع الإضمار لما ذكره الحافظ ابن كثير، فربما كان وقع ذلك من تصرف أحد في النسخة، أو الذهول أو النسيان، فالإنسان يكتب أحياناً ويصيبه شيء من الوهم والنسيان وإلا فمثل هذا المعنى لا يخفى على الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والله تعالى أعلم.

"{وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ* أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(٩٩-١٠٣) سورة البقرة].

قال الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ..} الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوارة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي؛ إذ كانت في فطرة كل ذي فطرة صحيحة."

يعني لم يدَعْها إلى الحسد والبغي، بمعنى لم يتركها ويمكن أن يكون ولم يدْعُهَا إلى هلاكها الحسدُ والبغي فيكون الحسدُ فاعلا.

"إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- من الآيات البينات التي وصف، من غير تعلم تعلمه من بشري، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به

غدوة وعشية، وبين ذلك وأنت عندهم أمِّي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى: في ذلك عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون."

سبق الكلام على معنى الآيات، والبينات بمعنى الواضحات من بان يبين إذا اتضح، فهي لا تدع في الحق لبساً، تكشفه وتوضحه كما أنها بينة أيضاً في نفسها، فلم يخاطبهم بما لا يعقلون وبما لا يفهمون وإنما بلسان عربي مبين، فليس فيه إلغاز ولا غموض، وإنما هو شيء بيِّن واضح.

قوله: {وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ} [(٩٩) سورة البقرة] والفسق المراد به مطلق الخروج في أصل كلام العرب، فيطلق على الخروج الأكبر بمعنى الكفر، ويطلق على ما دونه من الخروج عن طاعة الله -عز وجل- إلى معصيته، فهذا هو الفسق، ومعروف عند الأصوليين في مفهوم الموافقة الأولوي الظني الذي يسمونه فحوى الخطاب وذلك بمثالهم الذي يرددونه دائماً في كتبهم، وهو قوله تعالى: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [(٦) سورة الحجرات]، قالوا: مفهوم المخالفة أنه إن جاء العدل لسنا بحاجة إلى أن نتبين، ومفهوم الموافقة أنه إن جاء كافر فالتبين من باب أولى لكنه ظني؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه هو، بمعنى ملتزم بدينه ودينه يحرم عليه الكذب وبالتالي فهو يتحرز من الكذب، فهل نتحرى ونتبين إذا عرفنا أن دينه يحرم عليه الكذب وهو متدين أو لا؟ فمن هنا قالوا: ظني، وهذا مثل ما يقولون في النهي عن التضحية بالشاة العمياء من باب أولى لكنه ظني؛ لأن العمياء يعلفها صاحبها أفضل العلف وترعى وهي رابضة، فهي مظنة السمن لا الهزال، بخلاف العوراء التي لا ترى إلا نصف المرعى.

فهذا المثال الذي يذكره الأصوليون ليس دقيقاً؛ لأن أصل الفاسق يطلق على هذا وهذا، فيشمل الكافر ويشمل ما دونه، لكن هم نزلوه على الفاسق بمعنى العاصي، وهذا حمل للفظ على أحد معنييه، وحتى لو صح فيه سبب النـــزول -مع أنه لا يصح- فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

"وقال مالك بن الصيف حين بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكرّهم ما أُخذ عليهم من الميثاق وما عُهد إليهم في محمد -صلى الله عليه وسلم- قال: والله ما عُهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} [(١٠٠) سورة البقرة].

وقال الحسن البصري، في قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٠) سورة البقرة]، قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً."

قوله تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} النبذ معناه الطرح، تقول: نبذت الثوب، ونبذت العهد، بمعنى التخلي عنه وطرحه فهم ينقضون العهد.

وقوله: {فَرِيقٌ مِّنْهُم} الفريق بمعنى الطائفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} عند التأمل فيها نجد أنها تحتمل معنيين -والله تعالى أعلم- فتحتمل أن يكون المراد {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ} أي أن بل بمعنى (لا) أي أنه أضرب عن الكلام الأول وقال: لا ينقضه فريق منهم وإنما ينقضه أكثرهم أو كلهم.

وقد يراد بالكثرة الكل، وقد يكون على ظاهره، فيكون إضراباً عن الكلام الأول، نبذه فريق منهم بل نبذه أكثرهم، فيكون ذلك بنبذ العهد.

ويحتمل أن يكون المعنى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} ثم قال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} بمعنى أن هذا النبذ للعهد لا يكون جهلاً منهم بأن ذلك النبذ يحرم عليهم وإنما أكثرهم لا يصدقون بالله ورسله، فيكون المعنى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} بحيث لا يفعلون ذلك اعتقاداً أن ذلك يحل لهم، وإنما لكون أكثرهم غير مؤمنين بالله ورسله.

والخلاصة أن المعنى الأول هو {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} بل الذين يفعلون ذلك هم أكثرهم وليس فريقاً منهم فقط.

والمعنى الثاني أنهم حينما ينقض فريق منهم العهد لا يفعلونه اعتقاداً بحله، ولكن لكفرهم ولعدم تصديقهم نبذوا هذه العهود.

وعلى المعنى الأول يبقى إشكال وهو كيف نحمل قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ}، ومن هنا يمكن أن يكون المعنى الثاني بهذا الاعتبار أكثر ملائمة للسياق، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فالمعنى الأول ليس ببعيد إذ إنه يمكن أن يفسر هكذا: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني (لا) وإنما ينبذه أكثرهم.

{لاَ يُؤْمِنُونَ} أي لا يؤمنون بالله وإنما يكفرون به بنقض هذا العهد، وبهذا يمكن أن يدفع الإشكال في المعنى الأول.

ويمكن أن يكون قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ} تعليلا لما وقع منهم من نقض العهد، وأنهم لا يفعلون ذلك جهلاً أو اعتقاداً بحله وإنما لانخرام إيمانهم ولعدم إيمانهم بالله.

وأما على القول الأول فيكون قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني أنهم لا يلتزمون العهود، فالذي يحصل منهم نقض العهد، فيكون ذلك كفراً منهم نتيجة لنقضهم للعهود.

والمقصود أن تُفتق ذهنك في تأمل القرآن والنظر في معانيه فربما كان الإنسان يقرأ ولا يخطر في باله شيء من ذلك ولو سئل عن المعنى لتوقف، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} [(١٠١) سورة البقرة].

"**قال السدي** {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} **قال: لما جاءهم محمد -صلى الله عليه وسلم- عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن فذلك قوله:** {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- مصدق لما معهم مما جاء في التوراة وفي كتبهم قال: **عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة**..الخ: لا شك أن الخطاب فيه موجه إلى اليهود الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك أمر لا خفاء فيه، لكن قوله -تبارك وتعالى- بعده: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] يحتمل أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى نفس هؤلاء، ويحتمل أن يتوجه فيه الخطاب إلى أولئك الذين كانوا في عهد سليمان -عليه الصلاة والسلام- أي اليهود الذين كانوا في ذلك الوقت اتبعوا السحر، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله، وهناك نحتاج إلى مثل هذه الرواية، باعتبار أنها أحد القولين في المسألة.

عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فلما وجدوا الاتفاق بين التوراة وبين القرآن، وأنها تصدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- عارضوه بالسحر الذي كان مكتوباً وموجوداً منذ ذلك العهد، هذا أحد القولين وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك، لكن هنا لا تحتمل غير هذا، الخطاب موجه إلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم هم الذين أدركوه.

"**وقال قتادة في قوله:** {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} **قال: إن القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به، وقال السدي في قوله تعالى:** {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] **أي على عهد سليمان -عليه السلام-.**"

قوله: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} أي عملوا وفعلوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، أي أنهم اشتغلوا بالسحر.

{وَاتَّبَعُواْ} من الاتباع، وبين المعنيين ملازمة، فإذا كانوا اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على ملك سليمان فمعنى ذلك أنهم اشتغلوا به وتركوا العمل بما أنزل الله، فبعض أهل العلم يفسر قوله: {وَاتَّبَعُواْ} بمعنى فعلوا، ككبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ولا إشكال في هذا، إذا فسرت الاتباع بمعناه الظاهر فإن

ذلك يقتضي العمل به، فلك أن تقول: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} أي اشتغلوا بالسحر وعملوا به، وأعرضوا عن كتاب الله -عز وجل-، ولك أن تفسر الاتباع بما يتبادر من معناه، اتبع كذا، بمعنى صار تابعاً له، وذلك يقتضي أن يكون مشتغلاً به عاملاً به، فلم يتبعوا وحي الله وإنما اتبعوا السحر.. ومن هؤلاء الذين اتبعوا؟

يمكن أن ينزل على ما قبله، فيقال: هذا خطاب لأولئك الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك أنهم أردوا أن يعارضوه بالتوراة، فلما وجدوا الموافقة بين التوراة وبين القرآن جاءوا بكتب السحر هذه فعارضوه بها، كما قال السدي؛ ليكون الكلام بعضه يرجع إلى بعض، في قوله: {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ} [(٨٩) سورة البقرة]، وقوله: {وَاتَّبَعُواْ} [(١٠٢) سورة البقرة]، فيكون موجَّهاً إلى طائفة معينة.

ويمكن أن يكون ذلك هنا يعود إلى الذين كانوا في زمن سليمان -عليه الصلاة والسلام- حيث اشتغلوا بالسحر، كما قال: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

وابن جرير -رحمه الله- ذكر معنى يجمع بين هذا وهذا، فقال: ليس ثمة ما تقوم به الحجة من تحديد هذا الخطاب، وتخصيصه بالمعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو بالذين كانوا في زمن سليمان، ويقول: والذين كانوا في زمن سليمان اتبعوا الشياطين والسحر ولا زال ذلك سارياً في اليهود فاشياً فيهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلى يومنا هذا، فيكون قوله: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} يعني اليهود، فيصدق ذلك على الذين كانوا في زمن سليمان وعلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي هذا تجمع بين القولين.

لكن حجة أصحاب القول الأول أن السياق يكون مترابطاً متناسقاً، فيقولون: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ} وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ} [(١٠١) سورة البقرة] وهو القرآن، {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

ولكن طريقة القرآن وإعجازه للفطرة اللغوية وما فيه من البيان العجيب الذي يعجز عنه البشر معروفة، فهو يتحدث عن طائفة ثم يتحدث عن طائفة أخرى ربما كانت بطريقة تأخذ الأسماع دون أن يشعر السامع له أو القارئ ببتر في الكلام أو انفصام أو نحو ذلك، وهذا يسمونه حسن التخلص، فالكلام الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- كلام جيد، والله تعالى أعلم.

قوله: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] {تَتْلُواْ} تحتمل معنيين: المعنى الأول: هو ما يتبادر منها من التلاوة، مثل قولك: يتلو القرآن، يتلو كلام الله، فـ{تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} أي تقرؤه وتحدث به وتخبر به وتقصه، فيذكرون لهم أشياء وأكاذيب وفرى اختلقوها وربما نسبوها إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- من أمر السحر.

قوله: {عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} {عَلَى} تحتمل أن تكون بمعنى "في" وتحتمل أن تكون على وجهها ولا إشكال؛ فإن حروف الجر تتناوب.

{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ} أي: ما تقصه وتحدث به وتخبر به الشياطين على ملك سليمان، أي على عهد ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- كما تقول: هذا كان على عهد عمر بن عبد العزيز، هذا على عهد عمر بن الخطاب، على عهد الخلفاء، فتضيفه إلى تلك الفترة.

ويمكن أن يكون {عَلَى} بمعنى "في" أي: واتبعوا ما تقصه وتخبر به وتحدث به الشياطين في عهد ملك سليمان.

ويمكن أن يكون معنى {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} بأن تفسر {تَتْلُواْ} بمعنى تعمل وتتبع، أي واتبعوا ما تتلوا الشياطين من تلاه إذا كان تابعاً له، بمعنى ما تعمل به الشياطين وتتبعه الشياطين على عهد سليمان -عليه الصلاة والسلام- من السحر والكهانة وما إلى ذلك.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

وهذه الآية من الآيات التي فيها إشكال، ويختلف فيها المفسرون اختلافاً كثيراً، فأنا سأحاول أن أقرب المعنى على أقل الاحتمالات المشهورة.

فقوله: {وَاتَّبَعُواْ} قلنا: هم اليهود إما في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في زمن سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، فقال: هذا موجه لليهود وما عندنا دليل يخصص طائفة، وكلهم منذ ذلك العهد متبعون للسحر، وهو فاش فيهم، فكلهم متبعون للسحر انتهى كلام ابن جرير.

وهذا جزاء إعراضهم عن كتاب الله -عز وجل- فمن ترك ما خوطب به وأمر به عاقبه الله -عز وجل- بالاشتغال بضده، وهذا فيه قاعدة من القواعد الحسان لابن سعدي -رحمه الله- حيث ذكر أمثلة جميلة عليها، وهي أن من ترك ما هو بصدده أي ما وُجِّه إليه وما خوطب به مما ينفعه اشتغل بضده، فمن ترك سماع القرآن اشتغل بالأغاني، ومن ترك اتباع كتاب الله اتبع الشياطين، والهوى وهكذا، ثم ذكر أمثلة على ذلك..

ومعنى الاتباع عرفناه حيث قلنا يحتمل معنيين أولهما: فعلوا -وهذا اختيار ابن جرير- والثاني: من الاتباع المعروف، و"ما" هنا موصولة قطعاً، أي اتبعوا الذي تتلوه الشياطين على ملك سليمان.

وقلنا إن {تَتْلُواْ} تحتمل معنيين، الأول: تتلوا من التلاوة، أي تحدث وتخبر به وتقصه الشياطين إما عن طريق الكهان حيث يسترقون ثم يكذبون معها أو غير ذلك مما كانوا يتعاطونه من السحر فيحدثون به الناس، ويعلمونهم هذا الشر، أو تتلوا بمعنى تتبع، من تلوته بمعنى تبعته، فتقول: هذا يتلو هذا يعني يتبعه.

{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} الشياطين معروفة.

{عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} على هذه تحتمل أن تكون على وجهها، أو بمعنى في كما سبق، والمعنى واتبعوا ما تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وهذا أسلوب عربي معروف.

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} الروايات التي تذكر في الآية لا يوجد فيها شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوع صحيح إطلاقاً، لكن الروايات الإسرائيلية -التي نقل كثير من السلف كثيراً منها- تقول: إن هؤلاء الشياطين أو هؤلاء السحرة أو هؤلاء اليهود الذين صدقوهم نسبوا ذلك إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- ويذكرون في ذلك أخباراً كثيرة، خلاصتها أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- صادر تلك الكتب التي راجت وانتشرت، مما كان ينشره هؤلاء الكهنة أو السحرة ويضللون به الناس فدفنها تحت كرسيه، فلما مات سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاء الشيطان وقال لهم: أدلكم على ما كان يسخر به الطير والريح...إلخ فحفروا فوجدوا هذه الكتب -كتب السحر- قالوا: هذا الذي كان سليمان يقيم به ملكه، فاشتغلوا بها وصدقوا الشيطان في ذلك.

نحن ليس عندنا دليل على هذا الكلام، لكن هذه الآية تكذب من نسب السحر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- فسليمان كان بريئاً من السحر أياً كان من أضاف إليه ذلك، سواء كان الشياطين أو كان اليهود أو غير هذا، وأياً كانت هذه القصص والأخبار التي يذكرونها.

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} هذا يدل على أن الاشتغال بالسحر كفر؛ لأن السؤال الذي يطرح نفسه هنا أو يتبادر إلى ذهن طالب العلم هو: هل هم قالوا: إن سليمان قد كفر حتى يقال وما كفر سليمان؟

الجواب: لا، هم ما قالوا: إنه كفر، هم قالوا: إنه كان يتعاطى السحر، والسحر كفر، فما قال الله -عز وجل- لهم: وما كان سليمان يشتغل بالسحر، وإنما قال: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}؛ لأن من اشتغل بالسحر فقد كفر.

{وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} أي هم الذين جاءوا بالسحر واشتغلوا به وكانوا سحرة فكفروا.

{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} القول المشهور الذي عليه عامة المفسرين، وهو الذي يتناسب مع ظاهر الآية، وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- وردّ ما سواه بقوة، يقول: هؤلاء اليهود اتبعوا السحر الذي كان منذ ذلك الحين، وسليمان بريء من هذا، ولكن الشياطين هم الذين كفروا، حيث علموا الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}، {وَمَا أُنزِلَ} {مَا} هنا موصولة بمعنى الذي، أي: اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان واتبعوا الذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

{الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} الملكين بالفتح، وهاروت وماروت عائدان إلى الملكين، يعني تستطيع أن تقول: إنهما بدل من الملكين، وهذين الملكين اسم أحدهما هاروت، والآخر اسمه ماروت.

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ} يعني الملكان.

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا} أي: من الملكين.

{مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} وهو السحر.

على هذا القول يكون المعنى أن اليهود اتبعوا السحر الذي كان على عهد سليمان، وكذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين من السحر ببابل هاروت وماروت، وكان هذان الملكان ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فالسحر أنزل على الملكين وعلّما الناس وكانا يقولان لكل من تعلم: اتق الله فهذا كفر فلا تشتغل به.

وعلى هذا القول يكون التفسير على ظاهر الآية، ليس فيه دعوى تقديم ولا تأخير، ولا محامل وتأويلات بعيدة.

لكن السؤال الذي يرد على هذا القول والإشكال الكبير هو أن الله تعالى قال: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [(٦) سورة التحريم] فكيف توجه أن السحر أنزل على الملكين؟

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بجوابين: الأول: أن هذا من قبيل الابتلاء والاختبار للناس، فهؤلاء الملائكة ما كانوا يشتغلون بالسحر وإنما كانوا يعلمون السحر فقط، وبعضهم قال: إن معنى {يُعلِّمان} من الإعلام بمعنى يُعْلِم، يقولون: هذا موجود في لغة العرب، يقولون مثلاً:

تعلم شفاء النفس قهر عدوها	فبالغ بلطف في التحيل والمكر

يعني اعلم أن شفاء النفس قهر عدوها.

وبعضهم يقول: يعلمون نفس السحر ويقولون للشخص: لا تكفر ولا تشتغل به، فهذا لا يجوز، ابتلاءً واختباراً، كما قال تعالى: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} وهؤلاء الملائكة بهذا الاعتبار إنما هم منفذون لأمر الله -عز وجل- لأن الله -عز وجل- جعلهم ابتلاء للخلق، والله يبتلي خلقه بما شاء، كما أنه أوجد الكفر وأوجد الضلال، ووجدت المغريات ووجدت الشهوات، فمن ذلك هذا السحر الذي ابتلى الله -عز وجل- به أولئك، فهذا على أساس أنه ابتلاء والملائكة بهذا لم يعصوا الله -عز وجل- ولا خالفوا أمره وإنما كانوا منفذين.

المعنى الثاني: أن ذلك لما سبق في علم الله لهما، مثل إبليس على القول بأن إبليس كان من الملائكة، قالوا: سبق في علم الله أنه يزيغ ويضل ويصير عدواً لكل فضيلة وخير، فهذان الملكان قضيتهم نفس القضية، وهكذا يوردون روايات إسرائيلية كثيرة، وكلام كثير جداً ما له أي قيمة، ولا عليه أي دليل، منها أنهم استغربوا من عصيان البشر، وأن الله -عز وجل- أنزلهم ووضع فيهم الشهوة، فكان منهم ما كان، وكلام فارغ ما له أي قيمة ولا ينبغي الوقوف عنده، وهو من الأشياء التي يفتريها بنو إسرائيل.

وذكروا قصة القمر والزهرة ذلك النجم اللامع الذي يظهر بعد الشمس وأنه أكبر نجم أو أوضح نجم في السماء ويقولون: إن هذه كانت هي المرأة، وأنها أخذت الاسم الذي يصعدان به منهما فصعدت فمسخت هناك، وبعضهم يقول: هي نفس الزهرة نزلت وصارت بصورة امرأة، وقصة لما سبق في علم الله لهما.

وقصة آصف التي يذكرون أنه هو الذي كان كاتب سليمان، وأنه كان يكتب عن سليمان -عليه الصلاة والسلام- وينسجون عنه أشياء، يقولون: إنه كان يكتب ويدفن تحت كرسي سليمان بأمره، فلما مات سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاءت الشياطين وقال لهم، أو أنهم أخرجوا هذه الكتب وكتب بين ذلك أشياء من السحر مع كلام سليمان وأخرجوه وقالوا: هذا الذي كان يكتبه سليمان -عليه الصلاة والسلام- .

بل إن بعض أصحاب هذا القول -بالنظر لما سبق في علم الله- بالغ فقال: إن الملائكة تقع منها الذنوب والمعاصي، وهذا قول عجيب، ويقولون: لكن ذلك يقع منهم تكلفاً كما أن الطاعة تقع من الإنس تكلفاً، وإلا فالنفوس مركبة فيها الشهوات والأهواء بالنسبة للبشر، والشرائع وضعت على خلاف داعية الهوى في النفس، بالنسبة لنا فتحتاج إلى مجاهدة حتى تكون ممتثلة، لكن بالنسبة للملائكة، قالوا: ما يفعلون المعصية إلا تكلفاً، ويذكرون هذا عند قضية {إِلاَّ إِبْلِيسَ} [(٣٤) سورة البقرة]، وهذا الكلام باطل لا حقيقة له.

وهناك أقوال أخرى مثل دعوى تقديم وتأخير، وحمل بعض الجمل على بعض المحامل التي قد يكون فيها إشكال أو بعد، نذكرها لاحقاً.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فلا زلنا نتحدث عن قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ..} الآية [(١٠٢) سورة البقرة].

وذكرنا القول الأول الذي عليه أكثر المفسرين من السلف فمن بعدهم وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن الآية على ما يتبادر من ظاهرها لهؤلاء اليهود سواء قلنا الذين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو الذين كانوا في زمن سليمان أو أن المقصود به الجميع؛ لأنهم كلهم معرضون عن كتاب الله -عز وجل- متبعون للسحر، وعرفنا أن معنى تتلوا: ما كانت تحدث به أو ما كانت تفعله الشياطين على عهد أو في ملك سليمان، أي في زمن ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا حيث نسبوا إليه السحر، وذلك كفر فالله نفى عنه ذلك وما قال: وما كان ساحراً، بل قال: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ}

{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ} "ما" موصولة على هذا القول، أي: يعلمون الناس السحر ويعلمونهم أيضاً الذي أنزل على الملكين ببابل، وسيأتي بعض ما يتعلق بهذه من وجوه أخرى محتملة لبعضهم.

وهنا سؤال وهو كيف يقع منهم مثل هذا؟ الجواب أنه ابتلاء لهذا الخلق، أو أنه سبق في علم الله أن هؤلاء الملائكة كإبليس على القول بأنه من الملائكة أنه ينحرف ويضل، وذكرنا قول من قال: إن الملائكة قد تصدر منهم المعصية، لكن يقولون: تصدر منهم تكلفاً، كما أن البشر تصدر منهم الطاعة تكلفاً فهم عكس البشر، وهذا كلام غير صحيح.

{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} أي: والذي أنزل على الملكين ببابل، اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت.

قوله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ} يعني هذين الملكين {مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} قالوا: وهذا ظاهر في أنه ابتلاء من الله -عز وجل- هذا هو القول المشهور.

ويوجد قول آخر في المسألة قال به بعض السلف، لكنهم أقل بكثير من أصحاب القول الأول، ومن أشهر من قال به من المتأخرين القرطبي.

يقولون في قوله: {وَاتَّبَعُواْ} يعني اليهود، {مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} يعني على عهد سليمان، وهذا الكلام نفس الكلام في أولها لأصحاب القول الأول.

قال: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} حيث نسبوا إليه السحر وهو كفر {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ} يعلمون الناس السحر، هنا القضية، يقولون: "ما" هنا نافية، يعني يقول: يعلمون الناس السحر ولم ينزل على الملكين.

فإذا قلنا: إنهم ملائكة فعلى هذا تكون هاروت وماروت عائدة أيضاً إليها.

فعلى هذا القول –أي أنه لم ينـــزل على الملكين ببابل- بعضهم -مثل القرطبي- يقول: إن هاروت وماروت عائدة إلى الشياطين، يعني واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا يعلمون الناس السحر، يعني صارت هاروت وماروت أسماء لشياطين على قول القرطبي، فيصير الكلام واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، يعني أن الكلام صار فيه تقديم وتأخير.

وخلاصة المعنى للآية: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين -هنا ما نافية- ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل.

وبعض أصحاب هذا القول يقول: إن هاروت وماروت تعود إلى الناس، فيصير المعنى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس هاروت وماروت، أي: يعلمونهم السحر، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، هذا هو القول الثاني، وهذا القول لا شك أن فيه تكلفاً واضحاً، والقاعدة أنه إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير فالأصل فيه الترتيب بحيث يبقى على وجهه.

وهذا القول فيه هذا التكلف وهم لا ينكرون هذا التكلف إلا أن الذي حملهم عليه هو كيف يكونا من الملائكة ويقع منهما هذا الفعل الذي هو كفر؟ فقالوا: إذن نقول: "ما" نافية، ثم ركبوا هذه التأويلات والمحامل البعيدة.

كما أن بعض أهل العلم قال في قوله تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} [(١٠٢) سورة البقرة] بكسر اللام من الملكين، وصارت على هذا "ما" نافية، والمعنى أنهم يعلمونهم السحر ويعلمونهم الذي أنزل على الملِكين –من الملوك- وهذان الملِكان يقول بعضهم: هما داود وسليمان، واحتجوا لهذا القول بقراءة شاذة هي: (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملِكين داود وسليمان) فهذه قراءة شاذة.

وفي قراءة أخرى شاذة من غير ذكر داود وسليمان تصير موصولة، فيكون المراد بالملِكين أي من ملوك الدنيا، وهذا سواء قلنا: إنهما علجان أعجميان، أو غير ذلك مما قيل، وممكن أن يكون اسم أحدهما هاروت والآخر اسمه ماروت أو غير ذلك مما يقال.

وبعضهم حتى على قراءة الفتح في ملكين -وهي القراءة المتواترة- قال: إنها لغة في الملِكين، حيث يقال: ملَك وملِك أي من ملوك الدنيا، وتكون "ما" نافية على قراءة كسر اللام إذا قلنا: مع داود وسليمان، أي: ولم ينزل على الملكين داود وسليمان.

وتكون موصولة من غير داود وسليمان، يعني: اتبعوا السحر، والذي أنزل على الملكين أياً كانوا من ملوك الدنيا.

طبعاً يوجد إشكال على هذا وهو قضية كيف أنزل وما معنى الإنزال هنا؟ وهل أنزلته الشياطين أو يفسر الإنزال بمعنى آخر غير النزول المعروف وما إلى ذلك، والمقصود أن هذه خلاصة لأشهر ما قيل في الآية، وهو الكلام الموجود مفرقاً في كتب التفسير، وبهذه الطريقة نكون قد رتبنا الأفكار بحيث إذا قرأنا من الكتاب نستطيع أن نجمع ونعيدها إلى هذا.

مسألة أخرى:

بعضهم يقول: إن "ما" في قوله: {وَمَا أُنزِلَ} ترجع إلى "ما" الأولى، فيصير المعنى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان واتبعوا ما أنزل، فهم اتبعوا شيئين، وعلى هذا فالعطف في الأصل أنه يقتضي المغايرة فيصير الذي أنزل على الملكين غير الذي كانت تتلوه الشياطين، فالذي أنزل على الملكين هو التفريق بين المرء وزوجه، والذي كانت تتلوه الشياطين هو أنواع السحر.

وبعضهم يقول: إن "ما" الثانية ترجع إلى قوله: {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} والمعنى أنهم يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فتكون عائدة إلى ما قبلها، يعلمونهم السحر ويعلمونهم الذي أنزل، وهذا باعتبار أن السحر غير التفريق، مع أن التفريق بين المرء وزوجه هو نوع من السحر؛ بل إن بعض أهل العلم قال: السحر ما له أي تأثير إلا في التفريق بين المرء وزوجه وما إلى ذلك من الحب والبغض وإلا فلا يستطيع الساحر أن يُمرِض أو يحول بعض الأشياء عن حقيقتها كتحويل الفرس إلى بقرة أو الإنسان إلى فرس أو كذا أو يكسر العظم أو يميت أو نحو هذا.

والأقرب –بل هو المشهور- أن السحر يؤثر أكثر من مجرد التفريق والحب والبغض وما أشبه ذلك، فيمكن أن يُمرض ويقتل.

وقوله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] شدد ابن جرير -رحمه الله- على أصحاب القول الذي سبق أن ذكرناه وما فيه من المحامل البعيدة حيث قال لهم: إذا قلنا: إن "ما" نافية في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} [(١٠٢) سورة البقرة] فما معنى {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} إذ لو كان الأمر كما زعمتم بأن "ما" نافية فالمعنى أن الملكين لا علاقة لهما بالسحر ولا شيء من ذلك؛ إذ كيف يقول: وما يعلمان –بالتثنية- من أحد السحر حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وهما لم ينزل عليهما شيء من ذلك؟ هذا إيراد أورده ابن جرير -رحمه الله- على أصحاب هذا القول.

نقرأ الآن وتنزلون الكلام الذي يقرأ على هذا الكلام الذي سمعتم.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

"وقال السدي في قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة]، أي: على عهد سليمان -عليه السلام-، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان -عليه السلام- في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنوا من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان -عليه السلام- وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف

من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنـــز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته، فقالوا له: فادن فقال: لا، ولكنني ههنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخروجها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار وذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد -صلى الله عليه وسلم- خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} [(١٠٢) سورة البقرة]."

هذه الرواية المذكورة هنا تعود إلى ما أخذ عن بني إسرائيل، فهي من الأشياء الإسرائيلية التي لا يعتمد عليها، لكنها على كل حال قد توضح لك شيئاً يستأنس به فيما يتعلق باتباعهم ما كانت تتلوه الشياطين على ملك سليمان، أي: على عهد سليمان، أو في ملك سليمان حينما يذكرون أخباره وقصصه وأخبار مملكته وملكه -عليه الصلاة والسلام-، فمثل هذا لا يعتمد عليه في تفسير الآية، لكنهم اتبعوا ذلك السحر الذي كان موجوداً في ذلك الزمان، سواء كان كما قيل دفن تحت كرسيه حينما صادر هذه الأشياء منهم أو غير ذلك مما ذكروه من أن آصف كاتب سليمان كان يكتب له ما يأمره به ثم دفنه تحت كرسيه، ثم جاءوا واستخرجوه وزادوا فيه بين كل سطرين، أو أنه ما كانوا يتلقونه من الكهنة وفيه كذب كثير فكانوا يزيدون فيه، أو غير ذلك مما يذكرونه مما لا أصل له، فكل هذه الأشياء لم يرد فيها شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن المقصود أن اليهود هؤلاء اتبعوا السحر، وتركوا كتاب الله -عز وجل- الذي أنزله عليهم وطالبهم بالعمل به.

"وقوله تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] **اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن "ما" نافية، أعني التي في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} قال القرطبي: "ما" نافية، ومعطوف على قوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}."**

نعم ما كفر سليمان ولم ينـــزل السحر على الملكين.

"ثم قال: {وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله."

قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} بهذا الاعتبار يكون (الملكين) على قول القرطبي هما جبرائيل وميكائيل، فنـــزه سليمان -عليه الصلاة والسلام- عن السحر، ونزه جبريل وميكائيل، وما أنزل على الملكين.

وقوله: {بِبَابِلَ} يعني يعلمون الناس السحر ببابل.

"وجعل قوله هاروت وماروت بدلاً من الشياطين."

نعم هذا على توجيه القرطبي، وأما على القول الآخر فهي بدل من الناس، يعلمون الناس هاروت وماروت السحر ببابل.

"قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [(١١) سورة النساء]."

الإشكال الآن هو كيف صار هاروت وماروت بدلاً من الشياطين، والشياطين جمع؟ قال: لا إشكال؛ لأنه إما أن نقول: إن أقل الجمع اثنان، وهو قول معروف ومنقول عن الإمام مالك، وجماعة، قال تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [(١١) سورة النساء] وإنما تأخذ الأم السدس إذا وجد أخوان فأكثر، فقال: إخوة، قال في مراقي السعود:

أقل معنى الجمـــع فـــي المـــشتهر اثنـــان عنـــد الإمـــام الحميـــري

الإمام الحميري هو مالك -رحمه الله- أقل معنى الجمع في المشهور عنه اثنان، فهذا توجيه.

أو لكونهما لهما أتباع، قال تعالى: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [(٦١) سورة الأنعام]، مع أن الذي يتوفاهم واحد كما قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [(١١) سورة السجدة].

"كما في قوله تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، وتقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح، ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ} الآية، يقول: لم ينزل الله السحر.

وبإسناده عن الربيع بن أنس في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} قال: ما أنزل الله عليهما السحر، قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله: {بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} من المؤخر الذي معناه المقدم."

يعني نخرج من هذا القول بنتيجة وهي أن قول القرطبي لم ينفرد به وإنما له سلف فيه.

"قال: فإن قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل -عليهما السلام-؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن جبريل وميكائيل لم ينـزلا بسحر، وبرَّأ سليمان -عليه السلام- مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم."

إذا قلنا هاروت وماروت هم شياطين أو من الناس يبقى فيها أيضاً إشكال وهو هل الشياطين سيقولون للناس: لا تكفر إنما نحن فتنة وهم أصلاً يريدون نشر السحر، ويريدون كفر الناس؟ فهذا إشكال على كل حال.

"هذا لفظه بحروفه، وهذا التأويل فيه من التكلف ما لا يخفى."

قوله: **قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا**، ليس هذا هو قول ابن جرير، وإنما ابن جرير لما ذكر هذا القول في المسألة وجهه يعني كأنه يقول: كيف يكون المعنى على هذا القول؟ ثم رده، فلا تفهم من هنا -أي من قال

ابن جرير والمعنى على هذا يكون كذا وكذا- أن هذا هو اختيار ابن جرير، وإنما ابن جرير يرد هذا بقوة، بل بعنف، حتى إنه يقول: فإن قال ذو غباء كيف يكون السحر منزلاً على الملكين؟ قلنا: إن ذلك سبق في علمه، أو أن ذلك ابتلاء وامتحان للخلق.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا جواب عن السؤال الذي أشرت إليه سابقاً وذلك بناء على أن ما وقع من هؤلاء الملائكة هو نظير ما وقع من إبليس على القول بأنه من الملائكة وأن ذلك ليس من قبيل الابتلاء والاختبار لبني آدم من غير حصول معصية من هؤلاء الملائكة.

وعلى كل حال فهذا فيه إشكال وكل ما ذكر في هذا المعنى من الروايات لا يصح منه شيء تقوم به الحجة، ويجب الرجوع إليه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأما المنقول عن السلف فهو مبني على ما أخذ عن بني إسرائيل.

"كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة؛ لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} [(١١٦) سورة طــه] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت -على ما ذكر- أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى.

وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- وكعب الأحبار، والسدي والكلبي."

يريد بقوله: إنه أخف، أن إبليس عارض أمر الله -عز وجل- وكابر وأبى أن يسجد وقاس ذلك القياس الفاسد، فكان ذلك سبباً لطرده وإبعاده ولعنه وما أشبه ذلك، وأما هؤلاء الملائكة فإن ذلك كان معصية مجردة لغلبة الشهوة -على هذا القول- وذلك في قصة يذكرونها بروايات متعددة وهي أنهم تعجبوا من معاصي ابن آدم فأنزلهم الله -عز وجل- إلى الأرض وركب فيهم الشهوات فوقع منهم ما وقع مما يذكرونه عن الزهرة وأنها صارت صورة امرأة جميلة وأنها طلبت منهم أن يشربوا الخمر وأنهم شربوها، وغير ذلك من أمور لا يليق ذكرها أصلا، فالعلم عند الله -عز وجل- ومثل هذا القول الذي ينسب إلى الملائكة مثل هذه الأمور لا يعتمد عليه.

والقول بأن ذلك أنزله الله -عز وجل- كما قال ابن جرير ابتلاء واختباراً أسهل من هذا بكثير، فلو قال قائل: هؤلاء ملائكة فكيف يقع منهم هذا الأمر، فيمكن القول: إن ذلك كان ابتلاء من الله -عز وجل-، أما هذه القصص المنسوجة بهذه الطريقة ونسبة هذه الأمور إلى الملائكة فلا يصح لإنسان أن يتكلم بها، وأسوأ من هذا وأبعد منه قول من قال: إن الملائكة توجد فيهم الشهوات عموماً، فهذا في غاية النكارة، والله أعلم.

"**وأما قصة الزهرة فموضوعة بلا مرية.**"

نعم قصة الزهرة مكذوبة، والزهرة هي النجم المعروف، وقصتها ما يذكرون من أنها نزلت في صورة امرأة لهذين الملكين وأنهما أعجبا بجمالها فراوداها ولا زالا بها حتى وقعا بها، وفي بعضها أن تلك المرأة التي أعجبتهما سألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فصعدت به فمسخت في الأعلى، ولم يستطيعا الصعود وحبسا ببابل، ويذكرون أشياء غريبة منها أنهما معلقان بأرجلهما ويذكرون أشياء غريبة جداً، حتى إنه في بعض الروايات -رواية في ابن جرير وصححها الشيخ أحمد شاكر- عن عائشة -رضي الله عنها- أن امرأة أتتها من دومة الجندل، وأنها سألت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان قد قبض، يعني جاءت في الوقت الذي توفي فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبكت المرأة، وخلاصة القصة أن هذه المرأة جاءت تسأل عن ذنب اقترفته ما كفارته وكيف المخرج منه، فعلى كل حال هذه المرأة تقول لعائشة -رضي الله عنها-: إنها أرادت زوجها فبحثت عنه طويلاً ولم تجده وأنها سألت عنه فأرشدها ساحر أو ساحرة إلى أمر تفعله، فجيء لها بكلبين أسودين كبيرين فركبت أحد هذين الكلبين والساحر أو الساحرة ركب الآخر فما وجدت نفسها إلا ببابل، فأُدخلت على هذين الملكين المعلقين بأرجلهما فسألتهما فأمراها أن تذهب إلى مكان أرشدا إليه وأن تبول على الرماد فذهبت فرأت منظراً فضيعاً فخافت ورجعت ثم قالا لها: هل فعلت؟ قالت: نعم، قالا: ماذا رأيت؟ قالت: ما رأيت شيئاً، قالا: لم تفعلي شيئاً، فارجعي فرجعت وخافت ثم رجعت، وفي الثالثة فعلت ما طلب منها فخرج منها فارس أسود وارتفع إلى السماء فأخبرت هذين الرجلين بما رأت فقالا: صدقت، وأخبراها أن هذا هو الإيمان خرج منها[1].

فالمقصود أن مثل هذه الأشياء التي وردت في الإسرائيليات عن الملكين لا يعتمد عليها.

"**قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل وهي من إقليم العراق...** "

قوله: **قال أصحاب الهيئة**، يعني علوم الهيئة التي يتحدثون فيها عن الأقاليم وحدود الأرض، وخطوط الطول، ودوائر العرض المعروفة وكذلك الهيئة العلوية من الأفلاك والنجوم وما أشبه ذلك، فالحاصل أن ابن كثير -رحمه الله- يأتي بكلام علماء الهيئة من أجل أن يحدد بالضبط موقع بابل من جهة خطوط الطول ودوائر العرض على الكرة الأرضية.

إذا نظرت إلى كلام المفسرين تجد أن بعضهم يقول: بابل في المغرب وبعضهم يقول في نهاوند، وبعضهم يقول: في العراق، وبعضهم يقول: هو إقليم الكوفة وما حوله، فليست القضية عندهم متفقة يقولون فيها: إنها بابل المعروفة في أرض العراق، ومن ثم فإن السبب في كونه أراد أن يحددها تحديداً دقيقاً هو ألا تلتبس به مع غيرها، وإلا فإنه لأول وهلة يقول القائل: ما الحاجة إلى تحديد أين هي سواء على خط طول كذا أو خط عرض كذا؟.

---

[1] - أخرج القصة الحاكم في مستدركه (٧٢٦٢) (ج ٤ / ص ١٧١) وصححه الذهبي في التلخيص.

"قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل وهي من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوْقيانُوس سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم."

على كل حال الأصل أن تحمل بابل على المكان المعروف منذ القديم في التاريخ فليست هي تسمية حادثة، وإنما هي معروفة منذ زمن طويل.

وإذا نظرت إلى ما كتب عن بابل وسبب التسمية تجد أشياء وخزعبلات لا يبنى عليها علم فتجدهم يقولون: هي من بلبلة الألسن، وينسبون إلى الله كذباً وزوراً عن اليهود أشياء لا يليق أن يتفوه بها الإنسان من سوء ظنهم بالله، ويقولون في سبب تسميتها غير ذلك، فعلى كل حال اسمها بابل والأصل في الأسماء ألا تعلل.

والعجيب أننا إذا أردنا أن نفسر بابل بتلك التفسيرات المكذوبة فمعنى ذلك أنا جعلناها عربية، وهم أعاجم أعني الذين قالوا: إنها من البلبلة وهيا نبلبل..الخ، فهم اليهود الأعاجم فكيف فسروها بذلك، فهذا من التناقض، فأحياناً تعرف بطلان القول حينما يفحص ويحلل فيتبين لك أنه ما يصح.

"وقوله تعالى: **{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}** [(١٠٢) سورة البقرة]، **قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعلّمه فإذا تعلمه خرج منه النور."**

هذه الروايات مبنية على ما أخذ عن بني إسرائيل، والله -عز وجل- قال: **{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}** أي هما اللذان يقومان بهذا التعليم، لا أن يرسلاه إلى الشيطان فيقوم بتعليمه، وبعضهم يقول: وما يعلِّمان، يعني يُعْلِمانه بأن هذا باطل، كما قال القائل:

تعلم شفاء النفس قهر عدوها ....

يعني: اعلم أن شفاء النفس قهر عدوها، وغير ذلك مما يستشهدون به.

لكن ظاهر الآية المتبادر أنهما يعلّمان السحر كما قال الله -عز وجل-: **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}** [(١٠٢) سورة البقرة] بعضهم يقول: وما يُعْلمان لكن الظاهر والله تعالى أعلم أنها من التعليم، هذا الظاهر المتبادر، أي من التعليم المعروف، سواء قلنا: إنهما يعلمان السحر، أو أن الشياطين يعلمون الناس السحر، وهؤلاء يعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه، سواء قلنا هذا أو هذا، مع أن ما يفرق به بين المرء وزوجه هو نوع من السحر قطعاً؛ بل إن بعض أهل العلم قصر حقيقة السحر عليه، وقال: والباقي خزعبلات، إما أخذاً للأبصار بالتخييل أو معرفة خواص المواد، مثل ما يفعل من يعرف الكيمياء عن طريق خدع كمن يطلي نفسه بطلاء ويدخل في النار ولا يحترق والناس ينبهرون به، أو غير ذلك مما يفعله من تغيير لونه أو غير ذلك، أو بأمور يموه بها بسبب معرفة خواص المواد وإلا فهو لا حقيقة له، أو بخفة اليد بحيث يفعل حركات تستغرب كيف هذا خرج من هنا؟ وكيف هذا جاء من هنا؟ وكل هذا لا شك أنه من ألوان السحر لكن منه ما هو حقيقي ومنه ما هو غير حقيقي، والحقيقي أكثر من هذا، وما يفعلونه اليوم مما يسمى

بالرجل البهلواني أو الرجل الحديدي أو الرجل الذي يقضم الحديد بفمه أو يثنيه بأصابعه، أو يجر السيارة بأسنانه أو يجلس تحتها وتطأ عليه، أو يمشي على المسامير أو ينام عليها أو يمشي فوق النار، هذا كله من السحر، ولو حضرت عندهم لأبطلت عملهم هذا كما يستطيع أن يبطله كل واحد منكم، فهذا الرجل لو قرئ عليه وهو يفعل هذا لدهسته السيارة ومات، ولو دخل في النار لاحترق إذا ما طلا نفسه بطلاء، ولا يستطيع أن يثني الحديد بيده أبداً، ولا يمكن ولا يعقل أن يفعل هذا البشر، ولو جرى على يد أحد من البشر لكان من قبيل المعجزات؛ لأن هذا أمر خارق للعادة تماماً، ولا يمكن للبشر أن يحصلوه بالتمارين والقوة إطلاقاً، وما يذكرونه مما يسمى بعلم التأثير الذي هو قرين ما يسمونه NLB من المشي على النار فهذا أيضاً كله من السحر إذا كان لا يحترق، وأما إذا كان لا يحس فهذا نعقله ونحن أطفال، فأنا أستطيع أن أمشي على النار ولا أحس؛ لأن الإنسان ممكن أن يجرح وهو في حالة من شدة الفرح أو من شدة الحزن، أو شدة الهرب والخوف، ولا يشعر، ويكسر ولا يشعر في فترة ذهول، واسألوا الذين تقع لهم حوادث، اسأله للتو حينما انقلبت به السيارة أو نحو ذلك فربما يجرح وينزف ولم يشعر بشيء إطلاقاً، تجده ينكسر فيريد أن يقوم وهو لا يشعر أن رجله مقطوعة، كل هذا يقع ولا يتفطن له إلا فيما بعد حينما تذهب عنه الصدمة أو يقول له إنسان: ما بال عينك تسيل على خدك، فمن الممكن أن الإنسان ما يحس لكن الجسد لا بد أن يقع عليه أثر النار أو أثر السكين أو نحو ذلك، وفرق بين هذا وهذا.

" فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعًا في السماء فيقول: يا حسرتاه! يا ويله ماذا أصنع؟.

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة -أي بلاء ابتلينا به- فلا تكفر."

ابتلينا به هذا على القول بأن الغواية حصلت منهما أصلاً، لكن على قول ابن جرير أنهما يقولان ذلك؛ لأنهما إنما نزلا ابتلاء من الله -عز وجل- للناس دون أن يقع منهما معصية.

"وقال السدي: إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة، فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماد فبُلْ عليه."

كما في خبر تلك المرأة التي قالا لها: لا تكفري إنما نحن فتنة، فلما أبت أمراها أن تذهب إلى رماد وتبول عليه، والخبر ذكرناه آنفاً أن امرأة جاءت إلى عائشة -رضي الله عنها-.

" فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكلِّ شيء وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] الآية.

وقال سُنَيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار."

قوله: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} أصل الفتن هو الاختبار، كأن تعرض الذهب مثلاً أو المعدن على النار فيتخلص مما فيه من أخلاط فيبقى ذهباً صافياً خالصاً، تقول: فتنت الذهب على النار، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [(١٠) سورة البروج] على أحد التفسيرات أي أحرقوهم بالنار في قصة الأخدود، وقال تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [(٣٥) سورة الأنبياء] أي اختباراً.

"وقد استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر."

استدل بها على تكفيره؛ لأنه قال: {يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] يعني لا تتعلم السحر، فإن أبى وتعلم ما يفرق به بين المرء وزوجه، وسواء كان قد تعاطى السحر وعمل به أو اكتفى بتعلمه، فإنه قد جعل ذلك كفراً، وهذا هو القول الأرجح في هذه المسألة، وهو أنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يتعلم الإنسان السحر سواء كان ذلك من أجل العمل به أو من أجل معرفة الشر كما يقول بعض أهل العلم:

عرفت الشر لا للشر لكن لأتقيه ... ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

فبعض أهل العلم يقول: يجوز تعلم السحر لإبطاله وإفساده والحذر من مقارفته وتحذير الناس منه، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأن هذه الوسيلة وسيلة محرمة في نفسها وذلك أن تعلمه كفر، فلا يجوز للإنسان أن يقدم عليه.

"وقد استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله، قال: ((من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم))[2] وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة]."

قوله: ((من أتى كاهناً أو ساحراً فسأله..)) قد لا يسأله متعلماً للسحر، وإنما يسأله عن بعض الأمور الغائبة ومع ذلك حكم عليه بهذا الحكم، وهو أنه كفر بما أنزل على محمد، فكيف بما أتاه ليتعلم منه السحر؟ لا شك أن هذا أشد.

ولماذا خص التفريق بين المرء وزوجه في قوله: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} مع أن السحر أوسع من هذا؟

يمكن أن يقال: لأن هذا هو الأشهر والأكثر انتشاراً وهو السحر الذي يؤثر بإذن الله -عز وجل- من جهة الحب والبغض والنفرة والإقبال والاستمالة، ولهذا فإن بعضهم يفسر السحر بأنه الصَّرف، أي لأن الشيء مصروف عن وجهه، حيث صار يحب هذا الذي ما كان يحبه، أو يبغض هذا الذي كان يحبه.

وبعضهم يفسره بالاستمالة لما يحصل فيه من استمالة المسحور، وعلى كل حال سواء فسرناه بهذا أو بهذا، أو فسرناه بما هو أوسع من ذلك كما يقول بعضهم: هو من الخفاء؛ لأن الساحر يأتي بطرق خفية غير مدركة بالنسبة لمن لا يعرف السحر، وهذا أقرب وأوسع ما فسر به السحر بمعنى من أين أُخذ السحر؟ يقال: أخذ من الخفاء، فإذا قيل لماذا ذكر التفريق بين المرء وزوجه؟ يقال: لأنه هو الأفشى والأكثر، كما قال الله -عز

---

[2] - أخرجه البزار بهذا اللفظ (ج ٥ / ص ٢٥٦).

وجل-: {وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [(٤) سورة الفلق] فلو قيل: لماذا ذكر النساء السواحر ولم يذكر السحرة من الرجال -ومن شر النفاثين في العقد- حيث الساحر يعقد عقده أيضاً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر))[3] فيمكن أن يقال: لأن السحر في النساء أكثر منه في الرجال، وأكثر ما يقع ذلك للمرأة وأسوؤه حينما تكون في حال الحيض، ولذلك فإن من أراد أن يعالج السحر يكون العلاج أصعب إذا كانت المرأة في حال الحيض، يعني علاج المرأة المسحورة وهي في غير الحيض أسهل من علاجها في حال الحيض، والساحر إذا أراد أن يفك السحر بسحره -حيث يُعطى مالاً ويقال له: فك السحر- يكون ذلك بالنسبة إليه في رمضان أصعب منه في غير رمضان؛ لأنه يريد أن يفكه عن طريق الشياطين، فتجده يقول للإنسان الذي يأتيه: إذا خرج الشهر تأتي إليَّ، وهذا شيء مشاهد حيث يأتي بعض الناس يسأل عن مثل هذه الأشياء، وربما وقع بعضهم في بعض الأمور العجيبة التي يقصد بها الإصلاح، ومن ذلك فك السحر بالسحر، ومعلوم أن ذلك لا يجوز، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وما نقل من بعض العبارات عن بعض السلف فهو محمول على أن المقصود به النشرة عند من قال لا بأس بالنشرة، فالمقصود بالنشرة هي ما يحل به السحر وإن لم يكن بالسحر، كأن يكون بالرقية أو بالأدوية المعروفة غير السحر، حيث توجد الآن أدوية تعطى للمسحور وهي مركبة من أعشاب تعين على استخراجه خاصة إذا كان مأكولاً أو مشروباً فهذه نشرة، فالنشرة تكون بالسحر وبغيره فهي لحل السحر، ولا إشكال فيها إذا كانت بغير السحر، وعلى فرض أن مقصود القائل أن السحر يجوز لفك السحر فإن ذلك القول قول شاذ وليس كل قول قيل يمكن أن يتبع، وعلى كل حال لا يجوز ذلك وعلى الإنسان أن يصبر ويتعاطى الأسباب المعروفة المباحة أو المشروعة لعلاج هذا السحر.

بعض أهل العلم -وهو قول عند بعض الحنابلة- قالوا: يجوز في حالات ضيقة جداً، وذلك مثل المرأة التي تسحر لتبذل عرضها، فالمرأة أحياناً قد يوضع لها سحر وهي شريفة فتصير تخرج تبحث عن الرجال في الشوارع، فقالوا في هذه الحالة يمكن أن يفك بالسحر، لكن هذا الكلام ليس بصحيح، بل مثل هذه المرأة تحبس بأن توضع في مستشفى أو في أي مكان تضبط فيه، كبيت أهلها وعليهم أن يرقوها بالرقى الشرعية حتى تبرأ بإذن الله -عز وجل-.

وهناك طرق صحيحة يفك بها السحر من عرفها وكان له خبرة بها من غير أن يكون فيها مخالفات، حيث إن الله -عز وجل- يفتح على بعض الناس فترى منهم أشياء عجيبة في هذا الباب حيث يوفقهم الله -عز وجل- إلى أمور يفكون بها السحر.

وبعضهم يذكر طرقاً، يقول: دلت عليها التجربة حيث يأتون بأشياء معينة كأن يضعون ماء مع ملح أمام المسحور، ونحو ذلك فهم عندهم طرق معينة يقول لك: يقتل الجني المربوط مع السحر خلال دقائق، ذكروا أنه إذا كان مربوطاً -بحيث ما أمكن إخراجه- يضطرون إلى قتله، كما يقولون، والله أعلم.

---

[3] - أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم - الحكم في السحرة (٤٠٧٩) (ج ٧ / ص ١١٢)والطبراني في الأوسط (ج ٢ / ص ١٢٧)وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٧٠٢).

وأحياناً يأتون بالقطران وهو ذو رائحة معينة معروفة مخلوطاً بالماء في زير الماء مثلاً ويضعونه عند أنفه، حيث يقولون: إنه يحبه جداً، فيخرج من أي مكان في الجسم كان مختبئاً فيه، ويضعون أمامه الماء والملح ثم يقولون دعاء معيناً أو أذكاراً معينة، فيقتل بهذه الطريقة كما يقولون، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] "أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرِّقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، ويجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نِعْم أنت))[1].

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو حقد أو بَغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل، وتأنيثه امرأة، ويثنى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}** ذكرنا قبلُ أن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}** [(١٠٢) سورة البقرة] قد يرجع إلى أول الآية، **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [(١٠٢) سورة البقرة]، أي: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما أنزل على هاروت وماروت، فعلى هذا الذي أنزل على هاروت وماروت هو ما كانوا يتلقونه منهم -عند بعض أهل العلم- مما يفرقون به بين المرء وزوجه، فكأن المعنى: اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما يفرقون به بين المرء وزوجه مما تعلموه من هاروت وماروت، أو واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما يفرقون به بين المرء وزوجه، هذا إذا قلت: إن يعلمون الناس السحر وما أنزل يعود إلى هذا، فيكون السحر مما يتلقونه عن الشياطين على الأول، فالذين اتبعوا يعني اليهود، اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، واتبعوا ما أنزل على الملكين، وإن شئت أن تقول: واتبعوا ما يفرقون به بين المرء وزوجه.

وعلى الثاني يكون ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين، وهذا باعتبار أن هاروت وماروت بدل من الشياطين، فنحن قلنا: إما أن تكون بدلاً من الناس أو بدلاً من الشياطين، فيكون

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٣) (ج ٤ / ص ٢١٦٧).

على هذا هاروت وماروت من الشياطين، وإذا قلنا: إنها بدل من الناس يكون هاروت وماروت إما ملكين من ملوك الدنيا أو كما قيل: هما علجان، أو غير ذلك.

"وقوله تعالى: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] **قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال الحسن البصري:** {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} **قال: نَعَم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى.**"

قوله: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} الإذن يأتي بمعنى الأمر الذي لا يقيد بإلزام، أي مطلق الأمر، يقال: هذا مأذون فيه، وفلان أذن له في كذا.

ويأتي بمعنى التخلية بينك وبين الشيء، إذا خلَّى بينك وبين الشيء ولم يمنعك منه فهذا إذن منه لك به.

ويأتي بمعنى العلم بالشيء.

فهل يمكن تفسيره بالأول، أي وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله بمعنى إلا بأمره غير الملزم، أي الأمر الكوني؟

الجواب: أنه ليس بأمر غير ملزم بل الأمر الكوني أمر ملزم، فلا يمكن أن يفسر بالأول.

وإن قلنا: وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، أي: إلا أن يخلي بينهم وبينه، بمعنى لا يمنعهم منه، فهذا يحتمل، ولو شاء الله -عز وجل- لم يحصل ذلك.

والمعنى الثالث: إلا بإذن الله أي إلا بما سبق في علمه، لا يحصل شيء إلا بعلم الله -عز وجل- وهذا العلم هو العلم الأزلي الذي قدر الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فلا يحصل في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بقدره -سبحانه وتعالى-.

وهذا القدر على أربع مراتب كما هو معلوم، أولها: العلم المحيط الشامل الذي لا يخرج عنه شيء، فلا يحصل أثر هذا السحر إلا لمن سبق في علم الله أن ذلك يحصل له، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

فهذه ثلاثة معانٍ للإذن، أولها لا يصح هنا وإن كان يصح في معنى اللفظة، وإن شئت أن تفسر ذلك بمعنى أوسع لما بين هذه الأمور من الملازمة في باب القدر، {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} أي إلا بإرادته سبحانه فيخلي بينهم وبين هذا فينفذ السحر ويؤثر وإن شاء لم يحصل كما أن النار لم تحرق إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مع أن من طبيعتها الإحراق، ولكنه لا يقع في الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وقضائه، فالملك ملكه والأمر أمره، ومن ثَمَّ يجب التوكل عليه وتفويض الأمر إليه والالتجاء إليه والتعوذ به من أجل أن يحفظ الإنسان من مثل هذه الأمور، والسحرة يعرفون ذلك جيداً، فهم يعرفون أن سحرهم لا ينفذ في كثير من الأحيان، فهم يعملون أعمالاً من السحر كثيرة، ينفذ بعضها وبعضها لا ينفذ إما من غير سبب ظاهر، وإما أن يكون ذلك لسبب ظاهر معلوم تخبرهم به الشياطين وهو أن هذا الإنسان محصن بالذكر، فما استطاعوا الوصول إليه بمثل هذا السحر، ولذلك يخبرون بعجزهم أحياناً لمن طلب السحر منهم لأحد، ويصرحون بهذا، فيقولون: ما تمكنا منه حتى في الحمام، وهذا مع أن الحمام ليس مكاناً للذكر، وقد حدثني بعض من تاب من هذه الأعمال ممن كان يتصل على السحرة، فذكر أنهم كانوا يتصلون بسحرة في بعض

البلاد البعيدة المعروفة بالسحر ويرسلون لهم أموالاً عن طريق الحوالات ويعملون أعمالاً من السحر وكانوا يخبرونهم أحياناً بأنهم مع تكرار المحاولات ما استطاعوا، فالحاصل أن عملهم كثير جداً فهم ليس لهم شغل إلا هذا، ولكن الذي ينفذ منه قليل أو جزء منه، وصدق الله: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] وهذا أيضاً يذكر بقول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [(٦٩) سورة طـه]، وبقوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [(٧٦) سورة النساء] فكيد الشيطان ضعيف، ولذلك فإن مثل هذا المسحور إذا رقي ظهر ضعف الشيطان ورأيت كيف هذا العاتي المارد يبكي ويتوسل أعظم التوسل إلى هذا الراقي ليطلقه ويتركه ولا يلحقه الأذى منه، بينما من ضعف يقينه وضعف توكله ربما عبد هؤلاء الشياطين رجاء نفعهم أو خوف ضررهم فيتلاعبون به غاية التلاعب، قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [(٦) سورة الجن].

"وقوله تعالى: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره."

في قوله تعالى: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} ردٌّ على الذين قالوا: إن السحر لا تأثير له أصلاً، وهؤلاء في مثل هذه المسألة وفي غيرها من المسائل التي تشبهها يدورون على انحرافات في الاعتقاد عندهم في باب القدر، ولا أريد أن أدخل الآن في تفصيل هذه المسألة لكن أشير إلى المأخذ والأمر الذي وقع منه فساد التصور عند هؤلاء الناس وهو فساد اعتقادهم؛ لأنهم يقولون: لا مؤثر في الكون إلا الله، وهذه عبارة مجملة؛ إذ لا يقع شيء في الكون إلا بأمر الله وبإرادته وهذا أمر معلوم، فلا يقع في ملكه ما لا يريد، لكن هم يسلبون ذلك تماماً، ويقولون: إن دعوى أن شيئاً يؤثر بنفسه في الكون معناه ادعاء أن ثمة رباً مع الله -عز وجل- يدبر معه، وهذا شرك في الربوبية، فهم هكذا تصوروا القضية، ولذلك يأتون بالعجائب، فيقولون مثلاً: إن الانكسار لم يحصل بالكسر وإنما حصل عنده، والنار ليس فيها خاصية الإحراق وإنما حصل الاحتراق عند مقاربة النار وملابستها، فالنار لا تحرق بطبعها، وإنما الله هو الذي جعل هذا يحترق حينما دخل النار ولابسها، وكذلك يقولون: التجمد لم يحصل بسبب البرودة وإنما خلقه الله عند ملابسة البرودة، وكل هذا بناء على هذا الأصل الفاسد.

أما نحن فنقول: جعل الله في بعض الأشياء خاصية أودعها فيها إن شاء سلبها، ولا يقع في كون الله إلا ما يريد، والخلق كله خلقه، والملك ملكه والأمر أمره، فالنار ألقي فيها إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولم يحترق؛ لأن الله سلبها هذه الخاصية، ولكن من طبيعتها التي أودعها الله الإحراق وهكذا السحر يحصل له تأثير، لكن لا يكون هذا التأثير خارجاً عن إرادة الله -عز وجل- وتقديره، هذه هي خلاصة هذه المسألة ومأخذ هؤلاء أصحاب ذلك الأصل الفاسد.

يقول تعالى: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [(١٠٢) سورة البقرة] قد يقول قائل: إن السحر يحصل لهم به منفعة في الدنيا مثل المال الذي يكتسبونه، ومثل تحصيل بعض مطالبهم كأن يسحر هذه المرأة من أجل أن تحبه، وهي تسحر زوجها من أجل أن يحبها، وهذا يسحر هذا الإنسان ليستحوذ على ماله فيكون مسلوباً منقاداً له، وهذا كثير جداً، حيث تجد من يسحر شخصاً بأتفه الأمور كأن يشتري سيارة من إنسان فيكون ذلك

سبباً لسحر يدمر حياته من أولها إلى آخرها، فبسبب سيارة اشتراها منه يسحره ويستحوذ على ما عنده من مال وعقارات ويجعله يقترض دائماً من أجل أن يعطيه فهو لا يرد له طلباً.

فالمقصود أنه يحصل لهم هذا النفع في بادئ الأمر، وبالتالي فالمراد بقوله تعالى: {مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} كما حمله بعض أهل العلم ومنهم ابن جرير -رحمه الله- أن المقصود ما يضرهم في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة، وإن كان يحصل لهم بعض النفع في الدنيا لكن الضرر فيه أغلب.

ويمكن أن يقال: إن قوله: {مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} هذا ليس نفعاً حقيقياً، وإنما هو كالنفع الذي يحصل للزاني من لذة والسارق من تمتع بهذا المسروق ولكنه في الواقع ضرر، فهو يتجرع ظلماً وسحتاً وناراً، فهذا ضرر وليس بنفع، كالذي يلعق السم ويتلذذ بهذا الطعام الذي فيه السم، فمثل هذا حصل على ما يضره ولا ينفعه.

يقول ابن كثير: **وقوله تعالى**: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي: **يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره،** ابن كثير حمله على أنه ألغى هذا النفع الموهوم واعتبر الضرر المحقق الغالب فيه، فالنفع ألغاه وأهدره؛ لأنه لا قيمة له، فهذا الذي مشى عليه ابن كثير، وأما ابن جرير فعلى غير هذا، إذ يرى أنه يضر في الدنيا ولا ينفع في الآخرة، أي وإن حصل لهم به نفع في الدنيا فقليل، في مقابل الضرر الكثير.

"{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي: **ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لمن فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والسدي: من نصيب.**"

قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ} بعض أهل العلم يقول: إن "اللام" هذه جاءت لمعنى توكيد الكلام وتقويته فقط، و "من" اسم موصول، فيكون المعنى بهذه الطريقة: ولقد علموا الذي اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي الذي اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، يعني الذي اختاره وارتضاه بدلاً من اتباع الحق والوحي والعمل بما أنزل الله -عز وجل- على أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام-.

وبعضهم يقول: إن هذه اللام تدل على القسم وإن هناك قسماً محذوفاً، وهذا يقول به ابن جرير -رحمه الله-، أي: كأن الله تعالى يقسم بنفسه فيقول: والله لمن اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق.

أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

هذا على أساس أن الكلام يرجع إلى اليهود، {وَلَقَدْ عَلِمُواْ} أي اليهود، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى الشياطين باعتبار أن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله.

{وَلَقَدْ عَلِمُواْ} باعتبار أن هاروت وماروت من الشياطين فإنهم علموا لمن اشتراه.

ويحتمل أن يكون ذلك يعود إلى الملكين باعتبار أن هاروت وماروت من الملائكة فهما يعلمان ذلك، ويُعْلمان به، يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر، والله تعالى أعلم.

وسواء قلنا: إن هاروت وماروت ملكان أو إنهما من الشياطين فمجيئه بضمير الجمع في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ} وهما اثنان لا إشكال فيه إما باعتبار الأتباع أو باعتبار أن الاثنين أقل الجمع كما سبق، والله أعلم..

ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق.

في قوله: **الذين استبدلوا بالسحر**، يريد أن يفسر لفظة الاشتراء التي في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ} وقد سبق الكلام على معنى الاشتراء، ومثلنا بقول من قال: كما اشترى المسلم إذ تنصرا، وقلنا: إنه بمعنى استبدل النصرانية ولم يكن نصرانياً من قبل، ومثل ذلك اشتروا الضلالة بالهدى، ومثل ذلك قوله: {لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي: من اختار السحر على الإيمان واتباع الوحي.

{مِنْ خَلاَقٍ} [(١٠٢) سورة البقرة] **قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد والسدي: من نصيب.**

"**وقوله تعالى:** {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة البقرة]، **يقول تعالى:** {وَلَبِئْسَ} **البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لو كان لهم علم بما وعظوا به.**"

ويمكن أن يفسر {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} أي: ولبئس ما باعوا به أنفسهم فضيعوها وأهلكوها وأوبقوها بتعاطي السحر وترك الوحي المنــزل، ويمكن أن يفسر على ما سبق، ولا منافاة بين هذين المعنيين.

ابن جرير -رحمه الله- يرى أن قوله: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ} أي: باعوا، وكلام ابن كثير جرى فيه على معنى الاستبدال في الموضعين، ولا إشكال في هذا الأمر.

"{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ} [(١٠٣) سورة البقرة] أي: **ولو أنهم آمنوا بالله ورسله -صلى الله عليهم وسلم أجمعين- واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به.**"

قوله: **واتقوا المحارم لكان مثوبة**، يعني لثواباً، فالمثوبة بمعنى الثواب، مثل العقوبة بمعنى العقاب، ومعنى الآية: لثواب من عند الله خير في العاجل والآجل من هذا الذي اشتغلوا به لو كانوا يعلمون.

قوله: {لَمَثُوبَةٌ} اللام هذه جواب لو الأولى، {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ} أي: لو آمن لكان ثواب الله خيراً له من هذا الذي اشتغل به.

"**كما قال تعالى:** {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص]."

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٣) سورة البقرة] وفي الآية التي قبلها: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة] الختم لهاتين الآيتين بقوله: {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} لو كانوا يعلمون سيأتي الكلام عليه مع آية أخرى بإذن الله -عز وجل- في الجمع بين هذا وبين ما قد يتوهم أنه يعارضه، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٠٤) سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(١٠٢) سورة البقرة] ثم قال -تبارك وتعالى- بعد ذلك: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة]، وقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٣) سورة البقرة].

تأمل في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} فأثبت لهم العلم ثم ذكر ما يدل على نفيه عنهم وذلك في قوله: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة] معناها أنهم لا يعلمون، فكيف تجمع بين الأولى: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ} والثانية: {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}؟

الجواب هو أن الثانية تكون بمعنى لو كانوا يعقلون.

ففي قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} المعنى أنهم عرفوا حكم السحر، وأنه كفر ولا حظَّ ولا نصيب من الثواب والأجر لمن تعاطى السحر.

وفي قوله: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} وفي قوله: {لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} هؤلاء يمكن أن يكون المراد بهم علماء اليهود باعتبار أن الحديث عن اليهود وعن اتباعهم للسحر، وعلى هذا فمعناه أنهم لو كانوا يعلمون علماً ينفعهم، فالعلم الذي أثبته لهم أولاً هو المعرفة، لكن العلم قد لا ينتفع به صاحبه، حيث كثير من الناس يعلم كثيراً من الأحكام لكنه لا يمتثل، ولذلك تقول للإنسان: لو كنت تعلم، أو لو تدري لما فعلت كذا، وهو يعلم بالحكم.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}: الإنس، والذين علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق يمكن أن يقال: إن المراد بهم اليهود مثلاً، فالسياق يتحدث عن اليهود، {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة] فيمكن أن يكون المراد بقوله: {لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ} الإنس، وتلك في اليهود الذين تعلموا من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد يقال غير ذلك -والعلم عند الله -عز وجل- ومن أوضح ما يذكر في هذا هو ما ذكرته من أنهم لو كانوا يعلمون علماً ينتفعون به.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ* مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(١٠٤-١٠٥) سورة البقرة].

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا: راعنا، ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء]."

قوله تعالى: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} ما المراد بـــ{رَاعِنَا} وإلى أي شيء ترجع؟

إذا جمعت أقوال وعبارات المفسرين، تجد أنها مأخوذة من الرعاية، ومن الرعونة، ومن الرفق، وراعنا بمعنى أمهلنا، وقال بعضهم: راعنا، بمعنى تكلم بكلام نفهمه عنك، وبمعنى ارقبنا وبمعنى أَرْعِنا سمعك.

فلو نظرنا في المعاني وأرجعناها إلى ما يمكن أن يفسر به راعنا فإنها ترجع إلى أصل وجذر في الكلام فإذا قلنا: إنها بمعنى أَرْعِنا سمعك أو ارقبنا، أو من الرعاية، أو أنها من الرفق، فهل هي مثل الرعونة؟

الجواب: لا، وإنما الرعونة مأخوذة من رعن وهذه المعاني ترجع إلى رعى، وإذا قلنا: إنها من رعن يرعن رعونةً فهو راعن وأرعن، وكلمة راعن وأرعن تدل على الطيش والهوج، يقولون: فلان أرعن يعني أهوج لا تقترب منه فلا تدري ما الذي يصيبك من مقاربته إذ هو أَحمق، رعن يرعن رعونة فهو راعن وأرعن، فالذين فسروها بأن اليهود كانت تلوي ألسنتها، فمعنى ذلك أن هذه اللفظة تعود إلى شيئين، المعنى الأول: أن هذه اللفظة عند اليهود لفظة سبٍّ في لغتهم يعني في غير العربية، فإن قيل: كيف استعملوا لغة أعجمية في مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو عربي؟

يقال: لما استعملها الصحابة -رضي الله عنهم- في المعنى الآخر استغل اليهود الفرصة وصاروا يطلقون هذه اللفظة الأعجمية التي هي عبارة عن سب باللغة العبرية بحيث صاروا يستعملونها يقصدون بها المعنى الذي في لغتهم والذي هو من أقبح السب وأبشعه، والسامع يظن أنهم يتكلمون بلفظة عربية حيث اتفقت لفظة مع لفظة، لكنها في معناها عند العبرانيين سب قبيح، فصاروا يطلقونها ويتضاحكون فيما بينهم، فالمقصود أنهم استغلوا التوافق في اللغة.

المعنى الثاني: أنها عربية من الرعونة، والمعنى أنهم يعبرون بلفظة ظاهرها قد يستعملها اليهودي مريض القلب في معنىً سيء، فالمسلم يقول: راعنا يقصد ارقبنا وانظرنا، لكن هذا يستغلها كأنه يقول له: يا أرعن، ولهذا جاء في قراءة تنسب للحسن البصري وهي شاذة: (راعناً) بمعنى أنهم ينسبونه إلى الرعونة، فالمتكلم بها يحتمل أن يقصد بها ارقبنا وانظرنا، ويحتمل أن يقصد بها نسبته إلى الرعونة، والإنسان لا يتكلم بالألفاظ المحتملة المجملة، وهذا أصل كبير يذكره أهل العلم وأهل السنة سواء في قضايا الاعتقاد أو في غيره، وهي أن الإنسان يتكلم بالكلام البين الواضح الذي لا يحتمل الحق والباطل؛ لئلا يفهم عنه غير المراد.

وهذه الآية أصل في هذا الباب، وهي أصل أيضاً في باب التشبه، فلا تتشبه بهؤلاء اليهود الذين يطلقونها ويقصدون بها المعنى السيئ وإن قصدت معنىً حسناً.

وإذا فسرت هذه اللفظة بأنها من رعى نجد المعاني التي ذكرت -ارقبنا وانظرنا وأمهلنا وما أشبه ذلك- بمعنى لا تعجل علينا، فراعنا وارقبنا وانظرنا من الرعاية ولهذا يقال لراعي الغنم: راعي؛ لأنه يلاحظ هذه الدواب ويرقبها وما إلى ذلك، ويقال للحاكم أو الأمير أو الوالي أو الملك أو الخليفة راعي، وفي الحديث: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[1] فذلك يرجع إلى معنى ارقبنا واحفظنا وما أشبه ذلك.

فالإشكال على تفسير الكلمة بالمعنى الثاني -وهو أنها من "رعى"- أنهم عبروا بلفظة محتملة استعملتها اليهود على وجه قصدوا به المعنى السيئ واستعملها المسلمون من الصحابة في معنىً حسن، فـ"راعنا" حينما يقولها المسلمون فهي قطعاً ليست من الأول، بل هي من الثاني قطعاً، وأما اليهود فحينما لووا بها ألسنتهم فهم إنما نطقوا بها على أنها أعجمية –سب عندهم- أو نطقوا بها على أنها عربية وقصدوا الرعونة.

وبعض أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري- لمّا أرجعها إلى أصلها أرجعها إلى المعنى الثاني أولاً وآخراً، وعلل سبب النهي عنها بما لا يرجع إلى المعنى الأول، فقال: راعنا المراعاة تدل على مفاعلة بين شيئين كالملاحظة، والمراقبة، والمبارزة، والمصانعة، والمناجزة، والمقاتلة، والمبايعة، وما أشبه ذلك.

فهو يقول: إن معنى هذا الكلام أي: إذا قالوا: راعنا فمعناه افهم عنا نفهم عنك، وارقبنا نرقبك، واسمع منا نسمع منك، فصارت القضية على سبيل المشارطة والمقابلة، وهذا لا يليق في خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يليق في ذلك ما كان على سبيل الإفراد لا على سبيل المقابلة، فجاء لهم بلفظة بديلة لا تقتضي هذا وهي أن يقولوا: انظرنا؛ لأنه لا يقال: انظرنا ننظرك، فالمقصود النهي عن التكلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الطريقة وكأنها مقايضة بحيث لا يسمعون منه حتى يسمع منهم.

هذا هو المعنى الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- فهو لم يذهب بها إلى أن النهي من أجل أنها توهم معنى الرعونة وإنما لقلة الأدب فيها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى أنهم جعلوه كأدنى الناس ممن تقول له: اسمع مني وأسمع منك، ارقبني وأرقبك، أرْعِني سمعك وأرعيك سمعي، وهذا لا يليق في الخطاب مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وبهذا القول تستطيع أن تجمع الأقوال التي قيلت وتعرف إلى أي شيء ترجع، وبهذا نعرف أن كلمة: "راعنا" لم يطلقها من أطلقها من المسلمين بقصد المعنى الأول -من الرعونة-، لكن نهى الله -عز وجل- عنها لما فيها من سوء الأدب في التعبير مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، والشريعة جاءت بما يحسن ويجمل من الألفاظ والتعابير والكلام، ولهذا لا يقال: عبدي وأمتي لكن يقال: فتاي وفتاتي، ولا يقال: وضئ ربك وإنما يقال: وضئ سيدك، قال تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا} [(٦٣) سورة النـــور] سواء فسرت بأنها في المناداة والمخاطبة بمعنى لا ترفع صوتك وتتكلم معه كما لو تكلمت مع غيره من الناس، أو كما تتحدثون فيما بينكم، بل تكلم بأدب وخفض صوت، كما قال في الآية الأخرى: {لَا تَرْفَعُوا

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام - باب: قول الله تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِـنكُمْ} [(٥٩) سـورة النسـاء] (٦٧١٩) (ج ٦ /ص ٢٦١١) ومسلم في كتاب: الإمارة - باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٩) (ج ٣ / ص١٤٥٩).

أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [(٢) سورة الحجرات]، أو كان المراد به: لا تقل يا محمد -مثلاً- كدعاء بعضكم بعضاً، بل قل: يا رسول الله، فإن المقصود من ذلك هو تعليمهم الأدب في الألفاظ، إما لأن هذه اللفظة محتملة، وقد تستغل كما فعل اليهود حيث استعملوها استعمالاً سيئاً، أو لأنه لا يليق مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك؛ لأنها تُفهِم معنى المفاعلة، وأياً كان، سواء كان هذا أو هذا فكل ذلك لا يليق، ولذلك علمهم الله الأدب في تعاملهم معه بحيث استبعد الألفاظ الموهمة للمعاني الباطلة وجاء بالألفاظ التي –أيضاً- لا رعونة فيها ولا جفاء ولا سوء أدب معه -صلى الله عليه وسلم-.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا: راعنا، ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٤٦) سورة النساء].

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلَّموا إنما يقولون: السامُ عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ"وعليكم"، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٠٤) سورة البقرة]

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصَّغارُ على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[1].

وروى أبو داود عنه -رضي الله تعالى عنه-: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[2] ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نُقرر عليها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فذكرت في الدرس الماضي خلاصة ترجع إليها أقوال أهل العلم في معنى هذه الآية: **{لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا}** [(١٠٤) سورة البقرة] والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما هو ظاهر هنا أن ذلك من أجل أن لا نشابه اليهود، حيث أطلقوا هذه الكلمة وأرادوا بها معنىً من المعاني السيئة قصدوه، وذهب بها -رحمه الله- إلى أنهم قصدوا بها الرعونة.

وعلى كل حال سواء كان ذلك مما يعبرون به عن الرعونة باللغة العربية أو أنها كلمة كانوا يقصدون بها السب والشتم بلغتهم العبرية، فكل ذلك يجري على النهي عن مشابهتهم ومضاهاتهم من جهة، وأن لا يعبر الإنسان بالعبارات المحتملة للحق والباطل، وذكرنا أن المسلمين حينما يطلقون هذه الكلمة إنما يذهبون بها إلى

[1] - مسند أحمد (ج ٢ / ص ٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٨٣١).
[2] - سنن أبي داود في كتاب: اللباس - باب في لبس الشهرة (٤٠٣١) (ج ٢ / ص ٤٤١)وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦١٤٩).

معنى رعى، أي ارقبنا وما أشبه ذلك، فعلموا كلمة بديلة لا تحتمل الباطل؛ لئلا يقعوا في هذه المضاهاة -وإن لم يقصدوا المعنى السيئ-، وهذا من التأديب الذي أدبهم به الشارع في عباراتهم وألفاظهم.

وعرفنا أن ابن جرير -رحمه الله- ذهب بها إلى معنىً آخر لا يخرج عن حد التأديب، ولكنه لم يربط ذلك باليهود وإنما فسرها بأن المقصود هو أن هذه اللفظة لا تليق من جهة أنها بمعنى المفاعلة -ارقبنا نرقبك، واسمع منا نسمع منك، وراعنا نراعك، وما أشبه ذلك- وأن هذا لا يليق، وإنما الواجب على الإنسان أن يسمع ويطيع ويتأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يكون ذلك على سبيل المقابلة والمقايضة أو ما أشبه ذلك مما يطلب فيه من المخاطب فعلاً كفعله هو، بحيث يقول: إن فعلت ذلك أفعل ذلك، افعل كذا وأفعل كذا، هذا لا يليق.

هذا الذي ذهب إليه ابن جرير، وهو غريب؛ وذلك أن ابن جرير -رحمه الله- من كلام الله -عز وجل- عن قصة آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرر أن ذلك جميعاً مما خوطب به اليهود، أي من قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة]، فهو يقول: إن الله يذكِّر اليهود بهذه القضية، وهكذا في كل قضية بعدها يقول: إن المراد بها اليهود، ثم جاءت قضية النسخ كما سيأتي، {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] وكان المقصود بها الرد على اليهود، ثم جاءت قضية القبلة أيضاً، فقال: والمقصود بها الرد على اليهود، ثم جاءت قضية الولد، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة]، فجعل مجموعة من الآيات بعدها في النصارى، فالمقصود أنه يجري ذلك على أهل الكتاب، وأغلب هذه الآيات أجراها على اليهود وإن لم يكن لليهود ذكر فيها، فهذه الآية أولى وأحرى أن تجعل في اليهود أو أن يجعل علة النهي من أجل عدم مضاهاة اليهود؛ حيث أطلقوا هذه الألفاظ، لا أن ذلك بسبب أن هذه اللفظة في ذاتها تقتضي المفاعلة، وإنما لأن اليهود قالوا كلمة قصدوا بها معنىً سيئاً، كما قال الله -عز وجل-: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ} [(٤٦) سورة النساء]، فمعنى ذلك أن اليهود كانوا يطلقون كلمة ظاهرها السلامة أو تحتمل السلامة وقصدوا بها غير ذلك، والله تعالى أعلم.

"**وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-**: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} [(١٠٤) سورة البقرة] **قال: كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أرْعِنا سمعك، وإنما** {رَاعِنَا} **كقولك: عاطنا.**"

قوله: {رَاعِنَا} **كقولك: عاطنا**، عاطنا من المعاطاة يعني أنها تقتضي المفاعلة.

"**وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد:** {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} **لا تقولوا خلافاً.**"

قوله: **وقال مجاهد:** {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} **لا تقولوا خلافاً**، كأنه يقول: لا تقولوا مخالفة، أي لا تقولوا قولاً فيه مخالفة، لا تقولوا شيئاً يخالف ما أمركم الله -عز وجل- به، وإنما ينبغي أن تكونوا على حال من الطاعة والانقياد والاستقامة.

فقوله: **لا تقولوا خلافاً**، كما تقول: لا تقل نكراً، يعني لا تقل منكراً، وهذا التفسير إذا أخذ من حيث هو أي بظاهره هكذا على أنه تفسير "راعنا" ففيه إشكال؛ لأن لفظة راعنا، رعى، والمراعاة، ليس من معانيها

المخالفة، وإنما الملاحظة، والمراقبة، والنظر وأشباه ذلك من المعاني التي تدل عليها هذه اللفظة أو تفسر بها، أما المخالفة فليس ذلك من معانيها، لكن يمكن أن يوجه هذا القول بأن يكون معناه لا تقولوا قولاً مخالفاً، بمعنى لا تقولوا الألفاظ والعبارات التي لا تليق كالعبارات التي يمكن أن توصف بالرعونة والجفاء، أو التي لا تكون بمعنى الاستجابة والانقياد لأمر الله -عز وجل- كما يقولون: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا} [(٤٦) سورة النساء] وكأنهم –أي اليهود- يقولون: اسمع لا سمعت، وإن كان يمكن أن يفهم من ظاهر قولهم: واسمع غير مسمع مثل ما يقول بعضهم: ما عليك أمر، وإن كانت اللفظة لا يريدون بها هذا المعنى.

فقوله: **لا تقولوا خلافاً**، معناها لا تقولوا: سمعنا وعصينا، وإنما قولوا: سمعنا وأطعنا، فبهذه الطريقة يمكن أن يوجه قول مجاهد، أما أن نفسر لفظة راعنا بمعنى لا تقولوا خلافاً فليس هذا من معانيها، وابن جرير -رحمه الله- أنكر هذا المعنى ورده، وقال: لا يعرف في معنى راعيت معنى خالفت، والله أعلم.

" **وفي رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك.**"

قوله: **اسمع منا ونسمع منك**، هذا يجري على قول ابن جرير -رحمه الله-؛ لأن القضية المشكلة ليست عند لفظة "راعنا" أنها قالتها اليهود، ونهينا لأن اليهود قالتها لما فيها من معنىً سيء في لغتهم، أو أنهم قصدوا بها المعنى السيئ، لا، وإنما لأنها خلاف التأدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى أنه يجب عليكم أن تسمعوا أنتم فالأمر إليكم، ومن الأدب أنه عليكم سماعه لا أن تشترطوا أن يسمع منكم.

"**وقال عطاء: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} كانت لُغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها.**"

راعنا كانت لغة تقولها الأنصار بمعنى أن الأنصار يقولون: راعنا بمعنى ارقبنا، من المراعاة، وبمعنى انظرنا، لكن هذه اللفظة لما كانت تحتمل المعنى السيئ والمعنى الصحيح نهوا عنها، ولا زالت هذه اللفظة تستعمل بمعنيين إلى يومنا هذا، يستعملها أهل البادية الآن بمعنى نظر البصر، يقولون: راع بمعنى انظر يقصدون بها نظر العين، ويطلقها غيرهم ويقصدون بها معنى المراعاة وهي الالتفات إليهم، ورعي أحوالهم، وملاحظة هؤلاء الناس ليس بالعين وإنما بالفعل، ويدخل فيه ما يقول المشتري للبائع: راعني في هذا، يقصد بها طلب الالتفات إلى مطلوبه وحاجته وتحقيق رغبته في أن يضع له من السعر، وإذا قالها المريض مثلاً فهو يقصد بذلك تقدير حاله وعجزه والالتفات إلى ضعفه ومرضه بحيث لا يطالب بأكثر مما يطيق.

وهؤلاء قالوها للنبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى لا تعجل علينا، وأمهلنا وارقبنا، ولاحظ حالنا، حتى نفهم عنك، ونأخذ عنك، ونتلقى عنك، فهم قصدوا هذا المعنى، لكن هذه اللفظة غير مناسبة في التخاطب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فأعطاهم لفظة تقوم مقامها ولكنها لا تحتمل المعنى السيئ، وذلك أن يقولوا: انظرنا بمعنى ارقبنا ولاحظنا وما أشبه ذلك، فالمقصود أن الأنصار كانوا يعبرون بهذه اللفظة في لهجتهم يقصدون بها ما ذكرت، فعُلّموا لفظة بديلة ليس فيها احتمال.

وعلى قول ابن جرير، اللفظة البديلة لا تقتضي المفاعلة وإنما تكون من طرف واحد، أي انظرنا من أجل أن نفهم عنك، وليس ارقبنا نرقبك، ولاحظنا نلاحظك..

وعلى كل حال فإن الفائدة التي نخرج بها من هذا أن الإنسان المسلم لا يضاهي أهل الباطل بعباراتهم التي يقصدون بها المعاني السيئة، وكذلك لا يطلق العبارات ابتداءً وإن لم يقلها أهل الباطل، وأقصد العبارات التي

تحتمل معنىً صحيحاً ومعنىً باطلاً، وهذا كثير في كلام أهل العلم من أهل السنة حيث يوضحون موقفهم من مثل هذه الأشياء، ففي العقيدة مثلاً تجدهم يتكلمون على ما إذا خاطبوا أهل الكلام فإنهم ينكرون عليهم استعمال الألفاظ التي تحتمل الحق والباطل كلفظة الجسم، والعرض، والجوهر، والجهة، والتحيز، وما أشبه ذلك مما يعبرون به عند الكلام على صفات الله -عز وجل-، فأهل الكلام ينفون عن الله هذه المعاني ويقصدون بها أحياناً أو غالباً نفي معانٍ صحيحة ثابتة، فينفي التحيز مثلاً ويقصد به نفي العلو والاستواء، وينفي الجسم ويقصد به نفي الصفات الذاتية غير المعنوية كاليد والوجه ونحو ذلك، وينفي الأعراض ويقصد بها نفي الصفات المعنوية كالضحك والغضب وأشباه ذلك ويقولون: هذه أعراض وهكذا، فأهل السنة حينما يأتون إلى أهل الكلام ويناقشونهم يقولون لهم: نحن لا نثبت الجهة ولا ننفيها، ولا نستجيز إطلاق ذلك، وأما أنتم فماذا تقصدون بالجهة؟ إن قصدتم بها معنى أنه ما فوق العالم فنحن نقول: هذا صحيح، وإن قصدتم أن الله -عز وجل- تحوطه جهة من الجهات المخلوقة فالله أعظم شأناً من ذلك، فالله فوق العالم بائن منه، لا يحوطه شيء من المخلوقات، فالمقصود أنهم يستفصلون منهم هذا الاستفصال عند مثل هذه الألفاظ والعبارات فلا ينفونها بإطلاق ولا يثبتونها بإطلاق بل لا يعبرون بها ابتداءً وينكرون على من استعمل هذه الألفاظ.

وعلى كل حال هذا الكلام في باب الاعتقاد، وقد ذكرنا في الدرس الماضي بعض الأحاديث الواردة في التأديب، واستعمال بعض الألفاظ كعبدي وأمتي، وماذا يقولون بدلاً من ذلك، فهذه فائدة مهمة وأساسية.

وأما ما وراء ذلك مثل هل هذه نهي عنها؛ لأن اليهود قالتها بلغتها؟ أو لأنها بمعنى السب عندهم؟ أو قالتها بالعربية وتقصد بها الرعونة؟ فهذا القدر لسنا مضطرين إليه، يعني لا يتوقف العمل بالآية على هذا القدر من التفسير، وإنما القدر الذي نحتاج إليه هو أن هذا من التأديب في كيفية التعامل مع الألفاظ التي تحتمل معنىً صحيحاً ومعنىً باطلاً، وما وراء ذلك لا نضطر إليه سواء قالوها بلغتهم أو قالوها بالعربية، وسواء قصدوا بها معنى الرعونة أو غير ذلك فالمهم أنهم استعملوا عبارات ولووا ألسنتهم بالكلام ليصلوا إلى معانٍ قبيحة لا تليق، ونحن منهيون؛ لئلا نضاهي هؤلاء المبطلين من جهة، ولئلا نستعمل الألفاظ التي تحتمل المعاني الصحيحة والمعاني الباطلة من جهة أخرى، فهذا القدر هو الذي نحتاج إليه وينبني عليه العمل في تفسير الآية، فإذا نظر طالب العلم إلى مثل هذه القضايا بهذه الطريقة أراح نفسه من كثير من الإشكالات والدخول في أمور أو مضائق قد لا يحتاج إليها، أو ليس بمضطر إليها، خاصة وأن القطع بشيء من هذه الإشكالات أمر قد لا يوجد عليه دليل يعتمد عليه، لكن الآية فيما أظن لا يقتصر في تفسيرها على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- فقط دون غيره، وهو قوله: نحن منهيون لما فيها من معنى المفاعلة، لكن يمكن أن نقول: هي لفظة غير لائقة، فهي تحتمل معاني باطلة، ومن ذلك أيضاً أن فيها معنى المفاعلة وهذا أمر لا يليق، والله تعالى أعلم.

"وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا لقيه فكلمه قال: أرْعِني سمعك واسمع غير مُسْمَع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفَخَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غَيْرَ صاغر، وهي كالتي في سورة النساء.

في سورة النساء قال الله -عز وجل- عن اليهود: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ} [(٤٦) سورة النساء] فالمقصود أن هذه اللفظة نحن منهيون عنها؛ لأن فيها سوء أدب، واليهود يذهبون بها إلى المعنى السيئ، وعلى كل حال سواء قُصِد بها ما كان بلغتهم أو لا، فالمقصود أننا لا نقول ذلك، وكذلك الأمر في قوله: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ} لا يجوز استعمالها أياً كان المقصود بها.

" **فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا.**"

قوله تعالى: {وَاسْمَعُوا} يمكن أن يحمل على ما ذكر في الآية، يعني اسمعوا هذا التوجيه والتعليم بحيث إنكم منهيون عن إطلاق مثل هذه اللفظة، فلا تعبروا بها في مخاطبته -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل العموم، أي اسمعوا ما أمرتم به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتلقوا عنه.

"**وقوله تعالى: {مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** [(١٠٥) سورة البقرة] **يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم.**

ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- حيث يقول تعالى: {وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(١٠٥) سورة البقرة]."

هذه الآية أيضاً في أهل الكتاب، وهي من جملة الآيات الكثيرة جداً في سورة البقرة وفي غيرها من سور القرآن التي يذكر الله -عز وجل- فيها ما ينفر قلوب أهل الإيمان عنهم.

وحينما نزلت هذه الآيات من سورة البقرة لم يكن اليهود في ذلك الوقت قد احتلوا شيئاً من بلاد المسلمين أصلاً، ولا غصبوا أموالهم، ولا حاربوهم ولا اعتدوا عليهم ومع ذلك فإن الله -عز وجل- يذكر هذه الأمور التي توجب الكراهية والبغض والبراءة من أعداء الله -عز وجل- والله يذكي هذه الكراهية في نفوس المسلمين، وقد صارت هذه الكراهية جريمة لا تغتفر في هذا العصر، وللأسف صار بعض الناس يقول: ليست العداوة للكفار لأنهم كفار؛ وإنما لأنهم قاتلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وبالتالي إنما تكون العداوة للكفار الذين يقاتلون المسلمين، وهكذا يدلسون على الناس في قوله: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [(٨) سورة الممتحنة] فتجدهم يفسرون البِرَّ هنا بمعنى المحبة والموالاة، إلى غير ذلك مما يقال، وإنما المقصود أن الموالاة ليست مرتبطة بأنهم اعتدوا على المسلمين أو ما اعتدوا وإنما هم اعتدوا على أعظم حق لله -عز وجل- وهو التوحيد، فهذا هو الذي أوجب العداوة والبغضاء، وليس لأنهم يحاربون المسلمين، فهذا كفر على كفرهم، فالعداوة تجب لجميع الكفار سواء حاربوا المسلمين أو لم يحاربوهم، فالواجب على كل مسلم أن لا يحب أعداء الله، قال تعالى: {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [(٤) سورة الممتحنة]، فالمقصود أن مثل هذه الأمور ينبغي أن يعرفها المسلم وتكون حاضرة على باله وتبث في الناس، ويعلمها الصغير والكبير؛ لئلا تضيع حدود

الله -عز وجل- ويُلعب بالدين، بل وصل الأمر ببعض المعممين إلى أنه قال أكثر من هذا، حتى قال: العداوة التي بيننا وبين اليهود ليست دينية، وإنما عداوتنا مع الصهاينة فقط؛ لأنهم احتلوا أرضنا!!

نحن نقول: لو أرجعوا فلسطين على طبق من ذهب فهم أعداؤنا وأشد أعدائنا؛ فآيات القرآن واضحة قبل احتلال فلسطين، فهي ليست في الصهاينة فقط وإنما في عموم هؤلاء الكفار، فالله -عز وجل- ذكر طبقاتهم في كفرهم وعداوتهم.

"{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة] **قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} ما نبدل من آية.**

وقال ابن جُرَيج عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} أي: ما نمحُو من آية.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها ونبدل حكمها."

القولان الأولان اللذان ذكرهما -ما نبدل من آية، وما نمحُو من آية- بينهما مقاربة لا تخفى، وذلك أن النسخ في لغة العرب يأتي لمعنيين، الأول: بمعنى النقل، وذلك إما مع بقاء الأصل المنقول، كما تقول: نسخت الكتاب، فأصله باق وإنما نقلت صورته، وإما أن يكون مع انتقال أصله، فأنا لما أنقل هذا الكتاب من هنا وأضعه هاهنا، فهل بقي أصله في مكانه؟ الجواب: لا، فالنقل يكون على صورتين: إما مع بقاء الأصل المنقول كنسخ الكتاب، فيبقى أصله وإما بنقله بالكلية بحيث لا يبقى أصله.

والمعنى الثاني من معاني النسخ هو بمعنى الإزالة والرفع، وإن شئت أن تقول: الإبطال وذلك يأتي أيضاً على صورتين، الأولى: إزالة يحصل بها ما يحل مكان هذا الذي أزيل، مثلاً لما تقول: نسخت الشمس الظل، فالذي حل محل الظل هي الشمس، وهناك إزالة وإذهاب من غير أن يحل مكانه غيره مثل أن تقول: نسخت الريح الأثر، بمعنى محته وأزالته وأذهبته، فهل جاء مكانه شيء آخر؟ الجواب: لم يأت مكانه شيء آخر.

فالنسخ يأتي لمعنيين يقع كل واحد منهما على صورتين، والمشهور عند أهل العلم حينما يرجعون النسخ إلى أصل معناه اللغوي أنهم يفسرونه بالثاني الذي هو بمعنى الرفع، بصرف النظر عن صورة هذا الرفع هل هو رفع وإذهاب مع إيجاد البديل أو رفع بالكلية للشيء من أصله دون أن يوجد شيء آخر مكانه بناءً على الكلام المعروف وهو سيأتي إن شاء الله عند قوله: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] هل النسخ لا بد فيه من بدل، أو لا يشترط البدل؟ فهذه قضية خلافية، لكن بغض النظر عن خلافهم فيها فعامة الأصوليين والمفسرين يفسرون النسخ بمعنى الرفع، ولهذا يقولون في معناه الشرعي: إنه رفع حكم شرعي متقدم بخطاب متراخ عنه، فهذا أحد التعريفات التي يذكرونها، والمقصود أنهم يعبرون بلفظ الرفع.

بل إن عامة أهل الأصول يفرقون بين النسخ وبين غيره مما قد يعبر السلف عنه بالنسخ من كل ما يعرض للفظ من تخصيص للعموم أي: مما يغيره عن ظاهره، كتخصيص للعموم، وتقييد للمطلق، وما أشبه ذلك مما يسمونه بالنسخ، فعامة أهل الأصول يجعلون النسخ من قبيل الرفع، وأما تخصيص العام وتقييد المطلق وبيان المجمل ونحو ذلك فيجعلونها من قبيل البيان، وهذا نحتاج إليه عند القراءة في الأصول عند الكلام على بعض المعارضات، حيث لما يتكلمون مثلاً على قضية الآحاد، هل يرفع المتواتر؟ وهل يُرفع القطعي بالظني؟ وهل

السنة تنسخ القرآن.. إلى آخره، فتجد أن من يمنع من بعض هذه الصور، إذا قيل له: هل السنة تخصص القرآن؟، يقول: لا، وإنما هذا بيان والنسخ رفع.

وإذا جاء يتكلم على نسخ المتواتر بالآحاد قيل له: هل الآحاد يخصص المتواتر؟ يقول: نعم، فيقال له: ولماذا لا ينسخه؟ فيقول: لا، ذاك بيان وهو أخف والنسخ رفع، ولا يقوى على رفعه إلا ما يكافئه أو يزيد عليه.

وهذه في الحقيقة إنما هي شبه؛ إذ إن الراجح في هذا أن السنة تنسخ القرآن، والآحاد ينسخ المتواتر بصرف النظر عن التطبيقات التي تذكر فليست القضية في مثال، وعلى كل حال هذا الذي مشى عليه عامة أهل العلم.

ابن جرير -رحمه الله- لا ينكر النسخ أبداً وهو يذهب إلى أن النسخ بمعنى النقل، وكلام ابن جرير هذا إذا أردنا أن نوجهه فإنه يقصد به نقل الحكم من حال إلى حال، نقل المكلف من حكم إلى حكم، فالمكلف كان مطالباً باستقبال بيت المقدس ثم نقل منه إلى استقبال الكعبة، فهنا نُقل الحكم من وجوب استقبال بيت المقدس إلى وجوب استقبال الكعبة، فهذا بمعنى النقل، فهو فسره بمعنى النقل، أي نقل الحكم وإن شئت أن تقول أيضاً: نقل المكلف من هذا الحكم إلى حكم آخر، كأن يكون نقل الحكم من الوجوب إلى الاستحباب.

وإذا كان ذلك هو المراد فالخطب يسير، فإننا إذا أثبتنا النسخ فالخلاف في إرجاعه إلى أصل معناه اللغوي هل يرجع إلى معنى النقل أو إلى معنى الرفع فالقضية أشبه ما تكون بالخلاف اللفظي ولا يترتب عليه أثر من الناحية العملية.

ولذلك نجد بعض أهل العلم يقول: إن النسخ يأتي بمعنى النقل ويأتي بمعنى الرفع، فإن فسرناه بمعنى النقل فهو لأن المكلف قد نقل من كذا إلى كذا، أو أن الحكم قد نقل من كذا إلى كذا، وإذا فسرناه بمعنى الرفع فهو رفع الحكم الأول بخطاب متراخ عنه.

وقال ابن أبي نَجيح عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها ونبدل حكمها.

قوله: **عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها**، هذا نوع من أنواع النسخ وليس هو كل النسخ، وإلا فقوله تعالى: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ..) فإن خطها هو الذي قد نسخ وأما حكمها فباق، فالمقصود أنه ذكر نوعاً من أنواع النسخ فلا حاجة أن يقال: إن قوله هذا غلط.

"حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهم- وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك.

وقال السدي: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} نسخها: قبضها، وقال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها، ورفعها، مثل قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..)، وقوله: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا".

القبض بمعنى الرفع.

"وقال ابن جرير: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يحوّل الحلالُ حراماً والحرام حلالاً، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. "

هو ذكر هنا أقسام الحكم التكليفي، وبين أن النسخ إنما يكون في الإنشاء بمعنى الأمر والنهي سواء كان على سبيل الوجوب أو الاستحباب أو النهي، وسواء كان على سبيل التحريم أو الكراهة، يعني النهي الجازم والنهي غير الجازم، والأمر الجازم وغير الجازم، وبقي طرف خامس وهو الإباحة والمقصود بها هنا قطعاً الإباحة الشرعية وليست الإباحة الأصلية، فالإباحة الأصلية لا يكون رفعها من قبيل النسخ وإنما يكون ابتداء حكم جديد، وإنما المقصود رفع الإباحة الشرعية، يعني الإباحة التي صدرت من الشارع بأن أباح لهم هذا الشيء ثم حرمه مثلاً فهذا هو الذي يكون من قبيل النسخ مثل المتعة، إذ لما رخص لهم في المتعة صار حكم المتعة مباحاً إباحة شرعية، ثم لما حرمت صار ذلك من قبيل النسخ، لكن الأشياء التي كانوا يتعاطونها قبل مجيء الشرع ثم جاء الحكم بتحريمها –مثلاً- فإن ذلك يكون من قبيل فرض الأحكام الجديدة وليس من قبيل النسخ.

وكذلك الأمر في الواجبات والمستحبات، فالصلاة قبل أن تجب عليهم مطلقاً كان الأصل براءة الذمة، وبالتالي فإن وجوب الصلوات بعد ذلك ليس ناسخاً وهذا معنى كلام ابن جرير، وكلامه واضح حيث يصرح فيه بأن النسخ بمعنى النقل.

"فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ."

لو سأل سائل وقال: لماذا لا يكون في الأخبار ناسخ ومنسوخ؟ فالجواب هو أنه لا يصح ذلك؛ لأن النسخ هنا يكون تكذيباً، فلو قلت: ذهب زيد ثم قلت: لم يذهب زيد، فإن هذا تكذيب للخبر، ولذلك لا يقع النسخ في الخبر إلا إذا كان مضمناً لمعنى الأمر أو النهي بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** [(٢٣٣) سورة البقرة] فهذا ظاهره الخبر ومعناه الإنشاء وهو الأمر، فهو يأمرهن أن يرضعن أولادهن حولين كاملين، ثم بين أن هذا ليس على سبيل الإلزام والوجوب فقال: **{لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** [(٢٣٣) سورة البقرة].

وكذلك في مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}** [(٢٤٠) سورة البقرة] فهذا ظاهره الخبر ومعناه الإنشاء.

وكذلك في قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة] فهذا خبر مضمن معنى الإنشاء، بمعنى أنه أمر من الله -عز وجل- لأهل الإيمان أن لا يمكنوهم من دخولها إلا في حال الهدنة أو إعطائهم الأمان ونحو ذلك، فيدخلون في حال من الخوف إلى هذه الأماكن، والأمثلة على ذلك كثيرة، والله تعالى أعلم.

فإذا قيل: إن النسخ لا يكون في الأخبار، فالمقصود الخبر الذي هو خبر صيغةً ومعنىً، وما عدا ذلك مما يراد به الخبر المحض فإنه لا يدخله.

ويقولون كذلك: إن النسخ لا يدخل في الثوابت وأصول الدين، فلا يدخل في العقائد، ولا في أصول الأخلاق.

"وأصل النسخ من نَسْخ الكتاب، وهو نقلُه من نسخة."

يصلح أن يكون من نَسَخ الكتاب وأن يكون من نَسْخ الكتاب بمعنى نقله، ولو كان يقصد هنا من نَسَخ الكتاب لقال: من نَسَخ الكتاب إذا نقله.

"وأصل النسخ من نسْخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره."

نسْخُ الكتاب كما قلنا يكون مع بقاء الأصل، لكن النسخ الذي لا يكون مع بقاء الأصل مثل ما ذكرنا: نسخت الريح الأثر، ومن ذلك قول الله -عز وجل-: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [(٥٢) سورة الحج] بمعنى الإزالة والإبطال، أي: يبطل الله ما يلقي الشيطان.

"فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها؛ إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة.

وقوله تعالى: {أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ} فقرئ على وجهين: "نَنْسأها ونُنْسها"."

هاتان قراءتان متواترتان.

"فأما من قرأها بفتح النون، والهمزة بعد السين فمعناها نؤخرها."

(أونُنْسها) هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير من السبعة، وأما من قرأها بفتح النون، والهمزة نَنْسأها فهي بمعنى التأخير، أي نؤخرها، والمعنى نؤخرها عن النسخ، فلا ننسخها، تقول: نسأت هذا الأمر بمعنى أخرته، ويقول الله -عز وجل-: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [(٣٧) سورة التوبة] فالنسيء بمعنى التأخير، أي أنهم يؤخرون الأشهر الحرم، فالشهر الحرام هو مثلاً شهر رجب فيعلنون في الحج ويقولون: السنة القادمة سيكون الشهر الحرام هو شعبان، والسنة التي بعدها يجعلونه رمضان، والسنة التي بعدها يجعلونه شوال وهكذا، وهذا أحد المعاني التي فسر بها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[3] قالوا: بمعنى أنه وافق شهرُ ذي الحجة شهرَ ذي الحجة الذي كان على هيئته التي جعله الله -عز وجل- عليها من غير تأخير، ويقولون: الحجة التي حجها أبو بكر لم تكن في ذي الحجة، وهذا الكلام على هذا التفسير بغض النظر عن هذا المعنى، والمقصود أن قوله: أو ننسأها بمعنى أو نؤخرها.

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] يقول: ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {أَوْ نُنسأهَا} نثبت خطها ونبدل حكمها."

قول ابن عباس: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} **يقول: ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها**، نحن قلنا: ننسأها بمعنى نؤخرها عن النسخ، وهذا معنى نتركها فلا ننسخها، فقول ابن عباس هذا يمكن أن يكون تفسيراً لقراءة الفتح -ننسأها- ويمكن أن يكون تفسيراً لقراءة الضم -ننسها-؛ يمكن ذلك لأن ننسها أيضاً يمكن أن يكون من معنى الإنساء الذي هو بمعنى ذهاب المعلوم

ذهاب ما علم قل نسيان ... والعلم في السهو له اكتنان

فالفرق بين النسيان والسهو أن السهو المعلوم مكتن، أي أن المعلومة مكتنة في الذهن لكنه سها عنها، لكن النسيان هو ذهاب المعلوم، فيمكن أن يكون قوله: {أَوْ نُنسِهَا} من النسيان الذي هو إذهابها أصلاً من القلب، ويمكن أن يكون ذلك من معنى الإنساء الذي هو بمعنى التأخير.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب قوله: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [(٣٦) سورة التوبة] (٤٣٨٥) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج٣ / ص ١٣٠٥).

تنبيه : يرجى وضع رقم الجزء والصفحة من صحيح البخاري.

فقول ابن عباس يحتمل أن يكون تفسيراً لقراءة الفتح وقد يحتمل أن يكون هنا تفسيراً لقراءة الضم، لكن بعض الأمثلة في التفسير لآية أو لفظة فيها قراءتان أحياناً لا يحتمل التفسير إلا أن يكون تفسيراً للقراءة الأخرى مع أنها أحياناً لم تذكر، فهو ليس بقول آخر في المسألة، وإنما هو تفسير للقراءة الأخرى.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {أَوْ نُنسأهَا} نثبت خطها ونبدل حكمها.

قوله: **نثبت خطها ونبدل حكمها**، هذا يكون من قبيل التفسير بالمثال فحسب، ولا يحمل على شيء آخر، أي أنه قرب المعنى بصورة من الصور التي يقع عليها النسخ.

"وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء: {أَوْ ننسأها} نؤخرها ونرجئها، وقال عطية العوفي: {أَوْ ننسأها} نؤخرها فلا ننسخها، وقال السدي مثله أيضاً وكذا الربيع بن أنس.

وأما على قراءة {أَوْ نُنْسِهَا} فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} قال: كان الله -عز وجل- ينسي نبيه -صلى الله عليه وسلم- ما يشاء وينسخ ما يشاء."

هذا بمعنى ينسيه -صلى الله عليه وسلم- فقوله: {نُنْسِهَا} من النسيان، فالنسيان ذهاب المعلوم بمعنى يرفعها من القلوب أصلاً -هذا احتمال- ويحتمل أن يكون النسيان بمعنى الترك، كما في قوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة]، وقوله: {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [(١٩) سورة الحشر]، والله -عز وجل- كما قال عن نفسه: {قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [(٥٢) سورة طه] فالله تعالى لا يضل ولا ينسى، ومعنى لا ينسى بمعنى لا يحصل له النسيان الذي هو بمعنى ذهاب العلم، وإنما يفسر النسيان في حق الله -عز وجل- بمعنى الترك، فقوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] بمعنى أنه تركهم في العذاب.

فهنا في قوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا}: قال: **كان الله -عز وجل- ينسي نبيه -صلى الله عليه وسلم- ما يشاء وينسخ ما يشاء**، يمكن أن يفسر هذا على قراءة الضم، ويمكن أن يفسر أيضاً على قراءة الضم بمعنى الترك، يعني {أَوْ نُنسِهَا} أي: نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها، فيكون بهذا الاعتبار عائداً إلى الأول وهو نتركها، وهذا الذي اختاره ابن جرير فيكون قد ذكر النسخ ومقابله، والذي يقابل النسخ المقصود به الترك، أي عدم النسخ، فهو ذكر الحالين، وهذا القرينة التي جعلت ابن جرير -رحمه الله- يفسر قوله: {أَوْ نُنسِهَا} بمعنى نتركها، يعني نتركها من النسخ، قال: إنه ذكر الأول، وذكر الثاني المقابل، أي ذكر النسخ وذكر ترك النسخ.

"وقوله: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا} يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وقال أبو العالية: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} فلا نعمل بها {أَوْ نُنسأهَا} أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها."

بعضهم يفسر أو ننسأها بمعنى أنها لا تنزل أصلاً، ولكن هذا فيه إشكال، وعلى كل حال قوله هنا: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} هذا وعد من الله -عز وجل- وهذه الآية أصل في الكلام على مسألة أصولية معروفة في باب النسخ، وهي هل يكون النسخ إلى غير بدل، أو لا بُد فيه من البدل؟

الذين قالوا لا بد فيه من البدل كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وتبعه على ذلك تلميذه ابن القيم، وجماعة من أهل العلم احتجوا بهذه الآية، قالوا: هذا وعد من الله وهو لا يتخلف، والقول بأن النسخ يكون إلى غير بدل، تكذيب لهذا النص.

والذي عليه الجمهور أن النسخ يصح من غير بدل، ولكن كيف يفسرون هذه الآية؟

يقولون: الله يقول: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} المقصود أن الشارع لا يترك المكلفين هملاً من غير حكم، فلا بد من حكم، فالتخفيف بمعنى ترك الإيجاب أصلاً، هذا تخفيف ورحمة، فهو خير لهم من هذه الجهة حيث خفف الله عنهم ورفع هذا الحكم بالكلية، وهذا هو الخير بالنسبة لهم، فلم يتركهم هملاً، فبعد أن كان يجب عليهم هذا الأمر صار لا يجب.

ومثل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ومن قال بقوله يقولون: قوله: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} إذا رفع الوجوب بقي الاستحباب، وأوضح مثال لهم يمثلون به على هذا هي آية النجوى، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} [(١٢) سورة المجادلة]، فهذه الآية كان يجب على الواحد منهم أن يقدم بين يدي المناجاة للنبي -صلى الله عليه وسلم- صدقة، ثم خفف الله -عز وجل- عنهم بعدها حيث قال سبحانه: {أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [(١٣) سورة المجادلة].

شيخ الإسلام -رحمه الله- وابن القيم ومن قال بقولهما يقولون: الصدقة بقيت مستحبة وإنما رفع الوجوب فقط، وأولئك يقولون: لا، بل رفع الحكم بالكلية فلا يحتاج المناجي إلى تقديم صدقة، لكن لو سألت هؤلاء: ما حكم الصدقة بين يدي المناجاة؟ لقالوا: إنها مستحبة، فإن قيل: إذن أنتم توافقونهم؟ سيقولون: نحن لا نخص ذلك بين يدي مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم- فنقول: رفع هذا بالكلية، فإن قيل: ما رأيكم لو أن أحداً تصدق قبل أن يناجي النبي -صلى الله عليه وسلم- هل نقول: إنه يؤجر أم يأثم؟ سيقولون: يؤجر.

فالمقصود أن خلافهم إذا نظرت إليه بهذا الاعتبار فإنه يكاد أن يكون خلافاً لفظياً، فهؤلاء يوجهون البدل إلى أن الشارع لم يتركهم هملاً فأبقى لهم مثلاً الإباحة بدلاً من التحريم، وهذا خير للمكلفين من جهة التخفيف، وأولئك قالوا: لا، بل ينسخ الوجوب ويبقى الاستحباب، يقال لهم: وهل وإذا نسخ التحريم تبقى الكراهة؟!.

فالذي أظنه -والله تعالى أعلم- أن النسخ يكون إلى غير بدل ويوجَّه ذلك بما ذُكر وهو أن البدل هو التخفيف، فبدلاً من التحريم صار ذلك الأمر مباحاً، وبدلاً من الوجوب صار ذلك لا يجب وقد يبقى مستحباً وقد لا يبقى، فإن بقي مستحباً فذاك نسخ إلى بدل خاص بهذا الحكم المعين، والله تعالى أعلم.

لكن هذه المسألة هل يترتب عليها شيء من الناحية العملية التطبيقية؟

لا يترتب عليها شيء بهذه الطريقة التي ذكرت -نسخ إلى بدل ونسخ إلى غير بدل- ونبقى في مناقشة أوضح مثال وهو تقديم الصدقة بين يدي المناجاة ماذا نقول فيه؟

إذا نظرنا إلى هذه القضية سنقول: هل بقيت الصدقة مستحبة بين يدي المناجاة أو أنه لا تجب ولا تستحب؟ وهل الذين يقولون: إن النسخ إلى غير بدل، يقولون: لا تستحب الصدقة؟

لا، بل يقولون: تستحب الصدقة في هذا الموضع وفي غيره، وذلك أنه إذا أذنب تصدق، ويتصدق ابتداءً، ويتصدق بين يدي دعائه، ويتصدق في كل أحواله، فالمسألة إذا نظرت إليها لا تترتب عليها أمور، وهذا بخلاف بعض المسائل الأخرى مثل: هل شرع من قبلنا شرع لنا أو لا؟ فهذه يترتب عليها أشياء فيما لم يرد في شرعنا ما يخالفه هل هو شرع لنا أم ليس بشرع لنا؟ والله أعلم..

"وقال السدي: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} يقول: نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه.

وقال قتادة: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي."

آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} نأت بخير منها في العاجل بالتخفيف، وإذا كان النسخ إلى أثقل، حيث قد ينسخ الحكم إلى الأخف وقد ينسخ إلى الأثقل، كما قال صاحب المراقي:

ويُنسخ الخفُّ بما له ثِقَلْ وقد يجيء عارياً من البدل

ومثال نسخ الأخف بالأثقل تحريم شرب الخمر بعد أن كان مباحاً بشرط أن لا يقربوا الصلاة في حال السكر، فيشربونه من بعد الفجر فإذا جاء الظهر يكون قد أفاق، ثم حرم بالكلية، وهذا على القول بأن تحريم الخمر نسخ، ومثل ذلك صوم عاشوراء حيث كان واجباً ثم نسخ الوجوب إلى الاستحباب بصيام رمضان فهو نسخ إلى الأثقل.

ووجه الخيرية هنا كما يقول ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من أهل العلم: الخيرية في الآجل يعني بالأجر والمثوبة عند الله -عز وجل- فالأجر على قدر المشقة، ويمكن أن يكون في العاجل أيضاً من جهة أنه زيادة في التكاليف، ولا شك أنها تصلح بها نفوسهم، وتستقيم أحوالهم، والشارع عليم حكيم، فصوم رمضان خير لهم من صوم عاشوراء، فيحصل لهم من الخيرات العاجلة بصيام رمضان ما لا يخفى، وكذلك تحريم الخمر خير لهم في العاجل،و نسخ المتعة خير لهم في العاجل، وقل مثل ذلك في نسخ الأمور التي نسخت بالأثقل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة]: "يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويُصحُّ من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرا، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -عز وجل- النسخ عقبه بهذا التعقيب: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٠٦) سورة البقرة] عقبه بهذا الاستفهام الذي يمكن أن يفسر في معناه بالاستفهام التقريري، يعني قد علمت أن الله على كل شيء قدير، ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم ذلك، فإذا فسر بهذا المعنى فلا إشكال فيه.

وبعضهم يقول: إن ذلك فيه خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- في ظاهره ولكن المراد غيره -عليه الصلاة والسلام- ممن استبعدوا النسخ أو أنكروه، فيكون بهذا الاعتبار من قبيل الاستفهام الإنكاري، فهو ينكر عليهم: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٠٦) سورة البقرة] فلا يمتنع عليه ذلك، فهو ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠٧) سورة البقرة] يعني أنه يتصرف فيهما، والمُلْك معلوم، والمَلِك -بفتح الميم وكسر اللام- يكون له كمال التصرف في مملكته، والفرق بين المُلْك وبين المِلْك -بكسر الميم وسكون اللام- أن المِلْك المقصود به حيازة الشيء والاستقلال به، أما المُلك فإنه يعني حق التصرف وإن لم يكن هذا المَلِك مالكاً لكل ما تحت مملكته، بحيث لا يعني أن هذه الأشياء جميعاً ملكاً له، فهذا هو الفرق بين المِلْك والمُلْك.

قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٠٧) سورة البقرة] يقول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف**

شبهتهم -لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرا، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً، يقول: إما عقلاً بمعنى أن لهم شبهات في رد النسخ عقلاً، ولسنا معنيين بنقل الشبه؛ فإن الشبهة قد تقع في قلب ولا تخرج منه، ولكن المقصود أن هؤلاء لهم شبه معروفة يوصلها بعضهم إلى أربع شبه، وهي شبه ساقطة لا قيمة لها، ويزعمون أن النسخ يستلزم البـَداء -بفتح الباء- ويقولون: هذا محال على الله -عز وجل- ومن ثَمَّ فإن النسخ ممتنع، فشبهاتهم تدور حول هذا.

ومعنى البداء: من بدو الشيء بعد خفائه، تقول: بدا له كذا، وتقول: كنت أريد أن أسافر فبدا لي أن أقيم، كنت أريد القراءة لكن بدا لي أمر آخر لم يكن قبل ذلك، فهو طروٌ للعلم بعد الخفاء، واكتشاف للشيء بعد أن كان ذلك غير مدرك ولا معلوم لهذا الذي بدا، هكذا يقولون، ولا شك أن هذا غير صحيح؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ولذلك لمّا ذكر الله -عز وجل- في سورة الأحزاب الميراث على الراجح، لمّا قال: **{وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا}** [(٦) سورة الأحزاب] يعني بالوصية والإحسان إليهم بالهبة بعد أن كانوا يتوارثون بالولاء، فنسخ ذلك، ثم قال: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** [(٦) سورة الأحزاب] أي في اللوح المحفوظ.

فهذه آية من آيات النسخ التي يثبت فيها النسخ، قال: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** ففي اللوح المحفوظ كتب الله كل شيء، ولكن الله يشرع في وقت تشريعاً يتلاءم مع حال الناس، وقد عَلِم أزلاً أن هذا سيرتفع ثم بعد ذلك يكون غيره مما يتلاءم مع حالهم في تلك المرحلة المقبلة، فكل ذلك غير خارج عن علمه -تبارك وتعالى-؛ فعلمه محيط بكل شيء، فالنسخ لا يعني أن شيئاً انكشف لله -عز وجل- بعد أن كان خافياً، ولكن اليهود لجهلهم وقلة معرفتهم بربهم -تبارك وتعالى- وعظمته، ظنوا أن ذلك يعني نسبة الجهل إليه، فقالوا: هذا يستلزم البداء، ويكفي هذا القدر، ولسنا بحاجة إلى إيراد الشبه مفصلة.

ولهم حجج يحتجون بها من جهة النقل، وقبل الحديث عنها لا بد أن نعلم أنه إذا قيل: الأدلة العقلية فالمقصود بها من جهة النظر، والنقل يعني الشيء الذي يؤثر، وهؤلاء ينقلون من التوراة ومن الزبور ومن سائر كتبهم، وينقلون عن موسى -عليه الصلاة والسلام-، فبعض طوائف اليهود مثل الشمعونية والعنانية الذين يمنعون النسخ يزعمون أن في التوراة - وهي كتاب محرف ولو ثبت ذلك أيضاً فيمكن أن يخرج ويحمل على بعض التفسيرات- يقولون في التوراة: هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض.

نقول: حتى لو كان هذا مما نزل فيقال: هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض، يريد به إلزام هؤلاء العمل بها دون التصرف والترك في وقت أو مكان بمجرد رأيهم أو هواهم، ولكن يقول: أنتم مطالبون بها أبداً، في كل الأوقات والأحوال، ولكن إذا جاء نبي بكتاب ينسخ هذا الكتاب فهنا لا مجال للعمل بذلك الكتاب الأول، والله -عز وجل- قال عن أهل النار: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** [(١٠٧) سورة هود] وقال في الجنة: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** [(١٠٨) سورة هود] فهذا بلا انقطاع ولا انقضاء، ولكن في مثل التوراة وغيرها من الكتب التي نسخت أن ذلك يبقى ما لم يرد ما ينسخه، وهذا فيما لو أردنا أن نخرج هذا النص لو كان ثابتاً.

والنصوص المنقولة من كتبهم إذا وجد في شريعتنا فيما جاءنا من الوحي المنزل المحفوظ ما يخالفه نعلم أن ذلك من قبيل الكذب والكلام المحرف، وهذه الأشياء التي تنقل عنهم ثلاثة أقسام فنحن عندنا أشياء تدل دلالة صريحة على أن هذا الكتاب مهيمن على تلك الكتب وأن هذه الشريعة ناسخة لها كما قال تعالى: {وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [(٤٨) سورة المائدة] وكما في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يهودي ولا نصراني من هذه الأمة يسمع بي، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[1]، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- لعمر -رضي الله عنه-: ((لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))[2] يعني أنه لا يسعه العمل بالتوراة.

وعيسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ينزل آخر الزمان لا يحكم بالإنجيل ولا يعمل بأحكام الإنجيل، فهذه وغيرها كثير تدل على هذا المعنى، فهذا النص الذي ينقلونه هو نص محرف، وإن لم يكن من قبل المحرف فيمكن أن يحمل على محمل آخر، غير ما فهموا.

وكذلك ينقلون: "الزموا يوم السبت أبداً"، ويوم السبت معروف، وهو اليوم الذي كان يعظمه اليهود وهو يوم عيدهم، فمعنى ذلك البقاء على يهوديتهم، هذا معنى الزموا يوم السبت أبداً، يعني لا تتحولوا إلى غيره كالأحد أو الجمعة.

وهكذا النصارى الجهلة أيضاً ينقلون عن المسيح -عليه الصلاة والسلام- أنه يقول: السماء والأرض تزولان، وكلامي لا يزول، هذا يمكن أن يخرج لو صح عنه -عليه الصلاة والسلام- فإنه يمكن أن يحمل على محمل لا يعني عدم النسخ بحال من الأحوال، وعلى كل حال النصارى جهلة بل هم معدن الجهل، فلا يستغرب منهم مثل هذا الكلام.

وعلى كل حال هذا تعليق على قول ابن كثير -رحمه الله-: **إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً**، وهذا يعني -وهو صريح- أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن تلك النصوص من قبيل المكذوب المحرف وليست من كلام الله -عز وجل- أو من كلام عيسى -عليه الصلاة والسلام- أو موسى -صلى الله عليهم وسلم-.

وهذه المقابلة تعبير دقيق، إما عقلاً وإما نقلاً، وهذا هو التعبير الصحيح، أن يقابل العقل بالنقل، فيقال: دل على ذلك العقل والنقل، ولا يقال: دل على ذلك العقل والشرع؛ لأن العقل الصحيح من جملة أدلة الشرع التي هي الكتاب والسنة والإجماع، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة، كل هذه أدلة صحيحة، فلا تقل: دل عليه العقل والشرع؛ فيكون العقل مقابلاً للشرع، وهذا إنما يكون على فرض المعارضة بين العقل والنقل كما هو ظن طوائف كثيرة من أهل الكلام، حيث يجعلون قواعد يمشون عليها في حال هذا التعارض، وهذا غير صحيح على كل حال.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

[2] - أخرجه أحمد (ج ٣ / ص ٣٣٨) وأبو يعلى (ج ٤ / ص ١٠٢) وابن أبي شيبة (ج ٥ / ص ٣١٢) والبيهقي في الشعب (ج ١ / ص ١٩٩)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٧٧).

"قال الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.
ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه -جل ثناؤه- تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه."

قوله: **وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- على وجه الخبر عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود**، يعني إذا كان هذا الخطاب قد وجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن الاستفهام يكون فيه من قبيل التقرير -الاستفهام التقريري- يعني قد علمت أن الله له ملك السماوات والأرض، وإذا كان للإنكار على اليهود أو قد وجه للمسلمين فإنه بالنسبة لليهود يكون من قبيل الإنكار -الاستفهام الإنكاري-.

وابن جرير -رحمه الله- يرى أن هذا الخطاب وإن كان في أوله قد خوطب به المفرد، والمخاطب بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن المراد بذلك الصحابة وفي ضمنه إنكار على اليهود يعني يتضمن الإنكار على اليهود، والقرينة التي يحتج بها من الآية هي صيغة الجمع في آخرها: {وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٠٧) سورة البقرة]، ففي أولها قال: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ} ثم قال في آخرها: {وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} فدل ذلك على أن المراد به الجمع وليس شخص النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى."

يعني ليس في العقل ما يدل على امتناعه؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، بل إن مقتضى العقل يؤيده ويقويه، وذلك أن الأمة تمر بأطوار ومراحل يقتضي ذلك أن تنقل من طور إلى طور، وهذا يعني أن تبدل الأحكام، حيناً بعد حين وهذا هو النسخ، فهذا مما يؤديه العقل ويقويه، ولذلك يحتج على النسخ بالعقل لا أن العقل ينسخ، يعني هناك فرق بين أن نقرر النسخ بالكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل من جهة النظر كما يقولون، فهذا ممكن، لكن العقل لا ينسخ بحال من الأحوال، فالرد عليهم من جهة النظر أعني من جهة العقل، والرد عليهم أيضاً من كتبهم ومن الكتاب والسنة أمر سهل، ومن شاء فليراجع الكتب التي اعتنت بهذا الجانب، ومن أكثر من اعتنى بهذا فيما وقفت عليه الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان) حيث جاء بشبهاتهم ثم رد عليها من كتبهم، وجاء أيضاً بالشبه العقلية التي يحتجون بها ورد عليها، وقرر أدلته من الكتاب والسنة، وهو من أوسع من تكلموا على موضوع النسخ ومن أحسن من تكلم فيه، حتى الآيات التي ذكرها وأوردها، أورد الآيات المشهورة -التي هي أقوى ما ادعي فيه النسخ وهي ما يقرب من إحدى وعشرين آية- التي أوردها

السيوطي في الإتقان ونظمها، وتجدون شرحها للشنقيطي -رحمه الله- وعليها تعليق يسير في ملحق آخر الأضواء.

"لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم -عليه السلام- تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك."

هذه ردود عليهم، وهي ليست ردود عقلية، وإنما هي ردود موجودة ويعرفونها فيما خوطبوا به من شرعهم.

"وكما أباح لنوح -عليه السلام- بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حلَّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل -عليه السلام- وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم -عليه السلام- بذبح ولده -عليه السلام- ثم نسخه قبل الفعل."

طبعاً هذه الأشياء كلها يقرون بها ولا ينكرونها، بغض النظر عن الذبيح من هو.

"وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنها.

وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة في المعنى إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، والأمر باتباعه."

يعني هم قد يتمحلون في الإجابة عن هذه الأدلة التي تورد عليهم من تحريم الجمع بين الأختين وما أشبه ذلك مما أورده، يقول: لكن هذه الأجوبة هي أجوبة لفظية لا تقوى على إبطال هذه الحجج والبراهين، يعني هم يتمحلون، ويتكلمون في الجواب عنها، لكن ذلك هو مجرد كلام لا قيمة له حيث لا يصل بقوته إلى رد هذه الأدلة، هذا هو المراد بقوله: **وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية**، يعني ما يتفوهون به ويتكلمون به في الجواب عنها لا يصرف الدلالة في المعنى، والمقصود أن محصلة هذه الأدلة هي أن النسخ ثابت، بغض النظر عما سموه به أو تمحلوا في الجواب عنها، فإن الحقيقة واضحة وثابتة في هذا.

وأقصد أنه ماذا عسى أن يقول الإنسان من هؤلاء الناس، يمكن أن يقول: إن هذه أصلاً كانت مؤقتة ثم بعد ذلك جاء حكم جديد، أو يقولون: هذا حكم مؤقت، وغير ذلك من الأجوبة اللفظية، فنقول: إن ذلك لا يغير الحقيقة فهذا هو النسخ، فهذه أجوبة لفظية، لكن المعنى ثابت وهو أن هذا نسخ، وأنت سمِّه بما شئت.

"فإنه يفيد وجوب متابعته -عليه الصلاة والسلام- وأنه لا يُقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته -عليه السلام- فلا يسمى ذلك نسخًا."

وهذا مما يمكن أن يجيبوا به عن أفراد تلك الأدلة السابقة، يقول لك: هذه مغياة بغاية، والمغيا بغاية ليس بنسخ.

ومسألة المغيا بغاية فيها تفصيل، وهو أنواع: منه ما حُدَّ بغاية معلومة، يقول: افعلوا كذا إلى وقت كذا مثلاً، فهذا كقوله: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] فهذا ليس بنسخ، فإذا دخل الليل لا يعتبر حكم الإمساك عن الأكل والشرب منسوخاً، وأما ما يفترض فيه من العبارات فإن ذلك لم يرد، كأن يقول مثلاً: اعملوا بالحكم الفلاني حتى كذا، يعني اعملوا به حتى السنة الرابعة للهجرة مثلاً، فهذا غير موجود، وإنما هي افتراضات يذكرها العلماء ليبينوا ويوضحوا أن ذلك ليس من قبيل النسخ، ثم يختلفون في بعض الصور، هل

هو من المغيا بغاية، أو ليس من المغيا بغاية، كقوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} عند قوله في سورة النساء: {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} [(١٥) سورة النساء] فهل هذا من المغيا بغاية ثم لما جاء حكم الجلد والرجم لم يكن ذلك من قبيل النسخ؛ لأنه مغيا بغاية؟، أم أن هذا ليس من المغيا بغاية وأن الجلد والرجم ناسخ لآية الحبس في البيوت والأذى؟

هذا يختلفون فيه، وسبب الاختلاف هو العبارة فقط فصار عندنا الآن هذه الصور الثلاث، ولا شك من حيث المبدأ أن ما غُيا بغاية ليس من قبيل النسخ، لكن يبقى أن هذه الصورة يختلفون فيها هل هي منه أو لا؟، مع اتفاقهم على الأصل.

وأما ما يذكر من الصور الواضحة الصريحة فهي من قبيل الافتراضات فحسب، كأن يقول: لو قال لهم افعلوا كذا، إلى وقت كذا.. الخ، وأما ما يتضح فإنه ليس من قبيل النسخ إطلاقاً، كقوله: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة].

فالحاصل أن أهل الكتاب هؤلاء يمكن أن يتمحلوا فيقولوا: هذا من قبيل المغيا بغاية، فنقول: سموه بما شئتم فهو نسخ.

"فلا يسمى ذلك نسخًا كقوله: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، وقيل: إنها مطلقة وإن شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله -تبارك وتعالى-.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود -عليهم لعنة الله- حيث قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة] الآية، فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [(٥٤) سورة الأعراف].

وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} [(٩٣) سورة آل عمران] الآية، كما سيأتي تفسيره، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه."

في الآية: {كُلُّ الطَّعَامِ} رد عليهم بكل الأحوال حيث زعموا أن الله حرم عليهم أشياء فبين لهم أن الطعام جميعاً كان حلاً ليعقوب -صلى الله عليه وسلم- إلا ما حرم على نفسه، وخبرهم أنه حينما أصابه ذلك الداء وهو عرق النَّسا، فالذي حصل أنه نذر إن شفاه الله أن يحرم أطيب الطعام والشراب إليه، فكان أطيب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها، فحرمها على نفسه وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، ثم بعد ذلك أحل لهم أشياء على لسان عيسى -صلى الله عليه وسلم- {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] ثم هذا التحريم حتى لو قلنا: إنه من الله ابتداءً كما يزعمون هم، فهو نسخ بأن كانت مباحة لمن قبله فجاء التحريم في شريعة يعقوب -صلى الله عليه وسلم-.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة]: "نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: ((إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته))[1].

ولما سُئِل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها. ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال وكثرة السؤال[2].

وفي صحيح مسلم: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))، وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكُل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثًا، ثم قال -عليه السلام-: ((لا، ولو قلت: نعم لوجَبَت، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم))[3] ثم قال: ((ذروني ما تركتكم..)) الحديث، ولهذا قال أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: "نُهينا أن نسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ}** [(١٠٨) سورة البقرة] السؤال هنا لعل أولى ما يدخل فيه -والله تبارك وتعالى أعلم- هو طلب الآيات، أي أنهم يقترحون على النبي -صلى الله عليه وسلم- الآيات كقولهم: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا}** [(٩٠) سورة الإسراء] إلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة - باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩) (ج ٦ / ص٢٦٥٨) ومسلم في كتاب: الفضائل - باب: توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك(٢٣٥٨) (ج ٤ / ص ١٨٣١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة - باب: قول الله تعالى {لا يسألون الناس إلحافا} (١٤٠٧) (ج ٢ / ص ٥٣٧) ومسلم في كتاب: الأقضية - باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه (٥٩٣) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب: الحج - باب: فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥)

غير ذلك مما كانوا يقترحونه من نزول الملائكة، أو أن يكون له بيت من زخرف من ذهب، أو يرقى في السماء، أو نحو ذلك مما اقترحه عليه المشركون، وكذلك أيضاً اليهود طلبوا أشياء من النبي -صلى الله عليه وسلم- على سبيل التعنت، فكل هذا داخل فيه -والله -تبارك وتعالى أعلم-، وقرينة ذلك هي أن الله -عز وجل- ذكر موسى -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: {كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ} غير أن ذلك لا يمنع المعنى الآخر، وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا، وهو أن السؤال يدخل فيه أيضاً السؤال عن العلم والمسائل والأحكام، وذلك أوضح وأصرح في الآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة]، فهذا واضح بأن المراد هو السؤال عن أمور سكت عنها الشارع، وأما الآية التي هنا فإن أولى ما يدخل فيها هو اقتراح الآيات، ولذلك قال الله في آخرها: {وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة] وعلى كل حال فالقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

والمسائل أنواع، أما اقتراح الآيات على الأنبياء فهذا أمر محرم، وقد دل القرآن على تحريمه وذمه في مواضع كثيرة، وأما المسائل العلمية فإن ذلك على أنواع: منها: كثرة السؤال كما جاء في الحديث، والمعنى المتبادر من كثرة السؤال في الحديث هو السؤال عن الأحكام والمسائل العلمية وما إلى ذلك مما يسأل عنه الإنسان، كثرة السؤال، يسأل عما لا يعنيه، فهذا مذموم.

والنوع الآخر أيضاً هو أن يسأل عن أمور نادرة لا تكاد تقع، فهذا أيضاً من المذموم، كالذي يسأل عن رجل وطأ على دجاجة ميتة فخرجت منها بيضة ففقست عنده، هل هذه الدجاجة أو الفرخ الذي خرج منها هل هو طاهر أو نجس، باعتبار أن البيضة خرجت من دجاجة ميتة ففرخت هذه البيضة عنده، كأن يكون جعلها تحت دجاجة أخرى أو في حاضنة أو غير ذلك، فهذا كان بعض الناس يسألون مثل هذه المسائل فعابهم السلف وردوا عليهم مسائلهم، ولهذا كانوا إذا سمعوا بعض الأسئلة الغريبة والمتكلفة أو النادرة ونحوها فإنهم يسألون السائل: أعراقي أنت؟ أحرورية أنت؟

ومن الأسئلة المذمومة تتبع صعاب المسائل، والمسائل الغامضة، التي ينقر عنها السائل، وكذلك السؤال عن الأمور التي لا يترتب عليها عمل، وإنما من شأنها أن تثير الإشكالات والشبهات وتحرك كوامن النفوس كما كان يسأل صبيغ الناس، فقال عمر -رضي الله عنه-: اللهم أظفرني به، فدخل الناس يتغدون على عمر، فدخل معهم رجل، فلما فرغ سأل عمر، قال: يا أمير المؤمنين {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} [(١) سورة الذاريات]، فقال: من أنت؟ قال: عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر، فضربه بالعراجين حتى سقطت عمامته وأدمى رأسه مرة بعد مرة، حتى قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد ما بي فقد ذهب، يعني ذهب الذي في رأسه لما ضربه بهذه العراجين التي أعدها له، فأحياناً ما ينفع الرد على بعض الناس ولا المناقشة ولا الحوار، وإنما الذي ينفع معه أن يضرب على رأسه بالعراجين حتى يذهب ما في رأسه، بدلاً من أن يقابل بالقنوات ويترك يتفلسف ويتكلم في الأمور العظام، وهو أجهل من حمار أهله لكن أين عمر؟

المقصود أن هذا النوع من الأسئلة مذموم، ولا يلتفت إليه، ولا ينبغي للإنسان أن يتشاغل به، ومثل ذلك ما لا يبنى عليه عمل، وقصة عمر معروفة لما سأل أو سئل: وما الأبّ في قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [(٣١) سورة عبس]، فقال كلاماً معناه: يكفي أنه نبت، لكن تحديد هذا النبت بالذات لا فائدة من معرفته.
وكذلك أيضاً السؤال عن أمور سكت عنها الشارع ولم يتعرض لها من أمور الحلال والحرام في زمن نزول الوحي، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة]، وكسؤال بني إسرائيل لموسى -صلى الله عليه وسلم- عن البقرة لما قال لهم موسى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [(٦٧) سورة البقرة] فتعنتوا في السؤال فشدد الله عليهم، فهذا كله مذموم ولا ينبغي للإنسان أن يتشاغل به، لكن ليس السؤال مذموم بإطلاق؛ فإن الصحابة -رضي الله عنهم- سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أشياء منها ما وقع كالذي سأله عن ماء البحر، وسألوه عن أمور لم تقع لكنها ستقع، مثل أسئلة حذيفة -رضي الله تعالى عنه- في الفتن، "كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر"[٤].
فالمقصود أن الأسئلة ينبغي أن تكون فيما يترتب عليه نفع وعمل، لا أن يكون ذلك من قبيل التكلف والتمحل، واتباع صعاب المسائل والأغاليط والتكلف، فيترك الناس ما هم بصدده ويشتغلون بافتراض وتوليد المسائل، فإن هذا أمر مذموم، فهذه خلاصة فيما يتعلق بالسؤال، والله أعلم.
وفي الحديث الذي ذكر هنا قال: **ولما سُئِل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها**، هذا في قصة عويمر العجلاني وعاصم بن عدي، فإن عويمراً العجلاني لما رأى رجلاً مع امرأته أرسل عاصم بن عدي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليسأله، فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها، ثم جاء هلال بن أمية فسأل أيضاً، ورجع إليه عويمر العجلاني، وسأل بنفسه، فجاء الحكم وهو سؤال عن أمر واقع، لكن كان يتعلق بقضية كرهها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي قضيةٌ التحدث بها ليس بالأمر السهل، ولم ينزل آنذاك شيء فيما يتعلق بقذف الرجل لامرأته، فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها، وإلا فإن الحكم الذي نزل لا شك أنه رحمة، وهو قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} [(٦) سورة النـــور] فقد جاء في الآيات ما يدل على أنه رحمة، قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} [(١٠) سورة النـــور] فهذا لا شك توسعة على الناس وإلا لحقهم حرج عظيم.
"وقوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ} [(١٠٨) سورة البقرة] أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام وهو إنكاري."
قوله: {أَمْ تُرِيدُونَ} [(١٠٨) سورة البقرة] (أم) هذه إما أن تكون استفهامية على بابها من قبيل الاستفهام الإنكاري فهو ينكر عليهم الأسئلة التي تكون على سبيل التكلف، كأن تقول لإنسان مثلاً: أتريد أن تكون بمنزلة فلان،

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٩٥٩) ومسلم في كتاب الإمارة - باب:وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧) (ج ٣ / ص ١٤٧٥).

أتريد أن يقع لك ما وقع لفلان، أم تريد أن يقع لك ما وقع لفلان؟، أو هي ليست على بابها فهي تكون بمعنى بل، يعني بل تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، والمشهور هنا أنها بمعنى بل.

"وهو يعم المؤمنين والكافرين فإنه -عليه السلام- رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [(١٥٣) سورة النساء].

هذا من النوع الأول من الأسئلة الذي هو سؤال الآيات، والله أعلم.

"قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير."

على كل حال الشك في هذا لا يضر، لكن محمد بن أبي محمد الحافظ يقول عنه: إنه مجهول.

"عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رافع بن حُرَيْمَلَة -ووهب بن زيد."

قال رافع بن حُرَيْمَلَة ووهب بن زيد، فهنا ليس على سبيل الشك، ورافع بن حُرَيْمَلَة هذا هو ووهب بن زيد يهوديان.

"يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزلُه علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة]."

هو ذكر هذا على أساس أنه سبب النزول، وهذا الأثر بعض أهل العلم يحسن هذا الإسناد من طريق محمد بن أبي محمد، والحافظ ابن حجر حسن هذه الرواية، ومحمد بن أبي محمد مجهول على كل حال.

ولو كان هذا هو سبب النزول فإن ذلك يكون قاطعاً بأن المراد بالسؤالات التكلف في طلب الآيات، ولا يمنع ذلك من دخول السؤالات عن الأحكام وما أشبه ذلك ضمن سبيل التكلف، لكن ذلك أصرح في الآية الأخرى، {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة].

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة] سواء السبيل يعني الوسط من كل شيء، فهو يوصف بأنه سواء، يعني السبيل المستوية، وهذا من باب إضافة الصفة –سواء- إلى الموصوف -وهو السبيل- أي السبيل المعتدلة المستوية، والمعنى أنه ضل عن سبيل القصد أي الاعتدال، وذهب عن نهج الاعتدال والقصد.

"والمراد أن الله ذمَّ من سأل الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- عن شَيء على وجه التعنُّت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى -عليه السلام-، تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا."

في أول تفسيره للآية ذكر ما يدل على كراهة السؤال عن الأحكام على سبيل التكلف، أو الأمور التي سكت عنها الشارع، وهنا ذكر المعنى الآخر.

" قال الله تعالى: {وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} [(١٠٨) سورة البقرة] أي: ومن يَشْتَرِ الكفر بالإيمان {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون

إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ}** [(٢٨-٢٩) سورة إبراهيم] **وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء."**

قول أبي العالية في قوله تعالى: **{وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}** قال: الشدة بالرخاء هذا قول يبعد أن تفسر به الآية، وإنما ضل سواء السبيل معناه انحرف عن نهج القصد والاعتدال، فالصراط المستقيم وسط بين طرفي الإفراط والتفريط ليس فيه اعوجاج، وحينما يفسر بالرخاء والشدة فهذا بعيد، والكفر معروف، ومن يتبدل الكفر بالإيمان، فقوله: الرخاء والشدة بعيد وقد استبعده ابن جرير إلا أنه وجهه على أن ذلك يحمل على الآخرة، أي أن الإيمان يؤدي إلى النعيم، والنعيم رخاء، والكفر يؤدي إلى العذاب، والعذاب شدة، فمن استبدل الكفر بالإيمان فمعنى ذلك أنه استبدل جزاء هذا بجزاء هذا، استبدل النعيم بالعذاب، هذا هو توجيه هذا القول لكنه مستبعد.

وقوله تعالى: **{وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ}** بمعنى قوله: **{اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}** [(١٦) سورة البقرة] الذي سبق الحديث عنه، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١٠٩-١١٠) سورة البقرة].

" يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم -صلى الله عليه وسلم- ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه أنزل الله {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم} إلى قوله: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: {كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئاً ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} من قبل أنفسهم. وقال أبو العالية: {مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} من بعد ما تبين أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس".

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية التي ساقها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه أنزل الله: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم..}** هذه الآية هل يقال: إن سبب نزولها هو ما وقع من كعب بن الأشرف بناء على ما مضى ذكره في درس سابق استناداً إلى قواعد أصول التفسير؟

لا يقال: إنه سبب النزول؛ لأنه غير صريح، وقلنا: إن غير الصريح أن يقول: نزلت هذه الآية في كذا، وفيه أنزل الله كذا، وما أشبه ذلك، يعني أنه مما يدخل في معناها مع أن الاحتمال قائم على أن ذلك من قبيل سبب النزول، لكن مثل هذا لا يجزم بأنه سبب النزول، ولا يقال سبب نزول هذه الآية هو كذا وكذا، مع أن الرواية ثابتة صحيحة، فهذه نزلت في هؤلاء اليهود ومنهم كعب بن الأشرف الذين حسدوا المسلمين على بعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، لكونه من الأميين، ولم يكن من الإسرائيليين، وذلك واقع لكعب بن الأشرف ولغيره ممن كذب بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوله -تبارك وتعالى-: {حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} قال الربيع بن أنس: من قبل أنفسهم، أي الحسد -على أحد التفسيرين- بمعنى أنه الحسد الناشئ من نفوس هؤلاء.

وقوله: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} تحتمل أن تكون متعلقة بالفعل قبلها، وهو قوله: {وَدَّ} في أول الآية، {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} أي هذا الأمر الذي هو محبتهم لكفركم وتمنيهم له ودّوه من عند أنفسهم، هذا احتمال.

والاحتمال الثاني أن يكون قوله: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} عائداً إلى قوله: {حَسَدًا} وهو الأقرب، والله تعالى أعلم، وعليه يكون المعنى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} أي أن هذا الحسد ناشئ من نفوسهم، فهذا هو الأقرب في معناها وهو المتبادر إلى الذهن، والله تعالى أعلم.

"وقوله: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة] مثل قوله تعالى: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} [(١٨٦) سورة آل عمران] الآية.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة] : نسخ ذلك قوله: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة]، وقوله: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٢٩) سورة التوبة] إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة] فنسخ هذا عفوه عن المشركين.

وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي: إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة]."

هذا القول قول معروف ومشهور وهو أن آية السيف وهي قوله في سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة] يقولون: إنها نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، يقولون: كل آية فيها عفو أو صفح أو إعراض عن المشركين، فهي منسوخة بآية السيف، لا صفح ولا إعراض ولا عفو، وهذا وإن قال به كثير من السلف إلا أن الأرجح هو القول الآخر وهو أن هذه الآيات لم تنسخ بآية السيف، ولكنه يعمل بها في أوقات الضعف، فإذا كان وقت التمكن والقوة فعندئذ {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} وفي أوقات الضعف والعجز وعدم القدرة على مجابهتهم فعندئذ العفو والصفح، والتحمل، والصبر، و الإعراض، مع الاشتغال بتحقيق العبودية لله -عز وجل- وإعداد القوة، فيشتغل الناس بمثل هذه الأمور من إصلاح الحال

وبناء النفس والاستقامة على أمر الله -عز وجل-، هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير هذه الآية، {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وقوله: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} يحتمل أن يكون هذا مثالاً على المُغيّا بغاية، وقد عرفنا أن المُغيّا بغاية ليس من قبيل النسخ، وقلنا: إن أشهر الأمثلة التي يمثلون بها هي قوله: {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} [(١٥) سورة النساء] وهنا قال: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وأمر الله هو النصر، وإعزاز الدين، وغلبة المسلمين على أعدائهم، فيحتمل أن يكون هذا من قبيل المُغيّا بغاية فلا يكون من قبيل النسخ على فرض أن الآية مما وقع فيه التغيير بالحكم أصلاً، يعني لا عفو، إلى متى؟ حتى يأتي الله بأمره.

ولكن على القول الآخر الذي هو الأرجح أنه لا حاجة لأن يقال: إن هذا من المُغيّا بغاية ليُتلافى فيه موضوع النسخ، وإنما يقال: هذه الآيات محكمات، ففي وقت الضعف العفو، وفي وقت القوة القتل.

"وروى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٠٩) سورة البقرة]، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش، وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-."

في قوله -تبارك وتعالى-: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} في الفرق بين العفو والصفح بعض أهل العلم يقول: العفو هو ترك المؤاخذة أي ترك العقوبة، والصفح أبلغ منه وهو إزالة أثر الإساءة من النفس، بحيث لا يبقى لها أثر.

ويمكن أن يقال –والله أعلم-: إن العفو هو إزالة أو ترك المؤاخذة، أو إزالة أثرها في النفوس من عفت الريح الأثر، فينمحي أثر الإساءة، والصفح هو الإعراض -من صفحة العنق- فإذا أعطاه صفحة العنق فمعناه أنه لم يقف عند إساءته، فالإنسان قد يعفو ولكنه يقف عند الإساءة فيعاتب أو يطلب الاعتذار، أو يقول: أنا عفوت عنك، أو يقول: لكن مثل هذا التصرف ما كان ينبغي أن يصدر منك، مثل هذا ما كان ينبغي كذا، وهكذا يبقى يعاتب المسيء مع أنه عفا لكنه لم يعرض عن الإساءة وعن المسيء .

فالعفو محو أثر الذنب والإساءة، والصفح أن يعرض عن هذا المسيء فلا يقف عند إساءته هذه.

وكما قلنا: إنه قد يحصل العفو، ولا يحصل الصفح، وهو شيء مشاهد حيث ترى الإنسان يقول: أنا عفوت عنك، لكن لماذا اجترأت على كذا، لماذا فعلت كذا، ولماذا؟ ويقول: أنا عفوت عنك، لكن أريد أن أوقفك على خطئك، وإساءتك وتقصيرك وكذا، فهذا لم يصفح، لكن لو قال له: أنا صفحت عنك، فما دام صفح فلا يصح منه أن يقف عند الإساءة ويذّكر بها، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ} [(١١٠) سورة البقرة] يَحُثُهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبتُه يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٥٢) سورة غافر]، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١١٠) سورة البقرة] يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١١١-١١٣) سورة البقرة] يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، قال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، ثم قال: {قُلْ} أي: يا محمد {هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة] قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بينتكم على ذلك {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١١١) سورة البقرة] أي في ما تدعونه."

قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} بيان لدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.

و(أو) هذه هل هي للتخيير أو واو عطف يعني لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ونصرانياً، أو أنها للتقسيم بمعنى أن كل طائفة قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان من طائفتها حيث إن "أو" هذه تأتي لمعان فما المراد بها هنا؟

الجواب: (أو) هنا للتقسيم، وهذا لا بد منه؛ لأنه لا يمكن أن النصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا أن يكون يهودياً أو نصرانياً؛ لأنهم يكفرون اليهود، والعكس كذلك، وإنما قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فقال الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ} أي اليهود والنصارى: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} إلا من كان يهودياً أو نصرانياً.

وقوله: {هُوداً} يحتمل أن يكون جمع هائد وهو التائب العائد من الذنب الراجع عن إساءته، فيكون بهذا الاعتبار جمع هائد، تقول: هاد يهود، أي رجع يرجع، كما قيل: يا صاحب الذنب هُدْ هُدْ، أي: ارجع ارجـــع.

ويحتمل أن يكون {إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً} بمعنى إلا من كان يهودياً، ويحتمل أن يكون مصدراً، والله تعالى أعلم، ولا شك أن المراد به اليهودي؛ لأنه ذكر النصارى سواء قيل: أصل هوداً من هاد يهود، أو أن أصله مصدر، أو أن هوداً بمعنى يهودي.

لما قالوا: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} رد الله عليهم بثلاثة أشياء حيث قال: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، وأيضاً طالبهم بالدليل فقال: {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، ثم قال:{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ} [(١١٢) سورة البقرة] فهذه ثلاثة أشياء، وقد سبقت قاعدة في هذا النوع وهي حينما يحكي القرآن أقوال القائلين، فهو إما أن يسكت عنها، وإما أن يذكر عقبه ما يدل على ردها وبطلانها، وهذا منه، فهنا أشار إلى بطلان هذه المقالة بثلاثة أمور: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ} [(١١٢) سورة البقرة]، فهذه الأمور التي تحكى في القرآن، إما أن يأتي ما يدل على بطلانها أو يسكت عنها، وما سكت عنه فالغالب أن ذلك يكون من قبيل الإقرار له، وقلنا مثاله: عدد أصحاب الكهف، لما ذكر الأقوال الباطلة: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم} [(٢٢) سورة الكهف] فما أشار إلى رد هذا القول وتوهينه.

وقد يذكر شيئين مما يذكرونه فيرد أحدهما ويبقي الآخر مثل: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢٨) سورة الأعراف]، فهو رد عليهم ادعاءهم أن الله يأمر بالفحشاء وسكت عن الثانية التي هي دعواهم أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، وهو إقرار بأن ذلك صحيح، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [(١١٢) سورة البقرة] **أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}** [(٢٠) سورة آل عمران] **الآية.**

وقال أبو العالية والربيع: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّه} يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبير: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ} أخلص، {وَجْهَهُ} قال: دينه، {وَهُوَ مُحْسِنٌ} أي: اتبع فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))[1] [رواه مسلم]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} [(١١٢) سورة البقرة] نقل عن الربيع وأبي العالية، قال: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} أي: أخلص لله، وهذا التفسير للآية إنما هو تفسير لها بمضمونها والمعنى الذي سيقت لتقريره وهو الإخلاص.

{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} قال سعيد بن جبير: دينه، فمعنى أسلم وجهه: أسلم دينه، أي كان مخلصاً لله -عز وجل- في عمله، ولهذا قال بعضهم: {أَسْلَمَ وَجْهَهُ} أي من جهة القصد، أسلم مقصده لله -عز وجل- يعني كان مقصده واحداً.

هذه العبارات التي يقولونها في تفسير هذه الآية لم يذكر فيها صفة الوجه لله -عز وجل- وإنما هذه العبارات وغير ها من العبارات التي تذكر في تفسير هذه الآية تدور حول هذا المعنى، ويمكن أن تفسر بالإخلاص وتوحيد القصد، {أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّه} أي كان مخلصاً لله في توجهه وفي مقصده وعمله وهذا الذي قال به كثيرون، فهل يعد ذلك من قبيل التأويل في التفسير؟

لا، ليس من قبيل التأويل؛ لأن الوجه يأتي بمعنى الوِجهة والقصد، وسيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]، قول من قال من السلف: إنها ليست من آيات الصفات أصلاً، فالمقصود أن هذا ليس من قبيل التأويل؛ لأن المقصود بالوجه الوجهة، تقول: أنا أريد هذا الوجه، يعني هذه الوجهة، فـ{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} أي كان مخلصاً في عمله ومن كان موحداً لمقصده، ولهذا قال ابن جرير: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} قال: من أسلم بدنه وخضع لله بالطاعة جسدُه، يعني بلى من أخلص طاعته لله وعبادته كان مخلصاً فيها لله -تبارك وتعالى- فهذا هو المراد، وهي كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: تضمنت

[1] - صحيح مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

شرطي قبول العمل، {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} من أخلص وجهه، {وَهُوَ مُحْسِنٌ}، يعني متابع للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وكما في أول سورة الكهف: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [(٢) سورة الكهف] حيث ذكر الإيمان والعمل الصالح، والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً صواباً، فهذه الآية في أول سورة الكهف تضمنت ثلاثة شروط لقبول العمل وهي: الإيمان والإخلاص، والمتابعة، وكذلك في آخر سورة الكهف، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [(١١٠) سورة الكهف]، فلا بد أن يكون العمل على قاعدة صحيحة، وعلى إيمان صحيح، ولا بد أن يكون صاحبه مخلصاً ولا بد أن يكون العمل صواباً، فهذه ثلاثة شروط، فلو جاء اليهودي أو عابد القبر وصلى صلاة موافقة لصلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو مخلص فيها لربه، هل تقبل صلاته؟ لا تقبل؟ لأنه فقد الشرط الأول لأنه ليس بمؤمن، قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، .

"فعمل الرهبان ومن شابههم -وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله- فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول -صلى الله عليه وسلم- المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [(٣٩) سورة النـــور]، وقال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ* عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ* تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [(٢-٥) سورة الغاشية].

وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(١٤٢) سورة النساء]، وقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [(٤-٧) سورة الماعون] ولهذا قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [(١١٠) سورة الكهف] وقال في هذه الآية الكريمة: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [(١١٢) سورة البقرة].

وقوله: {فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(١١٢) سورة البقرة] ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: فلا خوف عليهم يعني: في الآخرة {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} يعني: لا يحزنون للموت."

الخوف هو الغم من أمر مستقبل، والحزن هو الغم من أمر فائت، وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف، ويمكن أن يفسر به قوله -تبارك وتعالى- عن أهل الجنة حينما دخلوها: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [(٣٤) سورة فاطر] فيمكن أن يكون ذلك بمعنى الخوف، فالمقصود أن الله -عز وجل- قال هنا: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(١١٢) سورة البقرة] يلاحظ أنه أعاد الضمير بصيغة الجمع، وما قبله كان على سبيل الإفراد، فكيف ساغ إعادة ضمير الجمع على المفرد، وهذا يتكرر في القرآن كثيراً، وهذا مثال من أمثلته، فما الجواب عليه؟

لفظة "من" في قوله: {مَنْ أَسْلَمَ} شرطية وأسماء الشرط من صيغ العموم وإذا كانت "من" تستعمل للواحد فأكثر فإن معناها الجمع، فلوحظ فيها في هذا الموضع المعنى، وتجد في بعض المواضع يعاد الضمير إليها بالإفراد مراعاةً للفظها، ولهذا قال بعدها: {مَنْ أَسْلَمَ} ولم يقل: من أسلموا، وقال: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} جاء به مفرداً ولم يقل: وهم محسنون، كل ذلك مراعاة للفظ (من) فإن لفظها مفرد ومعناها الجمع، فقوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ} [(١١٢) سورة البقرة] يشمل الواحد والكثير.

"وقوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [(١١٣) سورة البقرة] بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم، كما روى محمد ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل.

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [(١١٣) سورة البقرة]."

على كل حال هذه الرواية فيها ضعف، و المقصود أن الله -عز وجل- عابهم على هذا، وهذه الآية يستعان بها في تفسير الآية السابقة، وهي قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] فهي تدل على أن (أو) للتقسيم كما سبق، فاليهود يكفرون النصارى والنصارى يكفرون اليهود، فلا يمكن أن تقول طائفة عن الطائفة الأخرى إنها ناجية.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [(١١٣) سورة البقرة] أي أنهم ليسوا على شيء معتبر، يُعْبَه به، وهم لا شك أنهم على شيء، وهو النصرانية أو الباطل، ولكن نفي الشيء في لغة العرب يأتي أحياناً لهذا المعنى وهو كثير ومعروف في كلامهم، تقول: فلان ليس على شيء بمعنى أنه ليس على أمر يعتد به، فلان ما عنده شيء، يعني ما عنده ما يعتد به، ما عنده شيء يكترث به، ويعتد به، وهكذا.

قوله: {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} هذا عيب لهم فهؤلاء يتلون الكتاب ويجدون فيه أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- نبي من عند الله حق، والنصارى يتلون في كتابهم أيضاً أن موسى -صلى الله عليه وسلم- نبي الله وأن التوراة هي الشرع الذي تعبدهم الله -عز وجل- به إلا ما نسخ منه ومع ذلك يكابرون، فالمقصود أن هذه الجملة وهي قوله: {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} هي نعي عليهم ومزيد ذم لهم أنهم لم يقولوا ذلك من جهل، وأنهم لم يطلعوا على خلافه، وإنما قالوه وهم مطلعون على ما فيه، ويؤخذ من هذه الآية أن الذم المتوجه إلى هذه الأمة ممن يشتغل بالعلم ويطلع على ما لا يطلع عليه غيره من قضايا العلم ثم يتكلم بخلاف ذلك، أو يقع في أمور يدعوه إلى الوقوع فيها هواه من أمور يختلف فيها مع الناس ويقع التفرق والتناحر، وهم يتلون الكتاب ويرون دلائل الحق فيه واضحة، فتحركهم أهواؤهم فلا شك أن ذلك أعظم جرماً ممن وقع في مثل هذه الأمور جهلاً منه؛ لأن ذلك لم يبلغه فيه سوى ما تكلم به واعتقده، فالذين يتلون الكتاب من طلاب العلم

جرمهم أعظم من غيرهم حينما يحيدون عنه، ويكونون متابعين لأهوائهم ويتكلمون بالهوى في الطعن بغيرهم، وتخطئتهم وما أشبه ذلك، وهم يعلمون أن ذلك من الحق، أو أنه مما يسوغ فيه هذا الاختلاف، أو أن ذلك كله من دين الله -عز وجل- كما يحصل في التفرق بين الأمة بسبب تنوع أعمال البر، فهذا يقول: هذا ليس على شيء، وهذا يقول: هذا ليس على شيء؛ لأن هذا يشتغل بإطعام الجوعى وكفالة الأيتام، وهذا يشتغل بالعلم، وهذا يشتغل بالجهاد، وهذا يشتغل بغير ذلك من القضايا المعتبرة في دين الله -عز وجل- ومن الأعمال الصالحة، فهذا يشبه هذا، فلا يجوز للإنسان أن يقع فيه.

"قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه.

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة] يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة.

وقد اختلف في من عنى بقوله تعالى: {الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} فقال الربيع بن أنس وقتادة: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} قالا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم.

وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل.

وقال السدي: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} فهم: العرب، قالوا: ليس محمد -صلى الله عليه وسلم- على شيء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم."

قوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة، بمعنى أن هؤلاء حينما قالوا: هؤلاء ليسوا على شيء، وأن هؤلاء قالوا: ليس هؤلاء على شيء، ثم قال: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} إذا قلنا: إن الذين لا يعلمون هنا هم العرب مثلاً فإن هذا يعني أيضاً نسبة هذا الوصف إلى اليهود والنصارى؛ لأن هذا إنما يفعله من لا يعلم، سواء كان لا يعلم أصلاً، أو كان لا يعلم علماً ينفعه.

فقوله: **من باب التنبيه والإشارة**، العبارة هنا لا يريد بها بدقة ما يريده الأصوليون؛ لأنه جمع فيها هنا بين دلالة التنبيه وبين دلالة الإشارة وهما نوعان متغايران، فدلالة الإيماء والتنبيه، هذا نوع، وهي أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علةً له لكان ذلك عيباً عند العقلاء.

فهنا يمكن أن يخرج هذا على أنه من دلالة التنبيه، فمثلاً، يمكن أن يكون هذا الفعل الصادر إنما كان بسبب الجهل بنوعيه، إما الجهل لأن الإنسان لم يبلغه أو أنه لم ينتفع بما علم فكأنه لم يعلم، فيكون ذلك من قبيل دلالة التنبيه، وبهذا الاعتبار يمكن أن يخرج على الدلالة المعروفة عند الأصوليين فيكون قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ} {وَقَالَتِ النَّصَارَى} ثم قوله: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [(١١٣) سورة البقرة] فيه تنبيه وإيماء إلى أن هذا الذي صدر إنما هو من قلة العلم وأن من صدر منه مثل ذلك فهو متصف بهذا الوصف الذي هو قلة

العلم، أو عدمه {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة] وأما المقصود بالإشارة هنا في كلامه -والله أعلم- فهو معنىً أعم مما يقصده الأصوليون أو مما يقصده المفسرون بما يسمى بالتفسير الإشاري، فهو لا يقصد هذا، لكن من باب التنبيه والإشارة أي أنه يشير كما نستعمل في كلامنا عادة، فنقول: هذه الآية فيها إشارة إلى أن الذين صدر منهم ذلك أنهم لا يعلمون؛ لأنه قال: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة]، وأما دلالة الإشارة عند الأصوليين فهي معروفة

وهي إشارة اللفظ لما   لم يكن القصد له قد علما

أي إشارته إلى معنىً لم يكن مقصوداً للمتكلم حينما تكلم بهذا الكلام مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [(١٨٧) سورة البقرة] لما ذكر: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] فمعنى ذلك أنه يحل له أن يجامع إلى آخر جزء من الليل، فمتى يبقى وقت الغسل؟ لا شك أن الجنابة ستبقى إلى ما بعد طلوع الفجر، فالآية ما جاءت لتقرير أن الصوم يصح مع وجود الجنابة، لكن هذا من قبيل دلالة الإشارة، وعلى كل حال يمكن أن يناقش هذا الكلام الذي قاله الحافظ ابن كثير لكن لا أحب الجدل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١١٣) سورة البقرة] **"أي: إنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة.**

وهذا الآية كقوله تعالى في سورة الحج: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [(١٧) سورة الحـج]**، وكما قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}** [(٢٦) سورة سبأ].

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١١٤) سورة البقرة].

المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوا في خرابها هم مشركو قريش كما رواه ابن جرير عن ابن زيد في قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طُوَى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، وهو مضمن معنى النفي، بمعنى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله.

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [(٢١) سورة الأنعام] المعنى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ومثل ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ} [(١٥٧) سورة الأنعام].

ووجه الجمع بين هذه الآيات أن يقال: تشترك هذه الآيات في أن كل آية منها تقول: لا أحد أظلم ممن فعل هذا الفعل، على أن كلاً منها تكون مختصة بباب معين، ففي باب الافتراء لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المنع من دخول المساجد لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وهكذا كل واحدة مختصة بالباب الذي ذكرت فيه، هذا جواب لكيفية الجمع بين هذه الآيات.

والجواب الثاني أن يقال: إن القاعدة في هذا هي أن أفعل التفضيل تمنع من الزيادة ولا تمنع من التساوي، فإذا قلت: زيد أكرم الناس، ثم بعد مدة قلت: عمرو أكرم الناس، فالمقصود أنه فاق غيره في هذا، أي أن أصل أفعل التفضيل في اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر، زيد أكرم من عمرو، فإذا قلت: زيد أكرم الناس، فهذا لا ينفي أن يكون أحد من الناس يماثله في الكرم، ويساويه، لكن لا يزيد عليه، فإذا قلت: لا أحد

أظلم ممن فعل هذا الفعل فإنه لا يفوقه أحد من الناس، ولكن لا يمنع ذلك من وجود من يساويه، فيكون بهذا الاعتبار، ومن أظلم، لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله -تبارك وتعالى- فكلهم متساوون إذ بلغوا الغاية العظمى في الظلم لكن لا يزيد أحدهم على الآخر.

قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(١١٤) سورة البقرة] أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، هذه الآية عامة تصف من وقع منه هذا الفعل بأنه وقع في أعظم الظلم، ولم يحدد ربنا -تبارك وتعالى- فيها طائفة دون طائفة فيصدق ذلك على المشركين حينما منعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويصدق على كل من وقع منه هذا الفعل، ومن هؤلاء الذين وقع منهم ذلك النصارى حينما أعانوا بختنصَّر على خراب بيت المقدس وحتى بعد أن رحل عنه وأخذ أشراف اليهود وكبراءهم بعد أن قتل فيهم قتلاً ذريعاً بقي هؤلاء النصارى يمنعون اليهود من دخول المسجد، ولا يمكنونهم من ذكر الله -عز وجل- والصلاة فيه.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن هذه الآيات في بني إسرائيل عموماً، منها ما يتحدث عن اليهود خاصة، ومنها ما يتحدث عن النصارى، فيرى أن هذه الآية في النصارى وليست في مشركي العرب، والقرينة التي يحتج بها هي قوله -تبارك وتعالى- في نفس الآية: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة] وقال: إن العرب من المشركين لم يخربوا الكعبة ولم يسعوا في خراب عمرانها بل على عكس ذلك، فهم كانوا يعمرونها ويكسونها ويطيبونها، ويسقون الحجاج ويطعمونهم، إلى غير ذلك مما عرف عنهم من القيام على الوظائف في الحج.

والخراب في قوله تعالى: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} يشمل الخراب الحسي والخراب المعنوي، فالخراب الحسي بهدم بنيانها وتعطيلها أو الحيلولة دون تجديد ما تقادم عهده منها وانهدَّ بنيانه، وكذلك الخراب المعنوي بمنع ذكر الله -عز وجل- فيها، وبمنع الصلاة، وبتعطيل وظيفة المسجد، كل ذلك من السعي في خرابها، فهو يشمل هذا وهذا، وبالتالي فإن هذه الآية عامة وممن يدخل فيها النصارى، ويدخل فيها أيضاً أهل الشرك، إذ إنهم لم يعمروها حقيقة وإنما عمروا بنيانها مع أن العمارة الأهم والأعظم هي عمارتها بذكر الله -عز وجل- كما قال سبحانه: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(٣٦) سورة النـــور]، وكما قال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} [(١٨) سورة التوبة]، وقال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [(١٧) سورة التوبة]، وهذه الآية في أهل الإشراك.

المقصود أن الآية عامة ويدخل فيها النصارى، وهذه الرواية المذكورة في قصة المشركين هي عن ابن زيد وابن زيد لم يدرك شيئاً من ذلك، فهي من قبيل المرسل، والمرسل نوع من الضعيف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ} [(١١٤) سورة البقرة] المساجد في الأصل هي موضع السجود، فأماكن الصلاة يقال لها مساجد.

وقوله: {أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(١١٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون بدلاً من المساجد -هذا احتمال- ويمكن أن يكون مفعولاً له، أي منع مساجد الله كراهية أن يذكر فيها اسمه.

وأوضح من هذا أن يقال -والله أعلم-: إن التقدير ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه، هذا أوضح هذه التقديرات، ولعله هو المتبادر لهذه الآية والله تعالى أعلم، وقيل غير هذا على كل حال، والله أعلم.

"وفي قوله: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة] قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن قُرَيشاً منعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(١١٤) سورة البقرة]."

على هذا يكون الخراب معنوي، وعلى كل حال هذه الرواية لا تخلو من ضعف، ولا شك أن المشركين سعوا في خرابها حينما منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، وكان ذلك في وقعة الحديبية المشهورة.

وأما كلام ابن جرير -رحمه الله- فهو كما ذكرنا أن السياق كله في بني إسرائيل ابتداء من قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة] وأنها كلها تذكير لبني إسرائيل فهو يرى أن الآيات غير خارجة عن الحديث عن بني إسرائيل بطائفتيهم اليهود والنصارى، وعليه فهذه الآية في النصارى حينما منعوا اليهود على قوله -رحمه الله- فهو يحتج بالسياق ويحتج بقوله تعالى: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة].

"لما وجه الله تعالى الذم في حق اليهود والنصارى شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٤) سورة الأنفال]، وقال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ* إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [(١٧-١٨) سورة التوبة] وقال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [(٢٥) سورة الفتح]، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ} [(١٨) سورة التوبة] فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك."

لا ينكر أن عمارة المساجد تكون بالأمرين، العمارة الحسية، والعمارة المعنوية، وإلا ما فائدة المساجد إذا كان لا يدخلها داخل؟.

"وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [(١١٤) سورة البقرة] هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرتُم عليهم- من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسولُ الله -صلى

الله عليه وسلم- مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: **((ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته))**[1]."

يعني من كان له عهد فعهده إلى مدته.

هذه الآية: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** هي في المانعين من المشركين، بمعنى أن هؤلاء -أعني أهل الإشراك- ليس لهم ولا يحق بحال من الأحوال أن يهيمنوا على المساجد، وأن يمنعوا الناس من إقامة ذكر الله -عز وجل- فيها، بل على العكس، ليس الشأن أن يتحكموا هم في المساجد ويعطلوا عمارتها وإنما الشأن أن القضية تكون منعكسة، فالواحد من هؤلاء لا يتمكن من دخول المسجد إلا في حال الخوف والترقب، لا أن يكون متمكناً يمنع الناس منها ويتسلط عليها، ويسيطر فيسعى في خرابها، ويمنع من شاء، ويفعل ما شاء، ليس لهم أن يبلغوا هذا المبلغ، وإنما الشأن أنهم ليسوا بأهل في دخولها إلا في حال واحدة هي أن الواحد منهم يدخل وهو في غاية الترقب والخوف والحذر؛ لأنه قد دخل في عرين الأسد، فالمسجد هو عرين الأسد، وهو موضع القيادة، وهو الذي تعقد فيه الألوية، وتقام فيه الخطب، وينهل فيه من ميراث النبوة، فهو بمنزلة القلب النابض في المجتمع الإسلامي أو في الحي الإسلامي، أو في المدينة الإسلامية، فلا يتجرأ الواحد من هؤلاء الأنجاس كما قال تعالى: **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** [(٢٨) سورة التوبة] أن يدخل هذه المساجد فيقذرها بدخوله، وإنما يدخل وهو في وجل وخوف أنه دخل في مكان له هذه المنزلة والأهمية والمكانة عند المسلمين، فيدخل في حال العهد أو الهدنة أو الجزية كما أدخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وفد نصارى نجران إلى المسجد للتفاوض معهم ودعوتهم للإسلام حتى دعاهم إلى المباهلة، وكذلك ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وكان مشركاً، فما ظنك بمن يربط في سارية من سواري المسجد هل يكون متحكماً فيه ويكون مهيمناً ومسيطراً عليه؟

الجواب لا، فهذا هو حق أهل الإشراك، وقدرهم ومنزلتهم، لا يدخلونها إلا في هذه الحالة، لا أنهم يفرضون سيطرتهم عليه، **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة] كما هو الحال في اليهود اليوم، فهم الذين يتصرفون ويتحكمون في المسجد الأقصى، فتارة يمنعون صلاة الجمعة فيه، وتارة يمنعون صلاة التراويح، وتارة يقفون دون الناس في الصلاة المكتوبة؛ لئلا يدخلوا فيه، وتارة يدخلونه فينجسونه ويقذرونه بدخولهم هذا.

وأما مسألة دخول المشرك إلى المسجد فليست محل البحث هنا، لكن الراجح أنه يجوز للمشركين أن يدخلوا المساجد حتى المسجد النبوي، لكن هذا الدخول كما قال الله -عز وجل-: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة]، فلا بأس أن يدخل لإصلاح شيء في المسجد، ولا بأس أن يكون بعض العمال ممن بنى المسجد من المشركين، لا إشكال فالعامل أجير، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وأدخل وفد نصارى نجران في المسجد، إلا المسجد الحرام، **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}** [(٢٨) سورة التوبة] والمقصود به أرض الحرم جميعاً وليس فقط بناء المسجد.

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٣) والدارمي (ج ١ / ص ٣٩٣) وأصله في الصحيحين.

فهذه الآية من حيث الصيغة خبر {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [(١١٤) سورة البقرة] وهي متضمنة لمعنى الطلب، بمعنى لا تمكنوهم من دخولها إلا في هذه الحال، فمن الأحوال التي ينبغي أن يمنعوا منها هذا التسكع الذي يقع في مشارق الأرض ومغاربها، حيث يتسكعون وهم عراة، حيث توجد مساجد لها منزلة في قلوب المسلمين يأتي السواح يتفرجون عليها كما هو مشاهد في المسجد الأموي وغير المسجد الأموي في شرق الأرض وغربها إذ تعتبر هذه المساجد من المعالم السياحية فيأتونها مع نسائهم في غاية العري والتبرج ومعهم الكاميرات ويدخلون بأحذيتهم، فكل واحد يدخل وهو مع كلبته يتفرجون ويتسكعون في أرجاء المسجد، فليس لهم ذلك، وينبغي أن يمنعوا منه؛ فالآية خبر بمعنى الطلب، ولا شك أن الطلب في الآية أمر شرعي وليس قدري؛ إذ لو كان المقصود بالطلب الأمر القدري ما كان دخلها أحد من المشركين؛ فالمقصود أنه أمر شرعي لأهل الإيمان أن لا يمكنوا أهل الإشراك إلا في هذه الحال.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] هذا خبر وهو بمعنى الأمر، إذ هو أمر بتأمين من دخل المسجد الحرام وعدم الاعتداء عليه، فهو أمر شرعي أيضاً، لكن هل ذلك أيضاً واقع من جهة القدر؟

بعض أهل العلم يقول: نعم؛ بدليل أن الله -عز وجل- قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [(٦٧) سورة العنكبوت]، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [(١١٤) سورة البقرة] قال: "وهذا إنما كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة] وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة.

وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها {وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١١٤) سورة البقرة] على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده والطواف به عُرْيًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما روى الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو: ((اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة))[1] وهذا حديث حسن."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فخلاصة ما يقال في هذه الآية، هو أن من أهل العلم من يرى أنها بصيغة الخبر، الذي بمعنى الأمر، فقوله: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} الصيغة خبرية ومعناها الطلب، أي لا تمكنوهم من دخولها إلا في مثل هذه الحال.

وعلى كل حال معنى هذا الخبر أن هؤلاء الكفار ليسوا بأهل أن يتحكموا وأن يتولوا شأن المسجد، فيُدخلوا فيه من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وإنما الشأن أن هؤلاء ليسوا بأوليائه إنما أولياؤه المتقون، ومن ثم فإن حق هؤلاء هو الإبعاد والإذلال، وأنهم لا يجترئون على هذه المساجد بالدخول فضلاً عن العبث والسيطرة والتحكم في شئونها، فهذا هو المعنى الأول، والمعنى الثاني أن ذلك من قبيل البشارة، فقوله: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} فيه إخبار عن أمر مستقبل سيقع، فتكون الآية بهذا الاعتبار بمعنى الخبر لكنه خبر عن أمر مستقبل، فعلى كل حال المعنى الأول أقرب، والله تعالى أعلم.

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ١٨١) وابن حبان (ج ٣ / ص ٢٢٩) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

ولو قال قائل: إن ذلك الخبر الذي بمعنى الطلب مضمن معنى البشارة فإن ذلك لا يبعد، وهو أولى من القول بأنه خبر محض عن أمر غيبي فهو في حقيقته بشارة لأهل الإيمان بما سيحصل لهم من التمكين والغلبة، وقد تحقق ذلك.

لكن الآية -والله تعالى أعلم- تبين حق هؤلاء الكفار الذي ينبغي أن يكون، وهو أنهم في مرتبة دون هذا الذي ارتقوا إليه من التسلط على المساجد والقيام عليها بصد الناس عن المسجد الحرام.

قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(٢٥) سورة الفتح] هذا في المشركين وكذلك في النصارى حينما دخلت دولة الرومان في النصرانية، وإن شئت أن تقول: حينما أُدخلت النصرانية إلى وثنية الرومان وذلك باعتناق قسطنطين النصرانية محملاً بوثنيته فأفسدها وحصل ما حصل من تسلط الرومان على اليهود ومن قتلهم، وما وقع بعد ذلك من اجتياح بختنصر لبيت المقدس وخراب المسجد الأقصى فأعانه الرومان على ذلك.

"{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة] **وهذا -والله أعلم- فيه تسلية للرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلاهم.**"

ابن كثير -رحمه الله- هنا يتحدث عن المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها باعتبار أن الآية السابقة في المشركين وهي قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ} [(١١٤) سورة البقرة]، أي: أن المشركين منعوا المسلمين من المسجد الحرام، فيقول: ثم سلى الله -عز وجل- أهل الإيمان لما صُدوا عن المسجد الحرام بأن لله المشرق والمغرب وذلك لتخفيف أثر هذا المنع والصد في نفوسهم.

فهذا باعتبار أن الآية السابقة للمشركين، لكن من قال إن الآية السابقة في النصارى كابن جرير -رحمه الله- كيف يربط بين هذه الآية والتي قبلها؟ يعني ومن أظلم من النصارى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، إلى آخره، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فاذكروه، ولا يمنعكم تخريب بيت المقدس من أن تذكروا الله حيث كنتم فإن ذكر الله -عز وجل- لا يختص بمحل دون محل، فعلى هذا تكون هذه الآية عقب ما حصل من النصارى على قول ابن جرير من إخراب المسجد الأقصى، وإعانة بختنصر على ذلك ومنع اليهود منه، أن الله -عز وجل- قال: لا يكن ذلك -أي الصد وإخراب المسجد الأقصى- سبباً مانعاً من القيام بوظائف العبودية، فإن الله -عز وجل- يعبد في كل مكان {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] هذا إذا ربطنا بين الآية وبين التي قبلها.

ولكن إذا نظرنا إلى أسباب نزول الآية الثانية فهي في التوجه والاستقبال وليس في فعل العبادة في محل دون محل، وهذا مع اختلاف الروايات وتنوعها في سبب نزول الآية كما سأشير إليه بعد قليل إن شاء الله.

فالآية الأولى في المنع من التعبد لله -عز وجل- في المساجد وإخراب المساجد بتعطيل ذكر الله -عز وجل- فيها، أو إخراب عمارتها، والآية الثانية في التوجه، وذلك أن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، فيمكن أن لا نربط بين الآيتين فنقول: هذه آية نازلة في سبب، وتلك تتحدث عن موضوع آخر، ولا نحتاج

إلى التكلف في الربط بين الآيات، ومع أن القرآن في غاية التناسق لكن قد لا يظهر وجه ذلك إلا بنوع من التكلف، قد نقول هذا.

ومن حاول الربط كابن جرير -رحمه الله- فهو يربط بين هذه القضية، وبين فعل النصارى على أساس أن الآية السابقة في النصارى، فإذا سلمنا بأن الآية الأولى في النصارى تكون هذه الآية تسلية لليهود على هذا الاعتبار، لكن هل قصد القرآن تسلية اليهود وهو في سياق الرد عليهم وبيان مخازيهم؟

وإذا قلنا: إنها في المشركين فيكون السياق قد خرج عن الحديث عن اليهود وأهل الكتاب إلى المشركين، وتكون تسلية للمسلمين.

فعلى كل حال الله -عز وجل- تعرض للمساجد التي هي محال التعبد فتوعد من قام بتعطيلها، وصد الناس عنها وعمل على خرابها، ولما تحدث عن المساجد التي هي محل التعبد لله -عز وجل- في الأساس وهي أفضل البقاع عند الله -عز وجل- ولما كان الناس فيها يتوجهون في صلاتهم إلى القبلة، تحدث عن قضية القبلة، فنحن إذا عمدنا إلى مثل هذا الربط دون الغوص في الكلام على بعض التفصيلات من حيث الذين عنتهم الآية بتحديدهم على سبيل التخصيص، فإن ذلك قد يظهر وجهه ولا يكون ذلك متكلفاً بالطريقة التي ذكرتها آنفاً.

"وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]."

على هذا الاعتبار تكون الآية نازلة في تحويل القبلة، وعلى كل حال في قوله: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} أين للمكان.

{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} يعني حيثما تتوجهوا فهنالك وجه الله، أي: {فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} بمعنى هنالك وجه الله.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} هذا الختم للآية في غاية المناسبة؛ لأنه فتح لهم ووسع لهم في التوجه بظاهر الآية، فناسب أن يعقبه بقوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة].

فعلى كل حال الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا أولاً, معناه أن ذلك يتعلق بمسألة تحويل القبلة، وهو أحد أسباب النزول الواردة في هذه الآية؛ وذلك أن المسلمين لما توجهوا إلى بيت المقدس ثم حولت القبلة إلى الكعبة تكلم اليهود، ولما كانوا يتوجهون قبلُ إلى المسجد الأقصى تكلم المشركون، وقالوا: هذا يزعم أنه على دين إبراهيم، ويتوجه إلى غير قبلته، فلما حولت من بيت المقدس إلى الكعبة تكلم اليهود وأرجفوا بالمسلمين، وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة] وهم السفهاء الذين عناهم الله -عز وجل- بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة] فتكلم اليهود في ذلك فأنزل الله -عز وجل-: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] وعلى هذا الاعتبار تكون دلالة الآية إنما هي في الرد على اليهود المعترضين على تحويل القبلة، بمعنى أن الله حيث وجهكم توجهتم فالجهات كلها لله -تبارك وتعالى- وبالتالي لا يفهم من هذا بحال من

الأحوال أن الإنسان مخير بحيث يتوجه إلى أي الجهات شاء ويصلي، بل هو مطالب حينما كانت الوجهة إلى بيت المقدس أن يصلي إلى بيت المقدس ولا تصح صلاته إذا كان عالماً عامداً إلا بهذا، ثم لما وجهت إلى البيت الحرام المقدس صار ذلك من الأمر اللازم الذي لا تصح الصلاة إلا به إلا من عذر بأن عجز عن التوجه لخفاء القبلة أو المحبوس المربوط بحيث لا يستطيع أن يتوجه أو المريض في بعض حالاته، أو نحو هذا من الأعذار ففي مثل هذا يكون ذلك عذراً واستثناءً لهؤلاء.

لكن إذا نظرنا إلى الأسباب الأخرى الواردة في نزول الآية -وقد صح كثير منها- فستجد معانيَ أُخر، فمن ذلك ما ثبت مثلاً عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو متوجه من مكة إلى المدينة يصلي على راحلته وابن عمر يقول: وفي هذا نزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ} [(١١٥) سورة البقرة]؛ فهذه الرواية ثابتة ولكنها غير صريحة.

ولو فرضنا أن هذه الرواية هي سبب نزول أيضاً -لأنها محتملة- فتكون الآية نزلت في هذا، وفي هذا، وفي هذا، وفي هذا، أو يقال: إن ابن عمر -رضي الله عنه- أراد أن ذلك مما يدخل في معناها؛ لأن الشارع أذن للمسافر أن يتنفل على راحلته حيث توجهت به وحتى على غير الراحلة على الأرجح، فهذا صحيح لكنه غير صريح.

وجاء أيضاً في بعض أسباب النزول أن ذلك كان بسبب خفاء القبلة حيث صلوا في ليلة مظلمة ولم يعرفوا القبلة، فاجتهدوا فصلى كل رجل بحسب اجتهاده على حياله، ثم وضعوا أحجاراً أو شيئاً يعرفون به الجهة التي استقبلها كل واحد منهم، فلما أصبحوا رأوا أنهم صلوا إلى غير القبلة فأخبروا النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت الآية، كما في حديث عامر بن ربيعة[٢] فيكون ذلك أيضاً فيمن خفيت عليه القبلة.

ووردت أسباب أخرى منها الصحيح، ومنها الضعيف، منها الصريح ومنها غير الصريح، فعلى كل حال إذا أردنا أن نجمع في أسباب النزول فإننا نبعد الروايات الضعيفة، مثل أنهم سألوا إلى أين يتوجهون لما أمروا بالصلاة، فأنزل الله -عز وجل-: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١١٥) سورة البقرة] فهذا لا يصح، وعلى كل حال نبقي الصحيح ونبعد غير الصريح كحديث ابن عمر الذي قال فيه: إنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي على راحلته[٣]، قال: وفي هذا نزلت: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١١٥) سورة البقرة] فيبقى معنى أن هذه الآية رد على اليهود في اعتراضهم على تحويل القبلة وتطمين للمسلمين وتسلية، وهي أيضاً فيمن خفيت عليه القبلة، ويدخل في معناها أيضاً التوجه إلى غير القبلة في حال العذر أو الرخصة، مثل المسافر يصلي تطوعاً اختياراً إلى غير القبلة فهو مرخص له، وكذلك أيضاً من صلى إلى غير القبلة جهلاً منه أو اضطراراً مثل المريض أو المحبوس، فكل هؤلاء داخلون في عموم قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] ويبقى الأصل وهو أن الإنسان لا يجوز له أن يتوجه إلى غير المسجد الحرام؛ لقوله: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] إلا فيما ذكر من الأعذار، وكما هو الشأن في صلاة الخوف في حال المسايفة والاشتباك في الحرب فإنه يصلي ووجهه هاهنا وهاهنا.

---

[2] - أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم (٣٤٥) (ج ٢ / ص ١٧٦).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت (٧٠٠) (ج ١ / ص ٤٨٦).

بعض أهل العلم أيضاً ينظر إلى لفظة "حيث" في قوله: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ}، فيقول: إن المراد فأينما كنتم، أي: في أي مكان سكنتم من الأرض وأقمتم فيه فثم قبلة الله وهي الكعبة، فثم وجه الله، {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] وعلى هذا المعنى فالآية ليست في معنى الرخصة فليست في التوجه إلى غير القبلة، وليست في تحويل القبلة، وإنما هو يعلمهم ويقول لهم: في أي مكان من الأرض أقمتم فتوجهوا إلى قبلة الله -تبارك وتعالى- وهي الكعبة، وهذا المعنى إذا فسرت الآية به بمجرده هكذا فهو بعيد؛ لأننا سنكون أعرضنا عن أسباب النزول الواضحة الصحيحة التي تبين المراد بالآية بياناً واضحاً لا يبقى معه غبش وبالتالي لا يحتاج إلى مثل هذا مع وجود هذه الروايات، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال يقال في خلاصة الآية: هذه أسباب نزول نزلت الآية فيها جميعاً والله أعلم، فهي رد على اليهود وفي نفس الوقت هي في من خفيت عليه القبلة، وهكذا في صلاة المسافر تطوعاً، وهكذا أيضاً في المريض والمحبوس ومن لم يتمكن من استقبال القبلة، فهؤلاء جميعاً معذورون.

وبعضهم يقول: هذه في الدعاء أي {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ} [(١١٥) سورة البقرة] يعني تتوجهوا بدعائكم إلى أي جهة فثم وجه الله.

وعلى كل حال الحديث عن القبلة لا يختص بالدعاء، وأول ما يتبادر فيه إنما هو الصلاة، التي يطالب الناس فيها باستقبال القبلة، لكن هؤلاء كأنهم نظروا إلى أن الدعاء لا يشترط فيه استقبال فحملوا الآية عليه، وابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمل الآية على جميع هذه المعاني، يقول: فإنه لم يرد دليل في تخصيص بعض دون بعض، فالآية تحتملها جميعاً وكلها داخل فيه، وبهذا الاعتبار لا إشكال فالدعاء لا يشترط فيه استقبال، وصلاة التطوع لا يشترط فيها استقبال، ومن خفيت عليه الصلاة في السفر أو كان في مكان مظلم، أو حتى في الحضر إذا كان معذوراً، لا أن يتساهل في البحث عن جهة القبلة أو السؤال أو ينظر إلى المساجد المجاورة أو نحو هذا فهذا مفرط يجب عليه أن يعيد الصلاة.

وعلى كل حال كل هذه المعاني داخلة فيها لكن ذلك لا يفهم منه بحال أن استقبال القبلة غير واجب.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة."

أول ما نسخ من القرآن القبلة باعتبار أنه أول ما نسخ من الأمور والأحكام العملية، كما يقول بعضهم، لكن هذا القيد يحتاج إلى نظر وتأمل؛ إذ هل تنسخ غير القضايا العملية أصلاً؟ فمن المعلوم أن العقائد لا يدخلها النسخ، والأخبار لا يدخلها النسخ؛ فإن ذلك يكون تكذيباً لها، إنما النسخ في القضايا العملية، فلهذا يصير ذلك القيد أشبه ما يكون بالصفة الكاشفة التي لا تفيد قيداً، والله أعلم.

"وذلك أن رسول -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة وكان أهلُها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب قبلة إبراهيم -عليه السلام- وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [(١٤٤) سورة البقرة] إلى قوله: {فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة]، فأنزل الله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة] وقال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة].

وقال عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وقال مجاهد: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة."

كلام مجاهد هذا بناءً على المعنى الذي ذكرته في الآخر، وهو أن قوله: {فَأَيْنَمَا} بمعنى حيثما، ولا شك أن أينما بمعنى حيثما، لكن ما المراد بها؟ قال: أي مكان وجدتم على وجه الأرض فعندكم القبلة تتوجهون إليها، وعلى هذا فالآية لا تكون مختصة بمن خفيت عليه القبلة أو نزلت في كذا أو كذا، وهذا ذكرته آنفاً.

"قيل: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال المسايفة وشدة الخوف.

فعن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]**."**

معنى يتأول في هذا الموضع معناه العمل بها؛ لأن التأويل يأتي بمعنى التفسير، ويأتي بحسب المقام، فإذا كان ذلك من قبيل الأمر فتأويله العمل بالمأمور والامتثال، وفي حديث عائشة: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن[٤]، يعني يتأول قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [(٣) سورة النصر] أي يمتثل الأمر.

وإذا كان ذلك من قبيل الخبر فتأويله يكون بوقوع المخبر، وإذا كان ذلك من قبيل الرؤيا، فتارة يقصد به التفسير كما في قوله تعالى: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف]، هذا في تفسير الرؤيا التي رآها الملك، وتارة يكون بتحقق هذه الرؤيا ووقوعها، كما قال يوسف –عليه السلام-: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف] لما سجد له أخوته وأبواه، فالحاصل أنها كانت تأويل رؤياه التي قال عنها: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [(٤) سورة يوسف] فالمقصود بالتأويل في قول ابن عمر: "كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]" يعني يحقق ويمتثل ويعمل بالآية.

"ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْدُوَيه، وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة -رضي الله تعالى عنهم- من غير ذكر الآية."

أيضاً جاء من حديث عامر بن ربيعة في غير الصحيحين مع ذكر الآية وإسناده فيه بعض الضعف، لكنه مع وجود هذه الشواهد يكون من قبيل الحسن، والله أعلم.

"وفي صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، قال نافع: ولا أرى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- ذكر ذلك إلا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-."

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٤٦٨٤) (ج ٤ / ص ١٩٠١) ومسلم في كتاب الصلاة – باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

بمعنى أن هذه أصلاً قضية توقيفية لا يمكن لابن عمر أن يخترع من عنده طريقة في صلاة الخوف، وصلاة الخوف كما هو معلوم لها صفات متعددة، فابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف بين لهم ذلك عملياً ولكنه لم يضفه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن ذلك مبناه على التوقيف، ومن ثم فله حكم الرفع؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي.

"وقيل: نزلت فيمن اشتبهت عليه القبلة لأجل الظلمة والسحاب ونحوهما فصلى لغير القبلة."

هذا كما في حديث عامر بن ربيعة، لكن في بعض الروايات السابقة التي نقلها عن جماعة من السلف يقول: **وقال عكرمة عن ابن عباس: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة] **قبلة الله، وقال مجاهد: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها**، إلى غير ذلك من الروايات التي جاءت في هذا المعنى مما لم يورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حيث فسروا بها قوله: {فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} أي فهنالك قبلة الله، ففسروا وجه الله بمعنى القبلة، وبعضهم يقول: الجهة، وعلى هذا الاعتبار تكون الآية ليست من آيات الصفات أصلاً، فهم لم يعدوها ولم يقولوا: إنها من آيات الصفات أصلاً حتى يقول قائل: إنهم قد أولوها مثلاً، وإنما قالوا: الوجه بمعنى الجهة، وليس الوجه الذي هو الصفة المعروفة، تقول: أنا أريد هذا الوجه، يعني هذه الوجهة، وهذا معروف في كلام العرب والسياق والقرائن تبين المعنى المراد وتحدده، فإذا قلت: نظرت إلى وجهك المقصود به الصفة، وإذا ذكرت الإرادة مثلاً أو السفر أو نحو هذا، تقول: أريد هذا الوجه فالقرائن تحدد المراد، هل تريد الصفة أو تريد الشخص أو تريد الجهة التي تريد أن تتوجه إليها وتسافر إليها، وتذهب إلى ناحيتها.

بعض أهل العلم من السلف ومن تبعهم من أهل السنة يرون أن هذه الآية من آيات الصفات، فالذين قالوا: إنها من آيات الصفات قالوا: فيها إثبات صفة الوجه لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، فهم حملوها على ظاهرها، وهم لا ينكرون أن الوجه يطلق ويراد به الذات أيضاً، قالوا: لكن ذلك لا يقال لمن لم يكن متصفاً، فجعلوها دالة على إثبات صفة الوجه.

والأدلة التي تدل على صفة الوجه من الكتاب والسنة كثيرة، فعدوا هذا منها، وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل العلم منهم عثمان بن سعيد الدارمي في رده على بشر المريسي، رد عليه وتكلم على هذه الآية وهذه القضية في رده على هؤلاء المعتزلة.

وممن حملها على هذا المعنى أيضاً أنها من آيات الصفات كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وكذلك الحافظ ابن القيم وأطال في تقرير هذا المعنى في كتاب الصواعق، وهذه من المواضع القليلة التي خالف فيها شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث إن شيخ الإسلام أيضاً أطال الكلام في أكثر من موضع -في ثلاثة مواضع فيما وقفت عليه على الأقل من الفتاوى- تحدث فيه عن هذه الآية أنها ليست من آيات الصفات أصلاً، وبالتالي لا يستطيع أن يتمسك بها أهل الكلام وأهل التأويل والتحريف في نفيهم لصفة الوجه، أو في دعوى أن السلف -رضي الله عنهم- وقعوا في شيء من التأويل، ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة والكلام عليها فهي في المجلد الثاني والثالث والسادس من الفتاوى وعزا ذلك إلى جمهور السلف -رضي الله تعالى عنهم- حيث قال: إن جمهور السلف لا يرون أنها من آيات الصفات أصلاً، ولهذا لما وقعت له المناظرة المعروفة معهم في الواسطية وأمهلهم ومعروف ما وقع فيها حينما استعانوا بالصفي الهندي في المجلس الآخر، فالحاصل أنه

كان مما أورده عليه في المجلس الذي بعده لما تحداهم أن يأتوا بمثال واحد أن السلف أولوا شيئاً من الصفات فقال له أحدهم: إنه وقف على مثال وقع فيه التأويل عند السلف فقال له شيخ الإسلام: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}؟ [(١١٥) سورة البقرة]، قال: نعم، قال: هذه أصلاً ليست من آيات الصفات حتى يقال: إنهم أولوها، ثم بين المراد بها، فهو يعزوا هذا إلى الجمهور من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-.

على كل حال الخلاف عند أهل السنة في مثل هذه الآية ليس خلافاً في قضية اعتقادية إطلاقاً وإنما غاية ما في الأمر أنه اختلاف في المعنى والتفسير فقط، وغاية ما يقال عن أحد الفريقين: إنه أخطأ في تفسير الآية كأي خطأ في التفسير ليس له علاقة بالاعتقاد بحيث يقال: هذا أوَّلَ وهذا نفى وهذا أثبت؛ لأنهم يثبتون صفة الوجه من الأدلة الكثيرة الأخرى في الكتاب والسنة فهم مثبتون هذا الأمر مقرون به، ولكنهم اختلفوا في آية هل هي تدل عليه أو لا تتعلق به أصلاً مع إثبات صفة الوجه؟، فهذا اختلاف في التفسير فقط، وهذا مثل ما يقال أيضاً في الآية الأخرى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} [(٤٢) سورة القلم] جاء عن بعض السلف ومنهم ابن عباس وجماعة بأن الساق بمعنى الكرب، وهذا معنىً معروف ومشهور في كلام العرب ولا إشكال فيه والآية تحتمله، ومن أهل السنة من قال: إن هذه من آيات الصفات والمقصود بها الساق الذي هو الصفة، واستدلوا عليه بالحديث الآخر، ((فيكشف عن ساقه))[5] فجاء به مضافاً إلى الضمير العائد على الله -عز وجل- وهنا لا يمكن أن يفسر بالكرب، فأهل السنة مثبتون لهذه الصفة مقرون بها، لكن غاية ما هنالك هو هل الآية تتحدث عن هذه الصفة أو تتحدث عن معنىً آخر، وهذا الخلاف سائغ ولا إشكال فيه، فهو خلاف في المعنى إذا كنت تثبت الصفة، لكن المشكلة في الذي يقول: الله ليس متصفاً بهذه الصفة أصلاً، لا الوجه ولا الساق ولا غير ذلك، فيؤولها بالتأويلات البعيدة والمحامل المتكلفة ولا يثبت ذلك ابتداءً، فهذا هو الانحراف ولا شك أنه انحراف، وأعظم منه من جعل قاعدة وأصلاً يسير عليه ويؤول عليه جميع النصوص.

الذين وقعوا في التأويل المذموم منهم من وقع في مفردات، مثل الشوكاني وجماعة، حتى بعض الأكابر ربما وقع في شيء من هذا، كابن خزيمة في كلامه على حديث: ((فإن الله خلق آدم على صورته))[6] فالمقصود أن هذه المفردات إذا وقع فيها الإنسان دون أن يضع قاعدة يجري عليها فإن هذا يكون من الخطأ الذي لا يكاد يسلم منه أحد، والله -عز وجل- يغفر لهذه الأمة خطأها، وإذا كان الإنسان غير متبع للهوى فإن الله -عز وجل- يتجاوز عنه وهو بين أجر وأجرين، لكن الخطر الأشد هو أن يجعل قاعدة فاسدة، فيقول مثلاً: كل آية توهم في ذهنه المعوج التشبيه أو التمثيل فإنها مصروفة عن ظاهرها، ويقول: الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصل من أصول الكفر.

فهذا الكلام غاية في الانحراف، وهذا لا يقارن بمن أخطأ في مثال أو مثالين أو ثلاثة أو عشرة، دون أن يضع أصلاً بدعياً يجري عليه النصوص ويحاكمها إليه، فلا بد أن نفرق بين هذا وبين هذا، ولا نلقي الكلام

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] (٧٠٠١) (ج ٦ / ص ٢٧٠٦).

6 - أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان - باب بدء السلام (٥٨٧٣) (ج ٥ / ص ٢٢٩٩) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١) (ج ٤ / ص ٢١٨٣).

جزافاً على عواهنه بحيث نجد مثالاً أو مثالين أو ثلاثة لأحد من أهل العلم وقع في شيء من التأويل فنجعله بمنزلة ذلك الذي جعل أصلاً منحرفاً يحاكم إليه النصوص، هناك فرق بين هذا وبين هذا، والله أعلم.

"وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بين المشرق والمغرب قِبْلَة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق)) وله مناسبة هاهنا وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة))[٧]"

قوله –عليه الصلاة والسلام-: **((ما بين المشرق والمغرب قِبْلَة))** هذا يفيد فائدة وهي أن البعيد لا يستطيع بتوجهه أن يجزم مائة بالمائة أنه إلى عين الكعبة وبالتالي فإن الميل اليسير لا يضر بشرط أن لا يتعمد الإنسان الميل، ولذلك حتى الذين يصلون في وسط الحرم يقع منهم مثل هذا الخطأ وهو عدم التوجه مائة بالمائة إلى عين الكعبة فيكف بالذين يبعدون ألف كيلو متر أو آلاف الكيلو مترات؟!

فالمقصود أنك إذا صليت في الطريق وأنت مسافر مثلاً ووقفت متجهاً إلى القبلة فجاءك من يقول لك: هل أنت متيقن أنك متوجه إلى عين الكعبة؟ فقل له: حتى وإن وقع شيء من الميل فإنه لا يضر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة))[٨] فالميلان اليسير لا يضر.

وإذا كان السجاد في مصلى المدرسة أو مكان العمل أو غيرهما ووجد فيه ميلان إلى حد ما فالصلاة صحيحة، وكذلك لو أن قبلة مسجد ما فيها ميلان يسير فلا حاجة أن تجعل تلك قضية ومشكلة بحيث تؤدي إلى أن الناس يتحاشون الصلاة فيه بل لا بد من العمل والاستفادة من هذا الحديث: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة)) لكن إذا أمكن التحري في هذا وضبط التوجه في الصلاة فهذا هو المطلوب والله المستعان.

"قال ابن جرير: ومعني قوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة] يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله: {عَلِيمٌ} فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم."

قوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة]: ذِكْر السعة يتناسب مع قوله سبحانه: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]، والعلم أيضاً هنا في غاية المناسبة من جهة أن توجيههم من بيت المقدس إلى الكعبة ومن الكعبة إلى بيت المقدس أولاً، كل ذلك مبني على علمه -سبحانه وتعالى- المحيط بكل شيء فهو عالم ذلك ابتداءً وأن ذلك لن يدوم، وسيحولون منه إلى غيره.

وكذلك مع قوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء}** [(١٤٤) سورة البقرة] فالله -عز وجل- عليم به وبحاله، وما كان يتطلع إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعليم بكلام هؤلاء، ما قالوا وما سيقولون من جراء تحويل القبلة، فهو عليم بما يصلح خلقه لا يخفى عليه من أمرهم خافية.

"{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ* بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٦-١١٧) سورة البقرة] اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها

---

[7] - أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء ما بين المشرق والمغرب قبلة (٣٤٢) (ج ٢ / ص ١٧١) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب القبلة (١٠١١) (ج ١ / ص ٣٢٣) وصححه الألباني في مختصر الإرواء برقم (٢٩٢).

[8] - سبق تخريجه.

على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله- وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله."

يعني هذا باعتبار أن النصارى قالوا المسيح ابن الله، واليهود قالوا عزير ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فكل هذه الطوائف الثلاث وقعت في هذه الورطة وإن كان حينما تذكر نسبة الولد إلى الله -عز وجل- فالمتبادر إلى ذلك طائفة من هذه الطوائف اشتهرت به وهم النصارى؛ لأن ذلك غلب عليهم، أما اليهود فإن الذين قالوا: إن عزيراً ابن الله إنما هي طائفة من اليهود لا كل اليهود، وكذلك أيضاً الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ليسوا كل العرب أهل الإشراك وإنما هم طائفة من العرب وقعوا في مثل هذا.

قوله: **على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله-** على كلام ابن كثير هي رد على الطوائف الثلاث، وعلى ما ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فهو يرى أن هذه الآية أيضاً رد على النصارى، لأنه ذكرهم أولاً، **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ}** [(١١٤) سورة البقرة] قال: هي في النصارى، حينما أعانوا على إخراب بيت المقدس ومنعوا اليهود من الصلاة فيه، ثم سلى المؤمنين -أي آنذاك- الذين مُنعوا منه بأن شرع لهم حيثما كانوا أن يتوجهوا إليه سبحانه ويعبدوه، ثم قال: **{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا}** [(١١٦) سورة البقرة] أي النصارى -على كلام ابن جرير الطبري- فهو يرى أن هذه الآية **{وَقَالُواْ}** الواو فيها عاطفة على قوله: **{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة] عند قوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة] ثم ذكر بعض مخازيهم فقال: **{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا}** [(١١٦) سورة البقرة].

"وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً فقال تعالى: {سُبْحَانَهُ} [(١١٦) سورة البقرة] **أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.**

{بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٦) سورة البقرة] **أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين؟ وهو -تبارك وتعالى- ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟! كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [(١٠١) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا* أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا* وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا* إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [(٨٨-٩٥) سورة مريم]، **وقال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [(١-٤) سورة الإخلاص].

فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟!

ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً))[٩] انفرد به البخاري.

وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم))[١٠]".

سيأتي وجه الرد عليهم من هذه الآية، من الوجهين اللذين ذكرهما الله -عز وجل- فيها، وذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة]، ثم قال: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(١١٧) سورة البقرة].

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة البقرة (٤٢١٢) (ج ٤ / ص ١٦٢٩).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الصبر على الأذى (٥٧٤٨) (ج ٥ / ص٢٢٦٢) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - بـــاب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢٨٠٤) (ج ٤ / ص ٢١٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -رحمه الله-: "وقوله: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: "قَانِتينَ" مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مُقِرُّون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} يقول: الإخلاص. وقال الربيع ابن أنس: يقول كل له قانتون أي: قائم يوم القيامة، وقال السدي: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} أي: مطيعون يوم القيامة، وقال خَصيف عن مجاهد: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان، وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد -وهو اختيار ابن جرير- يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وهو شرعي وقَدري كما قال الله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [(١٥) سورة الرعد]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله: **عن ابن عباس قال: "قَانِتِينَ" مصلين**، هل هذا المعنى يتأتى في جميع المواضع؟

يقول النبي –عليه الصلاة والسلام-: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[1]، فهل يعني طول الصلاة؟ ويقول تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي} [(٤٣) سورة آل عمران] هل المعنى يا مريم صلي لربك واسجدي واركعي؟ ويقول تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [(٣٥) سورة الأحزاب]، هل يعني المصلين والمصليات؟

الجواب: ليس بظاهر تفسير القنوت في جميع مواضعه بالصلاة، لكنه يحتمل في بعض المواضع دون بعض.

وقوله: **قال عكرمة وأبو مالك: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مُقِرُّون له بالعبودية**، الذين قالوا بهذا قصدوا به أن هذا الإقرار بالنسبة لأهل الإيمان يكون بألسنتهم، وبالنسبة لغيرهم يكون بأمر آخر، ما هذا الأمر الآخر؟

بعضهم يقول: المراد به ما يظهر عليه من أثر صنع الله -عز وجل- فيه، ودلائل قدرته بخلقه التي تبدو عليه، كل ذلك يجعله عبداً مربوباً مخلوقاً لربه وخالقه القدير شاء أم أبى، فإقراره بالعبودية من جهة ظهور أثر صنعة الخالق عليه، فهذا هو الإقرار بالنسبة للكافر على قول بعض أهل العلم.

وبعضهم يذهب بهذا بالنسبة لغيرهم كما في السجود في قوله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [(١٥) سورة الرعد] وذلك أنه لما ذكر جميع من في السماوات ومن في الأرض قالوا: سجود الظلال بالنسبة للكافر.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب أفضل الصلاة طول القنوت (٧٥٦) (ج ١ / ص ٥٢٠).

وقول بعضهم: قانتون بمعنى الإخلاص هذا فيه إشكال إذا فسر في جميع المواضع؛ وذلك أنه لا يصح أن يقال في قوله –عليه الصلاة والسلام- مثلاً: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[2] أي طول الإخلاص.

لكن ودون شك أن من قال الإخلاص لم يقصد بذلك تفسيرها في جميع المواضع، وإنما يفسر هذه الآية، أي: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] أي مخلصون، وكذلك الأمر في قول من قال: قانتون أي قائم يوم القيامة.

عن الربيع بن أنس: قانتون قال: أي قائم يوم القيامة، وهذا المعنى أخذوه من أصل القنوت، حيث ذهبت طائفة كبيرة من أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم لما نظروا في أصلها اللغوي فقالوا: أصل القنوت في كلام العرب بمعنى القيام، فحينما قال: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] أي قائم يوم القيامة، وكأن الذي ألجأه إلى هذا المعنى استشكال ما يقع من جهة الكافر إذا قلنا: إن القنوت هنا بمعنى العبادة، أو بمعنى الخضوع إلى آخره، و"كلٌّ" التي في قوله تعالى: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] هي أقوى صيغ العموم، والكافر جاحد ومنكر ومكابر ومعرض عن الله -عز وجل- فلهذا -والله أعلم- نظر بعضهم إلى أصل معنى القنوت وحمله على معنىً يكون للمؤمن والكافر وذلك في الآخرة، فقال: أي: قائمون، وسمي بيوم القيامة لقيام الناس فيه لرب العالمين، وهذا المعنى تفسيره في هذا المقام فيه بعد وإن كان لوحظ فيه أصل المعنى اللغوي لكن ضعْفه في كونه جعله في يوم القيامة.

وقال بعضهم: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] أي مطيعون يوم القيامة، والقنوت يأتي بمعنى الطاعة، لكنهم قالوا: يوم القيامة لأن الكافر غير مطيع والعاصي عاصي، إذن: هذا يكون يوم القيامة حيث لا يستطيع أحد أن يعصي أصلاً بل كلهم في غاية الذل والخضوع لله -عز وجل- فالقنوت قيل بمعنى القيام، وبعضهم يقول: هو بمعنى الطاعة، فإذا ركب هذا المعنى في الدنيا سيستشكل السامع هذا الكلام؛ إذ ليس كل الناس في طاعة، لذلك قالوا: هذه الطاعة تكون يوم القيامة.

وبعضهم لم يجعلها يوم القيامة وذلك أنهم نظروا إلى معنى آخر للطاعة فيما يتعلق ويتصل بالأمر الكوني، لذلك تجده يقول هنا: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} **قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان**، بمعنى الأمر القدري الكوني الذي لا يستطيع الإنسان أن يتخلص أو ينفك منه بحال من الأحوال، فالناس في كل حالاتهم إنما هم تحت قدر الله -عز وجل- لا يخرجون عن ذلك في قليل ولا كثير، والمقصود أن بعضهم نظر إلى الطاعة فجعلها في الآخرة، وبعضهم جعلها في الدنيا لكنهم لم يجعلوها في الأمر الشرعي وإنما جعلوها في الأمر الكوني القدري، فهذا قال: **مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله** فهذا جعلها في الدنيا، إذ الكافر لا يطيع؛ لذلك قال: **في سجود ظله وهو كاره.**

ثم قال: **وهذا القول عن مجاهد هو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها** كيف يجمع الأقوال كلها؟

أي: إذا كان مطيعاً فهو مصلٍّ وإذا كان مطيعاً فهو مخلص، وإذا كان مطيعاً فكذلك هو منقاد لأمر الله -عز وجل- في كل حالاته، وكذلك هو مطيع طاعة اضطرار في أمر الله الكوني القدري، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

---

2 - سبق تخريجه.

قال: وهو أن **القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقَدري**، الحاصل أن ابن جرير -رحمه الله- يفسر القنوت هنا بالطاعة لله -عز وجل- والإقرار له -تبارك وتعالى- وبالعبودية، وهذه الطاعة والاستكانة والإقرار بالنسبة للكافر تكون بما يظهر عليه من أثر الصنعة، وبالنسبة للمؤمن بعبودية الاختيار التي يتقرب فيها إلى الله -عز وجل-، فالحاصل أن ما يظهر على الخلق من آثار الصنعة كل ذلك يدل على أنهم قانتون لله -عز وجل- من هذه الحيثية بمعنى أنهم مُقِرُّون من هذه الجهة وإن جحدوا بألسنتهم فدلائل قدرته وخلقه فيهم أظهر من جحود ألسنتهم؛ فأجسامهم شاهدة على هذا الخلق والقدرة وما أشبه ذلك، والخلاصة أن هذه الطاعة إما إقرار بالألسن والجوارح والقلب وإما إقرار بما يظهر عليهم من أثر الصنعة فهو ظاهر عليهم.

وبعضهم يفسر القنوت بمعنى السكون وبعضهم بمعنى السكوت، حيث إنهم لما كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت: **{وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}** [(٢٣٨) سورة البقرة] سكتوا فكان نهياً عن الكلام.

شيخ الإسلام له رسالة خاصة في القنوت وفسره في جميع موارده فقال: إنه يدور في جميع هذه المواطن على معنى المداومة والاستمرار على الشيء، هكذا قال -رحمه الله-.

وهذا القول يمكن أن يناقش وقد يرد عليه إشكالات كما يرد على غيره، انظر مثلاً حديث: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[3] فالقنوت في الصلاة قد يستشكل هنا، لكن يمكن أن يفسر هذا بمثل: **{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}** [(٣٥) سورة الأحزاب] ويمكن أن يفسر بمثل: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ}** [(٤٣) سورة آل عمران]، أي أديمي الطاعة.

وعلى كل حال بعض أهل العلم يقول: إن القنوت مشترك بين هذه المعاني، بمعنى أن القنوت ليس له معنىً واحد، وإنما هو مثل لفظة العين، فهي تطلق على العين الباصرة، وتطلق على العين الجارية، وتطلق على الذهب، وتطلق على الجاسوس، وغير ذلك من الألفاظ المشتركة مثل لفظة أمة، فالأمة بمعنى الجماعة من الناس، أو الجماعة المجتمعة على ملة ودين أو نحلة، أو بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير، أو المدة الزمنية كما قال تعالى: **{وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}** [(٤٥) سورة يوسف]، إلى غير ذلك من المعاني.

فالمقصود أن القنوت من أهل العلم من يقول: إنه مشترك بين معانٍ متعددة، وهذا القول إذا قلنا به تنحلّ به كثير من هذه الإشكالات والاعتراضات التي ترد في بعض المقامات مما لا يصلح أن يفسر بها القنوت بمعنىً بعينه، فيلجئهم ذلك إلى بعض المحامل والمعاني كالذي يقول في الآخرة أو غير ذلك.

فالمقصود أننا قد لا نستطيع في كثير من الحالات على الأقل أن نفسر لفظة بلفظة ترادفها وتأتي بكل معانيها تماماً، ومن ثم يقع الإشكال عند تفسير اللفظة؛ لأنك لا تفسرها بلفظة تؤدي المعنى المطلوب، وإنما هو شيء يقربه فيقع في مثل هذا التفاوت في العبارات، إذ كل واحد يتلمس معنى يقرب المقصود فيأتي في الواقع ببعضه لا بكله، فلفظة القنوت تفسيرها بمجرد الطاعة لا يكفي، وإنما هي طاعة في سكون مثلاً، تقول: فلان قانت لله -عز وجل-، وفلان من القانتين، فهل المقصود أنه فقط من المطيعين؟ لا، وإنما فيه معنى زائد على

---

3 - سبق تخريجه.

مجرد الطاعة، فيرد فيه معنى السكون، ويرد فيه معنى الخضوع والاستكانة، وفيه معنى المداومة على الطاعة بمعنى أنه لا يقال: قانت، أو فلان من القانتين لمن يطيع الله -عز وجل- فترة قصيرة، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٧) سورة البقرة] أي: خالقها من غير مثال سبق، قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة كما جاء في صحيح مسلم: ((فإن كل محدثة بدعة))[4].

والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: ((فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))، وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: "نِعْمَت البدعةُ هذه[5]".

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون له ولد، وهو مالك ما في السماوات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوَحْدانيّة وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بُنُوَّته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته، وهذا من ابن جرير، -رحمه الله- كلام جيد وعبارة صحيحة."

وهو نظير قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] كيف يكون له ولد وهو مخترع هذا العالم العلوي منه والسفلي؟ فلا بد أن يكون هذا العالم بجميع ما فيه ومما فيه المسيح -عليه الصلاة والسلام- أن يكون مربوباً لله -تبارك وتعالى-، كيف وقد جاء المسيح أيضاً من غير والد؟ فالله -عز وجل- خلقه بالكلمة على غير مثال سابق، فلا عهد للناس بهذا، وإنما كان آية تدل على قدرة الله -عز وجل- وبديع صنعه.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٧) سورة البقرة]: هذه اللفظة "بدع" تدل على الاختراع والإحداث من غير مثال سابق، وهذه الآية مثل آية الأنعام، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] ووجه ذلك أن من ابتكر السماوات وخلقها من غير مثال سابق فهو على ما دونها أقرب، فكيف يُخرجون هذا الشخص الذي هو المسيح مثلاً أو عزير من عموم قدرته العظيمة الشاملة التي بها خلق هذه الأفلاك والسماوات فيجعلون ذلك الشخص المُخرَج شريكاً لله -عز وجل- فضلاً عن إخراجهم له من كونه مربوباً مخلوقاً لله -عز وجل-!! وعلى كل حال في هذه الآية {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٧) سورة البقرة رد عليهم من عدة وجوه، لا نريد أن نتطرق إلى هذا على سبيل التفصيل..

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

4 - أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) (ج ٢ / ص ٦١٠) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اجتناب البدع والجدل (٤٦) (ج ١ / ص ١٨) وأحمد (ج ٣ / ص ٣٧١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٩).

5 - أخرجه الإمام مالك في الموطأ (ج ١ / ص ١١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (ج ٣ / ص١٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] **يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمرًا وأراد كونه {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن} أي: مرة واحدة {فَيَكُونُ} أي: فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [(٨٢) سورة يــــس]**، وقال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(٤٠) سورة النحل] **وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** [(٥٠) سورة القمر].

ونبه تعالى بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٥٩) سورة آل عمران]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلفظة القضاء تأتي لمعانٍ متعددة وهي في كل موضع بحسبه، فقد تختص بمعنى من المعاني في أحد المواضع دون بعض، فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(١١٧) سورة البقرة] يختلف عن قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}** [(١٠) سورة الجمعة].

لكن من أهل العلم -كالأزهري -رحمه الله- وهو من أئمة اللغة المتقدمين- من يرجع هذه الاستعمالات المتنوعة جميعاً إلى أصل واحد مع تفاوت بينها في بعض المعاني في كل موضع بحسبه، فهو يرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وربما يعبر بعضهم بالفراغ من الشيء على وجه من الإحكام والإتقان، ولهذا فسره ابن جرير -رحمه الله- هنا بأنه إذا أحكم أمراً وحتمه، فابن جرير يرجع هذه أيضاً إلى الإحكام والفراغ من الشيء، فانقطاع الشيء وانقضاؤه وتمامه يقال له: انقضاء وقضاء، وقضاه وأشباه ذلك.

ولذلك نجد هذه الاستعمالات في القرآن متنوعة، فقوله -تبارك وتعالى- عن خلق السماوات: **{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}** [(١٢) سورة فصلت] قضاهن هنا بمعنى فرغ من خلقهن خلقاً محكماً متقناً، ولكن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ}** [(٤) سورة الإسراء] **{وَقَضَيْنَا}** هنا معناه أعلمنا، لكن الرابط المشترك بين هذا والذي قبله تمام الشيء والفراغ منه، لكن معناها الخاص في هذا الموضع يختلف عن الموضع الذي قبله.

وكذلك في سورة الإسراء يقول تعالى: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** [(٢٣) سورة الإسراء] قضى يمكن أن تفسر هنا بـــ(أمر) ويمكن أن تفسر بـــ(حكم)، وأحسن ما تفسر به "وصى"، وبعضهم يقول: أَمَرَ ووصى، ويقولون: وصى؛ لأن المذكورات في الإسراء تشتمل على أوامر ونواهٍ، فلا يحسن أن تفسر بأَمَرَ إلا على وجه من التكلف في المنهيات، ولكن الوصية تشتمل على الأمرين معاً.

وقوله تعالى: **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ}** [(٢٩) سورة القصص] يعني أتمه وفرغ منه..

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] الأمر هنا هل هو بمعنى الأمر الذي هو بمعنى الطلب كما في قوله: {وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [(٩٠) سورة طـه]، هل الأمر هناك كالأمر هنا، وكما في قوله -عليه الصلاة والسلام- ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))[1]؟

ليس الأمر هنا كالأمر هناك؛ فالأمر يستعمل استعمالين أو يأتي لمعنيين اثنين، فهو يأتي بمعنى الطلب، تقول: الأمر للوجوب، افعل، {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(٤٣) سورة البقرة] أمر، وليس ذلك بمقصود هنا في قوله: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] إطلاقاً، وإنما المقصود هو المعنى الآخر وهو الشأن، كالذي في قوله: {وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ} [(٤٨) سورة التوبة]، وكالذي في قوله: {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا} [(٦٦) سورة هود] وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ} [(٥٠) سورة القمر]، وكذلك قوله عن نفسه -سبحانه وتعالى-: {فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٦٨) سورة غافر] وهكذا قوله: {فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(٢٤) سورة التوبة] فالأمر المذكور في كل ما سبق من الأمثلة ليس بمعنى افعل، وإنما الأمر هنا بمعنى الشأن، {وَإِذَا قَضَى أَمْراً} أي قضى مقضياً، إذا قضى شيئاً {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة].

فأنت حينما تسأل وتقول: ما الأمر؟ ولا تقصد به الطلب فإنك تقصد السؤال عن الشيء الذي حدث، أو الشيء الذي نزل بالناس مثلاً أو نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [(٩٧) سورة هود] ليس معناه وما طلب فرعون برشيد، وإنما المقصود وما شأنه برشيد، فلفظ الأمر إذن يأتي لهذا ولهذا.

والخلاصة هي أن معنى قوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] يعني إذا قضى شيئاً فإنه يقول له: كن فيكون، وابن كثير هنا عبر عنه بقوله: إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له: كن فيكون، وابن جرير يقول: إذا أحكم أمراً حتمه.

"وقال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيملة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة]."

بغض النظر عن صحة هذه الرواية، وهي لا تخلو من ضعف، لكن رافع بن حريملة هو من اليهود، وعلى هذا الاعتبار إذا أخذنا بهذه الرواية وقلنا: إنها سبب النزول، فيكون المراد بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة] هم اليهود، وعلى هذا جرى بعض أهل العلم فقال: المراد به اليهود.

وذهبت طائفة -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- إلى أن ذلك يراد به النصارى؛ لأن النصارى هم الذين يوصفون بعدم العلم، فهم أهل بالجهل وأهل الضلال.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة - باب: الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦٨٥٨) (ج ٦ / ص ٢٦٥٨) ومسلم في كتاب:الحج - باب: فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

ومما احتجوا به أنهم قالوا: إن الآية التي قبلها في النصارى، وهي قوله تعالى: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا} [(١١٦) سورة البقرة] لكن كما عرفنا أنها ليست محمولة على النصارى بالاتفاق؛ بل منهم من قال هي في أهل الإشراك؛ لأنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، ومنهم من قال: في اليهود؛ لأنهم قالوا: عزير ابن الله، ومنهم من قال: إنها في النصارى، وأشهر من نسب إلى الله هذه الفرية هم النصارى، ومن أهل العلم من حملها على جميع الطوائف التي وقعت في هذا الأمر.

على كل حال ابن جرير -رحمه الله- كان يحمل الآية السابقة على النصارى، وبالتالي فهو يقول: إن هذه الآية أيضاً لا زالت تتحدث عن النصارى، وهي قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة]، وهذه الرواية التي سبق ذكرها تقول: إنها في اليهود، وهو ظاهر صنيع ابن كثير -رحمه الله-.

ولا شك أن المشركين كما قص القرآن طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- في مناسبات متعددة مثل هذا الطلب، حيث أكثروا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في طلب الآيات، ولا شك أن هؤلاء المشركين أولى من يصدق عليه عدم العلم، فهم أهل جهل، ويمكن أن تحمل الآية على كل من وقع منه ذلك؛ لأن هذا الطلب إنما يصدر عمن كان موصوفاً بقلة العلم؛ لأنه يطلب الآيات على سبيل التعنت، فهو لم يكتف بما شاهد من الآيات، بل يريد الآيات التي يقترحها هو، فهو يريد من الله أن يكلمه بشخصه أو ينزل عليه كتاباً يقرؤه كما أنزل على هذا النبي، أو أن الله يحقق من الآيات ما اقترحه هو، كأن يحول الصفا ذهباً، أو يأتي الله مع رسوله -صلى الله عليه وسلم- والملائكة قبيلاً، أو أن يرقى النبي في السماء، وليس ذلك فحسب بل لا بد وأن يأتي معه بكتاب من الله -عز وجل- يقرءونه، إلى غير ذلك من الآيات التي اقترحوها.

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة] إذا فسرناها بما جاء في القرآن فإننا سنجد أن ذلك وقع كثيراً من المشركين، وكل من طلب هذا الطلب من هؤلاء المتعنتين فهم من الذين لا يعلمون، سواء كان لقلة معرفتهم أو كان عندهم من العلوم ما لا ينفعهم، فالعلم إذا كان غير نافع لصاحبه فإنه يكون كالعدم، ولهذا سمى الله -عز وجل- من عصاه جاهلاً، والسبب في ذلك أن العلم يورث الخشية، لذلك يقول تعالى: {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [(٥٤) سورة الأنعام].

"**وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٨) سورة البقرة] قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [(١٢٤) سورة الأنعام].**"

في قوله: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} الذين من قبلهم هم اليهود والنصارى، وهذا قاله بعض السلف هنا، وعلى قول ابن جرير -رحمه الله-: إن الذين قالوا لولا يكلمنا الله هم النصارى، فإن المقصود بقوله {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} هم اليهود.

"وقوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} [(٩٠) سورة الإسراء] إلى قوله: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً} [(٩٣) سورة الإسراء] وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [(٢١) سورة الفرقان] الآية وقوله: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً} [(٥٢) سورة المدثر] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال مَن قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابيْن وغيرهم كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً} [(١٥٣) سورة النساء] وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة].

وقوله تعالى: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [(١١٨) سورة البقرة] أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ} [(٥٢-٥٣) سورة الذاريات] الآية.

وقوله: {قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] أي: قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله -تبارك وتعالى-."

ولذلك وصفهم بأنهم لا يعلمون فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] يعني أنه قد جاء من الآيات ما يكفي لأهل العلم واليقين أن يؤمنوا بها ويكون برهاناً دالاً على صحة ما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيبقى أهل العناد والتعنت والجهالة يقترحون الآيات.

" وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس]."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال الحافظ -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [(١١٩) سورة البقرة]: **"لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}** [(٤٠) سورة الرعد] **وكقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ}** [(٢١-٢٢) سورة الغاشية] **الآية، وكقوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}** [(٤٥) سورة ق] **وأشباه ذلك من الآيات.**

وروى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عَمْرو بن العاص -رضي الله عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظٍّ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عُمْيًا وآذانًا صُمًّا، وقلوبا غُلْفًا" انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع وفي التفسير[1]."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [(١١٩) سورة البقرة] الحق الذي أرسل به -صلى الله عليه وسلم- هو هذا الإسلام وهذا القرآن وهذا الوحي الذي جاء به من عند ربه -تبارك وتعالى-.

وأرسل -صلى الله عليه وسلم- بشيراً ونذيراً أي: مبشراً ومنذراً، والبشارة هي الإخبار بما يسر، وذلك غالب في عرف الاستعمال، وقد تستعمل في الإخبار بما يسوء كما في قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢٤) سورة الإنشقاق] لكن الغالب أن تستعمل في الإخبار بما يسر خاصة، وقيل لها ذلك ربما لأنه يظهر أثرها على بشرة المبشَّر، وذلك أن المشاعر النفسانية تظهر آثارها على الإنسان من حمرة في الوجه وبهجة أو صفرة أو غير ذلك.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بشيراً ونذيراً وجاء أيضاً بأمور أخرى، جاء يعلم الناس الكتاب والحكمة وأشباه ذلك، فهذا لا يدل على الحصر؛ إذ ليست بعثته -صلى الله عليه وسلم- مختصة بذلك فقط وإن كانت ظواهر بعض النصوص تدل على هذا، ولكنه إنما يعلِّم ويأمر وينهى -صلى الله عليه وسلم- من أجل الامتثال فهو يبشر هؤلاء من أهل الامتثال وينذر المعرضين.

---

1 - صحيح البخاري في كتاب البيوع - باب كراهية السخب في السوق (٢٠١٨) (ج ٢ / ص ٧٤٧) وفي كتاب التفسير - باب قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [(٨) سورة الفتح] (٤٥٥٨) (ج ٤ / ص ١٨٣١).

والمراد بالنِّذارة الإعلام مع التخويف، فليس كل إعلام بإنذار ولكن كل إنذار يقال له: إعلام، فالنِّذارة أن يعلمه مع تخويف.

وقوله تعالى: {وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [(١١٩) سورة البقرة] فتفسيره بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتعين، وهو المتبادر من ظاهر هذه الآية بأنْ ليس ذلك مما كلف به وإنما هذا يكون إلى الله -عز وجل- وحده لا شريك له.

وفي قراءة أخرى متواترة (ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم) -بفتح التاء- وعلى هذه القراءة المتواترة يكون معناها أبلغ في الوعيد، مثاله أن تقول: لا تسأل عن حال فلان ما سيُصنع به، أي لا تسأل عما وقع لهم، والمعنى أنه وقع لهم أمر شديد، ويمكن أن تحمل هذه القراءة على أن المراد ليس ذلك مما كلفت به.

"{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(١٢٠-١٢١) سورة البقرة].

قال ابن جرير: يعني بقوله -جل ثناؤه-: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق."

رضا اليهود والنصارى عن ديننا وعن نبينا محمد –عليه الصلاة والسلام- وعنا لن يتحقق إلا باتباع ملتهم، فـــ(حتى) في قوله: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} للغاية، أي إن كنت على دين اليهود رضي عنك اليهود وغضب النصارى، وإن كنت على دين النصارى رضي النصارى وغضب اليهود، وأسخطت ربك في كل حال.

وأما الكف عن القتال فإنه يمكن أن يتحقق إذا تخلينا عن ديننا، قال تعالى: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} [(٢١٧) سورة البقرة] فالقتال مستمر دائم لا يتوقف إلا بالتخلي عن إسلامنا، وإذا تخلينا عن إسلامنا فلن يرضوا بل لا يزالون يناصبوننا العداوة، وإنما يكون رضاهم إذا كنا على دينهم وأسخطنا ربنا -جل جلاله- وهذا شيء مشاهد، فمهما قدمت لهم من التنازلات فإنهم لا يرضون.

"وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قتادة في قوله: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] قال: خصومة علَّمها الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة."

قوله: **خصومة علَّمها الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة**، الخصومة بمعنى أنه علمهم طريق الجدل وكيف يردون، فإن قالوا كذا فقل لهم كذا، فهو سبحانه علمهم وجه الرد والمجادلة والاحتجاج.

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] هم يريدون أن يكون على ملتهم فعلمه أن يقول لهم: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة]، ودخول "أل" على الهدى هنا في مثل هذا المقام يدل على استحواذه

على الوصف الكامل، يعني أنه هو الهدى المطلق الكامل من كل وجه، تقول: فلان هو الرجل، يعني الرجل الكامل في صفات الرجولة، وتقول: هذا هو الغناء، يعني هذا هو الغناء الحقيقي، وتقول: هذا هو العلم، يعني هذا هو العلم الصحيح الكثير المقنع، وتقول: هذه هي الحجة بمعنى الحجة المرضية القاطعة لشبهات أهل الزيغ، وهكذا يستعمل الناس ذلك في كلامهم كثيراً، كقولهم هذا هو المسجد، هذا هو البناء، ومنه قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] أي الهدى الكامل الذي اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس لنجاتهم وفوزهم.

" قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله))[2] قلت: هذا الحديث مُخَرَّج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو.

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٢٠) سورة البقرة] فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما عَلِموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته.

وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] قال عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال: سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله.

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يُحِلُّون حلاله ويُحَرِّمُون حرامه ولا يُحَرِّفُونه عن مواضعه.

وعن عمر بن الخطاب، -رضي الله عنه-: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ."

قوله: {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} لا شك أن من تلاوته على الوجه المطلوب أن يتدبره وأن يتفهمه وأن يقف عند مواضع السؤال ويقف عند مواضع الوعيد والتهديد، وأن يعتبر وأن يستشعر أنه مخاطب بهذا الخطاب، وأن يعمل به، يعمل بالكتاب، ويتحاكم إليه، فكل ذلك من تلاوته حق التلاوة.

وذهب بعض السلف -ومشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- إلى أن المراد بهؤلاء {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] في هذا المقام هم علماء اليهود، وهذا على اعتبار أن "أل" هنا عهدية، يعني الكتاب المعهود الذي أنزله الله -عز وجل- عليهم وقص الله -عز وجل- علينا خبره في مواضع من كتابه، فعند ابن جرير -رحمه الله- هم علماء اليهود الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) (١٩٢٣) (ج ٣ / ص ١٥٢٤).

فأقروا بحكم التوراة وعملوا بما أمر الله -عز وجل- فيها من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- والإيمان به، والتصديق بما جاء به عن ربه -عز وجل-، فهؤلاء هم الذين يتلونه حق تلاوته؛ من تلاه إذا تبعه -على قول ابن جرير- فالتلاوة تحتمل أن تكون بمعنى القراءة، وتحتمل أن تكون بمعنى الاتباع، تلا يتلو ويتلوه بمعنى يتبعه،.

{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} يعني يتبعونه حق اتباعه؛ لأنهم آمنوا بالتوراة وفي ضمن ذلك ما أخبرت به التوراة من بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنه رسول من عند الله حقاً، فهؤلاء يتبعونه حق اتباعه، بل نقل الإجماع على أن المراد بتلاوته هنا حق التلاوة هو الاتباع، أي يتبعونه حق اتباعه، ومن المعلوم أن ابن جرير -رحمه الله- ينقل الإجماع ويريد به الأكثر وإن خالف فيه بعضهم، فهو يطلق الإجماع على قول الأكثرين، فعلى كل حال {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} أي يتبعونه حق اتباعه، ويبقى الاحتمال قائماً بأن التلاوة المراد بها القراءة، ولكن الذين يتلونه بمعنى يقرءونه حق قراءته لا يكون ذلك متحققاً فيهم إلا إذا اتبعوه حق اتباعه، فلا تكفي التلاوة بل لا بد من التدبر والتفهم، ولا بد من العمل به والتحاكم إليه، وإلا فإن هؤلاء يكونون قد وقعوا في شيء من هجره، كما قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [(٣٠) سورة الفرقان]، وهجره كما قال الحافظ ابن القيم: من هجر قراءته فهو هجره، من هجر تفهمه وتدبر معانيه فقد هجره، وكذلك من هجر العمل به أو هجر التحاكم إليه، فكل هؤلاء داخلون في هجره.

والمقصود هنا إذن أنه يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الآية تحتمل المعنيين، فالتلاوة بمعنى الاتباع، والتلاوة بمعنى القراءة، وبينهما ملازمة، فإن من قرأه حق قراءته، فلا بد أن يتفهمه وأن يعمل به ويتحاكم إليه.

والقاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر بينهما ملازمة فإنها تحمل على كل هذه المعاني، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] أي يقرءونه حق القراءة، ويتبعون ما فيه وينقادون لذلك، والله أعلم.

"**وقوله: {أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} خَبَر عن {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة]."

أي أن الضمير في قوله: {يُؤْمِنُونَ بِهِ} يعود على الكتاب المذكور قبله، والمعنى أن {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} من صفتهم كذا وكذا، فهؤلاء هم الذين يؤمنون بالكتاب.

" أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [(٦٦) سورة المائدة] **الآية، وقال: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}** [(٦٨) سورة المائدة]**، أي: إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حَقَّ الإيمان وصدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- ونَعْته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] **الآية، وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن**

كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٧-١٠٨) سورة الإسراء] أي: **إن كان ما وعدنا به من شأن محمد -صلى الله عليه وسلم- لواقعًا."**

وعلى هذا تحمل الآيات التي هي نظير لهذه الآية، وهي التي يتعلق بها الملبسون المدلسون الذين يذكرون مثل هذه الآيات ليقولوا: إن اليهود والنصارى على دين حق، وقد أثنى الله -عز وجل- عليهم ووعد المحسن منهم بالجنة وأنهم ناجون عند الله -عز وجل-، ولا يجوز أن نكفرهم، وكل ذلك من الكذب، بل هم كفار أعداء لله ولرسله، وإنما هذه الآيات التي أثنى الله -عز وجل- فيها على طائفة منهم هم الذين كانوا قبل مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وكانوا على دين صحيح من غير تحريف، أو الذين أدركوه فاتبعوه، فإن إيمانهم بكتابهم حقاً يقتضي الاتباع لمحمد -عليه الصلاة والسلام- فمن لم يتبع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو من حطب النار، وهم أكفر أهل الدنيا؛ لأنهم كفروا على علم، حيث أنزل الله عليهم كتبه وأرسل رسله، ومع ذلك وقعوا في هذا التكذيب والجحد والكفر العظيم، فما أحوجنا إلى تفهم هذه المعاني وبثها في الناس وخاصة في مثل هذه الأيام.

" **وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [(٥٢-٥٤) سورة القصص]، **وقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** [(٢٠) سورة آل عمران]، **ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [(١٢١) سورة البقرة] **كما قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}** [(١٧) سورة هود]."

الضمير في قوله: **{بِهِ}** يرجع إلى نفس الكتاب المذكور، أي أن كل هذه الضمائر المذكورة ترجع إلى شيء واحد هو الكتاب، سواء في قوله: **{أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة]، أو في قوله: **{وَمَن يَكْفُرْ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة]، أو في قوله: **{هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ}** [(٥٢) سورة القصص].... الخ..

" **وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار))**[3].

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ* وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(١٢٢-١٢٣) سورة البقرة].

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم نعتَه واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين."

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملــل بملــة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

على كل حال هذه الآية مضت، وتكرارها من أقرب ما يقال في تفسيره وبيان وجهه هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله-.

وبعض أهل العلم يذكر وجوهاً أخرى لتكرارها، ولكن قد لا يظهر وجهها وعليها معارضات، والعلم عند الله -عز وجل- والتكلف سبيل غير محمود في الكلام على آيات الله -تبارك وتعالى-.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة].

: "يقول تعالى مُنَبِّهًا على شرف إبراهيم خليله -عليه السلام- وأن الله تعالى جعله إماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابيْن الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

ففي قوله تعالى: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** [(١٢٤) سورة البقرة] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: واذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، و"إذ": منصوب بـــ"اذكر" مقدراً، ولهذا مشى عليه الحافظ -رحمه الله- في التفسير.

قوله: **{وَإِذِ ابْتَلَى}** الابتلاء هو الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر كما هو معروف، ويطلق في الاستعمال غالباً على الابتلاء بما يكرهه الإنسان، وسيأتي الكلام على الكلمات في قوله: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** [(١٢٤) سورة البقرة].

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وأن الله تعالى جعله إماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي،** أي أن الله -عز وجل- امتحنه بكلمات من تكاليف الأمر والنهي، أو غير ذلك مما قيل أو قد يدخل في معناه ويرجع إليه غالباً.

قوله: **{فَأَتَمَّهُنَّ}** أي: قام بهن على الوجه المطلوب، فكافأه الله -عز وجل- على ذلك بقوله: **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** [(١٢٤) سورة البقرة].

وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في بعض القراءات المتواترة يُقرأ إبراهام ويقال: إن هذا اللفظ مكون من شيئين هما: أب ورحيم، ويقولون: إن ذلك بالسريانية والله تعالى أعلم، كما يقولون في موسى: إنه مركب من كلمتين هما مو وشى والمعنى ماء وشجر، وهذا سبق ذكره في درس ماض من تفسير هذه السورة.

"{فَأَتَمَّهُنَّ} أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [(٣٧) سورة النجم] **أي: وفَّى جميع ما شرع له فعمل به -صلوات الله عليه-.**

وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٠-١٢٣) سورة النحل].

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٦١) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٧-٦٨) سورة آل عمران]

وقوله تعالى: {بِكَلِمَاتٍ} أي: بشرائع وأوامر ونواهٍ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم -عليها السلام-: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [(١٢) سورة التحريم]."

إذا قلت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، حينما تستعيذ بكلمات الله التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، فالمقصود بها الكلمات القدرية الكونية؛ لأنك تريد أن يكفيك الله شر كل ذي شر، وأن يكفيك المخاوف وإنما يكون ذلك بالكلمات القدرية الكونية.

ولو قلت: أعوذ بكلمات الله، وقصدت بها الكلمات الشرعية التي هي القرآن -كلام الله -عز وجل- صح ذلك؛ لأنه يجوز الاستعاذة بالصفة، قل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، أعوذ بكلمات الله التامات، فكل هذا من الاستعاذة بالصفة.

" وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} [(١٢٤) سورة البقرة] أي: قام بهن."

الكلمات في هذه الآية هي كلمات شرعية والمعنى أن الله ابتلاه بتكاليف معينة أي بشرائع من أمر ونهي، فقام بها على الوجه المطلوب، وهذا هو المشهور وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- في هذه الآية، وقوله: {فَأَتَمَّهُنَّ} أي: قام بهن.

"{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] أي: جزاءً على ما فَعَل، لمّا قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه."

{جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} الإمام هو المتقدم على غيره، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} [(٢٤) سورة السجدة]، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- جعله الله إماماً وكان أمة فهو رجل جامع لخصال الخير، وجامع للخصال الكاملة التي تفرقت في غيره، وصار مقدماً يقتدي به من جاء بعده، ويكفي أن الله أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

"وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل -عليه السلام- فروي عن ابن عباس في ذلك روايات: فروى عبد الرزاق عن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك، وكذا رواه أبو إسحاق."

الله أخبرنا أنه ابتلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بكلمات، ولم يحدد شيئاً دون شيء، فهذه الكلمات هي ما ابتلاه الله -عز وجل- به من التكاليف التي كلفه بها، فإلى هذا القدر يمكن أن نقف ونقول: كلفه بتكاليف فقام

بها على الوجه المطلوب الأكمل من غير إخلال ولا نقص ولا تفريط فكافأه الله -عز وجل- على ذلك أن جعله للناس إماماً، دون أن نخوض في تفاصيل هذه الكلمات التي كلفه الله -عز وجل- بها، وهذا الذي مشى عليه بعض المحققين، كابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وكلام السلف كثير في هذه الآية، وسواء قلنا: كلفه بشرائع الإسلام، أو كلفه ببعض التكاليف، بالمناسك، أو بأداء الرسالة، أو بالطهارة، أو بفراق قومه في الله، حينما أُمر بمفارقتهم وبمحاجة النمرود، أو بالصبر على ما وقع له من الأذى العظيم وإلقائه في النار، والهجرة من الأوطان أو ما يتعلق بالضيافة، وخبره في ذلك مع الملائكة معروف، أو ما ابتلي به من ذبح ولده ووحيده، فكل ذلك على كل حال هو من جملة التكاليف التي كلفه الله بها، فكل ذلك داخل تحت هذا المعنى الكبير، وليس هناك ما يوجب تخصيص بعض هذه المعاني دون بعض، وبالتالي يكفي أن نعرف هذا القدر من المعنى، فهو كلفه بتكاليف فقام بها على الوجه المطلوب، والله تعالى أعلم.

"وروى عبد الرزاق -أيضاً- عن ابن عباس: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [(١٢٤) سورة البقرة] **قال: ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد؛ في الرأس قَص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواك وفَرْق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنَّخَعي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك."**

وكل هذه من جملة التكاليف.

" قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عَشْرٌ من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء)) ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة[1]، قال وَكِيع: انتقاص الماء، يعني: الاستنجاء."

البراجم والرواجب بعضهم يقول: البراجم العُقد التي في ظاهر الكف والرواجب هي ما يقابلها من باطن الكف، وبعضهم يعكس، وعلى كل حال إذا قرأت في الفقه غسل البراجم والرواجب فمعناها تعاهد هذه المساقط التي قد ينبو عنها الماء.

"وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الفطرة خمس: الختان والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط))[2] ولفظه لمسلم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، ومحاجَّته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب خصال الفطرة (٢٦١) (ج ١ / ص ٢٢٣).

2 - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب تقليم الأظافر (٥٥٥٢) (ج ٥ / ص ٢٢٠٩) ومسلم في كتاب الطهارة - باب خصال الفطرة (٢٥٧) (ج ١ / ص ٢٢١).

خلافه، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم.

قوله: **ليحرقوه في الله على هول ذلك**، ليس المعنى ليحرقوه في الله على هول هذا الجزاء وإنما المقصود مع شدة ذلك.

"وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: {أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] **على ما كان من خلاف الناس وفراقهم."**

على كل حال كل هذه المعاني فيما سبق ترجع إلى شيء واحد وهو التكاليف، والأمر والنهي.

"وقوله: {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] **لما جعل الله إبراهيم إمامًا، سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته."**

قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** يحتمل أن يكون من قبيل السؤال والطلب والدعاء، أي أن الله أخبره أنه سيجعله إماماً، فدعا ربه لما أخذته الشفقة وما جبل عليه من محبة الخير للذرية، فقال: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** أي اجعل أئمة سواء قيل:إن "من" بيانية أو قيل: إنها تبعيضية كما هو الخلاف في قوله تعالى: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** [(١٠٤) سورة آل عمران]، فهذه تحتمل أيضاً أن تكون بيانية وأن تكون تبعيضية، فحينما يقول الرجل لأبنائه مثلا: أريد منكم أبناء بررة، فـــ"من" هنا بيانية؛ لأنه لا يريد أن يكون بعض هؤلاء الأبناء بررة والباقين عققة، لكن لما تقول: أريد منكم رجلين يذهبان إلى مكان كذا وكذا، فـــ"من" هنا تكون تبعيضية، والمقصود هنا أن قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** يحتمل أن تكون "من" بيانية يعني اجعل ذريتي أئمة، وتحتمل أن تكون تبعيضية، أي اجعل بعضهم أئمة.

فيحتمل أن يكون هذا طلباً، ويحتمل أن يكون على سبيل الاستفهام لما أخبره أنه سيجعله للناس إماماً سأل عن الذرية ما شأنهم، هل ستكون لهم الإمامة أو لا؟ فأجابه بأن ذلك لا ينال الظالمين منهم، والأقرب أن ذلك على سبيل الطلب، فهو طلب من ربه -تبارك وتعالى- أن يجعل من ذريته أئمة كذلك.

قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** الذرية يمكن أن تكون مأخوذة من الذر كما في فالحديث المفسر لقوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}** [(١٧٢) سورة الأعراف] وأنه مسح على ظهر آدم فاستخرج ذريته أمثال الذر.

ويحتمل أن تكون مأخوذةً من: ذرأ، يقال: ذرأ الله الخلق، وقال تعالى: **{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ}** [(١٣) سورة النحل]، ويحتمل غير ذلك باعتبار أن اللهً ذرأهم على الأرض كما يذرأ الزارع الحب، والله أعلم..

"لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل اللهَ أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قول الله تعالى في سورة العنكبوت: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] **فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.**

وأما قوله تعالى: {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] فيخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي أن يوليه شيئا من أمره وإن كان من ذرية خليله."

قوله تعالى: {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] العهد المقصود به عهده بالإمامة، أي: لا ينال عهدي بالإمامة المذكورة في قوله: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي} [(١٢٤) سورة البقرة] أي الإمامة المشار إليها.

وبعضهم يقول: هي النبوة، وعلى كل حال فالنبوة داخلة في الإمامة؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أئمة يقتدى بهم.

وبعضهم يقول: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي} أي: الخلاص والنجاة من عذاب الآخرة، لكن هذا المعنى لم يجر له ذكر ولا يوجد ما يدل عليه، فهو لم يسأل ربه الخلاص لذريته والنجاة، فقال: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} أي ليس لهم عندي عهد بذلك.

وقول من قال: إن المقصود بالعهد هنا دين الله -عز وجل- فهذا أيضاً لا يخلو من بُعد، بل بعضهم يذكر معنى أبعد من هذا كله فيقول: أي: لا عهد عليك لظالم فتطيعه، وإنما الأقرب -والله أعلم- أي: لا ينال الإمامة التي أخبر -تبارك وتعالى- عنها أنها كائنة لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثَمَّ دعا ربه أن يرزقه ذلك.

وسيأتي حينما أخبر الله عنه أنه دعا لمكة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [(١٢٦) سورة البقرة] أنه قيد ذلك بقوله: {مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] فهو خص الدعاء بأهل الإيمان بالله وباليوم الآخر تأدباً؛ وذلك أنه لما سأل الإمامة لذريته في الأول فأخبره الله -عز وجل- أن ذلك لا يحصل للظالمين ظن أن الدعاء بالرزق أيضاً إنما يختص بأهل الإيمان، فقال: {مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] وهذا من أدب الأنبياء مع الله -عز وجل-، فهو ظن أن ذلك لا يصح أن يكون لأهل الكفر فبين الله له الفرق بين الرزق والإمامة وأن الإمامة تختلف، فقال: {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} [(١٢٦) سورة البقرة] فالدنيا تعطى للمؤمن والكافر، والرزق لا يختص بأهل الإيمان فهو شأن يختلف عن الإمامة، ولذلك فالإمامة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] ليس المقصود بها تحصيل الرئاسة والملك؛ فهذا يقع لأهل الخير والفضل ويقع للظالمين ولأهل الكفر، وإنما المقصود أن يكون إماماً يقتدى به في خصال الخير، ويقدم على غيره في الطاعة والصلاح والهدى، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [(٧٤) سورة الفرقان]، والله تعالى أعلم.

"واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل -عليه السلام- أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه.

وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً."

يعني يؤخذ منها ويفهم منها أن الظالم لا يصلح أن يقدم في الناس، ولكن ذلك ليس من الأمر القدري بحيث إن الله -عز وجل- قضى ذلك وحكم به وقدره بحيث إنه لا يحصل للظالمين، وإنما هو أمر يفهم من هذه الآية،

وهو أنه إذا كانت الإمامة في الدين لا تصلح للظالمين فكذلك أيضاً كل وجه يقدم به أهل الظلم والفجور والكفر ينبغي أن يمنع.

لكن الآية خبر كما هو ظاهر، فيُفْهَم منها هذا المعنى ضمناً، وخاصة أنه لم يرد هذا الخبر لتقرير هذه المعاني ابتداء وما سيق لذلك، وإنما لما قال الله: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** [(١٢٤) سورة البقرة] فُهم أن هذه الإمامة في ذرية إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كما قال -عز وجل-: **{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ}** [(١١٣) سورة الصافات] والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]: **" قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} يقول: لا يقضون منه وطرًا يأتونه ويرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] أي واذكروا إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً.

والمراد بقوله: {مَثَابَةً} قيل: مرجعاً يرجع إليه الناس بعد تفرقهم، وبعضهم يقول: مثابة من الثواب، أي أنه موضع للثواب، فهو مكان تعظُم فيه الحسنات وتكثَّر فيه الأجور وتحط فيه الخطايا، والهاء يمكن أن تكون للمبالغة أو للتأنيث.

فالمقصود أن قوله: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] إما أن يكون المراد أنه محل للثواب، أو أنهم يثوبون إليه فيكون ذلك موافقاً لما جاء أو روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- لا يقضون منه وطراً يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، بمعنى أنهم لا يكتفون بزيارة واحدة إليه، بل كلما أتوا إليه ورجعوا إلى أهليهم تاقت نفوسهم إليه ثانية.

وابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد جعل ذلك من خصائص مكة، وهذا شيء مشاهد.

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] يثوبون أي يرجعون إليه.

"قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} يقول: لا يقضون منه وطرًا، يأتونه ويرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] **يقول: وأمنًا من العدو، وأن يُجعَل فيه السلاح."**

يعني يمكن أن يكون قوله: {وَأَمْناً} اسم مكان، أي موضع أمن إذ جعلناه مثابة يثوبون إليه كلما فارقوه تاقوا إليه ثانية.

وقوله: {وَأَمْناً} أي مكاناً يأمنون فيه من الخوف من العدو ومن الاعتداء، وأن يجعل فيه السلاح، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حمل السلاح بمكة.

"وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

وروي عن مجاهد، وعطاء والسدي وقتادة والربيع بن أنس قالوا: من دخله كان آمنًا.

ومضمون هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابة للناس، أي: جعله مَحَلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطرًا."

قوله: **شرعاً وقدراً** أي أن الله -عز وجل- جعل مكة موضعاً للأمن كما قال الله -عز وجل-: {وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [(٦٧) سورة العنكبوت]، فجعلهم بهذه المثابة، أي يأمنون فيه مع كثرة المخاوف المحيطة به، فالناس يحصل لهم من السبي والقتل وما إلى ذلك مما يحصل من غارات القبائل وما إلى ذلك، وأما مكة فقد جعلها الله -عز وجل- موضعاً يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم، وهذا معنى: قدراً، وأما: شرعاً فحرمة مكة معلومة حيث إن الله -عز وجل- قد حرمها مذ خلق السموات والأرض، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن إبراهيم حرم مكة))[1].

"**ولا تقضي منه وطراً ولو ترددَت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم -عليه السلام- في قوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [(٣٧) سورة إبراهيم] إلى أن قال: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء} [(٤٠) سورة إبراهيم] ويصفه تعالى بأنه جعله آمنًا، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا.**"

هذا الكلام قال به بعض السلف ولكنه ليس محل اتفاق، إذ إن البيت لا يجير من قد أصاب دماً حراماً أو مالاً حراماً أو نحو ذلك، فالراجح من أقوال أهل العلم أنه يؤخذ من أحدث فيه حدثاً.

وتكلم العلماء -رحمهم الله- أيضاً على ما إذا بغى أهل مكة على الإمام ولم يمكن دفعهم عن ذلك البغي إلا بالقتال، فالمقصود أن الحرم موضع للأمن؛ ولكن ليس معنى ذلك أن السارق يسرق فيترك، والقاتل يقتل فيترك، فيكون الحرم محلاً لاجتماع المجرمين، إذ لو كان الأمر كذلك فكل من جنى جناية سيلجأ إلى الحرم.

"**وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن كما قال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [(٢٦) سورة الحـج] وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران].**

وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة].

وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسلم عن سعيد بن جبير: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] قال: الحَجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة، ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه."

قوله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، في القراءة الأخرى المتواترة، قراءة نافع وابن عامر بفتح الخاء: (واتَّخَذوا) على سبيل الخبر، والقراءة الأولى على سبيل الأمر {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، ولا منافاة بين القراءتين، إذ إن كل واحدة منهما تدل على مشروعية الصلاة عند مقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

والمقصود بمقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- على المشهور من أقوال أهل العلم أنه الحجر المعروف الذي فيه موطئ قدمه -صلى الله عليه وسلم- وأصل ذلك على المشهور عند أهل العلم أنه كان يرتقي عليه

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب أحد يحبنا ونحبه (٣٨٥٦) (ج ٤ / ص ١٤٩٨) ومسلم في كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها (١٣٦١) (ج ٢ / ص ٩٩١).

لبناء الكعبة فظهر أثر قدميه على هذا الحجر مع ملامسة ما يبنى به الطين ونحو ذلك، وليس ذلك كما يقول بعضهم من أنه كان يغتسل عليه أو أنه اغتسل عليه؛ فهذا ليس له علاقة بموضوع بناء الكعبة بل ليس له أصل إذ لو كان قد اغتسل عليه لاختلفت قدماه، أي أن الماء حينما يمتزج بالطين فإنه لا يكون ذلك موضعاً متميزاً تظهر فيه آثار القدم بالأصابع، بمعنى أنه لو كان محلاً للاغتسال لاختلفت قدماه فلا تنطبع فيه بهذه الطريقة، والمغتسِل كذلك لا يجعل رجله بهذه المثابة وإنما هو بحاجة إلى غسلها، فالمقصود أن ذلك الحجر إنما كان يرتقي عليه لبناء الكعبة.

وهذا الحجر كما جاء عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن أصابع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كانت ظاهرة فيه، وأنس -رضي الله عنه- من صغار الصحابة كان يقول: إنه أدرك الحجر وإن أصابع قدم إبراهيم كانت ظاهرة فيه، وطبعاً الأصابع الآن غير ظاهرة وإنما الموجود أثر قدم ليس لها آثار الأصابع، ويذكر أن ذلك قد ذهب بسبب مسح الناس عليها، وهذا من أعجب الأمور؛ وذلك أن تلك الآثار بقيت تلك المدة الطويلة ومرت بفترة الجاهلية وهم أهل أوثان ثم ذهبت في مدة يسيرة حيث أدركها أنس وجوداً وعدماً بسبب مسح الناس عليها فهذا يدل على نشاط الشيطان والجهود الحثيثة التي يؤز بها الناس من أجل دفعهم إلى التشبث بالأحجار وما إلى ذلك، فالناس يسرعون إلى مثل هذه الأشياء، وكثير منهم يتعلقون بها، والدلائل والشواهد على هذا كثيرة جداً، ومن ذلك خبر عمر -رضي الله عنه- في الشجرة التي رأى الناس يسرعون إليها في طريقه بين مكة والمدينة فأمر بقطعها، إلى غير ذلك من الأخبار.

"**وقال السدي: المقام: الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه.**"

هذا الكلام يفسر الرواية السابقة، فالرواية السابقة قد لا تتضح وهي: **ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه**، والمقصود أنه كان يغتسل عليه فيما قيل، لكن هذا الكلام فيه نظر.

"**حكاه القرطبي وضعفه، ورجحه غيره، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس.**

وروى ابن أبي حاتم عن جابر يحدث عن حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما طاف النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله -عز وجل-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة][2]."

الروايات الثابتة أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى"[3]، وإن كان بعض هذه الروايات بمفردها لا يصح من جهة الإسناد كهذه الرواية، ولكن ذلك ثابت بأدلة أخرى من طرق أخرى لا مطعن في ثبوتها.

"**وقال البخاري: باب قوله:** {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] **مثابة يثوبون يرجعون، ثم روى عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: "وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث،**

---

2 - أخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات - باب القبلة (١٠٠٨) (ج ١ / ص ٣٢٢) وقال الألباني: ضعيف منكر كما في سنن ابن ماجه.

3 - أخرجه البخاري في أبواب القبلة - باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (٣٩٣) (ج ١ / ص ١٥٧) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٩) (ج ٤ / ص ١٨٦٥) واللفظ للبخاري.

قلت: يا رسول الله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر أما في رسول ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ...} [(٥) سورة التحريم] الآية[٤].

وروى ابن جرير عن جابر قال: استلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم، فقرأ: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه.

وروى البخاري بسنده عن عمرو بن دينار قال: "سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين"[٥].

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم -عليه السلام- يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل -عليه السلام- به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم جداران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطِئُ إبراهيم في الصخر رطبـة ... على قدميـه حافيًـا غيـر ناعـل

وقد أدرك المسلمون ذلك."

طبعاً عرف أنه كان حافياً غير ناعل لظهور آثار الأصابع، بينما حالياً لا يظهر فيها أنه كان حافياً غير ناعل، وعلى كل حال المقام المقصود به الحجر، وهذا هو المشهور، وهو الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، ومن ثم فإن الصلاة تكون مرتبطة به، فمهما تغير مكانه فإنه يصلى خلفه لا خلف المكان الذي هو فيه؛ بدليل أن عمر -رضي الله عنه- لما نقله لم يُنقل عن أحد لا عمر ولا غير عمر أنه صلى في موضعه الأول، أو إلى موضعه الأول، فليست العبرة بمكانه كما هو الحال بالنسبة للكعبة، فإنه كما هو معلوم لو أنها هدمت مثلاً فإنه يصلى إلى الجهة، ولو أن الإنسان صلى من السطح فإنه يصلي إلى الجهة وإن كان لن يقابل البناء وإنما يقابل ما فوقه، فالمقصود أن الاتجاه أو الاستقبال أو الصلاة تكون خلف الحجر، وليس خلف مكان الحجر.

---

4 - أخرجه البخاري في أبواب القبلة - باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (٣٩٣) (ج ١ / ص ١٥٧) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٩) (ج ٤ / ص ١٨٦٥) واللفظ للبخاري.

5 - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب من صلى ركعتي الطواف خلف المقام (١٥٤٧) (ج ٢ / ص ٥٨٨) ومسلم في كتاب الحج - باب ما يلزم من أحرم بالحج ثم قدم مكة من الطواف والسعي (١٢٣٤) (ج ٢ / ص ٩٠٦).

وهناك من قال: إن مقام إبراهيم المقصود به عرفة -وهذا بعيد- ومنهم من فسره بما هو أوسع من هذا، فقال: مقام إبراهيم، أي مقاماته في الحج، ومقاماته في الحج عرفة ومزدلفة ومنى والجمار وما إلى ذلك، وعلى هذا فالمقصود بقوله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] أي اتخذوا منها متعبدا، وهذا بعيد، والله أعلم.

"وقد أدرك المسلمون ذلك فيه، فعن أنس بن مالك قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه -عليه السلام- وأخْمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

قلت: وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك.

وكان الخليل -عليه السلام- لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب -رضي الله عنه- أحدُ الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أُمِرْنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر))[6] وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق عن ابن جُرَيج حدثني عطاء وغيره من أصحابنا: قال: أول من نقله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وروى عبد الرزاق أيضًا عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي عن عائشة -رضي الله عنها- أن المقام كان في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وزمان أبي بكر –رضي الله عنه- ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم."

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في مناقب أبي بكر و عمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٦٢) (ج ٥/ ص ٦٠٩) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٨٩٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [(١٢٥) سورة البقرة]: **"قال الحسن البصري: قوله: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ}** [(١٢٥) سورة البقرة] **قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.**

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: قوله: {أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ} [(١٢٥) سورة البقرة] **قال: من الأوثان.**

وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: {طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: **{وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ}** [(١٢٥) سورة البقرة]: عهده أي أمره، أي أمرناهما بتطهير البيت، وهذا التطهير يشمل جميع الأقوال التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم-، إذ إنه يشمل التطهير الحسي، كما يشمل التطهير المعنوي، فقد أمرهما الله -عز وجل- بتطهيره من النجاسات الحسية من كل قذر يدنسه، وكذلك من النجاسات المعنوية كالشرك والفجور والفواحش وأشباه ذلك، فينبغي أن يكون حرمُ الله -عز وجل- أطهر بقعة حساً ومعنى.

"وأما قوله تعالى: {لِلطَّائِفِينَ} فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: {لِلطَّائِفِينَ} يعني: من أتاه من غُرْبة."

الطائفين يحتمل معنيين، المعنى الأول وهو المشهور المتبادر: أنهم الذين يطوفون بالكعبة، فيطهّر لهم؛ لأن مكة تفترق عن غيرها؛ إذ فيها عبادة تختص بها لا توجد في مكان آخر وهي الطواف، فإذا ذكر الطواف مع البيت فإن المقصود به الطواف المعروف.

ومن أهل العلم من حمل الطواف في قوله: **{لِلطَّائِفِينَ}** على معنى آخر أي من يطوف به بمعنى العابر ومن يلم به، أي من يكون مجيئه عارضاً دون من هم من أهل مكة، وهؤلاء الذين يفسرونه بهذا التفسير يجعلون العكوف مقابلاً له، بمعنى أن الطائف هو الذي يأتي البيت من خارج، ويكون العاكف على هذا الاعتبار هو المقيم بمكة، وتفسير الطائفين بهذا المعنى فيه بعد؛ فالأصل حمل ألفاظ القرآن على المعنى المتبادر المشهور دون المعنى البعيد، والله تعالى أعلم.

قال تعالى: **{لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ}** [(١٢٥) سورة البقرة]: لمّا تقول: طفت البلاد أو تقول: فلان طاف البلاد فمعنى ذلك أنه زارها وقدم إليها ومر بها ونحو ذلك، ولذلك من الطبيعي أن يفسر (العاكفين) بضد (الطائفين) ما دام فسر الطائفين بالواردين إليه من خارجه، إلا أن العكوف لا يفسر بما يقابل الطواف بهذا الاعتبار وإنما

هو لون من ألوان العبادة؛ إذ إن الله -عز وجل- ذكر هذه العبادات في بيته الحرام وهي الطواف -وهو العبادة المعروفة- والاعتكاف -وهو العبادة المعروفة أيضاً-، فيكون قوله: {وَالْعَاكِفِينَ} يعني الملازمين للعبادة فيه على سبيل المجاورة.

وأصل العكوف معروف، فهو يعني البقاء مدة معتبرة يصح أن يقال عنها عكوف على وجه التعبد، وهذا المعنى هو معنىً تقريبي للعكوف، تقول: فلان عاكف على كذا بمعنى أنه يطيل المكث، ومن هنا نعرف أن من قال: إن الاعتكاف يصح ولو لحظة ولو ساعة، وإذا دخلت لتصلي فرضاً فانوِ الاعتكاف، نعرف أن هذا غير صحيح، وبه نعرف أيضاً أنه يعتبر قول من قال: إن أقل الاعتكاف يوم وليلة، فالاعتكاف هو المكث مدة طويلة في المكان وإن لم يكن ذلك محدداً بساعات كيوم وليلة، أو أقل أو أكثر، بل ملازمة طويلة عرفاً يقال لها اعتكاف، وكل من لازم شيئاً يقال له: عكف عليه فهو عاكف، قال تعالى عن إبراهيم –عليه السلام-: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥٢) سورة الأنبياء].

وعلى كل حال فإن أحسن ما يفسر به قوله تعالى: {وَالْعَاكِفِينَ} أنه الاعتكاف المعروف الذي هو المجاورة على سبيل التعبد –والله أعلم- وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- مع أنه كما ذكرنا أن جمعاً من أهل العلم من السلف والخلف -رضي الله تعالى عنهم- قالوا: إن المراد بالعكوف هنا الإقامة، فيكون ذلك كما قلت مقابلاً للطائفين على تفسيره بأنه مَن ورد عليه من غير أهل مكة، فيكون العاكفون بهذا الاعتبار هم أهل الحرم، أهل مكة، لكن القول الآخر أحسن والله أعلم.

"{وَالْعَاكِفِينَ} [(١٢٥) سورة البقرة] المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير، وأما قوله تعالى: {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [(١٢٥) سورة البقرة] فروي عن ابن عباس {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} قال: إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود، وكذا قال عطاء وقتادة."

هذا كله حينما يُنظر إليه ويعتبر يمكن أن يفسر به ما قبله، فهو ذكر الطواف والاعتكاف والصلاة وهذه العبادات أظهر وأشهر العبادات التي يمكن أن تكون في بيت الله الحرام، وهناك عبادات أخرى مثل الذكر والصدقة وقراءة القرآن وما أشبه ذلك، ولكن أظهر هذه العبادات هي الاعتكاف والصلاة والطواف، يعني هذه العبادات هي مما يكون أكثر اختصاصاً بالمسجد.

"وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [(٣٦) سورة النـــور] ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك، ولهذا قال -عليه السلام-: ((إنما بنيت المساجد لما بنيت له))[1]، وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءًا على حدة، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٩) (ج ١ / ص ٣٩٧).

-صلى الله عليه وسلم-: ((إن إبراهيم حَرَّم بيت الله وأمَّنَه وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاهها))[٢] وهكذا رواه النسائي وأخرجه مسلم."

إبراهيم حرم مكة إما باعتبار أن المخاطبة للمكلفين كانت بتحريم مكة، وإن كان قد حرمها الله -عز وجل- يوم خلق السموات والأرض كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن الله -عز وجل- لم يخاطب الناس به وإنما أظهر ذلك وخاطبهم به على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وهذا هو وجه الجمع بين النصوص الواردة في تحريم مكة يوم خلق الله السموات والأرض وبين ما ورد من أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي حرم مكة، فيكون باعتبار أن الله لم يخاطب به حينما حرمها وإنما كان الخطاب به على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فنسب إليه.

ويمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الله حرم مكة فهو -تبارك وتعالى- مصدر الأحكام، وهو الذي يحكم، وهو الذي يحلل ويشرع والرسل إنما يبلغون عن الله -عز وجل-، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- دعا ربه لمكة واستجاب الله -عز وجل- دعاءه فكان ما كان مما قضاه الله -تبارك وتعالى- تجاه بيته المعظم ومن ذلك أنه جعله حرماً آمناً تهفو إليه الأفئدة ورزق أهله من الثمرات ممن آمن بالله واليوم الآخر ومن لم يؤمن، -والله تعالى أعلم- فهذان وجهان في الجمع بين هذه النصوص، وكلها يحتمل، ويمكن أن يقال: إنه لا منافاة بينها أصلاً، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

قوله: ((ولا يقطع عضاهها)): الشجر الذي له شوك يقال له: عضاه، والكلام في حرم المدينة ليس هذا محله، والمقصود أن الله حرم مكة وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حرم مكة، وإبراهيم مبلغ عن الله -عز وجل-.

"وقد وردت أحاديث أُخَرُ تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة: ((إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحِل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلْتَقَط لُقَطَتُه إلا من عرَّفها، ولا يختلى خَلاهَا)) فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذْخَر فإنه لقَينهم ولبيوتهم، فقال: ((إلا الإذخر))[٣]."

قوله: ((لا يختلى خلاها)) يعني لا يحتش الحشيش منها.

وقول العباس: **فإنه لقينهم**، القين بمعنى الحدَّاد -وهذا في الأغلب والأشهر- ويطلق على الصانع عموماً، فالحداد يحتاج للإذخر من أجل صنعته.

قوله: **فإنه لقينهم ولبيوتهم**، يعني يوضع في السقف فوق الخشب، ثم يوضع فوقه الطي.

---

[2] - صحيح مسلم في كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها (١٣٦٢) (ج ٢ / ص ٩٩٢) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الحج - باب ثواب من صبر على جهد المدينة وشدتها (٤٢٨٤) (ج ٢ / ص ٤٨٧) واللفظ له.

[3] - أخرجه البخاري في أبواب الجزية والموادعة - باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٧) (ج ٣ / ص ١١٦٤) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

وهذا الحديث فيه مسألة معروفة عند الأصوليين في باب التخصيص عند الكلام على الاستثناء، إذ إن من التفاصيل الداخلة تحت موضوع الاستثناء أن الاستثناء إنما يكون من متكلم واحد في أوله وفي آخره، فتقول مثلاً: لك مائة درهم إلا ثلاثة، يعني لك سبع وتسعون درهماً، وهذا كلام ظاهر، لكن إذا كان الاستثناء من طرف آخر، كأن يقول إنسان: له مائة فقال شخص آخر: إلا ثلاثة، فهل هذا يصح أم لا بد أن يكون من متكلم واحد؟

هذا فيه كلام عند الأصوليين، ومن قال: إن ذلك يصح فقد احتج بهذا الحديث، وعلى كل حال مثل هذا لا يخفى، فإذا كان قد أقر به وكان ذلك متصلاً بكلامه الأول عرفاً فإن ذلك ينـــزل منـــزلة كلامه، وإلا فليس لأحد أن يفتات على متكلم فيلزمه بما لا يلزمه.

"وعن أبي شُرَيح العدوي أنَّه قال لعَمْرو بن سعيد -وهو يبعث البعوث إلى مكة-: ائذن لي -أيها الأمير- أن أحدثَك قولاً قام به رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- الغَد من يوم الفتح."

قال ذلك لعمرو بن سعيد الأشدق حينما كان يبعث البعوث لقتال عبد الله بن الزبير في أيام عبد الملك بن مروان وفي أيام يزيد حيث قتل عبد الله بن الزبير على يد الحجاج، فقبل ذلك كان عمرو بن سعيد يبعث الجيوش يجيشها من المدينة إلى مكة.

"سَمِعَته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تَكَلَّم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّصَ بقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب))، فقيل لأبي شُرَيح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخَرْبَة"[٤] رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه."

قوله: **ولا فارًّا بخَرْبَة** يعني ولا فارًّا بجناية.

أتى له بالحديث وهو واضح وصريح في حرمة مكة فقال له: نحن أعلم منك بهذا، وهذا مثل مروان لما أراد أن يخطب في العيد قبل الصلاة من أجل أن يسمع الناس له فلما أخذ أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- بثوبه جذبه مروان منه وصعد المنبر، فقال له أبو سعيد: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ذهب ما تعلم يا أبا سعيد، إن الناس ما عادوا يسمعون لنا.

وعلى كل حال عمرو بن سعيد هذا ذبحه صاحبه عبد الملك بن مروان ذبحاً كما تذبح الشاة حيث سلطه الله عليه، فقلته شر قتلة بيده، نسأل الله العافية.

"فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حَرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم -عليه السلام- حَرَّمها؛ لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حُكْمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم -عليه السلام-، لها، كما أنه قد كان رسول الله

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤) (ج ١ / ص ٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحـريم مكـة وصـيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٤) (ج ٢ / ص ٩٨٧).

-صلى الله عليه وسلم- مكتوبًا عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدِل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ} [(١٢٩) سورة البقرة] الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقَدَره، ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بَدْءِ أمرك، فقال: ((دعوة أبي إبراهيم -عليه السلام- وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[5]، أي: أخبِرْنا عن بدء ظهور أمرك، كما سيأتي قريبًا، إن شاء الله."

هذا واضح في الجمع بين هذه النصوص، وهو كون التحريم أظهره الله على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

"وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: من الخوف، أي لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا كقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [(٦٧) سورة العنكبوت] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه.

وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح))[6]، وقال في هذه السورة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [(٣٥) سورة إبراهيم] وناسب هذا هناك؛ لأنه والله أعلم كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به."

هذا الكلام ليس بقاطع وإنما هو احتمال، وهذه من الوجوه التي يتلمسها المفسرون فيما يسمى بالمتشابه اللفظي، فهنا قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [(١٢٦) سورة البقرة]، وهناك جاء بالتعريف، {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [(٣٥) سورة إبراهيم]، فإذا قيل: لماذا فارق بينهما؟ فيمكن أن يقال: قبل بناء البيت كان موضع البيت بواد غير ذي زرع فدعا ربه أن يكون بلداً آمناً، أي أن يتحول هذا الموضع إلى بلد آمن، فلما صار بلداً دعا له مرة أخرى بـــ"أل" العهدية: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [(٣٥) سورة إبراهيم] لكن هذا القول هو كغيره مما يذكرونه في هذه الوجوه فلا يقطع به؛ لأنه قد يكون المقام واحداً أصلاً والدعاء واحد لم يتكرر، والله تعالى أعلم، وقد سبق الكلام على قوله تعالى: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [(٣٥) سورة إبراهيم] هل ذلك من قبيل الشرع أو القدر.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، وإن كان يحتمل هذا وهذا إلا أن قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [(٦٧) سورة العنكبوت]، هذا يكون بالقدري؛ فهو يريهم أمراً يشاهدونه ويعرفونه، وبالتالي يجاب عن الإشكال الذي قد يرد وهو أن ما يقع فيه من القلاقل في بعض الأحيان فإن ذلك لا عبرة به وإنما العبرة بالغالب، وهذا مثل قول الله -عز وجل-: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [(٢١) سورة المجادلة] فهذا أمر قد قضى الله به، ومع ذلك قد يقتل النبي وقد يهزم جيشه

---

[5] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٢٦٢) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة (١٣٥٦) (ج ٢ / ص ٩٨٩).

وما إلى ذلك، فلا يحكم بعدم الغلبة في مثل هذه الحالات القليلة التي تعتبر حالات استثنائية وإنما العبرة بالعاقبة، ثم إن الغلبة أيضاً تكون بالحجة والبيان، وإن هزم المسلمون في أُحد ومعهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أرض المعركة وهو ثابت -صلى الله عليه وسلم- لم ينهزم فهذا لا ينافي قوله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [(٢١) سورة المجادلة]، إذ إن المسلمين قد غَلبوا وكانت العاقبة لهم.

"كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال في آخر الدعاء: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء} [(٣٩) سورة إبراهيم].

وقوله تعالى: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة].

روى ابن جرير عن أبي بن كعب: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة] قال: "هو قول الله تعالى" وهذا قول مجاهد وعكرمة."

إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] فهو خص المؤمنين بهذا الدعاء وذلك بأن يرزقهم الله -عز وجل- من الثمرات، وقد قلنا: إن بعض أهل العلم ذكر في هذا لطيفة، وهي أن الله -عز وجل- لما أدب خليله -صلى الله عليه وسلم- حينما قال في الإمامة: {وَمِن ذُرِّيَّتِي} [(١٢٤) سورة البقرة] حيث علمه الله -عز وجل- أن الإمامة لا تكون لغير أهل الإيمان فقال: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} (١٢٤) سورة البقرة]، فعهده لا ينال ظالماً، ولا يعطى لظالم، والكافر هو من أظلم الظالمين كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]، فظن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك أن الدعاء يقيد أيضاً في طلب الرزق فلذلك قال: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] فعلمه الله -عز وجل- مرة أخرى وبين له أن الأمر هنا يفترق، فقال تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة].

فقول الله -عز وجل-: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} [(١٢٦) سورة البقرة] هذا من كلامه –سبحانه وتعالى- والمعنى أن الله قال: ومن كفر فإنه يُرزَق أيضاً؛ وذلك أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فالمقصود أن قوله: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} [(١٢٦) سورة البقرة] هو من كلام الله -تبارك وتعالى- في مقابل قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما خصص أهل الإيمان بالدعاء بقوله: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة].

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجُرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} [(٢٠) سورة الإسراء] رواه ابن مَرْدُويه.

ورُوي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضًا، وهذا كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة يونس]، وقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٣-٢٤) سورة لقمان]، وقوله: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ* وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [(٣٣-٣٥) سورة الزخرف].

وقوله: {ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه: أن الله تعالى يُنْظِرُهم ويُمْهِلهُم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [(٤٨) سورة الحـــج].

وفي الصحيحين: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم))[7]

وفي الصحيح أيضًا: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)) ثم قرأ قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [(١٠٢) سورة هود][8].

وأما قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٧-١٢٨) سورة البقرة] فالقواعد: جمع قاعدة وهي السارية والأساس."

قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [(١٢٧) سورة البقرة] يعني يرفع إبراهيم الأساس وأما القواعد التي في أسفل البناء فإنها لا ترفع على الحقيقة، فإذا قيل: رُفعت القواعد فالمعنى رُفع البناء فوقها، فقوله: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} يعني يقيم عليها البناء.

"يقول تعالى: واذكر -يا محمد- لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- البيت ورفْعهما القواعدَ منه، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٢٧) سورة البقرة].

وحكى القرطبي وغيره عن أبيّ وابن مسعود أنهما كانا يقرآن: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ويقولان رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [(١٢٧) سورة البقرة].

قلت: ويدل على هذا قولهما بعده: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [(١٢٨) سورة البقرة] الآية، فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد -باب قول الله تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} (٦٩٤٣) (ج ٦ / ص ٢٦٨٧) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢٨٠٤) (ج ٤ / ص ٢١٦٠).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة هود (٤٤٠٩) (ج / ص ١٧٢٦) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) (ج / ص ١٩٩٧).

كما روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد أنه قرأ: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلّص في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا} [(٦٠) سورة المؤمنون]، أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات {وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [(٦٠) سورة المؤمنون] أي: خائفة ألا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما سيأتي في موضعه."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٢٧) سورة البقرة] هو أورد هنا قراءة ابن مسعود: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا..) لأن من المفسرين من يقول: إن هذا الدعاء صدر من إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ويقولون: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما بنى البيت كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- في غاية الصغر أو كان رضيعاً لم يبن مع أبيه البيت، وهذا في غاية الغرابة، فالله -عز وجل- يقول: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}** فمعنى ذلك أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- كان يشاركه البناء سواء كان يناوله اللبن، أو غير ذلك مما يصنعه معه، المهم أنه كان مشاركاً له، ولذلك فإن الدعاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٢٧) سورة البقرة] صدر منهما -عليهما الصلاة والسلام- ويدل على ذلك من الآية أنه قال بعده: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}** [(١٢٨) سورة البقرة] أي على سبيل التثنية، فالبناء صادر منهما والدعاء كذلك صادر منهما، فهذا هو سبب إيراد ابن كثير -رحمه الله- هذه القضية؛ لأنه وجِد من خالف في هذا.

"وقد روى البخاري[9] عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَل أم إسماعيل، اتخذت مِنطقًا لتُعَفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه."

يعني أنها كانت تغار منها فأرادت أن لا يكون لها أثر إذا مشت فكانت تخفي أثرها على سارة أم إسحاق.

حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زَمْزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسِقَاء فيه ماء ثم قَفَّى إبراهيم -عليه السلام- منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه، فقال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [(٣٧) سورة إبراهيم] حتى بلغ: {يَشْكُرُونَ} [(٣٧) سورة إبراهيم] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبّط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم

---

9 - صحيح البخاري في كتاب الأنبياء – باب {يَزِفُّونَ} [(٩٤) سورة الصافات] النسلان في المشي (٣١٨٤) (ج ٣ / ص ١٢٢٧).

ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرفَ درعها ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحَدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فلذلك سعى الناس بينهما)).

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوَاث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا مَعينًا))."

قال: **فجعلت تحوطه**، وفي النسخة الأصل تحوضه وهكذا هي الرواية، والمعنى أنها تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء، وفي بعض الروايات: تحفر وهي بمعنى تحوضه أو تحفن أي التراب لتجعل حوضاً، أو تفحص الأرض بيديها.

"قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم -أو أهل بيت من جُرْهم- مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا."

قبيلة جرهم يقال: إنهم من العمالقة، والمؤرخون كانوا يسكنون أو أن بعضهم كان يسكن قريباً من مكة، وكانوا يعرفون هذا المكان وأنه ليس فيه ماء.

يقول: **أهل بيت من جُرْهم مقبلين من طريق كَدَاء**، كداء بالفتح، يعني من أعلى مكة، قال: **فنزلوا في أسفل مكة**: يعني كأنهم جاءوا من أعلاها، وهذا لا إشكال فيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- دخل من أعلاها -من كداء- وخرج من أسفلها، فيمكن أنهم جاءوا من أعلاها حتى بلغوا أسفلها.

قوله: **فرأوا طائراً عائفاً**، الطائر العائف هو الذي يحلق فوق الماء ولا يجاوزه.

"فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَريًّا أو جَرِيَّين."

يعني أرسلوا رسولاً مندوباً عنهم أو وكيلاً أو نحو ذلك، وقيل له: جري؛ لأنه يقوم مقام من أرسله أو لأنه يسعى ويبادر في حاجته والمصلحة التي أرسل من أجلها.

"فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فألفى ذلك أمُ إسماعيل وهي تحب الأنس))."

يعني أن ذلك صادف شيئاً في نفسها وحاجة وهي أنها تحب الأنس، والأُنس ضد الوحشة فهي كانت مستوحشة فلما عرضوا عليها الإقامة عندها ألفى ذلك شيئاً في نفسها أي حاجة في نفسها.

قوله: **وهي تحب الأنس**، بالضم هو ضد الوحشة، ويمكن أن يكون بكسر الهمزة، أي وهي تحب الإنس يعني بني جنسها، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى، فلا تعارض حينئذٍ.

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهلُ أبيات منهم وشب الغلامُ وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم."

قوله: **وأنْفَسَهم وأعجبهم**، من النفاسة، أي أنه صار نفيساً ومرغوباً فيه عندهم فزوجوه وصاهروه.

يقول: **أنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم**، أي صار إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- مرغوباً فيه ولم يكن كاسداً -عليه الصلاة والسلام-.

قوله: **وتعلم العربية منهم**، هذا يدل على أن أبويه من غير العرب، وهذا هو المعروف المشهور، وأما ما جاء من أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أول من تكلم بالعربية فإن الذي يصح من ذلك ما جاء مقيداً باعتبار أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو أول من فتق الله لسانه بالعربية الفصحى، فإسماعيل -صلى الله عليه وسلم- كان أفصح من جُرْهم بما علمه الله -عز وجل- وألهمه، فصارت عربيته أحسن من عربيتهم، وهذه المسألة فيها كلام لأهل العلم كثير، وذلك في قضية العرب العاربة والعرب المستعربة، وهل يقسم الناس بهذا الاعتبار، لما فيه من الإشكال في كون العرب يرجعون في نسبهم إلى إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- والنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- منهم فهل يقال: هو -عليه الصلاة والسلام- من العرب المستعربة؟، وإذا تأملت هذا الخلاف والإشكال الوارد في هذا قد تخرج بنتيجة أن المسألة لا تحتمل ذلك باعتبار أن هؤلاء صاروا هم العرب، والله -عز وجل- وصف نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأنه منهم فقال: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}** [(٢) سورة الجمعة] ووصف هذا القرآن بأنه بلسان عربي مبين، وتبقى المسألة في التسمية، هل يليق هذا أو لا يليق؟

"وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيلُ ليطالع تَرِكَتَه فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشَرّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألَنا عنك، فأخبرتُه، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جَهْد وشدَّة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك. وَطَلَّقَها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم -وسألها عن عيشهم وَهَيْئَتِهم- فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله -عز وجل-، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولم يكن لهم يومئذ حَب ولو كان لهم لدعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه)) قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي -عليه السلام- ومُريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة -وأثنت عليه- فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لَبثَ عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا -وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٢٧) سورة البقرة] **قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٢٧) سورة البقرة]."

قال في الحديث: إنه جاء وهو يبري وقد تزوج، وهذا رد واضح وصريح على أولئك الذين قالوا: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بنى البيت وإسماعيل طفل صغير، لا يطيق البناء معه، وأن الدعاء صدر من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وحده، وعلى كل حال مسألة بناء البيت والأحاديث الواردة فيها صح منها ما صح ولم يصح منها ما لم يصح، والأخبار الإسرائيلية كثيرة جداً، وأخبار الحجر الأسود ومن أين جاء صححت جملة من الأحاديث بأنه نزل من السماء، وعلى كل حال ليس هذا محلاً للكلام على هذه الأشياء.

"ذِكْرُ بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل -عليه السلام- بمدد طويلة قبل مبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخمس سنين، وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمسًا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يَهُمُّون بذلك ليسقفوها ويهابون هَدْمها، وإنما كانت رَضماً فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون في بئر في جَوْف الكعبة، وكان الذي وُجد عنده الكنز دويك مولى بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رَمى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تُطْرَحُ، فيها ما يُهْدَى لها كل يوم تَتَشدق على جدار الكعبة."

قوله: **تَتَشدق على جدار الكعبة**: أي أنها كانت تخرج لسانها، وهذه قضية معروفة في صفة الحية، فهي كانت تخرج على الجدار وتنظر إلى هؤلاء الناس وتتشدق، فهي في منظر لا شك مخيف ومفزع ولا يستطيع أحد الاقتراب من البئر.

"تتشدق على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَألَّت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها، فبينا هي يوماً تَتَشدق على جدار الكعبة، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عَمْرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تُدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بَغِي ولا بيع رباً، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخزُوم."

قوله: **ينتحلون هذا الكلام للوليد**، يعني ينسبونه إليه.

وهذه التفاصيل بهذه الصورة تذكر في كتب السير، ولا شك أن أصل ذلك ثابت وهو أنهم أعادوا بناءها وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاركهم في وضع الحجر -عليه الصلاة والسلام- وقضية الحية التي كانت موجودة، هي موجودة في بعض أشعارهم ويذكرون هذا في السير، فالله تعالى أعلم.

"قال: ثم إن قريشا تَجَزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسهم، وكان شق الحِجْر لبني عبد الدار بن قُصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قُصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحَطيم.

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقُوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هَدْمها: فأخذ المعْولَ ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترعْ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عَمَله، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس -أساس إبراهيم -عليه السلام- أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضًا."

قوله: **كالأسنمة**، يعني كأسنمة الإبل.

وقوله: آخذ بعضها بعضاً، يعني أنها مشبكة، ووصفها بالأسنمة ظهر في وقت ابن الزبير لما هدمها وبناها من جديد، حيث أخرج لهم تلك القواعد فرآها الناس وأشهدهم على ذلك ووصفوها بهذه الصفة وهي أنها متداخلة وكالأسنمة، وشوهدت في هذا العصر حينما جدد بناؤها قريباً ووَصف من شاهد ذلك أيضاً بمثل هذه الصفة.

" قال: فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عَتَلة بين حجرين منها ليقلع أيضاً بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول المفسر –عليه رحمة الله-:-

النزاع في وضع الحجر الأسود وقضاء محمد بن عبد الله القضاء العادل -صلى الله عليه وسلم-

"قال ابن إسحاق[١]: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن -يعني الحجر الأسود -فاختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُموا لعَقَة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم -وكان عامئذ أسن قريش كلهم- قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((هَلُمَّ إليَّ ثوبًا)) فأتي به، فأخذ الركن -يعني الحجر الأسود- فوضعه فيه بيده، ثم قال: ((لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً)) ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده -صلى الله عليه وسلم- ثم بُنيَ عليه.

وكانت قريش تسمي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل أن ينزل الوحي: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لَمَا تصويت العُقَاب ... إلى الثعبان وهي لها اضطراب

وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحياناً يكون لها وثاب

إذا قمنا إلى التأسيس شَدَّت ... تُهَيِّبُنا البناءَ وقد تُهَابُ

فلما أن خَشِينا الزَّجْرَ جاءت ... عقاب تَتْلَئِبُّ لها انصباب

فضمتها إليها ثم خَلَّت ... لنا البنيانَ ليس له حجاب

فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعدُ والتراب

غداة نُرَفِّع التأسيس منه ... وليس على مُسَوِّينا ثياب

[١] - سيرة ابن هشام (ج١ / ص ١٩٦ -١٩٧).

أعَــزّ بـــه المليــكُ بنـــي لُـــؤي فلـــيسَ لأصـــله مـــنْهُم ذَهـــاب
وقد حَــشَدَتْ هُنَــاك بنــو عَــديّ ومُـــــرَّة قـــد تقَـــدَّمَها كـــلاب
فَبَوَّأنـــا المليـــك بـــذاكَ عـــزّا وعنـــد الله يُلْـــتَمَسُ الثـــواب

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ثمانية عشر ذراعًا وكانت تكسى القباطي."

قوله: **وكانت تكسى القباطي**، القباطي جمع قُبطية وهي ثياب بيضاء من الكتان تنسج في البلاد المصرية، أي أن الكعبة لم تكن تكسى بالحرير.

"ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف."

البُرود –بالواو- أو البُرد -بإسكان الراء وضم الباء- والبرد أصله لحاف مخطط يلتحف به وهي من الثياب الغليظة وفيها خشونة بعض الشيء وهي أفضل من الكتان اللين الذي كانت تكسى الكعبة به قبلُ.

"قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم -عليه السلام- وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قتله الحجاج فردَّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك.

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عطاء قال: لما احترق البيت زَمَنَ يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسمَ يريد أن يُجَرِّئَهم أو يُحزبهم على أهل الشام."

يعني حتى إذا رأوا الكعبة محترقة وقع في نفوسهم ما وقع من الغيظ على أهل الشام، فهو يريد أن يحرك نفوس الناس تجاه أهل الشام برؤيتهم بيت الله كيف صنعوا به.

" فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا عليَّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وَهَى منها؟

قال ابن عباس: فإني قد خرِقَ لي رأي فيها، أرى أن تُصْلِحَ ما وَهى منها وتدع بيتًا أسلم الناس عليه وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها -صلى الله عليه وسلم- فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده فكيف بيت ربكم -عز وجل-؟ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري، فلما مضَت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء."

قوله: **أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء**، يعني أول واحد يبدأ بالهدم تنزل به عقوبة.

"فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يَره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه."

يعني بدل أن يكون المكان مستوياً بالأرض لا بناء فيه وضع ستوراً يتوجه إليها الناس في صلاتهم، وليكون ذلك أدعى لبقاء المهابة في نفوسهم؛ فإن بيت الله -عز وجل- له من المنـــزلة في نفوس الناس ما لا يخفى.

"وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة -رضي الله عنها- تقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لولا أن الناس حديثٌ عهدُهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّيني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له بابًا يدخل الناس منه وبابًا يخرجون منه)) قال: فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسًّا نَظَر الناس إليه فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا فلما زاد فيه استقصره فزاد في أوله عشرة أذرع، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، فلما قُتِل ابنُ الزبير كتب الحجَّاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه[٢]، وقد رواه النسائي في سننه عن عائشة بالمرفوع منه ولم يذكر القصة.

وقد كانَت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه-؛ لأنه هو الذي وَدَّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقربِ عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السُّنةُ على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: وددنا أنا تركناه وما تولى.

كما روى مسلم عن عبد الله بن عبيد، قال: وَفَدَ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خُبَيبٍ -يعني ابن الزبير- سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فَهَلُمِّي لأريك ما تركوا منه)) فأراها قريبًا من سبعة أذرع[٣].

زاد الوليد بن عطاء أحد رواته: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقيًّا وغربيًّا، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟)) قالت: قلت: لا، قال: ((تَعَزُّزًا ألا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يَدَعونه حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط)) قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فَنَكَتَ ساعة بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أني تركت وما تَحَمَّل[٤].

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣) (ج ٢ / ص ٩٦٨) وفي النسائي في كتاب مناسك الحج - الحِجــر (٢٩١٠) (ج ٥ / ص ٢١٨).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣) (ج ٢ / ص ٩٦٨).

[4] - المصدر السابق.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يُخَرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)) أخرجاه[5].

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كأني به أسودَ أفحَجَ، يقلعها حجرًا حجرًا)) رواه البخاري[6].

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يُخَرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حلْيتها ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلع أفَيْدعَ يضرب عليها بِمِسْحَاته ومِعْوله))[7].

الفَدَع: زيغ بين القدم وعظم الساق."

قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((ذو السويقتين)) يعني أن ساقه دقيقة، ودقة الساقين هذا غالب حال الأفارقة.

ويقول ابن كثير: **الفَدَع: زيغ بين القدم وعظم الساق**، هذا أصله تحول في المفاصل، فإذا كان في القدم بحيث كانت القدم متحركة عن الساق وكأنها قد فارقت المفصل فهذا معنى أفيدع، ومثل هذا التصغير يأتي لمعان منها التحقير.

"وهذا -والله أعلم- إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج؛ لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لَيُحَجَّنَّ البيتُ ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج))[8].

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٨) سورة البقرة] قال ابن جرير: يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك ولا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك ولا في العبادة غيرك.

وقال عكرمة: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} قال الله: قد فعلت {وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} قال الله: قد فعلت.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [(٧٤) سورة الفرقان] وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا؛ فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم -عليه السلام-: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] وهو قوله: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} [(٣٥) سورة إبراهيم].

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب هدم الكعبة (١٥١٩) (ج ٢ / ص ٥٧٩) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - ١٨ - باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٩) (ج ٤ / ص ٢٢٣٢).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب هدم الكعبة (١٥١٨) (ج ٢ / ص ٥٧٩)

[7] - مسند أحمد (ج ٢ / ص ٢٢٠) وقال شعيب الأرنؤوط: بعضه مرفوع صحيح وبعضه يروى موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح.

[8] - أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب قول الله تعالى: {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ} [(٩٧) سورة المائدة] حديث رقم (١٥١٦) (ج ٢ / ص ٥٧٨).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[9].

{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} [(١٢٨) سورة البقرة] **قال سعيد بن منصور: أخبرنا عتَّاب بن بشير عن خُصيف عن مجاهد قال: قال إبراهيم: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبرائيل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما سبق من ذكر بنيان الكعبة وما جرى فيه كل ذلك من قبيل الاستطراد، وذلك من عادة ابن كثير -رحمه الله- في مواضع من هذا الكتاب فإنه ربما بلغ موضعاً يتعلق به حدث جاءت فيه روايات وأخبار وما إلى ذلك فيستطرد في الكلام فيه، وسيأتي في بعض المواضع مثل هذا كما في قصة الإسراء مثلاً، فإنه يذكر الصفحات التي يسوق فيها الروايات المختلفة في هذا الموضوع، ولو أن ذلك حُذف من هذا المختصر وأبقيت المعاني المتصلة بالآيات فقط لربما كان ذلك أكثر ملاءمة ومناسبة للاختصار، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** [(١٢٨) سورة البقرة] يحتمل معنيين:

المعنى الأول: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** من الرؤية البصرية، أي أنهم يرونها ويشاهدونها ويقفون عليها بالمشاهدة، ويدل على ذلك هذه الرواية: **قال إبراهيم: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبريل...**، لكن ذلك من جهة الرواية ليس متصلاً فلا يعتمد عليه، ولكن الذي عليه عامة السلف والخلف من المفسرين أن المراد بالرؤية هنا، الرؤية البصرية بحيث أنه يقف ويشاهد المناسك، وذلك يدخل فيه سائر المناسك من الصفا والمروة.. وما إلى ذلك.

والمعنى الثاني: أن تكون **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** من الرؤية القلبية، فيكون ذلك من جهة التعليم بأن يعرفه ويعلمه ولو لم يكن ذلك بالمشاهدة، فبهذا الاعتبار تكون هذه الرؤية قلبية.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- لم يفرق بين الأمرين، ولعل هذا أنسب والله تعالى أعلم؛ إذ إن الآية تحتمل المعنيين وبينهما ملازمة لا تخفى؛ لأنه حينما يقف على هذه المناسك فيراها ببصره فإن ذلك يقتضي العلم بها ولا بد، والعلم بها هو الرؤية القلبية، ويدل على الرؤية القلبية القراءة الأخرى أرْنا مناسكنا -بإسكان الراء- والله أعلم.

والمناسك جمع نسك، ويقول بعضهم: إن أصله في كلام العرب الغسل، وفي الشرع فيه كلام معروف وخلاف؛ إلا أن المناسك تطلق على العبادة عموماً، ولهذا يقال للذبيحة التي تذبح لله: نسيكة، والمكان الذي يذبح فيه يقال له: منسك، ومكان العبادة أيضاً يقال له: منسك، والله -عز وجل- أخبر أنه جعل لكل أمة منسكاً، قال تعالى: **{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ}** [(٦٧) سورة الحــج]، وهذا يمكن أن يفسر بأنه مكان للتعبد أو مكان للذبح، ولا شك أن الذبح لله من أجلّ العبادات، فهو مكان للتعبد، ومن جملة ما يتعبد به لله -عز وجل- الذبح له من الهدايا والقرابين.

والمقصود بقوله: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** قال بعضهم: مناسك الحج، أو مواضع الذبح، وقيل: جميع التعبدات، ولا شك أن ما يتعلق بالحج أولى ما يدخل فيه؛ لأنه قال ذلك عند بناء الكعبة، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-

---

[9] - صحيح مسلم في كتاب الوصية – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١) (ج ٣ / ص ١٢٥٥).

كما سيأتي هو إمام الحنفاء، وكبير الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- فقد سن سنن الهدى، فكان ذلك باقياً من بعده، كالختان ومناسك الحج ونحو ذلك، وصار الدين الحنيف منسوباً إليه -عليه الصلاة والسلام-.

فالمقصود على كل حال أن قوله تعالى: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} أي ما يتعبد به لله -عز وجل- ومن أخص ما يدخل في ذلك ما يتعلق بأعمال الحج من وقوف بعرفة، ورمي للجمار، ووقوف عند المشعر الحرام بمزدلفة، وطواف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، وما إلى ذلك، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالنص الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيما يتعلق ببناء قريش للكعبة بعد إبراهيم الخليل -عليه السلام- راجعته وقابلته على عدد من الكتب مثل سيرة ابن هشام وإتحاف الورى، وسبل الهدى وغيرها، ففيما يتعلق ببعض الألفاظ كقوله مثلاً: **ما يُهدى لها كل يوم تتشدق على جدار الكعبة**، الموجود في نسختنا تتشدق وفي بعض نسخ ابن كثير تتشرق، وهي في الكتب التي ذكرتها آنفاً والتي هي أصل لهذا المنقول **تتشرق** -بالراء- حتى إنهم ضبطوها بالخط هكذا: بمثناة فوقية، فشين معجمة، فراء مفتوحات، وهذا واضح أنها تتشرق، وفسروها أيضاً من جهة المعنى فقالوا: تتشرق أي تبرز للشمس.

ومما راجعته قوله هنا: **وكانت مما يهابون وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألّت**، وهكذا هي في ابن هشام -احزألّت بالحاء- قال: أي رفعت رأسها، لكن وجدتها في غيره مثل سبيل الهدى قال: اخزألّت بالخاء، وضبطها أيضاً بالكتابة فقال: بخاء معجمة، فزاي فهمزة مفتوحة، فلام مشددة، فتاء تأنيث –اخزألّت- ويقول: أي رفعت ذنبها، والمُخْزَئِل المرتفع، وعلى هذا يكون في بعض النسخ بالخاء اخزألّت وفي بعضها احزألّت بالحاء، وهذا لا يستغرب؛ وذلك أنك تجد اللفظة جاءت بهذا وبهذا، وهذا له نظائر كثيرة.

قال: **وكشّت**، كشَّت هي هكذا ومعناها صوتت، يقال: الكشيش صوت احتكاك جلد الحية حيث تتحرك فيظهر صوت لجلدها إذا احتك بعضه ببعض.

وقال في نفس الصفحة: **والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة**، وقد وجدتها **ينحلون هذا الكلام**، ومعنى ينحلونه أي يضيفونه إليه وينسبونه إليه.

وقال: **للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو**، وفي ابن هشام: **"للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر"** وهي مضبوطة بفتح الميم وضم العين، فهي عمر وليست عمرو.

ومما قاله هنا: **على أساس إبراهيم -عليه السلام- أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة**، والمشهور أنه كالأسنمة، والذي في سبل الهدى وابن هشام كالأسنمة، والمراد أن الحجارة دخل بعضها في بعض كما تدخل عظام السنام بعضها في بعض، لكن الشاهد أنه يقول: ومن رآه كالأسنة جمع سنان، وهذا يعني أنه جاء أيضاً كالأسنة وهي الرماح، وتشبيهها بالأسنة من جهة أنهم قالوا: إن في لونها خضرة، وهذا لا يستغرب فمن المعروف عن جبال مكة أنها إذا نزل عليها المطر تحول لونها إلى شيء من الخضرة، حتى إن في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [(٦٣) سورة الحـج] فالفاء تدل على التعقيب المباشر في اللغة، فعلى القول بأن المراد بالآية الخضرة السريعة قال بعض أهل العلم: إن "أل" من الأرض هنا العهدية فالمقصود بها أرض مكة، وقالوا ذلك؛ لأن النبات لا ينـبت بعد المطر مباشرة وإنما يحتاج إلى وقت، إذن هذا خاص في مكة، والمقصود أنه لما كانت جبالها تحتوي على عنصر النحاس فإذا نزل عليها المطر صارت تميل إلى الخضرة، لكن هذا الكلام فيه نظر في تفسير الآية تلك، وإنما الفاء

للتعقيب المباشر لكنه في كل شيء بحسبه، وعلى كل حال فالمقصود أن من قال: كالأسنة فهو ضبطها بهذه الطريقة وقال في اللون.

ومما قاله المؤلف: **فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها،** وهكذا وجدتها في هذه المصادر تنقضت، وهي مضبوطة أيضاً، وفسروها بأنها اهتزت، أي اهتزت مكة بأسرها.

ومن الألفاظ أيضاً قوله: **فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا،** هكذا في نسختنا، وأما في سبيل الهدى **تحاوزوا وتحالفوا،** فهنا تحاوروا وتخالفوا، وهناك تحاوزوا وتحالفوا أي انحازت كل قبيلة إلى جهة، والتحالف معروف.

وفي ابن هشام وفي سائر الأصول تحاوروا وتخالفوا كما هنا، وعلى هذا فهو جاء بهذا وبهذا.

ثم قال: **ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو،** وليس ابن عمرو، فهذا ما يتعلق ببعض العبارات والألفاظ.

وبالنسبة لضبط الأبيات يقول:

عَجِبْتُ لمَا تَصوَّبَت العِقَاب	**إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ**
وقد كانت يكون لها كَشِيشٌ	**وأحياناً يكون لها وِثَابُ**
إذا قمنا إلى التأسيس شَدَّت	**تُهَيِّبُنَا البناءَ وقد تُهَابُ**
فلما أن خَشِينا الرِّجز جاءت	**عقاب تَتْلَئِبُّ لها انتصاب**
فضمتها إليها ثم خَلَّت	**لنا البنيانَ ليس له حجاب**
فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء	**لنا منه القواعدُ والتراب**
غداة نُرَفِّع التأسيس منه	**وليس على مُسَوِّينا ثياب**

قوله: **وليس على مُسَوِّينا ثياب،** ضبطها بعضهم مَسَاوينا -جمع سوْءة- والمُسوِّي يعني الباني، أي ليس على من يقوم بالبناء ثياب، وعلى الضبط الآخر يكون المعنى وليس على العورات ثياب، أي أنهم كانوا يبنون مع التعري يفعلون ذلك ديانة يتقربون بذلك إلى الله -عز وجل-.

ثم يقول:

أعَزّ به المليكُ بني لُؤي	**فليسَ لأصله منْهُم ذَهاب**
وقد حَشَدَتْ هُنَاك بنو عَديّ	**ومُرَّة قد تَقَدَّمَها كلاب**
فَبَوَّأنا المليكُ بذاكَ عزّا	**وعند الله يُلْتَمَسُ الثواب**

هذا ضبط بعض الألفاظ في ذلك النص، وعموماً هذا من كلام أهل السير، ومعروف أن ما جاء في هذه الكتب إذا طبقت عليه شروط المحدثين ذهب أكثره، فقضية هذه الحية وما أشبهها كله يحتاج إلى إثبات، وأهل السير معلوم أنهم يذكرون مثل هذه الأشياء ويتساهلون فيها حتى إنهم يقولون: إن هذا الثعبان جاء منذ مئات السنين -من أيام العمالقة- وعاش مئات السنين، ويقولون عنها: إنها كانت إذا التفت على الكعبة التصق رأسها بذيلها من طولها، ويذكر أهل السير أيضاً أنه نزل شخص في بئر الكعبة ليسرق كنز الكعبة فسقط

عليه حجر ثم جاءت هذه الحية بعد ذلك، وأن هذا الكلام كله منذ أكثر من خمسمائة سنة من وقت بناء الكعبة، لكن هذا الكلام كله ليس هناك ما يثبته، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: " {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} [(١٢٨) سورة البقرة] قال سعيد بن منصور أخبرنا عتاب بن بشير عن خُصيف عن مجاهد قال: قال إبراهيم -عليه السلام-: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منًى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كَبِّر وارمه."

قوله: **فلما كان من العقبة**، أي العقبة التي عندها الجمرة.

وهذا الأثر يدل على أن الرؤية في قوله: {وَأَرِنَا} [(١٢٨) سورة البقرة] رؤية بصرية تقتضي علماً بهذا المُبصَر، فيكون بذلك الجمع بين التفسيرين، أي أرنا رؤية بصرية تقتضي علماً بالمُبصَر، وبهذا نكون جمعنا بين القولين في تفسير قوله: {وَأَرِنَا} [(١٢٨) سورة البقرة].

"فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدْخِل في الحج شيئًا فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرات، قال: نعم، وروي عن أبي مِجْلز وقتادة نحو ذلك."

ذُكرتْ في سبب تسمية عرفات بهذا الاسم وجوه متعددة وأقوال، فمنهم من قال: إن آدم وحواء التقيا فيها بعد أن أهبطا إلى الأرض فتعارفا هناك -وهذا ليس عليه ما يثبته- وبعضهم يقول: إن جبريل -صلى الله عليه وسلم- كما هو هنا سأل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: وهل عرفت؟ يعني المناسك، قال: نعم، فقيل لها: عرفات، وبعضهم يقول غير هذا، وليس على شيء من ذلك دليل يمكن أن يوقف عنده، والعلم عند الله -عز وجل- وعلى كل حال هم يذكرون ذلك فقد يكون صحيحاً، وقد لا يكون كذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: {وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٨) سورة البقرة]، توبة الله على العبد تأتي بمعنى توفيقه للتوبة وقبولها منه والتجاوز عنه وعدم المؤاخذة على التقصير والذنب والخطأ الذي يحصل منه كما قال تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [(١١٨) سورة التوبة] أي وفقهم للتوبة وقبلها منهم.

فالتوبة هي الرجوع، وتوبة الله على العبد تعني رجوع الله على العبد بالتجاوز عن التقصير والإساءة أو الذنب، أي رجع عليهم بالتوبة ورجع عليهم بالمغفرة ورجع عليهم بالتجاوز.

وتوبة العبد تعني رجوعه من تقصيره وذنبه إلى الحق، ومعلوم أن التوبة تكون من الذنب وتكون من غيره كالتقصير الذي قد لا يكون ذنباً، فهذه هي توبة الله على العبد التي تفسر قوله: {وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٨) سورة البقرة] والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [(١٢٩) سورة البقرة].

" يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم -عليه السلام- لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي: من ذرية إبراهيم -عليه السلام- وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، والمراد أن أول من نَوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم -عليه السلام- ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى بن مريم -عليه السلام- حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا وقال: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [(٦) سورة الصف] ولهذا قال في هذا الحديث: ((دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم))، وقوله: ((ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[١] قيل: كان منامًا رأته حين حملت به وقَصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة.

وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم -عليه السلام- إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))[٢] وفي صحيح البخاري: ((وهم بالشأم))[٣].

وقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} يعني: القرآن {وَالْحِكْمَةَ} يعني: السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين، ولا منافاة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [(١٢٩) سورة البقرة]، قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} يعني القرآن، وهذا لا إشكال فيه فهو في غاية الوضوح، اللهم إلا في موضع آخر وهو قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٢٦٢) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي -صلى الله عليه وسلم- آية فأراهم انشقاق القمـر (٣٤٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٣١) ومسلم في كتاب الإمارة - باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) (١٠٣٧) (ج ٣ / ص ١٥٢٤) كلاهما بلفظ مقارب.

[3] - صحيح البخاري في كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انـشقاق القمـر (٣٤٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٣١).

مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] وهي القرآن، ثم قال: {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢) سورة الجمعة] فهناك قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} قال جماعة من أهل العلم: المراد به الكتابة، وعللوا هذا بأمرين اثنين: قالوا: الأمر الأول: أن في الآية ما يدل على هذا القول وذلك من جهة أن الله ذكر القرآن قبله حيث قال: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] فمن أجل ألا يكون ذلك تكراراً في الكلام فإن التأسيس مقدم على التوكيد و بناء على هذه القاعدة، قالوا: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢) سورة الجمعة] الكتاب يعني الكتابة التي هي الخط بالقلم، وفي الآية قرينة أخرى وهو أنه ذكر الأميين فقال: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة] والأمي هو الذي لا يكتب أو لا يعرف الكتابة والقراءة، فهو يمتن عليهم ببعثه -صلى الله عليه وسلم- ومن جملة هذا الامتنان أن عرفوا الكتابة بعد أن كانوا أبعد الناس عنها إذ لم يكن يعرفها منهم إلا نفر يسير لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

فالمقصود أن الآية هناك تحتمل، وأما هنا: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} [(١٢٩) سورة البقرة]، فهو القرآن، وأما قوله: {وَالْحِكْمَةَ} فإن الحكمة في أصلها من الحُكم وهو يدور على معنى المنع، وبعض أهل العلم يذكر له أصلاً آخر كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- والمشهور عند كثير من أهل العلم أنه يدور على أصل واحد وهو المنع، فتأتي الحكمة تارة بمعنى النبوة، وتارة بمعنى الفقه في الدين، وتأتي تارة بمعنى وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، بمعنى الإصابة بالقول والعمل.

فهنا قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة] قال: يعني السنة، وقيل: الفهم في الدين، وقال: لا منافاة؛ لأن من عرف السنة فإن السنة تكون شارحة للقرآن، فقد فهم عن الله -عز وجل- مراده، فلا منافاة بين قول القائل في قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة]: إن الحكمة تعني السنة، أو الفهم في الدين، لأن من كان بالسنة أعلم فهو أفقه في دين الله -عز وجل- ولهذا فإن قول من قال هي الفقه في الدين لا إشكال فيه ولا يعارض من قال: إنها السنة.

ولهذا فإن مثل ابن جرير الطبري كبير المفسرين -رحمه الله- يفسر الحكمة هنا بأنها العلم بأحكام الله -عز وجل- التي جاء بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- فإن ذلك لا يعرف إلا من طريقه -عليه الصلاة والسلام-، ومن ثمَّ فإن هذا العلم بأحكام الله -عز وجل- هو العلم بالسنة؛ لأن الأحكام لا تعرف إلا من طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى كل حال أصل الحكمة من الحُكم الذي هو المنع ومن ثم يقال: الحُكم الفصل بين الناس، والحاكم يقال له: حاكم؛ لأنه يفصل بين الناس ومعنى المنع متحقق فيه، إذ أنه يمنع أحد الخصمين من التعدي على حق الآخر، ولذلك لو أتيت بأي لون من ألوان استعمال هذه اللفظة تجد فيها معنى المنع، فإذا قلت هي من الحَكَمَة التي توضع في الفرس، فإنها تمنعها من الانفلات، وإذا قلت: فلان حكيم فمعنى ذلك أن حكمته تزم رأيه ولسانه فلا يحصل منه الخَطَل والشطط في القول ولا في الحُكم بل تجد أقواله على استقامة وأحكامه على استقامة، فهو واقع على الصواب في القول وفي العمل، وهكذا.

قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة] أي فصل قضاء الله -عز وجل- بين الناس وأحكامه بحيث يعرفون ذلك ويفقهون دين الله -عز وجل- ويعرفون السنة..الخ، وكل هذه الأقوال التي ذكرها السلف

وما لم يذكروه كله صحيح وهذا يسمى خلاف التنوع، إلا أن من قال: إن الحكمة هي النبوة مثلاً، فهذا يحتاج إلى لون ربط وجمع قد يكون أعسر إلى حد ما من مثل هذه الأقوال، مع أنه يمكن أن يجمع بين هذا وهذا من جهة أن النبي هو الذي يحكم بين الناس.

ولا بد أن يفهم أن المقصود بتفسير الحكمة بالنبوة أن النبي يعلمهم مضامين النبوة التي جاء بها من الله -عز وجل- عن طريق الوحي، فيعلمهم أحكام الشريعة التي أنبأه الله بها، فلا يقول قائل في تفسير الحكمة بالنبوة أن المعنى يعلمهم النبوة بمعنى أنهم يكونون أنبياء مثله أو نحو ذلك، فهذا المعنى غير وارد على الإطلاق.

"{وَيُزَكِّيهِمْ} [(١٢٩) سورة البقرة] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني طاعة الله.**"

قوله: {وَيُزَكِّيهِمْ} قال: **يعني طاعة الله**، وبعضهم يذكر غير هذه العبارة، وكل ذلك بمعنى واحد؛ لأن طاعة الله -عز وجل- هي تطهير للنفوس، فإنما يكون طهرها وصلاحها واستقامتها حينما تكون ملتزمة بالحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فالرسول يزكيهم بمعنى أنه يطهرهم من أدران الشرك والضلال والزيغ وكل لون من ألوان الانحراف الذي يدنس نفوسهم، فكل ما يذكر هنا كله صحيح؛ لأن المراد بذلك كله هو تزكية النفوس بتطهيرها من الشرك وما تفرع منه.

"**وقوله:** {إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [(١٢٩) سورة البقرة] أي: **العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء.**"

اسم العزيز من العزة أي العزيز الذي لا يغالب ولا تطاق سطوته، والعزة إنما تحصل من مجموعة أوصاف إذا وجدت وتحققت كان ذلك الموصوف عزيزاً، والعزيز لا يكون إلا قوياً ولا يكون إلا قادراً، وما إلى ذلك، ولهذا يفسره بعضهم بقوله: أي الذي لا تطاق سطوته، وبعضهم يقول: الذي لا يغالب، أو الذي لا يضام ولا يرام، وكل هذا داخل في معنى العزيز.

"**الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.**"

اسم الحكيم جمع بين أمرين هما العلم ووضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، فهذا هو الحكيم، والحكمة هي الإصابة بالقول والعمل، وهذه الإصابة لا يمكن أن تكون إلا بتحقق العلم مع الوصف الآخر الذي هو وضع الشيء في موضعه.

" {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة].

يقول -تبارك وتعالى- رَدًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جَرد توحيد ربه -تبارك وتعالى- فلم يَدْعُ معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين."

قوله: **يقول -تبارك وتعالى- رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله**، طبعاً هذه الآيات جميعاً هي في سياق ذكر بني إسرائيل، فأول من يدخل فيها هم اليهود والنصارى حيث إنهم خالفوا ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- من جهة الحقيقة إذ إنهم بدلوا وغيروا، كما أنهم خالفوها من جهة الانتساب والتسمية

حيث إنهم ابتدعوا هذه الأسماء، قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [(٦٧) سورة آل عمران] فالمقصود أن هؤلاء خالفوا دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وملته فهم أول من يدخل في ذلك مع أنهم يدَّعون الانتساب إليه -عليه الصلاة والسلام- وأنهم على دينه -وسيأتي الرد عليهم في هذه الدعوى- ويدخل فيه أيضاً غيرهم من أهل الإشراك من العرب الذين كانوا يقولون: إنهم على دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، لكن أولى من يدخل فيها هم اليهود والنصارى، لكنها شاملة للجميع؛ لأن مَن تدل على العموم في قوله: {وَمَن يَرْغَبُ} [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة]، والمعنى أن الرغبة عن ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والإعراض عنها لا يمكن أن تقع إلا ممن سفه نفسه.

" ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرَّأ من أبيه، فقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} **[(٧٨-٧٩) سورة الأنعام]، وقال تعالى:** {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} **[(٢٦-٢٧) سورة الزخرف]، وقال تعالى:** {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} **[(١١٤) سورة التوبة]، وقال تعالى:** {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} **[(١٢٠-١٢٢) سورة النحل].**

ولهذا وأمثاله قال تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} **[(١٣٠) سورة البقرة] عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها** {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} **[(١٣٠) سورة البقرة] أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال؛ حيث خالف طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرشاد من حَداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء."**

قوله: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} قال: **أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره**، أو قول من قال: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} أي: جهل أمر نفسه فيما يصلحها ويقومها ويحملها على الحق والصواب فلم يفكر فيها، أو قول من قال: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} يعني أهلك نفسه، وغير ذلك مما يمكن أن تفسر به، أي فعل بنفسه فعل أهل السفه بحيث إنه فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، والمقصود أن كل هذا يمكن أن تفسر به هذه الآية، والله تعالى أعلم، ولهذا فإن مثل ابن جرير -رحمه الله- يقول: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} يعني إلا سفيه جاهل بحظ نفسه فيما ينفعها في عاجلها وآجلها.

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} [(١٣٠) سورة البقرة] يعني لا يرغب عن ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أي عن دينه ومنهجه إلا سفيه لا يعرف حظ نفسه قد أضاع نفسه وتردى في أودية الهلكة، فالسفيه هو الذي لا يحسن التدبير ولا يحسن التصرف.

"فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرُقَ الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} **[(١٣) سورة لقمان].**

قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقًا ليست من عند الله وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا

مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٧-٦٨) سورة آل عمران]."

نعم، يدخل فيه اليهود ويدخل فيه النصارى دخولاً أولياً، ويدخل فيه غيرهم من مشركي العرب وغيرهم ممن خالف دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وإن كان السياق في الرد على اليهود والنصارى بالدرجة الأولى.

"وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا.

وقوله: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة، وهي قوله: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة."

قوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا} [(١٣٢) سورة البقرة] سواء وصاهم بهذه الكلمة {فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٢) سورة البقرة]، أو وصاهم بهذه الملة –ملة إبراهيم- فإنها هي الإسلام، فهذا مما تجتمع فيه الأقوال أيضاً ولا منافاة.

"حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [(٢٨) سورة الزخرف]، وقد قرأ بعض السلف "ويعقوبَ" بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك."

قوله: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] إذا كانت بنصب الباء من يعقوب يكون المعنى: وصى إبراهيم بنيه ومن جملة أبنائه -صلى الله عليه وسلم- حفيده يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، ويمكن أن يكون خصه بالذكر على هذه القراءة، باعتبار أنه أبٌ للأسباط الذين تفرعت منهم قبائل بني إسرائيل، ولذلك نسبوا إليه فقيل لهم: بنو إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

والقراءة المشهورة {وَيَعْقُوبُ} بالضم، والمعنى أن يعقوب أيضاً وصى بهذه الوصية بنيه، فيكون يعقوبُ على القراءة المشهورة فاعلاً.

"والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] الآية، وقال في الآية الأخرى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [(٧٢) سورة الأنبياء] وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: ((المسجد الحرام))، قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس))، قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) الحديث[4]."

معنى ذلك أنه غالباً كان في حياة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبناءً عليه يكون وجه الإعراب في القراءة السابقة {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] إذا كانت بنزع الخافض ومن وراء إسحاق بيعقوب، فالخافض هو حرف الجر -الباء- فنزع وصار ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ.

"وأيضًا فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين."

قوله: **وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين**، هذا يفسره قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] مع قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي} [(١٣٣) سورة البقرة] فالقرآن يفسر بالقرآن، فيكون يعقوب -صلى الله عليه وسلم- قطعاً قد أوصى بنيه بهذه الوصية.

ومعلوم أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] يعني أنه -على قراءة الضم- قد وصى قطعاً فهو فاعل، ويدل على هذا الآية الأخرى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ...} [(١٣٣) سورة البقرة] كما سيأتي، فتكون الوصية صادرة من إبراهيم ويعقوب جميعاً.

وتدل قراءة النصب **(ويعقوبَ)** على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أوصى، ومن جملة من أوصاهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام- ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل واحدة منهما معنى يخصها فإنهما بمعنى الآيتين، فيكون ذلك من باب زيادة الوصف أو زيادة الحكم إذا كان ذلك يعود إلى موصوف واحد.

والخلاصة هي أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- هنا موصًى وكذلك هو موصٍ، فكل ذلك حصل، وليس في هذا إشكال ولا غرابة، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب {يَزِفُّونَ} [(٩٤) سورة الصافات] النسلان في المشي (٣١٨٦) (ج ٣/ ص ١٢٣١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠) (ج ١ / ص ٣٧٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: " وقوله: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٢) سورة البقرة] **أي: أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية هو جواب لسؤال مقدر؛ إذ إن إبراهيم -عليه السلام- في هذه الوصية يقول موصياً أبناءه: **{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة] فلقائل أن يقول: وهل يملك الإنسان أن يحدد الأمر الذي يموت عليه مع أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، وهل المقصود أن يموت الإنسان على الإسلام فحسب أم أن المقصود أن يسلك سبيل الله -عز وجل- وصراطه المستقيم وأن يلزمه إلى الممات؟

قال ابن كثير جواباً لهذا: المراد بقوله: **{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة] أي أحسنوا واستقيموا وسيروا سيراً صحيحاً لا معوجاً حتى يختم لكم بخاتمة طيبة صالحة وهي الموت على الإسلام، فالإنسان يموت عادة على ما كان عليه.

"وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا بَاعٌ أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[١]."

يعني أن ذلك فيما يبدو للناس، كما جاء في بعض الروايات كما في حديث الرجل الذي جاهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأصيب بجراحة شديدة، وقد أثنى عليه من أثنى عليه من الناس، وأنه لم يُبلِ أحد بلاء كبلائه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه من أهل النار)) حتى تبعه رجل فنظر فلما أصيب بتلك الجراحة كأنه استعجل الموت أو جزع فوضع ذباب السيف بين ثدييه ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه[٢].

فمثل هؤلاء لم يكن عملهم على استقامة وإن كان فيما يبدو أنهم على استقامة، وذلك أنه حينما يخبر الرجل عند موته أنه كان يقاتل حمية لقومه فإن هذا ليس من العمل الصالح.

---

[١] - أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب القدر – باب في القدر (٦٢٢١) (ج ٦ / ص ٢٤٣٣).

[٢] - البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة خيبر (٣٩٦٦) (ج ٤ / ص ١٥٣٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١١٢) (ج ١ / ص ١٠٦).

ومن أعظم ما يكون سبباً لخذلان العبد في الوقت الذي يكون أحوج ما يكون إلى ألطاف الله -عز وجل- أن يكون له خبيئة سيئة من نية أو قصد سيئ أو عمل سيئ لا يطلع عليه الناس، وما إلى ذلك مما يريدونه من العلو في الأرض، أو يكون العمل فيه نوع نفاق، أو عمل يكرهه الله -عز وجل- ويمقت أهله، فهو يعمله في الخفاء ويدوام عليه حتى الممات، فكل ذلك قد يكون سبباً لخذلان العبد عند الموت فيختم له بخاتمة السوء، وإلا فإن الله -عز وجل- بالناس لرءوف رحيم، وهو الذي يقول -جل وعلا-: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [(١٧) سورة محمد]، ويقول سبحانه: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة]، ويقول -تبارك وتعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [(٤٣) سورة الأحزاب] فهو ينقلهم من هداية إلى هداية ويثبتهم على الحق كما قال سبحانه: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [(٢٧) سورة إبراهيم] ومن هذا التثبيت أن يثبتهم عند الموت، وإنما العبد هو الذي يجني على نفسه، هو الذي يسيء إليها فيخذل بسبب عمله السيئ.

"لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: ((ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس))، ((ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس))[3]، وقد قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(٥-١٠) سورة الليل].

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٢-١٣٤) سورة البقرة].

يقول تعالى محتجًّا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل -وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-..."

قوله تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء} "أم" في الآية يُحتمل أن تكون منقطعة بمعنى "بل" ويُحتمل أن تكون متصلة بما قبلها، والمقصود أن الله -عز وجل- ينكر عليهم هذه الدعاوى الباطلة والكذب على الله -عز وجل- وعلى أنبيائه كإبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام- من أنهم كانوا يهوداً أو نصارى، فهو -عز وجل- يكذبهم بذلك ويذكر أقاويل هؤلاء الأنبياء ويبين حالهم وأنهم كانوا على الإسلام ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى.

ونجد في كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل،** نجد أنه عمَّمها في أهل الكتاب والمشركين، وأما ابن جرير -رحمه الله- فهو على عادته في هذه الآيات من أولها -من ذكر خلق آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى هذه الآيات جميعاً- يرى أن الخطاب متوجه إلى اليهود والنصارى، ومنها ما يتعلق باليهود، ومنها ما يتعلق بالنصارى، فهو يرى أن هذه الآية رد على النصارى الذين ادعوا أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو يعقوب -عليه الصلاة والسلام- كان يهودياً، فهو لا يزال يرد عليهم هذه الدعوى الكاذبة، وعلى كل حال فالسياق كله في بني إسرائيل.

---
[3] - سبق تخريجه آنفاً.

"بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ} [(١٣٣) سورة البقرة] **وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمُّه."**

قوله: **وهذا من باب التغليب**، أي أنه عدَّد الآباء الذين تناسل منهم، والعمُّ ليس من نسله، بمعنى أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- ليس جداً ليعقوب -صلى الله عليه وسلم- فذكره من جملة آبائه.

قال ابن كثير: **وهذا من باب التغليب**، وهذا الذي ذكره وجه، وهو أنه عدَّد الآباء وذكر معهم العمَّ من باب التغليب، فإذا كان الجم الغفير الأكثر يصدق عليهم الوصف فإن ذلك لا يؤثر إذا دخل فيهم من ليس متصفاً بذلك، إذا قيل: إن هذا من باب التغليب.

والوجه الآخر في الجواب -وربما كان هو الأحسن- أن العم يقال له: أب، فهو يوصف بذلك وهذه الآية تشهد لهذا حيث قال يعقوب لبنيه: **{مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ}** [(١٣٣) سورة البقرة] فهم ذكروا عمه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- فهو أب له.

ومن المعلوم أن جماعة من المفسرين يقولون في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}** [(٧٤) سورة الأنعام]: إن المقصود بأبيه في الآية هو عمه وليس بأبيه الذي هو من صلبه، وهذا الكلام مردود، وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله- في سورة الأنعام، وإن كان مما احتجوا به لهذا القول أنهم قالوا: إن عادة العرب أنهم إذا ذكروا الأب لا يذكرون معه اسمه، فإن أرادوا به العم أو غيره ممن لم يتناسل منه فإن المراد بذلك يكون غير الأب الذي كان له به ارتباط ولادة، بمعنى أنه لو كان آزر أباً لإبراهيم لقال: إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت كذا وكذا، وعلى كل حال هذا كلام مردود فهو ضعيف وليس صحيحاً.

"قال النحاس: والعرب تسمي العم أبًا، نقله القرطبي؛ وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبًا وحجب به الأُخوة، كما هو قول الصديق رضي الله تعالى عنه- حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم-."

قوله: **من جعل الجد أبًا وحجب به الأُخوة**، هذه المسألة في الفرائض وذلك في حال عدم وجود الأب، وإلا فإن الأب يحجب الجد قطعاً بلا إشكال.

وأصل المسألة أنه في حال عدم وجود الأب الذي يحجب الأخوة حيث يرث السدس والباقي تعصيباً، فهل الجد ينـــزل منزلة الأب في ذلك فيرث السدس والباقي تعصيباً -بمعنى أن الجد يقوم مقامه- أم أنه يرث مع الأخوة فلا يكون حاجباً لهم؟ والخلاصة أن هذه مسألة معروفة مختلف فيها منذ عهد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

"ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء.

وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: إنه يقاسم الإخوة؛ وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت -رضي الله عنهم أجمعين- وجماعة من السلف والخلف."

مسائل الفرائض الخلافية قليلة معدودة، ومن أشهرها مسألة الجد والأخوة.

"وقوله: {إِلَهًا وَاحِدًا} أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئا غيره، {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٨٣) سورة آل عمران]."

يعني أنهم لا ينازعون الله -عز وجل- في أحكامه الشرعية ولا القدرية، فهم منقادون لأحكام الله -عز وجل-، مستسلمون لأقداره ومستسلمون لشرائعه وأحكامه ودينه، وهذه هي حقيقة الإسلام، فهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

"والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء] والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد))[4]."

يعني أن الذين أشركوا بالله -عز وجل- وادعوا له الولد من اليهود والنصارى هؤلاء ليسوا على دين أحد من الأنبياء وإنما هم ضلال على الكفر والشرك، وهم حطب جهنم، ومن شك في ذلك فهو معهم وفي حكمهم، ولا يجوز لأحد أن يدعي أن هؤلاء على الإيمان، وأنه لا يكفرهم وأنهم لا يستحقون هذه الأوصاف، بل هم مستحقون لها وأهلها، وهم فداء لأهل الإسلام وفكاك لهم من النار؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كان يوم القيامة دفع الله -عز وجل- إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فكاكك من النار))[5].

" وقوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} أي: مضت {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [(١٣٤) سورة البقرة] أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٤) سورة البقرة]، ولهذا جاء، في الأثر: ((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه))[6]."

لما ذكر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام- قال: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [(١٣٤) سورة البقرة].

والأمة من معانيها الجماعة، فهؤلاء الأنبياء الذين عدّدهم يقول: إن هؤلاء قد مضوا بأعمالهم وآمالهم وأفضوا إلى الله -عز وجل- وعنده يلقون جزاءهم، وأما أنتم فليس لكم إلا العمل الصالح الذي يرضي وجهه -تبارك وتعالى- فتقربوا إليه بالتوحيد والانقياد والاستقامة على دينه الذي شرعه، واعلموا أنه لا ينفعكم التكثر بهؤلاء الأنبياء والدعاوى الباطلة أنهم كانوا على دينكم، فإن كنتم تريدون ما عند الله -عز وجل- فكونوا على ما كانوا عليه، أما الدعاوى الفارغة فإنها لا تنفع أصحابها، والمتكثر بالصالحين والأخيار وأنه من نسلهم وأنه على دينهم ومنهاجهم وشريعتهم، وهو أبعد ما يكون عنهم، بعقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم فإن هذا لا يغني عنه من الله شيئاً، وهذا أصل كبير يحتاج الإنسان إلى معرفته والعمل بمقتضاه، فالآخرة دار لا تصلح للمفاليس.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧)، إلا أن لفظهما: ((الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد))

[5] - أخرجه مسلم في كتاب التوبة – باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٧) (ج ٤ / ص ٢١١٩).

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) (ج ٤ / ص ٢٠٧٤).

يقول تعالى: {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٤) سورة البقرة]، يعني لهم أعمالهم، والله هو الذي يتولى عباده ويجازيهم على ذلك، فدعوا عنكم هذه المنازعة والتكثر بهؤلاء وأنتم تتخبطون وتتمرغون في أودية الشرك والضلال.

" {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٣٥) سورة البقرة] **روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتَّبِعْنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله -عز وجل-:** {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [(١٣٥) سورة البقرة]."

قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا} أي: يهوداً، من هاد يهود إذا رجع -وسبق الكلام على هذا- وبعضهم يقول: إن ذلك نسبة إلى جدٍ، وبعضهم يقول: إن هذا مأخوذ من المعنى الذي في قوله: {هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف]، أي: رجعنا إليك، ومن ذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٢) سورة البقرة] أي اليهود وسموا بذلك؛ لأنهم تابوا تلك التوبة العظيمة المعروفة في التاريخ، وذلك أنهم لما عبدوا العجل أمرهم الله -عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، وقد سبق الكلام على هذا المعنى.

قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة] ومثل هذا "أو" تكون فيه للتقسيم، بمعنى أن اليهود قالت: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى؛ وقلنا للتقسيم لأن اليهودي لا يعتقد أنه يكون مهتدياً إذا كان على دين النصارى، وكذلك العكس، فاليهود والنصارى يكفر بعضهم بعضاً، فكل طائفة زعمت أن الهدى من جهتها وفي ناحيتها، فهذا هو تفسير قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة].

"**وقوله:** {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة] **أي لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع** {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة]."

قال: **بل نتبع** {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة]، هذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- بناء على أن ملة هنا جاءت منصوبة بفعل مقدر محذوف هو "نتبع" فتكون ملة مفعولاً به لفعل مقدر محذوف.

وبعضهم يقول: إن هذا نصب على الإغراء، فهو يغريهم بلزومها واتباعها ويحثهم على ذلك؛ وكأنه يقول: بل الزموا ملة إبراهيم، أو عليكم ملة إبراهيم، أو نحو ذلك مما يغريهم به -والله أعلم- كما أنها تحتمل غير هذا نحو: بل نكون أصحاب ملة إبراهيم، أو أتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

"**بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً أي: مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى بن جارية.**"

وهذا الذي اختاره ابن جرير حيث فسر الحنيف بالمستقيم، وقالوا: إن الحنيف هو المستقيم من كل شيء.

وبعض أهل العلم يقول: أصل كلمة الحنف في اللغة الميل، ويقولون: قيل لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو من كان على منهاجه إنه حنيف؛ لأنه مائل عن كل دين سوى الإسلام، فهو مائل عن الشرك، يعني مجانب له ومتجافٍ عنه، وما أشبه ذلك، والحاصل أن مثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: حنيفاً أي مستقيماً، وعلى كل حال إذا كان مائلاً عن الشرك فهو مستقيم.

ولا شك أن الحنف عند العرب يطلق على الميل، ومنه قول أم الأحنف بن قيس -يوم كان صغيراً عندما كانت ترقصه-:

والله لـــولا حنـــف فـــي رجلـــه ما كان فـــي فتيـــانكم مـــن مثلـــه

فابنها هذا كان فيه ميل في الساقين بحيث كأن إحداهما تميل إلى الأخرى وتقترب منها، فهذا هو الحنف.

ومن فسر الحنف بالاستقامة فيمكن أن يوجه ذلك مع قول من قال: إنه الميل، من جهة أن المائل عن كل دين إلى الإسلام هو مستقيم؛ فالصراط المستقيم هو خلاف السبل المعوجة التي منها اليهودية والنصرانية وغير ذلك.

"**وقال مجاهد والربيع بن أنس: حنيفًا أي: متبعًا.**"

حنيفًا أي: متبعًا الحق والهدى الذي ارتضاه الله -عز وجل- لعباده، ولا منافاة بين هذا المعنى والمعنى السابق.

"**وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.**"

كل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها ولا تحتاج إلى ترجيح، وهذا الخلاف هو الذي يسمونه خلاف التنوع، ومن المعلوم أنه لا يكون مستقيماً إلا من آمن بجميع الرسل، أما الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض فهؤلاء ليسوا على استقامة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة].

" أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: **أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة** إلى آخره، جعل ابن كثير قوله تعالى: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ..} إلى آخره خطاباً للمؤمنين، مع أن السياق كما سبق هو في مخاطبة بني إسرائيل، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن ذلك متوجه إلى غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، أي: أيها المفرقون بين الله ورسله والمفرقون بين الكتب تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض آمنوا بالله إيماناً صحيحاً وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا.. إلى آخره- والقول بأن هذا خطاب للكفار يساعده سياق هذه الآيات جميعاً.

ولا يمنع أن يكون ذلك خطاباً للجميع ليكونوا على استقامة وسير صحيح؛ فالجميع مطالب بهذا الأمر، والمعنى أن الله -عز وجل- لما بيَّن كفر اليهود والنصارى وتناقضهم وقولهم على الله -عز وجل- بلا علم، وجه الخطاب للمؤمنين ووجه غيرهم إلى الإيمان الصحيح، وكيف ينبغي أن يكونوا، وعلمهم كيف يصلُح إيمانهم واعتقادهم خلافاً لأهل الكتاب وما هم عليه من التفريق بين الله ورسله يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

"ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلّهم."

أي أنه ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين تتصل أنسابهم بهم أو هم من أشهر أنبيائهم، فذكر لهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو إمام الحنفاء حيث تتنازعه جميع الطوائف، فكل طائفة تزعم أنه منها -اليهود والنصارى والعرب أهل الإشراك-.

وذكر لهم إسحاق -صلى الله عليه وسلم- وأنسابهم ترجع إليه، وذكر يعقوب واليهود منتسبون إليه، وهذا مما يقوي أن الخطاب لأهل الكتاب ومن أخص ما يدخل فيه اليهود، كما ذكر لهم موسى وعيسى، فموسى هو أكبر أنبياء بني إسرائيل، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- جفوه وتكلموا في حقه وفي حق والدته بما لا يليق.

والمقصود أنهم مطالبون بالإيمان بهؤلاء الرسل جميعاً ممن ينتسبون إليهم ويعظمونهم أو ممن جفوهم وكفروا بما جاءوا به ورموهم بما لا يليق من الشناعات.

كما ذكر إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- وقلنا: إن الخطاب لجميع الطوائف -للعرب ولليهود والنصارى- فهم جميعاً مطالبون بالإيمان، ولكن أولى من يدخل في هذا الخطاب -كما سبق- هم أهل الكتاب لا سيما اليهود، والله أعلم.

"**ولا يكونوا كمن قال الله فيهم:** {وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [(١٥٠-١٥١) **سورة النساء] الآية.**"

في بعض الآيات يذكر الله -عز وجل- بعض الأنبياء، وفي بعضها يذكر آخرين، وهكذا في كل مقام بحسبه، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} [(١٣٦) سورة البقرة]، وفي بعضها يذكر نوحاً -عليه الصلاة والسلام- وعيسى ومحمد -عليه الصلاة والسلام- وهكذا.

وبعض أهل العلم فسروا قوله -تبارك وتعالى-: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [(٣٥) سورة الأحقاف]، بما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} [(٧) سورة الأحزاب]، فقالوا: هؤلاء الخمسة هم أولو العزم.

وعلى كل حال يذكر الله -عز وجل- بعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في كل موضع بحسبه، ولا شك أن هؤلاء الذين ذكروا هم من كبارهم وعظمائهم ولكن ذلك لا يعني أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل خاصة دون غيرهم، فهذا لا أعلم دليلاً يقوم عليه.

"**وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبْرَانيَّة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكَذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا))**[1]."

علمهم كيف يقولون -يعني هذه الآية- والخطاب في هذا الحديث موجه لأهل الإيمان من قِبَل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك يؤيد أن الخطاب كما أنه متوجه لأهل الكتاب فهو متوجه للمؤمنين، ولا يلزم أن يكون الخطاب في الآية لأهل الإيمان استدلالاً بهذا الحديث؛ لأن الآية قد تنزل في شيء وتستعمل في معنى آخر أخذاً بعمومها، وهذا له نظائر، مثل قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [(٥٤) سورة الكهف]، فهذه الآية في الذي يجادل في البعث، أو يجادل في آيات الله أو في الوحي، أو في وحدانية الله -عز وجل-، فالله -عز وجل- ذكر ذلك على سبيل الذم لهؤلاء، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- استعملها لما جاء إلى علي وفاطمة -رضي الله عنهما- ووجدهما نائمين، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه-: "إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء بعثها" فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- يضرب فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[2]، فمع أن الآية لم تأت أصلاً لتقرير هذا المعنى إلا أن عمومها يصلح أن

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب قوله تعالى: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا} [(١٣٦) سورة البقرة] (٤٢١٥) (ج ٤ / ص ١٦٣٠).

2 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب في المشيئة والإرادة {وَمَا تَشَاءونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ} [(٣٠) سورة الإنسان] (٧٠٢٧) (ج ٦ / ص ٢٧١٦) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٥) (ج ١ / ص ٥٣٧).

يستعمل في هذا وفي كل مجادل، ولو لم يكن يجادل في آيات الله أو يجادل في الوحدانية أو في البعث، والله أعلم.

ومثل ذلك قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]، فقد دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا سعيد بن المعلا وهو يصلي فلم يجبه، قال: ثم أتيت فقال: ((ما منعك أن تأتي)) فقلت: كنت أصلي فقال: ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]))[3] فمع أن الآية إنما نزلت بدعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لهم إلى الإيمان، لكن إذا قال: يا أبا سعيد، أو يا فلان فهل الآية نزلت في هذا بحيث أنه يدخل فيها؟ طبعاً لا يدخل فيها، لكن عمومها أدخله؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدعوهم إلا إلى خير، والله أعلم.

ومثل ذلك أيضاً الآية التي في سورة التوبة: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [(١٠٨) سورة التوبة]، السياق في هذه الآية معلوم أنه في أهل قباء، لكن لما اختلف الخدري مع العوفي حيث العوفي يقول: هو مسجد قباء والخدري يقول: هو مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاختصموا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال -عليه الصلاة والسلام-: ((هو مسجدي هذا))، فالسياق في مسجد قباء، فيمكن أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أحق ما يدخل فيها، فإنه وإن كان السياق في مسجد قباء فإن مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أولى بهذا الوصف، وهو لا يخرج مسجد قباء عنه وهكذا.

ومن أمثلة ذلك: قول النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر: ((إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراةً غرلاً))، ثم قرأ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء][4] فأصل الآية إنما جاءت للدلالة على القدرة على البعث، فالذي خلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً إلا أن عمومها يمكن أن يؤخذ منه هذا المعنى، وهكذا.

وللعلم فإني إنما أذكر هذا لأن مثل هذه الأشياء تنمي الملكة وتبقى مع الإنسان وإن نسي المعاني التي يقرؤها.

"وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ{آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا} [(١٣٦) سورة البقرة] الآية، والأخرى بـ{آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٥٢) سورة آل عمران][5]."

يعني أنه كان يقرأ في الركعة الأولى من سنة الفجر هذه الآية: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة]، وفي الركعة الثانية يقرأ آية آل عمران: {فَلَمَّا

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [(٨٧) سورة الحجر] (٤٤٢٦) (ج ٤ / ص ١٧٣٨).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب كيف الحشر (٦١٦١) (ج ٥ / ص ٢٣٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

5 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٧) (ج ١ / ص ٥٠٢) وأبو داود في كتاب الصلاة - باب في تخفيفهما -أي ركعتي الفجر- (١٢٥٩) (ج ١ / ص ٤٠٣) والنسائي في صفة الصلاة - باب القراءة في ركعتي الفجر (٩٤٤) (ج ٢ / ص ١٥٥) ولفظ: أن كثيراً ما كان يقرأ...الخ في أبي داود.

أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٥٢) سورة آل عمران] وهذا في صحيح مسلم.

وورد في صحيح مسلم أيضاً أنه قرأ في الركعة الثانية: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٦٤) سورة آل عمران]، فالحاصل أنه يقرأ بهذا مرة وبهذا مرة.

والمشهور في قراءته -صلى الله عليه وسلم- في سنة الفجر أنه كان يقرأ في الأولى بـــ{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [(١) سورة الكافرون]، والثانية بـــ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، وكانت صلاته قبل الفجر –أعني الركعتين- خفيفة كما في حديث عائشة حتى كانت تقول: : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا طلع الفجر صلى ركعتين أقول: هل يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب؟ [٦].

"وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسمّوا الأسباط."

على قول هؤلاء العلماء من السلف فإن الأسباط هم بنو يعقوب وهم بهذا العدد، ومنهم تفرعت قبائل بني إسرائيل، فهم كانوا على اثنتي عشرة قبيلة، وقد جاء هذا في عدد من آيات القرآن، فهذا هو القول المشهور وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو أن الأسباط هم أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

وبعض أهل العلم يستشكل هذا من جهة أن المعروف أن الأسباط هم قبائل الإسرائيليين، فالأولاد الاثنا عشر لا يمثلون قبائل وبالتالي قال بعضهم: هم أولاد أولاد يعقوب، فهم من الكثرة بحيث يمكن أن يقال: إن كل واحد من هؤلاء الذين تفرعوا من أولاده يمثل مجموعة من الناس، فهم عبارة عن مجموعات كل مجموعة ترجع إلى واحد من ولد يعقوب -صلى الله عليه وسلم-.

لماذا سموا بالأسباط؟

يمكن أن يقال: هل هذه كلمة عربية في أصلها أم لا؟ فإن كانت عربية فيمكن أن نفسرها من كلام العرب بذكر مادة اشتقاقها، وإن كانت غير عربية فلا مجال لهذا؛ لأنك لا تقول مثلاً: من أين أخذت إبراهيم بالعربية؟، لكن بالأعجمية يمكن كما سبق أن ذكرنا أن بعضهم يقول: إن أصل إبراهيم: أب رحيم، وموسى بالعبرانية: موشى، ويقولون: أصلها ماء وشجر، وربما يكون ذلك صحيحاً لكن ذلك لا يرجع إلى العربية، إلا أن اللغة العبرانية فيها تشابه إلى حد كبير مع اللغة العربية، فهي أقرب إلى اللغة العربية من اللغة الإنجليزية مثلاً، لذلك تجد كلمات من كلام العبرانيين يمكنك فهمها لكن قد يكون السين شيناً مثلاً وهكذا.

الحاصل أن بعضهم يقول: إن الأسباط من السبط وهو التتابع، فالأسباط هم جماعة متتابعون، وبعضهم يقول: إنها بالفتح من السبط وهو الشجر، والمعنى أنهم من الكثرة بمنزلة الشجر، وهذا المعنى لا يخلو من غرابة.

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٤) (ج ١ / ص ٥٠٠).

وبعضهم يقول: هم أولاد أولاد يعقوب؛ لأن الكثرة فيهم وليست في أولاد يعقوب، وعلى كل حال فالمشهور أن الأسباط هم أولاد يعقوب، وبعضهم يقول: هم قبائل الإسرائيليين، وسواء قلنا هذا أو هذا فقبائل الإسرائيليين إنما ترجع إلى أولاد يعقوب، وبالتالي بين القولين نوع ملازمة، وليس من الضرورة أن نرجح بين هذين القولين، وأما الذين قالوا: إنه من الشجر لكثرته أو بمعنى التتابع فإن هذا لا يعارض أن يكون المراد به قبائل بني إسرائيل، فهم لا ينكرون هذا، لكن القول بأنهم سموا بذلك لتتابعهم أو لكثرتهم فهذه محاولة لتعليل التسمية، وليس هناك ضرورة لمثل هذا ولا يترتب عليه كبير فائدة، ولا يتوقف عليه العمل بكتاب الله -تبارك وتعالى- والله أعلم.

"وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل؛ وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط هاهنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم: {اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} [(٢٠) سورة المائدة] **الآية، وقال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا}** [(١٦٠) سورة الأعراف] **قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد.**

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقُوا بكتبه كلّها وبرسله.

وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٦٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} [(١٣٧-١٣٨) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {فَإِنْ آمَنُواْ} يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم {بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم {فَقَدِ اهْتَدَواْ} أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه"

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} من المراد بذلك؟ هل للقرآن مثلٌ، أو هل لإيمانهم مثل سواء كان بالقرآن أو بجميع الرسل وبجميع الكتب، وكذلك الإيمان الصحيح بالله -عز وجل- هل له مثلٌ؟

هذا السؤال يجيب عنه العلماء بأجوبة متعددة، فبعضهم يقول: إن لفظة "مثل" صلة، وقولهم هذا من باب التأدب في العبارة وإلا فإن هذه اللفظة إذا قالوها فإنهم يقصدون بها أنها زائدة من جهة الإعراب، وهذا القول موجود في قوله -تبارك وتعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [(١١) سورة الشورى] ومعلوم أن الله ليس له مثل، لكن من الأجوبة التي تقال هناك: إن لفظة "مثل" صلة أي زائدة، ومعلوم أن القرآن ليس فيه زيادة وأن ذلك القول لا يليق وليس من التأدب مع كلام الله -عز وجل- وقد تكلم على دعوى الزيادة في شيء من ألفاظ القرآن جماعة من أهل العلم لكن ليس المقصود أنها مقحمة في القرآن بحيث يقال: إنه جاء بها أحد آخر وإنما يقصدون أنها لا محل لها من الإعراب، والكلام على مثل هذا ذكره الزركشي في البحر المحيط في أصول الفقه في موضعين حيث يقول: لا زيادة في القرآن، وذكره غيره أيضاً، ويقصدون إعراباً كما ذكرنا، ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، وهؤلاء حينما يقولون: هذه زائدة وفي الوقت الذي قد لا يذكر فيه بعضهم لها معنى جديداً يقولون: إنها تفيد التأكيد ونحو ذلك، وهذا أحد الأجوبة على لفظة "مثل" في القرآن.

من لم ينح هذا النحو -يعني من لم يقل: إنها صلة- تفرقت أقاويلهم، فمنهم من قال: معلوم أنه ليس له مثل ولكنه قال لهم ذلك تبكيتاً لهم، فهؤلاء الذين كفروا وفرقوا بين رسل الله -عز وجل- وبين كتبه يقول لهم: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} [(١٣٧) سورة البقرة] أي فليبحثوا عن إيمان صحيح يوازي هذا الإيمان المقبول عند الله -عز وجل- والهدى الذي أنتم عليه فيكون المراد بذلك التبكيت.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} يعني أنتم آمنتم بكتب الله -عز وجل- من غير تحريف، فإن آمنوا بها على وجهها كما جاءت عن الله -عز وجل- فقد اهتدوا.

ووجه آخر -ولعله من أحسنها وأجودها- وهو: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} أي إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين ومهتدين فقد اهتدوا، والذي آمنتم به أنتم هو الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من غير

تحريف لهذه الكتب ومن غير تفريق بين الله ورسله ومن غير تفريق بين الكتب، فإن سلكوا مثل مسلككم فقد صاروا على هدى واستقامة.

وهذا مثال يمكن أن نمثل به على قضية وهي أن التنقير والتشقيق ربما يورث الإشكالات، فأنت حينما كنت تسمع هذه الآية من قبل {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ} فالمعنى المتبادر إلى ذهنك هو أنهم إن سلكوا الطريق الصحيح في الإيمان بأن آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله فقد صاروا على هدى، هذا الذي يتبادر إلى الذهن، وبالتالي قد لا يرد في ذهنك أصلاً مثل هذا السؤال والإشكال إلا إذا جلس الإنسان يفحص الحروف والألفاظ ويقلبها على وجوه الاحتمال.

"{وَّإِن تَوَلَّوْاْ} [(١٣٧) سورة البقرة] أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ} [(١٣٧) سورة البقرة] أي: فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٣٧) سورة البقرة]."

القول الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- كأنه جرى فيه على القول الأخير، أي فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به من الإيمان بجميع كتب الله ورسله وبما صرتم به على الإيمان فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه، وإن تولوا أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم من التولي وهو الإعراض فإنما هم في شقاق، تقول: تولى فلان إذا أعرض، وقوله: {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [(١٥) سورة الأنفال] أي: لا تديروا الظهر منهزمين معرضين عن مواجهة عدوكم وفراراً عن أرض المعركة.

قوله: {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ} [(١٣٧) سورة البقرة]: لم يذكر هنا معنى الشقاق، وعلى كل حال فإن الشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب، فجانب الشيء شقه، والمشاقة والشقاق معناه كأن هذا قد صار في شق والآخر صار في الشق الآخر، ومثله العداوة كأن هذا في عدوة وهذا في عدوة، والعدوة هي جانب الوادي كما في قوله تعالى: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [(٤٢) سورة الأنفال]، وهذا المعنى إذا فسروه فإنهم يولدون منه إشكالات أيضاً لسنا بحاجة إليها؛ لأنها متكلفة، وهي إنما تدور في أذهان أهل الكلام من أهل التكلف والتعمق والخوض الباطل الذي يورث الشبهات، أما معنى الشقاق في كلام العرب فهو أن يكون هذا في شق وهذا في شق بحيث تكون بينهما مباينة ومفارقة ومفاصلة وكل واحد منهم في حال وعلى اعتقاد وعمل مباين للآخر، ومثل ذلك معنى المحادَّة فهذا في حد وذاك في حد.

وبعضهم يقول: إن هذا مأخوذ من فعل ما يشق والمعنى أن كل واحد من هؤلاء المختلفَين يتطلع ويبذل وسعه في الوصول إلى ما يشق به على الطرف الآخر، فهو يهيئ الأسباب التي يحصل بها المكروه للطرف الآخر ويسعى لعداوته ومخالفته ونحو ذلك، وهذا المعنى فيه بُعد؛ فالشقاق هو المخالفة والمباينة والمفارقة، أي أنهم ليسوا على دينكم ومسلككم والهدى الذي أنتم عليه بل هم مباينون لكم ومخالفون لكم ومفارقون للحق الذي أنتم عليه.

"روى ابن أبي حاتم قال: أخبرنا زياد بن يونس، قال: حدثنا نافع بن أبي نُعَيم، قال: أرسل إليَّ بعض الخلفاء مصحفَ عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في

حجره حين قُتِل فوقع الدم على {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٣٧) سورة البقرة] فقال نافع: بَصُرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قُدِّم."

هذا ذكره ابن كثير -رحمه الله- من قبيل الاستطراد، وأقول من قبيل الاستطراد لأنه لا يتوقف فهم المعنى عليه، وإنما هي لطيفة من اللطائف التي تذكر في التفسير؛ إذ إنها ليست من معاني القرآن، وليست من صلب التفسير، إنما هي من اللطائف والملح التي تذكر، ويزعمون إلى الآن أن المصحف الموجود في المتحف في تركيا مصحف عثمان -رضي الله عنه- وأن الدم موجود عليه، وعلى كل حال هذه من الموافقات التي قد تقع للإنسان أحياناً في يومه وليلته، فأحياناً يقول الإنسان شيئاً ويسمع القارئ في المذياع يقرأ نفس الآية التي توافق نطقه، أو يقرأ نفس الآية التي ربما تتعلق بما كان يهم به أو تكلم به أو نحو ذلك فهذه موافقات قد تقع.

"وقوله: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة] قال الضحاك عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك ومعنى: {فِطْرَةَ اللَّهِ} [(٣٠) سورة الروم] أي الزموا ذلك عليكموه."

جاء عن بعض السلف مثل قتادة ما يوضح هذا المعنى حيث قال –رحمه الله-: إن اليهود يصبغون أبناءهم باليهودية، والنصارى يصبغون أبناءهم بالنصرانية، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن بعده من الأنبياء، فهذه الرواية عن قتادة هي من أوضح ما يفسر به قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة]، وأقوال السلف فيها كثيرة جداً وبعضها يرجع إلى معنى واحد، ومن تلك الأقوال ما يتفرع عن هذا القول حيث يذكرون بعض الأمور والقضايا التي هي فرع عن الإسلام وقد تكون شعاراً لأهله، لكن قول قتادة أشمل ويدخل فيه عامة أو سائر الأقوال فهو من أوضحها.

وبعض أهل العلم يعبر بعبارة أخرى ليست مخالفة لهذا القول في واقع الأمر، فهم يقولون: إن النصارى مثلاً يغمسون أبناءهم وهم صغار في ماء ويسمون ذلك بالمعمودية وكأنهم بهذا يصبغون أولادهم فيصيرون نصارى بهذا الاعتبار، فالله -عز وجل- يقول: إن صبغته التي ارتضاها لخلقه هي الإسلام، ويلاحظ أن القول بأنهم يصبغون أولادهم بهذا التعميد يمكن أن يرجع إلى القول السابق الذي قاله قتادة وهو أن صبغة الله هي الإسلام لا ما تصبغون به أولادكم بجعلهم يهوداً أو نصارى أو بهذا التعميد الذي تعتقدون أن الولد يكون به نصرانياً.

وبعضهم يقول: إن المراد بصبغة الله هنا الختان فكما أن النصارى يصبغون أبناءهم بهذا التعميد فإن الذي جاء به إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الختان.

ولذلك نجد ابن القيم -رحمه الله- في كتابه تحفة المودود في أحكام المولود تكلم عن الشعار والسمة التي تميز أتباع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في أجسادهم، فالله تعالى قال لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** [(١٢٤) سورة البقرة]، يعني يقتدى به ويؤتم به، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قد اختتن وهو ابن ثمانين، وسن ذلك فصار سمة في أجساد أتباع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تميزهم عن

غيرهم، فسمتهم في الدين والاعتقاد الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه وما إلى ذلك، وسمتهم التي تميزهم في الأجساد هي الختان، ويقول -رحمه الله- وهو يوجه هذا القول دون أن يرجحه-: ولهذا فسر بعض السلف صبغة الله بالختان.

وعلى كل حال، لمّا كان النصارى يصبغون الأولاد بالماء، قال بعضهم: إن صبغة الله هي الغسل الذي يكون بين يدي الدخول في الإسلام، والكلام في هذه المسألة معروف حيث إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بعضهم بالاغتسال ولم ينقل أنه أمر آخرين فالعلماء مختلفون في هذا الاغتسال هل هو واجب أو غير واجب.

وبعضهم يعبر بعبارة أخرى فيقول: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة] أي تطهير الله، وهذا القول لا ينافي القول بأنه الإسلام؛ لأن الإسلام هو أعظم تطهير يحصل للإنسان، كما أنه لا ينافي قول من قال: إنه الاغتسال بين يدي الدخول في الإسلام؛ لأن هذا تطهير، وكذلك لا ينافي قول من قال: إنه الختان، ولا زال الناس يسمون الختان إلى اليوم تطهيراً، فعلى كل حال الإسلام تطهير والاغتسال تطهير والختان تطهير، وقصدي من هذا أن ندرك كيف نربط بين الأقوال وكيف نوجهها ونرجع بعضها إلى بعض من غير حاجة إلى تكلفات في الترجيح أو نحو ذلك، وعلى كلٍ فأشمل هذه الأقوال أن صبغة الله هي الإسلام بكل ما فيه من عقائد وأحكام، فهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ويدخل في ذلك الغسل من الجنابة والاغتسال عند الدخول في الإسلام، ويدخل فيه أيضاً الختان، والله أعلم.

قال ابن كثير: **قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله**، يعني الإسلام، هذا لا يخالف القول السابق، فدين الله هو الإسلام.

ثم قال: **وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك.**

قوله: **ومعنى: {فِطْرَةَ اللَّهِ}** [(٣٠) سورة الروم]، السياق المناسب أن يقال: إن قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة] هي كقوله سبحانه: {فِطْرَةَ اللَّهِ} [(٣٠) سورة الروم] فهذا مثال على تفسير الآية بنظيرتها التي قد تكون أوضح منها حيث يتبادر منها المعنى ويفهم، خاصة وأن بعض السلف مثل مجاهد يفسر قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللّهِ} بفطرة الله فيقول: {صِبْغَةَ اللّهِ} أي فطرة الله، وإلا فإن قوله تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ} [(٣٠) سورة الروم] ليست من ضمن آية البقرة فليُتنبه لذلك.

وإنما قصد ابن كثير -رحمه الله- بيان وجه النصب في قوله: {صِبْغَةَ اللّهِ} على أنه يمكن أن يكون على الإغراء بمعنى اتبعوا أو الزموا صبغة الله، فهو يغريهم بلزومها واتباعها، ويمكن أن تكون بدلاً من ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فتكون بهذا الاعتبار بدلاً من قوله: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة]، فملة إبراهيم هي صبغة الله، والله أعلم.

" **{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ* أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٣٩-١٤١) سورة البقرة].**

يقول الله تعالى مرشداً نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- إلى درء مجادلة المشركين: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ} أي: تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره."

قوله: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}، يعني يعلمهم كيف يدرءون ويدفعون مجادلة المشركين، والمشركون هنا ينبغي أن يدخل فيهم دخولاً أولياً اليهود والنصارى، وأخص من يدخل في ذلك اليهود، فالسياق إنما هو فيهم، فلا يتوجه هذا إلى المشركين من العرب مثلاً دون اليهود والنصارى خاصة وأن الآيات إنما تتحدث عن اليهود والنصارى، فهذا من دلالة السياق، ولا شك أنهم داخلون في هذا.

{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ} يقول: أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره...

والمحاجة في الله تحتمل أن يكون على ما ذكره الحافظ ابن كثير، أي: تخاصموننا في توحيده وفي دينه وتقولون: إنكم على الهدى وأن الحق هو ما أنتم عليه، كما أنها تحتمل أن تكون بمعنى أتحاجوننا في القرب منه، حيث تدَّعون القرب منه والزلفى عنده؛ وذلك أنهم يقولون: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] ويقولون: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة]، فهم يقولون: نحن أبناء الله ونحن أحباء الله ونحن أقرب إلى الله منكم وأحظى عنده منكم، والجنة إنما خلقت لنا، وأما أنتم فبعداء عن الله، وأنتم أهل سخطه وعذابه، ولا زالوا يرددون هذا الكلام إلى اليوم، ونسمع ما ينشر هنا وهناك من نسبة المسلمين إلى الضلال والكفر وأن النار خلقت لهم، وأنهم هم الأشرار والشياطين، وغير ذلك.

والمقصود أن هذا قول وهذا قول، لا نحتاج أن نرجح بين القولين وإنما يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: وقد قال بهذا جمع من أهل العلم؛ لأننا إذا تأملنا كلامهم رأينا أن ذلك المعنى داخل فيه.

فيمكن الجمع بين القولين بأن نقول: {أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}، أي في دينه وتوحيده والإيمان به وتزعمون أنكم على الحق والصواب والجادة، وأنكم أقرب إلى الله –عز وجل- منا ولكم عنده الحظوة والزلفى، فهذا وجه محاجتهم، والله أعلم.

"{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! "

أي أنه يقول لهم: أتحاجوننا في الله، وفي دينه وتوحيده وفي القرب منه، وتقولون: أنتم أقرب إليه إلينا، فالله ربنا وربكم، هو الذي خلقنا، وهو الذي يتصرف فينا وفيكم جميعاً، ويتولانا جميعاً، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فالأمر لا يكون على أهوائكم ودعاواكم الباطلة حيث تقولون على الله -عز وجل- بلا علم، بل الله رب الجميع وسيتولى عباده في الثواب والعقاب ويتصرف فيهم كيف يشاء، وليس لأحد أن يحكم على الله -عز وجل- بأهوائه وأمانيه ودعاواه الكاذبة.

" {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون، وأنتم برآء منا، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [(٤١) سورة يونس]، وقال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [(٢٠) سورة آل عمران] إلى آخر الآية، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم -عليه السلام-: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي

{اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [(٨٠) سورة الأنعام] **إلى آخر الآية، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ}** **[(٢٥٨) سورة البقرة] الآية.**

وقال في هذه الآية الكريمة: {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} [(١٣٩) سورة البقرة] **أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون أي: في العبادة والتوجه."**

أي أن مقتضى ذلك أننا أقرب إلى الله -عز وجل- منكم؛ لأن الإخلاص هو المعيار الذي يعرف به المحق من المبطل، ويعرف به أهل القرب من الله -عز وجل- والحظوة عنده، فهو يقول: أنتم تحاجوننا في الله -عز وجل- وفي دينه وفي القرب منه والله رب الجميع وبيده الثواب والعقاب، وهو المتصرف التصرف المطلق في خلقه، فنحن مختلفون إذ أنتم على دين ونحن على دين، فلسنا منكم في شيء ولستم منا في شيء، ونحن على الإخلاص وأنتم على خلافه، وهكذا كأنه علمهم كيف يردون على هؤلاء بحيث يقولون: نحن على العمل والاعتقاد الذي تنال به الزلفى عند الله -عز وجل-، وهكذا في مواضع في القرآن يعلم الله أهل الإيمان وجه المحاجة والرد على المشركين، وكذلك كان يعلم الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- كيف يرد عليهم.

"ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية فقال: {قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [(١٤٠) سورة البقرة] **يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى."**

قوله: **{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ..}** [(١٤٠) سورة البقرة] الآية على هذه القراءة تكون معادلة للهمزة في قوله: **{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}** يعني: أي هذين الأمرين تفعلون أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دينكم؟ أي الأمرين واقع منكم؟

وعلى القراءة الأخرى المتواترة: (أم يقولون إن إبراهيم..) الآية تكون أم منقطعة بمعنى بل، أي بل تقولون إن ألأنبياء المذكورين كانوا على دينكم، وعلى القراءتين هو ينكر عليهم هذا وهذا، إذ كله على سبيل الإنكار.

"وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران] **الآية والتي بعدها.**

وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ} [(١٤٠) سورة البقرة] **قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك."**

قوله: **كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك**، هذه هي الشهادة، ولا حاجة للتكلف في تفسير هذه الآية.

قوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}** [(١٤٠) سورة البقرة] **{مَن}** هنا مضمنة معنى النفي، يعني لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وقد سبق الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ..}** [(١١٤) سورة البقرة]، وذكرنا الإشكال أو السؤال الذي قد يرد والجواب

عنه وهو أن أفعل التفضيل لا تمنع التساوي بل تمنع الزيادة، ولهذا لا إشكال أنه في موضع يقول: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وفي مواضع يقول: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذلك لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، فكلهم قد بلغ في الظلم غايته، أو يكون المعنى أن كل واحد منهم هو أظلم الظالمين في هذا الباب، فمن كتم شهادة عنده من الله أظلم الكاتمين، وأظلم المانعين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فكل واحدة تختص بالباب الذي ذكرت فيه.

والحاصل أن قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ} [(١٤٠) سورة البقرة] أي أن هؤلاء يعرفون بما عندهم من الكتب أن دين الله الذي ارتضاه هو الإسلام، وأنه هو الذي كان عليه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ومن قبله ومن بعده من الأنبياء، ويعرفون أن ما أنتم عليه هو الحق، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة ويبدلون ويكذبون، فتقول اليهود: إن هؤلاء الأنبياء كانوا يهوداً، وتقول النصارى: إنهم كانوا نصارى.

" {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٤٠) سورة البقرة] تهديد ووعيد شديد، أي: إن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [(١٤١) سورة البقرة] أي: قد مضت {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ} [(١٤١) سورة البقرة] أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم."

يُلاحظ أن قوله: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} كررها مرتين، وقد يفهم من ذلك معنى التهديد، كأنه يقول لهم: إلى متى وأنتم تتشبَّعون بالانتساب إلى هؤلاء الأنبياء وتتمسحون فيهم وهم قد أفضوا إلى الله -عز وجل- ومضوا، فهو الذي يجازيهم على أعمالهم ويتولى ثوابهم، وأما أنتم فمرتهنون بأعمالكم، ومطالبون بإقامة الحق ولزومه والعمل بمقتضاه ولزوم التوحيد والإيمان الصحيح، فدعوكم من الدعاوى الفارغة والأماني العريضة، وعليكم بالعمل على فكاك رقابكم والخلاص من عذاب الله -عز وجل-.

" {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٤١) سورة البقرة] وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٢-١٤٣) سورة البقرة].

روى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى بيت المقدس ستَّة عشر شهرا أو سبعة عشر شهراً[1]."

---

[1] - صحيح البخاري كتاب التفسير – باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (٤٢٢٢) (ج ٤ / ص ١٦٣٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٥٢٥) (ج ١ / ص ٣٧٤).

قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء}، لم يتعرض لها المفسر –رحمه الله- هنا، وعلى كل حال كان ينبغي أن يورد تفسيرها هنا كأن يقول مثلاً: السفهاء عامة في اليهود والنصارى وأهل الإشراك بعمومهم.

والمقصود بالسفهاء خفاف الأحلام الذين ليس لهم عقل راجح رزين يزِنون به الأمور، ويقدرون به الأشياء على وجه صحيح، فهم الذين أضاعوا حظهم ونصيبهم من الله -عز وجل- باتباع الباطل والإعراض عن الحق حسداً واتباعاً لأهواء النفوس، فهم أهل الجهل والغباء وخفة العقل حيث إنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالثواب.

والمراد بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} هم اليهود في الدرجة الأولى، وأهل النفاق، ويدخل في هؤلاء أيضاً أهل الإشراك، وهذا التعبير هل هو بصيغة الماضي أم أنه يدل على الاستقبال؟ الجواب هو أن ذلك يكون في المستقبل يعني إذا حولت القبلة سيقول السفهاء: كذا وكذا.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله -تبارك وتعالى- في الآيات التي ستأتي: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٥٠) سورة البقرة] إنها متقدمة، فهو أمرهم بالتوجه إلى البيت الحرام ثم أخبرهم عن قول السفهاء، ولهذا قال بعض أهل العلم في قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء}: إنه عبر بالمستقبل وهو بمعنى المضي، أي: قال السفهاء، ولكن وجه التعبير بالمستقبل هو أن ذلك حصل بعد أن حولت القبلة وتكلم من تكلم.

قالوا: ووجه التعبير عن الماضي بالمستقبل للدلالة على استدامته، بمعنى أن هذا القول الذي قالوه سيستمرون عليه ويرددونه ويكررونه ويعيدونه مرة بعد مرة في مناسبة وفي غير مناسبة.

وعلى كل حال هنا يطمئن الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأتباعه فيقول لهم: لا تبتئسوا ولا تنزعجوا من مقالة هؤلاء فإنهم سفهاء، والسفيه لا يلتفت إليه ولا إلى كلامه؛ إذ ليس له وزن.

فهذا تعليم من الله -عز وجل- لعباده المؤمنين كيف يكون تعاملهم مع أهل السفه، فأقوال أهل السفه والتهم الصادرة منهم وما يذيعونه وينشرونه من قالة السوء أمر لا يحتاج إلى التفات واشتغال ولا ينبغي أن تنزعج منه النفوس وتبتئس منه القلوب بحيث يتثبط الإنسان عن الحق الذي هو عليه، أو يجزع أو يحزن أو يضعف أو يتراجع، فهؤلاء سفهاء والسفيه لا قدر له ولا وزن لكلامه ولا يعبأ به، ولهذا وصفهم بالسفهاء ولم يقل: سيقول اليهود والنصارى ما ولاهم عن قبلتهم، وإنما قال: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء}، وإذا كانوا سفهاء فالسفيه لا قيمة له، فهو ليس من أهل الحصافة والرأي والنظر السديد بحيث يحتاج كلامه إلى نظر وتأمل، وهكذا الأمر في كل سفيه عليك أن تدعه يتكلم كما يحلو له، فإذا سئلت عنه فقل: كم بلغ سعر الحنطة؟ وإذا مررت به وهو يهذي ويهذر فكبر عليه أربعاً، وإن شئت فزد واحدة وكبر عليه خمساً وإن زدت فلا بأس، لكن لا تقف معه؛ لأنك إن نزلت وطاولته في الكلام وراجعته فيه فقد صرت قرناً له؛ فالعاقل لا ينزل بنفسه مع هؤلاء.

"وكان يعجبه أن تكون قبلته قبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم."

هنا في هذه الرواية التي عند البخاري ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ووجه الجمع بين هذه الروايات ذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وتكلم عنها كذلك العلماء في بعض كتب النسخ مثل كتاب النحاس في الناسخ والمنسوخ حيث ذكر جملة من الروايات.

لقد هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقي على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، والمشهور أنه بقي ستة عشر شهراً، فالعلماء يتكلمون في توقيت هجرته -صلى الله عليه وسلم- ومتى حولت القبلة، والشهر الذي حولت فيه، وأي يوم كان ذلك من الشهر، ثم يذكرون كم كانت المدة التي بقيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعلوم أنها دون العامين قطعاً، وجاء في بعض الروايات ثمانية عشر شهراً، لكن هذا ضعيف، والصواب أنها ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وعلى كل حال الجمع بين هذه الروايات يوجد في مثل شرح الحافظ ابن حجر على الصحيح في فتح الباري، والله اعلم.

"وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع النبي -صلى الله عليه وسلم- قبَل مكة، فدارُوا كما هم قبَل البيت."

هذه الرواية في الصحيح[2]، وجاء أيضاً أن أول صلاة كانت صلاة الفجر، وعلى كل حال الكلام على هذا والجمع بين هذه الروايات ليس هذا محله وإنما محله فتح الباري.

"وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوّل قبَل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة] **انفرد به البخاري، ورواه مسلم من وجه آخر."**

يُلاحظ أن رواية البخاري هذه صريحة في أن سبب نزول قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} أنهم تساءلوا عن أولئك الذين ماتوا أو قتلوا -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- قبل أن تحوّل القبلة، في غزوة بدر مثلاً التي كانت في السنة الثانية للهجرة في شهر رمضان، أو في غزوة أحد التي كانت في السنة الثالثة للهجرة في شهر شوال، حيث قالوا: ما حال أولئك الذين ماتوا ولم يصلوا إلى الكعبة؟ هل كانت صلاتهم باطلة وكأنهم لم يصلوا؟، فقال الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة].

والمقصود أنه حينما يذكر المفسر قضية ويعبر بعدها بمثل قوله: فأنزل الله قوله كذا فهذا يكون من قبيل الصريح لأسباب النزول، وعندما يقول: نزلت هذه الآية في كذا، فهذا غير صريح، وعرفنا الفرق بين الصريح وغير الصريح في درس سابق من تفسير هذه السورة.

قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة]، هؤلاء السفهاء أثاروا بلبلة بسبب القبلة فقالوا: إن كان توجهكم قبلُ إلى بيت المقدس حقاً فأنتم الآن على باطل، وإن كان توجهكم إلى الكعبة حقاً فقبلتكم الأولى كانت باطلة، والجواب عن هذه البلبلة أن يقال: قبلتهم الأولى كانت بأمر الله وتحولهم إلى الكعبة أيضاً بأمر الله، فالله هو الذي يتصرف فيهم كما يشاء، وهو الذي يشرع لهم تشريعاً موافقاً للحكمة، فيأمر بشيء في وقت تكون فيه المصلحة، ثم يحولهم عنه إلى أمر آخر تكون المصلحة فيه في الحال التي تعقبها، فهذا كله بأمر الله -عز وجل- ففي الحالة الأولى كانوا على حق؛ لأنهم متبعون لأمر الله، ثم صاروا على الحال الأخرى أيضاً على الحق، لأنهم متبعون لأمر الله فالمؤمنون يدورون مع أمر الله حيث دار.

---

[2] - صحيح البخاري في كتاب التفسير - باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (٤٢١٦) (ج ٤ / ص ١٦٣١).

ومن سفه هؤلاء اليهود أنهم قالوا في النبي –صلى الله عليه وسلم-: إن هذا التحول يدل على التذبذب والتردد وهذا لا يكون من نبي فهو متحير، تارة يتبع هذه الجهة، وتارة يتبع هذه الجهة.

والجواب عن ذلك أنه –عليه الصلاة والسلام- دائر مع أمر الله -عز وجل- فهو متبع لأمره مطيع لربه -تبارك وتعالى- فهو لا يتصرف من عند نفسه بحيث يتبع تارة هذا وتارة هذا كما يزعمون.

ومن سفه المشركين أنهم استبشروا خيراً، وقالوا: تحول محمد إلى قبلتنا وترك قبلة اليهود وهذا مؤذن برجوعه إلى ديننا وملتنا، وهكذا رد الله عليهم جميعاً بقوله -تبارك وتعالى-: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة]، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦١)

الشيخ: خالد السبت

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"روى محمد بن إسحاق عن البراء -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٤) سورة البقرة] **فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة][1]**."**

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية هي من أحسن ما يُفسر به قوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء}** [(١٤٤) سورة البقرة] بمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ويتطلع إلى توجيه الله -عز وجل- له أن يستقبل الكعبة بدلاً من بيت المقدس، وكذا قوله في هذه الرواية: **"قال رجل من المسلمين..." إلى آخره.**

فهذا الرجل الذي يود لو علم حال من مات ممن كان يصلي إلى بيت المقدس، يعني أن يعرف حالهم من جهة قبول الصلاة، هل كانت صلاتهم مقبولة أم لا؟ وذلك -كما سبق- أن اليهود والمنافقين أثاروا بعض الشبهات في هذا الموضوع، فقالوا لهم: إن كنتم الآن على حق -يعني

١- أخرجه البخاري عن البراء في كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣١) بلفظ: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى -أو صلاها- صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد، وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

بعد التحويل إلى الكعبة- فإن هذا يعني أنكم كنتم على باطل، بمعنى أن صلاتكم غير صحيحة، وعملكم مردود، وإن كنتم على حق فأنتم الآن على باطل، فالحاصل أن ذلك أقلقهم فتساءلوا عن حال أولئك الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، قال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، فهم تساءلوا عن حال إخوانهم، وعن حالهم هم أيضاً، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] ولذلك يطرح بعض المفسرين سؤالاً -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فيقول: ما العلة في أن هؤلاء سألوا عن إخوانهم فخاطبهم الله بقوله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}؟ [(١٤٣) سورة البقرة] ثم يجيب عنه فيقول: إنهم سألوا عن إخوانهم وهذا السؤال أيضاً يعود إليهم؛ لأنهم كانوا يصلون معهم في السابق.

وأقول: ممكن أن يجاب عن هذا بأوضح من هذا الجواب، فيقال كما جاء في هذه الرواية: إنهم سألوا عن إخوانهم وعن أنفسهم أيضاً صراحة، فكان ذلك سبباً لنزول الآية، فابن جرير أورد سؤالاً وأجاب عنه باجتهاده -رحمه الله-، وهذه رواية صريحة فيما قلناه، والله أعلم.

طالب: يا شيخ الرواية: سألوا عن إخوانهم؟

سألوا عن صلاة إخوانهم وعن صلاتهم، فالسؤال الذي أوردوه عن صلاة إخوانهم: ما بال الذين ماتوا؟ فقال: إن هذا يرجع إليهم بالضرورة باعتبار أنهم كانوا يصلون معهم أيضاً، وفي هذه الرواية التي قرأناها الآن: وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ السؤال عن صلاتهم هم.

"وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}.. إلى آخر الآية."

سيقول السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب؛ لأن السياق فيهم كما سبق، وأيضاً يدخل فيها كل من تعلق بهذه القضية من المنافقين ومن المشركين، وذلك أن المنافقين تكلموا في هذا الموضوع، وتكلم فيه المشركون، فقال المشركون: إنه قد تحول إلى قبلتكم وذلك مؤذن بتحوله إلى دينكم، بمعنى أنه رجع إلى قبلتكم ثانية فهذه توطئة إلى رجوعه إلى دينكم وإلا فما الذي حوله؟

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بضعة عشر شهراً."

هذه الرواية: "بضعة عشر شهراً" والرواية التي مرت بنا في الصحيح: "ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً" على الشك، أو يكون ذلك باعتبار آخر وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت هجرته في ربيع، وحُول إلى الكعبة في السنة الثانية من الهجرة في منتصف شهر رجب، هذا هو المشهور، فإذا حُسبت المدة وحُسب شهر الهجرة مع شهر التحويل كانت سبعة عشر شهراً، وإذا جُبر هذا بهذا باعتبار أن هذا بعض الشهر وهذا في نصف الشهر لا سيما إذا قلنا: إنه هاجر في الثاني عشر من ربيع الأول، والتحويل في منتصف شهر رجب، فإذا جُمع هذا إلى هذا وألغي الزائد جبراً للكسر كان ذلك ستة عشر شهراً بهذا الاعتبار.

ولهذا جاء في بعض الروايات كما ذكرت في السابق مجزوماً به: أنه ستة عشر شهراً، وأما ما ورد من أنه ثمانية عشر شهراً فهذا ضعيف، والله أعلم.

وورد دون ذلك حيث جاء في بعض الروايات: أنه اثنا عشر شهراً، وجاء في بعضها شهران.. إلى غير ذلك مما ورد، لكن المشهور على كل حال بضعة عشر شهراً.

"وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب قبلة إبراهيم -عليه السلام-، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله -عز وجل-: {فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] **أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة]."

هذه الرواية الآن فيها التصريح بأن الذين قالوا ذلك هم اليهود، **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ}** [(١٤٢) سورة البقرة] ولا شك أن اليهود هم أولى من يدخل في ذلك، ويدخل في عموم "السفهاء من الناس" كل من تكلم في هذه القضية.

"وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أُمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- والجمهور."

بهذا يمكن الجمع بين ما ورد من كونه توجه إلى بيت المقدس بعد ما هاجر وبين ما ورد من أنه كان يستقبل بيت المقدس وهو في مكة، وهذا ثابت عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وجاء فيه بعض الروايات عن غيره، وقال به جماعة مثل الحافظ ابن عبد البر- قالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان بمكة يستقبل بيت المقدس، وصفة ذلك أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ومعنى ذلك أنه كان يقف بين الركنين اليمانيين، ومن ثمّ فإنه في هذه الحالة

لا يتبين أنه كان يستقبل بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة -وهي تقع في شمال مكة- صار لا يمكنه أن يستقبل بيت المقدس إلا أن يستدبر مكة، ولهذا جاء في بعض الروايات: أنه بعد ما هاجر إلى المدينة حول إلى بيت المقدس بعد ما كان يستقبل الكعبة، فالذين قالوا: إنه حول كما جاء في بعض الروايات بعد هجرته -صلى الله عليه وسلم-، على قولهم تكون قد نُسخت القبلة من استقبال الكعبة التي كانت ثابتة بالسنة إلى بيت المقدس، وهذا التحويل أيضاً بالسنة، فيكون من قبيل نسخ السنة بالسنة، ثم حُول بالقرآن إلى الكعبة، فكان ذلك من قبيل نسخ السنة بالقرآن، فهذا مثال من أوضح الأمثلة على نسخ السنة بالقرآن.

وأما إذا قلنا: إنه كان يجعل الكعبة بين يديه، ويصلي إلى بيت المقدس، وأنه لم يكن هناك نسخ للكعبة إلى بيت المقدس، فإن النسخ يكون قد وقع مرة واحدة، ولعل هذا أقرب، والله تعالى أعلم.

وأما قول من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستقبل الكعبة حينما كان بمكة، ثم لما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس باجتهاده واختياره، وكان يحب موافقة اليهود، ويطمع في دخولهم في الإسلام فهذا في غاية البعد؛ لأن هذه قضية لا تكون بمحض الاجتهاد والاختيار، إنما هو تشريع، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [(٤) سورة النجم] فلو كانت المسألة بالاختيار لتوجه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الكعبة؛ لأن الله وصف حاله {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] فكان يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، لا سيما وأن المشركين كانوا يحتجون عليه ويقولون: تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته؟! أضف إلى ذلك أن اليهود كانوا يعلمون أن القبلة التي كانت للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانت إلى الكعبة، ويعلمون أنها ستحول.

"وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أن الخبر وصل قوماً من الأنصار وهم في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فتوجهوا نحو الكعبة[٢].

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: "بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[٣]."

---

[2] - سبق تخريجه في حاشية رقم (١).

٣- أخرجه البخاري في أبواب القبلة باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة [جزء١- صفحة١٥٧- ٣٩٥] وفي كتاب التمني باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام [جزء٦- صفحة ٢٦٤٨-٦٨٢٤] ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة [جزء١- صفحة٣٧٥- ١٣].

على كل حال بعض أهل العلم يقول: إن التحول الذي حصل في صلاة الفجر كان لأهل قباء، وأن التحول الذي كان في صلاة العصر كان في بني سلمة، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى صلاة الظهر في مسجده حيث حُوّل إلى بيت المقدس، هكذا جمع بعض أهل العلم بين هذه الروايات، وعلى كل حال من شاء فليراجع ذلك في مظانه، ومن ذلك ما ورد في الفتح في المجلد الأول في كتاب: الإيمان، في أول الصحيح.

"**وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه.**"

هذه مسألة معروفة في الأصول، وتذكر أيضاً في موضع آخر في غير باب الناسخ والمنسوخ في أصول الفقه، تذكر في أول الأصول عند الكلام على التكليف وشروط التكليف، فهناك شروط عامة في كل تكليف، وهناك شروط خاصة تضاف إليها في التكليف المعين، فشروط الوجوب مثلاً هناك شرطان أساسيان في كل عبادة: القدرة وبلوغ الخطاب، وبعضهم يقول: وفهم الخطاب، إذا لم يبلغه الخطاب فإنه غير مكلف، وهناك شروط خاصة في كل عبادة، مثل ما تقول مثلاً: شرط وجوب صلاة الصبح: زوال الشمس، وشرط وجوب صلاة العصر: أن يصير ظل كل شيء مثله، وهكذا في كل عبادة بحسبها، شرط وجوب رمضان: رؤية هلال رمضان، هذا في العبادة الخاصة.

المقصود أن هؤلاء الذين بلغهم التحويل بعد ذلك، أو: وهم في أثناء الصلاة، قد صلوا بعض الصلاة إلى بيت المقدس، والقبلة حُولت قبل ذلك، فلم يلزموا بإعادة الفرض السابق، ولم يلزموا أيضاً بإعادة الفرض الذي كانوا فيه حينما بلغهم، فصح بناؤهم على هذه الصلاة التي استقبلوا فيها القبلة المنسوخة، وبالتالي فإن التكليف لا يلزم إلا ببلوغ الخطاب، ولذلك مما يدخل في هذه المسألة مسألة معروفة أيضاً عند أهل العلم وهي فيما إذا كان هذا الخطاب لم يبلغ هذا المكلف المعين فهل يؤمر بالإعادة أم لا؟ وهذا له أمثلة:

فمثلاً المرأة التي كانت تصلي –وهي حمنة- كانت تستحاض وتدع الصلاة والصوم، وفي بعض الروايات: تدع الصلاة والصوم سبع سنين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال لها: أين أنتِ؟ هذه استحاضة، ويجب عليكِ قضاء سبع سنين حيث كنتِ لا تصلين ولا تصومين، أو على الأقل ما قال لها: يجب عليكِ قضاء سبع رمضانات، علمها ولم يأمرها بالقضاء.

وكذلك حديث المسيء صلاته، قال له: ((ارجع فصل فإنك لم تصل))[٤] لأنه كان في الوقت، لكن الرجل طول عمره وهو يصلي بهذه الطريقة، فما قال له: عليك أن تعيد جميع الصلوات.

وكذلك حديث معاوية السلمي -رضي الله عنه- لما عطس وقال: الحمد لله، ثم قال: واثُكْلَ أُمِّياهْ، وجلس يتلفت، ما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنت الآن صلاتك باطلة، وصلواتك السابقة كلها باطلة؛ لأنك تتكلم وإنما علمه، وبالتالي فإن الأقرب -والله أعلم- في مثل هذا أن يقال: إن كل من لم يبلغه التكليف فهو معفو عنه، ولا يطالب بقضاء ولا إعادة.

"لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم."

وهذا الكلام الذي ذكرته آنفاً هو الذي يختاره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وإن كان كثير من الفقهاء يطالبون الإنسان بإعادة رمضان، وبإعادة الصوم الذي صامه، والمرأة التي كانت تظن أنها لا يجب عليها في حال الاستحاضة فيقولون: عليكِ أن تقضي هذا اليوم.. إلى آخره.

"ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة] **أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١٤٢) سورة البقرة] **أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، فأينما تولوا فثم وجه الله، و{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ}** [(١٧٧) سورة البقرة] **أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا."**

يعني أن الجهات جميعاً ملك لله -عز وجل-، وأما التعبير بالمشرق والمغرب فعادة العرب أن تعبر عن الشيء بذكر طرفيه؛ لإفادة الشمول والعموم والاستيعاب {لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة] يعني جميع الجهات، وليس فقط المشرق والمغرب، يأتي غبي ويقول: طيب والشمال والجنوب؟ نقول له: إذا ذكر المشرق والمغرب في كلام العرب فيقصدون بذلك جميع الجهات، فالعرب تذكر طرفي الشيء وتريد الاستيعاب والشمول والعموم، وهذا كثير، وله أمثلة كثيرة.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (ج١/ص٢٦٣- ٧٢٤)، وفي باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (ج١/ص٢٧٤- ٧٦٠)، وفي كتاب الاستئذان باب من رد فقال: عليك السلام (ج٥/ص٢٣٠٧- ٥٨٩٧)، وفي كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (ج٦/ص٢٤٥٥- ٦٢٩٠) ومسلم في الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (ج٢/ص١٠- ٩١١).

"أي الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه."

يعني أن هذا الجهة لا مزية لها على هذه الجهة من حيث الأصل، أصل الجهات، وإنما الشأن هو في امتثال أمر الله -عز وجل-، وإن كان الاستقبال للكعبة لا شك أنه أشرف من استقبال بيت المقدس، والشيء يقال فيه على سبيل الرد ما لا يقال فيه على سبيل الابتداء أحياناً، وهذا هو الجواب الذي ذكره الإمام الشافعي -رحمه الله- في كتابه الرسالة في الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] فذكر هذه الأشياء الثلاثة مع أن المحرمات أكثر من هذا، وذكرها بأقوى صيغة من صيغ الحصر وهي النفي والاستثناء التي جاءت بها كلمة التوحيد.

فالشافعي -رحمه الله- يقول: هذا على سبيل الرد على دعاواهم الكاذبة حيث حرموا أشياء وأحلوا أشياء كما في سورة الأنعام: **{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ}** [(١٣٨) سورة الأنعام].

"حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه- وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن -عليه السلام-، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل -عليه السلام-، ولهذا قال: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٤٢) سورة البقرة]."

وجه الارتباط واضح **{لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة] يهديه إلى صراط مستقيم، يهديه إلى الإسلام، ويهديه أيضاً إلى القبلة التي هي أشرف وأعظم، كما هداكم إلى هذا الدين، وهداكم إلى قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

ولهذا سيأتي في قول الله -تبارك وتعالى-: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] حيث هديتكم هذه الهداية، ووفقتكم هذا التوفيق، بعد ما ضل عن هذه القبلة اليهود والنصارى، فكما جعلكم الله -عز وجل- **{أُمَّةً وَسَطًا}** [(١٤٣) سورة البقرة] أي: خياراً عدولاً كذلك أيضاً وفقكم إلى أعدل قبلة، وأوسط قبلة، وهي قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، كل ذلك من إفضاله على هذه الأمة وهدايته وتوفيقه لها.

"وقد روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- -يعني في أهل الكتاب-: ((إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين))"[٥].

فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، هدانا إلى يوم الجمعة، وإلى القبلة، وهدانا إلى الإسلام قبل ذلك.

---

[5] - أخرجه أحمد في المسند (ج٦/ص١٣٤- ٢٥٠٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (ج٢/ص٥٦) وصححه الألباني في صـــحيح الترغيب والترهيب (ج١/ص١٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [(١٤٣) سورة البقرة] يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم -عليه السلام-، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [(١٤٣) سورة البقرة] يُلاحظ في هذه الآية أن الله -عز وجل- غاير فيها تقديماً وتأخيراً عند ذكر شهادتهم وشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليهم، فقال:{لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [(١٤٣) سورة البقرة] ولم يقل: ويكون الرسول شهيداً عليكم، ومعلوم أن تقديم المعمول على عامله لا يكون إلا لمعنىً قصده المتكلم، فيمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه في الأول {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء} [(١٤٣) سورة البقرة] لإثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني: {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [(١٤٣) سورة البقرة] من أجل إثبات اختصاصهم بشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقدم الجار والمجرور (عليكم) على قوله: (شهيداً) وتقديم المعمول على عامله يدل على الحصر أحياناً، مثل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] ومثل: {وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ} [(٢٣) سورة المائدة] يعني لا تتوكلوا على غيره، وهنا {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني: أنهم يختصون بشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم -عليه السلام- واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها".

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] وكذلك الجعل جعلناكم أمة وسطاً يعني: عدولاً خياراً، هذا أشهر ما فُسرت به، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، فكما أن الله -عز وجل- اختار لهم القبلة وهي أعدل الجهات، وكذلك أيضاً اختار لهم الإسلام وهو أعدل الأديان، كذلك أيضاً جعلهم أمة وسطاً في كل شيء، جعلهم أمة خياراً عدولاً يصلحون للشهادة على الخلق.

ولعل أحسن ما يفسر به هذا هو ما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وثبت عنه، حيث بين فيه معنى الوسط، ومعنى شهادة هذه الأمة على الأمم، وشهادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهم، وجاء ذلك صريحاً عنه -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثم فلسنا بحاجة إلى ذكر الأقوال الأخرى في معنى شهادتهم على الأمم، وشهادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهم، أو في بيان معنى الوسط من غير ما ذكرت.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- يفسر الوسط هنا في هذه الآية بمعنىً يدخل في عموم وسطية هذه الأمة، ما يفسره بمعنى العدول والخيار وإنما يقول: وسط بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والجفاء، فالأمة وسط في هذا، فاليهود عندهم غلو والنصارى عندهم تفريط، فمثلاً في الطهارة اليهود إذا وقعت النجاسة على الثوب قطعوه، والنصارى على العكس لا يتنزهون من النجاسات.

اليهود إذا حاضت المرأة اجتنبوها واعتزلوها فلا يجالسونها ولا يؤاكلونها، والنصارى يلعقون دم الحيض -أعزكم الله-، وأما هذه الأمة فقد أباح الله لها الأكل مع الحائض ومخالطتها، بل ومعاشرتها فيما دون الجماع مخالفة لليهود، وقل مثل ذلك في المطعومات وغيرها من الأمور.

فالحاصل أن هذا لا شك أنه من وسطية هذه الأمة، ولكنه لا يوقف عليه في التفسير؛ لأن ما قاله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا شك أنه عين المعنى المراد، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلم بكلام الله -عز وجل- من غيره، وبناءً على هذا يقال: الوسط هم العدول، والعدول هم الخيار، فالوسط من كل شيء هو أفضله وأعدله وأقومه، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله- يرى أن الخيار والعدول بمعنىً واحد، يرى أن هذا بمعنى هذا، وذلك لأن أعدل الأمور هو خيرها وخيرها هو أعدلها، فهذا راجع إلى هذا ولا يكون إلا به، قال تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} [(٢٨) سورة القلم] أي: قال أعدلهم و{أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً} [(١٠٤) سورة طـــه] يعني: أعدلهم وخيرهم طريقة.

الأنبياء وسط في قومهم، بمعنى هم أفضل وأعدل قومهم، فعلى كل حال كون هؤلاء هم الأعدل معنى ذلك أنهم ليسوا في جانب الإفراط ولا في جانب التفريط، فهم أزكى الناس، وخير الناس، وقد جاء ذلك في نصوص كثير في الكتاب والسنة {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران] وكذلك في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله اصطفى كنانة))[1].. إلى آخره، وكما في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر] بفئاتهم الثلاث: الظالم والمقتصد والسابق، فهذا كله في هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ويكفي هذا القدر في بيانه، فإن الحديث واضح وصريح في بيان معنى هذه الآية.

"وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [(٧٨) سورة الحـــج].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟))"[2].

---

[1] - أخرجه مسلم في الفضائل باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (ج٧/ص٥٨-٦٠٧٧).

2 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣٢- ٤٢١٧). وأحمد في المسند [جزء ٣ ص ٣٢ – ١١٣٠١)

هذا الحديث يصرح بتفسير هذه الآية، والتفسير النبوي أنواع: منه: ما ذكر مع الآية، فهذا إذا صح سنده فلا يعدل عنه، وهذا من هذا النوع، ومنه: ما لم يذكر فيه النبي -عليه الصلاة والسلام- الآية، ولم يتعرض لها، فيأتي المفسر ويربط بين هذا وهذا، كقوله: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [(٢٣) سورة الفجر] يمكن أن يفسر بحديث: ((يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام...))[3] إلى آخره.

فأقوى ذلك وأصرحه ما صح مع التصريح بالآية؛ لأن المفسر قد يخطئ حينما يربط بين الآية وبين الحديث، ولهذا إذا قيل -كما سبق في أصول التفسير-: بأن التفسير النبوي يدخله الاجتهاد فالمقصود بهذه العبارة النوع الثاني الذي لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، وإنما الاجتهاد يكون من قبل المفسر حينما يحاول أن يربط بين آية وبين حديث وقد يخطئ إذا لم يكن هناك علاقة بين الآية والحديث، لكن إذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية فهذا لا مجال للتوقف فيه.

"وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته" قال: فذلك قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] **قال: والوسط: العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم))[4] ورواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه".**

يعني من فسر بغير هذا المعنى فيمكن أن يحمل على أنه لم يبلغه هذا الحديث، أعني التفاسير التي تخالف هذا المعنى وليست التي تدور حوله، يعني من فسره بأنه الخيار كما سبق فإنه يرجع أنهم وسط بين الإفراط والتفريط، لكن هناك أقاويل أخرى، فمثل هذه لا يلتفت إليها.

"وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا -صلى الله عليه وسلم- فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله -عز وجل-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] **قال: عدلاً {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [(١٤٣) سورة البقرة]))[5].

---

3 - أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (ج/٨ص١٤٩- ٧٣٤٣).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [(١) سورة نوح][جزء٣- ١٢١٥- ٣١٦١] وفي كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة][جزء٤ -ص١٦٣٢]، وأحمد في المسند [جزء٣- ص ٥٨ -١١٥٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير سورة البقرة [جزء ٦- ص ٢٩٢ – ١١٠٠٧] والترمذي في كتاب تفسير القرآن باب سورة البقرة [جزء٥- ص٢٠٧ – ٢٩٦١] وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم [جزء٢- ص١٤٣٢-٤٢٨٤).

5 - المسند (ج٣/ص٥٨ - ١١٥٧٥) وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه و سلم (ج٢/ص١٤٣٢- ٤٢٨٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة(ج٢/ص ٤٢٥).

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يشهد على شهادتهم، هم يشهدون للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالبلاغ، والرسول -صلى الله عليه وسلم- يشهد على شهادتهم، ولا يصلح لهذه الشهادة العظيمة على الأمم إلا من كان عدلاً.

"وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال: أتيتُ المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذَريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-، فمرّت به جنازة فَأُثْنِيَ على صاحبها خير، فقال: وجبت وجَبَت، ثم مُرّ بأخرى فَأُثْنِيَ عليها شرٌّ، فقال عمر: وجبت، فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيّما مسلم شَهِد له أربعة بخير أدخله الله الجنة)) قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: ((وثلاثة)) قال: فقلنا: واثنان؟ قال: ((واثنان))[٦] ثم لم نسأله عن الواحد" وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي".

هذا من أحاديث الرجاء، فلا ينبغي للمسلم أن يركن له، وفرق بين شهادة أهل الفضل والصلاح والخير وبين شهادة الأشرار، فرق بين هذا وهذا، وإلا فإنك تجد رأس البدعة والضلالة بل والكفر لن يعدم من يشهد له من قومه، وممن هو على شاكلته، ومن المعجبين به، وتجد الفاجر المغني مثلاً أو الممثل أو المهرج قد يبكي عليه الملايين من الناس، فالمقصود أن ذلك منوط بأهل الفضل والصلاح والخير.

ولذلك ما جاء من الكلام على تعريف المعروف مثلاً وأنه: ما عرفه أهل الإيمان، واطمأنوا إليه، هذا في وقت استقامة المجتمع، وإلا إذا كان المجتمع منحرفاً فلا عبرة بنظرهم، ففي بعض المجتمعات الإسلامية المتمسك بدينه يلمز بأبشع الأوصاف، فهل ما رآه هؤلاء حقاً ومعروفاً يكون من قبيل الحق والمعروف، وما رأوه منكراً يكون من قبيل المنكر؟ لا.

كذلك قول الإمام أحمد -رحمه الله- لأهل البدع: "بيننا وبينهم يوم الجنائز" معناه: أن جنائز أهل السنة حاشدة، لكن هذا في وقت ظهور السنة وإلا قد يكون رأس الضلال فهذا الرافضي الهالك الخميني يوم مات مزقوا الكفن، وما استطاعوا أن ينزلوه من أجل تهافت البشر عليه بشكل منقطع النظير، قطعوا كفنه ليأخذوه للتبرك حتى بدت سوءته، فهذا في المجتمعات المنحرفة.

وهذه المرأة التي ماتت وهي كافرة نصرانية تتكلم بكل وقاحة في قنوات فضائية عن فواحشها وفجورها لما ماتت بكتها أمم، ولا زالوا يذكرونها أليس كذلك؟! فهل هذه شهادة معتبرة؟ فشهادة الفجرة وأهل السفه من الناس لا عبرة بها وهكذا.

وقد يكون العالم في محل غربة وهو إمام لكنه في أرض بدعة وضلالة فقد لا يجتمع على جنازته ثلاثة، فينزل كل ما ورد من ذلك من النصوص في محله، وهكذا النصوص الواردة عن السلف في كثير من القضايا حينما يقولون مثلاً: من قال كذا فهو كذا، أو من فعل كذا يهجر، أو من فعل كذا لا يُكلم، هذا متى يقال؟ وفي حق من يقال؟ لا يقال بإطلاق في كل وقت، وإنما يختلف ذلك من حين إلى حين، وفي بعض الأحيان قد

---

6 - في المسند (ج١/ص٣٠ - ٢٠٤) وهو في البخاري في كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت (ج١/ص٤٦٠- ١٣٠٢) وفي كتاب الشهادات باب تعديل كم يجوز؟ (ج٢/ص٩٣٥ – ٢٥٠٠) وفي سنن النسائي الكبرى (ج١/ص٦٢٩- ٢٠٦١)، وفي سنن الترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في الثناء الحسن على الميت (ج٣/ص٣٧٣ – ١٠٥٩).

يكون قائل هذه المقالة من أفضل أهل زمانه في تلك الناحية، هذا إذا غلب المنكر والانحراف والبدعة على ناحية وأرض، ففرق بين وقت ظهور السنة أو بين وقت ظهور الضلال، فقد يكون هذا شامة بيضاء في جلد ثور أسود، فكل شيء يوضع في محله، ومن الخطأ أن نتلقف نصاً أو أثراً ورد في مناسبة أو في حال من الأحوال ثم ينزل على جميع الحالات والعصور والظروف فهذا غير صحيح، وليس هذا من الفقه في دين الله -عز وجل-.

"وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} [(١٤٣) سورة البقرة] **يقول تعالى: إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجه أولاً إلى بيت المقدس".**

يعني معنى ذلك القبلة التي كنت عليها هي بيت المقدس، وهذا هو المتبادر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، خلافاً لمن قال: بأن المقصود بذلك الكعبة، القبلة التي كنتَ عليها يعني التي حولتَ إليها، يعني ما جعلنا هذه الكعبة قبلة بعد بيت المقدس إلا لنعلم من يثبت ومن لا يثبت؛ لأنها كانت محنة عظيمة جداً، ارتد بسببها جماعة من الناس، وتضعضع آخرون، وأرجف فيها أهل النفاق واليهود وأهل الإشراك، وكلٌّ صار يتكلم بما يحلو له كما سبق، أهل الإشراك يقولون: تحول إلى قبلتكم فذلك مؤذن بتحوله إلى دينكم، وأهل النفاق واليهود لربما قال قائلهم: حن إلى دين أبيه، ورجع إلى دين قومه، وآخر يقول: تحير، وآخر يقول: إن كان ذلك -استقبال بيت المقدس- حق فهم على باطل، وإن كان باطلاً فقد كانوا على باطل، إلى غير ذلك من المقالات القبيحة التي قالوها، ولكنهم يدورون مع أمر الله -عز وجل- حيث دار، فهم أهل عبوديته الخاصة، تارة يوجهون إلى هذه الناحية فيتوجهون، وتارة إلى هذه الناحية وهكذا، كل ذلك بناءً على علمه وحكمته -تبارك وتعالى-.

"ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويُطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت {مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: مرتداً عن دينه** {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً} [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: هذه الفعلة".**

يعني الآن في قوله: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة] مثل هذا الأسلوب الذي ورد في مواضع من القرآن {إِلاَّ لِنَعْلَمَ} [(١٤٣) سورة البقرة] {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} [(١٤٠) سورة آل عمران] {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [(٣١) سورة محمد] فــ"حتى نعلم" و"ليعلم" معلوم أن الله -عز وجل- علمه محيط بكل شيء، فهو يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كل ذلك يعلمه، فما المراد بقوله: {حَتَّى نَعْلَمَ} [(٣١) سورة محمد]، هل يخفى عليه شيء؟ أبداً.

أهل السنة يفسرون هذا بأن المقصود العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهو علم المشاهدة، يعني بعد ما كان ذلك من الغيوب التي لم تقع، والله يعلم أنه سيقع، فكان وقوعه هو المراد، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} [(٣١) سورة محمد] {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني أن يكون ذلك واقعاً معلوماً لله -عز وجل- بعد أن كان في علمه من جهة أنه أمر غيبي، يعني علم الوقوع، وهو لم يقع بعد، والله يعلم أنه سيقع.

وعلم الوقوع هذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله لا يحاسب خلقه بناءً على ما علم منهم أنهم سيعملونه قبل أن يعملوه، الله يعلم أن فلان سيفعل المعصية الفلانية، في الوقت الفلاني، في المحل الفلاني، لكنه لم يكتبها عليه سيئة حتى يعملها، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

"{وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول".

{مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: مرتداً عن دينه، {وَإِن كَانَتْ} [(١٤٣) سورة البقرة] على قول البصريين (إن) هذه مخففة من الثقيلة، وهذا ظاهر كلام ابن كثير هنا الذي مشى عليه في التفسير بناءً على هذا، {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: إن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله، يعني كأنه يقول: وإنها لكبيرة، فهذا التحويل أمر عظيم جداً، زلزل النفوس.

وأما على قول غيرهم فإن (إن) هذه نافية، وإن كانت لكبيرة كأنه يقول: وما هي إلا كبيرة إلا على الذين هدى الله، ما كانت إلا كبيرة وعظيمة إلا على الذين هدى الله، فيكون ذلك من قبيل النفي والاستثناء، إن كانت لكبيرة إلا، فما هي إلا كبيرة وعظيمة إلا على الذين اطمأنت نفوسهم بالإيمان، وثبت في قلوبهم، وهداهم الله -عز وجل-، ووفقهم للثبات، تكون عكس المعنى الأول.

المعنى الأول يقول: وإنها لكبيرة يقرر هذا، فتكون (إن) هذه للتوكيد، وعلى الثاني: تكون نافية، ما هي إلا كبيرة إلا على الذين هدى الله، لكن المعنى العام في النهاية كما ترون هو يقرر أنها عظيمة إلا على من هداهم الله -عز وجل-، سواءً على هذا الاحتمال أو على ذاك.

"أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول".

على كل حال وإن كانت لكبيرة يعني التحويل، هذا أجود ما قيل في معناه، ما هو الشيء الكبير العظيم؟ هو تحويلهم من بيت المقدس إلى الكعبة، القبلة شعار كما سبق وليست قضية سهلة، فحينما يتحولون فإن هذا لا شك أنه ليس بالأمر السهل إلا على من هدى الله قلوبهم، واطمأنوا، ولذلك أرجف بهم اليهود وأهل النفاق والمشركون، فإذن أحسن ما يفسر به -والله أعلم- أن التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة هو الكبيرة، هو الأمر العظيم على كثير من النفوس، وقد قيل غير ذلك في أقاويل أخرى، لكن لا حاجة إليها، هذا أوضحها وأعدلها، والله تعالى أعلم.

"وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة] وقال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء] ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله

من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: "بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة"[٧] رواه مسلم والترمذي".

هذا كما سبق في قباء في صلاة الفجر، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أول صلاة صلاها كانت العصر في مسجده إلى الكعبة، وفي بني سلمة كانت صلاة الظهر، وبني سلمة أرضهم تقع إلى ناحية الشمال من المدينة قليلاً إلى جهة الغرب، وفيها المسجد المعروف اليوم بمسجد القبلتين، فالتحويل وقع لأهل قباء بصلاة الفجر، ولبني سلمة بصلاة الظهر، وفي مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة العصر، هذا على قول بعض أهل العلم.

فعلى كل حال لربما يستشكل بعض طلاب العلم مسجد القبلتين والمشهور والمعروف أن التحويل كان في قباء، نقول: كان التحويل في مسجد بني سلمة في وقت، وفي قباء في وقت، وفي مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- في وقت، والله أعلم.

"**وعند الترمذي: أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وكذا رواه مسلم عن أنس -رضي الله تعالى عنه-، مثله، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله، وانقيادهم لأوامر الله -عز وجل- رضي الله تعالى عنهم أجمعين".**

سبق الكلام على بلوغ الخطاب في التكليف وأنه شرط، فهؤلاء اعتبروا أول الصلاة مع أنهم صلوا إلى قبلة منسوخة، فكل من لم يبلغه الخطاب فإنه معذور، والله أعلم.

---

[7] - البخاري في كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣٢- ٤٢١٨) ومسلم في المساجد باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (ج٢/ص٦٦ – ١٢٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٣)

الشيخ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، ما كان يضيع ثوابها عند الله."

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] ما المراد بالإيمان في هذه الآية؟ قال: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، لماذا سميت الصلاة إلى بيت المقدس إيماناً؟ بعض أهل العلم قال: لأن الصلاة تشتمل على نية، وهي قضية تتعلق بالقلب، وتشتمل على أقوال، وتشتمل على أفعال، فهي مركبة من هذه الثلاثة كالإيمان قول واعتقاد وعمل، هكذا قال بعضهم، ولا يخلو من تكلف، فالعلماء وإن كان عامتهم يفسرون الإيمان في هذه الآية بأنه الصلاة إلى بيت المقدس، وهو الذي لا ينبغي العدول عنه، لكنهم حينما يتلمسون وجه تسميته بذلك -أي تسمية الصلاة إيماناً- فبعضهم يعلل بهذا التعليل، والأحسن من هذا -والله أعلم- أن يقال: إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فالصلاة إيمان عند أهل السنة، والصوم إيمان، والزكاة إيمان، وما أشبه ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة.

وإذا قال قائل: لماذا لم نقل: إن الركوع والقيام والسجود هذا فعل فهو إيمان من جهة أنه يرجع إلى القسم الثالث مما يتركب منه الإيمان الذي هو العمل، ولماذا لم نقل: إن الأقوال التي تكون في الصلاة ترجع إلى القسم الثاني مما يتركب منه الإيمان وهوالقول؟ والنية ترجع إلى الأول؟ يقال: ليس ذلك هو المراد حينما نقول: إن الإيمان اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، إذ إن التصديق في الإيمان المقصود به الإقرار الانقيادي، بما يجب الإقرار به، لا قصد التوجه إلى المعبود بالصلاة، ليس هذا بمعنى التصديق الانقيادي، لا، ولذلك فإن التوكل والمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والمراقبة وما إلى ذلك من الأعمال القلبية هذا داخل في عمل القلب مما يزيد على قدر التصديق الانقيادي، يزيد على الإقرار، ولهذا يقال: الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، ما الفرق بين قول القلب وعمل القلب؟ قول القلب هو التصديق، وعمل القلب هو سائر الأعمال القلبية التي يحبها الله -عز وجل-، هذا الفرق.

وقول اللسان وعمل اللسان: قول اللسان هو قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وعمل اللسان كالتسبيح والتهليل والذكر وما أشبه هذا من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى-.

وعمل الجوارح: -ما في قول الجوارح- يدخل في عمل الجوارح الصلاة والصوم وما إلى ذلك مما يتقرب به إلى الله -عز وجل-، {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني الصلاة إلى بيت المقدس؛ لأن الصلاة إيمان، والصوم إيمان، والحج إيمان، والزكاة إيمان، وبر الوالدين إيمان، وإماطة الأذى عن الطريق إيمان، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة))[1] فذكر من أعلاها: شهادة أن لا إلا إله الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ولهذا تجدون في ذلك الكتاب العظيم الجامع لشعب الإيمان للبيهقي -رحمه الله- كلاماً على تفاصيل كثيرة جداً، حاول فيها أن يستقرئ شعب الإيمان، مما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، والعلم عند الله -عز وجل-.

وبعضهم يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] بمعنى أن ما كان منهم من التوجه إلى بيت المقدس ثم التحول، هذا كله عائد إلى الإذعان والانقياد لأمر الله -عز وجل-، فهذا إيمان بهذا الاعتبار، فهذا مما يدخل فيه.

وبعضهم يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: ثوابكم على الإيمان الذي حصل منكم، والتصديق بخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث حصلت منكم الثقة بذلك، والاطمئنان إليه، ولم يحصل منكم تردد ولا انتكاس.

وعلى كل حال هذا مما يدخل فيه مثل هذا التصديق والانقياد، فيكفي أن نقول: إيمانكم أي الصلاة إلى بيت المقدس، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، والله تعالى أعلم، وسبب النزول يدل على ذلك، الثبات داخل في هذا الإيمان، ما في إشكال، السلف يعبرون ببعض المعنى لا إشكال، إنما أردت أن أوضح توجيهاً لقولهم هذا بحيث يُعرف كيف يتصل بهذا الموضوع وكيف يرتبط به؟ باعتبار أن الإيمان على هذه الأنواع أو الأجزاء أو الأقسام الثلاثة، فمن قال: إنه ثباتكم. نقول: هو داخل فيه، هذا جزء من المعنى، الثبات على أمر الله -عز وجل-، وهذا القول -الصلاة إلى بيت المقدس- مستلزم لقول من قال مثلاً: إنه الثبات، {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فإن ذلك لا يكون إلا بأنهم ثبتوا وانقادوا واستقبلوا القبلة الأخرى التي أمرهم الله -عز وجل- بها.

"وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة]، **ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه."**

وهذا نقل عليه بعض أهل العلم الاتفاق أن الآية نزلت بسبب استشكالهم وسؤالهم، وسبقت الرواية أنهم سألوا أيضاً عن حال أنفسهم، عن صلاتهم السابقة.

"روى ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى."**

[1] - أخرجه مسلم في الإيمان باب شعب الإيمان (ج/١ص٤٦-١٦١).

لاحظ الآن إيمانكم بماذا قيده؟ إيمانكم بالقبلة السابقة، فصارت المسألة منوطة بالإقرار والإذعان والتصديق، إقراركم بالقبلة الأولى، وتصديق النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، واتباعه إلى القبلة الأخرى، فصار الإيمان هنا هو الانقياد لأمر الله -عز وجل-، وفي المعنى الذي قبله الإيمان هو الصلاة إلى بيت المقدس السابقة، وذلك القول أيضاً يستلزم هذا القول، وذلك -كما سبق- فإن صلاتهم إلى بيت المقدس لا يضيعها الله حيث قبلوا عنه -عز وجل-، وأتمروا بأمره، وانقادوا طواعيةً من غير اعتراض، فبهذا كان ذلك من قبيل الإيمان بالنسبة لهم، بل هو إيمان عظيم جداً؛ لأنه أمر تتزلزل بسببه النفوس، ومعلوم أن القولين إذا كان بينهما ملازمة والآية تحتملهما فإنهما مما يدخلان فيها إن لم يوجد ما يمنع من ذلك، وهنا ليس هناك ما يمنع من هذا.

"أي: **لَيُعْطيكم أجرهما جميعاً،** {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

ما فسرها هنا.

"**إن الله**" هذا تعليل لما سبق، فالله -عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملاً لكمال رأفته ورحمته بخلقه -جل وعلا-، فلا يضيع أجورهم وأعمالهم، بل يحتسبها لهم، ويجازيهم عليها، ومن أسمائه الشكور، وهو الذي يجازي بالحسنات إحساناً، بل يزيد بالجزاء فيجازيه الجزاء الأوفى، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، هذا معنى الشكور، وهذا معنى شكر الرب لعبده، شكر الله له بمعنى أثابه على عمله، وضاعف له أيضاً المثوبة والأجر.

{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة] فإنّ –هنا- تدل على التوكيد، وفي نفس الوقت تشعر بالتعليل، والرأفة إذا فسرناها بشيء من التوسع في التعبير قلنا: هي الرحمة، وإذا أردنا أن نفرق ونذكر ما تفترق به الرأفة عن الرحمة، نقول: الرأفة نوع من الرحمة، بعض أهل العلم يقول: أكبر وأشد من الرحمة، وبعضهم يقول: الرأفة والرآفة بمعنى الرحمة الرقيقة، يقال: يرأف بكذا، والرأفة بكذا، بمعنى الرحمة، لكنها رحمة رقيقة، {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة] فلا يضيع أعمالهم الصغيرة، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} [(٧) سورة الزلزلة] فكيف يضيع صلاتهم التي هي من أعظم أعمالهم، لا سيما مع هذا الثبات العظيم؟! فإن مقتضى رحمته -سبحانه وتعالى- خلاف ذلك.

"**وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كُلَّما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه؟)) قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها))**[2].

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [سورة البقرة (١٤٤)]."

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (ج٥/ص٢٢٣٥ -٥٦٥٣)، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (ج٨/ص٩٧-٧١٥٤).

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] (قد) إذا دخلت على الفعل المضارع ماذا تفيد؟ قد يجود البخيل، وقد يكبو الجواد، هنا (قد) للتقليل؛ لأن ذلك يقع قليلاً منه، (قد يسافر زيد) احتمال، (قد سافر زيد) هذه للتأكيد والتحقيق أن هذا الأمر متحقق، فهنا دخلت على الفعل المضارع {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] والله قطعاً يرى وجهه يتقلب في السماء، فهذا له نظائر في كتاب الله -عز وجل-، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ} [(٦٣) سورة النـــــور] وما إلى ذلك، فماذا يقال فيها؟ إذا رأيتها منسوبة مضافة إلى الله -عز وجل- فإن ذلك يعني المبالغة في التحقيق، تدل على التحقيق إذا دخلت على الفعل المضارع منسوباً إلى الله -عز وجل-، ولها أمثلة في القرآن، كلما جاءت مضافة إلى الله فهي للتحقيق، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ} [سورة البقرة (١٤٤)] أي قد رأينا ذلك.

ومعنى تقلب وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- في السماء أنه كان يرفع بصره يتطلع إلى أمر الله -عز وجل- أن يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يحبها، وهذا فيه رد على قول من قال: إن توجه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى بيت المقدس كان من عند نفسه، وهذا من أغرب الأشياء، وإن قال به بعض أهل العلم، فهذا ظاهر وصريح في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتطلع إلى قبلة إبراهيم، وينتظر أمر الله أن يوجهه إلى القبلة لمحبته لها؛ ولأن المشركين قد شغبوا عليه، قالوا: يدّعي أنه على دين إبراهيم ويخالفه في القبلة؟! وأهل الكتاب يعلمون أن قبلة النبي الذي سيبعث ستكون قبلة الأنبياء قبله وهي الكعبة.

{تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] أي: تطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- برفع بصره إلى السماء ينتظر أمر الله -عز وجل-.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] هذه اللفظة (نولينك) تحتمل أن تكون بمعنى التولية، تقول: دعه وما تولى، إنسان بيده أموال لأيتام أو تحت يده رعية، أو أمانة من الأمانات فتقول: دعه وما تولى من الولاية (فلنولينك) تقول: الله أولاك نعمه بمعنى أعطاكها، وملكك إياها.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] يحتمل أن يكون بمعنى نعطينّك قبلة تحبها وترضاها وتعجبك، فهذا وإن كانت تحتمله الآية إلا أنه غير متبادر، والقرآن إنما يحمل على المعنى المتبادر، ولا يحمل على المعنى البعيد إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولذلك كان معنى التولي هنا من التولي الذي هو التوجيه، تقول: ولى وجهه إلى كذا بمعنى وجهه إلى كذا، (فلنولنيك) أي: فلنوجهنك وجهة ترضاها، والقبلة هي الوجهة، وهذا هو المتبادر وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"**قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما هاجرَ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم -عليه السلام-، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [(١٤٤) سورة البقرة] إلى قوله: {فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة]**

وقال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] وقال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة]."

هذه الآية {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ} [(١٤٤) سورة البقرة] ذكرنا سابقاً عند قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء} [(١٤٢) سورة البقرة] أن بعض أهل العلم قال: إن هذه الآية متقدمة في النزول على قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ} [(١٤٢) سورة البقرة] فهو أعلمهم أن السفهاء سيقولون ذلك ليمهد، ثم بعد ذلك نسخ القبلة {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٤) سورة البقرة] ثم أعلمه ليطمئنه أن السفهاء سيشغبون عليه ويقولون: كذا وكذا فلا تلتفت إليهم، فعلى هذا نسخت القبلة، ثم ذكر الله -عز وجل- ما يطمئن نفوسهم بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء} [(١٤٢) سورة البقرة] وكذا على قول من قال: إن قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء} [(١٤٢) سورة البقرة] كما سبق عُبر بها بصيغة المستقبل وهي من الأمر الماضي؛ لأن ذلك قد استمر، مستمر هذا الشغب والتلبيس بما يتعلق بالقبلة، والله تعالى أعلم.

"روى الحاكم عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٤) سورة البقرة] **قال: شطره: قِبَله، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه."**

الشطر بمعنى الناحية والجهة للشيء، ناحية الشيء وجهته، الجهة شطر المسجد الحرام، وإن كان الشطر يأتي بمعنىً آخر لكن في غير هذا الموضع، وهو شطر الشيء بمعنى النصف.

"وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبَير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم، وقوله: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] **أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً."**

بمعنى ولوا وجوهكم في أي مكان تكونون ناحية البيت، وهذا أمر مجمع عليه أنه يجب أن يتولى الإنسان الكعبة، فمن كان في المسجد فإنه يستقبل -كما سبق في درس المقنع- الكعبة، ومن كان في خارج المسجد فإنه يستقبل المسجد، وهذا ليس بإطلاق، فإذا كان جنب المسجد بجواره لا نقول: أستقبل المسعى، هذا الكلام غير صحيح، وأما من يصلون في وسط المسجد إلى جهات أخرى -فهذا أمر في غاية العجب- حيث توجهت سجادته أو قبته التي يصلي على عتباتها، فهذا ما تصح صلاته.

"ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه، وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} [(١٤٤) سورة البقرة] **أي: واليهود -الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس- يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله:** {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٤٤) سورة البقرة]."

يعني أن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق بمعنى: يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما يجدونه في كتبهم، وهذا هو المتبادر، وبعض أهل العلم يعبر عن هذا فيقول: يعلمون أنه الحق أنها قبلة إبراهيم والأنبياء من بعده، فقبلتهم جميعاً هي الكعبة، وبعضهم يقول: يعلمون أنه الحق من ربهم أي هذا التحويل، يعلمون من صفته أنه سيحول من هذه القبلة إلى هذه القبلة، وكل ذلك لا إشكال فيه، فهم يعرفون وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومهاجره، ويعرفون قبلته، وما سيكون من أمره، فهم يعلمون أن هذه القبلة التي هم يشغبون عليها أنها حق من الله -عز وجل-، وهي قبلة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وقبلة الأنبياء من بعده.

وعلى هذا الاعتبار تكون قبلة جميع الأنبياء إلى الكعبة، والأنبياء حجوا البيت، كما هو معروف، وتعرفون الأحاديث الواردة في هذا، ومسجد الخيف صلى فيه سبعون نبياً، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر بوادي الأزرق: ((كأني أنظر إلى موسى))[٣].. إلى آخره.

فالمقصود أن قبلة الأنبياء إلى الكعبة، وبعض أهل العلم يُفهم من كلامه خلاف هذا، ومن الناحية الواقعية اليهود يستقبلون بيت المقدس، وإن أردت أن تحدد أكثر قل: يستقبلون الصخرة، فالمسلمون لا يعظمون هذه الصخرة، فاليهود يستقبلونها حيث كانوا، والنصارى يستقبلون المشرق مطلقاً حيث كانوا، لماذا اليهود يستقبلون الصخرة؟ يقول بعض أهل العلم: إن اليهود كانوا يحملون معهم التابوت، كما قال تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [(٢٤٨) سورة البقرة] فكانوا حيثما انتقلوا وحلوا أو ذهبت جيوشهم أو نحو هذا وضعوا التابوت وصلوا إليه، يحملونه في أسفارهم ومغازيهم، وإذا كانوا ببيت المقدس وضعوه على الصخرة واستقبلوه.

التابوت هذا يقولون: فيه بقايا -هكذا يقال-، جاء هذا في بعض الروايات، في رواية حسنها الشيخ الألباني: "عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس الخبر كالمعاينة إن الله -عز و جل- أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت))[٤] وجاء في تلك الرواية: "أنه رفع ستة أسباعها وبقي السبع" هذه الرواية حسنها الألباني، وبعض أهل العلم يضعفها.

يقولون: إنها كانت مكتوبة على ألواح من زبرجد فتحطمت، فهذا الذي ترضرض منها، هذا الفتات جمع وهو المراد بقوله: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [(٢٤٨) سورة البقرة] فكانوا يحملونه معهم.. إلى آخره.

فالمقصود أنهم كانوا يستقبلون التابوت، ويضعونه على الصخرة إذا نزلوا في بيت المقدس، فرفع التابوت فصاروا يستقبلون المحل الذي يضعونه عليه دون أن يُوجهوا إلى ذلك، وأما النصارى فهم لشدة عداوتهم لليهود خالفوهم فاستقبلوا المشرق، وإلا فقبلة الجميع هي الكعبة على قول طائفة من أهل العلم، وهو صريح كلام ابن جرير في {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة].

{لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ} [(١٤٤) سورة البقرة] أي: قبلة إبراهيم والأنبياء من بعده.

---

3 - أخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات (ج١/ص١٠٥ - ٤٣٨).

4 - أخرجه أحمد في المسند (ج١/ص٢٧١ – ٢٤٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير سريج بن النعمان فمن رجال البخاري. وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: ٥٣٧٤.

وابن القيم -رحمه الله- في كلامه في عدد من كتبه تكلم على هذه المسألة، وكلامه فيها فيه شيء من الاختلاف، ففي موضع يقرر أن قبلة جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم -صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم- هي الكعبة، وفي بعضها يقرر أن قبلتهم بيت المقدس أو الصخرة.

ونقل عن السهيلي في بدائع الفوائد ما هو صريح في تقرير هذا المعنى، وعلى كل حال لعل الأقرب -والله أعلم- أن قبلة جميع الأنبياء هي الكعبة، وأن التاريخ الذي كانوا يتعاملون به ليس التاريخ الشمسي، وإنما هو التاريخ القمري أيضاً، وعلى هذا أدلة، ويكفيك منها ما نحن بصدد استقباله قريباً -إن شاء الله- وهو يوم عاشوراء فهو بالتاريخ القمري بهذا الاعتبار، وهو اليوم الذي نجا الله فيه موسى لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- وسألهم عن سبب صيامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٦٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

"{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٥) سورة البقرة] يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس:٩٦- ٩٧] ولهذا قال هاهنا: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} [(١٤٥) سورة البقرة] وقوله: {وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} [(١٤٥) سورة البقرة] إخبار عن شدة متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما أمره الله تعالى به."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- بعد ما أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالتوجه إلى هذه القبلة، أخبر أن هؤلاء الذين أوتوا الكتاب ليسوا بطلاب حق، وأنهم في غاية المكابرة، وأنهم مهما ظهر لهم من الحجج والدلائل والبراهين لن يتحولوا إلى قبلته -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثَمّ فإن ذلك يقتضي قطع الطمع من إيمانهم، ومن تحرِّي قبولهم وتقريبهم بناءً على موافقتهم في القبلة، فإن موافقتك لهم في قبلتهم في بيت المقدس لا يعني أن هؤلاء سيلينون، تلين عريكتهم، ويتقبلون عنك ما جئت به، بل هم في غاية الإصرار على الباطل، ومن ثم فلا ينبغي للإنسان أن يقلق من تحويل القبلة مخافة أن تنفر قلوب هؤلاء الذين ربما يُطمع في إيمانهم بهذه الموافقة، فهؤلاء لا سبيل إلى استمالة قلوبهم، فهم مكابرون، ومقيمون على ضلالهم وباطلهم، فلا تلتفت إليهم، ولا تعبأ بهم، هذا وجه الارتباط.

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ} [(١٤٥) سورة البقرة] اللام هنا هي لام القسم، أو موطئة للقسم، كأنه يقول: والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان فإنه لا يغير ذلك من حالهم شيئاً، لن يتبعوا قبلتك، فإذاً لا تكترث بهم، ولا تشتغل بهم، ولا تنظر إلى خواطرهم، أو استمالة قلوبهم؛ لأن هؤلاء لن يوافقوك على ذلك، فهذا أَخبَرَ به عن حالهم، ثم وَصف نبيه -صلى الله عليه وسلم- وما هو عليه من الثبات العظيم، هذا هو المعنى المتبادر، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-.

{وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} [(١٤٥) سورة البقرة] هذا إخبار، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن هذا بمعنى النهي، نهي للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتبع قبلتهم، لكنه في غاية البعد، وإنما هو إخبار عن حال رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وثباته على أمر ربه، وقبوله هذه القبلة.

والقبلة -كما ذكرنا من قبل- شعار، فهي من أعظم ما يكون من شعار أهل الدين، وهي رمز له، ومن ثَمّ فإن التحول منها ليس بالأمر السهل، ليس كنسخ قضية تتعلق بالطهارة، أو مسألة تتعلق بعبادة أخرى، إنما هو شعار لأهل الملة والدين، كما ذكر ابن القيم -رحمه الله- فيما ذكرته سابقاً.

"وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته، واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره."

يعني هنا قال: **{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم}** [(١٢٠) سورة البقرة] فهذا هو الشاهد الذين يَعْنيه ابن كثير -رحمه الله-، بأن الإنسان إذا انحرف عن الحق وهو يعلم، العالم إذا انحرف فإن ذلك أعظم من انحراف غيره من سائر الناس، ولهذا تعرفون ما وقع لذلك الذي يقال له: بلعام بن باعوراء في قوله: **{فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}** [(١٧٥-١٧٦) سورة الأعراف] فأسوأ مثلين في كتاب الله -عز وجل- هما للعالم المنحرف الذي لا يعمل بعلمه -ما ذكرهما الله -عز وجل- للعوام- الأول الكلب، والثاني الحمار.

الكلب: ضربه الله -عز وجل- مثلاً لرجل من بني إسرائيل أتاه الله آياته، وكان من علمائهم فانحرف، ولم يكن متبعاً لما علم، فحاد عنه، فكان بهذه المثابة.

والثاني: مثلاً ضربه الله لطائفة بكاملها، وهم اليهود الذين أعطاهم الله كتاباً وعلماً، وميزهم بهذا عن سائر الأمم، ومع ذلك لم يعملوا بكتابهم، فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، فأهل العلم إذا ضلوا فإن ذلك يكون أعظم من ضلال غيرهم وانحرافهم، فالمسألة تتفاوت، كما قيل: على قدر المقام يكون الملام.

وهذه الآية يتكلم عليها أيضاً أهل العلم فيما يتعلق بالمسألة المعروفة وهي بلوغ التكليف والحجة: **{مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [(١٤٥) سورة البقرة].

"ولهذا قال مخاطباً الرسول والمراد به الأمة: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٥) سورة البقرة]."

يعني من بعد ما جاءك من العلم أن هذه القبلة حق، وأنها من أمر الله -عز وجل- ونحو ذلك، هذا المعنى الذي يتبادر منها، وربما كان المعنى أوسع من هذا، فهذا كله مما أعلمه الله -عز وجل- به، يعني ما الذي أعلمه الله -عز وجل- به؟ أنهم يعلمون ذلك حقاً، **{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}** [(١٤٤) سورة البقرة] وأنهم مقيمون على باطلهم، لا يتخلون عنه بحال من الأحوال، لن يتحولوا إلى قبلتك؛ لأن هذه القبلة التي حولتُك إليها هي حق ثابت من عند الله -عز وجل-، فهذا كله مما جاءه من العلم عن الله -عز وجل-، ولهذا فإن ابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمل قوله تعالى: **{مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [(١٤٥) سورة البقرة] على هذه المعاني جميعاً، ما الذي جاءه من العلم؟ هي هذه الأمور التي أعلمه الله -عز وجل- بها، ولا يختص بواحد دون غيره، فهي قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وولده، إلى غير ذلك من الأمور التي سبقت، والله تعالى أعلم.

" {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٦-١٤٧) سورة البقرة] **يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا."**

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة] "يعرفونه" يعرفون ماذا؟ يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعرفون نبوته كما يعرفون أبناءهم، كما جاء ذلك عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- أنه يعرف نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر من معرفته لولده؛ لأن ولده لا يدري لعل امرأته قد قرفت، فأما نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي أثبت عنده وآكد وأقوى وأبين من معرفته لولده الذي من صلبه.

وبعض أهل العلم يقول {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة]: **إن** الضمير يعود إلى القبلة وليس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فابن جرير -رحمه الله- يقول: يعرفون أن الكعبة هي قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقبلة الرسل من بعده، وأما القبلة التي هم عليها فهي قبلة محدثة، وكذلك قبلة النصارى في التوجه إلى المشرق، يعرفون هذا فهو ثابت عندهم في كتبهم، أو من خبر الأنبياء الذين بعثهم الله -عز وجل- فيهم.

{وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [(١٤٦) سورة البقرة] الحق هنا بحسب ما يقال في الضمير في قوله: "يعرفونه"، فإذا قلنا: إن الضمير في "يعرفونه" يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فيكون: "ليكتمون الحق" يعني في نبوته، فيغيرون صفته، فبدلاً مما يجدون أنه ربعة بين الرجال، يقولون: إنه طويل بائن الطول.. إلى غير ذلك، وإذا قيل: إن قوله: "يعرفونه" الضمير يعود إلى أمر الكعبة وأنها قبلة إبراهيم والأنبياء بعده، فيكون: "ليكتمون الحق" يعني: أمر القبلة.

فعلى كل حال هم يكتمون الحق كما وصفهم الله في آيات كثيرة، ومن كتمهم الحق ما يتعلق بأمر القبلة، وما يتعلق ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، إذ إنهم قد عرفوا صفته ومع ذلك وقع الإنكار منهم.

ثم قال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٤٧) سورة البقرة] نفس القضية في المراد بالحق من ربك ونفس الاحتمالات السابقة. ويمكن أن يكون الحق من ربك المقصود به جنس الحق، يعني لا يختص بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا بأمر القبلة، الحق من ربك فالزمه، {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة].

"كما جاء في الحديث: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل معه صغير: ((ابنك هذا؟)) قال: نعم يا رسول الله، أشهد به، قال: ((أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه))[1] قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً -صلى الله عليه وسلم- كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمه.

---

1 - أخرجه أبو داود في كتاب الديات باب لا يؤخذ أحد بجريرة أخيه أو أبيه [جزء ٢- ص٥٧٥ - ٤٤٩٥)، وأحمد في المسند [جزء ٢- ص ٢٢٦ - ٧١٠٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم : ١٣١٧.

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [(١٤٦) سورة البقرة] **أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة].**"

يعني يعلمون أمر القبلة، أو يعلمون أمر محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو يعلمون الأمرين معاً، وهذا كله حق، فهم يكتمون الحق في أمر القبلة، فالآيات نازلة فيها، وهم كتموا الحق أيضاً في حق محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فإن قوله: {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة] يحمله بعض المفسرين على هذه المعاني جميعاً، في أمر القبلة، وفي أمر محمد -عليه الصلاة والسلام-، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

"**ثم ثبّت تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة].**"

ما جاء به هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة] والامتراء المقصود به الشك، وهل كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاكاً؟ الجواب طبعاً: لا، حاشا وكلا، فهو أوثق الأمة إيماناً، وأعلمهم بالله -عز وجل-، والنهي عن الشيء لا يقتضي وقوعه من هذا المنهي عنه، وإنما هو للتحذير من ذلك.

وما يتعلق بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ففي مواضع كثيرة من القرآن يُؤمر -صلى الله عليه وسلم- ويُنهى ويكون المقصود بذلك أمته، إذ إن الأمة تخاطب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا فإن الخطاب الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- تارة يكون مختصاً به، وتارة تراد به الأمة، وتارة يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللأمة.

فالله يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ} [(١) سورة الأحزاب] وهو أتقى الأمة لله، {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [(١) سورة الأحزاب] وحاشا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطيع الكافرين والمنافقين، وهنا: {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة] أي: لا تكن من الشاكين.

فعلى كل حال بعض أهل العلم يحمل مثل هذا على أن المراد به الأمة، ابن جرير -رحمه الله- يقول: هذا خطاب للأمة، نهيٌ لها عن الامتراء والشك، وإلا فإن هذا لا يتطرق إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وليس ذلك بمستغرب أن يخاطب النبي -عليه الصلاة والسلام- وتراد أمته، وعلى كل حال -كما قلت- مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- أو نهيه عن شيء لا يعني إمكان وقوعه منه، وهذا له أمثلة كثيرة في القرآن، وكذلك بعض الأساليب الأخرى، مثل ما يكون على سبيل الشرط مثلاً فإن ذلك لا يعني إمكان الوقوع، مثل: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] فهذا لا يمكن أن يكون، ولكن هذا يؤتى به لتقرير معنىً، أو لبيان باطل، أو لدفع شبهة، ونحو ذلك.

"**{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة] قال العوفي عن ابن عباس: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} يعني بذلك: أهل الأديان.**"

القبلة: فِعْلة من المواجهة، وهي بمعنى الجهة، ولكل وجهة يعني: أي جهة هم مستقبلوها، ومتوجهون إليها، على كل حال أي أنهم لا يتبعون قبلتك، ولا أنت ستتبع قبلتهم، لكل وجهة، أي هو متوجه إليها، ومو ليها

وجهه، والضمير في موليها راجع إلى (كل)، هذا الأقرب والأرجح، وهو الذي عليه كثير من أهل العلم من المفسرين والمحققين، واختيار الحافظ ابن القيم، **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] راجع إلى ما سبق من قوله: "كل"، وعلى هذا يكون المعنى: **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: متوجه إليها، فكل قوم يتوجهون إلى قبلتهم من أهل الملل والديانات، فكل ملة تتجه إلى قبلتها، هذا هو المعنى المتبادر، وأما ما قيل من غيره ففيه بعد؛ لأن بعضهم يقول **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة]: إن ذلك في أهل الإسلام بحسب مواقعهم من الأرض وتوجههم إلى الكعبة، فناس في الشمال، وناس في الجنوب، وناس في كذا، فهذا فيه بعد.

ومنهم من يقول: إن الضمير في قوله: "هو" عائد إلى الله -عز وجل- مع أنه لم يرد له ذكر، **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: أن الله موليهم إياها، وهذا أيضاً فيه إشكال إلا إذا فسر بما ذكرت آنفاً مع أن فيه بعداً، إذا فسر بأنه هو موليها أي: الله موليهم إياها، بمعنى أن ذلك في المسلمين حيث يقعون في أنحاء شتى عن الكعبة، فكل يستقبل القبلة من ناحيته، أما عن القول الذي ذكره بعض أهل العلم من أن المقصود هو موليها أي: الله هو موليهم إياها، والمقصود به أهل الملل، فهذا فيه إشكال، فكيف تكون قبلة أولئك المختلقة الله -عز وجل- هو الذي ولاهم إياها؟! فالأقرب أن الضمير "هو" راجع إلى ما سبق من قوله: "كل"، ولكلٍّ يعني من الملل والنحل وأهل الديانات وجهة –جهة- هم مستقبلوها، هو موليها هؤلاء الناس أهل هذه الديانة هم متجهون إليها، وليس الله -عز وجل- هو الذي وجههم إليها.

"وهداكم أنتم أيتها الأمة للقبلة التي هي القبلة، وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع ابن أنس والسدي نحو ذلك، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [(٤٨) سورة المائدة]."

لكن على قراءة ابن عامر: "هو مُولاّها" كيف يكون المعنى؟ على ماذا يحمل؟ هل يكون ذلك في أهل الأديان؟ لا، وإنما هو بالنسبة للمسلمين، كما ذكر هذا جمع من أهل العلم، وأحياناً تجدون القول يذكر في التفسير والواقع أنه منزل على قراءة أخرى، وعلى كل حال ربما فسر بعضهم إحدى القراءتين بالأخرى، يعني مثلاً: "هو موليها" تحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله، الاحتمال موجود، ربما بعضهم يفسر هذا بالقراءة الأخرى: "مَولاّها" لكنه لا يخلو من إشكال؛ لأن الضمير: في "هو مُولاّها" في القراءة الأخرى يرجع إلى (كل)، ما يمكن أن يرجع إلى الله، "هو مُولاّها" الله مولاها، ما يجئ.

فعلى كل حال القاعدة: أن القراءتين إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فيكون هذه لها معنى، وهذه لها معنى.

{هُوَ مُوَلِّيهَا} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: صاحب القبلة متوجه إلى قبلته أياً كانت، "هو مُولاها" على هذه القراءة يكون المعنى أن الله موليه إياها، باعتبار أن ذلك في القبلة الحق، ولهذا بعض أهل العلم يقول: إن ذلك في تعدد القبلة حيث كان من أمر الله، فسواء توجهتم إلى بيت المقدس أو توجهتم إلى الكعبة فهذه قبلة وهذه قبلة،

ولكلٍ وجهة -قبلة- هو مولاها بمعنى أن الله -عز وجل- وجه إلى هذا ووجه إلى هذا، وكله حق حينما وجهكم إليه، وهذا المعنى ليس ببعيد، والآية تحتمل معنى آخر، لكنني لم أقف على أحدٍ ذكره، وهو معنى قريب، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ} [(١٤٨) سورة البقرة] ما المناسبة بين ذكر استباق الخيرات وبين الوجهة؟ يعني يمكن أن يقال: فبادروا إلى امتثال أمر الله -عز وجل-، واستقبال قبلتكم التي وجهكم إليها، والتقرب إلى الله -عز وجل- بهذا الامتثال، وبالصلاة نحوها.. إلى غير ذلك.

"**وقال هاهنا**: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) **سورة البقرة**]... "

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٦٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"**وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى:** {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [(٤٨) سورة المائدة] **وقال هاهنا:** {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: **هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.**"

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فعرفنا وجه الشبه بين هذه الآية وبين قوله: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [(٤٨) سورة المائدة]، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: سارعوا إلى امتثال أمر الله -عز وجل- بالتوجه حيث وجهكم إلى هذه القبلة، ويدخل في عمومها المبادرة إلى الأعمال الصالحة، والمسارعة إلى فعل الطاعات، والتقرب إلى الله -عز وجل- بألوان القربات، وقد أخذ منه بعض أهل العلم المبادرة إلى الصلاة في أول الوقت أخذاً من عمومها؛ لأنه قال: {فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ} [(١٤٨) سورة البقرة] ومن الاستباق إلى الخيرات المسارعة إلى الصلاة، وفعلها في أول الوقت، فيدخل فيه المسارعة إلى كل خير.

وقوله: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: يجمعكم من سائر الجهات المتفرقة في نواحي الأرض، وذلك في البعث، كما أنكم تتوجهون إلى بيته الحرام من سائر الجهات، فهذا الربط الذي ذكرته بناءً على المناسبة بين خاتمة هذه الآية وبين موضوعها، الموضوع يتعلق بالقبلة، فالله -عز وجل- قال في آخرها: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: أن الله -عز وجل- قادر على حشركم ونشركم وجمعكم وإن تفرقتم في أنحاء الأرض، فهو على جمعكم قدير، فكما تتوجهون من سائر الجهات إلى القبلة التي وجهكم إليها فهو أيضاً يجمعكم من سائر الجهات ليوم البعث والنشور.

"**وقال تعالى:** {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٤٩-١٥٠) سورة البقرة] **هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قيل: إنما ذُكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولاً:** {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [(١٤٤) سورة البقرة]."

يقول: هذا أمر ثالث من الله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٩) سورة البقرة] يعني أنه كرر ذلك ثالثاً، والقاعدة في هذا الباب: أنه لا تكرار إلا لمعنى، يعني ليس تكراراً محضاً، وإنما في كل موضع يكون هذا التكرار لمعنىً يتعلق به، وسبق الكلام على هذه القضية، ذكرنا في قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حينما تتكرر قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- في أكثر من موضع هذا ليس تكراراً محضاً فهو يذكر في كلٍّ ما يتعلق بالمناسبة التي من أجلها سيقت هذه القصة، فتارة يذكر منها ما يسلي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقويه على تحمل الأذى الذي يصيبه من قومه، وتارة يذكرها لبيان فضل الله -عز وجل- وإنعامه على بني إسرائيل مثلاً، وتارة يذكرها لبيان نقمته، وشديد عقابه، وعظيم سطوته التي لا تطاق، ونكاله بالمجرمين، وتارة يذكر ذلك في سياق بيان فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم- إلى غير ذلك.

والآيات التي تتكرر كثيرة، وقد ذكرت لكم من أوضحها قوله -تبارك وتعالى- في سورة الرحمن: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [(١٣) سورة الرحمن] ففي كل آية من هذه الآيات هي تتعلق بما ذكر قبلها، وليست تكرراً محضاً.

وكذلك قوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [(١-٢) سورة الكافرون] أي: في الحاضر، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [(٣) سورة الكافرون] أي: في الحاضر، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} [(٤) سورة الكافرون] في المستقبل لن أتحول إلى دينكم، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [(٥) سورة الكافرون] أي: في المستقبل لن تتحولوا إلى ديني، فالكل على حال ودين مخالف للآخر، {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [(٦) سورة الكافرون].

وإذا فهمت هذا المعنى سهلتْ عليك أمور كثيرة جداً، بل حتى يسهل عليك الحفظ، يعني مثل سورة الكافرون بعض الطلاب ربما يستصعب حفظها، فإذا أدرك هذا المعنى اتضحت له القضية، رأيت مرة طالباً في الجامعة يقول: هذه السورة لم أتمكن من حفظها، قلت: الأمر سهل، هذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، قال: لأول مرة الآن حفظتها، ولذلك مما يذكر في تسهيل الحفظ هو ربط المعنى خاصة في الآيات المتشابهة، وهذا له كلام -على كل حال- في غير هذا الموضع.

فهذه الآية: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ} [(١٤٩) سورة البقرة] الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو بناء على القاعدة التي ذكرتها آنفاً: أن هذا في كل موضع بحسبه، وذكر بعض أهل العلم غير هذا، لكنّ فيه معانيَ بعيدة، وفيها شيء من التكلف، وبعضهم يقول: هذا كله للتأكيد لأهمية الموضوع، فهو أمر مزلزل لكثير من النفوس، فاحتاج إلى أن يعاد مرة بعد مرة.

والأحسن -والله أعلم- أن يربط كل موضع من هذه المواضع المتكررة بالسياق الذي ذكر فيه، فليس ذلك من التكرار المحض.

وأيهما أحسن أن نقول: هذا للتأكيد أو نقول بأن هذا في كل موضع له معنىً آخر؟ الأحسن الثاني؛ لأن القاعدة أن التأسيس أولى من التأكيد؛ لأن التأسيس يأتينا بمعنى جديد، وأما التأكيد فهو مجرد تكرار ليؤكد فيه المعنى، ولا معنى جديد، إنما هو المعنى الأول يقرره ويؤكده.

"ولا ريب أنهم أدخلُ في هذا الخطاب منه -صلى الله عليه وسلم-، فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله اعلم.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام..."

هو ينقل الآن كلام أبي القاسم السهيلي لا كلام ابن القيم، يذكر وجهاً للسهيلي ثم يرد عليه، ويذكر ما يختاره.

"وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف."

هذا كلام السهيلي يقول: كررها ثلاث مرات لأن المنكرين للقبلة ثلاثة أصناف.

"اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم، وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل، وكفار قريش قالوا: ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل، وآثر عليها قبلة اليهود، فقال الله له حينما أمره بالصلاة إلى الكعبة: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] **على الاستثناء المنقطع، أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون، وقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [(١٤٧) سورة البقرة]."

هذا كلام السهيلي قال كُرر قوله: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ}** [(١٤٩) سورة البقرة] ثلاث مرات؛ لأن الطوائف المنكرة ثلاث، لكن هذا فيه إشكال، ننظر رد ابن القيم له في (بدائع الفوائد) صفحة ثلاثمائة وسبعة وخمسين، يقول: "وقول أبي القاسم أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً رداً على الطواف الثلاث ليس بالبين، ولا في اللفظ إشعار بذلك، والذي يظهر فيه أنه أمر به في كل سياق لمعنىً يقتضيه، فذكره أول مرة ابتداء للحكم ونسخاً للاستقبال..."[1]. المرة الأولى وقع به النسخ، وتوجيه أهل الإيمان إلى استقبال الكعبة هذا في المرة الأولى لما قال: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}** [(١٤٩) سورة البقرة] لأنه لأول مرة يطرق أسماعهم، فهذا الذي حصل به إثبات الحكم، ووقوع النسخ، فقال: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٤٤) سورة البقرة].

"ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم، حيث يجدونه في كتبهم كذلك، ثم أخبر عن عبادتهم وكفرهم" والظاهر أن العبارة فيها تحريف، والصواب: "أخبر عن عنادهم وكفرهم"، "وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضاً بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من إتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم، وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء، ثم أخبر أن لكلٍّ وجهة هو مستقبلها، ومموليها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ". قال: كل ملة لهم وجهة يستقبلونها، فأنتم استقبلوا المسجد الحرام، في هذا السياق لما ذكر أن كل نحلة وطائفة وأهل دين يستقبلون وجهة فأنتم أيها المؤمنون استقبلوا بيت الله الحرام.

---

[1] - بدائع الفوائد.

"ثم أعاد الأمر به غير مكررٍ له تكراراً محضاً، بل في ضمنه أمْرُهم باستقبالها حيث كانوا، كما أمَرَهم باستقبالها أولاً حيث ما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيث ما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم، وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له، فتأمله، والله أعلم".. إلى آخره.

يقول لهم: الآن كل أهل ملة لهم قبلة، فاستقبلوا هذه القبلة، ثم قال لهم: هذه قبلتكم في أي مكان تكونون فيه، في تنقلكم، في مغازيكم، في أسفاركم، إلا ما استثني من صلاة الإنسان النافلة على الراحلة عند جمع من أهل العلم، وعلى قدميه أيضاً على الأرجح فإنه يستقبل الجهة التي هو متوجه إليها، وكذلك في بعض الحالات في الحرب أو الخوف فإنه يسقط الاستقبال.

هذه ثلاث مرات على كلام ابن القيم، وعلى كل حال ربطها بالسياق هو الأولى، وننظر الآن إلى الحافظ ابن كثير ماذا يقول:

"**فقال: أولاً:** {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] **إلى قوله:** {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٤٤) سورة البقرة] **فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبه، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها.**"

ذكر في هذا المقام الإجابة إلى طلبه، هل هذا يعارض كلام ابن القيم أنه وقع به تقرير الحكم وإثبات النسخ؟ لا يعارضه، إنما كان ذلك بناء على رغبة كانت عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وتطلع إلى هذا، ففي المرة الأولى قرر التوجه إلى بيت الله الحرام إجابة إلى طلبه -صلى الله عليه وسلم-، وكان بذلك نسخ الحكم، وتقرير استقبال القبلة في المرة الأولى.

هذا من أنفع الأشياء في التفسير والحديث، وسيأتي في الكلام -إن شاء الله- على حديث: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[2] أن هذا ليس من قبيل التكرار.

"**وقال في الأمر الثاني:** {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٤٩) سورة البقرة] **فذكر أنه الحق من الله، وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فبين أنه الحق أيضاً من الله، يحبه ويرتضيه.**"

يعني الآن في الموضع الثاني يقول: بين له أن هذا هو الحق، وعلى كلام ابن القيم يكون الموضع الثاني لكل أمة وجهة وهذه وجهتكم، وهو قريب من هذا؛ لأنه ذكر ما يتجه إليه أهل الباطل ويستقبلونه، وبين لأهل الحق وجهتهم.

"**وارتقى عن المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه، وذكر في الأمر الثالث: حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون**

---

[2] - أخرجه البخاري في بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [جزء ١- ص ٣ - ١] وفي كتاب الأيمان والنذور باب النية في الأيمان [جزء ٦ - ص ٢٤٦١ - ٦٣١١] وفي كتاب الحيل باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها [جزء ٦ - ص٢٥٥١ - ٦٥٥٣]، ومسلم بلفظ الإفراد: ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال [جزء ٣ - ص ١٥١٥ - ١٩٠٧].

باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم، -عليه السلام- إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صُرف الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة، وأعجبهم استقبال الرسول إليها."

يُفهم هذا الكلام؛ لأنه كلام جيد، وكذلك كلام ابن القيم، في فرق بين التوجيهين، والأمر قريب؛ لأن ذلك إنما يلتمس بالنظر والاجتهاد، فتختلف فيه الأنظار، لكنه كله يجري على قاعدة: التأسيس مقدم على التوكيد، وربط كل آية بموضعها من السياق، فهذه ملاحِظ حسنة جيدة، ومن حيث التوجيه هي في غاية التقارب، وليس هناك دليل صريح بأنها ذكرت هنا من أجل كذا، لكن كل ذلك محتمل.

نعيدها مرة ثانية حتى نضبطها، كلام ابن القيم: أول مرة تقرير الحكم ونسخ بيت المقدس، والثانية: لكل ملة وجهة وهذه وجهتكم، والثالثة: حيث ما توجهتم، وفي أي مخرج خرجتم فهذه قبلتكم في الحل والترحال، وعلى كلام ابن كثير يكون الأمر الأول: لتقرير الحكم إجابةً لرغبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي الموضع الثاني: أنه الحق الذي يرتضيه ربكم، ليس فقط مجرد إجابة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، بل هو الحق الذي رضيه الله وأحبه، والأمر الثالث: قطع حجج المعاندين {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة].

"وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله -سبحانه وتعالى- أعلم، وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة...."

الآن قوله: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٥٠) سورة البقرة] لاحظ التنويع في الخطاب، {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ} [(١٥٠) سورة البقرة] هذا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٥٠) سورة البقرة] لماذا غاير بينهما؟ بعض أهل العلم يقول: هذا في المخرج، {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٥٠) سورة البقرة] {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] في حال استقراركم، في أي ناحية من النواحي، {فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٥٠) سورة البقرة] الأول: حيث ما توجهت فول وجهك شطر المسجد الحرام، والثاني: وحيث ما كنتم في أي مكان كنتم نازلين فاستقبلوا هذه القبلة، هذا وجه قريب، وبعض أهل العلم يذكر غير هذا في المفارقة أو في وجه الفرق بين العبارتين، والعلم عند الله -عز وجل-.

"وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس..."

الآن {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] الناس هنا الراجح أنهم أهل الكتاب، هذا هو المتبادر، وهو الذي اختاره كثير من المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ما هي حجتهم؟ يمكن أن تفترض عدداً من الأشياء التي يمكن أن يقولوها، أو يؤخذ ببعض ما نقل عنهم مما قالوه، فربما زعموا أنهم هدوا المسلمين إلى قبلتهم وهي بيت المقدس، يدعون أنهم هدوهم إلى هذا، ومن ثم أيضاً يحتجون

عليهم فيقولون: هديناكم إلى هذه القبلة فاتجهتم إلى قبلتنا وخالفتمونا في ديننا، كيف هذا؟! فحولوا إلى المسجد الحرام، هذا احتجاج اليهود {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] فهذا هو الأقرب، ومن ثم فإن قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] حمله كثير من المفسرين على أن المقصود به هم المشركون من العرب، فالمشركون من العرب كانوا يحتجون بهذا التحويل على أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- قد تحول إلى قبلة أبائه، وذلك مؤذن بتحوله إلى دينهم، فمثل هؤلاء لا سبيل إلى قطع ألسنتهم، فالناس يتكلمون بما يحلو لهم، ولا يستطيع الإنسان أن يضع قفلاً على أفواه الناس حتى لا يتكلموا، فهم يتكلمون ولكن ما قيمة هذا الكلام، ولهذا فالوقت يضيق الآن عن الكلام على قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] هل الاستثناء هنا متصل أو منفصل؟ بمعنى إذا قلنا: إنه منفصل فيكون معنى الآية: لئلا يكون للناس عليكم حجة لكن الذين ظلموا منهم {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [(١٥٠) سورة البقرة]، أو أن الاستثناء متصل...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأنبه أولاً في بداية هذا الدرس إلى أمر مهم وهو حينما يسمع أو يقرأ الإنسان الآيات التي علم تفسيرها يجد فرقاً بينها وبين الآيات التي لم يطلع على تفسيرها، فرق عظيم جداً إذا كنت تستحضر ما قيل، مع أنه شيء يسير، لكن فرق كبير جداً لا تشبع من سماع القرآن، فهكذا يؤثر فهم المعاني في تدبره، والرغبة في قراءته وسماعه، ومن ثم فإن الإنسان قد لا يستطيل الصلاة إطلاقاً، مهما طالت في قيام الليل في رمضان أو في غيره، أو في التلاوة إذا كان يفقه المعاني.

ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: "عجبت لمن يقرأ القرآن وهو لا يعرف معانيه كيف يلتذ به؟!" فهذا مثال ونموذج، فكيف لو كانت معرفتك بمعانيه أكثر وأوسع، فهذه القضية نتحدث عنها كثيراً، ولكن لعلك تجرب في نفسك في بعض الأجزاء التي علمت تفسيرها، ستجد فرقاً شاسعاً بين الحال الأولى والحال الثانية، أسال الله -عز وجل- أن يفتح علينا جميعاً، ويشرح صدورنا لفهم كتابه.

الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] **أي أهل الكتاب، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس.**

وقوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] **يعني مشركي قريش، ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة."**

قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] هذا الاستثناء هل هو متصل أو منقطع؟ أكثر المفسرين على أنه منقطع، بناءً على أي شيء قالوا ذلك ورجحوه؟ بناءً على أن هؤلاء المكابرين الظالمين لا حجة لهم أصلاً، فالله -عز وجل- يقول: حولناكم إلى الكعبة لقطع الحجة عنكم؛ لئلا يقول أهل الكتاب: وافقونا في قبلتنا، هديناهم إلى القبلة، فلماذا لا يوافقوننا في ديننا؟ أو يتوهم متوهم منهم فيقول: إنا نجد من صفة هذا النبي أنه يوجه إلى الكعبة، فهي قبلة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فلماذا يتوجه إلى بيت المقدس؟ فهم يعلمون أنه سيحول، ويجدون ذلك في كتابهم، فلقطع حجتهم حولناكم إلى الكعبة، لكن الذين ظلموا منهم وهم المجادلون عناداً ومكابرةً لا حجة لهم، فالله حول المؤمنين إلى الكعبة لقطع حجة الناس وهم اليهود، لكن هؤلاء المكابرين الظالمين لا تعبئوا بهم، ولا تلتفوا إليهم، هذا قول من قال: إن الاستثناء منقطع، وهذا هو الملحظ الذي جعلهم يقولون بهذا القول، لماذا قالوا به؟ لهذا السبب، أن الظالمين لا حجة لهم.

وإذا قيل: إنه متصل، وهذا عليه جماعة من المحققين، منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وجماعة، يقولون: هذا الاستثناء متصل وليس منقطعاً {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] سيحتجون، لن تنقطع دعاواهم الباطلة، بأي اعتبار؟ قلنا: إن الظالمين المكابرين لا حجة صحيحة لهم، إذاً ما المراد؟ المراد: أن الحجة تأتي في القرآن بمعنى ما يحتج به ويتشبث به، سواء كان صحيحاً أو باطلاً، فهذا أمر موجود في كتاب الله -عز وجل- حيث يذكر دعاوى المبطلين في عدد من المواضع.

وربما سماها حجة مع بطلانها، يقول الله -عز وجل- في نظائر هذا: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} [(١٦) سورة الشورى] فسماها حجة ووصفها بالبطلان، داحضة: بمعنى باطلة ذاهبة، وأيضاً: {لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ} [(٦٥) سورة آل عمران] وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} [(٢٥٨) سورة البقرة] وقوله: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] وقوله: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ} [(٨٠) سورة الأنعام] وقوله: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ} [(٢٠) سورة آل عمران] والشواهد على هذا كثيرة جداً.

فهذه الدعاوى الباطلة التي يقولها الكفار سماها الله حجة، فدل ذلك على أن الحجة تطلق على ما يُحتج به بصرف النظر عن كونه صحيحاً أو باطلاً، يعني: ما يُستدل به، وهو الدليل والحجة، وهنا ما يمكن أن نسميه قاعدة وهي: أن القرآن يعبر أحياناً باعتبار حال السامع، وهذا له أمثلة كثيرة متنوعة، مثل: تسمية دعاوى المبطلين حجة، ومثل تسمية المعبودات التي يعبدونها آلهة، وهي ليست آلهة، ويسميها أرباباً، ويُجري عليها ما يجري على العقلاء فيقول: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا} [(١٩٥) سورة الأعراف] فهي أصنام غير عاقلة فالأصل أن يقال: تمشي بها، تبطش بها، ما يقال: يمشون بها، يبطشون بها، تقول مثلاً: لا تسقط عليك هذه الثريات، وإذا كانت للعقلاء تقول: لا يسقطون عليك، ولكنه يجري عليها أحياناً ما يجريه على العقلاء، يبطشون، يمشون، يسمعون، يبصرون، ينظرون، وما أشبه ذلك.

وكذلك حينما يعبر بالترجي مثل (لعلّ) في أحد الوجهين في تفسيرها، إذا صدرت من الله -عز وجل-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [(٤٤) سورة طــه] يعني على رجائكما، هذا إذا ما فسرت بالوجه الآخر الذي هو التعليل، يعني على رجائكما بنظر المخلوقين، فاحتمال أن يهتدي إذا قلتما له كلاماً ليناً وإلا فالله يعلم أنه لن يهتدي.

كذلك أيضاً حينما تأتي (أو) التي قد تفيد الشك على أحد وجوه التفسير، في مثل قوله تبارك تعالى عن يونس -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [(١٤٧) سورة الصافات] إذا قلنا: (أو) هنا بمعنى (بل) فلا إشكال، لكن إذا قلنا: إنها تدل على الشك والاحتمال فهذا لا يكون من الله -عز وجل-، لكن بحسب الناظر إليهم من المخلوقين، يقدرهم فيقول: مائة ألف أو يزيدون، وهناك أمثلة أخرى في مثل هذه وغيرها.

فهنا يمكن أن يكون الاستثناء متصلاً {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] يعني ستبقى لهم حجة باطلة؛ لأن قصدهم العناد والمكابرة، سيحتجون ويشغبون عليكم.

ومن هم هؤلاء الذين ظلموا؟ بعض أهل العلم يقول: هم اليهود، وكثير منهم يقول: هم أهل الإشراك، وهذا اختاره ابن جرير، وهو الذي مشى عليه ابن كثير كما هنا، فهؤلاء من أهل الإشراك إذا حولت القبلة ماذا سيقولون؟ يقولون: وافَقَنا وعاد إلى قبلتنا، حنّ إلى دين أبيه، فهذا يؤذن بتحوله إلى ديننا، فلن يسكتوا فلا تعبئوا بهم، واشتغلوا بما أنتم بصدده، فهذا على القول بأن الاستثناء متصل، فالحجة تأتي بمعنى ما يحتج به، بناءً على الأصل الذي ذكرته آنفاً، وهو أن القرآن يعبر أحياناً باعتبار حال السامع ونظره.

يقول: **يعني مشركي قريش**، إذاً هذا اتفق عليه ابن جرير وابن كثير وكثير من المفسرين {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] يعني: المشركين، ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم رجع عنها؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في هذا، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل، وهذا الكلام سبق الإشارة إليه.

"**وقوله: {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: لا تخشوا شبه الظالمين المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه.**"

وهذا أصل كبير لأهل الإيمان لا بد أن يدركوا أن ما يثيره أعداؤهم ويشغبون به لا ينبغي أن يكون مثار قلق بالنسبة إليهم، فضلاً عن أن يغيروا دينهم من أجل كسب ودهم ورضاهم، فإن هذا أمر لن يتحقق، إنما هي الهزيمة الحقيقية العظيمة التي لا تقف عند حد، وهذا التقهقر الذي لا يمكن الثبات معه في أرض المعركة، فإن من هزم في مبادئه، وتضعضع، كان ذلك سبباً لتتابع الهزائم عليه، فلا تثبت له قدم، ولا يكون مؤهلاً بحال من الأحوال للثبات أمام عدوه عند المواجهة، فاثبتوا على ما أنتم عليه من حقائق هذا الدين الذي سنه الله -عز وجل- لكم.

وأما هؤلاء فلن يفتئوا ولن ينقطعوا من الشغب على دينكم، ولا يكون ذلك سبباً لقلقكم وخوفكم {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [(١٥٠) سورة البقرة] فالخشية تكون من الله وحده، قد لا تقدرون على مواجهتهم، ولكن يجب عليكم أن تثبتوا على دينكم، وهذا لا خيار فيه.

أما التراجع وتغيير المبادئ وتبديل دين الله -عز وجل- من أجل كسب رضاء المخلوقين فإن هذا أمر لا يحل بحال من الأحوال.

"**وقوله: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] عطف على {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة؛ لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٥٠) سورة البقرة].**"

يعني ذكر لهم ثلاثة أشياء من حكمة هذا التحويل وهي: قطع حجة الظالمين عنهم، وإتمام النعمة عليهم بتحويلهم إلى القبلة التي هي قبلة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهي القبلة الوسط التي ضل عنها اليهود والنصارى، فهدى الله -عز وجل- لها هذه الأمة {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٥٠) سورة البقرة] وهذه هي القضية الثالثة أي: من أجل هدايتكم.

"{وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: **إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها."**

الآيات التي مضت في تحويل القبلة مما يوطئ لقضية النسخ {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] وهذه الآية رقمها مائة وستة، والآيات التي جاءت بعدها مقررة لها، يعني أن الله -تبارك وتعالى- ذكر قضية النسخ وقررها، وبيّن أنه ما ينسخ من آية إلا ويأتي بمثلها أو أفضل منها، وبيّن عموم قدرته {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٠٦) سورة البقرة] وأن الملك ملكه، والخلق خلقه، يفعل فيهم ويتصرف كما يشاء من غير منازع.ثم علمهم كيف تكون حالهم مع نبيهم -صلى الله عليه وسلم- من الانقياد والقبول والتسليم، ثم ذكر حال أهل الكتاب معهم وأمانيهم حيث يتمنون إضلال هذه الأمة، ورجوعها عن دينها، فهو يبيّن لهم حال عدوهم وأن بغيتهم هو ردتكم عن دينكم، فلا تعبئوا بهم، ولا تكترثوا بكلامهم وأقوالهم ومطالبهم، وإنما أعرضوا عنهم، وأَمَرَهم بما يكون به صلاحهم، وصلاح معاشهم ومعادهم ومجتمعاتهم، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وبعد ذلك ذكر جملة من مخازي هؤلاء من أهل الكتاب، {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] وقول اليهود: {لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ} [(١١٣) سورة البقرة].. إلى آخر ما ذكر عنهم، ورد عليهم.

ثم بيّن بعض فظائعهم، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(١١٤) سورة البقرة] وبيّن أن الجهات جميعاً لله -عز وجل-، {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]، ثم ذكر أيضاً فظائع أخرى من نسبتهم الولد إلى -عز وجل-، والأماني أو المطالب التي يتعنت فيها المتعنتون {لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة].

ثم بيّن حال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنه ما أرسل لهذا {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [(١١٩) سورة البقرة] وإنما يأتي بالآيات الله -سبحانه وتعالى-، فهو إنما مهمته البلاغ والإنذار، ثم قطع أمله من اليهود والنصارى في تحصيل رضاهم {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [(١٢٠) سورة البقرة] وبيّن أن هدى الله هو الهدى الذي يجب أن يتمسك به، وبيّن حال طائفة من أهل الكتاب الذين اتبعوا الحق وآمنوا به، ثم ذكّر بني إسرائيل بما ذكّرهم به من إفضاله عليهم وخوّفهم.

ثم ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما جرى له من الابتلاء العظيم والامتحان، وما جعل الله -عز وجل- لبيته الحرام، حيث جله مثابة للناس وأمناً، وذكر بناء إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لهذا البيت، ودعاءه له، وأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، ثم بعد ذلك بيّن أن من يرغب عن ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فقد أضاع حظ نفسه وضيعها، واشتغل بما يضره، وأن دين إبراهيم هو الإسلام، وأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وصى بذلك أبناءه، ويعقوب وصى بذلك أبناءه أيضاً، فهذا هو دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وبيّن لهؤلاء اليهود والنصارى الذين ينازعون في إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وإسحاق ويعقوب، أن هؤلاء لهم أعمالهم، وقد مضوا بأعمالهم وآمالهم، وأن الله يتولاهم ويجازيهم، فأين عملكم أنتم؟ وأين ما فيه نجاتكم؟

ثم ذكر حجة وكلاماً باطلاً لهم، {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [(١٣٥) سورة البقرة] ثم بيّن لهم المنهج الصحيح، وهو الإيمان بالله -عز وجل-، والملائكة والكتب والرسل.. إلى آخره، وبيّن أن هذا هو مهيع الهدى إن فعلوه وآمنوا به فقد صاروا على الطريق، وإلا فهم في ضلال وشقاق.

ورد عليهم في المحاجة في إبراهيم، {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} [(١٤٠) سورة البقرة] ورد عليهم في هذا، ثم قال: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ} [(١٤٢) سورة البقرة] بهذه التوطئة من قوله: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} [(١٠٦) سورة البقرة] الآية مائة وستة، كل ذلك توطئة لما ذكره هنا من تحويل القبلة {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ} [(١٤٢) سورة البقرة] قطع حجتهم عن هؤلاء، وبيّن أنهم ضُلال، وأن الحق هو ما أنتم عليه، وأنه من عند الله فالتزموه، وبيّن عظم هذا النبي الكبير إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وعظّم بيته الحرام، ثم بعد ذلك بيّن لهم حال هؤلاء اليهود، وأنهم سيقولون كذا وكذا، وقال بعده: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة].. إلى آخر الآيات، وأن أهل الكتاب لن يقتنعوا مهما أتيتهم؛ لأنهم يكابرون وهم يعرفون هذا الحق، وأن جميع الملل والطوائف كلٌّ له وجهة.. إلى آخر ما ذكر.

هذا وجه الترابط، أو ما يسمى بالمناسبات بين الآيات في هذا المقطع الطويل، من مائة وستة إلى مائة وأربعة وخمسين، بل إن شئت أن تقول بأكثر من هذا، إلى مائة وسبعة وخمسين.

"{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥١-١٥٢) سورة البقرة] **يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم."**

في قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} [(١٥١) سورة البقرة] قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} هل هو متعلق بالذي بعده؟ أي كما أنعمت عليكم بهذه النعمة {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] كما أني فعلت لكم هذا فاذكروني شكراً على هذا الإنعام والإفضال، هل هذا هو المراد؟ أم أن قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} متعلق بأمر قبله وليس بعده، بحيث يكون الكلام مثلاً هكذا: الزموا طاعتي وتوجهوا إلى القبلة التي أمرتكم؛ لتنقطع عنكم حجة اليهود؛ ولأتم نعمتي عليكم؛ ولعكم تهتدون كما ابتدأتكم بنعمتي فأرسلت إليكم رسولاً؟ بهذا الشكل، أو: ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا فيكم رسولاً، فتكون الكاف في موضع نصب، وقد تكون في موضع الحال، أو نعتاً لمصدر محذوف، الحال مثل: ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا، تكون الكاف في موضع الحال {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً}، وبهذا يكون الكلام مرتبطاً بما قبله، وليس كلاماً جديداً استئنافياً يبتدئ الله فيه تقرير قضية جديدة، ليس المعنى قل لهم: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(١٥١) سورة البقرة] {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] وإنما هو يخاطبهم كما سبق فيقول لهم: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا} [(١٥٠-١٥١) سورة البقرة] فهذا من نعمته -

سبحانه وتعالى- عليهم وإفضاله، فهو يمتن عليهم بهذا، أتممت نعمتي عليكم بتحويلكم إلى أعدل قبلة، وهديتكم إليها، كما أني أرسلت إليكم رسولاً هذه صفته، يعني أنه أضاف إليهم بعْثَ الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل الأنبياء {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] فإضافة إلى ذلك أتم نعمته عليهم بتحويلهم إلى أعدل قبلة وهي قبلة الأنبياء وقبلة أبيهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

"ويزكيهم: أي يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور."

التزكية تشمل المعاني كلها التي يذكرها السلف، يزكيهم من المعاصي، ويزكيهم أيضاً من الشرك، ويزكيهم بالطاعات، ويزكيهم بالتوحيد، فكل ذلك يحصل به التزكية، فعلى قدر استقامة العبد على أمر ربه -تبارك وتعالى- على قدر ما تكون زكاته، فتجد بعض العبارات: يزكيهم بتخليصهم من الشرك، يزكيهم بتطهيرهم من الشرك، يزكيهم بالتوحيد، يزكيهم بإبعادهم عن الذنوب والمعاصي والآثام، كل هذه العبارات بمعنىً واحد، وتدخل في معنى التزكية.

"**{وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ}** [(١٥١) سورة البقرة] **وهو القرآن، {وَالْحِكْمَةَ}** [(١٥١) سورة البقرة] **وهي السنة {وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}** [(١٥١) سورة البقرة] **فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسفَّهون بالقول الفري...**"

القول الفري، يعني المفترى، فكانوا في الجاهلية يُسفَّهون أي: ينسبهم الناس للسفه، ويمكن أن يقال: يَسْفَهون بالقول الفري، يعني: المفترى المختلق.

"فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسفَّهون بالقول الفري، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة."

كانوا يقولون: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك تملكه وما ملك" وأشياء مضحكة محزنة مما كانوا يتعاطونه ويقولونه، من يقرأ في مثل كتاب: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، أو في غيره من الكتب كقصص العرب وغيرها يجد أموراً يندى لها الجبين، يستحي العاقل منها ويتعجب كيف كان هؤلاء بهذه المثابة؟! ثم صاروا في عداد العلماء والكبراء والعظماء ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فصار اشتغالهم بعظائم الأمور من الجهاد والعلم، وتجد كلامهم في تصانيفهم وفيما ينقل ويروى عنهم يُهتدى به، ويُذكر وتُعطر به المجالس، بعد ما كانت تلك الحماقات والسفه والخزعبلات التي يعرق لها الجبين.

وصاروا إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، وصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية [(١٦٤) سورة آل عمران]، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [(٢٨) سورة إبراهيم] قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني بنعمة الله محمداً -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥٢) سورة البقرة] قال مجاهد في قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} [(١٥١) سورة البقرة] يقول: كما فعلت فاذكروني، وقال الحسن البصري في قوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكرْكُم فيما أوجبت لكم على نفسي، وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))[1]".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك وتعالى هنا: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] أي: كما بعثت إليكم هذا الرسول، وفعلت بكم هذا الإفضال والإحسان فاذكروني.

والذكر: يكون باللسان والقلب والجوارح، ولهذا أورد الحديث هنا: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)).. إلى آخره، فهذا داخل تحت عموم قوله تبارك وتعالى: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] اذكروني بألسنتكم أذكركم في الملأ الأعلى، ويدخل فيه أيضاً ذكره تبارك وتعالى بالعمل بالجوارح، ويدخل أيضاً فيه ذكره بالقلب، فإن هذا الذكر تارة يكون بالإقرار بالنعمة باللسان، واستحضارها، وقيام ذلك في القلب مع العمل بالجوارح **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}** [(١٣) سورة سبأ].

ويكون أيضاً باللسان، بذكر الله -عز وجل- بألوان الذكر، ويكون أيضاً بالقلب بقيام القلب بوظائفه التعبدية من محبة وشكر ورضا وصبر وما إلى ذلك من أعمال القلوب، وكذلك بأعمال الجوارح من صلاة وحج.. إلى غير ذلك، فهذا كله داخل تحت قوله: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] ولهذا يقول بعضهم كسعيد بن جبير: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب، فالذكر يكون بالطاعة بجميع أنواعها منقسمة على اللسان والقلب والجوارح، اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب، وكذلك أيضاً بذكره باللسان ((من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) وهكذا.

---

[1] -أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (ج ٨/ص٦٧ – ٢٠٠٨).

"وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال الله -عز وجل-: ((يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة -أو قال: في ملأ خير منه-، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة))[٢] صحيح الإسناد، أخرجه البخاري."

على كل حال هذا مما يدخل في الذكر كما سبق، وقول سعيد بن جبير هو من أوضح ما عبّر به عن معناها: "اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة" وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، فالآية تشمل هذه الأمور جميعاً.

"وقوله: {وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥٢) سورة البقرة] أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [(٧) سورة إبراهيم]."

الآن في قوله: {وَاشْكُرُواْ لِي} [(١٥٢) سورة البقرة] هناك قال: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] فالذكر يكون باللسان ابتداءً، ويكون بالقلب والجوارح، وأما الشكر فهو كما يقولون: يكون في مقابل النعمة، اشكروا لي على هذا الإنعام والإفضال تزدادوا عبودية لله -عز وجل-، وإتباعاً لنبيه -صلى الله عليه وسلم-.

والشكر -كما مر في بعض المناسبات- أصله: من الظهور أو الزيادة، ولهذا يقال للعُسْلوج الذي يخرج من الشجرة -وهو الغصن الصغير الأخضر بعدما تقطع-: شكير، ويقال للدابة إذا ظهر عليها أثر السمن: شكرت الدابة، بمعنى ظهر عليها أثر السمن، فهذا الشكر هو ظهور أثر النعمة على المنعم عليه باللسان والقلب والجوارح، ولهذا قال الشاعر [٣]:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

يقول: إنعامكم وإفضالكم أثّر عليَّ ونتج عنه شكر هذه الثلاثة: القلب واللسان والجوارح.

"وروى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين -رضي الله تعالى عنه- وعليه مُطْرَف [٤] من خَزٍّ[٥] لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

2 - في المسند (ج٣/ص١٣٨– ١٢٤٢٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وذكره البخاري عن أنس بن مالك عن أبي هريرة مختصراً في كتاب التوحيد باب ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وروايته عن ربه (ج٦/ص٢٧٤١ – ٧٠٩٩).

3 - ذُكر البيت غير منسوب لقائل في: ربيع الأبرار (ج١/ص٤٧٢) وفي (نهاية الأرب في فنون الأدب) (ج١/ص٣٣٢) وفي (نفح الطيب) (ج٦/ص٢٧٤) وغيرها.

4 - المُطْرَف: كمُكرم، بكسر الميم وضمّها مع سكون الطاء وفتح الراء فيهما، تقول تميم: مُطْرَف ومُصحَف، وأهل الحجاز يقولون: مِطْرَف ومِصْحَف، وهو واحد المطارف، وهي أردية من خز مربعة لها أعلام، وقيل: ثوب من خز مربع له أعلام، قال الفراء: المطرف من الثياب: ما جعل في طرفيه علمان، والأصل مُطرف بالضم؛ ليكون أخف كما قالوا: مِغزل كمنبر، وأصله مُغزل بالضم من أغزل أي: أدير، والميم زائدة. ينظر: لسان العرب والقاموس المحيط مادة (طرف) والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير(ج٢/ص٣٧١) وجمهرة اللغة (ج١/ص٤١٤) وغيرها.

5 - الخز: هو ضرب من ثياب الإِبْرَيْسَم معروف، وفي هذا الحديث ما يدل على جواز لبسه، قال ابن حجر في فتح الباري (ج١٠/ص٥٥) عند حديث: ((ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر والحرير)): "ووقع عند الداودي بالمعجمتين –الخز- ثم تعقبه بأنه ليس بمحفوظ؛ لأن كثيراً من الصحابة لبسوه، وقال ابن الأثير: المشهور في رواية هذا الحديث بالإعجام -لأنه متناسب مع ذكر الحرير- وهو ضرب من الأبريسم كذا قال، وقد عُرف أن المشهور في رواية البخاري بالمهملتين -لأنه إذا حرم الحرير فالخز نوع منه فيكون تكراراً فالأنسب أن يكون تحريماً لشيء آخر- وقال ابن العربي: الخز بالمعجمتين والتشديد مختلف فيه والأقوى حله، وليس فيه وعيد ولا عقوبة بإجماع". لكن كونه بالمهملتين أرجح، وهو ما رجحه شراح البخاري منهم ابن

قال: ((من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه))وقال روح مرة: ((على عبده))[6]."

من شكر النعمة أن يقر الإنسان بها ولا يجحدها، لا يقول: هذا من عندي، أو إنما أخذته بعلمي وحذقي بألوان المكاسب مثلاً، أو يجحد ويقول: أنا لم أحصّل شيئاً، ولم أربح شيئاً، وهو لم يصدق في هذا الكلام، و مثله الطالب الذي يدخل في الاختبار ويقول للناس بعدما يخرج: أنا لم أعرف الجواب، ولم أحسن الإجابة، وهو غير صادق بهذا، فهذا من كفر النعمة.

وكذلك أيضاً ظهور أثر هذه النعمة باستعمالها فيما أباحه الله -عز وجل- من غير سرف ولا افتخار، ولذلك فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فإذا كان الإنسان قد أغناه الله -عز وجل- فلا يلبس ثوباً مخرقاً فيظهر أثر ذلك عليه، وهذا لا يعارض: ((من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها))[7]، وكذلك في قوله: ((البذاذة من الإيمان))[8] ليس المقصود بالبذاذة: ترك النظافة، وإنما المقصود ترك رفيع الثياب، أي: يلبس أشياء قد تكون وسطاً.

وقوله: {وَاشْكُرُواْ لِي} [(١٥٢) سورة البقرة] عدّيت باللام وهو الذي جاء في القرآن وهو الأشهر والأفصح، تقول: شكرت لك، اشكروا لله، وقد تتعدى بنفسها، ولم يرد في القرآن فيما يحضرني، لكنه ورد في كلام العرب.

إنكمـا إن أنظرتمـاني ساعةً شكرتكما حتى أُغيّب في قبري[9]

قال: شكرتكما، ولم يقل: شكرت لكما، ومنه قول الآخر[10]:

حجر، وإن قال الصنعاني: إن إدخال الحديث في باب اللباس يرجح المعجمتين؛ لأن الخز من اللباس، لكن نقول: إنه وإن أدخله في باب اللباس فالراجح أنه بالمهملتين، وإدخاله في باب اللباس إنما هو من أجل ما عُطِف عليه وهو الحرير. وقد أورد مالك وابن أبي شيبة وغيرهما ما يدل على الترخص في لبس الخز.

6 - في المسند (ج٤/ص٤٣٨ – ١٩٩٤٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير فضيل بن فضالة القيسي فقد روى له النسائي وهو ثقة، وصحح الألباني لفظ: (على عبده) في صحيح الجامع انظر حديث رقم:١٧١٢.

7 - أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (ج٤/ص٦٥٠ – ٢٤٨١)، وأحمد في المسند (ج٣/ص٤٣٩ – ١٥٦٦٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج٢/ص ٣٣٧ - ٧١٨).

8 - أخرجه أبو داود في الترجل، باب النهى عن كثير من الإرفاه (ج٤/ص١٢٥ – ٤١٦٣)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له (ج٢/ص١٣٧٩ – ٤١١٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ج١/ص٢٧١ – ٧٨٨) معجم إياس بن ثعلبة أبو أمامة البلوي، والبيهقي في الشعب، الشعبة الأربعون من شعب الإيمان، وهو باب في الملابس والزي والأواني، وما يكره منها، فصل فيمن اختار التواضع في اللباس (ج٥/ص١٥٥ - ٦١٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٢٨٧٩.

9 - البيت نسبه صاحب (تزيين الأسواق في أخبار العشاق) وصاحب (مصارع العشاق) (ج١/ص٨٤) لجميل بن معمر من رائيته المشهورة (ج١/ص٢٩) التي يقول فيها:

خليليّ عوجا اليوم حتى تسلما *** على عذبة الأنياب طيبة النشرِ

فإنكما إن عجتما لي ساعة *** شكرتكما حتى أُغيّب في قبري

وإنكما إن لم تعوجا فإنني *** سأصرف وجدي فأذنا اليوم بالهجرِ

10 - هو أبو نُخيلة الراجز واسمه: يعمر بن حزن بن زائدة بن لقيط بن أبزى بن ظالم بن مخاشن بن حمان، وحمان هو عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وقيل له: حمان لأنه كان يحمم شفتيه، وهو شاعر راجز محسن متقدم في القصيد والرجز، والبيت من الطويل يمدح فيها مسلمة بن عبد الملك يقول فيها:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى ... وما كل من أوليته نعمةً يقضي

قال: شكرتك، ولم يقل: شكرت لك، وهذا موجود على كل حال ومعروف، لكن المستعمل في القرآن هو المعدى باللام "شكرت له".

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٣-١٥٤) سورة البقرة] **لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها."**

أيضاً هذا الذي ذكره في هذا الانقسام إما أن يكون في نعمة فيشكر، وإما في نقمة فيصبر، وهناك ما يزيد على ذلك وهو أن يكون الإنسان في نعمة فيحتاج إلى الصبر مع هذه النعمة؛ لأن الإنسان يطغى في حال الغنى {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} [(٦) سورة العلق] فيحتاج إلى نوع من الصبر يَثبت فيه على طاعة الله -عز وجل-.

ولذلك تكلم أهل العلم كثيراً في المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر، قالوا: الفقير ليس أمامه إلا الصبر أو الجدار، بينما الغني مباهج الدنيا أمام عينه، ويستطيع أن يصل إلى ما شاء من مطلوباته التي تهواها نفسه، ولذلك كان الغنى مظنة الطغيان، فإذا صبر، وحبس نفسه عن الاسترسال مع داعية الهوى فإن ذلك يكون أعظم مما يقع للفقير من الصبر، فهذا لون من الصبر في الواقع ممزوج بالشكر، ولا يتأتى الشكر إلا بهذا الصبر أصلاً.

وكذلك أيضاً النقمة، هل يشكر على النقمة؟ سيأتي في الكلام على الأعمال القلبية -إن شاء الله- أن الشكر له محل في هذا المقام، إذ إن الإنسان في مقابل النقم مطالب بالصبر وجوباً، فإن ارتقى درجة فالرضا، فإن ارتقى درجة فالشكر لله -عز وجل-، وسيأتي بيان وجه الشكر على هذه المصيبة، ونماذج من كلام السلف، وأحوال السلف -رضي الله تعالى عنهم- في شكرهم إزاء النقم؛ لأن المتبادر أن الشكر يكون في محل النعمة أو بسبب النعمة، والصبر يكون بإزاء النقمة، ولكن فيه ما ذكرت أن هذا يأتي فيه هذا، وهذا يأتي فيه الآخر أيضاً.

أمسلمةٌ يا نَجْلَ خير خليفةٍ *** ويا فارس الهَيْجَا ويا جبلَ الأرضِ
شكرتك إن الشكر حَبْلٌ من التقى *** وما كلُّ من أَوليته نعمةً يقضِي
وألقيتَ لما أن أتيتك زائراً *** عليَّ لحافاً سابغَ الطولِ والعرضِ
ونبهْتَ من ذكرى وما كان خاملاً *** ولكن بعض الذكر أنبَهُ من بعضِ.... إلى أخرها
وسمعه الرشيد فقال: "هكذا يكون شعر الأشراف! مدح صاحبه ولم يضع من نفسه" ينظر: (أمالي القالي (ج١/ص١٥) والتذكرة الحمدونية (ج١/ص٤٤٨) و(المحكم والمحيط الأعظم) (ج٣/ص ١٣٣) و(المؤتلف والمختلف) لابن القيسراني (ج١/ص٨٧) و(الحيوان) (ج١/ص١٣٤) و(نهاية الأرب في فنون الأدب) (ج١/ص٣٣٣) و(الجليس الصالح والأنيس الناصح) (ج١/ص٤٢) و(بهجة المجالس وأنس المجالس) (ج١/ص٦٦) و(زهر الآداب وثمر الألباب) (ج١/ص٣٩١).

"كما جاء في الحديث: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))[11] وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [(٤٥) سورة البقرة]."

يعني استعينوا بالصبر بمعنى حبس النفس بالنسبة للمصائب عن الجزع والتسخط، وفي حال النعمة حبس النفس عن البطر، يحبس الإنسان نفسه فيحملها على طاعة الله -عز وجل- شكراً على هذا الإنعام والإفضال، فالطاعة والعبادة والعمل الصالح يحتاج إلى صبر وإلا لصار الناس في أعلى درجات العبودية، ولكن لماذا هذا التفريط في حق الله -عز وجل-؟ بسبب قلة الصبر على الطاعة، وكذلك المعصية فإن النفس قد جبلت على محبة الشهوات {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} [(١٤) سورة آل عمران] فيحتاج الإنسان من أجل فطامها عن محبوباتها إلى صبر، وهذا أمر مشاهد لا يحتاج إلى تقرير، وبالتالي فالإنسان بحاجة إلى الصبر على الثلاثة.

فقوله: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [(٤٥) سورة البقرة] لأنهما من أعظم ما يقوي الإنسان على لزوم طاعة الله -عز وجل-، وتحمل الأكباد والآلام والأتعاب فيسهُل على السالك سلوك الطريق الشاقة التي حفت بها طريق الجنة ((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))[12] فهذا كله يحتاج الإنسان معه إلى استعانة بالصبر والصلاة.

فالصلاة تقوي قلبه وعزمه فيخف عليه السير إلى الله -عز وجل-، ويسهل عليه، فهذه المناجاة تؤثر فيه من ألوان صلاح القلب والحال والعمل، والإنكفاف عما لا يليق، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت].. إلى غير ذلك من آثارها، فيستعين بها، فيحصل له راحة القلب، وإلا فإن قلبه قد يتفلت عليه، يحتاج هذا القلب إلى ضبط وترويض، فالصلاة من أعظم ما يحصل به ذلك.

ولهذا لما نُعي إلى ابن عباس أخوه، نزل من راحلته -وهو بين مكة والمدينة- فصلى وقال: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [(٤٥) سورة البقرة].

ونقل ذلك عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي زوج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه-، لما مرض فأغمي عليه، فظنوا أنه قد مات، فخرجت إلى المسجد، وجعلت تصلي عملاً بهذه الآية: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [(٤٥) سورة البقرة].

"والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود، وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضاً واجب، كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "الصبر في بابين: الصبر لله فيما أحَب، وإن ثقل على

---

11 - الحديث من زيادات عبد الله على المسند [جزء ٥- ص ٢٤- ٢٠٢٩٨] بلفظ: ((لا يقضي الله له شيئاً)) قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل ثعلبة بن عاصم، وباقي رجال الإسناد ثقات" وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [جزء١- ص٢٧٧-١٤٨)، وأصله في مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير [جزء٤- ص٢٢٩٥-٢٩٩٩).

12 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها [جزء٤- ص٢١٧٤– ٢٨٢٢).

الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كَرِه، وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يُسلم عليهم -إن شاء الله-."

يعني: يسلم عليهم الملائكة {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [(٢٣-٢٤) سورة الرعد] بما صبرتم على طاعة الله في الدنيا، وصبرتم عن معصيته، وصبرتم على أقداره المؤلمة، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: إن الثاني أفضل، وهو الصبر على الطاعة، قال: لأنه المقصود، بمعنى أن الإنسان إنما خلق للقيام بوظائف العبودية بالعمل الصالح، وأما الترك فإنه ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصود لغيره، فإذا ترك السرقة والقتل وما إلى ذلك فإن هذا ليس مقصوداً لذاته؛ لأن النفس ما خلقت للترك، فلو تُصور إنسان ما عنده شيء من الأعمال التي يقوم بها، وإنما هو الترك فقط، هو ما يفعل كذا، ولا يفعل كذا، وبعدُ ماذا يفعل؟ ماذا عن صلاته، عن صيامه، عن ذكره لله -عز وجل-؟ هذه التي خُلق الإنسان للقيام بها، هذه وظائف العبودية، هذه التي يكون فيها بناء القلب، ويكون فيها الرقي في الدرجات عند الله -عز وجل-، ولهذا كان الترك لا يؤجر الإنسان عليه إلا إذا كان بنية، كما سيأتي -إن شاء الله- في الكلام على حديث: (الأعمال بالنيات) في أول عمدة الأحكام، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "فإن الترك ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصوداً لغيره" قاله في الكلام على مسألة إنكار المنكرات.

فمن الخطأ أن تربي الناس دائماً: احذروا، هذا بدعة، هذا ما يجوز، هذا فيه كذا، هذا لا تقرب منه، لا تفعل كذا، لا تقارف كذا، وبعد هذا؟ ماذا عمل هذا الإنسان؟ أعطه عملاً إيجابياً يقوم به، يشتغل به، بقلبه ولسانه وجوارحه، ما يعرف إلا فقط التحذير، هذا ينتهي ويتلاشى، يموت قلبه، فهو بحاجة إلى عمارة هذا القلب بالعمل الصالح، فهو المقصود، ولهذا كان الصبر على الطاعة أعظم من هذه الحيثية.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء} [(١٥٤) سورة البقرة] يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: ((إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب -جل جلاله-: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون))[13].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نسمة المؤمن

---

13 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون [جزء٣ - ص١٥٠٢ – ١٨٨٧).

طائر تَعْلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))[14] ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً."

هنا يرد سؤالان: السؤال الأول: في وجه تخصيص بعض المؤمنين، أو أصحاب بعض الأعمال الصالحة بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء، مع أن الجميع في حال البرزخ إما ينعمون وإما يعذبون، وحياة الشهداء هي حياة برزخية، فالبرزخ: هو الحاجز، هو تلك المنزلة التي تكون بين الدنيا وبين الآخرة، ولا شك أن نعيم الشهداء ليس كنعيمهم حينما يدخلون الجنة بعد البعث والنشور والحساب، حيث يحاسب الناس، ثم بعد ذلك يدخل الناس الجنة، فالشهداء من جملة من يدخل الجنة آنذاك، فهذا دخول دون دخول في الحياة البرزخية، والحياة البرزخية يحصل فيها النعيم لروح الإنسان، أو العذاب لروحه، ويحصل على سبيل التبع من ذلك للبدن ما يحصل، فكما أن الغالب في هذه الحياة هو نعيم البدن، أو عذاب البدن والروح تبعاً له، فالحياة البرزخية على العكس، والحياة الآخرة يستوي فيها نعيم البدن ونعيم الروح.

فالمقصود ما وجه تخصيص بعض المؤمنين مع أن الجميع إما يعذبون وإما ينعمون؟ وهذا السؤال وارد، وقد أورده بعض أهل العلم كابن جرير الطبري -رحمه الله-، فمنهم من يجيب كابن جرير: بأن أولئك قد خصوا بالذكر تنويهاً بشأنهم، وترغيباً بعملهم، ورفعاً لمقامهم، وإلا فالجميع يُنعم أو يعذب، على اختلاف درجاتهم في النعيم.

وربما يكون أدق في الجواب أن يقال: إن هؤلاء أحياء حياة تختلف عن حياة غيرهم في البرزخ، وإن كانت كلها حياة برزخية، فهم في أجواف طير خضر، تسرح في الجنة، كما أخبر الله -تبارك وتعالى-، فهم أحياء {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [(١٦٩) سورة آل عمران] فلما كان الذي يقال عادة لمن قُتل: إنه قد مات وقضى نحبه، أخبر الله -عز وجل- أن هؤلاء أحياء، وإن كانت ماتت أجسادهم، ولهذا عوضهم الله -عز وجل- بهذا، فجعل أرواحهم في جوف طير خضر بعد ما تخرقت أجسادهم حينما قتلوا في سبيل الله -عز وجل-، والحديث على ظاهره أن: ((أرواحهم في جوف طير خضر)) فصارت كالمراكب للأرواح، أو كأن الله عوضهم عن أجسادهم بهذه.

بينما الفرق بينه وبين الحديث الآخر -وهذا هو السؤال الثاني-: ما الفرق إذاً بين الأمرين؟ بين الشهيد وبين عموم المؤمنين؟ فهنا الحديث ثابت صحيح ((نسمة المؤمن)) يعني روح المؤمن ((طائر تَعْلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)) ((أرواح الشهداء في جوف طير خضر)) وبالتالي لا يصح أن يقال كما قال بعضهم: إن المقصود: على هيئة طير خضر،أي أن الأرواح تصور بهيئة طير خضر؛ لأن الحديث صريح وواضح أنها في جوف طير خضر، تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وتسرح في الجنة، أي تطير في

---

14 - أخرجه مالك في الموطأ رواية يحيى الليثي [جزء١ - ص٢٤٠ – ٥٦٨) والنسائي في كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين [جزء٤ - ص ١٠٨- ٢٠٧٣) وابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر القبر والبلى [جزء٢ - ص ١٤٢٨– ٤٢٧١) وأحمد في المسند [جـزء٣- ص ٤٥٥ – ١٥٨١٥) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب لم يسمع هذا الحديث من جده كعب بن مالك، وأخرجه أيضاً ابن حبان في كتاب السير باب فضل الشهادة [جزء ١٠- ص ٥١٣ – ٤٦٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير [جزء١٩- ص٦٣– ١١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: حديث رقم:٢٣٧٣.

الجنة، بينما أرواح المؤمنين كما قال: ((نسمة المؤمن طائر)) فهي ليست في حواصل طير، وإنما تكون طائراً يطير في الجنة، ولاحظ الفرق بينهما تلك -أرواح الشهداء- تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، تلك الطير التي فيها أرواح الشهداء، بينما أرواح المؤمنين تكون طائراً يَعْلَق بشجر الجنة، أيهما أكمل؟ الشهيد أكمل، تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، هذه تعلق -تأتي بضم اللام وفتحها- تَعْلُق وتَعْلَق بشجر الجنة، وهذا اللفظ (تَعْلُق) يُشعر بمعنى، وهذا المعنى هو ما يحصل به قدر الكفاية من الأكل أو القوت، أو نحو ذلك، ويعرف هذا من استقراء النصوص التي وردت فيها هذه العبارة: ((تعلُق في شجر الجنة)).

وعلى كل حال مسألة الكلام في الأرواح فيها كلام طويل، والأقوال والخلاف فيها كثير، والله يقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٨٥) سورة الإسراء] ولكن الذي ينبغي أن يتفطن له الإنسان، ويحتاج إلى معرفته هو وجه الجمع بين النصوص، لو قال قائل: ما مزية الشهداء إذاً؟ نقول: إنها تطير في الجنة حيث شاءت، وهي في أجواف طير خضر، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، فما يحصل لهم من النعيم أكمل وأعظم مما يحصل لغيرهم.

والكلام على الروح -كما قلت- قضية غيبية، ولذلك لها اتصال بالأجساد، وجاء في الأحاديث أن المؤمن تفتح له نافذة في قبره، يرى منها مكانه في الجنة، ويأتيه من رَوْحها ونعيمها، والكافر يفتح له أيضاً كذلك، إلى قيام الساعة، ولهذا يقول المؤمن: رب أقم الساعة، والكافر يقول: رب لا تقم الساعة، فهذا يأتيه العذاب في القبر، وهذا يأتيه من الرَوْح ويوسع له في القبر.. إلى آخره.

فهذا يدل على أن الأرواح تعذب وتنعم في القبور، وهذه النصوص التي عندنا والتي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تدل على أن النعيم يحصل في الجنة، وجاء في بعض النصوص وبعض الآثار عن السلف ما يشعر بغير ذلك، فعلى كل حال يقال -والله تعالى أعلم-: إن الأرواح لها شأن أخر، ولها حركة وانتقال لا تقاس بحركة وانتقال الإنسان في هذه الحياة الدنيا، بل حتى في الرؤى تجد الإنسان نائماً، والله -عز وجل- أخبر أنه يتوفى الأنفس حين موتها، فالأرواح تصعد ولكنه صعود دون صعود، يبقى تعلقها بالبدن، ويبقى الإنسان حياً، لا يقال: مات، فهي وفاة صغرى، لكن هذه الروح تحلق وربما التقت ببعض الأرواح من الموتى أو الأحياء، وربما رأى الإنسان نفسه في مقامات رفيعة في الملأ الأعلى، ورأى نفسه ربما في أماكن بعيدة من الأرض، فالأرواح لها تنقلات، ولها أحوال.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى الأنبياء كل واحد منهم في مقامه في الملأ الأعلى، مع أنهم ينعمون في الجنة، يعني حال الأنبياء أكمل من حال الشهداء وعموم المؤمنين، فإذا كان هذا يحصل للشهداء فالأنبياء أعظم، ورآهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في السماوات، وأخبر أنه رآهم في الجنة، ورأى موسى -صلى الله عليه وسلم- وهو يصلي في قبره، وصلى -صلى الله عليه وسلم- بالأنبياء في بيت المقدس وهم في الملأ، وقد رآهم في الملأ الأعلى.

فالأرواح لا تقاس على هذا العالم المادي، فلها من التنقل والحركة ما لا ندركه، وتصل إليه عقولنا، وبالتالي نقول: أرواح المؤمنين تنعم وتعذب في القبر، وتنعم أيضاً في الجنة، وتنعم أيضاً ربما في غير ذلك، بعض

السلف يقول: على أفنية القبور أرواح المؤمنين، ولكن تنعمها في الجنة لا يكون من قبيل دخول الجنة الــذي هو دخولها حينما يستفتحونها، فيدخلون منازلهم، ولكنها تطير في شجر، تَعْلَق في شجر الجنة، وما إلى ذلــك، أما دخول المنازل فإن ذلك يكون بالدخول الأكبر، وهو ما يكون في الآخرة، نسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم منهم، فهذا دخول دون دخول.

وكذلك النار فالله -عز وجل- أخبرنا: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غــافر] لكن قال: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [(٢٥) سورة نوح] فهم يعذبون في قبورهم، والنبي -صلى الله عليــه وســلم- رأى أناساً في النار، رأى عمرو بن لحي الخزاعي في النار، ورأى رجالاً يعرفهم، فهذا دخول دون دخــول، فهم يعذبون في قبورهم، وأرواحهم أيضاً لها تنقلات، وتعذب أيضاً في النار، ولكن هذا دخــول دون دخــول، فالدخول الأكبر حينما يؤتى بجهنم، {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [(٢٣) سورة الفجر] ويرونها فيدعون بالويل والثبور، ويعطون كتابهم بشمالهم.. إلى آخره، ثم بعد ذلك يكبكبون فيها، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، فهــذا هــو الدخول الأكبر -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-.

فهذا كلام مختصر في مسألة الأرواح بحيث يُدرك الجمع بين هذه الأحاديث، وأنه لا تخالف بينها.

وابن القيم -رحمه الله- يرى أن ذلك بحسب حال كل إنسان، فكما أنه في العموم تَعْلَق في شجر الجنة، لكــن منهم من تحبس روحه، كذلك الشهيد، الأصل أنه في جوف طير خضر لكن النبي -صلى الله عليه وســلم- أخبر عن ذاك الذي غل الشملة حينما ذكر الصحابة بلاءه، وقالوا: هنيئاً له الشهادة، قال: ((إن الــشملة التــي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا))[١٥] فدل على أنه حبس، لم يكن في جــوف طير خضر، وإنما هو في قبره يعذب بتلك الشملة، فابن القيم -رحمه الله- يقول: تختلف أحوال الناس فقــد لا يكون في جوف طير خضر وهو شهيد، فيحبس بسبب عمل عمله، وكذلك أهل الجنة قد تكون روحــه علــى فناء قبره، أو في قبره، أو نحو ذلك، تنعم مثلاً، وقد تكون تطير، وما ذكرته سابقاً لا يعارض هذا علــى كــل حال، والله أعلم.

هذا الحد يكفي في الكلام على هذه المسألة، والاسترسال في هذا والزيادة عليه أمر لا حاجة إليه؛ لأن هذا من الغيوب...

---

15 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر [جزء٤- ص١٥٤٧ – ٣٩٩٣]، وفي كتاب الأيمان والنذور، باب هل يدخل فــي الأيمــان والنذور الأرض والغنم والزروع والأمتعة [جزء٦- ص٢٤٦٦ – ٦٣٢٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٥-١٥٧) سورة البقرة]:

"أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده أي يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [(٣١) سورة محمد] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] وقال هاهنا: {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] أي: بقليل من ذلك."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد أكد الله -عز وجل- هذا الوعد باللام والنون الثقيلة فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} [(١٥٥) سورة البقرة].

وفي قوله: {حَتَّى نَعْلَمَ} [(٣١) سورة محمد] المقصود بالعلم هنا -كما سبق- العلم الذي يترتب عليه الجزاء، ويكون ذلك بصيرورة هذا الأمر وتحوله من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حتى نعلم ذلك حاصلاً وواقعاً.

فالحاصل أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا تعليق على قوله: {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] لماذا عبّر هناك بلباس الجوع والخوف، وفي هذه الآية قال: {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] لماذا فرق بينهما؟ هذا الذي ذكره ابن كثير هنا هو ما يسمى بلطائف التفسير، فقال: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ} [(١١٢) سورة النحل] أي: تلك الطائفة أو القرية الكافرة عذبها الله -عز وجل-، أنزل بها بأسه، فأذاقها لباس الجوع والخوف، فصار ذلك ظاهراً عليهم، كاللباس الذي يظهر على لابسه.

وهنا يقول لأهل الإيمان: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ} [(١٥٥) سورة البقرة] فهو شيء يسير لا يكون بتلك المثابة التي هي من قبيل العذاب، مثل: أذاقها لباس الجوع والخوف، هذا ما ذكره في وجه التفريق بين العبارتين.

فإذا قيل: لطائف التفسير فهذا مثال منها، وليس ذلك بقاطع في كثير من هذه المواضع التي يذكرون فيها تلك اللطائف، ولكنها معانٍ جميلة، إلا أنه لا يقطع بها في كثير من الأحيان، ولهذا أنكر الشاطبي -رحمه الله- الاشتغال بها، والتعرض لها في التفسير؛ لأنه يرى أن ذلك يخرج بالمفسر عن المعنى المقصود الذي سيقت من أجله الآية، فيُشتغل بهذه الدقائق عن غيرها من المهم، إضافة إلى قضية التكلف والقول على الله -عز وجل- بغير علم، لكن التوسط في هذا -والله أعلم- هو الأحسن، التوسط بين من أغرق في هذه الأشياء وأتى بأمور متكلفة، وأضاع المعنى الذي من أجله سيقت الآية؛ لأنك تقرأ في بعض كتب التفسير فتجد أحياناً أن

المعنى الأصلي ذهب، وشُغل القارئ بدقائق قد تكون متكلفة في كثير من الأحيان، فالتوسط أن يذكر المعنى الأصلي الذي ذُكرت من أجله الآية ويبيّن، ويذكر من هذه الملح واللطائف بغير تكلف.

ولو جُمعت هذه اللطائف كان حسناً، فإذا مر بك شيء من هذا تدونه، أحياناً هذه تجدونها في كتب التفسير، لا سيما التي تعنى بالجوانب البلاغية، مثل تفسير ابن عاشور وأشباهه، وتجد من هذا أيضاً في مثل تفسير الرازي، ومن نقل عنه كابن عادل الحنبلي في كتابه: اللباب، وتجدها أيضاً كثيراً في كلام ابن القيم -رحمه الله-، وتجدها أيضاً في كتب خاصة فيما يعرف بالمتشابه اللفظي وتوجيه ذلك ككتاب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، والبرهان في متشابه القرآن لزكريا الأنصاري، وملاك التأويل للغرناطي، وأمثال هذه الكتب، وتجد أيضاً مثل هذه الأشياء في كتب مفرقة، أحياناً قد تجدها في تراجم بعض العلماء، يقول: وكانت له استنباطات فيذكر بعض الدقائق والاستنباطات العجيبة واللطائف.

"وقال هاهنا: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] **أي: بقليل من ذلك، {وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **أي: ذهاب بعضها، {وَالأنفُسِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **كموت الأصحاب والأقارب والأحباب، {وَالثَّمَرَاتِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها، ولهذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **ثم بيّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم، فقال: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}** [(١٥٦) سورة البقرة] **أي: تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}** [(١٥٧) سورة البقرة] **أي: ثناء من الله عليهم ورحمة، قال سعيد بن جبير: أي أمنة من العذاب."**

تفسير الصلاة من الله -عز وجل- هنا بالثناء عليهم أحسن؛ لأن من أهل العلم من يفسره بالرحمة فيكون ذلك من قبيل التكرار، يعني كأنه قال: "أولئك عليهم رحمة من ربهم ورحمة" والأحسن هو ما ذكره ابن كثير وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن الصلوات جمع صلاة، وهي ذكره في الملأ الأعلى، وذلك يقتضي ويستلزم الرحمة، ولذلك من فسره بالرحمة يمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم؛ لأن من ذَكَره الله -عز وجل- في الملأ الأعلى فهو من أهل رحمته، وليس من أهل سخطه وعذابه، ولذلك هؤلاء العلماء ما جاءوا بهذا من فراغ بل يحمل ذلك على أنه من قبيل التفسير باللازم، فإذا قال الإنسان: "اللهم صلِ على محمد" كثير من أهل العلم يقولون: المقصود به الدعاء له بالرحمة، فهذا بمعنى ذكره في الملأ الأعلى، وهو مقتضٍ ومستلزم للرحمة، وأما صلاة الملائكة فهي استغفار، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [(٧) سورة غافر] {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} [(٥) سورة الشورى] والصلاة من المؤمنين الدعاء.

"{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] **قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: نعم العدلان ونعمت العلاوة."**

العدلان: عدلا البعير ما يوضع على ظهره يسمى عدلاً، عدل من الجهة اليمنى، والعدل الآخر في الحمل من الجهة الأخرى، هذا هو العدل، ولذلك تجدونهم يضعون على الدابة -مثل الحمار- ما يسمى بالخرج، وهو

معروف، فيه جيب من هاهنا، وجيب من هاهنا، يضعون فيه المتاع، فالمتاع لا يثبت من جهة واحدة، فيضعون ذلك هكذا على ظهره ليعتدل ويثبت، والعلاوة: هي ما يوضع فوق ظهره بينهما، يحمل فوق الظهر فيكون هذا عن يمينه وهذا عن شماله.

"{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة البقرة] فهذان العدلان، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] فهذه العلاوة: وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً."

زيادة في الحمل وهو ما يُحمل على البعير مثلاً، أو الدابة عموماً، فهذا من هذه الجهة وهذا من هذه الجهة وهذا زيادة، فذكر ما لهم بقوله: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة البقرة] فهذان العدلان، ثم قال: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] هي العلاوة فوق ذلك، وحصلوا كل ذلك بصبرهم وقولهم: {إِنَّا لِلّهِ} [(١٥٦) سورة البقرة].

وهذه الأشياء التي أعطانا الله -عز وجل- إياها من الأموال والأنفس والثمرات إنما هي عارية، يأخذها متى شاء، فإذا وقع لهم شيء من سلب ذلك {قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ} [(١٥٦) سورة البقرة] فكل ما بأيدينا إنما هو من الله -عز وجل-، وكله صائر إليه، ونحن أيضاً صائرون إليه -تبارك وتعالى-، فكان ذلك تسلية لنفوسهم.

وقوله: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] اهتدوا إلى الموقف الحق الصواب، والقول الحق الصواب في مثل هذه المقامات، فلم يحصل منهم جزع، ولا تسخط، ولا خروج إلى ما لا يليق مما يفعله من لم يعرف الله -عز وجل- كما ينبغي.

"وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول: "إنا لله وإنا إليه راجعون" عند المصائب أحاديث كثيرة، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: لقد سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قولاً سررت به، قال: ((لا يُصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأَخْلِف لي خيراً منها إلا فُعل ذلك به)) قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: "اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأَخْلِف لي خيراً منها" ثم رجعت إلى نفسي فقلت: "من أين لي خير من أبي سلمة؟" فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا أدبغ إهاباً لي فغسلت يدي من القرض وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم، حشوها ليف، فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي ألا يكون بك الرغبة، لكنني امرأة فيّ غيرة شديدة..."

تقول: توقفي وترددي لا أنني لا أرغب فيك، وإنما هي من شدة الغيرة، أما موضوع الرغبة فهذا لا إشكال ولا جدال فيه.

"فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: ((أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله -عز وجل- عنكِ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالكِ عيالي)) قالت: فقد سلمت لرسول الله -صلى الله عليه

وسلم-، فتزوجها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالت أم سلمة بعدُ: أبدلني بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[1]، ونحوه في صحيح مسلم مختصرا[2].

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [(١٥٨) سورة البقرة] روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- قالت: قلت أرأيتِ قول الله -عز وجل-..."

قبل هذا هناك بعض الأشياء التي لم يتطرق لها، وهي في قوله: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] فالصفا يطلق في كلام العرب على الصخر الأملس، أو الحجر الأملس، والمقصود به -معروف- جبل الصفا الذي يسعى الناس بينه وبين المروة.

وأما المروة فبعضهم يقول: هي الحجارة الصغار اللينة، وبعضهم يعكس فيقول: الصلبة، وبعضهم يقول: البيضاء البراقة، وبعضهم يعكس فيقول: السوداء، وبعضهم يقول: يُطلق على الحجارة اللينة والحجارة الصلبة، كل ذلك يقال له: مروة.

فالحاصل أن الحجر الأملس يقال له: صفا، والحجارة التي قد تكون صغيرة لينة أو صلبة يقال لها: مروة، وبعضهم يذكر في لونها البياض، وبعضهم يذكر السواد.

قوله: {مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] الشعائر: جمع شعيرة، والشعيرة: هي العلامة، أي من أعلام دينه في المناسك، فالصفا من شعائر الله، والمروة من شعائر الله، والطواف بالبيت من شعائر الله، ورمي الجمار من شعائر الله، وذبح الهدي من شعائر الله، بل الهدي نفسه من أعظم شعائر الله، ولهذا قال الله -عز وجل-: {لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ} [(٢) سورة المائدة] فهذا من باب عطف الخاص على العام، فهذا كله من شعائر الله، والدين كله يمكن أن يقال: إنه منقسم إلى شعائر وأمانات، ولا مُشَاحَّة في الاصطلاح، فيكون بهذا الاعتبار وبهذا التقسيم: الشعائر هي الأمور الظاهرة، مثل: الأذان وصلاة الجماعة.. وما أشبه ذلك، والأمانات هي الأمور التي لا تظهر كالطهارة والصيام والصدق مع الله -عز وجل-، والإخلاص له.. وما أشبه ذلك مما لا يطلع عليه الناس، فلو صلى الإنسان وهو غير متوضئ لا يدري عنه أحد، والصوم كذلك، ولهذا قالوا: إن من خصائص الصوم أنه لا يدخله الرياء، بخلاف غيره من الأعمال، بينما يدخله السمعة، يتكلم عن نفسه أنه صائم، فهذا من العبادات التي أشعرها الله -عز وجل- لعباده.

"روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة قالت: قلت..."

طالب: قلت هذه -رعاك الله- لها مكان؟!

عن عروة عن عائشة قالت: قلت: أرأيت قول الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ} [(١٥٨) سورة البقرة] إي نعم ماذا عندكم؟

---

1 - في المسند (ج٤/ص٢٧– ١٦٣٨٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: رجاله ثقات إلا أن المطلب وهو ابن عبد الله بن حنطب روايته عن الصحابة مرسلة، وهو عند مسلم بغير هذه السياقة".

2 - في الجنائز باب ما يقال عند المصيبة (ج٣/ص٣٧ – ٢١٦٥).

تراجعها؟

طالب:.........

جزاك الله خيراً.

طالب:.........

بالضبط، قالت حينما قلت لها هو هذا، لكن نشوف أصل الرواية هل هي هكذا؟

طالب:..........

ما فيه قالت: قلت؟ اقرأ.

طالب:..........

ابن كثير معك؟

طالب:.........

الأصل؟

طالب:..........

أي طبعة؟

طالب:.........

على كل حال تراجع، إن كانت هكذا الرواية فلا إشكال أنها صحيحة، لكن لو كانت عن عائشة قالت هو يحكي الرواية عنها، ثم يقول: قلتُ، يعني هي قالت ذلك بناءً على سؤاله إياها.

"**روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلتُ:** أرأيت **قول الله تعالى:** **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة] **قلت: فوالله ما على أحد جناح ألا يطوّف بهما...**"

طبعاً عروة فهم هذا من رفع الجناح في الشرع، **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة]، فإذا رفع الجناح في القرآن **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}** [(٢٣٣) سورة البقرة] معناه رفع الحرج، والجناح: هو الحرج الذي هو الإثم، فإذا قيل: "فلا جناح عليه أن يطوّف بهما" معناه أن السعي غير واجب، وهذا ما فهمه عروة، وفهْمه هذا هل هو بعيد ولا وجه له إطلاقاً أو أنه له وجه؟ له وجه؛ لأن "لا جناح عليه" أي: لا إثم عليه أن يطوّف بهما أو لا يطوف، كأنه فهم هذا.

فقوله: **{أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة] مفهوم المخالفة أنه إن لم يطوّف بهما لا جناح عليه، فمجرد رفع الإثم عنه بالطواف على فهم عروة لا يعني وجوب ذلك، يعني أن السعي بين الصفا والمروة لا حرج فيه، هذا الظاهر المتبادر لعروة، وهذا الفهم لم يفهمه عروة وحده، بل قال به أئمة، ومن ثم اختلفوا في السعي بين الصفا والمروة هل هو ركن أو واجب أو مستحب؟ وهذا وقت المتساهلين في الفتوى، الذين يبحثون عن مثل هذه الأشياء.

فممن قال: إن السعي بين الصفا والمروة سنة جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وهما إماما العصر في وقتهما، وقال به من السلف سفيان الثوري، ونقل عن بعض الأئمة مثل أبي حنيفة، وعنه رواية أخرى.

وهو ما فهمه هنا عروة، وهو من التابعين، وذكر فهْمه، وردّت عليه عائشة -رضي الله عنها-.

فالذي يبحث عن الرخص والفتاوى السهلة يجد، فتجد بعضهم يقول: يا جماعة الحج زحمة خففوا على الناس، فالسعي بين الصفا والمروة سنة، وهو قول ليس بمهجور، من لم يسعَ -الحمد لله- ما عليه حرج، وهذا هو ظاهر الآية، وإن ردّت عائشة فهذا فهمها واجتهادها، وخالفها بعض الصحابة، والصحابة إذا اختلفوا نرجح بين أقوالهم بالمرجحات، وابن جرير دائماً يعلمنا أنه لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن المتبادر إلى معنىً خفي إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

والمبيت بمنى أيضاً شيخ الإسلام قال: إنه لا يجب، والمبيت في مزدلفة أيضاً قال فيه جمع من الأئمة: إنه سنة ولا يجب، منهم عطاء بن أبي رباح، وهو أعلم الناس بالمناسك، فخلصنا من المبيت في مزدلفة ومنى، وأنتم ضيقتم على أنفسكم وأنتم في الشوارع! فما عليكم سعي، ولا طواف الإفاضة، وربما قالوا: ما عليكم وقوف بعرفة، ارتاحوا وحجوا من بيوتكم كما جاء: ((عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة))[٣].

فإذا روض الإنسان نفسه على أن يتتبع الرخص بناءً على قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا حرج))[٤] وفهم هذا الفهم، وانطلق من هذه القاعدة: "لا حرج" وبدأ يفتي الناس بكل شيء فهذه مشكلة كبيرة، ونحن نقول هذا الكلام لأننا نسمع أشياء عجيبة وغريبة تصدر من بعض طلاب العلم في الحج يفتون فيها الناس.

"فقالت عائشة -رضي الله عنها-: بئس ما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشلَّل..."

العرب في الجاهلية كان عندهم أشياء تقترن بالمناسك، منها ما يكون قبل حجهم، ومنها ما يكون بعده، بحسب اختلاف قبائلهم، فإذا قرأتم في: (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) تجدون أشياء غريبة من هذا، فمنهم من يرى لزوماً أن يذهب إلى تلك المناسك قبل أن يذهب إلى بيت الله الحرام، فمن شعائر الحج عنده أنه لا يجوز له أن يسعى بين الصفا والمروة حتى يذهب إليها، مثل من ساق الهدي مثلاً فإنه لا يتحلل من إحرامه حتى ينحر الهدي، فعندهم أن من أتى مناة لا يسعى بين الصفا والمروة، هذا على قول عائشة -رضي الله عنها-، فتحرجوا، وجاء في روايات أخرى: أن هذا التحرج سببه أنه كان هناك أصنام يعظمونها إساف ونائلة، ويزعمون أنهما رجل وامرأة زنيا فمسخا إلى حجر، فكانوا يعظمونهما ويتمسحون بهما إلى آخره، فلما أسلموا ظنوا أن السعي بين الصفا والمروة أمرٌ يتصل بعمل أهل الجاهلية وشركهم، فتحرج أهل الإيمان

---

3 - أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء (ج٢/ص٩٦٨–٢٩٠١) وأحمد في المسند (ج٦/ص١٦٥- ٢٥٣٦١)، وصححه الألباني في الإرواء (٩٨١)، والمشكاة (٢٥٣٤)، والروض النضير (١٠١٨).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الذبح قبل الحلق (ج ٢/ص٦١٥ – ١٦٣٤) وفي باب إذا رمى بعدما أمسى أو حلق قبل أن يذبح ناسياً أو جاهلاً (ج٢/ص٦١٨ – ١٦٤٧) وفي كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (ج٦/ص٢٤٥٤ – ٦٢٨٩) ومسلم في الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي (ج ٤/ص٨٤ – ٣٢٢٤).

منه، فبيّن الله أنه ليس كذلك، بل هو من شعائر دينه، وإن أحدث فيه المشركون ما أحدثوا، فلا حرج عليكم بهذا السعي، وبذلك يكون هذا الكلام ليس ابتدائياً إنما هو لإزالة ما قد يتوهمونه، وبالتالي يفهم على وجهه، يعني: هناك فرق بين أن تبتدئ كلاماً وتقول: لا حرج على من فعل كذا، وبين أن يكون الكلام جاء ليصحح فهماً، أو ليجيب على سؤال، أو نحو ذلك، وهذا ينحل به إشكالات في أمور كثيرة، وسيأتي -إن شاء الله- في الكلام على قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما الأعمال بالنيات))[٥] القصر هذا هل هو على ظاهره وإلا فهناك أعمال أخرى ما تحتاج إلى نية ويؤجر الإنسان عليها؟ بناءً على هذا التفريق، فالكلام الابتدائي الذي قاله الشارع ليقرر به أصلاً أو معنى أو حكماً، فرق بينه وبين الكلام الذي يكون تصحيحاً لمفهوم، أو جواباً على السؤال، أو نحو ذلك، فهذا إذا فهمته بهذا الاعتبار فإنه يُتكلم في كل مقام بما يناسبه، مثل قول الله -عز وجل- مثلاً: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] مع أن هناك محرمات أخرى، لكن هذا رد على المشركين حينما قالوا بتحريم أشياء من عند أنفسهم.

ولهذا يقول الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ} [(٢٠) سورة آل عمران] مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه البلاغ وعليه أيضاً أمور أخرى، هو مبشر ومعلم -صلى الله عليه وسلم- للناس، ويبيّن الأحكام، وهو قدوة، وهو عبد من خيار عباد الله -عز وجل-، فقصره على هذا في مقابل كلام المشركين ومطالبتهم في أن يحول لهم الصفا ذهباً، فرد عليهم قائلاً: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ} [(٧) سورة الرعد] فليس لقائل أن يقول: لا، هناك مهام أخرى غير الإنذار، فليس هذا كلاماً ابتدائياً جاء ليقرر به صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً، وإنما هو في مقابل موقف يرد عليه، ومطالبةٍ من المشركين، ودعاوى وتكلفات.

"وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [(١٥٨) سورة البقرة] قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: ثم قد سن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[٦]، أخرجاه في الصحيحين[٧]."

على كل حال سبق في الكلام على أصول التفسير في (مقدمة شيخ الإسلام) في فوائد معرفة أسباب النزول أن ذلك يفيد في فهم المعنى، وقلنا: إن ذلك على درجات، فأحياناً يتوقف المعنى عليه، ولا يفهم إلا به، وأحياناً ينحل به الإشكال، وأحياناً يكون مُعيناً على الفهم يتضح به المراد، وأحياناً هو من باب الفضلة والزيادة فتفهم

---

5 - أخرجه البخاري في بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [جزء ١- ص٣ - ١] وفي كتاب الأيمان والنذور باب النية في الأيمان [جزء ٦- ص٢٤٦١- ٦٣١١] وفي كتاب الحيل باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها [جزء ٦ - ص٢٥٥١ - ٦٥٥٣] وهو في مسلم بلفظ الإفراد: ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال [جزء ٣ - ص ١٥١٥ - ١٩٠٧].

6 - في المسند (ج٦/ص١٤٤– ٢٥١٥٥) قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير أن سليمان بن داود الهاشمي أخرج له أصحاب السنن والبخاري".

7 - البخاري في كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجُعِلَ من شعائر الله (ج٢/ص٥٩٢ – ١٥٦١) ومسلم في الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (ج٤/ص٦٩– ٣١٤٠).

الآية من غير معرفة سبب النزول، فهو على مراتب، وهذا التفصيل لعله من أحسن ما يقال، وتجد من أهل العلم من يقول بهذا، فهذا في طرف وهذا في طرف، بهذا التفصيل.

على كل حال هذا مما قد يتوقف عليه فهم المعنى، وإلا فلو بقي الناس مع ظاهر الآية ربما فهموا أنه لا يجب عليهم السعي، وعروة بن الزبير ليس أعجمياً، بل هو عربي قح، ورجل من أهل النبوغ والعلم والفقه، ففهم هذا الفهم، فأحياناً يتوقف المعنى عليه، فهذا مثال على سبب النزول الذي يتوقف عليه المعنى، وإن أردت أن تنزل درجة فقل: ينحل به الإشكال...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم ما كنتُ سمعته، ولقد سمعتُ رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس -إلا من ذكرتْ عائشةُ -رضي الله تعالى عنها- كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية..."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زال المفسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يتحدث عن قوله تعالى: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [(١٥٨) سورة البقرة] فذكر قول عائشة -رضي الله تعالى عنها- لعروة بن الزبير -رحمه الله-، وذلك أن الأنصار حين كانوا يهلون لمناة بالمُشلَّل، فكان مَن أهلّ هذا الإهلال لهذه الطاغية مناة يتحرج من السعي بين الصفا والمروة، فأخبرهم الله -عز وجل- أن هذا الحرج منتفٍ عنهم، وأنها من شعائر الله -عز وجل-، ثم أورد هذه الرواية الأخرى، فقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس -إلا من ذكرتْ عائشةُ- يعني الأنصار، يعني أن تحرجهم كان من وجه آخر وهو أنهم كانوا يعتقدون أن الصفا والمروة من شعائر الجاهلية ومن أعمال الجاهلية، وأن السعي بينهما ليس من شعائر الله ولا من دينه الذي ارتضاه.

وكذا قول من قال أو توهم أن السعي بين الصفا والمروة لم يأمر الله -عز وجل- به، وإنما قال: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [(٢٩) سورة الحج] فالذي جاء الأمر صريحاً به هو الطواف بالبيت، وليس السعي بين الصفا والمروة، فالمقصود أن هذا وغيره مما يُذكر، كل ذلك لا إشكال فيه، فيمكن أن يكون بعضهم قد تحرج بسبب توهمه أن ذلك من عمل الجاهلية، أو لما كان يعتقده من عدم حل ذلك لما كان يفعله بعض العرب كالأنصار من التحرج من السعي بينهما؛ لأنهم كانوا يهلون لمناة بهذا المكان الذي هو المُشلَّل، والمُشلَّل: محل بين مكة والمدينة، قريب من رابغ أو قديد، وهو المكان الذي كانت إلى ناحيته غزوة المصطلق، فالمقصود أن السبب يمكن أن يكون هذا وهذا وهذا، ويمكن أن تجتمع هذه الأشياء جميعاً، فأخبرهم الله -عز وجل- أن ذلك من شعائر الله، وأن هذا التحرج لا محل له، وأن هذا السعي بين الصفا والمروة لا علاقة له بأمر الجاهلية. ويؤخذ وجوب السعي بينهما من أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك وفعله، فقد كان يسعى -صلى الله عليه وسلم- والناس يسعون بين يديه، ويأمرهم بالسعي، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: ((خذوا عني

مناسككم))[1] فلا يسقط بحال من الأحوال، فهو ركن من أركان الحج، وبعضهم يقول: هو واجب من واجباته، وليس هذا محل الكلام على هذه القضايا، وإنما الطريق الذي نمشي عليه هو بيان كلام ابن كثير -رحمه الله- وتوجيه الأقوال التي يذكرها.

"وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] **قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء..."**

هذا النص الذي أورده عن أبي بكر بن عبد الرحمن -وهو من التابعين- من النصوص النادرة التي ينـدر أن تقف على مثلها مما يُتعرف به على منهج السلف -رضي الله عنهم- في التفسير، ومما تستنبط منه القواعد والأصول التي يُبنى عليها التفسير، ولذلك ذكرتُ في بعض المناسبات في الكلام على أصول التفسير أن ذلك يؤخذ من جملة أمور: منها:

استقراء الآثار والنصوص الواردة والأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعن الصحابة والتابعين، فإن من تتبع ذلك فإنه يجد ولا بد بعض ما تؤخذ منه الأصول التي يُبنى عليها التفسير، فهذا النص النادر يُؤخذ منه ما يتعلق بأسباب النزول، وهو أن الأسباب إذا تعددت ولم تكن متباعدة تُحمل الآية عليها جميعاً، يقال: هذه الآية نزلت بسبب هذا وهذا وهذا، ولا نحتاج إلى أن نرجح بين هذه الأسباب، وقد ذكرت لكم من قبل المسلك في هذا في أسباب النزول إذا تعددت، فإننا ننظر أولاً إلى الصحة فنستبعد الضعيف، ثم ننظر بعد ذلك إلى العبارة، وعرفتم أن أسباب النزول منها ما هو صريح، ومنها ما هو غير صريح، فنستبعد غير الصريح، ثم ننظر في الصحيح الصريح، فإن كان ذلك في وقت متقارب حُملت الآية على هذه الأسباب جميعاً، كما في قصة عويمر العجلاني وهلال بن أمية في اللعان.

وإن كانت متباعدة حُملت الآية على التعدد بأنها نزلت أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، ولا مانع من هذا، وبعض أهل العلم يسلك مسلك الترجيح في هذه الحالة، وهذا ذكرنا له أمثلة مثل نزول سورة: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص] لما سأله المشركون واليهود: صف لنا ربك، وكذلك: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل] في أحد وفي عام الفتح لما قال سعد بن عبادة -رضي الله عنه-: "اليوم ذهبت قريش" وكانت معه راية الخزرج من الأنصار فأخذها منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأعطاها لابنه قيس.. إلى غير ذلك من الأمثلة.

"وقد روى البخاري نحو ذلك عن أنس -رضي الله تعالى عنه-، وقال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما، فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية."

لو أردنا الآن أن نطبق القاعدة -التي ذكرناها قبل قليل- على هذه المرويات سنستبعد بعضها، يعني مثل هذه الرواية عن الشعبي هي من قبيل المرسل، والمرسل من الضعيف، وهكذا نُبقي الروايات الصحيحة

---

1 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، في كتاب الحج، باب الإيضاع في وادي محسر [ج٥- ص١٢٥]، وصححه الألباني في إرواء الغليل [ج٤- ص٢٧١] وهو في مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً بلفظ: ((لتأخذوا مناسككم)) [ج٢- ص٩٤٢] وفي سنن أبي داود في كتاب المناسك، باب في رمي الجمار [ج١- ص٦٠٤] وفي المسند [ج٣- ص ٣١٨ - ١٤٤٥٩].

الصريحة، والصريحة هي ما كانت مثل سبب نزول هذه الآية، أو يذكر واقعة أو سؤالاً ثم يقول: "فأنزل الله"، أو "فنزلت الآية" أما ما يقول فيه: "نزلت هذه الآية في كذا" فإن هذا يحتمل أن يكون من قبيل التفسير، وأن يكون من قبيل سبب النزول، ولذلك اختلفوا في غير الصريح هل له حكم الرفع أو ليس له حكم الرفع لوجود الاحتمال؟ وسبق الكلام على هذا؛ لأنه عند تتبع الروايات أحياناً قد تجد رواية أخرى صريحة في هذا الذي هو غير صريح، نفس الحديث تجده في بعض الروايات صريحاً، وفي بعضها غير صريح، وأحياناً تجد أوله غير صريح وآخره يصرح بعبارة تدل على أنه فعلاً سبب النزول، وهي نفس الرواية، وهذا له أمثلة ذكرتها من قبل في شرح مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية.

"وفي صحيح مسلم من حديث جابر -رضي الله تعالى عنه- الطويل: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] ثم قال: ((أبدأُ بما بدأ الله به))[٢] وفي رواية النسائي: ((ابدءوا بما بدأ الله به))[٣].

وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي تجراة -رضي الله تعالى عنها- قالت: رأيتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: ((اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي))[٤]."

يعني هذا أمر والأمر يفيد الوجوب، كأنه يقول: وإن ظن ظان أن الآية غير صريحة لأنها نفت الحرج، فإن ذلك جاء صريحاً عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"واستُدل بهذا الحديث على أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، وقيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، وقيل: مستحب، والصحيح: أنه ركن أو واجب، فقد بيّن الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم -عليه السلام- في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن أصل ذلك مأخوذ من تطْواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم -عليه السلام- هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله -عز وجل-، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى -عز وجل-، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- [ج ٢- ص ٨٨٦ – ١٤٧].

3 - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب الحج، الدعاء على الصفا [ج ٢- ص ٤١٣ – ٣٩٦٨] في المسند[ج٣- ص٣٩٤ – ١٥٢٨٠] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

4 - في المسند [ج٦- ص٤٢١ – ٢٧٤٠٧] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "حسن بطرقه وشاهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن المؤمل، وقد اضطرب فيه". وأخرجه الدارقطني في كتاب الحج، باب المواقيت [ج٢- ص٢٥٥ – ٨٥] و الطبراني في المعجم الكبير [ج٢٤- ص٢٢٦ - ٥٧٣] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الحج، باب وجوب الطواف بين الصفا والمروة، وأن غيره لا يجزئ عنه [ج٥- ص٩٨ – ٩١٤٩] وصححه الألباني في إرواء الغليل [ج٤- ص٢٩٠].

هداية قلبه وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله -عز وجل- ليزيح ما هو بــه مــن النقــائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فُعل بهاجر -عليها السلام-. "

على كل حال العلماء يتكلمون على حِكَم أعمال الحج، وهناك أمور ظاهرة مثل هذا، فأصــله هــذا الاقتــداء، وصار شرعاً لأهل الإسلام، وهو من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فيتكلمون على هذا وعلى غيــره، وهذا الكلام منه ما هو متكلف، ومنه ما الحكمة فيه ظاهرة، وهذا مِن الذي تظهر حكمته، فهــذا الاستحــضار الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لا شك أنه استنباط صحيح، ولذلك أن هاجر -رحمهــا الله- كانــت تسعى بين الصفا والمروة وذلك لشدة ما نزل بها، حتى جاءها الفرج، فالذي يــسعي بــين الــصفا والمــروة يستحضر ألطاف الله -عز وجل-، وفقره وحاجته وذله فهو ليس بحاجة الآن إلى الشراب أو إلى الطعــام أو إلى المؤنس، وإنما هو بحاجة إلى أمور أخرى، فيستحضر هذه المعاني، ويستحضر أنه لــيس وحــده الــذي يسلك هذا الطريق، وإنما سلكه سالكون قبله، إلى غير ذلك مما يذكره أهل العلم وهو كثير جداً فــي أعمــال المناسك.

وقد تكلمت في بعض المناسبات عن العقيدة في المناسك، وما يؤخذ مما يتعلق بالاعتقاد، فمما يتعلق بالاعتقــاد في مثل هذه القضية ما ذكره ابن كثير، وهو التجاء العبد إلى الله -عز وجل- في حال الشدة والحاجــة، فــلا يلتجئ إلى أحد من خلقه، وإنما يلتجئ إلى الله -عز وجل- ليفرج عنه.. إلى غير ذلك.

"**وقوله: {وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة البقــرة] **قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع، أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطــوّع خيــراً فــي ســائر العبادات.**"

يعني الآن هذه أقوال ثلاثة، أما الأول: فهو غير صحيح، **{تَطَوَّعَ خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة البقــرة] يعني: زاد علــى سبعة أشواط، فهذه زيادة في العبادة غير مشروعة، فهي من قبيل البدعة، فالنبي -صــلى الله عليــه وســلم- سعى سبعة أشواط وقال: ((خذوا عني مناسككم))[٥] وهذا وإن كانت الآية تحتمله في ظاهرها إلا أن ذلك ليس بمراد؛ لأن السنة مبينة للقرآن.

بقي الاحتمال الثاني: وهو أن هذا التطوع بالسعي، والسعي لا يكون عبادة مستقلة بمعنى أن الإنسان إذا فــرغ من عمرته مثلاً فأراد أن يتطوع فإن له أن يسعى بين الصفا والمروة كما أن له أن يطوف، فالسعي لا يشرع بهذا الوجه، على المشهور الراجح الذي عليه عامة أهل العلم، لا يتطوع بالسعي، وإن كان ظاهر الآية أيــضاً يحتمله، فبقي أن ذلك إنما يكون في عمرة أخرى، أو في حجة أخرى؛ لأن العمرة الأولى واجبــة، والحجــة الأولى واجبة، فمن زاد فإن الله شاكر عليم، فإن الله يثيبه، ويطلع على عمله فيجازيه عليه، هذا هو الأقــرب في معنى هذه الآية، أن هذا التطوع إنما يكون بالسعي في نسك آخر لا يجب عليــه؛ لأن الواجــب حــصل بالأول، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبعضهم يطلق ذلك ويقول: مــن تطوع خيراً بالصدقة وألوان القربات من صلاة وصوم ونحو ذلك فإن الله يثيبه على هذا العمل، لكن لما كــان

---

[٥] - سبق تخريجه في حاشية رقم (١).

الكلام على الصفا والمروة والسعي، فإن الأقرب أن يحمل ذلك على التطـوع بهـذه العبـادة علـى وجـه الخصوص في هذه الآية.

"وقيل المراد: تطوّع خيراً في سائر العبادات، حكى ذلك الرازي، وعُزي الثالث إلى الحسن البـصري، والله أعلم.

وقوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [(١٥٨) سورة البقرة] أي يثيب على القليل بالكثير، عليم بقـدر الجـزاء، فـلا يبخس أحداً ثوابه، {لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًـا} [(٤٠) سـورة النساء]."

نحن عرفنا معنى الشكر والشاكر، وشكر الله للعبد، وشكر العبد للرب، فالمقصود أن مـن معـاني شـكر الله -عز وجل- للعبد ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أنه يعطي على القليل الكثير، وأيـضاً يجـازي المحـسن بإحسانه، فهو يجازيه بإحسانه ويزيده ويضاعف له ذلك أضعافاً كثيرة، الحسنة بعشر أمثالهـا إلـى سـبعمائة ضعف، فهذا من معاني شكر الرب للعبد.

هذه العبارة التي ذكرها: "حكى ذلك الرازي" ما الفرق بينها وبين ما لو قال: "وذكره الرازي بحثـاً" أو يقـول مثلاً: "وذكره الرازي احتمالاً" وما هو لازم الـرازي، بـل أي واحـد، مـثلاً: "ذكـره النـووي احتمـالاً".

طالب:........

أحسنت هو هذا، أنه لم يقل به أحد: ذكره بحثاً، هم يولدون الأقوال، فهو لم يذكره على أنه يتبنـاه ويرجحـه، ولكنه ذكر أن هذا القول مما تحتمله الآية أو يحتمله الحديث، لكنه لم ينسبه لأحد، ما عُرف له قائل، وهو لـم يذكره على أنه يتبناه، يقول به ويرجحه، يقول: "ذكره احتمالاً"، "ذكره بحثاً" من باب توليد الأقوال.

"{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَـئِـكَ يَلعَـنُهُمُ اللّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ * إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّـفُ عَـنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [(١٥٩-١٦٢) سورة البقرة] هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدي النافع للقلوب، من بعد ما بيّنه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله."

الآن هذه الآية ظاهرها العموم: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّـاهُ لِلنَّـاسِ} [(١٥٩) سورة البقرة] فهي عامة في ظاهرها، وبعض أهل العلم كابن جرير على عادته -كما عُرف فيما سبق- أنه يقول: إن هذه الآيات جميعاً قد نزلت في أهل الكتاب، لا سيما اليهود، فهم الذين كتموا صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأحقية ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-، وكتموا أمر القبلة.. إلى غير ذلك مـن الأمـور التي كتموها.

كما حرفوا وكتموا ما أنزل الله في كتبهم، فجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، فالآية وإن كان يدخل فيهـا هؤلاء دخولاً أولياً إلا أن ظاهرها العموم، فيدخل فيها كل من كتم ما أنزل الله -عز وجل-، لكن ذلك قيّده الله -تبارك وتعالى- بقوله: {مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} [(١٥٩) سورة البقرة] ومعنى ذلك أن هذا الكتمان المتوعد عليـه

هو مما يحتاج إلى بيان، وهي البينات والهدى، من الأمور التي توضح الحق وتجليه، والناس يفتقرون إلى هذا الإيضاح والبيان فيكتم عنهم، أو يقال لهم غير ذلك مما لا يعتقده الإنسان، فيتكلم بخلاف ما يؤمن به، وينعقد قلبه عليه، فهذا كله من الكتمان والكذب على الله -عز وجل- إذا قال غير ذلك مغيراً للحقيقة التي علمها عن الله -جل جلاله-، فهذا أخطر.

والمراتب في هذا متفاوتة أعظمها أن يكتم الحق، وأن يبدي غيره، فيكذب، ويقول: حكم الله في المسألة كذا، على خلاف ما يعتقد، ويغيّر حقائق الدين، ويلبّس على الناس فهذا أعظم، المرتبة الثانية: أن لا يذكر لهم هذا التلبيس، ولكنه لا يُبين، لا يظهر الحق الذي عرفه، وما أكثر ما يقع الناس في هذا، وقد عرفنا في اقتضاء الصراط: أن هذه الأمة أشبهت أهل الكتاب في أمور كثيرة، منها: كتمان الحق، فهذه الأمة وإن لم تقع في تحريف الكتاب نصاً بلفظه، ولكنها وقعت في التحريف في معانيه، وتحريف المعاني هو تغييرها عن وجهها الذي أراده الله -تبارك وتعالى-، فهذا القيد في قوله: {مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} [(١٥٩) سورة البقرة] يخرج كتمان ما لا يحتاج إليه الناس، أو ما يتضررون بمعرفته، وفي الحديث المشهور -حديث أبي هريرة- في البخاري، لما قال: "حفظت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعاءين، أما أحدهما فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم" وذلك مما لا يحتاج إليه الناس من الأمور التي تتعلق بأحداث وأشخاص؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أمور كثيرة مما سيقع، وما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق إلا وقد ذكر لهم منه خبراً -عليه الصلاة والسلام-، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه.

فهناك أخبار تتعلق بأناس كانوا يعاصرون أبا هريرة، ولهذا كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من إمارة السفهاء" وكان يقول: "اللهم لا تدركني سنة ستين" فمات سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وقيل: تسع وخمسين، وسنة ستين كانت فيها إمارة يزيد بن معاوية، وفي إمارته حصل ما حصل من قتل الحسين، ووقعة الحرة، وفيها نُصب المنجنيق على جبل أبي قبيس فضربت الكعبة وتخرقت، وحوصر ابن الزبير، وحصلت فيها للمسلمين أمور عظيمة في ذلك العهد.

فالمقصود أن كتمان ما لا يحتاج إليه الناس أمر لا حرج فيه، ولهذا فإن من العلم ما لا يُطلب نشره وكما قيل: "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" وتعرفون حديث معاذ: "أفلا أبشر الناس؟" فقال: ((لا)) وبيّن له علة ذلك ((إذاً يتكلوا))[6]، وحديث عمر مع أبي هريرة لما أعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- نعله -القصة المعروفة- في بشارة من قال: لا إله إلا الله، ومات لا يشرك بالله دخل الجنة، فدفعه عمر -رضي الله عنه- على صدره حتى وقع.

فالمقصود أنه ما كل ما يُعلم يقال، إذا كان هذا الكلام الذي يقال للناس يورثهم شيئاً من التهاون أو التساهل أو الإرجاء أو أنه لا تبلغه عقولهم، ولا تحيط به أفهامهم فيحملونه على غير وجهه فإنه لا يُطلب ذكره ونشره في الناس، ولذلك كان بعض الأئمة لا يرى التحديث ببعض الأبواب من العلم؛ لئلا تفهم على غير وجهها،

---

6 - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا [ج١- ص ٥٩ – ١٢٨] ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً [ج١- ص٦١ – ٥٣].

ولا حاجة للتمثيل بأكثر مما ذكرت، فنحن في زمان صار الناس يتشبثون فيه بكل شيء من أجل تسويغ ما هم عليه.

"قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم أخبر تعالى أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون."

طبعاً هذا، المقصود به العالم الذي يبيّن الحق للناس، وهؤلاء يفترض فيهم العلم؛ لأن الكتمان إنما يكون من أهل العلم، والناس إنما ينتظرون منهم البيان، ما ينتظرونه من غيرهم، وهم الذين يسمع الناس منهم، وتمتد إليهم أعناقهم، فإذا سكتوا ضاع الناس، وبقي الحق خفياً عليهم، فهؤلاء الذين يلعنهم اللاعنون يفترض فيهم أنهم من أهل العلم، ولذلك ذكرتُ من قبل أنه على قدر المقام يكون الملام، وأن أسوأ مثلين في القرآن هما لأهل العلم، الأول: **{كَمَثَلِ الْكَلْبِ}** [(١٧٦) سورة الأعراف] والثاني: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ}** [(٥) سورة الجمعة] فهذان مثلان لأهل العلم الذين لم يتحملوا تبعته، ولم يقوموا به كما أمر الله -عز وجل-.

فهذه نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا الحق، وهي في هذه الأمة أشد؛ لأن هذه الأمة أشرف وأعظم، ولذلك فإنه يلحقهم من العتب أعظم مما يلحق غيرهم.

"وقد ورد في الحديث المسند من طرقٍ يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- وغيره: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار)) [7] **وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً، {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ}** [(١٥٩) سورة البقرة] **...الآية، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم."**

يعني على هذا الآن **{وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}** [(١٥٩) سورة البقرة] أي يلعنهم كل شيء، هذا هو القول الأول، يلعنهم الناس والملائكة والجن وتلعنهم الدواب، وإذا قلنا: يلعنهم الناس فإن ذلك يعني أن جميع الناس يلعنونهم ليس فقط أهل الإيمان، مع أنه يرد على هذا أن الكثيرين لم يطلعوا على فعلهم، أكثر الناس ما اطلعوا على جرمهم وكتمانهم، بل ربما ما عرفوهم هذا من جهة ومن جهة أخرى أن أهل الضلال والشر يعجبهم هذا الكتمان، وهم أكثر الناس: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(١١٦) سورة الأنعام] فهؤلاء كيف يلعنونهم؟ فلهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا اللعن يكون في الآخرة؛ لأنهم يرون أثر ذلك عياناً فيلعنونهم على هذا الكتمان؛ لأنهم أضلوهم ولبسوا عليهم، فأودوا بهم إلى هذا المصير، وبعضهم يقول: في الدنيا

---

7 - في المسند [ج٢- ص ٤٩٥ – ١٠٤٢٥]عن أبي هريرة، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "صحيح، وهذا إسناد حسن" وأخرجه الترمذي أيضاً عن عن أبي هريرة في كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم [ج ٥- ص ٢٩ – ٢٦٤٩] وابن ماجه عن أنس بن مالك، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه [ج١- ص٩٧ - ٢٦٤] وابن حبان عن عبد الله بن عمرو، في كتاب العلم، باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها [ج١- ص ٢٩٨ – ٩٦]، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة [ج١- ص١٨٢ – ٣٤٥]، والطبراني في المعجم الكبير عن طلق بن علي [ج٨ - ص٣٣٤ – ٨٢٥١]، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٦٢٨٤.

والآخرة تلعنهم الدواب، ويلعنهم أهل الإيمان، ومن اطلع على فعلهم، ويلعنهم جميع الناس والجن في الآخرة، وبعض أهل العلم يقول: إنما يكون هذا اللعن، من الملائكة، ومن أهل الإيمان، وهم الناس، فلفظ الناس يكون من العام الذي أريد به الخصوص، وهو أسلوب عربي معروف، كما في قوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] فليس كل الناس قالوا ذلك، وليس كل الناس قيل له ذلك، فالعام تارة يراد به ظاهره من العموم، وتارة يراد به معنىً خاص، فهو وإن كان بظاهره عاماً فإنه في معنى من معاني هذا العام، العام المراد به الخصوص فيكون المراد به أهل الإيمان والملائكة، كما قال الله -عز وجل- على الكفار: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [(١٦١) سورة البقرة] فابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمل اللعن هنا {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] على أن المراد به لعن هؤلاء، الملائكة والناس أجمعين، والله أعلم.

"وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء في الحديث: ((إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر))[8]، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال أو الحال، أن لو كان له عقل، ويوم القيامة، والله أعلم."

وابن كثير يحمل الآية على جميع المعاني المذكورة، فما لا يتأتى في الدنيا فإنه يكون في الآخرة، {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] ممن لم يبلغه فعلهم من أهل الإيمان، أو ممن يرتضي فعلهم في الدنيا فهو لا يلعنهم، لكنه يلعنهم في الآخرة، فكل ذلك واقع، ومن كل مَن يتأتى منه اللعن، من الإنسان أو الجن أو الملائكة أو الدواب فإنها تلعن عصاة بني آدم، كما أن الحيتان تستغفر للعالم فإنها كذلك تلعنه إذا كتم الحق.

"ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ} [(١٦٠) سورة البقرة] أي رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه، {فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٦٠) سورة البقرة]."

يعني: أصلحوا أحوالهم وأصلحوا أيضاً ما أفسدوا، مما يتأتى فيه الإصلاح؛ لأنه ليس كل شيء يتأتى فيه الإصلاح، فهو عليه أن يُبيّن ويصلح ما أفسد إن كان ذلك بإمكانه، إنسان أضل الناس فتنتصر على يده خلائق وقبائل، أو نشر كتباً فيها ضلالات وبدع ثم تاب فماذا يصنع؟ عليه أن يكتب في نقض ذلك، وأن يدعو هؤلاء الناس الذين أضلهم، لكن قد لا يستطيع ذلك بسبب ما قد علق في قلوبهم فصاروا يتحمسون لدينهم الباطل، فماذا يصنع؟ عليه أن يُبيّن، وينقض الباطل الذي قرره لهم، فإن كان وضعه في كتاب فينقضه في كتاب، وإن كان ظهر في قناة فضائية فيظهر في قناة فضائية، إن كان ذلك مسجلاً عنه فإنه يفعل ذلك، أو ما هو أبلغ

8 - أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة [ج ٥- ص ٤٨ – ٢٦٨٢] بلفظ: ((إنه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر)) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم [ج١- ص٨١ – ٢٢٣] وأحمد في المسند[ج ٥ - ص١٩٦ – ٢١٧٦٣] والدارمي في المقدمة، باب في فضل العلم والعالم [ج١- ص١١٠- ٣٤٢] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج١- ص٤٣ – ١٨٢].

منه، المهم أنه يُبيّن للناس، ولا يقول: أنا تائب ويجلس ساكتاً، فهذا لا يكفي، لا بد من إصلاح ما أفسد، وعلى كل حال هذا التفصيل تجدونه في كتب الأصول، فالشاطبي تكلم على هذه المسألة، وذكرنا ذلك في المراقي:

من تاب بعد أن تعاطى السببا فقد أتى بما عليه وجبا

وذكر أمثلة لذلك، من رمى بسهم فتاب قبل أن يصل السهم الرمية، لكن السهم سريع، إلا أن هناك أشياء أخرى تصل بعد مدة "**أو بث بدعة عليها يتَّبع**".. إلى غير ذلك.

"{فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٦٠) سورة البقرة]، وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنّ {عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا} [(١٦١ - ١٦٢) سورة البقرة] أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي لا يخفف عنهم العذاب، (فيها) أي لا ينقص عما هم فيه، {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [(١٦٢) سورة البقرة] أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك."

يعني قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٦٢) سورة البقرة] يمكن أن يعود إلى اللعنة؛ لأنها هي المذكورة قبله، والضمير الأصل أن يرجع إلى المخبر عنه، إلى أقرب مذكور، وقد يرجع الضمير إلى غير مذكور، وذكرنا له أمثلة في عدد من المناسبات، يرجع إلى غير مذكور يدل عليه السياق، وهذا لا مانع منه، فيمكن أن يكون المراد بالضمير -الهاء- هنا: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٦٢) سورة البقرة] أي النار، فهي وإن لم تكن مذكورة لكن السياق يدل عليها، وهل بين القولين منافاة فنحتاج إلى أن نرجح بينهما؟ ليس بينهما منافاة؛ لأن هؤلاء الذي لعنهم الله أين جزاؤهم إن لم يغفر الله -عز وجل- لهم، ويتداركهم برحمته؟ جزاؤهم النار، وإذا كانوا خالدين في اللعنة فمعناها أنهم خالدين في النار وهكذا، فلا منافاة بين القولين.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار:

وقد كان عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره."

وبعض المتحذلقين في هذا الزمان يقول لك: يا أخي ادعُ لهم بالهداية، ما كل الناس يُدعى له بالهداية، بعض الناس يُدعى له بالهلاك واللعن، وأن الله يمحقه، وجبريل -صلى الله عليه وسلم- جاء أنه كان يأخذ من وحل البحر ويضعه في فم فرعون لئلا تدركه الرحمة، فكان يقول: **{آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}** [(٩٠) سورة يونس] فخاف أن تدركه الرحمة فوضع في فمه الوحل، فليس دائماً الدعاء بالهداية، أحياناً يُدعى له بالهداية، وأحياناً يُدعى أن الله لا يهديه، وأن يطمس على قلبه، وموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- كيف دعيا؟ قالا: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}** [(٨٨) سورة يونس] فهؤلاء الأنبياء هم أرحم الخلق بالخلق، ومع ذلك نوح -صلى الله عليه وسلم- لما بيّن الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن دعا عليهم بالهلاك، فقال: **{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}** [(٢٦-٢٧) سورة نوح] فلكل مقام مقال، أحياناً يكون المناسب هو الدعاء بالهداية، وأحياناً نسأل الله أن يربط على قلبه، ويموت على ما هو عليه، وأن يهلكه، وأن

يلعنه، فلعن الكفار هذا ثابت في الكتاب والسنة، وعليه عمل المسلمين منذ زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، فلا إشكال فيه.

"فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له."

هي مسألة خلافية، لكن أكثر أهل العلم على أنه لا يلعن المعيّن لهذا السبب، وقد لعن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجالاً بأعيانهم، لعن سهيل بن عمرو العامري، وصفوان بن أمية وجماعة، وأسلموا، هداهم الله -عز وجل- إلى الإسلام، وقال الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [(١٢٨) سورة آل عمران] ولعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبائل بعينها، ذكوان وعصية، القبائل التي غدرت بالقراء، فأخذ منه بعض أهل العلم جواز لعن المعيّن، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم أنه لا يلعن المعيّن، ولعْن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجالاً بأعيانهم يكون ذلك مما يختص به، ومن ثم فإن الإنسان يتحرز من هذا ولا يلعن المعيّن، ولكنه يلعن الصنف ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله))[9] ولكن ذلك لا يعني وقوع اللعن على هذا الذي ورد فيه الوعيد باللعن لاختلال شرط، أو لوجود مانع، وسبق الكلام في سورة النور على قول الله -تبارك وتعالى- في الذين يرمون المحصنات: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(٢٣) سورة النور] فبعض أهل العلم يقول: إن المقصود به الكفار المشركون الذين كانوا يطعنون في عرض من خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، كل هذا من أجل توجيه كيف لعنوا في الدنيا والآخرة؟ والذي يُلعن في الدنيا والآخرة لا يبقى له نصيب -نسأل الله السلامة-، فقالوا: هذا في الكفار، وهذا فيه نظر، وبعضهم قال: هذا خاص في عائشة بعد ما بيّن الله ما يتعلق بها، وبعضهم قال: هذا في عبد الله بن أُبي، وبعضهم قال: هذا فقط في أمهات المؤمنين، والآية عامة، والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا جزاؤه إن تحقق فيه ذلك، وإلا فكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن هذه النصوص من الوعيد واللعن قد تتخلف عن المعيّن إما بسبب مغفرة الله -عز وجل-، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو توبة، أو شفاعة، هذه الأمور قد يتخلف بسببها مقتضى اللعن، فلا يبقى على هذا المعيّن، فالذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات لعنوا في الدنيا والآخرة، ما لم يُكفَّر ذلك عنهم بسبب من هذه الأسباب ولا إشكال، والله أعلم.

"وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعيّن، وفي قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله))[10] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، والله أعلم."

طبعاً هذا استنباط، وفي بعض الروايات أنه نهاهم من أجل ألا يعينوا عليه الشيطان، فالمقصود أن من أراد أن يتتبع الآثار التي ورد فيها اللعن سواء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن السلف -رضي الله

9 - أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله [ج٣- ص١٦٧٨ – ١٢٠].

10 - أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلى في المسند [ج١- ص ١٦١ – ١٧٦] والبزار[ج١- ص ٣٩٣ – ٢٦٩] وعبد الرزاق في المصنف في كتاب الطلاق، باب حد الخمر [ج٧- ص٣٨١ – ١٣٥٥٢] وهو في البخاري: بلفظ: ((لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله)) في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة[ج ٦- ص٢٤٨٩ – ٦٣٩٨].

عنهم- وعن الصحابة فسيجد من هذا أشياء، لكن يبقى عندنا الأصل وهو: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء))[11]، وأن الله لم يتعبدنا باللعن، فما ينبغي أن ينصرف هم الإنسان إلى البحث عن نصوص اللعن من أجل أن يلعن، فالله ما كلفك بهذا ولا تعبدك به، فينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن اللعن ولا يشتغل به، وإنما يشتغل بذكر الله -عز وجل- وشكره وطاعته ونحو ذلك، لكن الكلام فيمن يتفلسف على الناس، ويقول: لا يجوز لعن الكفار، ادعُ لهم بالهداية، وينكر على من يلعنهم، نقول له: لا، هذا الكلام غير صحيح، لكن إذا سألَنَا إنسانٌ نقول له: أنت لم تُتعبد بهذا، فأما لعن المعين فكُف عنه، وأما اللعن بالعموم فإن الكفار يلعنون في القنوت عموماً ((لعن الله اليهود والنصارى))[12]، وما إلى ذلك.

"{وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [(١٦٣) سورة البقـرة] يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الـرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن -رضي الله تعالى عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اسم الله الأعظـم فـي هاتين الآيتين: {وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [(١٦٣) سورة البقرة] و{الم * اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(١-٢) سورة آل عمران][13]، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السماوات والأرض."

الأحاديث الواردة في الاسم الأعظم سبق الكلام عليها في موضعين في الكلام على سورة الفاتحة، وفي الكلام على آية الكرسي، وأن الراجح أن الاسم الأعظم هو (الله)، وأنه هو المتكرر في السور الثلاث التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهي سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه، ثم يلي ذلك في القوة (الحي القيوم) وما على الإنسان إذا دعا أن يقول: "اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت، وإذا دعيت به أجبت، يا الله يا حي يا قيوم" يقول هذا.

"ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السماوات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ممـا ذرأ وبـرأ مـن المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَـثَّ فِيهَـا

---

11 - أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان [ج ١- ص ٥٧ – ٢٩] وسكت عنه الذهبي في التلخيص، والبيهقي في شعب الإيمان في الرابع والثلاثون من شعب الإيمان، وهو باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء وخصوصا بالجاهلية والتعظيم بهم [ج٤ - ص ٢٩٣ – ٥١٤٩] وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٥٣٨١.

12 - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور[ج١- ص ٤٤٦ – ١٢٦٥] وفي باب ما جاء في قبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- [ج١- ص٤٦٨ – ١٣٢٤] ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهـى عـن بنـاء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد [ج١- ص ٣٧٦ – ١٩].

13 - أخرجه أبو داود في كتاب سجود القرآن، باب الدعاء [ج١- ص٤٧٠ – ١٤٩٦] والترمذي في كتاب الدعوات [ج٥- ص٥١٧ – ٣٤٧٨] وابـن ماجه في كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم [ج٢- ص ١٢٦٧- ٣٨٥٥] والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي [ج٢- ص ٥٤٢ - ٣٣٨٩] وقال حسين سليم أسد: "إسناده حسن من أجل عبيد الله بن أبي زياد" والطبراني في المعجم الكبير [ج٢٤- ص١٧٤- ٤٤٠] وابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الدعاء، في اسم الله الأعظم [ج٦- ص ٤٧ – ٢٩٣٦٣] والبيهقي في شعب الإيمان: التاسع عشر من شعب الإيمان، هو بـاب فـي تعظيم القرآن، ذكر سورة البقرة وآل عمران [ج٢- ص ٤٥٤ – ٢٣٨٣] وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٩٨٠.

مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [(١٦٤) سورة البقرة] **يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها."**

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] السماوات غالباً تأتي مجموعة، والأرض مفردة، والعلماء يذكرون لذلك توجيهات، تجدها في كتاب: (الإتقان) للسيوطي، و(البرهان) للزركشي، وفي غيرهما، ومن أوضحها وأسهلها وأقربها للفهم: أن الأرض جنس تصدق على الواحد والكثير، فهو بمعناه، وبعضهم يقول: لما كانت كل سماء مخلوقة من جنس فإنها ذكرت بالجمع بخلاف الأرض فهي جنس واحد، وهذا الكلام يحتاج إلى تأمل ويحتاج إلى دليل، وقيل غير ذلك على كل حال.

{وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٦٤) سورة البقرة] المقصود باختلاف الليل والنهار اختلافهما طولاً وقصراً وتعاقباً، الليل يأتي ويأتي بعده النهار، وهكذا في عمل دءوب لا يسبق هذا هذا ولا يتخلف عنه، يأتي بعده مباشرة، والليل معروف من بعد غروب الشمس، والنهار العلماء يختلفون فيه هل هو من طلوع الشمس أو يكون من طلوع الفجر؟ وهل القسمة ثنائية أو ثلاثية؟ هل الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ثم يكون ذلك الوقت بينهما وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ثم النهار يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، والنهار منقسم إلى صباح ومساء، إلى ما قبل الزوال هذا صباح، والمساء من بعد الزوال بعد الظهر، فتكون القسمة على هذا الاعتبار ثلاثية، ليل من الغروب إلى طلوع الفجر، ومن الفجر إلى طلوع الشمس لا يقال له: ليل، ولا يقال له: نهار، وإنما هو فاصل، ومن طلوع الشمس إلى الغروب فهذا هو النهار، هذا على قول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: الليل يمتد إلى الفجر، ومن طلوع الفجر إلى الشمس هذا هو من الليل وهو في آخره، وأما النهار فيكون من طلوع الشمس، وبعضهم يقول: الليل إلى طلوع الشمس، من غروبها إلى طلوعها، والنهار من الطلوع إلى الغروب.

{وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} [(١٦٤) سورة البقرة] الفُلْك: هي السفن، تطلق هذه اللفظة (فُلْك) على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كل ذلك يقال له: فُلْك، وبعضهم يقول: هو جمع واحده (فُلْك)، والأقرب وهو المشهور والذي عليه عامة أهل العلم أن الفُلْك يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والله -عز وجل- يقول: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} [(٢٢) سورة يونس] يعني في السفينة.

"يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها، وكواكبها السيارة، والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها، وجبالها وبحارها، وقفارها ووهادها وعمرانها، وما فيها من المنافع، {وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٦٤) سورة البقرة] هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٤٠) سورة يس] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتقارضان، كما قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [(٦١) سورة الحج] أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا، {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ} [(١٦٤)

سورة البقـرة] أي في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهـل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء."

فـ(ما) هنا تحتمل أن تكون موصولة، وتحتمل أن تكون مصدرية، إذا كانت موصولة كيف يكـون المعنـى؟ يكون: تجري في البحر بالذي ينفع الناس، وإذا كانت مصدرية فيكون: تجري في البحر بنفْع الناس، والمعنـى كما ترون قريب.

"{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [(١٦٤) سورة البقرة] كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [(٣٣) سورة يـس]... إلى قولـه: {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [(٣٦) سورة يـس]، {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} [(١٦٤) سورة البقـرة] أي علـى اختلاف أشـكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلـك، كمـا قـال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦]."

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} [(١٦٤) سورة البقرة] لاحظ وتأمل هذه الآية وهذه اللفظـة فيها: {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} [(١٦٤) سورة البقرة] العطف هنا (وبث) يعود إلى أي موضع في الآيـة؟ الـواو حرف عطف هل يرجع إلى قوله في الآية: {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء} [(١٦٤) سورة البقرة] فيكـون المعنـى هكذا: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع النـاس، وما أنزل الله من السماء، وما بث من الدواب" فتكون آية نظير الآيات التي ذكرها وعددها: من إنزال المطـر والفلك، وخلق السماوات والأرض، فيكون بث الدواب من جملة هذه الآيات، هذا على القول بأنه عائـد إلـى قوله: {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء} [(١٦٤) سورة البقرة].

أو يكون عائداً إلى قوله: {فَأَحْيَا} [(١٦٤) سورة البقرة] فيكون قوله: {وَبَثَّ} [(١٦٤) سورة البقرة] تابعاً لـ(أحيـا)، فأحيا وبث، الآن كيف يكون المعنى؟ "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلـك التـي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء" هذه آية، عدّد آيات، الفلك، وخلق السماوات، ومـا أنزل من السماء، فأثّر ذلك أثرين: إحياء الأرض، وبث الدواب، لاحظت الفرق الآن بين المعنيـين؟ {وَبَـثَّ} [(١٦٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون آية من جملة الآيات، مثل الفلك، وخلق السماوات الأرض.. إلـى آخـره، ويمكن أن يكون ذلك عائداً إلى قوله: {فَأَحْيَا} [(١٦٤) سورة البقرة] "وأنزل من السماء ماء فأحيا به، وبث"، أحيا الأرض وبث فيها الدواب، فالآية تحتمل هذا وهذا.

والظاهر المتبادر أن ذلك يعود إلى قوله: {فَأَحْيَا} [(١٦٤) سورة البقرة] أحيا فكان نتيجة هذا المطر النازل مـن السماء أن الله أحيا به الأرض، ثم ذكر أمراً آخر عطفه عليه، فقال: {وَبَثَّ} [(١٦٤) سورة البقرة] فتكون الـواو عاطفة على (فأحيا) فكان ذلك نتيجة لنزول المطر، فكانت به حياة النبات والحيوان، والبث معناه: النشر.

"{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] أي فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه."

هذا الكلام الذي يذكره ابن كثير الآن هو جمع لأقوال السلف؛ لأنك إذا نظرت إلى مقالاتهم في هذه الآية تجد أن بعضهم يقول: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] يقول: هذه تأتي بالعذاب وهذه تأتي بالرحمة، وبعضهم يقول: هذه جنوبية وشرقية وغربية -في الجهات- وهذه بينهما، فكل ذلك داخل تحت معنى الآية، سواء اعتبرته من قبيل اختلاف التنوع، أو اعتبرته من قبيل اختلاف التضاد الذي يمكن أن يجمع تحت مدلولها، فهذا الكلام من ابن كثير -رحمه الله- هو جمع لهذه الأقوال، وهو من التفسير الجيد الحسن، فمن التحقيق في التفسير وتحريره، أن تجمع الأقوال التي يمكن أن تجتمع تحت الآية بدلاً من أن تعدد، ويقال: القول الأول كذا والقول الثاني والثالث والرابع {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] هذه تأتي بالمطر، وهذه تأتي بالعذاب، وهذه شمالية، وهذه شرقية، وهذه تسوق السحاب، وهذه يحصل بها تلقيح النبات وهكذا مما يحصل.

"وتارة تفرقه وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صَبَاً، وهي الشرقية التي تصدم..."

الصِّبا: هو الصغر، والصَّبَا: هي الريح التي تأتي من قبل المشرق، والدَّبور: هي الريح التي تأتي من قبل المغرب، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرتُ بالصَّبَا، وأهلكتْ عاد بالدَّبور))[١٤].

"وتارة صَبَاً: وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دَبوراً، وهي غربية تنفذ من ناحية دُبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول هاهنا، والله أعلم."

والكتب المخطوطة التي إما لم توجد، أو لم تطبع أكثر من المطبوع في هذه الأمور، في الكلام على الرياح، وفي الكلام على الأنواء والنجوم، وحتى قضايا الإسطرلاب، كتب كثيرة أحياناً تمل أن تقرأ في فهارس المخطوطات من كثرة ما يمر بك من هذه الكتب والرسائل.

"{وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] أي سائر بين السماء والأرض، يسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى."

السحاب قيل له ذلك ربما يكون لأنه ينسحب في الهواء؛ لأنك إذا نظرت إليه -خاصة الآن في الطائرات ترى ذلك من قرب- كأن بعضه يجر بعضاً، فهو منسحب في الهواء، {وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] بعضهم يفسر المسخر: أي أن الله يمسكه بين السماء والأرض فلا يقع فهو ثابت، ينزل منه المطر متى ما شاء الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر التسخير: أي أن الله يسيره حيث شاء، ويسوقه بالرياح، وهذا لا منافاة بينه، فهو مسخر بين السماء والأرض حيث إن الله أثبته بين السماء والأرض فلا يقع، وهو وعاء المطر، وكذلك من تسخيره أن الله يسوقه، وقد أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الرعد ملك

---

14 - أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالصبا)) [ج١- ص٣٥٠ – ٩٨٨] وفي كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: {وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} (الفرقان / 48) [ج٣- ص١١٧٢- ٣٠٣٣] وفي كتاب الأنبياء [ج٣- ص١٢١٩- ٣١٦٥] وفي كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب [ج٤- ص ١٥٠٧- ٣٨٧٩] ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور،[ج٢- ص ٦١٧- ٩٠٠].

من الملائكة، وأن البرق سوطه، وأن الرعد صوته، فهو مسخر بأمر الله -عز وجل-، وتعرفون الحديث، الرجل الذي سمع صوتاً من السحاب يقول: اسقِ أرض فلان، فتبعه... إلى آخره، هذا كله مسخر ينزل حيث شاء الله -عز وجل-، حتى نزوله على البحر له معان وأشياء كثيرة، حتى تكلم عليها المعاصرون، وقضية ما يتبخر من البحار فتزداد الملوحة، فينزل المطر فيكون ذلك سبباً لاعتدال مياه البحر بنسبة معينة ثابتة، وإلا لبقي لا يطاق لانعقاد ملوحته الكثيفة، فيحصل به هذا التوازن، والعلماء تكلموا على قضية انعقاد اللؤلؤ بسبب نزول المطر، وعلاقته بهذه القضية، فحتى الذي ينزل على البحار يكون لمنافع يعلم الخلق بعضها، ويجهلون أكثرها.

"{لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [(١٦٤) سورة البقرة] **أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [(١٩٠-١٩١) سورة آل عمران]."

وتعرفون الحديث في آية آل عمران لما قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر))[15]، وهي تشبه هذه الآية كثيراً، **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [(١٩٠) سورة آل عمران] فالحاصل أن الإلف هو الذي يمنع الناس من هذا التفكر، وإلا فلو قدِّر أن أحداً من الناس وجد في مكان تحت الأرض، ولد فيه حتى نشأ وترعرع، ثم أخرج من هذا المكان فنظر إلى التربة، وجعل يتلمس ذراتها، وينظر إليها، ثم فجأه طلوع الشمس، وارتفاع الشمس، وتحول الظلام إلى نور تام.. إلى غير ذلك مما يشاهده في يومه وليلته، ثم نظر إلى غروبها، وتحول ذلك إلى ظلام، ثم نظر إلى الكواكب وطلوعها، والنجوم والأفلاك والقمر فإنه لا ينقضي عجبه من ذلك، ولكن الإلف يمنعه من هذا، ولذلك الإنسان الذي ما رأى البحر قط إذا رآه هاله ذلك، وأدرك أنه من أعظم آيات الله -عز وجل-، وهكذا فإن كل من لم يشاهد شيئاً فشاهده لأول وهلة فإن ذلك يشده ويستولي على لبه، فيلجئه إلجاءً إلى التفكر والنظر، ولكنه يحتاج إلى تكلف في هذا النظر إذا كان مما يألفه وتكرر عليه فلا يلفت نظره.

طالب:.........

الأذكار الأحسن أن تقال بعد العصر، وذلك أن الله -عز وجل- ذكر الغدو والآصال، وذكر الذكر طرفي النهار، والآصال: إنما تكون بعد العصر، "**وقفت فيها أصيلاناً** -وأصيلالاً- **أسائلها**" يعني في وقت الأصيل، ويطلق ذلك غالباً على بدء اصفرار الشمس وذبولها، فهذا هو الطرف الأخير من النهار فهذا وقت للذكر، وفي أوله، فهذا هو الأحسن، فمن قالها بعد الظهر أجزأته، ومن قالها بعد المغرب أجزأته، ولكن الأحسن أن تقال بعد العصر، والله أعلم.

طالب:.........

---

15 - أخرجه ابن حبان في كتاب الرقائق، باب التوبة [ج٢- ص ٣٨٦ – ٦٢٠] وقال شعيب الأرنؤوط : "إسناده صحيح على شرط مسلم" وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [ج٢- ص ٨٨].

لا، إذا كان لم يتحقق من ذلك فلا يجوز له أن يتكلم بلا علم، فإن كان ذلك مما يعرفه ولا يخفى فهذا يبين لهم، أما الأشياء التي تحتاج إلى استنباط وتحتاج إلى فهم دقيق، هو لم يتأهل لهذا فيقول لهم: اسألوا أهل العلم، أو ينقل لهم إذا كان يضبط هذا النقل، يقول لهم: سمعت فلانا يقول كذا، قرأت لفلان كذا.

طالب:........

لا، لا أبداً، وماذا تقول في قوله: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [(١٦١) سورة البقرة] ما يمكن هذا.

طالب:........

الليلة تكون سابقة ليومها هذا صحيح، {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [(٤٠) سورة يس] فلا يحصل فيه اختلال على هذا الترتيب الذي رتبه الله -عز وجل-، {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [(٤٠) سورة يس] فهذا يأتي بعد هذا، لا يرجع فيتقدم عليه أو يتأخر عنه، وإنما بحسب ما رسمه الله -عز وجل-، وإلا فما تقول في قوله: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ} [(٤٠) سورة يس] والشمس هي آية النهار، إذاً النهار لا يدرك الليل، فهذا لا يمكن هو ليل ونهار، فهذا يأتي بعد هذا، بمعنى أن ذلك النظام لا يختل، فلا يخرج عما رسمه الله -عز وجل- له، هذا المراد.

طالب:........

"قال: قلت" إي هذا الذي عندنا، لكن هل وجدته في شيء من الأصول الأخرى؟

طالب:........

فقط؟

طالب:........

لكن هل فيه: "قالت: قلت"؟

طالب:........

خلاص إذاً نعدلها، هي صفحة كم؟

طالب:........

صفحة (١١٩) انظروا {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ} [(١٥٨) سورة البقرة] "روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة" الذي في المسند ماذا؟

طالب:........

"قال: قلت" إذاً نمسح "قالت" ونضع "قال"، "قال: قلت" جزاك الله خيراً.

طالب:........

يحتمل، لكن أنت راجعتَ ضبطها؟

طالب:........

ما راجعتها، المشرفة: المرتفعة، هي تبحث عن أحد تراه من مكان تُشرف فيه، فيحتمل هذا، وهي أيضاً مشرَّفة.

طالب:.........

كيف؟

طالب:.........

أنا لا أدري بأيها تضبط فعلاً، لكن أقول لك: هذا له وجه وهذا له وجه، إن استطعت أن تراجعها لنـــا فهـــذا جيد.

طالب:........

الأصل فيه التتابع والاتصال، لكنه إن قطعه لعذر كأن يستريح لطوله ونحو هذا، أو يشرب أو يصلي فهـــذا لا إشكال فيه، فإن قطعه قطعاً يطول عرفاً من غير عذر فمثل هذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه يستأنف من جديد.

طالب:.........

هم غيروا وبدلوا كثيراً، طيب ماذا تقول في فرقة السامرة حينما يستقبلون جبلاً بالشام، ويضللون إخوانهم من اليهود، ويقولون: ليست القبلة التابوت ولا الصخرة ولا بيت المقدس ماذا تقول فيهم؟ طيب هم حينمـــا كـــانوا يستقبلون التابوت في كل مكان يذهبون إليه في أسفارهم ينقلونه معهـــم، مـــا يـــستقبلون بيـــت المقـــدس ولا الصخرة، فصاروا يستقبلون الصخرة لما رفع التابوت، ومتى رفع التابوت؟...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٧٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٥-١٦٧) سورة البقرة]: "يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] الأنداد سبق مراراً في دروس متعددة كشرح كتاب التوحيد وغيره أن الند هو: النظير المناوئ، تقول: فلان ند لفلان أي نظير له مناوئ، فهو أخص من مطلق النظير، {أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] قوله: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] يحتمل معنيين، يحتمل أن يكون المراد كما قال ابن كثير هنا: كحبه، أي كما يحبون الله، سوّوا بين محبة هؤلاء الأنداد وبين محبة الله -تبارك وتعالى-، فكانت محبتهم بهذا الاعتبار محبة شركيةً ناقصة، ونقصانها أنهم قد صرفوا جزءا منها إلى هؤلاء الأنداد والنظراء، وهذا الذي عليه كثير من المحققين من أهل العلم كالشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- وتلميذه ابن القيم، وهو الذي مشى عليه ابن كثير هنا، فيكون معنى: {كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] أي كما يحبون الله، ولهذا كانت محبة أهل الإيمان كاملة؛ لأنه لم يصرف نصيب منها لشيء من الأنداد والنظراء والآلهة، ولهذا قال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة].

والمعنى الآخر الذي تحتمله الآية هو أن قوله: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] أي كحب المؤمنين لله، ثم بيّن أن حب المؤمنين أكمل من حب هؤلاء المشركين، وذلك أن حب هؤلاء المشركين لله ليس بخالص وإنما هو مبعض، فجعلوا جزءا ونصيباً من هذه المحبة لغيره، وأما أهل الإيمان فمحبتهم خالصة، فهذا المعنى كما ترون ليس هو الظاهر المتبادر، وقد لا يخلو من إشكال، يعني كأنه يقول: يحبونهم كما يحب المؤمنون الله، ثم يقول: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] في البداية جعل محبتهم بمنزلة محبة المؤمنين لله، ثم قال: إن الذين أمنوا أكثر حباً لله منهم، فكأنه ليس كالقول الأول في ظهوره ورجحانه بهذا الاعتبار، فكيف يقول: {كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] يعني: كحب المؤمنين لله ثم جعل حب المؤمنين لله أكمل؟! بينما الأول لا إشكال فيه، {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] أي كمحبتهم هم لله، فكانت محبة

أهل الإيمان أكمل وأعظم؛ لأنه لا تشريك فيها، فرجحان القول الأول ظاهر، وليس فيه إشكال، والله تعالى أعلم.

"وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[1].

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] **ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه."**

هو يشير إلى سبب نقص محبة المشركين أنها مبعضة، شرّكوا فيها فنقص جزء منها أو شطرها فصارت لتلك الأنداد، وعلى كل حال القول الثاني: كحب المؤمنين لله، قال به طائفة من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"ثم توعد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً} [(١٦٥) سورة البقرة] **يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال."**

لاحظ الآن كيف فسر قوله: **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] ماذا قال؟ قال: "لو يعلمون" ففسّر الرؤية هنا بالعلم، والرؤية تارة تكون بصرية، وتارة تكون علمية، رؤية بالعلم، ورؤية بالقلب، والآية هنا تحتمل المعنيين، وفيها قراءات ثلاث متواترة، قراءة الياء هذه **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] وهي قراءة أهل مكة وأهل الكوفة وأبي عمرو البصري، وهي القراءة التي نقرأ بها.

فعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون المراد بذلك العلم، أي: "لو يعلمون" كما قال ابن كثير، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الرؤية البصرية، فيكون المعنى: **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه: **{أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً}** [(١٦٥) سورة البقرة]، فيكون **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أي: يعاينونه بأبصارهم، فالرؤية هنا في: **{إِذْ يَرَوْنَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] يمكن أن تكون بصرية، أي: حين يرون العذاب وشدة النكال لعلموا أن القوة لله جميعاً.

ويحتمل أن تكون الرؤية "علمية" لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه لتبينوا ضرر اتخاذهم للآلهة، فصارت الرؤية علمية.

والقراءة الثانية بالتاء **{ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب}** ففي قراءة التاء الخطاب ظاهره أنه موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب لعلمت أن القوة لله جميعاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم ذلك قطعاً، وهو أعلم الناس بالله -عز وجل-، وبشرعه وجزائه، وهو أخشاهم لله لكمال علمه، ولكن المراد بذلك أمته، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يُخاطب تارة ويراد أمته

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] [ج٤- ص١٦٢٦- ٤٢٠٧] وفي باب تفسير سورة الفرقان [ج٤- ص١٧٨٤- ٤٤٨٣] وفي كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه[ج٥- ص٢٢٣٦- ٥٦٥٥] وفي كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب إثم الزناة [ج٦- ص٢٤٩٧- ٦٤٢٦] وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً} [(٢٢) سورة البقرة] [ج٦- ص٢٧٣٤ – ٧٠٨٢] ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده [ج١- ص٩٠ -١٤١].

بهذا الخطاب، وهذا كثير في القرآن، فالأمة كما سبق مراراً قد تخاطب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله: **{ولو ترى}** أي يا محمد، والمراد أمته؛ لأنه أعلم الأمة بالله -عز وجل-، فما يقال في حقه: "لعلمْتَ أن القوة لله جميعاً"؛ لأنه يعلم ذلك، وله كمال العلم في هذه القضية.

أما القراءة الثالثة فهي في قوله: **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] قرئت بالمبني للمجهول: **{إذ يُرون}** وعلى هذه القراءة تكون الرؤية في الثانية بصرية، وعلى القراءة الأولى: **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أيضاً الرؤية بصرية، يعني يعاينونه بأبصارهم، والاختلاف إنما هو في الأولى "ولو ترى"، "ولو يرى" والله أعلم.

"ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبري المتبوعين من التابعين، فقال: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ} [(١٦٦) سورة البقرة] تبرأت منهم الملائكة التي كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا."

قوله: **{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ}** [(١٦٦) سورة البقرة] يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: **{إِذْ يَرَوْنَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] الذي سبق، فيكون المعنى: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا"، "ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب في ذلك الحين يتبرأ المتبِّعون من المتبَّعين" إذا رأوا العذاب في ذلك الحين يحصل التبرؤ بين الأتباع والمتبوعين، فيكون: "إذ تبرأ الذين اتبعوا" بدل من قوله: "إذ يرون العذاب" فهم إذ يرون العذاب ما الذي يحصل؟ يحصل التبرؤ بين الأتباع والمتبوعين.

"فتقول الملائكة: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [(٦٣) سورة القصص] ويقولون: {سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [(٤١) سورة سبأ]."

يعني كل من عُبد من دون الله يتبرأ من عابديه، فالملائكة عبدتهم بعض العرب فهؤلاء يتبرءون، والجن من عبدهم تبرءوا منه، والصالحون والأنبياء من عبدهم تبرءوا منه وهكذا، حتى الشيطان يتبرأ من أتباعه.

"والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [(٥-٦) سورة الأحقاف] وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [(٨١-٨٢) سورة مريم] وقال الخليل -عليه السلام- لقومه: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٥) سورة العنكبوت] وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٣١-٣٣) سورة سبأ] وقال تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا

قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٢٢) سورة إبراهيم].

وقوله: {وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، قال عطاء: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] قال: المودة، وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح."

{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] أي جميع الصلات التي كانت بينهم في الدنيا، لم يعد هناك بينهم وشيجة ولا سبب للنجاة، تقطعت بينهم المودة وأسباب الخلاص والنجاة، فصار كل واحد مرتهن بعمله.

"وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا} [(١٦٧) سورة البقرة] أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله تعالى بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة] أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان] وقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [(١٨) سورة إبراهيم].. الآية، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء} [(٣٩) سورة النور].. الآية، ولهذا قال تعالى: {وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٧) سورة البقرة]."

قوله: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة] قال: تذهب وتضمحل، هي تذهب وتضمحل وأكثر من هذا، فهي ليست تذهب وتضمحل فقط، بل تكون عليهم حسرات، والحسرات: جمع حسرة: وهي أعظم الشدة والضيق، ويكون الإنسان بسبب ذلك في حال لا يحسد عليها، قد انقطعت به الأسباب، ويحصل له بسبب ذلك من الألم ما لا يقادر قدره.

{يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ} السيئة {حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة] فتكون سبباً لآلام نفوسهم وقلوبهم، وسبباً للشدة الواقعة بهم، فيتمنى الواحد منهم أن بينه وبينها بعد المشرقين، وأنه لم يفعل شيئاً من ذلك، ولم يقارف منها شيئاً، ولهذا يقولون: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [(٤٩) سورة الكهف].

"{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(١٦٨-١٦٩) سورة البقرة] **لما بيّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبيّن أنه الرزاق لجميع خلقه."**

هذا الكلام الذي يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو ما يعرف بالمناسبة بين الآية وبين الآية التي قبلها، والمقصود بالمناسبة: وجه الارتباط بين الآية وما قبلها، وهناك أنواع أخرى من المناسبة على كل

حال، لكن هنا يقرر وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها، لما بيّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق شرع يبيّن أنه الرازق لجميع خلقه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً} [(١٦٨) سورة البقرة] سُمي (حلالاً) ربما لانحلال عقدة الحظر عنه، {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] خطوات الشيطان: جمع خُطْوة، والخطوة تقال بالفتح خَطوة، وتقال بالضم خُطوة، والخَطوة: هي واحدة الخَطْو، تقول: خطوت خطوة، يعني واحدة، خطوتين، ثلاث، والخُطوة: هي ما بين القدمين حال الخَطْو، وأما الخَطوة: فهي الواحدة، تقول: هذه خَطوة، خَطَوات الدرس كما يقال، وخَطَوات الموضوع، والخَطَوات التي نسير عليها، المقصود بها الواحدة، وتجمع على خَطَوَات، خَطوة خَطَوَات، فَعْلَة فَعَلات، هذا هو الأصل أنه بالفتح تقول: حلَقات وحسَرات وزفَرات إلا لضرورة الشعر، يقول الشاعر:

حُمّلتُ زفْرات الضحى فأطقتها ... وما لي بزفْرات العشيِّ يدانِ[2]

قال: (بزفْرات) وهذا قليل جداً، وهو يرد في ضرورة الشعر.

طالب: يقول الأصفهاني: "الحسرُ: كشف الملبس عما عليه، يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر: من لا درع عليه ولا مغفر.

لا، هات الحسرات.

طالب: هو ذكر المعنى ثم سرد الآيات التي ذُكرت فيها.

قال: "والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، والمحسرة المكنسة، وفلان كريم المحسّر كناية عن المختبر، وناقة حسير: انحسر عنها اللحم والقوة، ونوق حسراء، والحاسر: المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا: حاسر ومحسور، أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله -عز وجل-: {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} [(٤) سورة الملك] يصح أن يكون بمعنى حاسر، وأن يكون بمعنى محسور، قال تعالى: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء] والحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على مرتكبه، أو انحسرت قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه، قال تعالى: {لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] وقال: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الحاقة] وقال تعالى: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [(٥٦) سورة الزمر] وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة]، وقوله

---

[2] - هذا البيت من قصيدة نونية طويلة عدتها ثلاثة وسبعون بيتاً لعروة بن حزام العذري، المتوفى -على ما ذكر الذهبي في تاريخه- في خلافة عثمان سنة ثلاثين من الهجرة، لعشر بقين من شوال، وقيل: سنة ثمان وعشرين، ومن محاسن شعره قصيدته هذه التي ضمنها حكاية حاله بألفاظ رقيقة، ومعان أنيقة يقول في مطلعها:

خليلي من عليا هلال بن عامر *** بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

ولا تزهدا في الأجر عندي واجعلا *** فإنكما بي اليوم مبتليان

يُنظر: خزانة الأدب (ج١/ص٤٣٢) وتزيين الأسواق في أخبار العشاق (ج١/ص٦٠) وشرح ابن عقيل (ج٤/ص١١٢) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (ج١/ص٤٣٨).

تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} [(٣٠) سورة يــــس]، وقوله تعالى في وصف الملائكة: {لَا يَــسْتَكْبِرُونَ عَــنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} [(١٩) سورة الأنبياء]...[٣].

ولا يستحسرون أي: لا ينقطعون، والكلمة في كل استعمالاتها ترجع إلى معنى الكـــلال والانقطـــاع، حـــسير: يعني كليل، {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} [(٤) سورة الملك] يعني كليل، ومنه قول الشاعر:

بها جيف الحسرى فأمـــا عظامهـــا فبـــيضٌ وأمـــا جلـــدها فـــصليبُ[٤]

يصف الشاعر بيداء -صحراء- واسعة، لا يقطعها إلا الواحد بعد الواحد من الناس، يقول: قطعتها وبها جيف الحسرى، وهي النوق تنقطع في السفر من طول المشي والمسير، فتحرِن الواحدة منها في مكانها، ولا تقــوم منه وتموت، وينقطع بها السير لشدة ما يلحقها من التعب.

يقول: "**بها جيف الحسرى**" وهي الإبل والدواب المنقطعة من طول المسير، "**فأما عظامها فبيض**" أي: تلـــوح عظامها ميتة من زمان متفسخة، "**وأما جلدها فصليبُ**" جلودها يابسة.

فالمقصود -على كل حال- أن قوله: {حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة] جمع حسرة، وهي شـــدة الــضيق والغم الذي يحصل لهم بسبب التفريط والتضييع، ولذلك هنا لما قال: إنها ذهبت واضمحلت فيكون ذلك ســـبباً لهذا الغم الذي وقع لهم، إذا رأوا أعمالهم قد ذهبت واضمحلت ما الذي يحصل؟ يحصل لهــم الحـــسرة، {يَـــا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [(٥٦) سورة الزمر].

"**فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً...**"

---

3 - غريب القرآن للأصفهاني (ج١/ص١١٨).

4 - هذا البيت من قصيدة طويلة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس، مطلعها:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ *** بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُها *** وعادَتْ عَوَادٍ بيننا وخُطُوبُ

يُنظر: خزانة الأدب (ج٣/ص١٠٦) والجليس الصالح والأنيس الناصح (ج١/ص٢٣٩) والمفضليات (ج١/ص٧١) ومنتهى الطلب من أشـــعار العــرب (ج١/ص١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البَحَائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زيّنه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض ابن حمار -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- الذي في صحيح مسلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال)) وفيه: ((وإني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم))[1].

وقوله: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] **تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [سورة فاطر(٦)] **وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}** [سورة الكهف (٥٠)].

وقال قتادة والسدي في قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٦٨) سورة البقرة] **كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان.**

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى بعض الكلام بالأمس على قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] وعرفنا معنى الخطوات من جهة اللغة، وهنا قال: "كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان" وهذا التفسير تفسير صحيح، إذ إن اتباع خطوات الشيطان هو اتباع مسالكه وطرائقه، وما يزينه للناس، ويمليه لهم، هذه هي خطوات الشيطان، فيكون الإنسان متبعاً له، مطيعاً له، والشيطان كما هو معلوم إنما يأتي كل إنسان بحسب حاله، فهو -كما يقول ابن القيم -رحمه الله-: يشم قلبه، فإن رأى فيه ميلاً إلى التشديد جاءه من هذا الباب فأوقعه في الغلو، وإن كان فيه ميل إلى الشهوات جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى الجهاد جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة جاءه من هذا الباب، وهكذا فهو يزين له شيئاً فشيئاً

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (ج٨/ص١٥٨- ٧٣٨٦).

يوقعه في أمر ثم يجره ذلك إلى ما بعده، حتى يوقعه في الأمر العظيم الذي ربما لم يخطر في بال هذا الإنسان أنه سيصل إليه في يوم من دهره.

{إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] أي ظاهر العداوة، ليست عداوته بخافية عليكم، وأصل العداوة معروفة، وأظن سبق الكلام على هذا المعنى، وأن أصله في كلام العرب مأخوذ من أن أحد المتعاديين في عدوة والآخر في العدوة الأخرى، وعدوة الوادي هي شقه وجانبه، كما يقال في الشقاق والمشاقة هذا في شق وهذا في شق، والمحادة هذا في حد وهذا في حد وهكذا.

"وقوله: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(١٦٩) سورة البقرة] أي: **إنما يأمركم عدوّكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.**"

{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء} [(١٦٩) سورة البقرة] (إنما) تدل على الحصر، يعني هو لا يأمركم إلا بهذا، والسوء ربما سمي بذلك لأنه يسوء صاحبه إذا وجده في صحائف أعماله.

{وَالْفَحْشَاء} [(١٦٩) سورة البقرة] هي لون من السوء، فيكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام، إذ إن الفحشاء هي سوء خاص، فكل ما يسوء صاحبه فهو سوء، ولكن الفحشاء نوع منه أعظم، هذه الفحشاء هي السوء العظيم، وأصلها سوء المنظر وفظاعته، وتُستعمل في كل ما يقبح من المعاني، وإلا فإن الفحشاء يقال فيما يفحش أي يعظم، ولذلك تقوله حتى في الأمور الحسية تقول: هذا مال فاحش، يعني كثير، فصارت تُستعمل في الاستعمال الخاص في الذنوب القبيحة العظيمة، وربما أطلقت على بعضها كالزنا وما في معناه، ولهذا بعضهم يقول: الفحشاء إذا أطلقت فهي الزنا وما في معناه الفحشاء والفاحشة، وهذا غير دقيق، وبعضهم يفرق بين المعرف بـــ(أل) الفاحشة والفحشاء والمنكر (فاحشة)، وبعضهم يقول: إن ما جاء منه مقيداً كقوله -تبارك وتعالى-: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(٣٠) سورة الأحزاب] فإن المراد به عقوق الزوج، والتطاول على الأحماء، وإذا جاءت معرفة بـــ(أل) الفاحشة فهي الزنا وما في معناه، وإذا جاءت منكرة فهي كل ذنب عظيم، وهذا الكلام أيضاً غير دقيق، فالحاصل أن الفاحشة هي الذنب العظيم، ويطلق في عرف الاستعمال كثيراً على الزنا وما في معناه.

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} [(٣٧) سورة الشورى] فهنا كبائر الإثم يدخل فيها الزنا، فذكْر الفواحش بعدها يكون من عطف الخاص على العام، ما ظهر منها وما بطن، كما يقولون: الزنا سراً مع الخليلات، والزنا علانية وجهراً مع البغايا اللاتي يعلن ذلك، ويعرضن أنفسهن لكل من هب ودب ودرج.

على كل حال إنما يأمركم بالسوء وهو كل ما يسوء ويقبح، من كل ذنب ومعصية، والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

"{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}

[سورة البقرة (١٧٠ – ١٧١)]

يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ} لهؤلاء الكفرة من المشركين: {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: {بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا} أي: وجدنا {عَلَيْهِ آبَاءَنَا}."

الضمير في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا} [(١٧٠) سورة البقرة] يرجع إلى أي شيء؟ يحتمل أن يرجع إلى موضع سابق، وهو قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة]... الآية التي تكلمنا عليها بالأمس، والمعنى إذا قيل لهؤلاء الذين اتخذوا الأنداد من دون الله يحبونهم كحبه على أرجح المعنيين في (كحبه) قالوا ذلك، هذا المقصود في مرجع الضمير.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى ما ذُكر من الناس في الآية التي قبلها، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] فعلى هذا يكون من قبيل الالتفات، والمقصود بالالتفات: أن يرد التنويع فيها باستعمال الضمائر ونحوها، يعني مثلاً في قوله: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ} [(٢٢) سورة يونس] هذا الضمير للمخاطب، {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [(٢٢) سورة يونس] الضمير للغائب والمحدث عنه واحد، فهذا من التفنن في الخطاب، وله فوائد: منها: تنشيط السامع، وغير ذلك مما يذكرونه، وهو من ضروب البلاغة، فإذا قيل: إن قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} [(١٧٠) سورة البقرة] يرجع إلى الناس، يكون هذا من قبيل الالتفات: لأن في {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [(١٦٨) سورة البقرة] الخطاب يكون للمخاطب، ثم قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} [(١٧٠) سورة البقرة] وهم الناس الذين خاطبهم قبل قليل، قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] فيكون هذا من قبيل الالتفات والتفنن في الخطاب، تحوّل من خطاب المخاطب إلى الغائب، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري أنها تعود إلى ما قبلها وهو قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا} [(١٧٠) سورة البقرة].

والذين حملوها على قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً} [(١٦٥) سورة البقرة] كأنهم استشكلوا كيف يكون ذلك عائداً إلى الناس قبله من قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ} [(١٦٨) سورة البقرة] وليس كل الناس إذا قيل لهم: {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] وهذا ليس فيه إشكال والله أعلم؛ لأن المخاطب بذلك هم الناس وليس أهل الإيمان، والناس في أغلبهم على هذه الحال، خاطبهم القرآن، وخاطبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، وكان اعتلالهم كثيراً باتباع الآباء والأجداد وتقليدهم، والتمسك بما ألفوا عليه آباءهم، والله أعلم.

"{بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] أي: وجدنا {عَلَيْهِ آبَاءنَا} أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ} أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم {لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ} [(١٧٠) سورة البقرة] أي: ليس لهم فهم ولا هداية.

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الإسلام فقالوا: "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً كما قال تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ} [(٦٠) سورة النحل] فقال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي

لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها أي: دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط."

يعني الآن على كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا يكون هذا المثل مضروباً في الداعي أم في المدعو الذي لا يستجيب ولا يرعوي؟ في المدعو، مع أن الله -عز وجل- يقول: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] لاحظ "كمثل الذي ينعق..." فهذه الآية على قول ابن كثير هي مثل ضرب في المدعو، وقوله: **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] قالوا: هذا ليس بمقصود أن الله أوردها من أجل أن يمثل حال الداعي وإنما المقصود بها حال أولئك الذين لا ينتفعون من هذه الدعوة، ولا تنفتح قلوبهم، ولا يستجيبون لدعاء هذا الداعي، أو هذا الرسول كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً، وهذا المعنى الذي ذكرته -أنها في المدعو- هو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-، هذا مثل ضربه الله في الكفار، حيث لا يجدي معهم الوعظ ولا النصح ولا التذكير ولا الدعوة.

وبعض أهل العلم يقول: هي في الداعي والمدعو، يعني هي تصور حال هؤلاء الكفار وحال من يدعوهم، فمثل الذي ينعق، ينعق: بمعنى يصيح، حينما يزجر غنمه، ويصيح بها، هي تسمع صوته لكن هل تفهم؟ هل تدري ما يقول؟ هي لا تفهم شيئاً **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] يسمع دعاءً ونداء، فهم صم لا يسمعون سماع انتفاع، وبكم لا يتكلمون بالحق، وعميٌ لا يبصرون الحق ودلائله، هذا حالهم، فهي مثل يصور حال الداعي والمدعو الذي هذه صفته، هكذا بعض أهل العلم يقول.

لكن على قول من قال: إن هذه الآية في المشركين مع دعائهم لأصنامهم، يكون الكلام هكذا: "ومثل الذين كفروا حينما يدعون آلهتهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء" فصارت الآن ليست في الداعي بمعنى الدعوة إلى الله، الداعي بمعنى السائل، والمدعو هو المعبود من دون الله -عز وجل-، هذه الأصنام والأنداد أو المقبورون –الموتى-، فهم حينما يصيحون بآلهتهم ويدعونها ويخاطبونها يتقربون إليها بألوان القربات فهذه الأصنام والموتى أولئك لا يستجيبون لهم، وهم عن دعائهم غافلون، فلا يعون ما يقوله لهم هؤلاء الناس، يخاطبون أحجاراً ويدعونها، ويتقربون إليها، وربما يقولون عندها بعض الأوراد والأذكار.. وما إلى ذلك، وهي لا تسمعهم، فبعض أهل العلم يقول: هذا المثل في حال المشركين مع معبوداتهم، "مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء" هذا القول وإن قال به جماعة من السلف والخلف -رضي الله تعالى عنهم-، لكنه لا يخلو من إشكال، وذلك أن الله -عز وجل- قال: **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] الآن إلا دعاءً ونداء، الأصنام هل تسمع دعاءً ونداء؟ تسمع شيئا؟ ما تسمع شيئا أصلاً، لا تسمع دعاءً ولا نداءً فضلاً عن أن تنتفع، لكن البهائم تسمع الدعاء والنداء، تسمع صياحا، يصيح بها الراعي، فهذا يرجح القول الأول بأن هذا مثل لهؤلاء المدعوين حينما توجه إليهم الدعوة، فهم إنما يسمعون قولاً وكلاماً دون أن يفقهوا حقيقته ومعناه، فهم لا ينتفعون، ولهذا قال: **{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}** [(١٧١) سورة البقرة] والله أعلم.

طالب:.....

بغض النظر ما الذي يتغير بالنسبة لهذا القول؟

طالب:.....

لا هذا فيه بعد، ولا حاجة لحمله على المنقطع أصلاً، والأصل في الاستثناء الاتصال وليس الانقطاع، هذا هو الأصل وليس الانقطاع، وبالتالي لا حاجة لهذا أصلاً، المعنى يتضح ولا يسمع إلا دعاء ونداء، والدعاء مما يسمع، فما في حاجة، والله أعلم.

فعلى كل حال إذا كانت في الداعي والمدعو على طريقة ابن جرير -رحمه الله- في أن هذه الآيات أصلاً في أهل الكتاب لا سيما اليهود، وهو يرى أن هذه الآية في اليهود **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] فيدخل فيها اليهود، ويدخل فيها طوائف الكفار، بجميع أديانهم ومللهم، ويدخل فيها على كل حال النصارى كذلك والمشركون من العرب.

طالب:.....

إنه ماذا؟ ما هو القول الثاني الذي ذُكر عندك؟

يراجع هذا، انظر تفسير ابن جرير عندك هنا.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذا مثل لهؤلاء المدعوين حيث توجه إليهم الدعوة ولا ينتفعون بها، هذا مثل في وعظ الكافر وواعظه، على كل حال هو يحمل الآية على اليهود، ويرد على من قال إنها في دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم بأمور، منها ما ذُكر هنا من قوله: **{بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] وكذلك في قوله بعده: **{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ}** [(١٧٣) سورة البقرة]... إلى آخره، رد على اليهود حيث حرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله -عز وجل-، وعلى كلٍّ يدخل فيها اليهود وغير اليهود؛ لأن المشركين أيضاً حرموا على أنفسهم أشياء كما هو معروف مما ذكره الله في سورة الأنعام، قالوا: **{هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء}** [(١٣٨) سورة الأنعام].

"**هكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا.**

وقوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: صمٌّ عن سماع الحق، بكمٌ لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه {فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه."

يعني حيث عطلت هذه الحواس وما في معناها فصارت كالعدم فصاروا (صم بكم عمي)، مع أن الله أثبت لهم أبصاراً، فقال: **{وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ}** [(٢٦) سورة الأحقاف] فإذا عطلها الإنسان صارت كالعدم، وبالتالي صح أن يطلق عليه أنه أصم وأبكم وأعمى.

طالب:.....

الذي هو في المدعو، مثل الذي ينعق بغنمه وليس في الأصنام، هكذا عندك في ابن كثير أنها في الأصنام؟

طالب:.....

من الذي قال الأول؟

طالب:.....

إذن يعلق على هذا من كلام ابن جرير فيما نقله ابن كثير بأن الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله- هو أنها في الداعي والمدعو الذي لا يستجيب ولا ينتفع بالدعوة، وليس في دعاء الكفار لأصنامهم، يعلق على هذا بأن اختيار ابن جرير هو هذا، والله أعلم.

طالب:.....

على كل حال قد يكون عند ابن كثير -رحمه الله- نسخة فيها شيء من هذا.

طالب:.....

كيف؟

طالب:.....

ابن كثير -رحمه الله- حينما كتب هذا الكتاب هو يضيف إليه ويحذف منه، فقد يكتب الإنسان شيئاً أحياناً ثم بعد ذلك يمسحه ويتراجع عنه، وما كان عندهم طبعة أولى وطبعة ثانية ومنقحة، فإذا حذف تناقل الناس نسخاً وربما تكون تلك النسخة هي التي طبعت وهذا موجود، وهذه المشكلة واضحة في تفسير ابن كثير، واضح أنه كان يحذف منه أشياء ويضيف إليه أشياء، فلذلك الذي يحقق ابن كثير المفروض أنه ينتبه لهذه القضية أولاً قبل كل شيء حتى لا يظن أن هذا من قبيل السقط ثم يفرح به ويورد مجموع ما في النسخ ويحشره في نسخة واحدة، والنساخ يتساهلون ويتصرفون، وأصحاب الكتب يعلقون أحياناً وربما يُظن أن هذا من كلام المؤلف.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة البقرة (١٧٢ – ١٧٣)] **يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** [سورة المؤمنون (٥١)] **وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}** [(١٧٢) سورة البقرة] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك"[2] ورواه مسلم والترمذي".**

ولهذا حمل هذه الآية جمع من السلف كعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- والضحاك وجماعة على أن المراد بها الكسب الحلال، **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}** [(١٦٨) سورة البقرة] المقصود بها الكسب الحلال، وكثير من أهل العلم يحملون هذه الآية على أن المقصود بها الامتنان على خلقه، فهذا الأمر أمر إباحة، وتعرفون أن الأمر كما يذكره الأصوليون يأتي لمعان كثيرة منها الأصل أنه يأتي للوجوب، وقد يكون لمعنىً آخر لقرينة كالاستحباب والإباحة ونحو ذلك.

---

2 - في المسند (ج٢/ص٣٢٨- ٨٣٣٠) وهو في مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (ج٣/ص ٨٥- ٢٣٩٣)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (ج٥/ص٢٢٠- ٢٩٨٩).

فهنا كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، على هذا يكون هذا الأمر للإباحة والامتنان، ولهذا الأصوليون يوردون هذه الآية -وكذلك الفقهاء- في مقام الكلام على أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، والعبادات الأصل فيها المنع، والفروج الأصل فيها المنع، وبعضهم يذكر الذبائح أيضاً يقول: الأصل فيها المنع إلا ما ذبح أو ذكي بالطريقة الشرعية.

"**ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه...**"

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

"ولما امتنّ تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة، أو قد عدا عليها السبع.

وقد خصص من ذلك ميتة البحر؛ لقوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} [سورة المائدة (٩٦)] **على ما سيأتي -إن شاء الله-، ولحديث العنبر في الصحيح[١]، وفي المسند والموطأ والسنن قوله -عليه السلام- في البحر: ((هو الطهور ماؤه، والحل ميتته))[٢]، وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً: ((أحل لنا ميتتان ودمان، السمك والجراد، والكبد والطحال))[٣]، وسيأتي تقرير ذلك -إن شاء الله- في سورة المائدة."**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله- هنا: "**إلا الميتة**" وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، سواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية، يعني بأي سبب ماتت سوى التذكية، حتى ولو كان بفعل الإنسان، فإن ذلك لا يحلها إلا بالتذكية، اللهم إلا ما جاء في الصيد، سواء كان عن طريق الجوارح والكلاب المعلمة أو الطيور التي يُصطاد بها، أو كان ذلك عن طريق ما تُصاد به مما يحل أكل ما صيدت به كالسهام والرماح ونحو ذلك، وأما ما عدا هذا فإنه لا يحل.

---

1 - يريد بحديث العنبر ما أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب عزوة سيف البحر [ج٤- ص١٥٨٦ – ٤١٠٤] عن جابر -رضي الله عنه- قال: "غزونا جيش الخبط وأمر أبو عبيدة فجعنا جوعاً شديداً، فألقى لنا البحر حوتاً ميتاً لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه فمر الراكب تحته، فأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: قال أبو عبيدة: "كلوا" فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((كلوا رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم))، فأتاه بعضهم بعضو فأكله"، وهو أيضاً في كتاب الذبائح والصيد، باب قول الله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ} [(٩٦) سورة المائدة] [ج٥- ص٢٠٩٣- ٥١٧٤]، وفي مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ميتات البحر [ج٣- ص١٥٣٥- ١٧].

2 - أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (ج ١/ص٣١- ٨٣) والترمذي في أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (ج١/ص١٠٠- ٦٩) والنسائي في السنن الكبرى (ج١/ص٧٥- ٥٨) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر (ج ١/ص١٣٦- ٣٨٦) وأحمد في المسند (ج٢/ص٣٦١- ٨٧٢٠) وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٧٠٤٨).

3 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال (ج ٢/ص١١٠٢- ٣٣١٤) وأحمد في المسند (ج٢/ص٩٧- ٥٧٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (ج١/ص٢٥٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج٣/ص١١١).

فلو ضرب الصيد بحجر فإنه لا يحل، وكذلك الصبيان مثلاً حينما يضعون الحجر في المقلاع ويرمون به الطائر فإنه لا يحل؛ لأن هذا من قبيل الموقوذة التي رميت بحجر، وكذلك لو صدمه بالسيارة أو نحو هذا، وسيأتي في آية المائدة -إن شاء الله- وجه الاستثناء في آية: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] يعني هل هو يعود إلى المذكورات {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ} [(٣) سورة المائدة]...؟ وهل الموقوذة والمتردية والنطيحة إذا أدركت وهي في حال النزع فذكيت هل تحل؟ أو أن ذلك الاستثناء منقطع؟ يأتي -إن شاء الله- تفصيل هذا.

"**مسألة: ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره.**"

هذه المسألة جاءت استطراداً، ولو حذفها المختصِر وأبقى على ما يتعلق بتفسير الآيات فقط لكان أولى، أو ذكرها على الأقل عند الكلام على آية المائدة مثلاً، أو عند: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} [(١٤٥) سورة الأنعام].

يقول: "**لبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره**" لأنه جزء متولد منها، أما بالنسبة للبن فواضح، ويكفي أنه في وعاء نجس؛ لأن الميتة من الأعيان تصير عيناً نجسة، فهذا الوعاء نجس، واللبن شيء قليل من شأنه أن يتغير بهذا الوعاء النجس.

وأما بالنسبة للبيض فقال: "**عند الشافعي وغيره**" مع أن هذا عند الشافعي، ولكن في مذهب الشافعية يُفرق بالنسبة للبيض بين ما كان قشرته صلبة فإنه لا ينجس؛ لأن النجاسة لا تصل إليه، فصار في حكم المنفصل فيجوز أكله، لذا قال: "**لأنه جزء منها**".

والمالكية، يقولون: البيض سواء كان قشره بلغ حال الشدة والصلابة أو لم يبلغ فإنه لا يؤكل؛ لأنه جزء منها. وتعرفون الذي سأل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: "ما تقول في رجل وطأ دجاجة ميتة فخرج منها بيضة، ففقست فرخاً، فهل هذا الفرخ الذي صار دجاجة نجس أم طاهر؟ يحل أكله أو ما يحل أكله؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من العراق، قال: فعل الله بأهل العراق كذا كذا، يعني أنه سؤال متكلف.

"**وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة.**"

يعني هو طاهر بنفسه لكنه تنجس بسبب أن هذا الوعاء النجس صار ظرفاً له، وفرق بين قول الإمام مالك وبين المذهب، وقول الشافعي والمذهب، وقول الإمام أحمد والمذهب، وإلا فالأحناف يرون حتى اللبن -لبن الميتة- طاهرا فضلاً عن البيض.

"**وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف.**"

بكسر الهمزة (إنفحة)، ويقال أيضاً بتشديد الحاء (إنفحّة)، وإنفحة الميتة معروفة، فالعجل الصغير قبل أن يأكل العشب وما في معناها وما زال يرضع من أمه فقط، فإن هذا الوعاء الذي هو بمنزلة المعدة أو الكرش قبل أن يصير كذلك يؤخذ فيجبن به، يوضع في اللبن فيساعد على تحويله إلى مادة أخرى وهي الجبن، فإذا أكل العشب هذا الجدي أو العجل الصغير فإن ذلك الوعاء يتحول إلى كرش يصير شيئا آخر، فإذا كان العجل ميتاً مثلاً، وأخذ منه تلك المادة فهي نجسة بطبيعة الحال، لكن إذا وضعت في الحليب وتحولت إلى جبن هل يحل أكله أو لا يحل؟ وتعرفون أن هذه المسألة مسألة مطروقة، والصحابة -رضي الله عنهم- لما ذهبوا إلى فتوح العراق وفارس نُقل عنهم أنهم أكلوا من تلك الأجبان في تلك البلاد المفتوحة، مع أنهم يصنعون الجبن

بهذه الطريقة، فعلل ذلك بعض أهل العلم بأن هذا شيء يسير يوضع في الحليب فلا يحصل به تغير بسبب النجاسة، والكلام في هذه المسألة ليس هذا موضعه، لكن ابن كثير -رحمه الله- تطرق لها هنا.

"وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير هاهنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع، وقد روى ابن ماجه عن سلمان -رضي الله تعالى عنه-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن السمن والجبن والفراء..."

ما الفرق بين الجُبُن والجُبْن؟

الجُبُن: المأكول، والجُبْن: الخوف، بضم الباء هو المأكول، وبالسكون هو الضعف عن المواجهة، أي: الجبان.

"فقال: ((الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه))[4]، **وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذكِّي أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليباً..."**

يعني أن الخنزير لا تطهره الذكاة، وكذلك كل السباع، وما يحرم أكله فإن الذكاة لا تؤثر فيه شيئاً، فسواء ذكي أو مات حتف أنفه فالأمر في ذلك سيان.

الفرق بين الموت حتف أنفه -بهذا القيد- وبين الذكاة، الذكاة تكون بالطريقة الشرعية، ويلحق بها ما في حكمها كالصيد، وكذلك أيضاً ما ندَّ من البهائم التي ليست هي وحشية في أصلها، وكذلك مثلا لو أن الدابة -البعير مثلاً- سقط في بئر ولم يتبين منه إلا دبره -الجزء الأخير منه-، والباقي في البئر، كيف يوصل إلي هذا وهو ما مات؟

طالب:.......

لا، ما هو بالشوزن، الآن هو في البئر، وأنت تستطيع الوصول إليه، لكن لا تستطيع نحره؛ لأن رقبته ومقدمه داخل في البئر، وقد ملأ البئر ولا تستطيع أن تصل إليه، فماذا يُصنع به؟ يمكن أن يتوصل إلى إزهاق نفسه من آخره فيكون ذلك مستثنى.

ولو ندّ البعير –هرب-، ولم يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الرمي يُؤكل، أو ندت شاة فرميت في قلبها أو في كبدها فماتت تُؤكل.

"ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليباً، أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي."

هذه صور ثلاث في المسألة.

الله -عز وجل- يقول: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] فالمحرم هو لحم الخنزير، طيب والشحم؟ بعض أهل العلم يقول: يلحق به قياساً لعدم الفارق، ولكن هل هذا يحتاج إلى قياس؟ أو أن اللحم في كلام العرب إذا

---

4 - أخرجه الترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء (ج٤/ص٢٢٠- ١٧٢٦) وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن (ج٢/ص١١١٧- ٣٣٦٧) والبيهقي في السنن الكبرى (ج١٠/ص ١٢) والطبراني في المعجم الكبير (ج٦/ص ٢٥٠- ٦١٢٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٣١٩٥).

أطلق فإنه يصدق على الأبيض والأحمر، يعني الشحم واللحم، فكل ذلك يقال له: لحم، إذا أطلق دخل فيه هذا وهذا، وهذا هو الأقرب، فهو ليس من باب القياس.

يقول: "**إما تغليباً**" تغليباً بمعنى أنه ذكر اللحم لأنه هو الغالب، أي أكثر في البهيمة، وهو المقصود أصلاً فذكره تغليباً، لكن الأقرب -والله أعلم- أن اللحم في كلام العرب يطلق على هذا وهذا، وهذه المسألة تجدون فيها كلاماً ومناقشات بين بعض الفقهاء وبين الظاهرية، ولعله يأتي -إن شاء الله- عند الكلام على قوله: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام].

"**وكذلك حَرَّم عليهم ما أهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له.**"

الإهلال أصله: رفع الصوت، ومنه الإهلال بالتلبية، فصار ذلك يقال عند الذبح أو النحر؛ لأنهم يذكرون أسماء آلهتهم عند ذبح هذه البهائم والدواب، يذبحونها لهذه للأصنام، فقيل له: إهلال، فصار ذلك يطلق ولو كان من غير رفع الصوت، يقال: أهل به لغير الله، حتى لو لم يتكلم بشيء لا في سره ولا في نطقه، ولكنه نوى أن تكون هذه لغير الله فإنه يحرم أيضاً أكلها، وإذا ذكر غير اسم الله فإنه يحرم أكلها من باب أولى، فصار عندنا -فيما أهل به لغير الله- ثلاث صور، وكلها داخلة في التحريم من حيث الحقيقة.

"**وأورد القرطبي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم.**"

معناه أن هذه الذبائح لا يحل أكلها لكن غير الذبائح لو صنعوا طعاماً آخر كالحلوى أو الكيك أو نحو هذا بمناسبة العيد فهل يؤكل هذا أو لا يؤكل؟ أو أقاموا سوقاً بهذه المناسبة هل يجوز الشراء منه أو لا يجوز؟ هي مسألة معروفة، وأظن مر بنا طرف منها في اقتضاء الصراط المستقيم، فبعض أهل العلم يفرق بين الذبائح وبين المطعومات الأخرى، وذكرنا -في ذلك الحين- أنه إذا فهم أن ذلك من مشاركتهم، أو أن فيه نوعا من المشاركة لهم، أو الإقرار على أعيادهم فإن الإنسان قد يمتنع من الأكل والقبول لهديتهم بتلك المناسبة، وما أشبه ذلك.

طالب:......

كيف؟

طالب:......

ليس هذا محل اتفاق، ولاحظ كلام عائشة -رضي الله عنها-: "وكلوا من أشجارهم" يعني المقصود لو جاءوا بشيء صُنع من البر أو الذرة أو نحو هذا، وليس المقصود: امسكوا شجرهم وكلوا من الثمر، والمسألة على كل حال ليس هذا موضعها، الأصل في التفسير هنا أن نتكلم فقط على ما يتعلق بالآيات.

"**ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال:** {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٧٣) سورة البقرة] **أي: في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد،** {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(١٧٣) سورة البقرة] **أي: في أكل ذلك،** {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [(١٧٣) سورة البقرة]**، وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله فله الرخصة.**"

قوله: {فَمَنِ اضْطُرَّ} [(١٧٣) سورة البقرة] الاضطرار معروف، ومعناه: أن يشرف على الهلكة، وليس مجرد الجوع الذي يستطيع معه الصبر من غير لحوق التلف أو الضرر الشديد الذي يشرف به على الهلكة.

{غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٧٣) سورة البقرة] في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه، مجاوزة الحد في ماذا؟ بعض أهل العلم يفسر: {غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} أي: غير متجاوز الحد في أكله هذا، كأن يأكل أكثر من الحاجة، أو أن يأكل تشهياً، أو أن يأكل من غير ضرورة، أو أن يلجأ إلى الأكل مع وجود بديل أخف منه، كالذي ما وجد شيئا مذكى لكنه وجد -على خلاف بين أهل العلم- طعاماً لإنسان لم يأذن له به، أو وجد صيداً في الحرم ووجد ميتة أيهما يقدم؟ هذه مسائل فيها خلاف، مسألة الصيد بعض أهل العلم يقول: لا يُقْدِم على الصيد؛ لأن الله أباح الميتة مطلقاً للمضطر، والصيد حُرم على الإنسان إذا كان محرماً، أو كان في الحرم -وإن لم يكن محرماً-، فقالوا: هذا ألصق به وأعلق وأخص، فلا يقرب الصيد، هذا قول لبعض أهل العلم، وبعضهم قال: يُقْدِم على الصيد.

لكن لو وجد طعاماً لإنسان لم يأذن به هل يُقْدِم عليه أو يُقدِّم الميتة؟ يُقدِّم طعام هذا الإنسان إلا إذا كان ذلك سيؤدي إلى تهمة له بالسرقة وقطع يده.

المقصود أن الإنسان لا يُقْدِم على الميتة إلا في حال الاضطرار، ثم إن الضرورة تقدر بقدرها {غَيْرَ بَاغٍ} [(١٧٣) سورة البقرة].

وإذا أبيح له الميتة فهل له أن يأكل حتى الشبع؟ وهل له أن يأكل ذلك تشهياً يقول: فرصة آكل حتى أشبع؟ الضرورة تقدر بقدرها.

وقد يظهر بغيه وتجاوزه وتعديه ببعض تصرفاته، كما لو أنه جلس يصنع هذه اللحوم بطرق يتفنن فيها، هذا حال إنسان مضطر؟! يقول: ما دام أنه أبيحت الميتة أنا سأصنع كبابا عراقيا، وكبابا إيرانيا، وأفعل من ألوان هذه الأشياء التي أراها في لوحات الشوارع، هذا متجاوز للحد.

كما لو أبيح له التصوير مثلاً لضرورة، ويوم جاء يتصور وهو ليس من عادته أن يلبس الزر، أو العقال، فذهب ولبس عقالا وضبط نفسه، ومشط لحيته، وركب أزاريره، وربما لبس معها ثوب زينة، وجاء في أبهى صورة، فهل هذا يعتبر مضطراً؟! ما هو مضطر، هذا صار عنده بغي.

"**ولا عادٍ**" أي: ما لم يكن عاصياً في سفره كقاطع الطريق، ومن خرج على الإمام، وما شابه ذلك؛ لأن هذه الرخصة صار من شأنها أن تعينه على باطله وظلمه ومعصيته، بناءً على أن العاصي لا يترخص بالرخص، مثل مسألة القصر هل للعاصي في سفره أن يصلي الصلاة قصراً ويجمع بين الصلاتين أم لا؟ هذه مسألة خلافية.

"**ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وقال سعيد -في رواية عنه-: وعن مقاتل بن حيان: {غَيْرَ بَاغٍ}** [(١٧٣) سورة البقرة] **يعني: غير مستحله، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ} قال: {غَيْرَ بَاغٍ} في الميتة {وَلا عَادٍ} في أكله، وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال: {غَيْرَ بَاغٍ} في الميتة أي في أكله، أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة**."

هذا -كما مثلت- كمن يجد شيئا يسد به الرمق لكنه يقول: لا، أنا أريد أكل لحم، طيب عندك هذه الأشياء من النباتات وتستطيع أن تستغني بها الآن! قال: لا، أنا أريد لحما، فمثل هذا يعتبر باغيا، كذلك إذا أكله تشهياً، فالباغي قد يكون من صوره: الأكل فوق الحاجة، أو أن يأكله تشهياً أو نحو ذلك، والعادي على قول بعضهم: هو الذي يأكل ويجد مندوحة عنه، يجد شيئاً آخر.

على كل حال ابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمله على جميع هذه المعاني، "غير باغ ولا عاد" سوى الخارج في المعصية فإنه لا يقول به، يقول: رخصة من الرخص، لا يستثنى منها أحد، لكن "غير باغ ولا عادٍ" أن يأكل وهو يجد مندوحة، أو أن يأكل فوق الحاجة، أو أن يأكل في غير حال الاضطرار، أو أن يأكل تشهياً وتلذذاً بهذا الأكل، أو نحو ذلك من الصور التي تدل على أن هذا الإنسان باغٍ أو عادٍ.

"**مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فإنه لا يحل له أكل الميتة.**"

على كل حال وجد مضطر ميتة وطعام الغير، هذا يأكل منه؛ لأنه في حال الاضطرار، وهو أولى من الميتة إلا فيما يلحقه فيه هذه التهمة، وأطال بنا الكلام على هذا، وأنا وهمت حينما قلت: ليس هذا موضعه، {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ} [(١٧٣) سورة البقرة] وهو يتكلم على هذه الآية، فهذا من المواضع الذي يذكر فيها الكلام على هذه الأشياء، لكن يؤخذ من منهج ابن كثير -رحمه الله- أنه يتطرق إلى الأحكام الفقهية، ولو أن المختصر ترك هذا واقتصر على تفسير الآيات ربما يكون أنسب -والله أعلم-.

"**بل يأكل طعام الغير بلا خلاف، روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل الغبري -رضي الله تعالى عنه- قال: "أصابتنا عاماً مخمصة فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته، فقال للرجل: ((ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً، ولا علمته إذ كان جاهلاً))[٥] فأمره فرد إليه ثوبه، فأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق" إسناد صحيح قوي جيد، وله شواهد كثيرة.**"

على كل حال هذا الرجل أكل في حال الاضطرار فهذا لا إشكال فيه، لكنه أخذ أيضاً في كمه، وتعرفون الحديث: ((غير متخذٍ خُبْنَةً))[٦] فإذا كان مضطرا يأكل ما يسد به الرمق لكن ليس له أن يحمل معه من هذا الطعام ويتزود.

ولذلك مسألة الميتة تكلم العلماء فيها، هل يحمل معه شيئا منها أو لا؟ وهل يتخير؟ يقول: ما دام أن الميتة مباحة الآن أنا أحب لحمة الكتف أو الظهر؟!

---

5 - أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه؟[ج٢- ص٧٧٠ – ٢٢٩٨]، والطبراني في المعجم الأوسط [ج٨- ص٢٤١- ٨٥١٩] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج٢-ص٣١ – ١٨٦١].

6 - أخرجه أبو داود في كتاب اللقطة، التعريف باللقطة [ج١- ص٥٣٤ – ١٧١٠]، وفي كتاب الحدود، باب ما لا قطع فيه [ج٢- ص٥٤٢ – ٤٣٩٠]، والترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها [ج٣ - ص٥٨٤ – ١٢٨٩]، والنسائي في كتاب قطع السارق الثمر يسرق بعد أن يؤويه الجرين [ج٨- ص٨٥ – ٤٩٥٨]، وأحمد في المسند [ج٢- ص٢٢٤- ٧٠٩٤]، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١- ص٣٢١ – ١٥٠٤].

"من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الثمر المعلق، فقال: ((من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خُبْنَةً فلا شيء عليه))[7]... الحديث."

الثمر المعلق: كان يؤتى بالعذق ويوضع في مكان في سقيفة أو نحو ذلك فيأكل منه أهل الحائط أو أهل البيت أو نحو هذا، فإذا جاء إنسان وأخذ منه غير ما بذل للناس صدقة كالذي كان يؤتى مثلاً به لفقراء المسلمين لأهل الصفة فيأكلون منه، حتى جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- مرةً فرأى عذق شيص، فقال: ((إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة))[8]، فهذا يوضع صدقة يؤكل منه بلا إشكال، لكن الكلام فيما ليس ذلك، في الذي ما بُذل من أجل الناس.

"وقال مقاتل بن حيان في قوله: {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٧٣) سورة البقرة] فيما أكل من اضطرار."

يعني فيما أكل من اضطرار ما فيه إشكال.

"وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، وعن مسروق قال: من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة."

هذا هو الراجح، وهذه المسألة تذكر في التروك، هذا الإنسان ما قتل نفسه بيده ولكنه ترك شيئاً من شأنه أن يفضي به إلى الهلكة، فإنه يكون بذلك متسبباً، وهل يدخل فيه بعض الصور مثل لو ترك العلاج حتى مات؟ الجواب: لا، هذا يختلف عن هذا؛ لأن حصول الشفاء بتعاطي هذا العلاج مظنون أصلاً، بينما الأكل الأمر فيه يختلف، فيجب عليه أن يأكل، وسبق الكلام في مراقي السعود في مسائل الترك هل يُعد من الأفعال؟

فكفنا بالنهي مطلوب النبي	والترك فعل في صحيح المذهبِ
له فروع ذكرت في المنهجِ	وسردها من بعد ذي البيت يجي
من شربٍ أو خيط ذكاةٍ فضل ما	وعَمَدٍ رسم شهادة وما
عطَّل ناظر وذو الرهن كذا	مفرط في العلْف فادرِ المأخذا
وكالتي ردت بعيب وعَدِمِ	وليُّها وشِبْهِها مما عُلِم

---

7 - أخرجه الترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها [ج٣ - ص٥٨٤ – ١٢٨٩]، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب قطع السارق الثمر يسرق بعد أن يؤويه الجرين [ج٤ - ص٣٤٤ – ٧٤٤٦]، وحسنه مشكاة المصابيح [ج٢- ص١٨٨ – ٣٠٣٦].

8 - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة [ج١- ص٥٠٥ – ١٦٠٨] وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله [ج١- ص٥٨٣ – ١٨٢١]، وأحمد في المسند [ج٦- ص٢٣ – ٢٤٠٢٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"، وابن خزيمة في كتاب الزكاة، باب كراهية الصدقة بالحشف من الثمار وإن كانت الصدقة تطوعاً إذ الصدقة بخير الثمار وأوساطها أفضل من الصدقة بشرارها [ج٤- ص١٠٩ – ٢٤٦٧] وقال الأعظمي: "إسناده حسن لغيره صالح بن أبي عريب ضعيف لكن للحديث شواهد"، وابن حبان في كتاب التاريخ، باب إخباره -صلى الله عليه وسلم- عما يكون في أمته من الفتن والحوادث [ج١٥- ص١٧٧ – ٦٧٧٤[وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن"، الحاكم في المستدرك [ج٢ - ص٣١٣ – ٣١٢٦] (تعليق الذهبي قي التلخيص: صحيح)، والطبراني في المعجم الكبير [ج١٨- ص٥٥ – ٩٩] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الزكاة، باب ما يحرم على صاحب المال من أن يعطي الصدقة من شر ماله [ج٤- ص ١٣٦- ٧٣١٨] وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١ - ص٣٠٢ – ١٤١٩].

يعني لو أن شخصاً في شدة العطش، وشخصاً آخر عنده ماء ورفض أن يعطيه من فضل ماءٍ عنده، فهل يعتبر هذا قتلا له؟ تسبباً بالقتل؟ يضمن أو لا؟ ولو جُرح واحتاج إلى خيط يخيط به الجراح فأبى أن يعطيه فمات؟ ولو أن البهيمة تعافس الموت فقال: أعطني هذه السكين التي معك لأذكيها قبل أن تموت حتف أنفها حتى نستفيد منها فأبى فماتت فهل يضمن؟ وهكذا لو قال له: أعطني الخشبة التي عندك الزائدة أريد أن أرفد بها البيت الذي سيطيح، فأبى، فسقط السقف هل يضمن أو لا؟ فهنا لو تخلى عن الأكل في حال الاضطرار ومات، فما الحكم؟

طالب:......

بنك البلاد أنا لم أطّلع على برامجهم مفصلة، وعدد من الإخوة وعدني أن يأتي بها وما رأيتها، والذي وصلني كلام مجمل أنهم يلتزمون بالمعاملات الإسلامية، وأن عندهم لجنة وسموها، وهذه اللجنة لا يمرر شيء إلا عن طريقها، وهي لجنة لا تعرف بالتساهل، فبهذا الشكل المجمل لم أرَ شيئاً محظوراً، ولا أستطيع أن أحكم، مع أني أتخوف من كثير من المعاملات التي يسمونها إسلامية وهي لفة وحيلة على الربا، ولا أدري هل هؤلاء سيفعلون هذا أو لا؟ وبالتالي لا نستطيع أن نقول للناس: لا تساهموا، أو هذا حرام، ونحن ما رأينا شيئا، والأصل في المعاملات الحل.

فلو أن إنساناً اشترى فإذا بدا تبادل الأسهم ووجدت للبنك أشياء من مبانٍ أو أي أمور أخرى غير السيولة، فعند ذلك يجوز بيع الأسهم.

والعجيب من تهافت الناس عليه، أنا أول الأمر كنت أظنه أنه يشتري له بخمسة ملايين، بعشرة ملايين، فتبين أنه أربعة أسهم وخمسة أسهم ما تساوى تشغيلة السيارة للبنك، ويشغلون الناس، حتى إنني أصبحت لا أرد على الجوال، والناس في هذه الأيام ما لهم سؤال إلا عن هذا البنك، في البداية كنت أحسبه شيئا يستحق، وهو فتات الفتات، أربعة أسهم أو خمسة لا تساوي الذهاب إلى البنك أو رفعة السماعة، وماذا يجنون من ورائه؟ لو افترضنا أن السهم يربح فيه ألفا بدل خمسين ريال، ماذا يفيدك هذا المبلغ الذي ما يسدد الفواتير، سبحان الله! شيء عجيب حرص الناس على هذه الدنيا.

شيء غيره؟

طالب:......

يأكل المحتاج ولا يأكل غير المحتاج.

طالب:......

كيف؟

طالب:......

استعمل في غير الأكل قصدك الخنزير؟

طالب:......

تكلم الفقهاء على بعض المسائل في الخنزير مثل شعر الخنزير هل يخرز به أو لا؟ أجاز بعض أهل العلم أن يُخرز به.

على كل حال النجاسة تنتقل بالرطوبة، فإذا قلنا: الخنزير كله نجس، فالنجاسة لا تنتقل بالجفاف، تنتقل بالرطوبة، فإذا قلنا مثلاً: يخرز به فعرقت الرجلُ أو ابتلّ النعلُ أو الرجلُ، تصل النجاسة بهذا الاعتبار على القول بهذا؛ لأن كله نجس.

لكن هذه المسألة هل شعر الخنزير نجس أو لا؟ هي على كل حال باعتبار أن الشعر له حكم المنفصل.

طالب:......

هذه مسألة ثانية وهي استخدام شحم الخنزير أو أجزاء منه في أمور لا تؤكل كالعلاج، مما يسمى الاستعمال الخارجي، فهل يجوز استعمال هذه الأعيان النجسة في الأمور الخارجية أو لا؟ هذه المسألة محل بحث ونظر.

ابن عمر -رضي الله عنه- لما ذكرت له الخمر وأنه يعالج بها، قال: "لا أضعه على قرحة في دبر حماري" فمثل هذه الأشياء التي حرمها الله -عز وجل- إذا وضعت في مركبات أدوية كالمراهم ونحوها، أو أدوات التجميل أو غيرها هل يحل استعمالها أو لا؟.

فإذا قال الله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [(٣) سورة المائدة] فهنا لا بد من مقدر؛ لأن الأعيان لا يتعلق بها الحكم، فما هو المقدر؟ حرم عليكم أكل الميتة أو الانتفاع بالميتة؟ وتعرفون حديث ميمونة والحديث الآخر أيضاً -الذي فيه كلام- وهو قوله: ((لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب))[9] مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((هلا انتفعتم بجلدها))[10] إنما حرم أكلها أيضاً، وأشباه ذلك.

فالمقصود أن من أهل العلم من يقول: طالما أنها حرمت فيحرم جميع أنواع الانتفاع بها إلا ما دل الدليل على استثنائه كالجلود مثلاً، والفقهاء تكلموا على مسألة طلاء السفن بشحوم الميتة.

طالب:......

في الأشياء الخارجية ذكرت لكم كلام ابن عمر، وليس ذلك محل اتفاق في الأشياء الخارجية، وبالتالي فإن هذه الخمرة لو استعملت في أشياء مثل الطيب أو في تركيبات كثير من الأمور هي مسكرة، منها ما هو من نوع السموم فتقتل، ومنها ما يسكر دون أن يقتل، وهذه الأشياء التي تسمى الكحول هي أنواع عند أهل الاختصاص وليست نوعاً واحداً، بل منها ما إذا تعاطاه الإنسان مات، ومنها ما ليس كذلك، الأطباء يعرفون هذا، ويفرقون بين هذه الأمور.

---

9 - أخرجه أبو داود في كتاب اللباس، باب من روى أن لا ينتفع بإهاب الميتة [ج٢- ص٤٦٥ – ٤١٢٨]، والترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في جلود الميتة إذا دبغت [ج٤- ص٢٢٢ – ١٧٢٩]، والنسائي في كتاب الفرع والعتيرة، ما يدبغ به جلود الميتة [ج٧ - ص١٧٥- ٤٢٤٩] وابن ماجه في كتاب اللباس، باب من قال: لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب [ج٢- ص١١٩٤ – ٣٦١٣] وأحمد في المسند [ج٤ - ص٣١٠ – ١٨٨٠٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده ضعيف فيه علتان أولاهما: الانقطاع وثانيتهما: الاضطراب"، وابن حبان في كتاب الطهارة، باب جلود الميتة [ج٤- ص٩٤- ١٢٧٨]، والطبراني في المعجم الأوسط [ج١- ص٢٥١ – ٨٢٢]، والصغير [ج٢- ص٢١٤ – ١٠٥٠]، وابن أبي شيبة في كتاب العقيقة، من كان لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب [ج٥ - ص٢٠٦ – ٢٥٢٧٦] والبيهقي في السنن الكبرى [ج١ - ص ١٤ – ٤٢] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج٢- ص٢٨٥ – ٢٩١٠].

10 - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة على موالي أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- [ج٢ - ص٥٤٣ – ١٤٢١]، وفي كتاب الذبائح والصيد، باب جلود الميتة [ج٥ - ص٢١٠٣- ٥٢١١]، ومسلم في كتاب الحيض، باب طهارة جلود الميتة بالدباغ [ج١- ص٢٧٦ - ١٠٠].

فالمقصود لو قلنا: إنه يحرم استعمال الخمر حتى في غير الشرب؛ لأن الله قال: {فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] هل اجتنبوا شربه وتعاطيه على وجه الإسكار؟ يعني الشرب وما يقوم مقامه كالشم وغيره، هل هذا هو المقصود أو المقصود اجتنبوه مطلقاً؟ فإذا قلنا: اجتنبوه مطلقاً فمعناها أن الأطياب التي فيها الكحول لا يجوز استعمالها.

غير مسألة النجاسة فالأقرب أنه ليس بنجس عيناً، لكن الأطياب التي فيها هذا الكحول ما يجوز استعمالها على هذا الاعتبار، وأيضاً كل ما ركب من البنزين مسكر فهل نقول للناس: تعبئة البنزين حرام، ونستبدله بالطاقة الشمسية أو بطريقة أخرى؟! وأنا ما أقول: إن البنزين حرام، أنا بهذا أصور المسألة، وما يلحق الناس فيها من حرج لو قاله قائل، فالأصباغ والغراء وكثير من الأشياء يدخل في تركيبتها الكحول.

طالب:.......

ليس ذلك بالضرورة في الأشياء الخارجية، هل يدل عليها الحديث ضرورة؟ "إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم"[11] هذا المنحى ممكن أن يحمل عليه مثل ما جاء عن ابن عمر، لكن هذا هل هو محل اتفاق؟ الجواب: لا، والناس يسألون كثيراً عن الحشيشة، يقولون: زيت الحشيش يباع أظنه بأكثر من مائتي ريال عند العطارين، يقولون: إنه ينمي الشعر ويكثفه، وينبت الشعر، هذا دائماً الناس يسألون عنه، مع أنه صدر بيان من وزارة التجارة يقولون فيه: إنه أجريت تحاليل على هذا المنتج فوجدوا أنه ليس بزيت حشيشة أصلاً، ثم لو فرض أن إنساناً جاء بزيت الحشيش فإنه لا علاقة إطلاقاً بينه وبين تنمية الشعر وتغذيته وتطويله وتنعيمه وتكثيفه، ما في أي علاقة بين الأمرين، والعجيب أنك تقول للناس هذا ليس زيت حشيش وحتى زيت الحشيش ما له علاقة بالموضوع، فيقال: ما يخالف، هل يجوز أو ما يجوز؟ خلاص المرأة متبرمجة أنها تضع زيت حشيش لأجل أن يصير شعرها مضبوطا.

طالب:......

من أهل العلم من قال: يتزود من الميتة لا ليأكل منها في غير حال الاضطرار، وإنما لو اضطر وهو يعلم أنه ليس مقبلاً على بلد أو قرية أو ناحية يجد فيها الطعام، فهو من باب الاحتياط، فهذا في الميتة له وجه، أما في مسألة الخُبْنة -طعام الغير- فالأمر في ذلك محتمل لكنه أشد؛ لأن الميتة هذه إنما يحرم عليه أكلها لا حملها، أما طعام الغير فهو قد استولى عليه وأخذه، وأضاع حق صاحبه، فهل يأكل بقدر ما يسد الرمق أم يحمل معه ليأكله إذا احتاج إليه؟ طيب وإذا ما اضطررت له تكبه أو تتصدق به بنية؟! نقول: يأخذ بقدر ما يحتاج، والله أعلم.

---

11 - أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب شراب الحلوى والعسل من كلام ابن مسعود، [ج٥ - ص٢١٢٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [سورة البقرة (١٧٤ –١٧٦)]

"يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ} يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نزرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله -صلى الله عليه وسلم- بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع. فمن ذلك هذه الآية الكريمة: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا}، وهو عرض الحياة الدنيا {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ} أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [سورة النساء (١٠)]**، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم))**[١]**".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ}** تجد هذه الآية وإن كانت نازلة في اليهود إلا أنها لا تختص بهم، فكل من وقع في شيء من ذلك وشابههم في هذه الصفة فإنه يشمله هذا الخطاب. قوله: **{وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا}** مرَّ بنا قبل أن الاشتراء في مثل هذه المواضع يأتي بمعنى الاستعاضة كما في قوله -سبحانه وتعالى- في أول هذه السورة: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}**

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب الأشربة - باب آنية الفضة (٥٣١١) (٥/٢١٣٣)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الشرب وغيره على الرجال (٢٠٦٥) (٣/١٦٣٤) إلا أن قوله ((أو يشرب في آنية الذهب)) أخرجها ابن أبي شـيبة (٢٤١٣٥) (٥/١٠٣) وصححه الألباني في الجامع الصغير برقم (١٦٩٢).

[(١٦) سورة البقرة]، فاستعاضوا هذا بهذا، وهؤلاء اشتروا بما عرفوا من أحكام الله -عز وجل- ووحيه، والحق المنزل، واستعاضوا عنه بثمن قليل مقابل الإبقاء على رئاساتهم، وما كانوا يحصلون عليه من المنافع من تعظيم الناس لهم، وتقديمهم إياهم، وما كانوا يتقاضونه منهم من الأموال والجبايات، فاستعاضوا هذا بذاك، وهذا شأن بعض الناس يحرف ويبدل ويكتم الحق؛ لأنه يرى أن له في الباطل شهرة ومعيشة ومغنم؛ وهذا ما نلمسه جلياً في شيوخ الضلال، ورءوس أهل البدع فمهما بلغهم من النصوص المحكمة، والدلائل القاطعة على بطلان ادعائهم، فإن الواحد منهم لا يرجع عما هو فيه؛ لأن ذلك يقتضي ضياع رئاساته، وخسارته للأموال التي تحصل عليها من المخدوعين به، وضعف الأتباع وتساقطهم، ونسبته إلى الباطل والزيف، ونسبة آبائه وأجداده وما إلى ذلك إليه.

وكذا الجهود والأعمال التي بنى عليها منزلته ومكانته هي خوض في الباطل، لكنه يأبى أن يقر أو يرجع أو يعترف بالحق، كل ذلك لئلا يضيع ويفوت على نفسه شيئاً من تلك المصالح التي تحصل عليها من دجله على الناس وغشهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالرغم من كل ما يأخذونه إلا أنه يعتبر {ثَمَنًا قَلِيلا} كما أخبر الله -سبحانه-؛ لأنه مهما كان كثيراً ومثيراً فهو قليل، وكل ما في الدنيا قليل بالنسبة للآخرة.

قوله: {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ} بعض أهل العلم يقول: المراد بذلك أنهم يأكلون ما يوجب لهم النار، بأخذهم الرشا وأكلهم أموال الناس بالباطل، وقد يصل بهم الحال إلى أنهم يفتون أهل الأهواء من الأغنياء بما يهوونه مما يوسع عليهم في أمر المكاسب، من أجل ثمن بخس ودراهم معدودة، وربما أفتوا العامة والفقراء بأمور تناسبهم من أجل أن يحظوا بتأييدهم واتباعهم، أو الحصول على منافع ولو كان ذلك عن طريق السخرة، فيتفرغون له يوماً في الأسبوع يسمونه بالسخرة يشتغلون عنده فيه مجاناً، في حقله، في إقطاعاته، في مزارعه، في أراضيه وهكذا..، فالمقصود أن من أهل العلم من يفسر قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ} يعني ما يوجب لهم النار، فالرشا التي يأكلونها، والأموال التي يأخذونها بالباطل توجب لهم العذاب والعياذ بالله، فسمي كذلك لاعتبار نتيجته وما يئول إليه، وعاقبته، وهذا أسلوب عربي معروف، ولكن الأولى من ذلك والأحسن هو ما مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنهم يأكلون ناراً؛ لأن هذه الأشياء التي يأخذونها هي نار يتجرعونها ويجرجرونها في بطونهم، ويؤيده ما روته زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار))[٢] يعني هذه التي حُكم له بها، سواء كانت أرضاً أو غير ذلك، إنما هي قطعة من نار، وأوضح من هذا أيضاً هذه النصوص التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- كقوله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} [(١٠) سورة النساء]، ماذا قال الله -عز وجل- عنهم؟ قال: {إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}، وكذلك من يشرب بآنية الذهب والفضة إلى غير ذلك من النصوص الدالة

---

[2] - رواه البخاري في كتاب الشهادات- باب من أقام البينة بعد اليمين (٢٥٣٤) (٢/٩٥٢)، ومسلم في كتاب الأقضية- باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣) (٣/١٣٣٧).

على كون هذه الرشا والأموال تكون ناراً يتجرعها من يتعامل بها، وهذا ما دل عليه ظاهر الآيات، والله أعلم بالصواب.

"وقوله: {وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وذلك لأنه تعالى غضبانُ عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي: لا يثني عليهم ولا يمدحهم، بل يعذبهم عذابا أليماً."

فتأمل كيف جازاهم الله جراء تعنتهم في كتمان ما علموه واستعاضتهم الحق بالباطل قال الله: {لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، إلا أنه قد يعترضنا إشكال في شبه التناقض فقد جاءت نصوص تدل على أنه يكلمهم كقوله -تبارك وتعالى-: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [(١٠٨) سورة المؤمنون] فهذا تكليم، وفي هذه الآية ينفي الله -عز وجل- تكليمه لهم، وهنا للعلماء جوابان في الجمع بينهما:

الأول: أن ذلك يختلف باختلاف المقامات، لا يكلمهم في مقام، ويكلمهم في مقام آخر.

والأحسن منه أن المقصود لا يكلمهم تكليم رضا، تكليم ثناء، ولكنه يكلمهم تبكيتاً وإهانةً وتحقيراً لهم، ومفهوم المخالفة للآية أنه إذا لم يكلم هؤلاء تكليم رضا، فإنه يكلم أهل الإيمان كذلك نسأل الله أن يجعلنا منهم.

{وَلا يُزَكِّيهِمْ}، لا يزكيهم لا بالثناء، ولا يزكيهم بأن يطهرهم من أرجاسهم وآثامهم وانحرافاتهم مطلقاً، فهم منغمسون منغمرون في أوحال الذنوب والآثام والأرجاس، ولذلك سلبهم الله التزكية مطلقاً، بخلاف أهل الإيمان الذين امتن عليهم ببعث رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وذكر أن من المعاني الحاصلة لهم أن الله -عز وجل- يزكيهم في الدنيا والآخرة.

"قال تعالى مخبراً عنهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى} أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء، واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم {وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يخبر تعالى أنَّهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياذًا بالله من ذلك."

هذا المعنى ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند قوله: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يقول: يخبر أنهم في عذاب شديد هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، فسيقت الآية مساق التعجب من صبرهم على الرغم من شدة هول العذاب النازل بهم، وبعض أهل العلم يعبر بعبارة قريبة فيقول: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يعني: ما أجرأهم على النار، باعتبار أنهم لم يدخلوها بعد، إذ لا طاقة لهم بها، ولذا أخبر الله -عز وجل- أنهم يدعون بالويل والثبور وينادون {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [(٧٧) سورة الزخرف]، ويلعن ويتبرأ بعضهم من بعض في النار، وليست هذه حال من يصبر، فتقحمهم الأسباب والطرائق التي توصل إلى النار وتوجب دخولها مهما ظهر لهم من الآيات، ومهما عرض عليهم من الحجج والبينات، هو من أعظم الجرأة على الله يقول أحد رءوس الكفر: أعرف أن مصيري إلى جهنم، ولكنني إذا دخلتها سأجد فيها كبار الرأسماليين، والرؤساء الأمريكيين، فما أجرأهم على النار، وما أقرهم على أنفسهم،

وهؤلاء اليهود الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يعرفون أنه على الحق كما قال الله سبحانه: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة] ومع ذلك هم باقون على ما هم عليه من الضلال والكفر، وكثير من أهل الشرك والباطل يدركون أنهم على ضلال خاصة الرؤساء، رؤساء الفرق والمذاهب والطوائف المنحرفة، وأنهم زجوا بأتباعهم في مستنقع الغواية، ومع ذلك مصرون على غيهم وباطلهم، فمثل هؤلاء يقال: ما أصبرهم على النار، باستعاضتهم عن الهدى بالضلال جراءة على عذاب الله -عز وجل-، وهذا هو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- تعالى، وذهب إليه عامة المفسرين سلفاً وخلفا والله تعالى أعلم.

وبعض أهل العلم يقول: إن ما هذه استفهامية بمعنى ما الذي حادهم؟ لكن هذا بعيد، والصواب ما ذكرناه أن ما هنا للتعجب، فهو استفهام للتعجب، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} [(١٧٦) سورة البقرة] **أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى الأنبياء عليهم السلام قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا."**

كلام ابن كثير هذا بناءً على أن الكتاب المذكور في الآية {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ} اسم جنس يشمل الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، وما إلى ذلك من الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- على رسله بالحق، والجنس يصدق على الواحد وعلى الكثير.

ومن أهل العلم من يخص ذلك بالقرآن، فيقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، أي: القرآن، أنزله متلبساً ذلك الإنزال بالحق، فهو منزل بالحق، وهو حق ثابت، لا مرية فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والآية وإن كانت محتملة للمعنيين إلا أن السياق يشعر أن المراد المعنى الذي ذكره ابن كثير إذ هذا القول متضمن للقول الآخر وأشمل منه، وعليه الأدلة، وذلك أن الإنسان لا يكفي أن يؤمن بالقرآن فقط، والله -عز وجل- يقول: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة]، وما يؤكده أن الله أخبر في مواضع أخرى من القرآن عن حال أهل الكتاب في كتابهم، وأنهم في شك منه مريب، وأن ذلك واقع لهم أيضاً في القرآن، فهم في امتراء في الكتب المنزلة عليهم.

"وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا. فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه.

وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزءوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}."

الذين اختلفوا في الكتاب، بعضهم يقول: هم أهل الإشراك، والكتاب الذي اختلفوا فيه هو القرآن، فمن قائل: إنه سحر، ومن قائل: إنه كهانة، ومن قائل: يعلمه بشر، ومن قائل: اختلقه وافتراه، إلى غير ذلك من أقاويلهم المتنوعة التي وصفوا بها القرآن.

ومن أهل العلم من يقول: وإن الذين اختلفوا في الكتاب يعني: اليهود والنصارى، فهذا القول يرجع إلى أن المراد من الكتاب الأول في قوله: {نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، هو جنس الكتاب، أنزله الله إنزالاً متلبساً بالحق، وعلى كل حال الكتاب في الآية يحتمل أن يكون القرآن، ويحتمل أن يكون سائر الكتب كالتوراة والإنجيل..، إلا أن الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أن الكتاب هنا هو القرآن، لكن هذا ليس محل اتفاق فقد خالفه أئمة في ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-.

{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي: فهم في غاية البعد عن الحق.

"{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [(١٧٧) سورة البقرة].

اشتملت هذه الآية، على جمَل عظيمة."

في قوله: {لَيْسَ الْبِرَّ} البر خبر ليس، واسمها؟ أن تولوا، فيكون فيه تقديم وتأخير، وهذه القراءة التي نقرأ عليها قراءة حفص، ووافقه عليها حمزة، وهناك قراءة أخرى متواترة بالضم لكلمة البر {لَيْسَ الْبِرُّ} فيكون البر بهذا الاعتبار اسم ليس، وهي قراءة بقية السبعة من القراء.

وعلى قراءة النصب يكون تقدير الكلام، ليس البرَّ توليتُكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله.

ويمكن أن يكون التقدير: ولكن ذو البر من آمن بالله.

وبعض أهل العلم يقول: إن البر مصدر، ويصح أن يراد به الفاعل، والمعنى: ولكن البر أي البار: من آمن بالله.

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ} بعض أهل العلم يقول: لما كانت القضية تتعلق بالتوجه إلى المشرق والمغرب فهي إذاً لها تعلق بالصلاة، فحمله عليها، والمراد: ليس البر هو الصلاة وحدها، فهي وإن كانت مهمة وعظيمة، لكنْ هناك أمور أخرى عظام من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه إلى آخره..، فهذه أمور لا بد منها وهي من أعظم أمور البر، والبر: اسم جامع لكل خصال الخير، فخص البر بمعنى الصلاة بقرينة قوله: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}.

وبعضهم يقول: هذا أصلاً رد على اليهود والنصارى، حيث إن اليهود يستقبلون المغرب، فهم يستقبلون بيت المقدس، والنصارى يستقبلون جهة المشرق وجاء ذكره للمشرق والمغرب بناء على اعتبار الجهة التي تحدث عنهم فيها، أو رد عليهم وهم فيها، وقد ورد في هذا رواية ضعيفة، وهذا المعنى مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو أنها رد على اليهود والنصارى، والمعنى: ليس البر أن توجهوا وجوهكم قبل هذه الجهة أو تلك، وإنما البر حقيقة هو: أن تؤمنوا إيماناً حقيقياً بجنس الكتب والرسل جميعاً، ولا تنسبوا لله الولد، وإذا حصل لكم ذلك كنتم على الهدى، وحققتم في قلوبكم الإيمان الحقيقي، والإنسان يقال له أحياناً: ليس البر هو فعلك كذا وكذا، يعني -من الأعمال التي يعملها- يريد أن يتقرب بها إلى الله -عز

وجل-، ولكن البر هو أن تفعل كذا وكذا وكذا، مما تذكره له من أمور البر العظيمة التي غفل عنها، وتشاغل بغيرها من أمور البر، فالبر بر من آمن بالله واليوم الآخر. والله أعلم.

"اشتملت هذه الآية، على جمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب، وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله -عز وجل-، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وَجّه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...} الآية."

كلام ابن كثير جيد، وهو يلمح إلى أن الآية لا تختص باليهود أي: بالرد على اليهود والنصارى، وإنما هي عامة، يخاطب فيها أولئك الذين شغبوا على قضية القبلة من جهة، ومن جهة يخاطب فيها أيضاً المنافقين، ويخاطب فيها أهل الإشراك، ويخاطب فيها المسلمين المؤمنين، ويبين لهم أن قضية التوجه جهة المشرق والمغرب ليست هي محل النجاة، ومناط الفوز، وتحقيق الاستقامة، فلا بد من طاعة الله ورسوله، ولا بد من الإيمان الصحيح بهذه الأمور المذكورة، حتى يتمكن المرء من تحقيق المعنى الأسمى للبر.

"كما قال في الأضاحي والهدايا: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} [(٣٧) سورة **الحج].**

وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقْبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل."

قول أبي العالية: كانت اليهود تُقْبل قبل المغرب، هذا باعتبار أنهم عنه بناحية يكونون إلى الغرب، فهم يستقبلون بيت المقدس من تلك الناحية، وكانت النصارى تستقبل المشرق، يعني مطلع الشمس، هذه هي القبلة التي يستقبلونها، فقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ} وهذه الرواية ثبت ضعفها، لكن الملفت في كلام أبي العالية قوله: هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فماذا يقصد بذلك؟

يقصد والله أعلم أن الأمور المذكورة في الآية تنقسم إلى قسمين:

- الإيمان بالله واليوم الآخر، قولوا آمنا بالله، فهذا كلام الإيمان، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فذكر هذه الأصول العظام التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها.
- حقيقته العمل، حيث ذكر بعده في الآية **{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [(١٧٧) سورة البقرة] فهذه الأعمال لا يستقيم إيمان المرء إلا بجميعها.

والإيمان في حقيقته: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، قول اللسان: النطق بالشهادتين، وما يدخل الإسلام إلا بالشهادتين، وقول القلب: بالإقرار والتصديق الانقيادي.

وعمل القلب واللسان والجوارح، عمل القلب: كالخوف والتوكل والرجاء، وهو غير تصديق القلب، غير قول القلب، وعمل اللسان: كالذكر وقراءة القرآن، وعمل الجوارح: كألوان العبادات، وما يوضح عبارة أبي العالية أكثر ما ذكره الحافظ ابن كثير عن الحسن والربيع بن أنس، وخاصة عبارة الربيع، يقول فيها: "تكلموا كلام الإيمان، فكانت حقيقة العمل، صدقوا الله"، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٧٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى: "وقال الثوري: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} الآية، قال: هذه أنواع البر كلها.

وصدق -رحمه الله-؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله {وَالْكِتَابِ} وهو: اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-.

وقوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} أي: أخرجه، وهو محب له، راغب فيه كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعا: ((أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر))[1].

وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [(٨-٩) سورة الإنسان٩].

وقال تعالى: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران] **وقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** [(٩) سورة الحشر] **نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} ورد في عود الضمير في {عَلَى حُبِّهِ} ثلاثة أقوال:

الأول: أن الضمير الهاء يرجع إلى حب المال، وهو ظاهر سياق الآية، وأقرب ما تفسر به، وقد ساق ابن كثير في المقدمة جملة من الآيات الدالة على ذلك.

الثاني: أن الضمير يرجع إلى الله -عز وجل-.

الثالث: أن الضمير يرجع إلى الإيتاء، والمعنى {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} حب الإيتاء وهذا القول بعيد جداً.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الزكاة –باب أي الصدقة أفضل، والصدقة وأنت صحيح شحيح (١٣٥٣) (٢/٥١٥)، ومسلم في كتاب الزكاة – باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٢) (٢/٧١٦).

ولعل الأقرب القول الأول وهو أنه يرجع على حب المال؛ لأن هذا الذي تكمل به درجة العبد، وتعظم به نفقته، وذلك أنه إذا أعطى وهو صحيح وشحيح كما في الحديث فإن ذلك يكون أعظم ممن أعطى الدنيا وهي وراء ظهره عند الموت.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} [(٩) سورة الحشر] كما يقول الحافظ: نمط آخر أرفع من هذا يعني أرفع من قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ}، فإن إعطاءهم مع وجود الخصاصة وهي: الحاجة الشديدة التي ينفرد بها دون غيره، تكون أرفع في الميزان.

فهذا أعظم من الأول الذي يعطي المال وهو يحبه، لكنه قد لا يكون بحاجة ماسة إليه، والخصاصة هذه الكلمة قد تكون مأخوذة من خصاص السقف، أو خصاص البيت أو نحو هذا، وربما تكون مأخوذة من غير ذلك، لكنها تدل أو تشعر بالانفراد بالحاجة يعني -الحاجة الشديدة-، والله أعلم.

"وقوله: {ذَوِي الْقُرْبَى} وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: ((الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة))[٢]. فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

{وَالْيَتَامَى} هم: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد روى عبد الرزاق عن علي -رضي الله تعالى عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يتم بعد حلم))[٣].

{وَالْمَسَاكِينَ} وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم، وكسوتهم، وسكناهم."

بعض أهل العلم يقول: سمي المسكين بذلك؛ لأنه ساكن إلى الناس، ساكن إلى ما في أيديهم، ليس عنده شيء ولا اكتساب، وإنما يسكن إلى الناس من أجل أن يجد كفايته، وما يقيم أوده ويكفي حاجته.

وبعضهم يقول: قيل له ذلك لمسكنته، بمعنى أن الفقر أسكنه ليس له صنعة، ولا حرفة، ولا تجارة، فعلى كل حال كلام أهل العلم في المسكين معروف، وإذ ذكر المسكين دخل معه الفقير.

"فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه))[٤]."

يعني المتعفف، وهو المسكين حقيقة المستحق للعطاء أكثر من غيره ما دام بهذه المثابة، ولا ينفي ذلك أن غيره فقير أو مسكين، ولكن المقصود التنبيه على من هو أحق بهذا الوصف.

---

[2] - رواه الترمذي (٦٥٨) (٤٦/٣)، ورواه النسائي (٢٥٨٢) (٩٢/٥)، ورواه ابن ماجه (١٨٤٤) (٥٩١/١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٩٢).

[3] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/٧)، والصغير (١٥٨/٢)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه عن جابر بن عبد الله (٤٦٤/٧).

[4] - رواه البخاري في كتاب الزكاة - باب قول الله تعالى: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [(٢٧٣) سورة البقرة] (١٤٠٩) (٥٣٨/٢)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة - باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يتفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩) (٧١٩/٢).

"{وَابْنَ السَّبِيلِ} وهو: المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: "ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين"."

هذا القول قال به ابن عباس -رضي الله عنهما- وقال به غيره، والذي يظهر أن ابن السبيل لا يخرج عن القول الأول، وسمي بذلك نسبة إلى السبيل وهي الطريق لملازمته لها، وكل من لازم شيئاً فإنه يصح أن ينسب إليه، كما يقولون للطائر المعروف: "ابن الماء" سمي بذلك لملازمته الماء.

وعلى هذا فابن السبيل هو: المسافر الذي انقطع في سفره، إما لذهاب نفقته، أو سرقته، أو ضياع أمواله، أو انتهاء مئونته، فيعطى ولو كان في بلده مستغنياً، ولو كان من أغنى الناس فإنه يعطى من الغنيمة، ومن الفيء، ومن زكاة بيت مال المسلمين، ولا يكون ذلك على سبيل الإقراض حتى لو كان غنياً، بل يعطى هبة وإحساناً وتمليكاً.

وأما القول بأن "ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين" فقد قال به ابن عباس وغيره، وهو يقصد به الإنسان الذي ينزل ببلد فهو ابن سبيل، فإن كان محتاجاً فإنه يجب أن يعطى كفايته، لكن لو كان من أهل البلد وجاء إلى آخر ونزل ضيفاً عنده هل هذا يصدق عليه أنه ابن السبيل؟ الجواب لا، والله تعالى أعلم.

"وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

{وَالسَّآئِلِينَ} وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات.

{وَفِي الرِّقَابِ} وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم.

وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى."

قوله تعالى: **{وَفِي الرِّقَابِ}** يدخل فيها ما ذكر وهو المكاتب؛ وذلك أن الرقيق يكاتب سيده على أن يعتق إذا دفع قدراً من المال يتفق عليه مع صاحبه، وكثير من أهل العلم يقولون: إن ذلك يكون على أقساط معلومة، فهذا هو المكاتب يعطى من الزكاة ومن بيت المال، كما قال الله -عز وجل- **{وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}** [(٣٣) سورة النــــور]، ويدخل فيه أيضاً إعتاق العبيد ابتداء من غير مكاتبة، ويدخل فيه أيضاً فك الأسارى فكل ذلك داخل تحت قوله سبحانه: **{وَفِي الرِّقَابِ}**.

"وقوله: {وَأَقَامَ الصَّلاةَ} أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي.

وقوله: {وَآتَى الزَّكَاةَ} المراد به زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان."

ذكر الله -عز وجل- قبل قوله: **{وَآتَى الزَّكَاةَ}** هذه الأصناف **{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}** [(١٧٧) سورة البقرة] وهي من الأصناف التي تعطى من الزكاة كما قال الله -عز وجل- في سورة براءة: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [(٦٠) سورة التوبة] وهنا لفتة ذكرها بعض أهل العلم وهي: أن تعداد هذه الأصناف بعد ذكر آية الزكاة دليل

على جواز أنهم يعطون أيضاً من الصدقة لقوله: {وَآتَى الْمَالَ} يعني على سبيل التصدق والتطوع، والتقرب إلى الله من غير الفريضة، وما يعضد هذه اللفتة أن الله -عز وجل- لما مدح أهل الأنصار مدحهم بقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [(٩) سورة الحشر] مع أنهم في غاية الفقر، ومن ثم فإن الزكاة لا تجب عليهم لكن مع هذا يؤثرون غيرهم مع شدة حاجتهم إليها، وهذا الذي ذكره الله -عز وجل- في صفة أهل الإيمان، {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [(٨) سورة الإنسان] فهؤلاء هم الذين مدحهم الله تبارك وتعالى، فيكون ذلك الإيتاء مطلقاً لا يختص بالزكاة؛ لأنه ذكر بعد ذلك إخراجهم للزكاة، فإخراجهم المال على سبيل التطوع، وإخراجهم أيضاً على سبيل الوجوب.

وبعضهم يقول: إن المراد بذلك الزكاة، ولكنه عطف العام على الخاص؛ لأنه ذكر بعض الأصناف التي تعطى لهم الزكاة، والآية تحتمل القولين، والله أعلم بالصواب.

"**وقوله: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} كقوله: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[5]. وفي الحديث الآخر: ((إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[6]**".

قوله:{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} جاء بها مرفوعة، وما قبلها منصوبة: {وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} فما وجه ذلك؟

بعض أهل العلم يقول: إنه معطوف على قوله: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ} فجعله معطوفاً على ذلك المرفوع في أول الآية.

وبعضهم قال: هو خبر لمبتدأ محذوف على تقدير: وهم الموفون.

وبعضهم يقول: هو مبتدأ وخبره، والخبر محذوف.

"**وقوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء.**"

قوله{وَالصَّابِرِينَ} جاءت منصوبة بعد مرفوع، ما قال: والصابرون في البأساء والضراء، ولعل من أحسن ما يجاب به أن يقال: إن القاعدة عند العرب إذا تطاول الكلام فإنها تقطع أوصاف المدح أو الذم بالرفع تارة، وبالنصب تارة، هذا من أوضح الأجوبة التي يجاب بها عن هذا، وإلا فإن الأجوبة عن مثل هذا كثيرة متعددة، حتى إن بعضهم ألف رسالة في أحد المواضع، رسالة مستقلة، وهذا له نظائر في القرآن عديدة أن يأتي المرفوع بين منصوبات أو المنصوب بين مرفوعات مثل قوله سبحانه: {وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ...} [(١٦٢) سورة النساء] فجاء بمنصوب بين مرفوعات، ويقول أهل اللغة: هذا أبلغ، وذلك أنه يدفع الملل والسآمة لطول الكلام، فيجدد لدى السامع أو القارئ النشاط، فلا يستطيل الكلام بهذه الأوصاف لتنوع النمط الكلامي، والله أعلم.

---

[5] - رواه البخاري في كتاب الأدب – باب: قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [(١١٩) سورة التوبة] (٥٧٤٤) (٥/٢٢٦٢)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان – باب: بيان خصال المنافق (٥٩) (١/٧٨).

[6] - رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب علامة المنافق (٣٤) (١/٢١)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان خصال المنافق (٥٨) (١/٧٨).

قوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: الصابرين في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال الضراء وهي المرض والأسقام، وهذا أبلغ من قول من يقول: إن المقصود به التوكيد بذكر المترادفات، وجعل ذلك من قبيل التكرار، فهنا تحمل البأساء على أنها الفقر الشديد، والضراء على المرض والسقم، والله أعلم.

"{وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نصب {وَالصَّابِرِينَ} على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال؛ لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان."

كلام ابن كثير يرجع إلى ما ذكرته من أن العرب تقطع إذا تطاولت صفة الواحد في المدح أو الذم، ويكون ذلك أبلغ في مدحه أو ذمه، وبعضهم يجيب بأجوبة غير هذا، كأن يقول مثلاً: وأخُصُّ الصابرين، أو أقدر، والأصل في الكلام عدم التقدير، ومهما أمكن حمل الكلام على الاستقلال فإنه أولى من دعوى الإضمار، فإذا أمكن حمل الآية على معنى صحيح من غير حاجة إلى تقدير فهذا هو المطلوب، وإن احتيج إلى التقدير فالقاعدة الأخرى أنه يقدر في الكلام ما هو أشبه ببلاغة القرآن وفصاحته.

"وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}."

خص الله الصابرين في الآية في هذه الحالات الثلاث: البأساء، والضراء، وحين البأس، ومع أن الصبر مطلوب في كل الأمور كالصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقداره المؤلمة، لكنه خص هذه الأمور الثلاثة؛ لأنها شديدة جداً، والصبر فيها لا شك أنه في غاية المشقة، وإلا فالأصل أنه مطلوب في كل الأحوال.

ثم أحسن وصفهم فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فجاء بالفصل بالضمير، ضمير الغائب هم بين طرفي الكلام، وهذا يشعر بأن هؤلاء حققوا الوصف الكامل من هذه الأمور، فهم أحق من يوصف بالصدق، وأحق من يوصف بالتقوى، فكأنه يقول: أولئك هم أصحاب الوصف الكامل من الموصوفين بهذه الصفة، ومجيء الضمير بين طرفي الكلام يدل على تقويته، فهو يشبه الحصر؛ كأنه حصر هذه الأوصاف بهؤلاء الموصوفين، بمعنى أنهم حققوا الوجه الكامل منها.

"{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧٨-١٧٩) سورة البقرة]

يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} العدل في القصاص -أيها المؤمنون -حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير."

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} كتب بمعنى: فرض، أي فرض عليكم القصاص، ومعلوم أن القصاص قد يستغنى عنه بالعفو مطلقاً من غير عوض، وقد يستغنى عنه أيضاً بالدية، وهذا هو معنى السلطان الذي ذكره الله -عز وجل- في موضع آخر في سورة الإسراء {فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [(٣٣) سورة الإسراء] فلعل من أحسن ما فسر به السلطان المذكور في الآية: أن الله جعل لولي الدم تسلطاً على القاتل شرعاً وقدراً وذلك بثلاثة أمور: القصاص، أو الدية، أو العفو، والخيار خياره، فهذا من أحسن ما تفسر به آية الإسراء، والله تعالى أعلم.

فالمقصود أنه قال: ولا تتجاوزا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبني النضير إلى آخره، والمراد أن بني النضير كانوا يرون أنهم أشرف من قريظة، فكانوا يرون أن دماءهم لا تتكافأ، فإذا قُتل أحد من بني النضير -قتله قرظي- فإنه يقتل به، وإذا كان القاتل من بني النضير فإنه لا يقتل، لكن ما مناسبة إيراد خبر قريظة وبني النضير في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ}؟ لعله تلميح لأهل الإيمان أن لا تغيروا أحكام الله كأولئك الذين غيروها، ولذلك صدر الآية بخطاب الذين آمنوا فيكون (كُتب) يتصل بقوله (الحر)، وهذا الذي اختاره جمع من المفسرين منهم ابن جرير الطبري -رحمه الله-، {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} يعني كتب عليكم أن تعدلوا في القصاص فلا يقتل غير القاتل، ولهذا جاءت بعض الروايات عن بعض السلف: بأن أهل الجاهلية كان إذا قتل الرجل الرجل، قتلوا كل من وجدوا من عشيرته وقبيلته كما قال الشاعر:

كل قتيل من كليب غرة		حتى يوافي القتل أهل مرة

فكل قتيل من هؤلاء غرة بمنزلة العبد حتى يوافي القتل أهل مرة، والقرآن حذر من هذا الصنيع، يقول -عز وجل- في الإسراء: {فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} [(٣٣) سورة الإسراء] فيدخل فيه قتل غير القاتل، ويدخل فيه التمثيل به، ويدخل فيه قتل الجماعة بالواحد إن لم يشتركوا في قتله.

أحيانا يقولون: هذا لا يكافئه إلا رئيس القبيلة، أو فارس القبيلة، أو يقولون: لا يكافئه إلا أن نقتل به عشرة من القبيلة فهذا من الإسراف في القتل، بعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية نزلت تتحدث عن مثل هؤلاء، إذا قُتل منهم الرجل -عبد مثلاً- لم يرضوا إلا بقتل حر مكانه، وإذا كانت امرأة قد قتلت امرأة فإنهم لا يكتفون بقتل هذه المرأة بل يقولون: لابد أن نقتل رجلاً من هذه القبيلة.

وبعضهم يقول: إن هذه الآية أصلاً نزلت في قوم وقع بينهم قتال، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أصلح بينهم، وجعل هذه الدماء الموجودة بين الفريقين، جعل القتلى النساء من الفريقين هؤلاء يعدلن هؤلاء، والعبيد بالعبيد، والأحرار بالأحرار، وأصلح بينهم على هذا الأساس، فكفاءُ دماء هؤلاء بهؤلاء، وما زاد فيمكن أن يعطوا من المال الديات ما يعوض هذا التفاوت، وعلى هذا تكون الآية لا مفهوم لها؛ لأن نزولها وتقرير الحكم فيها لم يكن ابتدائياً، وإنما هو نازل في توصيف حالة واقعة فهي أحد المواضع السبعة، أو الثمانية التي لا يعمل فيها بمفهوم المخالفة، والتي جمعها الناظم الشنقيطي في قوله:

....		ودع إذا الساكت عنه خافا
أو جهل الحكم أو النطق انجلب		للسؤل أو جرى على الذي غلب

أو امتنـــــان أو وفـــاق الواقـــع		والجهــل والتأكيــد عنــد الــسامع

وهذه الآية نزلت على وفاق واقع معين، وهي كقوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٨) سورة آل عمران]، فمفهوم المخالفة أنه يجوز اتخاذ الكافرين أولياء بشرط أن يكون معهم مؤمنون، ولكن ليس هذا المراد؛ لأن الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين اتخذوا بعض الكافرين أولياء ضد بعض المؤمنين، فنزلت الآية تتحدث عن هذا الأمر، فيكون ذلك قد نزل في توصيف واقع معين.

وكما قال الله -عز وجل-: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [(٣٣) سورة النـــــور] فهل إذا كانت هذه الأمة لا تريد التحصن والعفاف وترغب في الفجور، يجوز تركها استدلالاً بمفهوم المخالفة؟ لا، لأن الآية نزلت في واقعة معينة، وهو أن عبد الله بن أبي بن سلول كان له جارتان فأسلمتا، فكان يرغمهما على البغاء مقابل أجرة يتكسبها من وراء هؤلاء الجواري، ويضربهما على ذلك، فأنزل الله: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}.

فقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} لا يعني أنه إذا قتل الحر العبد أو العكس أن معناه أنه لا يطالب بالقصاص، فليس هذا هو المراد، فالآية إنما نزلت على توصيف، أو تعالج واقعاً معيناً، وترد على بعض المفاهيم التي كانت منغرسة في بعض الأفهام، وليس نزولها لتقرير حكم ابتداء، وبالتالي فإن قوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} ليس المقصود منه أن المرأة إذا قتلت الرجل، أو الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، وإن كان الإمام أحمد ذهب إلى أن الرجل إذا قتل المرأة وحكم بالقصاص فإنه تكمل له دية الرجل، فإذا كانت دية الرجل مائة ألف، ودية المرأة خمسين ألفا، فيدفع إليه أولياء المقتول خمسين ألفا نصف الدية الباقي ويقتل، وهذه المسألة محل خلاف والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٧٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم-، وعلى آله وصحبه أجمعين.

"يقول تعالى: كُتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} [(١٧٨) سورة البقرة]

أي: فرض عليكم أن تعدلوا في القصاص، وعبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تشير إليه، يقول: كتب عليكم العدل، وجعل كُتب عليكم القصاص مرتبطاً بقوله: الحر بالحر، والمعنى كُتب عليكم العدل في القصاص بألا تتجاوزوا حد الله –عز وجل- فتخرجوا عن العدل، بقتل غير القاتل، أو بقتل الحر بدلاً من الرقيق المقتول، وما إلى ذلك مما كانوا يفعلونه.

وقوله هنا: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} مفهوم المخالفة فيها أنه إذا حصل التفاوت بين القاتل والمقتول في المرتبة فإنه لا ينفذ حكم القصاص في الواقعة، وقد ذكر العلماء عدة أجوبة على تقرير أن مفهوم المخالفة لا عبرة له في هذا الموطن فمن ذلك:

- أن هذه الآية يمكن أن تكون قد نزلت في معالجة حال معينة واقعة، ذكرها الحافظ ابن كثير وذلك أن بني النضير كانوا يرون أنهم أشرف من قريظة، وكلهم من اليهود، فالرجل من النضير إذا قتله القرظي قُتل القرظي به، وإن كان القتل من النضير لأحد من قريظة فإنه لا يقتل به، ويقولون: لا يقتل به؛ لأنه لا يكافئه، فجاءت الآية تعالج هذه القضية.
- أو أن ذلك فيما كان عليه الحال قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان الناس لا يعدلون في القصاص، فإذا قتل الرجل رجلاً فإن أولياء الدم أو عشيرة المقتول يقتلون من وجدوا من عشيرة القاتل وقرابته، وربما رأوا أن القاتل لا يكافئ المقتول فعمدوا إلى غيره، فقتلوا بالواحد جمعاً من الناس لا علاقة لهم بقتله، وربما قتلوا فارس القبيلة، أو سيد القبيلة، أو الوجهاء من القبيلة، مع أنهم لا علاقة لهم بقتل هذا الإنسان، وإذا كان القاتل عبداً لم يقبلوا بالقصاص منه بل قتلوا حراً مكانه، وإذا كان القاتل امرأة لم يقبلوا بالقصاص منها بل قتلوا رجلاً من عشيرتها بدلا منها، فجاءت الآية تعالج هذا الواقع.
- أو أن ذلك كان في مقتلة وقعت، فوقع قتلى من الطرفين رجال ونساء وأرقاء، فأصلح بينهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنظر في القتلى من الطرفين، فجعل النساء في مقابل النساء، والرجال

الأحرار في مقابل الأحرار، والعبيد في مقابل العبيد، وأصلح بينهم بهذا الاعتبار فجاءت الآية وفاقا لواقع معين.

فهذه الروايات الواردة وإن ثبت في بعضها ضعف إلا أن جميعها تؤكد أنها نازلة في علاج واقع بعينه، ونزول الآية في علاج واقعة معينة يعد من المواضع التي لا عبرة فيها بمفهوم المخالفة.

والمقصود بمفهوم المخالفة: المعنى المسكوت عنه بكلام منطوق ومفهوم، فالمنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق مثاله: أكْرِم التقي، فالمنطوق إكرام التقي، ومفهوم المخالفة لا تكرم غير التقي.

ومفهوم الموافقة: يجاري المنطوق، لكنه مسكوت عنه، فمفهوم المخالفة حجة على قول الجماهير من أهل العلم، لكنه في بعض المواضع لا يكون حجة، ومنها هذا الموضع أن تكون الآية أو النص نزل لمعالجة واقع معين.

وعليه فقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} معناه: أنه إذا قتل الرجل امرأة فإنه يقتل بها، وإذا قتلت المرأة أحداً من الرجال فإنها تقتل به، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن المسلمين تتكافأ دماؤهم، ومن أهل العلم من يشترط التكافؤ في القصاص، ويطالب بالتفاوت في الدية بين الرجل والمرأة، وكثير من أهل العلم على خلافه، فعلى هذا تكون الآية على ظاهرها عندهم ولا نسخ فيها.

وبعضهم قال: إنها منسوخة، نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [(٤٥) سورة المائدة]، وهذه الآية من سورة المائدة، وسورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام، لم ينسخها شيء، ولكن هذه الآية التي ذكروا إنما نزلت في بني إسرائيل، فهي تخبر عما شرع لبني إسرائيل، ومعروف أن شرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا إن وجد في شرعنا ما يخالفه، فإذا قيل: إن هذه الآية ثابتة: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ...} فتكون مخالفة لما شرع لبني إسرائيل في آية المائدة، فلو لم تنسخ فعندئذ يكون ذلك مخالفاً لما كتب على بني إسرائيل، وهذا توضيح لقوله سبحانه: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا} ولقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} والله تعالى أعلم.

" وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفراً وبغيا."

معلوم أن بني إسرائيل كان لا يحل لهم أخذ الدية، وإنما حل ذلك لهذه الأمة تخفيفاً ورحمةً بها، وإيراد ابن كثير –رحمه الله- لهذه القضية في بني إسرائيل وما كان يحصل بينهم كأنه يريد أن يقول: إنها نزلت تصف حالاً معينةً منكرةً، فلا يكون للآية مفهوم مخالفة، ولا يفهم أن التفاوت والتكافؤ إذا لم يحصل لا يحصل القصاص، ودليله ما ذكره أنس بن مالك –رضي الله عنه- قال: "عدا يهودي في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على جارية فأخذ أوضاحاً كانت عليها، ورضَخَ رأسها، فأتى بها أهلُها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي في آخر رمق، وقد أُصمتت، فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتلك؟ فلان؟))، لغير الذي قتلها فأشارت برأسها أن لا، قال: فقال لرجل آخر غير الذي قتلها فأشارت أن لا، فقال:

((ففلان؟)) لقاتلها، فأشارت أن نعم، فأمر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرُضخ رأسه بين حجرين[1]

"وقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى} منها منسوخة، نسختها {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [(٤٥) سورة المائدة]، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يقتل مسلم بكافر)).[2]"

القاعدة الثابتة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فالأصل في الآية الإحكام وليس النسخ، ودعوى النسخ تكثر في كلام المفسرين والفقهاء -رحمهم الله- ولا بد له من دليل، والحكم بالنسخ بمجرد تعارض يلوح للمفسر أو الفقيه أمر غير سائغ؛ لأن النسخ فيه إهدار لأحد الدليلين، والأصل إعمال الدليلين ما أمكن، فإن تعذر ذلك لجأ إلى الترجيح ويبقى النسخ في الأخير، فالنسخ على كل حال إن لم يثبت بدليل يقوي القول به، وإلا فإنه لا يلجأ إليه، وهذه الطريقة التي مشى عليها ابن كثير -رحمه الله- في أول كلامه يقول: كتب عليكم العدل في قصاص القتلى الحر بالحر...، ولا تفعلوا كما فعلت قريظة، أو كما كان يفعله بعض العرب في الجاهلية، فلا نسخ.

لكنه قال بعد ذلك: هذا القدر من الآية منسوخ، وهو غريب ......

جاء في الأصل قوله:

"رواية عن سعيد بن جبير في قوله تعلى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...} [(١٧٨) سورة البقرة] يعني: إذا كان عمداً الحر بالحر، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى} منها منسوخة نسختها النفس بالنفس."

من الكلام السابق تفهم أنه لابن كثير -رحمه الله-، وظاهر كلام ابن كثير خلاف هذا فهو يرى أن الآية غير منسوخة بل يرى أن قوله سبحانه: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} مرتبطة بما بعده من قوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ ...} ثم ذكر القصة بعده، مما يدل على أنها نازلة تعالج واقعة معينة فلا مفهوم لها، فالقول بالنسخ عن ابن كثير لا يصح، إنما هذه رواية نقلها عن سعيد بن جبير، وفي آخرها أنه قال: إن هذا القدر من الآية منسوخ، والنسخ يطلق عند السلف على كل ما يعرض للنص العام فتقييد المطلق، وتخصيص العام، وبيان المجمل، كل ذلك يقولون له نسخ كما قال ابن عباس في قوله تعالى: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [(٩٧) سورة آل عمران] قال: نسختها التي بعدها {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} فهذا من باب تخصيص العام قطعاً ولا يحتمل النسخ؛ لأن النسخ الاصطلاحي بمعنى الرفع ولم يُرِدْه، هذا إذا صحت الرواية عن سعيد بن جبير؛ لأن الروايات الواردة في

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الإشارة في الطلاق والأمور (٤٩٨٩) (٥/٢٠٢٩)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات وقتل الرجل بالمرأة (١٦٧٢) (٣/١٢٩٩).

[2] - رواه الترمذي برقم (١٤١٣) (٤/٢٥)، ورواه ابن ماجه برقم (٢٦٥٩) (٢/ ٨٨٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٧١٠).

سبب النزول فيها ضعف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن غاية ما يقال: إن هذا رأي لسعيد بن جبير وخالفه غيره، والله أعلم.

"لما ثبت في البخاري عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يقتل مسلم بكافر))[٣] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة."

وهي قوله: **{النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}** [(٤٥) سورة المائدة] وتوجيهه للآية: أن الكافر نفس والمسلم نفس فيقتل به لهذا الجامع، إلا أن الآية نزلت في بني إسرائيل، وعندنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يقتل مسلم بكافر))[٤]، وقال: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم))[٥] ومفهوم المخالفة أن غير المسلمين لا تتكافأ دماؤهم.

"ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في غلام قتله سبعة فقتلهم...."

أورد هذا القضية لأن الله قال: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}** والمعنى كما تقدم العدل في القصاص **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ....}** ومن مقتضى العدل أنه إذا مجموعة قتلوا واحدا، فإنهم يقتلون به.

"قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاه ابن المنذر عن معاذ، وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم-، وعبد الملك بن مروان، والزهري، وابن سيرين، وحبيب بن أبي ثابت."

ذكر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المعروف باعتبار أنه فقيه، معدود من أهل الفقه ومحسوب عليهم.

"وقوله: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} فالعفو: أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} يعني فمن ترك له من أخيه شيء يعني: أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو."

القتل إذا كان بغير عمد فلا مجال للعفو عن القصاص؛ لأنه لا يحق له أصلاً أن يقتص منه، إذ الحكم بالقصاص إنما يكون في العمد، فمن عفا مقابل عوض وهي الدية فعند ذلك يقال: **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}** والقرينة التي تبين أنه المراد قوله: **{فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}** يعني إلى الدية من القصاص **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}** العفو إما أن يكون بالتنازل عن الدية ففي هذه الحالة لا مجال للتوجيه بالاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، وإما أن يكون إلى الدية إلى عوض، فهذا هو الذي دلت عليه الآية، والله أعلم.

---

[3] - سبق تخريجه.

[4] - سبق تخريجه.

[5] - رواه أبو داود برقم (٢٧٥١) (٢/٨٩)، وابن ماجه برقم (٢٦٨٣) (٢/٨٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١١٦٥٨).

"**{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية {وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} يعني: من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعني: المدافعة.**"

قوله: {فَاتِّبَاعٌ} ورد في إعرابها مرفوعة حالتان:

أولها: أن تكون مرفوعة بفعل محذوف والتقدير: فليكن منه إتباع بالمعروف، يعني ولي الدم.

ثانيها: أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتوجيه الآية بأن لولي الدم اتباع القاتل والمطالبة بالمعروف من غير تعنت ولا إضرار، بأن يدفع الدية على أقساط معلومة، خلال أزمنة محدودة تسقط الدية عنه، ولا ينبغي له أن يتصرف بما يلحق به الضرر بسبب مطالبته بهذه الدية فهذا أمر لا يسوغ.

والوجه الذي تعين عليه تسليم الدية قوله -سبحانه-: {وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} وهذا فيه الاحتمالان السابقان من الناحية الإعرابية: فليكن منه أداء إليه بإحسان، أو فالأمر أداء، فهذا الإنسان الذي تعينت في حقه الدية ينبغي عليه أن يؤدي هذا الحق الذي عليه، ولا يماطل أولياء الدم ويؤخر التسليم بدون مبرر ولا دافع.

"**وقوله: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم، من القتل أو العفو، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ} فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك وأخرجه ابن حبان في صحيحه. وقال قتادة: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ} رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش.**

وهكذا روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، نحو هذا.

وقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد. وهكذا روي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية."

وهذا هو المشهور والظاهر من الآية، أن من اعتدى بالقتل على القاتل بعد أخذ الدية منه فإنه متوعد بالعذاب الأليم، والعذاب الأليم يشمل عذاب الآخرة وما ينتظره من النكال فيها، وعذاب الدنيا بأن يقتص منه، ويطالب بإرجاع الدية إلى أولياء القاتل الأول، وهذا فيه نظر.

وذهب طائفة من السلف إلى أنه لا يقبل من هذا الذي اعتدى بعد ما قبل الدية، لا تقبل منه دية، ولا يقبل في حقه العفو؛ لأن الله –عز وجل- قال: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فهو محمول على قتله، وأن لا لا يقر ولي الدم ويقبل بالعفو ولو طالب بالدية.

والحقيقة أن الله -عز وجل- توعده بالعذاب الأليم إلا أنه لم يحدد، ولم يرد دليل في الكتاب ولا في السنة يدل على أنه لا تقبل منه الدية، وإنما الذي ورد أنه يعامل كغيره من القتلة، والقول بأن الدية ترجع إلى أولياء

قاتل الثاني ويكون هذا بهذا، بحاجة إلى نظر، والأقرب أنه يكون كغيره من القتلة، يخير أولياء الدم بين القتل، وبين الدية، وبين العفو.

وأما العذاب الأليم الذي توعده الله –عز وجل- به فقد يعجل له في الدنيا، وقد يدخر له في الآخرة، ولكنه لا يفهم منه كما أسلفنا أنه لا تقبل منه دية، ولا يقبل في حقه عفو فلا يوجد دليل يقوم بذلك، وما نقل عن بعض السلف –رضي الله تعالى عنهم- فإنه قد نقل ما يخالفه عن غيرهم.

"وقوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [(١٧٩) سورة البقرة] يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمة عظيمة لكم، وهي: بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل..."

قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} يأتي القصاص بمعنى المماثلة.

ويأتي بمعنى: اتباع الأثر كما في قوله -سبحانه-: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [(١١) سورة القصص] يعني: اتبعي أثره، وهذا لا يعارض المعنى الأول؛ لأن متبع الأثر يفعل به كما فعل بغيره، حذو القذة بالقذة، هذا معنى اتباع الأثر، إلا إن كان بطريقة محرمة كالقتل بالمسكر، أو بالفاحشة، أو بالإحراق بالنار فلا، ولكن يقتل بمثل ما قتل على قول جماعة من أهل العلم، ويستدلون على هذا بأدلة: حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه- "أن يهوديا رَضَخ رأس جارية بين حجرين، قيل من فعل هذا بك أفلان أفلان؟ حتى سمى اليهودي: فأومت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي –صلى الله عليه وسلم- فرُضخ رأسه بين حجرين"[(٦)]، وحديث النفر الذين قتلوا الراعي من العرنيين، فسمل النبي -صلى الله عليه وسلم- أعينهم[(٧)].

ومن أهل العلم من يقول: إنه يقتل بالسلاح فقط، فإذا قتله بالسيف فإنه يقتل بالسيف، وإن قتله بطعن يطعن دون غيره، وبعضهم يقول: يقتل بالسيف مطلقاً؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قتلتم فأحسنوا القتلة))[(٨)] وتفصيل مثل هذا الكلام في أحاديث الأحكام.

"وفي شرع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة..."

في هذا الكلام إشارة إلى الحكمة العظيمة من القصاص، وهي ظاهرة في قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}، فجاء بها مُنَكَّرة، وهذا التنكير يفهم منه التعظيم من وجهين:

الوجه الأول: أن القاتل أو القاصد للقتل عندما يغلي الدم في عروقه، ويبلغ به الغضب غايته، يتذكر أنه سيعرض على السيف، وأنه سيقتل بالمقتول فيردعه ويخذله ذلك عن الإقدام على القتل، فيكون بذلك حياة لنفسه أولاً، ثم حياة للآخرين فيقلّ القتل، ولهذا قالوا: القتل أنفى للقتل، ولا مقارنة بين قول الله –تعالى-:

---

[6] - رواه البخاري في كتاب الخصومات – باب ما يذكر في ا لأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي(٢٢٨٢) (٨٥٠/٢)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات وقتل الرجل بالمرأة (١٦٧٢) (١٢٩٩/٣).

[7] - رواه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة – باب مسند أنس بن مالك (١٢٦٩٠) (١٦٣/٣)، وعلق عليه الأرنؤوط بأن إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[8] - رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان –باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) (١٥٤٨/٣).

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} وبين قول العرب: القتل أنفى للقتل، وقد ذكر بعض أهل العلم سبعة أوجه، أو ثمانية أوجه، من الفروق البلاغية بين التعبيرين، فأين الثرى من الثريا!.

الوجه الثاني: أن العرب في جاهليتهم كانوا إذا قُتل لهم أحد، لا يكتفون بواحد بل يقتلون من وجدوا من عشيرة القاتل، وقد يصل بهم الحد إلى قتل رئيس العشيرة أو القبيلة؛ لأنهم يرون أن القاتل لا يعادل ولا يساوي المقتول في شيء، فلما شرع القصاص على ما أمر الله -عز وجل- به أن يقتل القاتل في مقابل المقتول، بقيت النفوس الأخرى مصونة محفوظة لا يصل إليها عدوان ولا قتل، فصار عندنا حياة القاتل، ومن أراد القتل، وحياة الطرف الآخر الذي كان سيوجه إليه القتل، وحياة –أيضا- الآخرين الذين ربما كانوا يقتلون انتقاماً من القاتل، هذا هو المقصود من الحياة في القصاص والله أعلم.

"وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة."

هناك فرق بين القتل وبين القصاص، فالقتل: قد يكون بحق، وقد يكون بغير حق، وقد يكون بمثلة، وقد يكون بعدوان، ولذا جاء الأمر في آية الإسراء لمثل هذا، قال سبحانه: **{فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(٣٣) سورة الإسراء]، وعليه فليس كل قتل يحصل به الحياة، إذ قد يتسبب القتل أحياناً في بلايا ورزايا، فالقتل ليس على إطلاقه أنه أنفى للقتل والواقع شاهد، ولك أن تتأمل أين هذا –أنفى للقتل- من قوله حياة؟، فالفرق شاسع والبون كبير، ولهذا خاطب به ذوي العقول فقال: **{يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ }** أي: يا أصحاب العقول الراجحة؛ لأنهم هم الذين يعقلون هذه المعاني.

"قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل.

وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، {يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧٩) سورة البقرة] يقول: يا أولي العقول والأفهام والنهى، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات."

فائدة:

الآية قد تفسر السياق، والسياق قد يفسره سياق آخر في موضع ثانٍ، وهذا في حالة ما إذا كان السياق متشابهاً، فيفسر أحدهما بالآخر إذ قد يكون أوضح منه، وهذا مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}** [(١٧٨) سورة البقرة] فإنه يشبه قوله -تبارك وتعالى- في التركيب: **{وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم}** [(٩٥) سورة المائدة] فالآية نزلت في الصيد، وخاطب الله المؤمنين بحرمة قتل الصيد وهم حرم وقال: **{وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء}** فجزاء أي: فالحكم جزاء، أو فالواجب جزاء، أو فعليه جزاء، أو فليكن جزاء.

وكذلك قوله في المطلقات: **{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}** [(٢٢٩) سورة البقرة] فبعد الطلاق مرتان إن أراد أن يراجع فهو بالخيار بين واجبين: إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، إذ لا مجال لبقائها عنده بعد الثالثة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ* فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٨٠ - ١٨٢) سورة البقرة].

"اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ} جاءت هذه الآية مقررةً في كتاب الله -عز وجل-، تتحدث عن الوصية على سبيل الفرض، وقد عرفنا بأن {كُتِبَ} من ألفاظ الوجوب والإلزام، كما سبق في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} [(١٧٨) سورة البقرة] أن كتب بمعنى فرض.

وفي الآية أن أصل الوصية للأقارب الذين لا ميراث لهم مستحبة استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت عن ابن عمر –-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده))[١]، قال ابن عمر -رضي الله عنهما- "ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وعندي وصيتي"، ولا خلاف بينهم في هذه المسألة.

وإنما الاختلاف الناشئ بينهم في الوصية للوالدين والأقربين من لهم حق في الميراث، فالذي يفهم من ظاهر الآية أن الوصية واجبة لهم، وإليه ذهب جماعة من السلف والخلف، قالوا: إن كان عنده ما يوصي به فإنه يجب عليه ذلك، ولم ينسخ الأمرَ بالوصية شيءٌ، وهذا قول متجه.

والذي ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن قوله سبحانه: {إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ} منسوخ بآية المواريث وقوله -صلى الله عليه وسلم- ((لا وصية لوارث))[٢]، فلا يجب على كل من ترك مالاً أن يوصي إلا إن كان للأقارب الذين لا ميراث لهم كما جاء الأمر بها في حديث ابن عمر،

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الوصايا – باب الوصايا وقول النبي –صلى الله عليه وسلم- وصية الرجل مكتوبة عنده (٢٥٨٧) (٣/١٠٠٥)، ومسلم في كتاب الوصية (١٦٢٧) (٣/١٢٤٩).

[2] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٠) (٢/١٢٧)، ورواه النسائي في سننه برقم (٣٦٤١) (٦/٢٤٧)، وأحمد في مسنده برقم (١٧٦٩٩) (٤/١٨٦)، وصحيح الألباني الجامع الصغير وزيادته برقم (٢٦٧٠).

وهو محمول على مثل هذا، فهذا توجيه قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن الآية منسوخة من هذه الحيثية، ومن جهة أخرى أن الوصية للوالدين والأقربين من المواضع التي اشتهرت فيها دعوى النسخ في القرآن، وهناك مواضع تقرب من واحد وعشرين موضعاً في كتاب الله -عز وجل- هي أقوى دعاوى النسخ، وهي التي اقتصر عليها السيوطي -رحمه الله- في كتاب "الإتقان"، وأيضاً الزرقاني في "مناهل العرفان"، ونظمها السيوطي وعلق عليها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- صاحب "الأضواء"، وألحقها بآخر "الأضواء"، والقول بالنسخ قال به كثيرون منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه: "الناسخ والمنسوخ"، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، والنحاس في كتابه: "الناسخ والمنسوخ"، ومكي بن أبي طالب في كتابه: "الإيضاح"، ورجح نسخ هذه الآية أيضاً الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

وخالفهم ابن جرير بناءً على الأصل والقاعدة المعروفة، وهي: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فلا يصح في كل حالة يلوح فيها التعارض أن يدعى فيها النسخ؛ لأن النسخ يقتضي إهدار أحد الدليلين، والجمع بين الدليلين أولى من إهمال أحدهما، ولا منافاة ولا تعارض في الآية إذ المراد في الوصية للوالدين والأقربين غير الوارثين، فالآية محكمة لم ينسخها شيء، لكن هل يكون الأب غير وارث؟ الجواب: نعم، يكون غير وارث في الحالات الثلاث المشهورة التي تمنع الإرث وهي: الرق، والقتل، واختلاف الدين، فإذا كان الوالد رقيقاً مملوكاً فإنه لا يرث، ومثله إذا كان قاتلاً، وكذا إذا كان مخالفاً في الدين بأن يكون كتابياً أو مجوسياً...، فله أن يوصي والحالة هذه لأبيه؛ لأن والده لن يرث منه في هذه الحالات الثلاث، كما لو أن الأب كاتب سيده، فهو بحاجة إلى إعانة، والولد حر فكتب في وصيته لوالده أن يعطى قدر كذا وكذا بما لا يجاوز الثلث، فعندئذ يعطى لهذا الوالد، والخلاصة أنه إذا قام بالوالد مانع من موانع الإرث فإنه يوصى له، وتحمل القرابة في الآية على غير الوارثين، وهذا وجه حسن لا إشكال فيه.

وأما القائلون بنسخها، فقد اختلفوا في ناسخها هل هي آيات المواريث أو الحديث، باعتبار الأصل عند كثير من أهل العلم كالشافعي نص في رسالته على أن القرآن لا ينسخه إلا القرآن، وأما السنة فما جيء بها إلا لتبين القرآن وتشرح مشكله، والنسخ رفع ولا تقوى على رفعه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الحديث من أحاديث الآحاد، والآحاد عند بعضهم لا يقوى على نسخ المتواتر -القرآن-، ولذلك أجابوا بأن الذي نَسخ هو آيات المواريث، أو مجموع الأمرين.

والصحيح أن الآحاد ينسخ المتواتر، وأن السنة لا مانع من نسخها القرآن.

فائدة:

من أجود كتب النسخ أربعة: كتاب" "الناسخ والمنسوخ" لأبي عبيد القاسم بن سلام، وهو من أئمة القراءة، والحديث، والتفسير، واللغة، توفي سنة مائتين وأربع وعشرين للهجرة، وكتاب: "الناسخ والمنسوخ" للنحاس، وهو مطبوع في طبعة أنيقة حسنة محققة تحقيقاً بديعاً، تصلح أن تكون نموذجاً في تحقيق الرسائل الجامعية، وكتاب: "الإيضاح" لمكي بن أبي طالب، وهو مطبوع في مجلد، وكتاب: "نواسخ القرآن" لابن الجوزي، مطبوع في مجلد طبعة الجامعة الإسلامية.

قوله سبحانه: {إِن تَرَكَ خَيْراً} معناه: إن ترك مالاً، فالخير يراد به المال في هذا الموضع، كما في قوله -تبارك وتعالى- في الموضع الآخر: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(٨) سورة العاديات] أي: لحب المال، وقال سبحانه في موضع ثالث: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [(٢٠) سورة الفجر]، وليس المراد حب العمل الصالح، والبر، والتقوى، والإحسان إلى الناس، والإحسان مع الله -عز وجل- كما يفهم البعض، ومن هنا يعلم خطأ من قال: إن الأصل في الناس حب الخير، والله أعلم.

"وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً، من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب وهو يقول: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث))[٣].

وروى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين قال: "جلس ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: {إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ}، فقال: نسخت هذه الآية".

وكذا رواه سعيد بن منصور والحاكم في مستدركه و........"

قول ابن عباس لا يلزم منه الحمل على النسخ الاصطلاحي الذي بمعنى الرفع؛ لأن السلف يطلقون النسخ على كل ما يعتور النص العام من تخصيص لعموم، أو تقييد لإطلاق، أو بيان لإجمال، أو رفع وهو النسخ الاصطلاحي، فلا يلزم من هذا أنه يقصد النسخ بمعنى الرفع، ولكنه يحتمل ذلك احتمالاً كبيراً؛ لأن أكثر أهل العلم يقولون بالنسخ وهو قول له وجه قوي.

"رواه سعيد بن منصور، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ}، نسختها هذا الآية: {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} [(٧) سورة النساء].

ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر وأبي موسى......"

يقصد بقوله: نسختها للرجال نصيب يعني آيات المواريث، وهذا لا يعارض قول من قال: إن آيات المواريث تبدأ من قوله: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} [(١١) سورة النساء]؛ لأن المراد أنها آية تطرقت إلى الكلام عن المواريث، وكل المواضع التي تحدثت في القرآن عن المواريث تأخذ حكمها واسمها، وقد يكون الناسخ أمر آخر، لأن آية {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} ليست ضمن السياق الذي ذكرت فيه آيات المواريث، إلا أنها تعد من جملة ما يتحدث عنها، فتدخل في الناسخ والله أعلم.

"ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر وأبي موسى -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن

---

[٣] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٠) (١٢٧/٢)، ورواه النسائي في سننه برقم (٣٦٤١) (٢٤٧/٦)، وأحمد في مسنده برقم (١٧٦٩٩) (١٨٦/٤)، وصـــحيح الألباني الجامع الصغير وزيادته برقم (٢٦٧٠).

أنس، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وطاووس، وإبراهيم النخعي، وشريح، والضحاك، والزهري أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث.

بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها."

يذكر الحافظ ابن كثير أن الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب استئناساً بآية الوصية هذه أن يوصى لهم، وهنا يرد إشكال على كلام ابن كثير، وهو إذا كانت الآية منسوخة فكيف يؤخذ منها الاستحباب؟ والجواب أن يقال: إن حقيقة النسخ تارة تكون من الفرض والإلزام إلى الاستحباب وهذا ما قصده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهو غير متناقض، لأنه قصد نسخ وجوب الوصية فقط، باعتبار أن الله أعطى كل ذي حق حقه، وبقي الاستحباب بالوصية لغير الورثة من القرابات، وهذا يجري أيضاً على قول من فسر قوله -تبارك وتعالى-: **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة]، بأنه لا بد من البديل في النسخ، فالبديل في الآية عن الوصية هو الميراث، وهذا يدفعنا للتعريج على مسألة وكلام أهل العلم في النسخ إلى غير بدل، والذي عليه اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنه لا نسخ إلى غير بدل، وأوضح مثال له قوله -تبارك وتعالى- في آية المناجاة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٢) سورة المجادلة]، فبقى الأمر بتقديم الصدقة بين يدي المناجاة على سبيل الاستحباب ولم ترفع الصدقة كما ذكر ابن تيمية، وأما القائلون بالنسخ إلى غير بدل فيرون أن الأمر رفع نهائياً في آية المناجاة، والله أعلم بالصواب.

"ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده))[٤]."

الأظهر أن الخطاب يفهم منه الوجوب إن كان عنده ما يوصي به، كالحقوق، والديون، وما أشبه ذلك من الأمور التي يحتاج أن يوصي بها؛ لئلا تضيع الحقوق فيجب أن يثبت ذلك في وصيته، أما من ليس عنده شيء فلا يشمله النص؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه وهو خالي الوفاض من المال، فلا ينبغي الفهم أن الوصية واجبة على كل أحد أخذاً من هذا الآية، بل الصحيح حصرها فيمن يملك وذمته مرهونة بحقوق للآخرين.

"قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: "ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول ذلك إلا وعندي وصيتي"، والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً، والمراد بالمعروف أن يوصي لأَقْرَبِيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً -رضي الله تعالى عنه- قال: "يا رسول الله -–صلى الله عليه وسلم-- إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي، قال: ((لا)). قال: فبشطر. قال: ((لا)). قال: فالثلث، قال: ((الثلث والثلث كثير))."

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير)) فهم كثير من السلف ومن بعدهم -رضي الله تعالى عنهم- أن الثلث ليس بمستحب في الوصية، لقوله: ((كثير))، وإنما يوصي دون الثلث كالربع، وبعضهم قال: دونه كالخمس ونحو هذا؛ لئلا يضر بالورثة، والناس يتفاوتون في هذا، من كان له مال كثير، ومن كان ماله

---

[٤] - سبق تخريجه.

قليل، ومن كان له ورثة كثر ...، فهذا يختلف من حال إلى حال، واستنبطوا منها أحكاماً فقهية تجدونها في مواضعها، في مسائل تتعلق بالغبن في البيع، إذا كان يبلغ الثلث لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير))، إلى غير ذلك.

"((الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس))[٥].

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: الثلث والثلث كثير".

وقوله: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(١٨١) سورة البقرة]، **يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى،** {فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ}."

قوله سبحانه: {فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} التبديل نوعان، هذا هو النوع الأول، التبديل المذموم بتغيير وصية الميت وتحريفها بغير وجه حق، أو كتمان الوصية بالكلية، بأن أوصاه بكذا ولم يخبر الرجل، أو أوصى بالثلث يبنى فيه مساجد فكتم ذلك؛ لئلا يذهب شيء من الميراث عنه، أو أنه أوصى لفلان من الناس فحسده، فكتم الوصية، فمثل هذا لا يجوز، إذ هو من الكتمان المذموم والتبديل المذموم، والنوع الآخر وهو التبديل والتغيير المحمود، وذلك إذا كان في الوصية إجحاف وظلم، بـأن أوصى بأكثر من الثلث، فيبدلها إلى الثلث، وكذا لو قال: أوصي بنصف مالي أو بكل مالي أعيد إلى الثلث، ولو كان عنده ستة عبيد فقط، هي كل التركة، وقال: هؤلاء العبيد أحرار، كُتِب في الوصية ما يعتقون، فالحاصل أنه يقرع بين هؤلاء العبيد قرعة فيُعتق اثنان، ويبقى أربعة على الرق، وهكذا لو أنه أوصى لأحد الوارثين، فإن ذلك لا ينفذ، والواجب أن يغير الإجحاف والظلم والمنكر من الوصية، لا أن تلغى كل الوصية، والله أعلم.

"قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك.

{إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} **أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.**

وقوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا} [(١٨٢) سورة البقرة]، **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس والسدي: الجنف: الخطأ."**

ذكر في الآية الجنف والإثم، مما يدل على أن معناهما متغاير إذ الإثم الظلم، والجنف الميل أو المجاوزة، وأراد الله بقوله: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا} أي: حصل منه تجاوز بغير قصد، لعله أراد خيراً فلم يوفق إليه، {أَوْ إِثْمًا} بأن تعمد المخالفة أو الإضرار بالورثة ونحو هذا.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {فَمَنْ خَافَ} فسر بعض أهل العلم الخوف بمعنى العلم، فمن خاف أي: علم، وبعضهم يحمله على وجهه، فمن خاف أي: من خاف منه إثماً أو جنفاً.

وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة.

---

[5] - رواه البخاري في كتاب الوصايا - باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٥٩١) (٣/١٠٠٦)، ورواه مسلم في كتاب الوصـية – باب الوصية بالثلث (١٦٢٨) (٣/١٢٥٠).

محاباة لأحد الورثة.

"أو أوصى لابن ابنته ليزيدها."

فيوصي لابن البنت الذي ليس له في الميراث سهم نصيبا من الوصية بالثلث؛ ليزيد في سهم أمه من التركة، يريد بذلك أن يعوضها النقص الذي لحق بها، أو يساويها بإخوانها، فهذا ما يجوز، وهو ما قصده بقوله: بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة.

"أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئا غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر."

وهذا يقع فيه كثير من العامة يقول: هذه البنية مسكينة، مكسورة الجناح، ليس عندها ما تتكسب، أو أنها مطلقة لا يقوم بشأنها أحد، فيوصي لها إضافة للميراث شيئاً من أمواله من باب الارتفاق بها، بخلاف الرجال، هذا الصنيع ما يجوز، وينبغي له أن يعلم أن الله أرحم وأحكم وأعلم.

"أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي."

هذا وجه من تفسير قوله: {فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ} [(١٨٢)سورة البقرة] وهو وجه جيد، والمراد أصلح الوصية أي: عدل وغير فيها بما يوافق الوجه الشرعي، وهو التغيير والتبديل المحمود في الآية.

"ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك؛ ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم."

ويحتمل أن يكون {فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ}، أي: أصلح بين الورثة والموصي والموصى له لرفع ما فيه من ضرر وإشكال؛ لأن تلك القسمة مظنة التنازع، فيكون مصلحاً بين الأطراف الثلاثة، إذ لم يأت التحديد في الآية لمن يشملهم الصلح فتعم هذه الأصناف الثلاثة، وليس المراد من الآية مجرد إصلاح الوصية، وإن كان إصلاح الوصية نفسها هو إصلاح في الواقع بينهم؛ لأن هذه الوصية للوارث ظلم وتعدي وتضييع لحقوق الورثة، وتسبب مشاكل وبلايا لا تخفى لدى كثير من الناس.

وهذا المعنى الأخير اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، أصلح بينهم، أي بين الموصي والموصى له والورثة، برفع الظلم والتعدي والمجاوزة بهذه الوصية.

"روى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة))، قال أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه-: اقرءوا إن شئتم: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا} [(٢٢٩) سورة البقرة] الآية[٦]."

في قوله -تبارك وتعالى-: {فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٨٢) سورة البقرة] يمكن أن يحمل على أنه غفور للموصي إذا هم بالجور ثم عدل عنه، رحيم بمن أصلح بينهم على قول ابن جرير -رحمه الله-.

---

[6] - رواه ابن ماجه في سننه برقم (٢٧٠٤) (٢/٩٠٢)، وأحمد في مسنده برقم (٧٧٢٨) (٢/٢٧٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٣٨٢).

ويمكن أن يحمل على أنه غفور رحيم لهذا الذي غير وبدل في الوصية تغييراً محموداً، فإن الله لا يؤاخذه بذلك؛ لأنه ساع بالحق والإصلاح والمعروف.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٣ - ١٨٤) سورة البقرة].

"يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة، وآمراً لهم بالصيام وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله -عز وجل-، لما فيه من زكاة النفوس، وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد.

فقوله -رحمه الله-: الصيام هو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله -عز وجل-، هذا معنى الصيام الشرعي، وأصله في اللغة: الإمساك.

قوله: لما فيه من زكاة النفوس، وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة إلى آخره...، هذا الكلام تفسير لقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فمن أجل تحقيق التقوى، شرع الصيام لهذه الحكمة، وهذا مثال للعلة المنصوصة، بخلاف أكثر العلل التي يذكرها الفقهاء فهي علل مستنبطة، وقال بعض السلف: إن المقصود بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي: تتقون ما يخل بالصوم من أكل وشرب ووقاع، وهذا اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ولكن المعنى الأول أظهر وأقرب إلى ظاهر السياق، وهو المشهور من تفسير الآية، وعليه عامة أهل العلم.

وكثير ممن يتحدثون عن المعنى الذي لأجله شرع الصيام، تجدهم يلفتون إلى حكم عجيبة وفوائد غريبة، تربط الناس وتشدهم شداً إلى ماديتهم ومصالحهم الدنيوية، فيعددون فوائد الصوم بالنسبة للدم، وبالنسبة للمعدة، وبالنسبة لأمور أخرى، والناس ليسوا بحاجة إلى مزيد من الإغراق فيها، وإن كانت هي وسيلة ناجعة في إقناع الناس وترويضهم على الطاعة، إلا أن الأولى أن لا يعلقوا الناس في الأمور التعبدية بهذه الماديات، وإنما يجعلونها رافدة ومعضدة، وإذا علقوا الناس بشيء فليعلقوه بما يصحح نياتهم ومقاصدهم، فيربطوهم بآخرتهم، وما أعد الله لهم من نزل، والعلم عند الله -عز وجل-.

قوله سبحانه: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}: ذكر الله أنه كما أوجبه علي هذه الأمة فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، ولذا قال كُتب أي: فرض.

وقوله: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} الكلام في الكاف كلام طويل، والعلماء مختلفون في دلالة التشبيه اختلافاً كثيراً، هل هي تشبيه في أصل الفرضية؟ أو أنها تشبيه في الوقت والمقدار؟ أو أنها تشبيه في الصفة؟

هذه ثلاثة احتمالات، فإذا قلنا: إنها تشبيه في أصل الفرضية، صار المعنى أن الله فرض عليكم الصيام كما فرضه على الذين من قبلكم، أي: أنكم لستم الذين يفرض عليكم الصيام فحسب، بل كان مفروضاً على الأمم التي مضت، فلا يلزم من ذلك أن يكون الصوم عندهم في رمضان، وأنه كان لمدة شهر ثم زادوا عليه، أو أنه كان بصفة معلومة فكان ذلك فرضاً على هذه الأمة بتلك الصفة؛ حيث يحرم عليهم ليلة الصيام الوقاع مثلاً، أو أن الواحد إذا أفطر ثم حصل له نوم بعد ذلك فإنه يحرم عليه أن يأكل أو يشرب حتى يفطر في اليوم الآخر، فيلزمه مواصلة الصيام.

والصوم شرع تشريعاً متدرجاً لهذا الأمة، كان أهل الجاهلية يعرفون عاشوراء، ويصومونه، ربما يكون ذلك انتقل إليهم من بني إسرائيل، كانوا يعرفونه في مكة، ولما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة ورأى اليهود، كما هي القصة المعروفة، قال: ((نحن أحق بموسى منكم)) فصامه -صلى الله عليه وسلم- وأمر الناس بصيامه"[1]، فكان ذلك فرضاً، ثم بعد ذلك شرع للناس صيام رمضان، ولكنه كان على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم كما سيأتي في قوله تعالى: **{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة]، وذلك لأن الصيام عبادة شاقة إذا كانت النفوس ما اعتادت عليها فإنها تحتاج إلى التهيئة والترويض، ثم كان الصوم بهذه الكيفية.

وإذا قلنا إن التشبيه في الوقت والمقدار، بمعنى أنه كان يجب عليهم أن يصوموا شهراً **{كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة]، فكان يجب عليهم شهراً ثم زادوا فيه وتلاعبوا بالصوم، وجعلوه في فصل الربيع، فزادوا فيه في مقابل ذلك، بمعنى أنه يصوم في شهر رمضان ولمدة شهر كامل، فعلى هذا لا نسخ في الوقت والمقدار.

وعلى القول بأن التشبيه في الصفة فتكون الآية بهذا الاعتبار قد تخللها النسخ، فيحرم عليهم في ليلة الصيام الوقاع والأكل والشرب إذا حصل منهم نوم، أو كما جاء في بعض الآثار كان يفطر إلى العشاء، ولا يحل له بعد العشاء أن يأكل، أو يشرب، أو يواقع، إلى اليوم الثاني حتى أنزل الله -عز وجل- قوله تعالى: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، وقال أيضاً: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** فألغى الحكم الأول، والقول بالنسخ هو مذهب جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن كثير، وأبو عبيد القاسم بن سلام، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان، فالناسخ أحل لكم ليلة الصيام، فيكون هذا هو النسخ الأول في آية الصيام، والنسخ الثاني وليس محل اتفاق أيضاً هو في قوله: **{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة].بناء على أن التشبيه في الصفة، وليس في أصل الفرضية، أو في الوقت والمقدار، والله أعلم.

"وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [(٤٨) سورة المائدة] **الآية.**

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الصوم –باب صيام يوم عاشوراء برقم (١٩٠٠) (٢/٧٠٤).

ولهذا قال هاهنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٨٣) سورة البقرة]؛ **لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))**[2]."

وإيراده لمثل هذا الكلام إصرار منه على تأكيد مذهبه في حكمة مشروعية الصوم، على خلاف ما ذهب إليه ابن جرير من أن معنى قوله {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، أي: تتقون المفطرات من أكل، وشرب، ووقاع، مثلما اتقوا.

"**ثم بين مقدار الصوم، وأنه في أيام معدودات؛ لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأداءه.**"

تهوين فرض الصيام وتخفيفه عنهم يكمن في أمور:

الأول أنه قال: أنتم لستم وحدكم من فرض عليكم الصيام، وإنما هو طريق مسلوك، وشرع معهود، وفعل معروف، ودرب سلكه سالكون قبلكم فأنتم على أثرهم.

ثانياً: قال لهم: إن ذلك شرع من أجل تحقيق التقوى.

ثالثاً: أنه حصره في فترة محددة فقال: {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}.

رابعاً: ذكر التخفيف فيه، على المريض والمسافر، مع التخيير للمطيق.

خامساً: أنه بين حكمته في هذا التخفيف، وأنه يريد اليسر بعباده، لا يريد بهم المشقة الخارجة عن طوقهم، كل هذه التلطف وهو غني عنهم -سبحانه وتعالى-.

وفي نصب {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} إعرابان: الأول: أن يكون منصوباً بناءً على أنه مفعول ثانٍ لكتب، إذ الصيام في الأصل هو المفعول الأول، لكن لما حذف الفاعل صار نائباً للفاعل، والتقدير: كتب أيام.

الثاني: النصب على اعتبار أنه ظرف زمان مقطوع.

"**وقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرْض رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أفطر".**

وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم- مثله."

وقع في الصوم ثلاثة من النسخ، نسخ فرض صوم عاشوراء ليصير بعد ذلك مستحباً، ثم نسخ وقع في صفة الصوم من جهة ما ذكرت فيما يتعلق بليلة الصيام، وثالث أيضاً وقع فيما يتعلق بالترخيص للمطيق، أن يتحول إلى البدل وهو الإطعام.

"**وقوله تعالى:** {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، **كما قال معاذ -رضي الله تعالى عنه-: كان في ابتداء الأمر من شاء صام.**"

قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ} يطيقونه هذه القراءة المتواترة، وجاء عن ابن عباس أنه قرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ} وهي قراءة ليست متواترة، وفي رواية: { يَطَّيَّقُونَه} ومعناها على الراجح أي: الذين يطيقون الصيام لهم أن يتحولوا إلى بدل وهو الإطعام، إذ ليس بلازم لكل أحد أن يصوم في أول الأمر، بل هو

---

[2] - رواه البخاري في كتاب النكاح –باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم- ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) برقم (٤٧٧٨) (١٩٥٠/٥) ، ورواه مسلم في كتاب النكاح –باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم برقم (١٤٠٠) (١٠١٨/٢).

بالخيار بين الصيام، وبين الإطعام، وهذا الشهور في معنى هذه القراءة، وبناءً عليه تكون هذه الآية أيضاً منسوخة بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، فصار ذلك لازماً لكل مطيق، إلا أن يكون مسافراً أو مريضاً يرخص له الفطر.

وقيل: إن قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} بمعنى يتكلفونه، ومنه قراءة "يُطَوَّقُونَه"، أو قراءة "يَطَّوَّقونَه" أو "يَطَّيَّقُونَه" فكلها بمعنى يتكلفون الصوم ويشق عليهم، فمثل هؤلاء الذين ضعفت قواهم فإنه يرخص لهم أن يتحولوا إلى البدل وهو الإطعام، وعليه فلا يكون في الآية نسخ، والله أعلم.

قوله: {يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} أهل الشام والمدينة يقرءونها بالإضافة، فتكون {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةُ طَعَامِ مِسْكِينٍ}، ومسكين أيضاً على قراءة أهل المدينة والشام تقرأ بالجمع "مساكين"، والمعنى واحد؛ لأن المسكين جنس يطلق على الواحد والكثير، فدية طعام مسكين أو طعام مساكين، فيمكن أن يعطى طعام من أيام متعددة لمسكين واحد، أو لمساكين متعددين، فيحتمل الوجهين بخلاف ما إذا ذكر العدد بأن قال: عشرة مساكين، أو ستين مسكيناً، أو نحو هذا فلابد من استيعاب العدد من المساكين على الراجح.

وقوله: {فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} الفدية: بمعنى الجزاء

"كما قال معاذ -رضي الله تعالى عنه-: كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً.

وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لما نزلت: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها[٣].

وروي أيضاً من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: هي منسوخة.

وقال السدي عن مرة عن عبد الله ......"

الراجح في هذه الآية أنها منسوخة بقوله سبحانه: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وبه قال كثير من أهل العلم كابن جرير، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وآثارهم صريحة في ذلك، ومن المعاصرين محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

"وقال السدي عن مرة عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}، قال: يقول: وعلى الذين يطيقونه أي: يتجشمونه..."

بمعنى يشق عليهم الصيام لزمانة أو لتقدم في العمر.

"قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً.

{فَمَن تَطَوَّعَ} يقول: أطعم مسكيناً آخر."

قوله: {فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا} وفي قراءة حمزة والكسائي {فَمَن يَطَّوع}، والمراد أطعم مسكيناً آخر وهذا الأقرب.

وقيل معناه: يزيد في إطعام المسكين الواحد على أي تقدير، وبعضهم يقول: {تَطَوَّعَ خَيْرًا} بالجمع بين الصوم

---

[3] - رواه البخاري في كتاب التفسير –باب سورة البقرة برقم (٤٢٣٧) (١٦٣٨/٤)، ورواه مسلم في كتاب الصيام –باب بيان نسخ قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} برقم (١١٤٥) (٨٠٢/٢).

والإطعام، وبعض أهل العلم يقول: بما أن الله لم يحدد شيئا دون شيء فإنه يحمل على هذه الزيادة التطوعية، فيكون ذلك من الزيادة التي يحبها الله، وهي خير للإنسان؛ لأنها تزيد في تقربه.

"**{فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}** [(١٨٤) سورة البقرة]."

بناء على أنه مخير بين الفدية والصيام هذا على قول الجمهور بأن الآية منسوخة بالآية الأخرى: **{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}**، وعلى القول بأنها ليست منسوخة، والتخيير للقادرين لم يثبت، فالمعنى وأن تصوموا في السفر الذي ليس فيه مشقة كبيرة عليكم، والمرض الذي لا يفضي بكم إلى العطب أو الضرر هو خير وأفضل لكم؛ لأنه أبرء للذمة، وإيقاع لهذا العبادة الشريفة في وقتها الأصلي، وهو وقت شريف لا يجد عنه عوضاً، ولهذا كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يحب أن يقضي رمضان في العشر من ذي الحجة؛ لأنها أفضل الأيام عند الله -عز وجل-.

لكن الراجح أنها منسوخة، وأن قوله: **{وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}**، سائر على التخيير بين الإطعام والصيام.

"**فكانوا كذلك حتى نسختها {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} والله أعلم.**"

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وروى البخاري عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس نحوه.

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، بل يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} أي: يتجشمونه، كما قال ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنسٌ بعدما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً، خبزاً ولحماً وأفطر".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلاة وسلاماً على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك وتعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} عامة أهل العلم على أنها منسوخة في حق الصحيح المقيم فيوجبون الصيام عليه؛ لأنه في أول الأمر كانت المسألة على التخيير.

وأما ابن عباس فيرى أنها ليست منسوخة بل هي متقررة في حق الشيخ الكبير الفاني، والمرأة الكبيرة، إلا أنه ورد عليه إشكال إذ الشيخ الفاني قد لا يتمكن من الصوم أصلاً، فكيف يقول الله: {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(١٨٤) سورة البقرة]، فأجابوا بأنها فيمن رخص له الفطر، إما لمريض مع إطاقته الصوم من غير ضرر، أو لمسافر ولم تلحقه مشقة عظيمة، أو الهرم الكبير الذي يستطيع الصيام لكن بنوع تكلفة ومشقة من غير ضرر يلحق به، فهولاء الصيام خير لهم من أن يأخذوا بهذه الرخصة، والراجح أنها منسوخة.

مسألة المسافر والمريض الذي لا يضره الصوم، أما المريض فمن أهل العلم من يقول: كل ما أطلق عليه مرض فإنه يرخص له في الفطر، ومنهم من يقول: المعتبر المرض الذي يشق معه الصوم، وهذا الأقرب؛ لأن وجع الضرس مرض، والصداع الخفيف مرض، والجرح الذي يصيب ويقع للإنسان في يده أو رجله ونحوه مرض، والمرض في حقيقته هو اختلال مزاج البدن، فإذا لم يتأثر بالصوم فيكون مأموراً بالصيام على سبيل الوجوب، فالمرض المقصود في الآية هو المرض الذي يشق معه الصوم، ويصير صاحبه بحاجة إلى الطعام أو الشراب أو الدواء؛ لأنه بالصيام يزداد وهناً وتعباً، ونحن نلاحظ أن الكثيرين ممن لم يعتد الصوم إذا صام وهو صحيح برك وخارت قواه، فكيف إذا كان مريضاً؟.

وأما المسافر إذا لم يشق عليه الصوم، أو يجد مشقة لكنها يسيرة، فالأفضل في حقه الصيام وليس الأمر محل اتفاق؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم في السفر، ولما سئل عن الصيام في السفر لم ينه عنه، ولكنه قال -عليه الصلاة والسلام-: ((ليس من البر الصيام في السفر))[1]، إلا أنه لم يقله النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً وإنما قاله في مناسبة وقعت، وهو أنه رأى رجلاً قد أغمي عليه، يظلله الناس في السفر وهو صائم، فقال: ((ليس من البر الصيام في السفر))[2]، فهذا الكلام ذكره توجيهاً في حالة معينة واقعة، والمعنى: ليس من البر الصيام الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا في السفر، لأنه ثبت عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سفر، وإن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما منا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن رواحة"[3] ، فلا شك أنه يلحقه مشقة بهذا ولكنها مشقة محتملة، فيكون ذلك أبرأ إلى ذمة الإنسان، وأسرع في المبادرة بالإتيان بفرض الصوم، وهو أسهل على الإنسان من القضاء، كما أنه إيقاع لهذه العبادة في وقت شريف لا يجد عنه عوضاً، والله أعلم.

"وهذا الذي علقه البخاري وقد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أيوب بن أبي تميمة قال: ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم".

من لزمه الإطعام مخير بين حالتين:

الأولى: أن يطعم عن كل يوم بيومه.

والثانية: أن يصنع كما صنع أنس -رضي الله عنه- فيؤجل الإطعام إلى آخر الشهر، ثم يطعم ويملك المستحقين له، وهو بالخيار في إطعامهم، إما أنه يجمعهم عليه في مائدة فيأكلونه، وإما أنه يعطيهم إياه، لكن لا يجوز له أن يقدم الإطعام؛ لأنه إنما تعلق به الحكم حينما أفطر، والله أعلم.

"ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، يفديان فقط ولا قضاء عليهما".

هذه المسألة فيها خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء.

والصواب النظر في هذا العذر الذي لأجله أفطر من يجب في حقه الصيام: فهو إما أن يرجع لمصلحة نفسه، وإما أن يرجع إلى مصلحة غيره، وإما أن يكون ذلك متعلقاً بالأمرين، مصلحة الغير ومصلحة النفس.

فجمهور أهل العلم على أنه في الحالات الثلاث لا يلزم المفطر إلا القضاء -الصيام- وعللوا ذلك بأنه لم يثبت شيء في الشرع يوجب الجمع بين القضاء والإطعام، ولذا فإن الله -عز وجل- في كتابه لم يذكر سوى القضاء قال سبحانه: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٤) سورة البقرة] لأصحاب الأعذار المؤقتة.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الصوم – باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن ظُلل عليه واشتد الحر ((ليس من البر الصوم في السفر)) برقم (١٨٤٤) (٦٨٧/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام – باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٥) (٧٨٦/٢).

[2] سبق تخريجه.

[3] رواه البخاري في كتاب الصوم – باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر برقم (١٨٤٣) (٦٨٦/٢)، ومسلم في كتاب الصيام – باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٢) (٧٩٠/٢).

ولكن صح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- وعن ابن عمر أيضاً أنهما قالا -في الحامل والمرضع-: "إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وأطعمتا"، فجمعا بين الإفطار وبين الإطعام، وقول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف فإنه يعمل به في الأصح، فمن أهل العلم من حمل كلامهما لكون الحامل والمرضع أفطرتا من أجل الغير فلزمهما الأمرين: القضاء والإطعام لهذا الاعتبار، والمسألة ليست محل اتفاق، والخلاف فيها معروف مشهور.

وقالوا: إما إذا أفطرتا خوفاً على نفسيهما فإنهما يقضيان فقط، وإما إذا اجتمع الأمران غُلبت مصلحة النفس؛ لأنهما أفطرتا ملاحظة لنفسيهما ومصلحتيهما وليس من أجل الغير، فليس عليهما إلا القضاء فقط.

ويدخل في حكم الحامل والمرضع كل من أفطر من أجل غيره، مثل لو أنه أفطر من أجل إنقاذ إنسان في هدم أو غرق أو حريق أو غير ذلك من الأمور التي تقع للناس، فاحتاج إلى الفطر فإنه يلزمه القضاء والإطعام. والله أعلم.

"وقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٨٥) سورة البقرة]، **يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه".**

قوله سبحانه: {شَهْرُ رَمَضَانَ} سمي الشهر شهراً لاشتهاره، وإذا لم يشتهر فلا عبرة بذلك، وهذا الذي اعتمد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقرر بناء عليه أصلاً كبيراً، وهو أن الإنسان إذا رأى الهلال ولم تعتبر رؤيته لسبب أو لآخر، هل يجب عليه أو من وثق به وسمعه أن يصوم سراً؟، شيخ الإسلام يقول: لا يجوز له أن يصوم سراً؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صوموا لرؤيته))[٤] وهو يعني الشهر، والشهر لا يعد شهراً إلا إذا اشتهر، ولذا جاء عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون))[٥]، باعتبار أن هذه الأمور لا يلزم أن يقع المكلفون فيها على ما في معلوم الله -عز وجل- حقيقة، وإنما إذا اشتهر عند الناس وحكموا بإكمال العدة ثلاثين، أو أن الشهر قد دخل حتى لو أخطئوا فيه، فهذا شهر معتبر صحيح، ولا غضاضة عليهم في ذلك، ومثله لو وقفوا يوم ثمانية بدلاً من تسعة في عرفة، فهل يعتبر الوقوف باطلا؟ الصحيح أن حجّهم صحيح؛ لأن الأضحى يوم تضحون، وهذا من لطف الله -عز وجل-، ولذا كان من الأوجُه المتعددة التي فسر بها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((شهرا عيد لا ينقصان))[٦] يعني رمضان وذا الحجة أنه لو كان شهر رمضان حقيقة في علم الله ثلاثين يوماً، والناس أكملوا العدة؛ لأنهم

---

[4] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا)) برقم (١٨١٠) (٦٧٤/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً برقم (١٠٨٠) (٧٦٢/٢)

[5] رواه الترمذي برقم (٦٩٧) (٨٠/٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٣١٦).

[6] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب شهرا عيد لا ينقصان برقم (١٨١٣) (٦٧٥/٢)، ومسلم في كتاب الصيام -باب بيان معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- شهرا عيد لا ينقصان برقم (١٠٨٩) (٧٦٦/٢).

ما رأوا الهلال لغيم أو نحوه، فصاموا تسعاً وعشرين، لهم أجر ثلاثين لا ينقص من أجورهم شيئ، كأنهم صاموا ثلاثين يوماً، وهو أشهر الأوجه.

{رَمَضَانَ} الجاهليون سموا الشهور في الجاهلية بأسماء مختلفة، فرمضان كان يسمى في الجاهلية: ناتق، سمي بذلك لشدة الحر فيه.

وسمي رمضان بذلك، قيل: من رمض الصائم إذا احترق جوفه من شدة العطش، أو لشدة الحر الواقع فيه، يقال: رمضت الفصال إذا اشتد الحر، وقيل: لأنه يرمض الذنوب، والحقيقة أن هذه التعليلات ليس عليها دليل، والتفسير بأن رمضان سمي بذلك لشدة الحر يرد عليه اعتراض بأن رمضان يقع في بعض أحيانه في الشتاء. والجواب أن يقال: إن التسمية باعتبار ما وقع فيه الشهر وقت حلول الفصول، فشهر رمضان صادف وقت حر فسمي بذلك، ولذلك شهر ربيع معلوم أنه يأتي في وسط الشتاء، وفي أوله، وفي وسط الصيف، ومع هذا لم تزل التسمية ملاصقة له، فكان ذلك باعتبار ما وقع فيه آنذاك وقت التسمية، والله أعلم.

"**وكما اختصه بذلك فقد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن واثلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضيْن من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان))**"[7].

هذا الحديث فيه ضعف، ولكنه ضعف قد ينجبر، ولهذا حسنه الشيخ الألباني -رحمه الله- وضعفه آخرون، والذين حققوا المسند في الطبعة الجديدة حكموا بضعف هذا الحديث.

{أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} يُحتمل في المراد بنزوله أمران:

الأول: أن إنزال القرآن كان جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً حسب الوقائع والأحداث.

الثاني: أن يكون المراد ابتدأ نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن ابتداء الوحي كان بالرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كما في حديث عائشة، وكان ذلك ستة أشهر قبل نزول الملك، وكان يتحنث في غار حراء ويتعبد، وقد جاء في التواريخ والسير أن تحنثه كان يقع في شهر رمضان، فنزل عليه الملك أول ما نزل بإقرأ في شهر رمضان، وهذا يمكن أن يفسر به أول الآية: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} يعني ابتدأ إنزاله على النبي -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان.

ويمكن الجمع والقول بأنه لا منافاة بين القولين: وذلك بأن يكون القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان كما قال سبحانه: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} [(٣) سورة الدخان]، ثم بدأ نزول أوله في ليلة القدر من رمضان، ثم نزل منجماً حسب الوقائع والأحداث، وهذا أحسن الأقوال في الجمع بين الآراء وتوجيهها وتفسير هذه الآية، والعلم عند الله -عز وجل-، خلافاً لمن قال من السلف كالشعبي -رحمه الله-: إنه كان ينزل عليه في كل ليلة قدرٍ من رمضان، ما سينزل عليه في السنة، ثم يفرق على

---

[7] رواه أحمد في مسنده برقم (١٧٠٢٥) (٤/١٠٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بأنه حديث ضعيف تفرد به عمران القطان وهو ممن لا يحتمل تفرده.

النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا فيه نظر، لأن جبريل أصلاً كان يأخذ القرآن من الله مباشرة، لا يأخذه من اللوح المحفوظ، ولا من أيدي الملائكة، ولا من بيت العزة في سماء الدنيا كما قال الزهري: أحدث آية بالعرش آية الدين، فلو كان في سماء الدنيا لما قال: أحدث آية، فالمستقر عند السلف هو أحاديث تكلُّم الله بالوحي، وإذا تكلم الله بالوحي، فهذه كلها تدل على أن جبريل يأخذ من الله مباشرة، وأما كونه في سماء الدنيا، أو في اللوح المحفوظ، أو في صحف مكرمة، فهذا كله لمزيد عناية الله -عز وجل- بهذا القرآن، وتشريفه له.

"وقوله -جل وعلا-: {هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [(١٨٥) سورة البقرة]**، هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه، وبينات أي: دلائل وحججاً بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام.**

وقوله تعالى: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]**، هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر أي: كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال: {وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}** [(١٨٥) سورة البقرة]**، معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر أي: في حالة السفر فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام، ولهذا قال: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [(١٨٥) سورة البقرة]**، أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم".**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ} ليس معناه أنه إن أدرك أول الشهر، وعرض له عارض من مرض أو سفر فلا يحل له الفطر كما ذكر عن بعض السلف، فليس هذا هو المراد، وعامة أهل العلم سلفاً وخلفاً على خلافه، والنبي –صلى الله عليه وسلم- ثبت أنه سافر في رمضان وأفطر، كما حصل في غزوة الفتح وكانت في رمضان ومع هذا أفطر -عليه الصلاة والسلام-، والحاصل أن الإنسان إذا عرض له ما يبيح له الفطر أفطر بشرط القضاء، وهذا -كما أسلفنا- عليه عامة أهل العلم.

"وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر[٨]. أخرجه صاحبا الصحيح والأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان، قال: فمنا الصائم، ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم".

---

[8] رواه البخاري في كتاب الصوم –باب إذا صام أيام من رمضان ثم سافر برقم (١٨٤٢) (٢/٦٨٦) ورواه مسلم في كتاب الصيام –باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٣) (٢/٧٨٤)

أمْر النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة بالفطر في غزوة الفتح كان من أجل تقويهم به على القتال، فإنهم لما قربوا من مكة أخبرهم أنهم سيلقون عدوهم في الغد، وأن الفطر أقوى لهم، ولمّا بلغه أن رجالاً لم يفطروا، قال: ((أولئك العصاة، أولئك العصاة))[9]، وهذه حالة تعتبر معينة، يقاس عليها مثلها.

وأما السفر، فإن المسافر لا يخلو من إحدى الحالات: إما أن لا يؤثر فيه الصوم ولا يشق عليه، فمثل هذا الأولى في حقه الصوم، أو يشق عليه الصيام مشقة لكنها يسيرة فالأفضل أيضاً في حقه الصيام، فإن كانت المشقة كبيرة فلا بأس بالفطر، وإذا أفضي الصيام به إلى الضرر ففي هذه الحالة يجب عليه الفطر لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس من البر الصيام في السفر))[10]، والسفر -بإطلاق- الإنسان مخير فيه بين الفطر والصيام إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر: ((أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه))[11]، فيندب له الترخص من أجل التيسير والتخفيف والرفق به.

"فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: "خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان في حر شديد، حتى إنْ كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن رواحة"، والإفطار في السفر أفضل أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عن الصوم في السفر فقال: ((من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه))[12]".

نص أهل العلم على جواز الفطر أو فرضية الصيام في رمضان لاعتبارات معينة منها: هذا الحديث الوارد في حق الصائم في السفر: ((من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه))، فترك الأمر له بالخيار بين الصيام والإفطار، وهناك اعتبار آخر للمريض فأحيانا يمتنع عن الأكل والشرب وهو غير صائم، فالأفضل له أن ينوي الصيام، ولا ينبغي إكراهه على الأكل وإرغامه على الشرب ونفسه تعافه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإنما يطعمهم الله ويسقيهم))[13]، إذ قد يكون الصوم أروح لقلبه، ويجد انشراحاً وإقبالاً بسببه، ويعينه على التخلص من مرضه، فلا يكره عليه، ويترك الأمر له فهو أعرف بحاله.

وأحياناً المسافر لا يجد شيئاً يأكله فالأفضل أن ينوي الإمساك عن المفطرات، وهو مأجور على نيته إن أصلح نيته وأعملها، فمثل هذه الاعتبارات لا بد أن تلاحظ في هذا الجانب، والله أعلم.

---

[9] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٤) (٧٨٥)

[10] سبق تخريجه.

[11] سبق تخريجه.

[12] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢١) (٧٨٩/٢).

[13] رواه الترمذي في سننه برقم (٢٠٤٠) (٣٨٤/٤)، وابن ماجه برقم (٣٤٤٤) (١١٤٠/٢)، وحسنه الألباني.

"وقال في حديث آخر: عليكم برخصة الله التي رخص لكم، وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة ابن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إني كثير الصيام أفأصوم في السفر. فقال: ((إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر)).[14] وهو في الصحيحين".

الجمع بين النصوص أولى من إهمال أحدها، وأحاديث الصيام في السفر جاءت بعضها مثبتة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم في السفر، وبعضها نفت الأمر بالصيام في السفر كحديث: ((ليس من البر الصيام في السفر)) فلا يحكم بأفضلية أحد الأمرين على الآخر، بل المطلوب الجمع بين هذه الأحاديث، وعند الجمع يعرف أن الحكم يتفاوت.

"وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً قد ظُلل عليه فقال: ((ما هذا))؟ قالوا: صائم. فقال: ((ليس من البر الصيام في السفر)). أخرجاه.

فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام، ولا يجب التتابع في القضاء، بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٥) سورة البقرة]".

قوله: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} لم يقيد التتابع في القضاء، فلا يجب، وتبقى الآية كما أطلقها الله -عز وجل-، لكن هل يجب القضاء قبل رمضان القادم؟ لم يرد فيه شيء لا في الكتاب ولا في السنة، وغاية ما ورد في ذلك حديث عائشة: "كان يكون عليّ الصومُ من رمضان فلا أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان؛ لمكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-مني"، فكانت تتحرى أن لا يدخل عليها رمضان الآخر إلا وقد صامت ما عليها من القضاء، ففهم منه بعض أهل العلم أنه لا يأتي عليه رمضان الآخر إلا وقد قضى ما عليه، وإن فاته رمضان ذلك العام، ودخل عليه رمضان الآخر، قالوا: إن كان ذلك لغير عذر، فإنه يجب عليه الصوم والإطعام، كفارة عن التأخير، وهذا قال به جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وليست المسألة محل اتفاق، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[14] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب الصوم في السفر والإفطار برقم (١٨٤١) (٢/٦٨٦)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢١) (٢/٧٨٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا))[1]، أخرجاه في الصحيحين.

وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: ((بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا))[2].

ومعنى قوله: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ}، أي: إنما أرْخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ} أي: إنما أرخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوه لإرادة اليسر، وإنما أمركم بالقضاء تخفيفاً لكم من أجل إكمال عدة الصوم، وجبراناً لذلك النقص الحاصل بسبب هذا العذر.

"وقوله تعالى: {وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [(٢٠٠) سورة البقرة]، وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [(١٠) سورة الجمعة]، وقال: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [(٣٩-٤٠) سورة ق]، ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا بالتكبير".

من أهل العلم من يرى سنية الجهر بالذكر دبر الصلاة المفروضة استدلالاً بأثر ابن عباس، حتى إن بعضهم ألف في هذه المسألة رسالة مستقلة، ومن أهل العلم من يرى خلافه مستدلاً على ذلك بقوله -سبحانه-: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ} [(٢٠٥) سورة الأعراف]، وقوله -عز وجل-: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [(٥٥) سورة الأعراف]، وبأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بخفض الصوت بالذكر لما كان الصحابة يرفعون أصواتهم في أسفارهم بالتكبير كلما علوا

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الأدب -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((يسروا ولا تعسروا)) برقم (٥٧٧٤) (٥/٢٢٦٩)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير -باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير برقم (١٧٣٤) (٣/١٣٥٩)

[2] - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير -باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه برقم (٢٨٧٣) (٣/١١٠٤)، ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم (١٧٣٣) (٣/١٣٥٩).

مرتفعاً من الأرض، أو بالتسبيح إذا هبطوا وادياً، وقال: ((إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً...))[3]، لكن الملاحظ أن الآية الأولى جاءت في الذكر العام، والثانية وردت في الدعاء، وأثر ابن عباس نص على أدبار الصلوات، وهذا مما يمكن الجمع ويدفع توهم التعارض وذلك بأن يقال: إن الأصل في الذكر خفض الصوت، ودون الجهر من القول، إلا ما وردت النصوص في استحباب رفع الصوت بالذكر فيه كتكبيرات العيد، وأيام التشريق، والتلبية، والذكر بعد الصلاة، وهذا خلافاً لمن قال: إن الأصل في الذكر ترك الجهر، وأطلق ذلك وعممه على جميع النصوص، وواضح خطأ القول به؛ لأنه إهدار لمثل هذه الأحاديث.

وعند الشافعي جواز رفع الصوت بالذكر إذا كان في مقام التعليم، ويحمل عليه أحاديث رفع النبي -صلى الله عليه وسلم- صوته بالذكر، إلا أنه لا دليل يؤكد ذلك، وعلى فرضية صحته فإن الناس في زماننا بحاجة إلى التعليم أكثر من زمان الصحابة، فيصعب اطراده لعدم انضباط المسألة، إذ قد يؤدي إلى التوسعة فيه، والخروج عن المقبول والمعقول، وسد الذرائع أمر مقنن في الدين، والخلاصة أن غاية ما قيل في أمر رفع الصوت بالذكر أدبار الصلوات أنها من السنة، والله تعالى أعلم.

"ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [(١٨٥) سورة البقرة]".

من رأوا مشروعية التكبير مستدلين بهذه الآية، اختلفوا في بداية التكبير، فذهب بعضهم إلى اعتبار رؤية هلال شوال، وهو قول كثير من أهل العلم، ويرون أن برؤية هلال شوال يكونون قد أكملوا عدة الشهر، ويشرع لهم عندئذ التكبير.

وذهب آخرون إلى أن بداية التكبير بعد صلاة فجر يوم العيد، وتستمر حتى يخرج الإمام إلى الصلاة، وقيل غير هذا.

والتكبير في عيد الفطر تكبير مطلق لا يتقيد بأدبار الصلوات، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [(١٨٦) سورة البقرة]".

قوله -سبحانه-: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} هذا إخبار من الله –عز وجل- عن قرب إجابته إذا سأله عباده، لكن هذا الدعاء هل هو دعوة الداعي إذا سأل بلسان المقال فقال: يا ربي اغفر لي، أو أن المراد بذلك السؤالُ بالفعل والحال؛ لأن المتقرب إنما يتقرب إلى الله -عز وجل- بصلاته وصيامه واعتكافه وحجه من أجل تحصيل مرضات الله -عز وجل-، فيعتبر سائلاً بفعله وحاله؟، وحقيقة من تأمل الآية وجد أنها تحتمل المعنيين، ولذلك قال بعد ذلك جواباً لهذا: {فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي}، والمعنى أنهم إذا استجابوا له آمنوا وعبدوه واستقاموا على طاعته، فيجازيهم على إيمانهم وعبادتهم وتقواهم، فيدخل في المراد دعاء المسألة ودعاء العبادة.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) (ج ٤ / ص ٢٠٧٦).

قوله: {فَإِنِّي قَرِيبٌ} القرب المقصود به القرب العام، بمعنى أن الله قريب من خلقه، والقرب الخاص للسائلين والداعين والعابدين، جاء في الحديث ((ومن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً))[4]، فالمقصود بهذا القرب قرب خاص لمن تقرب إليه، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن المحتضر: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [(١٦) سورة ق]، فسر بأن القرب يرجع إلى الله -عز وجل-، وفسر بأنه قرب يرجع إلى الملائكة، والخلاصة أن القرب تارة يراد به معنى عام، وتارة يراد به معنى خاص، أي: قريب ممن سأله، قريب من عابديه.

"وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزاة فجعلنا لا نصعد شَرَفاً ولا نعلوا شَرَفاً.."

الشَّرَف -محرّكة- العلو، والمكان العالي والمجد، أو علو الحسب، ومن البعير سنامه إلى آخره.

"فجعلنا لا نصعد شَرَفاً، ولا نعلو شَرَفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، فدنا منا فقال: ((يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله))[5]. أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة بنحوه.

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني))[6].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من مسلم يدعو الله -عز وجل- بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها)) قالوا: إذاً نكثر، قال: ((الله أكثر))[7].

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد عند جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله -عز وجل- بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم))[8]. ورواه الترمذي.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي))[9]. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك وهذا لفظ البخاري -رحمه الله- وأثابه الله الجنة.

---

[4] - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى برقم (٢٦٨٧) (٤/٢٠٦٨).

[5] - رواه البخاري في كتاب القدر -باب لا حول ولا قوة إلا بالله برقم (٦٢٣٦) (٦/٢٤٣٧).

[6] - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى برقم (٢٦٧٥) (٤/٢٠٦٧).

[7] - رواه الترمذي برقم (٣٥٧٣) (٥/٥٦٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٠٥٧٤).

[8] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٨٣٧) (٥/٣٢٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: هو صحيح لغيره وهذا إسناد حسن من أجل ابن ثوبان.

[9] - رواه البخاري في كتاب الدعوات -باب يستجاب للعبد ما لم يعجل برقم (٥٩٨١) (٥/٢٣٣٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي برقم (٢٧٣٥) (٤/٢٠٩٥).

وروى مسلم عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل))، قيل يا رسول الله: وما الاستعجال. قال: ((يقول: قد دعوت، وقد دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء))[10].

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء، يقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين))[11]".

قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((والصائم حتى يفطر)) هكذا وقع في المسند الصحيح، وهي تفيد أن للصائم دعوة مستجابة صادف دعاؤه أي لحظة من يومه، ولا يُعلم حديث صحيح يقضي بغير هذا، إلا أنه قد جاء في بعض الروايات ما يفيد تخصيص الإجابة للصائم عند فطره فحسب كما عند الترمذي: ((والصائم حين يفطر))[12] لكن حكم العلماء بضعفها بما فيهم الألباني في الجامع الصغير، والله أعلم.

"وقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة]".

قوله -سبحانه-: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} تعتبر هذه الآية ناسخة، إما لما سبق من قوله: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٨٣) سورة البقرة]، لاعتبار أن التشبيه في الصفة، أو تكون ناسخة لما ثبت في السنة.

وقوله -سبحانه-: {إِلَى نِسَآئِكُمْ} عديت بـــ"إلى" لتضمنها معنى الفعل، وهي أحسن من تضمنها معنى الحرف؛ لأننا إذا قلنا: إنها تتضمن معنى الحرف كانت بمعنى مع، وإذا تضمنت معنى الفعل صارت بمعنى الإفضاء والمقصود الإفضاء إلى النساء بالقسط؛ وقد ورد التعدي بإلى في غير موضع كما في قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [(٨) سورة الممتحنة] فالمتبادر أن يقول: تقسطوا معهم، لكنه قال: وتقسطوا إليهم، فهنا يقال بالتضيمن، فهو مضمن معنى الإحسان والإفضاء، والبر في الآية بمعنى الإحسان، والقسط بمعنى العدل، وأراد من تضمينه معنى الإفضاء تداخل المصالح في العلاقات التجارية التي تشتركون فيها، في حالة إذا لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، ولم يظاهروا على إخراجكم.

---

[10] - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار –باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي بـــرقم (٢٧٣٥) (٤/٢٠٩٥).

[11] - رواه الترمذي برقم (٢٥٢٦) (٤/٦٧٢)، ورواه ابن ماجه برقم (١٧٥٢) (١/٥٥٧)، وأحمد في مسنده برقم (٨٠٣٠) (٢/٣٠٤)، ولم يوجد بهــذا اللفظ في سنن النسائي.

[12] - رواه الترمذي برقم (٢٥٢٦) (٤/٦٧٢)، وضعفها الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٦٣٣٩).

"هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفْع لما كان عليه الأمر في ابتدأ الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة".

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو جمع بين الآثار الواردة؛ لأن منها ما قيدتْ ذلك بصلاة العشاء ولم تذكر النوم، فأباحت له الأكل والشرب حتى صلاة العشاء في الليلة القابلة، ومنها: ما جاء التقييد فيها بالنوم، فإذا نام حرم عليه الطعام والشراب إلى الفطر في اليوم الثاني، فهو جمع بينهما بقوله: يأكل ويشرب ويحل له الجماع إلى العشاء ما لم ينازعه النوم قبل ذلك، فإن نازعه امتنع بعدها عن الأكل والشرب حتى الليلة القابلة.

"والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعمرو بن دينار، والحسن، وقتادة، والزهري، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان".

كثير من السلف على أن الأصل في معنى الرفث أنه أعم من الجماع، وهو كل ما يطلبه الرجل من امرأته من ألوان الاستمتاع، يقال له: رفث، وهو الأصل في كلام العرب، لكن ما المراد به في بعض المواضع، مثل قوله تعالى هنا: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ}؟** [(١٨٧) سورة البقرة] ظاهر كلام الحافظ ابن كثير، وكثير من السلف أن المقصود الوقاع فقط، فلم يدل دليل على تحريم ما دونه في نهار رمضان على مفهوم المخالفة، وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ}** [(١٩٧) سورة البقرة]، المقصود بالرفث هو الجماع ودواعيه ومقدماته، حتى الكلام بخصوصه في حضرة النساء يدخل فيه.

"وقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} [(١٨٧) سورة البقرة]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن.**

وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان؛ لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا".

قوله سبحانه: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** تفسير من فسره بالسكن يعتبر من تفسيره باللازم؛ لأن هذا السكن إنما يحصل بهذه المعاشرة، والمضاجعة.

وقول من قال: هن لحاف لكم وأنت لحاف لهن، هذا أشبه ما يكون بالتفسير المطابق؛ والمعنى: أنّ كل واحد منكم ستر لصاحبه -فيما يكون بينكم من الجماع- عن أبصار سائر الناس.

أو كما يقول بعضهم: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** فقال: للامتزاج، الذي يحصل بامتزاج كل منهما بالآخر عند الوقاع، كما يحصل الامتزاج بين الثوب ولابسه، ومعلوم أن المرأة يقال لها: فراش، ويقال لها أيضاً: إزار، يكنى عن المرأة بالإزار وبالفراش.

وبعضهم يقول: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** بالنظر إلى تجردهما في لحاف واحد، فكل واحد منهما يكون بالنسبة للآخر بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، فهو كناية على هذا الاعتبار عن اجتماعهما متجرديْن في فراش واحد، أو في لحاف واحد، هذا قاله بعض أهل العلم، والثياب يكنى بها عن الجسد، فهو

أحد المعاني المذكورة في قوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [(٤) سورة المدثر]، فقد قيل: القلب والنفس، وقيل: الجسد، وقيل: الثياب الظاهرة تطهر من النجاسات، وهذه المعاني كلها تدخل فيه،والله أعلم.

"وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- قال: كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإنّ قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام. قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت: خيبة لك أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} إلى قوله: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}، ففرحوا بها فرحاً شديداً".

سبب النزول في الآية صريح، ابن كثير نظر إلى هذه الرواية، ونظر إلى الروايات الأخرى التي تذكر ذلك محدوداً بحد، وهو وقت العشاء، فجمع بينها بقوله: يأكل ويشرب إلى العشاء فقط ما لم يحصل له نوم، فإن حصل النوم امتنع عن الأكل والشرب، وهذا وجه حسن من الجمع بين الروايات.

"ولفظ البخاري هاهنا من طريق أبي إسحاق سمعت البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة]".

قوله -سبحانه-: {تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ} الخيانة المقصود بها الخروج عن الطاعة، والوقوع في المعصية، والمعنى أنكم تفعلون ما نهاكم عنه.

وقوله -سبحانه-: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} لها نظائر في القرآن الكريم، ويحتمل أن المراد بها قبول التوبة؛ لأن بعضهم كان يختان نفسه فالله -عز وجل- وفقهم للتوبة فندموا عليها، ولذا جاء عمر -رضي الله عنه- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبره بما وقع له وهو نادم، فجعل ندمهم توبة لهم، وعليه فيكون معنى قوله: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي: قبل توبتكم.

ويحتمل أن يكون {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} بمعنى خفف عنكم، ورخص لكم هذا التكليف الشاق على نفوسكم، كما جاء في قوله تعالى: {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} [(٢٠) سورة المزمل] ففي أحد الوجوه في تفسيرها خفف عنكم في قيام الليل، وكذا الكفارة للقتل الخطأ، يقول سبحانه: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ} [(٩٢) سورة النساء] يحتمل أن يكون توبة صادرة من المتعدي، أو توبة من الله على العبد، فيكون ذلك تخفيفاً من الله على عباده، والمعنى {تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ} أي: تخفيفاً عليهم حيث قبل منهم الصيام وشرعه لهم؛ والقاتل خطأً ليس عليه ذنب حتى يقال يتوب، فالتوبة صادرة من الرب؛ لأن العبد ما صدر منه معصية.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-، فشكوا ذلك

إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله تعالى: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ...} الآية [(١٨٧) سورة البقرة]، وكذا روى العوفي عن ابن عباس".

قوله سبحانه: {وَعَفَا عَنكُمْ} قد يراد به العفو عن الذنب أي: عفا عن إساءتكم، ويحتمل أن يكون العفو هنا بمعنى خفف عنكم، ووسع لكم، وتاب عليكم فلا يكون ذلك مختصاً بتجاوز من وقع منه الإساءة فحسب، بل تشمل مجموع الأمة، فنسخ هذا الحكم الذي شق عليكم تخفيفاً عنكم وتوسيعاً لكم، والآية تحتمل الأمرين، ولا شك أن إسقاط الحكم عنهم هو من سعة عفوه -سبحانه وتعالى-، وهؤلاء الذين وقعوا في الإساءة داخلون في هذا دخولاً أولياً؛ لأنهم سبب نزول الآية، والله أعلم بالصواب.

{فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ} أصل المباشرة من ملاقاة البشرة للبشرة، ويكنى بذلك عن الوقاع، ويدخل فيه أيضاً ما دون الجماع كمقدماته ودواعيه، وقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يباشر ويقبل وهو صائم، ويقصدون بها ما دون الوقاع من الأمور المباحة للزوج، لكن لعل المراد من المباشرة في الآية الجماع وما دونه، فهو شامل للأمرين بناء على الأصل وهو حل مثل هذه المحظورات للصائم ما دام قد دخل عليه وقت الإباحة استشهاداً بقوله سبحانه: {فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ} أي: بعد غروب الشمس، ودخول وقت الفطر للصائم حتى طلوع الفجر الصادق.

"وقوله تعالى: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس -رضي الله تعالى عنهم-، وشريح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتيبة، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد".

إذا فسرنا المراد من قوله: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} بأنه الولد الذي هو نتيجة للجماع، فيحتمل أن يكون ذلك من قبيل التفسير باللازم؛ لأنه يبيح لهم الوقاع ليلة الصيام الذي هو سبب الولد، وهذا قول بعض السلف، ومن السلف من فهم غير هذا فلا يُخطَّأ، لكن من قال: إنه بمعنى الولد، أو طلب الولد، قد لا يسلّم له بأن ذلك من قبيل التفسير باللازم؛ لأن دلالة الآية تحتمل أكثر من وجه، والله أعلم بالصواب.

"وقال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، وقال سعيد عن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم، يقول: ما أحل الله لكم".

اختلف المفسرون في المراد بقوله سبحانه: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} على أقوال:

أنها بمعنى الرخصة، أي: ابتغوا الرخصة التي وسع بها عليكم كما جاء في الحديث: ((إن الله يحب أن تؤتى رخصه))[13]، وقيل: ما أحل لكم، وهو معنى مقارب جداً للرخصة، وهذا يسمى خلاف التنوع، وليس ذلك من خلاف التضاد في شيء، وبعضهم يقول: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} يعني القرآن بما أبيح لكم فيه، فالقرآن تتلقون منه التشريع، فهو يخاطبكم ويقول لكم: إن ذلك قد أبيح بعد أن كان محرماً عليكم، فابتغوا ما كتب الله لكم، واطلبوه لتتعرفوا على الحلال والحرام؛ لأنه مصدر التشريع.

وقيل: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} يعني الإماء والزوجات.

---

[13] - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٨٦٦) (٢/١٠٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٧٦٦).

وقيل: المراد به ليلة القدر، ويلاحظ هذا التباين الكبير بين هذه الأقوال، ولكن توجيه ذلك ينحل به الإشكال، فالقائلون بأن المقصود من لفظ الآية ليلة القدر، وجهوا قولهم بأن الله أحل لهم الجماع في ليالي الصيام، ثم نبههم ولفت أنظارهم إلى ما لا ينبغي أن يشغلهم عنه هذا الوقاع الذي وسع الله به عليهم، وأحله لهم عن التماس ليلة القدر، التي هي في أحد ليالي هذا الشهر، ولابن القيم -رحمه الله- جمع جيد بين هذه الأقوال مفاده: أن الله -عز وجل- لما خفف عنهم بإباحة الجماع، وكان المجامع دافعه إلى ذلك الشهوة وتلبية الغريزة، أرشدهم إلى طلب مرضاته بهذا الوطر {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}، يعني يحتسبون في ذلك الأجر عند الله، ويطلبون به العفاف والولد؛ ليكون نتيجة هذا الجماع إنسان يقيم العبودية لله -عز وجل-، فهذا الولد يخرج ليعبد ربه -تبارك وتعالى-، ويطلبون الرخصة لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، ولا يشغلهم هذا الوقاع عن التماس ليلة القدر وطلبها، وهذا من أجمل وأجود ما يكون من الجمع بين الأقوال التي يتوهم الإنسان لأول وهلة أنها في غاية التنافر والتباعد، وأما ابن جرير -رحمه الله- فإنه يحمله على معنى قريب، يقول: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} في اللوح المحفوظ من هذه الرخص من ولدٍ وتوسعة وجماع، فأدخل فيه هذه المعاني لكن بهذه الطريقة، والتوجيه الذي ذكره ابن القيم أحسن من هذا وأقرب، والعلم عند الله -عز وجل-.

فائدة: التحقيق في اسم قيس بن صرمة، وواقعة سبب نزول الآية: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} إلى قوله: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}.

فيه قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الإصابة: صرمة بن مالك الأنصاري ذكره ابن شاهين وابن قانع في الصحابة، وأخرج من طريق هشيم بن حصين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى بسنده ثم ساق سبب النزول الذي ذكر سابقاً، وفيه صرمة بن مالك، ويقال: إن القصة وقعت لصرمة بن أنس أخرج ذلك هشام بن عمار في فوائده، بسنده عن القاسم بن محمد ثم ذكر بالنزول وقال فيه: صرمة بن أنس، قال: وفيه إسحاق بن أبي فروة وهو متروك.

وأخرج الطبري من طريق حماد بن سلمة بسنده إلى يحيى بن حبان أن صرمة بن أنس، ثم ذكر سبب النزول.

وأخرج الطبري من طريق السدي وذكر سبب النزول وفيه أبو قيس بن صرمة، ووقع في صحيح البخاري أن الذي وقع له ذلك قيس بن صرمة، أخرجه من طريق البراء بن عازب، ووقع عند أبي داود من هذا الوجه صرمة بن قيس، وفي روية النسائي أبو قيس بن عمرو.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: فإن حمل هذا الاختلاف على تعدد أسماء وقع لهم ذلك، وإلا فيمكن الجمع برد جميع الروايات إلى واحد، فإنه قيل فيه: صرمة بن قيس، وصرمة بن مالك، وصرمة بن أنس، وقيل فيه: قيس بن صرمة، وأبو قيس بن صرمة، وأبو قيس بن عمرو، فيمكن أن يقال: إن كان اسمه صرمة بن قيس فمن قال فيه: قيس بن صرمة قلبه، وإن كان اسمه صرمة فكنيته أبو قيس أو العكس، وأما أبوه فاسمه قيس أو صرمة على ما تقرر من القلب، فكنيته أي -كنية أبيه-، فكنيته أبو أنس، ومن قال فيه: أنس حذف أداة الكنية، ومن قال فيه: ابن مالك نسبه إلى جده، والعلم عند الله تعالى.

وقال الحافظ ابن عبد البر في "الاستيعاب": صرمة بن أنس، صرمة بن أبي أنس، اسم أبي أنس صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غن بن عدي بن النجار الأنصاري، يكنى أبا قيس، غلبت عليه كنيته، وربما قال فيه بعضهم: صرمة بن مالك، فنسبه إلى جده، وهو الذي نزلت بسببه، وفي عمر، ثم ذكر الآيات، هذا والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله وأصحابه أجمعين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٨٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- قوله تعالى: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة].

"أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: {مِنَ الْفَجْرِ}، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري عن سهل بن سعد قال: أنزلت {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ} ولم ينزل من الفجر، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد {مِنَ الْفَجْرِ}، فعلموا أنما يعني الليل والنهار[١]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ} أي: يتميز لكم بياض الصبح من سواد الليل، وذلك بظهور الفجر الصادق الذي ينتشر في السماء، وينبلج ولا يزال يزداد حتى تطلع الشمس.

ويستنبط من رواية البخاري عن سهل بن سعد فوائد كثيرة، أهمها فائدتان:

الأولى: أن ذلك وقع لجماعة حيث ربطوا خيطاً أبيض وخيطاً أسود.

والثانية: أن قوله: {مِنَ الْفَجْرِ} لم تنزل مع الآية ابتداءً، وإنما نزلت متأخرة، وهذان الأمران أبلغ جواب في الرد على من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصد بقوله: ((إن وسادك لعريض القفا))[٢]، والوساد هو المخدة، وهذا الكلام كناية عن الوصف بالغباوة إذا فهم هذا الفهم، وفعل هذا الفعل، ومثله في الحديث: ((إنك لعريض القفا))[٣] وهو مؤخرة الرأس، وعرضه عنوان الغباوة في المرء، قصد عدي بن حاتم -رضي الله عنه-، لما جعل تحت وسادته خيطين أسود وأبيض، فكان يأكل ويشرب وينظر إليهما، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك؛ لأن هذا أولاً: لم يقع لعدي -رضي الله عنه-، وإنما وقع لجماعة كما ورد في هذه الرواية من الحديث.

---

[١] رواه البخاري في كتاب الصوم –باب قول الله تعالى: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] برقم (١٨١٨) (٦٧٧/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام –باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن لــه الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك برقم (١٠٩١) (٧٦٧/٢).

[٢] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة، برقم (٤٢٣٩) (١٦٤٠/٤).

[٣] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٤٠) (١٦٤٠/٤).

ثانياً: أن قوله: {مِنَ الْفَجْرِ} لم تنزل إلا متأخرة فلم يدركوا أن المراد من الخيط الأبيض والخيط الأسود هو الفجر الصادق والفجر الكاذب، فحملوا الخطاب على ظاهره، فلما تبين لهم من لفظة {مِنَ الْفَجْرِ} أحجموا عن صنيعهم هذا.

إضافة إلى أن الصحابة -رضي الله عنهم- من أكمل الناس عقلاً، وعدي بن حاتم كان سيداً عظيماً من سادات قومه، وأخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم- تأبى أن يقول ذلك لرجل من أدنى أصحابه فضلاً عن أن يقوله لرجل من سادات العرب وكبرائهم، وإذا كان الرجل لا يقول ذلك لصاحبه تخلقاً وتأدباً فما بالك بالنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي هو أكمل الناس خلقاً عليه -الصلاة والسلام-، فهذا بعض ما يجاب به عن ذلك الكلام الذي يقرأ كثيراً في شروح الحديث، وفي الكلام أحياناً على مسألة الصيام.

"وروى البخاري عن الشعبي عن عدي قال: أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعلت تحت وسادتي، قال: ((إن وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك))[4]".

هذا جواب أصرح من الرواية الأخرى في الجواب على من زعم أن المقصود في الحديث عدي بن حاتم؛ لأنه قال: ((إن وسادك لعريض إن كان))، باعتبار أن الوسادة تضمن بياض الصبح وسواد الليل.

ويؤخذ من الآية أن الصائم يعذر ولا يؤمر بالقضاء إذا أكل وشرب جاهلاً وقد طلع الفجر، وهذا واضح من دلالة الحديث، وهذا له صور كثيرة جداً في قضايا مختلفة، مثل حديث معاوية بن أبي الحكم السلمي لما تكلم في الصلاة، فلم يأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقضاء، وحديث المسيء صلاته ما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا بقضاء الصلاة التي في الوقت، حيث علمه أن صلاته هذه لا تصح ولا تجزئ، وقصة حمنة عندما كانت تستحاض فتترك الصلاة والصيام سبع سنين ما أمرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقضاء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة جداً، وأدلة يؤخذ منها هذا الحكم.

"وجاء في بعض الألفاظ ((إنك لعريض القفا))، ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف، بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم.

ويفسره رواية البخاري أيضاً عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ قال: ((إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين))، ثم قال: ((لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار))[5].

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحث على السحور، ففي

---

[4] سبق تخريجه برقم (٢).

[5] سبق تخريجه.

الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تسحروا فإن في السحور بركة))[6].

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر))[7].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((السحور أكله بركة فلا تدعوه، ولو أن أحدكم تجرع جرعة ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين))[8].

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبها بالآكلين".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- استخرج من إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر الدليل على استحباب السحور، فمن أين مستخرج الاستحباب؟

يطرق الأصوليون مسألة موجب الأمر بعد الحظر إلى ما يرجع الحكم فيه؟ فيقولون: يرجع الحكم إلى ما كان يفيده قبل الحظر، فالأكل والشرب كان مباحاً ابتداء ليلة الصيام بعد العشاء أو بعد النوم، لينزل بعده الحكم بالتحريم في الحالين، ثم جاء الأمر في الآية: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، والأمر يأتي للإباحة، ويأتي للاستحباب، ويأتي للوجوب، والأصل أنه للوجوب إلا لصارف، وعندنا قرينة صرفت الأمر من الوجوب في الآية، إلى ما كان عليه قبل ذلك من الإباحة، فصار الأكل والشرب في ليلة الصيام وبعد النوم مباحاً، وفي المقابل وجدت نصوص أخرى تدل على طلب الشارع ومحبته للأكل والشرب في وقت السحر، فصار مقوياً للأمر من مجرد الإباحة إلى الاستحباب، وعليه فقوله -سبحانه: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ}** يؤخذ منه استحباب الأكل والشرب في وقت السحور، إذ إن في وقت السحر عندنا قدراً زائداً من الأدلة يمكن أن نفهم على ضوئها هذا الأمر بالأكل والشرب فيها، كحديث: ((إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين))، وحديث: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور))، ومثله: ((تسحروا فإن في السحور بركة)) إلى غير ذلك من الأدلة..، فمن مجموع هذه الأمور أخذ استحباب أكلة السحور من قوله -سبحانه-: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، والله أعلم.

"ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- عن زيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- قال: تسحرنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد كم كان بين الأذان والسحور. قال: قدر خمسين آية[9]".

---

[6] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة –باب وقت الفجر برقم (١٨٢٣) (٦٧٨/٢)، ومسلم في كتاب الصيام –باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، برقم (١٠٩٥) (٧٧٠/٢).

[7] رواه مسلم في كتاب الصيام –باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٦) (٧٧٠/٢).

[8] رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١١٠١) (١٢/٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي رفاعة.

[9] رواه البخاري في كتاب الصوم –باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر برقم (١٨٢١) (٦٧٨/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام –باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٧) (٧٧١/٢)

المستحب في السحور تأخيره إلى وقت طلوع الفجر كما جاء عن أبي ذر –رضي الله عنه- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور))[10]، وهنا تحديد للمقدار بين الأذان والسحور قال: قدر خمسين آية، فإذا كان المؤذن يؤذن الأذان الثاني عند طلوع الفجر، والأول قبل ذلك، فالوقت بينهما يسير وقد جاء في المقنع أنه قدر ما ينزل هذا ويصعد هذا، والمقصود تقليل مدة الوقت، فيأكلون في ذلك الوقت الذي هو آخر أجزاء الليل، أو من آخر أجزاء الليل، وعلى هذا تحمل مثل هذه الروايات.

وأما النصوص الأخرى الواردة عن بعض الصحابة -رضي الله عنهم- كأبي بكر، وجماعة من كبار الصحابة، بما يشعر ظاهره أنهم كانوا يأكلون بعد طلوع الفجر وقت الإسفار أو قريباً منه، فمثل هذه النصوص مشكلة في ظاهرها ومحملها ومعناها، إلا أنّ لأهل العلم محاملَ وتأويلاتٍ في ذلك، والأفضل التعامل معها وفق ما قرره الإمام الشاطبي -رحمه الله- في كتابه "الموافقات" حيث جعل قاعدة في التعامل مع النصوص، ومحورها إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: النصوص الجادة حيث تتوارد النصوص وتتضافر على معنى من المعاني، فهذا يعمل به، ولا إشكال فيه.

النوع الثاني: أن تتضافر النصوص وتتوارد في معنى، ويوجد في النادر ما ظاهره يخالف ذلك، فيعمل به على الجادة، والأصل الذي تضافرت فيه النصوص.

القسم الثالث: ما وردت فيه النصوص متضافرة تقرر معنى، ووجد قليل يخالف ذلك، فهذا إن ظهر له محمل حمل عليه، وإن لم يظهر له محمل فإنه يعمل بالأصل الذي تتابعت النصوص على تقريره.

القسم الرابع: أن يوجد أدلة كثيرة تدل على معنى، ويوجد أدلة أخرى كثيرة تخالفها، فمثل هذه يجمع بين هذه الروايات، وينظر أنه كان يفعل هذا أحياناً، أو كان ذلك على وجه كذا، أو نحو ذلك.

القسم الخامس: ما وردت فيه الأدلة في كذا وكذا، فمثل هذا لا تطرح الأدلة الأخرى وينظر فيها، فمسألة الأكل والشرب بعد الإسفار، أو عند الإسفار أو نحو هذا، نرجع فيها إلى الأصل المحكم الثابت وهو قوله سبحانه: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، ولا نتتبع أشياء أخرى تخالف هذا الأصل.

ومثل هذه القضية ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قصة الرجل الذي قال فيه النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((يطلع عليكم رجل من أهل الجنة))،... فلما قام النبي –صلى الله عليه وسلم- تبعه عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه- إلى بيته فقال له: "إني لاحيت أبي، فآليت أن لا أدخل عليه ثلاثاً،.. " ثم أخبره بعد مضي الثلاث أنه لم تكن بينه وبين أبيه أي ملاحاة، أنما أراد أن ينظر في صنيعه وعبادته..."القصة، فالشاهد هل يصح أن نجوّز الكذب للمصلحة، حيث لا ضرر، ونقررها قاعدة للناس ونستدل بهذا الدليل؟ الجواب لا؛ لأننا سنترك الأدلة الكثيرة المخالفة والمتضافرة في الكتاب والسنة على تحريم الكذب، ووسْمه بأنه ثلث النفاق، وأما صنيع عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه- فهو لاعتبارات معينة، فهم ذلك وتأول، ولسنا

---

[10] رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٣٥٨٠) (١٤٧/٥)، وضعف إسناده شعيب الأرنؤوط.

متعبدين بما أقدم عليه، فهذه القواعد التي أرساها الإمام الشاطبي عظيمة لو تحاكمنا إليها عند ورود مثل هذه الإشكالات.

"وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر، روي مثل هذا عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن علي بن الحسين، وأبو مجلز، وإبراهيم النخعي، وأبو الضحى، وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عتيبة، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وإليه ذهب الأعمش، ومعمر بن راشد، وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد".

ابن جرير الطبري أورد في تفسيره روايات عن جمع من الصحابة والتابعين في جواز السحور عند مقاربة الفجر، بل ووقْت رؤيتهم له وبعد طلوعه، إلا أن ابن كثير حملها على تسامحهم في السحور في هذا الوقت، لكن مثل هذا لا يُترك فيه المحكمات، ويُلجأ إلى مثل هذه المشكلات، ولا يفهم إنسان هذا الفهم فيصدق عليه قول الشاعر:

ألقـــاك فهمـــك فـــي مهـــاون	فليتـــك ثـــم ليتـــك مـــا فهمـــت

"وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر))[11] لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله صلى الله وعليه وسلم قال: ((ليس الفجر المستطيل في الأفق، ولكن المعترض الأحمر))[12]".

يشير في الحديث إلى الفرق بين الفجرين الصادق والكاذب، وكلام الفقهاء أن الفجر الكاذب كذنب سرحان أي: كذنب الذئب حيث يكون ضوؤه إلى أعلى ويكون مستطيلاً، وأما الفجر الصادق فيكون معترضاً ومنبلجاً ويزيد إضاءةً، أما ذاك فيختفي.

"ورواه أبو داود والترمذي ولفظهما ((كلوا واشربوا ولا يَهِيدَنَّكم الساطع المُصعَد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر))[13].

وروى ابن جرير عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يغرنكم أذان بلال، ولا هذا البياض -لعمود الصبح- حتى يستطير))[14].

ورواه مسلم في صحيحه مثله سواء.

---

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الأذان - باب الأذان قبل الفجر (٥٩٦) (ج ١ / ص ٢٢٤) ومسلم في كتاب الصيام - باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك (١٠٩٣) (ج ٢ / ص ٧٦٨).

[12] رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٣٣٤) (٤/٢٣)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

[13] رواه الترمذي برقم (٧٠٥) (٣/٨٥)، وأبو داود برقم (٢٣٤٨) (١/٧١٧)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٦٣٥).

[14] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر وأن له الأكل برقم (١٠٩٤) (٢/٧٦٩).

مسألة: ومن جعْلِه –تعالى- الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً".

هذا النوع من الاستنباط يعرف عند الأصوليين بدلالة الإشارة، والراجح أن دلالة الإشارة من أنواع المنطوق، لكنه المنطوق غير الصريح؛ لأن المنطوق ينقسم إلى قسمين:

- منطوق صريح.
- منطوق غير صحيح.

فهي من المنطوق غير الصريح ويعرفه الأصوليون بأنه: إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد علما.

ودلالة الإشارة تارة تكون بنص واحد، وتارة تكون بالجمع بين الدليلين، فمثل الأول ما جاء في قوله سبحانه: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** إذ المعنى أنه يجوز للرجل أن يجامع إلى آخر جزء من الليل حتى بعد طلوع الفجر، وهذا يدل على جواز أن يصبح الإنسان جنباً، لكن الآية ما سيقت لتقرير هذا المعنى، ولذلك سميت دلالة الإشارة.

وتارة بدليلين مثل قوله سبحانه: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** [(١٥) سورة الأحقاف] مع قوله سبحانه: **{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** [(١٤) سورة لقمان]، فالعامان أربعة وعشرون شهراً، فإذا وضعتَ أربعة وعشرين من ثلاثين يبقى ستة شهور هي مدة الحمل؛ لأنه إذا ثبت كون مدة الرضاع حولين من ثلاثين شهراً، بقي ستة أشهر فتكون هي مدة الحمل ضرورة أخذاً من مجموع الدليل، فهذه أيضاً دلالة إشارة، مع أنه ما سيق أحد الدليلين لتقرير أقل مدة الحمل، ودلالة الإشارة عند الأصوليين غير دلالة الإشارة عند المفسرين، وعند الصوفية، والله أعلم.

"وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما- أنهما قالتا: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم[15].

وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي.

وفي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رجلاً قال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم)) فقال: لست مثلنا يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: ((والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي))[16]".

وهذا التأخر من النبي –صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يكون وقع على وجه التساهل والتفريط؛ لأنه مشرِّع وأتقى الأمة لله.

---

[15] رواه البخاري في كتاب الصوم –باب اغتسال الصائم برقم (١٨٣٠) (٦٨١/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام –باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١٠٩) (٧٧٩/٢).

[16] رواه مسلم في كتاب الصيام –باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١١٠) (٧٨١/٢).

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يقول المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم))[1]، وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)) أخرجاه[2].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول الله -عز وجل-: ((إن أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطراً)) ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب[3]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] لما كانت "إلى" تدل على الغاية وأنها في بعض صورها يكون المغيا خارجاً عما قبله، كما في هذا المثال فإن الليل بهذا الاعتبار ليس محلاً للصوم، فلا يقول قائل: إنه لا يتحقق صيام النهار إلا بصيام جزء من الليل، فإن هذا يذكرونه من باب ما لا يتم الواجب إلا به، لكن لا شك أن الجميع يوافق على أن وقت الصوم هو النهار إلى آخر جزء منه، أي: إلى غروب الشمس فقط، وهذا الذي دلت عليه هذه الغاية وهذا الاستنباط الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والحديث الذي ذكره كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم))[4]، يحتمل أنه يكون معنى ((أفطر الصائم)) أي: قد حل فطره، ويحتمل أن يكون معناه قد أفطر حقيقة أو حكماً، ومعنى أفطر حكماً أي أنه صار في حكم المفطرين شاء أم أبى، والكلام في مسألة الصيام في الليل –الوصال- معروف.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب متى يحل فطر الصائم (١٨٥٣) (ج ٢ / ص ٦٩١) ومسلم في كتاب الصيام - باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار (١١٠٠) (ج ٢ / ص ٧٧٢).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب تعجيل الإفطار (١٨٥٦) (ج ٢ / ص ٦٩٢) ومسلم في كتاب الصيام - باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر (١٠٩٨) (ج ٢ / ص ٧٧١).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في تعجيل الإفطار (٧٠٠) (ج ٣ / ص ٨٣) وأحمد (ج ٢ / ص ٢٣٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٠٤١).

[4] - سبق تخريجه.

"ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال: وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئا، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تواصلوا))، قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال: ((فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني))[٥]."

قوله: ((يطعمني ربي ويسقيني)): على الأرجح من أقوال أهل العلم وهو الذي يقتضيه الحال أنه ليس معنى ذلك الطعام والشراب الحقيقي، وإلا لم يكن صائماً بهذا الاعتبار، وإنما المقصود ما يحصل له من الكفاية عن الطعام والشراب بلذة المناجاة والقرب من الله -عز وجل-، وما أشبه ذلك من المعاني، وهذا هو الذي ذكره المحققون، وهو أمر ليس بمستغرب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم))[٦]، ولذلك تجد المريض ربما يبقى اليوم واليومين لا يطعم ومع ذلك لا يجد أثر الجوع، كما أنه يحصل للإنسان من الإعانة في وقت الصوم ما لا يحصل له في غيره إذا كان صحيح القصد والنية.

أما ترون أن الإنسان إن كان صائماً ينتصف عليه النهار، بل يذهب معظمه، وهو لا يجد أثر الجوع في كثير من الأحيان؟ وإذا كان مفطراً فلا يكاد ينتصف عليه النهار إلا وهو في غاية الجوع حتى إن أطرافه ربما ترتعش؟ وإذا كان صائماً لا يلتفت إلى شيء من هذا، فالإنسان يعان على الصيام، وأحوال الناس في هذا في غاية التفاوت، والمقصود أن الإنسان ربما يحصل له شيء من هذه المعاني، ولا شك أن ذلك دون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمراحل، لكن المقصود الدلالة على أصل المعنى وتقريبه.

حكم الوصال:

الذي تدل عليه ظواهر النصوص بمجموعها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعزم عليهم في النهي عن الوصال وإنما نهاهم عنه رفقاً بهم وشفقة عليهم، وقد كان بعض الصحابة يواصل، بل نقل عن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- يقول كلاماً معناه: أطول من حفظنا عنه في الوصال ما جاء عن ابن الزبير أنه كان يواصل عشرة أيام متواصلة، وكان يواصل هذا الوصال في الوقت الذي كان محاصراً في المسجد الحرام، وكان يخرج على الكتيبة بمفرده، فيفلها حتى ربما بلغ بهم الحَجُون ولا يقف أحد في وجهه مع أنه كان يواصل هذا الوصال العظيم، حتى إنه سئل مرة كيف تطيق هذا؟ فذكر أنه يشرب الوَدَك، ومعلوم أن الوَدَك إذا شربه الإنسان فإنه لا يهضم بسهولة؛ لكثافته وكثرة ما فيه من الدهون.

"قال: ((فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)) قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يومين، وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: ((لو تأخر الهلال لزدتكم)) كالمنكل لهم،

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (٦٨٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٦١) ومسلم في كتاب الصيام - باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٣) (ج ٢ / ص ٧٧٤). وأحمد (ج ٢ / ص ٢٨١).

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الطب - باب ما جاء: لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب (٢٠٤٠) (ج ٤ / ص ٣٨٤) وابن ماجه في كتاب الطب- باب لا تكرهوا المريض على الطعام (٣٤٤٤) (ج ٢ / ص ١١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤٣٩).

وأخرجاه في الصحيحين[٧]، وقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه كان يقوى على ذلك ويعان."

يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتقرب إلى الله عز وجل- بهذا، فهو بالنسبة إليه، من مراتب الكمال، وأما الأمة فهي غير مطالبة بذلك، وإنما تجشمه من تجشمه من الصحابة لفرط رغبتهم في مزيد من التقرب والعبادة، لكن لا يقال: إن الأمة مطالبة بهذا وتندب إليه، كما أنه لا يقال: إنه حرام.

"والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تُواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر)) قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: ((إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني)) أخرجاه في الصحيحين أيضا[٨]."

الأصل أن نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((لا تُواصِلوا)) للتحريم، ولكن الصحابة لم يفهموا هذا من مقتضى الحال، وإنما فهموا أنه نهاهم عنه شفقة عليهم، وإلا لم يواصلوا معه -صلى الله عليه وسلم- ولم يقرهم هو على هذا؛ لأنه لا يقر –عليه الصلاة والسلام- على باطل، والصحابة لا يمكن أن يتقربوا إلى الله -عز وجل- بمعصية رسوله -صلى الله عليه وسلم- فالأصل أن النهي للتحريم ما لم يوجد له صارف.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) سورة البقرة]**، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان."**

الاعتكاف معروف، وأصله بمعنى الملازمة وطول المكث، كما قال تعالى عن إبراهيم –عليه السلام-: **{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}** [(٥٢) سورة الأنبياء]، تقول: فلان عاكف على كذا، بمعنى أنه يطيل المكث معه أو عنده، ولذلك كان الاعتكاف هو ملازمة المسجد على سبيل القربة على وجه مخصوص، أو بشرطه، أو نحو ذلك من العبارات التي تقرب معناه.

والأرجح أن الاعتكاف لا يحد بيوم وليلة، إذ لا دليل على ذلك، وغاية ما يستدلون به كما هو معروف سؤال عمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، وقالوا: الليلة إذا ذكرت عند العرب فمعها اليوم، فنقول: ما الحكم فيما إذا كان قد سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الاعتكاف ثماني عشرة ساعة؟

فأظن أن الوسط في هذه المسألة هو بين قول هؤلاء وقول الحنفية الذين قالوا: يصح أن يكون الاعتكاف ولو بوقت يسير، ولذلك فإنهم إذا أرادوا دخول المسجد للصلاة، قالوا: انووا الاعتكاف، والصواب أن هذا لا يعتبر

---

[7] - سبق تخريجه في الحاشية رقم (٥).

[8] - أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب الصوم - باب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام (١٨٦٢) (ج ٢ / ص ٦٩٣) واللفظ للبخاري، ومسلم عن عائشة في كتاب الصيام - باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٥) (ج ٢ / ص ٧٧٦) ولفظه: نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم فقالوا إنك تواصل قال: ((إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني)).

اعتكافا، ولا يقال لهذا الإنسان: إنه معتكف، وإنما الاعتكاف هو المكث الطويل، والأحسن لمن أراد أن يعتكف ألا يقل اعتكافه عن يوم وليلة.

ومسألة هل يدخل المعتكف المسجد من قبل غروب الشمس أو قبيل الغروب أو مع الغروب أو يدخل بعد طلوع الفجر أو مع الفجر على الحديث الوارد أنه دخل معتكفه بعد أن صلى الفجر -عليه الصلاة والسلام-[٩] كل هذا ليس محله هنا.

"فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحّاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) **سورة البقرة]، أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد، ولا في غيره."**

يقول ابن عباس: **فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه**، هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غيره؛ فالاعتكاف لا يختص برمضان، وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتكف في رمضان، فالمقصود أن الله حرم على المعتكف أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً؛ لأن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

قال الضحّاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) **سورة البقرة**]، هذه الرواية لها حكم المرسل وبالتالي لا يعتمد عليها بأنه كان جائزاً في أول الأمر أن المعتكف يخرج لحاجته فيمكن أن يواقع في هذا الخروج.

قال الله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ}: أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد، ولا في غيره. يقصد إن اعتكفتم في المسجد فلا تباشروهن في المساجد ولا في غير المسجد، فالوطء في المسجد لا يجوز بكل حال سواء كان الشخص معتكفاً أو غير معتكف، فالمساجد ما بينت لهذا، وكذلك لا يجوز للمعتكف أن يجامع أهله ولو في خارج المسجد ما دام معتكفاً..

"أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية."

قوله: **{وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ}**: أصله من مس البشرة، فهل المنهي عنه هو المس مطلقاً أو على سبيل الاستمتاع، أو المقصود به معنىً أخص من ذلك وهو الجماع؟

أما مجرد اللمس فهذا ليس له وجه إطلاقاً في قوله: **{وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}**، وأما القول بأن المراد به النهي عن جميع أنواع الاستمتاع فهذا هو الظاهر والله تعالى أعلم، وأما الجماع فهو داخل قطعاً، وبعض أهل العلم يحرم الجماع ويبيح ألوان الاستمتاع الأخرى، إلا أن المعتكف في الأصل معرض عن هذا كله ومشتغل بالإقبال على الله -عز وجل- فهو ليس بصدد قضاء وطره ولذاته إذ حال المعتكف على النقيض من هذا.

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف – باب الاعتكاف في شوال (١٩٣٦) (ج ٢ / ص ٧١٨) ومسلم في كتاب الاعتكاف - باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠).

والعلماء رحمهم الله في مسألة الاعتكاف تكلموا عن أمور أخرى كالقراءة في الفقه –مثلاً- هل يشتغل به المرء وهو معتكف أم لا؟ فكيف يقال له: اذهب لمباشرة أهلك دون الجماع! فهناك فرق بين الاعتكاف وبين الصوم، فالصائم له أن يباشر وهو صائم، لكن الاعتكاف انقطاع إلى الله -عز وجل- فهو بمنأى عن هذا، والله أعلم.

ومما يدل على أن اللمس المطلق ليس داخلاً في المنهي عنه للمعتكف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في معتكفه يخرج رأسه لعائشة -رضي الله عنها- فترجله[١٠]، وبالتالي فمثل هذا لا إشكال فيه.

"قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحّاك والسدّي والربيع بن أنس ومقاتل قالوا: لا يقربها وهو معتكف."

لا يقربها وهو معتكف، يعني لا بجماع، ولا بما دونه من وجوه الالتذاذ والاستمتاع، وهذا المعنى نقل عليه الحافظ ابن عبد البر الإجماع، وإن كان قد وجد من يقول بجواز التقبيل ونحو ذلك إلا أنه قول ضعيف.

"وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل.

وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، ولله الحمد والمنة."

جاء عن بعض السلف كعائشة -رضي الله عنها- فيما يتعلق بالمريض أنها كانت إذا دخلت سألت دون أن تقف، فالمقصود أنه لا يتلبث في شيء من هذه الأمور دون حاجته الأصلية ويكون ذلك بقدر الإمكان، بمعنى أنه إذا كان يستطيع أن يأكل في محل قريب من معتكفه فلا يذهب إلى بيته البعيد، وإذا كان لا يجد أو لا يصلح لمثله أن يأكل في الشارع أو في الساحة، أو نحو ذلك، أو لا يلائمه هذا وإنما يحتاج إلى نوع خاص من الطعام فيذهب، وكذلك إذا كان يجد مكاناً قريباً يغتسل فيه أو نحو ذلك فلا يذهب إلى المكان البعيد، أما أنه يذهب ليأكل ثم يشتري في الطريق أغراضا ليست ضرورية كعطر أو أشياء من هذا القبيل مما يتوسع فيها الناس ويتساهلون كأن يذهب ليشحن الجوال، أو يعِد صاحبه في مكان في الساحة أو نحوها فيخرج إليه فمثل هذا ليس خروجاً للحاجة الأساسية، وهذه الأمور تضييع لمعنى الاعتكاف المشروع.

ومن تضييع معنى الاعتكاف أنك تجد عشرين أو ثلاثين شخصاً يعتكفون معا بحيث يجدون من الأنس والانبساط والضحك والقيل والقال في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي ما لا يجدونه في بيوتهم، فمثل هذا اعتكاف صوري وليس حقيقيا؛ إذ لم يشرع الاعتكاف من أجل هذا إطلاقاً، وإذا كان الذي يصلي ليس له من صلاته إلا نصفها، إلا ربعها..الخ فإن قضية الاعتكاف مثل ذلك.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف - باب الحائض ترجل المعتكف(١٩٢٤) (ج ٢ / ص ٧١٤) ومسلم في كتاب الحيض - باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧) (ج ١ / ص ٢٤٤).

فالاعتكاف لا يؤدي إلى الثمرة المرجوة إلا بأن يجمع المعتكف بين حبس النفس عن الطعام والشراب في الصوم وبين حبسها عما ألفت عليه من الخلطة –لا سيما عند من يشترط الصوم للاعتكاف- بحيث يكون منقطعاً، فإذا حصل له هذا وهذا حصل له المعنى الذي من أجله شرع الاعتكاف، لذلك من أراد أن يعتكف فليعتكف لوحده، وإن كان ولا بد من رفيق فليكن مع شخص واحد من الجادين بحيث يكون مقبلاً على مصحفه وذكر ربه ودعائه لا يشغله رفيقه بالكلام والقيل والقال.

"ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم."

كذلك لا سيما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتكف في رمضان فناسب ذكره بعده، والأمر الآخر: أن كثيراً من أهل العلم يقولون: إن الاعتكاف من شرطه الصوم فلا يصح من غير صوم، وهذه المسألة ليست محل اتفاق، لكن على كل حال هذا وجه ذكر الاعتكاف بعد الصوم، وليس الحديث الآن عن الاعتكاف.

"وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام."

هذا مثلُ ما سبق أنه ذكر قوله: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}** [(١٨٦) سورة البقرة] بين آيات الصوم، فاستنبط منها العلماء معنى وهو أن للصائم دعوة مستجابة، فالدعاء في حال الصوم له مزية وبالتالي ذكرت آية الدعاء بين آيات الصيام.

"وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما في السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله -عز وجل- ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-[11]."

قوله: **ثم اعتكف أزواجه من بعده**، هذا يدل على أن الاعتكاف مشروع للمرأة كالرجل مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته لما رأى تلك الحصر التي أعدتها زوجاته في المسجد للاعتكاف قال: ((آلبر تردن))[12] وأمر بهتكها وإزالتها ورفعها؛ والسبب أنه وإن كانت النساء شقائق الرجال ولكن الاعتكاف ليس أفضل للمرأة من أن تبقى في بيتها، وهذا الكلام لا يعجب النساء إطلاقاً ولكنه هو الحق الذي لا مرية فيه، قال تعالى: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** [(٣٣) سورة الأحزاب]، والأحاديث واضحة في أن مكان المرأة بيتها بل في أبعد مكان في بيتها، وصلاتها فيه أفضل من صلاتها في مسجد حيها، وصلاتها في مسجد حيها أفضل من صلاتها في المسجد الجامع، وصلاتها في المسجد الجامع خير من صلاتها في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخلفه، فالأحاديث الواردة في هذا معروفة، فكيف الحال إذا كان خروجها لتكون بائعة في الصيدلية أو المستلزمات النسائية، تتجول في السوق أو غير ذلك؟

---

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف - باب الاعتكاف في العشر الأواخر والاعتكاف في المساجد كلها (١٩٢٢) (ج ٢ / ص ٧١٣) ومسلم في كتاب الاعتكاف - باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠).

[12] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف - باب الأخبية في المسجد (١٩٢٩) (ج ٢ / ص ٧١٥) ومسلم في كتاب الاعتكاف - باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠) واللفظ لمسلم.

ولقد أصبحت قضية خروج المرأة مشكلة بل حتى قضية اعتكاف المرأة صارت مشكلة إذ ربما وصل العدد في بعض المساجد –غير المسجد الحرام والمسجد النبوي- إلى ثمانين معتكفة بل وأكثر من ذلك، وإذا تسامعت النساء بهذا ستأتي أعداد أضعاف هذا العدد، وقضية خروج المرأة منه ما هو إسلامي أو خروج تحت راية الشيطان بحيث تكون أجيرة عند الآخرين، وهكذا تستغل المرأة بأنها شقيقة الرجل، وأنها نصف المجتمع ولا يطير المجتمع إلا بجناحين اثنين، ولا بد أن تعطى فرصة وغير ذلك من الدعوات التي تصدقها المرأة، فأعداء الإسلام يريدون أن يخرجوا المرأة من حصنها الحصين في غاية التبرج عبر الوسائل المختلفة من قيادة السيارة إلى المشاركة السياسية إلى التمثيليات، فلا يكفي أن تقف المرأة عند ما يناسبها من الأعمال بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية، والله المستعان.

"وفي الصحيح أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلاً، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- ليمشي معها، حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كانا ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرعا، وفي رواية: تواريا، أي حياءً من النبي -صلى الله عليه وسلم- لكون أهله معه، فقال لهما النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)) أي لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا)) أو قال: ((شراً))[١٣].

قال الشافعي -رحمه الله-: أراد -عليه السلام- أن يُعلم أمته التبري من التهمة في محلها؛ لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً، والله أعلم."

أي أن النبي –صلى الله عليه وسلم- بهذا الجواب يشرِّع لأمته ويؤدبهم بهذا الأدب، وهو أن لا يجعل الإنسان نفسه في موضع ريبة، فإن كان في مقام ربما يرتاب فيه أحد بيّن له الحال، ليدفع عن نفسه التهمة؛ لأن الإنسان قد لا يلام إذا حكم بالظاهر، ومما يدل على ذلك أنه لما بركت ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الحديبية، قال بعض الصحابة: خَلأت القصواء، فأعلمهم أن ذلك ليس لها بخُلُق، وأن الذي حبسها إنما هو حابس الفيل، فلم ينكر عليهم قولهم ذلك ولم يقل لهم: استعجلتم بحكمكم هذا أو كيف تحكمون بالظاهر، وإنما بيّن لهم معنى آخر، فالمقصود أن الإنسان يدفع عن نفسه التهمة، ولا يجعل نفسه في موضع ريبة ثم ينتظر من الآخرين أن يحسنوا الظن به.

"ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه

---

[13] - أخرجه البخاري في كتاب الخمس - باب ما جاء في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نسب من البيوت إليهن (٢٩٣٤) (ج ٣ / ص ١١٣٠) ومسلم في كتاب السلام - باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥) (ج ٤ / ص ١٧١٢).

وسلم- يدني إليَّ رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة -رضي الله عنها-: ولقد كان المريض يكون في البيت، فلا أسأل عنه إلا وأنا مارة[14].

وقول تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ} [(١٨٧) سورة البقرة] أي هذا الذي بيّناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرمنا، وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله."

الحد: أصله من المنع، وقيل له ذلك؛ لأنه يمنع غيره من الدخول فيه، نقول: هذا الحد، أو الزم هذا الحد، أو الزم حدك، أو نحو ذلك، وربما قيل للحدود التي تقام على أصحاب بعض الذنوب -الحدود الشرعية- حدود؛ لأنها تمنع مَن واقَعَ شيئاً من هذه الذنوب أن يعود إليها، فهي تردعه وتمنع الآخرين أيضاً من الدخول في شيء من ذلك، والله أعلم.

"أي شرعها الله وبيّنها بنفسه، فلا تقربوها: أي لا تجاوزوها وتتعدوها."

قوله: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، أي هي تلك التي شرعها في أحكام الصوم والاعتكاف، وأنه لا يباشر أهله من هو معتكف في المسجد، فهذه حدود الله -عز وجل-، فلا يقول الإنسان: أنا معتكف تطوعاً فأريد أن أتوسع في هذا الاعتكاف، فيرتكب شيئاً أو أشياء مما يخل بالاعتكاف أو يبطله، ومثل هذا الشعور يوجد أحياناً عند الإنسان فيكون مسيئاً باعتكافه هذا، متعدياً فيه حدود الله -عز وجل- ولو بغير المباشرة، كأن يذهب ليتعشى في شقته مثلاً فينبسط في الحديث ويطيل المكث فهذا الأمر لا يسوغ، بل ربما بطل اعتكافه بسبب ذلك المكث الطويل، أو بسبب الخروج المتكرر من غير ضرورة بأن يخرج مرة لحاجة إنسان، ومرة ليتعشى ومرة يخرج ليأتي بالجوال، ومرة يخرج ليشتري أشياء كمالية ليست ضرورية يريد أن يدخلها معه، فالله المستعان.

مسألة الاشتراط في الاعتكاف:

مسألة الاشتراط في الاعتكاف مسألة ينبغي التحرز والاحتياط فيها، أما أن يقول: أشترط أن أخرج للحاجة الفلانية، ثم يخرج –مثلاً- من الحرم إلى جدة من أجل معاملة تجارية حان وقتها وهو معتكف فيذهب يتم معاملته ثم يرجع إلى معتكفه، فأي اعتكاف هذا وأي اشتراط؟!!

وتجد معتكفاً آخر يشترط الزيارات للمرضى، أو زيارات لطلاب العلم ليلقي عليهم درسا أو نحو ذلك وهذا كثير، فهذا لا ينبغي وعلى الإنسان أن يحتاط لهذا الأمر؛ فقد لا يجد دليلاً يسعفه في مثل هذه القضايا.

"وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] حتى بلغ: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ} [(١٨٧) سورة البقرة]: أي كما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبيّن سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-.

---

14 - أخرجه مسلم في كتاب الحيض - باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧) (ج ١ / ص ٢٤٤).

{لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة]: أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(٩) سورة الحديد]."

{لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة] بالنسبة لـــ"لعل" تحتمل المعنيين من التعليل أو معنى الترجي، وأما التقوى هنا أي يتقون ما حرم الله -عز وجل- عليهم، فهذه حدود الله فلا يواقعوا شيئاً من ذلك، أو بمعنى أنهم إن كانوا مراعين لحدود الله -عز وجل- فإن ذلك يكون سبباً لتحقيق التقوى، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٨) سورة البقرة]."

قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة]، لا تأكلوها، ليس الأكل مراداً في ذاته هنا وإنما كلُّ أخذ واستلاب لأموال الناس بأي طريق كان ولأي غرض كان –للأكل أو لغيره- فهو من أكل أموال الناس بالباطل، فكل طريق لا يحل فيه أخذ المال فهو داخل في هذا.

بعض الناس يسول لنفسه أخذ المال من شركات التأمين ويقول: دعني آخذ هذه الأموال وسأذهب بها إلى أهل الخير في الجمعيات الخيرية أو نحو ذلك بدلاً من أن أتركه لهؤلاء الذين أخذوه من غير حله، وهكذا يتأول لنفسه، وما علم أن هذا التصرف من أكل أموال الناس بالباطل الوارد في الآية.

قال: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم}، ومسألة التعبير بأموالكم هنا، يعني لا يأكل بعضكم مال بعض؛ حيث إن النفوس المجتمعة على شيء واحد تنزل منزلة النفس الواحدة؛ إذ يقول الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [(٢٩) سورة النساء]، أي لا يقتل بعضكم بعضاً، ويقول –جل وعلا-: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة]، أي فليقتل بعضكم بعضاً، ويقول -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة]، أي يقتل بعضكم بعضاً، وقوله سبحانه: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم} أي لا يأكل بعضكم مال أخيه، وذكر الأكل لأنه أغلب وجوه الانتفاع، والعرب تعبر به عن سائر ألوان الانتفاع، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [(١٠) سورة النساء]، فلو لم يأكل مال اليتيم وإنما بنى به بيتاً، أو اشترى به سيارة أو أثاثاً فالحكم واحد لكن عبر بالأكل؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع، ولذلك يقال: فلان أكل مال فلان، بمعنى أخذه بغير حق.

وقوله تعالى: {وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ} [(١٨٨) سورة البقرة]: أصل الإدلاء يدل على التوصل إلى الشيء، والدلو المعروف سمي بذلك؛ لأنه وسيلة وواسطة يتوصل به إلى الماء، ولذلك تقول: فلان يدلي إلى فلان بالقرابة الفلانية، فما يتوصل به فهو الإدلاء، ومنه قيل: للدلو دلوٌ.

فقوله: {وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} يعني تريدون التوصل إلى استلابها وأخذها بالترافع إلى الحاكم أو القاضي، أي أنه –مثلاً- يأخذ مال أخيه ثم يترافع إلى القاضي، ويكون ألحن بحجته من الآخر، أو يكون المظلوم ليس عنده إثباتات مكتوبة تثبت أن له عند خصمه شيئاً، فيقول الآخر: ليس له شيء عندي وإنما يدعي عليَّ ذلك دون دليل، وربما جاء بالحديث الصحيح أن النبي –عليه الصلاة والسلام- قال: ((لو يعطى الناس بدعواهم

لادعى ناس دماء رجال وأموالهم))[15] وهكذا يحتال بهذا الكلام على أنه ليس في ذمته شيء لأخيه، ويبقى ذاك لا يستطيع أن يفعل شيئاً، والله المستعان.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه."

قوله تعالى: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}** تحتمل وجهين:

الأول: أن يكون قوله: **{وَتُدْلُواْ}** معطوفاً على قوله: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ}** أي: لا تأكلوا ولا تدلوا، أي أنَّ تأكلوا وتدلوا مجزومان بـــ"لا" الناهية، وقد جاء هذا في قراءة لكنها شاذة وليست من القراءات المتواترة، وعلى هذا يكون النهي عن الأمرين، أي: لا تأكلها خلسة أو سرقة أو نحو ذلك، ولا تترافع إلى القاضي لتتوصل إلى أخذ ماله بغير حق بحيث تقول مثلاً: ليس عنده شيء يثبت، والمال تحت يدي، وهو مدعي بهذا الاعتبار، والبينة على المدعي، وما عنده بينة إطلاقاً...الخ، فيؤدي ذلك إلى أن يحكم القاضي لك بالمال.

ويحتمل أن يكون قوله: **{تَأْكُلُواْ}** مجزوماً بـــ"لا" الناهية، وقوله: **{وَتُدْلُواْ}** منصوباً بـــ"أن" مضمرة كقول الشاعر:

لا **تنهَ** عـــن خلـــق **وتـــأتيَ** مثلـــه	عـــارٌ عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

وبهذا الاعتبار يكون قد نهاه عن قضية واحدة صوَّرها وهي أن يستلب مال أخيه، ويتوصل لذلك بواسطة ترافع فيجحد ما عليه من حق، فيحكم الحاكم أو القاضي بأن المال له، فهو أخذ مال أخيه بغير حق بأن قال له -مثلاً-: أعرني مالاً، فأعاره إياه، أو قال: بعني إياه بالأقساط، فلما باعه إياه ولم يكتب بينهم ثقة بذلك مثلاً، قال له: ليس لك عندي شيء، وإنما هذا مالي ورثته عن آبائي، فاشتكاه عند القاضي، فقال: هذا مالي، فإذا كان عنده بينِّه فليأت بها.

المقصود أن النهي يكون عن شيء واحد هو أكل أموال الناس بالباطل والتوصل إلى ذلك بطريق الترافع إلى الحاكم من أجل أن يحكم له بهذا المال، وهذا هو الفرق بين المعنيين.

وإن كان المعنى الثاني هو المتبادر، وهو أن النهي عن أمر واحد بصورته التي ذكرت، وهو الذي يميل إليه بعض المحققين كابن جرير الطبري -رحمه الله-، فإن هذا لا يعني أن التحريم منحصر فيها، ولكنه ذكرها لخطرها، وعموم ضررها، وكثرة وقوعها، فخصها بذلك محذراً؛ لأن هذا يقع ويتكرر كثيراً بحيث يبقى الإنسان يتحسر ويتجرع الألم إذ ليس في يده إثبات، فتضيع عليه أموال طائلة، وذاك يضحك منه، ويسخر منه، ويتهكم به، والله المستعان.

"فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم."

---

15 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٧) (ج ٤ / ص ١٦٥٦) ومسلم في كتاب الأقضية – باب اليمـــين علـــى المدعى عليه (١٧١١) (ج ٣ / ص ١٣٣٦) واللفظ لمسلم.

هذه الآية تدل على تحريم أموال الناس وأخذها من كل طريق محرم ولو طابت نفس المعطِي، وذلك مثل الربا، فلو قال له: أقرضني المائة بمائة وعشرين وأنا راضٍ بل وشاكر لك فهذا لا يجوز بل هو من أكل أموال الناس بالباطل، ومثل ذلك في التحريم ما يسمى بالتأمين، ومثال ذلك أيضاً: مهر البغي، فالمعطِي تطيب نفسه بإعطاء هذا المال، لكن لا يحل لهذه المرأة أن تفجر ولا أن تأخذ مالاً مقابل بضعها وشرفها وعفافها، وكذلك ثمن الكلب والسنور محرم وسائر العقود المحرَّمة ولو طابت نفس المعطِي؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن ذلك، وهكذا كل طريق محرم لأخذ المال هو من أكل أموال الناس بالباطل ولو طابت نفس المعطِي أو الدافع، فكله داخل في عموم قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} [(١٨٨) سورة البقرة]، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا} [(١٨٨) سورة البقرة]، الفريق: يعني الجزء أو القطعة من الشيء، و(فريقاً) من المال: يعني جزءاً من المال، أو بعضاً من المال.

وبعض أهل العلم يدعي في هذا معنىً آخر، ومن ذلك القول بالتقديم والتأخير في الآية أي: لتأكلوا أموال فريقٍ من الناس، والقاعدة في هذا هي أن الأصل إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير، فالأصل فيه الترتيب، أي: لا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير من غير ضرورة، فإن كان يمكن حمل الآية على معنىً يصح من غير تكلف، فإنه لا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير، الله أعلم.

"وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضيَ له))[١٦]".

هذا الحديث ساقه أيضاً باعتبار المعنى السابق الذي هو الترافع إلى القاضي من أجل التوصل إلى أموال الناس، فهو ولو حكم له القاضي، فإنما يحكم له بقطعة من نار، وإذا كان لا يحق له هذا المال فإن حكم القاضي وفتوى المفتي لا تغير حقيقة الحكم، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وبينهما مشبَّهات))[١٧]، وقال: ((استفت قلبك))[١٨] وقال: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))[١٩]، فالإنسان لا يتكئ على فتوى ويقول: بهذا تبرأ ذمتي، فالإنسان إذا كان متبعاً للهوى أو مجارياً لأهواء النفس فإنه سيبحث عن الأسهل، وسيقول: أفتاني عالم، فالحقيقة أنه لا يكفي هذا، بل لا بد من التحري فيمن يسأل فلا يكون الإنسان حينما يتخير المفتي متجارياً مع داعية الهوى، أو يسأل هذا وهذا وهذا؛ ليبحث عمن يرخص له، فإن الذمة لا تبرأ، وكذلك رشوة القاضي تعتبر صورة من الصور التي تدخل ضمن قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} [(١٨٨) سورة البقرة] وذلك أنه يترافع إلى القاضي ويعطيه مالاً من أجل أن يحكم له ويتوصل إلى مبتغاه ومصلحته.

---

16 - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام - باب القضاء في كثير المال وقليله (٦٧٦٢) (ج ٦ / ص ٢٦٢٧) ومسلم في كتاب الأقضية - باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣) (ج ٣ / ص ١٣٣٧) إلا أنه قال: ((أبلغ)) بدلاً من قوله: ((ألحن)).

17 - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) (ج ١ / ص ٢٨) ومسلم في كتاب المساقاة - باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩) (ج ٣ / ص ١٢١٩) ولفظ: ((مشبهات)) عند البخاري، وعند مسلم: ((مشتبهات)).

18 - أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ٢٢٨) والدارمي (ج ٢ / ص ٣٢٠) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٣٤).

19 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

"((فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها))[٢٠] فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما ملزم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره."

يعني أن شهادة الزور أو التدليس في القضية بحيث يصدر الحكم على خلاف ما يجب أن يكون كل ذلك لا يغير من الحكم شيئاً لا سيما المسائل التي تتعلق بالطلاق مثلاً، بحيث يأتي الرجل ولا يوضح القضية كما ينبغي حتى يحكم القاضي له بإرجاع المرأة إليه وفي حقيقة الأمر أن الصورة الواقعة لا تحل فيها هذه المرأة له، فهو حتى وإن حكم له القاضي فإن ذلك لا يغني عنه عند الله شيئاً.

لذلك تجد بعض الأغبياء يظن أن حكم القاضي له بإرجاع امرأته يجعلها له حلالاً، وليس الأمر كذلك، فالرجل يكتم أشياء ويخفي أشياء ويدلس أشياء عندما يصف للقاضي الواقعة التي حصلت، وبناء على ما يسمع القاضي يصدر الحكم، والحقيقة أنه لا يحل له هذا الحكم.

ومن الصور المنتشرة أن مثل هذا الشخص قد يأتي بشهود وهؤلاء الشهود الزور في ظنهم أنهم يريدون الخير والإحسان إليه، ولا يرضون بتشتت الأولاد –مثلاً- لأنه له عشرة من الولد وليس من مصلحتهم أن يتفرق الأبوان، ويجدون المرأة تبكي وهي والأولاد في حال يرثى لها، فأشفق هؤلاء الشهود على المرأة وأولادها فيشهدون شهادة زور لترجع هذه المرأة إلى صغارها، وهكذا يلمون شمل هذه الأسرة بالحرام، والله المستعان.

"ولهذا قال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٨) سورة البقرة] **أي تعلمون بطلان ما تعملونه وتروجونه في كلامكم.**

قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يُحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تنقضِ، حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا..."

---

[20] - هنا تمام حديث: ((ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم..)) الذي سبق تخريجه في الحاشية (١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٨٩) سورة البقرة]: "قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: سأل الناس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الأهلة فنزلت هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} [(١٨٩) سورة البقرة]، يعلمون به حِلَّ دينهم، وعدة نسائهم ووقت حجهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ} [(١٨٩) سورة البقرة]، أولاً هذا السؤال، هل كان عن فائدة هذه الأهلة والمنافع المنوطة بها، ومن ثم جاء الجواب مطابقاً للسؤال فقال: {هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [(١٨٩) سورة البقرة]؟ أم أن السؤال إنما كان: لماذا يبدو الهلال في أول الشهر دقيقاً ثم يكبر حتى ينير، ثم بعد ذلك يكتمل فيكون قمراً ثم بدراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود هلالاً في آخر الشهر، ثم يختفي؟

كثير من البلاغيين والمفسرين قالوا:إن السؤال إنما كان عن الثاني: لماذا يبدوا الهلال دقيقاً ثم بعد ذلك لا يزال يزداد حتى يصير بدراً..؟

ومن ثَمَّ يقولون: إن الجواب جاء على طريقة الأسلوب الحكيم، والمراد بالأسلوب الحكيم عندهم: أن يأتي الجواب على سؤال بغير ما سأل به السائل، وإنما بما هو أجدر أن يسأل عنه، أي أنه يجيبه بما هو أحوج إليه وأنفع له دون ما سأل عنه؛ لأن ذلك لا ينتفع به أو لا يعنيه.

هكذا يقولون إلا أن هذه المسألة ليست محل اتفاق بين أهل العلم، أعني عن ماذا كان السؤال، وبالتالي هل طابقه الجواب أو لا، فمن أهل العلم من يقول: إن السؤال إنما كان عن فائدة الأهلة، وبالتالي جاء الجواب مطابقاً له، وممن قال بهذا جماعة من المحققين، ويمكن الرجوع إلى كلام الشاطبي -رحمه الله- في الموافقات.

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ} [(١٨٩) سورة البقرة]، الأهلة: جمع هلال، وإذا قيل: لماذا لم يقل: يسألونك عن الهلال، فيمكن أن يقال: إنه نزّل اختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات، فالهلال يكون في أول الشهر ويكون في آخر الشهر، والقمر حينما يتضاءل فإنه لا يزال كذلك حتى يصير هلالاً، وعلى كل حال فهو في يومه الأول ليس كيومه الثاني، وليس كيومه الثالث وهكذا، ففي كل وقت تختلف حاله.

لماذا سمي الهلال هلالاً:

يمكن أن يقال: لأن الناس حينما يرونه يرفعون أصواتهم إخباراً به، فرفع الأصوات هذا هو إهلال، كما تقول: أهل بالإحرام، وكقوله تعالى: {وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ} [(١٧٣) سورة البقرة] وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند ذكر أصنامهم وآلهتهم على الذبيحة فقيل له: إهلال، ولو لم يحصل فيه ذلك كما يقال لليمين: حلف باعتبار أن كل واحد منهما يأخذ بيد صاحبه توثيقاً، فاليمين قول يصاحبه فعل، ثم صارت تطلق اليمين على كل حلف، وعلى كل حال ربما يكون سمي الهلال بهذا؛ لأنهم يرفعون أصواتهم عادة إخباراً به عند رؤيته.

وبعض أهل العلم يقول عن الهلال: إنه لا يزال هلالاً حتى يستدير وإذا استدار صار بدراً، وبعضهم يقول: لا، إنما يكون ذلك حتى ينير، وذلك ليلة السابع، ومن ثم يكون قمراً ثم بدراً.

يعلمون به حلَّ دَيْنِهِم، وعدة نسائهم ووقت حجهم.

في قوله: {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} [(١٨٩) سورة البقرة] يجيبهم عن فوائد الأهلة، فيقول: {هِيَ مَوَاقِيتُ} أي: مواقيت لعِدَد النساء؛ فالمتوفى عنها زوجها تتربص أربعة أشهر وعشراً، والمطلقات الصغيرات والآيسات يتربصن ثلاثة أشهر وذلك يعرف بالأهلة.

وبالهلال كذلك يعرفون وقت الصوم والفطر، والكفارات حينما يصوم شهرين متتابعين، كما أنه يعرف بذلك أيضاً مواقيت الديون والآجال، إلى غير ذلك مما يحتاجون إلى معرفة ميقاته من العهود والعقود والمواثيق المؤقتة بوقت وما إلى ذلك.

ثم ذكر بعدها الحج فقال: {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [(١٨٩) سورة البقرة] فالحج من جملة المواقيت -ولكن يمكن أن يكون سبب هذا الإفراد له أن الحج هو أعظمها- وذلك أن الناس إنما يقفون في عرفة بناءً على معرفة الوقت، فكل الناس يكون وقوفهم بناءً على هذه الرؤية، بل في الدنيا جميعاً إنما يعرفون ذلك اليوم ويوم النحر وأيام التشريق بناءً على رؤية الهلال فيكونون تبعاً فيه لأهل مكة، ولذلك لا يختلفون في عيد الأضحى فهم تبع لأهل مكة، والمقصود أنه ذكر الحج بعد العموم؛ لأهميته بالنسبة للأمور الأخرى من العِدَد وما إلى ذلك، فهي قضايا تتعلق بالإنسان نفسه، لكن الحج هو أعظمها، فهو ركن من أركان الإسلام، ويتعلق به حكم المكلَّفين جميعاً.

"وروى عبد الرزاق عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً))[1]

ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة]."

يُلاحظ أن الله تعالى جعل الأهلة مواقيت، ولم يجعل الشمس كذلك، وبالتالي فإن ضبط المواقيت إنما يكون بالأهلة لا بالشمس، وهذه هي الطريقة الشرعية، وقد تكلم ابن القيم -رحمه الله- في مواضع من كتبه على أن

---

[1] - أخرجه ابن خزيمة في صحيحه(ج ٣ / ص ٢٠١) والحاكم (ج ١ / ص ٥٨٤) والطبراني في الكبيــر (ج ٨ / ص ٣٣١) والدارقطني (ج ٢ / ص ١٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٩٣).

ذلك أثبت وأدق، وبيّن وجه هذا، خلافاً لما يتداوله الناس اليوم جهلاً أو تقليداً للكفار من التوقيت بغير ذلك، وذكر أن التوقيت الذي كان عليه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما كان بالأهلة ولم يكن بالشمس، واستدل على هذا بأمور منها: حديث عاشوراء الذي فيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء في اليوم العاشر فرآهم يصومون ذلك اليوم فصامه النبي -عليه الصلاة والسلام- وأمر بصيامه.

"عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة]."

هذه الآية هي مثال على ما قد يخفى معناه إلا بمعرفة سبب النزول، ومن المعلوم أن سبب النزول في الأهمية ليس على مرتبة واحدة، فأحياناً يتوقف عليه فهم المعنى، وأحياناً يزول به بعض الإشكال أو الغموض، وأحياناً يكون من باب زيادة الإيضاح، وأحياناً لا يؤثر في المعنى، فهذا مما قد يتوقف عليه فهم المراد، يقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة] المراد بهذا الكلام بيّنه سبب النزول وهو أن بعض العرب من الأنصار أو من غير الأنصار كانوا يرون أن دخول البيوت من الأبواب أو الاستظلال تحت السقوف من محظورات الإحرام، فإذا جاء أحدهم لحاجة فإنه يأتي البيت من ظهره لا من بابه؛ لأنه يرى أنه ممنوع من هذا، فبيّن الله -عز وجل- أن البر ليس له تعلق بإتيانكم البيوت بهذه الصفة وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، هذا هو سبب نزول الآية.

مسألة:

من الناس من يعتمد على التفسير بما تحتمله اللغة العربية من غير نظر إلى أسباب النزول، ومن أمثلة ذلك قول أبي عبيدة معمر بن المثنى من المعتزلة في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنفال: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [(١١) سورة الأنفال]: "المقصود الربط على القلوب بحيث تثبت القدم في المعركة فلا يفر" وهذا المعنى تحتمله اللغة لكنه ليس المراد، فأسباب النزول وملابسات النزول تدل على أنه نزل مطر فلبّد الأرض وكانت تسوف فيها الأقدام، فحصل ما حصل.

وهذا مثال آخر: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة] بعضهم قال: هذا مثل ضربه الله -عز وجل-، وهو أن تؤتى البيوت من أبوابها بمعنى أن الإنسان إذا أراد شيئاً فإنما يأتيه من وجهه الذي يحصّل به وذلك بتعاطي الأسباب الصحيحة والطرق الموصلة إلى المطالب، وهذا الكلام وإن كانت تحتمله اللغة، لكنه ليس مراداً هنا، فالمقصود أنه إذا عرف المراد وفسرت الآية به، فلا مانع عندئذ أن يقال: إن هذا العموم في اللفظ يمكن أن يعتبر في المعنى الآخر، بل هو يستعمل استعمال المثل بمعنى أنه إذا كانت للإنسان حاجة فينبغي أن يعرف السبيل الموصل إليها، وإلا فإن ذلك قد يضيع عليه حاجته، ويفوت مطلوبه، والله أعلم.

"هكذا رواه أبو داود الطيالسي عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية."

يُلاحظ في هذه الروايات أن صياغاتها صريحة حيث يقولون: فنزلت، وأما الاختلافات فهي في ألفاظ هذه الروايات وهي يسيرة، ففي بعضها يقال: إنهم كانوا يرون ذلك من محظورات الإحرام، وفي بعضها أنهم كانوا إذا قدموا من سفر، وعلى كل حال يمكن أن تحمل هذه الألفاظ المختلفة على أنهم كانوا يفعلون ذلك في هذا وفي هذا، أو أن بعض العرب يفعله في هذه الحال، والبعض الآخر يفعله في حال أخرى، فقد كانت لهم من العقائد والعادات أمور في عداد العجائب، ومن أراد أن يطلع على شيء من طقوسهم الدينية -لا سيما ما يتعلق بالإحرام والحج والمناسك- فليقرأ في مثل كتاب: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، فهذا كتاب كبير، يبلغ نحو تسعة مجلدات أو أكثر، وفيه كل ما يتعلق بالعرب، ومن ذلك ما يتعلق بالمناسك والحج، وكيف يصنعون، وقبائل العرب ماذا تصنع كل قبيلة إذا أحرمت، وتلبية كل قبيلة، ومحظورات الإحرام، والعادات المتبعة عندهم، وأمور غريبة عجيبة جداً، وتجد أن منهم من يذهب قبل حجه لزوماً إلى بعض المحال التي تعظم فيها الأوثان؛ لأنه يرى أن ذلك من تمام النسك، ومنهم من يكون منصرفه إليها بعد قضائه لحجه، وتجد كيف هي طريقة التلبية التي يرددونها، فقبيلة عك مثلاً يتقدم غلامان أسودان عاريان أمام الموكب ويصيحان بأعلى صوتهما، نحن غرابا عك، فيصيح الجمع خلفهم، ويقولون: عك إليك عانية، عبادك اليمانية، وكلام فارغ كثير مما يضحك منه العاقل يوجد في تلك الكتب.

"وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة] الآية."

المقصود أن هذه الاختلافات في هذه الروايات لا تؤثر في فهم المعنى، وإنما الذي يفهم به المعنى أن نعرف أنه كانت لبعضهم عادات في بعض الأحوال، فبعضهم كان يتسور داره، والآخر يأتي البيت من ظهره دون الدخول من بابه، وسواء كان ذلك إذا أنشأ سفراً، أو كان قد أحرم، فكل هذا لا يؤثر ما دام المقصود واضحاً.

"وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٨٩) سورة البقرة] أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لعلكم تفلحون غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

وقوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ* فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٠-١٩٣) سورة البقرة].

قال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة."

بعض أهل العلم يرى أن أول آية نزلت في القتال هي قوله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [(٣٩) سورة الحـــج]، فكان إذناً مطلقاً، ثم بعد ذلك جاء الأمر به مقيداً: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، فلم يكن الأمر بالقتال في أول الأمر على سبيل العموم والإطلاق، فيرى هؤلاء العلماء أن هذه ثاني آية نزلت في القتال.

ومنهم من يرى أن هذه هي الآية الأولى التي نزلت بالأمر بالقتال: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، ومن ثم فإن طائفة من هؤلاء يقولون: إنها قد نسختها الآية الخامسة من سورة براءة، وهي قوله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة]، ويقولون: إن هذه الآية نسخت مائة وأربعا وعشرين آية، أي: آيات العفو والصفح، ومثل هذه الآيات في القتال كقوله: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، ومثل ذلك قوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} [(٣٦) سورة التوبة]، فلم يقيد ذلك بقتال الذين يقاتلون، وهذا قول معروف لطائفة من السلف والخلف.

وذهب آخرون إلى أن الآية ليست منسوخة، وليس هذا هو معناها أصلاً وإنما جيء بهذه الصيغة: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة] من أجل التحضيض والتحريض على قتالهم، كما قال لهم في سورة براءة: {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ...} [(١٥) سورة التوبة] أي أن ذلك على سبيل التحريض على القتال، فبعض أهل العلم يقول: هذه على هذا الباب: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، أي: أن الله أمر بالقتال مقروناً بهذا ليكون ذلك حاثاً لهم على مقاتلة الأعداء، أي كأنه يقول: هم يقاتلونكم فكيف تقعدون عن قتالهم؟ وبالتالي ليس المقصود بالأمر بالقتال هنا على هذا القول قتال من قاتلهم فقط.

ومن أهل العلم من يقول: إن هذه الآية ليست منسوخة وليست على ما فهمه أولئك من أن القتال يختص بمن يقاتلهم من طوائف الكفار، وإنما تكون في من يقدر على حمل السلاح دون النساء والشيوخ والرهبان ممن لا يشارك في القتال، ولا رأي ولا تدبير له فيه، فالمقصود قاتلوا الرجال المقاتلة.

وهكذا اجتمع لنا في هذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة: الأول على النسخ، والثاني والثالث على أنه لا نسخ فيها، وكل هذه الأقوال ترجع إلى أن هذه الآية ليس المراد بها الاقتصار في القتال على من قاتل المسلمين فقط من طوائف الكفار، إلا أن يكون باعتبار أن هذا هو المعنى ثم نسخ، وإما أن المراد التحضيض والتحريض بذكر أمر تتحرك معه النفوس، وإما بأن المراد مقاتلة من يقدر على القتال ومَن مِن شأنه القتال من الرجال، وبالتالي لا نسخ.

وعلى كل هذه التقديرات ندرك أن ما يروجه بعض المفتونين والذين يكذبون على الله -عز وجل- في مثل هذه الأيام، ويتنصلون من شرائع الإسلام، ويقولون للمسلمين ولغير المسلمين: الإسلام عندنا يقول: قاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم فقط، بل حتى الذين يقاتلون المسلمين صارت مقاتلتهم إرهاباً إذا دافع المسلمون عن عرضهم وبلدهم وحريمهم، فلا بد من الاستكانة والخضوع ودفن الرءوس في التراب، ومن قاتل هؤلاء الكفار دهموا بلده وانتهكوا عرضه وقتلوا نساءه؛ لأنه من الخوارج بزعمهم، أما الذي يهدم القرى والمدن على بيوت الناس بأنواع الأسلحة الفتاكة فهذا حامل الحضارة والمدنية ورسولها، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وعلى كل حال هذا هو معنى الآية على كل التقديرات التي قال بها أهل العلم، ومن أراد أن يكذب على الله ويبدل شرائع الإسلام فهذا شأن آخر، فالإنسان يمكن أن يسكت؛ لأنه يرى أنه لا مصلحة في بعض الكلام

أحياناً، لكن لا يجوز له أن يكذب على الله في كل حال، وعلى كلٍ نحن مطمئنون والحمد لله بأن الجهاد باق إلى يوم القيامة، ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يقاتل آخرهم الدجال، فهذا وعد صادق لا يمكن أن يتخلف.

ولذلك فهؤلاء مشكلتهم مع القرآن وليست مع شيء آخر، ولذلك أخرجوا قرآناً آخر وطلبوا من المسلمين أن يتبعوه، وبالتالي فليست القضية إلا في من جاء من المفتونين المنسلخين، الذين قالوا: إن الصحابة فهموا القرآن بناءً على معطيات عندهم، ونحن بشر مثلهم وهم بشر، ونحن رجال وهم رجال، ولهم فهم ولنا فهم، وكل عصر يفهم القرآن على ضوئه، وقالوا: لا بد من قراءة جديدة للقرآن، ويقصدون بالقراءة الجديدة أنه يفسر بنفس آخر مثل ما يقول فهمي هويدي الذي يفسر الجهاد في الإسلام فيقول: هو أن يوجد حلف ضد دولة معتدية على دولة أخرى، فتطالب بدايةً بالسبل الدبلوماسية، فإن تعذر ذلك فإن هذا الحلف يكسر هذا العدوان، كما قادت أمريكا حلف الأطلسي أو الناتو في محاربة صربيا عندما اعتدت على البوسنة.

وهذا داعية إسلامي في بلاد الغرب يدافع عن الإسلام على حد زعمه فيقول في بعض القنوات الفضائية عن الحور العين: هؤلاء يجاهدون من أجل الحور العين ولا يوجد شيء اسمه حور عين أصلاً، وهذا تكذيب للقرآن، والله المستعان.

"قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقاتل من قاتله ويكف عمن كفَّ عنه، حتى نزلت سورة براءة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة] **وفي هذا نظر؛ لأن قوله: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة]**، إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همَّتهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً}** [(٣٦) سورة التوبة]**، ولهذا قال في الآية: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة] **أي: لتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً."**

قوله تعالى: **{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة] ليس معنى ثقفتموهم وجدتموهم فقط، وإنما لفظة "ثقف" تدل على حذق في الشيء، فالرجل الثقف في القتال هو الحاذق الحذر البصير، وبالتالي فإن معنى قوله: **{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** أي: حيث أدركتموهم وتمكنتم من أخذهم، فهي حذق ومهارة في إدراكهم وأخذهم، وحيث: تدل على الزمان أو على المكان.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} [(١٩٠) سورة البقرة] **أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم."**

إلا إذا كان له رأي فيقتل، مثل ما قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- دريد بن الصمة لما كانت وقعة حنين حيث جيء به شيخ كبير، قد عمي بصره، وكان له رأي وتجربة في الحروب، وقد وقع حوار بينه وبين مالك ابن عوف النصري قائد هوازن، ومعلوم كلامه الذي قاله:

ليتنـــــــي فيهـــــا جـــــذع أخـــــب فيهـــــا وأضــــــع

إلى آخر ما قال، ثم أُخذ وقُتل بالسيف بعد المعركة مع أنه شيخ كبير أعمى قد فني ولا قدرة له، لكن كان له رأي فاستحق القتل.

"والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم."

لا تفعل هذه الأمور لغير مصلحة، أما إذا كان ذلك فيه مصلحة كإغاظة العدو أو كسر شوكته فيجوز ذلك كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- في حصار بني النضير، فقال الله -عز وجل-: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}** [(٥) سورة الحشر] هذا إذن قدري وإذن شرعي، والقرآن يعبِّر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالله أذن لهم بهذا في حصار عدوهم إذا احتاجوا إليه لكسر العدو، فإذا كان ذلك لا يتأتى إلا بإحراق هذه الأشجار فإنها تحرق؛ لما فيه من إغاظة الأعداء عندما يرون مالهم يصير إلى الحرق.

قوله: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}** [(٥) سورة الحشر] يعني: من نخلة، سواء كان نوعاً خاصاً من النخل، كما قال بعضهم: العجوة، أو أنواع النخيل ما عدا العجوة، أو ما عدا العجوة والبرني، أو غير ذلك من الأقوال.

"ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلواولا تقتلوا وليداً ولا أصحاب الصوامع))[2]."

المُثلة معروفة، وهي لا تجوز ابتداء، واختلف العلماء فيها هل تجوز على سبيل المقاصة أم لا؟ فمن أهل العلم من يرى أن ذلك يجوز؛ لقوله تعالى: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل]، وكذلك ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث سمل أعين العرنيين، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم في الحرة، فكانوا يستغيثون ويطلبون الماء، ولم يعطوا ماءً حتى ماتوا؛ لأنهم فعلوا بالراعي مثل ذلك، وعلى كل حال فالمسألة معروفة وهي ليست محل اتفاق.

"وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: "وُجِدت امرأة في بعض مغازي النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتولة فأنكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قتل النساء والصبيان"، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً."

وكذلك من أعطى الجزية وصاحب العهد والمستأمن لا يجوز قتلهم، فيكون على هذا القول قوله تعالى: **{وَلاَ تَعْتَدُواْ}** [(١٩٠) سورة البقرة] أي: لا تعتدوا بقتل من أعطى الجزية، والمعاهد، والمستأمن، والشيخ الكبير، والمرأة، والطفل، والرهبان في الصوامع، وما أشبه ذلك، وعلى القول بأنها منسوخة، يكون العدوان بقتال

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير - باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة (١٧٣١) (ج ٣ / ص ١٣٥٦).

الطوائف التي لم يحصل منها قتال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وجد امرأة مقتولة في بعض المغازي، فأنكر قتل النساء والصبيان[3]، وفي رواية قال: ((ما كانت هذه تقاتِل فيمن يقاتل))[4]، يعني أنه أنكر قتلها.

وهذا القول الأخير أي: لا تعتدوا بقتل من لا يستحق القتل من صاحب جزية أو مستأمن أو شيخ كبير أو نحو ذلك، هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وبهذا الاعتبار تكون الآية ليست منسوخة.

"ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصدِّ عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطمّ من القتل ولهذا قال: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) **سورة البقرة]."**

هذا جواب كبير لسؤال أو لشبهة تطرح في قضية الجهاد، وهي: أن فيه إزهاقاً للنفوس فالله يقول: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) سورة البقرة]، ويقول في موضع آخر: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [(٢١٧) سورة البقرة]، أي: ما هم فيه من الكفر أو فتن الناس عن دينهم وصدهم عن سبيل الله -عز وجل- حتى يصيروا إلى الكفر هذا أعظم من القتل، ولذلك ينبغي أن نستفيد من أجوبة القرآن في الرد على دعايات الكفار ضد المسلمين، وتشويه صورة الإسلام.

"قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل، وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس في قوله: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) سورة البقرة]، **يقول: الشرك أشد من القتل."**

هذا معنى ما ذكر في الرواية السابقة من أن الفتنة هي الشرك، ومن أهل العلم من يقول: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) سورة البقرة] أي: صد الناس عن الدين وامتحانهم حتى يتحول الرجل من الإيمان إلى الكفر بالله أشد وأعظم من سفك دمه، وهذا الذي اختاره ابن جرير في معنى الآية.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب قتل النساء في الحرب (٢٨٥٢) (ج ٣ / ص ١٠٩٨) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤) (ج ٣ / ص ١٣٦٤).

[4] - صحيح ابن ماجه في كتاب الجهاد - باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢٨٤٢) (ج ٢ / ص ٩٤٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩١) سورة البقرة]، كما جاء في الصحيحين: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم))[1] يعني بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخندمة، وقد آمنهم بقوله: ((من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))[2]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة]: هذه الآية صريحة في تحريم القتال في الحرم، والمراد بالمسجد الحرام الحرم بأجمعه، وليس المقصود به مسجد الكعبة المعروف فقط، وإنما الحرم كله.

قال بعض أهل العلم في هذه الآية كابن جرير -رحمه الله-: إنها منسوخة بقوله -تبارك وتعالى- في سورة براءة: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** [(٥) سورة التوبة]، وبقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [(١٩٣) سورة البقرة]، على أن قوله تعالى: **{حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** عام، يدخل فيه الحرم وغيره، وقوله: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** بمعنى حتى لا يكون كفر، فحيث وجد الكفر وجد القتال.

وهذا القول فيه نظر؛ لأن تلك الآيات وإن كانت عامة فإنها مخصصة بهذه الآية: **{وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة]، أي: قاتلوا الكفار ولكن المسجد الحرام لا يحل لأحد أن يقاتل فيه، وإنما أحل للنبي -صلى الله عليه وسلم- ساعة من نهار.

والذي يدل على أن هذه الآية محكمة غير منسوخة هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرَّح بعد فتح مكة بأن القتال لا يحل لأحد بعده، فقال: ((وإنما أحلت لي ساعة من نهار))[3].

---

[1] - أخرجه البخاري في أبواب الجوية - باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٧) (ج ٣ / ص ١١٦٤) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة (١٧٨٠) (ج ٣ / ص ١٤٠٥).

[3] - سبق تخريجه.

وغزوة تبوك نزلت فيها أو بعدها بقليل كثير من آيات سورة براءة، وذلك قبل حجة الوداع كما هو معلوم، وحجة الوداع كانت في آخر حياته حيث لم يعش بعدها النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا قريباً من ثمانين يوماً، وقد قال -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه في ذلك الجمع العظيم في خطبته: ((أي يوم هذا، أي شهر هذا، أي بلد هذا))، ثم قال لهم: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا))[4]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فهو يرسخ هذا المفهوم ويؤكد مدلول الآية بأن الحرم لا يجوز لأحد أن يقاتل فيه، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، ولكن العلماء اختلفوا في بعض التفصيلات، كما لو التجأ إلى الحرم أحد ممن عليه دم، فبعضهم يقول: يضيق عليه حتى يخرج منه ثم يؤخذ، وبعضهم قال: إن الحرم لا يعصم دم من عليه دم أو جناية، وقتاله لا يكون مخالفاً لمدلول هذه الآية، وهذا هو الأرجح، وهو أن من كان عليه جناية من الجنايات فإن وجوده في حرم الله لا يمنع من أن يقتص منه، ويدل على هذا أيضاً أمور منها:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بقتل ابن خطل وغيره ممن أهدر دمه -صلى الله عليه وسلم- حينما فتح مكة، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، وقد وجدوا ابن خطل متعلقاً بأستار الكعبة فقُتل، وهذه هي خلاصة مسألة القتال في المسجد الحرام بإيجاز شديد، وستأتي مسألة أخرى إن شاء الله في موضعها في سورة براءة، في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [(٣٦) سورة التوبة] فعندنا القتال في الحرم: فهو يختص بالبقعة ولا يتوقت بوقت، وعندنا القتال في الأشهر الحرم: فهو لا يختص ببقعة ولكنه مؤقت بوقت في أرجاء الدنيا، وهذا الوقت هي الأشهر الحرم -ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب- فهذه لا علاقة لها بالبقعة، والخلاف فيها أكثر من الخلاف في المسألة الأولى وهي مسألة القتال في الحرم، ويأتي إن شاء الله تعالى الكلام على هذا.

قال المؤلف: **يعني بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- قتاله أهلها يوم فتح مكة**، يلاحظ أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وهنا يقول: إن مكة فتحت بالقوة عام الفتح، وهذه مسألة فيها خلاف كثير جداً بين أهل العلم وتترتب عليها مسائل من قضية القتال في مكة، ومسائل تتعلق ببيوت مكة وأرضها، وهل دخلها النبي -صلى الله عليه وسلم- صلحاً أو فتحها بالقوة والقهر، وهذه المسائل مبسوطة في كتب الفقه، والقول بأنها فتحت بالقوة أو فتحت صلحاً يترتب عليه أحكام، والأقرب من كلام أهل العلم أنها فتحت بالقوة، وحصل يوم الفتح قتال بعض النواحي مع بعض فلول المشركين ولكنه قليل، وقتل منهم من قتل، وفر من فرَّ.

يقول: **وقتلت رجال منهم عند الخندمة**، الخندمة تطلق على محال واسعة، ويمكن أن يراد بها جبال مكة الشرقية إلى ناحية الشمال قليلاً ابتداء من جبل أبي قبيس إلى جبل ثبير، وجبل ثبير كان يقول المشركون فيه وهم في منى: أشرق ثبير كي ما نغير، أي لأجل أن يذهبوا إلى عرفة، فالمقصود أن الخندمة تدخل فيها هذه المناطق كلها، ومنها المناطق التي لم يكن الناس يأتونها في السابق مثل: محبس الجن، وتدخل فيها منطقة

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب حجة الوادع (٤١٤٤) (ج ٤ / ص ١٥٩٩) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

الملاوي والروضة والعزيزية، ومن جهة الشمال قليلاً يدخل فيها شعب عامر، وفيها الأبيات المعروفة لحماس ابن قيس لما كان يعد امرأته دائما ويقول لها: سأُخدِمُك بنات محمد، فلما حصل الفتح جاءها فاراً يطرق بابه، ويطلب منها أن تفتح مع أنه كان يقول لها: لا تفتحي لي الباب إذا انهزمت، فجاء فاراً ذلك اليوم، فقالت: أين ما كنت؟، وكان يبحث عن مكان يختبئ فيه، فقال لها:

إنــك لــو شــهدت يــوم الخندمــة	إذ فــر صـــفوان وفــر عكرمــة
واســـتقبلتنا بالـــسيوف المـــسلمة	يقطعـــن كـــل ســـاعد وجمجمـــة
لهـــم نهيـــت خلفنـــا وغمغمـــة	لـــم تنطقـــي بـــاللوم أدنـــى كلمـــة

"**وقوله تعالى: {حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}** [(١٩١) سورة البقرة] **يقول تعالى: ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ.**"

من هم الأحابيش؟:

لما يتكلم أهل السير عن غزوة أحد يقولون: جاءت قريش، وجاء أهل تهامة ومن معهم من الأحابيش، وتهامة معروفة وأما الأحابيش فهم بطون من العرب أو قبائل حول مكة ليسوا من قريش مثل: بني الهون وبني المصطلق من خزاعة، وبني الحارث بن عبد مناة وأمثال هؤلاء يقال لهم: الأحابيش، وقيل لهم ذلك بناء على حلف حصل بين هذه القبائل -قبائل من كنانة ومن خزاعة أو بطون من كنانة وخزاعة- يقال: إنهم تحالفوا عند وادٍ من الأودية يقال له الأحبش فنسبوا إليه، ويقال: إنهم تحالفوا عند جبل قريب من عرنة بجوار عرفة، يقال له: حُبْشِي فنسبوا إليه.

"**ثم كفَّ الله القتال بينهم فقال: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}** [(٢٤) سورة الفتح]، **وقال: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [(٢٥) سورة الفتح]، **وقوله: {فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٩٢) سورة البقرة] **أي فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه.**"

{لَوْ تَزَيَّلُوا} [(٢٥) سورة الفتح] يعني لو تميز المسلمون من الكفار في مكة لسلط الله على أهل مكة أصحاب الحديبية فهم جيش متكامل، لكن لما كان يوجد في أهل مكة مسلمون حبس الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- عد دخول مكة لئلا يحصل ضرر على هؤلاء المسلمين المستضعفين بين أهل مكة فقد يحصل فيهم جراح أو قتل، فأين هذا من فعل بعض الجهلة الذين يقتلون من لم يخوَّلوا بقتلهم أصلاً بل وفيهم من فيهم من المسلمين؟! فالله حبس رسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه وهم خيار أهل الأرض، من أجل عدد قليل في مكة كانوا على الإسلام مع أن أهل مكة كانوا محاربين، ، فأين هذا من قول من يقول: إن هؤلاء يقتلون تبعاً؟!.

"ثم أمر الله بقتال الكفار: {حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، أي شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم.

{وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ} [(١٩٣) سورة البقرة]: أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[5]، وفي الصحيحين: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))[6].

وقوله تعالى: {فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] يقول تعالى: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: ألا يقاتل إلا من قاتل، أو يكون تقديره فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو: الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة."

ذكر ههنا معنيين في قوله: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]: الأول: {فَإِنِ انتَهَواْ} يعني إن انتهوا عما أوجب قتالهم فإن قتالهم في هذه الحالة ظلم؛ حيث قال: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]: يعني قاتلوهم إلى هذه الغاية {حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، فإن حصل منهم كف عن الشرك فلا يجوز لأحد أن يقاتلهم، فمن قاتلهم فهو ظالم معتد.

والمعنى الثاني: {فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]: يعني أنكم مأمورون بالكف عنهم إلا من تعدى وظلم منهم، من حصل منه عدوان وظلم فإنه يكف ظلمه وعدوانه، وربما كان هذا هو الأقرب والمتبادر، والمناسب للسياق، والله أعلم.

"والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، وقوله: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل]."

قوله: {فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ}: هؤلاء المسلمون يقاتلون المشركين بحق ومع ذلك سمى هذا الفعل عدواناً، فكيف سماه عدواناً؟ بعض أهل العلم يقول: هذا من قبيل المشاكلة، وهي نوع من المجاز عند كثير من أهل اللغة، فقوله: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]، قال: لأنهم اعتدوا سمي القصاص منهم بالاسم الذي استوجبوا به هذا القصاص، ومثل ذلك قوله تعالى: {فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، مع أن فعل هذا الإنسان الذي يكف الشر والعدوان لا يكون معتدياً بالمعنى المعروف، أي

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [(١٧١) سورة الصافات] (٧٠٢٠) (ج ٦ / ص ٢٧١٤) ومسلم في كتاب الإمارة - باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤) (ج ٣ / ص ١٥١٢).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٧٨٦) (ج ٣ / ص ١٠٧٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ووكلت سريرته إلى الله تعالى وقتالِ من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (٢١) (ج ١ / ص ٥٢).

أن صاحبه متعدّ ظالم، وإنما هو يقوم بالعدل، لكن سماه عدواناً في مقابل فعلهم، كما قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، فهذا المقتص فعله ليس سيئة.

وعلى كل حال بغض النظر عن نوع هذه التسمية هل هي من قبيل المشاكلة أو لا، فإننا إذا أردنا أن نفحص هذه الألفاظ في مثل قوله: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]، نجد أن هذا الإنسان له حق وله حد وله حرمة، فإن حصل منه تجاوز فإن ذلك الحق يسقط، وحرمة دمه إن كان قد أصاب دماً حراماً ترتفع، فيجوز أن ينال منه بقدر ما فعل، فبهذا الاعتبار يمكن أن يقال له: عدوان، لكنه عدوان بحق.

قوله: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، السيئة إنما سميت سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها، هي مما يُستاء منه، فمن أساء لقي ما يسوءه، وليس معنى ذلك أن من صدر منه عقوبة للمسيء فإن ذلك يكون سيئة في حظه وميزانه عند الله -عز وجل-، فليس هذا هو المراد، ولكن المراد أن هذا الفعل الذي صدر منه بالنسبة إلى ذلك المعاقب يعتبر سيئة، أي أنه يسوء ذلك المعتدي، والله أعلم.

"ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله، وروى البخاري تحت قوله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة] الآية.."

هذا يمكن أن يكون وجهاً ثالثاً، فالأول: لا عدوان إلا على من اعتدى على هؤلاء الذين كفوا عن الكفر، والثاني: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] أي: لا عدوان إلا على من حصل تجاوز منهم وظلم، والثالث: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] أي إلا على الكافرين، فهؤلاء قد تركوا الكفر فإذن قتالهم ليس عدواناً عليهم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام))[7].

"عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا:.."

بعض العلماء يسمونها فتنة ابن الزبير، ونجد هذا أيضاً في كلام ابن كثير وجماعة، وهم يقولون: فتنة ابن الزبير مع أن ابن الزبير صارت له الحجاز والعراق وخراسان ومصر، ولم يبق لبني أمية إلا الشام فقط، حتى إنه لما مات يزيد جاء قائد الجيش الذي كان يحاصر ابن الزبير في مكة من أهل الشام واسمه إبراهيم وذلك قبل الحجاج، جاء وطلب ابن الزبير وجلس معه، وقال له: معي وجوه الناس وأشرافهم، لا يختلف عليك رجل واحد منهم وأنت أحق بهذا الأمر، لكنه طلب منه أمراً وهو أن يعاهدهم على العفو ولا يحصل قتل لأحد ولا أخذ لأحد منهم، وإن كانوا قد حاصروا الكعبة ووضعوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، وتخرقت الكعبة، فالمقصود أنه طلب منه أن يكف عنهم على أن يبايع له أهل الشام الذين بقوا فقط، فأبى ابن الزبير أن يعطيه شيئاً، فغضب الرجل وتكلم بكلام لا يليق في حق ابن الزبير وذهب، ثم إن مروان أيضاً كان يرى أن ابن الزبير أحق منه بمسافة، فليس هناك مقارنة بين مروان وبين ابن الزبير، وأراد أن يخرج من دمشق ويترك الأمر لابن الزبير فهو أحق منه بهذا، فجاء بعض من كلمه وأغراه أن يأخذ الخلافة فرجع، ولم يمكث طويلاً حتى مات، ثم جاء عبد الملك وحصل ما حصل.

---

[7] - سبق تخريجه.

"عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير، فقالا: إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي -صلى الله عليه وسلم-."

هم يسمونها فتنة ابن الزبير؛ لأن الأمر لم يستقر له.

"فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: أولم يقل الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله."

أي أنه كان يقول له: يا ابن عمر إن الناس يتقاتلون وتوجد مفاسد عظيمة حيث إن الأمة تفرقت وكذا، وكذا وأنت أحق الناس بالخلافة ممن جعلهم عمر -رضي الله عنه- بعده، وهو فعلاً كان بمنزلة يستحق معها الخلافة بعد أبيه، فهو في مقياس عمر، ومع ذلك لما تأخر الزمان وحصل ما حصل كانوا يقولون له: هذا وقتك، أنت أحق بهذا الأمر، والله يقول: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، والآن الأمة تعيش في فتنة تمزق، ولا يوجد أحد يدانيك فأبى ذلك.

"وزاد عثمان بن صالح: أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله -عز وجل- وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: "يا ابن أخي بني الإسلام على خمس الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت"، قالوا: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [(٩) سورة الحجرات]، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، قال: فعلنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون."

قوله: **أما عثمان فكان الله عفا عنه**، أي عفا عنه الله حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم))[٨]، يعني بعدما جهز جيش العسرة.

وقوله: **وأما علي فابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وختنه**، يعني زوج ابنته.

وهذا الجواب الذي أجاب به ابن عمر جواب في غاية الاعتدال والصواب، فهؤلاء دخلوا في هذه المشكلات، فهم يريدون من الآخرين إما أن يكونوا معنا أو ضدنا، فكانوا يمتحنون الناس بهؤلاء الأشخاص، فابن عمر قال: هؤلاء كلهم من أهل الفضل والصلاح والخير والإمامة في الدين، ولا نقول فيهم إلا خيراً، أي أنه لا يلزمنا إذا أحببنا هذا أن نعادي الآخر، ولكن النفوس إذا تصحرت واعتلجت الفتنة في قلوب الكثيرين لا يحتملون هذا ولا يفهمونه، فتجد الواحد منهم إما أن يحب هذا حباً غالياً ويبغض الآخر بغضاً متناهياً أو العكس، ولذلك تجد أن مثل هؤلاء يقع منهم السب والشتم واللعن، بل ربما وصل الأمر إلى حد الرمي بالكفر،

---

[8] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه- (٣٧٠١) (ج ٥ / ص ٦٢٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٩٢٠).

فالخوارج كفروا علياً وكفروا أهل الشام، وكثير من أهل الشام كانوا يلعنون علياً -رضي الله عنه- ومن معه من جيش أهل العراق ويدعون عليهم في القنوت، وأهل الشام وأهل العراق كانوا أيضاً يقنتون على الطائفة الأخرى، ووجدت فرقة جديدة أيضاً غير الخوارج والشيعة، وهذه الفرقة هي أقرب ما تكون بالفرقة السياسية وهي الناصبة، وهذه الفرقة انتهت بذهاب دولة بني أمية.

فالمقصود أن مثل هذه الردود والأجوبة كجواب ابن عمر -رضي الله عنه- هي التي تكون لأهل الدين والتجرد من الهوى ممن لم ينغمس في فتنة.

"وقوله تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [(١٩٤) سورة البقرة]**، قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم فنزلت في ذلك هذه الآية: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** [(١٩٤) سورة البقرة]."

معناها بهذا الاعتبار أنهم منعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- من دخولها في ذي القعدة، وهو شهر حرام، فدخلها النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذي القعدة من السنة التي بعدها معتمراً -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله تعالى: **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، الحرمات: جمع حرمة، وهي كل ما حرم الشارع انتهاكه.

"وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: "لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ". هذا إسناد صحيح."

يعني أنه لم يكن يبدأ بالغزو، فإذا دخل الشهر الحرام مكث في المدينة، لكنه إذا غزي فإنه لا يبقى متفرجاً، ومن المعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة عام الفتح في رمضان، تجمعت هوازن ومن معها، حتى جاءوا إلى وادي حنين بين مكة والطائف فخرج إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في شوال، ووقع القتال والحصار لأهل الطائف في ذي القعدة، أي أن قتالهم كان في الشهر الحرام، ولكن من الذي بدأ ومن الذي جهز ومن الذي جيش الجيوش؟ الذين بدءوا هم أهل الطائف.

"ولهذا لما بلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة."

وهذا كان في شهر ذي القعدة، حيث إنه لما بعثه -صلى الله عليه وسلم- ليتفاوض مع المشركين جاءت إشاعة أن عثمان -رضي الله عنه- قد قتل، فبايع أصحابه، فبعضهم يقول: بايع على القتال وألا يفروا، وهذا عليه كثير من المحققين، قال تعالى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، فهم عزموا على قتال المشركين، رداً على هذا الإجرام والاعتداء وهو قتل السفراء، فالسفراء ما كانوا يقتلون لا في جاهلية ولا في إسلام، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لوفد مسيلمة الكذاب: ((لولا أن

الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما))[9]، حيث قال وفد مسيلمة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إن مسيلمة يقول: أنا نبي وأنت نبي، والله خلق الأرض وجعلها نصفين، فجعل نصفها لك ونصفها لي، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء وقال لهم هذا القول: ((لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما)).

"وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان.

وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلُّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق، استمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها، ولم تفتح، ثم كرَّ راجعاً إلى مكة، واعتمر من الجعرَّانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، **أمرٌ بالعدل حتى في المشركين كما قال: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل].

وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [(١٩٤) سورة البقرة] **أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة."**

قال أهل العلم في قوله تعالى: **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}**: لما صدَّ المشركون نبي الله -صلى الله عليه وسلم- عن البيت كان القصاص منهم وفق المعاهدة أن يدخلها في نفس الوقت بعد عام.

إلا أن ظاهر الآية أعم من ذلك، ويدل على ذلك قوله تعالى: **{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

[9] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في الرسل (٢٧٦١) (ج ٢ / ص ٩٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

"قال الله تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة]، **روى البخاري عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه-: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، قال: نزلت في النفقة، ورواه ابن أبي حاتم مثله."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، النفقة هنا أعم من أن تكون مختصة بالنفقة الواجبة التي هي الزكاة، فهو أمر عام بإخراج الأموال، ما كان ذلك الإخراج فيه على سبيل الوجوب كالزكاة، وما كان على سبيل التطوع.

قوله: {فِي سَبِيلِ اللّهِ}، سبيل الله إذا أطلق في القرآن فالأصل أن المراد به الجهاد وهذا هو الغالب، ومعلوم أن من مصارف الزكاة الجهاد في سبيل الله كما في سورة براءة: {وَفِي سَبِيلِ اللّهِ} [(٦٠) سورة التوبة]، فالأرجح من أقوال أهل العلم أن المراد به الجهاد خاصة.

وقوله: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، العرب تقول للمستسلم: أعطى فلان بيديه، يعني استسلم، وتقول لمن استجاب وخضع لما يطلب منه: أعطى بيديه، فالعرب تعبر باليدين عن الاستسلام والانقياد التام من غير معارضة ولا مقاومة.

فقوله: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] يعني لا تستسلموا للهلكة.

وأحسن ما فسرت به هذه الآية: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] ما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما خلاصته ومحصلته: أنكم إذا تركتم النفقة في الجهاد قوي عدوكم وكان من نتيجة ذلك أن تسلَّط عليكم وقهركم، وأخذ ما بأيديكم، وقتل من قتل منكم وانتهك الأعراض، وفعل فعله فيكم، فهذا معنًى يدخل في الآية دخولاً أولياً أصلياً.

ويدخل في معنى الآية أيضا ما ذكره طوائف من السلف من أن تركهم للإنفاق في سبيل الله -عز وجل- الذي أمرهم الله به هو لون من إلقاء النفس في التهلكة، وهذا المعنى معنًى ظاهر يدخل في الآية أيضاً بلا شك، فترك أمر الله -عز وجل-، والإعراض عنه من إلقاء النفس في التهلكة.

ويدخل في عموم اللفظ في قوله: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} كل طريق وسبيل يفضي بالإنسان إلى التهلكة، أي لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا تلقوا بأيديكم، ولا تلقوا بأرواحكم، فمن سلك طريقاً مخوفة من غير موجب يقال له: لا تلق بيديك إلى التهلكة، ومن سافر سفراً طويلاً بعيداً يحتاج معه إلى الزاد فذهب من غير زاد وليس في طريقه ما يجد فيه حاجته، فإنه يقال: ألقى بيده إلى التهلكة، ومن تعاطى شيئاً من الأمور

الضارة فإنه يكون قد ألقى بيديه إلى التهلكة، ومن عرَّض نفسه للأخطار من غير موجب يقال: ألقى بيده إلى التهلكة، وهكذا كل ما يفضي بالإنسان إلى الهلكة من غير موجب، فإن ذلك يدخل تحت عموم هذه الآية.

"قال روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد وعكرمة وسعيد ين جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية."

يعني أن هذا الرجل حينما دخل في صف العدو لوحده، أو إذا خرج إلى العدو من غير درع، قالوا عنه: ألقى بيده إلى التهلكة، فهل هذا هو المراد؟

يقال: الجواب لا؛ لأنه يجوز للإنسان في الجهاد أن يخرج من غير درع، ويجوز له أن يحمل على العدو لوحده ولو كان المظنون غالباً أنه يقتل إذا كان لا يتحمل تبعة ذلك غيره من المسلمين بحيث يعود عليهم بالضرر، أما إذا كان تصرفه يفضي إلى ضرر يتحمله غيره فيقال له: لا وألف لا؛ لأنه يسع الإنسان في نفسه ما لا يسعه في غيره، وهذه قاعدة مهمة، فالإنسان يمكن أن يحمل نفسه على أمور من الورع، أو أمور تتصل بالجهاد أو نحو ذلك من الأمور التي فيها لون من المخاطرة بالنفس، لكن لا يتحمل تبعة هذا غيره، ولذلك عمر -رضي الله تعالى عنه- لم يكن يولي البراء بن مالك -رضي الله تعالى عنه- مع أنه من خيار الصحابة؛ وذلك لفرط جراءته، ففي يوم اليمامة كما هو معلوم طلب من الصحابة أن يجعلوه على ترس، ويرفع على أسنة الرماح الطوال، ثم ألقوه في حديقة الموت في حصن أهل اليمامة، فنزل عليهم يضربهم بالسيف حتى فتح الباب، فهذا الأمر يمكن أن يفعله رجل واحد، وإن كان المتوقع غالباً أنه يموت، لكن لا يقدم على هذا إنسان يقود مجموعة من الجيش، ويحملهم على هذه الأمور بهذه الطريقة فيفضي بهم ذلك إلى هلكة وموت غالب، فهو يسعه في نفسه ما لا يسعه في غيره، وهذا إذا كان قتله بيد العدو، وهو بخلاف ما إذا كان موته بيده هو، فهذه قضية ثانية.

"فقال أبو أيوب: "نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيًّا فقلنا:..."

نجيًّا: يعني في حال نجوى، أي نتناجى، أي أنهم انفردوا عن غيرهم، فالنجوى: كل حديث تنفرد به طائفة عن غيرها وهذه الطائفة اثنان فأكثر.

"فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم- ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] **فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد". رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره، وابن أبي حاتم، وان جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

ولفظ أبي داود: عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يريد فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية."

قوله: **قلنا فيما بيننا**، هذه هي النجوى، وقوله: **فأنزل الله هذه الآية**، هذا من قبيل سبب النزول الصريح الذي عرفناه في درس ماضٍ، وذلك بأن يذكر واقعة أو سؤالا ثم يقول بعده: فأنزل الله، وهذا بخلاف ما لو قال كما في الرواية السابقة: إنما نزلت فينا معشر الأنصار، فهذه الرواية غير صريحة، وإنما المعنى أننا ممن يدخل في معناها، لكن في هذه الرواية قال في آخرها: فنزل فينا، فهذا مثال على أحد أنواعه، وهو ما جمع فيه بين الصيغتين، ففي أول الحديث غير صريح، وفي آخره جاء ذلك صريحاً حيث قال: فنزلت الآية، ولهذا فإن أهل العلم تكلموا في هذا النوع وهو فيما إذا قال: هذه الآية نزلت في كذا، هل له حكم الرفع أم ليس له حكم الرفع؟

كثير من أهل العلم يقولون: ليس له حكم الرفع؛ لأنه متردد، فهو يحتمل أن يكون من قبيل التفسير، كما في مثل قول ابن عمر –رضي الله عنهما- لما رآهم يغلقون حوانيتهم للصلاة قال: في هؤلاء نزلت: **{رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ}** [(٣٧) سورة النـــــور] وكان هذا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بمدة طويلة، فلا يمكن أن تكون نزلت هذه الآية في هؤلاء الذين أغلقوا الحوانيت، وإنما يقصد أن هؤلاء ممن يدخلون في معناها، أي في عمومها، والمقصود أن هذا اللفظ محتمل، فأحياناً يقصد به سبب النزول وأحياناً لا يقصد ذلك، ولذلك لا يحكم عليه بأنه من قبيل المرفوع إلا ما كان صريحاً، فهذا المثال -الرواية السابقة- هي مثال واضح على أن ذلك تارة يراد به هذا وتارة يراد به هذا، وهي مثال على ما اجتمع فيها الصيغتان.

والخلاصة هي أن هذه الرواية في قوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** [(١٩٥) سورة البقرة] نزلت في الرجل الذي أغار على الروم لوحده أو دخل في صفهم، وهي تدل على أنهم كانوا يفهمون من عموم الآية أنه إذا اقتحم الإنسان طريقاً يغلب فيه عليه الهلاك فهو مقصود بالآية، لكن في هذا المثال المعين كان الحكم غير صحيح؛ لأن هذا الفعل كما قلت آنفاً فيه قربة وطاعة وجهاد وهو إنما اقتحم بنفسه ولم يحمل غيره على هذا الاقتحام، فيسعه في نفسه ما لا يسعه في غيره من العمل المشروع في أصله لا الأمر غير المشروع.

صور من إلقاء النفس في التهلكة:

تقرأ في الأخبار -في الإنترنت مثلاً- أن رجلاً ذهب ليجاهد في العراق ثم دخل بين الرافضة في يوم عاشوراء وفجر نفسه، هل هذا جهاد؟

هذا إلقاء بالنفس في التهلكة، وهو من أسوأ الأعمال؛ حيث يترك أهله ويسافر، ثم هذه نهايتها، لكن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله به عدوه نسأل الله العافية.

كيف تكون نهاية الإنسان بهذه الطريقة؟ ومن الذي حمله على هذا؟ ومن الذي زين له هذا العمل، ومن الذي قال له: إن عملك هذا جهاد، وإن عملك هذا مشروع؟.

قد عدَّ نفسه أنه على خير وطاعة وقربة، والحقيقة أن من يفعل هذا يقال له: ليتك ثم ليتك ما ذهبت ولا جاهدت.

"وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه-: "إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟" قال: "لا، قال الله لرسوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(٨٤) سورة النساء] **وإنما هذه في النفقة" رواه ابن مردويه، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الثوري وقيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن البراء، فذكره وقال بعد قوله: لا تكلف إلا نفسك، ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب."**

من الصور التي تدخل في إلقاء النفس في التهلكة أن يتقحم الإنسان الذنوب ومعصية الله -عز وجل- ويستمر على ذلك.

وقل مثل ذلك في الأمور الأخرى التي أشرت إليها آنفاً، كأن يركب الإنسان الأخطار من غير موجب، فيسافر من غير زاد، وهو يعلم أنه لن يجد في طريقه ذلك، فهذا يكون ألقى بيده إلى التهلكة، وهكذا في كل ما يتصور في هذا من غير موجب.

وهذه الآثار التي تذكر هنا يستدل بها عادة من يقول بجواز ما يسمى بالأعمال الانتحارية، وليس الأمر كذلك فيما أظن؛ لأن الذين ذكروا في هذه الآثار التي استُدل بها إنما قتلوا على يد عدوهم وليس على أيديهم هم.

"وقال عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] **قال: ليس ذلك في القتال إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة."**

القتال من الممكن أن يكون فيه تهلكة وذلك أنه لو حمل قائد الجيش جيشه على ارتكاب المهالك والأخطار العظيمة التي تفضي بهم إلى الهلكة غالباً، وإنما قوله هنا: **ليس ذلك في القتال**: يعني على ما فهمه هؤلاء من أن هذا الإنسان الذين اقتحم في صف العدو وحده ليس هو المراد وإنما المراد ترك النفقة في الجهاد في سبيل الله، فإن ذلك إلقاء باليد إلى التهلكة، ويوضحه قول ابن عباس -رضي الله عنهما- الذي سبق ذكره وهو قوله: "إذا تركتم النفقة في الجهاد قوي عدوكم وكان من نتيجة ذلك أن تسلّط عليكم وقهركم، وأخذ ما بأيديكم، وقتل من قتل منكم وانتهك الأعراض، وفعل فعله فيكم".

"ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده.

ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة]."

أمرهم الله بقوله: **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** ثم أمرهم بالإحسان عموماً فقال: **{وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [(١٩٥) سورة البقرة] وذلك لا يختص بوجه دون وجه، ولذلك حمله ابن

جرير على أوسع معانيه، فقال: أحسنوا بأداء فرائضي واجتناب النواهي والإنفاق في سبيل الله، وبعض أهل العلم يقول: {وَأَحْسِنُوَاْ} أي: أحسنوا ظنكم بالله في إخلافه عليكم وعائدته عليكم بهذه النفقة التي أنفقتموها كي لا تضيع، لكن هذا المعنى بعيد، فالأصل في مثل هذا حيث يحذف المتعلق أنه يحمل على أعم معانيه، فهو قال: {وَأَحْسِنُوَاْ} ولم يقل: ظنكم ولا يوجد في السياق ما يدل عليه، لكن بعض المفسرين لما نظروا إلى قوله: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}، قالوا: هذا إحسان بالمال، ثم قال ثانياً: {وَأَحْسِنُوَاْ}، فقالوا: هذا الإحسان إذاً إحسان الظن، وليس ذلك بلازم، وإنما يقال: إن قوله: {وَأَحْسِنُوَاْ} أي إضافة إلى إحسانكم السابق بالإنفاق في سبيل الله الذي أمرهم به، فيدخل فيه النفقة، ويدخل فيه سائر وجوه الإحسان القولية والفعلية والمالية، فيحمل على عموم معناه، حيث لم يخصص معنًى دون معنى، وهكذا التهلكة تحمل على أعم المعاني وإن كان يدخل فيها ما سبق دخولاً أولياً، وهو سبب نزول الآية.

وفي الأصول -أصول الفقه- أن الأفراد الداخلة تحت العموم ثلاثة أنواع من حيث القوة، ومنها:

الأول: صورة السبب -سبب النزول- فهي تدخل دخولاً أولياً تحت العام، فالعام هنا مثلاً قوله: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] فكل صورة من صور التهلكة داخلة فيه، والتي نزلت بسببها الآية هي ترك النفقة في سبيل الله، وهذا بعض أفراد العام، فالتهلكة يدخل فيها ترك النفقة في سبيل الله، ويدخل فيها إنسان يربط الحبل في عنقه، ويدخل فيها أن يرقى إنسان جبلاً شاهقاً، أو عمارة عالية من غير موجب، أو تكون هوايته تسلق الحبل المربوط بين عمارتين ونحو ذلك من صور التهلكة، فهؤلاء جميعاً يقال لهم: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، لكن ترك النفقة في سبيل الله هي صورة سبب النزول فهي أقوى صورة داخلة من أفراد العام في هذا المعنى.

النوع الثاني الذي يلي الصورة الأولى في الدرجة وفي قوة الدخول في العام هو ما يسمى بالتخصيص بالمجاورة، أي المجاور لسبب النزول، أي علاقة المناسبة بين الآيات، ومثال ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [(٥١) سورة النساء]، فالمقصود بذلك هم اليهود لما ذهبوا إلى قريش وحرضوهم على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسألهم المشركون أيُّنا أهدى؟ فقالوا: أنتم أهدى من محمد، وسجدوا لآلهة المشركين إلى آخر القصة المعروفة، وهي كانت بعد غزوة أحد، وقد نزلت مجموعة من الآيات بسبب هذه القضية في سورة النساء، وبعد هذه القضية يقول تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [(٥٨) سورة النساء]، وهذه ليس لها علاقة بهذه القضية فهي نزلت عام الفتح، ويذكرون فيها سبب نزول جاء في رواية فيها ضعف وذلك في قصة مفاتيح الكعبة، إلا أن قوله: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ} [(٥٨) سورة النساء] يدخل فيها جميع أنواع الأمانات، من أمانة الكلمة والشهادة بالحق، وإذا أخذت من الإنسان شيئاً يجب أن ترجعه إليه، ويدخل في ذلك دخولاً صورة سبب النزول -إن صحت- وهي إرجاع مفاتيح الكعبة لأصحابها ويدخل في ذلك أنك إذا أخذت من الإنسان شيئاً ترجعه إليه، ويلي ذلك في القوة ما جاوره مع أنه لم ينزل معه وهو ما ذكر في المقطع الذي قبله أي شهادة اليهود التي كتموها، وذلك أنهم قالوا: أنتم أهدى من محمد، فالشهادة بالحق تدخل تحت أفراد العام، ويدخل فيه سائر أفراد العام مثل لو أن إنساناً استكتمك على شيء فعليك كتمه، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي

تدخل في هذا الموضوع، ومثل هذا قوله: {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة] فهو يحمل على معناه الأعم في الإحسان، فتدخل فيه النفقة في سبيل الله، ويدخل فيه التصدق على الفقراء، والإحسان إلى الأقارب، ويدخل فيه الإحسان بالقول والكلام كما قال تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة]، ويدخل فيه الإحسان بالفعل وإعانة المحتاج ومواساة المريض إلى غير ذلك.

"وقول الله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٩٦) سورة البقرة] **لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة"**

هذا الكلام يسمى المناسبة بين الآيات، أو وجه الارتباط بين الآيات.

ما المراد بإتمام الحج والعمرة في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ}؟

من أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك أن يأتي بهما من غير إخلال ولا شائبة، ولا تحمله العجلة على أن ينقص منها أو يضيع أحكام الله -عز وجل- التي فيها أو يتجاوز حدوده التي حدها، أو يرتكب محظورات الإحرام أو نحو ذلك، فهذا نقص في الحج وقد يفضي به أحياناً إلى بطلانه كالجماع.

وبعضهم يقول: الإتمام هو أن يخرج لهما لا لغيرهما، وهؤلاء نظروا إلى لفظة الإتمام بمعنى الإكمال، لكن الله -عز وجل- يقول: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] وهي التجارة في الحج، ولا شك أن من خرج وهو يريد الحج فحسب هو أتم وأكمل منزلة وحالاً ممن كانت نيته مشتركة بأمر يجوز الالتفات إليه يحصل على سبيل التبع، فهذا يجوز ويصح حجه، لكن مرتبة الأول أعلى، فهم نظروا إلى لفظة الإتمام، فعبر كل واحد بمثل هذه العبارات.

وبعضهم نظر إلى الإتمام فقال: أن تحرم بهما من دويرة أهلك، وقال: هذا أكمل، والحقيقة أن الإحرام من دويرة أهله أصلاً غير مشروع، وإنما يحرم الإنسان من الميقات، وقصة الرجل الذي سأل الإمام مالك معروفة، فمع أن أبعد المواقيت ميقات المدينة ومع ذلك لما قال له: أريد أن أحرم من المسجد، قال: إني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة؟ فقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٦٣) سورة النـــــور] وبين له أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أحرم من ذي الحليفة، فمع أن ذا الحليفة قريب جداً، فهو يعتبر في طرف المدينة، ومع ذلك فالأصل الاتباع لا القرب والبعد، لكن هناك فرق بين لبس الإحرام في البيت وبين نية النسك، فلبس ثياب الإحرام في البيت ليس بإحرام، وإنما المقصود بالإحرام الإهلال بالنسك أو نية الدخول فيه، وعلى كل حال فهذا القول الذي ذكروه فيه إشكال.

وبعضهم نظر إلى أن الكمال والإتمام هو أن يأتي بالحجة مستقلة في سفرة، والعمرة مستقلة في سفرة، وهذا لا شك أن من فعله ممن لا يتأتى منه حج ولا عمرة سوى هذه في العام هو أكمل ممن جاء إليهما في سفرة

واحدة، وهذا مراد شيخ الإسلام -رحمه الله- حينما قال: إن الإفراد أفضل، فهو يقصد هذا المعنى لا ما فهمه كثير من طلبة العلم.

صور مراتب الكمال في مناسك الحج الثلاثة:

القسمة العقلية التي تبين مراتب الكمال للأنساك الثلاثة في الحج كما يأتي:

المرتبة الأولى: وهي أعلى مرتبة، وذلك أن يأتي إنسان فيقول: أنا أعتمر في رمضان، وأعتمر في الصيف، وأعتمر في الفصل الدراسي الأول، وأعتمر في الفصل الدراسي الثاني، فما هو الأفضل في الحج الإفراد أم التمتع أم القران؟

يقال له: الأكمل والأفضل لك أن تحج متمتعاً، فإن لم يكن فقارناً، وذلك أنه بدلاً من أن يكون لك أربع عُمَر في السنة، صار عندك خمس عمر.

المرتبة الثانية: أن يأتي إنسان آخر فيقول: أنا ليس بإمكاني أن أعتمر في السنة إلا عمرة واحدة وحجة واحدة، فهل آتي بهما في سفرة واحدة أم أجعل العمرة في سفرة وحدها والحجة في سفرة وحدها؟ فهذا نقول له: الأكمل أن تؤدي العمرة في سفرة مستقلة عن سفرة الحج، فيكون الإفراد في هذه الصورة أكمل من أن يتمتع بالعمرة إلى الحج في سفرة واحدة، وهذا الذي قصده عمر -رضي الله عنه- حينما نهى الناس عن المتعة، فهو أراد ألا يُهجر البيت بحيث لا يأتيه الناس إلا في مرة واحدة للحج والعمرة معاً ويبقى أثناء السنة لا يأتيه أحد.

المرتبة الثالثة في الكمال: هي أن يأتي إنسان يأتي في السنة مرة واحدة للحج والعمرة معاً.

المرتبة الرابعة، وهو ذلك الإنسان الذي يأتي في السنة مرة واحدة فقط وبحجة إفراد.

فبعض الناس فهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على أنه يقصد هذا بقوله: إن الإفراد أفضل، وهو إنما يقصد أن يأتي بالحجة في سفرة وبالعمرة في سفرة أخرى.

أما من كان يتردد أثناء السنة فالبيت معمور بأمثال هؤلاء، فمثل هذا يقال له: إذا جئت في الحج فتعال بحج وعمرة، فهذا من باب الزيادة والفضل، فالتمتع أفضل بكثير من الإفراد والقران.

والمقصود من هذا الكلام كله أنهم نظروا إلى لفظ "الإتمام" فسرها كل واحد بما يحتملها لفظ "الإتمام".

وبعضهم قال: إن كمالها يكون بالإنفاق الطيب، وهذا كله لا شك أنه من الكمال، ولكن المعنى المتبادر هنا هو أن الحج والعمرة ليستا كغيرهما، فلابد من إكمالهما، فمن أحرم فيهما حتى ولو لم يكن إحرامه واجباً ابتداءً فإنه إذا شرع وأحرم فيجب عليه الإتمام.

والعلماء يتكلمون في مسألة العبادات غير الواجبة إذا شرع فيها العبد كصلاة النافلة أو صيام التطوع أو الاعتكاف أو نحو ذلك، هل يجوز له أن يقطعه؟

الراجح أنه يجوز للمتطوع في كل الأعمال الصالحة أن يقطعها من غير حرج، ولا يطالب بالبدل، خلافاً لمن قال: إن عليه أن يكمل، أو قال: عليه البدل لقوله تعالى: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [(٣٣) سورة محمد]، فإنه ليس هذا هو المراد، وإنما المراد لا تبطلوها بالمن والأذى والرياء، وبعض أهل العلم يخص بعض العبادات، يقول: يجوز فيها الإكمال، كما في المراقي:

صـــــلاتنا وصـــــومنا وحجنــــا		وعمـــرة لنـــا كـــذا اعتكافنــــا
طوافنـــا مــــع ائتمـــام المقتـــدي		فيلـــزم القـــضاء بقطــع عامـــد

فالمالكية يرون أنه من الأمور التي يلزم إتمامها إذا شرع فيها ما ذكر في هاتين البيتين وهي الصلاة والصيام والحج والعمرة وكذا المأموم إذا اقتدى بإمامه، فهؤلاء جميعاً على مذهب المالكية يلزمهم القضاء إذا قطعوا هذه العبادات عمداً.

والصحيح أنه لا يلزم ذلك إلا في الحج والعمرة لقوله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة].

وهذه الآية يُستدل بها على وجوب العمرة، وقد جاءت أدلة أخرى من السنة تدل على أن العمرة واجبة على الراجح مرة في العمر كالحج، وبالنسبة للاستدلال على هذا من الآية فإنه مبني على أصل مختلف فيه وهو هل الأمر بالإتمام أمر بالابتداء أو لا؟ فبعضهم قال: إن الأمر بالإتمام أمر بالابتداء، يعني لزوماً أو ضمناً وليس صراحة مطابقة، وعلى كل حال فإن من قال بهذا قال: إن الآية تدل عليه.

وبعضهم لم يأخذ وجوب الابتداء بالنسبة للحج من هذه الآية وإنما أخذه من قوله تعالى: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران].

وإذا أرادوا أن يستدلوا به على العمرة فإنهم يربطون معه أحاديث وأدلة أخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة))[1]، ومنها قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((وتحج وتعتمر))[2]، إلى غير ذلك من الأدلة التي يستدلون بها، كما أنه يقال للعمرة: حج أصغر.

وعلى كل حال ليس حديثنا هنا على هذا الأمر، لكن يشار إشارة إلى الأحكام؛ لأن ابن كثير من منهجه الإشارة إليها، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب إفراد الحج (١٧٩٢) (ج ٢ / ص ٩٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٣٧٣).
[2] - أخرجه الدارقطني (ج ٢ / ص ٢٨٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] أي صُددتم عن الوصول إلى البيت، ومُنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري قال: بلغنا أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال في قول الله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]: من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [(١٩٧) سورة البقرة].

وقال السدي في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]: أي أقيموا الحج والعمرة، وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، أنه قال: الحج عرفة والعمرة الطواف.

وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، قال: قراءة عبد الله، وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز بالعمرة البيت، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة: أنه قال: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت، وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم أنه قرأ: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسبق الكلام على أول هذه الآية، وأن أرجح الأقوال في المراد بالإتمام: هو أن يكمل أعمال الحج والعمرة إذا دخل في واحد منهما؛ وذلك أن الإنسان لا يسعه بحال من الأحوال أن يرفض الإحرام، إلا إذا أحصر فقد جعل الله -عز وجل- له مخرجاً، ولهذا قال: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فذلك قاطع للإتمام الذي أمر الله -عز وجل- به.

وعبارة من قال: إن الحج عرفة وبإتمامه يتم الحج، وإن العمرة لله والعمرة الطواف بالبيت، فذلك باعتبار أن العمرة لا يجاوز بها البيت، بحيث إنه لا يطلب أن يأتي الجمار إلى منى أو إلى مزدلفة أو إلى عرفة أو نحو ذلك، وأما الحج فإن ركنه الأكبر هو الوقوف بعرفة، هذا هو معنى قول من قال: إن الحج عرفة والعمرة الطواف، وليس معنى ذلك أنه إذا طاف فإنه قد أتى بما طلب منه وأتم العمرة، ولكن الطواف هو أصل في العمرة، والعلماء يختلفون في السعي كما هو معروف ما لا يختلفون في الطواف، فإذا جاء البيت وطاف به فإن ذلك قد حصل به معنى الزيارة التي أخذ منها اسم العمرة التي هي الزيارة لبيت الله على وجه القربة والنسك على وجه مخصوص، ثم عليه أن يطوف وأن يقصر أو يحلق.

وكذلك في الحج فإنه إذا وقف بعرفة فليس معنى ذلك أن هذا منتهاه، بل بقي عليه المزدلفة والجمار والبقاء في منى، إلى غير ذلك من طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج، وكذلك السعي إن كان لم يسعَ سعي الحج.

"وقوله تعالى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي: عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم -عليه السلام- بأن يحلقوا رءوسهم ويتحللوا فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين)) قالوا: والمقصرين يا رسول الله، فقال في الثالثة: ((والمقصرين))[1]."

الذين تأخروا وتباطئوا في الحلق لم يكن تباطؤهم ذلك اعتراضاً منهم على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما كما ذكر المؤلف هنا حيث قال: **انتظاراً للنسخ**، وإلا فهؤلاء هم خيار الناس، وهم أعظم مبادرة إلى امتثال أمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- لكن المراد أنهم كانوا يؤمّلون بهذه المراجعة والتأخر أن يحصل نسخ، كما حصل في قصة المجادلة حيث إن النبي -صلى الله عيه وسلم- كان يقول لها: ((ما أراك إلا قد بنتِ منه))، وهي لا تزال تراجع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يرد عليها هذا الكلام مرة بعد مرة حتى أنزل الله حكمه في ذلك، فليس معنى ذلك أنها معترضة على حكم الله -عز وجل- وإنما كانت تؤمِّل أن ينزل الله في أمرها شيئاً فيكون فيه مخرج، فأنزل الله: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [(١) سورة المجادلة] الآيات، وإلا فإن الصحابة الكرام يعلمون أن الله يقول: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** [(٣٦) سورة الأحزاب]، ويعرفون قوله -عز وجل-: **{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** [(٦٥) سورة النساء]، ويقول: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** [(٥١) سورة النـــــور]، فليس معنى ذلك أنها أبطأت، أو أن هؤلاء الصحابة أبطئوا اعتراضاً على حكم الشارع، وإنما المقصود: أنهم كانوا يرجون أن ينزل الله -عز وجل- غير ذلك.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين)) ثلاثاً فهذا القول قاله مرتين، فحمل مرة على إطلاقه وعمومه وذلك في مكة عام الفتح، ومرة في عام الحديبية لما أمرهم بالحلق وكان معناه أنه لن يكون هناك عمرة هذه المرة، فحلق من حلق، وقصر بعضهم أملاً أنه سيكون هناك شيء آخر، فيستطيع حلق ما بقي من شعره في النسك إذا وصل البيت، والله أعلم.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الحلق والتقصير عند الإحلال (١٦٤٠) (ج ٢ / ص ٦١٦) ومسلم في كتاب الحج - باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير (١٣٠١) (ج ٢ / ص ٩٤٥).

"فقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم."

الحديبية منطقة معروفة، جزء منها في الحل وجزء منها في الحرم، وهم كانوا في الناحية التي تلي الحرم من الحل، وكلام أهل العلم في هذا معروف، وهو هل النبي -صلى الله عليه وسلم- قدم هديه إلى منطقة الحرم فنحر فيه، أو أنه نحر في الحل؟، فهذه مسألة معروفة.

"والحصر: أعم من أن يكون بعدوٍّ أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك."

مسألة الإحصار مسألة مشهورة، وأشهر ما استدل به من يرى أن الإحصار لا يكون إلا بالعدوّ لا بالمرض والكسر ونحوه قوله تعالى: **{فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...}** [(١٩٦) سورة البقرة] الآية، وذلك من ثلاثة وجوه:

الأول: أنه قال: **{أُحْصِرْتُمْ}** فمن أهل العلم من قال: إن هذه الصيغة ليس معناها حبستم أنفسكم، وإنما المقصود وقع الإحصار من غيركم أي: بالعدوّ، فهؤلاء فرَّقوا في الصيغة بين (أحصرتم) وبين (حصرتم)، فيقولون: إن أحصرتم معناه وقع عليكم الإحصار من غيركم.

الثاني: قالوا: إن هذا وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- بحصر العدوّ، وإن هذه الآية لا تنفصل عن سبب وملابسات النزول.

الثالث: أن الله قال بعده: **{فَإِذَا أَمِنتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة].

هذه ثلاثة أمور هي أشهر ما ذكروا في الاستدلال على أن الحصر يكون بالعدوّ، والأقرب أن الإحصار لا يختص بذلك، وأن هذه المناسبة وإن كان الإحصار فيها بسبب العدوّ إلا أن ذلك لا ينحصر فيه، بل كل ما عاق الإنسان عن الوصول إلى البيت، أو إتمام النسك فإن ذلك يكون من قبيل الإحصار، وللإنسان أن يتحلل بعد أن ينحر هديه أو يذبحه.

قال بعض أهل العلم: إن ذلك ليس بحصر العدوّ فقط، وإنما المقصود حبستم أنفسكم بسبب المرض أو أقمتم بسبب حصر العدوّ لكم، أو نحو ذلك، وممن قال ذلك ابن جرير الطبري -رحمه الله- حيث يرى أن أُحصر، إنما يكون بحبس الإنسان نفسه، كما في قول الله تعالى في الآية الأخرى: **{لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ}** [(٢٧٣) سورة البقرة] حيث إنك إذا نظرت في كلام ابن جرير في تفسيره لهذه الآية تجده يرد على هؤلاء بقوة، ويقول: ليس ذلك بحصر العدوّ.. إلى أن قال: ولو كان ذلك بسبب حصر العدوّ لقال: للفقراء الذين حصروا في سبيل الله.

ومن أهل العلم من يقول: (أُحصر) تأتي لهذا وتأتي لهذا، أي ما يحصل بسبب العدوّ وما يحصل بحبس الإنسان نفسه وإن لم يحبسه غيره، وعلى كل حال فالإحصار يكون بسبب العدوّ وبسبب المرض والكسر وما أشبه ذلك مما إذا وقع للإنسان أعاقه عن الوصول إلى البيت .

"روى الإمام أحمد[٢] عن الحجاج بن عمروٍ الأنصاري قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من كُسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى)) قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- فقالا: صدق[٣]."

مسألة هل يلزم المحصر أن يأتي بنسك آخر بدلاً من الذي أحصر فيه فيها قولان، فالذين يقولون: يجب ذلك يحتجون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتمر من قابل، والذين يقولون: لا يجب ذلك، يقولون: إن الله -عز وجل- لم يأمر بذلك وإنما قال سبحانه: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، ويقولون: إن ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعني أنه يجب ذلك، ولم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر كل من خرج معه ممن تحلل أن يعتمروا، وإنما كان ذلك على سبيل المقاصة والاستيفاء، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ} [(١٩٤) سورة البقرة]، فهؤلاء صدوهم عن البيت فكان من عهدهم أن يعتمر المسلمون من قابل، والمسألة على كل حال محلها كتب الفقه.

"وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة، وفي رواية لأبي داود وابن ماجه ((من عرج أو كُسر أو مرض))[٤] فذكر معناه، ورواه ابن أبي حاتم.

ثم قال: وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعي وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر، وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه.

وثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: ((حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني))[٥] ورواه مسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- بمثله، فصح الاشتراط في الحج لهذا الحديث."

إذا حصل الاشتراط عند الإحرام ولا بد، فله أن يتحلل من غير أن يذبح ولا شيء عليه، لكن المسألة السابقة فيما إذا لم يشترط.

"وقوله تعالى: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]."

التقدير: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] فالواجب ما استيسر من الهدي، أو فعليكم ما استيسر من الهدي، وهذا باعتبار أن "ما" في محل رفع، أي فالواجب عليكم ما استيسر من الهدي، ويمكن أن تكون في محل نصب، فيكون التقدير فاذبحوا أو فانحروا ما استيسر من الهدي.

---

[2] - ذكره الإمام الطحاوي في كتاب شرح معاني الآثار.

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب الإحصار (١٨٦٢) (ج ١ / ص ٥٧٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في الذي يهلُّ بالحج فيكسر أو يعرج (٩٤٠) (ج ٣ / ص ٢٧٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب فيمن أحصر بعدو (٢٨٦٠) (ج ٥ / ص ١٩٨) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب الحصر (٣٠٧٧) (ج ٢ / ص ١٠٢٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٤٩٧).

[4] - صحيح ابن ماجه في كتاب المناسك - باب الحصر (٣٠٧٨) (ج ٢ / ص ١٠٢٨).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين (٤٨٠١) (ج ٥ / ص ١٩٥٧) ومسلم في كتاب الحج - باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه (١٢٠٧) (ج ٢ / ص ٨٦٧).

"روى الإمام مالك عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} شاة."

وهذا قول الجمهور؛ لأن الله قال: {فَمَا اسْتَيْسَرَ}، يعني ما تيسر لك مما يصح أن يقال له: هدي، وأدنى ذلك الشاة، وأعلاه البدنة.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: الهدي من الأزواج الثمانية، من الإبل والبقر والمعز والضأن، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} قال: بقدر يسارته، وقال العوفي عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم."

قوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} على التفسير الثاني نظر القائل به إلى معنى اللفظة ودلالتها؛ فالمعنى الأول لقوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ} تدل على ما تهيأ له، وما تيسر له، وما حصل له، فيكون أدنى ذلك شاة.

والقائل بالتفسير الثاني نظر إلى معنى اللفظة ودلالتها؛ فإن اليسار فيه معنى السعة والغنى، وعلى هذا فإن قوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} يعني أن ذلك لا يكون بأدنى شيء، وإنما بشيء فيه يسار، فإن كان غنياً فبدنة، وإن كان دونه فبقرة، وإن كان دونه فشاة، أي بحسب حاله من الغنى والفقر.

"وقال هشام بن عروة عن أبيه: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء."

صاحب هذا القول لم ينظر إلى الأنواع باعتبارها بدنة وبقرة وشاة، وإنما نظر إلى الثمن والقيمة، فقال: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} أي لا يكون ذلك بأدنى ما يصدق عليه هدي بحيث يشتري شاة بثمن بخس؛ لضعفها أو لنوعها أو نحو ذلك وإنما يكون ذلك بالمتوسط.

وعلى كل حال فإن السبب في تعدد هذه الأقوال -والله تعالى أعلم- أنهم نظروا إلى بعض دلالات لفظة "استيسر" مع أن دلالتها الظاهرة المتبادرة هي: ما تيسر وتهيأ له، وأدنى ذلك شاة، ولا شك أن الأفضل والأكمل في الهدي هي البدنة.

"والدليل على صحة إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي، أي مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم."

الهدي في قوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} أي من بهيمة الأنعام، وكذلك الأمر في قوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، أي من هذه الأنواع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام، وكذلك حينما يقال: المتمتع والقارن عليهما الهدي، فهذا هو المقصود به، وإذا قيل: الجزاء فإنه يخير فيه أيضاً بين الأمور الثلاثة، فالدم يكون بالبدنة أو بالبقرة أو بالشاة إما وجوباً مثل من جامع في الحج، وإما أن يكون ذلك استحباباً ويجزيه دونه، ومثل ذلك من جامع في العمرة مثلاً فعليه شاة ولو أنه نحر بدنة فإن ذلك أكمل.

ومن قص أظافره أو حلق شعره أو نحو هذا وهو محرِم فإنه يخير بين ثلاثة أمور، إما ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام.

وكذلك من ترك شيئاً من نسكه الواجب كما لو لم يحرم من الميقات مثلاً فإنه يقال: عليه دم، فإذا ذبح شاة أجزأ، وإذا نحر بدنة فهذا أكمل، وكذلك إذا اشترك بسُبع بدنة في منزلة الشاة، فهو أفضل من الشاة.

فالهدي في مثل المسائل السابقة لا يكون إلا من هذه الأصناف، وأما في غير هذه المسائل فهل يمكن أن يهدى إلى البيت على سبيل التطوع غير الأنواع الثمانية المذكورة في قوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [(١٤٣) سورة الأنعام]؟

نعم، يمكن أن يهدى إلى البيت كسوة للكعبة، ويمكن أن يهدي طعاماً للحجاج، كما أنه يمكن أن يقدم هدياً من الغنم أو الإبل أو البقر وهو في بلده لم يحج كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يقدم إلى البيت مالاً دراهم أو ذهباً، أو يقدم شراباً للحجاج أو نحو هذا، فكل ما يقدم إلى البيت فإنه يقال له هدي، والله تعالى أعلم.

"**وهي: الإبل والبقر والغنم كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: "أهدى النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة غنماً**"[٦]."

قولها: **أهدى مرة غنماً**، هذا قبل حجته حيث بعث بها وهو في المدينة، وهذا يدل على أنه يمكن للإنسان فعل ذلك ولا يلزمه شيء من الإحرام.

وقول بعض السلف: إنه يكون كالمحرم حتى ينحر هديه أو يذبح، فهذا كلام لا دليل عليه، وحديث عائشة في هذا المعنى معروف.

والهدي: جمع هدية، وربما قيل له ذلك؛ لأن مُهديه يتقرب فيه إلى المُهدَى إليه، والإنسان لما يأتي ويهدي لإنسان هدية فإنما يفعل ذلك من أجل استمالته، فالهدية تذهب وَحَرَ الصدر وتفعل في النفوس ما لا يخفى من تحبيب هذا الإنسان، ولذلك جاء في الأثر: ((تهادوا تحابوا))[٧].

"**وقوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}** [(١٩٦) سورة البقرة] **معطوف على قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة]**، وليس معطوفاً على قوله: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] **كما زعمه ابن جرير -رحمه الله-.**"

قوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} تحتمل أن تكون معطوفة على قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} أي كما هي هكذا: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فإذا قلنا: إنها عائدة إلى قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}، فالمعنى أن من أنشأ حجاً وعمرة فإنه يلتزم محظورات الإحرام، ومن ذلك حلق الشعر، فلا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدي محله.

والعلماء مختلفون في هذه المسألة إلا أن أقرب ذلك وأرجحه هو أن الحلق يكون يوم النحر سواء قدم ذبح هديه أولاً ثم حلق، أو حلق رأسه قبل النحر؛ وذلك أن رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- سأله

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب تقليد الغنم (١٦١٤) (ج ٢ / ص ٦٠٩).

[7] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ج ١ / ص ٥٣٢) وأبو يعلى (ج ١١ / ص ٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٠٤).

عن تقديم وتأخير حصل منهم، فكان في كل مرة يقول –عليه الصلاة والسلام-: ((افعل ولا حرج))[٨]، فبلوغ الهدي محله يوم النحر، ومن أهل العلم من يقول غير هذا.

وإذا قلنا: إن قوله: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] عائد إلى قوله: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} فالمعنى يتغير تماماً، حيث يكون المعنى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فإن حال دونه حائل فلا يحل لكم أن تحلقوا رءوسكم وتتحللوا حتى يبلغ الهدي محله.

وعلى هذا فقوله: {حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] قيل: إن دم الإحصار يجب أن يكون في الحرم وبالتالي يجب على المحصر أن ينتظر حتى يُذبح أو ينحر في الحرم فهو محله ولا يجزئ خارج الحرم، وهذا على القول بأن النبي –صلى الله عليه وسلم- قدم هديه فنحر في الحرم من الحديبية.

ومن أهل العلم من يقول: إنه -صلى الله عليه وسلم- نحر هديه خارج الحرم، وبالتالي يقدم المحصر هديه حيث أحصر، فلا يلزمه أن يقدمه في الحرم.

والأقرب أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر، ويفرق على من حضره من الفقراء في المحل الذي نحره فيه، ولا يلزم أن ينقل إلى فقراء الحرم، والله أعلم.

فالمقصود أن ابن جرير -رحمه الله- لا ينازع في أن قوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة]، عائد إلى قوله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فهو يوافق الجمهور في هذا، ومنهم ابن كثير، وإنما يخالف ابن جرير في قضيتين هما:

الأولى: أنه يجب عليه أن يحج من قابل قضاء لهذه الحجة، وإن كان معتمراً فيجب عليه قضاء هذه العمرة، وأن مجرد نحر الهدي أو ذبحه لا يعفيه من حجة أخرى، وإنما ذلك رخص له التحلل من الإحرام فقط، وهذا كلام معروف قال به أئمة، فهي مسألة لم ينفرد بها ابن جرير، وإنما قال بها كثير من أهل العلم.

والمسألة الثانية وهي مسألة خالف فيها عامة أهل العلم: أن ابن جرير في قوله تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] يقول: هذه تتعلق بالمحصر الذي تحلل من إحرامه بالحج، فعليه أن يأتي بعمرة في أشهر الحج القادمة؛ لأنه تحلل ولم يصل إلى البيت حينما أحصر، فيكون بهذه العمرة قد طاف بالبيت وسعى، ثم بعدُ يأتي متى ما تيسر له بحجة يقضي بها حجته الأولى.

فابن جرير يرى أن الدم الذي أهداه ليس دم التمتع المعروف في الأنساك الثلاثة، وإنما هو شيء آخر خاص بالمحصر، مع أن المعروف عند أهل العلم والذي عليه عامتهم أن قوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} [(١٩٦) سورة البقرة] يعني التمتع المعروف الذي هو جمع بين الحج والعمرة في سفرة واحدة.

"لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ الهدي محله، ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً."

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الفتيا على الدابة عند الجمرة (١٦٥٠) (ج ٢ / ص ٦١٩) ومسلم في كتاب الحج - باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي (١٣٠٦) (ج ٢ / ص ٩٤٨).

الفراغ ليس المقصود به الفراغ من كل شيء، وإنما إذا جاء من عرفة، ففي يوم النحر يكون الهدي قد بلغ محله، ولا زال عليه طواف الإفاضة، وسعْي الحج إن كان لم يسعَ، وبقى عليه رمي الجمار.

"أو مِن فعِل أحدهما إن كان مفرداً، أو متمتعاً كما ثبت في الصحيحين عن حفصة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك فقال: **((إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر))**[٩]."

قوله: **((لبدت رأسي))**، أي أنهم كانوا يضعون صمغة على الشعر؛ لأن شعورهم كثيرة، وفي السفر يحتاج مدة طويلة في إحرامه، فالشعر ينتفش ويصيبه ما يصيبه من الغبار والأتربة ونحو ذلك، فهو يلبد رأسه بأن يضع عليه صبغة تجعله ثابتاً مستقراً، وبالتالي فإن من ساق الهدي لا يحل إلى يوم النحر، فلذلك لم يتحلل النبي -صلى الله عليه وسلم- كما تحلل أصحابه بعمرة، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: ((لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة))[١٠].

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي (١٤٩١) (ج ٢ / ص ٥٦٨) ومسلم في كتاب الحج - باب بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد (١٢٢٩) (ج ٢ / ص ٩٠٢).

[10] - أخرجه أبو داود في كتاب الحج – باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨) (ج ٢١ / ص ٨٨٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [(١٩٦) سورة البقرة]: روى البخاري عن عبد الرحمن بن الأصبهاني سمعت عبد الله بن مَعقل، قال: قعدت إلى كعب بن عُجْرَةَ -رضي الله تعالى عنه- في هذا المسجد -يعني مسجد الكوفة- فسألته عن {فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ}، فقال: حملتُ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والقملُ يتناثر على وجهي، فقال: ((ما كنتُ أرَى أن الجَهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟)) قلت: لا، قال: ((صُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك))، فنزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة[1]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {أَوْ نُسُكٍ}: المقصود بالنسك الذبيحة.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لكعب بن عجرة: **((أما تجد شاة؟)) قلت: لا، قال: ((صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين))**، قد يفهم من ظاهر هذا الحديث أنه يُبدأ أولاً بما ذكر هنا، وأن الثلاثة ليست على التخيير بإطلاق، وإنما فيها ترتيب بين ذبح شاة، فإن لم يجد فعندئذ يخير بين الإطعام والصيام، كما في كفارة اليمين، عتق رقبة، فإن لم يجد فإنه يخير بين الإطعام أو الكسوة، فإن لم يجد فعندئذ يصوم ثلاثة أيام.

فالمقصود أن هذا في فدية الأذى ليس مراداً والله تعالى أعلم، وإنما رتب ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه الأفضل مثلاً، ويمكن أن يقال: إنه قدم الصوم باعتبار أنه الأسهل من جهة الكلفة المادية، وذلك أنه يستطيعه الغني والفقير بخلاف الذبح مثلاً أو الصدقة، ويدل على أن هذا على التخيير الروايات الأخرى الواردة في حديث كعب بن عجرة وهي حادثة واحدة لم تتكرر معه، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيره، كما في بعض الروايات أنه قال: ((فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة))[2]

فإذا جمعت هذا وهذا مع الآية، تبين لك المراد، والله تعالى أعلم.

والخلاصة أنه لا يقال لمن عليه فدية أذى كحلق الشعر أو نحو ذلك: إن عليك أولاً أن تذبح، فإن لم تستطع خيرت بين الإطعام والصيام، بل هو مخير بإطلاق، ولهذا فإنه ينبغي جمع الروايات والنصوص في المعنى الواحد دون أن يعجل الإنسان ويأخذ برواية ويقول: هذا على الترتيب؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أمره أولاً بالذبح.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب قول الله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (٤٢٤٥) (ج ٤ / ص ١٦٤٢) ومسلم في كتاب الحج - باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب الفدية لحلقه وبيان قدرها (١٢٠١) (ج ٢ / ص ٨٥٩) واللفظ للبخاري.

[2] - سيأتي تخريجه.

"وروى الإمام أحمد عن كعب بن عجرة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتى عليّ النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أوقد تحت قدر، والقَمْلُ يتناثَرُ على وجهي -أو قال: حاجبي- فقال: ((يؤذيك هوام رأسك؟)) قلت: نعم. قال: ((فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة))، قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ[3].

ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: {فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [(١٩٦) سورة البقرة] ولما أمَرَ النبي -صلى الله عليه وسلم- كعبَ بن عجرة -رضي الله تعالى عنه- بذلك أرشده إلى الأفضل، فالأفضل، فقال: ((انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام))، فكلٌّ حسن في مقامه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعُمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص."

يقول تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} فقوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} يمكن أن تكون "ما" في محل رفع أو تكون في محل نصب، فإن كانت في محل رفع يكون التقدير فعليكم ما استيسر من الهدي، وإن كانت في محل نصب يكون التقدير: فاذبحوا ما استيسر أو نحو ذلك مما يقدر بحيث تكون في محل نصب.

ومن قال بأن "ما" هنا في محل رفع قال: هذا له نظائر في كتاب الله -عز وجل- كقوله تعالى في كفارة اليمين: {فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ} [(٨٩) سورة المائدة] أي فعليه صيام ثلاثة أيام.

"وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج."

هذا هو التمتع الخاص، والمقصود به أن يجمع بين الحج والعمرة في سفرة واحدة، وهذا الذي فسر به عامة أهل العلم قوله تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، إلا أن ابن جرير -رحمه الله- يفسرها بغير هذا، فهو يقول: إن قوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} هذه في المحصر وليست في التمتع الخاص المعروف الذي هو أحد الأنساك الثلاثة، ويقول: فإنه إذا اعتمر في أشهر الحج التي تأتي فإنه يستمتع بإحلاله من عمرته إلى أن يحج فعليه ما استيسر من الهدي، هذه عمرة يأتي بها المحصر الذي لم يستطع الوصول إلى البيت إذا أمن.

"وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديثُ الصحاح، فإن من الرُواة من يقول: تمتع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وآخر يقول: قرن، ولا خلاف أنّه ساق الهدي."

نعم فالقارن يجب عليه الهدي؛ لأنه جمع بين الحج والعمرة بسفرة واحدة مع أنه لم يحصل له إحلال ولا تمتع، والآية تقول: {فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وذلك أنه يتمتع

---

3 - أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ٢٤١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بإحلاله فيفعل كل ما كان محظوراً عليه فعْله، فالقارن أيضاً عليه هدي باعتبار أنه جاء بالعمرة مع الحج، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم خلافاً للظاهرية الذين قالوا: إن هذا لم يرد عليه دليل وهو قياس على التمتع، والقياس أصلاً لا يصح عندهم.

"وقال تعالى: {فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذبح عن نسائه البقر."

على كلام ابن كثير هنا تكون "ما" في محل نصب، أي: فليذبح ما استيسر من الهدي.

"وقال الأوزاعي: "عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذبح بقرة عن نسائه وكنَّ متمتعات" رواه أبو بكر بن مَرْدويه."

وجاء في بعض الروايات: "ضحى عن نسائه بالبقر"[4] ففهم منه بعض أهل العلم أن الحاج يضحي أيضاً إضافة إلى الهدي، ولكن الروايات يفسر بعضها بعضاً، فالمقصود بأنه ضحى عن نسائه في الرواية المشهورة أن ذلك كان في الحج، فهو من قبيل الهدي لا الأضحية، وبالتالي فإن الحاج حقه الهدي وليس عليه أضحية، لكن لو أنه ترك أهله في البلد وترك عندهم أضحية فهذا لا إشكال فيه، لكن الكلام فيه هو هل يضحي أم أنه ليس مطالباً بذلك وإنما يكتفي بالهدي؟

"وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمْران بن حُصين -رضي الله تعالى عنهما- قال: "نزلت آية المتعة في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم ينزل قرآن يُحَرّمها، ولم يُنْهَ عنها، حتى مات، قال رجل برَأيه ما شاء، قال البخاري: يقال: إنه عُمَر -رضي الله تعالى عنه-."

سبق الكلام في الدرس الماضي لماذا عمر -رضي الله عنه- نهى عن التمتع، وأن ذلك كان من قبيل السياسة الشرعية رعاية لمصلحة تتصل بالبيت، وذلك أنه كره أن يهجر البيت سائر العام، أي حتى لا يأتي الناس بالعمرة والحج في سفرة واحدة أيام الحج فقط ويخلو البيت من المعتمرين في سائر السنة، فهو طالبهم أن يأتوا أثناء العام بالعمرة.

"وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر -رضي الله تعالى عنه- كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: "إن نأخذ بكتاب الله يأمر بالتمام، يعني قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وفي نفس الأمر لم يكن عمر -رضي الله تعالى عنه- ينهى عنها محرِّماً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به -رضي الله تعالى عنه-.

وقوله: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فَلْيصُمْ ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأضاحي - باب من ذبح ضحية غيره (٥٢٣٩) (ج ٥ / ٢١١٣) ومسلم في كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه (١٢١١) (ج ٢ / ص ٨٧٠).

وقال العوفي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إذا لم يجد هَدْيًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة."

لم يجده بمعنى أنه لم يجد الثمن، أو أنه لم يجد الهدي إذا عدم مثلاً بحيث لم يقف على شيء منه، هذا هو المراد بقوله: **{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة].

"إذا لم يجد هَدْيًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يومُ عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله."

قوله: **صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة**، بمعنى أنه لا يبدأ بها يوم عرفة، وليس المقصود أن يوم عرفة غير داخل فيها، وإنما يبتدئ هذه الأيام الثلاثة قبل عرفة.

والعلماء لهم كلام كثير في مسألة متى يبتدئ هذه الأيام الثلاثة، وهل له أن يصوم هذه الأيام الثلاثة بمجرد الإحرام الأول الذي وقع منه، كأن يكون أحرم بالتمتع مثلاً في اليوم الأول من ذي الحجة ثم لما تحلل من العمرة له أن يصوم بإحلاله هذا؟ أم أنه يجب أن يصوم إذا لبى بالحج؟ وهذا الكلام بخلاف ما إذا كان قد جاء مفرداً أو قارناً فهو محرم بالحج لم يتحلل من الإحرام، فله أن يصوم حتى وإن جاء يوم الخامس عشر من ذي القعدة؛ لأنه محرم بالحج، لكن الإشكال فيما إذا جاء متمتعاً فتحلل، متى يصوم؟

يقول: يحرم بالحج ويصوم قبل يوم عرفة، فإذا أحرم يوم الرابع من ذي الحجة فله أن يصوم مثلاً يوم خمسة وستة وسبعة، أو يصوم يوم سبعة وثمانية وتسعة، ومن المعلوم أنه يحرم بالاتفاق صيام يوم النحر، وأما ما يتعلق بأيام التشريق فالراجح أنه يحرم صيامها إلا لمن لم يجد الهدي، لكنه لا يؤخر الصوم على الأرجح إلى أيام التشريق إلا إن اضطر لذلك، كأن يكون هذا الإنسان مثلاً مرض ولم يستطع الصوم إلا في أيام التشريق فإنه يصومها، أو أن يكون هذا الحاج لم يفقد ماله إلا يوم العيد، فهذا ليس أمامه إلا أن يصوم أيام التشريق، فيرخص لمن لم يجد الهدي أن يصوم هذه الأيام الثلاثة، والمقصود أن صيام هذه الأيام لمن لم يجد الهدي مأمور بها على التفريق، فلا يصوم الأيام العشرة سرداً في الحج.

والعلماء لهم كلام في هذه الصورة الثانية وهي فيمن لم يتمكن من صيامها إلا في أيام التشريق، هل يصوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر؟ وهل له أن يصوم الباقي معها على أن المراد بقوله: **{وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** إذا رجعتم إلى رحالكم، أم أن المقصود إذا رجعتم إلى بلادكم؟

فمن قال من العلماء: إن قوله: **{إِذَا رَجَعْتُمْ}** أي رجعتم إلى رحالكم يعني من منى، يقول: يصح له أن يسرد الصوم عشرة أيام؛ لأنه رجع من منى، ومن فسره بأن المراد إذا رجعتم يعني إلى أهلكم -وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم- فإنه لا يسردها، وإنما يصوم السبعة الباقية إذا رجع إلى أهله، وهذا أيضاً على خلاف بينهم في رجوعه هذا ما المراد به؟، أي هل يكون الرجوع بمجرد الشروع فيه بحيث يصوم في الطريق إذا استراح ببلد مدة أسبوع أو أكثر، أم لا بد من الوصول إلى بلده؟ فمن أهل العلم من قال: إن قوله: **{إِذَا رَجَعْتُمْ}** يصدق عليه القول بشروعكم في الرجوع، وعلى هذا له أن يصوم إن شاء ولو لم يصل إلى موطنه، والمشهور من كلام أهل العلم أن ذلك إنما يكون برجوعه إلى بلده.

"وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: "يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة"، وكذا روى عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي -رضي الله تعالى عنه- أيضًا."

قوله: **يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة**، هذا يفسر الكلام السابق من أنه قبل يوم عرفة، يعني الابتداء، وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن علي أيضًا.

ومثْل ابن جرير الطبري -رحمه الله- لا يفرق في ذلك، فهو لا يقول: إنه يصوم أيام التشريق إذا اضطر إلى هذا، كأن لم يجد قدرة إلا في أيام التشريق أو نحو ذلك، وإنما يقول: هو مخير، إن شاء صام قبل عرفة، وإن شاء صام في أيام التشريق، فكل ذلك يكون فيه ممتثلاً؛ لأن الله -عز وجل- قال: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ} فهو لازال في الحج.

والذي عليه عامة أهل العلم أنه يصومها قبل عرفة، وإن اختلفوا في التفصيلات، مثل متى يبتدئ الصيام؟، ولكن أيام التشريق لا تصام؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عنها: ((أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل))[5] وعدَّها من أيام العيد، فقال: ((يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام))[6] ونهى عن صيامها -صلى الله عليه وسلم-.

"فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد يجوز أن يصومها في أيام التشريق؛ لقول عائشة وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- في صحيح البخاري: "لم يرَخّص في أيام التشريق أن يُصَمن إلا لمن لا يجد الهَدي"[7].

وروى سفيان، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق.

وبهذا يقول عُبَيد بن عُمَير الليثي وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ} [(١٩٦) سورة البقرة].

وأما ما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل))[8] فهذا عام، ورواية عائشة وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- مخصوصة منه."

الآن صار النظر في هذه النصوص على ثلاثة مناحٍ هي:

الأول: أنه يمنع مطلقاً صيام أيام التشريق؛ باعتبار أنها أيام أكل وشرب.

الثاني: الجواز والإباحة بإطلاق لمن لم يجد الهدي، أي أن له أن يتخير صيامها ابتداءً فيقول مثلاً: أنا لا أريد أن أصوم يوم ثمانية ولا يوم سبعة، أنا أريد أن أصوم أيام التشريق، وهذا قول ابن جرير –رحمه الله-.

---

[5] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٧٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم – باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (١٨٩٤) (ج ٢ / ص ٧٠٣).

[8] - أخرجه مسلم في كتاب الصيام - باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١) (ج ٢ / ص ٨٠٠) دون قوله: ((وذكر الله عز وجل)) ورواه أحمد واللفظ له (ج ٥ / ص ٧٥).

الثالث: -وهذا أعدل هذه الأقوال- أن يصوم قبل يوم عرفة فإن لم يتمكن فإنه يؤخر ذلك إلى أيام التشريق.

"وقوله: {وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] فيه قولان: أحدهما: إذا رجعتم إلى رحالكم، الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم.

روى عبد الرزاق عن سالم، سمعت ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] قال: إذا رَجَع إلى أهله، وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهري، والربيع بن أنس."

طبعاً هذا ليس محل اتفاق كما سبق بيانه آنفاً من أن بعض أهل العلم يقول: إن قوله: {إِذَا رَجَعْتُمْ} يصدق عليه الشروع في الرجوع ولو لم يصل إلى موطنه، والقول بأن الرجوع في الآية يقصد به رجوعه إلى رحله في مكة أو نحوها هو قول الإمام مالك.

وبعضهم بالغ في هذا غاية المبالغة فقال: قوله: يقول: {وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} هذا ليس على الوجوب، وإنما هو من أجل التخفيف والرفق بالمكلفين فقط، وإلا فإنه إذا شاء أن يصوم في أيام الحج فإنه يصوم، وهذا قال به ابن جرير، ويقولون: إن هذا مثل قوله: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٤) سورة البقرة]، فالمريض والمسافر إذا صام في مرضه وسفره فإنه يجزئه، وإنما قال له: أفطر وصم أياماً تقضِ فيها ما أفطرت على سبيل الرفق به فقط، فإذا قال: أنا أريد أن أتجشم الصوم فإن هذا يصح ولا إشكال فيه، وكذلك في الحج يقال: إنما هو من باب الإرفاق بالمكلفين فقط.

وهذا خلاف ما عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، بل إن الكثير منهم قالوا: لا يجزئه الصوم إلا بالتفريق؛ لأن الأمر بالصيام جاء على ثلاثة أنواع: تارة يأمر بها بإطلاق كما في كفارة اليمين على القراءة المتواترة، {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ} [(٨٩) سورة المائدة].

وتارة جاء الأمر به مقيداً بالتتابع كما في كفارة القتل، وكفارة الظهار، {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} [(٩٢) سورة النساء]، [(٤) سورة المجادلة] وتارة جاء مقيداً بالتفريق كما هنا في عدم إمكانية الهدي قال: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة]، وكما جاء في كفارة اليمين في قراءة ابن مسعود غير المتواترة، وهي: (صيام ثلاثة أيام متتابعات).

وعلى كل حال فإن الله فرق بينها بهذه الطريقة فيمتثل العبد ذلك بأن يصوم أياماً متفرقة، ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع، والله أعلم.

"وقد روى البخاري عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: تمتع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حَجَّة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى، فساق معه الهَدْي من ذي الحُلَيفة، وبدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج، فتمتع الناس مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بالعمرة إلى الحج، فكان مِنَ الناس مَنْ أهدى فساق الهَدْي، ومنهم من لم يهد، فلما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة قال للناس: ((من كان منكم أهدى فإنه لا يَحل من شيء حَرُم منه حتَى يقضي حَجّه، ومَنْ لم يكن منكم أهدى فَلْيَطُفْ بالبيت وبالصفا والمروة، ولْيُقَصِّر وليَحلل ثم ليُهِلّ بالحج، فمن لم

يجد هدياً فليصُمْ ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله)) **وذكر تمام الحديث، والحديث مخرج في الصحيحين**[9]."

وجاء أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما-: ((وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم))[10].

والحديث جاء فيه الأمر بالصوم مفرقاً ولم يفصل لهم فيه، أي: أنه لم يقل لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: وذلك ليس بعزيمة مثلاً، أو نحو ذلك، ثم إن الأصل أن الأمر للوجوب ما لم يصرف عن ذلك صارف، إلا أن مثل ابن جرير -رحمه الله- يرى أن الصيغة والصورة خبرية لكنها بمعنى الأمر، وهذا خلاف المشهور في تفسير الآية.

"**وقوله**: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] **قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي.**"

في قوله: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} يقول ابن كثير: هذا تأكيد، والمعنى أنه خبر محض، فهو يخبر أن صيام سبعة أيام وثلاثة نتيجته عشرة أيام، لكن ابن جرير يقول: لا، ليس المعنى هنا هو التأكيد، وإنما المقصود أن هذا خبر مضمن معنى الإنشاء الذي هو الأمر، أي: عليكم أن تكملوا صيام هذه الأيام العشرة من غير نقص.

"**وقوله**: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] **قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي، وقال الله تعالى**: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، **وقال**: {وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [(٤٨) سورة العنكبوت]، **وقال**: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [(١٤٢) سورة الأعراف]، **وقيل: معنى** {كَامِلَةٌ} **الأمر بإكمالها وإتمامها**."

قوله: **وقيل: معنى** {كَامِلَةٌ} **الأمر بإكمالها وإتمامها**، هذا قول ابن جرير –رحمه الله-، وأما ابن كثير فإنه يقول: إن قوله: {كَامِلَةٌ} **جاءت** للتأكيد كقوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، فالطائر لا يطير برجليه، وكقوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران] ومعلوم أن الإنسان لا يتكلم بأذنه، وكقوله: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة]، والإنسان لا يكتب برجله، وهذا أسلوب عربي معروف، وله دلالة في كل موضع بحسبه.

ومن العلماء من يذكر وجوهاً أخرى في التفسير، ففي قوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] يقولون: لئلا يتوهم أن المقصود الإسراع؛ لأن العرب تعبر بالطائر أحياناً لتكني به عن السرعة، وإنما المقصود هنا الطائر المعروف.

وقال: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة]: أي ليسجل عليهم هذا الجرم من باب الإدانة، وفي قوله: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران]، أي: أنه لم يكتبه غيره أو عزاه إلى غيره بكتابته وإنما قاله بفيه، والمقصود أن هذا أسلوب عربي معروف.

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب من ساق البدن معه (١٦٠٦) (ج ٢ / ص ٦٠٧) ومسلم في كتاب الحج – باب وجوب الدم على المتمتع وأنه إذا عدمه لزمه صوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله (١٢٢٧) (ج ٢ / ص ٩٠١).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب قول الله تعالى: {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩٦) سورة البقرة] (١٤٩٧) (ج ٢ / ص ٥٧٠).

فالمقصود أن بعض أهل العلم لا يخرج ذلك عن قول من قال: إنه للتوكيد كما قال ابن كثير؛ أو للاحتراز من أن يفهم غير المراد، فالله تعالى قال: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة]؛ لئلا يتوهم أنه بقي منه شيء بعد ذكر السبعة والثلاثة لما قال: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة]، إذ يمكن أن ينتظر السامع زيادة أيام أخرى يطالب بها، فهو أغلق هذا الاحتمال فقال: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة]، يعني من غير زيادة.

كما أنه يمكن أن يقال: إنه قال ذلك لئلا يرد وهم آخر حيث قد يظن السامع أنه مخير بين صيام ثلاثة أيام في الحج أو يصوم سبعة إذا رجع، فيكون ذلك لا على سبيل الجمع وإنما يكون ذلك على سبيل البدل، إما هذا أو هذا، فقال: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة]، والله أعلم.

"**وقوله:** {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩٦) سورة البقرة] **حاضروه هم أهل الحرم، فلا متعة لهم، وروى عبد الرزاق عن طاوس قال: المتعة للناس لا لأهل مكة.**"

هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو أن أهل مكة ليس عليهم متعة، والعلماء مختلفون في أهل مكة هل تشرع لهم العمرة أم لا؟، وذلك باعتبار أن العمرة هي الزيارة، وأهل مكة هم قاطنو البيت، وعلى قول من قال: إن العمرة تشرع لهم فإنهم يخرجون إلى الحل ليجمعوا بين الحل والحرم، فيكون قاصداً للبيت من خارج الحرم.

وابن جرير -رحمه الله- يحمل قوله تعالى: {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩٦) سورة البقرة] على من لم يكن بينه وبين مكة مسافة قصر، أي: حتى لو كان من غير أهل الحرم، فالتنعيم مثلاً هو حي من أحياء مكة حيث إن بعضه في الحل وبعضه في الحرم، وعرفة من الحل، وكذلك القرى القريبة من عرفة ونحو ذلك، فهل أهل هذه المناطق يشرع لهم التمتع أم لا؟ ابن جرير –رحمه الله- يقول: من ليس بينه وبين مكة مسافة قصر فهو من حاضري المسجد الحرام.

"**عن طاوس قال: المتعةُ للناس لا لأهل مكة مَنْ لم يكن أهله من الحرم، وكذا قول الله -عز وجل-:** {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} **قال: وبلغني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مثلُ قول طاوس.**"

يقول: {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، اسم الإشارة {ذَلِكَ} يعود إلى التمتع، والمعنى أن التمتع لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فمفهوم المخالفة أن من كان أهله من أهل المسجد الحرام فإنه لا متعة لهم.

وبعض أهل العلم يحمل اسم الإشارة على أنه يرجع إلى وجوب الهدي والصيام المذكور في قوله: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة]، أي أن صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم {لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، إذ إنه إذا كان من أهل الحرم فكيف سيرجع إلى المصر الذي جاء منه ليصوم الأيام السبعة.

والقائلون بهذا يقولون: إن أهل مكة يتمتعون كما يتمتع غيرهم، بل إن بعضهم يقول: حتى من ساق الهدي يمكن أن يتمتع لكنه لا يحل من إحرامه لوجود المانع، وأما النسك فإنه يقع تمتعاً، وهذا القول قال به قليل من أهل العلم، لكن المعنى المشهور هو أن اسم الإشارة {ذَلِكَ} يعود إلى التمتع، أي أن التمتع إنما يكون لمن لم

يكن أهله حاضري المسجد الحرام، وبالتالي فأهل مكة لا متعة لهم، إلا أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار أن المسألة ليست محل اتفاق.

"**وقوله**: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: **فيما أمركم وما نهاكم**، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٩٦) سورة البقرة] أي: **لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره**."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١٩٧) سورة البقرة].

"قوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} أي: لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، وهو مروي عن ابن عباس وجابر -رضي الله تعالى عنهم- وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه أن تخصيص وقت الحج بأشهر معلومات من بين سائر شهور السنة يدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة."

قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهذا يدل على أن الحج موقَّت بوقت، وهذا منشأ الكلام على هذه المسألة التي أشار إليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي هل يصح أن يحرم بالحج قبل أشهره التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة أو عشر من ذي الحجة أم لا؟

هذه مسألة خلافية مشهورة، وظاهر الآية أن ذلك لا يكون إلا في أشهره، كميقات الصلاة، والله أعلم.

"وروى الشافعي -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يُحْرِم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [(١٩٧) سورة البقرة].

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج.

وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: "من السنة كذا" في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، روى ابن مردويه عن جابر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج))[1]، وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعي والبيهقي من طُرق عن ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يسأل: أيُهَلّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: "لا"[2]، وهذا الموقوف أصحّ وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره" والله أعلم.

---

1 - انظر سنن الترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا؟ (٩٣٢) (ج ٣ / ص ٢٧١) وانظر تصحيح الألباني له في صحيح الترمذي برقم (٩٣٢).

2 - أخرجه الشافعي في مسنده (ج ١ / ص ١٢١) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (ج ٧ / ص ٣٩٢).

وقوله: {أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} قال البخاري: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: هي شوال، وذو القَعْدة، وعشر من ذي الحجة، وهذا الذي علقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} قال: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة" إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضًا في مستدركه، وقال: هو على شرط الشيخين."

القول المشهور عن جماعة من الصحابة ومن بعدهم أن أشهر الحج شهران وعشرة أيام، وبعضهم يقول: إن شهر ذي الحجة من أشهر الحج بكامله، وهذا أيضاً قال به جماعة من الصحابة فمن بعدهم، والمسألة معروفة في كتب الفقه، وليس من شأننا هنا أن نذكر أو نستطرد في الكلام في المسائل الفقهية، وعلى كل حال هو قول معروف، وممن قال به من الصحابة -رضي الله عنهم- ابن مسعود وابن عمر، وقال به جماعة من كبار التابعين منهم عطاء الذي هو أعلم الناس في زمانه بالمناسك، ومذهب الإمام مالك أيضاً أن شهر ذي الحجة بكامله من أشهر الحج.

"قلت: وهو مَرْوِيّ عن عُمَر وعليّ، وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيّان، واختار هذا القول ابن جرير."

ذكر هنا جماعة مثل: ابن مسعود وعطاء ومجاهد والربيع، مع أنه جاء عن هؤلاء الذين ذكرهم جميعاً أنهم قالوا: إن أشهر الحج هي ثلاثة أشهر على أن شهر ذي الحجة بكامله من أشهر الحج، وهذا يوجد بكثرة في كتب التفسير وفي كتب الخلاف في الفقه، ولذلك فإن مثل هذا يحتاج إلى تحرير من خلال النظر في هذه الروايات هل تصح أم لا؟، ثم ينظر في المتقدم والمتأخر من الروايات التي تروى عن هذا الصحابي أو التابعي، فإن عرف ذلك عمل بالمتأخر، فإن لم يعرف فإنه ينقل عنه هذا وهذا.

ومما يوجد أحياناً في مسألة ما أنه يقول: هذا قال به الخلفاء الأربعة وفلان وفلان وفلان، وإذا نظرت في أدلة القول الثاني تجد أنه يعدد أيضاً بعض من ذكرهم في القول الأول، وإذا نظرت في الروايات المنقولة عنهم تجد أن كثيراً منها قد لا يصح أصلاً، ومن ثَمّ فإن الإنسان لا يحكم لأول وهلة بمجرد ما يرى من الأسماء أن هذا هو فعلاً مذهب هؤلاء جميعاً من الأئمة.

بل إن أئمة المذاهب تُنقل عنهم أحياناً أشياء مع وجود روايات أخرى نُقلت عنهم بخلاف ذلك ربما كانت أثبت من هذا المنقول، ولذلك فإن المذاهب إنما تنقل من الكتب المعتمدة عند أهلها وأصحابها، أما نقل ذلك من كتب أخرى فإنه مظنة لوقوع الخطأ.

وكذلك الأمر في الفرق والخلاف في العقائد، فإنك إذا نظرت في كتاب الملل والنحل للشهرستاني تجد أشياء كثيرة جداً مما يضاف إلى أهل الفرق مما لا يقولون به، ولا يثبت عنهم، أو أن القائل به هو بعض هؤلاء.

فالحاصل أنهم ينقلون من كتب خصومهم ممن ألف في الفرق أو ألف فيهم أو رد عليهم، فهم ينقلون من كتب خصومهم ويضيفون إليهم ما ليس فيهم، ولذلك تجدهم إذا عرضوا مذهب أهل السنة يعرضونه مشوهاً، والكُرَّامية مثلاً تُنسب إليهم أشياء لا توجد في كتبهم، وإنما نُقلت من كتب مخالفيهم، وهذه الطريقة ليست دقيقة في العلم والخلاف.

"**قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب: زرته العام ورأيته اليوم.**"
على كل حال القول الأول: إنها إلى عشر ذي الحجة هو قول مشهور يقول به عامة أهل العلم من أصحاب المذاهب وغيرهم، وقد سمى هنا جماعة مع أن بعضهم نُقل عنه غير ذلك، وهذا مذهب الأئمة الثلاثة، أعني أبا حنيفة والشافعي وأحمد.

ويترتب على مسألة تحديد أشهر الحج عمل وهو هل له أن يؤخر باختياره بعض أعمال الحج إلى ما بعد اليوم العاشر من ذي الحجة أم لا يجوز له التأخير؟

"**للتغليب كما تقول العرب: زرته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى:** {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة] **وإنما تعجل في يوم ونصف يوم.**"

على كل حال هذه الآية يستدل بها من يقول: إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، بمعنى أن ذلك يحرم، وهو المعروف من مذهب الشافعي -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وبه يقول الأوزاعي، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك يجوز لكن مع الكراهة من غير تحريم.

وعلى كل حال جاء عن الإمام أحمد أن ذلك يكره، وكذلك نقل عن الإمام مالك -رحمه الله- أنه يكره وأن ذلك يجزئه.

وبعضهم يقول: إنه يجوز أن يحرم بالحج في سائر العام متى شاء كالعمرة، لكن ليس معناه أنه يحج في شهر صفر أو ربيع مثلاً، فهذا لم يقل به أحد، وإنما المقصود الإحرام فقط، أي أنه يلبي بالحج متى شاء لكن ليس معنى هذا أن يقف في عرفة في غرة ر بيع مثلاً وإنما يقف في اليوم التاسع من ذي الحجة.

ومن قال بجواز الإحرام سائر العام يحتج بمثل قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [(١٨٩) سورة البقرة]، فهؤلاء يقولون: إن الله -عز وجل- جعل الأهلة مواقيت للناس والحج، فيستطيع الإنسان أن يحرم بالحج في أي وقت من العام من غير كراهة، وعلى كل حال هذا قول فيه نظر -والله تعالى أعلم- مع أن القائل به أئمة، فأحياناً بعض الأقوال تستغربها وتجد أن القائل بها من الكبار كإسحاق بن راهويه وسفيان الثوري، فإذا رأى الإنسان مسألة من هذه المسائل لا يستعجل بالشناعة وإنما يتريث وينظر، وربما ترك ما يعتقده من القول بعد مدة وانتقل إلى هذا الذي كان يشنع عليه، إلا إذا كان الشيء لا دليل عليه أصلاً بحيث كان مخالفاً للنصوص الصريحة الواضحة فنعم، أما مثل هذه المسائل فهي كما هو واضح أن المسألة هذه ذكرت لها عمدة الأدلة فلا تشنيع إذن، والله أعلم.

"**وقوله:** {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} [(١٩٧) سورة البقرة] **أي: أوجب بإحرامه حَجًّا.**"

قوله: **أوجب بإحرامه حَجًّا**، يعني أوجب بإحرامه على نفسه حجاً.

"**فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه.**"

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وهو قوله: أي: **أوجب بإحرامه حَجًّا**، بمعنى أوجب بإحرامه على نفسه حجاً كما أسلفت هو أقرب ما تفسر به الآية، وهناك معان أخرى تذكر فيها، لكن هذا من أقربها مأخذاً ومن أسهلها ومن أوضحها، وذلك أن من شرع في الحج بأن لبى به فقد لزمه إتمامه؛ كما قال تعالى في الآية السابقة: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] والله تعالى أعلم.

وفيما يتعلق بقوله: {أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} على قول من قال: إنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، يكون توجيه صيغة الجمع بأحد وجهين:

الوجه الأول: باعتبار جبر النقص، بمعنى أنه إذا وجد أيام من الشهر الثالث فبالنظر إلى تكميل النقص وجبره كما هو معروف عند العرب صحَّ أن يطلق على ذلك أشهر، ومثل هذا سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة]، وذلك أن الحاج إذا رمى الجمرات بعد الزوال في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة فإنه لا يحتاج أن ينتظر إلى الغروب ليكتمل اليوم الثاني، ومع ذلك اعتبر أنه تعجل في يومين من باب جبر النقص.

والوجه الثاني: أن أقل الجمع عند بعض أهل العلم من أهل اللغة اثنان، وهو قول منقول عن الإمام مالك أيضاً كما في المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهر   اثنان عند الإمام الحميري

يعني عند الإمام مالك -رحمه الله- ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [(١١) سورة النساء] وقوله: {إِخْوَةٌ} جمع، ومعلوم أن الذي يحجب الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس وجود أخوين.

" **قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفَرْض هاهنا الإيجاب والإلزام.**"

يعني ألزم نفسه بذلك، أي شرع فيه بالتلبس بإحرامه، وإن شئت أن تقول: لبى بالحج أو أهلَّ به، فكل هذه العبارات تؤدي المعنى ولا حاجة أن نجعل من الأقوال في الآية إشكالاً، فهو ملزم بالإتمام متى شرع بالإهلال بالتلبية، وبالشروع بالتلبس، فهو متى دخل في إحرامه فعليه أن يستوفي ذلك.

"**وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} [(١٩٧) سورة البقرة] **يقول: من أحرم بحَجّ أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام، وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم**"

يقول: **الفرض الإحرام**، ولا شك أن من أحرم بهما فقد فرض وأوجب ذلك على نفسه.

"**وقوله:** {فَلاَ رَفَثَ} [(١٩٧) سورة البقرة] **أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع.**"

بعض أهل العلم فسر الرفث بمعنى هو من أشهر معانيه وهو الجماع، ومن أهل العلم من يحمله على العموم، حيث إن لفظ "رفث" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي والنهي والشرط والاستفهام تدل على العموم وهذا النفي هنا مضمن معنى النهي، أي: فلا يرفث جميع أنواع الرفث، فيدخل فيه الجماع ومقدماته، ويدخل فيه الكلام في ذلك.

هل الكلام عن الجماع ممنوع وإن لم يكن بحضرة النساء؟:

من أهل العلم من خصه بحضرة النساء، بمعنى أنه لا يتكلم معها في شيء من ذلك، وقد نُقل عن ابن عباس -رضي الله عنه- بيت فسئل عن هذا فبين أن ذلك إنما يحرم بحضرة النساء، وإلا فإن البيت الذي قاله كان بعبارة صريحة ليس فيها أي كناية.

"**والرفث هو الجماع، كما قال تعالى:** {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة]، **وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء.**

روى ابن جرير عن نافع أن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: الرفثُ إتيانُ النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم."

يعني أن ابن عمر –رضي الله عنهما- يرى أنه لا يختص منع الكلام في ذلك بحضرة النساء فقط، وإنما يرى منع التحدث بهذا حتى عند الرجال، وعلى كل حال الآية تحتمل هذا، ولا أعلم شيئاً يخصصه بحضرة النساء إلا ما نقل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومعلوم أنه إذا خالف صحابي صحابياً آخر فإنه يلجأ إلى الترجيح بين أقوال الصحابة، ولا يكون قول الواحد منهم حجة على الآخر.

"**وقال عطاء بن أبي رباح: الرفثُ: الجماع وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار.**"

قوله: **وما دونه من قول الفحش**، أي من قول الفحش المتصل بهذا الباب، وأما قول الفحش الآخر فيدخل في عموم قوله: **{وَلاَ فُسُوقَ}** [(١٩٧) سورة البقرة].

"**وقال عطاء: كانوا يكرهون العرابة وهو التعريض وهو مُحرِم.**"

استعمال الكنايات عن الجماع ونحو هذا يقال له ذلك، فكيف بالكلام الصريح؟ وقد فسر قوله تبارك وتعالى عن نساء الجنة: **{عُرُبًا أَتْرَابًا}** [(٣٧) سورة الواقعة]، بأن معناه أنهن متحببات إلى أزواجهن، يتغنجن بالكلام عند أزوجهن، وعلى كل حال فإن الكنايات تكون أحياناً أقبح من التصريح، وفي بعض الكتب التي جمعت في هذا الباب خاصة من الكنايات يستحي الإنسان أن يدخلها في بيته.

"**وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا حللت أصبتك، وكذا قال أبو العالية.**"

هذا من باب التفسير بالمثال، ويقال غير هذا مما هو أشد منه.

"**عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الرفث: غَشَيَان النساء والقُبَل والغَمْز، وأن يُعَرّض لهَا بالفحش من الكلام ونحو ذلك.**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضًا وابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: الرفثُ: غشيانُ النساء، وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية عن عطاء، ومكحول، وعطاء الخراساني، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النَّخَعي، والربيع، والزهري، والسدي، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم."

على كل حال هو لا يختص به كما سبق، وقد مرَّ ما نقل عن ابن عمر من أنه: التحدث به عند الرجال والنساء، وابن عباس يرى أنه عند النساء خاصة، بل نقل كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن المقصود بالرفث التحدث به بحضرة النساء خاصة، بإجماع، ومذهب ابن جرير في نقل الإجماع معلوم أنه يقصد به قول أكثر أهل العلم.

"**وقوله: {وَلاَ فُسُوقَ}** [(١٩٧) سورة البقرة] **قال مِقْسَم وغير واحد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي المعاصي.**"

أي المعاصي بإطلاق، وبعض السلف يخص ذلك بنوع منه، ولكن الآية ظاهرها العموم؛ فالفسوق نكرة في سياق النفي، فهي للعموم، فيدخل فيها النظر الحرام، والغيبة والكذب والاستهزاء بالناس، إلى غير ذلك من الفسوق الذي يقع من كثير ممن يحرم بالحج أو العمرة.

"وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والزهري، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان."

نعم، ظاهر الآية العموم، ومن أهل العلم من يحمله على معنى خاص يختص بالإحرام، وبعضهم يحمله على معنى يختص بالحرم، فعلى الأول: الفسوق المراد به أن يفعل شيئاً من محظورات الإحرام، كالصيد ولبس المخيط، والطيب، وحلق الشعر، وما أشبه ذلك، كما هو قول ابن جرير -رحمه الله-، وعلى الثاني: يحمل الفسوق على ما يتصل بالحرم كقطع الشجر، وقتل الصيد، ولكن لا دليل على هذا التخصيص، والأصل حمل العام على عمومه حتى يأتي دليل يخصصه، والآية ليس فيها قرينة توجب صرف هذا العموم إلى معنى خاص.

لكن هؤلاء العلماء لم يقولوا هذا من عند أنفسهم هكذا من غير أي مستند، وإنما قال من قال: إن هذا يختص بالحرم أو الإحرام بسبب أنه ممنوع أصلاً من الغيبة والنظر الحرام والفجور بأنواعه، والذنوب والمعاصي بكل صورها وأشكالها، فهذه كلها لا تختص بالإحرام حتى يُنهى عنه في الإحرام، بل هو مستصحب للمنع والتحريم، فإذن هنا لا بد من شيء جديد آخر يختص بالإحرام وهو قتل الصيد، والطيب، وما أشبه ذلك من محظورات الإحرام أو مما يختص بالحرم.

ولا شك أن من سمع هذا التوجيه لهذا القول اتسع صدره وتبين له أن له وجها من النظر، بينما قبل ذلك ربما ينظر الإنسان إلى القول الذي لم يعرف مأخذه فيقول: هذا مخالف للنص، ولماذا يقولون هذا؟، ولماذا هؤلاء يتحكمون بآرائهم؟، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، فهؤلاء أئمة وأذكياء وأهل تقوى وورع، والواحد منهم أكبر من الجبل.

"وروى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم، وقال آخرون: الفسوق هاهنا السباب، وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيحين: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر))[3]."

هذا القول هو أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، ونصُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- على أن سباب المسلم فسوق، لا يدل على أن الفسوق يختص بالسباب من بين سائر الذنوب، فهناك ما هو أعظم من السباب، وهو أولى بالفسوق، فالفسق أصله الخروج عن الطاعة، وكلام أهل اللغة في ذلك معروف حيث يقولون: فسقت الفأرة، ويقال لها: فويسقة؛ لأنها تخرج من جحرها للإفساد، وهكذا الخروج عن طاعة الله -عز وجل- يقال له: فسوق، وقد يكون ذلك فسوقاً أكبر أو فسوقاً أصغر، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} [(٦) سورة الحجرات]، فهو يشمل الكافر والعاصي مع أن الأصوليين يذكرون هذا في أشهر أمثلتهم عند الكلام على مفهوم الموافقة الأولوي الظني، فيقولون: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} يعني إن جاءكم كافر فمن باب أولى، إلا أنهم يقولون: لا يقطع بذلك؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه فهو يتحرز من الكذب، وبالتالي يحتمل أن

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٦٩٧) (ج ٥ / ص ٢٢٤٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (٦٤) (ج ١ / ص ٨١).

نكون مطالبين بأن نتثبت في خبر الكافر المتدين الذي دينه يحرم عليه الكذب ويحتمل عدم ذلك، لكن الصحيح أن الآية تشمل الكافر والعاصي، والله أعلم.

"وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا: الذبح للأصنام، قال الله تعالى: {أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(١٤٥) سورة الأنعام] وقال الضحاك: الفسوق: التنابز بالألقاب."

هذا كله يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال.

"والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم."

يعني أن هذا جواب عن أولئك الذين خصوه بالحرم أو الإحرام، فقالوا: إن هذه محرمة أصلاً في سائر السنة وفي كل الأحوال، فلا يختص التحريم بها في حال الإحرام، فيقال: هذا آكد كما قال الله -عز وجل- عن الأشهر الحرم: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [(٣٦) سورة التوبة] مع أن ظلم النفوس بمعصية الله -عز وجل- محرم في سائر الشهور، لكنه يتأكد في الأشهر الحرم.

"كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم. وإن كان في جميع السنة منهيًّا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد؛ ولهذا قال: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [(٣٦) سورة التوبة]، وقال في الحرم: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢٥) سورة الحــج].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[4].

وقوله: {وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [(١٩٧) سورة البقرة] المراد بالجدال المخاصمة.

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} قال: أنْ تماري صاحبك حتى تغضبه."

يعني أن الجدال يحمل على العموم فيما يكون ممنوعاً، وهو المراء، لكن المجادلة التي تكون بمعنى المحاورة التي يراد بها التوصل إلى الحق، كما قال الله -عز وجل-: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٢٥) سورة النحل]، فهذا لا إشكال فيه، لكن أن تجادل صاحبك الجدال العقيم الذي يهدف من ورائه كل واحد من المتجادلين إلى زحزحة صاحبه عن قوله وإخراجه منه وفتله من ذلك، ويريد أن ينتصر لقوله ولنفسه ويصحح مذهبه، فهذا هو الممنوع، وهو الذي عليه عامة أهل العلم في تفسير الجدال هنا، خلافاً لما ذكره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمله على معنى آخر فقال: ليس هذا للنهي عن الجدل بمعناه العام وإنما هو نهي عن الجدل في الحج خاصة من حيث أصل مشروعيته وأنه من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأنه موقَّت بوقت هو وقته، وهذا المعنى مردُّه إلى أن أهل الجاهلية كانوا يغيرون في الأوقات، كما بين ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [(٣٧) سورة التوبة]، فربما جاء وقت الحج في شهرٍ محرمٍ بسبب أنهم كانوا يغيرون الشهور فيؤخرون ذا الحجة إلى محرم، وهذا أحد الأوجه التي فُسِّر بها قول النبي -صلى الله عليه

---

[4] - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب قول الله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ} [(١٩٧) سورة البقرة] (١٧٢٣) (ج ٢ / ص ٦٤٥) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[٥]، فبعضهم قال: المراد به أن ذا الحجة في السنة التي حج فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقع كما هو بعد أن كانوا يغيرون ويؤخرون شهراً شهراً وفي تلك السنة التي حج فيها النبي –عليه الصلاة والسلام- وقع في وقته، هذا أحد الأقوال في توجيه هذا الحديث وبيان معناه.

وعلى كل حال فإن قول ابن جرير: ليس المقصود بالنهي عن الجدال أن تجادل صاحبك، وإنما المراد لا تجادل في مواقيت الحج أنها صحيحة ولا تجادل في أصل مشروعيته.

"وكذا روى مِقْسَم والضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وكذا قال أبو العالية، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعمرو بن دينار، والضحاك، والربيع بن أنس، وإبراهيم النَّخَعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهري."

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة {براءة} [التوبة] (٤٣٨٥) (ج ٤ / ص ١٧١٢) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ} [(١٩٧) سورة البقرة] لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعْلاً حَثَّهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] روى البخاري وأبو داود عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان أهل اليمن يَحُجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة].

وروى ابن جرير وابن مَرْدُويه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر، فأنزل الله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] فَنُهوا عن ذلك، وأمِرُوا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية جاءت في سياق الآيات التي تتحدث عن الحج، وسبب النزول المذكور هاهنا يتصل بهذا الموضوع اتصالاً ظاهراً، حيث إنهم كانوا يفعلون ذلك في حجِّهم، ويقولون: نحن أضياف الله، ومن ثَمَّ يعتقدون بأنه لا يليق أن يحملوا معهم الأزواد، وذلك من أول سفرهم، أو من حين إحرامهم، وليس المراد بذلك ما عرف عن العرب من غير الحمس أنهم إذا دخلوا أرض الحرم وليس الإحرام، فالإحرام قد يحرم الواحد من مكان بعيد، وقد يكون الميقات بعيداً، كميقات أهل المدينة، ولكن كان من طقوسهم التي كانوا عليها في الحج أن غير الأحمسي -والحمس هم قريش وما ولدت- كانوا يلقون الأزواد إذا دخلوا أرض الحرم؛ ذلك أن الحمس كانوا إذا دخلت أشهر الحج لا يسلؤون ولا يأقطون بمعنى أنهم ما كانوا يأخذون من الألبان الجبن ولا الزبدة ولا يأخذون الأقط ولا غير ذلك، وإنما كانوا يطعمون ذلك الحجيج، فقد كانوا يطعمونهم الألبان، ويسقونهم النبيذ ونحو ذلك، وكانوا يتنافسون في هذا مجاناً، وكانوا يرون أنه لا يليق أن يدخل الحاج من غير الحمس أرض الحرم ومعه طعام، ولذلك كانوا يتكفلون له بذلك كله، حيث كانوا يرون أن ذلك من صميم وظيفتهم في القيام على البيت مع قلة ذات اليد.

والآية هاهنا يختلف الكلام فيها عن هذا الأمر بالنسبة للحمس، وذلك أن بعض العرب كبعض أهل اليمن كانوا إذا أحرموا تركوا أزوادهم باعتبار أنهم أضياف الله وبالتالي فإن الله سيررزقهم ويهيئ لهم، فيكون الواحد منهم عالة على أزواد الناس، وهذا هو الذي أشارت إليه الآية، وعليه فيكون قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ} أمر لهم بحمل الأزواد معهم في سفرهم إلى الحج.

وابن جرير -رحمه الله- يحمل هذه الآية على ما يتصل بالحج خاصة من حمل الأزواد، بحيث إنه يذكر في معناها: وتزودوا ما فيه بلاغكم إلى حجكم، أي ما فيه البلغة إلى حجكم، أو إلى أداء فرض ربكم، فإنه لا بر لكم في ترك التزود في أسفاركم للحج بحيث تسألون الناس وتركنون إلى أزوادهم، ولكن البر في تقوى ربكم باجتناب ما نهاكم عنه في سفركم لحجكم.

وقوله: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} أي لا خير لكم بإلقاء الأزواد أو بترك التزود وإنما خير الزاد هو التقوى وذلك بأن تتقوا ربكم في سفركم إلى الحج بترك ما نهاكم عنه من محظورات الإحرام ومن غيرها.

ومن أهل العلم من حمل الآية على معنى أوسع من هذا، أي: ، تزودوا في الحج وفي غير الحج فإن خير الزاد التقوى، أي فإن خير الزاد ما اتقى به المرء أسباب الهلكة في سفره فيضطر إلى السؤال، وعلى هذا الاعتبار فالمقصود بخير الزاد التقوى هنا أي إن خير الزاد ما تتقي به الهلاك وتتقي به سؤال الناس والحاجة إليهم، فإن الحاجة إلى الناس مذلة، لكن ليس هذا هو المعنى المتبادر من الآية.

ومن أهل العلم من يحمل قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] على معنى تزودوا لآخرتكم من دنياكم، ثم وجههم إلى أفضل الزاد الموصل إلى رضوان الله -عز وجل- وهو التقوى، فهؤلاء جعلوا القضية تتعلق بالعبودية لله -تبارك وتعالى-، وهذا له نظائر في القرآن- وهؤلاء يبدو أنه غلب عليهم نعم هذه الحال فحملوا نظائر ذلك على هذه المعاني فيما يتصل بالعبادة في مثل قوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} [(١٠) سورة الجمعة]، فالمعروف أن المعنى أنه طلب منهم أن يبتغوا من فضل الله بالتجارة بالبيع والشراء بعد أن نهاهم عنه إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، إلا أن بعضهم قال: ليس هذا هو المراد من قوله: {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} وإنما المراد منهم أن يبتغوا من فضل الله مما يقربهم إليه، بعيادة المريض، وصلة الأرحام، واتباع الجنائز، وما أشبه ذلك مما يكون به التعبد لله -عز وجل- والتقرب إليه.

وكذلك الأمر في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [(٧٧) سورة القصص]، فالمقصود بالآية: خذ من دنياك ما يحصل به الكفاف والبلاغ فإن الإنسان مضطر إلى ذلك، وهذا هو المعنى المشهور، إلا أن من أهل العلم من يقول: إن المعنى ولا تنس نصيبك من الدنيا فيما يبلغك إلى الله -عز وجل- والدار الآخرة من الأعمال الصالحة، فهم في مثل هذه النظائر يحملونها على العمل الصالح.

وعلى كل حال فظاهر الآية -والله تعالى أعلم- وسبب النزول يدل على أنه في قوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] جمع لهم بين التوجيه إلى التزود في سفرهم وفي حجهم مما يحتاجون إليه من الطعام ونحو ذلك، ثم أرشدهم إلى معنى أشار إليه بهذه المناسبة فإن الشيء بالشيء يذكر، فقال لهم: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] وهذا كما في قوله -تبارك وتعالى- في سورة المدثر: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [(٤) سورة المدثر]، فإن الله -عز وجل- يذكر هذا وهذا، أي يذكر ما يتصل بأمور تحصل بها مصلحتهم في الدنيا من اللباس أو القوت أو نحو ذلك، ويذكر أمراً يتعلق بآخرتهم مما يتصل بهذا المعنى.

ومن نظائر ذلك أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] حيث جمع بين أمر محسوس وأمر معنوي، فمعنى ناضرة أي من البهاء والنضارة، ومعنى إلى ربها ناظرة

أي النظر إلى وجه الله الكريم في الآخرة، ومن نظائر ذلك أيضاً قوله تعالى: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [(١١) سورة الإنسان]، فالنضرة تكون في الوجه بالحسن والبهاء والإشراق، والسرور يكون بالنفس، ففي الآية الأولى جمع لهم بين نضارة الوجه وبين أعظم لذة وهي النظر إلى وجه الله -تبارك وتعالى-، وهنا لقاهم نضارة الوجه وبهجة النفس.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [(٢٦) سورة الأعراف]، فهو ذكر اللباس الذي يلبسه الإنسان أو يتقي به الحر والبرد، وذكر لباس التقوى الذي لا يستغني عنه العباد.

ومن نظائر ذلك قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [(٦) سورة الصافات] فهي زينة ظاهرة، ثم قال: {وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [(٧) سورة الصافات]،.

ومن ذلك قوله -تبارك وتعالى- لآدم -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} [(١١٨) سورة طـــه]، فجمع له بين نفي الجوع عنه وهو شعور داخلي، ونفى عنه العري، وهو أمر يتصل بالظاهر، وهذا كثير في القرآن، فالمقصود أن قوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] معناه تزودوا من الأقوات ما فيه بلاغكم إلى حجكم، ثم نبههم بهذه المناسبة إلى أن خير ما يُتزود به في هذه الدار هو تقوى الله -عز وجل-؛ لأن الآخرة دار لا تصلح للمفاليس، والله أعلم.

"وقوله: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة]: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: {وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [(٢٦) سورة الأعراف] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع.

وقوله: {وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١٩٧) سورة البقرة]: يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة]: روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت عكاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثَّموا أن يتجروا في المواسم فنزلت: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] في مواسم الحج.

وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة]، وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس، وغيرهم.

وروى ابن جرير عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- سُئِل عن الرجل يحجُّ ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة].

وهذا موقوف، وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعًا.

روى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نُكرَى فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل -عليه السلام- بهذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] **فدعاه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ((أنتم حجاج))**[1]."

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} المشهور في معناها هو ما ذكره ابن كثير هنا، وهو الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفا، أي أنه التجارة في الحج، وإن كان هناك من حمل ابتغاء الفضل هنا على معنى آخر يتصل بالعبادة، ولكن المعروف والمشهور في معنى الآية هو التجارة في مواسم الحج.

وقد جاء في بعض القراءات غير المتواترة ما يبين أن المراد بذلك التجارة في موسم الحج.

قال: **عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نُكرَى، فهل لنا من حج؟** أي أن الواحد منهم كان يخرج أجيراً مع الحجيج، وربما أسقط شيئاً من أجرته من أجل أن يمكنوه من الحج، فهو يخرج ليرتزق مع هؤلاء الناس حتى يحصل على بعض المال، لكن لا يكون مشتغلاً بالخدمة في سائر الوقت، فسأل أبو أمامة ابن عمر: هل لنا من حج؟ أي أنه يتساءل عن التشريك في النية هل تبطل حجه أم لا؟، فابن عمر -رضي الله عنه- أجابه بهذه الآية، {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة].

ومن قرأ حديث الأعمال بالنيات ومسألة مراتب العمل المتعلقة بهذا الحديث يجد أن هذه الصورة هي المرتبة الثانية، فالمرتبة الأولى: أن يقصد وجه الله -عز وجل- بالعمل ولا يلتفت إلى شيء آخر فهو يحج للحج فقط. والمرتبة الثانية: أن يلتفت إلى أمر يحصل على سبيل التبع مما يجوز الالتفات إليه، فهو يحج ويريد أيضاً التجارة، فهذا لا إشكال فيه، لكنه دون الأول، وكمن يجاهد وهو أيضاً يريد الغنيمة، لكن مع إرادة وجه الله -عز وجل- فهذا جهاده صحيح ويؤجر عليه، لكنه أيضاً ليس كمن تمحضت نيته بإرادة وجه الله -تبارك وتعالى-، ومثل ذلك من يصوم ليصح بدنه مع نية التقرب إلى الله تعالى فهو أيضاً ليس كمن تمحضت نيته بإرادة وجه الله تعالى، فكل هذه الصور لا إشكال فيها ولا تحبط العمل خلافاً للرياء والسمعة فإن ذلك يفسد العمل، ولا يجوز الالتفات إليه بحال من الأحوال.

"وروى ابن جرير عن أبي صالح مولى عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج؟.

وقوله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] **إنما صرف عرفات وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جَمْعٌ كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.**

وعرفة: موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمدُ وأهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يَعمر الديلي -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه

---

[1] - أخرجه أحمد في المسند (ج ٢ / ص ١٥٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

وسلم- يقول: ((الحج عرفات -ثلاثاً- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه))[٢].

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم- وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال: ((لتأخُذوا عني مناسككم))[٣] وقال في هذا الحديث: ((فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك))[٤]".

قوله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] يعني إذا أفضتم من عرفات إلى مزدلفة، فالمقصود بالمشعر الحرام بهذا الاعتبار هو مزدلفة، وسيأتي الكلام على هذا عند تفسير الآية التالية وهي قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة]، مع بيان وجه الآية وهل فيها تقديم وتأخير، أو أنها على هذا الترتيب.

"وعن عروة بن مُضَرِّس بن حارثة بن لام الطائي -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جَبَلَيْ طي، أكللت راحلتي وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حَجٍّ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من شَهِد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجُّه وقضى تفثَه))[٥] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي."

مسألة: هل يجوز لغير الضَّعَفَة أن يدفعوا إلى منى إذا غاب القمر، أو بعد منتصف الليل؟ وهل يقال: إنه يستحب أن يبقوا بها حتى يسفر جداً بعد أن يصلوا صلاة الفجر؟ هذه مسألة فيها كلام معروف لأهل العلم، ومما يحتج به من يقول: إنه لا يجوز ذلك لغير الضعفة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ليلاً أو نهاراً فقد أتم حجَّه وقضى تفثه))[٦].

فقوله: ((من شهد صلاتنا هذه)) يعني صلاة الفجر يوم النحر في المزدلفة.

وقوله: ((ووقف معنا حتى ندفع)) أي عند المشعر الحرام حتى يسفر جداً، وقد وقف -عليه الصلاة والسلام- حتى أسفر جداً.

فهذا من أقوى ما يستدل به من قال: إنه يجب على الحاج أن يبقى في المزدلفة إلى الفجر، ويسن له أن يبقى حتى الإسفار، ولا يرخص بالدفع قبل ذلك إلا للضعفة، وعلى كل حال فهذه مسألة خلافية مشهورة، لذلك ينبغي لمن كان من غير الضعفة أن يحتاط لنفسه.

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ومن سورة البقرة (٢٩٧٥) (ج ٥ / ص ٢١٤) والنسائي في السنن الكبرى - كتاب الحج - باب فرض الوقوف بعرفة (٤٠١٢) (ج ٢ / ص ٤٢٤) والدارمي في كتاب المناسك – باب بمَ يتم الحج (١٨٨٧) (ج ٢ / ص ٨٢) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٩٧٥).

[3] - أخرجه مسلم دون قوله: ((عني)) في كتاب الحج - باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله -صلى الله تعالى عليه وسلم-: ((لتأخذوا مناسككم)) (١٢٩٧) (ج ٢ / ص ٩٤٣).

[4] - سبق تخريجه برقم (٢).

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب الحج عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٩١) (ج ٣ / ص ٢٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٢١).

[6] - سبق تخريجه.

"ثم قيل: إنما سميت عَرَفات لما رواه عبد الرزاق، أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: بعث الله جبريل -عليه السلام- إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عَرَفَة."

يعني أنه كان يطوف به في المناسك فجاء به إلى عرفة فقال له: عرفت؟ قال: نعم، ثم ذهب به إلى المزدلفة، ثم ذهب به عند الجمار، وهكذا كان يطوف به في المناسك ويعرفه -صلى الله عليه وسلم- المناسك في الحج، فكان يسأله في كل مرة ويقول له: هل عرفت؟ ولهذا سميت عرفة، وبعضهم يقول غير هذا، والله تعالى أعلم.

"وقال ابن المبارك: عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفة؛ لأنّ جبريل كان يُرِي إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْت عَرَفْت، فسميت عرفات."

قد يقول قائل: إن جبريل كان يريه المناسك ولم يختص ذلك بعرفة فقط، فلماذا خص هذا الاسم بعرفة ولم يطلق على مزدلفة أو منى مثلاً؟

فالجواب هو كما يقول أهل اللغة: إن الأسماء لا تعلل، فمن الأسماء ما هو مرتجل، ومنها ما هو منقول، فالله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قيل لها ذلك؛ لأن آدم وحواء تعارفا فيها، وهذه روايات إسرائيلية، وبعضهم يقول: سميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيها حيث يجتمعون فيها، فهي عيد مكاني زماني يتكرر كل سنة في نفس الوقت وفي مكان واحد، ولذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام))[7].

"وروي نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبي مجلز -رضي الله تعالى عنهم- فالله أعلم.

وتسمى عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال، على وزن هلال، ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة."

يقال لعرفات: المشعر الحرام، لكن ليست هي المراد بقوله: **{فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}** [(١٩٨) سورة البقرة]، فالمشعر الحرام هنا يطلق على المزدلفة، ويطلق أيضاً على معنى أخص وهو جزء من مزدلفة، وهو المكان الذي يقال له: جبل قزح، كما يقال لعرفة: المشعر الأقصى تفريقاً بينها وبين مزدلفة، ويقال لعرفة -كما في بعض النسخ-: المشعر الحلال بدلاً من المشعر الحرام، وهذه التسمية هي الأنسب؛ لأن عرفة أصلاً ليست من الحرم، وإنما المزدلفة هي التي من الحرم، فتكون عرفة هي المشعر الحلال والمشعر الأقصى، ومزدلفة هي المشعر الحرام.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا، فأخر رسول الله -صلى الله

---

[7] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق (٧٧٣) ج ٣ / ص ١٤٣) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب النهي عن صوم يوم عرفة (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤١٩).

عليه وسلم- الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس"[8] **ورواه ابن مردويه، وزاد: "ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغَلَس، حتى إذا أسفر كل شيء وكان في الوقت الآخر دفع" وهذا حسن الإسناد.**

وفي حديث جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- الطويل الذي في صحيح مسلم قال فيه: "فلم يزل واقفاً -يعني بعرفة- حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسامة -رضي الله تعالى عنه- خلفه، ودفعَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد شنق للقصواء الزّمام، حتى إنّ رأسها ليصيب مَورِك رحله."

إذا شنق للناقة الزمام فمعناه أنها لا تستطيع الانطلاق في السير، وإنما يضعف سيرها.

"حتى إنّ رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: ((أيها الناس، السكينة السكينة)) كلما أتى حَبْلاً من الحبال أرْخَى لها قليلاً حتى تصعد."

قوله: **كلما أتى حبْلاً من الحبال**، أي: حبال الرمل المستطيل الممتد،، والرحل تحتاج إلى مزيد من الجهد من أجل المشي عليه وتجاوزه، فلرفقه -صلى الله عليه وسلم- يرخي لها حتى تستطيع أن تسير بسهولة ويسر.

"أرْخَى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المُزْدَلِفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفَجرُ فصلى الفجر حين تَبَيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلُع الشمس[9].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- أنه سُئِل كيف كان يسير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دَفَعَ؟ قال: "كان يسير العَنَق فإذا وجد فجوة نَصَّ"[10]**، والعنق: هو انبساط السير، والنص فوقه."**

يعني أنه لا يسرع في مشيه -صلى الله عليه وسلم-، وإنما يمشي مشياً معتدلاً، فإذا وجد فرجة أسرع قليلاً. وركوبه -صلى الله عليه وسلم- القصواء في مزدلفة عند الدعاء بعد الفجر وكذلك في عرفة يؤخذ منه أن الأفضل أن يدعو الإنسان في عرفة وكذا في مزدلفة بعد الفجر وهو راكب السيارة ونحوها إذا تيسر له ذلك.

"وروى عبد الرزاق عن سالم قال: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: المشعر الحرام المزدلفة كلها."

ربما يكون ذلك كما يقول بعض أهل العلم: إنه مأخوذ من الشعار، والشعار هو العلامة، فتقول: هذا شعار لكذا بمعنى علامة.

وهناك جملة من أعمال الحج يشرع إقامتها في مزدلفة، من صلاة ودعاء وذكر ومبيت، فكل هذه يفعلها الحاج في المزدلفة، حيث صلى فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- المغرب والعشاء وصلى فيها الفجر بعد أن بات فيها، وذكر الله -عز وجل- حتى أسفر جداً، فهذه الأعمال هي من جملة شعائر الحج، التي تقام في مزدلفة.

---

8 - تفسير ابن أبي حاتم (ج ٢ / ص ٣٧) وصحيح ابن خزيمة (ج ٤ / ص ٢٦٢) وقال الألباني: إسناده حسن لغيره.

9 - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦).

10 - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب السير إذا دفع من عرفة (١٥٨٣) (ج ٢ / ص ٦٠٠) ومسلم في كتاب الحج - باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة واستحباب صلاتي المغرب والعشاء جميعاً بالمزدلفة في هذه الليلة (١٢٨٦) (ج ٢ / ص ٩٣٦).

"وقال هُشَيم عن حجاج عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه سئل عن قوله: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] قال: فقال: هو الجبل وما حوله."

يقصد بالجبل جبل قزح الذي أشرت إليه آنفاً.

"وروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والربيع ابن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين."

يعني حد مزدلفة من جهة عرفة ما بين المأزمين، وهما الجبلان اللذان بينهما مضيق يدخل منه الحجاج، وهو من أوضح ما يكون للداخل إلى مزدلفة، وهما ليسا من مزدلفة، وإنما هما خارجان عنها، فمما بعدهما تبدأ مزدلفة، وهذا المكان هو من أوضح وأوسط الطرق -أي ما بين هذين الجبلين- وهذان الجبلان يمتدان إلى نهاية مزدلفة من جهة وادي محسر، ومزدلفة ما بينهما.

"وقد روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: قال: ((كل عرفات موقف وارفعوا عن عُرَنة، وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن مُحَسِّر، وكل فجاج مكة مَنْحر، وكل أيام التشريق ذبح))[11].

وقوله: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] تنبيه لهم على ما أنْعَم الله به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل -عليه السلام- ولهذا قال: {وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة] قيل: من قبل هذا الهدي وقبل القرآن وقبل الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والكل متقارب ومتلازم وصحيح."

نعم الكل متقارب ومتلازم وصحيح؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي جاء بالقرآن، وهذه الأمور التي عرفوها من أعمال الحج من وقوفهم بعرفة ثم الدفع إلى مزدلفة إلى غير ذلك بعد أن كان الناس يقفون من الحمس في مزدلفة أو في حدود الحرم ولا يخرجون إلى عرفة، كل ذلك إنما جاء بهداية الله -عز وجل- لهم حينما بعث نبيه -صلى الله عليه وسلم- فعرفهم مناسكهم، فهذه المعاني معانٍ لا إشكال ولا خلاف بينها.

القراءات في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} وأوجه إعرابها:

ذكر أبو حيان في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} أربع قراءات وقال:

الأولى: قرأ أبو جعفر بالرفع والتنوين في الثلاثة: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ في الحج}.

الثانية: وقرأ أبو رجاء العطاردي بالنصب والتنوين في الثلاثة: {فلا رفثاً ولا فسوقاً ولا جدالاً في الحج}.

الثالثة: قرأ الكوفيون ونافع بفتح الثلاثة -وهي قراءتنا-: {فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج}، من غير تنوين.

الرابعة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع الأولين وفتح الثالث، أي: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالَ في الحج}.

أوجه الإعراب للقراءات الأربع:

---

[11] - أخرجه أحمد (ج ٤/ ص ٨٢) وابن حبان (ج ٩ / ص ١٦٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، سليمان بن موسى – وهو الأموي المعروف بالأشدق- لم يدرك جبير بن مطعم، وقد اضطرب فيه ألواناً.

وجه رفع الجميع مع التنوين {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ في الحج} في ملخص من تفسير أبي حيان يقول: على وجهين: إما أن تكون "لا" غير عاملة ورفعه ما بعدها على الابتداء، والخبر {في الحج}، أو أن تكون "لا" عاملة عمل ليس فيكون في الحج في موضع نصب خبراً لها.

يقول أبو حيان: جزم به ابن عطية وهو ضعيف، ثم ذكر أسباباً كثيرة لضعفه في أن "لا" لا تعمل عمل ليس إلا في القليل.

وجه نصب الثلاثة: {فلا رفثاً ولا فسوقاً ولا جدالاً في الحج}، يقول أبو حيان: هي منصوبة على المصادر، والعامل فيها أفعال من لفظها، والتقدير، فلا يرفث رفثاً ولا يفسق فسوقاً، ولا يجادل جدالاً، ويكون {في الحج} متعلقاً بما شئت من هذه الأفعال على طريقة الإعمال والتنازع.

القراءة الثالثة وهي فتح الثلاثة فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج، على أن "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن.

أما القراءة الرابعة وهي رفع الأوليْن بالتنوين، وفتح {ولا جدالَ} بغير تنوين، ففيها أوجه:

الأول: أن يكون الرفع في الأوليْن على أن "لا" مهملة، والرفع بالابتداء والخبر محذوف.

والوجه الثاني: أن تكون "لا" في الرفث والفسوق عاملة عمل ليس، وفتحت ولا جدال على أن لا نافية للجنس.

الوجه الثالث: رفع الأوليْن على تقدير فلا يكونن رفثٌ ولا فسوقٌ، وفتح الثالث على تقدير أنّ لا نافية للجنس، فالأوليْن فيهما النهي، والثالث فيه الإخبار.

يقول أبو عبيد في هذا الوجه الأخير: وإنما افترقت الحروف عندهم عند من قرأ هذه القراءة؛ لأنهم جعلوا قوله: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ}، بمعنى النهي، أي لا يكون فيه ذاك، وتأولوا قوله: {ولا جدال} أي: لا شك في الحج ولا اختلاف أنه في ذي الحجة، وهي القراءة التي اختارها ابن جرير -رحمة الله تعالى عليه-.

يقول: فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بالقراءة من القراءات المخالَفة بين إعراب الجدال، وإعراب الرفث والفسوق ليعلم سامع ذلك -إذا كان من أهل الفهم باللغات- أن الذي من أجله خولف بين إعرابيهما اختلاف معنييهما.

وإن كان صواباً قراءة جميع ذلك باتفاق إعرابه على اختلاف معانيه، إذ كانت العرب قد تتبع بعض الكلام بعضاً بإعراب مع اختلاف المعاني، وخاصة في هذا النوع من الكلام.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٩٩) سورة البقرة] "ثم" هاهنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفَع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلِّ، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّان بيته."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ}، جاء بعد قوله -عز وجل-: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] يعني إذا انتقلتم من عرفة إلى مزدلفة: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة] ثم قال: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة] فهل هذه الإفاضة هي من مزدلفة إلى منى فتكون على هذا "ثم" على بابها للترتيب مع المهلة والتراخي، أم أن الإفاضة هنا هي نفسها التي ذكرت قبل وهي الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة حيث قال: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} فتكون "ثم" على هذا ليست للترتيب، أم أن في الكلام تقديماً وتأخيراً؟

فأما القول بأن في الكلام تقديماً وتأخيراً فهذا لا يلجأ إليه إلا للضرورة، لكن يحتمل أن يكون هذا من باب عطف جملة على جملة من غير قصد للترتيب، أي أن "ثم" تكون لمجرد العطف فقط من غير نظر إلى الترتيب، وبالتالي نقول: إن الله -عز وجل- أمرهم بالذكر إذا أفاضوا من عرفات كما أن الله -عز وجل- أمرهم بأن يفيضوا من عرفات ووجههم بجملة أمور: منها أن يذكروه إذا أفاضوا من عرفات في المزدلفة، ووجههم أن تكون إفاضتهم من عرفة من الحل إلى مزدلفة لا أن يقفوا دون ذلك كما كانت تفعل الحمس حيث كانوا يقولون: نحن قطان البيت وأهل الحرم فلا نخرج منه إلى الحل، فكان الناس يذهبون إلى عرفة وهم يقفون عند طرف الحرم، فالناس يفيضون من عرفة إلى مزدلفة وهؤلاء لم يخرجوا أصلاً إلى عرفة، فالله قال لهم: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}، فيكون هذا من باب عطف جملة على جملة دون مراعاة للترتيب؛ لأنه لا زال يتحدث عن الإفاضة من عرفة، فهناك أمرهم بالذكر، وهنا أمرهم أن تكون إفاضتهم من عرفات، لا كما كانت تفعله الحمس، فقوله: {ثُمَّ أَفِيضُواْ} بهذا الاعتبار يمكن أن يكون المخاطب به هم الحمس، أي قريش ومن ولدت، وبالتالي "ثم" ليست للترتيب، وإنما هي لمجرد العطف.

وإذا قلنا: إن "ثم" على وجهها وإن الإفاضة إنما هي إفاضة أخرى غير الأولى، أي الإفاضة من مزدلفة إلى منى فيكون الخطاب على هذا لجميع الناس، أي أنه يأمرهم بعد أن يقفوا في المشعر الحرام في مزدلفة أن يفيضوا منه إلى منى، ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً أمراً لجميع الناس بأن يفيضوا من عرفة إلى مزدلفة.

فإذا قلنا: إن الأمر هنا بالإفاضة من مزدلفة إلى عرفة، تكون "ثم" على بابها من الترتيب، وقوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يمكن أن يكون المراد به إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- الذي نقتدي به في المناسك.

وإذا كان على الأول، أي أفيضوا من عرفة، فيكون المعنى أفيضوا كما تفيض سائر قبائل العرب أو سائر الأمة خلافاً لهؤلاء الحمس الذين كانوا يخالفون ويبقون في الحرم، وعلى هذا تكون "ثم" على ظاهرها من الترتيب.

وبعض أهل العلم يقول: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، وممن قال بهذا ابن جرير الطبري -رحمه الله- مع تغاير أقوال هؤلاء وتفاوتها في هذا التقديم والتأخير، لكنهم قالوا بأصله وتفاوتت أقوالهم في سياق الجملة، مع أنه خلاف الأصل، فابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن الترتيب هكذا: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [(١٩٧) سورة البقرة] وبعد ذلك: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة] ثم: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ} [(١٩٧) سورة البقرة]، وهذا فيه شيء من التكلف.

والتقديم والتأخير له أمثلة تذكر، منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد، ففي قوله تعالى مثلاً عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٥٥) سورة آل عمران] فقوله: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، هذه الوفاة إما أن نقول: إن المراد بها ليست الوفاة الحقيقية المعروفة وإنما مستوفيك بروحك وبدنك، أو متوفيك يعني في النوم، بمعنى أنه رفعه في حال النوم التي تسمى الوفاة الصغرى، فيكون على هذا الكلام مرتباً، أو يقال: في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: (وإذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك في النهاية، أي بعد أن ينزل إلى الأرض، فالوفاة بهذا الاعتبار تكون حقيقية، وهي الوفاة المعهودة، ولا أعني أن هذا القول في الآية راجحاً، وإنما المقصود أن هذا أحد الأمثلة التي يدعى فيها التقديم والتأخير، والله تعالى أعلم.

وهناك صورة أخرى أيضاً أو وجه آخر يمكن أن يقال فيه إن "ثم" للترتيب، لكن ليس الترتيب في الواقع والخارج، وإنما هو الترتيب في الذكر، حيث يذكر أخباراً يرتب بعضها على بعض دون أن يقصد أن ذلك مرتب في الواقع والخارج، كأن تقول لإنسان: فعلت كذا ثم فعلت كذا ثم فعلت كذا، وأنت لا تقصد أن هذه الأمور مرتبة بهذه الطريقة، والسياق أحياناً يبين أنك إنما تريد أن تعدد عليه، فأنت ترتب هذه الأمور في الذكر دون أن تقصد أن ذلك وقع في الخارج مرتباً كما ذكرته معطوفاً بـــ"ثم"؛ ولذلك ينبغي أن يُعلم أن "ثم" يمكن أن تكون لترتيب الأخبار أو الجمل بعضها على بعض دون أن يكون الأمر كذلك في الواقع ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [(١٧) سورة البلد]، فالإيمان هو مطالب به من البداية وإلا لم يقبل منه عمل أصلاً، ولذلك فإن بعض أهل العلم يقول: هذا من باب ترتيب الجمل والأخبار بعضها على بعض، والله أعلم.

"روى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات."

كانوا يُسَمَّون الحُمْس، قيل: لأنهم يتحمسون لدينهم، يعني أن أكثر قبائل العرب تمسكاً وتديناً في نظر العرب وتقديرهم هم قريش؛ نظراً لما لهم من المكانة وما أعطاهم الله -عز وجل- من القيام على البيت.

"فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يأتَي عرفات، ثم يقف بها ثم يُفيض منها، فذلك قوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة].

وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي، وغيرهم."

وبهذا الاعتبار يكون المراد بقوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يعني سائر القبائل، أو سائر الناس، والمعنى لا تنفردوا دونهم وتقفوا في حد الحرم، وإنما أفيضوا من حيث أفاض الناس، فهنا إن قلنا إن "ثم" للترتيب فلا بد أن نقول بالتقديم والتأخير أو يقال: إن هذا ترتيب في الذكر فقط، أي ترتيب جملة على جملة، وخبر على خبر، وأمر على أمر فقط دون أن يكون ذلك مراعى به ما يقع في الخارج، والله أعلم.

"واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع."

الذي حكى عليه ابن جرير الإجماع أنهم يفيضون من عرفة إلى مزدلفة، هذا الذي قاله ابن جرير، ثم بعد ذلك ذكر القول بالتقديم والتأخير، وكأنه أراد أن يوجه -مع هذا- القول الذي يستشكل في"ثم" بأن يجعل "ثم" على ظاهرها للترتيب، فقال: الكلام فيه تقديم وتأخير، والقائلون بالتقديم والتأخير هم قليل حتى إن بعضهم رده صراحة وقال: هذا لا يصح، مثل ابن عطية، وهو خلاف الأصل.

لكن ابن جرير مع أنه كان يستحسن القول الآخر وهو أن الإفاضة المراد بها الإفاضة من مزدلفة إلى منى وهذا القول قال به كثيرون، ومع ذلك قال ابن جرير: هذا قول جيد، ووجهه حسن ولكنا لا نستجيز مخالفة الإجماع، ومعلوم أن مقصود ابن جرير بالإجماع قول الأكثر، وإلا فالقائلون بالقول الثاني كثيرون جداً أيضاً، فالله أعلم.

لكن العجيب أنك ترى كثيراً من أهل العلم يقولون: إن ابن جرير يقول بالقول الآخر، وهي أن الإفاضة من مزدلفة، ولا أدري ما الذي أوقعهم في هذا، فربما أنهم نظروا إلى أنه جعل "ثم" على بابها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه استحسن القول الثاني بعد أن ذكر وجهه، وأنه قول حسن، فربما نظروا إلى هذا دون ما قبله وما بعده حيث إن أسلوب ابن جرير -رحمه الله- كما هو معروف أنك تجده يتحدث عن معنى وكأنه يرجح هذا القول ثم يذكر بعده قولاً آخر فربما رجع للقول الذي قبله، وهكذا تجده يعلق بعد كل قول من أقوال أبي جعفر في التفسير ويعلق تعليقاً مشابهاً له في موضع بعد القول الثاني أو الثالث، أو في النهاية بعد أن يذكر الأقوال، فإذا جمعت عباراته التي يرجح بها وقارنت بينها تبين لك مراده، لكن ربما يقف الإنسان على جملة من أربعة أو خمسة أو عشرة أسطر، مما يقرر فيها توجيه هذا القول أو ترجيحه أو ردَّ غيره، فيظن الإنسان أحياناً أن هذا هو قوله من أوله إلى آخره، وليس الأمر كذلك، بل يحتاج أن ينظر في التعليقات الأخرى التي علق فيها على باقي الأقوال وما قاله في النهاية، حتى إنك تجد أحياناً كلامه في غاية التشابه هنا وهنا.

"وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه- قال: أضللتُ بعيرًا لي بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبي -صلى الله عليه وسلم- واقف، قلت: إن هذا من الحُمْس ما شأنه هاهنا؟"[1] أخرجاه في الصحيحين."

جبير بن مطعم -رضي الله عنه- كان من قريش، فكان ذلك عادتهم ومألوفهم، فهو مستغرب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- واقف مع الناس بعرفة.

"ثم روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما يقتضي أن المراد بالإفاضة هاهنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، فالله أعلم.

وقوله: {وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٩٩) سورة البقرة] **كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثًا[2]، وفي الصحيحين أنَّه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين[3]، وقد أوردناه في جُزْء جمعناه في فضل يوم عرفة."**

هذا وجه حسن في توجيه ذكر الأمر بالاستغفار بعد قضاء المناسك مع أنهم كانوا في عبادة من أجلِّ العبادات، فكما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من صلاته استغفر فهنا كذلك، وذلك لا شك أنه يقتضي دفْعَ العجب والاستمرار على الطاعة، فيفرغ من عبادة ثم يدخل في أخرى، كما أن هذا يحتاج إليه العبد وذلك أن العبادة التي يقوم بها لا تخلو من نقص وتقصير، فهو يستغفر الله من ذلك.

ومن أهل العلم من يقول: إن الأمر بالاستغفار في قوله هنا: **{وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ}** [(١٩٩) سورة البقرة] يعني أنهم لمّا كانوا في مقامات حريٌّ أن يستجاب للعبد بها أمروا بالاستغفار، فالإنسان يدعو في الطواف، وعلى الصفا والمروة، وبين ذلك، ويدعو أيضاً في عرفة وفي آخر مقامه في مزدلفة ثم أيضاً إذا رمى الجمار في أيام التشريق يقف بعد الأولى والثانية ويدعو طويلاً قريباً من سورة البقرة، فهذه مواطن لهذه العبادات الشريفة وهي حري أن يستجاب للعبد بها، فربما كان الأمر بالاستغفار بسبب ذلك.

وبعض أهل العلم يقول: هذا موجه للحمس الذين كانوا يقفون في الحرم، حيث أمروا بالاستغفار من وقوفهم دون عرفة، وهذا بعيد غاية البعد؛ لأن الخطاب هنا يشرع لهم فيه ويبين لهم المناسك وما ينبغي لهم فعله، فهو لا يخاطب أولئك المشركين الذين وقفوا في المزدلفة؛ ثم إن هؤلاء لا حج لهم أصلاً؛ لأن الحج عرفة، فحجهم باطل، وليس لهم إلا التعب، فهذا لا يكفي فيه مجرد الاستغفار، بل لازالوا على إحرامهم، وفاتهم الحج، وعليهم أن يكملوا هذا الحج الفاسد، ويتحللوا منه بالطواف بالبيت، ثم عليهم على قول بعض أهل العلم

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الوقوف بعرفة (١٥٨١) (ج ٢ / ص ٥٩٩) ومسلم في كتاب الحج - باب في الوقوف وقوله تعالى "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس" (١٢٢٠) (ج ٢/ ص ٨٩٤).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩١) (ج ١ / ص ٤١٤).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب من لم ير رد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة (٨٠٧) (ج ١ / ص ٢٨٩) ومسلم في كتاب الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٥) (ج ١ / ص ٤١٦).

أن يأتوا بحجة أخرى، وهذا إذا أردنا أن ننزل الحكم على المشركين، مع أن عباداتهم أصلاً مردودة؛ لأنهم أهل إشراك، والله لا يقبل من المشركين شيئاً.

"وأورد ابن مَرْدويه هاهنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عَلَيّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة))[4].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- قال: "يا رسول الله، عَلمني دعاء أدعو به في صلاتي" فقال: ((قل: اللهمّ إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مَغْفِرةً من عندك وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرحيم))[5]، والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ* وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٠-٢٠٢) سورة البقرة] **يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قَضَاءِ المناسك وفراغها."**

عرفنا قبلُ أن المناسك هي أعمال الحج، أو أن المراد بها ما يتعلق بالذبح.

"وقوله: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحَمَالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم."

قد يشكل عند البعض في قوله تعالى: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} أن الإنسان قد لا يذكر أباه في الحج، بل قد يمر عليه اليوم واليومان لا يذكره، فما وجه الآية هنا؟

لقد وُجه هذا الإشكال إلى ابن عباس -رضي الله عنهما- فبين -رضي الله عنه- وجهاً للآية غير هذا الظاهر المتبادر، فقال: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ}، أي: أن تغضب لله كما تغضب لأبيك إذا ذكر بسوء أو انتقص منه، أو أشد غضباً إذا انتهكت حرمات الله -عز وجل-، فهذا التفسير يمكن أن يخرج على أنه تفسير باللازم أو بالتضمن، لكنه ليس تفسيراً بالمطابقة، فالظاهر المطابق لقوله: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} أنكم تكثرون من ذكره كما تكثرون من ذكر آبائكم، وهذا يتضمن أنهم إذا انتقص آباؤهم فإنهم لا يرضون بذلك بل يغضبون لهم؛ لشدة محبتهم وافتخارهم وتعظيمهم لهم، والله أعلم.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب أفضل الاستغفار (٥٩٤٧) (ج ٥ / ص ٢٣٢٣).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب الدعاء في الصلاة (٥٩٦٧) (ج ٥ / ص ٢٣٣١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (ج ٤ / ص ٢٠٧٨).

وهذا الذكر المشروع لم يحدد هنا في الآية، إلا أن بعض أهل العلم نظر إلى المناسبة، فقال: إن الذي يفعله الحاج بعد قضاء المناسك ورمي جمرة العقبة هو التكبير، فهو الذكر المشروع حينذاك في حقه، ومن ثم يقال: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} أي: اذكروه بالتكبير، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعض أهل العلم نظر إلى ما سبق من أنهم كانوا يذكرون آباءهم ويتفاخرون فيهم، فقال: يلهج بذكر الله -عز وجل- مع الاستكانة والتضرع؛ لأن ذكر الآباء عند البررة بآبائهم يكون مع الاستكانة والتضرع، ولهذا جاء عن بعضهم كرجاء بن حيوة وغيره في صفة برهم بآبائهم أن الواحد منهم إذا كان عند أمه تراه كأنه مريض، فيسأل عن مرضه، فيقال: إنه ليس مريضاً ولكن هكذا حاله دائماً مع أمه، فمن شدة الاستكانة عندها ومن شدة بره وإجلاله وتعظيمه لأمه يراه الناظر إليه كأنه مريض.

وبعضهم كان لا يتكلم مع أمه أو مع أبيه إلا كالمتضرع، وبعضهم كان لا يكلم أباه أو أمه إلا كمن يتكلم سراً مع أحد فلا يكاد يسمع؛ لئلا يحصل منه رفع صوت على أبيه وأمه!!.

وبعض الشباب للأسف إذا سئل عن حاله افتتح بالمقدمة فيقول: أنا ملتزم، وهو في الحقيقة صاحب كبائر وعقوق لوالديه، وهو يظن أن التزامه يكون بمجرد إعفاء لحيته، والأمر ليس كذلك؛ إذ كيف يكون ملتزماً من يعقُّ والديه، أو يترك الصلوات، أو من كان قاطعاً لرحمه، فمثل هذا لا يكفيه مجرد الالتزام بإعفائه لحيته أو نحو ذلك ما دام حاله كذلك، نسأل الله العافية.

"فأنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم-: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} **والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله -عز وجل- ولهذا كان انتصاب قوله:** {أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} **على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا."**

أمرهم الله -عز وجل- بأن يذكروه كذكرهم لآبائهم، وهذا يقتضي الإكثار من ذكره، نعم الإكثار، أو يذكروه ذكراً يماثل ذكر آبائهم، والكاف في قوله: {كَذِكْرِكُمْ} للتشبيه أي ذكراً يماثل ذكرهم لآبائهم أو أشد بحيث يكثرون من ذكره، وسبب النزول يوضح ذلك.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: **والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله -عز وجل- ولهذا كان انتصاب قوله:** {أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} **على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا**، و"أو" هنا لتحقيق المماثلة في الخبر، يعني أنها ليست للتخيير ولا للإباحة وإنما هي للتحقيق، وكأنها بمعنى "بل" أي: بل أشد ذكراً، كما يقوله بعض أهل العلم، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن {أَشَدَّ} منصوب على التمييز ليس محل اتفاق، بل إن مسألة النصب هنا تحتمل أشياء أخرى غير التمييز، كما أنها تحتمل الجر أيضاً؛ وذلك لأن لفظ "ذكر" في قوله: {كَذِكْرِكُمْ} مجرورة بالكاف، فيمكن أن تكون {أَشَدَّ} عائدة إلى ذكر فتكون أيضاً مجرورة، ويمكن أن تكون عائدة إلى الضمير الذي هو الكاف في "ذكركم" وهي مضاف إليه فتكون مجرورة أيضاً، فالجر محتمل وكذلك النصب، والقائلين بالنصب أكثر، ووجوه النصب المحتملة ربما تصل إلى خمسة أوجه منها ما ذكره ابن كثير –رحمه الله- من أنه منصوب على التمييز.

والخلاصة أن المعنى -والله أعلم- هو أنه أمرهم أن يذكروه ذكراً كثيراً يماثل ذكرهم الكثير لآبائهم، بل أشد ذكراً من ذكر آبائهم؛ لأن الله أعظم وأجلّ، وإنما يهلج الإنسان ويذكر كثيراً من يعظمه ويحبه، فالإنسان إذا أحب أحداً من الناس ذكره في كل مناسبة ومن غير مناسبة فكيف بالله -عز وجل-؟!

"و"أو" هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة]، **وقوله:** {يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [(٧٧) سورة النساء] **وقوله:** {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [(١٤٧) سورة الصافات]."

"أو" في هذه الآيات ليست للشك قطعاً؛ لأن ذلك لا يرد على الله -عز وجل-، فالله يعلم خفايا الأمور ودقائق الأشياء، لكن هذا يمكن أن يوجه بأنه للتحقيق مثلاً أو بمعنى "بل"، فيكون المعنى: وأرسلناه إلى مائة ألف بل يزيدون، فكان قاب قوسين بل أدنى، ويمكن أن يكون ذلك بناءً على قاعدة ذكرناها سابقاً وهي أنه قد يرد الخطاب في القرآن باعتبار حال أو نظر المخاطب، فهي بالنسبة لهؤلاء المخاطبين لو نظروا للقوم الذين أُرسل إليهم يونس -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أنجاه الله من بطن الحوت فسيقدرونهم بمائة ألف أو يزيدون، وعلى القاعدة يكون قوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [(٩) سورة النجم]، أي في تقديراتكم.

"وقوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [(٩) سورة النجم]. **فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيَد منه.**

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(٢٠٠) سورة البقرة] **أي: مِنْ نَصِيب ولا حظٍّ، وتضمَّن هذا الذمّ التنفير عن التشبه بمن هو كذلك.**

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غَيث وعام خصْب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(٢٠٠) سورة البقرة]، **وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون:** {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] **فأنزل الله:** {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة] **ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال:** {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة]."

سبب نزول قوله تعالى: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] يبين معناها، فهم يقولون: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} أي يسألون الله -عز وجل- من خيري الدنيا والآخرة.

ومن أهل العلم من يحمل مثل هذه الآيات على أمور تتعلق بالتعبد، فقالوا: آتنا في الدنيا حسنة ليس المراد به الزوجة الحسناء أو المال أو ما أشبه ذلك، وإنما {فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} يعني العبادة والتوفيق للطاعة، {وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} يعني الجنة.

وقد مرت بنا في الدرس الماضي آيات حملها بعض أهل العلم على نظائر هذا، مثل قوله تعالى: {أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة]، وقوله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة]، وقوله: {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [(٧٧) سورة القصص]، وقوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} [(١٠) سورة الجمعة]، فهذا منحى لبعض أهل العلم يفسِّر به مثل هذه الآيات، وإن كنا لا نقول إن هذا هو المعنى الراجح فيها.

فالمقصود أن الحسنة في قوله تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} [(٢٠١) سورة البقرة] غير محددة، فيدخل فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان ويُسرُّ به ويستحسنه من أمور هذه الدنيا وحطامها من المال والولد والزوجات والمراكب، ويدخل في ذلك أيضاً ما يوفق إليه من العبادات والطاعات فكل ذلك من الحسنة في الدنيا، وأما الآخرة فهي الجنة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٩٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: {وِمنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] **فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا وصرَفت كلّ شر؛ فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.**

وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: "من أُعطي قلبا شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابرًا، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار"، ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء.

روى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اللَّهم ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار))[(١)]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا اللون من التفسير هو من أحسن ما يقال في تفسير هذه الآية، وإذا جرى المفسر على هذا النمط في كثير من المواضع التي يمكن فيها أن تجمع الأقوال سواء كانت من خلاف التنوع أو خلاف التضاد فإن هذا هو التحقيق في التفسير، وهذا تجده كثيراً في تفسير ابن كثير -رحمه الله- وتجده أيضاً في تفسير ابن جرير، وتجد ذلك أيضاً في كلام الحافظ ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأيضاً في أضواء البيان، وأمثال هذه الكتب التي كتبها أئمة محققون، وهذا بخلاف بعض الكتب التي أولع أصحابها بتشقيق الأقوال وتعدادها فلا تجد فيها مثل هذا، ولهذا إذا قرأ في تلك الكتب من لا بصر له في التفسير ربما لا يزيده ذلك إلا حيرة في معرفة الراجح من هذه الأقوال الكثيرة.

وعلى كل حال فهذا مثال على هذا النوع من التحقيق، وذلك أن الله -عز وجل- لم يخصص حسنة دون حسنة، وإنما قال: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً}** فيدخل فيه كل ما ذكره المفسرون مما يصدق عليه أنه حسنة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب قول الله: {وعلم آدم الأسماء كلها} (٤٢٥٠) (ج ٤ / ص ١٦٤٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار(٢٦٩٠) (ج ٤ / ص ٢٠٧٠) واللفظ للبخاري.

والمعنى الذي ذكره أيضاً في قوله: {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} مما يتعلق باتقاء الشبهات والمحرمات إلى آخره، هذا كله مما يذكر قد بُني على ما يذكر في الأصول من أن النص تسلط عليه أنواع الاستنباط المأخوذة من أنواع الدلالة المعروفة، فيؤخذ منه ومن معناه المطابق والمتضمن واللازم، ودلالة الإشارة، ودلالة الإيماء والتنبيه، فإذا قال: {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} فإن لازم ذلك أن يقيه أسباب دخول النار.

"وروى أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عاد رَجُلاً من المسلمين قد صار مثل الفَرْخ، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إيَّاه؟)) قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سبحان الله! لا تطيقه -أو لا تستطيعه- فهلا قلت: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))، قال: فدعا الله، فشفاه" [انفرد بإخراجه مسلم][2].

وروى الحاكم في مستدركه عن سعيد بن جبير قال: جاء رَجُل إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحجَّ معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة]، ثم قال الحاكم: [صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه][3]."

سبق الكلام في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] عن الذي يكري نفسه في الحج، وهذه الرواية مفسِّرة لتلك الرواية، فهو يكري نفسه بالحج ويضع من أجرته على أن يمكنوه من الحج.

واسم الإشارة في قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ} [(٢٠٢) سورة البقرة] يرجع كما قال بعض أهل العلم إلى الذي أراد الدنيا بقوله: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا} [(٢٠٠) سورة البقرة] وإلى الذي أراد الدنيا والآخرة بقوله: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة].

والأقرب -والله أعلم- أن اسم الإشارة يرجع إلى المذكور الآخِر وهو قوله: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] وهذا على قاعدة أن اسم الإشارة يرجع إلى أقرب مذكور، وهذا الذي عليه كثير من المحققين سلفاً وخلفاً وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وابن كثير لم يتعرض لهذه المسألة.

وسريع الحساب من قوله تعالى: {وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة] يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن مجيءَ اليوم الآخر الذي يقع فيه الحساب وهو يوم القيامة سريع وقريب، ومعلوم أن كل ما هو آت قريب، والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب، وأن هذه الدنيا قصيرة وسريعة الانقضاء والزوال.

والمعنى الثاني المتبادر والأشهر وهو الذي عليه كثير من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم الله، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٢٦٨٨) (ج ٤ / ص ٢٠٦٨).

[3] - أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٩٩) (ج ٢ / ص ٣٠٥).

عليهم فإن هذا يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة، والله لا يحتاج إلى إحصاء وعد وضبط بيدٍ أو آلة يضبط فيها هذا الحساب؛ فحساب النفوس جميعاً عنده سبحانه كحساب نفس واحدة، والله تعالى أعلم.

"{وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "الأيام المعدودات" أيام التشريق و"الأيام المعلومات" أيام العَشْر، وقال عكرمة: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} يعني التكبير في أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر."

هذا القول بأن الأيام المعلومات هي أيام العشر، والمعدودات هي أيام التشريق هو الذي عليه السواد الأعظم، وهو يشبه الإجماع، وإن وجد من خالف في ذلك باعتبار أن الله -عز وجل- قال: **{وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** [(٢٨) سورة الحـج]، فقالوا: إنما يكون ذلك في أيام الذبح والنحر ابتداءً من يوم النحر وثلاثة أيام بعده -على خلاف في العدد- فقالوا: هذه قرينة تدل على أن الأيام المعلومات أيضاً هي تلك الأيام، وهذا القول فيه نظر؛ لأن الله يقول: **{وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}** [(٢٠٣) سورة البقرة] وهذا دليل واضح أن المراد بهذه الأيام أيام التشريق إذ لا تعجل في أيام العشر، ولأن ذِكر اسمه -تبارك وتعالى- على ما رزق من بهيمة الأنعام لا يعني أنها أيام ذبح وأنها هي المقصودة، ولكن الناس يذكرونه في تلك الأيام التي هي مقدمة لأيام أخرى شريفة منها أعظم يوم عند الله -عز وجل- وهو يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر على قول كثير من أهل العلم وهو الراجح، ثم أيام التشريق التي تأتي بعد يوم النحر، وهي أيضاً أيام عيد، ثم إن كثيراً من الذين جاءوا للحج هم ممن يسوقون الهدي فناسب ذلك ذكر بهيمة الأنعام عند الحديث عن أيام العشر فهي إذن الأيام المعلومات، والله أعلم.

قوله: **قال عكرمة: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ}** [(٢٠٣) سورة البقرة] **يعني التكبير في أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر**، هذا ورد عن جماعة من الصحابة وعن التابعين أن الذكر في هذه الأيام المعدودات يكون بالتكبير الذي بعد الصلوات، وهو الذي يسميه الفقهاء التكبير المقيد، ويكاد يتفق هؤلاء الفقهاء -رحمهم الله- على أن هذا التكبير المقيد يكون في الأيام المعدودات، وإن اختلفوا في ابتدائه هل يكون من فجر يوم عرفة أو من يوم النحر أو غير ذلك، فهم مختلفون في هذا كثيراً، ولكنهم يكادون أن يتفقوا على أن ذلك التكبير يكون بعد الصلوات في أيام التشريق، ولا يعني هذا أنه يكبر بعد الصلوات ولا يكبر باقي الوقت، بل يكبر مطلقاً أيضاً؛ لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى، وإذا ذكروا التكبير الذي ذكره الله -عز وجل- في الأيام المعلومات التي هي أيام العشر لا يذكرون أن ذلك يكون بعد الصلاة، ولذلك قال الفقهاء -رحمهم الله- عن هذا التكبير: إنه التكبير المطلق، وهذه المسألة وإن لم يوجد فيها نص صريح يحدد ذلك بدقة إلا أنّ تتبع مثل هذه الآثار ربما يكون مستنداً لهذا التفريق بين التكبير المطلق والتكبير المقيد، والله أعلم.

"وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يوم عَرَفَة ويوم النحر وأيام التشريق عيدُنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب))[٤].

وروى أحمد أيضًا عن نُبَيشة الهذلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيام التشريق أيامُ أكل وشرب وذكر الله)) ورواه مسلم أيضًا[٥].

وتقدم حديث جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه-: ((عَرَفَة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح)).

وتقدم أيضًا حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي -رضي الله تعالى عنه-: ((وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه))[٦].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيام التشريق أيام طُعْم وذكر الله))[٧].

وروى ابن جرير أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث عبد الله بن حُذافة -رضي الله تعالى عنه- يطوف في منى: ((لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل))[٨].

وقال مِقْسَم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام، يوم النحر وثلاثة بعده".

ورُوِي عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبي موسى -رضي الله تعالى عنهم- وعطاء- ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبي مالك، وإبراهيم النخَعي، ويحيى بن أبي كثير، والحسن، وقتادة، والسدي، والزهري، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حيّان، وعطاء الخرساني، ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك.

وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة] فدل على ثلاثة بعد النحر."

المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن أيام التشريق التي هي أيام الذبح والذكر هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، أي أنها تنتهي بغروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، وفي كلها يكون الذبح سواء في ليلها أو

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق (٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٤٣) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب النهي عن صوم يوم عرفة (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤١٩).

[5] - أخرجه مسلم دون قوله: ((وذكر الله)) في كتاب الصيام - باب تحريم صوم أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) وأحمد (٢٠٧٤١) (ج ٥ / ص ٧٥) واللفظ له.

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب مَنْ لَمْ يُدْرِكْ عَرَفَةَ (١٩٥١) (ج ٢ / ص ١٤١) والترمذي في كتاب الحج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٤٤) (ج ٥ / ص ٢٦٤) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥) (ج ٢ / ص ١٠٠٣) وصححه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٧١٤).

[7] - أخرجه أحمد (٧١٣٤) (ج ٢ / ص ٢٢٩) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ".

[8] - أخرجه أحمد (١٠٦٧٤) (ج ٢ / ص ٥١٣) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح وهذا إسناد ضعيف لضعف صالح بن أبي الأخضر".

نهارها لا فرق، وإنْ فرّق بعض أهل العلم إلا أن هذا هو الذي عليه عامة أهل العلم وهو التي تدل عليه الأدلة، والله أعلم.

"ويتعلق بقوله: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٠٣) سورة البقرة] ذِكْرُ الله على الأضاحي، والذكر المؤقَّت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، ويتعلق بذلك أيضاً التكبيرُ وذكر الله عند رمي الجمرات كلّ يوم من أيام التشريق، وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: ((إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل))[9]."

يقصد بهذا أن أيام التشريق يجتمع فيها الذكر المطلق في كل وقت والذكر المقيد أدبار الصلوات، وقد جاء عن عمر -رضي الله عنه- أنه كان يكبر بقبته بمنى فيكبر الناس.

"ولما ذكر الله تعالى النَّفْر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة] كما قال: {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٧٩) سورة المؤمنون]."

هذا نوع من وجه المناسبة بين موضوع الآية وخاتمة الآية، فتارة تكون فيما يتعلق بالمذكور في آخرها من الأسماء الحسنى، مثل: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة]، فالمناسبة بذكر هذين الاسمين من بين سائر الأسماء ظاهرة، لكن {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة]، المناسبة هنا تحتاج إلى استنباط.

ومن هذه المناسبات التي بين موضوع الآية وخاتمتها هذا المثال، فهنا ذكر النفْر فقال: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [(٢٠٣) سورة البقرة]، ثم قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة]، فوجه المناسبة أن الله -عز وجل- ذكّرهم بتقواه مع شيء من الوعيد والتهديد غير الصريح حيث قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فإنه إذا علم أنه سيحشر إلى الله -تبارك وتعالى- خاف واستعد لذلك الحشر، فالله تعالى ذكر هذا الحشر بعد ذكر التفرق، فهم ينفرون بعد حجهم من كل وجه فيتفرقون في أرض الله فناسب ذكر الحشر بعده.

قوله سبحانه: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة]: التعجل إنما يكون في يوم ونصف؛ لأنه ينفر بعد أن يرمي في اليوم الثاني عشر بعد الزوال، والعرب تكمل الكسر وبقية اليوم أو العام أو الشهر أو الأسبوع، فذكر الله اليومين هنا من هذا الباب، والله أعلم.

وبالنسبة لنفي الله للإثم في الموضعين حين قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} فإن بعض أهل العلم يقول: إن من العرب من كان يعتقد أن التعجل أمر مذموم، ومنهم من كان يعتقد أن التأخر أمر مذموم، فالله -عز وجل- بيَّن بطلان ذلك الاعتقاد وأن التعجل لا إشكال فيه، وأن التأخر لا إشكال فيه، ولهذا قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة]، فبعد أن

---

[9] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب في الرَّمَلِ (١٨٩٠) (ج ٢ / ص ١١٨) وأحمد (٢٤٣٩٦) (ج ٦ / ص ٦٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٠٥٦).

كان المتبادر أنه من يتعجل لا إثم عليه لئلا يتوهم أن عمله ناقص ذكر أن الذي يتأخر لا إثم عليه وتبين أن السبب هي هذه العلة التي ذكرها أهل العلم، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: {وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [(٢٠٣) سورة البقرة] من أهل العلم من يقول: إن النفي في قوله: {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} المقصود به أن ذنوبه تغسل جميعاً في حجته هذه، وليس المقصود فلا إثم عليه في تأخره وتعجله، وبهذا القول لا نحتاج إلى جواب عن نفي الإثم مع التعجل والتأخر؛ لأنه على هذا القول الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف يكون المعنى أن هذا الإنسان الذي حج واتقى الله في حجه قد حُطت ذنوبه، فهو إن تعجل في يومين فلا إثم عليه؛ فقد حُطت ذنوبه، وإن تأخر فلا إثم عليه؛ لأن ذنوبه قد حُطت؛ فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[10] وقال -عليه الصلاة والسلام-: ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[11] وبالتالي لا إشكال في نفي الإثم في التأخر والتعجل؛ لأن المقصود حطُّ الخطايا والذنوب جزاءً للحج المبرور لمن اتقى فلم يرفث ولم يفسق في حجه ذلك.

ويمكن أن يقال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} إن كان متقياً لله -عز وجل- في تعجله وتأخره، وهذا معنى قريب جداً ومتبادر ولا يبعد أن يكون هو المراد بالآية، فذلك سائغ وإن كان التأخر أفضل، وهو لا يعارض قول من قال: إن من العرب من كان يتوهم أن التعجل غير محمود أو أن التأخر غير محمود فيمكن أن تجمع بين هذا وهذا، لكنه قول يختلف عن قول ابن جرير -رحمه الله-.

ويكون الإنسان محصلاً لهذا المعنى بحيث يكون متعجلاً لم يتق الله إن حمله تعجله على تعدي حدود الله كأن يرمي قبل الزوال، فهذا لم يتق وعليه إثم، ورميه قبل الزوال لا يجزئه، ومثله من حمله تعجله على تضييع الرَّمل مثلاً، ومن ذلك ما يقع من بعض الناس حيث يوكل من يرمي عنه ويذهب بحُجة أن عنده حجزاً في الطائرة، ويوجد في الشباب -وللأسف الشديد- من يفتيه ويقول له: الشريعة جاءت بنفي الحرج، فاذهب ولا إشكال عليك، والحقيقة أن هذا تلاعب بالحج وإلا فلماذا الحجز في ذلك الوقت الضيق ومعلوم أن للحج رمياً في اليوم الثاني عشر، فلماذا هذا العبث الذي نسمعه والفتاوى العجيبة الغريبة.

فالمقصود أن هذا من التعجل الذي لم تصاحبه تقوى الله تعالى، ومن حاله كهذا فقد لا يسلم من الإثم، فيجب على المسلم أن يتقي الله في تعجله إن تعجل.

ويكون الإنسان محصلاً لمعنى التأخر مع الإثم إذا حمله تأخره على معصية الله -عز وجل- أيضاً، ومن صور ذلك أن منطقة منى تكون قد خلت من الناس ولم يبق فيها إلا أناس قليل فربما يجترئ بعض من يتأخر على بعض الأمور السيئة كملاحقة النساء، وأمور أخرى غير لائقة، إضافة إلى أنه قد يستطيل مدة المكث فربما يحصل له من الانبساط مع قلة الزحام فيقع في أمور من المخالفات والمحرمات من غيبة وتهكم بالناس

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب وجوب العمرة وفضلها (١٦٨٣) (ج ٢ / ص ٦٢٩) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٩) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب قول الله تعالى { فلا رفث } (١٧٢٣) (ج ٢ / ص ٦٤٥) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

وتعليق وما أشبه ذلك، والخلاصة أن من تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى، ومن تأخر بلا إثم فهو أفضل ممن تعجَّل.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ* وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [(٢٠٤ - ٢٠٧) سورة البقرة]: **"قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.**

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنها نزلت في نفر من المنافقين، تكلموا في خبيب وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}، وقيل بل ذلك عام في المنافقين كلهم، وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالملاحظ في هذه الآيات أن الله قسم الناس فيها إلى فريقين متقابلين متناقضين، قال في الفريق الأول: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، وقال في الفريق الآخر: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}**، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية الأولى عامة في المنافقين، والآية الثانية عامة في المؤمنين، وما روى عن السدي أنها نزلت في مثل الأخنس بن شريق الذي أظهر الإسلام، وباطنه على الخلاف، ثم بعد ذلك قتل أناساً، وقتل حمراً، وأفسد حرثاً وما أشبه ذلك، فهذه الرواية عن السدي لا تصح؛ لأنها في حكم المرسل، وعلى افتراض صحتها فالعبرة كما يقول المفسرون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فتحمل على كل من يشملهم الوصف في الآية.

وكذا قوله سبحانه: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}**، تعتبر عامة في أهل الإيمان الذين صدقوا في إيمانهم، ولم يخالطوه بنفاق، ولا تختص بأحد دون أحد منهم، والله أعلم.

وهذا ما اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أنها عامة، وأما الرواية الأخرى التي نقلها عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين، تكلموا في خبيب وأصحابه الذي قتلوا بالرجيع، فحصل لهم الغدر، وعابوهم فقالوا: إن هؤلاء قد غرروا بأنفسهم وأوقعوها في القتل، فلم يستبقوا مهجهم، ولم يؤدوا ما طلب منهم، وجلسوا يتكلمون عليهم، ويقعون في أعراضهم، ويشمتون بهم، وما علموا أن هؤلاء بذلوا نفوسهم

في سبيل الله -عز وجل- فحصل مقصودهم من الشهادة، فهذه الرواية تؤكد ما ذهب إليه ابن جرير الطبري وابن كثير من عمومها، وشمولها جميع أفراد العام الذين يصدق فيهم هذا الوصف الوارد في الآية.

"وروى ابن جرير عن القرظي عن نوف وهو البكالي وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل."

نوف البكالي كان ممن يقرأ الكتب السابقة، ويروي الإسرائيليات، وينقلها كثيراً.

"قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب."

الصبر هو نبات معروف، لا يطاق طعمه؛ لأنه مر.

والمسوك جلود الضأن، فهم ذئاب ويلبسون جلود الضأن، والمراد أنهم يتظاهرون بالخير والصلاح، وحقيقتهم خلاف ذلك.

"يقول الله تعالى: فعليّ يجترئون، وبي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران. قال القرظي: تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتها {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ..} الآية، وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح."

الآية بظاهرها وعمومها تصدق في أهل النفاق؛ لأنهم يظهرون الصلاح والدين والخير والطاعة ويبطنون الكفر، وهكذا كل من تظاهر بالإسلام وأبطن خلافه يقاس عليهم، فتجدهم يتربصون بأهل الإسلام الدوائر فإذا ألم بالمسلمين حادثة، أو اعتراهم ضعف أو نحو ذلك، أظهروا كوامن النفوس فصاروا يشمتون ويطعنون في دين الله -عز وجل- وشرعه وأهله، ويسخرون منهم، ويدعون إلى الإصلاح المبطن بالإفساد في الأرض يقول الله في وصف حقيقتهم: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}** [(١١- ١٢) سورة البقر].

"وأما قوله: {وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}، معناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ....} [(١٠٨) سورة النساء] الآية، هذا معنى ما رواه ابن اسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقيل معناه: إنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف، وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح."

يَحتمِل في الإشهاد **{وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}** معنيين:

الأول: أنه يقول قولاً والواقع أن الله يشهد على خلافه، ويعلم من باطنه وحاله خلاف ما أظهره، وهذا المعنى تشهد له قراءة ابن عباس وهي غير متواترة **{والله يشهد على ما في قلبه}**، والآية تحتمله احتمالاً قوياً.

والثاني: أنه يدعي الإسلام، ومحبة الله ورسوله، وطاعته واتباعه لشرائع الإسلام، ويعقب ذلك بقوله: والله يشهد على ما أقول من إرادتي للخير والإصلاح وما أشبه ذلك، وهو كذاب في ادعائه وإشهاده، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الأذهان، ويشهد له قوله تعالى: **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** [(١) سورة المنافقون]، فهم جاءوا بلفظ الشهادة "نشهد" مؤكدة

بإن ولام القسم، ورغم هذا بين الله حقيقة شهادتهم، فقال عنهم: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، وهذا القول...

"قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وحكاه عن مجاهد. والله أعلم."

ويمكن أن يستدل أيضاً للقول الثاني بقراءة أخرى ليست متواترة، وهي قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {ويستشهد الله على ما في قلبه}، والآية إذا كانت تحتمل معنيين مختلفين بدون معارض، فإنها تحمل عليهما جميعاً؛ لأن القرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فهذا المنافق الذي يقول: إنه مؤمن، ومحب لله ورسوله، ومريد للخير، هو في الواقع حينما يقول ذلك أو يتفوه به، إنما يجعل الله يشهد على أن حاله على خلافه، وأن باطنه مكذب لظاهره.

والإشهاد كذباً بالله يلجأ إليه كثيراً المنافق؛ لأنه يعلم أنه في موضع تهمة وريب، فيتخذ من الإشهاد مطية للخروج من المأزق الذي وقع فيه، وهذه سجيتهم أخبر الله عنهم في معرض التشنيع بهم في أكثر من آية يقول سبحانه: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [(٢) سورة المنافقون]، {يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [(٩٦) سورة التوبة] {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ} [(٦٢) سورة التوبة] حتى إنهم في اليوم الآخر إذا بعثهم الله -عز وجل- يحتذون بما اعتادوه في الدنيا من الأيمان الفاجرة كما أخبر الله عنهم بقوله: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [(١٨) سورة المجادلة] ظناً منهم أن أيمانهم التي كانت تروج في الدنيا، فحقنوا بها دماءهم، وأحرزوا بسببها أموالهم تروج في الآخرة، فلأجل ذلك إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة اشتغلوا بالأيمان الكاذبة على الله -عز وجل-، وفي سورة المنافقون جاءت المؤكدات قوية في كلامهم {قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} [(١) سورة المنافقون]، لكن جاء الرد عليهم بنفس الطريقة {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، المهم أن كل معنى من هذه المعاني يوجد ما يشهد له من الدلائل، فيمكن أن تحمل الآية على الوجهين، والله تعالى أعلم.

"وهو ألد الخصام، الألد في اللغة: الأعوج، {وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(٩٧) سورة مريم]، أي عوجاً."

الألد جاءت في كلام العرب، وقد فسرت في الآية بأحد معنيين:

الأول: يرجع إلى معنى الخصومة، والمراد أنه من أشد الناس خصومة.

والثاني: يرجع إلى معنى الميل والاعوجاج واتخاذ الجانب، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وأراد أنه مائل في خصومته، يكذب، ويتزايد، ويحرف الدليل وقول مخالفه ويقوّله ما لم يقل، ويستدل بأمور يعلم عدم صلاحها لإثبات المطلوب، ويكابر في الحق بعدما يتبين له، فكل ذلك داخل فيه، فهو معوج غير مستقيم في خصومته وجداله.

فالمعنى الأول يدل على أنه صاحب جدال كما قال الله عن المشركين: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [(٥٨) سورة الزخرف]، أي شديدو الخصومة، ومن هنا لا تجد الخصومة في القرآن الكريم تذكر إلا في مقام الذم، ومثلها المراء إلا في قوله: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا} [(٢٢) سورة الكهف]، بخلاف الجدال فجاء الأمر به تمدحاً في مواضع: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٢٥) سورة النحل]، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

[(٤٦) سورة العنكبوت]، بينما جاء في موضع آخر على سبيل الذم {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [(٦) سورة الأنفال]، إلى غير ذلك من النصوص.

وأما المعنى الثاني: فإنه ينبه إلى أنه غير مستقيم في خصومته، وإنما هو صاحب اعوجاج، والمعنيان يصبان في تفسير الألد، فيكون شديد الخصومة صاحب اعوجاج عند افتعالها، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يرى بأن المعنيين متقاربان، ولا مانع من حمل الآية عليهما، ولا حاجة للترجيح بين هذين المعنيين.

ومن أهل العلم من يقول: إن أصل اللدد مأخوذ من صفحة العنق، إذ إن شديد الخصومة صعب أن يثنيه أحد، أو يجعله يحيد ويميل برأيه تلقاء ما يراه مجادله؛ لأنه وجه نفسه إلى شيء مازج دمه وخالط فكره، فأخذوا منه المعنى الأول.

وأخذوا المعنى الثاني من كون صفحة العنق في الجانب، وعليه جعلوا معنى ألد الخصام أي: شديد الخصومة مائل فيها، والله أعلم.

"**وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزّور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))**[1]."

إذا خاصم فجر: أي يميل في خصومته، فتحمله على البغي والعدوان، وتجاوز الحد.

"**وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- ترفعه قال: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم))**[2]."

الخصام في قوله سبحانه: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [(٢٠٤) سورة البقرة]، يحتمل أن يكون مصدراً لخاصم يخاصم خصاماً فيكون بهذا الاعتبار أي: شديد الخصومة.

ويحتمل أن يكون جمعاً للخصم أو المخاصم، فيقصد به أكثر الخصماء أو أكثر المخاصمين مخاصمة وخصومة وهو معنى ألدهم، والله أعلم.

"**وقوله: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ} [(٢٠٥) سورة البقرة]، أي هو أعوج المقال، سيئ الفعال، فذلك قوله وهذا فعله.**"

قوله سبحانه: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ} يحتمل أن يكون من الولاية، يعني إذا صارت له سلطة كانت مدعاة له للإفساد والتغيير والتبديل.

ويحتمل أن يكون المعنى أنه إذا صار له التولي أعرض وذهب، كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} [(٤) سورة المنافقون]، فيسمعك كلاماً ممتازاً مصففاً منمقاً أحلى ما يكون، إلا أن الفعال أقبح ما تكون، فهم أشباح بلا أرواح، وجسوم بلا

---

[1] أصل الحديث عند البخاري ((أربع من كن فيه....)) رواه في كتاب الإيمان –باب علامة النفاق برقم (٣٤) (٢١/١)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان –باب بيان خصلة المنافق برقم (٥٨) (٧٨/١).

[2] رواه البخاري في كتاب المظالم –باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز برقم (٢٣٢٥) (٨٦٧/٢)، ورواه مسلم في كتاب العلم –باب في الألد الخصم برقم (٢٦٦٨) (٢٠٥٤/٤).

فهوم، شبههم بالخشب المسند الذي لا ينتفع به لا في عمد ولا في سقف، وهكذا المنافق لا يقوم بنفسه ولا بغيره.

ويحتمل أن يكون تولى بمعنى ضل وغضب، وكل هذه الاحتمالات يحتملها لفظ الآية.

وقوله سبحانه: {وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ} الحرث قيل: هو الزرع وهذا هو المعنى المتبادر، وبعضهم يقول: النساء، أي ويسمعك كلاماً حسناً وإذا تولى منك أفسد المرأة، وهذا من بلاغة القرآن فمعانيه لا تنقضي، وعجائبه لا تفنى.

والنسل بمعنى الذرية، وأصل النسل من السقوط، ولهذا قيل لما يخرج من المرأة نسل.

"كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي هاهنا هو القصد."

ولا يفهم من السعي في الأرض أنه جرى أو مشى مشياً سريعاً، كما في قوله سبحانه: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [(٢٠) سورة القصص] فليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود به العمل.

"كما قال إخباراً عن فرعون: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [(٢٢-٢٦) سورة النازعات]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [(٩) سورة الجمعة]، أي: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: ((إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار))[٣].

فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرثِ -وهو محل نماء الزروع والثمار- والنسلِ -وهو نتاج الحيوانات- اللذين لا قوام للناس إلا بهما، وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض فساداً منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل."

تفسير مجاهد لقوله: {وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ} يعتبر من باب الملازمة، وتوجيه القول: أن الله علّق انحباس القطر ونزع البركات الذي يحصل به هلاك الزرع والنسل بتقحم بني آدم على الذنوب والمعاصي، وإفسادهم في الأرض، وهو تفسير حسن.

"والله لا يحب الفساد، أي لا يحب مَن هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ} [(٢٠٦) سورة البقرة]، أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام."

الباء في قوله: {بِالإِثْمِ} للسببية، واختلفوا في معنى الآية فقيل: إنها بمعنى مع، أي: أخذته العزة مع الإثم، وهذا فيه بعد.

وقيل: إنها بمعنى اللام، أي: أخذته العزة للإثم والمراد أنها حملته على ذلك.

---

[٣] رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب الأذان –باب قول الرجل فاتتنا الصلاة برقم (٦٠٩) (٢٢٨/١)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة –باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيا برقم (٦٠٣) (٤٢١/١).

وقيل: إنها بمعنى على، أي حملته العزة على الإثم، وقريب منه القول بأن العزة أخذته وحملته بما يؤثمه، والله أعلم بالصواب.

"وهذه الآية شبيهه بقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(٧٢) سورة الحـج]، ولهذا قال في هذه الآية: {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(٢٠٦) سورة البقرة]، أي: هي كافيته عقوبة في ذلك، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} [(٢٠٧) سورة البقرة]، لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} [(٢٠٧) سورة البقرة]، قال ابن عباس وأنس -رضي الله تعالى عنهم- وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي -رضي الله تعالى عنه- وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- وجماعة إلى طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((ربح البيع صهيب))[4].

ومعنى الآية عام يدخل فيه كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [(١١١) سورة التوبة]، ولما حمل هشام بن عامر -رضي الله تعالى عنه- بين الصفين، أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهما، وتلوا هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} [(٢٠٧) سورة البقرة]."

جرت هذه الآيات على عادة القرآن الكريم في ذكر النقيضين، فإنه يذكر أصحاب النار ثم يذكر أصحاب الجنة، يأتي على ذكر الوعد ويثني بذكر الوعيد، يعرج على صفات الأبرار ويتلوها بصفات الفجار، فالله –عز وجل- لما ذكر حال الأولين وهم أهل النافق الذين:

يعطون من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ذكر حال الطرف الآخر وهو {مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}، أي: يبيع نفسه طلباً لمرضاة ربه، فمثلهم أهل لرحمة الله -عز وجل-، ولهذا ختم الله هذه الآية بقوله: {وَاللّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} أي: لهم أرقّ الرحمة وهي الرأفة، إذ الرأفة نوع من الرحمة، وأما أهل النفاق فقال في صنيعهم: {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه.

---

[4] رواه الحاكم في مستدركه برقم (٥٧٠٠) (٣/٤٥٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص برقم (٥٧٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٠٨-٢٠٩) سورة البقرة].

"يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله: {ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ}: يعني الإسلام."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، تفسير ابن كثير للآية بأن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا، هو المعنى المتبادر، وهو من أحسن ما تفسر به الآية.

والخطاب في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} موجه لأهل الإيمان كما يدل عليه ظاهر النص، وإليه ذهب ابن كثير.

ومن أهل العلم من يرى أن الخطاب موجه لأهل الكتاب الذين لم يدخلوا في الإسلام، باعتبار أن السلم هو الإسلام، والمراد بكافة أي: ادخلوا فيه جميعاً بجميع شرائعه، لا تتركوا شيئاً من العمل أو الاعتقاد الذي شرعه الله -عز وجل- وبينه في كتابه، فهم مطالبون جميعاً بالدخول فيه باعتبار مجموع الأفراد مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

وقال جماعة من السلف: إنها خطاب لبعض من أسلم من أهل الكتاب ممن بقي عنده نوع شائبة من دينه الذي كان عليه، كأن يعظم يوم السبت، أو يتعبد لله -عز وجل- ببعض ما كان عليه من العمل والعبادة، مما لم يشرعه الله -عز وجل- في دين الإسلام، فهذا التردد والتلكؤ هو المقصود بقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، يعني من غير أن تبقوا على شيء مما كنتم عليه في دينكم السابق، ولكن ما عليه عامة أهل العلم، ويدل عليه ظاهر القرآن أنها خطاب لأهل الإيمان جميعاً سواء من أسلم من أهل الكتاب وتردد، وبقي في رأسه اعتقادات من دينه السابق، أو من يأخذ ببعض الدين ويترك بعضاً لهواه، فيتخير من دين الله -عز وجل- أموراً تناسبه، ويترك ما سواه، فأهل الإيمان جميعاً مطالبون بالدخول في الإسلام، ولذا لما خاطب الله –عز وجل- نبيه يحيى قال: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [(١٢) سورة مريم]، يقول

أهل العلم: فمن أَخْذِه بقوة ألا يترك شيئاً منه، وألا يتردد أو يتلكأ في الاتّباع والانقياد والتسليم والعمل، وهذا المعنى اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

{السِّلْمِ} يقال: السِّلْم والسَّلْم والسَّلَم بمعنى الإسلام، ومن أهل العلم من يفرق بين السِّلم والسَّلم، فيقول: السِّلم هو الإسلام، والسَّلم المقصود به المسالمة بترك الحرب والاستسلام والمصالحة مع دفع الجزية، فيكون ذلك خطاباً لأهل الكتاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} يعني مع المصالحة ودفع الجزية، والله تعالى أعلم.

"وقوله: {كَآفَّةً} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة، والضحاك جميعاً.

وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر، خاصة من آمن من أهل الكتاب."

هذا المعنى باعتبار أن المراد من قوله: {ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} أي: ادخلوا في جميع شرائع الدين، فيدخل فيه من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم، وتكون {كَآفَّةً} حالاً من السِّلم.

ويمكن أن تكون {كَآفَّةً} حالاً من ضمير المؤمنين في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ} والمعنى: ادخلوا أيها الناس في الإسلام جميعاً.

"كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، كذا قرأها بالنصب يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: {ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(٢٠٨) سورة البقرة]**، أي اعملوا الطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [(١٦٩) سورة البقرة]**، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [(٦) سورة فاطر]**، ولهذا قال: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** [(٢٠٨) سورة البقرة]**."**

المقصود بالخطوات: طرائق الشيطان ومسالكه فلا يُتبع في شيء مما يزينه للناس من الباطل، ومن طرائقه ما يتدرج به مع الإنسان ليوقعه بعد ذلك في المهالك، فتجده يبدأ معه شيئاً فشيئاً من التوسع في المباح، ثم يجره إلى الوقوع في المشتبه، فلا يدري إلا وقد أوقعه في الحرام، تحت أي مبرر أو حجة، فهذه كلها من خطوات الشيطان.

"وقوله: {فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٢٠٩) سورة البقرة]**، أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج {فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}."**

قوله سبحانه: {فَإِن زَلَلْتُمْ} زل: بمعنى انحرف وحاد ومال، والمراد إذا عدلتم ووقع منكم انحراف، ومخالفة بعد ما تبين لكم الحق، فالتهديد بانتظاركم.

"{فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: في انتقامه لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نقمته، حكيم في أمره.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٢١٠) سورة البقرة]، **يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد -صلوات الله وسلامه عليه-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}، يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر."**

الظُلَل: جمع ظُلَّة، وهي كل ما أظلك من غمام وغير ذلك، والمقصود بالغمام كما يفسره بعض أهل العلم: السحاب الأبيض الرقيق، وقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما))[1]، فالغياية: كل شيء أظل الإنسان، وغطاءه، ولهذا سمي أسفل البئر: "غيابة الجب" وهي قعره، وكلّ ما غيّب شيئاً فهو غيابة .

ويقال للسحاب غمام، ويقال له ظُلَّة، ويجمع على ظُلَل.

"ولهذا قال تعالى: {وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ}."

قوله سبحانه: {وَقُضِيَ الأَمْرُ} فعل عبر به بالماضي؛ لأنه متحقق الوقوع، فما كان متحقق الوقوع مما سيحصل في المستقبل يمكن أن يعبر عنه بالفعل الماضي، ومثل الآية قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [(١) سورة النحل]، مع أنه لم يأت بعد.

وبعضهم يذكر كلاماً مختلفاً، لكن هذا من أقرب ما تفسر به الآية، والله أعلم.

"كما قال الله تعالى: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [(٢١-٢٣) سورة الفجر]، وقال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ....} [(١٥٨) سورة الأنعام] الآية، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ} [(٢١٠) سورة البقرة]، يقول: الملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء."

هذا التفسير باعتبار أن قوله: {فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} من صلة الملائكة، ولكن هذا خلاف الظاهر، والراجح أن قوله: {فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} يرجع إلى مجيء الله -تبارك وتعالى-، وهذا يدل عليه ظاهر القرآن، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وغيره من أئمة السنة في غالب ما نقل عنهم، إذ إن المجيء ثابت لله -عز وجل- كما أخبر عن نفسه أنه يأتي، لكن إتيانه كما شاء على الوجه اللائق به، والواجب أن نؤمن ونصدق به كما أخبر، من غير أن ندخل في شيء من ذلك بأفهامنا وآرائنا، وإنما المرجع في ذلك كله إلى الوحي.

والذين يؤولون المجيء بمجيء أمر الله -عز وجل-، أو قضائه، أو عذابه، أو جزائه، أو نحو ذلك، ترد عليهم الآية الأخرى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [(١٥٨) سورة الأنعام]، وقوله -عز وجل-: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [(٢٢) سورة الفجر]، ولا حاجة لهذه التأويلات،

---

[1] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٥٥٣/١) (٨٠٤).

فمجيئه على الوجه اللائق به، كما أن سمعه وبصره على الوجه اللائق به، وفعله وإرادته على الوجه اللائق به، فالقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

"يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام والله تعالى يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءات: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام}، وهي كقوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [(٢٥) سورة الفرقان]."

القراءة الثانية يوجد فيها الاحتمال بأن قوله: {فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} من صلة الملائكة، وعليه فلا تكون الآية مخالفة لظاهر القرآن، إلا أن الصواب في تفسير الآية ما أسلفناه.

"{سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ* زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ } [(٢١١-٢١٢) سورة البقرة]، **يقول تعالى -مخبراً عن بني إسرائيل-: كم شاهدوا مع موسى -عليه السلام- من آية بينة؟!."**

قوله سبحانه: {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} هذا سؤال تقريع وتوبيخ، لا سؤال استفادة، والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- {كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ} المراد كم شاهدوا من الآيات البينات على يد أنبيائهم، ومن أعظمهم موسى -صلى الله عليه وسلم-؟، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [(١٠١) سورة الإسراء] هو الأصح في تأويل الآية، لا قول من قال: إن المقصود من الآية النبي -صلى الله عليه وسلم- مما جاء به من دلائل صدقه وأمارات نبوته، إذ ليس هذا هو الظاهر، وبالرغم من الآيات البينات والشواهد الساطعات، والدلائل المؤكدات {مَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(١٠١) سورة يونس].

"أيْ حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كَيَدِه، وعصاه، وفلقه البحر، وضرب الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدالة على وجود الفاعل المختار."

ظللهم الغمام حينما كانوا في التيه فالتفحوا بوهج الحر؛ لأنهم تاهوا في الصحراء فكان الغمام يظللهم، ويتنزل عليهم من لطف الله بهم وحسن تدبيره المن والسلوى كما أخبر سبحانه بقوله: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [(٥٧) سورة البقرة].

"وصدْقِ من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفرا، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها، {وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٢١١) سورة البقرة]، **كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ}** [(٢٨-٢٩) سورة إبراهيم].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال، ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يُرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها."

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ} جملة حالية، والمراد حال كونهم ساخرين من الذين آمنوا.

"وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد، والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين."

جاء في المراد بالفوقية في قوله: {وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} :أنه العلو في الدرجة؛ لأنهم في الجنة والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ لأن الجنة في السماء، والنار في أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام، وسقوط الكفر، وقتل أهله، وأسرهم، وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة، ومن تأمل تفسير ابن كثير -رحمه الله- للآية يجده من أجمع ما يقال في معنى الآية، فأهل الإيمان في درجات الجنة في مراتب علية ومقامات سمية، وأهل الكفر في دركات النار، يتجرعون غصصها، ويكتوون بنارها، ولا تسأل عما يغشاهم من ألوان الذل وصنوف المهانة.

أما ترى أن السيف يــنقص قــدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

"ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢١٢) سورة البقرة]**، أي: يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: ((ابن آدم أَنفِقْ، أُنفقْ عليك))[2]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أَنفِقْ بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))[3]، وقال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [(٣٩) سورة سبأ]**، وفي الصحيح ((أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، فيقول أحدهم: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً))[4]."**

قوله سبحانه: {وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} قيل المراد: أنه عطاء متتابع كثير، بلا عد ولا حساب، وجاء بهذا اللفظ ليعبر به عن الكثرة، والغاية في التوسعة عليهم.

وبعض أهل العلم يقول: {يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} يعني من غير محاسبة لهم على هذا العطاء، فرزْقُهم هنيء مليء مما أعده الله لهم في جناته، لا يلحقهم فيه تبعة، وليس وراءه مطالبة أو محاسبة، ولكن المعنى الظاهر المتبادر أنه عطاء كثير؛ لأن الذي يُحسب ويُعد من العطاء إنما هو القليل، وأما الكثير فلا حصر له ولا حد، والله أعلم.

"وفي الصحيح: ((يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس))[5]."

---

[2] رواه البخاري في كتاب النفقات –باب فضل النفقة على الأهل بلفظ ((أنفق يا ابن آدم أنفق عليك)) برقم (٥٣٥٢) (٣٨٤/١٣)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة –باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف برقم (٩٩٣) (٦٩٠/٢).

[3] رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٠١٨) (٤٤٢/١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٨٨٥).

[4] رواه البخاري في كتاب الزكاة –باب قول الله تعالى {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(٥-١٠) سورة الليل] ((اللهم أعط منفق مال خلفا)) برقم (١٣٧٤) (٥٢٢/٢)، ومسلم في كتاب الزكاة –باب في المنفق والممسك برقم (١٠١٠) (٧٠٠/٢).

[5] رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق –باب حدثنا قتيبة بن سعيد برقم (٢٩٥٨) (٢٢٧٣/٤).

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له))[6].

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢١٣) سورة البقرة].

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان بين نوح وآدم -عليهما السلام- عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله -رضي الله عنه- {كان الناس أمة واحدة فاختلفوا}.

ورواه الحاكم في مستدركه ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كذا رواه أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقرؤها: {كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين}".

قوله -سبحانه-: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} اختلف أهل التأويل في المراد بالناس المذكورين في هذه الآية فبعضهم يقول: آدم، وبعضهم يقول: آدم وحواء، وبعضهم يقول: حينما استخرجهم الله -عز وجل- من ذرية آدم -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول غير هذا، والمعنى الذي ذكره ابن كثير هو أرجح أقاويل المفسرين، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ} [(١٩) سورة يونس]، فكانوا كذلك من بعد آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى عهد نوح -عليه الصلاة والسلام- ثم وقع الشرك، وهو أول ما وقع في الأرض كما دل عليه أثر ابن عباس، وعليه عامة السلف وهو قول المحققين، كابن جرير الطبري، وابن القيم، وجماعة غيرهم.

{فَاخْتَلَفُواْ} هذا المقدر تدل عليه قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود –رضي الله عنهما-، واقتُبس من لفظ الآية، وهذا ما يسمى بدلالة الاقتضاء من قسم المنطوق غير الصريح عند الأصوليين، والاقتضاء تارةً يكون اقتضاء لغوياً، وتارة عقلياً، وتارة شرعياً، ولا منافاة بين العقل والشرع، فحينما يقول الله -عز وجل-: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [(٢٣) سورة النساء]، فقول الشرع لا يدل على أن التحريم يتعلق بالذوات، فلا بد من مقدر، هل حرم عليكم أكل أمهاتكم، أو ضرب أمهاتكم، فدلالة الاقتضاء تقتضي أنه حرم عليكم الاستمتاع بأمهاتكم.

وفي آية الصيام {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٤) سورة البقرة] دلالة الاقتضاء الشرعي: فأفطر فعندها يجب عليه عدة من أيام أخر، والعرب تترك من الكلام ما كان مدركَاً للسامع لا يخفى عليه اختصاراً، وهذا من الفصاحة والبلاغة، ولذا يقول ابن مالك:

وحـــذف مـــا يعلـــم جـــائز ....

والله تعالى أعلم.

---

[6] رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤٤٦٤) (٦/٧١)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٦٧٥٧).

{وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ} [(٢١٣) سورة البقرة] (أل) تحتمل أن تكون للجنس، جنس الكتب التي أنزلها الله –عز وجل- على الأنبياء.

وتحتمل أن تكون (أل) العهد، ويكون المراد بالكتاب التوراة، وهذا المعنى اختاره بعض السلف، واختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ولكن ظاهر القرآن أن (أل) للجنس في لفظ الكتاب؛ لأنه ذكر النبيين ولم يذكر بعضاً منهم.

وابن جرير -رحمه الله- كلامه يتراوح في هذه الآيات فيحملها على بني إسرائيل تارة، ويجعلها عامة تارة أخرى، ولا شك أن بني إسرائيل ممن يدخلون في هؤلاء الذين وقع بينهم هذا التفاوت والاختلاف والافتراق، لأجل ذلك بعث الله النبيين بحيث إن أكثر الأنبياء في بني إسرائيل.

{لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ} يحتمل أن يكون المراد أن الله يحكم بين الناس، ويحتمل أن يكون الذي يحكم هو الكتاب المذكور وهذا هو الأقرب، ولا إشكال أن يضاف الحكم إلى الكتاب والمقصود به من بعث بالكتاب، أو من يقوم على الحكم به كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ} [(٤٤) سورة المائدة]، والله -عز وجل- قال: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ} [(٢٩) سورة الجاثية]، فعبر بنطق الكتاب، وقصد أن الأنبياء ينطقون عنا بالحق من هذا الكتاب المنزل.

{وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ} في عود الضمير احتمالات:

- أنه يعود إلى الكتاب المذكور، وهذا المتبادر.
- أنه يعود إلى الحق، وهذا معنى قريب ومحتمل.
- أنه يعود إلى من أُنزل عليه الكتاب وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-، باعتبار أن الذي أنزل عليه الكتاب هو محمد -عليه الصلاة والسلام-، وهذا بعيد، لأن الكتاب كما سبق جنس يصدق على كل الكتب المنزلة، والقاعدة في هذا الباب: أنه إذا أمكن إتحاد مرجع الضمائر فإنه لا يصار إلى تفريقها، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

{إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ} يعني أوتوا الكتاب وأعطوا علمه، وهم الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب بعدما وقع الشرك والخلاف والكفر في الناس، وابن جرير -رحمه الله- يحملها على معنى خاص، يحملها على اليهود، وعلى كتابهم وهو التوراة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٢١٣) سورة البقرة]، قال: كانوا على الهدى جميعاً فبعث الله النبيين، فكان أول من بعث نوحاً -عليه السلام-.

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...} الآية.

قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى))[١].

وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...}، فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للقبلة، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم -عليه السلام-، فقالت اليهود كان يهودياً، وقالت النصارى كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله سبحانه: {مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٢١٣) سورة البقرة] يعني الحجج الواضحات، والبراهين الساطعات.

{بَغْيًا بَيْنَهُمْ} أي: ما وقع الخلاف والشر بين الناس إلا بسبب تجاوزهم للحد وعدوانهم، وغالب الاختلاف بين الناس نتيجة للبغي أو الجهل بمسائل العلم والدين، ولو أنصف الناس من أنفسهم واتقوا الله -عز وجل-، وجعلوا العلم مطيتهم قاصدين منه الحق ليس غير؛ لاستراحوا من كثير من هذا الشر الملموس فيما بينهم.

---

[١] رواه مسلم في كتاب الجمعة –باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٨٥٥) (٢/٥٨٥).

{فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذا المقطع معنى جامع لجميع أقوال المفسرين من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهذا الأحسن في التفسير ألا يقتصر على جزء من المعنى، أو على مثال مما ذكره السلف، فالهداية لما اختلفوا فيه من الحق شملت كل الأبواب، هداهم إلى الدين الحق وهو الإسلام، وهداهم إلى الحق من أنبيائهم كعيسى -صلى الله عليه وسلم-، وهداهم إلى الحق فيما يتعلق بالأزمان والأوقات، كرمضان، ويوم الجمعة وما أشبه ذلك، وهداهم إلى الحق في عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي كل شئونهم، فلا يختص بمعنى دون آخر.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}، هنا قد يرد سؤال، هداهم لما اختلفوا فيه، أو هداهم للحق الذي اختلفوا فيه؟ أو للحق فيما اختلف الناس فيه ممن قبلهم، ما هو المراد؟ بعض أهل العلم كابن كثير يرى أن الآية على ظاهرها، ولذا أورد النصوص بأن هذه الأمة مرحومة، وأن الله قد هداها في الأمور المذكورة وفي غيرها مما اختلف فيه الناس.

ومن أهل العلم من يقول: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، والمعنى فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلف فيه اليهود والنصارى في الكتاب الذي أوتوه، وهو قول جماعة من أهل اللغة، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والمعنى في هذا القول ظاهر، لكن الأصل أن الآية إذا احتملت القول بالقلب -كالتقديم والتأخير- فالأصل الترتيب إذا أمكن حملها على معنى صحيح، فلا حاجة للقول بالتقديم والتأخير، والله أعلم.

"هم اختلفوا في عيسى -عليه السلام-، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك.

وقوله: {بِإِذْنِهِ}، أي: بعلمه بهم، وبما هداهم له، قاله ابن جرير."

فأهل الإسلام إنما صاروا مهتدين بعلم الله في تلك الأمور التي اختلف فيها من اختلف، ويحتمل أن يكون هداهم بعلمه يعني بحالهم، حين غرس الله -عز وجل- فيهم من الصفات الخيرة ما يؤهلهم ليكونوا بها أمة وسطاً.

وبعض أهل العلم يقول: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} أي: بأمره، ومنهم من صرح بخطأ المعنى الأول، والحقيقة أن المعنى الأول ليس ببعيد، بل هو مستلزم للمعنى الثاني، فإن الهداية تقع بإذن الله -عز وجل- الكوني، هداهم كوناً، وهداهم ديناً، فكلا المعنيين قريب، وتفسر بهما هذه اللفظة من الآية، ولا شطط في ذلك، والله أعلم.

"{وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} أي: من خلقه، {إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي: وله الحكم والحجة البالغة.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قام من الليل يصلي يقول: ((اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[2]."

((لما اختلف فيه من الحق بإذنك)) كما جاء في تأويل الآية، أي: بعلمك أو بأمرك.

---

[2] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها -باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٧٠) (١/٥٣٤).

"**وفي الدعاء المأثور:** ((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً))[3].

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} [(٢١٤) سورة البقرة].

يقول تعالى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، قبل أن تُبتلوا، وتختبروا، وتمتحنوا."

أم: المشهور أنها بمعنى بل في هذا الموضع من القرآن.

وبعض أهل العلم يقول: إن أم تأتي بمعنى همزة الاستفهام الاستنكاري "أحسبتم؟"، والمقصود أنه أنكر عليهم هذا الظن الذي قد يساور نفوسهم بأنهم يمكنهم السلامة والعافية من الابتلاء في الحياة الدنيا، ثم يعقبه النجاة لهم في الآخرة.

"**كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال:** {وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [(٢١٤) سورة البقرة]، **وهي الأمراض، والأسقام، والآلام، والمصائب، والنوائب.**

قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومرة الهمداني، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حيان: البأساء: الفقر.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: والضراء: السقم."

من أهل العلم من خص كلاً من السراء والضراء بمعنى خاص، فجعل البأساء: بمعنى الحاجة والفقر والجوع والمسغبة، والضراء: بمعنى ما يعتور الأبدان مما يختل به مزاجه من المرض وما أشبه ذلك، فتطلق البأساء على ما يتعلق بجانب الفقر، والضراء على ما يتعلق بجانب المرض، وهذا التفريق لا يكون من قبيل التوارد على معنى واحد، إذ الأصل أن التأسيس مقدم على التوكيد، والله أعلم.

"**وزلزلوا خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب ابن الأرت -رضي الله تعالى عنه- قال: قلنا يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألا تستنصر لنا، ألا تدعوا الله لنا، فقال:** ((إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال: والله ليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون))[4]."

أصل الزلزلة: التحريك بشدة، وحروفها تدل على ذلك لما فيها من التكرار، ومن مثيلتها الصلصلة، والجلجلة، وما أشبه ذلك، فحركة الأرض واضطرابها يقال لها: زلزال وزلزلة.

والزلزلة في الآية باعتبار أنهم امتحنوا امتحاناً شديداً، فقد وقع عليهم ألوان من الأذى والإرجاف، وأنواع المخاوف التي تحرك النفوس تحريكاً شديداً للوقوع في الفتنة، فلا يكاد يثبت فيها إلا أصحاب الإيمان الراسخ، كما قال الله -عز وجل- في وقعة الأحزاب: {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ

---

[3] ذكره البهوتي في شرح منتهى الإرادات وعزاه إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

[4] رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة -باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من المشركين بمكة برقم (٣٦٣٩) (١٣٩٨/٣).

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [(١٠-١١) سورة الأحزاب] هذه الزلزلة كشفت المنافقين وعرّت الذين في قلوبهم مرض حتى إنهم قالوا كما قص القرآن خبرهم: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [(١٢) سورة الأحزاب].

"وقال الله تعالى: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [(١- ٣) سورة العنكبوت]، وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ منكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [(١٠-١٢) سورة الأحزاب]، الآيات.

ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة[5].

وقوله: {مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم} [(٢١٤) سورة البقرة]، أي سنتهم كما قال تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} [(٨) سورة الزخرف]، وقوله: {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ}، أي: يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}، كما قال: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥-٦) سورة الشرح]، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، ولهذا قال تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}."

أُثر عن خالد بن الوليد -رضي الله عنه- قوله: على قدر المئونة تنزل المعونة، وهذا شيء مشاهد، فإن الله ينزل من ألطافه على الناس في أوقات الشدائد ما يبعث على الاستغراب والدهشة، ولا يخطر لهم على بال من تحملهم ألوائها العظام التي نزلت بهم!، وما يدرون أن اللطيف هو الله –عز وجل-.

وقوله سبحانه: {حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ}، من أهل العلم من استشكل هذا، إذ كيف يقول الرسول: متى نصر الله؟! لما فيه من الكناية عن استبطائه النصر، وهو أعظم الناس ثقةً ويقيناً، وعلماً بالطريق الموصل إلى الله، وبالله -عز وجل- الذي لا يخذل أولياءه، وجعل الابتلاء سنة على الموحدين من عباده، وما أشبه ذلك.

فحملوا المراد على وجوه من التفسير لا يدل عليها ظاهر القرآن، فمنهم من يرى أن في الآية تقديماً وتأخيراً، والمعنى: حتى يقول الذين آمنوا: متى نصر الله؟، ويقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب، ولا يخفي ما في هذا التفسير من تغيير للمعنى الظاهر من الآية؛ لأن قوله: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}، جواب من الله -عز وجل-، يدل عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولكنكم تستعجلون))[6]، فهذا الذي وقع من هؤلاء الرسل عليهم -الصلاة والسلام-، ومن أقوامهم ممن صبر وثبت معهم، ما قالوه إلا لشدة ما نزل بهم، بل قال

---

[5] رواه البخاري في كتاب بدء الوحي –باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- برقم (٧) (٧/١) ومسلم في كتاب الجهاد والسير –باب كتاب النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم (١٧٧٣) (١٣٩٣/٣).

[6] رواه البخاري في كتاب المناقب –باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٤١٦) (١٣٢٢/٣).

الله -عز وجل-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا} [(١١٠) سورة يوسف] وهي أوضح من آية البقرة، فمتى ينزل النصر؟ لما يبلغ الحال في الشدة غايته، عندها ينزل النصر، فيسقط كل منافق، وينكشف زيف كل صاحب مرض، ويُعرف على رءوس الأشهاد، وتتبين الأمور على حقائقها، فمن الناس من يسقط في أول الطريق، ومنهم يسقط في أثنائه، ومنهم من يطول نفَسُه ثم ما يدري إلا وقد زلت به قدمه، فيسقط الجميع، ولا يبقى إلا أصحاب الإيمان الصحيح.

وبعض أهل العلم يختار القراءة الأخرى: {أنهم قد كُذّبوا} يعني أن أقوامهم قد كذبوهم؛ لأنهم وعدوهم بالنصر، وقد تأخر مجيئه، فخافوا من تكذيب أقوامهم لهم، لكن القراءة المشهورة تدل على معنى لا إشكال فيه إطلاقاً، وعليه فنخلص من هذا أنه لا يُسلَّم بأنه كلما خطر في بال المفسر من إشكال يدعي التقديم والتأخير في الآية، إذ الأصل عدم ذلك.

ومن أحسن ما تفسر به هذه الجملة من الآية أن يقال: إن هذا من الخواطر التي تقع وترد على القلب من غير أن تستقر فيه، فيجب دفعها مباشرةً دون تريث، وهذه الخواطر لا يلام الإنسان فيها، وهي شبيهة بتفسير الهم فيما حكاه الله –عز وجل- عن يوسف مع امرأة العزيز يقول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا} [(٢٤) سورة يوسف]، فمن تأمل أقوال المفسرين يجد الكثير من التعسفات والتكلفات في تفسير الآية، وحملها على المحامل البعيدة، ومن أحسن ما ورد في تفسيرها، ما قاله بعض السلف وهو اختيار الإمام أحمد -رحمه الله-، أن ثَمّة فرقاً بين الهمين، هم يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وهم امرأة العزيز، إذ هم امرأة العزيز كان من قبيل العزم، وأما هم يوسف -عليه الصلاة والسلام- فهو من قبيل الخطرات، فدفع ذلك ولم يتحول إلى فكرة فضلاً عن أن يتحول إلى عزيمة أو عمل، وهكذا ما قاله الرسول قد يرد على القلب في أوقات الشدة، ولكن ما يلبث أن يدفعه ولا يثبت فيه، فلا يضر الإنسان، وهذا المعنى من أحسن من تكلم عليه الشيخ: عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله-، في كتابه: "القواعد الحسان"، إذ أورد أمثلة وجهها بهذا التوجيه، ومن أهل العلم من يوجهها بتوجه آخر، إلا أن هذا التوجيه جيد وليس فيه أي تكلف.

"{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٢١٥) سورة البقرة]، قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع، ومعنى الآية يسألونك كيف ينفقون، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد."

إذا فسرت {مَاذَا يُنفِقُونَ} بكيف ينفقون، فيكون السؤال عن جهة الصرف -الجهة التي يعطى لها المال-، لا عن المال المنفق في الآية، وما يدعم هذا التفسير اقتصار الجواب على ذكر الجهات: الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين،..... إلى آخره، لكن بعض أهل العلم يقول: إن السؤال كان عن المال المنفق كما دل عليه ظاهر الآية، ودلت عليه الآية الأخرى {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [(٢١٩) سورة البقرة]، يعني ما فضل عن حاجتكم، وحاجة عيالكم، ومن يدخل تحتكم، فجاء الجواب متعلقاً بالمال المنفق.

ومن أهل العلم من يقول: كان السؤال عن المال المنفق، إلا أن الجواب جاء عن المطلوب الأهم وهو جهة الصرف، وهذا ما يسميه البلاغيون: "أسلوب الحكيم"، والمعنى أنه كان ينبغي لكم أن تسألوا عن هذا الذي تحتاجون إلى معرفته أكثر.

ومن أهل العلم من يقول: إن سؤالهم عن المال المنفق قد ذكر جوابه ضمناً في قوله: {مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ} فالمنفق الخير وهو: المال الطيب الحلال، والله أعلم.

"ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك فقال: {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..} [(٢١٥) سورة البقرة]**، أي اصرفوها في هذه الوجوه كما جاء الحديث: ((أمك، وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك))[7]، وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال: "هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً، ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان"."**

كسوة الحيطان: أشياء توضع على الجدران وتغطيها، وهي أشبه ما تكون بالديكورات اليوم، ومقصود ابن مهران أن النفقة لا تكون في صرف الأموال على أمور لا طائل تحتها، ولا يحسن المبالغة فيها؛ لأنه يدخل في التبذير المنهي عنه وقد قال -سبحانه-: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [(٢٧) سورة الإسراء]، وكذا صرفها في المحرمات والأمور غير الجائزة شرعاً.

"ثم قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٢١٥) سورة البقرة]**، أي: مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة."**

هذه الآية متضمنة معنى الوعد، كأنه يقول: ما أنفقتم من مال تبتغون به وجه الله فأنا أعلم بما تقومون به وبما تنفقونه، وسأجازيكم عليه إحساناً وخيراً، فهو وعد مبطن بالجزاء والإنعام، وقد ورد ذكر أمثلة له في مواضيع عديدة من القرآن الكريم.

"{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢١٦) سورة البقرة]**، هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام."**

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} أي: فرض عليكم.

"وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر."

معنى كلام الزهري أن الجهاد واجب على كل أحد قعد أو غزا، باعتبار أنه فرض على مجموع الأمة على الكفاية، وإذا لم يقوموا به على الفرض فإنهم يأثمون جميعاً، ويدخل في الفرضية من كان الناس بحاجته في جانب لا يحسنه غيره، أو انتدب له من قبل الإمام فإنه لا يسعه الجلوس، ويجب عليه أن ينفر، ويعتبر في حقه فرض عين.

وابن جرير الطبري ينقل الإجماع على فرضية الجهاد على الكفاية، والصواب في المسألة أن ذلك ليس محل إجماع، وإن كان ما ذهب إليه ابن جرير هو الراجح من أقوال أهل العلم، لكن ابن جرير -رحمه الله- ينقل الإجماع باعتبار قول الأكثر، وجاء عن بعض السلف القول بأن الجهاد فرض على كل مكلف، في كل وقت،

---

[7] سنن النسائي برقم (٢٥٣٢) (٥/٦١)، وأحمد في مسنده برقم (٧١٠٥) (٢/٢٢٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٤٠٢٧).

وليس في الحالات التي يذكرها الفقهاء، كحالة إذا دهم العدو بلاد المسلمين، واستدلوا بقول الله تعالى: {انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً} [(٤١) سورة التوبة]، وأن الله توعدهم فقال:{إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [(٣٩) سورة التوبة] حتى نقل عن بعضهم أنه خرج وقد كف بصره، ومنهم من خرج إلى الجهاد وقد ضعف وشاخ فكان أبناؤه يحملونه، فلما قال له أبناؤه: نحن نكفيك. قال: هذه الآية لم تدع أحداً: {انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً}، وبعضهم كان يحمل الراية وهو أعمى.

لكن الراجح أن الله -عز وجل- قد خفف عنهم بعد ذلك كما في سورة براَة، قال: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [(١٢٢) سورة التوبة]، فعلى أحد القولين في معنى الآية، أن تنفر طائفة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فتصحبه في أسفاره، وتتفقه مما يرون من حاله -عليه الصلاة والسلام- ومقاله، فيرجعون إلى قومهم يعلمونهم ما تعلموه منه -صلى الله عليه وسلم-.

والقول الآخر: أنها تبقى طائفة تتفقه، وطائفة تجاهد في سبيل الله، قال الإمام أحمد -رحمه الله-: لا أعلم شيئاً أفضل من العلم إذا كان له نية، ولا الجهاد في سبيل الله.

فالمقصود أن هذه الآية تدل على فرضية الجهاد باعتبار أصل الفرض على مجموع الأمة ، وقال بعض أهل العلم كالإمام أحمد -رحمه الله- وطائفة: إنه يجب على الإمام أن يسير جيشاً في جهاد الطلب، في كل عام مرة، وتكلموا في مسألة الصلح وأنها لا تزيد عن عشر سنين، أما جهاد الدفع فإذا هجم العدو على بلد المسلمين فيجب عليهم وجوباً أكيداً عينياً على كل قادر ممن داهم العدو أرضهم أن يدفعه.

"وإن لم يُحتج إليه قعد، قلت: ولهذا ثبت في الصحيح: ((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية))[8].

وقال -عليه السلام- يوم الفتح: ((لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا))[9].

وقوله: {وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ}، أي: شديد عليكم ومشقة، وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل، أو يجرح مع مشقة السفر، ومجالدة الأعداء.

ثم قال تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم."

والله أعلم، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

---

[8] رواه مسلم في كتاب الإمارة -باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو برقم (١٩١٠) (١٥١٧/٣).

[9] رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير -باب فضل الجهاد والسير برقم (٢٦٣١) (١٠٢٥/٣)، ومسلم في كتاب الإمارة -باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير وبيان معنى ((لا هجرة بعد الفتح)) برقم (١٨٦٤) (١٤٨٨/٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢١٧-٢١٨) سورة البقرة].

"روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالى عنه-، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله -صلى لله عليه وسلم-، فحبسه، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش -رضي الله تعالى عنه، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: ((لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك))، فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ....} الآية[1]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فهذه الآية يحتاج إليها المسلمون كثيراً في هذه الأيام خاصة حينما يهاجمهم الكفار بالدعايات الكاذبة، والأقاويل المغرضة، ويشنعون علي المسلمين نظراً لتصرفات فردية صدرت من بعضهم لا تمثل جمعهم، وإذا بلغك دفاع ورد من المسلمين عليهم فهو في غاية التهافت، فلا يخلو إما أن يكون شناعة على هذا المتصرف دون نظر إلى فعل الكفار، وإما تملصاً من حقائق الدين وشرائع الإسلام، أو أخذاً ببعض النصوص دون التفات إلى النصوص الأخرى في الباب نفسه، فهذه القضية استغلها المشركون استغلالاً شنيعاً، وأرادوا أن يُلحقوا من جرائها النقيصة بالمسلمين، وأن يشوهوا صورتهم، ويسيئوا إلى سمعتهم، كون هذه السرية خرجت في شهر جمادى، والتقوا بتلك القافلة في آخر شهر جمادى الثاني، وكان هؤلاء الكفار يريدون مكة، وليس بينهم وبين حدود أرض الحرم إلا مسافة يسيرة إن دخلوها نجوا، فتردد المسلمون هل دخل الشهر الحرام أو لم يدخل؟، فاجتهدوا في عدم دخوله، عند ذلك أقدموا فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه....القصة، عندئذ رفع الكفار عقيرتهم يبثون الكذب والبهتان ضد المسلمين، فإذا المسلمون الذين كانوا

---

[1] رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٧٥٢٣) (٩/١١)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٦٤٨) (٢/٢٢٢).

في مكة ولم يهاجروا بعدُ، انبروا للدفاع عن إخوانهم لما سمعوا سهام النقد توجه إليهم معتذرين لهم بكونهم لم يعلموا بدخول الشهر.

عندها نزل القرآن الكريم بالحادثة مفصلاً فيها، فأجاب عن الجانب الأول بما يتعلق بالمسلمين بكلمة {قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} أي: هذا أمر عظيم.

وأجاب عن الجانب الآخر –الكفار- فقال: إن فتنتكم الناس عن دينهم، وكفركم بالله العظيم، وإفسادكم في الأرض، أعظم وأشنع وأشد جرماً مما وقع من هذه الطائفة التي انتهكت حرمة الشهر الحرام، فكيف تشنعون عليهم، وأنتم ترتكبون ما هو أقبح وأشد وأنكى جرماً من صنيعهم، هكذا جاء رد القرآن فقطع عليهم الطريق، وألجم أفواههم بهذا الجواب، وهذا فقه في الرد، ومنهج للقرآن في الرد على دعاية الكفار المغرضة، ولذا كان لا بد لمن يتكلم في هذه المسائل أن يبني كلامه على علم وعدل وفقه، فيما يجب أن يقال في هذه المقامات لأعداء الله -عز وجل-.

وأما سبب استرجاع عبد الله بن جحش فإنه يعود إلى كونه مقدماً على أمر قد تكون النجاة فيه ضعيفة؛ فعدد الذين خرجوا معه قليل لم يتجاوزوا الثمانية، والمكان لا يأمنون فيه على أنفسهم وأرواحهم خاصة بين مكة والطائف –ثقيف وقريش-، إضافة إلى أن النبي –صلى الله عليه وسلم- فتح باب الخيار لمن أراد أن يرجع منهم، وإن كان الصحيح عند الجمع بين الروايات أنه لم يرجع منهم أحد، وأما ما قيل من رجوع اثنين منهم فإنه لم يكن إلى المدينة، بل كان لسبب آخر، وهو أن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، وعتبة بن غزوان أضلا بعيراً لهما، كانا يعتقبانه، أي: يركبانه بالتعاقب والتناوب، فكانا يبحثان عنه، فلم يكن ذلك رجوعاً عن هذه السرية، ويشهد لهذا هذه الرواية.

"وقال عبد الملك بن هشام -راوي السيرة-: عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني -رحمه الله- في كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين، ثم من بني عبد شمس ابن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة، ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة ابن غزوان بن جابر حليف لهم، ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص، ومن بني عدي بن كعب بن ربيعة حليف لهم من عنز بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم، ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء -رضي الله تعالى عنهم- وأرضاهم أجمعين، فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم))، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر،

وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: نجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان -رضي الله تعالى عنهما- بعيراً لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابة حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً من تجارة قريش..."

الأدم: يعني الجلود.

"فيها عمرو بن الحضرمي، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم."

أرادوا أن هؤلاء جاءوا من العمرة.

"وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لأن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم، فليمتنعن منكم، ولأن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام."

هذه الرواية باعتبار أنهم يعرفون أنه قد دخل الشهر، وفي رواية أخرى أنهم ترددوا في دخول الشهر الحرام، ويفهم من مجموع الروايات أنه وقع عندهم شيء من التردد والالتباس، وعند من أجرى مقتضى القواعد فإن الأصل بقاء شهر جمادى، فيباح لهم ما أقدموا عليه.

"فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش، أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه، قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة، إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان، وقالت اليهود: تفاءلوا بذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عمرو ابن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمروٌ عَمَرت الحرب، والحضرمي...."

اليهود يستنبطون من الأسماء معاني تروق لهم، ويريدون بكلامهم أن الحرب قامت بين قريش وبين النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأفرحهم هذا كثيراً، ظناً منهم أن هذه الحادثة ستكون مؤذنة بقيام حرب، وصنيعهم هذا يشبه حال الوزَغ التي كانت تنفخ في النار على إبراهيم، لكن مشيئة الله كما أخبر عنها: {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا} [(٦٤) سورة المائدة].

"عمروٌ عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم."

ولم يقولوا: عمرو عمرت البلاد وما أشبه ذلك، إمعاناً منهم في التأكيد على المعنى الذي يريدون.

"فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}، أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم."

الأقاويل في تفسير الآية كثيرة وفي بعضها بُعد، إلا أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- عليه عامة المفسرين من السلف والخلف، وهو من أحسن ما تفسر به الآية، والمقصود أنه رد على المشركين، إذ كيف تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن الكفر بالله، والصد عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم أكبر جرماً عند الله -عز وجل-، كما قال الله سبحانه {قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} أي: هذا الأمر عظيم.

قوله سبحانه: {وَكُفْرٌ بِهِ} راجع إلى آخر مذكور وهو صد عن سبيل الله، وقد جرى على خلاف الأصل، إذ الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

ولا يفهم أحد أن المسلمين خرجوا مختارين، أو أنهم أخذوهم وألقوهم خارج مكة أو خارج الحرم، لا، لكن يقال: إنهم فعلوا معهم ما ضيّق عليهم حتى اضطروهم إلى الخروج، لذلك سماه الله إخراجاً، كما قال الله -عز وجل-: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [(١) سورة الممتحنة] مع أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة خرجوا بأنفسهم، لكنهم حملوهم على الخروج، فصح نسبة ذلك إليهم، ومثله قوله -عز وجل-: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ} [(٤٠) سورة الحـج]، أي: حُملوا على الخروج من ديارهم بما حصل لهم من الأذى والتضييق.

وقوله سبحانه: {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ} يعني من هذا الفعل الذي حصل.

وقوله سبحانه: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} أي: وحمْل الناس على الكفر، وتبديل الدين الذي أنزله الله -عز وجل-، هذا أعظم من القتل في الشهر الحرام.

وأهل العلم مختلفون اختلافاً مشهوراً في مسألة نسخ القتال في الأشهر الحرم، فمنهم من يقول: إن هذه الآية في سورة البقرة منسوخة بقوله: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} [(٣٦) سورة التوبة] فيدخل في ذلك قتالهم في كل وقت على هذا المعنى، وآية السيف {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ

{وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة]، وذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والقاعدة تقول: إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

ويستدل القائلون بالنسخ كذلك بوقائع مثل حصار النبي -صلى الله عليه وسلم- لأهل الطائف في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، ومن تأمل تلك الوقائع يجد أنها لم تكن واقعة ابتداءً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قتال المشركين، وإنما غاية ما في الأمر أنهم ابتدءوه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة في رمضان، اجتمعت هوازن ومن دخل تحتها لقتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكمنوا له في وادٍ بين مكة والطائف من وراء عرفة، يقال له: وادي حنين، فخرج إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في شهر شوال وهو ليس من الأشهر الحرم، وجعل يتبع فَلّهم -المنهزمين منهم- الذين تحصنوا بحصن الطائف، فهذا من لواحق وتوابع الغزوة، ولم يكن ذلك ابتداءً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فما وقع في حنين وفي أوطاس لم يكن إلا امتداداً لغزوة هوازن، ولا يعلم شيء في سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه ابتدأ القتال من غير مبادأة المشركين في شيء من الأشهر الحرم، وبهذا يجاب عن جميع الأمثلة والشواهد التي يستدل بها من يقول بأن الآية منسوخة، وأن القتال في الأشهر الحرم جائز، فَيُخلص من هذا أن الأقرب أن حرمتها باقية، وآية براءة التي يستدلون بها هي آخر ما نزل في القتال، والله -عز وجل- يقرر فيها {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} والله أعلم بالصواب.

"{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل."

كثير من السلف يفسر الفتنة في الآية بالشرك، والمعنى الذي مشى عليه ابن كثير أخص من ذلك إذ المراد بالفتنة عنده: هي حمل الناس على الكفر، وإضلال الناس عن دين الله -عز وجل- وهذا أعظم من القتل، وهذا المعنى ذكره ابن القيم -رحمه الله- من معاني الفتنة، وحمل عليه هذه الآية ونظائرها.

وأما الفتنة التي ترد مضافة إلى الله -عز وجل-، فتأتي بمعنى الابتلاء والامتحان كما قال الله -سبحانه-: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [(٣) سورة العنكبوت] يعني امتحناهم وبلوناهم، وهي خلاف الفتنة التي تقع بين المسلمين من الاقتتال وما أشبه ذلك، كتلك التي قال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه عنه أبو هريرة –رضي الله عنه-: ((تكون فتنةٌ النائمُ فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي))[2]، فهذه في الشر الذي يقع بين المسلمين والقتال، ويختلف عنها الفتنة التي ذكرها الله –عز وجل- في قوله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [(١٥) سورة التغابن]، وجاء في أول حديث حذيفة: ((فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره))[3] فعدها فتنة وذلك لتعلق القلب بالأموال والأولاد، مما يستدعي ترك

---

[2] رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة –باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم (٢٨٨٦) (٢٢١١/٤).

[3] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة –باب الصلاة كفارة برقم (٥٢٥) (٥٣٦/١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة –باب في الفتنة التي تموج كموج البحر برقم (٧٤٥٠) (١٧٣/٨).

القيام ببعض وظائف العبودية، فالفتنة تأتي بمعانٍ متعددة، لكن المقصود بها هنا هذا المعنى الذي أورده ابن كثير، والله أعلم.

"{وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين."

أعداء الله لن ينتهوا عن قتال أهل الإسلام حتى يتخلوا عن دينهم، وينكصوا على أعقابهم، ما لم يحدث ذلك فسيستمر قتالهم للمسلمين، وتنكيلهم بهم، وأما رضاهم فـ**{لَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [(١٢٠) سورة البقرة]، فالإنسان أياً كان لن يسلم منهم بحال، ما لم يوافقهم على دينهم وملتهم.

"قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة، قبض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، يعني -سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان-، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم))، فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- ما كانوا فيه، حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢١٨) سورة البقرة]، **فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء[4]."**

فمع الإشكال الذي وقعوا فيه من القتال في الأشهر الحرام عُدت لهم غزوة، وفي التطبيق العملي على الواقع ينبغي لنا التفريق عند الحكم على الأمور، ووضع الموازين في نصابها، وأن ندرك حقائق الدين وكنهها، ونقيم أود الجهاد على معايير صحيحة محكمة بالمصالح والمفاسد، وأن تكون غيرتنا على ديننا مضبوطة بلجام الشرع، ولا نجعل من تبريراتنا منطلقاً للإساءة على الإسلام وإن أردنا الإحسان إليه، فالخطأ يبقى خطأ، والنية لا تصلح العمل الفاسد.

وأما من يتعلل بأن المسلمين الذين يقاتلون الكفار في الجهاد الشرعي الصحيح قد وقعت منهم أخطاء وتجاوزات كما حصل من خالد بن الوليد -رضي الله عنه- في القصة المعروفة، فالجواب أن ذلك الخطأ نادر وقليل ولم يكن الأصل، وهذا التصرف إنما وقع منهم بعد اجتهاد ونظر وقد جانبوا فيه الصواب فهو مغفور لهم ومتجاوز عنه لاجتهادهم، ولا ننسى فإن لهم من الحسنات العظام ما يكفر ذلك.

المهم أن مثل هذه الأمور ينبغي أن تضبط ويحكم عليها بالعلم والعدل؛ لأن الله -عز وجل- يقول: **{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [(٨) سورة المائدة]، ويقول: **{إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ**

---

[4] جاء ذكر القصة في كتاب سيرة ابن هشام (١/١٨٨).

فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [(١٣٥) سورة النساء]، فلا يكون الحب أو البغض لأحد دافعاً لمجانبة العدل في الحكم على أفعال الناس وتصرفاتهم، وإن كانت هذه الأمور كثُر فيها الالتباس لدى الكثير، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢١٩-٢٢٠) سورة البقرة].

"روى الإمام أحمد عن أبي ميسرة عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لما أنزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء]، فكان منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فلما بلغ {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] قال عمر: انتهينا انتهينا"[1]. هكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح صحيح، وصححه الترمذي، وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أيضاً عند قوله في سورة المائدة {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] الآيات.

فقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: إنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر وهو القمار."

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- في الخمر: إنه كل ما خامر العقل، أراد غطاه، والخمر من خمر الشيء بمعنى غطاه، والتخمير التغطية، سميت بذلك لأنها تغطي العقل فيزول بسببها، ويحصل الإسكار.

وتأتي الخمر بمعنى المخالطة، ما خامر العقل أي: خالطه، أو من التخمير وهو ضد الفطير، تقول: تركته حتى خمر فهو خمير، والمعنى تركته حتى أدرك، تقول: تركت العجين حتى تخمّر، أو خمر.

---

[1] رواه الترمذي برقم (٣٠٤٩) (٥/٢٥٣)، والنسائي برقم (٥٥٤٠) (٨/٢٨٦)، وأحمد برقم (٣٧٨) (١/٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٣٠٤٩).

وتقول في الرأي هذا رأي خمير، أي ليس بفطير، بمعني أنه قد قلب من جميع الوجوه، وحصل فيه أناة حتى نضج، فيمكن أن تكون بهذا الاعتبار؛ لأنها تركت حتى تغيرت، والفواكه التي يصنع منها الخمر تترك حتى تتخمر، فيلقي بالزبد ثم بعد ذلك تكون مسكرة.

والمشهور الأول وهو أنها سميت خمراً؛ لأنها تغطي العقل، ولا تعارض مع المعنى الآخر؛ لأن المراد أنها تخالط العقل فإذا صارت المخالطة فإن العقل لا يكون في حالة سوية، والله تعالى أعلم.

قوله سبحانه: {وَالْمَيْسِرِ} الميسر: من يسر ييسر وهو القِمار الذي كان يتعاطاه العرب قديماً قبل الإسلام، ويدخل فيه القداح والأزلام إلى غير ذلك من هذه الأمور التي يتخاطر الناس فيها، سواء كانت من قبيل اللهو كالشطرنج والنرد، والكعاب التي يلعب بها الصبيان، فهذا كما يسميه الإمام مالك -رحمه الله-: ميسر اللهو، أو الذي يتخاطر الناس فيها بمقابل، فيقامر الرجل على فرسه، أو جمله، أو بيته، أو أرضه، أو ماله، وقد يصل الحال ببعضهم أن يقامر على امرأته، إذا لم يبق له شيء من أجل أن يسترجع ما فات، ويلحق باللهو الباطل لعب الورق، والكيرم، والفريرة، وألعاب تشبه المنيبولي، وأخرى تشبه النرد لكنها كما يقال: بطريقة إسلامية، وهي محل نظر وتأمل، فتعتبر من اللهو الذي يشغل الناس عن ذكر الله -عز وجل-، وعن الصلاة، ومدعاة للعداوة والبغضاء بين المسلمين، ولا تخرج الأمة منه بكبير طائل، ولا بفائدة، أو قوة في بنائها وجهادها وحضارتها، بل هي سبب في صرف صاحبها عن المطالب العالية، ويدخل فيه كثير من الألعاب الإلكترونية اليوم، والله تعالى أعلم.

وصورة القمار والقداح والأزلام المعروفة عند العرب أنهم يأتون بأقداح معدودة بعدد، في كل واحد منها مكتوب سهم، وفيها ما ليس فيه شيء، ويتقامرون على لحم جزور مثلاً، ثم يأتي صاحب القداح بكيس ويلتحف بثوب، فيدخل يده في الكيس، ثم يخرج لكل واحد سهمه ونصيبه فيأخذه طواعية أو كرها، وكان لكل قدح من هذه القداح اسم عند العرب.

"وقوله: {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها."

عد الإمام الشاطبي -رحمه الله- جملة من فوائد الخمر، لكنها ضئيلة بالنسبة لمفاسدها ومنها:

أنها تشجع الجبان لذلك كانت العرب تشربها في الحروب، فإذا شربها أحدهم ربط على رأسه خرقة حمراء فلا يكاد يقف في وجهه أحد. يقول أحدهم:

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ

ومنها: أن البخيل إذا شربها صار جواداً كريماً، ولحمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه- قصة مشهورة في هذا مع شارف علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- يحكيها عليٌّ فيقول: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطاني مما أفاء الله عليه الخمس يومئذ، ..أردت أن أبتني به بفاطمة عليها السلام، ...فخرجت لسوق بني قينقاع فلما رجعت، إذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأيت المنظر قلت: من فعل هذا؟

قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب وهو في البيت، في شرب من الأنصار عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها: ألا يا حمز للشرف النواء، فوثب حمزة إلى السيف وصنع ما رأيت!

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي لقيت فقال: ((ما لك))؟ قلت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتي... فطفق النبي -صلى الله عليه وسلم- يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمِل محمرة عينه، فنظر حمزة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟، فعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ثمِل، فنكص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا معه"[2]

الشاهد من الحادثة أن شرب الخمر تشجع الجبان، وتجعل البخيل كريماً، ولا يفهم من القصة أن حمزة -رضي الله عنه- كان بخيلاً، بل هو من أكرم الناس وأفضلهم وأجلهم وأعلاهم، وما شرب الخمر إلا لأنها لم تكن حرمت حينها، فالمقصود أن البخيل وغير البخيل يجود بماله وبغير ماله في حالة تعاطيه لها، ولهذا يقول بعضهم:

وإذا شربت فإنني رب الخورنق والسدير	وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

ويقصد بالشطر الأول أنه في حال السكر ربُّ القصر الذي يجلس فيه الملك يأكل، بل وفوق الملك، وإذا صحا فإنه راعي إبل وغنم يرجع إلى حاله الطبيعية.

فهذه بعض فوائد الخمر، ولكنها فوائد ضئيلة إذا ما قوبلت بالمفاسد الكبيرة من شربها، والعبرة إنما هي بما غلب ولذا قال أحدهم في الخمر:

رأيـــت الخمـــر صـــالحة وفيهـــا	خـــصالاً تفـــسد الرجـــل الحليمـــا
فـــلا والله أشـــربها صـــحيحا	ولا أشـــفى بهـــا أبـــداً ســـقيما
ولا أعطـــي بهـــا ثمنـــاً حيـــاتي	ولا أدعـــوا لهـــا أبـــداً نـــديما

ولا يوجد على ظهر الدنيا مفسدة خالصة كما يقول الأصوليون، وبالمقابل لا يوجد فيها مصلحة خالصة، إنما هي مشوبة بين هذا وذاك.

أما اللذات الخالصة فمحلها الجنة، والمفاسد الخالصة فمحلها النار، فإذا نظر الإنسان إلى الأشياء المحرمة وجد أنها تشتمل على بعض الأشياء التي فيها مصلحة لكن هذه المصلحة قليلة بالنسبة للمفسدة الكبيرة، وإذا نظر إلى الأشياء المباحة وجد فيها مفسدة، لكنها قليلة بالنسبة للمنفعة كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن البقر بقوله: ((ألبانها شفاء، وسمنها دواء، ولحومها داء))[3].

وأما مرضى القلوب من المنافقين فتجدهم يتعلقون بمصلحة مرجوحة في بعض مسائل الدين تتوافق مع أهوائهم، ويتغاضون عن المفاسد الكبيرة المترتبة علي الإقدام على هذه المسألة، ولذا الصواب القول: إنه ليس كل شيء يحصل فيه منفعة للإنسان يفهم منه الإباحة والجواز، والله أعلم.

---

[2] رواه البخاري في كتاب المغازي -باب شهود الملائكة بدراً برقم (٣٧٨١) (١٤٧٠/٤)، ومسلم في كتاب الأشربة -باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر والزبيب وغيرهما مما يسكر برقم (١٩٧٩) (١٥٦٨/٣)

[3] رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢١١٩٤) (٤٢/٢٥)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٤٢٢).

"وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة؛ لتعلقها بالعقل والدين."

فالميسر يكسب من ورائه المقامر المال من غير تعب، فيحصل له بسببه فرح وسرور وهذه مصلحة لكنها لا توازي المضرة والمفسدة؛ وهي كونه أخذ ماله بغير حق، فتترجح حينها المفسدة وتغلب، ولا يكون للمقامر حق في أخذ المال بالمقامرة؛ للمفسدة الراجحة، والله أعلم.

"ولهذا قال الله تعالى: {وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [(٢١٩) سورة البقرة]."

كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إثمهما يعني: إثم ما ينتج عنهما، ويعلل ذلك بأن هذه الآية نزلت قبل التحريم، وأن سياقها إنما يفهم منه الإخبار فقط، فلا يلحق شاربها الإثم بمجرد شربها؛ بل باعتبار ما ينتج عن تعاطيها من ظلم الآخرين بلسانه وبيده، أو فعل ما لا يليق مما يوقعه في الحرج.

والإثم يطلق على معنيين: العمل الذي ينتج عنه المؤاخذة والتبعة، تقول: من فعل كذا فهو آثم، ومنه أُطلق على الكذب إثم، والزنا إثم.....الخ

وكثر إطلاقه على الخمر من بين الذنوب؛ لكثرة ما فيها من المفاسد والقبائح، والعرب كانت تسميها بـالإثم كما قال أحدهم:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

وبعض العلماء يقول: إن أول آية نزلت في الخمر هي قوله –سبحانه- في سورة النحل: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [(٦٧) سورة النحل]، قالوا: السَّكَر هو المسكر، ثم نزلت هذه الآية {فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، لكن المشهور أن آية البقرة هي أول ما نزل في المدينة، وأما آية النحل فليس المقصود بالسَّكَر الخمر على الأرجح، إنما هو ما شرب من عصير هذه الثمار المسمى: "النبيذ"، فإنهم يلقون الرطب في الإناء ويتركونه يوماً وليلة أو نحو هذا، مما يورث هذا الشراب مذاقاً حلواً، فالآية إنما جاءت في مقام الامتنان، ويستحيل أن الله -عز وجل- يمتن علي عباده بالخمر، وهي كثيرة الشر والآثام، ومفسدتها أعظم من مصلحتها، وما ذكر من تأويلات ومحامل لتبرير هذا الامتنان فهو بعيد، والله أعلم.

"ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرّحة بل معرّضَة، ولهذا قال عمر -رضي الله تعالى عنه- لما قُرئتْ عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩٠-٩١) سورة المائدة]، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنه-، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [(٢١٩) سورة البقرة]، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر."

تحريم الخمر أخذ منحى التدريج على مراحل فأول شيء ذَكَرَ الله –عز وجل- لهم في آية سورة البقرة هذا الملحظ في الخمر، وهو أن إثمها أعظم من نفعها، فالعاقل ينبغي له أن يتحرز منها ما استطاع، ثم جاء النهي أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، وهذا يقتضى امتناعهم عن شرب الخمر إلا في وقتين:

- بعد العشاء فلا يدخل وقت صلاة الفجر إلا وقد أفاق.

- بعد صلاة الفجر من أجل أن يأتي الظهر وقد أفاق، وفي حالة إذا كان شاربها مدمناً لها، أو يشربها بمقادير محددة لا تؤدي إلى فقدانه عقله، فلا بأس، وهذا من ترويض النفس على ضبطها تجاه الخمر، ثم نزل التحريم الصريح أخيراً في سورة المائدة، يقول -سبحانه-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة].

"وقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [(٢١٩) سورة البقرة]، قُرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجه قريب."

قُرئتْ {قُلِ الْعَفْوَ} بالنصب وبالرفع، فالجمهور يقرءونها بالنصب، وأبو عمرو بن العلاء من القراء السبعة قرأها بالرفع، وتوجيه الرفع والنصب بالنظر في لفظة ماذا، فإذا فصلنا ما وذا على حدة، أعربنا ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، والتقدير: ما الذي ينفقون؟ والجواب: الذي ينفقون هو العفو.

وإذا جعلنا ماذا للاستفهام بهذا التركيب، فعندئذ النصب، والتقدير: ينفقون العفو، فالعفو بهذا الاعتبار في موقع مفعول به.

"وقال الحكم: عن مقسم، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} قال: ما يفضل عن أهلك، كذا روي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخرساني، والربيع بن أنس وغير واحد."

ورد في المراد بالعفو في قوله: {قُلِ الْعَفْوَ} أقوال: فقيل: ما سهل وتيسر ولم يشق على القلب، كما قال الله في آية الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ} [(١٩٩) سورة الأعراف] أي: ما تيسر وسهل من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولا تجهدوا أنفسكم، وقيل: هو ما فضل عن نفقة العيال، وقيل: العفو نفقات التطوع.

وما عليه عامة أهل العلم، وهو الظاهر المتبادر، أن المراد بالعفو ما فضل عن حاجتك وحاجة أهلك وعيالك، وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ} [(٣٤-٣٥) سورة التوبة] مستدلين بتفسير أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- وفهمه لهذه الآية حيث يرى أن لا يُبقي الإنسان شيئاً فوق حاجته، وإلا عمه العقاب فيكوى جنبه وظهره، والصواب القول بأن الله وسع على الناس في الأرزاق، وصار الإنسان إذا أخرج زكاة المال فلا يطالب أن ينفق ما زاد عن حاجته وحاجة عياله، ولا يكون المال المدخر كنزاً ولو بلغ أمثال الجبال، أو كان مدفوناً في باطن الأرض، وهذا الذي عليه عامة أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأما دعوى النسخ فلا بد فيها من دليل، إذ إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

والعلماء يتكلموا في مسألة معروفة هل في المال حق سوى الزكاة أو لا؟، فالمقصود أن هذه الآية اشتملت على توجيه الناس إلى الأدب في النفقة كما قال الله –عز وجل-: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء] والمعنى أي تلومك نفسك، ويلومك سائلوك، ومن وجب عليك أن تنفق عليهم من أهل وقرابة؛ لأنك لم تترك لهم شيئاً، ولم تستطع أن تبذل، أو تنفق، أو تقدم القرى للضيف، أو تتصرف في شئونك، فالله يوجههم ويرشدهم في الإنفاق، فيقول: ما فضل عن حاجتكم، فهذا مجال للإنفاق، وأما سواه فلا، والله تعالى أعلم.

"وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رجل يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عندي دينار، قال: ((أنفقه على نفسك))، قال: عندي آخر، قال: ((أنفقه على أهلك))، قال: عندي آخر، قال: ((أنفقه على ولدك))، قال: عندي آخر، قال: ((فأنت أبصر))[4] وقد رواه مسلم في صحيحه.

وأخرج مسلم أيضاً عن جابر -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل: ((ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا))[5]".

هذا من أحسن ما يفسر به العفو.

"وفي الحديث أيضاً ((ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف))[6].

وقوله: {كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [(٢١٩-٢٢٠) سورة البقرة]، أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده.

{لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها".

ومن أهل العلم من يقول: في الجزء من الآية تقديم وتأخير: أي: كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فيهما، ودعوى التقديم والتأخير لا وجه لها ولا حاجة إليها؛ لأن المعنى ظاهر بدونها.

قوله سبحانه: {فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} قيل: إنها متعلقة بالتبيين، والمعنى كذلك يبين لكم الآيات في الدنيا والآخرة، وهذا لا حاجة إليه ويتغير به المعنى، والأقرب تعلقها بالتفكر، والمعنى كذلك يبين الله لكم الآيات من أجل أن يحصل لكم الاعتبار والتفكر في الدنيا والآخرة، وهو ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال بعضهم: {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي تتفكرون في أمرهما بزوال هذه وبقاء هذه.

وقيل: إنها خطاب للإنسان، إنك إذا تفكرت في دنياك أصلحت فيها ما تحتاج إليه من أمر المعاش، وإذا تفكرت في آخرتك حاسبت نفسك وعملت لآخرتك وأنفقت في وجوه البر، فيكون الإنسان مصلحاً لأمر معاشه ومعاده، وهذا المعنى وإن كان قريباً من الأول، إلا أن ثمة فرقاً بينهما يدركه المتمعن فيهما، ويمكن الجمع بين هذه

---

[4] رواه النسائي برقم (٢٥٣٥) (٦٢/٥)، ورواه أبو داود برقم (١٦٩١) (٥٢٩/١)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي: حسن صحيح بـرقم (٢٥٣٥).

[5] رواه مسلم في كتاب الزكاة -باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة برقم (٩٩٧) (٦٩٢/٢).

[6] رواه مسلم في كتاب الزكاة –باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة برقم (١٠٣٦) (٧١٨/٢).

المعاني فنقول: إن التفكر يحصل بذلك كله، لأن الله لم يحدد شيئاً دون شيء، فيُبقي الإنسان عنده ما يحتاج إليه في هذه الحياة، ولا يكون ذلك مانعاً له من النفقة والصدقة. والله أعلم.

وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ} [(٢٢٠) سورة البقرة] الآية.

"روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم"[1] وهكذا رواه أبو داود والنسائي والحاكم في مستدركه، وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي، وابن أبي ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وروى وكيع بن الجراح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة، حتى أخلط طعامه بطعامي، وشرابه بشرابي، فقوله: {قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} أي على حدة، {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} أي يعلم مَن قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح.

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجاناً، كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما تهدد الله –عز وجل- وتوعد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [(١٠) سورة النساء]، وقع الحرج لدى الناس، فصاروا يعزلون طعامهم عن طعامهم، ويضعون طعامهم في إناء، وطعام اليتيم في إناء مختلف، وإذا أبقى اليتيم طعاماً فلا ينتفع به أحد، بل يترك حتى يفسد، فلحق بالناس مشقة شديدة جراء ذلك، فأنزل الله التخفيف عليهم بقوله سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} والمعنى: أنْ تثمر ماله وتقوم بإصلاحه دون مخالطة، أو تأخذ

[1] رواه أبو داود برقم (٢٨٧٣) (٣/٧٣)، والنسائي برقم (٣٦٦٩) (٦/٢٥٦)، والحاكم في مستدركه برقم (٢٤٩٩) (٢/١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٦٦٩).

شيئاً منه لقيامك عليه، ورعايتك للمال ولصاحبه اليتيم دون إجحاف فهذا أفضل؛ لما في هذا الصنيع من صيانة لمال اليتيم وحفظ ورعاية له، وللمفسرين أقوال في تأويل الآية، لكن هذا من أقربها ومن أكثرها ملاءمة للسياق، ويعتبر من أحسن ما تفسر به الآية، ولفظة خير في الآية يمكن أن تكون بمعنى أفعل التفضيل: "أخير"، ومعلوم أن صيغة خير وشر تأتي بمعنى التفضيل أحياناً، كما قال ابن مالك -رحمه الله-:

وغالبـــاً أغنـــاهم خيـــر وشـــر   عــن قــولهم أخيــر منــه وأشــر

{وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} المخالطة قيل: المعاشرة، وقيل: هي المصاهرة التي وردت في سورة النساء: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ} [(٣) سورة النساء] إذ إن المعنى المشهور للآية: إن خفتم أن لا تعدلوا في اليتيمة ويقع منكم ظلم تجاهها فلا تنكحوهن، إذ إن الظلم الواقع على اليتيمة أعظم من الذي يقع على غيرها، وقد قال الله لنبيه: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [(٩) سورة الضحى]، فاليتيم له حق زائد؛ لأنه بحاجة إلى مزيد رعاية وعناية تعويضاً له عما فقده من الأبوة.

والصواب أن المقصود بالآية إنما هو المخالطة في المال والنفقة لكونهما سببا التحرج، فلذلك يدخلان في الآية دخولاً أولياً، والمخالطة في المال والنفقة تقع على صور متعددة، يقدرها ولي اليتيم بحسب استهلاكه من النفقة في قوته ومعاشه تماشياً مع العرف السائد بين الناس، ويحسب حساب القائم على مال اليتيم بالتربية وحسن التنشئة إذا كان محتاجاً فقيراً، فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف وهو حق ضمنه الله –عز وجل- له بقوله: {وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [(٦) سورة النساء]، ومن المعروف أن لا تكون النفقة التي يتعاطاها على سبيل التوسع أو التقتير، أو من المبادرة والاستغلال لماله قبل أن يبلغ سن الرشد، كما قال الله -عز وجل-: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ} [(٦) سورة النساء]، يريد أن يقول: ادفعوا أموال يتاماكم أيها الولاة والأوصياء، ولا تأكلوها مسرفين في الأكل ومبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا، بأن تفرطوا في إنفاقها وتقولوا: ننفقها كما نريد قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا.

ولهذا عقّب بقوله: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} جملة على قصر لفظها واختصارها إلا أنها حملت معنى عظيماً لا يقوم غيرها مقامها في تأديته، إذ إن الكثير من الأمور قد لا يعلمها الناس، ولا يستطيعون الحكم عليها بالصواب والخطأ عند التصرف؛ لأن هذا يرجع إلى قضايا تتعلق بالعرف والحاجة، فيبقى قوله: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}، فالمصلح: من قصد حفظ مال اليتيم وصيانته ورعايته، والمفسد: من قصد استغلال مال اليتيم لحظوظه ومصالحه الشخصية، والله المطلع على خفايا النفوس وما تضمره الصدور، فمثل هذه الآية تجعل الإنسان يعامل الله في تصرفاته إزاء هذا اليتيم وماله، لأنه يعلم أنه إن خفي على الناس تصرفه، فإنه لن يخفى على الله – عز وجل- الذي قال عن نفسه: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} [(٥) سورة آل عمران].

قوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ} العنت: هو الضيق والشدة، فإذا شدد عليكم لحقكم الحرج، والله أعلم.

"{وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [(٢٢١) سورة البقرة].

هذا تحريم من الله -عز وجل- على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} [(٥) سورة المائدة]".

{وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ} أل في المشركات للجنس، وذلك يشمل كل مشركة بلا استثناء، فيدخل فيها أمم الكفر قاطبة بما فيهم اليهود والنصارى؛ لأنهم من المشركين، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وإن كان الشرك في النصارى أكثر منه في اليهود، إلا أن الكفر ملة واحدة، فبهذا الاعتبار يدخل اليهود والنصارى في عموم المشركين، لكن جاءت الإباحة بنكاح نساء أهل الكتاب في قوله -تبارك وتعالى- في سورة المائدة: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} [(٥) سورة المائدة] فهل نسخت هذه الآية بعض ما دخل تحت آية البقرة، أو يكون هذا من قبيل التخصيص -فنقول: هذه عامة، وتلك خاصة في أهل الكتاب، والعام يحمل على الخاص-؟ لا شك أن القول بالتخصيص هو الأسهل والأقرب؛ لأن التخصيص بيان، والنسخ رفع، ومن الفروق بينهما:

- أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، بينما التخصيص يثبت بالاحتمال.
- النسخ فيه إهدار لأحد النصين، بخلاف التخصيص ففيه إعمال للنصين.
- النسخ له شروط ذكرها العلماء لم يذكروها في التخصيص.

والمقصود من سرد الفروق أن يُعلم أن التخصيص أخف أثراً من النسخ، ولذا فالقول بالتخصيص هو الأولى من القول بالنسخ؛ لأن فيه إعمالاً لكلا الدليلين، وإعمال كلا الدليلين أولى من إهمال أحدهما.

وذهب بعض أهل العلم إلى القول بأن الآية لا نسخ ولا تخصيص فيها، واستدلوا بقوله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ} ووجهوا الآية بأن التحريم يخص نساء المشركات دون نساء أهل الكتاب، بدليل أن الله – عز جل- فرق بين الاثنين في مثل قوله: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [(١) سورة البينة]، فأهل الكتاب بنص الآية لا يدخلون في عموم المشركين وبالتالي فلا نسخ ولا تخصيص؛ لأن هذه إنما تحرّم نكاح المشركات كالبوذية والمجوسية ...، وسائر صنوف أهل الشرك بما فيهم الملاحدة.

والأقرب أن أهل الكتاب داخلون في عموم المشركين، فتشملهم الآية، وإنما أخرجوا منها بتخصيص الآية الأخرى التي في سورة المائدة، وإليه ذهب ابن كثير، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من أخذ بظاهر الآية وقال: لا يجوز التزوج بالكتابية أصلاً، باعتبار أن هذه الآية ناسخه لآية المائدة وهذا من أغرب الأقوال؛ لأن سورة البقرة من أول ما نزل في المدينة، وسورة المائدة من آخر ما نزل من الأحكام، ولم ينسخ منها شيء، حتى إن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يكتفون أحياناً بالتعبير عن

الشيء أنه لم ينسخ بكونه نزل في سورة المائدة، فيعدونه من المحكم الذي لم يتطرق إليه نسخ، وقولهم هذا يقتضي مخالفة ما جاء عن عامة أهل العلم من جواز التزوج بالكتابية.

{وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ} [(٢٢١) سورة البقرة]، الأمة تحتمل أمرين:

الأول: أن تكون الحرة باعتبار أنها أمة الله، ولذا عند ندائها يقال: يا أمة الله، ويعنون المرأة المؤمنة.

الثاني: أن تكون المرأة الرقيقة المملوكة، والمعنى أن تتزوج جارية مؤمنة أفضل من أن تتزوج تلك الحرة الكتابية مهما كان نسبها أو جمالها أو أحسابها أو غير ذلك، هذا هو الظاهر المتبادر.

وإن كان التزوج بالمملوكة لم يرغب الشارع فيه إلا في حالة ما إذا خشي الإنسان على نفسه العنت –الزنا-؛ كما قال سبحانه: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} [(٢٥) سورة النساء]، ثم خص ذلك وقيده بقوله: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ}، وتبعه بقوله: {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}؛ ذلك لأن أولاده من الأمة إذا دخل بها سيكونون أرقاء تبعاً لأمهم، يتصرف فيهم كما يتصرف في العبيد بيعاً وشراءً، بخلاف الأمة إذا تسرى بها فإن الأولاد سيكونون أحراراً تبعاً لسيد الأمة.

وكذلك قوله: {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} والمعنى أن الرقيق أفضل من الحر المشرك، هذا هو ظاهر المعنى من الآية، واختاره جمع من المحققين، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- حيث رأي أن الآية من العام المراد به الخصوص.

والعام عند الأصوليين ثلاثة أنواع:

- العام الباقي على عمومـــه.
- العام المراد به الخصوص.
- العام المخصوص.

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [(٢٢١) سورة البقرة]، استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس وغيرهم.

وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول والله أعلم".

قول ابن كثير: والمعنى قريب من الأول، لا يترتب عليه شيء مختلف من ناحية النتيجة النهائية، لأن هذا إما أن يكون من العام المراد به الخصوص، فتكون هذه الآية عامة خصتها الآية الثانية، فأخرجت بعض أفراد المشركين وهم أهل الكتاب، أو أن آية البقرة قصدت نوعاً من المشركين وهم أهل الأوثان، والنتيجة النهائية جواز التزوج بالكتابية.

لكن قول من قال: إن هذه الآية في سورة البقرة ناسخة لآية المائدة فيه إشكال، وقيل: هو أحد قولي الشافعي -رحمه الله- فيما نقل عنه، وابن المنذر صاحب كتاب "الإجماع" ينفي أن يكون ذلك عرف عن أحد من المتقدمين من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، لكن الصحيح أنه ثبت عن بعض السلف القول بالمنع في مسألة التزوج من الكتابية كابن عمر وغيره، وحملوا آية المائدة على بعض المحامل، ولا بد أن يعلم أن هناك

فرقاً من الناحية الصناعية في هذا المنع، إذ قد تصل إلى نتيجة واحدة في قولين، أحدهما يكون أحياناً مبنياً على القياس، ومعلوم أن القياس لا بد له من النظر بالأركان الأربعة، فإذا انطبقت وتوفرت اعتبرنا القياس، وإذا قلنا: إنه أصلاً ليس بقياس فلا اعتبار له، والنتيجة واحدة، فالحكم بأن هذه الآية عامة خص منها بعض الأفراد، أو أنها من العام المراد به الخصوص، أو تلك الآية تكلمت عن نوع، وهذه الآية تكلمت عن نوع، من الناحية الصناعية لا يؤثر في الحكم النهائي، وإن كان يؤثر على أشياء في النص نفسه، فمثلاً من الأصوليين من قال -وهو قول لبعض أصحاب المذاهب-: إن التخصيص يعد من قبيل النسخ، فإذا طالعنا شروط النسخ عنده وجدناها لا تتطابق مع التخصيص، ويترتب عليه عند النظر في النصوص قضية أخرى، وهي أن النص الذي لم يتطرق إليه التخصيص، أقوى من النص الذي تطرق إليه التخصيص؛ لأن ذلك يضعفه، ولهذا العلماء مختلفون في العمل بالدليل الذي دخل عليه التخصيص، فالجمهور يرون العمل به في باقي الأفراد وهذا عليه أدلة، ليس هذا موضع الكلام عليها، إنما الشاهد أن الآخرين يقولون لا يعمل به، ويرون السبب أن هذا صار مجازاً، ليس بحقيقة، لأن اللفظ العام بعد إخراج بعض الأفراد منه، انتزع منه العموم، ولم يعد يصدق على كل الأفراد، بل على بعضها، فيبطل العموم فيه وينتقض، وإذا انتقض العموم فلا يمكن العمل به في باقي الأفراد.

كذلك في باب التعارض والترجيح بين الأدلة يذكرون نحو مائة طريق للترجيح، منها العام الذي لم يتطرق إليه التخصيص فيجعلونه أقوى كحديث ((لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس))[٢] الذي دل على الخصوص مع حديث: ((من نسي صلاة فليصلِّ إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك))[٣] فكيف نصنع إزاء هذه النصوص المتعارضة في ظاهر الأمر؟ إن من وجوه الجمع أن يقال: حديث من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها عام في الأوقات، خاص في الصلوات المنسية والتي نام عنها، والثاني: لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا صلاة... هذا عام في الصلوات، خاص في الأوقات، فجاء تخصيص ((لا صلاة بعد الصبح...)) في بعض الصور.

وقد يقول قائل: الثاني باقي على خصوصه فيستثنى من الحديث، ومنهم من يجمع بطرق أخرى، فالمقصود أن هذا يؤثر عند النظر في النصوص، لكن قد تكون النتيجة واحدة فيما يتعلق بالمسألة التي أمامنا من العام الذي تطرق إليه التخصيص. والله أعلم.

"قال أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات".

يقصد بحكاية الإجماع أنه قول الأكثر؛ لأنه وجد من خالف هذا القول وهم قليل منهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

"وإنما كره عمر -رضي الله تعالى عنه- ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات".

---

[2] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس برقم (١٣٠) (٢٨١/١).

[3] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب من نسي الصلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة برقم (٥٧٢) (٢١٥/١)، ومسلم في كتاب المسجد ومواضع الصلاة – باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم (٦٨٤) (٤٧٧/١).

هذا من السياسة الشرعية المناطة بمراعاة المصلحة العامة بحسب نظر الإمام، فله الحق أن يمنع التزوج من الكتابيات، إذا أعرض الناس وزهدوا في التزوج من المسلمات، مما مؤداه أن تبقى نساء المسلمين عوانس في البيوت.

"أو لغير ذلك من المعاني كما روى أبو كريب عن شقيق قال: تزوج حذيفة -رضي الله تعالى عنه- يهودية، فكتب إليه عمر -رضي الله تعالى عنه- خل سبيلها، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟، فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وهذا إسناده صحيح".

فعمر بن الخطاب –رضي الله عنه- إنما منع الزواج من الكتابيات لكون الفساد والانحراف ومقارفة الفواحش غالباً فيهن، فلا يؤمن جانبهن، ويخشى على الرجل أن يخنّه في عرضه، فينبغي للمسلمين أن لا يتساهلوا في القران بهن والزواج منهن لأجل مثل هذه الأمور.

"وروى ابن جرير عن زيد بن وهب قال: قال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة، قال وهذا أصح إسناداً من الأول".

هذا مما يؤكد أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لم يقصد التحريم المطلق في منعه التزوج من الكتابيات، وحذيفة بن اليمان موطن سر الرسول –صلى الله عليه وسلم- كما سبق تزوج يهودية، فالزواج منهن جائز ولا حرج على من أقدم على ذلك، لكن مما ينبغي النظر إليه عند طلب القران بهن هو النظر في الآثار السلوكية والعواقب الوخيمة خاصة في هذا العصر، ومعلوم كم من أسر ضاعت بما فيها الأولاد والبنات جراء التهاون بهذه القضية.

وملمح آخر نستطيع أن نستشفه من زواج المسلم بكتابية يهودية أو نصرانية، وهو مدى أثر الإعلام في صناعة عقول الناس، فمثلاً لو بلغنا أن أحد طلبة العلم تزوج يهودية، لكانت هذه في حقه أعظم مسبة ومدعاة للشناعة عليه، والقدح فيه، وتوجيه التهمة إليه، بل يكفي أن يقال: إنه متزوج يهودية، بالرغم من أن صحابياً جليلاً كحذيفة بن اليمان –رضي الله عنه- تزوج بيهودية، صحيح أن الزواج من اليهودية مصدر للتوجس والاستفزاز ولا إشكال في ذلك، لكن الكلام في الحكم هل يجوز أو لا ما يجوز؟ فلا يقال في إنسان تزوج يهودية: إنه سقطت عدالته ومروءته....، ويتهم في الدين، وهناك فرق بين من يقترن بكتابية؛ لأنه معجب بقومها، ومنصهر في بوتقتهم، ومولع بحضارتهم، غارق في مستنقعهم الآسن، متنكر لدينه وأمته، وبين من يقترن بيهودية وهو متمسك بدينه، ثابت علي مبدئه، والخلاصة أن التزوج بالكتابية أمر غير سائغ، والإقدام عليه فيه من المفاسد والمخاطر ما لا يحمد عقباه، وإذا استطاع المسلم أن يتخلى عن الالتصاق بكتابية فهو خير وأفضل وأصوب، والله أعلم.

"وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ}".

بمعنى أنه حمل هذه الآية على عموم المشركات والكتابيات باعتبار أن الكفر والشرك ملة واحدة.

"وقال البخاري: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى".

ومن محامل التأويل القول بأنه تعارضَ المبيح والحاظر، وعند الترجيح معلوم أنه يقدم الحاظر على المبيح؛ لأنه أكثر صيانة واحتياطاً للدين، إلى غير ذلك من أوجه التأويل، لكن الراجح الذي عليه عامة أهل العلم هو جواز ذلك، ولا يصح إدعاء الإجماع في ذلك لوجود المخالف.

"وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك))[4].

فإذا كانت الشريعة ترغب في الزواج من ذات الدين، فماذا عسى الإنسان أن يجد عند الالتصاق بيهودية أو نصرانية من الدين إلا الضلال، وإذا كانت تقوم على تربية أولاده، وتنشئتهم ورعايتهم، فإن الخطب أفدح، والمأمول أفضح، وما الذي ينتظره الرجل من مستقبل أولاده مع امرأة تدين بغير دينه!!.

ومما يمكن أن يقال عند النظر في هذه النصوص: إن القاعدة والأصل في الفروج الحظر، كما إن الأصل في العبادات المنع كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- ((من أحدث في أمرنا هذا))[5]، فلو قال قائل من المانعين: هذه آيةٌ أباحتها في ظاهرها، وهذه آية حرمتها، فنبقى على الأصل وهو المنع، فهذا قول مرجوح ومحتمل، وله متمسك من الأدلة، فلا بد أن يتسع له صدر المخالف،؛ لأن المطلوب النظرة الواسعة في النصوص، وفي مآخذ العلماء، والاطلاع على مبرراتهم عند الجنوح إلى هذا الرأي أو ذاك.

"ولمسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- مثله، وله عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة))[6]، وقوله: {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ} [(٢٢١) سورة البقرة] أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [(١٠) سورة الممتحنة]".

استنبط الفقهاء من قوله سبحانه: {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ} حكماً وهو أن المرأة لا تتزوج إلا بولي؛ لأنه قال: {وَلاَ تُنكِحُواْ} والمعنى: لا تزوِّج يا ولي المرأة المشرك ما بقي على شركه، ولم يقل: ولا تَنكح المؤمناتُ المشركين، وجعلوا هذا الفهم من الآية عاضداً لقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها، فنكاحها باطل))[7].

"ثم قال تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} [(٢٢١) سورة البقرة]، أي: ولرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً، خير من مشرك وإن كان رئيساً سَرِياً".

---

[4] رواه البخاري في كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين برقم (٤٨٠٢) (١٩٥٨/٥)، ومسلم في كتاب الرضاع –باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) (١٠٨٦/٢).

[5] رواه البخاري في كتاب الصلح – باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٥٥٠) (٩٥٩/٢)، ومسلم في كتاب الأقضية –باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨) (١٣٤٣/٣).

[6] رواه مسلم في كتاب الرضاع – باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة برقم (١٤٦٧) (١٠٩٠/٢).

[7] رواه أبو داود برقم (٢٠٨٥) (١٩٠/٢)، والترمذي برقم (١١٠٢) (٤٠٧/٣)، وابن ماجه بلفظ: ((أيما امرأة لم ينكحها الـولي ....)) بـرقم (١٨٧٩) (٦٠٥/١).

ابن كثير لم يحمل الآية على خصوص الحر أو العبد، وهذا تفسير جيد منه، فإذا كان الله فضل العبد المؤمن على الكافر، فمن باب أولى القول: إن المؤمن الحر أفضل من المشرك، فجمع -رحمه الله- بين القولين بهذه العبارة الوجيزة.

"{أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}، أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا، واقتنائها، وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة، {وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ}، أي: بشرعه، وما أمر به وما نهى عنه، {وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}".

قوله سبحانه: {أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} ليست دعوتهم محتكرة في المخالطة والمعاشرة التي تبعث على حب الدنيا، وإيثارها، بل تشمل الدعوة في جميع المناحي كالدعوة إلى مذاهبهم الباطلة، ونحلهم المحرفة، وآرائهم الفاسدة، ومعلوم أن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم، ولذا تجدهم أكثر تحمساً لدعوة الناس إليها، وهذه طبيعة، وسجية في الإنسان، فإذا اقتنع بشيء فتجده كثيراً ما يدافع وينافح عنه، حتى لو كان في الأشياء البسيطة، وإذا أعجب بشخص يتبناه، ويجادل ويخاصم عنه، وقد يصل به الحد إلى الإطراء والثناء عليه كلما جلس في مجلس، أو جاءت مناسبة لذكره، ويريد من جميع الناس أن ينظروا بنفس النظرة التي ينظر بها إليه، فما بالك إذا كانت القضية عقيدة ومذهباً!!، ولذلك تجد أصحاب العقائد تلح عليهم عقائدهم، وهو يكتب في التفسير، ويكتب في اللغة، ويكتب في أصناف الفنون، تجد هذا النفس في كتاباته، ويبحث عما يؤيدها، ولا يستطيع التخلص مهما حاول أن يتجرد إلا أن هذه اللوثة تلاحقه، فالناس أسرى لأفكارهم معتقداتهم.

{وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ} أي: بشرعه، وما أمر به ونهى عنه، وبينه غاية البيان بهذا القرآن، وبما أنزل على الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما يوصلكم إلى مرضاته حيث بين الصراط المستقيم بياناً شافياً، وأمركم باتباعه والسير عليه لتدركوا الفلاح المبين.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٢٢-٢٢٣) سورة البقرة].

"روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله -عز وجل-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اصنعوا كل شيء إلا النكاح))، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر -رضي الله تعالى عنهما- فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن؟، فتغير وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى ظننا أنْ قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما، ورواه مسلم[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد تباينت أقوال المفسرين في المراد من اعتزال النساء حال الحيض، فبعضهم يطلق المراد على المكان ويقرر أن المرأة إنما تجتنب في مكان الحيض فقط، وآخرون يرجعون المراد إلى الزمان وأن المرأة إنما تجتنب في وقت وزمن الحيض، وكلا القولين يلزم من الآخر لزوماً يتضح به المعنى، لكن لو قلنا: إن المقصود هو اجتناب المرأة زمان الحيض، فإن هذا الاجتناب يكون لموضع الحيض ولغيره، بخلاف ما لو جعلنا المراد اجتناب موضع الحيض، فإن اجتناب موضع الحيض يلزم منه اجتناب ذلك في وقت حيضتها، فيكون ذلك أدل على المراد؛ لأن المجتنب من المرأة نوع من الاستمتاع خاص، هو ما بين السرة إلى الركبة أو مكان الحيض خاصة على خلاف، وأما ما دونهما فيحل الاستمتاع به، والنصوص الأخرى تدل عليه، فقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد من امرأته شيئاً وهي حائض، أمرها أن تتزر ما بين السرة والركبة، وفي بعض الروايات ألقى على فرجها ثوباً، فالترجيح بين القولين بهذه الطريقة مما يتضح به المعنى، وهذه الرواية التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- هي سبب نزول صحيح صريح لهذه الآية، وتدل دلالة واضحة على أن المرأة الحائض إنما يجتنب منها موضع الحيض، ويحل منها ما عداه من ألوان الاستمتاع، ناهيك عن جواز المخالطة والمؤاكلة وما إلى ذلك فهو من باب أولى، والله أعلم.

---

[1] رواه مسلم في كتاب الحيض –باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه برقم (٣٠٢) (١/٢٤٦).

"**فقوله: {فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ} يعني الفرج**".

بحسب الاحتمالين السابقين، أي: وقت الحيض يسألونك ماذا يحل لهم من النساء؟، أو يسألونك عن محل الحيض من المرأة عند حيضها، هل يحل لهم الاستمتاع به أم لا؟ والتقارب بين المعنيين كبير، إلا أن ابن كثير مال إلى أن المراد من الآية محل الحيض، واستدل بما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-

"**لقوله: ((اصنعوا كل شيء إلا النكاح))**".

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أراد بقوله: ((إلا النكاح)) الوطء، فعلق الحيض بمكانه ومحل خروجه، وهذا الحديث يستدل به القائلون بجواز الاستمتاع ما بين السرة والركبة، وإن كان الأفضل أن يكون فيما فوق هذا المقدار، لكن الشيء المحرم قطعاً هو موضع الحيض؛ لأنه موضع الأذى وهو الذي تتعلق به العلة، وما عداه فليس محلاً للأذى، وإنما كرهه من كرهه مبالغة في التباعد، وقد يتأثر هذا الحكم -ما يتعلق بالمباعدة عن موضع الحيض- باعتبارات تطرأ نظراً لما استحدثه الناس في هذا الزمان، فالحاصل أنه لا يجوز لأحد أن يطأ المرأة في وقت الحيض بحال من الأحوال إطلاقاً.

وأما بالنسبة لمن قارف ووقع على أهله في حال الحيض فقد ورد عن بعض أهل العلم أنه يتصدق بدينار.

وبعض أهل العلم يفرق جمعاً بين الروايات، بين الوطء في زمن الدم، والوطء بعد انقطاعه وقبل الغسل، وكل ذلك لا يجوز.

وأما ما يفعله البعض من الوطء في محل البول، فهذا لن يستطيع التباعد عن محل الأذى، فلا بد أن يلامسه أولاً.

ثانياً: أن ذلك ليس بمحل للوطء حتى ولو في حال الطهر، إنما محل الوطء هو موضع الولد خاصة، ولذا فتركه أولى.

"**ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج.**

روى أبو داود عن عكرمة عن بعض أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً[2].

وروى أبو جعفر بن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة -رضي الله تعالى عنها- فقال: السلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى أهله، فقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أبو عائشة، مرحباً مرحباً، فأذنوا له، فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحي، فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها، وهذا قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، والحسن، وعكرمة، قلت: ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف، قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن[3].

---

[2] رواه أبو داود برقم (٢٧٢) (١/١١١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٧٩٢).

[3] رواه البخاري في كتاب الحيض -باب قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض برقم (٧١١٠) (٦/٢٧٤٤)، دون قوله: ((يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض)).

وفي الصحيح عنها -رضي الله تعالى عنها- قال: كنت أتعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه[4]".

العرق هو: العظم الذي أخذ أكثر اللحم، والمعنى أن عائشة كانت تأكل ثم تناوله النبي -صلى الله عليه وسلم- فيأكل من الموضع الذي أكلت منه.

"وثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض، وهذا لفظ البخاري[5].

ولهما عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- نحوه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن سعد الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض، قال: ((ما فوق الإزار))[6].

فقوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} [(٢٢٢) سورة البقرة] **تفسير لقوله: {فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ}، ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع. وقوله: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}، فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه".**

حكم الوطء بعد الحيض ينطبق عليه قاعدة: الأمر بعد الحظر يرجع إلى ما كان عليه قبل النهي، فمن قال: إنه مستحب لكونه سبباً للولد وسبباً للعفاف ولأجل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وفي بضع أحدكم صدقة))[7] رجع إلى الاستحباب.

ومن قال: إنه مباح، جعله باعتبارين، مباح بالجزء وواجب بالكل، والمعنى أنه ينظر له من جهتين جهة الفاعل المعين وجهة العموم، فالفاعل المعين يتردد حكم الوطء في حقه من الوجوب -إذا خشي على نفسه العنت- إلى سائر التكاليف الباقية: "المباح – المستحب – المكروه - المحرم" وهي في كل مقام بحسب، وأما من جهة العموم فإنه يتعين على الرجل أن يطأ امرأته، حفاظاً على النسل من الانقطاع، وأما المقدار في الوطء فهذا لا ينضبط والكل أعرف بنفسه، فالوطء بعد الطهر يعرف حكمه بالاعتبار السابق، وهكذا سائر الأحكام ينظر إليها باعتبارين، يسميها الشاطبي -رحمه الله- الكل والجزء.

ولقد اختلف أهل التأويل في المراد بقوله سبحانه: {حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} فبعضهم زعم أن المراد بطهارتهن يعني انقطع الحيض عند المرأة وهذا محتمل.

---

[4] رواه مسلم في كتاب الحيض -باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه برقم (٣٠٠) (٢٤٥/١).

[5] رواه البخاري في كتاب الحيض –باب مباشرة الحائض برقم (٢٩٧) (١١٥/١).

[6] رواه أبو داود برقم (٢١٢) (٥٨/١)، وأحمد في مسنده برقم (٨٦) (٢٤٧/١).

[7] رواه مسلم في كتاب الزكاة –باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف برقم (١٠٠٦) (٢/٦٩ ٧).

والبعض الآخر قال: يحتمل أن المراد من التطهر الاغتسال، وعليه عامة أهل العلم، فلا يجوز له أن يطأها حتى تغتسل، ويدل عليه القراءة الأخرى المتواترة: {لا تقربوهن حتى يَطَّهَرْن} والمعنى يتطهرن، التاء للطلب، فهذا يدل على صنع وفعل وتكلف يصدر من ناحيتها وجهتها، فليس انقطاع الدم هو المراد فحسب بل لا بد من فعلٍ يصدر منها وهو الاغتسال، وهذا خلافاً لمن أمضى عليها عشرة أيام، وبعضهم يقول: تتوضأ، فيقوم وضوءها مقام الاغتسال. والله أعلم بالصواب.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حتى يطهرن: أي من الدم، فإذا تطهرن: أي بالماء، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد وغيرهم".

قراءة {يَطَّهَرن} قراءة حمزة والكسائي وعاصم في إحدى الروايتين عنه وهي قراءة متواترة، وبقية القراء السبعة على الأولى {حَتَّىَ يَطْهُرْن} وهي محتملة انقطاع الدم، ومحتملة للانقطاع مع الاغتسال كما سبق، ولكن لما كانت القراءات يفسر بعضها بعضاً سواء كانت متواترة أو من قبيل الآحاد فسرت القراءة الثانية الأولى، فيتبين المراد من ذلك أنه لا يجوز له أن يقربها حتى ينقطع الدم وتغتسل، وفي بعض المواضع من القرآن الكريم قد ترد في الآية قراءتين ويكون لكل منهما معنى يخصها فتنزل بمنزلة الآيتين.

"وقوله: {مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد، يعني: الفرج، وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى.

وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد: {فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}، يعني طاهرات غير حيض".

وبعضهم يقول: {فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ} أي بالحلال وهو النكاح، وبعضهم يقول: من غير مانع مثل أن تكون معتكفة أو هو معتكف، أو تكون صائمة صيام الفرض، فهذا لا يجوز له أن يفسد صومها، لكن الأقرب من هذه المعاني وهو الظاهر المتبادر ما ذكره ابن عباس -رضي الله عنه- أن المراد بذلك الفرج. والله أعلم.

"ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ} أي من الذنب وإن تكرر غشيانه، {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} أي المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتَي".

هذه من جنس الآيات السابقة المتكررة التي يجمع الشارع فيها بين أمرين.

وقوله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ} [(٢٢٣) سورة البقرة]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الحرث موضع الولد، {فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أي كيف شئتم".**

أصل الحرث الزرع، تقول: فلان صاحب حرث، يعني صاحب زرع، ثم أطلق على سببه، فصارت المرأة المزدرع الذي يوضع فيه البذر، لكونها محل مزدرع الرجل.

ومعلوم أن موضع الزرع من المرأة القبل، ولا يكون الحرث إلا في هذا الموضع، والآية دلالتها واضحة وصريحة في تحريم إتيان المرأة في غير القبل، وإن كان يحل منها جميع أنواع الاستمتاع فيما عدا محل الأذى "الدبر"، بل وتواردت الأحاديث في هذا المعنى وإن كانت لا تخلوا من ضعف، إلا أن بعضها يتقوى، فيرتقي إلى درجة الحسن، وعلى فرضية أنه لم يصح شيء منها كما نقل عن بعض أهل العلم من الأئمة

المتقدمين، فهذا لا يفهم منه الجواز والحل؛ إذ إنهم محكومون بالآية وهي في غاية الوضوح وناصعة الاستدلال.

وأما ما ينسب إلى الأئمة كالإمام مالك أنه أجازه، فهذا كذب عليه صريح، ويوجد في كلامه ما يكذبه صراحةً، ويبرِّئه منه، وكذا ما نسب إلى الشافعي إنما كان ذلك عن طريق أحد الكذابين.

وأما ما نقل عن جماعة كابن عمر –رضي الله عنه- وغيره من الكلام الذي فُهم منه قصده هذا المعنى، فقد جاء في روايات أخرى عنه ما ينفيه صراحة وأنه لا يريده ولا يقصده، وإنما حمله الناس عنه على غير الوجه الذي قصده، ولذا أنكره ابن عمر –رضي الله عنه- غاية الإنكار، والحقيقة أن هذا الفعل لا يقدم عليه إلا صاحب هوى ممسوخ، وفطرة منكوسة، نسأل الله العافية.

"{فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أي: كيف شئتم مقبلة أو مدبرة في صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث".

أراد الله سبحانه بقوله: {أَنَّى شِئْتُمْ} أي على أي هيئة مكانية أو فترة زمانية شئتم فيما حدده لكم الشرع فقد أجاز إتيان المرأة مقبلة أو مدبرة إلى آخره، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن السياق يبين المراد، ولذا فسر المراد من قوله: {فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أي من قِبل المأتى، وهذا تفسير مطابق، وانتقد من فسرها باعتبار الزمان أو المكان، ويقول: إن ذلك كان بسبب ألوان من الاستعمال جاءت في كلام العرب، فكلٌّ حمل المراد على معنى، لكن الملاحظ في التركيب والسياق وأصل المعنى إذا تمعن فيه المتمعن وجده: من أي وجه شئتم. والله أعلم.

"روى البخاري عن ابن المنكدر قال: سمعت جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، ورواه مسلم وأبو داود[8]".

المراد من الجماع في رواية جابر ما كان في موضع الولد قطعاً؛ لأن الولد لا يأتي إلا إذا جامعها في القبل، والمقصود من إيراد سبب نزول الآية أن للمرء الخيار في طريقة الجماع، وهي مقبلة أو مدبرة أو على جنبها أو بأي شكل كان، والآية إنما وردت في مقام التهكم باليهود؛ لأنهم كانوا يتصورون هذا التصور المنحرف الخاطئ، ولذا كانوا يجامعون نسائهم على جنب ويقولون: إن ذلك أستر، ويعتقدون في الجماع بتلك الهيئة ما سبق، فجاء الشرع بخلاف ما اعتقدوه، ونفى ضمناً ما ظنوه.

"وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}. قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج))[9].

---

[8] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٥٤) (١٦٤٥/٤)، ومسلم في كتاب النكاح –باب جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر برقم (١٤٣٥) (١٠٥٨/٢).

[9] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢/٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أنزلت هذه الآية {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ....}، في أناس من الأنصار أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألوه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ائتها على كل حال إذا كان في الفرج))[10].

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت: إني سائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك عنه، قالت: فلا تستح يا ابن أخي. قال: عن إتيان النساء في أدبارهن، قالت: حدثتني أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن الأنصار كانوا لا يُجَبُّون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبّى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجَبّوهن..."

التجبية: أن تكون المرأة باركة على وجهها كالساجدة، ويأتيها في موضع الولد خاصة، وفي حديث وفد ثقيف لما أنزلهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا أن لا يحشروا ولا يعشروا ولا يُجَبُّوا، أي يسجدوا كناية عن امتناعهم عن الصلاة، وفي صحة الحديث نظر.

"فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استحيت الأنصارية أن تسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فخرجت فحدثت أم سلمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ادعي الأنصارية))، فدعيت فتلا عليها هذه الآية: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، صماماً واحداً)).[11] ورواه الترمذي وقال حسن".

هذا الأثر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود ليس من أسباب نزول الآية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحادثة إنما تلا هذه الآية ليبين الحكم فقط ليس غير، وقد سبق الإشارة إلى سبب نزولها وأنها نزلت في اليهود، وقد جاء في بعض الروايات ما يشبه هذه الرواية، وهو أن قريشاً كانوا يشرحون النساء -يأتون المرأة مستلقية-، فتزوج رجل من قريش امرأة من الأنصار فامتنعت.... القصة.

ويؤخذ من الرواية أنه لا يمنع الإنسانَ الحياءُ من السؤال في الدين، وهذا العبارة أصوب من قول بعضهم: لا حياء في الدين، وكأنه غفل أن الدين كله حياء، بل إن الحياء شعبة من الإيمان كما أخبر بذلك المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

"وروى النسائي عن كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إنه قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، فقال: يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا، قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا

---

[10] رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤١٤) (٢٦٨/١)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: حسن لغيره، وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد.

[11] - رواه أبو داود برقم (٢٩٧٩) (٢١٥/٥)، وأحمد في مسنده برقم (٢٦٦٠١) (٣٠٥/٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٧٩).

منهن مثلما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتَيْن على جنوبهن، فأنزل الله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}.[12] وهذا إسناد صحيح".

هذه الرواية صريحة في نفي وتكذيب ما نسب إلى ابن عمر، ولعل ذلك فهم من ابن عمر على غير قصده، والرواية الأخرى الواردة عنه في مخالفته لهذا القول جاءت في البخاري.

"روى أحمد عن خزيمة بن ثابت الخُطَمي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يستحيي الله من الحق ثلاثاً، لا تأتوا النساء في أعجازهن))[13] رواه النسائي وابن ماجه.

وروى أبو عيسى الترمذي والنسائي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر))[14]. ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه ابن حزم أيضاً".

حسن بعض أهل العلم كالشيخ الألباني هذا الحديث، والأحاديث وإن كانت متضافرة في هذا الباب إلا أنها لا تخلو من ضعف، والآية وحدها دلالاتها كافية في تحريم إتيان النساء في أدبارهن.

"وروى الإمام أحمد عن علي بن طلق -رضي الله تعالى عنه- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تؤتى النساء في أدبارهن، فإن الله لا يستحيي من الحق،[15] وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: هو حديث حسن.

وروى أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: ما تقول في الجواري حين أحمض لهن؟ قال: وما التحميض. فذكرت الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين، وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج!!، قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك، قال: يكذبون عليّ، يكذبون عليّ.

فهذا هو الثابت عنه، وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف، إنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء".

مراد ابن كثير من قوله: وهو مذهب جمهور العلماء، أي تحريم إتيان المرأة في الدبر، وليس إطلاق الكفر عليه، ولا يكاد يوجد مخالف في هذه المسألة، ومن نُقل عنه خلاف ذلك فهو كذب كما أسلفنا.

---

[12] رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٩٧٨) (٣١٥/٥).

[13] رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٩٨٦) (٣١٧/٥)، وابن ماجه بلفظ ((في أدبارهن)) بـرقم (١٩٢٤) (٦١٩/١)، والترمـذي بـرقم (١١٦٤) (٤٦٨/٣)، وأحمد برقم (٢١٩٠٣) (٢١٣/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٦٦٩) عن طريق خزيمة بن ثابت.

[14] رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩٠٠١) (٣٢٠/٥)، والترمذي برقم (١١٥٦) (٤٦٩/٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٧٥٩).

[15] رواه الترمذي برقم (١١٦٤) (٤٦٨/٣)، وأحمد في مسنده برقم (٢١٩٠٧) (٢١٣/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير بـرقم (٢٧٣٣).

"**وقوله: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ} أي: من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات**".

الأقرب في تفسير الآية والأظهر ما ذكره ابن كثير، ولذا اختاره جمع من المحققين منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله- وقد جاء في الآية الأخرى: {وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ} [(١١٠) سورة البقرة]، والمعنى قدموا لأنفسكم من فعل الخير ما تعمرون به آخرتكم.

وبعضهم يقول: قدموا لأنفسكم، يعني الذكر الذي يقال عند الجماع: ((اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا))[16]، وقيل غير هذا لكنها معانٍ بعيدة.

"**ولهذا قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ} أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعها، {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي: المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم.**

وروى ابن جرير عن عطاء قال: أراه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}، قال: تقول: بسم الله -التسمية عند الجماع-.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً))[17]".

هذا المعنى في تفسير المراد من الآية وإن كان حكماً ثابتاً، لكنه يمكن أن يكون من الأمثلة على تفسير القرآن بالسنة مما يدخله الاجتهاد إلا أنه جانب الصواب، وذلك أن تفسير القرآن بالسنة على نوعين:

- نوع تعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية بالتفسير والتوضيح، هذا لا إشكال فيه إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا ينظر إلى قول أحد بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه أعلم الناس بكلام الله ومراده.
- ما يجتهد فيه المفسر من تفسيره للقرآن بالسنة من خلال فهمه لكلام الله -عز وجل-، فيعمد المفسر إلى حديث لا تعلق له بالآية فيتكلف في الربط بين الآية وبين الحديث، وقد يوفق في الربط، وقد لا يوفق، مثل من فسر هذا الحديث بأنه المراد من قوله سبحانه: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}، فهذا يعتبر من قبيل النوع الثاني من تفسير القرآن بالسنة مما يدخله اجتهاد المفسر، وهو مأجور على اجتهاده فيما ذهب إليه من تفسيره وإن لم يوفق للصواب.

والخلاصة أن يُفسر قوله: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ} بما ذكره ابن كثير من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاهم عنه من ترك المحرمات، وهو الأصوب، والله أعلم.

ويبقى سؤال هو ما وجه المناسبة بين قوله: {فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} وما بعدها {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}؟

الجواب يكمن في أن أعظم متعة في هذه الدنيا هي النساء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حبب

---

[16] رواه البخاري في كتاب الوضوء –باب التسمية على كل حال وعند الوقاع برقم (١٤١) (٦٥/١)، ومسلم في كتاب النكاح –باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع برقم (١٤٣٤) (١٠٥٨/٢).

[17] سبق تخريجه.

إلي من الدنيا النساء والطيب...))[18]، ولذلك كان العرب يقولون عن النكاح والطعام: الأطيبان؛ لأنه أطيب ما في الدنيا، وقد يشغل العبدَ السعيُ في طلب الزوجة والبحث عنها، وما يتعلق بكماليات وأمور ومتطلبات الحياة الزوجية، وذلك كله مآله إلى الوطء، يشغله عما هو بصدده من عبادة الله -عز وجل-، لأن النساء من الزينة المحببة إلى قلب الإنسان كما قال سبحانه: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء...}** [(١٤) سورة آل عمران] وتأمل كيف أن الله بدأ بذكر النساء من الشهوات التي يبحث عنها الناس، لما علم أنه لا يعادلها قناطير ولا أنعام ولا حرث ولا خيل مسومة لكنه قال بعدها: **{ذلك مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ}** فيكون ذلك من قبيل لفت أنظار المكلفين إلى أن هذه المتع في الحياة الدنيا زائلة، وأن هذه المرأة التي يحرص على نكاحها والالتصاق بها سوف تشمط يوماً ما، وتظهر آثار الزمان على وجهها، وتشيخ عند كبرها، عندها يذهب جمالها وبهاؤها ورونقها وحسنها وشبابها، فتصير إلى حالة لا يطلب فيه أحد نكاحها، ولا تتوق إليها النفوس، فلا ينبغي أن ينشغل العبد بالنساء عن عبادة الله –عز وجل-، بل لا بد أن يقدم لنفسه زاداً يدخره لآخرته؛ فالآخرة دار لا تصلح للمفاليس، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[18] رواه النسائي برقم (٣٩٣٩) (٦١/٧)، وأحمد في مسنده برقم (١٣٠٧٩) (١٩٩/٣)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: حسن صحيح برقم (٣٩٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (٩٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(٢٢٤-٢٢٥) سورة البقرة] **يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله -تعالى- مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٢٢) سورة النــــور].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما أورده ابن كثير في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ}** جرى على حمل العرضة في الآية على معنى الشيء المعترض -كالحاجز-، من قولهم هذا الشيء عرضة بمعنى: حاجز، وهذه الأحجار عرضة في الطريق أي: حاجزة للمارة فلا يتمكنون من اجتيازها، ويكون المعنى على هذا: لا تجعلوا الله حاجزاً ومانعاً لأيمانكم التي هي بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس كما حلف أبو بكر -رضي الله عنه- ألا يصل مسطحا، وأن يقطع عنه النفقة التي كان يتعهده بها بعدما تكلم في قصة الإفك المعروفة بما تكلم، فصار حَلِف أبي بكر -رضي الله عنه- حاجزاً دون إيصال البر والإحسان إلى هذا القريب، ومثله لو حلف الإنسان ألا يزور أمه أو لا ينفق على امرأته لأصبح حلفه حائلاً دون بلوغ هذا البر والمعروف سواء كان واجباً أو مستحباً، فلا ينبغي للإنسان أن يقيم على هذه اليمين التي تحول بينه وبين إيصاله البر والمعروف إلى أقربائه وسائر الناس، وإنما هو مطالب أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((.... لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[1]، فهذا هو المعنى المشهور والمتبادر الذي عليه الجمهور.

وقيل: العرضة بمعنى القوة والشدة أي: لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم في الامتناع من الخير، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، فالآية تحتمله وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وقيل: يحتمل أن تكون من قولهم: فلان عرضة للناس بمعنى أنهم يقعون فيه كثيراً بما يكره، فتحمل الآية على النهي عن ابتذال الاسم الكريم، والإكثار من الحلف بذلك، ومعلوم أن كثرة الحلف ليست بالأمر

---

[1] رواه البخاري في كتاب الخمس -باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين برقم (٢٩٦٤) (١١٤٠/٣)، ومسلم في كتاب الأيمان -باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه برقم (١٦٤٩) (١٢٦٨/٣).

المحمود، بل هي من صفات المنافقين كما قال الله –عز وجل- عنهم: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٦) سورة المجادلة]، وكثرة الحلف لا يتفق مع تعظم المعبود -جل جلاله- التعظيم الواجب؛ لأن من اعتاده وصار ديدنه أعمله كثيراً في تعاملاته المختلفة لغرض أو لآخر، فتخف جذوة تعظيم المحلوف به في قلبه وتضعف، ولذلك أثر عن بعض السلف كإبراهيم النخعي -رحمه الله- أنه كان يؤدب الصبيان ويضربهم على الحلف؛ لئلا يكون سهلاً على ألسنتهم فيعتادونه، وقديماً قيل: من أكثر الحلف كثر منه الحنث، والله أعلم.

وبعض المفسرين يرى أن المراد من الآية الحلف كذباً بحجة الإصلاح بين الناس، فإنه وإن كان يرخص للإنسان فيه لكن شريطة أن لا تضيع الحقوق بسببه، ومثله لو حلف بحجة أن قصده الخير وتكثير سواده فهذا مما لا يجوز، وصاحبه مقترف لكبيرة من الكبائر، والغاية لا تبرر الوسيلة.

وبعض أهل العلم يحمل الآية {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} على أحد المعاني المذكورة، ويجعل قوله: {أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ} جملة جديدة حذف منها الخبر لا تعلق لها بما سبق، والمعنى البر والتقوى والإصلاح أولى لكم، والله أعلم.

فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، كما روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة))[٢]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله، آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه))[٣]. وهكذا رواه مسلم وأحمد.

وقال علي بن طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخرساني والسدي -رحمهم الله تعالى-.

هذا المعنى يوافق المعنى الأول: لا تجعلوا أيمانكم حاجزاً ومانعاً يحول بينكم وبين فعل البر والتقوى.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[٤].

وروى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير))[٥].

---

[2] رواه البخاري في كتاب الجمعة –باب فرض الجمعة برقم (٨٣٦) (٢٩٩/١)، ومسلم في كتاب الجمعة –باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٨٥٥) (٥٨٥/٢).

[3] رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور برقم (٦٢٥٠) (٢٤٤٤/٦)، ورواه مسلم في كتاب الأيمان –باب النهي عن الإصرار على اليمين فيما يتأذى به أهل الحالف مما ليس بحرام برقم (١٦٥٥) (١٢٧٦/٣)،

[4] سبق تخريجه.

[5] رواه مسلم في كتاب الأيمان –باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه برقم (١٦٥٠) (١٢٧١/٣).

وقوله: {لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد.

اليمين: الحلف، وأصل التسمية أن الواحد كان إذا حلف يأخذ بيمين صاحبه من باب التأكيد، فصارت تطلق على الحلف وإن لم يصحبها أخذ بيمين الحالف.

ومن تأمل عبارة ابن كثير -رحمه الله- في تفسير الآية يلاحظ أنه يقصد الأيمان التي لا كفارة فيها، وهي على نوعين:

- الأول: أيمان يلحق صاحبها إثم وهذه كاليمين الغموس.
- الثاني: أيمان لا يلحق صاحبها إثم، وهي: ما كان على اعتقاد الحالف بالنسبة للأخبار والأمور الماضية، أو كان على سبيل اللغو وهو: ما يجري على اللسان من غير عقد في القلب.

وهناك صور أخرى العلماء مختلفون فيها، مثل اليمين في حال الغضب في بعض صورها، أو اليمين التي يقصد بها الإكرام فيحلف علي إنسان بالضيافة والقِرَى، فبعض أهل العلم كشيخ الإسلام -رحمه الله- له كلام في هذه المسألة.

وأما الأيمان التي تتعلق بها الكفارة فهي ما أراده الله سبحانه في قوله: **{وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}** [(٢٢٥) سورة البقرة] وهي اليمين التي يقصدها الحالف ويعقد عليها قلبه، سواء كانت على أمر ماضٍ أو مستقبل كما قال سبحانه: **{وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ}** [(٨٩) سورة المائدة].

وقوله سبحانه: **{لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ}** اللغو هو: الباطل، والأحسن أن تحمل الآية على كل يمين لا مؤاخذة فيها، فيدخل فيها ما حلف عليه الإنسان في أمر ماضٍ يعتقد فيه شيئاً وهو على خلافه، وكذا الأمور المستقبلة مما يجري على لسان الإنسان من غير قصد لليمين، وبعض أهل العلم يعد من اللغو يمين المعصية، وعلل ذلك بأن الأصل أن لا يقدم على هذه المعصية وبالتالي لا يحتاج إلى التكفير.

وبعض أهل العلم يرى أن اليمين اللغو هي: ما يحصل من الإنسان إذا اشتط غضباً فيدعو على نفسه ويقول: إنه يهودي ونصراني إذا فعل كذا.

والبعض الآخر قال: إنها اليمين المكفَّرة؛ لأنها صارت غير معتبرة؛ لكونه كفر عن يمينه فصارت اليمين لا توجب على العبد الوقوف عندها، وهذا القول بعيد.

والأقرب أن تحمل يمين اللغو على ما لا كفارة فيه ولا إثم، وابن جرير -رحمه الله- حملها على جملة من هذه المعاني السابقة، قال: هي التي لا كفارة فيها، لكن يبقى تقييد هذا بما لا إثم فيه؛ لأن اليمين الغموس لا كفارة فيها، لكن الإنسان يؤاخذ بها.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله))[6].

فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية قد أسلموا، وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد؛ لتكون هذه بهذه.

---

[6] رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة {والنجم} [(١) سورة النجم] برقم (٤٥٧٩) (٤/١٨٤١).

فهذه من لغو اليمين باعتبار أنه لا كفارة فيها، وعدّ بعضهم قوله -صلى لله عليه وسلم-: ((فليقل: لا إله إلا الله)) كفارتها، وظاهر الأمر في الحديث للوجوب، والكفارة ليس بالضرورة أن تكون عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو صيام ثلاثة أيام أو...، بل قد تكون بشيء آخر كما في هذا الحديث.

وأما لو قال: والكعبة ...، فهل تلزم الكفارة أم لا؟ المسألة خلافية بين أهل العلم، إلا أنهم متفقون على أن قوله هذا يعتبر من الحلف بغير الله، ولذلك جعل بعضهم كفارته أن يقول: لا إله إلا الله، لكن تبقى مسألة ثانية وهي هل هذه يمين منعقدة مثل الطلاق والتحريم في قوله سبحانه: {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [(١) سورة التحريم]، لأن التحريم ورد فيه ثلاثة أقوال معتبرة هي في غاية التناقض مختارة من بين ثمانية عشر قولاً:

القول الأول: أن هذا لا تغير فيه حقيقة، ولا ينقلب الحلال إلى حرام، وهذا لفظ لا يعتد به، ولا يجوز للإنسان أن يقدم عليه، وهو لغو يمين لا يترتب عليه شيء.

القول الثاني: أن فيه كفارة الظهار، وهذا من أقوى الأقوال.

القول الثالث: أن فيه كفارة يمين؛ لأن الله قال بعده: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم]، وعلى هذا القول فمن حلف بالحرام على شيء فإنه يلزمه كفارة اليمين، ويشكل على هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في بعض الروايات حلف عند تحريمه للجارية ألا يطأها، لكن هذا محمول كما ذكر أهل العلم على كون الكفارة باعتبار حلفه لا باعتبار لفظ التحريم المذكور بمجرده، والله أعلم.

وهناك أشياء أجراها طائفة من أهل العلم مجرى اليمين، وإن لم تكن بصيغة الحلف كأدوات القسم وهي: الواو، التاء، الباء، وأشهرها الواو، أو فعل القسم، وأكمل صيغ القسم ما اجتمعت فيه حروف القسم والمقسم به والمقسم عليه، وقد لا تكون الصيغة من صيغ القسم لا مختصرة ولا تامة، مثل، مسألة التحريم أو الطلاق، ومع هذا يجريها بعض أهل العلم مجرى اليمين بحسب نية المتكلم.

ولهذا قال تعالى: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] الآية، وفي الآية الأخرى {بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [(٨٩) سورة المائدة].

قال أبو داود: باب لغو اليمين، ثم روى عن عطاء في اللغو في اليمين قال: قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته، كلا والله، وبلى والله))[7]**.**

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان.

وروى أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لغو اليمين أن تحرّم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة.

المسألة فيها خلاف كثير، إلا أن تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للغو اليمين بما ورد في حديث عائشة هو المعنى المتبادر المشهور، لكن هل يقتضي هذا الحصر؟ أو يدخل فيه الصور الأخرى مما لم يرد فيها النص، فتكون لا كفارة فيها ولا إثم ولا تبعة؟ المسألة تحتمل، والله أعلم بالصواب.

---

[7] رواه أبو داود برقم (٣٢٥٤) (٢/٢٤٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٢٥٤).

وكذا روي عن سعيد بن جبير، وقال أبو داود: باب اليمين في الغضب، ثم روى عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسم فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر -رضي الله تعالى عنه-: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب -عز وجل-، وفي قطيعة الرحم، وفيما لا تملك))[8].

بهذا الاعتبار يدخل قول من قال: إن المراد من قوله سبحانه: {لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ} أنها اليمين في معصية الله -عز وجل-، والمقصود أنه لا يجوز للإنسان أن يمضي في يمين المعصية، ومثلها ما لا يملكه ابن آدم، ولذلك تلك المرأة من المسلمين التي أسرها العدو، وقد كانوا أصابوا قبل ذلك ناقة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما رأت من القوم غفلة ركبت ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم جعلت عليها أن تنحرها، فلما قدمت المدينة وأرادت أن تنحر الناقة مُنعت من ذلك، فذُكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: بئسما جزيتيها، ثم قال: ((لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا في معصية الله -تبارك وتعالى-)) فبين النبي -صلى الله عليه وسلم- تشريعاً عاماً وهو أنه لا نذر للعبد فيما لا يملكه.

وقوله: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب.

قال مجاهد وغيره: وهي كقوله تعالى: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [(٨٩) سورة المائدة] الآية.

هذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهذا يجري على قول الجمهور بأن المراد من الآية اليمين المقصودة، وأما تفسير ابن عباس فمحمول على اليمين التي لا كفارة فيها ولكن يلحق صاحبها الإثم، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يحمل الآية على المعنيين، والله أعلم بالصواب.

{وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} أي: غفور لعباده حليم عليهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[8] رواه أبو داود برقم (٣٢٧٢) (٢/٢٤٧)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود: ضعيف الإسناد برقم (٣٢٧٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (٩٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٢٦-٢٢٧) سورة البقرة].

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلوا إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ} الإيلاء: الحلف، وذلك أنه مأخوذ من الأيلة، تقول: آلى يؤلي إيلاء يعني حلف حلفاً، وبعضهم يقول: أصل الإيلاء الامتناع باليمين، ويقال له: الحلف على وجه التوسع.

الإيلاء شرعاً: الامتناع باليمين من وطء الزوجة.

مدة الإيلاء: اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كان مولياً، واختلفوا فيمن حلف ألا يمسها أربعة أشهر: فقال أبو حنيفة وأصحابه: يثبت له حكم الإيلاء.

وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة: إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء؛ لأن الله -عز وجل- جعل له مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها فهو بالخيار بين الفيء، أو الطلاق.

وبعض أهل العلم يرى جواز اعتبار الإيلاء فيما دون أربعة أشهر، وكذا لو حلف ألا يطأ امرأته مطلقاً وهذا ليس محل اتفاق.

وليس للزوجة أن تطالبه في هذه المدة أربعة أشهر بالوطء، وإنما تتربص به وتنتظر، فإذا مضى عليها أربعة أشهر فمن حقها المطالبة، فإما أن يرجع ويكفر عن يمينه، وإما أن يفارقها ويطلقها، والراجح أن الإيلاء ليس بطلاق إذا تمت المدة ولم تحصل المراجعة فيها، ويلزمه القاضي بالطلاق إذا أبى المراجعة، والله أعلم.

وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: ((الشهر تسع وعشرون))[1]. ولهما عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- نحوه.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا)) برقم (١٨١١) (٢/٦٧٥)، ومسلم في كتاب الصيام -باب الشهر يكون تسعاً وعشرين برقم (١٠٨٣) (٢/٧٦٣).

فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء -أي: يجامع -وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها. ولهذا قال تعالى: {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ من نسائهم} أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، وفيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور، {تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ} أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق.

ولهذا قال: {فَإِنْ فَآؤُوا} أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-، ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

العلماء مختلفون في الفيئة بناءً على اختلافهم في معنى الإيلاء، فمن قال: بأن الإيلاء: هو أن يحلف ألا يجامعها، فعندئذ تكون الفيئة بالجماع، ومن وسع المعنى فقال الإيلاء: هو أن يحلف ألا يكلمها أو يهجرها، وكل ما فيه أذية الزوجة والتضييق عليها فالفيئة تكون بأن يرجع إليها ويكلمها، وهذا قال به بعض السلف لكنه قول شاذ.

والصواب أن المراد بالفيئة في الآية الجماع، وأما من لم يتيسر له ذلك فبعض أهل العلم يرى إنها ترجع له بالنية والقصد، ويمكن أن يشهد على الإرجاع ويتكلم به، وهذه الصورة تتحقق في حق الرجل المسافر أو المريض.

والبعض الآخر يرى أنه لا يكفي القصد والنية، فهو إما أن يجامع وإما أن يطلق.

والإيلاء له ثلاث حالات:

- صريح: كأن يحلف ألا يجامعها أو يطأها.
- شبيه بالصريح: كأن يحلف ألا يغتسل لها من جنابة.
- كناية: كأن يحلف ألا يجمعه بها فراش واحد، أو نحو ذلك مما ليس بصريح في الجماع.

فالصريح يؤخذ به، وغير الصريح ينظر إلى قصده، بحسب نيته كما يقال في الأيمان.

{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أن الكفارة تسقط عنهم ولا يؤاخذوا بهذا الرجوع ولو حلفوا، وهذا يجري على قول من قال: إن الأيمان المحرمة لا كفارة فيها، وأدخلها في جملة لغو اليمين المنصوص عليها في قوله سبحانه: {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} [(٨٩) سورة المائدة].

وقيل: بل المراد أن الله غفور رحيم فيما حنثوا فيه بما شرعه لهم من الكفارة للخروج من الحرج، فكان ذلك توسعة على المكلفين للخروج من أيمانهم إلى ما هو الأصلح والأرفق والأفضل، فهذا من سعة رحمة الله -عز وجل- على عباده؛ لأن الناس كانوا في الجاهلية يؤلي الرجل من امرأته السنة والسنتين والعشر، أو قد يولي منها إلى الأبد، فيتركها لا هي زوجة ولا هي مطلقة ولا يطالبه أحد بشيء، لتأتي الشريعة بما تحمله من يسر في تشريعاتها فتنقض حكم الجاهلية، وتحد الإيلاء بفترة محددة إما أن يطلق بعدها أو يفيء وعفا الله عما سلف.

وقوله: {وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ} [(٢٢٧) سورة البقرة] فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر.

كما روى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق وإما أن يفيء. وأخرجه البخاري.

هذا الأثر جرى على العمل به جماهير أهل العلم سلفاً وخلفاً، خالف في ذلك أبو حنيفة كما مضى فإنه يقول: إذا مضى على إيلائه أربعة أشهر ولم يراجع امرأته فإنها تبين منه بطلقة بائنة ليس فيها عدة يراجع فيها، وإنما تبين منه بمجرد انتهاء هذه المدة، ويحتجون بهذه الآية على أنه طلاق من أربعة أوجه، ليس هذا موضع سردها، وإنما المقصود الوقوف على الحكم بصورة مختصرة، وأما التوسع في المسألة فمحله كتب الفقه.

قوله سبحانه: {سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي: سميع لأقوالهم إذا تكلموا بالطلاق، عليم بأحوالهم إذا أصروا وبقوا على إيلاءهم، أو رجعوا إلى زوجاتهم.

وروى ابن جرير عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق.

ورواه الدارقطني من طريق سهيل، قلت: وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاووس ومحمد بن كعب والقاسم.

التحديد بالأربعة أشهر بناءً على حق الزوجة، وما يلحق بها من ضرر، وهذا التحديد بالمدة المذكورة من لطف الشارع الحكيم، ولهذا بعض أهل العلم قال: إنما جعلت هذه المدة؛ لأنها هي الحد الذي تستطيع أن تصبر المرأة معه، ولذا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لما سمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليـل واسـود جانبـه	وأرقنـــي ألا حليــــل ألاعبــــه
فو الله لــولا الله لا شـــيء غيـره	لحرك من هــذا الـسرير جوانبــه
مخافـــة ربـــي والحيـــاء يعفنـــي	وإكـــرام بعلـــي أن تنـــال مراكبــه

سأل عنها، فأخبر أن زوجها في الغزو، فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: أربعة أشهر، وجاء في بعض الآثار أنه سأل نسوة، فأخبرنه أن المرأة تصبر شهراً، وتتصبر شهرين، ولا تطيق الصبر أكثر من أربعة أشهر، وهذا يقال في المرأة المتزوجة التي اعتادت على الوطء، كما هو مشاهد حتى في الرجال، ولهذا قالوا: في حكمة الرجم للمحصن والمحصنة بالضرب بالحجارة حتى الموت كما نص عليها العلامة/ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وغيره: إن من اعتاد الوطء من الرجال والنساء فإنه لا يصبر عنها إلا بعقوبة رادعة كهذه، وهذا بخلاف من لم يتزوج فإنه يصبر السنين الطويلة.

والعلماء -رحمهم الله- في مسائل الكفارات لا يذكرون شيئاً يتصل بالإلزام إلا فيما يتصل بحق الغير، فمثلاً رجل ظاهر من امرأته، قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي فيه الكفارة وهي: عتق رقبة، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، وعلى الراجح من أقوال أهل العلم أنه لا يقربها ليلاً ولا نهاراً، وإن كان النهار بالاتفاق، بل ومنهم من يقول: لا يستمتع بها بأي لون من ألوان

الاستمتاع لقوله سبحانه: {مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} [(٣) سورة المجادلة]، فتجلس هذه المدة، فمن أهل العلم من يرى أنه يحبس حتى يكفر؛ لأنه حق يتعلق به الغير، وأما في مسألة الإيلاء فإنه لا يحبس لكن يلزمه القاضي بأمرين:

إما الإطلاق وإما الإيفاء، وينبغي عدم التساهل في هذه الأمور وأخذها بالاعتبار وحكم الشرع.

{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ} [(٢٢٨) سورة البقرة]، **هذا أمر من الله -سبحانه وتعالى- للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت.**

المطلقة لا تخلو حكمها من إحدى ثلاث:

- إما أن تكون غير حامل فهذه عدتها بنص الآية ثلاثة قروء، والقرء على الراجح من كلام أهل العلم أنه الطهر بين الحيضتين.
- وإما أن تكون حاملاً، والحامل لا تحيض بإطلاق عند كثير من أهل العلم، وعند بعضهم أنها تحيض وهذا نادر، فعدتها كما قال الله -عز وجل-: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق] فهي مخصصة لهذا الآية.
- وأما أن تكون كبيرة وهي التي وصلت إلى سن اليأس فلا تحيض، فهذه عدتها ثلاثة أشهر، ومثلها الصغيرة التي لم تحض بعد كما قال الله -عز وجل-: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} [(٤) سورة الطلاق].

وقوله: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} جملة اعتراضية، سيقت من أجل رفع اللبس في التي لا تحيض لكبر سنها أو لصغره.

روى الثوري عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد وضعت مائي، ونزعت ثيابي، وأغلقت بابي.

تقصد أن مدة عدتها بالإقراء انتهت فوضعت الماء ونزعت الثياب؛ لأجل أن تغتسل حين انقطع عنها الدم.

فقال عمر لعبد الله بن مسعود: ما ترى؟، قال: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة.

لأن الصلاة لا تحل لها إلا إذا اغتسلت بعد ما تنتهي من حيضها، هذا تفسير الرواية.

قال عمر: وأنا أرى ذلك.

وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخرساني أنهم قالوا: الأقراء: الحيض.

وهذا هو مذهب الإمام أحمد -رحمه الله-، وعليه كثير من أهل العلم، ويؤيد تفسيرهم للقرء بالحيض الرواية السابقة للمرأة التي وضعت ماء الاغتسال لتغتسل، فهي تدل أن القرء يفسر بالحيض لا بالطهر.

والطلاق على أربعة أوجه:

الأول: طلاق سنة ويقع في صورتين.

الثاني: طلاق بدعة ويقع في صورتين كذلك.

فطلاق السنة إما أن يطلق في طهر لم يجامعها فيه، أو يطلق وهي حامل.

وطلاق البدعة إما أن يطلق في طهر قد جامعها فيه، أو يطلق وهي حائض أو نفساء، وبعض أهل العلم يرى أن الطلاق البدعي لا يقع لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[2].

وحديث ابن عمر: ((مره فليراجعها))[3]، والخلاف في تفسير الحديث معروف.

لكن المقصود أننا إذا فسرنا الأقراء بالحيض فمعنى ذلك أنها تنتظر حتى تحيض ثم تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم تحيض، فإذا حاضت الثالثة وانقطع دمها فإن ذلك يعني انقضاء العدة، وهذا مما يبعد الاحتمال به؛ لأنه لم يتأت على مقاصد الشرع من احتساب المدة.

وعلى القول بأن المراد من القرء الطهر فتحسب العدة بزمن الأطهار -من أول طهر لم يجامع فيه-، وتنتهي العدة بانتهاء الحيضة الثالثة، فإذا رأت الطهر بعد الحيضة اغتسلت وانتهت عدتها بهذا الاعتبار، وتفسير القرء بالطهر هو الذي دل عليه الأثر، وأختاره كثير من أهل العلم.

وأصل القرء: الوقت، ويطلق على الشيء المؤقت مجيئه وإدباره، فهذا يقال له: قرء في أصل كلام العرب، ولفظ القرء من قبيل المشترك اللفظي: وهو اللفظ الواحد الذي يدل على أكثر من معنى، فالقرء بهذا الاعتبار صار يدل على معنيين متناقضين الطهر وغير الطهر، ولا يمكن أن يرتفع عنها الطهر والحيض وما في معناه مثل النفاس، فيقال: لا حائض ولا طاهر، فإذا كان لا يمكن أن يرتفع الوصفان، ولا يمكن أن يجتمع فمعنى ذلك التناقض، فهذا نوع من المشترك، وبالتالي فلا يمكن حمل المراد إلا على أحد المعنيين وهو المعنى الذي رجحه كثير من أهل العلم والمفسرين.

ومن أمثلة المشترك اللفظي قوله سبحانه: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [(١٧) سورة التكوير]، فعسس كما يقول المفسرون مترددة بين إقبال الليل وإدباره، ولا يمكن إن يجتمعان في وقت واحد، لكن يجوز حمله على المعنيين إذا كان يتأتي في تفسير الآية وهو الراجح، فالمراد بعسعس: أن الله أقسم بالليل في حال إقباله، وفي حال إدباره، وهذا مظهر تتجلى فيه العظمة، وما يدعم هذا أن الله أقسم به في الحالتين في مواضع أخرى كما قال سبحانه: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [(٢) سورة الضحى] أي: سكن وأظلم وأدلهم، وقال: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [(٣٣) سورة المدثر]، أقسم به في هذا وفي هذا، فنحمل الآية على المعنيين.

---

[2] رواه البخاري في كتاب الصلح –باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٥٥٠) (٩٥٩/٢)، ومسلم في كتاب الأقضية –باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨) (١٣٤٣/٣).

[3] رواه مسلم في كتاب الطلاق –باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها برقم (١٤٧١) (١٠٩٣/٢).

وأما في لفظ القرء فلا يمكن حملها على المعنيين فنقول: يعني الحيض والطهر في وقت واحد؛ لان التناقض كبير وواضح، ويصعب معه الجمع أو التوافق، والعجيب أن يوجد بعض المتأخرين من المفسرين من يقول: لا مانع من حمل الآية على المعنيين، باعتبار أن المشترك يمكن أن يحمل على معنييه. والله أعلم.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لها: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))[4]، فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر أحد رواته، قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور، وذكره ابن حبان في الثقات.

المنذر بن المغيرة المدني قال عنه الحافظ بن حجر -رحمه الله- في "التقريب": مقبول، وهذا المصطلح يعني به كما هو معروف من طريقته -رحمه الله- أنه من لم يرو عنه إلا القليل، لكنه لم ينقل عنه ما يوجب رد روايته أو القدح فيه فإن توبع وإلا فهو لين الحديث، لكن عند التأمل يتضح لنا أن الحديث الذي كان أحد رواته المنذر هو غير الذي أورده ابن كثير –رحمه الله- ولفظه: ((إذا أتى قرؤك فلا تصلي فإذا مر قرؤك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء))[5] فهو لفظ آخر رواه أبو داود والنسائي، والعلامة/ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- يصححه، ويصحح الحديث الآخر الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو من حديث عائشة -رضي الله عنها- من رواية الزهري، وسهيل بن أبي صالح الذي رواه عن الزهري لم يرو هذه اللفظة: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))، وهكذا رواه عامة من رووه من الثقات عن الزهري خالفهم أحد الرواة وهو إمام معروف كبير سفيان بن عيينة، فرواه بهذه اللفظة فقالوا: هذه اللفظة غير محفوظة بل هي شاذة، وجاء من غير حديث عائشة -رضي الله عنها- مرسلاً: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))، إلا أن هذا المرسل يعتضد بمثل هذه الرواية عن سفيان بن عيينة وقد يتقوى، ولهذا العلامة الألباني -رحمه الله- يصحح رواية ابن عيينة عن الزهري عن عمرة عن عائشة قالت: "إن أم حبيبة كانت تستحاض، فسألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فأمرها أن تدع الصلاة أيام أقرائها". وأما أبو داود بعد ما ذكره قال: هذا وهم من ابن عيينة ليس هذا في حديث الحفاظ عن الزهري إلا ذكر سهيل بن صالح، فالمنذر إنما جاء ذكره في الرواية الأخرى، وإذا صححت هذه الرواية فمعنى ذلك صحة احتجاج من يقول: بأن القرء هو الحيض، والمعنى من الحديث أمرها أن تصلي من القرء إلى القرء، أي: من الحيضة إلى الحيضة، وجعلوا المراد من قوله سبحانه: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ} أي ثلاثة حيضات.

وكذا احتجوا القائلون بأن القرء هو الحيض من نفس الآية، ووجه احتجاجهم أن المفسرين ذكروا أن الآية قد تحتمل معنيين، فما يمنع حملها على معنى الحيض؟ وقرينة ترجيحه أن العدد في الآية مؤنث {ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ}، والقرء إذا فسر بالحيضة فهو مؤنث، والصواب في هذه جريها على القاعدة النحوية: أن العدد يخالف المعدود، تقول: ثلاث نسوة، وتقول: ثلاثة رجال، فهنا قال: ثلاثة قروء، ففسروه بالطهر، لأن الطهر مذكر فيحسن تنزيل القاعدة عليه، وبالتالي لا ممسك لهم من الآية.

---

[4] رواه الدارقطني برقم (٣٦) (٢١٢/١).

[5] رواه أبو داود برقم (٦٢٠) (٢٠٣/١)، والنسائي برقم (٢١١) (١٢١/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٤١٢٨).

وكذا احتج القائلون بأن معنى القرء الحيض بحديث عائشة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان))[٦]، فلو صح هذا الحديث لكان نصاً في الموضوع لكنه ضعيف، بغض النظر عن المدة وكونها للأمة.

ويحتجون بدليل من النظر يقولون: بأن المقصود من العدة استبراء الرحم، ولا يعلم استبراءه إلا إذا خرج الدم وحاضت، حينها يعلم أنه ليس هناك حمل، ويمكن أن يرد قولهم: بأن الحامل قد يحصل منها حيض، فالحاصل أن المسألة فيها كلام لأهل العلم معروف في محله، لكن ما ينبغي التأكيد عليه أن أكثر المفسرين على القول بأن القرء هو الطهر، وهو مذهب عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهري والشافعي، ويحتجون بمثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عمر: ((مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر فتلك العدة))[٧] والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

---

[6] رواه أبو داود برقم (٢١٩١) (٢٢٣/٢)، ورواه الترمذي برقم (١١٨٢) (٤٨٨/٣)، وابن ماجه برقم (٢٠٧٩) (٦٧٢/١)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢١٨٩).

[7] - سبق تخريجه في الحاشية رقم (٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} [(٢٢٨) سورة البقرة] **أي: من حبل أو حيض، قاله ابن عباس وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم-، ومجاهد والشعبي والحكم بن عتيبة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد.**

وقوله: {إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} تهديد لهن على قول خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك فَرُد الأمر إليهن، وتُوُعِّدن فيه؛ لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها؛ لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره ابن كثير –رحمه الله- بأن المراد من قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} أي: من حبل أو حيض، هو المعنى المتبادر من الآية، ولذا اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ولا يمكن اختصاص اللفظة بأحد المعنيين دون الآخر.

ومرجع الأمر إليهن فإذا ادعت المرأة شيئاً مما يتعلق بالحبل أو عدمه، والحيض أو الطهر قُبل قولها، إلا إذا قامت القرائن أو نحو ذلك على خلافه، ولا يجوز لها أن تكتم شيئاً مما خلقه الله -عز وجل- في رحمها، وهن متوعدات إن أخبرن بغير الحق إما استعجالاً منهن لانقضاء العدة، أو رغبة منهن في تطويلها لكونها تريد أن تبقى مع زوجها فتدعي أنها ما رأت الطهر أو ما رأت الحيض بحسب تفسير القرء لتطول المدة، أو تدعي الحمل وليست بحامل فتجلس تسعة أشهر، وقد تدعي أنها رأت الطهر أو الحيض أو أنها حاضت مراراً في شهر واحد، من أجل أن تقطع الطريق علي زوجها؛ لئلا يراجعها.

أو لغرض آخر فتشعر أنها تورطت بهذا الحمل الذي قد يكون مانعاً للزوج من التطليق، أو سبباً للشقاق بين الزوجين، وهي تريد أن تأخذ هذا الولد، أو تخشى أن يتشتت هذا الولد بين الأبوين في حال الفراق، فتسكت ولا تخبر بالحمل وتدعي أنها تحيض وتطهر، ثم بعد ذلك تتزوج وتضيف هذا الولد إلى زوج آخر، وإذا وضعت ادعت على الزوج الآخر أن الحمل لستة أشهر...، فهذه كلها من الحيل الداخلة تحت قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}.

وقوله: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا} [(٢٢٨) سورة البقرة] **أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات.**

فلا يحق للمطلقة طلاقاً رجعياً أن تمتنع، أو لوليها أن يقف دون عودتها أو يرجع إلى رأيها في حال أراد زوجها إرجاعها، والواجب أن تعتد في بيت زوجها ولا غضاضة عليها إذا تزينت وتجملت له فذلك أدعى لمراجعته لها، وأما خروجها فالأصل أن لا تخرج إلا لحاجة لا يقوم غيرها مقامها، أو في حال اقترافها فاحشة مبينة كما نص القرآن على ذلك قال -عز وجل-: {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١) سورة الطلاق]، والفاحشة المبينة قيل: الزنا، وقيل: عقوق الزوج وأحمائه.

فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن.

هذه الآية تقرر أحكام الطلاق وأن للبعل -الزوج- الحق في إرجاع زوجته المطلقة في الطلاق الرجعي ما دامت في العدة كما قال سبحانه: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا}، بخلاف المطلقة البائن كما في الآية التي بعدها: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [(٢٢٩) سورة البقرة] فليس له الحق بعد الطلقات الثلاث أن يراجعها إلا بعد زواجها من رجل آخر، وكذا لو طلقها قبل الدخول بها صارت امرأة أجنبية بمجرد التلفظ بهذه الكلمة ولا يلزمها عدة، وإذا أراد أن يرجعها فبعقد جديد ومهر جديد.

وقوله: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في خطبته في حجة الوداع: ((فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف))[1].

وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: ((أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت))[2].

وقال وكيع: عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

دلت هذه المعاني المذكورة في تفسير الآية على أن للرجل والمرأة حقوقاً حيال بعضهما، وليس الحق متوجهاً إلى أحدهما دون الآخر، فكما أن الرجل مطالب بتقوى الله في زوجته وملزم بأداء حقوقها من نفقة وسكنى ...، فكذا المرأة مطالبة برعاية حقوقه والقيام على مصالحه المنوطة بها التي ذكرت في الحديث.

---

[1] - رواه مسلم في كتاب الحج –باب حجة النبي –صلى الله عليه وسلم- برقم (١٢١٨) (٨٨٦/٢).

[2] - رواه أبو داود برقم (٢١٤٤) (٢١٠/٢)، وأحمد في مسنده برقم (٢٠٠١١) (٢١٣/٣٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢١٤٢).

ويدخل فيه ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وهو حق الجماع لكليهما، وفسر به الآية.
وأيضاً يدخل فيه ما اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- بأن الرجل لا يرجع إلا إذا أراد الإصلاح كما قال سبحانه: {إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا}، فكذلك المرأة لا تكتم ما خلق الله -عز وجل- في رحمها، فابن جرير خص المعروف بأمر يتعلق بالطلاق والرجعة اللذين هما محور خطاب الآية.
وكذلك ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- من أنه يحب أن يتزين لامرأته، كما يحب أن تتزين له، فيضع نفسه مكانها في هذه الأمور، فإنها يعجبها منه ما يعجبه منها وتكره منه ما يكرهه منها، فهذه المعاني جميعها تفسر المراد بقوله: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}.
وقوله: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} أي: في الفضيلة في الخَلق، والخُلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [(٣٤) سورة النساء]**، وقوله: {وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ} أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.**
اختلف أهل التأويل في المراد بهذه الدرجة في الآية {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}؛ لأنها جاءت مبهمة فقيل: هي القوامة، وقيل: ما فضل به الرجل من كمال العقل، وبعد النظر وحسن التدبير وما إلى ذلك.
وبعضهم نظر إلى معنىً آخر يختص بالرجل فقال: إنه يلي الإمارة، والنساء لا ولاية لهن من الولايات العامة وقيل: بل المراد أن الرجل له لحية والمرأة ليس لها لحية، وقيل: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} بما فضل عليها من الميراث، ودية المرأة نصف دية الرجل.
وابن جرير الطبري -رحمه الله- سرد في معنى الدرجة أقوال جمع من المفسرين، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس: "ما أحب أن أستنزف جميع حقي عليها؛ لأن الله -تعالى ذكره- يقول: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}"، والدرجة في هذا الموضع الصفحُ من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وأداء كل الواجب لها عليه.
ولذلك جاءت عَقب قوله سبحانه: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} فكأنه إخبار منه -تعالى ذكره- أن على الرجل مِن ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحُقوقها، مثل الذي له عليها من ترك ضراره في كتمانها إياه ما خلق الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه.
ثم ندب الرجال إلى الأخذ عليهن بالفضل إذا تركن أداءَ بعض ما أوجب الله لهم عليهن، فقال -تعالى ذكره-: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} بتفضّلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس –رضي الله عنه-، وهذا القول وإن كان ظاهرُه الخبر إلا أنه يفهم من معناه ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل؛ ليكون لهم عليهن فضل درَجة، وهذا الوجه في تفسير الآية جيد ومعناه قريب.
ومن أولى ما يدخل في هذه الدرجة المذكورة ما فضل به الرجل على المرأة حساً ومعنى من كمال العقل، وقوة البدن، والأطباء يقولون: إن تلافيف عقل الرجل تختلف عن تلافيف عقل المرأة، فتركيبة المخ مختلفة، ولذا فإن الرجل أكثر وأوفر وأقدر على التفكير الصحيح من المرأة، وكذا ما ينتج ويترتب عليه مما رتبه

الشارع عليه من كونه أهلاً للولاية، ويملك القوامة على المرأة فكل ذلك راجع إلى هذا المعنى، وقد يوجد في النساء من هي بمثابة الرجل في جسارتها لكن العبرة بالغالب، وهذا الأمر مشاهد في أحوال الرجال وأحوال النساء، فالمرأة تبع للرجل فطرةً وشرعاً ولا تستقل بأمرها، بل يرعاها وليها ويتولى شئونها ويحوطها ويحفظها، ولا تسافر إلا مع ذي محرم ولو كان إلى حج بيت الله الحرام، ولا يخلوا بها الرجل الأجنبي، ولا يتركها القائم بأمرها عرضة لكل أسر وكاسر، والحاصل من هذا كله أن المرأة أضعف من الرجال في تفكيرها وعقلها كما أخبر الصادق المصدوق من لا ينطق عن الهوى أنهن ((ناقصات عقل ودين))[1]، ولذلك كانت هذه الرفعة والمنزلة في الدرجة لحكمة وملمح عجيب.

{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٢٣٠) سورة البقرة].

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلية في الثلاثة فقال: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}.

من أهل العلم من استنبط من التعبير بقوله: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ} ملمحاً دقيقاً، وهو أن الطلاق لا يقع حتى يكون مرة بعد مرة، فلا يطلق الإنسان تطليقاً مجتمعاً بلفظ واحد كأن يقول: أنت طالق ثلاثاً، أو يقول لها: أنت طالق، أنت طالق، أو يقول لها: أنت طالق وطالق في مرة واحدة سواء بلفظ واحد أو بالتكرار، ولو كان ذلك متفرقاً في العدة الواحدة، والله أعلم.

قال أبو داود -رحمه الله- في سننه: باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث، ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ} الآية، ورواه النسائي.

إذا اعتبرنا هذا الأمر مما كان عليه الناس في الجاهلية ولم ينزل حكم يتعلق به، فهذا يعتبر ابتداء حكم جديد وهو ما يعرف عند الأصوليين بمسألة البراءة الأصلية فلا يعتبر نسخاً.

وأما إذا أقرهم الشارع على هذا الأمر حتى صار الناس يطلقون بعدد لا حصر له، ثم بعد ذلك حُد بالثلاث فيكون ذلك من قبيل النسخ، والله أعلم.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الحيض – باب ترك الحيض الصوم برقم (٢٩٨) (١١٦/١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق برقم (٧٩) (٨٦/١).

وروى ابن أبي حاتم عن عروة أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك، قال: أطلقك حتى إذا دنى أجلك راجعتك، فأتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكرت ذلك له، فأنزل الله -عز وجل-: {الطلاق مرتان ...}. وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره.

وقوله: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [(٢٢٩) سورة البقرة] **أي: إذا طلقتها واحدة أو اثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها.**

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك -أي في الثلاثة-، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

ما ذكره ابن كثير في تفسير الجملة من الآية هو المعنى القريب والمتبادر، وبعض أهل العلم يقول: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} بأن يطلقها الثالثة قاله جماعة من السلف، وابن جرير -رحمه الله- ساق في تفسيره معنى للآية لكن فيه غرابة وبعد.

فقوله: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} [(٢٢٩) سورة البقرة] **أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن؛ ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى: {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** [(١٩) سورة النساء]**، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها فقد قال تعالى: {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا}** [(٤) سورة النساء].

قوله سبحانه: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} أي: لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتم نساءكم من المهور أو غير المهور، مما اعتاد الناس في بعض أحوالهم على إعطائه للنساء وإن لم يعد ذلك من قبيل المهر، إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله.

يقول: {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} يعني لا يضايقها ويضارها حتى يرغمها على طلب الطلاق فتفتدي نفسها فترجع إليه المهر أو بعض المهر فهذا لا يحل، لكن إن تعذرت المعاشرة بين الزوجين، وكانت المرأة غير مطيقة للرجل فعندئذ لا جناح عليها أن تفتدي منه.

وأما تحديد الصداق المرجوع فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك يكون بأقل من الصداق الذي أعطاه وبما لا يزيد عليه، ومنهم من يقول: إن ذلك لم يحد بحد كما قال الله -عز وجل-: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا} فيجوز لها أن تفتدي بأقل أو بأكثر أو بالمهر الذي دفعه لها، ولا يعلم دليل على تحديد شيء من ذلك، واستدل القائلون بالتحديد بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لامرأة ثابت بن قيس: ((أتردين عليه حديقته))[1]، والصواب أن دلالة الحديث ليس فيها ما يدل على عدم مشروعية أخذ أكثر من المهر المسمى بينهما، لكنه دليل على جواز الافتداء بالمهر وما دونه من باب أولى، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الخلع وكيفية الطلاق فيه برقم (٤٩٧١) (٥/٢٠٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} [(٢٢٩) سورة البقرة] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

المراد بحدود الله هو: ما أوجبه الله -عز وجل- من الحقوق بين الزوجين، فإذا كانت المرأة كارهة للرجل نافرة منه مبغضة له تخشى أن تضيع حقوقه أو يصدر منها عقوق تجاهه، مما مؤداه أن يعاملها بنفس المعاملة فيقع التقصير والتضييع من كل واحد من الطرفين فحينئذ لها أن تفتدي منه بما أعطاها، وهذا ما يسمى بالخلع وهو: ما كان بعوض عند عامة أهل العلم.

وأما إذا كان الرجل هو الذي لم يعد له رغبة في المرأة وأبغض عشرتها، فينبغي عليه أن يطلق إذا ترجحت المصلحة في ذلك، ولا يجوز له أن يطالبها بأن تفتدي منه، أو أن يضيق عليها من أجل أن تطلب الطلاق وتفتدي نفسها.

قوله سبحانه: {إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} في بعض القراءات: بني الفعل خاف على المجهول {يُخافا} وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة من السبعة، وعليه فيكون هذا الخوف مبهم الجهة إما صادراً من الزوجين، أو صادراً من أهل الإيمان المحتفين بهم والمطلعين على أمرهم من أهل وقرابة، أو عقلاء الناس، أو يكون ذلك التخوف من قبل الولاة كالقاضي إذا عرض عليه ذلك، ورأى أن الحياة بهذه الطريقة قد تتعذر، فعند ذلك يحصل الخلع، ولأهل العلم كلام في إيقاع الخلع هل يكون عن طريق القاضي أو الحاكم، أو أنه يقع بين الزوجين ولو لم يوقعه حاكم؟ فمن ذهب إلى أن الخلع ليس بيد الزوجين قالوا: لأن الله –عز وجل- قال: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} ولم يقل: فإن خافا، كما في جاء في الجملة قبلها للدلالة على أن المراد الحاكم أو العصبة المؤمنة، والمعنى فإن خفتم أيها الحكام، أو أيها المؤمنون...، وابن جرير -رحمه الله- يجعل الخطاب في الآية متوجهاً لأهل الإيمان، ويدخل فيهم القاضي ومن في معناه، والله أعلم.

ومن أهل العلم من يرى أنها منسوخة بالآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} [(٢٠) سورة النساء]، إلا أن النسخ لا يثبت بالاحتمال كما هي القاعدة المعروفة، ويمكن الجمع بين الآيتين بالقول بأنه لا يجوز للرجل أن يأخذ مما أعطاها ونحلها من المهر مقابل ما استحل من بضعها شيئاً، إلا أنه يستثنى من ذلك إذا هي فرطت في حقوقه وكرهت مقامها

عنده أو طلبت الطلاق ابتداء فعندئذ له أن يأخذ منها ما تفتدي منه نفسها، وكذا إذا أعطته بمحض إرادتها وطيب نفسها دون إكراه وتخوف، والله أعلم.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد روى ابن جرير عن ثوبان -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة))[1].

وهكذا رواه الترمذي وقال حسن.

وقد جاء عند الترمذي من حديث ثوبان -رضي الله عنه- مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((المختلعات هن المنافقات))[2]، وفي بعض الروايات: ((المختلعات والمنتزعات))[3]، فالمختلعات: يعني التي تطلب الخلع، وفسرت المنافقات بأنها المطيعة ظاهراً لا باطناً، ويحمل الحديث على المرأة التي تطلب الطلاق من غير مبرر معتبر، أما إذا لم توافقه ولم يحصل بينهما ملائمة، أو إذا رأته أصابها جذام القلب والقذى في عينها كما يقال فهذه أعذار تجعل للمرأة الحق في أن تطالب بالطلاق؛ لأنها ليست مكلفة ولا مطالبة بأن تمتحن وتعذب مع إنسان تبغضه، والإسلام ما جاء بالحرج على الناس والتضييق عليهم، فمثل هذه لا يلحقها الوعيد إذا طلبت الطلاق، لكن إذا كان له رغبة فيها فإنها تفتدي نفسها منه بالخلع كما أسلفنا.

وقد ذكر ابن جرير -رحمه الله تعالى- أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس -رضي الله تعالى عنه- وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول -رضي الله تعالى عنها-.

وروى الإمام مالك في موطئه عن حبيبة بنت سهل الأنصارية -رضي الله تعالى عنها-: أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس.

اختلف في اسم امرأة ثابت بن قيس هل هي حبيبة بنت عبد الله، أو حبيبة بنت سهل الأنصارية؟ والله أعلم بالصواب.

وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من هذه)) قالت: أنا حبيبة بنت سهل يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، قال: ((ما شأنك؟)) فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس –لزوجها-....

يعني لا نجتمع بحال من الأحوال.

فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر)). فقالت حبيبة: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كل ما أعطاني عندي،

---

[1] رواه الترمذي بدون قوله: ((زوجها)) برقم (١١٨٧) (٤٩٣/٣)، وأبو داود برقم (٢٢٢٨) (٢٣٥/٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١١٨٧).

[2] رواه الترمذي برقم (١١٨٦) (٤٩٢/٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١١٦٢٧).

[3] رواه أحمد في مسنده برقم (٩٣٤٧) (٤١٤/٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خذ منها))، فأخذ منها وجلست في بيت أهلها"[4]، وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي.

هذه الرواية دليل لمن رأى جواز أن تفتدي المرأة بالمهر كاملاً؛ لأنها قالت: كل ما أعطاني عندي، ويدعم هذا القول ما جاء في الرواية الأخرى عند البخاري ونصها:

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتردين عليه حديقته؟))، قالت: نعم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقبل الحديقة وطلقها تطليقة))[5]، وكذا رواه النسائي.

فالمرأة لم تذكر مبرراً لطلبها الطلاق إلا أمراً يتصل بمشاعرها، ومعنى قولها: إنها تكره الكفر في الإسلام محمول على كفران العشير كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن النساء: ((وتكفرن العشير))، والمعنى أنها تبغضه، وتخشى أن يؤدي بغضها له إلى ضياع حقوقه، وهذا مبرر لقبول عذرها، والحديث حجة لمن قال بأن الخلع طلاق، وأن المختلعة تعتد عدة المطلقة.

روى الترمذي عن الرُبّيع بنت معوذ بن عفراء -رضي الله تعالى عنها-: أنها اختلعت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأمرها أو أمرت أن تعتد بحيضة[6].

حديث الربيع ثابت صحيح وهو صريح في دلالته على أن المختلعة تعتد بحيضة، وجاء عند الترمذي وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتد بحيضة، فهذان دليلان صحيحان مرفوعان على أن من خالعت زوجها تعتد بحيضة، والمسألة فيها خلاف معروف، والله أعلم بالصواب.

وقوله: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٢٩) سورة البقرة]، أي: **هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: ((إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها))[7].**

فلا يجوز للرجل أن يأخذ مما أعطاها شيئاً إلا بهذا القيد {أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} وإلا صار معتدياً ومتجاوزاً، وهذه حدوده قد بينها فيما يتعلق بالعشرة بين الزوجين، وما يحل له أخذه وما لا يحل، وكيف يتم الخلاص من هذا النكاح الذي لم يتلاءم فيه الطرفان.

وقد استدل بهذه الآية على أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، ويدل له حديث محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه- الذي رواه النسائي في سننه أنه قال: أخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

[4] رواه أبو داود برقم (٢٢٢٩) (٢/٢٣٦)، والنسائي برقم (٣٤٦٢) (٦/١٦٩)، وأحمد برقم (٢٧٤٨٤) (٦/٤٣٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٦٢)، وسنن أبي داود برقم (٢٢٢٧).

[5] رواه البخاري في كتاب الطلاق –باب الخلع وكيفية الطلاق فيه برقم (٤٩٧١) (٥/٢٠٢١)، والنسائي برقم (٣٤٦٣) (٦/١٦٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٣٦).

[6] رواه الترمذي برقم (١١٨٥) (٣/٤٩١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١١٨٥).

[7] - رواه الحاكم في المستدرك برقم (٧١١٤) (٤/١٢٩)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٥٢٠).

عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: ((أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!))، حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله"[8].

وموضع الدلالة في تحريم جمع الطلقات الثلاث بلفظ واحد في الآية هو قوله سبحانه: **{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ}** [(٢٢٩) سورة البقرة]، وذلك لأن التعبير جاء بلفظ مرتان ولم يقل: طلقتان، كأنه يعني أن الطلاق يكون مرة بعد مرة، ثم بعدها إما **{إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}**؛ لأن المقصود إما أن يراجع في العدة أو تنقضي العدة، فإذا انقضت العدة حصل الافتراق عندها **{لاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}** [(٢٣٠) سورة البقرة].

وقوله تعالى: {فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [(٢٣٠) سورة البقرة] **أي: إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزوج.**

كأن تكون هذه المرأة مملوكة فتزوجها إنسان ثم طلقها طلاقاً بائناً، فلما بانت منه حل لسيدها وطؤها، فإن هذا الوطء لا يحلها لزوجها إذا أراد أن يراجعها، بل لا بد من اعتبار نكاح صحيح حتى يحل له نكاحها.

والنكاح في كتاب الله -عز وجل- يأتي لثلاثة معانٍ:

الأول: الوطء وهو أحد التفسيرات المشهورة لآية النور: **{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً}** [(٣) سورة النـــور]، ومال إليه جمع من أهل العلم سلفاً وخلفاً، وأما إذا فسرنا النكاح في آية النور بمعنى العقد فسيستشكل علينا كيف يجوز للزاني المسلم أن يتزوج مشركة، وكيف يجوز للمسلمة الزانية أن تتزوج مشركاً؟ ولذا بعض المفسرين جعل لفظ الشرك في الآية محمول على النكران لهذا الحكم، وهذا القول اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، ولكن إذا كان مقراً به معترفاً له إنما خالفه من الناحية العملية فتزوج زانية، فإن هذا العقد يكون محرماً ولا يصح زواجه؛ لأنه خالف شرط الكفاءة في العفاف، وهذا عليه جمع من أهل العلم، وهو مذهب الإمام أحمد وغيره.

وبعض أهل العلم يوجه الآية بتوجيه أبلغ منه، فيقول: إن الزواج أعظم المعاشرة، ولذلك يقال للزوج عشير، وإذا كانت المرأة تعلم أن زوجها يزني أو العكس، ثم بقيا على هذه العشرة دون انفصال التصق بأحدهما ما عرف به الآخر؛ لأن الله –عز وجل- يقول: **{إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}** [(١٤٠) سورة النساء]، مع كونه لا يؤمن عليه أو عليها أن تقع في الزنا نكاية به، أو لفرط دياثته؛ لأن الزاني في الغالب تموت عنده الغيرة، وإذا وقعت امرأته في شيء من ذلك فتجده قد لا يحرك ساكناً.

الثاني: يطلق على مجرد العقد، وأوضح دليل على هذا قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}** [(٤٩) سورة الأحزاب] فسمى العقد نكاحاً مع أنه لم يدخل بها، وهذا لا إشكال فيه.

---

[8] رواه النسائي برقم (٣٤٠١) (١٢٤/٦)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٠١).

الثالث: يطلق على مجموع الأمرين العقد والوطء؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: ((حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك))[9] والمقصود بالعسيلة لذة الجماع وهو أكمل إطلاقات النكاح.

وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول.

فلا بد من شرطين لزواج الرجل من مطلقته بعد الثالثة:

أولاً: أن يكون العقد صحيحاً، في وطء صحيح لا تشوبه أدنى شبهة زنا أو شبهه.

ثانياً: أن يكون نكاح رغبة لا تحليل، فقد لعن الله المحلِّل وهو من يسميه الفقهاء: "التيس المستعار"، والمحتال كما هي القاعدة يعامل بخلاف قصده، ولعل حكمة الشارع في بينونته منها بعد الثلاث ليحصل له شيئ من التوبيخ والتقريع جراء تهاونه وتساهله في أمر الطلاق، ذلك أن الذين اعتادت ألسنتهم الطلاق يكثرون من إيقاعه ولا يقفون عند حد.

روى مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ قال: ((لا، حتى يذوق عسيلتها))[10]، ورواه البخاري أيضاً[11].

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإن ما عنده مثل الهدبة وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فما زاد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على التبسم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك))[12]، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي، وعند مسلم أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات.

والمراد بالعسيلة: الجماع لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا إن العسيلة: الجماع))[13].

فصل: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول فهذا هو المُحلِّل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

---

٩ رواه البخاري في كتاب الأدب –باب التبسم والضحك برقم (٥٧٣٤) (٢٢٥٨/٥)، ومسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (١٠٥٥/٢).

10 رواه مسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (١٠٥٥/٢).

11 رواه البخاري في كتاب الطلاق –باب من أجاز طلاق الثلاث برقم (٤٩٦١) (٢٠١٤/٥).

12 رواه البخاري في كتاب الأدب –باب التبسم والضحك برقم (٥٧٣٤) (٢٢٥٨/٥)، ومسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (١٠٥٥/٢)، والترمذي برقم (١١١٨) (٤٢٦/٣)، والنسائي برقم (٣٤٠٩) (١٤٦/٦)، وأحمد برقم (٢٤١٠٤) (٣٤/٦).

13 رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤٣٧٦) (٦٢/٦)، قال شعيب الأرنؤوط معلقاً على هذا الحديث: إسناده ضعيف.

روى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلِّل والمحلَّل له، وآكل الربا وموكله[14].

ورواه الترمذي والنسائي، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم عمر وعثمان وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين.

وروى الحاكم في مستدركه عن نافع أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع.

لأنه قال: كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأضاف ذلك إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذه قرينة على الرفع، وهناك صورة أخرى يفعلها بعض الناس لتحليها للزوج الأول، وذلك أن تعمد المرأة إلى رجل فتعرض عليه نفسها بمهر ضئيل، ثم بعد البناء بها والدخول عليها والوطء يأتي أحد أقاربها ويعرض على الرجل عرضاً مغرياً مقابل أن يطلق، وهذه صورة من صور التحليل المبطنة لا تجوز في الشرع.

وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرماني وأبو بكر الأثرم عن قبيصة بن جابر عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا أُوتى بِمُحلِّل ولا مُحَلَّل له إلا رجمتهما.

وقوله: {فَإِن طَلَّقَهَا} أي الزوج الثاني بعد الدخول بها، {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا} أي: المرأة والزوج الأول، {إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} أي: يتعاشرا بالمعروف، قال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة، {وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ} أي: شرائعه وأحكامه، {يُبَيِّنُهَا} أي: يوضحها {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

فالمعاشرة بالمعروف قيد مهم عند نية إرجاع الرجل المرأة إلى عصمته بعد طلاقها من الزوج الآخر غير المحلل، وبغير هذا القيد لا يحق له أن يرجع إليها أو يتزوجها؛ لأن الراجح أن من تزوجها بعد زوج فكأنه استأنف نكاحها من جديد، فيرجع إليها بثلاث طلقات شرعية، فقد يرجع إلى صنيعه الأول فيطلق، ثم يطلق، ثم يطلق، فيخالف مقصد الشرع من استدامة الحياة بينهما.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٣١) سورة البقرة].

هذا أمر من الله -عز وجل- للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها.

---

[14] رواه النسائي برقم (٣٤١٦) (١٤٩/٦)، وأحمد برقم (٤٢٨٣) (٤٤٨/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٥١٠٤).

عامة أهل التفسير على أن المراد من قوله -تبارك وتعالى-: {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي: قاربن بلوغ الأجل، ولم يبق لهن إلا مدة يسيرة وتنتهي عدتهن.

فإما أن يمسكها أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها أي: يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: {وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً؛ لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} أي: بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا} روى ابن جرير عند هذه الآية عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أغضبت على الأشعريين؟ فقال: يقول أحدكم: ((قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قُبُل عدتها))[١٥].

هذا الحديث صححه بعض أهل العلم مثل الشيخ: أحمد شاكر -رحمه الله-، ويحتج به من يفسر القَرْء بمعنى الطهر، وذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم- ((طلقوا المرأة في قُبُل عدتها)) أي: طلقوها في طهر لم تجامع فيه، كما قال الله -عز وجل-: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [(١) سورة الطلاق].

وأما غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- على الأشعريين؛ فلأنهم كانوا يطلقون طلاقاً غير منضبط بالضوابط الشرعية، وهو ما يفهم من قوله: ((قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين)) ومثله أن يطلق في طهر جامعها فيه، أو يطلقها وهي حائض أو نفساء فهذا يسمى طلاقاً بدعياً لا يجوز في الشرع، وقد يتساهل البعض في إطلاق لفظ الطلاق إما مازحاً أو لكونه لم يتزوج أو... فهولاء يشملهم عتاب الله لهم في قوله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا}؛ لأن الطلاق من الأحكام الشرعية، ولذا عده النبي -صلى الله عليه وسلم- من الثلاث اللاتي جدهن جد، وهزلهن جد، فلا يحل لأحد التلاعب به، أو الإتيان به على سبيل العبث، ويدخل في هذا ما شأنه التلاعب بالألفاظ الشرعية، أو ما يكون فيه الامتهان لكتاب الله -عز وجل- أيا كانت صورته وشكله، فكلها قد حذر الله فاعلها منها بقوله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا}.

وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها؛ لتطول عليها العدة.

كنه الأمر حقيقته، وقد يطلق على مقداره أو غايته، والمراد أنه يضار المرأة بطلاق أو ارتجاع في غير غايته، مثل أن يطلق في طهر جامع فيه.

وقال الحسن وقتادة وعطاء الخرساني والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو ينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا} فألزم الله بذلك.

---

[15] مصنف ابن أبي شيبة (٣/٤) بلفظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد عليهم، فأتاه فذكر ذلك له فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول أحدكم: قد زوجت قد طلقت، وليس كذا عدة المسلمين، طلقوا المرأة في قُبل عدتها)).

كل هذا داخل في اتخاذ آيات الله هزواً، وعدم التزام حدود الله -تبارك وتعالى-.

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم، {وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ} أي: السنة، {يَعِظُكُم بِهِ} أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم، {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: فيما تأتون وفيما تذرون، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٢) سورة البقرة].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها.

وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك: إنها أنزلت في ذلك، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} بلوغ الأجل في هذه الآية غير بلوغ الأجل في الآية التي قبلها وهي قوله سبحانه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [(٢٣١) سورة البقرة] إذ معنى بلوغ الأجل في قوله سبحانه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ} أي: انقضاء العدة إذا طلقها طلاقاً رجعياً وبانت منه، ثم وجدت الرغبة بين الزوجين في أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه فلا ينبغي عضلهن عن ذلك، وهذا دليل على أن اللفظة الواحدة قد تستعمل في معانٍ متعددة.

وتباينت أقوال المفسرين في المعنيِّ بالخطاب في قوله سبحانه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ} فقيل: إن المراد إذا طلقتم أيها الأزواج النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن يعني أيها الأولياء، والسياق يدل على هذا المعنى دلالة ظاهرة، وإن اختلف المقصود بالخطاب في أوله وآخره، واختاره عامة أهل العلم بما فيهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله-، وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ونقله عن جماعة.

ومن أهل العلم من رأى توحيد وجهة الخطاب فحمله على الأولياء في الأول والآخر، والمعنى إذا طلقتم أيها الأولياء النساء فلا تعضلوهن، وعللوا ذلك بقولهم: إنه لما كان الطلاق ناتجاً عن عقد النكاح، ثم بعد ذلك ترتب على هذا التزويج الطلاق، أضيف الطلاق إليهم بهذا الاعتبار، وهذا نوع من التكلف حملهم على اعتباره أنهم أرادوا أن يوحدوا وجهة الخطاب.

وقيل: إن وجهة الخطاب واحدة والمقصود بها الأزواج، والمعنى إذا طلقتم أيها الأزواج النساء فبلغن أجلهن فلا تمنعونهن من التزويج، وذلك على طريقة بعض العظماء، أو بعض من عندهم حمية الجاهلية، فإذا طلق المرأة فإنه لا يمكنها –بسلطانه- مَن ليس له سلطان، وإنما جعلوا الخطاب للزوج الأول وهي قد بانت منه باعتبار ما كان، وكذا أطلقوا على الخاطب الجديد زوجاً باعتبار ما سيكون من النتيجة والعاقبة.

والحقيقة أن سبب النزول بين المقصود من الخطاب في الآية فلذا يرجع إليه، ولقد كان من فوائد سبب النزول أنه يوضح المعنى ويرفع الإشكال على درجات متفاوتة، فطالما هذه الاحتمالات موجودة وإن كانت ضعيفة في نظرنا، إلا أن سبب النزول يجلي المراد، ولا يمنع هذا من تفريق الخطاب؛ لأن السياق يدل على الجميع، وليس في هذا إخلال لا من جهة اللغة ولا من جهة البلاغة.

قوله: {إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ} الضمير جاء بصيغة الجمع، والمراد الرجل والمرأة إذا اصطلحوا على ما يحصل به التراضي على قدر معين يستحل به الرجل بضع المرآة، ويدخل فيه ما يختص بالمهر وما يتعلق بسواه كالسكنى والمعاملة والحقوق وما أشبه ذلك كما يذكر ابن جرير –رحمه الله-. والله أعلم.

وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لابد في تزويجها من ولي.

لأن الخطاب في قوله: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ} للأولياء، مما يؤكد على أن المرأة ليس أمرها بيدها، بل لا بد في تزويجها من ولي، وإلا فلا معنى من الإشارة إليه في الآية.

كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: ((لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها))[1].

وفي الأثر الآخر: "لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل"[2].

أصل الحديث رواه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- جماعة من الصحابة كابن عباس وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة -رضي الله عنهم-... وغيرهم، وهو حديث ثابت مشهور صح من وجوه متعددة.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته -رضي الله تعالى عنهما-، فقد روى البخاري -رحمه الله- في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل، فنزلت: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}[3] **وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به، وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار: أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ**

---

[1] - رواه ابن ماجه برقم (١٨٨٢) (٦٠٦/١)، وصحح الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير هذا الحديث دون قوله: ((فإن الزانية هي التي تزوج نفسها)) فحكم بضعفها برقم (١٣٢٥٤).

[2] رواه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عباس برقم (١٣٤٢٨).

[3] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٥٥) (١٦٤٥/٤).

النِّسَاء}، إلى قوله: {... وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك[4] زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني.

وجاء في بعض الروايات أنها نزلت بسبب جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، وأياً كان سبب النزول فإن الروايات تعاضدت على أن العضل غالباً ما يكون من قبل الأولياء كما نص عليه الجمهور.

وقوله: {ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له من كان منكم أيها الناس {يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء، {ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ} أي: اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزوجهن، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم، {وَاللّهُ يَعْلَمُ} أي: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه، {وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أي: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون.

إنما كان الخطاب في قوله: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ...} للأولياء للدلالة على أن الأولياء في الغالب هم من يقفون حجر عثرة أو حاجزاً حائلاً دون رجوع المرأة إلى زوجها المطلقة منه طلاقاً بائناً، وغالباً ما يصحب هذا الطلاق تكدر الأجواء بين أهل المرأة وأهل الرجل، خاصة أن المرأة تُظهر بعد طلاقها كل ما أخفته وما لم يطلع عليه وليها من معاملات زوجها ومواقفه معها طيلة فترة التصاقه بها، يدفعها لذلك صدمة الطلاق، أو كون الأمور قد بلغت مداها، مما يزيد الشحناء في القلوب، ويبعث على البغضاء، ويذكي نار الغل في النفوس فتسكنها النفرة والامتعاض، ويجعل الولي يصر على الحيلولة بينه وبين رجوعه إليها، وهذا يخالف المقصد الشرعي في استدامة الحياة بينهما؛ لأن الرجل قد يرجع إلى صوابه، وكذا المرأة تعود إلى رشدها بعدما تنتهي ثورة الغضب في النفوس فيفكرا بعودة الحياة بينهما لا سيما إذا كان لهما ذرية وأولاد، فإذا وقف الأولياء موقفاً مضاداً خالفوا أمر الشارع في ذلك؛ لأنه قال: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} ثم أشار الله –عز وجل- إلى الحكمة من رد الموليات إلى أزواجهن وتذليل الأولياء العقبات في حال ما إذا قررا أن يجددا العشرة بينهما فقال –عز وجل-: {ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ}، ولقد أشار ابن جرير إلى هذه اللفتة الرائعة بقوله: يعني -تعالى ذكره- بقوله: {ذَلِكُمْ} أي: نكاحهن أزواجهن، ومراجعة أزواجهن إياهن بما أباح لهن من نكاح ومهر جديد {أَزْكَى لَكُمْ} أيها الأولياء والأزواج والزوجات...، ثم قال: ويعني بقوله: {أَزْكَى لَكُمْ} أي: أفضل وخير عند الله من فرقتهن أزواجهن.

وأما قوله: {وَأَطْهَرُ} فإنه يعني بذلك: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة؛ وذلك أنه إذا كان في نفس كل واحد منهما -أعني الزوج والمرأة- علاقة حب لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما،... فأمر الله -تعالى ذكره- الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة بنكاح مستأنف في الحال التي أذن الله لهما بالتراجع أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك وأن يزوجها؛ لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبوقه إليها من المعاني المكروهة.

---

[4] - رواه الترمذي برقم (٢٩٨١) (٥/٢١٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٨١).

ثم أخبر -تعالى ذكره- عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، ودلهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع: إنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عضلهن عن ذلك؛ لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوب من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم -تعالى ذكره- : افعلوا ما أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بي وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة، وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل" فهذا ملحظ جيد ذكره ابن جرير -رحمه الله-.

{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٣٣) سورة البقرة].

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك.

الخطاب في الآية جاء بصيغة خبرية مضمنة معنى الأمر، فهو أمر بصيغة الخبر **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ}**، ومن أهل العلم من يرى أن الخطاب في الآية خبر محض، وهذا القول فيه نظر.

والآية خاصة بالمطلقات فقط كما قال به جماعة من المفسرين والفقهاء، واختار هذا القول ابن جرير الطبري –رحمه الله-، وقالوا: إن المرأة تعطى أجرة مقابل الرضاع يعطيها الزوج أو وارث الزوج في حال وفاته، أو يؤخذ من تركة الصبي، فإن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر.

ولهذا قال: {لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} فلا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين.

ظاهر الآية واضح في تحديد أمد الرضاع إلى الحولين لمن أراد أن يتم الرضاع ويجوز فطامه قبل ذلك، وبعض أهل العلم يرى أن المراد بيان الرضاع التام لمن أراد أن يكمله، وإلا فإن الرضاع قد يحصل بعد ذلك وهذا فيه نظر؛ لأن الرضاعة المؤثرة التي يكون بها نبات العظم واللحم تنتهي في الحولين.

ومن أهل العلم من قال: إن الله -عز وجل- يقول: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** [(١٥) سورة الأحقاف] فلا يبقى إذا حذفنا مدة الرضاع –حولين- إلا ستة أشهر للحمل، فلو كان الحمل تسعة أشهر فلا يبقى للرضاع من الثلاثين شهراً إلا واحداً وعشرين شهراً، وهذا يعني أنه رضع أقل من أربع وعشرين شهراً، ولهذا بعض أهل العلم ذكر أن هذا يتفاوت بحسب مدة الحمل، فإذا كان الحمل ستة أشهر فالرضاع يكون في سنتين، وإذا كان الحمل في تسعة أشهر فينقص من الثلاثين قدراً؛ لأن الله ذكر المجموع بالثلاثين ولكن هذا فيه نظر؛ والصواب أن الرضاع يكون في عامين لقوله-سبحانه-: **{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** [(١٤) سورة لقمان]، وأما تحديد الثلاثين شهراً للحمل والرضاع في الآية فالمراد به التنويه على أدنى مدة الحمل، والعلم عند الله -عز وجل.

وهذه المسألة يترتب عليها أحكام، إذا رضع بعد الحولين هل يؤثر فيه أو ما يؤثر؟ لكن ما ذكره أهل العلم في هذا أن الرضاع بعد الحولين يضر الولد في عقله وبدنه.

وأما مسألة رضاع الكبير في قصة رضاعة سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهو كبير، عندما تبناه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة –رضي الله عنه- كما تبنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة، وأنكح أبو حذيفة سالماً -وهو يرى أنه ابنه- أنكحه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وهي يومئذ من المهاجرات الأول، ومن أفضل أيامى قريش، فلما أنزل الله –تعالى- في زيد بن حارثة ما أنزل فقال: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} [(٥) سورة الأحزاب] رُد كل واحد من أولئك إلى أبيه، فمن لم يُعلم له أب رد إلى مولاه، فجاءت سهلة بنت سهيل –رضي الله عنها- امرأة أبي حذيفة من بني عامر بن لؤي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، إنا كنا نرى سالماً ولداً، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني فُضْلاً وقد أنزل فيه ما علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أرضعيه تحرمي عليه ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة))، فأرضعته خمس رضعات فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة[5] وقد ذهب عامة علماء المسلمين من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن رضاع الكبير وهو من تجاوز السنتين -سن الرضاع- لا أثر له في ثبوت المحرمية، وحملوا هذا الحديث على الخصوصية، أو أنه قد نسخ حكمه بما ثبت من أدلة أخرى.

وأما عائشة -رضي الله عنها- وقد وافقها بعض السلف- فكانت ترى بأن رضاع الكبير يؤثر في المحرمية أخذاً من هذا الحديث، ولهذا كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوتها أن يرضعن من أحبت عائشة أن يراها ويدخل عليها وإن كان كبيراً خمس رضعات ثم يدخل عليها، وأبت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين أن يدخلن عليهن بتلك الرضاعة أحداً من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي –صلى الله عليه وسلم- لسالم دون الناس.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- توسط في هذه المسألة، فهو يرى أن رضاع الكبير يجوز إن احتيج إلى جعله ذا محرم للحاجة، وتعقب ذلك بقوله: وقد يجوز للحاجة ما لا يجوز لغيرها، وهذا الكلام فيه نظر، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[5] - رواه البخاري في كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين برقم (٤٨٠٠) (٥/١٩٥٧)، ورواه مسلم بلفظ مقارب في كتاب الرضاع – باب رضاعة الكبير برقم (١٤٥٣) (٢/١٠٧٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال: {لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} [(٢٣٣) سورة البقرة]، فلا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذي: باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين.

ثم روى عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام))[1]، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً.

قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين.

ومعنى قوله: ((إلا ما كان في الثدي)) أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- قال: لما مات إبراهيم ابن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن ابني مات في الثدي، إن له مرضعاً في الجنة))[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى الكلام على قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} وما يتعلق به من مسائل، مما يغنينا عن الإعادة.

لكن ينبغي أن نفهم أن مراده -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((ما كان في الثدي)) أي: ما كان في فترة الرضاع، وهي في العامين الأولين من حياة الطفل، ولذا إذا قيل: فلان لازال في الثدي، فإنهم يعنون بذلك أنه لم يتجاوز فترة الرضاع، والله أعلم.

ويؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين))[3].

قلت: وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ثور بن زيد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً.

---

1 - رواه الترمذي برقم (١١٥٢) (٣/٤٥٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٥٩١).

2 - رواه أحمد في مسنده برقم (١٨٦٨٦) (٤/٣٠٠)، ورواه البخاري عن البراء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال -لما مات إبراهيم-: ((إن له مرضعاً في الجنة)) في كتاب بدء الخلق -باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة برقم (٣٠٨٢) (٣/١١٨٨).

3 - رواه الدارقطني بلفظ ((لا رضاع إلا ما كان...)) (١٠) (٤/١٧٤).

ورواه الدراوردي عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وزاد: ((وكان بعد الحولين فليس بشيء))[٤] وهذا أصح.

وقد روي في الصحيح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة -رضي الله تعالى عنها- تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة -رضي الله تعالى عنه-: حيث أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور.

وهذا جاء صريحاً في بعض الروايات عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أنها أنكرت ذلك على عائشة –رضي الله عنها- ورأت أن ذلك مختص بسالم مولى أبي حذيفة -رضي الله عنه-، وهذا الذي سار عليه جماهير العلماء سلفاً وخلفاً أن رضاع الكبير لا يؤثر في المحرمية، إلا أن شيخ الإسلام يرى جواز ذلك للحاجة، وأن الواقعة ليس فيها دليل على اختصاصها بسالم، والعلم عند الله.

وقوله: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف.

قيل: الآية عامة في عموم النساء، وبعض أهل العلم يرى أن الآية خاصة بالمطلقات، والأصل أنه لا يلزمها إرضاع ولدها في حال الخيار، ولها الحق أن تأخذ أجرة مقابل هذا الإرضاع، وتطالب بالكسوة والنفقة، وأوجب العلماء عليها إرضاع ابنها في صور معدودة منها:

- إذا لم يقبل الرضاع إلا من ثدي أمه.
- إذا كان الأب معدماً فقيراً لا يملك نفقة المرضعة.
- إذا فقدت المرضعات في البلد بعد البحث والتحري.

وهنا مسألة: إن ثبت أن الأب موسر والمراضع حاضرات فهل يجب على المرأة غير المطلقة أن ترضع الولد، وأن تطالب بالنفقة؟ أم أن هذا يختلف من امرأة لامرأة؟ كأن يقال الشريفة لا يجب عليها الإرضاع، والمرأة التي دونها في الشرف والمرتبة يجب عليها الإرضاع فيفرق بين النساء بهذا الاعتبار، هذه مسائل معروفة محلها الفقه.

لكن من رأى عموم الآية في المطلقات وغيرهن كالإمام أحمد وإسحاق بن راهويه ومن وافقهم، فإنهم لا يوجبون على المرأة أن ترضع الولد إلا في الحالات المذكورة، وبعضهم يخص الوجوب في أول الولادة حيث يكون لبن الأم اللِّبَأ؛ إذ يرون أنه لا غنى للصبي عنه أو للمولود بحال.

وبعضهم قال بالنسخ كما ينقل ابن عطية ويرويه عن قتادة أنه نزل أولاً: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ...}** ثم نسخت بقوله تعالى: **{لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** إلا أن هذا القول متداع وضعيف؛ لأن الشيء إنما ينسخ بنقيضه، وما محمله هنا إلا أنّه نسخ في الأخف.

---

[4] - رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٥٤٤٥) (٤٢٦/٧).

وآية سورة الطلاق واضحة الدلالة: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [(٦) سورة الطلاق] فهي تدل على أن المطلقة لا شك أنها تستحق أجر الرضاعة، وأما غير المطلقة فهذا محل خلاف، ولعل الأقرب -والله أعلم- أن المرأة لا يجب عليها إرضاع الولد، ومن حقها أن تطالب بالنفقة والأجرة، والله أعلم.

وقوله: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى: {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [(٧) سورة الطلاق].

في القرآن أشياء كثيرة أحال فيها على العرف منها هذه الصورة، والعرف يختلف بحسب الزمان والمكان، وحال الرجل وحال المرأة من الإعسار والإيسار، ويختلف من وقت إلى آخر، ومن بلد إلى بلد غيره، والعلماء تكلموا في المقدار الذي تعطاه الأم المرضعة فقالوا: ما اعتادت عليه في بيت أهلها من اللباس والطعام والسكنى فإن ذلك يطلب منه.

قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وكلام الضحاك يعني به المرأة المطلقة.

وقوله: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} أي: بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللِّبَأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضِّرار لها، ولهذا قال: {وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} يحتمل معنيين من جهة التصريف:

الأول: لا تُضارِرُ بالرفع، ويكون ذلك على سبيل الإخبار، ويمكن أن تتضمن معنى النهي.

الثاني: لا تُضارِرَ بالنصب، ويكون ذلك على سبيل النهي، وكل واحد من هذين المعنيين تشهد له قراءة غير متواترة يمكن حمل معنى الآية عليها، وهذا الحمل يعتبر من قبيل المشترك اللفظي السائر على طريقة القرآن في التعبير عن الشيء بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالأم منهية أن تضار والد الصبي، وكذا والده منهي عن مضارة الأم، وهذا القول ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}، قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله: مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيُحتمل في المراد بقوله سبحانه: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} شيئان:

الأول: وارث الصبي إذا مات الوالد مثل ذلك: يعني في عدم المضارة، والمعنى أنها مأمورة بأن لا تلحق الضرر بالولد، ووالد الصبي ووارثه -في حال موت والده- مأموران بأن لا يلحقا الضرر بهذه المرأة بسبب الصبي، فهذا الجزء من الآية يتحدث عما قبله مباشرة {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} أي: في عدم المضارة.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد من قوله: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} أي: من النفقة والأجرة التي تكون بسبب هذا الرضاع، سواء قلنا بأن الورثة هم الذين تولوا أمر هذا الصبي بعد موت الأب، أو وارث والد الصبي، أو وارث الصبي نفسه من أحد الأبوين، أو أن المقصود وارث المرضعة فهذه احتمالات وأقوال في المراد بالآية، وخلاصة القول: إن من تولى الصبي في تصريف شئونه فعليه ألا يلحق الضرر بالآخر، وعليه أن يدفع النفقة للأم المرضعة.

وهذا الاحتمال باعتبار أن الإشارة ترجع إلى المعنى الذي سيقت الآية من أجله، وهو ما يتعلق بالرضاع وأجرته ونفقته، لا إلى الأقرب من المذكورات وهو عدم الضرر.

وأما إذا جعلنا الإشارة في الآية إلى أقرب المذكورات فيكون المراد من الآية عدم الضرر، وهذا أحد المعنيين اللذين نقلهما ابن كثير قال: قيل: في عدم الضرار لقريبه قاله مجاهد والشعبي والضحاك، واختاره القرطبي -رحمه الله-.

ويمكن أن تحمل الإشارة على المعنيين وهو ما نقله ابن كثير عن الجمهور بقوله: وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها، وعدم الإضرار بها فهذا القول بناءً على جمع المعنيين، كأنه جعل الآية سيقت لتقرير هذا المعنى، أن الأم ترضع الولد ويتحمل النفقة الأب، ولا يحق لأحدهما أن يلحق الضرر بالآخر، وهذا من أحسن ما يكون في التفسير أن يجمع بين المعاني.

ومثل ما يمكن أن تحمل الإشارة فيه على المعنيين ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [(٢٥٥) سورة البقرة] فالآية تحتمل المعنيين: بعلم الله، أو بعلم ما بين أيديهم وما خلفهم،

وبين المعنيين ملازمة مفادها: أنهم إذا كانوا لا يحيطون بشيء من علم الله، ومن علم ما بين أيدهم وما خلفهم فالإحاطة بعلم الله -عز وجل- من باب أولى، والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

وبعض أهل العلم يقول: الآية منسوخة، والقاعدة الأصولية أن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

وبعضهم يقول: هذه الآية في المطلقة، والصواب خلافه؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، ويقول في نفس الآية: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [(٦) سورة الطلاق].

وهذه الآية –بالمناسبة- يحتج بها بعض الفقهاء -رحمهم الله- على جواز دفع النفقة للقريب كالأب والأم، والمسألة فيها تفصيل:

فإذا كانت الزكاة للأصول والفروع فالإجماع منعقد على أنها لا تعطى للأصول والفروع، وإن علوا أو نزلوا. وأما إذا كانت للحواشي كالأخ والأخت فالتفصيل قائم عند طائفة من أهل العلم وأن ذلك بحسب حال هذا المعطى، فإن كان المعطي يرثه فإنه لا يعطيه، مثل مسألة هلك هالك عن أخ وأب فيجوز أن يعطى الأخ من الزكاة؛ لأنه محجوب بالأب، بخلاف لو هلك هالك عن أخ وبنت فإنه يرث في هذه الصورة فلا يعطى من الزكاة واستدلوا على هذا بقوله: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} بناءً على تفسير هذه الآية بالنفقة، إذ لو فسرناها بعدم الضرر فلا وجه للاستدلال، قالوا: فجعل ذلك حقاً على الوارث -يعني أجرة ونفقة المرضعة أو الأم-.

وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله، وقال سفيان الثوري: عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال: لا ترضعيه.

لأنها رضاعة في غير محلها، وهذا ليس محل اتفاق بين أهل العلم فقد خالف ابن القيم -رحمه الله- وذكر بأن الطفل ينتفع بالرضاع بعد الحولين، ويحسن على الأقل أن يرضع إلى منتصف السنة الثالثة، وأحسن ما يكون الفطام في وقت الاعتدال –الخريف أو الربيع-، أما الربيع فلأنه يستقبل الصيف، وأما الخريف فلأنه يستقبل الشتاء فيكون نهمه للطعام أكثر منه في الصيف فتكون الحرارة الغريزية أوفر، والناس بحاجة إلى الطعام في الشتاء أكثر من حاجتهم إليه في الصيف، وكذلك أيضاً في الجماع عندهم من القدرة عليه والنهم به أعظم ما يكون في الصيف، وذلك لوفور الحرارة الغريزية.

وقوله تعالى: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} [(٢٣٣) سورة البقرة] أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من -رحمة الله- بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال في سورة الطلاق: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [(٦) سورة الطلاق].

وقوله تعالى: {وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ} أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها، أو لعذر له فلا جناح عليها في بذله، ولا

عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد.

ويحتمل أن يكون المراد بالتسليم من المسالمة والتراضي بينهما بإرضاع الولد من مرضعة غير الأم، وهذا القول فيه بعد؛ لأن دلالة الآية واضحة في ثبوت أجرة الإرضاع للأم إذا أبته إلا بمقابل، ولذلك جاءت نسبة الولد في الآية للأب لتقرير أحقية الأم في مطالبة ولي الولد بأجرة الإرضاع قال سبحانه: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ} والأكمل والأحسن أن لا تأخذ الأجرة مقابل إرضاعه إكراماً لولدها وإحساناً للعشرة مع زوجها، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: في جميع أحوالكم، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

ويدخل في طلب تقواه ما يتصل بإرضاع الولد وعدم إلحاق الضرر بأمه، أو بوالد الصبي أو وارثه، وهذا التفسير جارٍ على عادة السلف في ربط المعنى بأقرب مذكور، والمعنى واتقوا الله فيما ذكر من الأمور السالفة.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٣٤) سورة البقرة].

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة.

ينص الفقهاء -رحمهم الله- على حكمة العدة للمتوفى عنها زوجها فيذكرون في كثير من الأحيان قضية استبراء الرحم، والملاحظ أن العدة ليست فقط لمجرد استبراء الرحم؛ لأن المرأة قد يتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، ويذكر الفقهاء لذلك صوراً عديدة منها: لو تزوج مشرقي بمغربية ما رآها قط ثم مات عنها، فيوجبون عليها العدة لأمرين:

الأول: لاستبراء الرحم، وثانياً: مراعاة لحق الزوج وحرمته، وهذه القضية ليست في كل الحالات، بدليل أن المرأة إذا مات عنها زوجها ثم وضعت الحمل تنتهي عدتها بمجرد وضع الحمل، ولو كان بعد الوفاة بلحظة على قول الجمهور.

وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي أن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فترددوا إليه مراراً في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، لها الصَداق كاملاً، وفي لفظ: لها صَداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي -رضي الله تعالى عنه- فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضى به في بَرْوَع -رضي الله تعالى عنها-، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً[1].

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢١١٨) (٢/٢٠٢)، وسنن الترمذي (١١٤٥) (٣/٤٥٠)، والنسائي برقم (٣٣٥٤) (٦/١٢١)، وأحمد برقم (٤٢٧٦) (٧/٣٠٨)، وصححه الألباني في مختصر إرواء الغليل برقم (١٩٣٩).

وفي رواية فقام رجال من أشجع فقالوا: نشهد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضى به في بَرْوَع بنت واشق[2].

ومعنى قوله: "لا وكس" يعني لا ينقص من حقها الذي يكون لمثيلاتها، وقوله: "شطط" أي لا يزاد عليه بالإجحاف فيفرض لها أكثر مما تستحق، ويحمّل أكثر مما ينبغي أن يعطيه لمثلها.

بروع: إما بالفتح "بَروع" أو بالكسر كسر الباء.

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله تعالى: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق]**، ولما ثبتت به السنة في حديث سُبيعة الأسلمية -رضي الله تعالى عنها- المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته.**

وفي رواية فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلّت من نفاسها...

يعني ارتفعت من النفاس، وذهب عنها أثره.

تجملت للخُطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة، لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي"[3].

وخالف بعض السلف في عدة الحامل إذا توفي عنها زوجها كعليٍّ -رضي الله تعالى عنه- فقال: إنها تعتد بأطول الأجلين، ومستندهم قوله تعالى: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق] مع قوله: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [(٢٣٤) سورة البقرة] فأراد أن يجمع بين الآيتين ويحتاط للعدة، فقال: إنها تبقى الأجلين بحسب حالها، فإن كان الأكثر هو مدة الحمل بقيت، أو الأشهر الأربعة بقيت، ورد على حديث معقل بن يسار الأشجعي بقوله: لا نترك كتاب الله لقول أعرابي، كأنه لم يثبت عنده، ولم يتوثق منه لأجل ذلك رده.

وأما الجمهور فعلى خلافه فهم يجعلون الأول من باب العام والثاني من باب الخاص، ويقولون: العام {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}، يحمل على الخاص {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، فالحامل سواء طال أو قصر حملها فإنها تبقى مدة الحمل -تسعة أشهر أو أكثر أو أقل- ثم تنقضي عدتها وتُستبرأ رحمها.

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً؛ لاحتمال اشتمال الرحم على حمل.

---

[2] - رواها أبو داود برقم (٢١١٨) (٢٠٢/٢)، وأحمد برقم (٤٢٧٦) (٣٠٨/٧).

[3] - رواه البخاري في كتاب المغازي -باب فضل من شهد بدرا برقم (٣٧٧٠) (١٤٦٦/٤)، ومسلم في كتاب الطلاق -باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل برقم (١٤٨٤) (١١٢٢/٢).

هذه الحكمة مراعاة في كل حالة على حسب كما سبق، فمثلاً من مات عنها زوجها قبل الدخول بها فلا مجال للاحتياط للرحم قطعاً في هذه الصورة، بدليل أنه لو طلقها زوجها فليس عليها عدة، وإنما العدة لها من باب أن حرمة الزوج مرعية، واستثنى من ذلك الحمل إذا وضعت بعد وفاته.

فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- الذي في الصحيحين وغيرهما ((إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح))[٤] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

هذا تعليل لاعتبار هذه المدة في عدة المتوفى عنها زوجها، ووجهه ظاهر.

ومن هنا ذهب من ذهب إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ها هنا، ويؤيدهم ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر، رواه أبو داود وابن ماجه.

هذا الأثر عن عمرو بن العاص ضعفه بعض أهل العلم كالإمام أحمد، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وصححه بعض أهل العلم كالعلامة الألباني –رحمه الله- من المعاصرين، وقول الصحابي إذا خالفه غيره فإنه يفقد حجيته، ويصار حينها إلى الترجيح، ولذا بعضهم ذهب إلى أنها تعتد نصف عدة الحرة، وقيل: تعتد ثلاث حيضات.

والذي عليه الجمهور -ومنهم الأئمة الثلاثة سوى الأحناف- أنها تعتد بحيضة، فإن كانت لا تحيض لصغر سنها أو يأسها فإنها تبقى شهراً واحداً.

وأما المراد بأم الولد فهي الجارية التي لها ولد، وهي على العكس من الجارية التي لا ولد لها فإن عدتها إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة فتعتد شهرين وخمسة أيام، وهذا نقل عليه بعض أهل العلم كابن العربي -صاحب أحكام القرآن- الإجماع، والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٣٤) سورة البقرة].

يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها؛ لما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمي المؤمنين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً))[٥].

---

[4] - رواه البخاري في كتاب التوحيد – باب {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [(١٧١) سورة الصافات] برقم (٧٠١٦) (٢٧١٣/٦)، ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٢٠٣٦/٤).

[5] - رواه البخاري في كتاب الجنائز – باب حد المرأة على غير زوجها برقم (١٢٢١) (٤٣٠/١)، ومسلم في كتاب الطلاق – باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام برقم (١٤٨٦) (١١٢٣/٢).

وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: أن امرأة قالت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها، فقال: ((لا))، كل ذلك يقول: ((لا))، مرتين أو ثلاثاً"[6].

مع أن الكحل قد يكون لحاجة العلاج، وقد يكون من نوع الإثمد الأحمر الذي لا لون، ومع ذلك منعها النبي -صلى الله عليه وسلم- منه لكنه علل.

ثم قال: ((إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة..

وجه الاستدلال على وجوب الإحداد من الحديث أنه منعها من الكحل مع حاجتها إليه، وكذا يجب أن تجتنب المرأة في العدة الزينة وكل ما يرغب الرجال بها، ولا تتزوج ولا تخطب؛ لعموم الآية: **{يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}** وهذا خبر مضمن معنى الأمر، والأمر الأصل فيه الوجوب إلا لصارف، فيجب على المرأة أن تبقى هذه المدة في بيتها لا تخرج إلا لحاجة لا يقوم غيرها مقامها فيها، وخروجها بالنهار أسهل من خروجها بالليل، أما الأمور الأخرى فلا تمنع منها كالاغتسال، والتنظف، ومكالمة الرجال بالمعروف.

قالت زينب بنت أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً..

الحفش: بيت صغير ضيق نازل السقف، والمقصود أنها تبحث عن أضيق مكان في البيت وتكتن به، ولا تغتسل سنة كاملة، فهذه الهيئة التي كانت عليها المعتدة في وفاة زوجها في الجاهلية.

ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَعْرة.

هذه إشارة لانتهاء العدة والخروج منها.

فترمي بها ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طير فتفتض به...

بمعنى أنها تمسح بهذا الطائر أو الحيوان فرجها.

فقلما تفتض بشيء إلا مات.

وذلك لشدة ما علق بها من الأذى والقذر.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية.

وقوله: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنّ} أي: انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} قال الزهري: أي على أوليائها، {فِيمَا فَعَلْنَ} يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج فذلك المعروف، وروي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جُريج عن مجاهد: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} قال: النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك.

---

[6] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا برقم (٥٠٢٤) (٥/٢٠٢٤)، ومسلم في كتاب الطلاق – باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام برقم (١٤٨٨) (٢/١١٢٤).

فأباح الله –عز وجل- للمعتدة عدة الوفاة أن تتهيأ للخطاب في المعروف -فتتحاشى ما لا يليق من مكارم الأخلاق أو مشين المروءات كالتبرج وإظهار الزينة أمام الرجال الأجانب ونحوه فهذا ليس من المعروف- ولا يلحقها في ذلك معرة ولا إثم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(٢٣٥) سورة البقرة].

يقول تعالى: ولا جناح عليكم أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزوجهن من غير تصريح، قال الثوري وشعبة وجرير وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء} قال: التعريض أن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها -يعرض لها بالقول بالمعروف-، وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة.

ورواه البخاري تعليقاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء} هو أن يقول: إني أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة.

وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهري ويزيد بن قصيد ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لفاطمة بنت قيس -رضي الله تعالى عنها- حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص -رضي الله تعالى عنه- آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم -رضي الله تعالى عنه- وقال لها: ((فإذا حللتِ فآذنيني)) فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- مولاه فزوجها إياه.

فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

هذا الخطاب في الآية يفهم منه رفع الجناح -وهو الإثم- فيما يعرض به الإنسان من خطبة النساء اللاتي توفي عنهن أزواجهن، بأن يقول: أنا أبحث عن امرأة، أو مثلك يُرغب فيها كثيراً، ونحو ذلك من العبارات التي تشعر بأن رغبته متجهة إليها، وعبارات أهل العلم في التمثيل على التعريض متفاوتة، وقد يختلفون في بعض الألفاظ هل هي من قبيل التصريح أو التعريض، فمثلاً لو قال لها: لا تسبقيني بنفسك، فبعض أهل العلم عده تعريضاً، وعده آخرون تصريحاً، إلا أنه إن لم يكن من قبيل التصريح فهو قريب منه غاية القرب؛ لأن

فيه إشعاراً بالحجز، فالمقصود أنه يجوز أن يقول لها كلاماً يشعرها برغبته فيها دون أن يصرح، ومثلها المطلقة المبتوتة -بمعنى أنها طلقت ثلاثاً- فيجوز للرجل أن يعرض لخطبتها، بخلاف المرأة التي طلقت طلاقاً رجعياً، وما زالت في عدتها بعد الطلقة أو بعد الطلقة الثانية، فلا يجوز لأحد أن يصرح بخطبتها أو يعرض بذلك؛ لأنها ما زالت في عصمة الزوج، ولا تخرج من عصمته إلا بانقضاء العدة، ولا يجوز لها أن تخرج من بيته أو يخرجها كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١) سورة الطلاق].

وأما مراد ابن كثير في قوله: "فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها، ولا التعريض بها" فإنه يقصد المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً، لا المرأة التي طلقت قبل الدخول ولا عدة عليها، أو المرأة التي بتّ في طلاقها ولو كانت في عدتها كالمطلقة ثلاثاً.

وقوله: {أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ} أي: أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٦٩) سورة القصص]، وكقوله: {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ} [(١) سورة الممتحنة].

والمعنى أنه يبيت في نفسه تزوجها بمجرد انقضاء العدة فهذا لا مؤاخذة فيه، وإنما المؤاخذة فيما إذا تحدث به صراحةً، والله أعلم.

ولهذا قال: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ} أي: في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا} لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري ونحو هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ} الذكر باللسان، لكن من غير تصريح بالخطبة، وذلك راجع إلى قلة صبره وخشيته أن تفوته هذه المرأة، والأمر لا يستغرب فقد كان الناس قديماً يتسابقون على المرأة المفارقة لزوجها إما بطلاق أو وفاة زوج فينتظرون متى تنقضي العدة ليتقدموا لخطبتها، فهذا الذكر جائز بشرطه {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}، وبعضهم يذكر في التعريض عند الولي ما سبق كأن يقول: إذا انقضت عدتها فآذني أو أخبرني أو أعلمني أو لا تسبقني بتزويجها أو نحو ذلك، فهذا من ذكرها، والله أعلم.

ولقد اختلف أهل التأويل في معنى "السر" الذي نهى الله –تعالى- عباده عن مواعدة المعتدات به على أقوال:

فقال بعضهم: معنى ذلك: ولا تنكحوهن في عدتهن سراً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقهن وعهودهن في عددهن أن لا ينكحن غيركم كأن يقول لها الرجل: "لا تسبقيني بنفسك".

وقال غيرهم: إن كلمة السر في الآية تطلق على الجماع، والمعنى لا يذكر لها قدرته على الجماع وقوته على ذلك، وما قد يرغبها فيه ويدعوها إليه، وسماه سراً لأن الجماع لا يكون إلا في السر.

وقال بعضهم: هو الزنا، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وعلل ذلك بأن العرب تسمي الجماع وغشيان الرجل المرأة "سرا"؛ لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاء غير

ظاهر مطَّلع عليه فيسمى لخفائه "سرا"، ثم لا معنى لذكر السر بمعنى الخفاء وما يقابل العلانية إذا كان التصريح بالخطبة لا يجوز علانية ولا سراً، وكذا لو أنه أخبر أو عرض بخطبتها فلم يعد ذلك من قبيل السر؛ ويمكن القول إن المراد من المواعدة سراً أن لا يكون ذلك من دون علم الناس أو اطلاعهم، ثم السر يمكن أن يكون بين اثنين أو ثلاثة أوأكثر إذا قصدوا به الحفظ، واحترزوا من فشوه وظهوره.

والخلاصة أن المعنى الأول -أي لا تبرموا اتفاقاً معهن لا يطلع عليه أحد- هو الأقرب، ويبعد أن يكون المراد بالمواعدة الجماع؛ لأنه ليس له أي شبهة إطلاقاً لا عقد ولا نكاح...، وكذا المعنى الذي اختاره ابن جرير؛ لأنه لو كان المراد أنه يريد أن يزني بها بحجة أنه سيتزوجها بعد انقضاء العدة لما قال: {لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}، ولقال: ولا تزنوا بهن، أو لا تجامعوهن لهذه الحجة.

فالخطاب في الآية مفهومه النهي عن مواعدة المعتدات سراً؛ إذ الرجل لشدة ما يوجد في نفسه أحياناً من حرصه على أمر خشية أن يفوته، فإنه قد يتأول لنفسه أو تحمله العجلة على الاتفاق مع هذه المرأة من دون سائر الناس، وهذا لا يجوز، والله أعلم.

وكذا روي عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاهد والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره.

وقوله: {إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا}....

هذا المقطع من الآية يضعف ما ذهب إليه ابن جرير من أن المراد من المواعدة سراً أن يطلب منها الزنا، إلا إذا جعل هذا الاستثناء منقطعاً، وذلك لأن الزنا ليس فيه قول معروف، وما عرف هذا القول عن أحد، والله أعلم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي والثوري وابن زيد: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض، كقوله: إني فيك لراغب، ونحو ذلك.

وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: {إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا}، قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني، رواه ابن أبي حاتم.

هذه العبارات في الحقيقة قريبة من التصريح ولقد ذكرها العلماء من باب التمثيل ليس غير، وبعضهم أدرج ما ليس بتصريح في حقيقته في التعريض وإن كان قريباً من التصريح، ومثال التصريح بالخطبة أن يقول لها: أنا أتقدم لخطبتك...

وقوله: {وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة.

هذا القول قال به أيضاً جمع من أهل اللغة كالنحاس، ولعل علة النهي عن العزم مع أن المحظور هو إيقاع العقد في فترة العدة هو من باب المبالغة، وإذا ورد النهي عن التصريح بالخطبة في عدة المطلقة طلاقاً رجعياً فما بالك بالعزم الذي هو أبلغ من مجرد الخطبة، وقال بعضهم: العزم والعقد شيء واحد، وهذا الكلام بناء على تعريف العزم بأنه: عقد القلب المصمم، والمعنى: لا تعقدوا عقد النكاح في قلوبكم، ولا يفسر العقد في الآية إلا بمعناه الشرعي وهو: ما يحصل به الإيجاب والقبول بين الزوجين الذي يترتب عليه أحكام استحلال البضع ونحو ذلك.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والشعبي وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهري وعطاء الخرساني والسدي والثوري والضحاك: {حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة.

سمي الكتاب كتاباً لأنه محدود بحد، وكل محدد بأجل معلوم فهو كتاب، والعدة المحددة هي أربعة أشهر وعشرة أيام في غير ذات الحمل، وأما في الحامل فالعدة بوضع الحمل، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}** [(١٠٣) سورة النساء] أي: مكتوباً محدود الأوقات مقدراً.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.

وقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}.

{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [(٢٣٦) سورة البقرة] **أباح -تبارك وتعالى- طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وطاوس وإبراهيم والحسن البصري: المس: النكاح.

استعمال المس بمعنى الوطء معروف في كلام العرب، وقد يأتي بمعنى المباشرة واللمس المجرد، تقول: هذا لم تمسه الأيدي، لكنه إذا قيل للمرأة فقد يراد به الوطء، بل الوطء داخل فيه قطعاً ولا شك، ولكن هل تنزل الخلوة منزلة الوطء؟ بمعنى إذا سمى للمرأة صداقاً ثم أرخى لها ستراً وخلا بها ثم طلقها دون مساس، فهل ذلك ينزل منزلة الوطء؟

معلوم أن الرجل إذا طلق امرأته بعد ما سمى لها صداقاً وإن لم يدخل بها فإنها تستحق نصف المهر، وأما إذا أرخى لها ستراً وكشف لها وجهاً فجمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم على أن الخلوة بها ولو لم يطأها تنزل منزلة الوطء فتستحق المهر كله.

وقال بعضهم: إنها لا تستحق إلا نصف المهر، وحملوا المساس في الآية على الظاهر وهو الجماع، والله أعلم.

بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر -تعالى- بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ} [(٢٣٦) سورة البقرة].

التفويض نوعان:

مفوضة البضع: وهي المرأة التي لم يحدد لها مهر، يقال: امرأة مفوضة على بضعها.

مفوضة المهر: أن تفوض وليها في تحديد مهرها.

قوله سبحانه: **{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** عند الجمهور أن هذه الآية المقصود

بها صنف واحد، وهي من طلقت قبل الدخول بها واجتمع فيها هذا الوصفان {مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً} أي: صداقاً، فإنها تستحق المتعة بالإجماع جبراً لخاطرها، ويبقى الخلاف في الأنواع الأخرى هل تجب المتعة لكل مطلقة كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] أم لا؟ وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

وبالنسبة لابن جرير -رحمه الله- فيرى أن الآية جاءت لتقرر حكمين بالنسبة للنساء غير المدخول بهن، الأول: المرأة التي سمى لها صداقاً فهذه يجوز للرجل أن يطلقها، وتعطى نصف الصداق المسمى، الثاني: المرأة التي لم يسم لها صداقاً فيجوز له أن يطلق، ولا تستحق مهراً، وإنما تعطى شيئاً لجبر خاطرها، وهو المتعة، والله أعلم.

وقد روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد وأبي أسيد -رضي الله تعالى عنهما- أنهما قالا: تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أميمة بنت شراحيل، فلما أُدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازِقيين[1].

لم يأت في تحديد المتعة شيء من الكتاب ولا من السنة، وثبت عن بعض أهل العلم تحديد أعلى المتعة وأدناها، ولكن هذا لا دليل عليه، وقال بعضهم: ينظر في المتعة إلى حال المرأة وما يصلح لمثلها غنىً وفقراً، لكن الله -عز وجل- لم يربط المتعة بحال المرأة وما يصلح لها، وإنما علق المتعة بالزوج بحسب حاله من عسر ويسر وغنىً وفقر، مصداق ذلك ما ذكره الله -عز وجل- بقوله: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ} يعني على من وسع الله -عز وجل- عليه رزقه، ومن ضيق عليه رزقه بحسب استطاعته، فذلك بحسب العرف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} المراد بالإحسان في الآية الإحسان الواجب، ومن ذلك إعطاء المتعة لهذه المطلقة غير المدخول بها ولم يسم لها الصداق، وهذا أحسن ما يقال فيه، والله أعلم.

ومثله ما قاله الله –عز وجل- في عموم المطلقات: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] فلقد فهم بعض أهل العلم أن الإمتاع لا يجب على الرجل؛ لأن الله -عز وجل- إنما أناطه بصنف من الناس وهم المتقون، وليس كل الناس من المتقين، وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن التقوى واجبة على الناس جميعاً، وقد خاطب الله –عز وجل- جميع الناس بها، فقال -جل من قائل-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...} [(١) سورة النساء]،

وأما قوله: "ثوبين رازِقيين" أي: ثوبان أبيضان من الكتان.

{وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٣٧) سورة البقرة]، **وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثمّ واجب آخر من متعة لبيّنها، لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم.**

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق برقم (٤٩٥٧) (٢٠١٣/٥).

وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق.

المطلقة قبل الدخول وقبل تسمية الصداق، هذه تجب لها المتعة بالإجماع بنص الآية، ولكن اختلف العلماء في المرأة التي طلقت قبل الدخول وقد سمي لها الصداق هل تجب لها المتعة أم لا؟

ذهب كثير من أهل العلم أن هذه لا متعة لها وإنما تعطى فقط نصف الصداق واستدلوا بقوله سبحانه: **{وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ }** فذكر الله نصف المهر المسمى ولم يذكر المتعة.

وقالت طائفة: إن المتعة واجبة على عموم المطلقات، و"أل" في المطلقات للجنس تفيد العموم، وقالوا: إن القرآن كله كنص واحد، فما ذكر في موضع فإن ذلك يغني عن تكراره في كل موضع، ولهذا يقول الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-لما اجتمع عليه نساؤه للمطالبة بزيادة النفقة والتوسعة عليهن كما في سورة الأحزاب: **{فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}** [(٢٨) سورة الأحزاب] والسراح وإن اختلف أهل العلم في معناه، إلا أن الأقرب أن المراد به الطلاق بقرينة ذكر المتعة معه، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-؛ لأن الطلاق لا أذية معه، وبهذا الاعتبار لو وقع عليهن الطلاق فإنه يكون بعد الدخول، ورغم ذلك فقد نصت الآية على فرض متعة لهن، وهذا القول ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-.

والقائلون بالاستحباب، قالوا: إن الله -عز وجل- لم يذكر المتعة في الآية لمن سمي لها الصداق وطلقت قبل الدخول، وأيضاً قال: **{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}** [(٢٤١) سورة البقرة]، فخص به المتقين دون غيرهم، وسبق الجواب على هذا الإشكال.

وقال بعضهم: إن المرأة لا تستحق المتعة إلا إن كانت مطلقة قبل الدخول ولم يسم لها الصداق، والله أعلم.

مسألة:

المرأة الحامل إذا وضعت حملها بعد أن مات زوجها، فهل يجوز لها أن تغسّله؟

جمهور العلماء على جواز غسل المرأة لزوجها بل قد حكي عليه الإجماع وحكاه ابن المنذر وابن عبد البر وابن رشد وغيرهم، وقال الإمام أحمد: ليس فيه اختلاف.

وتبقى مسألة إذا مات الزوج عن المرأة وهي حامل ثم وضعت الحمل وانقضت عدتها بذلك، هل يجوز لها أن تغسّله؟ اختلفوا في ذلك على مذاهب.

الأول: أن لها أن تغسله حتى ولو انقضت عدتها بوضع الحمل، وهو مذهب المالكية والمشهور عند الحنابلة والشافعية.

قال ابن القاسم في المدونة: ولو مات عن امرأته وهي حامل، فوضعت قبل أن يغسل لم يكن بأس أن تغسله، وإن كانت عدتها قد انقضت، وليس يعتبر في هذا العدة، ولا يلتفت إليها، ولو كان ذلك للعدة ما غسل الزوج امرأته؛ لأنه ليس في عدة منها.

وقال: الدردير في الشرح الكبير: وقدم على العصبة الزوجان، يعني في التغسيل، إلى أن قال: أو إن وضعت الزوجة بعد موته فيقضي -أي الحاكم- لها به، أي بتغسيله؛ لأنه حكم ثبت بالزوجية فلا يتقيد بالعدة كالميراث.

وقال الشربيني في مغني المحتاج: تغسل المرأة زوجها وإن انقضت عدتها وتزوجت.

وقال النووي في روضة الطالبين: إلى متى تغسل زوجها؟ قال: فيه ثلاثة أوجه، أصحها أبداً.

وقال البهوتي في شرح المنتهى: ولما انقضت عدتها بوضع عقب موته ما لم تتزوج.

وقال المرداوي في الإنصاف: وكذا لو ولدت عقب موته على الصحيح من المذهب، أي: أن لها أن تغسله.

ولاحظ أن الصحيح عند الشافعية أن لها ذلك أبداً، وعند الحنابلة يقيد ذلك بعدم الزواج.

المذهب الثاني: أنه لا يجوز لها أن تغسله وهو مذهب الحنفية ووجه عند الشافعية ووجه عند الحنابلة وذكره الشيخ/ محمد بن عثيمين -رحمة الله عليه- في الشرح الممتع.

قال الكاساني في بدائع الصنائع: إلا المرأة لزوجها، أي يجوز لها أن تغسله إذا لم تثبت البينونة بينهما حال الحياة ولا حدث بعد وفاته ما يوجب البينونة، وقال: لأن إباحة الغسل مستفادة بالنكاح، فتبقى ما بقي النكاح، والنكاح باق بعد الموت إلى انقطاع العدة.

وقال ابن نجيم في البحر الرائق: قال في المحيط: لو مات عنها وهي حامل فوضعت لا تغسله لانقضاء عدتها.

وقال النووي في روضة الطالبين: إلى متى تغسل زوجها؟ فيه ثلاثة أوجه، سبق ذكر الأول، قال: الثاني: ما لم تنقضِ عدتها بأن تضع حملاً عقيب موته، والثالث: ما لم تتزوج.

وحَكى هذا القول وجهاً عند الحنابلة ابن مفلح في الفروع والمرداوي في الإنصاف، قال الشيخ/ محمد بن عثيمين -رحمة الله تعالى عليه- في شرح الممتع: مسألة: لو مات زوج عن زوجته الحامل قبل أن يغسل فهل لها تغسيله؟ قال: الجواب: ليس لها ذلك؛ لأنها بانت منه حيث إنها انقضت عدتها قبل أن يغسل فصارت أجنبية منه.

فملخص المسألة: أن بعض العلماء وهو الحنفية يقيدون جواز تغسيل المرأة بالعدة، وبعضهم يقيد ذلك بالزواج، والآخرون يجيزون ذلك مطلقاً، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {إِلاَّ أَن يَعْفُونَ} أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء.

قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِلاَّ أَن يَعْفُونَ} قال: إلا أن تعفوا الثيب فتدع حقها.

قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم -رحمه الله-: وروي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخرساني والضحاك والزهري ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك.

وقوله: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} قال ابن أبي حاتم: روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وليُّ عقد النكاح الزوج))[1]، وهكذا أسنده ابن مردويه، واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول: أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير فكذلك في الصداق.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا إشكال عند أهل العلم في أن مراد قوله سبحانه: **{إِلاَّ أَن يَعْفُونَ}** أي: النساء، والمعنى أن لها الحق في إسقاط ما لها من نصف الصداق، سواء وقع المهر في يدها، أو كان ديناً في ذمته، وذلك لا ينافي إطلاق العفو عليه.

وأختلف أهل العلم في المراد من قوله سبحانه: **{أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}** فقالت طائفة: إن المراد به الزوج، وذلك أن العصمة بيده فهو إن شاء طلق وإن شاء أمسك، وعضدوا رأيهم بأنه صار بذلك يقابل الطرف الآخر وهي المرأة، فيكون -بهذا الاعتبار- العفو واقعاً من أحد الطرفين –المرأة أو الرجل-، واستدلوا بالحديث المتقدم: ((وليُّ عقد النكاح الزوج))، وهذا هو قول عامة أهل العلم، وحديث عمرو بن شعيب لو صح لكان رافعاً للخلاف، ولكن هذا الحديث في سنده ابن لَهِيْعة وفيه كلام.

وقالت طائفة: إن الذي بيده عقدة النكاح ولي المرأة كالأب أو الأخ أو ابن العم ممن له ولاية عليها، ومن لازم هذا القول أن يصير الولي متصرفاً في مهر المرأة، فله الحق أن يسقطه وله أن يثبته وهذا فيه إشكال؛ لأن الولي لا يملك حق التصرف في مال غيره، ولذلك لجأ بعضهم إلى حمله على لون من النساء في الولاية

---

[1] سنن الدارقطني برقم (١٢٨) (٣/٢٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٤٨٤٤) (٧/٢٥١).

عليهن، فبعضهم قال: هي الصغيرة، وبعضهم قال: هي البكر، وهذا من التأويلات البعيدة؛ لأن الآية جاءت بالاسم الموصول "الذي" وهو يفيد العموم كما هو معلوم، فلا يخص ذلك ولياً دون ولي، وإنما تشمل عموم الأولياء، فالمقصود أن الرجل الولي لا يملك شيئاً من المهر، وإلا كان مدخلاً له للتسلط على أموال النساء وحقهن في مقابل البضع وهذا غير صحيح، فالمهر حق ثابت للمرأة لا يتصرف فيه الولي إلا وفق رضاها والرجوع إليها سواء كانت بكراً أو ثيباً، وهذا مما يضعف هذا القول، ويرجح ما عليه عامة أهل العلم أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، فهما طرفان متقابلان –الرجل والمرأة- إلا أن يعفو هذا أو يعفو الآخر.

وقوله: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو.

فكل عفو واقع من أحد الطرفين فإن ذلك أقرب للتقوى، سواء وقع ذلك في الصداق، أو في غيره من الحقوق كالمظالم التي تكون بين الناس والإساءة، وما أشبه ذلك، فالله يقول: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(٣٤) سورة فصلت] وقال الله -عز وجل- في القصاص: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} [(٤٥) سورة المائدة]، وكذلك أيضاً في الديون لما قال: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٨٠) سورة البقرة] فإسقاط مثل هذه الحقوق سواء تعلقت بالمال، أو بالعرض أو نحو ذلك فهذا أقرب للتقوى.

وكذا روي عن الشعبي وغيره، وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري: الفضل هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها.

ولهذا قال: {وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} أي: الإحسان، قاله سعيد.

فمن الإحسان أن يكمل الرجل للمرأة بقية المهر، أو أن تسقط المرأة نصف الصداق الذي وجب لها، بالعفو، فهذا المراد به أن يتفضل كل طرف على الآخر.

{إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله.

ومن ذلك ما يتعلق بهذه الحقوق والتفضل فيها، فالله -عز وجل- يجزي هذا الإنسان المتفضل المتصدق، وهو بصير به، عالم بحاله، مطلع على عمله لا يَضِيع منه شيء، وفي المقابل يجازي من قصر في عمله وتوانى في الحقوق، وتساهل في الإيفاء.

{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٨-٢٣٩) سورة البقرة].

ما وجه المناسبة بين هذه الآية، وبين الآيات التي قبلها والتي بعدها التي تحدثت عن الطلاق وأحكامه، والعِدد..؟

يمكن القول: إنه أورد ذكر الصلاة بين هذه الأحكام؛ ليدل على أن الاستعانة بالصلاة سبب للخروج من المشكلات التي تقع بين الناس، ودافعة للهموم والآلام والمصائب، والنكد والكمد، وكذا ما يقع بين العشيرين –الزوجين- بحاجة إلى صبر، ومما يعين على ذلك المحافظة على الصلاة.

وبعضهم قال: إن الله –عز وجل- لما بيّن طرفاً من حقوق الخلق التي غالباً ما تقع فيها المشاحة في هذه الآيات، رجع ليبيّن حقاً يخصه فأرشدهم إلى أمر يحصل به حسن الصلة به ألا وهو الصلاة، وهذا الاستنباط يسمى عند العلماء بعلم المناسبة، وهو ليس على مرتبة واحدة، فمنه ما يكون كالشمس يلوح في الظهور والوضوح، ومنه ما يكون دون ذلك، ومنه ما يكون متكلفاً، فمثل استنباط هذه المناسبة من إيراد آيات المحافظة على الصلاة بين هذه الأحكام ليست من القوة والمرتبة والدرجة بمكان، وليس فيها ذلك التكلف، إنما هو وجه من النظر محتمل، ولا ينبغي أن يجزم به، والعلم عند الله.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها، وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))، قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)). قال: حدثني بهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو استزدته لزادني[2].

وخص –تعالى- من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر.

قوله سبحانه: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ} يشمل جميع الصلوات، وخص الوسطى من قبيل عطف الخاص على العام، وهذا التخصيص بذكر أحد أفراد العام إنما يكون لأهميته ولفضله أو نحو ذلك، ومثله قوله سبحانه: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(١٦٣) سورة النساء] فخص هؤلاء الأنبياء دون غيرهم، وقوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٨) سورة البقرة] فخص بالذكر جبريل وميكال؛ ليبين أن لهم مزية خاصة.

{والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} الوسطى: تأنيث الوسط، ويأتي بمعنيين:

يأتي بمعنى أعدل الشيء وخير الشيء كما قال سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة]، أي: عدولاً خياراً.

ويأتي الوسط للواقع بين الطرفين، وهذا في الأمور المعدودة والمحسوسة وما أشبه ذلك.

فإذا فسر بالأول يكون المقصود بالصلاة الوسطى، يعني التي هي أفضل الصلوات، وأعظم الصلوات، ولهذا جاء في التخلف عنها والتحذير من تركها قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))[3]، وقوله: ((من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله))[4].

ويمكن تفسيرها على المعنى الآخر باعتبار أن قبلها صلاتين في أول النهار-الفجر والظهر-، وبعدها صلاتين من الليل –المغرب والعشاء- فهي في الوسط بهذا الاعتبار.

وخص –تعالى- من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر.

---

[2] - رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة –باب فضل الصلاة لوقتها برقم (٥٠٤) (١٩٧/١)، ومسلم في كتاب الإيمان –باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (٨٥) (٨٩/١).

[3] - رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب إثم من ترك العصر برقم (٥٢٨) (٢٠٣/١).

[4] - رواه النسائي برقم (٤٧٨) (٢٣٧/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٤٧٨).

قال الترمذي والبغوي -رحمها الله-: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم.

وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين.

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر.

وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: وهو قول جمهور الناس.

وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى: بـ" كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى" وقد نص فيه أنها العصر.

وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عباس وعائشة -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، على الصحيح عنهم، وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعي ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وعبيد بن أبي مريم وغيرهم.

أهل العلم على خلاف في المراد بالصلاة الوسطى، حتى إن بعضهم ذكر في المسألة ثمانية عشر قولاً، لكن الصواب الذي عليه عامة أهل العلم أنها صلاة العصر، ودليل ذلك ما جاء في فضل العصر وعظيم خطر شأن المتهاون بها، مثل: حديث ((من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))...، وأن الله –عز وجل- أقسم بالعصر في كتابه الكريم، والله لا يقسم بشيء إلا لشرفه وعلو مكانته وسمو منزلته، وكذا ما جاء في تفسير قول الله -عز وجل-: **{تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ}** [(١٠٦) سورة المائدة] فقد ذكر أهل التفسير أنها جاءت في الرجل الذي حلف بعد العصر كاذباً؛ للدلالة على أن عظم شأن الحلف بعد العصر من جهة الزمان، فهذه نوع من الأدلة على أن المراد بالصلاة الوسطى العصر.

ولقد ثبت في السنة ما يؤكد أن الصلاة الوسطى صلاة العصر، من ذلك ما جاء عن بعض الصحابة كعليٍّ -رضي الله عنه- قال: كنا نراها صلاة الفجر، حتى قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في يوم الأحزاب: ((ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس))[5] يقصد صلاة العصر، فهذا الخبر نص ودلالة صريحة في أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

واستدل القائلون بخلاف ذلك بما جاء في القراءات الواردة في هذه الآية عن حفصة في مصحفها، ومصحف عائشة، وأم سلمة **{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر}** فهذا أشكلَ على كثير من أهل العلم، باعتبار أن "الواو" تقتضي المغايرة، وهذا يعنى أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، وجاء في قراءة أخرى: **{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي}** وذكر العصر، ولكن تعقب هذا القول بعض أهل العلم فقال: إن هذه القراءات التي جاءت بالعطف مما يوهم أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، جاء ما يقابلها من قراءات تدلل على أن المقصود بالصلاة الوسطى صلاة العصر، كما أن الأحاديث واضحة صريحة في ذلك كالحديث السابق: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى)).

---

[5] - رواه البخاري في كتاب الجهاد –باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة برقم (٢٧٧٣) (٣/١٠٧١)، و- رواه مسلم بلفظ ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا)) أو قال: ((حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا)) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٨) (ج ١ / ص ٤٣٧).

وقيل: إنها صلاة الظهر، واستدلوا بأن الصحابة كانوا يلقون فيها عنتاً وشدة بسبب الحر، فأنزل الله سبحانه: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [(٢٣٨) سورة البقرة] يثبتهم عليها، ومن أهل العلم من قال: العشاء والمغرب، وقيل: غير ذلك، ويلجئون إلى وجوه من النظر إلا أنها لا تكفى لمجرد الاستدلال، فلا بد أن يلجأ فيها إلى النقل، فالحاصل أن المشهور والراجح في المراد بالصلاة الوسطى أنها صلاة العصر، والله أعلم.

روى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر)).

يقول على بن أبي طالب –رضي الله عنه- -في أول الحديث-: كنا نراها الفجر، حتى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول يوم الأحزاب: ((شغلونا...)) إلى آخره.

ومن السلف من أشار إلى ملمح تربوي عن المراد بالصلاة الوسطى فقال: حافظْ على الصلوات تدركها –أي الصلاة الوسطى-، وهذا وجه في الجواب جيد؛ لأن الإنسان مأمور أن يحافظ على جميع الصلوات، فإذا حافظ عليها سيدرك الوسطى لا محالة، وهذا خير له من أن يشغل نفسه كثيراً في معرفة المراد بالصلاة الوسطى، خاصة إذ لم يكن هناك أثر ولا نتيجة ولا عمل.

((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)) ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء[6].

وكذا رواه مسلم والنسائي وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المسانيد والسنن والصحاح من طرق عن علي -رضي الله تعالى عنه-، وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-.

وجاء من حديث أم سلمة، ولكن في إسناده ضعف، وكذلك جاء من حديث حذيفة في قصة الأحزاب.

وروى الإمام أحمد عن سمرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الصلاة الوسطى صلاة العصر))[7].

هذا الحديث غير حديث قصة الأحزاب في بيان الصلاة الوسطى وفيه ضعف، ولكن يمكن أن يحسن لشواهده، ومما يشهد له ما وقع في قصة الأحزاب ((شغلونا عن الصلاة الوسطى)).

وفي لفظ: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)) وسماها لنا أنها هي صلاة العصر.

وفي لفظ آخر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي العصر))[8]، قال ابن جعفر: سئل عن الصلاة الوسطى، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

---

[6] - أصل الحديث عند مسلم - رواه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم (٦٢٧) (٤٣٦/١)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (٩١١) (١١٣/١).

[7] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٠١٤١) (١٢/٥)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه: صحيح لغيره رجاله رجال الصحيح.

إذا ثبتت صحة هذا الحديث فالقاعدة في التفسير إن ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء فلا التفات إلى قول أحد معه، لكن من أهل العلم من لا يصحح هذا الحديث أصلاً، ويناقش بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أحد أفراد العام؛ لأنه أولى بذلك الوصف، مع أن ذلك لا ينفيه عن غيره، لكن هذا يحتاج أن يقال: الصلوات كلها وسطى، والقول بهذا واضح أنه في غاية التكلف.

وروى أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الوسطى صلاة العصر))[9].

وقد روى الترمذي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الوسطى صلاة العصر))[10] **ثم قال: حسن صحيح.**

هذه كلها شواهد إذا اجتمعت يحصل لأصل هذا الحديث قوة، فيرتقي بشواهده إلى درجة الحسن لغيره، والله أعلم.

وأخرجه مسلم في صحيحه ولفظه: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر...))[11] **الحديث.**

في وقعة الأحزاب، والأحاديث المرفوعة جاءت عن جماعة من الصحابة كابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر، وأبي مالك الأشجعي وغيرهم.

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح، عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله))[12].

يعني كأنه سلب أهله وماله.

وفي الصحيح عن بريدة بن الحصيب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بكروا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))[13].

قوله هنا: "بكروا بالصلاة في يوم الغيم" هذا من كلام بريدة بن الحصيب -رضي الله عنه-، جاءت هذه الرواية صريحة عند البخاري أن بريدة -رضي الله تعالى عنه- قال لهم: بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر الحديث، فليعلم.

وأما بالنسبة للمراد من قوله -صلى الله عليه وسلم- ((فقد حبط عمله)): فقد أورد الحافظ ابن حجر كعادته أقوالاً كثيرة في تبيين المقصود قال: فمنهم من يقول: أي حبط عمله الدنيوي الذي اشتغل به، وضيع الصلاة من أجله، إن كان تجارة فقد بطلت وذهبت بركتها وما أشبه ذلك، وفيه تكلف.

---

8 - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٦٨١) (٦/٣٣٨).

9 - رواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٧٤٦) (٥/٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

10 - رواه الترمذي برقم (١٨١) (١/٣٣٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٢٨٢).

11 - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة -باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم (٦٢٧) (١/٤٣٦).

12 - سبق تخريجه.

13 - سبق تخريجه.

وبعضهم يقول: فقد حبط عمله الذي يعمله في ذلك الوقت، إن كان عمل عملاً صالحاً فهو مخصوص بهذا، وهذا الكلام لا دليل عليه؛ لأن الأصل أن العمل مفرد مضاف إلى الضمير، ومعلوم أن المفرد المضاف من صيغ العموم، كما قال سبحانه: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل] يعني نعم الله، و{أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــور] أي أو أصدقائكم، وأشباه ذلك.

والصواب أن هذا الحديث من نصوص الوعيد لا يتعرض له بتفسير؛ لئلا يرتفع الزجر المقصود من الحديث بالتأويلات والمحامل التي تضعف أثره في النفوس، وهذا وجه مشى عليه جماعة من أهل العلم، والإمام أحمد كان لا يرى التعرض لمثل هذه النصوص، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن حجر –رحمه الله-.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} [(٢٣٨) سورة البقرة] أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة اعتذر إليه بذلك وقال: ((إن في الصلاة لشغلاً))[1]، وفي صحيح مسلم أنه -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاوية بن الحكم السُلمي حين تكلم في الصلاة: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله))[2].

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}، فأمرنا بالسكوت،[3] رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد أورد بعض المفسرين في معنى القنوت ثلاثة عشر قولاً، وهذا الاشتراك في اللفظ مع الاختلاف في المعنى يعرف عند الأصوليين بالمشترك اللفظي، بحيث يكون للفظ في كل موضع معنى يفهم من السياق، ومدلولات الألفاظ قد تختلف بحسب الإفراد والتركيب كما هو مقرر عند علماء التفسير.

ولا شك أن استعمال هذه اللفظة في بعض المواضع يكون أعلق ببعض المعاني من المواضع الأخرى، فهنا جاء ذكر القنوت بعد أمر الله -عز وجل- عباده بالمحافظة على الصلاة، قال سبحانه: **{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى}** ثم قال: **{وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}**، مما يؤكد أن هذا الأمر يتصل بالصلاة، ولذا فسر بعض السلف القنوت في الصلاة بمعنى السكوت، وهذا المعنى من أقرب ما يفسر به القنوت في الآية، ذلك لأن الرواية جاءت نصاً في هذا المعنى، فقد كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية سكتوا، ولا يمكن الجزم بذلك؛ وذلك لأنه جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[4]، قال أهل العلم المقصود به: طول القيام، فلا يمكن أن يفسر هذا الحديث بطول السكوت؛ لأن السكوت لازم في

---

[1] - رواه أبو داود في سننه برقم (٩٤٢) (١/٣٤٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٩٢٣).

[2] - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة –باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٧) (١/٣٨١).

[3] - أصله في الصحيحين - رواه البخاري في كتاب أبواب العمل في الصلاة –باب ما ينهى من الكلام في الصلاة برقم (١١٤٢) (١/٤٠٢)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة –باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٩) (١/٣٨٣)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (١٩٢٩٧) (٤/٣٦٨).

[4] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب أفضل الصلاة طول القنوت برقم (٧٥٦) (١/٥٢٠).

الصلاة بإطلاق، وهذا مما يدلل على أن السياق هو الذي يبين المعنى من بين المعاني المتنوعة بما هو أعلق به في المقام.

وأحياناً في بعض المواضع لا بد من الترجيح، وتارة يمكن الجمع بين هذه المعاني التي تواردت على اللفظ الواحد، ولشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- رسالة خاصة في القنوت ضمن بعض المجاميع، خرج فيها بنتيجة -بعد استقراء هذه اللفظة ودلالاتها في القرآن- أن القنوت يرجع إلى معنى واحد، وهو: دوام الطاعة، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أن المراد من القنوت في الآية الخشوع والاستكانة بين يدي الله -عز وجل-، وقال: هذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، فمراده أن هذا إنما هو معنىً من معاني القنوت وإلا فله معانٍ أخرى، فقد فسر القنوت بالطاعة، وفسر بالخشوع، والاستكانة، والسكون، والسكوت، وطول القيام ...، وأما طريقة الجمع فيمكن أن يقال: إن الله -عز وجل- أمر أن يقوموا لله قانتين: أي مطيعين، ويدخل في هذه الطاعة السكوت في الصلاة وطول القيام والسكون والخشوع ...، وكل ما أمر الله -عز وجل- به فهو داخل تحت الطاعة، وهذا ما اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، إذ أدخل جميع هذه المعاني تحت الآية؛ باعتبار أن جميعها يدخل في طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولهذا جاء أثر عن مجاهد -رحمه الله- يؤيد هذا، يقول: "من القنوت الركوع والخشوع وطول الركوع -يعني القيام-، وغض البصر، وخفض الجناح والرهبة..." فكل هذه المعاني أدخلها مجاهد في القنوت، وقول مجاهد هذا موافق لما ذكره ابن جرير -رحمه الله-، وهذا من التفسيرات الحسنة عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- التي توضح سعة نظرهم وشمول تفسيرهم للمعاني التي تحتملها الآية، وأنهم حينما يذكرون أحد هذه المعاني في كثير من الأحيان فإنما يقصدون بذلك التقريب والتمثيل لا الحصر، والله أعلم.

وقوله: {فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٩) سورة البقرة]، **لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل وهي حال القتال والتحام الحرب فقال: {فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا} أي: فصلوا على أي حال كان، {رِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا} يعني: مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.**

يعني هذا من باب اللازم -مستقبلي القبلة وغير مستقبليها-، وإلا فأصل معنى {رِجَالاً} الذين يسيرون على أقدامهم كما قال سبحانه: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا} [(٢٧) سورة الحـج] يعني على أرجلهم راجلين، {أَوْ رُكْبَانًا} يعني كل من ركب شيئاً فإنه يقال له: راكب، والخلاصة أنه رخص لهم ذلك في حال الحرب، فمن مقتضيات ذلك أنهم يصلون على أحوال مختلفة من حيث جهة الاستقبال، والله أعلم.

كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورواه البخاري -وهذا لفظه- ومسلم.

إذا كان الناس يستطيعون أن يصلوا صلاة الخوف في حالة عدم المواجهة على الهيئات الواردة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- جماعة مع استقبال القبلة فهذا هو المطلوب، وأما في حال المواجهة فلا يمكن أن يصلوا جماعة بالطريقة التي وردت، فعندئذ يصلون فرادى بحسب ما يتيسر لهم.

وروى مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم -صلى الله عليه وسلم- في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وبه قال الحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم.

هذا قول معروف لطائفة من السلف فقد جعلوا الركعة تجزئ عن الفرض في حال الالتحام والخوف الشديد، وخالف الجمهور في ذلك فقالوا: إن الصلاة لا تختصر في الخوف، فإذا لم يتيسر له الركوع فيومئ إيماء، وإذا لم يتيسر له الإيماء فهل يصلي بمجرد التكبير وهو قائم؟ خلاف بين أهل العلم فمنهم من يرى أنه يصلي؛ واستدلوا بقوله سبحانه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن]، ومنهم من يرى أنه لا يصلي ولو خرج الوقت، ويحتجون على ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم الأحزاب لم يصل العصر إلا بعد غروب الشمس، واستدرك هذا الدليل بأنهم لشدة ما وقع عليهم في ذلك الموقف كأنهم نسوا الصلاة، أو كأنهم شغلهم العدو عنها فلم يتفطنوا لها، وهذا واضح جلي من رواية الحديث.

وبعض أهل العلم مثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: لا أحب له أن يختصر الصلاة إلى ركعة واحدة، فإن اضطر إلى ذلك فتجزئه ركعة ذات سجود وركوع.

وقال البخاري: باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو.

وقال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُستَر

في بلاد فارس.

عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصلِّ إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها، هذا لفظ البخاري.

وقوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ} [(٢٣٩) سورة البقرة] أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها.

{فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [(١٠٣) سورة النساء]، وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ} [(١٠٢) سورة النساء].

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(٢٤٠-٢٤٢) سورة البقرة] **قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [(٢٣٤) سورة البقرة].**

الجمهور من المفسرين والفقهاء على القول بأن التربص لمدة سنة منسوخ بالأربعة الأشهر والعشر، وهذا النسخ جرى على غير العادة؛ لأن الناسخ يأتي بعد المنسوخ في ترتيب المصحف، بخلاف هذه الآية؛ فالذي نسخها جاء قبلها في ترتيب المصحف، ولكن هذا ليس في النزول قطعاً؛ لأن النسخ هو رفع الخطاب الشرعي المتقدم بخطاب متأخر متراخ عنه، فلا يمكن أن يكون معه، فكيف يكون قبله، فهذا في الترتيب، وترتيب الآيات كما هو معروف توقيفي، فتنزل الآية فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ضعوها في مكان كذا.

وأما الوصية في قوله: {وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فذهب عامة أهل العلم إلى أنها منسوخة بآية المواريث، فصار لها من الميراث الثمن والربع مما ترك الزوج.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فيقول بأن هذه الآية لم تنسخ فيها الوصية إلى الحول، وإنما ذلك على سبيل الاستحباب فقط لا الوجوب، والأقرب: أنها منسوخة، والله أعلم.

روى البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها -أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها، فأجابه أمير المؤمنين: بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة فنسختها آية المواريث، فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج.

القراءة في قوله سبحانه: {وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم} جاءت بالرفع وبالنصب، فمن قرأها بالنصب قدر في إعرابها فعلاً محذوفاً تقديره: فليوصوا وصية، أو أوصى الله وصية، أو كتب الله عليهم وصية، والمعنى أن الله -عز وجل- يطالب الأزواج أن يوصوا قبل موتهم لزوجاتهم أن يمتعن في بيوتهم سنة تجرى عليهن النفقة ولا يخرجهم الورثة، وعلى قراءة الرفع {وصيةٌ لأزواجهم} تعرب مبتدأ والخبر لأزواجهم، ويكون المعنى أن عليهم وصية تلزمهم لأزواجهم وهي إمتاعهن سنة في بيوتهم، وأكثر الأقوال والتقديرات ترجع إلى الأول.

ولعل من أدق ما قيل في معناها -وهو المتبادر من ظاهر الآية- هو ما ذكره ابن جرير الطبري -رحمه الله- بأن المعنى: كتب الله لأزواجهم عليكم وصية منه لهن أيها المؤمنون ألا تخرجوهن، فالخطاب لأهل الإيمان من الورثة والأولياء، ومن يتحاكمون ويتراجعون إليه، فهم مأمورون بأن ينفذوا ما ذكر الله -عز وجل-، وذلك ليس على سبيل اللزوم بالنسبة للمرأة في أول الأمر، لكن ذلك يلزم الورثة ومن بيده ذلك كالوصي والوكيل ومن يتراجعون إليه ويتحاكمون كالقاضي.

قوله سبحانه: {مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}: يمكن أن يكون منصوباً بفعل محذوف والتقدير: أي متعوهن متاعاً إلى الحول، أو جعل الله لهن ذلك متاعاً، ويمكن أن تقدر على الحال.

قوله: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ} يمكن أن يكون هذا حالاً: أي غير مخرجات، والمعنى متعوهن إلى الحول غير مخرجات، أو مخفوض بنزع الخافض والتقدير أي: من غير إخراج، والله أعلم بالصواب.

وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته، اعتدت سنة في بيته يُنْفَق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [(٢٣٤) سورة البقرة] فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال: {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ} [(١٢) سورة النساء] فبيّن ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة.

قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا: نسختها {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}.

وروى البخاري عن مجاهد: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٤٠) سورة البقرة] قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}.

وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ}.

المقصود بالعدة عند أهلها، أي: أهل زوجها، ويشهد لهذا أثر مجاهد السابق قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، ولكن نُسخ وجوب أمر العدة في بيت زوجها، فلها أن تعتد في بيت أبيها، أو في بيت آخر تملكه، أو غير ذلك.

قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ} قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها، وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلَّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت فهذا محل خلاف بين الأئمة، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطئه عن زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري -رضي الله عنهما-، أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبُدٍ له أبقوا حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أمر بي فنوديت له، فقال: ((كيف قلت؟)) فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: ((امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله)) قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت:

فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته، فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وجاء في بعض الروايات: أن نعْيه بلغها وهي في دور بعض الأنصار شاسعة عن أهلها –بعيدة-، فلم تكن في بيت زوجها، وهو لم يترك لها داراً ولم يترك لها مالاً، فأخذ منه عامة أهل العلم أن المرأة إنما تعتد في البيت الذي بلغها فيه نبأ وفاة الزوج.

وأما قوله: **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَعْرُوفٍ}** هذا بناء على أنها كانت مخيرة، فإن خرجت في أثناء العدة فلا جناح عليكم أيها الورثة بهذا الخروج إذا كان لغير معصية الله -عز وجل- من معروف لا يزري بها أو بأهلها، وإلا فإنها تمنع ويؤخذ على يدها.

وقوله: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] **قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله تعالى: {مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** [(٢٣٦) سورة البقرة]**، قال رجل: إن شئتُ أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة.**

وأيضاً يحتج بها من ذهب إلى استحباب المتعة لكل مطلقة لا الوجوب، وعللوا ذلك بأن المطلقة قبل الدخول بها تعطى نصف الصداق المسمى لها، كما قال الله –عز وجل-: **{فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}** [(٢٣٧) سورة البقرة] فيكفيها ما أخذت، وأن الله –سبحانه- لم يسم لها متعة في الآية، فلا تستحقها، وعمموا هذا الحكم على المرأة التي طلقت بعد الدخول بها؛ لأنها أخذت من المهر في مقابل ما استحل من بضعها، فلا تستحق معه شيئاً.

لكن الذي يظهر أن الرجل مطالب بأن يمتع المرأة المطلقة شيئاً يجبر خاطرها به، سواء كانت تلك المرأة مطلقة قبل الدخول، أو بعد الدخول؛ لأن الله -عز وجل- عم ذلك بقوله: **{وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ}**، وتعقب على القائل بأن تلك الحالة ذكرت بمفردها ولم تذكر في بعض صور الطلاق، وبأن الله -عز وجل- قد يذكر الحكم في موضع ولا يلزم منه أن يورده في جميع المواضع، والله تعالى أعلم.

قوله سبحانه: **{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}** مفهوم المخالفة في الآية غير مراد، فلا يجعل المعنى: أن هذا الحق على المتقين، أما غير المتقين فلا يجب عليهم؛ لأن التقوى منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، وهذا الأمر بالإمتاع في الآية من تقوى الله الواجبة.

سواء كانت مفوِّضة أو مفروضاً لها.

المفوِّضة: هي التي لم يفرض لها صداق معين فهذه تعطى المتعة بنص الآية.

أو مطلقاً قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف، واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: {لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [(٢٣٦) سورة البقرة] **من باب ذكر بعض أفراد العموم.**

وقوله: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} [(٢٤٢) سورة البقرة] أي: **في إحلاله وتحريمه، وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** أي: **تفهمون وتتدبرون.**

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١٠٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [(٢٤٣-٢٤٥) سورة البقرة]**: "روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان، وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط، وروى وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا، فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله -عز وجل-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} الآية".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالاستفهام في هذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ} استفهام تقريري، والرؤية المذكورة رؤية قلبية، بمعنى العلم.

والباري سبحانه إنما أورد هذه القصة ليبين لهم قدرته على إحياء الموتى، وللتدليل على إمكانية البعث بعد النشور الذي أنكره المشركون من قريش وغيرهم، وقد ذكر الله –عز وجل- قدرته على ذلك في خمسة مواضع من سورة البقرة:

الموضع الأول: قوله سبحانه: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٦) سورة البقرة].

الموضع الثاني: قوله سبحانه: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(٧٣) سورة البقرة] والمعنى: أن الله سبحانه أمرهم بضرب القتيل الذي اختلفوا في قاتله ببعض البقرة التي أُمر بنو إسرائيل بذبحها، فضربوه بجزء منها، فرد الله عليه روحه فتكلم وأخبرهم بقاتله، وبين سبحانه أن في هذه القصة دليلاً على إحيائه الموتى لذوي العقول.

الموضع الثالث: قوله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} [(٢٤٣) سورة البقرة].

الموضع الرابع: قوله سبحانه: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} [(٢٥٩) سورة البقرة].

الموضع الخامس: قوله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٦٠) سورة البقرة]، فهذه خمسة مواضع ذكرها الله -عز وجل- في الإحياء بعد الإماتة، وهذا الاستدلال ما هو إلا نوع من الأدلة القرآنية التي يستدل بها على البعث والإحياء بعد الإماتة.

ومن أنواعه: الاستدلال على إحياء الأرض بعد موتها بالبعث بعد النشور كما قال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٣٩) سورة فصلت].

والآية إنما سيقت لبيان معنى وهو الحث على الجهاد، فلا يترك من أجل استبقاء النفوس والمهج، فإن الآجال لا بد أن تقع كما حددها الله -عز وجل- دون أن تتقدم أو تتأخر، فهؤلاء لما فروا من الموت {فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}.

ولا بد من العلم أن هذه الروايات التي ذكرها ابن كثير والتفاصيل لا دليل عليها، ولا طائل من تحتها وهي مما أخذ من بني إسرائيل فلا سبيل للوصول إلى معرفة أسانيدها، ثم إن بينها من التناقض ما لا يخفى على مطّلع، مما يؤكد دخول التحريف والكذب في هذه الروايات، فيحسن عدم الاعتماد عليها في التفسير والنقل. والله أعلم.

"وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملئوا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهما صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، والدلالات الدامغة، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد، ومن هذا القبيل الحديث

الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- خرج إلى الشام حتى إذا كان بصرح لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه))[1]، فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في الصحيحين".

الشاهد من الرواية قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه))، لأن هذا الخروج لن ينفعكم، وما بعده لا يعارضه فهذا من باب بذل السبب، مع أن المقدر لابد أن يقع، ولذا يحكى أن أعرابياً لما رأى الموتى في القرى خاف، فسأل: كيف السبيل إلى التوقي منه؟ فقيل له: إن القرى يكثر فيها الوباء وعليك بالبوادي، فخرج إلى البادية، يطلب العافية، فوجد قبرين عند كثيب، فقال:

ونبأتماني أنما الموت في القرى فكيف وهذي هضبة وكثيب

وصدق الله: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٨) سورة النساء].

"وقوله: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٤٤) سورة البقرة]، أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد، وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٨) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٧-٧٨) سورة النساء]، وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء، يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [(٢٤٥) سورة البقرة] يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، ولقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى: من يقرض غير عديم ولا ظلوم".

أصل القرض في كلام العرب: هو كل ما يلتمس عليه الجزاء، ثم شاع استعماله في المعنى المعروف بالقرض، وهو غير خارج عن هذا؛ إلا أنه إذا كان القرض بمقابل من زيادة يحتسبها المقرض، فإن ذلك هو الربا، جاء في الحديث ((كل قرض جر نفعاً فهو ربا))، وأما إذا كان يحتسب بذلك الجزاء عند الله -عز وجل- في الآخرة فهو المقصود المراد في الآية، والله أعلم.

---

[1] رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب الطب -باب ما يذكر في الطاعون برقم (٥٣٩٧) (٢١٦٣/٥)، ومسلم في كتاب السلام -باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها برقم (٢٢١٨) (١٧٣٧/٤)، ورواه أحمد في مسنده برقم (١٦٨٣) (١٩٤/١).

"وقوله: {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} كما قال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ} [(٢٦١) سورة البقرة] الآية، وسيأتي الكلام عليها.

وقوله: {وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} أي أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي يوم القيامة".

والمعنى أن هذه النفقة ليست هي التي يحصل بسببها الإقلال، وإنما ذلك يرجع إلى تقدير الله -عز وجل-، وحكمته الباهرة وبصريته النافذة في خلقه.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [(٢٤٦) سورة البقرة].

الاستفهام في أول الآية تقريري، والرؤية قلبية علمية كما تقدم.

وقوله سبحانه: {إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ} الملأ المراد بهم أشراف الناس، وعِلية القوم، قيل في سبب تسميتهم بذلك؛ لأنهم يملئون صدور المجالس.

وقيل: لأنهم ملِئون بما يطلب منهم وينتظر من قضاء حاجات الناس عندهم، وقيل: سموا بالملأ لأنهم يتمالئون على الأمر، لكونهم أهل الحل والعقد، وقيل: لأنهم مُلئوا شرفاً أو غير ذلك.

وقوله سبحانه: {هَلْ عَسَيْتُمْ} عسى من أفعال المقاربة، ودخول أداة الاستفهام عليه إنما هو لتقرير ما هو متوقع عنده من عدم قتالهم، والإشعار بأنه كائن كما قال سبحانه: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [(٢٢) سورة محمد].

وقوله سبحانه: {إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ} قد يستشكل المعنى عند إعمال التركيب باعتبار أن أصل اللفظة وما لنا أن لا نقاتل، ولذا فإن كثيراً من أهل العلم يلغي عمل أن، ويجعلها زائدة لا اعتبار لها، فيصبح المعنى وما منعنا أو يمنعنا أن نقاتل...، وقال بعضهم: بل يمكن استبقاء أن دون إشكال ويكون المعنى: وأي شيء لنا في أن لا نقاتل، والله أعلم بالصواب.

"قال مجاهد: هو شمويل -عليه السلام-".

شمويل يعني شمعون.

"وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى -عليه السلام- على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام".

هذه الرواية من الإسرائيليات، وهي من النوع الذي ليس في شرعنا ولا في كتابنا ولا عن رسولنا ما يصدقه ولا يكذبه، ولذا فقد نص أهل العلم على أن هذه الروايات لا نؤمن بها ولا نكذبها، بل تمر كما جاءت دون التعرض لها تصديقاً وتكذيباً، والعلم عند الله.

"ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا

منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم -عليه الصلاة والسلام-، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله -عز وجل- أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل -أي سمع الله دعائي-، ومنهم من يقول: شمعون وهو بمعناه.

فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، أنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً أن لا تفوا بما التزمتم من القتال معه؟ {قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا } أي: وقد أخذت منا البلاد، وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم".

قوله سبحانه: **{وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا}** عبروا بذلك عن جميعهم والمراد من سبي منهم، وأخرج من بلده وداره، وهذا من باب أن الواقع على بعضهم كالواقع على كلهم، فيكون الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم هم السبايا الذين سباهم عدوهم، بدليل أنهم خاطبوا نبيهم وهم في أرضهم وديارهم، وهذا المعنى هو الذي ذكره ابن كثير، لكن عبارة ابن جرير -رحمه الله- أصرح منها إذ يرى أن المقصود بذلك هو من سبي منهم.

وأما بالنسبة لكونه لم يؤخذ في السبايا إلا الأبناء دون البنات، فلعل ذلك باعتبار ما هو أشرف وأعز على نفوسهم، فإنّ أخذ الأولاد مؤذن بالضعف وتلاشي القوة وذهاب دولتهم، فلا يبقى عندهم رجال يحمون أرضهم ونساءهم، مع أن أخذ النساء من وجه آخر أعظم وأشد، لما فيه من ذهاب العرض، ولذلك قال الله -عز وجل- عن فرعون، ممتناً على بني إسرائيل: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}** [(٤٩) سورة البقرة]، ثم فسر سوء العذاب بقوله: **{يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}** فعدّ استحياء النساء أي إبقاءهن حيات من جملة العذاب الذي يسومونهم به، لما فيه من استذلالها واسترقاقها، وتعرضها للمكروه، وتكليفها ما لا يطاق، فهذا الأمر لا يقل شناعة عن القتل والذبح، والله أعلم.

"{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٤٧) سورة البقرة] **أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا} أي كيف يكون ملكاً علينا، {وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} أي: هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقّاءً،**

وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلا: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} أي اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لمّا طلبتم مني ذلك، {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} أي: وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة، وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: {وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء} أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما فعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه".

قد لا يكون في الآية ما يستدل به على اشتراط الشكل الحسن الذي أشار إليه ابن كثير، والمتفق عليه المستنبط من الآية في صفات الملك: البسطة في العلم بمعنى السعة فيه حتى يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق كما اشترطه بعضهم، والبسطة في الجسم بمعنى اكتمال القامة، وقوة البدن، وفَوْر القوة، فيكون ذا رأي وعلم وبصر في الأمور، وقوياً يتحمل الأعباء ويتجلد في الشدائد، ويصبر عند المقارعة والنزال، سليم الأعضاء، ليس فيه عاهة تعطله من القيام بما يناط به، والناس وإن تفاوتوا في هذه الصفات، إلا أن اكتمالها من الكمالات المطلوبة في المتصدر للملك والزعامة، والله أعلم بالصواب.

"{وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٢٤٨) سورة البقرة] **يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملْك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم".**

ويمكن أن يقال: إن علامة ملك طالوت عليكم {أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ} والتابوت: صندوق أصله من التوب؛ لأنهم يرجعون إليه، وكانوا ينقلونه معهم في مغازيهم وحروبهم.

"{فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} قيل: معناه وقار وجلالة، قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {فِيهِ سَكِينَةٌ} أي: وقار، وقال الربيع: رحمة، وكذلك روي عن العوفي عن ابن عباس".

للمفسرين أقوال في المراد بالسكينة بعضها في غاية التناقض والبعد، فبعضهم صور السكينة كأنها قطة في التابوت لها عيون تشع، ولها ذيل وآذان، فإذا دقت طبول الحرب أطلت برأسها ويديها، فيُفزِع العدوَّ منظرُها وينهزمون.

وبعضهم يقول: هي ريح مثل الإعصار له رأسان، كل رأس له وجه، وقيل: إنهم يسكنون إلي التابوت فيما يتصل باختلافهم على طالوت، بحيث يرتفع ذلك الخلاف وهذا الاعتراض، ولكن هذا لا يختص بهذا المعنى، والله أعلم.

ولعل من أحسن ما يفسر به قوله: {فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أن ذلك من السكون، ففي هذا التابوت من الآيات ما تسكن إليه نفوسهم، وتقوى قلوبهم على قتال عدوهم عند رؤيته، لذا كانوا يحملونه معهم في أسفارهم ومغازيهم، ويضعونه بين أيديهم، وهذا المعنى ذكره ابن جرير في تفسيره.

{آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} آل فلان يراد بها تارة فلان نفسه، وتارة يراد بها قومه أو أهله، والمقصود بالآل في الآية موسى وهارون، وهذا له شواهد في القرآن كما قال الله -عز وجل- عن آل فرعون: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غافر] وأراد فرعون، ولكن لا يمنع أن يدخل في الآية قوم فرعون، وكذا قوله سبحانه: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٣٣) سورة آل عمران] يعني الأنبياء آدم ونوحاً وإبراهيم، وقيل غير هذا.

"{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} روى ابن جرير عن ابن عباس في هذا الآية: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}، قال: عصاه ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة، وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}، فقال: منهم من يقول: قفيز من منٍّ، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان".

استدل القائلون بأن البقية هي رضاض الألواح بحديث حسنه بعض أهل العلم؛ لأن الألواح -وكانت مكتوبة على زبرجد- لما ألقاها موسى تحطمت، فبقي منها سبعٌ ورُفع الباقي، فوضعوه في التابوت.

وقيل: إن ما بقي في التابوت ليس من موسى وهارون فقط، بل من الأنبياء الذين من نسل نبي الله يعقوب -عليه السلام-؛ لأن من نسله جاء أنبياء بني إسرائيل، والآل هم أجدادك وهؤلاء منهم فيشملهم لفظ الآل، فكان في هذا التابوت آثار لهؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل. والله أعلم.

"وقوله: {تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ} قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، قال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت.

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ} أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي بالله واليوم الآخر".

وجاء في بعض الروايات أنهم جاءوا بالتابوت تسوقه الملائكة بعربات ودواب، وهذا احتمال واضح؛ لأن الآية جاءت بلفظ الحمل وهو منتفٍ في هذه الرواية، والحقيقة أن الإسرائيليات في صفة مجيء الملائكة بهذا التابوت كثيرة، وفيها من المبالغات ما يصعب على المرء تخيله وتصديقه، وبعضها مردود، ولذا يحسن عدم الخوض في تفاصيل الروايات الإسرائيلية؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى نتيجة، بسبب ضعف الروايات، ولا يمكنه الاستنباط والفهم من الرواية، ثم لا فائدة تذكر في معرفة هذه التفاصيل، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً مزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١٠٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٢٤٩) سورة البقرة]: **"يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله سبحانه: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} يعني لما خرج بهم، وذلك بعد أن تبين لهم ما أوجب انقيادهم لحكمه، وإذعانهم لأمره، وإقرارهم لملكه فتبعوه، وجاء في بعض الروايات أن عددهم كان ثلاثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر تقريباً، والحقيقة أن الاختلاف في العدد بين هذه الروايات على الرغم من كونها واقعة واحدة، يدل دلالة واضحة على عدم صحتها، فلا يعول عليها في الاستناد، والعلم عند الله.

"فالله أعلم، أنه قال: {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم} أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور.

{فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي} أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه".

مراده من قوله: {فَلَيْسَ مِنِّي} يعني ليس مؤمناً بي، ولا هو من أتباعي أو ممن يصحبني بدليل أنه قال: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}.

"{وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} أي: فلا بأس عليه".

القراءة بالضم للغين في قوله: {غُرْفَةً بِيَدِهِ} هي قراءة أكثر القراء، وخالف في ذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو فقرءوها بالفتح {إلا من اغترف غَرفة بيده} ومن أهل العلم من يعد القراءتين –الضم والفتح- بمعنى واحد، وبعضهم يفرق فيجعل الغَرفة بالفتح: ما يكون باليد، والغُرفة بالضم: ما يكون بالإناء، لكن هذا الكلام فيه نظر؛ لأنه قال: {إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} ولذلك يستبعد هذا المعنى.

وذهب آخرون إلى أن الغُرفة بالضم: الماء المأخوذ، وتقدير أخذه باليد من باب الملازمة، وأما الغَرفة بالفتح: فالمرة الواحدة، وهذا الذي اختاره جماعة من المحققين في الجمع بينهما، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله أعلم بالصواب.

"قال الله تعالى: {فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو، وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد -صلى

الله عليه وسلم- الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري بنحوه".

ظاهر الآية أن هذا الصنيع صدر من الذين لم يشربوا من النهر إلا بالمقدار الذي حدده لهم، أولئك الذين نجحوا في اجتياز الاختبار الأول، لكنهم سقطوا بعد ذلك حينما رأوا جيش العدو، وهذا ما عليه عامة أهل العلم.

وذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى أن هذه الطائفة هي الطائفة الأولى التي شربت، ووجَّه قوله: بأن هؤلاء الذين شربوا لم يرجعوا وإنما ساروا معه، وأن الله إنما خص بالذكر في كتابه الذين يستحقونه ممن أتبعو الملك الذي عينه رسوله، وأغفل ذكر الباقين الذين نكصوا على أعقابهم، وهذا فيه غرابة، وظاهر القرآن يخالفه؛ لأن الله –عز وجل- قال: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ} وهذا يعني أنه لم يبق معه سوى من امتنعوا عن الشرب إلا بالمقدار المحدد لهم، لكنهم لما رأوا كثرة جيش عدوهم تخاذلوا وتناخروا، ولم يثبت إلا فئة قليلة، ورد في بعض الروايات أن عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر، والله أعلم.

وهنا لفتة تربوية ومعنى كبير يؤخذ من هذه الآيات فأكثر الناس على هذه الحال التي قصها الله -عز وجل- في خبر طالوت، إذا تأملت حالهم في شتى الأبواب تجدهم يتطلعون إلى أشياء، ثم بعد ذلك لا يسعون إلى تحققيها، وكثيراً ما يتساقطون إما في الوهلة الأولى، أو في وسط الطريق، أو في آخره، ولا يبقى ولا يستمر إلا أصحاب العزائم القوية، وهذا الأمر لم يسلم منه حتى جيل الصحابة، فإن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- لما سألوه، عن أحب الأعمال إلى الله، فأخبرهم أنه القتال، تراجع وتباطأ وتثاقل من تثاقل، فأنزل الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [(٢-٤) سورة الصف] فهذا في القتال، وكذلك في سائر الأمور.

والخلاصة أن الإنسان إذا انتدب نفسه لشيء فلا بد أن يستمر عليه حتى آخر لحظة، ولذلك كان الأولى للإنسان أن لا يدخل في شيء إلا إذا كان كما قال ابن القيم: يعلم أن لديه القدرة عليه، وأنه أصلح له في دينه ودنياه ومعاشه وعاقبة أمره وعاجله وآجله، ثم يستخير الله -عز وجل- قبل أن يقدم عليه.

ولا يكون ممن يجيد الكلام ولا يحسن الفعل، فمثله حسبك به ذماً ونقصاً، ولا يصلح إطلاقاً للمؤمن أن يتحلى بغير هذا الخلق، وإلا فلا يضع نفسه في مثل هذه الأمور، ولا يتكلم في شيء منها، وقد قيل: إن في الصمت حكمة.

"ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ} أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم".

ابن جرير يقول: إن الذين {قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ} هم المنافقون والكفار الذين شربوا من النهر، واستمروا مع طالوت، لكن لسوء صنيعهم لم يستحقوا الذكر، والذي يظهر أن هؤلاء ليسوا الذين شربوا أكثر مما قدر لهم، وإنما هم الذين سقطوا في المواجهة والمجابهة إذ إنهم لما رأوا العدو انكسروا وضعفوا، والله أعلم.

"فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدد، ولهذا قالوا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [(٢٤٩-٢٥٢) سورة البقرة] أي لما واجه حزب الإيمان -وهم قليل من أصحاب طالوت- لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير قالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: أنزل علينا صبراً من عندك، {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز {وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}".

ذكر أهل التاريخ أن جالوت هو أمير من العمالقة، وكانت بلدتهم في أريحا في الغور من أرض الأردن.

"قال الله تعالى: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ} أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم".

الإذن المراد في هذا المقطع من الآية هو الإذن الكوني القدري، لا الإذن الشرعي، والمعنى أن هزيمتهم إنما كانت بإرادة الله وتقديره.

"{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ}: ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله".

المقلاع: أداة يوضع فيها شيء ليرمى على الخصم، وقد يكون الشيء المرمي صغيراً أو كبيراً.

"وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره فوفى له، ثم آل الملك إلى داود -عليه السلام- مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: {وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} الذي كان بيد طالوت، {وَالْحِكْمَةَ} أي: النبوة بعد شمويل، {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به -صلى الله عليه وسلم-".

وبعضهم يقول: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} مما ذكره الله -عز وجل- في موضع آخر من كتابه، فقد قال سبحانه: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ} [(٨٠) سورة الأنبياء]، فعلمه نسج الدروع، والتقدير في السرد، لكن هذا من جملة ما علمه الله -عز وجل- إياه ولا يختص به.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ} أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود لهلكوا، كما قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [(٤٠) سورة الحـج] الآية. وقوله: {وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي: ذو منٍّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله، ثم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}: أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، {وَإِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ

اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [(٢٥٣) سورة البقرة] **يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض".**

يحتمل في قوله سبحانه: **{تِلْكَ الرُّسُلُ}** ثلاثة احتمالات:

الأول: يحتمل أن تكون (أل) في الرسل للجنس، فتشمل المفاضلة جميع المرسلين عليهم -الصلاة والسلام-.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد عائداً إلى الرسل الذين ذكرهم الله –عز وجل- في هذه السورة، ممن قص الله -عز وجل- خبرهم وأتى على ذكرهم.

الثالث: يحتمل أن المقصود بالرسل أولئك الذين أعلم الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- خبرهم من الأنبياء، ولعل حمل الآية على العموم أقرب هذه المعاني، والله أعلم.

"كما قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(٥٥) سورة الإسراء]**، وقال هاهنا: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ}** [(٢٥٣) سورة البقرة] **يعني موسى ومحمداً -صلى الله عليهما وسلم-، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر -رضي الله عنه-[1]".**

فأما تكليم موسى لربه فقد ذكره الله في كتابه بقوله سبحانه: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [(١٦٤) سورة النساء]، وأما محمد -صلى الله عليه وسلم- فكلمه ربه في ليلة المعراج، حينما نادى الله -عز وجل-: إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وأما تكليم آدم فقد ورد في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- المعروف وفيه: أنه سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عدد الأنبياء والمرسلين...، فلما سأله عن آدم قال: نبي مكلم... والحديث مشهور وفيه ضعف؛ لجهالة بعض رواته، وضعّف بعضهم، ومن أهل العلم من يحسن الحديث، بناء على مجموع طرقه وشواهده، لكن الضعف فيها شديد فهي ما بين رجل متروك أو مجهول.

"{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله -عز وجل-، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث! وعلى محمد -صلى الله عليه وسلم-؟، فجاء اليهودي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور، فلا تفضلوني على الأنبياء))[2] وفي رواية: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))، فالجواب: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر، وأن مقام التفضيل ليس إليكم، وإنما هو إلى الله -عز وجل-، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به".

---

[1] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٥٨٦) (٥/١٧٨)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جدا لجهالة عبيد بن الخشخاش.

[2] - رواه البخاري في كتاب الخصومات –باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي برقم (٢٢٨٠) (٢/٨٤٩).

وقال بعض أهل العلم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ذلك تواضعاً، فقد جاء في حديث آخر: ((لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام))[٣].

ومن أهل العلم من يقول: إن الممنوع هو ما كان على سبيل العصبية والحمية بأن تحمل صاحبها على انتقاص الأنبياء والازدراء بهم، والتنزيل من قدرهم، فإذا أدت المفاضلة بين الأنبياء إلى هذا فتحرم، ولا شك أن فتح باب المفاضلة على وجه الحمية يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها، خاصة بين الجهلة الذين لا يفقهون في دين الله، ولذلك ذكّر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بأن من الناس من إذا سمع الوقيعة في أبي بكر من بعض الرافضة، فإنه يسب علياً -رضي الله عنه-، وأنه كان في صف القتال، إذا قام النصارى بسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، قام بعض المسلمين بسب عيسى -صلى الله عليه وسلم-، إغاظة لهم ورداً عليهم، فهذا لا يجوز، وهو وجه من الجمع، وهذه القاعدة عامة فتشمل الكلام على القراءات القرآنية، إذ يوجد في كثير من كتب التفسير ما يسمى بتوجيه القراءات، فحينما يوجهون القراءة تجد كلاماً يشعر بانتقاص القراءة المفضل عليها، وهذا أمر لا يليق لأن هذا كلام الله -عز وجل-، لكن يمكنه الترجيح دون انتقاص أو تطاول على القراءة الأخرى.

ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أفضل الأنبياء والمرسلين، كما يدل عليه حديث الشفاعة، ويدل عليه قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((آت محمداً الوسيلة والفضيلة))[٤]، وقوله: ((أنا سيد ولد آدم...))[٥] إلى آخره.

وهناك من أهل العلم من يقول: إنه لا حاجة لهذا الجمع أصلاً، ولا يجوز التفضيل بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على سبيل الخصوص، وأن الآية إنما هي إخبار من الله –عز وجل- على تفضيله بعض الأنبياء على بعض، ولذا ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى الناس أن يفضلوا بين الأنبياء؛ لأنه أمر ليس إليهم كما قال ابن كثير، وهذا الكلام فيه نظر، والجمع بين الأحاديث لا شك أنه أوفق، والله أعلم.

"وقوله: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم، {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام".

حكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدُس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، وقيل غير هذا، والله أعلم بالصواب.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ} أي بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: {وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

---

[3] - رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة النساء برقم (٤٣٢٧) (١٦٨١/٤)، و- رواه مسلم بلفظ ((لا ينبغي لعبد)) في كتاب الفضائل – باب في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي –صلى الله عليه وسلم- ((لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)) برقم (٢٣٧٧) (١٨٤٦/٤).

[4] - رواه البخاري في كتاب الأذان –باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) (٢٢٢/١).

[5] - رواه مسلم في كتاب الفضائل –باب تفضيل نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق برقم (٢٢٧٨) (١٧٨٢/٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة] **يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير؛ ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، ويبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ} يعني يوم القيامة، {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ} أي لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال ولو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا نسابته".**

ذكر ابن القيم مراتب المحبة وعدها عشر مراتب، ونقلها أيضاً من غير عزوٍ شارحُ الطحاوية ابن أبي العز الحنفي في الكلام على المحبة، وعد منها الخلة: وهي المحبة الشديدة التي تخالل شغاف القلب، ولذلك جعلها الله لخيرة أنبيائه إبراهيم ومحمد عليهما -الصلاة والسلام- فقد قال سبحانه: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [(١٢٥) سورة النساء] وجاء عن أبي الأحوص قال: سمعت عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله -عز وجل- صاحبكم خليلاً))[6] فالخلة درجة عالية في المحبة، وليست مطلق المحبة أو الصداقة أو الصحبة أو القرابة أو نحو ذلك، والمعنى أنه لا تنفع الإنسان خلة أحد، وإن بلغت ما بلغت.

"كما قال: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [(١٠١) سورة المؤمنون]، {وَلاَ شَفَاعَةٌ} أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقوله: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون".

لأن الظلم أوسع من الكفر، وعلى هذا المعنى يصير كل ظالم كافراً، ودخول ضمير الفصل بين طرفي الكلام مشعر بالحصر إضافة إلى تعريف الطرفين -الكافرون والظالمون-، كأنه يقول: الظلم مختص بهم، والظلم له صوره وأشكاله ومنه ما هو دون الكفر، لكن الظلم الأكبر والأعظم المقصود بهذه الآية هو الشرك: أن يجعل العبد لله نداً وهو خلقه ورزقه...، كما قال الله تعالى: {لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]، وقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] فهم بإشراكهم قد استجمعوا الوصف الكامل من الظلم، هذا هو المراد، والله أعلم.

"{اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [(٢٥٥) سورة البقرة]، هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنها أفضل آية في كتاب الله، روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سأله: ((أي آية في كتاب الله أعظم؟)) قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبيّ: آية الكرسي قال: ((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن

---

[6] - رواه مسلم في كتاب الفضائل -باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- برقم (٢٣٨٣) (٤/١٨٥٥).

لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش))[7] ورواه مسلم وليس عنده زيادة ((والذي نفسي بيده)) إلى آخره".

((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر)) هذا دعاء له كأنه يقول: هنيئاً لك العلم الذي استطعت به أن تستنبط من آيات القرآن على كثرتها أعظم آية في القرآن الكريم من غير سابق علم ولا دراية، فهذا أمر يدل على ثقوب النظر، والقدرة العالية في الاستنباط والاستحضار عند ذلك الجيل الأكمل والرعيل الأنبل.

"روى الإمام أحمد عن أبي أيوب أنه كان في سهوة له تمر".

قال الجزري -في النهاية-: السهوة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالمخدع والخزانة، وهذا هو الأشهر، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت، وقيل: شبيه بالرف أو الطابق يوضع فيه الشيء، انتهى.

"وكانت الغول تجيء فتأخذ فشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم".

الغول: الجن أو الشياطين حينما تتمثل للناس في الليل أو تتبدى لهم بصورة آدمي أو غير ذلك، يقال: تغولت الغيلان، يعني تبدت لهم الجن بصور يرونها.

"فشكاها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله)) قال: فجاءت فقال لها، فأخذها فقالت: إني لا أعود، فأرسلها فجاء فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما فعل أسيرك؟)) قال: أخذتها، فقالت لي: إني لا أعود، فأرسلتها فقال: ((إنها عائدة))، فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجيء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: ((ما فعل أسيرك؟)) فأقول: أخذتها وتقول: لا أعود، فيقول: ((إنها عائدة)) فأخذتها فقالت: أرسلني وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء: آية الكرسي، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فقال: ((صدقت وهي كذوب))[8]، ورواه الترمذي في فضائل القرآن، وقال: حسن غريب، والغول في لغة العرب: الجان إذا تبدى في الليل".

هذا الحديث صحيح ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يدل على صحة وجود هذه الغول -الجن-، ومن أهل العلم من يقول: إن الغول ومثله العنقاء أشياء لا وجود لها ولا حقيقة، وإنما تجري على ألسنة الناس وفي القصص والأخبار وأشعار العرب، ومن ذلك قول صاحب مراقي السعود، لما ذكر مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب

وغيره مثل عنقاء مُغْرِب في كل قطر من نواحي المغربِ

وهو يعنى أن المذهب الوحيد السائد في نواحي المغرب هو مذهب مالك، ولا يوجد سواه من المذاهب في بلاد المغرب، إنما هي أشبه بخبر العنقاء –طائر يُذكر ولا يُرى-، والله أعلم.

"وقد ذكر البخاري مثل هذه القصة عن أبي هريرة فروى في كتاب فضائل القرآن، وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: وكلني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

[7] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم (٨١٠) (٥٥٦/١)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٣١٥) (١٤١/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[8] - رواه الترمذي في سننه برقم (٢٨٨٠) (١٥٨/٥)، وأحمد في مسنده برقم (٢٣٦٤٠) (٤٢٣/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٨٠).

بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود))، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إنه سيعود، فرصدته فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود)) فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هن؟، قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...} حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما فعل أسيرك البارحة؟))، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ((وما هي؟)) قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...}، وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إنه صدقك وهو كذوب، تَعْلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟)) قلت: لا، قال: ((ذاك شيطان))[9]، ورواه النسائي في اليوم والليلة".

الشياطين: هم كفار الجن، وبعضهم يقول: إن السعالي هم سحرة الجن، إلا أن الحديث الوارد فيه ضعفه أهل العلم.

فائدة:

إقرار النبي –صلى الله عليه وسلم- الشيطان على قوله: لا يزال عليك من الله حافظ، يحمل على أعم معانيه، فهذا الحافظ من الله -عز وجل- يحفظه من شر الآدميين، ومن شر كل ذي شر من السباع والهوام وكل ما يتخوف من جهته، وقوله بعده: ولا يقربك شيطان حتى تصبح، هذه الجملة الأخيرة في الشياطين، وما قبلها في كل ذي شر، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، ومزيداً إلى يوم الدين.

---

[9] - رواه البخاري في كتاب الوكالة –باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز برقم (٢١٨٧) (٨١٢/٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في هاتين الآيتين {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(٢٥٥) سورة البقرة] و{الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(١-٢) سورة آل عمران]: ((إن فيهما اسم الله الأعظم))[1]، وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن مردويه عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- يرفعه قال: ((اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه))[2]، وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق: أما البقرة فـــ {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وفي آل عمران: {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وفي طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [(١١١) سورة طـــه]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تحديد الاسم الأعظم، هي مما يقوي القول بأن المراد به الحي القيوم، وعليه جمع من أهل العلم.

وذهب جمع سواهم من أهل العلم إلى اعتبار لفظ الجلالة "الله" الاسم الأعظم، وقد ورد فيه بعض النصوص مثل حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلاً يقول: "اللهم إني أسألك، إني أشهدك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب))[3]، وقالوا: إن هذا الاسم تكرر في كثير من الأحاديث الصحيحة التي تذكر الاسم الأعظم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الاسم ترجع إليه الأسماء الحسنى لفظاً، بمعنى أنها تأتي معطوفة عليه، ولا يعطف على شيء منها.

وترجع إليه معنى، لكونه متضمناً لصفة الإلهية التي يرد إليها جميع الصفات.

وهناك وجه حسن للجمع وهو أن تُجمع هذه الأسماء التي جاءت في تجلية الاسم الأعظم، فيقال: اللهم إني أسألك إني أشهدك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الحي القيوم، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فتكون بمثابة أقوى ما قيل في تحديده وتعيينه، والله أعلم.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (١٤٩٨) (٥٥٥/١)، والترمذي برقم (٣٤٧٨) (٥١٧/٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير بـــرقم (٩٨٢)، ولفظهما مختلف عما رواه أحمد في مسنده برقم (٢٧٦٥٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب.

[2] - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٧٩٤١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٩٨١).

[3] - رواه أبو داود برقم (١٤٩٥) (٥٥٤/١)، والترمذي برقم (٣٤٧٥) (٥١٥/٥)، والنسائي برقم (١٣٠٠) (٥٢/٣)، وابن ماجه (٣٨٥٨) (١٢٦٨/٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٦٤٠).

"وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة فقوله: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، المقيم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها لا قوام لها بدون أمره كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [(٢٥) سورة الروم]".

الحي: يعني الذي له الحياة الكاملة من كل وجه، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها عدم، ولا يعتورها نقص بخلاف حياة المخلوق.

القيوم: القائم بنفسه والمقيم لغيره، وكل مخلوق إنما يقوم بإقامة الله -عز وجل- له، فهو مفتقر إلى إقامته كل الافتقار، ولولا إقامة الله -عز وجل- على خلقه بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم لذهبوا واضمحلوا.

"وقوله: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية".

هذا من باب التفسير باللازم، وهو يتضمن نفي النقص عن الله -عز وجل-، وهذا تفسير جيد، سار عليه السلف فمن بعدهم من العلماء، فهم قد يفسرون الشيء بلازمه، أو بدلالة تضمنه، أو بغير ذلك من أنواع الدلالة، وكل ذلك صحيح.

وأما التفسير المطابق فجاء في قول ابن كثير بعده.

"ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنة ولا نوم، فقوله: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ} أي لا تغلبه سنة، وهي الوَسَن والنعاس، ولهذا قال: {وَلاَ نَوْمٌ}؛ لأنه أقوى من السِّنَة".

فالسِّنة في قوله سبحانه: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ} يعني مقدمة النوم، وهي فتور طبيعي يعتري الإنسان بين يدي النوم، كما قيل: هي خُثُورة النوم ومبادئه ومقدماته، وبعض أهل العلم يقول: إن السِّنة هي النعاس، وبعضهم يقول: السِّنة في الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب.

وأما النوم فمعروف، وهذا يتضمن أو يقتضي كما سبق نفي النقائص عن الله -عز وجل-؛ لأن النوم نقص، وهو كمال بالنسبة للمخلوق، لكنه ليس بكمال مطلق، والقاعدة التي يذكرها أهل العلم في مجال الرد والمحاجة لطوائف المتكلمين: كل كمال ثبت أو أضيف للمخلوق فالخالق أولى به؛ لأنه معطي الكمال، ومقصودهم بذلك: الكمال المطلق لا النسبي، فالزواج والنوم والولد و...، من الكمالات النسبية بالنسبة للمخلوق، لكن بالنسبة لله -تبارك وتعالى- فإن ذلك نقص في حقه لا يليق فينزه عنه -تبارك وتعالى-.

وقد يرد على هذا سؤال وهو: ألا يكفي نفي أحدهما لنفي الآخر، فإذا قلنا: لا يعتريه سِنة فمن باب أولى لا يعتريه نوم؟ فالجواب أن يقال: إن النوم قد يهجم على قلب الإنسان بدون مقدماته كالنعاس ونحوه، وبالمقابل فقد يرد على العبد النعاس ولا يرد عليه النوم، كما هو مشاهد وملاحظ، ولذلك استحسن إيرادهما في مقام النفي عن الله –عز وجل-؛ ويلاحظ أنه جاء بالنفي بعد إثبات اسميه الحي والقيوم؛ وهذا لتبيين أنه من كمال حياته وقيوميته لا يعتريه ما ذكر، والله أعلم.

"وفي الصحيح عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأربع كلمات فقال: ((إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار

قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[4].

وقوله: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [(٩٣-٩٥) سورة مريم]".

هذا المقطع من الآية فيه دلالة على سعة ملكه -جل جلاله-، وعظمة خلقه وقوة سلطانه وقهره.

"وقوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} كقوله: {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} [(٢٦) سورة النجم]، وكقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [(٢٨) سورة الأنبياء]، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه -عز وجل-، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذن له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: ((آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة))".

قوله سبحانه: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} له اتصال بما قبله في الدلالة على سعة ملكه وعظيم سلطانه، ووجه: أن ملك المخلوق ناقص، ونقصه من وجوه متعددة منها: أنه يشفع بين يديه من غير إذنه، وأن المخلوق قد يقبل الشفاعة خوفاً من الشافع، سواء كان الخوف من غائلته، أو من تحول قلبه، أو نحو ذلك.

وأما الله -عز وجل- فليس شيء من ذلك واقعاً، فهو –سبحانه وتعالى- لكمال ملكه ليس بحاجة إلى أحد، ولا يخشى أحداً من المخلوقين، ولا يقوم ملكه بأحد منهم، ولذلك فإنه لا يتقدم بالشفاعة أحد بين يديه إلا لمن يأذن له، ولا يشفع إلا فيمن ارتضى، فهذا من كمال ملكه سبحانه وتعالى.

والاستفهام في قوله: {مَن ذَا الَّذِي} معناه أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

"وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [(٦٤) سورة مريم]".

وهذا فيه دلالة على سعة العلم والإحاطة، فإحاطته –سبحانه- شملت هذه الأرض الممتدة الأطراف، الشاسعة البون، العظيمة الخلق، مطلع على شئون خلقه فيها، محيط بكل حركاتهم وتصرفاتهم على ظهرها، لا يخفى عليه شيء من أمورهم البتة، بخلاف ملوك الدنيا فإنه يخفى عليهم عامة ما يجري من أحوال تلك البقعة التي صاروا ملوكاً فيها.

"وقوله: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله -عز وجل- وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [(١١٠) سورة طــه]".

---

[4] - رواه مسلم في كتاب الإيمان –باب في قوله عليه السلام: ((إن الله لا ينام))، وفي قوله: ((حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)) برقم (١٧٩) (١/١٦١).

ويحتمل اللفظ معنى آخر قريباً: وهو أن الضمير يرجع إلى المذكور آخراً وهو قوله: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** والمعنى ولا يحيطون بشيء من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، الذي هو جزء من علم الله، وعليه فعندنا ثلاثة احتمالات في مرجع الضمير فهذا الأول.

والثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله -عز وجل-، والمعنى أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، فعلمه محيط بهم وهم لا يحيطون بشيء من علم ذاته وصفاته إلا ما أطلعهم الله -عز وجل- عليه، وليس ذلك بإحاطة.

والثالث: يحتمل أن يرجع الضمير إلى علم الله، والمعنى أن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه سبحانه وتعالى.

وبين المعنيين الثاني والثالث تلازم كبير، وهما الأشهر في التأويل، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم هو جزء من علم الله، فإذا قلت: إنهم لا يحيطون بشيء من علم الله، فشيء: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فيدخل فيه علم ما بين أيديهم وما خلفهم من باب دلالة التضمن؛ لأن التضمن: هو دلالة الشيء على جزء معناه، ويدخل فيه عموم علم الله -عز وجل- من باب أولى بدلالة الالتزام، لأنهم إذا كانوا لا يحيطون ببعضه وهو ما يتصل بما بين أيديهم وما خلفهم، فيلزم من ذلك أنهم لا يحيطون بالكل، فالمقصود أن بين المعنيين ملازمة، والقاعدة: أن الآية إذا احتملت أكثر من معنى فلا مانع من حملها على الجميع، والمعنى **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}** يعني لا من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا من عموم علم الله -تبارك وتعالى-، ولا نحتاج أن نرجح بين هذه المعاني، وهذا من بلاغة القرآن، أنه يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

"وقوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، روى وكيع في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره، ورواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو أن السماوات السبع، والأرضين السبع، بسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة.

وقوله: {وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}: أي لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغير بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد الفعَّال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه".

أصل يئوده: من آده أي جعله ذا عوج، يقال للعمود وضع عليه: آده، أي وضع عليه شيء ثقيل جداً حتى انثنى ومال، والمعنى أنه لا يثقله حفظ السموات والأرض ولا يعجزه، وهذا يدل على كمال قوته وعظمته.

"فقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} كقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [(٩) سورة الرعد]**، وهذه الآيات**

وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه".

الأحسن أن يعبَّر بالقول: من غير تكييف ولا تمثيل، فنثبت لله -عز وجل- هذه الأسماء والصفات، وهي على قسمين: ثبوتية وسلبية

فالثبوتية: ما أثبته الله –تعالى- لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة والعلم والقدرة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا والوجه واليدين ونحو ذلك، فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به، بدليل السمع والعقل.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه في كتابه، أو على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب، فيجب نفيها عن الله تعالى مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل؛ لأن النفي بمجرده ليس بكمال، ولا يمدح أحد به، إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، فالنفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً، والله أعلم.

"{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٥٦) سورة البقرة]، **يقول تعالى:** {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} **أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقصوراً".**

كلام الحافظ ابن كثير في معنى الآية يعتبر من أحسن ما قيل في تفسيرها، ومن أهل العلم من استشكله، وعقدة الإشكال نابعة من مسألة فرضية الجهاد، وأن الكفار من غير أهل الكتاب كالمجوس والوثنيين مخاطبون بالإسلام أو السيف ولا تقبل منهم الجزية، على قول كثير من أهل العلم، وهذا يتنافي مع مسألة لا إكراه في الدين، وحقيقة هذا المحك هو الذي جعل أقوال أهل العلم تتباين في الكلام على الآية.

فقال بعضهم: إن هذه الآية كانت في أول الأمر على البراءة الأصلية ثم نسخت بآيات الجهاد بمثل قوله: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [(١٦) سورة الفتح]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً} [(١٢٣) سورة التوبة] وقالوا: إن الله لم يجعل إلا أحد الخيارين إما القتال أو الإسلام، لكن القاعدة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فليس مجرد توهم المقابلة بين النصوص يكون مسوغاً لدعوى النسخ؛ لأن النسخ شديد، وذلك أنه يقتضي إهدار أحد الدليلين، أو الحكم برفع أحد النصين، والعلماء متفقون على أن الجمع مطلوب ما أمكن.

وبعض أهل العلم حاول أن يجمع بين الأمرين وهذا هو الأوفق، فمنهم من قال: هذه الآية ظاهرها العموم لأنه قال: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} والإكراه هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فهذا عام لكنه يراد به الخصوص، فتبقى الآية من العام المراد به الخصوص، وجعلوها منزّلة على من له خيار ثالث وهو الجزية، فهي تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس، إذ يسن بهم سنة أهل الكتاب، وبهذا الاعتبار فالآية محكمة، وليست بمنسوخة، وأما العرب فلم يدخلوا فيها؛ لأن لفظها عام، ويراد بها معنى خاص وهم: أهل الكتاب.

وقال بعضهم: المراد من الآية السبي من أهل الكتاب لا تكرهوهم على اعتناق الإسلام، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية عامة خصصتها الأدلة الأخرى، والعام يحمل على الخاص، ولا تعارض بين العام والخاص.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية باقية على عمومها، وهو مضمون كلام ابن كثير، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وجماعة من المحققين، وهو المتبادر وذلك أن الله -عز وجل- لم يأمر بإكراه أحد على الدخول في الدين، ولم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حالة واحدة في جهاده وحروبه -عليه الصلاة والسلام- أنه أكره أحداً على الدخول في دين الله -عز وجل-، والشواهد كثيرة من صنيع النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه في المغازي وغيرها.

ولذلك لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة وكان فيها بعض المشركين من اليهود وغيرهم صالحهم، ومن جملة من صالحهم أيضاً العرب بما فيهم أهل مكة وهو في المدينة، واستمر بينه وبينهم العهد حقبة من الزمن حتى نقضوا ما أبرموه وعاهدوا الله عليه، مما اضطر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قتالهم لتفتح مكة بعدها عنوة، وتصبح في حوزة المسلمين، وبعد فتح مكة لم يجبر أحداً على الدخول في الدين وكان هذا بمقدوره، حتى إنه لما قاتل بعدها في حنين خرج بعضهم معه للقتال ولم يسلم بعد، وإنما خرجوا حمية أو ليروا نتيجة المعركة والغلبة لمن؟ ولذلك اختلفوا في بعض من خرج، وكان له في الكفر شأن كصفوان بن أمية هل أسلم حينها أم لا؟، فالحاصل أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليكره أحداً بعينه سواء من أهل مكة أو غيرهم على الدخول في الإسلام إطلاقاً.

وأما من استشكل مشروعية الجهاد بقوة السيف وتوهم معارضته في الظاهر للآية، فليس له فيه أدنى متلمس من حجة، ذلك أن الجهاد إنما شرع لصد عادية الكفار، وأيضاً لإبلاغ دين الله -عز وجل- بقمع الكفار وكسر شوكتهم حتى يبلغ دين الله -عز وجل- الآفاق، فلا يحال بين الناس وبين الحق، فيبقى شرع الله -عز وجل- مبثوثاً حاكماً في أرضه، أما الأفراد فلا يكره أحد منهم على ذلك، فالآية باقية على عمومها، ولذلك عمر -رضي الله عنه- كما أخرج البخاري في صحيحه مر بعجوز نصرانية فقال لها: أسلمي تسلمي، فأبت فقرأ هذه الآية: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، وقال لزنبق وهو غلام لعمر نصراني، قال له: أسلم كي أستعملك في شيء من أمانة المسلمين، فأبى فقرأ عمر: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، والله أعلم.

"وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً ".

والله أعلم، وصلى وسلم، وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً ومزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (١١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله -عز وجل-: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [(٢٥٦) سورة البقرة]،[1] وقد رواه أبو داود والنسائي".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية التي نسبت لابن جرير صحيحة صريحة في سبب نزول قوله: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}**، وهي وإن نزلت لبيان واقع معين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسبب النزول كما هو معلوم يوضح المعنى ويرتفع به الإشكال، فتبقى هذه الآية على ظاهرها وعمومها، فلا يُكرَه أحد على الدخول في الدين، امتثالاً لأمر المشرع العظيم –جل جلاله-، ولأنه لم يعهد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزواته وحياته عمل شيء من ذلك، والله أعلم.

"فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل: ((أسلم)) قال: إني أجدني كارهاً، قال: ((وإن كنت كارهاً))[2]، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة، فقال له: أسلم، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقكم حسن النية والإخلاص".

المراد بالحديث الثلاثي الصحيح: هو الذي يكون بين المصنف وبين النبي –صلى الله عليه وسلم- ثلاثة رواة -الصحابي والتابعي وتابع التابعي من أهل القرون المفضلة-، وهذه الأحاديث مشهورة بثلاثية الإسناد أو ثلاثية مسند أحمد.

وقد ساق ابن كثير هذا الحديث ليؤكد أنه ليس حجة لأحد في تقرير جواز الإكراه على الدين، مستنداً في دعواه ومشروعيته على ذلك بحديث أنس؛ لأنه ليس من هذا الباب كما بينه، ثم هناك فرق بين أن تكون الكراهية منبعثة من نفس الإنسان على أمر دون أن يكره عليه، وبين إرغامه وإلزامه بأمر على سبيل الإكراه، وهذا ما يفهم خلافه من الحديث.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢٦٨٤) (٣/١١)، و- رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (١١٠٤٩) (٦/٣٠٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢٦٨٢).

[2] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٢٨٩١) (٣/١٨١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

"وقوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٥٦) سورة البقرة]".

هذه الآية فيها تمثيل لأمر معنوي بصورة أمر حسي، فقد مثل الله -عز وجل- الذي اعتصم بهدى الإيمان كمن تعلق وتمسك بعروة شيء وثيقةٍ لا تتكسر، يجني من وراء تمسكه بها مقصوده من النجاة، فيحظى ببلوغ المطلوب، وينجو من أليم المرهوب، فهذا تصوير للمعنويات بأمر حسي غاية في البلاغة والأسلوب، والله تعالى أعلم.

"أي من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ} [(٢٥٦) سورة البقرة]: أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثلى، والصراط المستقيم".

هذه العبارة القصيرة على اختصارها جمعت كثيراً مما قاله السلف -رضي الله تعالى عنهم-.

ومعنى الطاغوت: فعلوت من طغى يطغى ويطغو، أي جاوز الحد، فهو اسم جنس لكل ما يعبد من دون الله -عز وجل-، وبعضهم يقول: إنه مصدر يطلق على الواحد وعلى الجمع، وعبارات السلف فيه كثيرة.

"روى أبو قاسم البغوي عن حسان بن فائد العبسي قال: قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من أمه، وإنّ كرم الرجل: دينه، وحسبه: خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً.

ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها".

وبعضهم يقول الطاغوت: الكاهن، وبعضهم يقول: الساحر، وبعضهم يقول: ما عبد من دون الله -عز وجل- وهو راض بطبيعة الحال، والحقيقة أن الطاغوت يحتمل جميع ما ذكر، فكل من جاوز حده وطغى فهو طاغوت، فذو الطغيان الذي جاوز حده يقال له: طاغوت، والله أعلم.

"**وقوله:** {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا} [(٢٥٦) سورة البقرة] أي: **فقد استمسك من الدين بأقوى سبب".**

وهو الحبل الوثيق المحكم.

والوثقى: يمكن أن تكون من الوثاقة، وهو تصوير يقرب المعنى بصورة محسوسة، ففيه تشبيه، والمعنى أن من أراد الخلاص لنفسه فإنه يتمسك بشيء وثيق يعتصم به، وهذا الذي يؤمن بالله – عز وجل-، ويخلع الأنداد والأضداد ويكفر بجميع أنواع الطواغيت، الكبار والصغار، الأحياء والأموات، قد أخذ من النجاة المحققة بأوثق سبب، وقد سلك طريق الخلاص، فلا يلحقه هلكة ولا مكروه.

"{لاَ انفِصَامَ لَهَا} **فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، ولهذا قال: فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها".**

يقول معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه-: {لاَ انفِصَامَ لَهَا} أي لا انقطاع لها دون دخول الجنة، وهذا تفسير قريب من جهة المعنى.

والانفصام في اللغة: أي الانكسار من غير إبانة، ومع الإبانة يقال له: قصم، قال الشاعر:

إن الألـــى يـــسكن غـــور تهامـــة فكل كَعاب تترك الحجــل أفــصما

أفصما: يعني منكسراً، تكسر الحجل لضخامة ساقها، وفي بعض روايات البيت: تترك الحجل أقصما: أي منكسراً مع الإبانة، فيكون المعنى {لاَ انفِصَامَ لَهَا} يعني لا انكسار لها، فما دام قد اعتصم بطاعة الله فهو كالمتمسك بالوثيق من الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها، هذا معنى كلام ابن كثير، وذكره ابن جرير، وعليه عامة المحققين، وكلام السلف يدور حول هذا المعنى، إلا أنهم يعبرون عنه بعبارات قريبة لكنها تدور في فلكه. والله أعلم.

"قال مجاهد: العروة الوثقى يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام".

هذا يسمى في التفسير خلاف التنوع.

"وروى الإمام أحمد عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لمَ: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء، قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا استطيع، فجاءني منصف، قال ابن عون: هو الوصيف، فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقصصتها عليه فقال: ((أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت))، قال: وهو عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- وأرضاه[3]، أخرجاه في الصحيحين، وأخرجه البخاري من وجه آخر.

{اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة] يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدونهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك، {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة]، ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام]،

---

[3] - رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب فضائل الصحابة –باب مناقب عبد الله بن سلام –رضي الله عنه- برقم (٣٦٠٢) (١٣٨٧/٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل عبد الله بن سلام –رضي الله عنه- برقم (٢٤٨٤) (١٩٣٠/٤)، وهذه الرواية بلفظ أحمد رواها في مسنده برقم (٢٣٨٣٨) (٤٥٢/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وقال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ} [(٤٨) سورة النحل] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه".

ليست الآية على ظاهرها كما يتوهم البعض فقوله سبحانه في الفريق الأول: {يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ} [(٢٥٧) سورة البقرة] ليس المراد أنهم كانوا في الظلمات، وكذا قوله في حق الكافرين: {يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [(٢٥٧) سورة البقرة]، أنهم كانوا في النور، بل المراد كما نص عليه أهل التفسير أنه من كان على إيمان ثم خرج منه إلى الكفر، مثل من كان على الإسلام ثم ارتد، أو كان على النصرانية التي جاء بها عيسى قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم صار مُثلثاً، أو كان على التوحيد الذي جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- فلما بعث محمد -عليه الصلاة والسلام- بقي على نصرانيته ولم يؤمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكَفر، فهؤلاء لا شك أن الشيطان أخرجهم من نور الهداية التي كانوا فيها إلى الظلمات، وهذا المعنى مال إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وهذه كقوله -تبارك وتعالى- في أول سورة البقرة: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} [(١٧٥) سورة البقرة] ومعلوم أنهم لم يكونوا على الهدى حتى يستعيضوا به الضلالة، ولم يملكوا المغفرة حتى يستبدلوا عنها العذاب، بل إنهم لما اختاروا الكفر والضلالة على الإسلام صح إطلاق ذلك عليهم {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٦) سورة البقرة].

إذاً فمعنى قوله سبحانه: {يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [(٢٥٧) سورة البقرة] أي يخرجونهم من نور الفطرة، ويصرفونهم عن دلائل الحق وبيناته، وبراهين الإسلام التي بعث بها رسله –عليهم الصلاة والسلام- إلى ظلمات الكفر والشُّبه والحيرة والضلال بجميع أنواعه.

وقوله سبحانه: {يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ} المراد أنه يخرجهم من ظلمات الكفر والشُّبه إلى نور الإسلام وبيناته وهداياته، سواء كان الإنسان عادماً لأصل ذلك، فلم يكن على الإسلام فهداه الله -عز وجل- إليه، أو كان مسلماً فإن الله ينقله من هداية إلى هداية، ويبيّن له من براهين الحق ما يدفع عنه الشُّبه المضلة، كما قال -تبارك وتعالى- في سورة أخرى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ} [(٤٣) سورة الأحزاب] المراد أنه ينقلهم من هداية إلى هداية، ولهذا أُمر المسلمون بأن يقولوا في كل ركعة: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] والمعنى ثبّتنا وسددنا، والصراط متشعب وتفاصيله كثيرة جداً، لذا يحتاج الإنسان أن يعرف الحق، وبعده يحتاج الهداية إلي العمل، ثم يعرف وجوه المفاضلة بين الأعمال فيهدى ويسدد ليختار الأفضل ويوفق إليه، وتبقى له أخيراً الوسيلة في الثبات علي الطريق حتى الممات، فالإنسان بحاجة ملحة إلى وسائل الهداية ما دام أن تفاصيل الشريعة كثيرة، والخلاف بين أفراد الأمة على أوجه وأوسع أبوابه.

"{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(٢٥٨) سورة البقرة]، هذا الذي حاج إبراهيم -عليه السلام- في ربه هو ملك بابل

نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح".

هذه الأسماء أعجمية لم تنقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، إنما يذكرها المؤرخون في مصادرهم المختلفة ومع هذا لم يتفقوا علي شيء منها، وتجد الاختلاف يحصل بينهم في التقديم والتأخير، أو تحديد الاسم أحياناً، وهذا قد يكون مرده إلى خطأ في الطباعة، أو من قبل الناسخ، أو بسبب المحقق والرواة النقلة، ولذلك لا يعول عليها في الإثبات أو النفي، والله أعلم.

"والأول قول مجاهد وغيره، قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود عليهما السلام، وذو القرنين، والكافران نمرود، وبختنصر، والله أعلم.

ومعنى قوله: {أَلَمْ تَرَ} أي بقلبك يا محمد".

بمعنى أن الرؤية رؤية قلبية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما حضر ذلك ولا شاهده بعينه، فهي رؤية قلبية بمعنى: ألم تعلم؟ كما سبق.

"{إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ} أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [(٣٨) سورة القصص]".

ظاهر قوله سبحانه: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} قد يشكل عليه ما جاء في الآية الأخرى، وهي قول الملأ لفرعون: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف]، فدلالتها واضحة في كون فرعون له آلهة أخرى، وكذا القراءة الأخرى غير المتواترة: {ويذرك وإلهتك} فإلهتك مصدر، والمصدر يقع على الفاعل والمفعول، ومعناها يحتمل أمرين:

الأول: ويذرك وعبادتك، أي لا يعبدك.

الثاني: أي فيختار لوناً آخر من العبادة يخالفك بها في الدين، ولكنها قراءة ليست متواترة، ولا تفسِّر القراءة المتواترة في هذا الموضع؛ لاختلافهما في المعنى.

والجواب على هذا الإشكال كما قال العلماء: إن فرعون ما دعاه إلى قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} إلا المكابرة في مقام الخصومة فقط، ويشهد له رد موسى عليه، وتقريره خلاف مقاله: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ} [(١٠٢) سورة الإسراء]، وهكذا فضح القرآن خُبْرَه في أكثر من آية، وجحوده واستكباره وأنفته من الحق قال الله -عز وجل-: {وَجَحَدُوا بِهَا} أي فرعون وقومه جحدوا بالآيات الدالة على رسالة موسى وصدق دعوته {وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [(١٤) سورة النمل] وهذا هو المشهور عند أهل العلم.

وبعض أهل العلم قال: إنه كان يُعبّد الناس لنفسه وهو يعبد آلهة أخرى، ومن نظر في تاريخ الفراعنة يجد أنهم كانوا يعبدون من دون الله -عز وجل- معبودات كثيرة، لكن الذي يظهر أنه كان لا يعتقد ذلك.

والمعلمي -رحمه الله- له كلام غريب في توجيه هذا في بعض كتبه، لم يوافقه أحد عليه، فالله أعلم.

"وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك، ولهذا قال: {أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}".

المعنى على كلام ابن كثير: لأن آتاه الله الملك، فتكون أن هنا تعليلية واختار هذا المعنى ابن جرير، وبعضهم يجعل المعنى: من أجل أن آتاه الله الملك، أي أن الملك أبطره وغره حتى تعاظم هذا التعاظم مما أداه إلى جحد الرب -تبارك وتعالى- جحداً كلياً.

وبعضهم يحملها على معنى آخر وهو أضعف من هذا بكثير فيقول: {أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} أي أنه وضع هذا الكفر موضع الشكر، فبدلاً من أن يشكر الله -عز وجل- على هذا الملك، كانت النتيجة أنه كفر كفراً شنيعاً فجحد المعبود -سبحانه وتعالى-، ونصّب نفسه إلهاً، لكن فيه بعد، والله أعلم.

"وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، فعند ذلك قال المحاج وهو النمرود: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي وغير واحد: وذلك أنِّي أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة".

هذا قاله كثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، والله -عز وجل- يقول فيما أخبر عن بني إسرائيل: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}** [(٣٢) سورة المائدة] والمعنى فمن خلص نفساً من الهلكة والموت، فذلك بمنزلة إحياء جميع النفوس، هذا هو المعنى المشهور.

"والظاهر والله أعلم: أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت كما اقتدى به فرعون في قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، ولهذا قال له إبراهيم -عليه السلام- لما ادعى هذه المكابرة: {فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب".

هذا الذي عليه كثير من أهل العلم من المفسرين، وأهل الأصول خاصة عند كلامهم على قضايا الاحتجاج، ومن ألف في الجدل، ويسمون حجة إبراهيم على النمرود في طلب إتيان الشمس من المغرب انتقالاً، فهو لما طالبه بأمر ادعى قدرته عليه، انتقل معه إلى أمر أوضح وأكبر لا يستطيع المكابرة معه.

ورأى بعض أهل العلم فيها معنى آخر، وهو أن حجة إبراهيم عليه السلام على النمرود لا تعتبر من باب الانتقال، إنما هي من باب طرد الدليل، والمعنى أنك ما دمت بهذه المثابة تملك الإحياء والإماتة، وبيدك هذه القدرة الهائلة على التصرف في الكون كما زعمت، فنريد منك أن تغير نظامه فتأتي بالشمس من المغرب، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لم يعرض عن الدليل الأول؛ لأنه كابر فيه، وإنما استمر معه بناء على دعوى النمرود، وهذا القول يحمل عليه تفسير ابن كثير، ومال إليه الحافظ ابن القيم.

والحقيقة أن من ألفوا في الجدل والحجج والمناظرة، وبعض من كتبوا في الأصول، يذكرون هذا في باب طرق الرد، وما يتصل بطرائق الجدل كالانتقال من البرهان الأدنى إلى البرهان الذي أعلى منه، يعني التدرج في المناظرة مع المخالف، ويأخذون هذا من أمور، منها هذا التدرج في المناظرة الذي وقع في هذه الآية، بناء على أن هذا من باب الانتقال، والإعراض عن دليل ساقه في مقام المناظرة إلى دليل آخر أكبر وأوضح منه، لا أنه تكملة للدليل الأول أو طرد له، والله أعلم.

"فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة".

وبعض المفسرين -بناء على روايات إسرائيلية- يزعم أنه أراد القول: أنا الذي آتي بالشمس من المشرق، إلا أنه كان بالمجلس من هو أكبر منه سناً، فلو ادعى هذا لكذبوه؛ لأنهم كانوا يرونها تأتي من المشرق قبل أن يولد، فكيف هو الذي يأتي بها من المشرق؟!، وهذا قول ليس فيه ما يمكن الوثوق به أو الرجوع إليه، فالله أعلم.

"قال الله تعالى: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد".

الآية وردت في مقام المناظرة والرد على أهل الضلال والاحتجاج عليهم، ولذا حسن أن يفسر نفي الهداية عنهم في خاتمتها بما أورده ابن كثير، أي أن الهداية يسلبها الله –عز وجل- منهم في مقام المحاجة، فلا يكون لهم برهان ودليل يبطلون به دلائل الحق، أو يدحضون به حجة أهله، وتفسيرها بهذا لا يمنع من بقاء المعنى العام في كونهم لا يوفقون للهداية العامة هداية التوفيق والإرشاد إذا شاءت حكمة الرب وإرادته، ويحمل مراده من نفي الهداية عنهم على أهل الإصرار منهم على الظلم، أو ممن كتب الله –عز وجل- عليهم الضلال والشقاء، ومضى عليهم سبق علم الله –تبارك وتعالى- في كونهم لا يحصل لهم هداية، والله أعلم.

"وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ويبيّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر السدي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم -عليه السلام- من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة".

وحكى السُّهيليُّ أن النُّمرود كان ملكاً على السَّواد، وكان ملكه الضحاك الذي يُعْرَفُ بالأزدهاق، وذلك أن النَّاس قحطوا على عهده، فجعلوا يمتارون من عنده الطعام، وكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأل: مَنْ رَبُّكَ؟ فإن قال: أنت، نال من الطعام، فأتاه إبراهيم فيمن أتاه، فقال له نمرود: من ربُّكَ؟، فقال له إبراهيم: {ربيّ الّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}. فاشتغل بالمحاجَّة، ولم يعطه شيئاً، فرجع إبراهيم عليه -الصلاة والسلام- فمر على كثيبٍ من رَمْلٍ أعفر، فأخذ منه تطييباً لقلوبِ أهلِهِ إذا دخل عليهم، فلما أَتى أهله، ووضع متاعه نام، فقامت امرأته إلى متاعه، ففتحته فإذا هو بأجود طعام رأَته، فصنعت له منه فقربته إليه، فقال: من أين هذا؟

قالت: مِن الطعام الذِي جئت به، فعرف أن الله -تعالى- رزقه فحمد اللهَ تعالى، وهذا كله من الإسرائيليات التي لا يعول عليها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً ومزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٥٩) سورة البقرة]: **"تقدم قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ}** [(٢٥٨) سورة البقرة]**، وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، ولهذا عطف عليه بقوله: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، روى ابن أبي حاتم عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: هو عزير، ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه، وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، والحسن، وقتادة، والسدي، وسليمان بن بريدة، وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل، وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بخت نصّر لها وقتل أهلها".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمشهور عند المفسرين أن عطف هذه الآية على ما قبلها محمول على العطف في المعنى ليس غير، وأما بخصوص تحديد صاحب القصة بأنه عزير فلم يثبت في تعيينه شيء صحيح، بل قال بعضهم: إنه حزقيل، وقيل: أرميا، وكذا تحديد هذه القرية الصواب أنه لم يثبت في تحديدها شيء، ولا طائل من معرفة ذلك، فالأولى أن لا يشتغل المرء بمثل هذه المبهمات؛ لأنه ليس فيها مراجع موثّقة يستند عليها، ولا طريق للوصول إلى التأكد من صحتها ومصداقيتها، والله أعلم.

"{وَهِيَ خَاوِيَةٌ} أي ليس فيها أحد، قوله: {عَلَى عُرُوشِهَا} أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها".

أشار بقوله سبحانه: **{وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}** إلى خلو القرية، والمعنى أنها غدت خالية من الساكنين، تقول: هذه الديار خاوية على عروشها، أي لا ساكن فيها، مع أن تفسيرها الأقرب إلى اللفظ المعبر به هو سقوط السقوف، وتهاوي الجدران؛ لأن العروش هي السقوف، فإذا سقطت بسبب تداعي الزمن سقطت على أثرها الجدران، لكن هذا المعنى ملازم للذي قبله، وهو يدل على خراب القرية.

"فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: {أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} وذلك لما رأى من دثورها، وشدة خرابها، وبعدها عن العَوْد إلى ما كانت عليه".

اختلف أهل التأويل في المراد بقوله سبحانه: **{أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}** فقيل: أهل القرية، وقيل: هذه القرية.

والقرية تارة تطلق ويراد بها البنيان، وتارة تطلق ويراد بها أهل القرية، والأقرب في الدلالة على المقصود هو القول الأول: إنهم أهل القرية، وذلك أن الله لما أماته ثم أراه الإحياء؛ إنما أراد –جل جلاله- بذلك أن يريه قدرته على إحياء الموتى، ولذلك ذكر الله -عز وجل- أنه أراه العظام كيف يقيمها!، ويركب بعضها على بعض!، وأراه بعد ذلك كيف ينشزها لحماً!، فجعل الله –عز وجل- له هذه آية في نفسه.

ويحتمل أن يكون المراد الأمرين: أهل القرية مع القرية، ولكن ذلك لم ينقل بطريق يعتمد عليه، وما ورد من الروايات أنها عمرت من جديد وقامت، كله من الإسرائيليات فلا يعول عليها، والله أعلم.

"قال الله تعالى: {فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ}، قال: وعمرت القرية بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله -عز وجل- بعد موته كان أول شيء أحيى الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه، كيف يحيي بدنه!، فلما استقل سوياً قال الله له –أي بواسطة الملك–: {كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: {بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ}".

على هذا التفسير يكون المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا} أنها عظام نفسه وخلقته، يدعوه ربه إلى التأمل في قدرته على تركيب عظامه بعضها على بعض!، ثم كيف يكسوها لحماً!...، وبعد ذلك أراه نفس الآية في حماره الذي تفرقت عظامه يميناً وشمالاً.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد عظام حماره، والله أعلم.

وأما قوله: {لَمْ يَتَسَنَّهْ} قيل: من السَّنة أي لم تغيره مضي السنون بل بقي على حاله، وبعضهم يقول: إن أصله لم يتسنَّ الهاء للسكت، والمعنى أنه لم يتغير، بالرغم من كون الطعام يسرع إليه الفساد والتغير أكثر من بدن الإنسان أو الحيوان، إشارة ودلالة على قدرة الله -عز وجل- وعظمته، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"وذلك أنه كان معه _فيما ذكر_ عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب تعفن".

لا فائدة تذكر من تحديد ماهية هذا الطعام، وليس هناك نصوص يعتمد عليها في هذا.

"{وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ} أي: كيف يحييه الله -عز وجل- وأنت تنظر".

ما يظهر من الآية أن الله لفت نظره إلى إحياء الحمار بعد موته لأجل أن ينظر إلى قدرة الله –عز وجل- في إحياء الموتى، وبعض أهل العلم قال: إن المقصود انظر إليه أي الحمار قائماً هذه المدة لم يتغير ولم يحصل له شيء، ولكن المشهور القول الأول وهو أن حماره قد مات وتلاشى واضمحل، فأراه الله -عز وجل- قدرته على الإحياء بهذا الحمار. والله أعلم.

"{وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ} أي دليلاً على المعاد، {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا} أي نرفعها فيركب بعضها على بعض".

وأصل النشوز الارتفاع تقول: أرض ناشزة بمعنى مرتفعة، وامرأة ناشز بمعنى أنها ترفعت عن طاعة الزوج.

"وقد روى الحاكم في مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ {كَيْفَ نُنشِزُهَا} بالزاي، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1]، وقرأ {ننشرها}: أي نحييها قاله مجاهد {ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}".

قراءة الزاي هي قراءة حفص عن عاصم، والكوفيين، وابن عامر، وأما الباقون فقرءوها بالراء **{كيف ننشرها}** وهي قراءة سبعية متواترة، ومعناها من النشور وهو الإحياء بعد الإماتة، يقال: أنشره الله -عز وجل- إذا أحياه بعد إماتة، ولذلك قيل لليوم الآخر –يوم القيامة-: يوم النشور، ويوم النشر.

"وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه، حتى صار حماراً قائماً من عظامٍ لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق، كله بإذن الله -عز وجل-.

وذلك كله بمرأى من عزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله {قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: أي أنا عالم بهذا، وقد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زماني بذلك.

وقرأ آخرون: {قال اعلمْ} على أنه أمر له بالعلم.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٦٠) سورة البقرة] **ذكروا لسؤال إبراهيم -عليه السلام- أسباباً منها: أنه لما قال للنمرود: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}** [(٢٥٨) سورة البقرة]**، أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}))[2] فمعناه أننا نحن أحق بطلب اليقين".**

أراد إبراهيم -عليه السلام- بطلبه أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال وهي علم اليقين إلى مرتبة أعلى منها وهي عين اليقين، ذلك أن مراتب اليقين ثلاث:

الأولى: علم اليقين: وهو الاعتقاد الجازم الثابت الذي لا يتطرق إليه شك ولا يقبل التشكيك.

الثانية: عين اليقين: وهذا لا يتوصل إليه إلا بالمشاهدة.

---

[1] - رواه الحاكم في مستدركه برقم (٢٩١٨) (٢/٢٥٥)، وعلق الذهبي في التلخيص: في السند إسماعيل بن قيس من ولد زيد بن ثابت ضعفوه.

[2] - رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٦٣) (٤/١٦٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان –باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة برقم (١٥١) (١/١٣٣).

الثالثة: حق اليقين: وهذه لا تتحقق إلا بملابسة الشيء والدخول فيه، فإبراهيم أراد أن ينتقل من مرحلة التصديق الجازم إلى المشاهدة الواقعة ليحقق عين اليقين فكان له ما أراد، يقول ابن القيم في كتابه -التبيان في أقسام القران- معقباً على كلامه عن مرتبة عين اليقين: "وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى!؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي لفظ الشك حيث قال: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))، ومعاذ الله أن يكون هناك شك من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع".

وعلى افتراض اعتبار طلب نبي الله إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- شكاً، فيحمل على ما يعرض للإنسان من الخواطر التي يدفعها بمجرد قدحها في الذهن، ولا يسترسل معها، فلا يكلف بها ويحاسب عليها، ومن أمثلة وروده في الوحيين ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ}** [(١١٠) سورة يوسف] والمعني تخلف الوعد، فهذا مما يخطر على النفوس، ولكنها لا تسترسل معه فيكون مغتفراً، ومثله ذلك الرجل الذي أمر أهله أن يحرقوه ثم يذرّوه بعد ذلك، فلما كان إقدامه على هذا الصنيع ليس شكاً في قدرة الله -عز وجل- على جمعه وإحيائه من جديد، إنما حصل له بسبب غلبة الخوف تجاوز الله عنه وصفح.

والحواريون حينما طلبوا من عيسى -صلى الله عليه وسلم- كما حكاه الله على لسانهم بقولهم: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ}** [(١١٢) سورة المائدة]، وكانت علتهم: **{نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}** [(١١٣) سورة المائدة] ولا يعقل أن يكون خاصة أصحاب المسيح –عليه الصلاة والسلام- مشككين في قدرة الله –عز وجل-، بدليل أن الاستطاعة تأتي مستفهَماً عنها في بعض الأحيان، مراداً بها الفعل، مثل قولك: هل تستطيع أن تذهب معي إلى مكان كذا وكذا؟ لأجل ذلك لم يؤاخذوا.

والخلاصة أن الآية يمكن أن تحتمل المعنيين، إلا أن الأحسن حملها على القول الأول وهو أن إبراهيم –عليه السلام- أراد أن ينتقل من مرتبة عالية في اليقين إلى مرتبة أعلى منها.

وبهذا التوضيح ينتفي استشكال ورود لفظ الشك في الحديث، بما قرره ابن القيم ورجحه، وإذا عُلم أن الشك في البعث ينفر منه كثير من آحاد الناس، فيكف بأبي الأنبياء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مَن عُرف برسوخ الإيمان وثباته، والله أعلم.

"وقوله: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}، اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن".

الروايات الإسرائيلية المنقولة في تحديد هذه الطيور تجدها في غاية الاختلاف، وهذا يدل على تطرق الكذب إليها، ولا يوجد مستند صحيح يعتمد عليه في تحديد نوعها.

"وقوله: {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}: أي قطعهن، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك".

أقوال المفسرين تباينت في تفسير قوله: {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} فبعضهم يقول: قطعهن، وبعضهم يقول: أَمِلْهن، من قولهم: رجل أصور أي مائل العنق، والمعنى مختلف، والذي يظهر أن كل معنى من هذه المعاني يرجع إلى قراءة، فإذا قرأت {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} بالصاد مضمومة، فهي بمعنى الإمالة أي اجعلهن نحوك، وبعضهم فسره بمعنى ضمهن إليك وهو لا يخالف هذا المعنى، وإذا قرأت {فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ} بكسر الصاد يكون المعنى قطعهن، فلا حاجة للترجيح بين القولين، والقراءات إذا وجد لكل منها معنى يخصها فهي بمنزلة الآيات، وقيل غير هذا مما ظاهره التكلف، والله أعلم.

"فذكروا: أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وأخذ رءوسهن بيده، ثم أمره الله -عز وجل- أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله -عز وجل-، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً؛ ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم -عليه السلام- فإذا قدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: {وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله: {وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} قال: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما في القرآن أرجى عندي منها.

وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهم-، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله -عز وجل-: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} [(٥٣) سورة الزمر] **الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله -عز وجل-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى} فرضي من إبراهيم قوله بلى، فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم في المستدرك مثله، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.**

{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦١) سورة البقرة] **هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف".**

ابن جرير ذكر وجهاً للارتباط والمناسبة بين هذه الآية، والآيات السابقة فقال: وهذه الآية مردودة إلى قوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥]، والآيات التي بعدها التي ذكرت قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجّ إبراهيم، وأمْرِ الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربَّه ما سأل، اعتراض من الله -تعالى ذكره- بما اعترضَ به من قصصهم بين ذلك، احتجاجاً منه ببعضه على

المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعث وقيام الساعة، وحضاً منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٤٤]، يعرّفهم فيه أنه ناصرهم وإن قل عددهم وكثر عدَد عدوّهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويعلّمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذلهم ومفرّق جمعهم ومُوهِنُ كيدهم، وقطعًا منه ببعض عذر اليهود الذين كانوا بين ظهرَانَيْ مُهاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بما أطلع نبيَّه عليه من خفيِّ أمورهم، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم؛ ليعلموا أن ما أتاهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- من عند الله، وأنه ليس بتخرُّص ولا اختلاق، وإعذارًا منه به إلى أهل النفاق منهم، ليحذروا بشكِّهم في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يُحِلَّ بهم من بأسه وسطوته، مثل الذي أحلَّهما بأسلافهم الذين كانوا في القرية التي أهلكها، فتركها خاوية على عروشها.

ثم عاد -تعالى ذكره- إلى الخبر عن {الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا}، وما عنده له من الثواب على قَرْضه، فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} يعني بذلك: مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم.

وأما معنى قوله سبحانه: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ} فبعضهم جعله مقدراً بقوله: مثل نفقة الذين ينفقون؛ لأن التشبيه للنفقة وليس للمنفقين، ويمكن أن يكون التقدير {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ} أي كمثل زارع حبة، فيكون ضرب المثل بهم.

"فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك".

على قول سعيد بن جبير تكون الآية محمولة على العموم، فتشمل النفقة في سبيل الله كل باب من أبواب الخير، كالدعوة إلى الله -عز وجل-، والعلم، والجهاد، والفقراء، وسائر وجوه البر في النفقات.

والغالب في القرآن الكريم إذا أطلق فيه لفظ في سبيل الله أريد به الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ولذلك جعلوا هذه المضاعفة للحسنات إلى سبعمائة ضعف للنفقة في الجهاد فقط، وأما في الأبواب الأخرى فإن الحسنة بعشر أمثالها كما قال الله -عز وجل-: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام].

"وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله -عز وجل- لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، روى الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة))[3] ورواه مسلم والنسائي، ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: ((لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة))[4]، حديث آخر: روى أحمد عن أبي هريرة -رضي الله

---

[3] - رواه النسائي برقم (٣١٨٧) (٤٩/٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣١٨٧).

[4] - رواه مسلم في كتاب الإمارة –باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها برقم (١٨٩٢) (١٥٠٥/٣).

تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة))**[5] **وكذا رواه مسلم".**

ظاهر هذه المضاعفة المذكورة في الحديث إلى سبعمائة ضعف أنها عامة في جميع الأعمال سواء كانت في الجهاد أو في غير الجهاد من النفقات في سبيل الله، إلا أنه قد جاء ما يخالف هذا الفهم في حديث آخر عن أبي عبيدة مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو ماز أذى- يعني أماط أذى- فالحسنة بعشر أمثالها))[6] فدلالة الحديث ظاهرة في اختصاص المضاعفة إلى سبعمائة ضعف في الأجر بالنفقة في الجهاد، وأما النفقة في غير الجهاد فتلك الحسنة بعشر أمثالها، والله أعلم.

"وقوله هاهنا: {وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} أي بحسب إخلاصه في عمله، {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه، {عَلِيمٌ} بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده".

يُحتمل في المراد من المضاعفة في الآية أمران:

- أن الله يضاعف هذه المضاعفة يعني من العشرة إلى السبعمائة ضعف لمن شاء وأراد من خلقه، وليس كل الناس يحظون وتشملهم هذه المضاعفة في الأجر.
- أن الله يضاعف هذا العدد –السبعمائة- فيزيد في الجزاء والأجر على السبعمائة لمن يشاء، فيعطيه أكثر من السبعمائة، والذي يفهم من السياق أن المضاعفة في العدد، فيجازي الله –عز وجل- ويضاعف الحسنات للإنسان إلى سبعمائة ويزيد من شاء فوق السبعمائة، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم –رحمهما الله- ولعل مرد هذا العطاء والمضاعفة في الأجر والثواب إلى حال المنفق والنفقة، واعتبار الموضع والزمان، فإذا كانت النفقة في وقتٍ الناس أحوج ما يكونون إليها كمجاعة مثلاً، فهي أعظم من النفقة في حال زهد الناس فيها، وإذا كانت من أطيب الكسب، فهي أفضل مما دونها من الكسب، وإذا أخرجها العبد وهو طيب النفس كامل اليقين بجزاء الله -عز وجل-، وأن يخلفه على هذه النفقة خيراً، كانت أفضل ممن يخرجها وهو يشعر أنها مغرم، أو يكون متردداً في إخراجها، أو أن قلبه متعلق بها، فالجزاء والأجر في النفقات بحسب ما يقوم بقلب الإنسان من الإخلاص واليقين وعموم النفقة ونفعها وحاجة الناس إليها وثمنها ونفاستها، فهذه الأمور سبب لمضاعفة الأجر وزيادته، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الصيام – باب فضل الصيام برقم (١١٥١) (٨٠٦/٢)، ورواه أحمد في مسنده برقم (٩٧١٢) (٤٤٣/٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[6] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٦٩٠) (١٩٥/١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [(٢٦٢-٢٦٤) سورة البقرة]: "يمدح -تبارك وتعالى- الذين ينفقون أموالهم في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل.

وقوله: {وَلاَ أَذًى} أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال: {لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه، {وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول، أما بعد:

فقد سبق الكلام على أن الأقرب في حمل الآيات المادحة للمنفقين أموالهم في سبيل الله على العموم في الجهاد وغير الجهاد.

وقوله سبحانه: {ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى} المن: نوع من الأذى ولكنه خاص منه، فالمن: أن يمتن على المعطى بالعطية، بأن يذكره ويبكته بها، أو يقرره بإحسانه إليه...،.

والأذى: يحصل بهذا المن ويحصل بغيره، كأن يعطيه ثم يسمعه ما يكره، بأن يغلظ عليه بالقول أو يشتمه أو يجرح مشاعره أو يرفع صوته، أو يبدي امتعاضه وتذمره منه، أو نحو ذلك من الكلام، فهذه الأمور قد تذهب بأجر صدقته، سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر.

"ثم قال تعالى: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم، {وَمَغْفِرَةٌ} أي عفو وغفْر عن ظلم قولي أو فعلي، {خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ} عن خلقه.

{حَلِيمٌ} أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم".

القول المعروف من كلمة طيبة أو دعاء لمسلم في حال الاعتذار، وكذا التلطف من العبد في الكلام والعبارة، خير وأفضل من العطاء مع الأذية وجرح المشاعر، أو المن عليه، أو إبداء الضجر منه، والناس قد تذهب أجور صدقاتهم بسبب هذه الأمور المحتفة بها، وقد قال دريد:

لا تـــدخلنك ضـــجرة مـــن ســـائل	فلخير دهــرك أن تُـــرى مـــسئولاً
لا تجـــبهن بـــرد وجـــه مؤمـــل	فبقـــاء عـــزك أن تُـــرى مـــأمولاً

قوله سبحانه: {وَمَغْفِرَةٌ} قال: أي عفو وغَفْر عن ظلم قولي أو فعلي صدر من هذا السائل، إذ إنه قد يصدر منه إساءة، أو يتكلم بكلام لا يليق، أو يلح في الطلب...، وبعضهم جعل معنى المغفرة من الغَفْر: وهو الستر مع العفو، والتجاوز في عدم المؤاخذة بالإساءة؛ ومنه سُمي المِغْفَر الذي يوضع على الرأس بذلك؛ لأنه يستر رأس لابسه، ويقيه الضرب، والمعنى أن تستر خلته حين أظهر لك حاجته ومسغبته وقصدك في الطلب دون غيرك، واختار هذا الرأي كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وقيل: المغفرة بالنسبة للسائل نفسه، بمعنى أن السائل ينبغي له أن يقدِّر، وأن يلتمس العذر، ويغفر للإنسان الذي سأله فلم يعطه، وهذا المعنى بعيد.

قوله: {وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} يحتمل في المعنى إذا ربطناه بالآية، أن الله غني عن صدقاتكم، حليم فلا يعجل العقوبة لهذا المانِّ، ويحتمل معنى آخر وهو أن الله -عز وجل- مع غناه الكامل المطلق إلا أنه حليم برغم ذلك، وأنتم مع فقركم وقلة ما في أيديكم تضجرون حينما تُسألون شيئاً من هذا الحطام الذي في أيديكم، والمعنى الذي قبله أحسن منه، والله أعلم.

"وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب))[1]، ولهذا قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [(٢٦٤) سورة البقرة] **فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ} أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليُشكر بين الناس أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: {وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}".**

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جيد في الربط بين الجملتين، وجلي في توضيح المعنى.

"ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مناً أو أذى فقال: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ} [(٢٦٤) سورة البقرة] **وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا وهو الصخر الأملس".**

في قوله سبحانه: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ} تشبيه لحال الإنسان المرائي بالمطر الشديد الذي نزل على صخر أملس عليه تراب قد علق به، فأزال المطر هذا التراب، فلم يعد حينها محلاً لإخصاب النبات، ولا أرضاً طيبة تقبل المطر وتنبت العشب، فهذا مثل لحال المرائي.

---

[1] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم برقم (١٠٦) (ج ١ / ص ١٠٢).

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يشبه هذا الصفوان بقلب المنافق، والتراب الذي عليه بما ظهر للناس من عمله من صدقة أو سواها...، فعمل المنافق بمنزلة التراب الذي على الصفوان زاح عندما هَمَع عليه ماء المطر.

والصفوان يستعمل للمفرد والجمع بلفظ واحد، وبعضهم يقول: الصفوان مفرد وجمعه: صُفِي بضم أوله وكسر ثانيه، وصِفِي بكسر الصاد والفاء.

"{فَأَصَابَهُ وَابِلٌ} وهو المطر الشديد".

الذي يكون قطره كبيراً متتابعاً.

"{فَتَرَكَهُ صَلْدًا} أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً، أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب".

بمعنى أنه رجع على حالته وصورته الحقيقية.

"بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: {لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٦٥) سورة البقرة] **وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك، وتثبيتاً من أنفسهم".**

وورود هذه الآيات متتابعة على الرغم من كونها مختلفة في الدلالة جاءت على طريقة القرآن إذ يأتي بالشيء وما يقابله، فتجده يذكر حال أهل الجنة ثم يعرج على ذكر حال أهل النار، يورد صفة الجنة وأهلها وبعدها يعقب بذكر صفة النار وأهلها، يرغب ثم يرهب أو العكس وهكذا ....

"{وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قوله -عليه السلام- في الحديث المتفق على صحته: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً))[2] أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه".

فتحقيق القبول لهذه النفقات نابع من التصديق بوعد الله الناشئ من جهة أنفسهم، وباليقين الثابت الراسخ بعائدة هذه النفقة ومردودها، وأنها مخلوفة، أما من يرى هذه النفقة من المغرم، أو تعلق قلبه بها غاية التعلق فلا يخرجها إلا وهو متردد، يكاد قلبه ينخلع معها، فمثل هذا الإنسان ليس بهذه المثابة التي وصفها الله -عز وجل-، لأن من لازمِ قبول هذه النفقات احتسابها عند الله –عز وجل- وهو منتفٍ هنا.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا} مفعول لأجله، والمعنى ومثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضات الله وطلباً للتثبيت، أو لأجل الابتغاء والتثبيت.....

وقيل: بل إن قوله: {وَتَثْبِيتًا} مصدر، والمعنى أنهم بهذا الإنفاق يروضون النفس ويثبتونها، ويدربونها ويخطمونها بتقويتها على البذل والإنفاق لئلا تضعف، فتمتد أيديهم في الإنفاق طاعة لله -عز وجل-، وهذا المعنى الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم ومنهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-.

---

[2] - رواه البخاري في كتاب الإيمان – باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان برقم (٣٨) (٢٢/١)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٦٠) (٥٢٣/١).

وقيل: المعنى أن نفوسهم هي التي تثبتهم عند بذل هذه النفقات، وهذا قال به كثير من السلف، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وكلا المعنيين تحتملهما الآية.

قوله سبحانه: {ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} أي أن إنفاقهم خالصٌ لوجه الله -تبارك وتعالى-.

"وقوله: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك: وتجري فيه الأنهار".

الربوة: هي ذات الارتفاع اليسير، والبستان إذا احتضنته ربوة فُضِّل على المكان المنخفض؛ لأن المكان المنخفض يكون مجمعاً للأتربة، وأرضه فيها ضعف ورخوة، أما الربوة فأرضها أطيب وأصلب وأقوى وأثبت للنبات وأحفظ للماء ويضربها الهواء من كل ناحية، وتصيبها الشمس وما أشبه ذلك.

وقوله: {أَصَابَهَا وَابِلٌ} وهو المطر الشديد كما تقدم، {فَآتَتْ أُكُلَهَا} أي ثمرتها، {ضِعْفَيْنِ} أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان".

ابن القيم -رحمه الله- ينزل هذا المثل على المنفقين أموالهم في سبيل الله، ويجعلهم قسمين: الأول: السابقون بالخيرات، وهم الذين ينفقون الإنفاق الكثير الطيب ويتحرون في البذل أفضل أموالهم، فهؤلاء: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ}، والثاني: المقتصدون، وهم من كانت نفقاتهم دون ذلك فأصابها الطل، وهو الرذاذ أو المطر الخفيف، وكل ذلك يثمر أحسن الثمر، والله يجازي عليه أحسن الجزاء.

ومن أهل العلم من ينزل الآية على شيء واحد، باعتبار أن هذه الأرض -لطيبها وحسن منبتها وتربتها- إن أصابها وابل أخرجت ألوان الثمار والأشجار، وإن لم يصبها وابل يكفيها الطل، فتخرج بهجتها، ويمكن أن تشمل هذا النفقة قليل المال وكثيره إذا كانت طيبة من مال طيب، وبنفس طيبة من مُخرجها مع تحقق الإخلاص لله -عز وجل- عند إخراجها، فتكون النفقة بهذه المنزلة.

والضمير في قوله سبحانه: {أَصَابَهَا وَابِلٌ} يحتمل أن يرجع إلى الجنة لأنها موضع الحديث، ويحتمل أن يرجع إلى الربوة، وما دام أن الأصل في عودة الضمير أن يرجع إلى أقرب مذكور، فأقرب مذكور هو الربوة، والواقع أن بينهما تلازماً، والله أعلم.

قوله سبحانه: {فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} قال ابن القيم: اختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه، وضعفه مثله، وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفاً زاد مثلاً، والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل صار مثلين وهما الضعف، فلو قيل لها ضعفان لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعاف ثلاثة أمثاله مضافة إلى الأصل ومثله، وعليه يدل قوله تعالى: {فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} أي مثلين، وقوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [(٣٠) سورة الأحزاب] أي مثلين، ولهذا قال في الحسنات: {نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [(٣١) سورة الأحزاب]، وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهمٌ منشؤه الظنُّ أن الضعف هو المثل مع الأصل وليس كذلك، بل المثل له اعتباران، إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان، والله أعلم.

"{فإن لم يصبها وابل فطل} قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تُمحل أبداً ".

تقدير المقطع: {فإن لم يصبها وابل فطل} أي يكفيها الطل.

"لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيّاً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [(٢٦٦) سورة البقرة]".

ابن جرير يرى أن هذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس في هذه الآية، نظير المثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ...} [(٢٦٤) سورة البقرة]، ويقول: هذا مثل آخر لنفقة الرياء، إنه ينفق ماله يرائي الناس به، فيذهب ماله منه وهو يرائي فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاجَ إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء، فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سَموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئًا. فكذلك المنفق رياء.

{وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ} الواو يمكن أن تكون حالية والمعنى وقد أصابه الكبر.

{فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ} الإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض مرتفعة إلى السماء، تدمر ما يمر بها في طريقها.

"روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال يوماً لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ}؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله".

كلام ابن عباس يعني أن الآية أعم من أن يكون مختصاً بها المنافق، ويشهد لذلك حديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...))[3].

"وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء فخانه أحوج ما كان إليه،

---

[3] - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٢٠٣٦/٤).

ولهذا قال تعالى: {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ} وهو الريح الشديد، {فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} أي أحرق ثمارها، وأباد أشجارها فأي حال يكون حاله؟

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ضرب الله مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} يقول: ضيعه في شيبته، {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ} وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خيرٌ يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رُد إلى الله -عز وجل- ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغنِ عن هذا ولده، وحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا روى الحاكم في مستدركه: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في دعائه: ((اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري))[4]، ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [(٤٣) سورة العنكبوت]".

في ضرب هذا المثل عبرة عظيمة جداً لكل إنسان فرداً كان أو جماعة أو غير ذلك، أن يحذر درب الغواية بعد الهداية؛ لأن العبد إذا كانت له أعمال طيبة، وأيادٍ بيضاء، ونفع للقريب والبعيد، وتعليم للناس، ويَحمِل الاعتقاد الصحيح وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك ينسلخ من هذا الخير، ويتنصل منه، ويدير ظهره له، ويركب موجة أخرى تناقض ما كان عليه في السابق، فبصنيعه هذا يهدم كل ما بناه بيديه عبر السنين الطوال، وينقض ما كان يشتغل به، ويبذل فيه الوقت والمال وما أشبه ذلك، وهذه الأيام تعج بمثل هذه التقلبات والانتكاسات، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت.

والله أعلم، وصلى الله وسلم، وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

---

[4] - رواه الحاكم في مستدركه برقم (١٩٨٧) (١/٧٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(٢٦٥-٢٦٧) سورة البقرة]: **"يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق -والمراد به الصدقة هاهنا قاله ابن عباس- من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض.**

قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ} أي تقصدوا الخبيث، {مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ} أي لو أُعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل: معناه {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد اختلف أهل التأويل في المراد بالإنفاق من الآية في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ} فذهب الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى أن المراد بالإنفاق هنا الصدقة، وقرينة ما ذهب إليه في الآية هي أن الله -عز وجل- قال: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} ومعلوم أن الزكاة إنما تخرج من أوساط المال رديئاً كان أو جيداً، بخلاف الصدقة فالحث فيها على أطيب المال وأفضله.

وذهب كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وغيره إلى أن هذه الآية نزلت في الزكاة، واستند من الآية بأن الله -عز وجل- ذكر أصنافاً هي من الأموال المخرجة في الزكاة، فقوله: {أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ} يعني التجارات والأموال التي حصلتموها، {وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ} هي الزروع والثمار، والذي يظهر أن الآية عامة في الصدقة وفي الزكاة؛ إذ لا دليل يخصص واحداً منهما، فيدخل في الإنفاق الجميع.

والطيب من المكاسب المقصود به الذي لم يتحصل من طريق محرم، وأيضاً ما كان من الأموال غير رديء، فالإنسان في الزكاة إذا كان ماله من الطيب أو مختلطاً فإنه لا يعمد إلى الرديء فيُخرج منه الزكاة، وإنما يخرج من الوسط؛ ليصدق عليه أنه من الطيبات.

وذكر هذين الصنفين في الآية دون سواهما {طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}؛ لأن بقية الأصناف ترجع إليها في النهاية، إما مباشرة أو بواسطة كالبترول والذهب والفضة فإن أصله من الأرض.

وقوله سبحانه: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} ابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن هذه في الزكاة، وأن هؤلاء المستحقين للزكاة صار لهم حظ وحق ونصيب في هذا المال فهم فيه شركاء، فإذا قصد الإنسان إعطاء الرديء لهؤلاء المستحقين فإنه يكون قد جار وتعدى وظلم؛ لكونه أعطى حصة الشريك من رديء المال.

وفي الآية معنىً آخر ذكره ابن كثير بقوله: "**أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه**".

قوله سبحانه: {إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} أصل الإغماض بمعنى: التغاضي والتجاوز، كأنه يغمض عينه فلا يرى هذا الشيء الذي يكرهه، ومراده: أنكم لن تأخذوا هذا الشيء إذا أخذتموه إلا على وجه الاستحياء والمجاملة وإلا فإن نفوسكم لا تقبله -هذا أحد المعاني المشهورة في الآية- فلا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى الرديء من الأموال فيتصدق بها، والجيد منها فيحتكره ويضمه إليه، هذا هو المراد، والله أعلم.

وعلى رأي من جعل الآية في الزكاة كابن جرير الطبري، فينص على اختلاف أهل التأويل في تأويل ذلك، فيقول: قال بعضهم: معنى ذلك: ولستم بآخذي الرديء من غرمائكم في واجب حقوقكم قبلهم إلا عن إغماض منكم لهم في الواجب لكم عليهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولستم بآخذي هذا الرديء الخبيث -إذا اشتريتموه من أهله- بسعر الجيد إلا بإغماض منهم لكم في ثمنه، والله أعلم.

"**روى ابن جرير -رحمه الله- عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- في قول الله:** {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} **الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك:** {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ}".

في أول الرواية قال: نزلت هذه الآية في الأنصار، وهذا سبب نزول غير صريح؛ وفي آخرها أورد عبارة تدل على أن سبب النزول كان صريحاً عند قوله: فأنزل الله فيمن فعل ذلك..، وهذا مما يذكره المفسرون من الأمثلة التي يقصد بها سبب النزول حقيقة وإن جاءت الرواية بعبارة غير صريحة في ذلك، وأحياناً قد يكون قوله: نزلت في كذا من قبيل التفسير للآية، ولا يحكم له بالرفع؛ لأنه متردد بين التصريح وغير التصريح.

وفي رواية أخرى: عن البراء –رضي الله عنه- قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله

-تبارك تعالى- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} قال: لو أن أحدكم أُهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده"[1] وأو في الحديث يمكن أن تكون عاطفة، يعني على إغماض وحياء، فيكون معناهما واحد، وجاء في بعض الروايات لو صحت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى عذقاً من الشيص قد علق في المسجد فقال: ((إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة))[2].

والشيص: الأقناء أو الأكمام من النخيل إذا أبرت خرج الثمر ضعيفاً مستطيلاً، مسطح الجوانب، أصغر من حجمه المعروف.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}، يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال: فذلك قوله: {إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه" رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران]".

هذا بناء على أنه ما كان على وجه الاستحقاق، إما على قول ابن جرير في الزكاة الواجبة، أو أن ذلك يضرب لهم به المثل بحيث إنه يقول: لا تتصدقوا بالرديء فلو كان لأحدكم حق قد لزم على غيره بشراكة أو غيرها فأعطاه الرديء فإنه لا يقبل ذلك، فأنتم أيضاً لا تجعلوا مال الله -عز وجل- من نفقاتكم هو الرديء.

"وقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} أي وإنْ أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا ليساوي الغني الفقير كقوله: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ} [(٣٧) سورة الحج]**، وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، ومن يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو، ولا رب سواه".**

ويمكن أن يكون المعنى أنه غني عن صدقة هذا المتصدق بالرديء من المال، وحميد: أي أنه مستحق للحمد، فلا يليق معه أن تجعل له الرديء من صدقاتك، فهذا يخالف مقتضى حمده -تبارك وتعالى-.

[1] - رواه الترمذي برقم (٢٩٨٧) (٥/٢١٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٨٧).

[2] أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة [ج١- ص٥٠٥ – ١٦٠٨] وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله [ج١- ص٥٨٣ – ١٨٢١]، وأحمد في المسند [ج٦- ص٢٣ – ٢٤٠٢٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"، وابن خزيمة في كتاب الزكاة، باب كراهية الصدقة بالحشف من الثمار وإن كانت الصدقة تطوعاً إذ الصدقة بخير الثمار وأوساطها أفضل من الصدقة بشرارها [ج٤- ص١٠٩ – ٢٤٦٧] وقال الأعظمي: "إسناده حسن لغيره، صالح بن أبي عريب ضعيف لكن للحديث شواهد"، وابن حبان في كتاب التاريخ، باب إخباره -صلى الله عليه وسلم- عما يكون في أمته من الفتن والحوادث [ج١٥- ص١٧٧ – ٦٧٧٤] وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن"، والحاكم في المستدرك [ج٢ - ص٣١٣ – ٣١٢٦] (تعليق الذهبي قي التلخيص: صحيح)، والطبراني في المعجم الكبير [ج١٨- ص٥٥ – ٩٩] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الزكاة، باب ما يحرم على صاحب المال من أن يعطي الصدقة من شر ماله [ج٤- ص ١٣٦- ٧٣١٨] وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١ - ص٣٠٢ – ١٤١٩].

"وقوله: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦٨) سورة البقرة] روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً} الآية))[٣]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما جميعاً، ومعنى قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ} أي: يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيدكم فلا تنفقوه في مرضات الله، {وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء} أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق".

من أهل العلم من نظر إلى هذين الأمرين، الإيعاد بالفقر والأمر بالفحشاء من الشيطان باعتبار الاقتران الذي يرتبط مع المعنى، فالشيطان يوهم المتصدق بالفقر، وقلة المال، وبوادر الاحتياج إليه، ويأمر بالفحشاء: قيل: البخل، والمعنى يمنعك من الإنفاق، وقيل: كل فحشاء في القرآن يراد بها الزنا إلا في هذا الموضع، وفيه نظر.

وابن القيم -رحمه الله- في بعض المواضع من كتبه نقل الإجماع على أن الفحشاء المراد بها في هذا الموضع البخل، وهذا الإجماع غير صحيح فقد نقضه في موضع آخر من كتبه عندما حمل الآية على العموم فقال: قوله سبحانه: {وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء} أي بكل فاحش قبيح، وكل خلق ذميم رديء، ويدخل فيه البخل باعتبار أن الآيات في الإنفاق، فالسياق قرينة تبين المراد.

والفحشاء تطلق على الذنب الكبير العظيم، وقد غلب إطلاق استعمالها على الزنا، إلا أن الصواب أن كل ما فحش من القول والفعل يسمى فحشاء وفاحشة وفاحشاً، والله يبغض الفاحش البذيء.

"قال تعالى: {وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ} أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء، {وَفَضْلاً} أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر، {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

وقوله: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله".

الحكمة: أصل هذه اللفظة مادة "حكم"، وإمام اللغة أحمد بن فارس -رحمه الله- في كتابه المقاييس يرجعها إلى أصل واحد وهو المنع، وبعض أهل العلم يرجعها إلى أصلين كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فإرجاعها إلى المنع معناه أنها في جميع موارد الاستعمال ترجع إلى هذا المعنى، فإذا جئت بأي لفظة فيها حكم ويحكم وحاكم وما أشبه ذلك كحكمة فهي ترجع إلى المنع، ولذلك الحاكم إنما سمي حاكماً؛ لأنه يمنع أحد الخصمين من الاعتداء على حق الآخر، والقطعة من الحديد توضع على فم الفرس سميت حكمة؛ لأنها تمنعه من الانفلات، فهذا مما يؤكد أن أصول هذه اللفظة تدور وترجع إلى شيء واحد، وإن كانت معاني هذه اللفظة متعددة.

---

[3] - رواه الترمذي برقم (٢٩٨٨) (٥/٢١٩)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٤٧٧٣).

وقد تباينت أقوال العلماء في المراد بالحكمة، فقيل: هي الإصابة في القول والعمل، وهذا بمعنى وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، والحكمة تقتضي اجتماع الأمرين.

وقيل: هي الفقه في الدين، وهذا يقتضي أن يعرف الإنسان الحق كما هو، ويضع الشيء في موضعه؛ لأن من عنده علم وليس عنده فقه قد يخطئ في أحكامه، ويحيد في رؤيته، ويضل في دعوته، ويزيغ في فتواه، والفتوى تحتاج إلى فقه ونظر إلى الواقع ومآلات الأمور، وليست المسألة مجرد معلومات يحفظها الإنسان ويلقيها.

وقيل: إنها النبوة في بعض المواضع، كما قال الله -عز وجل- عن داود -عليه الصلاة والسلام-: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢٥١) سورة البقرة] قال بعض المفسرين: إن المراد بالملك والحكمة في الآية النبوة، ومن مسلمات النبوة أن يعطى النبي من العلم والفهم ما يسدده ويرشده، ليكون مسدداً في الأحكام التي يبينها وفيما يأتي ويذر، وهذا لا يتأتي إلا بعبق من الوحي.

وقيل الحكمة: العقل، وقيل: فهم القرآن، وقيل: الفهم والعلم، وقيل: غير هذا، والملاحظ أن كل هذه المعاني الواردة في تفسير الحكمة قريبة من بعضها في المعنى، لكن من أوفاها في الدلالة على المعنى أن يقال: هي الإصابة في القول والعمل، وقد يراد بها معنى أعظم وأجل وأوفر إذا قصد بالحكمة النبوة، والنبوة: منحة إلهية، وتفضل من الله -عز وجل- لا ينال بالاكتساب، من آثارها التسديد والعلم والفقه والفهم والإصابة في القول والعلم، ومن أخذ من ميراث النبوة واقتبس كان له من الصواب والفهم والفقه بقدر ما أخذ، والحكمة لا شك أنها تحتاج إلى عقل حتى تكتمل للعبد.

"وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها))[٤] وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه".

قوله: **((ورجل آتاه الله حكمة))** بمعنى: آتاه الله علماً وفقهاً في الدين.

"وقوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لُبٌّ وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

{وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٧٠-٢٧١) سورة البقرة] يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(٢٧٠) سورة البقرة] أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته".

---

[٤] - رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب إنفاق المال في حقه برقم (١٣٤٣) (٥١٠/٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها برقم (٨١٦) (٥٥٩/١)، ورواه ابن ماجه برقم (٤٢٠٨) (١٤٠٧/٢)، ورواه أحمد في مسنده برقم (٣٦٥١) (٣٨٥/١).

الضمير في الآية جاء موحداً على الرغم من عودته على شيئين النفقة والنذر، وهذا محمول على عود الضمير المذكور على المعنى لا اللفظ، إذ المعنى أن الله يعلم ما ذكر من النفقة والنذر، ولهذا النوع من عود الضمير الموحد على أكثر من شيء أمثلة في القرآن عديدة كقوله سبحانه: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٤) سورة التوبة] وكقوله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [(١١) سورة الجمعة] وقوله: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ} [(١١٢) سورة النساء] ولم يقل: بهما {بَرِيئًا}، وقد يثنى الضمير كقوله سبحانه: {إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [(١٣٥) سورة النساء].

"وقوله: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} [(٢٧١) سورة البقرة] أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي".

عامة أهل العلم على أن المراد بالإنفاق في الآية صدقة التطوع؛ لأنه قال: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}، وهذا القدر بهذا الإطلاق لا يقال في الزكاة، لأن الزكاة معلوم أنه يطلب فيها الإظهار لأمور:

- كونها واجبة أصلاً.
- أن الإنسان لا يتمدح بإخراجها، فالجميع تلزمه الزكاة.
- لدفع التهمة عنه؛ لئلا يقال: فلان لم نره يخرج الزكاة.
- لما في إخراجها علانية من إظهار لشعيرة من شعائر الدين، وركن من أركان الإسلام، فيتداعى الناس إلى ذلك، ويكون إخراجها أمراً معروفاً في المجتمع، لا يستوحش منه أحد، ولا يجترئ إنسان على تركها أو التنصل منها.

"وقوله: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ} فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة))[5].

والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه))[6]".

فالأصل أن الإسرار في الصدقات أفضل لعموم الأدلة، إلا إذا ترتب على الجهر مصلحة راجحة من اقتداء الناس وتفانيهم في الصدقات من باب التنافس في الخير، ففي هذه الحالة تُفضَّل صدقة الجهر من هذه الحيثية، ولذلك لما جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وفد عامتهم من مضر حفاةٌ عراةٌ مجتابي النِّمار ...، تمعّر

---

[5] - رواه أبو داود برقم (١٣٣٥) (١/٥١٠)، والترمذي برقم (٢٩١٩) (٥/١٨٠)، والنسائي برقم (٢٥٦١) (٥/٨٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٤١٦).

[6] - رواه البخاري في كتاب الزكاة– باب الصدقة باليمين برقم (١٣٥٧) (٢/٥١٧)، ومسلم في كتاب الزكاة – باب فضل إخفاء الصدقة برقم (١٠٣١) (٢/٧١٥).

وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب ... وحث على الصدقة، فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى اجتمع كومين من طعام وثياب ... القصة[7]، فالمصلحة هنا كانت داعية إلى أن يُظهر الناس صدقاتهم، وهناك حالات قد لا يتأتى معها السر، مثل لو أن الإنسان أراد أن يصلح طريقاً أو يبني جسراً، أو سوى ذلك مما يحتاج إلى أعوان، فلا بأس لكن لا بد من استحضار الإخلاص في الصدقة حتى تقبل عند الله -عز وجل- قال سبحانه: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [(٢٢٠) سورة البقرة]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إنما الأعمال بالنيات))[8].

"وقوله: {وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ} أي بدل الصدقات ولا سيّما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات، وقوله: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه".

قرئت {وَيُكَفِّرُ} بالرفع، وقرئت بالجزم أيضاً {وَيُكَفِّرْ}، وجميعها قراءات متواترة، ونحن لا نذكر في العادة القراءات التي تكون بمعنىً واحد ولا يتأثر بها المعنى.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[7] - رواه مسلم في كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة لو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار برقم (١٠١٧) (٢/٧٠٤).

[8] - رواه البخاري في كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برقم (١) (١/٣)، ومسلم بلفظ ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة – باب قول -صلى الله عليه وسلم- ((إنما الأعمال بالنية))، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال برقم (١٩٠٧) (٣/١٥١٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٢-٢٧٤) سورة البقرة]: **"قال أبو عبد الرحمن النسائي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمراد من الآية وأثر ابن عباس أن الصحابة –رضوان الله عليهم- كانوا يكرهون أن يجعلوا شيئاً من وصاياهم لقرابتهم من المشركين، فبيّن الله -عز وجل- أن ما يخرجونه من الصدقات على قرابتهم من الكفار قربة لله –عز وجل- سيجدون جزاءها عند ربهم لا يضيع منه شيء، فلا يمنعهم شركهم بالله من الإحسان إليهم والتصدق عليهم فإن كفرهم ليس بمانع لكم من الصدقة، وهذا الخطاب في الآية يستثنى منه الزكاة؛ فإنها لا تعطى للمشرك إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم، والله أعلم.

"وقوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ} كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [(٤٦) سورة فصلت] **ونظائرها في القرآن كثيرة، وقوله: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخرساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنىً حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، ألبرٍّ أو فاجرٍ أو مستحق أو غيره، وهو مثاب على قصده".**

أراد الله سبحانه أن يذكّر المتحرجين من دفع صدقاتهم لقرابتهم من المشركين لسبب أو لآخر بثلاثة أمور:

الأول: أن ما يقدمه الإنسان لنفسه من صدقة وبر إنما ذلك قربة يتقرب بها العبد إلى ربه-عز وجل- فلا يخاف ولا يخشى، وذلك قوله سبحانه: **{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ}**.

الثاني: أن العمل لا بد في قبوله من شرط الإخلاص فيه وهو قوله سبحانه: **{وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ}** والمعنى: بما أنك تريد وجه الله -عز وجل- فلا عليك ما عمل هذا الإنسان وحاله، وبعض أهل العلم يقول: هذه الآية وردت على سبيل الإخبار عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهم يحققون

الإخلاص في نفقاتهم فهي بمقام التزكية، وقيل: هذه الآية بمعنى الشرط فهي تدل على اشتراط الإخلاص لله -عز وجل-، كأنه يقول لهم: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، والذي يظهر أنها تبيّن لهم معنى يدفع عنهم ذلك الاستشكال والتوقف، يقول لهم: أنتم إنما تريدون بذلك وجه الله -عز وجل- فلا عليكم ما يكون عليه عمل هذا الإنسان الذي يُتصدَّق عليه.

الثالث: أن أي نفقة عائد نفعها على صاحبها، وسيوفيه الله أجره غير منقوص فيه، وسيجد جزاءه يوم يلقونه فلا يتمنع المرء من الإحسان إلى هذه القرابات ما داموا فقراء.

"**ومستند هذا تمام الآية: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون تُصدِّق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقتها فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تُصدِّق على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تُصدِّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني وعلى سارق، فأُتي فقيل له: أمّا صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته))**[1]".

هذا الرواية في الصدقة على الزانية والغني والسارق تقرر معنى الآية، فلا يمنع حال الإنسان من صلاح وفساد من إيصال البر والإحسان إليه والصدقة عليه ولو خالط العبد الكفر ففي كل كبد رطبة أجر، وكذا إعطاء الصدقة للمستكثر منها، فإنه يعطى ولن يتر الله أجر المتصدق، ولكن ينبغي التلطف في إيصال الصدقة بالطريقة المناسبة لمن علم من حاله أنه يستعين بها في باطل.

"**وقوله: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}** [(٢٧٣) سورة البقرة] **يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم، و{لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ} يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض: هو السفر، قال الله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ}** [(١٠١) سورة النساء] **وقال تعالى: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [(٢٠) سورة المزمل] **الآية**".

يحتمل أن يرجع قوله سبحانه: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} إلى ما سبق من الآيات وهو قوله سبحانه: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاء} والمعنى اجعلوا هذه النفقات للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، فهم أولى الناس بصدقاتكم ونفقاتكم.

ويحتمل أن يكون معنى الآية على تقدير: أنفقوا عليهم، أو غير ذلك مما يمكن أن يقدر هاهنا.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم برقم (١٣٥٥) (٢/٥١٦)، ومسلم في كتاب الزكاة – باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد غير أهلها برقم (١٠٢٢) (٢/٧٠٩).

وقوله سبحانه: {أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} سبق الكلام على هذه اللفظة "أحصروا" و"حصروا"، فمن أهل العلم من لا يفرق بينهما ويجعل معناهما واحد سواء كان ذلك الإحصار الواقع من جهة العدو، أو حصر نفسه عن التقلب والسعي في الأرض بأن اشتغل بالجهاد وتفرغ له.

وابن جرير -رحمه الله- يجعل هذا اللفظ بصيغة "أحصروا" من جهة اللغة دالاً على معنى محدد، فلا يقال إلا فيمن حصر نفسه بسبب تفرغه لعمل يقوم به، وهؤلاء لما تفرغوا للجهاد شغلوا به عن التجارة والتكسب مما أدى إلى عوزهم وفقرهم.

وقال بعضهم: إنهم مَن حصرهم العدو فلم يستطيعوا السفر للتجارة والتقلب في الأرض؛ لأن العدو يطلبهم ويتربص بهم في كل مكان، فإذا ذهبوا أُخذوا، مما اضطرهم ذلك إلى البقاء في المدينة.

والكلام على ما ورد في لفظة الإحصار مر عند قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وبناء عليه وقع الخلاف في الإحصار في الحج أو العمرة، هل يكون ذلك مختصاً بحصر العدو أو أن جميع صور الحصر داخلة فيه؟، الله أعلم بالصواب.

"وقوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ} أي: الجاهل بأمرهم وحالهم، يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدقَ عليه، ولا يسألُ الناس شيئاً))[٢]، وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أيضاً".

فهذا الصنف لا يسألون صراحة ولا يتعرضون للسؤال، لا بالمقال، كأن يقول: أعطني ونحوه...، ولا بالحال كأن يتعرض للناس في طريقهم ويقف أمامهم يفهمهم أنه محتاج.

"وقوله: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم} [(٢٩) سورة الفتح]، وقال: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [(٣٠) سورة محمد]".

بمعنى أن المتفرس يعرفهم ويدرك فقرهم وحاجتهم، وذلك يشمل ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية، فصاحب العلة يعرف بما يظهر عليه من ملامح وجهه كصفرة وشحوب وصعوبة في مشيه وحركاته...، والفقير يعرف برذاذة ثيابه ورثاثته ومسكنته....

"وقوله: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} أي: لا يلحون في المسألة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال فقد ألحف في المسألة".

الإلحاف: بمعنى الإلحاح، وأصل الكلمة من اللحاف الذي يعطاه الإنسان ليشتمل به في جميع أعضائه، وأبشع صور المسألة وأقبحها الإلحاح في السؤال، ولذلك نفى الله -عز وجل- عن هؤلاء الإلحاف في المسألة، ومقتضى مفهوم المخالفة في الآية أنهم يسألون لكن من غير إلحاف، وهذا يفهم منه معارضة المنطوق السابق

---

[2] - رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٦٥) (٤/١٦٥١)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة – باب المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يتفطن له فيتصدق عليه برقم (١٠٣٩) (٢/٧١٩).

وهو قوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} والعفيف إنما سمي بذلك؛ لأنه لا يطلب من الناس شيئاً، ولا يكلم أحداً في حاجته، وإلا لما ظنهم الجاهل أغنياء، وما أطلق عليهم لفظ العفيف.

والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: إن الشيء قد يرد نفيه مقيداً والمراد نفيه أصلاً، وذلك أبلغ في النفي، وهنا ذكر صفة في السؤال تستثقلها النفوس وتستقبحها فنفاها، ولم يقصد إثبات مفهوم المخالفة منها، فهذا الصنف لا يسألون لا بإلحاف ولا بغير إلحاف، وهذا التعبير موجود في كلام العرب وفي أشعارهم، إذا أرادوا أن يمدحوا إنسانا نفوا بعض الأوصاف السيئة عن الممدوح، ويقيدونها أحياناً بصورة مباشرة إذا سمعتها النفوس نفرت، فينفيها، والله أعلم.

"وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: سرحتني أمي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسأله فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: ((من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف))[3]، قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله، وهكذا رواه أبو داود والنسائي.

قوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه".

قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} هذا وعد مبطن متضمن للجزاء، والمعنى أن الله سيجازيكم علي نفقاتكم وصدقاتكم، ولن يضيع من أجوركم شيئاً، وقد يتوهم متوهم أن ثمة ترابطاً بين هذه الآية والتي قبلها في المعنى، والصواب أن هناك فرقاً بينهما ذلك أن قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} دلالته صريحة يراد به أن جزاءكم تأخذونه وافياً كاملاً من غير نقص ولا بخس من أجوركم شيئاً، فهو صريح الدلالة، وأما قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} فدلالة الآية غير صريحة في الجزاء، إنما هو وعد مبطن يتضمن الجزاء.

"وقوله: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٤) سورة البقرة] **هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهار".**

فحيث وجدتْ الحاجة فهو لا يتوقف ولا يتردد، وهذا أكمل ما يكون في البذل والإحسان والإنفاق، إذا كان في مقام السر قدمها سراً، أو في حال العلانية بادر بها علانية، والمقصود أنه حيث وجدتْ الحاجة فهو سباق إلى ذلك.

"حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لسعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام

---

[3] - رواه أبو داود برقم (١٦٣٠) (٣٤/٢)، ورواه النسائي برقم (٢٥٩٥) (٩٨/٥)، ورواه أحمد في مسنده برقم (١١٠٥٧) (٩/٣)، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده قوي.

حجة الوداع: ((وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك))[4].

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة))[5]. أخرجاه.

وقوله: {فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات، فـ {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} تقدم تفسيره".

لما كان المال عزيزاً على النفوس، وهؤلاء قلقون على هذا البذل الذي بذلوه، والعطية التي أعطوها، والنفقات التي أنفقوها، قدم الله –عز وجل- المعمول على سواه، وذلك لما قدم الأمر الذي يتوجه إليه الاهتمام بقوله: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} فأراد الله أن يطمئنهم على مصير هذه النفقات والمآل الذي ينتظرهم.

وقوله سبحانه: {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}

الخوف هو: القلق من أمر مستقبل.

والحزْن هو: القلق بسبب أمر فائت، وقد يستعمل أحدهما في مكان الآخر، فهؤلاء المنفقون أموالهم بالليل والنهار، سراً وعلانية، لا يخافون شيئاً في المستقبل، فالله يؤمنهم من المخاوف، وكذلك أيضاً لا يحزنون على أمر فائت إكراماً من الله لهم جزاء لبذلهم وعطائهم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[4] - رواه البخاري في كتاب النفقات – باب فضل النفقة على الأهل برقم (٥٠٣٩) (٢٠٤٧/٥)، ومسلم في كتاب الوصية – باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨) (١٢٥٠/٣).

[5] - رواه البخاري في كتاب النفقات - باب فضل النفقة على الأهل برقم (٥٠٣٦) (٢٠٤٧/٥)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة – باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين برقم (١٠٢٢) (٦٩٥/٢)، ورواه أحمد برقم (١٧١٢٣) (١٢٠/٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

[(٢٧٥) سورة البقرة].

"لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أول كلامه على هذه الآية يعرف بالمناسبة ووجه الارتباط بين الآيات، والمناسبة في هذه الآيات بين مقطع ومقطع، ليس بين آية وآية، فقد جعل الله –عز وجل- الناس أقساماً في التعامل مع المال:

الأول: المنفق ماله في وجوه الخير قربة إلى الله -عز وجل- وابتغاء رضوانه.

الثاني: الممسك ماله بخلاً وشحاً.

الثالث: المتسلط على أموال الناس بغير حق، وهؤلاء هم أكلة الربا لا يقومون أي من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وهذا أحسن ما تفسر به الآية، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: **{لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}** يحتمل معناه أمرين:

الأول: أن الذين يأكلون الربا لا يقومون من المس إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان، فيكون قوله: من المس مرتبطاً بقوله: يقومون، وهذا الاحتمال مرجوح.

وأحسن منه الاحتمال الآخر، ومؤداه أن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلا كما يقوم الممسوس الذي يتخبطه الشيطان من المس، فمن المس يرجع إلى قيام هذا الأخير، لا إلى قيامهم هم، هذا هو المعنى والله أعلم.

والتخبط: هو الضرب على غير استواء، ولا اهتداء، يقال: فلان يتخبط، أو يخبِط خبْطَ عشواءَ، وهذه الآية نص صريح في أن الشيطان يلابس الإنسان ملابسة يصيبه فيها الصرع، ولا يفهم منه أن الصرع سببه

الشيطان فحسب، فقد يكون الصرع بسبب أورام في الدماغ، أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ، وإنما ذكرت فقط هذا المعنى بهذا التصوير لحال هذا المرابي، والله أعلم.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالى عنه- في حديث المنام الطويل: فأتينا على نهر حسبت أن كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه، فيلقمه حجراً، فذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} أي إنما جُوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}، أي هو نظيره، فلم حُرم هذا وأبيح هذا؟، وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا".

ما دفع الحافظَ ابن كثير -رحمه الله- للقول بأن تشبيههم البيع بالربا ليس من باب القياس أمران:

الأول: أنهم لا يقرون بحكم الشرع أصلاً، والقياس إنما هو إلحاق أصل بفرع في حكم لعلة جامعة بينهما، فهم لا يعترفون لا بالأصل ولا بالفرع ولا بالعلة ولا...

الثاني: أنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا، ومعلوم أن البيع متفق عليه بين أهل الإيمان أنه حلال، وإنما الكلام والخلاف في الربا، فكيف يصح قياس المتفق عليه على المختلف فيه؟.

فإذا قيل: ما وجه اعترض الكفار على الشرع يوم قالوا: إنما البيع مثل الربا فقلبوا القضية وعكسوها؟ الجواب أن يقال: إنما دعاهم إلى قولهم هذا المبالغة منهم في المكابرة كما ذكر المفسرون، بحيث جعلوا الربا لعظم استحلالهم له كأنه أصل، والبيع كأنه فرع، مع المفترض أن يحدث العكس، والله تعالى أعلم.

واختلفت أفهام المفسرين في السبب الذي لأجله ذكر الله قيامهم من القبور بهذه الهيئة المنكرة الواردة في قوله سبحانه: **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}**

فذهب بعض المفسرين إلى أن السبب لهذه العقوبة هو أكلهم الربا، كما يدل عليه ظاهر الآية وصدرها.

وذهب بعضهم إلى أن هذه العقوبة جعلت لمن كان مستحلاً للربا كما يدل عليه ما بعده وهو قوله: **{بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}**.

والصواب القول: إن لفظ الآية ما دام جاء بصيغة العموم **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا}** -لأن "الذين" اسم موصول يفيد العموم- فهو يصدق على الآكل والمستحل، وإنما الله –عز وجل- ذكر الآكل في الآية؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع، وإلا فبأي وجه من الوجوه صار الانتفاع من الربا؟ فهو داخل في هذه الآية، ولذلك الله -عز وجل- لما

توعد الذين يأكلون أموال اليتامى، أراد من تصرف فيه بأي لون من التصرف الذي ينتفع به، ولذلك فكل من قال: إنما البيع مثل الربا، أو أنه عصب الاقتصاد، ولا يقوم اقتصاد العالم إلا به، فهذا يكفر بكلامه هذا كفراً أكبر يخرج به من الملة.

وبعضهم يأكل الربا طمعاً أو حباً للمال أو تغلبه نفسه عليه فهذا أيضاً ممن يشمله الوعيد في الآية.

وليس التعليل في الآية لاستحقاقهم هذه العقوبة لقولهم: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} بحجة لقائل؛ لأنه يمكن أن يكون ذكر ذلك باعتبار حالة وقعت مع المشركين فنزلت الآيات، وهذه الآية أصلاً نزلت تحرم الربا، وهي آخر ما نزل، وكان الناس يتعاملون به في الجاهلية، ولما فتح الله قلب قريش وثقيف للإسلام، جاءت ثقيف تتقاضى من قريش، وقد كانوا يقرضونهم قروضاً ربوية، فقالوا: لا نعطيكم شيئاً حتى نسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فالحاصل أن آية الربا هذه منعت من أن يتعاطى أحد شيئاً من الأموال الربوية وجاءت كرد على هؤلاء المشركين الذي لم ينقادوا لهذا الحكم، ولم يستسلموا أو يذعنوا له.

"وقوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [(٢٧٥) سورة البقرة] **يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل".**

يحتمل في إيراد هذا المقطع من الآية {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ثلاثة احتمالات:

- أنها جملة جديدة لتقرير الحكم، بغض النظر عن دعوى هؤلاء الناس المبطلين.
- أن تكون من جملة قولهم، يعترضون بها على حكم الله وشرعه، كأنهم يقولون: إنما البيع مثل الربا، فلماذا يحل الله البيع ويحرم الربا؟ وهذا القول فيه بعد.
- أن تكون من قبيل الرد عليهم، وهذا القول أقرب الاحتمالات لاتصال المقطع بما قبله؛ لأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا، فرد الله –عز وجل- عليهم بأنه أحل البيع وحرم الربا.

ويستفاد من هذا الرد فائدة عظيمة، وهي أنه لا يجب عند الرد على المبطلين وأصحاب الشبهات والمعترضين أن يكون مشتملاً على الدلائل العقلية المقنعة لمن لا ينقاد للوحي، وإن كانت المناظرة بدلائل العقل والحس مما يخضع لها المعاند للحق غير المؤمن به، والله أعلم.

"ولهذا قال: {فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ} أي من بلغه نهي الله عن الربا، فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة، لقوله: {عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف} [(٩٥) سورة المائدة]، **وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة: ((وكل رباً في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول رباً أضع ربا العباس))[1]. ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما**

---

[1] - رواه الترمذي برقم (٣٠٨٧) (٥/٢٧٣)، وابن ماجه برقم (٣٠٧٤) (٢/١٠٢٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٨٣١).

قال تعالى: {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ}، قال سعيد بن جبير، والسدي: {فَلَهُ مَا سَلَفَ} ما كان أكل من الربا قبل التحريم".

هذه الآية لها نظائر في القرآن كقوله -تبارك وتعالى- في مسألة الصيد: **{عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف}**، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}** [(٢٢) سورة النساء]، وهي تدل دلالة صريحة بأن من أخذ شيئاً من أموال الربا قبل نزول الحكم فإنه لا يطالب برده، ولهذه المسألة أربع صور:

الصورة الأولى: إنسان يملك مائة مليون قبل نزول الحكم، رأس ماله منها مليون، والباقي حصله من تعامله بالربا، فلا يكلف بالتخلص من الأموال الربوية؛ لأن من شروط التكليف بلوغ الخطاب، وهو لم يبلغه خطاب الشارع للمكلفين، لكن بعد نزول الحكم يعمه الخطاب ويشمله التكليف، وما أخذه بالربا بعد ذلك فالواجب عليه أن يرده ويستبقي رؤوس أمواله.

الصورة الثانية: رجل أسلم بعد نزول الحكم وهو يملك مائة ألف، رأس ماله منها عشرة آلاف، والباقي كله من الربا، فهذا لا يطالب بالتخلص منها؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، وهذا الحكم فيمن يتعاطون الربا حال إسلامهم، ولكن لا يجوز له بحال أن يأخذ شيئاً من أموال الربا بعد إسلامه.

الصورة الثالثة: من نشأ في مكان بعيد لا يعرف شيئاً من أحكام دينه وشرعه، وتعاطى الربا وتعامل به، ولم يبلغه الحكم، فلا يطالب بالتخلص من الأموال الربوية السابقة؛ لأن من شروط التكليف بلوغ الخطاب، وهو لم يبلغه، فعفا الله عما سلف.

الصورة الرابعة: من تعامل بالربا ثم بدا له أن يتوب منه، فهؤلاء كما قال الله –عز وجل-: **{فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ}** [(٢٧٩) سورة البقرة]، فلما كان هذا الإنسان متعدياً ظالماً يعرف حكم الله -عز وجل- ولم ينته، لم يحل له أخذ شيء من أموال الربا، بل لا بد له أن يتخلص من تلك الأموال الربوية جميعها، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فبعض أهل العلم يرى أن مثله لا يجب عليه أن يرجعها، ويقولون: هذا تسهيل للتوبة، وتيسير على الناس وأنه يدخل في عموم قوله تعالى: **{فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ}**، والله أعلم.

"ثم قال الله تعالى: {وَمَنْ عَادَ} أي إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهي الله له عنه".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر العود بالفعل، لكن الآية تحتمل معنى آخر وهو الاستحلال أي عاد إلى ما ذكر من الاستحلال بعد ما بين الله حكم الربا والوعيد المنتظر لمن كان مستحلاً له متعاملاً به، فإنه من أصحاب النار يخلد فيها خلود الكفار؛ لأنه من جملتهم، قال سبحانه: **{وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**.

وهنا قد يتوهم ورود إشكال إذا فسرنا قوله سبحانه: **{وَمَنْ عَادَ}** بأنه من العود للفعل، وذلك إذا كان الإنسان لم يك قد تعاطاه من قبل أو تعامل به فهل يخرج من الوعيد لهذا السبب؟

الجواب أن يقال: إنّ عاد في لغة العرب تأتي بمعنيين:

الأول: الرجوع إلى الشيء.

الثاني: بمعنى الصيرورة مطلقاً، ولو لم يكن عليه من قبل، ومن شواهده قول الشاعر:

إذا شـــاب الغـــراب أتيـــت أهلـــي ... وعـــاد القـــار كـــاللبن الحليـــب

فمعنى عاد هنا أي صار القار كاللبن الحليب، ومنه قولهم: حتى يعود اللبن في الضرع، عاد الشاب كهلاً، عاد الصحيح مريضاً، عاد الشجر حطباً، عاد الماء ثلجاً، عاد الخمر خلاً، وكل هذه الأمثلة أتت فيها عاد بمعنى صار.

ومنه ما حكاه الله في كتابه على لسان أهل الكفر من أقوام الرسل، يوم قالوا لرسلهم: {لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(١٣) سورة إبراهيم] فهل كانوا على ملتهم من قبل؟ وكذا قوله: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا} [(٨٩) سورة الأعراف] وقد نوه لإتيان عادَ بهذين المعنيين جماعة ممن كتب في فقه اللغة كالثعالبي ونحوه، والله أعلم.

"فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: {فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}".

الصحبة: تعني الملازمة للشيء، فهم ملازمون للنار لا يخرجون منها ولا نجاة لهم من عذابها، وهذه الآية من نصوص الوعيد التي تُمرر كما جاءت ولا يتعرض لها بتأويل أو تفسير، وبعضهم قال: إن المقصود بالخلود في الآية هو البقاء مدة طويلة؛ إذ العرب تسميه خلوداً، والله أعلم.

"وقد روى أبو داود عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله))[٢] ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رءوس النخل بالتمر على وجه الأرض".

بتقدير الخارص ينظر إلى أقناء الرطب فيقدره بـــ...، وعلة التحريم ترجع إلى جهالة المقدار، وذلك لأن الرطب ينقص إذا جف، والقاعدة في الربويات: أن الجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل، لكن رخص النبي –صلى الله عليه وسلم- من بيع المزابنة نوعاً منه ألا وهو بيع العرايا فيما دون خمسة أوسق، إذا أراده الشخص لنفسه لا لغرض التجارة، والله أعلم.

"والمحاقلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم.

وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: ثلاث وددت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجَّد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا.

يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا".

أما مسألة الجد مع الأخوة فللخلاف الشديد بين الصحابة فيها، وأما الكلالة: وهو من ليس له أصل ولا فرع وارث، من تكلله النسب، بمعنى أن ورثته كلهم من الحواشي، وإن كان عمر -رضي الله عنه- يقول عن نفسه: ما راجعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ

---

[2] - رواه أبو داود برقم (٣٤٠٨) (٢٧٢/٣)، والحاكم في مستدركه برقم (٣١٢٩) (٣١٤/٢)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٢٦١٣).

لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وأما الربا فإنما كانت مسائله من أشكل الأبواب؛ لكثرة تشعبها، وتداخل المسائل التي ترتبط به بعضها في بعض.

"والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

هناك أشياء تُمنع من باب الذريعة؛ لأنها تفضي إلى الربا، مثل مسألة العينة وعكسها مُنعتا من أجل الاحتيال على الربا، مع أن المسألتين ليستا محل اتفاق بين أهل العلم على التحريم، ومثلها مسائل أخرى كثيرة يحتال الناس بها على الربا مثل قلب الدين، وبيع الأجل...،

وكذا البنوك التي تزعم أنها تتعاقد بالمعاملات الإسلامية، وهي في الحقيقة تذبح على الطريقة الإسلامية، ولذلك تجد أرباحهم من القروض أضعاف ما عند غيرهم من البنوك الربوية.

ولذلك نص العلماء على مجموعة من القواعد في مسألة الربا، مثل السلعة الخارجة من اليد العائدة إليها ملغاة، وصورتها: أن يشتري من البائع السلعة بالأقساط، ثم يبيعها عليه نقداً، وأحياناً بينهما طرف ثالث يبيعها له، وهو يرجعها له، وهكذا تدور.

"وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه))[٣].

وفي السنن عن الحسن بن علي -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك))[٤].

وروى أحمد عن سعيد بن المسيب أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: مِن آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة[٥]."

هذه النصوص والآثار التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- إنما قصد بها تأكيد أمر الشارع بترك المشتبهات في الدين.

"وروى ابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه))[٦].

ومن هذا القبيل وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر[٧]."

---

[3] - رواه البخاري في كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه برقم (٥٢) (١/٢٨)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم (١٥٩٩) (٣/١٢١٩).

[4] - رواه الترمذي برقم (٢٥١٨) (٤/٦٦٨)، والنسائي برقم (٥٧١١) (٨/٣٢٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٦٩٠).

[5] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٦٤) (١/٣٦)، وقال شعيب الأرنؤوط : حسن رجاله ثقات رجال الشيخين.

[6] - رواه ابن ماجه برقم (٢٢٧٤) (٢/٧٦٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٨٥٤).

[7] - رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة البقرة وقول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] برقم (٤٢٦٧) (٤/١٦٥١)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب تحريم بيع الخمر برقم (١٥٨٠) (٣/١٢٠٦) ورواه أحمد برقم (٢٤٧٣٦).

يؤخذ من الرواية أن بيان القرآن الكريم من النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة إنما كان لما احتاجوا إلى تفسيره مما لم يفهموه منه، وابن تيمية ومن وافقه يرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر جميع القرآن واستدل بقوله سبحانه: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [(٤٤) سورة النحل] ويمكن القول: إن البيان يحصل بمجرد التلاوة والتبليغ للوحي؛ لأن الصحابة كانوا عرباً أقحاحاً يفهمون المراد دون بيان.

"وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي كما قال -عليه السلام- في الحديث المتفق عليه: ((لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها، فباعوها وأكلوا أثمانها))[8].

وقد ورد في حديث علي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهما في لعن المحلل قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه))[9].

قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات".

هذا مثل البطاقات التي يسمونها فيزا، وهي: بطاقة بنكية ربوية تأخذ عليها البنوك مقابلاً إذا ما سددت خلال فترة معينة، والبنوك إزاء ذلك ثلاثة أنواع:

الأول: لا يأخذ شيئاً مقابل القرض، لكن إذا مضت فترة محددة دون تسديد أوقفها.

الثاني: متجاوز وهو قسمان:

أحدهما: يأخذ رسوم الاشتراك على قدر التكلفة بما يسمى "أجور خدمة"، وهذا لا إشكال فيه إذا لم تتعد الحد المعقول.

ثانيهما: يأخذ أجور خدمة، لكن بما هو أكثر من العادة، فهؤلاء في الواقع يأخذون زيادة في التأخير، وإنما يحتالون بهذه الطريقة ويسمونها أجور خدمة.

الثالث: محتال، وطريقتهم أنهم بعد أن ينتهي الرصيد من العميل ويتأخر تسديده، يلزمونه بمعاملة معينة، فيعرضون عليه شراء سلعة محددة بالأقساط لمدة سنة مثلاً، ويزيدون في سعرها الحقيقي لأجل الأقساط، فإن وافق وإلا اقترحوا عليه أن يكفونه بيعها بسعر أقل نقداً بحكم معرفتهم بالسوق والتجار، وعند مناقشتهم في أمر الزيادة في البيع بالأقساط يحتجون بأنهم يضعونها في الأعمال الخيرية، والحقيقة أن هذه من الحيل التي غطيت بغطاء المعاملات الإسلامية، والله المستعان..

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

[8] رواه البخاري في كتاب البيوع – باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه برقم (٢١١٠) (٢/٧٧٤)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام برقم (١٥٨٢) (٣/١٢٠٧).

[9] رواه أحمد في مسنده برقم (٣٨٠٩) (١/٤٠٢)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٦ - ٢٧٧) سورة البقرة].

"يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله، فلا ينتفع به بل يعذبه به في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [(١٠٠) سورة المائدة]، **وقال تعالى: {وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ}** [(٣٧) سورة الأنفال]، **وقال: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ} الآية** [(٣٩) سورة الروم].

وقال ابن جرير في قوله: {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا}: وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلٍّ))[1]. رواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما كان مقصود هذا المرابي هو تكثير ماله بأي طريق من حلال أو حرام، عاقبه الله -عز وجل- بنقيض قصده بأن أصاب ماله بالمحق، والمحق: الإبطال، أي أن الله أبطل ماله وأذهبه، وإن كثر فإن كثرته لا تغني عن صاحبه شيئاً لأنه منزوع البركة، وهذا المرابي إذا تصدق فلا تقبل صدقته، وكذا لو حج أو بنى مسجداً بهذا المال، فإنه لا يؤجر على صنيعه؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وهذا المال سيئ من كسب سيئ، وفي المقابل ...

"{وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} أي ينميها، وقيل: يربيها، كما روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل))[2]، وقد رواه مسلم في الزكاة".

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٧٥٤) (١/٣٩٥)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح.

[2] - رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب برقم (١٣٤٤) (٢/٥١١).

والصدقة وإن كانت في ظاهرها نقص من المال، إلا أن عزاء المتصدق فيما أخبر عنه نبيه -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((ما نقص مال عبد من صدقة))[3]، فيبارك الله سبحانه للمتصدق في ماله، ويربي له صدقته حتى تصبح أمثال الجبال.

"وقوله: {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل".

هذا وجه حسن فيما يتعلق ببيان وجه المناسبة بين خاتمة الآية وبين موضوعها، فهذه الآية لما كانت تتحدث عن هذا الإنسان المرابي الذي لم يرض بما أعطاه الله –عز وجل- من كسب حلال، فكفر نعمة الله عليه، وصار يطلب ما لا يحل له كسبه، جعل الله –عز وجل- هذا جزاءه {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} فهو كفار بفعله، مكتسب للآثام، متقحم على حدود الله -عز وجل- بالباطل.

"ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٧) سورة البقرة]".

لما وصف الله سبحانه المرابين وحالهم ومالهم، عرج على ذكر من يقابلهم، وهم أهل العبودية والإحسان والإفضال والطاعة لله -عز وجل، كأنه يريد القول: إن هؤلاء في طرف وأولئك في طرف آخر، وشتان ما بينهما.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٧٨-٢٨١) سورة البقرة] **يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ} أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون، {وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رءوس الأموال بعد هذا الإنذار، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك".**

سبق الكلام على صور تعاطي الربا قبل بلوغ الخطاب وبعد بلوغه، وما يجوز منها وما يحرم، وفصلنا في ذلك بما يغني عن إعادتها.

وأما قوله سبحانه: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فهذا أسلوب معروف في كلام العرب، يقصد به التحضيض والتحريض على الامتثال للفعل، تقول: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، بمعنى أنك تحرضه وتحثه علي أمر معين، وأمثلته عديدة في القرآن الكريم.

---

3 - رواه الترمذي برقم (٢٣٢٥) (٥٦٢/٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٣٣٥).

"وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان، والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم رباً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب ابن أَسيد نائب مكة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم"، وهذا تهديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار".

هذه الرواية من المراسيل فيها ضعف، لكنها إذا جاءت من أكثر من وجه، فقد تنجبر وتتقوى بذلك.

"قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ} أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله.

وعنه قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}".

ويمكن أن يكون هذا من باب الإعلام لهم بالحرب كما قال سبحانه: {فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء} [(١٠٩) سورة الأنبياء] بمعنى أعلمتكم، والأذان: هو الإعلام، وهذا لا يخالف ما أورده ابن كثير في معنى الآية، إذ المراد أنه إعلام أكيد لا مرية فيه أن الذي يفعل الربا محارب لله -عز وجل-، ولذلك لم تتضافر الآثار في التنفير والتشنيع من معصية مثل ما تضافرت في آكل الربا، وهذا يدل على عظم هذا الذنب وفداحة عاقبته، إضافة إلى ما ورد فيه من الوعيد واللعن للمتعامل به قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء))[4].

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

ثم قال تعالى: {وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ} أي بأخذ الزيادة، {وَلاَ تُظْلَمُونَ} أي بوضع رءوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه.

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن الأحوص -رضي الله تعالى عنه- قال: خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع فقال: ((ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول رباً موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله))[5].

وقوله: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٨٠) سورة البقرة] يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً، فقال: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ} لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع

---

[4] - رواه مسلم في كتاب المساقاة – باب لعن آكل الربا ومؤكله برقم (١٥٨٩) (١٢١٩/٣).

[5] - رواه الترمذي في سننه بلفظ مقارب برقم (٣٠٨٧) (٢٧٣/٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٨٣٨).

عنه، ويعِد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: {وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين".

أو بعضه فهو خير وأفضل لكم، فقد ثبت في الصحيحين أن كعب بن مالك -رضي الله عنه-: كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي دين فلقيه، فلزمه، فتكلما حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا كعب)). وأشار بيده كأنه يقول النصف، فأخذ نصف ما عليه وترك نصفا.[٦]

"روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريد عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة))، قال: ثم سمعته يقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة))، قلت: سمعتك يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، تقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة))، ثم سمعتك تقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة))، قال: ((له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة))[٧]".

فإذا استيقن المؤمن مثل هذا هانت عليه الدنيا، ولم يفعل ما يفعله أهل الجاهلية من ظنهم أن أموالهم منحبسة في أيدي غرمائهم، لا يستطيعون التصرف فيها، ولا يجدون سبيلاً إلى تعويض ما فاتهم إلا بأخذ ذلك المال السحت.

"وروى أحمد عن محمد بن كعب القرضي أن أبا قتادة -رضي الله تعالى عنه- كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال: يا فلان اخرج، فقد أُخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟، فقال: إني معسر، وليس عندي شيء، قال: آلله إنك معسر؟، قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة))[٨]، ورواه مسلم في صحيحه.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتي الله بعبد من عبيده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟، فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها -قالها ثلاث مرات- قال العبد عند آخرها: يا رب، إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أُبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله -عز وجل-: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة))[٩].

---

[6] - رواه البخاري في كتاب الخصومات –باب الملازمة برقم (٢٢٩٢) (٨٥٣/٢)، ومسلم في كتاب المساقاة –باب استحباب الوضع من الدين برقم (١٥٥٨) (١١٩٢/٣).

[7] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٣٠٩٦) (٣٦٠/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن بريدة فمن رجال مسلم.

[8] - رواه مسلم في كتاب المساقاة – باب فضل إنظار المعسر برقم (١٥٦٣) (١١٩٦/٣) ولفظه ((من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه))، وأحمد في مسنده برقم (٢٢٦٧٦) (٣٠٨/٥). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[9] - رواه البخاري في كتاب البيوع – باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف برقم (١٩٧١) (٧٣١/٢)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب فضل إنظار المعسر برقم (١٥٦٠) (١١٩٤/٣). ولفظهما مختلف.

وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه عن حذيفة، زاد مسلم: وعقبة بن عامر، وأبي مسعود البدري -رضي الله تعالى عنهما-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنحوه".

قصد بقوله: "إن من خلقي الجواز" يعني التسهيل والتوسعة على الناس، فهذا ما يئول إليه معنى الجواز، وهذا الحديث يستدل به على أن الإنسان قد يعمل عملاً ليست له فيه نية ويؤجر عليه، وهذا عائد إلى مشيئة الله وإرادته وحكمه النافذ وحكمته الباهرة، فالرجل قال: "ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها"، ثم ذكر هذا الصنيع الذي كان يصنعه، فكان ذلك سبباً لمثل هذا الجزاء العظيم، والله أعلم.

"ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته فقال: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٨١) سورة **البقرة].**

وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، وقد رواه النسائي عن عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما- قال: "آخر شيء نزل من القرآن {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}، وكذا رواه الضحاك، والعوفي عن ابن عباس".

اختلفت أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم:

فقيل آخر ما نزل آية الربا، والمراد بها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...}**.

وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا...}**.

وقيل: آخر ما نزل آية الديْن، وهي قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}**

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، آية الربا، فآية **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا...}**، فآية الدين؛ لأنها في قصة واحدة، إنما أخبر كل راوٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافر بينهم.

وأما ما جاء من حديث ابن عباس أن آخر ما نزل **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] فيمكن أن يقال: إنها آخر سورة كاملة نزلت، يدل على ذلك ما جاء عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: تعلم أيّ آخر سورة نزلت جميعاً؟ قلت: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، قال: صدقت.

وأما القول بأنها سورة المائدة، فهذا المراد به في الأحكام خاصة، ولم ينسخ منها شيء.

وأما ما اشتهر عند كثير من الناس من أنها **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...}** الآية [(٣) سورة المائدة] فهذا ليس بصحيح؛ إذ إن هذه الآية نزلت والنبي -صلى الله عليه وسلم- في عرفة، وقد نزل بعدها آيات.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ

فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة].

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين".

يستدل بهذا الأثر على أن جبريل -عليه السلام- كان يسمع القرآن من الله مباشرةً، ولا يأخذه من بيت العزة أو من اللوح المحفوظ، وعلى هذا سار السلف -رضوان الله عليهم-، أضف إلى ذلك الأحاديث التي وردت في بيان صفة تكلم الله -عز وجل- بالوحي.

"فقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها؛ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: {ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ}".

كل معاملة كان أحد العوضين فيها في الذمة -يعني نسيئة- والآخر نقداً فهي دين، ويدخل في هذا أنواع كثيرة من المعاملات.

وبعض أهل العلم أخذ من الآية أن الدين لابد من تسمية الأجل فيه، ولكن هذا قد يقال في نوع من الدين يعرف بالسلم: وهو عقد على موصوف في الذمة مؤجل بثمن مقبوض بمجلس العقد؛ وقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون السلم منضبطاً في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم، لكن العلماء مختلفون في بعض صوره: فيما لو قال له: إلى الحصاد، فهل يعتبر تحديداً أم لا؟ الخلاف في هذا الباب هو في تحقيق المناط، عامة أهل العلم يقولون: إن الأجل في هذه الصورة غير مسمى؛ ومعلوم أن السلم لابد فيه من تحديد الأجل بنص حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما دام موعد الحصاد غير معلوم، مما قد يكون مظنة لاختلاف الناس، ومدعاة للمُشَاحّة بينهم، فلذلك لم يجيزوا هذه الصورة.

وأما ما عدا السلم من السلف والدين فقد وقع الاختلاف بين المفسرين في وجوب كتابته، والذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وسبقه إليه جماعة من السلف أنهم يرون أن الكتابة واجبة عند المداينة، واستدلوا بظاهر قوله تعالى: {فَاكْتُبُوهُ} وحملوا الأمر في الآية على الوجوب، كما هو الظاهر المتبادر.

وعامة أهل العلم يرون أن كتابة الدين لا تجب، وحملوا الأمر في الآية على الندب والاستحباب، وجعلوا الصارف الذي صرف الأمر من الوجوب إلى الاستحباب في الآية ثلاثة أمور:

الأول: أن الله -عز وجل- لما ذكر آية الدين عقب بعدها بقوله: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} [(٢٨٣) سورة البقرة] قالوا: والرهن لا يجب أخذه بالإجماع، وإنما ذكر عوضاً عن الكتابة، والبدل يقوم مقام المبدل منه، ويأخذ حكمه، ولو كانت الكتابة واجبة لوجب العوض عنها وهو أخذ الرهن.

الثاني: أن الله أخبر في الآية بعدها أنه إذا حصل بين المتداينين وثوق ببعضهم، فإن ذلك يغنيهم عن كتابة الدين قال الله -عز وجل-: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}.

الثالث: قالوا: إن لصاحب الدين الحق في التصرف فيه، إسقاطاً ومطالبةً، وإنما أرشده الله -عز وجل- إلى كتابته من أجل ألا يضيع، فإذا كان مخيراً في التصرف إمساكاً وإسقاطاً، فكيف يطالب بالكتابة على سبيل الإيجاب!، هذا بالإضافة إلى ما ذكره بعض أهل العلم من أنه يُفرق في الأمر بين العبادات والمعاملات، ففي العبادات أصل الأمر فيها للوجوب إلا لصارف، وفي المعاملات لا يكون للوجوب وإنما للندب والإرشاد والتعليم وما أشبه ذلك، وهو بهذا الإطلاق فيه نظر.

والذي أظنه والله أعلم أن يقال: إن القواعد أغلبية، ويكفي أن تنطبق على أكثر الجزئيات، فيكون ذلك لمّاً لِشَعَث الفروع المنتثرة التي يصعب حصرها والإحاطة بها على طالب العلم، مما يسهل عليه حفظها واستيعابها، وجمع أطرافها وشتاتها، ولذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر في الآية من باب الإرشاد بناءً على أن العادة الغالبة عند الناس أنهم إذا تداينوا إلى أجل مسمى كتبوا ما تداينوه بينهم، ولهذا لما قال الله –عز وجل- {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [(١٨٩) سورة البقرة] قال بعض المفسرين: إنه أراد أنها مواقيت للناس في آجال الديون وعدد النساء و...

والأمر في القرآن الكريم لم يأت في كل صوره للوجوب بدليل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً} [(١٦٨) سورة البقرة]، وقوله: {انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} [(٩٩) سورة الأنعام]، {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} [(٣٦) سورة الحـج]، فهذه الآيات وإن أفهمت في ظاهرها الوجوب، إلا أن هناك صوارف ذكرها أهل العلم صرفت الحكم من الوجوب إلى غيره.

ومنها قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول))[10] كثير من أهل العلم كالحافظ ابن حجر –رحمه الله- حملوا الأمر في الحديث على أنه أدب ليس إلا، وإن كان ظاهره النهي ومعلوم أن النهي يقتضي التحريم، بخلاف الظاهرية ومن وافقهم فإنهم يرون أن هذا الأمر للتحريم.

فقصدي من هذا أن طالب العلم لا يستشكل مثل هذه الأشياء، ولا يجعل ورود مثل هذه الأمور قدحاً في القاعدة العامة التي تنص أن القواعد أغلبية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

[10] - رواه البخاري في كتاب الوضوء – باب النهي عن الاستنجاء باليمين برقم (١٥٢) (٦٩/١)، ومسلم في كتاب الطهارة – باب النهي عن الاستنجاء باليمين برقم (٢٦٧) (٢٢٥/١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وثبت في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة وهم يسلفون في الثمار السنتين والثلاث فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم))[1].

وقوله: {فَاكْتُبُوهُ} [(٢٨٢) سورة البقرة] أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ، قال ابن جريج: من ادان فليكتب، ومن ابتاع فليشهد.

وقال أبو سعيد -رضي الله تعالى عنه- والشعبي، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} [(٢٨٣) سورة البقرة]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمر بنا في الدرس الماضي أن الأمر بكتابة الدين في قوله: {فَاكْتُبُوهُ} قد اختلف فيه أهل العلم، وأن عامتهم يرون أن كتابة الديون غير واجبة، وذكرنا أنهم استدلوا بثلاثة أمور: أولاً: من الآية بما ذكر بعدها وهو ذكر الرهان، وأنه لا يجب إجماعاً، وثانياً: بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}، وثالثاً: استدلوا بوجه من النظر، وهو إذا كان لصاحب الدين مطلق الحق في إسقاطه والعفو، وترك المطالبة به، فبناءً على ذلك فهو ليس بملزَم أن يُشهد على هذا الدين.

وأما القول بأن الأمر بالكتابة منسوخ بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} فهذا جاء في عبارة بعض السلف -رضوان الله عنهم-، ومعلوم أنهم يعبرون بالنسخ لكل ما يعرض للنص العام والمطلق، من تخصيص وتقييد وبيان لمجمل وما أشبه ذلك، ولا يريدون بالنسخ ما عرف عند المتأخرين من رفع الحكم الشرعي المتقدم بخطاب شرعي متأخر، وإنما مرادهم أن الأمر بالكتابة في قوله: {فَاكْتُبُوهُ}، بيّنه ما بعده وهو قوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}، بمعنى أنه إذا حصل الوثوق بين الطرفين –الدائن والمدين- فلا يحتاج معه إلى الكتابة، وإنما الأمر في الآية إرشاد من الله -عز وجل- لإثبات الحقوق، ومن أهل العلم من يقول بأن هذه الآية {فَاكْتُبُوهُ} إنما جاءت في الديون، وتلك في موضوع آخر وهو ما يتعلق بأخذ الرهن، وهذا القول متجه قريب، وبناءً على هذين التوجيهين فإن الآية ليست بمنسوخة، وكلام السلف يمكن توجيهه بما سبق، والله أعلم.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب السلم – باب السلم في وزن معلوم برقم (٢١٢٥) (٧٨١/٢)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب السلم برقم (١٦٠٤) (١٢٢٦/٣).

"وقوله: {وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ} [(٢٨٢) سورة البقرة]، أي بالقسط والحق، ولا يجُر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: {وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ} أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: ((إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق))[2]، وفي الحديث الآخر: ((من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار))[3]، وقال مجاهد، وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب".

قيد جماعة من السلف ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- القول بالوجوب، بمن يجيد الكتابة ولم يوجد غيره يعرفها وطلب منه ذلك، ولكن هذا التقييد ليس أخذاً من الآية، وإنما من أدلة أخرى كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهكذا فيما يتعلق بالشهادة كما سيأتي في قوله سبحانه: {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ} وذلك أن الله -عز وجل- أمر بالإحسان وبالتعاون على البر والتقوى، ونبيه -صلى الله عليه وسلم- حث وحض على ذلك كما جاء في هذه الأحاديث وما أشبهها.

"وقوله: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك".

الإملال والإملاء لغتان بمعنى واحد، وقد جاء القرآن بكلتيهما، أما الإملال فهي لغة أهل الحجاز وبني أسد وبها جاءت الآية، وأما الإملاء فهي لغة بني تميم ومنها قوله تعالى: {فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [(٥) سورة الفرقان].

وفي قوله سبحانه: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ} لطيفة حيث جعل الذي يملل هو من عليه الحق "المدين"، ولم يجعل الإملال لصاحب الحق!؛ ليكون ذلك إثباتاً وإقراراً من المدين بما عليه، بخلاف ما لو أملاه الدائن فلا يثبت له بصنيعه حق، إذ كل الناس يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم حقاً عند الآخرين، لكن حينما يكون الذي أملاه أو كتبه هو المستدين، فهذا بمثابة الإقرار، وتوثيق الحقوق، ولذلك لا معنى له إن كان من قبل صاحب المال، ولا يلزم الطرف الآخر بشيء، والله أعلم.

"{وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا} أي لا يكتم منه شيئاً".

هذا مما يؤكد أن صاحب المال ليس المقصود بالآية؛ لأنه لو أنقص شيئاً من المال فهذا يعد منه إسقاطاً، فلا ينهى عنه، وإنما يخاف عليه من أن يتزايد عليه، والله أعلم.

"{فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا} محجوراً عليه بتبذير ونحوه".

السفيه في القضايا المالية: هو الذي لا يحسن التصرف في المال، ولو كان بالغاً، أو عاقلاً في أموره الأخرى، فهذا يحجر عليه ويتصرف عنه بالنيابة الوليُّ.

---

[2] - رواه البخاري في كتاب العتق – باب أي الرقاب أفضل برقم (٢٣٨٢) (٢/٨٩١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (٨٤) (١/٨٩).

[3] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٠٤٩٢) (٢/٤٩٩)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف لتدليس الحجاج بن أرطاة لكنه متابع.

"{أَوْ ضَعِيفًا} أي: صغيراً أو مجنوناً.

{أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ} إما لِعيٍّ أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه".

وكذا من أصابته علة تمنعه من الإملال كالأخرس ونحوه ...

"{فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}".

اختلف المفسرون في المراد بالولي في قوله سبحانه: {فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ} فعامة أهل العلم يقولون: إن الولي المقصود به، ولي هذا الإنسان الذي عليه الحق، السفيه والضعيف و.....

وذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى أن المقصود بالولي صاحب المال.

وما ذهب إليه عامة أهل العلم هو المتبادر من الآية؛ لأن هذا الذي يقوم مقامه يحصل به الإقرار وإثبات الحق فهو بمنزلته، إضافة إلى أن عود الضمير إنما يراد به المذكور قبله وهو الضعيف والعاجز عن الإملال، وهؤلاء لا يستطيعون أن يباشروا، فلم يبق إلا وليهم هو المراد به، والله أعلم.

"وقوله: {وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ} أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة".

ذهب جماعة من السلف -رضي الله عنهم- إلى أن الإشهاد على الدين من الأمور الواجبة، استدلالاً بظاهر الآية، ونقل ذلك عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، وجابر بن زيد، وطائفة أيضاً من التابعين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وإليه ذهبت الظاهرية.

وخالفهم جمهور أهل العلم كمالك، والشافعي، وجماعة من السلف قبلهم، فقالوا: لا يجب، وحملوا الأمر في الآية على الندب، واستدلوا على قولهم بالوقائع الكثيرة التي وقعت من النبي -صلى الله عليه وسلم- ووقعت من أصحابه من عدم الإشهاد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- توفي ودرعه مرهونة عند يهودي، وما نقل عنه أنه أشهد.

ومثله أمر الإشهاد على البيع في قوله: {وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ} لا يحمل على الوجوب، بدليل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما ابتاع من سواء بن الحارث المحاربي فرساً فجحده، فشهد له خزيمة بن ثابت فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حملك على الشهادة، ولم تكن معه)) قال: صدقت يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن صدقتك بما قلت، وعرفت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((من شهد له خزيمة، أو شهد عليه فهو حسبه))[4] فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يشهد على ذلك البيع، وهذا كثير مستفيض في البيوع التي جرت في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان يأتي بالشاهد في كل قضية ويوثق ذلك، مما يدل على أن الأمر بالشهود في الديْن إنما هو للندب أو للإرشاد، والله أعلم.

وأخذ بعض أهل العلم من قوله سبحانه: {مِن رِّجَالِكُمْ} وجوب أن يكون الشاهد من المسلمين؛ لأن الله أضافه إليهم، وما قال: استشهدوا من الرجال، أو قال: واستشهدوا شهيدين وأطلق، وإنما استثنى شهادة غير المسلم في الحالة المذكورة بقوله -عز وجل-: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] وذلك إذا أوصى الإنسان

---

[4] - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣٦٤٢) (١١٢/٤)، والحاكم في مستدركه برقم (٢١٨٨) (٢٢/٢)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: منكر، سكت عنه الحاكم والذهبي، وقال الهيثمي: "- رواه الطبراني ورجاله كلهم ثقات".برقم (٥٧١٧).

حال حضور الموت، ولم يكن عنده إلا أناس من غير المسلمين، ففي هذه الحال يجوز له أن يشهدهم لعدم وجود سواهم. والله أعلم.

وهنا مسألة أخرى: معلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قضى في زمنه بالشاهد مع اليمين، فهل يصح أن تُنزّل المرأتان منزلة الرجل ويكتفى بشهادتيهما مع اليمين؟

هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، الجمهور على أنهما تنزلان منزلة الرجل ويكتفى بهما مع اليمين، والله أعلم بالصواب.

"{فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ} وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار)). فقالت امرأة منهم جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟!. ((قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن)). قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ ((قال: أما نقصان عقلها: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين))[5]."

الأصل في الشهادة أنها مقتصرة على الرجال؛ لأنهم محل الضبط، {فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ} فالمرأتان تقومان مقام الرجل، والظاهر من الآية أن شهادة النساء إنما يلجأ إليها إذا عدم الشهود من الرجال، لكن هذا ليس بمراد والله أعلم، وإنما ذكر الله – عز وجل- الرجال إشارة لما هو أبلغ في إثبات الحق، ولذلك لا تثريب على الإنسان إذا أراد أن يُشهد رجلاً وامرأتين ابتداء، وهذه الشهادة من المرأة إنما تكون في القضايا المالية، بخلاف الجنايات فلا تقبل شهادتها، وأما الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء فإنه يكتفى بشهادتها للضرورة، مثل قضايا تتعلق بالبكارة، والولادة، وما أشبه ذلك مما يطلع عليه النساء خاصة، وهذه الأمور المذكورة فيما يتصل بشهادة المرأة، ليس للقدح في عدالتها، فهي مثل الرجل في هذا الجانب، ولكن ذكر الله -عز وجل- الرجال كما أسلفت لأن شهادة الرجل أبلغ، إذ إن المرأة قد تدعى ولا تجيب، لسبب أو لآخر، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر معنىً يتعلق بهذه الآية، وهو أن شهادة النساء إنما تكون في الأمور المحسوسة، يعني بشيء تسمعه أو تبصره أو تلامسه بيدها، لأن هذا يكون أعلق بالذهن وأدعى إلى الضبط وعدم النسيان، فالمقصود أن هذه الأمور لم تذكر من أجل العدالة وإنما من أجل الضبط، ولقد ذكر بعض الأطباء أن التلافيف الموجودة في مخ المرأة أقل منها في مخ الرجل، وهذه القضية يترتب عليها قوة الإدراك وسعة العقل، والقدرة على الضبط، وما إلى ذلك من المعاني التي يتميز بها الرجل عن المرأة من ناحية العقل، وهذا رد مسكت ومفحم لأولئك المتشدقين بأن المرأة مثل الرجل، ولا فرق بين الجنسين إطلاقاً.

"وقوله: {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء} فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وقوله: {أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا} يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة، {فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى} أي يحصل لها ذكرى بما وقع به من الإشهاد".

---

[5] - رواه البخاري في كتاب الحيض – باب ترك الحيّض الصوم برقم (٢٩٨) (١١٦/١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق برقم (٧٩) (٨٦/١).

قوله سبحانه: {أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى} يمكن أن يكون التقدير لئلا تضل، وهذه طريقة الكوفيين في نظائرها من القرآن، وطريقة البصريين يقدرون مصدراً أي كراهة أن تضل، والمعنى أن هذا التشريعُ، وهو أن يؤتى بامرأتين مكان الرجل من أجل إذا نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى.

وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهي قراءة متواترة {أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذْكِرَ} والمراد تنبهها، وهذا المعنى غير الأول.

لكن الأقرب أن يقال: إن هاتين القراءتين معناهما واحد كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والله أعلم.

وفي قراءة حمزة بكسر الهمزة {إِن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا} فتكون إن شرطية، والمعني: أحضروا امرأتين مكان الرجل إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى.

وتذكر بعض كتب التفسير قولاً غريباً تنسبه لأبي عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة يقول بأن هذا من التذكير الذي يقابل التأنيث، والمراد أن هاتين المرأتين لما انضم إحداهما إلى الأخرى صارتا بمنزلة الذكر الواحد، وهذا القول غريب.

وكرر إحداهما مرتين لمعنى، وهو لئلا يتوهم أن النسيان يحصل من واحدة مقصودة من الكلام، وإنما المقصود إذا حصل من أي امرأة منهما ذكرتها الأخرى، فقد يحصل من هذه أو تلك، ولهذا جاء التكرر لهذا السبب، والله أعلم.

"وقوله: {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ} قيل معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة، والربيع بن أنس، وهذا كقوله: {وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ}، ومن هاهنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وقيل: هو مذهب الجمهور، والمراد بقوله: {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ} للأداء، لحقيقة قوله: {الشُّهَدَاء}، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم".

ظاهر الآية يحتمل الأمرين، وإنما سموا شهداء وهم لم يتحملوا بعد باعتبار العاقبة، وما يئول إليه الأمر، مثلما يوصف الإنسان بأنه ميت، باعتبار ما سيكون، كما قال الله سبحانه عن نبيه: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [(٣٠) سورة الزمر].

وابن جرير -رحمه الله- شدد في الرد على من قال بهذا القول، إذ يقول: كيف يوصف بأنه شاهد وشهيد وهو لم يتحمل الشهادة بعد؟! ويعقب: وإنما تعينت عليه الشهادة من أدلة أخرى، في مثل حالة ضياع الحق إذا لم يشهد، ولا يوجد غيره يقوم مقامه بها، فإنه يتحمل الشهادة ويجب عليه الأداء إن طلب منه ذلك للأدلة الأخرى، لكن إن لم يترتب علي الشهادة شيء فليس مكلفاً بالأداء، وهذا القول أقرب لظاهر القرآن، والله أعلم.

"وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب.

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن البصري: أنها تعم الحالين، التحمل والأداء".

وهو قول له وجه من النظر، ولكن لما كان لفظ الشهداء في الأصل إنما يقال لمن تحمل الشهادة، أمكن حمله على هذا المعنى خاصة، دون المعنى الآخر، والله أعلم.

"وقوله: {وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ} هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: {وَلاَ تَسْأَمُوْاْ} أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان، من القلة والكثرة إلى أجله.

وقوله: {ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ} أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق، إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة؛ لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً، {وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ} وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة".

كتابة هذه الأشياء التي يذكرها الله -عز وجل- متعاقبة بهذا التفصيل العجيب، هو الذي حمل بعض أهل العلم على القول بأن هذه هي أرجى آية في القرآن، قالوا: والسبب أن الله -عز وجل- لما احتاط لمال المسلم هذا الاحتياط العظيم، ووضع له هذه المحترزات العديدة، ومعلوم أن المؤمن أعظم حرمة عند الله –عز وجل- ومنزلة ومكانة من ماله، فإذا كان الله -عز وجل- قد احتاط لمال المسلم كل هذه الاحتياطات لئلا يضيع، فإنه –عز وجل- من باب أولى أرحم بعبده المؤمن وألطف به حينما يسيء ألا يطرحه في النار، والمشهور أن أرجى آية في القرآن هي قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} [(٥٣) سورة الزمر]، وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

"وقوله: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا} أي إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة؛ لانتفاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: {وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، وهذا الأمر منسوخ بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} [(٢٨٣) سورة البقرة]، أو محمول على الإرشاد والندب لا على الوجوب".

سبق الكلام على هذه المسألة وتوجيه القول بالنسخ، ولا يخفى على أحد ما يترتب على الإشهاد في كل مبايعة من مشقة شديدة وعنت على الناس، والله أعلم.

"والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه -رضي الله تعالى عنه- حدثه وهو من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي -صلى الله عليه وسلم- ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنادى الأعرابي النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعتُه".

معنى كلام الأعرابي أن البيع ما وقع، فمن حقه أن يطالب بأكثر، فإن كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يريد أن يشتريه بأكثر مما تساوم عليه فعل، وإلا باعه لغيره.

"فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- حين سمع نداء الأعرابي قال: ((أوليس قد ابتعته منك؟))، قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بل قد ابتعته منك))، فطفق الناس

يلوذون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- والأعرابي، وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يك يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومراجعة الأعرابي، يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- على خزيمة فقال: ((بم تشهد؟)). فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شهادة خزيمة بشهادة رجلين"[6]. وهكذا رواه أبو داود والنسائي نحوه.

وقوله تعالى: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يُملَي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما".

سبق الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} [(٢٣٣) سورة البقرة] وأن هذا من جهة التصريف يحتمل معنيين: لا تضار: أي لا تضارِر، لا يصدر الضرر منها، أو لا تضارَر، فيُوقَع الضرر عليها، وما قيل في ذلك الموضع ينزل عليه هذا الموضع، فقوله سبحانه: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة] معناه: أي لا يضارِر فيصدر منه الضرر، بأن يشهد على خلاف ما تحمل وعلم، وكذلك الكاتب لا يصدر منه الضرر بأن يكتب غير الحق، أو يتزيد أو ينقص، أو يتشرط على صاحب الحق فيلحقه بسبب ذلك مشقة.

وكذا لا يوقَع عليه الضرر، فيقطع من أشغاله ويصرف عما هو بصدده، أو يطلب في وقت لا يتمكن فيه من المجيء، وما أشبه هذا، وكلا المعنيين تشهد له قراءة أحادية، فقراءة الحسن بكسر الراء مشددة {ولا يضارِّ كاتب ولا شهيد}، وقراءة ابن مسعود ومجاهد وعمر بالفتح والفك {وَلاَ يُضَارَرْ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} بمعنى لا يوصل إليه الضرر ويلحق به بسبب هذه الكتابة أو الشهادة، وحمل الآية على المعنيين هو الأولى والأصوب، والله أعلم.

"وقوله: {وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ} أي إن خالفتم ما أمرتم به وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم، لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه، وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} كقوله: {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} [(٢٩) سورة الأنفال]، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [(٢٨) سورة الحديد]، وقوله: {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات".

ظاهر كلام ابن كثير أن جملة قوله سبحانه: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} مرتبة على الجملة التي قبلها، ترتيب النتيجة على السبب، والمعنى أنكم إذا اتقيتم الله علمكم، فمن أسباب تحصيل العلم ووفوره كما أفادت الآية الكريمة تقوى الله -تبارك وتعالى-، كما يقول الرجل لصاحبه: اصحبني وأعلمك.

---

[6] - رواه أبو داود برقم (٣٦٠٩) (٣/٣٤٠)، والنسائي برقم (٤٦٤٧) (٧/٣٠١)، وأحمد برقم (٢١٩٣٣) (٥/٢١٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٦٠٧).

وذهب جمع من أهل العلم وهو ظاهر كلام ابن جرير إلى أن جملة قوله سبحانه: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} ليست مرتبطة ولا مرتبة على ما قبلها، وإنما هما جملتان عطفت إحداهما على الأخرى، الأولى جملة إنشائية، والثانية جملة خبرية، ويصح عطف الخبر على الإنشاء، فهو يأمرهم بالتقوى، ويخبر أنه يعلمهم ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام، وما به حفظ الحقوق في المداينات والبيوع، ومشى على هذا القول أيضاً جماعة من المحققين كالطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير.

ومن أهل العلم من يقول: الواو في الجملة بمعنى لام التعليل، كأنه يقول: واتقوا الله ليعلمكم الله، وهذا القول ضعيف من حيث اللغة وفيه بعد.

وفي جملة قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} لمحة بلاغية، لكونه لم يكتف بالضمير في الجملة الثانية فيقول: واتقوا الله ويعلمكم، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالإظهار في موضع الإضمار، بمعنى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، ويؤتى به لإرادة تربية المهابة، أو للاهتمام، أو لإزالة وهم أو لبس، أو غير ذلك من المعاني، وعادة ما يكون في جملتين مستقلتين، والأصل أن العرب تأتي في كلامها بالضمير للاختصار.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

** فائدة:

في تحقيق وبيان المراد في قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فهذا جمع لأقوال المفسرين وعلماء اللغة في بيان معنى قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}، وهل تفيد هذه الآية كون التقوى سبباً لحصول العلم؟

أما الآثار عن السلف على هذه الآية فليس في الطبري ولا في الدر المنثور عنهم في هذه الآية إلا قول واحد، رواه الطبري عن الضحاك، وسيأتي ذكره في نقل كلام الطبري.

أما المفسرون فهم في هذه الآية على مذاهب:

فبعضهم على أن قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} جملة مستأنفة يمتن فيها الله على عباده بتعليمه إياهم أمور دينهم، قال الطبري -رحمه الله- تعالى في تفسيرها: وخافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدوده أن تضيعوها، قال: ويعني بقوله: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} ويبين لكم الواجب لكم وعليكم فاعملوا به، ثم ذكر أثراً واحداً في هذه الآية عن الضحاك أنه قال: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} هذا تعليم من الله علمكموه فأْخُذوا به.

وقال ابن عطية -رحمه الله-: وباقي الآية، أي قوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} موعظة وتعديد نعمه، والله المستعان والمفضل لا رب غيره.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: وأما قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان، طلبية: وهي الأمر بالتقوى، وخبرية: وهي قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} أي والله يعلمكم ما تتقون، وليست جواباً للأمر بالتقوى، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو، فكان يقول: واتقوا الله يعلمْكم، أو إن تتقوه يعلمكم، كما قال: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} [(٢٩) سورة الأنفال]، فتدبره.

قال ابن جزيء الكلبي -رحمه الله تعالى-: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} إخبار على وجه الامتنان، وقيل: معناه الوعد، بأن من اتقاه علمه الله وألهمه، وهذا المعنى صحيح، لكن لفظ الآية لا يعطيه؛ لأنه لو كان كذلك لجزم يعلمُكم في جواب اتقُوا.

وفي التفسير الميسر في تفسير قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} قالوا: وخافوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، ويعلمكم الله جميع ما يصلح دنياكم وأخراكم، {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فلا يخفى عليه شيء من أموركم وسيجازيكم على ذلك.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة البقرة: قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} الواو هنا للاستئناف، ولا يصح أن تكون معطوفة على اتقوا الله؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التقوى وعدمها، وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

ومن العلماء من يجعل المراد من الآية أن التقوى سبب لحصول العلم، قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} كقوله: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [(٢٨) سورة الحديد]".

قال القرطبي: في الآية وعد من الله بأن من اتقاه وعلمه أن يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه.
وقال الشوكاني: واتقوا الله في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، ويعلمكم الله ما تحتاجون إليه من العلم، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}، ونقله ابن عطية -رحمه الله تعالى- قولاً في الآية، فقال: وقيل إن معنى الآية الوعد بأن من اتقى الله عُلم الخير وألهمه، وكذلك ابن جزيء نقله قولاً في الآية كما سبق.
وبعض العلماء قرر دلالة الآية على هذا المعنى الأول، لكنه لم يمنع أن يؤخذ منها من جهة الإيماء والإشارة أن التقوى سبب لحصول العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: وقد شاع في لسان العامة أن قوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} من الباب الأول، حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، قال: وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء والشرط، فلم يقل: واتقوا الله ويعلمكم، ولا قال: فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، ثم قال: وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، وسلم علينا ونسلم عليك، ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين، كما لو قال لسيده: اعتقني ولك عليّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف، أو اخلعني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو على ألف، وكذلك أيضاً لو قال: أنت حر وعليك ألف، أو أنتِ طالق وعليك ألف، فإنه كقوله: عليّ ألف أو بألف، عند جمهور العلماء، والفرق بينهما قول شاذ، ويقول أحد المتعاوضين للآخر: أعطيك هذا وآخذ هذا، ونحو ذلك من العبارات، فيقول الآخر: نعم، وإن لم يكن أحدهما السبب للآخر دون العكس، فقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}، قد يكون من هذا الباب، فكل من تعليم الرب وتقوى العبد، يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم، وهلمّ جرا.
وقال الطاهر بن عاشور -رحمه الله-: وقوله: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} تذكير بنعمة الإسلام الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعد بدوام ذلك لأنه جيء فيه بالمضارع، ثم قال: وفي عطفه على الأمر بالتقوى، إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، أي ليعلمكم الله، وجعله بعضهم من معاني الواو وليس بصحيح، ولم أر البغوي وابن الجوزي والزمخشري -رحمهم الله- أجمعين، ذكروا في تفاسيرهم شيئاً في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}.
وأما أئمة اللغة فحاصل ما ذكروا في معنى الواو في الآية ثلاثة أوجه:
الأول: أن الواو استئنافية، وبه قال أبو البقاء العكبري، وأبو حيان، والسمين الحلبي.
والثاني: أن الواو حالية، وذكره أبو البقاء قولاً في إعراب الآية، وضعفه أبو حيان، تقديره واتقوا الله مضموناً التعليم أو الهداية، ويجوز أن يكون حالاً مقدرة، وهذا القول -أعني الحال- ضعيف جداً، لأن المضارع الواقع حالاً لا يدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ، من نحو قمت وأصُكُّ عينه، ولا ينبغي أن يحمل القرآن على الشذوذ، وتبعه أيضاً السمين الحلبي في تضعيف هذا القول، وأيضاً الشيخ محيي الدين الدرويش في كتاب إعراب القرآن وبيانه.

الثالث: أن تكون عاطفة، قال ابن هشام في ذكره -لمعاني حرف الواو-: واو الاستئناف، نحو {لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء} [(٥) سورة الحـــج]، إلى أن قال ونحو: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} إذ لو كانت واو العطف للزم عطف الخبر على الأمر، وقال في حاشية الجمل على الجلالين: وهو الظاهر، أي كونها استئنافية، فليست الواو في ويعلمكم الله للعطف، وإلا لزم عطف الإخبار على الإنشاء كما صرح به ابن هشام.

وقال الشيخ محي الدين الدرويش في إعراب القرآن وبيانه: وفي جعلها عاطفة خلاف الأولى، لأن فيه ارتكاب عطف الخبر على الإنشاء، وذلك موضع خلاف، والمنع من عطف الجملة الخبرية على الإنشائية والعكس ذكره ابن هشام في مغني اللبيب عن البيانيين، وابن مالك وابن عصفور، ونقله أي ابن عصفور عن الأكثرين، ثم ذكر ابن هشام أدلة المجيزين وشواهدهم وأجاب عنها كلها، وعلماء البلاغة يمنعون من العطف بالواو بين جملتين إحداهما خبر، لفظاً ومعنى، والثانية إنشاء لفظاً ومعنى كما في الآية، ويجعلون هذا من كمال الانقطاع بين الجملتين الموجب للفصل وعدم العطف بينهما..

هذا ما تيسر جمعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [(٢٨٣) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ} أي مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً فرُهُن مقبوضة، أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق، وقد استُدل بقوله: {فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير، رهنها قوتاً لأهله[1]، وفي رواية من يهود المدينة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {كَاتِبًا} جاء في قراءة أخرى منسوبة إلى ابن عباس، وأبي العالية، وعكرمة، وجماعة من السلف {ولم تجدوا كتاباً} ويدل عليها أثر ابن عباس السابق حيث قال: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة..."، فأرشدهم الله سبحانه إلى طريقة أخرى إذا لم يجدوا كاتباً فقال: {فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} هذه إحدى القراءات المتواترة في الآية، وقرئت بتخفيف الهاء، وقرئت بالإفراد {فَرَهْنٌ مقبوضة}، وقرئت {فَرُهُن مقبوضة}، وجميعها ترجع إلى معنىً واحد، إذ الرُهُن: جمع رِهان، والرَّهْن هو الواحد من الرُّهُن، والمعنى: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق.

وقد استُدل بقوله: {فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} كما ذكر الحافظ ابن كثير على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، وهذا عليه عامة أهل العلم، خلافاً لمن صححه بالإيجاب والقبول، كالإمام مالك -رحمه الله-، ولكن لما كان المقصود من الرهان الاستيثاق والاحتراز، وحفظ الحق؛ لئلا يبطل ويضيع، كانت المقابضة فيه أولى وأحرز لحق الغير.

وأخذ بعض أهل العلم من ظاهر الآية أن الرهن إنما يكون في السفر، ولكن السنة دلت على عمومه في السفر والحضر، واستشهدوا برهنه -صلى الله عليه وسلم- درعه عند يهودي من يهود المدينة، وكان حينها مقيماً في المدينة، والله أعلم.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب المغازي - باب وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- برقم (٤١٩٧) (٤/١٦٢٠)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر برقم (١٦٠٣) (٣/١٢٢٦).

"وقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: هذه نسخت ما قبلها.

وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا.

وقوله: {وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} يعني المؤتمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((على اليد ما أخذت حتى تؤديه))[2]."

الحديث فيه ضعف، ورواية الحسن عن سمرة فيها كلام كثير لأهل العلم، ومنهم من يصحح ذلك مطلقاً، ومنهم من يرده مطلقاً، ومنهم من لا يصحح من روايات الحسن عن سمرة إلا حديثاً واحداً، باعتباره الحديث الوحيد الذي سمعه منه، وبقية تلك الأحاديث لم يسمعها منه.

"قوله: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ} أي لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك، ولهذا قال: {وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: {وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ} [(١٠٦) سورة المائدة]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(١٣٥) سورة النساء].

وهكذا قال هاهنا: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}".

أضيف الآثم إلى القلب في الآية باعتبار أن القلب هو ملك الجوارح، وقد يكون باعتبار أن الكتمان إنما يكون في القلب، والله أعلم.

"{لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٨٤) سورة البقرة] يخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى: {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٩) سورة آل عمران]، وقال: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [(٧) سورة طـه]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم".

---

[2] - رواه أبو داود برقم (٣٥٦٣) (٣/٣٢١)، والترمذي برقم (١٢٦٦) (٣/٥٦٦)، وابن ماجه برقم (٢٤٠٠) (٢/٨٠٢)، وأحمد برقم (٢٠٠٩٨) (٥/٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨١٧٦).

هذه الآية شقت على أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء ذلك في عدد من الروايات، واختلفت آراء المفسرين في الحكم عليها –نسخاً وإثباتاً- إلى قولين:

القول الأول: أنها منسوخة، وهم يريدون بذلك النسخ في عرف السلف، وهو أنها مُبَيَّنة بما بعدها وهو قوله سبحانه: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ...} [(٢٨٦) سورة البقرة] قال: قد فعلت، فخفف ذلك عنهم، لكن القول بالنسخ يُستدرك عليه أمران:

- أن النسخ لا يثبت بالاحتمال.
- أن الآية أفادت خبراً، والنسخ لا يتعلق بالأخبار؛ لأن نسخ الخبر تكذيب له، وإنما النسخ يتعلق بالإنشاء -الأمر والنهي والأخبار التي هي بمعنى الإنشاء-، فلا يمكن أن يقال: إن هذا الخبر منسوخ.

القول الثاني: أنها محكمة، وإنما اختلفوا في توجيه المعنى، فذهبت طائفة إلى أن الآية من العام الباقي على عمومه، والمعنى: أن الله -عز وجل- يعلم ما في النفوس، ومحيط بما تنطوي عليه الضمائر، وأنهم إذا أخفوا أمراً أو أظهروه فإنه سيحاسبهم عليه، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، لكن قد يرد اعتراض على هذا القول، وهو كيف يحاسبهم الله -عز وجل- على أمر لا يملكه الواحد منهم؟ إذ الإنسان لا يملك حديث النفس، ولا الخواطر التي تهجم على القلب من غير تطلّب ولا إرادة لها، فإذا حوسب عليها كان ذلك من قبيل التكليف بما لا يطاق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حديث النفس أمر قد تجاوز الله -عز وجل- عنه كما قال سبحانه في الآية بعدها: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ...} وأن الله قال: قد فعلت، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم))[3] فكيف يحاسبون بحديث النفس؟ ورد أرباب هذا القول: بأن المحاسبة لا تقتضي التعذيب، واستدلوا بما جاء عن عائشة –رضي الله عنها- أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: ((من نوقش الحساب عذب))، قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [(٧-٨) سورة الانشقاق]؟ قال: ((ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب))[4]، ولهذا جاء في كلام كبير المفسرين ابن جرير الطبري في بعض المواضع ما يوافق هذا المعنى، حيث حملها على أعم معانيها، فقال بأن الله يُعرِّفه ويقرره بصنيعه، ثم يتجاوز عنه، ويتفضل عليه بالعفو، إلا من كان مستحقاً للعقوبة، كالمنافق والكافر، وهذا قول جيد، ويجمع بعض الأقوال بطريقة حسنة، لا تخالف ظاهر القرآن، والله أعلم.

وبعضهم حمل الآية على معنى العام المراد به الخصوص، لكنهم اختلفوا في تحديد هذا المعنى الخاص:

فقيل: إن الآية متعلقة بكتمان الشهادة في الآية قبلها وهي قوله: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}، وتوجيه المعنى: أن الله لما أمر الشهود ألا يخفوا الشهادة ولا يكتموها، وترجح أن بعض الشهود قد

---

[3] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره برقم (٤٩٦٨) (٥/٢٠٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر برقم (١٢٧) (١/١١٦).

[4] - رواه البخاري في كتاب الرقاق – باب من نوقش الحساب عذب برقم (٦١٧١) (٥/٣٣٩٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب إثبات الحساب برقم (٢٨٧٦) (٤/٢٢٠٤).

تسول لهم أنفسهم التلاعب بالشهادة، نبههم الله إلى أنه يعلم ما في النفوس، وما تنطوي عليه الضمائر، وأنه سيحاسبهم على ما يختلج في نفوسهم وصدورهم، قاله جماعة من السلف، ونقله ابن جرير في أحد المواضع عند كلامه على الآية.

وقيل: إن ذلك مختص بعمل، وهو ما يتصل بالكفر والنفاق والريب؛ لأن هذا الأمر إذا وقع في النفوس، شك العبد في وحدانية الله -عز وجل-، والله يحاسب الإنسان على هذه العقائد والريب والشكوك التي تقع في التوحيد والإيمان وما أشبه ذلك، وهي من أسباب العقوبة والخلود في النار.

وقيل: إن ذلك مختص بطائفة، وهو يرجع إلى القول الذي قبله، قالوا: هذه في المنافقين والكفار، وأما أهل الإيمان فيغفر الله -عز وجل- لهم، باعتبار أن حديث النفس عند أهل الإيمان ليس فيه نفاق ولا كفر، فيغفر لمن يشاء، يعني من أهل الإيمان.

لكن من المقرر أن الأشياء التي يخفيها العبد في نفسه هي أنواع: منها ما يتعلق بالإيمان، ومنها ما يتعلق بالشك، ومنها ما يتعلق بالنفاق، وأيضاً بالكفر، وكذا كتمان الشهادة، إلى غير ذلك من المعاني التي تنطوي عليها النفوس، ولاشك أن قدراً مما تنطوي عليه النفوس يؤاخذ به العبد، وقدراً يعفو الله عنه ويتجاوز، كحديث النفس، والخواطر التي ترد على الإنسان فيدفعها؛ لأنه لا حيلة له فيها، وقد مر بنا قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))، ولذا فليس من الصواب القول بإطلاق: إن ما يختلج في النفوس لا يحاسب عليه الإنسان ولا يعاقب، وإنما في ذلك التفصيل المذكور. والله أعلم.

ولعل الملاحظ أن أمر المحاسبة على ما تنطوي عليه النفوس، جاء بعد الكلام على سعة ملكه سبحانه وإحاطته، بقوله: {لِّلَّه ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ} فهو لما أمرهم ونهاهم، وذكر لهم ما يتعلق بكثير من الأحكام، من العدد وما يتصل بالقضايا المالية من الربا والصدقات وأحكام المداينة، ذكر بعد ذلك تمجده -سبحانه وتعالى- وعظم نفسه، بذكره سعة ملكه وإحاطته، وأنها بلغت مبلغاً جسيماً عظيماً حتى إنه يعلم ما تكنه الضمائر، وتخفيه النفوس، ويحاسب على ذلك، وهذا القدر لا إشكال فيه، والله أعلم.

"روى الأمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {لِّلَّه ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٨٤) سورة البقرة]، **اشتد ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير))، فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}** [(٢٨٥) سورة البقرة]،

فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...} [(٢٨٦) سورة البقرة]، **إلى آخره**[5]."

يمكن أن يكون هذا النسخ بمعنى بيان ما أجمل في الآية السابقة، ويمكن أن يراد به النسخ الحقيقي وهو رفع الحكم.

"**ورواه مسلم فذكر مثله، ولفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله** {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...} **قال: نعم،** {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} **قال: نعم،** {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} **قال: نعم**".

القول بالنسخ الذي هو رفع الحكم نسب إلى طائفة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن مسعود وعائشة -رضي الله عنها-، وجماعة من التابعين مثل ابن سيرين والشعبي وغيرهم، وهم يعرفون أن النسخ ما يدخل الأخبار؛ لأن النسخ في الخبر تكذيب له، فكيف يوجه هذا القول؟

الجواب أن يقال بأن في قوله سبحانه: {يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} أثراً ونتيجة لحكم، فالحكم هو المؤاخذة بما تنطوي عليه النفوس، إذ صار من التكاليف الشرعية التي يخاطب بها المكلف، ووجهت إليه وطالبه الشارع بها، فصار من جملة التكاليف، ثم رفع، فلما رفع الحكم ارتفع الأثر وهو المحاسبة؛ لأن المحاسبة كانت نتيجة لخطاب وتكليف شرعي، وبهذا لا يكون الحكم من قبيل نسخ الخبر، لكن أحسن منه والله أعلم ما ذكرته آنفاً.

"**روى الإمام أحمد عن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقلت: يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى، قال: أية آية؟ قلت:** {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}"

بكاء ابن عمر فيه شبه الدلالة على أن مذهبه في الآية أنها تجرى على ظاهرها وأنه لم يتطرق إليها النسخ.

"**قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غماً شديداً، وغاظتهم غيظاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله هلكنا إنا كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:** ((قولوا: سمعنا وأطعنا)). **فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية** {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ} **إلى** {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [(٢٨٦) سورة البقرة]، **فتجوّز لهم عن حديث النفس، وأُخذوا بالأعمال.**

وقد روى الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها،

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٥) (١/١١٥)، ورواه أحمد في مسنده بـرقم (٩٣٣٣) (٢/٤١٢).

فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً))[6]".

فلو عزم على السيئة العزم المصمم وعجز، فإنه يلحقه الإثم ويحاسب، ودليله حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: وفيه ((ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل))، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فهما في الوزر سواء))[7]، وحديث ((القاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟!، قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[8]، فالعزم المصمم ينزل منزلة الفعل، فيدخل تحت قوله سبحانه: **{وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}**.

"**{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}** [(٢٨٦) سورة البقرة].

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما، روى البخاري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه))[9].

وقد أخرجه بقية الجماعة مثله، وهو في الصحيحين من طرق متعددة، وهكذا رواه أحمد بن حنبل".

تعددت أقوال أهل العلم في توجيه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كفتاه))، ولعل الأقرب أنه يحمل على إطلاقه وعمومه، من الكفاية بمعنى أن الله يحفظه ويحوطه، فلا يصل إليه مكروه لا من الجن ولا من الإنس، ولا من الهوام، أو السباع، أو غير ذلك، فيقيه الله -عز وجل- شر جميع المخاوف، ومن أهل العلم من يفسر الكفاية ببعض هذه المعاني، ومنهم من يفسره بالكفاية يعني من قيام الليل، أو قراءة القرآن، أو نحو ذلك، والله أعلم.

"وروى مسلم عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، انتُهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض، فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقها فيُقبَض منها".

---

[6] - رواه البخاري في كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦) (٢٣٨٠/٥)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٢٨) (١١٧/١).

[7] - رواه ابن ماجه برقم (٤٢٢٨) (١٤١٣/٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٨).

[8] - رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما برقم (٢٨٨٨) (٢٢١٣/٤)

[9] - رواه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة برقم (٨٠٧) (٥٥٤/١).

وجاء في حديث أنس -رضي الله عنه- أنها في السماء السابعة وعليه الأكثر، ويمكن الجمع بين الروايتين بالقول بأن أصلها في السادسة، وأن معظمها في السماء السابعة، فهذا قول في التوجيه، ويمكن الترجيح بأنها في السابعة، وهذا اختاره جمع من أهل العلم كثير، والله أعلم.

"قال: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [(١٦) سورة النجم]، قال: فراشٌ من ذهب، قال: أعطي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحِماتُ"[10].

وقد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبريل -عليه السلام-، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته"[11]. رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه".

المقحمات: هي الذنوب العظام التي تقحم صاحبها في النار، وهذه الرواية وإن كانت من نصوص الرجاء، إلا أن المنهج الصحيح أن لا تؤخذ بمفردها؛ لأنه لابد من اقتران الخوف والرجاء في قلب المؤمن حتى يكونا كجناحي الطائر؛ لئلا يفضي به الرجاء إلى الأمن من مكر الله، أو يفضي به الخوف إلى القنوط من رحمة الله، واليأس من روحه، وإلا فمن نظر إلى أحد النصوص دون غيرها قد يئول به الأمر إلى الانحراف في النظر، وتجد تطبيقات هذه النظرة الأحادية وأثرها السيئ في كثير من القضايا، فمثلاً: الذين يتكلمون عن الإسلام، منهم من أخذ نوعاً معيناً من النصوص وقال: هذا هو الإسلام، وقابلهم آخرون فأخذوا نصوصاً أخرى وقالوا: هذا هو الإسلام، وهذا غاية السقم في الرؤية، وهكذا في قضايا المنهج فريق نظر إلى نصوص التيسير وحكمها، وفريق غلب النصوص الأخرى واعتمد عليها، ولن يسلك العبد الصراط السوي والمنهج المستقيم، إلا إذا استوعب جميع النصوص في مسألته، والله أعلم.

مسألة: وردت روايتان ظاهرهما التعارض كلاهما عند مسلم، الأولى: عن ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبريل –عليه السلام- إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، وذكر فيه "أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة..."، والثانية: عن عبد الله –رضي الله عنه- قال: " لما أسري برسول الله –صلى الله عليه وسلم-... وفيه "أعطي ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة،..." فيكف الجمع بين الروايتين؟ يذكر العلماء –رحمهم الله- أن من القرآن ما هو سمائي، ومنه ما هو أرضي، ومنه ما نزل بين السماء والأرض، ولعل مكان النزول في الروايتين من هذا الأخير -أي ما نزل بين السماء والأرض-، لكن الحديثين وإن لم

---

[10] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب في ذكر سدرت المنتهى برقم (١٧٣) (١/١٥٧).

[11] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة برقم (٨٠٦) (١/٥٥٤)، والنسائي برقم (٩١٢) (٢/١٣٨).

يدلا على ذلك دلالة قطعية، إلا أنه يستدل بهما على شرف ومنزلة وعظم هاتين الآيتين، وأما أمر مكان نزولهما فلا يعنينا كثيراً.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة: "ثم أخبر عن الجميع فقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة]**، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره ابن كثير –رحمه الله- من التفسير يجري على القراءتين في الآية {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ}، وقراءة حمزة والكسائي {وكتابه}، فالله -عز وجل- لما ذكر الإيمان أولاً بما أنزل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الكتاب الذي أنزله إليه مصدقاً لما بين يديه، إضافةً إلى سائر ما أوحى الله -عز وجل- إلى رسوله -عليه الصلاة والسلام- قال بعده: {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ} وعلى القراءة الأخرى {وكتابه}، فالكتاب جنس يصدق على الواحد والكثير.

"وقوله: {وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه".

حمل ابن كثير -رحمه الله- السماع في هذا المقطع من الآية على معنيين:

الأول: السماع، أي سمعنا بآذاننا.

الثاني: القبول والامتثال بقلوبنا وجوارحنا، ولذلك اليهود لما قالوا سمعنا وعصينا، أرادوا أنهم سمعوا بآذانهم إلا أنهم لم ينقادوا أو يمتثلوا بقلوبهم وجوارحهم.

"{غُفْرَانَكَ رَبَّنَا} سؤال للغفر والرحمة واللطف".

غفران مصدر يأتي بمعنى ستر الذنوب، ويأتي بمعنى الوقاية من شؤمها فلا يؤاخذ الإنسان بها.

"وقوله: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] **أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لمَا كان أشفق منه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين في قوله: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}** [(٢٨٤) سورة البقرة] **أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان".**

هذا تصريح من ابن كثير -رحمه الله- بأن الآية منسوخة، وهو يقصد النسخ عند المتأخرين الذي يراد به رفع الحكم المتقدم بالحكم المتأخر، لا النسخ عند المتقدمين كبيان المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق، ولكن ليس رفع التكليف فيما يتعلق بحديث النفس منسوخاً كله قطعاً؛ لأن ما يخفيه الإنسان من الشرك والريب والنفاق أو كتمان الشهادة ونحو ذلك، يحاسَب عليه ولا يشمله النسخ في الآية، ومع هذا فلو أمكن حمل الآية على معنىً صحيح من غير تكلف في هذا الموضع لكان حسناً؛ لأن دعوى النسخ لا تثبت بالاحتمال، ولابد فيه من دليل مرجح يجب الرجوع إليه، ولا دليل، والله أعلم.

"وقوله: {لَهَا مَا كَسَبَتْ} أي من خير، {وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} أي من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} أي وإن تركنا فرضاً على جهة النسيان أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي.

وقد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال الله: نعم، ولحديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قال الله: قد فعلت".

أورد بعض أهل العلم استشكالاً على قوله سبحانه: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** وهو إذا كانت المؤاخذة بالخطأ والنسيان مرفوعة، فكيف يسألون ربهم ذلك، ألا يعد صنيعهم هذا من صور الاعتداء في الدعاء؟

لذلك ذهب جمع من أهل العلم إلى حمل الخطأ والنسيان في الآية على معنى آخر، وقالوا: إن الخطأ تارةً يكون بعمد، وتارةً يكون من غير عمد، وحملوا المراد من الآية على الخطأ العمد؛ لكونه يؤاخذ الإنسان به، وهناك فرق بين قولك: فلان يخطئ وفلان مخطئ، وكذلك النسيان يأتي بمعنى الذهول، وزوال المعلوم، ويأتي بمعنى الترك كقوله سبحانه: **{نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** [(١٩) سورة الحشر]، وقوله سبحانه: **{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ}** [(٤٤) سورة الأنعام]، وحملوا المعنى في الآية على الترك.

وقال بعضهم: إنه لا حاجة إلي التكلف في تخريج الآية، وحملوها على ظاهرها المتبادر، وهو أن الله -عز وجل- تعبدهم بهذا الدعاء المراد به التخفيف، ورفع الآصار، والتكاليف الشاقة، ولا يكون ذلك إلا بعدم المؤاخذة بما لا يد للإنسان فيه، ورفع ما لا يدخل تحت طوقه، ووضع الأشياء التي لا يحتملها المكلف، وهذا الذي يتناسب مع السياق، فيبقى الخطأ هو الوقوع في المخالفة من غير قصد، والنسيان زوال المعلوم من الذهن، يقول الناظم:

زوال ما علم قل نسيان ... والعلم في السهو له اكتنان

ولذا كان من دعاء أهل الإيمان كما علمهم نبيهم -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته))[1] ومعلوم أن النبي-صلى

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الأذان – باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) (٢٢٢/١).

[3] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٥) (١١٥/١).

الله عليه وسلم- قد أعطاه ربه الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود، فلماذا الدعاء له وقد أعطيها؟ ونظائر هذا الدعاء في الكتاب والسنة كثيرة.

ويبعد أن يكون المراد أنهم يسألون الله -عز وجل- ألا يؤاخذهم بالذنوب والجرائم التي وقعوا فيها عن عمد؛ لأنه جاء قوله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه: قد فعلت، فكيف يحمل الدعاء في الآية على عدم المؤاخذة على ما تعمدوه من القبائح مع أن الله -عز وجل- قد توعد العاصين والمذنبين وخوفهم، والله أعلم.

"وقوله: {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا} أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً -صلى الله عليه وسلم- نبي الرحمة، بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله: نعم))(٣).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله: قد فعلت))(٥)."

أصل الإصر في كلام العرب هو: الحمل الثقيل الذي يحبس صاحبه مكانه لثقله، ثم أطلق على التكاليف الشاقة، والمعنى لا تكلفنا تكليفاً شاقاً يثقلنا ويرهقنا، وقد نعجز عن القيام به وحمله، ومن أهل العلم من يفسر الإصر بالعهد، كما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي} [(٨١) سورة آل عمران] أي عهدي، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، ولا منافاة بين المعنيين؛ لأن العهود التي أخذها الله -عز وجل- على بني إسرائيل لم يقوموا بكثير منها، فيكون المعنى لا تكلفنا عهداً ثقيلاً شاقاً نعجز عن القيام به، والله أعلم.

"وجاء الحديث من طرق عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((بعثت بالحنيفية السمحة))(٦).

وقوله: {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقد قال مكحول في قوله: {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال: الغربة والغُلْمَة، رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر قال الله: قد فعلت".

تفسيره بالعُزْبة هو الأقرب والأنسب، والمغتلم: هو من بلغت به الشهوة غايتها، وهذا من قبيل التفسير بالمثال، وقد عهد من طريقة السلف -رضي الله عنهم- أنهم يذكرون بعض المعاني التي تدخل تحت الآية، ويقصدون بذلك التوضيح والتقريب للسامعين فقط لا الحصر، وإلا فالأمور الشاقة كثيرة جداً، فهؤلاء التجئوا إلى ربهم أن لا يكلفهم ما كلف به الأمم السابقة، فاليهود حينما تابوا توبتهم العظيمة المعروفة في التاريخ من عبادتهم للعجل، قال الله -عز وجل- لهم: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٥٤) سورة

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٦) (١/١١٦).

[6] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤٥) (٥/٢٦٦)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٦٠٨٦).

البقرة] فأمرهم الله –عز وجل- بقتل النفوس، بمعنى أن الواحد يقتل أباه وأخاه وقريبه، ولاشك أن هذا في غاية المشقة، وكان الواحد منهم إذا أصابته النجاسة قرض ذلك الموضع ولا يكتفي بالغسل، إلى غير هذا.

يقول في القاموس: غَلِمَ كفرِحَ، غَلَماً وغُلْمَةً بالضم، واغتَلم: غُلِبَ شهوةً، وهو غَلِمٌ وغِلِّيمٌ ككتَف وسِكِّيت ومِنديل، وهي غَلِمة، ومُغتلِمة، وغِلِّيمة، ومِغْلِيمة، ومِغْلِيم، وغِلِّيم، وأغلمه الشيء، قال: والغُلْمَة: شهوة الضِّراب.

الغُلْمَة: هي شهوة..، لكنها ليست مطلق الشهوة، وإنما هي غاية الشهوة، ولذلك ذكرها بعض المفسرين من الأمور التي لا يطيقها المرء، وهذا يدل على البلاء الشديد لمن ابتلاه الله بها، فكيف إذا كان الإنسان قد تطلب البلاء بنظره وسمعه وخلطته، حتى أفضى به إلى ذلك، وقد قيل: من عرض نفسه للفتنة أولاً لم ينجُ منها آخراً إلا أن يشاء الله، والله أعلم.

"وقوله: {وَاعْفُ عَنَّا} أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، {وَاغْفِرْ لَنَا} أي فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، {وَارْحَمْنَآ} أي فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره، وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، وفي الحديث الآخر قال الله: قد فعلت".

هذا التفسير لهذه الدعوات الثلاث، بناءً على أصلٍ قصده ابن كثير -رحمه الله-، وهو أن التأسيس مقدم على التوكيد، فأراد أن يحمل كل دعوة على معنىً جديد، ولكن العفو معناه محو أثر الذنب، والغَفْر هو الستر والوقاية، والوقاية من شؤم الذنب هو بمعنى العفو الذي قبله، ففسر الثانية بالستر لأن المعنى الثاني منها قد مضى في الذي قبله، وهذه طريقة صحيحة في التفسير.

والرحمة ليست فقط فيما يستقبل، لكنه قال: فيما يستقبل بناءً على أن الرحمة فيما مضى بالتجاوز، والحقيقة أن الرحمة بالتجاوز تحتاج أكثر من هذا، فإذا رحم الله -عز وجل- ضعفهم وعجزهم وفّاهم أجورهم، وزادهم من فضله، ورفع درجاتهم، ولم يكلفهم تكليفاً يشق عليهم، وكل هذا من رحمته -سبحانه وتعالى-، فالرحمة لا تقتصر على جانب الإساءة بالغَفْر والستر والتجاوز، بل تشمل كل ما يكون في جانب الإحسان من سائر الأمور، فالدعاء بالرحمة يشمل هذه المعاني جميعاً، والله أعلم.

"وقوله: {أَنتَ مَوْلاَنَا} أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك تَوكّلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

{فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.

قال الله: نعم، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قال الله: قد فعلت.

وروى ابن جرير عن أبي إسحاق: أن معاذاً -رضي الله تعالى عنه- كان إذا فرغ من هذه السورة {فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قال: آمين".

الآية تشمل أنواع الكفر عموماً، كالإعراض، والشك، وكذا مقارفة الأعمال التي توجب الخروج من الملة، وابن كثير اقتصر في تفسير الكفر بالجحود في الآية؛ ولعل مرد ذلك إلى أنه من أشهر معانيه، إذ أصل هذه اللفظة من الستر والتغطية، وذلك لاشك أنه يدل على الجحود دلالة أصلية أو أولية، لكنه لا يختص به شرعاً.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى والله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "تفسير سورة آل عمران، وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها -إن شاء الله تعالى- وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران**" هذا القول نقل عليه بعض أهل العلم الإجماع، ولم أقف على من خالف القول بأنها مدنية.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية**" هذا فيه إشارة إلى أن السورة تعتبر مكية أو مدنية باعتبار صدرها.

ولا شك أن السورة إذا نزلت جميعاً قبل الهجرة يقال لها: مكية، وإذا نزلت جميعاً بعد الهجرة فيقال: إنها مدنية، وهذا الكلام فيما إذا جعلنا الضابط هو النزول قبل الهجرة وبعد الهجرة، لكن الكلام في كثير من السور التي يقال: إن بعض آياتها نزلت بمكة والبعض الآخر في المدينة فالضابط في القول بأنها مكية أو مدنية إما باعتبار نزول أكثر الآيات، أو باعتبار أول ما نزل منها -وأول ما نزل قد لا يكون هو صدر السورة- أو أن العبرة في ذلك هو صدر السورة، فإن كان صدرها مكياً قيل: هي مكية، وإن كان صدرها مدنياً قيل: هي مدنية، وهذا الأخير هو الأقرب والله تعالى أعلم، وهو الذي أشار إليه ابن كثير رحمه الله.

"**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} [(١-٤) سورة آل عمران].

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وقوله: {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} عند تفسير آية الكرسي.

وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: {الم} في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضاً الكلام على قوله: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(١٦٦) سورة النساء]".

في قوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} بعضهم يقول: بالصدق، ويمكن أن يقال: نزله إنزالاً متلبساً بالحق، ولا إشكال سواء قيل: بالصدق، أو قيل: نزله متلبساً بالحق؛ فالمعنى متقارب.

والتعبير بالتنزيل العلماء يتكلمون فيه على التنجيم، أي أن فيه إشارة إلى أن القرآن نزل منجماً؛ لأنـه قـال: {نَزَّلَ} فهي بخلاف {أَنزَلَ} [(٧) سورة آل عمران]، وعلى كل حال قد جاء التعبير بهذا وبهذا.

"وقوله: {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء -عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- وإنزال القرآن العظيم عليه".

يلاحظ أنه فسر قوله تعالى: {مُصَدِّقاً} بأوسع معناه، أي أن هذا القرآن مصدق لما فيها من الهدايات والحقائق التي أخبر الله -عز وجل- عنها، يعني مما لم يقع فيه التحريف، وأنها من عند الله -عز وجل- وكذلك مصدقاً لها باعتبار أنه طابق ما أخبرت به من الوعد بإرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- وإنزال القرآن عليه.

ولهذا يذكر في وجه الامتنان بأميّته -صلى الله عليه وسلم- أي ببعثه أمياً كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة]، يذكر أنه -صلى الله عليه وسلم- يكون بذلك مصدقاً لما جاء من وصفه في الكتب السابقة، وهذا أحد الأوجه، وعلى كل حال فهو مصدق لها باعتبار أن فيه تصديق ما جاء فيها، بإقراره والشهادة لتلك الحقائق التي أخبر الله -عز وجل- عنها، وأن تلك الكتب من عند الله -تبارك وتعالى- إضافة إلى أن مجيئه هو تصديق لذلك الخبر الذي كان في تلك الكتب عن نزول القرآن على محمد -صلى الله عليه وسلم-.

"وقوله: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ} أي على موسى بن عمران، {وَالإِنجِيلَ} أي على عيسى ابن مريم -عليهما السلام-".

التوراة هو الكتاب المعروف الذي نزل على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذه الكلمة إذا قلنا: إنها ليست عربية -وهذا هو الظاهر- فمعنى ذلك أننا لسنا بحاجة لا إلى تعليل الاسم ولا إلى تفسيره، والعلماء -رحمهم الله- منهم من حاول أن يفسره، فبعضهم جعل ذلك من التورية وهي: المعاريض، ووجَّه ذلك بأن في التوراة من المعاريض شيئاً كثيراً، بمعنى أمور غير مصرّحة بالمراد ولكن مراد الله -عز وجل- يفهمه من كان من أهل العلم بالكتاب، ومنهم من يقول: إنها بمعنى الضياء والنور، من: وَرَى الزَّند، بمعنى أوقده وأضاء به أو نحو ذلك، وكذلك يقولون في الإنجيل، وبعضهم يقول: الإنجيل من النجل وهو الأصل، باعتبار أنه أصل للحكم والعلوم، وبعضهم يقول: الإنجيل من النجل وهو الاستخراج، تقول: نجلت الماء بمعنى استخرجته من البئر، وذلك لما حواه من العلوم والحكم والهدايات، وبعضهم يقول: من التناجل وهو بمعنى التنازع؛ لأنهم اختلفوا فيه، وكل هذا لا دليل عليه، وإذا قلنا: إن هذه الكلمات ليست عربية فلا حاجة إلى تفسيرها أصلاً، بل لا يصح أن تفسر بمثل هذا من كلام العرب، يعني من جهة الاشتقاق، ومسألة كون الأسماء الأعجمية موجودة في القرآن هذا بالإجماع ولا إشكال في ذلك، والكلام على هذا الأمر موجود في أصول الفقه عند الكلام على مسألة هل يوجد في القرآن شيء أعجمي أم لا، والخلاصة أن الأسماء متفق على أنها موجودة؛ لأنه يعبر بها كما هي بأي لغة، وأما ما يتعلق بالتراكيب فالإجماع على أنه لا وجود لها في القرآن، وبقي الكلام على غير ذلك من الأسماء المنكَّرة، مثل: قسورة وإستبرق ومشكاة، ونحو ذلك:

مـا كـان منـه مثـل إسـماعيل	ويـونس قـد جـاء فـي التنزيـل
إن كـان منـه واختيـار الأكثـر	والـشافعي النفـي للمنكَّـر

فكلامهم ونزاعهم إنما هو في المنكر مثل: إستبرق ونحوها وليس في الأعلام وليس في التراكيب، فإذا سـأل سائل: هل يوجد في القرآن أعجمي؟ فالجواب يكون بهذا التفصيل، فيقال: القسمة ثلاثية والمختلف فيـه هـو الوسط، والله أعلم، وأنا إنما ذكرت هذا للفائدة وذلك أنك تجد بعض الأشياء الأعجمية والعلماء يحاولون أحياناً تفسيرها وبيان اشتقاقها، ولكن إذا تقرر أن أصلها أعجمي فلا محل لتفسيرها أصلاً.

"{مِن قَبْلُ} أي من قبل هذا القرآن، {هُدًى لِّلنَّاسِ} أي في زمانهما، {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغي والرشاد".

نعم {هُدًى لِّلنَّاسِ} في زمانهما، فإذا قلنا: إن هذه الكتب خوطب بها جميع الناس، فهي هـدى لجميـعهم، وإذا قلنا: إنها مخصوصة في بني إسرائيل فإن ذلك يكون من العام المراد به الخصوص، إذ يمكن أن تكـون "أل" عهدية؛ لأن التي للعموم هي المعرِّفة وليست العهدية، وعلى كل حال ينقل عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة"، ويوجد من النصوص ما يدل على ذلـك، إن صـح وسلم من التحريف، أي أنه إنما أرسل لبني إسرائيل.

"{وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} وهو الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والغي والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ويبيّنه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشـد إليـه وينبه عليه من ذلك".

اعتبر الفرقان: أي ما يفرق بين الحق والباطل، أو ما يفصل بين الحق والباطل من الحجج والبينـات، ولـيس المراد بذلك القرآن وإنما المراد أعم من ذلك يعني كل ما يحصل به الفصل بالحجج والبينـات، وهـذا الـذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: المراد بقوله: {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} أي الكتب السابقة المنزلة عموماً، فهو ذكر التوراة والإنجيـل، ثم عمَّم الكتب بعد ذلك.

وبعضهم يقول: المقصود بقوله: {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} أي الزبور، وهذا لا دليل عليه، أعني تخـصيص الفرقـان بالزبور.

ومنهم من يقول: المراد به القرآن كقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ} [(١) سورة الفرقان]، لكن الله تعـالى قد وصف التوراة أيضاً بأنها فرقان، فالحاصل أن الفرقان ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل.

والخلاصة أن الله -عز وجل- ذكر أولاً القرآن فقال: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ} [(٣) سورة آل عمران] فهذا هو القرآن، ثم قال: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ} أي من قبل القرآن {هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} [(٣-٤) سورة آل عمران] فمن أجل أن لا يكون ذلك تكراراً فيكون الفرقان بمعنى ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل، وذلك يشمل كل ما يصدق عليه هذا اللفظ، فلا يختص بالقرآن وحـده، وهـذا هـو الأقرب والله تعالى أعلم.

"وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ} [(٤) سورة آل عمران] أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل."

هذا باعتبار أن أصل الكفر في اللغة بمعنى الستر، وإلا فإنه في الشرع يصدق على هذا المعنى ويصدق على غيره كالشك والإعراض، إلى غير ذلك مما يحصل به الكفر، والعلماء -رحمهم الله- لا يدققون كثيراً في مثل هذه الألفاظ، ولكن على كل حال إذا ابتلي الناس بمن يقول: إن الكفر هو فقط الجحود فهنا لابد أن يبيّن المراد.

"{لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي يوم القيامة، {وَاللّهُ عَزِيزٌ} أي منيع الجناب عظيم السلطان، {ذُو انتِقَامٍ} [(٤) سورة آل عمران] **أي ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام".**

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ} [(٤) سورة آل عمران] الآيات هنا جمعٌ مضاف، والأصل أن ذلك يدل على العموم، فهل يختص هذا بآيات الله المتلوة من القرآن وما أنزله الله -عز وجل- في التوراة والإنجيل والكتب السابقة، أم أن ذلك يشمل هذا ويشمل سائر الآيات كالناقة وعصا موسى -عليه الصلاة والسلام- وما إلى ذلك من دلائل صدق ما جاء به أنبياؤه -عليهم الصلاة والسلام- وما يدل على وحدانية الله جل جلاله؟

الجواب هو أن الله -عز وجل- لم يخصص شيئاً دون شيء، ولا شك أن الآيات المتلوة هي أولى ما يدخل فيه، وذلك أنه ذكر هذه الكتب التي هي القرآن والتوراة والإنجيل، ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ} [(٤) سورة آل عمران].

وإذا قلنا: الفرقان هو ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل، فإن ذلك يحصل بالآيات المتلوة، ويحصل أيضاً بما يحصل به الفصل من دلائل القدرة وصدق ما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فما حصل مع موسى -صلى الله عليه وسلم- والسحرة لا شك أنه من أعظم الآيات، وهكذا، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} يعني آية مبصرة، {فَظَلَمُواْ بِهَا} [(٥٩) سورة الإسراء]: يعني جحدوا بها، والله أعلم.

"{إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٥-٦) سورة آل عمران] **يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك.**

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء} أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح وشقي وسعيد.

{لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٦) سورة آل عمران] **أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى -عليهم لعائن الله- وقد تقلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال كما قال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}** [(٦) سورة الزمر]".

يعني أن الله -عز وجل- حينما توعد من كفر بآياته أخبر بإحاطته وقدرته على خلقه -سبحانه وتعالى- فقال: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ} [(٦) سورة آل عمران]، والمقصود بالتصوير في هذه الآية أي نقلهم من طور

إلى طور، أي من النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة، وما إلى ذلك حتى يكتمل هذا الخلق، ومن ذلك جعل هذا المخلوق ذكراً أو أنثى، وما يحصل لهم من تفاوت في الألوان، وما يحصل لهم من تفاوت في الخلق.

والتصوير يأتي بمعنى التشكيل، وهذه المعاني التي يذكرها بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- كلها داخلة فيه، إذ كل ذلك يفعله الله -عز وجل- بهم كما ذكر في الآيات الأخرى، كقوله: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا من بَعْدِ خَلْقٍ} [(٦) سورة الزمر] فهذا هو التصوير.

وحينما يقول الله -عز وجل-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [(٢٤) سورة الحشر] يكون الخالق بمعنى المقدر، والبارئ بمعنى الموجد المنشئ من العدم، والمصور بمعنى الذي أعطى كل مخلوق شكله وصوره بما يليق به، فيكون التصوير بمعنى التشكيل، ويدخل في هذا التشكيل ما يحصل لهم من التخطيط، حيث إنه بعد أن يمر على الجنين واحد وثمانون يوماً يخطط الجنين أي أنه يرسم، فالعيون تكون عبارة عن نقط والفم نقطة وتظهر خطوط الأيدي والأرجل، وهكذا شيئاً فشيئاً ثم تتفصل هذه الأشياء، ويتشكل بصورة ينتقل معها من طور إلى طور حتى يكون بهذه الهيئة، قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [(٦) سورة آل عمران].

"{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ* رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ* رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(٧-٩) سورة آل عمران].

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه وحكَّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه".

هذا المعنى الذي ذكره -رحمه الله- في معنى المحكم والمتشابه هو من أجود ما قيل فيه، على كثرة الأقوال، ومن هذه الأقوال ما يرجع إلى بعض، وعلى كل حال هذا القول هو من أجودها، وهو منقول أيضاً عن الإمام أحمد -رحمه الله-.

وعن طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- أن معنى المحكمات هي التي تقوم بنفسها ولا تحتاج إلى غيرها لفهم معناها، والمتشابهات هي التي تحتاج إلى ردها إلى غيرها من أجل فهم معناها، ولهذا قال عن المحكمات: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}، وأم الشيء أي أصله الذي يرجع إليه، كما يقال في الراية التي يحملها الجند، وينضوون تحتها، وينضمون إليها ويجتمعون عندها، يقال لها: أمّ، ومن ذلك أمّ الرأس.

فالحاصل أن قوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} بمعنى الأصل الذي يرجع إليه، فالمتشابهات ترجع إلى المحكمات من أجل بيان معناها، وهذا إذا قلنا بأنه لا يوجد متشابه مطلق من جهة المعاني -وسيأتي الكلام على هذا عند الوقف في الآية- فيكون ذلك من الأمور النسبية من جهة المعنى، فالتشابه في المعنى يكون من الأمور

النسبية، بمعنى أنه يكون متشابهاً بالنسبة لبعض الناس وغير متشابه بالنسبة لآخرين، ففي قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد] قد يلتبس هذا على بعض الناس فيحتاج إلى رده إلى بعض المحكمات، فمن المحكمات التي يرد إليها: الآيات الدالة على العلو والعلو الخاص الذي هو الاستواء، فذلك يدل على أنه مباين لخلقه -سبحانه وتعالى- فتكون المعية لا تقتضي المخالطة، ومن الناس من يفهم معنى قوله -تعالى- هذا {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد]، ولا يخطر في باله أن ذلك يقتضي المخالطة حيث إن ذلك ليس بلازم في كلام العرب، فتكون هذه الآية لهذا الشخص من المحكمات وبالنسبة للآخر من المتشابهات، وقل مثل ذلك في كل ما اشتبه على الإنسان والتبس عليه.

ومن أمثلة ذلك قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٤) سورة المعارج] مع قوله -تبارك وتعالى- في سورة السجدة: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٥) سورة السجدة]، تجد أن من الناس من يفهم المراد بالألف سنة المذكورة في سورة السجدة مع الخمسين ألف سنة التي في المعارج -الآية الأخرى- فيقول: المراد باليوم الذي في سورة السجدة هو اليوم الذي يكون عند الله -عز وجل- واليوم المذكور في آية المعارج هو في يوم القيامة، فإذا كان الإنسان يعتقد هذا المعنى فلا إشكال عنده في الآيتين، فهي بالنسبة إليه من المحكمات، وتجد شخصاً آخر يستشكل هذا المعنى ويتردد فيه، فتكون هذه الآيات بالنسبة إليه من المتشابهات، وقل مثل هذا في أمثلة كثيرة جداً، ولذلك يقال والله أعلم: إن التشابه من جهة المعاني هو أمر نسبي، لا يوجد من جهة المعنى تشابه مطلق بحيث يلتبس على جميع الأمة.

وعلى كل حال فإن قوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} يشعر برجحان تفسير المحكمات بأنها ما قام بنفسه ولم يحتج إلى غيره في فهم معناه، والمتشابهات هي التي تحتاج إلى ردها إلى غيرها من أجل فهم معناها.

"ولهذا قال تعالى: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [(٧) سورة آل عمران] أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، فالمحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، والمتشابهات: المنسوخة والمقدم منه والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به".

لم يقل هنا قال ابن كثير: فالمحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه إلى آخره، فمثل هذا الإيراد بهذه الطريقة لا يبرر أن ينسب لابن كثير، وعلى كل حال فإن من أهل العلم من حاول أن يرجع الأقوال إلى المعنى الأول الذي ذكره ابن كثير؛ باعتبار أنهم رأوا أن هذا أوسع هذه المعاني وأشملها، فحاولوا أن يرجعوا إليه سائر المعاني، فالحاصل أن هذه الطريقة في الاختصار فيها إشكال؛ لأن الأصل أن يورد ما اختاره ابن كثير ولا يدمج معه شيئاً آخر يرتضيه، أو لأن الرواية صحت فيه عن ابن عباس مثلاً، فإن هذا لا يبرر أن يورده بهذه الطريقة وإنما كان ينبغي أن يقول: قال ابن عباس، والله أعلم.

والإحكام يطلق بإزاء معنيين:

يطلق -أعني الإحكام الخاص- ويراد به ما يقابل المتشابه، وهذا هو المراد هنا، ويطلق الإحكام فيما يقابل المنسوخ، تقول: هذه الآية محكمة وهذه الآية منسوخة، وأما الإحكام العام فالمراد به الإتقان كما وصف الله

-عز وجل- القرآن كله بأنه محكم فقال: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [(١) سورة هود]، فوصف القرآن بكامله بأنه محكم، كما وصفه في موضع آخر بأنه متشابه، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، فالمقصود بهذا التشابه العام، بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والفصاحة.

والإحكام العام المقصود به: أنه متقن لا تجد فيه ما يوجب الريب كما قال تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة] ولا تجد فيه تناقضاً كما قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء] فهذا هو الإحكام العام والتشابه العام.

قول ابن عباس: "**ناسخه**" الناسخ يقابله المنسوخ الذي لا يعمل به.

وقوله: **ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه**" يعني الأمور التي بينها الله -عز وجل- وطالب الناس بالقيام بها والعمل بها.

قوله: "**والمتشابهات: المنسوخة**" أي التي لا يعمل بها.

قوله: "**والمقدم منه والمؤخر**" بمعنى أنه محل للاشتباه مثل قول الله -عز وجل-: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٥٥) سورة آل عمران] فكيف قال الله -عز وجل-: {مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ} وعيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يمت؟ هذا يمكن أن يقال: هو من قبيل المقدم الذي محله التأخير.

قال: "**والأمثال والأقسام**" الله -عز وجل- قال: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [(٤٣) سورة العنكبوت]، وأولئك قالوا: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً} [(٢٦) سورة البقرة]، أضف إلى ذلك أن الأمثال ليست من الآيات التي يتعلق بها التكليف من حيث إنها تتضمن أحكاماً بالعمل، وإنما يبين بها المعنى ويوضح، وربما يبين ذلك المعنى بصورة المحسوس، كقوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} [(١٧) سورة الرعد] فهو صوَّر الوحي والهدى بالمطر الذي ينزل.

"**قال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله-:** {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} [(٧) سورة آل عمران] **فيهن حجة الرب، وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه.**

قال: والمتشابهات في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق".

هذا الكلام يرجع تماماً إلى قول ابن كثير فهو موافق تماماً لكلامه –رحمه الله- وهذا الكلام يمكن أن يختصر فيحذف؛ باعتبار أن هذا الكتاب مختصر، ويمكن أن يقتصر عليه في تفسير المحكمات، من غير قول ابن عباس.

وعلى كل حال ما كان محتملاً فإنه يكون من المتشابه، وإن كان محتملاً عند زيد وليس بمحتمل عند عمرو فيكون بالنسبة لهذا متشابهاً وبالنسبة لهذا محكماً.

"**ولهذا قال تعالى:** {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} [(٧) سورة آل عمران] **أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، فيتبعون ما تشابه منه، أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة**

عليهم، ولهذا قال الله تعالى: {ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ} [(٧) سورة آل عمران] أي الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [(٥٩) سورة الزخرف] وبقوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٥٩) سورة آل عمران]، وغير ذلك من الآيات المحكمات المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله".

يعني النصارى يحتجون بمثل هذه الآية على أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- جزء من الله -عز وجل-، وأنه ابن الله، وربما احتجوا على التثليث بما ورد من ضمير الجمع، كقوله: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ}** [(٣) سورة يوسف]، قالوا: نحن تستعمل للجمع، وغير ذلك مما يلبسون به، فهذا من قبيل اتباع المتشابه.

فهؤلاء **{الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}** يعني ميلاً عن الحق وانحرافاً عنه.

{فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} أي: يتبعون مثل هذه الآيات المحتملة المتشابهة.

{ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ} أي: ابتغاء الإضلال أو التشكيك والتلبيس على الناس بمثل هذه الآيات، ويدخل في هذا كل من تتبع الآيات المحتملة ليلبس بذلك على الناس، إما للتشكيك أو الطعن في القرآن، أو من أجل الاحتجاج على باطله بنصوص القرآن كما فعل كثير من أهل الضلال، فهؤلاء كلهم قد رفعوا لواء الفتنة.

"وقوله تعالى: {وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران] أي تحريفه على ما يريدون.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} إلى قوله: {أُوْلُواْ الألْبَابِ} [(٧) سورة آل عمران] فقال: ((فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهُم الذين عنى الله فاحذروهم))[1].

وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه، ثلاثتهم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} إلى قوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} [(٧) سورة آل عمران] قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))[2] [لفظ البخاري].

---

[1] - أخرجه أحمد (٢٤٢٥٦) (ج ٦ / ص ٤٨) وقال الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]: **"اختلف القراء في الوقف هاهنا فقيل على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا الله" ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: "**التفسير على أربعة أنحاء**" يعني على أربعة أنواع، وذكر الأول منها وهو قوله: "**تفسير لا يعذر أحد في فهمه**" وهذا القول جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- بألفاظ متقاربة، فهو بهذا اللفظ مع ما ينضم إلى ذلك من ذكر الأصناف الثلاثة أو الأنواع الثلاثة -ما تعرفه العرب، وما يعلمه الراسخون، وما لا يعلمه إلا الله- كأنه أراد بذلك -والله تعالى أعلم- لا يعذر أحد في فهمه أي أنه ظاهر المعنى، لا يحتاج إلى كثير معرفة بلغة العرب وكلامها، ولا يحتاج إلى علم ورسوخ، وإنما يفهمه كل من سمعه، هذا الذي يظهر والله أعلم.

وقد يفهم من بعض ألفاظه أن المراد بذلك هو ما يتعلق بالفرضية، يعني مما افترض الله -عز وجل- على الإنسان وخاطبه به من العمل والأحكام التي يجب عليه أن يعلمها، وعلى كل حال فهذا القول وهو أن الوقف على لفظ الجلالة هذا عليه السواد الأعظم من أهل العلم، أي أن عامة السلف -رضي الله تعالى عنهم- من الصحابة ومن بعدهم يقولون: إن الوقف على لفظ الجلالة.

ويحتجون على ذلك بأمور، منها: أنه جاء في قراءة أبيّ وابن عباس -رضي الله عنهم أجمعين-: **(ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)**، يعني أن المعنى يكون هكذا: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)؛ لأنه على هذه القراءة: (ويقول الراسخون) تكون الواو استئنافية، وتكون هذه جملة فعلية جديدة لا مرية ولا إشكال فيها، وفي القراءة الأخرى وهي رواية غير متواترة كذلك -قراءة ابن مسعود-: (إنْ تأويله إلا عند الله)، فـ"إن"

هنا هي إن النافية وليست المخففة (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)، فــ"إن تأويله" معناه ما تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

وعرفنا قبل بأن القراءة الآحادية أو غير المتواترة تفسر القراءة المتواترة، فاحتجوا بهذا واحتجوا أيضاً بأمور أخرى كذلك منها أنهم قالوا: إن ما نفاه الله -عز وجل- عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن لأحد أن يعلمه، وهذا في باب المعلومات، وإن كان في غيرها فكذلك ما نفاه الله عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن أن يضاف إليهم، فالله -عز وجل- قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]، حيث جاء بصيغة هي أقوى صيغ الحصر وهي النفي والإثبات، التي جاءت بها كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، كما قال في المراقي: أعلاه لا يرشد إلا العلماء، فهذه أعلى صيغة من صيغ الحصر، ومن أراد أن يراجع الكلام عليها فلينظر في كتب الأصول والمفهوم منها، ومن أهل العلم من اعتبره منطوقاً، فالحاصل أنهم قالوا: إن الله إذا نفى شيئاً عن الخلق وأضافه لنفسه فلا يمكن أن يضاف إليهم.

واحتجوا على ذلك أيضاً بأن الله -عز وجل- ذمَّ الذين يتطلبون تأويله فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران] فأخبر أنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهؤلاء ذمهم الله -عز وجل- على تتبع المتشابه ونفَى علمه عنهم، أو عن الخلق فقال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} فكيف لهؤلاء الراسخين في العلم أن يتشاغلوا بهذا المتشابه طلباً لمعناه!

هذه أبرز وجوه احتجاج هؤلاء، وهم سواد أعظم، بل عامة أهل العلم يقولون بهذا، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله- وغيره خلق كثير لا يحصيهم إلا الله -عز وجل- وعلى قول هؤلاء تكون الواو استئنافية وما بعدها جملة جديدة، فهو قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} ثم مدح الراسخين في العلم بأنهم يفوضون علمه إلى عالمه ويؤمنون به.

والذين خالفوهم وقالوا: إن الواو للعطف احتجوا على هذا أيضاً بأمور، حيث قالوا: إذا كان الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله فما مزيتهم على غيرهم ممن لا يوصف بالرسوخ، فكل المؤمنين العوام وأوساط المتعلمين سوى أهل الزيغ الذين يتتبعون هذا المتشابه يقولون: آمنا به ويفوضون علم ما لم يعلموا إلى الله، فما مزية الراسخين إذاً؟

هذا مما احتجوا به، ويمكن أن يرتفع كثير من الخلاف - ولا أقول كل الخلاف- في حال التفصيل، وذلك ببيان المراد بالتأويل.

فالتأويل أصل مادته من الأوْل وهو الرجوع، وهذه اللفظة، وردت في القرآن وفي كلام السلف في الدلالة على معنيين اثنين:

الأول: التأويل هو التفسير، فتأويل الكلام يمكن أن يراد به معنى التفسير، وتأويل الرؤيا يرد بمعنى تفسيرها، قال تعالى: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] معناه نبئنا بتفسير هذه الرؤيا، ويقال: هل يوجد أحد يؤول الرؤى؟ أي يفسرها، وفي الرواية المشهورة دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس فقال: ((وعلِّمْه التأويل))[1] بمعنى وعلمه التفسير.

---

[1] - أخرجه أحمد (٢٣٩٧) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

المعنى الثاني الذي يرد له لفظ التأويل: هو ما يئول إليه الشيء ثانياً، فالمراد بتأويل الرؤيا بهذا الاعتبار هو تحققها ووقوعها، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم- لما رأى أباه وأمه وأخوته قد سجدوا له: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف]، والرؤيا التي رآها هي قوله: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [(٤) سورة يوسف] فتأويل هذه الرؤيا هو وقوع ذلك منهم، وتأويل الخبر هو وقوع المخبر به، كما قال الله -عز وجل-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [(٥٣) سورة الأعراف]، يعني أنهم سيندمون عندما يتحقق وقوع ما أخبر به الله من البعث والنشور والقيامة.

فالمقصود أن تأويل الخبر وقوع المخبر به.

وكذلك تأويل الأمر فعل المأمور والامتثال كما في حديث عائشة –رضي الله عنها- المشهور، لما نزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [(١) سورة النصر] وفيها: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر] قالت: "كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن"[2]، بمعنى يمتثل ويحقق ويفعل ما أمره الله -عز وجل- بفعله.

المعنى الثالث للتأويل -عند المتأخرين-: هو صرف الكلام من المعنى الراجح أو من الاحتمال الراجح إلى المرجوح لقرينة تدل على ذلك، وهذا المعنى لا يعرف عند السلف، ولا وجود له في لغة القرآن.

وبعد أن عرفنا هذا التفصيل في معنى التأويل نرجع إلى الآية: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]، فإنْ حملنا ذلك على المعنى الأول –أي التفسير- وقلنا: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} يعني تفسيره، إذا قلنا هذا ووقفنا عند لفظ الجلالة ، فهذا يعني أنه توجد في القرآن معانٍ لا يعلمها إلا الله -عز وجل- بمعنى أنه لا أحد يعرف تفسير هذه الآية أو هذه الكلمة أو الجملة إلا الله فيكون ذلك مما استأثر الله بعلمه، وإذا قلنا بهذا أيضاً فيمكن أن نحمل عليه أثر ابن عباس الوارد قبل قليل الذي ذكر فيه أن التفسير على أربعة أنحاء، وذكر أن منها ما لا يعلمه إلا الله، أي ما استأثر الله بعلمه، فإذا قررنا الوقف على قوله: {إِلاَّ اللّهُ} وجعلنا التأويل بمعنى التفسير فمعنى ذلك أنه يوجد في القرآن أشياء خاطبنا الله بها لا أحد يعرف معناها، لا الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا غيره.

والذين يقولون بهذا القول لديهم أمثلة على ذلك ومن أقربها الحروف المقطعة، فإن فيها نحو خمسة وثلاثين قولاً، قالوا: إن هذه الأقوال كلها لا دليل عليها، وإنما هي احتمالات لا يجب الوقوف عندها، ولا أدل على ذلك من أنها اختلفت إلى هذه الأقوال الكثيرة جداً، فليس فيها شيء عن الله ولا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا إذا قلنا: إن لها معنى في نفسها.

وإذا قلنا: إن التأويل في الآية بمعنى التفسير على أن الواو عاطفة في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران] يعني أنهم يعلمون وفي الحال يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}، فيكون هنا التأويل بهذا الاعتبار بمعنى التفسير لكن هذا التأويل يعلمه الله

[2] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) (ج ١ / ص ٢٨١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

-عز وجل- ويعلمه الراسخون في العلم، وعلى هذا القول –القول بالوصل- لا يوجد في القرآن متشابه مطلق من جهة المعاني، وقولنا: متشابه مطلق يعني لا يعلمه إلا الله، وأما ما يعلمه بعض الناس ويخفى على البعض أو يلتبس عليهم يسمى متشابهاً نسبياً.

وإذا قلنا: إن التأويل في قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** بالمعنى الآخر الذي هو حقائق الأشياء الغيبية التي أخبر الله -عز وجل- عنها مثل كنه صفات الله -عز وجل- أي حقائقها وكيفياتها، فهذا لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو واضح، فإذا فسرنا التأويل بهذا الاعتبار فهنا يجب أن نقف على لفظ الجلالة ما نصل فنقول: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}**، بمعنى حقائق الغيبيات.

وبالنسبة للترجيح في هذه المسألة إما أن نأخذ بقول الأكثر وانتهينا، لكن قد يقول قائل: هل الترجيح بمجرد قول أكثر أهل العلم طريقة صحيحة في الترجيح؟.

الطريقة الثانية: أننا نرجح بين القولين باعتبار آخر، وذلك بالنظر إلى أكثر هذه المعاني استعمالاً في القرآن، أعني في دلالة لفظ التأويل، فلو جئنا نستقرئ كلمة "تأويل" في القرآن نجد أنها استعملت في معنى التأويل أكثر من التفسير، من ذلك تأويل الرؤيا بمعنى الوقوع، وتأويل الخبر بمعنى وقوع المخبر به، وأما بمعنى التفسير فربما لم يرد إلا في موضع واحد هو قوله: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [(٣٦) سورة يوسف] يعني تفسيره، فالمعنى الثاني هو الأكثر وروداً في القرآن، وبالتالي يمكن أن نرجح بهذه الطريقة فنقول: اللفظة قد احتملت معنيين، ووجدناها تستعمل في القرآن غالباً بالمعنى الآخر، فنحملها عليه في هذا الموضع، فهذه طريقة في الترجيح سار عليها بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبالتالي فإننا إذا حملناه على المعنى الآخر، بمعنى أن المراد بالتأويل حقائق الأمور الغيبية وما تئول إليه، فهذا معناه أنه لا يوجد لفظ أو كلمة أو جملة أو آية في القرآن يعرفها أحد، لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا غير النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يقال: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران] وعلى هذا يكون الوقف عند لفظ الجلالة.

الطريقة الثالثة الجيدة في الترجيح هي أن نجمع بين هذه الأقوال والمعاني، فابن عباس -رضي الله عنهما- ثبت عنه أنه قال بالوقف على لفظ الجلالة، وثبت عنه أيضاً الوصل، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، وكل هذا صح عن ابن عباس ولا تعارض بينهما، فيقال: الوقف صحيح ويكون الوقف عند الجلالة على معنى حقائق هذه الغيبيات وكنهها وما تئول إليه وما أشبه ذلك من الأمور الغيبية، ويكون الوصل باعتبار التفسير؛ لأنه لا يوجد في القرآن شيء لا يُعرف له معنى؛ لأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يخاطبنا بالألغاز والأمور التي لا تصل إليها عقولنا ولا نفهمها، فالله يقول: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}** [(١٧) سورة القمر]، ولا أدل على ذلك من أن الصحابة -رضي الله عنهم- حاولوا أن يفسروا كل شيء، ومن ذلك الحروف المقطعة، فهذه الحروف المقطعة، من الأقوال الجيدة فيها أنها حروف مبانٍ وليست بحروف معانٍ، وحروف المعاني كحروف الجر، في وإلى وعن .. إلى آخره، وهي التي يقول عنها النحاة: إنها تدل على معنىً في غيرها ولا تدل على معنىً في نفسها، أي أنها للربط، مع أن شيخ الإسلام يخالفهم في هذا فيقول: "في" تدل على الظرفية و"إلى" تدل على الغاية..الخ، وهم يقولون: نحن نقصد شيئاً آخر.

المهم أن هذه حروف مبانٍ أي تبنى منها الكلمة، وأما ألف باء جيم دال حاء فهذه من المؤكد أنها ليس لها معنىً في نفسها، وإنما تركب منها الأسماء والأفعال وتركب منها كذلك حروف المعاني، أما هي في نفسها فليس لها معنى، وبناء على هذا لا يرد هذا السؤال القائل: هل يوجد في القرآن شيء ليس له معنى؟

وإن سئلنا فإننا سنقول: لا يوجد في القرآن شيء ليس له معنى، بل كل ما في القرآن له معنى.

فإن قيل: وكذلك الحروف المقطعة؟ قلنا: هي بهذا الاعتبار ليست من الأفعال ولا الأسماء ولا حروف المعاني، والكلام في لغة العرب: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، أما ألف باء جيم دال فهذه ليست لها معنى، وهذه الحروف المقطعة هي إنما تشير إلى الإعجاز، وأن هذا القرآن مكون من هذه الأحرف، فهو يتحداهم أن يأتوا بمثله، وهذا القول قال به بعض أهل العلم، وهو قول جيد، ولذلك تجد عامة المواضع التي ذكرت فيها هذه الحروف يذكر بعدها القرآن أو الوحي.

والخلاصة أن الوقف على لفظ الجلالة يكون المقصود العلم بكنه الأشياء وحقائقها وما تئول إليها، وعلى الوصل {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] يكون المقصود التفسير، وبهذا نكون جمعنا بين القولين -الوصل والوقف- ونزلنا كل حالة على معنىً يناسبها، والله تعالى أعلم.

هذه هي الخلاصة لكلام طويل في هذا الباب بُحث في كتب أصول الفقه وفي علوم القرآن، فشيخ الإسلام ألف فيه رسالة "ذات الإكليل" وكل هذا من المتشابه أعني المتشابه الخاص وأما المتشابه العام فهو الوارد في قوله تعالى: {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، والله أعلم..

"ومنهم من يقف على قوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران]، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد.

وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: "أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله"، وفي الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا لابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[3].

والتأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يئول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ} [(١٠٠) سورة يوسف] وقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله -عز وجل-، ويكون قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] مبتدأً، و{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران]: خبره، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران] حالاً منهم، وساغ هذا وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}

[3] - سبق تخريجه.

[(٨) سورة الحشر] إلى قوله: **{يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا}** الآية [(١٠) سورة الحشر]، **وقوله تعالى:** **{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** [(٢٢) سورة الفجر] **أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.**

وقوله إخباراً عنهم: إنهم يقولون آمنا به: أي بالمتشابه، **{كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [(٧) سورة آل عمران]: **أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق".**

ابن كثير -رحمه الله- ذكر الاحتمالين وحمل قوله: **{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** [(٧) سورة آل عمران] على ما ذكر، وهذا كلام جيد مداره على ما ذكرت، لكن قد يرد هنا سؤال من القائلين بالوقف على الجلالة في الوقت الذي يحملون معنى التأويل فيه على التفسير، يقولون: إذاً إذا قلتم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، فما فائدة ما ذكر الله من صفتهم من قولهم: **{آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [(٧) سورة آل عمران]؟

فالجواب أن يقال: هذا واضح، فهم مع علمهم بمعناه ليسوا كالزائغين الذين يشككون ويلبسون به على الناس، وينقرون عن هذه الأشياء ويتتبعونها، فهم مع علمهم بذلك يؤمنون به، أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وأن الجميع آمنا به، وهو كلام الله حق وصدق، فهم بخلاف أولئك الزائغين.

"{كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد؛ لقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء]، **ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}** [(٧) سورة آل عمران] **أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.**

وروى ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: يقال الراسخون في العلم، المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته لا يتعاطون من فوقهم ولا يحقرون من دونهم".

العبارة كما في الكتاب الأصل: "**لا يتعاظمون على من فوقهم**" لذلك ينبغي أن يعدل قوله: "**لا يتعاطون**" إلى "**لا يتعاظمون**"، فهي الأصح، وهذا مما يدخل في الكتب من التصحيف.

"قال: يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [(٨) سورة آل عمران] **أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم.**

{وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} أي من عندك، {رَحْمَةً} تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، {إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[٤] ثم قرأ: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [(٩) سورة آل عمران] أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاًّ بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ* كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٠-١١) سورة آل عمران] يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(٥٥) سورة التوبة]، وقال تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٩٦-١٩٧) سورة آل عمران]، كما قال هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [(١٠) سورة آل عمران] أي حطبها الذي تسجر به وتوقد به، كقوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء]".

هذا الأسلوب من مزية تفسير ابن كثير، فهو يفسر القرآن بالقرآن، وهذه نماذج وأمثلة عليه.

"وقوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ} قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد".

عبارات السلف في هذا متقاربة، {كَدَأْبِ} أي كصنيع، كعمل، كفعل، كعادة، كسنّة، كل هذه العبارات متقاربة عبر بها السلف -رضي الله تعالى عنهم- فالدأب: هو العمل وهو العادة تقول: هذا دأبي ودأب فلان بمعنى: هذا عملي وعمله، أو هذه عادتي وعادته، تقول: هذا دأبه يفعل كذا، يعني: هذه عادته المستمرة، وقوله: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ} يعني كفعلهم أو كصنيعهم وكعادتهم وفعلهم المستمر من التكذيب.

"ومنهم من يقول: كسنّة آل فرعون وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة والدأب: الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه.

{وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١١) سورة آل عمران] أي شديد الأخذ، أليم العذاب لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء، وذلَّ له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه".

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب القدر – باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) (ج ٤/ ص ٤٤٨) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [(١٢-١٣) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين ستغلبون أي في الدنيا، وتحشرون أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} ظاهره العموم، فهو عام للكفار من المشركين واليهود وغيرهم، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا مما يذكره أهل السير والأخبار، كما روى محمد بن إسحاق هنا: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جمع اليهود بعد غزوة بدر في بني قينقاع وقال لهم ما قال -عليه الصلاة والسلام- حيث ذكّرهم بالله وخوفهم بأسه بعدما هزم الله -عز وجل- المشركين، وأهلك رءوسهم.

فالحاصل أن مثل هذه الرواية حملت بعض أهل العلم إلى القول بأن هذا الخطاب موجه لليهود، أي {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} عام مراد به الخصوص، وهو نوع من الكفار وهم اليهود باعتبار ما وقع.

وهذه الروايات هي مما يذكره أهل الأخبار والسير، ولا تثبت ثبوتاً يرتضيه أهل الحديث بطريقتهم بإثبات المرويات، وعلى كلٍّ فهذه الرواية هي السبب الذي حمل بعض أهل العلم على القول بأن المراد بذلك نوع من الكفار، والأَوْلى -والله تعالى أعلم- هو أن تبقى الآية على عمومها وظاهرها.

وعلى كل حال فهؤلاء يقولون: إن المشركين قد غُلبوا فما بقي إلا اليهود ممن كان يجاور النبي -صلى الله عليه وسلم-، والواقع أنه بقي طوائف كثيرة من المشركين، لم تقع عليهم الغلبة بعد، وإنما كان الصراع مع قريش في أول الأمر، فالخلاصة أنه يمكن أن يكون ذلك عاماً كما هو ظاهر الآية، وهذا هو الأصل إلا لدليل يجب الرجوع إليه، والله أعلم.

"ولهذا قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية".

يلاحظ أن ابن كثير حمل قوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} على الكفار، وابن جرير حمله على اليهود، وقوله تعالى هنا {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} يلاحظ أن ابن كثير -رحمه الله- يقول: إن المراد بذلك هم اليهود، فصار كلامه

متفاوتاً، بينما صار كلام ابن جرير -رحمه الله- مطَّرداً، يعني أن ابن جرير يقول: إن الآيتين الأولى والثانية في اليهود، والسياق واحد {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ} و {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ}.

وإذا قلنا: إن الخطاب في قوله: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} عام لجميع طوائف الكفار بما فيهم اليهود، ثم يكون الخطاب الآخر {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} موجهاً للجميع أيضاً فهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم، ومن أهل العلم من يقول: إن الخطاب الثاني: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} موجه للمسلمين، فهو خاطب الكفار بقوله: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ}، ثم قال للمسلمين: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} أي فيما حصل في غزوة بدر من هزيمتكم للمشركين مع كثرة عددهم وقلَّتكم.

"أي كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية، أي: دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعلٍ أمره، {فِي فِئَتَيْنِ} أي طائفتين {الْتَقَتَا} [(١٣) سورة آل عمران]".

تمام الرواية التي ذكرها ابن كثير هي أنه لما جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم ما قال ردَّ عليه بعضهم فقال: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا عهد لهم بالحرب، والله لو لقيتنا لعرفتنا، وكذا وكذا، فهم لم يعتبروا بما حصل يوم بدر، فقال لهم: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} فهذا الكلام فيما إذا حملت الآية على اليهود، لكن هذه الرواية هي أصلاً من طريق ابن إسحاق كما ذكرنا.

"{فِي فِئَتَيْنِ} أي طائفتين {الْتَقَتَا} أي للقتال، {فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ} وهم المسلمون، {وَأُخْرَى كَافِرَةٌ} وهم مشركو قريش يوم بدر".

قوله: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} المراد بذلك في يوم بدر، وهذا القول يشبه الإجماع، وعلى كل حال هذه السورة -سورة آل عمران- تكلمت كثيراً عن غزوة أحد، في أكثر من ستين آية، كما سيأتي -إن شاء الله- وسورة الأنفال هي السورة التي تحدثت عن غزوة بدر، إلا أن هذا الموضع من سورة آل عمران يتحدث عن غزوة بدر.

"وقوله: {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} [(١٣) سورة آل عمران] **أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم".**

في قوله: {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} الضمير في يرونهم يرجع على هذا القول إلى المشركين حيث قال: **"أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم"** يعني أن الله -عز وجل- قد كثّر المسلمين في أعين المشركين فرأوا أنهم كثير.

والقول الآخر -وهو قول كثير من أهل العلم، بل إن بعضهم يضيفه إلى الجماهير من أهل العلم-: أن ذلك يرجع إلى المسلمين، أي أن المسلمين يرون المشركين مثليهم رأي العين، ويدل على هذا القول القراءة الأخرى -قراءة نافع- (ترونهم) بالتاء، وهي قراءة متواترة، فعلى كل حال الضمير هنا يحتمل.

وقوله: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ} يحتمل أن المثلين كان في عدد المسلمين ويحتمل أن يكون في عدد المشركين، فإن قلنا بقول الأكثر وهو أن الرائي هم المسلمون فمعناه أنهم رأوا المشركين مثليهم، لكن يبقى إشكال وهو هل كان عدد المشركين في أعين المسلمين مثلي عدد المشركين أم مثلي عدد المسلمين أنفسهم، بمعنى هل رأى

المسلمون المشركين ألفين –ضعف عدد المشركين- أم رأوا عددهم ستمائة وثلاثين، يعني مثلي عدد المسلمين؟

لا شك أنه يحتمل هذا ويحتمل ذاك، والخلاصة أن في هذه الآية يوجد احتمالان في موضعين: الأول من هو الرائي؟، والثاني: هل المثلية ترجع إلى المسلمين أم إلى المشركين؟.

كما أنه يحتمل في الآية معنى آخر وهو أن المسلمين يرون أنفسهم أكثر من المشركين، بمعنى أنهم رأوا أنفسهم مثلي عدد المشركين، فهذه كلها احتمالات في الآية، وسبب هذه الاحتمالات أن اللفظ يحتمل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الله -عز وجل- قال: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ} [(٤٣) سورة الأنفال]، وفي الآية الأخرى قال: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال].

فالآية الأولى {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً} هي في المنام وليست في اليقظة، وهي في المشركين قطعاً، والآية الثانية في اليقظة وهي واقعة من الطرفين، إذ كل طرف يرى الفريق الآخر قلة.

وفي هذه الآية قال: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ}، سواء كان ذلك يرجع إلى المسلمين بمعنى أنهم يرون أنفسهم ضعفي عدد المشركين أو العكس، فالمقصود أنه حصل التكثير، والآية الأخرى دلت على أن التقليل حصل من الجانبين فكل فريق يرى قلة الفريق الآخر، وعلى كل حال فرؤيا المنام واضحة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رآهم في المنام قلة، وبشر أصحابه، وحصل التقليل والتكثير في بعض الأوقات بين يدي المعركة، سواء قلنا: إن ذلك قبل بدء الالتحام أو حينما التقى الصفان، فمن أهل العلم من يقول: إن المسلمين رأوا الكفار أكثر من عددهم الحقيقي؛ ليحصل التمحيص للمسلمين، ثم بعد ذلك رأوهم قلة؛ من أجل أن يُقْدموا عليهم، ولقد كان ابن مسعود يسأل صاحبه فيقول: أتراهم يبلغون المائة؟! فكل ذلك إنما كان من أجل أن يغري كل طرف بالآخر لأنه حينما يرى أنهم حفنة قليلة جداً فإنه يقدم عليهم، فالله -عز وجل- كان يسوقهم إلى الالتحام مع أنهم إنما خرجوا في أول الأمر من أجل العير وهم قلة وليس معهم سلاح وعتاد يكفي لمواجهة عسكرية، وبعد ذلك قضى الله -عز وجل- وقدر أمراً آخر، ولهذا صور الله حالهم بقوله: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [(٦) سورة الأنفال]، وهكذا حصل بعد ذلك مثل هذا التقليل من أجل أن يغري كل طرف بالآخر فيقدم عليه ولا يتردد، والله -عز وجل- يقضي ويقدر ما يشاء لحكمة عظيمة يعلمها هو سبحانه.

"وقيل: إن المعنى في قوله تعالى: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي ضعفيهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم.

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} الآية [(٤٤) سورة الأنفال]".

يعني أنهم كانوا يرونهم مثليهم في بعض المراحل، وفي وقت آخر أغرى الله -عز وجل- كل طائفة بالأخرى فرأوهم قلة، قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال] من أجل أن يغري كل طائفة بالأخرى، والله أعلم.

"وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لقد قُللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف؛ ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم -عز وجل-، ورأى المشركون المؤمنين كذلك؛ ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليقدم كل منهما على الآخر؛ {لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٤٤) سورة الأنفال] أي ليفرق بين الحق والباطل، فيُظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين كما قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [(١٢٣) سورة آل عمران] وقال هاهنا: {وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [(١٣) سورة آل عمران]: أي إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ* قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [(١٤-١٥) سورة آل عمران] يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد".

في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} يمكن أن يكون المراد بالمزيِّن هو الله -سبحانه وتعالى-؛ لقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا} [(٧) سورة الكهف]، ولما جاء عن عمر في صحيح البخاري ما يدل على هذا المعنى.

ويمكن أن يقال: إن المزيِّن لهم الشهوات هو الشيطان، والمعنى الأول أقرب؛ لأن الله -عز وجل- لما خلق النفوس ركب فيها الغرائز والشهوات.

والشهوات هنا أطلقت على المشتهيات وإن كان أصل الشهوات جمع شهوة، والمقصود بها ما تنزع إليه النفس مما تستلذه وتميل إليه وتهواه فأطلقت هنا على الأمور التي تشتهيها النفوس من النساء والبنين والقناطير..الخ.

"يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما تركت بعدي أضر على الرجال من النساء))[1]، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، وإنّ خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء".

وهذا لا يعارض أنها زينت في نفوس الناس وصارت نفوسهم مجبولة على الميل إليها.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب ما يتقى من شؤم المرأة (٤٨٠٨) (ج ٥ / ص ١٩٥٩) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠) (ج ٤ / ص ٢٠٩٧).

"وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله))[٢]، وقوله في الحديث الآخر: ((حبب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٣].

وقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: "لم يكن شيء أحب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من النساء إلا الخيل"، وفي رواية: "من الخيل إلا النساء".

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة))[٤]".

يلاحظ أنه ذكر هنا البنين ولم يذكر البنات، فلم يقل: الأولاد ليشمل البنات والبنين، وإنما اقتصر على ذكر البنين؛ لأن الناس إنما يتزينون بهم في مجالسهم، والرجل يتقوى بهم ويفتخر ويعتضد بهم، فهو ذكرهم دون البنات لهذا السبب، والله أعلم.

"وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البرِّ والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً، وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره".

المراد بالقنطار أي المال الكثير ولا يحد، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وكان قد ساق أقوالاً كثيرة جداً في تحديد القنطار، ويلاحظ أن بين هذه الأقوال فرقاً شاسعاً، فمنهم من يقول مثلاً: إن القنطار يبلغ ألفاً، ومنهم من يقول: سبعين ألفاً، ومنهم من يقول أكثر من هذا، فعلى كل حال القنطار هو المال الكثير، وأما المال القليل فلا يقال له قنطار.

ومعنى المقنطرة أي المضعفة، تقول: قناطير مقنطرة، كما تقول: ألوف مؤلفة، فهو المال المضعف الذي بعضه على بعض بمعنى أنه كثير جداً.

ومن أهل العلم من يقول: إن القناطير جمع قنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فإذا قلنا: إن أقل الجمع ثلاثة -كما هو المشهور- فيكون القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة، وهذا قال به جماعة، وقال به ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وعلى كل حال القناطير المقنطرة أي المضعفة كما نقول: ألوف مؤلفة، فهو مال كثير بعضه على بعض والله أعلم.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة (١٤٦٧) (ج ٢ / ص ١٠٩٠).

[3] - أخرجه النسائي في كتاب – عشرة النساء - باب حب النساء (٣٩٤٠) (ج ٧ / ص ٦١) وأحمد (١٤٠٦٩) (ج ٣ / ص ٢٨٥) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٥٢٦١).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب النهى عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٢) (ج ٢ / ص ١٧٥) والحاكم (٢٦٨٥) (ج ٢ / ص ١٧٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٩٤٠).

"وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك -إن شاء الله تعالى- عند قوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} الآية [(٦٠) سورة الأنفال]".

نحن قد لا ندرك حقيقة المعنى هنا؛ لأن الناس لم يعودوا يشتغلون في الغالب بهذه الخيل، لكن الذين يعرفونها ويشتغلون بها -لا سيما الخيل العربية- الواحدة عندهم ربما تفوق أهله، ولذلك جاء في الحديث: ((كما يربي أحدكم فلوه))[٥] فما كانوا يكِلون ذلك إلى أحد، لا الرقيق ولا الخدم وإنما كان الواحد منهم يقوم عليها بنفسه، من تربيتها وتعليمها وتدريبها وغسلها ونحو ذلك، فلا يكِل ذلك إلى أحد غيره؛ لشدة شغفه بها وعنايته بها.

"وأما المسومة فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "المسومة الراعية".

يعني من السوم، كما تقول: السائمة، في سائمة الغنم، فهي التي ترعى في المراعي، وقيل: السارحة وهو بمعنى قريب منه.

"والمطهمة الحسان".

وبعضهم يقول: المعدة للجهاد، لكن الخيل المسومة كيف تكون معدة للجهاد والله -عز وجل- إنما يتحدث هنا عما زين للناس من الشهوات وما تحبه أنفسهم وتميل إليه، فهذا مركوز في نفوس المسلمين وغير المسلمين، وذلك تعلق بهذه الأمور التي هي من قبيل الحطام، لذلك فإن تخصيص ذلك بأنها معدة للجهاد فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم كأنه أرجع المسومة إلى السمة وهي العلامة، أي لها علامة تميزها، سواء كان ذلك من فعل صاحبها أو كانت معلمة بِشِيَةٍ تكون حسْناً فيها، كالغُرة والتحجيل الذي يكون من الأمور المستحسنة في الخيل، وبعضهم -مثل ابن فارس صاحب كتاب المقاييس في اللغة- يقول: الخيل المسومة هي المرسلة التي عليها ركبانها.

وعلى كل حال يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم لا سيما وأن هذا ما دل عليه السياق والتركيب-: إن الخيل المسومة هي التي فيها علامة وشِيَة تميزها وتزيدها جمالاً وحسناً، وتتميز بألوانها وهيئاتها وما أشبه ذلك، مما تسترعي الانتباه وتنجذب إليها النفوس وتستهويها لحسنها وجمالها وهيئاتها، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذه الجملة.

"وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزى والسدي والربيع بن أنس وأبي سنان وغيرهم، وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل، وقيل غير ذلك.

---

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة - باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٣٤٤) (ج ٢ / ص ٥١١) ومسلم في كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٤) (ج ٢ / ص ٧٠٢).

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من بني آدم فاجلعني من أحب ماله وأهله إليه، أو أحب أهله وماله إليه))[6].

وقوله تعالى: {وَالأَنْعَامِ} [(١٤) سورة آل عمران] يعني الإبل والبقر والغنم، {وَالْحَرْثِ} [(١٤) سورة آل عمران] يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة".

الأنعام هي ما ذكر الله -عز وجل- في آية سورة الأنعام: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [(١٤٣) سورة الأنعام] فهي الأنعام، وربما أطلقت النَّعَم على الإبل خاصة، وهنا تشمل الجميع، وإن كانت الإبل هي الأفضل وهي أنفس أموال العرب.

"ثم قال تعالى: {ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، {وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [(١٤) سورة آل عمران] أي: حسن المرجع والثواب، ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ} [(١٥) سورة آل عمران] أي: قل يا محمد للناس أؤُخبركم بخير ما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة.

ثم أخبر عن ذلك فقال: {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٥) سورة آل عمران] أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة، من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

{خَالِدِينَ فِيهَا} أي ماكثين فيها أبد الآباد، لا يبغون عنها حولا.

{وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا، {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ} أي: يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ} [(٧٢) سورة التوبة] أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم.

ثم قال تعالى: {وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} أي: يعطي كلاًّ بحسب ما يستحقه من العطاء.

[6] - أخرجه أحمد (٢١٥٣٥) (ج ٥ / ص ١٧٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٤١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [(١٦-١٧) سورة آل عمران]

"يصف -تبارك وتعالى- عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا} أي: بك وبكتابك وبرسولك.

{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك، {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(١٦) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {الصَّابِرِينَ} أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، {وَالصَّادِقِينَ} فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة {وَالْقَانِتِينَ} والقنوت: الطاعة والخضوع، {وَالْمُنفِقِينَ} أي في أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات.

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب -عليه السلام- لما قال لبنيه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} [(٩٨) سورة يوسف] أنه أخرهم إلى وقت السحر.

وثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ينزل الله -تبارك وتعالى- في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له))[(١)] الحديث.

وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "مِن كُلِّ الليل قد أوتر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر"[(٢)].

وكان عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنه- يصلي من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح [رواه ابن أبي حاتم]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] - أخرجه البخاري في أبواب التهجد - باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤) (ج ١ / ص ٣٨٤) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨) (ج ١ / ص ٥٢١).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه و سلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة (٧٤٥) (ج ١ / ص ٥١٢)

فقوله -تبارك وتعالى-: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ} [(١٧) سورة آل عمران] هذه الأوصاف التي ذكرها الله -عز وجل- تُحمل على أعمِّ معانيها ولا تُخص بشيء دون شيء، فالصبر هنا كما أنه يشمل ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، كذلك أيضاً يشمل حبس النفس عن التسخط والجزع في حال المصيبة، يعني أن يصبر على أقدار الله المؤلمة.

وكذلك أيضاً الصدق فإنه يشمل الصدق في الإيمان، ويشمل أيضاً الصدق باللسان، كما يشمل الصدق في الفعل والحال، أي أن كل أنواع الصدق داخلة فيه.

وأما القنوت فسبق الكلام عليه وعلى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من أنه دوام الطاعة، وأن المعاني التي يذكرها السلف من الطاعة والخضوع ونحو ذلك متقاربة.

وأما ذكر السحر في قوله: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [(١٧) سورة آل عمران]، فمن أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم- ومن بعدهم من فسره بالصلاة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك يفسر على ظاهره بالاستغفار أي: طلب المغفرة، ولو أنه قال: والمسبحين بالأسحار، لكان يمكن أن يفسر ذلك بالصلاة؛ فإن الصلاة يقال لها تسبيح، وأما الاستغفار فإنه يحمل على ظاهره -والله تعالى أعلم-؛ وذلك أن هذا الوقت هو مظنة إجابة الدعاء؛ حيث ينزل الرب -تبارك وتعالى- إلى سماء الدنيا كما في الحديث فيكون للدعاء مزية فيه، فإذا صلى الإنسان ما شاء الله أو ما كتب الله له أن يصلي فإنه بعد ذلك يستغفر في هذا الوقت الشريف، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ* فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [(١٨-٢٠) سورة آل عمران].

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين: {أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}: أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه والفقراء إليه، وهو الغني عن ما سواه، كما قال تعالى: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ} الآية [(١٦٦) سورة النساء]**، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ}** [(١٨) سورة آل عمران]**، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هاهنا: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}، هذه الشهادة عبارات السلف في تفسير معناها تدور على الإعلام والبيان والإخبار والحكم والقضاء، هذه مجمل الألفاظ الواردة عنهم في تفسيرها

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الجملة، وذكر أن هذه المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم-- لا تخرج عن معناها، وأنها من جملة مراتبها؛ وذلك أن الشهادة لا بد فيها من العلم بالمشهود به؛ فإن الشاهد لا بد أن يكون عالماً بمضمون شهادته، وإلا فإن الشهادة بجهل فيما يشهد به لا تصح، فهذا أمر لا بد منه، ثم أيضاً التكلم بذلك، فإذا تكلم به وإن لم ينطق بلفظ الشهادة فقد شهد، والله -عزَّ وجلَّ- قال عن أولئك الذين جعلوا الملائكة إناثاً: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [(١٩) سورة الزخرف] فعدها شهادة مع أنهم لم ينطقوا بلفظ الشهادة، وهذا كثير في القرآن، فمن تكلم بشيء فقد شهد به، وكذلك أيضاً إذا أخبر به غيره، أعلم به غيره فقد شهد، والله -عزَّ وجلَّ- أخبر عن توحيده، عن اتصافه بصفات الكمال إلى غير ذلك مما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عنه مما يتصل بهذا المعنى، فهذه شهادة حيث أخبرهم بقوله وأخبرهم بفعله، فإن أفعال الله -عزَّ وجلَّ- تدل على كماله ووحدانيته وعدله، كما أن الله -تبارك وتعالى- نصب في هذا الكون الذي نشاهده من دلائل التوحيد ما لا يخفى، ثم إن إخباره -تبارك وتعالى- أيضاً بأنه لا إله إلا هو، في هذا المقام يقتضي الحكم بذلك، بل هو حكم بذلك، كما أنه يقتضي الإلزام، أي إلزام المكلفين بهذه الكلمة وبمقتضياتها، فهو حكم منه -تبارك وتعالى- وإلزام.

فالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذه الأمور جميعاً تدخل فيها، فهي من مراتبها العلم والتكلم والإخبار والبيان والحكم والإلزام، وأطال في الكلام على هذا المعنى جداً، لكن هذا محصلته وخلاصته.

في قوله تعالى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ} [(١٨) سورة آل عمران] يقول المفسر: "**ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ} وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام**": وذلك أن الله -عزَّ وجلَّ- اعتبر شهادتهم وذكرها، هذا من وجه، وذكرها أيضاً مع شهادته وشهادة ملائكة، وأيضاً من جهة أن الله -عزَّ وجلَّ- عبر عن ذلك عن شهادته وشهادة ملائكة وشهادة أهل العلم بفعل واحد فهو قال: {شَهِدَ اللّهُ} ثم ذكر هذه الشهادات بعده، ولم يقل: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} ثم وشهد الملائكة وشهد أولو العلم مثلاً، وإنما عبر بفعل واحد فأدخل فيه هذه الشهادات الثلاث.

ومن أوجه كونها خصوصية عظيمة للعلماء أيضاً عِظم هذه الشهادة التي استشهدهم -عزَّ وجلَّ- عليها فدل ذلك على مكانتهم ومنزلتهم، ثم أيضاً الاختصاص، فقد اختصهم الله -عزَّ وجلَّ- من بين الخلق، وبالتالي لا يشكل على ذلك أن الله -عزَّ وجلَّ- لم يذكر الرسل والأنبياء هنا، وإنما ذكر أهل العلم، فإن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم من أولى من يوصف بذلك.

ثم إن ذكر أهل العلم فيه إشارة إلى المعنى الذي من أجله حصل هذا الاعتبار لهم وهو وصف العلم، ولا شك أن هذا من أعظم المطالب في الشهادة.

وعلى كل حال فإن الوجوه التي يمكن أن تستخرج مما يدخل تحت هذا المعنى في قوله: "**وهذه خصوصية عظيمة لأهل العلم**": يدخل فيه ما ذكرت ويدخل فيه غيره مما يمكن أن يستخرج من هذا المعنى.

{قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} أي: **هو في جميع الأحوال كذلك.**

قوله: {قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} هذه منصوبة على الحال، لكن ما هو موضعها الذي تتعلق به من هذه الآية: {شَهِدَ اللّهُ}؟

من أهل العلم من يقول: إنها تتصل بلفظ الجلالة، فيكون المعنى: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، فهو -تبارك وتعالى- مقسط عادل في حكمه بهذه الشهادة التي هي أعظم شهادة على أجل مشهود به، وقد جعل الله -عزَّ وجلَّ- لها أحكاماً، وتؤثر أموراً انقسم الخليقة بها إلى قسمين، ومن أجلها وجدت الجنة والنار، ومن أجلها قرَّب أقواماً وأبعد آخرين، وأعزَّ أقواماً وأذلَّ آخرين، ومن أجلها أثاب، ومن أجلها عذب، إلى غير ذلك من أحكامه العادلة التي تتفرع عن هذه الشهادة وتتصل بها، فالله شهد حال قيامه بالعدل وبالقسط أنه لا إله إلا هو.

والمعنى الثاني: أن ذلك يتصل بما بعد إلا من قوله: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(١٨) سورة آل عمران]، فتكون متصلة بالضمير المنفصل، فيكون المعنى: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط.

وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- وبه قال جمع كثير من أهل العلم، فتكون شهادة الملائكة وشهادة أهل العلم بهذا الاعتبار متضمنة لهذين الأمرين، أي تكون الشهادة واقعة على وحدانية -سبحانه وتعالى- وعلى قيامه بالقسط، أما على المعنى الأول، فإن هذه الشهادة لأهل العلم وأنه

لا إله إلا هو تكون واقعة على الوحدانية فقط؛ لأن المعنى الأول: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، وأما المعنى الثاني: شهد الله وشهد الملائكة وشهد أولو العلم بأنه لا إله إلا هو والحال أنه قائم بالقسط، فهم يشهدون على هذا وعلى هذا.

وشهادة أهل العلم تكون بعلمهم ومعرفتهم، وتكون أيضاً باعتقادهم وإقرارهم وتكون أيضاً ببيانهم ودعائهم إلى هذه الشهادة وعملهم بها، فكل هذا يدخل في هذه الشهادة؛ لأن من أهل العلم من يقول: إن شهادة أهل العلم بمعرفتهم أي أنهم عرفوا ذلك، ومنهم من يقول: هو إخبارهم به وإعلامهم بذلك، والصحيح أن هذا كله داخل فيه، فإن حكمهم بهذا واعتقادهم به مبني على العلم والمعرفة، مع إخبارهم أيضاً وإعلامهم غيرهم بذلك، فهم يعلمون الناس ويخبرونهم ويدعونهم إلى هذا، ويعملون بمقتضاها، فكل هذا من شهادتهم، والناس يتفاوتون في تحقيق هذا المعنى على قدر ما حققوا من هذه الأمور، والله تعالى أعلم.

ومعنى قوله: **{قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ}** [(١٨) سورة آل عمران] أي قائماً بالعدل في أقواله وأفعاله وأحكامه.

{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} تأكيد لما سبق.

يقول: "**{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} تأكيد لما سبق**": والقاعدة: أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالله -عزَّ وجلَّ- يقول: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمران]، ثم قال بعده: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** فهو ذكرها مرتين، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إن هذا من قبيل التوكيد، أي أعاده للتأكيد.

ومن السلف من يقول غير ذلك، فمنهم من يقول: إن الأولى وهو قوله: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** يقول: هذا وصف له -تبارك وتعالى- بالتوحيد، والثانية: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** يقول: هذا تعليم من الله -عزَّ وجلَّ- لخلقه أن يقولوا ذلك، أي أنه وصف نفسه بالوحدانية ثم علم خلقه كيف يقولون، فلا يكون ذلك من قبيل التوكيد.

ومن المسائل التي تشبه هذه المسألة كلام أهل العلم في قوله -تبارك وتعالى في سورة البقرة -مثلاً-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}** [(١٢٦) سورة البقرة] مع قوله في الآية الأخرى في سورة إبراهيم: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم] فالفرق بين الموضعين كما يقول بعض أهل العلم أنه في الموضع الأول قال: **{اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}** لأنه كان في مقام يدعو فيه ربه أن يوجد هذا البلد قبل وجوده أي أن هذا الدعاء كان قبل بناء البيت، أي فهو دعا الله أن يوجد بلداً آمناً، فلما بنيت الكعبة وصارت موجودة دعا ربه أن يجعل هذا البيت الموجود آمناً فقال: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}** [(٢) سورة الفتح] مع قوله تعالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة]، فمن أهل العلم من يقول: إنه أخبره أنه سيهديه صراطاً مستقيماً، فلما عرف ذلك دعا ربه أن يهديه إلى هذا الصراط الذي أخبره الله -عزَّ وجلَّ- عنه وعرفه فقال: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] والفرق بين المعنيين واضح.

فالحاصل أن قوله -تبارك وتعالى-: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمران] يحتمل ما ذكره ابن كثير من أنه للتأكيد، ويحتمل أن يكون قوله: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمران]، إخبار عن شهادته بالتوحيد، وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم، وتكون **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** الثانية إخبار عن توحيده -سبحانه

وتعالى- والفرق بين المعنيين أيضاً واضح، وعلى هذا المعنى تكون الثانية مؤسسة لمعنىً جديد وليست مؤكدة، ولا شك أن هذا هو الأولى، والقولان لهما وجه قريب من النظر، والله تعالى أعلم.

{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١٨) سورة آل عمران] العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران]، إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- الذي سدَّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد -صلى الله عليه وسلم- فمن لقي الله بعد بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} الآية [(٨٥) سورة آل عمران]، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران].

هذا المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير وهو قوله: "**إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام**": هذا باعتبار هذه القراءة المشهورة التي هي قراءة الجمهور {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}، فتكون هذه الجملة استئنافية مقررة لمعنىً جديد، حيث شهد الله بوحدانيته، ثم استأنف يتحدث عن قضية أخرى وهي أن الدين عند الله الإسلام، فتكون إخباراً منه تعالى بأنه لا دين عنده .. إلى آخر ما ذكر، معنى هذا أنها جملة استئنافية مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأن الإسلام يتضمن شهادة ألا إله إلا الله فهي مقررة لما سبق لكنها تعتبر جملة جديدة، أخبر عن شهادته بوحدانيته وأنه واحد لا شريك له ثم قال: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}، فهذا على قراءة الكسر في إن من قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} فهي جملة استئنافية، كما في قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [(٢٨) سورة الطور]، وأما على قراءة الفتح، أي أنه قال: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} الآية ثم قال: {أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}، فهنا يحتمل أن يكون المعنى: شهد الله بتوحيده أن الدين عند الله الإسلام وهذا فيه بعد؛ لأن قضية التوحيد كا،ها صارت موطئة لما بعدها، أي كأنها ذكرت للشهادة على أن الدين عند الله الإسلام، مع أن كون الدين عند الله الإسلام يتضمن كما سبق شهادة ألا إله إلا الله، ويحتمل أن تكون الشهادة واقعة على الأمرين فيكون هنا كأنه حذف واو العطف، أي شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، وهذا المعنى أقرب من الذي قبله، حيث يكون المعنى أنه شهد الله بالأمرين، أما الذي قبله كأنه فيه باء مقدرة ليكون المعنى شهد الله بأنه لا إله إلا الله، يعني بكونه: لا إله إلا الله، أو بكونه واحداً لا شريك له أن الدين عند الله الإسلام، فالمعنى الثاني أقرب من الأول، ولعل أقرب من هذا أن تكون "أنَّ" الثانية في قوله: {أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} بدلاً من "أنَّ" الأولى التي في قوله: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} بمعنى أن شهادة ألا إله إلا الله هي بمعنى الإسلام، فهي موازية للأولى، فهي بدل منها.

ومن أمثلة البدل قوله تعالى: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] فهذا بدل بعض من كل، أما قوله هنا: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(١٨) سورة آل عمران]، {أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران]، فهذا بدل كل من كل، بحيث تكون الثانية هي نفس الأولى، سواء عبرت عنها

بلا إله إلا الله أو عبرت عنها بالإسلام، أو يكون بدل اشتمال وهذا على قراءة الفتح، أما على قراءة الكسر فالمعنى واضح أنها جملة جديدة وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا.

يقول الحافظ –رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران]: "**لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به**": يلاحظ المتأمل في كلام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يجد أنهم جميعاً كانوا يدعون إلى الإسلام، فموسى -صلى الله عليه وسلم- قال لقومه: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [(٨٤) سورة يونس] وكذلك إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ويعقوب -عليه الصلاة والسلام- وصَّوا أبناءهم بالإسلام، وكذلك عيسى -صلى الله عليه وسلم- وقصته مع الحواريين، فالمقصود: أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلهم جاؤوا بالإسلام، فالله يقول: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران]، ويقول: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} [(٨٥) سورة آل عمران] ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران] وقال -عز وجل-: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ} [(١٤٠) سورة البقرة]، فما كانوا على اليهودية ولا على النصرانية وإنما كانوا على الإسلام، وهكذا كان الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلهم على الإسلام، فالدين الذي يقبله الله -عزَّ وجلَّ- هو الإسلام.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم فقال: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [(١٩) سورة آل عمران] أي: **بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله أفعاله وإن كانت حقاً.**

يعني أن الشر الذي يقع بين الناس لا يكون إلا من أحد أمرين: إما من الجهل وقصور العلم، حيث يتصور الأمر على غير وجهه فينكر بعض الحق، أو أن يكون علمه باطلاً أي لا يكون عنده علم عنده في هذه القضية فيتكلم بغير علم ويقع بسبب ذلك الخلاف بين الناس والشر.

والأمر الآخر هو البغي، وهذا الذي وقع بين أهل الكتاب، ووقع كثيراً في هذه الأمة، وفي كتاب الاقتضاء ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- شيئاً من هذا الأمر، فالناس إنما اختلفوا بعد بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ليس لخفاء الحق وإنما وقع ذلك بغياً بينهم، أي من باب العدوان والظلم فيحمل كلَّ طائفة بغضها للأخرى على إنكار ما معهم، وترك ما هم عليه ولو كان هذا هو الحق الذي أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به، وهذا لشدة بغضهم والبغي والعدوان والظلم وتجاوز الحد، وهذا الذي نراه ونشاهده اليوم، فهذا يأخذ بطرف من الحق وهذا يأخذ بطرف من الحق، وهذا يرد ذلك الحق، الذي جاء به من يكرهه ويعاديه، فكل طائفة تريد أن تنتصر على من يعاديها، ولو كان برد الحق.

ثم قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ} **أي من جحد بما أنزل الله في كتابه،** {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي: **فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.**

من معاني قوله تعالى: {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي سيجازيه ويحاسبه على تكذيبه، ومن معانيها أيـضاً أن الله -عزَّ وجلَّ- لا يشغله كثرة الخلق عن سرعة محاسبتهم، فهو يحاسبهم كنفس واحدة، فالمخلوق عند الكثرة يحتاج إلى طول مدة، وربما يحتاج إلى أعوان ويحتاج إلى عقد وحسب، بينمـا الله -عـزَّ وجـلَّ- سـريع الحساب، على كثرة الخلق، وكثرة أعمالهم وجناياتهم فإن حسابه سبحانه يكون لهم جميعاً كما يحاسب الـنفس الواحدة، كما أن قوله: {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} يشعر أيضاً أنه سريع الأخذ للظـالمين والمجـرمين، فهـذه المعاني يمكن أن تفهم من هذه الآية، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ} **أي: جادلوك في التوحيد** {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} **أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له،** {وَمَنِ اتَّـبَعَنِ}**: أي علـى دينـي يقـول كمقالتي، كما قال الله تعالى:** {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} **الآية** [(١٠٨) سورة يوسف].

عبر هنا بالمحاجة والأصل أنه يكون بالإدلاء بالحجة، وهؤلاء كما أخبر الله -عزَّ وجلَّ-: {حُجَّتُهُمْ دَاحِـضَةٌ} [(١٦) سورة الشورى]، وهي ليست حجة في الواقع أصلاً لكن هم لما اعتبروها حجة واعتدوا بها فـي الجـدال سميت كذلك، كما سمى الله -عزَّ وجلَّ- آلهتهم آلهه مع أنها لا تملك من ذلك الوصف أو التـسمية شـيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، لكن هي باعتبار نظرهم وحكمهم، فجرى الخطاب بهذا الاعتبـار، فهـذا منـه هنـا: {فَـإنْ حَآجُّوكَ} [(٢٠) سورة آل عمران]، سماها محاجة؛ باعتبار أن هذا يدلي بحجة وهذا يدلي بحجـة وهـذه حقيقـة الجدال، والرد كما يلاحظ أنه اكتفى بقوله: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [(٢٠) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول فـي شرعه وما بعثه الله به الكتابيين من الملتين والأميين من المشركين، فقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَـابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْـبَلاَغُ} [(٢٠) سـورة آل عمـران] **أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يـشاء ولـه الحكمـة البالغـة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى:** {وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} **أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممـن يـستحق الضلالة، وهو الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.**

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثه -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميـع الخلـق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث.

أخذ الحافظ بن كثير هذا الإطلاق للأميين من قوله تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْـلَمْتُمْ فَـإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ} [(٢٠) سورة آل عمران] باعتبار أن الناس إما أهل كتاب وإما أن يكونوا علـى الإشـراك، يعني لا دين لهم يدينون به يرجع إلى كتاب منزل، فالناس إما هذا وإما هذا، فذكر الأميين وهم أهل الـشرك، وهذا وإن كان يطلق -أعني الأميين- على الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من العرب، ولكـن حقيقة ما هم عليه هو الإشراك بالله -عزَّ وجلَّ- فيدخل في ذلك جميع أمم الشرك، فهذا يدل علـى بعثتـه -صلى الله عليه وسلم- كانت موجهة لأهل الكتاب ولغيرهم من طوائف المشركين.

وهذا الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [(١) سورة الفرقان] وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه -صلى الله عليه وسلم- بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم؛ امتثالاً لأمر الله له بذلك.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار)) [رواه مسلم][1].

وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[2] وقال: ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[3].

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢١-٢٢) سورة آل عمران].

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}: وهذا هو غاية الكبر.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} هذا القيد {بِغَيْرِ حَقٍّ} لا مفهوم له هنا وإنما هي صفة كاشفة، فقد ينفى الشيء مقيداً ويراد نفي أصله كما في قوله تعالى: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [(٢٧٣) سورة البقرة]، فهذه صفة كاشفة وليست مقيدة، بمعنى أنها لم تأت بمعنى جديد يخصص ما قبله؛ لأن الأوصاف عبارة عن قيود في الموصوف، فحينما تقول: أريد كتاباً يختلف عن قولك: أريد كتاباً في التفسير، فأنت خصصت فأخرجت كتب الحديث والنحو ..الخ، وحينما تقول: أريد كتاباً في التفسير بالمأثور تكون أخرجت كتب التفسير الأخرى، وهكذا كلما زادت الأوصاف زادت القيود، فالصفات الكاشفة تبين عن حقيقة الشيء دون أن يقصد بها التقييد، وهذا مثل ما قال بعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة]، فالصراط لا بد فيه من أمرين كما يقول الحافظ ابن القيم وهو الاستقامة والسعة للمارين، فمعنى ذلك أن هذا المستقيم صفة موضحة كاشفة فقط لحقيقة الصراط، ويمكن أن

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤)

[2] - أخرجه أحمد (١٤٣٠٣) (ج ٣ / ص ٣٠٤) والدارمي (٢٤٦٧) (ج ٢ / ص ٢٩٥) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[3] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) (٤٢٧) (ج ١ / ص ١٦٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

يحمل ذلك على أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى: {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ} [(٢٦) سورة النحل]، فالسقف إنما يكون من فوق أصلاً، ومثل ذلك قوله تعالى: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، فالطائر إنما يطير بجناحيه، ومثل ذلك قوله: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة] وقوله: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران] بمعنى أنه يمكن أن تخرج بعض هذه الآيات على معان أخر، مثل: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة] قيل: بمعنى أن ذلك لم يكن من قبيل الإشارة على غيرهم ليكتبون عنهم، أو يفهم عنهم ذلك فيكتبه غيرهم، وإنما يكتبونه بأنفسهم، والمقصود أن هذا لا شك أنه يسجل عليهم الجرم العظيم الذي فعلوه وهو أنهم يكتبون الكتاب المحرف بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله.

وفي قوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران]، معلوم أن الإنسان ما يقول إلا بفيه، لكن يمكن لقائل أن يقول: إن القلم أحد اللسانين، وعلى كل حال هذه أمور يقصد بها التأكيد، جرت عليها طريقة العرب لتقرير المعنى وتأكيده.

فقوله: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [(٢١) سورة آل عمران]، لا يمكن أن يكون قتل الأنبياء بحق أصلاً، وبالتالي لو قلت: إن قوله: {بِغَيْرِ حَقٍّ} صفة مقيدة فمعناها أن قتل النبيين يكون بحق ويكون بغير حق، فهؤلاء يقتلونهم بغير حق، وهذا غير صحيح إذ لا يكون قتل النبيين بحق إطلاقاً، لكن كأن الله أراد أن يبرز شناعة فعلهم، وعظيم جرمهم، فذكر هذه الصفة بعده {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [(٢١) سورة آل عمران]، مع أنه لا يكون بحق أصلاً، بينما في الآية الثانية يقول سبحانه: {وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [(٢١) سورة آل عمران]، فلم يقل: بغير حق، وإنما قال: {الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}، وهذا يُشعِر أن علة القتل هي أمرهم بالقسط، فهذا يفهم منه التعليل بطريق الإيماء والتنبيه.

وفي قول الله -عزَّ وجلَّ-: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [(٥٧) سورة الأحزاب]، مع قوله: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [(٥٨) سورة الأحزاب] يلاحظ أنه في أذية الله -عزَّ وجلَّ- ورسوله لم يقيدها؛ لأن أذية الله ورسوله لا تكون بحق أبداً، وأما أذية المؤمنين والمؤمنات قال: {بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}؛ لأن أذيتهم قد تكون بسبب جرمهم أو ما فعلوه، فلذلك يقال: لكل مقام مقال يناسبه، لذلك فإن الله تعالى يقول: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [(١١٧) سورة المؤمنون]، فمن المعلوم أنه لا أحد يدعو مع الله إله آخر له فيه برهان، فتكون هذه الصفة هنا كاشفة وليست قيداً؛ إذ لو كانت مقيدة سيكون مفهوم المخالفة أن الذي له في دعاء غير الله برهان فإنه غير متوعد، وهذا غير ممكن.

وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكبر بطر الحق وغمط الناس))[4]، ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢١) سورة آل عمران] أي: موجع مهين، {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٢) سورة آل عمران].

الذي يعادي أتباع الرسل هو في الواقع معاد الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنه إنما عادى هؤلاء لما دعوه إليه وأمروه به.

4 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) (ج ١ / ص ٩٣).

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ* فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٣-٢٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيْهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} هذا الاستفهام يفيد معنى التعجب؛ وذلك أن هؤلاء الذين أعطاهم الله -عز وجل- كتاباً، كان الحري بهم أن يقبلوا التحاكم إليه.

قوله: {أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} أي أُنزل عليهم كتاب من الله -تبارك وتعالى-، وهؤلاء لم يبيّن الله -عز وجل- طائفة مخصوصة من أهل الكتاب، فحمله كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- على اليهود، وذكر فيه واقعة معينة.

وعلى كل حال هذه الآية ليس فيها ما يدل على تخصيص اليهود، أو أن المراد بذلك هم اليهود والنصارى معاً، فالآية تحتمل هذا وهذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- حملها على الطائفتين وإن كان لا يصح في سبب نزولها سبب معين في أنها نزلت في بعض اليهود حينما طالبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرجوع إلى التوراة للتحاكم إليها في قضية من القضايا، أو أن ذلك في النصارى الذين وفدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- من نجران فطالبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتحاكم معهم إلى كتابهم، حيث ذكر فيه وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالمقصود أنه إذا لم يصح فيها شيء محدد لا من هذا ولا من هذا، فيقال: أخبر الله -عز وجل- عن هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ويحتمل أن يكون طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود ويحتمل أن يكون المراد اليهود والنصارى، ويحتمل أن يكون المراد النصارى، فالمقصود أن ظاهر الآية يحتمل هذا جميعاً، وتخصيص طائفة من هؤلاء يحتاج إلى دليل.

والمقصود: أن الله -عز وجل- يعجب نبيه -صلى الله عليه وسلم- من صنيع هؤلاء الذين ناقضوا أنفسهم، فهم {يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ}، والكتاب هنا هو الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة، وذلك أن هؤلاء لا يؤمنون

بالقرآن أصلاً، وإنما يؤمنون بكتابهم ويعتقدون أنه من عند الله -تبارك وتعالى- ومع ذلك إذا دعوا إلى التحاكم إليه في أمر لا يوافق أهواءهم فإنهم يعرضون ويأبون ذلك، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٤) سورة آل عمران] **أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة".**

أو أنهم يعذبون بقدر عبادتهم للعجل كما جاء في بعض المرويات، وعلى كل حال هذا الذي غرهم في دينهم فقالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}.

"ثم قال تعالى: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة آل عمران] **أي: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزّل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ}** [(٢٥) سورة آل عمران] **أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ومحاسبهم عليه ومجازيهم به ولهذا قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي لا شك في وقوعه وكونه {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [(٢٥) سورة آل عمران]".

يعني أن كل نفس تجازى على عملها جزاءً وافياً غير منقوص، فما عملت من خير وشر تجد جزاءه عند الله -عز وجل- وافياً، ففي السيئات كما قال الله -عز وجل-: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [(٤٩) سورة الكهف]، وكذلك أيضاً في الحسنات: **{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}** [(٢٧٢) سورة البقرة] فكل ذلك يرجع إلى الإنسان ويجده وافياً عند الله -عز وجل-.

"{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢٦-٢٧) سورة آل عمران].

يقول -تبارك وتعالى-: قل يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه: اللهم مالك الملك".

{اللَّهُمَّ} في هذه الآية وفي قول الداعي: اللهم، من أهل العلم من يقول: إن هذه الميم جاءت عوضاً عن ياء النداء، فأصله: يا الله، فحذفت ياء النداء، فعوض عنها بالميم.

ومن أهل العلم من يقول: إنها جاءت عوضاً عن كلام محذوف، وأصل الكلام: يا الله أُمَّنا بخير، يعني: اقصدنا بخير، فحذف حرف النداء، والضمير من أُمَّنا، والجار والمجرور بخير، ثم حذفت الهمزة التي قبلها لكثرة الاستعمال فصارت اللهم، وهذا القول فيه بعد؛ لأن الإنسان قد يقول هذه الكلمة في الدعاء على غيره، اللهم عاقب فلاناً، فكيف يكون التقدير هنا أُمَّنا بخير؟ وقد يقوله الإنسان في غير الدعاء كما في هذه الآية التي فيها ثناء على الله -تبارك وتعالى-: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء}**

إلى آخر ما ذكر، فهذا في باب الثناء والتمجيد والتعظيم لله -عز وجل-، وليس فيه دعاء، فعلى كل حال هذا القول هو أضعف هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

وقد يكون أحسن من هذا ما ذكره بعض أهل العلم ومنهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن هذه الميم تدل على التفخيم والتعظيم والجمع.

ومسألة كيف تدل على التفخيم والتعظيم والجمع؟ نجد أن عبارات أهل العلم في تفسير هذه الجملة متفاوتة، لكن يمكن أن يقال: إنها تدل على التفخيم والتعظيم والجمع وذلك أن الميم في كثير من مواردها في الاستعمال إذا ركبت مع غيرها تدل على معنى الجمع، وحتى في حال النطق بها مجردة مفردة فإن ذلك يكون بضم الشفتين.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام ونقل كلاماً طويلاً عن ابن جني في كتاب الخصائص، تحدث فيه بكلام لطيف يتعلق بخصائص اللغة العربية وفقهها في العلاقة بين الحروف وبين المعاني، وهو فصل لطيف يستحق أن يراجع، فأحياناً قد لا تعرف تفسير الكلمة أو لم تراجعها لكنها تشعرك بمعنىً معين، فمثلاً: حبتر هو الرجل القصير المجتمع الخلق، لكنها لا تشعرك بأنه إنسان طويل، وأنت بمجرد ما تسمع حروف كلمة "صلد" من ماذا ركبت فإنك قد تكون ما راجعت معناها لكنك تفهم منها الصلابة، وكذلك كلمة "سلخ" تجد مباشرة أن الحروف مجتمعة ترسل إليك إشارة معينة في المعنى، وكذلك حينما تسمع كلمة "وعر" تجد أنها تدل على شيء، وحينما تسمع كلمة "سهل" وهكذا، فالألفاظ والحروف التي يتركب منها اللفظ في كثير من الأحيان تشعر بمعنىً معين وإن لم يفهم الإنسان معناه الخاص الذي يفسر به، فهذا على كل حال من فقه اللغة العربية.

وعلى كل حال على هذا التفسير لقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ} إذا نظرت في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- في تفسيرها تجد أن بعض العبارات تدل على هذا وتحمل عليه، وإنما ذكرت هذه المعاني في الميم وخاصة المعنى الأخير بالذات من أجل توجيه بعض أقوال السلف التي قد تمر على الشخص فيستغربها، وهي في الواقع ترجع إلى هذا المعنى، فإذا قلت: إنها تدل على الجمع، فهي مؤذنة بهذا الاعتبار الداعي، كأنه قد جمع أو قصد جمع أسماء الله -عز وجل- وصفاته فدعا بها، فكأنه يقول: اللهم إني أسألك بكل اسم سميت به نفسك، ولذلك تجد في بعض العبارات كقول الحسن: اللهم مجمع الدعاء، فقد تقرأ هذه اللفظة ولا تتصور المراد منها، فإذا قرأت قال: اللهم مجمع الدعاء، عرفت أنها تدل على الجمع، وهذا القول يوجه بما ذكرته من القول الثالث أي القول الأخير.

يقول أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قول: اللهم، فيها تسعة وتسعون اسماً لله -عز وجل-، وهذا يؤدي نفس الكلام السابق -مجمع الدعاء- أي كأنك جمعت الأسماء الحسنى، وهذا باعتبار أن الأسماء الحسنى تبلغ تسعة وتسعين، لكن الأقرب في معنى الحديث: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة))[1] أن هذا العدد المذكور له هذه المزية ((من أحصاها دخل الجنة)) وإلا فأسماء الله أكثر من هذا، ففي

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب مقلب القلوب (٦٩٥٧) (ج ٦ / ص ٢٦٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٢).

الدعاء المأثور: ((بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[٢]، فأسماء الله -عز وجل- ليست محصورة بهذا العدد.

ومن أمثلة توجيه ذلك قول النضر بن شميل: "من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه"، فهذه الآثار يمكن إذا تصورت المعنى الثالث أن توجهها ولا تقف عندها، بل ربما قد يسارع الإنسان في ردها، أو لا يستطيع الربط بينها وبين هذه اللفظة من جهة المعنى، لكن هذه الطريقة من طرق توجيه كلام السلف في التفسير.

وكثير من الأشياء يستغربها الإنسان أحياناً لأنه يستعجل، ولو كشف له عن مأخذها ربما اقتنع بهذا القول وقال: هو الذي ينبغي أن يقال في هذه المسألة، لذلك طالب العلم لا يستعجل في الرد والإنكار للقول واستهجانه، فربما يكون هذا الاستغراب لأنه لم يفهم وجهه.

"{اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} أي: لك الملك كله، {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء} أي: أنت المعطي وأنت المانع وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار.

ولهذا قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك الفعَّال لما تريد، كما رد تعالى على من يتحكم عليه في أمره حيث قال: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [(٣١) سورة الزخرف]، قال الله رداً عليهم: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [(٣٢) سورة الزخرف] الآية: أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع".

حقيقة المُلك -بالضم- هو كمال التصرف أو هو التصرف المطلق، وأما المِلك -بالكسر- فهو بمعنى حيازة الشيء أو الاستحواذ عليه وكونه تحت يد الإنسان، فكمال التصرف هو المُلك، ولا شك أنه أبلغ من المِلك، فهنا يقول سبحانه: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} يعني مالك التصرف المطلق، ولهذا قال: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء}، بمعنى أن الله -عز وجل- يمكِّن لبعض خلقه فيعطيهم شيئاً من الملك، فيكون متصرفاً بهذا الملك في غيره، فيكونون تحت طاعته، يأتمرون بأمره.

وقوله: {وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء}؛ أي أن الله ينزعه ممن يشاء؛ لأنه ملكه -سبحانه وتعالى- فهو الذي ينزع منهم ذلك ويرفعه عنهم ويحول أحوال الناس من عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، يرفع أقواماً ويضع آخرين، فكل ذلك بيده -سبحانه وتعالى- وبتقديره، بناء على حكمته وعلمه.

---

[2] - أخرجه أحمد (٣٧١٢) (ج ١ / ص ٣٩١) والحاكم (١٨٧٧) (ج ١ / ص ٦٩٠) وأبو يعلى (٥٢٩٧) (ج ١ / ص ١٩٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨٢٢).

"أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد كما قال تعالى: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] **وقال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** الآية [(٢١) سورة الإسراء] .

وقوله تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [(٢٧) سورة آل عمران] **أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء".**

هذا القول هو المتبادر، فالإيلاج هو الإدخال، فقوله: **{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** [(٢٧) سورة آل عمران] أي تدخل هذا في هذا، وهذا في هذا، بمعنى أنه يطول الليل فيأخذ من النهار، ويطول النهار فيأخذ من الليل، وينتج عن ذلك ويتأثر عنه أيضاً ما يتعلق بتحول الفصول وانتقالها من صيف إلى شتاء إلى ربيع إلى خريف، فكل ذلك يحصل فيتفاوت في ذلك الليل والنهار تفاوتاً ظاهراً كما هو مشاهد، فهذا هو القول المتبادر، كما تحتمل الآية معنىً آخر وهو أن المقصود بذلك التعاقب حيث ينسلخ النهار من الليل كما قال الله -عز وجل-: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}** [(٣٧) سورة يــــس]، فتعاقب الليل والنهار يمكن أن يكون هو المراد بقوله: **{تُولِجُ اللَّيْلَ}** فالآية تحتمل هذا، لكن المعنى الأول أقرب؛ وذلك لأنه عبر هنا بلفظ الإيلاج، **{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** أي تدخل، وإدخال الليل في النهار معنى ذلك أنه يأخذ منه، والله تعالى أعلم، وهذا من كمال تصرفه -سبحانه وتعالى- وتدبيره بشئون هذا العالم، فهو دليل على قدرته وهو جزء من ملكه -جل وعلا-.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- معنى أن الليل يأخذ من النهار والنهار يأخذ من الليل- هو الذي ذهب إليه كثير من السلف، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"وقوله تعالى: {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ} [(٢٧) سورة آل عمران] **أي تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء".**

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- هو من أحسن ما تفسر به الآية؛ وذلك أنه جمع فيها أقاويل السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فالسلف عند تفسير هذه الآية منهم من يفسرها بالحقيقة ومنهم من يفسرها بالمجاز -وهذا إن قسمنا الكلام حقيقة ومجازاً- فعلى الحقيقة بهذا الاعتبار -عند من رآه- يكون بإخراج الحبة أو الثمرة من الشجرة أو الحبة من الزرع، وكذلك بإخراج البيضة من الدجاجة والنطفة من الإنسان، فهذا كله يقال له: ميت؛ لأنه أخرج من حي هو النبات والإنسان.

وقوله: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}** [(٩٥) سورة الأنعام] مثل إخراج الشجرة من الحبة، والإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة وهكذا.

والمعنى المجازي -عند القائل بالمجاز- يكون بإخراج المؤمن من الكافر، فالمؤمن حي أخرج من الميت، والميت من الحي أي إخراج الكافر من المؤمن، وبغض النظر عن هذا التقسيم للكلام، وما فيه من المعارضة، لكن يقال: كل هذه المعاني داخلة في الآية؛ لأن الله لم يخص شيئاً دون شيء وإنما يدلل على

قدرته -سبحانه وتعالى-، فمن ذلك أنه يخرج الإنسان من النطفة، والبيضة من الدجاجة، والشجرة من الحبة، والمؤمن من الكافر، فهذا كله يقال له: حي، والسلف قد يعبرون بالمثال ولا يقصدون به الحصر، أي لا يقصدون تخصيص المعنى بهذا الذي ذكروه، فقوله مثلاً: الحبة من الشجرة والشجرة من الحبة لا يقصد تخصيص هذا وإنما يذكرون مثالاً يوضحه فقط، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- من فهمه وفقهه لطريقة السلف -رضي الله عنهم- جمع هذه الأقوال، فهي تشمل ذلك جميعاً.

"{وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢٧) سورة آل عمران] **أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل.**

{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران].

نهى الله -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران]".

قوله تعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** هذا نهي من الله -عز وجل- عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، والمقصود باتخاذهم أولياء: أي بطانة، ويواليهم بمعنى النصرة والنصح لهم وتقديمهم وما إلى ذلك من المعاني.

وقوله: **{مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** يمكن أن يكون المراد بذلك: أي لا يتخذهم أولياء متجاوزاً بذلك أهل الإيمان فيقرب هؤلاء وينصرهم على إخوانه المسلمين.

ويمكن أن يكون قوله: **{مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** بمعنىً آخر وهو: أن ذلك يكون واقعاً منه تحيزاً إلى هؤلاء ضد إخوانه المؤمنين، فعلى هذا الاعتبار يكون هذا القيد لا مفهوم له، يعني ليس له مفهوم مخالفة، فيكون أحد المواضع التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، وذلك أنه يكون قد جرى على وفاق واقع معين، كأن تكون طائفة من المسلمين والوا بعض الكفار على بعض إخوانهم المؤمنين، فأنكر الله -عز وجل- عليهم هذا وقال: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}**، فلو قال إنسان على هذا المعنى: أنا أتخذ الكفار أولياء مع المؤمنين، نقول له: لا يجوز ذلك، لكن هذا القيد جاء لهذا السبب أي في واقعة معينة مثل قول الله -عز وجل-: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** [(٣٣) سورة النــــور]، فليس معنى هذا أنها لو كانت هي تحب الزنا أصلاً أنه لا مانع، وإنما الآية نزلت بسبب واقع معين وهو أن عبد الله بن أبيّ -كما صح في سبب النزول- كان عنده جاريتان فأسلمتا فكان يكرههما على الزنا، فأنزل الله -عز وجل- فيه: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** [(٣٣) سورة النــــور] فعلى كل حال قوله تعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** ابن جرير له كلام جيد في الآية.

"يقول ابن جرير في هذه الآية: "ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك {فَلَيْسَ

{مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران] **يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه؛ بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر.**

{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [(٢٨) سورة آل عمران] **إلا أن تكونوا في سلطانهم وتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل".**

هذا كلام جيد في بيان معنى الآية، ويلاحظ أنه خصص ذلك في قوله: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران]، بمعنى أن ذلك يكون باللسان، فقوله هنا: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران] يمكن أن يكون من قبيل الاستثناء المنقطع، بمعنى أن ذلك ليس أصلاً من موالاتهم في شيء، ومنهم من يقول: إن هذا إنما يكون باللسان، وهذا لا ينافي ما سبق، أي يكون باللسان في حال الخوف وكون الإنسان تحت سلطانهم، فيتقيهم ببعض القول كما قال الله -عز وجل-: **{إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}** [(١٠٦) سورة النحل]، ولذلك نجد عبارات كثير من السلف يخصصون فيها ذلك بالقول دون الفعل، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه التكلم باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، يقول: ولا يبسط يده فيقتل، ولا إلى إثم فإنه لا عذر له، إنما يرخص له بالقول باللسان.

وكما جاء أيضاً عن غيره كأبي العالية قال: هو التكلم باللسان وليس بالعمل، وحمله بعضهم كقتادة على معنىً آخر تماماً فقال: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** إلا أن يكون بينك قرابة فتصلهم فقط، وهذا ليس من موالاتهم في شيء.

فالحاصل أن الآية تُحمل على المعنى الأول الذي عليه عامة السلف، **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** بأن يرخص له في القول إذا خافهم وكان تحت سلطانهم، أو كان في حال من الضعف، بالقول دون الفعل، والله أعلم.

"ثم توعد على ذلك فقال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران] **أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}** [(١) سورة الممتحنة] **إلى أن قال: {وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}** [(١) سورة الممتحنة]**، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا}** [(١٤٤) سورة النساء]**، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} الآية** [(٥١) سورة المائدة].

وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]**، وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران] **أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"."**

قوله: **"إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"** يعني نبتسم في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم.

"وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة".

التقية هنا هي بمعنى ما يسميه الناس اليوم المجاملة..

"**ثم قال تعالى:** {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] أي: **يحذركم نقمته، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه.**

ثم قال تعالى: {وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران] أي: **إليه المرجع والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله".**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} [(٢٩-٣٠) سورة آل عمران].

يخبر -تبارك وتعالى- عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات، ويجمع ما في السماوات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال.

{وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته؛ لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظَر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما نهى الله -عز وجل- عباده المؤمنين عن موالاة المشركين أخبر أنه عالم بالسرائر وما تخفيه النفوس، وأن إسرارهم للموالاة لأعداء الله -عز وجل- لا يخفى على الله -تبارك وتعالى- كما أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فسيجدون ذلك يوم بعثهم ونشورهم محضراً ماثلاً أمامهم، لم يذهب منه شيء أحصاه الله -عز وجل- جميعاً عليهم وأحاط به، فلا يكون منه -تبارك وتعالى- نسيان ولا تضييع، وإن حصل منهم ما يحصل من نسيان ذلك لتقادم العهد أو لكثرته أو لدقته في نظرهم.

ولهذا قال بعد هذا: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا...} الآية [(٣٠) سورة آل عمران]، **يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}** [(١٣) سورة القيامة]، **فما رأى من أعماله حسناً سرَّه ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاضه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد.**

الأمد البعيد يعني أن يكون بينه وبينه غاية بعيدة، أن يكون بينه وبين هذا العمل بعد المشرقين، فلا يلحقه بسببه تبعة؛ لأن هذا العمل هو سبب للمؤاخذة والعقاب، فهو يتمنى مجانبته ومباعدته.

كما يقول لشيطانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [(٣٨) سورة الزخرف]، **ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أي: يخوفكم عقابه.**

قوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} يعني أن تسخطوها كما يعبر ابن جرير -رحمه الله- وهو أدق من عبارة ابن كثير، فإن ابن كثير -رحمه الله- فسرها بلازمها.

فالمقصود أن معنى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أي أن تسخطوها بارتكاب ما يسخطه فتوافونه {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا} فإن هذا الظرف {يَوْمَ} العلماء مختلفون فيما يتصل به، فمنهم من يقول: إنه متصل به فعل مقدر مذكور، أي واذكر يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.

وبعضهم يقول: ويحذركم الله نفسه يوم تجد..الخ، كأنه يقول: ويحذركم الله نفسه يوم القيامة.

وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

ثم قال -جل جلاله- مرجياً لعباده؛ لئلا ييئسوا من رحمته، ويقنطوا من لطفه {وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ}، قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-.

على كل حال قوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} هذا جمع لهم بين الترغيب والترهيب، وهو مثل قوله: {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٩٨) سورة المائدة] فمن رأفته -تبارك وتعالى- أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب وبيّن كل ما يحتاج إلى بيان فلم يترك في الحق لبساً، وحذرهم من مغبة فعلهم السيئ بعد أن بيّن لهم الحلال والحرام.

{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣١-٣٢) سورة آل عمران].

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[1].

هذه الآية: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} ظاهرها العموم فيخاطب بها كل أحد، سواء كان داخلاً في الإسلام فيطالب بالمتابعة، أو كان خارجاً عنه ممن يدعي محبة الله -عز وجل-، فإن المعيار الذي يعرف به صدق هذه المحبة هو إتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا كانت تلك المحبة دعوى يدعيها من غير أن يكون صادقاً بها، فبرهانها هو المتابعة.

ومن أهل العلم ومن كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن الخطاب في هذه الآية متوجه إلى النصارى، وهم الوفد الذين قدموا على النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ باعتبار ما سبق من أن صدر هذه السورة ومنه هذه الآية قد نزل بسبب ذلك الوفد وعلى كل حال حتى لو كانت هذه الآية نازلة في وفد نصارى نجران، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذلك كثر احتجاج العلماء -رحمهم الله- بهذه الآية على أهل البدع وعلى كل مقصر في الإتباع ولزوم السنة لا سيما أولئك الذين يدعون أنهم يحبون النبي -

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

صلى الله عليه وسلم- فيأتون ببدع ما أنزل الله بها من سلطان، فهذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه.

وبالنسبة لكلام الحافظ ابن كثير هنا: "**يتبع الشرع المحمدي**" و "**وليس هو على الطريقة المحمدية**": مثل هذه العبارات الأولى والأحسن أن يقال: الشريعة الإسلامية وما أشبه ذلك، وأما مثل هذه العبارات فقد وجدت في كلام بعض المتأخرين فتجدهم يقولون: الديانة المحمدية، والدين المحمدي، وعلى كل حال هذا الدين هو دين الإسلام، ويسمى بما سماه الله -عز وجل-.

ولهذا قال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} [(٣١) سورة آل عمران]

ثم قال تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣١) سورة آل عمران] **أي: باتباعكم الرسول -صلى الله عليه وسلم- يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته.**

ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ} أي: خالفوا عن أمره، {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣٢) سورة آل عمران]**، فدلَّ على أن مخالفة في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا إتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ} الآية** [(٨١) سورة آل عمران] **إن شاء الله تعالى.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣٢) سورة آل عمران] هذه الجملة التي ختمت بها الآية، تحتمل أن تكون من جملة مقول القول التي أمر الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يخاطبهم بها، فيكون على ذلك قوله: {تَوَلَّوْاْ} فعلاً مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين يعني: تتولوا، يعني أمره أن يقول لهم: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم، ثم أمره أن يقول لهم: وأطيعوا الله والرسول وإن تتولوا فإن الله لا يحب الكافرين، أي أنه أمره أن يخاطبهم بهذا الخطاب.

ويحتمل أن يكون قوله: {تَوَلَّوْاْ} فعلاً ماضياً، فيكون ذلك من قول الله -عز وجل- تعقيباً منه على هذا الخطاب الذي أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقوله لهم، يعني يقول: قل لهم يا محمد -صلى الله عليه وسلم-: أطيعوا الله والرسول، فهذا الذي أمره به، ثم قال الله -عز وجل-: {فإِن تَوَلَّوْاْ} أي أعرضوا، {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}، فيكون ذلك من الموصول لفظاً المقطوع معنىً، وقد سبق له نظائر، وهذه من وجوه الاحتمال في الآيات من جهة التصريف الذي يحصل بسببه تفاوت المعنى ويختلف بسببه أهل التفسير، فأهل التفسير يختلفون لأمور كثيرة منها ما يرجع إلى التصريف -تصريف اللفظة- مثل هذه اللفظة {تَوَلَّوْاْ} هل هي فعل مضارع أم فعل ماضي، وهي مثل قوله تعالى: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} [(٢٣٣) سورة البقرة] هل هي

لا تضارِر، أم لا تضارَر؟ وكذلك مثل قوله تعالى: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة] أيضاً هل هي لا يضارِر أم لا يضارَر؟ بمعنى أنه نهي عن الإضرار به أو أنه نهي عن أن يلحق الضرر بالآخرين؟

وفي قوله -تبارك وتعالى- في نفس الآية: {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣٢) سورة آل عمران] يلاحظ، أنه حذف المتعلق وذلك أنه لم يحدد شيئاً معيناً في طاعة الله وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحذف المتعلق يفيد العموم، فالمقدر هو أطيعوا الله والرسول فيما يأمركم به، وأطيعوا الله والرسول فيما ينهاكم عنه وأطيعوا الله والرسول في الواجبات، وأطيعوا الله والرسول في جميع الأحوال الشخصية والعامة، وأطيعوا الله والرسول في كل الأبواب.

{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٣٤) سورة آل عمران] **يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم -عليه السلام- خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها؛ لما له في ذلك من الحكمة.**

واصطفى نوحاً -عليه السلام- وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لمَّا عبد الناس الأوثان وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد -صلى الله عليه وسلم-.

{وَآلَ عِمْرَانَ} **والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهما السلام، فعيسى -عليه السلام- من ذرية إبراهيم -عليه السلام- كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى وبه الثقة.**

في قوله تعالى: {وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} [(٣٣) سورة آل عمران] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، يحتمل أن يكون المقصود بآل إبراهيم وآل عمران هو عمران نفسه، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- نفسه، وهذا معنىً معروف في القرآن وفي كلام ا لعرب، فإن "آل" قد تطلق ويراد بها نفس الشخص، وقد يراد بها أهله أو من يسبون إليه من قومه الذين هم على دينه وملته أو نحو ذلك، فالله -عز وجل- يقول: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غافر]، فهذه الآية تحتمل هل المقصود أدخلوا فرعون أشد العذاب، أو المقصود إدخال أتباع فرعون والموافقين له على دينه؟ فالآية تحتمل هذا وهذا.

ومن أهل العلم من يقول: المقصود به فرعون، وهنا: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا} [(٣٣) سورة آل عمران] فذكر آدم ونوحاً -عليهما الصلاة والسلام- ولم يقل: وآل نوح مع أن نوحاً اتبعه من اتبعه وإن كانوا قلة.

قال: {وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} هل المقصود به إبراهيم وعمران كما ذكر نوحاً وآدم -عليهما السلام-؟ فهذا تحتمله الآية، أو أن المقصود أوسع وأعم من ذلك كأن يكون المراد أهل الإيمان ممن ينتسبون إليهم، يعني المؤمنين منهم.

وهنا لم يتكلم على قوله: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران]، لكن معنى قوله -عز وجل-: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} يحتمل أن يكون المراد متناسلة متشعبة، ويمكن أن يكون المراد أي في الإيمان والتوحيد وطاعة الله -عز وجل- والإخلاص له، أي {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} في الإيمان والعمل والنية والإخلاص والتوحيد، هذا تحتمله الآية.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران] أي في التناصر والموالاة، كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [(٦٧) سورة التوبة] فالله قال في أهل الإيمان: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٧١) سورة التوبة] وذكر أهل النفاق فقال: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة].

ابن جرير -رحمه الله- يقول: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران] يعني في الموالاة في الدين والتناصر فيه، ويضيف إلى ذلك بأن دينهم واحد، وطريقتهم واحدة كما في قوله: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [(٦٧) سورة التوبة] فطريقتهم واحدة ودينهم واحد.

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٥-٣٦) سورة آل عمران].

امرأة عمران هذه هي أم مريم -عليها السلام- وهي حنة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل.

هذه التسمية مما أخذ من الإسرائيليات، جاء في كلام بعض السلف وهو مما أخذ من بني إسرائيل، وقد أولع قوم بتتبع هذه المبهمات وألف فيها السهيلي كتاباً معروفاً، وجاء البلنسي فأخذ ما فيه وزاد عليه كثيراً، ولكنه لا طائل تحته في أغلب المواضع.

فرأت يوماً طائراً يزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً، أي: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس.

هذا الذي عليه عامة المفسرين من السلف والخلف وهو اختيار ابن جرير، وما عداه فشاذ، وهذا أحسن ما يفسر به هذا، ولا ينبغي بحال أن يقال: بأنه محرر يعني من الرق والعبودية الحقيقية؛ لأنهم أحرار وما ولد منهم وتناسل فإن له حكمهم، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه، وهو أن المقصود بالمحرر: أي الذي يكون مفرغاً للعبادة ليس عليه التزامات وواجبات يقوم بها ويشتغل بها عن عبادة الله -تبارك وتعالى-، وإنما هو مفرغ لهذا فقط، فتجعله لبيت المقدس مثلاً ليقوم بالتعبد ويتفرغ لذلك، وكان ذلك جائزاً في دينهم، وهو الانقطاع للعبادة، فليس له عمل آخر، لا يشتغل في الأسواق ولا يذهب ولا يتزوج.

فقالت: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٣٥) سورة آل عمران] **أي: السميع لدعائي العليم بنيتي.**

ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران].

قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} بضمير الغائب هذه قراءة الجمهور، والقراءة الثانية قراءة ابن عامر وأبي بكر، وهي قراءة متواترة: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} بضمير المتكلم، وعلى هذا يلاحظ افتراق المعنى، فعلى القراءة الأولى تكون هذه جملة اعتراضية من كلام الله -عز وجل- وسط كلامها، فهي تقول: {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، فجاءت جملة اعتراضية من كلام الله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} ثم يأتي كلاماً آخر بعده يحتمل أن يكون من كلامها وهو: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] فهذه الجملة يحتمل أن تكون من كلامها ليكون كلام الله فقط هو قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الله أي أنه يقول: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، وقوله تعالى: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [(٣٦) سورة آل عمران] هذا من كلامها قطعاً، فتبقى الجملة الاعتراضية هل هي فقط: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، أو أنها أطول من هذا: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران].

وقوله على القراءة الثانية: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] يكون كله من كلامها، وعلى القراءة الأولى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، هذه الجملة الاعتراضية المتبادر أن هذا التعقيب في غاية المناسبة هنا، {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]؛ باعتبار أنها أخبرت أنها وضعتها أنثى، فالله -عز وجل- لم يزد في علمه من هذا الإخبار شيء، فعلمه هو هو.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران] جاء على سبيل التعظيم والتفخيم لشأن هذا المولود، فهي كأنها تقول: إن هذه البنت لا تستطيع أن تقوم بما يقوم به الذكر من عبادة الله -عز وجل-؛ لأنه يعتورها ما يعتورها مما يمنعها من الصلاة وما إلى ذلك، فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران] أي أن هذه البنت لها شأن عظيم وسيولد منها مولود يكون آية للعالمين، ويفترق بسببه بنو إسرائيل إلى مؤمنين وكفار، وسيكون أهل الإيمان لهم العلو والرفعة، فيكونون فوق الذين كفروا من الإسرائيليين.

وعلى كل حال هذا قال به جماعة من أهل العلم، والمتبادر والله أعلم أن ذلك جاء تعقيباً على إخبارها لدفع التوهم؛ لأن الاعتراض أو التعقيب يأتي في القرآن أحياناً لدفع توهم أو إجابة سؤال قد يرد، فهنا لما قالت: {إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] كأنها تخبر ربها -تبارك وتعالى- وهو العالم بكل شيء فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران].

وقولها: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، قيل: لأن النذر في شريعتهم في من نذر ولداً لم يكن يقبل منه إلا الذكر فقط، فلما وضعت البنت قالت ما قالت، ويمكن أن يكون {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} -وهو المتبادر والله أعلم- أنه ليس الذكر كالأنثى، فالذكر يقوم بأمور لا تقوم بها المرأة، وهو أقوى منها على العبادة والعمل.

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} أي: **في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى.**

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [(٣٦) سورة آل عمران] **فيه الدلالة على جواز التسمية يوم الولادة.**

يقولون -والله أعلم بهذا-: إن معنى مريم في لغتهم، يعني خادمة الرب، أو خادم الرب.

وهذا المعنى الذي استنبطه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}** [(٣٦) سورة آل عمران] معنىً صحيحاً ويدل عليه أيضاً أدلة من السنة، حيث يسمى المولود يوم الولادة ويمكن أن يسمى في اليوم السابع كما دلت السنة على ذلك أيضاً.

فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة، كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا.

هذا باعتبار أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه، وقد جاء في شرعنا ما يقرره، حيث سمى النبي -صلى الله عليه وسلم- ابنه إبراهيم حين ولد كما جاء في الصحيحين، وكذلك سمى غيره كأخي أنس سماه عبد الله، وغير هؤلاء ممن سماهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، حينما جيء بهم بعد الولادة.

وقد حُكي مقرراً، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: ((ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم)) [أخرجاه][2].

وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- ذهب بأخيه حين ولدته أمُّه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحنَّكه وسماه عبد الله، وكذلك ثبتت تسميت الآخرين يوم الولادة.

فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل غلام رهين بعقيقته يذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه))[3] فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي بهذا اللفظ، ويروى ((ويدمى))[4] وهو أثبت وأحفظ، والله أعلم.

يقول: ويدمى، وقال: وهو أثبت، وهذا غريب أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن ((ويدمى)) أحفظ وأثبت من ويسمَّى، مع أن هذه الرواية ردَّها كثير من الحفاظ ومنهم أبو داود -رحمه الله- لما أخرجه في السنن عقبه بما يدل على هذا.

ومعنى يدمى: أي أنه حينما يعق عنه يؤخذ من صوف العقيقة وتوضع على أوداج الذبيحة حينما تذبح فيصيبها الدم، ثم بعد ذلك تجعل فوق رأسه بحيث يسيل الدم منها كالخيط، فيصيب رأسه على يافوخه، ويصيبه الدم على كل حال.

وبعض أهل العلم يرى أن هذا من علم أهل الجاهلية، وأنه لا يجوز، وبعضهم أثبته بناء على هذه الرواية، إلا أن أكثر أهل العلم على أن ذلك لا يشرع ولا يجوز وأن الرواية المحفوظة ((ويسمَّى)).

وابن القيم -رحمه- ذكر كلام أهل العلم في هذه المسألة، ويمكن يكون من المفيد قراءته.

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل - باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥) (ج ٤ / ص ١٨٠٧).

3 - أخرجه البخاري في كتاب العقيقة - باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٥) (ج ٥ / ص ٢٠٨٣) وأبو داود في كتاب الضحايا- باب في العقيقة (٢٨٣٩) (ج ٣ / ص ٦٥).

4 - مسند أحمد (٢٠٢٦٩) (ج ٥ / ص ٢٢) وسنن أبي داود في كتاب الضحايا - باب في العقيقة (٢٨٣٩) (ج ٣ / ص ٦٥) قال أبو داود وليس يؤخذ بهذا.

وسماع الحسن عن سمرة فيه كلام أنه لم يسمع منه لكنه يستثنى من ذلك حديث العقيقة هذا، مثل حديث سكتات الإمام فهو من رواية الحسن عن سمرة وضعف بأنه لم يسمع منه.

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

الفصل الثالث في أدلة الاستحباب:

فأما أهل الحديث قاطبة وفقهاؤهم وجمهور أهل العلم فقالوا: هي من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واحتجوا على ذلك بما رواه البخاري في صحيحه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى))**[٥].

هو الآن يتكلم على العقيقة وليس على التدمية.

وعن سمرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه))[٦] **[رواه أهل السنن كلهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح].**

معنى الرهينة في قوله: **((مرتهن بعقيقته))**، قيل: يكون ذلك انعتاقاً له من الشيطان، وعلى ذلك إذا مات فإنه لا يعق عنه.

وبعضهم يقول كالإمام أحمد -رحمه الله-: إن ذلك يكون حبساً له عن الشفاعة لأبويه إذا ما عق عنه، ومعنى ذلك إذا مات حين ولادته فإنه يعق عنه لتحصيل هذا المعنى في الآخرة، هذا سبب الخلاف، فربما يحتمل هذا وهذا، والأحوط أن يعق عنه، لكن هذا مأخذ الخلاف في المسألة، هل يعق عنه إذا مات أم لا.

فإذا قلنا انعتاق له من الشيطان فإذا مات فلا عقيقة، وإذا قلنا: إنه يشفع فإن ذلك لا يتخلف بموته في حال الصغر، وكذا إذا ولد ميتاً بعد نفخ الروح، فقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يشفع، فأحكام العقيقة وما يتعلق بذلك من الميراث وما أشبه هذا يقولون: إذا استهل صارخاً بعد خروجه حياً ثبتت له، لكن إذا خرج ميتاً، فإنها لا تجري عليه أحكام المولود، لا عقيقة ولا ميراث، وأما الشفاعة فهي ثابتة بأحاديث أخرى.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عن الغلام شاتان مكافئتان وعن الجارية شاة))[٧].

قوله: **((مكافئتان))** يعني يكون بينهما شبه في الحجم والهيئة الظاهرة واللون والقرون، تكون إحداهما مشابهة للأخرى، في سعرها وفي السمن والهيئة الظاهرة.

رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث صحيح، وفي لفظ: أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن نعق عن الجارية شاة وعن الغلام شاتين [رواه الإمام أحمد في مسنده].

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب العقيقة - باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٤) (ج ٥ / ص ٢٠٨٢).

6 - أخرجه البخاري في كتاب العقيقة - باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٥) (ج ٥ / ص ٢٠٨٣).

7 - أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا - باب في العقيقة (٢٨٣٦) (ج ٣ / ص ٦٤) والترمذي في كتاب الأضاحي – باب ما جاء في العقيقة (١٥١٣) (ج ٤ / ص ٩٦) وابن ماجه في كتاب الذبائح - باب العقيقة (٣١٦٢) (ج ٢ / ص ١٠٥٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٠٥).

وعن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن العقيقة، فقال: ((عن الغلام شاتان وعن الأنثى واحدة ولا يضركم ذكراناً كن أو إناثاً)) [رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث صحيح][8].

وقال الضحاك بن مخلد: أنبأنا أبو حفص سالم بن تميم عن أبيه عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن اليهود تعق عن الغلام ولا تعق عن الجارية فعقوا عن الغلام شاتين وعن الجارية شاة)) [ذكره البيهقي].

وعن ابن عباس أن رسول -صلى الله عليه وسلم- عق عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً، رواه أبو داود والنسائي، ولفظ النسائي: بكبشين كبشين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بتسمية المولود يوم سابعه ووضع الأذى عنه والعق. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن بريدة الأسلمي قال: كنا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها فلما جاء الله بالإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران. [رواه أبو داود].

وروى ابن المنكدر من حديث يحيى بن يحيى أنبأنا هشيم عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه: أنا أبا بكرة ولد له ابنه عبد الرحمن وكان أول مولود ولد بالبصرة، فنحر عنه جزوراً، فاطعم أهل البصرة، وأنكر بعضهم ذلك، وقال: أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشاتين عن الغلام وعن الجارية بشاة.

لا يشرع في العقيقة أن تكون من البقر أو الإبل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- من فعله ومن أمر ذكر الشاة ولم يذكر غيرها، وهذا بخلاف الهدي فالأفضل فيه الإبل.

وعن الحسن عن سمرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في العقيقة: ((كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعة ويحلق ويدمى))[9].

قال: إذا ذبحت العقيقة أخذت منها صوفة واستقبلت بها أوداجها، ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل على رأسه مثل الخيط، ثم يغسل رأسه ويحلق، قال أبو داود: وهذا وهم من همام بن يحيى يعني: ويدمى، ثم ساقه من طريق أخرى، قال: ((كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى))[10]، قال أبو داود: ويسمى أصح، وأخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وهذا الحديث قد سمعه الحسن من سمرة، فذكره البخاري في صحيحه عن الحبيب بن الشهيد، قال: قال لي ابن سيرين سئل الحسن ممن سمع حديث العقيقة، فسألته فقال: من سمرة بن جندب.

وقد ذكر الترمذي عن سلمان بن شرحبيل: حدثنا يحيى بن حمزة قال: قلت لعطاء الخرساني ما مرتهن بعقيقته؟ قال: يحرم شفاعة ولده، وقال إسحاق بن هانئ: سألت أبا عبد الله عن حديث النبي -صلى الله

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب الأضاحي - الأذان في أذن المولود (١٥١٦) (ج ٤ / ص ٩٨) والنسائي في كتاب العقيقة - باب كم يعق عن الجارية (٤٢١٧) (ج ٧ / ص ١٦٥) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤١٥٢).

9 - أخرجه أحمد بهذا اللفظ (٢٠٢٠٦) (ج ٥ / ص ١٧)

10 - سنن ابن ماجه في كتاب الذبائح - باب العقيقة (٣١٦٥) (ج ٢ / ص ١٠٥٦) وصحيح ابن ماجه للألباني برقم (٣١٦٥).

عليه وسلم-: ((الغلام مرتهن بعقيقته)) ما معناه؟ قال: نعم، سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعق عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة، فإذا لم يعق عنه فهو محتبس بعقيقته حتى يعق عنه.

وقال الأثرم: قال أبو عبد الله: ما في هذه الأحاديث أوكد من هذا، يعني في العقيقة: ((كل غلام مرتهن بعقيقته))[11].

قوله: "**ما في هذه الأحاديث أوكد من هذا**": يقصد من ناحية الدلالة على أكدية العقيقة، هل هي واجبة؟ يقول: هذا أشد شيء في العقيقة أي قوله: ((مرتهن بعقيقته))؛ لأنه توقف في مسألة الوجوب، فيقول: هذا آكد ما ورد فيها، أي أقوى ما ورد فيها.

وقال يعقوب بن بختان سئل أبو عبد الله عن العقيقة، فقال: ما أعلم فيه شيئاً أشد من هذا الحديث: ((الغلام مرتهن بعقيقته)).

وقال حنبل: قال أبو عبد الله: ولا أحب لمن أمكنه وقدر أن لا يعق عن ولده ولا يدعه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الغلام مرتهن بعقيقته))، وهو أشد ما روي فيه، وإنما كره النبي -صلى الله عليه وسلم- من ذلك الاسم، فأما الذبح فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قد فعل ذلك.

بعضهم قال: نفس العقيقة من عمل الجاهلية وأنه لا يشرع، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء، فهو هنا يقول: الاسم فقط هو الذي يكره؛ لأن فيه معنى العقوق.

وقال أحمد بن القاسم: قيل لأبي عبد الله العقيقة واجبة هي؟ فقال: أما واجبة فلا أدري، لا أقول واجبة، ثم قال: أشد شيء فيه: أن الرجل مرتهن بعقيقته، وقد قال أحمد في موضع آخر: مرتهن عن الشفاعة لوالديه.

وأما قوله: ويدمى، فقد اختلف في هذه اللفظة، فرواها همام عن يحيى عن قتادة فقال: ويدمى، وفسرها قتادة بما تقدم حكايته، وخالفه في ذلك أكثر أهل العلم، وقالوا: هذا من فعل أهل الجاهلية، وكرهه الزهري ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق.

قال أحمد: أكره أن يدمى رأس الصبي، هذا من فعل الجاهلية، وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن العقيقة تذبح ويدمى رأس الصبي أو الجارية؟ فقال أبي: لا يدمى، وقال الخلال: أخبرني العباس بن أحمد أن أبا عبد الله سئل عن تلطيخ رأس الصبي بالدم؟ فقال: لا أحبه إنه من فعل الجاهلية، قيل له: فإن هماماً كان يقول: يدميه، فذكر أبو عبد الله عن رجل قال: كان يقول: يسميه، ولا أحب قول همام في هذا.

وأخبرنا أحمد هاشم الأنطاكي قال أحمد: اختلف همام وسعيد في العقيقة، قال أحدهما: يدمى، وقال الآخر: يسمى، وعن أحمد رواية أخرى: أن التدمية سنة.

قال الخلال: أخبرني عصبة بن عصام قال: حدثنا حنبل، قال: سمعت أبا عبد الله في الصبي يدمى رأسه، قال: هذه سنة ومذهبه الذي رواه عنه كافة أصحابه الكراهية.

---

11 - سبق تخريجه.

قال الخلال: وأخبرني عصبة بن عصام في موضع آخر: حدثنا حنبل قال: سمعت أبا عبد الله يقول: يحلق رأس الصبي. وأخبرني محمد بن علي حدثنا صالح وأنبأنا أحمد بن محمد بن حازم حدثنا إسحاق كلهم يذكر عن أبي عبد الله قال: الدم مكروه، لم يروه إلا في حديث سمرة.

أخبرني محمد بن الحسين أن الفضل حدثهم أنه قال لأبي عبد الله: فيحلق رأسه؟ قال: نعم، قلت: فيدمى؟ قال: لا، هذا من فعل الجاهلية، قلت: فحديث قتادة عن الحسن كيف هو ويدمى؟ قال: أما همام فيقول: ويدمى، وأما سعيد فيقول: ويسمى.

وقال في رواية الأثرم قال ابن أبي عروبة: يسمى وقال همام: ويدمى، وما أراه إلا خطأً.

وقد قال أبو عبد الله بن ماجه في سننه: حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب حدثنا عبد الله بن وهب حدثني عمرو بن الحارث عن أيوب بن موسى أنه حدثه عن يزيد بن عبد الله المزني أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يعق عن الغلام ولا يمس رأسه بدم))[١٢]، وقد تقدم حديث بريدة: كنا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها، فلما جاء الإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران.

وقد روى البيهقي وغيره من حديث ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت: كان أهل الجاهلية يجعلون قطنة في دم العقيقة ويجعلونه على رأس الصبي، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعل مكان الدم خلوقاً.

قال ابن المنذر: ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أهريقوا عليه دماً وأميطوا عنه الأذى))[١٣]، والدم أذى، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أمرنا بإماطة الأذى، الدم أذى وهو من أكبر الأذى، فغير جائز أن ينجس رأس الصبي بالدم.

الدم الذي يخرج من أوداج الذبيحة وهي تذبح هو الدم المسفوح النجس، قال تعالى: {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] يعني نجس.

يقول ابن كثير:

وقوله: إخباراً عن أم مريم أنها قالت: {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٦) سورة آل عمران]، أي عوذتها بالله -عز وجل- من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى -عليه السلام- فاستجاب الله لها ذلك.

أصل المعاذ هو الملجأ والموئل، فقوله: {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا} كما تقول: أعوذ بالله: أي ألجأ إليه وألوذ به وأعتصم به من الشيطان الرجيم.

كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها)) ثم يقول

---

[12] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الذبائح - باب العقيقة (٣١٦٦) (ج ٢ / ص ١٠٥٧) وهو في صحيح ابن ماجه للألباني برقم (٣١٦٦).

[13] - سبق تخريجه في الحاشية رقم (٥).

أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه-: اقرؤوا إن شئتم: {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٦) سورة آل عمران] [أخرجاه][١٤].

---

[14] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٤) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٦) (ج ٤ / ص ١٨٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٣٧) سورة آل عمران].

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم الخير والعلم والدين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع فيه بين معنيين: المعنى الأول: ما يتعلق بالجسد، والمعنى الثاني: ما يتعلق بالنفس.

أما ما يتعلق بالجسد فذكره فيه المنظر البهيج والشكل المليح، وأما ما يتعلق بالنفس فذكر القبول، حيث جعل لها القبول ويسر لها ما يسر من العلم وأسباب تحصيله والصلاح، وما تعلو به مرتبتها في الدنيا والآخرة، وذلك بالاستقامة على طاعة الله -تبارك وتعالى-، فجمع بين المعنيين؛ وذلك أن من أهل العلم من راعى، أو من ذهب إلى الجانب الأول، كقول من يقول: بأن أبنتها نباتاً حسناً أي سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، ومنهم من لا حظ المعنى الثاني فأعاد ذلك إلى حسن التربية وما يعود إليها بصلاح الحال، وإلى الأول جنح ابن جرير -رحمه الله-، فهو يفسر ذلك بإنباتها في غذائه وفي رزقه حتى اكتملت وتمت.

وعلى كل حال لا زال الناس يستعلمون هذا في دعائهم وكلامهم، يقول: أنبتك الله نباتاً حسناً، ويقصدون به غالباً ما يرجع إلى الجسد، وما يرجع أيضاً إلى النفس، والله أعلم.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} أي جعله كافلاً لها.

قوله: "**أي جعله كافلاً لها**": أي أن الله تعالى جعل زكريا كافلاً لها، وهذه القراءة هي قراءة الكوفيين أيضاً، وفي القراءة الأخرى {وَكَفَّلَهَا} بتخفيف الفاء في غير قراءة الكوفيين، وذلك أنهم لما استهموا وقع السهم له فكفلها وضمها إليه، وهذا معنى كفلها أي: ضمها إليه ليقوم برعايتها وحفظها وتعاهدها.

وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها لتقتبس منه علماً جمًّا نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرها، وقيل: زوج أختها كما ورد في الصحيح: ((فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة))[1].

1 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب المعراج (٣٦٧٤) (ج ٣ / ص ١٤١٠).

قوله: ((وهما ابنا الخالة)) يعني أن أم عيسى وأم يحيى أخوات، فعلى هذا يكون زكريا زوجاً لأختها، ولكن هذا الحديث في الدلالة على هذا المعنى ليس بقاطع، وذلك أن الخالة تطلق على أخت الأم كما تطلق على الخالة فوقها، بمعنى أن أخت الجدة يقال لها: خالة أيضاً، فيحتمل أن يكون المراد به هذا أو هذا، والله تعالى أعلم.

وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وقال: ((الخالة بمنزلة الأم))[٢].

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً}، قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

المحراب في قوله: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ} هو أشرف المجالس، أو هو صدرها وأرفعها وأشرفها والمقدم فيها فإذا كان ذلك في المجالس فهو كما ذكر، وإذا كان في المساجد فهو أشرف بقعة فيها وهي المقدمة فيها، وهذه هي المحاريب، كل مقدمة في مصلى أو مجلس فهو محراب، وهو سيد المجالس، أشرف المجالس يقال له: محراب هذا أصله في كلام العرب، فإذا كان في المساجد فهو المقدم فيها وأشرفها.

فإذا زكريا هذا عندها قال: {يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا} أي يقول: من أين لك هذا، {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٣٧) سورة آل عمران].

قوله تعالى: {إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} بعد أن ذكر قولها: {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ}، يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم في جوابها على زكريا، {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}، ويحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل- تعقيباً على ذلك وتأكيداً وتقريراً له، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فالآية تحتمل هذا وهذا.

وعلى الثاني -أنه من كلام الله- يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً، يعني أنه كلام واحد متصل في ظاهره، لكنه من متكلمَين.

وبعضهم يقول: إنه من كلام زكريا، لكن هذا في غاية البعد؛ لأنه لا يوجد ما يدل عليه، وليس في السياق ما يرجحه، فلا يوجد عليه قرينة ولا دليل.

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء* فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء* قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [(٣٨-٤١) سورة آل

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

عمران] لما رأى زكريا -عليه السلام- أن الله يرزق مريم -عليها السلام- فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد.

{هُنَالِكَ} من قوله -عز وجل-: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} ظرف يستعمل للزمان وللمكان، فيمكن أن يكون المعنى هنالك، أي في ذلك الحين دعا ربه بهذا الدعاء، أو يكون للمكان بمعنى في ذلك المكان وهو قائم عند مريم حينما شاهد فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء دعا ربه بهذا الدعاء، فالآية تحتمل هذا وهذا.

وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**لما رأى زكريا -عليه السلام- أن الله يرزق مريم -عليها السلام-**...الخ": يكون هذا هو المقصود بقوله: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} أي: لما رأى مظهراً من مظاهر قدرة الله -عز وجل- بهذا الإفضال والإنعام والرزق دعا هذا الدعاء حيث حرك نفسه وانبعث فيها التطلع إلى شيء من فضل الله -عز وجل- الذي هو بحاجة إليه، وهو الولد دعا حينئذ ربه.

ويحتمل أن يكون أنه حينما رأى قدرة الله -عز وجل- حيث رزقت امرأة عمران بهذه البنت، {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٣٥) سورة آل عمران]، فرأى هذه البنت وما هي عليه من الصلاح وحسن الحال، وما أنبتها الله -عز وجل- به من الإنبات الحسن، دعا ربه أن يرزقه بالولد.

والأول أقرب والله تعالى أعلم؛ لأنه هو المذكور قبله، {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً} [(٣٧) سورة آل عمران] فلما رأى هذا المظهر من مظاهر قدرة الله -تبارك وتعالى- دعا ربه أن يرزقه الولد مع تخلف سببه.

طمع حينئذ في الولد، وكان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً

يعني هو كما قال الله -عز وجل- في سورة مريم: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [(٨) سورة مريم]، والعتي هو الذي بلغ من الكبر غايته، وذلك أن أصل العتي بالنسبة للإنسان الكبير هو ما يحصل له من الجفاف واليبَس في العظام والمفاصل والتقحل في البدن، فالإنسان مثل النبات أو الشجرة تبدأ صغيرة ثم بعد ذلك تكتمل ثم بعد ذلك تبدأ بالضعف والتقحل، ويؤثر ذلك في ثمرتها وفي هيئتها وما إلى ذلك، فهذا هو المراد والله أعلم بقوله: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [(٨) سورة مريم]، فالهرم سبب مانع لوجود الولد، وقد كان زكريا كبيراً جداً حتى قيل: إنه بلغ مائة وعشرين سنة، والأمر الآخر من جهة امرأته وهو أنها عاقر، والعاقر هي التي لا تلد، وقد بيّن الله -عز وجل- أن ذلك لم يكن بسبب كبرها فحسب، كانت كبيرة أيضاً، وإنما كان ذلك وصفاً ملازماً لها منذ شبابها، وذلك لقوله: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [(٥) سورة مريم] فهذا يدل على اتصافها بذلك، وملازمة هذه الصفة لها من أولها، كما تقول: {وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(٩٦) سورة النساء] قال: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [(٥) سورة مريم].

فالحاصل أنه دعا ربه {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [(٣٨) سورة آل عمران] مع تعذر هذا في العادة لا على قدرة الله -عز وجل-، وقد بشر الله -عز وجل- إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بالولد وقد تقادم به

العمر، وامرأته كانت أيضاً عقيمة وكبيرة، ولهذا أقبلت في صيحة من هو المفاجأة، وصاحت {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(٧٢) سورة هود]، وهذا التعجب الذي جاء مفسرا هذا التفسير في قصة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو المراد هنا، والله تعالى أعلم، بقول زكريا -صلى الله عليه وسلم-: {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ} [(٤٠) سورة آل عمران] فهو يتساءل ويتعجب؛ لأن ذلك مستبعد بطريق العادة لا سيما مع وجود المانعَين من جهته ومن جهة امرأته.

وهذا القول أحسن من قول بعضهم: إن هذا التساؤل من زكريا قصد به هل يرزق هذا الولد الذي بشر به من هذه المرأة العاقر أو من غيرها؛ إذ لا حاجة لهذا القول؛ لأن هؤلاء إنما بنوا قولهم على أمر وهو أنهم أرادوا يستبعدوا استبعاده، فقالوا: كيف يستبعد الولد وهو يعلم أن قدرة الله -عز وجل- فوق كل شيء، ولكن الصواب أن ذلك كان كما قالت امرأة إبراهيم: {أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه قال ذلك استعظاماً لقدرة الله -عز وجل- {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [(٤٠) سورة آل عمران].

وبعضهم يقول: إنه يتساءل يقول: بأي شيء أستوجب هذا الولد، وامرأتي على هذه الحال؟ وعلى كل حال الآية لا إشكال فيها، فإن هذا لم يكن في مجاري العادات فلما بشر به قال ذلك تعجباً مع أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، فأنت حينما تبشر الإنسان بأمر سيحصل له، يتساءل مثل هذا التساؤل، ويتعجب مثل هذا التعجب مع إيقانه به إذا كان واثقاً بالمخبر، كأن لإنسان فقير مثلاً: ستكون زكواتك مثلاً كافية لأهل البلد أو نحو ذلك، فهو يقول: أنى يكون ذلك وأنا الآن لا أجد ما أقتات به!! فإذا كان يقول ذلك مستبعداً لوقوعه أصلاً، شاكاً في الخبر فهذا شأن، لكن إذا كان واثقاً من المخبر كأن يخبره نبي مثلاً بهذا أو نحو ذلك، فإنه لا يقوله استبعاداً على قدرة الله -عز وجل- فالإنسان يصدر منه مثل هذا، فهو بحسب حاله، ووثوقه بالمخبر.

لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً وقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ}: أي من عندك {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} أي: ولداً صالحاً {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء} [(٣٨) سورة آل عمران].

الذرية هي النسل وتطلق على الواحد وعلى الجمع، والمراد به هنا الواحد؛ بدليل قوله في الآية الأخرى: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} [(٥-٦) سورة مريم]، فهو سأل واحداً يكون وارثاً له.

قال تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [(٣٩) سورة آل عمران] **أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته.**

قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} على قراءة حمزة والكسائي: (فناداه الملائكة)، وكثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم يقولون: إن المقصود بالذي ناداه هو ملك واحد، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهو الموكل بالوحي، فيكون بهذا الاعتبار، يكون من العام المراد به الخصوص، كقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] فالقائل واحد والمقول له واحد، ولهذا فالأصوليون يذكرون هذه الآية، في جملة الأمثلة التي يذكرونها على العام المراد به الخصوص، حيث يقولون: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ}، أي: جبريل، لكن ليس هذا محل اتفاق؛ لأن من أهل العلم من يقول: إنه محمول على ظاهره وهو الجمع الحقيقي، أي جمع من الملائكة بشروه وأخبروه بهذه البشارة.

ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: {أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى} [(٣٩) سورة آل عمران] أي: **بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى، قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان.**

هذا قاله كثير من السلف غير قتادة أيضاً، ولكن الاسم هذا هل هو اسم عربي أو اسم أعجمي أو أنه معرب؟ فإذا قلنا: إنه ليس من الأسماء العربية أصلاً فلا مجال لتفسيره بهذه الطريقة، على أنه من كلام العرب، وعلى كل حال الله -عز وجل- سماه يحيى وأخبر أن هذا الاسم مبتكر، بمعنى أنه ليس له سمي، لم يسمَّ به أحد قبله كما قال تعالى: {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا} [(٧) سورة مريم].

وقوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} [(٣٩) سورة آل عمران] **روى العوفي وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} أي: بعيسى بن مريم.**

قوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ} [(٣٩) سورة آل عمران] أي بعيسى بن مريم، هذا التفسير قاله كثير من السلف، وكلمات الله -تبارك وتعالى- شرعية وكونية، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- إنما وجد وخلق بكلمة الله -عز وجل- الكونية، فالله -تبارك وتعالى- إذا أراد شيئاً قال له: كن، فأطلقت الكلمة على ما تكوَّن وخلق بها عيسى، وأطلق عليه كلمة من باب إطلاق السبب على المسبب، أي سمي عيسى كلمة لأنه وجد بسبب الكلمة من غير أب، فالمسبَب عيسى -صلى الله عليه وسلم- والسبب الكلمة، فلما سمي بذلك، قيل له كلمة، أي صار ذلك من باب إطلاق السبب الذي هو الكلمة على المسبب، يعني الناتج عنها الذي خلق بها وهو عيسى -صلى الله عليه وسلم-، فقيل: هو كلمة الله ألقاها إلى مريم، فهذا هو المراد.

قوله: {وَسَيِّدًا} [(٣٩) سورة آل عمران] **قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم: الحكيم، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والثوري والضحاك: السيد الحكيم التقي.**

السلف -رضي الله عنهم- يفسرون الكلمة ببعض معناها أحياناً، فالسيد مثلاً ليس هو الحكيم فقط؛ إذ قد يكون الإنسان حكيماً ولا يكون سيداً، لكن السيد لا يكون موصوفاً بالحماقة والخرق وسوء التدبير، فإن ذلك ليس من الصفات التي تحصل بها السيادة، وإنما تحصل السيادة باجتماع عدة أوصاف يكون بها الإنسان نبيلاً سيداً يحصل له بها الشرف، وكلما كانت هذه الأوصاف كلما كانت السيادة أكثر وأوفر وأعظم فيسود بذلك قومه، ويكون مقدماً فيهم ويفوق أقرانه في كل شيء من الخير، فالسيادة هي الشرف في العلم والعمل والشرف في العبادة، فكل ذلك داخل فيه والله أعلم، وتفسيره بالحليم التقي أحسن من تفسيره بالحكيم، فهذا أقرب وأدخل وأعلق بمعنى السيادة، والذي لا يحسن التدبير ولا يضع الأمور في مواضعها ولا يوقعها في مواقعها فهذا لا يكون سيداً إلا بقيد كأن يقال له: الأحمق المطاع، فبهذا القيد يمكن، أما أن يكون سيداً هكذا بإطلاق، ولا يحسن التدبير فلا.

وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم، وقال عطية: السيد في خلقه ودينه.

على كل حال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عن الحسن: ((ابني هذا سيد))[3] فالحاصل أن المقصود بالسيد هو الشريف المقدم، ويكون شريفاً مقدماً بناء على اجتماع عدة أوصاف، فلا يكون السيد بخيلاً، ولا يكون ضيق العطن وضيق الصدر، ولا يكون سيء التدبير، ولا يكون في غاية الجهل، ونحو ذلك.

وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب، وقال ابن زيد: هو الشريف، وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله -عز وجل-.

هذا كله من اختلاف التنوع، يعني ما نحتاج أن نرجح، فهم يفسرون بما يقرب المعنى بجزئه.

وقوله: {وَحَصُورًا} [(٣٩) سورة آل عمران] ليس هاهنا أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات.

الحصور: أصله من الحصر وهو الحبس، ومعناه المتبادر هنا وهو الذي عليه عامة أهل العلم هو الحبس عن النساء، يعني الممتنع من النساء، وهذا الامتناع يحتمل أمرين من جهة سببه:

الأول: ألا يكون له تطلع إلى النساء أصلاً ولا شهوة، أي ليس له رغبة أصلاً، وقد جاء هذا عن بعض السلف، ولكن هذا فيه بعد ولا يمدح الإنسان به إطلاقاً، بل هو من النقص والعيب، وهو لون من العجز كبير، وإنما يكون المدح حينما يكون هذا الانصراف بإرادة وعزيمة ثابتة راسخة، لا يلتفت معها إلى هذه المقارفة، وهذه المقارفة من أهل العلم من يقيدها بالحرام، يقول: المقصود بالحصور هو الذي يمنع نفسه من مقارفة ما حرم الله -عز وجل- مع النساء، ولكنه يتزوج.

ومنهم من يقول: بل هو منقطع للعبادة، وذلك كان جائزاً في شريعتهم، فهو معرض عن النساء لا يشتغل بهن، ولا يتزوج وإنما فرغ نفسه للعبادة، فهذا المعنى تحتمله الآية، وهي تفسر بهذا والله تعالى أعلم، لكن من أي جهة؟ هل هو الانصراف تماماً لا بالتزوج ولا غيره مع القدرة على إتيان النساء؟ أو يكون المراد بالحصور هو الذي ينصرف عن مقارفة الحرام دون ما أحل الله -تبارك وتعالى-؟.

بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال، وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: {هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [(٣٨) سورة آل عمران]، كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ليس بلازم أن يكون المراد بالذرية الطيبة أن يكون له نسل وعقب، فإن الإنسان إذا رزق بالولد كان ذلك ذرية، وعلى هذا يكون دعاءه قد استجيب.

وقوله: {وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(٣٩) سورة آل عمران]، هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [(٧) سورة القصص]، فلما تحقق زكريا -عليه السلام- هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، قال: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ} [(٤٠) سورة آل عمران] أي الملك: {كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء} [(٤٠) سورة آل عمران] أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

{قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً} [(٤١) سورة آل عمران] أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني.

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٣٠) (ج ٣ / ص ١٣٢٨).

ما سبب هذا السؤال: {اجْعَل لِّيَ آيَةً}؟ هل قصد بذلك آية على وجود الحمل وانعقاده وصحته؟ هذا معنىً قريب، قد قال به جماعة من أهل العلم.

ومن أهل العلم من ذهب بها إلى معنى آخر، قالوا: إنه طلب الآية وذلك أنه لما سمع نداء الملائكة بصوت وهو يصلي في المحراب كأنه وقع له شيء من الوسوسة أراد دفعها فكأنه يقول: اللهم إن كان هذا الصوت هو صوت الملائكة وهذه البشرى هي بشرى حق منك يا رب فاجعل لي آية تدل على ذلك، فهو لم يكتفِ بالبشارة بمجرد سماع الملائكة فأراد أن يتحقق أكثر ويتوثق.

وهؤلاء الذين يقولون بهذا يقولون: إن الآية التي جعلت له فيها نوع عقوبة، أي هي آية مع العقوبة، وذلك بانحباسه عن الكلام من غير علة ثلاثة أيام إلا من التسبيح والذكر، قال تعالى: {آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا} [(٤١) سورة آل عمران]، والرمز المقصود به الإشارة بالشفة، وقد يكون بالعين واليد وما إلى ذلك، وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: {ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [(١٠) سورة مريم]، يعني من غير مرض ومن غير عله، فهؤلاء قالوا: استجيب دعاؤه فجعلت له آية وكان فيها نوع عقوبة، وذلك أنه لم يكتف بالبشارة حينما سمع الملائكة تبشره، والمعنى الأول أقرب والله أعلم، مع أن هذا المعنى الثاني ذهب إليه بعض الكبار كابن جرير -رحمه الله-.

{قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا} [(٤١) سورة آل عمران] إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح كما في قوله: {ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [(١٠) سورة مريم].

ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى: {وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [(٤١) سورة آل عمران].

قوله: {بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}: العشي: يكون من بعد الزوال إلى غروب الشمس، والإبكار يكون من وقت طلوع الفجر إلى الضحى، يعني أول النهار، وهذه هي أوقات الذكر.

وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ* يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ* ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٤٢-٤٤) سورة آل عمران].

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم -عليها السلام- عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها، أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.

هذا الذي مشى عليه ابن كثير مع أنه لم يوضح المراد منه، وهو أن الاصطفاء الثاني غير الاصطفاء الأول، ومن أهل العلم من يقول: إن الاصطفاء الثاني هو الاصطفاء الأول، أي أنه أعيد تأكيداً، ومعلوم أن القاعدة تقول: إن التأسيس مقدم على التوكيد، فابن كثير -رحمه الله- مشى على هذه القاعدة، وهو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فهو صرح وقال: "**واصطفاها ثانياً**" أي أن الاصطفاء الثاني غير الأول، لكنه لم يوضح المراد بالاصطفاء الأول والمراد بالاصطفاء الثاني، وإنما ذكر كلاماً عاماً فقال: "**اختارها لكثرة عبادتها**

وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين"، إلا أنه يمكن أن يقال: إن الاصطفاء الأول كان لعبادتها وزهادتها لتكون من أهل القرب منه، والاصطفاء الثاني أنه اصطفاها على نساء العالمين، أي فضلها عليهن، وعلى هذا يكون الاصطفاء الثاني بمعنى التفضيل على نساء العالمين، فهذا احتمال.

ومن أهل العلم من يقول: اصطفاها الاصطفاء الأول بأن تقبلها بقبول حسن، والاصطفاء الثاني لولادة عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فالحاصل أن الله قال لها بطريق الملائكة: **{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}** [(٤٢) سورة آل عمران] أي أن الله اختارك لعبادته والتقرب إليه، وما إلى ذلك من المعاني، ويدخل فيه أن الله تقبلها بقبول حسن، **{وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}** بمعنى التفضيل، أن الله فضلها على غيرها من النساء.

وقوله: **{عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}**، ظاهره العموم، وقد ذهب إليه جماعة من السلف فمن بعدهم -رضي الله تعالى عنهم- وقالوا: إن ذلك على عمومه وإطلاقه، ومنهم من ذهب إلى أنه يختص بأهل زمانها، كما قال -عز وجل- عن بني إسرائيل: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة] يعني على عالم زمانكم، وهذا الذي يتفق مع الأدلة الأخرى التي تدل على اصطفاء الله -جل وعلا- لغيرها كما سيأتي، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

روى هشام بن عروة عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد)) [أخرجاه في الصحيحين][(٤)].

وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون))[(٥)]، **وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود، ولفظ البخاري: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))**[(٦)].

هذه النصوص لا تعارض بينها، فتارة ذكر الاصطفاء والاختيار أو الخيرية، وتارة ذكر الكمال، وذكر مزية لعائشة -رضي الله تعالى عنها- وهو أن فضلها كفضل الثريد على سائر الطعام.

والعلماء تكلموا في التفضيل بين عائشة وبين خديجة، وظواهر هذه الأحاديث مع غيرها تدل على أن خديجة -رضي الله تعالى عنها- أفضل وأكمل، ولذلك كانت تغار عائشة -رضي الله عنها- منها غاية الغيرة، وقد

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦٠٤) (ج ٣ / ص ١٣٨٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (٢٤٣٠) (ج ٤ / ص ١٨٨٦).

5 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ..}** إلى قوله: **{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}** [(١١-١٢) سورة التحريم] (٣٢٣٠) (ج ٣ / ص ١٢٥٢) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (٢٤٣١) (ج ٤ / ص ١٨٨٦).

6 - نفس الحديث السابق وهو لفظ البخاري ومسلم رحمهما الله.

بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- وجه ذلك، فالمقصود أن القاعدة هي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، والحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر مزية لعائشة -رضي الله عنها- وذكر فضل خديجة وآسية ومريم، فآسية وخديجة حصل لهن الكمال، ومريم حصل لها الاصطفاء والتفضيل.

وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى بن مريم -عليهما السلام- في كتابنا "البداية والنهاية" ولله الحمد والمنة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب في العمل لها، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة آل عمران].

أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: {بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة].

أحد معاني القنوت الطاعة في خشوع، وقد سبق ذكر معاني القنوت فلا حاجة لإعادته.

وفي قوله: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة آل عمران]: قدم السجود على الركوع مع أن السجود يكون بعد الركوع، فمن أهل العلم من فسر ذلك بأن الواو لا تقتضي الترتيب، ولم يقصد فيه الترتيب، ومنهم من قال: إن ذلك قد يكون في صلاتهم، بحيث لم تكن مرتبة هذا الترتيب في صلاتنا، ومنهم من يقول -كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنه بدأ بالأعم ثم الأخص، ثم ما هو أخص، فالقنوت أعم، إذ هو الطاعة والخشوع دوام العبادة وما أشبه ذلك من المعاني، ثم السجود أعم من الركوع؛ وذلك أن السجود يكون في الصلاة ويكون خارج الصلاة، مثل سجود الشكر وسجود التلاوة، وأما الركوع فإنه لا يكون إلا في الصلاة، فتارة تذكر الأشياء مرتبة من الأعم ثم ما دونه، ثم ما هو أخص من ذلك، وقد يبدأ بالعكس أي يبدأ بالأخص ثم ما هو أعم من ثم ما هو أعم مطلقاً، كما في الآية الأخرى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ} [(٧٧) سورة الحـج] ففي هذه الآية بدأ بالأخص ثم الأعم، أي عكس هذه تماماً، {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة آل عمران].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بعدما أطلعه على جلية الأمر: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ} [(٤٤) سورة آل عمران] أي: نقصُّه عليك، {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٤٤) سورة آل عمران] أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: ثم خرجتْ بها -يعني أم مريم بمريم- تحملها في خرقها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى -عليهما السلام- قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلي بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا -وكان عمران يؤمهم في الصلاة- وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إليّ فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا فكفَّلها.

وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض: أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الأثر الذي ذكره عن عكرمة وفيه: أنها جاءت بها تحملها في خرقة، أو في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى -عليهما السلام- إلى آخره، إذا كان المراد بذلك أنهم ينتسبون إلى هارون بحيث يكون جداً بعيداً لهم فهذا يمكن أن يكون، وأما إذا كان المراد ببني الكاهن بن هارون، أنهم أبناء هذا الرجل مباشرة وجدّهم هارون فهذا فيه نظر؛ لأن بين موسى -صلى الله عليه وسلم- وهارون وبين عيسى -عليه الصلاة والسلام- مدة طويلة من الزمن كما هو معروف، ولذلك لما جاء المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- من نجران، وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شبهة وجهها إليه النصارى في نجران، قالوا: كيف يقول القرآن: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ} [(٢٨) سورة مريم] وبين هارون وبين عيسى -عليه الصلاة

والسلام- أو مريم مدة طويلة في التاريخ، فأجابه النبي -صلى الله عليه وسلم-: بأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، أي أن هذا رجل آخر اسمه هارون، وليس هو هارون بن عمران.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله تعالى: {يَا أُخْتَ هَارُونَ} أي: يا نظيرته في الصلاح والتقى والعفاف والطهر والنزاهة.

لكن ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بل هو الأحق، بل هو الواجب أن يتبع في تفسير الآية، أي أن هارون هذا شخص آخر.

وهذا الأثر أصلاً هو من الإسرائيليات، ومن المحتمل أن يكون هارون جداً من أجداد بني الكاهن وإن لم يكن قريباً، ويحتمل أن يكون هو مباشرة.

وقوله: {إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ} [(٤٤) سورة آل عمران]، ذكر هنا أنها الأقلام التي يكتبون بها التوراة، وبعضهم يقول: إنها القداح، يعني أنهم يقترعون على كل حال سواء بهذا أو بهذا، والمشهور الذي عليه عامة المفسرين أنهم ألقوا أقلامهم أي: الأقلام المعروفة، وليست القداح، والمشهور المتبادر من إطلاق الأقلام أنها الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، وقد جاء في بعض الآثار -وهي أيضاً من الإسرائيليات- أنهم كانوا يكتبون التوراة فجاءت امرأة عمران بمريم، فحصل بينهم هذا الاقتراع بهذه الأقلام التي كانت بأيديهم، فهذا هو قول عامة أهل العلم، بل إن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- نقل عليه الاتفاق، لكن من أهل العلم من قال بغير هذا، والله أعلم.

قوله: "**فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي**"، يبدو أن فيها تصحيفاً؛ ذلك أن الموافق للمقام والسياق أن تكون "**وهي أنثى**" وليس ابنتي، ومثل هذا يتصحف بسهولة، فإن رسمه واحد، فالمقصود أن ذكْر الأنثى هنا هو المناسب؛ لأنها ذكرت بعد ذلك ما يمنعها من دخول المسجد وهي أنها أنثى، لكن إذا قالت: وهي ابنتي، فلا فائدة من هذا، والله أعلم.

"**{إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(٤٥-٤٧) سورة آل عمران].

هذه بشارة من الملائكة لمريم -عليها السلام- بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير، قال الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ} أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، وهذا تفسير قوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} [(٣٩) سورة آل عمران]**، كما ذكره الجمهور.**

{اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}: أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك".

قوله تعالى: {بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} جاء مفسراً بقول الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن} [(٥٩) سورة آل عمران] فهذه هي الكلمة، هي قوله: {كُن} حيث خلقه الله -عز وجل- بقول: {كُن}، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً وإن قال ابن جرير -رحمه الله-: إن الكلمة المراد بها هنا هي البشارة، فهذا فيه نظر، والله أعلم.

"وسمي المسيح؛ لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى".

نعم هذا هو المشهور في سبب تسميته بذلك، وبعضهم يقول: لأنه مسح الأرض، حيث لم يكن له محل يستقر فيه، وهذا الكلام لا دليل عليه، ومنهم من يقول: لأنه كان يتمسح بالدهن الذي كان يتمسح به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهل كان الأنبياء يتمسحون بدهن معين؟، إذاً على هذا كل الأنبياء سيقال لهم المسيح، وبعضهم يقول: إنه قيل له ذلك؛ لأنه ممسوح القدم، يعني قدمه مستوية أي متميزاً على غيره ليس كحال الناس، وهذا الكلام أيضاً لا دليل عليه.

وبعضهم يقول: مسيح من متمسح بمعنى متطهر من الذنوب، أو غير ذلك مما يقال، كأن يقال: مسحه الجمال، فالمشهور الذي عليه أكثر أهل العلم أنه قيل له ذلك؛ لأنه إذا مسح صاحب عاهة برئ بإذن الله -عز وجل-.

لكن بالنسبة للدجال فالدجال يقال له: المسيح؛ لأنه ممسوح العين، وهذا أظهر ما قيل في تعليله، ومن أهل العلم من يقول: لأنه يمسح الأرض عدا مكة.

"وقوله: {عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} نسبة له إلى أمه حيث لا أب له".

عيسى -عليه السلام- لا يذكر في القرآن غالباً إلا بنسبته إلى أمه؛ لأنه لا أب له، فالأنبياء الآخرون يقال فيهم: يونس وصالح وهود.. الخ، وأما عيسى -صلى الله عليه وسلم- فغالباً يذكر منسوباً إلى أمه؛ وفي هذا تذكير بالمعجزة، وتشريف له ولأمه التي رماها بنو إسرائيل بأبشع فرية.

"{وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [(٤٥) سورة آل عمران] **أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه".**

بعضهم يقول: إن أصل الوجاهة هي القوة والمنعة، لكن الواقع أن الوجاهة أشمل من هذا، وإن كان من معانيها القوة والمنعة، وعلى كل حال فالوجيه هو الشخص المقدم الذي يكون له منزلة ومكانة وقبول وما أشبه ذلك من المعاني.

"وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين".

قوله: "**لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما**"، المفترض أن المختصر لا يقتصر على قول واحد بهذه الطريقة، وإن كان ولا بد فإنه يورده بصيغة قيل؛ حتى لا يفهم أنه اختيار ابن كثير، أما بهذه الطريقة التي ساق بها هذا الكلام فلا يفهم منه إلا أن هذا هو ترجيح ابن كثير، وابن كثير هنا لم يرجح أصلاً، لذلك ينبغي التعليق على مثل هذه الأشياء، فيقال مثلاً: وهذا ذكره ابن كثير ولم يرجحه.

"وقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [(٤٦) سورة آل عمران]**: أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك".**

قوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} المهد هو الفراش للرضيع، {وَكَهْلاً} الكهل: بعضهم يقول: هو ما بين الشباب والشيخوخة، وبعضهم يقسم تقسيمات أخرى، وعلى كل حال عيسى -صلى الله عليه وسلم- رُفع وهو -كما يقول الكثير- ابن ثلاث وثلاثين سنة، وسواء كان ابن ثلاثين أو ثلاث وثلاثين فإن الله -عز وجل- قال:

{وَكَهْلاً} لذلك أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن من بلغ الثلاثين فقد فارق سن الشباب ودخل في الكهولة، وبعضهم يجعل الكهولة متأخرة أي من الخمسين فما فوق، والشيخوخة بعد ذلك.

فالمقصود أن أهل العلم غير متفقين على تحديد هذه الإطلاقات بحد معين، ولكن يفهم من الآية أن من بلغ الثلاثين يقال له كهل، وقد يطلق في بعض الأعراف -في عرف خاص في وقت معين أو في مكان معين- على ما بعد ذلك، أو على مرحلة من مراحل العمر المتقدمة مثل من بلغ الخمسين، وربما بعد الستين كما هو العرف في هذا العصر حيث لا يقال في هذا العصر لمن بلغ الثلاثين إنه كهل، وإنما يقال لمن تجاوز الستين.

يقول: "{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [(٤٦) سورة آل عمران] أي: **يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك**"، فقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} ليس المراد أنه يدعو إلى الله في حال المهد، وإنما المقصود بذلك المعجزة كما في قوله في سورة مريم: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ} [(٢٩-٣٠) سورة مريم] فنطقه في هذه الحال هو المشار إليه بقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} وليس معنى ذلك أنه كان يكلمهم على سبيل الدوام والاستمرار، بل كانت آية ومعجزة أن أنطقه الله -تبارك وتعالى- وأما دعوتهم إلى الله وهو كهل فليس في ذلك أي غرابة؛ لكونه يتكلم ويدعو إلى توحيد الله -عز وجل- لكن كلامه في المهد هو الذي كان على سبيل المعجزة.

"**روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تكلم مولود في صغره إلا عيسى وصاحب جريج))**[1].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر))[2]".

كونه في الحديث الأول ذكر اثنين وفي الآخر ذكر ثلاثة يحمل على أن الله –عز وجل- أطلعه وأوحى إليه، لذلك كل ما صح من الأخبار في هذا فإنه لا يعارَض بعضه ببعض، وإنما يكون الله أطلع نبيه -صلى الله عليه وسلم- على بعضهم في وقت ثم أطلعه على آخرين في وقت آخر، وهكذا.

فمما صح فيه الخبر صاحب جريج في القصة المعروفة لما رمته تلك المرأة بالزنا فهدموا صومعته وآذوه، فتوضأ وصلى ركعتين ثم طعن في بطن الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: الراعي، فهذا أحد الذين تكلموا.

وممن تكلموا أيضاً في المهد الصبي الذي كانت تحمله أمه فمر بهما فارس، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، وكان يرضع فترك الثدي ثم نظر إلى ذلك الشخص الفارس وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على الثدي، فمرت بجارية يضربونها ويتهمونها بالزنا وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل أو نحو ذلك، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فقال: اللهم اجعلني مثلها[3].

---

[1] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٣) (ج ١ / ص ٢٦) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ج ١ / ص ١٥).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٣) (ج ٣ / ص ١٢٦٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤ / ص ١٩٧٦).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب المظالم - باب إذا هدم حائطا فليبن مثله (٢٣٥٠) (ج٢ / ص ٨٧٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤/ ص ١٩٧٦).

فالحاصل أن ذلك كان جباراً، وتلك امرأة كانت طيبة وصالحة، وكانوا يتهمونها بشيء هي بريئة منه.

وفي قصة أصحاب الأخدود جاءت امرأة لتلقى فيه ومعها صبي فتلكأت فقال لها: يا أمَّهْ اصبري فإنك على الحق[4]، وذُكر غير هؤلاء ممن تكلموا في المهد.

"{وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [(٤٦) سورة آل عمران] **أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح، فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله -عز وجل- قالت في مناجاتها: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** [(٤٧) سورة آل عمران]**، تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله؟! فقال لها الملك عن الله -عز وجل- في جواب هذا السؤال: {كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء}** [(٤٧) سورة آل عمران] **أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء".**

في قولها: **{رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** هذا كما قال الله -عز وجل- في سورة مريم: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}** [(١٦) سورة مريم] إلى آخر الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- مما يفسر هذه الآية.

وذكر الله -عز وجل- أيضاً في سورة التحريم أن الملك نفخ في فرجها، قال تعالى: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا}** [(١٢) سورة التحريم].

وذكر في موضع آخر أن النفخ كان فيها كما في سورة الأنبياء **{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا}** [(٩١) سورة الأنبياء] فهذه الآيات تفسر هذه الآية.

"وصرح هاهنا بقوله: {يَخْلُقُ مَا يَشَاء} ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا".

هذا من التفسير المتشابه اللفظي وهو من اللطائف في التفسير، وهو جواب لسؤال تقديره: لماذا قال هناك في قصة زكريا -عليه الصلاة والسلام- **{كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء}** [(٤٠) سورة آل عمران]، وقال هنا: **{كَذَلِك اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء}**؟ فهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هنا يفسر هذا، وهو معنىً جيد.

"ولم يقل: [يفعل] كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٤٧) سورة آل عمران] **أي: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** [(٥٠) سورة القمر] **أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر".**

المعنى الذي ذكره ابن كثير ظاهر، وهو أنه –عز وجل- ذكر في حق عيسى -صلى الله عليه وسلم- الخلق؛ لئلا يكون هناك شبهة في أن عيسى نُفخ فيه من روح الله فيقال: إنه قد حل فيه روح من الله بمعنى أنها غير مخلوقة كما يقولون: حل اللاهوت في الناسوت، فاللاهوت أي الله، والناسوت أي الناس، فالله تعالى ذكر الخلق ليدل على أنها روح مخلوقة، فعيسى مخلوق، والمخلوق لا يكون إلهاً، فهو ليس ابن الله؛ لأن الابن في الواقع جزء من أبيه، ولو كان ابناً له لكان إلهاً، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- مخلوق من جملة من خلقهم الله -عز وجل-، فعبر بلفظ الخلق؛ لئلا يتوهم أنه ما دام قد جاء من غير أب، وجاء بنفخ روح من الله فإنه

---

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥) (ج ٤ / ص ٢٢٩٩).

غير مخلوق أو له جزء من الإلهية أو فيه معنى من معاني الإلهية، لا بل هو مخلوق من جملة الخلق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ* إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٤٨-٥١) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى -عليه الصلاة والسلام-: أن الله يعلمه الكتاب والحكمة، الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة، والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة**"، قال: المراد به الكتابة، لماذا لم يحمل الكتاب على الكتاب الموحى به إليه وهو الإنجيل مثلاً؟ أو التوراة وهو الكتاب الذي أنزل على موسى -صلى الله عليه وسلم- وجاء عيسى -عليه الصلاة والسلام- مقرراً له؟ ما الذي حمل الحافظ ابن كثير على هذا؟

الذي حمله على هذا هو أن العطف يقتضي المغايرة، فالله سبحانه يقول: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}** [(٤٨) سورة آل عمران] والقاعدة أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالكتاب هنا هو الكتابة، وهذا الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- قال به ابن جرير وجماعة، والقول به هنا ليس فيه تكلف، بل هو ظاهر غاية الظهور، ويشبهه -وإن كان دونه في الوضوح- قوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [(٢) سورة الجمعة] فالكتاب هنا يحتمل أن يكون القرآن، لكن إذا قلنا: إن الكتاب هنا هو القرآن سيكون قوله: **{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}** [(٢) سورة الجمعة] من قبيل التكرار، ولهذا قال جماعة من أهل العلم: إن الكتاب أيضاً في الآية الأخرى هو الكتابة، واستدلوا بهذا، واستدلوا بقرينة أخرى وهي أنه ناسب هنا ذكر الكتابة لذكر الأميين، فالنبي بعث في الأميين، والأمي هو الذي لا يعرف الكتابة، فامتن الله -عز وجل- ببعثته عليهم فصارت الكتابة فاشية فيهم، لكن هذا القول هنا في الوضوح ليس مثل القول في قوله تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}**

[(٤٨) سورة آل عمران] فهذه الآية أوضح في الحمل على الكتابة؛ لأن قوله هناك: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} مع {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه}، يمكن أن يكون بمعنى أنه يعلمهم الكتاب ويقرأ القرآن، لكن هنا صرح بالتوراة والإنجيل.

قوله: "**والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة**"، نعم تقدم الكلام على الحكمة وأن أصلها وضْع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، وتأتي بمعنى الفقه في الدين وتارة تأتي بمعنى النبوة، إلى آخره، وذكرنا وجه الجمع بين هذه الأقوال وأنها ترجع إلى أصل واحد، لكن الظاهر أن المراد بالكتاب هنا الكتابة، والحكمة يقول ابن جرير -رحمه الله-: إنها السنّة هنا في هذه الآية، وليس المقصود سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما المقصود ما أوحاه الله إليه من غير الكتاب مما أوحى به إليه من ألوان الوحي والهدايات من غير الإنجيل، والله أعلم.

"{وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} **فالتوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم -عليهما الصلاة والسلام- وقد كان عيسى -عليه السلام- يحفظ هذا وهذا.**

وقوله: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران] أي: **يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم:** {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم} [(٤٩) سورة آل عمران]".

هذا الذي ذكره ابن كثير جيد وهو أقرب هذه الأقوال، وليس فيه تعسف ولا تكلف في التقديرات ونحو ذلك، ومعلوم أنه إذا كان الكلام يقتضي تقديراً فإنه يقدر ما هو أبعد عن التكلف وأقرب إلى بلاغة القرآن وفصاحته وظاهر السياق، فكلام ابن كثير هذا كلام قريب، ولا تعرف قدره إلا إذا نظرت في كلام المفسرين فيما يقدرونه هنا، فهو يقول هنا: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران] أي: يعلمه الكتاب والحكمة ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، وهذا الذي قال به أيضاً ابن جرير -رحمه الله-.

وغيرهم يقول غير هذا، لكن لا يخلو من تكلف؛ إذ يقول بعضهم: ويعلمه الكتاب والحكمة ويكلمهم رسولاً إلى بني إسرائيل، هذا فيه بعد، ولا يناسب السياق.

وبعضهم يقول: ويعلمه الكتاب والحكمة وأرسلتُ رسولاً إلى بني إسرائيل، وهذا أيضاً غير متلائم كما في تقدير: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، وبعضهم يقول: هو معطوف على وجيهاً أي وجيهاً ورسولاً.

والأقرب أن التقدير ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم} [(٤٩) سورة آل عمران].

وقوله:{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم} جاءت "أن" فيها منصوبة مع أنها جملة القول والسبب في ذلك أنها متضمنة معنى القول وليست جملة القول الصريح التي تكسر فيها همزة إنَّ في نحو قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} [(٣٠) سورة مريم] أي أنه لما كان ذلك متضمناً معنى القول غير الصريح فتحت الهمزة.

"**قائلاً لهم:** {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ..} الآية [(٤٩) سورة آل عمران]".

قوله: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} يفسرها قوله: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ..} الآية [(٤٩) سورة آل عمران].

"**وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله -عز وجل- الذي جعل هذا معجزة له تدل على أن الله أرسله**".

هناك كلام كثير يذكر هنا لا حاجة إليه مثل: ما نوع هذه الطير، وهل كان يخلق أشياء أخرى بإذن الله -عز وجل- غير الطير، ولماذا خصص هذه الأشياء المذكورة؟، فهذا الكلام كله لا حاجة إليه ولا فائدة من الاشتغال به.

"{وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ} [(٤٩) سورة آل عمران] هو الذي يولد أعمى، وهذا المعنى أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي، {والأَبْرَصَ} معروف، {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ} [(٤٩) سورة آل عمران]".

بعض أهل العلم يقول: هذه أصلاً الناس يعجزون عنها ولا يعرفون لها علاجاً فلذلك ذُكرت، وإلا فإن الله -عز وجل- كان يشفي على يده ألوان العلل، لكن ذكرت هذه لأن الطب يقف أمامها عاجزاً في وقت قد انتشر وفشا في زمانه -عليه الصلاة والسلام-.

"قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى -عليه السلام- السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من الأبرار، وأما عيسى -عليه السلام- فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعْث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟

وكذلك محمد -صلى الله عليه وسلم- بعثه في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله -عز وجل- لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً {وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [(٨٨) سورة الإسراء]، وما ذاك إلا لأن كلام الرب -عز وجل- لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [(٤٩) سورة آل عمران] أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخر في بيته لغده".

هذا من الغيب النسبي وليس من الغيب مطلقاً؛ لأن هذا الشخص الذي أُخبر هو يعلم ماذا أكل وماذا ادَّخر، بخلاف الإخبار عما في غدٍ مما يُطلع الله -عز وجل- عليه أنبياءه، لكن هذا يخبره فيقول: أكلت كذا، وادخرت كذا، فيكون آية لهم في أمر قد عرفوه.

"وما هو مدخر في بيته لغده، {إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي: في ذلك كله {لآيَةً لَّكُمْ} أي: على صدقي فيما جئتكم به {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٤٩) سورة آل عمران]، {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [(٥٠) سورة آل عمران] أي: مقرراً لها ومثبتاً.

{وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] فيه دلالة على أن عيسى -عليه السلام- نسخ بعض شريعة التوراة، وكشف لهم عن المغطّى فيما كانوا يتنازعون فيه خطأً، كما قال في الآية الأخرى: {وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} [(٦٣) سورة الزخرف]، والله أعلم".

هو لم يكن ناسخاً للتوراة، بل كان متعبداً بها، لكنه نسخ بعض الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وجاءهم بهذه الآيات الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً، ويقول: جئتكم مقرراً لما في التوراة ومخففاً عليكم بعض

الآصار، ومبيناً لكم بعض الأمور التي تختلفون فيها، وهذا لا شك أنه من أعظم النعمة التي ساقها الله -عز وجل- إلى بني إسرائيل.

وكلامه في غاية الاعتدال والصواب لمن يعقل، فهو ما جاءهم بشيء تنفر منه نفوسهم وطباعهم وإنما جاءهم مقرراً لشريعتهم ولكتابهم متعبداً بها فقابلوه بالكفر.

فالحاصل أنه تعبدهم الله بالتوراة لكن لشدة بغض النصارى لليهود وبسبب العداوة التي حصلت بينهم وبين اليهود تركوا العمل بالتوراة وبقوا بدون شريعة، ولم يكن عندهم قانون ونظام يحكم الحياة، والإنجيل لم يكن كتاب شريعة متكاملاً مثل التوراة وإنما فيه نسخ بعض الأشياء، وفيه أشياء كما يذكرون في الآداب والأخلاق والرقائق ونحو ذلك، فبقوا من غير شرع، فاخترعوا لهم كتاباً سموه: "الأمانة العظمى" وضعوا فيه القوانين وصاروا يعملون بها من ذلك الحين.

"**ثم قال**: {وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] أي: **بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول لكم**، {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ* إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [(٥٠-٥١) سورة آل عمران] أي **أنا وأنتم سواء في العبودية له، والخضوع والاستكانة إليه**، {هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٥١) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [(٥٢-٥٤) سورة آل عمران].

يقول تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى} أي: **استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال**".

هذا التفسير لـــ"حسَّ" قريب، لا تكلف فيه، وأصل ذلك هو إدراك الشيء بالحاسة، وصار يعبر به عن العلم والإدراك والمعرفة.

والمقصود أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- علم منهم ذلك وأدركه وعرفه، وعلى كل حال صار ذلك معلوماً له مدركاً كالشيء المشاهد، والله -عز وجل- يقول: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ} [(٩٨) سورة مريم]، {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} [(٥٢) سورة آل عمران] فسره هنا بقوله: إنه بمعنى الإعراض والجحود والمكابرة، ومن أهل العلم من يقول بأن الكفر هنا يعني إرادة قتله، فأحس منهم الكفر يعني أنهم يعزمون على قتله، وهذا فعلاً من الكفر، فهم كذبوه وجحدوا ما جاء به، وتمالئوا على قتله، فهذه الأقوال لا منافاة بينها.

"{قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ} **قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر**: **((من رجل يُؤْوِيني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي))**[1]".

ما الذي جعل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **والظاهر أنه أراد: من أنصاري في الدعوة إلى الله"؟**

الذي حمله على ذلك هو التركيب والتعدية بـــ"إلى" حيث قال: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ} [(٥٢) سورة آل عمران].

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في القرآن (٤٧٣٦) (ج ٤ / ص ٣٧٦) والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٩٢٥) (ج ٥ / ص ١٨٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٧).

ابن جرير الطبري -رحمه الله- يجعل "إلى" هنا بمعنى "مع"، وقد ذكرنا مراراً أن حروف الجر تتناوب، فيستعمل بعضها في معنى بعض، فإذا فسرت "إلى" بمعنى "مع" فلا إشكال، حيث يكون المعنى من أنصاري مع الله، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} [(٢) سورة النساء] يعني مع أموالكم.

وبعض أهل العلم يحاول أن يقدر في الكلام تقديراً يصلح أن يُعدَّى بـ"إلى" فالحافظ ابن كثير هنا قال: "**والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة؟**"، وبعضهم يقول: يوجد بعد أنصاري مقدر محذوف وقع حالاً، أي من أنصاري متوجهاً إلى الله، أو ملتجئاً إلى الله، أو من أنصاري ذاهباً إلى الله؟، وبعضهم يقول قولاً قريباً من قول ابن كثير نحو من أنصاري في السبيل إلى الله، أو في الطريق إلى الله؟، فهذه مثل في الدعوة إلى الله، ويقال غير هذا أيضاً، لكن السبب في هذه الأقوال هو التعدية بـ"إلى" فإما أن نجعل "إلى" بمعنى "مع" وإما أن نقول: هناك تقدير، وهذا المقدر يصلح أن يُعدَّى بـ"إلى".

"**حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر -رضي الله عنهم وأرضاهم- وهكذا عيسى ابن مريم -عليه السلام- انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** [(٥٢-٥٣) سورة آل عمران] **الحواريون، قيل: كانوا قصَّارين**".

الفقهاء يقولون في عقد البيع والشراء: لو باعه ثوباً واشترط قصارته، يعني خياطته أو غسله فالله أعلم..

وأصل الحواري هو الخالص من كل شيء، ولذلك مما قيل في الحَوَر أنه شدة بياض العين مع السواد، وهذا أجمل ولا شك من الذي بياض عينه أصفر، فهو الخالص من كل شيء، فالثياب ما كان شديد البياض، وحواري الرجل بمعنى خلاصة وصفوة أصحابه، فالحواريون هم خلاصة أصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- وصفوتهم، وقيل لهم ذلك لصفاء نفوسهم أو لصفاء نياتهم، أو لخلوص صحبتهم ومحبتهم ونصحهم وصدقهم وما أشبه ذلك، فالصفوة والخلاصة يقال لها هذا.

وبعضهم نظر إلى شيء حسي مشاهد هوالبياض فقال: قيل لهم ذلك لشدة بياض ثيابهم، وبعضهم يقول: القصارين، وبعضهم يقول غير هذا مما لا دليل عليه، فالحواريون على كل هم خلاصة أصحاب عيسى -عليه السلام-، وأما عددهم فلا طائل تحته، فبعضهم يقول: اثنا عشر، وبعض يقول: أكثر من هذا بكثير، وبعضهم يحاول أن يجمع بين هذه الإسرائيليات ويقول: إنهم كانوا كذا، والخلاصة أن كبارهم أو عرفاءهم كانوا اثنا عشر رجلاً.

"**الحواريون: قيل كانوا قصارين، والصحيح أن الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير -رضي الله تعالى عنه- فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير))**[2]".

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الطليعة (٢٦٩١) (ج ٣ / ص ١٠٤٦) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما(٢٤١٥) (ج ٤ / ص ١٨٧٩).

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير استشهد عليه بهذا الحديث وهو معنىً صحيح أي الناصر، لكن هذا لا يعارض ما ذكر من أنهم صفوة وخلاصة أصحاب الأنبياء مثلاً، أو خاصة الأنبياء، فخلاصة أصحاب الأنبياء هم ناصروهم.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: **{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** [(٥٣) سورة آل عمران]، **قال: مع أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا إسناد جيد".**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}** [(١٤) سورة الصف]: قص الله -عز وجل-علينا ذلك من أجل أن نقتدي بهم، كما قال في الآية الأخرى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}** [(١٤) سورة الصف]، فذكر الله ذلك من أجل أن تقتدي بهم هذه الأمة في نصرة نبيها -صلى الله عليه وسلم-، والقرآن يفسر بعضه بعضا.

وقوله هنا: **{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** أي مع أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: اكتبنا مع الشاهدين أي: لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة، ويمكن أن يعبر بعبارة أوسع من هذا كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: بالحق، أي اكتبنا مع الشاهدين بالحق، ومن الحق الشهادة بالوحدانية، وللنبي -صلى الله عليه وسلم- وأنبيائه بالرسالة وما إلى ذلك من المعاني الداخلة تحتها أو: اكتبنا مع الشهداء الذين يشهدون لأممهم، فالأنبياء يشهدون والأمم تشهد وهذه الأمة تشهد، فلا يخص ذلك بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أن هذه الأمة مما اختصها الله به أن تكون شاهدة على الأمم كما قال تعالى: **{وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}** [(٧٨) سورة الحــج] ولكن الشاهدين أوسع من هذا، فالأنبياء يشهدون، وأتباع الأنبياء أيضاً يشهدون، كما قال الله -عز وجل-: **{وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء}** [(٦٩) سورة الزمر].

"ثم قال تعالى مخبراً عن بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى -عليه الصلاة والسلام- وإرادته بالسوء والصلب حين تمالئوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً فأنهوا إليه أن هاهنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية، حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجَّى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: **{وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** [(٥٤) سورة آل عمران]".

هذا كما قال الله -عز وجل- في الآيات الأخرى: **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ}** [(١٥٧) سورة النساء].

"وقوله تعالى: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* فَأَمَّا الَّذِينَ**

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ* وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [(٥٥-٥٨) سورة آل عمران].

قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [(٥٥) سورة آل عمران] **المراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى:** {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} **الآية** [(٦٠) سورة الأنعام]".

العلماء استشكلوا ذكر الوفاة؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- رفع ولم يمت، وبالتالي منهم من ادعى في الآية التقديم والتأخير، أي قال الله: يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، إلى آخره ثم بعد ذلك متوفيك، وهذا خلاف الأصل، فالأصل أنه إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير فالأصل فيه الترتيب.

ومنهم من أجراه على هذا النسق في الترتيب ولم يدَّعِ فيه التقديم والتأخير ثم بعد ذلك اختلفت أقوالهم في تفسير الوفاة، فمن أحسن ما قيل في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا من أن المقصود بالوفاة هي الوفاة الصغرى؛ لأنها تطلق على الوفاة الكبرى التي هي الموت وتطلق على الوفاة الصغرى التي هي النوم، كما قال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} [(٤٢) سورة الزمر].

ومنهم من قال: إن الوفاة هنا بمعنى الاستيفاء والقبض، أي أن الله مستوفيك روحاً وجسداً، كما يعبر ابن جرير -رحمه الله- فيقول: أي قابضك إليَّ لكن ليس بمعنى الموت، لكن تقول: فلان استوفى حقه بمعنى أخذه، فتكون الوفاة هنا بمعنى الأخذ والقبض وما أشبه ذلك، وهذا قال به جماعة، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

ومنهم من يقول غير هذا، لكن ليس المقصود بها الموت قطعاً، وبالتالي فإن قول من قال: إن المقصود أن الله توفاه ست ساعات أو أربع ساعات أو نحو هذا، فهذا كلام يخالف الأدلة التي تدل على رفعه وأنه لم يمت.

ومنهم من يقول: إن المقصود بالوفاة هنا أن نهايته تكون بالوفاة، بمعنى أنهم لن يصلوا إليك وإنما نهايتك لن تكون بالقتل، لكن هذا لا معنى له أن يفسر به قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [(٥٥) سورة آل عمران]، وعلى كل حال لا يقال -قطعاً-: إنه قد توفي بمعنى مات؛ لأن الله -عز وجل- لا يجمع على الإنسان موتتين بعد نفخ الروح، وأما قوله تعالى: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ} [(١١) سورة غافر]، فكلام أهل العلم في هذا معروف وهو أن الموتة الأولى هي حينما كانوا نطفاً أو كانوا في حال العدم أو غير ذلك، أما إذا صار إنساناً حياً فيه روح فإنه لا يموت موتتين، فالله -عز وجل- يقول: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [(٤٠) سورة الروم] وعيسى -صلى الله عليه وسلم- من جملة هؤلاء الخلق.

"**قوله تعالى:** {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، **المراد بالوفاة هاهنا النوم، كما قال تعالى:** {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} **الآية** [(٦٠) سورة الأنعام] **وقال تعالى:** {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} **الآية** [(٤٢) سورة الزمر].

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول إذا قام من النوم: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور))[3]، وقال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [(١٥٦-١٥٧) سورة النساء] إلى قوله ...".

سيأتي -إن شاء الله- في قوله: {وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} أنها تحتمل أن شبهه ألقي على رجل فظنوا أنه هو كما هو المتبادر، وتحتمل معنى آخر وهو أنه حصل لهم اشتباه والتباس في القضية، ولهذا يفسر هذا القائل قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [(١٥٧) سورة النساء] بمعنى أنهم لم يتحققوا هذا الأمر، وهذا كما تقول: قتلت هذه المسألة بحثاً، وهذا ذكره ابن حزم، لكن هذا فيه بعد، والله أعلم..

"وقال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [(١٥٦-١٥٧) سورة النساء] إلى قوله: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(١٥٧-١٥٩) سورة النساء] والضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} عائد على عيسى -عليه السلام- أي وإن من أهل الكتاب".

يعني قبل موت عيسى -صلى الله عليه وسلم- بمعنى إذا نزل في آخر الزمان يؤمن به من كان موجوداً من أهل الكتاب، ومعروف أنه يضع الجزية فلا يقبلها، ويحصل على يده ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن أهل العلم من قال: قوله: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] أي قبل موت الكتابي نفسه، ومعناه أنه لا يموت واحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى الإيمان الصحيح، وهذا نقل عن بعض السلف، عن ابن عباس، حتى قيل له: إن الرجل يقتل أو يموت بلحظة أو يطير رأسه بالسيف، فقال: يؤمن به قبل أن يموت، وهذا خلاف قول عامة السلف فمن بعدهم في تفسير الآية الذين يقولون: {لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] أي: ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى؛ والقاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والمذكور الأقرب هنا هو عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

"والضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} عائد على عيسى -عليه السلام- أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه.

وقوله تعالى: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٥٥) سورة آل عمران] أي برفعي إياك إلى السماء {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(٥٥) سورة آل عمران] وهكذا وقع؛ فإن المسيح -عليه السلام- لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى (٥٩٥٥) (ج ٥ / ص ٢٣٢٧) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١١) (ج ٤ / ص ٢٠٨٣).

ثلاثة، وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير".

يعني أن هذا الملك هو الذي أفسد دين النصارى، حتى قيل: إنه أدخل النصرانية في الوثنية ولم يدخل هو في النصرانية وحصل الاجتماع المعروف الشهير في التاريخ وأقروا فيه التثليث، وصار الموحدون مستضعفين مستذلين مضطهدين.

يبقى الإشكال في قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(٥٥) سورة آل عمران] يعني ما المراد؟ هل المراد أتباع المسيح من أهل التوحيد من الموحدين؟، فهؤلاء ما كان لهم ظهور بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بل بالعكس كانوا يتخطفون ويضطهدون، والنصارى مختلفون غاية الاختلاف حتى جاء قسطنطين هذا فزاد في الشر، أو أن المراد **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(٥٥) سورة آل عمران] يعني الذين ينتسبون إلى النصرانية أو قل ممن ينتسبون إلى عيسى -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: **{فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** أي فوق الذين كفروا به وهم اليهود، وليس الذين كفروا بالله؛ لأن النصارى لما قالوا بأن الله ثالث ثلاثة ونحو ذلك فهم أيضاً كفروا بالله، لكن النصارى يزعمون أنهم أتباع المسيح، وعلى هذا تكون الآية لا إشكال فيها، ولا شك أن النصارى حصل لهم ظهور على اليهود وصار اليهود يضطهدون في ممالك النصارى فهذا معروف في التاريخ، بل كانوا يتتبعون الواحد بعد الواحد، ويُؤخذون ويقتلون، وحصل أكثر من مرة أن ملوك الرومان واليونان كانوا يتتبعون اليهود حيث صدر أكثر من قرار بتتبع اليهود وقتلهم.

فهؤلاء الأتباع هل المقصود بهم أهل التوحيد أم المقصود بهم من ينتسبون إلى عيسى ولو كانوا على التثليث؟ الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: لما كان للنصارى شعبة من أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- حيث آمنوا بعيسى -صلى الله عليه وسلم- كانوا فوق اليهود، ولما كانت هذه الأمة ملتزمة بالحق كانت ظاهرة على النصارى، فمعنى كلام ابن القيم واضح، وهو أن قوله: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ}** يعني من ينتسبون إليك ولو كانوا من أهل التثليث، فطائفة النصارى فوق طائفة اليهود.

ومن يقول: إن المقصود بالأتباع هم أهل الحق والتوحيد، فهذا الظهور يفسر ببعثِ محمد -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أنه لما جاء محمد -صلى الله عليه وسلم- قتل اليهود وحاربهم وحصل ما حصل، وصاروا في غاية الاستذلال والضعف، ثم لما تُرك اتباعه -صلى الله عليه وسلم- وضيع دينه، علا اليهود وارتفعوا كما هو مشاهد.

"وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه".

وبعضهم يقول: إنه نقل صومهم من الحر إلى وقت الاعتدال أو البرد، ثم زاده عشرة أيام من أجل المعاوضة، وصار الصوم أربعين يوماً.

قوله: "وبنى المدينة المنسوبة إليه"، يعني القسطنطينية.

"واتبعه الطائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود".

توجد طائفة من النصارى معروفة -ذكرها صاحب كتاب الملل والنحل- ينتسبون إلى الملك قسطنطين.

"أيدهم الله عليهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله".

كلام ابن كثير هذا يوافق كلام ابن القيم، وهو أن المقصود بالأتباع هم من ينتسبون إلى عيسى، أي من يدَّعون اتباعه -عليه الصلاة والسلام-.

"فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي خاتم الرسل وسيد ولد آدم الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مع ما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم -عز وجل- في قوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..} الآية [(٥٥) سورة النـــــور].

ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، سلبوا النصارى بلاد الشام، وأجلوهم إلى الروم فلجئوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة، وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم يرَ الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها -وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً- ولهذا قال تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٥٥-٥٦) سورة آل عمران]، **وكذلك فعل تعالى في من كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال، وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق وما لهم من الله من واق.**

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} [(٥٧) سورة آل عمران] **أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات، {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** [(٥٧) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [(٥٨) سورة آل عمران] **أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من**

اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى في سورة مريم: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ* مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٣٤-٣٥) سورة مريم]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [(٥٩-٦٣) سورة آل عمران].

"يقول -جل وعلا-: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ} في قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم، فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، فالذي خلق آدم من غير أب وأم قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب -جل جلاله- أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [(٢١) سورة مريم] **وقال ها هنا: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** [(٦٠) سورة آل عمران] **أي: هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.**

ثم قال تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} [(٦١) سورة آل عمران] **أي: نحضرهم في حال المباهلة، ثم نبتهل، أي نلتعن فنجعل لعنة الله على الكاذبين، أي منا أو منكم".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى-: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ} [(٦٠) سورة آل عمران]، هذا الخطاب في ظاهره موجه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا حاجة إلى استشكاله؛ لأن الله -عز وجل- يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم- ويتوجه الخطاب إلى أمته؛ لأنه مقدمها وقدوتها -عليه الصلاة والسلام-.

ومعنى الامتراء في قوله: {فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ} أي: من الشاكين في أمر عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله -تبارك وتعالى- بعده: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ} [(٦١) سورة آل عمران]، أي من حاجك في عيسى من أهل الكتاب من النصارى، هكذا قال كثير من أهل العلم،

ومنهم من ذهب إلى تعميمها ولا إشكال في هذا، على أن أولى من يدخل فيها هم النصارى الذين يقولون: إنه ثالث ثلاثة، أو إنه ابن الله، وذلك أنه لا يدعي أحد غير النصارى مثل هذه الدعاوى في عيسى -عليه الصلاة والسلام- فالآيات في النصارى، لكن لو قال قائل: فمن حاجك فيه من اليهود، بأنه ابن كذا وكذا مما يفترون، فيمكن أن يباهل أيضاً، لكن هذه الآية في الأصل متوجهة إلى النصارى، فهي من الآيات التي نزلت فيهم.

قوله: "{فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} [(٦١) سورة آل عمـــران]"، نجد أنه لم يذكر البنات وإنما ذكر الأبناء والنساء والأنفس، فيمكن أن يقال: لأنهن داخلات مع النساء، ومن أهـــل العلم من يقول: إن الأبناء ذكروا هنا؛ لأنهم هم الذين يحضرون مواطن الخصام دون البنات.

وعلى كل حال النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا فاطمة، وأحضر الحسن والحسين وعلياً، ويمكن أن يقـــال: إنه ذكر أشرف الأولاد وهم الأبناء ليدل بذلك على البنات، فهذا وارد والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ} [(٦١) سورة آل عمران] أي: نلتعن، وأصل المباهلة الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيـــره، ثـــم صارت تستعمل في كل اجتهاد بالدعاء، تقول: فلان يبتهل إلى الله -عز وجل- أن يرزقـــه وأن يعافيـــه وأن يدخله الجنة، فهذا الدعاء ليس فيه اجتهاد باللعن، وإنما صار الابتهال يستعمل في معنىً أوسع، والمقصود بها هنا في الآية معنىً خاص وهو الاجتهاد بالدعاء باللعن وغيره على المبطل، وهذه الطريقة ليست من المناظرة وإنما هي لون من المخاصمة لا بالحجاج وإنما بالدعاء على المبطل من الفريقين أن يهلكه وأن يلعنـــه، إلـــى غير ذلك مما يمكن أن يدعى عليه.

والمباهلة تكون في هذه المسائل مع الكفار وتكون أيضاً بين المسلمين، ففي بعض مسائل الفرائض حصل من الصحابة كابن عباس -رضي الله عنه- أنه كان يدعو إلى المباهلة فيها، فيقول: من شاء باهلته، وهذا إنمـــا يفعله الإنسان في حال وثوقه التام بما هو عليه من الحق، وقد ذكر بعض أهل العلـــم كالحـــافظ ابـــن حجـــر -رحمه الله- أنه قد جرت سنة الله -عز وجل- في المبطل ممن دخل في شيء من المباهلة أنه لا يمهل أكثر من سنة، يعني لا يدور الحول عليه إلا وقد نزل به ما دعي به في المباهلة.

"وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره".

يعني أن هذا السياق الطويل بهذه التفاصيل يذكرها أصحاب السير، ولكن أصل قدوم وفد نجران ثابـــت فـــي الصحيحين لكن من غير هذه التفاصيل.

"قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: وقدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفد نـــصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يئول إليهم أمرهم، وهم العاقب، واســـمه عبـــد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس بن الحارث وزيـــد وقـــيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ويحنس، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم، وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان رجـــلاً

من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها، وشرفوه وبنوا له الكنائس ومولوه وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصفته وشأنه بما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها".

المقصود بجهله هنا البغي والتعدي، وليس معناه قلة العلم، فهو كان يعلم، حتى إنه كان مع أخ أو ابن له -كما جاء في السير- وعثرت دابته فقال الذي معه: تعس الأبعد أو كلمة نحوها، فرد عليه هذا أو أضاف ما يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو المبعوث حقاً، وأنه هو الذي يجدونه في كتبهم، فلما سأله ذاك عن سبب إعراضه عن الإسلام، قال: أعطونا -أي الروم- ما ترى، فكل ما نحن فيه فهو منهم، فإن تركنا ذلك ذهب كل ما لدينا، وهذا كما يقول المعلمي -رحمه الله- في التنكيل حيث قال: "ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة"، فهذا مثال عليه، يعني أنه يقتات من هذا الباطل ويكون سبباً لدخله ومعيشته، كأن يكون مغنِّياً أو ممثلاً، وكبعض الصوفية، وكالرافضة الذين ينتسبون لأهل البيت أو نحو هذا ليأخذون الخمس.

"قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن حعفر بن الزبير قال: قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب".

هذه الجبب والأردية مخططة تصنع من القطن أو نحو هذا، وهي تجلب من اليمن، والمعنى أنهم دخلوا وهم في حال من الزينة والتهيؤ والأبَّهة.

"قال: يقول من رآهم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: دعوهم، فصلوا إلى المشرق".

هذه الروايات في السيرة لا يثبت بها حكم، فأهل السير يتساهلون حيث لم يكن لهم شروط المحدثين، وكثير من أهل العلم يتساهل في رواية هذه الأخبار بشروط معينة، لكن من أهم الشروط ألا يثبت بها عقيدة ولا يثبت بها حكم، ولو طبقت شروط المحدثين على ما في السير لم يبق منها إلا القليل جداً، فمثل هذه لا يثبت فيها حكم، وإلا كان سيقال: إنه يجوز للكفار أن يدخلوا المسجد، وأن يقيموا فيه عباداتهم ولا ينكر عليهم، وهل يقال ذلك في أهل البدع الذين يصلون صلاةً تختلف عن صلاة أهل السنة لو صححنا هذه الرواية؟

لن يكون ذلك لازماً ولو صحت الرواية؛ لأن نهج وطريقة السلف من الإغلاظ على أهل البدع وزجرهم معروفة، فهم لا يمكنون من إظهار بدعهم، لكن لو دخلوا وصلوا مع المسلمين كما يصلي الناس، فهذا لا يمنعون منه؛ لأن الصلاة هي خير ما فعله الناس، فلا يمنعون منها، بل هم يؤمرون بالصلاة أصلاً إذا ما صلوا، لكن لا يُترك المبتدع يفرق الجماعة فيصلي دونهم.

"قال: فكلم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح أو السيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وكذلك قول النصرانية، فهم يحتجون في قولهم

هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس.

ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله.

ويحتجون في قولهم بأنه ثالثة ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم، تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن".

يعني نزل القرآن يرد عليهم، ومعلوم أن الواحد يتكلم بضمير الجمع فعلنا وأمرنا ونحو ذلك، و يقصد بذلك تعظيم نفسه، وهذا لا إشكال فيه.

"ثم تكلم ابن إسحاق على التفسير إلى أن قال: فلما أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه لَلاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك، ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضاء.

وروى البخاري عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعده، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم، فقال: ((قم يا أبا عبيدة بن الجراح)) فلما قام قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا أمين هذه الأمة))[1].

وروى البخاري عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أبو جهل -قبحه الله-: إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران (٤١١٩) (ج ٤ / ص ١٥٩٢).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران (٤١٢١) (ج ٤ / ص ١٥٩٢).

وسلم- لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً[٣] ورواه البخاري[٤] والترمذي والنسائي، وقال الترمذي حسن صحيح".

مثل هذا له حكم الرفع.

"ثم قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [(٦٢) سورة آل عمران]، **أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد.**

{وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* فَإِن تَوَلَّوْاْ} [(٦٢-٦٣) سورة آل عمران] **أي عن هذا إلى غيره،** {فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [(٦٣) سورة آل عمران]، **أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته.**

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٦٤) سورة آل عمران]، **هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم.**

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ} [(٦٤) سورة آل عمران]، **والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا، ثم وصفها بقوله:** {سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [(٦٤) سورة آل عمران] **أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله:** {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران]".

ومما يدل على هذا التفسير بأن سواء بمعنى عدل قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فإنها بلفظ عدل بدل سواء، وهذه القراءة ليست متواترة، لكن من المعلوم أن القراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة.

ثم فسرها بقوله: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران].

هذه الآية أصل في دعوة أهل الكتاب، فالذين يجتمعون مع أهل الكتاب فيما يسمونه بالتقريب بين الأديان، هذا باطل لا يجوز، بل هو من أبطل الباطل؛ إذ كيف يجمعون بين الحق والباطل؟

وبعضهم ممن ابتلي بحضور هذه المؤتمرات يزعم بأن ذلك من دعوتهم، وليس كذلك؛ فهم لا يذهبون لدعوتهم، وإنما يذهبون ليجلسون معهم على أساس التقارب بين هذه الأديان، فهم في أحسن أحوالهم يجلسون جلوس الند أو النظير والمماثل، لا يجلس على أنه صاحب حق ويدعوهم إلى الله -عز وجل-، فالواجب هو ما أمر الله -عز وجل- به وهو أن يُدعون فيقال لهم: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله إلى آخره، فإذا فعلوا ذلك فقد تركوا دينهم وتخلوا عن شركهم، وعن أصل أصولهم وهو عقيدتهم في المسيح -عليه الصلاة والسلام-، هذا هو الأصل في الجلوس معهم، لكن هم لا يقبلون بالجلوس مع من يقول هذا أبداً، إذ يعتبرون هذه فوقية، ومن المعلوم لكل أحد أنهم ما اجتمعوا لمثل هذا أبداً.

---

[٣] - أخرجه أحمد (٢٢٢٥) (ج ١ / ص ٢٤٨) وأبو يعلى (٢٦٠٤) (ج ٤ / ص ٤٧١) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح".

[٤] - أخرج البخاري الشطر الأول منه في كتاب التفسير – باب تفسير سورة العلق (٤٦٧٥) (ج ٤ / ص ١٨٩٦) ولفظه: "قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((لو فعله لأخذته الملائكة)).

"**ثم فسرها بقوله:** {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران] **لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة الله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى:** {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]**، وقال تعالى:** {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل]**، ثم قال تعالى:** {وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [(٦٤) سورة آل عمران]**، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله.**

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٦٤) سورة آل عمران] **أي فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.**

وفي الكتاب الذي أرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))[5]".

الأريسيين يُقصد بهم الفلاحين.

"**وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية، ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟**"

الإشكال هو أن آية الجزية من سورة براءة، ولا شك أن سورة براءة آخر ما نزل في القتال، أي ما نزلت إلا بعد فتح مكة، وهي قوله تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة]، فهذه آية الجزية وهي متأخرة في النزول، وهذا الكتاب الذي كتبه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل ذكر فيه الآية، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ..} [(٦٤) سورة آل عمران]، فهل هذه الآية نازلة في وقت مبكر؟

وفد نجران إنما جاء في عام الوفود، وكتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل وإلى الملوك كان بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، حيث تفرغ النبي -صلى الله عليه وسلم- للدعوة وكتب إلى الملوك، وهذه الآية مذكورة في كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لهرقل، فكيف الجواب عن هذا؟

الجواب إما أن يقال: إن هذه الآية كما دل عليه هذا الحديث نازلة قبل ذلك، فليست نازلة في وفد نجران، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين مقدمة على روايات السير التي لا تثبت، فهذا طريق في الترجيح.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٧٨٢) (ج ٣ / ص ١٠٧٤) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٣٩٣).

أو يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قصد الآية، ولم تكن قد نزلت؛ بدليل ذكر الواو هنا، ((ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء))، فهي هكذا في الصحيحين، فهذه ليست في الآية، وعلى هذا يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بهذا ولم يقصد الآية، ثم نزلت الآية بعد ذلك موافقة لما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون ذلك من الموافقات التي وقعت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد وقع لعمر -رضي الله عنه- كما هو معلوم جملة من الموافقات، نحو قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ} [(٥) سورة التحريم] إلى غير ذلك، فالمقصود أن هذه الآية جاءت موافقة لما كتب النبي -صلى الله عليه وسلم- في خطابه لهرقل، فهذا احتمال.

وإذا قيل: إن الآية هي مقصودة فقد أجاب العلماء على هذه الواو بأنها ليست من الآية، ولكنه خاطبه بكذا، وقال له: ويا أهل الكتاب إلى آخره.

فإما أن نلجأ إلى ترجيح الرواية التي في الصحيح على رواية السير، وإما أن نجيب بما سبق، والله أعلم..

وعلى كل حال فإن وفادتهم ثابتة في الصحيحين، ولا إشكال فيها، لكن الكلام في التفاصيل، هل هذه الآيات نزلت فيهم فعلاً؟ هذا ليس في الصحيحين، وعلى كل حال فالقول بأن سبب نزول هذه الآيات كلها هو وفد نصارى نجران لا أعرف عليه دليلاً صحيحاً، وإنما غاية ما فيه هي الروايات والأخبار التي في السير، وهذه الروايات لا يثبت بها حكم كما سبق، فإن قام ما يعارضها فعندئذ تطبق شروط المحدثين دون تساهل.

وبالنسبة لمسألة الجزية، هل أخذت من وفد نجران أم لا، وهل هي المقصودة بقول العاقب والسيد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما في البخاري: "**إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً**"؟

كتب السير تذكر أن الجزية أخذت من نصارى نجران، وأنها أول جزية أخذت، لكن الجزية ما نزلت الآية فيها إلا متأخرة، وهي قوله: {حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة]، إذاً: ما الذي طلبه منهم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ من أهل العلم من يقول: إن ذلك وقع على سبيل المصالحة، إلا أن روايات السير تذكر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فإنهم يدفعون الجزية، فإن أبوا فالقتال، فهل يقال إن الآية متأخرة في النزول بعد تقرير الحكم مثل آية الوضوء {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ...} [(٦) سورة المائدة] حيث إنها لم تنزل إلا بالمدينة ومع ذلك لم يكونوا يصلون في مكة بدون وضوء، وإنما هذا يعتبر مما نزل بعد تقرير الحكم، فالنزول أحياناً يكون مع الحكم وهذا هو الغالب، وأحياناً يكون قبل الحكم، وأحياناً بعده -وليس المقصود هنا بالحكم الحلال والحرام، وإنما المقصود مقتضى الآية وما تضمنته من الحديث عن شيء قد وقع أو لم يقع بعد- وهذا الأخير مثل قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [(٤٥) سورة القمر]، حتى قال عمر -رضي الله عنه-: أي جمع؟ فرأى ذلك في يوم بدر، فهذه نزلت قبل تقرير الحكم أي أنها تحدثت عن شيء لم يقع بعد، فهل آية الجزية نزلت بعد تقرير الحكم -يعني عكس آية سورة القمر ومثل آية الوضوء-؟

يحتمل أن يكون تقرير حكم الجزية كان أولاً ثم بعد ذلك نزلت الآية التي تتحدث عنها، ويمكن أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- صالحهم على شيء موافقاً لما هو مقرر أخذه في الجزية، فجاءت بعد ذلك فريضة الله -عز وجل- في الجزية موافقة له، ويمكن أن يكون صالحهم على شيء اتفق معهم عليه، ثم جاء حكم

الجزية بتفاصيلها بعد الفتح، وهذا يكون مثل ما يقال في الزكاة، حيث إن سورة الأنعام -المكية باتفاق- يقول الله -عز وجل- فيها: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام]، والمراد بالحق في الآية -على الأرجح- أنها الزكاة، فالزكاة فرضت آنذاك، لكن المقادير والأموال الزكوية وما أشبه ذلك من الأنصباء إنما فرض في المدينة، أما أصل الزكاة فقد كان يُخرج الإنسان في يوم الحصاد شيئاً غير مقدر، يعطيه من حضره من الفقراء، امتثالاً لقوله تعالى:، {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] أي أن حقه هي الزكاة، ومن أهل العلم من يقول: في المال حق سوى الزكاة، وأنه هو المراد هنا، ثم نزلت الزكاة إضافةً إلى ذلك، والله أعلم.

"والجواب: أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش -رضي الله تعالى عنه- في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك".

على هذا القول وفد نجران لم يأت في عام الوفود، ومعنى ذلك -على هذا القول- تكون الآيات نزلت في وفد نجران قبل الحديبية، ثم بعد ذلك كتب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك بعد صلح الحديبية وكانت الآية قد نزلت في وفد نصارى نجران، لكن هذا الكلام لا يقطع به؛ إذ ليس فيه دليل يثبت هذا، لكن هو أحد الأجوبة.

"ويحتمل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أُنزل بعد، ثم أنزل القرآن موافقة له -صلى الله عليه وسلم-".

على كل حال هذان جوابان ذكرهما الحافظ ابن كثير، وذكر بعضهم غير هذا، كمن سلك طريق الترجيح.

"كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، وفي قوله: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ} الآية [(٥) سورة التحريم]".

من الأجوبة أنها نزلت مرتين، نزلت مرة متقدمة، ثم بعد ذلك نزلت مع الآيات حين قدم وفد نصارى نجران، وهذه كلها -طبعاً- دعاوى لا دليل عليها، لكن هي احتمالات وأجوبة تذكر لحل الإشكال، ولا يمتنع نزول الآية أكثر من مرة، حيث يمكن أن تنزل الآية مرتين، وأقرب ما يوضح ذلك بقية الأحرف الستة؛ لأن القرآن كان ينزل على حرف قريش في مكة، ثم بعد أن هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلت الأحرف الستة الباقية، ومعنى ذلك أنه نزلت تلك الآيات مرة أخرى، ومما نزل أكثر من مرة قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل]، نزلت في يوم أحد، ونزلت والنبي -صلى الله عليه وسلم- في طريقه إلى مكة عام الفتح في قصة سعد بن عبادة لما قال ما قال.

ومن أمثلة ذلك أيضاً لما قال المشركون: صف لنا ربك، فأنزل الله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، وهذا كان بمكة، و سأله اليهود مثل هذا السؤال في المدينة فأنزل الله -عز وجل- هذه السورة، فعلى هذا يمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، وهو أيضاً احتمال؛ لأن نفس حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- وإن

كان في الصحيح- يقول: فرفع النبي -صلى الله عليه وسلم- فعرفت أنه يوحى إليه، فقد يكون رفع رأسه ينتظر الوحي، فلم ينزل عليه بسورة جديدة أو بآية جديدة فقرأ عليهم السورة السابقة نفسها: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص]، ويحتمل أيضاً أنها نزلت عليه مرة ثانية وليس ذلك بممتنع كما سبق، فالآية قد تنزل مرة أخرى تذكيراً بالحكم، أو لبيان أن حكم هذه النازلة أو هذه الواقعة أو نحو ذلك هو نفس حكم ما قبلها، وأمثلة هذا كثير، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً مباركاً فيه، وبعد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "ينكر -تبارك وتعالى- على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل -عليه السلام- ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم.

كما روى محمد بن إسحاق بن يسار عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ..} الآية [(٦٥) سورة آل عمران]، أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٦٥) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ..} الآية [(٦٦) سورة آل عمران]، هذا إنكار على من يحاجُّ فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيدهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٦٦) سورة آل عمران]، ثم قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [(٦٧) سورة آل عمران]، أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان، {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران]، وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ...} الآية [(١٣٥) سورة البقرة].

ثم قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٨) سورة آل عمران]، يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، {وَهَذَا النَّبِيُّ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-، {وَالَّذِينَ آمَنُواْ} من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم.

روى سعيد بن منصور عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل)) ثم قرأ: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ..} الآية [(٦٨) سورة آل عمران][(١)]،

قوله: {وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٨) سورة آل عمران] أي: ولي جميع المؤمنين برسله".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فهذه الآية تتحدث عن تنازعهم في إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فإن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تنازعته الطوائف، كل طائفة تضيفه إليها وتدعي أنه منها، وسبب النزول الذي ذكره هنا لا يصح، وسواء كان هذا هو سبب نزول الآية أو لم يكن، فمن المعلوم أن اليهود يقولون: إن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان منهم، والنصارى كذلك يقولون: إنه منهم، وهذا الآية رد عليهم.

وقوله فيها: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ} [(٦٦) سورة آل عمران]، المقصود بذلك أنهم حينما يحاجون فيما أنزل عليهم مما بين أيدهم من كلام الله -عز وجل-، وما بلغهم علمه، فإن ذلك أمر سائغ، وأما محاجتهم في أمر كهذا، وهو أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان يهودياً أو نصرانياً، فإن هذا أمر لا يسوغ بل هو مناقض للعقل والواقع، وذلك أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كان قبل موسى وعيسى بزمن طويل، فعلى كل حال هذا هو المراد بقوله تعالى: هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ} [(٦٦) سورة آل عمران] والله أعلم.

"{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ* وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(٦٩-٧٤) سورة آل عمران] يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكورٌ بهم".

قوله تعالى: {وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ} [(٦٩) سورة آل عمران] هنا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على أن الإضلال على ظاهره، وهو إزاغة أهل الإيمان وصرفهم عن الحق، وهذا الذي يدل عليه سبب النزول وتدل عليه الآيات الأخرى.

ومن أهل العلم من يحمل ذلك على معنى الإهلاك، كابن جرير -رحمه الله- {وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ} [(٦٩) سورة آل عمران] أي: وما يهلكون إلا أنفسهم، والإهلاك هو من لوازم الإضلال، وليس هو معنى الإضلال، والله أعلم.

---

1 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٥) (ج ٥ / ص ٢٢٣) وأحمد (٤٠٨٨) (ج ١ / ص ٤٢٩) والحاكم (٣١٥١) (ج ٢ / ص ٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢١٥٨) وهو في كتاب التفسير من سنن سعيد بن منصور.

"ثم قال تعالى منكراً عليهم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٧٠) سورة آل عمران] أي: **تعلمون صدقها وتتحققون حقها".**

يقول سبحانه: {لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}، قال ابن كثير: "أي **تعلمون صدقها وتتحققون حقها"**، يعني تعلمون أنها حق من الله تعالى، وهذا الذي عليه كثير من المفسرين من المحققين كابن جرير وابن القيم. ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} أي: ما في كتبكم من ذلك، يعني أنكم تجدونه في كتبكم، أو {وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} بمثلها من آيات الأنبياء، يعني أنتم لماذا تقرون للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد جاء بنظير ذلك من الآيات ثم تنكرونها؟!

وهذه الأقوال غير متعارضة، فالله -عز وجل- ينكر عليهم هذا الكفر بآيات الله، وهم يعلمون أنها حق، باعتبار أنها موجودة في كتبهم، وعندهم أدلة تدل على أنها حق مما رأوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من دلائل نبوته، فلا تعارض في هذا حيث يعرفون نعته -صلى الله عليه وسلم-، وأن الدين عند الله الإسلام.

"{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٧١) سورة آل عمران] أي: **تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه".**

قوله: {لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} اللبس المقصود به الخلط، أي لِمَ تخلطون الحق بالباطل؟، ومن أهل العلم من يقول: إن هذا الخلط المقصود به خلط اليهودية والنصرانية بالإسلام، وهذا فعلاً من لبس الحق بالباطل، ومنهم من يقول كابن جرير: إن المراد بذلك إظهار الإيمان باللسان والبقاء على يهوديتهم أو نصرانيتهم في قلوبهم، يعني حينما أظهروا ذلك حيث منهم من أظهر هذا -كما سيأتي- بدليل قوله تعالى: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٧٢) سورة آل عمران].

وعلى كل حال لبس الحق بالباطل يدخل فيه هذا، فكل ذلك من لبس الحق بالباطل، ويدخل فيه أيضاً والله أعلم ما كانوا يحرفونه، ومنه ما يحصل من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يوهموا أنه من كتاب الله -عز وجل- وليس كذلك، ويحصل أيضاً بأنواع التحريف كتحريف الألفاظ وتحريف المعاني، فهذا كله من خلط الحق بالباطل، إلى غير ذلك مما يحصل به هذا التخليط.

"{وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ..} **الآية** [(٧٢) سورة آل عمران]، **هذه مكيدة أرادوها ليلبِّسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم".**

المراد بوجه النهار أول النهار وهو أحسنه.

"وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: لعلهم يرجعون.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: في قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية، يعني يهوداً صلت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة الفجر وكفروا آخر النهار مكراً منهم، ليُروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه".

يعني اليهود أهل كتاب وأهل علم فإذا دخلوا في الإسلام استبشر الناس من أهل الإيمان، فإذا رجعوا قال الناس: إن هؤلاء ما رجعوا إلا وقد اطلعوا على أمور تدل على بطلان هذا الدين، وأنه ليس من عند الله -عز وجل-.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] **أي: لا تطمئنوا وتظهروا سرَّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم".**

هذه الآية تحتمل وجوهاً من المعنى، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] حمله ابن كثير على معنى "**لا تطمئنوا وتظهروا سرَّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم**".

ومعنى {وَلاَ تُؤْمِنُواْ} أي: لا تخبروا أحداً بما عندكم في الكتاب مما يمكن أن يحتج به عليكم، أو يكون سبباً لإيمان أحد برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تخبروا بهذه الحقائق إلا أتباع دينكم، فهذا احتمال، لكن يرد على هذا أيضاً أنهم إن أخبروا أتباع دينهم فقد يكون ذلك سبباً لإسلامهم أيضاً.

فعلى كل حال المعنى الآخر الذي تحتمله الآية {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] أنهم قالوا ذلك على وجه الحسد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث إنهم كانوا قد نزلوا في المدينة أصلاً انتظاراً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قد قرب زمان بعثته، فكانوا ينتظرونه ويتوعدون العرب باتباعه وقتلهم معه، فلما بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العرب، حسدوه وناصبوه العداوة، فقالوا: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] يعني هذا النبي العربي لا تؤمنوا به ولا تصدقوه، وهذا هو الظاهر المتبادر من الآية، أي أنهم يتواصون بعدم الإيمان، ويقولون: يمكن أن يدخل بعضنا في هذا الدين على سبيل الخدعة والمكر ثم يرتد في آخر النهار من أجل أن يزلزلهم وأن يشككهم، أما الإيمان الحقيقي والمتابعة فإن ذلك لا يكون إلا لمن كان على ديننا، أي إلا لمن كان من اليهود.

وقوله: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ} [(٧٣) سورة آل عمران] هذه جملة اعتراضية -على الأرجح- من كلام الله -عز وجل-، وما بعدها يكون من بقية كلام اليهود، فيكون الكلام هكذا: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم.

ومن أهل العلم من يقول: إن ما بعدها متصل بها هكذا: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] فيكون من كلام الله -عز وجل-.

والأقرب والله أعلم أنها جملة اعتراضية، وكلام أهل العلم في هذه الآية كثير، وهذه الآية أكثر الآيات في سورة آل عمران إشكالاً، وقد اختلفت فيها أقوال السلف وأقوال أهل الإعراب والمعاني، إضافةً إلى سائر المفسرين.

"قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ} [(٧٣) سورة آل عمران] **أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- من الآيات البينات والدلائل القاطعات**

والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيدكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله: {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] **يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به.**

{أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} أي: **يتخذوه حجةً عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة".**

قوله: **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] يعني يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فإذا فسر ذلك بالإخبار كما قال ابن كثير: لا تؤمنوا أي: لا تطلعوهم على ما عندكم من الحقائق التي تدل على صدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذا فسر بذلك يكون معنى **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** كأنه يقول: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يعني ستستوون مع هؤلاء الأميين في العلم الذي خصكم الله -عز وجل- به بما أنزل عليكم من كتب، وأرسل إليكم من رسل، أو بعث فيكم من أنبياء، أو يحاجوكم بهذه العلوم التي اختصكم الله بها وأطلعكم عليها إذا أظهرتموها لهم فيكون فيها حجة لهم عليكم.

وإذا فسر بأن المراد بقولهم: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] أي الإيمان المعروف، يكون معنى **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** أي أن تكون النبوة والرسالة في غيركم، وقد كانت في بني إسرائيل مدداً متطاولة، بل كل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والرسل بعد إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- سوى إسماعيل كانوا في بني إسرائيل، وكان في الزمن الواحد يوجد عشرات الأنبياء، فبنو إسرائيل كان يسوسهم الأنبياء.

فالمقصود أنهم يقولون: إذا أقررتم لهؤلاء، أو أقررتم بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- فإن هذا يقتضي أن يساووكم في الفضل، أو يحاجوكم به عند ربكم، ولهذا قال بعده: **{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران]، وكما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا}** [(٥٤) سورة النساء]، فقوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** يعني يحسدون محمداً -صلى الله عليه وسلم- أو يحسدون هؤلاء العرب على ما آتاهم الله من فضله.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** متعلق بمحذوف أي: فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، فيكون من تمام الجملة قوله: **{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران] وعلى هذا يكون كلام اليهود انتهى عند قوله تعالى: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] بمعنى أن قوله: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] من كلام الله –تبارك وتعالى- ردّاً عليهم، أي أنه يقول لهم: لماذا تتواصون ألا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فالفضل بيد الله -عز وجل- وإنما فعلتم ذلك أو قلتم ما قلتم من أجل الحسد والبغي من أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب، فهذا هو الذي دعاكم إلى أن تقولوا ما قلتم.

وبعضهم يقول: قوله: {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} من تمام كلامهم، بمعنى أنهم يقولون: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على أن قوله: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ} جملة اعتراضية، ولعل هذا القول هو المتبادر والأقرب من ظاهر السياق، وهو الأقل تكلفاً، والله أعلم.

قوله: {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] بناءً على أن القضية تتصل بالمعلومات وإطلاع الأميين أو المسلمين على بعض ما في كتبهم تكون هذه الجملة {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} معطوفة على الجملة التي قبلها {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} والمعنى لا تطلعوهم على ذلك فيساووكم في الفضل أو يتخذوا ذلك حجةً عليكم.

وأما إذا فسر الإيمان بمعنى الإقرار والتصديق والإذعان في قوله: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] فيمكن أن يكون بهذا معطوفاً على {أَن يُؤْتَى} أي: لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً لغير أتباع دينكم؛ من أجل ألا يساووكم في الفضل ولا يعُد لكم مزية، ولئلا يتخذ المسلمون ذلك حجةً يحتجون بها عليكم.

لذلك لم يكن شيءٌ أشدَّ على اليهود من دخول بعض علمائهم في الإسلام مثل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- لأنهم يلزمون به ويصير ذلك حجة على إخوانهم حيث يقال لهم: هؤلاء من أتباعكم أقرّوا وصدَّقوا بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا به، فمن هنا هم يتواصون بهذا ويقولون: لا أحد يظهر منه الإيمان الحقيقي إلا أن يكون من باب التمثيل أو المكيدة؛ لئلا يستوي أحد معكم في الفضل أو يتخذ ذلك حجة عليكم.

وعلى كل حال مثل هذا القول قريب، وهو أقل الأقوال تكلفاً، وإلا فإن أقوال أهل العلم في الآية كثيرة جداً، ومن ذلك أن المحاجة في قوله: {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} يمكن أن تكون في الآخرة عند الله تعالى وهو ظاهر أيضاً، والله تعالى أعلم..

"قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ} [(٧٣) سورة آل عمران] أي الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٧٣) سورة آل عمران].

{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(٧٤) سورة آل عمران]، أي: اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يوصف، بما شرف به نبيكم محمداً -صلى الله عليه وسلم- على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع.

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [(٧٥-٧٦) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم من إن تأمنه بقنطار، أي من المال، يؤده إليك، أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك، {وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا} أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا

صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك، وقد تقدم الكلام على القنطار في أول السورة، وأما الدينار فمعروف.

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} أي: إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين، وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي: وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بهت.

روى عبد الرزاق عن صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

ثم قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} [(٧٦) سورة آل عمران] أي: لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر، فإن الله يحب المتقين".

في قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} [(٧٦) سورة آل عمران]، يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان..**" إلى آخره.

ومن أهل العلم من يجعل قوله: {بَلَى} مفصولاً عما بعده، بمعنى بلى عليكم سبيل ما دمتم تقولون: ليس علينا في الأميين سبيل، ثم أتى بجملة استئنافية تقرر معنىً، وهو الثناء على الموفين بعهدهم والوعد الجميل لهم، {مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [(٧٦) سورة آل عمران]، هذا احتمال، وإن كان ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر من ظاهر السياق، والله أعلم.

"{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٧) سورة آل عمران].

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة، الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة، {أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ} أي: لا نصيب لهم فيها ولا حظَّ لهم منها.

{وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، {وَلاَ يُزَكِّيهِمْ} أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ولهم عذاب أليم".

لماذا قال هنا: "**لا يكلمهم كلام لطف بهم**" وقال: "**ولا ينظر إليهم بعين الرحمة**"؟

قال ذلك لأنه يكلمهم كلاماً فيه توبيخ لهم كما قال تعالى: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [(١٠٨) سورة المؤمنون] فهذا تكليم لهم، لكن المقصود أنه لا يكلمهم كلام تكريم ولطف، فلهذا قيده، وكذلك قال: لا ينظر إليهم بعين الرحمة؛ لأن الله ينظر إلى خلقه أجمعين وهو مطلع عليهم وبصره نافذ فيهم، لكن النظر يطلق على معنىً خاص، وهذا هو المنفي هنا.

"وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:

الحديث الأول:

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)) قلت: يا رسول الله، من هم خابوا وخسروا؟ قال: وأعاده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات قال: ((المسبل والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان))[٢] ورواه مسلم وأهل السنن.

الحديث الثاني:

روى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي قال: خاصم رجل من كندة يقول له امرؤ القيس بن عابس، رجلاً من حضرموت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أرض، فقضى على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبتْ ورب الكعبة أرضي، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد، لقي الله -عز وجل- وهو عليه غضبان)) قال رجاء أحد رواته: وتلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً} [(٧٧) سورة آل عمران] فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: ((الجنة)) قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها [ورواه النسائي][٣].

الحديث الثالث:

روى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله -عز وجل- وهو عليه غضبان))، فقال الأشعث: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض جحدني، فقدمته إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألك بينة؟))، قلت: لا. فقال لليهودي: ((احلف))، فقلت: يا رسول الله إذن يحلفَ فيذهبَ مالي، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً..} الآية [(٧٧) سورة آل عمران] [أخرجاه][٤].

الحديث الرابع:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٦) (ج ١ / ص ١٠٢) وأبو داود في كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٩) (ج ٤ / ص ١٠٠) وأحمد (٢١٣٥٦) (ج ٥ / ص ١٤٨) والترمذي في كتاب البيوع - باب ما جاء فيمن حلف على سلعة كاذبة (١٢١١) (ج ٣ / ص ٥١٦) والدارمي في كتاب البيوع - باب في اليمين الكاذبة (٢٦٠٥) (ج ٢ / ص ٣٤٥).

3 - أخرجه أحمد (١٧٧٥٢) (ج ٤ / ص ١٩١) والنسائي في السنن الكبرى (٥٩٩٦) (ج ٣ / ص ٤٨٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

4 - أخرجه البخاري في كتاب الخصومات - باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٢٨٥) (ج ٢ / ص ٨٥١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨) (ج ١ / ص ١٢٢).

سلعة بعد العصر -يعني كاذباً- ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفّى له وإن لم يعطه لم يفِ له)) ورواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح[٥].

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله- أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران]، وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والربيع بن أنس: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ} يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيدون".

يقول تعالى: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ} أصل اللّي هو الميل بمعنى التحريف، ويدخل فيه تحريف الألفاظ وتحرف المعاني.

"وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله".

هذا الأثر عن ابن عباس معناه أن التحريف إنما هو من جهة المعنى فقط؛ لأن التحريف لا يكون في الألفاظ، لأنهم لا يستطيعون ذلك، وهذا قول قال به بعض أهل العلم، في مسألة معروفة وهي هل الكتب التي حُرِّفت هل حرفوا ألفاظها أم أن المقصود بالتحريف هو تحريف المعاني؟

من أهل العلم من يقول هذا، ومنهم من يقول هذا، وابن عباس في هذا الأثر ذكر أنه يكون في المعاني بمعنى أنه يقع في تحريف تفسيرها،، وقد ذكر البخاري هذا الأثر تعليقاً وكأنه -رحمه الله- يرجح هذا، وبهذا لا يختص ذلك بأهل الكتاب، وإنما هو موجود أيضاً عند طوائف من هذه الأمة من المعتزلة والرافضة ونحوهم ممن حرفوا كتاب الله -عز وجل-، فكل منهم يحمله على غير معناه متبعاً للهوى، فهذا من التحريف، فالتحريف المعنوي لا يختص باليهود ولا بالنصارى بل هو موجود في هذه الأمة.

وبالنسبة للكلام في تحريف الألفاظ أخبر الله -عز وجل-عن التوراة أن حفظها موكول إلى الأحبار والربانيين، قال الله -عز وجل-: {بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء} [(٤٤) سورة المائدة] فهو سبحانه وكل حفظها إليهم، فكان ذلك فرقاً بينها وبين القرآن، فالقرآن تعهد الله بحفظه، وهذه وكلها إلى علمائهم فحرفت وبدلت، وبقي القرآن محفوظاً.

هذان قولان، وهناك قول ثالث، وهو أن التحريف إنما وقع في القراطيس التي كانوا يبدونها، كما قال الله -عز وجل-: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام] حيث كانوا يحرفون في تلك القراطيس التي يخرجونها للناس؛ إذ لم يكونوا يخرجون لهم أصل الكتاب، وإنما يخرجون لهم تلك القراطيس، وأما هذه الكتب فهي محفوظة لم تحرف.

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات - باب اليمين بعد العصر (٢٥٢٧) (ج ٢ / ص ٩٥٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٨) (ج ١ / ص ١٠٣).

وعلى كل حال هذا نوع من التحريف الذي وقعوا به، وهو كتابة تلك القراطيس والتبديل فيها، ووقعوا في التحريف من جهة المعاني، ويدل عليه ما جاء في قصية اليهودي واليهودية لما زنيا كانوا يحممونهم ويضعونهم على حمار... إلى آخره، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتوراة، فكان الحبر قد وضع أصبعه على آية الزنا، وأخبر عن غير الحق الذي في كتابهم وأنه لا يوجد عندهم الرجم، فهذا كان من تحريف المعنى، ومن الكذب على الله -عز وجل-؛ إذ إن آية الرجم كانت مكتوبة، فلما قال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-: مره يا رسول الله فليرفع أصبعه، هناك ظهرت آية الرجم تلوح، فهذا مما يحتج به من يقول: إن التحريف كان في المعاني.

هذه ثلاثة أقوال معروفة لأهل العلم، والذي يظهر -والله أعلم- وهو الذي عليه كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً أن التحريف واقع في الألفاظ وفي المعاني، ويدل عليه الواقع من خلال التناقضات الموجودة في كتبهم والأناجيل المتعددة؛ إلا أن المخالف الذي يقول إن التحريف كان في المعنى يقول: نُسخ التوراة منتشرة في الآفاق ولو أن أحداً حرف فيها شيئاً لافتضح وظهر تحريفه، لكن يقال: هذا خلاف الواقع، فالواقع يدل على أنها تحرف وتبدل وتغير ولا يتفطنون لها، لأنهم لا يحفظونها أصلاً، وإلا كيف ضاعت؟ وكذلك الإنجيل ما كتب كما هو معروف في التاريخ إلا بعد المسيح -عليه الصلاة والسلام- بمدة طويلة، وهي أناجيل كثيرة ومتعددة، والتحريف فيها لا شك فيه إطلاقاً، ففي كتبهم أشياء تشيب لها رءوس الولدان من نسبة الموبقات والفواحش للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مما لا يجرؤ الإنسان على نقلها وحكايتها مما يقطع أنه كذب، وأنه ليس من عند الله -عز وجل-.

ومن أهل العلم من بالغ في الطرف الآخر فقال: هذه الكتب كل ما فيها محرف، وبناءً عليه يجوز امتهانها، وهذا كلام غير صحيح، بل فيها أشياء كثيرة ليست محرفة وفيها أشياء محرفة، فلا يجوز امتهانها لما اشتملت عليه من كلام الله -عز وجل- الذي لم يحرف، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- له كلام في هذا حيث يرى أن الذي حُرف من ألفاظها قليل وأن الغالب هو تحريف المعاني.

وعلى كل حال من أكثر ما يُحتج به اليوم على اليهود والنصارى عند مناظرتهم هو التناقضات الموجودة في كتبهم.

وهذه المسألة فيها كلام لأهل العلم، منهم الحافظ ابن حجر –رحمه الله- حيث يقول في الفتح:

قوله: وليس أحد يزيل لفظ كتاب الله من كتب الله -عز وجل-، ولكنهم يحرفونه، يتأولونه عن غير تأويله، في رواية الكشميهني: يتأولونه على غير تأويله، قال شيخنا ابن الملقن في شرحه: هذا الذي قاله أحد القولين في تفسير هذه الآية وهو مختاره -أي البخاري- وقد صرح كثير من أصحابنا بأن اليهود والنصارى بدلوا التوراة والإنجيل، وفرعوا على ذلك جواز امتهان أوراقهما، وهو يخالف ما قاله البخاري هنا، انتهى.

وهو كالصريح في أن قوله: وليس أحد إلى آخره من كلام البخاري، ذيّل به تفسير ابن عباس، وهو يحتمل أن يكون بقية كلام ابن عباس في تفسير الآية، وقال بعض الشراح المتأخرين: اختلف في هذه المسألة على أقوال، أحدها: أنها بدلت كلها وهو مقتضى القول المحكي بجواز الامتهان وهو إفراط، وينبغي حمل

إطلاق من أطلقه على الأكثر وإلا فهي مكابرة، والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل، من ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} الآية [(١٥٧) سورة الأعراف]، ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم، ويؤيده قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٩٣) سورة آل عمران].

ثانيها: أن التبديل وقع، ولكن في معظمها، وأدلته كثيرة، وينبغي حمل الأول عليه.

ثالثها: وقع في اليسير منها، ومعظمها باق على حاله، ونصره الشيخ تقي الدين ابن تيمية في كتابه الرد الصحيح على من بدل دين المسيح.

رابعها: إنما وقع التبديل والتغيير في المعاني لا في الألفاظ، وهو المذكور هنا، وقد سئل ابن تيمية عن هذه المسألة مجرداً، فأجاب في فتاويه أن للعلماء في ذلك قولين واحتج للثاني من أوجه كثيرة منها قوله تعالى: {لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام] وهو معارض بقوله تعالى: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} [(١٨١) سورة البقرة]، ولا يتعين الجمع بما ذكر من الحمل على اللفظ في النفي وعلى المعنى في الإثبات؛ لجواز الحمل في النفي على الحكم، وفي الإثبات على ما هو أعم من اللفظ والمعنى، ومنها أن نسخ التوراة في الشرق والغرب والجنوب والشمال لا يختلف، ومن المحال أن يقع التبديل فتتوارد النسخ بذلك على منهاج واحد.

طبعاً شيخ الإسلام لا يقرر هذا، ولكنه يورد أدلة من يقول: إن التحريف كان بالمعنى ويرد عليها.

وهذا استدلال عجيب، لأنه إذا جاز وقوع التبديل، جاز إعدام المبدل، والنسخ الموجودة الآن هي التي استقر عليها الأمر عندهم عند التبديل والأخبار بذلك طافحة، أما فيما يتعلق بالتوراة فلأن بختنصَّر لما غزا بيت المقدس وأهل بني إسرائيل ومزقهم بين قتيل وأسير وأعدم كتبهم، حتى جاء عزيرٌ فأملاها عليهم، وأما فيما يتعلق بالإنجيل فإن الروم لما دخلوا في النصرانية جمع ملكهم أكابرهم على ما في الإنجيل الذي بأيديهم، وتحريفهم المعاني لا ينكر بل هو موجود عندهم بكثرة، وإنما النزاع هل حرفت الألفاظ أو لا؟ وقد وجد في الكتابين ما لا يجوز أن يكون بهذه الألفاظ من عند الله -عز وجل- أصلاً.

وقد سرد أبو محمد بن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل أشياء كثيرة من هذا الجنس، من ذلك أنه ذكر أن في أول فصل في أول ورقة من توراة اليهود التي عند رهبانهم وقرائهم وعاناتهم وعيسويهم حيث كانوا في المشارق والمغارب لا يختلفون فيها على صفة واحدة، لو رام أحد أن يزيد فيها لفظة أو ينقص منها لفظة لافتضح عندهم متفقاً عليها عندهم إلى الأحبار الهارونية الذين كانوا قبل الخراب الثاني يذكرون أنها مبلغة من أولئك إلى عزرا الهاروني، وأن الله تعالى قال: لما أكل آدم من الشجرة، هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر، وأن السحرة عملوا لفرعون نظير ما أرسل عليهم من الدم والضفادع، وأنهم عجزوا عن البعوض، وأن ابنتي لوط بعد هلاك قومه ضاجعت كل منهما أباها بعد أن سقته الخمر، فوطئ كلاً منهما فحملتا منه، إلى غير ذلك من الأمور المنكرة المستبشعة، وذكر في مواضع أخرى أن التبديل وقع فيها إلى أن أعدمت، فأملاها عزرا المذكور على ما هي عليه الآن.

قوله: "**فأملاها عزرا المذكور** "، يعني عزير في القصة التي هي من الإسرائيليات، والتي يوردها بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: **{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}** [(٢٥٩) سورة البقرة]، وحاصلها أنه مات منذ مدة طويلة جداً، ثم لما بُعث وجد اليهود ليس منهم أحد يحفظ التوراة فقرأها عليهم.

والخلاصة أن بعضهم يقول: إنه حصل تحريف فجاء عزير فأملى عليهم التوراة المحفوظة، وأن هذا هو الذي لا تختلف فيه النسخ الآن، لكن يقال: الواقع اليوم يدل على أن التحريف موجود.

ثم ساق أشياء من نص التوراة التي بأيديهم الآن، الكذب فيها ظاهر جداً، ثم قال: وبلغنا عن قوم من المسلمين ينكرون أن التوراة والإنجيل اللتين بأيدي اليهود والنصارى محرفَّان، والحامل لهم على ذلك قلة مبالاتهم بنصوص القرآن والسنة، وقد اشتملا على أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون.

ويقال لهؤلاء المنكرين: قد قال الله تعالى في صفة الصحابة: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} إلى آخر السورة [(٢٩) سورة الفتح] **وليس بأيدي اليهود والنصارى شيء من هذا، ويقال لمن ادعى أن نقلهم نقل متواتر: قد اتفقوا على أن لا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- في الكتابين، فإن صدقتموهم فيما بأيديهم لكونه نُقِل نقْل المتواتر فصدقوهم فيما زعموه أن لا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ولا أصحابه.**

هذا طريق في المجادلة، حيث يقولون: هؤلاء نقلوا التوراة نقلاً متواتراً فكيف يصح أن يقع التحريف في الألفاظ؟ فهو يرد عليهم فيقول: إذا كنتم تستدلون بهذه الطريقة، فإذاً هم يقولون: لا يوجد عندنا وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الكتاب، فصدقوهم إذاً!! مع أن القرآن مصرح بأن صفته -صلى الله عليه وسلم- مذكورة.

فإن صدقتموهم فيما بأيديهم لكونه نُقِل نقْل المتواتر فصدقوهم فيما زعموه ألا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ولا أصحابه، وإلا فلا يجوز تصديق بعض وتكذيب بعض مع مجيئهما مجيئاً واحداً. انتهى كلامه وفيه فوائد.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي: اغتر بعض المتأخرين بهذا -يعني بما قال البخاري- فقال: إن في تحريف التوراة خلافاً، هل هو في اللفظ والمعنى أو في المعنى فقط؟ ومال إلى الثاني ورأى جواز مطالعتها، وهو قول باطل، ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا، والاشتغال بنظرها وكتابتها لا يجوز بالإجماع.

وقد غضب -صلى الله عليه وسلم- حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: ((لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))[٦]، ولولا أنه معصية ما غضب فيه.

قلت: إن ثبت الإجماع فلا كلام فيه، وقد قيده بالاشتغال بكتابتها ونظرها، فإن أراد من يتشاغل بذلك دون غيره، فلا يحصل المطلوب، لأنه يفهم أنه لو تشاغل بذلك مع تشاغله بغيره جاز، وإن أراد مطلق التشاغل فهو محل النظر، وفي وصفه القول المذكور بالبطلان مع ما تقدم نظر أيضاً، فقد نسب لوهب بن منبه وهو

---

6 - أخرجه أحمد (١٥١٩٥) (ج ٣ / ص ٣٨٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد.

من أعلم الناس بالتوراة، ونسب أيضاً لابن عباس ترجمان القرآن، وكان ينبغي له ترك الدفع بالصدر والتشاغل برد أدلة المخالف التي حكيتها.

يريد أن يقول: إن هذا ثابت عن ابن عباس ووهب بن منبه أنها لم تحرف ألفاظها، فلا حاجة أن يحمل على هذه المحامل، وأن يدعى الإجماع على ذلك.

وفي استدلاله على عدم الجواز الذي ادعى الإجماع فيه بقصة عمر..

نعم هي حرِّفت وبدلت لكن قصة عمر يمكن للمخالف أن يجيب عنها فيقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- أنكر عليه القراءة فيها والنظر فيها؛ لئلا يشتغلوا بشيء عن القرآن، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))، وموسى -عليه الصلاة والسلام- نبي الله ويوحى إليه ومع ذلك لا يسعه، فكيف بالتوراة ولو لم تكن قد حرفت؟! فقد جاء القرآن وهو ناسخ لها، فالنبي –عليه الصلاة والسلام- أنكر على عمر هذا الاشتغال والنظر فيها بصرف النظر عن كونها محرفة أو غير محرفة فإن هذا أمر آخر، والمقصود أنه يمكن أن يجاب بهذا.

وفي استدلاله على عدم الجواز الذي ادعى الإجماع فيه بقصة عمر نظر أيضاً، سأذكره بعد تخريج الحديث المذكور، وقد أخرجه أحمد والبزار، واللفظ له من حديث جابر قال: نسخ عمر كتاباً من التوراة بالعربية فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلام السابق من كتاب فتح الباري لابن حجر في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى:{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [(٢١-٢٢) سورة البروج] الجزء الثالث عشر، صفحة خمسمائة وخمسة وعشرين، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية - الجزء الثاني من الطبعة القديمة، صفحة مائة وسبعة وأربعين، بعنوان: تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم.

قال الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية:

تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران -عليه السلام- وكانت كما قال الله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة الأنعام]، **وقال تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام]، **وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}** [(٤٨) سورة الأنبياء]، **وقال تعالى: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [(١١٧-١١٨) سورة الصافات]، **وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}** [(٤٤) سورة المائدة].

فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها كما قال الله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران]، **فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدلوا حكم الرجم بالجلد والتحميم، مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع.**

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون: إنها جميعها بدلت، وقال آخرون: لم تبدل، واحتجوا بقوله تعالى: **{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ}** [(٤٣) سورة المائدة] وقوله: **{الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ...}** الآية [(١٥٧) سورة الأعراف]، وبقوله: **{قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٩٣) سورة آل عمران] **وبقصة الرجم فإنهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله، وفي السنن عن أبي هريرة وغيره لما تحاكموا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قصة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم: ((ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟)) فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فأمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإحضار التوراة فلما جاءوا بها وجعلوا يقرءونها ويكتمون آية الرجم التي فيها، ووضع عبد الله بن صور يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ارفع يدك يا أعور)) فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برجمهما وقال: ((اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه))**[7].

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة] (٣٤٣٦) (ج ٣ / ص ١٣٣٠) ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٦٩٩) (ج ٣ / ص ١٣٢٦) وابن حبان (٤٤٣٥) (ج ١٠ / ص ٢٨٠).

وعند أبي داود أنهم لما جاءوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها وقال: ((آمنت بك وبمن أنزلك))[٨]، وذكر بعضهم أنه قام لها، ولم أقف على إسناده، والله أعلم.

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم: إن التوراة انقطع تواترها في زمن بختنصر ولم يبق من يحفظها إلا العُزير، ثم العُزير إن كان نبياً فهو معصوم، والتواتر إلى المعصوم يكفي، اللهم إلا أن يقال: إنها لم تتواتر إليه، لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون.

ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء- منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم يعاندون ما جاء به لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً وقالوا: إن حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه.. إلى آخره.

وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى، لم يغيَّر منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتبٍ كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول [رواه ابن أبي حاتم].

فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهَد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان.

نعم، هذا من جهة الترجمة، والترجمة هي بناءً على فهم المترجم، فهي تفسير في الواقع وليست ترجمة حرفية؛ لأن هذا لا يمكن، فليس الكلام في الترجمة، إنما الكلام في الأصول باللغات التي نزلت عليها هذه الكتب.

وهو من باب تفسير المعبِّر المعرِّب.

إذا جئنا بترجمات القرآن الكريم وقمنا بالمقارنة بينها فإننا سنجد التفاوت بينها، ومع ذلك لا يقال: إن حصول هذا التفاوت بين الترجمات يدل على وقوع التحريف في القرآن؛ لأن الترجمة هي من باب التفسير، لذلك لا بد لمن أراد أن يترجم إلى اللغات الأخرى أن يفهم ويرجح، فالمسألة ليست سهلة وإنما تحتاج إلى معرفة تامة باللغتين، وتحتاج أيضاً إلى علم بالتفسير، وللأسف فإن الذي يقع في أحسن أحوال المترجم الآن أنك تجده يعرف اللغتين معرفة جيدة، وأما المعاني فشيء آخر.

وهو من باب تفسير المعبِّر المعرِّب، وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد، وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه عنده فتلك كما قال: محفوظة لم يدخلها شيء.

هذا على كلام وهب أي: إن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وإما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده فهذا بعيد أن يكون مراداً لوهب أو لابن عباس؛ لأن المحرفين إنما يتسلطون على ما بأيديهم.

---

8 - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب في رجم اليهوديين (٤٤٥١) (ج ٤ / ص ٢٦٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٤٤٩).

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ* وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(٧٩-٨٠) سورة آل عمران].

"أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلئلا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين؛ فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه، وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتمَّ قيام، ونصحوا الخلق وبلغوهم الحق.

وقوله: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [(٧٩) سورة آل عمران]**، أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو رزين وغير واحد: أي حكماء علماء حلماء.**

وقال الضحاك في قوله: {بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [(٧٩) سورة آل عمران] **حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً، {وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} تحفظون ألفاظه".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله تبارك وتعالى: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}، بعض أهل العلم يقول: هذا منسوب إلى الرب، والرب يطلق على معانٍ -كما سبق في الكلام على الفاتحة- منها السيد ومنها المربي الذي يربي خلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، يربي قلوبهم بالإيمان، ويربي أجسادهم بما يسبغ عليهم من نعمه وإفضاله وعطائه وجوده، فالرباني هنا من أهل العلم من يقول: إنه منسوب إلى الرب، ففيه معنى التربيب والتربية، فهو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ومنهم من يقول: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}، يعني أرباب العلم، يعني العالمين بدين الرب -تبارك وتعالى- ورب الشيء هو صاحبه، كما في قول عبد المطلب: أنا رب الإبل، والبيت له رب يحميه، يعني أنا صاحب الإبل، فمنهم من يقول: إن الربانيين بمعني الأصحاب، أى أنهم أصحاب العلم، يعني أهل العلم، ومنهم من يقول: إن الرباني منسوب إلى الرَّبَّان.

وعلى كل حال كثير من السلف يجمع في معناها وتفسيرها بين العلم والحكمة، أو العلم والعمل، والذي يظهر -والله أعلم- أن هذه اللفظة لا تدل على العلم فحسب، بل هي تدل على العلم وعلى معنىً آخر، فمعنى الحكمة والفقه متحقق فيها، ويضاف إلى ذلك العالم الذي يعمل بعلمه، ويعلم الناس صغار العلم قبل كباره، ويكون مصلحاً لغيره، فهو الذي يُحسن سياسة الناس بهذا العلم، ويتكلم حيث يظن أن الكلام ينفع، ويمسك عن بعض العلم حيث لا يكون محلاً لبثه وإشاعته، وما إلى ذلك من المعاني، فهي تشمل هذه الأقوال التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم-.

وقوله تبارك وتعالى: {بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [(٧٩) سورة آل عمران]، أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب وبسبب دراستكم للعلم، فإن هذا يحمل ويقتضي من صاحبه أن يكون ربانياً، أي أن يكون عاملاً بعلمه، وأن يكون حكيماً مصلحاً لحاله ولحال غيره.

وهذا على هذه القراءة، {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}، يعني بهذا السبب، أي أن تعليمكم الكتاب ينتج عنه هذه الصفة، والمعنى كونوا ربانيين بسبب تعليمكم؛ فإن الذي يعلم الناس بالكتاب ينبغي أن يكون عاملاً وأن يكون حكيماً في تعليمه، فلا يلقي عليهم كل ما يعلمه، وإنما يلقي عليهم ما يصلح لمثلهم في كل مقام بحسبه، ومن ذلك أنه يعلم الناس صغار العلم قبل كباره، ويحمله تعليم الكتاب أو العلم بالكتاب إلى العمل به، وإلى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً، وحثهم على طاعة الله -عز وجل- وما أشبه ذلك.

وعلى القراءة الأخرى -قراءة أبي عمرو وأهل المدينة-: {بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمون الْكِتَابَ} -بفتح التاء وتخفيف اللام المفتوحة- يكون المعنى كونوا ربانيين بسبب علمكم بالكتاب.

ومن أشمل من تكلم في هذه الآية –فيما وقفت عليه- ابن جرير -رحمه الله تعالى-، وخلاصة كلامه:

يقول ابن جرير -رحمة الله تعالى عليه-: قال أبو جعفر، وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنهم جمع رباني، وأن الرباني الذي يرب الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربها ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وكنت امرأً أفضت إليك ربابتي ... وقبلك ربتني فضعت ربوب

يعني بقوله: ربتني: ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويصلحه، فلم يصلحوه ولكنهم أضاعوني فضعت، يقال منه: رب أمري فلان، فهو يربه رباً وهو رابه، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربان، كما يقال: هو نعسان من قولهم: نعس ينعس، وأكثر ما يجيء من الأسماء على فعلان ما كان من الأفعال ماضيه على فَعِل، مثل قولهم: هو سكران وعطشان وريان، من سَكِر يسْكَر وعطش يعطش وروي يروى، وقد يجيء مما كان ماضيه على فَعَل يفعُل نحو ما قلنا من نَعَس ينعُس، ورب يرب.

قال: فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، وكان الربان ما ذكرنا، والرباني هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يرب أمور الناس، بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة

النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعاً يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله عز وجل: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [(٧٩) سورة آل عمران].

فالربانيون إذاً هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحبار؛ لأن الأحبار هم العلماء، والرباني الجامع إلى العلم والفقه والبصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

يعني ليس الفقيه فقط أو العالم فقط، بل العالم الذي يربي الناس، ويرجعون إليه، ويفزعون إليه فيما نابهم في مشكلاتهم، ويكون له قيام بالحق ودعوة لهؤلاء الناس، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وما أشبه ذلك.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

"ثم قال الله تعالى: {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا} [(٨٠) سورة آل عمران] أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

{أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(٨٠) سورة آل عمران]، أي لا يفعل ذلك لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} الآية [(٣٦) سورة النحل]، وقال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [(٤٥) سورة الزخرف]، وقال إخباراً عن الملائكة عليهم السلام: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٢٩) سورة الأنبياء].

{وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٨١-٨٢) سورة آل عمران].

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم -عليه السلام- إلى عيسى -عليه السلام- لَمَهْمَا آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} أي: لَمَهْمَا أعطيتكم من كتاب وحكمة".

قوله تبارك تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ} الميثاق: هو العهد المؤكد، والمعنى أن الله أخذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله -عز وجل- فيدركه زمانهم بحيث يتابعونه ويصدقونه.

وقوله تبارك وتعالى: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} كلام أهل العلم كثير في تفسير هذه اللفظة {لَمَا} والمراد بها، وقد سأل عنها سيبويه شيخه الخليل -رحمهما الله- ففسرها بمعنى قريب، حيث فسرها بمعنى الذي، وهذا هو المتبادر والله تعالى أعلم، أي {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} بمعنى للذي آتيتكم من كتاب وحكمة،

فـــ"ما" بمعنى الذي، واللام هذه، منهم من يقول: إنها للتحقيق، ومنهم من يقول: غير ذلك، وهذا المعنى ظاهر وهو المتبادر والله تعالى أعلم.

وقوله: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} وفي قراءة حمزة -وهي قراءة متواترة- قرأها بكسر اللام في {لِمَـــا}، والتعليل في هذه القراءة أظهر.

"{ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي} [(٨١) سورة آل عمــران] **وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والربيع وقتادة والسدي: يعني عهدي، وقال محمد بن إسحاق: إصري: أي ثقل ما حملتم من عهدي: أي ميثاقي الشديد المؤكد".**

الإصر هو بمعنى العهد المؤكد الموثق المشدد فيه، فهذه اللفظة تدل على معنى التشديد، فقوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] يعني التكاليف الشاقة.

وعلى كل حال سواء كان هذا بإلزام الله -عز وجل- لهم بذلك، أو بما أخذ عليهم مــن المواثيــق والعهــود فالمقصود أن فيها معنى التشديد، فقوله: {وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي} يعني العهد الموثق المشدد فيه والله أعلم.

قوله: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} أي الكتاب الذي أنزله الله عليهم، والحكمة يعني ما أوحي إليهم من غيــر الكتاب أي السنّة -كما سبق في كلام ابن جرير- وليس بالضرورة أن يكون المقصود سنة النبي -صــلى الله عليه وسلم- فالأنبياء يوحى إليهم أشياء غير الكتاب الذي ينزل عليهم.

"{قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ} [(٨١-٨٢) ســورة آل عمــران]، **أي عن هذا العهد والميثاق،** {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٨٢) سورة آل عمران].

قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: مــا بعــث الله نبيــاً مــن الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخــذ الميثــاق على أمته لئن بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً.

وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس -رضي الله عنهم- فالرسول محمد خــاتم الأنبيــاء -صــلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين- هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هــو الواجــب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكــذلك هــو الشفيع في يوم المحشر في إتيان الرب -جل جلاله- لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الــذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليــه، فيكــون هــو المخصوص به -صلوات الله وسلامه عليه-.

{أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ* قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُــوَ فِــي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٣-٨٥) سورة آل عمران].

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السماوات والأرض، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرها، كما قال تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} الآية [(١٥) سورة الرعد]، **وقال تعالى: {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ* وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [(٤٨-٥٠) سورة النحل] **فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً؛ فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.**

وقد روى وكيع في تفسيره عن مجاهد: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [(٨٣) سورة آل عمران] **قال: هو كقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}** [(٢٥) سورة لقمان].

وروى عن ابن عباس: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [(٨٣) سورة آل عمران] **قال: حين أخذ الميثاق، {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}** [(٨٣) سورة آل عمران]، **أي يوم المعاد، فيجازي كلاً بعمله".**

وجه الإشكال هو كيف يكون إسلام الكافر في قوله: **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}** [(٨٣) سورة آل عمران]، فقوله: **{طَوْعًا}** هذا بالنسبة للمؤمن، وقوله: **{وَكَرْهًا}** هذا بالنسبة للكافر، فهي إما أن تفسر بهذا بالتفسير، بمعنى أن الله -عز وجل- يتصرف فيه كما يشاء، حتى هذا البدن فإنه يقوم بإقامة الله -عز وجل- له حسب سنة أجراها في تدبيره وقيامه كما هو معلوم، أضف إلى ذلك ما يقع له من الأمور التي يقدرها عليه فهو لا يستطيع الخلاص من ذلك ولا الانفكاك منه، فيولد بقدر الله في وقت محدد، ويموت بقدر الله، والله يكتب رزقه وأجله وعمله، ولا يكون له قليل ولا كثير إلا بإرادة الله -عز وجل- الكونية، ويصرِّفه كيف يشاء، فهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير أولاً.

أو يكون أسلم كرهاً بمعنى أنه إذا عاين في الآخرة أو عاين في الدنيا عند الهلكة حين لا يستطيع الخلاص والفكاك والنجاة كما حصل لفرعون ولغير فرعون سواء كان في الدنيا أو في الآخرة عند ذلك يذعن ويقر ويستسلم، وهذا المعنى فيه بعد، والله -عز وجل- لم يحدد في ذلك وقتاً وإنما أطلقه، والأصل أن المطلق يبقى على إطلاقه، وهذه الآية لا تفهم بمعزل عن الآيات الأخرى التي تذكر سجود من في السماوات والأرض لله -تبارك وتعالى- وما إلى ذلك من المعاني التي تدل على خضوع الخلق التام لربهم ومليكهم -جل جلاله-.

ومنهم من يقول غير هذا كما ذكر ابن كثير هنا عن ابن عباس أنه قال: إن هذا حين أخذ الميثاق، قال لهم: **{أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى}** [(١٧٢) سورة الأعراف]، فيكون هذا هو الإسلام، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا} [(٨٤) سورة آل عمران] **يعني القرآن، {وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}** [(٨٤) سورة آل عمران] **أي من الصحف والوحي، {وَالأَسْبَاطِ} وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل -وهو يعقوب- الاثني عشر، {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى}** [(٨٤) سورة آل عمران]".

سبق الكلام عن الأسباط في سورة البقرة، وهل المراد بهم تلك القبائل أو البطون من بني إسرائيل، المتشعبة عن أولاد يعقوب؟ أو المراد بهم أولاد يعقوب؟

من أهل العلم من يقول: المراد بالأسباط أولاد يعقوب، والكلام في نبوتهم معروف، وأما ما وقع لهم مع يوسف -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: إنه كان قبل نبوتهم.

وعلى كل حال فالقبائل من بني إسرائيل يقال لهم أسباط، والله -عز وجل- ذكر الأسباط في سورة الأعراف فقال: {أَسْبَاطًا أُمَمًا} [(١٦٠) سورة الأعراف]، وفي بعض المواضع يحتمل المقام أن يكون المراد بهم أولاد يعقوب أو المراد بطون بني إسرائيل بمعنى الأنبياء الذين وجدوا فيهم، فيكون معنى {وَالأَسْبَاطِ} أي وما أنزل على هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل.

والله عز وجل -كما سبق- في سورة البقرة يقول: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [(١٤٠) سورة البقرة]، فالأقرب إلى ظاهر السياق أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، مع أن بعض أهل العلم يقول: هم الأنبياء الذين كانوا من ذريتهم ونسلهم، بمعنى أن الأسباط قبائل بني إسرائيل المتناسلة من هؤلاء والله أعلم.

"{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} [(٨٤) سورة آل عمران] يعني بذلك التوراة والإنجيل، {وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ} [(٨٤) سورة آل عمران]، وهذا يعم جميع الأنبياء جملة، {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} [(٨٤) سورة آل عمران]، يعني بل نؤمن بجميعهم، {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(٨٤) سورة آل عمران] فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبيٍ أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبيٍ بعثه الله.

ثم قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} الآية [(٨٥) سورة آل عمران] أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، {وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[1].

وروى الإمام أحمد عن الحسن حدثنا أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله تعالى: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله في كتابه: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٥) سورة آل عمران])) تفرد به أحمد[2]".

على كل حال هذا الحديث فيه كلام، فإسناده لا يخلو من ضعف.

"{كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

[2] - أخرجه أحمد (٨٧٢٧) (ج ٢ / ص ٣٦٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة.

الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٦-٨٩) سورة آل عمران].

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...} [(٨٦) سورة آل عمران] إلى قوله: {فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٩) سورة آل عمران] فأرسل إليه قومه فأسلم، وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فقوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٨٦) سورة آل عمران] أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(٨٦) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [(٨٧) سورة آل عمران] أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: في اللعنة".

في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا} يحتمل أن يكون المراد أي اللعنة؛ لأنها هي المذكورة قبلُ، {أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ..}، ويحتمل أن يكون المراد بذلك العقوبة، وعلى كل حال فإن بين القولين ملازمة لا تخفى، وذلك أن اللعنة هي سبب للعقوبة، والخلود إنما يعبر به غالباً عن العقوبة أي أن صاحبها يكون خالداً في العذاب أو في النار، وهذا أقرب وأكثر في الاستعمال من إضافته إلى اللعن، ولهذا فإن بعض المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: خالدين في العقوبة، والأمر كما ذكرت أنه بين القولين ملازمة، والله أعلم.

"{لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [(٨٨) سورة آل عمران]، أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٩) سورة آل عمران] وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أنه من تاب إليه تاب عليه".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٩٠-٩١) سورة آل عمران].

"يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أي ستمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ..} الآية [(١٨) سورة النساء]، **ولهذا قال ها هنا: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ}** [(٩٠) سورة آل عمران] أي: **الخارجون عن المنهج الحق إلى طرق الغي".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}** [(٩٠) سورة آل عمران] هذه الآية فيها إشكال معروف عند أهل العلم وذلك أن الله -عز وجل- أخبرنا في غير هذا الموضع من كتابه أنه يقبل التوبة عن عباده، وأن أهل الذنوب مهما تعاظمت ذنوبهم فإن الله -عز وجل- يفتح لهم باب التوبة، حتى إنه عزَّ وجل يقول للذين نسبوا له الصاحبة والولد متلطفاً بهم غاية التلطف: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}** [(٧٤) سورة المائدة] إلى غير ذلك مما هو معلوم، وهذه الآية يقول الله فيها إنه لن يقبل توبتهم، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يفسر هذه الآية بالآية الأخرى وهي أن الإنسان إذا أخر التوبة فإنه لا تقبل توبته عند الموت، أي إنه فسرها بقوله تعالى: **{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}** [(١٨) سورة النساء] وهذا قول معروف قال به طوائف من أهل العلم، وعلى هذا القول ينتفي الإشكال، حيث قال: **{لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}** [(٩٠) سورة آل عمران] يعني الذين أخروها إلى حال الغرغرة أو عند الموت، فهذا لا تقبل توبته ولو كانت من الذنوب والمعاصي كما هو معلوم.

ومنهم من حمل ذلك على من مات على الكفر؛ لأنه قال: **{وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}** [(١٨) سورة النساء]، بمعنى أن هؤلاء الذين يموتون على الكفر هم الذين أرادهم الله -عز وجل- بهذه الآية، لكن هذا الجواب فيه إشكال، لأن هؤلاء ما تابوا، والله -عز وجل- هنا يقول: **{لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}** [(٩٠) سورة آل عمران] فمن مات على الكفر فإنه لم يتب.

ومن أهل العلم من يقول -ككبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن هذه الآية في اليهود حيث آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يبعث، بما كانوا يجدونه في كتبهم، فعرفوه من صفته، فهؤلاء

آمنوا، فلما بعث كفروا به -صلى الله عليه وسلم- وقاموا بأمور من الجرائم والذنوب، سواء كان في حقه -عليه الصلاة والسلام- أو في غير ذلك، لذلك قال: {ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(٩٠) سورة آل عمران]، فالذنوب والمعاصي التي يكتسبها الكافر هي زيادة في كفره كما قال الله -عز وجل- عن المشركين: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [(٣٧) سورة التوبة]، فالنسيء هو تأخير الأشهر، فبدل أن يكون المحرم العام القادم في وقته يستبدلونه بصفر، وهكذا بدل أن يكون رجب في وقته يقدم عنه شعبان ورجب يؤخر، ففعلهم هذا سماه الله -عز وجل- زيادة في الكفر، فهؤلاء إذا تابوا من شيء من ذنوبهم ومعاصيهم عدا كفرهم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فلن تقبل توبتهم، هذا على قول ابن جرير ومن وافقه -رحمهم الله- أنها خاصة في اليهود.

ومن أهل العلم من يقول: هؤلاء الذين آمنوا ثم ارتدوا، فما كان لهم من توبة وهي من جملة الأعمال الصالحة قبل ردتهم فإنها لن تقبل، أي ما وقع منهم من توبة من الذنوب والمعاصي قبل الردة لا تقبل؛ لأن الردة أبطلت أعمالهم السابقة، وهذا القول قد لا يظهر كل الظهور.

ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بهذه الآية أنهم لن يوفقوا للتوبة، وبناءً على ذلك فإن توبتهم لن تقبل، يعني عُبِّر بأحد المتلازمين عن الآخر فقال: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] أي لن يوفقوا للتوبة، فهؤلاء عرفوا الحق {ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(٩٠) سورة آل عمران]، فهم دانوا بالحق ثم رجعوا عنه، ثم ازدادوا غياً وضلالاً، فهؤلاء لن يوفقوا للتوبة، وإذا لم يوفقوا للتوبة فإن توبتهم لن تقبل بطبيعة الحال.

فهذه احتمالات، ومن أهل العلم من قال بأبعد من هذا، كمن قال: لن تقبل توبتهم إن تابوا إلى كفر آخر حتى يتوبوا من كفرهم توبة صحيحة بالرجوع إلى الحق الذي هو دين الإسلام، فلو تاب من اليهودية ودخل في النصرانية فإنه لن يقبل منه، وهكذا.

"ولهذا قال هاهنا: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ} [(٩٠) سورة آل عمران] أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طرق الغي.

روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران]. وإسناده جيد".

على كل حال هذه الآية يمكن أن تفسَّر الآية الأخرى أيضاً وهي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(١٣٧) سورة النساء] حيث عقبها بقوله: {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً} [(١٣٧) سورة النساء] وهنا في آل عمران قال: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] وهذه المعاني متلازمة، فهم إذا قبلت توبتهم غفر الله لهم، فعبر بنفي المغفرة هناك، وهنا عبر بنفي قبول التوبة، فيمكن أن يقال -والله أعلم-: إن هذا مما يؤيد قول من قال: إن المقصود بقوله: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] أنهم لن يوفقوا للتوبة، وبناءً عليه فإنهم لن تقبل توبتهم؛ لأنهم لم يتوبوا أصلاً، وهذا يرجع إلى قول من قال: إن هذه الآية فيمن مات على كفره، ثم إذا نظرت إلى حال من تاب عند الموت فهو في حكم من

مات على كفره؛ لأن توبته لم تقع في محل يتحقق فيه القبول فكأنها منعدمة لم توجد، والخلاصة أنك تجد أن بعض هذه الأقوال يمكن أن يرجع إلى بعض بهذا الاعتبار، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران] **أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عبد الله بن جدعان، وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام، هل ينفعه ذلك؟ فقال: ((لا؛ إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين))[1] وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قُبل منه كما قال تعالى:** {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ} [(١٢٣) سورة البقرة]".

قوله: {مِّلْءُ الأرْضِ} المقصود به مقدار ما يملأ الأرض، كما تقول: ملء هذا الكأس مثلاً، بمعنى مقدار ذلك.

"وقال تعالى: {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم] **وقال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة]".

في الآية الأولى: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(١٢٣) سورة البقرة] جاء لفظ "عدل" نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي: لا يقبل منها عدل بإطلاق، وهنا في هذه الآية قال: {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} [(٩١) سورة آل عمران]، فهنا جاء ذلك محدداً بهذا المقدار -بملء الأرض- وهناك أطلقه، أي فلن يقبل منهم الفدية ولا العدل ولو بذلوا في ذلك ملء الأرض ذهباً أو أكثر من ذلك أو أقلّ،قال الله -عز وجل-: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(١٢٣) سورة البقرة] أياً كان، وقال: {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم] وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ} [(٣٦) سورة المائدة] ذكر هنا ملء الأرض ومثله معه، يعني ضعف ما هاهنا، فكل ذلك وغيره على كل حال يقرر أن هؤلاء لا فكاك لهم، ولهذا ذكر الأمور الثلاثة في سورة البقرة، فقال سبحانه: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] فلا يقبل فيه شفاعة شافع، ولا يفتدي عن نفسه بشيء ولا يمكن لأحد أن يخلصه بالقوة، فلا خلاص لا بواسطة ولا بمقابل ولا بالقوة، فكل ذلك نفاه الله -عز وجل- عنهم كما قال: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(١٥) سورة الحديد] وقال: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام] نسأل الله العافية.

قوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ}: ليس المقصود بالعدل هنا ما يقابل الظلم وإنما المقصود ما يعاوض به، أي ما يقدمه فكاكاً وفداءً لنفسه.

"ولهذا قال تعالى هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران] **فعطف** {وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} **على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة والله أعلم".**

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٢١٤) (ج ١ / ص ١٩٦).

هذا الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو وجه حسن، ولنتأمل الآية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩٠-٩١) سورة آل عمران] أي: لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً ولو كان ذلك على سبيل الفدية، فابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: "**ولهذا قال تعالى هاهنا**: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ...} إلى آخره، **فعطف** {وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} **على الأول فدل على أنه غيره**" وهذا باعتبار أن العطف يقتضي المغايرة، أي أن قوله: {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا}، يكون معنى مستقلاً، بمعنى أنه يفسَّر بالآيات الأخرى كما في قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، وكقوله -تبارك وتعالى- عن أعمال الكفار: {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [(١٨) سورة إبراهيم]، وأخبر عنها بغير ذلك مما يدل على بطلانها وحبوطها، وأنها غير نافعة لهم كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [(٣٩) سورة النـــور] فلن تؤثر لهم جزاءً في الآخرة وإنما هي باطلة حابطة، فهنا يكون الشق الأول يتحدث عن هذا المعنى وهو قوله: {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} يعني لو بذله في سبيل الله في أعمال صالحة يتقرب بها إلى ربه -تبارك وتعالى- فإنها مردودة، ثم ذكر معنى آخر وهو أنه لو كان هذا البذل لهذا المال الكثير على سبيل الافتداء، أي من أجل أن يفدي نفسه بهذا المال ليتخلص، فإن ذلك لن يقبل منه، يقول ابن كثير عن هذا التفسير: "**وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة**"؛ ذلك أنه إذا قيل: إن الواو زائدة يكون المعنى: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو افتدى به، بمعنى أن ذلك كله كان في شيء واحد هو الافتداء فقط بخلاف التفسير الأول.

ثم إن ادعاء الزيادة لا يصح، وهذا مع تحفظنا على لفظة زائدة؛ لأنه لا زائد في القرآن، فإذا قيل: إنها زائدة لفظاً ومعنى، فهذا لا يصح لأن القرآن كما هو معلوم ليس فيه حشو، وإنما زيادة المبنى لزيادة المعنى، فلا يوجد في القرآن حرف إلا وله معنى، لكنهم يقصدون الزيادة من جهة الإعراب فقط، ولذلك يتأدب بعضهم في العبارة فينكر التعبير بهذه اللفظة ويقول: إنها منافية للأدب مع القرآن، وإنما الأدب اللائق أن يقال: هي صلة، وهذا التعبير الأخير في كتب التفسير كثير، فالحاصل أن الأصل عدم الزيادة، وأن كل حرف أو لفظة لها معنى، وإذا دار الكلام بين الإعمال والإهمال فالأصل الإعمال، وإذا دار الكلام بين الزيادة وعدمها فالأصل عدم الزيادة، فمهما أمكن حمل الكلام على معنىً صحيح فإنه أولى من ادعاء الزيادة، ولذلك فإن الوجه الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أولى من قول من قال: إنها زائدة، وأولى من تفسير من فسره بالمعنى، والمراد بالتفسير بالمعنى أن يفسر المفسر الآية بقوله: وهو محمول على المعنى، يقول هذا من غير مراعاة للألفاظ ولا للترتيب أحياناً؛ لأن السياق أو ترتيب الكلام يكون عنده فيه إشكال، وهذا له أمثلة كثيرة في التفسير.

"**ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.**

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربي خير منزل. فيقول: سل**

وتمنَّ، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرار؛ لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا رب شرَّ منزل، فيقول له: تفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً، فيقول: أي ربِّ نعم، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار))[2].

ولهذا قال: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٩١) سورة آل عمران] **أي: وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.**

{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٩٢) سورة آل عمران].

روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} **قال: البر الجنة".**

لما ذكر الله -عز وجل- حال الكافرين وبين أن ما يبذلونه من النفقات التي يتقربون بها إلى الله -عز وجل- مردود، وأنه مهما بذلوا من أجل فكاك أنفسهم من عذاب الله -عز وجل- فإن ذلك لن يحصل لهم؛ فالعذاب أمر واقع بهم لا محالة، خاطب الله -عز وجل- بعد ذلك المؤمنين ببيان ما ينفعهم ويوصلهم ويبلغهم الدرجات العُلى عند الله -تبارك وتعالى-، وتحصيل مرضاته وما يدخلهم جنته فقال: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران].

قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} يقول: "**روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون:** {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} **قال: الجنة**"، وبعضهم يقول: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} يعني العمل الصالح الذي يقرب إلى وجهه الكريم ويدخل جنته، والواقع أن هذه الأقوال متلازمة، فالعمل الصالح هو الذي يدخل به الإنسان الجنة بعد رحمة الله -عز وجل- وفضله عليه، والله -عز وجل- يقول لأهل الجنة: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٣٢) سورة النحل]، فسواء قلنا: المقصود بقوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} الجنة، أو قلنا: العمل الصالح، فهذا من باب ذكر السبب أو المسبب، ولا يخفى ما بين السبب والمسبب من الملازمة، فلا نحتاج في مثل هذا أن نرجح بين القولين.

و"من" في قوله: {مِمَّا تُحِبُّونَ} تحتمل أن تكون بيانية، وتحتمل أن تكون تبعيضية، ويؤيد القول بأنها تبعيضية قراءة شاذة لابن مسعود -رضي الله عنه- وفيها: "بعض ما تحبون" أي: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا بعض ما تحبون"، بمعنى أن الإنسان لا ينفق كل ما يحب وإنما ينفق بعض ما يحب.

"وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب".

كانت مستقبلة المسجد من جهة الشمال، وهي الآن داخلة في المسجد، فإذا جئت المسجد من باب عمر أو الباب المجيدي اللذين في الجهة الخلفية، فهي على يسارك قليلاً أي أنها كانت في غاية القرب من المسجد.

"قال أنس -رضي الله تعالى عنه-: فلما نزلت {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران]، **قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول:** {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} **وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك**

---

2 - أخرجه أحمد (١٣١٨٥) (ج ٣ / ص ٢٠٧) والحاكم (٢٤٠٥) (ج ٢ / ص ٨٥) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين)) فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[٣]. [أخرجاه].

وفي الصحيحين أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: ((حبِّس الأصل وسبل الثمرة))[٤]".

الأمثلة على هذا التصرف من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم كثيرة، ومن ذلك أن زيد بن حارثة -رضي الله عنه- لما سمع هذه الآية جاء بفرس له يقال له: "سَبَل" ودفعه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليجعله في سبيل الله.

ومن ذلك فعل ابن عمر -رضي الله عنه- في جاريته الرومية "مرجانة" التي كان يحبها غاية الحب، فأعتقها، وكذلك عمر -رضي الله عنه- في جارية من سبي جلولاء، وغير ذلك مما كانوا يفعلونه في تحري هذا المعنى، وهو بذل ما يحبون في سبيل الله.

"{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٩٣-٩٥) سورة آل عمران].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: ((سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابعنّي على الإسلام))".

هذه الآية **{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ}** [(٩٣) سورة آل عمران] كلام أهل العلم فيها متقارب، والآية ليس فيها إشكال فهي واضحة المعنى، لكن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر أمراً أشار إلى أنه هو المقصود من سياق الآية، فعامة أهل العلم يقولون: إن هذه الآية ترد على اليهود لما زعموا أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- حينما حرم على نفسه ألبان الإبل ولحومها كان ذلك عندهم في التوراة فأكذبهم الله -عز وجل- وأخبر أن جميع المطعومات كانت حلاً له ولأولاده، ولكنه حرم ذلك على نفسه على سبيل النذر، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، ولم يحرمه الله -تبارك وتعالى- عليه، ثم استن به بنوه فجانبوها، ولم يحرمها الله -عز وجل- عليهم حتى نزلت التوراة، فحرم الله –تبارك وتعالى- في التوراة أشياء على بني إسرائيل كما سيأتي، فأما هذه التي حرمها يعقوب -صلى الله عليه وسلم- على نفسه لم تكن مما حرمه الله -تبارك وتعالى- عليه، بل كان كل الطعام مما أحله الله لهم، ولم يكن ذلك محرماً بالتوراة، فالمقصود أن هذا هو المعنى الذي يدور حوله المفسرون، أي أنه ردٌّ على اليهود هذه الدعوى، لكن ابن القيم -رحمه الله-

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٩) (ج ٤ / ص ١٦٥٩) ومسلم في كتاب الزكاة - باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٩٩٨) (ج ٢ / ص ٦٩٣).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الشروط - باب الشروط في الوقف (٢٥٨٦) (ج ٢ / ص ٩٨٢) ومسلم في كتاب الوصية – باب الوقف (١٦٣٢) (ج ٣ / ص ١٢٥٥).

ذكر معنىً وقال: وقد حام حوله المفسرون لكنهم لم يصرحوا به، وهو أن ذكر الطعام كان مثالاً، وأن الآية ترد على اليهود فيما هو أبلغ من ذلك، وهو الرد عليهم حيث أنكروا نسخ الشرائع، وبناءً عليه قالوا: نحن متعبدون بالتوراة أبداً، يعني لا تنسخ إلى الأبد، ويأتون بنصوص يزعمون أنها من التوراة يحتجون بها على قولهم، ويقولون: إن التوراة لا تنسخ وأن شريعة موسى -صلى الله عليه وسلم- باقية إلى قيام الساعة، وكما هو معلوم أن اليهود أنكروا النسخ وقالوا: إنه يستلزم البداء، وقد سبق الكلام عليه عند قوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] قالوا: يستلزم البداء، وقلنا: إن المقصود بالبداء: الظهور والانكشاف بعد الخفاء، يعني كأنه بدا لله أمر لم يكن ظاهراً له، وإنما يحصل هذا لمن ليس له علم محيط بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

فالمقصود أن اليهود أنكروا النسخ كما هو معروف، فهذه الآية ترد عليهم، تقول: أنتم في التوراة حرمت عليكم أشياء وأشياء، كما قال الله -عز وجل-: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على تحريم أشياء عليهم لم تكن محرمة قبل التوراة على بني إسرائيل، فهذا برهان على النسخ وأن التوراة نسخت أشياء، ولم يكن ذلك رفعاً للبراءة الأصلية بل كان ذلك مباحاً إباحةً شرعية، قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران]، ولو كان رفعاً للبراءة الأصلية لم يكن نسخاً، وقد عرفنا الفرق بين رفع البراءة الأصلية وبين رفع الإباحة الشرعية.

"قالوا أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أيّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليُّه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لأن أخبرهم ليتابعنه، فقال: ((أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟)) فقالوا: اللهم نعم. قال: ((اللهم اشهد عليهم))، وقال: ((أنشدكم بالذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟)) قالوا: نعم، قال: ((اللهم اشهد عليهم))[5]".

هذا الحديث جمع بين الأمرين -بين الشبه وبين الذكورة والأنوثة- وبيَّن أن ذلك مرتبط تمام الارتباط بهذا المعنى، وهذا ما لا يعرفه الأطباء ولا يقرونه ولا يعترفون به ولم يصلوا إليه أصلاً، ولو أن أصحاب الإعجاز في الكتاب والسنة جعلوا جهودهم منصبة على هذه الأشياء التي لا يحتاجون فيها إلى تفسير معاني القرآن ومعاني السنة من غير علم لكان أنفع وأحسن، يعني مثل حديث بول الجارية وبول الغلام، بناءً على

---

[5] - أخرجه أحمد (٢٥١٤) (ج ١ / ص ٢٧٨) والطبراني في الكبير (١٣٠٤٥) (ج ١٢ / ص ٢٤٦).

أن خصائص بول الغلام تختلف عن خصائص بول الجارية، فينضح من هذا ويغسل من هذا، لو أجروا تحليلات ودراسات وكذا لكان أنفع بكثير، وكذلك هنا لو درسوا مثل ها الأشياء لكان أنفع.

ناقشت بعض الاستشاريين في هذا الجانب، يقولون: المرأة ما لها ماء أصلاً، وهذا قول الفلاسفة القدماء، وهو الذي عليه الأطباء، اليوم وأظنهم يُجمعون عليه، إذ ما رأيت لأحد كلاماً يخالف هذا، وإنما يقولون: إن الخلق ليس له علاقة بماء المرأة حتى وإن فرضنا أن لها ماء، وإنما الذي يحصل هو أن البويضة تلقح وينتهي كل شيء، فهذا الحديث يرد عليهم، ولذلك لما قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أو تحتلم المرأة؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ففيمَ يشبهها ولدها؟))[6].

"**وقال: ((أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟)) قالوا: اللهم نعم، قال: ((اللهم اشهد)) قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: ((إن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا هو وليه)) قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ..} الآية** [(٩٧) سورة البقرة].

وقوله: {مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] **أي حرَّم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قلت: ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان: إحداهما: أن إسرائيل -عليه السلام- حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله".**

قوله: {مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} يعني أنه لم يحرَّم على بني إسرائيل شيء قبل نزول التوراة وهناك استثناء لم يكن بتحريم الله -عز وجل-، وإنما ما حرم يعقوب -صلى الله عليه وسلم- على نفسه، فتابعه بنوه من غير تحريم الله -عز وجل- عليهم، فنزلت التوراة وحُرِّم فيها أشياء بسبب بغيهم وظلمهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [(١٦٠) سورة النساء]، فالتحريم ثابت بالتوراة حيث حرم عليهم أشياء كثيرة إلى درجة أن ذلك يثقل عليهم ويشق عليهم، حتى إنك إذا نظرت إلى قوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] تجد المشقة مفروضة عليهم بحيث إن الواحد منهم يحتاج إلى أن يستقصي في هذه الذبائح؛ لأن هذا يحل وهذا لا يحل!!.

"**إحداهما: أن إسرائيل -عليه السلام- حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}** [(٩٢) سورة آل عمران]".

هذا الكلام يربط فيه ابن كثير -رحمه الله- بين هذه الآية وبين التي قبلها، وهذا الوجه من الربط يقول فيه: إن الله -عز وجل- قال لهذه الأمة: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران] ويعقوب -صلى الله عليه وسلم- نذر لله أن يترك أحب الطعام والشراب إليه وهو لحوم الإبل وألبانها.

فالمقصود أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- تخلى عن أحب الطعام والشراب إليه، ومعلوم أن الطعام والشراب أحد الأطيبين، فالأطيبان عند العرب الطعام والشراب والنكاح، وبعضهم يقول غير هذا.

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الحياء في العلم (١٣٠) (ج ١ / ص ٦٠) ومسلم في كتاب الحيض - باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٣) (ج ١ / ص ٢٥١).

واللبن إذا أطلق في القرآن والسنة ولغة العرب فالمقصود به الحليب وليس ما يطلق عليه اليوم عند المعاصرين، قال تعالى: {لَّبَنًا خَالِصًا} [(٦٦) سورة النحل].

"فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [(١٧٧) سورة البقرة] وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} الآية [(٨) سورة الإنسان].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه، وظهور الحق واليقين في أمر عيسى -عليه السلام- وأمّه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثَه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه -تبارك وتعالى- شرع في الرد على اليهود -قبحهم الله- وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة..."

خلاصة وجه الارتباط بين الآيتين:

وجه الارتباط بين قوله: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} [(٩٣) سورة آل عمران] مع قوله في الآية التي قبلها: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران] إما أن يقال: لما قرر -تبارك وتعالى-أن الإنسان لن يبلغ العمل الطيب الصالح والدرجات العالية ودخول الجنة إلا بإنفاق ما يحب، ذكر لهم مثالاً على ذلك وهو ما حصل من يعقوب -صلى الله عليه وسلم- من تركه أحب الطعام والشراب إليه على سبيل النذر لمّا أصابه عرق النسا.

وإما أن يقال –وهو الوجه الثاني-: إن الله -عز وجل- لما رد على النصارى في الأمور التي سبقت، شَرَع في الرد على اليهود، فهو رد على النصارى في كذبهم ودعاواهم أن المسيح هو ابن الله... إلى آخره، وشرع في الرد على اليهود، وهذه المناسبات هي محتملة، فهي وجه يستنبطه المفسر أو يذكره المفسر بناءً على اجتهاده، ولذلك تجد أهل العلم يختلفون فيها، هذا يذكر مناسبة وهذا يذكر مناسبة، ولا يُقطع بشيء من ذلك، وسبق الكلام على أن المناسبات إن كانت ظاهرة، بمعنى أنه يوجد ارتباط ظاهر فلا بأس، وأحياناً يصعب هذا، فيكون ذلك على سبيل التكلف، فهذا لا يلتفت إليه، فهذه الاحتمالات هي بسبب أن هذه القضايا يجتهد فيها المفسر فيلوح له وجه من الارتباط فيذكره، ويلوح لآخر وجه فيذكره، ولذلك تجد أن ما يذكرونه في المناسبات يتفاوت ويختلف، ومن أهل العلم من أنكر هذا بالكلية وقال: هذا من القول على الله بلا علم وتكلُّف في التفسير، لذلك فإن الاعتدال في الأمور هو المطلوب.

"فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً -عليه السلام- لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لُحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك.

وكان الله -عز وجل- قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه وقد حُرِّم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم -عليه السلام- وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حُرِّم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً وقد فعله يعقوب -عليه السلام- جمع بين الأختين، ثم حُرِّم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح -عليه السلام- في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما

بالهم لم يتبعوه، بل كذبوه وخالفوه، وكذلك ما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من الدين القويم والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم -عليه السلام- فما بالهم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران]".

يلاحظ الآن أن هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الذي أشار إليه ابن القيم حين قال: حام حوله المفسرون ولم يصلوا إليه، وابن كثير ممن عاصر ابن القيم –رحمهما الله- وقد استفاد من شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ولذلك فإنه في المقدمة ذكر أشياء مما يتعلق ببعض أصول التفسير هي من كلام شيخ الإسلام وإن لم يذكره ولم يصرح به، فهو لاشك أنه استفاد من شيخ الإسلام كثيراً في هذا وفي غيره، أما ابن القيم فلا أعرف إن كان قد استفاد منه أم لا لكنه معاصر له.

"**ولهذا قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ}** [(٩٣) سورة آل عمران] أي: **كان حلاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: {قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٩٣) سورة آل عمران]، **فإنها ناطقة بما قلناه.**

{فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٩٤) سورة آل عمران] أي: **فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً وأنه لم يبعث نبياً يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [(٩٤) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللّهُ} [(٩٥) سورة آل عمران] أي: **قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن.**

{فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٩٥) سورة آل عمران] أي: **اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه الحق الذي لاشك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(١٦١) سورة الأنعام] **وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(١٢٣) سورة النحل]".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال صاحب كتاب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير -رحمهما الله تعالى جميعاً- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٦-٩٧) سورة آل عمران].

"يخبر تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده.

{لَلَّذِي بِبَكَّةَ} يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل -عليه السلام- الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك، ونادى الناس إلى حجه، ولهذا قال تعالى: {مُبَارَكًا} أي: وضع مباركاً وهدىً للعالمين.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((المسجد الأقصى)) قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) قلت: ثم أي؟ قال: ((ثم حيث أدركت الصلاة فصلِّ فكلها مسجد)) [وأخرجه البخاري ومسلم][1].

وقوله تعالى: {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلّون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي: يزدحمون، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

ففي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} قال: **أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم،** هذا أمر معروف لا يحتاج إلى تدليل؛ لأن المقصود بالبيت الذي وضع للناس إنما وضع للعبادة، وإلا فإن البيوت موجودة منذ أن أنزل الله -عز وجل- آدم -عليه الصلاة والسلام-، فالناس كما هو معلوم بحاجة إلى مساكن، وهذه قضية لا يكاد يختلف فيها المفسرون.

وفي قوله: {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **"لأن الناس يتباكون فيها أي: يزدحمون"،** يعني في الطواف مثلاً، يقال: بكَّ القوم بعضهم بعضاً، أي تزاحموا، وهذا التعليل لتسمية بكة هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبعضهم يقول -كما ذكر الحافظ ابن كثير قبله-: لأنها تبكُّ

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قول اله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [(٣٠) سورة ص (٣٢٤٣) (ج ٣ / ص ١٢٦٠) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠) (ج ١ / ص ٣٧٠).

الجبابرة، وبعض أهل العلم يقول: إن مكة وبكَّة لغتان لشيء واحد، فبكَّة بمعنى مكة، وبعضهم يقول: إن بكَّة هي موضع البيت، ومكة للحرم بأجمعه لا يختص ذلك بالبيت، وبعضهم يقول: إن بكة اسم للمسجد، ومكة للحرم بأكمله، والعلم عند الله -عز وجل-.

"وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الأمين والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسَّة -بالنون وبالباء أيضاً- والحاطمة والنساسة، والرأس وكوثا، والبلدة، والبنيَّة والكعبة".

البَنيَّة اسم للكعبة، وفي كثير من الأخبار نجد من يحلف فيقول مثلاً: أقسم برب البَنيَّة.

وقال سفيان الثوري: هو كافر بهذه البَنيَّة إذا دخلها ، وذلك لما توعده أبو جعفر المنصور وجيء بالخشابين من أجل أن يصلب وكان سفيان مستلقياً في حجر الفضيل بن عياض، فلما قالوا له: لا يشمت بنا أهل البدع قم، يعني توارى عن الناس، فقال: هو كافر برب هذه البَنيَّة إن دخلها أبو جعفر المنصور، فمات قبل أن يدخلها.

وعلى كل حال يقولون: إن الشيء إذا كان شريفاً كثرت أسماؤه، كما هو الحال في أسماء السيف وفي أسماء الأسد، ونحو ذلك، وهذا ليس باطِّراد، فهناك أشياء لا شرف لها ومع هذا لها أسماء كثيرة، لكن يمكن أن يقال: في الغالب إن الشيء إذا كان شريفاً كثرت أسماءه.

"وقوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه".

ذكر الحافظ ابن القيم –رحمه الله- أن هذه الآيات تزيد على أربعين، وذكر الله -عز وجل- منها هنا مقام إبراهيم، سواء كان المراد بمقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو موضع القدمين الذي هو على حاله إلى اليوم، إلا أن موضع الأصابع قد ذهبت من كثرة مس الناس له حينما كان ذلك متاحاً لهم، أما موضع القدم فهو هو، لا كما ظن بعض أهل العلم من أن ذلك إنما وضع كالرمز فحسب، وأن ذلك ليس هو موضع القدم، فهكذا فهم بعضهم من الأثر الوارد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- لكن هذا فيه نظر، والله تعالى أعلم.

فعلى كل حال سواء قيل: إن مقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- موضع القدمين المعروف أو كان المراد به مقامات إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في الحج عموماً؛ لأن مقام إبراهيم مفرد أضيف إلى معرفة، ومعلوم أن المفرد إذا أضيف إلى معرفة فإنه يفيد العموم سواء كان ذلك من قبيل الإضافة إلى الضمير، كقوله: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــــور] يعني أو أصدقائكم، أو أضيف إلى اسم ظاهر كقوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل]، أي: يعرفون نعم الله، فهذا قول مشهور ومعروف لأهل العلم وهو أن المراد بمقام إبراهيم أي مقاماته -صلى الله عليه وسلم- في الحج، مثل: رمي الجمار والسعي والطواف وما أشبه ذلك مما هو معلوم، فالآية تحتمل هذا وهذا، وإن كان ذلك أظهر عند الإطلاق في موضع القدمين، ومثل هذا يقال أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] وعلى القراءة الأخرى: (واتَّخَذُوا من مقام إبراهيم مصلى) بفتح التاء المشددة وفتح الخاء من قوله: (واتخذوا).

فالأظهر في الآية أن المراد به موضع القدمين، وموافقة عمر -رضي الله عنه- في هذا معروفة، حيث قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية موافقة لقول عمر رضي الله تعالى عنه.

والقول الآخر في الآية: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] أي: متعبداً في السعي بين الصفا والمروة والطواف في البيت ورمي الجمار وما أشبه ذلك، وليس المقصود به الصلاة ذات الركوع والسجود، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ}، يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختار هذا القول؛ لأنه هو المتبادر عند الإطلاق، والقاعدة أن ما يتبادر عند الإطلاق مما هو ظاهر القرآن لا يصح العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، إلا أن صاحب القول الآخر حمل ذلك على أعم معانيه بحيث يدخل فيه موضع القدمين فيكون أشمل، ويؤيد هذا أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإذا احتملت الآية معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها، والله أعلم.

"وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها هاهنا ولله الحمد والمنة".

هل المقصود بالصلاة خلف المقام الصلاة في البقعة التي هو فيها، أو المقصود ذات المقام بحيث إذا أُبعد من مكانه ووضع في جهة أخرى تصلى فيه؟

الأقرب والله تعالى أعلم هو الثاني وليس الأول، ولذلك لما قُدم أو أخر في عهد عمر -رضي الله تعالى عنه- ما كان الناس يصلون قبالة الموضع الذي نقل منه، وإنما صاروا يصلون خلفه، وهكذا، فالمقصود هو نفس هذا الحجر الذي فيه هذا الأثر.

"وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [(٩٧) سورة آل عمران] أي: **فمنهن مقام إبراهيم والمشعر".**

هذا باعتبار المعنى الثاني الذي هو أعم وهو أن المقصود مقامات إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في الحج.

"وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بيِّنة، وكذا روي عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]**، يعني حرم مكة، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج".**

من الآيات التي ذكرها بعض أهل العلم عند قوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} [(٩٧) سورة آل عمران] إضافة إلى مقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنهم قالوا: إذا كان الغيث بناحية الركن اليماني، كانت الخصوبة في اليمن، وإن كان في ناحية الركن الشامي كانت الخصوبة في الشام، وإذا عمَّ البيت فالخصوبة في الجميع، وذكروا أيضاً أشياء أخرى بعضها لا يثبت كقولهم: إن الطيور لا تمر فوق البيت، وهذا غير صحيح.

وقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية.

وهذه الآية: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] تحتمل أن تكون على سبيل الخبر، بمعنى أن ذلك يكون من قبيل الأمر الكوني القدري، وهذا فيه بعد، بل هو بعيد غاية البعد؛ لأن الواقع يخالفه، ويحتمل أن يكون ذلك من قبيل الخبر من ناحية الصياغة، يعني الصيغة صيغة خبر لكنه متضمن للإنشاء، يعني متضمن للأمر، أي هو أمر في صيغة الخبر، والمعنى: من دخله فأمِّنوه، وهذا مثل قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ} [(٢٣٣) سورة البقرة] أي على الوالدات أن يرضعن أولادهن، وقوله: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، أي من دخل البيت الحرام يجب أن يؤمَّن، والأقرب في معنى الآية أنها بمعنى الإنشاء.

والعلماء تكلموا كثيراً فيمن جنى جناية في الحرم هل يؤخذ أم لا؟ وكذلك فيمن جنى جناية خارج الحرم ثم دخل إلى الحرم، وتكلموا أيضاً عما إذا حصل من طائفة من الناس بغي في الحرم هل تُقاتل أم لا تقاتل؟ فكلام أهل العلم معروف في هذا، يقول أبو حنيفة: يضيق عليه حتى يخرج، ومنهم من يقول: إنه يؤخذ، ولعل هذا يأتي إن شاء الله تعالى عند الكلام على الأشدق لما كان أميراً على المدينة، وكان يجيش الجيوش إلى مكة.

وقد أخذ بعض أهل العلم من حديث: ((خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم))[2] أن هذه لما كان من عادتها التعدي فإنها تقتل ولو كان ذلك في الحرم مع أنها مجبولة على ذلك، بمعنى أن هذه طبيعتها وليس لها عقل وليس عليها تكليف، فكيف بالإنسان الذي هو مكلف ومؤاخذ، وعلى كل حال ليس هذا موضع الكلام على مثل هذه القضايا بالتفصيل، لكن قصدنا الإشارة إلى أن المراد بقوله: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، أي هكذا ينبغي أن تكون الحال، ولكن هذا لا يعني أن من جنى جناية لا يؤخذ، بل الأقرب والله تعالى أعلم أنه يؤخذ ولا يترك.

"وقال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} الآية [(٦٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [(٣-٤) سورة قريش]، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً، ففي الصحيحين

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٣٦) (ج ٣ / ص ١٢٠٤) ومسلم في كتاب الحج - باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (١١٩٨) (ج ٢ / ص ٨٥٦) ولفظ: ((في الحل والحرم)) لمسلم.

واللفظ لمسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الفتح -فتح مكة-: ((لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا))[٣].

وقال يوم الفتح -فتح مكة-: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها)) **فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال:** ((إلا الإذخر))[٤]".

القين: يعني الصناع، والمعنى ليتخذ ذلك في الصناعة فالحداد مثلاً يحتاج أن يوقد به من أجل أن يقوم بالحدادة وصناعة المعادن.

قال: "**ولبيوتهم**"، أي يستخدم في بناء البيوت وكذلك القبور، فيوضع فوق الخشب في بناء البيوت -وهذا في البيوت القديمة كما هو معروف- ثم يوضع فوقه الطين وذلك لأجل سد الفراغات، كما يوضع أيضاً في القبور؛ لأن رائحته طيبة، ومن أجل سد الفراغات في القبر حيث يوضع الإنسان في اللحد ثم يوضع اللَّبِن، فمن أجل رص هذا اللَّبِن يستعملون هذا، كما أنه يستخدم في الصناعة إذا يبس، ولذلك أخذ بعض أهل العلم من هذا الحديث أن ذلك في الرطب واليابس، فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يختلى خلاها)) يعني الحشيش مطلقاً، وبعضهم قيَّده بالرطب، وأما اليابس فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يعضد شوكه)) مع أن الإمام الشافعي -رحمه الله- يقول: لا بأس بقطعه لأنه يؤذي، أي مثل ما أباح النبي -صلى الله عليه وسلم- قتل الفواسق لأذيتها، فهذا كذلك، والحديث ظاهر في أنه لا يقطع شوكه.

لكن قوله: ((ولا يختلى خلاها)) -على القول بأنه الحشيش الرطب- أخذ منه بعض أهل العلم من جهة مفهوم المخالفة أن اليابس لا بأس به، ومن منع من هذا استدل بهذا الحديث، وهو أنه لقينهم، والذي يوقدون عليه إنما هو اليابس بدون شك، ومن قال بأنه لا بأس باليابس، قال: هذا أصلاً ميت مثل ما لو وجد الصيد ميتاً.

"**ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة..**"

عمرو بن سعيد هذا هو الأشدق الذي ذكرته آنفاً، كان أميراً على المدينة ويبعث البعوث لقتال عبد الله بن الزبير.

"**أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال:** ((إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

3 - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة (١٧٣٧) (ج ٢ / ص ٦٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

4 - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة (١٧٣٧) (ج ٢ / ص ٦٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب)) فقيل لأبي شريح -رضي الله تعالى عنه- ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارّاً بدم ولا فارًّا بخربة[٥]".

قوله: "**بخربة**"، بكسر الراء وبعضهم يضبطها بفتحها، والمراد بها الجناية، وهنا يقصد أن ابن الزبير -رضي الله عنه- ألحد في الحرم، أو لاذ بجناية بالحرم واستعصم بالبيت، فهو رأى أنه يجوز قتاله لهذا المعنى.

"وعن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح))[٦] [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهرى -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو واقف بالحرورة في سوق مكة.."

هذا سوق مكة قديماً ودخل في الحرم منذ زمن طويل.

"((والله إنكِ لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))[٧] [رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح].

وقوله: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] **هذه آية وجوب الحج، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده".**

هذا لاشك فيه، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أخذ من هذه الآية الدلالة على وجوب الحج من نحو عشرة أوجه، والأدلة كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كثيرة.

وقوله تبارك في الآية الأخرى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] ربما فهم منها بعضهم أن المأمور به الإتمام وليس الابتداء، وهذا غير صحيح أصلاً لا في نفس الآية ولا بالنظر إلى الآيات والنصوص والأحاديث الأخرى.

فالآية {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] يمكن أن يقال: إن الأصل لما كان ثابتاً معلوماً عندهم، وإنما وقع الإخلال من جهة النقص والتبديل، حيث كان الحمس - وهم قريش ومن ولدت- يقفون في طرف الحرم ولا يخرجون إلى عرفة كان ذلك من قبيل النقص في حجهم، قال الله -عز وجل-: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] فهم لم يكونوا يجادلون في مشروعية الحج وفي وجوبه؛ إذ كانوا على بقية من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فإنه لما كان الأصل مقرراً عندهم جاء الأمر بما وقع فيه اللبس والنقص، وهذه طريقة معروفة يتكلم بها العرب ويعبرون بمثل هذا فيما يُحتاج إليه، يعني أن البيان إنما

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤) (ج ١ / ص ٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٤) (ج ٢ / ص ٩٨٧).

6 - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة (١٣٥٦) (ج ٢ / ص ٩٨٩).

7 - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في فضل مكة (٣٩٢٥) (ج ٥ / ص ٧٢٢) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب فضل مكة (٣١٠٨) (ج ٢ / ص ١٠٣٧) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الحج – باب فضل مكة (٤٢٥٢) (ج ٢ / ص ٤٧٩) وأحمد (١٨٧٣٧) (ج ٤ / ص ٣٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٨٩).

يكون فيما يحتاج إليه فحسب، أما أن يتكلم على الأشياء المقررة الواضحة التي لا يجادلون فيها، فهذا تطويل للكلام من غير حاجة.

"وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا))، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم)) ثم قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)) [ورواه مسلم نحوه][8]".

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((قد فرض عليكم الحج)) أي كتب عليكم وأُلزمتم به؛ ويدل على ذلك سؤال الرجل، وكذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو قلت نعم لوجبت))، وأذكر هذا المعنى لأمر وهو أن لفظة الفرض شاع في اصطلاح المتأخرين أنها بمعنى الإيجاب، وعند الحنفية آكد من الواجب، يعني ما ثبت بدليل قطعي، مع أن هذا ليس هو المتبادر أو الاصطلاح المتعارف عند المخاطبين بالقرآن، فإن لفظة الفرض قد تدل على معانٍ أخرى، فمثلاً: يقول الله تعالى: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}** [(٢) سورة التحريم] فهنا ليس معناها الإيجاب وإنما معناها الإباحة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** [(٥٠) سورة الأحزاب] فلفظة "فرض" تأتي بمعنى التشريع والإباحة والإيجاب، فليس المعنى المتبادر لها في الاصطلاح العرفي عند المتقدمين الذين خوطبوا بالقرآن الإيجاب، ولذلك لا نستعجل كلما رأينا لفضة "فرض" في القرآن فنقول: هو بمعنى الوجوب، فهذا اصطلاح متأخر ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن ومعانيه على اصطلاح حادث، لكن ينظر إلى السياق والقرائن، فيحمل في كل موضع على ما يناسبه ويليق به.

"وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام".

قوله: "**وتارة يكون بغيره**"، يعني إذا كان الإنسان غنياً لكن لا يستطيع أن يصل إلى البيت بنفسه فإنه ينيب أحداً آخر ليحج عنه.

"روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قام رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: ((الشعث التفل)) فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: ((العجُّ والثجُّ)) فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: ((الزاد والراحلة)) وهكذا رواه ابن ماجه[9]".

---

8 - أخرجه مسلم في كتاب الحج – باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

9 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٢٥) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب ما يوجب الحج (٢٨٩٦) (ج ٢ / ص ٩٦٧) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٢٥٢٧).

هذا الحديث الذي يبين أن الزاد والراحلة هي الاستطاعة، الكلام فيه معروف، وهو أن الحديث فيه ضعف، أو هذه الرواية فيها ضعف، وعلى كل حال فإن الاستطاعة في قوله تعالى: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] الأقرب -والله أعلم- أنها تحمل على أعم المعاني، ولا يختص ذلك بالمال أو بالراحلة، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فقد يكون الإنسان من أهل مكة أو ممن جاورها فلا يحتاج إلى راحلة؛ لأنه ذو قوة ونشاط وقدرة يستطيع المشي في المشاعر، فمثل هذا يجب عليه الحج، فالمقصود أن الاستطاعة هنا لم تحد بحد معين، فتحمل على أعم المعاني؛ لأنه قد يكون أيضاً عند الإنسان الراحلة والزاد وعنده المال ولكن الطريق غير مأمون وتوجد مخاوف لا يستطيع معها الوصول إلى الحج، فهذا غير مستطيع، وقد يكون عنده الزاد والراحلة ولكنه ضعيف البدن كأن يكون هرماً أو مريضاً، فمثل هذا غير مستطيع، وقد يكون صحيحاً قوياً وعنده الزاد والراحلة لكن هذا المكلف امرأة ليس لها محرم فإنها على الأرجح يسقط عنها الحج بالنفس، وبالتالي إذا كانت قادرة بمالها فإنه يجب عليها أن تنيب من يحج عنها، وهكذا مسألة الاستطاعة يدخل فيها كل هذه الأمور.

"وروى الحاكم عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن قول الله -عز وجل-: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] **فقيل: ما السبيل؟ قال: ((الزاد والراحلة)) ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه**[10].

وروى أحمد أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((من أراد الحج فليتعجل))** [ورواه أبو داود][11].

وقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٧) سورة آل عمران] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه".**

هذه الآية لها نظائر في كتاب الله، منها: قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٨) سورة إبراهيم]، وفي سورة الزمر يقول تعالى: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ} [(٧) سورة الزمر]، ويقول تعالى: {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ} [(٦) سورة التغابن].

يقول: **"وقوله تعالى:** {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٧) سورة آل عمران]، **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه"**، خص هنا الكفر بنوعٍ منه وهو جحد هذا العمل أو العبادة التي شرعها الله -عز وجل- وبينها غاية البيان وألزم المكلفين بها، قال تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} أي: من جحد فرضه فإن الله غني عنه.

---

10 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٢٥) والحاكم (١٦١٣) (ج ١ / ص ٦٠٩) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٢٩٩٨).

11 - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب تعجيل الحج (١٧٣٤) (ج ٢ / ص ٧٥) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب الخروج إلى الحج (٢٨٨٣) (ج ٢ / ص ٩٦٢) وأحمد (١٨٣٤) (ج ١ / ص ٢١٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٠٤).

ومثل هذه الآية يستدل بها أيضاً من يقول: إن تارك الحج وهو قادر يكفر، ومعلوم ما جاء عن عمر -رضي الله تعالى عنه-: "ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين"، وعلى كل حال فالقول بأن قوله: {وَمَن كَفَرَ} أي من جحد فرضية الحج فقد كفر هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-.

"وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً، وهذا إسناد صحيح إلى عمر -رضي الله تعالى عنه-".

على كل حال من أهل العلم من حمل الآية على ظاهرها، ومنهم من قال: إن هذا على سبيل التغليظ لتأكيد الحج، وبيان أهميته وعظمه ومكانته.

"{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة آل عمران].

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان، بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومقابلتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون".

يقول -تبارك وتعالى-: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا}** [(٩٨-٩٩) سورة آل عمران]: قوله: **{تَبْغُونَهَا عِوَجًا}** أي: معوجة، والمعنى أنكم تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد.

وقوله: **{وَأَنتُمْ شُهَدَاء}** بعض أهل العلم يقول: أي عقلاء، وبعضهم يفسرها بمعنى عدول عند أهل ملتكم، والعدل لا يحصل منه مثل هذا الكتمان والتلبيس، فهم يكتمون الحق يبغونها عوجاً أي: مائلةً معوجةً عن سبيل القصد بما كتموا وحرفوا وبدلوا وغيروا وكذبوا.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: **{وَأَنتُمْ شُهَدَاء}** المراد به: وأنتم تشهدون على صدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا القرآن من عند الله، وأنهم يجدون ذلك عندهم في كتبهم، فهم يعرفون ذلك ويستيقنونه، كما دل عليه القرآن في مواضع نحو قوله تعالى: **{يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ}** [(١٤٦) سورة البقرة] فقوله: **{وَأَنتُمْ شُهَدَاء}** أي على صحة وصدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-. والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتعرض لهذا في الأصل، وعلى كل حال هذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أيُّ الْمُؤمنينَ أعْجَبُ إلَيْكُمْ إيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يجيئون مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[١]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

---

[١] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم تراد ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف -رضي الله تعالى عنهم- من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم –رحمهم الله- للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله -عز وجل- قال عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية -والله تعالى أعلم- إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير -رحمه الله- فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] **أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".**

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لبنيه عند قوله: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله -عز وجل- ينهى عباده فيقول:

---

3 - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدةِ أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قلبه وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [(٢) سورة النـــــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس –رضي الله تعالى عنهما- جالس معه محْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[٤] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ عز وجل))[٥] ورواه مسلم.

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))**[6]".

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير –رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمِّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي بعهد وذمة".

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ} أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ} أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصِّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٧٨) سورة الحـــج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به –جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

7 - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

8 - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتِب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ أَنْ تَعْبدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإِحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول.**": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

---

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] **وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-"**

هنا يفسر –رحمه الله- قوله تعالى: {وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله -عز وجل- من ذلك ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن ترك ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي –صلى الله عليه وسلم- مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[10] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فَعتَبَ من عتب منهم لمّا فَضَّل عليهم في القسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأغْنَاكمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[11]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[10] - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

[11] - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أيُّ الْمُؤمنينَ أعْجَبُ إلَيْكُمْ إيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يجيئون مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[(١)]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

---

[1] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم تراد ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف -رضي الله تعالى عنهم- من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم –رحمهم الله- للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله -عز وجل- قال عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية -والله تعالى أعلم- إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير -رحمه الله- فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لبنيه عند قوله: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله -عز وجل- ينهى عباده فيقول:

---

[3] - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدةٍ أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قلبه وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [(٢) سورة النـــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس –رضي الله تعالى عنهما- جالس معه محْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[٤] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عز وجل))[٥] ورواه مسلم.

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))**[6].

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير –رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمِّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] **قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي بعهد وذمة".**

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصِّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٧٨) سورة الحـج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به –جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

[7] - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

[8] - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول.**": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

---

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] **وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-"**

هنا يفسر -رحمه الله- قوله تعالى: {وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله -عز وجل- من ذلك ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن ترك ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[10] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فعَتَبَ من عتب منهم لمّا فَضَّل عليهم في القسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[11]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

10 - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

11 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أَيُّ الْمُؤمِنِينَ أعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وَكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وَأنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يَجيئون مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

[1] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم ترادّ ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف -رضي الله تعالى عنهم- من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم -رحمهم الله- للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله -عز وجل- قال عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية -والله تعالى أعلم- إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير -رحمه الله- فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لبنيه عند قوله: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله -عز وجل- ينهى عباده فيقول:

---

[3] - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٢٤٣٣/٦)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٢٠٣٦/٤).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدة أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قلبه وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [(٢) سورة النـــــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرِقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس –رضي الله تعالى عنهما- جالس معه محْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأمَرّتْ عَلَى أهْلِ الأرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[٤] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ عز وجل))[٥] ورواه مسلم.

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))**[6].

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير -رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] **قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي بعهد وذمة".**

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٧٨) سورة الحـــج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به –جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

[7] - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

[8] - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"**وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))**[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول.**": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

---

9 - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] **وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-"**
هنا يفسر –رحمه الله- قوله تعالى: {وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله -عز وجل- من ذلك ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن ترك ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي –صلى الله عليه وسلم- مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[10] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فَعتَبَ من عتب منهم لمـّا فَضَّل عليهم في القسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِـي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنّ[11]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[10] - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

[11] - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [(١٠٤-١٠٩) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(١٠٤) سورة آل عمران] **قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[1] وفي رواية: ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[2].**

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيبُ لكم))[3] ورواه الترمذي وقال: حسن، والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بناءً على أن

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٤٩) (ج ١ / ص ٦٩).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٥٠) (ج ١ / ص ٦٩).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن – باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩) (ج ٤ / ص ٤٦٨) وأحمد (٢٣٣٧٥) (ج ٥ / ص ٣٩١) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٣١٣).

"مِن" للتبعيض، وعلى ذلك يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فالمقصود وجوده دون النظر إلى فاعله، والآية تحتمل هذا احتمالاً قريباً.

والمعنى الآخر أن تكون "مِن" بيانية، فقوله: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} أي: ولتكونوا أمة، كما يقول الإنسان لأولاده: أريد منكم أبناء بررة، أو أريد منكم أن تكونوا صالحين، فالمقصود أنه لا يريد من بعضهم أبناء بررة دون البعض، وإنما يريد منهم أن يصيروا كذلك جميعاً، وهنا {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} أي كونوا أمة، تقول: أريد أن أجعل من فلان رجلاً متميزاً أو عالماً وهكذا، فإذا كانت "مِن" بيانية فبناء عليه يكون المعنى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل فرض العين، فيجب على كل إنسان أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، ولا تبرأ ذمته إلا بذلك، ولا يقول: غيري سيقوم به، فالآية معناها كونوا جميعاً أمة تقوم بهذا، كما قال الله -عز وجل-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] وهذه الآية يمكن أن يحتج بها لهذا القول، كما يمكن لصاحب القول الأول القائل بأن "مِن" تبعيضية، أن يقول: إن قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} أي أن هذا وجد في هذه الأمة فصارت قائمة بأمر الله -عز وجل- بقيام البعض بهذه الفريضة.

وعلى كل حال خلاف العلماء في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هو فرض عين أو فرض كفاية مرجعه إلى هذه الآية، فأصل الخلاف يدور على هذه الآية، ثم بعد ذلك يستدلون بأدلة منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) فيقولون: المعنى هنا من رأى منكم منكراً فإنه يجب عليه ولا يعفيه أن يقوم أحد آخر بهذا.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وأن "مِن" هنا للتبعيض وليست بيانية، وأن ذلك إذا وجد فإن الأمة تكون بتلك المرتبة والمنزلة التي ذكرها الله في قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران]، بقيام بعضهم بذلك.

وأما قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) فإنه يجب عليه أن يغيره بحسب استطاعته، فإن قام به غيره حصل المقصود، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} الآية [(١٠٥) سورة آل عمران].

ينهى -تبارك وتعالى- هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنهما- فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة -يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله)) والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما

جاء به نبيكم -صلى الله عليه وسلم- لَغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به وهكذا رواه أبو داود عن أحمد ابن حنبل ومحمد بن يحيى(٤).

وقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران] **يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.**

{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران] **قال الحسن البصري: وهم المنافقون،** {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [(١٠٦) سورة آل عمران] **وهذا الوصف يعم كل كافر".**

هذه الآيات في غاية الترابط، فالله -عز وجل- قال: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [(١٠٤) سورة آل عمران] ثم قال: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(١٠٥) سورة آل عمران] فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الاجتماع ودفع أسباب الشر والتفرق والتطاحن، فإذا تُرك الناس كما يشاءون افترقت الأمة وصار أصحاب الشهوات يغرقون في شهواتهم، ونشأت الأهواء والبدع والضلالات وحصل الانقسام في الأمة والافتراق ولا بُد، وإذا حصل هذا فهذا هو عين التفرق، وكما قيل: من خالف عقده عقدك خالف قلبه قلبك، فالذي يخالفك في الاعتقاد مهما سميت اعتقاده ومهما لطفت له العبارة فسميته طيفاً أو سميته بالآخَر فإن ذلك لا يغير من كوامن النفوس أبداً، ولذلك إذا جاءت اللحظات التي يتنفس فيها ظهرت عندئذ شروره وغوائل بدعته وضلالته.

ولو نظرنا إلى ما حولنا من البلاد فإننا نرى ذلك ظاهراً عياناً، ففي لبنان مثلاً هل يوجد وهابية مسيطرة متسلطة تستحق الإبادة كما يقولون؟ لا يوجد ذلك أبداً، فلماذا يحصل في لبنان ما يحصل الآن ولماذا حصل ما حصل قبل نحو عشرين سنة؟

إنما هو الحقد والقتل الذريع لأناس مساكين أبعد ما يكونون عن الدين، ومع ذلك يقتلون قتلاً في الشوارع، وتقطع الأيدي من أجل أن تؤخذ الساعة أو السوار من المرأة أو نحو ذلك، وهكذا تجد الجثث منتفخة في الشوارع بعد أن تمزق عنها الثياب، وبوادر هذا ظاهرة الآن، وفي العراق الأمر أشدّ، فهل كان عند هؤلاء هيمنة طائفة على البقية؟

ليس الأمر كذلك أبداً، فهذه بلاد ليس للعقيدة والدين عندهم أي تأثير في أمور الحياة إلا ما رحم ربي، ومع ذلك إذا افترقت الأمة إلى عقائد وبدع وأهواء وضلالات فهذا هو الخطر الذي يهددها، لكن حينما يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -بمعنى أنه كلما ظهرت بادرة تنكر وقيل لصاحبها: توقف- ثم يظهر العلم فلا يبقى الناس على جهل، ولذلك إذا خالف من خالف فإنه يكون قد خالف عن علم، ولهذا قال بعده: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(١٠٥) سورة آل عمران] ولهذا قال الله عن أهل الكتاب: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ} [(١٩) سورة آل عمران] فهذا هو حالهم وواقعهم، فإذا قمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقمنا الحجة على الناس وقطعنا دابر الشر من أوله، وإذا ترك الأمر بحجة الحرية الفكرية والحرية المطلقة بحيث يفعل المرء ما يشاء من الذنوب والمعاصي عندئذ تتفرق

---

[4] - أخرجه أحمد (١٦٩٧٩) وأبو داود عن أحمد في كتاب السنة – باب شرح السنة (٤٥٩٩) (ج ٤ / ص ٣٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٤١).

الأمة وتنقسم وتكون طوائف وشيعاً وأحزاباً يعادي بعضها بعضاً، وللعلم فإنه لا يمكن أبداً أن تنقسم الأمة إلى طوائف وأحزاب بينها توافق أو تواصل أو تقريب في وجهات النظر حتى وإن اجتمعوا في مكان واحد، بل كل واحد ينظر إلى الآخر بالريبة وهو يحدث نفسه متى يتمكن حتى يبطش به، وهذا هو واقع الحال، فتغيير الأسماء والعبارات من صاحب الهوى والبدعة والكافر وما إلى ذلك إلى طيف والآخَر وما شابهه لا يغير شيئاً.

يقول الله -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران]، في هذه الآية ذكر -تبارك وتعالى- جزاء هؤلاء جميعاً، وكثير من السلف قالوا: هؤلاء هم أصحاب البدع، والحقيقة أن أهل البدع يدخلون في هذا، ويدخل فيه كل من عمل عملاً يسود وجهه، لكن السياق في الكفار؛ لأن الله -عز وجل- قال بعدها: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران] ولهذا قال من قال من السلف: إنها في المنافقين، وهم كفار في الباطن، فقوله: {أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران] يعني بعد إيمانكم الذي زعمتموه وأظهرتموه وإلا فإنهم لم يؤمنوا أصلاً.

وبعضهم قال: إن هذه الآية في أهل الكتاب؛ لقوله: {أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران]، والمعنى أنهم آمنوا بكتابهم وكفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى كل حال يدخل في هذه الآية كل الكفار ويدخل فيها أهل النفاق، ولأهل البدع نصيب من هذا السواد بقدر ما عندهم من الضلالات والأهواء والبدع، ويكون للإنسان من بياض الوجه والأمن في الآخرة بقدر ما عنده من الاتباع والاستقامة ولزوم السنة، ولهذا فإن قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فسر الظلم في هذه الآية بالشرك، فهذا هو معنى الآية، لكن ذلك لا يمنع أن يقال: إنه ينقص من أمن الإنسان ومن اهتدائه بقدر ما ينقص من إيمانه؛ لأن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، ولهذا يتفاوتون في النعيم بحسب تفاوتهم في الإيمان، وهكذا يتفاوتون في الموقف يوم المحشر في العرق والشدة بقدر إيمانهم، والله المستعان.

وقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران]، من أهل العلم من ربطها بما قبلها ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: إنها مرتبطة بما قبلها باعتبار {وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٥-١٠٦) سورة آل عمران] ومتى يكون العذاب العظيم؟ يكون يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، أي هو عذاب كائن لهم في ذلك اليوم، ومن أهل العلم من يرى أنها مستأنفة، وعلى كل حال هذه الآية أيضاً يحتمل أن يكون المراد بها أهل الردة، وهم بلا شك داخلون في هذا، وكل هذا من أجل قوله تعالى: {أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران] لكن إذا نظرت إلى المنقول عن السلف في التفسير رأيت كثرة من يقول: إنها في أهل البدع.

"{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٧) سورة آل عمران] يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً.

وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة -رضي الله تعالى عنه- رءوساً منصوبةً على درج دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: لو لم أسمعه إلا مرةً أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً.. حتى عدَّ سبعاً ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه، وأخرجه أحمد في مسنده بنحوه[5]".

هذا حديث مرفوع أطلق فيه هذا الوصف وحمل فيه الآية {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} على الخوارج، ويقول: سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن كان هذا ليس بقاطع، بمعنى أنه قد يكون الذي سمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أنهم كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ، يعني قد لا يكون سمع الآية تقرأ في هذا المقام من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن الظاهر أنه سمع ذلك جميعاً من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحملُها على أهل البدع وأنهم يدخلون في هذا يكون بحسبه، أي يكون فيهم من هذا السواد بحسب ما عندهم من البدع، فأصحاب البدع المكفرة لهم السواد التام، ومن كان دونهم فله من السواد بحسبه، والله -عز وجل- يقول: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} [(٦٠) سورة الزمر]، وقال: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [(٤٠-٤٢) سورة عبس]، وهكذا في قوله: {وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٧) سورة يونس].

"ثم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ} [(١٠٨) سورة آل عمران] أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد، {بِالْحَقِّ} أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة.

{وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} [(١٠٨) سورة آل عمران] أي: ليس بظالم لهم بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه، ولهذا قال تعالى: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(١٠٩) سورة آل عمران] أي: الجميع ملك له وعبيد له، {وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [(١٠٩) سورة آل عمران] أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ* لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ* ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(١١٠-١١٢) سورة آل عمران]".

---

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه و سلم - باب تفسير سورة البقرة (٣٠٠٠) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب في ذكر الخوارج (١٧٦) (ج ١ / ص ٦٢) وأحمد (٢٢٢٦٢) (ج ٥ / ص ٢٥٦) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٣٥٥٤).

في قوله تعالى في الآية السابقة: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(١٠٩) سورة آل عمران]، الله -تبارك وتعالى- ذكر جزاء الذين اسودت وجوههم وجزاء الذين ابيضت وجوههم، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران] فالله -عز وجل- حينما عذب هؤلاء ونعَّم هؤلاء لم يكن ظالماً لهم، بل له ما في السماوات وما في الأرض، فالخلق كلهم عبيده، فلم يكن ذلك التعذيب لنقص في ملكه، بل ملكه تام، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

"يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران].

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} يعني خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران]".

في قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} هل "كان" تامة أم ناقصة؟

الفرق بين "كان" التامة و"كان" الناقصة أن "كان" التامة لا تحتاج إلى مبتدأ وخبر، فهي ليست من النواسخ، وعلى هذا يكون المعنى وُجِدتُم خير أمة، كما تقول مثلاً: قال الله له: كن فكان، فهذه تامة معناها فوُجد، فإذا كانت هنا في الآية تامة فهي ليست بمعنى المضي، وإنما يكون هذا وصف ثابت لهم، أما إذا كانت ناقصة ناسخة تنسخ المبتدأ والخبر بحيث يكون المبتدأ اسماً لها والخبر خبراً لها، فعندئذ هل تكون "كنتم" يعني في الزمن الماضي خير أمة أخرجت للناس فقط؟

ليس هذا هو المراد، وإنما من فسرها بأنها ناقصة واعتبر فيها معنى المضي، قال: إن "كنتم" يعني في اللوح المحفوظ خير أمة أخرجت للناس، ومنهم من يقول: كنتم منذ آمنتم خير أمة أخرجت للناس.

ومن أهل العلم من يقول كابن جرير -رحمه الله-: إن "كان" هذه ذِكْرها وعدم ذكرها سواء من جهة الدلالة على المعنى الأصلي الذي سيقت له الآية، وهو أن هذا الوصف ثابت لهذه الأمة في الحال أي حينما نزلت عليها هذه الآية وليس ذلك في المضي، ومثل هذه الآية قوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ} [(٨٦) سورة الأعراف] وقوله: {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة الأنفال] وما شابه ذلك، فالمعنى أنتم خير أمة أخرجت للناس.

"وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنتم توفون سبعين

أمة أنتم خيرها وأنتم أكرم على الله عز وجل))[٦] **وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما- نحوه.**

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد -صلوات الله وسلامه عليه- فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت ما لم يُعطَ أحد من الأنبياء)) فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: ((نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم))[٧] **وإسناده حسن، وقد وردت أحاديث يناسب ذكر بعضها هاهنا.**

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة -رضي الله عنه- حدثه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)) فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي -رضي الله تعالى عنه- يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اجعله منهم)) ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: ((سبقك بها عكاشة))[٨]**".**

قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} إلى آخره، يعني أنتم خير أمة أظهرت للناس، حيث اتصفتم بهذه الصفة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وهذا يدل على أن الأمة إذا تخلت عن هذا فقد تخلت عن سبب خيريتها وتفضيلها، وهذا يدل أيضاً على أن هذه الأمة أفضل الأمم، وأنها أفضل من بني إسرائيل، وإن كان الله -عز وجل- قد قال في حق بني إسرائيل: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] فيعني أنه فضلهم على عالم زمانهم، فلما كفروا مقتهم الله -عز وجل- ولعنهم وقطعهم في الأرض أمماً، وحصل بهم ما حصل.

"نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله –عز وجل- وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثلثَ النَّاسِ)) قال: فكبرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ)) وهكذا رواه عن طريق آخر وهو على شرط مسلم[٩]**.**

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠١) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٢٨٨) (ج ٢ / ص ١٤٣٣) وأحمد (٢٠٠٢٩) (ج ٤ / ص ٤٤٧).

[7] - أخرجه أحمد (٧٦٣) (ج ١ / ص ٩٨) وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٣٩٣٩).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب البرود والحبرة والشملة (٥٤٧٤) (ج ٥ / ص ٢١٨٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٦) (ج ١ / ص ١٩٧).

[9] - أخرجه أحمد (١٥١٥٤) (ج ٣ / ص ٣٨٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شطر أَهْلِ الْجَنَّة))[10].

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً)) وكذلك رواه عن طريق آخر وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه[11].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود وللنصارى بعد غد)) [رواه البخاري ومسلم مرفوعاً بنحوه][12].

ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول من يدخل الجنة)) وذكر تمام الحديث[13].

فهذه الأحاديث وغيرها في معنى قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رِعةً فقرأ هذه الآية".

قوله: "رأى من الناس رِعةً "، يعني سوء هيئة أو سوء تصرف، يعني رأى منهم ما ينافي الأدب.

"أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رعة فقرأ هذه الآية: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} ثم قال: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها [رواه ابن جرير].

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} الآية [(٧٩) سورة المائدة] ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ} أي: بما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان".

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠) (ج ٣ / ص ١٢٢١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) (ج ١ / ص ٢٠٠).

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة - باب ما جاء في صفة أهل الجنة (٢٥٤٦) (ج ٤ / ص ٦٨٣) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- (٤٢٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٣٤) وأحمد (٢٢٩٩٠) (ج ٥ / ص ٣٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

[12] - أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦) (ج ١ / ص ٣٠٥) ومسلم في كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

[13] - صحيح مسلم - كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله –عز وجل- وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثلثَ النَّاسِ)) قال: فكبرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ)) وهكذا رواه عن طريق آخر وهو على شرط مسلم[1].

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شطر أَهْلِ الْجَنَّةِ))[2].

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً)) وكذلك رواه عن طريق آخر وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه[3].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود وللنصارى بعد غد)) [رواه البخاري ومسلم مرفوعاً بنحوه][4].

ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول من يدخل الجنة)) وذكر تمام الحديث[5].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥١٥٤) (ج ٣ / ص ٣٨٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠) (ج ٣ / ص ١٢٢١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) (ج ١ / ص ٢٠٠).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة - باب ما جاء في صفة أهل الجنة (٢٥٤٦) (ج ٤ / ص ٦٨٣) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- (٤٢٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٣٤) وأحمد (٢٢٩٩٠) (ج ٥ / ص ٣٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦) (ج ١ / ص ٣٠٥) ومسلم في كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

[5] - صحيح مسلم - كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

فهذه الأحاديث وغيرها في معنى قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] **فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رِعةً فقرأ هذه الآية:** {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} **ثم قال: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها** [رواه ابن جرير].

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمَّهم الله بقوله تعالى: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} **الآية** [(٧٩) سورة المائدة] **ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى:** {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ} **أي: بما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-** {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [(١١٠) سورة آل عمران] **أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**رأى من الناس رِعةً**"، أي أنه رأى منهم ما لا يليق وذلك أنهم ازدحموا عليه ورأى منهم بعض ما يكره، والرِّعة –بكسر الراء- يراد بها سوء الهيئة ويراد بها سوء الفعل، فالمقصود أنه رأى منهم ما لا يليق.

وهذه الأحاديث التي ذكرها إضافة إلى الآية {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} لا تعارض ما سبق من قول الله -تبارك وتعالى- في بني إسرائيل: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة].

وقد ذكرنا هناك بأن المقصود بتلك الآية هو أنهم فضلوا على عالمي زمانهم ولم يفضلوا على هذه الأمة، ثم بعد ذلك نزع الله منهم هذا التفضيل وأورث الكتاب لهذه الأمة، كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} الآية [(٣٢) سورة فاطر] وهم هذه الأمة، فخير أمة على الإطلاق هي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- والنصوص مصرِّحة بهذا لا خفاء فيها.

وأما ما ذكر الله -عز وجل- بعده من قوله: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [(١١٠) سورة آل عمران] فالمقصود أنهم لو آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ودخلوا في الإسلام لكان خيراً لهم.

فالله تعالى في هذه الآية قسمهم على طائفتين منهم من آمن ومنهم من لم يؤمن وهم الذين عبر عنهم بالفاسقين؛ لأنهم خرجوا عن الإيمان الذي وجب عليهم ولم يتابعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم إنه بعد ذلك فصل في حال الفريقين كما سيأتي في قوله تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء} [(١١٣) سورة آل عمران] فهذا تفصيل لهذا على قول طائفة من أهل العلم كما سيأتي.

وقوله تعالى: {مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [(١١٠) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون المقصود بذلك قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- أي أن منهم من كان على دينه متمسكاً به متابعاً لنبيه، ومنهم من كان خارجاً عن ذلك، فهذا تحتمله الآية، وقد يكون المراد -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرته أولاً، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومُبشِّرًا لهم أن النصر والظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} [(١١١) سورة آل عمران] وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرْغَم أنوفهم".

قوله: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} يمكن أن يكون هذا الاستثناء بـــ"إلا" مفرغاً من أعم الأحوال، ويمكن أن يكون مقطعاً بمعنى لكن، أي لن يضروكم لكن.

والمراد بالأذى في قوله: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} يعني كأن يُسمعوكم ما تكرهون في نبيكم وكتابكم وتسمعون منهم ما تكرهون في عيسى -عليه الصلاة والسلام- وفي أمِّه وما إلى ذلك من القبائح التي تسمعونها منهم.

والأذى والضرر بينهما فرق فالله -عز وجل- يقول في الحديث القدسي: ((إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني))[٦] ومع ذلك يقول في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [(٥٧) سورة الأحزاب] ويقول في الحديث القدسي الآخر: ((يؤذيني ابن آدم))[٧] وذلك أن الأذى يمكن أن يوصله الإنسان إلى الله -تبارك وتعالى- كالذي ينسب إليه الصاحبة والولد ويشرك بالله -عز وجل-، ويكذب عليه وما أشبه ذلك، فهذا من الأذى، لكن الضرر أبلغ من الأذى فلا يستطيع أحد أن يلحق الضرر بالله -تبارك وتعالى-، فالله –تبارك وتعالى- يقول هنا: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [(١١١) سورة آل عمران] فالأذى ليس بضرر وإنما هو دونه، ومعنى الآية: لن يصلوا إليكم بما يحبون من النكاية والقتل وما أشبه ذلك، ولكنه أذى بما تكرهون سماعه حيث يسمعونكم ما تكرهون من قالة السوء ونحو هذا فحسب، فلن يصل الأمر إلى أبعد من ذلك مما يكون أثره في الواقع من النيل منكم وإصابة أهل الإيمان بالقتل ونحوه.

"وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرْغَم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم -عليه السلام- وهم كذلك، ويحكم -عليه السلام- بشرع محمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- فيَكْسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزْية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي: ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا فلا يأمنون {إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ} أي: بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة.

{وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} أي: أمان منهم لهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذَا عبد، على أحد قولي العلماء.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} أي: بعهد من الله وعهد من الناس، هكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وعَطَاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبِيع بن أنس".

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) (ج ٤ / ص ١٩٩٤).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٥٣) (ج ٦ / ص ٢٧٢٢) ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها - باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦) (ج ٤ / ص ١٧٦٢).

بعض أهل العلم يفسر الحبل من الله -عز وجل- بأنه العهد الذي يعطيهم إياه أهل الإيمان؛ لأن عقد أهل الإيمان وحلهم مع غيرهم من الكفار إنما يكون موافقاً لأمر الله -تبارك وتعالى-، فالعلاقات بينهم وبين سائر الطوائف والأمم تكون موافقة لشرع الله تبارك و تعالى، وعلى هذا يكون الحبل من الله -عز وجل- هو ما يعطيهم أهل الإيمان من العهد والأمان والعقد ونحو ذلك.

والحبل من الناس هو ما يعطيهم إياه غير المسلمين من العهود والأمان ونحو ذلك، فهذا قول مشهور قال به كثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم.

وبعضهم يقول: الحبل من الله هو العهد من الله، والحبل من الناس هو ما يعطيهم إياه عباده مما يكون بينهم من العهود ونحو هذا، فالحاصل أن الآية قيل فيها غير هذا أيضاً، لكن هذا أشهر هذه الأقوال، والله أعلم.

"**وقوله: {وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله وهم يستحقونه {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي: أُلزموها قَدراً وشَرْعاً**".

الغضب والمسكنة لا تفارقهم بحال من الأحوال حتى ولو كان لهم عهد، والمراد بالمسكنة معروف، فهي خشوع الفقر وذل النفس والحاجة وخشوع الظاهر تذللاً وانكساراً لضعف الحال، فهذا أمر لا يكاد يفارقهم.

"**ولهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي وإنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْي وَالْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذلة والصغَار والمسكنة أبداً متصلاً بذلة الآخرة.**

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(١١٢) سورة آل عمران] **أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقُيِّضوا لذلك أنّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله -عز وجل- والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياذًا بالله من ذلك، والله -عز وجل- المستعان.**

{لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(١١٣-١١٧) سورة آل عمران].

قال محمد بن إسحاق وغيره ورواه العَوْفِيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب".

هناك ذَكَر أن أهل الكتاب على طائفتين منهم من آمن وأكثرهم الفاسقون، وذكر حال هؤلاء الفاسقين وأنهم لن يضروكم إلا أذى، وأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى آخر ما ذكر، ثم ذكر بعد ذلك تفصيلاً فقال: **{لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ}** [(١١٣) سورة آل عمران]، فأثنى على أهل الإيمان منهم، وهم الذين آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- والآية تحتمل معنىً آخر وهو أنه وصف أهل الإيمان منهم قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن كانوا على الدين الصحيح.

وعلى كل حال فإنه بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُقبل من أحد دين سوى الإسلام ومتابعة النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا يمكن بعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يوصف أحد من أهل الكتاب بأنه على شيء وأنه على استقامة أو يُثنى عليه، فالمقصود أن هذه الآية على المعنى الأول أنها في المؤمنين بمحمد -صلى الله عليه وسلم- كما ذكر هنا، وكما قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] وفي الآية الأخرى {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ} [(١٩٩) سورة آل عمران] وكذلك قوله: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ} [(٨٣) سورة المائدة] إلى آخر الآية، فهؤلاء كلهم كما قال الله -عز وجل-: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} [(٨٢) سورة المائدة] ليس كل النصارى، وإنما قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ} [(٨٢-٨٤) سورة المائدة] إلى آخر ما ذكر، فهذا لا يقوله الكفار منهم، وإنما هي في الذين آمنوا أمثال النجاشي وعبد الله بن سلام وأمثال هؤلاء ممن تابع النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن الأوصاف المذكورة بعدها لا يمكن أن تكون إلا فيمن آمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وبالكتاب الذي جاء به، فهي مصرحة بذلك.

وهذه الآيات يُلبَّس بها كثيراً هذه الأيام في الثناء على النصارى ومدحهم وأنهم أقرب إلى المسلمين، وهؤلاء لا تسيل دموعهم إذا سمعوا ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، فهم لا يؤمنون إطلاقاً، فينبغي للإنسان أن لا يبتر الآية وإنما يكمل الآية فيتضح المراد بها، وإلا فإن هؤلاء النصارى اليوم لا فرق بينهم وبين اليهود، فهم عرفوا الحق وجحدوه، فجمعوا بين الضلال وبين الغضب، فكفرهم اجتمع فيه الجهل والعناد والمكابرة فكل ذلك وقع لهم، فهؤلاء ليسوا أقرب للمسلمين، وما يجري للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عامته إنما يقع بسبب النصارى، والله المستعان.

"إن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سَلام وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْية وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء} [(١١٣) سورة آل عمران] أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ} [(١١٣) سورة آل عمران]".

قوله: {لَيْسُواْ سَوَاء} يعني الذين آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- والذين كفروا به، وهذا على المعنى الذي ذكرته آنفاً، وهو اختيار كثير من المحققين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

"ولهذا قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ} [(١١٣) سورة آل عمران] أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله فهي {قَآئِمَةٌ} يعني مستقيمة {يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [(١١٣) سورة آل عمران] أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد".

قوله: {يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ} يعني في ساعات الليل، فآناء جمع مفرده إنْيٌ، والمراد ساعات الليل.

وقوله: {وَهُمْ يَسْجُدُونَ} هل المراد أنهم يتلون آيات الله في ساعات الليل وفي السجود أيضاً مع أنه ورد النهي عن ذلك كما جاء من حديث علي وابن عباس، فهل المراد أنهم يقرءون القرآن في السجود؟

هكذا فهم بعض أهل العلم واستشكلوا -بناءً عليه- معنى الآية بهذا الاعتبار، والذي يظهر -والله أعلم- أنه ليس المراد أنهم يتلون آيات الله في ساعات الليل وفي السجود، ولذا فسره طائفة من أهل العلم بأن المراد أنهم يتلونه في الصلاة وأنه عبر عنها بركن منها، فالشيء قد يعبر عنه بجزئه وعليه يكون المعنى أنهم يتلونه في ساعات الليل وفي الصلاة فالصلاة يقال لها: سجود.

ولعل الأحسن من هذا أن يقال: إنهم يتلون آيات الله آناء الليل، في ساعات الليل وهم مع ذلك يسجدون لله -تبارك وتعالى- ويتقربون إليه، لا أنهم يقرءونه في حال السجود لكن ذكر لهم صفتين هما: أنهم يتلون آيات الله وهم مع ذلك يسجدون لله -تبارك وتعالى-، فإذا فُهم هذا المعنى فيمكن أن يقال بعد ذلك: إن المراد بالسجود هو الصلاة، ومن المعلوم أن السجود لا يكون منفرداً وإنما يكون في صلاة إلا في حالات مخصوصة كسجود الشكر وسجود التلاوة.

"أي: **يقومون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن في صلواتهم** {يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٤) **سورة آل عمران**] **وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة:** {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ} **الآية** [(١٩٩) **سورة آل عمران**]".

هذا تصريح من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن هؤلاء هم أهل الإيمان، أي من آمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فالثناء الذي في هذه الآية على طائفة منهم هم الذين دخلوا في الإسلام.

"**وهكذا قال هاهنا:** {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} [(١١٥) سورة آل عمران] أي: **لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء** {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [(١١٥) سورة آل عمران] أي: **لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً**".

في قوله: {فَلَن يُكْفَرُوْهُ} هذا الفعل "يكفروه" عداه إلى مفعولين مع أنه لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، تقول: كفر بكذا، لكن قال هنا: {فَلَن يُكْفَرُوْهُ} فالمفعول الأول يرجع إليهم والمفعول الثاني يرجع إلى العمل الذي عملوه، وفي مثل هذه الحال يمكن أن يقال: إنه قد ضُمِّن معنى فعل آخر يصح أن يُعدَّى إلى مفعولين مثل الحرمان، أي: وما يفعلوا من خير فلن يحرموه، تقول مثلاً: حرمت زيداً حقه، فصار متعدياً إلى مفعولين بخلاف كفَر فالأصل أنه يُعدَّى إلى مفعول واحد، فلما عدي إلى مفعولين دلَّ ذلك على أنه قد ضمن معنى فعل آخر يصح أن يعدَّى إلى مفعولين وهو الحرمان، فيكون المعنى فلن يحرموه، أي أن هؤلاء يقع لهم وعد الله -عز وجل- بأن لا يجحد عملهم وإحسانهم ولن يحصل لهم شيء من الحرمان من الأجر مما عملوا من الصالحات والله أعلم.

وهذه الآية {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} [(١١٥) سورة آل عمران] فيها قراءة أخرى متواترة هي (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه).

وهذه الآية على قراءة التاء (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) يكون الخطاب فيها موجهاً إلى عموم هذه الأمة، يعني أن الله تعالى أثنى على الذين آمنوا من أهل الكتاب ثم خاطب عموم الأمة، وأما على القراءة الأولى {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} فواضح أن المقصود بهم أهل الكتاب.

"ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفرة المشركين بأنه {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا} **أي: لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم** {وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١١٦) سورة آل عمران]".

لما ذكر تعالى حال الذين تابعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا، ذكر بعدُ عموم الكفار -ويدخل فيهم دخولاً أولياً كفار أهل الكتاب- وذكر أنهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً.

وبالنسبة لذكر الأولاد والأموال وجهه لا يخفى، وذلك أن أقرب الناس إلى الإنسان هم ولده الذين يتعزى بهم ويتقوى بهم ويتكثر بهم، والأموال يُجري فيها حكمه ويتصرف فيها كما يشاء فهي ملك له، فإذا كان أقرب الناس إليه وأمواله التي يُجري فيها حكمه لا تنفعه فغيره لا ينفعه من باب أولى.

أضف إلى ذلك أن عامة ما يُفتن به الناس مما يصدهم عن الحق ويصرفهم عنه هي الأموال والأولاد، والله يقول: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [(٤٦) سورة الكهف].

ولما ذكر الله تعالى المنافقين وما وصفهم به أخبر أنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم؛ لأنه وقع منهم هذا النفاق والتلوُّن من أجل إحراز الأموال والأولاد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الولد مجبنة محزنة مبخلة))[8].

"ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار -قاله مجاهد والحسن والسُّدِّي- فقال تعالى: {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} [(١١٧) سورة آل عمران] **أي: برد شديد، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبَير وقتادة والحسن، والضحاك، والرَّبِيع بن أنس وغيرهم.**

وقال عطاء: برد وجَلِيد، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً ومجاهد {فِيهَا صِرٌّ} **أي: نار، وهو يرجع إلى الأول؛ فإن البرد الشديد ولا سيّما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يُحرق الشيء بالنار".**

هذا وجه جيد للجمع بين الأقوال، وهذا من مزايا هذا التفسير، فهذه اللفظة {فِيهَا صِرٌّ} بعضهم فسرها بالبرد، وبعضهم فسرها بالريح، وبعضهم فسرها بالنار المحرقة، والصرير هو الصوت، وهذا الصوت قد يكون في الريح لشدتها وقد يكون ذلك في النار، وهذه المعاني المذكورة في هذه الآية لا منافاة بينها ولا يحتاج ذلك منا إلى ترجيح، وإنما يقال{فِيهَا صِرٌّ} أي أنها ريح لها صوت لشدتها وقوتها، فهي ريح باردة تتلف حروثهم وزروعهم وثمارهم فيكون ذلك أثر الإحراق بالنار فكأن هذه الزروع قد أحرقت، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله- خلافاً لبعض السلف -رضي الله عنهم- الذين حددوا أنها البرد الشديد كما مشى على ذلك ابن جرير -رحمه الله- حيث فسرها بالريح الباردة، وعلى كل حال لا حاجة للاقتصار على قول ابن جرير؛ لأنه يمكن أن يجمع بين هذه الأقوال ويكون ذلك من قبيل اختلاف التنوع لا

---

[8] - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥١) (ج ١ / ص ٢٣٦) والحاكم (٤٧٧١) (ج ٣ / ص ١٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧١٦٠).

اختلاف التضاد وهذا باعتبار ما يئول إليه الحال عند الجمع بين الأقوال، وإلا فإنه يوجد فرق كبير بين الريح وبين النار وبين البرد فهذا في الواقع اختلاف تضاد، لكن من اختلاف التضاد ما يمكن جمع الأقوال فيه كهذا المثال.

"{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} [(١١٧) سورة آل عمران] أي: **فأحرقته، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جِدَادُه أو حصاده فدمرته وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته، فعَدمَه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس** {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(١١٧) سورة آل عمران]".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ* هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} **[(١١٨-١٢٠) سورة آل عمران].**

"يقول -تبارك وتعالى- ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ} [(١١٨) سورة آل عمران] أي من غيركم من الكفار بجميع طوائفهم وأصنافهم، والبطانة شبهت بما يلي الجسد من الثياب، وإن شئت أن تقول: بما يلي البطن من الثياب، فهؤلاء لما كانوا من خاصتهم ومن المقربين الذين يطلعون على دخائلهم وما يختص بهم كانوا بمنزلة ما يلي الجسد من الثياب لشدة قربهم منهم ومعرفتهم واطلاعهم على أحوالهم، كاتخاذهم كُتَّاباً يطلعون على دخائل الأمور، أو اتخاذهم مستشارين أو نحو ذلك.

قوله: {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} أي لا يقصرون في أي نقص يستطيعون إيصاله إليكم، فهم لا يدخرون في ذلك جهداً، بل كل شيء يدخل عليكم الفساد من جهتهم فهم مجتهدون في تحصيله.

والخبال يطلق على الفساد سواء كان ذلك في البدن أو العقل أو المال، فقوله: {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} أي: لا يفتئون ولا يقصرون بل يبذلون كل جهد مستطاع في إضعافكم وكل ما يجلب الوهن إليكم.

"لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنِتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم.

وقوله: {لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ} أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره.

وقد روى البخاري والنسائي وغيرهما عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما بعث الله مِن نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله))[1].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدِّهْقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً؟ قال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمُورهم التي يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ} [(١١٨) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [(١١٨) سورة آل عمران] أي: قد لاح على صَفَحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} [(١١٨) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً.

{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحَيرة".

قوله: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} يمكن أن يكون الكتاب هنا اسم جنس، وكما في أصول الفقه وفي أصول التفسير أن المفرد -اسم الجنس- قد يراد به العموم، وهذا من أمثلته، {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} ومثل ذلك المفرد المضاف إلى معرفة سواء كان المضاف إليه ضميراً أو كان اسماً ظاهراً، وقد يأتي المفرد مراداً به الجمع إذا كان اسم جنس، فالله -عز وجل- يقول: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [(٣١) سورة النـــور] يعني أو الأطفال، وقوله: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي بالكتب كلها، قال تعالى: {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. [رواه ابن جرير].

{وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران] والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة.

وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران] وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: {قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: مهما كنتم تحسدون

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام - باب بطانة الإمام وأهل مشورته (٦٧٧٣) (ج ٦ / ص ٢٦٣٢).

عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم {إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران]".

يعني هؤلاء من شدة الحنق تصطك أسنانهم على أناملهم، ومعلوم أن من بلغ به الحنق غايته فإنه قد تصطك أسنانه بعضها على بعض، وقد تصطك على أنامله أو نحو ذلك، فهذا يمثل به على شدة الحنق، والذين يحللون التحليلات النفسية يعبرون عن ذلك بتفريغ الطاقة، أي أنه لشدة حنقه ربما صك بعض أسنانه على بعض بقوة، ويقولون: إن هذا كالذي عنده طاقة شديدة في الحركة وفي نحو ذلك فيهز رجله وهو جالس أو ينكت بشيء أو يتحرك أو يحرك يده، أو يحرك شيئاً معه، أو نحو هذا، وعلى كل حال لا شك أن هذا يعبر به عن شدة الغيظ، فهو يريد أن يفرغ هذا الغيظ فلا يجد شيئاً غير أن يلتقم أنامله من شدة ما يتمنى أن يظفر بكم.

"{إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: **هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغلِّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.**

ثم قال تعالى: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا} [(١٢٠) سورة آل عمران] **وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنَة -أي جَدْب- أو أُديل عليهم الأعداء؛ لما لله تعالى في ذلك من الحكمة -كما جرى يوم أحد- فَرح المنافقون بذلك".**

في قوله تعالى: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا} [(١٢٠) سورة آل عمران] فرّق هذا التفريق فعبر بالمس في الحسنة وعبر بالإصابة في السيئة إشارة إلى أن الكفار يستاءون ويحزنون إن حصل للمؤمنين أدنى خير فهم لا يريدون أن يقع للمؤمنين خير قليل ولا كثير، وأما في السيئة فإنهم لا يفرحون إذا وقع لهم شيء يسير من المكاره وإنما الذي يسرهم هو وقوع المكاره الجَزْلة والنكايات والمصائب العظيمة، وهكذا هو حال المبغض المعادي، ولذلك فإن عداوتنا للكفار تقتضي أن نستاء من ارتفاع مؤشر العملات عندهم، أو سوق الأسهم ولو شيئاً يسيراً، وأما في المصائب فنحن نسأل دائماً ونتطلع أن تكون المصيبة جَزْلة، ونفرح لما يقع لهم من الكوارث والمصائب والدواهي العظام ونستبشر بهذا ونتمنى أن تكون آثارها مدمرة وأن الخسائر قد بلغت غايتها ولا نفرح بالمصائب اليسيرة التي تقع لهم، وهذا هو حال المتعادين عادة، فهم لشدة عداوتهم لأهل الإيمان يفرحون بالمصائب التي تقع لهم وهي ذات وقع واعتبار ونكاية.

"{وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} **الآية** [(١٢٠) سورة آل عمران] **يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيدِ الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.**

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صَبْر الصابرين فقال تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ* إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٢١-١٢٣) سورة آل عمران]".

هناك قاعدة تقول: إن "إذ" منصوبة دائماً بـــ"اذكر" مقدراً، فيكون المعنى: واذكر إذ غدوت من أهلك تُبوِّئ المؤمنين مقاعد للقتال، فيمكن أن يكون ذلك على سبيل الاستئناف -جملة جديدة- يذكر فيها ما وقع لهم في أحد.

ومثل ابن جرير -رحمه الله- يربط بين هذه الآية وبين الآيات السابقة، فهو في السابق قال: إن تصبروا على طاعة الله وعن معصيته وما يقع لكم من الآلام والمصائب وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، وإن خالفتم أمري ولم تصبروا على طاعتي فإنه يقع لكم ما وقع لمن قبلكم، واذكروا إذ غدا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أحد، فذكرهم بهذا المصاب والهزيمة التي وقعت وما حصل فيها من الجراح والقتل بسبب المعصية وقلة الصبر، فالذين نزلوا من الجبل لم يمتثلوا أمر الله -عز وجل- وكان ذلك من قلة صبرهم وتقواهم فكانت النتيجة أن هزموا، فعلى هذا الاعتبار يكون ذلك مرتبطاً بما قبله، والعلم عند الله عز وجل.

"**المرادُ بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور**".

هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وابن عباس -رضي الله عنه- يقول عن سورة آل عمران: هذه أحدية، يعني أنها تتحدث عن غزوة أحد، ومن هنا إلى رأس ستين آية كل ذلك يتحدث عن غزوة أحد مع ما يتخلله من الكلام على بعض القضايا مثل الربا ونحو ذلك، وإلا فإن الكلام هو في غزوة أحد، وبعض أهل العلم قال: هذا في غزوة بدر، وبعضهم قال: في غزوة الخندق، ولكن هذا بعيد، ولو استشكل هذا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في بعض الروايات في السير أنه خرج بعد صلاة الجمعة وفي بعضها أنه خرج يوم السبت، في بعضها أنه خرج بعد صلاة الجمعة لما شاور أصحابه كما هو معروف ثم دخل ولبس آلة الحرب فخرج مساء الجمعة، فهذا قد يستشكل مع قوله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) سورة آل عمران] فقالوا: هو لم يخرج في أول الصباح، فمن هنا قال بعض أهل العلم: إنها ليست في أحد، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أنها في أحد، وهذا لا شك فيه والله تعالى أعلم، وأما وجه هذا التعبير، {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) سورة آل عمران] فإن هذا وإن كان في أصل الاستعمال يقال عن الذي يخرج في أول النهار لكن صار يستعمل في غير هذا على سبيل التوسع لمطلق الخروج في أي وقت، وهذا مثل استعمالات لفظ "أضحى" أي إذا دخل في وقت الضحى لكنه صار يعبر به على سبيل التوسع في الاستعمال فيما يمكن أن يكون بمعنى صار، تقول: أضحى زيد عليلاً أي: صار عليلاً، وإن كان أصل معناه دخل في وقت الضحى، والله أعلم.

"**المرادُ بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحد، وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم**".

يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج يوم الجمعة، وصارت الوقعة في يوم السبت.

"وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر وسلمت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع فَلُّهُم إلى مكة قال أبناء من قُتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يومَ الجمعة، فلما فرغ منها صَلى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أُبيّ بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

وأشار آخرون من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلبس لأمته وخرج عليهم".

قوله: "**فلبس لأمته**"، يعني لبس أداة الحرب، وكل أداة الحرب يقال لها: لأمة، السيف والرمح والمغفر، والدرع وما أشبه هذا مما يلبسه المحارب ويحمله معه يقال له: لأمة الحرب.

"فلبس لأمته وخرج عليهم وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرَهْنَا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ينبغِي لنَبِي إِذا لبس لأمته أن يرجِع حتى يحكم الله له))[2] فسار -عليه السلام- في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضباً".

الشوط مكان بين جبل الرماة وبين المدينة.

"رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضباً؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم.

واستمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: ((لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال))".

قوله: **حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي**، يعني في جانب الوادي، وذلك أنك لو وقفت متجهاً إلى المدينة وأنت على جبل الرماة فإنك ستجد الوادي يمر بينك وبين المدينة، وهذا الوادي هو الذي أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه أمثال حمزة ومجموعة من الجيش، وبالنسبة للرماة فقد كانوا ينضحون خيل المشركين؛ لئلا تعلو المسلمين ولئلا يتسلل أحد من جهة هذا الوادي؛ لأن المنطقة إلى ناحية المدينة كانت مزارع ونخيل، وهذا الوادي يمكن أن يمر به الفرسان أو نحو ذلك ولا يشاهدهم الناس.

كما أن هذا الوادي -إن لم تخنِّي الذاكرة- هو امتداد لما يعرف الآن بوادي العَاقول الذي يأتي من طريق القصيم من عند حرة النار، فالسائر فيه يأتي ويمر من جانب جبل الرماة، فالمسلمون كان ظهرهم إلى الجبل حيث كانت فيه مساحات كأنها داخل الجبل قليلاً وكان الرماة يحمونهم؛ لئلا يعلوهم المشركون، فكانوا يحتمون بالجبل ومن الناحية الثانية بجبل الرماة.

---

[2] - أخرجه الحاكم (٢٥٨٨) (ج ٢ / ص ١٤١) وصححه الألباني في صحيح السيرة.

"وتهيأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه -رضي الله تعالى عنهم- وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم: ((انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أوعلينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[٣].

وظاهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) سورة آل عمران] أي: **تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم".**

أصل التبوء هو اتخاذ المباءة، تقول: فقد باء بغضب من الله، فليتبوأ مقعده من النار، فهو اتخاذ المباءة، أي المكان الذي ينزل فيه الإنسان وقوله: **{تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}** أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يحدد موقع جيش المسلمين فيضع الميمنة هاهنا والميسرة هاهنا وظهورهم إلى الجبل بمعنى أنه يُعبِّئ الجيش بحيث يعرف كل مقاتل موقعه في هذا الجيش.

"أي: تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم {وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(١٢١) سورة آل عمران] **أي: سميع لما تقولون عليم بضمائركم.**

وقوله تعالى: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} الآية [(١٢٢) سورة آل عمران]".

يعني وإن كان وقع منهم هذا النقص حيث هموا بالانصراف إلا أن هذه تزكية لهم وشهادة أن ولاءهم لله -عز وجل- ولم يكن ولاؤهم للكفار أو للمنافقين أو أن ولاءهم مطعون فيه، فليسوا بمنافقين وإنما وقع لهم شيء من الضعف، حيث هموا بالرجوع إلى المدينة، ولكن الله ثبتهم، وهذه الشهادة هي التي قال فيها أبو سفيان: ما يسرني أنها لم تنزل، لقول الله: **{وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا}** [(١٢٢) سورة آل عمران].

وفي قوله تعالى في سورة الأحزاب: **{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ}** [(١٥) سورة الأحزاب] كثير من المفسرين يقولون: المراد به بنو حارثة وبنو سلمة الذين قال الله فيهم هنا: **إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] فهم تابوا من هذا وعاهدوا الله -عز وجل- أن لا يقع ذلك منهم ثم لما كان في يوم الخندق كان بعضهم يتنصل ويعتذر، ويقولون: **{إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}** [(١٣) سورة الأحزاب] حيث إنها مكشوفة خارج الخندق مما يلي ناحية مسجد القبلتين، أي خارج الخندق، والخندق مباشرة تحت الجبل المعروف الآن

---

[3] - فقه السيرة للغزالي وصححه الألباني.

بجبل سلع في السيح، فهم يقولون: هي مكشوفة للعدو فكان بعضهم يتنصل، وإن شئت فقل ضعفاء الإيمان والمنافقون.

"وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ} [(١٢٣) سورة آل عمران] أي: **يوم بدر، وكان في يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغَ فيه الشرك وخرَّب محلَّه مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فيهم فرسان وسبعُون بعيراً، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة".**

في قوله: "**والبَيض**" البيض جمع بيضة، وهي الخوذة من الحديد التي يضعها المقاتل على رأسه، وهي غير المغفر، فالمغفر مثل الدرع يضعه المقاتل على رأسه، حيث يضع تحته مثل الطاقية وهو من فوقها كالدرع تماماً منسوج من حلق ويحمي به رأسه، والمغفر كذلك عبارة عن حديد مصمت صبة واحدة وليس حلقات، وأظنه مثل طاقية الحديد تماماً.

"في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّض وجه النبي وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [(١٢٣) سورة آل عمران] أي: **قليل عددكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعُدَد؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى:** {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} [(٢٥) سورة التوبة] **إلى** {وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢٧) سورة التوبة].

وبدر: محلة بين مكة والمدينة، تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: بدر بن النارين.

وقوله: {فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٢٣) سورة آل عمران] أي: **تقومون بطاعته".**

يعني من أجل أن تشكروه، وهذا باعتبار أن "لعل" المراد بها هنا التعليل وليس الترجي.

"{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ* بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ* لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ* لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٤-١٢٩) سورة آل عمران].

اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد على قولين: أحدهما: أن قوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] **متعلق بقوله:** {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ} [(١٢٣) سورة آل عمران].

ورُوِي هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والرَّبِيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير.

قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ} [(١٢٤) سورة آل عمران] **قال: هذا يوم بَدْر** [رواه ابن أبي حاتم].

ثم روى عن عامر الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرْز بن جابر يُمدّ المشركين فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: {أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} **[(١٢٤) سورة آل عمران] إلى قوله:** {مُسَوِّمِينَ} **[(١٢٥) سورة آل عمران]".**

الملائكة نزلوا في ثلاث غزوات هي بدر والخندق وحنين، وما يتبع الخندق وهو قريظة، أما بدر فمما لا شك فيه هو نزول الألف، لقوله تعالى: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال]، فهذا لا شك فيه، وهل قاتلوا في يوم بدر؟

الراجح أنهم قاتلوا، وفي صحيح مسلم: أقدم حيزوم، وهو فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وجاء في هذا آثار وأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الصحابة الذين شهدوا الوقعة وكانوا يعرفون به من قُتل من المشركين ممن قتلهم الملائكة مثل ضرب السوط الذي قد تغير وازرق أو اخضر، فهؤلاء من قتلى الملائكة، وجاء في الآثار أنهم كانوا يتبعون رجلاً فسقط رأسه قبل أن يصله السيف، فكل هذا يدل على أن الملائكة قاتلوا.

فالمقصود أن عدد الملائكة في يوم بدر لا يقل عن الألف، وهذا لا شك فيه، لقوله تعالى: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال] فهذا وعد من الله تعالى بأنه سيمدهم بألف منهم إلا أن ذكر الألف لا يمنع الزيادة على الألف؛ لأنه قال: {مُرْدِفِينَ} فهذا يعني أنهم يمكن أن يزاد عليهم.

وهنا يقول تعالى: {أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] ثم قال: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [(١٢٥) سورة آل عمران].

وقوله: {مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا} أي: من ساعتهم هذه -يعني المشركين- أو من ناحيتهم هذه أو من غضبهم هذا، حيث يقال لمن غضب إنه فار، والمشركون إنما خرجوا من مكة إلى أحد للتشفي لما وقع لهم من القتل في بدر، فقوله: {مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا} أي: من غضبتهم هذه -على أحد المعاني- أو يكون من فورهم من ساعتهم، أو من فورهم من هذه الناحية، أو كان المقصود به المدد الذي سيأتي من كرز هذا، فالمقصود أن هذا وعد معلق بثلاثة أشياء هي: الصبر والتقوى ومجيء هؤلاء.

على كل حال نزول الألف في بدر لا شك فيه، وأما الزيادة على الألف فهل هي المقصودة هنا في بدر أو في أحد؟ الأقرب أن هذا أيضاً في بدر، ومسألة هل تحقَّقَ الشرطُ فزادهم الله -عز وجل- وصاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة؟ هذا فيه خلاف بين أهل العلم، لكن أصل نزول الملائكة في يوم بدر هذا لا شك فيه وكذلك هل قاتلوا؟ الراجح أنهم قاتلوا، ويدل على هذا أدلة كثيرة، أما في الخندق فقد أرسل الله عليهم الريح وأنزل جنوداً زلزل بهم العدو كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [(٩) سورة الأحزاب] فالله -عز وجل- زلزل بهم ولم يقع قتال كما قال تعالى: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [(٢٥) سورة الأحزاب] فالحاصل أنه في الخندق لم يحصل قتال وإنما حصل زلزلة للمشركين، ثم في غزوة بني قريظة لما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- يغتسل ووضع السلاح جاء جبريل وقال:

وضعتم السلاح وإن الملائكة لم تضع أسلحتها، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر أصحابه أن يخرجوا إلى قريظة، قال جبريل -عليه الصلاة والسلام-: فإني مزلزل بهم.

وفي يوم حنين يقول تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [(٢٥-٢٦) سورة التوبة] فالملائكة نزلت في يوم حنين، وكثير من أهل العلم يقولون: إنهم نزلوا لتثبيت المؤمنين وإنهم لم يقاتلوا في يوم حنين، والعلم عند الله -عز وجل-، فالحاصل أن الأقرب أن هذه الآيات في يوم بدر، وقوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ} [(١٢٤) سورة آل عمران] يمكن أن يكون كما قال ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من السلف ومن بعدهم: إنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم، وهكذا إذا قيل متعلق بكذا، فتربط أجزاء الكلام بهذه الطريقة.

"فبلغت كُرْزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة، وقال الرَّبيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول- وبين قوله تعالى في قصة بدر: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال] **إلى قوله:** {إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(١٠) سورة الأنفال]، **فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله:** {مُرْدِفِينَ} **بمعنى يَرْدِفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم".**

ابن جرير جزم بالألف في يوم بدر وتوقف في الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف، فقال: ليس عندنا دليل نستطيع الوقوف عنده أنه نزل هذا العدد ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، لكن يحتمل أن يكون هؤلاء قد نزلوا، أو لم ينزلوا، فليس هناك ما يرفع الخلاف، أما ألف فهو مجزوم به، أما في أحد فلم يُمَدوا بالملائكة على الراجح.

"وقوله: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران] **يعني: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقوني وتطيعوا أمري.**

وقوله تعالى: {وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا} [(١٢٥) سورة آل عمران] **قال الحسن وقتادة والربيع والسُّدِّي أي من وجههم هذا، وقال العَوْفيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-..."**

قوله: **من وجههم هذا**، يعني من خروجهم هذا.

"وقال العَوْفيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من سفرهم هذا".

وهذا بمعنى الأول، فقوله: من فورهم هذا، أو من وجههم أو من سفرهم هذا، كل ذلك بمعنىً واحد، وهذا من اختلاف التنوع.

"ويقال: من غضبهم هذا".

يقال: من غضبهم هذا باعتبار معنى الفوران وهو الغضب، أي: فاروا غضباً فمخرجهم كان بناء على هذا الغضب، وعلى كل حال كل ذلك واقع فيهم فيمكن أن يقال: من فورهم هذا أي: من مخرجهم ووجههم الذي خرجوا فيه غضبة بمصابهم في يوم بدر.

"القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) **سورة آل عمران]".**

نحن عرفنا أن الراجح في قوله: {وَإِذْ غَدَوْتَ} أنها في يوم أحد وليست في يوم بدر، فإذا كان وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم، فعلى هذا الاعتبار لم يحصل الصبر مع أنهم وعدوا بثلاثة ويزيدون إلى خمسة، فلما لم يحصل منهم الصبر ولا التقوى حيث خالفوا أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحصلت الهزيمة ولم يمدهم الله بالملائكة، لكن الأرجح هو الأول، والله أعلم.

"وذلك يوم أحد، ولكن لم يحصل الإمداد بالملائكة يومئذ؛ لقوله تعالى: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران] **فلم يصبروا بل فروا فلم يُمَدوا بملك واحد.**

وقوله تعالى: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [(١٢٥) سورة آل عمران] أي: **معلَّمين بالسِّيما".**

قوله: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم} المدد هو إعطاء الشيء حالاً بعد حال، أو شيئاً بعد شيء.

وقوله -تبارك وتعالى-: {مُسَوِّمِينَ} [(١٢٥) سورة آل عمران] هذه قراءة متواترة والقراءة الأخرى أيضاً متواترة وهي مسوَّمِين وعلى هذه القراءة الثانية يكون المعنى معلَّمين بعلامات يُعرفون بها، وقد جاء في بعض الروايات عن بعض السلف وليس فيه دليل صريح واضح يجب الوقوف عنده في هذه العلامة والسمة فيما أعلم، فمنهم من يقول: العمائم، بعضهم يقول: صفر، و بعضهم يقول: سود، وبعضهم يقول: بيض، وبعضهم يقول: حمر، وبعضهم يقول غير هذا.

فالمقصود أنه على قراءة مسوَّمين أي: أنهم قد وضعت لهم علامات، والقراءة الثانية مسوِّمِين، أي قد جعلوا علامات لأنفسهم، فهذا هو الفرق بين مسوَّمين ومسوِّمين.

"وقال أبو إسحاق السَّبِيعي عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، -رضي الله تعالى عنه- قال: كان سِيَما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا في نواصي خيلِهم.

وقال مكحول: مسوَّمين بالعمائم، وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم حنين عمائم حمر.

وروى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن عباد: أن الزبير -رضي الله تعالى عنه- كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجرًا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر".

وجاء في بعض الروايات أنها خضر وفي بعضها أنها حمر أي في وقعة بدر، وهنا في الرواية التي سبقت أنها في يوم بدر عمائم سود، و في يوم حنين عمائم حمر، وفي بعض الروايات أنها في يوم بدر عمائم حمر، وعلى كل حال هذا كله فيه مثل هذا التفاوت والاختلاف، والمقصود أنه كانت لهم علامة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارةً لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [(٤-٦) سورة محمد] ولهذا قال هاهنا: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] أي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمةُ في قَدَرِه والإحكام".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على إنزال الملائكة، يعني وما جعله الله -أي المدد بالملائكة الذي في قوله: {أَنِّي مُمِدُّكُم} [(٩) سورة الأنفال]- إلا بشرى لكم، وهذا هو المشهور وهو الأليق بالسياق.

ومن أهل العلم من جعل ذلك يرجع إلى التسويم، يعني مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم، وهذا لا يظهر كل الظهور والله تعالى أعلم، وعلى كل حال هذه الآية يستدل بها من يقول: إن الملائكة لم تقاتل لا في بدر، ولا في غير بدر، وقالوا: إن الله -عز وجل- ذكر ذلك بصيغة الحصر، يعني وما جعله -أي الإنزال- إلا بشرى، وأقوى صيغة من صيغ الحصر هي النفي والاستثناء، وهو هنا لم يذكر القتال وإنما البشارة وطمأنينة القلب، لكن على كل حال السياق هنا يدل على أن النصر لا يتنزل من جهة سوى الله -تبارك وتعالى- فالذين يُنزِّلون النصر ليسوا هم الملائكة ولا غير الملائكة؛ وذلك من أجل أن ترتبط القلوب بالله -جل جلاله- فحينما يذكر هذه القضية لتحقيق هذا المعنى فإن ذلك لا يدل على نفي أمور أخرى حصلت مع تنزيل الملائكة -عليهم السلام- ولذلك فإن الأرجح من قولي العلماء وهو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن الملائكة قاتلوا في يوم بدر.

ومما يحتج به من يقول: إن الملائكة لم تقاتل، من النظر أنهم يقولون: ما الحاجة أن ينزل الله ألفاً أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، وملك واحد يمكن أن يسحق هؤلاء جميعاً ويقتلع الأرض التي يطئون عليها؟

يقال لهم: إن الله -عز وجل- له في ذلك حكم بالغة، وإلا فإن النصر يأتي من غير تنزيل الملائكة أصلاً، فالله -عز وجل- يخذلهم ويموتون في أماكنهم، والله -عز وجل- يقول: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن

{لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد] فالمقصود أن مثل هذه الأسئلة والإشكالات لا ترد؛ لأن لله حكماً، والله -عز وجل- يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه.

"**ثم قال تعالى:** {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] **أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهَدين، فقال:** {لِيَقْطَعَ طَرَفًا} [(١٢٧) سورة آل عمران] **أي: ليهلك أمة** {مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [(١٢٧) سورة آل عمران]".

في قوله تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} ابن كثير -رحمه الله- ذكر معنىً عام، أي أنه أمركم بالجهاد ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

وبعض أهل العلم يربط ذلك بكلام قبله فيقول: إنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وذلك بما حصل من قتل سبعين منهم وأسرِ سبعين، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أي أنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر، أي إن الذي حصل في بدر من الانتصار كان من أجل أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، وبهذا الاعتبار يكون ذلك مختصاً ببدر، لكن على كلام ابن كثير المعنى أعم من هذا وهو أن الله أمر بالجهاد من أجل حكم بالغة، ومنها ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين فلا يحصل مقصودهم.

ومن أهل العلم من يقول: إنه متعلق بقوله: وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفاً، وهذا القول أبعد من الأول، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إنه متعلق بالإمداد بالملائكة، أي يمددكم ربكم، بهؤلاء الملائكة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وعلى كل حال الآيات: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [(١٢٣) سورة آل عمران]، {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ} [(١٢٦) سورة آل عمران]، {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] فالذين قالوا: إنه متعلق بقوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] وصلوها بالتي قبلها مباشرة، أي وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع، وأقرب هذه المعاني والله تعالى أعلم هو الأول؛ لأن ما ذكر بعده إنما هو تكملة وهو بمنزلة الشرح له، أي: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم، وما جعله الله إلا بشرى، ثم قال: حصل كل هذا ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

فقال: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا} [(١٢٧) سورة آل عمران] **أي: ليهلك أمة.**

"**ليهلك أمة**" يعني طائفة، أي فريقاً من الكفار.

"{مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] **أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم**".

الكبت هو الخزي والحزن أي: إنه يخزيهم ويحزنهم بما يقع لهم من المصائب.

"**أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم، لمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال:** {أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] **أي: يرجعوا** {خَآئِبِينَ} **لم يحصلوا على ما أمَّلُوا.**

ثم اعترض بجملة دلت على أنّ الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [(١٢٨) سورة آل عمران] أي: بل الأمر كلّه إليَّ، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد] وقال: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [(٢٧٢) سورة البقرة] وقال: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [(٥٦) سورة القصص].

قال محمد بن إسحاق في قوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [(١٢٨) سورة آل عمران] أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة {أَوْ يُعَذِّبَهُمْ} أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} أي: يستحقون ذلك".

هنا الآية: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران] قال قبلها: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ} [(١٢٧) سورة آل عمران].

بعض أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} معطوف على قوله: {أَوْ يَكْبِتَهُمْ} وأن "أو" بمعنى إلا، فيكون الكلام بمعنى إلا أن يتوب عليهم، أي: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم إلا أن يتوب عليهم. وعلى كل حال يمكن أن تفهم الآية من غير هذا التفسير الذي لا يتبادر إلى ذهن السامع، ويحمل الكلام على ظاهره في أنهم قد يقع لهم هذا أو هذا أو هذا، وأن الله -عز وجل- يتصرف فيهم كما يشاء فهم عبيده، وليس الأمر إليك وإنما عليك البلاغ.

والمقصود بقوله: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} أي بالهداية إلى الإيمان؛ لأن الله -عز وجل- لا يتوب على الكافرين، ولكن توبته على عبده تأتي بمعنى أن يوفقه للتوبة والرجوع إليه، وتأتي بمعنى قبول التوبة، والتوبة معناها الرجوع فتوبة الله -عز وجل- على العبد أي برجوعه على عبده بالقبول والمغفرة فقبِل توبته، وغفر ذنبه.

"وروى البخاري عن سالم عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً)) بعدما يقول: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)) فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} الآية [(١٢٨) سورة آل عمران]. وهكذا رواه النسائي[(١)].

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اللهم العن فلاناً، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية))[(٢)] فنزلت هذه الآية: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران] فتِيبَ عليهم كلهم.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٣) (ج ٤ / ص ١٦٦١).والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب لعن المنافقين في القنوت(١٠٧٨) (ج ٢ / ص ٢٠٣).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٢٧) وأحمد (٥٦٧٤) (ج ٩ / ص ٤٨٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٠٤).

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة، -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، وربما قال إذا قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: ((اللهم أنجِ الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)) يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: ((اللهم العن فلانا وفلانا)) لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} الآية [(١٢٨) سورة آل عمران][٣]".

على كل حال قوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} مع هذه الأسباب المذكورة في النزول فهِم منها بعض أهل العلم أن النهي إنما هو عن ذلك كله، وهذا يحتاج إلى نظر وتحرير؛ وذلك أنه يحتمل أن يكون نهاه؛ لأنه –عز وجل- سبق في علمه وقدره هداية هؤلاء الناس، فنهاه عن الدعاء عليهم، وعلى كل حال يكون ذلك مختصاً بهذه الواقعة جمعاً بين الأدلة، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا على الكفار في مواطن متعددة في الصلاة وفي خارج الصلاة، ودعا -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، ودعا على أشخاص، ولعن رجالاً بأعيانهم، وإنما نُهي في هذا الموطن، كما أنه –عليه الصلاة والسلام- دعا لأقوام في القنوت في الصلاة، فالدعاء على الكفار ولعنهم هذا أمر لا إشكال فيه، وهو أمر دلَّ عليه الكتاب والسنة، ونوح -عليه الصلاة والسلام- قال: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [(٢٦) سورة نوح] وقال موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٨٨) سورة يونس] فدعوا عليهم بالربط على القلوب حتى لا يؤمنوا، وليس هناك شيء أبلغ من هذا، والأدلة على هذا كثيرة جداً، والذين يتكلفون ويقولون على الله -عز وجل- بلا علم وتضيق صدورهم من الدعاء على الكفار ترد عليهم مثل هذه النصوص، وقد يدعو النبي -عليه الصلاة والسلام- لأقوام، وكل مقام بحسبه، فالمقام تارة يقتضي الدعاء عليهم وتارة يقتضي الدعاء لهم، فلسنا مطالبين دائماً بالدعاء للكفار بالهداية، بل أحياناً قد ندعو على كافر أن الله لا يهديه ولا يوفقه، وأن يميته على الكفر، وأن يختم له بخاتمة السوء، وأن يأخذه ويرينا فيه عجائب قدرته وهذا مثل ما دعا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- على فرعون، ففي كل مقام حال مناسبة، والله تعالى أعلم.

"وقال البخاري: قال حميد وثابت عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: "شُجَ النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فقال: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟)) فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [(١٢٨) سورة آل عمران] [٤]".

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٤) (ج ٤ / ص ١٦٦١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥) (ج ١ / ص ٤٦٦) واللفظ للبخاري.

[٤] - أخرجه البخاري معلقاً في كتاب المغازي - باب {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران] (ج ٤ / ص ١٤٩٣) وأخرجه مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: ((كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟)) فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) **سورة آل عمران]**[٥] **ورواه مسلم**[٦]".

هذه الروايات المتعددة في سبب النزول روايات صحيحة وهي صريحة، ومعنى الصريح من أسباب النزول هو ما ذكر فيه سبب أو حادثة أو سؤال، ثم قال بعد: فأنزل الله كذا، أو فنزلت الآية، فهذا كله من قبيل الصريح، تارة بأنها نزلت في لعن النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجال من قريش بأعيانهم، أو في دعائه -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، أو فيما حصل له -صلى الله عليه وسلم- في أحد حينما قال ما قال، هذه كلها أسباب صحيحة وصريحة، فإن تقارب الزمان كان ذلك متقارباً، والقاعدة أنه إذا تعددت أسباب النزول فإنه ينظر إلى الثبوت ثم نختار الصحيح، ثم العبارة فنختار الصريح، ثم إنْ تقارب الزمان حُملت الآية على هذه الأسباب جميعاً، يقال: حصل كذا، وحصل كذا، وحصل كذا، فنزلت الآية بعد هذه الأشياء جميعاً، وإنْ تباعد حُمل على تكرر النزول، أي أنها نزلت في أكثر من مناسبة، وبعض أهل العلم في مثل هذا الموطن يعمد إلى الترجيح بطريقة من طرق الترجيح الكثيرة، كأن يرجح مثلاً رواية الصحيحين، أو رواية البخاري أو نحو هذا، ولكن الترجيح فيه إهدار لأحد الأدلة والجمع مطلوب ما أمكن، فمثل هذه الأشياء حينما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء من قريش وغيرهم وما وقع في أحد، هذه القضايا متقاربة، حيث إن هناك أشياء وقعت بعد أحد فينظر في مثل هذا.

"**ثم قال تعالى: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}** [(١٢٩) سورة آل عمران] أي: **الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء}** [(١٢٩) سورة آل عمران] **أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، {وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٢٩) سورة آل عمران].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [(١٣٠-١٣٦) سورة آل عمران]".

هذه الآية تتحدث عن الربا، وسياق الآيات جميعاً يتحدث عن غزوة أحد، فإدخال هذه الآية في وسط الآيات التي تتحدث عن أحد هل له وجه يظهر لنا؟ هل يمكن أن نستشف من هذا شيئاً؟ ما وجه الارتباط في المعنى؟

---

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٢) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وأحمد (١١٩٧٤) (ج ٣ / ص ٩٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[6] - صحيح مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

حينما ذكر الله -عز وجل- آيات الصيام ثم ذكر في أثنائها {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [(١٨٦) سورة البقرة] قال العلماء: إن للصوم مزية وللدعاء تعلق خاص بالصيام أو برمضان لوجود ليلة القدر مثلاً، أو لأن للصائم دعوة مستجابة؛ لذلك دخلت آية الدعاء بين آيات الصيام.

ووجه ذكر معصية التعامل بالربا أثناء الحديث عن غزوة أحد يمكن أن يكون سببه ذكر المعصية التي سببت الهزيمة.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الربا حرب لله ولرسوله كما قال تعالى في الآية الأخرى: {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} [(٢٧٩) سورة البقرة] فالمواطن التي يُتعاطى فيها الربا هي قلاع لحرب الله ورسوله، والمشتغلون الموظفون فيها هم جنود في تلك القلاع يحاربون الله ورسوله، فإذا كان ذلك موجوداً في المجتمع، فكيف ينتظر النصر من يحارب الله ورسوله؟، فهذه الهزيمة التي وقعت وما ذكر من أسباب النصر ذُكر في أثنائه الربا الذي خصه الله -عز وجل- من بين سائر الذنوب بأنه حرب لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- والله أعلم..

"يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة".

قوله تعالى: {لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً} [(١٣٠) سورة آل عمران] فهم منه بعض المحللين لكثير من أنواع الربا أن الذي نهي عنه هو أن يؤكل الربا بهذه الصفة، فقالوا: هذا الذي لا يجوز وما عداه جائز، أي أنه إذا كان الذي يؤخذ نسبته خمسة بالمائة أو سبعة بالمائة أو عشرة بالمائة وما أشبه هذا فليس هذا أضعافاً مضاعفة!! لكن هذا الفهم الأعجمي ليس صحيحاً وإنما الصحيح أن يقال: إنه -تبارك وتعالى- ذكر صورة مقززة هي من أقبح صور الربا التي تفتك في المجتمع وهي أخذه بهذه الصفة حيث كان ذلك فاشياً في الجاهلية، وإلا فالمقصود أن الربا بجميع أنواعه محرم سواء كان بهذه الصفة أو بغيرها والمفهوم هنا غير معتبر؛ لأن من المواطن التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة أن تكون الآيات نزلت على وفاق واقع معين، وهذه الآية نزلت بناءً علي وفاق معين كان فاشياً في الجاهلية وهو هذه الصورة المذكورة، ومثل هذه الآية قوله تبارك وتعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٨) سورة آل عمران] حيث نزلت بسبب أناس والوا الكفار من دون المؤمنين، فلو أن إنساناً قال: أنا أوالي الكفار والمؤمنين معاً، نقول له: لا، فالآية لا مفهوم لها؛ لأنها نزلت على وفاق واقع معين، كما قال في المراقي:

كـذا دليـل للخطـاب انـضافا	ودع إذا الـساكت عنـه خافـا
أو جهل الحكم أو النطـق انجلـب	للسؤل أو جرى على الـذي غلـب
أو امتنـان أو وفـاق الواقـع	والجهـلِ والتأكيـد عنـد الـسامع

هذه هي الحالات التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، فالأصل أنه حجة عند الجمهور، لكن في حالات معينة لا يكون فيها حجة كما في هذه الآية..

"كما كانوا يقولون في الجاهلية -إذا حل أجل الدين: إما أن يقضي وإما أن يربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخَر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفاً".

أي أنه بهذه الطريقة يصير أضعافاً مضاعفة حيث يصير المال المطلوب سداده أكبر من أصل المال المقرَض.

"وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: {وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(١٣١-١٣٢) سورة آل عمران]".

يقول تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٨٩) سورة البقرة]، ولفظة "لعل" إما أن تحمل على التعليل وإما أن تحمل على معنى الترجي، ومعلوم أن الله لا يحصل منه الترجي؛ لأن الترجي إنما يقع ممن لا يعلم عواقب الأشياء لكنه يترجى وقوع الشيء ولا يدري هل يقع أم لا يقع.

وإذا فسرت "لعل" بأنها للترجي في مثل هذه الآية، فيكون ذلك باعتبار حال المخاطب، يعني على رجائكم، فقوله تعالى مثلاً: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [(٤٤) سورة طــه] يعني على رجائكما يا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-.

"ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [(١٣٣) سورة آل عمران] **أي: كما أعدّت النار للكافرين.**

وقد قيل: إن معنى قوله: {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} **تنبيها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة:** {بِطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [(٥٤) سورة الرحمن] **أي: فما ظنك بالظهائر؟".**

وجه الارتباط بين المثالين أنه في هذه الآية: {بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} يقصد أنه ليس بحاجة إلى أن يبين حال الظواهر، بمعنى أنه إذا كانت البواطن التي توضع عادة من وضيع الثياب من الأقمشة التي لا قيمة لها؛ لأنها لا تظهر للناس جعلت من إستبرق فما بالك بالظواهر؟ إذاً: هذه لا يُحتاج أن توصف.

وإذا كان تراب الجنة من مسك، والزعفران حشيش نابت فيها فما بالك بجواهرها، فالمقصود أن هناك أشياء ينبه بها على أشياء.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} يحتمل معنيين:

المعنى الأول: بما أن السماوات جمع، والأرض جنس يصدق على الأرضين السبع، فمن أهل العلم من يقول: إن المراد أن هذه السماوات العظيمة إذا بسطت كبسط الثياب ووصل بعضها ببعض، وبسطت الأرض بطبقاتها السبع ووصلت وصل الثياب فهذا هو عرض الجنة.

المعنى الثاني: من أهل العلم من يقول: إن ذلك على طريقة العرب في المبالغة، فإذا أرادوا ذكر سعة شيء ذكروا مثل هذا، فقوله: {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} أي أنها واسعة العرض.

ومن أهل العلم من قال: إن ذكر العرض يغني عن ذكر الطول؛ لأن العرض عادة أقل من الطول، والعرب تذكر عرض الشيء ليفهم السامع قدر طوله، فإذا كان العرض بهذا المقدار {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}، إذاً: فطولها لا شك أنه أعظم من هذا، ولكن هذا لا يجزم به هنا حيث لا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة.

والعلماء يتكلمون في الأفلاك أن لها صفة الكروية، وأن العرش بمنزلة القبة أو بمنزلة السقف للجنة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش

الرحمن))[7] وذكر أنه تفجر منه أنهار الجنة، فلا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة، لكن فهم بعض أهل العلم من ذكر العرض وأنه بهذه المثابة من الاتساع أن ذلك دليل على أن الطول أعظم، وهذا لا يلزم؛ فالعرب قد تذكر العرض في أغلب كلامها، والله أعلم.

"وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفه عرش الرحمن))[8]، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ} الآية [(٢١) سورة الحديد]".

قوله: **{كَعَرْضِ السَّمَاء}** السماء هنا جنس والجنس يصدق على الواحد والكثير فلا إشكال بين هذه الآية وآية آل عمران: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [(١٣٣) سورة آل عمران].

"روى البزار عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أرأيت قوله تعالى: **{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [(١٣٣) سورة آل عمران] **فأين النار؟ قال: ((أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار؟)) قال: حيث شاء الله، قال: ((وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل))[9]، وهذا يحتمل معنيين:**

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليّين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله -عز وجل-: {كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ} [(٢١) سورة الحديد] **والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم".**

على كل حال هذه الأمور الغيبية الإنسان لا يخوض فيها، وإنما يؤمن بها كما أخبر الله -عز وجل-.

"ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء} [(١٣٤) سورة آل عمران] **أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً}** [(٢٧٤) سورة البقرة] **والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر".**

يعني قدموا الإحسان والبذل والنفقة حيث دعت الحاجة سواء كان ذلك في الليل أو في النهار، وينفقون في السراء وفي الضراء، ومن الناس من يبخل في حال السراء ولا ينشط للنفقة، ومن الناس من يمسك في حال الضراء ويزداد خوفه على ما في يده وتنتابه ألوان الوساوس فيزداد حرصه فلا يبذل شيئاً.

---

[7] - سيأتي تخريجه.

[8] - أخرجه أحمد (٢٢٧٩٠) (ج ٥ / ص ٣٢١) وأصله في البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي (٢٦٣٧) (ج ٣ / ص ١٠٢٨).

[9] - أخرجه ابن حبان (١٠٣) (ج ١ / ص ٣٠٦) والحاكم (١٠٣) (ج ١ / ص٩٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

"وقوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يُعملوه وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[١٠] وقد رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة))".

قوله: ((حَزْنٌ بربوة)) الربوة هي المكان المرتفع والحزن هو الصعب أو الذي يصعب المشي فيه فهو ليس سهلاً، والمعنى أن ذلك يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومشقة وصبر وتحمل.

وقوله: ((ألا إن عمل النار سهل بسهوة)) السهوة هي الأرض ذات التربة اللينة السهلة التي يسهل المشي عليها دون مشقة.

"((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقي الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ جوفه إيماناً))[١١] انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن".

وبعض أهل العلم ضعف الحديث؛ لأن فيه رجلاً مجهولاً، لكن قوله: ((من أنظر معسراً)) يوجد ما يشهد له[١٢]، ولهذا فهو يحتمل التحسين، لكن إسناده عند الإمام أحمد فيه رجل مجهول.

"وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء))[١٣] ورواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله)) [رواه ابن جرير وكذا رواه ابن ماجه][١٤]".

وهذا يشهد لبعض الحديث السابق، وهذا هو المعتاد المعمول به.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب (٥٧٦٣) (ج ٥ / ص ٢٢٦٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب (٢٦٠٩) (ج ٤ / ص ٢٠١٤).

[11] - أخرجه أحمد (٣٠١٧) (ج ١ / ص ٣٢٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً.

[12] - صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٦) (ج ٤ / ص ٢٣٠١).

[13] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب من كظم غيظاً (٤٧٧٩) (ج ٤ / ص ٣٩٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب الحلم (٤١٨٦) (ج ٢ / ص ١٤٠٠) وأحمد (١٥٦٧٥) (ج ٣ / ص ٤٤٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

[14] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد – باب الحلم (٤١٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٠١) وأحمد (٦١١٤) (ج ٢ / ص ١٢٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٧٥٢).

"فقوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي لا يُعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث: ((ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله))[15]".

هذا التفسير مثل ما تقول: عفت الريح الأثر إذا طمسته ومحته فلا يبقى له في النفس بقية أو أثر، وأما الصفح فهو الإعراض كما في قوله تعالى: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ} [(١٠٩) سورة البقرة] فالصفح من صفحة العنق وهو أن يُعرض الإنسان عن إساءة المسيء، وقد يُعرض الإنسان لكن يبقى في نفسه شيء، وقد يذهب الذي في النفس لكنه يحتاج إلى معاتبة لسبب أو لآخر، والذي ينبغي للمسلم أن يعفو ويصفح.

"وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} [(١٣٥) سورة آل عمران] أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار".

قوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً} هذا يحتمل أن يكون من قبيل الاستئناف، أي أنه كلام مستأنف جديد باعتبار أن هذه فئة أخرى غير الأولى، فالفئة الأولى أكمل، وهي فئة {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران]، فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية، ثم تأتي طبقة دون هؤلاء من أهل الجنة وهم الذين يحصل منهم إساءة وتقصير ولكنهم لا يصرون على ذلك بل يتوبون، وهم فئة الذين {إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [(١٣٥) سورة آل عمران] فهذا احتمال مشى عليه بعض أهل العلم، والمعنى الثاني -وهو الأقرب والله تعالى أعلم، واختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن ذلك من قبيل العطف على ما سبق، وأن هذه الأوصاف جميعاً لطائفة واحدة، أي أنهم بهذه المثابة من الإحسان والبذل والإنفاق والعفو والكظم للغيظ، وإذا بدر منهم شيء فإنهم لا يصرون على ذلك، بل يبادرون إلى التوبة.

"روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن رجلاً أذنب ذنبا، فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله -عز وجل-: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباٍ آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره، فقال -تبارك وتعالى-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لي، فقال الله -عز وجل-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباٍ فاغفره لي فقال الله -عز وجل-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء)) [أخرجه في الصحيح بنحوه][16]".

---

15 - أخرجه أحمد (١٨٠٦٠) (ج ٤ / ص ٢٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٢٤).

16 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٦٨) (ج ٦ / ص ٢٧٢٥) وأحمد (٧٩٣٥) (ج ٢ / ص ٢٩٦).

يذكر هذا الحديث ونظائره عند الكلام على الرجاء، ومثل هذه الأحاديث لا تكون مسوغاً للإنسان أن يستمرئ الذنوب والمعاصي، وإنما هي في الإنسان الذي تغلبه نفسه فيتوب ولا يصر على الذنب ثم تغلبه نفسه فيبادر إلى التوبة، فمثل هذه النصوص يعالج بها اليائس والقانط وأولئك الجهال الذين يأتيهم الشيطان، ويقول: أنتم تعملون ذنوباً ثم تظهرون للناس بحلية وصورة أخرى فأنتم تنافقون، وهكذا يحرضهم على ترك العمل الصالح بالكلية، فمثل هؤلاء تفيدهم مثل هذه الأحاديث، لكن هناك أحاديث ونصوص وآيات أخرى تدل على شدة أخذ الله -عز وجل- وعقابه ونكاله، فيجب أن تجمع هذه النصوص مع تلك.

"وقد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: بلغني أن إبليس حين نزلت: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} الآية [(١٣٥) سورة آل عمران] **بكى.**

وقوله تعالى: {وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ} [(١٣٥) سورة آل عمران] **أي: لا يغفرها أحد سواه.**

وقوله: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] **أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها".**

قوله: {ذَكَرُواْ اللّهَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون ذكروه بألسنتهم، ويحتمل أنهم ذكروه بقلوبهم، أو ذكروا وعده ووعيده وعظمته وما ينتظرهم من الوقوف بين يديه، فحصل منهم الاستدراك والرجوع والندم والتوبة، ومعلوم أنه ليس من شرط التوبة أن يذكر الإنسان ربه بلسانه إذا أذنب، ولكن المحرك للتوبة ابتداءً هو أن يتذكر الإنسان عظمة الله -عز وجل- وما وقع في حقه من الإساءة والتجرؤ عليه وعلى حدوده، فيكون ذلك دافعاً له إلى الندم؛ لأن الندم أمر قد يطلبه المكلف ولا يحصل له، فالخطاب إذا توجه إلى المكلف بشيء لا يدخل تحت طوقه فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى آثاره، فالندم يكون بتذكر عظمة الله -عز وجل- المؤدي إلى الندم، بمعنى أنهم لم يستمروا على الغفلة، فيحصل لهم الإبصار بسبب ذلك.

"وقوله: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] **أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه.**

وقوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمَير: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أن من تاب تاب الله عليه.

وهذا كقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [(١٠٤) سورة التوبة] **وكقوله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [(١١٠) سورة النساء] **ونظائر هذا كثيرة جداً".**

ويحتمل معنىً آخر ذكره بعض أهل العلم، واختاره ابن جرير -رحمه الله- ولعله هو المتبادر، وهو أن معنى وهم يعلمون، أي: بسوء صنيعهم وقبح عملهم وجنايتهم، فمعنى ذلك أنهم لم يفعلوا هذا الفعل القبيح جهلاً منهم بقبحه وأن الله -عز وجل- حرمه وإنما المقصود ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون قبح هذا، فإنهم إن كانوا يعلمون أن الله حرمه فهم يبادرون إلى التوبة منه.

"وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال وهو على المنبر: ((ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون))[١٧] تفرد به أحمد.

ثم قال تعالى -بعد وصفهم بما وصفهم به-: {أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [(١٣٦) سورة آل عمران] أي: جزاؤهم على هذه الصفات {مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٣٦) سورة آل عمران] أي: من أنواع المشروبات {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} يمدح تعالى الجنة".

17 - أخرجه أحمد (٦٥٤١) (ج ٢ / ص ١٦٥) وإسناده حسن كما قال الأرناؤوط.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ* هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ* وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ* وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٣٧-١٤٣) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ولهذا قال تعالى: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ} [(١٣٧) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران] يعني القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [(١٣٧) سورة آل عمران] المراد به المثلات التي وقعت للأمم المكذبة حيث أجرى الله -عز وجل- العادة بأن يعذب المكذبين الظالمين من الأمم التي كانت قبلنا ويأخذهم بذنوبهم فأرشد إلى النظر في هذا فقال: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ} [(١٣٧) سورة آل عمران]، وهذا الأمر هو لمن كان عنده شيء من التردد والشك أو التكذيب.

ولا مستمسَك في هذه الآية لطوائف المتكلمين ممن قالوا: إن أول ما يجب على المكلف هو النظر؛ لأن الله قال: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ} [(١٣٧) سورة آل عمران] وإنما أمر الله -عز وجل- بالنظر لمن كان عنده تردد أو شك أو تكذيب، ولم يؤمر به أهل الإيمان الذين ثبتوا، فهم لا يحتاجون إلى مثل هذا، كأبي بكر الصديق وأمثاله، وقد قال القائل:

وليس يصح في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النهار إلى دليل

قوله -تبارك وتعالى-: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران]، قال: **يعني القرآن فيه بيان للأمور على جليتها**، وبعض أهل العلم يقول: إن اسم الإشارة في قوله: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} يعود إلى الآية التي قبلها وهي قوله: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [(١٣٧) سورة آل عمران] أي أن السياق يكون هكذا: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ..} [(١٣٧) سورة آل عمران]، ثم قال: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران]، وهذا فيه

بعد والله تعالى أعلم، والأحسن من هذا هو ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- من أن المراد بقوله: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران] ما ذكره الله -عز وجل- قبله من التفاصيل والأمور التي بيّن بها حال أهل الإيمان والمكذبين الكافرين، وما جرى لهؤلاء، وما جرى لهؤلاء، وما وقع في يوم أحد، وأسباب ذلك، فهذا التفصيل الذي سبق في الآيات هو المراد بقوله: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران].

وما ذكره الحافظ ابن كثير هنا من أنه القرآن لا يبعد من هذا كثيراً؛ لأن القرآن بيان للناس، وهذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- من الآيات هي من جملة هذا القرآن وما تضمنه من البيان والهدايات التي يحتاج إليها الناس، والعلم عند الله عز وجل..

"{وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ} [(١٣٨) سورة آل عمران] **يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدىً لقلوبكم، وموعظة للمتقين، أي: زاجر عن المحارم والمآثم.**

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين: {وَلاَ تَهِنُوا} [(١٣٩) سورة آل عمران] **أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى** {وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] **أي: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون".**

في قوله تعالى: {وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] يمكن أن يكون قوله: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} متعلقاً بقوله: {وَلاَ تَهِنُوا} أي: لا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين، فإن المؤمن يصبر ويثبت ويرضى بما قدره الله -عز وجل- عليه، ويستشعر هذه المعاني.

وبعض أهل العلم يقول: إنه يتعلق بقوله: {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ} أي: ولا تهنوا ولا تحزنوا فإنكم الأعلون {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} يعني أن هذا الوصف -من كونهم أعلى من الكفار وإن هُزموا- إنما يكون إذا كانوا محققين للإيمان.

ومثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن قوله: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي إن كنتم مصدقين لرسولي فيما أخبركم به من النصر والظفر وأن العاقبة لكم وما يئول إليه أمركم؛ لأن العبرة إنما هي في المآل والنهايات، وأما ما يعرض للناس من هزيمة وانكسار في بعض الأحيان فذلك لا يعني أنه نهاية المطاف، وكما هو معلوم فإن الرسل -كما في حديث هرقل مع أبي سفيان- تارة يدالون وتارة يدال عليهم، فالحرب سجال، لكن النهاية والعاقبة تكون لأتباع الأنبياء وللأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

وعلى كل حال مثل هذا الأسلوب {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] يستعمل عادة للتحريض والتحضيض، وهذا كثير في القرآن، وتقول: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، فالله -عز وجل- يأمرهم أو ينهاهم ثم يقول: إن كنتم مؤمنين فامتثلوا ذلك، فهنا قال: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران]، والله تعالى أعلم.

"{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [(١٤٠) سورة آل عمران] **أي: إن كنتم قد أصابتكم جراح، وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح".**

القرح هو الجرح، فقوله: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} أي: جراح، وهنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} أي: إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل

وجراح، وهذا الذي أصاب أهل الإيمان المقصود به قطعاً ما وقع لهم في يوم أحد، فهذه السورة تتحدث عن وقعة أحد، حيث قتل منهم سبعون، وأما الذي أشار الله -عز وجل- إليه بقوله: {فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [(١٤٠) سورة آل عمران] فمن أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك ما وقع للمشركين في يوم أحد؛ وذلك أنه في أول الغزوة ولوا مدبرين وسقط اللواء، فلم يجرؤ أحد على أخذه، وقتل حملته وقتل منهم نحو تسعة وكانت الهزيمة، فهذا القتل الذي وقع للمشركين في أول المعركة بعض أهل العلم يقول: إنه هو القرح المشار إليه في هذه الآية، ويكون هو المشار إليه بقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، والحس هو القتل والاستئصال، نقول: حسهم بالسيف، كما سيأتي، فقوله تعالى: {إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني صرفكم عنهم وتحول ميزان المعركة، وهذا المعنى عند من قال: إنه القرح الذي أصاب المشركين في يوم أحد، لكن الأقرب والله أعلم أن المراد به ما وقع لهم في يوم بدر، ولهذا قال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا} [(١٦٥) سورة آل عمران]، وإصابة المثلين إنما وقع في يوم بدر حيث قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون، وفي يوم أحد قتل من المسلمين سبعون ولم يؤسر أحد، فهذا دليل على أن المراد ما وقع للمشركين في يوم بدر، وهو المشار إليه في قوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال]، فوقع لهم ما وقع في يوم بدر.

وأما القرح الذي أصاب المسلمين فقد أشار الله -عز وجل- إليه في هذه الآيات حيث قال: {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٤٣) سورة آل عمران] وكذلك في قوله: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} [(١٤٠) سورة آل عمران] وغير ذلك من الآيات، كقوله: {تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} [(١٥٣) سورة آل عمران]، وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني وقع لكم الهزيمة.

فالخلاصة أن القرح الواقع للمسلمين هو ما حصل في يوم أحد، والقرح الواقع على المشركين هو ما وقع لهم في يوم بدر، وهذا على الأرجح من قولي العلماء، والله تعالى أعلم.

"{وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [(١٤٠) سورة آل عمران] أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠) سورة آل عمران] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في مثل هذا: لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء".

هنا عدّد جملة من الحكم فقال سبحانه وتعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤٠-١٤١) سورة آل عمران] فهذه جمل من الحكم في إدالة الكفار على المسلمين في يوم أحد، فمثل هذه الأمور المذكورة، وغير المذكورة مما يُعرف كُلها داخلة تحت حكمة الله -عز وجل-.

فهنا يقول: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠) سورة آل عمران] فلو كان النصر دائماً لأهل الإيمان لدخل فيهم كل أحد من المنافقين وكل طامع؛ ذلك أن قوماً يحالفهم الانتصار في كل الأحوال جديرون بالاتباع، فالناس

تبعٌ للمنتصر، لكن إذا وقعت الهزيمة في بعض الأحيان والآلام والجراح فإنه لا يبقى ولا يثبت إلا أهل الصدق والإيمان، ولهذا قال: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} فهؤلاء الذين قتلوا ليسوا خسارة إلا بالمقاييس المادية الدنيوية، وكل إنسان سيموت وقد ماتوا بآجالهم وانتهت أعمارهم أصلاً، فحتى لو لم يقاتلوا ولم يخرجوا إلى المعركة فهم سيموتون في هذه اللحظات، ولكن الله كتب لهم هذه النهاية التي يرتفعون بها كثيراً عند الله -عز وجل- فهذه حكمة من حكم إدالة الكفار.

يقول: {وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤١) سورة آل عمران] أي يحصل لهم التمحيص فتذهب عنهم وساوس الشيطان ويحصل المحق للكافرين؛ لأنهم إذا انتصروا على أهل الإيمان بغوا وتعالوا وطغوا وأفسدوا فيكون ذلك سبباً لمحقهم وزوالهم، ومن أراد أن يطالع الحكم الكثيرة في هذا فلينظر في ما كتبه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد، حيث ذكر أشياء تطول جداً.

"{وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} [(١٤٠) سورة آل عمران] يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته".

الشهيد قيل له شهيد؛ لأنه مشاهد للجنة، أو كأنه مشاهد للجنة، كما يقول بعض أهل العلم، أو لأنه مشهود له بالجنة، وعلى كل حال القتل في سبيل الله شهادة، وهذا أدل دليل على صدق الإيمان، كما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الصدقة برهان))[١] فالإيمان قد يدعيه كل أحد، فإذا قدم مهجته فهو شهيد، وإذا قدم ماله فذلك برهان على صدق دعوى الإيمان، وأحب شيء إلى الإنسان نفسه وماله.

"{وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠-١٤١) سورة آل عمران] أي: يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به".

التمحيص: هو الاختبار أو التطهير، فهو يخلصهم من ذنوبهم، أو يخلصهم من وساوس الشيطان أو نحو ذلك، وعلى كل حال فالمؤمنون يحصل لهم التمحيص بسبب ما أصابهم فيكون ذلك رفعاً في درجاتهم، وتطهيراً لذنوبهم أي يكون كفارة له، ويكون ذلك أثبت في إيمان المؤمنين الصادقين؛ لأن هذه الابتلاءات تزيدهم من الله -عز وجل- قرباً فيتوجهون إليه، ويتعلقون به، ويركنون إلى جنابه، وينقطع تعلقهم بالمخلوقين، ولا يحصل لهم أيضاً التفات إلى النفس ولا عجب، لكن الانتصار الدائم المستمر ربما يورث شيئاً من الوثوق بالنفس أو بالقوة والعدة وما أشبه هذا، أما إذا حصلت الهزيمة والانكسار رجع العبد إلى نفسه فعرف قدرها وعرف شدة حاجته إلى ربه، وعرف فقره إليه وأنه لا يستغني عنه طرفة عين، وهذا مشاهد في الإنسان حينما يصيبه المرض أو العلة أو البلاء عموماً، وقد ذكر بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- شيئاً من هذا في الكلام على الحكم من وقوع المعاصي من العباد.

"وقوله: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤١) سورة آل عمران] أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

أصل المحق هو إزالة الأثر، تقول: محقه أي أزال أثره، والمعنى أن الله -عز وجل- يستأصلهم ويهلكهم.

"ثم قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد كما قال تعالى في سورة البقرة: {أَمْ

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء (٢٢٣) (ج ١ / ص ٢٠٣).

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ} **الآية** [(٢١٤) سورة البقرة]، **وقال تعالى**: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} **الآية** [(١-٢) سورة العنكبوت] **ولهذا قال هاهنا**: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] أي: **لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء.**

وقوله: {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٤٣) سورة آل عمران] أي: **قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا".**

قوله: {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} أي أنهم رأوا أسبابه حاضرة يوم أحد.

"وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))[٢] **ولهذا قال تعالى**: {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} [(١٤٣) سورة آل عمران] **يعني الموت وشاهدتموه وقت لمعان السيوف وحد الأسنة واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال.**

والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب".

بمعنى أن العداوة لا تشاهد ولكنها تتصور، أي يعقلها الإنسان ويتصورها، فإذا رأى الإنسان أسباب الموت حاضرة -فالسيوف مشرعة والرماح والرؤوس تتطاير ورأى الدماء ورأى الطعن- فكأنه قد رأى الموت أمام عينيه، مع أن الموت لا يرى وإنما ترى أسبابه أو آثاره.

قوله تعالى في الآية: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] هنا يرد سؤال مفاده أن الله -عز وجل- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ولا يخفى عليه خافيه، فما المراد بالعلم في هذه الآية: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران]؟

الجواب: أي يعلم ذلك واقعاً منكم، فالله -عز وجل- يعلم ما سيكون ولكن علمه -سبحانه وتعالى- لا يحاسب عليه حتى يقع مقتضى هذا العلم من المكلفين، فيكون المراد بالعلم هنا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أي أن يكون ذلك واقعاً منكم، وهذه قاعدة في القرآن، فكل آية يضاف فيها العلم إلى الله -عز وجل- بمثل هذا أي: في شيء مستقبل، أن كذا من أجل أن يعلم الله كذا، فالمراد به العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهذا له أمثلة في القرآن منها قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [(٣١) سورة محمد] وأمثال هذا كثير وكله يراد به هذا المعنى.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤) (ج ٣ / ص ١٠٨٢) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٦٢).

"{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ* وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٤٤-١٤٨) سورة آل عمران]..

لما انهزم مَن انهزم مِن المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قتل، وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء -عليهم السلام- فحصل ضعف ووهن وتأخرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسوله -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] **أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.**

قال ابن أبي نجيح عن أبيه: إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] **رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة".**

وهذا من الحكم التي ذكرها الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فيما وقع يوم أحد، وهو أن ذلك كان توطئة وتهيئة لنفوس أهل الإيمان فيما سيقع بعده في المآل وهو موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فوطَّأ لهم بهذا، حيث ظهرت هذه الإشاعة ثم عالجها القرآن وبيّن لهم أن شأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كغيره لم يكتب له الخلد في هذه الحياة وأنه سيموت، وأنه لا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يرجع الناس بعده، فوطأ لهم بهذا.

"ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: {أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [(١٤٤) سورة آل عمران] **أي: رجعتم القهقرى {وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}** [(١٤٤) سورة آل عمران] **أي: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً.**

وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- أن الصديق -رضي الله تعالى عنه- تلا هذه الآية لما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

روى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مغشىً بثوب حبرة فكشف عن وجهه".

الثوب الحبرة هي ثياب من القطن أو الكتان، وربما كانت مخططة أو معلمة، وقد كان يؤتى بها من اليمن.

"فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متَّها[3].

وروى الزهري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أن أبا بكر خرج وعمر يحدث الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] **إلى قوله: {وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}** [(١٤٤) سورة آل عمران]**، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها.**

وعن سعيد بن المسيب أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض".

تقول: عقر الرجل: يعني إذا بقي مكانه لشدة الفزع الذي فاجأه أو أصابه بحيث لا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر، فهو لا يتحرك من مكانه لشدة ما نزل به، وكأنه قد قطعت رجله.

"وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} [(١٤٥) سورة آل عمران] **أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: {كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} كقوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}** [(١١) سورة فاطر] **وكقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ}** [(٢) سورة الأنعام]**".**

قوله: **{كِتَابًا مُّؤَجَّلاً}** هذا مصدر مؤكِّد لما قبله، أي أنه مؤقت لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى: **{فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}** [(٣٤) سورة الأعراف].

"وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما روى ابن أبي حاتم عن حبيب بن صهبان قال: قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة -يعني دجلة- وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحـــم الناس، فلما رآهم العدو قالوا: ديوان فهربوا".

قوله: **قالوا: ديوان فهربوا**، يعني أنهم قالوا: هؤلاء شياطين يمشون على الماء فخافوا منهم، والديوان فسره في الهامش فقال: وديوان: جمع ديو وهو بالفارسية والهندية العفريت الكبير.

"وقوله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [(١٤٥) سورة آل عمران] **أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدَّره الله له ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا".**

هذه الآية مقيدة في سورة الإسراء، فالله -عز وجل- يقول: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}** [(١٨) سورة الإسراء] فقيدها بقيدين، قيد في المعطين وقيد في المعطَى -يعني العطاء- فقال: **{مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}** [(١٨) سورة الإسراء] أي ما نشاء من العطاء لمن نريد من الخلق.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب مرض النبي صلى الله عليه و سلم ووفاته (٤١٨٧) (ج ٤ / ص ١٦١٨).

وفي سورة هود يقول تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ} [(١٥-١٦) سورة هود] فلم يقيدها.

وفي سورة الشورى لم يقيدها حيث قال: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [(٢٠) سورة الشورى] فثلاث آيات مطلقة وواحدة مقيدة و التي هي آية الإسراء، والقاعدة أن المطلق يحمل على المقيد.

"**كما قال تعالى**: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [(٢٠) **سورة الشورى**]، **وقال تعالى**: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا* وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [(١٨-١٩) **سورة الإسراء**] **وهكذا قال هاهنا**: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [(١٤٥) **سورة آل عمران**] أي: **سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم**.

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [(١٤٦) **سورة آل عمران**] **قيل**: **معناه كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير، وهذا القول هو اختيار ابن جرير**".

قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} لفظة "كأين" يقول عنها أمثال الخليل وسيبويه: إن أصلها "أن" دخلت عليها كاف التشبيه، وصارت بعد التركيب وكثرة الاستعمال بمعنى "كم" ثم تصرفت فيها العرب فصار فيها أربع لغات، الأولى: كأين نحو التي في قوله: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} الثانية: وكائن وهي قراءة ابن كثير، ويقف عليها بعض القراء كأبي عمرو (وكأي) واللغة الثالثة: وكأيْن بفتح الهمزة والكاف وسكون الياء، واللغة الرابعة "كي إن" بكسر الهمزة، وعلى كل حال مثل هذا يستعمل للتكثير، فقوله: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} يعني أنبياء كثير.

فقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [(١٤٦) سورة آل عمران] يقول ابن كثير -رحمه الله-: قيل: كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير، وعلى هذا التفسير صار القتل واقعاً على النبي وعلى أتباعه وذلك على قراءة (قُتِل) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو.

وقوله: (قُتل) هذا فعل مبني للمجهول، ومعروف أن الفعل المبني للمجهول يكون ما بعده نائباً للفاعل، فما هو نائب الفاعل هنا؟ هل هو ضمير يرجع إلى النبي، يعني وكأين من نبي قتل أي هو، أم أن نائب الفاعل هو قوله: {رِبِّيُّونَ} أي وكأين من نبي قتل ربيون كانوا معه، وعلى هذا يكون القتل واقعاً على الربيين؟

هذا احتمال وبعض أهل العلم كالشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان يرجح أن نائب الفاعل هو قوله: {رِبِّيُّونَ} ويحتج على هذا من جهة المعنى بأن الله -عز وجل- أخبر أن الغلبة للرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأن النصر لهم، ويقول: وبالتتبع نجد أن الغلبة تكون بالسيف وتكون بالحجة، وأكثر ما جاءت في القرآن في الاستعمال بالنسبة للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أمروا بالقتال أن الغلبة تكون بالسيف، ثم إن الله -عز وجل- جعل الغلبة مقابلة للقتل كما قال تعالى: {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [(٧٤) سورة النساء] فالمقتول ليس بغالب، والله قال: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(١٧٣) سورة الصافات] وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} [(٥١) سورة غافر] فالمقتول مغلوب -هذا كلام الشنقيطي -رحمه الله- وبناء على ذلك يقول: إن النبي إن كان قد قتل في

ميدان المعركة فمعنى ذلك أنه قد غلب؛ لقوله: **{فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ}** [(٧٤) سورة النساء]؛ لأن المقتول صار مقابلاً للغالب، فالمقتول مغلوب والقاتل غالب، ويقول: إن الأنبياء لا يغلبون وبذلك يكون القتل وقع على الربيين.

وعلى كل حال القول بأن القتل في قوله تعالى: (وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير) -في قراءة نافع ومن معه- وقع على النبي وعلى الربيين لا يخلو من إشكال، وإن كان يمكن أن يخرَّج هذا باعتبار كأين من نبي قتل معه ربيون كثير قتلوا، لكن قد لا يكون هذا هو المتبادر، فالآية تحتمل وجوهاً من التفسير على هذه القراءة ومنها كأين من نبي قتل أي أن القتل وقع على النبي ومعه ربيون كثير، أي أتباع وجماعات أو علماء ربانيين وفقهاء وعباد وغير ذلك فما فتّ في أعضادهم قتل نبيهم وقائدهم وإمامهم ومقدمهم وإنما استمروا على ما كانوا عليه.

والمعنى الثاني: أن يكون القتل وقع على الربيين، فالعلماء الذين رجحوا أن القتل وقع على النبي، قالوا: لو كان القتل واقعاً على الربيين فكيف يقال: **{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران]، وهم قد قتلوا؟

وهذا في الواقع لا إشكال فيه؛ لأن ذلك يرجع إلى من بقي منهم لم يقتل، يعني أن إخوانهم لم يتراجعوا ويتضعضعوا ويضعفوا أمام عدوهم حينما استحرَّ القتل في إخوانهم، وإنما من بقي حياً بقي عزيزاً ثابتاً صامداً صابراً لم يتضعضع مع كثرة ما وقع من القتل لإخوانه.

وهذا جواب واضح ولا إشكال فيه وله شواهد وله ما يدل على صحة هذا التخريج ومنها قول الله -عز وجل- لبني إسرائيل في الكفارة لما عبدوا العجل: **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٥) سورة البقرة] أي أنهم لما طلبوا أن يروا الله جهرة عاقبهم الله -عز وجل- بأن أخذتهم الصاعقة فكيف ينظرون؟

المعنى على أحد الأقوال في الآية: أن بعضهم ممن لم يمت كان ينظر إلى الآخر وهو يموت، أي ينظر بعضهم إلى بعض، **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٥) سورة البقرة]، فهذا أحد المعاني في هذه الآية، وبمثل هذا المعنى يقال في قوله: **فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] أي أن من بقي حياً بقي عزيزاً ثابتاً صامداً صابراً لم يتضعضع مع كثرة ما وقع من القتل لإخوانه، والله تعالى أعلم.

وعلى القراءة الأخرى: **{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] فهذا لا إشكال فيه، ثم إن القتل غير القتال، فما أصابهم من جراح وآلام وهزيمة لم يفتّ في أعضادهم، والآية تحتمل هذه المعاني جميعاً، وهذه المعاني معتبرة فيها، وهي تربية لأهل الإيمان، فقد يقتل نبيهم كما قتل جماعة من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وقد يقتل كثير من الأتباع بل من خيار الأتباع، وتبقى البقية صامدة ثابتة لا تتضعضع، والقرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، ومن المعاني أنه يفترق المعنى في حال الوقف والوصل، فعند الوقف (وكأين من نبي قُتل) يصير المعنى والحال أن معه هؤلاء الجماعات **{رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران]، والله أعلم.

"وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير، وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر"

قيل: معناها "**كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير**"، يقول: "**وهذا القول هو اختيار ابن جرير**"، والصواب أن هذا ليس اختيار ابن جرير، وإنما اختيار ابن جرير يوافق قول ابن إسحاق الذي سيأتي.

"**وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، قال: وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون: أي جماعات، فما وهنوا بعد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم**".

يعني عكس الأول، فالقول الأول الذي قال عنه: "**وهذا قول ابن جرير**" هو إن القتل وقع على الربيين، والقول الآخر هو أن القتل وقع على النبي فثبت أتباعه وأصحابه من بعده، وهذا هو قول ابن جرير وليس الأول.

{وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [(١٤٦) سورة آل عمران] **فجعل قوله: {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] **حالا، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه، وله اتجاه؛ لقوله: {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ} الآية** [(١٤٦) سورة آل عمران]".

قوله: "**وله اتجاه؛ لقوله...**" يعني والذي يمكن أن يرجِّح هذا القول هو قوله تعالى: {فَمَا وَهَنُواْ}، والمعنى أنه لو كانوا هم الذين قتلوا فكيف يقول: {فَمَا وَهَنُواْ}؟

لكن هذا يُرَدُّ بأنه لا إشكال فيه في الواقع حيث إن البقية التي لم تقتل منهم هي التي صبرت وثبتت وصمدت.

"**وكذلك حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يقل غيره**".

أي: لم يحكِ قولاً آخر وإنما اقتصر على هذا كأنه مختار.

"**وروى سفيان الثوري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} أي ألوف.**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخرساني: الربيون: الجموع الكثيرة".

بعضهم يقول: إن الرّبة الواحدة ألف، والربيون: بمعنى ألوف، فهذا تفسير لقول من قال: إن الرِّبة والرَّبة الواحدة تعني ألفاً.

يقول: "**وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخرساني: الربيون الجموع الكثيرة**" وهذا لا ينافي قول من قال: إنهم ألوف؛ فالألوف جموع كثيرة، وقد قرأ بعض السلف بضم الراء، وهي ليست من القراءات المتواترة، لكن نقل ذلك عن علي -رضي الله تعالى عنه- وجاء عن ابن عباس بالفتح، وبهذا يكون الواحد رَبِّي والجمع على الفتح رَبيون، وبعضهم يقول: هذا نسبة إلى الرب، كقوله: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [(٧٩) سورة آل عمران] ويقال: العالم الرباني، والرباني فيه معنى التربية، وقالوا: الربانيون يعني فقهاء علماء، وقالوا: الذين يرجع إليهم الناس في شئونهم كلها وما ألم بهم في دينهم ودنياهم، وما أشبه هذا، وإذا قيل بضم الراء وكسرها يكون منسوباً إلى الرِّبة أو الرُّبة، وهي الجماعة أو الألف.

"**وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: {رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] أي: **علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار وأتقياء.**

{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ} [(١٤٦) سورة آل عمران] **قال قتادة والربيع ابن أنس: وما ضعفوا بقتل نبيهم، {وَمَا اسْتَكَانُواْ} يقول: فما ارتدوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله.**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا اسْتَكَانُواْ} تخشعوا، وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، {وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [(١٤٦) سورة آل عمران]".

يعني كأن الاستكانة تكون من قبيل الظاهر، أي ما يظهر عليهم من التخشع، وأما الضعف والوهن فيكون بالقعود عن عدوهم ومناجزته، ويكون ذلك في القلوب، وما يكون في الخارج إنما هو نتيجة عنه، وعلى كل حال بعض أهل العلم يفرق بين هذه الألفاظ الثلاثة في قوله: **{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] فينبغي مراجعة كتب التفسير في ذلك.

"{وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(١٤٦-١٤٧) سورة آل عمران] أي: لم يكن لهم هجِّيراً..."

الهجير: يعني الدأب والعادة والشيء الذي يولع به الإنسان وينشغل به كثيراً.

"أي لم يكن لهم هجِّيراً إلا ذلك {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا} أي النصر والظفر والعاقبة، {وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ} [(١٤٨) سورة آل عمران] أي: جمع لهم ذلك مع هذا، {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٤٨) سورة آل عمران]".

قوله: **{وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [(١٤٨) سورة آل عمران]، بعضهم يقول: هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ "حسن" صفة و"الثواب" موصوف وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل قوله تعالى: **{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ}** [(٢٤) سورة الإسراء] هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، فالجناح موصوف، والصفة هي الذُّل، أي جناحك الذليل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ* بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ* سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ* وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [(١٤٩-١٥٣) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: **{إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ}** [(١٤٩) سورة آل عمران] **ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى:** **{بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}** [(١٥٠) سورة آل عمران].

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم، والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال: **{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}** [(١٥١) سورة آل عمران].

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))**[(١)]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ}** [(١٥١) سورة آل عمران] فسر الرعب بالخوف وهو مقارب له، وإذا أردنا أن نعبر بعبارة أدق من هذا فيمكن أن يقال: إن الرعب هو أخص من الخوف، فهو خوف خاص، وذلك يراد به الخوف الذي يملأ القلب، فليس كل خوف يكون رعباً وإنما ما ملأ القلب من

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم (٣٢٨) (ج ١ / ص ١٢٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

الخوف فإنه رعب، وسبق الإشارة إلى أن ما أعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم- من مثل هذا، يكون أيضاً لأمته، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- نصر بالرعب مسيرة شهر، وهذا متحقق لهذه الأمة بعده -عليه الصلاة والسلام- إذا كانت سائرة على منهاجه مقتفية أثره.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [(١٥١) سورة آل عمران]، المثوى: هو محل الثواء وهو مكان الإقامة، فقوله: {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [(١٥١) سورة آل عمران] أي: المحل أو المكان الذي يقيمون به، فهو منزلهم.

"**وقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: أول النهار، {إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: تقتلونهم، {بِإِذْنِهِ} أي: بتسليطه إياكم عليهم، {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، وقال ابن جريج قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الفشل الجبن**".

في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] قوله: {صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} أي أنه وعد أهل الإيمان بالنصر فحققه لهم.

وابن جرير هنا حمله على معنىً قريب من هذا وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدهم بذلك خاصة في يوم أحد، حيث أمر الرماة أن يبقوا على الجبل وألا يبرحوه، وأخبرهم أنهم لن يزالوا غالبين ما بقوا في مكانهم.

وابن جرير يقول في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدهم بأنهم غالبون ما بقوا في مكانهم فحصلت الغلبة حتى فارقوا أماكنهم، فبعدها حصل الانكسار والهزيمة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] الحس هو الاستئصال والقتل، وأصله ربما يكون من الحِس وهو الإدراك بالحاسة، تقول: حسَّه أي أذهب وأبطل حواسَّه، وإنما تبطل حواسه إذا قتله، فالقتل الكثير أو القتل المستأصل هو الحس.

وقوله: {تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} أي بتسليطه إياكم عليهم، وهذا الإذن بالتسليط اجتمع فيه الإذن الشرعي والإذن القدري، فالله -عز وجل- قد أمرهم بقتل الكفار وحسِّهم، وكذلك أيضاً خلى بينهم وبين الكفار فوقع هذا القتل والحس بإذنه القدري؛ لأنه لا يكون شيء في الكون من تحريكة ولا تسكينة إلا بإذن الله -عز وجل-، فهو الذي شرَّع لهم الجهاد، فهذا إذن شرعي، وهو الذي مكنهم من رقاب عدوهم فهذا إذن قدري.

{حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} وقال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الفشل الجبن.

قوله: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] فشلتم هنا فعل الشرط فأين جوابه؟

يمكن أن يكون الجواب محذوفاً تقديره حتى إذا فشلتم امتُحنتم، لكن هذا لا يخلو من بعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {وَتَنَازَعْتُمْ}.

فقوله: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} الفشل معناه هنا الضعف والقعود عن العدو، وقوله: {وَتَنَازَعْتُمْ} الواو هنا يقولون: إنها زائدة، وعلى هذايصير الكلام هكذا: حتى إذا فشلتم تنازعتم، وهذا لا يخلو من بعد.

وادِّعاء أن الواو هذه زائدة -أي إعراباً- هذا فيه نظر؛ فالأصل أو الظاهر المتبادر أنها عاطفة، يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فهو ذكر ثلاثة أشياء –أفعال الشرط- فالذي حصل لهم أنه كما قال تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، ولهذا قال بعض أهل العلم: الجواب هو {صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} ومعنى صرفكم عنهم أي أن المسلمين انتصروا عليهم، ثم بعد ذلك صُرفوا عنهم فصارت الكرة للكفار، وذلك أنه لما حصل للمسلمين الفشل والضعف والتنازع والمعصية كان ذلك سبباً لقلب موازين المعركة، وهو أنه {صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران].

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {وَعَصَيْتُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم، وهذا أيضاً فيه بعد؛ لأنه لا يقال: إنه أراد أن يخبرهم أنهم عصوا بهذا، فهذا لا يحتاج إلى بيان؛ لأنه لا يخفى أن ما فعلوه معصية، فالآية ما سيقت لتقرير هذا المعنى، ومثل هذا القائل أيضاً يدعي أن الواو زائدة كما في قول من قال إن الجواب هو {وَتَنَازَعْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فالمقصود أن هذا فيه بعد.

وبعضهم يقول: إن "حتى" بمعنى إلى ولا جواب لها، فهي لا تحتاج إلى جواب، وعلى هذا يكون معنى الكلام هكذا: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، والمعنى أنه وقع لكم الانتصار والقتل للكفار إلى أن وقع منكم ما وقع، ومثل هذا الجواب لا يبعد، والله تعالى أعلم.

كما أنه لا يبعد أن يكون المراد بالكلام: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون هنا تغيرت موازين المعركة وحصل ما حصل حيث صرفكم الله -عز وجل- عنهم، والعلم عند الله -عز وجل-.

"{وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] كما وقع للرماة {مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] وهو الظفر منهم، {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا} [(١٥٢) سورة آل عمران] وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة، {وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم، {وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم".

على كل حال، سواء كان هذا هو السبب في العفو، أو أن الله -عز وجل- عفا عنهم لكرمه، ومحض فضله، وما لهم من السابقة والجهاد، وما حصل لهم من الجراح والآلام، فعلى كل حال الله -عز وجل- غفور رحيم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٢٢) سورة آل عمران] و{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران].

"وروى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- جيشاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: ((لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا)) فلما لقيناهم هربوا حتى رأينا النساء يشتددن في

الجبل، رفعن عن سوقهن وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير -رضي الله تعالى عنه-: عهد إليَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ألا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟، فقال: ((لا تجيبوه))، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: ((لا تجيبوه)) فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر -رضي الله تعالى عنه- نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك، فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أجيبوه)) قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا الله أعلى وأجل)) فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أجيبوه)) قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا الله مولانا ولا مولى لكم)) قال أبو سفيان: "يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني" تفرد به البخاري من هذا الوجه[2].

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن الزبير أن الزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنهما- قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصاحباتها، مشمرات هوارب، ما دون أخذهن كثير ولا قليل".

يعني لما شمرن يصعدن الجبل عند الهزيمة في أول المعركة رأى ذلك منهن.

والخدم أو الخدمة هو الساق، ويطلق أيضاً على الخلخال وهما متلازمان؛ لأن موضع الخلخال في الساق، وقوله: "**فشمرن**" أي أنه رأى ذلك منهن وهن ممعنات في الهرب.

"ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل، فأتتنا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنوا منه أحد من القوم.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فدفعته لقريش فلاثوا به.

وقوله تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] **قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل -رضي الله تعالى عنه-.**

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن عمَّه -يعني أنس بن النضر -رضي الله تعالى عنه- غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- لئن أشهدني الله مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهُزِم الناس فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه، أو

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة أحد (٣٨١٧) (ج ٤ / ص ١٤٨٦).

بشامة، وبه بضع وثمانون طعنة وضربة ورمية بسهم هذا لفظ البخاري[٣] **وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس -رضي الله تعالى عنه- بنحوه**[٤].

وقوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} [(١٥٣) سورة آل عمران] أي: **صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم".**

على كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي: صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم،** يكون قوله: **{إِذْ تُصْعِدُونَ}** [(١٥٣) سورة آل عمران] متعلق بما قبله من قوله: **{ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] أي ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون ممعنين في الهرب.

هذا توجيه كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو بهذا يخالف اختيار ابن جرير -رحمه الله- لأن ابن جرير يرى أن ذلك يتعلق بقوله: **{وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] ويكون معنى الكلام عند ابن جرير: ولقد عفا الله عنكم إذ لم يستأصلكم إذ تصعدون مولين مدبرين منهزمين أي: تُمعنون في الهرب لا تلوون على شيء.

وبعض أهل العلم يقول: إنه يتعلق بقوله: **{لِيَبْتَلِيَكُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني ثم صرفكم عنهم ليبتليكم إذ تصعدون، وهذا فيه بعد، فالآية إنما تحتمل المعنيين الأولَيْن احتمالاً قريباً.

"وقرأ الحسن وقتادة: {إِذْ تَصْعَدُونَ} أي: في الجبل".

بعض أهل العلم يفرق بين الإصعاد والصعود، فالصعود: هو العلو والارتفاع والإصعاد المقصود به الإمعان في الهرب، أو الانطلاق أو المشي أو نحو ذلك وليس الصعود، فالإصعاد هو الإمعان في السير في الأرض، والصعود هو الارتفاع، ففرق بين الإصعاد وبين الصعود عند كثير من أهل العلم، ولذلك يقال: التصعيد والمقصود بالتصعيد الذهاب إلى عرفة والذهاب إلى عرفة ليس فيه ارتفاع، ولذلك يقال له: إصعاد وتصعيد، ويُقال: فلان أصعد أي انطلق وسار، فهذا هو المعنى والله تعالى أعلم.

"{وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب".

قوله: **{وَلاَ تَلْوُونَ}** يعني لا تعرِّجون، بمعنى أنه: لا يلتفت إلى أحد، فهو ممعن في الهرب والانطلاق لا يعرج على أحد.

"{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] أي: **وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرة.**

قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس: ((إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله)) فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إياهم، فقال: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] **وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة، والربيع، وابن زيد.**

---

[3] - صحيح البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة أحد (٣٨٢٢) (ج ٤ / ص ١٤٨٧).

[4] - صحيح مسلم في كتاب الإمارة- باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣) (ج ٣ / ص ١٥١٢).

وقد روى البخاري عن قيس ابن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة -رضي الله تعالى عنه- شلاء وقى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني يوم أحد[٥].

وفي الصحيحين عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غير طلحة بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما[٦].

وقال سعيد بن المسيب: سمعت سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- يقول: نَثَلَ لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كنانته يوم أحد وقال: ((ارمِ فداك أبي وأمي)) وأخرجه البخاري[٧].

وثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- أيضاً قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال، وما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده[٨]، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام".

هذا أخذ منه بعض العلماء مثل الإمام النووي -رحمه الله-: أن الملائكة قاتلت يوم أحد، وسبق الكلام على هذا، ومثل هذا الحديث لا يدل بالضرورة على أن الملائكة قاتلت في يوم أحد؛ لأن هذا قد يكون قتالاً خاصاً وذلك في الدفاع عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفع المشركين عنه فحسب.

والذين يقولون: إنهم لم يقاتلوا في يوم أحد -وهم كثير من أهل العلم إن لم يكن أكثر أهل العلم- يقولون في هذا ونحوه: لو قاتلت الملائكة يوم أحد ما انهزموا، إذ كيف ينهزمون والملائكة تقاتل معهم؟! فالله -عز وجل- خلى بينهم وبين عدوهم.

والمدد من الملائكة الذين بلغوا ثلاثة آلاف وكذلك الخمسة الآلاف ذكرنا أن الأقرب أنهم إنما كانوا يوم بدر، وأن المتيقن أنه نزل منهم ألف، وأما الثلاثة والخمسة الآلاف فسبق الخلاف فيه بناء على قوله: **{وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم}** [(١٢٥) سورة آل عمران] هل المقصود به المدد الذي يأتي من كرز الذي وعد المشركين فلم يأت هذا المدد؟، وبالتالي لم ينزل مدد السماء زيادة على الألف.

"وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما بلغت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حلفته قال: ((بل أنا أقتله إن شاء الله)) فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعاً، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنفسه فقتل مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه-، وأبصر رسول الله

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٣٦) (ج ٤ / ص ١٤٩٠).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب ذكر مناقب طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (٣٥١٧) (ج ٣ / ص ١٣٦٣) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٤) (ج ٤ / ص ١٨٧٩).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٢٩) (ج ٤ / ١٤٨٩).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٢٨) (ج ٤ / ١٤٨٩) ومسلم في كتاب الفضائل - باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٢٣٠٦) (ج ٤ / ص ١٨٠٢).

-صلى الله عليه وسلم- ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين صابغة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بل أنا أقتل أبياً)) ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار فسحقاً لأصحاب السعير[9]، وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب بنحوه.

وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن جرح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: جرح وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تغسل الدم، وكان عليٌّ يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى إذا صار رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

وقوله تعالى: {فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ} [(١٥٣) سورة آل عمران] **أي: فجازاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان ونزلت على بني فلان، وقال ابن جرير: وكذا قوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}** [(٧١) سورة طــه] **أي: على جذوع النخل.**

قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل: قتل محمد -صلى الله عليه وسلم-، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم ليس لهم أن يعلونا))[10].

وعن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه- قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد -صلى الله عليه وسلم- كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة [رواهما ابن مردويه].

وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح، وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه، وعن السدي: الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم".

{فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً} [(١٥٣) سورة آل عمران] تقول: غمه بمعنى غطاه، وذلك والله أعلم أن الحزن الشديد يقال له ذلك لأنه يغطي عقل الإنسان، أي يغم عليه بحيث إن الإنسان يصير إلى حال لا يكاد ينتفع به معها من شدة ما نزل به من الحزن والمصيبة.

وقوله هنا: **{فَأَثَابَكُمْ}** يمكن أن يفسر بجازاكم كما مشى عليه كثير من المفسرين، ولا يلزم من ذلك ما يتبادر من لفظ الإثابة هنا من أنه الجزاء الحسن، وإنما يمكن أن يفسر بمطلق الجزاء، وهذا مشى عليه كثير من المفسرين، فإذا فسر بهذا فلا إشكال.

وفي قوله: **{فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ}** [(١٥٣) سورة آل عمران] من أهل العلم من قال: إن هذا الغم الذي فاتهم هو النصر الذي رأوه في أول الأمر وما فاتهم من الغنيمة، والذي أصابهم هو الهزيمة والقتل، إذاً فالغم الذي أثابهم الله -عز وجل- به بعض أهل العلم يقول: صرفكم عنهم بسبب ما تسببتم من غم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أنزل بكم غماً جزاء وفاقاً، أي أنه صرفكم عنهم وحصل

---

[9] - أخرجه الحاكم (٣٢٦٣) (ج ٢ / ص ٣٥٧)

[10] - أخرجه أحمد (٢٦٠٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

لكم ما حصل من الهزيمة بسبب ما تسببتم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا فيه بعد، وضعفه جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن القيم.

والأقوال التي ذكرها هنا إذا تأملتها تجد أنه يقول: "**قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل**".

وذكر عن عبد الرحمن بن عوف: "**الغم الأول بسبب الهزيمة والثاني، حينما قيل: قتل محمد -صلى الله عليه وسلم-**" وهذا أحسن من الذي قبله، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم، وبعض المعاصرين يقول: إن هذا بمثابة المعالجة لما وقع لهم من الحزن، وذلك أنه أصابهم غم شديد بسبب ما فاتهم من النصر وتحوُّل موازين المعركة وبسبب ما وقع لهم من القتل والجراح، فأشيع أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- قد قتل، فأصابهم غم أعظم من الغم الأول وأذهلهم ذلك، فأحياناً تقع للإنسان مصيبة ينشغل بها، فتأتيه مصيبة أكبر فتنسيه المصيبة الأولى، وهذا شيء مشاهد، فالإنسان قد يعاني من ألم أو صداع فيقع شيء عظيم آخر فينسى ما كان فيه.

وهكذا قد تقع بالناس فاجعة عامة ثم تقع أخرى أشد منها فينسون الأولى وينشغلون بالثانية، وهذا شيء مشاهد، فالحاصل أنه تكشف الأمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتل فكان ذلك علاجاً للغم الحقيقي الذي أصابهم، أي المصيبة الحقيقية.

وتجد في بعض الكتب مثل تفسير ابن عاشور ما يشير إلى هذا وإن لم يصرح به، لكنه قال: إنه دفع الأول بشيء يسير -وهو ليس يسيراً في الحقيقة لو قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن لأنه تبين أنه لا حقيقة له اعتبر يسيراً والله أعلم، فالمقصود أن إشاعة مقتل النبي –عليه الصلاة والسلام- كانت دفعاً للغم الحقيقي والحزن الذي أصابهم بسبب الهزيمة والقتل والجراح.

ثم ذكر ابن كثير قولاً آخر فقال: "**وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح**" وهذا القول كأنه نظر إلى قوله تعالى: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] ففاتهم النصر وأصابتهم الهزيمة، فقال: الغم الأول هو ما أشيع من قتله -عليه الصلاة والسلام-، والثاني ما وقع لهم من القتل والجراح.

وبعضهم عكسه؛ لأن الجراح وقعت لهم أولاً، ثم أشيع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قتل، وهذا أكثر ملاءمة من الذي قبله، أعني القول بأن ذلك منعكس.

وذكر عن السدي أنه قال: الأول ما فاتهم من الظفر والهزيمة والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم، وهذا مثل القول الأول -قول ابن عباس- الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قتل محمد -صلى الله عليه وسلم-، والحقيقة أن الهزيمة وما فاتهم متلازمان.

"**وقوله تعالى: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم، {وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] من الجراح والقتل، قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهم- والحسن وقتادة والسدي.**

{وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [(١٥٣) سورة آل عمران] سبحانه وبحمده لا إله إلا هو -جل وعلا-".

قوله تعالى: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} معناه أن الغم الأخير سبّب لهم تلاشي الحزن الأول، إلا على قول من قال: إن "لا" زائدة، وأن هذا كقوله تعالى: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ} [(٢٩) سورة الحديد] بمعنى ليعلم أهل الكتاب، وكقوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [(١٢) سورة الأعراف] يعني ما منعك أن تسجد، فعلى هذا القول يكون الكلام أنه أثابكم غماً بغم لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم، وهذا فيه نظر؛ فهو لم يثبهم الغم الجديد مسبباً لهم هذا الحزن على ما فاتهم وما أصابهم؛ لأنه ليس مراداً للشارع أن يحزنهم، ثم إن الحزن ليس مطلوباً شرعاً على الأمور الفائتة والمصائب النازلة على الإنسان، فلذلك هذا القول فيه إشكال.

ثم إن دعوى الزيادة الأصل خلافها، وهذا طبعاً إذا تنزلنا بقول: إن "لا" زائدة، فلا يليق أن يعبر بالزيادة في القرآن؛ لأن القرآن ليس فيه شيء زائد، ولذلك نجد مثل الزركشي في كتاب البحر المحيط في أصول الفقه، ذكر هذا في موضعين وذكره في البرهان أيضاً في علوم القرآن، والعلماء عادة يعبرون عن مثل هذا بعبارات أخرى أكثر تلطفاً فيقولون: "لا" صلة، وهم على كل حال يقصدون أنها زائدة إعراباً لا زائدة في المعنى، وإنما يقولون: هذا يفيد التوكيد مثلاً أو نحو ذلك، وإلا فكما قال في المراقي:

تـــواتر الـــسبع عليـــه أجمعـــوا ولم يكن في الـــوحي حـــشو يقـــعُ

فالزيادة حشو في الكلام، ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى.

والخلاصة أن الذي يظهر هو أن "لا" في قوله: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} ليست زائدة، وإنما على وجهها في النفي، أي أنه فعل بهم ذلك لكي لا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم، بمعنى أن المصيبة الثانية أنستهم المصيبة الأولى، وخفف ذلك عنهم فنسوا جراحهم، ونسوا ما فاتهم، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٥٤-١٥٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمَنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئموا السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ} الآية [(١١) سورة الأنفال]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا}** [(١٥٤-١٥٥) سورة آل عمران] الأمنة هنا مفسرة بالآية وهي النعاس، ولذلك قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: هي النعاس، وهكذا قال ابن جرير وطوائف من المفسرين، وبعضهم فسر الأمنة هنا بمعنى الأمن، وهذان المعنيان لا منافاة بينهما؛ لأن النعاس إنما ينزل إذا وجدت أسباب الخوف مع الأمن إذا وجد في النفوس، يعني إذا شعرت النفوس بالأمن فإنه يحصل النعاس، وإذا وجد الخوف المزعج من غير شعور بالأمن في النفوس فإن ذلك الخوف يقلقها فيطير عنها النوم فلا تجد للنوم محلاً، فالمقصود أن منهم من فسر الأمنة بالأمن ومنهم من فرق بين الأمن والأمنة فقال: الأمنة هي الأمن مع وجود أسباب الخوف أما الأمن مع غير وجود أسباب الخوف مثل أمن الناس الآن فهذا يقال له أمن، وسواء قيل هذا أو قيل هو النعاس فكل ذلك يرجع إلى شيء واحد؛ لأن النعاس لا ينزل مع وجود أسباب الخوف إلا بوجود الأمن.

وقوله تعالى: **{أَمَنَةً نُّعَاسًا}** [(١٥٤) سورة آل عمران] نعاساً هنا تفسير لهذه الأمنة، والله أعلم.

وقول المصنف: **وهم مستلئموا السلاح**، يعني قد لبسوه.

"وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه [رواه في المغازي معلقاً وفي كتاب التفسير مسنداً].

وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَته من النعاس [لفظ الترمذي وقال: حسن صحيح].

ورواه النسائي أيضاً عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقي عليه النعاس الحديث، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق".

في قوله: **{وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [(١٥٤) سورة آل عمران] هل هؤلاء هم أهل النفاق أو أنهم من ضعفاء الإيمان، كما قال الله -عز وجل-: **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران]؟ فقد يوجد مثل هذا الضعف بين المؤمنين، وكما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] إذا قيل -على أحد الوجوه في التفسير-: إن قوله: **{وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(٤٩) سورة الأنفال] هو من باب عطف المغايرة، بمعنى أنهم طائفة أخرى غير المنافقين، وهذا مع أن طوائف من أهل العلم يقولون: إن هذا من باب عطف الصفات والموصوف واحد، فالمنافقون: هم الذين في قلوبهم مرض، **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] كما قال الله -عز وجل-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [(١-٣) سورة الأعلى] فإن الأوصاف تتابع، تارة مع ذكر حرف العطف، وتارة بحذفه، والآية في سورة الأحزاب **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] تحتمل المعنيين، فيمكن أن يكونوا ضعفاء الإيمان ويمكن أن يكون المراد بهم أهل النفاق.

والمقصود هنا أن مثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: لم يكن معهم في يوم أُحدٍ أَحدٌ من المنافين؛ وذلك أن عبد الله بن أبي رجع بثلث الجيش، وهؤلاء الذين رجع بهم فيهم أهل نفاق وهو رئيس المنافقين، ولكن الجيش في ذلك الحين كان يقسم على تقسيم بحيث يكون مبعضاً ربما بحسب القبائل والبطون والعشائر، فالخزرج لهم لواء، والأوس لهم لواء والمهاجرون لهم لواء وربما قسم إلى أكثر من هذا كما في يوم القادسية حيث كانت كل قبيلة تقف بمفردها حتى إن قبيلة بجيلة تفرقت في الحروب التي وقعت لها ثم لما أسلموا تفرقوا في الجهاد وكادت القبيلة أن تضمحل فعمد جرير البجلي -رضي الله تعالى عنه- إلى جمعهم وكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم كلم أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- بعد ما أخذ كتاباً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بجمع القبيلة، ثم بعد ذلك جمعوا له فكانوا من أحسن من قاتل في يوم القادسية، وفيه يقول الشاعر:

لـــولا جريـــر ذهبـــت بجيلـــة ... نعـــم الفتـــى وبئـــست القبيلـــة

وأعني من هذا أن الذين رجعوا مع عبد الله بن أبي قد لا يكونون جميعاً من المنافقين، فقد يكون بعضهم ممن يحسن الظن به ولم يتكشف نفاقه بعد، وبعضهم ممن يتعصب له، كما قال الله -عز وجل-: **{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}** [(٤٧) سورة التوبة] وبعضهم تبعه على سبيل أن هذا من كبار الخزرج بل كاد أن يتوج ليكون ملكاً على الأوس والخزرج معاً، فرجوع عبد الله بن أبي لا يعني أنه لم يبق أَحدٌ من المنافقين في غزوة أحد؛ لأن الذين رجعوا هم الذين كانوا مع عبد الله بن أبي، وقد لا يكون هو القائد بالنسبة لهؤلاء الذين رجعوا معه؛ لأن من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يولي مثل هؤلاء على قيادة سواء صغرت هذه القيادة أم كبرت، فهذا هو المعهود في السنة وهو الذي مشى عليه الخلفاء الراشدون -رضي الله تعالى عنهم- وهو حكم الإسلام فيهم -أي المنافقين- أي أنه لا يكون لهم ولاية إطلاقاً، فالحاصل أنه قد يكون الذين رجعوا مع

عبد الله بن أبي هم أهل النفاق بحيث تجمعوا من أشتات الجيش من الأوس ومن الخزرج ورجعوا معه دون أن يكون قائداً لهم، فالمقصود: أنه يحتمل هذا ويحتمل هذا، فمثل ابن القيم يقول: ما كان معهم أحد من المنافقين أصلاً، فالمنافقون رجعوا وبقي أهل الإيمان.

فإذاً مَن هؤلاء الذين يقولون مثل هذا الكلام عند هذا القائل كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-؟ يقول: هم ضعفاء الإيمان، بينما كلام الحافظ ابن كثير هنا صريح في أنهم من المنافقين.

والمقصود أن الآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، فقد يصدر ذلك من بعض ضعفاء الإيمان، وقد يكون في المؤمن وصف من أوصاف الجاهلية، كما هو معروف، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[1] فقد يوجد عند بعض ضعفاء الإيمان مثل هذا الظن، إلا أن مجموع الأوصاف التي ذكرت في هذه الآيات تشعر بأن هؤلاء من المنافين كما سيأتي، نحو قوله تعالى عنهم: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران].

"قال: والطائفة الأخرى المنافقون، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: إنما هم كذبة، أهل شك وريب في الله -عز وجل-".

قوله: {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني ما يظنه أهل الجاهلية ويعتقدونه من أنهم بالتوقي والحذر وعدم الخروج إلى مظان الموت -مواطن القتال أو نحو ذلك- يدفعون عن أنفسهم الموت، فإذا حصل لهم مكروه جعلوا يتأسفون على هذا المصاب ويقولون: لو لم نخرج في هذا الوجه، وفي هذا السفر وفي هذا الغزو لما حصل لنا كذا وكذا، هذا ظن الجاهلية، فهؤلاء شابهوهم في هذا الظن، وهؤلاء الذين قتلوا أعني السبعين في يوم أحد ماتوا بآجالهم، أي لو لم يخرجوا ولو لم تكن معركة أحد ولو لم يأت المشركون أصلاً لمات هؤلاء جميعاً؛ لأن الموت شيء قد كتبه الله -عز وجل- بأجل لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فليس المرض ولا القتل ولا غير ذلك يدني الأجل ولا الحذر يؤخره، وهذه الآيات وأمثالها جاءت لتعالج أدواء النفوس وما يقع من وساوس الشيطان، كما جاءت لتشجع أهل الإيمان للجهاد في سبيل الله -عز وجل- وأن ذلك لا يقرب آجالهم كما أن التخاذل والتراجع وترك ما أمرهم الله -عز وجل- به لا يدفع عنهم شيئاً مما قدره الله -تبارك وتعالى- وكتبه.

"يقول الله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله -عز وجل- سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال: {وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف، {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] كما قال في الآية الأخرى: {بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [(١٢) سورة الفتح] إلى آخر الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣) (ج ٥ / ص ٢٢٤٨) ومسلم في كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١) (ج ٣ / ص ١٢٨٢).

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم يقولون في تلك الحال: {هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة آل عمران] قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [(١٥٤) سورة آل عمران]".

في هذا التساؤل: {هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون المراد، هل لنا من أمر الله من النصر والظفر والظهور على العدو نصيب؟، وأقرب من هذا -والله تعالى أعلم- أن يكون المعنى: {هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} أي: أنا خرجنا مكرهين أصلاً، قد سلبت إرادتنا فلم يكن لنا سبيل إلا التصرف والتوقي من مواطن الموت فوقع بنا ما وقع، فهم يقولون هذا على سبيل التذمر والإرجاف في الناس، وهذا من أسوأ ما يكون أي أن يقع بالناس أمر مكروه أو مصيبة فيبدأ الضعفاء ويبدأ أهل الإرجاف يتكلمون ويلومون ويغمزون القيادة ويطعنون فيها ولو كان هذا القائد نبياً من الأنبياء ولو كان أفضل الأنبياء، فهم يتكلمون في أوقات الشدائد وأوقات ضعف القبضة والهزيمة وما أشبه ذلك من الأوضاع يظهرون قرونهم، وكما قال الله -عز وجل-: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [(١٩) سورة الأحزاب]، وأما في وقت الخوف نفسه فإن هؤلاء في حال ربما لا يستطيعون معها الكلام كما قال الله -عز وجل-: {يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [(٢٠) سورة محمد] ولك أن تتصور كيف ينظر المغشي عليه من الموت، إنه لا يحرك إلا عينيه فقط، فهؤلاء من شدة الخوف يخاف أحدهم أن يلتفت من هنا فيصاب من هنا، فهو لا يستطيع أن يلتفت قد تصلب عنقه، فهو فقط ينظر بعينيه {يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [(٢٠) سورة محمد] {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [(١٩) سورة الأحزاب] والسلق هو البسط والمعنى أنهم يطعنون فيكم وفي دينكم وفي كتابكم وفي ربكم، ويسمعونكم ما تكرهون، وهذا شيء منذ عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، إذا وقعت المصائب والآلام والقضايا الكبار ظهر أهل النفاق وبدءوا يرجفون ويطعنون ويشككون كما هو مشاهد الآن.

"قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ} [(١٥٤) سورة آل عمران] ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-".

يلاحظ الآن أن الكلام يفسر بعضه بعضاً فقوله: {يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة آل عمران] الأحسن أن تفسر -والله أعلم- بما ذكرت من أنهم يقولون: إنا خرجنا مكرهين، ولهذا قال بعده: إنهم يقولون: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران] فهم لا يعنون بقولهم: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} يعني من أمر الله من النصر والظفر وإنما المعنى أنهم يقولون: نحن سلبت إرادتنا فأخرجنا من غير إرادة فوقع لنا مثل هذا المصاب، وإلا كُنَّا توقينا الموت وأسبابه وبقينا في المدينة.

"روى ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم فما منَّا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله أني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، فحفظتها منه".

معتب بن قشير محسوب على المنافقين على هذا، لكن مثل روايات ابن إسحاق هذه لا يبنى عليها حكم؛ لأنها مما يذكر في السير والأخبار وربما يتساهل وإن كان إماماً في السير –رحمه الله- لكن مثل روايته عند المحدثين لا تكون من قبيل الصحيح، ففيه ضعف عند المحدثين، لأن السير يتساهل فيها، فإذا أردنا أن نبني حكماً أو عقيدة أو نحو ذلك، فمثل روايات ابن إسحاق لا يبنى عليها هذا، فالمقصود أنه لو ثبت هذا، فمعتب ابن قشير محسوب على المنافقين، فهذا يدل على أن المنافقين قد وجد بعضهم في غزوة أحد، ولم يرجع كلهم مع عبد الله بن أبي.

"**وفي ذلك أنزل الله:** {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران] **لقول معتب [رواه ابن أبي حاتم]**".

إذا ثبت هذا بحيث كان له طريق آخر غير ابن إسحاق، فمثل هذا يدل على أن المنافقين قد خرجوا فعلاً يوم أحد، وأن هذا من قول المنافقين، وكما ذكرت سابقاً تتبع الآيات يدل على أن هذه الأشياء إنما صدرت من المنافقين، وستأتي بعض الآيات التي تدل على هذا.

"**قال الله تعالى:** {قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: **هذا قدر مقدر من الله -عز وجل- وحكم حتم لازم لا يحاد عنه ولا مناص منه.**

وقوله تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: **يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال.**

{وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي **بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر**".

قوله تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ} يعني يختبر ما فيها من الإيمان والنفاق فيتكشف الناس، وتظهر حقائق مكنونات نفوسهم بادية للعيان.

قوله: {وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}: أي ينقيها ويخلصها مما قد يشوبها من وساوس الشيطان فيبقى أهل الإيمان في حال قد نقُّوا فيه فيبقى إيمانهم الخالص ويرتفع عنهم كل شائبة وذلك بمثل هذه الشدائد التي يبتليهم الله -عز وجل- بها، وهذا من فوائد هذه الوقعة وما حصل فيها من الانكسار لأهل الإيمان، وابن القيم -رحمه الله- ذكر حكماً كثيرة جداً ومنها هذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل-.

"**ثم قال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] أي: **ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، وإن من جزاء السيئةِ السيئةَ بعدها.**

ثم قال تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] أي: **عما كان منهم من الفرار.**

{إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٥٥) سورة آل عمران] أي: **يغفر الذنب ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم**".

قوله تعالى: {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] نص واضح يدل على أن ذنوب الإنسان لا سيما ذنوب السرائر أعظم سبب يودي به إلى الفشل فيخذل في أشد الأوقات وأعظم الأحوال التي يحتاج فيها إلى ألطاف الله -عز وجل-، فهو يخذل وينكسر، كما أن من كان له سريرة وسيرة حسنة وعمل صالح، فإن الله -عز وجل- ينصره، ومن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، فالإنسان يحرص

دائماً أن يرتبط بالله -عز وجل- وأن يتعرف إلى الله في الرخاء فيعرفه الله -عز وجل- في الشدائد، وهذا كما يقال في عموم الأمة ومجموعها، كذلك يقال في آحاد الناس وأفرادهم وما يقع لهم من الأمور المكروهة.

"**روى الإمام أحمد عن شقيق قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عينين**".

أبلغه أي بلِّغه أني لم أفر يوم عينين، ويوم عينين يعني يوم أحد، والمقصود بعينين هو الجبل الصغير الذي كان عليه الرماة، فهو يقال له: جبل الرماة، ويقال له: جبل عينين.

"**فقال له عبد الرحمن: أبغله أني لم أفر يوم عينين -قال عاصم: يقول: يوم أحد- ولم أتخلف عن بدر**".

قوله: **قال عاصم: يقول: يوم أحد**، هذه جملة اعتراضية وهي تفسير لقوله: "**يوم عينين**".

يقول عبد الرحمن: **ولم أتخلف عن بدر** يعني يقول: إنه لم يفر يوم عينين -يوم أحد- ولم يتخلف يوم بدر؛ وأما عثمان -رضي الله عنه- فتخلف عن غزوة بدر؛ لأنه كان يمرِّض زوجته بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"**قال عاصم: يقول: يوم أحد، ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر**".

قوله: **ولم أترك سنة عمر**، يعني في أمر الخلافة، وليس المقصود أن عثمان -رضي الله تعالى عنه- انتقل إلى جانب الظلم والخروج على حدود الله -عز وجل- حاشاه من ذلك فهو من الخلفاء الراشدين وقال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم))[٢] لكن كان لعمر -رضي الله عنه- سياسة صارمة لا يطيقها كثير ممن جاء بعده، فهو كان -مثلاً- يخرج إلى خارج المدينة يتبع جملاً من إبل الصدقة قد ندَّ، فلم يكن يرسل أحداً وإنما كان يذهب يطارد جملاً قد ند وهو خليفة، فمن يستطيع هذا؟

ومن مواقفه –رضي الله عنه- أنه أحدث على المنبر فيذكر ذلك صراحة ويقول: إني قد كذا، وينزل ويتوضأ ثم يرجع، فمن يستطيع أن يكون مثله.

وفي عام الرمادة تظهر عليه سمرة ويتغير لونه لتركه الأكل؛ لأن الناس قد جاعوا حتى إن بعض من وصفوا عمر وجدت في أوصافهم له تباين، فبعضهم يقول: إنه أبيض طويل، وبعضهم يقول: إنه أسمر، فجمع بينهما بعض أهل العلم بأن الذين قالوا أسمر هم الذين رأوه عام الرمادة وقد مال لونه إلى السواد؛ لشدة ما نزل به من الجوع، فمن يستطيع أن يفعل مثل عمر؟ ومن يستطيع أن يلبس ثوباً فيه أكثر من عشر رقاع مثل عمر؟

كان إذا قسم يعطي لابنه عبد الله أقل من بقية أبناء المهاجرين بحجة أنه هاجر مع أبيه فحصلت له الهجرة على سبيل التبع، فعثمان -رضي الله عنه- اعتذر عن هذا وقال: هذا شيء لا أطيقه، وهل يجب على الإنسان أن يفعل هذا؟ لا يجب عليه، ولذلك حتى معاوية في أول خلافته حاول أن يسير بالناس بسيرة عمر نحواً من عامين ثم بعد ذلك قال: عجزت.

"**قال: فانطلق فخبر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عينين، فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ**

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب – باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠١) (ج ٥ / ص ٦٢٦) والحاكم (٤٥٥٣) (ج ٣ / ص ١١٠) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٧٠١).

{عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] **وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسهم، ومن ضرب له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسهم فقد شهد، وأما قوله: إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك.**

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ* وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [(١٥٦-١٥٨) سورة آل عمران].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران]".

ابن كثير هنا -رحمه الله- وكذلك سبقه كبير المفسرين ابن جرير على أن قوله تعالى: **{لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ}** في الكفار كما قال الله -عز وجل-: **{يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [(١٥٤) سورة آل عمران]، وظنُّ أهل الجاهلية هو أنهم بالتوقي يتخلصون من أقدار الله -عز وجل-، فعلى هذا التفسير يذكر الله -عز وجل- هنا ظن هؤلاء من أهل الجاهلية -الذين هم الكفار- أنهم قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، بمعنى أنهم يمكن أن يدفعوا القدر بزعمهم، فهذا تفسير لظن الجاهلية، وهذا على قول الإمامين ابن جرير وابن كثير.

بينما بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- يقول: إن هذا في المنافقين فلا زالت الآيات تتحدث عن هؤلاء المنافقين، على أن قوله: **{لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] أي المنافقين الذين هم كفار في الباطن، إلا أنه ليس المتبادر في القرآن إذا ذكر الكفار أن يقصد بهم أهل النفاق، ومع ذلك فهو يرى أن هذا في المنافقين، ويقول: هذا دأبهم وهي عادتهم، **{الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}** [(١٦٨) سورة آل عمران] فهم تخلفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا مثل هذه المقولة، وهم يقولون ذلك لتثبيطهم كما قالوا في غزوة تبوك، **{وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ}** [(٨١) سورة التوبة] فهذه عادة المنافقين الذين قال الله عنهم في الأحزاب: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}** [(١٨) سورة الأحزاب] كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا}** [(٧٢) سورة النساء].

فالحاصل أن هذه الآيات في المنافقين ومنها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] والله أعلم.

وقوله تعالى: **{إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ}** أي إذا خرجوا في سفر للتجارة ضربوا في الأرض، وقوله: **{أَوْ كَانُواْ غُزًّى}** يعني إذا خرجوا للحرب، ولفظة "غزًّى" لا يلزم فيها أن تكون غزوة مع رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- على أن الذي خرج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون غزوة والذي لم يخرج فيه مع أصحابه يقال له: سرية، وبقية الحروب مثلاً يقال لها: معارك، فهذا اصطلاح لا بقصد القرآن.

وعلى كل حال إذا قلنا: إن هذه الآية في أهل النفاق يكون ذلك تابعاً للآيات الأولى التي يذكر فيها الله -عز وجل- موقف المنافقين في يوم أحد، والله تعالى أعلم.

"{إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ} أي: سافروا للتجارة ونحوها {أَوْ كَانُواْ غُزًّى} أي: كانوا في الغزو {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا} أي: في البلد {مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} أي: ما ماتوا من السفر وما قتلوا في الغزو.

وقوله تعالى: {لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} أي: خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم؛ ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم".

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر المعنى، لكن لو أردنا أن ندقق في العبارة فنربط هذا الكلام: **{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}** بما قبله من الكلام نجد أنه يرجع إلى {قالوا} من قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] أي وقالوا هذه المقالة ليجعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر والله أعلم، وهو لا يعارض كلام ابن كثير؛ لأن ابن كثير ذكر المعنى ولم يقصد بذلك ربط اللفظ باللفظ، وما مشى عليه ابن كثير وما ذكره من جهة المعنى هو الأقرب وهو اختيار أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}** يرجع إلى قوله: **{لاَ تَكُونُواْ}** فهو نهي عن مشابهتهم، أي لا تكونوا مشابهين لهم لينفردوا بذلك فيكون ذلك حسرة في قلوبهم وحدهم دونكم؛ لأن من قال هذا فإن ذلك يكون حسرة عليه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فإن لو تفتح عمل الشيطان))[3]، ولا شك أن هذا المثال من المواضع التي يذم فيها "لو" خلافاً لبعض المواضع كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة))[4] فمثل هذا لا إشكال فيه إذا كان على أمر من الطاعات قد فات أو كان ذلك لبيان أمر من الأمور يحتاج الناس إلى بيانه، فيقول الإنسان: لو كان كذا لفعلت كذا، لا على سبيل التحسر في الأمور التي لا جدوى من التحسر عليها ولا فائدة ولا يمكن استردادها واستدراكها، فإذا كان لهذا المعنى فلا إشكال في "لو" وبهذا تُجمع النصوص.

وعلى كل حال هنا يمكن أن يقال: إن قوله: **{لاَ تَكُونُواْ}** يرجع إلى هذا، بمعنى لا تكونوا مثلهم أو لا تلتفتوا إليهم ليكون ترك الالتفات إليهم سبباً للحسرة في قلوبهم، لكن هذا القول بعيد، والأقرب -والله أعلم- أنه يرجع إلى **{قَالُواْ}** أي أن هذا قول ناتج عن اعتقاد لهم، ليكون ذلك القول والاعتقاد الفاسد حسرة في قلوبهم، فإن من فسد اعتقاده وكان يظن أنه يمكن أن يدفع القدر يتحسر على كل ما وقع له من الآلام والمصائب والمكاره، ودائماً هو في شغل شاغل فيما مضى مما يقع له، لو ما فعلت كان حصل كذا، وهكذا..

---

3 - أخرجه مسلم في كتاب القدر- باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤) (ج ٤ / ص ٢٠٥٢).

4 - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب صفة حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٩٠٧) (ج ٢ / ص ١٢٢) والنسائي في كتاب مناسك الحج - الكراهية في الثياب المصبغة للمحرم (٢٧١٢) (ج ٥ / ص ١٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٩٠٥).

"{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: **خلق هذا الاعتقاد في قلوبهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم.**

ثم قال تعالى رداً عليهم: {وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: **بيديه الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيى أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره.**

{وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: **وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه لا يخفى عليه من أمورهم شيء.**

وقوله تعالى: {وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [(١٥٧) سورة آل عمران].

تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني.

ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله -عز وجل- فيجزيه بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال تعالى: {وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [(١٥٨) سورة آل عمران]".

في قوله تعالى: {وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ} المتبادر أن المراد بقوله: {أَوْ مُتُّمْ} -والله تعالى أعلم- أي متم في سبيل الله، يعني من خرج غازياً فلم يقتل في المعركة ولكنه مات لسبب أو لآخر، إما أنه مرض أو سقط أو أنه أصيب في المعركة لكنه لم يمت فيها ثم بعد ذلك سرت جراحته ثم بعد ذلك مات، فهذا لا يكون شهيد معركة، فمثل هؤلاء جميعاً يقول الله –عز وجل- فيهم: {لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة آل عمران].

كما أن الآية تحتمل شيئاً آخر وهو اعتبار الأمرين المذكورين في قوله: {إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى} [(١٥٦) سورة آل عمران] فإذا ضربوا في الأرض بأن سافروا للتجارة أو نحو ذلك وماتوا، أو كانوا غزًّى فقتلوا فمغفرة الله -عز وجل- ورحمته خير مما يجمعون، وفي القراءة الأخرى: (خير مما تجمعون) وتنكير المغفرة هنا يدل على عظمتها.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ* إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ* أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ* لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [(١٥٩-١٦٤) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخاطباً رسوله -صلى الله عليه وسلم- ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} أي: **أي شيء جعلك لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم.**

وقال قتادة: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **يقول: فبرحمة من الله لنت لهم و"ما" صلة والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ}** [(١٥٥) سورة النساء] **وبالنكرة كقوله: {عَمَّا قَلِيلٍ}** [(٤٠) سورة المؤمنون] **وهكذا هاهنا قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ}** [(١٥٩) سورة آل عمران] **أي: برحمة من الله.**

وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٨) سورة التوبة]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} [(١٥٩) سورة آل عمران] قال: أي فبرحمة من الله لنت لهم.

يقول: و"ما" صلة، وعرفنا أنهم يعبرون بالصلة عن الزيادة، يعني أنها زائدة إعراباً وحينما يقولون: صلة، فالمقصود أنها مزيدة للتوكيد، وهذا مشى عليه كثير من المحققين من أئمة العربية، ومن أئمة التفسير كأبي جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-، فقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} أي: برحمة محققة من الله -عز وجل- حصل لهم هذا اللين من جانبك، فإن ذلك أدعى للقبول والمتابعة والالتفاف حول النبي -صلى الله عليه وسلم-.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **والفظُّ: الغليظ".**

الغليظ الجافي الجلف يقال: فلان فظ يعني أنه غليظ جاف من الأجلاف الذين يعاملون الناس بالمخاشنة وسوء الخلق.

"**والمراد به هاهنا غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك: {غَلِيظَ الْقَلْبِ}**".

يقال: غليظ الكلام وغليظ الخلق، وغليظ الكلام لا شك أنه ينتج عن غليظ خلق ينطوي عليه، فهو غليظ الخلق مع قسوة القلب، فقوله:{فظاً} أي: غليظ الأخلاق {غَلِيظَ الْقَلْبِ} يعني قاسي القلب لا يرحم ولا يشفق على أتباعه ونحو ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بخلاف هذا.

"**أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم كما قال عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: إنه رأى صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الكتب المتقدمة: إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح**".

على كل حال هذه أخلاق كاملة لا سيما لمن أراد أن يتصدى لدعوة الناس أو نحو ذلك فينبغي أن يتحلى بها، فلا يكون جلفاً سيئ الخلق، يتأذى الناس بمجالسته وما يسمعون منه من جرح مشاعرهم وسبهم وشتمهم ويكون في قلبه قاسياً حقوداً لا يعفو الزلة عن الأتباع ولا يتجاوز ولا يحتمل لهم الغلط والهفوة وما أشبه ذلك، وإنما طبعه الغلظة والشدة، فمثل هذا تنفر منه النفوس بطبيعتها، فالنفوس لا تحب من كان كذلك، يعني حتى الإنسان الغليظ الجافي إذا رأى إنساناً آخر غليظاً جافياً فإنه ينفر منه، وفي كثير من الأحيان الإنسان قد لا يتفطن، ولا يرى عيوبه ولو كانت أمثال الجبال لكنه يرى ذلك في الناس ولو كان صغيراً فينفر من هذه الصفات.

فالمقصود أن الدعاة إلى الله -عز وجل- وطلاب العلم أولى بمثل هذه الأوصاف من رحمة المسلمين والعطف عليهم والشفقة، وألا يكون سيئ الخلق في تعامله مع الناس فهذه أمور لا تليق، قد يكون الإنسان طالب علم فيغلظ على الناس في الكلام وربما شتمهم ورما آذاهم وربما أقفل السماعة وهو يحادثهم في الهاتف، فيخاف الناس منه ومن سؤاله، ومن الدنو منه ومن معاشرته، وإذا عاشروه رأوا منه ألوان الأخلاق الكريهة، فينبغي للإنسان أن يكون قدوة في سلوكه قدوة في تصرفاته، فإذا عنف أحداً فهو يقصد هذا لمعنىً يرى أنه مصلحة لهذا الإنسان المعنف ولا يجد في نفسه تشفياً في مثل هذه الحال، فهو كالطبيب يضع الدواء حيث نفع لا سيما في التعامل مع الناس الذين يظنون أن هؤلاء لهم أخلاق كما يقال: أخلاق ربانية، أو أخلاق أنبياء، فحينما يأتي الناس لطلاب العلم أو يأتون لمن يدرسون في الجامعات الشرعية أو نحو هذا ينبغي أن يجدوا منهم اللين والغلظة ولا يجدون الأخلاق الصحراوية والجفاف في النفوس والسلاطة والتعنيف في اللسان وما إلى ذلك، فحتى لو كان الإنسان يعيش في بيئةٍ الغلظة غالبة فيها فإنه ينبغي أن يهذب أخلاقه، فيتخلص الإنسان قدر المستطاع من مثل هذه الأوصاف فإن ذلك ينفر النفوس، وكم من طالب علم جاء مندفعاً متحمساً حينما كان يقرأ عن أخلاق الإمام أحمد والفضيل وابن المبارك وأمثالهم، ثم رأى عكس هذا تماماً لدى بعض من يحتف به أو ابتلي بتعليمه فنفر وكره العلم وكره طلاب العلم وكذلك الدعاة إلى الله -عز وجل- إذا كانوا بهذه المثابة، فلا بد من التجاوز واحتمال أخطاء الناس وهفواتهم، والذي لا يصلح لشيء

يصلح لشيء آخر، والله -عز وجل- خلق الناس في غاية التفاوت فلا بد من سعة الصدر لهم وإعطاء كل إنسان ما يحسنه، والحاجة موجودة للجميع.

"**ولهذا قال تعالى**: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **ولذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه**".

يعني إذا شاورت الإنسان جعلته شريكاً لك في هذا حتى في الناحية النفسية كما يقال، إذا أردت أن تجعل إنساناً في صفك فيمكن أن تدخله معك من هذه البوابة، إنسان ممكن أن يعترض وينبري لمعارضة هذا الأمر، فمن الممكن أن تأتيه وتقول: نحن نعاني من كذا وكذا وكذا، بماذا تشير علي؟ فيمكن أن يقترح عليك الرأي الذي يمكن أن يكون هو أكثر المعارضين له، وللأسف هذه يمكن أن يستغلها أهل الفساد مع بعض الطيبين ويُستغفلون بهذه الطريقة فيكون هذا عوناً لهم، ويمكن أن يستغلها أهل الصلاح، حتى في المشكلات الزوجية، وما أشبه ذلك، قد تسبق الزوجة إلى أحد من المصلحين الذين يصلحون بين الأسر، أو القضاة فتبدأ تذكر له المشكلة وتقلب الأمر بين يديه وماذا يشير عليها وما إلى ذلك، فيتحول تلقائياً إلى إنسان مستشار لها، وهذا لا بأس به إلى هذا الحد، لكن أن يكون كلامها هو الحق، وأن يعطيها تعليمات كيف تفعل لتنتصر على هذا الإنسان، وتأخذ حقها منه وما أشبه ذلك حتى إذا جاء ذلك الزوج فإذا القضية محسومة في نظر هذا القاضي وأن هذا إنسان ظالم، وينبغي أن يؤدب، والسبب أنها جاءت بطريقة مشاورته في الموضوع وماذا يمكن أن تفعل، فتحول دون أن يشعر إلى عاضد وناصر، وهذا حاصل بشكل كبير جداً، فالمقصود أنك بكل بساطة تستطيع أن تحول الكثيرين إلى أعوان وأنصار بهذا الأسلوب حتى بالتعامل مع الأب مثلاً قد تجده يعترض على شيء فتعرض عليه وتقول: أنا أعاني من إشكال وكذا، فماذا تشير عليَّ؟ فتجده يبدأ يجتهد بكل طاقته ليعطيك حلولاً، فهذه الحلول قد تكون أنت تفكر فيها أصلاً، لكن إذا طرحتها لأول وهلة تجد المعارضة.

وعلى كل حال هذه الآية تضمنت حق الله -عز وجل- وحق النبي -صلى الله عليه وسلم- وحق الخلق، فالله -عز وجل- يقول: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [(١٥٩) سورة آل عمران]، فقوله: {{فَاعْفُ عَنْهُمْ} أي: إن بدر منهم تقصير في حقك، وقوله: {وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} أي مما يقع منهم من الذنوب والمعاصي والتقصير في حق الله -عز وجل-، وقوله: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} هذا حق لهم.

"**كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو -المعنق ليموت- بالتقدم إلى أمام القوم**".

قوله: "**المعنق ليموت**" ربما قيل له ذلك -إن صحت الروايات التي في السير- لما كان في بئر معونة فأقدم بعد أن قتل أصحابه وأصرَّ ألا يبرح وألا يفارق حتى يقاتل المشركين أو يقتل، فأقدم عليهم حتى قتلوه، فيقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((أعنق ليموت))[1].

---

[1] - الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٣ / ص ٥٦٧).

فقوله: أعنق ليموت يعني بادر ليموت، ثم لقب بهذا، هكذا في بعض الروايات في السير إن صحت.

"وشاورهم في أُحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى عليه ذلك السعدان، سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنهما- فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق -رضي الله تعالى عنه-: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال".

على كل حال هذا هو الواجب، وقد قال ابن عطية -رحمه الله-: إن من لا يشاور أهل الدين والصلاح والعلم يجب عزله..

"وقال -صلى الله عليه وسلم- في قصة الإفك: ((أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن؟، والله ما علمت عليه إلا خيراً))[2].

واستشار علياً وأسامة -رضي الله تعالى عنهما- في فراق عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فكان -صلى الله عليه وسلم- يشاورهم في الحروب ونحوها.

وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المستشار مؤتمن)) [ورواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي]".

قوله: **((أبْنوا أهلي))** الأَبْن: التهمة، والمعنى هنا اتهموا أهلي، وعلى كل حال الحديث فيه كلام معروف وضعف في إسناده، لكنه قد يحتمل التحسين لشواهده، وقد رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والتحسين من قبل الترمذي.

"وقوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} [(١٥٩) سورة آل عمران] أي: **إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}** [(١٥٩) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٦٠) سورة آل عمران] **وهذا كما تقدم من قوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [(١٢٦) سورة آل عمران] **ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٦٠) سورة آل عمران]".

قوله: **{وَإِن يَخْذُلْكُمْ}** الخذلان هو الترك والتخلية، فحينما يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى الألطاف والنصر إذا تركته في هذا الوقت الذي يحتاج إليك فيه وتخليت عنه تكون قد خذلته، أما إذا كان لا يحتاج إليك فتركته فليس هذا من الخذلان، إنما يكون الخذلان في وقت الحاجة والاضطرار.

وفي قوله: **{وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ}** الاستفهام هنا مضمن معنى النفي، والمعنى لا أحد ينصركم من بعد الله -عز وجل-.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النور (٤٤٧٩) (ج ٤ / ص ١٧٨٠) ومسلم في كتاب التوبة - باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠) (ج ٤ / ص ٢١٢٩).

"**وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}** [(١٦١) سورة آل عمران] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون.**

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الآية: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ} نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعلَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذها، قال: فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٦١) سورة آل عمران] **وكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب، وهذه تبرئة له -صلوات الله وسلامه عليه- عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك**".

سبب النزول هذا صحيح ثابت وبه يفهم إيراد هذه الآية، وذلك أنه قد يتساءل الإنسان عند قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}** ما الموجب لذكر هذا المعنى مع أن الأنبياء كما هو معلوم منزهون عن هذا؟ فهل اتهمهم أحد بهذا؟ أو هل حصل موقف؟ أو هل جوَّز عليهم أحد ذلك؟

فيكون الجواب أن سبب النزول أن من الناس من قال هذه المقالة: لعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذها.

وحقيقة الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل أن تقسم، وبعضهم يعمم هذا فيقول: الأخذ من الغنيمة والفيء أو بيت المال يعتبر من الغلول، لكن معنى الغلول المشهور الذي إذا أطلق تبادر إليه الذهن هو الأخذ من الغنيمة قبل أن تقسم، وسبب النزول هنا يدل على هذا.

"**ثم قال تعالى: {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [(١٦١) سورة آل عمران]، **وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة.**

روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً، فإذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين إلى يوم القيامة))[(٣)]".

الحديث عند الإمام أحمد في إسناده ضعف، لكن له أصل من حديث سعيد بن زيد -رضي الله تعالى عنه- عند البخاري في الصحيح، وعلى كل حال، لو تأملت حينما تسمع هذه الآية: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}** [(١٦١) سورة آل عمران] دون أن تعرف سبب النزول، ثم انظر بعد أن عرفت سبب النزول فتجد أن فهم الآية يتغير والإشكال ينحل، فأحياناً سبب النزول يعين على فهم المعنى ويزول به الإشكال، فأسباب النزول متفاوتة، وأحياناً تكون من باب زيادة العلم لا تؤثر في فهم الآية، ولذلك فأسباب النزول من جملة التفسير، أعني حينما يسمع الإنسان مثل هذه الآية وهو لا يعرف خلفيتها ولا يدري لماذا قيل هذا يكون هناك فرق إذا سمعها وهو يعرف معناها ويعرف لماذا أوردها الله -عز وجل-.

"**وروى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- قال: استعمل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام**

---

[3] - أخرجه أحمد (١٧٢٩٤) (ج ٤ / ص ١٤٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن محمد بن عقيل وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح.

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على المنبر فقال: ((ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر)) ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال: ((اللهم هل بلغت)) ثلاثاً، وزاد هشام بن عروة: فقال أبو حميد: بصر عيني وسمعِ أذني وسلوا زيد بن ثابت [أخرجاه][4]".

قوله: **حتى رأينا عفرة إبطيه**، العفرة هي بياض يخالطه لون يغايره، كما يقال: صبي أعفر، أي أبيض، وعلى ظهره شيء من لون الأرض كما نقول بني فاتح، أي بياض متغير يمازجه لون آخر غير لون سائر الجسد.

ومثل هذا الحديث حينما أورده ابن كثير -رحمه الله- يحتمل أنه أراد أن يقرر أن الغلول هو الأخذ من المال العام، سواء كان من أموال الغنيمة قبل قسمها أو الفيء أو بيت مال المسلمين، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- هنا لم يذكر الآية في هذا الحديث، فذلك يرجع إلى اجتهاد المفسر، فإذا كان المفسر يظن أن هذه الآية مرتبطة بهذا الحديث ومفسرة له فإنه يريده، هو قد يصيب في هذا وقد يخطئ، هذا النوع الذي يكون من قبيل التفسير بالسنة مما يدخله اجتهاد المفسر، فقد يخطئ المفسر وقد يصيب.

ويحتمل أيضاً أن الحافظ ابن كثير يرى أن الغلول هو الأخذ من مال الغنيمة خاصة، ولكن أيضاً هناك أشياء من الأخذ يحاسب عليها الإنسان ويأتي بها يوم القيامة، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [(١٦١) سورة آل عمران]، فربما يريد أن يفسر هذا القدر كيف يأتي به، فالحديث بيّن أنه يأتي بالشاة أو البعير على تلك الهيئة التي ذكرت فيفتضح أمام الناس.

"وروى أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام عن معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه- قال: بعثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال: ((أتدري لمَ بعثت إليك، لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، لهذا دعوتك فامض لعملك))[5] هذا حديث حسن غريب".

على كل حال الحديث فيه ضعف، ولو صح فيمكن الاحتجاج به على أن الغلول أيضاً يطلق على الأخذ من الأموال العامة، مثل الزكوات أو غير ذلك؛ لأن معاذاً -رضي الله تعالى عنه- قائم في اليمن وسيعطيه الناس أموالاً من زكواتهم ونحو هذا، وكان يبعث ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقسم أيضاً على المستحقين، فالأخذ من هذا يكون من قبيل الغلول لو صح هذا الحديث، وعلى كل حال يمكن أن يقال: إن الغلول يطلق إطلاقاً خاصاً وهو الأخذ من مال الغنيمة قبل أن تقسم، وإطلاقاً أوسع وهو الأخذ من الأموال العامة.

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب الهبة وفضلها - باب من لم يقبل الهدية لعلة (٢٤٥٧) (ج ٢ / ص ٩١٧) ومسلم في كتاب الإمارة - باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢) (ج ٣ / ص ١٤٦٣).

5 - أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام - باب ما جاء في هدايا الأمراء (١٣٣٥) (ج ٣ / ص ٦٢١).

"وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال: ((لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك)) [أخرجاه][٦]".

الصامت هو الذهب والفضة، والرقاع: مثل الجلود أو الثياب أو نحو هذا، وفي هذا الحديث ذكر الأصناف، وهي الحيوانات والمصنوعات أو الجلود وذكر أيضاً الذهب والفضة.

"وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كلا؛ إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة)) ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون)) قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون"[٧] وكذا رواه مسلم والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٦٢) سورة آل عمران] أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه".

لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، يعني في كل شيء، اتبع رضوان الله -عز وجل- في الأعمال القلبية وأعمال الجوارح في طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- كما قال ربنا -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ}** [(٧٣-٧٤) سورة آل عمران] فوصفهم بهذا حيث أجابوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لما دعاهم للخروج إلى حمراء الأسد بعد غزوة أُحد مباشرة.

"أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير".

يعني هذا أيضاً في محادّة الله -عز وجل- ومعصيته بكل الأشكال والصور كما قال الله -عز وجل-: **{تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** [(٨٠-٨١) سورة المائدة].

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب الغلول (٢٩٠٨) (ج ٣ / ص ١١١٨) ومسلم في كتاب الإمارة - باب غلظ تحريم الغلول (١٨٣١) (ج ٣ / ص ١٤٦١).

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٤) (ج ١ / ص ١٠٧).

فالحاصل أنه قال: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ} أي: سولت لهم وزينت أن يوالوا المشركين، فكان ذلك سبباً لسخط الله -عز وجل- عليهم..

"وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [(١٩) سورة الرعد]".

هذا دأب ابن كثير -رحمه الله- حيث يفسر القرآن بالقرآن ولو أن أحداً دوَّن بعض النماذج لمعرفة منهج ابن كثير في التفسير فإنه سيجد عنده في النهاية تطبيقات على قواعد التفسير بأنواعها خاصة وأن الكتاب هذا حافل بذلك، فإذا جمع أحدنا هذه الأمور شيئاً فشيئاً فإنه يمكن أن يخرج بمجلدات، والناس في هذا كلٌّ بحسبه، فمنهم من يجدها تلوح لأنه يذكرها صراحة وأحياناً تكون خفية لا تظهر إلا لمن كان له خلفية بهذا.

"وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [(١٩) سورة الرعد] **وكقوله:** {أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} **الآية** [(٦١) **سورة القصص**].

ثم قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ} [(١٦٣) سورة آل عمران] **قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل يعني متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى:** {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} **الآية** [(١٣٢) سورة الأنعام] **ولهذا قال تعالى:** {وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(١٦٣) سورة آل عمران] **أي: وسيوفِّيهم إياها لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شرًّا بل يجازي كلاًّ بعمله.**

وقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [(١٦٤) سورة آل عمران] **أي: من جنسهم، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به".**

قوله تعالى: {مِّنْ أَنفُسِهِمْ} المعنى الأعم هنا يمكن أن يكون من جنسهم أي ليس من جنس آخر كالملائكة، فمن رحمة الله -عز وجل- أن جعله مشاكلاً لهم يستطيعون الأخذ عنه والاقتداء به، فلو كان ملكاً من الملائكة فإنهم لا يستطيعون رؤيته على هيئته الحقيقية فضلاً عن الأخذ منه، ثم أيضاً كل ما يفعله ذلك الملك، يقال فيه: هذا ملك ليس فيه شهوات وليس فيه كذا، فهو ليس محل الاقتداء بالنسبة إليهم.

ويحتمل معنىً أخص من هذا وهو أن يكون من أهل لسانهم، يعني من العرب وهذا الذي اختاره ابن جرير، ويمكن أن يستشهد له بقوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة] فهذا الرسول في الأميين أمي مثلهم، وذلك ليكون مشاكلاً لأحوالهم يفهمون عنه، ولذلك يقولون إذا أردت قتل الفيلسوف فضعه بين العوام؛ لأن الفيلسوف يتكلم بكلام لا يفهمه الناس فهو يتكلم بأشياء يتفلسف فيها فإذا وضعته بين العامة يموت؛ لأنه لا يجد من يسايره حتى إن الناس يقولون عنه: إنه مجنون، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يعلمون الناس ويبلغونهم شرع الله -عز وجل- بطريقة تلائم الفطرة فيفهمونها، فهذه الأشياء التي جاء بها الأنبياء يتدين بها ويعمل بها الأعرابي في الصحراء وأهل الحضر في كل زمان ومكان، فهي كما يقول الشاطبي -رحمه الله-: شريعة أمية، فالحاصل أن الآية تحتمل هذا المعنى: {رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي: من أهل لسانهم، أي من الأميين.

"**كما قال تعالى**: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [(٢١) سورة الروم] **أي: من جنسكم، وقال تعالى**: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} **الآية** [(١١٠) سورة الكهف]، **وقال تعالى**: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [(٢٠) سورة الفرقان] **وقال تعالى**: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} [(١٠٩) سورة يوسف]، **وقال تعالى**: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] **فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال تعالى**: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(١٦٤) سورة آل عمران]".

على كل حال في مثل هذا إذا احتملت الآية معنيين، وكان لكل معنىً ما يشهد له من القرآن ولا يوجد مانع يمنع من حمل الآية على هذه المعاني فإنها تحمل عليها جميعاً، فالله -عز وجل- يمتن على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، وهذا يشمل جميع أهل الإيمان العرب والعجم أن جاءهم رسول من البشر يستطيعون الأخذ منه والاقتداء به، وما أشبه ذلك، ويكون هذا الامتنان على العرب بصورة أخص حيث إنه موافق لهم، للغتهم وبلسانهم فتكون المنة عليهم بهذا البعث أعظم، وبناء على ذلك لا نحتاج أن نرجح فنقول: {رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي: بلسانهم أو أنه من البشر، فالمنة حاصلة على المؤمنين جميعاً بهذا ولكنها أعلق بالعرب، ولذلك كلما كان الناس أخص برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من ناحية القرب باللسان أو بالقبيلة كلما كانت المنة عليهم بذلك أكثر، فالمنة على قريش أكثر من المنة على غيرها، والمنة على العرب أكثر من العجم.

"**ولهذا قال تعالى**: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} **يعني القرآن** {وَيُزَكِّيهِمْ} **أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، لتزكوَ نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم**".

يعني أن التزكية تحصل بالتطهير من الذنوب والأرجاس والشرك وما أشبه ذلك، كما تزكو بعمارة النفوس بتقوى الله تعالى، وتتخلص النفوس من الرواسب ومن الانحرافات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قال ابن كثير: "**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**"، فهذا هو سبب تزكية النفوس بأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فيحصل أثر ذلك ونتيجته.

"{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} **يعني القرآن والسنة**، {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ} **أي: من قبل هذا الرسول** {لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} **أي: لفي غي وجهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد**".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٥-١٦٨) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ} وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم {قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا} يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً، {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} أي من أين جرى علينا هذا؟، {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه فأنزل الله: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] بأخذكم الفداء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

يقول تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] سبق الكلام أن الراجح في القرح الذي وقع بالمشركين هو ما حل بهم يوم بدر.

والرواية التي ذكرها الحافظ هنا عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهي قوله: "**لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر**" فهذا في تفسير قوله -تبارك وتعالى- هنا: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك حينما عصى الرماةُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلوا عن الجبل -أعني الرماة- لأخذ الغنيمة، فقوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم ومخالفتكم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وبعضهم يقول: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: حينما أخذوا الأسارى والفداء منهم في يوم بدر، وأنهم خيروا بين أخذ الفداء وأن يقتل منهم مثل هذا العدد، فاختاروا أخذ الفداء، فهذا قول معروف، ولو صحت فيه الرواية أنهم خيروا هذا التخيير فيمكن أن يقال: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل

عمران] أي باختياركم السابق ومعصيتكم اللاحقة التي وقعت في يوم أحد، وإذا لم تصح الرواية فإن الفداء قد أباحه الله -عز وجل- لهم، وبناء على ذلك فإن الذي تشير إليه الآية: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] هو معصيتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، والرواية التي إن صحت ليس المقصود بها ما جاء عن عمر -رضي الله عنه- وإنما هي الرواية التي ورد فيها التخيير والتي قالوا فيها: هؤلاء إخواننا...

وعموماً لو صحت هذه الرواية فيمكن أن يقال: إن قوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بأخذكم الفداء الذي اخترتموه سابقاً يوم بدر ومعصيتكم اللاحقة في يوم أحد، لأن الله -عز وجل- قال: {وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، قال سبحانه: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: صرفكم عنهم {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فقوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم، كما قال الله -عز وجل-: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] وكما قال سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(٣٠) سورة الشورى].

فعلى كل حال هذه الآية: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] تفسر بمثل هذه الآيات، لكن لو صحت هذه الرواية المذكورة كما سبق، فيقال هذا وهذا، فكل ذلك سبَّب لهم هذا المصاب.

"وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والربيع بن أنس والسدي: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: بسبب عصيانكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أمركم ألا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة".

وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم.

"{إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ثم قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة في ذلك".

الإذن في قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [(١٦٦) سورة آل عمران] هو الإذن الكوني القدري قطعاً؛ لأن الله -عز وجل- لا يحب الكافرين، ولا يحب ظهورهم على أهل الإيمان، وإنما لحكمة قد يديل الكفار على المسلمين وينزل بالمسلمين ما ينزل من المكاره والمصائب وغلبة العدو وما أشبه ذلك، فهذه إرادة كونية لا تقتضي المحبة، وإنما التي تقتضي المحبة هي الإرادة الشرعية، فقوله: {فَبِإِذْنِ اللّهِ} يعني كوناً وقدراً حيث خلى بينكم وبين عدوكم فغُلبتم؛ لأنه لا يقع في حكم الله إلا ما يريد، ولو شاء لم يحصل ذلك.

"{وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا".

المقصود بعلم الله في نظائر هذا هو علم تحقق الوقوع الذي يبنى عليه الجزاء، فالله يعلم المؤمنين من المنافقين ليجازي كلاً بعمله.

"{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] **يعني أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين، يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال:** {أَوِ ادْفَعُواْ}.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثِّروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا".

على كل حال هو ذكر القتال وما الذي يقال غير القتال من عون المسلمين بحضورهم للمعركة كتكثير السواد، فيرهب بذلك العدوُّ جانبَ المسلمين وما أشبه ذلك مما يحصل بالاجتماع، أو ادفعوا بما تستطيعون غير القتال على الأقل بنفقاتٍ ودعاء وتحريض وما أشبه ذلك بكل مستطاع.

قوله: {قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] المتبادر من معناها أنه: لن يحصل هناك قتال، فكل المؤشرات تدل على أنه لن تقع معركة فلا داعي أن نخرج، وبعضهم يقول: إن معنى: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً} يعني نحن لا نحسن القتال فاعذرونا فلسنا من أهل الحرب وأهل القتال، وليس ذلك من عملنا، وإنما الذين يحسنونه هم الذين يخرجون إلى العدو.

ويحتمل أن يكون معنى {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً} أي: لو نعلم لنا محلاً للقتال ومكاناً في المعركة لاتبعناكم، ولكن هذا بعيد جداً، فهو أبعد من الذي قبله، والظاهر المتبادر -والله أعلم- أن المعنى أنه لن يكون هناك قتال" وبناء عليه لا داعي للحضور.

"فتعللوا قائلين: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} **[(١٦٧) سورة آل عمران] قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً، قال الله -عز وجل-:** {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} [(١٦٧) سورة آل عمران] **استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله:** {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} **[(١٦٧) سورة آل عمران]".**

هذا كما في الحديث: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً))[1] أي تتقلب به الأحوال في يومه وليلته.

"ثم قال تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} **[(١٦٧) سورة آل عمران] يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته".**

هنا أضاف القول إلى الأفواه مع أن القول إنما يكون بالأفواه، فكما أنه يدل على التوكيد في مثل هذه المقامات فكذلك يدل هنا على أن مثل هذا القول لا يجاوز الأفواه، كما قال الله -عز وجل- في سورة النور: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [(١٥) سورة النـــور] فهو قول لا يجاوز الأفواه، فهو إفك وكذب مفترى لا حقيقة له في أرض الواقع، وإنما هو شيء يتفوه به الناس دون أن يكون له حقيقة.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) (ج ١ / ص ١١٠) وأحمد (١٨٤٢٨) (ج ٥ / ص ٣٩٤).

"ومنه قولهم هذا: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين وأنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [(١٦٧) سورة آل عمران].

وقوله: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول".

مثل هذا التعبير يدل على أنه ممن نزلت فيه الآية، وإلا فالآية أعم من هذا، فكل من قال هذه المقالة فهو داخل في هذا، فأشرافهم وسراتهم في هذا سواء..

"{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٦٩-١٧٥) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبد الله -رضي الله تعالى عنه- عن هذه الآية: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [(١٦٩) سورة آل عمران] فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))[2] وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما-".

هذه الآية تفسرها الآية الأخرى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٤) سورة البقرة] فتلك الآية تفسر هذه، وتبين أن هذه الحياة التي يحياها الشهداء لا تدخل تحت إدراكنا،

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧) (ج ٣ / ص ١٥٠٢).

ولذلك قال: **{وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}** [(١٥٤) سورة البقرة] لأن الشعور المقصود به الإدراك فإذا ارتفع شعور الإنسان معنى ذلك أنه ارتفع إدراكه، فنحن لا نشعر بهذا ولا ندرك طبيعة هذه الحياة، لما حجب عنا في هذه الدنيا، من هذه الأمور الغيبية، فهي حياةٌ الله -عز وجل- أعلم بها لا تدخل تحت نطاق شعورنا، لكنهم أحياء والله يقول: لا تقولوا أمواتاً إنما هم أحياء، لكن ذلك لا يدخل تحت إدراككم، يعني لمّا أزهقت نفوسهم في سبيل الله وحصل لهم هذا التلف في الأبدان وبذلوا المُهج عوضهم الله -عز وجل- الحياة الكاملة التي لا تقارن بهذه الحياة، فإذا رأوا ذلك تمنوا أن يرجعوا فيقتلوا، وهذه هي أمنيتهم الوحيدة.

"**وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة))[3] [انفرد به مسلم]**".

هنا يقول: **((لها عند الله خير))** ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "ما من أحد يكون عليه حق لله تعالى -يعني في المال- لا يؤديه إلا تمنى الرجعة عند الموت"، فقالوا له: اتق الله يا ابن عباس فإنه لا يتمنى الرجعة أحد له خير عند الله إلا الشهيد، فقرأ عليهم ابن عباس هذه الآية: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] فالإنسان المقصر في الحقوق المالية يتمنى أن يرجع ليتصدق ويبذل.

"**وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترِد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن متقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله -عز وجل-: أنا ابلغهم عنكم، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآيات: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} وما بعدها))[4] هكذا رواه أحمد، وكذا قال قتادة والربيع والضحاك أنها نزلت في قتلى أحد.**

وروى أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: نظر إليَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم فقال: ((يا جابر ما لي أراك مهتماً)) قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً، قال: فقال: ((ألا أخبرك، ما كلم اللهَ أحدٌ قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كَفاحاً)) قال علي: الكَفاح المواجهة".

يعني أنه كلَّمه مباشرة من غير واسطة، وظاهره أن ذلك من غير حجاب أيضاً.

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٧) (ج ٣ / ص ١٤٩٨).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في فضل الشهادة (٢٥٢٢) (ج ٢ / ص ٣٢٢) وأحمد (٢٣٨٨) (ج ١ / ص ٢٦٥) والحاكم (٢٤٤٤) (ج ٢ / ص ٩٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٥٢٠).

"**((قال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب -عز وجل-: إنه قد سبق مني القول: أنهم إليها لا يرجعون، قال: أي ربِّ فأبلغ من ورائي)) فأنزل الله: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا} الآية**[٥].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء..))".

بعضهم يفسر قوله: ((على بارق نهر)) يعني أول النهر ومطلع النهر ومبتدأ النهر عند باب الجنة أي الموضع الذي يلوح فيه النهر أو يبرق فيه النهر عند باب الجنة، وكأنه يكون له شيء من اللمعان والبريق والله أعلم.

"**قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)) تفرد به أحمد وقد رواه ابن جرير وهو إسناد جيد**[٦]".

وحسنه أيضاً الذين حققوا مسند الإمام أحمد، وعلى كل حال هذا الحديث مع الأحاديث الأخرى التي تذكر أنهم في حواصل جوف طير خضر تأوي إلى قناديل.. إلى آخره يمكن أن يقال: إن هذا يختلف باختلاف أحوالهم، ربما يكون ذلك -والله أعلم- فبعضهم هكذا وبعضهم هكذا، وقد يكون لهم هذا وهذا فالله -عز وجل- على كل حال يكرمهم بألوان من النعيم أخبر عن بعضه في مثل هذه النصوص.

"**وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم**".

هنا ذكر وجهين للجمع بين هذا وبين أنها في أجواف طير، إما أن هذا يختلف باختلاف أحوال الشهداء فمنهم من يكون كذا ومنهم من يكون كذا، أو أن هذا من الأمور التي يعطيهم الله -عز وجل- إياها فهم في بعض الأطوار يكونون في أجواف طير خضر وقد يفضون إلى مكان كهذا يتنعمون به، فالله أعلم.

"**وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها**".

هنا يشير إلى بعض الأحاديث التي تذكر أن أرواح المؤمنين أيضاً في الجنة وأن ذلك لا يختص بالشهداء، ولكن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، وهذا هو الفرق، والله أعلم.

"**بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور**".

عالم الأرواح وكلام أهل العلم فيه وأين أرواح المؤمنين، هل هي على أفنية القبور أو في القبور أو في الجنة أو لها أحوال تنتقل في العالم العلوي وترجع إلى القبور أو غير ذلك، إذا نظرت إلى الأدلة تجد منها ما يدل

---

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠١٠) (ج ٥ / ص ٢٣٠) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٠) (ج ١ / ص ٦٨) وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم (٣٠١٠).

[6] - أخرجه أحمد (٢٣٩٠) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

على أنه ينعم في القبر حيث يفتح له نافذة إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، وهناك أدلة يفهم منها أن أرواحهم في الجنة، وعلى كل حال هذه أمور غيبية، فقد يكون للأرواح أحوال وتنقلات مع اتصال بالجسد لا ندركه وهذا الاتصال لا تحصل به الحياة المعروفة لدينا في الدنيا من حركة الجسد فهذه أمور الله -عز وجل- أعلم كيف تكون.

"**وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم. اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد -رحمه الله- رواه عن محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- عن مالك بن أنس الأصبحي -رحمه الله- عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))**[7]".

في هذا الحديث يذكر أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، وذكر هناك أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، فقوله: ((طائر يعلق)) من أهل العلم من أخذه بظاهره، وقال: إنها تكون بهذه المثابة، أي أنها تكون على هيئة طائر يطير في الجنة وليست في جوف طير خضر كأرواح الشهداء، فهؤلاء طائر يعلق في شجر الجنة، وأولئك في جوف طير خضر يأوون إلى قناديل معلقة بالعرش.

"**وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم**".

هذا الكلام لابن كثير يريد به تبيين المعنى المراد من الحديث وليس رواية أخرى، فهو فسرها بأنها تكون على هيئة طائر، وهذا قال به كثير من السلف، وبعضهم يقول: إن الروح طائر يعلق بأنهار الجنة، فقيل لها طائر بهذا الاعتبار، لكن الظاهر المتبادر هنا أنها تكون على صورة أو على هيئة طائر يعلق بأشجار الجنة، وابن القيم له كلام كثير في هذا من شاء فليراجعه.

"**وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان**".

يقول: "**فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين**" لأنها تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.

"**وقوله تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ} إلى آخر الآية** [(١٧٠) سورة آل عمران] أي: **الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة**".

قوله في الآية: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧٠) سورة آل عمران] هل هم يستبشرون بمن سيقتل في سبيل الله أنه سيلحق بهم؟

[7] - أخرجه أحمد (١٥٨١٦) (ج ٣ / ص ١٥٨١٦) وإسناده صحيح كما قال شعيب الأرنؤوط.

هذا تحتمله الآية، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- كما أن الآية تحتمل معنىً آخر وهو أنهم يستبشرون بإخوانهم المؤمنين وما هم عليه من الإيمان وصلاح العمل؛ فهو الأمر الذي يفضي بهم إلى الجنة، فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا..

"وقد ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الذين قتلوهم يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع (أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)".

قوله: "**(أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)**" هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه.

"ثم قال تعالى: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران]، **قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسروا لمَا عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم".**

يعني هنا في قوله: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧١) سورة آل عمران] بعضهم يقول: النعمة ما ينعم الله به على عباده عموماً، والفضل هو الأمر الزائد، أو ما يتفضل الله -عز وجل- به عليهم، وبعضهم يقول: النعمة هي الثواب، وهذا لا يعارض الأول؛ لأن ما ينعَّمون به هو من الثواب، وعلى كل حال، فالاستبشار الأول الذي في قوله: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧٠) سورة آل عمران] هذا الاستبشار إنما هو بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، والاستبشار الثاني الذي في قوله: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧١) سورة آل عمران] أي أنهم يستبشرون بما حصل لهم من النعيم.

وعلى كل حال الآية: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] فيها قراءة أخرى متواترة وهي قراءة الكسائي بكسر همزة إن: (وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين)، فعلى القراءة الأولى التي عليها أكثر القراء: {وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] يكون ذلك من جملة ما استبشروا به، يعني: أنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجرهم، يعني من جملة ما يستبشرون به أن الله لا يضيع أجر المؤمنين، وعلى قراءة الكسر يكون ذلك من قبيل الاستئناف، ومعلوم أن الآية إن كان لها قراءتان فأكثر وكل قراءة لها معنىً يخصها فإن القراءتين بمنزلة الآيتين، فهم يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، والآية أيضاً على قراءة الكسر تقرر هذا المعنى وتؤكده؛ لأن "إنَّ" بمنزلة إعادة الجملة مرتين فهي للتوكيد.

وقوله هنا عن عبد الرحمن بن زيد: "**هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم**" أي لأنه قال: {وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] سواء كانوا شهداء أو غير شهداء، هذا هو معنى الكلام.

يقول: "**سواء الشهداء أو غيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء**" هنا لم يذكر الأنبياء لكن معلوم أن حال الأنبياء أكمل من حال الشهداء.

يقول: "**وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم**" هو هنا يريد أن يقرر أن ما يذكره الله -عز وجل- لأصحاب المراتب العالية من أهل الإيمان، كالأنبياء فالغالب أن الله يذكر ثواب عموم المؤمنين، وهنا لم يذكر الأنبياء لكن ذلك من باب التنبيه على معنىً يتكرر، فلما ذكر جزاء الشهداء ذكر جزاء عموم المؤمنين، أو ذكر معنىً يتصل بعموم أهل الإيمان، هذا هو معنى كلامه وإلا فالآية ليس فيها ذكر للأنبياء.

"**وقوله تعالى**: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [(١٧٢) سورة آل عمران] **هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم وليريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- لما سنذكره.**

فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله -عز وجل- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-.

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبي عيينة -الشك من سفيان-".

قوله: "**فندب المسلمين فانتدبوا**" يعني حثهم على الخروج فخرجوا.

"**فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت تعد غزوة، فأنزل الله تعالى**: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [(١٧٢) سورة آل عمران].

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} **الآية، قلت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر -رضي الله تعالى عنهما- لما أصاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال**: ((من يرجع في إثرهم؟))".

قالت: "**يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر**" عروة بن الزبير أبوه الزبير وجده أبو بكر الصديق لأمِّه، فأمه هي أسماء بنت أبي بكر، فهي أرادت إخباره أن أباه وجده من أمه كانا من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح.

"**فانتُدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير -رضي الله تعالى عنهما- هكذا رواه البخاري منفرداً بهذا السياق**[٨].

وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} **الآية** [(١٧٣) سورة آل عمران] أي: **الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به** {وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران]".

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب:{الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [(١٧٢) سورة آل عمران] (٣٨٤٩) (ج ٤ / ص ١٤٩٧).

هذه الآيات عظيمة جداً تحمل معانيَ كبيرة، ولو أن الناس تأملوا فيها لم يكن حال المسلمين على ما نحن عليه الآن، ومشكلة هؤلاء الذين يكذبون على الله -عز وجل- ليست مع شيء إلا مع القرآن، نعم مشكلتهم مع القرآن، فما عليهم إلا أن يخرجوا نسخة مختصرة يحذفون فيها كل هذه الآيات ليقولوا: الإسلام دينٌ إذا لطمك على خدك الأيمن أدِر له خدك الأيسر.

هذه الآيات قدرها نحو ستين آية كلها تتحدث عن وقعة واحدة فقط، فيها ترغيب للمؤمنين بالجهاد، وحث لهم على نصرة دين الله -عز وجل-، وبعد ذلك يأتي من يكذب على الله -عز وجل- ويقول: الإسلام ليس فيه هذا، ويلفقون زوراً من القول بهتاناً وباطلاً يناقض صريح الإيمان؛ وذلك أنه في وقت الهزيمة تظهر قرون النفاق والمنافقين -لا كثَّرهم الله-.

ولا بد أن نعلم أن الجهاد شيء والسفه الذي يحصل هنا وهناك شيء آخر، فالجهاد الحقيقي الذي هو قتال أعداء الله -عز وجل-، فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة، لن يستطيع أحد أن يوقفه أو يبطله كائناً من كان، فالجهاد الحقيقي قائم وموجود في هذا الزمان وفي كل زمان، أما الانحرافات وما يحصل من الخروج عن الجهاد المشروع من بعض الذين ينتسبون إليه، فهؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم وجنايتهم على أنفسهم، وخطؤهم وانحرافهم مردود عليهم، لكن لا يلصق هذا بالإسلام ولا يلصق بالجهاد في سبيل الله -عز وجل- ويقال: هذا حال الجهاد، ليس هذا حال الجهاد وإنما هو نوع من الانحراف والإفساد في الأرض، وهذا ينبغي أن يعرفه الناس.

وما نسمع أحياناً من بيانات وتصريحات من بعض المنتسبين للجهاد الذين يحرضون فيه على شيء يحسبونه جهاداً فهذا نوع من الإفساد في الأرض وهو خروج عن مقتضى العقل والنقل، وإشاعة الفوضى والإفساد في الأرض، وهو مرفوض، لكن الجهاد الحقيقي -جهاد أعداء الله- فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة ولن يستطيع أحد أن يوقفه مهما اجتمع أهل الأرض؛ فعندنا أصل كبير في هذا وهو أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ونحن مطمئنون لهذا كل الاطمئنان، فينبغي أن نفرق بين هذا وبين غيره، فالناس بحاجة إلى هذا التفريق وإلى أن يعرفوا حقائق ما أنزل الله -عز وجل-؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق وتُرِك لكل كاتب ومزوِّر وأفَّاك أن يتكلم وينظِّر فمتى يعرف الناس الحق؟

كما أنه لا يصح السكوت أيضاً عن الخطأ والانحراف، وإنما على الإنسان أن يتكلم بعلم وعدل، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم بحق فليسكت ولا يتكلم بالباطل، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} [(١٧٣) سورة آل عمران] الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به.

{وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران] روى البخاري عن ابن عباس: {حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران] قالها إبراهيم -عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد -صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران][1].

وروى أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قيل له يوم أُحد: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فأنزل الله هذه الآية ولهذا قال تعالى: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، وردَّ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] هذا مثال عند الأصوليين حينما يذكرون العام المراد به الخصوص، وهو استعمال اللفظ العام في معنىً خاص، وذلك إذا فسرت هذه الآية: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} باعتبار أن القائل واحد وهو: أبو سفيان، أو من أرسله أبو سفيان وهو نعيم بن مسعود مثلاً، أو غير ذلك مما قيل، فالمقصود أن القائل واحد، وهكذا الأمر في قوله: {الَّذِينَ} فهو اسم موصول، والأسماء الموصولة تعتبر من صيغ العموم، لكن قيل: إن المقول له ذلك واحد وهو أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- وعلى كل حال هذا مثال مشهور يذكرون فيه هذا الأمر، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا هو المراد، فقد يكون من العام الباقي على عمومه، فقوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} أي الذين توعدهم من لقيهم من الناس من أهل الإشراك وقائدُهم أبو سفيان {إِنَّ النَّاسَ} أي: المشركين من قريش الذين حاربوكم في أحد، {قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} أي عزموا على الكرة والرجوع إلى استئصالكم، فيكون بهذا الاعتبار من العام الباقي على عمومه، لا سيما في قوله: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران]، وأما قوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} فيمكن هنا أن يكون ذلك أظهر في أن القائل واحد، والله أعلم.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٧) (ج ٤ / ١٦٦٢).

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧٤) سورة آل عمران] النعمة هي ما يحصل للإنسان من المنافع والخير، سواء كان ذلك في الأمور العاجلة أو في الأمور الآجلة فذلك كله من النعم، وسواء كان معنوياً أو حسياً.

وقوله: {وَفَضْلٍ} الفضل هو الزيادة، فسواء قيل: إن النعمة: هي السلامة مثلاً، أي أن الله سلمهم من عدوهم فهاب ورجع، ولهذا قال بعده: {لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] والفضل: هو الثواب والأجر، بأن عُدت تلك غزوة مع أنهم لم يواجهوا فيها عدواً، أو قيل بأن النعمة هي رحمة الله -عز وجل- وثوابه لهم، والفضل هو الزيادة وذلك أنهم لقوا عيراً في الطريق في الموسم فاشتروا تلك العير فكان ذلك من المكاسب التي حصلت لهم عرَضاً، فكل ذلك تحتمله الآية.

ويمكن أن يكون المراد بهذه النعمة هي أن الله سلمهم، والفضل هو أن الله أثابهم مع أنهم لم يلقوا حرباً ولذلك قال بعده: {لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] والله تعالى أعلم.

"وروى البيهقي عن ابن عباس في قول الله تعالى: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧٤) سورة آل عمران] قال: النعمة أنهم سلموا والفضل أن عيراً مرَّت وكانت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه.

ثم قال تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [(١٧٥) سورة آل عمران] أي: يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة".

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ} أي: المثبط لكم هو الشيطان، والمعنى أن الشيطان يضخِّم الكفار في أعينكم ويجعل لهم هالة، ويجعل منهم أصحاب قوة لا يمكن أن تُدحر ولا تقهر ولا تهزم، فهذا هو الشيطان الذي يجعل لهم مثل هذا الانتفاش والتعاظم، أو العظمة في نظر الآخرين.

والمعنى المتبادر الظاهر -والله أعلم- في قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أي: يخوفكم من أوليائه، وأولياؤه هم الكفار، فالشيطان يخوف المؤمنين منهم بأن يلقي في نفوسهم أموراً يتعاظمون فيها قوة الكفار وما بأيديهم حتى يشعرهم أن هؤلاء الكفار قوة لا يمكن أن تواجه ولا تقهر.

فالحاصل أن هذا هو المعنى، وليس معناها أن الشيطان يخوف ويلقي الرعب والخوف في قلوب أوليائه، فليس هذا هو المراد، بل هو يحرضهم على الإقدام على أهل الإيمان، كما حصل في بدر لما زين لهم أعمالهم، وقال: {وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [(٤٨) سورة الأنفال] فهو الذي دفعهم إلى المواجهة.

وقوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أبلغ من قوله: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه؛ لأن قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} معناه أنه يجعل لأوليائه من الهالة والعظمة بحيث إن جانبهم يكون مهيباً مرهوباً فيرفعهم بهذا، فيحسب المؤمنون لهم حساباً ولا يجترئون على مواجهتهم.

فالمقصود أن المعنى الظاهر المتبادر من قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أنه يخوف المؤمنين من أوليائه لا أنه يخوف أولياءه من المؤمنين أو من غير ذلك؛ لأنه من المعلوم أن الشيطان لا يخوف أولياءه، وإنما يدفعهم ويشجعهم على المضي لحرب أهل الإيمان، فهو لا يلقي الخوف في قلوبهم، وإنما يجتهد أن يلقي الخوف في قلوب المؤمنين، وهذا عام في الجهاد في سبيل الله -عز وجل- وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

حيث يجعل لصاحب الباطل والمنكر عظمة غير حقيقية ولو كان من أقل الناس شأناً بحيث لا يجترئ عليه المؤمن أحياناً إذا قبل عن الشيطان هذا التأثير والإلقاء، وهكذا يلقي في قلبه مهابة من هذا الإنسان ويجعل في نفسه من الخواطر والوساوس ما يجعله ينصرف عن الإنكار عليه، فلذلك ترى الإنسان أحياناً يجد إنساناً بجانبه يأكل ويتكئ على يده أو يشرب بيده اليسرى ولا يجترئ حتى على أن ينبهه، وتراه يجلس في المجلس ويسمع الغيبة أصرح ما تكون والاستطالة في الأعراض وربما الذي يقوم بهذا من أبسط الناس ومع ذلك لا يجترئ أن يقول: كف عن أعراض الناس اتق الله، فيسكت ويجامل ويداهن، وهذا كله من الشيطان، يقول له: إذا أنكرت فإن هذا الإنسان قد يسيء إليك أو قد يحصل مفسدة أكبر، أو هذا الإنسان قد يقاطعك أو يفهم هذا على غير مرادك، فيترك الإنسان مثل هذه الأشياء، وأحياناً يصلي بجانبه إنسان يرى عليه ألوان المنكرات فلا يكلمه، وأحياناً يراه لا يعرف يصلي فلا يجترئ على أن يكلمه ولو كان من أبسط الناس، والله المستعان.

"قال الله تعالى: {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٧٥) سورة آل عمران] **أي: إذا سوّل لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجئوا إليّ فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ}** [(٣٦) سورة الزمر] **إلى قوله: {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}** [(٣٨) سورة الزمر] **وقال تعالى: {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}** [(٧٦) سورة النساء] **وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [(١٩) سورة المجادلة]، **وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [(٢١) سورة المجادلة]، **وقال: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}** [(٤٠) سورة الحج] **وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} الآية** [(٧) سورة محمد]، **وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}** [(٥١-٥٢) سورة غافر].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، وذلك من شدة حرصه على الناس، وكان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى: لا يحزنك ذلك، إنهم لن يضروا الله شيئاً".

يقول تعالى: **{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}** [(١٧٦) سورة آل عمران] وفي قراءة نافع: (ولا يحزِنُك) وهما لغتان، والمعنى واحد.

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}** [(١٧٦) سورة آل عمران] من هم الذين يسارعون في الكفر، ونهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن عليهم؟ هل هم الذين يرتدون على أدبارهم؟ أو هم الكفار بجميع أنواعهم فهم استمرءوا الكفر وهم مستمرون عليه ويزدادون منه حيناً بعد حين؟ أو أن المراد بهم أ هل النفاق؟

الآية تحتمل هذه المعاني كلها، وابن جرير -رحمه الله- يحملها على المنافقين، والآية يدخل فيها أهل النفاق فهم يسارعون في الكفر، ويدخل فيها أيضاً من ارتد عن دينه فهو يسارع إلى الكفر، ويدخل فيها طوائف الكفار من أهل الكتاب الذين أنكروا ما عرفوا من أحقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- فكفروا وازدادوا كفراً على كفرهم، ويدخل فيها أهل الإشراك الذين لم يألوا جهداً في صد دعوة النبي -صلى الله

عليه وسلم- والكيد لها بكل مستطاع، فكل هؤلاء يسارعون في الكفر، فهذه الآية تفسرها الآيات الأخرى، التي نهاه الله -عز وجل- فيها عن الحزن عليهم وألا يكون في ضيق مما يمكرون وهي قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف] أي: مُهلِك نفسك أسفاً وحسرة عليهم أنهم لم يؤمنوا ولم يقبلوا هذا الحق الذي جئت به، فكل هؤلاء والله أعلم ممن يسارعون في الكفر.

وابن كثير هنا حملها على مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد، لكنه لا يعني أن أهل النفاق بمنأى عن هذا؛ فأهل النفاق في الواقع كفار في الباطن، وهم يسارعون في الكفر كما هو معلوم، فحمْلها على المعنى الأعم هو ما مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهذا أولى من حملها على المنافقين.

"فقال تعالى: لا يحزنك ذلك، إنهم لن يضروا الله شيئاً؛ {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} [(١٧٦) سورة آل عمران] أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيباً في الآخرة، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١٧٦) سورة آل عمران]".

يعني أن مجيء الكفار إلى المسلمين في أُحد وقتل هؤلاء الصحابة وما حصل على يد الكفار، هذا كله من المسارعة في الكفر، ونفاق المنافقين الذي نجم ذلك الحين كله من المسارعة في الكفر، وكلامهم واعتراضهم بقولهم: {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] وقولهم: {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [(١٦٨) سورة آل عمران] وما أشبه ذلك، كل ذلك من المسارعة في الكفر.

وقوله تعالى: {يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} [(١٧٦) سورة آل عمران] هذه كما يقول الله -عز وجل-: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف] وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران] فهذا بمعنى أن الله يريد ألا يكون لهم نصيب في الآخرة، فالله -تبارك وتعالى- لو شاء لأهلكهم ولو شاء لآمنوا جميعاً، ولكن حكمته -سبحانه وتعالى- أنه يملي لهم فيزدادون كفراً إلى كفرهم فيكون ذلك سبباً لمحقهم وذهاب نصيبهم عند الله -عز وجل-.

"ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: {إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} أي: استبدلوا هذا بهذا {لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا} أي: ولكن يضرون أنفسهم {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٧٧) سورة آل عمران]".

حتى هذه الآية ابن جرير -رحمه الله- يحملها على المنافقين مع أن الآية أعم من هذا كما قال الله -عز وجل- في أول سورة البقرة: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة] وكقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [(٤٤) سورة النساء].

فالحاصل أن كل هؤلاء الكفار وكذا أهل النفاق قد اشتروا الضلالة بالهدى، واشتروا الكفر بالإيمان، وسبق الكلام على معنى الاشتراء أنه المعاوضة، وبيّنا أن هؤلاء لم يكن عندهم الإيمان أصلاً، وأن المراد بذلك هو أنهم آثروا الكفر على الإيمان واختاروه فصحَّ أن يعبر عن ذلك بالشراء.

"ثم قال تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران] كقوله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون]".

على كل حال قوله:{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} في القراءة الأخرى المتواترة قراءة حمزة: (ولا تحسبن)، فلا يحسبن يكون الخطاب موجهاً للكفار أو الذين يسارعون في الكفر، أي عموم طوائف الكفار، وعلى القراءة الثانية: (ولا تحسبن) يكون الخطاب موجهاً للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي يكون الخطاب متوجهاً لأمته وأتباعه أيضاً؛ لأن الأمة تُخاطَب في شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"**وكقوله**: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [(٤٤) سورة القلم] **وكقوله**: {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(٨٥) سورة التوبة]".

على كل حال في قوله: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا} [(١٧٨) سورة آل عمران] الإملاء يقصد به الإمهال والإطالة في العمر، أي: يطول عمره ويسوء عمله، والله أعلم.

"**ثم قال تعالى**: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] أي: **لا بد أن يعقد سبباً من المحنة**".

قوله تعالى: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} الخطاب هنا موجه لمن؟ بعضهم يقول: هذا الخطاب للمؤمنين.

وقوله: {حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] أي حتى يتمحَّص أهل الإيمان ويتبيّن المؤمن الصادق من المنافق.

وبعضهم يقول: هذا الخطاب للمؤمنين والمنافقين ممن أظهر الانتساب إلى الإسلام، وأعلن الإيمان، والمعنى يا من تنتسبون إلى الإسلام وتظهرون اتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقبول ما جاء به ستقع بكم مثل هذه البلايا والهزائم والكوارث والآلام فتتكشف في أوقات الشدائد حقائق مكنونات النفوس وتظهر، فيعرف هذا ويعرف هذا.

وبعضهم يقول: هذا الخطاب موجه للكفار، وعلى هذا يكون المعنى {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} أي على ما أنتم عليه أيها الكفار من الكفر حتى يميز الخبيث من الطيب، وهذا بعيد بل هو أبعد هذه الاحتمالات.

والحاصل أن الخطاب متوجه إلى أمة الإجابة، وأمة الإجابة هذه مختلطة، ففيهم الصادق فيما أظهر من الإجابة وفيهم الكاذب وفيهم ضعيف الإيمان، فالله وعدهم بالابتلاء كما قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [(١٨٦) سورة آل عمران] وكما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [(٣١) سورة محمد] وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ} [(٢١٤) سورة البقرة] فهذا كله لا بد منه، فهو أمر واقع يتميز به الصف.

"**أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة يُظهر فيه وليه ويفتضح فيه عدوه، ليعرفوا به المؤمن الصادق والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم**

وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا قال تعالى: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] **قال مجاهد: ميَّز بينهم يوم أُحُد، وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة.**

ثم قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] **أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميِّز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك".**

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}** [(١٧٩) سورة آل عمران] يقول بعضهم: أي: في اختيار النبوة من الذي يصلح لها ممن لا يصلح، وهذا بعيد، وإنما المعنى الصحيح هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله: "**أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميِّز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك**" أي أنكم لا تعرفون ما تكنه الضمائر وما تنطوي عليه القلوب من النفاق وإنما الذي يعلم ما في القلوب هو الله الذي خلقها، والناس ليس لهم إلا الظاهر، لكن إذا قدر الله -عز وجل- هذا الابتلاء فإنه بذلك يظهر ما تنطوي عليه القلوب ليكون ذلك معايناً مشاهداً، فتعرفون أحوال هؤلاء، فما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن من حكمته أن قدر هذا الابتلاء حتى يظهر الصادق من الكاذب ويتميز الصف فتعرفون ذلك، وإلا لم يُعرف ولم يُميز هؤلاء من هؤلاء، وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هو الذي عليه المحققون من المفسرين كابن جرير وغيره.

"ثم قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء} [(١٧٩) سورة آل عمران] **كقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** [(٢٦-٢٧) **سورة الجن]".**

يعني أن الله -عز وجل- إنما يطلع أنبياءه -صلى الله عليهم وسلم- على ما شاء أن يطلعهم عليه من الغيوب، وأما بقية الناس فإنهم لا سبيل لهم إلى الاطلاع على ذلك؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم، وهذا الجزء من الآية: **{وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء}** [(١٧٩) سورة آل عمران] هو الذي حدا ببعض المفسرين أن يقول: إن المراد بقوله: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}** [(١٧٩) سورة آل عمران] أي من يستحق أن يُجتبى للنبوة والرسالة، كما قال الله -عز وجل-: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}** [(٦٨) سورة القصص] وقال في موضع آخر: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}** [(٣٢) سورة الزخرف] يعني النبوة، **{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(٣٢) سورة الزخرف]

فالحاصل أن هذه هي القرينة التي جعلتهم يقولون هذا المعنى، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرت من أن الناس لا سبيل لهم إلى الغيوب التي منها ما تكنه الصدور وإنما يكون ذلك لمن اجتباهم الله -عز وجل- فهو يطلعهم بوحيه، فيقدر هذه المحن فتعرفون ذلك ظاهراً، وأما أنتم فليس لكم إلى ذلك سبيل.

"ثم قال تعالى: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ} أي: **أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم {وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** [(١٧٩) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه.

ثم أخبر بمآل أمرِ مالِه يوم القيامة، فقال: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران].

روى البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بِلِهْزِمتيه -يعني بشدقيه- يقول: أنا مالك أنا كنزك)) ثم تلا هذه الآية: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ} [(١٨٠) سورة آل عمران] تفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان في صحيحه[٢]".

هذا التفسير لا ينبغي العدول عنه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر فيه الآية، فليس مما يدخله الاجتهاد، بمعنى أن المفسر قد يعمد إلى حديث لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية فقد يخطئ المفسر في الربط بين هذا وهذا، ولهذا كان معنى قوله: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: يكون طوقاً على أعناقهم، كما في الحديث الآخر: ((من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين))[٣]، وهذا خلافاً لمن قال: إن قوله: {سَيُطَوَّقُونَ} أي: أن الله يجعل لهم طاقة وقدرة على حمله يوم القيامة يعني يُحمَّلونه يوم القيامة.

وبعضهم يقول: هذا يدل على الملازمة كملازمة الطوق للعنق، أي أن ذلك يكون ملازماً لهم يوم القيامة، وهذه المعاني فيها بعد، والأقرب -والله تعالى أعلم- بل المتعين في تفسير الآية هو ما دل عليه الحديث، أنه يكون طوقاً يطوقه في عنقهم يوم القيامة.

"وروى الإمام أحمد عن عبد الله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاعاً أقرع يتبعه يفر منه وهو يتبعه، فيقول: أنا كنزك)) ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، ثم قال الترمذي: حسن صحيح[٤].

وقوله تعالى: {وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله -عز وجل- فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم.

{وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: بنياتكم وضمائركم".

قوله: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي أنه خبير بنياتكم وضمائركم وسائر أعمالكم، ويعلم من يبخل ومن يجود، فالله -عز وجل- يعلم خفيات الأمور ودقائق الأشياء، لا يخفى عليه منها خافية.

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة - باب إثم مانع الزكاة (١٣٣٨) (ج ٢ / ص ٥٠٨).

3 - أخرجه البخاري في كتاب المظالم - باب إثم من ظلم شيئا من الأرض (٢٣٢٠) (ج ٢ / ص ٨٦٦) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢) (ج ٣ / ص ١٢٣١).

4 - أخرجه النسائي في كتاب الزكاة - باب التغليظ في حبس الزكاة (٢٤٤١) (ج ٥ / ص ١١) وابن ماجه في كتاب الزكاة - باب ما جاء في منع الزكاة (١٧٨٦) (ج ١ / ص ٥٦٩) وأحمد (٣٥٧٧) (ج ١ / ص ٣٧٧) وأصله في البخاري وقد سبق تخريجه في الحاشية رقم (٢).

"قال تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ* الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [(١٨١ - ١٨٤) سورة آل عمران].

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [(٢٤٥) سورة البقرة] قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك، يسأل عباده القرض، فأنزل الله: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء} الآية [(١٨١) سورة آل عمران] رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

وقوله: {سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ} تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: {وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [(١٨١) سورة آل عمران] أي: هذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: {وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [(١٨١-١٨٢) سورة آل عمران] أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ} [(١٨٣) سورة آل عمران].

يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدَّق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما.

قال الله -عز وجل-: {قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ} [(١٨٣) سورة آل عمران] أي: بالحجج والبراهين، {وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} أي: بنار تأكل القرابين المتقبلة، {فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ} أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل.

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [(١٨٤) سورة آل عمران] أي لا يهدِّنك".

وفي نسخة: لا يوهنك، والمعنى لا يضعفنك.

"أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاءوا به من البينات: وهي الحجج والبراهين القاطعة، والزبر: وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، والكتاب المنير: أي البيّن الواضح الجلي".

يقول: البينات: وهي الحجج والبراهين، والزبر: هي الكتب، والكتاب المنير: البيّن الواضح الجلي، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ* لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [(١٨٥-١٨٦) سورة آل عمران].

"يخبر تعالى إخباراً عاماً يعمُّ جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [(٢٦-٢٧) سورة الرحمن] **فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً.**

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٥) سورة آل عمران]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ}** بعد أن وجَّه الله -تبارك وتعالى- نبيَّه -صلى الله عليه وسلم- بألا يحزن لإسراع من أسرع في الكفر، وبعد أن ذكر الله -عز وجل- جملة من الفرى التي يفتريها أعداؤه، كقولهم: **{إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء}** [(١٨١) سورة آل عمران] وما أشبه ذلك قال بعده: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ}** فكلام ابن كثير -رحمه الله- هنا كأنه مشى فيه على أن ذلك من الكلام المستأنف.

وبعض أهل العلم كأبي جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله- يربطها بما قبلها، وعلى كل حال هؤلاء يقولون: إن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}** [(١٧٦) سورة آل عمران] أي ولا تكذيب من كذّب وافتراء من افترى، فإن الكل سيوافي ويموت، ويرجعون جميعاً إلى الله -عز وجل- فيثيب المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمرجع الجميع ومصيرهم إليَّ، هذا وجه الارتباط بين الآية وبين الآيات التي قبلها على قول هؤلاء، والله أعلم.

"وقوله: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **أي: من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز".**

أصل الزحزحة: التنحية والإبعاد، والمعنى من نُحي عن النار وأبعد عن النار فقد فاز، وقد يكون أكثر ما تستعمل هذه اللفظة في الأشياء الثقيلة التي يصعب حملها أو رفعها، فيقال: زحزحته يعني حركته ونحيته.

"روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)) اقرءوا إن شئتم: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه**[1].

وقوله تعالى: {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(١٦-١٧) سورة الأعلى] **وقال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(٦٠) سورة القصص] **وفي الحديث: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بِمَ ترجع إليه))**[2].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **هي متاع متروكة، أوشكتْ والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله".**

في قوله: **{وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [(١٨٥) سورة آل عمران] المتاع هو الشيء الذي يضمحل ويزول لا بقاء له، فالنعيم الذي يضمحل هو من قبيل المتاع، والغرور: هو الذي يتبهرج ويتزين أمام الناظرين ومن تعاطاه، ولكنه لا حقيقة له، فكل ما غرَّ فهو من الغرور.

وبعضهم يقول ذلك للشيطان، ولهذا فسر بعضهم هذه الآية بالشيطان، وهذا -والله أعلم- لا منافاة بينه وبين الأول؛ لأن كل ما يغر الإنسان فإنه يقول له: غرور، فالدنيا تغره ومتاعها يستهويه فذلك مما يحصل به الغرور، وكذلك الشيطان أيضاً يفعل ذلك في نفسه كثيراً فيصدق عليه هذا، والله -عز وجل- يقول: **{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}** [(٣٣) سورة لقمان]، فبعضهم يقول: أي فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم الشيطان، وعلى كل حال يمكن أن يقال: لا تغرنكم الحياة ولا يغرنكم الشيء الذي لا حقيقة له من كل ما يتبهرج ويتزين أمام الناظرين ثم لا يلبث أن يضمحل، والشيطان يزين ذلك فهو غرور أيضاً، ولا نحتاج أن نرجح بين هذه المعاني، والله أعلم.

يقول ابن كثير في قوله تعالى: **{وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [(١٨٥) سورة آل عمران]: "**..فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله".**

---

[1] - أخرجه بدون الزيادة البخاري في كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨) (ج ٣ / ص ١١٨٧) وأخرجه مع الزيادة الترمذي في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٣٠١٣) (ج ٥ / ص ٢٣٢) وابن حبان (٧٤١٧) (ج ١٦ / ص ٤٣٣) وكذا الحاكم (٣١٧٠) (ج ٢ / ص ٣٢٧) وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم (٣٠١٣) أعني مع الزيادة

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨) (ج ٤ / ص ٢١٩٣).

وابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: وما متاعها الذي متعكموه في هذه الحياة الدنيا إلا الغرور والخداع؛ لأنها لا حقيقة لها وهي مضمحلة ولا تستحق أن ينصرف الإنسان عن الدار الآخرة الباقية بسبب هذه الدنيا الفانية، ولكن الغرور والخداع هو الذي يفعل فعله في نفوسكم فيحصل الانكباب عليها والتشاغل بها عن طاعة الله -تبارك وتعالى-.

ويقول: فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم ثم هو عائد عليكم بالفجائع، أي أن هذا المتاع الذي يحصل لكم إنما متعكموه الغرور ثم ما يلبث أن يضمحل وتقع بكم الفجائع والمكاره، ولذلك لما ذكر الله -عز وجل- نعيم الآخرة، ذكر أنه باق لا يزول وذكر الخلود بالنسبة لأهل الجنة فقال: {خَالِدِينَ فِيهَا} [(١٩٨) سورة آل عمران]؛ لأن الإنسان مهما كان يُمتّع فإنه إذا تذكر أنه مفارق لهذا النعيم فذلك ينغص عليه لذته ويكدر عليه صفوها، ولهذا قال الشاعر:

هو الموت ليس يسبق الموت شــيء نغص المــوت ذا الغنــى والفقيــرا

فالفقير منغص بالموت إذا تذكره، والغني وهو يعيش في غاية الترف والنعيم في الدنيا إذا تذكر أنه مفارقه وأن هذا العقد الذي قد انتظم باجتماع بنيه وأحبابه وما أشبه ذلك، وأن كل ذلك سيأتي عليه يوم ينفرط فيه فيتهافتون ويتساقطون الواحد بعد الآخر، ثم ما يلبث هذا البيت أو هذا المكان أو هذا القصر الشامخ حتى يكون خراباً لا ترى فيه أحداً يرد الصوت وأن هذه طبيعة هذه الحياة، إذا تذكر كل ذلك تنغصت عليه حياته.

"وقوله تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [(١٨٦) سورة آل عمران] **كقوله تعالى:** {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} [(١٥٥) سورة البقرة] **إلى آخر الآيتين، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء.**

{وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} [(١٨٦) سورة آل عمران]، **يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلياً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى:** {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [(١٨٦) سورة آل عمران]".

قوله تعالى: {فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} بعض أهل العلم يفسره بعزمات الأمور، أي مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله -عز وجل-؛ لأن الله طلبه وأمر به وأحبه.

"روى البخاري عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ركب على حمار عليه قطيفة فدكية..".

القطيفة هي مثل السرج الذي يوضع على الفرس، فما يوضع على ظهر الحمار تحت الراكب يقال له: قطيفة، والذي يوضع على الفرس يقال له: سرج والذي يوضع على البعير يقال له: رحل..

وقوله: **فدكية**: منسوبة إلى فدك قريبة من خيبر.

"وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فإذا في المجلس أخلاط من

المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلَّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله -عز وجل- وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالى عنه-: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي -صلى الله عليه وسلم- دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي- قال: كذا وكذا)) فقال سعد: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك".

يقول: "**على أن يتوِّجوه ويعصِّبوه** " أي كانت عادتهم إذا ملَّكوا أحداً عليهم أن يتوجوه ويعصبوه.

وقوله: "**شرِق بذلك**" الأصل أن شرق تقال إذا شرب الإنسان الماء أو أكل شيئاً فوقف في حلقه أو دخل في مجرى النفس، وكذلك يقال: شرق بهذا الأمر بمعنى أنه ساءه وتلكأ فيه ولم يقبله.

"فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[3].

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى".

طبعاً هذا قبل أن يُشرع الجهاد، حيث أمروا بالصفح والعفو والإغضاء والتجاوز، لكن بعد أن شُرع الجهاد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجيش الجيش، كما حصل في قينقاع وقريظة والنضير.

"قال الله تعالى: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} الآية [(١٨٦) سورة آل عمران]، **وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} الآية** [(١٠٩) سورة البقرة].

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام وأسلموا".

قول عبد الله بن أبي: "**هذا أمر قد توجه**" يعني مضى وأخذ طريقه في القوة والانتشار وتجاوز مرحلة البداية والضعف وما أشبه ذلك.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٩٠) (ج ٤ / ١٦٦٣) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨) (ج ٣ / ص ١٤٢٢).

وقول ابن كثير: "**وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتأول في العفو ما أمره الله به**" المقصود بالتأول هنا التطبيق والعمل، وهذا أحد معاني التأويل، فإذا قيل: يتأول قوله تعالى كذا، فالمعنى أنه يمتثل.

"**فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله -عز وجل-.**

{وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ* لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٨٧-١٨٩) سورة آل عمران].

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وأن ينوِّهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه".

هذا التفسير واضح أنه ينحى إلى أن هذه الآية في أهل الكتاب في قضية بيان ما عرفوا من أحقية ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، وهذه الآية وإن سيقت لتقرير هذا المعنى، إلا أن ظاهر اللفظ أعم من ذلك فيدخل في هذا المعنى وغيره من البيان، ويكون ذلك أيضاً متوجهاً لهذه الأمة، فأهل الكتاب قص الله -عز وجل- عنهم أنهم كما قال: **{فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ}** [(١٨٧) سورة آل عمران] فالبيان لا يختص بأهل الكتاب فهذه الآية وإن كانت فيهم، إلا أنه يؤخذ منها أنه يجب على من عرف الحق أن يبيِّنه للناس، فالله أخذ الميثاق على أهل الكتاب **{لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ}** [(١٨٧) سورة آل عمران] أي كل ما يجب عليهم بيانه ومن ذلك أحقية ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما عرفوه في كتبهم، لكنهم جحدوا ذلك وغيروا أوصافه وكذّبوا به، وهكذا..

"**فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويُسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار))**[٤].

وقوله تعالى: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] **يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا كما جاء في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-:**

---

[٤] - أخرجه أبو داود في كتاب العلم - باب كراهية منع العلم (٣٦٦٠) (ج ٣ / ص ٣٦٠) والترمذي في كتاب العلم - باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩) (ج ٥ / ص ٢٩) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦٤) (ج ١ / ص ٩٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٢٣).

((من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة))(٥) **وفي الصحيح أيضاً: ((المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور))**(٦)".

هذه الآية: **{لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] هذا التفسير الذي قاله الحافظ ابن كثير: "**يعني بذلك المرائين المتكثرين**" يعني أنه حمل الآية على العموم، أي كل من وقع منه ذلك فهو ليس بناجٍ من العذاب، فهذه الآية على هذا الاعتبار لا تختص بأهل الكتاب الذين سئلوا عن شيء فكتموه ثم استحمدوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهم قد أعلموه وأخبروه بما سألهم عنه، وهذا التفسير مشى عليه جماعة من المفسرين غير الحافظ ابن كثير، وهو حملٌ للآية على ظاهرها وهو الأرجح، وقد قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا على اتباع السنة والإخلاص، يعني أنه حملها على العموم.

وقول ابن عباس في الآية مشهور وسيأتي أنها مختصة بأهل الكتاب وهذا الكلام ليس محل اتفاق بين السلف -رضي الله عنهم-، وتوجد أدلة تدل على خلاف ذلك.

"**وروى الإمام أحمد أن مروان قال: اذهب يا رافع –لبوابه- إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذَّبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}** [(١٨٧) سورة آل عمران] **وتلا ابن عباس: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} الآية** [(١٨٨) سورة آل عمران].

وقال ابن عباس: سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه، وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما".

نعم، الآن هذا تفسير من ابن عباس -رضي الله عنه- أنها نزلت في هؤلاء وليس هذا من قبيل سبب النزول، فهو من قبيل التفسير، فهذا فهم ابن عباس -رضي الله عنهما-.

وعلى كل حال الآية ظاهرها العموم، وأما قول مروان بأنه إن كان كذا وكذا فلنعذبن أجمعون، فهذا غير صحيح؛ لأن المؤمن الذي قد حقق الإيمان الواجب وصدق مع الله -عز وجل- لا يحب أن يحمد بما لم يفعل إطلاقاً، بل قد لا يحب أن يحمد بما فعل، لكن إن فرِح أو سرَّه أن يحمد بما فعل فهذا عاجل بشرى المؤمن ولا إشكال فيه، لكن الذي يحب أن يحمد، يعني أنه ولو لم يقع ذلك فهو يتمنى أن يقع فمثل هذا لا يتطلبه

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٠) (ج ٥ / ص ٢٢٤٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (ج ١ / ص ١٠٤) إلا هذه العبارة: **((من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة))** فقد تفرد بها مسلم.

[6] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح – باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة (٤٩٢١) (ج ٥ / ص ٢٠٠١) ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط (٢١٢٩) (ج ٣ / ص ١٦٨١).

المؤمن، ولا يفعل الخير ولا يقدم على الأعمال من أجل أن يحمد، وكذلك أن يحمد بما لم يفعل فهذا لا يرضى به إنسان يحترم نفسه ويصدق مع الله -عز وجل-، بل هو بالعكس يستاء من هذا، ولا يفعل هذا أو يرضى به إلا مُراءٍ، فالمقصود أن هذا الكلام لا ينطبق على الجميع كما قال مروان: ولنعذبن أجمعون،فهذا الكلام ليس بصحيح في معناه، والمقصود أن الآية ظاهرها العموم ولا يوجد دليل على تخصيصها، ولو فرضنا أن هذا سبب النزول فإذا كان هذا التوعد واقعاً لبني إسرائيل فهو في حق هذه الأمة أشد؛ إذ ما الذي يجعل هذه الأمة بمنجاة ومنأى من هذا؟، فعلى قدر المقام يكون الملام، فإذا كان هذا الوصف من الأوصاف الذميمة، والله -عز وجل- توعد من وقع فيه من بني إسرائيل -لو فرضنا أنها في بني إسرائيل- فإن ذلك يكون لهم ويكون لغيرهم فالله حكم عدل لا يظلم الناس شيئاً، فإذا كانت هذه الأمة أشرف من بني إسرائيل ووقع ذلك لبني إسرائيل ولحقهم ذلك الوعيد، فإن ذلك يكون أوجب في هذه الأمة، والله أعلم.

ولذلك فالرواية التي في البخاري ومسلم تدل على أن ذلك على عمومه، مع أن هذه الآية اشتهر فيها قول ابن عباس -رضي الله عنهما- أنها خاصة في أهل الكتاب، وبناء عليه يركن الإنسان إلى أنه لا حرج عليه إذا أحب أن يحمد بما لم يفعل، فهذا الكلام غير صحيح.

"وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان إذا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} الآية [(١٨٨) سورة آل عمران] وكذا رواه مسلم بنحوه[٧]".

هذا سبب نزول صريح ويدل على أن الآية على العموم، ولكن يؤخذ منه أن الذي أتوه ليس هو العمل الصالح وإنما هو مخالفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومعصية الله -عز وجل- وقعودهم عن الجهاد معه -صلى الله عليه وسلم- أي أنهم يفرحون بما أتوا من التخلف عن الغزو مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وعلى كل حال من فرح بالمعصية وأحب أن يحمد بما لم يفعل فلا شك أن هذا ليس من أوصاف أهل النجاة، وأما فرح الإنسان بما فعل من الأعمال الطيبة الصالحة، فهذا أمر لا إشكال فيه، ولكن الله -عز وجل- ذكر هنا أمرين اثنين، هما: أنهم يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فإذا جعلنا قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] على عمومها وقلنا: بما أتوا من العمل الصالح مثلاً، {وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] بمعنى أنه يكون متكثراً بهذا إضافة إلى أعماله فإن اجتماع هذا إلى هذا أمر لا يليق ولا يحسن ولا يجمل بالمؤمن.

وأما إذا قلنا: بأن {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] يعني من المخالفة، {وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] بمعنى أنهم لا يعملون الصالحات ويفرحون بمخالفاتهم ويحبون أن يحمدوا بشيء لم يفعلوه، فبهذا الاعتبار تكون قد اتضحت المسألة.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٩١) (ج ٤ / ص ١٦٦٤) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٧) (ج ٤ / ص ٢١٤٢).

"وقوله تعالى: {فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ} [(١٨٨) سورة آل عمران] **يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب".**

قوله: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ} قرئت بالتاء وقرئت بالياء (لا يحسبن)، فعلى الأولى يكون الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي يكون أيضاً متوجهاً إلى الأمة، وعلى القراءة الثانية: (لا يحسبن) يكون المعنى لا يظن هؤلاء الذين وقعوا في هذا الفعل القبيح أنهم بمنجاة من عذاب الله -عز وجل-.

"أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لابد لهم منه، ولهذا قال تعالى: {ولهم عذاب أليم}".

إذاً سبب نزول قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] يدل على أنه بما أتوا من المعصية، وهذا هو الذي فسره ابن القيم بقوله: يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من السنة.. الخ.

وإذا فسر قوله: {{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] بأنه من العمل الطيب فإن هذا لا يشكل؛ لأنه مرتبط بما بعده أي بقوله: {وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران]، هذا وهذا، لكن المعنى الأول أقرب، أي بما أتوا من المخالفة والمعصية والقعود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويرجح هذا سببُ النزول، والأمر الثاني: أن من كانت هذه صفتهم من المرائيين أو المنافقين أو اليهود، فهم لا يفرحون بالعمل الطيب الصالح وإنما همهم ثناء الناس وإطراؤهم.

"ثم قال تعالى: {وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٨٩) سورة آل عمران] **أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، والقدير الذي لا أقدر منه.**

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ* رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٠-١٩٤) سورة آل عمران].

يقول الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات وثوابت، وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات، وزروع وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والروائح والطعوم والخواص.

{وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع بين المعنيين، فبعض أهل العلم يقول: اختلاف الليل والنهار يعني التعاقب، هذا يأتي بعد هذا، وبعضهم يقول: هو ما يحصل من الطول والقصر، فالليل يأخذ من النهار كما هو الحال في الشتاء، والنهار يأخذ من الليل كما هو في الصيف، فكل ذلك -والله أعلم- داخل في قوله: {وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} فابن كثير –رحمه الله- جمع بين المعنيين.

"وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال تعالى: {لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} [(١٩٠) سورة آل عمران] أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ* وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٥-١٠٦) سورة يوسف].

ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [(١٩١) سورة آل عمران] كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب))[8] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم".

بعض أهل العلم يخصص هذا بالصلاة ويحتج عليه بهذا الحديث، لكن المعنى أعم من هذا، وقد يكون ما ذكروه إنما هو من قبيل التفسير بالمثال، وإلا فإن الآية أعم من هذا والله -عز وجل- يقول: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [(١٠٣) سورة النساء].

فالحاصل أن الله -عز وجل- ذكر هذه الأحوال في الذكر، وذلك أن الذكر لا يكلف شيئاً ولا يحتاج إلى أن يكون في حال معينة من قيام أو قعود أو استقبال للقبلة أو نحو هذا، وإنما يذكر الإنسان ربه –تبارك وتعالى- في كل الحالات ولهذا لا يكاد يُذكر الذكر في القرآن حينما يؤمر به أو يثنى على أهله إلا مقروناً بالكثرة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [(٤١-٤٢) سورة الأحزاب] وقال تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [(٣٥) سورة الأحزاب] فالذكر ليس كالصلاة أو الصيام أو الحج أو نحو هذا وإنما هو شيء لا يتطلب كلفة زائدة، فالإنسان على فراشه يذكر الله -عز وجل- وكذلك يذكره وهو يمشي وهكذا في كل الأحوال.

"{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٩١) سورة آل عمران] أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه واختياره ورحمته.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ* وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٥-١٠٦) سورة يوسف].

ومدح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} [(١٩١) سورة آل عمران] أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق".

قوله تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(١٩١) سورة آل عمران] الإشارة في قوله: {مَا خَلَقْتَ هَذا} هي إشارة للقريب -والأقرب والله أعلم- أن المقصود بها ما خلقت هذا الخلق، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير هنا، قال: "**أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً** "، واختار هذا المعنى ابن جرير -رحمه الله- واحتج له بالدعاء بعده، {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ

8 - أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة - باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (١٠٦٦) (ج ١ / ص ٣٧٦).

{النَّارِ} [(١٩١) سورة آل عمران] أي: سبحانك أن تكون قد خلقت هذا الخلق من غير حكمة، وإنما خلقتهم لحكمة عظيمة، فتجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إذا وافوا يوم القيامة، فالله خلقهم لأمر عظيم.

وقوله هنا في نفي الخلق أن يكون باطلاً: {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} نفي الباطلية كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أوغل في بيان المعنى المقصود والدلالة عليه وذلك أن هذا الخلق لحكمة عظيمة، فبيان هذه الحِكَم كما هي أمر يطول؛ لأن بيان الحكمة كلها أمر يطول وصفه وبيان البعض من الحكم قد تقف عنده الأذهان وتقتصر عليه وتغيب عما سواه وتتوهم أن تلك هي الحكمة فحسب، لكن حينما يقال: {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} فنفي الباطلية يدل على أنه خلق لمعنىً عظيم، والله أعلم..

"أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزهوه عن العبث".

أي كما في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [(٢٧) سورة ص] فهم الذين يظنون أن الله -تبارك وتعالى- خلقهما عبثاً وباطلاً.

"فقالوا: {سُبْحَانَكَ} أي: عن أن تخلق شيئاً باطلاً، {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث قنا من عذاب النار بحولك وقوتك، وقيِّضنا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(١٩٢) سورة آل عمران]".

الخزي: بمعنى الإذلال والإهانة والفضيحة؛ لأن من عُذب فقد لحقه الخزي وافتضح وأذل وأهين.

"{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(١٩٢) سورة آل عمران] أي: يوم القيامة لا مجير لهم منك ولا محيد لهم عما أردت بهم.

{رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ} أي: داعياً يدعو إلى الإيمان وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} أي: يقول: آمنوا بربكم {فَآمَنَّا} أي فاستجبنا له واتبعناه، {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي: بإيماننا وإتباعنا نبيك، {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي: استرها {وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} فيما بيننا وبينك {وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ} [(١٩٣) سورة آل عمران]".

ذكر الغَفْر وذكر التكفير للسيئات، فمن يقول بالترادف يكون {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} معناه واحد، وعلى قول من يفرق بين الغَفْر والتكفير يكون معنى: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي استرها وقنا شؤمها، ويكون {وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} معناه المحو والإزالة أي امحها عنا.

وبالنسبة للذنوب والسيئات من يقول بالترادف يقول: هو شيء واحد، وبعضهم يفرق بين هذا وهذا، إما بأن يجعل البعض من الصغائر والآخر من الكبائر، أو أن البعض يتعلق بحقوق الخلق والآخر بحقوق الله -عز وجل- أو نحو ذلك، فالحاصل أن الذنوب هي المعاصي، والسيئات هي المعاصي، ولكن لفظة السيئة تدل على معنىً وهو أن ذلك يسوء صاحبه، فإذا نظر إليه في ديوان عمله فإن ذلك مما يسوءه أو لوصفها بأنها سيئة مقابل الحسنة فهي موصوفة بذلك.

"{وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ} [(١٩٣) سورة آل عمران] أي: **ألحقنا بالصالحين**".

ألحقنا بالصالحين معناه اقبضنا في عداد الأبرار واحشرنا محشرهم، فقوله: {وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ} أي توفنا في عدادهم، واحشرنا محشرهم، كما يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ} [(١٩٤) سورة آل عمران] **قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على ألسنة رسلك، وهذا أظهر**".

{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ} أي على الإيمان بهم أو على ما ورد على ألسنتهم من الوعد بالجزاء، هذا معنى {مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ} [(١٩٤) سورة آل عمران] والراجح المتبادر الذي رجحه هنا ابن كثير، وهو اختيار جماعة من المحققين كابن جرير وابن القيم، أي ما وعدتنا على ألسنة رسلك، مع أن المعنى الأول تحتمله الآية، وبعضهم يقول غير هذا لكنها معانٍ بعيدة.

"{وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٩٤) سورة آل عمران] أي: **على رءوس الخلائق**".

أي لا تهتك سترنا ولا تفضحنا، ومن هُتك ستره وفضح فقد عذب، ومن عذب فقد افتضح.

"{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} أي: **لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك**".

يلاحظ هنا أن المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- {لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} يعني البعث والقيامة، لكن الذي يظهر -والله أعلم- وما يدل عليه ظاهر القرآن {إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} أي: المذكور قبله، وهو أنهم سألوا ربهم أن يوفي لهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وذلك من الجزاء الحسن والثواب، فيقولون: {إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٤) سورة آل عمران] لكن يَحمِل بعضَ أهل العلم كالحافظ ابن كثير وجماعة ممن فسروا بمثل هذا على هذا التفسير أنهم ربما استشكلوا قولهم: {إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٤) سورة آل عمران] كيف يقولون هذا في مقام الدعاء والله -عز وجل- لا يخلف وعده، ويوفي أهل الإحسان بالثواب، فكيف يقولون نسألك الثواب الذي وعدتنا على ألسنة الرسل: {إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٤) سورة آل عمران]؟، فكأنهم رأوا أن هذا أمر غير لائق وغير مستحسن ولا يُظن أن أهل الإيمان يقولون مثل هذا، والمعنى لا إشكال فيه، {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٤) سورة آل عمران] فهم يستعينون بالله -عز وجل- ويطلبونه الثواب وإنجاز ما وعدهم؛ لأن ذلك يتوقف على تحقق الشروط وانتفاء الموانع من الإخلاص والمتابعة وما أشبه ذلك من شروط العمل الصالح، أي أن يكون على عقيدة صحيحة ويرتفع عنه أسباب الحبوط من العجب وإتباع الصدقات بالمنِّ والأذى وما أشبه هذا مما تحبط به الأعمال فيكون ذلك مضمناً لهذا المعنى كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فتكون الآية متضمنة لسؤاله -تبارك وتعالى- التوفيق للعمل الصالح الذي يرضاه الله -عز وجل- ويتقبله، فهو ثناء على الله لكن الإشكال عند بعض المفسرين هو كما ذكرت، وهو كيف أنهم في مقام الدعاء يقولون: أثبنا وجازنا على أعمالنا الصالحة إنك لا تخلف الميعاد؟.

"وقد ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: بتُّ عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر

قعد فنظر إلى السماء فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح، وكذا رواه مسلم[9].

وروى ابن مردويه عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- وعبيد بن عمير إلى عائشة -رضي الله تعالى عنها- فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زر غباً تزدد حباً، فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلة حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ((ذريني أتعبد لربي عز وجل)) قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبَّد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: ((ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ في هذه الليلة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} ثم قال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها))[10]".

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (١٦٦٥) (ج ٤ / ص ١٦٦٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣) (ج ١ / ص ٥٢٥).

[10] - أخرجه ابن حبان (٦٢٠) (ج ٢ / ص ٣٨٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [(١٩٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} أي: فأجابهم.

روى سعيد بن منصور عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال: قالت أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} إلى آخر الآية، وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا، وقد رواه الحاكم في مستدركه ثم قال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه[1].

وقوله تعالى: {أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} هذا تفسير للإجابة، أي: قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى.

وقوله: {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي: جميعكم في ثوابي سواء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وأما بعد:

فقوله: **{بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}** أي: **جميعكم في ثوابي سواء"** أي أن رجالكم ونساءكم سواء، لا فرق بينهم في الطاعة إلا ما دل عليه الدليل والثواب الذي يعطيه الله -عز وجل- للعاملين، فالرجال كالنساء جزاؤهم واحد، والنساء كالرجال، هكذا فسره جماعة من أهل العلم، وابن جرير -رحمه الله- ذكر نحوه، حيث قال: **{بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}** أي: في الملة والنصرة والدين، وحكم جميعكم وما أنا فاعل بكم من الثواب فأنتم فيه سواء، لا فرق بين الرجال والنساء، فالمرأة ليس لها نصف الأجر إذا عملت عملاً صالحاً وإنما هي كالرجل، والله -عز وجل-

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول -الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة النساء (٣٠٢٣) (ج ٥ / ص ٢٣٧) وهو في تفسير سعيد بن منصور (ج ١ / ص ٨١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٢٣).

وعد من أحسن عملاً أن يوفى له أجره بغير حساب، فهذا معنى {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي أنه لا يضيع عمل عامل منهم ذكراً كان أو أنثى.

"{فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ} **أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان**".

هذا المعنى المشهور في الهجرة، وإلا فالهجرة أوسع من هذا، فالهجرة إلى الحبشة لم تكن من قبيل الانتقال من دار الشرك إلى دار الإسلام بل كانت انتقالاً من دار شرك إلى دار شرك آخر، لكن الهجرة الشرعية هي انتقال المؤمن إلى المكان الذي يأمن فيه بحيث يستطيع أن يعبد ربه من غير خوف ولا مضايقة، هذه هي الهجرة الشرعية، وقد تكون إلى بلاد الشرك وقد تكون إلى بلاد الإسلام.

"**أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران.** {وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ} **أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجئوهم إلى الخروج من بين أظهرهم**".

هذا التفسير الذي ذكره يبيّن حقيقة الواقع؛ لأن المشركين ما أخذوهم وأخرجوهم من بلدهم، وإنما ضيَّقوا عليهم فاضطروهم إلى الخروج فكان ذلك من قبيل الإخراج؛ لأنهم تسببوا فيه، كما قال الله -عز وجل-: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [(١٣) سورة محمد] مع أن المشركين بذلوا ما يستطيعون في حصار النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانوا يتخوفون خروجه، لكن لما كانوا متسببين بذلك لمضايقتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولأصحابه صح أن يقال: إنهم أخرجوهم.

"**ولهذا قال:** {وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي} [(١٩٥) سورة آل عمران] **أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى:** {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [(١) سورة الممتحنة] **وقال تعالى:** {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [(٨) سورة البروج]. **وقوله تعالى:** {وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ} [(١٩٥) سورة آل عمران] **هذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه**".

وفي القراءة الأخرى -قراءة أبي عامر وابن كثير-: (وقاتلوا وقُتِّلوا) وهي تدل على التكثير، فزيادة المبنى لزيادة المعنى، وفي قراءة حمزة والكسائي: (وقُتلوا وقاتلوا) والواو لا تدل على الترتيب وإنما تدل على مطلق الجمع، فلا يشكل المعنى على هذه القراءة كما قال الشاعر:

فإن تقتلونا عند حرة واقم ... فلسنا على الإسلام أول من قتل

هو حي ويتكلم ويقول: تقتلونا، وهو لم يقتل وإنما المقصود أن بعضهم قد وقع عليه القتل، فقد يطلق ذلك على وقوعه على البعض، وقد يطلق ذلك على قتل الكل، فالمقصود أن الواو لا تقتضي الترتيب.

"وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أيكفِّر الله عني خطاياي؟ قال: ((نعم)) ثم قال: ((كيف قلت؟)) فأعاد عليه ما قال، فقال: ((نعم إلا الديْن، قاله لي جبريل آنفاً))[2] ولهذا قال تعالى: {لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أي: تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماءٍ غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: {ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً".

{ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ} أي لأُثيبنهم ثواباً كائناً من عند الله، والثواب هنا مصدر مؤكِّد.

"وقوله تعالى: {وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً.

{لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٦-١٩٨) سورة آل عمران].

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمدّ لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد.

وهذه الآية كقوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [(٤) سورة غافر]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٦٩-٧٠) سورة يونس] وقال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٤) سورة لقمان] وقال تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [(١٧) سورة الطارق] أي قليلاً، وقال تعالى: {أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [(٦١) سورة القصص] وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] أي: ضيافة من عند الله {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٨) سورة آل عمران].

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين (١٨٨٥) (ج ٣ / ص ١٥٠١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] ويقول: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران][3]".

قول أبي الدرداء هذا يخالفه حديث النبي –عليه الصلاة والسلام- لما سئل عن خير الناس فقال: ((من طال عمره وحسن عمله))[4]، وقوله أيضاً: ((لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب))[5] أي لعله أن يتوب ويراجع، أما إن مات ولم يتب بعد طول العمر فلا شك أن هذا أكثر لذنوبه وجرائمه وأشد لحسابه.

وفي قوله: {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] هذا جاء موضحاً في كتاب الله -عز وجل-، في آيات كثيرة كقوله: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [(٢٢) سورة المطففين] وكقوله: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} [(٥) سورة الإنسان] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على نعيمهم وما أعطاهم الله -عز وجل- وحباهم به.

وقوله: {نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] يقال فيه كما قيل في قوله: {ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أي أن النُّزل مصدر مؤكد، والنزل في الأصل هو المكان المهيأ المعدُّ للضيف.

"{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٩٩-٢٠٠) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان وبما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه.

{لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقد قال تعالى في سورة القصص: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} الآية [(٥٢-٥٤) سورة القصص]، وقد قال

---

[3] - تفسير الطبري (ج ٧ / ص ٤٩٦).

4 - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (٢٣٢٩) (ج ٤ / ص ٥٦٥) وأحمد (١٧٧١٦) (ج ٤ / ص ١٨٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٣٢٩).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب المرضى - باب نهي تمني المريض الموت (٥٣٤٩) (ج ٥ / ص ٢١٤٧).

تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] وقد قال تعالى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [(١٥٩) سورة الأعراف] وقال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [(١١٣) سورة آل عمران] وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً* وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [(١٠٧-١٠٩) سورة الإسراء].

وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً، كما وجد في عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} [(٨٢) سورة المائدة] إلى قوله تعالى: {فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} الآية [(٨٥) سورة المائدة]، وهكذا قال هاهنا: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران].

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- لما قرأ سورة {كهيعص} [سورة مريم] بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم[٦].

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أصحابه وقال: ((إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه)) فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه[٧].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [(١٩٩) سورة آل عمران] يعني مسلمة أهل الكتاب، وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد -صلى الله عليه وسلم- فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد -صلى الله عليه وسلم- وبالذي اتبعوا محمداً -صلى الله عليه وسلم- [رواهما ابن أبي حاتم].

---

6 - أخرجه أحمد (١٧٤٠) (ج ١ / ص ٢٠١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن

7 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب موت النجاشي (٣٦٦٤) (ج ٣ / ص ١٤٠٧) ومسلم في كتاب الجنائز - باب في التكبير على الجنازة (٩٥٣) (ج ٢/ ص ٦٥٧).

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين)) فذكر منهم: ((ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي))[8].

وقوله تعالى: {لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} [(١٩٩) سورة آل عمران] **أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً، ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [(١٩٩) سورة آل عمران] **قال مجاهد: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} يعني سريع الإحصاء** [رواه ابن أبي حاتم وغيره]".

هذه الآيات كلها في من آمن من أهل الكتاب وأما من لم يؤمن منهم فقد ذمه الله -عز وجل- غاية الذم في القرآن، وهذا كثير، ولا يجوز لأحد بحال من الأحوال أن يظن أن اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- بمفازة من العذاب وأنهم ينجون عند الله -تبارك وتعالى- بل هم من حطب جهنم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[9] ومن شك في كفر هؤلاء اليهود والنصارى فهو كافر مثلهم يحشر محشرهم، فلا ينبغي أن يتردد في هذا أحد، فقد بلغ الأمر ببعض أهل الهوى أو الجهل ممن ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون: لا نكفِّر هؤلاء فهؤلاء مؤمنون لا يجوز لأحد أن يحكم لهم بالنار أو أن يطعن فيهم أو ما أشبه ذلك، فكلهم يجمعنا ويجمعهم الإيمان، فكل من آمن بالله -عز وجل- فإن مصيره إلى الجنة، ويحتج ببعض الآيات المشتبهات التي أثنى الله -عز وجل- فيها على طوائف من أهل الكتاب، مع أن المقصود بها من آمن منهم، فيحتجون بمثل قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [(٦٢) سورة البقرة] وأمثال ذلك، وسبق الكلام على آية البقرة.

على كل حال فقوله تعالى: **{لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً}** [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، وهذا على كل حال تفسير بالنتيجة فهم يكتمون ذلك، لكن لماذا يكتمونه؟ إذا فسرنا على اللفظ فإنهم يكتمونه لما يستعيضون بذلك من الثمن القليل، وهو ما يأخذونه من الرشا أو ما ينالونه من هؤلاء الأتباع من الرئاسات ومن الأموال، إلى غير ذلك

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل من أسلم من أهل الكتابين (٢٨٤٩) (ج ٣ / ص ١٠٩٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٤) (ج ١ / ص ١٣٤).

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

مما يقدمونه لهم، كما هو معروف حينما كانت الكنيسة تهيمن على حياة الناس فقد كان عندهم ما يعرف بالسخرة، يأتي الإنسان ويتبرع بيوم يعمل في الإقطاعات التابعة للكنيسة، فيعمل بها الناس مجاناً تديناً وتقرباً إلى الله -عز وجل- فتصور الملايين! كل واحد منهم يشتغل يوماً مجاناً، أضف إلى ذلك ما يحصلونه من الرئاسات، وما يحصلونه من الرشا، فيكتمون، فيكونون قد استعاضوا بثمن قليل كما قال المعلمي -رحمه الله- في أسباب الضلال وتعلق ذلك بالهوى، يقول: ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، فيكون ذلك سبباً لإصراره على الباطل، فمثل هؤلاء يكون لهم في الباطل شهرة ومعيشة ورئاسة تحملهم على البقاء؛ لأنهم لو أسلموا سيكونون من آحاد الناس.

قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: يعني سريع الإحصاء، وهذا أيضاً باعتبار النتيجة، وإلا فإن معنى سريع الحساب يمكن أن يقال: أي لا يحتاج إلى عدّ كما يحتاجه البشر، فالله -عز وجل- علمه محيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية فهو سريع الحساب يحاسب خلقه جميعاً كما يحاسب واحداً منهم، فكثرتهم لا تحتاج إلى عد وإحصاء بحيث يحتاج ذلك إلى وقت طويل، فالله سريع الحساب، وهذا المعنى موافق للمعنى الذي ذكره ابن كثير، لكن ابن كثير -رحمه الله- عبر بالنتيجة.

وتحتمل الآية معنىً آخر وهو {إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(١٩٩) سورة آل عمران] يعني الجزاء والأخذ وما أشبه ذلك، فالله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئاً كما يحصل من المخلوقين من المطل وما أشبه ذلك في أداء الحقوق، والمعنى الأول هو الأقرب وهو المتبادر، أي أنه لا يشغله محاسبة أحد عن محاسبة الآخر أو نحو ذلك وبالتالي لا يحصل إبطاء بسبب كثرة الخلق ولا يحتاج إلى عد ولا إحصاء.

"**وقوله تعالى**: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ} [(٢٠٠) **سورة آل عمران**]، **قال الحسن البصري -رحمه الله-: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام**".

هنا ذكر ثلاثة أشياء: {اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ} هذه ثلاث مراتب، وهذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الصبر حالة الصابر في نفسه والمصابرة هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ لأنها مفاعلة والأصل في المفاعلة غالباً أن تكون بين طرفين فأكثر، والمرابطة أصلها اللزوم والثبات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر انتظار الصلاة إلى الصلاة قال: ((فذلكم الرباط فذلكم الرباط))[١٠] فأصل الرباط إذن هو اللزوم والثبات، فاللزوم والثبات على الطاعة أوسع معانيها، وتطلق على معنىً أخص وهو

---

[10] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) (ج ١ / ص ٢١٩).

ملازمة الثغور في نحر العدو، والمقصود بالثغور هي الأطراف التي يتخوف العدو من ناحيتها، وهي التي ورد فيها الأحاديث في فضل الرباط كقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها))[11] وما أشبه ذلك من الأدلة الواردة في الحث على هذا، والرباط هو أكمل صور الصبر وحالاته، وملاك هذه الأمور جميعاً -الصبر والمصابرة والمرابطة- هو تقوى الله -عز وجل- ولهذا قال بعده: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران]؛ لأن الإنسان قد يصبر ولا يتقي وقد يصابر ولا يتقي وقد يرابط ولا يتقي فيكون ذلك نقصاً في مرتبته عند الله -عز وجل- وقد يذهب أجره، وحقيقة هذه التقوى يمكن أن يقال: هي المرابطة التي قال عنها ابن القيم –رحمه الله-: هي لزوم ثغر القلب وحراسته؛ لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلي مكانها فيصادف العدو –أي الشيطان- والثغر خالياً فيدخل منها[12].

"**قال الحسن البصري -رحمه الله-: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام فلا يدَعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، ويصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذا قال غير واحد من علماء السلف**".

أي يصبروا على أمر الله -عز وجل- ويصبروا عن معصيته، ويصابروا أعداء الله -تبارك وتعالى- وهذا هو الذي قال به كثير من المفسرين وهو اختيار ابن جرير في تفسير هذه الآية، وما ذكرته عن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- موافق لهذا أيضاً.

"**وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة**".

تفسير المرابطة بالمداومة على الطاعة هذا تفسير لها بأعم معانيها، وتفسيرها بانتظار الصلاة إلى الصلاة، يكون من قبيل التفسير بالمثال، وإلا فالمعنى أوسع من ذلك، وتكون المرابطة بلزوم العبادة، وأولى ما يدخل فيها وهو المعنى الذي يتبادر أولاً هو لزوم الثغور في نحر العدو.

"**وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس وسهل بن حنيف -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب القرضي وغيرهم.**

وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا**

---

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

[12] - كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم (ص ٦٦).

ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط))(١٣)".

هذا الحديث مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب))(١٤) فهذا تفسير للمجاهدة بمعنىً يدخل فيها، والهجرة بمعنىً يدخل فيها، بمعنى هجرة القلب إلى الله -عز وجل- بترك الذنوب والمعاصي، ولكن المعنى الذي يتبادر عند إطلاق الهجرة -وهو أكمل صورها وحالاتها- هو الانتقال من الأوطان والعشائر إلى الله -عز وجل- أو في سبيل الله، حيث يأمن الإنسان على دينه.

"**وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا، مرابطة الغزو في نحور العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين**".

هذا كما قلت: هو المتبادر، لكن الذين قالوا: إنه ملازمة طاعة الله -عز وجل- أو انتظار الصلاة إلى الصلاة، يمكن أن يوجه قولهم هذا باعتبار أن هذه الآية- **{اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ}** [(٢٠٠) سورة آل عمران]- حينما نزلت لم يكن هناك رباط في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن قبض، فمثل هذا هو الذي حمل هؤلاء على القول بأن الرباط ملازمة طاعة الله -عز وجل- أو انتظار الصلاة إلى الصلاة، وهذا إن لم يقصدوا بذلك التفسير بالمثال، وفي أقل التقديرات -والله أعلم- أن بعضهم على الأقل قصد هذا المعنى، بعضهم أراد أن يذكر أعمَّ المعاني أو أن يذكر شيئاً مما يدخل فيه لينبه عليه، لكن بعضهم قصد هذا المعنى لهذا السبب، وهو أنه لم يوجد رباط على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا إشكال فيه؛ لأن هذه الشريعة عامة والله -عز وجل- شرَّعها لتكون ديناً للناس في كل زمان ومكان، فكان الرباط بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولذلك فالأحاديث الواردة في هذا كحديث: ((رباط يوم في سبيل الله..))(١٥) تحمل على ملازمة الثغور مع أنه لم يكن موجوداً في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا إن قُصد بذلك حالات عارضة يسيرة كأن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- في ناحية أو نحو ذلك، فيرسل بعض من يرصد العدو أو يقف في ناحيته أو نحو ذلك فيكون مرابطاً بهذا الاعتبار مرابطة جزئية وقتية، لكن الرباط المعروف يكون بتناوب الناس على مكان المرابطة بحيث يأتون إليه من أماكن كثيرة ويلازمونه السنوات، وهذا لم يكن موجوداً في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

13 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) (ج ١ / ص ٢١٩).

14 - أخرجه أحمد (٢٤٠٠٤) (ج ٦ / ص ٢١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٤٩).

15 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

"وقد وردت الأخبار في الترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها))[١٦].

وروى مسلم عن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه وأمن الفتَّان))[١٧].

روى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر))[١٨] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً.

وروى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله))[١٩].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعِس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفَّع))[٢٠].

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما- يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران].

---

16 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

17 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل (١٩١٣) (ج ٣ / ص ١٥٢٠)

18 - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في فضل الرباط (٢٥٠٢) (ج ٢ / ص ٣١٧) والترمذي في كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً (١٦٢١) (ج ٤ / ص ١٦٥) وأحمد (٢٣٩٩٦) (ج ٦ / ص ٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٢١٨).

19 - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله (١٦٣٩) (ج ٤ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٢٩)

20 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٥٧).

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	**لعلمت أنك في العبادة تلعب**
من كان يخضب خده بدموعه	**فنحورنا بدمائنا تتخضب**
أو كان يتعب خيله في باطل	**فخيولنا يوم الصبيحة تتعب**
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	**رَهَجُ السنابك والغبار الأطيب**

الرهج يعني الغبار، والسنابك هي أطراف حوافر الخيل.

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	**رَهَجُ السنابك والغبار الأطيب**
ولقد أتانا من مقال نبينا	**قول صحيح صادق لا يكذب**
لا يستوي وغبار خيل الله في	**أنف امرئ ودخان نار تلهب**
هذا كتاب الله ينطق بيننا	**ليس الشهيد بميت لا يُكذب**

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا.

وأملى عليَّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: ((هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟)) فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فوالذي نفسي بيده، لو طوِّقْت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أوَ ما علمت أن فرس المجاهد ليُستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات))[٢١]".

قوله: **((يُستن في طوله))** يعني الفرس يربط بوتد مثلاً وفيه حبل طويل فينطلق هذا الفرس، فمشيه هذا أو انطلاقه كل ذلك يكتب للمجاهد وهو ربما يكون نائماً!

[21] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب فضل الجهاد والسير (٢٦٣٣) (ج ٣ / ص ١٠٢٦) وأحمد (٨٥٢١) (ج ٢ / ص ٣٤٤).

"وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] أي: في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ -رضي الله تعالى عنه- حين بعثه إلى اليمن: ((اتق الله حيثما كنت، وأتْبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))[٢٢].

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] أي: في الدنيا والآخرة.

وروى ابن جرير عن محمد بن كعب القرضي أنه كان يقول في قول الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

انتهى تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنَّة، نسأله الموت على الكتاب والسنة، آمين".

---

[22] - أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة – باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) (ج ٤ / ص ٣٥٥) وأحمد (٢١٣٩٢) (ج ٥ / ص ١٥٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

سورة النساء

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت سورة النساء بالمدينة، وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم-، وروى الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...} [(٤٠) سورة النساء] الآية، وقوله: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...} [(٣١) سورة النساء] الآية، وقوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء...} [(٤٨) سورة النساء]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ..} [(٦٤) سورة النساء] الآية. وفي رواية وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(١١٠) سورة النساء]، ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه -رضي الله تعالى عنه- فقد اختلف في ذلك.

وروى الحاكم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: سلوني عن سورة النساء فإني قرأت القرآن وأنا صغير، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

بسم الله الرحمن الرحيم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [(١) سورة النساء]، يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم -عليه السلام-، {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته فأنس إليها وأنست إليه، وفي الحديث الصحيح: ((إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج))[(١)].

وقوله: {وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء} أي: وذرأ منهما، أي: من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم، وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر، ثم قال تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}: أي واتقوا الله بطاعتكم إياه.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] برقم (٣١٥٣) (١٢١٢/٣)، ومسلم في كتاب الرضاع – باب الوصية بالنساء برقم (١٤٦٨) (١٠٩٠/٢).

قال إبراهيم ومجاهد والحسن: {الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ} أي: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم، وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، والضحاك، والربيع وغير واحد، وقرأ بعضهم {وَالأَرْحَامِ} بالخفض على العطف على الضمير في به، أي تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ} بالنصب على نزع الخافض هي قراءة الجمهور، ولها معنيان:

المعنى الأول: أي كما يقال أسألك بالله وبالرحم، ومعلوم أنه لا يجوز السؤال بالأرحام، وإنما هذا نوع استحلاف جرى على ما كانوا يقولونه في الجاهلية، فنزل القرآن الكريم مذكراً ومنبهاً لهم.

المعنى الآخر: أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وقراء حمزة بالجر {وَالأَرْحَامِ} وهي قراءة متواترة، وحولها كلام كثير لأهل العربية وللمفسرين وأرباب القراءات، إذ استشكلوا عطف الأرحام على الضمير المجرور بالباء، على خلاف القاعدة النحوية أن الاسم الظاهر لا يعطف على الضمير، لكن إن ثبتت القراءة بذلك فإنه يوقف عندها ولا تحاكم إلى قواعد العربية، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: ولو كانت ألف قاعدة، فإنما تؤخذ قواعد العربية من الاستقراء، أي: استقراء القرآن وكلام العرب، فإذا جاءت قراءة ثابتة صحيحة عن إمام من أئمة القراءة فلا ينبغي العدول عنها لأي حجة، وأهل اللغة يثبتون وجود أمثلة على عطف الاسم الظاهر على الضمير من كلام العرب وأشعارهم، وهو إن لم يكن الأكثر والأشهر، إلا أنه ليس من شروط صحة القراءة الثلاثة وهي: نقلها بالتواتر، موافقتها لوجه من وجوه العربية ولو غير مشهور، وموافقتها للرسم العثماني.

والأقرب في تفسير قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ} أن يقال: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، والقراءتان إذا كان لكل واحدة معنىً يخصها، ولم توجد منافاة بينهما فإنهما تنزلان بمنزلة الآيتين. والله أعلم.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما قال: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [(٦) سورة المجادلة]**، وفي الحديث الصحيح: ((اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٢]، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين قدم عليه أولئك النفر من مضر، وهم مجتابوا النمار، أي: من عريهم وفقرهم، قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: (({يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ})) حتى ختم الآية، وقال: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**

---

[2] - رواه البخاري في كتاب الإيمان – باب سؤال جبريل النبي –صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة برقم (٥٠) (٢٧/١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى برقم (٨) (٣٦/١)، ولفظ البخاري ومسلم ((أن تعبد الله ...)).

وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [(١٨) سورة الحشر]))، **ثم حضهم على الصدقة فقال:** ((تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره))[3] **وذكر تمام الحديث، وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في خطبة الحاجة وفيها: ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها:** {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ} **الآية**[4].

{وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ * وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا} [(٢-٤) سورة النساء] **يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم.**

إنما سمى اليتيم يتيماً وقد بلغ الحلم، باعتبار ما كان وإلا فقد ارتفع عنه اليتم حينما بلغ، ولذلك لا يعطى ماله إلا بعد البلوغ والرشد، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- عن السحرة: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [(١٢٠) سورة الأعراف]، ومعلوم أنه ارتفع عنهم وصف السحر بعد توبتهم، وهذا التفسير مشى عليه ابن كثير –رحمه الله-، وجماعة من المحققين سلفاً وخلفاً، وممن قال بهذا ورجحه العلامة محمد بن الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه-.

وراعى بعض أهل العلم لفظ الآية، ورأى أن المقصود بقوله سبحانه: {وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} أي: ما يعطون منها في حال اليتم على سبيل النفقة بالمعروف، وهذا المعنى وإن كانت تحتمله الآية إلا أن المعنى الأول أقرب وهو المتبادر.

لكن إذا فسرت {وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} بالمعنى الأول فإنها مقيدة بالآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [(٦) سورة النساء] فيكون هذا العطاء الذي أمر الله به والدفع والإيتاء لليتيم مقيداً ببلوغه سن الرشد والتمييز، فلا يُعطَ ماله في حال صغره ولا مع سفه، والله أعلم.

ولهذا قال: {وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}**، وقال سعيد بن المسيب والزهري: لا تعط مهزولاً وتأخذ سميناً، وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً، وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم.**

وصْفُ الخبيث والطيب في الآية راجع إلى الجودة والرداءة في المال، فأما الطيب من الأموال فمعلوم ومعهود، وأما الخبيث فمقصوده في الآية هو المسترذل منها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كسب

---

[3] - رواه مسلم في كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار برقم (١٠١٧) (٧٠٤/٢).

[4] - رواه النسائي برقم (١٤٠٤) (١٠٤/٣)، وأحمد برقم (٣٧٢٠) (٣٩٢/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (١٤٠٤).

الحجام خبيث))[٥] أراد أنه من المكاسب المرذولة التي يترفع عنها أصحاب النفوس الكريمة، ولا تعلق للوصف بالحل والحرمة، ومال إلى هذا القول جماعة من السلف، وهو معنى تحتمله الآية.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن معنى قوله سبحانه: {وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ} أي: لا تتبدلوا الحلال من المكاسب بالحرام فتأخذوا ما يحرم عليكم أخذه وهو مال اليتيم، وتتأثلوا وتدعوا ما أحل الله لكم من المكاسب الطيبة من أموالكم، وهو أقرب ومتبادر إلى الذهن، اختاره كبير المفسرين ابن جرير، وقاله جماعة من السلف والخلف، والله أعلم بالصواب.

وقوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والسدي، وسفيان بن حسين: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً.

إذا كان المراد لا تخلط مال اليتيم بمالك، فيكون النهي متضمناً الضم؛ لأن الضم يتعدى بحرف الجر إلى، والمعنى أي مضمومة إلى أموالكم، وهذا مقتضى كلام ابن كثير، وقيل: بل النهي متضمن معنى الحرف، والمعنى لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم، فتكون إلى بمعنى مع، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، فلا يحل لولي اليتيم أن يخلط ماله بماله احتياطاً لمال اليتيم من الذهاب، وقد ثبت الوعيد الشديد من الرب -جل جلاله- في حق من تهاون بأموال اليتامى كما قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء]، ولذلك الصحابة بعد نزول هذه الآية كان أحدهم يعزل طعامه عن طعام اليتيم، وشرابه عن شرابه، ولباسه عن لباسه فشق ذلك عليهم، ثم أذن الله -عز وجل- ورخص لهم في المخالطة بقوله: {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ} [(٢٢٠) سورة البقرة] فأباح الله المخالطة لمال اليتيم بشرط الاحتياط له، لا أن يحتاط ولي اليتيم لنفسه ويتوسع في مال اليتيم على حسابه، ولذا قال بعده: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} أي: من قصده الإصلاح لمال اليتيم، ومن قصده إفساده وإتلافه وإضاعته.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية لو فسرت بمعنى المخالطة فإنها منسوخة بقوله: {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}، لكن الأرجح أن الآية محكمة، وإنما تلك الآية ترخص بمخالطتهم مع الاحتياط لأموالهم وحفظها لوجود المشقة، وهذا الآية تنهى عن مخالطتهم بنية أكل أموالهم وإتلافها وإضاعتها، ولسنا بحاجة إلى القول بالنسخ؛ عملاً بالقاعدة الأصولية: النسخ لا يثبت بالاحتمال، والله أعلم.

وقوله: {إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي إثماً كبيراً عظيماً، وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، وأبي سنان، مثل قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

ذكر أهل اللغة أكثر من سبعة معانٍ للحوب تفسر في كل موطن بحسب السياق، وما ذكره ابن كثير في معنى الحوب في الآية هو الذي يناسب السياق، والله أعلم.

---

[5] - رواه أبو داود برقم (٣٤٢٣) (٢٧٨/٣)، والترمذي برقم (١٢٧٥) (٥٧٤/٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم: (٥٣٨٨).

وقوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى} [(٣) سورة النساء] أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه.

الخوف في الآية قد يكون بمعنى العلم، والمراد إن خفتم أي علمتم، كما قال أبو محجن الثقفي موصياً ابنه:

إذا مت فادفني إلـــى جنـــب كرمـــة	تروي عظامي في الممات عروقهـــا
ولا تـــدفنني فـــي الفـــلاة فـــإنني	أخـــاف إذا مـــا مـــت ألا أذوقهـــا

فحُملت أخاف في البيت على العلم، والمعنى فإني أعلم إذا ....

وتأتي خاف بمعنى غلبة الظن، والمراد إن غلب على ظنكم أن لا تقسطوا مع اليتيمة فانكحوا من الزوجات غيرها، وأما مع اليقين فذلك من باب أولى، وهذا المعنى أقرب.

ولا اعتبار لمفهوم المخالفة في قوله سبحانه: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** بالإجماع، إذ المعنى على مفهوم المخالفة: إن لم تخافوا ألا تعدلوا مع اليتيمة فليس لكم أن تتزوجوا ما طاب لكم من النساء.

وأما وجه الارتباط بين الشرط والجزاء في الآية، فقد ذكر بعض أهل العلم أن أهل الجاهلية كانوا لا يتورعون من عدم توريث النساء، ولهم في ذلك أخبار من المظالم التي تقع عليها، فقد كان الرجل إذا مات ألقى الورثة على زوجته ثوباً، فلا تتزوج بعده ولا تتصرف بنفسها، إلى غير ذلك من المظالم المعروفة، فربط الله –عز وجل- بين الأمرين ليعلمهم أن تحرجهم المتقرر عندهم في مال اليتيم، لا بد أن يشمل النساء فيعدل ويقسط معهن، بأن تعطى نصيبها من الميراث؛ لأن ذلك لم يكن معتبراً عندهم في الجاهلية.

والأمر بقوله سبحانه: **{فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** مراده مما لا يقع معه الجور، كل بحسبه **{مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ}** فإن خشيتم ألا يحصل منكم عدل بالتعدد **{فَوَاحِدَةً}**، فإن خفتم أن لا تعدلوا حتى مع الواحدة فـــ**{مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}**؛ لأن ملك اليمين لا يجب القسم لهن كما هو معروف على قول عامة أهل العلم، وهذا المعنى رجحه جماعة من أهل العلم كابن جرير الطبري –رحمه الله-.

وقيل: المعنى: إنّ تخوفكم من التجني على اليتامى وتحرجكم وتورعكم في أموالهم علامة على أهليتكم للتعدد، وواضح أن الآية ما سيقت من أجل تقرير هذا المعنى.

وقال مجاهد في معنى قوله: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى}** أي: إن تحرجتم في ولاية اليتامى وأكل أموالهم، فتحرجوا كذلك من الزنا، ولكم في التعدد مندوحة فانكحوا "مثنى وثلاث ورباع"، وهذا قول بعيد جداً.

والأقرب ما ذكره ابن كثير بقوله: أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه، وهذا المعنى هو المتبادر؛ لأن سياق الآية يتحدث عن القسط في حق اليتامى، لا العدل في النساء، وهذا ما رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- والله أعلم.

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَذْق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ}، أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العَذْق وفي ماله[6].

يقول الحافظ ابن حجر في الفتح: هكذا قال هشام عن ابن جريج فأوهم أنها نزلت في شخص معين، والمعروف عن هشام بن عروة التعميم، وكذلك أخرجه الإسماعيلي من طريق حجاج بن محمد عن ابن جريج ولفظه: "أنزلت في الرجل يكون عنده اليتيمة ..."، وكذا هو عند المصنف في الرواية التي تلي هذه من طريق ابن شهاب عن عروة.

والعَذْق بالفتح: النخلة، والعِذْق بالكسر: هو القنو من الرطب أو التمر.

ثم روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن قول الله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى} قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثلما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سُنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن[7].

قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد هذه الآية فأنزل الله: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء} [(١٢٧) سورة النساء]**، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}** [(١٢٧) سورة النساء] **رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال.**

استشكل بعض أهل العلم كلام عائشة وقول الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}..."، إذ كيف قالت ذلك مع أن الآية واحدة؟ فبعض أهل العلم قال: مقصود عائشة -رضي الله عنها- من كلامها أنها طرف من الآية.

والذي رجحه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن هذه الرواية سقط منها شيء؛ لأنه جاء في إحدى الروايات عند مسلم والنسائي: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله -عز وجل-: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء} إلى قوله {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ...} [(١٢٧) سورة النساء]، قالت: والذي ذكر الله -تعالى- أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء} فهذه الآية تبين الإبهام الذي في الآية الأخرى، وهكذا يخرج الإشكال وبالتالي ينتفي.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى في سورة النحل: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ} [(١١٨) سورة النحل]، وأورد الله -عز وجل- ما قصه من التحريم على اليهود في سورة الأنعام بقوله: {وَعَلَى

---

[6] - رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة النساء برقم (٤٢٩٧) (١٦٦٨/٤).

[7] - رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة النساء برقم (٤٢٩٨) (١٦٦٨/٤).

الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام].

وفي الرواية شيء آخر نبه عليه الإسماعيلي وهو قوله: "فكان لها عَذْق فكان يمسكها عليه" فإن هذا نزل في التي يرغب عن نكاحها، وأما التي يرغب في نكاحها فهي التي يعجبه مالها وجمالها فلا يزوجها لغيره ويريد أن يتزوجها بدون صداق مثلها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا * إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا} [(٢٩-٣١) سورة النساء].

ينهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا.

حتى روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رَضيته أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً، قال: هو الذي قال الله -عز وجل-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة]**، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما أنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل أموالنا فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس؟ فأنزل الله بعد ذلك: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...}** [(٦١) سورة النـــور] **الآية، وكذا قال قتادة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمما يدخل في أكل أموال الناس بالباطل أنواع المكاسب المحرمة كالسرقة والرشى وأنواع الحيل وهي المعاملات المغلفة التي تأتي بصيغة شرعية ويراد بها التوصل إلى استحلال المحرم سواء كان ذلك في باب المعاملات أو في غيره، وأيضاً ما يؤخذ في مقابل الشفاعة، فقد ثبت في الحديث الذي حسنة بعض أهل العلم أن ذلك من أبواب الربا، وصورته: أن يتوسط لك في قضية معينة مقابل أن تدفع له خمسة آلاف، وما أشبه هذا من المكوس، وأيضاً ما ذكره الله -عز وجل- عن أهل الكتاب بقوله: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٤) سورة التوبة] وهذا صوره لا تتناهى، وأيضاً ما يأخذه أرباب الطوائف الضالة والنحل المنحرفة كالرافضة والصوفية من الناس المغرر بهم مقابل خرافات وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، فكل هذا من أكل أموال الناس بالباطل.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [(٢٩) سورة النساء] **قرئ تجارة بالرفع وبالنصب وهو استثناء منقطع.**

قرئت تجارة بالرفع على اعتبار "أن تكون" في الآية تامة بمعنى توجد، وبالنصب على اعتبار "أن تكون" ناقصة وتجارة خبر لتكون، وتقدير الكلام إلا أن تكون المعاملة تجارة، أو المعاطاة تجارة فلا حرج عليكم.

وأما الاستثناء في الآية فحكم عليه بأنه استثناء منقطع، لأن ما بعد إلا لم يكن من جنس ما قبلها؛ إذ التجارة عن التراضي ليست من أكل أموال الناس بالباطل، فالمعنى {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} لكن إن أخذتم المال عن طريق التجارة المشروعة بينكم فلا حرج، فإلا بمعنى لكن.

كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسببوا بها في تحصيل الأموال كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [(١٥١) سورة الأنعام].

هذا استثناء منقطع؛ لأن النهي منصب على قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أما إن كانت بحق فهو المستثنى من ذلك كقتل النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه والمفارق للجماعة، وأيضاً ما ورد في النصوص الأخرى التي يقتل فيها الإنسان إذا عمل عملاً معيناً، فهذا كله داخل في الحق كما قال سبحانه: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...} [(٦٨) سورة الفرقان] وقوله سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا...} [(٣٣) سورة الإسراء] فإذاً لم تعد تلك النفس محرمة، فهذا استثناء منقطع.

وأيضاً قوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [(٥٦) سورة الدخان] فهذا استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأنه أراد أنهم لا يذوقون في الجنة الموت، لكن الموتة الأولى التي في الدنيا قد ذاقوها.

وقوله سبحانه: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} قال مجاهد: بيع أو عطاء يعطيه أحد أحداً، واستدل العلماء -رحمهم الله- بهذه الآية على مسألة بيع المكره بغير حق كالمحجور عليه، وبيع المضطر فكره كثير من الفقهاء هذا البيع لانتفاء كمال التراضي.

ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا))[1] وفي لفظ البخاري: ((إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا))[2].

وقوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي: بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل.

حمل ابن كثير قتل النفس على أعم صوره ومعانيه الحسية والمعنوية أخذاً من عموم اللفظ، ومعلوم أن المجتمعين على ملة ودين ينزلون منزلة النفس الواحدة كما قال الله -عز وجل- في بني إسرائيل: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٨٤) سورة البقرة]

[1] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف (١٩٧٣) (ج ٢ / ص ٧٣٢) ومسلم في كتاب البيوع - باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢) (ج ٣ / ص ١١٦٤).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع (٢٠٠٦) (ج ٢ / ص ٧٤٤) ومسلم في كتاب البيـوع - باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين (١٥٣١) (ج ٣ / ص ١١٦٣).

يعني لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً، إلى أن قال: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة] يعني يقتل بعضكم بعضاً.

وحمل ابن جرير -رحمه الله- قوله سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} على قتل الناس بعضهم بعضاً، تنزيلاً للنفوس منزلة النفس الواحدة، وهذا معنىً صحيح يدخل فيه دخولاً أولياً أن يعمد الإنسان إلى نفسه فيقتلها، سواء بإهلاكه نفسه بالمعاصي والذنوب، أو بالموت البطيء كالذي يدخن مثلاً، ويمكن أن يحتج عليه بقوله تعالى: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة]، فسر أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- التهلكة في الآية بالركون إلى الدنيا وترك الجهاد في سبيل الله -عز وجل-، وكما قال ابن عباس: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} إن قطعوا النفقة عن المجاهدين فإن ذلك يؤذن بتقوية العدو وظهوره عليهم فيأخذ ما في حوزتهم من الأموال، ويهلك الحرث والنسل، ويدخل في الآية الإنسان الذي يفعل فعلاً من شأنه أن يؤدي به إلى المخاطر من غير مسوغ شرعي أخذاً من عموم اللفظ، فإن سبب النزول لا يُحصر فيه معنى الآية، وإنما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل هذه المعاني داخلة فيها، والله أعلم.

{إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} أي: **فيما أمركم به ونهاكم عنه، وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لما بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكرت ذلك له، فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب! قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله -عز وجل-:** {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} **فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يقل شيئاً، وهكذا رواه أبو داود.**

هذا الاحتجاج من عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أقره عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يمنع أن يبقى هذا الاستعمال يراد به قتل نفوس الآخرين، والقرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وقد ذكرنا هذا مراراً في مناسبات متعددة.

وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجَأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)) وهذا الحديث ثابت في الصحيحين[3].

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الطب - باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٤٤٢) (ج ٥ / ص ٢١٧٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١٠٩) (ج ١ / ص ١٠٣).

وعن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: ((من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة)) وقد أخرجه الجماعة في كتبهم[4].

ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا} [(٣٠) سورة النساء] **أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه، ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه {فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} الآية.**

اختلف أهل التأويل في عود الضمير -اسم الإشارة-:

فقالت طائفة: يعود الضمير إلى آخر مذكور وهو قتل النفس، وبعضهم أعاد الضمير إلى آخر مذكورين: أكل أموالهم بينهم بالباطل، وقتل النفس.

وقالت طائفة: إن ذلك يرجع إلى المذكورات قبله من قوله سبحانه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا}** [(١٩) سورة النساء] وعللوا ذلك بأن الله –عز وجل- من أول السورة لا يذكر نهياً إلا وأعقبه بالوعيد المترتب عليه إلى هذه الآية فما بعدها فلم يذكر وعيداً حتى بلغ قوله سبحانه: **{وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا}** والمعنى ومن يفعل من المنهيات والمحرمات التي ذكرت إلى هذا الموضع **{فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا}** واختار هذا القول كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وتوسعت طائفة أخرى من أهل العلم في المعنى أكثر من غيرهم، فجعلوا الضمير عائداً إلى كل المنهيات السابقة من أول السورة حتى هذا الموضع.

والمتبادر من السياق أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور قبله وهو قوله سبحانه: **{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}**، ويلي هذا القول قوة قول ابن جرير –رحمه الله-، ثم من قال: إن الضمير يرجع إلى كل المنهيات، ووجه القولين الآخرين: ما ذكره الله –عز وجل- من اسم الإشارة الدال على البعيد **{ذَلِكَ}**، ولم يقل: ومن يفعل هذا عدواناً وظلماً، كما قال الله -عز وجل- في سورة الفرقان: **{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}** [(٦٨) سورة الفرقان] أي: من المذكورات قبله **{يَلْقَ أَثَامًا...}** الآيات، والله أعلم.

{فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب، ممن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...} [(٣١) سورة النساء] **الآية أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: {وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا}، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:**

روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري ما يوم الجمعة،)).

أراد النبي –صلى الله عليه وسلم- أن يسأل سلمان عن فضل يوم الجمعة، وما يكون للمكلف من الأجور، لا عن سبب تسمية يوم الجمعة بذلك كما فهم سلمان الفارسي -رضي الله عنه-، وهذا واضح من لفظ الرواية.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٥٧٥٤) (ج ٥ / ص ٢٢٦٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١١٠) (ج ١ / ص ١٠٤).

قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم، قال: ((لكني أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة))[٥].

المقتلة: الكبائر التي تهلك صاحبها، والذنوب العظام التي توبق فاعلها، وقد اختلف العلماء في الكبائر فقيل هي: سبع، واحتجوا بقوله -صلى الله عليه وسلم- ((اجتنبوا السبع الموبقات...))[٦] والذي اختاره المحققون كابن تيمية وغيره، وقد ثبت عن جمع من الصحابة -رضي الله عنهم- كما نقل عن ابن عباس قوله: إن الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب، ومن أهل العلم من لا يفرق بين الكبائر والصغائر، ويعد كل الذنوب كبائر؛ لأن الأصل في المرء أن لا ينظر إلى صغر الذنب ولكن ينظر إلى عظمة من عصى، والصواب التفريق في النظر بين الصغائر والكبائر وعلي هذا سار العلماء قديما وحديثا ويشهد للتفريق قوله سبحانه: **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ...}** فاللمم المقصود بها على الأرجح من أقوال المفسرين: الصغائر التي لا يتقصدها الإنسان ولا يصر عليها، كما فهم منها ابن عباس -رضي الله عنه-، وقد صح عن سهل بن سعد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه))[٧] والشُّرَّاح حملوا هذا الحديث على الصغائر، فالإصرار عليها -كما قال أهل العلم- يصيرها كبيرة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

---

[5] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب الجمعة – باب الإنصات للخطبة (١٧٢٥) (ج ١ / ص ٥٣٣) وأحمد (٢٣٧٦٩) (ج ٥ / ص ٤٣٩) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، وفيه زيادة عند الطبراني في الكبير ((وذلك الدهر كله)) تراجع عن تحسينها الألباني، فانظر مختصر كتاب تراجع العلامة الألباني فيما نص عليه تصحيحاً وتضعيفاً (ج ١ / ص ١٤).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا - باب قول الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}** [(١٠) سورة النساء] (٢٦١٥) (ج ٣ / ص ١٠١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) (ج ١ / ص ٩٢).

[7] - أخرجه أحمد (٢٢٨٦٠) (ج ٥ / ص ٣٣١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا} [(٦) سورة النساء].

ينهى -سبحانه وتعالى- عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها، ومن هاهنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام:

فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفلس: وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن السفيه: هو من لا يحسن التصرف في القضايا المالية، والسفه صفة تلحق الصغير والكبير سواء، إلا أنها في الصغير أعظم؛ لأنه مظنة لذلك، وبعض أهل العلم يرى بأن الكبير لا يحجر عليه إذا كان المانع سوء تصرفه، والصواب خلافه.

وأما قوله سبحانه: {أَمْوَالَكُمُ} فيحتمل معنيين:

الأول: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ} أي: التي تملكونها خشية أن يفسدوها ويضيعوها ويعبثوا بها فتبقوا بعدها في حال تلجئون بسببها إلى الناس.

الثاني: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ} أي: أموال اليتامى، وأن السفهاء هم اليتامى الصغار، وإنما نسبت إلى الأوصياء من باب أن الأموال التي يحصل بها التعاطي والانتفاع والقيام بشئون الناس هي من جنس واحد يملكه الناس، أو باعتبار أنهم الناظرون عليها والمتصرفون بها في مصالح اليتيم، أو باعتبار معاملة الجميع معاملة الواحد أو النفس الواحدة كما قال الله -عز وجل-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة] أي: لا يأكل بعضكم مال بعض، وقوله سبحانه: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة] أي: فليقتل بعضكم بعضاً، وقوله: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة] أي: تقتلون إخوانكم، والمعنى {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ} يعني التي جعلها الله -عز وجل- في أيديكم، وهي ملك لهم تتصرفون بها في مصالحهم. وقرينة هذا القول: أن سياق الآية يتحدث عن أموال اليتامى وحقوقهم والقيام على شئونهم وعدم ظلمهم فناسب أن يكون هذا هو المعنى، والله أعلم بالصواب.

قوله سبحانه: {الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً} ذكر أهل اللغة أن في كلمة {قِيَاماً} ثلاث لغات وهي: قياماً وقيماً وقواماً.

فأما قيماً فهي قراءة سبعية متواترة، وأما قواماً فلم يثبت فيها التواتر وإنما نسبت لعبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، ومعنى هذه اللغات واحد على الأرجح، وهو ما تقوم معايشكم به، ومعلوم أن المال هو عصب الحياة، ومن الضرورات الخمس، ولا قوام لحياة الناس إلا به، وإذاً فقد صارت حياة الناس إلى تهارج.

ويرى ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن معنى قوله سبحانه: {الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً} أي: جعلها لكم ولهم قياماً لكون هذه الأموال أموال اليتامى، وأن المخاطب بالآية الوصي عليهم، وقيل غير هذا.

والأقرب ما ذكر أن معاني هذه اللغات الثلاث واحدة، أي: ما تقوم بها معايشكم وأموركم وما أشبه هذا من المعاني، والله أعلم.

وقال الضحاك: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ}، قال: هم بنوك والنساء، وكذا قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- والحكم بن عيينة والحسن والضحاك: هم النساء والصبيان، وقال سعيد بن جبير: هم اليتامى، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء.

والإمام مالك -رحمه الله- يقول: السفهاء هم الأولاد الصغار، وما روي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وعكرمة وقتادة أن المقصود بالسفهاء في الآية النساء وبعضهم ذكر الصبيان، فهذا محمول على أن الرجل لا يضع ما ملّكه الله -عز وجل- من المال تحت تصرف النساء؛ وعلة ذلك أن النساء غالباً ما يتصرفن فيه على سبيل التوسع في أمور لا تدعو إليها الحاجة، وليس المقصود أن المرأة سفيهة بمعنى السفه الذي يوجب الحجر عليها، بل إن المرأة في الشرع لها الحق أن تتصرف بمالها إذا بلغت وعلم حسن تصرفها فيه، وكذا اليتيم إذا بلغ سن الرشد وحسن تصرفه في المال فإنه يعطى ماله بلا فرق بين الذكر والأنثى.

ورأى النحاس أن السفهاء في الآية ليس المقصود بهم النساء، وذلك لأن النساء لا تجمع على سفهاء، وإنما تجمع على سفيهات وسفائه، لكن هذا من حيث اللغة لا إشكال فيه؛ لأنه عبر بالذكور من باب التغليب. والصواب أن قوله سبحانه: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ} عام يصدق على كل من لا يحسن التصرف في المال فإنه يحجر عليه ولا يعطى المال.

وقوله: {وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم.

وعلى المعنى الآخر لا تجعل المال في أيدي من تقومون عليهم من الأيتام ونحوهم فيضيعونه.

وقال مجاهد: {وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا} يعني في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة، ومَن تحتَ الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق، والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق.

القول المعروف ورد في الآية على صيغة لا يفهم منها التخصيص، مما يستوجب على العبد القول الحسن عموماً، فيدخل فيه كل قول حسن طيب من دعاء وما إلى ذلك، وقد جاء الأمر بالقول المعروف في مواضع عدة من كتاب الله –عز وجل- كما قال سبحانه لبني إسرائيل: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة] وهذا في عموم التعامل مع الناس، وأولى الناس بالمعاملة الحسنة والكلام الطيب أقرباء العبد كالزوج والزوجة والأب والأم والإخوان والأرحام...

وفي المحتاجين يقول سبحانه:{قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى} [(٢٦٣) سورة البقرة] والقول المعروف أي الكلام الطيب، ولما قال الله -عز وجل في سورة الإسراء: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [(٢٧) سورة الإسراء]، قال بعدها: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} [(٢٨) سورة الإسراء]، والمعنى: إن لم تجد ما تعطيهم من فتات الدنيا فلا أقل من أن تسمعهم {قَوْلاً مَّيْسُورًا}.

وأحسَنَ مَن قال:

إلا يكــن ورق يومــاً أجــود بهــا	للــسائلين فــإني لــين العــود
لن يعدم السائلون الخير من خلقــي	إما نوالي وإمــا حــسن مــردودي

والورق هو الفضة عند العرب.

وقوله تعالى: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى} [(٦) سورة النساء]، قال ابن عباس –رضي الله عنهما- ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل بن حيان أي: اختبروهم.

{حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ} قال مجاهد: يعني الحلم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد.

وهذه الآية تفسرها الآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ} [(٥٩) سورة النـــور]، فيكون المقصود بالنكاح الحلم، وقد دلت الآية على أن دفع الأموال للأيتام مرتهن بتوفر أمرين اثنين:

الأول: بلوغ الحلم، أو وجود علامة من علامات البلوغ، كبلوغ خمس عشرة سنة؛ لأنه لا يحكم شرعاً للإنسان بالبلوغ إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة ذكراً كان أو أنثى على الراجح.

الثاني: حسن التصرف في المال؛ لأن الله قال: {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} والمعنى علمتم ولمستم صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم، ولابد من مجموع الأمرين، وهذا الكلام بالنسبة لمسألة دفع الأموال للأيتام.

وأما دخول الأطفال على النساء فلا ارتباط له بالبلوغ كما قال سبحانه: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [(٣١) سورة النـــور] وللآية تفسيران مشهوران:

أحدهما: أي لم يطلعوا على عورات النساء، ويكشفوا عنها للجماع، بمعنى أنه لا يطيق الجماع، وهذا فيه بعد.

ثانيها: أنه لا يتفطن لمفاتن النساء، بخلاف ما إذا ميز وأدرك فيحتجب منه وإن لم يبلغ الحلم، فهذا هو الضابط في الدخول على النساء، والله أعلم.

وفي سنن أبي داود عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: حفظت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((لا يُتم بعد احتلام، ولا صُمَات يوم إلى الليل))[١].

وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق))[٢] أو يستكمل خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: عرضت على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني"[٣]، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير.

والحقيقة أن دلالة حديث ابن عمر ليست قاطعة في أن استكمال خمس عشرة سنة علامة ظاهرة على البلوغ؛ وذلك لأن الحرب يطلب فيها ما لا يطلب في غيرها، ويراعى فيها القوة والقدرة على القتال، وهيئة الإنسان واكتمال النمو وما أشبهه، وليست محكومة بعمر معين، ولكن يمكن أن يستأنس بها، وأما الحكم بالبلوغ فلا بد من ظهور علامة من علاماته.

واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج وهي الشعرة، والصحيح أنها بلوغ، وقد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي -رضي الله تعالى عنه- قال: عرضنا على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم قريظة، فكان من أنبت قُتل، ومن لم ينبت خلي سبيله، فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي"[٤]، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهي علامة ظاهرة يمكن الرجوع إليها في الحقوق والمطالبات؛ لأن الاحتلام قد يجحده الولد، وقد لا يعرفه لقلة الوعي.

وأما المرأة فيعرف بلوغها بشيئين: الحمل والحيض، وأما نمو الصدر فليس علامة من علامات البلوغ.

وقوله -عز وجل-: {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم، وكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، والحسن البصري، وغير واحد من الأئمة، وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه.

آنس تأتي بمعنى: أبصر، ويمكن أن يفسر به قوله تعالى: **{آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا}** [(٢٩) سورة القصص]، وقوله سبحانه: **{إِنِّي آنَسْتُ نَارًا}** [(١٠) سورة طـه]، وتأتي أيضاً بمعنى: وجد وعلم، وهو المراد من الآية.

وقوله: {وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ} ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية. {إِسْرَافًا وَبِدَارًا}: أي مبادرة قبل بلوغهم.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٥) (٣/٧٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٥٦٧).

[2] - رواه أبو داود برقم (٤٤٠٥) (٤/ ص ٢٤٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥١٢)..

[3] - رواه مسلم في كتاب الإمارة – باب بيان سن البلوغ برقم (١٨٦٨) (٣/١٤٩٠).

[4] - رواه الترمذي برقم (١٥٨٤) (٤/١٤٥)، وأبو داود برقم (٤٤٠٦) (٤/٢٤٥)، والنسائي برقم (٣٤٢٩) (٦/١٥٥)، وابن ماجه برقم (٢٥٤١) (٢/٨٤٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٥٨٤).

ورد النهي عن أكل أموال الأيتام من باب كون الأكل هو غالب وجوه الانتفاع عادة، وإلا فيدخل في الآية النهي عن جميع أنواع الانتفاع بمال اليتيم، والإسراف: هو الإفراط ومجاوزة الحد، وكذا يشمل النهي المبادرة إلى أموال الأيتام قبل بلوغهم بدافع الاستحواذ عليها، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ} من كان في غُنية عن مال اليتيم فليستعفف عنه ولا يأكل منه شيئاً، {وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} روى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "أنزلت هذه الآية في والي اليتيم {وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} بقدر قيامه عليه"، ورواه البخاري.

قوله سبحانه: {فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} هذا الخطاب موجه للأوصياء الفقراء القائمين على مال اليتيم يبيح لهم الأكل من ماله إذا احتاجوا لذلك، إلا أنه قيده بالمعروف ولم يحدد ماهيته، فلذلك يرجع فيه إلى شخص الإنسان، وحال زمانه، ومطلب مكانه، ومقدار المال الذي يحتاجه، وما أشبه ذلك.

والأكل ليس مقصوداً بعينه، فينطوي تحته كل ما يحتاجه في سبيل إراحتهم وخدمتهم، بشرط أن لا يتجاوز حدود المعروف هذا هو الراجح، والله أعلم.

ومن أهل العلم من يرى أنه لا يجوز للوصي المحتاج أن يأخذ من مال اليتيم لا قليلاً ولا كثيراً، وحمل الآية على القرض، بمعنى أن الوصي يأخذ منه ما يحتاج إليه ديناً ثم يعيده وقت السداد، وهذا اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- وجماعة.

والأقرب القول الأول: وهو جواز الأكل من مال اليتيم بالمعروف كما هو ظاهر الآية، وذلك نظير قيام هذا الإنسان على أموال الأيتام وإصلاحها، وما أشبه ذلك، والله أعلم.

وروى أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه-: أن رجلاً سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ليس لي مال، ولي يتيم، فقال: ((كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبذر، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك)) أو قال: ((تفدي مالك بماله))[٥] شك حسين.

الذي روي هذا الحديث عن عمرو بن شعيب.

ومعنى قوله: ((ولا متأثل مالاً)): يعني ولا جامع مالاً، إما يدخره لنفسه، أو يجعله أصلاً لتجارة، أو نحو ذلك.

{فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} يعني: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد فحينئذ سلموا أموالهم، {فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ}، وهذا أمر الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم؛ لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه.

وقيل المراد بقوله: {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}: النفقات التي يعطاها في حال اليتم.

وحكمة الإشهاد تكمن في أمرين:

أولاً: لدفع التهمة؛ لئلا يظن الناس أنه لم يعطه.

---

5 - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٤) (٧٤/٣)، والنسائي برقم (٣٦٦٨) (٢٥٦/٦)، وابن ماجه برقم (٢٧١٨) (٩٠٧/٢)، وأحمد برقم (٦٧٤٧) (١٨٦/٢)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٦٢٦).

ثانياً: أن اليتيم عرضة للنسيان، وقد يكون محل جحود، فيحكم بشهادة العدول.

ثم قال: {وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا} أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها مدلس أمورها؟، الله عالم بذلك كله، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرن على اثنين ولا تلِيَن مال يتيم))[6].

وابن الصلاح -رحمه الله- جمع هذه الأموال التي ينبغي التحرز منها بقوله:

واحذر من الواوات أربعة فهن من الحتــوف ... واو الوصية والوكالة والوديعة والوقــوف

وإن شئت فأضف إليها أمر التبرعات اليوم، فمن ولج بابها لا يكاد يسلم من تهمة، وأنظار الناس إليه ممتدة، فالسلامة لا يعدلها شيء.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

[6] - رواه مسلم في كتاب الإمارة – باب كراهة الإمارة بغير ضرورة برقم (١٨٢٦) (١٤٥٧/٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(٧-١٠) سورة النساء].

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله: {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ...} الآية، أي: الجميع سواء في حكم الله -تعالى- يستوون في أصل الوراثة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

لما ذكر –عز وجل- ما للرجال من نصيب في تركة الآباء والأقربين بقوله: {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} أعاد ذلك جميعاً في حق النساء، فقال سبحانه: {وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} ولعل من حكمة تكرار الصيغة نفسها هو تأكيد حق النساء في الميراث، وأنهن أصلٌ في ذلك ولسنَ تبعاً للرجال فيه.

وما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله- في تفسير الآية بقوله: "أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة"، قصد أنهم سواء من حيث الأحقية، لا من حيث المقدار والنصيب، ومقتضى العدل أن يعطى كل ذي حق حقه، وأما المساواة المطلقة فهي ليست من العدل في شيء، فالمرأة بما يفرض لها من الميراث تعتبر مساوية للرجل في أصل القضية وهو أحقيتها في الميراث، أما في المقدار فلا، وذلك أن الرجل ينتظر النقص دائماً، بخلاف المرأة فهي ترتقب الزيادة دائماً، ومن مقتضى العدل أن لا يسوى بين مترقب النقص ومترقب الزيادة.

ولهذا لما قسّم الله -عز وجل- المواريث وُجد ما عرف بحجب النقصان، فمثلاً الأم ترث من ولدها الثلث، لكن إن كان لهذا الولد إخوة فترث السدس كما قال سبحانه: {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [(١١) سورة النساء] فأنقص الأخوة من ميراثها مع أنهم لا يرثون، والعلة أن كثرة الإخوة تتطلب نفقات زائدة؛ لأجل ذلك قل نصيب الأم وصار في حظ الأب الذي عادة ما تلزمه مؤنة النفقة والكلفة على الأولاد.

وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء، فإنه لحمة كلحمة النسب.

وقد روى ابن مردويه عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: جاءت أم كُجَّةَ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنتين وقد مات أبوهما، وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى: {لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ...} الآية.

هذا الحديث فيه ضعف، وممن ضعفه الحافظ ابن حجر –رحمه الله-.

وسيأتي هذا الحديث عند آيتي الميراث بسياق آخر، والله أعلم.

من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- في ابنتي سعد بن الربيع، والحديث يصل إلى درجة القبول.

وأما قوله سبحانه: **{نَصِيبًا مَّفْرُوضًا}** فالنصب فيه يمكن أن يكون على الحال، ويمكن أن يكون على الاختصاص أو المصدر، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ} [(٨) سورة النساء] **الآية، قيل المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فليرضخ لهم من التركة نصيب.**

هذا أشهر الأقوال، وهو المتبادر من السياق، وبعض أهل العلم يستشكل ما إذا كان الورثة أو بعضهم من القُصّر؛ لأنه لا يحق لأحد التصرف بأموال هؤلاء القُصّر، ولذلك فرق بعضهم بين ما إذا كان الورثة من القُصّر فلا يُعطِى ذوي القربى ممن ليس بوارث شيئاً ويقال لهم قولاً معروفاً، وما إذا كانوا من الكبار الراشدين فإنهم يعطون في وجودهم، وظاهر الآية لا يحتمل هذا التفريق.

وقال بعضهم: إن الذين يرضخ لهم ويعطون من التركة حال القسمة هم ذوو القرابات من غير الوارثين، وأما اليتامى والمساكين فيقال لهم قولاً معروفاً ولا يعطون شيئاً، ولا دليل علي هذا القول.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة غير منسوخة وإنما عنى بها الوصية لأولى قربى الموصي، وعني باليتامى والمساكين أن يقال لهم قول معروف، وهذا القول لا إشكال فيه، إذ ليس ثمَّة قُصّر يرد عليهم ما سبق، وانتصر له ابن جرير الطبري –رحمه الله-، ولكن سياق الآيات ظاهر في المواريث وقسمة المواريث. والله أعلم بالصواب..

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ}، قال: هي محكمة وليست بمنسوخة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: هي قائمة يعمل بها.

وقال الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية، قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم.

وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله تعالى عنهم-، وأبي العالية، والشعبي، والحسن، وقال ابن سيرين، وسعيد بن جبير، ومكحول، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ويحيى بن يعمر: إنها واجبة.

وقيل: هذا بالوصية يوصي به الميت، وقيل: بل هذه الآية منسوخة.

والقول بالنسخ بعيد؛ لأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وتحمل الآية كما ذكرنا على القرابة غير الوارثين، وقد جاءت الوصية للوالدين والأقربين مع كونهم من الورثة في قوله سبحانه: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ} [(١٨٠) سورة البقرة]، ومعلوم أنه لا وصية لوارث، ولذا فكثير من أهل العلم يقولون: نسختها آية المواريث، أو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث))[1]، والصواب أن هذه الآية في الوالد غير الوارث إذا قام به مانع من موانع الإرث الثلاثة وهي: اختلاف الدين، القتل، الرق. والله أعلم.

قال العوفي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ} وهي قسمة الميراث.

وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا: إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله -تعالى- وهو الرءوف الرحيم أن يُرضَخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم، وصدقةً عليهم، وإحساناً إليهم، وجبراً لكسرهم.

والقول المعروف: القول الحسن، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن القول المعروف في الآية مختص باليتامى والمساكين، وأما العطاء فهو لقرابة الميت غير الوارثين، والصواب أن ظاهر الآية يفيد العموم، وأن القول المعروف مطلوب عند التعامل مع عموم المحتاجين لا يختص به إنسان دون آخر كما قال سبحانه: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى} [(٢٦٣) سورة البقرة] فلا يعطيهم ويزجرهم، أو يبدي لهم الامتعاض، أو يستثقل حضورهم، فإن هذا مما قد تذهب معه الأجور يقول سبحانه -مخاطباً عباده المؤمنين-: {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [(٢٦٤) سورة البقرة]، والمن: التذكير بالعطية، والأذى: الزجر، الإغلاظ عليه،...، ولذا كان الاقتصار على الكلام الطيب والقول المعروف يغني عن العطاء والبذل كما قال الله -عز وجل-: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} [(٢٨) سورة الإسراء] فعلى أشهر المعاني في تفسيرها إن لم يكن عندك شيء تعطيهم إياه، فقل لهم -يعني من العدة الحسنة- وما أشبه هذا فإنه يقوم مقام العطاء.

وقوله تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ} [(٩) سورة النساء] الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله -تعالى- الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة، وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقرينة هذا القول قوله سبحانه في آخر الآية: {وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا}.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما دخل على سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي، قال: ((لا))،

[1] -رواه الترمذي برقم (٢١٢١) (٤/٤٣٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٦٠٠).

قال: فالشطر، قال: ((لا)) قال: فالثلث، قال: ((الثلث، والثلث كثير))، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس))[٢].

وقد أخذ العلماء من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير)) أحكاماً في أبواب متعددة، مثل الغبن، ما هو مقدار الغبن الذي يرد به البيع، هل هو النصف أو الثلث أو الربع؟، فمن قال بأنه الثلث، استدل بقوله -صلى الله عليه وسلم- ((الثلث والثلث كثير)).

وكذا أن الأفضل في الوصية ألا تبلغ الثلث، ولهذا جاء عن علي وابن عباس -رضي الله عنهما- تحديدها بالربع، ودون الربع، وقالوا: إذا كان الثلث موصوفاً بالكثرة فالأفضل ما دونه، والله أعلم.

وقيل: المراد بالآية: فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى {وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ} [(٦) سورة النساء].

بمعنى أن الخطاب في الآية متوجه للأوصياء.

حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً، أي: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم.

وهذه قرينة في الآية ترجح هذا القول، وبعض أهل العلم يرى أنها عامة، وأن الله -عز وجل- يذكر هؤلاء الأوصياء في أموال اليتامى، ويذكر أولئك الذين يجورون في الوصية فيدخل فيها جميع الحالات، والله أعلم.

ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً، ولهذا قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء]، **أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة.**

النصب في قوله سبحانه : {يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} يحتمل أمرين:

أن يكون النصب على المصدرية، أي أكل ظلم.

أن يكون النصب على الحالية أي ظالمين لهم، والقيد بقوله: {ظلما} يعد صفة معتبرة، بخلاف قوله سبحانه: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، وقوله سبحانه: {وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [(١١٢) سورة آل عمران]، فيعد صفة كاشفة.

وأما العقاب المنتظر للمتطاولين ظلماً وجوراً على أموال اليتامى فإنهم يوم القيامة: {إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}، وعبر بالنار؛ لأنها سبب لها من باب إطلاق المسبب على السبب.

وقد قرأ عاصم وابن عامر قوله سبحانه: {وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}، بضم الياء {وَسَيُصْلَوْنَ سَعِيرًا} والمعنى أي: يدخلونها، أو يحترقون فيها، وأصل مادة يصلون: مباشرة النار والاكتواء بلهيبها، تقول: اصطليت بالنار إذا تسخنت واستدفأت بها من البرد، أو نحو ذلك.

---

[٢] -رواه البخاري في كتاب الوصايا – باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس برقم (٢٥٩١) (٣/١٠٠٦)، ومسلم في كتاب الوصية – باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨) (٣/١٢٥٠).

ويقال: صلاها إذا عرض عليها، تقول العرب: صليت اللحم بمعنى عرضته على النار، ومنه قوله -عز وجل-: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [(١٥) سورة الليل] والقولان متلازمان.

والسعير: يطلق على الجمر الملتهب المشتعل، ويطلق أيضاً على شدة حر جهنم، فيقال له: سعير، والله أعلم بالصواب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قيل: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[3].

{يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا} [(١١) سورة النساء]

هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة، هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك، ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك، قال ابن عيينة: إنما سَمّى الفرائضَ نصفَ العلم؛ لأنه يبتلى به الناس كلهم.

وقال بعضهم: لأن الأحكام التي تتصل بالإنسان منها ما يتصل به في حال الحياة، ومنها ما يتصل به بعد الموت، والفرائض هي من الأحكام المتصلة بالإنسان بعد الموت، فكانت نصف العلم بهذا الاعتبار، وهذا التعبير يمكن أن يعبر به لبيان أهمية الشيء ومنزلته، كما يقال في موت بعض أئمة العلم والراسخين فيه: مات اليوم نصف العلم؛ لبيان قدره في العلم وما يفوت العباد بسبب موته، كما قيل لعمر -رضي الله عنه- لما مات.

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: عادني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي -صلى الله عليه وسلم- لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليّ فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله، فنزلت: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} وكذا رواه مسلم والنسائي ورواه الجماعة كلهم[4].

---

[3] -رواه البخاري في كتاب الوصايا – باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء] برقم (٢٦١٥) (١٠١٧/٣)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان الكبائر وأكبرها برقم (٨٩) (٩٢/١).

[4] -رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة النساء برقم (٤٣٠١) (١٦٦/٤)، ومسلم في كتاب الفرائض – باب ميراث الكلالة برقم (١٦١٦) (١٢٣٤/٣).

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية، روى أحمد عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع -رضي الله تعالى عنه- إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: ((يقضي الله في ذلك))، قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عمهما فقال: ((أعط ابنتيْ سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك))[5].

وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

آية المواريث هي قوله سبحانه: **{يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ...}**، وهذا الحديث سكت عنه الحافظ، وسكوته عن الحديث يعنى أنه ضعيف، وحسنه الشيخ الألباني -رحمه الله-.

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي.

وهي آية الكلالة: **{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ}** [(١٧٦) سورة النساء].

فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ولم يكن له بنات وإنما كان يورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعاً للبخاري -رحمه الله- فإنه ذكره هاهنا، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم.

وقوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله -تعالى- في التسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة، والتكسب، وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى.

وقد بيّن الله -سبحانه- العلة في التفاوت بين الذكر والأنثى في الآية الأخرى بقوله سبحانه: **{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ}** [(٣٤) سورة النساء]؛ فلأنه مطالب بالنفقة والتكسب و... كان هذا التفاضل، والله أعلم.

وأما الأولاد فجمع مضاف إلى المعرفة وهذا يدل على العموم، أي: كل ولد لكم، واستثنى أهل العلم أصنافاً من الناس لأوصاف معينة قامت بهم منعوا لأجلها من الميراث، وهم:

أولاد الأنبياء؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نورث ما تركنا صدقة))[6]، ولذلك لم يورثوا فاطمة -رضي الله عنها- لما جاءت لأبي بكر -رضي الله عنه- تطالب بنصيبها من الميراث.

والولد الكافر بالإجماع، لما جاء من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر))[7]، وكذا القاتل، والرقيق أي: الولد إذا كان مسترقاً فإنه لا يملك، فهذه من موانع الإرث، والله أعلم.

---

[5] -رواه الترمذي برقم (٢٠٩٢) (٤/٤١٤)، وأحمد برقم (١٤٨٤٠) (٣/٣٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٠٩٢).

[6] -رواه البخاري في كتاب الفرائض – باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا نورث ما تركنا صدقة)) برقم (٦٣٤٦) (٦/٢٤٧٤) ومسلم في كتاب الجهاد والسير – باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا نورث ما تركنا فهو صدقة)) برقم (١٧٥٩) (٣/١٣٨٠).

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وأرضعته فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: ((أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك)) قالوا: لا يا رسول الله، فقال: ((فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها))[8].

مع أن عطف الأب وحنوه وحرصه على أبنائه هو جبلة جبله الله عليها، إلا أن الرب –سبحانه- مع ذلك يوصي الآباء بالأبناء إشارة على عظم رحمته سبحانه ولطفه، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن أرجى آية في كتاب الله آية الدين؛ لكثرة الاحتياط فيها لمال المسلم؛ لئلا يضيع، فما بالك بالمسلم الذي هو عند الله أعظم شأناً وحرمة من ماله، ولكن المشهور أن أرجى آية هي قوله سبحانه: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}** [(٥٣) سورة الزمر].

وروى البخاري هاهنا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

وهذه الآية ناسخة لما كان عليه الناس في أول الإسلام من التوارث بالهجرة، والولاء، والمعاقدة؛ لينتقل التوارث بعد ذلك فيصير في القرابات فحسب.

وقوله: {فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}، قال بعض الناس: قوله فوق، زائدة، وتقديره: فإن كن نساء اثنتين، كما في قوله: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} [(١٢) سورة الأنفال]، وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك، فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع.

ما حمل القائلون على القول بأن كلمة فوق في الآية زائدة هو استشكالهم للمعنى، إذ يفهم من الآية لو أعملنا كلمة "فوق" أن الواحدة والثلاث والأكثر من الزوجات يرثن، وأما الاثنتان فلا، كما هو ظاهر الآية، مع أن المشهور أن الاثنتين فما زاد لهن الثلثان، لكن أهل العلم يقولون: إن التعبير بالزيادة في القران غير ملائم، وأن من مقتضى التأدب مع القرآن أنه لا يعبر بذلك، ولذلك يعبرون بالصلة في الزيادات، كزيادة ما، ولا في قوله سبحانه: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}** [(١) سورة البلد] ويجعلونها تأكيداً للقسم.

ومما يذكر في هذا المقام أن الزيادة لا تأتي في الأسماء والظروف وإنما تكون الزيادة في الحرف فحسب، كما هو متفق عليه بين أرباب هذا الفن، ولذا لا يسلم للقائلين بأن فوق في الآية زائدة لا في آية المواريث، ولا في سورة الأنفال عند قوله سبحانه: **{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}** [(١٢) سورة الأنفال] إذ ليس المعني اضربوا الأعناق، وإنما لفظة فوق لها معنى ذكرته العرب في أشعارها وكلامها، فإنهم يذكرون أن موضع الضرب للأعناق فوق الرقبة أو أعلى الرقبة أشفى وأنفى؛ لأن الضرب في هذا الموضع أسرع في قطع الرءوس وتطاير الجماجم، وهذا الأمر توجيه من الله -عز وجل- ليعلم المقاتلة كيف وأين يضربون، ومثله قوله:

---

[7] -رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٨٦٩) (٥/٢٠٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٦٤٣).

[8] -رواه البخاري في كتاب الأدب – باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته برقم (٥٦٥٣) (٥/٢٢٣٥).

{وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] حمله بعض المفسرين على البنان خاصة، فإن العدو إذا ضربت أطراف بنانه لم يستطع أن يمسك السيف، ولا الرمح، ولا الحربة، ولا يرمي بالسهم فتنشل حركته، وتتعطل من العضو منفعته، فهو درس لهم في فنون القتال وكيف يفتكون بعدوهم.

يقول صاحب المراقي:

.... ولم يكن في الـــوحي حـــشو يقـــع

ولذلك قيل: إن زيادة المبنى زيادة في المعنى.

ثم قوله: {فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}، لو كان المراد ما قالوه، لقال: فلهما ثلث ما ترك.

مراد ابن كثير أن {فَوْقَ} لو كانت زائدة في الآية لما عقب بعدها بقوله: {فَلَهُنَّ}؛ لأن لهن تستعمل للجمع، ولقال: فلهما بالتثنية تأكيداً على زيادتها.

وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة.

المقصود بها آية الكلالة: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ} [(١٧٦) سورة النساء]، وكذلك أخذ بعض أهل العلم كالشيخ الشنقيطي -رحمه الله- أن الاثنتين لهما الثلثان من آية أخرى وهي قوله: {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} باعتبار أن للأنثيين حال يكون حظهما الثلثين، وقد ثبت توريث البنتين الثلثين في السنة المطهرة.

فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين، وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بطريق الأولى، وقد تقدم.

وإنما كانت البنتان أولى من الأخوات؛ لأنهما أعلق قربة وأمس رحماً وألصق صلة وأقوى وشيجة بالميت من غيرهما، وهذا ما يعرف عند الأصوليين بفحوى الخطاب: وهو ما كان المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق كقوله تعالى: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [(٢٣) سورة الإسراء] فدل تحريم التأفيف على تحريم الضرب من باب أولى، وبعض الأصوليين يسمي هذا النوع قياساً، وآخرون يسمونه مفهوم الموافقة الأولوي، وبعضهم يعبر عنه بغير ذلك، والله أعلم.

وقد تقدم في حديث جابر -رضي الله تعالى عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب والسنة على ذلك.

وأيضاً فإنه قال: {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ} فلو كان للبنتين نصف لنص عليه أيضاً.

وفي القراءة الأخرى بالرفع: {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةٌ فَلَهَا النِّصْفُ} باعتبار أن كان تامة والمعنى إن وجدت واحدة.

فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن الثنتين في حكم الثلاث، والله أعلم.

وهذا ما يسمى عند الأصوليين بمفهوم الشرط، والمعنى على مفهوم الشرط: فإن لم تكن واحدة أي: اثنتين فأكثر فلهن أكثر من النصف، وهذا المفهوم موافق لمقتضى الأدلة المثبتة لنصيب الثلثين للبنتين من التركة، ولقد نقل بعضهم الإجماع على ذلك، وما خالف في المسألة إلا ابن عباس –رضي الله عنه- وثبت أنه تراجع

عن قوله، وإلى هذا ذهب عامة أهل العلم، ومفهوم الشرط عند الأصوليين أقوى من مفهوم الظرف الوارد في قوله سبحانه: **{فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}** [(١١) سورة النساء]، إذ المعنى على مفهوم الظرف فإن كن دون ذلك فلا يستحقان الثلثان، وهذا خلاف المراد.

فائدة: المفاهيم أنواع:

الأول: مفهوم النفي والاستثناء، مثاله: -لا إله إلا الله- وهو أعلاها، وبعضهم يعده من قبيل المنطوق.

يقول صاحب نظم منظومة مراقي السعود:

أعـــلاه لا يرشــــد إلا العلمـــا فمـــا لمنطـــوق بـــضعف انتمـــى

الثاني: مفهوم الشرط.

الثالث: مفهوم الصفة.

الرابع: مفهوم الظرف.

الخامس: مفهوم العدد، ويأتي في مؤخرتها.

السادس: مفهوم اللقب، وهو أضعفها ولا يحتج به، واليه أشار ناظم المراقي بقوله:

أضـــعفها اللقـــب وهْـــو مـــا أُبـــي من دونـــه نظـــم الكـــلام العربـــي

والمعنى أنه لا يستفاد من اللقب إلا انتظام الكلام ليعرف المراد.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ} [(١١) سورة النساء] إلى آخره، الأبوان لهما في الميراث أحوال:

أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب.

الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم والحالة هذه الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم وهو الثلثان، فلو كان معهما والحالة هذه زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف، والزوجة الربع، ثم تأخذ الأم بعد فرض الزوج والزوجة ثلث الباقي في المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما، وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب ثلثيه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ما ذكره ابن كثير من كون الأم تأخذ ثلث المال الباقي في الصورة الثانية، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وبهذا الاعتبار يكون نصيب الأب -زوج الأم- غالباً أكثر من نصيب الأم، والعلة ما ذكرناه من أن الرجل ينتظر الزيادة دائماً والمرأة تنتظر النقص دائماً، وخالف في المسألة ابن عباس -رضي الله عنهما- إذ يرى أنها تأخذ ثلث المال من أصله، لا ثلث الباقي.

والحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة، سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم.

كما يدل عليه إطلاق الإخوة في الآية {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ}.

فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس.

وهذا ما يسمى بحجب النقصان، وإنما نقص نصيب الأم ليزيد نصيب الأب لكونه صاحب النفقة، ومشاقّ البيت ومتطلباته غالباً تكون على كاهله، فكانت هذه الزيادة في سهمه؛ ليستعين بها على تكاليف من كلف بالقيام على شئونهم، والله أعلم.

فيفرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي، وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

وبعض أهل العلم ينقل الإجماع على هذا، ولم يخالف في المسألة إلا ابن عباس.

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث، ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ونفقته عليهم دون أمهم، وهذا كلام حسن.

والجد بمنزلة الأب فيحجب الإخوة وهو قول أبي بكر وأبي الدرداء ومعاذ وعائشة –رضي الله عنهم- وكثير من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وخالف في هذه المسألة علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وجماعة -رضي الله عنهم- فروا أن الإخوة الأشقاء أو لأب يرثون مع الجد، وهذه المسألة من المسائل القليلة التي اختلف فيها الصحابة -رضي الله عنهم-.

وقوله: {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ} أجمع العلماء سلفاً وخلفاً أن الديْن مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة.

وفي قراءة ابن كثير وابن عامر وعاصم بفتح الصاد **{مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا}**، وللعلماء كلام في تقديم الوصية على الديْن في الآية، مع أن الدين في الأصل مقدم على الوصية، فبعض أهل العلم يرى أن التقديم بالذكر لا يدل على شيء في الآية؛ لأن المقصود هو التقديم على قسم الميراث، فينظر إلى الوصية والدين الذي على الميت فيخرج ذلك قبل أن يقسم المال على الورثة، ولا اعتبار للترتيب الوارد في الآية.

وقال آخرون: قدمت الوصية؛ لأنها دون الدين، وهي حق لغير الورثة، وعادة ما تكون من حظ الفقراء والمساكين فيخشى أن تضيع أو يفرط بها لانعدام المُطالِب، أما الدين فهو حق ثابت يتعلق بالغير له مطالبين به وعليه حجة غالباً.

وقيل: قدمت الوصية لكثرة وقوعها، فإن غالب من يترك مالاً يوصي، فقدمت لهذا الاعتبار.

وقيل: قدمت الوصية؛ لأنها ناشئة من الميت، بخلاف الدين فهو شيء واقع حاصل ثابت ما ينسى ولا يضيع.

وقيل: قدمت الوصية؛ لكونها تُخرج بلا عوض فأشبهت الميراث، والذي يخرج بلا عوض عادة ما تتباطأ النفوس في إيفائه، وتتثاقل الهمم في إخراجه.

فهذه أمور يلتمسها بعض العلماء -رحمهم الله- في سبب تقديم الوصية على الدين، والله أعلم بالصواب.

وقوله: {آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً} [(١١) سورة النساء] أي: **إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث، على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد، وللوالدين الوصية كما تقدم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع -الدنيوي أو الأخروي أو هما- من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس، ولهذا قال{آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً}** أي: **كأن النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر، فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم.**

فلا يدرى الإنسان من هو أقرب له نفعاً في الدنيا والآخرة الآباء أو الأبناء؟ فقد ينفعه أحدهما أكثر من الآخر والعكس محتمل، فربما يكون الولد هو من ينفع الأب، وربما يكون الولد هو المنتفع من الأب كما قال

-سبحانه-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [(٢١) سورة الطور]، وبناء على ذلك فإن الله -عز وجل- قد فرض في الميراث لهؤلاء وهؤلاء جميعاً.

وقوله: {فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ} أي: هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو فرض من الله حكم به وقضاه.

{وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه، ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا}.

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } [(١٢) سورة النساء].

يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد.

وإن نزل، كولد الولد، وابن الابن حكمه حكم الولد.

{فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ} وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية، ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب.

ثم قال: {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ} إلى آخره، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان، الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه.

وقوله: {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ} إلى آخر الكلام عليه كما تقدم.

وقوله تعالى: {وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً}

أشهر ما قيل في إعراب الكلالة أنها منصوبة على الحال، أي حال كونه ذا كلالة.

الكلالة: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه. والمراد هنا من يرثه من حواشيه، لا أصوله ولا فروعه كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-: أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة: من لا ولد له ولا والد، فلما ولي عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: إني أستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه، رواه ابن جرير وغيره.

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، فسمعته يقول: القول ما قلت، فقلت: وما قلت؟ قال: الكلالة: من لا ولد له ولا والد. وهكذا قال علي بن أبي طالب وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما-، وصح من غير وجه عن ابن عباس، وزيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم-، وبه يقول الشعبي، والنخعي، والحسن البصري، وقتادة،

وجابر بن زيد، والحكم، وبه يقول أهل المدينة، وأهل الكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور السلف والخلف بل جميعهم، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد.

وقالت طائفة: الكلالة اسم للميت نفسه الذي لا ولد له ولا والد.

وقيل: تطلق على هؤلاء الوارثين بهذه المثابة، يعني الحواشي.

وقيل: تطلق الكلالة على نفس المال الذي يعطى لهؤلاء الحواشي.

والصواب أن أحسن ما تفسر به الكلالة، وأشهر ما قيل في معناها هو ما نقله الحافظ ابن كثير، واشتقاق الكلالة من الإكليل الذي يحيط بالرأس ولا يعلو عليه، فكأن الورثة ما عدا الولد والوالد قد أحاطوا بالميت من حوله لا من طرفيه أعلاه وأسفله كإحاطة الإكليل بالرأس، وأما الوالد والولد فهما طرفا الرجل فإذا ذهبا كان بقية النسب كلالة.

والإطالة في معرفة تفاصيل هذه المسألة يعتبر من فضول العلم، وفي أحسن أحواله من ملح العلم، فلا يحسن أن ينشغل العبد به.

وقوله تعالى: {وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ} أي: من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-، وكذا فسرها أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- فيما رواه قتادة عنه، {فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}

والإجماع قائم على ذلك.

وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه:

أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم.

فخالفوا القاعدة المطردة أن من أدلى بواسطة لا يرث معه.

الثاني: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء.

فلا يقسم لهم الميراث جرياً على القاعدة العامة في الفرائض أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وهذا بالإجماع.

الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن.

فما زاد على الفروض يأخذوه تعصيباً، بينما الأم إذا وجدت مع أخ واحد فإنها تأخذ الثلث، وإذا وجدت مع مجموعة من الإخوة فإنها تأخذ السدس، ولا تأخذ بقية المال مثل الأب في هذا، وكذلك إذا وجد الابن فإنه يأخذ الباقي تعصيباً، يعني بعد الفروض.

الرابع: أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم.

وقوله: {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ} أي: لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيف، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة.

ويدخل في المنع من نفاذ الوصية ما إذا أوصى بالثلث أو دونه بقصد المضارة، بأن صرح لبعض الناس بذلك فلا تنفذ وصيته.

فمتى سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمته وقسمته، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث))[1].

والملاحظ أن الآية لما ذكرت ميراث الآباء والأبناء لم تتطرق إلى مسألة المضارة، ولعل علة ذلك راجعة كما ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- إلى أن قصد المضارة قليل الورود في ميراث الآباء والأبناء، بخلاف الورثة من الحواشي فإنها كثيرة الوقوع معهم، والله أعلم.

{تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٣-١٤) سورة النساء] أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند عدمه هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولهذا قال: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ} أي: فيها، فلم يُزد بعض الورثة ولم يُنقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته {يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

{وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي: لكونه غيّر ما حكم الله به وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة))[2]، قال: ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ...} إلى قوله: {...عَذَابٌ مُّهِينٌ}.

وروى أبو داود في باب الإضرار في الوصية من سننه، عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار))[3] وقال: قرأ عليّ أبو هريرة من هاهنا: {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ} حتى بلغ {وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب. وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل.

الحديث بهذا السياق مداره على شهر بن حوشب وفيه ضعف، لكن أصل الحديث في الخواتيم ثابت معروف ونصه: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...))[4] إلى آخره.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٢) (٣/٧٣)، والترمذي برقم (٢١٢١) (٤/٤٣٤)، والنسائي برقم (٣٦٤١) (٦/٢٤٧)، وابن ماجه برقم (٢٧١٣) (٢/٩٠٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٦٠٠).

[2] - رواه ابن ماجه برقم (٢٧٠٤) (٢/٩٠٢)، وأحمد برقم (٧٧٢٨) (٢/٢٧٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٣٨٢).

[3] - رواه أبو داود برقم (٢٨٦٩) (٣/٧٢)، والترمذي برقم (٢١١٧) (٤/٤٣١)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢٨٦٧).

[4] - رواه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] برقم (٣١٥٤) (٣/١٢١٢)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [(١٦) سورة النساء]، **كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال:** {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ}: **يعني الزنا،** {مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً }، **فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك.**

هذا المثال مما يستشهد به الأصوليون عند الكلام على مسألة المغيَّى بغاية، هل هو نسخ أو لا؟ ومعلوم أن الغاية تنقسم إلى قسمين:

الأول: غاية محددة بحد، ويضرب لها الأصوليون أمثلة افتراضية مثل لو قال: افعلوا كذا إلى نهاية الشهر، افعلوا كذا إلى نهاية الأسبوع، فإذا انتهى الأسبوع فإنهم لا يطالبون بفعله فلا يكون هذا من قبيل النسخ إجماعاً.

الثاني: غاية غير محددة "مجهولة أو مجملة"، ومثالها المشهور هذه الآية: {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}، وقد جاء في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب الرجم))[5]، وكذلك آية الرجم التي نسخ لفظها وبقي حكمها، فهل هذا مبين للسبيل الذي ذكره الله -عز وجل-، أو أنه من قبيل النسخ بالحكم السابق؟، فالجواب أن يقال: سواء قلنا إن هذا الحكم نسخ أو أنه من قبيل المغيَّى بغاية فلا ضير؛ لأن الحكم الثابت أن البكر تجلد مائة وتغرب عاماً، وأن الثيب ترجم، فلا حاجة للجدل الطويل الذي يذكره بعض الأصوليين عند الكلام على هذه الآية، والله أعلم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم.

وكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخرساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه.

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا نزل عليه الوحي أثّر عليه، وكرب لذلك، وتربّد وجهه، فأنزل الله -عز وجل- ذات يوم، فلما سُرِّي عنه قال: ((خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة))[6]، وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن عبادة بن الصامت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولفظه: ((خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الحدود – باب حد الزنى برقم (١٦٩٠) (١٣١٦/٣).

[6] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٧٦٧) (٣١٨/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير حطان بن عبد الله فمن رجال مسلم.

بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم))[7]، **وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.**

وقوله تعالى: {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا} أي: واللذان يأتيان الفاحشة فآذوهما.

اختلف أهل التأويل في المراد بقوله سبحانه: **{وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ}**، على أقوال:

فقيل: المقصود بها فاحشة اللواط، أخذاً من صيغة التذكير في الآية، وهذا القول فيه بعد.

وقيل: **{وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ}** أي: الرجل والمرأة، وإنما عبر بصيغة التذكير تغليباً للذكور على الإناث كما هي العادة، وهذا أيضاً لا يخلو من إشكال وبعد؛ لأن الله –عز وجل- قال قبلها: **{وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}** [(١٥) سورة النساء] فذكر حكم المرأة دون أن يتطرق إلى سواهن.

وقال بعضهم: إن الآية الأولى في النساء المحصنات فإنهن يمسكن في البيوت؛ لأن جريمتهن أشد، ولذا كانت عقوبتهن أكثر من مجرد الأذى، والثانية في الرجل والمرأة غير المحصنين فإنهما يؤذيان بالشتم والتوبيخ والزجر الشديد، وهذا اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وفيه بعد، وذلك أنه لم تجرِ العادة بتغليب الإناث على الذكور.

وقال بعضهم: إن الآية الأولى في النساء خاصة محصنات وغير المحصنات، بدلالة صيغة التأنيث في الآية، والآية الأخرى وردت في الرجال بصنفيهم المحصنين وغير المحصنين، والمحصن: هو من وطء في نكاح صحيح، يعني بلا شبهة زنا أو نحوه، وهذه القول رجحه جماعة، كالنحاس، واستحسنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، وغير هؤلاء كثير، وهو أقرب هذه الأقوال، ويليه في القوة قول من قال: إن الآية الأولى مختصة بالنساء؛ لأنهن يحبسن، والثانية في الرجال والنساء؛ لأنهم يشتركون في الأذى، وعبر بصيغة الذكور تغليباً كما جرت العادة بتغليب الذكور على الإناث، والله أعلم.

{فَآذُوهُمَا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير وغيرهما: أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم، وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا -لا يكني وكأنه يريد اللواط-، والله أعلم.

وقد روى أهل السنن عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[8].

هذا حكم الله فيمن ارتكب جريمة اللواط.

وقوله: {فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا} أي: أقلعا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت، {فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا} أي: لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له {إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}.

---

[7] - رواه مسلم في كتاب الحدود – باب حد الزنا برقم (١٦٩٠) (٣/١٣١٦).

[8] - رواه أبو داود برقم (٤٤٦٤) (٤/٢٦٩)، والترمذي برقم (١٤٥٦) (٤/٥٧)، وابن ماجه برقم (٢٥٦١) (٢/٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٤٢٢).

وقد ثبت في الصحيحين: ((إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُثرِّب عليها))[٩] أي: ثم لا يعيرها بما صنعت بعد الحد، الذي هو كفارة لما صنعت.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

[9] - رواه البخاري في كتاب البيوع – باب بيع المدبر برقم (٢١١٩) (٧٧٧/٢)، ومسلم في كتاب الحدود – باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى بـــرقم (١٧٠٣) (١٣٢٨/٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [(١٧-١٨) سورة النساء].

يقول -سبحانه وتعالى-: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبْل معاينة الملك الذي يقبض روحه، أي: قبل الغرغرة.

قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة، رواه ابن جرير، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرأوا أن كل شيء عُصي به فهو جهالة عمداً كان أو غيره.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها، قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه، وقال أبو صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: من جهالته عمل السوء.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

هذه الأقوال التي أُثرت عن السلف -رضوان الله عنهم- هي المعتمدة في تفسير هذه الآية، وذلك أن من اجترأ على حدود الله -عز وجل- باقتراف معاصيه فإنه ما قدر الله –جل جلاله- حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، إذ لو عظم الله –عز وجل- في قلبه لأوقفه تعظيمه عن ارتكاب ما يسخطه ويغضبه، ولذا أطلق عليه لفظ الجاهل لهذا المعنى.

وأما القول بأن الجهالة هي بمعنى أن يجهل الإنسان أي: يتعدى، فهذا التفسير لا يتأتى مع تفسير الآية؛ لأن لفظ الآية تبيّن حال العاصين الذين اجترءوا على حدود الله -عز وجل- جهلاً منهم بما يجب له من التعظيم والمهابة والخوف والحياء منه –سبحانه-، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت.

وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب.

وقال الحسن البصري: {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} ما لم يغرغر.

وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر))[1] ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

ووقع في سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، وهو وَهْم، إنما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.

الصواب أن ضابط التوبة من قريب في قوله سبحانه: {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} ما يكون قبل أن تغرغر الروح في الحلقوم، بمعنى أنها تتردد في أعلى الصدر، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا عمه أبا طالب في مرض الموت إلى الإسلام، ولما مرض الغلام اليهودي أتاه النبي -صلى الله عليه وسلم- يعوده وهو بالموت، فقعد عند رأسه فقال له: ((أسلم))، فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه بي من النار))[2]، أما إذا وصلت الغرغرة الحلقوم، وعاجل العبد السكرات فإنه لا ينفعه حينئذ إيمانه ولا توبته. والله أعلم.

قال تعالى: {فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم.

الغلاصم: الحلق، وقد يطلق على أقصى الحلق حيث يكون ما بعده المنحدر إلى الجوف.

فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص، ولهذا قال: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ} [(١٨) سورة النساء]**، وهذا كما قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...}** [(٨٤) سورة غافر] **الآيتين، وكما حكم -تعالى- بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا...}** [(١٥٨) سورة الأنعام] الآية.

وقوله: {وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو العالية والربيع بن أنس {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} قالوا: نزلت في أهل الشرك.

روى الإمام أحمد عن أسامة بن سلمان: أن أبا ذر -رضي الله تعالى عنه- حدثهم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب))، قيل: وما وقوع

---

[1] - رواه الترمذي برقم (٣٥٣٧) (٥/٥٤٧)، ورواه ابن ماجه ولفظه ((إن الله -عز وجل- ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر)) برقم (٤٢٥٣) (٢/١٤٢٠)، وأحمد برقم (٦١٦٠) (٢/١٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣١٤٣).

[2] رواه أبو داود برقم (٣٠٩٧) (٣/١٥٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٠٩٥).

الحجاب؟ قال: ((أن تخرج النفس وهي مشركة))[1]، **ولهذا قال الله تعالى**: {أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} **أي: موجعاً شديداً مقيماً.**

هذا الحديث يفسر الآية، لكن لا يخلو من ضعف، والله أعلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً} [(١٩-٢٢) سورة النساء].

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا}، **قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك**: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا}.

هذا هو سبب النزول أن أولياء الميت في الجاهلية كان الواحد منهم يسبق إلى المرأة فيلقي عليها ثوباً فيكون قد وضع يده عليها بهذا الاعتبار، ثم بعد ذلك يكون بالخيار إن شاء تزوجها إن كان له رغبة فيها، وإن شاء أمسكها حتى تفتدي بأن تعيد لهم المهر الذي دفعه زوجها لها، أو تدفع لهم نصيبها من الميراث؛ لئلا يتفرق ميراثهم ويذهب إلى الآخرين بزعمهم، أو يبقي عصمتها تحته فلا تتزوج إلا بأمره، ولا يوافق على تزويجها إلا إذا دفعت له الصداق الذي يعطيها إياه الزوج الجديد، أو غير ذلك مما يفعلونه من أنواع المظالم، فإن فرت ووصلت بيت أهلها قبل أن يلقي عليها ثوباً تكون بذلك قد ملكت أمرها، وتصرفت في شأنها، ولا لأحد يد عليها من أقارب زوجها.

ومما تفسر به الآية ما صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنهم كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل وترك زوجة ألقى عليها حميمه ثوباً فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت ذميمة حبسها حتى تموت فيرثها، وهذا يعنى أن نفس المرأة تكون ميراثاً ومن جملة تركة الميت.

وجاء أيضاً عن سهل بن حنيف -رضي الله عنه- كما عند النسائي في السنن الكبرى بإسناد حسنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية فأنزل الله: {لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا}.

وفي لفظ عند أبي داود: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، فنهاهم الله –عز وجل- عن ذلك، وتوارد هذه الروايات يؤكد أنهم كانوا يفعلون هذه الأمور جميعاً. والله أعلم.

---

[1] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٥٦٢) (٥/١٧٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لجهالة ابن نعيم...، ويغني عنه قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يقبل توبة العبد...)).

وقوله: {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد.

العضل يقع على صور عديدة ومنه:

أن يعضل الرجل ابنته وموليته من التزوج لأجل الخدمة، أو للانتفاع مما تتقاضاه من الأجرة مقابل عملها، وهذه الصورة وإن لم تكن مرادة في الآية إلا أنها من صور العضل المحرم.

ومن صوره: أن يعضل الرجل امرأته الناشز المترفعة عن طاعته حتى تفتدي منه، فهذه الصورة وإن كانت جائزة إلا أن الأولى أن يترفع الزوج عنها عملاً بقوله سبحانه: **{وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}** [(٢٣٧) سورة البقرة].

وصورة أخرى: أن يمنع أولياء المرأة المطلقة أن ترجع إلى زوجها الأول إذا حصل التراضي بينهما، وهذا لا يجوز. وقد سبق الكلام عليه.

وقالت طائفة: إن الصورة المرادة من الآية مرتبطة بما سبق من قوله سبحانه: **{لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ}** فيكون المعنى: لا تمنعها من التزوج من أجل أن ترد الصداق الذي أعطاه إياها قريبك لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن؛ ومعلوم كما سبق أن أولياء الميت في الجاهلية كان الواحد منهم إذا سبق إلى المرأة ألقى عليها ثوباً فمنعها من الزواج حتى تفتدي منه.

لكن يرد على هذا التفسير أن الله -عز وجل- قال بعدها: **{إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** فهل يعتبر هذا قيداً يُحل له أن يمنعها من الزواج في حال مجيئها بفاحشة مبينة؟ هذا فيه إشكال وإن كان قال به جماعة من أهل العلم.

والظاهر أن ما ذكره ابن كثير في تفسير العضل بقوله: أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها... هو المراد، فإذا كان الرجل لا رغبة له بالمرأة فالأولى أن يطلقها ولا يجوز له أن يبقيها على وجه المضارة من أجل أن تفتدي، وإنما يجوز له ذلك إذا كانت تسيء عشرته وتترفع عن طاعته، ويكون هذا هو معنى قول الله -عز وجل-: **{إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}**.

فالفاحشة المبينة في الآية: النشوز، وهو الترفع عن طاعة الزوج، وسوء العشرة معه، والتطاول عليه وما أشبه ذلك، وابن جرير -رحمه الله- يحمل الآية على العموم، فأدخل الزنا والترفع عن طاعة الزوج وما أشبه ذلك في الفاحشة.

والفاحشة: هي الذنب، وتطلق في عرف الاستعمال غالباً على الزنا، وما في معناه كقوله تعالى: **{أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}** [(٨٠) سورة الأعراف]، وتطلق أيضاً على الذنب العظيم، والنشوز وعقوق الزوج والترفع عن طاعته، كما قال الله -عز وجل-: **{يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}** [(٣٠) سورة الأحزاب]، فُسرت الفاحشة هنا بعقوق الزوج، والترفع عن طاعته وأذيته وما أشبه ذلك، والله -عز وجل- يقول في المطلقات: **{وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** [(١) سورة الطلاق]، قال أهل التفسير: الفاحشة المبينة هي التطاول على الزوج والأحماء والإساءة إليهم، فيكون ذلك مستثنى، فالحاصل أنه لا يلزم أن تفسر الفاحشة بالزنا.

ومن أهل العلم من يجعل لفظ الفاحشة على ثلاثة أنواع:

- إذا عرفت بـــ"أل" فهي الزنا وما في معناه.
- وإذا ذكرت منكرة كان المقصود بها الذنب العظيم.
- وإذا قيدت بالبيان فُهم المراد من السياق، فالفاحشة في هذا الموضع من الآية هي بمعنى عقوق الزوج، والنشوز عن طاعته، وهذا الكلام قد لا يكون دقيقاً في كل المواضع.

والخلاصة أن الآية تتحدث عن قضيتين:

الأولى: ما كان يتعامل به أهل الجاهلية مع زوجة قريبهم بعد موته.

الثانية: خطاب من الله –عز وجل- للأزواج فيما ينبغي من التعامل الحسن مع النساء كما قال الله -عز وجل-: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [(١٩) سورة النساء] فإذا كان هذا الإنسان لا رغبة له فيها فهو بالخيار إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أما عضلها من أجل أن تفتدي منه فلا يجوز له إلا إن أتت بفاحشة مبينة فله ذلك، والله أعلم.

وقوله: {إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وعطاء الخرساني والضحاك وأبو قلابة وأبو صالح والسدي وزيد بن أسلم وسعيد بن أبي هلال: يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتُضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} [(٢٢٩) سورة البقرة] الآية، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعكرمة والضحاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان.

واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تُبْرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم.

إذا أفسدت فراشه وقذرته بالزنا فله الحق أن يطالبها بالمهر الذي أعطاها، بل يرى الإمام مالك -رحمه الله- أن للزوج الحق إذا كانت امرأته ناشزاً أن يأخذ كل ما تملك، والمسألة فيها خلاف معروف، هل له أن يأخذ كل ما دفع، أو دونه، أو أكثر منه، أو بحسب ما يتفقون عليه، الله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [(٢٢٨) سورة البقرة]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))[1]، وكان من أخلاقه -صلى الله عليه وسلم- أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: ((هذه بتلك))[2].

---

[1] رواه الترمذي برقم (٣٨٩٥) (٧٠٩/٥)، وابن ماجه (١٩٧٧) (٦٣٦/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٦٢٥).

[2] - رواه أبو داود برقم (٢٥٨٠) (٣٣٤/٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٢٩٦٣).

حملت اللحم: يعني سمنت وامتلأ جسمها.

ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء، وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤانسهم بذاك -صلى الله عليه وسلم-، وقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [(٢١) سورة الأحزاب].

وقوله تعالى: {فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} أي: فعسى أن يكون صبركم -مع إمساككم لهن وكراهتهن- فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: ((لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر))[1].

ما نقل عن ابن عباس هو من باب التفسير بالمثال، وإلا فالمعنى أعم، وهنا قضيتان يتعزى المرء بهما:

الأولى: أن هذه المرأة التي قد لا يتلاءم الرجل معها في بعض الأمور، قد تكون سبباً لفلاحه دنيا وآخرة، وربما يجري الله -عز وجل- على يديها ألواناً من الخير، ويدفع عن العبد بسببها نقماً أو نحوها، مصداق ذلك قوله تعالى: **{فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}**، فهذه الأمور ينبغي أن تكون أشبه بالأساسات في التفكير في المعاشرة الزوجية.

القضية الأخرى التي يتعزى بها المرء في المعاشرة الزوجية: هو ما جاء على لسان المصطفى –صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((إن المرأة خلقت من ضلع، وأن أعوج شيء في الضلع أعلاه))[2] فالرجل إذا أدرك طبيعة المرأة وسجيتها وتعامل معها على أساسه، استراح في حياته وأراح، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهن أكثر أهل النار، فلما سئل بِمَ؟ قال: ((تكفرن العشير وتكثرن اللعن، لو أحسنت إلي إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط))[3]، فهذه طبيعة غالبة لدى كثير من النساء لكنها إلى حد معين، ولذا كان من أهم الأشياء التي تتجاوز بها المشكلات عند التعامل مع الناس أن يعرف الإنسان طبيعة من يتعامل معه فيعامله بمقتضى ذلك.

وأما معنى قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((لا يفرك مؤمن مؤمنة))، أي: لا يبغض، وخلق الموازنة بين المحاسن والمساوئ عند الزوجين ينحل به كثير من الإشكال والنفور الذي يقع بينهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} [(٢٠) سورة النساء].

---

[1] - رواه مسلم في كتاب الرضاع – باب الوصية بالنساء برقم (١٤٦٩) (١٠٩١/٢).

[2] رواه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة] برقم (٣١٥٣) (١٢١٢/٣)، ومسلم في كتاب الرضاع – باب الوصية بالنساء برقم (١٤٦٨) (١٠٩٠/٢).

[3] رواه البخاري في كتاب الحيض – باب ترك الحائض الصوم برقم (٢٩٨) (١١٦/١).

أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال.

هذا في حال ما إذا كانت الرغبة عنها ناتجة ومبتدأة منه.

وقد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته هاهنا، وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أبي العجفاء السلمي قال: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- يقول: ألا لا تغلوا في صداق النساء فإنها لو كانت مَكرُمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما أصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- امرأة من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليبتلى بصَدُقَة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: كَلِفتُ إليك عَلَق القِربة.

عَلَق القِربة: وهو حبل تعلق به، أي: تحملت لأهلك كل شيء حتى علق القربة، ويقال في أمر يوجد فيه كلفة ومشقة، ولذلك لا يتحمل أن يرى منها تقصيراً، ويريد امرأته أن تكون كاملة في كل شيء.

ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الحافظ أبو يعلى عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- منبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صُدُق النساء!!، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه والصَّدُقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليه، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا النساء صداقهم على أربعمائة درهم، قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا} [(٢٠) سورة النساء] **الآية؟ فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب، قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوي.**

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله-: وقال الله تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} [(٢١) سورة النساء] أي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد والسدي وغير واحد: يعني بذلك الجماع.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: ((الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟)) ثلاثاً، فقال الرجل: يا رسول الله مالي؟ يعني -ما أصدقها- قال: ((لا مال لك، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها)) [١] **ولهذا قال الله تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الاستفهام في قوله سبحانه: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ} استفهام استنكاري، وأما الإفضاء في قوله: {وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} فأصله المخالطة، يقال للشيء المختلط: فضاء، ويقال: القوم فوضى وفضاء، أي: مختلطون لا أمير عليهم، وفسر الإفضاء في الآية بأنه الخلوة، وقالت طائفة: الإفضاء بأن يكون معها في لحاف واحد جامَعَ أو لم يجامع، وفسر بأجلى صوره وهو الجماع، فالإفضاء يكون بهذه الألوان من المخالطة، وغايته الجماع.

ولذلك لما قال الله -عز وجل-: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [(٨) سورة الممتحنة] عدى الفعل تقسطوا بإلي؛ وذلك لأنه مضمن معنى الإفضاء إلى هؤلاء الكفار الذين لم يقاتلوا في الدين، والخلاصة أن الإفضاء قد يفسر في كل مقام بحسبه، إلا أن أصله يبقى بمعنى المخالطة، والله أعلم.

وقوله: {وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير أن المراد بذلك العقد، وفي صحيح مسلم عن جابر -رضي الله عنه- في خطبة حجة الوداع: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال فيها: ((واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)) [٢].

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الطلاق - باب قول الإمام للمتلاعنين: ((إن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب؟)) (٥٠٠٦) (ج ٥ / ص ٢٠٣٥) ومسلم في كتاب اللعان (١٤٩٣) (ج ٢ / ص ١١٣٠).

[2] - رواه البخاري في كتاب النكاح – باب الوصاة بالنساء برقم (٤٨٩٠) ورواه مسلم في كتاب الحج – باب حجة النبي –صلى الله عليه وسلم- برقم (١٢١٨).

أصل الميثاق: العهد، وحمل الحافظ ابن كثير –رحمه الله- الميثاق في الآية على العقد، وهذا لا يعارض القول بأن الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان هو مقتضى العقد، وقد ذكرت طائفة من أهل العلم كابن جرير وغيره أنهم كانوا إذا تزوج الرجل يقولون له: عليك عهد الله وميثاقه أن تمسك بمعروف أو تسرح بإحسان، أو كلاماً نحوه، وكلا التفسيرين صحيح، ومعلوم أن مجرد الإيجاب والقبول بين الرجل والمرأة يوجب علي الرجل أن يمسك بمعروف أو يفارق بإحسان، والله أعلم.

وقال تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء} [(٢٢) سورة النساء] الآية، يحرم الله –تعالى- زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها وهذا أمر مجمع عليه، وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فأنزل الله –تعالى-: {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء} [(٢٢) سورة النساء]، {وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ} [(٢٣) سورة النساء]، وهكذا قال عطاء وقتادة.

أورد أهل التفسير في إعراب "ما" في قوله سبحانه: {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء} وجهين من الإعراب:

الأول: أنها مصدرية، والمعنى: لا تنكحوا نكاح آبائكم للنساء إلا ما قد سلف، فيكون المنهي عنه طريقة الآباء في النكاح زمن الجاهلية، والذي من جملته التزوج بزوجة الأب، ولم يعهد بين أهل الجاهلية هذا النوع من الزواج عن جميعهم، ولذا كانوا يمقتونه ويسمونه نكاح المقت، ويطلقون على الرجل المتزوج بزوجة أبيه "الضيزن"، فهو عمل بغيض عندهم، وهذا المحمل هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والذي حمل القائلين من أهل العلم على هذا القول هو أن لفظة [ما] تأتي في الأصل لغير العاقل، وقد يعبر بها في حالات عمن يوصف بالعقل، وذلك إذا كان من باب التغليب، فيغلب من يعقل على من لا يعقل مثلاً، أو بحسب الكثرة؛ لأنه أكثر...، لكن هنا حصر ذلك كله في صنف واحد وهو النساء.

الثاني: أنها موصولة، والمعنى على ذلك لا تنكحوا الذي نكحه آباؤكم من النساء.

قوله سبحانه: {إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ} يمكن أن يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى أن ما قد مضى قبل نزول التشريع فإن الله لا يؤاخذ به كما تدل عليه الآيات الكثيرة، وقد استنبط الحافظ ابن القيم من الاستثناء في الآية أن أولاد الرجل من زوجة أبيه قبل نزول الحكم تثبت لهم أحكام النكاح من ثبوت الفراش ولحوق النسب، ولا يعتبر النكاح نكاح شبهة، يقول في كتابه –البديع- بديع الفوائد: "وأحسن من هذا عندي أن يقال: لمّا نهى سبحانه عن نكاح منكوحات الآباء أفاد ذلك أن وطأهن بعد التحريم لا يكون نكاحاً البتة، بل لا يكون إلا سفاحاً فلا يترتب عليه أحكام النكاح من ثبوت الفراش ولحوق النسب بل الولد فيه يكون ولد زنية، وليس هذا حكم ما سلف قبل التحريم، فإن الفراش كان ثابتاً فيه والنسب لاحق، فأفادا الاستثناء فائدة جليلة عظيمة، وهي أن ولد من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا، والله أعلم".

فهو حرام في هذه الأمة مُبشّع غاية التبشّع، ولهذا قال تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً}، وقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام]، وقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [(٣٢) سورة الإسراء]، فزاد هنا {وَمَقْتًا} أي: بغضاً، أي: هو أمر كبير في نفسه،

ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس -صلوات الله وسلامه عليه-.

فهذا ملحظ في العلة التي لأجلها نهي الأبناء عن تزوج زوجات آبائهم، والملحظ الآخر أن كف الأبناء عن تزوج نساء آبائهم هو مقتضى التعظيم، ولذا فإن العرب كما سبق كانت تسمي الذي يزاحم أباه في امرأته "الضيزن"، ويمكن أن يكون ذلك من جهة أن الله -عز وجل- يمقت هذا الصنيع ويبغضه، والمقت هو أشد البغض.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: {وَمَقْتًا} أي: يمقت الله عليه.

بمعنى يبغض فاعله، وهذا هو المعنى المتبادر.

{وَسَاء سَبِيلاً} أي: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال.

يقيد أهل العلم إطلاق حكم الردة عليه في حالة استحلاله لذلك، وأما إذا فعله لغلبة هوى أو نحوه بدون استحلال فلا يطلق عليه حكم الردة، وإن كان فعله منكراً عظيماً وتجرؤاً شنيعاً وإجراماً فظيعاً، وهذا لا يعنى أن الإنسان لا يكفر بالعمل إلا إذا استحل، إذ هناك أعمال إذا فعلها المرء يكفر ولو لم يستحل، إلا أن هذه المسألة ليست منها، والله أعلم.

كما روى الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- عن خاله أبي بردة، وفي رواية: ابن عمر، وفي رواية: عن عمه: أنه بعثه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله[3].

فالخلاصة أن امرأة الأب وزوجة الابن تحرم على بعضهما بمجرد العقد سواء حصل الدخول أو لم يحصل، إجماعاً بين أهل العلم واتفاقاً.

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(٢٣-٢٤) سورة النساء] هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاعة، والمحارم بالصهر،

---

[3] رواه الترمذي برقم (١٣٦٢)، والنسائي برقم (٣٣٣١)، وابن ماجه برقم (٢٦٠٨)، وأحمد برقم (١٨٥٨٠) وصححه الألباني في مختصر إرواء الغليل برقم (٢٣٥١).

كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حرمت عليكم سبع نسباً، وسبع صهراً، وقرأ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ} الآية.

وروى الطبري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: يحرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ} فهن النسب.

المحرمات في سياق الآية سبع من جهة النسب وسبع من جهة الرضاع والمصاهرة، أما التي من جهة النسب فهن: الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

وأما التي من جهة الرضاع والمصاهرة فهن: الأمهات من الرضاع، الأخوات من الرضاع، أمهات النساء والربائب، حلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، ومنكوحة الأب، وفي السنة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها.

والعمة: هي كل أنثى شاركت الأب في أصله وإن علا، أو أحد أصليه كأخت الأب وأخت الجد، والخالة: هي كل أنثى شاركت الأم في أصلها وإن علت، أو في أحد أصليها يعني -أختها لأب أو أختها لأم-، وذكروا صورة في الخالة من جهة الأب، وهي: أخت أم الأب "أخت جدتك لأبيك".

وكذلك في التفريع كابن الأخت وابن الأخ وبنت الأخت وإن نزلوا فالحكم واحد لا فرق، وبعض أهل العلم يذكر في العمات صورة أخرى تكون من جهة الأم، وهي أخت أب الأم من جهة الأم، فأبو الأم يكون أباً لك، بدليل أن الله -عز وجل- قال عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ}** [(٨٥) سورة الأنعام] وذكر منهم عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو ولد بنت، ولذا أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه و سلم تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده

قال : ألست تقرأ سورة الأنعام ومن ذريته داود وسليمان حتى بلغ ويحيى وعيسى قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت؛ لذا لمّا بلغ الحجاجَ عن أبي عمرو بن العلاء قوله: إن الحسين -رضي الله عنه- ابن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: لتأتين عليه ببينة من كتاب الله أو لأفعلن بك وأفعلن، فقال له: أو ما تقرأ: **{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ...}** إلى أن قال: **{وَعِيسَى}** فهو ابن بنت، ومع ذلك عده في ذريته، خلافاً لقول الشاعر الذي يقول:

بنونـــا بنـــو أبنائنـــا وبناتنـــا بنـــوهن أبنـــاء الرجـــال الأباعـــد

فهذا قول شاعر لا عبرة فيه.

وقوله تعالى: {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ} أي: كما يحرم عليك أمك التي ولدتك كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين

-رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة))[٤]، **وفي لفظ لمسلم: ((يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب))**[٥].

وإذا حرمت الأمهات المرضعات حرمت أمها وجدتها، وما اختلف فيه أهل العلم هو ما يتعلق بالمصاهرة حينما ترتبط بالرضاع كالابن من الرضاع هل تحرم زوجته عليك، ظاهر الحديث أنها تحرم مع أنها ليست مذكورة من ضمن المحرمات إلا في هذا الموضع على طريق الإجمال لقوله –صلى الله عليه وسلم-: ((يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة))[٦]، والله أعلم.

ولا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وهن فيما يقرأ من القرآن.

معنى قول عائشة: "توفي" بمعني -قارب الوفاة- وهذا يعني أنه تأخر نسخها جداً، ويمكن القول: إنه خفي على بعضهم الحكم لتأخره فلم يعلم به إلا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وفي حديث سهلة بنت سهيل -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة -رضي الله عنهما- خمس رضعات.

ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين، كما قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله: {يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} [(٢٣٣) سورة البقرة].

فشرط الرضاعة المحرمة أن تكون في سن الصغر دون الحولين بنص كتاب الله –عز وجل-، وأما صنيع امرأة أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة مع سالم حيث أرضعته في كبره فقد عدها عامة أهل العلم من الصحابة وغيرهم أنها حادثة عين، ولم يخالف في المسألة إلا عائشة حيث رأت أن الرضاع يحرم ولو كان كبيراً، ولذلك كانت عائشة -رضي الله عنها- إذا أرادت أن تدخل أحداً عليها أمرت إحدى أخواتها بأن ترضعه، ولا يفهم من أمرها المباشرة في الرضاع، وإنما المقصود أن تستخرج له من الحليب ما يعادل خمس رضعات مشبعات، وذهب شيخ الإسلام إلى جواز إرضاع الكبير إذا كان لحاجة.

وقوله: {وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} [(٢٣) سورة النساء] أما أم المرأة فإنها تحرُم بمجرد العقد على ابنتها سواء دخل بها أو لم يدخل.

لأن الله –عز وجل- لم يقيد الوضع بحال، بخلاف الربيبة فقد ورد التقييد كما قال سبحانه: **{وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}** ففرق بين المقامين، وهذا قول الجمهور، وخالف بعضهم في المسألة فرأوا أن أمهات النساء لا تحرم إلا بالدخول مستدلين بظاهر الآية حيث إن الله ذكر القيد في الموضع الآخر ولم يفرق بين بنت الزوجة وبين الأم من هذه الحيثية، والله أعلم.

---

4 - رواه مسلم في كتاب الرضاع – باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، برقم (١٤٤٤) (١٠٦٨/٢).

5 - رواه مسلم في كتاب الرضاع – باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، برقم (١٤٤٧) (١٠٧١/٢).

6 - سبق تخريجه.

وأما الربيبة -وهي بنت المرأة- فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: {وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} في تزويجهن فهذا خاص بالربائب وحدهن.

وأما قوله تعالى: {وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم} فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.

معلوم أن مفهوم المخالفة حجة، لكنه في حالات لا يكون معتبراً، ومن تلك الحالات إذا جاء المنطوق على وفاق الواقع ومن أمثلة ذلك ما جاء في هذه الآية، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [(٣٣) سورة النـــــور].

هذه نزلت على وفاق واقع معين وهو أن عبد الله بن أبي كان له جاريتان أسلمتا، وكان يكرههما على البغاء فنزلت الآية، ولا عبرة بمفهوم المخالفة في هذا الآية كما ينص على ذلك علماء الأصول ويعتبرون الآية خرجت مخرج الغالب، ولذلك لا يفهم من الآية أن لوليها تمكينها من البغاء في حالة إذا لم ترد العفاف والتحصن للعلة السابقة.

وفي الصحيحين أن أم حبيبة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان، قال: ((أو تحبين ذلك؟)) قالت: نعم لست لك بمُخْلِية، وأَحَبُّ من شاركني في خير أختي، قال: ((فإن ذلك لا يحل لي)) قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: ((بنت أم سلمة؟))، قالت: نعم، قال: ((إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن)) وفي رواية للبخاري: ((إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي))[٧] فجعل المناط في التحريم مجرد تزويجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك.

ومعنى قوله: {اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ} أي: نكحتموهن، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- وغير واحد، وقال ابن جريج عن عطاء: هو أن تهدى إليه، فيكشف ويفتش ويجلس بين رجليها.

قوله: "**أن تهدى إليه**" يعني: تزف إليه.

وبعضهم فسر قوله تعالى: **{اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}** باللمس بشهوة، وقيل: النظر بشهوة، وقيل: هو النظر إلى فرجها، لكن المشهور في معنى الدخول أنه الجماع.

قلت: أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها، قال: هو سواء وحسبه قد حرم ذلك عليه بنتها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

---

[7] - رواه البخاري في كتاب النفقات – باب المراضع من المواليات وغيرهن برقم (٥٠٥٧)، ومسلم في كتاب الرضاع – باب تحريم الربيبة وأخت المرأة برقم (١٤٤٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (8)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ} [(23) سورة النساء] أي: وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية؛ كما قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ} [(37) سورة الأحزاب] الآية، وقال ابن جريج سألت عطاء عن قوله: {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ} قال: كنا نحدث -والله أعلم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله -عز وجل-: {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ}، ونزلت: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ} [(4) سورة الأحزاب]، ونزلت: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ} [(40) سورة الأحزاب].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالحلائل: جمع حليلة وهي الزوجة، سميت بذلك لأنها تحل مع زوجها حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة، تتبع زوجها وتنتقل معه حيث انتقل.

وذهبت طائفة إلى أنها من لفظة الحلال فهي حليلة بمعنى محللة، يحل لزوجها أن يستمتع بها، ويمكن أن يكون الوصف شاملاً للطرفين، باعتبار أن كل واحد يحل له أن يستمتع بالآخر كما قال ابن جرير، أو لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه.

والأقرب للسياق القول: إنها التي تكون حلالاً له يستمتع بها ويطؤها، والله تعالى أعلم.

وأما القول بأنها تحل معه حيث حل، أو بأن كل واحد يحل إزار الآخر، وكذا أنها تحل معه في فراش واحد فهذا يمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم.

ويدخل في الحلائل ما كان من جهة الرضاع؛ لعموم قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب))[1] فلا يجوز للإنسان أن يتزوج زوجة ابنه من الرضاع، والله أعلم

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ} {وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ} ثم قال: وروي عن طاوس وإبراهيم والزهري ومكحول نحو ذلك، قلت: معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه.

النصوص المبهمات في كلام السلف يعني الباقية على العموم والإطلاق بدون تخصيص أو قيد، فيدخل في تحريم الحلائل كل زوجة ابن من رضاع أو نسب، ولو أن ظاهر الآية تحدّث عن الابن الصلب دون غيره قال سبحانه: {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ} إلا أن السنة دلت على أن ما كان من الرضاع فحكمه حكم

[1] - رواه البخاري في كتاب الشهادات – باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم برقم (2502) (2/935).

النسب، وأيضاً لا يكون ذلك مقيداً بالدخول كما في الربيبة، بل يشمل الوصفُ المدخولَ بها وغير المدخول بها فتحرم بمجرد العقد عليها، وكذا أمهات نسائكم يدخل فيها كل أم لزوجتك وإن علت من جهة الأب أو من جهة الأم، ولا يكون ذلك مختصاً بالمدخول بها أو غير المدخول بها، والله أعلم.

فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة -كما هو قول الجمهور ومن الناس من يحكيه إجماعاً- وليس من صلبه؟ فالجواب من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)).

وممن نقل الإجماع على تحريم امرأة الابن من الرضاعة ابن المنذر -رحمه الله-.

وقوله تعالى: {وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ} الآية [(23) سورة النساء] أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه، فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف كما قال: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [(56) سورة الدخان]، فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً.

تحريم الجمع بين الأختين من النسب ومن الرضاع، فالإجماع قائم على ذلك، وأما ملك اليمين ففيه خلاف مشهور بين الصحابة -رضي الله عنهم- فقد روي عن جمع منهم كعثمان بن عفان -رضي الله عنه- وابن عباس القول بجواز الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، وقالوا: حرمتها آية وأحلتها آية، فالله -عز وجل- أطلق في ملك اليمين فقال: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** [(5-6) سورة المؤمنون]، فيدخل فيه كل ملك لليمين، وحرمتها آية وهي قوله سبحانه: **{وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}** [(23) سورة النساء]، وتوقف بعض السلف في الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء لتعارض العمومان، ولا بد عند الترجيح في المسألة من أمر خارج ولا يوجد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أعلم ما يرفع الخلاف إلا أن الاحتياط للدين هو مجانبة ذلك، والله أعلم.

وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح.

ومن أسلم وتحته أختان خيّر فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة، روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان فأمرني النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أطلق إحداهما[2].

وقوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(24) سورة النساء] أي: وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن المزوجات.

---

[2] - رواه أبو داود في كتاب الطلاق - باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان (2245) (ج 2 / ص 240) والترمذي في كتاب النكاح - باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده أختان (1130) (ج 3 / ص 436) وابن ماجه في كتاب النكاح - باب الرجل يسلم وعنده أختان (1951) (ج 1 / ص 627) وأحمد في مسنده برقم (18070) (232/4) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1940) فقال -رحمه الله-: "قلت: حديث حسن؛ كما قال الترمذي، وصححه ابن حبان والبيهقي واحتجّ به الإمام الأوزاعي وترك رأيه لأجله وروي العمل به عن عُمَرَ وعلي -رضي الله عنهما-" انظر صحيح أبي داود (ج 7 / ص 12).

الإحصان: أصله التمنع، وله صور: فقد يكون التمنع بالإسلام، فإذا أسلمت فإنها لا يحل فرجها، ويكون بالزواج فإذا تزوجت فلا يحل لأحد أن يطأها غير الزوج ولو كانت أمة، إلا ما حصل بملك اليمين من سبايا الكفار؛ لأن نكاحها الأول ينقطع بسبي المسلمين لها.

ولسبايا الكفار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن تكون مدخولاً بها وهي حامل فإنها لا توطأ حتى تضع الحمل.

الثانية: أن تكون مدخولاً بها غير حامل فإنها تستبرأ بحيضة قبل أن يطأها.

الثالثة: أن تكون بكراً فله وطؤها مباشرة.

وأما ما ذكره ابن كثير في تفسير المحصنات بأنهن ذوات الأزواج فهو الذي عليه كثير من المحققين، وهو اختيار الحافظ ابن القيم –رحمه الله–، وقاله من المعاصرين: الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي –رحمه الله–؛ وعللوا ذلك بأن الله –عز وجل– لما عدد المحرمات ذكر في جملتهن {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء} فقال بعضهم: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء} أي: العفائف المتزوجات الحرائر، وقال آخرون: الحرائر فوق الأربع، ويمكن أن يكون هذا التفسير من باب الملازمة، وابن جرير يحمل الآية على الجميع، والعلم عند الله –عز وجل–.

{إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك.

الاستثناء في الآية على المعنى السابق يكون منقطعاً، وإذا صار المعنى {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء}: يعني والمتزوجات {إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} غير المتزوجات فإن الاستثناء يكون متصلاً، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري –رضي الله تعالى عنه– قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي –صلى الله عليه وسلم– فنزلت هذه الآية: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} فاستحللنا بها فروجهن، وهكذا رواه الترمذي ورواه النسائي وابن جرير، ورواه مسلم في صحيحه.

وقوله تعالى: {كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه.

ويحتمل في نصب {كِتَابَ} أمرين:

أن يكون منصوباً على المصدرية، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، أو يكون منصوباً على الإغراء –بفعل محذوف– والمعنى: الزموا كتاب الله عليكم.

وقوله تعالى: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ} أي: ما عدا من ذكرنا من المحارم هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره.

هذه القراءة بالبناء على المجهول، والمُحل والمُحرم هو الله –جل جلاله–، وفي القراءة الأخرى المتواترة (وَأَحَلَ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ) بالفتح.

وقوله تعالى: {أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري إلى ما شئتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: {مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}.

أصل مسافحين من سفْح الماء، يعني صبه وسيلانه وعبر بذلك عن الزنا لما فيه من السفح المحرم للماء وذلك بوضعه في غير موضعه، والمعنى: أنهم متعففون عن الزنا.

وأما الوطء المحرم فالراجح أنه لا تنتشر بسببه الحرمة؛ لأن الله –عز وجل– أراد بالتحريم ذوات العقود والمتزوجات الزواج الشرعي، وخالف في المسألة بعض الفقهاء فذهبوا إلى أن الوطء المحرم تنتشر بسببه الحرمة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك؛ كما قال تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} [(21) سورة النساء] وكقوله تعالى: {وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} [(4) سورة النساء]، وكقوله: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} [(229) سورة البقرة].

تفسير ابن كثير –رحمه الله– هنا جرياً منه على أن المقصود بالاستمتاع في الآية: التلذذ بالنساء اللاتي تزوجتموهن بنكاح شرعي فالواجب **{فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً}** [(24) سورة النساء]، والمراد بإيتاء الصداق أي المهر كما في الآيات الأخرى، وهذا الذي عليه جماهير أهل العلم سلفاً وخلفاً؛ لأن المعروف أن المهر يؤخذ في مقابل ما استحل من بضعها سواء أعطاها ابتداء قبل أن يستمتع بها أو أخره أو أخر بعضه إلى أجل مسمى بحسب ما يتفقون عليه.

وأما القول: إن المقصود بقوله سبحانه: **{فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ}** يعني نكاح المتعة –وهو العقد المؤقت بوقت معين بحيث ينتهي بانتهاء هذه المدة– فهذا ليس مراداً، وإنما المقصود بذلك النكاح الشرعي المعروف كما قال في الآية الأخرى: **{وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}** [(25) سورة النساء] فسمى الله –عز وجل– المهر في الآيات الأخرى أجراً، فليس لأحد أن يتشبث بهذه الآية، ويقول: إن الأجر المقصود به الأجرة التي تُعطاها المرأة المعقود عليها مدة مؤقتة بأجرة معينة، فلا إشكال في كونه عبر بالأجر عن المهر، فقد جاءت آيات أصرح من هذه الآية تدل على أنه يريد بالأجر المهر، ومن ذلك قوله تعالى: **{فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}** [(25) سورة النساء] وأصرح من ذلك قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** [(50) سورة الأحزاب] وقال تعالى: **{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}** [(10) سورة الممتحنة] فهذه آيات صريحة لا تحتمل نكاح المتعة بحال من الأحوال، وإن كان بعض السلف –رضي الله تعالى عنهم– قد قال: إن المقصود هنا نكاح المتعة –كما نقل ذلك عن ابن عباس –رضي الله عنهما– إلا أنه قد تراجع عن ذلك –رضي الله عنه– ثمَّ إن حمل هذه الآية على نكاح المتعة يجعلها منسوخة؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– حرم المتعة في عام خيبر، ثم أبيحت عام أوطاس بعد الفتح ثم حرمت عليهم في نفس ذلك السفر، كما صح ذلك عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وعلى هذا يكون هذا مثالاً نادراً على ما نسخ مرتين إلا أن كثيراً من أهل العلم –وذكر هذا الحافظ ابن حجر– يرون أنه لا يوجد حكم نسخ مرتين، ويجيبون عن هذا بأجوبة ليس هذا موضع ذكرها.

وكان ابن عباس وأبي بن كعب –رضي الله تعالى عنهم– وسعيد بن جبير والسدي يقرءون: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة) وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة.

قال بعض أهل العلم: إن هذا قول الجمهور، ومعلوم أن بعض أهل العلم في بعض الكتب يتوسع فيقول: وهذا قول الجمهور وهو ليس كذلك، وعلى القول: إنها في المتعة فإن بعض السلف كسعيد بن جبير -رحمه الله- يقول: إن المتعة نسختها آيات المواريث؛ لأن المتعة لا ميراث فيها ولا يترتب على أحكام المتعة إلا الاستمتاع، وبعضهم يقول كعائشة -رضي الله عنها- وبعض التابعين-: نسخها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [(5-6) سورة المؤمنون] وهذه ليست زوجةً، وخلاصة الأمر أن المتعة منسوخة، فلا يجوز لأحد أن يتزوج امرأة بالمتعة، والله أعلم.

والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر[3].

وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أنه غزا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة، فقال: ((يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً))[4].

وقوله تعالى: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} [(24) سورة النساء] معناه كقوله: {وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} الآية [(4) سورة النساء] أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك.

وروى ابن جرير قال: زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال: ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة، يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ.

هذا بناء على التفسير الذي مشى عليه ابن كثير وهو أن المراد بالفريضة المهر الذي يدفعه الزوج عند إرادة الزواج المعروف، فتضع الزوجة جزءاً من المهر المؤخر مثلاً أو تتنازل عنه بالكلية أو تعطيه من المبلغ الذي دفعه إليها برغبتها كل ذلك جائز إن كان ذلك بطيب نفس منها من غير إحراج ولا ضغط ولا إلحاح.

وعلى القول: إن هذه الآية في نكاح المتعة -المنسوخة- فيمكن أن تفسر الفريضة هنا بالأجرة التي أعطاها إياها، والمعنى أنها يمكن أن تضع له منها، أو تزيد له في المدة بحيث إذا اتفق معها على عشر ساعات أو يوم وليلة مثلاً فلها أن تقول له: أزيدك من عندي يوماً وليلة أخرى في المدة، أو أن تضع له شيئاً من المهر.

وقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(24) سورة النساء] مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب نهى رسول الله -صلى الله عليه و سلم- عن نكاح المتعة آخراً (4825) (ج 5 / ص 1966) ومسلم في كتاب النكاح - باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة (1407) (ج 2 / ص 1027).

[4] - أخرجه مسلم في كتاب النكاح - باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة (1406) (ج 2 / ص 1023).

يقول الله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [(24) سورة النساء] يعني أن الله -عز وجل- يعلم ما ينفعكم وما فيه صلاحكم فيشرِّع من الأحكام ما يكون به صلاح معاشكم ومعادكم، فهو عليم لا يخفى عليه شيء، وبالتالي لا يتطرق الخلل بسبب نقص العلم، وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها، وبالتالي لا يقع الخلل من جهة وضع الشيء في غير موضعه، فالله -جل وعلا- أباح المتعة -على القول بأن هذه الآية في المتعة- مدة للحاجة إليها ثم حرمها بعد ذلك بعلمه وحكمته، وإن كانت الآية في النكاح الشرعي المعروف فالمعنى أن الله -عز جل- عليم حكيم فيما شرع لكم من المهور ومن جواز أخذ ما تنازلت عنه المرأة، وما إلى ذلك.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢٥) سورة النساء].

يقول تعالى: ومن لم يجد منكم طولاً أي: سعة وقدرة أن ينكح المحصنات المؤمنات، أي: الحرائر العفائف المؤمنات {فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي: هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد فسر جمهور المفسرين الطَّول بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي: السعة وغنى المال الذي يدفعه مهراً للحرة، وقيل الطَّول: الصبر لمن كان يهوى أمة ولا يجد صبراً عنها، ويخشى أن يقع عليها بالزنا فله أن يتزوجها؛ ليكون ذلك الوقاع بالحلال، وقال بعضهم: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً} أي: يتزوج حرة، ونقل عن بعض الفقهاء -كالإمام مالك –رحمه الله- قوله: إن الرجل لا يحل له أن يتزوج أمة إن كانت تحته حرة، فإن لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج بالأمة، ولكن القول المتبادر الذي عليه عامة أهل العلم أن المراد بقوله سبحانه: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً} أي: سعة يتمكن بها من {أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} أي: الحرائر العفيفات.

والإحصان يتغير معناه بحسب سياق الآية ومعناها فالمراد بالإحصان في هذه الآية غير المراد به في قوله سبحانه: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(٢٤) سورة النساء] إذ المراد بالإحصان هنا: المتزوجات.

وقوله سبحانه: {فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} الفتاة تطلق على الأنثى الشابة، ويشمل الوصف في الآية الكبيرة والصغيرة كما في الحديث: ((لا يقول: عبدي وأمتي، وإنما يقول: فتاي وفتاتي))[1] والمعنى أي: فتزوجوا من إمائكم المؤمنات، والإيمان في الأمة المراد تزوّجها شَرَطه جمهور أهل العلم؛ فلا يجوز التزوج بالأمة الكتابية، مع أن الله –عز وجل- أباح نكاح حرائر أهل الكتاب قال سبحانه: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢٤١٤) (ج ٢ / ص ٩٠١).

الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...} [(٥) سورة المائدة]، وأجاز أبو حنيفة -رحمه الله- نكاح الأمة غير المؤمنة ولم يقل بقول الجمهور بناء على أصوله فهو لا يرى إعمال مفهوم المخالفة، وهذا هو مأخذ المسألة.

وأما مسألة الوطء للأمة فمذهب عامة أهل العلم أن الأمة غير الكتابية –كالمجوسية والوثنية- لا يجوز له أن يطأها بملك اليمين، ولقد ذكر الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله- بأن ذلك لم يخالف فيه إلا طاوس بن كيسان -رحمه الله-، ولكن عند استعراض النصوص نجد أنه لم يرد في مسألة تحريم الوطء للأمة شيء لا في كتاب الله –عز وجل-، ولا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يدل على أنه لا توطأ غير الكتابية، بل كان سبايا العرب عند المسلمين كتابيات وغير كتابيات -كسبايا أوطاس وغير أوطاس- وكانوا يطئونهن ولم ينهاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن وطئهن، وما أمرهم أن يفرقوا أو ينظروا في دينهن، والله أعلم.

ولا يجوز لإنسان أن يتزوج أمته بالإجماع إلا إذا أعتقها فله أن يتزوجها.

وقوله سبحانه: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} يحتمل أن يكون ذلك من جهة النسب يعني يرخص لك في التزوج بالأمة في حال الاضطرار إذا خفت على نفسك العنت -يعني الزنا-، فيجوز أن تتزوج الأمة، وهذا الأمر كانت العرب تنفر منه، والله قد كرهه لهم، فخفف عليهم وطأته بأن جعله في حال الاضطرار، وقالت طائفة: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} يعني أنتم ترجعون في النسب في الأصل إلى آدم -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: {بعضكم من بعض}: أي في الإيمان، فأنتم مشتركون فيه، وهذا بناء على أنه -كما ذكرنا من قول الجمهور- لا يجوز له أن يتزوج بالأمة غير المسلمة ولو كانت كتابية، {بعضكم من بعض}.

ثم قال: {فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ} فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس لعبده أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: ((أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر))[2] أي: زان، فإن كان مالك الأمة امرأة زوّجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لما جاء في الحديث: ((لا تزوج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها))[3].

المقطع الأخير في الحديث من قوله: ((فإن الزانية هي التي تزوج نفسها))[4] لا يخلو من ضعف.

وقوله تعالى: {وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: وادفعوا مهورهن بالمعروف، أي: عن طيب نفس منكم. .

استدل الإمام مالك -رحمه الله- بهذه الآية على أن المهر يكون ملكاً للأمة؛ لأن الله –سبحانه- أمر بأن تعطى هذا المهر، وعدوا هذا الموضع مما يستثنى وقالوا: إنما استحقته مقابل ما استحل من بضعها، والمشهور أن المهر لسيدها وإن أضافه إليها؛ لأن الأمة لا تملك إنما الذي يملك هو سيدها، والله أعلم.

ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن؛ لكونهن إماء مملوكات.

---

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب في نكاح العبد بغير إذن مواليه (٢٠٨٠) (ج ٢ / ص ١٨٨) وأحمد (١٤٢٥٠) (ج ٣ / ص ٣٠٠) والدارمي (٢٢٣٣) (ج ٢ / ص ٢٠٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٣٤).

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح - باب لا نكاح إلا بولي (١٨٨٢) (ج ١ / ص ٦٠٦) وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (١٨٤١) وقال في صحيح ابن ماجه: "إن الحديث صحيح دون جملة الزانية، انظر ضعيف الجامع حديث رقم (٦٢١٤)".

[4] - قال الألباني في صحيح ابن ماجه: إن الحديث صحيح دون جملة الزانية، وأحال إلى كتابه ضعيف الجامع حديث رقم (٦٢١٤).

وقوله تعالى: {مُحْصَنَاتٍ} أي: عفائف عن الزنا لا يتعاطينه.

وفي قراءة الكسائي وهي قراءة متواترة بكسر الصاد {مُحْصِنَاتٍ} يعني لفروجهن.

ولهذا قال: {غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} وهن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة، وقوله تعالى: {وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: المسافحات هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة، ومتخذات أخدان: يعني أخلاء.

وكذا روي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد والشعبي والضحاك وعطاء الخرساني ويحيى بن أبي كثير ومقاتل بن حيان والسدي، قالوا: أخلاء.

والمعنى أن تكون الأمة المراد نكحاها عفيفة ممتنعة من الفاحشة، وهذا أحد المعاني في قوله -تبارك وتعالى-: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام]، وكذا في قوله -جل جلاله- في الفواحش: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...} [(٣٣) سورة الأعراف] فما ظهر، قيل: الزنا علانية ومجاهرة، وما بطن قيل: مع الأخلاء والأخدان.

وقوله تعالى: {فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}.

وفي قراءة حمزة وعاصم: {فَإِذَا أَحْصَنَّ} والمعنى على الأقرب واحد.

المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول -سبحانه وتعالى-: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}، والله أعلم.

وحمّل الإحصان على التزويج هو اختيار جماعة من المحققين، من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالإحصان الإسلام {فَإِذَا أُحْصِنَّ} أي: أسلمن، ولو أخذنا بمفهوم المخالفة بناء على قول الجمهور فإن ذلك يقتضي أن لا حد عليها إذا لم تسلم، ولكن الجمهور يتعقبون ذلك بالقول: إنه لا اعتبار لمفهوم المخالفة في هذا الموضع؛ لأنه معارض بمنطوق السنة الصريح في إقامة الحد، فقد جاء عن أبي هريرة وزيد بن خالد -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال: ((إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير))[5] وثبت من حديث أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر))[6].

إذا تعارض المفهوم والمنطوق قدم المنطوق؛ لأنه أقوى، وابن جرير -رحمه الله- جمع بين القولين فقال: إن قول الجمهور تفسر به قراءة الفتح {فَإِذَا أَحْصَنَّ} أي: أسلمن، وقراءة الضم {فَإِذَا أُحْصِنَّ} بالبناء للمجهول، بمعنى: تزوجن، فجعل معنى كل قراءة يختلف عن الآخر بناء على القاعدة أن القراءتين إن اختلف معناهما

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة - باب إذا زنت الأمة (٦٤٤٧) (ج ٦ / ص ٢٥٠٩) ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٧٠٣) (ج ٣ / ص ١٣٢٨).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب بيع المدبر (٢١١٩) (ج ٢ / ص ٧٧٧) ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٧٠٣) (ج ٣ / ص ١٣٢٨).

فهما بمنزلة الآيتين، ولكن الذي عليه كثير من أهل العلم: أن معنى القراءتين واحد، وهذا هو المتبادر من السياق، والله أعلم.

وقالت طائفة: لا يقام عليها الحد، ولكنها تضرب تأديباً، واستدلوا ببعض الظواهر التي قد لا تخلو من ضعف، ومما يضعف هذا الرأي حديث أبي هريرة السابق، وما روي عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: يا أيها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد -لمن أحصن ولمن لم يحصن- فإن أمة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- زنت فأمرني أن أجلدها، فهذا يدل على أن الأمة يقام عليها الحد سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة متزوجة أو غير متزوجة.

والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعيَّن أن المراد بقوله: {فَإِذَا أُحْصِنَّ} أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومن تبعه.

وقوله: {نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}، يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم.

واختلف المفسرون في المراد بالمحصنات في قوله سبحانه: {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} فقال بعضهم: الحرائر، وقيل: المتزوجات، والمشهور الأول، وكل هذا يبينه السياق، وهذا يدل على أن اللفظة الواحدة يكون لها في كل موضع معنى بحسب السياق، والله أعلم.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ} أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله فحينئذ يتزوج بالأمة.

أصل العنت: الإثم، والعرب تقول ذلك لانكسار العظم إذا انجبر، وقد يراد بالعنت المشقة؛ لكون الإثم سبباً للمشقة، وقد يراد بالعنت الزنا باعتبار أن الزنا سبب للإثم الذي يتسبب عنه المشقة في الدنيا وفي الآخرة.

وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها، ولهذا قال: {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢٥) سورة النساء].

فكره الله –عز وجل- لأهل الإيمان أن يتزوجوا الإماء إلا في حال الضرورة، بخلاف وطء الأمة بملك اليمين فإن أولاده منها أحرار، وينسبون لأبيهم، والله أعلم.

{يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} [(٢٦-٢٨) سورة النساء] **يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها {وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها {وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} أي: من الإثم والمحارم {وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: في شرعه وقدَره وأفعاله وأقواله.**

وقوله: {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا} أي: يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً.

وبعض أهل العلم اقتصر في حمل الآية على الزناة، والمراد أن الله –عز وجل- إنما رخص لكم في التزوج بالأمة تخفيفاً عنكم في حال الضرورة، ومندوحة لكم كي لا تقعوا في هذه الفاحشة -الزنا- ولكي تسلكوا مسالك النزاهة والطهر والنظافة، وفي المقابل يريد عبيد الشهوات الزناة أصحاب الفواحش -ويدخل في الآية اليهود والنصارى ومن تابعهم في ذلك ممن يريدون إفساد المرأة وإخراجها من بيتها، واختلاطها بالرجال، وما إلى ذلك من معاني العري والتهتك والتفسخ- أن تميلوا ميلاً عظيماً.

{يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ} أي: **في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه كما قال مجاهد وغيره.**

{وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} **فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته، وروى ابن أبي حاتم عن طاوس:** {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} أي: **في أمر النساء، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.**

يعني لغلبة الشهوة فيضيع كثيراً من حقه وحق من ولاه الله شئونهم، وهذا التخفيف روعي فيه ضعف الإنسان لكونه لا يصبر عادة على النساء، لأجل ذلك أبيح له التزوج بالأمة في حال الاضطرار، فهذا المعنى في غاية المناسبة.

لكن الأحسن أن يقال: إن الآية عامة كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وجماعة من المحققين، فإن الإنسان خلق ضعيفاً في أصله فخلقه من ماء مهين، وخلق ضعيفاً في نشأته حيث يبدأ طفلاً صغيراً، ثم يبدأ يكبر، ثم يضعف مرة أخرى، وهو ضعيف في بنائه وتكوينه وفي نفسه فرب كلمة أضحكته تارة وأبكته أخرى، ويعجز عن كثير من الأمور التي يتمنى فعلها أو القيام بها، ومن ضعفه أنه لا يصبر عن النساء، فرخص له وروعي حاله، وهذا من رحمة الله -عز وجل- ولطفه بالمكلفين.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا * إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا} [(٢٩-٣١) سورة النساء].

ينهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا.

حتى روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رَضيتَه أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً، قال: هو الذي قال الله -عز وجل-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة]**، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما أنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل أموالنا فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس؟ فأنزل الله بعد ذلك: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...}** [(٦١) سورة النـــور] **الآية، وكذا قال قتادة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمما يدخل في أكل أموال الناس بالباطل أنواع المكاسب المحرمة كالسرقة والرشى وأنواع الحيل وهي المعاملات المغلفة التي تأتي بصيغة شرعية ويراد بها التوصل إلى استحلال المحرم سواء كان ذلك في باب المعاملات أو في غيره، وأيضاً ما يؤخذ في مقابل الشفاعة، فقد ثبت في الحديث الذي حسنة بعض أهل العلم أن ذلك من أبواب الربا، وصورته: أن يتوسط لك في قضية معينة مقابل أن تدفع له خمسة آلاف، وما أشبه هذا من المكوس، وأيضاً ما ذكره الله -عز وجل- عن أهل الكتاب بقوله: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٤) سورة التوبة] وهذا صوره لا تتناهى، وأيضاً ما يأخذه أرباب الطوائف الضالة والنحل المنحرفة كالرافضة والصوفية من الناس المغرر بهم مقابل خرافات وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، فكل هذا من أكل أموال الناس بالباطل.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [(٢٩) سورة النساء] **قرئ تجارة بالرفع وبالنصب وهو استثناء منقطع.**

قرئت تجارة بالرفع على اعتبار "أن تكون" في الآية تامة بمعنى توجد، وبالنصب على اعتبار "أن تكون" ناقصة وتجارة خبر لتكون، وتقدير الكلام إلا أن تكون المعاملة تجارة، أو المعاطاة تجارة فلا حرج عليكم.

وأما الاستثناء في الآية فحكم عليه بأنه استثناء منقطع، لأن ما بعد إلا لم يكن من جنس ما قبلها؛ إذ التجارة عن التراضي ليست من أكل أموال الناس بالباطل، فالمعنى {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} لكن إن أخذتم المال عن طريق التجارة المشروعة بينكم فلا حرج، فإلا بمعنى لكن.

كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسببوا بها في تحصيل الأموال كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [(١٥١) سورة الأنعام].

هذا استثناء منقطع؛ لأن النهي منصب على قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أما إن كانت بحق فهو المستثنى من ذلك كقتل النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه والمفارق للجماعة، وأيضاً ما ورد في النصوص الأخرى التي يقتل فيها الإنسان إذا عمل عملاً معيناً، فهذا كله داخل في الحق كما قال سبحانه: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...} [(٦٨) سورة الفرقان] وقوله سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا...} [(٣٣) سورة الإسراء] فإذاً لم تعد تلك النفس محرمة، فهذا استثناء منقطع.

وأيضاً قوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [(٥٦) سورة الدخان] فهذا استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأنه أراد أنهم لا يذوقون في الجنة الموت، لكن الموتة الأولى التي في الدنيا قد ذاقوها.

وقوله سبحانه: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} قال مجاهد: بيع أو عطاء يعطيه أحد أحداً، واستدل العلماء -رحمهم الله- بهذه الآية على مسألة بيع المكره بغير حق كالمحجور عليه، وبيع المضطر فكره كثير من الفقهاء هذا البيع لانتفاء كمال التراضي.

ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا))[1] وفي لفظ البخاري: ((إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا))[2].

وقوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي: بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل.

حمل ابن كثير قتل النفس على أعم صوره ومعانيه الحسية والمعنوية أخذاً من عموم اللفظ، ومعلوم أن المجتمعين على ملة ودين ينزلون منزلة النفس الواحدة كما قال الله -عز وجل- في بني إسرائيل: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٨٤) سورة البقرة]

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف (١٩٧٣) (ج ٢ / ص ٧٣٢) ومسلم في كتاب البيوع - باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢) (ج ٣ / ص ١١٦٤).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع (٢٠٠٦) (ج ٢ / ص ٧٤٤) ومسلم في كتاب البيـوع - باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين (١٥٣١) (ج ٣ / ص ١١٦٣).

يعني لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً، إلى أن قال: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة] يعني يقتل بعضكم بعضاً.

وحمل ابن جرير -رحمه الله- قوله سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} على قتل الناس بعضهم بعضاً، تنزيلاً للنفوس منزلة النفس الواحدة، وهذا معنىً صحيح يدخل فيه دخولاً أولياً أن يعمد الإنسان إلى نفسه فيقتلها، سواء بإهلاكه نفسه بالمعاصي والذنوب، أو بالموت البطيء كالذي يدخن مثلاً، ويمكن أن يحتج عليه بقوله تعالى: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة]، فسر أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- التهلكة في الآية بالركون إلى الدنيا وترك الجهاد في سبيل الله -عز وجل-، وكما قال ابن عباس: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} إن قطعوا النفقة عن المجاهدين فإن ذلك يؤذن بتقوية العدو وظهوره عليهم فيأخذ ما في حوزتهم من الأموال، ويهلك الحرث والنسل، ويدخل في الآية الإنسان الذي يفعل فعلاً من شأنه أن يؤدي به إلى المخاطر من غير مسوغ شرعي أخذاً من عموم اللفظ، فإن سبب النزول لا يُحصر فيه معنى الآية، وإنما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل هذه المعاني داخلة فيها، والله أعلم.

{إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لما بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكرت ذلك له، فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب! قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يقل شيئاً، وهكذا رواه أبو داود.

هذا الاحتجاج من عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أقره عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يمنع أن يبقى هذا الاستعمال يراد به قتل نفوس الآخرين، والقرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وقد ذكرنا هذا مراراً في مناسبات متعددة.

وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجَأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)) وهذا الحديث ثابت في الصحيحين[3].

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الطب - باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٤٤٢) (ج ٥ / ص ٢١٧٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١٠٩) (ج ١ / ص ١٠٣).

وعن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: ((من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة)) وقد أخرجه الجماعة في كتبهم[4].

ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا} [(٣٠) سورة النساء] أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه، ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه {فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} الآية.

اختلف أهل التأويل في عود الضمير -اسم الإشارة-:

فقالت طائفة: يعود الضمير إلى آخر مذكور وهو قتل النفس، وبعضهم أعاد الضمير إلى آخر مذكورين: أكل أموالهم بينهم بالباطل، وقتل النفس.

وقالت طائفة: إن ذلك يرجع إلى المذكورات قبله من قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا} [(١٩) سورة النساء] وعللوا ذلك بأن الله –عز وجل- من أول السورة لا يذكر نهياً إلا وأعقبه بالوعيد المترتب عليه إلى هذه الآية فما بعدها فلم يذكر وعيداً حتى بلغ قوله سبحانه: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا} والمعنى ومن يفعل من المنهيات والمحرمات التي ذكرت إلى هذا الموضع {فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} واختار هذا القول كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وتوسعت طائفة أخرى من أهل العلم في المعنى أكثر من غيرهم، فجعلوا الضمير عائداً إلى كل المنهيات السابقة من أول السورة حتى هذا الموضع.

والمتبادر من السياق أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور قبله وهو قوله سبحانه: {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}، ويلي هذا القول قوة قول ابن جرير –رحمه الله-، ثم من قال: إن الضمير يرجع إلى كل المنهيات، ووجه القولين الآخرين: ما ذكره الله –عز وجل- من اسم الإشارة الدال على البعيد {ذَلِكَ}، ولم يقل: ومن يفعل هذا عدواناً وظلماً، كما قال الله -عز وجل- في سورة الفرقان: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [(٦٨) سورة الفرقان] أي: من المذكورات قبله {يَلْقَ أَثَامًا...} الآيات، والله أعلم.

{فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب، ممن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...} [(٣١) سورة النساء] الآية أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: {وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا}، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:

روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري ما يوم الجمعة،)).

أراد النبي –صلى الله عليه وسلم- أن يسأل سلمان عن فضل يوم الجمعة، وما يكون للمكلف من الأجور، لا عن سبب تسمية يوم الجمعة بذلك كما فهم سلمان الفارسي -رضي الله عنه-، وهذا واضح من لفظ الرواية.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٥٧٥٤) (ج ٥ / ص ٢٢٦٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١١٠) (ج ١ / ص ١٠٤).

قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم، قال: ((لكني أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة))[٥].

المقتلة: الكبائر التي تهلك صاحبها، والذنوب العظام التي توبق فاعلها، وقد اختلف العلماء في الكبائر فقيل هي: سبع، واحتجوا بقوله -صلى الله عليه وسلم- ((اجتنبوا السبع الموبقات...))[٦] والذي اختاره المحققون كابن تيمية وغيره، وقد ثبت عن جمع من الصحابة -رضي الله عنهم- كما نقل عن ابن عباس قوله: إن الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب، ومن أهل العلم من لا يفرق بين الكبائر والصغائر، ويعد كل الذنوب كبائر؛ لأن الأصل في المرء أن لا ينظر إلى صغر الذنب ولكن ينظر إلى عظمة من عصى، والصواب التفريق في النظر بين الصغائر والكبائر وعلي هذا سار العلماء قديما وحديثا ويشهد للتفريق قوله سبحانه: **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ...}** فاللمم المقصود بها على الأرجح من أقوال المفسرين: الصغائر التي لا يتقصدها الإنسان ولا يصر عليها، كما فهم منها ابن عباس -رضي الله عنه-، وقد صح عن سهل بن سعد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه))[٧] والشُّرَّاح حملوا هذا الحديث على الصغائر، فالإصرار عليها -كما قال أهل العلم- يصيرها كبيرة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

---

[5] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب الجمعة – باب الإنصات للخطبة (١٧٢٥) (ج ١ / ص ٥٣٣) وأحمد (٢٣٧٦٩) (ج ٥ / ص ٤٣٩) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، وفيه زيادة عند الطبراني في الكبير ((وذلك الدهر كله)) تراجع عن تحسينها الألباني، فانظر مختصر كتاب تراجع العلامة الألباني فيما نص عليه تصحيحاً وتضعيفاً (ج ١ / ص ١٤).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا - باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء] (٢٦١٥) (ج ٣ / ص ١٠١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) (ج ١ / ص ٩٢).

[7] - أخرجه أحمد (٢٢٨٦٠) (ج ٥ / ص ٣٣١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: قال أبو جعفر بن جرير –رحمه الله- عن نعيم المجمر أخبرني صهيب مولى العُتْواري أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد –رضي الله عنهما- يقولان: خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً، فقال:: ((والذي نفسي بيده)) -ثلاث مرات- ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر، فكان أحب إلينا من حمر النعم، فقال: ((ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام)) وهكذا رواه النسائي والحاكم في مستدركه من حديث الليث بن سعدبه، ورواه الحاكم أيضاً وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال به ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[١].

(تفسير هذه السبع) وذلك بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: ((الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[٢].

حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال: ((الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين)) وقال: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) قال: ((قول الزور أو شهادة الزور)) قال شعبة: أكبر ظني أنه قال: ((شهادة الزور)) [أخرجاه من حديث شعبة به][٣].

حديث آخر أخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله،

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الزكاة - باب وجوب الزكاة (٢٤٣٨) (ج ٥ / ص ٨) وابن حبان (١٧٤٨) (ج ٥ / ص ٤٣) والحكم (٧١٩) (ج ١ / ص ٣١٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٦١١٠).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا - باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء] (٢٦١٥) (ج ٣ / ص ١٠١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) (ج ١ / ص ٩٢).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب عقوق الوالدين من الكبائر (٥٦٣٢) (ج ٥ / ص ٢٢٣٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٨) (ج ١ / ص ٩١).

وعقوق الوالدين)) وكان متكئاً فجلس فقال: ((ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور)) فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٤].

حديث آخر فيه ذكر قتل الولد، وهو ثابت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ -وفي رواية: أكبر- قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تزاني حليلة جارك)) ثم قرأ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [(٦٨) سورة الفرقان] إلى قوله: {إِلَّا مَن تَابَ} [(٧٠) سورة الفرقان].

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- وفيه ذكر اليمين الغموس:

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين)) أو ((قتل النفس)) -شعبة الشاك- ((واليمين الغموس)) [رواه البخاري والترمذي والنسائي][٥].

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- في التسبب إلى شتم الوالدين: عن عبد الله ابن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)) قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: ((يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)) وهكذا رواه مسلم وقال الترمذي: صحيح[٦].

وثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[٧].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأحاديث وغيرها مما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذكر الذنوب الكبار، كل ذلك يدخل في قوله -تبارك وتعالى-: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ} [(٣١) سورة النساء].

فالكبائر كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إنها إلى السبعين أقرب، يعني منها إلى السبع، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما يقول: ((اجتنبوا السبع الموبقات))[٨] فهذا لا يدل على الحصر بحال من الأحوال، لا من جهة اللغة ولا من جهة الشرع.

والكبائر لا شك أنها تتفاوت كما أن الذنوب عموماً تتفاوت، والجنس الواحد أيضاً من هذه الكبائر يتفاوت، فالإشراك بالله -تبارك وتعالى- ليس كالسرقة مثلاً أو عقوق الوالدين، والزنا بحليلة الجار ليس كالزنا

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب عقوق الوالدين من الكبائر (٥٦٣١) (ج ٥ / ص ٢٢٢٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧) (ج ١ / ص ٩١).

5 - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب قول الله تعالى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [(٣٢) سورة المائدة] (٦٤٧٦)((ج ٦ / ص ٢٥١٩) والترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة النساء (٣٠٢٠) (ج ٥ / ص ٢٣٦) والنسائي في كتاب تحريم الدم - باب ذكر الكبائر (٤٠١١) (ج ٧ / ص ٨٩).

6 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب لا يسب الرجل والديه (٥٦٢٨) (ج ٥ / ص ٢٢٢٨) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠) (ج ١ / ص ٩٢).

7 - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨) (ج ١ / ص ٢٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان قول النبي صلى الله عليه و سلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (٦٤) (ج ١ / ص ٨١).

8 - سبق تخريجه في الحاشية رقم (٢).

بالبعيدة، والزنا بذات المحرم ليس كالزنا بحليلة الجار، مع أن الزنا بذات المحرم ما ذكر، وإنما ذكر الزنا بحليلة الجار؛ لأن الزنا بذات المحرم -والله أعلم- أمر تأباه الفطر ويتباعد منه الإنسان غاية التباعد، ولا يوجد داعيه في النفوس إلا إذا مسخ الإنسان مسخاً كاملاً وصار لا يفرق بين ذات المحرم والأجنبية، بخلاف حليلة الجار فإن الفرصة قد تكون مواتية للتداخل بين الجيران والحاجة والمعرفة، وهو يعرف حال جاره من ضعف وقوة وعجز وسداد رأي وضعف في ذلك، ويعرف مدخله ومخرجه وغيابه، وما إلى ذلك، فهذا أدعى إلى ذلك.

فالحاصل أن ما لم يذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في السبع الموبقات أو في غيرها مما يساويها أو مما هو أعظم منها فإنه داخل في الموبقات، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً ذكر الفرار يوم الزحف من السبع الموبقات، وأعظم من الفرار أن يفشي أسرار المجاهدين وأن يدل عليهم العدو ويخبر عن أماكنهم ونقاط ضعفهم وما أشبه هذا، فهذا أعظم من الفرار؛ لأن الفار يفر بجلده لغلبة الخوف فقد لا يتمالك أقدامه في أرض المعركة فيولي منهزماً، لكن الآخر خطره أعظم من هذا بكثير، فهذا أعظم من الفرار يوم الزحف كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

فالمقصود أن الذنوب العظام مما ذكر ومما يضاهيه أو يزيد عليه مما لم يذكر كله داخل في الكبائر، وكذلك كل ما جاء الوعيد فيه بخصوصه أو التنصيص على أنه من الكبائر، أو أنه من الموبقات أو نحو هذا ولو كان فاشياً وتساهل الناس فيه كعقوق الوالدين وقول الزور ونحو ذلك.

وقول الزور يدخل فيه الكذب على الله -عز وجل-، والتلبيس على الناس، وتبديل حقائق الشرع، وتضليل الخلق، كل هذا من قول الزور ومن أعظم الزور، ويدخل في الزور أشياء كثيرة جداً منها شهادة الزور، لكن شهادة الزور يضيع بها حق واحد، وأما الذي يخرج في قنوات ويضلل الناس ويكذب على الله -عز وجل- ويفتري فهذا أعظم من واحد يأتي للمحكمة ويشهد شهادة زور أن فلان هو ابن فلان، أو أن فلان هو صاحب الأرض الفلانية.

المقصود أن هذه الأشياء في الجنس الواحد منها يتفاوت أفرادها غاية التفاوت، وانتشار هذا لا يؤثر في تقليله أو تصغير الذنب والمعصية، وإن كان أكثر الخلق يقعون في هذا، ومن ذلك العقوق، وأخص عقوق الوالدين؛ لأنه يقع فيه للأسف كثير من المتدينين وغير المتدينين وطلاب العلم.

والعقوق في نفسه أنواع أعلاه القتل ويليه الضرب ويليه الشتم، ثم يأتي بعد ذلك درجات كنفض اليد في وجهه والتقطيب والعبوس والزجر وإخراج الكلمات القوية من نفس محتدمة تبدي الضجر والضيق، كل هذا عقوق، وهو من أكبر الكبائر، ومن الكبائر المنتشرة بين الناس الغيبة، وقلَّ من يسلم منها مع أنها من الكبائر.

{وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [(٣٢) سورة النساء].

روى الإمام أحمد عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث، فأنزل: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} ورواه الترمذي[9].

قوله: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [(٣٢) سورة النساء] يؤخذ من عموم اللفظ أن ذلك المنع يدخل فيه كل ألوان التمني التي لا يحصل بها المقصود والمطلوب، ولا ينتج بها وإنما تكون من قبيل الأماني الفارغة الضارة مما يقع بين الناس عموماً، وليس بين الرجال والنساء فقط، فيتمنى هذا أن يكون في عافية فلان، أو في سؤدده أو يكون له مثل مال فلان، أو نحو ذلك مما لا يوصله التمني فيه إلى المطلوب، وإنما كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- هي أماني البطَّالين، أي أنه لا يعمل عملاً منتجاً ولا يجدّ ولا يجتهد وإنما بضاعته الأماني، فالله -عز وجل- قسم الأرزاق وقسم معها ما قسم مما يعطيه الله -عز وجل- بعض خلقه من أمور كمحبة الناس أو ما أشبه ذلك مما يقسمه الله -تبارك وتعالى- بين الخلائق، فلا يشتغل الإنسان بالأماني، وهذا الذي ذكرته مأخوذ من عموم اللفظ، وإلا فإن الذي يدخل في الآية دخولاً أولياً هو تمني النساء مراتب الرجال؛ لأنه قال: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ} [(٣٢) سورة النساء] فالآية في هذا، وقد يوجد العكس عند بعض من انتكست فطرته، أو يتمنى في بعض الجوانب على الأقل حال النساء كأن يميل إلى الكسل والدعة والضعف ويتمنى أن يكون مثل المرأة يُضمن له النفقة ولا يطالب بعمل، ويُنفق عليه طرف آخر مثلاً، فالمقصود أن الغالب هو أن النساء يتمنين مراتب الرجال وأحوال الرجال في أي باب من الأبواب كأن تتمنى أن تكون لها القوامة أو لها الحرية كالرجل في الذهاب والمجيء وما إلى ذلك بحيث لا تحتاج إلى وصي ولا إلى ولي، وأن تسافر حيث شاءت ولا تسأل، وربما تتمنى أن تكون مثل الرجل في قضاء حاجاتها وأوطارها ولا تنتظر أحداً يذهب بها، وتتمنى أن تكون كالرجل فتعمل في الأعمال الفلانية التي يعمل بها الرجل، كذلك ربما تتمنى ذلك لأمر عند الله -عز وجل- ترجوه من الثواب كأن تتمنى أن تكون رجلاً أو مثل الرجل لتحصل الأعمال الفاضلة كالجهاد في سبيل الله -عز وجل- أو تحصيل الولايات أو ما إلى هذا مما يختص به الرجال، فهذا التمني لا يجدي شيئاً، ولن يغير من الحال لا قليلاً ولا كثيراً، فهو من الأماني الباطلة، والعاقل لا يشتغل بالأماني الباطلة وإنما يشتغل بالعمل المثمر الذي ينفعه في عاجل أمره أو في آجله، فالله -عز وجل- فضل الرجل بقوة البدن مثلاً وبكمال العقل، وفضله بالقوامة، وفضله بأنه هو الذي يذهب ويكتسب وما إلى ذلك من الأمور التي تقتضيه طبيعة الرجل، وفضله في بعض القضايا الشرعية كحضور الجمع والجماعات وشهود الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى- فإذا تمنت المرأة مثل هذه الأشياء وُجهت إلى الاشتغال بما ينفعها كما قال تعالى: {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ} [(٣٢) سورة النساء] والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ} [(٣٢) سورة النساء] أي كلٌّ له جزاء على عمله بحسبه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي: كلٌّ يرث بحسبه.

---

[9] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة النساء (٣٠٢٢) (ج ٥ / ص ٢٣٧) وأحمد (٢٦٧٧٩) (ج ٦ / ص ٣٢٢) وقال الألباني: صحيح الإسناد، انظر كتاب صحيح الترمذي حديث رقم (٣٠٢٢).

إذا قلنا: إن المراد بذلك الميراث مثلاً فالمعنى أن المرأة تتمنى أن تكون مثل الرجل في الميراث لكن الآية لا تُخص بهذا؛ لأن المعنى أعم من ذلك، أي لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض في كلِّ شيء، وتمني المرأة أن تكون مساوية للرجل في الميراث هذا مثال وليس هو فحسب؛ لأن قوله تعالى: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ} [(٣٢) سورة النساء] يعني من الأعمال، ثم إن سبب النزول يدل على هذا، وحديث أم سلمة -رضي الله عنها- لما سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا السؤال نزل فيه آيات، وليس فقط هذه الآية، نزل فيه ثلاث آيات في ذكر النساء، وهذا مثال على السبب الواحد الذي يكون النازل فيه متعدداً، أي تنزل آيات متعددة لسبب واحد، فأم سلمة -رضي الله عنها- سألت النبي -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ} [(٣٢) سورة النساء] فذكرت قضية الغزو مما يتعلق به الثواب، وذكرت الميراث مما لا يتعلق به الثواب وإنما هو شيء قسمه الله -عز وجل- وحكم به، وقال: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [(٣٢) سورة النساء] فيحمل على ذلك جميعاً وسبب النزول يدل عليه، والمقصود أن سبب النزول هنا يدل على التعميم مع أن الغالب أن سبب النزول يتعلق بجزئية معينة، ونقول عندها: العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، وهنا سبب نزول يؤخذ منه أن القضية أعم من هذا.

فقوله: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [(٣٢) سورة النساء] أي مما حكم الله به من أمور تختص بالرجل كالميراث أو قضايا أخرى كحضور الجمع والجماعات والجهاد والولايات وما أشبه هذا أو أمور جِبِلِّيَّة مثل قوة الخلقة وكمال العقل مما يعرف بالتفضيل الوهبي، فتفضيل الرجل يكون وهبياً ويكون كسبياً، والمقصود بالتفضيل الوهبي أي الذي لا يد له فيه، ككمال العقل وكمال وقوة البدن، والتفضيل الكسبي هذا أمر آخر، فالرجل فُضِّل بهذا وفضل بهذا، فعنده من القدر والإمكانات ما ليس عند المرأة، فهي منهية أن تتمنى مثل هذا، فالرجال لهم نصيب مما اكتسبوا سواء كان ذلك من الميراث أو كان ذلك من العمل الذي يعملونه ويتقربون به إلى الله -عز وجل- ويحصلون ثوابه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً كما قال سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [(٩٧) سورة النحل] وقال تعالى: {أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} [(١٩٥) سورة آل عمران].

ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال: {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ} [(٣٢) سورة النساء] أي: لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب.

يعني لو أن المرأة صرفت ذهنها بدلاً من أن تتمنى الأماني الفارغة إلى سؤال الله من فضله فقد يهبها من الفضائل ما لا يحصل لكثير من الرجال، وذلك أنك إذا نظرت في حال بعض النساء تجدها أفضل من كثير من الرجال في قربها إلى الله -عز وجل- وانتفاعها بالقرآن، وانتفاعها بالعلم، وفي بذلها بل حتى في رأيها وسداد قولها وحكمها، كما يحصل لها من التفضيل على الرجل في أمور مما يتعلق بالمكاسب، وما يحصل لها من المال، وما يحصل لها من أمور كثيرة لا تخفى، فالله -عز وجل- هو الوهاب، وحينما يقال: إن الرجال أكمل من النساء وإن الرجال أفضل من حيث ما يقومون به من الأعمال فهذا في الجنس ولا يمنع هذا

من أن يوجد بعض الأفراد ممن تكون امرأته أفضل منه وأسد رأياً، وهي التي تدبره بل هو معها كالطفل، وربما كان هذا كثيراً في هذا العصر حيث صار كثير من الرجال تبعاً لنسائهم، فهي التي تقرر وهي التي تخطط وهي التي تنفق أحياناً، وهو ليس عليه إلا شيء واحد وربما يغلب حتى في هذا.

ثم قال: {إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [(٣٢) سورة النساء] أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [(٣٢) سورة النساء].

قوله: {إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} ليس فقط في من يستحق الغنى والفقر، بل القضية المناسبة هنا في الآية أنه يعلم ما يصلح الرجل وما يصلح المرأة، وما يصلح للرجل، وما يصلح للمرأة، فحينما قسم هذه الأشياء الوهبية أو التي تكون من قبيل العمل المشروع أو نحو ذلك فإن الله -تبارك وتعالى- قسمه وحكم به وأعطاه عن علم تام بما يصلح هذا وهذا، والواقع يشهد على ذلك، والناس لما وصلوا إلى المدى الأقصى في هذا العصر في إخراج المرأة وجعلها تعمل في كل مجال من المجالات أصبحوا الآن يدركون أنهم قد أخطئوا وأن المرأة لا تصلح لكثير من هذا، وأن مقر المرأة ومكانها بيتها، ولكن الناس إذا دخلوا في طريق واسترسلوا واستمرءوا فيه، قد يصعب عليهم الرجوع، فيصبح الناس من طبيعة نظام حياتهم وتكوينهم وأنماط سلوكهم أن المرأة تخرج، ولو أنه أريد لها أن ترجع مرة ثانية لحصل لهم بسبب ذلك خلل كبير؛ لأن نفوسهم قد تروضت عليه، وساروا في طريق لا يستطيعون الرجوع منه.

الشيخ أحمد شاكر في مصر كتب كتابات قال فيها: لن يصلح أمر المرأة إلا بإرجاعها إلى بيتها لكنها كلمة تتلاشى، وهي كلمة حق ولا شك لكن الناس إذا ساروا في طريق فإنه يصعب رجوعهم، فتجد الرجل لا يستطيع أن يسيطر على بيته فيذهب لأشياء هو غير مقتنع بها كأن تواصل المرأة دراستها الثانوية والجامعة، وربما ما بعد الجامعة ثم تتوظف؛ لأن المجتمع يسير هكذا، فإذا أبقاها شعرت بأنها دون الآخرين وأنها محرومة، وأن الناس ينظرون إليها بنظر آخر، فتجد الناس يتجهون بهذا الاتجاه ولو كان يخالف قناعاتهم، ثم تأتي أجيال ترى أن هذا هو الوضع الطبيعي ولا قوامة للعيش إلا به، ومن ثم يكون الرجوع من أصعب الأشياء، بل ربما عده كثير منهم من قبيل المستحيلات، لذلك كان الدفع أسهل من الرفع وسد الأبواب لطرد الشر هو الواجب وهو المطلوب قبل أن يدخل الناس فيما لا يستطيعون الرجوع منه بعد ذلك.

{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} [(٣٣) سورة النساء].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وسعيد بن جُبَير وأبو صالح وقتادة وزيد بن أسلم والسدي والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم في قوله: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} أي: ورثة.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في رواية: أي عَصَبة. قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى.

المولى يطلق بإطلاقات متعددة، فيطلق على المعتِق كما يقال: الموالي الأعلون يعني المعتقين، ويطلق على المعتَق ويقال له: المولى الأدنى، ويطلق أيضاً على الحليف والناصر وتقول: فلان نسب إلى آل فلان بالولاء.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يؤاخي مثلاً بين الأنصار والمهاجرين فهذا نوع ولاء خاص، ولهذا قال الله -عز وجل- بعده: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} [(٣٣) سورة النساء] أي الحليف ونحوه، فمن كان بينك وبينه عهد وحلف أو مؤاخاة فهو من هذا القبيل.

لكن في قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} [(٣٣) سورة النساء] قال ابن عباس وغيره: أي ورثة، وهذا كقوله تعالى: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي} [(٥) سورة مريم] على القول المشهور أن المراد بذلك الورثة.

وعن ابن عباس في رواية: أي العصبة، والعصبة هم من جملة الورثة، والعصبة كأنه مأخوذ من عصبة الرأس، ويراد بهم قرابة الرجل من جهة أبيه ومن الرجال الذين هم كل من يرث من غير تقدير، فقد يكون له فرض لكنه يرث مع الفرض ما بقي من التركة، مثل الأب، والابن، والعم والأخ وما أشبه ذلك، فهؤلاء عصبة.

قوله: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} [(٣٣) سورة النساء] على القول بأن المراد بالموالي هنا العصبات يكون المعنى: لكل جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض، فإذا مات الرجل مثلاً عن أم وزوجة وأب وإخوة، فإن الأم لها السدس، والزوجة لها الربع إن لم يكن له ولد، وما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو الأب هنا.

وهكذا لو مات الإنسان عن ابن وأم وزوجة فالأم لها السدس إن كان له أخوة، والزوجة يكون لها الثمن لوجود الولد، والولد له الباقي تعصيباً.

قال: ويعني بقوله: {مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} [(٣٣) سورة النساء] من تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلِّكم -أيها الناس- جعلنا عصبة يرثون به.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} [(٣٣) سورة النساء] أي: والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة -أنتم وهم- فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك.

بعض أهل العلم يقول: إن هذا كان في الجاهلية، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في تلك الأحلاف والعهود التي كانت في الجاهلية: إنه لا يزيدها الإسلام إلا توثيقاً، وقال: ((لا حلف في الإسلام))[10] فعلى هذا هل يقال هذا في أحلاف الجاهلية، أو يقال في المؤاخاة التي كانت في أول الإسلام حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤاخي بين الرجلين من المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بذلك؟

على هذا أو على الأول يمكن أن تكون الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة الأحزاب: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} [(٦) سورة الأحزاب] أي بما يقع بينهم من المؤاخاة التي يتوارثون فيها من المؤمنين والمهاجرين {إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا} [(٦) سورة الأحزاب]

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الكفالة - باب قول الله تعالى {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} [(٣٣) سورة النساء] (٢١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٠٣) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم (٢٥٢٩) (ج ٤ / ص ١٩٦٠).

وذلك بأن توصي لمن بينك وبينه مؤاخاة بشيء من أملاكك ومن النصيحة التي هي من جملة المعروف، أما الميراث فيكون بين القرابات كما شرع الله -عز وجل-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} [(٣٣) سورة النساء] من أهل العلم من يقول: إن الآية ليست منسوخة، وإن المقصود بها أنهم كانوا في الجاهلية يحصل بينهم هذا التعاقد فالله -عز وجل- قال: آتوهم نصيبهم من النصيحة، ويمكن أن توصي له بشيء دون الميراث، فيكون ذلك تشريعاً جديداً يرفع ما كان الناس يتعاطونه ويتعاملون به في جاهليتهم.

وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نُسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة.

المقصود أن يوفوا بأنواع البر والإحسان الأخرى، دون الميراث.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} [(٣٣) سورة النساء] **قال: ورثة.**

{وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(٣٣) سورة النساء] **كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى النبي -صلى الله عليه وسلم- بينهم، فلما نزلت** {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} **نُسخت.**

ثم قال: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} [(٣٣) سورة النساء]**} من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويُوصي له.**

على كل حال الجمهور يقولون: إن الآية منسوخة بآية الأحزاب: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [(٦) سورة الأحزاب] فقد كانوا يتوارثون بالمؤاخاة.

ومثل ابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على ما كانوا في الجاهلية يتعاقدون به بحيث إنه يتفق مع إنسان أنه يرثه إذا مات والعكس، أي يكون بينهم حلف وتعاهد على التآزر والتناصر وأن يتوارثا، فابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذه الآية دلت على أن هؤلاء يُعطَون نصيبهم من غير الميراث فلا نسخ، وإنما هي رافعة لأمر كانوا عليه في الجاهلية وهذا لا يعتبر نسخاً وإنما هو حكم جديد، وعلى كل حال الآية تحتمل هذا كله، والعلم عند الله -عز وجل- لكن الأصل المقرر الذي لا يختلف فيه هو أنه لا يتوارث الناس بغير ما ذكر الله -عز وجل- وفصله في آيات المواريث، وما يتبع ذلك ويحتف به مما هو معروف مثل التوارث بالولاء، يعني أن المعتِق يرث المعتَق في حالات خاصة وهي إذا لم يوجد وارث.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} [(٣٤) سورة النساء].

يقول تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء} أي: الرجل قَيِّم على المرأة وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجَّت.

{بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك المُلْك الأعظم؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لن يُفلِح قومٌ ولَّوا أمْرَهُم امرأة))رواه البخاري[1] ، وكذا منصب القضاء وغير ذلك.

{وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [(٣٤) سورة النساء] **أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنَّ في كتابه وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- فالرجل أفضل من المرأة في نفسه وله الفضل عليها والإفضال فناسب أن يكون قَيّماً عليها كما قال تعالى: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} الآية** [(٢٢٨) سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء}** [(٣٤) سورة النساء] بمعنى أنهم القائمون على تدبير شئونهن ورعايتهن وحفظهن وما أشبه ذلك من المعاني، فهي قِوامة تدبير وحفظ ورعاية، أي أنه يقوم على شئونها، تقول: فلان قائم على كذا أو قيّم لكذا، كما تقول: الرجل قيِّم، بمعنى أنه قائم على شئون المرأة، فجعل الله -عز وجل- له الولاية على هذه المرأة يتصرف بحسب المصلحة لا بحسب هواه ومزاجه.

وليس المقصود من القوامة الظلم والعسف والتحكم في المرأة بأهواء الرجل وإنما المقصود القيام على مصالحها؛ لأن الله -عز وجل- قد استرعاه إياها، وفي الحديث: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[2]، فالمرأة لا تستقل بالتصرف المطلق من دون الولي، فالولي هو الذي يزوجها، والولي هو الذي يقوم على شئونها من نفقة إلى غير ذلك.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي– باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى كسرى وقيصر (٤١٦٣) (ج ٤ / ص ١٦١٠).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [(٦) سورة التحريم] (٤٨٩٢) (ج ٥ / ص ١٩٨٨) ومسلم في كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٩) (ج ٣ / ص ١٤٥٩).

وفي قول الله -عز وجل-: {بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [(٣٤) سورة النساء] قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة**" إلى آخره، فهذا التفضيل ينتظم أمرين: الأول: التفضيل الوهبي بما حبا الله -عز وجل- به الرجل من الخصائص والملكات والإمكانات والقدر، من وفور العقل، وقوة الشكيمة، والقدرة على ضبط النفس، والتصرف في المواقف الصعبة، وما أشبه ذلك، فالقوامة له بهذا الاعتبار.

الثاني: التفضيل الكسبي، فالحاصل أن ذلك كله يدخل في التفضيل الذي في قوله تعالى: {بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [(٣٤) سورة النساء] كما قال تعالى: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] فهذا حق لا مرية فيه، كما أن علم التشريح والطب يثبت أن خصائص الرجل العقلية ودماغه وخصائصه الجسدية تختلف عن خصائص المرأة، فدماغ الرجل أكبر من دماغ المرأة، وأنسجة الرجل وخلايا جسمه وتكوينه وخصائصه وما أشبه ذلك أقوى من المرأة بلا شك، ولذلك تجد قوة الرجل وبنيته وهيكله يختلف تماماً عن المرأة وكذلك في عظامه فقد ركب الله كل واحد بما يناسبه، وكذلك حوض الرجل يختلف عن حوض المرأة من أجل الحمل، وضعف عظام المرأة وقوة عظام الرجل، وعضلات الرجل وعضلات المرأة وغير ذلك كله فرَّق الله -عز وجل- فيه بين الرجل وبين المرأة.

حتى إن الذين درسوا أيضاً خصائص المرأة النفسية وما يعتورها من حيض وحمل ونفاس وما أشبه ذلك ذكروا أشياء وكثير من هؤلاء هم من غير المسلمين أصلاً، ذكروا حالات المرأة في حال الحيض وما يعتريها من توتر وكذلك في حال الحمل وما يحصل فيه من ضمور للمخ وما يحصل فيه أيضاً من شرود في التفكير، وقلة في التركيز إلى الضعف الطبيعي الذي يحصل لها في بدنها وميلها إلى الاسترخاء والراحة، ولذلك ذكروا أن كثيراً من الحوادث التي تقع للنساء تكون في الأوقات التي تكون فيها المرأة في حال الحيض، أو في حال الحمل؛ لأنها لا تستطيع التركيز، وإذا كان ذلك في أوقات يشتد فيها الحر أو الزحام أو نحو ذلك فقدرة المرأة على التركيز والتصرف واتخاذ القرار في الوقت المناسب أضعف بكثير، وإذا جاءت اللحظات الحرجة ارتبكت، وإذا وقع لها مكروه فإنه يقع لها من الضعف والهلع ما لا يقادر قدره مهما تصورنا أن هذه المرأة قوية في كلامها أو نحو ذلك لأول وهلة، لكن إذا جاء الجد لم تر شيئاً، فالمرأة ضعيفة ولذلك ليس لها محل إلا في أظلم شيء في بيتها، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنها لا تكون أقرب إلى ربها إلا في أظلم مكان في بيتها وأبعده في داخل البيت، والأحاديث الواردة في صلاتها في حجرتها وفي بيتها وفي دارها وفي مسجد حيها أفضل من صلاتها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحاديث معروفة معلومة، فإذا كان هذا في الصلاة، فكيف إذا كان خروجها للأسواق أو للعمل أو نحو ذلك.

هذه هي طبيعة المرأة ولذلك المجتمعات التي جربت خروج النساء لاقت ما لاقت من الويلات، أضف إلى ذلك أنه إرهاق للاقتصاد، فالإحصاءات التي ظهرت من الأمم المتحدة تقول: إن البلاد التي تعمل فيها المرأة تكون عبئاً على الاقتصاد وعلى الدخل القومي بنسبة أربعين بالمائة؛ لأنهم يحتاجون إلى مربية وإلى خادمة ونحو ذلك.

في قوله تعالى: {وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [(٣٤) سورة النساء] جمع المعاني فقال: "أي **من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنَّ في كتابه وسنة نبيه**" ولهذا كان للمرأة نصف الميراث؛ لأن الرجل هو الذي ينفق أما المرأة فليست مطالبة بالإنفاق إطلاقاً إلا إذا كان عندها مال يبلغ النصاب فإنها تخرج الزكاة فحسب، وليست مطالبة بنفقة، فهي تنتظر الزيادة دائماً، والرجل ينتظر النقص دائماً، فلم يسوِّ الله -عز وجل- بينهما، وإنما عدل في الحكم، فالنفقة تكون على الرجل وهي الأصل الثاني الذي تقوم عليه القوامة؛ لأنها تقوم على أصلين هما: التفضيل بنوعيه والإنفاق، فإذا صارت المرأة هي التي تنفق وصار الرجل يتأنق ويتأنث -كما يقال: استنوق الجمل- فما بقي له من القوامة شيء وحينها تصير القوامة للنساء.

يقول ابن كثير: "**فناسب أن يكون قيّماً عليها كما قال تعالى: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} الآية** [(٢٢٨) سورة **البقرة**]" ودرجة التفضيل من أهل العلم كابن عباس -رضي الله عنه- من قال بأن هذا التفضيل هو بالإغضاء، والعفو والتجاوز والمسامحة، ولذلك قال: ما أحب أن أستوفي حقي منها وكما قيل: ما استوفى كريم قط، بمعنى أنه يفوِّت فيغفر لها التقصير والخطأ والنسيان والذهول وما يحصل من العجز فلا يقف عند كل خطأ وعند كل تقصير وينقر ويدقق ويحاسب فهو يرى أن هذه هي الدرجة، وأكثر أهل العلم يقولون غير ذلك.

وقوله تعالى: {فَالصَّالِحَاتُ} [(٣٤) سورة النساء] أي: من النساء {قَانِتَاتٌ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن.

لم يقل الله تعالى: الرجال قوامون على النساء والمرأة صنو الرجل تذهب وتعمل كما يعمل الرجل، وإنما قال: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ} [(٣٤) سورة النساء] والقنوت هو دوام الطاعة، يعني مديمات للطاعة، ولم يقل: قانتات لله وإنما حذف المتعلَّق فيدخل فيه دوام الطاعة لله -عز وجل- ومديمات الطاعة أيضاً لمن أُمرت بطاعته وهو الزوج.

{حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ} وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله.

قوله تعالى: {حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ} [(٣٤) سورة النساء] يعني أنها كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة] -على أحد المعنيين وليس هو المعنى المشهور- فالذين يؤمنون بالغيب يعني في حال غيبتهم وتواريهم عن الأنظار فلا يكون له حال إذا غاب عن الناس وإذا ظهر في الشهادة وفي العلانية كانت له حال أخرى، هذا أحد المعاني في آية البقرة لكن ليس هو المعنى المشهور فيها، بل المعنى المشهور: أي يؤمنون بما غاب عن الحس فيؤمنون بالله وملائكته وما أشبه هذا.

وأما قوله تعالى: {حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ} [(٣٤) سورة النساء] أي في حال غيبة الأزواج أو في حال غيبتهن عن نظر الأزواج -والمعنى واحد- فتكون هذه المرأة على حال مرضية من العفاف والصيانة وعدم التعدي على مال زوجها وإفساده وتضييعه والقيام على شئونه ورعاية ولده، وما أشبه ذلك على أحسن وجه ولو كان الزوج غائباً، فليست مضيعة.

وقوله: {بِمَا حَفِظَ اللّهُ} [(٣٤) سورة النساء] أي: المحفوظ من حفظه.

قوله: "أي: **المحفوظ من حفظه**" كأنه يفسرها بأن ذلك بحفظ الله لهن، يعني أنهن قانتات حافظات للغيب بمعنى لا تخون زوجها لا في ماله ولا في عرضه بما حفظ الله، أي بحفظ الله لها، فابن كثير يقول: المحفوظ

من حفظه الله، كما نقول: الموفق من وفقه الله، فهنا {بِمَا حَفِظَ اللّهُ} أي بحفظ الله لهن لا يقع منها شيء من الخيانة والانحراف في حال غياب هذا الزوج.

ويمكن أن يقال: يعني إنهن حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن ومعونته وتسديده وتوفيقه فإن الله -عز وجل- إذا تخلى عن العبد خُذِل، فهذا إنما يحصل بإعانة الله -عز وجل- لهذه المرأة وتوفيقه.

وقوله: {بِمَا حَفِظَ اللّهُ} تحتمل معنىً آخر، أي بما استحفظهن الله -عز وجل- من أداء حقوق الزوج وأن تكون أمينة معه فلا يحصل منها غش ولا غدر ولا خيانة وإنما تكون حافظة له كما أمرها الله -تبارك وتعالى- وبما يرضى به عنها.

وتحتمل معنىً ثالثاً: يعني أنها حافظة للغيب بما حفظها الله به من أمر زوجها بالقيام عليها والإحسان إليها وحسن معاشرتها، أي أن قوله: {بِمَا حَفِظَ اللّهُ} يعني بما شرع من التشريعات التي تكفل لها حقها وتحفظ لها مكانتها فلا تُظلم وما أشبه ذلك، وهذا أبعد المعاني، والذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- معنىً قريب، أي بما يوفقهن إليه ويحصل لهن من الله -عز وجل- من المدد والعون والتسديد فيتحقق ذلك على يدها، وذلك أن تكون أمينة مع زوجها محافظةً على عرضه صائنة لماله، وما أشبه ذلك.

وعلى قراءة أبي جعفر: (**حافظات للغيب بما حفظ اللهَ**) -بالنصب في لفظ الجلالة- يكون المعنى بما حفظن أمره -تبارك وتعالى- بمراعاتهن لشرعه وحفظهن لأمره والتزامهن بحكمه.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((خيرُ النساءِ امرأةٌ إذا نَظَرْتَ إليها سَرَّتْكَ وإذا أمَرْتَها أطاعتكَ وإذا غبْتَ عنها حَفِظتْكَ في نَفْسِها ومالِكَ))** **قال: ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء}** [(٣٤) سورة النساء] **إلى آخرها**[4].

وروى الإمام أحمد أن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا صلَّت المرأة خَمسها وصامت شهرها وحفظت فَرْجَها وأطاعت زوجها قيلَ لها: ادخُلي الجنة من أيِّ أبواب الجنة شئْت))[5].

في قوله تعالى: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] ذكر في هذه الآية كيفية التصرف مع المرأة التي خاف الزوج نشوزها فقال: {فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] لكن فيما سبق يقول تعالى: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ} [(٣٤) سورة النساء] وليس المراد هنا مجرد ذكر أوصاف الصالحات -والله أعلم- بل هناك مقدر محذوف دل عليه السياق فيكون الكلام هكذا: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ} [(٣٤) سورة النساء] فأحسنوا إليهن واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن واضربوهن، أي أن الكلام يكون بهذا التقابل حيث إنه لما ذكر الوعظ والهجر والضرب إزاء المرأة الناشز دلّ السياق كيف يكون التصرف إزاء

---

4 - أخرجه الطيالسي في مسنده (٢٣٢٥) (ص ٣٠٦) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٨٣٨).

5 - أخرجه أحمد (١٦٦١) (ج ١ / ص ١٦٦١) والطبراني في الأوسط (٤٥٩٨) (ج ٥ / ص ٣٤) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٣٢٥٤).

المرأة المطيعة الحافظة لزوجها في غيبته وحضرته بأن يؤمر الزوج بالإحسان إليها ولا يبغِ عليها سبيلاً، والمرأة الأخرى التي تترفع عن طاعته فإنها تؤدب بهذا التأديب المذكور، وهذا وجه في الآية مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال: الكلام فيه مقدر محذوف علم من السياق.

ويمكن أن يكون المقصود مجرد ذكر أوصاف النساء الصالحات، ثم ذكر حكم المرأة إذا خرجت عن طاعة الزوج، فالله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المُبْغِضَة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظْها وليخوّفها عقابَ الله في عصيانه.

طبعاً البغض وحده ليس نشوزاً، فالمرأة قد تبغض الزوج ولا يد لها في ذلك، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها وليست مكلفة بمحبته فهي تنظر في محاسنه وما يستجلب المحبة ولكنها قد تُغلب فلا تحاسب على هذا، لكنها مأمورة بطاعة هذا الزوج فلا تترفع عن ذلك.

فالنشوز هو الارتفاع يقال: مكان ناشز يعني مرتفع، فالمرأة الناشز هي التي ارتفعت عن طاعة الزوج سواء ذهبت إلى أهلها وتركته أو بقيت عنده فإذا أمرها ما أطاعته، وإذا قال لها: لا تخرجي من البيت إلا بإذني ما أطاعته، وإذا قال لها: افعلي كذا وكذا -مما ليس بمحرم وما لا يُلحق بها ضرراً ولا نحو ذلك- لا تطيعه فمثل هذه تعتبر ناشزاً.

قوله: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] الخوف هنا يمكن أن يراد به العلم كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [(٤٦) سورة البقرة] حيث عبر بالظن عن العلم فكذلك الخوف كما قال القائل:

فإذا مت فادفني تحت كرمة	تروي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني	أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فهو يعلم يقيناً أنه إذا مات لن يذوق الخمر في قبره، فيقول: أخاف إذا ما مت ألا أذوقها، فعبر بالخوف عن العلم، فيمكن أن يكون قوله: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] أي تعلمون نشوزهن، كما أنه لا مانع أن يكون الخوف هنا بما دون العلم وإنما يراد به ظاهره، بمعنى أنه لِما يرى من الأمارات الظاهرة يخاف أنها تترفع عن طاعته ففي هذه الحال أيضاً يعظها ويذكرها بالله -عز وجل- وينصحها فإن قبلت وإلا هجرها، لكن الذين قالوا: إن الخوف هنا معناه العلم قالوا: أصلاً لا يحق له أن يضربها وهي ما نشزت بعد، لكن إذا تحقق ذلك وعلمتموه فعندئذ توعظ ثم تهجر ثم تضرب.

فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كُنْتُ آمرًا أحدًا أن يَسْجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تَسْجُدَ لزوجها؛ من عِظَم حَقِّه عليها))[6].

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دَعَا الرَّجُلُ امرَأتَهُ إلى فِرَاشِه فأبَتْ عليه لَعَنَتْهَا الملائكة حتى تُصْبِح))[7] **ورواه مسلم ولفظه: ((إذا باتت المرأة هَاجرة فِراش زَوْجِها لعنتها الملائكة حتى تُصبِح))**[8] **ولهذا قال تعالى: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ}** [(٣٤) سورة النساء].

طبعاً الوعظ معروف وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب فغالباً يستعمل الوعظ بهذا، وعلى كل حال فإن كل ما يحصل به تخويف هذا الإنسان أو ترغيبه وتذكيره بالله -عز وجل- يدخل في الوعظ، فالمرأة توعظ وتذكر بحق الزوج وتذكر بما لها عند الله -عز وجل- إن كانت مطيعة وما قد يلحقها من الإثم إذا عصت.

وقوله: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ} [(٣٤) سورة النساء] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الهجر أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها**

يقول: "**الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها**" إلا إذا أريد بالمضاجعة الجماع فتقول: ولا يضاجعها، فالرجل يبيت معها في فراشه ولكنه لا يجامعها بل يدير ظهره إليها، فهذا تأديب ولكنه ليس لكل النساء، فقد تكون المرأة تريد هذا أصلاً؛ لأنها لا تريد الزوج، حيث كثير من النساء قد تقول: أنا لا أرغب فيه وأكرهه، فمثل هذه قد لا تتأدب من هذا بل تفرح.

فالحاصل أن الهجر هنا قُيد بقيد قال تعالى: **{وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}** [(٣٤) سورة النساء] فما أطلق وقال: واهجروهن، وبناءً عليه لا يقال: إن الهجر بالكلام، فالحديث واضح في حظ النفس أن الهجر لا يحل أكثر من ثلاثة أيام إلا إذا كان لحق الله -عز وجل-، أما في حق النفس وحظها فثلاثة أيام فقط، ثم بعد ذلك ينتهي الهجر؛ لأن النفس تحتدم، فقد يُغلب الإنسان؛ لذلك رخص له الشارع ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام تهدأ النفس، ولذلك أخذ بعض الفقهاء أن العزاء ثلاثة أيام وهو المنتشر عند العامة -مع أن هذا فيما أعلم ليس له أصل شرعاً- لكن استنبطوه من مثل هذا، وهو أن النفس عادة تبدأ تهدأ بعد ثلاثة أيام ويسلو الإنسان عن المصيبة بعد ثلاثة أيام، وإلا فالإنسان يعزّى مادامت المصيبة حية فإذا نسيها لا يذكَّر بها ولا يقيد هذا بثلاثة أيام، فعلى كل حال الهجر في المضجع بأن يدير ظهره أو أنه لا يجامعها وانتهى الأمر، وبعضهم يقول: لا يدخلها معه في اللحاف، وبعضهم يقول: إذا لم يجامعها صار هو المتضرر فكأنه عاقب نفسه، إذن ما العمل؟ قالوا:

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة (١١٥٩) (ج ٣ / ص ٤٦٥) وابن ماجه في كتاب النكاح - باب حق الزوج على المرأة (١٨٥٢) (ج ١ / ص ٥٩٥) وأحمد (١٢٦٣٥) (ج ٣ / ص ١٥٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٢٥).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٦٥) (ج ٣ / ص ١١٨٢) ومسلم في كتاب النكاح - باب تحريم امتناعها من فراش زوجها (١٤٣٦) (ج ٢ / ص ١٠٥٩).

[8] - أخرجه مسلم في كتاب النكاح - باب تحريم امتناعها من فراش زوجها (١٤٣٦) (ج ٢ / ص ١٠٥٩).

يجامعها ولكن لا يكلمها لئلا يضيع حقها، قيل: ثم ماذا؟ قالوا: أصلاً نصف اللذة بالكلام وذلك أن الكلام الذي فيه غنج المرأة وكلام الرجل معها فيما يحرك الغريزة وما أشبه ذلك هذا نصف اللذة، فالحاصل أنهم قالوا: لا يتكلم معها، لكن هذا بعيد جداً، فالمقصود -والله تعالى أعلم- أنه يهجرها في المضجع بأن لا يجامعها، وليس معنى ذلك أنه يهجرها في الكلام لا في المضجع ولا في غيره.

عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الهجر أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وكذا قال غير واحد.

وبعضهم يقول: يهجرها بأن لا يبيت معها في نفس الغرفة التي تبيت فيها، وعلى كل حال المقصود أنه لا يجامعها.

وزاد آخرون منهم: السدي والضحاك وعكرمة وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها.

وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: ((أن تُطعمها إذا طَعِمْتَ وتكسوها إذا اكْتَسَيْتَ ولا تَضْرِب الوَجْهَ ولا تُقَبِّح ولا تَهْجُر إلا في البَيْت))[9].

وقوله: {وَاضْرِبُوهُنَّ} [(٣٤) سورة النساء] أي: إذا لم يَرْتَدِعْن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في حجة الوداع: ((واتَّقُوا اللهَ في النِّساءِ، فإنهن عندكم عَوَانٌ، ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشكم أحداً تكرهونه)).

قوله: **((فإنهن عندكم عَوَانٌ))** العاني هو الأسير، فالمعنى أن المرأة عند زوجها أسيرة، فهي ضعيفة وذلك أنها قبل العقد قد تشترط شروطاً فإذا عقد عليها وتزوجها ابتليت به إن كان سيئاً أو سيئ الخلق وإن جاء منه ولد فالأمر أعظم حيث تؤثر أن تطرح نفسها في النار على حساب هذا الولد فتلقى منه العسف والذل والإهانة وألوان الأذى وكل ذلك من أجل هذا الولد، فيذهب كثير من تمنعها ومن تماسكها ومن إرادتها وما إلى ذلك إذا تمكن هذا الزوج وعقد عليها، ويذهب الباقي إذا جاء الولد إلا ما شاء الله -عز وجل-، فالمرأة ضعيفة يجب الإحسان إليها وتقوى الله -عز وجل- فيها وحسن تربيتها.

((ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشكم أحداً تكرهونه فإن فَعَلْنَ ذلك فاضربوهن ضَرْبا غير مُبَرِّح ولهن رزْقُهنَّ وكِسْوتهن بالمعروف))[10] وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: ضرباً غير مبرح، قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر.

وقوله: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} [(٣٤) سورة النساء] أي: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها.

---

[9] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب في حق المرأة على زوجها (٢١٤٤) (ج ٢ / ص ٢١٠) وأحمد (٢٠٠٢٥) (ج ٤ / ص ٤٤٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٩٢٩).

[10] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦).

أي لا طريق لك عليها بمعاقبة وإساءة ومؤاخذة وما أشبه ذلك وهي امرأة مطيعة، وبعضهم يقول: بالحب، بمعنى أنها مأمورة بطاعتك فإن حصل منها هذا فلا تبغِ عليها سبيلاً أن تطالبها وتتعنت معها فتقول: أنت لا تحبينني ونحو ذلك، بل عليك أن تدعها ولا تستخرج مكنونات نفسها، فأنت لست مطالباً بهذا، وهي ليست مطالبة أن تخرج لك هذا فقد لا تحبك لكنها تخاف الله -عز وجل- فيك، فيكفي هذا القدر، فلا تتعنت بعد ذلك وتطلب ما وراءه من أمر لا تملكه هي، فالمقصود أن هذا يدخل في قوله: {فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} [(٣٤) سورة النساء] يعني بعد هذه الطاعة سواء كان بالتعنت في أمور ليست مطالبة بها أو معاقبتها أو أذيتها والتضييق عليها بدون سبب .

وقوله: {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} [(٣٤) سورة النساء] تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فإن الله العلي الكبير وليُّهن وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

من أسوأ الناس ظلماً من يظلم الضعفاء الذين لا يستطيعون أن يقتصوا منه ومنهم المرأة، حتى إن الشارع لما شكا الرجالُ ترفُّع النساء في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فأذن لهم بضربهن اجتمع نساء عند بيوت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشكون أزواجهن، فقام -عليه الصلاة والسلام- وقال للناس: ((لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم))[11] أي أنه نهى أن يضرب الرجل امرأته ضرب العبد ثم يجامعها في آخر النهار فمثل هذا لا يليق من الإنسان أن يظلم من لا يستطيع أن يقتص منه، فإن كان لا بد أن يظلم فليظلم الأقوياء، فالظلم حرام لا يجوز مطلقاً لكنه في الضعفاء الذين لا يستطيعون أن يقتصوا منه أشد، فهذا من أسوأ الظلم ويدل على دناءة النفس وانحطاطها، والكريم لا يصدر منه مثل هذا إطلاقاً، فعلى الإنسان أن يتقي الله في الضعفاء الذين لا يستطيعون أن ينتصروا منه.

واعلموا أن الزوج الفاشل هو الذي يهدد زوجته بالطلاق دائماً، والمعلم الفاشل هو الذي يهدد طلابه بالاختبار دائماً، حيث تجد المعلم يدرِّس أربعين سنة ولا يأتي هذا على لسانه، وآخر كلما دخل وخرج هدد بالاختبار ووضع له موعداً، وتجد الزوج الفاشل مع زوجته كلما دخل عليها هددها بالطلاق ولو لم يكن إلا فاشلاً لطلقها وأراحها بدلاً من أن يعذبها بوضع السكين في رقبتها كلما دخل أو خرج، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[11] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب في ضرب النساء (٢١٤٨) (ج ٢ / ص ٢١١) والدارمي (٢٢١٩) (ج ٢ / ص ١٩٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢١٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [(٣٥) سورة النساء].

ذكر الحال الأول: وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني: وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا} [(٣٥) سورة النساء].

وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوَّف الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: {إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا} [(٣٥) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى-: **{فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا}** [(٣٥) سورة النساء]: الحكم من الطرفين سماه الله -عز وجل- كما هنا- حكماً، مع أنه في حقيقة الأمر ليس حاكماً وإنما هو مجرد وكيل عن كل طرف من الطرفين، فالمرأة توكل واحداً والرجل يوكل واحداً فيكونا وكيلين عنهما فيتصرفا في حدود الوكالة كأن يكون المراد هو التفاوض وأن يسمع كل طرف من الآخر ما يعيبه على صاحبه وما يطلب منه وما أشبه ذلك، دون أن يحكم فيكون حكمه نافذاً، أو أنه يكون حكمه نافذاً في الحدود التي وُكِّل فيها، كأن تقول المرأة مثلاً: اذهب واحضر وقل لهم: كذا وكذا وكذا، وأنا أريد كذا، وأعيب عليه كذا، وإن اتفقتما على الاجتماع ووافق على الشروط فأنا موافقة أن تحكم بذلك، وإن كان المطلوب هو الفرقة فأنا غير موافقة، أو إن كان المطلوب هو الخلع فأنا ما أقبل أن تحكم بذلك ولن أقبل هذا الحكم، يعني ليس من صلاحياتك أن توافقه على الخلع بحيث أفتدي منه وأدفع مالاً حتى يتم الفراق.

المقصود أن بعض أهل العلم يقول: يحكمان في الحدود التي أنيطت بهما من قبل كل واحد من الزوجين، وبعض أهل العلم يقول: بل هما حَكَمان وحكمهما نافذ؛ لأن الله -عز وجل- سماهما بذلك فقال: **{فَابْعَثُواْ حَكَمًا}** [(٣٥) سورة النساء] فيجري حكمهما في حال الاجتماع فإذا اتفق هذان الحكمان على الفراق انتهى، وإذا اتفقا على الجمع بينهما أو أن تتنازل عن بعض الحق فالحكم نافذ، وهذا ظاهر الآية، والمسألة فيها خلاف بين أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعدهم وليست جديدة، ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أنهما حكمان فيهما شائبة الوكالة؛ لأن هذا يُختار من قبل المرأة وهذا يختار من قبل الرجل، ولا يقتصر

أمرهما على الحكم بل يحصل السماع والتفاوض والتشاور والتناصح وما أشبه هذا في كل ما من شأنه أن يقرب ويجمع.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا} [(٣٥) سورة النساء] ظاهر اللفظ المتبادر -كما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ذلك يرجع إلى الحكمين، أي إن كان قصدهما الإصلاح يوفق الله بينهما.

ومن أهل العلم من قال: إن قوله: {إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا} [(٣٥) سورة النساء] يرجع إلى الزوجين، لكن الأول أقرب، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: أمر الله -عز وجل- أن يبعثوا رجلاً صالحاٍ من أهل الرجل ورجلاً مثله من أهل المرأة.

يعني ليس فقط صلاح الدين وإنما أيضاً صلاح الرأي؛ لأن هذه المسألة تحتاج أيضاً إلى رأي وحكمة، أما إذا جاء كل واحد وهو متعصب لصاحبه ومتشنج يريد أن ينتصر لصاحبه بكل طريقة، فلا فائدة إذن وليجتمع الزوج والزوجة لتحصل بينهما منازعة بدلاً من أن ينوب عن كل واحد منازع، فالمقصود أنه ينبغي أن يأتي إنسان عاقل ينظر ويسمع ويتكلم بإنصاف ويحكم بعدل.

فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة.

يمنعونها النفقة باعتبار أنها ناشز حتى ترجع إلى الطاعة؛ لأن النشوز سبب لإسقاط النفقة، فالمرأة الناشز عن زوجها تسقط نفقتها، وإذا كان الرجل هو المسيء إليها منعت منه؛ لئلا يوصل إليها الإساءة لكن يحفظ لها حقها من النفقة مع منعه من أن يلعب بها ويظلمها ويسيمها الخسف و الذل وهي لا تجد مخرجاً من تصرفاته ورعوناته.

فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز.

قوله: "**فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز**" يعني إذا اتفق الحكمان، أما إذا اختلفا بحيث قال مندوب المرأة أو وكيل المرأة أنا أرى أنها تطلق منه بدون فسخ، وقال الثاني: أنا ما أرى هذا، أرى أنها تطلق بفسخ، يعني تفتدي منه لأنها هي التي طلبت الطلاق، ففي هذه الحال لا ينفذ حكمهما إجماعاً؛ لأنهما اختلفا في الحكم.

ومن المعلوم أن هذين الحكمين يضعهما الحاكم أو نائبه كالقاضي ونحوه، ويمكن أن يكون ذلك ابتداءً من الرجل والمرأة.

وقوله تعالى: {وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا} [(٣٥) سورة النساء] يعني من ذويها كأن يكون أخاً أو ابن عم وما أشبه ذلك من قومها.

فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي كره ولا يرث الكاره الراضي، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

هذا على قول ابن عباس في المسألة.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة، ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضا من غير توكيل.

يقول: "**ينفذ قولهما فيها أيضاً من غير توكيل**" هذا الأمر وغيره من التفاصيل كله فيه خلاف بين أهل العلم.

{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا} [(٣٦) سورة النساء].

يأمر -تبارك وتعالى- بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه-: ((أَتَدْرِي ما حَقُّ الله على العباد؟)) قال: الله ورسوله أعلم، قال: ((أن يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئاً)) ثم قال: ((أَتَدْرِي ما حَقُّ العبادِ عَلَى اللهِ إذا فَعَلُوا ذلك؟ ألا يُعَذِّبَهُم))[1].

ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [(١٤) سورة لقمان] **وكقوله: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** [(٢٣) سورة الإسراء].

ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث: ((الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ وعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وصِلَةٌ))[2].

ثم قال تعالى: {وَالْيَتَامَى} [(٣٦) سورة النساء]؛ **وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم.**

ثم قال: {وَالْمَسَاكِينِ} [(٣٦) سورة النساء] **وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة.**

كما هو معروف أنه إذا ذكر المسكين دخل فيه الفقير والعكس، لكن إذا ذكرا معاً كان للفقير معنىً والمسكين معنى، وعلى كل حال هنا في هذه الآية ذكر الله -عز وجل- الحقوق، فذكر الحق الأعظم ثم ما يليه، وذكر الإحسان وأن أحق الناس به من كان سبباً في وجودك وهما الأب والأم وكذلك الجد والجدة وإن علوا، لأن أولئك جميعاً يقال لكل واحد منهما والد، وذكر أيضاً من ألوان القرابات الجارَ ذا القربى والجارَ الجنب

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان - باب من أجاب بلبيك وسعديك (٥٩١٢) (ج ٥ / ص ٢٣١٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٠) (ج ١ / ص ٥٨).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الزكاة - باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة (٦٥٨) (ج ٣ / ص ٤٦) والنسائي في كتاب الزكاة - الصدقة على الأقارب (٢٥٨٢) (ج ٥ / ص ٩٢) وابن ماجه في كتاب الزكاة - باب فضل الصدقة (١٨٤٤) (ج ١ / ص ٥٩١) وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٩٣٩).

والصاحب بالجنب، وهؤلاء رتبهم بحسب الأقوى في القرب، فأولاً الجار الذي بينك وبينه قرابة ثم الجار المجاور لك في الدار الذي لم يكن بينك وبينه قرابة، ثم الصاحب بالجنب وهو الذي جمع بينك وبينه سبب غير القرابة وغير مجاورة الدار كمرافقة في السفر أو زميل في العمل أو زميل في الدراسة ونحو ذلك، ويدخل فيه كل من تعاشره من زوجة.

ثم ذكر –جل وعلا- الناس الذين يحتاجون إلى الإحسان من الضعفة في المجتمع سواء كان ضعفه عارضاً كابن السبيل، أو كان ضعفه مستمراً كالفقراء والمساكين واليتامى، فهؤلاء كلهم من الضعفاء الذين هم أولى بالإحسان.

وقوله: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [(٣٦) سورة النساء] **قال علي بن أبي طَلْحَةَ عن ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله تعالى عنهما-:** {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى} [(٣٦) سورة النساء] **يعني الذي بينك وبينه قرابة.**

قوله: "**يعني الذي بينك وبينه قرابة**" هذا هو المتبادر، وهو الذي اختاره جمع من المحققين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا خلافاً لمن قال: إن الجار ذا القربى هو المسلم أو أنه مجرد القريب في الدار.

{وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [(٣٦) سورة النساء] **الذي ليس بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة..**

وهذا أيضاً هو الأقرب أنه الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة، ومن قال في قوله: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى} [(٣٦) سورة النساء]: إنه الجار المسلم قال: {وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [(٣٦) سورة النساء] هذه في اليهودي والنصراني.

ومن قال: الأولى في القريب في الدار قال: {وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [(٣٦) سورة النساء] هو البعيد في الدار؛ لأن الجيران يتفاوتون قرباً وبعداً، فهذا قد يكون جاراً ملاصقاً لك فهو أولى من الجار الأبعد.

والعلماء مختلفون في حد الجوار، فمنهم من يقول: من يسمع الإقامة ومنهم من يقول: من يسمع الأذان ومنهم من يقول: إلى أربعين بيتاً من كل ناحية، وبعضهم يقول: أهل المحلة الواحدة التي تجمعهم، كما يقال: الحي أو نحو هذا، وعلى كل حال الجار كلمة لا يتساوى فيها الأفراد فهي تدل على معنىً كلي يتفاوت أفراده، فمنهم من يكون أقرب في الجوار كاللصيق والذي يليه وما أشبه ذلك ثم يكون جاراً لكنه أبعد منه، ومثل هذا يقال أيضاً في الرحم والقرابات فهي كلمة تدل على معنىً كلي لكن الأفراد يتفاوتون، فالأخ ليس كالعم، والعم ليس كابن العم، وابن العم المباشر ليس كابن العم الذي هو أبعد منه، وما أشبه ذلك، فكل هؤلاء من قراباتك، وأنت مأمور بالإحسان إليهم وبصلتهم ولكنهم يتفاوتون في القرابة فكلما كان أقرب كلما كانت الصلة له آكد، وهكذا.

وقال مجاهد أيضاً في قوله: {وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [(٣٦) سورة النساء] **يعني الرفيق في السفر، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فنذكر بعضا منها، والله المستعان.**

القول الآخر هو أن الجار الجنب هو الرفيق في السفر –كما قال هنا- والأحسن -والله تعالى أعلم- أن يفسر بالرفيق في السفر قوله تعالى: {وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ} [(٣٦) سورة النساء].

الحديث الأول: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)) أخرجاه في الصحيحين(٣).

الحديث الثاني: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))(٤) وروى أبو داود والترمذي نحوه ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

الحديث الثالث روى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)) ورواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب(٥).

الحديث الرابع: روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: ((ما تقولون في الزنا؟)) قالوا: حرام حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره)) قال: ((ما تقولون في السرقة؟)) قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: ((لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره)) تفرد به أحمد(٦) وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تزاني حليلة جارك))(٧).

الحديث الخامس: روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: "إن لي جارين فإلى أيهما أُهدي؟ قال: ((إلى أقربهما منك باباً)) ورواه البخاري(٨)، وسيأتي الكلام في سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله تعالى: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(٣٦) سورة النساء] وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعل يوصي أمته في مرضِ الموت يقول: ((الصلاةَ الصلاةَ وما ملكتْ أيمانُكُم)) فجعل يرددها حتى ما يَفِيض بها لسانه(٩).

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الوصاءة بالجار (٥٦٦٩) (ج ٥ / ص ٢٢٣٩) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٢٦٢٥) (ج ٤ / ص ٢٠٢٥).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الوصاءة بالجار (٥٦٦٩) (ج ٥ / ص ٢٢٣٩) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٢٦٢٥) (ج ٤ / ص ٢٠٢٥) وأبو داود في كتاب الأدب - باب في حق الجوار (٥١٥٤) (ج ٤ / ص ٥٠٤) والترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حق الجوار (١٩٤٢) (ج ٤ / ص ٣٣٢).

5 - أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حق الجوار (١٩٤٤) (ج ٤ / ص ٣٣٣) وأحمد (٦٥٦٦) (ج ٢ / ص ١٦٧) والدارمي (٢٤٣٧) (ج ٢ / ص ٢٨٤) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤٩٨٧).

6 - أخرجه أحمد (٢٣٩٠٥) (ج ٦ / ص ٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٥).

7 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٥٦٥٥) (ج ٥ / ص ٢٢٣٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦) (ج ١ / ص ٩٠).

8 - أخرجه البخاري في كتاب الهبة وفضلها - باب بمن يبدأ بالهدية؟ (٢٤٥٥) (ج ٢ / ص ٩١٦).

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقه))[10] ورواه النسائي وإسناده صحيح، ولله الحمد.

يستدل بهذا الحديث على أن من الأعمال ما يؤجر عليها الإنسان ولو لم يكن له فيها قصد التقرب إلى الله –عز وجل-.

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال لِقَهْرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم)) رواه مسلم[11].

القَهْرمان كلمة أعجمية –فارسية- تطلق ويراد بها من يدبِّر شئون الإنسان المالية من نفقات ونحو ذلك، أي أنه يقوم عليها فيعطي العمال أو الخدم أجورهم، وقد يعمل في جلب وشراء المنافع، وهو في الأصل يعمل في تدبير أمور الملك مثل وزير المالية وأخص منه الذي يقوم على شئونه المالية، وهكذا يقال لكل من يلي هذا الجانب كأن يكون لك إنسان وكلته أن يتصرف في هذه الأشياء ويصرف عليها كالمحاسب ونحوه.

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق)) رواه مسلم أيضاً[12].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه وليَّ حرّه وعلاجه)) أخرجاه ولفظه للبخاري[13].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا} [(٣٦) سورة النساء] أي: مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض.

قال مجاهد في قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً} [(٣٦) سورة النساء] يعني متكبرا {فَخُورًا} يعني يعدّ ما أعطي وهو لا يشكر الله تعالى، يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه وهو قليل الشكر لله على ذلك.

لتقريب المعنى يمكن أن يقال: إن الخيلاء الكبر، لكن إذا أردنا أن نفرق يمكن أن نقول: الخيلاء مظهر من مظاهر الكبر وأثر من آثاره يظهر بمشية الإنسان وملبسه وحركاته وسكناته ومركبه وما أشبه ذلك، قال

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١٦٢٥) (ج ١ /ص ٥١٩).

10 - أخرجه أحمد (١٧٢١٨) (ج ٤ / ص ١٣١) والبخاري في الأدب المفرد (٨٢) (ج ١ / ص ٤٢) والنسائي في السنن الكبرى (٩١٨٥) (ج ٥ / ص ٣٧٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٥٢).

11 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم (٩٩٦) (ج ٢ / ص ٦٩٢).

12 - أخرجه مسلم في كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦٢) (ج ٣ / ص ١٢٨٤).

13 - أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة - باب الأكل مع الخادم (٥١٤٤) (ج ٥ / ص ٢٠٧٨) ومسلم في كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦٣) (ج ٣ / ص ١٢٨٤).

تعالى: **{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}** [(٣٧) سورة الإسراء] أي لا تمشِ مختالاً متبختراً بل امشِ مشية هينة طيبة، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي قال: لا تجد سيئ المَلَكة إلا وجدته مختالاً فخوراً.

يقول: "**لا تجد سيئ المَلَكة**" ويمكن أن يقال: المِلْكَة، يعني الإنسان الذي إذا حصل له غنى حصلت له غطرسة وترفُّع، وسيء الملكة هذا يظلم خدمه ولا يعطيهم حقوقهم ويؤخر رواتبهم ويمنعهم مما يجب لهم، ويعاملهم بفظاظة، ويظلم من تحت يده من العمال ومن الأجراء وما أشبه ذلك، فهو إذا ملك أو تمكن فإنه لا يراعي حقاً لأحد، فمثل هذا يقول فيه عبد الله بن واقد: لا تجد إنساناً بهذه المثابة إلا وجدته مختالاً فخوراً، يعني أنه ما صدرت منه هذه الأشياء إلا بسبب هذا التعالي والترفع؛ فيحتقر الناس ويظلمهم ولا يرى لهم حقاً ويضيع مالهم ولا يبالي، بخلاف الإنسان الذي يخاف من الله -عز وجل- ويتواضع ويرى أن هؤلاء مثله ويرى أنه في يوم من الأيام قد يكون في محل واحد منهم فيُظلم ويؤخذ حقه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

قال: لا تجد سيئ المَلَكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} الآية [(٣٦) سورة النساء] ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، وتلا: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [(٣٢) سورة مريم].

في الأول تلا: **{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** [(٣٦) سورة النساء] بمعنى أن الله أوصى بهؤلاء الذين تحت يدك ثم عقب ذلك بقوله: **{إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا}** [(٣٦) سورة النساء]، فدل على أن الذي يظلم المماليك فإنه يكون مختالاً ويكون كما وصف الله -عز وجل-.

وفي الثاني تلا: **{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}** [(٣٢) سورة مريم] أي أن الإنسان إذا كان يتجبر على والديه فهذا أعظم الجبروت فمن كان بهذه المثابة فلا تجده إلا جباراً شقياً، فإذا كان الذي يتجبر على الناس يكون جباراً شقياً فكيف بالذي يتجبر على الوالدين؟ يكفيه من الجبروت والشقاوة أنه يفعل ذلك لوالديه حتى وإن كان يتبسم للناس.

وعن رجل من بَلْهُجَيم قال: قلت يا رسول الله، أوصني، قال: ((إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المَخيلة، وإن الله لا يحب المَخيلة))[14].

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((إياك وإسبال الإزار))** والإزار مفهوم لقب لا يحتج به على عدم دخول غيره في الحكم بل يدخل فيه الثوب والبشت والسراويل.

قوله: **((فإن إسبال الإزار من المَخيلة))** هذا الحكم تُفسر به الأحاديث الأخرى، فيقال: الإسبال محرم بإطلاق؛ لأنه مظهر من مظاهر الخيلاء سواء قصد الإنسان ذلك أو لم يقصد، فإن قصد فذلك أعظم ويكون من أولئك الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا

---

[14] - أخرجه أبو داود في كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٦) (ج ٤ / ص ٩٨) وأحمد (٢٣٢٥٣) (ج ٥ / ص ٣٧٧) وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٩١٨).

منَّة، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره)) وفي رواية: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم))[١٥] وهذا هو الفرق بين من قصد الخيلاء وبين من لم يقصدها.

وللأسف بدأ يظهر على القنوات من يقول للناس: الإسبال ما فيه شيء، والنووي يقول: لا شيء فيه، والمسألة خلافية، واصبروا كذا سنة وستجدون عامة الملتحين مسبلين، ويقولون: إن اللحية لا تترك بل السنة أن تقص، وبعضهم يقول: يكفي قدر شعيرة، وبعضهم يقول: قدر المشط، ويقال: اصبروا قليلاً وسترون هذا كما انتشر في الصور حيث كان في الماضي لا تكاد تسمع أحداً يقول: إنها جائزة واليوم صار الأمر إلى غير ما كان عليه في الماضي.

أقول: للأسف أننا صرنا في وضع عجيب بسبب تأويل النصوص وتحريفها بل والاستدلال بها بما يحقق الرغبات والشهوات، ولذلك نجد اليوم في بعض البلاد دعاة صاروا يقيمون جامعات وكليات فيها اختلاط وتبرج، وإذا ناقشتهم قالوا: لا يوجد دليل على تحريم الاختلاط ويقولون: إن المسجد النبوي ما كان فيه حاجز وهذه الحواجز التي بنيت فيه اليوم ما هي إلا بدعة، ويقولون عن المجامع الدعوية المختلطة: إن من يقوم بالنشاط هم إخوة وأخوات نشاطهم إسلامي ولا إشكال في اجتماعهم طالما أنهم اجتمعوا على عمل صحيح ولم يجتمعوا على باطل ولا رقص ولا شيء من ذلك.

وتجد رفاعة الطهطاوي يوم إن جاء من فرنسا كان يقول عن الرقص الغربي: إنه عبارة عن مجرد موازنة في الحركات وهو رقص نظيف وليس كالرقص الشرقي الذي أخذ الناس عنه فكرة سيئة، ويقول: إذا دعتك في تلك البلاد امرأة للرقص معها فمن الضروري جداً أن ترقص معها لأن هذا من أنماط السلوك والحياة والكرم والضيافة عندهم، فارقص معها فذلك هو عبارة عن مجرد موازنة حركات!! ونحن نقول لهذا وأمثاله: حتى الجماع إنما هو موازنة حركات فماذا يبقى بعد ذلك؟!.

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا* وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا} [(٣٧ - ٣٩) سورة النساء].

يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به- من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء- ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله -صلى الله

---

[15] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٦) (ج ١ / ص ١٠٢).

عليه وسلم-: **((وأي داء أدوأ من البخل؟))**[١٦] **وقال: ((إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا))**[١٧].

الشح أبلغ من البخل وأشدّ وإن اختلف العلماء في حد كل واحد منهما لكن بينهما فرق، فمن أهل العلم من يقول: البخل أن يبخل بما في يده، والشح أن يتطلع إلى ما في أيدي الآخرين، وبعضهم يقول: البخل أن يبخل على نفسه، والشح أن يمنع حق الله -عز وجل- مثل الزكاة ونحوها، وبعضهم يقول: البخل هو الصفة الموجودة في النفس، والشح هو ما يتأثر منها وينشأ عنها من سلوك للإنسان، ولا شك أن الشح أشد من البخل، فقد يكون الإنسان بخيلاً وأشد منه الشحيح.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}** [(٣٧) سورة النساء] إما أن هذا يرجع إلى ما قبله بحيث يكون السياق هكذا: **{إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا}** [(٣٦) سورة النساء] وهؤلاء هم **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}** [(٣٧) سورة النساء] وعلى هذا يكون قوله: **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}** [(٣٧) سورة النساء] بدلاً من المختال الفخور سواء قلنا: إنه منصوب على أنه بدل منه أو قلنا: إنه مرفوع يرجع إلى الضمير في قوله: **{مُخْتَالاً}** أي: مختالاً هو فخوراً، من هو؟ الذين يبخلون، فهذا تحتمله الآية لتكون هكذا **{إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا* الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}** [(٣٦-٣٧) سورة النساء] من هم المختالون هؤلاء الذين لا يحبهم الله؟ هم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل.

ومن أهل العلم من يقول: هذا استئناف، يعني إنه معنىً جديد، يذم الله -عز وجل- فيه صنفاً من الناس وهم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، أي أن هذا غير المختال الفخور، ويكون جواب هذا مقدر، يعني الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل لهم كذا وكذا وكـــذا من الوعيد.

وإذا قلنا: إنه يرجع إلى "مختالاً فخوراً" فلا يحتاج إلى جواب مقدر، وهذا هو مزية هذا القول أي أنه لا يحتاج إلى تقدير والأصل عدم التقدير، لكن ظاهر السياق قد لا يدل عليه دلالة ظاهرة والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فعلى المعنى الأول يكون قوله: **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}** [(٣٧) سورة النساء] تفسيراً للمختال الفخور، وعلى المعنى الثاني أي إذا قلنا: إنه استئناف فهو يتحدث عن طائفة جديدة مذمومة من الناس وهم الذين يبخلون ويأمرون، وترك الجواب؛ لأنه معلوم، والله أعلم.

والذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله كما يقول بعض العلماء: هذه الصفات مجتمعة هي صفات اليهود، فمن صفاتهم أنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، والذي كتموه هو العلم والشهادة بصحة ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- فلا يعرِّفون به الناس، ولا يظهرونه، ولهذا قال بعض أهل العلم -وهو الذي مال إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن البخل المراد هنا هو البخل بالعلم واحتج لهذا بقوله: إننا لا نعرف طائفة تتمدح بالبخل

---

[16] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٤) (ج ٢ / ص ٣٥) وفي الأوسط (٣٦٥٠) (ج ٤ / ص ٧٤) ورواه البخاري موقوفاً على أبي بكر الـــصديق رضي الله عنه في كتاب المغازي - باب قصة عمان والبحرين (٤١٢٢) (ج ٤ / ص ١٥٩٣).

[17] - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة - باب في الشح (١٧٠٠) (ج ٢ / ص ٦١) وأحمد (٦٤٨٧) (ج ٢ / ص ١٥٩) وصححه الألباني في صـــحيح أبي داود برقم (١٦٩٨).

وتظهره؛ لأنك لو قلت لأبخل الناس: أنت بخيل، لغضب فهو لا يقر على نفسه بهذه الصفة، إلا أنه يقال: هذا ليس بلازم هنا في الآية، فالله ذكر صفتهم وإن كانوا لا يقرون بها لكن هذه هي حقيقتهم، فالذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وصف موجود في اليهود وكذلك هو موجود أيضاً في المنافقين حيث قالوا: {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [(٧) سورة المنافقون] يعني لا تنفقوا عليهم حتى يتفرقوا عنكم فإنهم زاحموكم في أرضكم وفي بلدكم وتكاثروا عليكم حينما قاسمتموهم الأموال فأمسكوا عنهم حتى يبحثوا عن بلد أخرى، ولما كانت غزوة المريسيع وحصل ما حصل قال عبد الله بن أبي: سمِّن كلبك يأكلك، وكان يلومهم ويقول: هذا ما فعلتم بأنفسكم –يعني أنتم السبب في تقويتهم- أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[١٨].

وقوله تعالى: {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ من فَضْلِهِ} [(٣٧) سورة النساء] فالبخيل جحود لنعمة الله عليه، لا تظهر عليه ولا تبين، لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله كما قال تعالى: {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [(٦-٧) سورة العاديات] أي: بحاله وشمائله {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(٨) سورة العاديات].

الضمير في قوله: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [(٧) سورة العاديات] من قوله: {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [(٦-٧) سورة العاديات] يحتمل الرجوع إلى الرب أي: إن الله شهيد على هذا الوصف للإنسان، ويحتمل أن يرجع إلى الإنسان نفسه.

وقوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(٨) سورة العاديات] الضمير هنا راجع إلى الإنسان، ولذلك من طرق الترجيح في هذا أن الأصل إذا دار الكلام بين اتحاد مرجع الضمائر وتفريقه فالأولى توحيد المرجع، فيقال: هذا في الإنسان، إن الإنسان لربه لكنود، وإنه أي الإنسان على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير أي الإنسان لشديد، أي أن كل ذلك في الإنسان.

وحب الخير في قوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(٨) سورة العاديات] يعني المال كما في قوله تعالى: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [(١٨٠) سورة البقرة] كما قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [(٢٠) سورة وفي الحديث لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض)) قال رجل: أو يأتي الخير بالشر؟ قال: ((إن هذا المال خَضِرة حلوة وإن كل ما أنبت الربيعُ يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِر)) إلى آخر الحديث[١٩] فليس المقصود بالخير هنا طاعة الله وطاعة رسوله.

ولقد سمعت أحد الناس وقد خرج في قناة من القنوات يقول: الأصل في الإنسان حب الخير وطاعة الله، فالمشكلة أن الإنسان تسيطر عليه أحياناً بعض التصورات وبعض المشاعر حينما يخرج أمام العالم ويتذكر أنه يخاطب أشراراً وأخياراً وكفاراً ومسلمين وأعداء، ولذلك تجده يقول: الأصل في الناس حب الخير وحب الفضيلة، وهذا الكلام ليس صحيحاً أبداً فالله يقول: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة

---

[18] - انظر السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣ / ص ٢٩٩).

[19] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦٣) (ج ٥ / ص ٢٣٦٢) ومسلم في كتاب الزكاة - باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢) (ج ٢ / ص ٧٢٧).

يوسف] ويقول: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام] فالقول: إن الأصل في الإنسان حب الخير هذا خطأ كبير فادح.

وقال هاهنا: {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٣٧) سورة النساء] ولهذا توعدهم بقوله: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [(٣٧) سورة النساء] والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعم الله عليه.

وفي الحديث: ((إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه))[٢٠] وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العِلْم الذي عندهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكتمانهم ذلك، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى؛ فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله: {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ} [(٣٨) سورة النساء].

هذه الطريقة التي سلكها ابن كثير -رحمه الله- هي من مزايا هذا التفسير، فالآية هنا احتملت معنيين هما البخل بالمال والبخل بالعلم، فرجح ابن كثير أنه البخل بالمال بدلالة السياق، وهذه طريقة من طرق الترجيح وذلك أن تكون الآية محتملة معنيين فأكثر ويكون في السياق ما يدل على رجحان أحد هذه المعاني، لذلك قال: المراد هنا المال؛ لأن الآية التي قبلها ذكر الله -عز وجل- فيها إعطاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إلى آخره، ثم قال: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ} [(٣٧) سورة النساء] يعني يمنعون هذا الإحسان والإنفاق والبذل وما أشبه ذلك، ثم قال بعد ذلك: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٤٠) سورة النساء] وقال قبل ذلك: {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٣٨) سورة النساء] فهو ذكر المانعين وذكر الباذلين الذين يكون بذلهم لغير وجه الله -تبارك وتعالى- وهذه الآية في الوسط فدل على أنها في المال، وإن كان المعنى أعم من هذا كله، وهو أيضاً ظاهر كلام ابن كثير كما سبق وقال: "**والظاهر أن السياق في البخل بالمال وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى**" فبذل العلم لا يخسر الإنسان منه شيئاً، بل إنه يزيد كثرة ببذله والإنفاق منه، وهذه من فضائل العلم على المال، فالآية تشمل هذا جميعاً، وقد يجتمع هذا في الطائفة الواحدة كاليهود فهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله من العلم، وقد يكتمون ما آتاهم الله من فضله من العطاء والإنعام والإفضال في دنياهم من المال وغيره، وقد يوجد هذا في شخص، وقد يوجد بعضه في طائفة والبعض الآخر في طائفة أخرى.

والمقصود أن هذه الأوصاف المذمومة قد تجدها في أناس يبخلون بالعلم وبكل نفع متعدٍّ إلى الناس، وتجد الواحد منهم لا يمكن أن تصدر منه فائدة ولا يعلِّمُ شيئاً إلا بشيء، فإذا قلتَ له: أريد أن أقرأ عليك القرآن، قال: وكم تدفع؟ وإذا قلت: ليس لديَّ مال، قال لك: وما الذي تجيده؟ فإن قلت مثلاً: أجيد التعامل مع الكمبيوتر، قال لك: إذن اقرأ، على أن تعلمني الكمبيوتر، أو على أن تعلمني القيادة، أو توصلني إلى عملي أو

---

[20] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٩٩١) (ج ١٨ / ص ١٣٥) وفي الأوسط (٣٦٥٣) (ج ٤ / ص ٧٥) وابن حبـان (٥٤١٧) (ج ١٢ / ص ٢٣٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧١٢).

نحو هذا، فالمقصود أن مثل هؤلاء الذين يبخلون لا يمكن أن يبذلوا شيئاً إلا بمقابل، إلى درجة أنه قد يبخل عليك حتى بالفتوى، وربما أنكر على الذي يبذل فيقول: أنت لماذا تجهد نفسك من أجل غيرك؟!.

ومن الناس من تكون هذه الروح متأصلة فيه بحيث إذا وجد المعلومة لا يمكن أن يخرجها، وإذا كان عنده مخطوطات تنفع الناس ربما لا تراها الشمس ولا يدري عنها أحد شيئاً، ولا يطّلع عليها أحد ولو كان من أخص الناس.

ومن الناس من إذا اضطر فكتب ووجدت في كلامه بعض النفائس التي حصلها بالتعب وجرد المطولات فإنك تجده لا يعزوها إلى المصادر؛ لئلا يوقف على مكانها بحيث إذا نقلها أحد أو استفاد منها يقول: نقلتها من الكتاب الفلاني، أي من كتابه هو، فهذا من ألوان البخل وصوره أراده الله بقوله: {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٣٧) سورة النساء] ومنه جحود النعم التي ينعم الله -عز وجل- بها على الإنسان، كأن يكون غنياً فيكتم ذلك وربما يقول: أنا فقير ومحتاج، أما ليس عندي شيء؟، وقد يكون هذا الإنسان في عافية في بدنه ويظهر خلاف ذلك، وقد يكون في نعمة من النعم ويكتم ذلك ويجحده، ومن أبسط الأمثلة التي تتكرر دائماً حال الطلاب في المدارس والجامعات والاختبارات، تجد الطالب الذي لا يجارى ولا يبارى إذا خرج من الاختبار يولول ويشتكي أنه لم يحسن الإجابة فيرثي له أضعف الطلاب ويرقُّون لحاله ثم يتبين أنه حصل على درجة كاملة وهكذا ديدنه من السنة الأولى الابتدائية إلى أن تخرج من الدكتوراه، وما علم أن هذا جحود لنعمة الله، والله يقول: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [(١١) سورة الضحى] فإذا كان يخاف من العين فليسكت، أمّا أن يجحد نعمة الله -عز وجل- ويكذب فهذا لا يجوز.

ومن أمثلة ذلك أنك تجد بعضهم يتواصى في كتابة الرسائل الجامعية مثلاً فيقول: أبقِ سطراً في الأخير لا تكتبه، وبما أنه لا بد من تبييض المخطوط قبل البدء بعملية التحقيق فأوصيك بترك آخر سطر واشتغل على الرسالة وأكملها تحقيقاً وكل من سألك فقل له: والله إلى الآن ما انتهيت من تبييض المخطوط، وقد مضت عليه ثلاث سنوات، وتبييض المخطوط يمكن أن يتم خلال شهرين وليس ثلاث سنوات، لكنه يريد بهذا أن يدفع العين، فأقول: لا داعي لمثل هذا الكلام، قل: أنا في خير وعافية والحمد لله على ما يسر.

وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله: {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ} [(٣٨) سورة النساء] فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يُمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي الحديث الذي فيه الثلاثة الذين هم أول من تسجَّر بهم النار، وهم: العالم والغازي والمنفق المراءون بأعمالهم ((يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت؛ إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل، أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك))[21] ولهذا قال تعالى: {وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} الآية [(٣٨) سورة النساء] أي: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطانُ فإنه سوَّل لهم وأملى لهم وقارنهم فحسن لهم القبائح {وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً} [(٣٨) سورة النساء].

---

21 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥) (ج ٣ / ص ١٥١٣).

ثم قال تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ} الآية [(٣٩) سورة النساء] **أي: وأيّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعَدَلُوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟.**

وقوله: {وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا} [(٣٩) سورة النساء] **أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيِّضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن الجناب الأعظم الإلهي الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة، عياذاً بالله من ذلك.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا* فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا* يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٠-٤٢) سورة النساء].

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ} الآية [(٤٧) سورة الأنبياء].

وقال تعالى مخبرًا عن لقمان أنه قال: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} الآية [(١٦) سورة لقمان] وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٦-٨) سورة الزلزلة].

وفي الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديث الشفاعة الطويلِ وفيه: ((فيقول الله -عز وجل-: ارْجِعُوا، فَمَن وجدتم في قلبه مثقالَ حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار)) وفي لفظ: ((أدنى أدنـــى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً)) ثم يقول أبو سعيد: اقرءوا إن شئتم: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} الآية [(٤٠) سورة النساء][(١)].

وعن سعيد بن جُبَيْرٍ في قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا} [(٤٠) سورة النساء] فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً، وقد استدل له بالحديث الصحيح أن العباس -رضي الله تعالى عنه- قال: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: ((نعم هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار))[(٢)].

وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطَّيالسِي في مسنده عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب كلام الرب عز و جل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٠٧٢) (ج ٦ / ص ٢٧٢٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب أدني أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠) وبعض ألفاظه في مسند أحمد (١١١٤٣) (ج ٣ / ص ١٦).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة – باب قصة أبي طالب (٣٦٧٠) (ج ٣ / ص ١٤٠٨) ومسلم في كتاب الإيمان - باب شفاعة النبي -صلى الله عليه و سلم- لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢٠٩) (ج ١ / ص ١٩٤).

عليها الرزق في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة))[3].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}** [(٤٠) سورة النساء] قراءة أهل الحجاز بالرفع قي حسنة هكذا **(وإن تك حسنةٌ يضاعفها)** يعني وإن توجد، فتكون "كان" هنا تامَّة، وعلى قراءة غيرهم كما هنا **{وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}** [(٤٠) سورة النساء] أي وإن تك فِعلتُه حسنة يضاعفها، على أن "كان" ناقصة.

وكلام ابن كثير -رحمه الله- هنا وذكره قول سعيد بن جبير -رحمه الله- بأن الإنسان الكافر قد يخفف عنه العذاب في الآخرة بسبب حسناته، وهل يختص ذلك بأبي طالب بناءً على حديث أنس أن الكافر يطعم بها في الدنيا ثم يوافي يوم القيامة وليس له حسنة يقال فيه: هذا يحصل للكافر في الدنيا؛ لأن الله -عز وجل- يعطيه بحسناته أو يدفع عنه بعض المكاره بسبب هذه الحسنات فيوافي وليس له شيء في الآخرة مع ملاحظة أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وبناءً عليه يتفاوت عذابهم في النار فليسوا على مرتبة واحدة، ولذلك كانت النار دركات والله -عز وجل- يقول: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ}** [(٤٢-٤٦) سورة المدثر] إلى آخره فالكفار يتفاوتون في هذا فقد تجتمع في بعضهم هذه الأوصاف فتجتمع فيه جميع أنواع الموبقات ويحارب أهل الإيمان، وبعض الكفار غاية ما هنالك أنهم وقعوا في نوع من الشرك، والشرك ظلم عظيم لكنهم لم يقعوا في بقية الموبقات فلم يحاربوا أهل الإيمان أو نحو ذلك، فهم يتفاوتون في كفرهم وبالتالي فمسألة تفاوتهم في العذاب أمر لا شك فيه، ولكن بالنسبة للحسنات فإنها تعجل لهم في الدنيا، وأما ما يحصل لأبي طالب فإنه يكون بسبب شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي شفاعة خاصة، والكلام في الشفاعة وأنواعها أمر معلوم ومنها الشفاعة العظمى وهي خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي طالب خاصة أيضاً، وهناك شفاعات أخرى يشترك فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- والأنبياء وأهل الإيمان وإن اختُلف في بعضها كالشفاعة لأهل الكبائر والشفاعة لمن استوجب النار أن لا يدخلها والشفاعة لمن دخلها أن يخرج منها، والشفاعة لأهل الجنة في المراتب العالية، ونحو ذلك.

وقال أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- وعِكْرِمَة وسعيدُ بن جُبَيْرٍ، والحسنُ وقتادةُ والضحاكُ، في قوله: {وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٤٠) سورة النساء] يعني: الجنة، نسأل الله رضاه والجنة.

يقول الله -عز وجل-: **{وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}** [(٤٠) سورة النساء] ويقول -عز وجل- في هذه المضاعفة: **{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}** [(١٦٠) سورة الأنعام] ويقول -تبارك وتعالى-: **{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء}** [(٢٦١) سورة البقرة] وهنا يقول –سبحانه-: **{وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن**

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا (٢٨٠٨) (ج ٤ / ص ٢١٦٢).

{لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٤٠) سورة النساء] فهذا الأجر العظيم هو كل ما يحصل مما يصدق عليه ذلك مما يؤتيه الله -تبارك وتعالى- لأوليائه وعباده المؤمنين، ونعيم الجنة من هذا الأجر العظيم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة مني لأبي هريرة، فقدم قبلي حاجاً، وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة)) فقلت: ويحكم، ما كان أحد أكثر مجالسة مني لأبي هريرة وما سمعت منه هذا الحديث! فهممت أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث[٤].

ورواه ابن أبي حاتم من طريق أخرى عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة)) فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة)) ثم تلا هذه الآية: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} [(٣٨) سورة التوبة].

وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [(٤١) سورة النساء] **يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد -يعني الأنبياء عليهم السلام- كما قال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} الآية** [(٦٩) سورة الزمر] **وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ} الآية** [(٨٩) سورة النحل].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((اقرأ عليَّ)) قلت: يا رسول الله، أأقرأ عليك وعليك أُنزلَ؟ قال: ((نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري)) فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [(٤١) سورة النساء] **قال: ((حسبك الآن)) فإذا عيناه تَذْرِفَان[٥].**

الإشارة هنا بقوله: **{وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}** [(٤١) سورة النساء] هل المراد بهم كفار قريش كما قاله بعض أهل العلم ولهذا قال بعده: **{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ}** [(٤٢) سورة النساء] أو أن المراد به الأمة؟

قولان معروفان للسلف -رضي الله تعالى عنهم- والثاني هو الأقرب بدلالة قوله -تبارك وتعالى- قبله: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ}** [(٤١) سورة النساء] ليكون قوله: **{وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}** أي شهيداً على هذه الأمة، وهي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- والمقصود بها أمة الدعوة فيدخل فيها كل من بُعث إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن أجابوه وممن لم يجيبوه.

---

[٤] - أخرجه أحمد (١٠٧٧٠) (ج ٢ / ص ٥٢١) وابن أبي شيبة (ج ٨ / ص ١٨٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب قول المقرئ للقارئ حسبك (٤٧٦٣) (ج ٤ / ص ١٩٢٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (٨٠٠) (ج ١ / ص ٥٥١) واللفظ للبخاري.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] أي: **لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ كقوله:** {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} **الآية** [(٤٠) سورة النبأ].

هذا الجزء من هذه الآية: {لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ} [(٤٢) سورة النساء] فيه ثلاث قراءات متواترة، فالقراءة الأولى: هي قراءة ابن عامر ونافع من السبعة (لو تَسَّوَّى بهم الأرض) بتشديد السين وفتح التاء، والقراءة الثانية هي قراءة حمزة والكسائي: (لو تَسَوَّى بهم الأرض) من غير تشديد، والقراءة الثالثة: {لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ} بالبناء للمجهول، فعلى القراءة الأولى والثانية (لو تَسَّوَّى) و (لو تَسَوَّى) يعني أن الأرض تسوى عليهم فيتساوون معها، فبعض أهل العلم يقول: يعني لو تنشق لهم الأرض فيدخلون فيها، ومثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يرى أن القراءات الثلاثة بمعنىً واحد، وأحسن ما يُفسر به هذا -والله تعالى أعلم- هو قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ] وذلك أنه كما ورد في الحديث إذا حصل القصاص بين الحيوانات ثم قيل لها: كوني تراباً فكانت تراباً، والكافر ينظر إلى ذلك فإنه يتمنى عندئذ أن يتحول إلى تراب فيستوي مع الأرض فلا يكون له بقاء ولا وجود كي لا يعذب.

وقوله: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] **إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً.**

يقول: "**وقوله:** {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] **إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً**" فهذه الجملة من الآية: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] يحتمل أن تكون معطوفة على ما قبلها هكذا: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] يعني أنهم يتمنون شيئين، الأول أن لو تسوى بهم الأرض والثاني أن لا يكتمون الله، وعلى هذا يكون هناك مقدر محذوف ليكون معنى الآية هكذا: يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ويومئذ لا يكتمون الله حديثاً، فهذا هو المعنى الأول الذي تحتمله الآية.

ويُحتمل أن يكون قوله: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] جملة استئنافية، ليكون معنى الآية هكذا: يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض، أي هذه هي الأمنية، ثم أخبر الله عنهم أنهم لا يكتمون الله حديثاً.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] معطوف، لكن المعنى مغاير لما سبق، فيكون ذلك من جملة أمانيهم، يعني يومئذ يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً، أي ويتمنون أنهم لم يكتموا الله شيئاً لأنهم قد افتضحوا وانكشف أمرهم؛ لأن الله -عز وجل- يختم على الأفواه فتنطق الجوارح فعندئذ يتندمون غاية الندم ويتمنون أنهم لم يكتموا الله حديثاً؛ لظهور كذبهم، وهذا الذي مال إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ولعل أقرب هذه المعاني -والله تعالى أعلم- هو المعنى الأول، ويليه المعنى الثاني، ثم المعنى الثالث في القوة، فيكون المعنى -والله تعالى أعلم- أن الله يخبر عنهم أنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض، ويخبر عنهم

في ذلك الحين أنهم لا يكتمون الله حديثاً، ولهذا سأل رجل ابن عباس -رضي الله عنه- عن هذه الآية وعن وجه الجمع بينها وبين الآيات الدالة على أنهم يكتمون ويكذبون فيقولون: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] ويجحدون ما كانوا يعبدون من قبل، فبين له ابن عباس -رضي الله عنه- أنهم يكتمون في أول الأمر ويجحدون وينكرون الإشراك، ثم بعد ذلك تنطق الجوارح كما قال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [(٦٥) سورة يـــس] ثم بعد ذلك تنطق ألسنتهم.

وروى عبد الرزاق عن سعيد بن جُبَيْر قال: جاء رجل إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: أشياء تختلف عليَّ في القرآن قال: ما هو؟ أشكٌّ في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك ولكن اختلاف، قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] وقال: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء] فقد كتموا.

ومما يشبه هذه الآيات قوله تعالى: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ} [(٢٨) سورة النحل] وقوله تعالى: {بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا} [(٧٤) سورة غافر] ونحو ذلك.

فقال ابن عباس: أما قوله: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون، فقالوا: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] رجاء أن يغفر لهم، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك: {يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [(٤٢) سورة النساء].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [(٤٣) سورة النساء].

ينهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكْرِ الذي لا يدري معه المصلي ما يقول.

السكر لا شك أنه معروف، وهو المعنى المتبادر في الآية، وإن كان ابن عباس -رضي الله عنهما- والضحاك يقولان: لا تقربوا الصلاة في حال مغالبة النعاس كما جاء في الحديث: ((إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقدن حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه))[6] فهذا المعنى الذي ذكروه ليس معناه أن معنى السكر يخفى عليهم وإنما أرادوا أن يشيروا إلى معنىً قد يغفل عنه السامع وهو أن الإنسان في حال مغالبة النوم لا يعقل ما يقول، وأما السكر فمعروف أنه ذهاب العقل بتعاطي المسكر، وحده بعضهم -مثل الإمام أحمد -رحمه الله- بأنه إذا لم يميز بين نعله ونعل غيره وثوبه وثوب غيره فهو منه، وحده بعضهم فقال: إذا أباح السر المكتوم وأفضى بالمكنون فهو منه، وبعض أهل العلم

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩) (ج ١ / ص ٨٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٦) (ج ١ / ص ٥٤٢).

يقول: إذا وصل إلى حال ينتفي عنه العقل تماماً فهذا في حكم المجانين، لكن المراد دون ذلك وهو إذا صار يخلط ولا يعقل الصلاة كما ينبغي، كما هو حال من يغالبه النوم مثلاً ويحصل منه بعض الهذيان أو نحو ذلك.

والذي حملهم على هذا أن الله -عز وجل- قال: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء] فيتوجه هنا سؤال وهو كيف خاطبهم وهم لا يعقلون والخطاب إنما يتوجه للعاقل؟ فقال من قال: إن هؤلاء في حال يسمعون فيه الخطاب ويستطيعون الجواب ولم ينتف العقل عنهم بالكلية وإلا لصاروا في عالم المجانين ولا يتوجه إليهم خطاب، إلا أني أظن أنه لا حاجة لشيء من هذا؛ فالله يخاطب أهل الإيمان فيقول: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء] فهذا الخطاب لا يعني أنه خاطبهم حال سكرهم وإنما يخاطب أهل الإيمان خطاباً عاماً -وهذا قبل تحريم الخمر- فالخطاب لم يتوجه إليهم في حال السكر، وإنما هو خطاب عام للأمة، فلا حاجة لمثل تلك المحامل التي ذكروها، والله تعالى أعلم.

وعن قربان محالها التي هي المساجد.

على كل حال هذا القول الذي قاله الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن فعل الصلاة في حال السكر في الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، لكن إذا كان يدري ما يقول حيث إن من الناس من لا يسكر بالشرب المعتاد الذي اعتاد عليه إلا إذا زاد فمثل هذا لا يكون داخلاً في النهي لأنه ليس بسكران، ولأنه لم يقل: لا تقربوا الصلاة إذا شربتم الخمر، وإنما قال: {وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء] فالذين يشربون أنواعاً من الخمور ولا تسكرهم إما لكميتها وإما لنوعها وإما لحال قامت بهم من الإدمان والاعتياد غير داخلين في النهي، وهذا قبل تحريم السكر، وإلا فإن شرب الخمر حرام لا يجوز، بل ذلك من الكبائر، فهذه كانت مرحلة من المراحل قبل التحريم، لكن لو جاء إنسان وعصى الله ورسوله وشرب الخمر وسكر فصلى فإننا نقول: إن صلاته باطلة، وهذا أوضح مثال على اقتضاء النهي الفساد.

في قوله تعالى: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ينهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكْرِ الذي لا يدري معه المصلي ما يقول وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث**".

قوله: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ} يعني لا تتلبسوا بها -هذا هو المعنى المتبادر- لكن قوله: {وَلاَ جُنُبًا} هل المعنى ولا تتلبسوا بها وأنتم في حال الجنابة -كما يقول أبو حنيفة- أم أن المعنى لا تقربوا محال الصلاة التي هي المساجد وأنتم سكارى ولا جنباً إلا عابري سبيل؟

على قول من قال: {وَلاَ جُنُبًا} أي لا تتلبسوا بالصلاة وأنتم في حال جنابة فإن هذا القول يقويه أنه معطوف على ما قبله، أي لا تتلبسوا بالصلاة وأنتم في حال سكر ولا تتلبسوا بها وأنتم في حال جنابة، كما يقوي هذا المعنى أنه ليس المقصود نهي السكران عن قربان محال الصلاة، فالمتبادر أنه نهي عن التلبس بالصلاة لمن كان جنباً ولمن كان سكراناً، أي لا تتلبسوا بالصلاة في هاتين الحالتين.

ومن قال في قوله: {وَلاَ جُنُبًا}: إن المعنى لا تقربوا محال الصلاة فإن هذا القول يضعفه أنه فرَّق بين المعطوف والمعطوف عليه ويقويه أنه قال: {إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء] حيث لا يتأتى أن يكون

المراد بقوله: {إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء] الصلاة، وإنما المراد محل الصلاة وهو المسجد، أي أن الجنب ممنوع من دخول المسجد والمكث فيه إلا إذا كان عابر سبيل، وهذا المعنى أظنه أقرب -والله تعالى أعلم-، وإذا كان ممنوعاً من المكث في المسجد فمنعه من التلبس بالصلاة من باب أولى، ولهذا يقال: {وَلاَ جُنُبًا} أي: لا تتلبسوا بها في حال الجنابة ولا تقربوا محالها أيضاً إلا عابري سبيل، والله أعلم.

وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دلَّ عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة، عند قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} الآية [(٢١٩) سورة البقرة] فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات فلما نزل قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] إلى قوله: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] فقال عمر -رضي الله عنه-: انتهينا انتهينا[٧].

وفي رواية: فنزلت الآية التي في النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [(٤٣) سورة النساء] فكان منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قامت الصلاة ينادي: "ألّا يقربن الصلاة سكران" لفظ أبي داود[٨].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: نزلت فيَّ أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناسا من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سَكِرْنا، ثم افتخرنا فرفع رجل لَحْي بعير فَفَزَر به أنف سعد، فكان سعدٌ مَفْزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} الآية [(٤٣) سورة النساء] والحديث بطوله عند مسلم ورواه أهلُ السُّنَن إلا ابنَ ماجه[٩].

سبب آخر: روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرتِ الصلاةُ فقدَّموا فلاناً، قال: فقرأ: قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [(٤٣) سورة النساء]، هكذا رواه ابن أبي حاتم، وكذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح[١٠].

---

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة المائدة (٣٠٤٩) (ج ٥ / ص ٢٥٣) والنسائي في كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر (٥٥٤٠) (ج ٨ / ص ٢٨٦) وأحمد (٣٧٨) (ج ١ / ص ٥٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير خلف بن الوليد.

[8] - أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة - باب في تحريم الخمر (٣٦٧٢) (ج ٣ / ص ٣٦٤) وأحمد (٣٧٨) (ج ١ /ص ٥٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٦٧٠).

[9] - أخرجه أحمد (١٦١٤) (ج ١ / ص ١٨٥) والبيهقي (١٧٧٨٨) (ج ٨ / ص ٢٨٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وبعض هذا الحديث في صحيح مسلم بألفاظ أخرى ورواه مختصراً في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (١٧٤٨) (ج ٤ / ص ١٨٧٦).

[10] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة النساء (٣٠٢٦) (ج ٥ / ص ٢٣٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٢٦).

هناك اختلاف في الروايات فيما قرئ وكيف قرئ، ومن الذي وقع له ذلك، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النساء (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [(٤٣) سورة النساء] هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها.

وقد روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول))[1] انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، ورواه هو والنسائي، وفي بعض ألفاظ الحديث: ((فلعله يذهب يستغفر فيسُبّ نفسه))[2].

وقوله: {وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ} [(٤٣) سورة النساء] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ} [(٤٣) سورة النساء] قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمرُّ به مراً ولا تجلس.

ثم قال: ورُوي عن عبد الله بن مسعود وأنس وأبي عُبَيْدَة -رضي الله تعالى عنهم- وسعيد بن المُسَيَّبِ وأبي الضُّحَى، وعطاء، ومُجَاهد، ومسروق، وإبراهيم النَّخَعي وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعَمْرو بن دينار، والحكم بن عُتَيْبَة، وعِكْرِمَة، والحسن البصري، ويَحْيَى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقتادَة نحوُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}** [(٤٣) سورة النساء] ذكرنا في الدرس السابق أنه يحتمل معنيين: الأول: أي لا تقربوا محال الصلاة إلا أن تكونوا عابري سبيل فاعبُروا ولا تمكثوا فيه، وهذا هو المعنى المتبادر -والله تعالى أعلم- وعليه يكون قوله تعالى: **{لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ}** [(٤٣) سورة النساء] أي: لا تتلبسوا بها وأنتم في حال السُّكر، وهذا المعنى الذي نقله عن كثير من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهو مذهب مالك والشافعي، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

والمعنى الثاني: من أهل العلم من جمع بين هذا وهذا فقال: **{وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}** [(٤٣) سورة النساء] أي: لا تتلبسوا بالصلاة ولا تقربوا محالَّها –أي المساجد- إلا وأنتم في حال طهارة إلا من كان عابر سبيل.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩) (ج ١ / ص ٨٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٦) (ج ١ / ص ٥٤٢) ولفظ: ((فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول)) لأحمد (١٢٤٦٩) (ج ٣ / ص ١٤٢)

[2] - هذا لفظ البخاري في كتاب الوضوء - باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩) (ج ١ / ص ٨٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٦) (ج ١ / ص ٥٤٢).

ومن فسر قوله تعالى: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ} [(٤٣) سورة النساء] بالتلبس في كليهما فقال: إن المعنى لا تتلبسوا بها في حال السكر ولا الجنابة إلا أن تكونوا عابري سبيل – يعني مسافرين- قالوا: يجوز له في هذه الحالة أن يتيمم، لكن يرد على هذا أن التيمم لا يختص بالمسافر وإنما هو لكل من فقد الماء حقيقة أو حكماً كأن يكون عجز عن استعماله لبرد ونحوه فإنه يتيمم سواء كان في الحضر أو في السفر.

وأولئك يمكن أن يجيبوا بالقول: إنه ذُكر عابر السبيل تغليباً؛ لأن الغالب أن تكون هذه الحال لمن كان مسافراً، فالمسافر مظنة احتياج الماء وعدم التمكن منه، ولهذا عبر بالغالب وإلا فهو يشمل المسافر وغيره.

وعلى كل حال فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- هو المعنى الأول، أي: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء] يعني لا تتلبسوا بها في حال السكر {وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء] أي: هذا نهي عن المكث في محال الصلاة إلا إذا كان الإنسان عابراً فإنه يجوز له ذلك، والله تعالى أعلم.

وروى ابن جرير عن يَزِيد بن أبي حَبِيبٍ عن قول الله -عز وجل-: {وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء] أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد فأنزل الله: {وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ} [(٤٣) سورة النساء].

ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حَبِيبٍ -رحمه الله- ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سدوا كل خوخة في المسجد إلا خَوخةَ أبي بكر))[٣] وهذا قاله في آخر حياته -صلى الله عليه وسلم- علماً منه أن أبا بكر -رضي الله عنه- سيلي الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسدِّ الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه -رضي الله تعالى عنه- ومن روى: ((إلا باب علي))[٤] كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ناوليني الخُمْرة من المسجد)) فقلت: إني حائض فقال: ((إن حيضتك ليست في يدك))[٥].

وله عن أبي هريرة مثله، ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد والنفساء في معناها، والله أعلم.

وقوله: {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا} [(٤٣) سورة النساء] أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شَيْنه أو تطويل البُرء، ومن العلماء من جَوّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية، والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير.

---

[3] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٥) (ج ١ / ص ١٧٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (٢٣٨٢) (ج ٤ / ص ١٨٥٤).

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب – باب مناقب علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (٣٧٣٢) (ج ٥ / ص ٦٤١) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٦٠٩٦).

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الحيض - باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٨) (ج ١ / ص ٢٤٤).

قوله في السفر: "**ولا فرق فيه بين الطويل والقصير**" أي أنه لا يحد بمسافة فلا يقال: يعتبر سفراً إذا كان يجوز فيه القصر وإن لم يجُز فيه القصر فلا، أعني لا يقال ذلك؛ لأن الله -عز وجل- أطلق السفر، والسفر كما هو معروف تحصل به الرخص التي رخص الله -عز وجل- فيها للمسافر من قصر وجمع وما إلى ذلك.

قوله تعالى: **{وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا}** [(٤٣) سورة النساء] هذه الأمور التي ذكرها الله -عز وجل- متعاطفة، إن كنتم مرضى أو على سفر، فالمرض هو المرض الذي يبيح التيمم، والذي ذكر ضابطه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وليس مطلق المرض؛ لأن هذه رخصة ترفع المشقة، وذلك إذا كان الإنسان في حال من المرض لا يستطيع معها الوصول إلى الماء، كأن يكون على السرير بحيث لا يستطيع أن يقوم ولا يتوضأ فإنه يتيمم، أو أن يكون به مرض يتضرر معه من الماء كالذي يصاب بالحروق أو نحو ذلك فهذا يتيمم، هذا بالنسبة للمرض.

وقوله: **{أَوْ عَلَى سَفَرٍ}** [(٦) سورة المائدة] يعني إذا كان فاقداً للماء وليس مطلق المسافر.

وقوله: **{أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}** [(٦) سورة المائدة] المقصود قضاء الحاجة، والغائط هو المكان المطمئن المنخفض في الأرض، فكانوا يقصدونه لقضاء الحاجة للتستر فصار يطلق ذلك على الخارج وإلا فأصله يراد به المحل.

وقوله: **{أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}** [(٤٣) سورة النساء] سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

فالمقصود أن الله تعالى قال: **{فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا}** [(٤٣) سورة النساء] هذا القيد في قوله: **{فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}** [(٤٣) سورة النساء] هل يرجع إلى الأخيرين فقط **{أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}** [(٦) سورة المائدة] أم يرجع إلى الأمور السابقة جميعاً؟ بمعنى هل المريض يتيمم إن لم يجد الماء أم أنه لا يرتبط بوجود الماء فهو قد يكون في الحضر غالباً ومع ذلك له أن يتيمم لمجرد المرض وليس لفقد الماء؟

من قال: إن القيد في قوله: **{فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}** [(٤٣) سورة النساء] يرجع إلى الأخيرين فقط **{أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}** [(٦) سورة المائدة] قال: هذا فيمن عليه حدث أصغر أو أكبر -على تفسير **{لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}** [(٦) سورة المائدة] بأنه الجماع، فقالوا: من هذا حاله ولم يجد الماء فإنه يتيمم، أما المريض والمسافر فإنه لا يتيمم بإطلاق وإنما يتيمم في حال المرض ولو كان واجداً للماء، وبالنسبة للمسافر فمن أهل العلم من يقول: يرخص له التيمم مطلقاً ولو كان واجداً للماء -وهذا قول ضعيف- فعلى هذا القول يكون القيد متعلقاً بالأخيرين.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك لا مانع من أن يرجع إلى الجميع، وبالنسبة للمريض فقوله تعالى فيه: **{فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}** [(٤٣) سورة النساء] يعني حقيقة أو حكماً، وذلك أن الذي لا يستطيع القيام من سريره ليتوضأ -وهذا حال كثير من المرضى الذين توجد لهم أسئلة يستفتون بها عن هذا الأمر- إن لم يجد ماء قريباً منه في حجرته، أو لم يجد الماء حكماً بأن لا يستطيع أن يمس الماء لعجز أو خوف ضرر من استعماله فإنه يتيمم.

قوله: **{أَوْ عَلَى سَفَرٍ}** المسافر كذلك إذا فقد الماء حقيقة أو حكماً فإنه يتيمم، ومعنى فقدانه حكماً هنا كأن يكون الماء موجوداً قريباً منه لكن لن يحصل عليه إلا بمنَّة، ففي هذه الحال ليس مطالباً أن يطلبه، ومن أمثلة فقدان

الماء حكماً للمسافر أن يباع بأغلى من السعر المعهود، يعني في مكان يستغل الناس فيه المشترين له لعدم وجود الماء إلا عند هذا الذي يبيع، فهنا لا يجب عليه أن يشتري هذا الماء وإنما يتيمم -على القول الراجح- ومن أمثلة ذلك أيضاً أن توجد بئر ونحوها لكنه لا يستطيع أن يشغّل الماكينة الخاصة برفع الماء ولا يوجد من يقوم بهذا، أو توجد بئر لكن ليس عنده دلو، أو يوجد خزان لكن لا يعرف أين المفتاح ونحو ذلك، كل هذا يجعل هذا الشخص فاقداً للماء حكماً وبالتالي ينطبق عليه قوله تعالى: {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا} [(٤٣) سورة النساء].

وقوله: {أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ} [(٦) سورة المائدة] الغائط هنا هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، وأما قوله: {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء} [(٤٣) سورة النساء] فقرئ: (لَمَسْتم) و{لاَمَسْتُمُ}.

القراءة الأولى قراءة حمزة والكسائي، والقراءة الأخرى قراءة البقية.

وهو كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [(٢٣٧) سورة البقرة] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا} [(٤٩) سورة الأحزاب].

هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، أي أن المس واللمس في {لاَمَسْتُمُ} و(لَمَسْتم) كل ذلك في الجماع ولا يقال: إنه بمجرد اللمس، لا بشهوة ولا بغير شهوة، لكنه قد يستحب له إذا لمس بشهوة أن يتوضأ؛ لأن ذلك يحرك الشهوة، والشهوة يناسبها الماء كما يقول الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: يناسب حرارة الشهوة أن تطفأ بالماء، فلو أنه توضأ فهذا يستحب، لكن لا يجب إلا إذا خرج منه شيء، ويدل على هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقبّل ثم يخرج إلى الصلاة ولا يتوضأ، فهل يُظن أن تقبيل الزوجة يكون من غير شهوة؟ أبداً، ومع ذلك كان يذهب يصلي ولا يتوضأ.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء} [(٤٣) سورة النساء] قال: الجماع، ورُوي عن علي وأبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وطاوس والحسن، وعُبَيد بن عمير، وسعيد بن جبير، والشَّعْبي وقتادة، ومقاتل بن حيَّان نحوُ ذلك.

وقوله تعالى: {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا} [(٤٣) سورة النساء] في الصحيحين من حديث عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً معتزلاً لم يصلِّ في القوم فقال: ((يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألست برجل مسلم؟)) قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء، قال: ((عليك بالصعيد فإنه يكفيك))[٦].

والتيمم في اللغة هو القصد، تقول العرب: تيممك الله بحفظه أي: قصدك، والصعيد هو التراب فقط؛ لقوله تعالى: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} [(٤٠) سورة الكهف].

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم - باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء (٣٣٧) (ج ١ / ص ١٣٠) دون قوله: ((ألست برجل مسلم؟)) فهذا عند النسائي بسند صحيح في كتاب الإمامة – باب إعادة الصلاة مع الجماعة بعد صلاة الرجل لنفسه (٨٥٧) (ج ٢ / ص ١١٢).

تخصيص الصعيد بالتراب هذا قول لبعض أهل العلم، ويحتجون على مثل هذا ببعض الروايات التي جاء فيها في الخصائص التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وجعلت تربتها))[٧] وفي بعض الروايات: ((ترابها))[٨] فقالوا: إن المطلق يحمل على المقيد، ففي قوله: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) الأرض مطلق والتربة مقيد، فالمطلق محمول على المقيد، والمقصود بالأرض أي التراب الطاهر، ولا يجزئ التيمم بغير ذلك،.

والذين يقولون بأنه يجوز التيمم بما على ظهر الأرض من طين وحجارة وما أشبه ذلك يستدلون على هذا بأدلة منها أن ذكر التراب مفهوم لقب، ومفهوم اللقب لا عبرة به عند الأصوليين، فالمفاهيم أنواع كما قال في المراقي:

أعــــلاه لا يرشـــــد إلا العلمـــــا   فمـــا لمنطـــوق بـــضعف انتمـــى

فقوله: أعلاه لا يرشد إلا العلما يعني النفي والاستثناء، وقوله: فما لمنطوق بضعف انتمى يعني مثل: إنما فهي للحصر، إلى أن قال:

أضـــعفها اللقـــب وهْـــو مـــا أُبـــي   مـــن دونـــه نظـــم كـــلام العـــرب

فاللقب يستعمل من أجل أن يفهم الكلام نحو جاء زيد ودخل عمرو، فلو حذفت هذه الأسماء لم يفهم الكلام، ولا يكون له وجه يدركه المخاطب، فيضطر إليه لكن لا يوقف عنده، فحديث: ((جعلت تربتها)) هذا مفهوم لقب، مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً: ((ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار))[٩] فلما قال: الإزار لا يعني أن السراويل والثوب والبشت لا يدخل في ذلك بل الحكم واحد في الجميع، فالإزار مفهوم لقب لا عبرة به، فلا يقول الإنسان: أنا أقصر الإزار لكن الثوب لا أقصره، نقول: هذا كلام غير صحيح؛ لأن الإزار مفهوم لقب ومفهوم اللقب لا بد منه حتى يفهم الكلام ولذلك لو قال: ما أسفل الكعبين فلا بد أن يعبِّر بكلمة حتى يفهم المراد، وهذا معنى قول صاحب المراقي:

أضـــعفها اللقـــب وهْـــو مـــا أُبـــي   مـــن دونـــه نظـــم كـــلام العـــرب

فمعنى ما أبي من دونه نظم الكلام العربي، يعني لا يمكن أن تفهم الخطاب إلا بأن تأتي بلفظة مفيدة، فقوله: ((جعلت تربتها)) مفهوم لقب على هذا الأساس، ومما يدل على أنه يتيمم بما على الأرض أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضرب على الجدار لرد السلام[١٠]، فهذا نص في هذا الموضوع، والكلام في هذه المسألة يطول لكن قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: التيمم بمعنى القصد فهذا في اللغة، يعني أنك تقصد الصعيد، والصعيد هو وجه الأرض مطلقاً ويدخل فيه التراب والطين والحجارة وما أشبه ذلك، وهذا قال به أئمة كبار من أئمة اللغة مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن الأعرابي والزجاج، حتى إن الزجاج قال: لا أعلم فيه خلافاً، ومن أهل العلم من توسع في هذا جداً مثل الإمام مالك -رحمه الله- وأبي حنيفة، حتى قال

---

[7] - صحيح مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢) (ج ١ / ص ٣٧١).

[8] - صحيح ابن حبان (٦٤٠٠) (ج ١٤ / ص ٣١٠) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

[9] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار (٥٤٥٠) (ج ٥ / ص ٢١٨٢).

[10] - صحيح البخاري في كتاب التيمم - باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخاف فوت الصلاة (٣٣٠) (ج ١ / ص ١٢٩).

بعضهم: إنه يجوز أن يتيمم بالملح -وليس المقصود هنا الملح الصناعي- وقالوا: يتيمم بالزرنيخ وبالجص والجبس والنورة، كل هذه الأشياء قالوا: يجزئ التيمم بها.

قوله: "**والصعيد هو التراب فقط؛ لقوله تعالى: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} [(٤٠) سورة الكهف]**" أي: تصبح تراباً أملس طيباً -هكذا فسره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مع أن الظاهر المتبادر -وهو الذي عليه كثير من أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم- أن معنى {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} [(٤٠) سورة الكهف] أي دحضاً لا تثبت فيه الأقدام بل تسوخ، والله تعالى أعلم.

ولما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء))[١١] فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه.

والطيب هاهنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه عن أبي ذر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده فليمسه بَشرته فإن ذلك خير)) وقال الترمذي: حسن صحيح[١٢].

وقوله: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [(٤٣) سورة النساء] التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، والصحيح أنه يكفي له مسح الوجه والكفين بضربة واحدة.

يعني بالإجماع أن يمسح به الوجه واليدين، لكن تبقى التفاصيل، فاليد إذا أطلقت هل المراد بها من الكف إلى المنكب، أم إلى المرافق، وما هو القدر الذي يجب مسحه؟

من أهل العلم من قال: يمسح الكفين؛ لأنه هو الوارد الثابت في الروايات الصحيحة، ومن أهل العلم من قال: يمسح إلى المرفقين؛ لأن ذلك قيد في طهارة أخرى وهي الوضوء، واستدلوا ببعض الروايات أيضاً، ومنهم من قال: إلى المنكبين، وهذا قول معروف لبعض أهل العلم.

وعلى كل حال فالإجماع قائم على أن التيمم يكون بالمسح على اليدين والوجه؛ لأن الله -عز وجل- قال: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [(٤٣) سورة النساء] ويبقى الخلاف في اليد ما المراد بها، وهل هو بضربة واحدة أو بضربتين، وهل الترتيب مطلوب أو غير مطلوب يعني هل يمسح الوجه ثم الكفين أم يمسح الكفين ثم الوجه؟ كل هذه التفاصيل فيها خلاف كبير ومشهور بين العلماء بناء على مسائل عدة منها: هل الواو تقتضي الترتيب أم لا؟ والروايات الواردة في ذلك أيضاً في بعضها تقديم الوجه وفي بعضها تقديم اليدين، ومسألة حد اليد وغير ذلك كل ذلك فيه خلاف طويل بين أهل العلم.

---

11 - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢) (ج ١ / ص ٣٧١).

12 - أخرجه الترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء (١٢٤) (ج ١ / ص ٢١١) والنسائي في كتاب الطهارة - باب الصلوات بتيمم واحد (٣٢٢) (ج ١ / ص ١٧١) وأحمد (٢١٤٠٨) (ج ٥ / ص ١٥٥) وابن حبان (١٣١٣) (ج ٤ / ص ١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٦٧).

روى الإمام أحمد عن ابن عبد الرحمن بن أبزى أن رجلاً أتى عمر –رضي الله تعالى عنه- فقال: إني أجنبت فلم أجد ماءً؟ فقال عمر: لا تصلِّ، فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماءً فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت.

قول عمار: "**وأما أنا فتمعكت في التراب**" يعني كأنه قاس ذلك على غسل الجنابة فأراد أن يعمم البدن بالتراب.

فلما أتينا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرت ذلك له فقال: ((إنما كان يكفيك)) وضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه[١٣].

هذا قول معروف لعمر -رضي الله عنه- وهو الذي احتج به ابن مسعود حينما تحاور مع أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- فأبو موسى الأشعري سأل ابن مسعود فقال: أرأيت إذا أصابت الإنسان جنابة ولم يجد الماء ماذا يصنع؟ فابن مسعود ذكر له قول عمر فقال: أما رأيت أن عمر لم يقبل قول عمار حيث قال له: اتق الله يا عمار، فقال له عمار: إن شئت لم أحدث به فقال له: بل نحملك ما تحملت، فابن مسعود كان على قول عمر لا يرى التيمم من الحدث الأكبر مع أن الأحاديث في هذا واضحة، وقول بقية الصحابة -رضي الله عنهم- أنه يتيمم من هذا وهذا، فأبو موسى ذكر لابن مسعود الآية **{أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}** [(٤٣) سورة النساء] يعني قال: دعنا من حديث عمار، ما تقول في الآية؟ فسكت ابن مسعود ولم يجب!

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[13] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم - باب التيمم ضربة (٣٤٠) (ج ١ / ص ١٣٣) ومسلم في كتاب الحيض – باب التيمم (٣٦٨) (ج ١ / ص ٢٨٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وهذه الأمة مختصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ وفي لفظ: فعنده طهوره ومسجده[1] وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة))[2].

وتقدم في حديث حذيفة -رضي الله تعالى عنه- عند مسلم: ((فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها طهوراً إذا لم نجد الماء))[3].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمساً)) وفي الحديث الآخر: ((فضلنا على الناس بثلاث)) وفي بعض الأحاديث غير ذلك، وكل ذلك لا يدل على الحصر -وإنما تذكر هذه الأحاديث جملة من الخصال التي اختص الله -عز وجل- بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- أو هذه الأمة- فهي كثيرة جداً، وقد ذكر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح سبع عشرة خصلة، وبعضهم ذكر ستين خصلة، وبعض المتأخرين أوصل ذلك إلى ثلاثمائة أو أكثر، وعلى كل حال هذه الأحاديث لا تدل على الحصر.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر..)) إن قيل: هل الأنبياء قبله نصروا بالرعب بأقل من ذلك؟ يقال: هذا يحتمله هذا اللفظ كما أنه قد يُفهم من بعض الأحاديث الأخرى أن ذلك يختص به مطلقاً فيما بلغ ذلك أو ما كان دونه.

وذكر الشهر قد يكون -كما يقول بعضهم- لأن أبعد عدو في ذلك الوقت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يبلغ مسيرة شهر، يعني في الشام.

وقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) هل هذه قضية واحدة أم قضيتان؟ يعني هل كان السابقون يصلون في كل مكان أم أنهم لم يكونوا يصلون إلا في كنائسهم التي أعدت للعبادة؟

---

[1] - لفظ أحمد (٢٢١٩٠) (ج ٥ / ص ٢٤٨) وإسناده حسن.

[2] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) (٤٢٧) (ج ١ / ص ١٦٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠) واللفظ للبخاري.

[3] - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢) (ج ١ / ص ٣٧١).

الثاني هو الأقرب، وإذا كان كذلك صارت الخصال في هذا الحديث ستاً إلا إذا قيل: الشرط والمشروط -أي الطهارة والصلاة- شيء واحد، فبهذا الاعتبار تكون خمساً.

وقوله: ((أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي)) لا شك أنه لم يحل للمتقدمين لا القليل ولا الكثير، فقد كانت تأتي نارٌ فتحرق الغنيمة.

وقوله: ((وأعطيت الشفاعة)) الشفاعة أنواع فمنها ما هو مختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهي الشفاعة العظمى، ومنها شفاعته لعمه أبي طالب، وأما بقية الأنواع فيشترك فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع غيره، مثل إخراج أهل الكبائر ومن استوجب النار أن لا يدخلها، إلى آخره.

وأما عموم البعثة فهذا الحديث يدل عليه، ولا يشكل على هذا أن نوحاً -عليه الصلاة والسلام- بعث إلى جميع من في الأرض فأغرقهم الله بعد أن قال: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [(٢٦) سورة نوح] ولا يحتاج في هذا أن يقال: لعل نبياً بعث إلى قوم آخرين في زمن نوح -عليه الصلاة والسلام- وأن ذلك لم ينقل فظاهر النصوص يدل على أن الله -عز وجل- قد أهلك أهل الأرض فلم يبق منهم أحد، ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ} [(٧٧) سورة الصافات] فما بقي إلا من كان مع نوح، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [(٣) سورة الإسراء] ويقول: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [(٤١) سورة يــــس] يعني أنه أطلق اسم الذرية على الآباء، فلا يحتاج مثل هذا إلى تكلف في الجواب، والله أعلم، وإنما يمكن أن يقال فيه: إن قوم نوح -عليه الصلاة والسلام- الذين بعث إليهم وأهلكهم الله كانوا قومه، فما كان الناس كما كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمماً كثيرة، وإنما كانوا قلة بالنسبة لعهد النبي -صلى الله عليه وسلم- أو لعصرنا هذا، فنوح أول رسول بعث إلى من وجد من الناس في ذلك الوقت وهم قومه فكل من كان موجوداً هم قوم نوح -عليه الصلاة والسلام-، ثم بعد ذلك لما دعاهم وأصروا على الكفر، وذكر الله عبادتهم {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا} [(٢٣) سورة نوح] وأن هؤلاء كانوا من الصالحين في قوم نوح، فهم كانوا أمة واحدة لها معبودات ولها تاريخ واحد ولها قدواتها، وما كانوا أمماً لقلة الناس في ذلك الوقت بالنسبة لمن بعدهم فأهلكهم الله -عز وجل- فالمقصود أن هذا لا يشكل على الحديث في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بُعث إلى الأحمر والأسود، والله أعلم.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [(٤٣) سورة النساء] أي: ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع التيمم وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء فإن الله -عز وجل- قد أرخص في التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ورأفة بهم وتوسعة عليهم، ولله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

روى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء -أو بذات الجيش- انقطع عقد لي، فأقام رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على فخذي، فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير -رضي الله تعالى عنه-: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: "فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته" وقد رواه البخاري ومسلم[٤].

هذه الآية من سورة النساء قبل آية المائدة، ومعلوم أن آية المائدة من آخر ما نزل، وهذه الآية التي في سورة النساء كانت في تلك الوقعة إذ نزلت عند بلوغ النبي -صلى الله عليه وسلم- في مقفله من غزوته -عليه الصلاة والسلام- حين بلغ ذات الجيش وهي ناحية قريبة من المدينة أو البيداء وهذه الآية ذكرت صفة الوضوء، والوضوء كان ولا شك قبل نزول هذه الآية بوقت كثير، ولذلك فهذا يمثل به العلماء -رحمهم الله- على ما نزل من الآيات بعد شرع الحكم، فمن القرآن ما ينزل قبل شرع الحكم أو قبل وقوع مقتضاه أو نحو ذلك ولا يقصد بالحكم الحلال والحرام كقوله تعالى: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [(٤٥) سورة القمر] فهذه نزلت في مكة ورددها النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة لما نصره الله -عز وجل- في يوم بدر، ومن أمثلة ذلك -على قول بعض المفسرين- قوله تعالى: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** [(٢) سورة الكوثر] فهي مكية ومع ذلك قال بعض المفسرين: يعني صلاة العيد ونحر الأضاحي، وصلاة العيد والأضاحي إنما شرعت بعد ذلك، وعلى كل حال هذا قول مرجوح لكن المقصود هنا التمثيل.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [(١٤-١٥) سورة الأعلى] فهي مكية ومع ذلك قال بعض المفسرين في قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}** [(١٤) سورة الأعلى] أي: أخرج زكاة الفطر، وقوله: **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [(١٥) سورة الأعلى] أي: الذكر والتكبير في العيد ثم صلاة العيد مع أنه لم يكن هناك صلاة عيد ولا زكاة فطر في مكة، وهكذا توجد أمثلة معروفة في ذلك تتفاوت في قوتها.

ومن القرآن ما ينزل مع شرع الحكم وهذا هو الغالب مثل آية التيمم، ومنه ما ينزل بعد شرع الحكم مثل هذه الآية التي تتعلق بالوضوء، فالوضوء كان بمكة وهذه الآية نزلت في المدينة فتأخر نزول الآية التي تتحدث عن الوضوء مع أنه كان مشروعاً قبل ذلك.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ* وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا* مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٤٤-٤٦) سورة النساء].

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لو كنت متخذا خليلاً)) (٣٤٦٩) (ج ٣ / ص ١٣٤٢) ومسلم في كتاب الحيض – باب التيمم (٣٦٧) (ج ١ / ص ٢٧٩).

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا.

{وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [(٤٤) سورة النساء] **أي: يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ}** [(٤٥) سورة النساء] **أي: هو يعلم بهم ويحذركم منهم.**

{وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا} [(٤٥) سورة النساء] **أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره.**

ثم قال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ} [(٤٦) سورة النساء] **"مِن" في هذا لبيان الجنس كقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}** [(٣٠) سورة الحـــج].

إذا كانت لبيان الجنس فمعنى هذا أن "مِن" في قوله: **{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ}** ليست تبعيضية، ومعنى أنها لبيان الجنس أنه يبين حقيقة اليهود وأن ذلك ليس مختصاً ببعضهم، أما إذا قلنا" إنها تبعيضية، فيكون ذلك في طائفة منهم فحسب وليس في كلهم.

وقوله في هذه الآية: **{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ}** [(٤٦) سورة النساء] إذا قلنا: إن هذا يتعلق بما ذكر قبله مباشرة فيكون المعنى وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا أي ناصراً للمؤمنين من اليهود فهذا احتمال، ويحتمل أن يكون ذلك عائداً إلى ما ذكر قبله من قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ}** [(٤٤) سورة النساء] ثم ذكر أوصافهم أنهم يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ويحرفون الكلم عن مواضعه. ويحتمل أن تكون جملة جديدة تبين حقيقة من حقائق اليهود حيث ذكر الله -عز وجل- أولاً أنهم يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، ثم قال: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم عن مواضعه.

ويمكن أن يكون المعنى مِن الذين هادوا مَن يحرفون الكلم عن مواضعه، أي أن "مِن" تكون تبعيضية على هذا القول، وابن جرير -رحمه الله- يرجح أنها تعود إلى قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ}** [(٤٤) سورة النساء] أي أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين هادوا، يعني اليهود.

وقوله: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(٤٦) سورة النساء] **أي: يتأولون الكلام على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله -عز وجل- قصداً منهم وافتراء.**

هذا باعتبار أن التحريف معنوي، وعلى هذا لا يكون ذلك مختصاً باليهود بل وقع هذا أيضاً في هذه الأمة ويقع كثيراً ولا زال يقع من خلال حمل الآيات على غير محملها لتعصب مذهبي أو لبدعة أو لهوى أو لغير ذلك، وهذا كثير جداً.

وإذا كان المراد التحريف اللفظي فهذا وقع لليهود ولم يقع لهذه الأمة، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}** [(٩١) سورة الأنعام].

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن اليهود وقعوا في ذلك جميعاً، فهم وقعوا في التحريف اللفظي وفي التحريف المعنوي، والنُّسَخ الموجودة من كتابهم الذي يسمونه بالكتاب المقدس تدل على هذا دلالة واضحة.

{وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} [(٤٦) سورة النساء] أي: **يقولون سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، هكذا فسره مجاهد وابن زيد وهو المراد، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة.**

وقوله: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ} [(٤٦) سورة النساء] أي: **اسمع ما نقول لا سمعت، رواه الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهذا استهزاء منهم واستهتار -عليهم لعنة الله-.**

{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ} [(٤٦) سورة النساء] يحتمل أن يكون المعنى اسمع حال كونك غير مسمع، وهذا يحتمل أن يكون قصدوا به الدعاء على النبي -صلى الله عليه وسلم- أي اسمع لا سمعت كما قال ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهذا من شدة استهزائهم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وقولهم هذا كقول إنسان لآخر: اسمع أصابك الله بالصمم.

{وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء] أي: **يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: "راعنا" وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا}** [(١٠٤) سورة البقرة].

لفظة راعنا تحتمل معنى أمهلنا أي لا تعجل علينا أو انظرنا، وهذا معنى لا إشكال فيه، وتحتمل معنى الرعونة وهي الجفاء والغلظة وما إلى ذلك من المعاني المقاربة، تقول: فلان أرعن، يعني لا يحسن التصرف، فهم كانوا يقولون: راعنا، فلما كانت اللفظة تحتمل وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرعونة وتحتمل أن يكون المراد بها طلب الإمهال والإنظار نهى الله عنها؛ لأنهم كانوا يقصدون بها المعنى السيئ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} [(١٠٤) سورة البقرة] فجاء بكلمة بديلة لا تحتمل الباطل، ولما قالوا سمعنا وعصينا، قال: {وَاسْمَعُواْ} [(٩٣) سورة البقرة] أي سماع إجابة وقبول.

قوله: {لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء] اللَّي أصله الفتل، فهم يطلقون العبارات الموهمة ويقصدون بها المعاني الباطلة تلاعباً بالألفاظ كما في قولهم: السام عليك، يوهمون أنهم أرادوا السلام، ولهذا يؤخذ من هذه الآية -كما هو معروف- أن الإنسان لا يتكلم بالعبارات الموهمة التي تحتمل معانيَ صحيحة ومعانيَ باطلة لا في الاعتقاد ولا في غيره، والناس كثيراً ما يسألون عن بعض الكلمات وبعض العبارات التي قد يكتبونها في بطاقات أو في أشعار أو نحو ذلك وتحتمل معنىً صحيحاً ومعنىً باطلاً، ولذلك لما كان الناس لا يفهمون أنه إذا أريد بها كذا فهي كذا لأنها تحتمل كذا كان المطلوب من الإنسان عدم التعبير إلا بالعبارات الصحيحة الواضحة التي لا تحتمل المعاني الباطلة؛ فهذا الأصل لا يحوج الناس إلى أن يتكلفوا في حمل كلامه على المعنى الطيب الصحيح.

ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: {لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء] **يعني: بسبهم النبي -صلى الله عليه وسلم-.**

قوله تعالى: {وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء] أي: بسبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا المعنى لا يتنافى مع قول من قال: إن معنى {وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} أي أنهم يقولون: لو كان نبياً لعلم أنا نسبه، فإذاً هو ليس بنبي، وهذا مثل ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى} [(٨) سورة المجادلة] فمن أشهر الأقوال فيها أنهم اليهود، وقيل: الآية في المنافقين لكن يوجد في الآية قرينة ترجح أن المراد اليهود إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} [(٨) سورة المجادلة] ثم قال بعد ذلك: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} [(٨) سورة المجادلة] فهذه يفعلها اليهود، والقرينة التي تدل على أن المراد اليهود أنهم كانوا إذا جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: السام عليك[٥].

ثم قال بعد ذلك: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ} [(٨) سورة المجادلة] هذه الجملة تحتمل أن يكون المعنى أن الإنسان يقول ذلك في قرارة نفسه وتحتمل أن تكون بمعنى أنهم يقولون ذلك فيما بينهم إذا خلوا وانفردوا فيتحدثون سراً ويقولون في أنفسهم {لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [(٨) سورة المجادلة] وهذه الجملة تحتمل معنيين أيضاً، الأول: لولا يعذبنا الله بما نقول، بكونه يقول: وعليكم، فلو كان نبياً لاستجيب له فلما لم يستجب له دل على أنه غير نبي.

الثاني: أنهم يقولون: لو كان كذلك لعذبنا الله -عز وجل-؛ لكونه نبياً فلما لم يعذبنا دل على أن نبوته غير صحيحة.

وقوله تعالى: {وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء] باعتبار أنهم يسبون النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن سب النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا من أعظم الطعن في الدين، أو باعتبار أنهم يقولون: لو كان نبياً لعذبنا الله بسبنا له؛ لكونه نبياً، فلما لم يعذبنا دلَّ ذلك على أنه غير نبي، أو لَعَلِم أنا نسبه فلما لم يعلم دل ذلك على أنه غير نبي.

ثم قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٤٦) سورة النساء] أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة البقرة] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

هم يؤمنون ببعض الكتب، ويؤمنون ببعض الرسل، ويؤمنون بما يوافق أهواءهم، ويكفرون بما وراء ذلك، وهذا إيمان لا ينفع صاحبه.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب الدعاء على المشركين (٦٠٣٢) (ج ٥ / ص ٢٣٤٩)ومسلم في كتاب السلام - باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٥) (ج ٤ / ص ١٧٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً* إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [(٤٧ - ٤٨) سورة النساء].

يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ومتهدداً لهم أن يفعلوا بقوله: {مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [(٤٧) سورة النساء] **قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وطمسها أن تعمى.**

{فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [(٤٧) سورة النساء] **يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ونجعل لأحدهم عينين من قفاه، وكذا قال قتادة وعطية العوفي، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم وهذا كما قال بعضهم في قوله: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ* وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا} الآية** [(٨-٩) سورة يـــس]: **إن هذا مثل ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا}** [(٤٧) سورة النساء] ذكر الحافظ هنا أثر ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو قوله: وطمسها أن تعمى.

قوله: **{فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا}** [(٤٧) سورة النساء] يقول: "**نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى**": الطمس أصله استئصال أثر الشيء وإزالته بالكلية، والمعنى أن الله -عز وجل- يزيل تلك الوجوه فيغير خلقهم فتكون وجوههم إلى القفا وتكون أقفيتهم إلى الوجوه، وهذا المعنى هو المتبادر -والله تعالى أعلم- وهو الذي مشى عليه كثير من المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

يقول ابن كثير: "**وهذا أبلغ في العقوبة والنكال**" معناه أن هذا يكون حقيقة.

وقوله: "**وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل...** إلى آخره" المثل يطلق ويراد بإزاء معانٍ متعددة، فإن كان المراد بالمثل هنا أنه صفةٌ ذكرها الله -عز وجل- في وجه العقوبة التي قد تنزل بهم جزاءً لإعراضهم عن الحق، أي كما أنهم أعرضوا عن الحق قلب الله -عز وجل- وجوههم إلى

أقفيتهم فصاروا يمشون القهقرى فلا إشكال في ذلك، وهذا كقوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ} [(١٥) سورة محمد] يعني صفة الجنة، وكقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة] أما إذا كان مراد ابن كثير أن ذلك تصوير للحال التي هم عليها من إعراضهم عن الحق دون أن يكون المراد حقيقة وقوع الطمس كعقوبة لهم فهذا غير صحيح إطلاقا، ولذلك فإن كلام مجاهد -رحمه الله- في المسخ عند قوله تعالى: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] حين قال: مسخت نفوسهم وأرواحهم ولم تمسخ أجسامهم، بمعنى أنه مسخ معنوي ولم يتحولوا إلى خنازير حقيقة، هذا كلام لا شك أنه خطأ، وقد رده العلماء وكلامهم في هذا معروف، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- كلامه الأول وطريقته المعروفة في التفسير هو أنها تطمس حقيقة فيقلب الوجه إلى القفا، أعني أن منهجه في التفسير يقتضي أنه لا يلجأ إلى التأويلات البعيدة فهذا الظن به، مع أن كلامه الأخير يحتمل أن القضية هي تشبيه أو تقريب للحال التي هم عليها من إعراضهم عن الحق بمن طمس وجهه فصار إلى قفاه، فإن كان هذا هو المراد فهذا غير صحيح والله أعلم، فالحاصل أن هذا يكون حقيقة وعيد توعدهم الله به أن يقلب صورهم وهذه العقوبة مناسبة لحالهم من إعراضهم عن الحق ورجوعهم عنه، أو عن مقتضى العلم الذي عرفوه باتباع الباطل، والله أعلم.

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية، روى ابن جرير: عن عيسى بن المغيرة قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب فقال: أسلم كعب زمان عمر -رضي الله تعالى عنه- أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم، فقال: ألستم تقرءون في كتابكم {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ} [(٥) سورة الجمعة] إلى {أَسْفَارًا} [(٥) سورة الجمعة] وأنا قد حملت التوراة، قال: فتركه عمر، ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} الآية [(٤٧) سورة النساء] قال كعب: يا رب آمنت، يا رب أسلمت، مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين.

وقوله: {أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} [(٤٧) سورة النساء] يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف.

يقول تعالى: {أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} [(٤٧) سورة النساء] الله -عز وجل- أخبر في القرآن أنه لعن اليهود في مواضع متعددة وقال: {لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} [(١٣) سورة المائدة] فهو لعنهم على كفرهم ولعنهم على ذنوب خاصة كتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما في قوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ* كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ} [(٧٨-٧٩) سورة المائدة] فلعنهم ثابت وحاصل ومتحقق، وهذا اللعن لم يكن مختصاً بأصحاب السبت، فما المراد بقوله {أَوْ نَلْعَنَهُمْ}؟ يحتمل أن يكون المقصود أن يلعنهم لعناً خاصاً وهو المسخ الذي وقع لأصحاب السبت؛ وذلك أن حقيقة اللعن هو الطرد والإبعاد، فالذي مسخ قد أبعد غاية الإبعاد وطرد غاية الطرد فيكون المراد على هذا {أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} [(٤٧) سورة النساء] أي أن نمسخهم، وهذا لعن خاص.

ويحتمل أن يكون المراد أن الله -عز وجل- يلعنهم اللعن المعروف وهو الطرد والإبعاد عن رحمته -عز وجل- فيكون ذلك لعناً بعد لعن؛ لأن الله لعن اليهود على أمور متعددة منها لعنهم على تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والقول الأول هو الذي مشى عليه كثير من المحققين ومنهم أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله- ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أي أن المقصود باللعن هنا المسخ؛ لأن هذا هو الذي وقع للإسرائيليين من أصحاب السبت الذين اعتدوا في يوم سبتهم كما في القصة المعروفة حيث كانوا يحتالون على اصطياد الحيتان، فيضعون الشباك يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد احتيالاً على الله -عز وجل-.

وقوله: {وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً} [(٤٧) سورة النساء] أي: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى أنه {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} [(٤٨) سورة النساء] أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} [(٤٨) سورة النساء] أي: من الذنوب {لِمَن يَشَاءُ} أي: من عباده.

قوله: {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} [(٤٨) سورة النساء] إذا أولناها بمصدر يكون الكلام "لا يغفر إشراكاً" و"إشراكاً" نكرة في سياق النفي فهي للعموم، ومن هذه الآية وأشباهها أخذ بعض العلماء أن الشرك الأصغر لا يغفر؛ لأن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} [(٤٨) سورة النساء] يعني قليلاً أو كثيراً، وعلى هذا القول ليس معنى ذلك أن من وقع في شيء من الشرك الأصغر أو الشرك الخفي أنه يخلد في النار، فهؤلاء لا يقولون بهذا وليس هذا من مقتضى قولهم ولكنهم حينما يقولون: إن الله لا يغفره يقولون: إن الإنسان يعذب عليه ثم يخرج بعد ذلك من النار، أي أنه لا يغفر له ابتداءً، وقد يُغمر هذا بحسنات ماحية أو بمصائب مكفرة أو بشفاعة لكنه ليس من جملة الذنوب التي تغفر بغير التوبة، فالله -عز وجل- يغفر الذنوب، وكلام أهل العلم في الكبائر معروف، هل تغفر من غير توبة، أو لا تغفر من غير توبة؟ وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفراتٌ ما بينهن إذا اجتَنَبَ الكبائر))[1] والشرك لا شك أنه أكبر الكبائر فجنس الشرك أكبر من سائر الذنوب.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقول: يا عبدي، ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك، يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة))[2] تفرد به أحمد من هذا الوجه.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة)) قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: ((وإن زنى وإن سرق)) قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: ((وإن زنى وإن سرق)) ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: ((على

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب ا لطهارة - باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣) (ج ١ / ص ٢٠٩).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات – باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠) (ج ٥ / ص ٥٤٨) وأحمد واللفظ له (٢١٤٠٦) (ج ٥ / ص ١٥٤) وقال الأرنؤوط: صحيح مرفوعاً.

رغم أنف أبي ذر)) قال: فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: "وإن رغم أنف أبي ذر" أخرجاه من حديث حسين، به[٣].

هذا الحديث وأشباهه ينبغي أن يضم إلى الأحاديث الأخرى التي تدل على دخول أقوام من أهل التوحيد والإيمان النار بسبب بعض الذنوب، وهذه النصوص سواء كانت في القرآن أو في السنة كثيرة جداً، والعدل في مثل هذه الأشياء وهي الطريقة التي عليها أهل السنة هي أن يجمعوا بين النصوص فيكون الإنسان بذلك جامعاً بين الخوف والرجاء، فلا يغتر بما ورد من مغفرة الله -عز وجل- لمن قال: لا إله إلا الله، أو بدخوله الجنة أو بتحريمه عن النار، ويترك النصوص الأخرى التي فيها الوعيد الشديد على من قارف معاصي الله -تبارك وتعالى- فالأمر ليس بالسهل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة)) فقال له رجل وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: ((وإن قضيباً من أراك))[٤].

والله يقول: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧-٨) سورة الزلزلة]، ويقول -عليه الصلاة والسلام-: ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))[٥] وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تدل على المؤاخذة ولو كان بأقل القليل من الأعمال السيئة كما في حديث: ((دخلت امرأة النار في هرة))[٦] فلا يتساهل الإنسان في العمل السيئ اغتراراً بمثل هذه الأحاديث، وإلا ما معنى إخراج أقوام من النار وقد تفحموا -أعني الجهنميين- هؤلاء من أهل لا إله إلا الله، ((أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان))[٧] هؤلاء من أهل التوحيد فما الذي أدخلهم النار وهم قالوا: لا إله إلا الله؟

وروى البزار عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا -صلى الله عليه وسلم- يقول: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [(٤٨) سورة النساء] وقال: ((أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة))[٨].

وقوله: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [(٤٨) سورة النساء] كقوله: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان].

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب الثياب البيض (٥٤٨٩) (ج ٥ / ص ٢١٩٣) ومسلم في كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤) (ج ١ / ص ٩٤).

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٧) (ج ١ / ص ١٢٢).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٨) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) (ج ٤ / ص ٢١٦٩).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٤٠) (ج ٣ / ص ١٢٠٥) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٦١٩) (ج ٤ / ص ٢٠١٩).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] (٧٠٠١) (ج ٦ / ص ٢٧٠٦).

[8] - أخرجه الطبراني في الأوسط (ج ٦ / ص ١٠٦) وأبو يعلى (٥٨١٣) (ج ١٠ / ص ١٨٥) والبزار (٥٨٤٠) (ج ٢ / ص ٢٤٤) وحسنه الألباني في ظلال الجنة برقم (٨٣٠).

وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك...)) وذكر تمام الحديث[9].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً* أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [(٤٩ - ٥٢) سورة النساء].

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ} [(٤٩) سورة النساء] **في اليهود والنصارى حين قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}** [(١٨) سورة المائدة].

وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] **وفي قولهم: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة].

الآية نازلة في اليهود والسياق يدل على ذلك، ومن تزكيتهم لأنفسهم ما ذكر هنا من قولهم: **{نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}** [(١٨) سورة المائدة] **{لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة] **{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** [(٨٠) سورة البقرة] فكل ذلك من تزكيتهم لأنفسهم، وهذا الذي قال به جماعة من أهل العلم كابن جرير، وقال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- مع أن من أهل العلم من يقول بغير هذا، لكن هذا هو الأقرب، إلا أن هذه الآية لا تختص باليهود، فهذا الاستفهام يتضمن الإنكار والتعجب من حال أولئك المزكين لأنفسهم، وقد دلت النصوص على أن الإنسان لا يزكي نفسه، والله -عز وجل- يقول: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}** [(٣٢) سورة النجم] فهذا نهي عام عن تزكية النفوس، والله -عز وجل- هو الذي يعلم حال خلقه في بواطنهم وظواهرهم فيزكي من يشاء -تبارك وتعالى-.

ولهذا قال تعالى: {بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء} [(٤٩) سورة النساء] **أي: المرجع في ذلك إلى الله -عز وجل- لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها.**

ثم قال تعالى: {وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٤٩) سورة النساء] **أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة.**

قوله تعالى: **{وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}** [(٤٩) سورة النساء] إما أن يكون ذلك راجعاً إلى قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ}** [(٤٩) سورة النساء] فهم المحدث عنهم أصلاً وهم الذين يزكون أنفسهم، والمعنى أنهم سيحاسبون على ما قالوا وعلى ما زكوا به أنفسهم من غير أن يزاد عليهم من ذنوبهم شيء.

وإما أن يكون ذلك راجعاً إلى قوله: **{بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء}** [(٤٩) سورة النساء] وعلى هذا يكون قوله: **{وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}** [(٤٩) سورة النساء] أي الذين يزكيهم هو؛ لأنه آخر مذكور.

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٥٦٥٥) (ج ٥ / ص ٢٢٣٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦) (ج ١ / ص ٩٠).

وإما أن يكون المعنى هنا عاماً، أي أن الله لا يظلم هؤلاء الذين يزكون أنفسهم ولا يظلم من زكاهم هو ولا يظلم من ترك تزكيتهم، فكل ذلك يكون صادراً منه على تمام العدل وكمال العلم والإحاطة، فهو يعلم -سبحانه وتعالى- من يستحق التزكية ومن لا يستحقها كما يقول ابن جرير -رحمه الله-.

وقوله: {فَتِيلاً} الفتيل بعضهم يقول: هو الخيط الذي يكون في شق النواة، فالنواة فيها خط في الوسط وهذا الخط يكون فيه خيط رفيع وهو شيء حقير لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا قيمة له، أو أن المراد به القشرة الرقيقة الشفافة التي تكون على النواة، وهذا قال به بعض أهل اللغة وبعض المفسرين، أو أن المراد به ما يحصل بين الأصابع من الوسخ، والمشهور أنه الخيط الذي يكون في شق النواة، وابن جرير -رحمه الله- يقول: المقصود الشيء الحقير، يعني لا يظلمون شيئا ولو كان يسيراً تافهاً حقيراً لا قيمة له فالله لا يظلم شيئاً وعلى هذا يدخل في معنى الفتيل الشيء الحقير التافه مثل الوسخ الذي يكون في اليد ومثل الخيط الذي يكون في شق النواة وقشرة النواة فكل ذلك يقال له: فتيل في كلام العرب، فالجامع المشترك بين هذه الأشياء هو أنها حقيرة لا قيمة لها.

وقوله: {انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ} [(٥٠) سورة النساء] أي: في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وقولهم: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] وقولهم: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٤) سورة آل عمران] واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ} الآية [(١٤١) سورة البقرة].

يقول الشاعر:

فـــاخرتم بآبـــاء لهـــم شـــرف قلنا: صدقتم ولكن بئس مـــا ولـــدوا

فإذا كان الآباء على طريقة صحيحة والأبناء لم يكونوا على طريقتهم فإن ذلك لا ينفعهم شيئاً.

ثم قال: {وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا} [(٥٠) سورة النساء] أي: وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراء ظاهراً.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [(٥١) سورة النساء] أما الجبت فقال محمد بن إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان.

وبعضهم يقول: الجبت هو الساحر، وسواء قيل: إنه السحر أو الساحر فلا إشكال؛ لأن بين السحر والساحر تلازم، فالسحر إنما يفعله الساحر.

وبعضهم يقول: الجبت هو الساحر بلسان الحبشة، وهذا يحتاج إلى إثبات، والكلام في المعرّب في القرآن معروف أعني هل يوجد في القرآن شيء من غير لغة العرب أم لا.

وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه "الصحاح": "الجبت" كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عرب خُلَّص وكلامهم يحتج به في اللغة وهم في زمن الاحتجاج، ولم تتكدر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم فذكروا في معاني الجبت السحر والساحر وغير ذلك فجمعها الجوهري،

ولهذا قال بعضهم: كل معبود أو مطاع أو متبع من دون الله -عز وجل- في معصيته يقال له: الجبت والطاغوت، ويدخل فيما قالوا كعب بن الأشرف فهو مطاع من دون الله -عز وجل- ويدخل فيه الصنم والسحر والساحر ويدخل فيه كل ما يعبد من دون الله -عز وجل- عموماً، ويدخل فيه كذلك قول من قال: إن الجبت هو إبليس وإن الطاغوت أولياؤه، فكل ما تجاوز حده من معبود أو مطاع أو نحو ذلك، فهو طاغوت إن كان راضياً بهذه العبادة، إذ المخلوق حده وقدره العبودية، فإن تجاوزها وصار معبوداً أو مطاعاً يطاع من دون الله فهذا طاغوت سواء كان شخصاً أو تشريعاً أو غير ذلك إذا كان مخالفاً لتشريع الله -عز وجل-.

وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أنه سئل عن الطواغيت، فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين، وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم، وقال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله -عز وجل-.

الإمام مالك يفسر الطاغوت بأنه كل ما يعبد من دون الله -وهذا تفسير شامل- ويفسر الجبت بالشيطان وبما يُعبد مما يزينه الشيطان ويسوله لهم.

ولعل من أحسن ما قيل في قوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [(٥١) سورة النساء] ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- أن الجبت والطاغوت اسمان لكل ما يعبد ويعظم أو يتبع من دون الله -عز وجل- إذا كان راضياً بذلك من إنسان أو شيطان أو غير ذلك.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} [(٥١) سورة النساء] **أي: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله بأيديهم.**

وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء ونسقي الماء على اللبن ونفك العُناة ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا} الآية [(٥١) سورة النساء] **وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وجماعة من السلف.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية نازلة في اليهود حينما ذهبوا إلى المشركين يحرضونهم على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد غزوة أحد فلما سألهم المشركون عن حالهم وعن حال النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا ما قالوا، وسجدوا لآلهة المشركين تأكيداً لهم أن ما هم عليه من عبادة الأصنام هو الحق وأن ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الباطل.

وقولهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه صنبور يعني لا عقب له؛ أي: إنه إذا ذهب انقطع ذكره، والصنبور يطلق أيضاً على النخلة المنفردة عن النخل، أو التي يدقُّ أصلها يعني يكون دقيقاً توشك أن تتقلع وينتهي أمرها، فهم يشبهون النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فيقولون: هذا الرجل يوشك أن يذهب ويضمحل ذكره، أو أنه منقطع منفرد وحده دون جماعتهم، فهو فرقهم حيث جاءهم بشيء لم يعرفوه ولم يعرفه آباؤهم، وقطع أرحامهم واتبعه سراق الحجيج..الخ.

هذا هو وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عندهم لما جاء بالإسلام، وهكذا فالإنسان لا يستطيع أن يضع على أفواه الناس ما يلجمها، فهم يتكلمون ولا زال أهل الباطل يتكلمون ويصفون أهل الحق بشتى الأوصاف القبيحة والله -عز وجل- هو الموعد.

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب.

قوله: "**وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة**" هذا الكلام عن الآية التالية وهي قوله تعالى: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}** [(٥٢) سورة النساء].

حتى حفر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [(٢٥) سورة الأحزاب].

{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا* فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [(٥٣-٥٥) سورة النساء].

يقول تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ} [(٥٣) سورة النساء] **وهذا استفهام إنكاري أي: ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال:** {فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} [(٥٣) سورة النساء] **أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمد -صلى الله عليه وسلم- شيئاً ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التي في النواة، في قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والأكثرين.**

يقول: {فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} [(٥٣) سورة النساء] "أي: **لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس شيئاً ولا سيما محمد صلى الله عليه وسلم**" الفاء هنا للسببية الجزائية، ويكون هناك شرط محذوف بمعنى أن الكلام يكون هكذا: أم لهم نصيب من الملك فلو كان لهم ذلك أو فإن أعطوا نصيباً من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً، أي لا يعطون عندئذ أحداً شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، فالمقصود أن هناك شرطاً محذوفاً مقدراً يفهم من السياق، فالعرب تحذف من الكلام ما تثق معه بفهم السامع أو المخاطب.

أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً، أي: فلو كان لهم ذلك، فلو أعطوا ذلك، فإذا كان لهم شيء من هذا فإنهم يمنعون، ولا يعطون عندئذ أحداً من الناس شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٤٩) سورة النساء]،

{فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٧١) سورة الإسراء]

يقول ابن كثير: "**ولا ما يملأ النقير، وهو النقطة التي في النواة وهو قول ابن عباس والأكثرين**" المقصود أنهم لا يؤتون الناس شيئاً ولو كان حقيراً تافهاً قليلاً، فالحافظ ابن كثير حمل النقير على أنها الحفرة الصغيرة أو النقطة التي تكون في ظهر النواة، والفتيل على أنه الخيط الذي يكون في الشق، أي أنهم لا يعطون الناس شيئاً ولو كان يسيراً لا يملأ إلا تلك الحفرة، ومعلوم أن اليهود أشد الناس بخلاً فهم عبدة الذهب وبقيت فيهم عبادة العجل جيلاً بعد جيل كما قال تعالى: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} [(٩٣) سورة البقرة].

وبعضهم يقول: إن النقير هو ما نقر الرجل بأصبعه في الأرض، ويطلق النقير أيضاً على الخشبة التي تنقر بالنحت عليها من الداخل بحيث تصبح تلك الخشبة بذلك النقر صالحة لوضع الأسقية فيها، وقد جاء في حديث وفد عبد القيس في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء -ثم نسخ ذلك النهي فيما بعد- وكان من جملة ما نهاهم عنه المزفت والمقير والنقير والدباء وكلها أوعية كانوا ينتبذون بها؛ لأن هذه الأوعية التي كانوا ينتبذون فيها كان يسرع إليها التخمر.

فالمقصود أنه إذا كان هذا يقال له: نقير، والشق والنقطة المثقوبة في ظهر النواة يقال لها نقير، وما ينقره الرجل بأصبعه يقال له: نقير فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يؤتون الناس شيئاً ولو كان حقيراً قليلاً تافهاً لا شأن له ولا خطر له، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

إذن الفتيل هو الخيط الذي في شق النواة -على أحد التفسيرات المشهورة- والنقير النقرة التي في ظهرها -وهذا أشهر التفاسير للنقير وإن كان يطلق على الشيء التافه كما ذكرنا- والقطمير هو القشرة التي تغلف النواة، والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ} [(١٠٠) سورة الإسراء] أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا} [(١٠٠) سورة الإسراء] أي: بخيلاً.

ثم قال: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٥٤) سورة النساء] يعني بذلك حسدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له.

في قوله تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٥٤) سورة النساء] يحتمل أن تكون "أم" هذه منقطعة بمعنى أنها تفيد الانتقال فوبخهم على شيء ثم انتقل يوبخهم على شيء آخر هكذا: أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فانتقل من توبيخ إلى توبيخ آخر، بمعنى بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

يقول: "**يعني بذلك حسدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما رزقه الله من النبوة العظيمة**" فيكون لفظ "الناس" في قوله: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ} [(٥٤) سورة النساء] من العام المراد به الخصوص فالناس لفظ جنس عام لكنه قد يطلق ويراد به واحد كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] فيكون المراد به النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا لا إشكال فيه، فقد كان اليهود يرجون أن يكون النبي الخاتم من الإسرائيليين فلما رأوا أنه من العرب حسدوه، حسدوه على ذلك فلم يؤمنوا به.

والإمام ابن جرير -رحمه الله- حمل لفظ "الناس" في قوله: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ} [(٥٤) سورة النساء] على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، ويمكن أن نقول أيضاً: إنهم حسدوا العرب؛ لأن النبوة انتقلت من بني إسرائيل إليهم، والله -عز وجل- يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر] فبعد أن كانت الرسالة والكتاب في بني إسرائيل عهوداً متطاولة انتقلت إلى غيرهم، وهذا شرف للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولقومه حسدهم اليهود عليه، فقوله تعالى: {عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٥٤) سورة النساء] يعني من النبوة، وهذا ما عليه عامة المفسرين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل.

وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ} الآية [(٥٤) سورة النساء] قال ابن عباس: نحن الناس دون الناس.

قال الله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [(٥٤) سورة النساء].

قول ابن عباس –رضي الله عنهما-: "نحن الناس دون الناس" يعني أنه عام لكن ليس المراد به جنس البشر وإنما المقصود به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، أو العرب أو هذه الأمة.

قال الله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [(٥٤) سورة النساء] **أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل -الذين هم من ذرية إبراهيم -عليه السلام- النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن -وهي الحكمة- وجعلنا منهم الملوك.**

يقول الله -عز وجل-: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ} فآل إبراهيم حمله ابن كثير هنا على بني إسرائيل وهذا وجه معروف في كلام العرب حيث يطلق الآل ويقصد به تارة آل فلان بعينه وتارة يقصد به ذريته أو قومه أو أهله أو نحو ذلك، فالله -عز وجل- يقول في آية أخرى: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غافر] فالمراد بآل فرعون هنا فرعون وقومه ممن كانوا معه على الكفر دون من آمن كامرأته.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٣٣) سورة آل عمران] قد يكون المقصود بالآل هنا إبراهيم وحده وقد يكون المقصود ما سبق في آية النساء، وكذلك الأمر في آل عمران -عليهم السلام جميعاً- وفي قولنا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، فآل محمد أتباعه على دينه وقد يراد به معنىً أخص من هذا وهم أزواجه وأهل بيته، وقد يطلق ويراد به معنىً أخص من ذلك أي علي وفاطمة والحسن والحسين -أصحاب الكساء-.

على كل حال فقوله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ} [(٥٤) سورة النساء] يحتمل أن يكون آتينا إبراهيم، ويمكن أن يكون المراد بآل إبراهيم عقبه -صلى الله عليه وسلم- فإن ذرية إسحاق -عليه الصلاة والسلام- هم أسباط بني إسرائيل وكان فيهم الأنبياء، ويكون المراد بالكتاب بهذا الاعتبار جنس الكتاب أي الكتب التي نزلت على بني إسرائيل، أما إذا قلنا: إن المراد به إبراهيم فيكون المقصود به كتاب واحد وتكون "أل" عهدية ويعني صحف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

يقول: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٥٤) سورة النساء] الحكمة هي السنة، ومعلوم أن الحكمة إذا ذكرت مع الكتاب فإن المراد بها ما أوتيه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من وحيٍ غير الكتاب.

قوله: {وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [(٥٤) سورة النساء] يمكن أن يراد بالملك الملك الذي حصل لبني إسرائيل عموماً ومنه ملك داود -عليه الصلاة والسلام- ويمكن أن يكون المراد به ما ينطبق عليه هذا الوصف في ملك معين، فالملك العظيم المعروف هو ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- ولهذا حملها كثير من السلف ومن بعدهم على ملك سليمان، ومن هؤلاء الذين رجحوا هذا المعنى ابن جرير –رحمه الله تعالى- والآية تحتمل هذا وتحتمل معنىً أعم من ذلك كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما ذكّرهم بنعمة الله -عز وجل- عليهم، ومن ذلك قوله: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة]، فالله جعل فيهم الملك وجعل فيهم النبوة والكتاب.

وجعلنا منهم الملوك ومع هذا {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ} أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام {وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ} [(٥٥) سورة النساء] **أي: كفر به وأعرض عنه وسعى في صدِّ الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم من بني إسرائيل فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟.**

وقال مجاهد: {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ} أي: بمحمد -صلى الله عليه وسلم- {وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ} [(٥٥) سورة النساء].

قوله تعالى: {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ} الضمير يرجع في الأصل إلى أقرب مذكور وهو المخبر عنه والمحدث عنه وهو ذلك الإفضال والإنعام الذي أعطاه الله -عز وجل- لبني إسرائيل، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- حيث قال: "أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام" وهذا هو المتبادر والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من يقول –كمجاهد-: {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ} أي بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى هذا يكون عود الضمير إلى غير مذكور إلا ذكراً بعيداً، وهو قوله: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ} [(٥٤) سورة النساء] أي: محمداً -صلى الله عليه وسلم- إذا فسرت الآية بهذا.

وبعضهم يقول: الضمير يرجع إلى إبراهيم هكذا: {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا* فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ} [(٥٤-٥٥) سورة النساء] أي: بإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: يرجع إلى الكتاب، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد به ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله.

فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك وأبعد عما جئتهم به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم: {وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [(٥٥) سورة النساء] **أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.**

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [(٥٦-٥٧) سورة النساء].

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدَّ عن رسله فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا} الآية [(٥٦) سورة النساء] **أي ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم.**

قوله تعالى: {نُصْلِيهِمْ نَارًا} تدل على الإدخال وتدل على الاحتراق، تقول: صليته بالنار يعني أنه مسَّه حرُّها ولهيبها، وكذلك تدل على الدخول كما في قوله تعالى: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [(١٥) سورة الليل] يعني لا يدخلها، والمعنيان متلازمان وذلك أن من دخلها احترق وقاسى حرها.

ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ} [(٥٦) سورة النساء] **قال الأعمش عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس، رواه ابن أبي حاتم.**

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} الآية [(٥٦) سورة النساء] **قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم: عودوا فعادوا.**

هذه الآية فيها كلام معروف للذين يتكلمون عن الإعجاز العلمي للقرآن فإنهم يقولون: إن العلم الحديث اكتشف أن مركز الإحساس في الجلد، وهذا معنىً صحيح وهو شيء يدركه الإنسان وهو مدرك قديماً لكن فلسفته

العلمية لعلها عرفت بشكل ظاهر في هذا العصر، والإنسان يجد أنه إذا ذهب الجلد ذهب الإحساس، فهذا من الأمثلة الصحيحة على أن التفسير العلمي لا إشكال فيه.

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [(٥٧) سورة النساء] هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً.

وقوله: {لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} [(٥٧) سورة النساء] أي: من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة.

هنا حذف المتعلق فما قال مطهرة من كذا، ولذلك فالأصل أنه يحمل على العموم فيقال: أي مطهرة من كل أذى حسي ومعنوي، فهي مطهرة من الأخلاق المرذولة التي توجب نفور النفوس ووقوع المشكلات بين الأزواج وكذلك مطهرة من كل أذىً حسي مستقذر.

كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: مطهرة من الأقذار والأذى وكذا قال عطاء والحسن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية والسدي، وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد.

وقوله: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [(٥٧) سورة النساء] أي: ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً.

الظل الظليل يعني الظل الوارف التام، وهذه المعاني لها وقعٌ عند العرب؛ لأنهم في بلاد حارة، ولهذا لما ذكر الله -عز وجل- نعيم الجنة قال: {وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} [(٢٩) سورة الواقعة] على أحد التفسيرين المشهورين في الآية أن الطلح هو شجر الشوك المعروف في أرض الحجاز من بلاد العرب حيث يستظلون به وهو من شجر العضاة ولا تكاد تنتفع به أو تجلس حتى تتأذى بشوكه الذي يتساقط من تحته، فالله تعالى قال: {وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} [(٢٩) سورة الواقعة] وهم لا يتصورون أن يوجد هذا الشجر الذي يستظل به من غير شوك لكن يبدو أن شوكه قد أزيل كما قال الزجاج: يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه[1].

قوله تعالى: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [(٥٧) سورة النساء] وصف الله ظل الجنة بأوصاف في آيات أخرى نحو كونه قد مُدَّ كقوله: {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} [(٣٠) سورة الواقعة] وكقوله: {أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا} [(٣٥) سورة الرعد] أي ظلها دائم لا ينقطع بخلاف ظل الدنيا الذي ينتقل هنا وهناك ويضمحل ويقصر.

ومن الآيات التي تذكر ظل الجنة قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ} [(٤١) سورة المرسلات] وقوله تعالى: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} [(٥٦) سورة يـــس] وغير ذلك من الآيات.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد))[2].

---

[1] - تفسير القرطبي (ج ١٨ / ص ٢٠٨).

[2] - أخرجه أحمد (٩٩٥١) (ج ٢ / ص ٤٦٢) وقال الأرنؤوط: صحيح دون قوله "شجرة الخلد" وهذا إسناد ضعيف.

في الدنيا ربما تداعى الناس من أجل النظر إلى شجرة يزعمون أنه يجتمع أربعة من الرجال كلٌّ يمسك بيد الآخر حتى يحيطون بأصلها من ضخامتها، وهذه في مائة عام لا يقطعها الراكب، فإذا كانت الأرض كلها لو مشى الإنسان مائة عام على قدمه لقطعها فما هذه الشجرة؟!.

نسأل الله أن يرزقنا الجنة ونعيمها، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(٥٨) سورة النساء].

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها.

وفي حديث الحسن عن سمرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك))[1] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله -عز وجل- على عباده من الصلوات والزكوات والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله -عز وجل- بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء))[2].

روى ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال: نزلت في عثمان بن طلحة -رضي الله تعالى عنه- قبض منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} الآية [(٥٨) سورة النساء] فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- لما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الكعبة، وهو يتلو هذه الآية {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [(٥٨) سورة النساء]: فداه أبي وأمي، ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن الحنفية: هي للبَّر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [(٥٨) سورة النساء] ذكر في سبب نزول هذه الآية هذا الحديث في قصة مفتاح الكعبة، وهذه الرواية التي أوردها وإن كانت لا تخلو من ضعف

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الإجارة - باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٧) (ج ٣ / ص ٣١٣) والترمذي في كتاب البيوع – باب ٣٨ (١٢٦٤) (ج ٣ / ص ٥٦٤) كلاهما عن أبي هريرة وأخرجه أحمد عن حميد عن رجل من أهل مكة يقال له يوسف عن أبيه (١٥٤٦٢) (ج ٣ / ص ٤١٤) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٢٩٣٤).

[2] - أخرجه أحمد (٨٧٤١) (ج ٢ / ص ٣٦٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٨).

إلا أنه قد وردت روايات أخرى في نفس المعنى يقوي بعضها بعضاً، وربما كان بعضها أصح إسناداً من هذه الرواية، وعلى كل حال هذه وقعت في عام الفتح في السنة الثامنة من الهجرة، وما قبل هذه الآية من الآيات إلى قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [(٥١) سورة النساء] هذا نزل بعد غزوة أحد، وذلك أنه لما هُزم المسلمون طمع اليهود أن يُستأصل المسلمون فذهب وفد منهم ككعب بن الأشرف ومن معه إلى مكة يحرضونهم على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- واستئصاله، وبين هذا النزول وهذا النزول سنوات، وهذه الآية تتحدث عن الأمانات والآيات التي قبلها تتحدث عما وقع من اليهود من كتمان ما عرفوا من الحق وادّعاء أن المشركين أهدى من محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وفي علم المناسبات -يعني وجه الربط بين الآيات- نوع منها وهو وجه تعلق المقطع من الآيات بما قبله أو بعده، فمن المناسبات ما يكون عبارة عن ربط بين الآية والآية، ومنه ما يكون بين الآية وبين خاتمتها، ومنه ما يكون بين أول السورة وآخرها، أو بين مقطع ومقطع، فهذا من هذا النوع الأخير –بين مقطع ومقطع- فالآيات الأولى تتحدث عما وقع من اليهود، وهذه الآية تتحدث عن أداء الأمانات، والذي وقع من اليهود هو خيانة للأمانة، فالله -عز وجل- ائتمنهم على الشهادة بالحق وقول الحق وبيان ما عرفوا من كتابهم مما يتعلق بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيره، فلما سألهم المشركون كتموا ذلك وجحدوه وقالوا: أنتم أهدى من محمد.

فإذا أردنا أن نربط بين هذه الآيات فإننا نقول: إن الله يأمر أمراً عاماً بأداء الأمانات ويدخل فيه جميع أنواع الأمانات، ومن الأمانات الداخلة فيها أمانة الشهادة بالحق وقول الحق وبيان ذلك للناس، فهذه أمانة من الأمانات، ومن الأمانات أيضاً أنك إذا أخذت من أحد شيئاً أن ترده إليه كما وقع ذلك في سبب النزول وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ثم رده إليه وقرأ هذه الآية: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [(٥٨) سورة النساء]

وإذا نظرت إلى مراتب هذه الأمور الثلاثة وجدتها على هذا التدريج -أعني فيما يتعلق بقوة دخولها في اللفظ العام- فأقوى ذلك دخولاً في العام هو ما يتعلق بسبب النزول أو صورة سبب النزول كما وقع في قصة مفتاح الكعبة، ويليه في القوة ما يُعرف بالتخصيص بالمجاورة الذي شرحته آنفاً وهو ما وقع من اليهود تجاه النبي –صلى الله عليه وسلم- فهذا يلي سبب النزول من حيث القوة في الدخول تحت اللفظ العام، ثم بعد ذلك تأتي بقية أفراد اللفظ العام، وبهذا نعلم أن الأفراد الداخلة تحت العموم متفاوتة في قوة الدخول فيه، وهذا يفيد في أمور، ومن ذلك: ما يتعلق بالتخصيص بمعنى إخراج بعض الأفراد من اللفظ العام مثلاً، ونحو ذلك، وصورة سبب النزول قطعية الدخول في العام، وإخراجها منه بالاجتهاد ممنوع كما هي القاعدة.

وهذه الآية عامة في جميع الناس، وهذا هو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهو الأقرب -والله تعالى أعلم- خلافاً لما ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ومن وافقه من أن ذلك ليس لعموم الأمة وأنها تختص بطائفة منها وهم الذين يلوون الأحكام، بمعنى أنها خاصة بالولاة؛ بحجة أن الله -عز وجل- قال: {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} [(٥٨) سورة النساء] لكن نقول: إن الحكم بين الناس في

الواقع لا يختص بأهل الولايات بل قد يتحاكم الناس إلى غيرهم فإذا جاءوا يتحاكمون إلى إنسان ليس له ولاية لكنهم ارتضوه لذلك وأعلنوا قبولهم لما يحكم به فإنه يجب عليه أن يحكم بينهم بالعدل، فالآية خطاب لعموم الأمة من الولاة ومن غيرهم من أهل العلم وغيرهم، ولا يختص بأحد دون أحد.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [(٥٨) سورة النساء] يدخل فيها أيضاً جميع أنواع الأمانات، ومنها ما يتعلق بالله -عز وجل- ومنها ما يتعلق بحقوق الخلق ومنها ما يتعلق بالنفس والدين الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والتكاليف التي حملها الإنسان هي الأمانة التي قال الله -عز وجل- فيها: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ} [(٧٢) سورة الأحزاب] فالأمانة هنا هي التكاليف الشرعية على أرجح الأقوال في تفسير هذه الآية من سورة الأحزاب.

ومن أهل العلم من يقسم الشريعة التي جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى شعائر وأمانات، فالأذان من الشعائر، وصلاة الجماعة والصلاة عموماً من الشعائر، وما أشبه ذلك، والأمور التي لا يطلع عليها الناس مثل الصيام والطهارة وما أشبه ذلك يقولون: هذه من الأمانات.

ونحن نقول: لا مشاحة في الاصطلاح لكن الواقع أن الصلاة أمانة أيضاً والأذان أمانة والمؤذن مؤتمن، والحكم بين الناس بالعدل أمانة.

وقوله: {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} [(٥٨) سورة النساء] **أمرٌ منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس، وفي الحديث:** ((إن الله مع الحاكم ما لم يَجُرْ، فإذا جار وكله الله إلى نفسه))[3]، **وفي الأثر: عدْلُ يوم كعبادة أربعين سنة.**

حديث: ((إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ)) الذي أخرجه ابن ماجه لا يتعارض مع عموم الولايات وذلك أن القاضي حاكم وكل من يتولى الحكم بين الناس فإنه يقال له: حاكم، وهو مؤتمن على ما ولاه الله.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ} [(٥٨) سورة النساء] **أي: يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة.**

وقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(٥٨) سورة النساء] أي: **سميعاً لأقوالكم بصيراً بأفعالكم.**

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [(٥٩) سورة النساء].

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [(٥٩) سورة النساء] قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي -رضي الله تعالى عنه- إذ بعثه

---

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام - باب التغليظ في الحيف والرشوة (٢٣١٢) (ج ٢ / ص ٧٧٥) ولفظه: ((إن الله مع القاضـــي..)) وحـــسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٨٢٦).

رسول النبي -صلى الله عليه وسلم- في سرية[٤] وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فهمَّ القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبروه فقال لهم: ((لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف)) أخرجاه في الصحيحين[٥].

قال –عليه الصلاة والسلام-: ((لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً)) وجه هذا أن هؤلاء يكونون قد تسارعوا في أمر لم يتبينوه فلن يكونوا معذورين بهذا الفعل وإنما كان عليهم أن يتبينوا قبل ذلك.

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)) وأخرجاه[٦].

وعن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأَثَرَةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: ((إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً عندكم فيه من الله برهان)) أخرجاه[٧].

وفي الحديث الآخر عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)) رواه البخاري[٨].

وعن أم الحصين -رضي الله تعالى عنها- أنها سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب في حجة الوداع يقول: ((ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا)) رواه مسلم[٩] وفي لفظ له: ((عبداً حبشيًا مجدوعاً))[١٠].

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النساء (٤٣٠٨) (ج ٤ / ص ١٦٧٤) ومسلم في كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٤) (ج ٣ / ص١٤٦٥).

5 - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٦٧٢٦) (ج ٦ / ص ٢٦١٢) ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٤٠) (ج ٣ / ص ١٤٦٩).

6 - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٦٧٢٥) (ج ٦ / ص ٢٦١٢) ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٩) (ج ٣ / ص ١٤٦٩).

7 - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((سترون بعدي أموراً تنكرونها)) (٦٦٤٧) (ج ٦ / ص ٢٥٨٨) ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٧٠٩) (ج ٣ / ص ١٤٦٩).

8 - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب إمامة العبد والمولى (٦٦١) (ج ١ / ص ٢٤٦).

9 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٨) (ج ٣ / ص ١٤٦٨).

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني))[١١].

هذه الأحاديث وغيرها في ظاهرها أنه يجب الطاعة بالمعروف سواء كان ذلك مما يعلم أنه طاعة لله -عز وجل- أو في غير ذلك مما لم يعلم أنه حرام، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يفرِّق ويذكر تفصيلاً في هذا، فهو يرى أن الإمام العدل يطاع فيما لا يُعلم أنه معصية، والفاجر يطاع فيما يُعلم أنه طاعة لله فقط، وهذا التفريق والتفصيل لا أعلم عليه دليلاً، فظواهر الأدلة عامة ليس فيها هذا التفريق الذي ذكره شيخ الإسلام، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ} [(٥٩) سورة النساء] أي: **اتبعوا كتابه {وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}** [(٥٩) سورة النساء] أي: **خذوا بسنته {وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}** [(٥٩) سورة النساء] أي: **فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: ((إنما الطاعة في المعروف))**[١٢].

طاعة أولي الأمر لا تكون استقلالاً، وإنما تكون تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا أعاد الله -عز وجل- فعل الأمر في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: **{أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}** [(٥٩) سورة النساء] ولم يعده في حق أولي الأمر، أي أنه لم يقل: وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر، فدل ذلك على أن طاعتهم تكون تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولا تكون استقلالاً.

وأما النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فيطاع في كل ما أمر به -عليه الصلاة والسلام- ويُترك ما نهى عنه، ولو كان ذلك غير موجود في القرآن، بمعنى أن السنة قد تأتي بأشياء زائدة على ما جاء في القرآن كما هو معلوم، فقد تكون مبينة شارحة لما جاء في القرآن، وقد تأتي بأشياء زائدة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير[١٣] وجاء في السنة تحريم الحمار الأهلي وغير ذلك مما ورد فيها زائداً على القرآن بدليل أن الله -عز وجل- يقول: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] فذكر هذه المحرمات بطريق الحصر وجاءت السنة بالزيادة على ذلك، فالمقصود

---

[10] - صحيح مسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٨) (ج ٣ / ص ١٤٦٨) بلفظ: ((عبداً حبشياً مجدعاً)) وفي آخر: ((مجدع الأطراف)) (١٨٣٧) (ج ٣ / ص ١٤٦٧).

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام – باب قول الله تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [(٥٩) سورة النساء] (٦٧١٨) (ج ٦ / ص ٢٦١١) ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٥) (ج ٣ / ص ١٤٦٦).

[12] - سبق تخريجه.

[13] - أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (١٩٣٤) (ج ٣ / ص ١٥٣٤).

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تكون طاعته استقلالاً، وأما طاعة غير النبي -صلى الله عليه وسلم- فتكون تبعاً.

وقوله: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ} [(٥٩) سورة النساء] **قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله.**

وهذا أمر من الله -عز وجل- بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [(١٠) سورة الشورى] **فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى:** {إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٥٩) سورة النساء] **أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [(٥٩) سورة النساء] ذهب كثير من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهو قول جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- وممن اختاره من الأئمة الإمام مالك- أن أولي الأمر هم أهل القرآن، وأهل العلم العلماء.

ومن أهل العلم -وهي إحدى الروايتين عن الإمام أحمد -رحمه الله- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري- من قال: إن المراد بهم الأمراء أي الولاة ومن ولَّوا، فيدخل في هذا أهل الولايات العامة ويدخل فيه أمراء السرايا والجيوش وما أشبه ذلك، وهذا قول مشهور قال به أيضاً كثير من السلف.

ومن أهل العلم من جمع بين القولين وقال: يدخل فيه أهل الولايات العامة ويدخل فيه من ولَّوا ويدخل فيه أيضاً العلماء، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى-.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك يشمل من يصدر الناس عن رأيهم ويرجعون إليهم، فيدخل فيه أهل الولايات العامة من الأمراء، ويدخل فيه العلماء، ويدخل فيه أيضاً الذين يرجع الناس إليهم ويصدرون عن قولهم كأمرائهم في عشائرهم أو من يطيعهم الناس ويلجئون إليهم وما أشبه ذلك، فالله -عز وجل- لم يخلق الناس خلقاً متساوياً من هذه الحيثية، بل جعل الله -عز وجل- بينهم هذا التفاوت، فمن الناس من يرجع الناس إليه بحكم الولاية، ومن الناس من يرجع الناس إليه بحكم العشيرة والقبيلة وما أشبه ذلك، ومن الناس من يرجع الناس إليه لعلمه أو نحو هذا، وهكذا.

والمقصود أن الله -عز وجل- يأمر الناس -لئلا يكون أمرهم فوضى- أن يرجعوا إلى غيرهم ممن يصدرون عن رأيه فلا يقْدمون على شيء من شأنه أن يحدث ضرراً أو فساداً أو فوضى أو نحو ذلك إلا بالرجوع إلى هؤلاء، وبطاعتهم إذا أمروهم من أجل أن ينضبط أمر الناس ويكون على حال مرضية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {ذَلِكَ خَيْرٌ} [(٥٩) سورة النساء] **أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع في فصل النزاع إليهما خير.**

{وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [(٥٩) سورة النساء] **أي: وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاء، وهو قريب.**

قوله تعالى: {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [(٥٩) سورة النساء] التأويل يأتي بمعانٍ متعددة فهو من الأوّل بمعنى الرجوع، يعني أحسن مرجعاً وأحسن عاقبة في الحالة الثانية، فعاقبته حميدة، وذلك أن الناس إذا رجعوا إلى كتاب الله -عز وجل- وإلى سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- حصل بينهم العدل وارتفعت أسباب الشر والشقاق والنزاع وما إلى ذلك، فذلك خير لهم في الحال وفي المآل وأحسن عاقبة، والله أعلم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا} [(٦٠-٦٣) سورة النساء].

هذا إنكار من الله -عز وجل- على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف.

وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا؛ ولهذا قال: {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ} إلى آخرها.

وقوله: {يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} [(٦١) سورة النساء] **أي: يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك كما قال الله تعالى عن المشركين: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}** [(٢١) سورة لقمان] **وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** [(٥١) سورة النـــــور].

هذه الآية عامة في إنكار هذا الفعل الشنيع الذي هو التحاكم إلى الطاغوت، والطاغوت هو كل ما تجاوز حده من متبوع من مطاع، سواء كان بشراً أو قانوناً أو نحو ذلك، ويدخل فيه التحاكم إلى القوانين الوضعية والهيئات والمنظمات التي تحكم بغير شرع الله -عز وجل- وكل تحاكم إلى غير الكتاب والسنة فهو طاغوت.

وقوله: **{يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ}** [(٦٠) سورة النساء] فعل الإرادة مؤذن بالاختيار، ولذلك هل يجوز للإنسان إذا اضطر في بلاد تحكم بالقانون -كأن يكون غير مستطيع أن يستخرج حقه إلا بالترافع إلى المحكمة- هل يجوز له أن يتحاكم إليه والله يقول: **{يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ}** [(٦٠) سورة النساء] أي أنه قد يكون له حق لا يستطيع أن يستخرجه إلا بالتحاكم لتلك المحاكم، ومثال ذلك أن تكون امرأة تريد الفسخ من زوجها وهو يأبى ولا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق المحكمة، والمحكمة هناك لا تحكم بشرع الله -عز وجل-، هل يجوز لها أن تتحاكم إليها أم يقال هذا في حال الاضطرار الذي لا مندوحة منه ويترتب عليه ضياع الحق؛ فلا يكون ذلك قادحاً في إيمانه وفي دينه في البلاد التي لا تحكم

بشرع الله -عز وجل-؟ هذه مسألة عمت بها البلوى، وهي مسألة معروفة عند أهل العلم وفيها كلام لهم معروف.

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [(٦٢) سورة النساء] أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك {ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [(٦٢) سورة النساء] أي: يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق أي: المداراة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى} [(٥٢) سورة المائدة] إلى قوله: {فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [(٥٢) سورة المائدة].

وقد روى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان أبو بَرْزَةَ الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله -عز وجل-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} [(٦٠) سورة النساء] إلى قوله: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [(٦٢) سورة النساء].

ثم قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [(٦٣) سورة النساء] هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٦٣) سورة النساء] أي: لا تعنفهم على ما في قلوبهم {وَعِظْهُمْ} [(٦٣) سورة النساء] أي: وانههم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر {وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا} [(٦٣) سورة النساء] أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

قوله: {وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا} [(٦٣) سورة النساء] يحتمل أن يكون معنى في أنفسهم أي: إذا خلوت بهم من دون الناس، يعني لا تقل لهم ذلك علانية أمام الناس؛ ليكون ذلك أبلغ في النصح وأدعى إلى القبول، ويحتمل أن يكون المراد: وقل لهم في حق أنفسهم، قولاً بليغاً.

وقوله -تبارك وتعالى- عنهم: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [(٦٢) سورة النساء] أي أنهم يبررون ذلك بأنهم أرادوا الإحسان والتوفيق، ويؤخذ من هذا أن كل من أراد أن يجمع بين الشريعة وغيرها مما خالفها فإن فعله هذا مذموم، ومن أمثلة ذلك أولئك الذين حاولوا أن يجمعوا بين القرآن وبين ماديات هذا العصر التي لا تؤمن بالغيب أصلاً، وأرادوا أن يلفقوا ذلك ويحملوا كتاب الله -عز وجل- ما ليس منه من أجل أن يقدموا الإسلام بصورة مقبولة للغرب فهؤلاء قد يدخلون في هذه الآية، وهذا حصل من نحو مائة سنة، ولذلك فالأمور التي تحصل الآن ويكتب بها كاتبون ويخرج فيها أناس في قنوات فضائية هي ليست جديدة لكنها تتكرر بأسماء أخرى، ولذلك إذا سئلوا عن هذا قالوا: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [(٦٢) سورة النساء] يعني يريدون أن يوفقوا بين وحي الله وبين ما عند أعداء الله -عز وجل- من كفر وإلحاد وما أشبه ذلك.

ومثل هؤلاء أولئك الذين بُهروا قبل قرون طويلة بالفلسفة حينما تُرجمت كتب اليونان على يد المأمون -وحيث إن كل جديد له بريق- ففتن بها كثير من العلماء وغيرهم وتعلمها كثيرٌ منهم وحاول كثيرٌ منهم أن

يجمعوا بينها وبين القرآن، وهم بزعمهم أرادوا إحساناً وتوفيقاً، وهكذا توجد أمثلة وصور كثيرة تتكرر عبر القرون.

وقوله تبارك وتعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٦٣) سورة النساء] قال ابن كثير: "أي: **لا تعنفهم على ما في قلوبهم**" هذا التفسير تحتمله الآية، وتحتمل أن يكون المعنى: أعرض عن عقابهم ولا تشتغل بهم، على أن هذا كان في أول الأمر، وإلا فإن آخر ما نزل في الجهاد سورة براءة، وقد قال الله -عز وجل- فيها: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [(٧٣) سورة التوبة] فهذه الآية في المنافقين حيث أمر الله نبيه بمجاهدتهم وبالإغلاظ عليهم، ومثل هذه الآية من أهل العلم من يقول: إنها نسخت بآية السيف -وهي الآية الخامسة من سورة براءة-: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة] إلى آخره، وهذه الآية يقول فيها بعض أهل العلم: نسخت مائة وأربعة وعشرين آية فيها صفح وعفو وإعراض وما أشبه ذلك، وهذا الكلام غير صحيح، وإنما الصحيح أن مثل هذه الآيات غير منسوخة، وإنما هي لأوقات الضعف والقلة وأزمنة الفترة وما أشبه ذلك، ففي مثل هذه الظروف يكون الإعراض والصفح والصبر على أذى المشركين مع العمل على إعداد الأمة وتقويتها وتهيئتها ورفعها، فإذا كانت الأمة قوية وممكّنة فعندئذ تأتي العزائم وهو ما ذكره الله -عز وجل- في سورة براءة، وهي آخر ما نزل ولم ينسخ منه شيء، والمقصود أن الأرجح هو أن هذه الآيات غير منسوخة، والله اعلم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا* فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [(٦٤-٦٥) سورة النساء].

يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ} أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم.

وقوله: {بِإِذْنِ اللّهِ} قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك.

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} الإذن المراد في هذه الآية هو الإذن الكوني –على قول مجاهد- بمعنى أنه لا يقع في الكون تحريكه ولا تسكينه إلا بإذن الله -عز وجل- وكذلك لا يقع فيه اهتداء ولا ضلال إلا بإذن الله -عز وجل- وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فطاعة الرسل واجبة بأمر الله -عز وجل- شرعاً، لكن وقوع ذلك هو الإذن الكوني؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} فالآية يدخل فيها الإذن الكوني والشرعي لكن على قول مجاهد: "لا يطيع أحد إلا بإذني" يعني لا يطيع الرسل إلا من وفقته" يقصد الإرادة الكونية.

وإذن الله الشرعي متحقق بلا شك، وذلك أن الله -عز وجل- أمر أن يطاع أمره وأن يتبع رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذا داخل في الآية الكريمة فلا يقع من أحد شيء إلا بإرادة الله وإذنه كوناً؛ لأنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، فالمقصود أن المعنيين داخلان في الآية، والله أعلم.

يعني: لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك كقوله: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم.

قوله تعالى: {إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} [(١٥٢) سورة آل عمران] الحس هو القتل الذريع والاستئصال.

وقوله: {بِإِذْنِهِ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي الإذن الكوني، وذلك بأن يكون الله -عز وجل- قد قدر ذلك وأذن بوقوعه كوناً، وأذن أيضاً بفعله شرعاً؛ وذلك أن الله أمر بذلك فهو الذي أمر بجهادهم.

وهذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [(٥) سورة الحشر] واللينة هي النخلة وبعضهم يقول: العجوة، وبعضهم يقول: سائر النخل البرني وهو نوع من النخيل في المدينة، وبعضهم يقول: الفسيل الصغير.

وهذا الأمر حصل لما حاصر المسلمون يهود بني النضير حيث قطع بعض المسلمين بعض النخيل أو أحرقوها، فغاظ ذلك اليهود وأرباب النخيل الذين يهتمون بالنخيل ويحبونها كما قال الألوسي: حدثني بعض أصحاب النخيل أنه يؤثر أن تقطع بنانه ولا يقطع شيء من عسيب النخلة، وهذا مشاهد في الذين يولعون بالنخيل ويحبونها حيث يمكن أن يكون موت ولده أسهل عليه من قطع النخلة، والمقصود أن هذا الفعل غاظ اليهود فتكلموا في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: أنت جئت بالإصلاح، وجئت تدعو للإصلاح، فكيف هذا الإحراق والقطع للنخيل؟ فرد الله عليهم بقوله: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [(٥) سورة الحشر] وكانت هذه الآية أيضاً جواباً للصحابة الذين اختلفوا في هذا حيث قال بعضهم: كيف تقطع هذه النخيل وهي ستئول للمسلمين؟ وقال بعضهم: بل تقطع لأنها الآن في حوزة اليهود فقطعها نكاية لهم.

وقوله: {فَبِإِذْنِ اللَّهِ} إذا قلنا: إن الإذن هنا هو الإذن الشرعي فهذا يفهم منه أن هذا الفعل يجوز ما دام في ذلك نكاية بهم وإن لم تكن تلك المزارع وما شابهها من آلات الحرب بالنسبة للكفار، وإذا فسر بالإذن الكوني -يعني إلا بقدر الله -عز وجل- فلا يفهم من الآية جواز ذلك، لكن الأقرب -والله أعلم- أن الآية تفسر بالمعنيين، أي أن الذي وقع من قطع النخيل أذن الله به كوناً وأذن به شرعاً، فيجوز بهذا الاعتبار أن يفعل ما فيه نكاية بالكفار إذا حاصرهم المسلمون إلا إذا كان ذلك بطريق محرم كإحراق الناس بالنار فهذا لا يجوز، وكذلك لا يجوز استخدام السلاح الذي يستعمل قصداً وابتداءً في الإحراق بخلاف ما حصل الإحراق فيه من غير قصد أو ليس من شأنه الإحراق أصلاً وإنما حصل تبعاً، ولذلك فالرصاص وإن كان حاراً إلا أنه يجوز استعماله لأنه ليس من شأنه الإحراق، ولا يجوز استعمال الأدوات المحرقة حتى لقتل الذباب والبعوض وإن لم يكن فيها نار ظاهرة؛ لأن نتيجتها الإحراق، ولا يعذب بالنار إلا رب النار، والله أعلم.

والخلاصة أن قوله تعالى: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [(٥) سورة الحشر] يؤخذ منه أنه في حال محاربة الكفار ومقاتلتهم أو محاصرتهم يجوز إتلاف أموالهم وضرب المنشآت العسكرية والحيوية مثل محطة المياه ومحطة الكهرباء وما أشبه ذلك إذا كان في ذلك نكاية بهم، وهذا الأمر يكون شرعياً عندما يكون الجهاد شرعياً ضد الكفار وليس في حال الإفساد في الأرض الذي يقع من بعض من يفسد ويسمي إفساده في الأرض جهاداً.

وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} الآية [(٦٤) سورة النساء] يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر

لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: {لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [(٦٤) سورة النساء].

وقوله: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [(٦٥) سورة النساء] يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّم الرسول -صلى الله عليه وسلم- في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً.

قوله: {فَلاَ وَرَبِّكَ} "لا" هذه تحتمل أن تكون عائدة إلى شيء مقدر محذوف كما يقال في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] وقوله: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(١) سورة القيامة] يعني لا لما تقولون وتزعمون ثم قال: أقسم بيوم القيامة، هذا احتمال ذكره بعض أهل العلم، وعليه يكون التقدير هنا في قوله: {فَلاَ} أي ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، ثم أقسم فقال: {وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وهناك طريقة معروفة لكثير من أهل العلم في تفسير مثل هذه الآية لما كان القسم فيه مسبوقاً بلا النافية وذلك أنهم يقولون: إنما هذا لتقوية القسم وتأكيده، فقوله: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(١) سورة القيامة]، أي: أقسم بيوم القيامة، وقوله: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] أي: أقسم بهذا البلد، وإن كانت الآيات تتفاوت من حيث قوة هذا التفسير في بعض المواضع وضعفه في مواضع أخرى، فقوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] تحتمل أن تكون "لا" نافية للقسم، أي أن الله -عز وجل- نفى أن يقسم بهذا البلد الذي هو مكة، وأنت أي: يا محمد حالٌّ بهذا البلد الذي هو المدينة، أي أن الله يقول: لا أقسم بمكة وأنت خارج عنها، وهذا قول لبعض السلف وإن كان هذا القول عليه إشكالات لكن ليس المقصود هنا بيان الراجح في هذا المثال، وإلا فالأقرب أن قوله: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] أي أقسم بهذا البلد الذي هو مكة، وقوله: {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(٢) سورة البلد] أي بمكة، وهذا إشارة إلى ما سيكون بعد ذلك وقد كان، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أحلت لي ساعة من نهار))[14] فيكون البلد في الموضعين من السورة هو مكة والله أعلم؛ لأن السبب من الناحية اللغوية التصريفية أن حِل لا تأتي بمعنى حالّ يعني نازل،

وإنما هو بمعنى الإحلال الذي هو ضد الحرمة، وليس الحلول بمعنى النزول وإلا لقال: وأنت حال بهذا البلد.

وقوله: {فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [(٦٥) سورة النساء] أي فيما اختلفوا فيه، فإذا اختلف الناس اختلطت الآراء والأقوال والمذاهب وما إلى ذلك وهذا يؤدي إلى الشر والفساد، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ويكثر الهرج))[15] فالهرج فسر بأن المراد به الاختلاف، وفسر بأن المراد به القتل، فتفسيره بالاختلاف لا يعارض تفسيره بالقتل؛ لأن القتل نتيجته، فإذا وقع الخلاف بين الناس والشر حصلت آثاره ونتائجه من القتل ونحوه، فالحاصل أن قوله: {فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [(٦٥) سورة النساء] أي: فيما اختلفوا فيه واختلط من الآراء والمذاهب

---

[14] - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين (٦٤٨٦) (ج ٦ / ص ٢٥٢٢) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٥) (ج ٢ / ص ٩٨٨).

[15] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس (٨٥) (ج ١ / ص ٤٤) ومسلم في كتاب العلم - باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (١٥٧) (ج ٤ / ص ٢٠٥٦).

والأقوال وما أشبه ذلك، ولهذا قيل للشجر شجر؛ لاختلاف الفروع والأغصان وتداخلها، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد:

وهـم الحكـام أربـاب الهـدى وسعاة الناس فـي الأمـر الـشجر

ولهذا قال: {ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [(٦٥) سورة النساء] أي: إذا حكَّموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.

الحرج فسره بعض السلف -رضي الله عنهم- بالضيق، أي لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً وتبرماً من حكمك، وفسره بعضهم بالشك، وفسره بعضهم بغير هذا من المعاني كالإثم، والإثم نتيجة لما يقع من الشك أو الضيق، فهذه المعاني يمكن أن تجتمع فيكون المراد بقوله: **{لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ}** أي لا يجدون في أنفسهم غضاضة ولا شكاً ولا تبرماً ولا ضيقاً ولا ضجراً ولا تردداً من هذا الحكم الذي حكمت به بينهم، هذا جمْعٌ بين هذه العبارات التي قالها السلف ويكون اختلافهم في تفسير ذلك بهذا الاعتبار من اختلاف التنوع، يعني اختلاف العبارة والمعنى واحد، والجمع بين هذه الأقوال هو الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-.

وروى البخاري عن عُرْوَة قال: خاصم الزبير رجلاً في شراج من الحَرَّة،

الحرة هي الحجارة السوداء التي تسمى الآن الحجارة البركانية، فالمدينة تحيط بها الحرار الثلاث من الجنوب ومن الشرق ومن الغرب، وشراج الحرة يعني مسائل الماء فيها، ومن يعرف المدينة يعرف هذا، فقد كانوا يزرعون في نواحي هذه الحرة حيث يوجد فيها مجال، وفي علوم الزراعة أن الأرض البركانية تكون خصبة صالحة للزراعة، فإذا وجدت مساحات بين هذه الصخور ولو صغيرة فكلٌّ يزرع في المساحة الخاصة به، فيمر الماء بهؤلاء فيتخاصمون عليه حيث إن الذي يمر عليه أولاً لا يريد أن يفوت الماء حتى يستقي ويرتوي الزرع فيحجزه حتى يستقي زرعه ثم بعد ذلك يرسله، والذي بعده يقول: اترك الماء على سجيته لا تحبسه حتى يرتوي الزرع الذي عندك، فاختصموا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وروى البخاري عن عُرْوَة قال: خاصم الزبير رجلاً في شِراجٍ من الحَرَّة فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اسق يا زُبير ثم أرْسل الماء إلى جارك)).

يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر الزبير -رضي الله عنه- بالفضل فقال: ((اسق يا زُبير ثم أرْسل الماء إلى جارك)) فكأنه يقول: لا تحبسه عنه حبساً يتضرر به بل راعي حاله وأرسل الماء إليه بعد أن تأخذ حاجتك منه.

فقال الأنصاري: يا رسول الله، أنْ كان ابن عمتك؟

قول الأنصاري: "**أنْ كان ابن عمتك؟**" أي من أجل أنه ابن عمتك حابيته فحكمت بهذا الحكم؟ يقول هذا القول مع أن حكمه –عليه الصلاة والسلام- كان عدلاً مع فضل، فهو لم يأمر الزبير أن يستوفي حقه ومع ذلك قال هذا الأنصاري ما قال.

فَتَلَوَّن وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: ((اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدْر، ثم أرسل الماء إلى جارك))[١٦].

أمره أولاً بالفضل فلما قال ذلك الرجل ما قال أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- الزبير -رضي الله عنه- بالعدل، فحكمه الأول في غاية العدل لكنه عدل مع فضل، أما هنا فأمر الزبير أن يستوفي حقه حتى يرجع الماء إلى الجدر، ثم بعد ذلك يرسله إلى جاره بعد أن يستوفي حقه، فدل على أن حبس الماء حتى يستوفي كان من حق الزبير -رضي الله عنه- .

واستوعى النبي -صلى الله عليه وسلم- للزبير -رضي الله تعالى عنه- حَقّه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما -صلى الله عليه وسلم- بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} الآية [(٦٥) سورة النساء].

سبب آخر:

روى الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دُحَيْم في تفسيره عن ضَمْرَة أن رجلين اختصما إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقضى للمحق على المبطل، فقال المقضيّ عليه: لا أرضى، فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق، فذهبا إليه، فقال الذي قُضي له: قد اختصمنا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقضى لي، فقال أبو بكر: فأنتما على ما قضى به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأبى صاحبه أن يرضى، قال: نأتي عمر بن الخطاب، فأتياه، فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقضى لي عليه، فأبى أن يرضى، فسأله عمر بن الخطاب فقال: كذلك، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلَّه، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله، فأنزل الله: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} الآية [(٦٥) سورة النساء].

هذه الرواية قال فيها: عن ضمرة أن رجلين اختصما إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي رواية مرسلة، والمرسل من أنواع الضعيف، وفيها علة أخرى أيضاً في الإسناد، والمتن أيضاً لا يخلو من إشكال، إذ كيف يحق لعمر -رضي الله عنه- أن يقدم على قتل الرجل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي له الولاية، فهو الذي يأمر بالقتل ولا يكون ذلك لآحاد الناس مهما كانت منزلته، فلا يُظن هذا بعمر -رضي الله تعالى عنه- وقد وردت روايات في هذا المعنى أن رجلين احتكما إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم إلى أبي بكر ثم إلى عمر، وفي بعض هذه الروايات ليس فيها القتل، لكن عامة هذه الروايات مراسيل، فالله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

---

[١٦] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النساء (٤٣٠٩) (ج ٤ / ص ١٦٧٤) ومسلم في كتاب الفضائل - باب وجوب اتباعه -صلى الله عليه وسلم- (٢٣٥٧) (ج ٤ / ص ١٨٢٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا* وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا* وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا} [(٦٦-٧٠) سورة النساء].

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه -تبارك وتعالى- بما لم يكن لو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} الآية [(٦٦) سورة النساء].

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ} [(٦٦) سورة النساء] أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي {وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [(٦٦) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد ذكر الله -عز وجل- صفة أولئك المخالفين لأمر الله -عز وجل- وأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(٨١) سورة النساء] ثم رغَّب في طاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} الآية [(٦٩) سورة النساء] ثم قال بعد ذلك: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} [(٦٦) سورة النساء] فهل المراد بهذه الآية أن كل الناس لن يفعلوا ذلك إلا قليل منهم أم المراد بها أولئك الذين ذكر صفتهم؟

السياق في هؤلاء الذين ذكر صفتهم، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى على أنه في جميع الناس، أي: لو أنا كتبنا على الناس جميعاً قتل النفوس ما فعلوه إلا قليل منهم، والذي قد يؤيد ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أنها في عموم الناس، أي أن هؤلاء ما طلب منهم هذا أصلاً ومع ذلك كانوا إذا خرجوا من عنده بيَّت طائفة منهم غير الذي يقول، فكيف لو كتب عليهم قتل النفوس؟ إلا إذا قيل: إن المراد بالقليل في قوله: {مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} [(٦٦) سورة النساء] أنه بمنزلة العدم، وفي كلام العرب وأشعارهم يعبرون بذلك ولا يريدون حقيقة معناه، تقول: مررت بأرض قليل بها الكُرَّاث، يعني أنه معدوم، فهذا سمع في كلام العرب، وقد يحمل عليه

عدد من الآيات التي ورد فيها لفظ القلة، منها قوله تعالى: {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٤٦) سورة النساء] فالمعنى أنهم لا يؤمنون أصلاً، ومنها قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب] يعني أنهم لا يأتون البأس، فالآية تحتمل معنىً آخر وهو حقيقة القلة، والخلاصة أنه إذا حمل قوله: {مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} [(٦٦) سورة النساء] على أن المعنى لم يفعله أحد فيمكن أن تكون هذه الآية في الذين ذكر الله صفتهم بقوله: {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} يعني لم يفعله أحد منهم مطلقاً.

يقول الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} "**لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر**" معناه أننا لو أمرناهم بالأمور المحرمة ما فعلوها؛ لأنهم جبلوا على المخالفة، قول ابن كثير هذا يظهر أنه غير مراد هنا، بل المعنى –والله أعلم- أن الله يخبر عن هؤلاء الناس عموماً أو عن هؤلاء الذين ذكر صفتهم أنه لو كتب عليهم التكاليف الشاقَّة من قتل النفوس أو الخروج من الأوطان ما فعلوه إلا قليل منهم، ويؤيد هذا المعنى قوله بعد ذلك: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [(٦٦) سورة النساء] فهذا خبر عنهم أنهم لا يستجيبون لأوامر الله وتكاليفه الشاقة، وهذا المعنى هو الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

{لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [(٦٦) سورة النساء] أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي {وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [(٦٦) سورة النساء] قال السدي: أي: وأشدَّ تصديقاً.

{وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا} [(٦٧) سورة النساء] أي: من عندنا {أَجْراً عَظِيمًا} يعني: الجنة {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [(٦٨) سورة النساء] أي: في الدنيا والآخرة.

قول السدي في قوله تعالى: {وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [(٦٦) سورة النساء] أي: **وأشدَّ تصديقا**" هذا المعنى لا يبعد في تفسير الآية، ولا يعارض ما قيل فيها من المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- فقد قال الله -عز وجل- عن المنفقين في سبيله {وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [(٢٦٥) سورة البقرة] وقد سبق الكلام عليها أنها تحتمل عدة معانٍ ومن جملة المعاني التي تحتملها أن ذلك ينعكس أثره عليهم بالثبات، ومن معانيها أيضاً أن الإنسان تنازعه نفسه عند إخراج المال بمحبته له فهو يجاهدها ويحملها على الإنفاق والبذل وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال إذا فعل الإنسان ما أمره الله -عز وجل- به فإن ذلك يكون من دواعي ثباته ولزومه الصراط المستقيم وانتفاء التردد والشك من قلبه فيكون بذلك مؤمناً؛ لأن الإيمان قول وعمل.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عند قوله تعالى: **{وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [(٦٨) سورة النساء] أي: في الدنيا والآخرة**" الهداية في الدنيا هي هداية الإرشاد وهداية التوفيق، والهداية في الآخرة هي كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [(٤-٥) سورة محمد] ومعنى ذلك -على القول الراجح في تفسير تلك الآية- أن الله -عز وجل- يهديهم في الآخرة إلى الصراط ويهديهم على الصراط، ويهديهم عند الحساب، ويهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، فكل هذه الهدايات تكون في الآخرة، وهناك هدايات أخرى تكون لغير الشهداء؛ لأن الشهيد يأمن من الفتّان، لكن غيره بحاجة إلى هداية عند سؤال الملكين.

ثم قال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [(٦٩) سورة النساء] أي: **من عمل بما أمره الله ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله -عز وجل- يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم.**

قوله: **{فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ}** [(٦٩) سورة النساء] الصديقين هذه صيغة مبالغة تدل على كمال الاتصاف بهذه الصفة التي هي الصدق، فالصدّيق هو الذي كمل تصديقه، ولذلك قيل لأبي بكر -رضي الله تعالى عنه- الصدّيق؛ لكمال تصديقه فقد كان كثير التصديق وكذلك يقال لمن كمل صدقه حتى عرف بذلك: إنه صدِّيق، وفي الحديث: ((ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً))[1] فهذه صيغة مبالغة تدل على كمال الاتصاف بهذه الصفة كما يقال لمن اكتمل احترافه حرِّيف.

ثم أثنى عليهم تعالى فقال: {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [(٦٩) سورة النساء].

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من نبي يمرضُ إلا خيِّر بين الدنيا والآخرة)) وكان في شكواه التي قبض فيها فأخذته بُحَّة شديدة فسمعته يقول: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} [(٦٩) سورة النساء] **فعلمت أنه خُيِّر" وكذا رواه مسلم[2] وهذا معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الآخر: ((اللهم في الرفيق الأعلى)) ثلاثاً ثم قضى -عليه أفضل الصلاة والتسليم[3].**

روى ابن جرير عن سعيد بن جُبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو محزون، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا فلان، ما لي أراك محزونًا؟)) قال: يا نبي الله شيء فكرت فيه؟ قال: ((ما هو؟)) قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ} الآية [(٦٩) سورة النساء] **فبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فبشره وقد روي هذا الأثر مرسلاً عن مسروق وعكرمة وعامر الشَّعْبي وقتادة وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندًا[4].**

وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، ورواه أبو بكر بن مردويه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧) (ج ٤ / ص ٢٠١٢).

2 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة النساء (٤٣١٠) (ج ٤ / ص ١٦٧٥) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم - باب في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها- (٢٤٤٤) (ج ٤ / ص ١٨٩٣).

3 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب مرض النبي صلى الله عليه و سلم ووفاته (٤١٧٤) (ج ٤ / ص ١٦١٣).

4 - حديث مرسل أخرجه الطبري في تفسيره من مراسيل سعيد بن جبير (ج ٨ / ص ٥٣٤) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة من مرسل الشعبي (١٣٨٠) (ج ٢ / ص ١٣١) وهو صحيح، انظر كتاب تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن (ص ٩٠).

موتي وموتك وعرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رفعتَ مع النبيين وإن دخلتُ الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى نزلت عليه: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [(٦٩) سورة النساء] **وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه: صفة الجنة ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، والله أعلم.**

هذه الرواية قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: رجالها موثقون، والرواية التي قبلها هي من قبيل المرسل عن سعيد بن جبير، وقد أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى جملة من المراسيل الواردة في هذا المعنى، وقد جاءت روايات أخرى مرفوعة غير ما ذكر، ومعلوم أن المرسل من قبيل الضعيف لكن إذا تعددت المراسيل أو جاءت من وجه آخر مرفوعةً فإنها تصحح بهذا، وعلى كل حال مثل هذا المرسل عن سعيد بن جبير جاءت مراسيل متعددة بنحوه وجاءت مرفوعةً من غير وجه ولذلك يمكن أن يصحح بهذا أو يحسن إسناده، والروايات في هذا أكثر مما ذكرها الحافظ ابن كثير، لكنها كلها تدور على هذا المعنى.

وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: كنت أبيت عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: ((سل)) فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: ((أو غَيْرَ ذلك؟)) قلت: هو ذاك، قال: ((فَأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود))[5].

أورد هذه الرواية استشهاداً بها على قوله تعالى: **{وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [(٦٩) سورة النساء] وفي هذا الحديث بيان كيف يكون الإنسان مع النبيين حيث فيه مثال على أن مما يوصل به إلى هذه المراتب ما قاله –عليه الصلاة والسلام-: ((أعني على نفسك بكثرة السجود)).

سبب نزول هذه الآية:

إذا أردنا أن نستخرج سبب النزول من هذه الروايات المتعددة فإننا سنقتصر على الصحيح منها والصريح دون غيره، ولذلك يمكن أن نقول: إن سبب النزول أن رجلاً جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أو سأل رجل النبي -صلى الله عليه وسلم- فكل هذه الروايات لا منافاة بينها سواء كانت من قبيل المراسيل كمرسل سعيد أو غيره، أو حديث عائشة، فكل ذلك لا منافاة بينه، فتكون الآية نازلة على سبب هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل -عما سبق ذكره- فنزلت هذه الآية لبيان ذلك.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مُرَّةَ الجُهَنِيّ -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا -ونصب أصبعيه- ما لم يعق والديه)) تفرد به أحمد[6].

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الرجل يحب القوم ولمّا

---

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٨) (ج ١ / ص ٣٥٣).

[6] - هذا الحديث موجود في كتاب اسمه الأحاديث الساقطة من مسند الإمام أحمد بن حنبل برقم (٢٤٢٩٩) (ص ٢٣) وقد قال صاحب كتاب مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني بإسنادين ورجال أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد (ج ٨ / ص ٦٧).

يلحق بهم؟ فقال: ((المرء مع من أحب))[7] قال أنس -رضي الله تعالى عنه-: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث[8].

وفي رواية عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: إني أحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأحب أبا بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم[9].

قال تعالى: {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ} [(٧٠) سورة النساء] **أي: من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم {وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا} أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.**

يقول –عليه الصلاة والسلام-: ((المرء مع من أحب)) ومحبة الله -عز وجل- ومحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تكون إلا من مخلص، ولذلك يخاف الإنسان على قلبه من النفاق؛ لأن المنافقين لا تتحقق عندهم هذه المحبة، ولا يكون الطريق إلى محبة الله ومحبة رسوله -صلى الله عليه وسلم- إلا بلزوم الصراط المستقيم، وكلما انحرف الإنسان عن الجادة كلما أثر ذلك في هذه المحبة، ولذلك فالذين أبعدوا في الانحراف وإن كان بعضهم ينتسب إلى التدين أو إلى الدعوة أو نحو ذلك هؤلاء قد لا توجد عندهم هذه المحبة، والله المستعان.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا* وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا* وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا* فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٧١-٧٤) سورة النساء].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيله.

{ثُبَاتٍ} أي: جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثُبَة وقد تجمع الثبة على ثُبين.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ} [(٧١) سورة النساء] أي: عُصبا يعني: سراياً متفرقين {أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا} [(٧١) سورة النساء] يعني: كلكم.

وكذا رُوي عن مجاهد وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني ومُقاتل بن حَيَّان وخُصَيف الجَزَري.

أي أن المقصود بقوله: **{فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا}** [(٧١) سورة النساء] أي بحسب المصلحة والحاجة، فقد تكون المصلحة في قتال العدو أن ينفروا إليه مجتمعين بجيش عرمرم، وقد تكون المصلحة في نفورهم

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب علامة الحب في الله -عز وجل- (٥٨١٨) (ج ٥ / ص ٢٢٨٣) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب المرء مع من أحب (٢٦٤٠) (ج ٤ / ص ٢٠٣٤).

[8] - كلام أنس ثابت من رواية أخرى أخرجها البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه- (٣٤٨٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٩) والترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء أن المرء مع من أحب (٢٣٨٥) (ج ٤ / ص ٥٩٥) وأحمد (١٢٧٣٨) (ج ٣ / ص ١٦٨).

[9] - رواية البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنــه- (٣٤٨٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٩) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩) (ج ٤ / ص ٢٠٣٢).

مجموعات صغيرة لئلا يظفر بهم العدو، وذلك أن القوة أحياناً تكون بالتفرق وأحياناً تكون بالاجتماع، قال يعقوب لأبنائه: {يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ من بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ} [(٦٧) سورة يوسف].

وقوله: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [(٧٢) سورة النساء] قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: {لَّيُبَطِّئَنَّ} أي: ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ويبطئ غيره عن الجهاد.

قوله: "**ويبطئ غيره عن الجهاد**" هذا المعنى صحيح؛ لأن الله -عز وجل- قال: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [(١٨) سورة الأحزاب] فقوله: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [(٧٢) سورة النساء] أي ليبطئن غيره فيثبطه ويقعده ويحتمل أيضاً المعنى الآخر وهو أنه يتباطأ هو، ومعلوم أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وكما دل القرآن على أنهم يبطئون غيرهم ويقعدونهم عن الجهاد فإنه قد دل أيضاً على أنهم يتباطئون ويتأخرون ويتخلفون، قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [(٨١) سورة التوبة] فكل ذلك واقع منهم قاتلهم الله.

كما كان عبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله- يفعل، يتأخر عن الجهاد ويُثَبِّط الناس عن الخروج فيه، وهذا قول ابن جُرَيْج وابن جَرِيرٍ؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: {فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ} [(٧٢) سورة النساء] أي: قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما لله في ذلك من الحكمة {قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا} [(٧٢) سورة النساء] أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعد ذلك من نعم الله عليه ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله} أي: نصر وظفر وغنيمة {لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ} أي: كأنه ليس من أهل دينكم {يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [(٧٣) سورة النساء] أي: بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ} [(٧٤) سورة النساء] أي: المؤمن النافر {فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} [(٧٤) سورة النساء] أي: يبيعون دينهم بعَرَض قليل من الدنيا وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم.

ثم قال تعالى: {وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٧٤) سورة النساء] أي: كل من قاتل في سبيل الله -سواء قُتل أو غَلب وسَلَب- فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل كما ثبت في الصحيحين وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا} [(٧١) سورة النساء]

يعني أن الله -عز وجل- يأمرهم بأن ينفروا لقتال عدوهم مجتمعين ومتفرقين بحسب المصلحة.

قال: "**وقد تجمع الثُّبَةُ على ثُبين بضم الثاء وكسر الباء**".

وقوله: {فَلْيُقَاتِلْ} [(٧٤) سورة النساء] قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي المؤمن النافر في سبيل الله**".

{الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} [(٧٤) سورة النساء] "**أي: الذين يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم**" وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أن الاسم الموصول وصلته في محل نصب مفعول به، يعني أن الذي وقع عليه القتال هو الذي يشري الدنيا بالآخرة ويكون الفاعل غيره، أي فليقاتل المؤمنون الكفارَ الذين صفتهم أنهم يشرون الدنيا بالآخرة.

لكن هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- ليس هو المتبادر من السياق، بل المتبادر من السياق هو أن الفاعل {الَّذِينَ يَشْرُونَ} ويكون معنى يشرون أي يبيعون.

{يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [(٧٤) سورة النساء] يعني يبيعونها بنعيم الآخرة، وعلى هذا الاعتبار يكون المعنى عكس ما ذكر ابن كثير، وهذا هو الأقرب في تفسير الآية، وهو الذي عليه عامة أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- أي أن المعنى يكون هكذا: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} [(٧٤) سورة النساء] يعني فليقاتل في سبيل الله أهلُ الإيمان الذين صفتهم أنهم يبيعون الدنيا العاجلة بالآخرة.

{وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا* الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [(٧٥-٧٦) سورة النساء] **يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال تعالى:** {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} [(٧٥) سورة النساء] **يعني مكة.**

قوله تعالى: {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ} يحتمل أن يكون مضافاً إلى لفظ الجلالة هكذا {فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ} يعني يكون المعنى ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله وسبيل المستضعفين الذين هذه صفتهم.

ويحتمل أن يكون منصوباً على الاختصاص ويكون المعنى ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله وأخص المستضعفين، والمعنى على هذا أيضاً مقارب للذي قبله وإن كان يختلف عنه في الإعراب، لكن المقصود

بهذا الاعتبار أن يكون المستضعفون أحد الأسباب التي من أجلها يقوم القتال، أي أنكم تقاتلون في سبيل مرضاة الله وطلب ما عنده من الأجر والثواب، وفي سبيل المستضعفين لاستنقاذهم ورفع الظلم عنهم فإنهم جديرون بذلك، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} [(٧٥) سورة النساء] **يعني مكة كقوله تعالى:** {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [(١٣) سورة محمد] **ثم وصفها بقوله:** {الظَّالِمِ أَهْلُهَا} [(٧٥) سورة النساء].

{وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا} [(٧٥) سورة النساء] **أي: سخر لنا من عندك ولياً وناصراً.**

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين[1].

ثم قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} [(٧٦) سورة النساء] **أي: المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان.**

ثم هيَّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [(٧٦) سورة النساء].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً* أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا* مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(٧٨-٧٩) سورة النساء].

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام -وهم بمكة- مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصُب لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم.

قوله تعالى: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} الآية [(٧٨) سورة النساء] هذه الآية نزلت في المؤمنين حينما كانوا يتشوفون للجهاد كما قال الله -عز وجل- في سورة الصف: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [(٢-٣) سورة الصف] فإنها نزلت بسبب أنهم تمنوا أن يعرفوا أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- فلما أخبروا أنه الجهاد تثاقلوا وتباطئوا، فعاتبهم الله -عز وجل- على ذلك، وهذا القول هو الظاهر -والله أعلم- خلافاً لمن قال: إنها في المنافقين أو في اليهود؛ فإن هؤلاء لا يتشوفون إلى الجهاد أصلاً وإن كان من قال: إنها في اليهود قال: إن ذلك مما قصه الله -عز وجل- من أخبارهم.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النساء (٤٣١١) (ج ٤ / ص ١٦٧٥).

ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقاً؛ فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا مواجهة الناس خوفاً شديداً {وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [(٧٧) سورة النساء] أي: لو ما أخرته إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء ويتم الأبناء وتأيم النساء.

وهذه الآية كقوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ} الآيات [(٢٠) سورة محمد].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة، قال: ((إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)) فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ} الآية [(٧٧) سورة النساء] ورواه النسائي والحاكم[2].

وقوله: {قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى} [(٧٧) سورة النساء] أي: آخرة المتقي خير من دنياه، {وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٧٧) سورة النساء] أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

وقوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٨) سورة النساء] أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} الآية [(٢٦) سورة الرحمن] وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [(٥٧) سورة العنكبوت] وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ} [(٣٤) سورة الأنبياء].

المقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلاً محتوماً ومقاماً مقسوماً كما قال خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- حينما جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء.

وقوله: {وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٨) سورة النساء] أي حصينة منيعة عالية رفيعة أي: لا يغني حذر وتحصن من الموت.

يقول تعالى: {وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٨) سورة النساء] البرج هو المكان المرتفع وقيل له ذلك لظهوره وانكشافه، ولذلك يقال للمرأة المتبذلة أو التي تزاحم الرجال أو تمشي في وسط الطريق أو كثيرة الخروج -ولو كانت متحجبة- يقال عنها: متبرجة؛ لأن هذا نوع من التبرج بمعنى الظهور والانكشاف؛ فالبرج يراه الناس بانكشافه وظهوره وارتفاعه وبدوِّه.

---

[2] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير – باب تفسير سورة النساء (١١١١٢) (ج ٦ / ص ٣٢٥) والحاكم (٢٣٧٧) (ج ٢ / ص ٧٦).

والمشيدة تأتي بمعنى المرتفعة وتأتي بمعنى المطلية -بالجص مثلاً- بمعنى أنها محكمة البناء، ولذلك فالحديث الذي فيه النهي عن تشييد المساجد هل المقصود به النهي عن رفع المساجد في البناء وتعليتها من غير حاجة أو المقصود به تزيينها وتحسين بنائها وما أشبه ذلك؟

وردت نصوص دالة على كراهة أن يحمر أو يصفر، فالحاصل أن الله -عز وجل- ذكر لهم في هذه الآيات جملة من الأمور التي يحفزهم فيها إلى الجهاد فأمرهم -تبارك وتعالى- بأن ينفروا مجتمعين ومتفرقين، وعاتب المتباطئين منهم، وذم المنافقين على قيلهم، وأمر أهل الإيمان بالقتال فقال: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} [(٧٤) سورة النساء] وذكر ثوابهم ثم ذكر ما يحفزهم على ذلك، فقال: لماذا لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين الذين قد وقع عليهم الإذلال والظلم والقهر؟ ثم ذكر حالة أهل الإيمان، ثم عاتب الذين تباطئوا بعد أن كانوا يتمنون ذلك، ثم بعد ذلك بيّن لهم أصلاً كبيراً وهو أن متاع الدنيا زائل وأن الموت الذي يخافون منه ويتحاشونه واقع لا محالة، لا يقدمه قتال ولا يؤخره خور وضعف وجبن، وإنما إذا جاء أجل الإنسان مات في أي مكان كان، ومهما ركب الإنسان الأهوال والأوجال والأخطار فإن ذلك لا يقدم في أجله لحظة، فهذه عقيدة قوية وراسخة إذا اعتقدها الإنسان فإنه تنقشع عنه سحائب الخوف والوجل والهلع والجبن.

وذكر الله -عز وجل- لهم في هذه الآيات قضية مهمة تتعلق بحالهم وحال عدوهم في القتال، وهي أن هؤلاء الأعداء يقاتلون في سبيل الطاغوت، فأهدافهم واهية، ويركنون إلى ركن هش ضعيف لا يستطيع أن يقدم لهم نفعاً ولا نصراً، وأن أهل الإيمان يقاتلون في سبيل الله فقال: {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ} [(٧٦) سورة النساء] وبيّن لهم ضعف كيد الشيطان فقال: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [(٧٦) سورة النساء] وهذا يرجع إلى أوليائه فإن كيدهم يتلاشى، والهالة التي يضفونها على أنفسهم تنقشع إذا قابلوا أهل الإيمان وقاتلوهم، وهذه المعاني لو أن أهل الإيمان تأملوها فإنه ترتفع عن نفوسهم كثير من الأمور التي تضعفهم وتؤخرهم.

ثم ذكر تعالى بعد ذلك حال المنافقين وإرجافهم وأنهم كانوا إذا وقعت هزيمة أو نحو ذلك أعادوا هذا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإذا جاء نصر وظفر وغنيمة قالوا: هذا من عند الله -عز وجل، كما قال الفراعنة لموسى -عليه الصلاة والسلام- عندما كانوا يتطيرون به ويمن معه: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(١٣١) سورة الأعراف].

وقوله: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ} [(٧٨) سورة النساء] أي: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبي العالية والسدي {يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} [(٧٨) سورة النساء] أي: قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع، أو موت أولاد، أو نتاج، أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدي {يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ} [(٧٨) سورة النساء] أي: من قبَلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(١٣١) سورة الأعراف] وكما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} الآية [(١١) سورة الحج] وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبي -صلى الله عليه

وسلم- فأنزل الله -عز وجل-: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] فقوله: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] أي: الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ} [(٧٩) سورة النساء] أي: من فضل الله ومنِّه ولطفه ورحمته.

قوله: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] الحسنة تشمل كل المعاني التي ذكرها السلف، فهي كل أمر يسرهم من نصر أو غنى أو نزول مطر أو نحو ذلك، والسيئة كل ما يسوء من هزيمة وموت ولد وهلاك زرع وخسارة التجارة، وما أشبه ذلك مما يتشاءمون به ويقولون: هذا بشؤمك وشؤم دينك الذي جئت به، وقد كانوا يقولون هذا الكلام بطريقة أو بأخرى، كقولهم: أنت الذي سببت لنا هذه الكوارث؛ لأنك جعلت الناس يحاربوننا ويستهدفوننا ويرموننا عن قوس واحدة، فحصل ما حصل من هذه الأمور.

وقوله تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] هذه الآية ليست معارضة لما قبلها، وذلك أن وقوع الحسنة هي من توفيق الله وفضله ووقوع السيئة يكون بسبب الإنسان من التقصير والذنوب ونحو ذلك، وكل من الحسنة والسيئة لا يقع شيء منها إلا بإذن الله وقدره.

وقوله تعالى: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] هذا رد على المنافقين، وقوله تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] هذا خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا الخطاب لا يرد عليه إشكال في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن له سيئات أو ذنوب حتى يقال: {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] فالذين التفتوا إلى هذا المعنى قالوا: هذا خطاب للأمة ولا مانع من أن يقال: إن الخطاب متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمقصود به الأمة، أو أن الأمة داخلة فيه باعتبار أن الأمة تخاطب في شخص قدوتها ومقدمها -عليه الصلاة والسلام-، والخطاب الموجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تارة يكون مختصاً به، وتارة يكون المراد به الأمة قطعاً، وتارة يدخل فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- وتدخل فيه الأمة بالاعتبار الذي ذكرته آنفاً.

ومما يختص بالأمة دون النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن الله -عز وجل- قال: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [(٢٣-٢٤) سورة الإسراء] النبي -صلى الله عليه وسلم- لما نزلت عليه هذه الآيات لم يكن له أب ولا أم، فهذا الخطاب قطعاً متوجه إلى الأمة.

وقد يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وتقوم قرينة تدل على ذلك كقوله تعالى: {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٥٠) سورة الأحزاب] وقد تشترك الأمة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الخطاب وهذا هو الغالب.

وبالنسبة للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإن الصغائر تقع منهم على القول الراجح عند أهل السنة، لكنهم لا يصرون عليها ولا تكون هذه الصغائر من قبيل المدنسات التي يسميها العلماء صغائر الخسَّة -يعني التي تدل

على دناءة- فهذه لا تقع من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والله -عز وجل- قال: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} [(٢) سورة الفتح] فالله -عز وجل- غفر للنبي -صلى الله عليه وسلم- ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فالحاصل أن الله -عز وجل- قال: {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] فالأولى رد على المنافقين {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] أي: بقضائه وقدره، وفي القراءة التي قرأ بها أبي وابن عباس وابن مسعود: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك) والقراءة الآحادية إذا صح سندها فإنها تفسر القراءة المتواترة، فالله -عز وجل- رد على المنافقين قائلاً: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة النساء] ثم بعد ذلك قرر لأهل الإيمان معنىً ينتفعون به فقال: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ} [(٧٩) سورة النساء] أي أن هذا من فضله عليك وعلى هذه الأمة أن حصل لهم الخصب أو النصر أو ربح التجارة وما أشبه ذلك.

{وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] أي بسبب ذنوبكم وتقصيركم ومخالفتكم لأمر الله -تبارك وتعالى- كما وقع من الهزيمة في يوم أحد لما عصوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا كما قال الله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(٣٠) سورة الشورى] فالمصائب التي تقع للإنسان إنما تقع بسبب ذنوبه وظلمه وتقصيره، فهذا المعنى ينتفع به أهل الإيمان، أي: ما أصابكم من حسنات ومن أمور طيبة فهي من عند الله فاشكروه عليها وما وقع بكم من مصائب ونقص في الأرزاق والأموال وما إلى ذلك فهذا بسبب تقصيركم وذنوبكم فتوبوا إلى الله -عز وجل- وارجعوا إليه ليرفع ما بكم من الضر وما نزل بكم من المصيبة، فالشر لا ينسب إلى الله -عز وجل- كما في الحديث: ((والشر ليس إليك))[3] فالله -تبارك وتعالى- خلق الخير وخلق الشر لكن ليس في أفعال الله -عز وجل- شر وإنما الشر يوجد في مفعولاته لِحِكَمٍ بالغة يعلمها الله -جل جلاله- فهذا الذي يقع للإنسان من المكاره إنما هو بسبب ما جنته يداه والكل مجتمع تحت قضاء الله وقدره، وبهذا يتبيّن الفرق وأنه لا تعارض بين هذه النصوص.

{وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] أي فمن قِبَلك ومن عملك أنت كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(٣٠) سورة الشورى] قال السدي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد: {فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] أي: بذنبك، وقال قتادة في الآية: {فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً} [(٧٩) سورة النساء] أي: تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

{وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(٧٩) سورة النساء] أي: على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً.

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) (ج ١ / ص ٥٣٤).

الله -عز وجل- يقول: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً} [(٧٩) سورة النساء] يعني لست أنت الذي تكون سبباً لما يقـــع بهم من الكوارث والمصائب والضيق والشدة في العيش وما أشبه هذا، فأنت إنما أرســـلناك للنـــاس رســـولاً، فكونهم يتشاءمون بك فهذا ليس له معنى.

وقوله: {وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(٧٩) سورة النساء] يعني على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وهو شهيد على أفعال العباد وعلى أقوالهم، ومن ذلك التشاؤم الذي قالوه.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا* وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(٨٠-٨١) سورة النساء].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- بأنه من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني)) وهذا الحديث ثابت في الصحيحين[1].

وقوله: {وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [(٨٠) سورة النساء] أي: ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما في جاء في الحديث: ((من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه))[2].

وقوله: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ} [(٨١) سورة النساء] يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة، {فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ} أي: خرجوا وتواروا عنك {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [(٨١) سورة النساء] أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء المنافقين: **{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ}** [(٨١) سورة النساء] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة**" هذا تفسير لمعنى الآية، لكن التركيب في قوله: **{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ}** [(٨١) سورة النساء] فيه مقدر محذوف تقديره أمرنا طاعة أو شأننا طاعة وهذا كقوله -عز وجل-: **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}** [(٥٨) سورة البقرة] يعني مسألتنا أن تحط عنا خطايانا وهنا **{وَيَقُولُونَ**

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام – باب قول الله تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [(٥٩) سورة النساء] (٦٧١٨) (ج ٦ / ص ٢٦١١) ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٣٥) (ج ٣ / ص ١٤٦٦).

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب الرجل يخطب على قوس (١٠٩٩) (ج ١ / ص ٤٢٨) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (١٠٩٧).

طَاعَةٌ} [(٨١) سورة النساء] أي شأننا طاعة أو أمرنا طاعة أو لك منا طاعة أو نحو ذلك مما يقدر في الكلام فيتضح وجه هذا التركيب.

قوله تعالى: {فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ} [(٨١) سورة النساء] أي: خرجوا وتواروا عنك {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [(٨١) سورة النساء] إما أن يكون المعنى غير الذي تقول أنت مما خاطبتهم به وأمرتهم به ونهيتهم عنه، أي أنهم بيتوا المخالفة والمعصية.

ويحتمل أن يكون معنى {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [(٨١) سورة النساء] أي غير الذي تقوله تلك الطائفة نفسها فإنهم قالوا لك: طاعة، فإذا خرجوا من عندك بيتوا في أنفسهم غير الذي قالوه.

وقوله: {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ} يقول: "**أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك**" أي دبروا ذلك ليلاً، ولذلك يقال: هذا أمر قد بُيِّت بليل أي دُبِّر بليل.

{وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} [(٨١) سورة النساء] أي: **يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد يعلمون ما يفعلون، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعصيانه وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة وسيجزيهم على ذلك كما قال تعالى:** {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا} **الآية** [(٤٧) سورة النـــــور].

وقوله: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٨١) سورة النساء] أي: **اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً** {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(٨١) سورة النساء] أي: **كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.**

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع المعاني التي قالها السلف -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٨١) سورة النساء] فالأمر بالإعراض هنا أمر عام يدخل فيه ما قيل من أن المراد لا تعاقبهم، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في أول الأمر مأموراً بالصفح والإعراض والتجاوز، ويدخل أيضاً في قوله: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٨١) سورة النساء] ألا يشتغل بهم، فهو يقول له: لا تشتغل بهم فهؤلاء قد طمس عليهم بالنفاق وليس ثمت ما يجدي وينفع من الاشتغال بهم وصرف الأوقات والهمم إلى استصلاحهم وإنما امض إلى ما أمرك الله -عز وجل- واشتغل فيما ينفع ودع هؤلاء فالله -عز وجل- هو الذي يتولى حسابهم، وقيل: يدخل فيه أيضاً أنه أمر من الله لنبيه ألا يفضحهم.

فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُمر بالإعراض عنهم وهذا لا يعارض قوله -تبارك وتعالى-: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [(٧٣) سورة التوبة] فهذا مما نزل في سورة التوبة وهي آخر ما نزل، وقد قال من قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ لأنه أمر بالإعراض عن المنافقين، لكن الراجح أن هذا ليس من قبيل النسخ وإنما يكون ذلك في أوقات الضعف والعجز وأوقات الفترة، وأما في وقت الظهور والقوة والتمكن فتأتي العزائم كما قال سبحانه: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [(٧٣) سورة التوبة] وهكذا يقال في أهل الأهواء والبدع، فإذا كان أهل السنة فيهم ضعف فإنهم يعرضون عنهم كما قال تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٨١) سورة النساء] بل ربما احتاجوا إلى شيء من المصانعة، أما إذا كان أهل السنة في ظهور وقوة

فهنا تأتي العزائم بالزجر والهجر والإغلاظ وما أشبه ذلك، فهذا يختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ولذلك تجد أن الأئمة من أهل السنة -رضي الله تعالى عنهم- ما كانوا يرون هجر أهل القَدَر الذين كانوا في البصرة، وما كانوا يرون هجر أهل التشيع في الكوفة؛ لأنه في ذلك الحين كان القول بالقدر هو الغالب على أهل البصرة، والتشيع هو الغالب على أهل الكوفة، فالهجر لا يجدي، بل إذا هجرهم الإنسان صار هو المهجور، وإذا كان هؤلاء من أهل الأهواء لهم ظهور وقوة وصاروا هم الذين يمثلون العلماء والقضاة فهنا يُحتاج إلى شيء من الصبر وسعة الصدر ومجادلتهم بالتي هي أحسن كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بينما كان المتقدمون يسدون هذا الباب أو يكادون فلا يسمعون منهم ولا يكلمونهم وينهون عن هذا ويغلظون عليهم غاية الإغلاظ سداً للباب الذي أوشك أن يفتح في ذلك الحين فلما كسر الباب واستشرت تلك الأهواء في الأمة وصارت تمثل سواداً عظيماً احتاج العلماء -رضي الله تعالى عنهم- إلى مناقشة هؤلاء والرد عليهم وإلى التلطف بهم وبطوائفهم وأتباعهم لاستمالتهم إلى الحق، لكن لا بد إلى التنبه إلى أن هذا الأمر يضبط بضوابط شرعية، فليس على إطلاقه، وليس لكل أحد أن يرد على هؤلاء المنحرفين.

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا* وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٨٢-٨٣) سورة النساء].

يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانية المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [(٢٤) سورة محمد] **ثم قال: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ}** [(٨٢) سورة النساء] **أي: لو كان مفتعلاً مختلقاً كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم {لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا}** [(٨٢) سورة النساء] **أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً، أي: وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [(٧) سورة آل عمران] **أي: محكمه ومتشابهه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين.**

قوله تعالى: **{لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [(٨٢) سورة النساء] المقصود بالاختلاف هنا أنه يناقض بعضه بعضاً ويكذب بعضه بعضاً، ولذلك وصف الله -عز وجل- القرآن وصفاً عاماً بالتشابه **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا}** [(٢٣) سورة الزمر] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والفصاحة والبلاغة، ولا تناقض فيه ولا تعارض البتة، فهو في غاية الحسن والإتقان، ولذلك وصفه بالإحكام وصفاً عاماً فقال: **{أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [(١) سورة هود] بمعنى أنك لا تجد فيها خللاً ولا ما ينتقص لا في الألفاظ ولا في المعاني ولا تجد بين المعاني معارضة، والمقصود أنه ليس معنى قوله تعالى: **{لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [(٨٢) سورة النساء] أن الناس يختلفون فيه أو يختلفون في المعاني، ليس هذا هو المراد إطلاقاً، فالقرآن كما قال علي -رضي الله عنه-: "حمَّال ذو وجوه" بمعنى أن الآية تحتمل معانيَ متعددة كما هو معلوم، وليس اختلاف العلماء في تفسير الآيات

هو المنفي في الآية ولم يقل أحد بهذا، وإنما المراد في قوله: {لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا} [(٨٢) سورة النساء] أي لو كان من عند غير الله لوجدوه مختلفاً في نفسه فيضرب بعضه بعضاً ويناقض بعضه بعضاً وهذا غير موجود في كلام الله، أما في كلام الناس فلو أن أحداً بقي يكتب في ثلاث وعشرين سنة فإنك تجد في كلامه من المعارضات والمناقضات والتباين والتفاوت ما الله به عليم سواء في الأسلوب أو في الأمور التي يقررها، بل لو أن إنساناً كتب شيئاً وقرأه بعد خمس سنوات فإنه ربما يستغرب كيف كتبه وكيف قبل الناس هذا الكلام منه واستحسنوه!، وتجد الفرق الواضح بين أسلوب الإنسان حينما يكتب أول ما يكتب وبين ما يكتبه في آخر حياته، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان ينزل عليه القرآن في ثلاث وعشرين سنة ومع ذلك تجد من أول سورة نزلت إلى آخر سورة نزلت كلها في غاية الفصاحة والبلاغة والبيان وفي أعلى مستوى الإتقان لا فرق بين أوله وآخره، فهذا يدل على أنه من عند الله -تبارك وتعالى-.

روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مغضباً حتى احمرَّ وجهه يرميهم بالتراب ويقول: ((مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً إنما يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالِمه))[٣].

هذه الرواية ورد بمعناها روايات أخرى ثابتة صحيحة، وفي بعضها أنه خرج كأنما فُقئ في وجهه حب الرمان [٤]يعني من الغضب، فالمقصود بمثل هذا الحديث أن هذا النقاش الذي حصل كان مذموماً، وذلك أن هذا كان ينزع آية وهذا ينزع آية، فهذا يقول: ألم يقل الله كذا؟، وهذا يقول: ألم يقل الله كذا؟، يعني فيما يقابله كأن يقول الأول: ألم يقل الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}؟ [(٣٠) سورة الشورى] ويقول الآخر: ألم يقل الله تعالى: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}؟ [(٧٨) سورة النساء] فهذا يأتي بآيات تُرجع ما يقع للإنسان إلى نفسه كقوله تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] وذاك يأتي بالآيات التي ترجع ذلك إلى الله -عز وجل- وأنه بقضائه وقدره فيقع في مثل هذا ضرب بعض القرآن ببعض، ولهذا كان هذا النوع من الجدال والنقاش والحوار محرماً، وهذه واحدة من الآفات التي وقعت فيها طوائف أهل الكلام وهي أحد الأسباب التي جعلت كلام المتكلمين مذموماً، فمن الآفات التي دخلت على علم الكلام أن أهله يضربون النصوص بعضها ببعض، فيقع بسبب ذلك من التفرق والتشكيك والاضطراب ما الله به عليم، وهذا الذي وقع لهم جعل الواحد منهم يتلون ويتغير في اليوم الواحد عدة مرات، وقد قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل.

---

[3] - أخرجه أحمد (٦٧٠٢) (ج ٢ / ص ١٨١) وصححه الألباني في شرح الطحاوية برقم (٢١٨) وقال في السلسلة الصحيحة: "سنده صحيح على شرط الشيخين (١٥٢٢) (ج ٤ / ص ٩٦).

[4] - أخرجه أحمد (٦٨٤٥) (ج ٢ / ص ١٩٥) وقال فيه شعيب الأرناؤوط: "صحيح وهذا إسناد حسن".

أما إذا كان الكلام على سبيل التفهم لا على ضرب القرآن بعضه ببعض، أو كان النقاش في الفقه مثلاً من أجل معرفة الأحكام فهذا لا إشكال فيه، ولهذا جاء في بعض الروايات أنهم كانوا يتنازعون أو يتجادلون أو يتكلمون في آيات تتعلق بالقدر ولذلك غضب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: هجَّرت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال: ((إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب)) ورواه مسلم والنسائي[5].

وقوله: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ} [(٨٣) سورة النساء] **إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها وقد لا يكون لها صحة.**

قوله: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ} [(٨٣) سورة النساء] يعني إذا سمعوا بانتصار المسلمين أو بغنيمة أو بشيء يفرح أذاعوا به ونشروه، وإذا سمعوا بشيء مكروه كهزيمة وقعت أو مقتلة وقعت في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أو نحو هذا أذاعوا مع أن هذا الأمر قد لا يكون له أساس من الصحة وقد تكون المعلومات التي فيه غير دقيقة وقد يكون ذلك صحيحاً لكنه لا يحسن إفشاؤه في الناس كأن تقتضي المصلحة أن لا يذكر أو أن لا يذكر في هذه المرحلة على الأقل؛ لأن مثل هذه القضايا إذا ظهرت وصار يتحدث بها كل أحد ويفشيها كل أحد فإن أمور الأمة تبقى في اضطراب وفوضى والمطلوب أن يُرجع في ذلك إلى من يقدر المصالح ويستطيع أن يتحقق من هذه الأمور ويعرف خلفيتها ووجهها ثم بعد ذلك يتكلم بما يصلح أن يتكلم به، ومعلوم أنه ليس كل ما يعلم يقال أصلاً، فهناك أمور لا حاجة إلى ذكرها وإفشائها في الناس وإشغالهم بها، ومن الأمور ما يكون كسراً لقلوبهم وإضعافاً لعزائمهم فلا يعان الشيطان عليهم.

وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)) وكذا رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه[6].

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن قيل وقال[7] أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

وفي الصحيح: ((من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين))[8].

ولنذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر

---

5 - أخرجه مسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٦) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

6 - أخرجه مسلم في مقدمة كتابه الصحيح - باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (٥) (ج ١ / ص ١٠).

7 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب ما يكره من قيل وقال (٦١٠٨) (ج ٥ / ص ٢٣٧٥) ومسلم في كتاب الأقضية - باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه.

8 - أخرجه مسلم في مقدمة كتابه الصحيح - باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين والتحذير من الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (ج ١ / ص ٧).

حتى استأذن على النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ فقال: ((لا)) فقلت: الله أكبر، وذكر الحديث بطوله[9].

وعند مسلم فقلت: أطلقتهن؟ فقال: ((لا)) فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه، ونزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [(٨٣) سورة النساء] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر[10].

ما ذكره من سبب نزول هذه الآية: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ} [(٨٣) سورة النساء] يدل على أن ذلك التصرف لا يختص بالمنافقين حيث كان يفعله أهل النفاق وقد يقع فيه غيرهم ممن لم تتهذب نفسه وتتروض، ومن أمثلة ذلك هذا الحدث حيث جلس الناس يبكون في المسجد ويقولون: طلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه فجاء عمر يسألهم: أحضرت الروم؟ وذلك أنهم كانوا قبل ذلك يتوقعون مجيء الروم؛ حيث ذهب بعض المنافقين إلى بلاد الشام يستعينون بالروم للمجيء إلى المدينة لمحاربة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقية إخوانهم بنوا مسجد الضرار في الناحية الشمالية من المدينة -عند مدخلها- وكانوا ينتظرون قدوم الروم من أجل أن يفتحوا لهم الطريق ويدلوهم على موقع النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، والمقصود أن هؤلاء المسلمين جلسوا في المسجد يبكون ويسارعون في تلقي الأخبار ونشرها حول ما إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد طلق نساءه، وكان هذا تصرفاً غير صحيح.

ومثل ذلك ما وقع في قصة الإفك حيث قال تعالى عنهم: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [(١٥) سورة النــــور] فقد كان هذا الأمر يقع على ألسن الصحابة قبل أن يقع على أسماعهم، وذلك من شدة مسارعتهم لنقله وإفشائه، وهكذا يكون سماع الإنسان الذي يريد النشر وهذا خطأ، فالإنسان ينبغي عليه ألا يسارع في نشر الكلام قبل أن يتحقق من صحته، وقبل النظر هل يجوز له نشره أم لا؟، وهل المصلحة تقتضي نشره أم لا؟، ولو كان ذلك بدافع الغيرة وخاصة ما يتعلق بتفصيلات تمرض القلوب مما يتعلق بآفات وفواحش؛ لأن ذلك يؤدي إلى موت الغيرة في النفوس وذهاب ما فيها من الحساسية تجاه المنكر فيصير مألوفاً وتجترئ عليه كثير من النفوس وتذهب هيبته، إلى غير ذلك من المفاسد التي لا يحصيها إلا الله -عز وجل- ولهذا ذم الله تعالى الذين وقعوا في شيء من ذلك.

ومعنى قوله: {يَسْتَنبِطُونَهُ} [(٨٣) سورة النساء] أي: يستخرجونه ويستعملونه من معادنه، ويقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها.

وقوله: {لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٨٣) سورة النساء] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني المؤمنين.

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب التناوب في العلم (٨٩) (ج ١ / ص ٤٦) ومسلم في كتاب الطلاق - باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [(٤) سورة التحريم] (١٤٧٩) (ج ٢ / ص ١١٠٥).

10 - أخرجه مسلم في كتاب الطلاق - باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [(٤) سورة التحريم] (١٤٧٩) (ج ٢ / ص ١١٠٥).

في قوله تعالى: {إِلاَّ قَلِيلاً} يقول ابن عباس –رضي الله عنهما-: "**يعني المؤمنين**" وهو كقوله تعالى: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٧) سورة الأعراف] وكقوله: {إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٤٠) سورة الحجر] وكقوله: {إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٠) سورة سبأ] وهذا وجه متبادر وظاهر في معنى الآية، والله تعالى أعلم.

وتحتمل معنىً قريباً منه أيضاً وهو أن يقال: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً منكم، يعني اتبعتموه في غالب الأمور إلا ما قل سواء في باب نشر الأخبار أو في غيرها، أي إما أن يكون إلا قليلاً من الأفراد الذين يسلمون من ذلك ممن يسلمه الله -عز وجل- وإما أن يكون لاتبعتم الشيطان إلا في قليل من المفردات، يعني اتبعتموه في عامة أحوالكم إلا ما قل.

ويمكن أن تكون القلة هنا بمعنى العدم، فالعرب يعبرون عن العدم أحياناً بالقلة كما قلنا في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب] أي لا يأتون البأس أصلاً -على أحد الاحتمالات في معناها- ويحتمل أن يكون قوله: {لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٨٣) سورة النساء] يعني إلا قليلاً منهم لم يُذِع الخبر، وهذا الأخير وإن قال به بعض الأئمة إلا أنه بعيد، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (23)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً* مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا* وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا} [(84-87) سورة النساء]

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: {لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء].

روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- عن الرجل يلقى مائة من العدو فيقاتل أيكون ممن يقول الله: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}؟ [(195) سورة البقرة] **قال: قد قال الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ}** [(84) سورة النساء].

ورواه الإمام أحمد عن سليمان بن داود عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله -صلى الله عليه وسلم- وقال: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء] **إنما ذلك في النفقة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء] يحتمل أن تكون الفاء في هذه الآية عائدة إلى الآية الرابعة والسبعين من السورة هكذا: {وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [(74) سورة النساء] {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء].

ويحتمل أن يكون الكلام متعلقاً بمحذوف هو "إذا كان الأمر كذلك من عدم طاعة المنافقين وما ذكر الله -عز وجل- عنهم قبلها فقاتل في سبيل الله"، حيث ذكر الله عن المنافقين أنهم يقولون: {طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} [(81) سورة النساء] إلى آخره، فإذا كان الأمر على ما ذكر {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [(84) سورة النساء] لأن الله قال: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(81) سورة النساء] ثم قال: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [(84) سورة النساء]، ويحتمل أن يكون الكلام متعلقاً بقوله قبلُ في الآية الخامسة والسبعين هكذا: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا} [(75) سورة النساء] إلى آخره {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء] والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أمره أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه**" يعني أنت مأمور بالقيام بما تعبدك الله -عز وجل- به في هذا الباب، ولست مسئولاً ولا حفيظاً ولا وكيلاً على الناس حيث نكَل كثير منهم عنه، كما وصف الله -عز وجل- حال المنافقين، وهذا قد يشبه من بعض الوجوه قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(105) سورة المائدة] أي: أن المؤمن إذا كان على طاعة الله -عز وجل- فإنه لا يضره نكول الناكلين ولو كانوا من أقرب الأقربين فما عليك إلا أن تقوم بحق الله -عز وجل- وهذا هو القدر الذي تعلق بك، وأما كفر من كفر وإعراض من أعرض فذلك إنما يضر صاحبه ولا يضرك شيئاً.

يقول تعالى: {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [(84) سورة النساء] أي الذين هم أهل للاستجابة لله -تبارك وتعالى- والقبول عنه.

ثم ذكر رواية ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: "**سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى مائة من العدو فيقاتل أيكون ممن يقول الله**: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}؟ [(195) سورة البقرة] فذكر له هذه الآية: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [(84) سورة النساء] ويقصد بذكر الآية جواباً لسؤاله أنه لو لم يخرج معه أحد فقاتلهم وحده فإنه يكون قد قام بحق الله -عز وجل- عليه وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سينصره الله -تبارك وتعالى- وقد جاء في قصة الحديبية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في كتاب حاطب الذي كتبه للمشركين أنه كان مما قال لهم حاطب: وأنه قد أقسم أنه لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم.

فالمقصود من ذكر قوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(84) سورة النساء] في هذا الأثر عن البراء -رضي الله تعالى عنه- أن ذلك لا يكون من الإلقاء باليد إلى التهلكة.

ثم ذكر رواية الإمام أحمد **عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟** فكان مما قال في جوابه: "**إنما ذلك في النفقة**"؛ لأن الله -عز وجل- قال في تلك الآية: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(195) سورة البقرة] وقد مضى قول أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- لما خرج رجل إلى المشركين حاسراً وليس عليه درع فقالوا: يلقي بيده إلى التهلكة، فبيّن لهم أن المراد بذلك الأنصار -رضي الله تعالى عنهم- وذلك أنهم بعد أن أعز الله دينه وأظهره وكثر الداخلون في الإسلام قالوا فيما بينهم: لو رجعنا إلى أموالنا فأصلحناها حيث كانوا أهل زرع وقد أهملوا زروعهم، فأنزل الله -عز وجل-: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(195) سورة البقرة].

وقال ابن عباس في تفسيرها: إنكم إن منعتم النفقة عن المجاهدين في سبيل الله أوشك العدو أن يظفر بكم ويقوى عليكم فيأخذ ما في أيديكم وتغلبوا، بمعنى أنكم إن منعتم النفقة عن الجهاد في سبيل الله ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة لما يحصل من قوة العدو وظفره فيأخذ ما في أيديكم ويقتلكم.

فالمقصود أن هذا هو وجه إيراد هذه الآية هنا أي أن ذلك في النفقة، وهذه الآثار التي وردت إنما هي في الإقدام في قتال العدو على وجه فيه مخاطرة وقد تكون هذه المخاطرة كبيرة جداً لكن لا إشكال في ذلك؛ لأن القتل في تلك الحال إنما يكون بيد عدوه، والقاعدة أنه يسع الإنسان في نفسه ما لا يسعه في غيره، بمعنى أنه لو كان قائداً معه مجموعة من الجيش ككتيبة أو نحو ذلك فلا يجوز أن يغرر بهم وأن يركب بهم الأهوال والمخاطر فهذا لا يسعه، لكن الإنسان بنفسه له أن يغير لوحده على العدو ويدخل في الصف ولو كانت نسبة وقوعه في القتل بيد عدوه تصل إلى مائة بالمائة، وفرق بين هذا وبين من يكون قتله بيد نفسه، فهذا غير هذا ولذلك فكل الأدلة التي يستدل بها المجيز على أن يقدم الإنسان على قتل نفسه نكاية بالعدو إنما يراد بها أن يكون قتله بيد عدوه لا بيد نفسه؛ إذ لا يوجد دليل واحد على جواز أن يكون القتل بيد نفسه إطلاقاً، ولذلك يمكن أن يقال: لا يجوز للإنسان أن يقدم على عمل يكون فيه قاتلاً لنفسه بيده ولو كان في ذلك نكاية بالعدو؛ لأن الإنسان لا يملك نفسه أصلاً، ولعموم قول الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [(29) سورة النساء] ولأن القاعدة تقول: إن الغاية لا تبرر الوسيلة، فالإنسان لا يقدم على شيء لا يكون مرضياً لله -تبارك وتعالى- وإنما هي نفس واحدة إذا ذهبت فلا يمكن للإنسان أن يستدرك، والله أعلم.

وقوله: {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [(84) سورة النساء] أي: **على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عنده، كما قال لهم -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر وهو يسوي الصفوف: ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض))**[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)) قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: ((إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة))[2] وروي من حديث عبادة ومعاذ وأبي الدرداء -رضي الله تعالى عنهم- نحو ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولاً ونبياً وجبت له الجنة)) قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله، ففعل ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد (1901) (ج 3 / ص 1509).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي (2637) (ج 3 / ص 1028).

((وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)) **قال: وما هي يا رسول الله، قال:** ((الجهاد في سبيل الله)) **رواه مسلم**[3].

وقوله: {عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(84) سورة النساء] أي: **بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ومقاومتهم ومصابرتهم.**

قوله تعالى: {عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(84) سورة النساء] هذه نتيجة وأثر من آثار هذه الفريضة التي فرضها الله -عز وجل- على عباده، و"عسى" من الله واجبة، كما جاء عن ابن عباس وغيره -رضي الله عنه- وهذه قاعدة، وإلا فالأصل في كلام العرب في معنى "عسى" أنها للترجي، وإنما يقع الترجي ممن لا يعلم العواقب، فهو يترجى حصول الشيء ولا يدري هل يقع أو لا يقع ولكنه يؤمِّل وقوعه، فيقول: عسى أن ينزل المطر، عسى أن يقدم زيد، ونحو ذلك، أما إذا قال الله -عز وجل-: {عسى} في كلامه فالله يعلم العواقب، ويعلم ما كان وما يكون؛ ولذلك يكون ما بعد عسى متحققاً كما قال الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [(7) سورة الممتحنة] وهذا قد تحقق حيث أسلموا وصارت بينهم مودة، فأبو سفيان -رضي الله عنه- كان أول من قاتل أهل الردة لما لقي ذا الخمار وهو عائد من اليمن بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالحاصل أن "عسى" من الله واجبة؛ ولذلك فقوله: {عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(84) سورة النساء] أي: إنكم إن جاهدتم أعداء الله -عز وجل- نتج عن ذلك أن يُكفَّ بأسهم ويُدفعون عنكم ولا يحصل مقصودهم، وهذا أمر يدركه كل أحد.

وقوله تعالى: {عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(84) سورة النساء] له نظائر من حيث المعنى من جهة ما ذكرت من أن "عسى" من الله واجبة وإن كان أصل معناها الترجي، ومن ذلك قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [(18) سورة الأحزاب] فـ"قد" في الأصل إذا دخلت على المضارع فإنها للتقليل لكنها إذا جاءت في كلام الله -عز وجل- فهي للتحقيق، فقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [(18) سورة الأحزاب] وقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} [(64) سورة النور] يعني أن ذلك متحقق وليس للتقليل، وبعض أهل العلم يقول: إن هذا جرى على طريقة العرب في الكلام وذلك أن من عادة العظماء أنهم قد يخرجون الأمر الذي هو محقق عندهم بمثل هذه الصيغة، فيقولون مثلاً: قد ننجز لك ما أردت، ويقولون: عسى أن نأمر لك بكذا وكذا، مع أنه يقصد الجزم والتحقيق لا الترجي لكنه يخرجه هذا المخرج؛ ولذلك يفهم السامع أن ذلك من قبيل الوعد المحقق، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً} [(84) سورة النساء] أي: **هو قادر عليهم في الدنيا وفي الآخرة كما قال تعالى:** {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} **الآية** [(4) سورة محمد].

وقوله: {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا} [(85) سورة النساء] أي: **من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك** {وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا} [(85) سورة النساء] أي: **يكون**

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات (1884) (ج 3 / ص 1501).

عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء))[4].

في قوله تعالى: **{وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}** [(85) سورة النساء] فرَّق -جل وعلا- بين الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة، فجعل النصيب في جانب الشفاعة الحسنة والكفل في جانب الشفاعة السيئة، مع أن النصيب والكفل متقاربان في المعنى فقد يستعمل الكفل أيضاً في جانب الحُسن كما قال الله -عز وجل-: **{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}** [(28) سورة الحديد] فالكفل لا يختص بالسوء أو المعصية أو الذنب أو الإثم، وإنما يكون في هذا وهذا، لكن لما ذكر الله -عز وجل- الأمرين -الحسنة والسيئة- ثم عقب هذا بالنصيب وهذا بالكفل أشعر ذلك أن الكفل يستعمل في جانب الحمل والكلفة كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وأن النصيب هو ما يعمل له الإنسان وينصب له ويطلبه ليحصله ويظفر به، فيكون الكفل أقرب إلى الحمل الثقيل، والنصيب مما يطلبه الإنسان ويعمل له ويكدح حتى يحصله، وعلى هذا يمكن التفريق بين الكفل والنصيب بهذه الطريقة.

يقول تعالى: **{مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}** [(85) سورة النساء] الشفاعة من الشفع، والشفع عكس الوتر فالواحد يكون وتراً منفرداً، ثم يأتي آخر فيكون شفعاً، ويكون مقوياً للمنفرد في تحصيل مطلوبه وحاجته وذلك ببذل جاهه ونحوه ليتوصل به إلى المطلوب، فالإنسان المنفرد بحاجته يتقوى بغيره ليشفع له.

والشفاعة الحسنة هي التي لا ظلم فيها ولا عدوان ولا توصل إلى محرم بحال من الأحوال، بمعنى أن الشافع لا يظلم بشفاعته أحداً ولا يستحوذ على حق أحد ولا يتقدم على أحد ولا يحصل ما لا يستحق، ولا يتوصل إلى المطلوب بطريق المعصية، وأما الشفاعة السيئة فهي ما كان فيها شيء مما ذكر.

وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض.

وقوله: {وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا} [(85) سورة النساء] **قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وعطاء وعطية وقتادة ومطر الوراق: {مقيتاً} أي: حفيظاً، وقال مجاهد: شهيداً، وفي رواية عنه: حسيباً.**

هذه المعاني متقاربة، وكل واحد منها قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وقال بعضهم: **{وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا}** [(85) سورة النساء] أي: مقتدراً، وهذا رجحه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وبعضهم يقول: المُقيت هو الذي يعطي كل إنسان قوته، وعلى كل حال تفسير ذلك بأن الله على كل شيء حفيظ أو مقتدر أو حسيب، كل ذلك متقارب، والله -عز وجل- هو القائم على كل نفس بما كسبت وهو القائم على خلقه بآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وهو المقيم لغيره -سبحانه وتعالى- ولذلك كان معنى الحفيظ والحسيب مما يدخل في قوله سبحانه: **{وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا}** [(85) سورة النساء].

وقوله: {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [(86) سورة النساء] **أي: إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة.**

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة - باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (1365) (ج 2 / ص 520).

وروى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رجلاً جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال: ((عشر)) ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس، فقال: ((عشرون)) ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه ثم جلس فقال: ((ثلاثون)) وكذا رواه أبو داود وأخرجه الترمذي والنسائي والبزار، ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه[5].

هذه الآية نص صريح في وجوب رد السلام، وأما الزيادة فهي مستحبة، وقد نقل بعض أهل العلم الإجماع على هذا.

في قوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ} [(86) سورة النساء] لفظ "تحية" نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فيدخل فيها كل تحية سواء كانت التحية بالسلام أو غيره، ومع أن المشروع هو البدء بالسلام، إلا أن التحية في الأصل هي ما يقال في أول اللقاء، وقد كان الناس يقولون: أحياك الله فقيل لها تحية بهذا الاعتبار، أي أنها دعاء له بطول الحياة، فجاء الإسلام بما هو أعظم من هذه التحية فبدلاً من قولهم: أحياك الله، علمهم الإسلام تحية أهل الجنة وتحية الملائكة، وهي أبلغ في المعنى بلا شك، فقائل السلام عليكم يلقي على من لقي السلام، فيكون ذلك أمنة لهم منه ودعوة لهم بالسلامة أيضاً؛ وذلك أن معنى السلامة مضمن في هذه التحية، إلى غير ذلك من المعاني التي تدخل في هذه اللفظة، وهي بخلاف قول القائل: أحياك الله، فقد تكون الحياة شراً له، وفي الحديث لما سئل النبي –عليه الصلاة والسلام- من شر الناس؟ قال: ((من طال عمره وساء عمله))[6] لذلك لا يدعى للإنسان بطول الحياة إلا مقروناً بحسن العمل، كأن يقال له: أطال الله بقاءك على طاعته، وقد كان الإمام أحمد يكره أن يدعى له بطول العمر، يقول لبيد:

المرء يأمل أن يعيـ	ـش وطول عيشٍ قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى	عد حلو العيش مره

وبعض الناس قد يمل من الحياة، فلا يريد أن يدعى له بها كما قال القائل:

ألا موت يباع فأشتريه	فهذا العيش لا خير فيه
جزى الله المهيمن نفس حرٍّ	تصدق بالوفاة على أخيه
إذا أبصرت قبرا قلت شوقاً	ألا يا ليتني أمسيت فيه

وفي الباب عن أبي سعيد وعلي وسهل بن حنيف -رضي الله تعالى عنهم-: فإذا بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبدءون بالسلام ولا يزادون بل يرد عليهم بما ثبت في

---

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب كيف السلام (5197) (ج 4 / ص 516) والترمذي في كتاب الاستئذان – باب ما ذكر في فضل السلام (2689) (ج 5 / ص 52) وأحمد (19962) (ج 4 / ص 439) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (2710).

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في طول العمر للمؤمن 22 (2330) (ج 4 / ص 566) وأحمد (20431) (ج 5 / ص 40) والدارمي (2742) (ج 2 / ص 398) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (3297).

الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك))[7].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه))[8].

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم))[9].

وقوله: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(87) سورة النساء] **إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمَّن قسماً لقوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(87) سورة النساء] **وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(87) سورة النساء] **خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله.**

قوله: **{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(87) سورة النساء] يحتمل أن يكون المعنى ليجمعنكم إلى حساب يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى ليجمعنكم في يوم القيامة بمعنى أن "إلى" مضمن معنى "في"، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، وبعضهم يقول: إنها زائدة، يعني أن قوله: **{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(87) سورة النساء] أي ليجمعنكم يوم القيامة، وهذا المعنى الأخير لا حاجة إليه.

وقوله: **{لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(87) سورة النساء] يحتمل أن يرجع إلى يوم القيامة، أي ليجمعنكم إلى يومٍ لا ريب في وقوعه، ويحتمل أن يكون المعنى ليجمعنكم جمعاً لا ريب فيه، أي لا ريب في ذلك الجمع الذي سيكون في ذلك اليوم، وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أي أن الضمير يرجع إلى الجمع، والآية تحتمل المعنيين، وقد دل القرآن على أن يوم القيامة لا ريب فيه، ودلَّ كذلك أن هذا الجمع والحشر لا ريب فيه، ودلَّ القرآن على تأكيد جمع الناس وحشرهم، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والضمير المبهم الذي يحتمل عوده إلى أكثر من موضع -ويكون كل واحد منها قد دل عليه القرآن- يمكن أن يحمل عليها جميعاً، فيوم القيامة لا ريب فيه وجمع الناس وحشرهم في ذلك اليوم لا ريب فيه أيضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا} [(87) سورة النساء] **أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.**

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان - باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام (5902) (ج 5 / ص 2309) ومسلم في كتاب السلام - باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (2164) (ج 4 / ص 1706).

[8] - أخرجه مسلم في كتاب السلام – باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (2167) (ج 4 / ص 1707) والترمذي في كتاب السير – باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب (1602) (ج 4 / ص 154) وأحمد (7606) (ج 2 / ص 266).

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (54) (ج 1 / ص 74).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (24)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً* وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا* إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً* سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا} [(88-91) سورة النساء].

يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختُلف في سبب ذلك فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى أُحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [(88) سورة النساء] فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد)) [أخرجاه في الصحيحين].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت في قوم كانوا بمكة وقد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله -أو كما قالوا- أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به، أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك فئتين، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء فأنزل الله: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [(88) سورة النساء] رواه ابن أبي حاتم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآيات المبتدأة بقوله: **{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ}** [(88) سورة النساء] يظهر -والله تعالى أعلم- أنها تتحدث عن قضية المنافقين عموماً فلا يختص ذلك بطائفة بعينها وليست هذه الأوصاف جميعاً تنطبق على تلك الطائفة، وإنما ذكر الله -عز وجل- موقفاً حصل لأهل الإيمان مع المنافقين أو مع بعض المنافقين في واقعة معينة، ثم ذكر الله -عز وجل- بعض الأمور المتعلقة بالمنافقين ومنها ما

يتوجه إلى طوائف منهم، ولذلك فإن من أراد أن يفهم الكلام على نسق واحد وأن ذلك يتحدث عن طائفة تتصف بجميع هذه الصفات فإن المعنى سيشكل عليه، وهذا الأمر في كثير من المواضع في القرآن، أعني إذا أردت أن تأخذ السياق من أوله إلى آخره على أن تلك الأوصاف في طائفة محددة فهذا سيشكل عليك.

وعلى كل حال يقول الله -عز وجل- هنا: **{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}** [(88) سورة النساء] هذا إنكار على أهل الإيمان يقول لهم: لماذا تنقسمون في المنافقين إلى فريقين تختلف آراؤكم فيهم **{وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ}**؟ [(88) سورة النساء].

وقد ذكر ابن كثير –رحمه الله- هنا سببين لنزول الآية، الأول: حديث زيد بن ثابت -رضي الله عنه- أنها في أولئك الذي رجعوا من أحد -عبد الله بن أبي ومن معه حيث رجع بثلث الجيش- فاختلف المجاهدون فيهم فقالوا: إذا رجعنا إليهم هل نؤدّبهم فنقتلهم أو نتركهم؟ فقائل يقول: نقتلهم وقائل يقول: نتركهم.

ثم ذكر –رحمه الله- أثر ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**نزلت في قوم كانوا بمكة وقد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين**" ومعلوم أنه إذا تعددت الروايات في أسباب النزول فإننا أول ما ننظر إلى الثبوت فنقتصر على الثابت، ثم ننظر إلى العبارة فنقتصر على الصريح، وهنا نجد أن أثر ابن عباس -رضي الله عنهما- لا يصح؛ لأنه من طريق العوفي، وأما الأثر الذي ذكره عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- فهو في الصحيحين، وقد وردت روايات كثيرة في سبب النزول لكنها ضعيفة، ولذلك نخلص إلى أن سبب نزول هذه الآية هو حديث زيد بن ثابت -رضي الله عنه- وهو أن الصحابة اختلفوا في أولئك الذي رجعوا من أحد -عبد الله بن أبي ومن معه-، فالله ينكر على أهل الإيمان هذا الاختلاف فيهم ويقول: لماذا تشتطون مع هؤلاء ويشغلكم أمرهم وتختلفون فيهم **{أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ}**؟ [(88) سورة النساء].

وقوله تعالى: {وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ} [(88) سورة النساء] أي: ردَّهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أركسهم أي: أوقعهم.

قوله تعالى: **{وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ}** [(88) سورة النساء] الركس والنكس يأتي بمعنى قلب الشيء، وإن شئت فقل: يأتي بمعنى رد آخر الشيء إلى أوله وأول الشيء إلى آخره، هذا هو المعنى اللغوي للنكس والركس، ومن هنا قال ابن جرير -رحمه الله-: أي ردهم إلى أحكام أهل الكفر من إباحة دمائهم وأموالهم، لكن هل المعنى المراد هو ردُّهم إلى أحكام الكفر بإباحة دمائهم وأموالهم؟ أعني هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستبيح دماء المنافقين وأموالهم أم كان يأخذهم بظاهرهم من إظهار الإسلام؟ وهل نقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه بعد أن رجع إلى المدينة عاقب المنافقين الذين رجعوا من أحد؟ لم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، فهو لم يُجرِ عليهم أحكام الكفار الظاهرين أبداً، ولذلك لا يصح أن يقال: إن هذا هو المعنى المراد، لكن إذا نظرنا إلى قول ابن عباس –رضي الله عنهما- نجده يقول: "**أركسهم أي: أوقعهم**" وهذا المعنى قريب، فمعناه أوقعهم بجرمهم، تقول: فلان مرتكس بجرمه، أي أن جرمه أوقعه في ضلال وانحراف وشرٍّ.

وقوله: {بِمَا كَسَبُواْ} أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإتباعهم الباطل.

هذه الآية كقوله تعالى عن المنافقين في سورة التوبة: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} [(75) سورة التوبة] فلما لم يفعلوا قال الله -عز وجل- عنهم: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [(77) سورة التوبة] فالباء للسببية.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(5) سورة الصف] وهذه الآية ليست في المنافقين، لكن المقصود أن الإنسان يعاقب بفعله وجرمه فيطبع على قلبه، أو أن الله -عز وجل- يحكم عليه بالضلال والانحراف والكفر ويموت على ذلك عياذاً بالله.

{أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [(88) سورة النساء] **أي: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه.**

هذه الآية فيها من الآداب القرآنية -التي ترد في مواضع شتى- ما ينبغي للناس أن يعتبروها، ومن ذلك أن اختلاف الصحابة -رضي الله عنهم- في المنافقين لم يتحول إلى قضية انقسمت الأمة على إثرها إلى قسمين كما هو حال الأمة اليوم حيث تجد اثنين يختلفان في شخص أو كتاب هل هو جيد أم لا ثم يسري هذا الاختلاف إلى الطائفة فتنقسم إلى طائفتين كل طائفة تضلل الأخرى وتتهمها بالانحراف أو النفاق أو غير ذلك ويصير همُّ الناس وشغلهم الشاغل هو هذا الأمر -نسأل الله العافية- وهكذا تنقسم الأمة فتتفرق وتتشرذم على كل شيء، أما أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يكونوا كذلك إطلاقاً؛ ولذلك لم يتفرقوا قط بل كانوا مجتمعين أمة واحدة، وهكذا هي تربية القرآن لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى ذلك ينبغي أن تُربى الأمة اليوم حتى تكون أمة واحدة.

وقوله: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء} **[(89) سورة النساء] أي: هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم، ولهذا قال:** {فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ} **[(89) سورة النساء] أي تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال السدي: أظهروا كفرهم.**

لا شك أن كل طائفة منحرفة تتمنى أن ينحرف الآخرون مثلها، حتى إن هذا التمني يقع في الأفراد أيضاً كما روي عن عثمان -رضي الله عنه- أنه قال: تود المرأة الزانية أن كل النساء زوانٍ.

وقد قرأت في بعض التقارير عن انتشار مرض الإيدز أن النساء هن أكثر من ينشر مرض الإيدز؛ وذلك أن المرأة إذا وقع لها هذا المرض صار عندها روح انتقام فتحاول أن تنتقم من أكبر قدر من الرجال؛ ولذلك فهي تتفنن في نقل هذا بينهم بصور من الإغراء، فربما نقلته المرأة الواحدة إلى عشرات أو مئات من الرجال، وهكذا الحال عند الكفار أيضاً بجميع مللهم وطوائفهم مع الآخرين فهم يودون كفر الناس جميعاً كما قال تعالى: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء} [(89) سورة النساء].

وقوله تعالى: {فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [(89) سورة النساء] الخطاب متوجه إلى طوائف من المنافقين ممن كانوا خارج المدينة ولم يهاجروا إليها، والله تعالى أعلم، واكتفى بذكر الهجرة دون الإيمان باعتبار أنهم تجري عليهم أحكام الإسلام ما داموا يظهرون الإسلام، وهذا الخطاب يدخل فيه المنافقون ممن هم خارج المدينة.

ثم استثنى الله من هؤلاء فقال: {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ} [(90) سورة النساء] أي: الذين لجئوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمكم كحكمهم وهذا قول السدي وابن زيد وابن جرير.

قوله: {يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ} أي لجئوا وتحيزوا إليهم بالحلف والجوار، وكذلك بالنسب، كما فسرها بعض السلف لكن لا يختص بذلك فقط.

والمعنى أن هؤلاء المنافقين يكون بينهم وبين قبيلة من الكفار عهد فمثل هؤلاء لا تقاتلونهم لوجود هذا العهد بينهم، أو أن يكونوا قد دخلوا في حلف قبيلة أنتم وهم في عهد فلا تقاتلون هذه القبيلة أيضاً، ولذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في عام الحديبية لما صالح المشركين فتح المجال أمام القبائل، فكان من أراد أن يدخل في حلف قريش فله ذلك، ومن أراد أن يدخل في حلف النبي -صلى الله عليه وسلم- له ذلك، فبعض المشركين كانوا في حلف النبي -صلى الله عليه وسلم- كقبيلة خزاعة التي كانت سبباً لتجييش الجيش لفتح مكة؛ لأن قريشاً أعانت كنانة على خزاعة، فاستنجدوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: "فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ومن أحب أن يدخل في صلح محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وعهدهم".

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: نسخها قوله: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} الآية [(5) سورة التوبة].

هذا الأثر عن ابن عباس -رضي الله عنه- ينظر في صحته، وعلى كل حال القول بالنسخ بإطلاق لا يخلو من إشكال؛ لأن الذين حالفوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكونوا صنفاً واحداً وإنما كانوا في ذلك الوقت حينما نزلت سورة براءة على أصناف، ولك أن تتصور أصحاب العهود من خلال قوله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ} [(5) سورة التوبة] وقوله: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا} [(4) سورة التوبة] وقوله: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} [(3) سورة التوبة] وقوله: {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [(2) سورة التوبة] فالناس كان منهم من هو صاحب عهد مطلق، ومنهم من كان صاحب عهد مؤقت، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، فالحاصل أن هذه الرواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لو صحت فهذا ليس على إطلاقه، والله أعلم.

وقوله: {أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ} الآية [(90) سورة النساء] هؤلاء قوم آخرون من المستثنَين عن الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصِرةٌ صدورهم أي ضيقة صدروهم، مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} [(90) سورة النساء] أي: من لطفه بكم أن كفهم عنكم {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [(90) سورة النساء] أي المسالمة {فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [(90) سورة النساء] أي: فليس لكم أن تقتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره.

نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتل العباس وأمر بأسره باعتبار أنه خرج مكرهاً، لكن قُتل أيضاً مجموعة ممن خرج في يوم بدر مع المشركين ممن كان يخفي إسلامه، ومن نظر في السير كسيرة ابن هشام وجد مجموعة سماهم ممن كانوا يخفون إسلامهم.

والحاصل أن هذه الآية {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [(88) سورة النساء] هي في قوم من المنافقين هذه صفتهم يريدون السلامة وهذا هو الذي حملهم على النفاق كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا} [(14) سورة الأحزاب] فمعنى سئلوا الفتنة على أحد المعاني المشهورة: أي سئلوا الكفر، يعني لو دخل الكفار المدينة واحتلوها ثم طُلب من هؤلاء أن يكفروا لقالوا: نحن معكم ولا نعترف بهذا الدين الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- فهم مع من غلب حقناً لدمائهم وحفظاً وإحرازاً لأموالهم، فهم مع قومهم لا يريدون قتالهم ولا يريدون قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- قد حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم.

وقوله: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ} الآية [(91) سورة النساء] هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى: {وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ} الآية [(14) سورة البقرة] وقال هاهنا: {كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا} [(91) سورة النساء].

الفرق بين الطائفتين أن الطائفة الأولى تضيق صدورهم بقتالكم ولا يريدون قتال قومهم، فهؤلاء شرط الله فيهم شرطاً فقال: {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [(90) سورة النساء] أي يكفون عنكم، أما الطائفة الثانية فهم يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، فإن جاءوكم جاءوا بوجه وأسمعوكم ما تحبون وإن ذهبوا إلى قومهم فهم معهم وعلى دينهم واعتقادهم الفاسد، فهؤلاء ذكر الله صفتهم وبين أنهم ما كفوا أيديهم ولا ألقوا إليكم السلم، وإنما حالهم أنهم {كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا} [(91) سورة النساء] فهؤلاء ليسوا كأولئك الذين يكفون ويلقون السلم بل هؤلاء في كل مرة يقعون في سوء عملهم.

وقوله هاهنا: {كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا} [(91) سورة النساء] أي انهمكوا فيها، وقال السدي: الفتنة هاهنا الشرك.

وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم- فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ولهذا قال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} المهادنة والصلح {وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ} أي: عن القتال {فَخُذُوهُمْ} أُسَراء {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ} أي أين لقيتموهم {وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا} [(91) سورة النساء] أي بيِّناً واضحاً.

خلاصة الأمر أن الطائفة الأولى هم من ألقوا إليكم السلم وحالهم أنهم تضيق صدورهم بقتالكم ولا يريدون ذلك، ولا يريدون أيضاً قتال قومهم وإنما يعتزلون فهؤلاء دعوهم، والطائفة الثانية هي أسوأ من الطائفة

الأولى فهم يريدون أن يأمنوكم ويريدون أن يأمنوا قومهم فيلقوكم بوجه ويلقوهم بوجه، وحينما يحتدم الموقف يقعون في سوء عملهم، فيشاركون قومهم ويعينونهم عليكم ويظهر كفرهم ونفاقهم فليسوا كالطائفة الأولى، ومثل هؤلاء الذين لم يكفوا أيديهم يقاتَلون وإن أظهروا الإسلام وأسمعوكم ما تحبون فهم مع قومهم عليكم كما قال سبحانه: **{كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا}** [(91) سورة النساء]، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (25)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى- في قول الله -عز وجل-: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [(92-93) سورة النساء].

يقول المؤلف -رحمه الله-: يقول الله تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)) ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا}** [(92) سورة النساء] مثل هذا يدل على الامتناع، وهذا الامتناع تارة يكون امتناعاً شرعياً كما هنا وكما في قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** [(36) سورة الأحزاب] أي لا يسوغ لهم بحال ولا يجوز، وكقوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا}** [(53) سورة الأحزاب] وكقوله تعالى: **{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}** [(120) سورة التوبة].

فتارة يكون ذلك من قبيل الامتناع الشرعي وتارة يكون من قبيل الامتناع العقلي وتارة يكون من قبيل الامتناع في مجاري العادات، وإذا تأملت ما ورد من هذا في القرآن تجده متفاوتاً نحو هذا التفاوت، فقوله تعالى: **{مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}** [(60) سورة النمل] ليس من الامتناع الشرعي، أي ليس المقصود أنه يحرم عليكم أن تنبتوا شجرها، وإنما المراد أنكم لا تستطيعون ذلك، وأما قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا}** [(92) سورة النساء] فهذا من الامتناع الشرعي، أي أنه لا يجوز لمؤمن أن يقتل مؤمناً.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحل دم امرئ مسلم))[1] هذا الحديث يفسر هذه الآية، وأما الثلاث الموجبات لقتل المسلم والمذكورة بطريقة الحصر في هذا الحديث فكلام أهل العلم فيها معروف، فمنهم من يقول: لا يحل إلا بهذه الأمور المذكورات؛ لأن الحصر هنا ظاهر وهو بأقوى صيغة من صيغه وهي النفي والاستثناء، والأقرب أنه يجوز قتل الإنسان ويحل دمه في كل ما ورد بالنصوص الصحيحة كقوله -صلى الله عليه وسلم- مثلاً في الساحر: ((حد الساحر ضربة بالسيف))[2] ومن عمل عملَ قوم لوط فإنه يقتل هو والمفعول به، وورد الأمر بقتل شارب الخمر في المرة الرابعة، فالمقصود أنه لا بد من جمع النصوص والعمل بمقتضاها.

يقول رحمه الله: "**ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه**"؛ لأن هذا الأمر ليس لعامة الناس حتى ولو كان قصاصاً، فلو أن أحداً قتل رجلاً فليس لولي المقتول أن يقتص من القاتل، وإنما الإمام أو نائبه هو الذي يمكنه من ذلك وإلا كانت أمور الناس فوضى.

وقوله: {إِلاَّ خَطَأً} [(92) سورة النساء] **قالوا: هو استثناء منقطع.**

إذا كان الاستثناء منقطعاً تكون "إلا" بمعنى لكن، وهذا قول عامة المحققين من أهل العربية كسيبويه وأهل التفسير أمثال ابن جرير، ومنهم من يقول: هو استثناء متصل ويكون المعنى وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً في حال من الأحوال إلا حال الخطأ، ومعلوم أن الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع هو أن في المنقطع يكون المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه، وهي أسماء بنت مخرِّبة وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عياش السوء فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية.

هذه الرواية ضعيفة ولو صحت لكان يمكن أن يقال: إنها سبب النزول.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إنما قالها متعوذاً فقال له: ((هلا شققت عن قلبه؟!)) وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء[3].

هذه الرواية عن أبي الدرداء هنا أيضاً لم تصح، ومعنى قالها متعوذاً: أي خائفاً من القتل.

وقوله: {وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ} [(92) سورة النساء] **هذان واجبان في قتل الخطأ أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأً ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنةً فلا تجزئ الكافرة.**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب قول الله تعالى: {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(45) سورة المائدة] (6484) (ج 6 / ص 2521) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم (1676) (ج 3 / ص 1302).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الحدود – باب ما جاء في حد الساحر (1460) (ج 4 / ص 60) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (2699).

[3] - أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد في كتاب الإيمان - باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (96) (ج 1 / ص 96).

يقول: "**فلا تجزئ الكافرة**"؛ لأن الرقبة بنص هذه الآية مقيدة بالإيمان {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} [(92) سورة النساء] لكن الخلاف قائم في مثل كفارة الظهار وكفارة اليمين حيث أطلق الله الرقبة هناك ولم يقيدها بالإيمان، وعلى كل حال لا شك أنه لا تجزئ الرقبة الكافرة في كفارة القتل، لكن هل يشترط غير هذا الشرط بمعنى هل يجزئ الصغير والمعاق إعاقة تمنعه من العمل كالمشلول والأعمى أو مقطوع اليدين؟

في هذه الشروط كلام معروف لأهل العلم، وقد جاء في هذه الآية قراءة غير متواترة لأُبَيٍّ هكذا: **(فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي)**.

وابن جرير وغيره يفرقون في من ولد من أبوين مسلمين وبين من لم يبلغ مبلغاً يعرف فيه الإسلام ويميزه وينطق بالشهادة أو يدخل في الإسلام اختياراً ونحو ذلك.

وروى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال: يا رسول الله إن عليَّ عتق رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتُها، فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتشهدين أن لا إله إلا الله؟)) قالت: نعم، قال: ((أتشهدين أني رسول الله؟)) قالت: نعم قال: ((أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟)) قالت: نعم، قال: ((أعتقها))[4] وهذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضر.

وقوله: {وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ} [(92) سورة النساء] هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم.

يعني أن الحكم على القاتل يكون فيه حقان الأول: تحرير رقبة مؤمنة فإن لم يجد {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} [(92) سورة النساء] كما سيأتي، هذا حق الله -عز وجل- والحق الثاني يتمثل بالدية لأولياء المقتول فهي حق لهم بما فاتهم من قريبهم، فالمقصود أن على القاتل حقين حق لله وحق لأولياء الدم.

وهذه الدية إنما تجب أخماساً كما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في دية الخطأ عشرين بنت مخاض..

قوله: "**وهذه الدية إنما تجب أخماساً**" ليس المراد أنها تقسط خمسة أقساط وإنما المراد خمسة أصناف في أسنان الإبل، وهذا بناء على رواية لا تخلو من ضعف، وبالنسبة لتقسيطها فعلى ثلاث سنين لا دفعة واحدة، وهذا نقل عليه بعض أهل العلم الإجماع.

كما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جَذَعة وعشرين حِقّة.

بنت المخاض وابن المخاض ما لها سنة، وابن لبون ما لها سنتان.

وبالنسبة للحِقّة فهي التي دخلت في السنة الرابعة، وبعضهم يقول: استحقت طرق الفحل، وبعضهم يقول: استحقت الركوب يعني أنها تتحمل، وأما الجَذَعة فهي أكبر من الحِقّة أي التي دخلت في السنة الخامسة، وعلى كل حال قال: هذا لفظ النسائي، والرواية كما قلت قبلُ لا تخلو من ضعف، وجاء في رواية أخرى

---

[4] - أخرجه أحمد (15781) (ج 3 / ص 451) والدارمي (2348) (ج 2 / ص 244) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه.

أصح من هذه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفيها التفريق بين قتل الخطأ وبين قتل العمد، وأما في رواية ابن مسعود هذه فليس فيها هذا التفريق.

ومن التفريق أنه في قتل العمد جعلها أثلاثاً أي ثلاثين حِقّة وثلاثين جَذَعة وأربعين خليفة، والخليفة هي الحامل، والحوامل من الإبل هي الأنفس.

وفي نفس رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في الخطأ جعلها أربعاً، ثلاثين بنت لبون وثلاثين بنت مخاض وثلاثين حِقّة وعشر ابن لبون، وتقسط على ثلاث سنوات.

ومن التفريق أن كفارة القتل العمد يتحملها القاتل، وفي كفارة القتل الخطأ لا يتحملها القاتل وإنما تتحملها العاقلة، وهذا من محاسن هذه الشريعة في باب الإرفاق بالمكلفين.

والمقصود بالعاقلة عصبات الرجل أي قرابته من جهة أبيه، الأدنوْن ثم من يليهم ثم من يليهم، وتقسم عليهم مقادير معينة بحيث لا تجحِف بأموالهم، والعلماء مختلفون في النساء هل عليهن شيء أم أن ذلك على الرجال فقط؟، فالمهم أنها تقسم على عصباته الأقربين، فإن لم يفِ ذلك بالمطلوب جاء الدور على الدائرة الأبعد، يعني ممن يمتّون لهم بصلة بعيدة، وهكذا الأبعد ثم الأبعد حتى تجمع الدية في ثلاث سنوات.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت، إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقضى: أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها.

قوله: "**وقضى بدية المرأة على عاقلتها**" يعني أن هذا في دية الخطأ، ومما قضى به أيضاً أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، بمعنى أن دية الجنين هي عُشر دية الأم، ومعلوم أن دية المرأة نصف دية الرجل، فإذا قلنا: إن دية الرجل تساوي مائة وعشرين ألفاً فدية المرأة تكون ستين ألفاً وعليه فإن عشر دية الأم يساوي ستة آلاف، فإذا أسقط الجنين ففيه عشر دية الأم، فلو أن الطبيب أعطى المرأة دواء فأسقطت، أو هي قفزت على شيء، أو حملت شيئاً ثقيلاً لتُسقط أو نحو ذلك فإن عليها إذا سقط منها صورة إنسان سواء قبل نفخ الروح أو إذا كان ذلك بعد نفخ الروح فإنه تجب فيه الدية وتعطى لوارثه، فالأم تدفعها لوارثه وهو زوجها –أبو الجنين- وهكذا إذا كان الذي أسقط الجنين غير الأم بأن جنى أحد عليه بضرب الأم أو دفعها أو نحو ذلك وجبت عليه الدية -عشر دية الأم- غرة عبد أو أمة.

وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية.

قوله: "**عمد الخطأ**" يقصد به شبه العمد، وذلك أن كثيراً من أهل العلم يجعلون القتل ثلاثة أقسام: خطأ محض، وعمد، وشبه عمد، فالخطأ المحض مثل ما إذا أراد أن يرمي صيداً فأصاب إنساناً فقتله، والعمد هو القتل بما يقتل عادة لمعصوم قصداً، كأن يرمي بحجر يقتل عادة أو بسلاح يقتل عادة أو نحو ذلك، ويشترط أيضاً أن يكون هذا الإنسان المقتول معصوماً، أي لا يكون ممن لا يقتص منه به كقتل الوالد للولد، وأن يكون ذلك عمداً عدواناً، وأن يكون مكافئاً له.

وعمد الخطأ أو شبه العمد هو وسط بين الخطأ والعمد، ومثاله أن يضربه بعصا لا تقتل عادة، أو لكمه لكمة لا تقتل عادة، أو دفعه فسقط فمات، فهذا يعتبر شبه عمد إلا إذا كان ذلك مما يقتل عادة كأن يكون لكمه لكمة

من شأنها أن تقتل أصلاً عند أهل الاختصاص فهذا يقتل به؛ لأنه يعتبر عامداً، أما إذا لكمه لكمة لا تقتل عادة، كمعلم ضرب الطالب تأديباً بعصا ليس من شأنها أن تقتل عادة فمات فلا يقتص منه بذلك؛ لأن هذا شبه عمد.

وبالنسبة لشبه العمد هل يلحق بالعمد من ناحية أوصاف الدية أم بالخطأ؟ فإن ابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: "**فهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية**" وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما اختصموا إليه قضى أن دية جنين المرأة غرة عبد أو أمة وقضى بدية المرأة على العاقلة ومعلوم أن الدية في العمد على القاتل نفسه فلما كان الضرب هنا بما لا يقتل عادة ألحقه بالخطأ ولم يلحقه بالعمد حيث جعل الدية على العاقلة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فرفع يديه وقال: ((اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد))[1] وبعث علياً -رضي الله تعالى عنه- فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب.

وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية التي ذكر فيها أن خالداً -رضي الله عنه- قتل هؤلاء حينما قالوا: صبأنا صبأنا تشتمل على كثير من المعاني والفوائد والأحكام، ومن ذلك أن مثل هذا التعبير في قولهم: صبأنا صبأنا اعتبره منهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أنه ليس من الألفاظ الشرعية ولا يقوم مقام الشهادتين، بل كان يستعمله الكفار في الاستهزاء بالمسلمين حيث كانوا يسمونهم الصابئة ويقولون: صبأ فلان، وهؤلاء القوم قد علق ذلك في أذهانهم على المسلمين، وظنوا أن من أراد أن يسلم فعليه أن يقول: "صبأت" لكثرة ما أذاعه الكفار، فظنوا أن المسلمين يحبونه ويقرونه وأن هذا هو الدين، فقالوا: صبأنا، بقدر جهدهم ومعرفتهم وعلمهم، فاعتبر ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم دخولاً في الإسلام.

ومن الفوائد والأحكام في هذا الحديث أيضاً أن خالداً -رضي الله عنه- قتلهم بهذا ولم يقتص النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم منه، مع أن ظاهر الأمر أنه قتل أناساً قد دخلوا في الإسلام.

ومثل ذلك ما ورد في الخبر المشهور عن أسامة بن زيد وغير أسامة فذاك قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ومع ذلك قتله ولم يقتص النبي -صلى الله عليه وسلم- منه؛ لأنه متأول مجتهد في ذلك فهو ظن أنه قالها متعوذاً ولم يقلها صادقاً، فاعتبر أنه لا زال على كفره، فقتله بهذا الاعتبار.

وذاك رجل عنده غنم وظاهر الأمر أنه مسلم حيث اطمأن كل الاطمئنان حيث فر الناس، ويخبر المسلمين أنه مسلم بإلقاء السلام عليهم ومع ذلك قُتل وأخذت غنمه فنزلت الآية تقول: **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}** [(٩٤) سورة النساء] أي من أجل الغنائم والأغنام، فهؤلاء أخطئوا ومع ذلك لم يقتص النبي –صلى الله عليه وسلم- للمقتول وإنما بيَّن أن ذلك خطأ، فالمقصود أنه كان -صلى الله عليه وسلم- في مثل هذه القضايا يبين لأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- الموقف الصحيح وتنتهي القضية، بمعنى أنك لو نظرت

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (٤٠٨٤) (ج ٤ / ص ١٥٧٧).

إلى أخطاء الصحابة -رضي الله عنهم- في السيرة، وما يقع عادة في الجهاد في سبيل الله من بعض الأخطاء والتجاوزات والاجتهادات وما أشبه ذلك تجد أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يبيّن لهم وجه الصواب ثم تنتهي القضية بعد ذلك حيث تبين الصواب من الخطأ، وهكذا كان الخلفاء الراشدون -رضي الله تعالى عنهم- يبيّنون الحق في مثل تلك الأخطاء التي تقع من بعض الأفراد وينتهي الأمر.

أما اليوم إذا وقعت من المجاهدين بعض الأخطاء فإنه تحصل شنائع للرد على تلك الأخطاء في الإعلام وعلى مستوى العالم كله من شرقه إلى غربه، حتى إن أول من سيتفرق عنهم هم الذين معهم، وهذا تصرف غير صحيح مع أخطاء المجاهدين؛ لأن الجهاد الشرعي في سبيل الله -عز وجل- مظنة لوقوع أخطاء وتجاوزات لكنها تقوَّم فلا تُقَرّ، وليس معنى ذلك أن هذه الأخطاء تأتي على هذا الأصل الكبير الشرعي –الجهاد في سبيل الله- فهذا لا يجوز، وهكذا أخطاء المسلمين ليس من العدل أن تضخَّم بحيث يأتي الكفار ويضخِّمون الأمر ثم ينسبون ذلك الخطأ إلى الإسلام فهذا لا يرجع إلى الإسلام وإنما المخطئون هم الذين يتحملون هذه الأخطاء وتبعاتها ولا يصح أن نقبل نسبة ذلك إلى الإسلام، ومثل ذلك أيضاً يجب رد الأخطاء التي يرتكبها بعض رواد المساجد وأخطاء المعلمين وأخطاء طلاب العلم وأخطاء غيرهم من شرائح الأمة لكن لا يؤتى على الأصل الشرعي ويبطل أو يراد إبطاله بناء على أخطاء وقعت من أولئك الناس.

وعلى كل حال على الإنسان أن يراعي مثل هذه القضايا، ولا ينبغي غض الطرف عن الخطأ ولو صدر من إنسان قصده حسن، وما ضر المسلمين في عشرات السنين التي مضت مثل كتم هذه الأشياء وإنكارها وجحدها وأن ذلك غير صحيح ويُخفى عن الأمة زعماً بأن ذلك من المصلحة ثم تتكشف الأمور عن بلايا ورزايا وخزايا فتذهب معها ثمرات هذه الأعمال جميعاً كجهاد الأعداء، وفي المقابل لا بد أن يبين الخطأ بأنه خطأ والمخطئ يجب إعلامه بخطئه وإيقافه عن هذا الخطأ إن أمكن لكن لا يؤتى على الأصل الشرعي، فالأصل الشرعي تبقى له منزلته ومكانته وحرمته وإلا ألغينا الإسلام بأخطاء المسلمين، والله المستعان.

وقوله: {إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ} [(٩٢) سورة النساء] أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

التصدق المذكور في قوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ} [(٩٢) سورة النساء] يعني بإسقاط الدية، فهذا يسمى صدقة وهو كقوله -عز وجل- في الدَّيْن: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(٢٨٠) سورة البقرة] يعني وأن تصدقوا بإسقاط الدين أو بإسقاط بعضه.

وقوله: {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} [(٩٢) سورة النساء] أي: إذا كان القتيل مؤمناً ولكنْ أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: {وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ} الآية [(٩٢) سورة النساء] أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة.

يقول تعالى في الآية: {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ} [(٩٢) سورة النساء] أي: إذا كان القتيل مؤمناً ولكنْ أولياؤه من الكفار -أهل حرب-، فهذا تنصيص على أنه مؤمن، ثم قال سبحانه: {وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ} [(٩٢) سورة النساء] فلم يذكر الإيمان إن كان المقتول من قوم كفار معاهدين، ولذلك

فالحكم في القوم المعاهدين يشمل الكافر منهم أيضاً حيث يتحمل الإمام الدية فيدفعها من بيت مال المسلمين إن كان الذي قتل هذا القتيل من المعاهدين الجيش أو فلول الجيش؛ لأن الإمام هو الذي يتحمل تبعة أخطاء من تحت يده ممن يعملون لمهام الجهاد ونحو ذلك، أما إذا كان القاتل من آحاد الناس بأن تنازع معه فقتله فإنه يتحمل الدية بنفسه وليس الإمام؛ ولذلك فإن في قصة عمرو بن أمية الضمري المعروفة أنه لما حصل الغدر بالمسلمين في بئر معونة نجا هو من القتل وفي طريقه إلى المدينة وجد رجلين فأكل معهما وحادثهما فلما ناما عمد إليهما فقتلهما وأدخل الرمح في عين واحد منهما حتى سمع خشخشة عظامه فلما رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبره فتبيّن أن الرجلين بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهد وليسوا من الكفار الذين قتلوا السبعين من القراء، فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- يجمع دية القتيلين، وكان قد أتى على يهود النضير وأرادوا قتله بإلقاء الحجر كما هو معلوم من قصة سبب غزوة بني النضير، فيلاحظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي تحمل الدية فأعطاهم إياها من بيت المال مع أن القتيلين من الكفار.

أي: **فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة**

بمعنى أن الحكم في المستأمن من أهل الذمة –يعني من رعايا الدولة المسلمة التي فتحت وبقي بعض أهلها على الكفر- هو نفس الحكم الذي لمن كان بينكم وبينهم عهد وميثاق، حيث إن من كان هذا حاله لا يحل قتله إلا إذا نقض العهد، وإذا نقض العهد ليس قتله لآحاد الناس، والمقصود أن هذا المستأمن أو المعاهد إذا قتله أحد غير الإمام وجبت الدية لأوليائه.

في قول الحافظ ابن كثير: "**فإن كان مؤمناً**" من قوله: "**فإن كان مؤمناً فدية كاملة ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة**" مقتضاه أن الله لم يقيد ذكر المقتول بالإيمان، وعليه يكون الحكم فيه ما ذكر بعده سواء كان المقتول مسلماً أو كافراً؛ وهذا القول كأنه قول وسط في هذه الآية، وذلك أن من أهل العلم -ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- من يقول: إن الفرق بين قوله تعالى: **{فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ}** وبين قوله: **{وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ}** أن كليهما غير مؤمنين إلا أن الأول من قوم عدو محاربين لكم والثاني من قوم بينكم وبينهم عهد، فالحافظ ابن كثير نظر إلى اللفظ في قوله: **{مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ}** ووجد أنه يحتمل أن يكون مؤمناً ويحتمل أن يكون غير مؤمنٍ، فإن كان غير مؤمن فقد سبق النص الذي يفيد أن في أهل الذمة الدية –على خلاف في ذلك- مضافاً إلى ذلك قراءة الحسن -وهي قراءة غير متواترة كما هو معروف- **(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن فدية)** من هنا رجح الحافظ أن هذا الحكم الأخير مختص بأهل الإيمان أعني أن فيه الدية والكفارة.

قال تعالى: **{وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}** [(٩٢) سورة النساء] يعني أنه في حال كون المقتول غير مؤمن وهو من قوم بيننا وبينهم ميثاق فقد دل الشرع على أنهم يعطون الدية أيضاً -كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه الكفارة أيضاً إما بتحرير رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، ومثاله لو أن إنساناً صار له حادث فصدم شخصاً فاتضح أنه غير مسلم فإنه إضافة إلى الدية يعتق رقبة فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين ولا

ينتقل إلى إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار، ومن المؤسف أننا نسمع أناساً يُسألون عن ديات عليهم وكفارات قتل فيقولون: سألنا إمام المسجد أو سألنا فلاناً فقال لنا: أطعم ستين مسكين، وهذه مشكلة، فالله المستعان.

ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة **{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}** [(٩٢) سورة النساء] **أي: لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف.**

قوله: "**استأنف**" يعني وجب عليه أن يبدأ الشهرين من جديد وكأنه ما صام بعد، وأما الأعذار المبيحة للفطر في رمضان كالحيض والنفاس والمرض فهذه لا تقطع التتابع في الصيام.

ومن أهل العلم من ذكر قولاً هو أحوط للذمة في مثل هذا الصيام -من عليه صوم شهرين متتابعين- منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- حيث يقول: إن من عليه صيام شهرين متتابعين فليوقع هذا الصوم في وقت لا ينقطع فيه، يعني لا يكون قطعه بيده هو، أما إذا نزل عليه شيء اضطراراً فليس داخلاً في هذا، لكن أن يبدأ الصيام في شهر ذي القعدة –مثلاً- فهذا سيقطعه عيد الأضحى وأيام التشريق، ومثله من بدأ الصيام بعد دخول شهر شعبان فإنه سيقطع صيامه رمضان وعيد الفطر لذلك نقول: صم بعد رمضان وقبل ذي القعدة أو بعد أيام التشريق فبذلك يمكنك أن تدفع قطعه إلا ما نزل بك من غير قصد ولا إرادة، والله أعلم.

وقوله: {تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(٩٢) سورة النساء] **أي: هذه توبة القاتل خطأً إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.**

{وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(٩٢) سورة النساء] **قد تقدم تفسيره غير مرة.**

ثم لما بيّن تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا} الآية [(٩٣) سورة النساء] **وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} الآية** [(٦٨) سورة الفرقان] **وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} الآية** [(١٥١) سورة الأنعام].

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء))[2].

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً فإذا أصاب دماً حراماً بَلّح))[3].

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الديات (٦٤٧١) (ج ٦ / ص ٢٥١٧) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨) (ج ٣ / ص ١٣٠٤).

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الفتن - باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٢) (ج ٤ / ص ١٦٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٦٩٣).

قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((معنقاً صالحاً)) يعني أنه ما لم يصب دماً حراماً فهو مبادر ومسرع في طاعة الله -عز وجل- ومنبسط في عمله، ويحتمل أن يكون المراد أنه يسير سيراً صحيحاً في الآخرة في الحساب وعلى الصراط فهو في عافية الله -عز وجل- وفي حالة مرْضيَّة ما لم يصب دماً حراماً.

ومعنى بلَّح في قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((فإذا أصاب دماً حراماً بلّح)) يقال: بلّح الرجل يعني انقطع سيره من التعب والإعياء من كثرة المشي، فالبعير مثلاً تجده ينطلق في قطع المسافات فإذا أصابه الإعياء الشديد انقطع، وهكذا المؤمن لا يزال يسير سيراً في عافية الله -عز وجل- فهو يسدد ويقارب حتى يصل إلى مطلوبه والنجاة فإذا أصاب دماً حراماً بلّح أي: أقعده هذا الذنب وقطعه كما قطع التعبُ البعيرَ من السير، نسأل الله العافية.

وفي حديث آخر: ((لَزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم))[4] **وقد كان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً.**

قوله: "**كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً**" هذا منقول عن جماعة من الصحابة ومن بعدهم، من الصحابة أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومن التابعين أبو سلمة بن عبد الرحمن والحسن البصري وقتادة والضحاك وعبيد بن عمير كلهم كانوا يرون أنه لا توبة للقاتل عمداً.

وروى البخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ} [(٩٣) سورة النساء] **هي آخر ما نزل وما نسخها شيء**[5].

قد يبدأ الإنسان بالإقبال على الله -عز وجل- وصلاح الحال والاستقامة وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك -نسأل الله العافية- قد يجره الشيطان إلى أشياء لا تأويل فيها إطلاقاً مع أن مقصوده يكون ما عند الله -عز وجل- لكن ما عرف الطريق، لذلك كان الواجب على الإنسان أنه إذا اشتبه عليه أمر تركه واشتغل بما يعلم ويتوثق منه، وهذه الشريعة واسعة فهناك عبادات كثيرة جداً يمكن للمرء أن يشتغل بها ليصل بها إلى الجنة إن قام بها لوجه الله -عز وجل- فينبغي للمسلم أن يعمل الواجبات ويترك المحرمات، ولو أنه اشتغل بالأيتام بالمسح على آلامهم ودموعهم وإطعامهم، وكفالتهم وكذا الاعتناء بالأرامل والفقراء عموماً فهذا باب واسع لو استغرق كل جهده فيه لوصل بذلك إلى الجنة فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)) وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً[6].

ومن الطرق السهلة الموصلة إلى الجنة الدعوة إلى الله، فلو أن المرء اشتغل بدعوة الجاليات من غير المسلمين أو بدعوة المسلمين فهذا باب واسع، وهم بحاجة إلى أقل الجهود ويصل بإذن الله إلى الجنة.

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب الديات - باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) (ج ٤ / ص ١٦) والنسائي في كتاب تحريم الدم – باب تعظيم الدم (٣٩٨٧) (ج ٧ / ص ٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٠٧٧).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الفرقان (٤٤٨٥) (ج ٤ / ص ١٧٨٤) ومسلم في كتاب التفسير (٣٠٢٣) (ج ٤ / ص ٢٣١٧).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الطلاق – باب اللعان (٤٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٠٣٢).

وهكذا توجد أعمال كثيرة جداً لا شبهة فيها مجمع على أنها من العمل الطيب والصالح الذي يوصل إلى الله -تبارك وتعالى- ويصل به الإنسان إلى أعظم المنازل، فالحاجة واسعة وقائمة ويستطيع الإنسان أن يعمل بما يصل به إلى الجنة، أما أن يدخل في أمور يقول عنها أهل العلم: إنها ضلال وانحراف لا تجوز بحال من الأحوال فهذا طريق للضياع والهلاك -نسأل الله العافية-.

فعلى الإنسان أن يفكر ويُعمل عقله وينظر فإذا اشتبه عليه شيء تركه ولا يدخل في شيء إلا وهو واثق من أنه ينفعه في دنياه وآخرته، ولا يقول شيئاً إلا وهو قادر على إثباته وما عدا ذلك فيتركه، وليعلم أن الله -تبارك وتعالى- قد أسقط عليه الأمور التي يعجز عنها فلا يحاسبه عليها لكن للأسف أن الإنسان هو الذي يضيق على نفسه وهو الذي يدخل نفسه في أمور لا دخل له فيها، أو يفتي ويتكلم في أمور ما امتدت الأعناق إليه وما انتظر الناس كلامه وما طلبوا فتواه ولا يعدونه من أهل العلم أصلاً ثم ما تدري بعد مدة إلا وقد انحرف تماماً وانتكس وانتقد الدين ووقع في الدعاة إلى الله وفي أهل الخير وجعلهم مادة للسخرية وهو من قبل كان يحرم كل شيء حتى الملعقة والشوكة -نسأل الله العافية- وكم من أناس نعرفهم ورأيناهم كانوا بهذه الطريقة ثم انحرفوا، فالمقصود أن الإنسان يبقى في ما وسع الله -عز وجل- عليه ويلزم ما يعلم ويترك ما يلتبس عليه، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

فعليك أخي المسلم أن لا تتدخل في دقائق المسائل ولا تشتغل بها، بل انشغل بما تعرف فتعلم التجويد والطهارة والصلاة وما أشبه ذلك من القضايا التي تحسنها ومما هي من أساسيات الدين التي تخصك، والزم الجادة وكن مع أهل العلم الذين تثق بهم وبدينهم، وبخوفهم من الله -تبارك وتعالى- وبعلمهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقد كان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً.

وروى البخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ} [(٩٣) سورة النساء] **هي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وكذا رواه أيضاً مسلم والنسائي**[1].

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه -عز وجل- فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [(٦٨) سورة الفرقان] **إلى قوله: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} الآية** [(٧٠) سورة الفرقان] **وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا}** [(٩٣) سورة النساء] فهم منه بعض أهل العلم أن هذا الخلود هو البقاء الأبدي السرمدي، ومثل هذه النصوص لا شك أنها من نصوص الوعيد، ومن أهل العلم من يعرض عن تأويلها؛ ليحصل المقصود من الزجر؛ لئلا يخف أثر ذلك في النفوس، ولكن حينما يشتبه الأمر لاسيما في مقام التعليم، فإنه قد يحتاج إلى بيان ذلك، لمعرفة أصل وهو أنه ليس شيء من الذنوب خلا الشرك بالله -تبارك وتعالى- يوجب الخلود في النار، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وبناء عليه قال بعض أهل العلم: إن الخلود في مثل هذه النصوص مقصود به المدد الطويلة، فإن العرب تسمي ذلك خلوداً.

ومن أهل العلم من يقول: هذا جزاؤه إن جازاه الله -عز وجل- أي أن هذا ما يستحقه، وإلا فإن الإنسان إذا تاب تاب الله عليه، والشرك أعظم من القتل كما قال تعالى: **{إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}** [(٤٨) سورة النساء] والقتل داخل تحت عموم قوله: **{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}** [(٤٨) سورة النساء] أي ما دون الإشراك، فقد يغفر الله -عز وجل- للعبد ابتداء، وقد يكون ذلك بشفاعة، وقد يكون بحسنات عظيمة ماحية، وقد يكون بمصائب مكفرة، أو بغير ذلك مما يحصل للإنسان من أسباب تكفير الذنوب وإن عظُمت،

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النساء (٤٣١٤) (ج ٤ / ص ١٦٧٦) ومسلم في كتاب التفسير (٣٠٢٣) (ج ٤ / ص ٢٣١٧).

وإن عذب هذا الإنسان فإنه يعذب بقدر جنايته ثم يخرج من النار كما دلت على ذلك النصوص الأخرى التي تدل على خروج الموحدين من النار، والله تعالى أعلم.

وقول ابن كثير: "**وهذا خبر لا يجوز نسخه**" يعني أن النسخ إنما يكون في الإنشاء، أي في الأمر والنهي فقط، وأما نسخ الأخبار فإن نسخها يعني تكذيبها فإذا قلت: جاء زيد، ثم قلت: لم يأتِ زيد، فهذا تكذيب للخبر السابق، وهذا بخلاف ما إذا قلت: افعل ثم قلت: لا تفعل، فهذا ليس تكذيباً وإنما هو نسخ للأمر، وأما الأخبار التي هي بمعنى الطلب فهي داخلة في الإنشاء ونسخها لا يعد تكذيباً لها، ومن أمثلة الأخبار التي بمعنى الإنشاء -الأمر أو النهي- قوله تعالى: **{فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ}** [(١٩٧) سورة البقرة] فمعناه لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}** [(٢٣٣) سورة البقرة] أي: ليرضعن أولادهن، وهذا أسلوب معروف.

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} الآية [(٥٣) سورة الزمر] وهذا عام في جميع الذنوب، مِن كفرٍ وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب أي: من أيِّ ذلك تاب الله عليه.

قال الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [(٤٨) سورة النساء] فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء، والله أعلم.

وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة[2] كما ذكرناه غير مرة، وإن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى؛ لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم وبعث نبينا -صلى الله عليه وسلم- بالحنيفية السمحة، فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا} الآية [(٩٣) سورة النساء] فقد قال أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- وجماعة من السلف: "هذا جزاؤه إن جازاه" ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قول أصحاب الموازنة والإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب.

وبتقدير دخول القاتل إلى النار، إما على قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- ومن وافقه: أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالح ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [(٩) سورة الكهف] (٣٢٨٣) (ج ٣ / ص ١٢٨٠) ومسلم في كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) (ج ٤ / ص ٢١١٨).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(٩٤) سورة النساء].

روى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يرعى غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فنزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} إلى آخرها، ورواه الترمذي في التفسير ثم قال: هذا حديث حسن[٣].

وفي الباب عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- ورواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [(٩٤) سورة النساء] **قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}** [(٩٤) سورة النساء] **قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغُنيمة، وقرأ ابن عباس: السَّلام.**

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ} [(٩٤) سورة النساء] هذه هي القراءة المشهورة التي عليها عامة القراء، وفي قراءة أخرى متواترة وهي قراءة حمزة (فتثبَّتوا) والتبيّن والتثبت معناهما متقارب فالتبيُّن يعني التريث والتمهل من أجل أن يتحقق مما يريد فعله وهكذا أيضاً معنى التثبت.

وقوله: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [(٩٤) سورة النساء] قراءة عامة المكيين والمدنيين والكوفيين (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) [(٩٤) سورة النساء] والسلم يمكن أن يكون بمعنى الاستسلام، ويمكن أن يكون بمعنى ألقى إليكم الإسلام كما يقول ابن جرير -رحمه الله- في تفسير {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ} [(٩٤) سورة النساء] أي أظهر الاستسلام لتعريفكم أنه مؤمن وأنه منكم، وكأن ابن جرير بهذا القول جعل الاستسلام والإسلام متلازمان، أو كأنه أراد أن يجمع بين المعنيين، أي أن قوله: {أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [(٩٤) سورة النساء] معناه لم يقاتلكم وأعلمكم أنه على دينكم.

والسلام هو التحية المعروفة، وهي تحية أهل الإيمان، فإذا قالها فهو يعلمهم بذلك بإسلامه؛ لأنها مستعملة بين المسلمين، وهو يقول لهم: السلام عليكم، ليفهمهم أنه على دينهم، فهذه المعاني متلازمة، فمن قال: إن ذلك يعني الإسلام، ومن قال: إنه الاستسلام، ومن قال: إنها التحية المعروفة، فالمعنى الجامع هو أنه إنما كف عن قتالكم وألقى إليكم هذه التحية إعلاماً منه بأنه على دينكم، ومثل هذا لا يجوز قتله باعتبار أنه قال ذلك اتقاء للقتل وتعوذاً وخوفاً، وإنما يحمل الناس على الظاهر.

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد -رضي الله تعالى عنه- عن أبيه عبد الله بن أبي حدرد -رضي الله تعالى عنه- قال: بعثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة.

---

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة النساء (٣٠٣٠) (ج ٥ / ص ٢٤٠) وأحمد (٢٠٢٣) (ج ١ / ص ٢٢٩) والحاكم (٢٩٢٠) (ج ٢ / ص ٢٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٣٠).

"إضم" هو واد كبير معروف، يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر.

فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس.

محلم بن جثامة بن قيس هو أخو الصعب بن جثامة في قصة الحمار الوحشي.

حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قَعود له معه مُتيِّع له ووطب من لبن.

قوله: "**معه مُتيِّع له ووطب من لبن**" يعني معه متاع قليل وسقاء من لبن.

فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومُتيِّعه، فلما قدمنا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} إلى قوله تعالى: {خَبِيرًا} [(٩٤) سورة النساء] تفرد به أحمد.

كم من منافق في هذا العصر يجمع من السيرة أخطاء أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزواتهم فيروجها في قناة فضائية أو في كتاب، ولا غرابة في ذلك فهذا هو ديدن المنافقين.

ومن أمثلة تلك الكتابات التي تدل على نفاق أصحابها أن أحد الكتاب كتب: إن أول من فتح باب التكفير هو أبو بكر -رضي الله عنه- لما كفر المرتدين وحاربهم واستحل دماءهم وأموالهم، وهذا المثال أيضاً من الأمثلة التي يمكن للمنافقين أن يبرزوها للناس بالطريقة التي تشوه الدين الإسلامي وحملته، مع أنه لا حجة لهذا القائل بمثل هذه الأمثلة، والله المستعان.

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمقداد: ((إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلتَه فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل)) هكذا ذكر البخاري هذا الحديث معلقاً مختصراً[٤].

قوله تعالى: **{كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ}** [(٩٤) سورة النساء] يحتمل معنيين: الأول: كذلك كنتم من قبل كفاراً غير مؤمنين فهداكم الله -عز وجل- إلى الإسلام، وهذا المعنى تحتمله الآية وبه قال جماعة من السلف.

والمعنى الثاني: كذلك كنتم تخفون إسلامكم في قومكم فمنَّ الله عليكم بإظهار الدين وإعزازه حتى أظهرتم إسلامكم، وهذا أرجح؛ لأنه لو كان المعنى كنتم كفاراً فمن الله عليكم بالإسلام فما وجه الإنكار أن يقتلوا ذلك الرجل، بمعنى أنه لو كان معنى الآية كذلك كنتم كفاراً من قبل مثله فمعنى ذلك أنهم قتلوه وهو كافر ولا لوم عليهم حينئذ؛ لأنه من المشركين الأعداء وهم في جهاد، فالقضية ليست كذلك، وإنما القضية أن هذا مؤمن ألقى إليهم السلام، فإذاً كذلك كنتم من قبل مثل هذا تخفون إيمانكم، فهو كان في قومه المشركين يخفي إيمانه فلما جاء المسلمون اطمأن إليهم وأنهم لن يتعرضوا إليه فألقى إليهم السلام وحصل ما حصل، فعلى هذا يكون المعنى الثاني هو الأرجح، وهو الذي عليه كثير من المحققين منهم ابن جرير -رحمه الله- والله أعلم.

وقد روي مطولاً موصولاً، فروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من

---

[4] - صحيح البخاري تعلقاً في كتاب الديات (ج ٦ / ص ٢٥١٨).

أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرنَّ ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فلما قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: يا رسول الله إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد، فقال: ((ادعوا لي المقداد، يا مقداد أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟)) قال: فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ} [(٩٤) سورة النساء] فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمقداد: ((كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلتَه، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل))[٥].

وقوله: {فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ} [(٩٤) سورة النساء] أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام وأظهر إليكم الإيمان، فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: {كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ} أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً.

في قوله: {فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ} على المعنى الذي ذكرنا أنه هو الأرجح في قوله: {كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ} يكون المعنى هنا: مَنَّ عليكم بإعزاز الدين وإظهاره، وتحتمل معنىً آخر هو أنه من عليكم بالتوبة والإيمان، والله أعلم.

وكما قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ} الآية [(٢٦) سورة الأنفال] ورواه عبد الرزاق عن سعيد بن جبير في قوله: {كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ} تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه.

وقوله: {فَتَبَيَّنُواْ} [(٩٤) سورة النساء] تأكيد لما تقدم، وقوله: {إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(٩٤) سورة النساء] قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

{لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا* دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(٩٥-٩٦) سورة النساء].

روى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكى ضرارته فأنزل الله: {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} [(٩٥) سورة النساء].

وروى البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أملى عليَّ: "لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ" فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت -وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله

---

[5] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٠٩) (ج ١٢ / ص ٣٠) والبزار (٥١٢٧) (ج ٢ / ص ١٩٦) وقال: هذا الحديث لا نعلمه يروى بهذا اللفظ إلا عن ابن عباس، ولا نعلم له طريقاً عن ابن عباس إلا هذا الطريق.

-صلى الله عليه وسلم- وكان فخذه على فخذي فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترض فخذي ثم سرِّي عنه، فأنزل الله: {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} [(٩٥) سورة النساء] [انفرد به البخاري دون مسلم].

وقد روى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} [(٩٥) سورة النساء] عن بدر والخارجون إلى بدر.

ولما نزلت غزوة بدر، قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً} [(٩٥) سورة النساء] فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر.

قوله: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} هذه قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو -برفع، "غير من قوله: {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} على أنه وصف للقاعدين، هكذا: لا يستوي القاعدون غير أولي الضرر، وفي القراءة الأخرى المتواترة -وهي قراءة أهل الحرمين- بالفتح على أنه استثناء من القاعدين أو المؤمنين، ليكون المعنى هكذا: إلا أولي الضرر فإنهم يستوون مع المجاهدين.

والمقصود بقوله: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} على القراءة الأولى أن أولي الضرر يلحقون بالمجاهدين في الأجر والمثوبة كما دل عليه الحديث: ((ما سرتم مسيراً)) وقد علل ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((حبسهم العذر))[6] ومن الأحاديث التي تدل على ذلك الحديث الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الناس أربعة وذكر أنهم في الأجر سواء.

{وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا* دَرَجَاتٍ مِّنْهُ} [(٩٥-٩٦) سورة النساء] على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر، هذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

فقوله: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} كان مطلقاً فلما نزل بوحي سريع {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد -من العمى والعرج والمرض- عن مساواتهم المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه))، قالوا: وهم في المدينة يا رسول الله؟ قال: ((نعم، حبسهم العذر))[7].

وقوله: {وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى} [(٩٥) سورة النساء] أي الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية.

ثم قال تعالى: {وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٩٥) سورة النساء] ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات في غرف الجنان العاليات ومغفرة الذنوب والزلات وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: {دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(٩٦) سورة النساء] وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله

---

6 - سيأتي تخريجه.

7 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب من حبسه العذر عن الغزو (٢٦٨٤) (ج ٣ / ص ١٠٤٤).

عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض))(٨).

يعني: **{فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً}** [(٩٥) سورة النساء] من غير أولي الضرر، وأما أولوا الضرر فإنهم يلحقون بالمجاهدين؛ لأنهم حبسهم العذر، وهذه الدرجة والمنزلة التي تكون للمجاهدين يحصل فيها التفاوت بينهم بحسب بلائهم وبذلهم وما يقع لهم، فمنهم من يموت في ساحة المعركة -يقتل شهيداً- ومنهم من يموت في طريقه إلى الجهاد، ومنهم من يموت من أثر ذلك مما يصيبه من الجراح لكنه لا يموت في أرض المعركة، فهؤلاء وكذا من لم يمت منهم بسبب الجهاد لهم درجات متفاوتة كما جاء في هذا الحديث، ويكون ذلك هو المراد بقوله: **{دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً}** [(٩٦) سورة النساء].

ويمكن أن يكون ذلك باعتبار عموم أهل الإيمان، أي أنه لما ذكر أن المجاهدين لهم درجة على غيرهم قال: **{دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً}** [(٩٦) سورة النساء] يعني أن أهل الإيمان يتفاوتون في هذه الدرجات، فالإيمان درجة والهجرة درجة والصديقية درجة، فأهل الإيمان على درجات، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[8] - أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٦٣٧) (ج ٣ / ص ١٠٢٨) ومسلم عن أبي سعيد في كتاب الإمارة - باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات (١٨٨٤) (ج ٣ / ص ١٥٠١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا* إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا* وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(٩٧-١٠٠) سورة النساء].

روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعثٌ فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة مولى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثِّرون سواد المشركين على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [(٩٧) سورة النساء].

وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [(٩٧) سورة النساء] أي: بترك الهجرة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ} [(٩٧) سورة النساء] يعني بنزع أرواحهم، ولا يلزم أن يقول: توفتهم؛ لأن الملائكة ليس مؤنثاً حقيقياً، وبناء عليه يصح أن يأتي الفعل قبله من غير إشعار بالتأنيث.

ولفظ "توفاهم" يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً بمعنى إن الذين توفتهم الملائكة، كما تقول: توفاه الله، يعني في الزمن الماضي.

والمعنى الثاني -وهو المتبادر- أن قوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ} [(٩٧) سورة النساء] يعني في المستقبل، والمعنى تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وهذا الظلم هو الذي تبينه رواية البخاري هنا: أن هؤلاء خرجوا مع المشركين في يوم بدر فقتلوا حيث كانوا ممن دخل في الإسلام لكنه لم يهاجر.

وعلى الرواية الثانية التي ذكرها عن الضحاك أنها نزلت في أناس من المنافقين، يقال: ما ذكرنا سابقاً أنه لا يوجد في مكة نفاق، فعلى كل حال هذه الآية -والله تعالى أعلم- هي فيمن بقي بين ظهراني المشركين مع قدرته على الانتقال والهجرة في حال كونه مستضعفاً لا يستطيع إقامة دينه فربما حمله المشركون على الخروج معهم ليتقووا به ولتكثير سوادهم كأولئك الذين أخرجهم المشركون يوم بدر؛ حيث أخرجوهم فقتل بعضهم في تلك الغزوة كما هو معروف، وأسماؤهم موجودة -ذكرها ابن هشام وغيره في السيرة- فأنزل الله -عز وجل- فيهم هذه الآيات، والله أعلم.

{قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ} [(٩٧) سورة النساء] أي: **لِمَ مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟** **{قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ}** [(٩٧) سورة النساء] أي: **لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض** **{قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً}** **الآية** [(٩٧) سورة النساء].

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالى عنه-: أما بعد، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله))[1].

هذا الحديث ثابت صحيح، وهو من الأحاديث التي تتوعد المتشبهين بالكفار والمحاكين لهم والذين يوالونهم، فإن من أنواع الولاية للمشركين أن يساكنهم وأن يجامعهم اختياراً، ولا يجوز مساكنة المشركين ولا أن يسكن في ديارهم مختاراً لكن قد يحصل ذلك إما اضطراراً وإما لمصلحة للمسلمين -لا لمصلحة شخصية- فاضطراراً كأن لا يجد مكاناً في بلاد المسلمين يذهب إليه فيُضطر، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- هاجروا من مكة إلى الحبشة مع أن مكة أحب البقاع إلى الله لكن هاجروا منها إلى الحبشة وهي بلاد للنصارى اضطراراً، فالإنسان يهاجر إلى الأرض التي يأمن فيها، ويستطيع أن يقيم دينه، فإذا كان الإنسان في أرض وإن كان أهلها من المسلمين لكنه لا يستطيع أن يقيم دينه فإنه ينتقل إلى حيث يأمن؛ فالمقصود أن الإنسان المضطر يجوز له ذلك.

والحالة الأخرى هي أن يكون ذلك لمصلحة للمسلمين كالذي يقوم بأعمال تتصل بهم وما أشبه ذلك من الوظائف التي يحتاج إليها الناس في علاقاتهم وارتباطاتهم وما أشبه هذا، فهذا لا إشكال فيه، لكن بالشروط المعروفة ومنها أن يكون قادراً على إظهار دينه.

وأما أن يسكن في بلاد المشركين لغير مصلحة المسلمين مثل أن يسكن في بلادهم من أجل تحسين الوضع المادي بالنسبة إليه -فرص عمل كما يقولون- أي أن المرتبات عالية، أو لوجود بيئة علمية مهيأة من مختبرات ونحوها فينتقل ويعمل هناك فيتقوى به الكفار وتقوم عليه وعلى أمثاله حضارتهم وقوتهم فهذا لا يجوز، والجوع يُطرد بكسرة خبز، أما أن يوظف الإنسان علمه وعقله ومهارته من أجل خدمة أعداء الله -عز وجل- فهذا من موالاتهم، ولا عذر له لكونه يبحث عن بيئة علمية أو غير ذلك.

وأما من ذهب إلى الدراسة، فينظر في هذه الدراسة إن كانت لا توجد في بلاد المسلمين فلا بأس، وأما ما يجد فيه مندوحة في بلاد المسلمين فلا يذهب؛ لأنه يُفتن من حيث شعر أو لم يشعر، فهو يفتن بالشهوات -ولم يصدُق من قال: إنه لا يتأثر- كيف وهو يرى أموراً تشيب لها المفارق ولا تقوم لها الجبال، وكل إنسان

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في الإقامة بأرض الشرك (٢٧٨٩) (ج ٣ / ص٤٨) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٣٠).

يعرف نفسه ولو حاول أن يظهر خلاف ذلك أمام الناس، وأنه لا يتأثر وأنه لا يكترث، فليس بصحيح أنه لا يكترث إلا أن يكون عنده علة فهذا شأن آخر.

والنوع الآخر من الفتن هي فتنة الشبهات، وهي نوعان: نوع ظاهر يدركه الإنسان، ونوع لا يدركه وذلك بما يحصل له من ألوان التأثير غير المباشر، فيرجع منبهراً ويرجع وقد تغيرت كثير من الأمور التي ينظر إليها، وينظر إلى هذا التأثير أنه من قبيل سعة الأفق، بل يرجع وهو يثني عليهم وعلى حضارتهم ويثني على أخلاقهم وعلى كل ما رأى منهم، ثم بعد ذلك يبدأ عنده ذوبان في الولاء والبراء ويتحدث أن هؤلاء لا يخلون من جوانب جيدة وطيبة وخيرة، ويبدأ يتكلم على الطرف الآخر والسماع من الآخر، والتواصل مع الآخر، فالمقصود أنه يبتلى، وهذا الابتلاء يجده الناظر في كثير ممن يذهب إليهم، فإن كان متديناً فهو يرجع ونزعة الولاء والبراء عنده قد ضعفت، وأما من كان غير متدين فالله المستعان.

وقوله: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ} [(٩٨) سورة النساء] إلى آخر الآية.. هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً} [(٩٨) سورة النساء] قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقاً.

قوله: **{لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً}** [(٩٨) سورة النساء] أي: لا يستطيعون خلاصاً ولا يهتدون إلى طريق يتخلصون فيه من المشركين الذين يستضعفونهم، ويدخل في السبيل الطريق الحسي الذي هو الطريق إلى المدينة، فهم لا يعرفون الطريق وليس لهم بصر فيها فلا يستطيعون الوصول من مكة إلى المدينة ولا يعرفون طريق المدينةً، وكذلك هم لا يهتدون سبيلاً أياً كان نوعه للخلاص ومفارقة هؤلاء المشركين.

وقوله تعالى: {فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ} [(٩٩) سورة النساء] أي يتجاوز عنهم بترك الهجرة، و"عسى" من الله موجبة.

قوله: "**و"عسى" من الله موجبة**" هذه جاءت في كلام ابن عباس وفي كلام جماعة من السلف، وأشرت إليها في بعض المناسبات السابقة وقلت: إن المقصود بها إذا صدرت في كلام الله -عز وجل- أنه يخبر بذلك عن فعله أو عن نفسه، كما قال تعالى: **{عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً}** [(٧) سورة الممتحنة] وهنا يقول: **{فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ}** [(٩٩) سورة النساء] وذكرنا أن ذلك متحقق فهي أصلاً للترجي لكن الترجي إنما يقع ممن لا يعلم عواقب الأشياء، وأما الله -عز وجل- فهو يعلم كل شيء، ما كان وما لم يكن وما سيكون كيف يكون، لكن جرى على طريقة العرب أن العظماء يخرجون الوعد المحقق بمثل هذه العبارة.

{وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [(٩٩) سورة النساء] روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي العشاء إذ قال: ((سمع الله لمن حمده)) ثم قال قبل أن يسجد: ((اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسِنِيِّ يوسف))[2].

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء - باب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف)) (٩٦١) (ج ١ / ص ٣٤١)

وقال البخاري أنبأنا أبو النعمان قال: حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ} [(٩٨) سورة النساء] **قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله -عز وجل-.**

وقوله: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [(١٠٠) سورة النساء] **هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يُتحصَّن فيه.**

والمراغم: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، وقال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وكذا روي عن الضحاك والربيع بن أنس والثوري، وقال مجاهد: {مُرَاغَمًا كَثِيرًا} [(١٠٠) سورة النساء] **يعني متزحزحاً عما يكره.**

هذه العبارات -متزحزحاً ومتحولاً، ويجد عوضاً- كل هذه عبارات متقاربة في معنى قوله: **{مُرَاغَمًا}**، وهذه اللفظة يلوح فيها معنى الإرغام، وذلك أن من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله رغماً عن أنوف المشركين الذين يستضعفونه فإنه يجد في الأرض مجالاً واسعاً للانطلاق والعمل في طاعة الله -عز وجل-، وما إلى ذلك مما يحصل به إعزاز الدين فيرفع رأسه ويعمل من غير إهانة ولا إذلال فيكون عمله ذلك إرغاماً لأعدائه الكفار ولعدوه الأول الذي هو الشيطان، ولذلك ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في سجدتي السهو إذا شك المصلي في صلاته أنه إذا كان وقع له نقص كانت السجدتان تكميلاً لذلك النقص وإن لم يكن فيها نقص فإنها تكون ترغيماً للشيطان[3].

كما أنه –عليه الصلاة والسلام- رخص في التبختر بين الصفين في القتال، مع أن هذه الصفة مذمومة، لكن لما كان فيها إرغام للعدو وإغاظة له لم تكن كذلك.

ومن أمثلة إرغام العدو ما ذكره تعالى بقوله: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}** الآية [(٥) سورة الحشر] حيث ختم الآية بقوله: **{وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}** [(٥) سورة الحشر] فكذلك إذا انتقل الإنسان وتحول من حال الاستضعاف إلى حال يقوى فيها ويستطيع أن يعمل بطاعة ربه -تبارك وتعالى- وأن يقدم لدينه كان ذلك إرغاماً لعدوه.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على عبودية المراغمة كلاماً جيداً في كتابه مدارج السالكين فليُراجع، لذلك لا يجوز للإنسان أن يبقى في حال من الاضطهاد والضعف والعجز بحيث لا يستطيع أن يقوم بالعبودية والأعمال التي تعبّده الله -عز وجل- بها فضلاً عن أن يقوم بما هو أكثر من ذلك إذا كان يستطيع أن يبتعد عن ذلك.

قوله: {وَسَعَةً} [(١٠٠) سورة النساء] **يعني الرزق، قاله غير واحد، منهم قتادة حيث قال في قوله: {يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً}** [(١٠٠) سورة النساء] **أي والله من الضلالة إلى الهدى ومن القلة إلى الغنى.**

هنا لم يحدد الله -تبارك وتعالى- معنىً في السعة، فأقوال السلف -رضي الله تعالى عنهم- التي ذكروها كلها تدخل في الآية سواء قيل: يجد سعة في الرزق، أو يجد سعة في العمل، أو ويجد سعة في الصدر، أو يجد سعة في ألوان الهدايات، كل ذلك داخل فيه، ولذلك لا يخص معنىً دون معنى إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب السهو في الصلاة والسجود له (٥٧١) (ج ١ / ص ٤٠٠).

وقوله: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ} [(١٠٠) سورة النساء] أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه))[٤] وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال.

ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة[٥] وفي رواية: أنه لما جاءه الموت نأى بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها[٦].

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا} [(١٠١) سورة النساء].

يقول تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ} أي: سافرتم في البلاد كما قال تعالى: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ} الآية [(٢٠) سورة المزمل].

وقوله: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ} [(١٠١) سورة النساء] أي: تخففوا فيها من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية.

قوله تعالى: **{فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ}** [(١٠١) سورة النساء] رفع الجناح بمعنى رفع الحرج، وقد أخذ منه جمهور أهل العلم أن القصر ليس واجباً، والخلاف في هذه المسألة معروف، فمن السلف من يرى الوجوب -منهم عمر بن عبد العزيز –رحمه الله- وبه قال الظاهرية وجماعة من أهل العلم، ويحتجون بأدلة منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه))[٧] وأمر –عليه الصلاة والسلام- بقبولها حيث قال: ((صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته))[٨] فقالوا: هذا الأمر للوجوب، واستدلوا كذلك بأن الصلاة فرضت في أصلها ركعتين كما في حديث عائشة -رضي الله عنها-: "فرضت

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١) (ج ١ / ص ٣) ومسلم في كتاب الإمارة - باب قوله -صلى الله عليه و سلم-: ((إنما الأعمال بالنية)) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (١٩٠٧) (ج ٣ / ص ١٥١٥).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [(٩) سورة الكهف] (٣٢٨٣) (ج ٣ / ص ١٢٨٠) ومسلم في كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) (ج ٤ / ص ٢١١٨).

[6] - صحيح مسلم – كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) (ج ٤ / ص ٢٧٦٦).

[7] - أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٠٧) (ج ١١ / ص ٣٢٣) وفي الأوسط (٨٠٣٢) (ج ٨ / ص ٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٨٨٥).

[8] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦) (ج ١ / ص ٤٧٨).

الصلاة ركعتين ثم زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر"[٩] فقالوا: هي ركعتين فإذا صلى أربع ركعات في السفر فقد زاد في ذلك.

ومما يذكر في هذا الباب كلام ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لما أتم خلف عثمان وما المراد بكلامه حينما قال: "صليت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر -رضي الله عنه- بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعاتٍ ركعتان متقبلتان"[١٠] يعني هل المقصود أنه يتخوف أن لا تقبل أصلاً أو أنه يريد الفضل، وعلى كل حال فإن هذه الآية بمجردها لا تدل على وجوب القصر وإنما تدل على أن ذلك رخصة.

ثم إن قصر الصلاة هنا يحتمل أن يكون المراد به قصر كيفية الصلاة وليس قصر الكم، وقصر الكيفية يعني أن يصلي حسب استطاعته، ففي حال المسايفة والمواجهة والالتحام يصلي مستقبل القبلة وغير مستقبل لها، مع أن الاستقبال شرط، ويصلي إيماء حسب استطاعته، ويقصر من كيفيتها في ركوعها وسجودها واستقبالها والاستقرار فيها وما إلى ذلك، والقرائن الدالة على ترجيح هذا المعنى موجودة في مثل هذه الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها هذه القضية، ومنها قوله تعالى: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء]، ثم انظر إلى قوله تعالى بعد ذلك: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ} [(١٠٢) سورة النساء] تجدها كأنها حال أخرى غير الحالة الأولى، ففي الأولى يقول: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء] فهذا في حال الالتحام، والحالة الثانية: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ} يعني إذا كنتم تصلون في غير حالة الالتحام لكن مع وجود الخوف؛ وذلك أن الإقامة في قوله: {فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ} تقتضي معنىً غير المعنى الذي يكون في حال الالتحام، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(١٠٣) سورة النساء] ذهب كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله- إلى أن معنى {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ} أي إذا زال خوفكم من عدوكم وأمنتم واطمأنت أنفسكم بالأمن فأتموا حدودَ الصلاة المفروضة عليكم غير قاصريها عن شيء من حدودها، وهذا معنىً قريب رجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

والمعنى الآخر -وهو المعنى المشهور الذي عليه كثير من أهل العلم وهو الذي مشى عليه ابن كثير هنا- أن المراد أن تقصروا من الصلاة من جهة الكمية بحيث تقصر الرباعية فتكون ثنائية بحيث إذا انتهى السفر ووصلتم إلى بلادكم واطمأننتم فأتموا الصلاة واجعلوها رباعية.

ويؤيد القول الثاني أن مشروعية قصر الصلاة لا تكون في حال الخوف فقط، وأن عمر -رضي الله عنه- لما سئل عن هذا قال: إنه سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عنها فأخبره أن القصر رخصة أو صدقة تصدق

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٣) (ج ١ / ص ١٣٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٥) (ج ١ / ص ٤٧٨).

[10] - أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة - باب الصلاة بمنى (١٠٣٤) (ج ١ / ص ٣٦٨) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب قصر الصلاة بمنى (٦٩٥) (ج ١ / ص ٤٨٣).

الله بها على عباده، ولو كان المراد قصر الكيفية لأجاب بقوله: لا يرخص في حال السفر أن تصلوا إيماء أو نحو ذلك بل يجب أن تقيموا أركانها وشروطها كما أمر الله -عز وجل- إلا أنكم تصلون الرباعية ركعتين.

ثم إن ابن عمر –رضي الله عنه- ذكر أن الله بعث رسوله -صلى الله عليه وسلم- فصلى بهم ركعتين، فدل على أن القضية توقيفية، كما أن الإجابات التي كانت ترد على تساؤلهم تدل على أن القصر إنما يكون في الكم، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وأما قوله تعالى: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء] فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية؛ فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [(٣٣) سورة النور] وكقوله تعالى: {وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ} الآية [(٢٣) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الكلام ينقسم إلى منطوق ومفهوم، فالمنطوق هو ما دلَّ عليه اللفظ في محل النطق، والمسكوت هو ما دلَّ عليه لا في محل النطق بل من جهة السكوت، وهو ينقسم إلى مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة وكلاهما حجة أي: يُحتج بهما في الأحكام، ومعنى مفهوم المخالفة أن يكون حكم المسكوت عنه مخالفاً لحكم المنطوق به.

ومن الأمثلة البسيطة على مفهوم المخالفة أنك إذا قلت لإنسان: أعط هذه الصدقة للفقراء فكأنك قلت له: لا تعطها للأغنياء مع أنك لم تتلفظ بذلك لكنه عُرف من جهة مفهوم المخالفة وهو المعنى المسكوت عنه.

وبالنسبة لمنطوق اللفظ في قوله تعالى: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء] أنه يجوز القصر في الصلاة حال خوف فتنة الكافرين، ومفهوم المخالفة في هذه الآية أنه لا يجوز لكم قصر الصلاة في حال الأمن، بمعنى أنه لا يجوز القصر حتى في السفر ما دام المسافر آمناً.

ومع أن مفهوم المخالفة حجة -وهو في هذه الآية أنه لا قصر للصلاة في السفر حال عدم الخوف- فإنه هنا غير معتبر؛ لأن مفهوم المخالفة حجة إلا في نحو سبع أو ثمان حالات مستثناة ومنها:

أن يكون اللفظ المنطوق به روعي فيه الحال الغالبة في الوقوع، بمعنى أنه خرج مخرج الغالب، أي: أن المنطوق جيء به مراعىً فيه حال كثيرة الوقوع، وقد كان حال الصحابة في زمانهم أنهم في غالب أسفارهم يعانون من الخوف ولذلك قال الله: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء]..

فإن قيل: فماذا كانوا يصنعون في حال الأمن؟ أليسوا كانوا يقصرون الصلاة أيضاً؟ فالجواب: نعم كانوا يقصرون؛ لأنه ثبت في السنة من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقصر الصلاة في السفر حال الأمن، ومثال ذلك ما حصل له -صلى الله عليه وسلم- حينما كان في حجته حيث كان يصلي في منى قصراً

ومعه نحو مائة ألف من الصحابة -رضي الله عنهم- ولا قتال ولا خوف حينئذ، كما أنه ثبت من قوله -صلى الله عليه وسلم- ما يلغي هذا المفهوم كما سيأتي.

إذن: مفهوم المخالفة معتبر إلا في مواضع منها هذا الموضع؛ وذلك أن هذه الآية كانت نازلة في حال يغلب عليها حال معينة؛ ثم إنه ثبت في السنة من قوله وفعله -عليه الصلاة والسلام- ما يلغي هذا المفهوم، والله أعلم.

وهذا الجواب إنما يقال باعتبار تفسير من فسر القصر في الصلاة بالكم لا بالكيف، أعني على تفسير الجمهور، وأما على قول ابن جرير وقول الشنقيطي ومن وافقهم فإنه يقال: إن مفهوم المخالفة في هذه الآية معتبر؛ وذلك أنهم يقولون: إن القصر المراد بالآية هو قصر كيفية الصلاة لا كميتها بمعنى أنه يكفي الإيماء عن الركوع والسجود وتصلي إلى غير القبلة ونحو ذلك، وهذا كله حال الخوف الشديد وحال الاقتحام وحال المسايفة وأما الخوف الذي يمكن أن تقيموا فيه الصلاة كما أمركم الله بركوعها وسجودها، فهذا لا تقصروا فيه من الصلاة، ففي حال الأمن لا تقصروا قصر كيفية من باب أولى وإنما يقصر قصر كمية، والخلاصة أنه على قول ابن جرير والشنقيطي ومن وافقهم يكون مفهوم المخالفة هنا معتبراً.

إذن: لو سأل سائل فقال: هل مفهوم المخالفة معتبر أم غير معتبر في قوله تعالى: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}؟ [(١٠١) سورة النساء] فيكون الجواب باختصار: مفهوم المخالفة في الآية غير معتبر على قول الجمهور؛ لأنه يكون خرج مخرج الغالب، وهو معتبر على قول ابن جرير ومن وافقه؛ لأن المراد بالقصر قصر الكيفية الذي لا يجوز إلا في حال الخوف الشديد، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء] وقد أمَّن الله الناس؟ فقال لي عمر -رضي الله تعالى عنه-: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، فقال: ((صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته))[1] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر -رضي الله تعالى عنه- ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون.

لو كان المقصود بالقصر قصر الكيفية -كما فهم ابن جرير رحمه الله- فإنه لا يرد سؤال يعلى لعمر، وسؤال عمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- لأنهما إنما فهما من مفهوم المخالفة أنه في حال الأمن لا يجوز قصر الكمية، ودليل هذا أنه لو كان المقصود قصر الكيفية لقيل: ليس الأمر كما فهمتما -أنه لا قصر للرباعية حال الأمن- وإنما فعلاً لا تقصر الصلاة -في كيفيتها- إلا في حال الخوف فقط، ولذلك يتضح أن الأمر ليس كما فهم ابن جرير -رحمه الله- إطلاقاً، والله أعلم.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦) (ج ١ / ص ٤٧٨).

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- عن صلاة السفر فقال: ركعتان، فقلت: أين قوله تعالى: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٠١) سورة النساء] **ونحن آمنون؟ فقال: سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-**[2].

وهذا كسؤال يعلى لعمر عن القصر، وكل هذا يرجح قول الجمهور، وهو أن المراد قصر الكمية لا الكيفية.

وروى البخاري عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً، وهكذا أخرجه بقية الجماعة[3].

وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعي -رضي الله تعالى عنه- قال: صليت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- الظهر والعصر بمنى -أكثر ما كان الناس وآمنه- ركعتين، ورواه الجماعة سوى ابن ماجه، ولفظ البخاري قال: صلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- آمن ما كان- بمنىً ركعتين[4].

الحديث الأول -حديث أنس- كان في عام الفتح وليس في حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- والله أعلم.

{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [(١٠٢) سورة النساء].

صلاة الخوف أنواع كثيرة.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا لم يعتنِ ببيان الألفاظ وإنما تكلم على صلاة الخوف إجمالاً..

قوله تعالى: **{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ}** [(١٠٢) سورة النساء] هذا الخطاب لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بل هذا في صلاة الخوف عامة.

وإذا قلنا: إن الآية الأولى في قصر الكيفية -على قول ابن جرير- أعني قوله تعالى: **{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(١٠١) سورة النساء] فهذه الصلاة فيها ركوع وسجود وهي في قصر الكمية سواء على قول من قال: إن صلاة الخوف تكون ركعة لكل طائفة -وهو قول معروف قال به كثير من الصحابة ومن بعدهم- أو من قال: إن الرباعية تصلى مقصورة.

يقول تعالى: **{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ}** [(١٠٢) سورة النساء] هذا كقوله -عز وجل-: **{فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}** [(١٠٣) سورة النساء] فهناك على قول ابن جرير في حال المسايفة والالتحام مع الأعداء، وعلى قول الجمهور تكون هذه في بيان صفة صلاة الخوف كيف تصلى، فالله -عز وجل- ذكر صفة من

---

[2] - أخرجه أحمد (٦١٩٤) (ج ٢ / ص ١٣٥) والطبراني في الصغير (٩٩٧) (ج ٢ / ص ١٨٤) وفي الكبير (٦٣) (ج ١١ / ص ١١٠) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد محتمل للتحسين.

[3] - أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة - باب ما جاء في التقصير وكم حتى يقصر (١٠٣١) (ج ١ / ص ٣٦٧).

[4] - أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة - باب الصلاة بمنى (١٠٣٣) (ج ١ / ص ٣٦٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب قصر الصلاة بمنى (٦٩٦) (ج ١ / ص ٤٨٣).

صفاتها، وقد ورد لها صفات متعددة في السنة ربما تصل إلى سبع صفات أو أكثر، وذلك كله يفعل بحسب حالهم وحال عدوهم وما يحتاجون إليه توسعة من الله -عز وجل-.

قوله تعالى: {فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ} [(١٠٢) سورة النساء] هذا الخطاب ظاهره أنه موجه للطائفة التي تقوم تصلي مع أنه يحتمل -كما قال بعض المفسرين- أن الخطاب موجه للطائفة التي تقوم مواجهة للعدو، أي التي تحرس، ويحتمل أن يكون الخطاب موجهاً للجميع، والظاهر -والله أعلم- أنه يعود للطائفة المتحدث عنها وهي الطائفة التي تقوم تصلي معه؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، والمعنى أن هذه الطائفة التي تصلي يحمل أفرادها السلاح؛ ولهذا رخص الله -عز وجل- لهم في حال المطر والمرض أن يضعوا أسلحتهم، وأما الطائفة الأخرى فلا يفهم إطلاقاً أنها لا تحمل السلاح؛ لأنه إذا كان الذين يصلون يحملون السلاح فحمل السلاح بالنسبة للحراس من باب أولى؛ فالذين يقفون إنما يقفون للحراسة فلا حاجة لتنبيههم على حمل السلاح، فالمقصود أن الجميع يحملون أسلحتهم -الذين يصلون والذين يحرسون- لكن ذكر الذين يصلون؛ لأن انشغالهم بالصلاة مظنة لوضع السلاح، فأمرهم الله بحمله.

ثم قال: {فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ} [(١٠٢) سورة النساء] يعني الذين يحرسون، {وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ} [(١٠٢) سورة النساء] يعني هؤلاء يصلون معه ركعة ثم يتأخرون، ثم تأتي الطائفة التي كانت تحرس وتتقدم وتصلي معه ركعة -على اختلاف في الصيغ والصور والهيئات والكيفيات- إما على قول من قال: إنه تجزئهم ركعة واحدة، وإما على قول من قال: يصلون ركعتين، والمقصود أنهم –على القول بركعتين لكل طائفة- يتراجعون، ويتقدم الآخرون فيصلون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ركعة ثم يتمون لأنفسهم ركعة وأولئك يتمون لأنفسهم ركعة، فتكون ركعة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وركعة منفردين، وهذا كله يدل على أهمية صلاة الجماعة، كما يدل هذا على أن المجاهد أحوج ما يكون للارتباط بالله -تبارك وتعالى- فأين الذي ينام على فراشه والناس يصلون؟!

يقول تعالى: {وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} [(١٠٢) سورة النساء] يلاحظ أنه أمر بأخذ الحذر عند ذكر الطائفة الثانية ولم يذكره مع الطائفة الأولى، والسبب –والله أعلم- هو أن العدو إذا رأى الجميع يحمل السلاح ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا له، فإذا تبيّن له أنهم يصلون لم يرى من التأخر والسجود والركوع والتبديل بعد ذلك فإنه قد يقدم عليهم ويهاجمهم لذلك أمرهم بأخذ الحذر.

ويحتمل أن يكون السبب هو أن الطائفة الأخرى هي الأحرى بمزيد من الحذر؛ لأن العدو إنما يريد أن يهاجمهم قبل الفراغ من الصلاة وفرصته تكون مواتيه وهم يصلون وهو لا يريد أن يفوت هذه الفرصة، فأمرت الطائفة الأخرى بالحذر؛ لأنها آخر فرصة للعدو للإغارة؛ حيث إنهم إذا سلموا من الصلاة وانصرفوا انتهى مقصود العدو الذي كان يتربص بهم ويعرف أن لهم صلاة هي أحب إليهم من كل شيء، فالهجوم سيكون في الصلاة، فالمقصود أنه يمكن أن يقال هذا، والعلم عند الله -عز وجل-، وعلى كل حال فإن مثل هذه القضايا يستنبطها العلماء -رحمهم الله- فقد تكون صحيحة وقد لا تكون، لكن لها وجه فيما يبدو وإن كان عند التأمل يمكن أن يستخرج غير هذا السبب، فالله أعلم.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً.

طبعاً هذا المعنى يحمل على الآية السابقة: **{فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(١٠١) سورة النساء] بناء على قول ابن جرير بأن المراد بالقصر قصر الكيفية، وعليه تكون هذه الآية في حال كونهم يستطيعون إقامتها بالركوع والسجود، والله أعلم.

ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة.

ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة، لحديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم -صلى الله عليه وسلم- في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة" [رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه] وبه قال أحمد بن حنبل.

قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد، وإليه ذهب طاوس والضحاك، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً.

وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة فيجزئك ركعة واحدة تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله.

طبعاً ليس مقصود ابن راهويه بسجدة واحدة أنها ركعة -باعتبار أن الركعة يعبر عنها بالسجدة أحياناً-، وإنما قصد هنا السجود المعروف، والله أعلم

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ولنذكر سبب نزول هذه الآية أولاً قبل ذكر صفتها:

روى الإمام أحمد عن أبي عياش الزُّرَقي -رضي الله تعالى عنه- قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل -عليه السلام- بهذه الآيات بين الظهر والعصر: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ} [(١٠٢) سورة النساء] **قال: فحضرت فأمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخذوا السلاح فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ثم سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصف الذي يليه، والآخرون يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرتين، مرة بعسفان ومرة بأرض بني سليم، وهكذا رواه أبو داود والنسائي وهذا إسناد صحيح وله شواهد كثيرة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الصفة التي جاءت في حديث أبي عياش الزُّرقي حينما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعسفان هي إحدى الصفات الواردة في صلاة الخوف، فصلاة الخوف جاءت بصفات متعددة بحسب حال المسلمين مع عدوهم؛ توسعة من الله -تبارك وتعالى- عليهم، وهذه الصفات ربما تزيد على الثمان أو نحو ذلك، إذا اعتبرنا التداخل الموجود في بعض الروايات وإلا فإن الروايات في ذلك كثيرة حتى إن بعض أهل العلم كابن حزم يذكر في ذلك ستة عشر وجهاً، وبعضهم يزيد عليه، مع أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: صلاها النبي -صلى الله عليه وسلم- عشر مرات، وفي المقابل يقول ابن العربي المالكي: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاها أربعاً وعشرين مرة، فعلى كل حال إذا طرحت الروايات الضعيفة وطرح التداخل الموجود في بعض الصفات فإن العدد سيكون أقل من هذا بكثير -والله تعالى أعلم- فهي بحسب حال العدو.

ومن أسهل هذه الصفات وأوضحها أن ينقسم القوم إلى قسمين، فيصلي الإمام بطائفة منهم ركعة إذا كانت الصلاة ثنائية مثلاً -كصلاة الفجر- ثم يقوم، فتتم هذه الطائفة لنفسها ركعة ثم ترجع في مواجهة العدو، ثم تأتي الطائفة الأخرى ويصلي بهم ركعة ثم يجلس في التشهد حتى يتموا لأنفسهم ركعة، ثم يسلمون معه.

ومن الصفات القريبة من هذه أن يصلي بالطائفة الأولى ركعة ثم تبقى قائمة في مقابلة العدو وهي في الصلاة، ثم تأتي الطائفة الأخرى وتصلي معه ركعة، ثم تتم كل طائفة لنفسها، ويكون هذا الإتمام بالتناوب، بمعنى أنهم لا يتمون معاً وإلا ذهبت فائدة مشروعية صلاة الخوف.

ومن صفات صلاة الخوف إذا كان العدو بينهم وبين القبلة أن يصطفوا على صفين فيصلوا جميعاً مع الإمام ثم يركعوا ويرفعوا من الركوع معه، فإذا جاء السجود سجد الصف الأول ويبقى الصف الثاني قائماً، ثم يتقدم الصف الثاني في الركعة الثانية ويتأخر الصف الأول ثم يركعون ويرفعون معاً، فإذا جاء السجود سجد الصف الأول -الذي كان هو الصف الثاني في الركعة الأولى- ويبقى الصف الثاني في قيامهم –الذي كان هو الصف الأول في الركعة الأولى- فإذا فرغوا من سجودهم سجد الصف الثاني ثم يتشهدون معه جميعاً وينصرفون جميعاً.

ومن الصفات أن يصلي بهؤلاء ركعتين ويسلم بهم ثم يصلي بالطائفة الأخرى ركعتين جديدتين وينصرف بهم، وتكون الصلاة بالثانية بالنسبة إليه نافلة، وهكذا إذا كانت الصلاة ثلاثية –المغرب- يصلي بهؤلاء ثلاث ركعات وينصرف ويصلي بأولئك ثلاث ركعات وينصرف، وكل هذا ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وإذا كانت الصلاة من ركعتين فإنه ينتظر الطائفة الثانية وهو قائم، وإذا كانت الصلاة من أربع ركعات فإنه ينتظر في التشهد الأول وإذا كانت الصلاة من ثلاث ركعات فينتظر في التشهد الأول، يعني أن الطائفة الثانية تصلي معه ركعة واحدة.

كما ثبت أيضاً من حديث حذيفة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى صلاة الخوف ركعة واحدة، وهذه الصيغة ثابتة وصلاها حذيفة -رضي الله تعالى عنه- حينما كانوا بطبرستان، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذه الصفات بحسب الحال ففي حال الخوف الشديد أو في حال الالتحام يصلون إيماء من غير استقبال ولا ركوع ولا سجود، وإذا كانوا في حالة أخرى فينظر في مقامهم وشدة الخوف وموقع العدو فيختارون الصفة التي تكون أليق بالحال فيصلون بها.

ومن أهل العلم -كما سبق فيما أورده الحافظ ابن كثير عن إسحاق بن راهويه -رحمه الله- من يرى أنه يصلي ركعة فإن لم يستطع فسجدة، فإن لم يستطع فبتكبيرة الإحرام؛ لأنه ذكر لله -عز وجل- كما قال إسحاق -رحمه الله- فالمقصود أن كل هذه الصفات والصور لصلاة الخوف ثابتة وصحيحة، والله تعالى أعلم.

يقول أبو عياش: "**فحضرت**" يعني صلاة العصر"**فأمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخذوا السلاح فصفنا خلفه صفين**" طبعاً أخذ السلاح واجب؛ لأن ظاهر الأمر الوجوب في قوله: {وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ} [(١٠٢) سورة النساء] إلا إذا كان لهم عذر من مطر أو جراح أو مرض أو نحو ذلك ولا يبلغ هذا أن يكون شرطاً لصحة الصلاة كما قال بعض أهل العلم مثل داود الظاهري -رحمه الله- حيث يقول: إن حمل السلاح من شروط صحة صلاة الخوف، وذلك أن لها شروطاً منها: أن تكون في حال الخوف، واشترط بعضهم أن يكون ذلك في السفر ولا تصح في الحضر، وعلى كل حال هذه الشروط منها ما هو مختلف فيه، لكن عامة

أهل العلم يرون أنها تصح من غير حمل السلاح لكن يجب أخذه، فالقول بأن ذلك من شروط الصحة قول بعيد، والله تعالى أعلم.

يقول: "**فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ثم سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصف الذي يليه، والآخرون يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء**" يعني أن الجميع يصلون حتى حينما تقدموا لكن من أجل أن يحصل لهؤلاء سجود معه ابتداء من غير تأخير يتقدم هؤلاء ويتأخر أولئك، وهذا ثابت أيضاً في حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- وهذه إحدى الصفات الثابتة، والله أعلم.

فمن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قام النبي -صلى الله عليه وسلم- وقام الناس معه فكبر وكبروا معه وركع وركـــع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام الثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة ولكن يحرس بعضهم بعضاً.

يقول: "**وقام الناس معه فكبر وكبروا معه وركع وركع ناس منهم**" أي أنهم كبروا جميعاً لكن ركعت طائفة واحدة معه دون الأخرى، فهذه الصورة غير التي قبلها حيث حصلت المفارقة فيها في السجود.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه وصف خلفه، فصلى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا في مقام هؤلاء، وصلى بهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ركعة وسجدتين ثم سلم فكانت للنبي -صلى الله عليه وسلم- ركعتين ولهم ركعة، ورواه النسائي وهو في صحيح مسلم بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر -رضي الله تعالى عنه- جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسانيد.

هذه إحدى الصور الثابتة من حديث جابر، وإلا فقد ورد عن جابر -رضي الله عنه- أيضاً -بروايات صحيحة- غير هذه الصفة، وهذا موافق لحديث حذيفة -رضي الله عنه- أنهم اكتفوا بركعة واحدة ولم يتموا. وأما الإتمام فمنه أن تتم الطائفة الأولى ويقف هو ينتظر ثم تسلم وترجع إلى الحراسة، ومنه أن تتم كل طائفة لنفسها بالتناوب كما سبق.

وروى ابن أبي حاتم عن سالم عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ} [(١٠٢) سورة النساء] **قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو، فصلى بهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم من طريق معمر به، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه وكذا ابن جرير.**

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية.

وهو قول الإمام الشافعي -رحمه الله- وقد سبق أن داود الظاهري يقول: إن ذلك من شرطها.

ويدل عليه قول الله تعالى: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ} [(١٠٢) سورة النساء] أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها لا كلفة.

{إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا* فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا* وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(١٠٢-١٠٤) سورة النساء].

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ولكن هاهنا آكد؛ لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [(٣٦) سورة التوبة] وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها ولكن فيها آكد؛ لشدة حرمتها وعظمها، ولهذا قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [(١٠٣) سورة النساء] أي: في سائر أحوالكم.

ثم قال تعالى: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(١٠٣) سورة النساء] أي: فإذا أمنتم وذهب الخوف وحصلت الطمأنينة {فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} أي: فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شئونها.

هذا الوجه الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} وجه حسن، وهو أنه شُرع لهم ذلك لما وقع من التخفيف في أركان الصلاة ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الله -عز وجل- علمنا بعد الفراغ من العبادة أن نذكره كما في الأذكار بعد الصلاة حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ونحو ذلك فكذلك هؤلاء يذكرون الله -عز وجل- لكن بحسب حالهم فلا يحتاجون إلى هيئة أو جلوس أو استقبال أو نحو ذلك.

ومما يدل على ذلك أن الله تعالى شرع لنا ذكره بعد قضاء مناسك الحج فقال: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [(٢٠٠) سورة البقرة] فالمقصود أنه يُشرع للإنسان الإكثار من ذكر الله بعد هذه العبادات، ومن ذلك ذكره في الجهاد.

يقول تعالى: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(١٠٣) سورة النساء] على تفسير ابن جرير لقوله تعالى: {أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ} [(١٠١) سورة النساء] أن المراد قصر حدودها وليس قصر كميتها يفسر قوله: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(١٠٣) سورة النساء] أي أتموا حدودها بركوع وسجود.

ومن أهل العلم -كالشافعي -رحمه الله- من يرى أن قوله: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(١٠٣) سورة النساء] أي أن الصلاة التي تصلى إيماء في حال الالتحام تقضى بعد ذلك، وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [(١٠٣) سورة النساء] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي: مفروضاً، وقال أيضاً: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج، وكذا روي عن مجاهد وسالم بن عبد الله وعلي بن الحسين ومحمد بن علي والحسن ومقاتل والسدي وعطية العوفي.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ} [(١٠٤) سورة النساء] أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد.

{إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ} [(١٠٤) سورة النساء] أي: كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم كما قال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [(١٤٠) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ} [(١٠٤) سورة النساء] أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياكم من الجراح والآلام ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهو وعد حق وخبر صدق وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها.

{وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(١٠٤) سورة النساء] أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية وهو المحمود على كل حال.

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا* وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا* وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا* يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا* هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} [(١٠٥-١٠٩) سورة النساء].

يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} أي: هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} أي: إنزالاً متلبساً بالحق، وهذه الآيات نزلت بسبب، وهذا السبب وإن كان لا يخلو من جهة الرواية من ضعف إلا أن هذا الضعف قد يُجبر ويكون ذلك من قبيل الحسن -إن شاء الله- وهو ما أخرجه الترمذي -رحمه الله- في سبب نزولها من حديث قتادة بن النعمان في خبر بني الأبيرق، ولم يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا لكن أظنه في الأصل، وخلاصته أن ثلاثة هم بشير وبشر ومبشر سرقوا درعاً من رفاعة بن زيد وطعاماً له فاتُّهموا به وذهبوا إلى بعض قومهم فجاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ينفون هذه التهمة عنهم ويقولون: إن رفاعة بن زيد قد اتهمهم ونسب إليهم هذا الجرم بلا بينة، فأنزل الله -عز وجل- فيهم هذه الآيات.

وبشير هذا -أحد هؤلاء الثلاثة- كان فيه نفاق وكان يهجو أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بشعره، ثم بعد ذلك ارتد عن الإسلام مع نفاقه السابق ولحق بالمشركين، ورفاعة بن زيد كان رجلاً كبيراً في السن قد شاخ في الجاهلية، فكان إسلامه مدخولاً فحسن إسلامه بعدما نزلت هذه الآيات وجعل هذه الدروع والسلاح وما يكمل ذلك صدقة في سبيل الله.

وقوله: {لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ} [(١٠٥) سورة النساء]..

ثبت في الصحيحين عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سمع جلبة خُصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: ((ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحوٍ مما

أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها))[1].

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بيِّنة فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم تختصمون إليَّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيامة)) فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخَّيا الحق ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكم صاحبه))[2].

وقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ} الآية [(١٠٨) سورة النساء] **هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها.**

الحافظ ابن كثير –رحمه الله- لم يكمل تفسير قوله تعالى-: **{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا* وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [(١٠٥-١٠٦) سورة النساء].

قوله تعالى: **{وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا}** يعني أن مثل هؤلاء الذين سرقوا -وينطبق على كل من خان أياً كانت خيانته- فإنه لا يحسن بحال من الأحوال من المسلم المؤمن التقي أن يجعل نفسه مدافعاً عن الخائنين ومحامياً لهم بالذب عنهم والتماس المعاذير لهم ويخرِّج خياناتهم وينتصب لذلك، وإنما ينبغي عليه أن يشتغل بنفسه وبذنوبه ويستغفر الله -عز وجل- ويسأل الله -تبارك وتعالى- أن يرحمه وإلا فإن من جعل نفسه بهذه المثابة فقد يكون بمنزلتهم وحكمهم.

قد يفهم من قوله: **{وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ}** [(١٠٦) سورة النساء] أن المراد استغفر الله لما وقع -إن كان شيء من ذلك قد وقع- بحسب ما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو –عليه الصلاة والسلام- يحكم بالظاهر وليس عليه في ذلك ملامة.

قوله: **{وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ}** [(١٠٧) سورة النساء] يعني لا تدافع عنهم.

وقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ} الآية [(١٠٨) سورة النساء] **هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطلع على سرائرهم عالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [(١٠٨) سورة النساء] تهديد لهم ووعيد.**

قوله تعالى: **{إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}** [(١٠٨) سورة النساء] التبييت أصله ما يقع في الليل وهذا غالب ما يكون من الدسائس والمؤامرات، كما قال الله -تبارك وتعالى- في صفة المنافقين التي مضى الكلام عليها-: **{بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ}** [(٨١) سورة النساء] حيث إنهم إذا كانوا عند النبي -صلى الله عليه

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحيل - باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمناً (٦٥٦٦) (ج ٦ / ص ٢٥٥٥) ومسلم في كتاب الأقضية - باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣) (ج ٣ / ص ١٣٣٧).

[2] - أخرجه أحمد (٢٦٧٦٠) (ج ٦ / ص ٣٢٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٥٥).

وسلم- فإنهم يقولون له: طاعة، أي أمرنا طاعة أو شأننا طاعة، فإذا خرجوا كانوا بهذه المثابة أي {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} [(٨١) سورة النساء] ولذلك تقول: هذا أمر بُيِّت بليل، أي: دُبِّر، فالتبييت هنا بمعنى التدبير وعبر عنه بذلك؛ لأنه غالباً ما يكون بالليل فيفاجأ الناس به في الصباح.

ثم قال تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الآية [(١٠٩) سورة النساء] أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم، أي لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلا، ولهذا قال: {أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} [(١٠٩) سورة النساء].

إذا كان الدفاع عنهم قد وقع لهم في الدنيا فمن الذي يدافع عنهم ويجادل عنهم ويكون محامياً عنهم يوم القيامة حيث ينشغل كل إنسان بنفسه ويفر من أقرب الناس إليه؟!

{وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا* وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا* وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [(١١٠-١١٣) سورة النساء].

يخبر تعالى عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان، فقال تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(١١٠) سورة النساء] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه أعظم من السماوات والأرض والجبال. [رواه ابن جرير].

وروى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت إذا سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- وصدق أبو بكر- قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له)) وقرأ هاتين الآيتين: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} الآية[(١١٠) سورة النساء]، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ} الآية [(١٣٥) سورة آل عمران][3].

وقوله: {وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} الآية [(١١١) سورة النساء] كقوله تعالى: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الآية [(١٦٤) سورة الأنعام] يعني أنه لا يغني أحدٌ عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(١١١) سورة النساء] أي: من علمه وحكمته وعدله ورحمته كان ذلك.

---

[3] - أخرجه أحمد (٤٧) (ج ١ / ص ٨) وإسناده صحيح كما قال شعيب الأرناؤوط.

قوله تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} الآية [(١١١) سورة النساء] هي كقوله تعالى أيضاً: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٨) سورة فاطر]، وكقوله –تبارك وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا} [(٤٦) سورة فصلت]

يقول تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا} [(١١٢) سورة النساء] من أهل العلم من يقول: الخطيئة والإثم معناهما واحد أو متقارب، وبعضهم يفرق بينهما وهذا هو الأقرب؛ فالخطيئة يقع فيها الإنسان بطريق العمد وبغير قصد، وأما الإثم فإنه لا يكون إلا بطريق العمد، قال الله تعالى في دعاء المؤمنين: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] والله -عز وجل- قال: قد فعلت، فلا يؤاخذ الإنسان فيما أخطأ به، وهذا الفرق ذكره ابن جرير -رحمه الله-.

وبعض أهل العلم يقول: إن الخطيئة هي الصغائر والإثم هو الكبائر.

والإثم يطلق على الذنب ويطلق على ما ينتج عنه من المؤاخذة، فأنت تقول مثلاً: الكذب من الآثام، وتقول: من كذب فإنه يأثم، يعني يلحقه تبعة من هذا الفعل، ويطلق الإثم في غالب الاستعمال عند العرب على بعض الذنوب المعينة كالخمر كما قال القائل:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

يقصد ذنباً معيناً وهو الخمر.

قوله تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا} [(١١٢) سورة النساء] أي: ذنباً من الذنوب سواء كان ذلك قاصراً أو متعدياً، ولهذا قال قبله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [(١١٠) سورة النساء] فالسوء كل ما يخرج عن طاعة الله –عز وجل- ويكون من قبيل المخالفة أياً كان صغيراً أو كبيراً.

وقيل للذنب والمعصية سوءاً؛ ربما لأنها تسوء صاحبها إذا نظر إليها في صحيفة عمله، ويقابل ذلك الحسنة.

قوله: {أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [(١١٠) سورة النساء] يعني يظلم نفسه بالتقصير في طاعة الله وترك ما أمره الله به؛ فهذا من ظلم النفس وإن كان لا يعمل شيئاً في الخارج كالذي يكذب أو يسرق أو نحو ذلك من السوء، فالتقصير فيما أمر الله -عز وجل- به وترك طاعته وفعل المعصية كله من ظلم النفس، ولذلك كان ظلم النفس أعم من فعل السوء.

وفي قوله: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا} [(١١٢) سورة النساء] الخطيئة: أعم من الإثم لأنها تكون بطريق القصد وبغير قصد لكنها بغير قصد لا يؤاخذ الإنسان عليها.

{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [(١١٣) سورة النساء] أي: قبل نزول ذلك عليك، كقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ} [(٥٢) سورة الشورى] إلى آخر السورة.

يقول: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ} [(١١٢) سورة النساء] ما قال: يرم بهما وإنما وحَّد الضمير، فإما لأنه يعود إلى الكسب أي: ومن يكسب ثم يرم بما اكتسب، أو لأنه يعود على الإثم يعني يرم بالإثم، فالضمير إما أن يعود على الكسب أو الإثم؛ لأنه لو كان على الخطيئة لكان قال: ثم يرم بها إلا أن يقال: إنه يعود إلى الخطيئة والإثم معاً وذكَّر الضمير تغليباً فهذا معروف في كلام العرب، أو يقال: إنه جعل الضمير مذكراً باعتبار "أو" بمعنى أنه يكسب واحداً منهما، والله أعلم.

{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [(١١٣) سورة النساء] **أي: قبل نزول ذلك عليك، كقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ}** [(٥٢) سورة الشورى] **إلى آخر السورة.**

قوله: **{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}** [(١١٣) سورة النساء] أي أن الله -عز وجل- أنزل عليك كتابه ووحيه.

وهذه الآية كقوله -عز وجل-: **{مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}** [(٥٢) سورة الشورى] وكقوله: **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}** [(٧) سورة الضحى] يعني عن الوحي والنبوة فأنزل الله -عز وجل- عليك هذا الوحي والكتاب.

ويحتمل أن يكون قوله: **{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}** [(١١٣) سورة النساء] يعني حيث أطلعك الله -عز وجل- على جلية الأمر في هذه القضية التي أرادوا فيها أن يضللوك عن وجه الصواب والحق لتحكم فيها بغير ذلك.

وقال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [(٨٦) سورة القصص] **ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}** [(١١٣) سورة النساء].

يقول تعالى: **{وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [(١١٣) سورة النساء] الحكمة إذا ذكرت مع الكتاب فهي السنة، وإذا ذكرت مفردة فمن أهل العلم من يفسرها بالنبوة في بعض المواضع، ومنهم من يفسرها بالفقه في الدين أو العلم بالقرآن، ومن أهل العلم من يجمع هذه المعاني ويعيدها إلى شيء واحد -كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-، فيرجع ذلك إلى الفقه في الدين والعلم بالشرع، ولا شك أن ذلك أوفى ما يكون في النبوة، وما يعلمه الناس من هذا فإنما يكون عن طريق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

وهذه الحكمة تكون علمية وعملية، فالحكمة العملية هي وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، ويمكن أن يعبر عن الحكمة بأنها الإصابة في القول والعمل، ويمكن أن يقال: الحكمة العلمية هي معرفة الحق، والحكمة العملية هي العمل به على الوجه الصحيح، بمعنى وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، فالفقه في الدين هو الحكمة العلمية وإيقاع الشيء في موقعه ووضعه في موضعه هو الحكمة العملية والإنسان يحتاج إلى علم بحدود ما أنزل الله -عز وجل- ويحتاج إلى عقل، أما أن يكون عنده علم لكنه لا يضع الشيء في موضعه، فلا يتكلم حيث يحسن الكلام ولا يسكت حيث يحسن السكوت، ولا يقدم حيث يحسن الإقدام، فهذا وإن كان عنده علم إلا أنه قد يفسد أكثر مما يصلح، وقد يكون عند الإنسان عقل لكن لا علم له، وإنما يحصل الكمال بهما معاً، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا* وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا}

[(١١٤-١١٥) سورة النساء].

يقول تعالى: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ} يعني كلام الناس {إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ} أي: إلا نجوى من قال ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة -رضي الله تعالى عنها- أنها سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينْمِي خيراً أو يقول خيراً)) وقالت: لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث، في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها، قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه[1].

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟)) قالوا: بلى يا رسول الله قال: ((إصلاح ذات البين)) قال: ((وفساد ذات البين هي الحالقة)) ورواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي حسن صحيح[2].

ولهذا قال: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} [(١١٤) سورة النساء] أي: مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله -عز وجل- {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [(١١٤) سورة النساء] أي: ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- يقول هنا: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ} [(١١٤) سورة النساء] وفي الآية الأخرى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [(١٠) سورة المجادلة] وفُسِّر هناك بأنها نجوى المنافقين؛ لأن الله

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٥٤٦) (ج ٢ / ص ٩٥٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥) (ج ٤ / ص ٢٠١١).

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب فى إصلاح ذات البين (٤٩٢١) (ج ٤ / ص ٤٣٢) والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ٥٦ (٢٥٠٨) (ج ٤ / ص ٦٦٣) وأحمد (٢٧٥٤٨) (ج ٦ / ص ٤٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٩٥).

-عز وجل- قال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} [(٨) سورة المجادلة].

وبعضهم يقول: هي نجوى اليهود، ولا شك أن تلك الآيات في اليهود؛ لقرينة قوله: {حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} [(٨) سورة المجادلة].

والنجوى المذمومة لا تختص بنجوى اليهود وإنما يدخل فيها كل نجوى من شأنها أن تورث فساداً -وهذا هو الغالب- فالنجوى إما أن تكون بأمر مباح، وإما أن تكون في طاعة كما ذكر الله -عز وجل- هنا، وإما أن تكون على وجه الإفساد في أمر محرم، وقد تكون النجوى في أمر مباح أو في طاعة ولكنه لا يلتزم شرطها، حيث إن النبي -صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه)) فتكون محرمة بهذا الاعتبار.

وحقيقة النجوى يمكن أن يقال: هي الكلام الذي يكون بين طرفين بقصد الانفراد عن الناس أو هو حديث الناس الذي يقصدون به الانفراد عن الآخرين سواء كان ذلك سراً أ و مجهوراً به، بمعنى أنه يتكلم بصوت مرتفع أو أنه يخفض صوته فهذا لا يؤثر وإنما ما يقصدون به الانفراد فإنه يكون من قبيل النجوى، وقد قيل: إن أصله من النجوى وهو المكان المرتفع من الأرض.

يقول –عليه الصلاة والسلام-: ((ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمِي خيراً)) تقول: نمى الحديث يعني نقله على وجه الإصلاح، فالكلام الذي ينقل على وجه الإصلاح يقال نماه، والكلام الذي ينقل على وجه الإفساد يقال: نمّه يعني أن ناقله نمَّام.

وقوله: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} [(١١٥) سورة النساء] أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول -صلى الله عليه وسلم- فصار في شق والشرع في شق وذلك عن عَمْد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٥) سورة النساء] هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فإنه قد ضُمِنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ؛ تشريفًا لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة.

وقد توعد تعالى على ذلك بقوله: {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [(١١٥) سورة النساء] أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسِّنها في صدره ونزينها له -استدراجًا له- كما قال تعالى: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [(٤٤) سورة القلم] وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(٥) سورة الصف] وقوله: {وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١١٠) سورة الأنعام].

وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} الآية [(٢٢) سورة الصافات] وقال: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [(٥٣) سورة الكهف].

قوله تعالى: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ} [(١١٥) سورة النساء] يعني المنازعة والمخالفة.

وقوله: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٥) سورة النساء]: هناك نصوص أخرى تدل على هذا المعنى منها قول الله -عز وجل-: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥١) سورة النـــور] وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [(٣٦) سورة الأحزاب].

وقوله: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٥) سورة النساء] هذه قضايا متلازمة، بمعنى أنه إذا شاقق الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

وقوله: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٥) سورة النساء] هذه من الآيات التي استدل بها العلماء -لا سيما الشافعي -رحمه الله- في كتاب الرسالة- على صحة الإجماع.

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا* إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا* لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا* وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا* يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا* أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا* وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} [(١١٦-١٢٢) سورة النساء].

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} [(٤٨) سورة النساء] وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة.

وقوله: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [(١١٦) سورة النساء] أي: فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبعُد عن الصواب وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا} [(١١٧) سورة النساء] قال جُوَيْبِر عن الضحاك في الآية: قال المشركون: إن الملائكة بنات الله وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً وصوروهن صور الجواري فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يُشْبِهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة.

وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} الآيات [(١٩) سورة النجم].

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في قوله: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا} [(١١٧) سورة النساء] هو أحد الأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله عنهم، أي أن المشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله، وعبدوهم من دون الله -تبارك وتعالى- ولم يكن ذلك في جميع العرب، بل من العرب من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الأصنام.

"**قال: فاتخذوهن أرباباً وصوروهن صور الجواري**" أي: جعلوهم على صورة الجواري -هذا أحد الأقوال- وطائفة تقول: إن المراد من قوله: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا} [(١١٧) سورة النساء] أي أن مع كل صنم جنيّة كما جاء في الحديث الصحيح المخرج في البخاري أو في الصحيحين في قطع خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- للسَّمُرات حين بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح والتي يسمونها بالعزى حيث

قطعها -رضي الله تعالى عنه- ثم رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه ما فعل شيئاً، ثم رجع إليها بعد ذلك ورأى امرأة سوداء نافشة شعرها تدعو بالويل فعلاها بالسيف وقتلها وحرق أصول السَّمُرات، فرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره فقال: ((تلك العزى))[3] أي أنها تلك الجنيّة أو الشيطانة التي ظهرت لخالد –رضي الله عنه-.

وثبت في التاريخ في قصص العرب وفي أخبارهم التي دونت في الكتب أنهم كانوا يسمعون أصواتاً من هذه الأصنام ترد عليهم وربما أجابتهم وخاطبتهم وهي تلك الشياطين التي كانت وراء هذه المعبودات.

وبعضهم يقول: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا} [(١١٧) سورة النساء] يعني كل صنم وكل معبود وكل شجر أو حجر يعبدونه فيه جنيّة فهذا حقيقته، ولهذا قال: {وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا} [(١١٧) سورة النساء].

وبعضهم يقول: إن العرب كانوا يسمون هذه المعبودات بالإناث، يقولون: أنثى بني فلان يعني معبود بني فلان، وهذا وإن ذكره بعض التابعين إلا أنه لا يصح من جهة الرواية وقد كانوا يذكرونه على أنه سبب النزول لكنه من قبيل المرسل.

وبعضهم يقول غير هذا، ولعل من أوضح ما يقال فيها هو ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن المراد بها أنهم سموها باللات والعزى، واللات والعزى أسماء مؤنثة، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} [(١٩-٢٠) سورة النجم] فكل هذه أسماء مؤنثة وهي معبودات العرب في الجاهلية.

قال: {وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا} [(١١٧) سورة النساء] يعني إن يعبدون إلا شيطاناً مريدا؛ لأنه هو الذي دعاهم إلى ذلك وزينه لهم، فكل من لم يعبد الله -عز وجل- فقد عبد الشيطان، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [(٦٠) سورة يـــس] فهؤلاء يعاتبهم الله -عز وجل- بعبادتهم هذه الأصنام واعتبر ذلك عبادة للشيطان، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [(٤٤) سورة مريم].

على كل حال كل من أطاع الشياطين واتبع نظاماً غير نظام الله -عز وجل- الذي شرعه للعبادة فقد عبد الشيطان كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] فجعل طاعتهم إشراكاً به -سبحانه وتعالى- مع أن هذه الآية إنما سبب نزولها هو ما يتعلق بأكل الميتة حيث كان المشركون يقولون: ما ذبحتموه بأيديكم تقولون: حلال، وما ذبحه الله بيده الشريفة تقولون: حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله! فأنزل الله -عز وجل-: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] يعني حتى لو أطاعوهم في هذه الجزئية -حل الميتة- فإن ذلك يكون إشراكاً، فكيف إذا أطاعوهم فيما هو أعظم من هذا وأكثر من هذا وحكّموا فيهم شرعاً غير شرع الله -تبارك وتعالى- في كل شيء وسموه قانوناً ونظاماً؟! إنهم يعبدون الشيطان بذلك، والله المستعان.

---

[3] - أخرجه النسائي في الكبرى - كتاب التفسير – باب تفسير سورة النجم (١١٥٤٧) (ج ٦ / ص ٤٧٤) وأبو يعلى (٩٠٢) (ج ٢ / ص ١٩٦).

قوله: "**وصوروهن صور الجواري فحكموا وقلدوا**" يبدو أن هذه لعبارة محرفة وأن الصواب "**فحلوا وقلدوا**" والمعنى أنهم جعلوا هذه الأصنام تماثيل -صور جواري- ووضعوا عليها الحلي وقلدوها القلائد، هذا هو المعنى الظاهر، والله أعلم.

وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} [(١٩) سورة النجم] الآيات، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} الآية [(١٩) سورة الزخرف] وقال: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [(١٥٨) سورة الصافات] الآيتين.

وقوله: {وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا} [(١١٧) سورة النساء] أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} الآية [(٦٠) سورة يــــس].

وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [(٤١) سورة سبأ].

وقوله: {لَّعَنَهُ اللّهُ} [(١١٨) سورة النساء] أي: طرده وأبعده من رحمته وأخرجه من جواره.

{وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} [(١١٨) سورة النساء] أي: مُعيّنا مقدَّرًا معلومًا.

قال مقاتل بن حيان: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة.

قوله: {لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} [(١١٨) سورة النساء] الفرض أصله التقدير، والمعنى أن من اتبعه من بني آدم فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، وهذا المعنى ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وذكر طائفة من المفسرين من أصحاب المعاني كالزجاج والفراء وأمثالهما ذكروا معانيَ قريبة من هذا، وما ذكره الحافظ ابن كثير أيضاً وهو قوله: "أي: **مُعَيَّنا مقدَّرًا معلومًا**" لا يخرج عن هذه المعاني.

وهذا النصيب المفروض هم الذين أطاعوه واتبعوه وهم الأكثرية كما دلت عليه هذه الآيات، وقد تحقق له ما ظنه بما عرفه من طبيعة بني آدم.

وحينما طرده الله -عز وجل- من رحمته طلب الإمهال إلى يوم الدين، فلما أمهله الله -عز وجل- قال: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً} [(٦٢) سورة الإسراء] فذكر أنه يجهد ويجد ويجتهد في إضلال الناس، وأنه سيضل أكثر الخلق إلا قليلاً، وبين أن هؤلاء القليل هم المخلصون فقال: {إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٤٠) سورة الحجر].

وبين الله -عز وجل- في موضع آخر أن ظنه هذا قد تحقق لما قال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٧) سورة الأعراف] قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [(٢٠) سورة سبأ] فحصل ما أمله فاتبعه أكثر الخلق، قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام].

{وَلأُضِلَّنَّهُمْ} [(١١٩) سورة النساء] أي: عن الحق {وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ} [(١١٩) سورة النساء] أي: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأماني وآمرهم بالتسويف والتأخير وأغرهم من أنفسهم.

كل المعاني التي ذكرها السلف في قوله: {وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ} صحيحة؛ فهو يمنيهم بطول العمر وأنهم سيتوبون، ويمنيهم بأن لهم الدار الآخرة، ويمنيهم بتحقيق الآمال وتحصيل المطالب من غير جدٍ ولا عمل، ويمنيهم بأن الله -عز وجل- غفور رحيم، وأنه لا ينتفع من تعذيبهم، ويمنيهم أيضاً بالشفاعة، وهكذا يمنيهم بكل ما يمنى به المبطل، والمبطل هذا تارة تكون أمانيه من قبيل الأمور الدنيوية، وتارة تكون في قضايا أخروية، وتارة من غير عمل وتسبُّب لتحصيل ذلك، فهذا كله داخلٌ في هذه الأماني، وكل ما ذكره السلف مما يمني الشيطان به الناس فهو من قبيل التفسير بالمثال، ولذلك لا حاجة للترجيح بين هذه المعاني التي يذكرونها.

وقوله: {وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ} [(١١٩) سورة النساء] قال قتادة والسدي وغيرهما: يعني تشقيقها، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسآئبة والوصيلة.

البتك هو القطع، ويقصد به هنا قطع أذن البحيرة والسائبة والوصلية وما أشبه ذلك مما يسيبونه للطواغيت.

في قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} [(١٠٣) سورة المائدة] هذه عقائد جاهلية عندهم حيث كانوا يُبَحِّرون البحائر ويسيبون السوائب ويحمون الحام وهو البعير الذي يتركونه بعد أن ضرب الضراب المعروف حيث يقولون قد حمى ظهره، والمقصود أن عندهم أشياء معينة إذا حصلت فإنهم يسيبون هذه السوائب للطواغيت فلا ينتفعون بدرِّها ولا بلحمها ولا بوبرها ولا غير ذلك، وهذا كله مما افتروه على الله -عز وجل-.

{وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ} [(١١٩) سورة النساء] قال الحسن ابن أبي الحسن البصري: يعني بذلك الوَشْم، وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظٍ: ((لعن الله من فعل ذلك))[4].

قوله: {وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ} [(١١٩) سورة النساء] منهم من فسره بالوشم، ومنهم من فسره بما يفعلونه بهذه البهائم من التغيير والتبديل، ومنهم من فسره بغير هذا، وكل ذلك داخل فيه، ويمكن أن يفسر بتفسير يشمل ذلك جميعاً وهو ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ومال إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في الأضواء بأن المراد بقوله: {فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ} [(١١٩) سورة النساء] أي ليغيرن دين الله، ويدخل في تغيير دين الله -عز وجل- قطع آذان البهائم، وما يفعلونه بالبحيرة والسائبة والوصيلة، ويدخل فيه كذلك الوشم المعروف والوشر وهو برد الأسنان بالمبرد بحيث تكون متساوية وتجعل متفرقة بطريقة متناسقة بحثاً عن الحسن والجمال، وكل ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه فهو من تغيير دين الله -عز وجل- وهذا قال به طائفة من السلف كابن عباس وإبراهيم النخعي ومجاهد والحسن والضحاك وقتادة وسعيد بن المسيب وغيرهم، ويؤيده قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [(٣٠) سورة الروم] يعني لا تبديل لدين الله، ويدخل فيه قول النبي -صلى الله

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب الوصل في الشعر (٥٥٨٩) (ج ٥ / ص ٢٢١٦) ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله (٢١٢٤) (ج ٣ / ص ١٦٧٧).

عليه وسلم-: ((ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) ثم ذكر البهيمة فقال: ((كما تنتج بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟))[٥].

وفي الصحيح عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: "لعن الله الواشمات والمستوشِمات، والنامصات والمُتَنَمِّصَات، والمُتَفَلِّجات للحُسْن المغيّرات خَلْقَ الله -عز وجل-" ثم قال: "ألا ألعن من لعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في كتاب الله -عز وجل-؟ يعني قوله: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [(٧) سورة الحشر][٦].

وقوله تعالى: {وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا} [(١١٩) سورة النساء] أي: **فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها.**

وقوله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [(١٢٠) سورة النساء] **وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}** [(١٢٠) سورة النساء] **كما قال تعالى مخبرًا عن إبليس يوم المعاد: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ}** [(٢٢) سورة إبراهيم] **إلى قوله: {إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [(٢٢) سورة إبراهيم].

يقول تعالى: **{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ}** [(١٢٠) سورة النساء] الفرق بين الوعد والتمنية أنه يعدهم الباطل ويمنيهم المحال، فالأماني عادة تكون في الأشياء المستعبدة الوقوع أو الأشياء التي يستحيل وقوعها أصلاً.

قوله: **{وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}** [(١٢٠) سورة النساء] الغرور كل شيء ظاهره مستحسن وباطنه يضر، فالشيطان يزين لهم الباطل ويزين لهم معصية الله -تبارك وتعالى- ويجذب نفوسهم إليه وهو عين ما يضرهم، وفيه عطبهم وهلاكهم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٢) (ج ١ / ص ٤٥٦) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الحشر (٤٦٠٤) (ج ٤ / ص ١٨٥٣) ومسلم في كتاب اللباس والزينة – باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله (٢١٢٥) (ج ٣ / ص ١٦٧٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٣٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- تعالى-: وقوله: {أُوْلَئِكَ} أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} أي: مصيرهم ومآلهم يوم القيامة {وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [(١٢١) سورة النساء] أي: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص ولا مناص.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(١٢٢) سورة النساء] أي: صدّقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات.

{سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} أي: يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي: بلا زوال ولا انتقال.

{وَعْدَ اللّهِ حَقًّا} أي: هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله: {حَقًّا}.

ثُمَّ قَالَ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} [(١٢٢) سورة النساء] أي: لا أحد أصدق منه قولاً وخبرًا، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في خطبته: ((إن أصدق الحديث كلام الله وخير الهَدْي هَدْي محمد -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور مُحْدَثَاتها، وكل مُحْدَثَة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار))[1].

{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا* وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا* وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا} [(١٢٣-١٢٦) سورة النساء].

قال قتادة: ذُكرَ لنا أنّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [(١٢٣) سورة

[1] - أصل الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧) (ج ٢ / ص ٥٩٢) وهو عند غيره بألفاظ متقاربة.

النساء] {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ} الآية [(١٢٥) سورة النساء] ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان.

وكذا روي عن السّدي ومسروق والضحاك وأبي صالح وغيرهم، وكذا رَوَى العَوْفيّ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في هذه الآية: تخاصَمَ أهل الأديان فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام وكتابنا نَسَخَ كلّ كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأُمرْتُم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا، فقضى الله بينهم وقال: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} الآية [(١٢٣) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآثار التي ذكرها في سبب النزول جاءت عن مثل هؤلاء التابعين -رحمهم الله- فهي من قبيل المراسيل والمرسل نوع من الضعيف، ثم إن رواية العوفي عن ابن عباس معلوم أنها من الطرق الضعيفة ولو صح ذلك لكان بيّناً أن قوله: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ} [(١٢٣) سورة النساء] يعني أماني المسلمين، ولذلك لم يتفق أهل العلم على أن هذا هو المعنى لهذه الآية، فأبو جعفر بن جرير -رحمه الله- يربط هذه الآية بما قبلها، فالشيطان قال: {لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} [(١١٨) سورة النساء] وهم أتباعه وأولياؤه من أهل الإشراك، وقال: {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ} [(١١٩) سورة النساء] وهذه كما سبق هي في البحيرة والوصيلة والسائبة التي كان يجعلها المشركون، ولذلك فإنه -رحمه الله- يرى أن قوله: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ} يعني أيها المشركون من قريش، ويحتج على هذا بأنه لم يرد ذكر أماني للمسلمين وإنما ذكرت أماني الشطيان الذي قال: ولأضلنهم ولأمنينهم.

وأما أماني أهل الكتاب فقد ذكرها عز وجل- في هذه الآية {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [(١٢٣) سورة النساء] وذكرها في مواضع أخرى من القرآن كقوله تعالى: {قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٤) سورة آل عمران] وكقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] وكقوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] وأشباه ذلك من الأماني.

وبالنسبة للعرب فقد ورد قول الله -عز وجل- عنهم: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [(٣٥) سورة سبأ] وقال تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [(٣٧) سورة المؤمنون].

والحاصل أن هذه الآية {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [(١٢٣) سورة النساء] تقرر معنىً وهو أن كل من تمنى على الله الأماني من غير أن يكون له رصيد من العمل الذي يقربه إلى الله -تبارك وتعالى- فإنه لا تنفعه تلك الأماني؛ لأن ما عند الله لا ينال بأمانيه، ويدخل في ذلك أماني أهل الإشراك من العرب ويدخل فيها أماني المخاطبين عموماً كما يدل على ذلك ظاهر هذا الخطاب، وكما تدل عليه تلك الروايات والمراسيل وإن كانت لا تخلو من ضعف كرواية العوفي عن ابن عباس، والله أعلم.

والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس كُلّ من ادعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: إنه هو المُحق سُمِع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال تعالى: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}

[(١٢٣) سورة النساء] أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده: {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} كقوله: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧-٨) سورة الزلزلة].

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-.

روى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلت يا رسول الله إني لأعلم أشد آية في القرآن فقال: ((ما هي يا عائشة؟)) قلت: {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} فقال: ((هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النَّكْبَة يَنْكُبها)) [رواه ابن جرير وأبو داود][2].

روى سعيد بن منصور أن أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [(١٢٣) سورة النساء] شقَّ ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يُشَاكها والنَّكْبَة يَنْكُبُهَا)) وهكذا رواه أحمد عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذي والنسائي[3].

وقوله: {وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [(١٢٣) سورة النساء] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-: "إلا أن يتوب فيتوب الله عليه" [رواه ابن أبي حاتم].

وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} الآية [(١٢٤) سورة النساء] لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا -وهو الأجود له- وإما في الآخرة -والعياذ بالله من ذلك ونسأله العافية في الدنيا والآخرة والصفح والعفو والمسامحة- شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذُكْرَانهم وإناثهم بشرط الإيمان وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة وهذا النقير، وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن.

ثم قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ} [(١٢٥) سورة النساء] أخلص العمل لربه -عز وجل- فعمل إيمانًا واحتساباً.

قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا} هذا الاستفهام مضمن معنى النفي، والمعنى لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، وإسلام الوجه لله هو انقياده وإذعانه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

{وَهُوَ مُحْسِنٌ} [(١٢٥) سورة النساء] أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متبعًا للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً

---

2 - أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز - باب عيادة النساء (٣٠٩٥) (ج ٣ / ص ١٥١) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة.

3 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٤) (ج ٤ / ص ١٩٩٣).

جاهلاً، ومتى جمعهما فهو عملُ المؤمنين {الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ} الآية [(١٦) سورة الأحقاف].

يعني أن قوله: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا} يتضمن الإخلاص، وقوله: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} يتضمن المتابعة، والآية التي قبلها: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [(١٢٤) سورة النساء] تضمنت الشرط الثالث مع الشرطين وهو أن يكون على قاعدة صحيحة وهي قاعدة الإيمان، يعني أن العمل يكون صالحاً إذا كان خالصاً صواباً وصادر من مؤمن، وعلى هذا لو أن شخصاً من عُباد القبور أو من اليهود والنصارى صام يوماً كما شرع الله -عز وجل- وأراد بذلك وجه الله -فهو لم يراءِ وصام على السنة- فإنه لا يقبل منه هذا العمل؛ لأنه فقد الشرط الثالث الذي هو الإيمان، ومما يدل على ذلك قوله -عز وجل-: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} [(٨٥) سورة آل عمران].

ولهذا قال تعالى: {واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٢٥) سورة النساء] وهم محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وأتباعه إلى يوم القيامة كما قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ} الآية [(٦٨) سورة آل عمران].

قوله تعالى: {واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٢٥) سورة النساء] هذا هو الشرط الثالث أيضاً، والحنف أصله الميل، والمعنى أنه مائل عن سائر الأديان إلى دين الإسلام، وقد سبق الكلام على هذا المعنى، وأن الأحنف سمي أحنفَ لحنف في رجله، وقد قالت أم الأحنف وهي ترقص ابنها:

والله لولا حنف في رجله ... ما كان في فتيانكم من مثله

فأصل الحنف ميل في القدم، بحيث تميل كل واحدة إلى الأخرى.

وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٣) سورة النحل] والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً أي: تاركًا له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد.

قال: "أي: **تاركًا له عن بصيرة**" لأن الإنسان قد لا يشتغل بالشرك ولكنه لا يرفع رأسا للدين الحق، وإذا تأملت ودققت تجد أن هذا الإنسان يعبد هواه، وقد قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [(٤٣) سورة الفرقان].

والمقصود أنه ذكر مثل هذا القيد باعتبار أن من الناس من لا يشرك بالله؛ لأنه لا يرفع رأساً للعبادة أصلاً أي لا لله ولا لغير الله، وأما من يترك عبادة غير الله قصداً فإنه يكون عابداً لله، والله أعلم.

وقوله: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [(١٢٥) سورة النساء] وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يُقتدى به؛ حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة؛ وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [(٣٧) سورة النجم] وقال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} الآية [(١٢٤) سورة البقرة] وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٠) سورة النحل] الآية والآية بعدها.

وروى البخاري عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً -رضي الله تعلى عنه- لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [(١٢٥) سورة النساء] فقال رجل من القوم: "لقد قَرّت عينُ أم إبراهيم" وإنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه -عز وجل- له؛ لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها.

المحبة إذا اشتدت وتخللت شغاف القلب قيل لها: خُلّة؛ وفي كلام العرب أن المحبة إذا داخلت خلل القلب ولم تترك جزءاً منه إلا دخلت فيه قيل لها خلة.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر مراتب المحبة في روضة المحبين ونقلها عن ابن القيم شارح الطحاوية، وكل درجة من درجات المحبة لها تسمية عند العرب، وأعلى ذلك الخلة.

ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: ((أما بعد: أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله))[٤].

وجاء من طريق جُنْدُب بن عبد الله البَجَلي وعبد الله بن عَمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهم جميعاً- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً))[٥].

وقوله: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(١٢٦) سورة النساء] أي: الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك لا رادَّ لما قضى ولا معقب لما حكم ولا يُسأل عما يفعل؛ لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته.

وقوله: {وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا} [(١٢٦) سورة النساء] أي: علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعْزُب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى.

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} [(١٢٧) سورة النساء].

روى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ} [(١٢٧) سورة النساء] إلى قوله: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} [(١٢٧) سورة النساء] قالت عائشة: "هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شَركته في ماله حتى في العَذْق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية" وكذلك رواه مسلم[٦].

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت متخذا خليلاً)) (٣٤٥٦) (ج ٣ / ص ١٣٣٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (٢٣٨٣) (ج ٤ / ص ١٨٥٥).

[5] -أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد (٥٣٢) (ج ١ / ص ٣٧٧).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير- باب تفسير سورة النساء (٤٣٢٤) (ج ٤ / ص ١٦٧٩)ومسلم في كتاب التفسير (٣٠١٨) (ج ٤ / ص ٢٣١٣).

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: ثم إن الناس استفْتَوْا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} الآية [(١٢٧) سورة النساء] **قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب: الآية الأولى التي قال الله: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** [(٣) سورة النساء].

وبهذا الإسناد عن عائشة قالت: "وقول الله -عز وجل-: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} [(١٢٧) سورة النساء] **رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن" وأصله ثابت في الصحيحين**[٧].

هذه الآية سبق الكلام على شيء مما يتعلق بها في أول السورة عند قوله تعالى: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** [(٣) سورة النساء] وقول عائشة -رضي الله عنها- هو من أحسن ما تفسر به هذه الآية وتلك، أي أن قوله: **{وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء}** [(١٢٧) سورة النساء] المراد به ما ذكره الله بقوله: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** [(٣) سورة النساء] أي: هذا هو الذي يتلى عليهم في الكتاب.

وقوله: **{وَمَا يُتْلَى}** في محل رفع عطفاً على لفظ الجلالة -الفاعل- على قول عائشة -وهو الأرجح من أقوال المسفرين- ويكون المعنى بهذا الاعتبار هكذا: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ويفتيكم فيهن أيضاً ما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، يعني أنكم تتبينون أحكام النساء مما يفتيكم به الله وما تجدونه في كتابه –جل وعلا- كقوله تعالى في شأن اليتيمات: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}** [(٣) سورة النساء].

هذا أحسن ما تفسر به هذه الآية -والله أعلم- وهو أحسن من جعل قوله: **{وَمَا يُتْلَى}** مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في قوله: **{قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}** [(١٢٧) سورة النساء].

وعلى هذا التقدير الأخير يكون المعنى: يفتيكم فيهن ويفتيكم فيما يتلى عليكم، إلا أن هذا فيه بعد؛ لأن ما بينه الله -عز وجل- في كتابه مبين عن الأحكام لا أن الله -تبارك وتعالى- يفتي الناس فيما نزّل عليهم.

ويستبعد هذا المعنى أيضاً من جهة الإعراب وإن كان قد يرد في اللغة وجاءت به بعض الأبيات من كلام العرب شواهد لكن فيه كلام كثير وهو هل يصح عطف الظاهر على الضمير بمعنى هل يصح أن يقال: إن قوله: يتلى معطوف على الضمير – الهاء في قوله فيهن- أو لا يصح؟

كثير من أئمة اللغة منعوا منه، والواقع أنه ورد ولكنه قليل في كلام العرب، وبغض النظر في هذا فهو كما سبق المعنى الظاهر -والله تعالى أعلم- **{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}** [(١٢٧) سورة النساء] ويفتيكم فيهن ما يتلى عليكم في الكتاب.

وقوله تعالى: **{اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ}** يعني كمثيلاتهن من المهور والنفقات.

---

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة - باب شركة اليتيم وأهل الميراث (٢٣٦٢) (ج ٢ / ص ٨٨٣) وفي كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٢٩٨) (ج ٤ / ص ١٦٦٨) ومسلم في كتاب التفسير (٣٠١٨) (ج ٤ / ص ٢٣١٣).

وقوله: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} تحتمل معنيين: الأول: أن يكون المقدر "في" فيكون المعنى وترغبون في نكاحهن، والثاني: أن يكون المقدر "عن" فيكون المعنى وترغبون عن نكاحهن.

والآية تحتمل هذا وهذا بحيث إذا كانت جميلة أو ذات مال رغبوا في نكاحها ولا يعطونها مهر مثيلاتها بل يهضمونها؛ لأنها يتيمة، وإذا كانت لا جمال فيها ولا مال فربما رغبوا عن نكاحها وربما عضلها وليها؛ لأنها تشركه في ماله، أو يكون الحال كما كان أهل الجاهلية يفعلون إذا مات الميت ألقي وارثه عليها ثوباً فحبسها بحيث لا تستطيع التصرف بنفسها، فإن كان يرغب في التزوج منها تزوج وإلا أبقاها من أجل أن يأخذ هذا الميراث الذي قدر لها، فلا تذهب إلى أحد آخر ولا تذهب لأهلها.

والقاعدة أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة؛ ولذلك يقال في قوله تعالى: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} الآية: نهاهم الله عن ظلم هؤلاء النسوة اليتيمات في حالة الرغبة بالزواج منهن وفي حالة الرغبة عنهن، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله -عز وجل- أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله -عز وجل- وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لدمامَتِها عنده أو في نفس الأمر فنهاه الله -عز وجل- أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يَشْركوه في ماله الذي بينه وبينها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في الآية وهي قوله: {فِي يَتَامَى النِّسَاء} الآية [(١٢٧) سورة النساء]**: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك بها لم يقدر أحد أن يتَزَوّجها أبدًا فإن كانت جميلة وهويها تَزَوَّجَها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدا حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فَحَرَّم الله ذلك ونهى عنه.**

وقال في قوله: {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ} [(١٢٧) سورة النساء] **كانوا في الجاهلية لا يورثُّون الصغار ولا البنات وذلك قوله: {لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ}** [(١٢٧) سورة النساء] **فنهى الله عن ذلك وبيَّن لكل ذي سهم سهمه فقال: {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}** [(١١) سورة النساء] **صغيرًا أو كبيرًا، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره.**

وقال سعيد بن جبير في قوله: {وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} [(١٢٧) سورة النساء] **كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثر بها.**

وقوله: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} [(١٢٧) سورة النساء] **تهييجًا على فعل الخيرات وامتثال الأمر وإن الله -عز وجل- عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمَّه.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فذكرنا بالأمس أن قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} [(١٢٧) سورة النساء] يشمل المعنيين اللذين ذكرهما المفسرون من السلف ومن بعدهم وهما: الرغبة عن نكاحها والرغبة في نكاحها.

وقلنا: إن فيه مقدراً محذوفاً هو إما "في" وإما "عن" وعلى كل حال فالقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

وقوله: {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ} [(١٢٧) سورة النساء] ذكر هنا أنهم كانوا لا يورثون الصغار مثلاً ويدخل فيه أيضاً كل من يصدق عليه هذا الوصف بأنه من المستضعفين كاليتامى الذين أوصى الله -عز وجل- بهم فقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] وكقوله: {قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} [(٢٢٠) سورة البقرة] وقوله: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ } [(٩) سورة الضحى] وما شابه ذلك.

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا* وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} [(١٢٨-١٣٠) سورة النساء].

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً عن حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها.

فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من الحقوق عليه.

قوله: {فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} [(١٢٨) سورة النساء] يعني أن يتفقا على شيء يحصل به بقاؤها في عصمة الزوجية بإسقاط بعض حقوقها.

يقول -تبارك وتعالى-: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [(١٢٨) سورة النساء] الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز هو الترفع، فيمكن أن يقال -والله أعلم-: {خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا} أي خافت منه ترفعاً عنها؛ لأنه لا رغبة له فيها مما يؤدي إلى حصول تقصير في حقها أو ظلم لها أو استطالة عليها أو نحو ذلك، فهو يستعلي عليها بسبب بغضه لها أو بسبب كِبَر سنها أو نحو هذا.

وقوله: {أَوْ إِعْرَاضًا} يعني يحصل إعراض بوجهه أو إعراض عنها ببعض الحق فلا يؤديه لها كأن يترك وطأها أو المبيت عندها.

قوله: {فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} أي عندئذٍ يمكنها أن تصطلح معه بصلح.

وبعضهم يفرق بين النشوز والإعراض بأن النشوز هو التباعد وأن الإعراض ألا يكلمها ولا يأنس بها، وهذا وإن قال به بعض أئمة اللغة مثل النحاس -رحمه الله- إلا أنه متقارب في المعنى حيث إن التباعد هو بمعنى ألا يكلمها أو لا يأنس بها أو نحو ذلك، لكن نقول: إن النشوز معناه الترفع والاستعلاء والاستطالة عليها، أما الإعراض فهو أن لا يكون له رغبة فيها أو في بعض ما يتصل بها فيقصر في حقوقها، والله أعلم.

وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: {فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} [(١٢٨) سورة النساء].

في قوله: {أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا} قراءة أخرى متواترة هكذا {أن يصَّالحا بينهما} يعني أن يتصالحا.

ثم قال: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [(١٢٨) سورة النساء] أي: من الفراق، وقوله: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [(١٢٨) سورة النساء] أي: الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق.

يقول: "{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [(١٢٨) سورة النساء] أي: **الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق**" هذا التفسير فيه غرابة، وإنما يقال هذا في قوله: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} هكذا: والصلح عند المشاحَّة خير من الفراق.

وأما في قوله: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} فيقال: هذا إخبار عن النفوس وما جبلت عليه، فالشح حاضر ومتمكن في النفوس غاية التمكن فهو أمر جبلت وطبعت عليه النفوس، والمرأة ربما لم تسمح نفسُها أن تتنازل بليلتها بالمبيت أو نحو ذلك لضرتها، فهي تريد حقها ولاسيما إن كانت لها ضرة فإنها تكون طالبة لذلك

بصورة أكبر مما لو كانت وحدها كما هو مشاهد، والشح أيضاً موجود في الرجل فلا تراه تجود نفسه بما يطالب به من الحقوق إما وجوباً وإما استحباباً نظراً لما جبلت عليه وطبعت عليه نفسه، ولذلك يحتاج إلى مجاهدة كبيرة من أجل التخلص من هذا الشح، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٩) سورة الحشر].

وفي قوله تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [(١٢٨) سورة النساء] يقول ابن جرير -رحمه الله-: أي نفوس النساء بحيث إنها لا تطيب أن تترك شيئاً من حقها لتستأثر به ضرتها، ونقول: هذا المعنى داخل في عموم قوله: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [(١٢٨) سورة النساء] فالمرأة يكون فيها مثل هذا الأمر ويكون في الرجل أيضاً، وهو موجود فيه، فعموم الناس في أحوالهم المختلفة جبلوا على الشح وذلك خلق متمكن متجذر في النفوس يحتاج إلى مدافعة وصبر ومجاهدة حتى يتخلص منه الإنسان فيكون مفلحاً بذلك.

والشح هو أشد البخل، وبعضهم يقول: الفرق بينه وبين البخل أن الشحيح يبخل بما في يده ويتطلع إلى ما في أيدي الآخرين، والبخيل يبخل بما في يده،.

وبعضهم يقول: الشح أن يمنع ما في يده ولو كان من الحقوق الواجبة كالزكاة، بخلاف البخيل فهو يبخل فلا يتصدق ولا يبذل المال أو نحو ذلك، وبعضهم يرى أن الفرق بينهما أن أحدهما يتعلق بالصفة النفسانية والآخر بالفعل الناشئ عنها، وعلى كل حال فالشح لا شك أنه أشدُّ من البخل

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "خَشيتْ سَوْدَة أن يطلقها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا} الآية [(١٢٨) سورة النساء][(١)].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز" [ورواه الترمذي وقال: حسن غريب][(٢)].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: "لما كَبِرت سودةُ بنتُ زَمعة -رضي الله تعالى عنها- وهبَتْ يومها لعائشة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم لها بيوم سودة"[(٣)] وفي صحيح البخاري نحوه.

وأيضاً في مسلم بنحو هذا.

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [(١٢٨) سورة النساء] قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ فنزلت هذه الآية.

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب في القسم بين النساء (٢١٣٧) (ج ٢ / ص ٢٠٨) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٧٩).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة النساء (٣٠٤٠) (ج ٥ / ص ٢٤٩) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقمه.

[3] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها وكيف يقسم ذلك (٤٩١٤) (ج ٥ / ص ١٩٩٩) ومسلم في كتاب الرضاع - باب جواز هبتها نوبتها لضرتها (١٤٦٣) (ج ٢ / ص ١٠٨٥).

ومما صحَّ في سبب النزول أنها نزلت بسبب رافع -رضي الله تعالى عنه- حيث كان عنده امرأة قد أسنت ولم تتنازل عن حقها فأراد أن يفارقها وطلَّقها تطليقة، ثم لما قاربت انتهاء العدة سألها إن شاءت أن يراجعها بشرط أن تسقط حقها من المبيت، فقبلت ذلك ثم طالبت به بعد ذلك ثم طلقها.

الحاصل أن هذه الآية نزلت في هذا وفي حق سودة -رضي الله تعالى عنها-؛ لأنه كما سبق أن الآية الواحدة قد تنزل في أسباب متعددة، فإن كان الزمان متقارباً فقد نزلت فيهما جميعاً، وإن كان الزمان متباعداً فيمكن أن تكون الآية نزلت أكثر من مرة، والله أعلم.

وقوله: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [(١٢٨) سورة النساء] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني التخيير، أن يخيَّر الزوج لها بين الإقامة والفراق خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها.**

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الصلح أن يحصل بينهما اتفاق على أمر وليس مجرد التخيير، يعني أن يصطلح معها مثلاً على أن تسقط يومها فتبقى في عصمته فهذا خيرُ لها من الطلاق؛ لأن بوقوع الطلاق تتشتت الأسرة، وهي تبقى بلا زوج، فبقاؤها تربي أولادها وترعاهم في ظل هذا الزوج خير من أ ن تبقى وحيدة.

والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي -صلى الله عليه وسلم- سودة بنت زَمْعة على أن تركت يومها لعائشة -رضي الله تعالى عنهما- ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه -عليه الصلاة والسلام- ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} **[(١٢٨) سورة النساء] بل الطلاق بغيض إلي الله سبحانه وتعالى.**

الحديث الوارد في هذا ((أبعض الحلال إلى الله الطلاق)) فيه ضعف[٤]، ولاشك أن الصلح خير إذا أمكن، أما إذا كانت الحياة ستبقى قلقة والمرأة ستعيش في شقاء وفي عذاب بسبب ظلمه وتقلب مزاجه وما أشبه هذا فقد يكون الطلاق خيراً لها، لكن في الجملة الصلح خير إذا أمكن أن يصطلحوا أما إذا كان الرجل يضطرب ويغير ما اتفقوا عليه وينقض ذلك ويُكتَب عليه عند القاضي أمور ثم بعد ذلك إذا رجع لم يكترث بشيء من هذا فعندئذ يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ} [(١٣٠) سورة النساء].

سودة -رضي الله تعالى عنها- أرادت أن تبقى زوجة للنبي -صلى الله عليه وسلم- لتكون زوجة له في الآخرة، وهذا بحد ذاته لاشك أنه من أعظم المغنم، أضف إلى ذلك أن بقاءها وزوجها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعظم الشرف، فالحاصل أن المرأة قد يكون من مصلحتها البقاء في عصمة الزوج وإن أسقطت المبيت بل وإن أسقطت النفقة، وهذا حل للأزواج وللزوجات؛ لأن المرأة إذا تقدمت بها السن لا يرغب بوطئها ولا نكاحها، وهذه سنة الله -عز وجل- في الخلق، فيضطر الرجل أن يتزوج أو يتصبر -وهو ليس بحاجة إلى هذا التصبر والعذاب- أو يذهب إلى الحرام، وهذه هي الحقيقة الواقعة، فالرجل إما أن يتصبر ويتملل ويعيش بأمنيات، وإما إنه يبحث عن الحرام وإما أن يتزوج، وهذا الأخير هو الطريق الصحيح، فإذا

---

[٤] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق – باب حدثنا سويد بن سعيد (٢٠١٨) (ج ١ / ص ٦٥٠) وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع برقم (٤٤).

قامت قيامتها وأبت مثل هذا فإنه يخيرها فيقول لها: إما أن تبقي وإما أن أطلقك، فإن رأت أنه لا رغبة له فيها ويريد أن يطلقها فيمكن أن تسقط حقها فتقول: أبقى في عصمتك وأربي أولادي ولا أطالبك بالمبيت، وهذا خير لها من الطلاق.

وقوله: {وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(١٢٨) سورة النساء] وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ} [(١٢٩) سورة النساء] أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسْم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعُبَيْدة السَّلْمَاني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم.

ورواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: ((اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)) يعني: القلب، هذا لفظ أبي داود وهذا إسناد صحيح[٥].

وقوله: {فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ} [(١٢٩) سورة النساء] أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية {فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ} [(١٢٩) سورة النساء] أي: فتبقى هذه الأخرى مُعَلَّقة.

يعني أنه لا يملك قلبه فإذا أحب إحداهن فليس له أن يتبع ذلك بالعمل فتكون أخلاقه الحسنة ولسانه الطيب ووجه وإقباله على إحداهن والأخرى منبوذة متروكة ليس لها إلا الزجر والإغلاظ وتضييع الحقوق وتقصير في النفقات وما أشبه ذلك، فهناك ما هو مستطاع وهناك ما هو غير مستطاع، فما لا يستطاع فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالميل القلبي لا يؤاخذ عليه الإنسان، لكن كما قلنا مراراً: إن خطاب الشارع إذا توجه إلى المكلف في أمر غير مقدور فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره فهنا يتوجه إلى الأثر، فلا يكون الإنسان متبعاً ميل القلب بإقبال الوجه وما إلى ذلك من الأمور العملية على إحداهن، والأخرى لها الزجر والإبعاد والتقصير والتضييع لها ولحقوقها فهذا لا يجوز، وأما في الجماع فإنه لا يجب عليه أن يعدل بينهن في الجماع لكنه يجب أن يعدل في المبيت بمعنى أنه يبيت عند هذه ليلة مثلاً وعند هذه ليلة -إلا إذا أسقطت حقها- لكن إذا بات عند هذه فجامعها فإنه لا يجب عليه أن يجامع الثانية في ليلتها، وإنما الواجب هو المبيت فقط.

{فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ} [(١٢٩) سورة النساء] أي: فتبقى هذه الأخرى مُعَلَّقة، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة.

ولهذا جاء في قراءة أبيّ -رضي الله عنه- قال: فتذروها كالمسجونة، يعني إنها ليست زوجة كالزوجات وإنما يحبسها في عصمته بحيث لا تستطيع أن تتصرف وتتزوج ويتقدم إليها الخطاب، وليست بذات زوج

---

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب في القسم بين النساء (٢١٣٦) (ج ٢ / ص ٢٠٨) والدارمي في كتاب النكاح – باب القسمة بين النساء (٢٢٠٧) (ج ٢ / ص ١٩٣) وقال حسين سليم أسد: "إسناده صحيح" وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٥٩٣).

يؤدي إليها حقوقها، فهي حبيسة عنده، والنساء أسيرات كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٍ عندكم))[6].

وروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْهِ ساقط))[7].

وقوله: {وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(١٢٩) سورة النساء] **أي: وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.**

يعني وإن أصلحتم في أموركم وأصلحتم ما حصل من تقصير وتضييع لحقوق الزوجة فإن الله –عز وجل- يغفر؛ لأن الذنوب والجرائم والمخالفات التي يقع فيها إفساد وتضييعٌ لحقوق الغير يجب فيها الإصلاح كما قال الله -عز وجل- في كثير من المواضع التي يذكر فيها التوبة، كتوبة المفسدين والمرتدين وما أشبه ذلك: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ} [(١٦٠) سورة البقرة] ولذلك من بثّ بدعة يُتَّبع فيها أو نَشر فساداً أو نحو ذلك فإنه يطالب بإزالة آثار ذلك بقدر استطاعته.

ولو أن إنساناً ضيَّع حقوق زوجته أو زوجاته وظلم وقصَّر في الحقوق فإنه مطالب أن يصلح ما أفسد في أموره كلها مع هؤلاء الزوجات، وأن يتقي الله –عز وجل- فيما يأتي وما يذر وأن يتقي الله في حدوده كلها فلا ينتهكها {وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(١٢٩) سورة النساء].

ثم قال تعالى: {وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} [(١٣٠) سورة النساء] **وهذه هي الحالة الثالثة وهي حالة الفراق، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه.**

{وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} [(١٣٠) سورة النساء] **أي: واسع الفضل عظيم المن حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.**

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع - باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٣) (ج ٣ / ص ٤٦٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٨٠).

[7] - أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح - باب القسمة بين النساء (١٩٦٩) (ج ١ / ص ٦٣٣) وأحمد (٨٥٤٩) (ج ٢ / ص ٣٤٧) وقال الأرنؤوط: " إسناده صحيح على شرط الشيخين " وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٩٤٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (34)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً* إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا* مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(131-134) سورة النساء].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ} أي: **وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله، -عز وجل- بعبادته وحده لا شريك له.**

ثم قال: {وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} الآية [(132) سورة النساء] **كما قال تعالى إخباراً عن موسى –عليه السلام- أنه قال لقومه: {إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [(8) سورة إبراهيم] **وقال: {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [(6) سورة التغابن] أي: **غنيٌّ عن عباده، حَميدٌ** أي: **محمود في جميع ما يقدره ويشرعه.**

قوله: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(132) سورة النساء] **أي هو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شيء.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآيات مرتبطة بقوله -تبارك وتعالى- قبلها: **{وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}** [(130) سورة النساء] أي أنه إذا لم يحصل الوفاق بين الزوجين فإن ملك الله -عز وجل- واسع يغني كل واحد من فضله، وبذلك تطمئن النفوس في حال الفراق وتعلم أن أرزاقها بيد الله -عز وجل- وتتوجه إليه في طلب رغباتها وحاجاتها، فهذه المرأة إذا طلقت لن تضيع وإنما الأرزاق والخزائن بيد الله -عز وجل- فقال: **{وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ}** [(131) سورة النساء] ثم قال بعد ذلك: **{وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا}** [(131) سورة النساء] كما قال الله -عز وجل-: **{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}** [(7) سورة الزمر] وكما قال سبحانه: **{وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** [(38) سورة محمد] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على غنى الله -جل جلاله- عن الخلق، ولذلك فإن ابن جرير -رحمه الله- يذكر وجه إعادة هذه الجملة: **{وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}** [(131) (132) سورة النساء] مرتين فيقول: إن الأولى في بيان غنى الله -عز وجل- عن الخلق وحاجة الخلق لربهم وبارئهم -تبارك وتعالى-.

{وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا} [(131) سورة النساء] أي أنه المحمود في كل حال وهو محمود في غناه؛ ومعلوم أن الغنى بالنسبة للإنسان مظنة البطر والطغيان كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [(6-7) سورة العلق] أما الله -تبارك وتعالى- فهو محمود في غناه.

ثم قال في الآية الثانية: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(132) سورة النساء] وهذه على قول أبي جعفر بن جرير –رحمه الله: إنها في بيان تدبير الله -عز وجل- للخلق وحفظه لهم وإقامته إياهم، فهذا هو الفرق بينهما ولذلك كرر هاتين الجملتين، فالأولى في بيان حاجة الخلق إلى بارئه وأنه لا يستغني عنه والثانية في أن الله -تبارك وتعالى- يحفظ هذا الكون وهذا الخلق ويعلم به ويدبره.

وقوله: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [(133) **سورة النساء**] أي: **هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال**: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [(38) **سورة محمد**].

يقول تعالى: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ} [(133) سورة النساء] هذه الآية عامة كما هو ظاهرها، وابن جرير -رحمه الله- يربط هذه الآية وآيات بعدها بما سبق من الكلام عن قصة بني أبيرق والتي فيها قوله تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ} [(113) سورة النساء].

وهذه القصة جاءت فيها روايات كثيرة لا تخلو من ضعف، ومن أهل العلم من حسنها في الطعام وفي الدرعين حيث سرقا، ثم حصل ما حصل بعد ذلك مما ذكرناه سابقاً، فابن جرير -رحمه الله- يرى أن هذا الخطاب موجه إلى هؤلاء، وأنها زجر وردع لهم ولمن شاكلهم من المنافقين، والأقرب -والله أعلم- حمل الآية على العموم، وهذا له نظائر في القرآن.

وقوله: {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [(134) **سورة النساء**] أي: **يا من ليس هَمُّه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أغناك وأعطاك وأقناك.**

يقول: "**أغناك وأعطاك وأقناك**" أقنى بمعنى أرضى بما أعطى، ومعنى أغنى معروف.

وابن جرير لا يزال يرى أن هذه الآيات فيمن دخل في أمر أولئك الذين حصلت منهم تلك الخيانة من بني أبيرق ممن كلموا النبي -صلى الله عليه وسلم- في شأنهم ووقفوا معهم ودافعوا عنهم، ولذلك يرى ابن جرير أن قوله تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا} أي: ثواب الدنيا بالنسبة إليهم –أي المنافقين- هو ما يحصل لهم من المغنم وحقن الدماء وإحراز الأموال وأن ثواب الآخرة لهم النار.

وإذا حملنا الآية على العموم قلنا: هذا لا يختص بهم بل هو خطاب عام، ومن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، فثواب الدنيا ما يحصل فيها من الأمور السارة من غنيمة وغنى وسعة ورغد عيش، وما يحصل فيها أيضاً من عافية في الأبدان أو ما يمنحها الله -عز وجل- فيها من العطايا والأولاد إلى غير ذلك، وثواب الآخرة هو ما يحصل من الجنة والنعيم المقيم الأبدي السرمدي، هذا كله من الله -تبارك وتعالى-

والمقصود أن توحد الرغبة فيُتوجه إليه -جل جلاله- ويطلب ذلك منه فالخير وخزائنه بيده، هذا هو المقصود والله تعالى أعلم.

كما قال تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ* وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ} **الآية** [(200-202) **سورة البقرة**] **وقال تعالى**: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} **الآية** [(20) **سورة الشورى**] **وقال تعالى**: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} [(18) **سورة الإسراء**] **إلى قوله**: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} **الآية** [(21) **سورة الإسراء**] **ولهذا قال**: {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(134) **سورة النساء**].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(135) **سورة النساء**].

الكلام السابق الذي ذكرته في تفسير قوله تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [(134) سورة النساء] والقول بأنها عامة هو ما يراه ابن كثير وهو مخالف لقول ابن جرير -رحمهما الله تعالى-.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي: بالعدل.

الكلام في هذه الآية عام أيضاً، فهو نداء للمؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ} لكن ابن جرير -رحمه الله- يرى أن الكلام لا يزال في الذين دخلوا في أمر بني أبيرق، وأن الله -عز وجل- يأمرهم بالقيام بالقسط ويأمرهم ألا يكونوا مدافعين لهؤلاء باعتبار أن هذا فقير أو مسكين -حيث قيل ذلك في بشير- فهذا ليس مبرراً للوقوف مع من خان وسرق أو قارف ما لا يليق.

فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله: {شُهَدَاء لِلّهِ} **كَمَا قَالَ**: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [(2) **سورة الطلاق**] **أي ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان.**

هذه الآية كقوله تعالى في سورة المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ} [(8) سورة المائدة].

ولفظة "قوامين" في الآيتين تدل على الكثرة أي أن قيامكم يكون كثيراً لله -تبارك وتعالى- وهو القيام بالحق والعدل.

وهاتان الآيتان فيهما دعوة للمؤمنين أن يكون العدل من شأنهم وديدنهم وعادتهم لا أن يكون ذلك منهم في الأحيان التي توافق أهواءهم، ولهذا فإن القيام بأداء الشهادة يجب أن يكون لله -تبارك وتعالى- ورجاء ما عنده، لا أن يكون الإنسان قائماً بالشهادة؛ لأن ذلك يوافق هواه، أو لأنه يريد أن يؤيد هذا فيشهد، أو يريد أن

ينتقم من الآخر فيشهد شهادة يتضرر بها ولو كان محقاً، ومن فعل ذلك فإنما صار قيامه بالشهادة لحظّ النفس والهوى والشيطان وهذا لا يجوز، بل يجب أن تكون الشهادة لله -تبارك وتعالى- وحده.

وقد أورد ابن القيم –رحمه الله- عبارات جيدة في الكلام على القيام بالقسط، ومما ذكر من العبارات في هذا المعنى قوله: وأعظم ذلك يكون في الحكم على الطوائف والمذاهب والآراء.

ويقول: وكثير من الناس ميزانه الذي يزن به الناس إنما هو ما وافق نحلته ومذهبه ورأيه، فما وافق ذلك فهو الحق وما خالفه فهو الباطل.

وإذا كان كل طائفة من طوائف الأمة تزن بهذا الميزان فهذا ميزان جور، وعليه فكل طائفة ستخالف غيرها وستضلل الطوائف الأخرى ومن هنا ترى أن ما هي عليه هو الحق وما عداه هو باطل وضلال، لذلك نقول: إن هذا الميزان باطل وهذه الطريقة هي من أعظم آفات التعصب التي لا يجوز الاعتماد عليها.

وهذا النوع من الميزان يوجد في متعصبة المذاهب الفقهية وفي طوائف أهل الأهواء وربما وُجد في بعض من ينتسب إلى السنة حيث تجده يتعصب لرأيه وقوله واجتهاده أو مذهبه أو مقدمه أو إمامه أو شيخه ويرى أن كل ما قاله هو فهو الحق، والله المستعان.

التمذهب والتعصب:

يقال –على سبيل المثال-: مذهب أهل الكوفة ومذهب البصريين يعني في النحو ، ويقال أيضاً: مدرسة الرأي في الكوفة ومدرسة الحديث في الحجاز، فلو تأملت كيف صار لهؤلاء مذهب ولأولئك مذهب تجد أن السبب في ذلك أن أهل هذه البلد أو تلك يدرسون عند إمام من الأئمة أو عالِمَيْن أو ثلاثة ويتلقون عنهم منذ نعومة أظفارهم، فيسمعون الحجج والأدلة، وكما هو معلوم أن هؤلاء العلماء لا يتكلمون بأهوائهم وإنما يتكلمون عن اجتهاد فهم حذاق وأذكياء وأئمة، فينبهر بهم التلاميذ، وهذا الانبهار من التلاميذ ليس غريباً فهو يقع منهم أحياناً من خلال نظرتهم إلى من هم طلاب فوقهم وكأنهم أناس كبار، فكيف بمن هو عالم كبير، فالمقصود أن هؤلاء الطلاب يعظمون هذا العالم وذاك غاية التعظيم، ولما كانت النفوس من طبعها أنها قابلة للانجذاب والتأثر والمحاكاة تجد هؤلاء يتأثرون بهذا العالم تأثراً يسيطر عليهم إلى درجة أنهم يتأثرون به حتى في حركاته وفي طريقة كلامه بل حتى لو كان به علة أحياناً في البصر يجعله يحرك عينه أو العينين بطريقة معينة فإنهم يحركون أعينهم مثله، وكذا لو كان كلامه غير واضح فإنهم يبدءون يحاكون طريقة كلامه، ولو كان خطه غير جيد فإنهم يحاكونه في الخط ولو كان يلبس بشتاً بطريقة معينة فوق رأسه فإنهم يلبسون البشت فوق رأسهم محاكاة تامة له لشدة محبتهم لهذا الإمام، فإذا كانت محاكاتهم للعالم بأعماله الظاهرة تصل إلى هذه الدرجة فكيف بآرائه.

إن مثل هؤلاء الطلاب عندما يقرر لهم العالم المسائل فإنها ترسخ عندهم فيبدءون من خلال هذه القناعات ينطلقون في دراستهم، فكلما وجدوا شيئاً يؤيد هذا القول أخذوا به وردوا على من خالفه، وبعض هؤلاء الطلاب قد يكونون من أهل السنة فيتعصبون لعلمائهم بهذه الطريقة، وهذا مرفوض؛ لأن كونهم من أهل السنة يعني أن كل جزئية أو كل تصرف منهم يعتبر صحيحاً.

وهكذا نجد مثل هذه الصور في مسائل الفقه أو النحو أو التفسير أو غير هذا فتصير مدرسة متناغمة منسجمة وتجد كل هؤلاء أو عامتهم صبة واحدة إلا في جزئيات لا تؤثر.

كما أن كل الطوائف تسير بهذه الطريقة إلا ما شاء الله فينشئون بهذه الطريقة فتكون تلك مدرسة لهم، وقد لا يتلقون من الشيخ مباشرة لكن من كتبه فهم يقرءون هذه الكتب والأدلة التي فيها ويرون أنها واضحة كالشمس مع أنه لا يعني أن كل فهم لهذا الشيخ يكون صحيحاً، لكنهم يعجبون بتقرير الأدلة وبقوة الحجة منذ نعومة أظفارهم ويسمعون من زملائهم وأقرانهم ومن سبقوهم أن هذا تقرير قوي جداً وأن هذا الكتاب براهينه قوية وساطعة وربما ما قرءوه لكنهم يرددون مثل هذا الكلام عشرات السنين ولو أن الإنسان درس كل مسألة دراسة مستقلة من البداية لما صار يوافق في كل هذا المسائل التي قررها ذلك الشيخ.

فالإنسان ينبغي أن يعدل فيكون قيامه بالقسط وشهادته لله لا لهوى النفس، ولا على طريقة من شب على شيء شاب عليه.

وعلى كل حال فالكلام السابق كله حول المسائل الاجتهادية، أما الثوابت العقدية -عقيدة أهل السنة- التي قد دلت عليها النصوص الشرعية فهي غير قابلة للمناقشة وليست مقصودة هنا.

كما أن الكلام السابق لا يعني مطالبة صغار الطلبة بأن يجتهدوا وإنما المطلوب منهم التجرد وعدم التعصب للشيخ الفلاني أو المذهب الفلاني، ولذلك فإن تعديد الشيوخ في الدراسة وتلقي العلم مفيد جداً؛ لأن الطالب إذا كان لا يتلقى إلا من شيخ واحد فإنه لا يعرف إلا قوله، والله المستعان.

ولهذا قال: {وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ} [(135) سورة النساء] **أي: اشهد الحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سُئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مَضرته عليك؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه.**

بعض أهل العلم يفسر قوله تعالى: {وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ} بتفسير فيه بُعد، وكأنهم لم يتصوروا شهادة الإنسان على نفسه فقالوا: يعني أن يشهد على غيره شهادة تضره هو -تضر الشاهد- فيكون كأنه شهد على نفسه، وهذا بعيد وهو خلاف ظاهر القرآن، وإنما المراد أن يشهد الإنسان على نفسه أنه أخطأ أو أنه وقع في تقصير وذنب وارتكاب محظور.

وهذا الأمر في غاية الصعوبة؛ لأن الإنسان كثيراً ما يحيد ولا يقر ويصعب عليه غاية الصعوبة أن يقر بالخطأ والتقصير بل يحاول أن يبرر ذلك الفعل الذي ارتكبه أو يدفعه عن نفسه قدر الإمكان وإذا ما استطاع أن يصوب رأيه في التبرير فإنه يدفع عن نفسه التهمه.

وقوله: {أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} [(135) سورة النساء] **أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تُراعهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم؛ فإن الحق حاكم على كل أحد وهو مقدم على كل أحد.**

علاقة الابن بالوالدين أنه يعظمهما ويبرهما، وعلاقته بالأقربين أنه يتعصب لهم ويحسن إليهم، فبيَّن الله تعالى أن من تعظمه ومن تتعصب معه بحكم قربك منه وبحكم ما له من الحق عليك لا يجوز أن تشهد معه على الباطل، وإنما يجب عليك أن تقوم لله -عز وجل- بالحق والقسط وتكون شهادتك على وجه الحق وإن تضرروا بذلك.

وقوله: {إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [(135) سورة النساء] أي: لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: {فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ} [(135) سورة النساء] أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغْضُ الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشئونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [(8) سورة المائدة].

لفظ "تعدلوا" في قوله تعالى: **{فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}** [(135) سورة النساء] يحتمل معنيين، الأول: أن يكون من العدل الذي هو القسط وضده الظلم والجور، ويمكن أن يكون من العدول كما يقال:عدل عن كذا أي مال عنه، فعلى الأول يكون المعنى فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا، يعني لا تتبعوا أهواءكم كراهة منكم للعدل، وهذا المعنى هو المتبادر، وهو الذي عليه البصريون من النحاة، وهو الذي اختاره كثير من المحققين وعليه عامة المفسرين، وهو اختيار الحافظ ابن القيم أيضاً، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وعلى الثاني أنه من العدول عن الشيء والميل عنه، ويكون المعنى لا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق وتحيدوا عنه، أي أنه نهاهم عن اتِّباع الهوى مخافة العدول والانصراف عن الحق، وهذا فيه بعد، والله أعلم.

ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالى عنه- لما بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يُرْشُوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حُبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: "بهذا قامت السماوات والأرض" وسيأتي الحديث مسندا في سورة المائدة إن شاء الله تعالى.

وقوله: {وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ} [(135) سورة النساء] قال مجاهد وغير واحد من السلف: {تَلْوُواْ} أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها.

واللّي هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ} الآية [(78) سورة آل عمران].

قوله تعالى: **{وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ}** [(135) سورة النساء] في قراءة ابن عامر والكوفيين **(وإن تلوا)**، وبعض أهل العلم مثل ابن جرير -رحمه الله- يرى أن القراءتين بمعنى واحد، وكثير من المفسرين يرون الفرق بينهما فيقولون: **{وَإِن تَلْوُواْ}** من اللي وهو هنا بمعنى التبديل والتحريف والتغيير.

وقوله: **{أَوْ تُعْرِضُواْ}** بمعنى أن تمسكوا عن الشهادة وأن تعرضوا عن إقامتها وأن تتركوها، كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفْعَها طريقاً إلى دفْعِها أعرض عنها وأمسك عن ذكرها.. وتارة يلويها ويحرفها"[1].

---

[1] - الرسالة التبوكية لابن القيم -رحمه الله- (ج 9 / ص 15).

واللي هو التحريف، وهو نوعان: ليٌّ في اللفظ وليٌّ في المعنى، والله -عز وجل- ذكر اللي في غير هذا الموضع فقال: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} [(78) سورة آل عمران] فاللي يكون بتحريف الألفاظ ويكون بتحريف المعاني، ومنه سلام اليهود على النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} [(8) سورة المجادلة] فهذا من اللي حيث كانوا يوهمونه أنهم يقولون: السلام عليك وهم يقولون: السام عليك، يعنون الدعاء بالموت على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله تعالى: {وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ} [(135) سورة النساء] { تَلْوُواْ} يعني تحرفوا و{تُعْرِضُواْ} يعني بترك إقامة الشهادة.

وعلى القراءة الثانية (تلوا) من الولاية بمعنى أنكم تلوا الشهادة أي تتحملوها لكن تتركون القيام بما وجب عليكم فيها، {أَوْ تُعْرِضُواْ} يعني عن توليها، والله أعلم.

والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: {وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [(283) سورة البقرة] وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها))[2] ولهذا توعدهم الله بقوله: {فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(135) سورة النساء] أي: وسيجازيكم بذلك.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (1719) (ج 3 / ص 1344).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (35)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا آمنوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [(136) سورة النساء].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا آمنوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ}** [(136) سورة النساء] هذا الأسلوب في الخطاب بعض أهل العلم يقول فيه وفي نظائره: إن **{آمنوا}** بمعنى اثبتوا على إيمانكم، لكن هذا التفسير وحده لا يكفي، وأصل هذا الإشكال ومنشؤه أنه كيف خوطب أهل الإيمان بالإيمان، يعني كيف طولبوا بالإيمان وهم قد حققوه؟

ومثل هذا الإشكال ورد في قوله تعالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(6) سورة الفاتحة] يعني كيف يطلبون الهداية إلى الصراط المستقيم وقد هداهم الله إلى الإسلام، والصراط المستقيم هو الإسلام؟.

وحاصل الجواب عن هذا الإشكال هو أن من أهل العلم من يحمل آية النساء هنا على أنها لأهل التوراة والإنجيل -اليهود والنصارى- كما ذهب إلى ذلك كبير المفسرين ابن جرير الطبري.

والمعنى يا أيها الذين آمَنوا بالتوراة وبموسى -عليه الصلاة والسلام- آمِنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ويا أيها الذين آمَنوا بعيسى وبالإنجيل آمِنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وما آتاه الله -عز وجل- من الوحي،وهذا التفسير لا حاجة إليه؛ لأن الإيمان شعب، وكل ما فرضه الله -عز وجل- وأنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهو إيمان جديد يتطلب من المؤمنين أن يدخلوا فيه وأن يذعنوا له، ولذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أرسل معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعوهم أولاً إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم إن أجابوه دعاهم إلى الصلاة ثم إلى الزكاة وهكذا، وقد ذكر ابن عباس -رضي الله عنه- نحو هذا المعنى بقوله: إن أول ما خاطب الله -عز وجل- به الناس الإيمان بوحدانيته -يعني شهادة أن لا إله إلا الله- فلما أذعنوا لذلك نزلت الصلاة، فلما أذعنوا بها زادهم إيماناً ففرض عليهم الزكاة فلما أذعنوا بذلك زادهم إيماناً ففرض عليهم الصيام وهكذا، فهذا الأثر لابن عباس -رضي الله عنه- يبين هذا المعنى، وهو وإن لم يذكر في تفسير هذه الآية لكنه يوضحه.

فالإيمان شعب، وفرائض الإسلام تنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم مطالبون بالإيمان بذلك كله، ثم إن الثبات على هذا الإيمان داخل في عموم هذا الخطاب وجزء من هذا المعنى.

ويقال في قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(6) سورة الفاتحة] أي أن يهديه إلى الصراط المستقيم بمعرفة تفاصيل الصراط _أي هداية العلم الصحيح- ثم إذا عرف الحق فهو بحاجة إلى هداية العمل به فإذا عمل به فهو بحاجة إلى هداية التثبيت وأن يُختم له عليها، كما أنه بحاجة إلى هداية أخرى هي معرفة تفاضل الأعمال في الهدى إلى أفضلها وأحسنها وأكملها -أعني من غير الواجبات- ثم هو بحاجة إلى هدايات أخرى بعد الموت مثل الهداية إلى الصراط وعلى الصراط وإلى الجنة وإلى منزله في الجنة كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [(4-5) سورة محمد] يعني من بعد ما قتلوا، إلا أن الهداية بعد الموت ليست داخلة في تفسير آية الفاتحة {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(6) سورة الفاتحة].

وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه.

كل هذا المعاني جمعها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ولم يقل بقول ابن جرير، بل قال: إن ذلك من باب الثبات والاستمرار والتكميل، والتكميل معناه أن يؤمن بكل ما ينزل من شرائع الإسلام.

كما يقول المؤمن في كل صلاة: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(6) سورة الفاتحة] أي: بَصِّرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنوا بِرَسُولِهِ} [(28) سورة الحديد].

وقوله: {وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [(136) سورة النساء] يعني القرآن، {وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} [(136) سورة النساء] وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة.

وقال في القرآن: {نَزَّلَ} لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: {وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} [(136) سورة النساء].

معلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فقوله: {نَزَّلَ} تدل على التنجيم أي أنه نزل منجماً، وهذه المعاني هي معانٍ تستنبط استنباطاً وليست قاطعة في الدلالة على المعنى؛ لأنك إذا تتبعت نظائر هذا ستجد أشياء تخرج عنها.

وهذه الآية وردت فيها قراءة أخرى متواترة هكذا: (والكتاب الذي نَزَل) -بتخفيف الزاي- والقراءات يفسر بعضها بعضاً، ففي سورة الكهف يقول -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [(1) سورة الكهف].

ثُمَّ قَالَ: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [(136) سورة النساء] أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعُد عن القصد كل البعد.

{إِنَّ الَّذِينَ آمنوا ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمنوا ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً* بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا* الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا* وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ

{حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [(137-140) **سورة النساء**].

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات.

هذا المعنى هو الذي يظهر في تفسير الآية، أي أنها في من آمن ثم كفر، ولا حاجة للتكلف في حملها على اليهود والنصارى حيث قال بعض أهل العلم: إنها نزلت في اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود آمنوا بموسى -صلى الله عليه وسلم- ثم كفروا بعبادتهم العجل، ثم بعد ذلك آمنوا ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فهذا واقع متحقق فيه، لكن الآية لا تختص بهم، بل كل من يقع منه مثل هذا ممن ينتسب إلى الإسلام أو غيره.

كذلك يقولون: النصارى آمنوا بعيسى ثم بعد ذلك كفروا به وادَّعوا أنه ثالث ثلاثة ...إلى آخره أو قالوا: آمنوا بموسى ثم جاء عيسى -صلى الله عليه وسلم- فآمنوا به ثم كفروا بقولهم: إنه ثالث ثلاثة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

وبعضهم يقول: أي اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بالعُزير ثم آمنوا به ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

وبعضهم يقول: إنها في الطائفتين يعني أن قوله: **{الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ}** أي اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعيسى، وهذا قول لقتادة، وقوله: **{ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ}** أي أن هذه في النصارى، وقوله: **{ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا}** أي ازدادوا كفراً –اليهود والنصارى جميعاً- بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا التفسير فيه بعد.

وابن جرير -رحمه الله- يحمل الآية على أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة ثم كذبوا بخلافهم إياها في الإنجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى كل حال فالآية تشمل هذا وغيره ممن وقع في مثل ذلك بأن آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن في آخر الزمان -أيام الفتن- يصبح الرجل مؤمناً ثم يمسي كافراً ثم يصبح كافراً ويمسي مؤمناً، فمثل هؤلاء الذين يتقلبون يدخلون في هذه الآية.

يقول الله –عز وجل-: **{لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}** [(137) سورة النساء] بعض أهل العلم يقول: هذا في من مات منهم على الكفر، وإلا فإن من تاب تاب الله عليه، ومنهم من يقول: إن مثل هؤلاء الذين يؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون ثم يكفرون لا يوفقون إلى التوبة ولا يهديهم الله –عز وجل- بل يطبع على قلوبهم فيضلون.

ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى؛ ولهذا قال: {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً} [(137) **سورة النساء**].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(90) سورة آل عمران] **قال: تَمَّمُوا على كفرهم حتى ماتوا، وكذا قال مجاهد.**

ثم قال: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [(138) سورة النساء] يعني: أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم.

ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون أي: بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة.

يقول تعالى: **{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [(138) **سورة النساء**] ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: **{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [(24) سورة الانشقاق] فالبشارة هنا أطلقت على خلاف الغالب من استعمالها في الأمر المحبوب الذي يسر، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، فبعض أهل العلم يقول:هذا على سبيل التهكم باعتبار أن البشارة لا تكون إلا في الأمر السار وذلك لظهور أثر هذه البشارة على البشرة، وعلى كل حال فالعرب تستعمل البشارة قليلاً في الشيء المكروه كما قال الشاعر:

يبـــشرني الغـــراب ببـــين أهلـــي فقلـــت لـــه ثكلتـــك مـــن بـــشيرِ

وكما قال الآخر:

أبشرتني يا سعد أن أحبتي جفــوني وقـــال الـــود موعـــده القبـــر

فهذه أمور ليست محبوبة ومع ذلك استعملت لها ألفاظ البشارة، ومثل ذلك استعمال التحية في غير استعمالها الأصلي كما قال الشاعر:

وخيـــل قـــد ذلفـــت لهـــا بخيـــل تحيـــة بيـــنهم ضـــرب وجيـــع

فمثل هذا يأتي في لغة العرب، والعرب تتفنن في ضروب الكلام، ولذلك لا حاجة أن يقال: إن هذا من قبيل المجاز مثلاً، بل يقال: هذا مستعمل في كلامهم قليلاً، والله أعلم.

في قوله تعالى: **{ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا}** [(137) سورة النساء] قال الحافظ: "**تَمَّمُوا على كفرهم حتى ماتوا**" وفي بعض النسخ "تمادوا" والرواية عن ابن عباس في بعضها هذا وبعضها هذا، و"تمموا" لها وجه صحيح يصح به المعنى لكن هذا يحتاج إلى تتبع في الأصول، وعلى كل حال فابن كثير يسوق الروايات في بعضها "تمموا" وفي بعضها "تمادوا".

قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: {أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ} [(139) سورة النساء] ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له، ولمن جعلها له كما قال في الآية الأخرى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [(10) سورة فاطر] وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [(8) سورة المنافقون] والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله الإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

قال تعالى: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** [(8) سورة المنافقون] وقال قبل هذه الآية: **{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}** [(7) سورة المنافقون] ففرق بعض أهل العلم بين العبارتين الخاتمتين لكل آية من الآيتين، فقال بعضهم: كون الخزائن بيد الله -عز وجل- هذا يحتاج إلى فقه واعتبار ونظر صحيح، وهذا لا

يملكه أهل النفاق بل ما أوقعهم في النفاق إلا الحرص الشديد والتهالك على الأموال والأولاد، وذلك أن نظر الواحد منهم لا يتجاوز أنفه، أما كون العزة لله ورسوله وكون المنافقين لا يعلمون فإن جيوش المسلمين تشرق وتغرب والانتصارات ظاهرة فهذا أمر يدركه كل أحد فناسب أن يذكر العلم دون الفقه؛ لأن الفقه علم خاص يُحتاج إليه في الأمور غير الظاهرة.

{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(140) سورة النساء] **أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم.**

يقول تعالى: **{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}** [(140) سورة النساء] فأين نزّل علينا في الكتاب؟

هذه السورة -سورة النساء- مدنية بالاتفاق، وهذا الحكم قد نزل في سورة الأنعام وهي من السور المكية حيث قال تعالى: **{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}** [(68) سورة الأنعام] كما ختم الآية بذكر الحكم في حال النسيان فقال سبحانه: **{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [(68) سورة الأنعام].

أي إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(140) سورة النساء] في المأثم.

والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام -وهي مكية-: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} الآية [(68) سورة الأنعام].

هذا من تفسير القرآن بالقرآن ومثل هذا قوله تعالى فيما يتعلق بالمحرمات: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}** [(118) سورة النحل] فهذه الآية في سورة النحل وهو تعالى يريد ما قصه في سورة الأنعام عند قوله: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}** [(146) سورة الأنعام] إلى آخره.

ومثل هذا قوله تعالى: **{أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}** [(1) سورة المائدة] أي إلا ما يتلى عليكم من المحرمات وهي التي ذكرها في قوله بعد ذلك: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ}** [(3) سورة المائدة].

قال مقاتل بن حيان: نَسَخَت هذه الآية التي في الأنعام، يعني نسخَ قوله: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(140) سورة النساء] لقوله: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(69) سورة الأنعام].

النسخ يطلق على معانٍ وهو كل ما يعرض على النص العام -كما هو معروف عند المتقدمين- ولا يلزم أن يكون النسخ هنا بمعنى الرفع؛ وذلك أن من تقواهم المذكورة في قوله: **{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ}** [(69) سورة الأنعام] مفارقة المنكر؛ فإن خوض أولئك لا يضر أهل الإيمان كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}** [(105) سورة المائدة] أي: أنهم لا يضرونهم إذا

كانوا مهتدين، ولا يكونون بهذه المثابة إلا إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ومن ذلك الإنكار بالقلب ومفارقة الخائضين، فإن كانوا كذلك فلا يضرهم خوض هؤلاء الخائضين.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [(140) سورة النساء] أي: **كما أشركوهم في الكفر كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغِسْلين لا الزّلال.**

وهذا له نظائر في القرآن، ولذلك قال الله -عز وجل-: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} [(3) سورة النـــــور] وقد قال شيخ الإسلام –رحمه الله- في هذه الآية: إن الزوج هو العشير؛ لأن معاشرته من أعظم المعاشرة فإذا رضيت به وهو زانٍ فهي في حكمه بهذا الاعتبار..

كما ذكرت في الآية معانٍ أخرى غير هذا حيث ورد إشكال معروف في الآية هذا أحد الأجوبة عنه.

وعلى كل حال فالإنسان الذي يجلس مع أهل المنكر يقرهم فهو في حكمهم، وقد جيء لعمر بن عبد العزيز بقوم قد شربوا الخمر وفيهم رجل صائم فلما أمر بجلدهم جميعاً قيل له: إن فيهم فلاناً صائماً فأمر بإقامة الحد عليه وقرأ قوله تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(140) سورة النساء].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (36)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء].

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم {فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ} أي: **نصر وتأييد وظَفَر وغنيمة {قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}** أي: **يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة {وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ}** أي: **إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإنّ الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة {قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}** أي: **ساعدناكم في الباطن وما ألوناهم خبالاً وتخذيلاً حتى انتصرتم عليهم.**

وقال السدي: {أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ} نغلب عليكم كقوله: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [(19) سورة المجادلة] **وهذا أيضًا تودد منهم إليهم فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم، قال تعالى: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [(141) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

في قوله عن المنافقين: **{قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [(141) سورة النساء] يعني أن هؤلاء يتخذون يداً عند المسلمين ويداً عند الكافرين، فهم في الظاهر مع المؤمنين ونطقوا بالشهادتين وربما حضروا حضوراً صورياً يخذلون فيه المسلمين في مواقع القتال دون أن يكون لهم جدوى بل هم ضرر ووبال كما قال تعالى: **{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}** [(47) سورة التوبة] ويتخذون يداً عند الكافرين كما كان يفعل بعضهم في غزوة الخندق كما قال تعالى: **{وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}** [(18) سورة الأحزاب] فمن جملة ما فعلوه أن بعضهم كان يقول للمسلمين أو لقرابته أو لعشيرته من المسلمين: انضموا إلينا من أجل أن الكفار إذا دخلوا المدينة نخبرهم أنكم معنا ولستم مع المسلمين فلا يصلون إليكم بمكروه، أي من أجل إذا دخل جيش الأحزاب إلى المدينة فلا ينالكم السوء والمكروه باعتبار أنكم معنا، والواقع أن بينهم وبين الكفار تواصل والكفار يعرفون كيف يتفاهمون ومع من يتفاهمون، ومن الذي يمكن أن يوجد معه شيء من التفاهم لأقل التقديرات؛ ولذلك لما جاء أبو سفيان ومن معه إلى المدينة نزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول وكانوا يقولون: جئنا من أجل أن نمنع الحرب الكلامية، يعني كفوا عنا ونكف عنكم فلا أحد يتكلم في دين الآخر

فأنزل الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ} [(1) سورة الأحزاب] يعني أبا سفيان ومن معه {وَالْمُنَافِقِينَ} يعني عبد الله بن أبي {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(1) سورة الأحزاب].

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [(2) سورة الأحزاب] يعني ليكن المتبوع المطاع هو الوحي {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [(2) سورة الأحزاب].

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [(3) سورة الأحزاب] يعني لن يضروك -ولو اجتمع عليك الكفار والمنافقون- إن لم تستجب لمطالبهم.

ثم قال: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [(4) سورة الأحزاب] وأحد المعاني الداخلة في هذه الآية أنه لا تجتمع طاعة الله وطاعة الكفار والمنافقين أبداً، فإما طاعة الله -عز وجل- وإما طاعة المنافقين والكافرين والاستجابة لهم.

وهكذا القرآن يعالج مثل هذه القضايا، والمقصود أن في هذه السورة -سورة النساء- يقول تعالى عن الكافرين: {فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} يعني إذا ظفر المسلمون وانتصروا قال هؤلاء: ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم.

يقول الحافظ ابن كثير:"**وقال السدي**: {أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ} **نغلب عليكم كقوله**: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [(19) **سورة المجادلة**]" والاستحواذ في هذه الآية يفسره السلف بعبارات متقاربة، فبعضهم يقول: غلب عليهم، أو تمكن منهم، وبعضهم يقول: ضمهم وجمعهم إليه حتى صاروا من حزبه، وغير ذلك من الألفاظ، وكلها متقاربة في المعنى.

وقوله -تبارك وتعالى- عنهم أنهم يقولون: {أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(141) سورة النساء] قال ابن كثير: "**أي: ساعدناكم في الباطن وما ألوناهم خبالاً وتخذيلاً حتى انتصرتم عليهم**" هذا الكلام من ابن كثير على قوله: {نَسْتَحْوِذْ} ليس تفسيراً نصياً لكلمة استحوذ عند العرب ولكن هذا من مقتضيات الاستحواذ، أي أنهم ساعدوهم.

وأما قول السدي:"**نغلب عليكم**" فهذا أحد المعاني لكلمة استحوذ، لكن هنا قد لا تكون واضحة؛ لأنه كيف يكون المعنى نغلب عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ هذا يحتاج إلى توجيه، فيمكن أن يكون المعنى ألم نغلب عليكم الغلبة المعروفة بأنه لم يحصل انتصار للمسلمين عليكم، والسبب أننا وقفنا دون استئصالكم وقتلكم حيث ثبطناهم عن ذلك، والحقيقة أن هذا الأسلوب هو ديدن المنافقين فقد فعل عبد الله بن أبي في قصة بني قينقاع وفي قصة بني النضير ذلك، حيث شفع لهم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما أن موقفه كان واضحاً أيضاً في بني قريظة لكنه لم يحكّم في المسألة وإنما حكَّموا سعد بن معاذ -رضي الله عنه- لأنهم كانوا حلفاء للأوس وعبد الله بن أبي من الخزرج وسعد بن معاذ من الأوس فحكموه رجاء أن يكون ذلك في صالحهم لكن لم يكن كذلك، وقد كان عبد الله بن أبي يسخر من حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- وحكم سعد بن معاذ فيقول: يقتلون أربعمائة دارع في غداة واحدة؟ هكذا كان يعترض على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويرى أنه حكم جائر.

فالمقصود أن الاستحواذ على قول السدي معناه أنهم كانوا يقولون: لما حصل الظَّفر للمسلمين ثنيناهم عن قتالكم، ويمكن أن يكون بمعنى أننا ثنينا عزمهم عن غزوكم وثبطناهم عن قتالكم كما حصل في أحد مثلاً لما رجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش، كما قال الله -عز وجل-: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [(18) سورة الأحزاب] وكقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [(72) سورة النساء] وقوله: {وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [(81) سورة التوبة] وما أشبه ذلك من النصوص، فهم كانوا يثبطون فيقولون للكفار: ألم نكن نثبط المسلمين عن قتالكم وغزوكم ونخذل من ملاقاتكم وقتالكم أو غزوكم؟، ويشهد لهذا قوله تعالى عنهم: {لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ} [(13) سورة الأحزاب] فهذا من استحواذهم وتثبيطهم قبحهم الله.

قال تعالى: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(141) سورة النساء] أي: **بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويُحَصَّل ما في الصدور.**

وقوله: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء] **روى عبد الرزاق عن يُسَيْع الكندي قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية:** {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}؟ [(141) سورة النساء] **فقال علي -رضي الله عنه-: ادْنُه ادنه، ثم قال:** {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء].

وكذا روى ابن جريج عن عطاء الخرساني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء] **قال: ذاك يوم القيامة.**

وكذا روى السدي عن أبي مالك الأشجعي -رضي الله عنه-: يعني يوم القيامة، وقال السدي: {سَبِيلاً} **أي: حجة.**

ويحتمل أن يكون المعنى: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء] **أي في الدنيا بأن يُسَلَّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى:** {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} **الآية** [(51) سورة غافر] **وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أمَّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى:** {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} **إلى قوله:** {نَادِمِينَ} [(52) سورة المائدة].

هذه ثلاثة معانٍ ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى هذه الآية: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء] وهذه المعاني الثلاثة هي في الواقع جواب على إشكال معروف وهو أن الله يقول: إنه لن يجعل لهؤلاء الكفار على المؤمنين سبيلاً مع أن الكفار -كما هو مشاهد- يغلبون المسلمين في بعض الأحيان كما حصل في أُحد وفي غيرها عبر التاريخ وربما تسلطوا عليهم وتمكنوا منهم وقتلوهم فكيف قال الله: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}؟ [(141) سورة النساء].

عليٌّ -رضي الله عنه- وطائفة من السلف حملوا الآية على أن المراد بها يوم القيامة؛ والقرينة التي احتجـوا بها موجودة في الآية أعني قوله تعالى: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(141) سورة النساء] ثم قـال: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء].

وعلى هذا أيضاً يبقى سؤال وهو: ما هو السبيل الذي لا يكون للكافرين على المؤمنين يوم القيامة وقد انتهـت المعارك؟

فالجواب هو أن السبيل على هذا هو الحجة كما قال السدي، فإن قيل: وما هي الحجة قيل: يمكن أن تكون ما اختاره ابن جرير حيث يقول: لو أن الله -تبارك وتعالى- جمع المنافقين مع المؤمنين في المـصير والمـآل فأدخلهم الجنة فإن هذا الحكم لن يكون سبيلاً إلى احتجاج الكافرين الصرحاء عليكم، وكذلك الأمر إذا افتُرض أن المسلمين دخلوا النار مع المنافقين فاحتج الكفار بقولهم: لماذا كنتم تقاتلوننا إذاً بإقامتكم الجهاد ثم إن هؤلاء المنافقين كانوا معنا في الباطن فكيف صار مآلهم إلى مآلكم؟ فإنه يقال: هذا ليس فيه حجة للكافرين أيضاً.

وهنا ملاحظة وهي أن المنافقين اليوم هم الذين يسمون في عرف الكفار الغربيين اليوم "المسلمين المعتدلين".

هذا ربط لأقوال السلف وتوجيه لها، وأعيدها مرة أخرى للتوضيح أكثر..

القول الأول: أن قوله تعالى: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [(141) سورة النساء] على قـول عليٍّ -رضي الله عنه- ومن وافقه أنه في يوم القيامة ويكون بمعنى الحجة وهذا القول يكون موافقـاً لمعنـى قول السدي.

وأما توجيه الحجة وكيف تكون فهنا يأتي قول ابن جرير فهو يذكر قولاً مستقلاً له لكن دورنا أن نربط بـين هذه الأقوال ونجمع بينها فبدلاً من أن نقول: قيل الحجة وقيل يوم القيامة وقيل بأن يـدخلهم الجنـة معـاً أو يدخلهم النار معاً، يمكننا أن نُرجع ذلك إلى شيء واحد، إلا أن من قال: إنه الحجة مثل السدي فهو أعم من أن تكون مختصة بيوم القيامة لأن الكفار لا حجة لهم على المسلمين لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولـذلك بعـض أهل العلم فسر قوله: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(173) سورة الصافات] وقوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [(51) سورة غافر] بأن المراد به النصر بالحجة والغلبة بالحجة.

والواقع أن هذا نوع من الغلبة وإنما هو بالحجة وبالسيف والعبرة بالعاقبة وإن هزموا في معركة من المعارك أو في وقت من الأوقات أو في ناحية من النواحي، هذا هو القول الأول والثاني وتوجيههمـا، أي أنهـا يـوم القيامة، أو الحجة.

القول الثالث الذي قال به طائفة من السلف وذكره ابن كثير -رحمه الله- احتمالاً ولم ينسبه إلى أحد: أي فـي الدنيا بأن يسلطوا عليهم تسليط استئصال بمعنى أنه لا يمكن أن يتسلطوا على جميع الأمـة فهـذا لا يمكـن، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا ربه بثلاث دعوات فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة فكان مما أعطاه ألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى لو اجتمع عليهم من بأقطارها ما اسـتطاعوا أن يستأصلوا المسلمين، وهذا شيء مشاهد، ففي الخندق كانوا قد جاءوا للاستئصال لكن بعد ذلك لم يحاولوا ولن يطمعوا بهذا، وإنما غاية ما في الأمر أنهم يحاولون أن يفرغوا عقيدتهم من محتواها ليكونوا مجموعـة مـن

الدراويش أو البهائم التي تعيش من أجل الدنيا والتي لا تفرق بين المسلم والكافر، أما الاستئصال فلا يستطيعون ولا يطمعون به.

هذه ثلاثة أقوال ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ووجهنا قول ابن جرير وأنه ليس قولاً رابعاً في هذه الآية.

وبالنسبة لقول علي -رضي الله عنه- بأن ذلك يوم القيامة، بعض أهل العلم كابن عطية يقول: هذا قول جميع المفسرين، وهذا كلام غير صحيح فليس هذا قول جميع المفسرين واستحسنه جماعة من المفسرين كالقرطبي ولكن ابن العربي المالكي عارضه وردَّه، ولما ذكر القول الآخر الذي لم يذكر هنا وهو أجود هذه الأقوال وهو أن الآية على ظاهرها: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً يعني على المؤمنين ما داموا متمسكين بإيمانهم، ومعلوم أن الحكم المتعلق على الوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

المقصود أن هذا القول بأنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ماداموا متمسكين بإيمانهم ودينهم استحسنه ابن العربي غاية الاستحسان، وهو الذي نصره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وقواه، وهو الذي يظهر من معنى الآية، والله تعالى أعلم.

يقول تعالى: **{وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}** [(141) سورة النساء] هذا من قبيل الحكم المعلق على وصف، فالوصف هو الإيمان، والحكم أنه لا سبيل للكافرين عليهم، فهذا الحكم يزيد بزيادة الوصف وينقص بنقصانه، أي على قدر ما يتمسكون بإيمانهم وإسلامهم وشرع الله -عز وجل- على قدر ما يدفع عنهم، فإذا كانوا كما ينبغي فلن يستطيع أحد أن يغلبهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، فعلى قدر تمسكهم على قدر ما يحصل لهم من الظفر والنصر والغلبة.

ومما يؤيد هذا القول أن الله تعالى يقول في مواضع من القرآن: **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** [(51) سورة غافر] ويقول: **{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** [(173) سورة الصافات] والإضافة هنا إضافة تشريف، والله يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ}** [(7) سورة محمد] فعلى قدر نصرهم لله ينصرهم الله -عز وجل-.

ويقول الله تعالى كذلك: **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}** [(30) سورة الشورى] **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(165) سورة آل عمران] أي هذا الذي وقع لكم في يوم أحد، قلتم أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، فعلى قدر ما يحصل عندهم من الخلل في إسلامهم وفي إيمانهم وفي طاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- على قدر ما يحصل لهم من الهزيمة ويحصل من لهم من نكاية العدو وغلبته وما إلى ذلك، فالذي يظهر -والله أعلم- أن هذا هو معنى الآية.

وهناك قول آخر أنه لن يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً يعني شرعاً، بمعنى أن قتال الكفار للمسلمين أمر خارج عن قانون الشرع فهو فعل محرم وزيادة في الكفر على كفرهم وإجرام على إجرامهم وظلم وعدوان يعني في قتالهم للمسلمين وأذيتهم لهم فهو لن يجعل لهم سبيلاً عليهم شرعاً، أما أهل الإسلام فلهم سبيل على الكافرين شرعاً فهم يجاهدون لإعلاء كلمة الله ويقاتلون من كفر بالله، فهذا هو السبيل، أما قتال الكافرين

للمسلمين فهو عدوان وظلم، هذا هو معنى السبيل شرعاً، لكن هذا أبعد المعاني وأضعفها في تفسير هذه الآية وإن كانت الآية تحتمله، والله أعلم.

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً* مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [(142-143) سورة النساء].

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [(9) سورة البقرة] وقال هاهنا: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(142) سورة النساء] ولا شك أن الله لا يخادَع فإنه العالم بالسرائر والضمائر ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجَرتَ عليهم أحكامُ الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر تعلى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} الآية [(18) سورة المجادلة].

وقوله: {وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(142) سورة النساء] أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} [(13) سورة الحديد] إلى قوله: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(15) سورة الحديد] وقد ورد في الحديث: ((من سَمَّع سَمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به))[1].

يقول تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(142) سورة النساء] ذكرنا في أول السورة أن من صفات الله -عز وجل- مالا يضاف إليه وينسب إليه ويطلق عليه بإطلاق، يعني أن من الصفات ما هو كمال بإطلاق فيضاف إلى الله -سبحانه وتعالى- مثل العلم، فالله عليم، وكذلك الحكمة والعظمة والقدرة وما أشبه ذلك، ومن الصفات ما تكون نقصاً في حال وتكون كمالاً في حال، فلا يوصف الله -عز وجل- بذلك إلا حيث يكون كمالاً، كما في قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [(30) سورة الأنفال] وقوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(142) سورة النساء] وأشباه ذلك، فهذا لا يطلق على الله بإطلاق فيقال: الله تبارك وتعالى مثلاً كذا، وإنما يقال ذلك مقيداً، فالله -عز وجل- يمكر بمن يستحقون ذلك، وهو يخادع هؤلاء المنافقين الذين يخادعونه فيكون ذاك كمالاً.

ومن أهل العلم من يقول: إن هذا لا يطلق على الله -عز وجل- إلا على سبيل المقابلة، ومنهم من يعبر بالمشاكلة، أما التعبير بالمشاكلة فهو مردود؛ لأن المشاكلة نوع من المجاز، كما في قول القائل:

قالوا اقترح شيئاً نُجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

فهو يريد ثياباً فعبر بنفس العبارة التي عبروا بها، ماذا تريد أن نطبخ لك؟ قال: اطبخوا لي جبة وقميصاً، والجبة والقميص لا يطبخان فيقولون: هذا من باب المشاكلة باللفظ، أي أنه عبر بنفس العبارة التي عُبر بها

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب الرياء والسمعة (6134) (ج 5 / ص 2383) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب من أشرك في عمله غير الله -وفي نسخة باب تحريم الرياء (2986) (ج 4 / ص 2289).

في المقابل، وعلى هذا يقولون: هؤلاء قال الله عنهم إنهم يخادعون الله فعبر بعبارة مماثلة أو بنفس العبارة فقال: وهو خادعهم، ولا حقيقة لذلك؛ لأن هذا قول بالمجاز وهو مردود، وإنما الصواب أن هذا على الحقيقة لكنه في المقام اللائق بالله -عز وجل- فمن أهل العلم من يقيده بمقابله فقط ويقول: لا يأتي إلا يمكرون ويمكر الله.

لكن نقول: ليس ذلك بلازم؛ لأنه قد ورد في بعض المواضع "الكيد" مع المقابل ومن غير المقابل، وورد "المكر" مع المقابل ومن غير المقابل، قال تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(183) سورة الأعراف] وبالمقابل: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا} [(15- 16) سورة الطارق] وفي المكر قال: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(99) سورة الأعراف] ففي هذا الموضع لم يذكر مكرهم، ولذلك يقال: حيث كان ذلك من الكمال في موطن فهو مطلوب، فلو أن أحداً كثير الإفساد والعتو والأذية للناس فجاء أحد واستدرجه حتى أوقعه بسوء صنيعة واستراح الناس منه فإن ذلك يكون محموداً وليس ذلك بنقص ولا مذموم، والمقصود أن الله -عز وجل- يمكر بهؤلاء الذين يستحقون هذا من المنافقين وغيرهم؛ لأن هؤلاء المنافقين يخادعون الله.

والذي يفسر معنى "يخادعون الله" هو ما يفهم من مجموع الآيات التي وصف الله بها المنافقين مما يدخل في هذا كقوله تعالى: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} [(1) سورة المنافقون] فهم جاءوا بثلاثة مؤكدات على أنهم صادقون أولها: لفظ الشهادة، وثانيها: إنَّ المؤكدة لتقوم مقام إعادة الجملة مرتين، وثالثها: اللام في قولهم: {لَرَسُولُ اللَّهِ} فقال الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} [(1) سورة المنافقون] ثم رد عليهم بنفس المستوى من التأكيد فقال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [(1) سورة المنافقون] فهذا من مخادعتهم.

ومن مخادعتهم ما ورد في قوله تعالى عنهم: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(2) سورة المنافقون] يعني أنهم اتخذوا الأيمان مثل الترس وقاية لهم، وهذا من مخادعتهم بالحلف.

ومن مخادعتهم ما جاء في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(18) سورة الأحزاب] فلا يأتون إلا من أجل إثبات حضورهم، وإذا جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تخلفوا عنها، وكذلك إذا صدر منهم ما لا يليق جاءوا يحلفون كذباً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لتكون تلك الأيمان جنة لهم ووقاية، كما قال تعالى عنهم إنهم يقولون: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [(62) سورة النساء].

وهكذا أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ليحقنوا دماءهم وليحرزوا أموالهم، فإذا جاء يوم القيامة يظنون أن هذا يروج، ولهذا ذكر الله صفتهم في المحشر إذا بعثوا فقال: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} [(18) سورة المجادلة] وكذلك حينما ينطفئ نورهم على الصراط يقولون لأهل الإيمان: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ* يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [(13-14) سورة الحديد] فهم كانوا مع المؤمنين في الظاهر وهذا من مخادعتهم يخادعون الله والذين آمنوا، والمقصود أن مثل هذا المعنى كله يذكر في تفسير هذه اللفظة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى} الآية [(142) سورة النساء] هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمانَ لهم بها ولا خشية ولا يعقلون معناها، وهذه صفة ظواهرهم.

ذكر الله -عز وجل- عن هؤلاء أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وقال أيضاً: {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(142) سورة النساء] والصلاة داخلة في الذكر بل هي من أشرف الذكر، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً عن أثقل الصلاة على المنافقين، ومفهوم المخالفة أن المؤمنين بعكس ذلك فهم يقومون للصلاة بنشاط وجد وحرص، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به في آيات أخرى تذكر صفة المؤمنين، قال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [(2) سورة المؤمنون] وذكر محافظتهم على الصلاة ومداومتهم عليها فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [(9) سورة المؤمنون] وقال: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [(23) سورة المعارج] وهذا عكس صفة المنافقين.

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال: {يُرَآءُونَ النَّاسَ} [(142) سورة النساء] أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة؛ ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَون غالبًا فيها كصلاة العشاء في وقت العَتَمَة وصلاة الصبح في وقت الغَلَس.

هذا في السابق على أساس أنه لا توجد أنوار فما يدرى الحاضر من الغائب، وقد دلت الأحاديث على أن أحدهم ينصرف بعد صلاة الصبح حين يعرف أحدنا جليسه[2] وفي حديث عائشة قالت: كنا نصلي بغلس فتنصرف نساء الأنصار المؤمنات لا يعرفهن أحد من الغلس[3] بل بعضهم يقول: ما تُعرف هي امرأة أم رجل أصلاً وإنما يُرى إنسان يمشي، فالمنافق ما يُدرى هل صلى أم لم يصلِّ العشاء والفجر، فهي فرصة للتخلف، كما يمكن أن يكون هذا التخلف لمعنى آخر هو أنها شاقة عليهم وذلك أن صلاة العشاء في نهاية اليوم بعد انتهاء الأعمال، ولذلك جاء في حديث عمر لما قال: "نام النساء والصبيان" فهم يغالبون النعاس من أجل البقاء إلى صلاة العشاء؛ لأنهم لا ينامون بعد الفجر وإنما هم في أعمال وحروث وما أشبه ذلك كما هو مشاهد في القرى، وبالسبة للفجر فإنه وقت ألذ ما يكون النوم فيه، وهذا صرح به بعض أهل العلم ولا يحتاج أن يصرح به فهذا شيء مشاهد، ألذ ما يكون النوم في وقت الفجر.

ومن الطرائف في مسألة لذة النوم أن أحد الوزراء زار مستشفى المجانين فوجد هذا يقوم وهذا يسقط وهذا يضرب في الجدار وهذا يكلم نفسه إلا واحداً كان رزيناً ساكتاً لا يتكلم وينظر إلى الجميع ومنهم الوزير فلما هم الوزير بالانصراف بعد الجولة التفقدية قال له:عندي سؤال، قال: تفضل، فقال له: متى يجد الإنسان لذة النوم؟ قال الوزير: إذا أراد أن ينام، قال: كيف يجد لذته ولم يدخل فيه؟ فقال:إذا استيقظ، قال: كيف يجد لذته وقد فارقه؟ فقال: إذا كان نائماً، قال: كيف يجد لذة النوم وقد ارتفع عنه الإدراك وهو مستغرق في النوم؟ قال: فأخبرني أنت، قال: إذا استيقظ لحاجة ورجع، كأن يرن التلفون فيقوم ليرد عليه ونحو ذلك، فقال

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة - باب ما يكره من السمر بعد العشاء (574) (ج 1 / ص 215).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب وقت الفجر (553) (ج 1 / ص 210) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس وبيان قدر القراءة فيها (645) (ج 1 / ص 445).

الوزير: لا أكلم مجنوناً بعدك، والحقيقة أن كلام هذا المجنون كلام صحيح، أعني أن لذة النوم يشعر بها الإنسان إذا استيقظ لحاجة ورجع.

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال، معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم بالنار))**[4] **وفي رواية:** **((والذي نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا أو مِرْمَاتين حسنتين لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار))**[5].

العرق السمين هو العظم الذي عليه لحم أو الذي أكل أكثر اللحم منه، وأحياناً يطلق على ما فيه لحم ولو كان قليلاً، لكن هنا قيده بقوله: ((سميناً)) أي أن عليه أوفر ما يكون من اللحم.

وقوله: ((مرماتين حسنتين)) بعضهم فسره باللحم الذي يكون بين الأضلاع وهو سمين مستلذ.

وقوله: {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(142) سورة النساء] أي: في صلاتهم لا يخشعُون ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

قوله تعالى: **{وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [(142) سورة النساء] ليس مختصاً بالصلاة بل ذلك واقع منهم في الصلاة وفي غير الصلاة، فهم لا يذكرون الله إلا قليلاً؛ لأن قلوبهم وألسنتهم غافلة عن الله وذكره، منشغلة بلمز المؤمنين والاستهزاء بهم، نسأل الله العافية.

وقد روى الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يَرْقُب الشمس حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان قام فَنَقَر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً))** **وكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح**[6].

وقوله: {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء} [(143) سورة النساء] يعني: المنافقين محيَّرين بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} الآية [(20) سورة البقرة].

المذبذب هو القلق المتردد المضطرب الذي لا يثبت على حال من الأحوال، فتارة هنا وتارة هنا كالشاة العائرة تعور بين الغنمين لاهي مع هذا القطيع ولا هي مع هذا القطيع.

وقال مجاهد: {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء} يعني: أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- {وَلاَ إِلَى هَؤُلاء} يعني: اليهود.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب فضل العشاء في الجماعة (626) (ج 1 / ص 234) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (651) (ج 1 / ص 451).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب وجوب صلاة الجماعة (618) (ج 1 / ص 231).

[6] - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب التبكير بالعصر (622) (ج 1 / ص 434).

وروى ابن جرير عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تَعِيرُ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع))[7] **تفرد به مسلم.**

ولهذا قال تعالى: {وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [(143) سورة النساء] أي: **ومن صرفه عن طريق الهدى {فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}** [(17) سورة الكهف] **فإنه {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ}** [(186) سورة الأعراف] **والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.**

---

[7] - أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (2784) (ج 4 / ص 2146).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (37)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا* إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا* مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [(144-147) سورة النساء].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(28) سورة آل عمران] أي: **يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، ولهذا قال هاهنا: {أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا}** [(144) سورة النساء] أي: **حجة عليكم في عقوبته إياكم.**

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {سُلْطَانًا مُّبِينًا} كل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناد صحيح، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القُرَظي والضحاك والسدي والنضر بن عَرَبي.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله، أما بعد:

فهذه الأمور التي ذكرها الحافظ بن كثير -رحمه الله- في الموالاة من المناصحة والمصادقة والمصاحبة وإسرار المودة هي بعض أنواع المولاة ولكن ذلك لا يختص بها ولا يقتصر عليها، بل تكون المولاة أحياناً بالقلب ولو لم يصدر قول ولا عمل، فتارة يميل إليهم بقلبه ويحبهم ويقدمهم على المسلمين مثلاً أو يتمنى ظهورهم ونصرهم وعلوهم وما إلى ذلك من الأمور، وتارة تكون الموالاة بالقول إلا ألا تكون على وجه المصانعة كما في قوله -تبارك وتعالى-: {إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [(28) سورة آل عمران] يعني إذا احتاج إلى المداراة فلا بأس.

وأحياناً تكون الموالاة بالفعل كالذي يعينهم على المسلمين وما أشبه ذلك من صور الموالاة، وهذه الصورة الأخيرة هي من أقبح الصور.

ومفهوم المخالفة في قوله تعالى: {مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} لا يحتج به في هذا الموضع، فهذا أحد المواضع التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، وقد ذكرنا مراراً أن مفهوم المخالفة حجة عند الجمهور، وقلنا: إن الكلام ينقسم

إلى منطوق ومفهوم، والمنطوق هو ما دلَّ عليه اللفظ في محل النطق، والمسكوت هو ما دلَّ عليه لا في محل النطق بل من جهة السكوت، وهو ينقسم إلى مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة وكلاهما حجة أي: يُحتج بهما في الأحكام، ومعنى مفهوم المخالفة أن يكون حكم المسكوت عنه مخالفاً لحكم المنطوق به.

ومن الأمثلة البسيطة على مفهوم المخالفة أنك إذا قلت لإنسان: أعط هذه الصدقة للفقراء فكأنك قلت له: لا تعطها للأغنياء مع أنك لم تتلفظ بذلك لكنه عُرف من جهة مفهوم المخالفة وهو المعنى المسكوت عنه.

ومع أن مفهوم المخالفة حجة إلا أنه غير معتبر هنا؛ لأن مفهوم المخالفة حجة إلا في حالات مستثناة ومنها: أن يكون اللفظ المنطوق به روعي فيه الحال الغالبة في الوقوع بمعنى أنه خرج مخرج الغالب، أي: أن الحكم جيء به مراعىً فيه حال كثيرة الوقوع أو نزل في واقعة معينة ومنها هذه الآية **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}** [(144) سورة النساء] فلو قال قائل: أنا أريد أن أتخذ الكافرين أولياء مع المؤمنين فإن ذلك لا يجوز بحال لا من دون المؤمنين ولا مع المؤمنين، لكن هذا الآية جاءت بهذا السياق لأنها نزلت على واقع معين حيث إن مجموعة من الناس اتخذوا بعض الكافرين أولياء من دون المؤمنين فجاء النهي عن ذلك، وإلا فالموالاة منهي عنها بإطلاق، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(33) سورة النـــور] فهذه الآية نزلت؛ لأن عبد الله بن أبي كان يكره جاريتين عنده على الزنا بأجرة وكنَّ يأبين ذلك فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية، فلو أن الجواري كنَّ يردن الزنا فلا يعني ذلك أنه يجوز له أن يمكنهن من ذلك، لذلك فقوله: **{إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** نزلت تحكي واقعاً معيناً، فهو أحد المواضع التي لا يحتج فيها بمفهوم المخالفة، كما قال في المراقي:

كـــذا دليـــل للخطـــاب انـــضافا	ودع إذا الـــساكت عنـــه خافـــا
أو جهل الحكم أو النطــق انجلــب	للسؤل أو جرى على الــذي غلــب
أو امتنـــــان أو وفـــــاق الواقـــع	والجهـــلِ والتأكيـــد عنـــد الـــسامع

وهذا الموضع من سورة النساء هو من وفاق الواقع أي أن هذا الخطاب جاء وفق واقعٍ معين، لذلك لا يجوز لأحد أن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ولا مع المؤمنين.

يقول تعالى: **{أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا}** [(144) سورة النساء] **قال ابن كثير**: "أي: **حجة عليكم في عقوبته إياكم**" وذكر الأثر عن ابن عباس أنه قال: "**كل سلطان في القرآن حجة**" وهذا هو الذي يقال له الكليات في القرآن، أعني الأشياء المبدوءة بـــ"كل" يقال: كل كذا في القرآن فهو كذا، وهذه قضايا تحتاج إلى استقراء، يعني لو حتى صح عن الواحد من السلف -رضي الله عنهم- مثل هذا فلا يعني أنه مسلم في كل المواضع، لأنك لو نظرت وتتبعت لفظة سلطان في القرآن ونظرت إلى أقوال السلف فيها تجدهم يختلفون في بعضها، فمثلاً قوله تعالى: **{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(33) سورة الإسراء] فما معنى السلطان في الآية؟ كثير من أهل العلم يقولون: السلطان هنا هو القصاص، والقرينة المرجحة لهذا المعنى موجودة في الآية وهي قوله: **{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(33) سورة الإسراء] لكن الأقرب من هذا أن يقال: إن المراد بالسلطان أنه مخيَّرٌ بإحدى ثلاث: إما القصاص، أو الدية أو العفو مجاناً، فإن اختار القصاص فقد أرشده الله بقوله: **{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(33) سورة الإسراء].

وإذا أردنا أن نفسر الآية تفسيراً يجمع ذلك كله فيمكن أن نقول: إن الله -عز وجل- جعل لولي الدم تسلطاً على القاتل بأن جعل له إليه سبيلاً وحجة إن شاء أن يقتص وإن شاء أن يأخذ الدية وإن شاء أن يعفوَ مجاناً، بهذه الطريقة يمكن الجمع بين الأقوال وإن كان هذا لا يقول به كل أهل العلم، وعلى كل حال فقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: كل سلطان في القرآن حجة يحتاج إلى استقراء ونظر في كل المواضع مع ما قال أهل العلم في ذلك، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [(145) سورة النساء] **أي: يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ.**

قال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [(145) سورة النساء] **أي: في أسفل النار، وقال غيره: النار دركات كما أن الجنة درجات.**

وروى ابن جرير عن عبد الله -يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [(145) سورة النساء] **قال: في توابيت من نار تطبق عليهم، أي: مغلقة مقفلة لا يُهتدى لمكان فتحها.**

النار دركات والمنافقون في السفلى منها -أعاذنا الله وإياكم من النار- وهذا لا ينافي ما ذكر الله -عز وجل- عن أصحاب المائدة عندما قال: {فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [(115) سورة المائدة] ولا ينافي قوله تعالى عن فرعون: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(46) سورة غافر] فالدرك الأسفل من النار يكون فيه أهل النفاق ولا يمنع ذلك أن يوجد فيه أيضاً غيرهم، فالآية ليس فيها حصر للمنافقين بدخولهم الدرك الأسفل من النار فقد يوجد غيرهم معهم، ثم إن أشد العذاب قد يكون في الدرك الأسفل من النار ويعذب بعذاب هو غاية في الإيلام والإهانة ولكن ذلك يكون لغيره أيضاً؛ لأن أفعل التفضيل كما ذكرنا في مناسبات أن القاعدة في أفعل التفضيل أنها تمنع من الزيادة ولا تمنع من التساوي، فإذا قلت: زيد أكرم الناس ثم قلت: عمرو أكرم الناس، فالمقصود أن عمرو فاق غيره في الكرم لكنه لا يمنع أن يساوي زيداً وغير زيد في هذه الصفة، وعلى هذا نقول إن آل فرعون يدخلون أشد العذاب ولا يمنع أن يشاركهم في هذه الشدة غيرهم كالمنافقين مثلاً وكذلك لا يمنع أن يشتركا في دخولهم الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله.
ويستفاد من قوله تعالى: {فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [(115) سورة المائدة] أنه يمكن أن يكون لهم صنوف من العذاب لا توجد لغيرهم؛ لأن عذاب النار متنوع، فلا تعارض بين هذه الآيات إطلاقاً.

روى ابن أبي حاتم: أن ابن مسعود سئل عن المنافقين، فقال: يجعلون في توابيت من نار، تطبق عليهم في أسفل درك من النار.

{وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [(145) سورة النساء] **أي: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب.**

مثل هذا الذي جاء عن ابن مسعود لا يقال جاء من جهة الرأي فهو إن لم يكن قد عرف من جهة بني إسرائيل فإنه يكون له حكم الرفع إن صحَّ سنده، وابن مسعود -رضي الله عنه- ما عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل خلافاً لابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- فالله تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقَبِلَ ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله واعتصم بربه في جميع أمره فقال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ} [(146) **سورة النساء] أي: بَدَّلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ.**

قوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ} أي: تابوا من النفاق وأصلحوا أنفسهم وأصلحوا ما أفسدوه بنفاقهم هذا؛ لأن من كان له فساد متعدٍ لا تكفي توبته بالندم والإقلاع بل لابد من إصلاح ما أفسد.

يقول تعالى: {وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ} الاعتصام أصل معناه التمسك، تقول: اعتصم بالشيء يعني تمسك به وتعلق به، واعتصموا بالله يعني تمسكوا بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه وما أشبه ذلك من العبارات، وقد ذكر هذا المعنى كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

{فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [(146) سورة النساء] أي: **في زمرتهم يوم القيامة** {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [(146) سورة النساء].

ثم قال تعالى مخبرًا عن غناه عما سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال تعالى: {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ} [(147) سورة النساء] أي: **أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله** {وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [(147) سورة النساء] أي: **من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به عَلِمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.**

{لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا* إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [(148-149) سورة النساء].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ} **يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله:** {إِلاَّ مَن ظُلِمَ} [(148) سورة النساء] **وإن صبر فهو خير له.**

وقال الحسن البصري: لا يدعو عليه وليقل: اللهم أعني عليه واستخرج حقي منه، وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه.

قوله تعالى: {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ} [(148) سورة النساء] فسر بالدعاء عليه لكن يشكل على هذا المعنى أن الدعاء قد لا يكون من الجهر بالسوء وذلك أنه قد يدعو عليه فيما بينه وبين الله -تبارك وتعالى- ولا يكون جاهراً بذلك، ولذلك فسره بعض أهل العلم -ولعله تفسيرٌ قريب- بأن يتكلم المظلوم فيقول: فلان ظلمني، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لَيُّ الواجد يُحل عرضه وعقوبته))[1] طبعاً إلا أن يكون والداً فليس له ذلك؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنت ومالك لأبيك))[2] والله تعالى أعلم.

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية - باب في الحبس في الدين وغيره (3630) (ج 3 / ص 349) والنسائي في كتاب البيوع – باب مطل الغني (4689) (ج 7 / ص 316) وابن ماجه في كتاب الصدقات - باب الحبس في الدين والملازمة (2427) (ج 2 / ص 811) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (2919).

[2] - أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات - باب ما للرجل من مال ولده (2291) (ج 2 / ص 769) وصححه الألباني في الإرواء برقم (838).

ومعنى يُحل عرضه أي بأن يقول: فلان مطلني، ويؤيد ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرشد الرجل الذي كان يؤذيه جاره بأن يُخرج متاعه إلى الشارع فكان كلما مرَّ به أحد قال له: جاري ظلمني وأساء في جواري فكان الناس يدعون عليه، فجاءه جاره وطلب منه أن يرجع إلى بيته.

فالمقصود أن مثل هذا الأمر يجوز في حق الإنسان المظلوم لكن ليس له أن يتوسع في عرضه بل يتكلم بقدر مظلمته فقط، وليس معنى ذلك أنه يتكلم عليه ويقول مثلاً: وإنه ليتخلف عن صلاة الفجر، وله مواقف ريب فقد رأيته في السوق يفعل كذا، وأحياناً يدخل عليه نساء، ونحو ذلك فهذا لا يجوز أن يتكلم به عليه؛ لأن هذه الأمور ليست لها علاقة بالظلم الواقع به، فليتكلم بالقدر الذي حصل فيه الظلم؛ لأن الأعراض محرمة فالأصل فيها التحريم كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام))[3].

يقول الحسن -رحمه الله-: "**لا يدعو عليه وليقل: اللهم أعني عليه واستخرج حقي منه**" يعني يكتفي بهذا مخافة أن يظلمه في الدعاء، لكن لا بأس أن يدعو عليه بقدر المظلمة، ومن أسلم ذلك أن يقول: اللهم جازه بما يستحق أو جازه على عمله هذا، أو نحو ذلك؛ لأن الإنسان -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قد يدعو على ظالمه فيكون ظالماً بهذا الدعاء وذلك بأن يدعو عليه بأكثر من المظلمة، وذلك أن بعضهم إذا سُرق منه جوال -مثلاً- وجدته يدعو على السارق بتيتيم أطفاله وترميل نسائه وأن يأخذ سمعه وبصره وأن يشل أركانه ويجعله يتمنى الموت ولا يجده، ويدعو الله أن يُجمِّد الدم في عروقه وأن يلعنه لعناً يدخل معه إلى قبره!! فهذا لا يجوز لأنه ظلم واعتداء في الدعاء، وإنما يقول: اللهم خذ حقي منه أو اللهم جازه بما يستحق على ظلمه لي أو نحو ذلك.

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَريّ في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه ولكن إن افترى عليك فلا تفترِ عليه؛ لقوله: {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ} [(41) سورة الشورى].

وروى أبو داود عن أبي هريرة؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المُسْتَبَّانِ ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم))[4].

والخلاصة أن من أهل العلم من يقول: هو الدعاء، ومنهم من يقول: أن يذكره بهذا الظلم عند الناس، وحمله ابن جرير -رحمه الله- على الدعاء وعلى أن يذكره به عند الناس، وبهذا يكون قد جمع بين المعنيين، وهذا جيد، لكن إذا دعا عليه فلا يزيد على قدر المظلمة وإذا تكلم عند الناس فلا يتكلم إلا بما وقع له من ظلم دون التعرض لما فيه من المعايب التي لا صلة لها بالظلم الواقع عليه كما سبق، والله أعلم.

وقوله: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [(149) سورة النساء] أي: إن تظهروا -أيها الناس- خيرًا أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ولهذا قال: {فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [(149) سورة النساء] ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم: سبحانك على

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الخطبة أيام منى (1652) (ج 2 / ص 619) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (1679) (ج 3 / ص 1305).

[4] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب النهي عن السباب (2587) (ج 4 / ص 2000).

حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: ((ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا ومن تواضع لله رفعه الله))[5].

---

[5] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب العفو والتواضع (2588) (ج 4 / ص 2001).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (38)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا* وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(150-152) سورة النساء].

توعد -تبارك وتعالى- الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فَرّقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية.

فاليهود -عليهم لعائن الله- آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمداً -عليهما الصلاة والسلام- والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد -صلى الله عليه وسلم- والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: زرادشت ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء؛ فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن ردَّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ} [(150) سورة النساء] **فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله {وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ}** [(150) سورة النساء] **أي في الإيمان {وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}** [(150) سورة النساء] **أي: طريقًا ومسلكًا.**

ثم أخبر تعالى عنهم فقال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [(151) سورة النساء] **أي: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعيًّا، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهانًا منه أو نظروا حق النظر في نبوته.**

وقوله: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [(151) سورة النساء] **أي: كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه فسلط الله**

عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} [(61) سورة البقرة] **في الدنيا والآخرة.**

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} [(152) سورة النساء] **يعني بذلك أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله كما قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ} الآية** [(285) سورة البقرة].

ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل فقال: {أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ} [(152) سورة النساء] **على ما آمنوا بالله ورسله {وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} أي: لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الكلام الذي ذكره الحافظ –رحمه الله- لا يحتاج إلى كثير تعليق فهو واضح وليس فيه ما يشكل، إلا أن قوله: إن الفرس بعث إليهم نبي يقال له زرادشت فهذا لم يثبت ولذلك لا نثبت نبوته.

ومن المعروف في تاريخ الفرس أن من مذاهبهم في بعض مراحل دولتهم الفارسية مذهباً معروفاً يذكر في الملل والنِّحل والفِرَق والأهواء يقال له: زرادشتيه، فالله تعالى أعلم.

وما يذكرونه في بوذا أيضاً لا يثبت؛ لأننا لا نثبت إلا ما ثبت من طريق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الكتاب والسنة وما عدا ذلك فإننا نتوقف فيه، فالله تعالى أعلم.

وفي قوله تعالى: **{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}** [(151) سورة النساء] ذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله- نوعي الكفر، كفر الإعراض وكفر الجحود، فالكفر لا يقتصر على الجحود فحسب بل الكفر أنواع منه ما يكون كفر جحود ومنه ما يكون كفر إعراض، ومنه ما يكون كفر شك، وما أشبه ذلك، فالذين يربطون الكفر دائماً أو يفسرونه بالجحود فقط هؤلاء أخطئوا، وقد جاء في خبر عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه على قبائل العرب لما قال له الرجل الذي ينتسب إلى بني عبد ياليل، فقال له: إن كنت نبياً فأنت أعظم من أن أكلمك وإن لم تكن نبياً فأنت أدنى من أن أرد عليك، ثم ذهب وتركه، فهذا يسمى كفر إعراض وليس كفر جحود؛ لأنه قد بلغته دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم- فأعرض عن ذلك -ولم يؤمن- بهذه الدعوى الساقطة التي ذكرها.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}** [(151) سورة النساء] هذا جاء تعقيباً على ما وصف الله -عز وجل- من المفرقين بين الله ورسله من اليهود والنصارى، وهذا كثير في القرآن، فالله -عز وجل- يذكر بعض الذنوب والجرائم أو بعض الأعمال الطيبة ثم يأتي بالحكم عاماً ليشمل هؤلاء وغيرهم.

والشيخ/ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في كتابه القواعد الحسان ذكر لهذا نظائر وأمثلة كثيرة مفيدة، وذلك أن الذين أعد الله لهم العذاب المهين ليسوا هؤلاء فقط الذين يفرقون بين الله ورسله ويكفرون بالله ورسله ويريدون أن يتخذوا سبيلاً يسلكونه في هذا، فلما كان العذاب المهين لكل الكافرين جاء بالحكم عاما فقال: **{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}** [(151) سورة النساء] ولم يقل: وأعتدنا لهم عذاباً مهيناً؛ لئلا يُفهم أن

العذاب مختص بهؤلاء، وكذلك عند الكلام على المؤمنين قال تعالى: {فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} ثم أتى بحكم عام فقال: {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [(146) سورة النساء] ونحو هذا موجود في كتاب الله تعالى.

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا* وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} [(153-154) سورة النساء].

قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة: سأل اليهود رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- أن ينزل عليهم كتابًا من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة.

قال ابن جُرَيج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفارُ قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة "سبحان": {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} الآيات [(90) سورة الإسراء] ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [(153) سورة النساء] أي: بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(55-56) سورة البقرة].

قوله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء اليهود: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ} [(153) سورة النساء] ذكر فيه المعنيين، الأول: أن ينزل عليهم كتاباً جملة كالتوراة؛ لأن القرآن نزل على غير المعهود في نزول الكتب التي قبله وذلك أنه نزل منجماً، وهذا أقرب المعنيين في تفسير الآية.

والمعنى الثاني: أن يؤتى لكل واحد منهم كتاب، وهذا المعنى وإن كانت تحتمله الآية إلا أن الأقرب -والله تعالى أعلم- هو المعنى الأول.

وقوله تعالى: {فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ} [(153) سورة النساء] أي أنهم طلبوا رؤية الله -عز وجل- كما قال سبحانه: {فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً} [(153) سورة النساء] حيث طمعوا في ذلك لما ذهبوا مع موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى الطور وسمعوا موسى يناجي ربه فأرادوا رؤية الله -جل جلاله- فأخذتهم الصاعقة.

والصاعقة سبق في سورة البقرة أن بعض أهل العلم يفسرها بأنها نار محرقة مع صوت مزعج، وهي معروفة إذ إنها تكون مع الصوت الذي يعرف بالرعد ويكون معها إحراق، ويفسرها أهل العصر الحديث أو أهل العلوم الحديثة بأنها شحنة كهربائية قوية جداً بسببها يحصل الإحراق، وهذا لا ينافي ما ذُكر، إذ ليس معنى الصاعقة أن ناراً تنزل من السماء فيراها الناس وإنما يرون ما يحصل من آثارها من تفحم مَن أصابته أو موته أو نحو ذلك بحسب ما يصيبه منها، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(153) سورة النساء] أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى -عليه السلام- في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم

فرعون وجميع جنوده في اليمّ فما جاوزوه إلا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى: {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [(138) سورة الأعراف] **الآيتين.**

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف وفي سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله -عز وجل- ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتُلَ من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ثم أحياهم الله -عز وجل- وقال الله تعالى: {فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا} [(153) سورة النساء].

ثم قال تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} [(154) سورة النساء] **وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى -عليه السلام- ورفع الله على رءوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} الآية** [(171) سورة الأعراف].

وقوله تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} [(154) سورة النساء] يمكن أن يفسر –والله أعلم- بما أعطوا الله -عز وجل- من الميثاق والعهد، أي لنعملنّ بالتوراة ثم حصل منهم الإباء فرفع الله -عز وجل- فوقهم الطور.

وصفة السجود التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأنهم جعلوا ينظرون إلى الطور خشية أن يقع وهم سجّدٌ هي الصفة التي تذكر عند قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} [(63) سورة البقرة] كما أشرنا إلى ذلك في تفسير سورة البقرة، حيث يقال: إن سجود بني إسرائيل على أحد طرفي الوجه ورفع الطرف الآخر كان هو السجود الذي حصل تحت الطور ثم صار سنة لهم بعدُ، والله أعلم.

{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [(154) سورة النساء] أي: **فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً وهم يقولون: حطة أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة.**

أمرهم الله بقوله: {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [(154) سورة النساء] أي في حال الركوع، يعني ادخلوا راكعين، فهم أمروا بقول وأمروا بفعل يدل على الإخبات والشكر لله -عز وجل- بنعمة الدخول والنصر، فالفعل بأن يدخلوا في هيئة معينة وهي هيئة الركوع، يعني أن يدخل الواحد منهم وهو راكع، وقلنا: "راكعين" مع أن الآية تقول: {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [(154) سورة النساء]؛ لأن السجود يطلق ويقصد به الهيئة المعروفة ويقصد به الركوع لكن لما كان الساجد على الأرض لا يستطيع المشي كان المقصود به هنا الركوع، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فإنهم أمروا بقول وفعل يدل على الإخبات والشكر لله تعالى على نعمة النصر، فالفعل بأن يدخلوا راكعين، والقول أن يقولوا: حطة، يعني مسألتنا وأمرنا وحاجتنا أن تحط عنا خطايانا، وهي كقوله تعالى: {قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} [(164) سورة الأعراف] يعني الذين نصحوا معذرة قالوا: إن نصحنا لهم معذرة، وهنا قولوا حطة أي مسألتنا أن تحط عنا خطايانا.

لكنهم حرفوا الفعل فدخلوا على أستاههم -عكس الهيئة التي أمروا بها- وحرفوا القول الذي أمروا به فقالوا: حبة في شعرة، أو حنطة في شعرة، بدلاً من قول حطة، والله أعلم.

{وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ} [(154) سورة النساء] أي: **وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرّم الله عليهم، ما دام مشروعًا لهم {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}** [(154) سورة النساء] أي: **شديداً فخالفوا وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله -عز وجل- كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}** [(163) سورة الأعراف] **الآيات.**

معلوم أنهم كان يحرم عليهم العمل في يوم السبت فوقع منهم الاحتيال في العمل على صيد الأسماك بوضع الشباك في يوم الجمعة وأخذها في يوم الأحد، والله المستعان.

{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً* وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(155-159) سورة النساء].

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أُخذت عليهم وكفرهم بآيات الله أي حججه وبراهينه والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء -عليهم السلام-.

في قوله: **{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** الآية [(155) سورة النساء] أين جواب هذا الكلام؟

من أهل العلم من يقول: إن الباء في قوله: **{فَبِمَا نَقْضِهِم}** متعلقة بمحذوف أي: فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، يعني فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف **{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}** [(156) سورة النساء] -إلى آخر ما ذكر الله من مخازيهم- لعناهم، يعني بسبب هذه الأفعال وقع عليهم لعن الله -تبارك وتعالى-.

وبعضهم يقول: إنه متعلق بما قبله، أي أنه تفسير لما سبق في الآية السابقة **{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ}** [(153) سورة النساء].. وما هذا الظلم؟ فسره بما بعده وهو اتخاذ العجل وكذلك ما حصل منهم من الاعتداء في السبت،ونقض الميثاق وكفرهم بآيات الله وما أشبه ذلك، فهذا تفسير لهذا الظلم، وهذا تحتمله الآية احتمالاً ليس بالقوي ولكن ذكره بعض أئمة اللغة كالكسائي، مع أن كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- رد هذا القول واستبعده نظراً لما ورد في ثنايا هذه الآيات؛ لأن الله -عز وجل- ذكر فيها قتلهم الأنبياء وذكر بهتانهم لمريم وقولهم على عيسى -عليه الصلاة والسلام- ما ينزه عنه، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله إلى آخر ما ذكر، وهذه الأمور وقعت بعد الصاعقة؛ لأن الصاعقة كانت في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- ورميهم لمريم بالبهتان وقولهم عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- ما قالوا كان هذا بعده بمدة طويلة فليس هو سبب أخذ الصاعقة، ومن يقول بهذا القول لا يخفى عليه مثل هذا الإيراد، ولكنهم يقولون

ذكر الله -عز وجل- أن الصاعقة أخذتهم بظلمهم وذكر الاعتداء في السبت ونقض الميثاق وما أشبه ذلك مما وقع في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر الباقي على سبيل الاستطراد في ذكر صفاتهم السيئة، وهذا احتمال تحتمله الآية، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن الجزاء أنه حرم عليهم طيبات أحلت لهم هكذا **{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء}** [(155) سورة النساء] إلى آخر ما ذكر ثم قال: **{حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}** [(160) سورة النساء] يعني بسبب ما وقع منهم من نقض الميثاق -إلى آخر ما ذكر- حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبعضهم يقول: فبما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم، وبعضهم يقول: فبما نقضهم ميثاقهم -إلى آخر ما ذكر- لا يؤمنون إلا قليلاً حيث ختم الآية بقوله: **{بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [(155) سورة النساء] فيقولون: إن الفاء مقحمة في قوله: **{فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}** وإن المراد أن هذا هو الجزاء الذي رتبه على هذا أفعالهم السيئة التي ذكرها.

وعلى كل حال فالعرب تحذف مثل هذا في الكلام وثوقاً بفهم المخاطب، أي أن الله -عز وجل- عاقبهم بما عاقبهم به من ألوان العقوبات من لعن وختم على قلوبهم وما أشبه ذلك بسبب هذه الجرائم العظام، فيذهب ذهن السامع في مثل هذا إلى عقوبة الله -عز وجل- التي ذكرها في ثنايا هذه الآيات وفي غيرها وكل ذلك عدلٌ منه -جل جلاله- فالله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (39)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى: قوله: {وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [(155) سورة النساء] **وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمّا غفيرًا من الأنبياء -عليهم السلام-.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى-: **{وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ}** [(155) سورة النساء] هذا القيد وأمثاله "بغير حق" إنما جرى لإيضاح الواقع فذلك من الصفات الكاشفة وإلا فإن قتل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يكون بحق بحال من الأحوال.

فهذا ونظراؤه في القرآن كقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [(21) سورة آل عمران] وما شابه ذلك هذا كله ذكر فيه هذا القيد "بغير حق" لبيان الحال الواقع فيها من الصفات الكاشفة وليست مقيدة، وإنما تكون مقيدة إذا كان ذلك يقع بحقٍ وبغير حق.

ومن الأمثلة على ما ذكرنا قوله تعالى: **{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}** [(117) سورة المؤمنون]، فهل يمكن أن يدعو أحد من دون الله إلهاً له فيه برهان؟ يعني هل يمكن أن نقول: إن مثل هذا له مفهوم مخالفة معتبرة، يعني لو أن أحداً قال: مفهوم المخالفة من الآية السابقة أنهم إذا قتلوا النبيين بحق فلا إشكال، فهل هذا القول معتبر؟

أبداً لا أحد يقتل النبيين بحق ولا أحد يدعو مع الله إلهاً آخر له به برهان، فهذه الآيات هي كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(38) سورة الأنعام] والمقصود أن كل هذه القيود هي من الصفات الكاشفة أي التي تكشف وتوضح حقيقة الأمر وجليته لا أنها تزيد قيداً يخرج الصور الأخرى وإن كان الأصل في الصفات أنها مقيِّدة، بمعنى أنه كلما زادت الأوصاف زادت القيود، فلو قلت مثلاً: أريد أن اشتري بهذه الدراهم كتاباً ثم قلت: عربياً، ثم قلت: في التفسير ثم قلت: من المأثور ثم قلت: للمتقدمين ثم قلت: يجمع بين الآثار وبين توجيهها، فما بقي إلا أن تقول: لابن جرير، فهذه الأوصاف التي ذكرتها هي أوصاف مقيدة أخرجت كتب التفسير كلها، لكن القيد في قوله تعالى: **{وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ}** [(155) سورة النساء] لا يخرج طوائف تقتل الأنبياء بحق.

{وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [(155) سورة النساء] **قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، والسدّي، وقتادة، وغير واحد: أي في غطاء، وهذا كقول المشركين:** {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} **الآية** [(5) **سورة فصلت**].

هذا سبق الكلام عليه في سورة البقرة وما قاله بعض المفسرين من أن المراد أنها أوعية للعلم أو غلاف للعلم فلا تحتاج إلى هذا الذي تأتينا به، فنحن مستغنون عنه، لكن هذا المعنى فيه بعد، وإنما المقصود أنهم يقولون: قلوبنا غلف أي: أنها لا تعي؛ لأن عليها ما يغلفها فيحول بينها وبين الانتفاع.

قال الله تعالى: {بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [(155) سورة النساء] **كأنهم اعتذروا إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، فقال الله بل هي مطبوع عليها بكفرهم، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة.**

{فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(155) سورة النساء] **أي: مَرَدت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان.**

قوله: {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(155) سورة النساء] هذا يحتمل معنيين: الأول: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً وذلك أنهم يؤمنون ببعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويكفرون ببعض، فمثل هؤلاء كفرهم ببعض الأنبياء وببعض الكتب وقولهم: إن جبريل -عليه الصلاة والسلام- هو عدوهم وما أشبه ذلك هذا يفسد عليهم إيمانهم، فيكون إيمانهم بهذا الاعتبار قليلاً.

الاحتمال الثاني: أن يكون المعنى لا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- ومن آمن من اليهود.

ومعلوم أن اليهود من أقل الطوائف دخولاً في الإسلام على مدى التاريخ فلا يدخل فيه منهم إلا الواحد بعد الواحد، كما أن أقل الطوائف رجوعاً إلى أهل السنة هم الرافضة فلا يرجع منهم إلا الواحد بعد الواحد، وذلك لوجوه من الشبه بين الطائفتين، ولغلبة الغل والحسد والحقد الذي يرضعونه مع حليب أمهاتهم من الصغر فلذلك كانوا بهذه المثابة خلافاً للطوائف الأخرى.

وعلى كل حال لعل أقرب المعنيين في الآية -والله تعالى أعلم- هو الأول أي لا يحصل منهم إلا القليل من الإيمان.

وأحياناً يأتي مثل هذا التعبير ويراد به العدم، وهذا معروف في كلام العرب وفي أشعارهم حيث يعبرون بالقلة ويقصدون العدم المحض كقول من قال: مررت بأرض قليل بها الكرَّاث، يعني لا يوجد بها الكراث، وهكذا سُمع في أشعارهم مثل هذا التعبير.

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} [(156) سورة النساء] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "يعني أنهم رموها بالزنا" وكذلك قال السدي، وجُوَيْبِر، ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك.**

البهتان هو الافتراء العظيم والكذب الواضح الذي يبهت سامعه لفداحته، ذلك أنهم قالوا لمريم -رحمها الله-: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [(28) سورة مريم] أي اتهموها بالزنا، من أين جئت بالولد، حيث قالوا لها: {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} [(27) سورة مريم] يعنى بفاحشة

فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض وكان من خبر اليهود، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ} [(157) سورة النساء] **أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}** [(6) سورة الحجر].

التهكم هنا باعتبار أن من جملة قولهم: "رسول الله" في قولهم: "إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله"، وذلك أنهم لا يؤمنون أنه رسول لكن قالوها هنا من باب التهكم، كما في قوله تعالى عن المشركين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}** [(6) سورة الحجر] فهم لا يؤمنون أنه نزل عليه الذكر يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما من باب التهكم، لكن أيضاً الآية تحتمل شيئاً آخر وهو أن قوله: **{رَسُولَ اللّهِ}** [(157) سورة النساء] هو من كلام الله، وقولهم فقط هو: **{إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}** [(6) سورة الحجر] ولا شك أن قولهم هذا في غاية البجاحة، وكذلك قولهم على مريم بهتاناً عظيماً هو من البجاحة والظلم وهذا كله ولَّد عند النصارى في مقابل ذلك ردود أفعال قوية جداً فعبدوا المسيح، وهكذا تنشأ الطوائف ويقع الانحراف بهذه الطريقة غالباً، كما حصل لما تكلم من تكلم من العلماء وغيرهم في يزيد بن معاوية وقتلِ الحسين -رضي الله عنه- إضافة إلى الشناعة على يزيد والوقيعة فيه ولعنه جاءت طائفة في المقابل فصاروا يؤلهون يزيد وهذه هي الطائفة اليزيدية الموجودة في العراق، فهؤلاء لم يقولوا بتبرئته وأنه إنسان بريء وأنه إنسان جيد لا يستحق أن يقال فيه هذا بل ألهوه وعبدوه من دون الله، وهكذا كثير من النفوس تنتقل من طرف إلى طرف في ردود أفعالها، والله المستعان.

وكان من خبر اليهود -عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه- أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهَدُ طيرانه بإذن الله، -عز وجل- إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى -عليه السلام- لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه -عليهما السلام- ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان -وكان رجلاً مشركًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان- وأنهوا إليه أن ببيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس، فلما وصل الكتاب امتثل مُتَولِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى -عليه السلام- وهو في جماعة من أصحابه اثنا عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر نفرًا، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فانتَدَب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى اللهُ عليه شبه عيسى حتى

كأنه هو، وفُتِحَت رَوْزَنَة من سقف البيت وأخذت عيسى –عليه السلام- سِنةٌ من النوم فرُفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} الآية [(55) سورة آل عمران] **فلما رُفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى -عليه السلام- فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة.**

وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات فقال تعالى -وهو أصدق القائلين ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السماوات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون-: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [(157) سورة النساء] **أي: رأوا شبهه فظنوه إياه.**

جملة **{وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}** [(157) سورة النساء] محتملة في المعنى فهي يمكن أن تكون كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو المشهور- أنهم رأوا شبهه فظنوه إياه، ويمكن أن يكون أنهم ما كانوا يعرفون شخصه فجاءوا وقتلوا من قتلوا وهم غير متأكدين أن هذا هو المسيح؛ لأنهم لا يعرفون شخص المسيح ولم يروه قبل، ويحتمل أن يكون ألقي شبهه على جميع من كان معه في الدار فقتلوا واحداً منهم وهم غير متأكدين هل الذي قتل هو المسيح أو غيره، وبهذا الاعتبار وقع الاشتباه حتى على النصارى الذين معه، كما قال الله –عز وجل-: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** [(157) سورة النساء] وهذا القول يقول به أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- أعني يقول: إن الشبه ألقي على جميع من في الدار فقُتل من قتل ظناً أنه المسيح وبقي الأمر ملتبساً حتى على من كان معه، لكن هذا لا يخلو من إشكال؛ لأنه رفع -عليه الصلاة والسلام- فإذا كانوا معه في الدار فإنهم سيشاهدون رفعه، فالحاصل أنه وقع لهم التباس لنقص واحد من العدد، حيث ورد في بعض الروايات أن الذين جاءوا لقتله عرفوا عدد من في الدار فألقي الشبه على الجميع فلما جاءوا وجدوا أن العدد قد نقص واحداً، فهم قتلوا واحداً وهم يظنون أنه هو، فبقي الأمر ملتبساً عليهم لاسيما وقد نقص العدد الذي قد عرفوه، وعلى كل حال لم يصح من هذه الروايات شيء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما هي متلقاة من بني إسرائيل، فالله أعلم.

ويحتمل أن يكون أصحاب المسيح قد خرجوا وما بقي معه إلا ذلك الذي ألقي عليه الشبه فرفع المسيح -عليه السلام- وقتل الذي ألقي عليه الشبه، فخرج اليهود يقولون: قتلنا المسيح، فبقي أصحاب المسيح الذين خرجوا أولاً في لبس أيضاً وذلك أن المسيح فُقِد، فهم لا يدرون هل قُتل حقيقة، فلما صلب الشخص الذي يُشبه المسيح ظنوا أنه هو.

وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك لا يقدح في أصحاب المسيح لأنهم حكموا بحسب ما شاهدوا وما عرفوا وهذا هو مبلغهم من العلم فهم معذورون بهذا الاعتبار، واللوم يبقى على اليهود الذين قتلوه وتسببوا في قتله، فهذه

معانٍ تحتملها هذه الجملة لكن المشهور أنه ألقي شبهه على واحد من أصحابه ثم التبس على اليهود وعلى طوائف من النصارى أن الذي قتل هو المسيح، وعلى كل حال فالله -عز وجل- قال: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ} [(157) سورة النساء] كما قال الله -عز وجل- أيضاً في طوائف من أهل الكتاب: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} [(14) سورة الشورى] فهم لا ثقة لهم باعتقادهم، وأعظم عقيدة من عقائد النصارى هي عقيدة التثليث وعقيدة الصلب ولذلك إذا أردت أن تناظر النصارى فابدأ بكسر عقيدتهم من خلال هذين الأمرين ثم انتقل إلى بيان براهين الحق مما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهؤلاء عندهم عقيدة الصلب والتثليث وليس لهم بذلك علم محقق راسخ بل ذكر الله -عز وجل- الذي يعلم حقائق ما في النفوس وما تنطوي عليه القلوب أنهم في شك {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ} [(14) سورة الشورى] وهذا يدل على أن عقائدهم هشَّة، وهذا من أنفع ما يكون للمسلمين وذلك أنهم لو تأملوا في مثل هذا النصوص لعرفوا كيف يدخلون من أبواب واسعة على هؤلاء المنحرفين الذين تُعد عقيدتهم وصمة عار في جبين البشرية كما قال أهل العلم، فعقيدة النصارى من مدنسات البشر حيث ادَّعوا أن اللاهوت حلَّ بالناسوت، أي أن الله –تعالى وتقدَّس- حلَّ بالبشر، وهذه عقيدة هشة لو وُجد من يناظرهم بصورة جيدة وصحيحة لرأيتهم مساكين، وأنا رأيت بعض من يناظرهم مصوَّراً فهالني ما رأيت حيث كان يناظرهم رجل بطلاقة فكانت الكاميرا تأتي على وجوه الحضور أثناء المناظرة، وقد كانت المناظرة في الرياضيات في الكتاب المقدس، فكان المناظر طليقاً جداً ويتكلم بسرعة وبقوة وبدون أن يحمل ورقاً وكان يذكر الأرقام والحسابات الخاطئة في الكتاب المقدس ويقول: هذه يعرفها الطالب في الإعدادي، وإذا رأيت الكاميرا وهي تنتقل على وجوههم دون أن يشعروا تراهم قد انشدّت أبصارهم وقلوبهم إلى الذي يتحدث، فصورهم في غاية التعجب والدهشة، فالمقصود أنهم لا عقائد سوية لهم، لكن للأسف نجد أن القضية قد انقلبت وانعكست حيث صاح الشيطان صيحته فتضعضعت الأقدام وتراجع من تراجع من المسلمين عن عقيدتهم ومناهجهم وولائهم وبرائهم وموقفهم من عدوهم، وبدءوا يتهافتون ويتساقطون -نسأل الله العافية- وانكشف الأمر عن هشاشة في الاعتقاد وفي القناعات وفي التربية وفي صحة التصورات وفي الثبات على المبادئ مع أنهم أهل حق وأهل إسلام وهذا لما صاح دجال صغير من الدجاجلة من أعداء الله -تبارك وتعالى- فكيف إذا ظهر الدجال الأكبر ورأوه يمر على الخربة ويقول لها: أخرجي كنوزكِ فتخرج كنوزها، ويمر على الناس لا يؤمنون به فيبقون ممحلين، ويمر على الناس فيتبعونه فتنبت أرضهم وتدر السماء وترجع إليهم سارحتهم وهي ممتدة الخواصر وأوفر ما كانت لبناً، والذين لا يؤمنون به يحصل لهم القحط والأذى والشدة والفقر؟ وإذا كان لصيحة دجال صغير تضعضع من تضعضع من المسلمين وتراجع من تراجع وتهشم من تهشم وسقط من سقط وزلت كثير من الأقدام وظهرت بلايا وخبايا ومصائب ما كنا نتوقع أن نعيش حتى نسمعها فكيف هو الحال إذا فتنوا بالمسيح الدجال؟، نسأل الله العافية والسلامة.

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ولهذا قال: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ} [(١٥٧) سورة النساء] **يعني بذلك من ادعى قتله من اليهود ومن سلَّمه إليه من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر ولهذا قال: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** [(١٥٧) سورة النساء] **أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله تعالى: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}** [(١٥٧) سورة النساء] ذكرنا بالأمس الوجوه التي تحتمله الآية، ومنها أنه ألقي الشبه على الجميع أي: التبس الأمر على أصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- والتبس أيضاً على اليهود القتلة، أو أنهم خرجوا من عنده وألقي الشبه على الذي معه فرفع عيسى -عليه الصلاة والسلام- وبقية أصحابه لم يعلموا حقيقة ما جرى، أو أن أولئك لما افتقدوا شخصاً واحداً إن كانوا عرفوا عِدّة من في الدار فالتبس الأمر حينما ألقي الشبه، أو غير ذلك من الاحتمالات، وأقرب ذلك أنه ألقي الشبه على واحد منهم -وهذا هو المشهور- فهم قتلوه ولم يكونوا متيقنين من قتله ربما لأن عِدّة من وجدوهم كان قد نقص منها واحد، والله تعالى أعلم، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ}** [(١٥٧) سورة النساء] يعني أنهم غير متيقنين من هذا الأمر.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن المعنى أنهم قتلوا الذي قتلوه على غير يقين منهم أنه عيسى -عليه الصلاة والسلام- أي أنهم قتلوا رجلاً وهم يشكون أنه المسيح، أي أن الشك موجود عندهم من أول الأمر حينما عمدوا إلى قتله هل هو عيسى أو غيره.

قوله: **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** [(١٥٧) سورة النساء] أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين، وهذا موافق تمام الموافقة لقول ابن جرير -رحمه الله-، أي أنهم لم يتحققوا من ذلك.

وقوله: **{يَقِينًا}** يحتمل أن يكون حالاً أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً، ويحتمل أن يكون صفة لمصدر محذوف، وهذا بناء على أن الضمير يرجع إلى المسيح عيسى -صلى الله عليه وسلم-.

كما أنه يحتمل أيضاً أن يكون راجعاً إلى الظن يعني أنهم لم يمحصوا هذا الظن تمحيصاً كافياً، كما تقول: قتلت هذه المسألة دراسة وبحثاً، وعلى كل حال فالأول أحسن لأن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها كما أنه هو المتبادر أصلاً؛ لأن الكلام كله عن عيسى -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم.

{بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا} [(١٥٨) سورة النساء] **أي منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه {حَكِيمًا}** أي: **في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم.**

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين -يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء- فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت هو ذاك. فألقي عليه شَبَه عيسى ورفع عيسى من رَوْزَنَة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كُرَيب عن أبي معاوية بنحوه، وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتلَ مكاني وهو رفيقي في الجنة؟.

مثل هذا لا يقال من جهة الرأي لكن ابن عباس -رضي الله عنه- ينقل ويروي عن بني إسرائيل، ولذلك لا يجزم برفع هذا.

وقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم-**" يقصد أن قوله -تبارك وتعالى-: **{فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** [(١٤) سورة الصف] أي ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد سبق الكلام على هذه المسألة وأنه لم يعرف للنصارى من أهل التوحيد ظهور بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- بل كانوا في غاية الاستضعاف إلى أن بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، والعبرة بالعواقب ويكون هذا هو الظهور.

ومنهم من قال: إن المقصود من ينتسبون إلى المسيح حتى لو كانوا على التثليث، وكلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أنه لما كان النصارى لهم لون اتصالٍ بالمسيح وشعبةٌ من حقٍّ من جهة الإيمان بعيسى -صلى الله عليه وسلم- فهم أولى من اليهود بالتأييد وكان لهم مثل هذا النصر على اليهود، يعني من ينتسبون إلى عيسى وإن كانوا على الإشراك؛ لأن الذين ظهروا على اليهود هم قسطنطين ومن معه الذين كانوا على التثليث ولم يكن لأهل التوحيد أي ظهور بل كانوا مستضعفين من قِبَل دولة النصارى.

وقوله تعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(١٥٩) سورة النساء] **روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ**

مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] **قال: قبل موت عيسى ابن مريم -عليه السلام- وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مثل ذلك، وقال أبو مالك في قوله: {إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}** [(١٥٩) سورة النساء] **قال: ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى ابن مريم -عليه السلام- لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به.**

وهذا هو الظاهر المتبادر، فقوله: **{وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** يعني وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، وذلك أن "إنْ" هنا نافية وليست مخففة من الثقيلة، ثم من نظر إلى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور قال: إنه في **{مَوْتِهِ}** يرجع إلى الكتابي، أي ما من أحد يموت من أهل الكتاب إلا وقد آمن بعيسى، وهذا أيضاً مروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما- حتى قيل له: أرأيت إن سقط من سطح؟ فقال: يؤمن وهو يتردى، فقيل أرأيت إن ضربت عنقه؟ قال: يؤمن وهو يتشحط.

والحاصل أنه نُقل عن ابن عباس هذا، ونُقل عنه ما يخالفه أيضاً، لكن كما ذكرنا في القاعدة السابقة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفرقيها ولذلك يقال: كل ما سبق من الضمائر يعود إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام- فقوله تعالى: **{وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ}** [(١٥٩) سورة النساء] أي بعيسى، وقوله: **{قَبْلَ مَوْتِهِ}** أي قبل موت عيسى، وقوله تعالى قبل ذلك: **{وَلَكِن شُبِّهَ}** [(١٥٧) سورة النساء] أي: عيسى -صلى الله عليه وسلم- وهكذا سائر الضمائر، والله تعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخاري -رحمه الله- في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقى بالقبول: "نزول عيسى ابن مريم عليه السلام" ثم روى عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لَيُوشكَنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً لهم من الدنيا وما فيها)) ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(١٥٩) سورة النساء] **وكذا رواه مسلم[١] وقوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} أي: موت عيسى ابن مريم.**

طريق أخرى عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لَيُهِلَّن عيسى بفَجِّ الرَّوْحَاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعاً)) وكذا رواه مسلم[٢].

الروحاء منطقة معروفة على طريق مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة حيث تبعد عنها حوالي ٧٥ كيلو مترا.

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب نزول عيسى ابن مريم -عليهما السلام- (٣٢٦٤) (ج ٣ / ص ١٢٧٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- (١٥٥) (ج ١ / ص ١٣٥).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب إهلال النبي -صلى الله عليه و سلم- وهديه (١٢٥٢) (ج ٢ / ص ٩١٥).

وروى أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة ويعطي المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما)) قال: وتلا أبو هريرة: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} الآية [(١٥٩) سورة النساء] فزعم حنظلة أن أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أو شيء قاله أبو هريرة، وكذا رواه ابن أبي حاتم[3].

يعني هذه الجملة الأخيرة هل هي من المدرج، أي هل هذا من كلام أبي هريرة اتصل بالحديث أو أنه من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وبعبارة أخرى هل هذا الكلام تفسير نبوي لقوله تعالى: **{لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}** أي قبل موت عيسى -عليه السلام-؟

الحاصل أنه حتى لو لم يمكن هذا من التفسير النبوي فمثل هذه الأحاديث تفسر به الآية؛ لأن تفسير القرآن بالسنة كما ذكرنا في بعض المناسبات منه ما يدخله الاجتهاد لكن وجهه ظاهر، بمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتعرض فيه للآية ولكن التفسير فيه يلوح وليس فيه تكلف ولا بُعد فمثل هذا يمكن أن تفسر به الآية وإن كان في بعض الأحيان لا يقطع به.

وما ورد في هذا الحديث من أنه يفيض المال، هذا يكون تفسيراً للرواية الأخرى التي جاءت بعده أعني قوله: ((ويعطي المال حتى لا يقبل)) حيث إن بعضهم يقول: لا يقبل المال لقرب الساعة لزهد الناس فيه، وبعضهم يقول: لا يقبل المال نظراً لاشتغال الناس بالعبادة وصلاحهم وزهدهم فهم ليسوا بحاجة إلى المال، لكن الذي يظهر كما جاء في الرواية السابقة أنه يفيض فلا يقبله أحد، يعني لا يقبل احد الصدقة أو الزكاة، والله أعلم.

طريق أخرى: روى البخاري أن أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم؟)) وهكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم[4].

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الأنبياء إخوة لِعَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض)).

قوله: ((مربوع)) يعني متوسط لا بالطويل ولا بالقصير، وهذا أكمل الأوصاف، كما أن هذا هو وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- فالطول البائن والقصر البائن كلاهما من العيوب.

((وعليه ثوبان مُمَصّرَان، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويُهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنّمار مع البقر، والذئاب مع

---

[3] - مسند أحمد (٧٨٩٠) (ج ٢ / ص ٢٩٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب نزول عيسى ابن مريم -عليهما السلام- (٣٢٦٥) (ج ٣ / ص ١٢٧٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- (١٥٥) (ج ١ / ص ١٣٥).

الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يُتَوَفى ويصلي عليه المسلمون))[٥] **وكذا رواه أبو داود.**

حديث آخر: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق)).

هذان موضعان بالشام قريبان من حلب.

((فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافّوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سُبُوا منا نقاتلهم)).

الرواية هنا جاءت بضم السين والباء ((سُبُوا منا)) وجاءت بالفتح ((سَبَوا منا)) والرواية المشهورة بالضم كما يفسر ذلك بعض الروايات الأخرى، فهم قالوا: خلوا بيننا وبين إخواننا، وذلك أن هؤلاء ناس من الروم انضموا إلى المسلمين وأسلموا فالروم يقولون: خلوا بيننا وبينهم نقاتلهم فيمتنع المسلمون من التخلية بينهم باعتبار أنهم أولى بهم ويقولون: ((لا نخلي بينكم وبين إخواننا)) فهذه هي الرواية المشهورة.

وعلى رواية الفتح ((الذين سَبَوا منا)) أي أنهم تمكنوا من الظفر بالروم فسبوا منهم سبايا فهم يريدون الانتقام منهم.

وبعض أهل العلم مثل النووي -رحمه الله- يجمع بين هذا وهذا فيقول: يمكن أن يكون هؤلاء قد سُبُوا ثم سَبَوا، أي أنهم هجموا على الكفار واستطاعوا أن يأخذوا بعض ما عندهم، لكن هذا قد لا يخلو من إشكال؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال كلمة واحدة فهي إما أن تكون ((الذين سُبُوا منا)) أو ((سَبَوا منا)) وبناء عليه فهي إما هذه وإما هذه والله أعلم، فهذه ليست من القراءات القرآنية حتى نقول: هذا كله قرآن جاء بهذا وهذا، وهذا له معنى وهذا له معنى، وإنما هذا من باب الاختلاف في ضبط الرواية، وعلى كل حال فرواية الضم هي رواية الأكثر وهي الأشهر، والله أعلم بالصواب.

((قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقْتَلُ ثلثه أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية)).

هذا مؤيِّد لما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وهكذا نقول: إن الولاء والبراء ماضٍ إلى يوم القيامة حتى لو اجتمع من بأقطارها فلن يستطيعوا القضاء على شرائع الإسلام، فالإسلام قد جاوز القنطرة، لكن هؤلاء الذين يتهافت منهم من يتهافت وينكص على عقبيه من ينكص هؤلاء لا يضرون إلا أنفسهم، أما دين الله فهو محفوظ وسيأتي أقوام هم في أصلاب آبائهم يجاهدون في سبيل الله أعداء الله ويوالون أولياءه ويعادون أعداءه ولا يضر المنحرف إلا نفسه، والله المستعان.

---

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب خروج الدجال (٤٣٢٦) (ج ٤ / ص ٢٠١) وأحمد (٩٢٥٩) (ج ٢ / ص ٤٠٦) وصححه بتمامه شعيب الأرنؤوط وأصله في صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}** [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠).

((فبينما هم يقسمون الغنائم قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون، إذْ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم)).

يلاحظ أنه ورد في هذا الحديث أنهم يفتحون القسطنطينية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الجيش الذي يفتح القسطنطينية مغفور له، والقسطنطينية فتحت في وقت محمد الفاتح كما هو معروف، وهذا الفتح لا شك أنه ليس هو الفتح المراد هنا؛ لأن هؤلاء يعلقون سيوفهم بأغصان الزيتون، ثم إن هذا في آخر الزمان، ثم في الحديث أنهم يسمعون الصائح بأن المسيح الدجال قد خرج، لذلك ليس ذلك هو الفتح المقصود في الحديث قطعاً، ومعنى ذلك أنها فتحت ثم بعد ذلك تبدلت الأحوال وتركوا شرائع الإسلام، وستفتح مرة أخرى عندما يستولي عليها في ذلك الحين النصارى مثلاً، والله تعالى أعلم.

وتبقى مسألة هي هل البشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- للجيش الذي يفتح القسطنطينية هي بشارة للجيش الذي فتحها أولاً أم هي بشارة للجيش الذي يفتحها آخر الزمان؟

الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- حاولوا من وقت مبكر فتح القسطنطينية -كما هو معروف- فأرسلوا لها الجيوش في عهد معاوية -رضي الله عنه- وكان أول جيش غزى القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية ثم تتابعت الجيوش بعد ذلك إلى عهد محمد الفاتح وكلهم يرجون تحصيل هذه المزية، فهل كانوا يفهمون أن هذا في آخر الزمان أو أن من حصل لهم ذلك يكونون قد حازوا ذلك الشرف؟ الله تعالى أعلم.

((فبينما هم يقسمون الغنائم قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون إذْ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يُعدّون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأمَّهم فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حَرْبته))[٦].

على كل حال نستطيع أن نفهم من هذا أن شرائع الإسلام لن تزال وأن الجهاد سيستمر إلى أن يقاتل آخرهم الدجال، فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يقاتل آخرهم الدجال، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأحاديث الصحيحة[٧] وأما البقية من المخذولين فإنهم يتبعون الدجال وهم أهل لذلك، نسأل الله العافية.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم (٢٨٩٧) (ج ٤ / ص ٢٢٢١).

[7] - انظر صحيح البخاري في كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي -صلى الله عليه وسلم- آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٣١) ومسلم في كتاب الإمارة - باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) (١٠٣٧) (ج ٣ / ص ١٥٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تتمة ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم -عليه السلام-:

روى مسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله))[1].

وله عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود))[2].

ولنذكر حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- هاهنا لشبهه بالحديث.

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- قال: ذكر رسول الله صلى الله الدجال ذات غداة فخفَّض فيه ورَفَّع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فقال: ((ما شأنكم؟)) قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفَّضت فيه ورفَّعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: ((غير الدجال أخْوَفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجه دونكم، وإن يَخْرُجْ ولست فيكم فامرؤ حَجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌّ قَطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قَطَن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجُ من خَلَّة بين الشام والعراق فعاث يمينًا وعاثٍ شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا)) قلنا: يا رسول الله، فما لَبْثَتَه في الأرض؟ قال: ((أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم))[3].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –رضي الله عنه-: "**فخفَّض فيه ورفَّع حتى ظنناه في طائفة النخل**" يحتمل أن يكون المراد أنه -صلى الله عليه وسلم- خفَّض فيه أي حقر شأنه وذكر أنه أعور، وذكر أوصافه الرديئة السيئة، ورفَّع أي عظم فتنته وخوف منها، ويحتمل أن يكون المراد بخفض ورفع أي في صوته -صلى الله عليه وسلم- حينما خطبهم وذكرهم وحذرهم، فخفض صوته ليستريح ورفعه من أجل أن يسمعهم، فحذرهم -عليه الصلاة والسلام- تحذيراً قد بلغ غايته فيهم حتى ظنوا أنه في طائفة النخل.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٨) (ج ٣ / ص ١٣١٦) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢١) (ج ٤ / ص ٢٢٣٨).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب قتال اليهود (٢٧٦٨) (ج ٣ / ص ١٠٧٠) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢) (ج ٤ / ص ٢٢٣٩).

[3] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

يقول -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن...)) إلى آخره.. ثم يقول: ((إنه خارجُ من خلَّة بين الشام والعراق فعاثٍ يمينًا وعاثٍ شمالاً)) يعني يخرج من ناحية بين الشام والعراق ويعيث فساداً في طريقه الذي يسلكه يمنة ويسرة فلا يمر على أحد إلا دعاهم إلى عبادة غير الله -عز وجل- حيث في نهاية الأمر يقول لهم: إنه هو ربهم.

ومما يحصل على يده كما في الأحاديث أن تخرج كنوز الخربة حتى إنها تتبعه كيعاسيب النحل، يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض أنبتي فتنبت، وما إلى ذلك من الأمور، وكل هذا فتنة عظيمة جداً تحصل للناس فيتبعه كثير منهم، والله المستعان.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: ((لا، اقدروا له قدره)) قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: ((كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماءَ فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتُهم أطول ما كانت ذُرَي وأسبغه ضُروعا، وأمده خواصر)).

قوله: **((فتروح عليهم سارحتُهم))** يعني أغنامهم والمواشي ترجع إليهم في آخر النهار وهي بهذه الحالة من الامتلاء فتنة لهم وابتلاء.

وقوله: **((أطول ما كانت ذُرى))** أي أسنمة، فالذرى هي أعالي الأشياء.

((ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمْحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخَرِبة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل)).

قوله: **((فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل))** يعني كجماعات النحل مع أن اليعسوب في الأصل هو ذكر النحل لكن العلماء -رحمهم الله- يقولون: إن النحل لما كانت تتبع اليعاسيب قيل لها ذلك، والله أعلم.

((ثم يدعو رجلا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزْلتين رَمْيَةَ الغرض)).

يعني يقطعه قطعتين بينهما مسافة كرمية الغرض، أي يتباعد ما بين هاتين القطعتين مقدار رمية، وليس قتلاً تبقى فيه أوصاله متصلة، وإنما تتباين هذا التباين العظيم ومع ذلك تجتمع هذه القطع ويرونه يحيا مرة أخرى.

((ثم يدعوه فيُقْبلُ ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم -عليه السلام- فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرودَتَيْنِ)).

قوله: **((بين مَهْرودَتَيْنِ))** يمكن أن يكون بها الثياب التي يلبسها أي ثياب مصبوغة بورسٍ ثم بزعفران ونحو ذلك.

((واضعًا كفيه على أجنحة ملَكين إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تَحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ)).

الجمان هي حبات كبيرة تصنع من الفضة على هيئة اللؤلؤ الكبار، وقد سبق في الحديث الآخر في هيئة عيسى -عليه الصلاة والسلام- أنه كأنه قد تبلل رأسه وأصابه الماء من غير أن يمس الماء.

((ولا يَحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه)).

يعني ونفَس عيسى -عليه الصلاة والسلام- ينتهي حيث ينتهي بصره.

((فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله)).

باب لُدّ معروف، فهو باب بلدة صغيرة قريبة من بيت المقدس.

((ثم يأتي عيسى -عليه السلام- قومًا قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله -عز وجل- إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنْسلون، فيمر أولهم على بحيرة طَبَرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مَرّة ماء)).

بهذه الصفة لا يمكن أن يقال إن هؤلاء هم أهل الصين مثلاً؛ لأن أهل الصين ليسوا بهذه المثابة، فهؤلاء لا يدان لأحد بقتالهم حيث تمتلئ الأرض منهم تماماً حتى لا يوجد فيها موضع قدم إلا قد امتلأ من زهمهم أي من الدسومة والزيوت التي تخرج من أجسادهم حتى تنتن.

والنشاب هي السهام التي يرمون فيها حيث يوقد عليها سبع سنين أو نحو هذا من كثرتها، فلا يقال أبداً إنهم أهل الصين، وإذا كان هذا يدل على أن الناس يتحركون بالوسائل القديمة ويتعاطونها -بالنشاب والسهام- في آخر الزمان فلا حاجة للناس أن يتكلموا بأن هذا سيكون بعد ثلاثين سنة أو نحو هذا فهذا نوع من الكهانة، وهذا من دلائل نبوته -عليه الصلاة والسلام- وإن الذين قرءوا هذا الحديث قبل مائة سنة مثلاً ربما ذهبت أذهانهم مذاهب شتى، ومنها كيف يقاتل المسلمون اليهود بهذه الصفة مثلاً واليهود مشتتون في نواحي الأرض؟

والجواب أن هذا من دلائل نبوته -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء اليهود الذين يوجدون الآن في فلسطين يبدو -والله أعلم- أن من دلائل النبوة أنهم سيبقون إلى الوقت الذي يقاتلهم فيه المسلمون ولن يتوسعوا في دولتهم كثيراً كما يحلمون من الفرات إلى النيل، وقد جاء في الحديث: ((أنتم شرقي النهر وهم غربيه))[4] يعني نهر الأردن، فهم فيما يبدو -والله أعلم- سيبقون قي نفس الحدود إلى ذلك الوقت، وليس معنى هذا أن المسلمين لا يطالبون بأن يبذلوا كل ما يستطيعون من أجل إخراجهم وقتالهم وقهرهم ودحرهم إطلاقاً، بل هذا هو الواجب ولا يجوز التقاعد عنه بحجة أن نبقى على ما نحن فيه حتى يأتي المخلِّص.

((ويُحْصَر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم)).

النَّغَفَ دود تكون في آناف الغنم والإبل، فهم يقتلون بهذه الطريقة.

((فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهُمْ ونَتْنُهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله)).

المقصود بالبخت نوع من الإبل وهي إبل خرسانية طويلة الأعناق.

((ثم يرسل الله مطرا لا يكُن منه بيت مَدَر ولا وَبَر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلَفَة)).

---

4 - أخرجه ابن سعد في الطبقات (ج ٧ / ص ٤٢٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٦٥٦).

بمعنى أن الأرض تكون في غاية النصاعة والنقاء، أي كالمرآة، وبعض أهل العلم يفسر ذلك بالروضة، بمعنى أنها تنبت بأثر هذا المطر وبسببه، وبعضهم يقول: كالصفحة أو كمصانع المياه، والمقصود بمصانع المياه ما كانوا يصنعونه قديماً كالحفرة الكبيرة حيث يضعون في أسفلها وفي جوانبها ما يمنع من تسرب الماء –كالجص أو قل: الأسمنت- فتجتمع فيها المياه، فإذا وجدتَ في كتب الفقه مثلاً: مصانع طريق مكة فليس المقصود مصانع الحديد والسيارات وإنما هي ما ذكرت من مجامع للمياه، وهي لا زالت موجودة في بعض المناطق إلى الآن في أفريقيا، وموجودة أيضاً هنا في طريق مكة، وقد رأيتها في أفريقيا بهذه المثابة، وقد تغطى، ويوجد فيها مداخل يجتمع من خلالها الماء أثناء المطر حتى تمتلئ بالمياه، فإذا جاء وقت الجفاف أثناء السنة فإن الماء يكون موجوداً فيها يستخرجه الناس منها وكأنها خزانات في الأرض ويكون الماء الذي في ظاهرها في غاية الصفاء.

((ثم يقال للأرض: أخرجي ثَمَرَك ورُدّي بركتك، فيومئذ تأكل العصَابة من الرمانة ويستظلون بقَحْفِها، ويبارك الله في الرَّسْل حتى إن اللَّقْحَة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفَخِذ من الناس)).

والمقصود باللقحة هي التي ولدت حديثاً حيث يكون فيها لبن يكفي الجماعات من الناس، والرِّسل المقصود به اللبن.

قوله: "**واللقحة من الغنم لتكفي الفَخِذ من الناس**" الفَخِذ هم دون القبيلة؛ فالتقسيم المعروف هو أن القبيلة دونها البطن ثم بعد ذلك الفَخِذ، وهم الأقرب إلى الإنسان.

((فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يَتَهَارَجُون فيها تهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة))[٥].

يعني مثل هؤلاء قد ترحّل منهم الحياء والدين والخلق فهم يجامعون في الطرقات علانية، والله المستعان.

ورواه الإمام أحمد وأهل السنن وسنذكره أيضاً من طريق أحمد عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} الآية [(٩٦) سورة الأنبياء].

وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأمَويّ بيضاء من حجارة منحوتة عِوَضا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم -عليه السلام- كما ورد في هذا الحديث.

حديث آخر: روى مسلم في صحيحه أيضاً عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي قال: سمعت عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تُحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله؟! -أو لا إله إلا الله، أو كلمة نحوها-، لقد هممتُ ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً.

---

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) (ج ٤ / ص ٢٢٥٠).

يعني أن هؤلاء ما فهموا كلام عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنه- على وجهه وإنما سمعوه يذكر مدداً معينة فظنوا أنه يحدد وقت قيام الساعة.

إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا: يُحرق البيت، ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين -لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا- فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير -أو إيمان- إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كَبد جبل لَدَخَلَتْه عليه حتى تَقْبضَه)) قال: سمعتها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فيبقى شرار الناس في خفَّة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا ورفع لِيتًا)).

قوله: **((أصغى لِيتًا ورفع لِيتًا))** الليت هو صفحة العنق، والمعنى أنه ينصت ويذعن، وهذا كناية عن شدة الإصغاء.

قال: ((وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله، قال: فَيَصْعَقُ ويَصعَقُ الناس، ثم يرسل الله -أو قال- ينزل الله مطرًا كأنه الطَّل -أو قال- الظل -نُعْمَان الشاك- فتنبت منه أجساد الناس، ثم يَنْفُخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [(٢٤) سورة الصافات] قال: ((ثم يقال: أخرجوا بَعْثَ النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين)) قال: فذلك يوم {يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [(١٧) سورة المزمل] وذلك {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [(٤٢) سورة القلم]))[٦].

صفة عيسى -عليه السلام-:

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: ((فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجلٌ مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل))[٧].

هذا الحديث يفسر الجملة السابقة في صفة شعر عيسى -عليه الصلاة والسلام- ورأسه، وهنا وصفه بأنه مربوع إلى الحمرة والبياض، وفي بعض الأحاديث جاء في وصفه أنه يميل إلى السمرة، فيمكن أن يجمع بين هذا وهذا بوجه ذكره العلماء لكن قد لا يكون قوياً في الجمع بين هذين الوصفين، فالعلم عند الله -عز وجل-.

وفي حديث النواس بن سمعان –رضي الله تعالى عنه-: ((فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرُودتيْن واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه مثل جُمَان اللؤلؤ، لا

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان والنفخ في الصور وبعث من في القبور (٢٩٤٠) (ج ٤ / ص ٢٢٥٨).

[7] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب خروج الدجال (٤٣٢٦) (ج ٤ / ص ٢٠١) وأحمد (٩٢٥٩) (ج ٢ / ص ٤٠٦) وصححه شعيب الأرنؤوط.

يحل لكافر يجد ريح نفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه))[٨].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليلة أسري بي لقيت موسى...)) قال: فَنَعَتَه، فإذا رجل حسبته قال: ((مضطرب رَجِلُ الرأس)).

وفي حديث جابر في مسلم في الفتن أنه ضرب من الرجال، ومعنى ضرب من الرجال كما قال بعضهم: يعني خفيف اللحم، وبعضهم يقول: متوسط اللحم، يعني ليس بالنحيل ولا بالممتلئ.

((مضطرب رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة)).

معنى رَجِل الرأس يعني مسرح الرأس كما لو سُرِّح الرأس بماء أو غيره.

قال: ((ولقيت عيسى)) فنعته النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((رَبْعَة أحمر، كأنه خرج من ديماس -يعني الحمَّام- ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)) الحديث[٩].

يقول عن عيسى: **((رَبْعَة أحمر كأنه خرج من ديماس))** الديماس يمكن أن يفسر بالسَّرَب كما يمكن أن يقال: كأنه خرج من حمَّام، أي الحمَّام المعروف الذي هو محل الاستحمام قديماً الذي يسخن فيه الماء وما أشبه ذلك حتى إذا خرج الإنسان منه فإنه يؤثر في بشرته تأثيراً بيِّناً.

وبعضهم يقول في وصفه: كأنه لم يرَ شمساً من شدة صفاء لونه ونقاء بشرته، وهذه المعاني لا منافاة بينها؛ لأن من خرج من سرب ومن لم ير شمساً ومن خرج من حمام فإن ذلك يزيل درنه ويزيد في نقاء بشرته.

وروى البخاري من حديث مجاهد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جَعْدُ عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزّط))[١٠].

قوله: **((من رجال الزّط))** يعني بهم طائفة من الناس ينسبون إلى السودان، والسودان هنا ليست الدولة المعروفة اليوم فقط، وإنما كانت تطلق على تلك الناحية.

وله ولمسلم عن نافع قال: قال عبد الله بن عمر: ذَكَر النبي -صلى الله عليه وسلم- يوماً بين ظَهْرَاني الناس المسيح الدجال فقال: ((إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنَبَةٌ طافية))[١١].

ولمسلم عنه مرفوعاً: ((وأراني الله عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدَم كأحسن ما ترى من أدم الرجال، تضرب لمَّته بين منكبيه، رَجِل الشعر، يقطر رأسه ماء)).

---

[8] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) (ج ٤ / ص ٢٢٥٠).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مـريم] (٣٢٥٤) (ج ٣ / ص ١٢٦٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٨) (ج ١ / ص ١٥٤).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٥) (ج ٣ / ص ١٢٦٩).

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٦) (ج ٣ / ص ١٢٦٩) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه (١٦٩) (ج ٤ / ص ٢٢٤٦).

يقول –عليه الصلاة والسلام-: **((فإذا رجل آدَم كأحسن ما ترى من أدم الرجال))** يعني به عيسى -عليه الصلاة والسلام- وهذا الوصف يدل على أن فيه سمرة، وبعض أهل العلم يقول: إن السمرة إذا كانت صافية فيمكن أن يوصف أيضاً مع ذلك بالحمرة، فالسمرة قد تجتمع مع الحمرة كما هو مشاهد أحياناً، لكن أيضاً قد يكون هذا هنا من باب اختلاف الرواة نتيجة للضبط والحفظ خاصة وأن من الصحابة من ينكر بعض هذا الوصف في عيسى، فالله تعالى أعلم.

يقول عليه الصلاة والسلام-: **((تضرب لمَّته بين منكبيه))** اللِّمة هي الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، وإذا وصل إلى المنكبين يقال له جُمَّة.

((يقطر رأسه ماءً واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو المسيح ابن مريم ثم رأيت وراءه رجلاً جَعْدًا قَطَطًا، أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قَطَن)).

يقول: **((رأيت وراءه رجلاً جَعْدًا))** هذه صفة المسيح الدجال، والجعد تارة يطلق ويراد به المدح وتارة يراد به الذم، فالذم بمعنى أن يقصد به الرجل القصير أو البخيل، ويطلق ويراد به المدح بمعنى أن شعره ليس بالسبط، يعني مثل شعور العرب، فهذا من أوصاف الكمال، أما شعور بعض الأعاجم كالروم -الغربيين اليوم- فليس ذلك بالجعد، والشعر إذا ازدادت جعودته قيل عنه: جعد قطط، بمعنى أن هذا الشعر شديد الجعودة حتى إنه لا يطول؛ لكثرة التوائه كشعر بعض أهل أفريقيا، والله تعالى أعلم.

يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: **((رأيت وراءه رجلاً جَعْدًا قَطَطًا أعورَ عينِ اليمنى كأشبه من رأيت بابن قَطَن))**.

طبعاً رآه يطوف بالكعبة، وهذا لا يشكل على أن الدجال كافر من جهة كيف يطوف بالكعبة ومن جهة أنه لا يدخل مكة والمدينة؛ لأن الملائكة تمنعه من ذلك كما جاء في الأحاديث الأخرى؛ وذلك أنه قد لا يدعي الإلهية من أول خروجه كما فُهم ذلك من مجموع الأحاديث.

والأحسن من هذا كله -والله تعالى أعلم- أن يقال: هذه رؤيا رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا تعني أن الدجال سيطوف بالبيت كما جاءت الرؤيا؛ لأن الرؤيا إنما هي رمز لأمور معينة ليست بالضرورة أن تتحقق بحذافيرها، ولو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن تفسير هذه الرؤيا فربما فسر ذلك بغير ما كان عليه حال رؤياه، ويؤيد ذلك أنه ورد من شأن الدجال إذا خرج ونزل عيسى أنه يذوب من نفَس عيسى كما يذوب الملح، وأن نفَس عيسى يبلغ مدَّ بصره فكيف يطوف معه والحال هذه؟ والله أعلم.

((واضعاً يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: المسيح الدجال))[١٢].

ذكر أهل العلم في تسمية عيسى -عليه الصلاة والسلام- بالمسيح وجوهاً متعددة فمن قائل: سمي بذلك لأنه يمسح على صاحب العاهة فيبرأ بإذن الله، ومن قائل: إنه وُلد ممسوحاً أخمص القدم مستوية، ومن قائل: لأنه يمسح الأرض بتنقله فيها، وبعضهم يقول: أصلها لفظة أعجمية ثم عُرِّبت وهذا فيه بعد، والصواب أنها من الأوصاف وليست من الأسماء، والخلاصة أن هذه صفة مدح في عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

---

[12] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩) (ج ١ / ص ١٥٤).

وبالنسبة للمسيح الدجال فهذه صفة ذم في حقه، وقد قيل: إنه وصف بذلك لأنه ممسوح العين أو لأنه يسمح الأرض متنقلاً فيها عدا مكة والمدينة وقيل غير هذا، والله أعلم.

هذه بعض أوصاف عيسى -عليه السلام- وأوصاف الدجال، فنسأل الله -عز وجل- أن يعيذنا وإياكم من كل سوء وشر.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٤٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تتمة الأحاديث التي وردت في نزول المسيح عيسى ابن مريم -عليه السلام-.

ثم رواه البخاري عن سالم عن أبيه قال: لا والله ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعيسى أحمر، ولكن قال: ((بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم سَبْط الشعر، يتهادى بين رجلين يَنْطف رأسه ماء أو يُهرَاق رأسه ماء فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابن مريم فذهبت ألتفت فإذا رجل أحمر جسيم جَعْد الرأس أعور عينه اليمنى كأن عينه عنبة طافية، قلت: من هذا؟ قالوا: الدجال، وأقرب الناس به شبهاً ابن قَطَن)) قال الزهري: رجل من خزاعة هلك في الجاهلية، هذه كلها ألفاظ البخاري -رحمه الله-[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول: "**عن سالم عن أبيه قال: لا والله ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعيسى أحمر ولكن قال: ((بينما أنا نائم))** ثم ذكر صفته فقال: **((فإذا رجل آدم سَبْط الشعر))** وفي بعض الروايات السابقة التي مرت قال في صفة شعره: ((جعد)).

وذكر في صفته هنا أنه ما قال: أحمر وإنما قال: ((آدم)) والآدم هو الأسمر، كما في بعض توجيهاته، ومنهم من يقول: ليس المراد بذلك السمرة أو الحمرة وإنما ما قارب ذلك، فالله تعالى أعلم.

وقد يكون هذا الاختلاف من قبيل ما يرجع إلى ضبط الرواة من الصحابة -رضي الله عنهم- وهذا وارد وله نظائر.

وابن قطن الذي شُبِّه به الدجال يقال: إن اسمه عبد العزى من بني المصطلق.

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(١٥٩) سورة النساء] قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بالعبودية لله -عز وجل-، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ} [(١١٦) سورة المائدة] إلى قوله: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة].

{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا* لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} [(١٦٠-١٦٢) سورة النساء].

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٧) (ج ٣ / ص ١٢٧٠).

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حَرّم عليهم طيبات كان أحلها لهم، وهذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنه تعالى قيَّضهم لأنْ تأولوا في كتابهم وحرَّفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتنطعاً.

ويحتمل أن يكون شرعيًا بمعنى أنه تعالى حَرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] **وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها.**

ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(١٤٦) سورة الأنعام] أي: **إنما حرمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه، ولهذا قال: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا}** [(١٦٠) سورة النساء].

يقول -تبارك وتعالى- عن اليهود: **{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}** ويقول -عز وجل- في حق نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وبعثه إلى هذه الأمة: **{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] والحاصل أن الله -تبارك وتعالى- يحل الطيبات ويحرم الخبائث، لكن في حق بني إسرائيل قال: **{حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}** [(١٦٠) سورة النساء] وكما قال في سورة الأنعام: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}** [(١٤٦) سورة الأنعام].

والمقصود أن هذا التحريم كما يقول ابن كثير -رحمه الله-: إما أن يكون قدرياً وإما أن يكون شرعياً، فإذا قلنا: إنه تحريم قدري، فالمعنى أن الله تعالى لم ينزل عليهم الخطاب بأن هذا يحرم عليهم أكله وإنما هو أمر ابتدعوه من عند أنفسهم فحُرموا بسببه بعض الطيبات، فيكون هذا من قبيل التحريم القدري لا الشرعي، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- قدر ذلك فوقع بأن صرفهم عنه بابتداعهم بدعاً تمثلت بتحريمهم على أنفسهم بعض المطعومات.

ويمكن أن يكون التحريم المقصود هو التحريم الشرعي -وهذا هو الأقرب- ويدل عليه آية الأنعام **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}** [(١٤٦) سورة الأنعام] والمعنى أن الله خاطبهم بتحريم ذلك عليهم، ويكون هذا التحريم -كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- تحريم عقوبة، وبناء عليه فإن استشكل مستشكل كيف يقال: إن الله -عز وجل- يُحرِّم الطيبات وهو إنما يحرِّم المستخبثات والأمور الضارة؟ فالجواب: أن هذه طيبات حرمت على أولئك القوم تحريم عقوبة وأما ما حُرِّم على هذه الأمة فإنه حرم لضرره أو فساده وخبثه الغالب، وهذا هو الفرق بين التحريمين، والله أعلم.

يقول -تبارك وتعالى-: **{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا}** [(١٦٠) سورة النساء] فقوله: **{كَثِيرًا}** يمكن أن تعرب على أنها مفعول لصدَّ، فيكون المعنى بصدهم ناساً

كثيراً، ويحتمل أن يكون صفة لمصدر محذوف فيكون التقدير وبصدهم عن سبيل الله صداً كثيراً، ولعل الثاني هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

ولفظة "صدَّ" تأتي متعدية وتأتي لازمة، فقوله: {وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} يمكن أن يكون المراد به صد أنفسهم عن طاعة الله -عز وجل- وإعراضهم عن ذلك، ويمكن أن تكون بمعنى صدهم لغيرهم وتثبيطهم عن طاعة الله -عز وجل- وتنفيرهم من اتباع الأنبياء ودعوتهم إلى الضلال والانحراف والشر كما هو معروف عنهم، والقرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة؛ ولذلك يقال: كل ذلك واقع منهم فهم صادون في أنفسهم كما وصف الله حالهم مع أنبيائهم وتلكؤهم في طاعتهم وإعراضهم عن الهدى، كما أن الله -تبارك وتعالى- وصف إفسادهم المتعدي وشرهم الذي لا يسلم منه حتى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ولذلك يمكن أن يكون المراد بقوله: وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} :صد أنفسهم وصد غيرهم عن طاعة الله، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} [(١٦٠) سورة النساء] **أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق.**

عبارة ابن كثير -رحمه الله- دقيقة جداً حيث جمع بين المعنيين، وهذا من أحسن ما يكون في التفسير، وكلما كان الإنسان عنده آلة في التفسير ويعرف الأشياء التي يمكن أن يُبنى عليها التفسير ويميز وله لطافة نظر كلما عرف قدر هذا التفسير ومنزلته، لكن الذي يقرأ لأول وهلة وهو خالي الذهن قد لا يتبين له هذا وإنما يقرأ جملاً لا يعرف ما تنطوي عليه، ولا يعرف لماذا قال هذه العبارة وما الذي تحويه وما الاحتمالات الأخرى التي تكون غير واردة عنده أصلاً، ولذلك فإن العناية بمثل هذه الأمور تجعل لطالب العلم نفساً آخر ونظراً آخر، ويستفيد غاية الاستفادة في قراءة الكتب.

أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وهذه سَجِيَّة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خَلْقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ} [(١٦١) سورة النساء] **أي: إن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه وأكلوا أموال الناس بالباطل قال تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [(١٦١) سورة النساء].

ثم قال تعالى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ} [(١٦٢) سورة النساء] **أي: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران.**

{وَالْمُؤْمِنُونَ} [(١٦٢) سورة النساء] **عطف على {الرَّاسِخُونَ} وخبره {يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}** [(١٦٢) سورة النساء].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد وزيد بن سعية وأسد بن عبيد -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم-.

يقول -رحمه الله-: "{وَالْمُؤْمِنُونَ} [(١٦٢) سورة النساء] **عطف على** {الرَّاسِخُونَ} **وخبره** {يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} [(١٦٢) **سورة النساء**]" أي أن المراد بالراسخين منهم هم من آمن من اليهود، ويكون "المؤمنون" من باب عطف العام على الخاص، والمعنى أن غير الراسخين من أهل الإيمان الصحيح منهم أيضاً يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ويحتمل أن يكون العطف بالمؤمنين مراداً به المؤمنين من هذه الآمة، والمعنى لكن الراسخون من بني إسرائيل والمؤمنون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤمنون بالكتاب كله.

وابن جرير -رحمه الله- ومن وافقه يقول: إن المراد بذلك هم الملائكة، وهذا لا يخلو من بعد.

وعلى كل حال فالآية تحتمل أن تكون في أهل الإيمان من هذه الأمة، وتحتمل أن تكون في المؤمنين من بني إسرائيل، وإن كان ذكر ذلك في حق بني إسرائيل وأنه من صفتهم أقرب؛ لأن الكلام فيهم، والله وأعلم.

وقوله: {وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [(١٦٢) سورة النساء] **يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم.**

يحتمل أن يكون زكاة الأموال أو زكاة النفوس، وزكاة النفوس معناها تزكية النفوس بالإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [(١٤) سورة الأعلى] يعني زكى نفسه، وإن كان قد قيل: إن المراد بهذه الآية زكاة الفطر وبقوله: {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [(١٥) سورة الأعلى] أي: الذكر الذي يكون قبل صلاة العيد، وصلى أي: صلاة العيد، وهذا فيه بعد، فعلى كل حال الزكاة تطلق تارة ويراد بها تزكية النفس وتارة يراد بها الزكاة المعروفة -زكاة المال- فهنا يقول الله -عز وجل-: {وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [(١٦٢) سورة النساء] والغالب في القرآن أن الزكاة التي تقرن بالصلاة يراد بها زكاة الأموال، ومثل هذه الأصول الكبار يمكن أن يقال فيها: إن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قد اتفقوا عليها مع اختلاف في التفاصيل، فعندهم الصوم والحج والزكاة والصلاة لكن تختلف تفاصيل ذلك في شرائع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

يقول تعالى: {وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [(١٦٢) سورة النساء] لاسيما أنه عبر عنه بلفظ الإيتاء وهو بمعنى الإعطاء والغالب أن مثل هذا إنما يستعمل في دفع المال المخصوص لمستحقِّه.

وفي قوله تعالى: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [(١٦٢) سورة النساء] نجد أن المقيمين منصوبة والمؤتون مرفوعة، فكيف جاءت هذه اللفظة –المقيمين- منصوبة بين المرفوعات؟

يمكن أن يجاب عن ذلك بالقول: إنها منصوبة بفعل محذوف تقديره أعني المقيمين الصلاة كما يقول سيبويه ومن وافقه حيث ذكر لذلك شواهد من كلام العرب، ويمكن أن يقال: إن هذا منزل على قاعدة أن العرب تقطع في صفة الواحد إذا أرادت المدح أو الذم ليكون ذلك أبلغ في مدحه أو ذمه، ولعل هذا من أحسن ما يجاب به عن هذا الإشكال وله شواهد في القرآن وفي أشعار العرب، فمن الآيات التي تنزل على هذه القاعدة قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٩) سورة المائدة]، فقوله: {وَالصَّابِئُونَ} جاءت مرفوعة بين منصوبات، ومن شواهد كلام العرب قول ابن خياط:

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميراً أطاعت أمر غاويها
الظاعنين ولما يُظعنوا أحداً والقائلون لمن دارٌ نخليها

فالقائلون جاءت مرفوعة على الاستئناف وظاهرها أنها معطوفة على الظاعنين المنصوبة، وهذا شعر عربي فصيح من كلام العرب الأقحاح.

وأما ما يذكره بعضهم من روايات لا تصح مما ينقل عن عثمان وعائشة وعن بعض الصحابة -رضي الله عنهم- من روايات مكذوبة في كتابة القرآن فإن هذا من أبطل الباطل ولا يصح من جهة الإسناد أبداً ولذلك لا يجوز الالتفات إليه.

كما أنه يوجد توجيه آخر للآية التي نحن بصدد الحديث عليها لكن في ظني أنه في غاية التكلف والبعد، وهو أن يكون المعنى لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة يعني بالملائكة، وهذا قال به ابن جرير -رحمه الله-، والذي حمله على هذا القول هو الإعراب، فأظن أن هذا في غاية البعد، لكن إذا عرفت هذه القاعدة زال الإشكال، أعني أن العرب إذا تطاولت صفة الواحد في المدح والذم فإنها تقطع -أي تحول من نصب إلى رفع أو العكس- ليكون ذلك أبلغ في مدحه وذمه، والله تعالى أعلم.

وقد أكثر العلماء من الكلام على بعض هذه المواضع في بعض كتبهم في التفسير، بل إن بعضهم ربما أفرد بعضها برسالة خاصة يذكر فيها المناقشات والأجوبة والوجوه كالكلام على قوله تعالى: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} [(٦٣) سورة طـه] وذلك أننا إذا قلنا: إن {إِنْ} مخففة من الثقيلة فهي ناصبة هكذا إنْ هذين لساحران، فكيف قال: إنْ هذان؟

هذه المسألة ألَّف بعضهم فيها كتاباً في ذكر الأجوبة عليها، ومن أقرب هذه الأجوبة أن هذا جاء على لغة بعض العرب الذين يُلزمون المثنى الألف دائماً -في النصب والرفع والجر- وشاهد ذلك قول الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

فلم يقل: غايتيها؛ باعتبار أن إبقاءها على حالتها -بالألف- لغة صحيحة، والله أعلم.

{وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٦٢) سورة النساء] أي: **يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.**

وقوله: {أُوْلَئِكَ} هو الخبر عما تقدم {سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} يعني: الجنة.

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا* وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا* رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [(١٦٣-١٦٥) سورة النساء].

قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -قال: قال سُكَين وعَديّ بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد

موسى فأنزل الله في ذلك من قولهما: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} [(١٦٣) سورة النساء] إلى آخر الآيات.

مثل هذه الرواية لا تخلو من ضعف، وكذلك محمد بن أبي محمد فيه ضعف، لكن العلماء يتساهلون في الرواية في التفسير وفي السير؛ لأنهم لو طبقوا عليها شروط المحدّثين لذهب كثير من هذه المرويات.

فذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} [(١٦٣) سورة النساء] إلى قوله: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(١٦٣) سورة النساء]، والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود -عليه السلام-.

وقوله: {وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [(١٦٤) سورة النساء] أي: من قبل هذه الآية، يعني: في السور المكية وغيرها.

وهذه تسمية الأنبياء الذين نصَّ الله على أسمائهم في القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، والْيَسَع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد -صلى الله عليه وسلم-.

يقول الله -عز وجل- {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(١٦٣) سورة النساء] وهو اسم الكتاب الذي أتاه الله داود، وبغض النظر عن هذه التسمية ما أصلها وما معناها إلا أن الآية نص صريح في أن الله -عز وجل- أنزل على داود -عليه الصلاة والسلام- الزبور، وهذا أمر لا يحتاج إلى تنبيه إلا أن العجيب أن ظاهر كلام أحد المفسرين الذي قرأته مراراً لم أفهم منه معنى سوى أن الزبور ليس من عند الله وأن الإنجيل ليس من عند الله!! وهذا أمر عجيب! وإن كان في آخر كلامه ما يناقض هذا الفهم تماماً، حتى إننا أردنا أن نتأول له لكن عبارته لا تساعد على ذلك، والأعجب من ذلك -مع أن كلاًّ يؤخذ من قوله ويرد- أنك تجد من يثني على هذا المفسر ويعظمه غاية التعظيم، ولو وقع هذا الخطأ لشخص آخر يشنؤه هذا المادح لأقام الدنيا ولأقعدها عليه ولكفره ولما ترك شيئاً من الأوصاف السيئة إلا ألحقها به.

قوله: "**وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين**" يشير فيه إلى **أن** بعض المفسرين يقول: إن ذا الكفل هو ابن أيوب -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: هو رجل صالح وحكم عادل ولم ويكن من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

وابن جرير -رحمه الله- توقف في هذا، لكن الله -عز وجل- ذكره في سياق الأنبياء كما في سورة الأنبياء وكما في سورة ص وهذا يقتضي أنه من جملة الأنبياء فيما يظهر، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [(١٦٤) سورة النساء] أي: خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن.

قوله: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [(١٦٤) سورة النساء] وهذا تشريف لموسى -عليه السلام- بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه عن عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: "وكلم اللهَ موسى تكليماً" فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأتُ على الأعمش،

وقرأ الأعمش على يحيى بن وثَّاب، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبد الرحمن السَّلْمِيّ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي عَلَى عَلِيٍّ بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [(١٦٤) سورة النساء].

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش -رحمه الله- على مَن قرأ كذلك؛ لأنه حَرّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذي ينكرون أن يكون الله كلَّم موسى -عليه السلام- أو يكلِّمُ أحدًا من خلقه.

يعني أن ابن عياش تكلم في قضية معينة عن رجل بعينه من المعتزلة حرف الآية، وتحريف القرآن كفر كما هو معلوم، فقال عنه ما قال، وإلا فإن القراءة بالنصب مروية عن بعض التابعين -إن ثبت ذلك عنهم- وإن كانوا قلة كإبراهيم النخعي، لكن في هؤلاء غاية ما يقال عنهم: إن هذه القراءة إن لم تثبت فهذا من قبيل الخطأ بحسب ما بلغهم، لكن إن صدر ذلك ممن يحرف ويتعمد هذا كبعض المعتزلة فهذا كفر، وفي هذا قال ابن عياش ما قال، فالعالم قد يقول المقالة في مناسبة معينة لكنه لا يقصد تعميم ذلك، فهناك فرق بين من حرَّف أو تعمد التحريف أو اتبع هواه، وبين من قرأ بها وهو يظن أنها من القراءة أو قرأ مخطئاً، فقد يقرأ بعض العامة هذا على سبيل الخطأ فلا يقال: هذا كافر، فابن عياش يتحدث عن حالة معينة ولذلك تجد في كلام العلماء -رحمهم الله- أشباه هذا كثيراً، فلو تأملت في كلام المحدّثين لوجدت يحيى بن معين يسمع حديثاً ويقول: من هذا الكذاب -يعني راوي الحديث- فيقوم رجل ويقول: أنا، فيبتسم له ويقول: لست بكذاب، فهو –رحمه الله- يقصد إبطال الخبر فبالغ في كلامه على الراوي، فلما قام قال له ما قال ليدل على أنه لم يقصد تكذيبه وإنما قصد المبالغة في رد الخبر.

كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: "وكلم اللهَ موسى تكليما" فقال له: يا ابن اللَّخْنَاء فكيف تصنع بقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.**

وكذلك ماذا يصنع هذا المحرِّف بقوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [(٥٢) سورة مريم] فالنداء والمناجاة كلها من الكلام ولا يمكن احتمال أن يكون المنادي هو موسى -عليه الصلاة والسلام- فالنداء هو صوت رفيع -كما يقول ابن القيم –رحمه الله- يعني أعلى من مجرد المكالمة والمخاطبة.

وقوله: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [(١٦٥) سورة النساء] **أي: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذَّب رسله بالعقاب والعذاب.**

وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [(١٦٥) سورة النساء] **أي: إنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبيَّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى:** {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى} [(١٣٤) سورة طـه] **وكذا قوله تعالى:** {وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} **الآية** [(٤٧) سورة القصص].

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا أَحَدَ أَغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظَهَر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه

المدحُ من الله -عز وجل- من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحدَ أحَبُّ إليه العُذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين))[2] **وفي لفظ: ((من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه))**[3].

الحجة في قوله تعالى: **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ}** [(١٦٥) سورة النساء] من أحسن ما تفسر به هي الآية الأخرى في سورة القصص: **{وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا}** [(٤٧) سورة القصص]، والحاصل أن الله -عز وجل- سمى ذلك حجة وإن لم يكن في حقيقة الأمر حجة؛ لأن الله -عز وجل- قد أرسل رسله وأنزل كتبه تفضلاً على الناس وإلا فالخلق خلق الله -تبارك وتعالى- والملك ملكه، والله –تبارك وتعالى- عليم حكيم فلم يترك ذلك لمقتضى علمه -سبحانه وتعالى- فيحاسب الناس عليه بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم ظهر مقتضى هذا العلم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، والله -عز وجل- يقول: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}** [(٢) سورة التغابن] وقال: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** [(٣) سورة الإنسان] وقال: **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** [(١٠) سورة البلد] وقال: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}** [(٢٠) سورة عبس] على أحد المعنيين في الآية.

{لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً* إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا* يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} **[(١٦٦-١٧٠) سورة النساء].**

لما تضمن قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ..} إلى آخر السياق، إثبات نبوته -صلى الله عليه وسلم- والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ} أي: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت] ولهذا قال: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [(١٦٦) سورة النساء] أي: في علمه[4] **الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرَّب إلا أن يُعْلِمَه الله به كما قال تعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [(٢٥٥) سورة البقرة] وقال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [(١١٠) سورة طــه].**

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: **{أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}** [(١٦٦) سورة النساء] قد لا يكون عند التأمل بتلك الدرجة من الوضوح وذلك أنه قد يستشكل، حيث يقول: "**في علمه الذي أراد أن يُطلع**

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا شخص أغير من الله)) (٦٩٨٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٨) ومسلم في كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

[3] - صحيح مسلم في كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

[4] - في نسخة "**فيه علمه**" وهي الأصوب والله أعلم".

العباد عليه من البينات والهدى والفرقان" فهل المقصود أنه أنزله متضمناً لعلمه؟ إذا كان هذا هو المراد فهو واضح، ويدل على أن هذا المعنى مراد من خلال نسخة أخرى يقول فيها: "**فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه**" وهي أصح من أن يقال: في علمه.

كما أن الكلام يكون صحيحاً واضحاً باعتبار أن حروف الجر تتناوب فيقال: أي أنزله بعلمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، أي أن الباء ضمنت معنى في، والمعنى أنه يحتوي على علمه بالأشياء التي أراد -تبارك وتعالى- أن يظهرها للعباد، وما فيه من الهداية.

وهذا المعنى وجهه ظاهر، لكن يمكن أن يقال بمعنى أوضح من هذا -وهو معنى مغاير-: أنزله بعلمه أي: إنزالاً متلبساً بعلمه، فالله -تبارك وتعالى- أنزله وهو يعلم أن هذا الكتاب هو الذي يكون به صلاح أحوال البشر، وأنزله على نبيه -صلى الله عليه وسلم- بواسطة جبريل -عليه الصلاة والسلام- فهو يعلم ما فيه صلاحهم ويعلم صلاح جبريل ومحمد –عليهما الصلاة والسلام- لتبليغ هذا الأمر، وإن كفر اليهود بهذا الدين بسبب أن جبريل هو الذي يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- بالوحي لكراهيتهم لهما، قال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [(١٠٢) سورة النحل] فجبريل هو الذي يتولى إنزاله من الله -عز وجل- على هذا النبي الخاتم -عليه الصلاة و السلام- والله عليم حكيم.

{وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ} [(١٦٦) سورة النساء] أي: **بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك** {وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(١٦٦) سورة النساء].

وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [(١٦٧) سورة النساء] أي: **كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق، وسَعوْا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبَعُدُوا منه بُعدًا عظيماً شاسعاً.**

الكلام عن الصد قد سبق بيانه وخلاصته أنه إما أن يقال: إنها لازمة، فيكون المعنى أنهم صدوا أنفسهم عن معرفة الحق واتباعه أو صدوا غيرهم عن ذلك بالوسائل المختلفة المعروفة، والمعنيان صحيحان، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم {وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً} [(١٦٨) سورة النساء] **أي سبيلاً إلى الخير** {إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ} [(١٦٩) سورة النساء] **وهذا استثناء منقطع** {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} **الآية** [(١٦٩) سورة النساء].

يقول تعالى عن الكافرين {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً} [(١٦٨) سورة النساء] أي: لن يهديهم سبيلاً إلى الخير والهدى والإيمان أو التوبة، ثم قال: {إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ} [(١٦٧-١٦٨) سورة النساء] قال ابن كثير: "**وهذا استثناء منقطع**" وهو كذلك؛ لأن هداية هؤلاء إلى جنهم ليست من الهداية المنفية عنهم في الآية السابقة، بمعنى أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، لكن إذا قلنا: إن الاستثناء وقع من الطريق، فالطريق تحمل على أعم الأحوال، فيكون على هذا من قبيل الاستثناء المتصل، والله أعلم.

وهذه الآية في الكافرين الذين أصرُّوا على الكفر وماتوا على ذلك؛ وإلا فإن الله -عز وجل- قد هدى طوائف من الكفار ممن كانوا في غاية المحاربة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به، وهذا الجواب يقال في

نظائر هذه الآية مما نفى الله -عز وجل- فيها الهداية عن أقوام ذكر أوصافهم كقوله تعالى: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(٢٥٨) سورة البقرة] وكقوله: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [(٢٦٤) سورة البقرة] وكقوله: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [(١٠٨) سورة المائدة] وهذا يحمل على الذين يصرون على هذه الصفات ممن سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ} **[(١٧٠) سورة النساء] أي: قد جاءكم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله -عز وجل- فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم.**

هذه العبارة من ابن كثير -رحمه الله- تبين وجه نصب لفظة "خيراً" من قوله -عز وجل-: {فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ} [(١٧٠) سورة النساء] وذلك أنه إذا قيل: بماذا نصبت لفظة "خيراً"؟ فإنه يقال: نصبت بـــ"كان" المقدرة كما قال بعض النحاة كالكسائي وكما قال ابن كثير –رحمه الله-: "**فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم**"، فابن كثير ذكرها في التفسير وهي مقدرة في الإعراب، فإن قيل: وما هو اسم كان؟ يقال: الإيمان، يعني: يكون الإيمان خيراً لكم.

والخلاصة أن "خيراً" خبر لكان المحذوفة، وهذا أحد الأوجه في تعليل النصب وهو من أقربها، والله أعلم.

ثم قال: {وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} **[(١٧٠) سورة النساء] أي: فهو غني عنكم وعن إيمانكم ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى:** {وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} **[(٨) سورة إبراهيم] وقال هاهنا:** {وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا} **[(١٧٠) سورة النساء] أي: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه** {حَكِيمًا} **أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.**

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٤٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(١٧١) سورة النساء].

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى -عليه السلام- حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادَّعوْا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقًا أو باطلاً أو ضلالاً أو رشادًا أو صحيحًا أو كذبًا؛ ولهذا قال الله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} الآية [(٣١) سورة التوبة].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن عمر -رضي الله عنهم أجمعين- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله))، وهكذا رواه البخاري، ولفظه: ((فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ} [(١٧١) سورة النساء] هذا الخطاب عام لأهل الكتاب ويدخل فيه اليهود والنصارى، ولهذا فسره جماعة من أهل العلم بما يشمل الطائفتين، وذلك أن اليهود غلوا في العزير وقالوا أيضاً: إنه ابن الله كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة] فهذا كله من الغلو وإن كان ظاهر السياق بعده في النصارى؛ لأنه قال: إنما المسيح عيسى ابن مريم إلا أن هذا لا يمنع من عموم الخطاب في أوله -كما هو ظاهر- ثم بعد ذلك خص النصارى بهذا لأن الذين تهافتوا على هذا القول من النصارى هم عامتهم وأغلبهم حتى صار ذلك شعاراً لدينهم وصار التوحيد فيهم قليلاً بالنسبة للطوائف التي غلت في المسيح -عليه الصلاة والسلام-.

وقد وقع الغلو أيضاً من اليهود في عيسى وفي أمه حيث قالوا كلاماً شنيعاً فظيعاً يثقل على الأسماع فهذا من الغلو أيضاً؛ لأن الغلو يكون تارة بمجاوزة الحد في الإطراء والتعظيم والتقديس، وتارة يكون من جهة التفريط والبغض والعداوة والبهتان، والله أعلم.

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٦١) (ج ٣ / ص ١٢٧١) وأحمد (١٦٤) (ج ١ / ص ٢٤).

والخلاصة أن اليهود غلوا فقالوا كلاماً شنيعاً، والنصارى أيضاً غلوا في الطرف الآخر وقالوا كلاماً شنيعاً فيكون الكلام موجهاً للطائفتين ناهياً لهم عن الغلو، وهذا الذي اعتمده القرطبي في تفسير الآية وإن كان ظاهر الآية في النصارى الذين غلوا في عيسى، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أيها الناس، عليكم بقولكم ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشيطانُ، أنا محمدُ بنُ عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللَّهُ عز وجل)) تفرد به من هذا الوجه[2].

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ} [(١٧١) سورة النساء] أي: **لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله –عز وجل- عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه؛ ولهذا قال: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(١٧١) سورة النساء] أي: **إنما هو عبد من عباد الله وخَلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}** [(١٧١) سورة النساء] أي: **خَلَقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل -عليه السلام- إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه -عزَّ وجل- فكان عيسى بإذن الله -عز وجل-.**

يقول الحافظ –رحمه الله- في قول الله –عز وجل-: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}** [(١٧١) سورة النساء]: "**أي: خَلَقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل -عليه السلام- إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه -عزَّ وجل- فكان عيسى بإذن الله -عز وجل-**".

هذا القول هو من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، ومعناه أن الله خلق عيسى –عليه السلام- بكلمة كن، أي أنه قال له: كن فكان، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن حيث قال تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(٤٠) سورة النحل] وقال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [(٨٢) سورة يـــس].

والقول الثاني الذي قاله طائفة من السلف ومنهم ابن جرير: إن المراد بالكلمة هي ما جاء به جبريل إلى مريم، حيث قال لها: **{إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** [(٤٥) سورة آل عمران] ويكون هذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن أيضاً، لكن تفسير القرآن بالقران يدخله اجتهاد المفسر، ولذلك قد يربط المفسر بين آيتين فيصيب وقد يخطئ، فالذي يظهر أن القول الأول هو الأقرب؛ لأن المسألة هنا مسألة خلق وتكوين وإيجاد وهذا الخلق والتكوين يكون بـــ"كن" والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(١٧١) سورة النساء] يعني أن الله -تبارك وتعالى- أرسل جبريل –عليه السلام- إلى مريم فنفخ في جيب درعها نفخة نزلت حتى دخلت من فرجها ولذلك قال بعضهم: إن الروح هي تلك النفخة التي نفخها جبريل فيها، وبعض أهل العلم قال في تفسير الروح غير هذا، فالله أعلم.

---

[2] - أخرجه أحمد (١٢٥٧٣) (ج ٣ / ص ١٥٣) ولفظه: ((عليكم بتقواكم)) بدل ((قولكم)) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شـــرط مـــسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم.

وأما الكلمة التي أُرسل بها جبريل –عليه السلام- فليست هي النفخة التي نفخها فيها؛ ولهذا قال: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء] أي: روح مخلوقة من جملة الأرواح التي خلقها الله –عز وجل- والإضافة هنا هي إضافة تشريف كإضافة البيت والناقة في قولنا: بيت الله وفي قوله تعالى: {نَاقَةَ اللَّهِ} [(١٣) سورة الشمس].

ويبقى أن الله –عز وجل- خلق عيسى –عليه السلام- بالكلمة وبعث جبريل -عليه الصلاة والسلام- فنفخ في درع أمه، فهو روح مخلوقة لله -عز وجل-.

و"مِن" في قوله تعالى: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء] لابتداء الغاية كما في قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [(١٣) سورة الجاثية] ولا أحد يقول: إن ما في السماوات والأرض جزء من الله -عز وجل- كما زعم النصارى في قوله تعالى: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء].

والمقصود أنه مما يرد به على احتجاج النصارى بهذه الآية قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [(١٣) سورة الجاثية] أي: إذا قلتم: إن قوله: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء] يعني جزء منه فكذلك يقال في قوله: {مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [(١٣) سورة الجاثية] أي فكذلك إذاً ما في السماوات وما في الأرض هو جزء من الله، ومعلوم أن النصارى لا يقولون بهذا، وإنما يقولون: إن "مِن" في قوله: {جَمِيعًا مِّنْهُ} [(١٣) سورة الجاثية] هي لابتداء الغاية، فيقال لهم: وكذلك "مِن" في قوله تعالى: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء]هي لابتداء الغاية، فإذا كنتم تحتجون بالقرآن فهذا هو القرآن.

ومن الأمور الغريبة أن النصارى يتشبثون بآيات من القرآن الكريم ليجادلوا بها المسلمين وهم أصلاً لا يؤمنون بالقرآن، ولذلك إذا أراد النصراني أن يجادل بما في القرآن فليُقل له: لا تجادل بالقرآن إلا إذا آمنت به وبما يقول في عيسى –عليه الصلاة والسلام- وبما فيه من وصف لكم بالضلال وبلعنه إياكم؛ وذلك أنهم يريدون أن يحتجوا بالقرآن للتلبيس بالشُّبه الباطلة التي يسهل الرد عليها ببديهة دون اطلاع أو مراجعة؛ لما في احتجاجاتهم من ضعف.

ومع سهولة الرد على شبه النصارى إلا أننا نقول: لا ينبغي لمن لم يطلب العلم ولم يثنِ ركبتيه لذلك أن يجادلهم؛ لأن من لا يحسن ركوب البحر يغرق فيه، وقد رأيت من يرد عليهم فيأتونه بنحو عشر شبه لا يعرف الجواب عنها إطلاقاً مع أن كل واحدة منها يسهل الرد عليها ببديهة من ستة أو سبعة أوجه قوية ويكفي كل وجه منها في إبطال تلك الشبهة..

وقد اتصل شخص بأحد طلاب العلم يريد إنقاذه من غرقه في شبه النصارى حيث كان يريد أن يرد على النصارى في أحد مواقع الإنترنت وهو ليس من طلاب العلم فكان مما قال: إنه لم يصم من رمضان ثلاثة أيام حيث شكَّ في دينه وإيمانه، فهو يريد الإغاثة.

لذلك ينبغي أن يتخصص في مجادلة النصارى أناس من أهل العلم بحيث تكون لديهم لجان شرعية –وهذا موجود ولله الحمد- فيعرضون عليهم ما عندهم ثم يناقشونهم بحيث لا يخرجون في مناقشتهم إلى ما ليس منها مما قد يؤدي إلى أن يقرروا بعض الأخطاء أو يردوا عليهم بباطل، وأما من ليسوا من هؤلاء فلا ينبغي أن يدخلوا في هذا الباب، والله المستعان.

فنفخ فيها بإذن الله -عز وجل- فكان عيسى -عليه السلام- بإذن الله -عز وجل- وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولَجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله -عز وجل- ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبريل قال الله تعالى: {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ} [(٧٥) سورة المائدة] وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٥٩) سورة آل عمران].

وقال تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} [(٩١) سورة الأنبياء] وقال تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [(١٢) سورة التحريم] إلى آخر سورة التحريم، وقال تعالى إخباراً عن المسيح: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} الآية [(٥٩) سورة الزخرف].

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} هو كقوله: كن فكان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاَذ بن يحيى يقول في قول الله: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء] قال: ليست الكلمةُ صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى.

وروى البخاري عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأن الجنةَ حق والنارَ حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) زاد في رواية: ((من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)) وكذا رواه مسلم[٣].

فقوله في الآية والحديث: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء] كقوله: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [(١٣) سورة الجاثية] أي: مِنْ خَلْقه ومِن عنده، وليست "مِنْ" للتبعيض كما تقوله النصارى -عليهم لعائن الله المتتابعة- بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى.

وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: {هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ} [(٦٤) سورة هود] وفي قوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [(٢٦) سورة الحـج] وكما ورد في الحديث الصحيح: ((فأدخل على ربِّي في داره))[٤] أضافها إليه إضافة تشريف لها، وهذا كله من قبيل واحدٍ ونمَط واحد.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فأدخل على ربِّي في داره)) يعني في الجنة، والله أعلم.

ومن الأمثلة اليسيرة على بطلان عقيدة النصارى لو أردنا أن نجادلهم في العبارات التي في كتبهم ويجعلونها ديناً لهم -مع أننا نقول: إن هذه العبارات قد تكون من المحرف- أنهم ينسبون إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام- أنه عبّر عن ربه بقوله: "أبي"، فنقول: إن التربية والتربيب يدخل فيها التربيب بالعلم والرعاية وما

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ..} [(١٧١) سورة النساء] (٣٢٥٢) (ج ٣ / ص ١٢٦٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٨) (ج ١ / ص ٥٧).

4 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] (٧٠٠٢) (ج ٦ / ص ٢٧٠٨).

إلى ذلك، ويدخل فيها أيضاً تربية الأبدان، والمربي في لغة العرب يقال له أب، فإذا صحَّ أن عيسى قال عن ربه "أبي" فإنه يقصد بذلك لفظة "ربي" وليس ما تزعمه النصارى عليهم لعائن الله.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٤٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ} [(١٧١) سورة النساء] **أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ}** [(١٧١) سورة النساء] **أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.**

وهذه الآية كالتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [(٧٣) سورة المائدة] **وكما قال في آخر السورة المذكورة: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي}** [(١١٦) سورة المائدة] **وقال في أولها: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} الآية** [(٧٢) سورة المائدة] **فالنصارى -عليهم لعنة الله- من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالطوائف المنحرفة من النصارى متفقون على الكفر والضلال والتثليث ولكنهم يختلفون في تفصيل ذلك، فهم يقولون: هو جوهر واحد ولكن له ثلاثة أقانيم، ثم يختلفون في تفسير الأقانيم هل هي صفات أو غير ذلك، فبعضهم يقول: هي الوجود والحياة والعلم، وبعضهم يقول: إنه الله وعيسى وجبريل، وبعضهم يقول: إن الوجود يرمز إلى الله والحياة إلى جبريل، وبعضهم يقول: الله وعيسى ومريم، إلى غير ذلك من كفرهم الذي يختلفون فيه كثيراً، ولو طلب منهم أن يفسروا هذا التثليث كيف يكون ثلاثة في واحد لم يستطيعوا، ولذلك فإن من أفسد العقائد البشرية هي عقيدة التثليث، وأهل هذه العقيدة أكثر ما ينازعون فيه ويُحتج عليهم به هي عقيدة التثليث التي هي أصل اعتقادهم وأعظم قضية في دينهم، وهم ليسوا متثبتين منها ولا على يقين إطلاقاً.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطْرِيق -بطْرَكُ الإسكندرية- في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا في المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم.

سعيد هذا هو ابن بطريق، لكن البطريك هو رئيس الأساقفة عند النصارى كما قال: "**بطرك الإسكندرية**" أي مقدمهم أو رئيس رؤساء الأساقفة، وقد يطلق مثل هذا على العالم عند اليهود لكنه اشتهر عند النصارى.

أنهم اجتمعوا في المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة.

هذا حينما تركوا العمل بالتوراة لشدة كراهيتهم لليهود فبقوا من غير شريعة؛ لأن عيسى -عليه السلام- لم يبعث بشرع جديد، فلم يكن عندهم قانون يتحاكمون إليه ولا نظام يضبطون معاملاتهم وسلوكهم به، فالذي حصل أنهم اخترعوا هذا القانون الذي سموه بالأمانة الكبيرة.

وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أَسْقُفًا.

الأسقف هو مرتبة دينية أعلى من القسيس ودون المطرم عندهم.

فكانوا أزيد من ألفين أَسْقُفًا، فكانوا أحزابًا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرًا وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها -وكان فيلسوفًا داهية- ومَحَقَ ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر.

يعني أن المبرر لاختيار مقالة أهل التثليث التي اعتمدها قسطنطين هي أنهم زادوا على الثلاثمائة بقليل! فهم أكثر مجموعة كانت عند النصارى اتفقت على قول بهذا العدد، فاعتمد قولهم ديناً لهم بهذه الطريقة!!

وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتبًا وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويُعَمّدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية، ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات! وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة.

اللاهوت يقصدون به الإله والناسوت يعني الناس ويريدون عيسى -عليه الصلاة والسلام- أي هل اتحد معه أو مازجه كما يمازج الملح الماء مثلاً، أو أنه حل فيه ولم يتحد معه، يوجد خلاف بينهم في هذه الأقوال التي هي كلها في غاية الكفر والضلال.

وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة.

هكذا هي عقائدهم الفاسدة ومع ذلك ترى من أبناء المسلمين من يغتر ويعجب بهم ويقلدهم وينشر مبادئهم وأزياءهم وأفكارهم وما عندهم من حضارة -كما يزعمون- فتفسد العقائد والأخلاق في أوساط المسلمين.

حدثني أحد الإخوة أنه لقي شاباً صغيراً عمره ست عشرة سنة قد تنصر ولبس الصليب وتخلى عن دين الإسلام؛ بسبب ما يشاهده في القنوات وإن كان قد رجع عن هذا بعد أن بقي على هذا الأمر مدة، ولله الحمد، لكن نقول: إن هذه الأمور الجسام تقع بسبب إتيانهم بالفاتنات والممثلات ويعرضونهم على أنهم في غاية البريق واللمعان والنجومية وتركز الكاميرا على الصليب الذي يلبسه في رقبته وفي يده وعلى الوشم فيدمن الشاب رؤية هذا الأشياء ويعجب بها غاية الإعجاب ثم يجد نفسه قد دخل في دينهم، ولا غرابة.

وقد رأيت عند هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيساً مليئاً بالصلبان وقالوا: إنها مما يلبسها الشباب في السوق، وقالوا: إنهم وجدوا أحد الشباب الصغار في السادسة عشرة من عمره -وهو ابن لأحد الدعاة- يلبس لباساً في غاية السوء، فقلت: هلا سألتموه؟ فقالوا: سألناه هل أنت مقتنع بهذا الصليب؟ فقال: إنه تجديد!!

يا تُرى هل هؤلاء القوم بهذه العقائد مما يصح أن نُعجب بهم أو بعقائدهم؟ فالله المستعان.

ولهذا قال تعالى: {انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ} [(١٧١) سورة النساء] أي: **يكن خيراً لكم** {إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ} [(١٧١) سورة النساء] أي: **تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً.**

{لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [(١٧١) سورة النساء] أي: **الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد؟ كما قال في الآية الأخرى:** {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} الآية [(١٠١) سورة الأنعام] **وقال تعالى:** {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} [(٨٨-٨٩) سورة مريم] **إلى قوله:** {فَرْدًا} [(٩٥) سورة مريم].

{لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [(١٧٢-١٧٣) سورة النساء].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {لَّن يَسْتَنكِفَ} **لن يستكبر وقال قتادة: لن يحتشم.**

لفظة "يستنكف" إذا فسرت بالاستكبار فإن هذا تفسير لها بما يقارب معناها، وإلا فإن الله -عز وجل- قال: {وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ} [(١٧٢) سورة النساء] فالاستنكاف يمكن أن يفسر بالأنفة فنقول: {لَّن يَسْتَنكِفَ} يعني لن يأنف، والله أعلم، فكلمة يأنف قريبة من كلمة يستكبر، والكبر معروف، وإذا قلت: فلان يأنف من كذا فالمعنى أنه يترفع عن هذا الشيء، فهذا يمكن أن يفرق به بين الاستنكاف والاستكبار، ومن يقول بالترادف فيمكن أن يقول: إنهما مترادفان، والله تعالى أعلم.

{الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} **ولهذا قال:** {وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا} [(١٧٢) سورة النساء] أي: **فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يَحيف، ولهذا قال:** {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ} [(١٧٣) سورة النساء] أي: **فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسَعَة رحمته وامتنانه.**

{وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ} أي: **امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك** {فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [(١٧٣) سورة النساء] **كقوله:** {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [(٦٠) سورة غافر] أي: **صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين.**

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [(١٧٤-١٧٥) سورة النساء].

يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعُذْر، والحجة المزيلة للشبهة؛ ولهذا قال: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [(١٧٤) سورة النساء] أي: **ضياءً واضحاً على الحق، قال ابن جُرَيج وغيره: وهو القرآن.**

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ} [(١٧٥) سورة النساء] أي: **جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن.** [رواه ابن جرير].

{فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ} [(١٧٥) سورة النساء] **أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورَفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم.**

{وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [(١٧٥) سورة النساء] أي: **طريقاً واضحاً قَصْداً قَوَاماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.**

الضمير في قوله تعالى: **{آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ}** هل يعود إلى أقرب مذكور وهو الله -تبارك وتعالى- أي آمنوا بالله واعتصموا بالله، أم يعود إلى المحدَّث عنه وذلك أن الله -تبارك وتعالى- يقول: **{قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ}** [(١٧٤-١٧٥) سورة النساء] يعني اعتصموا بهذا النور المبين الذي أنزله -تبارك وتعالى-؟

ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- هنا القولين، حيث ذكر قول ابن جرير أنه القرآن لأنه المحدث عنه، وذكر القول الآخر فقال: "أي: **جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم**" فقوله: "**والتوكل على الله في جميع أمورهم**" يفيد أن الضمير يرجع إلى الله في قوله: **{وَاعْتَصَمُوا بِهِ}** والمعنى أنهم توكلوا عليه ولجئوا إليه وركنوا إلى جنابه وثوقاً بكفايته -سبحانه وتعالى-، وعلى كل حال فالآية تحتمل المعنيين، لكن إذا نظرنا باعتبار المحدث عنه فإن الضمير يرجع إلى القرآن، وهو كقوله: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا}** [(١٠٣) سورة آل عمران] أي بالقرآن، وهذا ما اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله تعالى أعلم.

وإذا أردنا أن نرجح بطريقة أخرى فنقول: إن الضمير يعود إلى الله -عز وجل- فإن طريق الترجيح من جهة القواعد هو أنّ توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فإذا قلنا: إن الضمير في قوله: **{وَاعْتَصَمُوا بِهِ}** يرجع إلى القرآن فإن باقي الضمائر ترجع إلى الله -عز وجل- وذلك أن قوله: **{فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ}** [(١٧٥) سورة النساء] يعني الله -جل وعلا- وكذلك الضمائر في قوله تعالى: **{فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}** [(١٧٥) سورة النساء] كلها ترجع إلى الله -تبارك وتعالى- فلما كان توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها فإنه يقال: إن الضمير في قوله: **{وَاعْتَصَمُوا بِهِ}** [(١٧٥) سورة النساء] يرجع إلى الله تعالى.

والمقصود أن هذا وجه في الترجيح بين الأقوال، فإما أن نقول: إن المحدث عنه هو القرآن فنترك قاعدة "الضمير يرجع إلى أقرب مذكور"، ونترك قاعدة توحيد الضمائر، أو نقول: الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور -وهو الله- أضف إلى ذلك قاعدة "توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها".

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة النساء (٤٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١٧٦) سورة النساء].

روى البخاري عن البراء –رضي الله تعالى عنه- قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: {يَسْتَفْتُونَكَ} [(١٧٦) سورة النساء].

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: "دخل عَلَيّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا مريض لا أَعْقِل، فتوضأ، ثم صَبَّ عَلَيّ أو قال: ((صبوا عليه)) فَعَقَلْتُ فَقُلت: إنه لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ قال: فأنزل الله آية الفرائض" أخرجاه في الصحيحين ورواه الجماعة[1] وفي بعض الألفاظ: "فنزلت آية الميراث: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} الآية [(١٧٦) سورة النساء]"[2].

وكأن معنى الكلام -والله أعلم- يستفتونك عن الكلالة قل الله يفتيكم فيها فدل المذكور على المتروك.

وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ} [(١٧٦) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أورد المؤلف -رحمه الله- ما أخرجه الإمام البخاري -رحمه الله- من حديث البراء -رضي الله عنه-: "آخر سورة نزلت براءة وآخر آية نزلت يستفتونك" فذكر آخر ما نزل من السور وذكر آخر ما نزل من الآيات، والعلماء لهم كلام كثير في آخر ما نزل من القرآن، ووجه الجمع بين كثير من هذه الروايات إما بتقدير "مِن" أو أن يخص ذلك في بعض الآيات، أو يسلك طريق الترجيح، فالأولان طريقان في الجمع.

وفي قوله: "آخر سورة نزلت براءة" يقال: لاشك أن براءة من آخر ما نزل فيما يتعلق بالقتال، بل هي آخر ما نزل في شأن القتال، لكن لم تنزل سورة براءة دفعة واحدة فقد نزل صدرها، قبل حجة أبي بكر في السنة

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب المرضى - باب وضوء العائد للمريض (٥٣٥٢) (ج ٥ / ص ٢١٤٨) ومسلم في كتاب الفرائض - باب ميراث الكلالة (١٦١٦) (ج ٣ / ص ١٢٣٤).

2 - صحيح مسلم في كتاب الفرائض - باب ميراث الكلالة (١٦١٦) (ج ٣ / ص ١٢٣٤).

التاسعة للهجرة، حيث بعث بها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع عليٍّ في أثره، ونزل بعضها -كما هو معروف- في غزوة تبوك، فيمكن أن يقال: إن براءة هي آخر ما نزل في شأن القتال وما يتعلق به.

وآية الكلالة هي آخر ما نزل في شأن المواريث وإلا فالأرجح في آخر ما نزل من الآيات أنها الآيات الثلاث التي في سورة البقرة -آية الربا وآية الدين وقوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [(٢٨١) سورة البقرة]- فالأقرب أن هذه الآيات نزلت معاً، وما جاء من الروايات أن واحدة منها هي آخر ما نزل فذالك يصح ويصدق عليه باعتبار أنها نزلت بهذه الجملة، والله تعالى أعلم.

وفي بعض الروايات نجد أن سورة النصر هي آخر ما نزل -أعني قوله تعالى: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] إلى آخرها-، ويمكن أن يقال: إنها آخر سورة نزلت كاملة، وسورة المائدة هي آخر سورة نزلت في الأحكام أي في الحلال والحرام.

يقول تعالى: **{قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ}** الكلالة قال: "**مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد**" أي الذي لا يرثه إلا من يحيطون به كالإخوة والأخوات، فإن قيل: الله -عزَّ وجل- يقول: **{إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ}** [(١٧٦) سورة النساء] ولم يقل: ولا والد، فكيف قيل: من لا ولد له ولا والد؟ فالجواب أن يقال: إن قوله سبحانه: **{وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}** [(١٧٦) سورة النساء] يدل على ذلك؛ لأنه لا يمكن أن ترث الأخت من أخيها مع وجود الوالد، فلما ورثت النصف عُلم أنه لا والد للمتوفى، والله تعالى أعلم.

وقد أُشْكِل حُكْم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: "ثلاث وَدِدْتُ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا"[٣].

وروى الإمام أحمد عن مَعْدان بن أبي طلحة قال: قال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: ما سألتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأُصْبُعِه في صدري وقال: ((يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء)) هكذا رواه مختصرًا وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا[٤].

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

كلام ابن كثير هذا يقصد به تحليل الآيات حيث تكلم على الموضوع جملة ويريد الآن أن يتحدث عن الآيات بالتحليل وهذا يسمونه التفسير التحليلي.

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب الأشربة - باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل من الشراب (٥٢٦٦) (ج ٥ / ص ٢١٢٢) ومسلم في كتاب التفسير - باب في نزول تحريم الخمر (٣٠٣٢) (ج ٤ / ص ٣٠٣٢).

4 - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها (٥٦٧) (ج ١ / ص ٣٩٦) وفي كتاب الفرائض - بـــاب ميراث الكلالة (١٦١٧) (ج ٣ / ص ١٢٣٦).

قوله تعالى: {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ} [(١٧٦) سورة النساء] **أي: مات، قال الله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** [(٨٨) سورة القصص] **كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله -عز وجل- كما قال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [(٢٦-٢٧) سورة الرحمن].

بعض الناس في هذا الزمان غلب عليهم فهمٌ خاص لكلمة هلك مع أنهم يقرءون في الرواية مثلاً في جمع القرآن "فلما هلك أبو بكر كانت الصحف عند عمر، فلما هلك عمر كانت الصحف عند حفصة" فلا غرابة في أن يقال: فلان هلك؛ لأن معناها: مات ليس إلا، وقد قال الله –عز وجل- في خبر الرجل المؤمن من آل فرعون: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** [(٣٤) سورة غافر] فقوله: **{حَتَّى إِذَا هَلَكَ}** يعني حتى إذا مات، فلا إشكال، والله أعلم.

وقوله: {لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ} [(١٧٦) سورة النساء] **أي: الذي لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: {وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ} ولو كان معها أب لم ترث شيئًا.**

يقول –رحمه الله تعالى-: "**ولو كان معها أب لم ترث شيئًا**" وهذا الكلام صحيح كما سبق.

وقوله تعالى: **{وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}** المراد بالأخت هنا الأخت الشقيقة أو الأخت لأب، وأما الأخت لأم فإنها من أصحاب الفروض كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}** [(١٢) سورة النساء] فهذه الآية في الإخوة لأم -كما سبق ذكر ذلك أول السورة-، ويفسر ذلك بعض القراءات الآحادية، وبعض أهل العلم ينقل الإجماع على أن قوله: **{وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ}** [(١٢) سورة النساء] يعني الأخ أو الأخت من أم، فالإخوة من أم من أصحاب الفروض إذا انفرد الواحد منهم فله السدس، وإذا كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، أما الإخوة الأشقاء والإخوة لأب فإن حكمهم كما في هذه الآية **{وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}** [(١٧٦) سورة النساء] فإن كان معها أخ فيقسم الميراث بينهما تعصيباً لا فرضاً.

والأخوات عصبة للبنات عند الجمهور، فإذا مات إنسان وليس له ولد ولا والد فللأخت النصف والباقي لأوْلى رجلٍ ذكر، ولو مات وله بنت وأخت فالبنت لها النصف والأخت لها النصف لكن هذا النصف الذي يكون لها مع البنت ليس هو الفرض المذكور هنا في الآية وإنما يكون لها ذلك بالتعصيب سيراً على قاعدة "الأخوات يعصبن مع البنات" ولذلك لو مات إنسان وعنده ابنتان وأخت فللبنتين الثلثان والباقي للأخت عصبة مع البنات، وإن كان لهذه الأخت أخ فإنه يقسم بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين.

والخلاصة أن هذه الآية تثبت الفرض للأخت إن لم يكن للميت والد ولا ولد -والولد يطلق على الذكر والأنثى- فإن كان له بنت فللأخت الباقي على سبيل التعصيب.

مسألة: مات إنسان وعنده بنت وأخت لأم وأخت شقيقة فكيف يقسم الميراث؟

الجواب: للبنت النصف وللأخت لأم السدس فرضاً، وما بقي فللأخت الشقيقة تعصيباً، وذلك أنه يُبدأ بأصحاب الفروض أولاً.

ولو كان معها أب لم ترث شيئًا؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضًا؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم- أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتًا وأختًا: إنه لا شيء للأخت؛ لقوله: {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ} [(١٧٦) سورة النساء] قال: فإذا ترك بنتًا فقد ترك ولدًا فلا شيء للأخت.

هذا خلاف قول الجمهور، وهو كلام صحيح من جهة أنها لا شيء لها فرضاً لكنها ترث من جهة التعصيب.

وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية.

يقول تعالى: **{فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}** [(١٧٦) سورة النساء] هذا النصف ترثه الأخت فرضاً بحيث لا يزيد ولا ينقص إلا إذا كن أخوات –أكثر من واحدة- ففي بعض الحالات يرثن الثلثين، وأما النصف الذي ترثه الأخت مع البنت فهذا ليس فرضاً وإنما هو ما بقي، فتارة يبقى النصف وفي بعض الحالات يكون أقل من ذلك،فالقضية عند التعصيب لا تتقيد بالنصف.

وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفرض وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية، وهذه الآية نصَّت أن يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري من طريق سليمان عن إبراهيم عن الأسود قال: قضى فينا معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه- على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- النصف للبنت والنصف للأخت، ثم قال سليمان: قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٥].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن هُزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وَأْتِ ابن مسعود فسيتابعني، فسئل ابنُ مسعود -رضي الله تعالى عنه- وأخبر بقول أبي موسى- فقال: لقد ضَلَلْتُ إذًا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي -صلى الله عليه وسلم- النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم[٦].

وقوله: {وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ} [(١٧٦) سورة النساء] **أي: والأخ يرث جميع ما لها إذا ماتت كلالة، وليس لها ولد أي ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أَلْحِقُوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فَلأَوْلَى رجلٍ ذَكَر))[٧].**

.

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب الفرائض - باب ميراث الأخوات مع البنات عصبة (٦٣٦٠) (ج ٦ / ص ٢٤٧٩).

[٦] - أخرجه البخاري في كتاب الفرائض - باب ميراث ابنة ابن مع ابنة (٦٣٥٥) (ج ٦ / ص ٢٤٧٧).

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب الفرائض - باب ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج (٦٣٦٥) (ج ٦ / ص ٢٤٨٠) ومسلم في كتاب الفرائض - باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر (١٦١٥) (ج ٣ / ص ١٢٣٣).

لو أن رجلاً مات وعنده بنت وأخ فللبنت النصف والباقي للأخ، وإن شئت أن تعبر وتقول: والنصف الآخر للأخ فصحيح، لكن هذا النصف الذي للأخ ليس فرضاً، وهو كما قلنا في البنت تماماً، وكذلك لو ماتت وتركت أخاً من أم وأخاً شقيقاً فللأخ من الأم السدس والأخ الشقيق له الباقي تعصيباً، والله أعلم.

مسألة:

إذا مات إنسان وترك أخاً شقيقاً وأماً وابنتين، فللبنتين الثلثان وللأم السدس وما بقي فللأخ الشقيق تعصيباً، وهكذا تكون القسمة أيضاً لو كان بدل الأخ الشقيق أخت شقيقة أو أخ أو أخت لأب، وإذا اجتمع أصحاب جهة واحدة –كالإخوة الأشقاء والإخوة لأب- فإنه يُنظر إلى الأقوى صلة بالميت.

وقوله: {فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ} [(١٧٦) سورة النساء] أي: فإن كان لمن يموت كلالة أختان فُرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن هاهنا أخذ الجماعة حكم البنتين، كما استُفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: {فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ} [(١١) سورة النساء].

وقوله: {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} [(١٧٦) سورة النساء] هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ} أي: يفرض لكم فرائضه، ويحدُّ لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه.

وقوله: {أَن تَضِلُّواْ} أي: لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى.

وروى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: "أخذ عمر -رضي الله تعالى عنه- كَتِفًا وجمع أصحاب رسول -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: "لأقضينَّ في الكلالة قضاء تحدَّث به النساء في خدورهن" فخرجت حينئذ حَيّة من البيت فتفرقوا، فقال: "لو أراد الله -عز وجل- أن يتم هذا الأمر لأتمه" وهذا إسناد صحيح[8].

قال: "**أخذ عمر -رضي الله عنه- كَتِفًا**" الكَتِف هو العظم العريض الذي كانوا يكتبون عليه حيث كانوا يكتبون على الأكتاف واللخاف والعسب.

وقوله –رضي الله عنه-: "**تحدَّث به النساء في خدورهن**" يظهر منه أنه يريد أن يحكم حكماً يكون حديث الناس حتى تتحدث به النساء في خدورهن، والله أعلم.

وروى الحاكم أبو عبد الله النَّيْسَابُورِي عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: "لأن أكون سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ثلاث أحبُّ إليّ من حُمْر النَّعَم: مَن الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقرُّ في الزكاة من أموالنا ولا نؤديها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلالة" ثم قال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه[9].

قال ابن جرير: وقد رُوِي عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: "إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر" وكان أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- يقول: هو ما عدا الولد والوالد.

---

8 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٧٨٦) (ج ٦ / ص ٢٤٥) من طريق جرير عن الأعمش مع اختلاف في لفظه ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره برقم (١٠٨٨٢) (ج ٩ / ص ٤٣٩).

9 - أخرجه الحاكم في مستدركه (٣١٨٦) (ج ٢ / ص ٣٣٢) وتعقبه الذهبي بقوله: "بل ما خرجا لمحمد شيئاً ولا أدرك عمر"، فالسند فيه انقطاع.

وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١٧٦) سورة النساء] والله أعلم.

انتهى تفسير سورة النساء، ولله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة المائدة:

قد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[1].

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: آخر سورة أنزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [(١) سورة النصر] وقد روى الحاكم في مستدركه نحو رواية الترمذي ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضاً عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة -رضي الله تعالى عنها- فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[2].

ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألتها عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: "القرآن" ورواه النسائي[3].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام إلا أنها أقصر من سورة البقرة ولذا كانت البقرة أكثر منها من جهة الأحكام التي اشتملت عليها.

وهذا الأثر الذي ذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "**آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح**"، في إسناده ضعف، والمقصود بالفتح سورة النصر **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] وليست سورة الفتح قطعاً أعني التي مطلعها **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [(١) سورة الفتح]؛ لأن هذه نزلت في السنة السادسة بعد صلح الحديبية، ويدل على هذا رواية ابن عباس التي بعدها "**آخر سورة أنزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**".

---

[1] - أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو وابن عباس –رضي الله عنهم- في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - تفسير سورة المائدة (٣٠٦٣) (ج ٥ / ص ٢٦١) وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

[2] - أخرجه الحاكم (٣٢١٠) (ج ٢ / ص ٣٤٠) وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وصحح إسناده الألباني في الإرواء (ج ١ / ص ١٣٩).

[3] - أخرجه أحمد (٢٥٥٨٨) (ج ٦ / ص ١٨٨) والنسائي في السنن الكبرى (١١١٣٨) (ج ٦ / ص ٣٣٣).

ويمكن أن يُجمع بين هذا وهذا باعتبار أن سورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام، بمعنى أنه لم ينسخ منها شيء، ولذا كانوا يكتفون أحياناً لبيان أن هذا من المحكم بأن يقولوا: هذا من سورة المائدة.

فيجمع بين القولين بأن يقال: سورة النصر آخر سورة نزلت كاملة، وآخر ما نزل في الأحكام سورة المائدة، وآخر ما نزل في المواريث آية الكلالة التي في سورة النساء.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١-٢) سورة المائدة].

روى ابن أبي حاتم أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فقال: اعهد إليّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فارْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

وعن خيثمة قال: كل شيء في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فهو في التوراة: "يا أيها المساكين".

قوله تعالى: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} يعني بالعهود، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حَد في القرآن كله فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} [(٢٥) سورة الرعد] **إلى قوله: {سُوءُ الدَّارِ}** [(٢٥) سورة الرعد].

وقال الضحاك: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} قال: ما أحل الله وما حرم وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام.

العقود جمع عقد، والعقد يطلق ويراد به الربط، وهذه اللفظة من حيث هي تدل على الشدِّ والتأكيد والاستيثاق من الشيء، وذلك يكون في الأمور المحسوسة وفي الأمور المعنوية، فالأول كالعقدة في الحبل وعقدت الحبل، وفي الأمور المعنوية كالعقود في هذه الآية.

وهذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- في معنى العقود يدل على أنهم حملوها على العموم.

والعقود مع الله -تبارك وتعالى- يكون بفعل فرائضه واجتناب محارمه، وأعظم ذلك هو التوحيد، وعبادة الله -عز وجل- وحده لا شريك له من غير نكث لذلك، ومنه النذر، ومنه أيضاً ما يعاهد الإنسان به ربه، كما قال تعالى: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [(٧٥) سورة التوبة].

فالحاصل أن الإنسان يجب عليه أن يفي بالعهود مع الله، وأن يفي بالعهود والعقود مع الناس فلا يخل بشيء من ذلك، ومن أمثلته الداخلة تحته ما يحصل بين الناس من أحلاف ومعاقدات في أنواع المعاملات التي يتعاملون بها، فالآية تشمل ذلك جميعاً، أي: ما ألزم الله -عز وجل- به من الفرائض والأحكام، وما يكون

بين الناس من العهود والعقود والمواثيق وما يتفقون عليه، سواء كان في باب النكاح كالشروط التي تشترطها المرأة وليست محرّمة، أو ما يكون بين الناس في الشركات أو البيوع أو غيرها من أنواع المعاملات، فهذا كله يجب الوفاء به، لعموم قوله سبحانه: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [(١) سورة المائدة].

وقوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] هي الإبل والبقر والغنم، قاله الحسن وقتادة وغير واحد.

في قوله: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} بعض أهل العلم يقول: إن أصل البهيمة تطلق على ذوات الأربع، وقيل لها ذلك لإبهامها، فهي لا تنطق ولا تبين عن نفسها، فقيل لها: بهيمة لا تعقل ولا تنطق.

وبالنسبة للأنعام فالأقرب -والله تعالى أعلم والذي عليه عامة أهل العلم- أن ذلك يطلق على الأربع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيها -الضأن والماعز-، فهذه هي بهيمة الأنعام، ولهذا يقال مثلاً: إن الهدي أو الأضاحي تكون من بهيمة الأنعام يعني من هذه الأصناف الأربعة، مع أن التحليل لا يتوقف عليها، فالذي أحله الله -عز وجل- أوسع من هذا، فالخيل مثلاً يجوز أكله، وكذلك أيضاً الصيود بأنواعها الكبار والصغار إلا ما استثني نحو كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وما عدا ذلك فيجوز أكله، ومن ذلك أيضاً ما يوجد في البحر إلا ما ثبت ضرره، والله -عز وجل- قال: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] فكل ما لم يثبت فيه الضرر فإنه مباح.

وقضية المستخبثات يختلف العلماء في ضابطها، فمنهم من قال: ما استخبثه العرب الأولون فهو خبيث، ويدخل في هذا أنواع الحشرات إلا أن هذا لا ينضبط؛ لأن العرب كانوا يأكلون أشياء كثيرة جداً، ويتفاوتون في هذا، فربما لا يكون لهم عرف مطرد في مثل هذه القضايا، ويدل على ذلك قول الأعرابي الذي سئل ماذا تأكلون في الصحراء؟ قال: نأكل كل شيء إلا أم حبين، وهي دويبة معروفة تشبه الوزغ، ثم قال: لتهنأ أم حبين العافية فقد سلمت منكم.

فالعرب يأكلون كل شيء، ومعروف في أخبارهم في السيرة أنهم يأكلون الجعلان ونحو ذلك؛ لشدة فقرهم وتصحر بلادهم، كما أنهم كانوا يأكلون الحمار ولم يحرم عليهم إلا في يوم خيبر، وعلى كل حال مثل هذه القضايا يختلف فيها أهل العلم من جهة ما هو المستخبث، أي أنهم يختلفون هل يوقف ذلك عند ما حرمه الشرع وما عداه فهو جائز إلا ما ثبت ضرره أم لا؟، فالله أعلم.

قوله: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] ربما يكون أطلق على الغنم والبقر والإبل اسم الأنعام للينها في مشيها فهي ليست مثل الوحوش في عدوها وتوثبها وما أشبه ذلك وإنما هي لينة المشي إذا مشت تمشي الهوينى، وربما يكون أطلق عليها ذلك لسبب آخر من جهة الإفضال، والله أعلم.

قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب.

قوله: **قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب**"، يعني أن الأنعام تطلق على هذه الأشياء الأربع -الإبل والبقر والغنم بنوعيها- وكذلك هو عند العرب، مع أن من أهل العلم من قال: إن المراد بقوله تعالى هنا: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] يعني البهائم الوحشية مثل الضباء وما شابه ذلك، وربما يكون الذي حدا

بهؤلاء إلى القول: إنها بقر الوحش أو الحمر الوحشية أو الضباء والوعول وما أشبه هذا من الصيود؛ أنه قال هنا في الآية: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} [(١) سورة المائدة]، فإذا قيل: إن المراد بها البهائم الوحشية يكون الاستثناء هنا لا إشكال فيه، حيث يصير المعنى: أحلت لكم هذه الصيود إلا في حال الإحرام.

ومن أهل العلم من يقول: هي ذوات الأربع من البهائم التي ترعى وليست المفترسة فيدخل فيها الأصناف الأربعة، ويدخل فيها أيضاً الوحشي من هذه الصيود التي ذكرت، فيكون ذلك شاملاً للجميع ويكون الاستثناء بعده {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} لا إشكال فيه؛ لأن المعنى يصير: أحل الله -عز وجل- لهم هذه البهائم التي تأكل الأعشاب والحشائش ويستثنى من ذلك حال الإحرام، فلا يصاد فيه شيء من هذا -يعني من الوحشي-، والوحشية تشمل الوحشي الذي يبقى على وحشيته، وتشمل ما يستأنس به مما كان أصله وحشياً كالأرنب والحمامة، فهذه أصلها وحشي فإذا بقي عند الناس و صار إنسياً فإنه لا يجوز صيده في حال الإحرام؛ لأن العبرة بالأصل.

وقد استدل ابن عمر، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت.

كيف استدلوا بهذه الآية على إباحة الجنين؟

استدلوا بهذه الآية على إباحة الجنين من قوله: {بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} على أن الأنعام هي الأصناف الأربع وإن شئت أن تقول الثلاث التي هي الإبل والبقر والغنم، وبهيمة الأنعام أولاد الأنعام أو صغار الأنعام، وبهذا استدلوا على أن الجنين إذا مات في بطن أمه عند ذبحها جاز أكله، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: ((كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه))[٤] وقال الترمذي: حديث حسن.

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ذكاة الجنين ذكاة أمه)) تفرد به أبو داود[٥].

الحديث معروف وثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وبه يُستدل على جواز أكل الجنين الذي أخرجناه من بطن أمه ميتاً بعد أن ذكيت، فليس الاستدلال على ذلك بالآية وإنما بهذا الحديث، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا- باب ما جاء في ذكاة الجنين (٢٨٢٩) (ج ٣ / ص ٦٢) وابن ماجه في كتاب الذبائح - باب ذكاة الجنين ذكاة أمه (٣١٩٩) (ج ٢ / ص ١٠٦٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٨٢٧).

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا- باب ما جاء في ذكاة الجنين (٢٨٣٠) (ج ٣ / ص ٦٣) والترمذي عن أبي سعيد في كتاب الأطعمة – باب ما جاء في ذكاة الجنين (١٤٧٦) (ج ٤ / ص ٧٢) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤٠٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة المائدة:

قد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[1].

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: آخر سورة أنزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [(١) سورة النصر] **وقد روى الحاكم في مستدركه نحو رواية الترمذي ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

وروى الحاكم أيضاً عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة -رضي الله تعالى عنها- فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[2].

ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألتها عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: "القرآن" وراوه النسائي[3].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام إلا أنها أقصر من سورة البقرة ولذا كانت البقرة أكثر منها من جهة الأحكام التي اشتملت عليها.

وهذا الأثر الذي ذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "**آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح**"، في إسناده ضعف، والمقصود بالفتح سورة النصر **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] وليست سورة الفتح قطعاً أعني التي مطلعها **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [(١) سورة الفتح]؛ لأن هذه نزلت في السنة السادسة بعد صلح الحديبية، ويدل على هذا رواية ابن عباس التي بعدها "**آخر سورة أنزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**".

---

[1] - أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو وابن عباس -رضي الله عنهم- في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - تفسير سورة المائدة (٣٠٦٣) (ج ٥ / ص ٢٦١) وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

[2] - أخرجه الحاكم (٣٢١٠) (ج ٢ / ص ٣٤٠) وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وصحح إسناده الألباني في الإرواء (ج ١ / ص ١٣٩).

[3] - أخرجه أحمد (٢٥٥٨٨) (ج ٦ / ص ١٨٨) والنسائي في السنن الكبرى (١١١٣٨) (ج ٦ / ص ٣٣٣).

ويمكن أن يُجمع بين هذا وهذا باعتبار أن سورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام، بمعنى أنه لم ينسخ منها شيء، ولذا كانوا يكتفون أحياناً لبيان أن هذا من المحكم بأن يقولوا: هذا من سورة المائدة.

فيجمع بين القولين بأن يقال: سورة النصر آخر سورة نزلت كاملة، وآخر ما نزل في الأحكام سورة المائدة، وآخر ما نزل في المواريث آية الكلالة التي في سورة النساء.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١-٢) سورة المائدة].

روى ابن أبي حاتم أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فقال: اعهد إليّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فارْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

وعن خيثمة قال: كل شيء في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فهو في التوراة: "يا أيها المساكين".

قوله تعالى: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} يعني بالعهود، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حَد في القرآن كله فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} [(٢٥) سورة الرعد] **إلى قوله: {سُوءُ الدَّارِ}** [(٢٥) سورة الرعد].

وقال الضحاك: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} قال: ما أحل الله وما حرم وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام.

العقود جمع عقد، والعقد يطلق ويراد به الربط، وهذه اللفظة من حيث هي تدل على الشدِّ والتأكيد والاستيثاق من الشيء، وذلك يكون في الأمور المحسوسة وفي الأمور المعنوية، فالأول كالعقدة في الحبل وعقدت الحبل، وفي الأمور المعنوية كالعقود في هذه الآية.

وهذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- في معنى العقود يدل على أنهم حملوها على العموم.

والعقود مع الله -تبارك وتعالى- يكون بفعل فرائضه واجتناب محارمه، وأعظم ذلك هو التوحيد، وعبادة الله -عز وجل- وحده لا شريك له من غير نكث لذلك، ومنه النذر، ومنه أيضاً ما يعاهد الإنسان به ربه، كما قال تعالى: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [(٧٥) سورة التوبة].

فالحاصل أن الإنسان يجب عليه أن يفي بالعهود مع الله، وأن يفي بالعهود والعقود مع الناس فلا يخل بشيء من ذلك، ومن أمثلته الداخلة تحته ما يحصل بين الناس من أحلاف ومعاقدات في أنواع المعاملات التي يتعاملون بها، فالآية تشمل ذلك جميعاً، أي: ما ألزم الله -عز وجل- به من الفرائض والأحكام، وما يكون

بين الناس من العهود والعقود والمواثيق وما يتفقون عليه، سواء كان في باب النكاح كالشروط التي تشترطها المرأة وليست محرّمة، أو ما يكون بين الناس في الشركات أو البيوع أو غيرها من أنواع المعاملات، فهذا كله يجب الوفاء به، لعموم قوله سبحانه: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [(١) سورة المائدة].

وقوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] هي الإبل والبقر والغنم، قاله الحسن وقتادة وغير واحد.

في قوله: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} بعض أهل العلم يقول: إن أصل البهيمة تطلق على ذوات الأربع، وقيل لها ذلك لإبهامها، فهي لا تنطق ولا تبين عن نفسها، فقيل لها: بهيمة لا تعقل ولا تنطق.

وبالنسبة للأنعام فالأقرب -والله تعالى أعلم والذي عليه عامة أهل العلم- أن ذلك يطلق على الأربع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيها -الضأن والماعز-، فهذه هي بهيمة الأنعام، ولهذا يقال مثلاً: إن الهدي أو الأضاحي تكون من بهيمة الأنعام يعني من هذه الأصناف الأربعة، مع أن التحليل لا يتوقف عليها، فالذي أحله الله -عز وجل- أوسع من هذا، فالخيل مثلاً يجوز أكله، وكذلك أيضاً الصيود بأنواعها الكبار والصغار إلا ما استثني نحو كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وما عدا ذلك فيجوز أكله، ومن ذلك أيضاً ما يوجد في البحر إلا ما ثبت ضرره، والله -عز وجل- قال: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] فكل ما لم يثبت فيه الضرر فإنه مباح.

وقضية المستخبثات يختلف العلماء في ضابطها، فمنهم من قال: ما استخبثه العرب الأولون فهو خبيث، ويدخل في هذا أنواع الحشرات إلا أن هذا لا ينضبط؛ لأن العرب كانوا يأكلون أشياء كثيرة جداً، ويتفاوتون في هذا، فربما لا يكون لهم عرف مطرد في مثل هذه القضايا، ويدل على ذلك قول الأعرابي الذي سئل ماذا تأكلون في الصحراء؟ قال: نأكل كل شيء إلا أم حبين، وهي دويبة معروفة تشبه الوزغ، ثم قال: لتهنأ أم حبين العافية فقد سلمت منكم.

فالعرب يأكلون كل شيء، ومعروف في أخبارهم في السيرة أنهم يأكلون الجعلان ونحو ذلك؛ لشدة فقرهم وتصحر بلادهم، كما أنهم كانوا يأكلون الحمار ولم يحرم عليهم إلا في يوم خيبر، وعلى كل حال مثل هذه القضايا يختلف فيها أهل العلم من جهة ما هو المستخبث، أي أنهم يختلفون هل يوقف ذلك عند ما حرمه الشرع وما عداه فهو جائز إلا ما ثبت ضرره أم لا؟، فالله أعلم.

قوله: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] ربما يكون أطلق على الغنم والبقر والإبل اسم الأنعام للينها في مشيها فهي ليست مثل الوحوش في عدوها وتوثبها وما أشبه ذلك وإنما هي لينة المشي إذا مشت تمشي الهوينى، وربما يكون أطلق عليها ذلك لسبب آخر من جهة الإفضال، والله أعلم.

قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب.

قوله: **قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب**"، يعني أن الأنعام تطلق على هذه الأشياء الأربع -الإبل والبقر والغنم بنوعيها- وكذلك هو عند العرب، مع أن من أهل العلم من قال: إن المراد بقوله تعالى هنا: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ} [(١) سورة المائدة] يعني البهائم الوحشية مثل الضباء وما شابه ذلك، وربما يكون الذي حدا

بهؤلاء إلى القول: إنها بقر الوحش أو الحمر الوحشية أو الضباء والوعول وما أشبه هذا من الصيود؛ أنه قال هنا في الآية: **{أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ}** [(١) سورة المائدة]، فإذا قيل: إن المراد بها البهائم الوحشية يكون الاستثناء هنا لا إشكال فيه، حيث يصير المعنى: أحلت لكم هذه الصيود إلا في حال الإحرام.

ومن أهل العلم من يقول: هي ذوات الأربع من البهائم التي ترعى وليست المفترسة فيدخل فيها الأصناف الأربعة، ويدخل فيها أيضاً الوحشي من هذه الصيود التي ذكرت، فيكون ذلك شاملاً للجميع ويكون الاستثناء بعده **{غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ}** لا إشكال فيه؛ لأن المعنى يصير: أحل الله -عز وجل- لهم هذه البهائم التي تأكل الأعشاب والحشائش ويستثنى من ذلك حال الإحرام، فلا يصاد فيه شيء من هذا -يعني من الوحشي-، والوحشية تشمل الوحشي الذي يبقى على وحشيته، وتشمل ما يستأنس به مما كان أصله وحشياً كالأرنب والحمامة، فهذه أصلها وحشي فإذا بقي عند الناس و صار إنسياً فإنه لا يجوز صيده في حال الإحرام؛ لأن العبرة بالأصل.

وقد استدل ابن عمر، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت.

كيف استدلوا بهذه الآية على إباحة الجنين؟

استدلوا بهذه الآية على إباحة الجنين من قوله: **{بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ}** على أن الأنعام هي الأصناف الأربع وإن شئت أن تقول الثلاث التي هي الإبل والبقر والغنم، وبهيمة الأنعام أولاد الأنعام أو صغار الأنعام، وبهذا استدلوا على أن الجنين إذا مات في بطن أمه عند ذبحها جاز أكله، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: ((كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه))[٤] وقال الترمذي: حديث حسن.

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ذكاة الجنين ذكاة أمه)) تفرد به أبو داود[٥].

الحديث معروف وثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وبه يُستدل على جواز أكل الجنين الذي أخرجناه من بطن أمه ميتاً بعد أن ذكيت، فليس الاستدلال على ذلك بالآية وإنما بهذا الحديث، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا- باب ما جاء في ذكاة الجنين (٢٨٢٩) (ج ٣ / ص ٦٢) وابن ماجه في كتاب الذبائح - باب ذكاة الجنين ذكاة أمه (٣١٩٩) (ج ٢ / ص ١٠٦٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٨٢٧).

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا- باب ما جاء في ذكاة الجنين (٢٨٣٠) (ج ٣ / ص ٦٣) والترمذي عن أبي سعيد في كتاب الأطعمة – باب ما جاء في ذكاة الجنين (١٤٧٦) (ج ٤ / ص ٧٢) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤٠٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [(١) سورة المائدة] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني بذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه.

والظاهر -والله أعلم- أن المراد بذلك قوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ} [(٣) سورة المائدة] فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [(٣) سورة المائدة] يعني منها؛ فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه؛ ولهذا قال تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [(١) سورة المائدة] أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} هذا مما أبهم، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ومن أحسن التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فقوله تعالى: {إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} يفسر بما يتلى علينا في المحرمات التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- في مثل قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(٣) سورة المائدة]، وكقوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام].

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] يحتمل معنيين، الأول: أن يكون الاستثناء راجعاً إلى المذكورات قبله، هكذا: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [(١) سورة المائدة] ثم يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [(٢) سورة المائدة] ثم قال: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ} إلى آخره، ثم قال: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] أي من الأنعام المذكورة في الآية قبل، والاحتمال الثاني أن يكون الاستثناء منقطعاً، وسيأتي الكلام على هذا بعد.

وقوله تعالى: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} [(١) سورة المائدة] قال بعضهم: المراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام.

التركيب في قوله: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} لا يخلو من إشكال إلا إذا فسر بأحد التفسيرين اللذين ذكرناهما، وهو إما أن يقال: إن الأنعام هي الإنسية والوحشية، فيكون غير محلي الصيد يعني إلا أن تصيدوا ما يصاد منها في حال الإحرام، وهذا لا إشكال فيه.

والمعنى الثاني أن يكون المراد بالأنعام هو الوحشي فيكون ذلك مباحاً إلا في حال الإحرام فلا تصيدوا شيئاً منه، وعلى هذا أيضاً لا إشكال، لكن إذا خصت الأنعام ببهيمة الأنعام في أصنافها الأربعة المعروفة، فماذا يفسر به قوله هنا: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} وهذه الأنعام أصلاً ليست من الصيد؟

بعض أهل العلم -وهو مذهب البصريين- يرجعون الاستثناء إلى الأنعام، ويكون السياق عندهم هكذا: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم -أي الميتة والدم... الخ- إلا الصيد وأنتم محرمون، ويكون هذا التفسير ليس تفسيراً حرفياً وإنما هو تفسير بالمعنى وعلى هذا لا يكون الصيد من بهيمة الأنعام وإنما ذكره من باب بيان ما يحل وما لا يحل، فقال: الأنعام حلال إلا الميتة والمنخنقة والموقوذة إلى آخره.

ومن نفس الباب ذكر تحريم الخنزير وإلا فالخنزير ليس من الأنعام، لذلك إذا أردت أن تفسر تفسيراً بالحرف فإنك ستقع في إشكالات، ولذلك لما حصل التكلف عند المتأخرين وقعوا في أسئلة وإشكالات يصعب الجواب عنها، أما السلف فقد كانوا يفسرون بطريقة أخرى، فالمقصود أن الخنزير ذكره الله في جملة المحرمات وإن لم يكن من بهيمة الأنعام؛ فذاك مقام فصّل الله فيه ما يحرم فذكر الصيود في حال الإحرام فهي وإن لم تكن من بهيمة الأنعام إلا أن الله ذكر ذلك في مقام ما يحرم وما يحل من هذه الحيوانات.

وبعضهم يقول: {إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [(١) سورة المائدة] بدل من الأنعام، وهذا يقوله بعض أئمة اللغة أمثال الفراء والأخفش.

وقوله: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ} [(١) سورة المائدة] حال من قوله: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [(١) سورة المائدة]، يعني يكون هكذا: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود في حال كونكم غير مستحلين للصيد في حال الإحرام.

وبعضهم يقول: هو حال من الكاف والميم في "لكم"، والتقدير أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد، يعني في حال كونكم غير مستحلين للصيد وأنتم حرم.

وبعض أهل العلم ينزع في هذا إلى أن هذا الإحلال لكم في بهيمة الأنعام مشروط بكونكم غير متعدين حدود الله، وهذا فيه إشكال؛ لأنه حتى الذي تعدى على الصيد في حال الإحرام لا يقال: إنه يحرم عليه بهيمة الأنعام.

وعبارة ابن جرير -رحمه الله- في هذا: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقود الله التي عقد عليكم مما حرّم وأحلّ، لا محلين الصيد في حرمكم، ففي ما أحلَّ لكم من بهيمة الأنعام المذكّاة دون ميتتها متَّسع لكم ومستغنًى عن الصيد في حال إحرامكم"، وهذا يشبه قول الأخفش والفراء، أي أن قوله: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ} [(١) سورة المائدة] حال من قوله: {أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [(١) سورة المائدة].

على كل حال إذا أردنا أن نفسر الآية على المعنى نقول: إن الله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [(١) سورة المائدة]، وعرفنا أن هذه العقود يدخل فيها حدود الله وأحكامه وما يتعاقده الناس فيما بينهم، ومن حدود الله -عز وجل- الحلال والحرام في المطعومات من هذه الصيود وغيرها.

ثم يبين الله -تبارك وتعالى- لهم ممتناً عليهم ما جعل لهم من التوسعة في بهيمة الأنعام التي سخرها وأباحها لهم لينتفعوا بها في وجوه الانتفاع المختلفة المتنوعة فيقول: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [(١) سورة المائدة]، وهذا يدخل فيه المذكورات في الآيات الأخرى مما يحرم.

{إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} [(١) سورة المائدة] أي أن الله وسع عليكم وأفاض عليكم من ألوان النعم ما تستغنون به عن الصيد، فلم يضيق عليكم بهذا الحكم في حال الإحرام، والله تعالى أعلم.

والقرآن من أراد أن يفهمه فينبغي أن يكثر ويدمن من النظر والتأمل في النصوص الواردة عن السلف -رضي الله عنهم- عند تفسيرهم للقرآن، فما كانوا يفسرونه بطريقة المتأخرين الذين يريدون أن يقفوا عند كل حرف، وكل لفظة فيركبوا المعنى على هذه الحروف والألفاظ، والله تعالى أعلم.

وقيل: المراد أحللنا لكم الأنعام في جميع الأحوال إلا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام؛ لقوله: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١١٥) سورة النحل].

هذا لا يخلو من إشكال؛ لأن إباحة الأنعام ليست مشروطة بالتزام حرمة الصيد.

أي: أبحنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغٍ ولا متعدٍّ، وهكذا هنا أي: كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال، فحرموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [(١) سورة المائدة].

ثم قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ} [(٢) سورة المائدة] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني بذلك مناسك الحج، وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدي والبُدن من شعائر الله، وقيل: شعائر الله محارمه أي: لا تحلوا محارم الله التي حرمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: {وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ} [(٢) سورة المائدة] يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه.

قول مجاهد: "**الصفا والمروة والهدي والبدن من شعائر الله**" معناه لا تحلوا هذه الشعائر فيقع منكم شيء من الإخلال بها والتعدي عليها بلون من ألوان التعدي كأن تحولوا بين من أراد إيصالها إلى البيت أو تقوموا بأخذها أو بغير ذلك مما يحصل به إجرام وانتهاك لحرمتها، وعلى هذا تكون هذه الشعائر مما يتعلق بالحج والمناسك، والبيت، والمشاعر، وما يقدم من القرابين والهدايا ونحو ذلك، وهذا هو الغالب عند الإطلاق، والشعائر تطلق أيضاً ويراد بها معالم الدين، ومن أهل العلم من يقسّم الدين إلى شعائر وأمانات، فالشعائر مثل الأذان والتكبير في الأعياد، ومثل التلبية وسائر العبادات الظاهرة، والأمانات هي التي لا يطلع عليها إلا الله -عز وجل- كالوضوء والطهارة والصيام والنيات ونحو ذلك، فهذه بين الإنسان وبين ربه لا يطلع عليها الناس، لكن قوله: {لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ} [(٢) سورة المائدة] هل تختص بهذه الأمور المتعلقة بالبيت من الصفا والمروة والهدي ونحو هذا بمعنى لا تنتهكوا حرمتها بل عظموها حق التعظيم، أم أن ذلك يشمل جميع الشعائر ومعالم الدين التي شرعها الله -عز وجل- لعباده حيث إن تعظيمها مطلوب، والله -عز وجل- يقول: {وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [(٣٢) سورة الحـج] فيدخل في ذلك شعائره في الحج، ويدخل فيه سائر الشعائر كالأذان واللحية وما إلى ذلك من الأمور الظاهرة فتعظم، ومن هذا: القلائد التي توضع على الهدي وذلك يقتضي تعظيم الهدي، وهكذا.

وقيل: شعائر الله محارمه أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى، وهذا بالاقتضاء يعني لا تضيعوا أوامره بترك الحج، وبترك العمرة، وبترك الهدي، وبتضييع حقوق الله -تبارك وتعالى-، فكل هذا مما يدخل في هذا اللفظ، والله تعالى أعلم.

يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم كما قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} [(٢١٧) سورة البقرة]، وقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا} الآية [(٣٦) سورة التوبة].

بالنسبة لشعائر الله، ابن جرير -رحمه الله- يحملها على الجميع -على العموم- أي أنها لا تختص بالصفا والمروة والهدي وما يتعلق بالحج والمناسك.

وقوله تعالى: {وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ} [(٢) سورة المائدة] أي بالقتال فيه على سبيل التعدي مع الإقرار بحرمته، أو بالتلاعب بالأشهر الحرم كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [(٣٧) سورة التوبة] فهذا من التعدي على حدود الله -عز وجل- وانتهاك الأشهر الحرم، حيث كانوا ينقلون مثلاً حرمة المحرم إلى صفر؛ من أجل أن يقاتلوا ويغيروا في المحرم، أو يجعلون حرمة رجب إلى شعبان ويغيرون اسمه، وهكذا يتلاعبون بالأشهر، فمثل هذا كله يعتبر من التعدي على الشهر الحرام وانتهاك محارم الله -عز وجل-.

وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في حجة الوداع: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان))[1].

وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت.

بالنسبة للأشهر الحرم العلماء مختلفون كثيراً هل حرمتها باقية بمعنى تحريم القتال في الأشهر الحرم، وهي الأشهر الأربعة، ثلاثة متوالية، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، فهل هذه الأشهر لا يجوز القتال فيها، وذلك من قبيل المحكم الذي لم ينسخ؟

ابن جرير -رحمه الله- ينقل الإجماع -ويقصد بالإجماع كما هو معروف وذكرناه مراراً قول الأكثر- على أن في الآية نسخاً، والعلماء يختلفون في تحديد المنسوخ في هذه الآية، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن المنسوخ فيها من قوله: {لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ} [(٢) سورة المائدة] كل هذا يرى ابن جرير أنه من المنسوخ، وأن الذي نسخه قوله تعالى في سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة].

والعلماء مختلفون في الأشهر الحرم في هذه الآية، فبعضهم يقول: هي أشهر الإمهال الأربعة، التي قال الله -عز وجل- فيها: {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [(٢) سورة التوبة]، فإذا انسلخت هذه الأشهر الأربعة وقد نبذتم إلى المشركين عهودهم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأضاحي - باب من قال الأضحى يوم النحر (٥٢٣٠) (ج ٥ / ص ٢١١٠) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

ومنهم من يقول: هذه الأشهر الحرم هي الأشهر الأربعة التي حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض التي ذكرناها آنفاً، وأن حرمتها باقية لم تنسخ.

وبعض أهل العلم أيضاً يستدل على النسخ بقوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} [(٣٦) سورة التوبة] ويقول: إن ذلك يقتضي قتال الجميع ويقتضي أيضاً قتالاً في كل وقت، وهذا فيه نظر، فالآية تقول: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً} [(٣٦) سورة التوبة] ولا تعلق لهذا بالزمان، والزمان قد بينه الله -عز وجل- في آيات أخرى، ويستدلون أيضاً بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة حنين سار إلى المشركين، وكان قد وقع قتال في الطائف في شهر ذي القعدة، وهذا لا يصلح أن يكون دليلاً -والله تعالى أعلم- على النسخ؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فتح مكة اجتمعت هوازن ومن جاء معهم وجاءوا إلى وادي حنين -بين مكة والطائف- فالنبي -صلى الله عليه وسلم- سار إليهم باعتبار أنهم اجتمعوا له وتوجهوا صوب مكة إلى وادي حنين، فيكون هذا القتال من غير ابتداءٍ من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن حرمة هذه الأشهر في القتال باقية، ولا يجوز لأحد أن يقاتل فيها ابتداءً، لكن على سبيل رد الاعتداء فإن ذلك مشروع كما قال الله -عز وجل-: {وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [(١٩١) سورة البقرة] فكذلك الأمر أيضاً في الأشهر الحرم، وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهديه يدل على ذلك، وهذا أقرب القولين في المسألة، والخلاف فيها قوي جداً، والقولان متقاربان، والكلام في هذا يطول، وإنما المقصود الإشارة فقط.

وعلى كل حال تبقى مسألة في هذه الآية: {لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} [(٢) سورة المائدة] مع قوله تعالى في سورة براءة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة] فقوله: {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} يعني القاصدين، وبالتالي فإما أن يقال: إن المراد بقوله: {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} يعني من المسلمين، وهذا قد يكون فيه شيء من البعد والتكلف.

وعلى أنها في المشركين فهذا الذي حمل بعض العلماء -رحمهم الله- على القول بأن في الآية نسخاً، وقالوا هذا معناه أن المشركين يمنعون من المجيء إلى البيت، وعلى كلام ابن جرير يكون المحكم في الآية فقط قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ} [(٢) سورة المائدة] وما بعده منسوخ، لكن يمكن أن يقال -والعلم عند الله-: إن هذه الآية ليست آخر ما نزل مما يتصل بهذا الموضوع.

وبعض أهل العلم يقول: هذا نزل في عام الفتح وفي عام الفتح لم يكن يحرم على المشركين أن يأتوا إلى البيت الحرام، أي أنهم لم يمنعوا، وجاء في أسباب النزول -وبعض ذلك قد صح- أنها نزلت بسبب أنهم استأذنوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يغيروا على بعض المشركين، وفي بعض الروايات على سبيل الاقتصاص مما وقع من بعضهم من الاعتداء على المسلمين، وفي بعضها أنهم طلبوا ذلك ابتداءً، وبعض الروايات ضعيفة وبعض الروايات صحيحة، وسيأتي بعضها إن شاء الله فتكون هذه الآية بهذه المثابة، وإلا فمتى كان أولئك المشركون يسوقون الهدايا ويأتون إلى البيت الحرام؟ كان ذلك قبل أن تنزل آية براءة، يعني هم إلى السنة التاسعة حجوا مع المسلمين في حجة أبي بكر -رضي الله عنه-، ثم بعد ذلك بعث بها النبي

-صلى الله عليه وسلم- مع علي، لما نزلت صدر سورة براءة ومنعوا بعد ذلك، فحج المسلمون على سبيل الانفراد بالبيت ولم يشاركهم أحد من المشركين، فعلى هذا يمكن أن يكون هذا القدر من الآية أعني قوله: {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [(٢) سورة المائدة] يمكن أن يكون منسوخاً بقوله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة]، يمكن أن يكون بهذا الاعتبار.

ويمكن أن يقول قائل: إن هذا ليس نسخاً للحكم من أصله بل يمكن أن يقال: هو مبين أو مخصص في هذا، حيث مُنع المشركون من المجيء إلى البيت ولكن بقيت هذه الآية محكمة، ولا يجوز التعدي على أحد ممن يقصد البيت الحرام، أو صدهم عنه، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في حجة الوداع: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان))[1].

وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، والمراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار.

قوله: "**والمراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار**" هذا على أحد الأقوال في تفسير استدارة الزمان، وهو أن المراد به أن ذا الحجة وقع في وقت الاعتدال.

قوله: ((السنة اثنا عشر شهراً)) أي: السنة العربية الهلالية، وذكر الطبري في سبب ذلك عن أبي مالك: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، ومن وجه آخر كانوا يجعلون السنة اثني عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً، فتدور الأيام والشهور كذلك.

((ثلاث متواليات)) وفيه إشارة إلى إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من تأخير بعض الأشهر الحرم، فقيل: كانوا يجعلون المحرم صفراً، ويجعلون صفراً المحرم؛ لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يتعاطون فيها القتال، فلذلك قال: متواليات.

وكانوا في الجاهلية على أنحاء، منهم من يسمي المحرم صفراً فيحل فيه القتال، ويحرم القتال في صفر ويسميه المحرم، ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا، ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا، ومنهم من يؤخر صفراً إلى ربيع الأول وربيعاً إلى ما يليه، وهكذا إلى أن يصير شوال ذا القعدة، وذو القعدة ذا الحجة ثم يعود فيعيد العدد على الأصل.

قوله: ((ورجب مضر)) أضافه إليهم؛ لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم، فيقال: إن ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان، وكان من العرب من يجعل في رجب وشعبان ما ذكر في المحرم وصفر فيحلون رجباً ويحرمون شعبان، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيداً.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأضاحي - باب من قال الأضحى يوم النحر (٥٢٣٠) (ج ٥ / ص ٢١١٠) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

وكان أهل الجاهلية قد نسئوا بعض الأشهر الحرم أي: أخروها، فيحلون شهراً حراماً ويحرمون مكانه آخر بدله، فمعنى الحديث أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه وبطل النسيء.

وقال الخطابي: كانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير؛ لأسباب تعرض لهم، منها استعجال الحرب، فيستحلون الشهر الحرام ثم يحرمون بدله شهراً غيره، فتتحول في ذلك شهور السنة وتتبدل، فإذا أتى على ذلك عدة من السنين استدار الزمان وعاد الأمر إلى أصله، فاتفق وقوع حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ} [(٢) سورة المائدة] يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام؛ فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليُعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدْيٍ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً؛ ولهذا لما حَج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بات بذي الحليفة -وهو وادي العَقيق- فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلَّى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهلَّ بالحج والعمرة، وكان هديه إبلا كثيرة تنيفُ على الستين من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [(٣٢) سورة الحـــج].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالحافظ ابن كثير هنا فسر قوله: **{وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ}** [(٢) سورة المائدة] بمعنى لا تتركوا ذلك، يعني سوق الهدي وتقليده القلائد التي يعرف بها أنه مقدم إلى الكعبة، وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تحتمله الآية إلا أنه خلاف المتبادر، فهذه الجملة متصلة بما قبلها، فالله -عز وجل- يقول: **{لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ}** [(٢) سورة المائدة] فقوله: **{وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ}** ليس المقصود به لا تتركوا الشهر الحرام وإنما المقصود -والله تعالى أعلم- لا تحلوا هذه الأمور، بمعنى لا يقع منكم إخلال بشيء من شعائر الله -عز وجل- ولا الشهر الحرام بالقتال فيه ابتداءً، ولا الهدي بأن تمنعوها من الوصول إلى بيت الله الحرام ممن ساقها أو تتعدوا عليها بأي لون من ألوان الاعتداء مما يتنافى مع حرمتها.

وقوله: **{وَلاَ الْهَدْيَ}** الهدي أعم من القلائد؛ لأن الهدي قد يكون بالذي يساق إلى الكعبة من البهائم أعني الأصناف الثلاثة أو الأربعة عند التفصيل، وقد يكون بغيرها مما يساق إلى الكعبة، ولست أعني ما يفعله المتمتع أو القارن فإن هذا يجب عليه أن ينحر من الإبل أو يذبح من البقر أو الغنم، وإنما أقصد الهدي عند الإطلاق مما يمكن أن يهديه الإنسان إلى الكعبة كهذه الأنعام أو كسوة للكعبة أو طعاماً للحجاج إلا أن ذلك لا يجزئ القارن والمفرد، فلا أحد يفهم بحال من الأحوال أن القارن والمفرد يمكن أن يقدم كعكة أو يقدم كسوة للكعبة أو نحو ذلك فيجزئه في قرانه أو تمتعه، فهذا لا يقول به أحد، لكن عموم الهدي يتمثل في من أراد أن يقدم للكعبة طيباً أو يقدم لها شيئاً كالكسوة أو نحو ذلك فهذا من جملة الهدي، فالمقصود أن الهدي عند الإطلاق أوسع مما ذكر بعده أعني القلائد.

وقوله: {وَلاَ الْقَلآئِدَ} القلائد هي ما تقلده هذه الهدايا من بهيمة الأنعام مما يعلق في رقابها إما من لحاء شجر الحرم إن كان ذلك في الحرم، وبما يقلدونه في رقابها من النعل أو قطع الجلود أو نحو ذلك مما يعرف به أنها مقدمة للبيت الحرام.

وقد تطلق القلائد على البهائم والدواب المقلدة عموماً، وهذا أمر واضح لا إشكال فيه، وقد كانوا يضعون ذلك من أجل أن تعرف وربما أشعروها أيضاً كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا يكون في الإبل خاصة وذلك بشق سنامها طولاً بمعنى أنه يجرح لكن لا يكون ذلك بليغاً يضر البهيمة وإنما يكون على الجلد فقط فإذا سال الدم مسحوا به على الوبر ومن أجل أن تعرف أنها من قبيل الهدي.

وقال مقاتل بن حيان: وقوله: {وَلاَ الْقَلآئِدَ} [(٢) سورة المائدة] فلا تستحلوها، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلَّدوا أنفسهم بالشّعْر والوبَر، وتقلد مشركوا الحرم من لَحاء شجر الحرم فيأمنون به [رواه ابن أبي حاتم].

ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نسخ من هذه السورة آيتان: آية القلائد، وقوله: {فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٤٢) سورة المائدة].

النسخ بالنسبة للقلائد هو باعتبار أن هؤلاء المشركين لا يجوز لهم أن يأتوا إلى البيت الحرام أصلاً، فإذا فسر بهذا الاعتبار فيقال: إن هذا قد نسخ، لكن ذلك يمكن أن يكون مخصوصاً، لكن يبقى أن هذه الأمور لها حرمتها ولا يجوز لأحد أن يتعدى عليها بحال من الأحوال، أعني الهدي والقلائد، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} [(٢) سورة المائدة] أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه.

قال مجاهد وعطاء وأبو العالية ومطرِّف بن عبد الله وعبد الله بن عُبَيد بن عُمير، والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغير واحد في قوله: {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ} [(٢) سورة المائدة] يعني بذلك التجارة، وهذا كما تقدم في قوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة].

قوله: {وَرِضْوَانًا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يترضَّون الله بحجهم.

وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جريج أن هذه الآية نزلت في الحُطم بن هند البكري، كان قد أغار على سَرْح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت فأنزل الله -عز وجل-: {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} [(٢) سورة المائدة].

على كل حال هذه الرواية لا تصح، لكن يوجد من الروايات ما يشبه هذا مما قد يصح ويكون سبباً لنزول هذه الآية، وأنها نزلت بسبب ما همّ به بعض المسلمين من الإغارة على بعض المشركين أو بعض ما يقدمونه للبيت الحرام، فالله -عز وجل- نهاهم عن هذا، وذلك بأن يمكنوا من المجيء إلى البيت، وعرفنا أنهم إنما منعوا من ذلك لما نزل صدر سورة براءة وبعث بها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع علي -رضي الله تعالى عنه- فما حج في السنة العاشرة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أحد من المشركين.

وقوله تعالى: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [(٢) سورة المائدة] **أي: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السَّبر أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً ردَّه واجبًا، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح.**

قوله: "**والصحيح الذي يثبت على السبر**" يعني يثبت عند الاختبار، وهذا هو أرجح الأقوال في هذه المسألة، أي أن الأمر بعد الحظر يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، لا يقال: إنه للوجوب، ولا يقال: للاستحباب وإنما يرجع الحكم فيه إلى حاله الأول.

ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة.

نعم بآيات كثيرة، فقوله تعالى: **{إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}** [(٩) سورة الجمعة] هذا أمر، وقال لهم: **{وَذَرُوا الْبَيْعَ}** [(٩) سورة الجمعة] ثم قال: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [(١٠) سورة الجمعة] فهذا الانتشار والابتغاء من فضل الله ما حكمه؟

ابن حزم يقول: واجب لكن هذا غير صحيح، وإنما الصحيح أن هذا يرجع إلى حكمه قبل الحظر، فما هو حكم البيع والشراء قبل النهي عنه بعد نداء الجمعة الثاني؟ حكمه قبل النهي كان مباحاً، فلما قال: **{فَانتَشِرُوا}** فهذا للإباحة، مع أن من السلف كابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ومعهم طائفة قالوا: إن قوله: **{وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [(١٠) سورة الجمعة] يعني بعيادة المريض وطلب العلم وصلة الرحم ونحو ذلك مما يطلب به ما عند الله -عز وجل- ولكن الأقرب والأرجح -والله أعلم- حمل الآية على العموم، أي ابتغوا من فضل الله بالتجارة والبيع والشراء وما إلى ذلك.

وفي قوله تعالى –أيضاً- في تحريم مباشرة النساء في ليالي الصوم قال: **{فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** [(١٨٧) سورة البقرة] هذا أمر، فهل مباشرة المرأة ليلة الصوم واجبة؟ ليست واجبة، وإنما يعود الحكم فيه إلى حاله الأول، فالمباشرة مباحة، فكانوا قد نهوا عن هذا في أول الأمر، ثم قال الله -عز وجل-: **{عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ}** [(١٨٧) سورة البقرة] فهذا الأمر يرجع إلى حكمه الأول قبل الحظر وهو الإباحة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}** [(٢٢٢) سورة البقرة] فهل يجب وطء الزوجة بعد الطهر من الحيض؟ الجواب: لا، لكن لما حرمه عليهم في حال الحيض، ثم أمرهم به بعد ذلك يرجع الحكم إلى حاله الأول، وهو أن الوطء مباح.

هذا معنى كلام ابن كثير: أن من قال بأنه للوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة، وعلى مقتضى قول ابن حزم: أنه يجب وطء الزوجة بعد الانتهاء من الحيض ويجب وطؤها ليلة الصوم، وهذا القول فيه إشكال كبير، والله تعالى أعلم.

ومن قال: إنه للإباحة، يرد عليه آيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، والله أعلم.

أي أن من قال: إنه للإباحة بإطلاق يرد عليه بآيات أخرى، وذلك أن الآيات التي مرت قبل قليل تدل على الإباحة، لكن ليست قاعدة أنه يرجع إلى الإباحة، لذلك يقال: يرجع الحكم إلى حالته الأولى، ففي مثل قوله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة] هذا الأمر بعد الحظر هل يقال: إنه للإباحة في هذه الآية بناءً على أن قتالهم أصلاً كان واجباً؟ الجواب هو أن أنه إذا انسلخت الأشهر الحرم فيرجع الحكم إلى حاله الأول وهو الوجوب، فلا يقال إن الأمر في قوله: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة] هنا للإباحة، والله أعلم.

وقوله: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} [(٢) سورة المائدة] **ومعناها ظاهر، أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله:** {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [(٨) سورة المائدة] **أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال.**

هذا على قراءة الجمهور {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} ولكن على قراءة أبي عمرو وابن كثير: (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ إِنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) -بكسر همزة إن- وهذه الآية استشكلها بعض أهل العلم -على هذه القراءة- فقال: إن هذا قد مضى أصلاً -أي الصد عام الحديبية-، وهذه الآية نازلة بعد الحديبية.

والواقع أنه لا إشكال في هذا، وإنما يحمل على أن الله -عز وجل- يعلمهم الأدب الواجب مع قوم وإن حصلت منهم إساءة أو يُتوقع منهم الإساءة في المستقبل، أي إن صدوكم عن المسجد الحرام فلا يحملنكم ذلك على ترك العدل فيهم، والاعتداء عليهم، فالآية توجه بهذه الطريقة، ولا إشكال، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم-: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية.

هذا أيضاً فيه ضعف ولا يصح من جهة الإسناد، والله أعلم، وعلى كل حال كما هو واضح: روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم، فهذا من قبيل المرسل.

والشنآن هو: البغض، قاله ابن عباس - -رضي الله تعالى عنهما- وغيره.

وقوله: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [(٢) سورة المائدة] **يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم.**

يقول -رحمه الله-: "**يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى**" البر والتقوى والإثم والعدوان يمكن أن يقال: إنها من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا

افترقت اجتمعت مثل الإيمان والإسلام، ومعنى إذا اجتمعت افترقت بمعنى إذا ذكر البر والتقوى معاً، فالبر له معنى، والتقوى لها معنى، وإذا ذكر أحدهما بمفرده دخل في معناه الآخر.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر هنا أن البر هو فعل الطاعة، والتقوى ترك المنكرات أو أن البر هو فعل الطاعات وترك المنكرات، والتقوى هي ترك المنكرات بأن تجعل بينك وبينها وقاية بترك ما حرم عليك.

وبعضهم يقول: البر هو فعل الواجبات والمندوبات، والتقوى هي فعل الواجبات، وهذا لا يظهر كل الظهور والله تعالى أعلم، والذي ذكره الحافظ ابن كثير أقرب من هذا وأحسن، وبعضهم يقول: البر هو رضا الناس، والتقوى هي رضا الله -تبارك وتعالى- وهذا أيضاً لا يخلو من إشكال.

ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن البر هو بلوغ الكمال المطلوب، أي تكميل النفس بتكميل العبودية لله -تبارك وتعالى-، فيكون ذلك بفعل ما يكمل النفوس من طاعة الله وترك ما حرم –جل وعلا-، فيدخل في ذلك أجزاء الإيمان الظاهرة والباطنة.

وأما التقوى فهي العمل بطاعة الله أمراً ونهياً، إيماناً واحتساباً، فالتقوى داخلة في معنى البر بالاعتبار السابق، والبر داخل في التقوى بهذا الاعتبار أيضاً، لكن عند الاجتماع يخص هذا بهذا، وهذا بهذا عند ابن القيم -رحمه الله- بمعنى أن البر يكون مقصوداً لذاته، أي تكميل النفس بطاعة مولاها، والتقوى تكون وسيلة إلى ذلك، وذلك بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وإذا ذكر أحدهما دخل في معناه الآخر.

وبالنسبة للإثم والعدوان فمن أحسن الفروقات التي تذكر فيهما هو ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- أن الإثم ما كان محرم الجنس مثل الخمر ولحم الخنزير والميسر، وما أشبه هذا، والعدوان ما كان محرماً من جهة القدر والزيادة،وإلا فهما -كما سبق- من قبيل ما ذكرنا من أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

وعلى كل حال فالإثم يطلق على الذنب ويطلق على أثر الذنب وهو المؤاخذة، يقال: من فعل كذا يأثم، ويأثم من شرب الخمر، وتقول: الخمر إثم والكذب إثم، ويمكن أن تقول: يستوجب الإثم، فيطلق على الذنب، ويطلق على جزائه وتبعته.

قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم.

على كل حال الذنب من حيث هو إثم، وإذا كان ذلك مما يتعدى فيمكن أن يقال: هو من قبيل العدوان، وإن كان هذا لا يخلو من إشكال أيضاً، لكن الضابط الذي ذكره ابن القيم أحسن -والله تعالى أعلم- فالعدوان لا يختص بما يتعلق بالعدوان على الناس، وإنما هو أيضاً تعدي القدر والحد الذي حده الله -تبارك وتعالى- وهذا لا شك أنه إثم أيضاً فإنما صار التحريم فيه من جهة التعدي، ولهذا لما أبيحت الميتة مع أن تعاطيها من الإثم إذا كان الإنسان غير مضطر، فأبيحت للمضطر فإذا تجاوز الحد الذي أبيح له منها فإنه يكون بذلك متعدياً.

وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: ((تحجزه أو تمنعه من الظلم، فذاك نصره)) انفرد به البخاري من حديث هشيم به نحوه[2].

وروى أحمد عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنه- قال: ((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم))[3].

وفي الصحيح: ((من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً))[4].

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣) سورة المائدة].

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد؛ وما ذاك إلا لما فيها من المضرة؛ لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين وللبدن فلهذا حرمها الله -عز وجل- ويستثني من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها؛ لما رواه مالك في موطئه وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن ماء البحر، فقال: ((هو الطهور ماؤه الحل ميتته))[5] وهكذا الجراد لما سيأتي من الحديث.

قوله: "**لما سيأتي من الحديث**" يعني حديث: ((أحلت لنا ميتتان))[6].

وقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [(٣) سورة المائدة] "أل" هذه هي المعرِّفة للجنس، ويكون ذلك للعموم وهو من العام المخصوص الذي خص بهذا الحديث، وهذا من تخصيص السنة للقرآن.

وقوله: {وَالْدَّمُ} [(٣) سورة المائدة] يعني به المسفوح كقوله: {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} [(١٤٥) سورة الأنعام].

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الإكراه – باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٥٥٢) (ج ٦ / ص ٢٥٥٠).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ٥٥ (٢٥٠٧) (ج ٤ / ص ٦٦٢) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب الصبر على البلاء (٤٠٣٢) (ج ٢ / ص ١٣٣٨) وأحمد (٥٠٢٢) (ج ٢ / ص ٤٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٥١).

[4] - أخرجه مسلم في كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤) (ج ٤ / ص ٢٠٦٠).

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب الوضوء بماء البحر (٨٣) (ج ١ / ص ٣١) والترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (٦٩) (ج ١ / ص ١٠٠) والنسائي في كتاب الطهارة - باب ماء البحر (٥٩) (ج ١ / ص ٥٠) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها - باب الوضوء بماء البحر (٣٨٦) (ج ١ / ص ١٣٦) ومالك في كتاب الطهارة – باب الطهور للوضوء (٦٠) (ج ٢ / ص ٢٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٨٠).

[6] - سيأتي تخريجه.

المقصود بالدم المسفوح هو الدم الذي يخرج من أوداج الذبيحة إذا ذبحت، أما الدم الذي يكون في العروق مع اللحم فإن ذلك لا إشكال فيه، ويدل على ذلك حديث عائشة -رضي الله عنها- فالحمرة التي تعلو القِدر مثلاً إذا وضع فيه اللحم هذا لا إشكال فيه؛ وهو أصلاً مما يصعب التحرز منه، ولسنا مأمورين بغسل اللحم قبل طهيه، لذلك لا بد أن يخالطه شيء من الدم، المقصود أن هذا لا إشكال فيه وإنما الدم النجس هو الدم الخارج، وكذلك لستَ مأموراً بغسل الرقبة أيضاً فإن مثل هذا لم يرد الأمر به وإنما الدم الخارج المنفصل عنها هو الذي لا يجوز تعاطيه؛ لأنه نجس، وقد كانوا في الجاهلية يأكلون مثل هذا الدم وربما طبخوه مع شيء من الوبر في أيام القحط والمجاعة، وربما عمدوا إلى البعير وقطعوا عرقاً من عروقه وهو حي وتلقوا الدم ثم وضعوا معه شيء من الوبر وطبخوه إذا أصابهم القحط والجوع، وكذلك إذا كانوا في أسفارهم ولم يجدوا شيئاً يأكلونه فإنهم كانوا يفعلون هذا، فنهاهم الله -عز وجل- عن ذلك وحرمه عليهم، أما ما يعْلق أو يبقى من أثر في رقبة الذبيحة أو نحو ذلك فلسنا مأمورين بغسله.

كقوله: {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} [(١٤٥) سورة الأنعام] قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم، فقال: "إنما حرم عليكم الدم المسفوح".

وقد روى أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال))[7] وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

وقوله: {أَوْ لَحْمَ خنزِيرٍ} يعني إنسيَّه ووحشيَّه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم هاهنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا} [(١٤٥) سورة الأنعام] يعنون قوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة؛ فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه.

يقول: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} اللحم في الأصل يطلق على اللحم بنوعيه الأبيض -الذي يسمى بالشحم- والأحمر، قال الله -عز وجل-: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} فهو يشمل هذا وهذا، ولا يحتاج إلى دليل آخر للتدليل على أن بقية أجزاء الخنزير لا يجوز أكلها فاللحم يشمل هذا وهذا في كلام العرب، إلا أن الظاهرية لم يتفطنوا لهذا المعنى، فقالوا: إن قوله تعالى: {أَوْ لَحْمَ خنزِيرٍ} قد يفهم منه أنه اللحم الأحمر، فالشحم هل يجوز أكله؟ قالوا: لا يجوز أكله، والدليل قوله تعالى: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} فالضمير يعود على الخنزير فحكم عليه أنه رجس، والرجس هو النجس فهو نجس بجميع أجزائه والنجاسات لا يجوز تعاطيها، فهذا يدل على أن الشحم أيضاً حرام، وعلى هذا لو بقينا مع قوله: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} فإن هذا عندهم يدل على تحريم اللحم الأحمر وأما الشحم فهو غير

---

[7] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة - باب الكبد والطحال (٣٣١٤) (ج ٢ / ص ١١٠٢) وأحمد (٥٧٢٣) (ج ٢ / ص ٩٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١١٨).

داخل في الآية، إلا أن ابن كثير يرد عليهم ويقول: هذا الكلام غير صحيح؛ لأن الأصل أن الضمير إذا عاد إلى متضايفين قبله فإنه يرجع في الواقع إلى المضاف وليس إلى المضاف إليه؛ لأن المضاف هو المُتحدث عنه، فالله تعالى يتحدث عن لحم الخنزير لا عن الخنزير فمن الخطأ أن يقال: إن قوله: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} أي الخنزير وإنما الضمير يعود إلى لحم الخنزير، فالآية يؤخذ منها تحريم لحم الخنزير وشحمه من قوله: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} وليس من قوله: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} باعتبار أن ذلك يعم جميع أجزاء الخنزير، ثم إن قوله: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} هذا تعليل، والرجس هو النجس، فيكون ذلك دليلاً على تحريم جميع أجزاء الخنزير فيقال: إن جلد الخنزير نجس؛ فالنجاسة تنتقل مع الرطوبة، وهكذا فضلات الخنزير وعصب الخنزير كل ذلك نجس.

والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطَّرِد.

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الخصيب الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من لعب بالنردَشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه))[8].

ذكر هنا لحم الخنزير ودمه، وهذا يدل على أن الخنزير نجس يُتنزه منه.

فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)) فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: ((لا، هو حرام))[9] **وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة والدم.**

في الحديث قال: "**فإنها تطلى بها السفن**" يعني أن ذلك من أجل أن لا تتشرب أخشابُ السفن الماءَ.

وقوله: {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(٣) سورة المائدة] **أي: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام؛ لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدِل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع.**

عند الكلام عن الحج يقال عن الإهلال: إنه رفع الصوت، والمراد به هنا ذكر الأوثان أو المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى- عند الذبح، وهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة، حتى لو قصد بذلك أنها ذبيحة لله وذكر اسم غير الله عند الذبح فقال: بسم المسيح مثلاً، أو بسم النبي -صلى الله عليه وسلم- أو بسم العزى، أو نحو ذلك، هذا شرك أكبر وإن قصد أن الذبح لله، ومما يدخل في ذلك أيضاً -فيما يحرم- أنه إن قصد بها التقرب إلى غير الله -عز وجل- من الطواغيت والأصنام وما أشبه ذلك ولو ذكر اسم الله عليها فإنه لا يجوز أكلها كالتي تذبح للقبور وإن ذكر اسم الله عليها، ويبقى على كل حال ما نسيت فيه التسمية، فالآية هنا تتحدث عما أهل به لغير الله، فهذا لا شك أنه حرام بالإجماع، أما ما تركت فيه التسمية عمداً أو سهواً مما يقصد به

---

8 - أخرجه مسلم في كتاب الشعر - باب تحريم اللعب بالنردشير (٢٢٦٠) (ج ٤ / ص ١٧٧٠).

9 - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب بيع الميتة والأصنام (٢١٢١) (ج ٢ / ص ٧٧٩) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨١) (ج ٣ / ص ١٢٠٧).

التقرب إلى الله -عز وجل- أو يقصد به الانتفاع باللحم فالذبح تارة يكون على سبيل القربة وتارة يكون على سبيل الانتفاع والحاجة وليس من قبيل العبادة، والمقصود أن لا يذكر اسم سوى اسم الله -عز وجل- على الذبيحة، وأما ذكر اسم الله –عز وجل- فالراجح أنه واجب وأن التسمية إن تركت عمداً لم تصح ولا يجوز أكل هذه الذبيحة، وإن تركت نسياناً وسهواً فالخلاف في هذا أقوى ولو قيل بأنها لا تؤكل أيضاً لكان ذلك أقرب -والله تعالى أعلم-؛ لعموم قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام].

قوله: {وَالْمُنْخَنِقَةُ} [(٣) سورة المائدة] وهي التي تموت بالخنق إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تَتَخبل في وثاقها فتموت به فهي حرام.

قوله: "**قصداً**" لبيان أنهم كانوا في الجاهلية ربما أخذوا الذبيحة وخنقوها ثم أكلوها، وكما يفعل الآن من خنق الذبيحة تحت شعار الرفق بالحيوان أو تصعق أو تغرق في الماء فكل هذا من الميتات التي لا يجوز أكلها.

قوله: "**وإما اتفاقاً**" بمعنى أنها تحركت في وثاقها فانخنقت فماتت، فما مات بقصد وفعل من الإنسان يقال له: قتل، أو إزهاق الروح بقصد هو القتل، وما حصل فيه زهوق النفس من غير فعل أحد فإنه يقال عنه: مات حتف أنفه، وهذا هو الفرق بين القتل وبين الموت.

وأما الموقوذة فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت.

مما يذكر في أخبار العرب أنهم ربما ضربوها بالخشب حتى تموت تقرباً لآلهتهم، فالمقصود أن ما ضرب بشيء غير محدد فإنه لا يجوز أكله، والموقوذة هي التي تُضرب بحجر أو تصدمها سيارة مثلاً كأن يتبع الصيد بالسيارة فيصدمه فإذا مات فإنه لا يحل أكله، وكذلك ما يمكن أن يصاد من الطيور بهذه الآلة التي يصيد بها الصغار بالحجر، فمثل هذا لا يجوز أكله فهي موقوذة؛ لأنها تموت بسبب ما يحصل لها من صدم هذا الجسم الذي يضربها إما بخشبة أو بحجر أو بأي شيء ثقيل، فهذه لا يجوز أكلها؛ لأنها موقوذة.

كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وغير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى تُوقذ بها فتموت، قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصيّ حتى إذا ماتت أكلوها.

وفي الصحيح أن عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمِعراض الصيد فأصيب، قال: ((إذا رميت بالمعراض فخزق فكله وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله))[10].

حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه- في الصحيحين يقول: "**إني أرمي بالمعراض**" والمعراض يطلق على السهم الذي لا ريش له، فالسهم إذا كان له ريش في مؤخرته فإن توجهه يكون مستقيماً فيصيب بحدِّه أي برأسه فيخرق، وإذا كان لا ريش له فيكون توجهه غير مستقيم وإنما ينطلق بقوة الدفع فربما يصيب بعرضه، وبالتالي ربما مع قوة الضربة يقتل الطائر أو الحيوان إذا كان صغيراً أو نحو ذلك.

ويطلق المعراض أيضاً على الخشبة التي تكون محددة فإذا ضرب بها فقد يصيب بحدها، فإذا أصاب بحدها فلا إشكال، لكن إذا أصاب بعرضها فقتل هذه البهيمة فإنه لا يجوز أكلها؛ لأنها موقوذة.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها (٦٩٦٢) (ج ٦ / ص ٢٦٩٢) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

يقول في الحديث: "**إني أرمي بالمِعراض الصيد فأصيب**" قال: **((فإذا رميت بالمعراض فخزق فكله))** قوله: **((خزق))** يعني أصاب بحده فجرح، يقول –عليه الصلاة والسلام-: **((وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله))**.

يقول ابن كثير: "**ففرَّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده**" يعني ما أصابه بالسهم بحده أو السهم الذي لا ريش له أو بالمزراق الذي هو الرمح القصير، فإذا أصاب بحده جاز أكله، وإذا أصاب بعرضه لم يجز أكله، وهذا إذا مات، أما ما أدرك وفيه الحياة فسيأتي فيه قوله تعالى: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة].

ففرَّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيذاً لم يحله، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء.

يقول: "**وهذا مجمع عليه عند الفقهاء**" وهو ليس محل إجماع -والله أعلم-؛ فمن أهل العلم من يقول: إنه وقيذ مطلقاً لا يجوز أكله بحال من الأحوال، وهذا منقول عن ابن عمر ومالك وأبي حنيفة والثوري والشافعي، أي الذي يصاد بهذه الطريقة، وهذا فيه بعد، ومنهم من أجازه مطلقاً وهذا منقول عن أهل الشام من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وبعض الصحابة كأبي الدرداء -رضي الله عنه- والأوزاعي ومكحول وأمثال هؤلاء كلهم يقولون: إنه يجوز مطلقاً حتى لو أصاب بعرضه، لكن الفاصل في هذا هو الحديث، فإذا أصاب بحده جاز، وإذا أصاب بعرضه لم يجز، والله أعلم.

وأما {وَالْمُتَرَدِّيَةُ} فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل.

يعني كأن تقع في بئر أو يحملها ويلقيها على الأرض مثلاً فتموت، وهكذا.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: المتردية التي تسقط من جبل، وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

وأما {وَالنَّطِيحَةُ} فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي: منطوحة.

وقوله: {وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ} أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام.

حتى لو لم يأكل بعضها بأن عدا عليها فخنقها حتى قتلها فإنها لا تحل.

وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] **عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: {وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}** [(٣) سورة المائدة].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] **يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي، وكذا روي عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي.**

وهذا اختيار ابن جرير وهو قول الجمهور من الفقهاء، وبهذا الاعتبار يكون الاستثناء من قبيل الاستثناء المتصل، {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} [(٣) سورة المائدة] يعني مما أدركتم فيه الحياة من هذه المذكورات، كالتي سقطت في بئر، أو التي سقطت من السطح، أو التي صدمتها السيارة أو التي أصابها حجر أو نحو هذا فأدركتم فيها حياة، أي فيه رمق بأن تتحرك رجل أو يد أو نحو هذا وإن كانت في حال الاحتضار فإنها إذا ذكيت جاز أكلها، وإن كانت قد خرجت نفسها فلا يجوز أكلها، هذا الذي عليه عامة أهل العلم وهم الجمهور، ومن أهل العلم من يقول: إن الاستثناء في هذه الآية منقطع، أي يقول: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [(٣) سورة المائدة] ثم ذكر المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وبيَّن أنها محرمة ثم قال: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} أي لكن ما ذكيتم من بهائم الأنعام فهو حلال يعني غير هذه التي ذكرناها.

والمشهور من مذهب الإمام مالك وأحد القولين للشافعي -رحمه الله- أنه يجوز أكل هذه المذكورات في الآية –المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع- إذا وجدت بحال يمكن أن تعيش معها فتكون لها حكم السالمة من البهائم، بمعنى أنه لو نهشها الذئب أو عضها مثلاً أو سقطت لكن أغمي عليها ورشت بالماء وصحت فصارت في حال يمكن أن تعيش فيها فالحكم في هذا بالاتفاق أنه يجوز أكلها، لكن لو بقيت في حال ستموت بعده بأن قرر الأطباء أن هذه البهيمة لا يمكن أن تعيش بهذا الوضع، أو نحن نشاهد أن هذا هو حالها ففي هذه الحال على قول الجمهور إذا ذكيت أكلت، وعلى قول الآخرين لا يجوز أكلها، وعلى هذا القول الثاني يكون قوله: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ} استثناء منقطعاً لا يعود إلى المذكورات قبله، فكأنه يقول: حرام عليكم الميتة وما في حكم الميتة مما قد أشرف على الموت من هذه التي أصابها هذه العوارض، وإنما يباح لكم المذكى من بهيمة الأنعام، فالمقصود أن الاستثناء المنقطع هو الذي لا يكون من جنس المستثنى منه، وعلى كل حال فالقول الأول لا شك أنه هو الأقرب والأرجح، ولا زال الناس إلى عهد قريب جداً يأكلون هذه الدواب ويأكلون المريضة جداً التي أوشكت على الموت فأدركوها، وتجدهم يتسارعون إليها قبل أن تموت فيذكونها ويأكلونها حتى فاضت النِّعم على الناس فصاروا لأدنى شيء يتنزهون عن أكل هذه اللحوم خوفاً من الأمراض بل يتركونها وهي سالمة خوفاً من أمراض يتوهمونها بسبب أكل اللحوم، وإلا فقد كانوا يأكلون التي أشرفت على الموت بل في أوقات الجوع الشديد كانوا يضطرون ويأكلون الميتات.

وروى ابن جرير عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها.

وهكذا روي عن طاوس، والحسن، وقتادة وعُبَيد بن عُمير، والضحاك وغير واحد أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال.

وفي الصحيحين عن رافع بن خَدِيج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقوا العدو غداً وليس معنا مُدى، أفنذبح بالقصب؟ فقال: ((ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنَّ والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السنُّ فعظم، وأما الظفر فمُدَى الحبشة))[11].

---

11 - أخرجه البخاري في كتاب الشركة - باب قسمة الغنم (٢٣٥٦) (ج ٢ / ص ٨٨١) ومسلم في كتاب الأضاحي - باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام (١٩٦٨) (ج ٣ / ص ١٥٥٨).

المُدَى جمع مُدْية والمُدْية هي السكين، وهذا مما يستدل به على أن متروك التسمية ولو نسياناً لا يحل وإن ذبح لله -عز وجل- قصداً؛ لأنه ذكر هنا شرطين: الشرط الأول لا بد منه، وهو ما أنهر الدم بقطع الأوداج، ولذلك الذي يقطع في الذبيحة أربعة أشياء: الودجان وهما عرقان محيطان بالعنق، والحلقوم وكذلك القصبة الهوائية والمريء، فإذا قطعت الأوداج حلت الذبيحة، والأكمل في التذكية قطع الأربعة، ويليه قطع ثلاثة، فالحاصل أنه قال: **((ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السن والظفر))** يعني سوى السن والظفر.

وقوله: {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [(٣) سورة المائدة] **قال مجاهد وابن جُرَيْج: كانت النُّصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرِّحون اللحم ويضعونه على النصب، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.**

بعض أهل العلم يقول في قوله: **{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}** [(٣) سورة المائدة] إن "على" هنا بمعنى اللام، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، فيكون المعنى وما ذبح للنصب.

والنُّصُب كانوا يذبحون عندها سواء قيل: إنها أصنام أو قيل: إنها أحجار وليست بأصنام فهي من جملة الأوثان التي كانوا يتقربون لها فيذبحون عندها، كما يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إنها ليست أصناماً وإنما هي أحجار تجمع ويذبحون عندها تقرباً إليها فهي من جملة الأوثان.

ومن نظر في الكتب التي تذكر تاريخ العرب مثل كتاب المفصل -وهو من أوسعها في نحو أحد عشر مجلداً- يجد الأماكن التي كانوا يذبحون بها في جاهليتهم، وهكذا من يطلع سيقرأ أخباراً وأشياء عجيبة جداً من سخافة العقول -نسأل الله العافية-، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: {وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ} [(٣) سورة المائدة] أي حرَّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها: زُلَـم، وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَـم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: "افعل" وعلى الآخر: "لا تفعل" والثالث غفل ليس عليه شيء.

ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: "أمرني ربي" وعلى الآخر: "نهاني ربي"، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد.

والاستقسام: مأخوذ من طلب القَسم من هذه الأزلام، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- هي قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور.

وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم يقال له: هُبَل، منصوب على بئر داخل الكعبة، فيها توضع الهدايا، وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه.

وثبت في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام، فقال: ((قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً))[1].

وقال مجاهد في قوله: {وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ} [(٣) سورة المائدة] قال: هي سهام العرب وكعاب فارس والروم، كانوا يتقامرون بها.

وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالاستقسام بالأزلام المشهور هنا هو ما ذكر أنها تلك القداح التي كانوا يستخرجونها إذا هموا بأمر، والاستقسام هو طلب القسم في قسم الأرزاق وقسم ما يطلبون فيه القسم من المضي في أمر من الأمور أو الإحجام عنه.

والمعنى الآخر الذي يذكره أهل العلم في الاستقسام بالأزلام أنها قداح الميسر، ولهذا ذكر هنا كعاب فارس والروم، والكعاب تطلق على فص النرد وذلك يستعمل في الميسر والقمار، وما ذكره الحافظ ابن كثير

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب من كبر في نواحي الكعبة (١٥٢٤) (ج ٢ / ص ٥٨٠).

-رحمه الله- من أنهم ربما يستعملونها في هذا وهذا، محتمل، لكن الأشهر هو ما ذكر أنهم إذا هموا بأمر أدخل أحدهم يده في هذه الخريطة أو الكيس وفيها هذه القداح ليخرج واحداً منها، وبعض أهل العلم يذكر أن قداح الميسر عشرة أنواع، لكل واحد اسم يخصه.

فإن الله سبحانه قد قرن بينها وبين القمار وهو الميسر فقال في آخر السورة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء} **إلى قوله:** {مُّنتَهُونَ} [(٩٠-٩١) سورة المائدة].

هذا يرجح أن الأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها إذا هموا بأمر من الأمور، وأنها ليست الميسر والقمار؛ لأن الله فرق بينهما، فلا يقال هذا من عطف الشيء على نفسه -عطف الصفات-؛ لأن الله فصل بينهما بالأنصاب، والأنصاب ليست هي الميسر قطعاً.

وهكذا قال هاهنا: {وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ} [(٣) سورة المائدة] **أي: تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: ((إذا همَّ أحدكم بالأمرِ فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيركَ بعلمكَ، وأستقدرك بقدرتكَ وأسألُكَ من فَضْلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت عَلام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر -ويسميه باسمه- خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويَسِّره لي ثم وبارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومَعاشي وعاقبة أمري، فاصْرفني عنه، واصرفه عنِّي، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به))[2] لفظ أحمد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.**

وقوله: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ} [(٣) سورة المائدة] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم.**

في قوله: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ} يحتمل أن يكون المراد باليوم يعني يوم نزلت هذه الآية، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الزمان الحاضر دون تخصيص يوم بعينه.

وما ذكره هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو قوله: "**يعني: يئسوا أن يراجعوا دينهم**" فهو بمعنى أن دينكم قد ظهر وغلب وقد تلاشت عبادة الأصنام كما جاء في الحديث: ((إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب))[3].

والمعنى الثاني لقوله: {يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ} أي من زواله وإبطاله والقضاء عليه، وهذا المعنى هو المتبادر، أي أنهم حصل لهم العجز التام عما كانوا يحاولونه ويطمعون به في أول الأمر.

---

2 - أخرجه البخاري في أبواب التطوع - باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى (١١٠٩) (ج ١ / ص ٣٩١).

3 - سيأتي تخريجه.

وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدّي ومُقاتِل بن حَيَّان، وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم))[4].

ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ} [(٣) سورة المائدة] أي: لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

هذا الذي ذكره هو معنىً ثالث، وهو لم يذكر المعنى الثاني الذي أظنه أرجح هذه الأقوال.

وهذا المعنى الذي ذكره -وهو أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين- معناه أن الكفار ربما راموا حلاً وسطاً كما قال الله -عز وجل-: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [(٩) سورة القلم] وكانوا يؤملون أن يعبد النبي -صلى الله عليه وسلم- آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة، فقال الله -عز وجل-: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [(١-٣) سورة الكافرون] يعني في الزمن الحاضر، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} [(٤) سورة الكافرون] يعني في الزمن المستقبل، والمعنى لن أتحوَّل إلى عبادتكم ومعنى {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [(٥) سورة الكافرون] أي لن تتحولوا إلى ديني، فهناك مفاصلة تامة بين الفريقين، وشتان ما بين الديانتين، ومن ثمّ يئس هؤلاء الذين كفروا من هذا الدين بمعنى أن دينكم في ناحية ودينهم وما هم عليه في ناحية أخرى تضاد ذلك تماماً، فدينهم بني على الإشراك ودينكم مبني على التوحيد، وإذا كان الأمر كذلك فلا مجال للالتقاء، وهذا هو المعنى الثالث على كل حال، والمعنى الثاني هو ما ذكرت: من أن يئسوا من دينكم يعني من إبطاله، وهذا قال به كثير من أئمة التفسير.

وإذا كان المقصود برواية ابن عباس أن الكفار يئسوا أن يراجع المسلمون دينهم، أي أن يتركوه، إذا كان كذلك فهذا هو المعنى الثاني الذي ذكرته، يعني أن ترجعوا عنه، والحديث الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-: ((إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب))[5] معناه يأسُ الكفارِ أن يراجع المسلمون دينهم، يعني يئس الكفار أن يراجع المسلمون دينهم، والله أعلم.

وقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [(٣) سورة المائدة] هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم -صلوات الله وسلامه عليه- ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٢) (ج ٤ / ص ٢١٦٦).

5 - سبق تخريجه.

معلوم أن هذه الآية نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع وهو واقف في عرفة، والمشهور عند كثير من العامة -وهو قول لبعض أهل العلم- أن هذه آخر ما نزل من القرآن وليس الأمر كذلك؛ فقد عاش النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدها نحواً من إحدى وثمانين ليلة، ونزلت عليه بعض الآيات كآيات الربا وآية الدين، وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] فليست هذه آخر آية من القرآن.

وبالنسبة لما قد يرد من الإشكال في قوله سبحانه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [(٣) سورة المائدة] كيف حكم بإكمال الدين في هذه الآية وقد نزل بعض الآيات بعدها، أجيب عليه بإجابات من أحسنها ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أن إكمال الدين هنا وإتمام النعمة هو أنه أكمل لهم دعائمه العظام وأصوله الكبار، وأتم عليهم نعمته بأن أقرهم بالبيت الحرام لا يشاركهم ولا يخالطهم فيه أحد من أهل الإشراك، حيث انفردوا بالبيت الحرام في تلك السنة بعد أن كان يحج إليه المشركون، فمنعوا من ذلك، فحج النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل الإسلام ولم يحج أحد من المشركين منذ تلك السنة.

كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [(٣) سورة المائدة] أي: فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

وروى ابن جرير عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: لما نزلت {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر -رضي الله تعالى عنه- فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما يبكيك؟)) قال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا فأما إذْ أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال: ((صدقت))[6].

ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: ((إن الإسلام بدأ غَرِيبًا وسيعود غريبا فَطُوبَى للغُرَبَاء))[7].

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأي آية؟ قال قوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [(٣) سورة المائدة] فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والساعة التي نزلت فيها على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشية عرفة في يوم جمعة[8]، ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به، ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي، ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية عن طارق قال: قالت اليهود لعمر: والله إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر: إني لأعلم

---

6 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ٨٨) وهو مرسل فيه نكارة كما قال الألباني في السلسلة الضعيفة (ج ٣٥ / ص ٧٨٢).

7 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وإنه يأرز بين المسجدين (١٤٥) (ج ١ / ص ١٣٠).

8 - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٥) (ج ١ / ص ٢٥) وأحمد (١٨٨) (ج ١ / ص ٢٨).

حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث أنزلت: يوم عرفة، وأنا والله بعرفة، قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} الآية[٩].

وشكُّ سفيان -رحمه الله- إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة، فهذا ما أخاله يصدر عن الثوري -رحمه الله- فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها، والله أعلم، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر.

وقوله: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣) سورة المائدة] أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له.

المخمصة هي شدة الجوع والحاجة بسبب مجاعة ونحوها؛ وأصل الخمص هو ضمور البطن.

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته)) لفظ ابن حبان[١٠].

وهذه الرخصة ليست كالرخص وإنما هي رخصة واجبة، حيث يجب عليه أن يأكل من الميتة أو أن يشرب الخمر أو نحو ذلك إذا خشي على نفسه الهلكة، وإلا فيكون متسبباً في قتل نفسه ويأثم بذلك.

وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي -رضي الله تعالى عنه- أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: ((إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقْلاً فشأنكم بها)) تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين[١١].

قوله: ((إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا)) الاصطباح هو أكل الغداء، والاغتباق هو أكل العشاء، والمعنى إذا صرتم في حال تضطرون فيها إلى الميتة، حيث كانوا يأكلون في السابق وجبتين، في أول النهار وجبة وفي آخره وجبة.

قوله: ((ولم تحتفئوا بقلاً)) الاحتفاء بعضهم يقول: هو البُردي، والبردي -بضم الباء- هو التمر الجيد، ومنهم من يقول: إنه نبات من البقول، ويمكن أن يقال في المعنى العام: لم تأكلوا في أول نهاركم ولا في آخره ولم تجدوا بقلة تسد جوعتكم، ولم تجدوا إلا الميتة فعندئذ يباح لكم أكلها، هذا أوضح ما يفسر به، والله أعلم.

ومعنى قوله: ((ما لم تصطبحوا)) يعني به: الغداء، ((وما لم تغتبقوا)) يعني به: العشاء ((أو تحتفئوا بقلاً فشأنكم بها)) فكلوا منها.

---

9 - صحيح البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٣٠) (ج ٤ / ص ١٦٨٣).

10 - أخرجه أحمد (٥٨٦٦) (ج ٢ / ص ١٠٨) وابن حبان (٢٧٤٢) (ج ٦ / ص ٤٥١) وصححه الأرناؤوط وقال: إسناده قوي.

11 - أخرجه أحمد (٢١٩٤٨) (ج ٥ / ص ٢١٨) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده.

يعني لا تأكل ميتة وقد أكلت الغداء والعشاء، وإنما في حال العدم التام تباح لك الميتة بأن لم تأكل في أول النهار ولا في آخره، ولم تجد بقلة تسد بها الجوع ففي هذه الحال تكون مضطراً.

وقوله: {غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ} [(٣) سورة المائدة] أي: **متعاطٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له.**

الجَنَف هو الميل، كما قال تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ} [(١٨٢) سورة البقرة].

فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٧٣) سورة البقرة] **وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.**

على كل حال سبق الكلام على قوله: {غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٧٣) سورة البقرة].

ومن صور البغي والعدوان في هذا أن يأكل الميتة من غير ضرورة، ومن صوره أن يأكل وهو مستشرف النفس أو وهو في حال من الفرح بذلك والسرور به أو أن يأكل فوق حاجته، أو أن يتفنن في صنع هذا الطعام -طعام الميتة- كحال الذي يستلذ بذلك ويستمتع به ويجد ذلك فرصة، إلا أن العلماء يختلفون في التفصيلات، نحو ما القدر الذي يجوز له أكله، وهل له أن يتزود أو ليس له أن يتزود منها؟، وعلى كل حال الذي يجب عليه هو أن يأكل منها بالقدر الذي يبقي عليه حياته دون أن يأكل منها أكلاً مفرطاً كما يأكل الطيبات، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٤) سورة المائدة].

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما، استثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [(١١٩) سورة الأنعام] **قال بعدها: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}** [(٤) سورة المائدة] **كما في سورة الأعراف في صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.**

وقال مقاتل: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: "ليس هو من الطيبات" [رواه ابن أبي حاتم].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} الطيبات يمكن أن يقال هي كل ما يستلذ من الحلال، أو كل حلال مباح من المطعومات فهو من جملة الطيبات، وإن لم نقيده بالمستلذ، إلا أن بعض العلماء يذكر هذا القيد –أعني الاستلذاذ- وإن لم يكن له أثر في الحل والحرمة وإنما ذكروا هذا نظراً لمعنى الطيبات، بمعنى أنه يطيب لهم تعاطيها وتناولها وما أشبه ذلك.

وهذا الأثر عن الزهري لما سئل عن شرب البول للتداوي، يقال فيه: أصلاً لا يجوز تعاطي النجاسات، أعني أن هذا الجواب صحيح، فالبول ليس من الطيبات وإنما هو من النجاسات، والنجاسات لا يجوز لأحد أن يتعاطاها ولو كان على سبيل التداوي كالدم والبول وما أشبه ذلك مما كانت نجاسته حسية أو كانت نجاسته معنوية كالخمر، ثم إن الله -عز وجل- لم يجعل شفاء هذه الأمة فيما حرم عليها.

وقوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ} [(٤) سورة المائدة] **أي: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما اصطدتموه بالجوارح وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ}** [(٤) سورة المائدة] **وهن الكلاب المعلمة والبازي وكل طير يعلم للصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها** [رواه ابن أبى حاتم].

يعني أن من أهل العلم من خص ذلك بالكلاب وقال: لا يجوز ما صاده غيرها من الطيور الجوارح الكواسر، وهذا غير صحيح، فهم نظروا إلى لفظة {مُكَلِّبِينَ} وقالوا: إن الذي يباح إنما هو ما صادته الكلاب، وبالنسبة لما صادته الصقور وما أشبه ذلك فيقولون: إن أدركه حياً فذكاه حلَّ، وهذا على التفصيل الذي سبق في المتردية والنطيحة والموقوذة وما أكل السبع إلى آخره، وعلى كل حال من يقول: إن ذلك يختص بالكلاب يقول: ما صاده غيرها إن جرحته فمات فإنه لا يحل وإن أدركه حياً فذكاه حل، لكن قول الجمهور هو الراجح وهو أنه لا فرق بين الكلاب والفهود والطيور وغير ذلك مما يُعلَّم الصيد، فكل ذلك يحل صيده.

ثم قال: وروي عن خيثمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبي كثير، نحو ذلك، ثم روى ابن جرير عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه.

قلت: والمحكي عن الجمهور: إن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق، كما رواه ابن جرير عن عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن صيد البازي، فقال: ((ما أمسك عليك فكل))[1].

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح وهو الكسب كما تقول العرب: فلان جَرح أهله خيراً أي: كسبهم خيراً.

يعني ليس من الجرح الذي هو الكلم والجراحة، وإنما معناه الاكتساب كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ} [(٢١) سورة الجاثية] أي: اكتسبوا السيئات.

ويقولون: فلان لا جارح له أي: لا كاسب له، وقال الله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ما كسبتم من خير وشر.

وقوله تعالى: {مُكَلِّبِينَ} [(٤) سورة المائدة] يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في {عَلَّمْتُم} فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو {الْجَوَارِحِ} أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلَّبات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته لا بمخلابه وظفره أنه لا يحل له.

في قوله: {مُكَلِّبِينَ} قال: **"يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في {عَلَّمْتُم}** [(٤) سورة المائدة]" والمكلِّب في الأصل هو المعلم للكلاب، والتكليب هو التعليم.

الحافظ ابن كثير هنا ذكر احتمالين للفظة مكلبين، الأول: أن يكون حالاً من الضمير في {عَلَّمْتُم} أي علمتم حال كونكم مكلِّبين، وهنا جاء قوله: مكلبين بعد قوله: وما علمتم، فإذا كان التكليب هو التعليم فالإعادة تكون تأكيداً هكذا: وما علمتم من الجوارح معلمين.

وبالنسبة لعبارة ابن جرير في تفسير هذه الجملة من الآية فإنه يقول فيها: حال كونكم أصحاب كلاب، وعلى كل حال هذا هو الاحتمال الأول الذي ذكره هنا في معنى مكلبين، قال: يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب الصيد – باب ما جاء في صيد البزاة (١٤٦٧) (ج ٤ / ص ٦٦).

علمتم، فيكون حالاً من الفاعل، أي علمتم حال كونكم مكلبين، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو الجوارح، أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وعلى الاحتمال الثاني يكون معنى مكلبات أي ممسكات، وليس معلمات.

فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته لا بمخلابه وظفره أنه لا يحل له، ولهذا قال: {تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ} [(٤) سورة المائدة] وهو أنه إذا أرسله استرسل وإذا أشلاه استشلى وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: {فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة].

العلماء -رحمهم الله- ذكروا علامات يعرف بها أن هذا معلم أو غير معلم، ومن ذلك أنه إذا أمسك لا يأكل من الصيد، وإذا أرسله ذهب، وإذا جاء إليه لم ينفر منه وإذا أشار إليه أو طلب منه أن يرتفع عن الصيد ارتفع، فهو مستجيب له في كل حال، فهذا هو المعلم الذي يحل أكل ما صاده.

فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله حلَّ الصيد وإن قتله بالإجماع.

هذا الكلام صحيح، لكن الكلام فيما إذا أدركته قبل أن يموت هل يجب عليك تذكيته أم لا؟ وكذلك هنا في قوله: {فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [(٤) سورة المائدة] أخذ منه بعض الفقهاء -رحمهم الله- أنه إن ذهب من تلقاء نفسه وصاد فإنه لا يحل؛ لأن الله قال: {مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [(٤) سورة المائدة] فهذا يحتاج إلى نظر ومناقشة؛ لأن الأصل أنه إن أمسكه لك بمعنى أنه لم يأكل منه فإنه يحل، فلو أنه رأى صيداً فانطلق فصاده ووقف عليه ينتظر مجيئك فمثل هذا أمسك الصيد عليك ولم يمسكه لنفسه فهذا يحل، إذاً لا يشترط أن ترسله، لكن يبقى الكلام في التسمية؛ لأن الراجح من كلام أهل العلم كما يدل عليه حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه- أن التسمية ليس المقصود بها كما يقول بعض أهل العلم عند الأكل، وإنما المقصود أن تذكر اسم الله عليه عند إرساله، فإذا انطلق من نفسه ولم تذكر اسم الله عليه فإنه لا يحل بهذا الاعتبار وليس لأنه انطلق من نفسه.

والفقهاء يتكلمون في تفاصيل دقيقة جداً من المسائل المتعلقة بهذا مثل ما إذا أرسله وسمى عليه فصاد صيداً آخر غير الذي أرسله له فهل يحل أم لا يحل؟، ومن ذلك إذا رمى صيداً فنفذ منه وأصاب صيداً آخر فهل يحل الآخر أم لا يحل؟ وهكذا توجد مسائل كثيرة متعلقة بهذا الأمر، ومن أراد أن ينظر إلى التفاصيل الدقيقة الكثيرة التي يصعب حصرها فلينظر -على سبيل المثال- في كتاب اسمه "منية الصيادين لابن ملك" وهو مجلد لطيف صغير لكنه حوى أشياء كثيرة جداً في هذا الباب.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين عن عَدِيّ بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله، فقال: ((إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك..)).

هذا يدل على أن التسمية تكون عند إرساله الكلب المعلم وليس المقصود عند الأكل.

قلت: وإن قتلن؟ قال: ((وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره..)).

لو أنه شاركها كلب يصطاد بنفسه فلا تحل، لكن لو أنك أرسلت كلبك وآخر أرسل كلبه المعلم فعدى عليه هذا وعدى عليه هذا، فإنه يحل، ولا إشكال في هذا.

قلت له: فإني أرمي بالمِعْرَاض الصيد فأصيب؟ فقال: ((إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصابه بعَرْض فإنه وقيذ فلا تأكله))[2] **وفي لفظ لهما:** ((وإذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإنّ أخْذَ الكلب ذكاته))[3] **وفي رواية لهما:** ((فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه))[4].

قوله: ((فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه)) الأصل أن الأمر للوجوب، أي أنه يذكى إن أدركه حياً لكن لو أدركه وهو يتشحط في الرمق الأخير ولم يتمكن من تذكيته؛ لأنه يحتاج أن يأتي بمدية ونحو ذلك فمات فإنه يحل؛ لأنه في حكم الذي قتله الكلب، والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة] أي: **عند إرساله له، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه-:** ((إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك))[5].

وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: ((إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله))[6].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة] **يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، وإن نسيت فلا حرج.**

قوله: "**وإن نسيت فلا حرج**" هذا باعتبار أن النسيان عذر وأنه سقط به هذا الواجب، ولكن على كل حال إذا بقينا مع ظواهر النصوص فإن التسمية واجبة وهي شرط في حله فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، ولذلك لا يحل ولو ترك ذلك نسياناً، والمسألة خلافية سواء في التذكية أو في الصيد.

وقيل: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل.

هذا قال به بعض السلف واختاره القرطبي -رحمه الله- في التفسير لكنه بعيد، فالسنة تفسر بالقرآن، وظاهر القرآن: {وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة] أي أن هذا عند إرساله، والحديث صريح وواضح لا يحتمل التأويل في هذا، وهي مفسرة لهذه الآية.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٣) (ج ١ / ص ٧٦) وفي كتاب الذبائح والصيد – باب صيد المعراض (٥١٥٩) (ج ٥ / ص ٢٠٨٦) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب صيد المعراض (٥١٥٩) (ج ٥ / ص ٢٠٨٦) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب ما جاء في التصيد (٥١٦٩) (ج ٥٨ / ص ٢٠٩٠) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٣) (ج ١ / ص ٧٦) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

[6] - لفظ مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩).

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علَّم رَبِيبه عمر بن أبي سلمة -رضي الله تعالى عنه- فقال: ((سم الله، وكل بيمينك وكل مما يليك))[7].

هذه مسألة أخرى ليس لها علاقة بموضوع الصيد، أي حتى لو أكل تمراً، فإنه يسمي الله ويأكل بيمينه فليس هذا مما يتعلق بالآية، ولهذا نقول: إن تفسير القرآن بالسنة يدخله الاجتهاد من هذا الوجه وليس من جهة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفسر آية ويكون مجتهداً ويحصل الخطأ، ولكن فيما لم يتعرض به النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية مثل هذا الحديث: ((سم الله وكل بيمينك)) فيأتي المفسر ويربط بين الآية والحديث ويفسر الآية بالحديث فيخطئ؛ لأنه لا يكون بينهما ارتباط، فقوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة] لا يفسر بقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((سم الله وكل بيمينك)) ومن فسر الآية به فإنه يكون من قبيل الخطأ وإن كان من جنس تفسير القرآن بالسنة، لكن تفسيرها بحديث عدي بن حاتم صحيح مع أن الحديث ليس فيه تعرض للآية، لكن وجهه ظاهر.

وفي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا -حديثٌ عهدهم بكفر- بلحمانٍ لا ندري أذُكِر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: ((سموا الله أنتم وكلوا))[8].

إذا علم أنهم يذكرون اسم المسيح عليها أو اسم معبوداتهم فإنها لا تحل، لكن هنا لا نعلم هل ذكروا اسم الله عليها أم لا، وهم قوم في الأصل تباح ذبائحهم؛ لأنهم أهل كتاب فنأكل منها، وهذا الكلام عن التسمية وليس في كونها مذكاة أو ليست بمذكاة، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة - باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٠٦١) (ج ٥ / ص ٢٠٥٦) ومسلم في كتاب الأشـربة - بـاب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢) (ج ٣ / ص ١٥٩٩).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب من لم ير الوساوس ونحوها من المشبهات (١٩٥٢) (ج ٢ / ص ٧٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٥) سورة المائدة].

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} قال ابن عباس، وأبو أمامة -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر وعِكْرِمة وعَطاء والحسن ومَكْحول وإبراهيم النَّخَعِي والسُّدِّي ومُقاتل بن حيَّان: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك و تعالى هنا: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} المراد به قطعاً الذبائح، وليس المراد به سائر الطعام كالخبز ونحو ذلك؛ لأن مثل هذا لا يحتاج إلى تنبيه فهو شيء الأصل فيه الحل؛ لأن الأصل في المطعومات الحل، والأصل في الذبائح المنع، فمثل الفاكهة وما يصنع منها، وكذلك أيضاً ما يصنع من الحبوب أو نحو ذلك من سائر الأطعمة غير الذبائح الأصل فيها الحل، لا فرق فيه بين ما يصنعه أهل الكتاب وما يصنعه المجوس وسائر الأمم، فهو حلال، والله -عز وجل- لم يذكر لنا طعام عبدة الأوثان من غير الذبائح؛ لأن الأصل فيه الحل، فيجوز أكل طعام المشركين من غير ذبائحهم، فالمقصود بهذه الآية هنا هو الذبائح خاصة، وأما ما عداها فهم كغيرهم من سائر الأمم طعامهم مباح، إلا أن الطعام هنا على كل حال من العام المراد به الخصوص، وهو الذبائح.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله**" هذا الكلام فيه نظر والله أعلم؛ لأن الصواب أن ذبائحهم ليست مباحة لأنهم يذكرون اسم الله عليها بل قد يذكرون اسم المسيح، وهذا ليس بجديد، بل إنه معروف عنهم منذ أزمان متطاولة، ولذلك استدل طائفة من السلف بهذه الآية على أن ذبائحهم حلال ولو ذكروا عليها غير اسم الله -عز وجل- وهذا يدل على أن المسألة واردة منذ عهد الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وبهذا قال أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ومكحول الدمشقي والزهري محمد بن شهاب وربيعة شيخ الإمام

مالك والشعبي وغير هؤلاء، قالوا: ولو ذكروا غير اسم الله؛ لأن الله قال: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} وهم تارة يذكرون اسم الله وتارة لا يذكرونه.

وخالفهم في هذا أيضاً آخرون فقالوا: إنْ علم أنهم ذكروا غير اسم الله فلا يحل؛ لأن قوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} عام مخصص بقوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] فلا يجوز أكله إذا علم أنه لم يذكر اسم الله عليه، وبهذا قال ابن عمر وعائشة والحسن وطائفة، فالمقصود أن هذه المسألة معروفة منذ زمن الصحابة -رضي الله عنهم- وأنهم قد يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقد يذكرون اسماً آخر كاسم المسيح -عليه الصلاة والسلام- وعلى كل حال يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- إنه إن سُمع أحد منهم يذكر غير اسم الله فإنها لا تؤكل ذبيحته أخذاً بمجموع النصوص وإعمالها جميعاً، فالعام محمول على الخاص، والمطلق يحمل على المقيد، فقوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} عام يخصصه قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] فقد وصفه الله -عز وجل- بأنه فسق، فسواء كان ذلك صادراً من أهل الكتاب أو من غيرهم فذلك لا يخرجه عن كونه فسقاً، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل -رضي الله تعالى عنه- قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً والتفتُّ فإذا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبتسم.

كما هو معلوم فإن اليهود يحرم عليهم شحوم الأنعام إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وما عدا ذلك من الشحوم يحرم عليهم، وفي الحصار عليهم يوم خيبر أنزلوا ما عندهم من شحوم بجراب فاحتضنه عبد الله بن مغفل من شدة الفرح به وقال: لا يعطى منه أحداً.

فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر.

طبعاً هذه مسألة خارجة عن موضوع تفسير الآية، وهي هل يجوز للإنسان أن يتناول شيئاً من طعام الغنائم قبل القسمة أم يعتبر هذا من الغلول؟ أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز للمجاهد أن يأخذ ما يحتاج إليه من الطعام ولا يعتبر ذلك من الغلول.

واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاة مصلية وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهشَ منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه وأثّر ذلك السم في ثنايا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب.

ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا.

هذا أمر ظاهر، فما كان يحرم عليهم من الشحوم لا يحرم علينا؛ لأن الله أباحه لنا.

وقوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} يدل على أن ذبائحهم مباحة لنا، وهذا يشمل جميع أجزاء هذه الذبائح، لا يُخص منها شيء دون شيء، فإذا حرم عليهم فإن ذلك لا يحرم علينا.

وقوله تعالى: {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة] أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه.

ماذا يقصد الحافظ ابن كثير بقوله: {{وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة]؟

يحتمل أن يكون المراد أن عندهم في كتابهم أن طعام المسلمين حل لهم، ولكن هذا غير مراد؛ لأن المسلمين جاءوا بعدهم، فلا يكون في كتابهم: كلوا من طعام المسلمين، ومن هنا حمل عامة أهل العلم هذه الآية: {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة] على أن المعنى أنه يحل لكم أن تعطوهم من طعامكم أنتم، وقالوا: كما أنه يحل طعامهم فعلى سبيل المقابلة والمكافأة ونحو ذلك ينبغي أن تعطوهم أنتم أيضاً من طعامكم وليس معناه أنهم يجدون في كتابهم حل طعام المسلمين إلا أن الاحتمال الآخر الذي ذكره ابن كثير وهو أن عندهم في دينهم أنه يحل لهم طعام سائر الأمم إضافة إلى طعام اليهود، أي من اليهود ومن غير اليهود إلا ما حرم عليهم، فعلى هذا كل من يأتي بعدهم فهو داخل في ذلك، أي أنه ليس المقصود تخصيص المسلمين بهذا؛ لأن المسلمين جاءوا بعد ذلك.

سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة كما ألبس النبي -صلى الله عليه وسلم- ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس -رضي الله تعالى عنه- حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك بذلك.

ولعله كفنه بثوبه -عليه الصلاة والسلام- لأن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- قميصه أو ثوبه من أجل أن يكفن أباه به، والله أعلم.

فأما الحديث الذي فيه: ((لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي))[1] فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ} [(٥) سورة المائدة] أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [(٢٥) سورة النساء].

هنا يقول: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ} [(٥) سورة المائدة] وفي قراءة الكسائي -وهي قراءة متواترة- (والمحصِنات) بكسر الصاد وعلى هذه القراءة يعنى بهن المحصنات بفروجهن أي العفائف، وعلى قراءة الفتح {وَالْمُحْصَنَاتُ} فسرت بالعفائف وفسرت بالحرائر، وفي آية النساء لما ذكر الله المحرمات من النساء قال: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(٢٤) سورة النساء] ذكرنا معاني المحصنات وأنها تأتي بمعنى العفائف والحرائر والمتزوجات، فهنا المحصنات فسرت بالعفائف وفسرت أيضاً بالحرائر، والحافظ

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤) (ج ٤ / ص ٤٠٧) وأحمد (١١٣٥٥) (ج ٣ / ص ٣٨) والترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥) (ج ٤ / ص ٦٠٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٣٤١).

ابن كثير كلامه هنا يقول فيه: "أي: **وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات**"، فهو جمع المعنيين، ومعلوم أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وليس هناك دليل -والله تعالى أعلم- على تخصيص هذه الآية بأحد المعنيين -الحرائر أو العفائف- مع أن كبير المفسرين أبا جعفر بن جرير -رحمه الله- قال بالأول، وهو أن المراد به الحرائر.

والذي يترتب على هذا التفسير أو ذاك أنه إذا قيل: إن المراد بقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٥) سورة المائدة] يعني الحرائر فمعنى ذلك أنه لا يجوز أن يتزوج الأمة الكتابية؛ وهذا سبق الكلام عليه في آية النساء؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] يعني المؤمنات الحرائر **{فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] ومفهومه أنه لا يحل نكاح الأمة غير المسلمة سواء كانت كتابية أو مشركة أو وثنية.

فهنا قال: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ}** [(٥) سورة المائدة] فإذا قلنا: إن المراد بهن الحرائر من الذين أوتوا الكتاب فمعنى ذلك أنه لا يجوز أن تتزوج الأمة وهذا هو منطوق هذه الآية، وقوله في آية النساء: **{فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] مفهومه أن غير المؤمنة ممن هي في ملك اليمين لا يجوز التزوج بها.

وإذا فسرت هذه الآية **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ}** [(٥) سورة المائدة] بالعفائف فمعنى ذلك أنه يجوز لمن لم يستطع أن يتزوج المرأة الحرة أن يتزوج الأمة الكتابية إذا كانت عفيفة.

وعلى هذا يمكن أن نخرج بالتقسيم التالي:

إذا قلنا: إن المقصود بالمحصنات العفائف الحرائر -كما قال ابن كثير- فمعنى ذلك أنه لا يجوز تزوج الأمة الكتابية ولو كانت عفيفة، ولا يجوز تزوج الحرة إن كانت غير عفيفة، ولا العفيفة إن كانت غير حرة، أي لا بد من هذا وهذا، فالحرة إذا كانت فاجرة قد هتك عرضها قبل ذلك فإنه لا يجوز للمسلم أن يتزوجها، وهذا إذا فسرت بالعفائف، وحال عامة نسائهم أنك تجدها قبل أن تصل إلى سن البلوغ تكون بكارتها قد ذهبت، ومع ذلك يأتي بعض من يذهب ليتعلم في بلادهم فيتزوجها، ويكفيه أنها تنتسب إلى الدول العظمى فهذا هو نسبها وهو أبوها وقبيلتها، والمقصود أنه يأتي بها مفجوراً بها قبلُ، كما لا يُعرف لها أبٌ حقيقي فيأخذها وليس عنده مشكلة، وإذا ذكرت له بنتاً يُعرف منبتها ومنشؤها وتربيتها في بلده لكن لا يُعرف لها قبيلة فإنه يأنف غاية الأنفة ويسترذل ذلك وتثور ثائرته وثائرة من معه وهذا عين الجهل وهو من انتكاس المفاهيم.

وعلى كل حال إذا فسرت هذه الآية بالحرائر فقط فمعنى ذلك أنه يجوز أن يتزوج الكتابية ولو كانت غير عفيفة -وهذا قاله بعض أهل العلم- لكن وإن قاله بعض أهل العلم فالآيات يفسر بعضها بعضاً، والله يقول: **{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** [(٣) سورة النـــور] ولولا أن بعض أهل العلم ذكر هذا لما أشرت إليه، فالآية لا تؤخذ بمجردها والله أعلم.

وقد كان عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} الآية [(٢٢١) سورة البقرة].

على كل حال قول ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- معروف، وخالفه في ذلك أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم فهذه الآية دليل على جواز نكاح النصرانية، فالله -عز وجل- يقول: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} [(٥) سورة المائدة] والذين أوتوا الكتاب يدخل فيه النصارى قطعاً، وهم مشركون، واليهود أيضاً عندهم شرك، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة] فاليهود عندهم شرك وعندهم قبور تعبد من دون الله -عز وجل-، عندهم أشياء من هذا القبيل إلا أن الشرك فيهم أقل من الشرك في النصارى، وعلى كل حال فهذا القول وإن قال به هذا الإمام من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- إلا أنه خالفه فيه عامة أهل العلم.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} الآية [(٢٢١) سورة البقرة] فلا شك أن الكتابيين من جملة المشركين ولكن الله -عز وجل- في بعض الأحيان يذكر هؤلاء ويذكر هؤلاء كما في قوله: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [(١) سورة البينة] وهذا يدل على وجود فرق بينهم مع أنهم من جملة المشركين، ويمكن أن يقال: هذا مما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا لكن هذا الأخير ليس بإطلاق، فإذا ذكروا مع المشركين فأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون سائر أهل الإشراك من عبدة الأوثان وغير ذلك، وإذا ذكر أهل الكتاب فلا ينفي عنهم الإشراك لكن ليس معنى ذلك أنه يدخل فيهم غير أهل الكتاب من المشركين، فالمقصود أن أهل الكتاب مع كونهم مشركين إلا أنه يباح التزوج من نسائهم، وقد تزوج جماعة من الصحابة كتابيات، فحال أهل الكتاب معروف منذ ذلك الحين، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٥) سورة المائدة].

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} قال ابن عباس، وأبو أمامة -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر وعِكْرِمة وعَطاء والحسن ومَكْحول وإبراهيم النَّخَعِي والسُّدِّي ومُقاتل بن حيَّان: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك و تعالى هنا: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} المراد به قطعاً الذبائح، وليس المراد به سائر الطعام كالخبز ونحو ذلك؛ لأن مثل هذا لا يحتاج إلى تنبيه فهو شيء الأصل فيه الحل؛ لأن الأصل في المطعومات الحل، والأصل في الذبائح المنع، فمثل الفاكهة وما يصنع منها، وكذلك أيضاً ما يصنع من الحبوب أو نحو ذلك من سائر الأطعمة غير الذبائح الأصل فيها الحل، لا فرق فيه بين ما يصنعه أهل الكتاب وما يصنعه المجوس وسائر الأمم، فهو حلال، والله -عز وجل- لم يذكر لنا طعام عبدة الأوثان من غير الذبائح؛ لأن الأصل فيه الحل، فيجوز أكل طعام المشركين من غير ذبائحهم، فالمقصود بهذه الآية هنا هو الذبائح خاصة، وأما ما عداها فهم كغيرهم من سائر الأمم طعامهم مباح، إلا أن الطعام هنا على كل حال من العام المراد به الخصوص، وهو الذبائح.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله**" هذا الكلام فيه نظر والله أعلم؛ لأن الصواب أن ذبائحهم ليست مباحة لأنهم يذكرون اسم الله عليها بل قد يذكرون اسم المسيح، وهذا ليس بجديد، بل إنه معروف عنهم منذ أزمان متطاولة، ولذلك استدل طائفة من السلف بهذه الآية على أن ذبائحهم حلال ولو ذكروا عليها غير اسم الله -عز وجل- وهذا يدل على أن المسألة واردة منذ عهد الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وبهذا قال أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ومكحول الدمشقي والزهري محمد بن شهاب وربيعة شيخ الإمام

مالك والشعبي وغير هؤلاء، قالوا: ولو ذكروا غير اسم الله؛ لأن الله قال: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} وهم تارة يذكرون اسم الله وتارة لا يذكرونه.

وخالفهم في هذا أيضاً آخرون فقالوا: إنْ علم أنهم ذكروا غير اسم الله فلا يحل؛ لأن قوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} عام مخصص بقوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] فلا يجوز أكله إذا علم أنه لم يذكر اسم الله عليه، وبهذا قال ابن عمر وعائشة والحسن وطائفة، فالمقصود أن هذه المسألة معروفة منذ زمن الصحابة -رضي الله عنهم- وأنهم قد يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقد يذكرون اسماً آخر كاسم المسيح -عليه الصلاة والسلام- وعلى كل حال يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- إنه إن سُمع أحد منهم يذكر غير اسم الله فإنها لا تؤكل ذبيحته أخذاً بمجموع النصوص وإعمالها جميعاً، فالعام محمول على الخاص، والمطلق يحمل على المقيد، فقوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} عام يخصصه قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] فقد وصفه الله -عز وجل- بأنه فسق، فسواء كان ذلك صادراً من أهل الكتاب أو من غيرهم فذلك لا يخرجه عن كونه فسقاً، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل -رضي الله تعالى عنه- قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً والتفتُّ فإذا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبتسم.

كما هو معلوم فإن اليهود يحرم عليهم شحوم الأنعام إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وما عدا ذلك من الشحوم يحرم عليهم، وفي الحصار عليهم يوم خيبر أنزلوا ما عندهم من شحوم بجراب فاحتضنه عبد الله بن مغفل من شدة الفرح به وقال: لا يعطي منه أحداً.

فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر.

طبعاً هذه مسألة خارجة عن موضوع تفسير الآية، وهي هل يجوز للإنسان أن يتناول شيئاً من طعام الغنائم قبل القسمة أم يعتبر هذا من الغلول؟ أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز للمجاهد أن يأخذ ما يحتاج إليه من الطعام ولا يعتبر ذلك من الغلول.

واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاة مصلية وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهشَ منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه وأثّر ذلك السم في ثنايا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب.

ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا.

هذا أمر ظاهر، فما كان يحرم عليهم من الشحوم لا يحرم علينا؛ لأن الله أباحه لنا.

وقوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} يدل على أن ذبائحهم مباحة لنا، وهذا يشمل جميع أجزاء هذه الذبائح، لا يُخص منها شيء دون شيء، فإذا حرم عليهم فإن ذلك لا يحرم علينا.

وقوله تعالى: {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة] أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه.

ماذا يقصد الحافظ ابن كثير بقوله: {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة]؟

يحتمل أن يكون المراد أن عندهم في كتابهم أن طعام المسلمين حل لهم، ولكن هذا غير مراد؛ لأن المسلمين جاءوا بعدهم، فلا يكون في كتابهم: كلوا من طعام المسلمين، ومن هنا حمل عامة أهل العلم هذه الآية: {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ} [(٥) سورة المائدة] على أن المعنى أنه يحل لكم أن تعطوهم من طعامكم أنتم، وقالوا: كما أنه يحل طعامهم فعلى سبيل المقابلة والمكافأة ونحو ذلك ينبغي أن تعطوهم أنتم أيضاً من طعامكم وليس معناه أنهم يجدون في كتابهم حل طعام المسلمين إلا أن الاحتمال الآخر الذي ذكره ابن كثير وهو أن عندهم في دينهم أنه يحل لهم طعام سائر الأمم إضافة إلى طعام اليهود، أي من اليهود ومن غير اليهود إلا ما حرم عليهم، فعلى هذا كل من يأتي بعدهم فهو داخل في ذلك، أي أنه ليس المقصود تخصيص المسلمين بهذا؛ لأن المسلمين جاءوا بعد ذلك.

سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة كما ألبس النبي -صلى الله عليه وسلم- ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس -رضي الله تعالى عنه- حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك بذلك.

ولعله كفنه بثوبه -عليه الصلاة والسلام- لأن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- قميصه أو ثوبه من أجل أن يكفن أباه به، والله أعلم.

فأما الحديث الذي فيه: ((لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي))[1] فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ} [(٥) سورة المائدة] أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [(٢٥) سورة النساء].

هنا يقول: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ} [(٥) سورة المائدة] وفي قراءة الكسائي -وهي قراءة متواترة- (والمحصِنات) بكسر الصاد وعلى هذه القراءة يعنى بهن المحصنات بفروجهن أي العفائف، وعلى قراءة الفتح {وَالْمُحْصَنَاتُ} فسرت بالعفائف وفسرت بالحرائر، وفي آية النساء لما ذكر الله المحرمات من النساء قال: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [(٢٤) سورة النساء] ذكرنا معاني المحصنات وأنها تأتي بمعنى العفائف والحرائر والمتزوجات، فهنا المحصنات فسرت بالعفائف وفسرت أيضاً بالحرائر، والحافظ

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤) (ج ٤ / ص ٤٠٧) وأحمد (١١٣٥٥) (ج ٣ / ص ٣٨) والترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥) (ج ٤ / ص ٦٠٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٣٤١).

ابن كثير كلامه هنا يقول فيه: "أي: **وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات**"، فهو جمع المعنيين، ومعلوم أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وليس هناك دليل -والله تعالى أعلم- على تخصيص هذه الآية بأحد المعنيين -الحرائر أو العفائف- مع أن كبير المفسرين أبا جعفر بن جرير -رحمه الله- قال بالأول، وهو أن المراد به الحرائر.

والذي يترتب على هذا التفسير أو ذاك أنه إذا قيل: إن المراد بقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٥) سورة المائدة] يعني الحرائر فمعنى ذلك أنه لا يجوز أن يتزوج الأمة الكتابية؛ وهذا سبق الكلام عليه في آية النساء؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] يعني المؤمنات الحرائر **{فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] ومفهومه أنه لا يحل نكاح الأمة غير المسلمة سواء كانت كتابية أو مشركة أو وثنية.

فهنا قال: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ}** [(٥) سورة المائدة] فإذا قلنا: إن المراد بهن الحرائر من الذين أوتوا الكتاب فمعنى ذلك أنه لا يجوز أن تتزوج الأمة وهذا هو منطوق هذه الآية، وقوله في آية النساء: **{فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء] مفهومه أن غير المؤمنة ممن هي في ملك اليمين لا يجوز التزوج بها.

وإذا فسرت هذه الآية **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ}** [(٥) سورة المائدة] بالعفائف فمعنى ذلك أنه يجوز لمن لم يستطع أن يتزوج المرأة الحرة أن يتزوج الأمة الكتابية إذا كانت عفيفة.

وعلى هذا يمكن أن نخرج بالتقسيم التالي:

إذا قلنا: إن المقصود بالمحصنات العفائف الحرائر -كما قال ابن كثير- فمعنى ذلك أنه لا يجوز تزوج الأمة الكتابية ولو كانت عفيفة، ولا يجوز تزوج الحرة إن كانت غير عفيفة، ولا العفيفة إن كانت غير حرة، أي لا بد من هذا وهذا، فالحرة إذا كانت فاجرة قد هتك عرضها قبل ذلك فإنه لا يجوز للمسلم أن يتزوجها، وهذا إذا فسرت بالعفائف، وحال عامة نسائهم أنك تجدها قبل أن تصل إلى سن البلوغ تكون بكارتها قد ذهبت، ومع ذلك يأتي بعض من يذهب ليتعلم في بلادهم فيتزوجها، ويكفيه أنها تنتسب إلى الدول العظمى فهذا هو نسبها وهو أبوها وقبيلتها، والمقصود أنه يأتي بها مفجوراً بها قبلُ، كما لا يُعرف لها أبٌ حقيقي فيأخذها وليس عنده مشكلة، وإذا ذكرت له بنتاً يُعرف منبتها ومنشؤها وتربيتها في بلده لكن لا يُعرف لها قبيلة فإنه يأنف غاية الأنفة ويسترذل ذلك وتثور ثائرته وثائرة من معه وهذا عين الجهل وهو من انتكاس المفاهيم.

وعلى كل حال إذا فسرت هذه الآية بالحرائر فقط فمعنى ذلك أنه يجوز أن يتزوج الكتابية ولو كانت غير عفيفة -وهذا قاله بعض أهل العلم- لكن وإن قاله بعض أهل العلم فالآيات يفسر بعضها بعضاً، والله يقول: **{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** [(٣) سورة النـــور] ولولا أن بعض أهل العلم ذكر هذا لما أشرت إليه، فالآية لا تؤخذ بمجردها والله أعلم.

وقد كان عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} الآية [(٢٢١) سورة البقرة].

على كل حال قول ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- معروف، وخالفه في ذلك أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم فهذه الآية دليل على جواز نكاح النصرانية، فالله -عز وجل- يقول: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} [(٥) سورة المائدة] والذين أوتوا الكتاب يدخل فيه النصارى قطعاً، وهم مشركون، واليهود أيضاً عندهم شرك، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة] فاليهود عندهم شرك وعندهم قبور تعبد من دون الله -عز وجل-، عندهم أشياء من هذا القبيل إلا أن الشرك فيهم أقل من الشرك في النصارى، وعلى كل حال فهذا القول وإن قال به هذا الإمام من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- إلا أنه خالفه فيه عامة أهل العلم.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} الآية [(٢٢١) سورة البقرة] فلا شك أن الكتابيين من جملة المشركين ولكن الله -عز وجل- في بعض الأحيان يذكر هؤلاء ويذكر هؤلاء كما في قوله: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [(١) سورة البينة] وهذا يدل على وجود فرق بينهم مع أنهم من جملة المشركين، ويمكن أن يقال: هذا مما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا لكن هذا الأخير ليس بإطلاق، فإذا ذكروا مع المشركين فأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون سائر أهل الإشراك من عبدة الأوثان وغير ذلك، وإذا ذكر أهل الكتاب فلا ينفي عنهم الإشراك لكن ليس معنى ذلك أنه يدخل فيهم غير أهل الكتاب من المشركين، فالمقصود أن أهل الكتاب مع كونهم مشركين إلا أنه يباح التزوج من نسائهم، وقد تزوج جماعة من الصحابة كتابيات، فحال أهل الكتاب معروف منذ ذلك الحين، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: روى ابن أبي حاتم عن أبي مالك الغفاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت هذه الآية: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [(٢٢١) سورة البقرة] **قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ}** [(٥) سورة المائدة] **فنكح الناس نساء أهل الكتاب.**

وقد تزوج جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً أخذا بهذه الآية الكريمة: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} [(٥) سورة المائدة] **فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ}** [(٢٢١) سورة البقرة] **إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}** [(١) سورة البينة] **وكقوله: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ}** [(٢٠) سورة آل عمران] **الآية.**

وقوله: {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [(٥) سورة المائدة] **أي: مهورهن أي: كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس.**

وقد أفتى جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينه وبينها وتَرُدّ عليه ما بذل لها من المهر [رواه ابن جرير عنهم].

وقوله: {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} [(٥) سورة المائدة] **فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفا؛ ولهذا قال: {غَيْرَ مُسَافِحِينَ} وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم، {وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لا يحتاج إلى تعليق، ولكنه بقي في الآية بقية وهي قوله: **{وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٥) سورة المائدة] فابن كثير -رحمه الله- يترك مثل هذه أحياناً، ويبدو أنه يتركها سهواً ولا أظنه يتعمد تركها؛ لأن مثل هذا يحتاج إلى تفسير.

فعلى كل حال قوله تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٥) سورة المائدة] يمكن أن يكون مقيداً بالآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [(٢١٧) سورة البقرة] فيكون حبوط الأعمال بالردة إذا مات الإنسان عليها، لكن لو أن أحداً من الناس ارتد عن الإسلام ثم رجع إلى الإسلام، فهل يقال: إن جميع الأعمال التي عملها سابقاً قد بطلت؟ لا يقال هذا؛ لأن العام يحمل على الخاص والمطلق يحمل على المقيد، فالآية الأخرى ذكر فيها هذا القيد {فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [(٢١٧) سورة البقرة].

وعلى كل حال القول بأن الردة تحبط الأعمال بإطلاق، بمعنى أنه بمجرد ما يرتد المرء يحبط عمله هذا قال به طائفة من السلف، فالمسألة ليست محل إجماع، ولكن لعل الأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرت، وأن القرآن يبين بعضه بعضاً، فما أطلق في موضع بين في موضع آخر بقيد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} **[(٦) سورة المائدة].**

قوله: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} الآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ولكن هو في حق المحدث واجب وفي حق المتطهر ندب.

في قوله: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ} هذا أمر والأصل أن الأمر للوجوب، فهل يجب ذلك على كل قائم إلى الصلاة؟

مع أن سورة المائدة من آخر ما نزل في الأحكام، أي لم ينسخ منها شيء،ومع ذلك بعض أهل العلم يقول: كان في أول الأمر يجب على الإنسان إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ لكل صلاة، ثم نسخ ذلك لما فتح النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة حيث صلى الصلوات بوضوء واحد فلما سئل عن ذلك قال: ((عمداً فعلت))[1] فقالوا: كان يجب أن يتوضأ الإنسان لكل صلاة وهو ظاهر هذه الآية ثم بعد ذلك نسخ، لكن يقال: إن النسخ لا يثبت بالاحتمال، والقول بأن في سورة المائدة شيئاً منسوخاً فيه إشكال، ولهذا قال بعض أهل العلم: إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهارة أي عليكم حدث فتوضئوا، ولعله أحسن من هذا -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية فيها أمر عام بالوضوء إذا قام الإنسان إلى الصلاة، والأصل أن الأمر للوجوب لكن قد يصرفه صارف إلى الاستحباب، فإذا جمعنا النصوص فإننا نجد ما يفسره فنقول: الله -عز وجل- أمر بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، فهذا تارة يكون واجباً وذلك إذا كان الإنسان محدثاً وتارة يكون مندوباً وذلك إذا كان الإنسان متطهراً، ولا شك أنه يندب أو يستحب أو يسن للإنسان أن يتوضأ لكل صلاة، فهذا هو الأفضل والأكمل، فتكون الآية عامة ولكنها في حق المحدث للوجوب وفي حق المتوضئ –المتطهر- تكون للاستحباب، ويبقى الأمر على عمومه، وفي حق المتوضئ صرفه صارف من السنة وهو فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-

---

[1] - سيأتي تخريجه.

وعلى كل حال هذا الذي ذكرته أقرب في تفسير الآية، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري وابن كثير -رحمهما الله- والله تعالى أعلم.

وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نسخ.

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن سليمان بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ قال: ((إني عمداً فعلته يا عمر))[٢] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن جرير قال: حدثنا الفضل بن المُبَشِّر قال: رأيت جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين، فقلت: أبا عبد الله، أشيء تصنعه برأيك؟ قال: "بل رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- يصنعه فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصنعه" وكذا رواه ابن ماجه[٣].

وروى أحمد عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: أرأيت وضوء عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- لكل صلاة طاهرًا كان أو غير طاهر، عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ابن الغسيل -رضي الله تعالى عنه- حدثها أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان أُمر بالوضوء لكل صلاة طاهرًا كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أُمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء إلا مِن حدث فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك، كان يفعله حتى مات، وهكذا رواه أبو داود[٤].

وفي فعل ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- هذا ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

على كل حال حتى لو كان في أول الأمر يجب الوضوء لكل صلاة فهل يقال: إن الذي نُسخ هو آية المائدة؟ القول بهذا فيه إشكال؛ لأن القضية منفصلة، ولذلك إذا ثبت أنه كان يجب الوضوء لكل صلاة ثم نسخ فلا يعني هذا أن آية المائدة دلت على الوجوب ثم بعد ذلك نسخت وإنما يمكن أن تحمل آية المائدة على معنىً آخر غير الوجوب؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل فهي متأخرة جداً وبالتالي لم يُنسخ منها شيء وهذا هو المعروف، حتى إن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يكتفون أن يقولوا أحياناً: هذا مما نزل في المائدة أي أن هذا من المحكم الذي لم ينسخ، فلذلك لم يحتاجوا أن يقولوا: هذا مما لم يُنسخ، لذلك يمكن أن يؤخذ من السنة أن الوضوء في أول الإسلام كان واجباً لكل صلاة ثم نسخ، أما آية المائدة فليست في هذا والله أعلم.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة – باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد (٢٧٧) (ج ١ / ص ٢٣٢) والترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء أنه يصلى الصلوات بوضوء واحد (٦١) (ج ١ / ص ٨٩) وأحمد (٢٣٠٧٩) (ج ٥ / ص ٣٥٨) وابن حبان (١٧٠٨) (ج ٤ / ص ٦٠٧).

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها – باب الوضوء لكل صلاة ، والصلوات كلها بوضوء واحد (٥١١) (ج ١ / ص ١٧٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٥١١).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب السواك (٤٨) (ج ١ / ص ١٧) وأحمد (٢٢٠١٠) (ج ٥ / ص ٢٢٥) وحسنه الأرنؤوط والألباني في المشكاة برقم (٤٢٦).

وروى أبو داود عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج من الخلاء فقُدِّم إليه طعام فقالوا: ألا نأتيك بوضوء فقال: ((إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة)) وكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن[٥].

هذا الحديث أيضاً لا يدل على أنه أمر بالوضوء إذا قام إلى الصلاة بإطلاق، بمعنى أنه كلما قام إلى الصلاة يؤمر بالوضوء، ولذلك فإن بعض الفقهاء -رحمهم الله- ممن قال: إن الطواف لا يشترط له الطهارة استدلوا بهذا الحديث: ((إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة)) وقالوا: إذن إذا أراد أن يطوف فلا وضوء عليه؛ لأن مفهوم الحديث أنه لم يؤمر بالوضوء لشيء آخر غير الصلاة، لكن نقول: إن هذا غير صحيح؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- إنما أراد هنا أن يبين لهم أن أكل الطعام لا يطلب فيه الوضوء، لكن يطلب الوضوء في أشياء أخرى مثل ما إذا كان الإنسان جنباً وأراد أن يأكل أو ينام، وكذلك أيضاً فيما يتعلق بقراءة القرآن، وذكر الله -عز وجل-، ولذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سلم عليه رجل تيمّم ورد عليه السلام وبين أنه كره أن يذكر الله إلا على طهارة[٦]، فالوضوء ليس للصلاة فقط ولكن أراد أن ينبههم هناك إلى أن الأكل لا يطلب له الوضوء فحسب، وهذه طريقة معروفة في الخطاب، فالله -عز وجل- يقول: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] مع أنه توجد محرمات أخرى غير ما ذكر في هذه الآية، لكن هذا في باب الرد على المشركين الذين حرموا أشياء من عند أنفسهم فردَّ الله -عز وجل- عليهم بهذا، والله أعلم، وقد يقال في هذا كلام آخر.

وروى مسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأُتي بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضأ؟ فقال: ((لم؟ أأصلي فأتوضأ؟))[٧].

وقوله: {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ} [(٦) سورة المائدة] **قد استُدل بقوله تعالى: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ}** [(٦) سورة المائدة] **على وجوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم أي: له، وقد ثبت في الصحيحين حديث ((الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))**[٨].

هذه الآية العلماء -رحمهم الله- تكلموا على ما تضمنته من أعمال الوضوء، وتكلموا على النية هل ذكرت في هذه الآية أو لم تذكر، فبعضهم قال: لم تذكر في هذه الآية لكن دلت عليها السنة في قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((إنما الأعمال بالنيات)) ومنهم من قال: بل النية مضمنة في الآية: **{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ**

---

5 - أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة - باب في غسل اليدين عند الطعام (٣٧٦٢) (ج ٣ / ص ٤٠٤) والترمذي في كتاب الأطعمة – باب في ترك الوضوء قبل الطعام (١٨٤٧) (ج ٤ / ص ٢٨٢) والنسائي في كتاب الطهارة - باب الوضوء لكل صلاة (١٣٢) (ج ١ / ص ٨٥) وأحمد (٢٥٤٩) (ج ١ / ص ٢٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٣٧) وأصل الحديث في صحيح مسلم كما سيأتي.

6 - أخرجه البخاري في كتاب التيمم - باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخاف فوت الصلاة (٣٣٠) (ج ١ / ص ١٢٩) ومسلم في كتاب الحيض - باب التيمم (٣٦٩) (ج ١ / ص ٢٨١) دون قوله: ((إني كرهت أن أذكر الله عز وجل إلا على طهر)) ورواه بهذا اللفظ أبو داود في كتاب الطهارة – باب أيرد السلام وهو يبول؟ (١٧) (ج ١ / ص ٨) وذكر أنه توضأ، وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤٦٧).

7 - أخرجه مسلم في كتاب الحيض - باب جواز أكل المحدث الطعام وأنه لا كراهة في ذلك وأن الوضوء ليس على الفور (٣٧٤) (ج ١ / ص ٢٨٢).

8 - أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) (ج ١ / ص ٣) ومسلم في كتاب الإمارة - باب قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنية)) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (١٩٠٧) (ج ٣ / ص ١٥١٥).

وُجُوهَكُمْ} [(٦) سورة المائدة] فنحن لا نغسل وجوهنا للتبرد ولا للنظافة وإنما نغسلها للطهارة الشرعية أي للصلاة، فالغسل هذا لأجل القيام للصلاة، إذاً هذا الغسل إنما هو لاستباحة الفعل وهو الصلاة، فهذه طهارة شرعية ولذلك قالوا: النية مضمنة في الآية.

ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه))[9].

الحديث على كل حال فيه كلام كثير لأهل العلم في صحته وضعفه، فمنهم من ضعفه ومنهم من صححه، والذين صححوه اختلفوا في هذا الأمر هل هو للوجوب أم للاستحباب، وعلى أنه للوجوب هل يسقط ذلك بالنسيان أو لا يسقط، وعلى كل حال فالأحوط للإنسان أن لا يترك التسمية على الوضوء، والله أعلم.

ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدَكم لا يَدْرِي أين باتت يده))[10].

على كل حال ظاهر الأمر للوجوب وأن الإنسان إذا استيقظ من النوم يجب عليه أن يغسل كفيه، وأما في غير المستيقظ من النوم في ابتداء الوضوء فقد يقال بالاستحباب.

وهذه المسألة فيها تفاصيل كثيرة لكن ليس هذا موضعها، وإنما يدرس هذا في الفقه.

وحد الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم إلى منتهى اللحيين والذقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

يقال: فلان أغم الجبهة يعني أن منابت الشعر منحدرة في جبهته أي ينبت عليها شعر والآخر أصلع، وإذا كان منبت الشعر من جانبي الرأس يقال: فلان أجلح، فالعبرة في المنابت، وبعض أهل العلم لا يحدد الرأس بمنابت الشعر وإنما يحدده من بداية الانحناء في أعلى الجبهة إلى أسفل الذقن، وأما في العرض فكثير من الفقهاء من أهل العلم يقولون: من الأذن إلى الأذن، ومنه العذار والصدغ.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

9 - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب التسمية على الوضوء (١٠٢) (ج ١ / ص ٣٧) والترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء في التسمية عند الوضوء (٢٥) (ج ١ / ص ٣٧) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها - باب ما جاء في التسمية في الوضوء (٣٩٨) (ج ١ / ص ١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٥٧٣) وقال عنه في صحيح أبي داود برقم (١٠٢):إنه صحيح مقطوع.

10 - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الاستجمار وتراً (١٦٠) (ج ١ / ص ٧٢) ومسلم في كتاب الطهارة - باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثاً (٢٧٨) (ج ١ / ص ٢٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وروى الإمام أحمد عن أبي وائل قال: رأيت عثمان -رضي الله تعالى عنه- يتوضأ -فذكر الحديث- قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ثم قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعل الذي رأيتموني فعلت [رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البخاري].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء، فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: "هكذا رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعني يتوضأ" [ورواه البخاري].

وقوله: {وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [(٦) سورة المائدة] أي: مع المرافق، كما قال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} [(٢) سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد أورد المؤلف هذه الرواية المتعلقة بتخليل اللحية وهذا أحد الأحاديث الواردة في مشروعية تخليل اللحية، ومعلوم أن التخليل إنما يكون للحية الكثيفة أما إذا كانت البشرة ظاهرة لخفة اللحية فإنه يجب غسل ما تحتها، والأحاديث الواردة في الوضوء كثيرة، وبالنسبة لما يتعلق هنا بحديث ابن عباس -رضي الله عنه- فإن قوله: "**توضأ فغسل وجهه**" أُخذ منه أن غسل الكفين سنة وليس بواجب.

ثم ذكر غسل اليدين بعد غسل الوجه والمراد بذلك غسل اليدين إلى المرافق قال تعالى: {وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [(٦) سورة المائدة] أي مع المرافق، وذلك أن المغيّا بغاية هل تدخل فيه هذه الغاية أو لا تدخل فيه؟ بناءً على ذلك اختلفوا في المرافق هل يجب غسلها في الوضوء أو لا يجب؟

من نظر إلى أن المغيّا بغاية لا تدخل الغاية فيه، قال: لا يجب، وهذا الذي مشى عليه جماعة من الفقهاء ومن المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ومن نظر إلى أن الغاية داخلة أوجب غسل المرافق.

ومن أهل العلم من يفصل في ذلك -وهو تفصيل حسن- فيقول: إن كان ما بعد الغاية داخلاً فيها لولا الغاية فإنها تدخل، وإن كان لا يدخل فيها فإنها لا تدخل، فإذا قلت مثلاً: أبيعك هذه الأرض إلى المسجد فالغاية هنا هي المسجد فهي هنا غير داخلة لكن إذا قلت: أبيعك هذا الشجر إلى هذه النخلة فالنخلة داخلة فيه بهذا الاعتبار، وكذلك اليد تطلق في كلام العرب على هذا العضو بكامله إلى المنكب، فلو قال: اغسلوا أيديكم ولم

يحددها بالمرافق لكان ذلك شاملاً لليد من أولها إلى آخرها، فالغاية داخلة بهذا الاعتبار من الناحية الأصولية، والمقصود أنه يجب غسل المرافق مع اليدين، والله تعالى أعلم.

طبعاً هنا قال: إلى المرافق وفي الأقدام قال: إلى الكعبين، فالمرافق جمَعَها وفي الكعبين ثنى، فبعض أهل العلم يقول: وجه ذكر الكعبين بالتثنية أن المرافق لا تلتبس فكل يد فيها مرفق واحد وأما الرجل ففي الواحدة منهما كعبان فحتى لا يظن أن ذلك يتصل بجهة واحدة قال: إلى الكعبين ليكون ذلك مختصاً بالرجل الواحدة، ومنهم من عكس فقال: الكعب الموجود في الرجل الواحدة هو كعب واحد له طرفان، فلما كان يتوهم أو قد يتوهم أن في كل رجل كعبين قال: إلى الكعبين بمعنى أن المجموع في الرجلين كعبان، والله تعالى أعلم، **ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه؛ لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل))**[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت خليلي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء))[2].

الراجح في هذا هو ما عليه الجمهور من أن المقصود إسباغ الوضوء وليس المقصود الزيادة على ما حده الله -عز وجل- ولكن لا ينقص منه، فيكون الوضوء سابغاً بغسل سائر العضو دون أن يزيد فيه على الحد الذي أمر الله -عز وجل- به.

وقوله تعالى: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ} [(٦) سورة المائدة] "الباء" للإلصاق.

هنا يقول: "**الباء للإلصاق**" وهذا من أقرب ما تفسر به، وإذا قلت: إنها للإلصاق تكون دالة على أنه يجزئ مسح بعض الرأس، وإذا قلت: إن الباء للتبعيض فبهذا يحتج من يقول: إنه يجزئ أن يمسح ببعض الرأس، ويحتجون من السنة بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مسح على ناصيته والعمامة، وعلى كل حال فالباء تأتي في لغة العرب لمعانٍ، فنأتي للإلصاق وتأتي للمجاورة أيضاً، تقول: مررت بزيد، مررت بالمسجد، وتأتي للسببية كما في قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ} [(١٥٥) سورة النساء] أي: بسبب نقضهم ميثاقهم، فأحسن ما تفسر به هنا -والله تعالى أعلم- هو الإلصاق، وهذا الإلصاق قد يكون شاملاً للرأس وقد لا يكون شاملاً وإن كان الرأس يصدق على الجميع في قوله: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ} [(٦) **سورة المائدة**] فالرأس هنا مضاف إلى الضمير -كاف الخطاب- وذلك للعموم، حيث إن هذا الاسم –الرأس- أضيف إلى معرفة -كاف الخطاب- فهذا يكسبه العموم فيشمل سائر الرأس، وهذا يعتبر استدلالاً من الآية، وأما من السنة فالأحاديث الواردة في هذا كثيرة، حيث توجد روايات متنوعة تبين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مسح على رأسه بيديه، أقبل بهما وأدبر[3]، فذلك يشمل سائر الرأس.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب فضل الوضوء والغر المحجلين من آثار الوضوء (١٣٦) (ج ١ / ص ٦٣).

2 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠) (ج ١ / ص ٢١٩).

3 - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء- باب مسح الرأس كله (١٨٣) (ج ١ / ص ٨٠) ومسلم في كتاب الطهارة - باب في وضوء النبي صـــلى الله عليه وسلم (٢٣٥) (ج ١ / ص ٢١٠).

وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم، وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم-: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه.

هذا الحديث فيه تنويع في العدد، أي أنه يمكن غسل بعض الأعضاء مرتين وبعض الأعضاء تغسل ثلاثاً، ويمكن أن تغسل مرة واحدة ليس في ذلك إشكال.

وقوله: "**ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر**" هذه العبارة تكلم العلماء على معناها واستشكلها كثير منهم من جهة أنّ أقبل بهما وأدبر يقتضي أنه بدأ من القفا إلى مقدم الرأس، وبعضهم أراد أن يخرج من هذا وقال: يبدأ من وسط الرأس فيقبل بيديه إلى الأمام ثم يمسح إلى قفاه، وبعضهم يقول غير هذا ولا حاجة لذلك فهو مفسر بما بعده، بدأ بمقدم رأسه إلى قفاه.

وإذا نظرت إلى هذه اللفظة من حيث الحروف والألفاظ قد تستشكلها، لكن إذا نظرت إليها باعتبار المعنى تجد أن أقبل بهما وأدبر يعني بدأ من أول رأسه إلى آخره أي أنه بدأ من قفاه، هذا هو المعنى المتبادر حينما يسمع الإنسان مثل هذا الوصف، لكن الوقوف عند الحروف والألفاظ يصيرها مشكلة أحياناً، وهذا مثال من أمثلته.

وفي حديث عبد خير عن علي -رضي الله تعالى عنه- في صفة وضوء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نحو هذا.

وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب -رضي الله تعالى عنهما- في صفة وضوء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مثله، ففي هذه الأحاديث دلالة على وجوب تكميل مسح جميع الرأس.

روى عبد الرزاق عن حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثا، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال: ((من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين[٤].

وفي سنن أبي داود عن عثمان -رضي الله تعالى عنه- في صفة الوضوء: "ومسح برأسه مرة واحدة"[٥].

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء- باب الوضوء ثلاثاً ثلاثا (١٥٨) (ج ١ / ص ٧١) ومسلم في كتاب الطهارة - باب صفة الوضوء وكماله (٢٢٦) (ج ١ / ص ٢٠٤).

5 - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب صفة وضوء النبي -صلى الله عليه وسلم- (١١٥) (ج ١ / ص ٤٣) وصححه الألباني في سنن أبي داود برقم (١١٥).

وقوله: {وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ} [(٦) سورة المائدة] قُرئ: {وَأَرْجُلَكُمْ} بالنصب عطفا على {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} [(٦) سورة المائدة].

الذي قرأ بالنصب جماعة من القراء السبعة وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وعاصم في رواية حفص، وقراءة الجر وأرجلِكم، أيضاً هي قراءة سبعية متواترة، ووجهها ظاهر ومعروف، وهي قراءة ابن كثير وحمزة وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر.

إذا قرأت: {وَأَرْجُلَكُمْ} بالنصب يكون ذلك عطفاً على {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} [(٦) سورة المائدة] أي أن أيديكم مفعول به منصوب عائد على غسل الوجوه والأيدي يعني واغسلوا أرجلكم.

ورءوسِكم من قوله: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ} [(٦) سورة المائدة] مجرور بحف الجر –الباء- فإذا قرأت (وأرجلِكم) بالكسر فبعض أهل العلم يقول: الجر هنا للمجاورة.

ومن أراد التفصيل في هذا وذكْر الشواهد من القرآن ومن كلام العرب والرد على من أنكر هذا الإعراب ووهّن الجر بالمجاورة فليرجع إلى أضواء البيان فسيجد في هذا تفصيلاً وشواهد من القرآن ومن كلام العرب على صحة هذا الإعراب -أعني الجر بالمجاورة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قرأها: {وَأَرْجُلَكُمْ} يقول: رجعت إلى الغسل.

وروي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وعروة وعطاء، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضحاك، والسدي، ومُقاتل بن حيان، والزهري، وإبراهيم التيمي نحو ذلك.

وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب: جحرُ ضبٍّ خربٍ.

قول العرب: "**جحرُ ضبٍّ خربٍ**" خرب ترجع إلى الجحر، فالمفروض أن يقال: جحرُ ضبٍّ خربٌ، أي أنه يكون مرفوعاً صفة للجحر، وإنما قال: "خربٍ" بالكسر للمجاورة -لمجاورة الضب- وكذلك الأمر في قوله: (وامسحوا برءوسكم وأرجلِكم) الجر من الناحية الصورية اللفظية، لكن من ناحية المعنى هو منصوب؛ لأنه يرجع إلى الغسل فالرجل مغسولة وليس المقصود أنها تمسح.

ومن أهل العلم من خرج ذلك بتخريجين آخرين دون القول بأنه مجرور للمجاورة، وإنما قال: هو مجرور للمعنى، أي أن المقصود هو مسح الرجل؛ لأن للرجل حالتين، الأولى أن تكون مغسولة، وهذا هو الأصل فيها، والثاني: أن تكون ممسوحة، وذلك إذا كان على القدم ما يواريها من خف أو جورب، قال: والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقراءتان إن كان لكل قراءة معنىً يخصها وبينهما تعارض في المعنى، أي أن هذه لها معنىً آخر غير معنى هذه القراءة، قالوا: فهما كالآيتين، ففي الكسر (وأرجلِكم) يعني المسح على الخفين والجوربين، وأرجلَكم بالنصب يعني الغسل.

ومن أهل العلم من قال: إن ذلك على ظاهره ولا يعني عدم الغسل وإنما المراد أن تغسل وتمر عليها اليد فتكون ممسوحة بهذا الاعتبار، لا أنه يقتصر على المسح دون الغسل؛ لأنه جاء الوعيد: ((ويل للأعقاب من

النار))[٦] في أكثر من حديث وكذلك أيضاً صفة وضوء النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يغسل رجليه، ولم يكتف -عليه الصلاة والسلام- بالمسح، ومعلوم أن السنة تفسر القرآن، والمشهور عند أهل العلم أن ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول بالمسح احتجاجاً بهذه الآية، وهذا غير صحيح وإن كان مشهوراً عنه ومتناقل، لكنهم -والله أعلم- فهموا كلامه على غير مراده، وإنما خلاصة كلام ابن جرير أنه يرى وجوب غسل الرجل والاستيعاب بالغسل لكن مع إمرار اليد، فهذا هو المسح المقصود الذي أراده ابن جرير.

والعلماء مختلفون أصلاً في الغسل المجزئ في أي عضو من أعضاء الوضوء، هل يكفي إمرار الماء عليه؟

والفرق بين الغسل والمسح معروف، فالغسل هو سيلان الماء على العضو بخلاف المسح الذي يكون باليد.

مسألة: هل يكفي سيلان الماء على العضو أم لا بد من المسح مع ذلك سواء كان المغسول هو الوجه أو اليد أو الرجل؟

هذه مسألة خلافية معروفة في الفقه، فمن أهل العلم من يرى أنه لا يجزئ مجرد الغسل، فلو أنك وضعت رجلك تحت الصنبور وصب عليها الماء، هل يكفي هذا أو لا يكفي؟

الأقرب أنه لا يكفي، لكن من أهل العلم من يقول: إن ذلك لا يكفي، وأنه لا بد من إمرار اليد عليها، فإن قيل: لماذا خص الرجل؟ قيل: خص الرجل لأنها بحاجة لمزيد من العناية؛ لأن الماء قد ينبو عن بعضها، ولأنها محل أكثر مكان بحاجة إلى التنظيف.

وبعض أهل العلم قال: هنا ذكر المسح في الرجل والمقصود به الغسل؛ لأن ذلك مظنة للإسراف بالماء وتبديده فعبر بالمسح ليكون ذلك دالاً على التخفف في إراقة الماء وصبه عليها، هكذا فهم بعضهم، والله أعلم.

وعلى كل حال إذا قرأنا كلام ابن جرير سيظهر أنه لا يقصد أبداً أن المسح وحده يجزئ، وإن كان ذلك قد اشتهر عنه كثيراً وتناقله العلماء فيقولون: الذي يرى المسح على الرجلين من أهل السنة ابن جرير، ويقولون: هذا قول ابن جرير، والرافضة، لكن إذا قرأنا كلامه في الدرس القادم فسيظهر مراده –رحمه الله-.

والإشكال أن الكثير من الناس أحياناً يتناقلون الشيء وهم لم يقرءوه ولم يتأملوه وإنما ينقل بعضهم عن بعض، ومن أمثلة ذلك أن مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة تناقل الناس عنه كلام أبي حنيفة أنه جاءنا من قبل المشرق رأيان خبيثان جهم معطل ومقاتل مجسم، ومقاتل له كتاب في التفسير أربعة مجلدات، وله تفسير خمسمائة آية حقق في رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية، أعني أن كتبه موجودة وليس فيها أي شيء من التجسيم، ولذلك لما ذكره شيخ الإسلام في كتابه منهاج السنة قال: وقد لا يثبت عنه، ومع ذلك الناس يتناقلون هذا عنه، فإذا ذُكر مقاتل ذكر التجسيم، ولا يوجد في كتبه شيء من هذا، والله أعلم.

وكقوله تعالى: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} [(٢١) سورة الإنسان] وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ.

من يراجع كلام الشنقيطي -رحمه الله- في هذا الموضوع –الجر بالمجاورة- سيجد فيه ما يكفي ويشفي بإذن الله -عز وجل-.

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب من رفع صوته بالعلم (٦٠) (ج ١ / ص ٣٣) ومسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (٢٤١) (ج ١ / ص ٢١٤).

وهذه القراءة {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ} [(٢١) سورة الإنسان] الشاهد فيها أنها على قراءة ابن كثير وأبي بكر: سندسٍ خضرٍ وإستبرقٌ أي أن الجر في خضر، وإستبرق تكون مرفوعة، وفي قراءة حمزة والكسائي يكون الخفض أيضاً في إستبرقٍ.

فسندس مضاف إليه، وخضر صفة للثياب وجُرَّت في قراءة ابن كثير للمجاورة، هذا توجيه طبعاً وإلا فإن بعضهم يقول: الخضر للسندس، أي أن السندس أخضر، وكلام المعربين والموجهين للقراءات كثير في هذا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم في حديث أميري المؤمنين عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معد يكرب -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غسل الرجلين في وضوئه إما مرة وإما مرتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: تخلف عنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سفرة سافرناها فأدرَكَنا وقد أرهقتنا الصلاةُ -صلاةُ العصر- ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته: ((أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار))[١] وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- [٢] وفي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار))[٣].

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ويل للأعْقَاب وبُطون الأقدام من النار)) رواه البيهقي والحاكم وهذا إسناد صحيح[٤].

وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((ارجع فأحسن وضوءك)).

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ارجع فأحسن وضوءك))[٥].

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب من رفع صوته بالعلم (٦٠) (ج ١ / ص ٣٣) ومسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (٢٤١) (ج ١ / ص ٢١٤).

2 - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء – باب غسل الأعقاب (١٦٣) (ج ١ / ص ٧٣) ومسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (٢٤٢) (ج ١ / ص ٢١٤).

3 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (٢٤٠) (ج ١ / ص ٢١٣).

4 - أخرجه أحمد (١٧٧٤٧) (ج ٤ / ص ١٩١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٣١) (ج ١ / ص ٧٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٢٠).

5 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة (٢٤٣) (ج ١ / ص ٢١٥).

وروى الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لُمْعَة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يعيد الوضوء ورواه أبو داود من حديث بقية، وزاد: ((والصلاة)) وهذا إسناد جيد قوي صحيح[٦] والله أعلم.

وفي حديث حمران عن عثمان –رضي الله تعالى عنه- في صفة وضوء النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه خلل بين أصابعه[٧].

وروى أهل السنن عن لقِيط بن صبرة -رضي الله تعالى عنه- قال، قلت: يا رسول الله ،أخبرني عن الوضوء: فقال: ((أسبغ الوضوء، وخَلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً))[٨].

روى الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس -رضي الله تعالى عنه- قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة[٩] وقد رواه أبو داود عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتى سُبَاطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه[١٠].

وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البَجَلي –رضي الله عنه- قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمسح بعد ما أسلمت، تفرد به أحمد[١١].

وفي الصحيحين عن هَمَّام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بال ثم توضأ ومسح على خفيه، قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة، لفظ مسلم[١٢].

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً.

وقوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ} [(٦) سورة المائدة] كل ذلك قد تقدَّم الكلام عليه في تفسير آية النساء فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لئلا يطول الكلام، وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى هاهنا حديثا خاصاً بهذه الآية الكريمة، فقد روى عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونزل، فثنى رأسه في حجري راقدًا، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست

---

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب تفريق الوضوء (١٧٥) (ج ١ / ص ٦٨) وأحمد (١٥٥٣٤) (ج ٣ / ص ٤٢٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٥).

[7] - الحديث في الصحيحين وسيأتي ذكره وتخريجه.

[8] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب في الاستنثار (١٤٢) (ج ١ / ص ٥٤) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في كراهية مبالغة الاستنشاق للصائم (٧٨٨) (ج ٣ / ص ١٥٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٤٠٥).

[9] - أخرجه أحمد (١٦٢٠٣) (ج ٤ / ص ٨) وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[10] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب ٦٢(١٦٠) (ج ١ / ص ٦٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٥٠).

[11] - أخرجه أحمد (١٩٢٤١) (ج ٤ / ص ٣٦٣) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على هذا الحديث: "رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن مجاهداً لم يتحرر لنا أمره أسمع من جرير أم لم يسمع وزياد بن عبد الله بن علاثة وإن وثقه ابن معين إلا أن في حفظه شيئاً".

[12] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب المسح على الخفين (٢٧٢) (ج ١ / ص ٢٢٧).

الناس في قلادة، فتمنيت الموت لمكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مني، وقد أوجعني، ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجَد، فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ} [(٦) سورة المائدة] **إلى آخر الآية، فقال أسَيْد بن الحُضَيَر -رضي الله تعالى عنه-: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم**[١٣].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكثير من التفاصيل التي تضمنتها هذه الآية مضت في الكلام على سورة النساء، وعلى كل حال ليس المقصود من مثل هذه القراءة التوسع في الأحكام، وما قد يحتاج إلى تعليق هنا هو أن الله -عز وجل- قال هنا في سورة المائدة: **{فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}** [(٦) سورة المائدة] فـ"مِن" هنا تحتمل أن تكون تبعيضية، وبهذا احتج من قال: إنه لا بد أن يعلق شيء من هذا الصعيد باليد، وهو قول الإمام أحمد -رحمه الله- والشافعي، وطائفة من أهل العلم، ومن قال: إنها لابتداء الغاية قال: لا يشترط أن يعلق بيده شيء، وهو أيضاً قول معروف قال به من الأئمة الإمام مالك وأبو حنيفة، وعلى كل حال هذه مسألة معروفة.

وقوله: {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ} [(٦) سورة المائدة] **أي: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم وجعله في حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.**

وقوله تعالى: {وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٦) سورة المائدة] **أي: لعلكم تشكرون نعمَه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة.**

وقد وردت السنة بالحثِّ على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروّحتها بعشيٍّ، فأدركت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: ((ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة)) قال: قلت: ما أجود هذا! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر -رضي الله تعالى عنه- فقال: إني قد رأيتك جئت آنفاً، قال: ((ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ -أو فيسبغ- الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)) لفظ مسلم[١٤].

وروى مالك عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء -أو مع آخر قطْر الماء-

---

[13] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة المائدة (٤٣٣٢) (ج ٤ / ص ١٦٨٤).

[14] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) (ج ١ / ص ٢٠٩).

فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء -أو مع آخر قطْر الماء- حتى يخرج نقياً من الذنوب)) [رواه مسلم][(١٥)].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الطَّهور شَطْر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصوم جنة، والصبر ضياء، والصدقة بُرهان، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يَغْدُو، فبائع نفسه فَمعتِقهَا أو مُوبِقُهَا))[(١٦)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور))[(١٧)].

ابن جرير –رحمه الله- له كلام فيما يتعلق بالرجْلين وهي فائدة لو سافر أحد إلى أقصى الشرق أو أقصى الغرب من أجلها لما كان كثيراً، وعلى كل حال فالمشهور عن ابن جرير -الذي يُتناقل عنه- أنه يقول بمسح الرجلين إلا أن الصواب خلافه، فلنقرأ كلام ابن جرير -رحمه الله- حول هذه المسألة.

قال أبو جعفر –رحمه الله-: اختلفت القرأة في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من قرأة الحجاز والعراق: {وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} [(٦) سورة المائدة] **نصباً، فتأويله: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديَكم إلى المرافق وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحوا برءوسكم، وإذا قرئ كذلك كان من المؤخر الذي معناه التقديم وتكون الأرجل منصوبة عطفاً على الأيدي، وتأول قارئو ذلك كذلك أن الله -جل ثناؤه- إنما أمر عباده بغسل الأرجل دون المسح بها.**

وقال: وقرأ ذلك آخرون من قرأة الحجاز والعراق: (وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ) [(٦) سورة المائدة] **بخفض الأرجل، وتأول قارئو ذلك كذلك أنّ الله إنما أمر عباده بمسح الأرجل في الوضوء دون غسلها وجعلوا الأرجل عطفاً على الرأس فخفضوها لذلك.**

قال أبو جعفر: والصواب من القول عندنا في ذلك أن الله -عزّ ذكره- أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم.

ابن جرير ذكر القولين والآن سيرجح، حيث إن طريقته –رحمه الله- أنه كثيراً ما يذكر القولين والثلاثة والأربعة ثم يذكر ترجيحه الذي يجمع فيه بين هذه الأقوال، فهو لا يقتصر على واحد منها في كل حال، وإنما أحياناً يرجح واحداً وأحياناً يجمع بين هذه الأقوال بوجه من الجمع.

كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقاً اسم ماسحٍ غاسلٍ؛ لأن غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو غاسل ماسح.

---

15 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٤) (ج ١ / ص ٢١٥).

16 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء (٢٢٣) (ج ١ / ص ٢٠٣).

17 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب الطهارة للصلاة (٢٢٤) (ج ١ / ص ٢٠٣).

ولذلك من احتمال المسح المعنيين اللذين وصفت من العموم والخصوص اللذين أحدهما مسح ببعض والآخر مسح بالجميع.

اختلفت قراءة القرأة في قوله: {وَأَرْجُلَكُمْ} [(٦) سورة المائدة] فنصبها بعضهم توجيهاً منه ذلك إلى أن الفرض فيهما الغسل.

يقول: إن الآية محتملة للمسح ببعض والمسح بالجميع، وقوله: مسح ببعض هو القول الثاني في المسألة التي ذكرها وهو ما يفعله الرافضية حيث يرون مسح ظاهر الرجل كما يمسح في التيمم.

وقوله: "**والآخر مسح بالجميع**" يعني مسح مع الغسل بحيث يمر يده عليها، وهذه الصورة من الفقهاء من يجعلها واجباً وأن الغسل يُطلب فيه دلك العضو ولا يكفي إمرار الماء عليه، ولا يقال له غسل أصلاً إلا بسيلان الماء على العضو.

فنصبها بعضهم توجيهاً منه ذلك إلى أن الفرض فيهما الغسل وإنكاراً منه المسح عليهما مع تضافر الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعموم مسحهما بالماء.

لم تتضافر الأخبار عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه مسح عليهما بمعنى المسح المعروف وإنما يقصد به الدلك ولذلك جاء استحباب تخليل الأصابع.

وخفضها بعضهم توجيهاً منه ذلك إلى أن الفرض فيهما المسح، ولما قلنا في تأويل ذلك إنه معنيّ به عموم مسح الرجلين بالماء، كره من كره للمتوضئ الاجتزاءَ بإدخال رجليه في الماء دون مسحهما بيده.

مجرد صب الماء على الرجلين يقول: إنه كرهه بعضهم أي لأنه لا بد من إمرار اليد مع إمرار الماء على العضو، وليس المقصود أنه يمسح مسحاً مجرداً كما هو مشهور عنه.

كره من كره للمتوضئ الاجتزاءَ بإدخال رجليه في الماء دون مسحهما بيده، أو بما قام مقام اليد توجيهاً منه قوله: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ} [(٦) سورة المائدة] إلى مسح جميعهما عامًّا باليد أو بما قام مقام اليد دون بعضهما مع غسلهما بالماء، فإذا كان المسحَ المعنيان اللذان وصفنا من عموم الرجلين بالماء وخصوص بعضهما به وكان صحيحًا بالأدلّة الدالة التي سنذكرها بعدُ أنّ مراد الله من مسحهما العموم وكان لعمومهما بذلك معنى الغسل والمسح فبيِّنٌ صواب قرأة القراءتين جميعًا -أعني النصب في الأرجل والخفض-؛ لأن في عموم الرجلين بمَسحهما بالماء غسلهما وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.

قوله: "**لأن في عموم الرجلين بمَسحهما بالماء غسلُهما وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحُهما**"، يعني أن هذا هو الجمع بين القراءتين، فعلى الجر: أن تمر يدك عليهما، وعلى النصب: أن تغسلهما بصب الماء عليهما.

فوجه صواب قراءة من قرأ ذلك نصباً لما في ذلك من معنى عمومها بإمرار الماء عليهما، ووجهُ صواب قراءة من قرأ خفضاً لما في ذلك من إمرار اليد عليهما أو ما قام مقام اليد مسحاً بهما غير أنّ ذلك وإن كان كذلك وكانت القراءتان كلتاهما حسناً صواباً فأعجب القراءتين إليّ أن أقرأها قراءة من قرأ ذلك خفضًا؛ لما وصفت من جمع المسح المعنيين اللذين وصفت ولأنه بعد قوله: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ} فالعطف به على

الرءوس مع قربه منه أولى من العطف به على الأيدي، وقد حيل بينه وبينها بقوله: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ}
[(٦) سورة المائدة].

فإن قال قائل: وما الدليل على أن المراد بالمسح في الرجلين العموم دون أن يكون خصوصًا، نظيرَ قولك في المسح بالرأس؟ قيل: الدليل على ذلك تظاهرُ الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ويل للأعقاب وبُطون الأقدام من النار))[١٨] ولو كان مسح بعض القدم مجزئاً من عمومها بذلك لما كان لها الويل بترك ما تُرك مسحه منها بالماء بعد أن يُمسح بعضها؛ لأن من أدَّى فرض الله عليه فيما لزمه غسلُه منها لم يستحق الويل، بل يجب أن يكون له الثواب الجزيل، وفي وجوب الويل لعَقِب تارك غسل عَقِبه في وضوئه أوضحُ الدليل على وجوب فرض العموم بمسح جميع القدم بالماء وصحة ما قلنا في ذلك، وفساد ما خالفه.

الكلام واضح منه أن ابن جرير –رحمه الله- يرجح قراءة الجر من جهة المعنى ومن جهة الإعراب؛ لأن فيها الجمع بين الغسل والمسح أي بأن تصب الماء عليها وتمر اليد، ويقول: لأن ذلك يرجع إلى ما قبله: **(وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)** فيكون معطوفاً على الذي قبله فلا يخالف بينه وبينه في الإعراب، هذا هو معنى كلام ابن جرير إذا أخذت كلامه بمجموعه بأن ضممت الكلام بعضه إلى بعض، ومعروف أن أسلوب ابن جرير -رحمه الله- ومن كان في عصره مثل ابن قتيبة وأمثالهما كانوا يكتبون بهذه الطريقة، وهذه الطريقة تعتبر في زمانهم طريقة راقية في الأسلوب والتعبير والخطاب، والناس لم يكونوا يعهدونها في الأزمان التي بعدهم، ولذلك يجد القارئ إشكالات أثناء القراءة، ولهذا فإن الشيخ محمود شاكر -رحمه الله- كما قال بعض المحققين الكبار عنه: إنه يستحق أن يعطى رسالة دكتوراه فخرية لمجرد علامات الترقيم التي وضعها في تحقيقه لابن جرير؛ لأن تفسير ابن جرير بدون علامات الترقيم التي وضعها يشكل فهم كثير من المواضع فيه فلا تفهم المراد، لكن لما يضع شرطة في مكان معين دلَّ ذلك على أن الكلام الآن يتصل بما قبله وأن ما سبق فيه نوع تفصيل، وهكذا أحياناً لا تستطيع أن تفهم المعنى حتى تفكر في الكلام الذي قاله قبلُ وتضم بعض الجمل إلى بعض فترجع هذه هنا وهذه هنا وتعيد الصياغة حتى تفهم، فربما كان هذا سبب استشكال بعض كلام ابن جرير في التفسير مع أن عباراته واضحة إذا جمعناها إلى غيرها من خلال ذكره تضافر الأخبار عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالمسح، وذكره حديث: ((ويل للأعقاب من النار))[١٩].

وإذا كانت الآية على قراءة الجر يمكن أن يفهم منها مجرد المسح فهي تحتمل هذا المعنى لكن السنة مفسرة للقرآن فلا بد من الجمع بينهما، وإلا فمن أين عرفنا استحباب تخليل الأصابع وتخليل اللحية في الوضوء وكذلك بعض التفاصيل الأخرى المتعلقة بالوضوء مما لم يذكر في الآية؟!

---

[18] - أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء ويل للأعقاب من النار (٤١) (ج ١ / ص ٥٨) وأحمد (١٧٧٤٢) (ج ٤ / ص ١٩٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٢٠) وأصله في الصحيحين كما سيأتي.

[19] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب من رفع صوته بالعلم (٦٠) (ج ١ / ص ٣٣) ومسلم في كتاب الطهارة - باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (٢٤٠) (ج ١ / ص ٢١٣).

والمضمضة والاستنشاق هل هي داخلة في غسل الوجه أو أنها أمر زائد عرف من السنة؟ وهكذا فالسنة مفسرة للقرآن، فلو بقينا مع الآية بمفردها فقد يفهم منها هذا على قراءة الجر، ولكن ((ويل للأعقاب من النار)) ووضوء النبي -صلى الله عليه وسلم- كل هذا يدل على أنه لا يجزئ المسح بل لا بد من الغسل.

وبعض أهل العلم قال: القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالآية بقراءتيها دلت على الحالتين بالنسبة للرجْل، فإن كانت مكشوفة فالغسل وإن كان لها الجورب أو الخف فالمسح -أيْ بقراءة الجر-، وبعضهم قال: إن هذا عبر به بالمسح من أجل أن لا يكون هناك إسراف؛ لأن الرجل مظنة لصب الماء الكثير، هكذا فهم بعضهم، وبعضهم قال غير هذا.

ومن قال بأن المراد بالمسح من الآية المسح على الخفين فهذا قول له وجه، وكلام ابن جرير –الغسل مع المسح- أيضاً له وجه.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ} [(٢٢٢) سورة البقرة] فعلى القراءة الأخرى: (ولا تقربوهن حتى يطَّهَّرن)، فعلى القراءة الأولى يقال: انقطاع الدم، وعلى الثانية: الاغتسال.

وعلى كل حال فعلى القراءتين لا يجوز إتيان المرأة إلا إذا تحقق الأمران معاً –انقطاع الدم والاغتسال- ويحتج لذلك من نفس الآية ومن السنة؛ أي أن القراءة الأولى لا تدل على جواز الإتيان قبل الاغتسال لأن الله قال: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} ثم قال: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ} أي فلا يأتيها قبل تحقق الأمرين، وهذا قول الجمهور.

وفي آية الوضوء يقول ابن جرير: إن كل واحدة من القراءتين دلت على جزء من الطهارة، فهذه دلت على الغسل بإجراء الماء، والثانية بدلك العضو، أي إمرار اليد عليه.

وعند ابن جرير وطائفة من أهل العلم أنه لا يكفي في الغسل أن تدخل يدك أو رجلك تحت الماء في الوضوء وتصب عليه الماء وإنما لا بد عندهم من الدلك سواء الرجل واليد والوجه.

{وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ* وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ* وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(٧-١١) سورة المائدة].

يقول تعالى مُذكرًا عباده المؤمنين نعمتَه عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(٧) سورة المائدة] **وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند إسلامهم كما قالوا: بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على**

السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وقال الله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد].

وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد -صلى الله عليه وسلم- والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

القول الأول هو المتبادر وهو الأرجح الذي عليه الجمهور من المفسرين، فالله -عز وجل- يخاطب أهل الإيمان بقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(٧) سورة المائدة] وليس هذا خطاباً لليهود.

ومن أهل العلم من يقول: إن هذا الميثاق المراد به ما أخذ عليهم وهم في ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- حينما استخرج ربنا -تبارك وتعالى- الذرية من صلبه كأمثال الذر.

وعلى كل حال الأقرب هو هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو قول ابن جرير وقول عامة المفسرين من السلف والخلف أنه ما أخذ عليهم من المواثيق من طاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- واتباعه ونصرته ونصرة دينه، وما شابه ذلك، كما حصل في بيعة العقبة ونحوها.

ثم قال تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} **تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، فقال:** {إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(٧) سورة المائدة].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ} [(٨) سورة المائدة] **أي: كونوا قوامين بالحق لله -عز وجل- لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا** {شُهَدَاء بِالْقِسْطِ} **أي: بالعدل لا بالجور.**

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله -صلى الله وسلم-.

قوله: "**نحلني أبي نحلاً**" يعني أعطاني عطية دون باقي أبنائه وبناته.

فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: ((أكل ولدك نحلت مثله؟)) **قال: لا، قال:** ((فاتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)) **وقال:** ((إني لا أشهد على جَوْر))[20] **قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة.**

هذا يستدل به من يقول: إن العطية في الأولاد تكون للذكور والإناث على السواء، وأما قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} [(١١) سورة النساء] فهذا في الميراث فقط؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا قال: ((أكل ولدك؟)) والولد يصدق على الذكر والأنثى، إذ لم يستفصله النبي -صلى الله عليه وسلم- هل لك أبناء وبنات، وإنما قال: ((أكل ولدك نحلت مثله؟)) والمثل هو نظير الشيء من كل وجه، فدل ذلك على أن العطية والهبة للأولاد تكون متساوية للذكور والإناث ولا تكون كالميراث للذكر مثل حظ الأنثيين، والقول الآخر هو أنها كالميراث، واحتجوا بأن الله قسم الميراث بهذه الطريقة، قالوا: وهذا في غاية العدل فكذلك الهبة، لكن هذا القول قد لا يخلو من إشكال.

---

20 - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات - باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٧) (ج ٢ / ص ٩٣٨) ومسلم في كتاب الهبات - باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٦٢٣) (ج ٣ / ص ١٢٤١).

وعلى كل حال توجد هناك مبررات أخرى للتفاضل نحو ما إذا كان أحد الأبناء صالحاً تقياً مطيعاً لله -عز وجل- والآخر مدمن مخدرات مثلاً، فهل يسوي بينهما ويعطي كلاً منهما بالتساوي خاصة وأن الآخر سيشتري بالمال مخدرات يتعاطاها؟

هذه المسألة تكلم فيها العلماء، فمن أهل العلم من قال: لا بأس أن يعطي البار الذي يعينه والذي يعمل معه والذي يقوم على حوائجه وشئونه ما لا يعطي ذاك الذي قد أدار إليه ظهره، وكذلك إذا كان أحدهما به إعاقة ويحتاج ما لا يحتاجه الآخر، هل يسوي بينهما أو لا؟ هذه مسائل أخرى تكلم حولها أهل العلم، لكن الكلام الآن عن كونه ذكراً أو أنثى، هل يجب التسوية أم للذكر مثل حظ الأنثيين؟

وقوله تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ} [(٨) سورة المائدة] **أي: لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: {اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [(٨) سورة المائدة] **أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه.**

ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: {وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} [(٢٨) سورة النـــــور].

وقوله: {هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [(٢٤) سورة الفرقان].

يقصد هنا أن أفعل التفضيل ليس على بابه، فالأصل في أفعل التفضيل أنه في شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر، تقول: زيد أكرم من عمر، أي كلاهما اشترك في الكرم فزاد أحدهما، لكن حينما يقول الله -عز وجل-: {اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} فليس من هذا الباب؛ لأن خلاف العدل لا يقال فيه: إنه قريب للتقوى لكن العدل أقرب منه، لهذا يكون -بهذا الاعتبار- أفعل التفضيل ليس على بابه هنا، وإنما المقصود به مطلق الاتصاف، بمعنى اعدلوا فالعدل قريب من التقوى، ومن هذا الباب قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [(٢٤) سورة الفرقان] فقوله: {خَيْرٌ} هذه صيغة تفضيل ومع ذلك لا مقارنة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وكذلك الأمر في قوله: {أوَأَحْسَنُ مَقِيلًا} لا وجه للمقارنة بين مقيل أهل الجنة، ومقيل أهل النار، ولذلك فإن أفعل التفضيل هنا -أحسن مقيلاً- ليس على بابه، وإنما المقصود وصف مقيلهم بالحُسن.

وكقول بعض الصحابيات لعمر -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-: أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

يعني ليس معناه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان فظاً ولا غليظاً، وعمر زاد عليه، حاشاه –عليه الصلاة والسلام-.

ثم قال تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي: وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيرًا فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: {وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ} [(٩) سورة المائدة] **أي: لذنوبهم {وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها**

بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [(١٠) سورة المائدة] وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه بل هو الحَكَمُ العدل الحكيم القدير.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ} [(١١) سورة المائدة].

روى عبد الرزاق عن جابر -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نزل منزلاً وتفرق الناس في العضَاه يستظلون تحتها، وعلق النبي -صلى الله عليه وسلم- سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخذه فسلَّه، ثم أقبل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: من يمنعك مني؟ قال: ((الله عز وجل)) قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الله)) قال: فَشَامَ الأعرابي السيف، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه[٢١].

هذه الواقعة ثابتة لا شك في صحتها، لكن كون هذا هو سبب النزول فهذا لم يرد في رواية صحيحة فيما أعلم، ومثل ذلك القول بأنها نزلت في بني النضير من اليهود، فكل ذلك لا يخلو من ضعف، وإن كان أصل هذه الواقعة لا شك في ثبوته.

وقال معمر: كان قتادة يذكر نحو هذا، ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: {اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} الآية [(١١) سورة المائدة] وقصة هذا الأعرابي -وهو غورث بن الحارث- ثابتة في الصحيح[٢٢].

هنا يقول: "وتأول: {اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ..} [(١١) سورة المائدة]" وهذه ليست من العبارات الصريحة في سبب النزول، وإنما أشبه ما تكون بقوله: نزلت هذه الآية في كذا، وقد ذكرنا أن هذا من قبيل التفسير، يعني كأنه يقول: إن هذه الآية تشير إلى مثل هذا الذي وقع، لكن لا يعني هذا أنه سبب النزول، وهذه من الألفاظ النادرة التي ترد فيما يتعلق بأسباب النزول مثل تأول قوله كذا، ومثل قوله: نزلت في كذا.. الخ.

ويمكن تقسيم هذه الألفاظ على النحو الآتي:

إذا ذكر واقعة حدثت أو سئل سؤال ثم قال: فنزلت أو فأنزل الله، فهذه أقوى المراتب التي سنذكرها هنا، ثم يليها نزلت هذه الآية في كذا؛ فهذه تحتمل أن تكون سبب النزول، ثم يلي ذلك مثل هذا الذي ذكر في هذه الآية: "وتأول: {اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} الآية [(١١) سورة المائدة]" فهذا واضح أنه لا يقصد أن ذلك سبب النزول، وإنما يقصد أنها مما يدخل في الآية، والله أعلم.

---

[21] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٢٧٥٣) (ج ٣ / ص ١٠٦٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة الخوف (٨٤٣) (ج ١ / ص ٥٧٦).

[22] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٢٧٥٣) (ج ٣ / ص ١٠٦٥).

وذكر محمد بن إسحاق بن يَسار ومجاهد وعكْرِمَة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرحَى.

وهذا أيضاً يقول به ابن جرير لكنه لا يحدد هذه القضية، فابن جرير -رحمه الله- يقول: هذه في غدر اليهود وما هموا به من الإساءة أو العدوان على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى المسلمين، ولم يحدد مثل هذا، لكن مثل هذه الروايات عن محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد، وعكرمة وغير واحد تجعل ذلك من قبيل المرسل.

أنها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرحَى، لما جاءهم يستعينهم في ديَةِ العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك.

قوله: "**في ديَةِ العامريين**" أي في قصة عمرو بن أمية الضمري لما كان الغدر الذي وقع لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في حادثة القراء السبعين الذين قتلوا في وقعة بئر معونة، فعمرو بن أمية نجا فرجع وفي الطريق وجد رجلين دخل معهما في غار فقتلهما بعدما ناما ظناً منه أنهما من القوم الذين غدروا، فلما جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره وتبين أنهم ممن بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد، ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قباء ومر على هؤلاء اليهود ومنازلهم على يسار مسجد قباء في الحرة، فالحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر لهم الدية وأن يعينوه فيها، وهذا يذكره أهل السير، لكن كون هذا هو سبب النزول فيه إشكال، خاصة وأن هذه الروايات من المراسيل.

قوله: "**ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك**" أي أنه هو الذي تكفل برمي حجر الرحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم-.

ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك وأمروه إن جلس النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما تمالئوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

على كل حال الروايات كثيرة في هذا، وكلها من المراسيل، والمراسيل إذا جاءت من وجوه متعددة، وكذا فإنها يقوي بعضها بعضاً.

هذا أيضاً يذكر في سبب وقعة النضير لِمَا هموا به من قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الواقعة، وبعضهم يذكر أنهم طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخرج في مائة ويخرجون في مائة ويلتقون بنصف الطريق ويكون هناك حوار، ثم بعد ذلك تآمروا فيما بينهم وقالوا: إن خرج في مائة لا تستطيعون أن تتمكنوا منه، ثم قالوا له: اخرج بعشرة ونخرج بعشرة، فأطلع الله نبيه على ما أرادوا، فالمقصود أن بعضهم يذكر هذا، وبعضهم يذكر غير هذا في غدر بني النضير، فالله أعلم.

وقوله تعالى: {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١١) سورة المائدة] **يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه، ثم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يغدوَ إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة المائدة: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ* فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(١٢-١٤) سورة المائدة].

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكَّرهم نعَمَه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين -اليهود والنصارى- فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم وطرداً عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} [(١٢) سورة المائدة] **يعني عُرَفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه.**

وقد ذكر محمد بن إسحاق وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى -عليه السلام- لقتال الجبابرة فأُمر بأن يقيم نقباء، من كل سبط نقيب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ} الميثاق هو العهد المؤكد.

وقوله: {وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} [(١٢) سورة المائدة] النقيب أعلى مرتبة من العريف، وأصله لعله مأخوذ من النقب وهو الطريق والمدخل بين الجبلين، فكأن هذا النقيب سمي بهذا لأنه الطريق إلى التعرف على أحوال القوم وأمورهم وقضاياهم، والمراد به كبير القوم.

وهؤلاء النقباء لعل أحسن ما يفسروا به -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، أي: أنهم جُعلوا على قبائل بني إسرائيل أي على الأسباط، وعدد هذه القبائل أو الأسباط اثنا عشر، وكل قبيلة عليها نقيب يتفقد أمورهم ويرعى أحوالهم، ويطلع على شئونهم.

وقد أخذ عليهم الميثاق وجعل عليهم هؤلاء النقباء لأجل أن يسمعوا ويطيعوا، هذا هو المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار ابن جرير وهو أحسن الأقوال.

ثم ذكر بعده قولاً آخر وهو أن هؤلاء اختارهم موسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ساروا إلى الجبارين، يقول: **"هذا كان لما توجه موسى -عليه السلام- لقتال الجبابرة فأُمر بأن يقيم نقباء، من كل سبط نقيب"** قيل: هذا من أجل أن يأتوا بخبر الجبارين، وهذا فيه بعد؛ لأن الله -عز وجل- يتحدث عن بني إسرائيل عموماً وعن بعث النقباء عليهم، وقول الله -عز وجل- لهم: **{إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}** [(١٢) سورة المائدة] إلى آخره، فكأنه شيء عام في بني إسرائيل لا يختص بقضية الجبارين والتعرف على أحوالهم وأخبارهم وعددهم وقوتهم وما أشبه هذا، والله تعالى أعلم.

وهكذا لما بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ويقال بدله: أبو الهيثم بن التيهان -رضي الله تعالى عنهم- وتسعة من الخزرج، وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العَجْلان، والبراء بن معرور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمر بن خنيس -رضي الله تعالى عنهم- وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له كما أورده ابن إسحاق -رحمه الله-.

والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذٍ عن أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم بذلك، وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة.

وقوله تعالى: {وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ} أي: بحفظي وكَلاءتي ونصري.

هذا الخطاب متوجه إلى بني إسرائيل المحدَّث عنهم أصلاً بأنهم الذين أخذ الله عليهم الميثاق وبعث منهم النقباء، فقال الله لهم: **{إِنِّي مَعَكُمْ}** أو أن ذلك يرجع إلى النقباء خاصة، وهذا يمكن أن يكون باعتبار المعنى الآخر، أي لما بعثهم موسى -عليه الصلاة والسلام- واختارهم ليكونوا أمناء ليأتوا بخبر الجبارين، فالله قال لهم: **{إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي}** إلى آخره، والأقرب والله تعالى أعلم هو الأول، أي أن ذلك يرجع إلى بني إسرائيل فالله يذكر ما وقع لبني إسرائيل من أخذ الميثاق ومن معيته لهم إنْ هم وفوا له بعهوده فلما نكثوا لعنهم وطردهم وأبعدهم، فيكون قوله: **{إِنِّي مَعَكُمْ}** يرجع إلى أهل الكتاب من بني إسرائيل ولا يختص ذلك بالنقباء.

وقوله: **{وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ}** أي: **بحفظي وكَلاءتي ونصري**، يعني المعية الخاصة بالنصر والتأييد

{لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي} [(١٢) سورة المائدة] أي: **صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي.**

{وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} [(١٢) سورة المائدة] أي: **نصرتموهم وآزرتموهم على الحق.**

يلاحظ أن هذا الكلام أحرى أن يرجع إلى بني إسرائيل ولا يختص بالنقباء؛ لأن هذا مما طولب به الإسرائيليون جميعاً ومما أخذ عليهم به الميثاق.

وقوله: {وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} أي: **نصرتموهم وآزرتموهم على الحق**" التعزير يأتي لمعنيين: يأتي بمعنى التعظيم ويأتي بمعنى التأديب، تقول: فلان يجب أن يعزر، ويقال: فلان حُكِم عليه بالجلد تعزيراً يعني تأديباً، ويأتي بمعنى التعظيم كما في قوله تعالى: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ} [(٩) سورة الفتح] يعني تعظموه، وتنصروه وما أشبه ذلك.

فإذا قلنا بالمعنى الأول الذي هو النصر أو التعظيم فالمعنى ظاهر، وإذا فسر بالمعنى الثاني الذي هو التأديب يمكن أن يوجه باعتبار منع الأعداء من الوصول إليهم بجهادهم وصد عاديتهم لكنه بهذا الاعتبار لا يخلو من تكلف، والمعنى الأقرب المتبادر هو الأول، أي وعزرتموهم بمعنى عظمتموهم ونصرتموهم والله تعالى أعلم.

{وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [(١٢) سورة المائدة] **وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته.**

كل هذه المعاني في القرض الحسن، أو قول من قال: ما طابت به النفس، أو قول من قال: إنه الحلال الطيب، أو قول من قال: إنه ما أريد به وجه الله -عز وجل-، فهذا كله من أوصاف القرض الحسن؛ لأنه لا يكون من القرض الحسن إذا كان فيه منَّة، أو كان على عوض يرجوه الإنسان عاجلاً في الدنيا، كالذي يريد الرياء بذلك أو السمعة أو نحو هذا، فهذا لا يكون قرضاً حسناً، وكذلك لا يكون قرضاً حسناً إذا كانت نفس الإنسان تتحرق على هذا المال، كما ورد في سورة براءة عن بعض الأعراب حيث قال الله -عز وجل-: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا} [(٩٨) سورة التوبة] أي يجد أن هذا الإنفاق من الغرم وأنه قد قطع من قلبه، وأنه غير مخلوف عليه، فهو يدفعه مرغماً كارهاً ليدفع التهمة عن نفسه مثلاً، وما أشبه ذلك من المعاني الفاسدة التي يريد أن يصل إليها، فهذه المعاني التي ذكرناها للقرض الحسن سواء أنه من الحلال أو غير ذاك من المعاني لا تحتاج إلى ترجيح، وإنما نقول: كلها أوصاف للقرض الحسن؛ لأنه لا يكون حسناً إلا بأن يكون من الكسب الطيب الحلال ويراد به وجه الله -عز وجل- ولا يلحقه ما يبطله كالمنة كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ} [(٢٦٤) سورة البقرة] وما شابه ذلك.

{لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [(١٢) سورة المائدة] أي: **ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها** {وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٢) سورة المائدة] أي: **أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود.**

وقوله: {فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٢) سورة المائدة] أي: **فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْده وتوكيده وشدِّه، وجحَدَه وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال.**

ثم أخبر تعالى عما أحل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ} [(١٣) سورة المائدة] أي: **فبسبب نقضهم الميثاقَ الذي أخذ عليهم لعناهم أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم.**

قوله: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ} يقول ابن كثير هنا: "أي: **بسبب نقضهم الميثاق**" يعني أن الباء سببية، والمعربون يقولون: إن "ما" زائدة، ويقصدون زائدة إعراباً وليست زائدة في المعنى؛ لأنها هنا تؤكد المعنى وتقويه؛ ولأنه لا يصح أن يقال: إن في القرآن شيئاً زائداً، فالوحي منزه عن هذه الزيادة، وعلى كل حال كل

ما جاء به الوحي فهو لمعنى لكنهم يقصدون بذلك أنه زائد إعراباً أي لا محل له من الإعراب حتى إن بعضهم يتأدب في العبارة فيقول: إنها صلة، وإذا قالوا: صلة فإنهم يقصدون زائدة إعراباً لكنهم تلطفوا في التعبير مع أنه لا مانع أن يقال: زائد إعراباً أي بهذا القيد أو يقال: صلة لكن لا تطلق الزيادة عند التفسير فيقال مثلاً: "ما" زائدة هكذا بدون قيد، لكن إذا فهم المعنى وقيد بما ذكر فالأمر في هذا سهل -إن شاء الله-.

فالمقصود أن معنى قوله: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ} أي فبسبب نقضهم ميثاقهم حصل لهم اللعن، وهذه الآية تفسر قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي} [(٤٠) سورة البقرة]، حيث إنه أبهم عهده في آية البقرة، وفي آية المائدة بين ذلك العهد بقوله: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [(١٢) سورة المائدة]، وعهدهم الذي ذكره في البقرة بقوله: {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} بينه هنا أيضاً بقوله: {لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٢) سورة المائدة] لكنهم نقضوا وما وفوا بالعهد فلعنهم وأبعدهم وطردهم، وقطعهم في الأرض أمماً وأحل بهم النقم.

أي: فبسبب نقضهم الميثاقَ الذي أُخذ عليهم لعناهم أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى.

{وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} أي: فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها.

قوله: {وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} في قراءة حمزة -وهي قراءة متواترة-: **(وجعلنا قلوبهم قسيَّة)** يعني قاسية.

{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(١٣) سورة المائدة] أي فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياذاً بالله من ذلك.

ويدخل في هذا نوعا التحريف اللذان سبق ذكرهما في سورة البقرة، أي أن هؤلاء وقعوا في تحريف ألفاظه ووقعوا في تحريف معانيه، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، حيث إن من أهل العلم من يقول: إن التوراة لم تحرف بل هي لا زالت موجودة ومحفوظة وإنما الذي حرف فيها هي القراطيس التي كانوا يبدونها، يعني أن الكتاب موجود لكن الذي يخرجونه إلى الناس هي القراطيس التي يوجد فيها التحريف، ولذلك لما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتوراة في قصة الزانيين حيث قرأ الحبر منها وترك آية الرجم ووضع عليها أصبعه فقال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-: "مره يا رسول الله فليرفع أصبعه" فلما رفعها فإذا فيه آية الرجم تلوح[1] فالمقصود أن هذا قاله بعض أهل العلم، والواقع أن هذا من تحريفهم وإلا فقد حرفوا الكتاب الأصلي، ولا أدلَّ على ذلك من وجود هذه النسخ الكثيرة التي بين أيديهم فهم يقتاتون عليها وهي مليئة بالتناقضات والتحريف، فليس التحريف مقصوراً على القراطيس التي يبدونها فقط بل هم مختلفون في الكتاب المقدس اختلافاً كبيراً، والله أعلم.

كما وقعوا أيضاً في النوع الثاني من التحريف الذي هو تحريف المعاني كما قال تعالى: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(١٣) سورة المائدة] وهذا النوع من التحريف –تحريف المعاني- وقع في هذه الأمة، حيث يوجد من هذه الأمة من يبدل المعاني ويغيرها ويلوي أعناق النصوص، وهذا وقعت فيه طوائف أهل البدع الذين تمسكوا بالقرآن للدلالة على بدعهم أو لدفع ما يدل على نقضها، وقل مثل ذلك في التلاعب الذي حصل من

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها (٧١٠٤) (ج ٦ / ص ٢٧٤٢) ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٦٩٩) (ج ٣ / ١٣٢٦).

كثير من الناس، ومنهم قصة ذلك الملك الباطني في المغرب حيث كان له وزيران أحدهما لقبه بنصر الله، والآخر لقبه بالفتح، ثم يقول: إن المراد بقوله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [(١) سورة النصر] أنتما.
وهناك رجل آخر اسمه بيان -صاحب الفرقة البيانية-، كان يقول في قوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران]، المراد به أنا، ومثل هؤلاء الرجل الملقب بالكسف صاحب الفرقة المنصورية كان يقول: أنا المراد بقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا} [(٤٤) سورة الطور] ومن ذلك قول الرافضة -قبحهم الله- في قوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [(٥١) سورة النساء] قالوا: الجبت والطاغوت أبو بكر وعمر، فهذا كله من تحريف المعاني للقرآن.
{وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} [(١٣) سورة المائدة] أي وتركوا العمل به رغبة عنه، {وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ} [(١٣) سورة المائدة] يعني: مكرهم وغَدْرهم لك ولأصحابك.
وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [(١٣) سورة المائدة] وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٣) سورة المائدة] يعني به الصفح عمن أساء إليك.
وقال قتادة: هذه الآية {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [(١٣) سورة المائدة] منسوخة بقوله: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٢٩) سورة التوبة] الآية.
هذا فيه بعد؛ لأن هذه الآيات التي يأمر الله بها بالعفو تكون في الحال المناسبة لها بحيث يكون العفو في محله، فهي ليست منسوخة، خاصة وأن سورة المائدة -كما هو معروف- آخر ما نزل في الأحكام، ولهذا كانوا إذا عبروا بقولهم: هذا مما نزل في المائدة، فإنهم يقصدون بهذا أنه لم ينسخها شيء، فليست هذه السورة من أوائل ما نزل، وإنما أول ما نزل بالمدينة من السور التي يتعلق بها كثير من الأحكام هي سورة البقرة، بل يقال: إنها أول سورة نزلت في المدينة، أما سورة المائدة فليست كذلك.
وقوله تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ} [(١٤) سورة المائدة] أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح بن مريم -عليه السلام- وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال تعالى: {فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} [(١٤) سورة المائدة].
هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير معناه أن قوله: {أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ} يعني أخذنا عليهم العهد والميثاق المختص بهم، ومن أهل العلم من يقول: إن الضمير –الهاء من ميثاقهم- يرجع إلى بني إسرائيل، فيكون المعنى ومن الذين قالوا: إنَّا نصارى أخذنا ميثاق بني إسرائيل السابق عليهم –أي على النصارى- فالميثاق الذي أُخذ على اليهود أخذ مثله على النصارى، فهذا قال به بعض أهل العلم باعتبار أن الضمير يرجع إلى بني إسرائيل المذكورين أولاً وهم اليهود، وهذا فيه بعد، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: {مِيثَاقَهُمْ} يرجع إلى النصارى، فالقاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(١٤) سورة المائدة] أي: **فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفِّر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى.**

يقول: "**ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال تعالى:** {فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} [(١٤) سورة المائدة] إلى أن قال: {فَأَغْرَيْنَا} [(١٤) سورة المائدة] قال: "أي **فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة**" يعني اليهود والنصارى نقضوا العهود والمواثيق وذلك أنهم أمة واحدة أصلاً، وعيسى -عليه الصلاة والسلام- بعث إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [(٦) سورة الصف] فنقضوا العهود والمواثيق كما فعل اليهود، فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فبينهم من البغضاء والشر ما لا يخفى، فكل طائفة تكفِّر الأخرى وتضللها، {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] فـ "أو" هنا للتقسيم، وقد سبق ذكر ذلك في تفسير سورة البقرة، فالمعنى أن اليهود قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وسبق الكلام على الأمانة الكبرى وأنه لشدة عداوة النصارى لليهود تركوا العمل بالتوراة فبقوا من غير قانون ولا شريعة فاخترعوا كتاباً وضعوا فيه القوانين وسموه بالأمانة الكبرى.

ويحتمل أن يكون المراد أن العداوة والبغضاء كانت بين طوائف النصارى نفسها، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع المعنيين فقال: "**فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة**" أي اليهود والنصارى، **ثم قال**: "**وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفِّر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً**" وهذا شيء مشاهد.

وقوله تعالى: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء} [(١٤) سورة المائدة] معناه ألصقنا ذلك بهم فهو لاصق ملازم لهم غاية الملازمة كما يقال في المادة المعروفة التي يلصق بها "الغِراء" فهذه المادة تمسك الشيء بحيث إنه يلتصق بما ألحق به، ويقال: غري بهذا الشيء غرياً بمعنى أنه صار مولعاً به مفتوناً به ملازماً له لا يفارقه ولا ينفك عنه بحال من الأحوال حتى صار كأنه ملتصق به، ويقال: أغريت الكلب يعني أولعته بالصيد، فاليهود والنصارى ألصقت بهم هذه الصفة الذميمة القبيحة -العداوة والبغضاء- وأولعوا بها.

ولو تأملت في النصارى لوجدتهم قد فرقوا الكنيسة الشرقية والغربية وتجد طوائف الكاثوليك والبروتستنت والأرثوذكس الضالة كل واحدة تضلل الأخرى، فهؤلاء لهم كنائسهم وهؤلاء لهم كنائسهم، وهؤلاء لا يعترفون بالفاتيكان ولا بمرجعيته، ولو قرأت في كتب النصارى وفرق النصارى فلن تنتهي، ولو أخذت بلداً صغيراً مثل لبنان وفتشت في الطوائف النصرانية ستجد أسماء لم تسمع بها، وتجدهم يظهرون في بعض المناسبات أحياناً فيقولون: الفرقة الفلانية، والطائفة الفلانية، وممثل الطائفة الفلانية، وهكذا تسمع بطوائف عجيبة غريبة.

لا يزالون متباغضين متعادين يكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تَلِجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وهم الآن يستغلون التفرق الموجود بين المسلمين فيضربون بعضهم ببعض مع أن التفرق الذي بين النصارى أكثر من التفرق الموجود بين المسلمين فهم أحرى بأن يُشرذَموا بمثل هذه النزاعات الموجودة بينهم، لكن للأسف نحن ننظر إليهم باعتبار أنهم كتلة واحدة لا فرق بينهم، وعلى قلب رجل واحد، وهذا الكلام غير صحيح.

وابن كثير ذكر هنا بعض الطوائف مثل: اليعقوبية وهم طائفة من النصارى ينتسبون إلى يعقوب البردعاني، كان راهباً بالقسطنطينية، وهذه الطائفة قالت بالأقانيم الثلاثة، وبالنسبة لمعنى الأقانيم هم يختلفون فيها هل هي الصفات أو غير ذلك، فالمقصود أنهم قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وهذه لا يمكن أن تتصور أصلاً، إذ كيف يقولون بالأقانيم الثلاثة ثم يقولون: إن الكلمة انقلبت لحماً ودماً وصارت هي عين المسيح، أي صار الله هو المسيح، أو صار المسيح إلهاً؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذكر من الطوائف النسطورية، وهؤلاء هم أصحاب نسطور الحكيم، وهكذا نجد أن كل مسمىً له من اسمه نصيب، إما على الضد أو المطابقة، ونسطور هذا ظهر في زمن المأمون وتصرف في الأناجيل برأيه، وقال: إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة الوجود والعلم والحياة، وليست الأقانيم زائدة على الذات.

كما ذكر ابن كثير رحمه الله طائفة الملكانية، وهم أصحاب ملكى الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية، وهؤلاء قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، والكلمة أقنوم العلم وليست الثلاثة وهذا من الخلاف بينهم.

ثم قال تعالى: {وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(١٤) سورة المائدة] **وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب -عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً- من جعلهم له صاحبة وولدا تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفواً أحد.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٥-١٦) سورة المائدة].

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(١٥) سورة المائدة] أي يبيّن من بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في قوله -تبارك وتعالى-: {يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(١٥) سورة المائدة] معنى قريب في تفسير هذه الآية، أي يبيّن لكم كثيراً مما أخفيتم ويترك كثيراً لا يبيّنه ولا يذكره؛ لأنه لا فائدة من ذلك، أو لأن ذكر البعض يغني عن ذكر غيره مما يكشف عن حقيقة ما وقعوا فيه من الكتمان والتحريف، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام] فهو يكشف لهم بعض ما أخفوه ويترك البعض الآخر، وكشْف البعض يجلي الحقيقة التي ناموا عليها دهوراً متطاولة.

ويحتمل أن يكون المعنى أنه يبيّن لهم كثيراً مما أخفوه ويترك كثيراً فلا يطالبهم بمقتضاه والعمل به حتى يأمره الله بذلك، أي لا يلزمهم العمل بما في كتابهم حتى يأمره الله -تبارك وتعالى- بذلك، فيكون القدر الذي يبيّنه لهم هو مما أمره الله -عز وجل- ببيانه ويسكت عن غيره، وعلى هذا القول لا يلزم أن يكون هذا المسكوت عنه مما لا ينبني عليه عمل أو لا يكون في ذكره فائدة، وإنما سكت عنه لأن الله لم يأمره بذلك، وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وكلا المعنيين قريب، وليس هناك دليل يجب الوقوف عنده والقول بمقتضاه في حال هذا الكثير المسكوت عنه، هل سكت عنه لأنه لا ينبني على ذكره فائدة؟ أو لأن ذكر البعض يغني عن ذكر غيره؟ أو لأن الله لم يأمره بأخذهم بذلك وإلزامهم بمقتضاه؟ فكل ذلك محتمل والله أعلم.

وقد روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} [(١٥) سورة المائدة] **فكان الرجم مما أخفوه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه**[1].

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ} [(١٥-١٦) سورة المائدة] **أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة.**

يقول: {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} [(١٥) سورة المائدة] يحتمل أن يكون النور والكتاب المبين شيئاً واحداً ويكون ذلك من أوصاف القرآن، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا} [(٥٢) سورة الشورى] فالله سمى كتابه نوراً وسماه روحاً كما قال سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [(٥٢) سورة الشورى] لأنه -جل وعلا- يضيء به ظلمات الجهل والكفر، وسماه روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تكون الأبدان عامرة بالأرواح، وعلى كل حال يحتمل أن يكون هذا كله من الأوصاف العائدة إلى موصوف واحد، وهذا أمر لا إشكال فيه من ناحية اللغة؛ فإن الأوصاف تذكر للموصوف الواحد متتابعة بالعطف تارة ومن غير العطف تارة أخرى، يجمع ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [(١-٢) سورة الأعلى] هذا من غير عطف وهو كله لموصوف واحد، ثم قال: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(٣-٤) سورة الأعلى] فهذه أربعة أوصاف لموصوف واحد، وكذلك هنا النور والكتاب المبين يمكن أن يرجع ذلك جميعاً إلى القرآن.

ومن أهل العلم من يقول بالمغايرة بينهما، فالكتاب المبين بلا إشكال هو القرآن، والنور منهم من فسره بأنه النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون المراد به الإسلام، وهناك ملازمة لا تخفى بين الإسلام وبين الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه هو الذي جاء بالإسلام وعليه نزل القرآن، فالمعاني متلازمة.

وابن جرير -رحمه الله- يرجح في هذه الآية: أن النور هنا هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، والكتاب هو القرآن، فقوله تعالى: {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} [(١٥) سورة المائدة] أي نبي كريم وكتاب عظيم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ} [(١٦) سورة المائدة] يحتمل رجوع الضمير في قوله: {يَهْدِي بِهِ} إلى الكتاب؛ لأنه أقرب مذكور، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أنه يرجع إليهما جميعاً، أي إلى النور والكتاب، وهذا باعتبار أن النور هو النبي -صلى الله عليه وسلم- والكتاب هو القرآن.

{يَهْدِي بِهِ اللّهُ} يعني بما ذُكر، وأفرد الضمير هنا لوجود الملازمة بين الأمرين -بين النور وبين الكتاب- فإذا فسرنا النور بأنه الرسول -عليه الصلاة والسلام- فالكتاب قد نزل عليه، وإفراد الضمير له نظائر في القرآن، فالله -عز وجل- قال: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [(١١) سورة الجمعة] فلم يقل: انفضوا إليهما، وقال عن طاعة الله وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ

---

[1] - أخرجه الحاكم في مستدركه (٨٠٦٩) (ج ٤ / ص ٤٠٠) وقال صحيح الإسناد.

وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} [(٢٠) سورة الأنفال] فوحَّد الضمير؛ لأن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- من طاعة الله، وهذا له نظائر وأنواع كثيرة في القرآن، يأتي لأغراض شتى كما يقال.

وإذا قلنا: إن النور والكتاب المبين من أوصاف القرآن -وهو قول له وجه قوي من النظر- فإن ذلك لا إشكال فيه حيث يكون المراد بقوله: {يَهْدِي بِهِ اللّهُ} [(١٦) سورة المائدة] القرآن، فهو النور والكتاب المبين الذي أنزله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-.

{وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٦) سورة المائدة] **أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.**

{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [(١٧-١٨) سورة المائدة].

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-.

ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا} [(١٧) سورة المائدة] **أي: لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك.**

كلام الحافظ ابن كثير هنا أن المعنى في قوله: {فَمَن يَمْلِكُ} أي فمن يقدر، وعبر غيره كابن جرير -رحمه الله- بقوله: فمن يطيق؛ لأن هذا اللفظة تدل على القُدرة، تقول: ملكت على فلان أمره، يعني أنك صرت قادراً على قهره وتمكنت من ذلك، فالله هنا يقول: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا} [(١٧) سورة المائدة] أي من يطيق ويقدر على منعه من ذلك لو أراده؟ وهذا الاستفهام مضمن معنى الإنكار، يعني لا أحد يقدر على الحيلولة بينه وبين ما أراد، وإذا كان الأمر كذلك فهو الإله الواحد المتصرف الرب المعبود جل جلاله الذي لا يشاركه في ملكه وتدبيره وتصرفه وإلهيته أحد من خلقه، فالمسيح -عليه الصلاة والسلام- لم يقدر أن يدفع عن أمه الموت، كما لا يطيق أن يدفع عن نفسه الأذى أياً كان، فالله -جل جلاله- هو الذي بيده تدبير الأمور لا يخرج شيء من ذلك عن قدرته وإرادته.

ثم قال: {وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء} [(١٧) سورة المائدة] **أي جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء لا يُسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة-.**

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] **أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني ربي وربكم.**

طبعاً هذا الكلام إنما يقال إذا ثبتت هذه العبارات فعلاً، وإلا فإن كتابهم محرف لا يوثق بشيء من هذا الكلام إطلاقاً، فقد يكون ذلك مما حرفوه وبدلوه، لكن لو فرض أنه صحيح فإنه يحمل على معهودهم في الخطاب، وعلماؤهم -ممن له عقل ودين وإنصاف وتوحيد- يقولون: إن ذلك معهود عندهم أنه يراد به التشريف، فحينما يقول لغيره: أنت ابني، فإنه يقصد به تقريبه وتشريفه وتكريمه وما أشبه ذلك، وهكذا حينما يقول: إني ذاهب إلى أبي، ولو لاحظنا العبارة نجد أنه قال: أبي وأبيكم، فهل هم أيضاً أبناء الله؟ فلماذا خصوا المسيح -عليه الصلاة والسلام-؟ طبعاً هذا لو صحت العبارة فإنه يُرد عليهم من نفس الجملة، كما أنه لو صحت هذه العبارة أيضاً فإن النبي بمنزلة الأب في قومه، وهو وجه قوي بل هو أقوى ما فسر به قول لوط في قوله تعالى: **{هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}** [(٧٨) سورة هود] فقوله: **{بَنَاتِي}** يعني بنات القبيلة، يقول: تزوجوا من البنات ودعوا هذه الفواحش.

والله -عز وجل- يقول: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** [(٦) سورة الأحزاب] قراءة أبيّ، وقراءة ابن عباس (وهو أب لهم) **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم)** [(٦) سورة الأحزاب] وفي القراءة الأخرى: **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)** وهذه قراءة غير متواترة لكن القراءة الآحادية إذا صح سندها يمكن الاحتجاج بها على الأقل في التفسير، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بمنزلة الأب لقومه، وكل الأنبياء بالنسبة لقومهم كذلك، والأبوة أبوتان كما هو معروف: أبوة ولادة أي أبوة نسب، وهذا لا يمكن أن يضاف إلى الله -عز وجل- لأنه -جل وعلا- **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}** [(٣) سورة الإخلاص] والأبوة الثانية هي أبوة التربية، وهو أحد المعاني الصحيحة في معنى لفظة الرب، فالرب هو المربي خلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذه التربية أشرف من النوع الأول، يعني أبوة التربية أعظم من أبوة الولادة؛ لأن أبوة الولادة أخرجتك إلى الدنيا، وأبوة التربية أخرجتك إلى السعادة الكبرى في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فإننا حينما نعبر لا نطلق العبارات المجملة التي تحتمل ويفهم منها الناس معانيَ سيئة بحيث يأتي إنسان ويقول: أنا أقول: الله -عز وجل- أب لخلقه مثلاً، فإذا قال أحد هذا الكلام قلنا له: لا تتكلم بالكلام الموهم، خاصة أن هذه العبارات أصلاً لا نعلم ثبوتها، ولم ترد في الكتاب ولا في السنة، فلا يطلق ذلك على الله -عز وجل-، لكن حينما نأتي ونرد على النصارى نقول مثل هذا الكلام الذي سبق في تقسيم الأبوة لكن لا نتبناه بحيث إننا نذكره ابتداء؛ لأننا لا نصف الله -عز وجل- إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولكل مقام مقال، فقد نحتاج إلى بعض الشيء في الرد مع أن ذلك لا يقال في حال الاختيار ابتداء، والله أعلم.

ومعلوم أنهم لم يدَّعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى -عليه السلام- وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] قال الله تعالى راداً عليهم: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} [(١٨) سورة المائدة].

طبعاً هذه المقالة -أعني قولهم: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ}- صدرت من اليهود، ومن أهل العلم من تكلف في تفسيرها، فقال: إنهم قصدوا: نحن أتباع أبناء الله، فيكون ذلك منقسماً على اليهود والنصارى مثلاً، فاليهود قالوا: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة] والنصارى قالوا: {الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة]، فقولهم: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ} يعني نحن أتباع أبناء الله، ولكن القاعدة أن الكلام إذا دار بين التقدير وعدمه فالأصل عدم التقدير، ولذلك فإننا نقول: هذا القول قول مرجوح، وفيه تكلف ولا حاجة إليه، فهم أرادوا أن يشرِّفوا أنفسهم وأن يعظموها فافتروا على الله -عز وجل- بأن لهم منزلة عنده ليست لأحد فقالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] وقالوا: نحن شعب الله المختار وما عدانا من الأمم فهم جونيم يعني الحمير التي خلقت من أجل أن يركبها اليهود، هذه هي عقيدة اليهود في نظرهم إلى الناس ممن سواهم، وقالوا: {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [(٧٥) سورة آل عمران] أي خذ أموالهم وافعل بهم ما شئت.

قال الله تعالى راداً عليهم: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} [(١٨) سورة المائدة] أي: إذا كنتم -كما تدعون- أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟

قد يقول القائل منهم مكابرة: ومن قال لكم هذا؟، فنحن لا نسلم لكم بهذه المقدمة أصلاً، فالله لن يعذبنا، أي إذا كان المقصود أنه سيعذبنا في المستقبل فنحن ننكر ذلك؛ لأننا شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه.

وفي قول الله تعالى: {فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} يحتمل أن يكون هذا مما يقع عليهم من العقوبات في الدنيا، كما مسخ بعضهم قردة كما قال تعالى: {قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(١٦٦) سورة الأعراف] وما ينزل بهم من ألوان العقوبات كما قال تعالى: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة]، وحكم عليهم بالتيه كما قال تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة المائدة] فهذا كله من تعذيبهم بذنوبهم، فلو كانوا كما قالوا لما عذبهم.

ويمكن أن يكون قوله: {فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} من باب الإلزام بالنوع، المعروف عند الأصوليين أو عند علماء الجدل بالخلف، ينقض عليهم حجتهم باعتبار أنهم قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] وقالوا أيضاً: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة] وهذه الأيام المعدودة كما قالوا: هي بقدر عبادتهم للعجل، قالوا: عبدنا العجل أربعين يوماً –أي حينما ذهب موسى إلى ميقات ربه- فسيعذبنا بقدر ذلك ثم نخرج من النار، فنحن لن ندخل النار إلا هذه المدة، فالإلزام هنا هو إذا كنتم أبناء الله وأحباؤه فلماذا يعذبكم هذا القدر الذي أقررتم به، أي أربعين يوماً؟ وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-.

فالاحتمالات ثلاثة: الأول: {فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} أي لماذا يعذبكم كما يعذب سائر الخلق بالنار التي تنتظركم؟ وهذا القول قد يقول القائل منهم فيه: ومن قال لكم هذا أصلاً فنحن لا نسلم به؟.

الثاني: أن هذه العقوبات التي تنزل بكم في الدنيا هي من جملة عذاب الله -عز وجل-، فلماذا يقع بكم هذا وأنتم أبناؤه وأحباؤه؟

الثالث: أن يقال: أنتم سلمتم أنكم تعذبون مدة من الزمان، كما في الآية {أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة] فإذاً لماذا يقع لكم مثل هذا وأنتم أبناء الله وأحباؤه، والمحب لا يعذب حبيبه؟

قوله: {بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ} [(١٨) سورة المائدة] هنا قاعدة معروفة، وهذا مثال عليها، وهي أن ما ذكره الله -عز وجل- حكاية عن قول القائلين في القرآن، إن كان باطلاً فإنه يذكر قبله أو بعده أو معه ما يشعر ببطلانه ورده، فنعرف أنه باطل، فهناك قالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة] فردَّ عليهم: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ} [(٨٠) سورة البقرة] وهنا قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} فرد عليهم بقوله: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم} [(١٨) سورة المائدة] وهكذا في كثير من أقوالهم وأقوال غيرهم، ولا يكاد يخرج من هذه القاعدة إلا القليل أو النادر، كما في آية الكهف: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [(٢١) سورة الكهف] فهذا لا يمكن أن يكون من قول أهل الإيمان؛ لأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالحرب على الشرك وصوره ومن ذلك بناء القباب والمشاهد على القبور، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لعن الله اليهود النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[2]، فما يمكن أن يكون أهل التوحيد والإيمان هم الذين غلبوا على أمرهم، وإنما هذه مقولة مشركين وثنيين عباد قبور، فالمقصود أن في قوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [(٢١) سورة الكهف] لم يذكر شيئاً يردها أو ينقضها أو يشعر بردها، فيحتج بها عباد القبور، يقولون: عبادة القبور ما فيها شيء، فهؤلاء قالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} وما رد عليهم القرآن، والجواب عن هذه الشبهة أن يقال: إن كل قاعدة لها استثناءات، لكن يكفي في القاعدة أن تلم بأكثر الجزئيات، وإلا فالقاعدة ليست نصاً منزلاً، فهي من كلام أهل العلم حيث استقرءوا أكثر الجزئيات وجعلوا عليها قاعدة.

{بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ} [(١٨) سورة المائدة] أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده، {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء} [(١٨) سورة المائدة] أي: هو فعال لما يريد {لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٤١) سورة الرعد].

{وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [(١٨) سورة المائدة] أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [(١٨) سورة المائدة] أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٩) سورة المائدة].

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: {عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ} أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (١٣٢٤) (ج ١ / ص ١٣٢٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٢٩) (ج ١ / ص ٣٧٦).

قوله: {عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ} الفترة: تأتي بمعنى السكون، وتأتي بمعنى الانقطاع، وتفسير الآية هنا بالانقطاع أقرب، ويعني: على انقطاع من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فهذه المدة الطويلة ما بُعث فيها نبي قبل الرسول -عليه الصلاة والسلام- إطلاقاً، وكل ما جاء في ذلك من الأخبار في بعض كتب التواريخ، أو من بعض ما يوجد مما ينقل عن بني إسرائيل من كلام علمائهم وما أشبه ذلك، كله لا أصل ولا يثبت منه شيء، ولا يبنى عليه حكم، كما يقولون: إنه بعث حنظلة بن صفوان، وهو نبي أهل الرس، وبعضهم يقول: خالد بن سنان، ويذكرون له أخباراً وما أشبه هذا، ويقولون: إنه بين عيسى وبين محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو ما جاء عن بعض السلف من أن المدة التي كانت بين عيسى ومحمد -صلى الله عليه وسلم- بعث في صدرها نبي، ثم بعد ذلك انقطع بعث الأنبياء نحو أربعمائة سنة فهذا لا يثبت؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- قال: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [(٦) سورة الصف] إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على أنه لم يكن بين عيسى -عليه الصلاة والسلام- وبين محمد -صلى الله عليه وسلم- نبي، ومن ذلك هذه الآية: {عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ} [(١٩) سورة المائدة].

وأصحاب الرسل لم يكونوا بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- بل السياق الذي ذكرهم الله فيه كان مع ثمود، وهذه الأمم أهلكها الله -عز وجل- ودمرها كما قال تعالى: {وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} [(٣٨) سورة الفرقان] والرس: يفسر بأنه بئر، وأصحاب الرس يعني أصحاب البئر، قيل: إنهم ألقوا نبيهم في البئر، فقيل لهم: أصحاب الرس، وقيل غير هذا، وعلى كل حال الله أعلم بهم، لكن لم يكن بين النبي -عليه الصلاة والسلام- وبين عيسى –عليه الصلاة والسلام- رسول، وما يوجد في كتب التواريخ القديمة والحديثة لا يثبت منه شيء، فهذا أصل نبقى عليه.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي، فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه: كانت ستمائة سنة، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- وعن قتادة خمسمائة وستون سنة، وقال معمر عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة، ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية.

على كل حال الله تعالى أعلم لكنها فعلاً تبلغ مئات السنين، والمشهور أنها تقرب من الستمائة سنة قد تزيد وقد تنقص بعض الشيء، لكن القول بأنها أربعمائة وثلاثون سنة بعيد، فالمدة التي كانت بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين عيسى -عليه الصلاة والسلام- بنحو من ستمائة سنة، بينما المدة التي بين عيسى -عليه الصلاة والسلام- وبين موسى أطول بكثير، فبعض المؤرخين يوصلها إلى ألف وتسعمائة سنة تقريباً، وقد لا تبلغ هذا، ومرة حاولت أن أجمع كلام المؤرخين على أطول تقدير ذكر، فجمعت المدة من آدم إلى يومنا هذا فوجدت أن قول المؤرخين حينما يجدون جثة إنسان أو نحوه: هذه من ملايين السنين، أو من يوم كان الإنسان في العصر الحجري أو البورنزي، ويأتي آخرون فيقولون: هذا الأمر من عشرة ملايين وخمسمائة وإحدي وثلاثين سنة، وجدت أن هذا كله كذب ودجل، فالمسألة كلها بالآلاف ولا تصل إلى المليون ولا تقارب المليون أصلاً، فكل ما يقولونه كذب، ولا يوجد شيء اسمه عصر بورنزي ولا شيء اسمه عصر حجري، ولا يوجد إنسان بدائي كما يصورونه على شكل قرد أو غيره و إنما هو آدم أنزله الله من الجنة في قمة التحضر وعلى

أكمل هيئة وعلمه أسماء كل شيء وأسجد له الملائكة وجعله نبياً، فلا يوجد شيء اسمه إنسان بدائي ولا غير ذلك، لكن المشكلة أن هذه الأشياء تنقل عن قوم جهلة لا يعرفون الله -عز وجل-، ويتخرصون ويتقولون ما لا صحة له، والأعجب من ذلك أن يأتي من المسلمين من يصدق هذه المعلومات وهي خزعبلات وكذب وكفر ودجل، والله المستعان

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [(٢٥) سورة الكهف] **أي قمرية لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب، وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أولى الناس بابن مريم لأنا، ليس بيني وبينه نبي))[1] وهذا فيه رد على من زعم أنه بُعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان كما حكاه القضاعي وغيره.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه المدد التي قدرت هي من قبيل اختلاف المؤرخين، والجمع بينها لا يخلو من تكلف سواء على القول بأن الحساب كان على الشمسية أو القمرية، وكذلك القول بأن نبياً بعث بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- وقبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذا كله لا أصل له، ومن أراد أن ينظر في الكلام على هذا من الناحية التاريخية أو من هو خالد بن سنان وما يقال عنه وإلى من أرسل، ومن هم أصحاب الرس، فإنه سيجد هذا في بعض كتب التفسير عند قوله تعالى: **{وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا}** [(٣٨) سورة الفرقان] وكذلك كتب التواريخ، بل حتى بعض كتب التراجم، بل حتى بعض كتب تواريخ الصحابة مثل كتاب الإصابة، وكذلك كتاب المفصل في تاريخ العرب، وفي مثل كتاب المعارف وإن كان عهدي به قديماً فلا أدري ذكر هذا أم لا لكنه ذكر فيه ترجمة لخالد بن سنان، ويقال أيضاً: إن حنظلة بن صفوان هو نبي أهل الرس، وعلى كل حال هذا لا أصل له، ومعلوم أنه لا يوجد نبي من العرب إطلاقاً إلا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو من ولد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- والمؤرخون يقولون: إن إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- تعلم العربية من جرهم وإلا فإن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ليس من العرب قطعاً.

والمقصود أن الله بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- على فترة من الرسل وطموس من السبل، وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النصارى والصائبين كما روى الإمام أحمد عن عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب ذات يوم فقال

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٨) (ج ٣ / ص ١٢٧٠).

في خطبته: **((وإن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله -عز وجل- نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بني إسرائيل، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان))**[2].

قوله: **((لا يغسله الماء))** يعني أنه محفوظ في الصدور لم ينزله عليه في كتاب كما هو الشأن في الكتب التي كانت قبله، والتعبير بغسل الماء يعبر به عن الكتب المكتوبة؛ لأنها تكتب بالأحبار ولذلك إذا أرادوا محوها غسلوها.

وقوله: **((تقرؤه نائماً ويقظان))** هذا يحتمل معنيين: الأول يمكن أن يكون المراد اليسر والسهولة، أي تقرؤه بسهولة، والمعنى الثاني المحتمل أنه محفوظ في صدرك في حال يقظتك ونومك، يعني أنه ملازم للإنسان بحيث لا يحتاج أن يأتي بالمصحف ويقرأ فيه، ولذلك جاء وصف هذه الأمة بأن أناجيلهم في صدورهم، ولم ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء من القرآن في حال النوم حتى إن سورة الكوثر جاء في حديث أنس في الصحيح أنه قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم تبسم وقال: ((أنزلت علي آنفاً سورة)) ثم قال: ((بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر))[3] لكن ليس المقصود بذلك: أنه نزلت عليه في حال النوم وإنما هي الحال التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، والله تعالى أعلم.

والله -عز وجل- قال عن الكفار: إنهم يقولون: {أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ} [(٥) سورة الأنبياء]، وكذبهم في هذا ورد عليهم، فالأقرب والأرجح أنه لم ينزل عليه شيء وهو في حال النوم، لكن نزل عليه شيء وهو في فراشه مما يذكره بعض أهل العلم كالسيوطي وغيره ويسمونه الفراشي، وقد جاء في حديث عائشة -رضي الله عنها- وحديث أم سلمة في قصة الثلاثة الذين خلفوا أنها نزلت في ثلث الليل الآخر وهو عند أم سلمة.

((ثم إن الله أمرني أن أحرِّق قريشاً فقلت: يا رب إذاً يَثْلَغوا رأسي فيدعوه خبزةً)).

يعني يشدخوه ويهشموه كما تكسر الخبزة إذا سمعوا بهذا الأمر.

((فقال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْزِك وأنفق عليهم فسننفق عليك)).

قوله: ((واغزهم نُغْزِك)) أي نعينك ونأيدك وننصرك.

((وأنفق عليهم فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير ذو عيال متصدق)).

قوله: **((ورجل عفيف فقير ذو عيال متصدق))** هذه ليست في المطبوع من مسند الإمام أحمد، والحديث هنا ساقه من طريق الإمام أحمد وفي مسند الإمام أحمد: ((ورجل فقير)) فلعله في نسخة أخرى.

((وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْر له)).

---

[2] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠) (ج ١ / ص ٣٠٠).

قوله: ((**الضعيف الذي لا زَبْر له**)) يعني الضعيف الذي لا عقل يزبره أي يمنعه من مقارفة ما لا يليق، يعني ليس عنده مشكلة إذا تاقت نفسه إلى شيء وصار له هوى في عمل من الأعمال أن يعمله ولا يرعوي، وليس له مروءة ولا دين يمنعانه ويكفانه عن مقارفة الدنائس، وهو ضعيف بمعنى أنه تابع للناس يتبعهم من أجل أن يجد عندهم طعاماً ومأوى كما قال الله -عز وجل-: {**أَوِ التَّابِعِينَ**} [(٣١) سورة النــــور] وقيدهم بغير ذوي الإربة من الرجال، ونحو ذلك، يعني الذين لا إرب لهم في النساء أي أنه لا يتفطن لمفاتن النساء، وهو الذي يقولون له: المخبَّل، أما إذا كان له إرب في النساء فإنه لا يجوز دخوله على النساء، فهذا الآن عكس ذاك، فهو ضعيف لا زَبْر له يتبع الناس ويدخل معهم من أجل أن يأكل عندهم، فمرة عند هذا ومرة عند هذا لأنه ليس عنده مأوى ولا بيت ولا زوجة ومع ذلك هو سيئ لا عقل له ولا مروءة ولا دين، فيطلب أموراً يتخونهم بها بحيث يدخل عليهم في بيوتهم ليعطفوا عليه ولكنه ذئب أطلس فهذا نسأل الله العافية منه.

((وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْر له الذين هم فيكم تبع أو تبعاء)) شك يحيى.

قوله: "**شك يحيى**" يعني شك الراوي يحيى بن سعيد شيخ الإمام أحمد.

((لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه)).

قوله: ((**لا يبتغون أهلا ولا مالاً**)) يعني أنهم كما يقال الآن: ليس عندهم تكوين أسرة ولا يطلبون المال بجمعه وتحصيله بالتكسب فهم يريدون أن يأكلوا عيشاً عند الناس وفقط.

قال: ((**والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه**)) كلمة "يخفى" من الأضداد أي من الكلمات التي تطلق على معنيين متضادين، فمعنى لا يخفى له طمع أي لا يظهر له طمع وإن دق إلا خانه، يعني بمجرد ما تتبدى له فرصة فإنه ينتهزها ولا يبالي، كما أن كلمة "يخفى" هي من الخفاء الذي هو عكس الظهور، والأضداد كثيرة وأُلف فيها مصنفات وهذا من سعة اللغة العربية.

((ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك)).

مثل هؤلاء الذين يدورون على مدارس البنات وفي الأسواق، وعبر البلوتوث يفتن النساء بأقبح ما يمكن أن يرسل من المشاهد والصور لعله يصطاد أحداً، فهو يعمل جاهداً في تطلب عورات الناس فهو إن جلس في بيته فبالهاتف أو الإنترنت، وإن خرج فهو شيطان يطارد كل سوادة، نسأل الله العافية.

((وذكر البخل أو الكذب والشِّنْظِير الفاحش)) والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: ((وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل))[٤].

على كل حال الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وفي لفظ مسلم: ((من أهل الكتاب)) وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء، ولهذا قال تعالى: {أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ} [(١٩) سورة المائدة] **أي: لئلا تحتجوا وتقولوا: -يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه- ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر {فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ}** [(١٩) سورة المائدة] **يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-.**

---

[٤] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

{وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٩) سورة المائدة] قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ* يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ* قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ*قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [(٢٠-٢٦) سورة المائدة].

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام- فيما ذكّر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء} [(٢٠) سورة المائدة] أي: كلما هلك فيكم نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم -عليه السلام- ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- وهو أشرف من كل من تقدمه منهم -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} روى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} قال الخادم والمرأة والبيت.

الله -عز وجل- قال: {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء} ولم يقل: جعلكم أنبياء ولما ذكر الملك قال: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} فلماذا فرق بينهما؟

هذا التفريق جعل أهل العلم يحملون المعنى على بعض المحامل وإن كانت على خلاف الظاهر المتبادر، فبعضهم يقول هو على تقدير حذف حرف الجر، {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا}: أي: جعل منكم ملوكاً، وقالوا: لأنه من المعلوم أنهم ليسوا جميعاً ملوكاً، وإنما فيهم الملوك.

ومن أهل العلم من يقول: إن النبوة لا يمكن أن تنسب إلى غير من اتصف بذلك وتفضل الله عليه بها، أي أنه لا يمكن أن تقول لقوم نبي من الأنبياء: أنتم أنبياء، أما الملك فيمكن أن يضاف إلى القوم وإن لم يكن الواحد منهم كذلك كما تقول قرابة الملك مثلاً: نحن الملوك، أي قد يقولون هذا ولا يكون ذلك معيباً في كلام العرب، يعني أن وجه قولهم: نحن الملوك صحيح في اللغة، وكذلك أيضاً يمكن أن يضاف إلى القوم أو القبيلة، فيقال: القبيلة الفلانية هم الملوك، أي أن الملوك منهم، ويكون ذلك عزاً وظهوراً لهذه القبيلة، فعلى هذا يكون إضافة الملك إلى بني إسرائيل بهذا الاعتبار، وقد قيل بهذا الاعتبار وأنهم وصفوا بأنهم ملوك بظهورهم وما لهم مما أعطاهم الله -عز وجل- من الإمكانات والقدر والتصرف الذي هو حقيقة الملك، فالمقصود أنه يمكن أن يفسر بهذا، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: أي أنهم ملكوا أنفسهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، أي يستخدم النساء في الخدمة ويبقي الرجال من أجل أن يقوموا بالأعمال المهينة التي يتنزه عنها الفراعنة، ولهذا أمر الله تعالى موسى وهارون -صلى الله عليهما وسلم- أن يأتيا فرعون ويقولا له: {إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [(٤٧) سورة طـه] يعني خلِّ بيننا وبين بني إسرائيل، ولذلك لما أرادوا الخروج إلى الشام خرجوا مستخفين فتبعهم فرعون ولم يتركهم إلا أن الله نجاهم منه فملكوا أنفسهم بعد أن كانوا مملوكين فوصفوا بهذا، وهذا على أحد أقوال أهل العلم، وقيل: إن الواحد منهم صار لا يُدخَل عليه إلا بإذن، فبهذا الاعتبار قيل لهم: ملوك، وهذا القول فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: أي أنه يملك خادماً وزوجة وعنده ربما ما يكفيه من قوته أو نحوه، فهو بهذا الاعتبار يكون ملكاً، كما جاء في بعض الآثار ووردت بعض الأحاديث التي تدل على أن من ملك مثل هذه الأشياء فكأنما حيزت له الدنيا[5]، كما صح أيضاً عن بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- لما سأله رجل وقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له: هل لك زوجة؟ فقال: نعم، قال له: هل لك مسكن؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء! فقال: ولي خادم، قال: فأنت إذاً من الملوك.

وقد قال كثير من السلف: إن المراد بالآية: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} أي أن الواحد منهم له محل يسكنه وله خادم، ومن كان كذلك فإنه يقال له: ملك.

وجاء عن ابن عباس: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً، يعني أن هذا اصطلاح عندهم أو عُرف بينهم، والخطاب في الآية موجه إليهم: {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} [(٢٠) سورة المائدة].

ولعل الظاهر المتبادر من المعنى -والله تعالى أعلم- أن الله -تبارك وتعالى- يمتن عليهم بأن جعل فيهم النبوة وجعل فيهم الملْك فكان لهم الظهور من بين سائر الأمم، ولا يعني هذا أن كل واحد منهم يكون ملكاً، وإنما المعنى أنهم كانوا ظاهرين، كما قال تعالى: {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} [(٢٩) سورة غافر] فهذا الرجل المؤمن خاطب قومه بقوله: {لَكُمُ الْمُلْكُ} وإن لم يكن كل واحد منهم ملكاً، ولهذا يمكن أن يخاطب العرب بهذا أو يوصفون به حينما امتن الله -عز وجل- عليهم بالإسلام فكان لهم الظهور، فبعد أن كانوا يلقبون بذباب الصحراء صاروا ملوكاً بهذا الاعتبار، والله اعلم.

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: المرأة والخادم.

{وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ.

الأمر كما قال "**الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ**" ولا حاجة للتكلف في تفسير قوله تعالى: {وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] فهي كقوله -عز وجل-: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(١٢٢) سورة البقرة] أي على عالمي زمانهم ولا يعني أنهم أفضل من هذه الأمة؛ لأن الله بعد ذلك لعنهم وطردهم وقطعهم في الأرض أمماً ومقتهم، فهذه الأمة أشرف وأكمل لكن في عالم زمانهم من اليونان أو الرومان أو سائر الأمم المكذِّبة كان هؤلاء -بنو إسرائيل- أشرف وأكمل ففيهم الأنبياء وفيهم أهل الإيمان، ثم بعد ذلك صار الأمر

---

[5] - سيأتي ذكره وتخريجه.

كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر] فبعد أن كانت النبوة في بني إسرائيل انتقلت إلى هذه الأمة، فقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر] هم هذه الأمة بطوائفها الثلاث، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [(٣٢) سورة فاطر].

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال قتادة: كانوا أول من اتخذ الخدم.

على كل حال {وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] يدخل فيه هذا، ويدخل فيه غيره مما أعطاهم الله -عز وجل- فهو ظللهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفرَق بهم البحر، وأعطاهم أموراً كثيرة لم يُعطِها أحداً من عالمي زمانهم.

وقد ورد في الحديث: ((من أصبح منكم معافىً في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))[6].

وقوله: {وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] يعني عالمي زمانكم فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(١٦) سورة الجاثية] وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: {يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(١٣٨-١٤٠) سورة الأعراف]، والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعة وأقوم منهاجاً وأكرم نبياً وأعظم ملكاً وأغزر أرزاقاً وأكثر أموالاً وأولاداً وأوسع مملكة وأدوم عزاً، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [(١٤٣) سورة البقرة] وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} من سورة آل عمران [(١١٠) سورة آل عمران].

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد – باب ٣٤ حديث رقم (٢٣٤٦) (ج ٤ / ص ٥٧٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب القناعـــة (٤١٤١) (ج ٢ / ص ١٣٨٧) والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) (ص ١١٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٤٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى -عليه السلام- لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب -عليه السلام- لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف -عليه السلام- ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى -عليه السلام- فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى -عليه السلام- بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى -عليه السلام- أنه قال: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ} [(٢١) سورة المائدة] أي المطهرة.

وقوله تعالى: {الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(٢١) سورة المائدة] أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل -عليه السلام-.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: إنها كانت موطناً لهم قبل خروجهم إلى مصر في زمان يوسف -صلى الله عليه وسلم- والمعروف أن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- كان في البادية -بادية الشام أو بادية فلسطين- ولهذا قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} [(١٠٠) سورة يوسف]، ويمكن أن يراجع كلام أهل العلم في ذلك الموضع، وعلى كل حال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مؤرخ.

وقوله هنا: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ} [(٢١) سورة المائدة] قال: أي المطهرة، وبعضهم يقول: أي المباركة، وعلى كل حال كل ذلك يصدق عليها وإن كان المتبادر في معنى لفظة التقديس هو التطهير، يقال: يُقدِّس كذا بمعني يطهره وينزهه، وما أشبه ذلك، ومنه أُخذ معنى التعظيم؛ لأنك إذا قدست شخصاً بأن نزهته وطهرته، فمعنى ذلك أنك عظمته وذلك من باب الملازمة، والله تعالى أعلم.

وهذه الأرض بعضهم يقول: إنها الشام، وهو كقول من قال: إنها دمشق وفلسطين وبعض الأردن، ومنهم من يخص ذلك بدمشق، ومنهم من يقول: أريحا، ومنهم من يقول: الطور وما حوله، ومنهم يقول: من العريش بمصر إلى الفرات في العراق، وهذا الذي يدَّعيه اليهود اليوم، فإن الخطوط التي في علمهم فيها خطان أزرقان بينهما النجمة، أحد الخطين يرمز إلى النيل والآخر يرمز إلى الفرات، ومن أناشيدهم في كل صباح التي ينشدها حتى الطلاب في المدارس: حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل، ولا أظنهم يصلون إلى هذا، بل لا أظنهم يتجاوزون ما هم فيه بشيء يذكر؛ لدلالة النصوص على ذلك وإن كانت ليست دلالة نصية

صريحة، لكن كون النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول عن آخر الزمان: ((أنتم شرقي النهر)) يعني الأردن ((وهم غربيه))[1] فهذه حدود كما هي الآن تقريباً، والعلم عند الله -عز وجل- على كل حال.

قوله تعالى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(٢١) سورة المائدة] فحينما كانوا على دين صحيح كتبها الله -عز وجل- لهم، واستطاعوا أن يدخلوها بعد حين، وعامة أنبياء بني إسرائيل كانوا فيها -أعني في بلاد الشام-، فالذين ينازعونهم ويجادلونهم من العرب ويقولون: نحن أحق بهذا ولنرجع إلى التاريخ، فهؤلاء مساكين، فالمسألة ليست بهذه الصورة؛ لأن المسألة لو كانت مسألة عرب فالعرب ذباب الصحراء كانوا في جزيرة العرب، وإنما الذي دخلها هو الإسلام وليس العرب، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

فلما كذّب هؤلاء اليهود الرسل وقتلوا من قتلوا منهم مقتهم الله -عز وجل- وسلط عليهم خلقه يسومونهم الخسف والذل وشُردوا في الأرض، فأورث الله -عز وجل- الكتاب لهذه الأمة وأورثهم أيضاً الأرض فدخلها المسلمون فاتحين، فهم أحق بها وأولى وأجدر، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى هذه القضايا، أي أنها بلاد لا تختص لا بالفلسطينيين ولا بالعرب وإنما الإسلام هو الذي دخلها وهو الذي رفع من شأن هؤلاء العرب فتحولوا إلى فاتحين، وإلا فلو جئنا نجادل في قضية العرب وما العرب فالعرب كانوا في الجزيرة ونواحي الجزيرة فكيف وصلوا إلى المغرب؟ وهكذا الشام كانت بيد الروم، وكلٌّ سيقول: نحن قبل، ونحن قبل، ونرجع إلى عهد آدم -صلى الله عليه وسلم- وهذا غير صحيح.

وقوله تعالى: {الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(٢١) سورة المائدة] أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل -عليه السلام- أنه وراثة من آمن منكم.

هذا تفسير للكَتْب، فقوله: {كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} يعني وُعِد بها من آمن منكم، أو هو تفسير من فسر الكتب بمعنى أنه كتبها لكم: أي أمركم بدخولها، كما نقول: كتب الله علينا الصيام، وكتب علينا الصلاة، أي أمرنا بذلك، وليست هذه الكتابة كونية تقتضي وقوع المراد وإنما هو شيء أمرهم الله -عز وجل- به فتلكئوا عن ذلك وهابوا الجبارين ولم يفعلوا، ولو كان كتبها الله -عز وجل- لهم في الأزل كتابة قدرية كونية لتحقق ذلك لا محالة سواء دخلوا عليهم الباب، أو لم يدخلوا عليهم الباب، سواء كانوا قصدوهم أو لم يقصدوهم.

{وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ} أي: ولا تنكلوا عن الجهاد {فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [(٢١-٢٢) سورة المائدة] أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة -التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها- قوماً جبارين أي: ذوي خلَقٍ هائلة وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم.

هذا تفسير جيد للجبارين دون الاشتغال بتحديدهم، وإنما ذكر صفة هؤلاء بأنهم بهذه المثابة، وإن كان بعضهم يقول: هم بقية من قوم عاد، وبعضهم يقول: هم من ولد عيص بن إسحاق، وبعضهم يقول: هم من الروم،

---

[1] - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢١١٩١) (ج ١٠ / ص ٢٨٦) وابن سعد في الطبقات (ج ٧ / ص ٤٢٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجـامع برقم (٤٦٥٦).

لكن ليس هناك دليل يحدد شيئاً من هذا، ويذكر المفسرون وبعض المؤرخين في أخبارهم أشياء عجيبة جداً هي من كلام بني إسرائيل، على تفسير الاثني عشر نقيباً بأنهم الذين اختارهم الله -عز وجل- من أسباط بني إسرائيل لينظروا في أمر الجبارين -على هذا القول وهذا كله مأخوذ من بني إسرائيل وقد مضى- يقولون: إنهم ذهبوا لينظروا فلما رأوهم بحالة من الخلق عجيبة، ويقولون: إنهم دخلوا في بستان رجل من الجبارين فدخل بستانه فرأى آثارهم فتتبعها فصار يلتقطهم الواحد بعد الواحد ويضعهم في سلة الفاكهة حتى أتى عليهم جميعاً، ثم ذهب بهم ونثرهم بين يدي الملك، فقال لهم الملك: قد رأيتم من أمرنا ما رأيتم فاذهبوا إلى صاحبكم فأبلغوه، فيقولون: إنهم جاءوا إلى موسى وأخبروه وأنه استكتمهم هذا؛ لئلا يفت في أعضاد بني إسرائيل، وأن الرجل منهم صار يكلم صاحبه ويكلم قريبه، يكلم خاصته بما رأى فخانوه إلا رجلان وهما من ذكر الله -عز وجل-، قال: {رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا} [(٢٣) سورة المائدة] فبعضهم يقول: أي يخافون من الجبارين، وبعضهم يقول: يخافون الله، فالحاصل أنهم رجلان ممن شاهد الجبارين فلم يخبروا ولم يفشوا، وهذا الكلام كله مبني على الإسرائيليات، وكذلك يذكرون في أوصاف الجبارين أشياء عجيبة، وعلى كل حال الجبار هو كما وصف ابن كثير -رحمه الله- هنا، كما يقال الجبار للعاتي، أو من يجبر الناس على ما يريد، فهو بمعنى الإكراه على هذا، وبعضهم يرجعه إلى جبر العظم فهو المصلح لأمر نفسه بهذا الاعتبار، ولكن لما كان ذلك ولو على حساب الآخرين إذا كانت مصلحته تقتضي هذا فاستعمل بهذا الاعتبار إلى كل من يجر إلى نفسه نفعاً ولو أضر بغيره، وهذا فيه بعد، لكن كلمة جبار أصلاً حينما نأتي إليها في اللغة، فهي تدل على عدة معان، ومن ذلك أنها تطلق على الطويل فيقال: نخلة جبارة، وتطلق على المصلح لغيره ومنه جبر العظم، فالله يجبر الضعيف ويجبر القلوب المنكسرة ويقويها، ويطلق كما هو المتبادر على شديد البطش والبأس والقوة والجبروت، وهذا معناه الأكثر استعمالاً والأشهر، وهؤلاء بهذه الصفة أصحاب خلق عظيم وقوة شديدة، لكن ما هم بهذه الصورة التي تذكر في الإسرائيليات، بأن يأخذ اثني عشر رجلاً في سلة فاكهة، فهذه مبالغات.

وقوله تعالى: {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا} [(٢٣) سورة المائدة] أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى -عليه السلام- حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم: (قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ) أي: من الذين لهم مهابة وموضع من الناس.

هذه القراءة ليست متواترة، وقد قرأ بها بعض التابعين مثل مجاهد وسعيد بن جبير، والمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو المتبادر وهو الأقرب في تفسير الآية: {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} يعني ممن يخافون الله ويخشون عقابه، وبعضهم يقول: {مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} أي يخافون من الجبارين لكنهم غلّبوا جانب التوكل فقالوا لقومهم ما قالوا، وإلا فقد رأوا الجبارين بناء على ما ذكرت سابقاً، وبعضهم يقول: {مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} إن الواو ترجع إلى بني إسرائيل، يعني من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويؤيده القراءة الآحادية التي ذكرها (مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ) يُخافون يعني أن الإسرائيليين يحسبون لهم حساباً، والأقرب أنها {مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} أي يخافون الله.

وسبب هذا الاختلاف بين المفسرين هنا هو الحذف، إذ يوجد مقدر محذوف، فأحياناً العلماء يترددون في تقديره فيقع الخلاف بينهم في التفسير بناء على هذا المقدر، وهذا أحد أسباب اختلاف المفسرين، فبحسب ما يقدر يكون المعنى.

قوله: {أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا} [(٢٣) سورة المائدة] هذه صفة أخرى لهم، فالصفة الأولى أنهم يخافون الله، والصفة الثانية أن الله أنعم عليهم بالإيمان واليقين والثبات فلم يتضعضعوا ويترددوا ويغلِّبوا خوف الجبارين على أمر موسى وطاعة الله -عز وجل-.

ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد من السلف والخلف -رحمهم الله- فقالا: {ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٢٣) سورة المائدة].

المراد بالباب باب المدينة.

أي: إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم، وأيدكم وأظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً.

كيف عرفوا أنهم بمجرد دخول الباب يَغلبون؟ يمكن أن يكونوا عرفوا ذلك من موسى -عليه السلام- ويمكن أن يكونوا قالوا ذلك بناء على ما عرفوا من صفة المعبود -سبحانه وتعالى- والله -تبارك وتعالى- أمرهم بدخولها، فهذا يحتاج منهم إلى عمل أمرهم الله به فإذا تحقق ما أمرهم به تحقق ما وعدهم الله به، فيكونوا عرفوا هذا بهذا الاعتبار، ويمكن أن يكونوا عرفوا ذلك بناء على أمور رأوها عند الجبارين، من أنهم لا يطيقون مجابهة أهل الإيمان مثلاً، أو لأي أمر آخر عرفوا فيه هذا.

فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً {قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة] وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء، وما أحسن ما أجاب به الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يوم بدر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حين استشارهم في قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين تسعمائة إلى الألف في العدة والبَيْض واليلَب.

البَيْض: هو ما يضعه المقاتل على رأسه مثل المغفر، واليَلب: يمكن أن يفسر بالفولاذ تقول: هذا مقنع بالحديد.

فتكلم أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أشيروا علي أيها المسلمون)) وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه-: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقول سعد، ونشطه ذلك.

كانت المعاقدة بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين الأنصار في البيعة أنهم يمنعونه مما يمنعون منه أزواجهم، يعني أنهم لا يسلمونه لعدو، فقد يفهم من هذا أنهم يدفعون عنه من قصده في المدينة، لكن كون النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج إلى أهل مكة في بدر فهل هذا داخل في هذه البيعة أو غير داخل؟ أي هل يلزمهم ذلك أو لا يلزمهم، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يسمع منهم.

وروى أبو بكر بن مردويه عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: إذاً لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة] **والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك"** [ورواه الإمام أحمد والنسائي، ورواه ابن حبان].

برك الغماد هذه،بعضهم يقول: هي من وراء الساحل خلف مكة خمس ليالٍ، وبعضهم يقول غير هذا.

وروى البخاري في المغازي وفي التفسير من طرق عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ولفظه في كتاب التفسير قال: قال المقداد -رضي الله تعالى عنه- يوم بدر: يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة] **ولكن امض ونحن معك، فكأنه سري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.**

يعني أن اليهود ابتلاهم الله -عز وجل- بخوف وابتلاهم بطمع، وابتلى الله هذه الأمة بخوف وابتلاهم بطمع، اليهود قيل لهم: ادخلوا هذه المدينة فهابوا ونكلوا، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما فاتت العير وبقوا أمام النفير، سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا له: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى، فهم بهذا أفضل من بني إسرائيل.

وأما الطمع ففي قصة الحيتان التي كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فغلبهم الطمع والقرم وهو شهوة اللحم، فصاروا يحتالون فيلقون الشباك في الجمعة ويأخذونها يوم الأحد، فأخفقوا في هذا الامتحان، وأما هذه الأمة فالله -عز وجل- قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [(٩٤) سورة المائدة] فقوله: {تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ} أي أنه قريب جداً منكم ابتلاء واختباراً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما كان في طريقه إلى مكة مرَّ -صلى الله عليه وسلم- بظبي حاقف -والحاقف هو الذي أمال عنقه إلى بطنه ونام على صدره- فقال: ((لا يريبه أحد))[2] أي: لا أحد يزعجه ولا ينفره، فتصور كم عدد الذين مع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ إنهم أعداد هائلة، ومع ذلك لم يحركه ولم ينفره أحد بل كانوا في غاية الانضباط مع أن العرب يستفزهم الصيد بمجرد رؤيته، ومع ذلك ما حصل منهم هذا، والحاصل أنهم ما كانوا يعتدون، وما كانت تغلبهم شهوة الصيد فيفعلوا ما نهاهم الله -عز وجل- عنه، فهم أفضل من بني إسرائيل حينما لاح لهم الطمع، وأفضل منهم حينما كانوا أمام الخوف.

---

2 - أخرجه النسائي في كتاب مناسك الحج - ما يجوز للمحرم أكله من الصيد (٢٨١٨) (ج ٥ / ص ١٨٢) وصحح إسناده العلامة الألباني في صحيح النسائي برقم (٢٨١٨).

وقوله: {قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [(٢٥) سورة المائدة] **يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى -عليه السلام- وقال داعياً عليهم {رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي}** [(٢٥) سورة المائدة].

بعض أهل العلم يقول: إن في الآية مقدراً محذوفاً، يعني رب إني لا أملك إلا نفسي، وأخي لا يملك إلا نفسه، لكن هذا فيه بعد، والأصل عدم التقدير، فالمعنى المتبادر إني لا أملك إلا نفسي وأخي أي: أمري لا ينفذ إلا على نفسي وعلى أخي وأما هؤلاء فيقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

وقولهم هذا في غاية القبح في الرد والتطاول على الله -عز وجل- والعجيب أن بعض المفسرين يتلطف في حمل هذه الجملة على محامل بعيدة، فيقول: إن معنى قولهم: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} أي اقصد أنت وربك وليس معناه الذهاب الحقيقي لفتح المدينة، أي إذا أردتم فتحها وقصدتم ذلك فإنها تفتح بدون قتال، وهذا القول بعيد غاية البعد، وكأن هؤلاء المفسرين يقولون: إنه لا يتصور أن يصل الأمر بهؤلاء القوم إلى هذا الحد فيقولون: اذهب أنت وربك -وهم أصحاب موسى-؛ لأن هذا في غاية الكفر، لكن يقال: إنه يتصور منهم أكثر من هذا، فهم الذين قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] وعبدوا العجل وأرجلهم ما جفت من البحر، وحتى الذين دخلوها بعد عقوبة التيه قيل لهم: ادخلوا سجداً فدخلوا يزحفون، أمروا بقول وأمروا بفعل، بالقول أمروا أن يقولوا حطة، يعني حط عنا خطايانا، وبالفعل أن يدخلوا في هيئة الراكع فدخلوا يزحفون استهزاءً ويقولون: حبة في شعرة، وفي بعض الروايات شعيرة أو حنطة، إنهم يستهزئون مع أن أسفه السفهاء ما يفعل هكذا، حتى إن فسقة أمة محمد وأردى الناس فيها لو ذهبوا لجهاد العدو ودخلوا منتصرين ما صدر منهم هذا الكلام، بل لا ترى منهم إلا الإيمان وما يرضي الله -عز وجل- لكن هؤلاء كانوا بهذه المثابة.

{رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي} [(٢٥) سورة المائدة] **أي: ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون {فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}** [(٢٥) سورة المائدة] **قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني اقض بيني وبينهم، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق: افصل بيننا وبينهم.**

هذه المعاني كلها تدور على شيء واحد، {فَافْرُقْ بَيْنَنَا} يعني افصل أو احكم، والحكم هو الذي يحصل به الفصل.

وقوله تعالى: {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} الآية [(٢٦) سورة المائدة].

التيه: هو التحير أي يتحيرون في الأرض، والوقف هنا فيه تعانق، فإذا وقفت على الموضع الأول فلا تقف على الثاني، هكذا: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ} {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة المائدة] أو {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً} {يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة المائدة] فيحتمل هذا وهذا، فمن وقف على الأول قال: إن التحديد بالأربعين سنة هي مدة التيه وأما الفتح، فقد يكون تأخر أكثر من هذا، وبعضهم يقول بناء على الموضع الآخر في الوقف يكون مدة التحريم أربعين سنة، وكانوا في هذه الأربعين سنة يتيهون في

الأرض، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن المعنى بأنها محرمة عليهم هذه المدة ويقضونها في التيه، يتيهون في الأرض، وهذا قول قريب كأنه هو المتبادر والله تعالى أعلم، وبهذا نعرف أن موضوع الوقف والابتداء يرتبط ارتباطاً كبيراً بالمعنى، فإذا عرف المعنى بني عليه موضع الوقف، وهذا مثال من أمثلة كثيرة جداً.

لما دعا عليهم موسى -عليه السلام- حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائماً ولا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران -عليه السلام- وهنالك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان.

هذه الأرض التي تاهوا فيها، بعضهم يقول: هي أرض صغيرة -ستة فراسخ في ستة فراسخ-، ومع ذلك تاهوا، فكيف تاهوا بها وهم كثير ومعهم أنبياء مثل موسى -عليه الصلاة والسلام-؟

بعضهم يقول: كانت الأمور تنقلب، يعني يمشون من أول النهار إلى الليل، فإذا ناموا وأصبحوا وجدوا أن الأرض قد انقلبت وصاروا في أولها، وهذا الكلام لا دليل عليه، ولكن غاية ما يمكن أن يقال هنا: إن الله على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئاً لا بد من وقوعه، وهذه الآية فيها عبرة عظيمة في هذا المعنى، فهؤلاء معهم أنبياء ويمشون وهذه الأرض ما يمر ولا يجتاز بها أحد من الناس، وهم لو توجهوا من أي اتجاه فإنهم يصلون ولا يحتاجون إلى أربعين سنة، بل لو مشوا أربعين يوماً على أكثر تقدير فإنهم سينفذون إلى ناحية أخرى، ومع ذلك أربعين سنة وهم ضائعون يظللهم الغمام ويأكلون المن والسلوى، لا يوجد زرع ولا غيره، فقدر الله -عز وجل- فوق كل شيء، وإذا أراد شيئاً كان، لذلك بهذا وبمثله يرد على الذين يقولون: أين المسيح الدجال، فالأقمار الصناعية تصور الأرض جميعاً فأين الجزيرة التي رآها تميم بن أوس الداري -رضي الله عنه- كما في صحيح مسلم وغيره؟ وأين الجساسة؟ وأين يأجوج ومأجوج؟

بعضهم يقول: إن المراد بهم أهل الصين، وأن سد الصين هو السد الذي عندهم، لكن يقال: الصينيون مفتوحون على العالم، والناس يسافرون لهم وهم يخرجون ويسافرون، والسد ما منعهم الخروج، ولا سألوا عنه وإنما هو تحفة تراثية، فأين يأجوج ومأجوج الذين هم بهذه الكثرة بحيث يشربون بحيرة طبرية، وقسيهم يوقد عليها سبع سنين في أيام عيسى -عليه الصلاة والسلام-، أين هؤلاء -بعددهم الهائل- الذين لا قبل لأحد بهم حتى تنتن الأرض من زهمهم في آخر الزمان حتى يبعث الله طيراً كأعناق البخت تأخذهم وتلقيهم حيث شاء الله -عز وجل- ويحتاج إلى مطر يغسل الأرض حتى تطهر؟!

نقول: إن الله أعمى عنهم الناس فلا يصلون إليهم لا بأقمارهم الصناعية ولا بغيرها، كما أعمى الناس عن الدجال فلا يقفون على محله حتى يأذن الله -عز وجل-، بخروجه.

وهذه عبرة عظيمة في بني إسرائيل أن يبقوا أربعين سنة ضائعين؛ إذ لا أحد يضيع أربعين سنة إلا إذا أراد الله له أن يضيع، والعجيب أنهم تاهوا بأكملهم وهم قوم معهم أنبياء ومعهم من يدلهم الطريق، وهذا معروف

إلى عهد قريب حين كان الناس يتنقلون على الجمال، فأول شيء يبحثون عنه هو الدليل، ومن أمثلة ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر اتخذ له من يدله على الطريق.

وقوله: {أَرْبَعِينَ سَنَةً} منصوب بقوله: {يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة المائدة] **فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون -عليه السلام- أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها.**

المشهور أنه يوشع، والمفسرون اختلفوا هل كان موسى وهارون معهم في التيه أم لا؟ والمشهور أنهم كانوا معهم في التيه، وأن موسى -عليه الصلاة والسلام- توفي بالتيه، وأن هارون توفي بالتيه، فكان الجيل الثاني هم الذين دخلوها بعد أن ذهب الجيل الأول، وبعض أهل العلم يقول: الذي فتحها هو موسى -عليه الصلاة والسلام- وهذا هو اختيار ابن جرير، لكن المشهور خلاف ذلك.

فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم، قال: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي، فحبسها الله تعالى حتى فتحها.

وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون: حطة، أي حط عنا ذنوبناً، فبدلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة.

يعني بدلوا القول وبدلوا الفعل، وهذا شكر نعمة النصر منهم، أمروا أن يدخلوها ركعاً فدخلوها يزحفون، وهكذا لا أجد لهؤلاء شبهاً إلا الفأرة، فكما أن الفأرة لا يمكن أن تحوّل إلى شيء جيد نظيف نزيه له سلوك حسن كذلك هؤلاء مثل الفأرة ليس لهم شأن إلا الإفساد، فما يرجى من هؤلاء ولا يمكن أن يُركن إليهم أو يُقبل منهم عهد أو ميثاق أو يصدقون في شيء، بل لا يمكن أن تعيش معهم في سلام حتى الحيوانات.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قوله: {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة المائدة] **قال: فتاهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى وهارون -عليهما السلام- في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له: اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا فنادى الشمس: إني مأمور وإنك مأمورة، فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم يُر مثله قط، فقربوه إلى النار فلم تأته، فقال: فيكم الغلول، فدعا رءوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان، فأتت النار فأكلته، وهذا السياق له شاهد في الصحيح[3].**

---

[3] - صحيح البخاري في كتاب الخمس - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((أحلت لكم الغنائم)) (٢٩٥٦) (ج ٣ / ص ١١٣٦) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧) (ج ٣ / ص ١٣٦٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [(٢٦) سورة المائدة]: تسلية لموسى -عليه السلام- عنهم أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء، ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وهم البُغَضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود وقد فعل، وله الحمد في جميع الوجود.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ* فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [(٢٧-٣١) سورة المائدة].

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه وهما قابيل وهابيل، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله -عز وجل- ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فبعد أن ذكر الله -عز وجل- طرفاً من خزي بني إسرائيل وأعمالهم الفاسدة، وكفرهم بالله -عز وجل- ذكر بعده ما وقع من ابني آدم -عليه الصلاة والسلام- حيث قتل أحدهما أخاه، وجاء بهذا السياق: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا}، فقوله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أي: على بني إسرائيل ليبيّن لهم -وهذه هي المناسبة والله تعالى أعلم- أن الظلم والشر والحسد قديم وليس بجديد، فهم مسبوقون بهذه الأخلاق السيئة التي اشتهروا بها وعرفوا بها بين العالمين.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "**خبر ابني آدم لصلبه وهما قابيل وهابيل**" هذا القيد الذي ذكره أنهما لصلبه احترازاً من قول من قال: إنهما من بني آدم ولم يكونا من صلبه، بل هما من بني إسرائيل، وأن الله ضرب لهم المثل بما وقع من بعضهم، وهذا في غاية البعد، وهو خلاف الظاهر، ومثل هذا يعتبر من الأقوال الشاذة، وكأن هذا القائل لم يتصور أن يقع ذلك من ابني آدم وأبوهما نبي -عليه الصلاة والسلام-، مع قرب العهد بالجنة، ومع ذلك يقع مثل هذا الحسد الذي يؤدي إلى القتل!!

وعلى كل حال الذي لا يصح العدول عنه بحال من الأحوال هو أنهما من صلبه، وفي هذا غاية العبرة، وذلك أن الحسد في قوم لم يطل بعدهم وعهدهم من الجنة وأبناء نبي، وقبل وجود الكفر والشرك والشر في الأرض، ومع ذلك يفعل هذا الحسد فعله، ثم بعد ذلك يقتل أخاه، فهذا أمر مستغرب، وهو كما وقع من أبناء يعقوب -عليه الصلاة والسلام- إلا أن ما وقع من ابني آدم أكثر وأعظم وأشد، وعلى كل حال القول بأنهما من بني إسرائيل لا يلتفت إليه وهو مثل قول من قال في قوله: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} [(٢٤) سورة المائدة] قال: الرب يعني الأخ الأكبر الذي هو هارون، أي اذهب أنت وهارون، ولم يتصور أن يقول أصحاب موسى: اذهب أنت مع الله فقاتلا، بل هم يقولون هذا ويقولون أسوأ من هذا، فلا حاجة لمثل هذه الأقوال الشاذة من أجل تبرئة ساحة هؤلاء اليهود مثلاً أو أن ذلك لا يتصور من أبناء آدم لصلبه، والله تعالى أعلم.

فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ} [(٢٧) سورة المائدة] أي: اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

وقوله: {بِالْحَقِّ} أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان.

يحتمل أن يكون المعنى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ} [(٢٧) سورة المائدة] أي تلاوة متلبسة بالحق، ويحتمل أن يكون بالحق يتعلق بنبأ، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ} [(٢٧) سورة المائدة] أي: نبأً متلبساً بالحق، والقول الأول أقرب.

كقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [(٦٢) سورة آل عمران]، وقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ} [(١٣) سورة الكهف] وقال: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ} [(٣٤) سورة مريم] وكان في خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم -عليه السلام- أن يزوج بناته من بينه لضرورة الحال.

مثل هذه المرويات في تسمية قابيل وهابيل منقولة عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- لكن كأن ذلك مما أخذ من بني إسرائيل، والله تعالى أعلم.

أن الله تعالى شرع لآدم -عليه السلام- أن يزوج بناته من بينه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه.

على كل حال الله أعلم بهذا، لكن الله أخبرنا أن كل واحد منهما قرب قرباناً فتقبل من هذا ولم يتقبل من الآخر، فحسده على ذلك، ويكفي هذا القدر ولا فائدة في معرفة التفاصيل التي وراءه، ومثل هذا لا سبيل إلى الوقوف عليه إلا عن طريق الوحي، ومثل هذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مما لا يتوصل إلى معرفته، وكما قال في المقدمة: ومنه موقوف لا يعلم أنه مزيف ولا منقود.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأمر أن ينكحها غيره من أخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة، وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي، فقال: لا، أنا أحق بأختي، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله" [إسناد جيد].

زعموا أنه كان صاحب غنم وأنه كان يرعاها، وأن الآخر كان صاحب زرع، وأن صاحب الزرع أخذ قليلاً من السنبلات وكان في بعضها حب وأنه فته بيده وأكله، والثاني قرب كبشاً سميناً فلم يتقبل من صاحب الزرع وتقبل من الآخر ويزعمون أنه طلبه يريد قتله وأنه فر بغنمه إلى الجبال فجاءه وهو نائم فقتله غيلة، مع أن ظاهر القرآن أنه حصل بينهما مقاولة ومجاوبة كما قال تعالى: {قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة]، فلا يدل السياق على أنه قتله غيلة أو أنه قتله وهو نائم كما يقولون: إنه جاء فوجده نائماً فعرّفه إبليس طريقة قتله حيث جاء بطائر فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقال: افعل به هكذا، أو ما يزعمون من أنه لوى عنقه وأن إبليس علمه كيف يصنع، كل هذا الكلام لا دليل عليه، فالله أعلم.

ومعنى قوله: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة]: أي ممن اتقى الله في فعله ذلك.

هذا الذي عليه عامة أهل العلم، {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة] أي في فعله ذلك، بمعنى أنه مثلاً في باب الإنفاق أنفق لوجه الله -عز وجل- وأنفق من المكاسب الطيبة، وأنفق الجزل ولم يتخير الرديء، فمن اختار الرديء واستأثر بالجيد لنفسه فإنه لم يتق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرجل الذي علق عذقاً من شيص في المسجد، فقال: ((إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة))[1]، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} [(٢٦٧) سورة البقرة] فقالوا: إنه لا يكون متقياً من الحرام أي من كسب غير طيب، أو ما طابت نفسه بهذا أو نحو ذلك،.

ويمكن أن تحمل الآية على العموم، {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة] يعني المتقين لله -عز وجل-، ولهذا جاء عن بعض السلف: لو أعلم أنه قبلت لي سجدة واحدة لم أبالِ؛ لأن الله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة - باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة (١٦١٠) (ج ٢ / ص ٢٥) وابن ماجه في كتاب الزكاة - باب النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله (١٨٢١) (ج ١ / ص ٥٨٣) وحسنه الألباني في سنن أبي داود برقم (١٦٠٨).

اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة] يعني من المتصفين بالتقوى، ولكن الذين قالوا: إنه في هذا العمل المعين، قالوا: قد يكون الإنسان مذنباً مسرفاً على نفسه لكنه يعمل عملاً يريد به وجه الله فيقبل ذلك منه؛ لأن الله يقول: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧-٨) سورة الزلزلة] وليس من شرط قبول الأعمال أن يكون الإنسان على قدر من تقوى الله -عز وجل- في أحواله كلها فقالوا: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة] في عمله الذي عمله بحيث لم يكن رياء ولا سمعة، ونحو ذلك.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [(٢٧) سورة المائدة].

وقوله: {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [(٢٨) سورة المائدة] يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ} [(٢٨) سورة المائدة] أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة؛ {إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [(٢٨) سورة المائدة] أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب.

يعني ظاهر هذا الكلام لا سيما آخره "**بل أصبر وأحتسب**" هو الذي يقوله عامة أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهو المتبادر من ظاهر القرآن أنه ترك دفعه، بمعنى أنه لم يقابله على إرادة القتل بمدافعته أو نحو ذلك، وفهم منه بعض أهل العلم أنه موافق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كن كابن آدم))[2] وفي بعض الروايات: ((فليكن كخير ابني آدم))[3]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- لما قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إلي ليقتلني، ففهم منها بعض أهل العلم أنها تفسر هذه الآية، أي أن الأكمل للإنسان ألا يدفع عن نفسه من أراد قتله، وهذا المعنى رده كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال: ليس هذا هو المراد، وأن ابن آدم -هابيل- على الروايات الإسرائيلية لم يترك دفعه، ويقول ابن جرير: إنهم يريدون من رواية أنه قتله وهو نائم ليكون المراد أنه يقول له {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [(٢٨) سورة المائدة] يعني أنه لا يصدر مني ذلك ابتداء فأنا لا أقدم على عمل مثل هذه الأعمال، وليس المراد أنه لا يرده عن نفسه، وأن هذا غير مطلوب أصلاً.

وبعضهم يقول: لعله في شرع من قبلنا، وأن حديث: ((كن كابن آدم)) قد لا يكون المراد منه هذا أصلاً، وإنما المراد به القتال في الفتنة؛ وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الفتن فقال: ((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي))[4] فسئل هذا السؤال[5].

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن – باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٢١٩٤) (ج ٤ / ص ٤٨٦) وأحمد (١٦٠٩) (ج ١ / ص ١٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٤٣١).

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الفتن - باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١) (ج ٤ / ص ١٦٢) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب التثبت في الفتنة (٣٩٦١) (ج ٢ / ص ١٣١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٤٩).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٦٦٧٠) (ج ٦ / ص ٢٥٩٤) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦) (ج ٤ / ص ٢٢١١).

كما جاء أيضاً أنه إذا خاف بريق السيف فليغط وجهه، والحاصل أنه في قتال الفتنة لا يشارك فيها بحال من الأحوال وهي التي ورد فيها أنه يتخذ سيفاً من خشب، أو أنه يضرب بسيفه على حجر فلا يقاتل ولا يشترك في ذلك، أما في غير الفتنة إذا جاء أحد يريد قتله فإنه لا يذعن له وينقاد، بل يدفعه عن نفسه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قتل دون نفسه فهو شهيد))[6] وبعض أهل العلم فهم من حديث: ((من قتل دون نفسه فهو شهيد)) أنه ليس معناه أن يدفع عن نفسه، وهذا الفهم غير صحيح، وعلى كل حال ينبغي للمرء أن يدفع بالأسهل بمعنى لا يكون دفعه ابتداء بالقتل، وإنما يدفع بالأسهل فالأسهل فإذا كان لا يمكن دفعه إلا بالقتل فإنه إن قتله وعنده ما يثبت أن هذا جاء لقتله بحيث سطا على داره يريد قتله أو نحو ذلك فقتله لهذا دفعاً عن نفسه وأنه لم يجد مندوحة من دفعه إلا بالقتل فإنه لا يؤخذ به ولا يقتص منه؛ لأن دفع الصائل إن كان لا يمكن إلا بالقتل فإنه يقتل، لكنه لا يدفع بالقتل ابتداء.

قال عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: "وأيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعني الورع".

هذا على أساس أنه لم يدفع عن نفسه، وعلى كل حال فقول ابن جرير -رحمه الله-: إن مراده بذلك أني لن أستحل قتلك ولا يقع مني ذلك ابتداء.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[7].

مثل ابن جرير يحمل هذا الحديث على حظوظ النفس، وأن كل واحد يريد قتل الآخر لعداوة بينهما، أو لشر وقع بينهما، ولخصومة وقعت بينهما، فكل واحد يريد أن يعتدي على صاحبه، وليس معناه أن أحدهما كان في مقام الدفع عن نفسه.

وروى الإمام أحمد أن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي)) قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إلي ليقتلني، فقال: ((كن كابن آدم)) وكذا رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن[8].

---

[5] - كما سبق في سنن أبي داود كتاب الفتن - باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١) (ج ٤ / ص ١٦٢) والترمذي في كتاب الفتن – باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٢١٩٤) (ج ٤ / ص ٤٨٦) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب التثبت في الفتنة (٣٩٦١) (ج ٢ / ص ١٣١٠).

[6] - أخرجه ابن عساكر عن علي رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٧٢).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان – باب {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [(٩) سورة الحجرات] (٣١) (ج ١ / ص ٢٠) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨) (ج ٤ / ص ٢٢١٣).

[8] - قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي)) أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٦٦٧٠) (ج ٦ / ص ٢٥٩٤) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦) (ج ٤ / ص ٢٢١١) وأخرجه بتمامه أبو داود في كتاب الفتن - باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١) (ج ٤ / ص

الجمهور يحملون هذا على أن المراد به القتال في الفتنة وليس الدفع عن النفس، وسياقه يدل على هذا.

وفي الباب عن أبي هريرة وخباب بن الأرت وأبي بكر وابن ومسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين-.

وقوله: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} [(٢٩) سورة المائدة] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [(٢٩) سورة المائدة] أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك، قاله ابن جرير.

قوله: {أَن تَبُوءَ} المباءة هي المنزل الذي يرجع إليه الناس بعد انتشارهم في أعمالهم وأشغالهم، وقوله: {أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [(٢٩) سورة المائدة] يعني أن تقع في عاقبة فعلك السيئة وجزاء هذا الجرم والذنب والمعصية.

يقول: "**أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك قاله ابن جرير**" هذا القول هو الذي عليه أكثر العلماء، أي أنه قتله فباء بإثمه بهذا الاعتبار، وقوله: {وَإِثْمِكَ} يعني ذنوبك السابقة، فأنت جمعت بين هذا وهذا، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، واختيار كبير المفسرين ابن جرير ووافقه عليه ابن كثير.

ومن أهل العلم من يحمله على معنىً آخر فيقول: {بِإِثْمِي} لو كنت حريصاً على قتلك {وَإِثْمِكَ} حيث كنت حريصاً على قتلي وفعلت ذلك، ولكن هذا المعنى: لو كنت حريصاً على قتلك فيه بعد والله تعالى أعلم.

بعضهم حمل معنى قوله: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} على ما جاء في صحيح مسلم مما يكون في القصاص يوم القيامة بأنه يؤتى بالظالم والمظلوم، فالمظلوم يأخذ من حسنات الظالم حتى يستوفي، فإن لم يكن له حسنات أو انقضت حسناته فإنه يؤخذ من سيئات المظلوم وتوضع على الظالم، لكن هذا أيضاً لا يخلو من بعد في تفسير هذه الآية، وأحسن ما تفسر به هو بإثم قتلي وإثم أعمالك السيئة السابقة، والله تعالى أعلم، ثم إن هذا لا يخالف قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام] فهذا من أوزاره وأعماله وذنوبه وجرائمه.

مسألة:

في قوله: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [(٢٩) سورة المائدة] هل كان مريداً له أن يقع بالذنب والجرم والمعصية وأن يكون من أصحاب النار؟

كثير من أهل العلم من المفسرين حاول أن يخرج ذلك على معنىً ربما لا يوافق الظاهر، فعلى كل حال منهم من يقول: ليس معنى ذلك أنه كان يريد وقوع المعصية منه، فهذا لا يريده أحد من المؤمنين؛ وهذا منكر لا يصح أن يريد إيقاعه، ويقولون: إنما امتناعه كان بمنزلة هذه الإرادة، أو كأنه يقول: أنا لا أريد أن أقع في هذا، فإن اخترته لنفسك فأنا لا أقع فيه، وعلى كل حال يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه قال له ذلك كأنه يخوفه ويحذره غب هذا الفعل وعاقبته السيئة ويعلل له ترك مقابلته بمثل فعله من أن يكون قاتلاً له ابتداء،

---

١٦٢) والترمذي في كتاب الفتن – باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٢١٩٤) (ج ٤ / ص ٤٨٦) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب التثبت في الفتنة (٣٩٦١) (ج ٢ / ص ١٣١٠).

فيقول: أنا لا أفعل هذا ولا أقصده، ومن قصده وتعمده فإنه يكون من أصحاب النار، يمكن أن يقال هذا، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٣٠) سورة المائدة] أي: **فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر.**

وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر ففعل بأخيه مثل ذلك.

على كل حال هذا من المأخوذ من الإسرائيليات.

رواه ابن أبي حاتم وقال عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله، قال: نعم، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً فقال: يا حواء إن قابيل قتل هابيل، فقالت له: ويحك وأي شيء يكون القتل؟، قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت، قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: ما لك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبني منها براء.[رواه ابن أبي حاتم].

قوله: "**عليك الصيحة وعلى بناتك**" يعني أن البكاء من شأن النساء وليس من شأن الرجال، كما قال الشاعر:

بنفسي وأهلي من إذا عرضــوا لــه	ببعض الأذى لم يدرِ كيـف يجيـب
فلم يعتذر عذر البريء ولـم تـزل	سـكتة حتـى يقـال غريـب

يعني أن سلاحها دموعها، لكن هذا من المأخوذ من الإسرائيليات.

وقوله: {فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٣٠) سورة المائدة] **أي في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه؟.**

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل)) **وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود**[٩].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان يقول: إن أشقى الناس رجلاً ابن آدم الذي قتل أخاه، ما سُفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل.

وقوله تعالى: {فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [(٣١) سورة المائدة] **قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله**

---

[٩] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة (٣١٥٧) (ج ٣ / ص ١٢١٣) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧) (ج ٣ / ص ١٣٠٣).

غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه قال: {يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي} [(٣١) سورة المائدة].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: جاء غراب إلى غراب ميت فحثا عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: {يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي} [(٣١) سورة المائدة].

وقوله: {فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [(٣١) سورة المائدة] **قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.**

كثير من أهل العلم يقولون: إن هذا الندم لم يكن توبة، وإنما لما رأى أن هذا الغراب أحسن حالاً منه ومعرفة ندم، والله أعلم.

وبالنسبة للدخول في مثل هذه التفاصيل لا دليل عليها، ثم إن في الرواية التي قبل قليل والتي فيها أن إبليس جاء إلى حواء وقال لها: إن قابيل قتل هابيل، قالت: وما القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب، هذا يناقض القرآن إذ كيف لا يعرفون القتل والقاتل نفسه حينما كان يخاطب أخاه قال له: **{لَأَقْتُلَنَّكَ}** [(٢٧) سورة المائدة] فرد عليه إجابة عنه: **{لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ}** [(٢٨) سورة المائدة] فهذا يدل على أنهم يعرفون القتل، ثم إن الله قد علم آدم الأسماء كلها، وإذا كان هابيل وقابيل لا يعرفون القتل فمن أين عرفوا أن هذا يقال له قتل، فهذا من كذب بني إسرائيل؛ لأنه كلام متناقض، والقرآن يكذبه.

وقد ورد في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))[١٠] وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

10 - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في النهى عن البغي (٤٩٠٤) (ج ٤ / ص ٤٢٧) والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب - ٥٧ – (٢٥١١) (ج ٤ / ص ٦٦٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب البغي (٤٢١١) (ج ٢ / ص ١٤٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٠٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} [(٣٣) سورة المائدة] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظُفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار، إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله، وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك، وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} [(٣٣) سورة المائدة] لفظة "أو" تحتمل أن تكون للتخيير، وعلى هذا جرى القول الأول، وهو قول ابن عباس ومن وافقه هنا، أي أن الإمام يخير فيهم بحسب ما يراه من المصلحة، والتخيير في مثل هذه القضايا لا يكون للتشهي وإنما يكون بمراعاة المصلحة، كما لو أنه مثلاً قد كثر ذلك وخشي من تفاقمه فإنه قد يحتاج إلى الصلب مع القتل لكون ذلك أبلغ في كف الناس وردعهم عن مثل هذا، وهكذا لو أن الإفساد الذي فعله هؤلاء كان إفساداً كثيراً فقد يُحتاج إلى صلبهم مع القتل، وقد يُكتفى بنفيهم، فالكلام في "أو" هذه، من قال: إنها للتخيير، قال: الإمام مخير فيهم، ومن قال: إنها للتقسيم قال: إنه إن فعلوا كذا قتلوا، وإن فعلوا كذا صلبوا مع القتل، وإن فعلوا كذا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وهكذا، بحسب الجرم، وأصحاب هذا القول اختلفوا في التفاصيل متى يجمع لهم بين القتل والصلب، ومتى يكتفى بالنفي أو غير ذلك، فهم غير متفقين على تفاصيل هذه القضية.

وفي قوله: {أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ} [(٣٣) سورة المائدة] العلماء مختلفون أيضاً في الصلب هل هو بعد القتل، بحيث يقتل ثم يصلب ليراه الناس، أو أنه يصلب وهو حي ولا يطعم ولا يسقى، فبعضهم يقول: يرمى بسهم، وبعضهم قال غير ذلك، وعلى كل حال هم نظروا إلى اعتبارات معنيّة، فمن قال: إنه يقتل ثم يصلب، قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قتلتم فأحسنوا القتلة))[1] وصلْبه قبل القتل ومنْعه من الطعام والشراب لا يسوغ في الشرع، وفي الحديث: ((دخلت امرأة النار في هرة))[2] وما أشبه ذلك.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) (ج ٣ / ص ١٥٤٨).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٤٠) (ج ٣ / ص ١٢٠٥) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٦١٩) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).

ومستند هذا القول أن ظاهر "أو" للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: {فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] **وكقوله في كفارة الفدية: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}** [(١٩٦) سورة البقرة] **وكقوله في كفارة اليمين: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}** [(٨٩) سورة المائدة] **هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.**

بهذا الاعتبار يكون قد فسر هذه اللفظة بما هو الغالب في استعمالها في القرآن، فيكون هذا من المرجحات، وإلا فإن "أو" تأتي لعدة معانٍ في كلام العرب وفي القرآن، كما في قوله تعالى: **{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة] فهنا "أو" ليست للتخيير قطعاً؛ لأن اليهود يكفِّرون النصارى، والنصارى يكفِّرون اليهود، وكل طائفة تقول عن الطائفة الثانية إنها لا تدخل الجنة، فـ"أو" هنا للتقسيم؛ لأن اليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى يقولون: لا يدخلها إلا من يكون نصرانياً، فـ"أو" للتقسيم، لكن مِن طرق الترجيح في التفسير أن تفسر الآية أو الكلمة أو التركيب أو الحرف بما هو الغالب في استعماله في القرآن، وهذا الذي قصده الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وعلى كل حال مثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن ذلك يكون بحسب جرمه، فإن كان جرمه كبيراً قتل وصلب، وإن كان جرمه دون ذلك فإنه قد يُكتفى بالقتل، وقد تقطع يده ورجله من خلاف، وقد يكتفى بنفيه.

وأما قوله تعالى: {أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} [(٣٣) سورة المائدة] **قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك -رضي الله تعالى عنهم- وسعيد بن جبير والضحاك والربيع بن أنس والزهري والليث بن سعد ومالك بن أنس.**

يلاحظ هنا كثرة القائلين بهذا القول مع أنه ليس الظاهر المتبادر لقوله تعالى: **{أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ}** [(٣٣) سورة المائدة] وهذا القول -أي: طلبهم حتى يقدر عليهم أو يهربون بسبب المطاردة إلى غير بلاد المسلمين- معناه أنه لو تمكن منهم فإنه لا مجال لنفيهم، وهذا فيه إشكال؛ لأن الله -عز وجل- ذكر عقوبتهم بأنها القتل أو الصلب أو تقطع أيديهم وأرجلهم أو ينفوا من الأرض، فكون هؤلاء يُطلبون فليست هذه هي العقوبة، وإنما ذلك من أجل إقامة حكم الله -عز وجل- فيهم، وحكم الله فيهم هو الأمور المذكورة في الآية ومنها النفي.

وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية.

قوله: "**أن ينفى من بلده إلى بلد آخر**" يعني يُخرج من بلاد المسلمين، أي يُخرج من هذه المدينة إلى مدينة أخرى، وهذا نوع من التعذيب، والله -عز وجل- جعل ذلك قريناً للقتل كما في قوله تعالى: **{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ}** [(٨٥) سورة البقرة]، ويقول تعالى في بني النضير: **{وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}** [(٣) سورة الحشر] فالإخراج من الأوطان لا شك أنه نوع من التعذيب، فعقوبة المحارب أن ينفى من بلده إلى بلد آخر.

يقول: "**أو يخرجه السلطان من معاملته**" يعني من البلاد التي تحت يده، فإذا كان الحاكم هذا هو الخليفة -وهو واحد- فليس وراء بلاده إلا بلاد الكفار، لكن هذا أيضاً قد لا يخلو من إشكال؛ لأن إخراجه إلى بلاد الكفار

هو فتنة له أيضاً، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تقام الحدود في أرض العدو؛ لئلا نضطر هذا الإنسان إلى الجنوح إليهم والالتجاء بهم، فيترتب على ذلك ما هو أعظم.

وقال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء والحسن والزهري والضحاك ومقاتل بن حيان: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام، وقال آخرون: المراد بالنفي هاهنا السجن.

الذين يقولون: إن المراد بالنفي هاهنا السجن يعنون أننا بسجنه كأننا أخرجناه من سعة الدنيا إلى ضيقها، وهذا القول وإن قال به بعض أهل العلم وقال به أبو حنيفة أيضاً في موضع آخر عند الكلام على التغريب في حديث: ((والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام))[3] فهذا فيه بعد، والحاصل أنهم رأوا أن السجن هو نفي له من الأرض إلى مكان لا يرى فيه أحداً ولا يراه الناس فيستريحون من شره.

وذهبت طائفة -منهم الإمام مالك وابن جرير والقرطبي صاحب التفسير وغيرهم- إلى أنه ينفى إلى بلد آخر ويحبس فيها، وكأنهم نظروا إلى إنه إن نفي إلى بلد آخر فحسب فإن شره قد لا يتوقف وقد لا يحصل المقصود، لذلك قالوا: يُحبس هناك، لكن يقال: هذا لا دليل عليه؛ لأن الله إنما قال: {أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} فقط، لكن مثل هذا الإنسان العاتي المتمرد إذا نفي من بلد إلى بلد فقد يمارس أعمالاً هناك ويقطع الطريق في أي مكان، وليس عنده إشكال أصلاً؛ لأن من يفعل هذه الأشياء غالباً ليس عنده شيء يخسره أصلاً، ولا هو خائف عليه، فأي مكان يذهب إليه سيقوم بعمله ذلك من قطع الطريق ونحو ذلك، فالحاصل أن مثل هذه الأمور ينظر فيها للمصلحة، فإذا عُلم أن هذه الإنسان إذا نفي إلى بلد آخر ينكفُّ شره ويرتدع ويرى أن هذه عقوبة قد نزلت به، ويكون ذلك سبباً لصلاح حاله وتوبته فلا يقال بسجنه، ومن علم من حاله أنه إن نفي إلى بلد آخر سيفرح بهذا ويسر، وسيدخل في ساحة جديدة يقوم فيها بأعمال مشابهة وما أشبه هذا، فمثل هذا يحبس، والله أعلم.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(٣٣) سورة المائدة] **أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: أخذ علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما أخذ على النساء، أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا يَعْضَه بعضنا بعضاً.**

قوله: "**ولا يَعْضَه بعضنا بعضاً**" يعني لا يرمي بعضنا بعضاً بالبهتان.

فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمْره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وعن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه)) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي:

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الحدود - باب حد الزنى (١٦٩٠) (ج ٣ / ص ١٣١٦).

حسن غريب، وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث فقال: روي مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفعه صحيح[4].

وقال ابن جرير في قوله: {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا} [(٣٣) سورة المائدة] يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

{وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(٣٣) سورة المائدة] أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا لهم في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها، {عَذَابٌ عَظِيمٌ} يعني عذاب جهنم.

وقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣٤) سورة المائدة] أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، كما روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلم رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهم- فكلموا علياً -رضي الله تعلى عنه- فيه فلم يؤمنه، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فقرأ حتى بلغ: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ} [(٣٤) سورة المائدة] قال: فكتب له أماناً، قال سعيد بن قيس: "فإنه حارثة بن بدر" وكذا رواه ابن جرير.

على كل حال فإن من أهل العلم من نقل الإجماع على أن الإمام هو ولي بهذه القضية، وأن المسألة لا يتوقف النظر فيها أو العفو أو العقوبة بناء على من وقع عليه الضرر من آحاد الناس، فلو أن أصحاب الحقوق الخاصة عفوا، فهذا عفا عمن قتل وهذا عفا عمن أخذ ماله وهذا عفا عمن جرحه فإن هذا لا يعفي هذا الإنسان المحارب، وكذلك لو أنه تاب قبل القدرة عليه فإنه لا يطالب بشيء لا بمال ولا بقصاص ولا غير ذلك؛ فالآية عامة {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ} [(٣٤) سورة المائدة] ولو أنه ما تاب فأُخذ وعفا عنه أصحاب الحقوق وقالوا: نحن لا نطالبه بشيء، فإن ذلك لا ينفعه بل يقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض بحسب ما يحكم به الإمام.

روى ابن جرير عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مَراد إلى أبي موسى وهو على الكوفة، في إمارة عثمان -رضي الله تعالى عنه- بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ، فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن نقدر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يكن كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله.

---

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الحدود- باب الحد كفارة (٢٦٠٤) (ج ٢ / ص ٨٦٨) وأحمد (٧٧٥) (ج ١ / ص ٩٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن وأما العلامة الألباني فضعفه في سنن ابن ماجه برقم (٢٦٠٤).

ثم روى ابن جرير عن موسى بن إسحاق المدني أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [(٥٣) سورة الزمر] فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها، فأعادها عليه، فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ، جئت تائباً من قبل أن تقدروا عليّ، فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم، وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا عليٌّ جاء تائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، فتُرك من ذلك كله.

قال: وخرج عليٌّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر فلقوا الروم، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم فغرقوا جميعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [(٣٥-٣٧) سورة المائدة].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات.

وقد قال بعدها: {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} قال سفيان الثوري: حدثنا أبي عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي القربة، وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه.

وقرأ ابن زيد: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} [(٥٧) سورة الإسراء] والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علَم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة))[١].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإن من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة))[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} [(٣٥) سورة المائدة]، ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن التقوى إذا ذكرت مع العمل الصالح فمعناها يتوجه إلى أحد شقيها؛ لأنها في

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأذان - باب الدعاء عند النداء (٥٨٩) (ج ١ / ص ٢٢٢).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله له الوسيلة (٣٨٤) (ج ١ / ص ٢٨٨).

الأصل تدل على ترك ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه، وفعل ما أمر به، فإذا ذكرت مع العمل الصالح فهذا هو الشق الثاني، فتحمل عندئذ على ترك ما نهى الله عنه، وهكذا إذا ذكرت مع البر، كما في قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى} [(٩) سورة المجادلة] فالبر هنا هو العمل بطاعة الله، والتقوى ترك معصيته، والمعاني التي ذكرها هنا في الوسيلة -سوى المعنى الأخير- كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، فهو من باب اختلاف العبارة، فالوسيلة: كل ما يتوصل ويتوسل به إلى مرضات الله -عز وجل-، فيدخل فيه ألوان القرب من الأعمال الصالحة.

وأما المعنى الأخير -أي أنها منزلة في أعلى الجنة كما في حديث عبد الله بن عمرو وحديث جابر -رضي الله عن الجميع- فإن هذا ليس هو المراد قطعاً في قوله: {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} [(٣٥) سورة المائدة]، فتكون الوسيلة بهذا الاعتبار من قبيل المشترك اللفظي الذي يحمل معانيَ متعددة، والمشترك في الأصل يمكن حمله على جميع معانيه إن لم يوجد مانع يمنع من ذلك، وهنا يوجد مانع يمنع من هذا قطعاً؛ لأن هذه الوسيلة -في المعنى الأخير في حديث الأذان- لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، فلا يمكن أن تكون مراد قوله: {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} [(٣٥) سورة المائدة] أي اطلبوا هذه المنزلة التي لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((وأرجو أن أكون أنا هو))[٣] فمن طلب هذه المرتبة وقصدها بالوسيلة فهذا من قبيل الاعتداء في الدعاء؛ إذ لا يجوز له أن يطلب ما ليس له أو ما لا يمكن تحصيله شرعاً أو ما كان من الممتنع عقلاً كما يقال، فطلب الوسيلة طلب لممتنع شرعاً؛ لأن الله حكم بهذا.

وقوله: {وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٣٥) سورة المائدة] لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم والتاركين للدين القويم ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول، في الغرف العالية الرفيعة الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يبأس، ويحيى لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

قول: "لعل" من الله واجبة، وكذلك "عسى"؛ لأنها في أصل معناها في كلام العرب بمعنى الترجي، وهذا إنما يكون ممن يتوقع حصول الشيء لكنه لا علم له بما سيكون وهذا ممتنع عن الله -عز وجل-؛ لأنه علام الغيوب، فقوله: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٣٥) سورة المائدة] أي: من أجل أن تفحلوا، فهي تُفسَّر بالتعليل، وعلى كل حال حتى لو فسرت بمعنى الترجي، فيقال: إن "لعل" من الله واجبة، فالجهاد في سبيل الله -عز وجل- سبب أكيد محقق للفلاح إذا كان لإعلاء كلمة الله -تبارك وتعالى-، والفلاح هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وقد يطلق على البقاء، ومنه قول الشاعر:

لـــو أن عبـــداً مـــدرك الفـــلاح ... لنالــــه ملاعـــب الرمـــاح

---

[٣] - سبق تخريجه.

فلو كانت الحياة توهب لأحد على سبيل الدوام لوهبت للمجاهد في سبيل الله -عز وجل-، ولهذا قال خالد -رضي الله عنه-: "فلا نامت أعين الجبناء" وعلى كل حال فالمجاهدون يحصّلون أيضاً النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا يزول.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة] **أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به وتيقن وصوله إليه ما تُقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص ولا مناص، ولهذا قال:** {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة] **أي: موجع.**

{يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [(٣٧) سورة المائدة] **كما قال تعالى:** {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} **الآية** [(٢٢) سورة الحـج] **فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسِّه، لا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها،** {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} **أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.**

عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟، فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟، قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار)) رواه مسلم والنسائي[٤].

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٣٨-٤٠) سورة المائدة].

يقول تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقُرِّر في الإسلام، وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

في بعض الآيات السابقة ذكر الله -عز وجل- حكم من يأخذ المال جهاراً نهاراً، وهم المحاربون الذين يسطون على الناس في سبلهم ويأخذون أموالهم بقوة السلاح، ثم ذكر -بعد ذلك- هنا حكم من يأخذ المال خفية -أي السارق- فهذه هي المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، والله أعلم.

كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح.

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] (٣١٥٦) (ج ٣ / ص ١٢١٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً (٢٨٠٥) (ج ٤ / ص ٢١٦٠).

القسامة معروفة وقد كانوا يفعلونها في الجاهلية وأقرها الإسلام، وذلك أنه حينما يقتل قتيل ويتدافعه الناس فتُتَّهم فيه قرية أو ناحية أو قبيلة مثلاً فلا يُعرف من قاتله فيقسم خمسون أن دمه عند هؤلاء، وأولئك يقسمون مثلهم.

والقراض هو المضاربة فالمضاربة في الشركات تسمى بلغة الحجاز قراض، وفي لغة العراق يقال لها: مضاربة، وقد كانت معروفة في الجاهلية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتاجر بمال خديجة، ويسمى كذلك إن كان على سبيل الاشتراك بنسبة معينة.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده))[٥].

طبعاً هذا الحديث له توجيه؛ لأنه ورد في الحديث الآخر أنه لا يُقطع في أقل من ربع دينار، ومعلوم أن البيضة لا تبلغ ربع دينار، وهذا إذا حملت البيضة في الحديث على البيضة المعهودة فالأصل في الألفاظ أن تحمل على المعنى المتبادر، والمعنى المتبادر في البيضة معروف، فبعض أهل العلم قال: إن ذلك ذُكر على سبيل التنفير من السرقة وتقبيح فعل السارق، يعني أنه يقطع بشيء يسير وإن لم يكن هذا القدر مقصوداً في تقرير الحكم، كما تقول: إنه يقطع في الشيء التافه، وهذا الشيء التافه جاء تحديده بأنه لا يقطع في أقل من ربع دينار.

ومن أهل العلم من حمل البيضة هنا على ما يوضع على رأس المقاتل، وهذه تبلغ قيمتها ربع دينار وتزيد عليه، ولكن ليس هذا هو المتبادر؛ لأنه ذكر معه الحبل، فالحبل شيء يسير لا قيمة له، فالذي يظهر -والله أعلم- أن هذا لا يحمل على معنىً يناقض حديث ربع الدينار، وإنما يقال: لا يؤخذ القدر الذي يحصل فيه القطع من هذا الحديث، وإنما هذا الحديث ورد على سبيل الزجر فحسب، والله أعلم.

وأخرج الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً))[٦].

الذين قالوا: البيضة هي ما يوضع على رأس المقاتل، قالوا في الحبل إنه حبل السفينة مثلاً، وحبل السفينة يزيد على ربع دينار، لكن هذا فيه تكلف، لذلك فالأصل حمله على المعنى المتبادر؛ لأنه لن يخطر في بال أحد أن المراد بالحبل حبل السفينة، فهذا المعنى بعيد، والله أعلم.

ولمسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً))[٧] فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونصٌّ في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه، وحديث: ثمن المجن وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الحدود - باب لعن السارق إذا لم يسم (٦٤٠١) (ج ٦ / ص ٢٤٨٩) ومسلم في كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٧) (ج ٣ / ص ١٣١١).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الحدود - باب قول الله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا} [(٣٨) سورة المائدة] وفي كم يقطع (٦٤٠٧) (ج ٦ / ص ٢٤٩٢) ومسلم في كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٤) (ج ٣ / ص ١٣١١).

[7] - صحيح مسلم في كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٤) (ج ٣ / ص ١٣١١).

ويروى هذا المنهج عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه، وأبو ثور وداود بن علي الظاهري -رحمهم الله-.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه -في رواية عنه- إلى أن كل و احد من ربع الدينار والثلاثة الدراهم مرد شرعي فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قطع.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة.

والثابت هو القول الأول، وهو القطع في ربع دينار فصاعداً، وإنما ناسب في باب السرقة أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار؛ لئلا يسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب، ولهذا قال: {جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة] أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك، {نَكَالاً مِّنَ اللّهِ} أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، {وَاللّهُ عَزِيزٌ} أي: في انتقامه {حَكِيمٌ} أي: في أمره، ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: {فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣٩) سورة المائدة] أي: من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه.

طبعاً هذا يختلف عن المحاربين؛ لأن التوبة لا تسقط الحد، وهذا على قول عامة أهل العلم، فالجمهور من أهل العلم سلفاً وخلفاً على أن الإنسان إذا فعل ما يوجب الحد فإن توبته لا تنفعه في إسقاط الحد، فإذا بلغت الحدود السلطان فإنها لا تسقط بحال من الأحوال، لا بشفاعة ولا تسقطها توبة هذا الإنسان، إنما التوبة تنفعه عند الله -تبارك وتعالى-، فقوله: {فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣٩) سورة المائدة]، هذا في إنسان لم يُعثر له على سرقة ولم يوقف له على جرم فوقعت توبته بينه وبين الله -عز وجل- ولم يطلع المخلوق على ذلك، فهذا يرجع السرقة إلى صاحبها فإن هذا من توبته، فإن لم يتمكن من هذا بأن لم يجده أو لم يعرفه فيتصدق عنه بها أو بقيمتها أو نحو ذلك إن لم تكن في يده، فهذا تنفعه التوبة، فأما إذا أقيم عليه الحد فإن الحدود كفارات تكفر له ذلك، لكن لو أنه بقي مصراً على السرقة فإن عزمه عليها معصية إن هو استمر على العزم بتكرار هذا الفعل بعد القطع، ومن تاب من ذلك وأقلع وترك هذا الصنيع الفاسد فإن الله -عز وجل- يتوب عليه.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أن امرأة سرقت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقطعوا يدها)) فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار، فقال: ((اقطعوا يدها)) فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: ((نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)) فأنزل الله في سورة المائدة: {فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣٩) سورة المائدة][٨].

---

[8] - أخرجه أحمد (٦٦٥٧) (ج ٢ / ص ١٧٧) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

من الإصلاح أن يرجع السارق ما سرق إلى صاحبه إن لم يُقَم عليه الحد، والعلماء مختلفون في الذي أقيم عليه الحد، هل يطالب بإعادة ما سرق ويغرم، كأن يكون إنسان سرق قبل عشر سنوات وسرق قبل سنة وسرق قبل خمس سنوات واعترف بهذه السرقات كلها، هل يطالب بأن يرجع هذه الأشياء جميعاً مع القطع، أم أنه يقطع وما وجد بيده من مال إن عُرف لصاحبه بعينه فإنه يعطى له وما عدا ذلك لا يطالب به؟ المقصود أن العلماء مختلفون في هذا.

وبالنسبة لهذا الحديث في سنده ابن لهيعة، فإن صح الحديث فإن قوله: ((أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)) يعني أن الحد يكفر الخطيئة والسيئة التي وقعت منها كما يدل على ذلك أيضاً الأحاديث الأخرى، فالحدود كفارات، والله أعلم.

وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقالوا: ومن يجترئ عليها إلا أسامة بن زيد حب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأتى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أتشفع في حد من حدود الله عز وجل؟)) فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشيُّ قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: ((أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: "فحسنت توبتها بعدُ وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم" وهذا لفظ مسلم[9].

وفي لفظ له عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقطع يدها[10].

ثم قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(٤٠) سورة المائدة] أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد، {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٨٤) سورة البقرة].

طبعاً هذه القضية -قضية قطع يد السارق- أكثَرَ أعداء الله -عز وجل- من الكلام فيها والطعن في الإسلام وهذا الحكم بالنسبة لمن وقع عليه ربما يبدو لأول وهلة أن فيه قسوة وشدة، ولا شك أن هذا مطلوب لردع المجرمين، وهو بالنسبة لعموم الأمة عين الرحمة والرفق والرعاية والحفظ لهم؛ لأن هذه الحدود كلها تدور على الضرورات الخمس حفظاً لها من جانب العدم، بمعنى أنها كالسياج عليها لئلا ينتابها ويؤثر عليها

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [(٩) سورة الكهف] (٣٢٨٨) (ج ٣ / ص ١٢٨٢) ومسلم في كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨) (ج ٣ / ص ١٣١١).

10 - أخرجه مسلم في كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨) (ج ٣ / ص ١٣١١).

ويفسدها أو يضعفها شيء من الأمور المخلة، فالدين قال عنه النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((من بدل دينه فاقتلوه))[11]، والنفوس شرع لحفظها القصاص للنفس وللأعضاء والأطراف والأبعاض، قال تعالى: {النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [(٤٥) سورة المائدة] ولحفظ المال شرع القطع لمن جنا على المال، وشرع لحفظ العرض الجلد والرجم، وشرع الجلد لحفظ العقل، فجميع الحدود تدور على الضرورات الخمس -الدين والنفس والعقل والعرض والمال- ولا يوجد شيء من الحدود خارجاً عنها، وحتى حد المحاربين شرع لأنهم يجنون على النفوس والأموال وهي من الضرورات الخمس، فهذه الضرورات الخمس لو أنها اختلت في حياة الناس لصارت حياتهم في فساد ولم تعد حياة صالحة للآدميين، حيث تضيع النفوس بأن يقتل المقتول ولا يوجد له طالب، وبالتالي لا يأمن الناس في بيوتهم على أنفسهم، وهكذا تضيع الأعراض وتضيع الأموال ويضيع الدين كما هو مشاهد الآن في العراق حيث يقتل الناس هناك أكثر مما تقتل الأنعام ثم يُحملون بالشاحنات مكدسين فوق بعض مثل جلود الأضاحي، وترى الدماء في السيارات، والجثث ترمى في كل مكان، وهكذا ضاعت أموال الناس حينما احتلت البلد، وإذا جاءوهم وداهموهم ليلاً لا يتركون شيئاً إلا أفسدوه، حتى الستائر حتى النوافذ يكسرونها، وما عجزوا عن تكسيره لطخوه بالنجاسات، وهكذا لا يتركون شيئاً يمكن أن ينتفع به، وكذلك ترى انتهاك بالأعراض، فالنساء يبتن الآن بالعباءة لا تدري في أي لحظة يدخل عليها في بيتها، ولا تدري من الذي يدخل وماذا يريد، والله المستعان.

فالحاصل أن هذه اليد التي تقطع بربع دينار ستبقى آثارها حيث ستتعطل مصالح هذا الإنسان عندما تقطع يمناه، وستبقى أيضاً لوثة نفسية بسبب هذا القطع؛ فتصور كيف هي حال هذا الإنسان الذي صارت يده مقطوعة بالسرقة لا يفارقه النظر إليها أبداً ما دام حياً؟، وكلما نظر إليها تذكر جنايته، والناس كلما نظروا إليه تذكروا الجناية، فهذه المرأة مع أنها تابت وتزوجت لكن تصور هل تستطيع أن تنسى هذا الموضوع ويدها مقطوعة، وزوجها يعاشرها أو يضاحكها، أو يكلمها أو تصنع له طعاماً أو تأكل معه شيئاً؟!

لن تنسى أبداً وإنما يسيطر عليها هذا الشعور ما دامت حية؛ لأنه إذا كان بعض الناس يتأثر من كلمة ويقول: جرحت مشاعر هذا وآذيته وسببت له انعكاسات نفسية ولا بد من تعويضات ولا بد من كذا وخاصة في الدول الغربية، فكيف لا يسيطر القطع على مشاعره ونفسه؟!.

فالمقصود أن هذا الحد يردع صاحب هذه اليد التي أرادت أن تجني على ما تكتسبه ملايين الأيدي الشريفة، وتقطع لأنها عضو فاسد يريد أن يفسد على المجتمع نظامه فيرتدع الآخرون، ويسْلم المجتمع في ضرورية من ضرورياته وهو المال، الذي هو عصب الحياة، فإذا اعتدي على المال أو أُفسد فحينها تباع الأعراض وربما اختل دينهم أيضاً، ولهذا قالوا: كاد الفقر أن يكون كفراً، وإن كان هذا القول لا يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن المعنى له وجه من الصحة، ومن جربوا الفقر الشديد عرفوا آثاره المدمرة في سلوك الناس، ولذلك تجد أكثر الجرائم والمشكلات والفساد الأخلاقي تقع في الأحياء الفقيرة، فهذه اليد الجانية إذا قُطعت سلِم كسب الأيدي الشريفة، واليد غالية من جنا عليها فإنه يدفع نصف الدية لكن إذا تلوثت بالسرقة

---

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب لا يعذب بعذاب الله (٢٨٥٤) (ج ٣ / ص ١٠٩٨).

صارت خائنة وحينها تكون رخيصة فتقطع في ربع دينار، فالأمانة شرفتها ورفعتها، وأعلت منزلتها وقيمتها، والخيانة هبطت بها، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ* إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤١-٤٤) سورة المائدة].

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله -عز وجل- {مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ} أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون {وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ} أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} أي: مستجيبون له منفعلون عنه.

{سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل المراد: أنهم يتسمعون الكلام ويُنْهُونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**وهؤلاء كلهم {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ}**" يعني أن هذه الصفة ترجع إلى الطائفتين، إلى الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وكذلك أولئك الذين يرجعون إليهم من إخوانهم اليهود، فكلهم سماعون للكذب.

قال: "**أي مستجيبون له منفعلون عنه سماعون لقوم آخرين**"، فسر ابن جرير -رحمه الله- سمعهم للكذب بأنهم يسمعون قول أحبارهم الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وقالوا: إن الزاني المحصن يحمم ويُركب على حمار منكوساً ويجلد ويطاف به، وأنه لا يرجم، فقوله: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} أي: سماعون لهؤلاء الأحبار.

وفسر الجملة الأخرى وهي قوله: {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} أي: أن المراد بهؤلاء الآخرين هم أهل الزاني الذين أرادوا المجيء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والاحتكام إليه، فهذا بناء على بعض ما ورد في أسباب النزول، ولهذا قال من قال: إن قوله: {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} أي: اليهود في فَدَك، وفَدَك هذه

ناحية قريبة من خيبر وذلك أنه جاء في بعض الروايات أن رجلاً وامرأة زنيا، من أهل فدك من اليهود -وفَدَك ناحية قريبة من خيبر- فأولئك أرادوا أن يأتوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهؤلاء كالعين لهم، أي أرادوا أن يستطلعوا وأن ينظروا ماذا يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حكم الزاني، فإن قال بالرجم، لم يأتِ أصحاب القضية وإن قال بالجلد جاءوا إليه وقالوا: نجعل بيننا وبين الله نبياً من الأنبياء ونكون قد حكمنا بحكمه، فعلى كل حال هذا بناء على بعض الروايات، وهنا الحافظ ابن كثير يقول: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} أي مستجيبون له، فيشمل هذا ما قاله الأحبار من الكذب والتحريف وكذلك أيضاً هم سماعون للكذب والفرى وقالة السوء مطلقاً.

ومن أهل العلم من جعل اللام في قوله: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} تعليلية، أي أنهم يستمعون إليك ليلفقوا عليك، أي يسمعون لأجل أن يكذبوا وأن يحرفوا كلامك وأن يبدلوه ويغيروه، وهذا التفسير فيه بعد، وما مشى عليه الحافظ ابن كثير أيضاً في الجملة الأخرى: {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} أي: يستجيبون لقوم آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد.

وقيل: المراد أنهم يستمعون الكلام ويُنهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك، وعلى هذا التفسير الأخير الذي ذكره ابن كثير أيضاً يمكن أن تكون اللام تعليلية، أي أنهم يسمعون لأجل أن ينقلوا هذا الكلام لمن لا يحضر مجلسك، وعلى كل حال {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} يحمل على أعم معانيه، ويدخل فيه سماع التحريف، وغير ذلك، {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: أي أنهم يسمعون لقوم آخرين يعني من اليهود مثلاً يقبلون عنهم توجيههم وما ينصحونهم به وما يقولونه لهم، ويحتمل أن تكون {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} كما يقال في الآية الأخرى: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [(٤٧) سورة التوبة] أي أنها تحتمل المعنيين نفسيهما، فهم آذان يسمعون أخبارك وما قلته في مجلسك فينقلونه لشياطينهم الذين لا يحضرون مجلسك، ويحتمل أن يكون معنى {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} أنهم يتلقون من مصدر آخر فلا يقتصرون في التلقي عليك وإنما لهم مصادرهم الأخرى التي يتلقون التوجيه منها.

فقوله: {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} وقوله: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [(٤٧) سورة التوبة] يحتمل المعنيين، يعني أنه فيكم من يسمع الكلام ويوصله لهم، ويحتمل أن يكون المعنى أي فيكم من يقبل عنهم ويتأثر بتوجيههم وما يلقونه عليهم وما أشبه ذلك، فالآية تحتمل المعنيين معاً، والله تعالى أعلم.

{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [(٤١) سورة المائدة] أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

قوله: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [(٤١) سورة المائدة] يمكن أن يكون بمعنى يحرفون الكلم عن مواضعه، أو يكون المعنى يحرفون الكلم بعد كونه موضوعاً في مواضعه، أو من بعد وضعه في مواضعه التي وضعه الله -عز وجل- فيها من حيث اللفظ والمعنى، فهم يغيرون الألفاظ تارة ويتلاعبون بالمعاني تارة أخرى فيغيرونه عن مواضعه التي وضعه الله -عز وجل- عليها.

{يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ} [(٤١) سورة المائدة] قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً.

إلى ماذا يعود الضمير في قوله: {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا} [(٤١) سورة المائدة]؟

هم يحرفون الكلم عن مواضعه فيقولون –مثلاً- في الزاني المحصن إنه يحمم ولا يرجم، ولذلك هم قالوا لبعضهم: إن ذهبتم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- واحتكمتم إليه فأعطاكم هذا الحكم فخذوه {وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ} أي إن قال لكم بالرجم فاحذروا.

ومن جملة ما حرفوه –وهو يذكر في أسباب النزول- ما يتعلق بالديات بين بني قريظة وبني النضير، فبني النضير يرون أنهم أشرف من بني قريظة، فهم من ولد هارون -عليه الصلاة والسلام-، كما أنهم من قوم من اليهود الذين لم يحصل لهم إخراج قط في التاريخ قبل بعثة النبي –عليه الصلاة والسلام- -فيما ذُكر- ومعلوم أن تاريخ اليهود حافل بالتشريد والإخراج والإجلاء، وبنو النضير هم الذين قال الله -عز وجل- فيهم: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [(٢) سورة الحشر] لذلك هم يرون أنهم أشرف من بني قريظة، وكان القتيل إذا قتل منهم فيه الدية كاملة وذلك كأن يكون قتله قرظي مثلاً، وإذا قُتل الرجل من قريظة ففيه نصف الدية، وكانوا على هذا حتى جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فحكم فيهم بالتساوي بالدية، فالحاصل أن قوله: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} [(٤١) سورة المائدة] يعني ما حرفوه في هذا الأمر لكن المشهور أن ذلك في حكم الزانيين.

قيل نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

لا يثبت شيء يعتمد عليه أن هذه الآية نازلة في هذا، وقد ورد فيه رواية عن الشعبي لكن مثل هذه المراسيل لا تقوم بها حجة.

والصحيح: أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الذي الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين.

قوله: "**والإركاب على حمار مقلوبين**"، يعني وجههما إلى الجهة الأخرى –المعاكسة- إذلالاً.

فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

على كل حال سبب النزول هذا ثابت وصحيح، وقد ورد عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وإن اختلفت الروايات في بعض التفصيلات.

وقد وردت الأحاديث في ذلك فقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما: "إن اليهود جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟)) قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأتُوا بالتوراة، فأتَوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال لهم عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا

محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة" أخرجاه وهذا لفظ البخاري[1].

وفي لفظ له: فقال لليهود: ((ما تصنعون بهما؟)) قالوا: نسخِّم وجوههما ونخزيهما، قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، فقال: ارفع يدك، فرفع فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما فرجما[2].

وعند مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى جاء يهود فقال: ((ما تجدون في التوراة على من زنا؟)) قالوا: نسود وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: ((فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين))، قال: فجاءوا بها فقرءوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: مره فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرجما، قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه[3].

وروى أبو داود عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى القُفِّ، فأتاهم في بيت المدراس..

القُف وادٍ كان يسكنه اليهود في المدينة.

قوله: "**فأتاهم في بيت المدراس**" يعني المكان الذي يكون فيه دراستهم.

فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنا بامرأة فاحكم، قال: ووضعوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسادة فجلس عليها ثم قال: ((ائتوني بالتوراة)) فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، وقال: ((آمنت بك وبمن أنزلك)) ثم قال: ((ائتوني بأعلمكم)) فأتي بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع[4].

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حكم بموافقة حكم التوراة وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ولكن هذا بوحي خاص من الله -عز وجل- إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطئوا على كتمانه وجحده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة.

قوله: "**الشرع المحمدي**" هل يقال: الشرع المحمدي والأمة المحمدية، ونحن محمديون؟

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة – باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام (٦٤٥٠) (ج ٦ / ص ٢٥١٠).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها (٧١٠٤) (ج ٦ / ص ٢٧٤٢).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٦٩٩) (ج ٣ / ص ١٣٢٦).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود – باب في رجم اليهوديين (٤٤٥١) (ج ٤ / ص ٢٦٤) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٤٤٩).

هذا لم يرد في الكتاب ولا في السنة، وفيما أعلم لم يرد عن أحد من السلف الصالح في القرون المفضلة، وإنما استعمله بعض المتأخرين كالحافظ ابن كثير -رحمه الله- واستعمله بعض المعاصرين من المتأخرين أيضاً أمثال محمد رشيد رضا حيث له كتاب اسمه الوحي المحمدي، وأيضاً في بعض العبارات لبعض المتأخرين مثل هذا، ومن أهل العلم من يستوحش من مثل هذه العبارة، ويقول: إنها تضاهي ما يطلقه النصارى أو ما يقال: بالمسيحيين، وإنما النسبة إلى الإسلام؛ لأن الله -عز وجل- سمانا بالمسلمين، فينتسب إليه ولا ينتسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بحيث يقال: فلان محمدي وأمة محمدية أو شريعة محمدية، لكن هل يقال هذا لأنه من باب المنكر والحرام وما أشبه ذلك؟ لا، لا يصل الأمر إلى ذلك، لكن الأحسن في التعبير الانتساب إلى الإسلام؛ لأنه هو الذي ورد في الكتاب وفي السنة، والله أعلم.

فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم وعدولهم إلى تحكيم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنما كان عن هوىً منهم وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ولهذا قالوا: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا} [(٤١) سورة المائدة] أي: الجلد والتحميم، {فَخُذُوهُ} [(٤١) سورة المائدة] أي اقبلوه، {وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ} [(٤١) سورة المائدة] أي: من قبوله وإتباعه.

يلاحظ أن هذه الروايات التي اقتصر عليها المختصر هنا في الصحيحين ليس فيها سبب نزول، أي أنه ليس فيها: فنزلت الآية، لكن صح ذلك في روايات أخرى وإلا لو بقينا مع هذه فقط ما يحصل المقصود من أنها سبب لنزول الآية.

وقال الله تعالى: {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} [(٤١-٤٢) سورة المائدة] أي: الباطل، {أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [(٤٢) سورة المائدة] أي الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وغير واحد، أي ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له؟!

قوله: {أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} أي: الحرام مطلقاً ويدخل فيه الربا، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا} [(١٦١) سورة النساء] ويدخل فيه الرشى؛ لأنهم كانوا يأخذون ثمناً قليلاً يستعيضون به عن بيان الحق الذي أمرهم الله -عز وجل- أن يبينوه.

والسحت: بعضهم يقول: أصله الهلاك والشدة، تقول: سحته بمعنى استأصله وأزاله، وبعضهم -كابن جرير رحمه الله- وبعض أئمة اللغة من المتقدمين يقول: أصله من كلب الجوع، وذلك أن الإنسان إذا وصف بهذا كلب الجوع، فإنه يأكل في كل وقت، ولا يزال يجد الجوع فلا يشبع، فمثل هؤلاء الذين يأكلون الرشى والأموال المحرمة شبهوا بذلك فهم لا يكتفون بالحلال بل كل ما وقع بأيديهم من مال استحلوه وأخذوه لشدة جشعهم وطمعهم وتهالكهم على الدنيا، ومثل ذلك الإنسان الذي ابتلي بكلب الجوع فإنه يأكل في كل وقت ولا يشبع، وهذا من حيث أصل المعنى، والله أعلم.

ثم قال لنبيه: {فَإِن جَآؤُوكَ} [(٤٢) سورة المائدة] **أي: يتحاكمون إليك،** {فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا} [(٤٢) سورة المائدة] **أي: فلا عليك أن لا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وزيد بن أسلم وعطاء الخرساني والحسن وغير واحد: هي منسوخة بقوله: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ} [(٤٩) سورة المائدة].

هذا قال به كثير، منهم من ذكر هنا وغير هؤلاء الزهري وعمر بن عبد العزيز، بل نسبه القرطبي إلى أكثر العلماء، مع أن كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يرى أنها محكمة، وذلك أنه لم يدل دليل على النسخ، والتعارض بين الآيتين ليس من كل وجه، فهو يقول: متى أمكن أن نجمع بين الآيات فهو مطلوب، يقول: ويمكن الجمع بينها باعتبار أن الله -عز وجل- خيره أن يحكم أو يترك فإن اختار أن يحكم فإنه مأمور أن يحكم بينهم بما أنزل الله.

{وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} [(٤٢) سورة المائدة] **أي بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل،** {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [(٤٢) سورة المائدة].

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [(٤٣) سورة المائدة].

ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران -عليه السلام- فقال: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ} [(٤٤) سورة المائدة] **أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها.**

في قوله: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ} كثير من المفسرين يقولون: النبيون الذين أسلموا، يعني أنبياء بني إسرائيل يحكمون بالتوراة، ويحكم بها أيضاً الربانيون والأحبار.

ومن أهل العلم من يقول -ومنهم ابن جرير رحمه الله-: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- وكذلك من حكم بها من الأنبياء قبله، وليس المقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- متعبد بالحكم بالتوراة، وإنما فيما ورد أنه حكم فيها مثل قضية حكم الزاني، ومثل قضية الديات وتفاوتها التي أشرت إليها في أول الكلام، وعلى كل حال إذا كان هذا هو المراد فلا إشكال أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حكم عليهم بكتابهم، لكن المتبادر في هذا أن الله ذكر التوراة وما فيها من المعاني ويحكم بها النبيون وكذلك الأحبار والرهبان ممن كانت شريعتهم التوراة .

{وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} [(٤٤) سورة المائدة] **أي وكذلك الربانيون منهم، وهم العلماء العباد** {وَالأَحْبَارُ} **وهم العلماء.**

بعضهم يقول: إن الربانيين هم العلماء الحكماء، وبعضهم يقول: علماء فقهاء، فعلى هذا يكون الرباني أعلى من الحبر، وابن جرير له كلام معروف في قوله: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [(٧٩) سورة آل عمران] وأيضاً في

هذه الآية، ومحمود شاكر -رحمه الله- علق على تفسيره لقوله تعالى: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [(٧٩) سورة آل عمران] تعليقا طويلاً جيداً يحسن مراجعته، فكلام ابن جرير واحد في الموضعين، في الربانيين -أعني هنا في المائدة وهناك في آل عمران- فابن جرير يرى أن المقصود من الربانيين أنهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم، يعني أنه ليس مجرد فقيه أو عالم وإنما له بصر بأحوال الناس وأمورهم وسياستهم وما أشبه ذلك، فهم يرجعون إليهم فيما نابهم من أمور دينهم ودنياهم، فهذا هو الرباني، وأما الحبر فهو العالم، وليس كل عالم يكون ربانياً.

{بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ} [(٤٤) سورة المائدة] أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به {وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [(٤٤) سورة المائدة] أي: لا تخافوا منهم وخافوا مني.

قوله: {بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ} [(٤٤) سورة المائدة] أي استودعوا من كتاب الله وأمروا بحفظه، وقد بيّن الله -عز وجل- أنهم ضيعوه في مواضع من كتابه كما في قوله تعالى: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام]، وكذلك في قوله: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٩) سورة البقرة] يعني من الرشى، إلى غير ذلك من الآيات التي دلت على أنهم ضيعوا ولم يقوموا بحفظ هذا الكتاب.

وقوله {وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء} [(٤٤) سورة المائدة] من أهل العلم من يقول -كابن جرير رحمه الله-: أي شهداء على أن هذا مما قضى به الأنبياء، يعني أن الأنبياء يحكمون وهؤلاء شهدوا ذلك وعرفوه من أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام- وعرفوا أنهم كانوا يحكمون بكتاب الله.

{وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] فيه قولان سيأتي بيانهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "إن الله أنزل {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٤٧) سورة المائدة] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيَّين قط دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ناساً من المنافقين ليخْبُروا لهم رأي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما جاءوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخبر الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بأمرهم كله وما أرادوا فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [(٤١) سورة المائدة] إلى قوله: {الْفَاسِقُونَ} [(٤٧) سورة المائدة] ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل" ورواه أبو داود بنحوه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية في سبب النزول صريحة في أن الآيات نازلة في هذا، وأكثر الروايات على أنها نزلت في قصة الزانيين، وإذا صحت الروايات وكانت صريحة فإنه يقال بتعدد النزول إذا كان ذلك وقع في وقت متقارب، وإلا قيل بأن ذلك نزل أكثر مرة -نزل مرتين- والله تعالى أعلم.

فهذا في أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقصة اليهوديين اللذين زنيا قد تكون في أول الأمر في وقت ليس ببعيد عن هذا، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

وهذه الرواية حسنها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- وأما الروايات الأولى فبعضها في صحيح مسلم، والحاصل أنها روايات ثابتة صحيحة وإن اختلفت في بعض التفصيلات.

وروى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن الآيات التي في المائدة قوله: {فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [(٤٢) سورة المائدة] إلى {الْمُقْسِطِينَ} [(٤٢) سورة المائدة] إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف، تؤدى لهم الدية كاملة، وأن قريظة كان يؤدى لهم نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله ذلك فيهم فحملهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الحق في ذلك فجعل الدية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان.

هذه الرواية تشهد للرواية السابقة، فالرواية السابقة لا تخلو من ضعف، وهذه أيضاً لا تخلو من ضعف في إسنادها عند ابن جرير ففيها سماك بن حرب وفيها داود بن الحصين وكلاهما يروي عن عكرمة، وروايته عن عكرمة ليست صحيحة، ولكن مجموع هذه الروايات يرتقي بهذه الرواية إلى درجة الحسن، ولهذا صححها بعض أهل العلم مثل الشيخ أحمد شاكر والألباني وأما إسنادها عند ابن جرير من حيث هو فهو ضعيف.

ورواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن إسحاق بنحوه، وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا كما تقدمت الأحاديث بذلك، وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم.

هذه طريقة جيدة في الجمع، وهذا من مزايا هذا التفسير -تفسير ابن كثير- أنه يوجه الروايات ويجمع بينها، ويشير إلى بعض القضايا التي يبنى عليها التفسير، وهذا خير من أن تذكر الروايات وتسرد ثم يترك القارئ في حيرة.

ولهذا قال بعد ذلك: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ} [(٤٥) سورة المائدة] إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

يمكن أن يكون هذا قرينة للقصاص ويمكن أن لا يكون ذلك بلازم؛ لأن قصة اليهوديين اللذين زنيا تتعلق بالحدود، فذكر الحدود والقصاص مما أقره الله -عز وجل- أو ألزم به بني إسرائيل، ومن أهل العلم من يعمد في مثل هذه المواضع إلى الترجيح بين الروايات فيقول: نأخذ الروايات الأصح كالمخرجة في الصحيحين أو في أحدهما ونقدمها على الروايات الأخرى التي لا تخلو من ضعف لكنها تنجبر بمجموعها -بمجموع الطرق أو الشواهد- ونترك الرواية الأخرى، وهذه طريقة معروفة لبعض أهل العلم حيث لا يقولون بتكرر النزول وإنما يعمدون إلى الترجيح، ومعلوم أن الجمع مطلوب ما أمكن وأنه مقدم على الترجيح؛ لأن في الترجيح إهداراً لإحدى الروايتين.

وقوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة.

وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذا الأمة بها، رواه ابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] قال: من جحد ما أنزل فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير.

هذا الآيات لا شك أنها نزلت في بني إسرائيل والسياق يدل على هذا، وكون هذه الآيات نازلة في بني إسرائيل لا يعني أن هذا الحكم يختص بهم وإنما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن في قوله: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم} "من" هنا شرطية وأسماء الشرط من صيغ العموم؛ ولذلك لما قيل لحذيفة -رضي الله تعالى عنه-: إن هذه الآية {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] في بني إسرائيل أو في اليهود، قال: نِعْمَ الإخوة لكم، ما كان من مُرَّة فهي لهم وما كان من حلوة فهي لكم.

وعلى كل حال إذا كان ذلك واقعاً في حق بني إسرائيل فوقوعه في حق هذه الأمة من باب أولى؛ لأن الله أنزل عليهم كتاباً أعظم من الكتاب الذي أنزله على بني إسرائيل، ولا يوجد ما يدل إطلاقاً على الاختصاص ببني إسرائيل في هذا الحكم.

ومن أهل العلم -مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله- من يرى أن قوله: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] في هذه الأمة، ثم الظالمون في اليهود، ثم الفاسقون في النصارى.

ومهما يكن من أمر فإن الكفر والظلم والفسق كل ذلك يطلق بإزاء معنيين اثنين، الكفر الأكبر والظلم الأكبر والفسق الأكبر، وما يقابل ذلك من الكفر والظلم والفسق الأصغر، فالله -عز وجل- يقول في الكفر الأكبر وهو يخاطب المشركين: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [(١) سورة الكافرون]، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت))[1] وقال –عليه الصلاة والسلام-: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[2] وقال في النساء: ((وتكفرن العشير))[3].

وفي الظلم يقول الله تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة] فهذا في الظلم الأكبر المخرج من الملة، ومثل ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام]، وفسره الله تعالى

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٦٧) (ج ١ / ص ٨٢).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)) (٦٦٦٥) (ج ٦ / ص ٢٥٩٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (٦٤) (ج ١ / ص ٨١).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الحيض - ترك الحائض الصوم (٢٩٨) (ج ١ / ص ١١٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق (٧٩) (ج ١ / ص ٨٦).

بآية لقمان، فقال سبحانه: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] فهذا كله في الظلم الأكبر، كما يطلق الظلم ويراد به الأصغر، وهذا أمثلته كثيرة.

ومثل ذلك الفسق فمنه الأكبر كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ} [(١٨) سورة السجدة] يعني الكافر، ويطلق على الفسق الأصغر وهذا أمثلته أكثر من أن تحصر.

ولذلك فالمثال الذي يذكره الأصوليون كثيراً في مفهوم الموافقة الأولوي {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [(٦) سورة الحجرات] قالوا: يعني إن جاءكم كافر فينبغي التثبت من باب أولى، فهذا المثال غير صحيح؛ لأن الفسق يشمل هذا وهذا.

والحاصل أن قوله: {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٤٧) سورة المائدة] كل ذلك بمعنىً واحد، وهو الكفر والظلم والفسق الأكبر المخرج من الملة، والذي وقع من هؤلاء اليهود هو أنهم غيروا حكم الله -عز وجل- وبدلوه حيث غيروا الحد من الرجم إلى التحميم والجلد ويطاف به على حمار منكوساً، فمثل هذا التصرف الذي وقع منهم هو من نوع التبديل، فمن بدل شرائع الإسلام فقد كفر سواء كان ذلك في قضية واحدة أو في جميع القضايا، يعني لو أنه قال: بدلاً من قطع يد السارق نجعل عليه غرامة بقدر كذا وكذا، أو يُحبس مدة كذا وكذا، فكل من وقع منه ذلك فهو مبدل لشرائع الإسلام، وهذا التصرف كفر مخرج من الملة حتى ولو حكم في جميع القضايا بالشرع.

وهناك فرق بين هذا وبين الذي يغلبه الهوى في قضية من القضايا لرشوة أو لمعرفة أو لشفاعة أو غير ذلك فلم يحكم بالشرع فهذا لا يخرج من الملة، إنما الذين يقولون بخروجه من الملة هم الخوارج الذين يكفرون بالذنوب والمعاصي -هذا مذهب الخوارج- والخوارج يكفرون المسلمين حكاماً ومحكومين إلا من وافقهم، وقد كانوا يجادلون أبا مجلز في أئمة زمانهم وأنهم كفار، فكان يرد عليهم بقوله: إن هذه الآية في أهل الكتاب من اليهود، فالذي كان يحصل في ذلك الوقت من القاضي أو من الحاكم إنما هو غلبة هوى في قضية من القضايا فلا يطبق حكم الله -عز وجل- في هذه القضية، لكن تبديل شرائع الإسلام هذا ما عرف في تلك القرون إطلاقاً، ولذلك قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "كفر دون كفر.." مع أن بعض أهل العلم ضعف هذه الرواية عن ابن عباس وقال: لا تثبت، لكن حتى لو ثبتت أصلاً فهذا ليس قول نبي، لكن لا ننسى القواعد والأصول التي عندنا، وأما ابن عباس فخالفه صحابة، وخالفه تابعون، وخالفه جماعة من السلف -رضي الله عنهم أجمعين- وأقوال أهل العلم في هذه المسألة ليست قولاً واحداً، فبعضهم سرد فيها أكثر من خمسة أقوال، فلسنا ملزمين بقول ابن عباس وأنه لا يجوز لأحد أن يتعداه، فقول ابن عباس ليس قول نبي ولا قول معصوم، وقول الصحابي إذا خالفه غيره من الصحابة فليس بحجة، لا قول ابن عباس ولا غير قول ابن عباس، وهذا شيء معروف، وهو من مبادئ العلم التي نتعلمها ونعلمها للناس.

فالمقصود أن هذه المسألة قول ابن عباس فيها أو غير ابن عباس ممن وافقه من التابعين أو من جاء بعدهم: "كفر دون كفر" هذا فيمن حكم في مسألة لغلبة هوى، لكن لو قيل لابن عباس: من يأتي ويبدل شرائع الإسلام كلها ويلغي الشريعة ويضع القانون فهذا لا يقال فيه كفر دون كفر، وإلا لو كان هذا كفراً دون كفر فلن يوجد على وجه الأرض كفر بالله -عز وجل- فالمقصود أن هذا من أعظم الكفر، والله -عز وجل- يقول: {اتَّخَذُواْ

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} [(٣١) سورة التوبة] فهذا في قضية شرك الطاعة والاتباع، ولذلك فالذين يدخلون في البرلمانات في الدول التي لا تحكم بما أنزل الله -عز وجل- ويبدأ التصويت على قطع يد السارق أو على الحجاب أو غير ذلك، فهؤلاء بهذه الطريقة يحكِّمون أهواءهم؛ لأن هذا رأي الأغلبية ولم يقر هذا بناء على أنه حكم الله المهيمن الذي يجب عليهم أن يخضعوا له، وإنما هو حكم الطاغوت حتى لو وافق الشرع بكل تفصيلاته وجزئياته، فينبغي أن نفرق في مثل هذه الأمور.

وعلى كل حال مسألة الحكم بغير ما أنزل الله يمكن أن يراجع فيها مثل كلام شيخ الإسلام، فأول قضية حصلت للمسلمين صار فيها مثل هذا، ناس يدّعون الإسلام ويحكمون بغيره هم التتار حيث جاءوا بكتاب لفّقوه من الإسلام ومن موروثاتهم الجاهلية وأخذوا أشياء من التوراة ومن غيرها وجعلوه قانوناً ملفقاً سموه الياسق، فشيخ الإسلام ابن تيمية كفرهم، وتكلم عليهم الحافظ ابن كثير وغيره، وشيخ الإسلام قال: لو رأيتموني في عسكرهم وعلى رأسي المصحف فاقتلوني، وقد سئل شيخ الإسلام عنهم كيف يقاتلون وهم يؤذنون؟ فقال: لو رأيتموني في عسكرهم وعلى رأسي المصحف فاقتلوني، وقال: إن من جَمَزَ إلى عسكرهم من الجند والقادة والتجار فهو كافر مرتد، فالمسألة ليست سهلة.

وممن تكلم على هذه المسألة بكلام جيد أيضاً الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- وكذلك أخوه محمود وبينوا وجه كلام ابن عباس والصورة الواقعة لتبديل شرائع الإسلام ووضع القانون مكانه، فهذا يختلف تماماً عما كان يقع في زمن ابن عباس أو زمن أبي مجلز أو غير هؤلاء.

وتكلم على هذه المسألة أيضاً الشيخ محمد الأمين الشنقيطي بكلام جيد ومفصل، والشيخ محمد بن إبراهيم –رحمه الله- في كتابه تحكيم القوانين، وعلى كل حال الكتابات في هذا كثيرة، وبناء عليه لا يقال: إنه يكفر إن استحل فهو حتى لو حكم بما أنزل الله واستحل الحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، فالإنسان الذي يستحل الحكم بغير ما أنزل الله لا ينفعه أن يحكم بما أنزل الله؛ لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن من جحد شيئاً من شرائع الإسلام فإنه يكفر، فلو جاء شخص وقال: الصلاة ليست واجبة وهو يصلي، فهذا حكمه كافر له قرنان، ويقال له: لا تنفعك صلاتك؛ لأنك جحدت معلوماً من الدين بالضرورة، وكذلك لو قال: الزنا حلال والخمر حلال والسرقة حلال لكن أنا لا أسرق ولا أزني ولا أشرب الخمر فهذا حكمه أنه كافر، فالذي يستحل تبديل شرائع الإسلام ولو لم يبدلها يكون كافراً؛ لأن هذه المسألة لا تحتاج إلى أن يقال: يكفر إن فعل ذلك مستحلاً؛ أما مسألة ترك الصلاة فهي مسألة الخلاف فيها موجود ومعروف بين أهل العلم من أهل السنة، لكن القول بقاعدة مطلقة عامة بأنه لا يكفر في شيء من الأعمال إلا بالاستحلال فهذا قول المرجئة فمن قال به فهو مرجئ، فالمقصود أن هناك فرقاً بين مسألة الصلاة إذا كان جاحداً لوجوبها أو أنه تركها تكاسلاً فهذه مسألة اختلف فيها أهل السنة، لكن أن تجعلها قاعدة عامة فهذا غير صحيح.

وقد قلت لأحدهم: ماذا تقول في من يمسك المصحف ويطؤه برجليه؟ فقال: ما يصدر منه هذا إلا أن يكون كافراً بالمصحف، فقلت له: وما هو الإيمان؟ قال: يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من إيمان أي وإن كان قد ترك العمل بالكلية، قلت: وما هو الإيمان عندك؟ قال: الإقرار، قلت: والنطق باللسان؟ قال: يمكن أن يكون ممن لم يمتحنه أحد حتى ينطق بها، أي أنه مؤمن وإن أفنى عمره كله ولم يقل فيه: لا إله إلا الله -مع

أن النووي وغيره مثل سليمان بن محمد بن عبد الوهاب نقلوا الإجماع على أن من لم ينطق بالشهادتين فهو كافر، فكيف يقول: لم يأت أحد يمتحنه؟

المقصود أنه يرى أن من مات ولم يسجد لله سجدة فهو مسلم وكذا من مات ولم ينطق بالشهادتين، قلت له: هل كلامك هذا بناء على الحديث الذي فيه أن الله يخرج من النار قوماً لم يعملوا خيراً قط؟ قال: نعم، قلت له: وهل التصديق الانقيادي هذا والإقرار عمل أو ليس عملاً؟ قال: عمل، قلت: في قوله –عليه الصلاة والسلام- : ((لم يعملوا خيراً قط))[4] خيراً نكرة في سياق النفي وهي للعموم فكيف استثنيت هذا؟ فغضب وقال: لا تحفر لي حُفراً تطيحني فيها، وهكذا كان جوابه في النهاية، أي أنه ليس عنده جواب.

فالمقصود أن تقعيد قاعدة عامة بحيث يقال: كل العمل لو تركه المرء فإنه لا يكفر، أو يقال: مهما عمل الإنسان من أنواع الكفر على وجه الأرض بأن يسجد لصنم أو يفعل أي شيء لا يكفر به إلا أن يكون مستحلاً هذا كله كلام غير صحيح، فمن الأعمال ما هو كفر مخرج من الملة سواء استحله صاحبه أم لم يستحله كالذي يسب الله -عز وجل- مثلاً فذلك لا يحتاج إلى إقامة حجة ونظر في صاحبه هل استحله أم لا؟، وعلى كل حال فمثل هذه المسائل على ثلاثة أنواع ليس هنا موطن ذكرها، والله أعلم.

وروى عبد الرزاق أخبرنا معمر عن طاوس قال: سئل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن قوله: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم} الآية [(٤٤) سورة المائدة] قال: هي به كفر، قال ابن طاوس: وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء: إنه قال: "كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق" رواه ابن جرير.

وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاوس: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة] قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة]

وهذا أيضاً مما وُبخت به اليهود وقرعوا عليه فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويقيدون النضري من القرظي ولا يقيدون القرظي من النضري بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة]؛ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال هاهنا: {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ -رحمه الله- في كتابه "الشامل" إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتب في كتاب عمرو بن

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) (ج ١ / ص ١٦٧).

حزم: ((أن الرجل يقتل بالمرأة))[5] وفي الحديث الآخر: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم))[6] وهذا قول جمهور العلماء، ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن الرُّبَيع عمة أنس -رضي الله تعالى عنهما- كسرت ثنيّة جارية فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ((القصاص)) فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أنس كتاب الله القصاص)) قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال: فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)) [أخرجاه في الصحيحين][7].

وقوله تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [(٤٥) سورة المائدة] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "تقتل النفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس" [رواه ابن جرير وابن أبي حاتم].

قاعدة مهمة:

لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنهم- أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أقدني، فقال: ((حتى تبرأ)) ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده فقال: يا رسول الله عرجت، فقال: ((قد نهيتك فعصيتني فأبعدك الله وبطل عرجك))[8] ثم نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه، تفرد به أحمد.

هذه الرواية من طريق ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه لكن لها شواهد، ولهذا صححها بعض أهل العلم مثل الشيخ أحمد شاكر والألباني، وعلى كل حال الاقتصاص بالنسبة للجراح يراعي فيها هذا المعنى: ((حتى تبرأ)) وتراعى فيها أمور أخرى، ومن ذلك أنه إنما يقتص من الجراح إذا كان يمكن أن تنضبط ويعرف مدى عمق هذا الجرح وعرضه وما أشبه ذلك من الأمور التي يضبط فيها، وأما الجراح التي يخشى حين القصاص من المعتدي فيها أن يأتي القصاص على نفسه فإنه لا يقتص منه، ولهذا فإن الفقهاء -رحمهم الله-

---

[5] - أخرجه النسائي في كتاب القسامة - ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف الناقلين له (٤٨٥٣) (ج ٨ / ص ٥٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٣٣٣).

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في السرية ترد على أهل العسكر (٢٧٥٣) (ج ٣ / ص ٣٤) وابن ماجه في كتاب الديات - باب المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢٦٨٣) (ج ٢ / ص ٨٩٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٧١٢).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب قول الله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [(٢٣) سورة الأحزاب] (٢٦٥١) (ج ٣ / ص ١٠٣٢) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها (١٦٧٥)((ج ٣ / ص ١٣٠٢).

[8] - أخرجه أحمد (٧٠٣٤) (ج ٢ / ص ٢١٧) والدارقطني (٢٤) (ج ٣ / ص ٨٨) وصححه الألباني في الإرواء برقم (٢٢٣٧).

قسموا هذه الجراح إلى أنواع منها المأمومة والجائفة، فالمقصود إنما يقتص إذا كان ذلك يمكن أن ينضبط ولا يخشى أن يؤدي ذلك إلى التلف، فإن خشي ذلك فإنه لا مجال للقصاص، وإنما أرش الجناية.

مسألة:

فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص، فلا شيء عليه، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم.

نعم هذا في الذي ينضبط، لكن لا يعمد ابتداء إلى الاقتصاص منه في شيء يمكن أن يؤدي إلى التلف، يعني لو أنه طعنه طعنة نافذة إلى صدره، لربما جرح قلبه فبرئ هل نقول الثاني نقتص منه بنفس الطريقة؟ لا، لأنه ربما يموت، وهكذا، لو أنه ضربه ضربة وصلت إلى داخل الدماغ، أي اخترقت القشرة أو الجلدة الرقيقة التي تغطي الدماغ فهذا لا نقول يقتص منه؛ لأنه سيموت، فمثل هذه الجراح لا يمكن أن تنضبط بحيث تأتي في المرة الثانية مماثلة للأولى ويسلم من الهلاك، لكن فيما يمكن أن ينضبط في مجاري العادات لو سرت الجراحة فمات هذا الإنسان بأن يكون قد قطع أنف إنسان فاقتص منه بقطع أنفه فسرت الجراحة فمات، بمعنى أن الجرح تطور فتسمم الجسم فمات هذا الإنسان، فلا يقال: أنت قتلته فادفع الدية؛ لأن عمله مأذون فيه وما ترتب عليه فإنه لا يُغرم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ} [(٤٥) سورة المائدة] **يقول: فمن عفا وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب.**

وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "فمن تصدق به فهو كفارة للجارح وأجر المجروح على الله عز وجل" [رواه ابن أبي حاتم].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- في قول الله -عز وجل-: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} [(٤٥) سورة المائدة] **قال: للمجروح.**

وروي عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي -في أحد قوليه- وأبي إسحاق الهمداني نحو ذلك.

وروى الإمام أحمد أن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به))[٩]، ورواه النسائي وابن جرير.

هذا الحديث نص في تفسير الآية، يعني أن هذا من تفسير القرآن بالسنة، وكما ذكرنا في بعض المناسبات أن تفسير القرآن بالسنة على نوعين، نوع ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية، فهذا إذا صح إسناده فلا كلام ولا مدخل للاجتهاد فيه، والنوع الثاني: ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يتعرض للآية فيأتي المفسر ويجمع بين هذا وهذا، فهذا اجتهاد من المفسر قد يصيب وقد يخطئ، ومن ذلك ما يكون وجه الارتباط فيه بغاية الوضوح، ومنه ما يكون فيه بعد، فمثل هذا من أوضح الأمثلة على تفسير القرآن بالسنة، فهذه الجملة **{فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}** [(٤٥) سورة المائدة] تحتمل المعنيين، تحتمل أن يكون كفارة للمتصدق

---

[٩] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (١١١٤٦) (ج ٦ / ص ٣٣٥) وأحمد (٢٢٧٥٣) (ج ٥ / ص ٣١٦) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧١٢).

-المجني عليه- وتحتمل أن يكون كفارة للجاني باعتبار أن الحدود كفارات كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له))[١٠] فكذلك إذا أسقط صاحب الحق حقه هل يبقى لله حق في هذه القضية أم لا؟ لأن الحقوق -كما هو معلوم- منها ما يختص بالله مثل الصلاة، ومنها ما يكون مشتركاً بين الخالق والمخلوق مثل الزكاة، وفي المعاصي والذنوب مثل ما لو أنه انتهك عرض إنسان أو قذفه أو نحو ذلك، فهذا حق لله وحق للمخلوق، ومنها ما يختص بالمخلوق على خلاف في الأمثلة، فالحاصل أن هذا الحديث: ((الحدود كفارات)) يؤيد أن ذلك يكون كفارة للمتصدق أي لمن وقعت عليه الجناية، ومما يؤيده أيضاً أن هاء الضمير في {لَّهُ} من قوله: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} [(٤٥) سورة المائدة] إذا قلنا إنه يرجع إلى المتصدق الذي وقعت عليه الجناية فقد رجع الضمير إلى مذكور، وإذا قلنا: إنه يرجع إلى الجاني فيكون الضمير قد رجع إلى غير مذكور، ومن طرق الترجيح في التفسير - في ما يحتمل في الضمائر أن يعود إلى أكثر من موضع- أن نرجح من المعاني ما قيل فيه إن الضمير راجع إلى مذكور قبله، فهذا أولى من أن يقال: يرجع إلى غير مذكور، فالضمير –كما هو معلوم- أحياناً يرجع إلى غير مذكور مثل قوله تعالى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [(٣٢) سورة ص] على القول المشهور بأنها الشمس، ومن قال بأنها الخيل فهو راجع إلى مذكور، فالمقصود أن مما يرجح أن الضمير في قوله: {كَفَّارَةٌ لَّهُ} راجع إلى المتصدِّق أن يقال: إنه راجع إلى مذكور.

ومن الأمور التي يمكن أن نرجح فيها ذلك أيضاً أن التكفير يكون بسبب الصدقة، فالمتصدق هو الذي ينال جزاءه، فتكون الصدقة مكفرة لذنوبه، فهذا هو المعروف وهو الذي عليه عامة أهل العلم واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع.

وقوله: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

[10] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الممتحنة (٤٦١٢) (ج ٤ / ص ١٨٥٧) ومسلم في كتاب الحدود - باب الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩) (ج ٣ / ص ١٣٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ* وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٤٦-٤٧) سورة المائدة].

يقول تعالى: {وَقَفَّيْنَا} أي: أتبعنا {عَلَى آثَارِهِم} يعني أنبياء بني إسرائيل {بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها {وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} أي: هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات.

{وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} أي: متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

وقوله تعالى: {وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} أي: وجعلنا الإنجيل هدى يُهتدى بها {وَمَوْعِظَةً} أي: زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم {لِّلْمُتَّقِينَ} أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ} [(٤٧) سورة المائدة] قرئ {وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الإِنجِيلِ} بالنصب على أن اللام لام كي، أي {وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ} [(٤٦) سورة المائدة] ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرئ {وَلْيَحْكُمْ} بالجزم على أن اللام لام الأمر أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} الآية [(٦٨) سورة المائدة] وقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} [(١٥٧) سورة الأعراف] إلى قوله: {الْمُفْلِحُونَ} [(١٥٧) سورة الأعراف] ولهذا قال هاهنا: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٤٧) سورة المائدة] أي الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر من السياق.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكر من القراءتين في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ} [(٤٧) سورة المائدة] سواء كانت اللام لام كي -أي بمعنى التعليل- يعني أنزلنا الإنجيل من أجل أن يحكم، أو أن اللام لام الجزم

بمعنى أنه أمرٌ من الله أن يحكموا به، فإن المعنى في القراءتين يرجع إلى شيء واحد في النهاية، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- إنما أنزل الإنجيل وأنزل سائر الكتب من أجل أن يحكم الناس بها، ولاشك أن الله -تبارك وتعالى- أمرهم بأن يحكموا بين الناس بهذه الكتب، فكل ذلك متحقق واقع، وبناء على ذلك فمعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد، والله تعالى أعلم.

{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ* أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(٤٨-٥٠) سورة المائدة].

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه -كما تقدم بيانه- شرع في ذكر القرآن العظيم الذين أنزله على عبده ورسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- فقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} [(٤٨) سورة المائدة] أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ} [(٤٨) سورة المائدة].

ويمكن أن يكون المراد {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} أي: إنزالاً متلبساً بالحق.

{مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ} [(٤٨) سورة المائدة] أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٧-١٠٨) سورة الإسراء] أي: إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد -عليه السلام- {لَمَفْعُولاً} أي: لكائناً لا محالة ولا بد.

قوله تعالى: {وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [(٤٨) سورة المائدة] قال سفيان الثوري وغيره عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: أي مؤتمناً عليه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: المهيمن: الأمين، قال: "القرآن أمين على كل كتاب قبله" ورواه عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخرساني والسدي وابن زيد نحو ذلك.

وهكذا قول من قال: إن المهيمن هو الرقيب، أو قول من قال: إنه الغالب المرتفع أو الحافظ، وعلى كل حال فالمقصود واحد بهذه العبارات، والله تعالى أعلم، ويكون المعنى أن هذا القرآن جعله الله -عز وجل- شاهداً لصحة تلك الكتب، ومقرِّراً لما فيها مما لم ينسخ، وناسخ لما خالفها، ورقيب عليها وحافظ لما فيها من أصول الشرائع، فهو المرجع في المحكم والمنسوخ، ومؤتمن عليها لكونه يشتمل على ما هو معمول به وما هو متروك منها وما أشبه ذلك، فهذه المعاني التي ذكروها هي من قبيل اختلاف التنوع، فإذا قيل: فلان أمين

المكتبة، أو أمين المؤسسة أو أمين الجمعية، أو أمين المجلس، أو هذه أمانة هذه الجهة، فمعنى ذلك أن هذه هي الجهة الإشرافية التي يرجع إليها النظر والقرار وما أشبه ذلك من المعاني، هذا هو معنى الأمين، فقوله: {وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [(٤٨) سورة المائدة] يعني هو الأمين، فمن طريق هذا القرآن نعرف الثابت من المنسوخ والحق من الباطل، وما أشبه ذلك من المعاني، وبناء عليه لا نحتاج أن نرجح بين قول من قال: المهيمن هو الأمين أو المؤتمن أو من قال: هو الشاهد أو الرقيب أو العالي أو نحو ذلك، فكل هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد.

وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

وهذا يرجع للكلام الذي ذكرته آنفاً، وابن جرير له عبارات أخرى غير هذه العبارة، كقوله: إنه مصدق للكتب قبله، وشهيد عليها أنها حق من عند الله -عز وجل- وأمين عليها وحافظ لها، وذكر أن أصل الهيمنة هي الحفظ والارتقاب، أي أن القرآن رقيبٌ على هذه الكتب، فابن جرير -رحمه الله- يجمع هذه المعاني المنقولة عن السلف رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وعن الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: {وَمُهَيْمِنًا} [(٤٨) سورة المائدة] أي شهيداً، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمُهَيْمِنًا} أي: حاكماً على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى؛ فإنّ اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذين أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأكلمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [(٩) سورة الحجر].

وقوله تعالى: {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ} [(٤٨) سورة المائدة] **أي: فاحكم يا محمد بين الناس -عربهم وعجمهم أميِّهم وكتابيهم- بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه.**

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ} [(٤٩) سورة المائدة] **فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يحكم بينهم بما في كتابنا.**

وقوله: {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ} [(٤٩) سورة المائدة] **أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، ولهذا قال تعالى: {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}** [(٤٨) سورة المائدة] **أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء.**

وقوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [(٤٨) سورة المائدة] **روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً} قال: سبيلاً، وعنه: سبيلاً وسنة.**

قوله: "**سبيلاً وسنة**" الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فسر هذه الجملة مما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: السبيل هو المنهاج، والسنة هي الشرعة أو الشريعة التي تفصِّل هذا المنهاج، أي أن الشريعة هي تفاصيل المنهاج، والشرعة في أصلها هي الطريق الذي يتوصل به أو منه إلى الماء كما قال بعضهم، ثم استعملت فيما شرعه الله -عز وجل- لعباده، والمنهاج أيضاً هو الطريق الواضحة البينة، وبعضهم يقول: الشرعة هي ابتداء الطريق، والمنهاج هو الطريق المستمر.

ويقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: إن الشرعة هي ما شرعت فيه، وقيل لها ذلك لشروع أهلها فيها بالعمل والتطبيق والامتثال وما أشبه ذلك.

على كل حال قال هنا: سبيلاً وسنة، بمعنى أنه جعل لهم طريقاً -هذا هو المنهاج وهو السبيل- وسنة أي: تشرح هذا السبيل وتوضح معالمه وتفاصيله -وهذه هي الشريعة التي يوجد فيها الأحكام والتشريعات-.

{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [(٤٨) سورة المائدة] أي: لكل أمة من هذه الأمم جعل الله شرعة ومنهاجاً، وهذا المعنى خلافاً لقول من قال: إن معنى {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً} أي شرعة واحدة هي الإسلام واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهذا المعنى بعيد؛ لأن الله قال بعده: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٤٨) سورة المائدة] فدل ذلك على أن المراد اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٤٨) سورة المائدة]**، وهذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حده، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم}** [(٤٨) سورة المائدة] **أي: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله، وقال عبد الله بن كثير: {فِي مَآ آتَاكُم}** [(٤٨) سورة المائدة] **يعني من الكتاب.**

بعض أهل العلم قال: إن هذا التعليل {وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم} [(٤٨) سورة المائدة] يدل على أن تعدد الشرائع إنما هو ليبلوَ الله -عز وجل فيما أعطى- هؤلاء الذين بعث إليهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأنزل عليهم هذه الشرائع هل يعملون ويمتثلون أم يخرجون عنها؟، وقالوا أيضاً –أي بعض أهل العلم-: إن ذلك لا يرجع إلى اختلاف المصالح من وقت إلى وقت، وهذا القول فيه نظر؛ لأن الشيء قد يعلل بعلل مختلفة، فهنا قال: {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم} [(٤٨) سورة المائدة] وهذا لا ينافي أن تكون الشريعة قد جعلها الله -عز وجل- ملائمة لأمة أو لوقت من الأوقات، ثم نسخها بشريعة أخرى تلائم في وقت آخر، فالتعليل {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم} [(٤٨) سورة المائدة] لا يعني أن العلة قاصرة على هذا فقط، فالشيء الواحد قد يعلل بعلل مختلفة، قد يذكر بعضها وقد يترك البعض الآخر، فحينما يقال مثلاً: إن العلة في الوضوء هي الطهارة، أو

العلة هي الحدث، فهذا يدل على أن هناك عدة علل للشيء الواحد، أو للفعل الواحد، كما تقول العلة من أداء الزكاة التقرب إلى الله -عز وجل- أو تقول: الإرفاق بالمحتاجين، لكن هناك علل أخرى أيضاً لا تتنافى مع هذه العلل، وهكذا توجد لذلك صور كثيرة، والله أعلم.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال: {فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [(٤٨) سورة المائدة] وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله.

ثم قال تعالى: {إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ} [(٤٨) سورة المائدة] أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة، {فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [(٤٨) سورة المائدة] أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة والحجج البالغة والأدلة الدامغة، وقال الضحاك: {فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [(٤٨) سورة المائدة] يعني أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- والأول أظهر.

وقوله: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ} [(٤٩) سورة المائدة] تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه، ثم قال: {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ} [(٤٩) سورة المائدة] أي: واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما يُنْهُونه إليك من أمور فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة خونة، {فَإِن تَوَلَّوْاْ} [(٤٩) سورة المائدة] أي عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم.

{وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [(٤٩) سورة المائدة] أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} الآية [(١١٦) سورة الأنعام].

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله -عز وجل- فيهم: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ} [(٤٩) سورة المائدة] إلى قوله: {لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(٥٠) سورة المائدة] [رواه ابن جرير وابن أبي حاتم].

ورواه كذلك البيهقي في الدلائل -دلائل النبوة-، والشيخ محمد بن إسحاق مجهول كما قال الحافظ ابن حجر، وبناء عليه فهذه الرواية لا تصح.

وقوله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(٥٠) سورة المائدة] ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من

الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكِّم سواه في قليل ولا كثير.

كلام ابن كثير هنا صريح وواضح ليس فيه أي شبهة بأن تبديل شرائع الإسلام كفر يخرج من الملة بخلاف من غلبه هواه في مسألة، وهذه المسألة تكلمنا عليها في الدرس الماضي، فهذا ذكره الحافظ ابن كثير لما وُجد لأول مرة في هذه الأمة في زمان التتار، وذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وبيّن أن هذا كفر مخرج من الملة، وألَّف فيه الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي هذه البلاد رسالة تحكيم القوانين، وهي موجودة ومطبوعة ومتداولة، وتكلم عليه الشيخ أحمد شاكر بكلام جيد في مواضع شتى من كتبه حتى إنه جُمع في كتاب خاص، وغير هؤلاء من العلماء الذين بينوا هذه القضية كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، والشيخ محمد الأمين في دروسه التي كانت في المسجد النبوي، كان كثيراً ما يقرر هذه القضية ويكررها، وهؤلاء ليسوا بخوارج وإنما هؤلاء هم علماء الأمة وهم محل الثقة، ولا يجوز لأحد أن يصادر أقوال أهل العلم لهوىً في نفسه ويرمي من خالفه بأنه من الخوارج، فمذهب الخوارج أن من خالف في مسألة حكم فيها لغلبة هوى فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة، هذا هو مذهب الخوارج، وقد ناظروا أبا مجلز -من التابعين- في هذه القضية، فرد عليهم، وبالنسبة لقول ابن عباس: "كفر دون كفر" إلى آخره، فهو يتحدث عن شيء يقع في زمانه من غلبة هوى من قِبل القاضي أو نحو ذلك في مسألة، لكن لو قيل لابن عباس: تُزال الشريعة بكاملها، ويوضع قانون الفرس أو الروم، فهل سيقول: كفر دون كفر؟ سيقول: هذا كفر مخرج من الملة قطعاً.

ويبقى أن هذه المسألة مسألة اختلف فيها أهل السنة، وبناء عليه فمن قال: إنه كفر دون كفر؛ لأنه فهم ذلك من كلام ابن عباس فإنه لا يُبدَّع ولا يضلَّل ولا يرمى بالإرجاء، ومن قال: إن هذا كفر مخرج من الملة فهذا أيضاً قول تشهد له النصوص، ولا يجوز لأحد أن يرمي هذا القول بأنه قول الخوارج، وفي الوقت الذي تُقرر فيه مثل هذه القضايا لا يعني أن ينزل ذلك على المعيَّن، كما هو معروف من مذهب أهل السنة والجماعة، فابن القيم -رحمه الله- وغير ابن القيم ذكر هذا في النونية، ونقل قول من قال: إن من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، وقد نُقل ذلك عن خمسمائة من العلماء، ومع هذا النقل الذي نقلوه في نفس الوقت لا الإمام أحمد ولا غير الإمام أحمد كفر المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ولا المتوكل الذين تناوبوا على الخلافة من بني العباس حتى إن الإمام أحمد -رحمه الله- عفا عن المعتصم لما فتح عمورية، فالمقصود أن هناك فرقاً بين أن يقال: هذا كفر مخرج من الملة وبين أن يقال: فلان كافر، وهذه المفارقة للأسف يضيعها كثيرون، فإذا سمع أن هذا كفر مخرج من الملة ظن أن معنى ذلك: أن فلاناً كافر وفلاناً كافر، مع أن ذلك ليس مراداً إطلاقاً،

وإنما الواجب أن تُعطَى الأشياء حكمها الصحيح، وتبيّن حقائق الدين، ويحذِّر الناس من الشر ومن الأسباب الموصلة إليه دون أن يفترى على الله -تبارك وتعالى- أو أن يكتم الحق أو نحو هذا، وإنما تبيّن هذه الأشياء ليحذر المسلمون من الوقوع فيها.

ولكمال علم السلف -رضي الله عنهم- ولكمال فقههم ما كان يقع عندهم الجدل إطلاقاً، هل فلان يكفر أو لا يكفر؟، وإنما كانوا يحذرون من الوقوع في هذه الأشياء، فلما قلَّ العلم وبعُد زمان الناس عن شمس النبوة تركوا كثيراً من العمل، وصار جُلُّ اشتغالهم هل فلان يكفر أو لا يكفر؟.

وهكذا للأسف الشديد تجد الإنسان الناشئ في طلب العلم ربما حمل دفتراً يدور به على فلان وفلان، ففلان كذا وفلان كذا، ولا شأن له بذلك أصلاً، ولهذا أنا أقول دائماً: إن هذه المسائل إذا رُجع فيها إلى غير العلماء حصل في الأرض فساد كبير، ولذلك فإن طالب العلم ينبغي أن يبدأ بمبادئ العلم ويعرف أصوله، ويجعل هذه المسائل من آخر ما يدرس لا من أول ما يدرس؛ لأن طالب العلم إذا بدأ بهذه المسائل وهو لا يفقه مبادئ العلوم فإن هذا خطأ وخطير ويؤدي به إلى شر كثير، فمثل هذه الأمور يجب التفطن لها، فضلاً عن الذين يقومون بممارسات بناء على أحكامهم فيحصل بسبب ذلك ما لا يخفى مما لا تحمد عواقبه، وينبغي أن نعتبر بما يجري حولنا في أرض الله -عز وجل- فقبل عشرات السنين حصل في بعض البلاد أن يأتيك من يجتهد ويحكم بهذه القضايا ويفتي فيها ولا يقف عند حد حتى ظهرت طوائف التكفير والهجرة، فأقرب مثال لمنهج الخوارج في العصر الحديث هم أهل التكفير والهجرة، ومثل هؤلاء ومن قاربهم ومن داناهم ومن شاكلهم استحلوا الدماء والأموال ثم بعد ذلك إذا ابتلي الواحد منهم بهذا سرعان ما ينقلب إلى الجهة الأخرى تماماً، فالمقصود أن الأصل في مثل هذه القضايا أن يرجع فيها إلى العلماء وأن لا يتكلم فيها الجهال، وأن لا يكون اشتغال طلاب العلم بمسائل التكفير وإنما يكون اشتغالهم بمبادئ العلم، وإتقان أصوله وفهمه والتفقه فيه، ثم بعد ذلك يدرسون المسائل الدقيقة لا أن يُبدأ بدراسة المسائل الدقيقة في أول الأمر.

وعودة إلى مسألتنا نقول: إن الذي يحكم بغير ما أنزل الله والذي يبدل شرائع الإسلام عمله هذا كفر مخرج من الملة لكن ليس معنى ذلك أن ينزل الحكم على المعين؛ لأن تنزيل الحكم على المعين والحكم بأن فلاناً عاصٍ أو فاسق أو كافر لا بد فيه من توفر الشروط وانتفاء الموانع، وشرح مسألة الشروط والموانع يطول، لكن الذي ينبغي أن يراعيه المسلم دائماً هو أن لا يكون شغله في دقائق العلم وهم لم يتقن أصوله، هذه قضية مهمة، والقضية الأخرى هي أن يفرق بين الحكم العام وبين تنزيل الحكم على المعين، كمن قال مثلاً: القرآن مخلوق فهو كافر، فكل علماء السلف قالوا هذا، ومع ذلك لم يكن اشتغالهم بهذا هل فلان يكفر أو فلان لا يكفر؟، وإنما يقولون هذا تحذيراً لئلا يقع الناس في مثل هذا الانحراف.

كما أن من الانحراف الذي يقع اليوم وللأسف اختلاط الأهواء مع الآراء وذلك بسبب الجهل فتجد بعض الناس ممن يعتقد كفر من حكم بغير شرع الله -عز وجل- تجده يرمي من خالفه في هذا بالإرجاء، وهذا غير صحيح، فهذه المسألة مختلف فيها بين أهل السنة، وإنما الذي يستحق أن يرمى بالإرجاء هو الذي يقول: مهما عمل الإنسان من عمل فإنه لا يكفر إلا أن يكون مستحلاً، فمن قال بهذا فهو مرجئ ومن هنا يلاحظ الفرق، لكن مسألة من ترك الصلاة فقد كفر، هذه مسألة مختلف فيها بين السلف هل هو كفر يخرج من الملة أو لا

يخرج؟، وأما مسألة الحكم بغير ما أنزل الله فهذه مسألة مختلف فيها هل هو كفر دون كفر أو كفر ينقل من الملة؟ ولذلك لا يقال لمن خالف في ذلك: إنه مرجئ، والقول بأنه يكفر لا يجوز أن يرمى بأنه قول الخوارج، ولذلك لا بد من الحذر من الهوى والبغي والجهل فإن الهوى والبغي والجهل يجعل الإنسان لا ينضبط في مواضع الاختلاف بحيث إذا خالفه غيره سارع إلى رميه بالبدعة أو نحو ذلك، والله المستعان.

قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [(٥٠) سورة المائدة] أي: يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(٥٠) سورة المائدة] أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أبغض الناس إلى الله -عز وجل- مبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه))[١]، وروى البخاري عن أبي اليمان -رضي الله تعالى عنه- بإسناده نحوه بزيادة[٢].

1 - أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧٧١) (ج ١٠ / ص ٣٠٨) وأصله في البخاري كما سيأتي.

2 - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب من طلب دم امرئ بغير حق (٦٤٨٨) (ج ٦ / ص ٢٥٢٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ* وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} [(٥١-٥٣) سورة المائدة].

ينهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} الآية[(٥١) سورة المائدة].

روى ابن أبي حاتم أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك، فعجب عمر وقال: إن هذا لحفيظ.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٥١) سورة المائدة] الموالاة بمعنى النصرة والموادة، ويقع ذلك بصور كثيرة جداً، يقع بالقلب بالميل إليهم وتقديمهم على المسلمين والفرح بظهورهم، وما أشبه ذلك من الأمور التي تدخل تحت هذا المعنى، ويكون أيضاً بالفعل بإعانتهم على المسلمين وبإيثار الإقامة بين أظهرهم على الإقامة بين أظهر المسلمين، وما شابه ذلك من الأمور الكثيرة المتفاوتة فالموالاة ليست على مرتبة واحدة، فمنها ما يكون معصية، ومنها ما يكون كفراً مخرجاً من الملة، ويختلف ذلك باختلاف الصور، وأيضاً يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يكون الفعل الواحد المعين يصدر من شخص فيكون كفراً مخرجاً من الملة، ويصدر من آخر فيكون معصية، ومثل هذه المسائل هي من المسائل الدقيقة الشائكة التي لو وقف الناس معها عند حد الحذر من الوقوع في هذا الأمر الذي توعد الله -عز وجل- عليه وتحذير الناس منه لحصل المقصود وأما أن يتحول الناس من هذا إلى الاشتغال بتطبيق ذلك على الناس فهذا أمر لا تحمد عواقبه خاصة إذا صدر ممن لا بصر له بالعلم، وكثير من الناس يبحثون في مثل هذه المسائل ويريدون أن يخرجوا فيها بحكم دقيق فصل وقاعدة عامة، وليس هناك قاعدة عامة إلا أن موالاة المشركين لا تجوز، أما متى تكون كفراً مخرجاً من الملة ومتى لا تكون؟ فهذا لو جاء أحد فيه بقاعدة لخالفه غيره؛ لأن الشارع ما جاء بمقاييس محددة تفصل ذلك، وإنما يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص وما أشبه ذلك، فالفعل الواحد يصدر من اثنين يكون كفراً من هذا ولا يكون كفراً من هذا، ومن

أوضح الأدلة في هذه المسألة حديث حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- فالذي فعله هو موالاة للمشركين، حيث كتب إليهم بما عزم عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المسير إليهم ومع ذلك لم يكفر، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر: ((ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم))[١] فاحتسب له عمله في بدر ولو أنه كفر لحبط عمله، ولكن هذه الصورة أو هذا المثال لا يدل على أن من فعل ما فعل لا يخشى على دينه وإيمانه.

وقد جاء في بعض الروايات عن حاطب -رضي الله تعالى عنه- أنه ذكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- في جملة ما اعتذر به أنه عالم أن الله ناصر نبيه وأن هذا لا ينتفع به المشركون وإنما يريد أن يتخذ به يداً عندهم فقط، أي أنه يتخذ شيئاً يستفيده هو دون أن يتضرر المسلمون، وعلى كل حال الأمثلة كثيرة جداً في هذا وفي غيره وهي تدل على أن الفعل الواحد يختلف حكمه بحسب الحال وبحسب من صدر منه وما يقوم بقلبه وما إلى ذلك من الأمور التي تحتف به، ولهذا لا نستطيع أن نقول: إن موالاة المشركين إن كانت متعلقة بأمر يقوم بقلب العبد وهو محبة دينهم مثلاً فهذا هو الكفر المخرج من الملة وإلا فلا يكون مخرجاً من الملة، فهذا ليس صحيحاً إطلاقاً، ومن قال: إن موالاة المشركين بإطلاق كفر يخرج من الملة، فهذا أيضاً غير صحيح؛ فالأدلة ترده ومنها حديث حاطب هذا، ومن ذلك قصة أبي لبابة بن عبد المنذر رسولِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قصة بني قريظة لما قالوا له: ننزل على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: نعم، ثم أشار بيده إلى حلقه يعني الذبح، ثم قال بعد ذلك: إن قدمه ما زالت في مكانه الذي وقف فيه حتى أدرك أنه خان الله ورسوله، ومع ذلك لم يكفر بهذا الفعل، فلذلك لا يقال: إن كل ما يقع من موالاة تكون كفراً مخرجاً من الملة، ولا يقال أيضاً: إنه لا يكون كفراً إلا إذا كان لمحبة دينهم لكنه متفاوت فمنه ما يكون من كبائر الذنوب ومنه ما يكون دون هذا ومنه ما يكون مخرجاً من الملة، والواجب على الإنسان إذا سمع هذه النصوص أن يحذر من الوقوع في قليل هذا وكثيره، والعلماء -رحمهم الله- ذكروا من الموالاة أشياء، منها تبرية القلم وتعبئة الدواة له وما أشبه ذلك، فيبقى على الإنسان أن يحذر هذه الأمور ويتجنبها بجميع صورها.

وقوله تعالى: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} يحتمل معنيين، يحتمل أن اليهود يوالون النصارى، ويحتمل أن المراد أن النصارى يوالي بعضهم بعضاً وأن اليهود يوالي بعضهم بعضاً، ومستند صاحب هذا القول الأخير أن اليهود يكفرون النصارى والعكس، والعداوة بينهم معروفة، وقد أخبر الله -عز وجل- عن هذا فقال: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(٦٤) سورة المائدة] فقالوا: هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] يعني هذا مقسم عليهم، فاليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فقالوا: قوله: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٥١) سورة المائدة] مثل الآية الأخرى أي أن كل طائفة توالي قومها وأتباع دينها وما أشبه ذلك.

والذين قالوا: إن المراد أن اليهود يوالون النصارى، قالوا: إن بينهم عداوة كما أخبر الله -عز وجل- كما أن بين طوائف النصارى عداوة وبين طوائف اليهود عداوة، والقرآن أخبر عن هذا وقال عن اليهود: {تَحْسَبُهُمْ

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن (٢٩١٥) (ج ٣ / ص ١١٢٠) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- (٢٤٩٤) (ج ٤ / ص ١٩٤١).

{جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [(١٤) سورة الحشر] قيل: إن ذلك في اليهود والمنافقين، وقال الله -عز وجل-: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [(١٤) سورة الحشر] ومن المعاني التي ذكرت في قوله: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [(١٤) سورة الحشر] قيل: أي العداوة التي هي واقعة بينهم، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على هذا المعنى، وعلى كل حال لا شك أنهم يجتمعون على حرب الإسلام كما اجتمع أهل الأحزاب من المشركين ومن اليهود والمنافقين، وهم أيضاً يوالي بعضهم بعضاً كما هو معلوم، وإن وقع بينهم عداوة إلا أن الموالاة موجودة ولو لبعض طوائفهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [(١٢٠) سورة البقرة] وقال: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} [(٢١٧) سورة البقرة] فهم جميعاً يوالي بعضهم بعضاً كما يشهد به الواقع، والموالاة هي النصرة، فينصر بعضهم بعضاً إذا كان العدو هو الإسلام.

روى ابن أبي حاتم أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد.

قوله: "**أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد**" يعني أن يكتب ذلك في رقعة واحدة، فالكاتب أحصى له المخرجات والأشياء التي وردت، يعني الأشياء التي دفعت من بيت المال والأشياء التي وردت إليه، وهذا يسمى إحصاء ومحاسبة أو تقريراً عن المصارف والموارد المالية في تقرير واحد بكتاب واحد.

وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك، فعجب عمر وقال: "إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟" فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجُنُب هو؟، قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء} الآية [(٥١) سورة المائدة].

طبعاً كون اليهودي أو النصراني يعمل عند المسلم ليس هذا من الموالاة، لكن هذا حاله يختلف؛ فإنه يطلع على ما دخل وما خرج فهو يعرف هذه الأمور التي ينبغي أن لا يعرفها العدو فيطلع على عورات المسلمين، وما يحصل لهم من قوة اقتصادية أو من ضعف وما أشبه هذا، فلا يُتخذ كاتباً؛ لأنه سيكتب الأمور الخاصة والعامة، فكل ما يتعلق بأبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- فيما يختص بولايته يمر عن طريق هذا النصراني وذلك من أمور الحرب والسلم وليس فقط الاقتصاد والمال، فمثل هذا يكون قد قُرِّب واتُّخذ بطانة، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} [(١١٨) سورة آل عمران] أي لا تتخذوا بطانة من غيركم فإنهم لا يدخرون وسعاً فيما يضعفكم ويوهنكم ويفت في أعضادكم، وما أشبه ذلك، فالذي في قصة أبي موسى الأشعري من هذا الباب.

ثم روى عن عبد الله بن عتبة قال: ليتقِ أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء} الآية [(٥١) سورة المائدة].

ومن ذلك الذي يقدمهم على المسلمين ويتمنى نصرهم، ويرى أنهم رسل الحرية وأنهم أفضل من المسلمين فهذا يخشى عليه أن يكون يهودياً أو نصرانياً، والمرء يحشر مع من أحب، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أن من جامع المشرك وساكنه فهو مثله، فمثل هذه الأشياء تدل على أن هذا من أنواع الموالاة التي قد تجعله يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر.

وقوله تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي: شك وريب ونفاق {يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} [(٥٢) سورة المائدة].

المرض يطلق ويراد به النفاق -ويمكن أن يكون هو المراد هنا- كما جاء في بعض الروايات أن المراد بذلك عبد الله بن أبي، وهذا في رواية قد لا تصح، لكنْ كثير من أهل العلم ومنهم ابن جرير –رحمهم الله- يقولون: إنها نزلت في عبد الله بن أبي.

قوله: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} المرض يطلق على مرض النفاق كما قال الله -عز وجل-: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [(١٠) سورة البقرة]، ويطلق على ضعف الإيمان، وهو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [(١٢) سورة الأحزاب] فهذا العطف هنا إن كان من باب عطف الذوات الذي يقتضي المغايرة فيكون هذا للتنوع، فيكون الذين في قلوبهم مرض غير المنافقين -أعني في آية الأحزاب هذه- وبالتالي يكون المراد بالذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان، وبعض أهل العلم يقول: هذا كله من باب عطف الصفات والموصوف واحد، فهي من صفات المنافقين، أي أنهم منافقون وفي قلوبهم مرض، والمقصود أن مرض القلب إذا ذكر في القرآن فتارة يراد به ضعف الإيمان وتارة يراد به النفاق إلا في موضع واحد وهو قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [(٣٢) سورة الأحزاب] فهنا المراد به الذي فيه ميل محرم للنساء فالمرض هنا هو الميل المحرم للنساء، وأما المرض في قوله تعالى هنا: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ} [(٥٢) سورة المائدة] فيمكن أن يصدق على المنافقين وعلى ضعفاء الإيمان.

{يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} [(٥٢) سورة المائدة] أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر {يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ} أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أيادٍ عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} [(٥٢) سورة المائدة].

قوله: {نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ} [(٥٢) سورة المائدة] يمكن أن يصدق على معنى الدائرة ما ذكره هنا من أنه قد يحصل انتصار للكفار على المسلمين فيكون هذا الإنسان قد مهد لنفسه ووطأ لها مخرجاً يعتصم به ويلجأ إليه، ومما يدخل في الدائرة أيضاً أن يصيب الناس بلاء في، جائحة أو فقر أو أي مكروه –نسأل الله العافية- فيكون له من الرفد والمعتصم -في زعمه- يعني لا يقطع العلائق بالكفار ويتبرأ منهم وإنما يجعل له خطوط رجعة بحيث إذا حصل مكروه أو شيء يكون له أيادٍ عند هذا وهذا فينجو بها بزعمه.

عند ذلك قال الله تعالى: {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} [(٥٢) سورة المائدة] قال السدي: يعني فتح مكة.

قد عرفنا قبلُ أن "عسى" من الله واجبة، يعني أن ذلك متحقق الوقوع وأن أصلها للترجي في كلام المخلوقين، وإذا صدرت من الله -عز وجل- فهو علام الغيوب فالمراد بها التحقيق، ولهذا قالوا: "عسى" من الله واجبة، وعلى هذا يكون قوله: {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} [(٥٢) سورة المائدة] أي أمر فتح مكة، أو ظهور النبي -صلى الله عليه وسلم- على الكفار -سواء كانوا من كفار مكة أو من غيرهم- بالفتح والنصر والغلبة، والظهور على الكافرين من المشركين ومن اليهود والنصارى كما حصل بفتح قريظة والنضير وسائر اليهود كبني قينقاع، وهكذا ما حصل من الفتوح كفتح فارس والروم وما أشبه هذا، وهذا المعنى الثاني أحسن لأنه حملٌ للمعنى على العموم.

{أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} [(٥٢) سورة المائدة] **قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى.**

قوله: "**يعني ضرب الجزية**" هذا أحد المعاني الداخلة، والمعنى أنه يحصل انتصار للمسلمين أو يحصل أمر من عند الله -عز وجل- تندفع به صولة الكفار وتنطفئ نارهم ويحصل الظهور لدين الله -تبارك وتعالى- وتنتفي المخاوف.

وبعضهم يقول في قوله تعالى: {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} يعني كشف المنافقين وفضحهم وتعريتهم وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} أي ما يحصل من السعة والخصب وما أشبه ذلك من الأمور التي يستغنون بها عن الكفار، والحاصل أن الله -عز وجل- يقول: {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} [(٥٢) سورة المائدة] بالغلبة والنصر {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} بأي أمر يحصل به دحر الكافرين ومحقهم ودفع صولتهم وما أشبه ذلك، فالله -عز وجل- على كل شيء قدير.

{فَيُصْبِحُواْ} يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين {عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ} من الموالاة {نَادِمِينَ} [(٥٢) سورة المائدة] أي على ما كان منهم مما لم يُجْدِ عنهم شيئاً ولا دفَع عنهم محذوراً بل كان عين المفسدة فإنهم فُضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يُدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبيّن أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} [(٥٣) سورة المائدة].

هذه الجملة {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ} فيها ثلاث قراءات متواترة، قراءتان بالواو وقراءة بحذف الواو، فالقراءتان بالواو أولاهما بالرفع والثانية بالنصب –في اللام من قوله: {{وَيَقُولُ} وإحدى القراءات بحذف الواو والرفع، فعلى هذه الأخيرة يكون كلاماً مبتدأً هكذا: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [(٥٢) سورة المائدة] ثم ابتدأ كلاماً جديداً: {يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ} [(٥٣) سورة المائدة].

فعلى قراءة النصب يمكن أن يكون ذلك عطفاً على {فَيُصْبِحُواْ} هكذا {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} إلى أن قال: {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ..} [(٥٢) سورة المائدة] أي فإذا جاء النصر أو الأمر من عند الله -عز وجل- يحصل من جراء ذلك الندم فيصبحوا ويقولَ الذين آمنوا، هذا الاحتمال الأول.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَيَقُولَ} معطوف على {يَأْتِيَ} هكذا: فعسى الله أن يأتي بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، وبعضهم يقول: إنه معطوف على الفتح هكذا: فعسى الله أن يأتي بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، وعلى كل حال فالقول الأول لعله أقرب وأرجح، وهذا على قراءة النصب في (يقولَ) كما سبق أن ذكرنا، وأما بالنسبة لقراءة الرفع مع ثبوت الواو {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ} تكون الجملة استئنافية، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنو قينقاع، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبيّ بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ، قال: فأعرض عنه، قال: فأدخل يده في جيب درع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أرسلني)) وغضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى رأوا لوجهه ظللاً ثم قال: ((ويحك أرسلني)) قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هم لك))[٢].

قوله: "**أربعمائة حاسر** " الحاسر هو الذي ليس عليه لا درع ولا مغفر.

وقوله: "**منعوني من الأحمر والأسود**" هذا يقال للتعميم، يعني منعوني من جميع الناس أحمرهم وأسودهم، ويقال: بُعث النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الأحمر والأسود، يعني لجميع الخلق.

إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هم لك)) قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبو إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الرواية السابقة كما هو بين أنها من طريق ابن إسحاق، ومثل هذه الروايات تذكر في السير ليس لها إسناد، وقد يتساهل في الرواية فيما يتعلق بالسير بشروط، لكن حينما نقول: إن هذا هو سبب النزول فهذا لابد له من النظر في صحة الإسناد.

قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان أحدَ بني عوف بن الخزرج.

وعبد الله بن أبي هو من زعماء الخزرج، وقد كان الحلف بين الخزرج وبين النضير وبني قينقاع، وأما الأوس فكان حلفاؤهم قريظة، ولهذا لما صارت وقعة قريظة جاء الأوس إلى سعد بن معاذ -رضي الله عنه- يطوفون به وهو على حماره، ويقولون: الله الله في مواليك، ولقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية يتنافسون في المكارم، فيقولون: إن الخزرج أحسنوا إلى حلفائهم في قينقاع والنضير، وكانت وقعة النضير قبل وقعة قريظة حيث قيل: إنها كانت بعد وقعة أحد بأربعة أشهر، وقيل: بعد أُحد وبئر معونة، وأما وقعة قريظة فكما هو معروف أنها كانت بعد الأحزاب مباشرة حيث انطلق إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد عودته من الأحزاب، وبالنسبة لعبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- فهو من رهط عبد الله بن أبي من الخزرج وقد تبرأ من حلفه هذا وإن كانت هذه الرواية هنا لا تصح.

له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أُبي فخلعهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله

---

[2] - رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع ومن طريقه الطبري في التاريخ والبيهقي في الدلائل، والخبر مشهور في كتب السيرة.

والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ} [(٥١) سورة المائدة] إلى قوله: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٦) سورة المائدة].

قال سبحانه: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٦) سورة المائدة] ولم يقل: فإنهم الغالبون؛ وهذا إظهار في موضع الإضمار، والإظهار في موضع الإضمار يكون لعلل وأغراض شتى في البلاغة كما هو معروف.

وهنا كما نذكر مراراً أنه قد يذكر حكماً خاصاً ثم يأتي بالحكم العام؛ ليشمل كل ما ينطبق عليه ذلك الحكم العام فهنا قال: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٦) سورة المائدة] وحزب الله هم أتباع دينه وأنصار رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

والحزب أصله في لغة العرب الجماعة من الناس كما قال بعضهم، وبعضهم يقول: هم جماعة فيها غِلَظ يعني شدّة، بمعنى أنه يتحزب بعضهم لبعض ويرتبط بعضهم ببعض فيكون ذلك مقوياً لأمرهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٤-٥٦) سورة المائدة].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من خير لها منه وأشدَّ منعة وأقومَ سبيلاً كما قال تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [(٣٨) سورة محمد] وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ} [(١٩-٢٠) سورة إبراهيم] أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى هاهنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ} [(٥٤) سورة المائدة] أي: يرجع عن الحق إلى الباطل، وهذا خطاب عام إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٤) سورة المائدة] هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [(٢٩) سورة الفتح] وفي صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه الضحوك القتّال، فهو ضحوك لأوليائه قتّال لأعدائه.

وقوله -عز وجل-: {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [(٥٤) سورة المائدة] أي: لا يردهم عن ما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك رادٌّ ولا يصدهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: "أمرني خليلي -صلى الله عليه وسلم- بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرَتْ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني

أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش"[٣].

فيما يتعلق بالنظر إلى من دونه فالمراد به في أمور الدنيا خاصة، وأما في معالي الأمور وفي طاعة الله -عز وجل- فإنه لا ينظر إلى من دونه فيقول مثلاً: أنا أحسن من غيري فأنا على الأقل أصلي في المسجد، فهذا لا يجوز وإنما ينظر إلى من دونه في أمور الدنيا فهذا حري به أن يعرف قدر نعمة الله -عز وجل- عليه.

وثبت في الصحيح: ((ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)) قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: ((يتحمل من البلاء ما لا يطيق))[٤].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هذه الرواية: **((ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه))** بعد قوله تعالى: **{وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}** [(٥٤) سورة المائدة] وبعد حديث أبي ذر الذي فيه: "أن أقول الحق ولو كان مراً" وهذا في غاية المناسبة فهذا الأمر وإن كان ليس له علاقة بتفسير الآية إلا أنه يُحتاج إليه؛ فالإنسان يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، لكن ينبغي أن يكون ذلك بمراعاة هذا المعنى، فالمؤمن ليس له أن يُذِلَّ نفسه بأن يُعَرِّض نفسه لما لا يطيق من البلاء، فمن الناس من قد يقوم ويتكلم أو يخطب خطبة ثم يحصل له بعد ذلك بلاء أو أذى يؤدي به إلى أن ينكسر.

وقد يقوم إنسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم بعد ذلك يُؤذَى فينكسر، فعلى الإنسان أن يتحمل من الأعمال ما يطيق، ومعنى ما يطيق أي ما يطيقه في لحظته هذه وما يطيق تبعته، ولذلك فإنه يسقط عنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله -عز وجل- إذا كان يلحقه من جراء ذلك ما يعذر بمثله، فلا يكون فرض عين عليه لو كان فرض عين، أعني أنه في بعض الصور وفي بعض الحالات -وهذا أمر ينبغي أن يكون على بال الإنسان- تجد كثيراً من الناس يدخل في أشياء ثم بعد ذلك يحصل له من الذل ما لا يقادر قدره ويصدر منه من التصرفات ما كان في غنىً عنه في أول الأمر، فهو لم يكن بحاجة إلى أن يدخل في هذا كله أصلاً، فالمؤمن لا يذل نفسه بهذا الاعتبار، فإن كان الشيء في طوقه فهذا مطلوب، وأما إن كان يعجز عنه إما حقيقة أو حكماً فإن ذلك يسقطه عنه ولا يكون مطالباً به، والله أعلم.

{ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء} [(٥٤) سورة المائدة] أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له، {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي: واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} [(٥٥) سورة المائدة] أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

---

[3] - أخرجه أحمد (٢١٤٥٣) (ج ٥ / ص ١٥٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢١٦٦).

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن – باب ٦٧ (٢٢٥٤) (ج ٤ / ص ٥٢٢) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٦) (ج ١ / ص ١٣٣٢) وأحمد (٢٣٤٩١) (ج ٥ / ص ٤٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٩٧).

وقوله: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقامِ الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين والمساكين.

وأما قوله: {وَهُمْ رَاكِعُونَ} فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} أي: في حال ركوعهم.

يعني أنهم توهموا أن المعنى أنه يؤتي الزكاة وهو راكع، ويذكرون في هذا أثراً عن علي -رضي الله تعالى عنه- أنه تصدق بخاتمه وهو راكع -وهذا لا يصح- ويقولون: إن المراد بقوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} [(٥٥) سورة المائدة] يعني علياً -رضي الله عنه- وهذا غير صحيح، فهو من جملة أولياء الله -تبارك وتعالى- ومن خيار المؤمنين لكن الآية لا تختص به وإنما هي صادقة عليه وعلى كل من ينطبق عليه هذا الوصف.

وأما قوله: {وَهُمْ رَاكِعُونَ} فليس المراد بذلك أنهم في حال الركوع يتصدقون، وإنما يحتمل معنىً آخر أو معاني أخرى، منها أن يكون معنى {وَهُمْ رَاكِعُونَ} أي هم في جملة الرُّكَّع -يعني في جملة المصلين- فهم يؤتون الزكاة ويصلون، حيث يقرن الله -عز وجل- كثيراً بين الصلاة والزكاة، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٤٣) سورة البقرة] فيكون هذا من هذا القبيل {وَهُمْ رَاكِعُونَ} [(٥٥) سورة المائدة] أي في جملة المصلين.

ويمكن أن يكون المراد بالركوع معنىً آخر هو الخضوع والتواضع والخشوع وما أشبه ذلك، سواء ربط بما قبله من قوله: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} بمعنى أنه يؤتيها ولا يكون بهذا العمل كأنه يترفع أو يمتن به على ربه -تبارك وتعالى- أي كأنه يقول: أنا قدمت شيئاً، وإنما المؤمن هو الذي يؤدي العبادة وحاله كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [(٦٠) سورة المؤمنون] فهو يخاف أن لا يقبل منه ذلك العمل، وعلى هذا إذا فسر الركوع بغير المعنى المتبادر يكون قوله: {وَهُمْ رَاكِعُونَ} [(٥٥) سورة المائدة] معناه الخضوع والخشوع والاستكانة لله -تبارك وتعالى-.

ويمكن أن يقال: إن قوله: {وَهُمْ رَاكِعُونَ} [(٥٥) سورة المائدة] لا يختص بقوله: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} وهي الجملة الأخيرة وإنما يختص بكل ما قبله أي يقيمون الصلاة يؤتون الزكاة وهم راكعون، بمعنى أنهم يفعلون ذلك جميعاً -يصلون ويتعبدون لله -عز وجل- ويزكون- وهم في غاية الخشوع والخضوع لله -عز وجل-.

ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، فالمعنى {وَهُمْ رَاكِعُونَ} [(٥٥) سورة المائدة] أي: يحضرون في صلواتهم الفريضة في مساجد الله لأداء صلواتهم مع الجماعة، وينفقون صدقاتهم في مصالح المسلمين.

وقد تقدم أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٦) سورة المائدة] كما قال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ* لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٢١-٢٢) سورة المجادلة] فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [(٥٦) سورة المائدة].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [(٥٧-٥٨) سورة المائدة].

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

وقوله تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ} "مِن" هاهنا لبيان الجنس كقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [(٣٠) سورة الحـــج].

وقرأ بعضهم: (والكفارِ) بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول {لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} تقديره ولا الكفار أولياء، أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار هاهنا المشركون، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فيما رواه ابن جرير: (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا).

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء} [(٥٧) سورة المائدة]..الخ، هؤلاء الذين ذكر الله صفتهم لا يختص النهي عن الموالاة بهم، وإنما لا يجوز موالاة المشركين بجميع طوائفهم ولو كان الواحد منهم لا يتخذ آيات الله هزواً، ولو كان لا يستهزئ بالمسلمين، ولو كان كفره من قبيل كفر الإعراض ولم يحصل منه شيء من الاستهزاء بآيات الله -عز وجل- ودينه ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، فالمقصود أن العداوة مع المشركين ليست لمجرد أنهم يتخذون آيات الله هزواً، أو لأنهم يقاتلوننا أو نحو ذلك وإنما لكفرهم، فهذا أصل كبير، إن جمعوا معه الاستهزاء فهذا أشد، وإن جمعوا معه القتال فكذلك، ولذلك لا يجوز لأحد أن يقول: إن العداوة إنما تكون للذين قاتلونا في الدين أبداً، وإنما للمشركين بجميع طوائفهم من أهل الكتاب وغيرهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [(٨) سورة الممتحنة] بمعنى الإفضاء فهذا في البر والإحسان والمعاملة والمخالطة؛ لأن قوله: {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} مضمَّن معنى الإفضاء، لذلك عُدِّي بـــ"إلى" فهذا في المعاملة وفي الإحسان والبر

وما أشبهه وليس في الموالاة، ولذلك فإن هؤلاء لا يجوز موالاتهم ولو لم يقاتلونا في الدين، فهذا أصل كبير ينبغي أن يكون على بال المسلم دائماً، وهو أن الكافر لا يجوز موالاته، مهما كان حاله.

وهنا قد يقول قائل: إن كل كافر متخذ لآيات الله هزواً، نقول: إن فهمت هذا أو فهمت أن كفر الكافر من قبيل كفر الإعراض أحياناً بحيث لم يتخذ آيات الله هزواً فإنه لا يجوز موالاته، لكن الآيات قد تنزل لسبب ويذكر معه قيد كقوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٨) سورة آل عمران] فهذا القيد {مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} قيد نزل لموافقة واقع معين، وذلك أنه حصل من بعض المؤمنين أن تولوا بعض الكافرين ضد بعض المؤمنين، فهذا لا يجوز، فنزلت الآيات بناء على ذلك، ومثل ذلك قوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [(٣٣) سورة النـــــور]، فلا يجوز أن تمكن من البغاء أصلاً، إذا أرادت تحصناً أو لم ترد، ولكن الآية نزلت موافقة لواقع حصل، فذكر هذا القيد، وبناء عليه لا يكون له مفهوم مخالفة، فهنا: {لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا} [(٥٧) سورة المائدة] فإن لم يتخذه هزواً ولعباً بأن كان ذلك الشخص كافراً لم يتخذ ديننا هزواً هل يجوز أن نواليه؟ الجواب: لا يجوز موالاته بحال من الأحوال، فلو أنه حصل من الكفار استهزاء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فجمعوا كفراً إلى كفرهم وغيرهم أنكروا هذا وقالوا: هذا لا يصح ولا يسوغ بحال من الأحوال فلم يحصل منهم هذا الاستهزاء لكنهم لم يؤمنوا به –عليه الصلاة والسلام- فهل معنى ذلك أن نتخذهم أولياء؟ الجواب: لا يجوز أن يُتخذوا أولياء.

وهنا في قوله: {مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء} [(٥٧) سورة المائدة] في قراءة الجر حيث قرأ بعضهم (والكفارِ) بالخفض عطفاً، على هذا يكون هكذا {لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} [(٥٧) سورة المائدة] فالذين أوتوا الكتاب هنا في محل جر بـــ"من" يعني من الذين أوتوا الكتاب ومن الكفار، يعني لا تتخذوا المستهزئين من الكتابيين والكافرين أولياء.

وعلى النصب {لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ} [(٥٧) سورة المائدة] يكون منصوباً على أنه مفعولٌ، وقرأ بعضٌ آخرون بالنصب على أنه معمول لقوله: {لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ} يعني لا تتخذوا أهل الكتاب والكفار أولياء، والولاية عرفنا أنها بمعنى النصرة.

وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٥٧) سورة المائدة] أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران].

وقوله: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا} [(٥٨) سورة المائدة] أي: وكذلك إذا أذَّنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب اتخذوها أيضاً هزواً ولعبا؛ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان ((أدبر وله حُصَاص -أي ضراط- حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب للصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل

حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام)) [متفق عليه][1].

وقال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [(٥٨) سورة المائدة] [رواه ابن أبي حاتم].

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ* قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ* وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ* وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(٥٩-٦٣) سورة المائدة].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: {هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ} **أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟، وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى:** {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [(٨) سورة البروج] **وكقوله:** {وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ} [(٧٤) سورة التوبة] **وفي الحديث المتفق عليه:** ((ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله))[2].

هذا الحديث معروف وذلك أنهم ذكروا له ثلاثة لم يدفعوا الزكاة فقال –عليه الصلاة والسلام-: ((ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدراعه وأعْتُدَهُ في سبيل الله، وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهي عليه صدقة ومثلها معها))[3].

وقوله: ((**ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله**)) يعني ما يغضب ابن جميل على طالب الصدقة إلا كفران هذه النعمة وهي أنه كان فقيراً فأغناه الله، وهكذا قال ما قال في خالد، وأما العباس فتحملها هو عنه.

وقوله: {وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [(٥٩) سورة المائدة] **معطوف على** {أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ} [(٥٩) سورة المائدة] **أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون أي: خارجون عن الطريق المستقيم.**

قوله: "**وآمنا بأن أكثركم فاسقون**" هذا المعنى تحتمله الآية، ويحتمل أيضاً أن يكون معطوفاً على {آمَنَّا} أي ما تنقمون إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان، أو وما تنقمون منا إلا لأن آمنا ولأنَّ أكثركم فاسقون، وقد يكون معطوفاً على علة محذوفة، أي لقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون، يعني أن الذي جعلكم تنقمون هو قلة الإنصاف وأن أكثركم فاسقون لكن الأصل عدم التقدير، أو تكون الواو في قوله: {وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [(٥٩) سورة المائدة] بمعنى مع، يعني وما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأذان - باب فضل التأذين (٥٨٣) (ج ١ / ص ٢٢٠) ومسلم في كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٩) (ج ١ / ص ٢٩١).

[2] - سيأتي تخريجه.

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة - باب قول الله تعالى: {وفي الرقاب...وفي سبيل الله} (١٣٩٩) (ج ٢ / ص ٥٣٤) ومسلم في كتاب الزكاة - باب في تقديم الزكاة ومنعها (٩٨٣) (ج ٢ / ص ٦٧٦).

من قبل مع أن أكثركم فاسقون، ويمكن أن يكون منصوباً بفعل محذوف، أي ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، يعني ما تعيبوننا إلا بما لا يوجب العيب وذلك أننا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل، ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون.

ثم قال: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ} [(٦٠) سورة المائدة] **أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟.**

المثوبة أي الجزاء الثابت، وقد يكون الأصل فيها من الثواب بحيث تطلق في جانب الخير، تقول: أثابه بكذا، وقد تستعمل في العقاب، كما يقال في البشرى على القول المشهور بأن البشارة إنما تكون فيما يحبه الإنسان، -في الخير- وقد تستعمل في غيره من باب التهكم، هكذا قال بعضهم، وإن كان من أهل العلم من يقول بخلاف هذا، لكن على كل حال من المسلّم به أن الثواب والبشارة وما أشبه ذلك غالباً ما تستعمل في جانب الخير وإلا فقد قال الله -عز وجل- عن الكافرين بآيات الله: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢١) سورة آل عمران] وهكذا الأمر في التحية فهي مما يقال عند أول اللقاء كالسلام وقولهم: حياك الله، فهذا أصلها وقد تستعمل في غير ذلك، أي قد تستعمل هذه مكان هذه كما قال القائل:

وخيـل قـد دلفـت لهـا بخيـل تحيـة بيـنهم ضـرب وجيـع

أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟، وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: {مَن لَّعَنَهُ اللّهُ} أي: أبعده من رحمته {وَغَضِبَ عَلَيْهِ} أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ} كما تقدم بيانه في سورة البقرة وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف.

قردة مثل أصحاب القرية الذين يعدون في السبت، الذين قال الله تعالى عنهم: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] كما مسخ الله -عز وجل- بعضهم خنازير، وقد قيل: إن أولئك من الكفار من أصحاب المائدة الذين توعدهم الله بقوله: {فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [(١١٥) سورة المائدة]، فمن كفر منهم بعد نزول المائدة التي طلبوها قيل: إنهم مسخوا إلى خنازير، وعلى كل حال سواء كان هؤلاء أو غير هؤلاء فالله -تبارك وتعالى- مسخ من أهل الكتاب قردة وخنازير، وهي أقبح الحيوانات فأكثر الحيوانات دناءة القرد والخنزير، فالله مسخهم إلى قردة وخنازير مسخاً حقيقياً لا مرية فيه، وهذا رد من الردود القرآنية على أهل الكتاب مما يحتاجه المسلمون اليوم لكثرة استهزاء أهل الكتاب بهذا الدين وبأهل الدين ورميهم بالأوصاف القبيحة فهم يطعنون في الإسلام، ويرمون أهله بأسوأ الأوصاف، فالمفترض بدلاً من أن نجاريهم فيما يطلقون وملئوا به الفضاء من بعض العبارات والكلمات التي ما فتئوا يرددونها، وينسبون الإسلام إليها، بدلاً من أن نرددها جهلاً معهم، فالمفترض أن نقول لهم: {هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ* قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} [(٥٩-٦٠) سورة المائدة] أي أنتم أسوأ وأنتم الذين تستحقون كل وصف ذميم يا إخوان القردة والخنازير، هذا هو الذي يفترض أن يرد عليهم به لا أن يجاروا في طعونهم في ديننا.

وقد روى سفيان الثوري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟، فقال: ((إن الله لم يهلك قوماً أو لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك)) وقد رواه مسلم[٤].

لما وُضع الضب بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يأكل منه -عليه الصلاة والسلام- جعل -صلى الله عليه وسلم- يعد أصابع الضب بعود كان معه ووجد أن له خمسة أصابع فذكر -صلى الله عليه وسلم- أنه يخشى أن يكون هذا مما مسخ، وكذلك أيضاً ذكر الفأرة مرة وأن أمة من بني إسرائيل قد ذهبت لا يُدرى إلى أي شيء صارت، وذكر أنه يخشى أن تكون الفأرة، وكان قد ذكر من حالها أنها تقرب السمن ولا تقرب اللبن وحيث إن بني إسرائيل حرم عليهم ذلك، فالحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في أول الأمر يظن ذلك ثم أوحي إليه أن الله لم يجعل لمسخ نسلاً، فالجيل الذي يمسخ إلى قردة أو خنازير أو نحو ذلك لا يتوالدون وإنما ينتهون، فهذه القردة والخنازير التي نشاهدها الآن ليست من أولاد أولئك الذين قد مسخوا بل هي من الفصيلة الأصلية في القردة والخنازير، والله أعلم.

والمقصود أن الله تعالى في هذه الآيات ونحوها يشبههم بالقردة والخنازير وينهى المسلمين عن موالاتهم، ويذكر الأوصاف التي تنفر المسلمين منهم فقال: {اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا} [(٥٧) سورة المائدة] وقال: {هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [(١١٩) سورة آل عمران] وهناك آيات كثيرة في هذا الشأن فالقرآن مليء بهذه النصوص، واليوم يأتي من يكتب ويتكلم فيسميهم بالآخر ويقول: أنا والآخر، وتجد من يقول: لا يجوز لعنهم ولا الدعاء عليهم مع أن القرآن -كما هو واضح- يلعنهم لعناً متتابعاً، وينفر المسلمين من موالاتهم ويذكرهم بأقبح الأوصاف، واليوم تسمع من يقول: هذا الأسلوب يثير الكراهية والمفروض أن يكون هناك تعايش ومحبة وعدم إقصاء الآخر، فمشكلة هؤلاء مع القرآن، فهذا القرآن ناطق بهذه الأمور وهو مشتمل على كثير منها وهؤلاء ليس أمامهم إلا أن يكفروا بالقرآن ويتخلوا عنه ويقولون: هذا ما يصلح ويبحثون عن قرآن آخر أو يحذفون ما لا يقل عن ثلث القرآن ويبقون على الآيات التي تتكلم عن بر الوالدين وصلة الرحم، والآيات التي تتكلم عن حق الجار وحق القرابات والعفو والصفح، يكتفون بهذا والباقي يحذفونه، وأما نحن فنقول: هذه القضايا الحمد لله ثابتة مهما حصل فيها من التضليل؛ لأنها أصل كبير في القرآن ما يستطيعون أن ينفخوا على الشمس لإطفائها، وهذا إطفاء لنور الله، لن يستطيعوا إبطال هذه الحقائق الكبيرة التي في القرآن مهما فعلوا، فهذه لن تزول أبداً وستبقى وسيذهبون ويبقى الحق كما قال تعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [(١٧) سورة الرعد] لكن على المسلم أن لا يغتر بهذه الدعوات المضللة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} [(٦٠) سورة المائدة] أي: وجعل منهم من خدم الطاغوت، أي خُدَّامه وعبيده.

هذه فيها قراءات متواترة وغير متواترة، يعني مجموع القراءات التي فيها ربما تزيد عن العشر -المتواترة وغير المتواترة- لكن القراءات المتواترة {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} و(عَبُدَ الطاغوتِ) بضم الباء وفتح العين

---

٤ - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣١٢٩) (ج ٣ / ص ١٢٠٣) ومسلم في كتاب القدر - باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٢٦٦٣) (ج ٤ / ص ٢٠٥٠).

والإضافة، وهذه هي قراءة حمزة، وقرأ ابن عباس (عُبُد) وعلى كل حال العُبُد: جمع عبد، يجمع على أعبد وعبيد وعُبُد وعُبْدَان، إلى غير ذلك من الصيغ التي يجمع فيها.

لكم يا أهل الكتاب من الطاعنين في ديننا والذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وُجد منك جميع ما ذكر؟، ولهذا قال: {أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً} أي مما تظنون بنا {وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [(٦٠) سورة المائدة] وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله -عز وجل-: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [(٢٤) سورة الفرقان].

لأنه كما هو معروف أن أفعل التفضيل الأصل فيه أنه في اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما، تقول: فلان أكرم من فلان أي أنهما اشتركا في الكرم، لكن قوله: {وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} هنا أفعل التفضيل ليس على بابه وإنما المقصود مطلق الاتصاف، أي تحقيق هذا الوصف فيه، وإلا ففي الضلال لا مقارنة، إذ لا يمكن أن يقارن المسلمون مع أهل الكتاب، وإنما المسلمون على هدى وأهل الكتاب على ضلال.

وقوله تعالى: {وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ} [(٦١) سورة المائدة] وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: {وَقَد دَّخَلُواْ} أي عندك يا محمد، {بِالْكُفْرِ} أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال: {وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ} [(٦١) سورة المائدة] فخصهم به دون غيرهم.

يعني أن هذه في المنافقين من أهل الكتاب، حيث كانوا يأتون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقولون: آمنا وهم لم يؤمنوا حقيقة، وإنما هم دخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً.

وقوله تعالى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ} [(٦١) سورة المائدة] أي: والله عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم؛ فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

وقوله: {وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [(٦٢) سورة المائدة] أي: يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل.

{لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٦٢) سورة المائدة] أي: لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

في هذه الآية: {وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [(٦٢) سورة المائدة] ما الفرق بين الإثم والعدوان؟ أليس العدوان من الإثم؟

الإثم هو الذنب أياً كان، والعدوان نوع منه وهو الذنوب والآثام المتعدية، قال تعالى: {يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [(٦٢) سورة المائدة] ومعلوم أن السحت من الإثم، لكنه خص هذه الأشياء من الآثام؛ لأنها من أسوئها.

وأكل السحت يدخل فيه الرشى، ويدخل فيه الربا كما قال الله -عز وجل-: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [(١٦١) سورة النساء] فكل هذا من السحت، وكل محرم من المكاسب هو من السحت، والسحت أصله الإزالة.

وقوله تعالى: {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(٦٣) سورة المائدة] يعني هلَّا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك.

{لَوْلاَ} تأتي بمعنى التحضيض، بمعنى هلا، وتأتي بمعنى التبكيت، وتكون للتبكيت إذا كان لأمر قد فات لا يمكن استدراكه كما قال الله -عز وجل-: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [(١١٦) سورة هود] ومثل ذلك قوله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} [(٩٨) سورة يونس].

وتكون للتحضيض في الأمر الذي يمكن استدراكه كقوله تعالى: {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} [(٦٣) سورة المائدة] أي هلا ينهاهم الربانيون، فإذا كان يدخل فيها المخاطب أو الحاضر أو الموجود منهم فيكون ذلك بالنسبة إليه للتحضيض، وبالنسبة للذين مضوا وانقضوا وماتوا منهم هي للتبكيت، تقول للإنسان الذي تريد منه أن يستدرك التقصير مثلاً: لولا تركت السهر واستيقظت لصلاة الفجر، يعني هلا تركته واستيقظت لصلاة الفجر، وتقول لإنسان لا يمكن أن يستدرك ما فات كأن يكون قد رسب في الامتحان وتريد أن تبكته: لولا اجتهدت، وما أشبه هذه من العبارات التي تبكته.

والربانيون: هم العلماء العمَّال أرباب الولايات عليهم.

هكذا فسره وسبق الكلام عليها وقلنا: إن ابن جرير -رحمه الله- يرى أنها في العلماء المصلحين الذين يرجع إليهم الناس فيما نابهم، فالناس يرجعون إليهم فيما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم.

والربانيون من التربيب والتربية، فهم مربون، والأحبار هم العلماء، وبعضهم يجعل ذلك منقسماً على اليهود والنصارى.

والأحبار هم العلماء فقط {لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(٦٣) سورة المائدة] وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني الربانيين، أنهم بئس ما كانوا يصنعون، يعني في تركهم ذلك.

يقول الله تعالى: {وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٦٢) سورة المائدة] فسماه عملاً، ولما ذكر ترك الأحبار والرهبان لنهيهم عن هذا قال: {لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(٦٣) سورة المائدة] والصنع أدق وأخص من مطلق العمل والفعل، فهو نوع منه إلا أن الصنع عادة يكون بحذق وإتقان، فصار فعل هؤلاء الأحبار والرهبان -وهو ترك النهي عن المنكر- صنعاً، فهذا أشد، وذلك أن هؤلاء وقوع الإساءة منهم أقبح من وقوعها من غيرهم كما قيل: على قدر المقام يكون الملام، وهنا سمى تركهم للنهي عن المنكر صنعاً، وهذا مما يستدل به أهل العلم على أن الترك فعل من الأفعال، فيكون الفعل مشتملاً على أربعة أشياء هي قول اللسان وعمل القلب وفعل الجوارح والترك.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [(٦٣) سورة المائدة] قال: كذا قرأ.

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار،

فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرِّب أجلاً.

وروى الإمام أحمد عن جرير -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب)) تفرد به أحمد من هذا الوجه[٥].

ورواه أبو داود عن جرير -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا)) وقد رواه ابن ماجه[٦].

---

[5] - أخرجه أحمد (١٩٢٣٦) (ج ٤ / ص ٣٦٣) وقال الأرنؤوط: حديث حسن.

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب الأمر والنهى (٤٣٤١) (ج ٤ / ص ٢١٤) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩) (ج ٢ / ص ١٣٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٤٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ* وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ} [(٦٤-٦٦) سورة المائدة].

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- بأنهم وصفوا الله -عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً- بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بأن قالوا: {يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [(٦٤) سورة المائدة].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [(٦٤) سورة المائدة] قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ولكن يقولون: بخيل، يعني أمسك ما عنده -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً- وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي والضحاك وقرأ: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء] يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الإنفاق في غير محله، عبر عن البخل بقوله: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} [(٢٩) سورة الإسراء] وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود -عليهم لعائن الله-.

وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فِنْحاص اليهودي -عليه لعنة الله- وقد تقدم أنه الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، فضربه أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-.

وقد رد الله -عز وجل- عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ} وهكذا وقع لهم فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} الآية [(٥٣-٥٤) سورة النساء] وقال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ} الآية [(١١٢) سورة آل عمران].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الاستعمال والتعبير يعبر به أو يراد به البخل؛ لأن الذي غلت يده إلى عنقه -والغل يكون في العنق- فإنه لا يستطيع أن يبسطها للبذل العطاء، فهذا وجه الملازمة بين هذه العبارة وبين حقيقة الحال، ولذلك فإن

النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة مثّل حال البخيل ومثّل حال المنفق برجلين عليهما درعان قد جعلت أيديهما إلى ثديهما فكان المنفق إذا أراد اتسعت كل حلقة من هذا الدرع حتى صارت سابغة، فيمد يده بالعطاء، وأما البخيل فإذا أراد أن ينفق فإنها تضيق كل حلقة فلا يتمكن من البذل والجود والنفقة، وأبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: كأني أنظر إلى يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جيبه وهو يحركها، يعني يريد أن يبسطها.

فالحاصل أن قولهم: {يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [(٦٤) سورة المائدة] أي أنها لا تمتد بالعطاء، فهم لا يريدون أنها مغلولة حقيقة بمعنى أنها موثقة كما قال الحافظ –رحمه الله-، لكن وجه التعبير عن البخل بهذا هو أن من غلت يده إلى عنقه فإنه لا يتمكن من بسطها للبذل والعطاء، وهذا المثل يذكر عادة أو يحسن ذكره عندما يترجم القرآن ترجمة حرفية فهذا مثال من الأمثلة التي لا يستطيع أحد أن يترجمه حرفياً إلى لغة أخرى ثم ينقل المعنى المراد؛ لأنه لو نقل إلى لغة أخرى وقيل: لا تجعل يدك مربوطة إلى رقبتك، سيقولون: لماذا؟ هل يحرم على الإنسان أن يجعل يده مربوطة إلى رقبته؟ ولذلك إنما يترجم المعنى فيقال: أي لا تكن بخيلاً.

قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [(٦٤) سورة المائدة] ظاهره أنه دعاء عليهم، وهو الذي مشى عليه الحافظ بن كثير -رحمه الله- حيث قال: "**وهكذا وقع لهم فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى**..الخ" ويمكن أن يكون ذلك من قبيل الخبر أي أن الله عاقبهم بذلك.

وقوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} غُلَّت: فعل ماض، فيمكن أن يكون من قبيل الدعاء عليهم بالبخل وهو الظاهر المتبادر؛ لأنه استعمل نفس التعبير حيث قالوا: {يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [(٦٤) سورة المائدة] فقال: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} ومن أهل العلم من يرى أنه دعاء عليهم بالأسر إما في الدنيا وإما في الآخرة حيث يوثقون فتغل أيديهم كما قال الله -عز وجل-: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [(٧١-٧٢) سورة غافر] فعلى هذا يكون ذلك في الآخرة، أو يكون ذلك في الدنيا بالأسر؛ لأن الأسير تربط يداه إلى عنقه بالحديد ويربط هكذا، والظاهر المتبادر أنه من قبيل الدعاء عليهم بمثل ما قالوا، أي بالبخل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء} [(٦٤) سورة المائدة] أي: **بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال**: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [(٣٤) سورة إبراهيم] **والآيات في هذا كثيرة**.

هذه الآية: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [(٦٤) سورة المائدة] مما يسدل به أهل السنة على إثبات صفة اليد لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وممن احتج بها على ذلك ابن جرير -رحمه الله- فهو إمام في اللغة وإمام في التفسير، وقال: إنه لا يمكن أن يراد في كلام العرب باليد حينما تكون بالتثنية -كما هنا- أن يراد بها الملك أو النعمة أو القوة أو القدرة.

وعلى كل حال مثل صفة اليد إذا جمعت فيها النصوص الواردة –الآيات والأحاديث- فإنها تدل دلالة نصية -وهو النوع الثاني من دلالة النص عند الأصوليين- وهو أن تتوارد النصوص لتقرير معنىً بحيث لا يحتمل

سوى هذا المعنى؛ لأن دلالة النص منها ما يكون ذلك موجوداً في دليل بمفرده كقوله تعالى: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة]، وكقوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [(١٦٤) سورة النساء] وهذا الذي يقول أكثر الأصوليين بأنه نادر، والواقع أن هناك نوعاً آخر من النص وهو أن تتوارد النصوص على تقرير معنىً بمجموعها لا يمكن أن يراد بها غير هذا المعنى، فاليد مثلاً ذكرها مفردة في قوله: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [(١٠) سورة الفتح] وذكرها مثناه في قوله هنا: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [(٦٤) سورة المائدة] وذكرها مجموعة في قوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [(٧١) سورة يـــس] وذكر أيضاً الأصابع كما في حديث الحبر اليهودي الذي في الصحيحين ولفظه عند الترمذي قال: "كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه والأرض على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه" وأشار أبو جعفر محمد بن الصلت بخنصره أولاً ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [(٦٧) سورة الزمر][1].

وكذلك ذكر الكف والأنامل في الرؤيا التي رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- في اختصام الملأ الأعلى[2]، وذكر القبض والطي فقال –عليه الصلاة والسلام-: ((يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه))[3] وذكر أنه يقبض بيده الأخرى[4]، وفي رواية في صحيح مسلم: ((ثم يطوي الأرضين بشماله))[5] وفي الحديث الآخر: ((وكلتا يديه يمين))[6] ويهزهن كما في حديث ابن عمر[7] إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي لا يمكن أن يكون المراد بها غير اليد التي هي صفة حقيقية تليق بجلال الله وعظمته ولا تشبه صفات المخلوقين.

والذين أولوا اليد بالقوة أو القدرة، يقال لهم: أنتم تَبَادر إلى أذهانكم معنىً سيئ وهو أن ذلك يشبه صفات المخلوقين فشبهتم ثم بعد ذلك حرفتم وأولتم، وقلتم: إن اليد ليس المراد بها الظاهر المتبادر، وإنما المراد بها معنىً آخر هو القوة أو النعمة أو الملك، أو نحو ذلك من المعاني التي تذكرونها.

ونقول لهم: إن المخلوق يوصف بكل هذه الأمور التي أولتم المعنى إليها، فالمخلوق يوصف بالقوة ويوصف بالقدرة والنعمة والملك، وما إلى ذلك، كما قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ} [(٤٣) سورة يوسف]

---

1 - أخرجه الترمذي بهذا اللفظ في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الزمـــر (٣٢٤٠) (ج ٥ / ص ٣٧١) وهو بلفظ مقارب في صحيح البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [(٧٥) سورة ص] (٦٩٧٩) (ج ٦ / ص ٢٦٩٧) وفي صحيح مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦) (ج ٤ / ص ٢١٤٧).

2 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣٢٣٥) (ج ٥ / ص ٣٦٨) وأحمد (٢٢١٦٢) (ج ٥ / ص ٢٤٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٦٩).

3 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الزمر (٤٥٣٤) (ج ٤ / ص ١٨١٢) ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧) (ج ٤ / ص ٢١٤٨).

4 - صحيح البخاري في كتاب التوحيد – باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء} [(٧) سورة هود] {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [(١٢٩) سورة التوبـــة] (٦٩٨٣) (ج ١ / ص ٢٦٩٩) ومسلم في كتاب الزكاة - باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣) (ج ٢ / ص ٦٩٠).

5 - أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨) (ج ٤ / ص ٢١٤٨).

6 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٧) (ج ٣ / ص ١٤٥٨).

7 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب كلام الرب عز و جل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٠٧٥) (ج ٦ / ص ٢٧٢٩) ومسلم فـــي كتـــاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦) (ج ٤ / ٢١٤٧).

وقال عن عفريت سليمان -عليه السلام-: {وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ} [(٣٩) سورة النمل] وعن ابنة شعيب أنها قالت لأبيها: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ} [(٢٦) سورة القصص] وقال كذلك عن النعمة: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ} [(٣٧) سورة الأحزاب] فكل هذا مما يوصف به المخلوق، فإذا قلنا لهم: إن المخلوق يوصف بهذه الأشياء فإنهم يقولون: إن ذلك يوصف به الله على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، فنقول لهم: وكذلك هنا نثبت له صفة اليد على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، وهذا هو الذي عليه أئمة السنة سلفاً وخلفاً، وخالف في ذلك أهل البدع.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سَحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه)) قال: ((وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض يرفع ويخفض)) وقال: ((يقول الله تعالى: أَنفق أُنفق عليك)) [أخرجاه في الصحيحين][8].

وقوله تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [(٦٤) سورة المائدة] أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك {طُغْيَانًا} وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء {وَكُفْرًا} أي تكذيباً.

هذا كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة] فهذا الوحي الذي أنزله الله -عز وجل- كما وصفه -عز وجل- بأنه نور ينير القلوب المظلمة ويكشف الشبهات، وهو هدى يهدي الله -عز وجل- به الخلق إلى ما يصلحهم وينفعهم ويرفعهم، ولا يمنع ذلك أن يكون الموصوف بهذه الصفة لا يلقى محلاً قابلاً فيحصل عكس ذلك في قلوب متعفنة، مثل الدواء النافع والطعام والغذاء الجيد فإنه يُنتفع به غاية الانتفاع ولكنه حينما لا يلقى المحل القابل فإنه يكون ضرراً على مثل هذا الذي وقع له، وهكذا الروائح الجيدة يحصل بها الانشراح للصدر كما هو معروف ولكنها قد لا تلقى المحل القابل فيحصل عكس ذلك لدى من اعتلت نفوسهم، وهكذا الوحي -نسأل الله العافية- وهذا أعظم ما يكون من اختلال المزاج وفساد الفطر.

كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [(٤٤) سورة فصلت] وقال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء].

وقوله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(٦٤) سورة المائدة] يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائماً؛ لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك.

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء} [(٧) سورة هود] {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [(١٢٩) سورة التوبة] (٦٩٨٣) (ج ١ / ص ٢٦٩٩) ومسلم في كتاب الزكاة - باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣) (ج ٢ / ص ٦٩٠).

هذا وما بعده من قوله: {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ} [(٦٤) سورة المائدة] يحتمل أن يكون المراد به اليهود والنصارى.

وقوله: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ} يعني أنه يعادي بعضهم بعضاً، ولا يمنع هذا أنهم يجتمعون على حرب المسلمين، ويحتمل معنىً آخر وهو أن المراد بذلك اليهود، أي اليهودي يعادي اليهودي فهم فرق وطوائف متناحرة، يملأ قلوبهم الحسد، وذلك أن اليهود موطن الغل والحسد والجشع وكل خلق دنيء سيئ، ولذلك لا يكاد يجتمع الاثنان منهم، بل الواحد ربما يتعادى مع نفسه، فإذا كان قد وجد في أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- العداوة والبغضاء والافتراق بين طوائفها ودب ذلك بينهم منذ أزمان متطاولة، ولا يزال الشيطان يحرش بينهم فلا يكاد يلتئم أناس على عمل من الأعمال الطيبة الصالحة إلا وبدأ الشيطان ينخر فيهم حتى يفرق جمعهم ويشتت عملهم، فكيف باليهود، أو اليهود والنصارى؟ ولذلك قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [(١٤) سورة الحشر] فعلى أحد المعاني أنها في اليهود، وإن كان الظاهر المتبادر أن السياق كله في المنافقين، ولهذا قال بعض أهل العلم: هي في المنافقين، وبعضهم قال: في المنافقين واليهود في الحِلف الذي حصل بين عبد الله بن أبي ويهود النضير، ومنهم من قال: إن المقصود بها اليهود، فعلى كل حال لاشك أن قوله: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [(١٤) سورة الحشر] مما قد تحقق من الصفات في اليهود، وكذلك هم في هذا الحِلف البائس مع المنافقين إنما هو شيء وقتي لحرب المسلمين، وكذلك حال المنافقين، فيملؤهم الحرص على ذواتهم والهلع فالمنافق أهم شيء عنده ما يسمى بتحقيق الذات من ناحية الأكل والشرب ونحو ذلك كما تحقق البهيمة ذاتها، لكن من الناحية المعنوية بحيث يكون صاحب مبدأ فهذا أبعد ما يكون عن المنافق.

وقوله: {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ} [(٦٤) سورة المائدة] أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله وردَّ كيدهم عليهم، وحاق مكرهم السيئ بهم.

قوله: {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ} إما أنهم هم يريدون الحرب أو أنهم -كما هو الغالب- يحركون غيرهم من أجل أن تستعر الحرب فالله يطفئها، وبعضهم يحمل ذلك على نار الغضب في النفوس، يعني أنه يحصل لهم انتفاشة غضبية كغضبة الهررة -كما قيل- التي يعقبها البول، فلا يحصل من ذلك شيء، فالمقصود أن بعضهم فسره بالغضب؛ لأن الغضب –كما يقولون-: هو غليان دم القلب، لكن هذا المعنى فيه بعد، والظاهر المتبادر -والله أعلم- أنها الحرب الحقيقية المعروفة.

{وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [(٦٤) سورة المائدة] أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته.

هذه صفة ملازمة لهم لا تفارقهم -كما هو مشاهد- فمرة تُكتشف غواصة إسرائيلية قريباً من باكستان والهند، ومرة يتصالحون مع دولة لينشروا فيها الإيدز وألوان الفساد الأخلاقي والمالي، ومرة يأتون في الظاهر لإصلاح النيل وإقامة مشروعات، وهناك مشكلة معروفة حصلت في سد مجاري النيل عن طريق أشجار ونباتات تتكاثر بسرعة ثم تتشابك من الناحيتين، ثم ينسد المجرى، وتُبذل أموال طائلة من أجل التخلص من هذه النباتات التي سرعان ما تتكاثر، وهكذا لا أعرف مثلاً ينطبق عليهم إلا الفأرة، يفسدون كل شيء صالح،

وهكذا يثيرون المشاكل بين المسلمين حيث تراهم يذهبون لتحريك الدول التي عند منابع النيل فيقولون لهم: حصصكم مهضومة وقليلة وليست كافية، فالمفترض أن تطالبوا بشيء أكثر من هذا، وهكذا تبدأ المشاكل، ويتفقون مع هؤلاء ضمن بنود الصلح على أنهم سيعطونهم مياه -مع أنها مياههم- ومع ذلك يعطونهم مياه المجاري ثم عليهم أن يقوموا بتصفية هذه المياه التي يعطونهم إياها من المجاري، وقل مثل ذلك في سرقة مياه الأنهار، وهكذا لا عمل لهم إلا الإفساد في كل مكان.

ثم قال -جل وعلا-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ} [(٦٥) سورة المائدة] **أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم** {لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [(٦٥) سورة المائدة] **أي: لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود.**

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ} [(٦٦) سورة المائدة] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره يعني القرآن،** {لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [(٦٦) سورة المائدة] **أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء -عليهم السلام- على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى إتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر بإتباعه حتماً لا محالة.**

وإذا كان المراد بذلك: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ} [(٦٦) سورة المائدة] يعني قبل بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه يفسر بما نزل عليهم في غير التوراة والإنجيل، مما أوحى الله به إلى أنبيائهم، وهكذا ما نزل عليهم من الكتب غير التوراة والإنجيل كصحف موسى والزبور وما أشبه ذلك من الأمور التي يوحيها الله -عز وجل- إلى أنبيائهم، وكذلك هم مطالبون بالإيمان بالكتب التي سبقتهم مما أنزل على الأنبياء قبلهم -عليهم الصلاة والسلام- كصحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وإذا كانت الآية تخاطب فقط الذين عاصروا النبي -عليه الصلاة والسلام- فيكون {وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ} [(٦٦) سورة المائدة] المراد به القرآن والله أعلم.

وقوله تعالى: {لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [(٦٦) سورة المائدة] **يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض.**

أي أن الرزق يكون مدراراً، يعني أن هذا التعبير في هذه الجملة {لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [(٦٦) سورة المائدة] يفيد هذا المعنى: أن رزقهم يكون كثيراً وافراً بلا عد ولا حساب، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- عن نوح -عليه الصلاة والسلام-: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [(١٠-١٢) سورة نوح] ولهذا فسر من فسر من السلف وهم كثير {مِن فَوْقِهِمْ} قالوا: بإنزال المطر، وليس ذلك بإنزال المطر وإنما أيضاً ما ينزل عليهم من غير المطر من الأرزاق من السماء، فالرزق ينزل من الله -تبارك وتعالى- ويدخل في ذلك أيضاً المن والسلوى، وكل ما يمتن الله -عز وجل- به مما يخرج من غير جهد الإنسان، قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا} [(٣) سورة هود].

كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} الآية [(٩٦) سورة الأعراف].

وقوله تعالى: {مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ} [(٦٦) سورة المائدة] كقوله: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [(١٥٩) سورة الأعراف] وكقوله عن أتباع عيسى: {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ} الآية [(٢٧) سورة الحديد] فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة.

ابن كثير -رحمه الله- مشى في قوله تعالى: {مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ} [(٦٦) سورة المائدة] على معنى المقتصد الذي ذكره الله -عز وجل- في طوائف الأمة الثلاث في قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر] فالمقتصد هو الذي يفعل الطاعات ويترك المعاصي، وهذا ليس في المرتبة العالية في هذه الأمة، فابن كثير فسره بهذا وقال: {مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ} [(٦٦) سورة المائدة] يعني أن أفضل طائفة عند هؤلاء هم الذين يوصفون بذلك، يعني عند هذه الأمة بالنسبة لنا يعتبرون في الوسط، أي ما عندهم أعمال صالحة زائدة على الواجبات وليسوا من السابقين بالخيرات، ولا أظن أن هذا هو معنى الآية، وأن هذا هو المراد بالأمة المقتصدة، وإنما الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المراد بالمقتصدة أي القصد والاعتدال، وقصد الطريق بمعنى استقامة الطريق، يعني أنها أمة مستقيمة سائرة على الصراط المستقيم محققة لأمر الله -عز وجل- ممتثلة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، ولهذا قال كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: إن المراد بذلك أنها مقتصدة بأمر المسيح، أي أنهم ما ألهوه ولا قالوا فيه ما لا يليق كما قال طوائف من اليهود، لكن المعنى أوسع من هذا ولا يختص بالمسيح، هذا الذي يظهر والله أعلم، وإلا فإن في بني إسرائيل من العُبَّاد من هم منقطعون لعبادة الله -عز وجل-، فالله -عز وجل- يقول: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ} [(٢٧) سورة الحديد] فمثل هؤلاء قطعاً ما كانوا يقتصرون على الواجبات ويتركون المحرمات، وهؤلاء يكونون أرفع مرتبة في طوائف بني إسرائيل، بل فيهم من العبادة الشيء الكثير لكن منهم من هم على صراط مستقيم، ومنهم من وقع عندهم شرك وبدع وضلالات وشهوات وما أشبه ذلك، والله أعلم.

فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله -عز وجل-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [(٣٢-٣٣) سورة فاطر].

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [(٦٧) سورة المائدة].

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- باسم الرسالة، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل -عليه أفضل الصلاة والسلام- ذلك وقام به أتم القيام.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: من حدثك أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ

{إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} الآية [(٦٧) سورة المائدة] هكذا رواه هاهنا مختصراً[٩] وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولاً، وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما[١٠].

وفي الصحيحين عنها -رضي الله تعالى عنها- أيضاً أنها قالت: لو كان محمد -صلى الله عليه وسلم- كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [(٣٧) سورة الأحزاب][١١].

وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوٌ من أربعين ألفاً كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في خطبته يومئذ: ((أيها الناس، إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقلبها إليهم ويقول: ((اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت))[١٢].

وأيضاً حينما نزل عليه في ذلك الموقف قوله -تبارك وتعالى-: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [(٣) سورة المائدة] كانت تلك شهادة من الله –عز وجل- تدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- قد بلغ كل ما أوحاه الله -عز وجل- إليه، فأكمل الله الدين.

وقوله تعالى: {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [(٦٧) سورة المائدة] يعني وإن لم تؤدِّ إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته، أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [(٦٧) سورة المائدة] يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته.

وقوله تعالى: {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [(٦٧) سورة المائدة] أي: بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك.

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل نزول هذه الآية يُحرَس كما روى الإمام أحمد أن عائشة -رضي الله تعالى عنها- كانت تحدث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت: "فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: ((ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)) قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال: ((من هذا؟)) فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: ((ما جاء بك؟)) قال:

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة المائدة (٤٣٣٦) (ج ٤ / ص ١٦٨٦).

10 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة {وَالنَّجْمِ} [(١) سورة النجم] (٤٥٧٤) (ج ٤ / ص ١٨٤٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب معنى قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [(١٣) سورة النجم] وهل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه ليلة الإسراء؟ (١٧٧) (ج ١ / ص ١٥٩) والترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٨) (ج ٥ / ص ٢٦٢) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (١١١٤٧) (ج ١ / ص ٣٣٥).

11 - أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في كتاب التوحيد – باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [(٧) سورة هود] {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [(١٢٩) سورة التوبة] (٦٩٨٤) (ج ٦ / ص ٢٦٩٩) ومسلم عن عائشة في كتاب الإيمان - باب معنى قول الله -عز و جل-: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [(١٣) سورة النجم] وهل رأى النبي -صلى الله عليه و سلم- ربه ليلة الإسراء؟ (١٧٧) (ج ١ / ص ١٥٩).

12 - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦)

جئت لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نومه" [أخرجاه في الصحيحين][13] وفي لفظ: سهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة مقدمه المدينة[14] يعني على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة -رضي الله عنها- وكان ذلك في سنة اثنتين منها.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [(٦٧) سورة المائدة] قالت: فأخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- رأسه من القبة وقال: ((يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل)) وهكذا رواه الترمذي ثم قال: وهذا حديث غريب، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[15].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [(٦٧) سورة المائدة] أي: بلغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [(٢٧٢) سورة البقرة] وقال: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد].

من أهل العلم من فسر قوله -تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [(٦٧) سورة المائدة] بقوله: أي لا يصلوا إليك بالقتل، وهم بذلك أرادوا الجمع بين هذه الآية وبين ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- من الأذى حينما كسرت رباعيته -عليه الصلاة والسلام- وسقط في الحفرة في أُحد وشجَّ وجهه وما إلى ذلك، ويمكن أن يقال: إن هذه الآية نزلت بعد ذلك فلا يصل أحد إليه بنوع من الأذى الحسي لا بالقتل ولا ما دونه، فالآية تحتمل هذا؛ لأنه قال: {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [(٦٧) سورة المائدة] ومثل هذا يحمل على أعم معانيه، والعلم عند الله -عز وجل-.

والقول الآخر لا يبعد، لكنه لا يعرف بعد ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصل إليه أذى، بل كان الله يبطل كيد من أراد به سوءاً، ومن ذلك أنه لما علق سيفه بشجرة فجاء رجل من الأعراب واخترطه، وقال: من يمنعك مني؟ فقال: ((الله)) فسقط السيف من يده..[16].

ومن ذلك أيضاً ما سعى إليه أهل النفاق وبيتوه في غزوة تبوك من إلقاء النبي -صلى الله عليه وسلم- من فوق العقبة، فأبطل الله -عز وجل- كيدهم، وغير ذلك من المواقف، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

13 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٢٩) (ج ٣ / ص ١٠٥٧) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (٢٤١٠) (ج ٤ / ص ١٨٧٥) وأحمد (٢٥١٣٦) (ج ١ / ص ١٤٠) إلا أن في الصحيحين أن الذي جاء هو سعد بن أبي وقاص وليس سعد بن مالك.

14 - صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (٢٤١٠) (ج ٤ / ص ١٨٧٥).

15 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن – باب تفسير سورة المائدة (٣٠٤٦) (ج ٥ / ص ٢٥١) والحاكم (٣٢٢١) (ج ٢ / ص ٣٤٢) وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٨٩).

16 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٢٧٥٣) (ج ٣ / ص ١٠٦٥) ومسلم في كتاب الفضائل - باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس -يعني النبي –صلى الله عليه وسلم- (٨٤٣) (ج ٤ / ص ١٧٨٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٨-٦٩) سورة المائدة].

يقول تعالى: قل يا محمد: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ} أي: من الدين {حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٦٨) سورة المائدة] قال الحافظ هنا: "أي: **حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد -صلى الله عليه وسلم-** ..." إلى آخره.

وقوله تعالى: {حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} يعني العمل بها والتحاكم إليها.

وقوله: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِّن رَّبِّكُمْ} يحتمل أن يكون المراد: ما أنزل إليهم مما أوحاه الله -عز وجل- إلى أنبيائهم مما ليس في التوراة والإنجيل، ويحتمل معنىً آخر أي: سوى التوراة والإنجيل وهو القرآن، والفرق بين المعنيين ظاهر، وهذا الأخير هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أي أن قوله: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِّن رَّبِّكُمْ} المراد به القرآن؛ باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مبعوث للأحمر والأسود، فبعثته -صلى الله عليه وسلم- موجهة لأهل الكتاب ولغيرهم.

والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يلزم منه هذا المعنى فإن مما أنزل إليهم من ربهم أن يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وأن يتبعوه.

وقوله: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [(٦٨) سورة المائدة] تقدم تفسيرُه.

{فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(٦٨) سورة المائدة] أي فلا تحزن عليهم، ولا يَهيدنَّك ذلك منهم.

ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} وهم المسلمون {وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٩) سورة المائدة] وهم حملة التوراة.

{وَالصَّابِئُونَ} [(٦٩) سورة المائدة] لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٩) سورة المائدة] الذين آمنوا قال هنا: هم المسلمون، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وهو الأقرب وهو المتبادر، وقيل غير ذلك فبعضهم حملها على المنافقين، يعني الذين آمنوا في الظاهر، وهذا بعيد.

قوله: {وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٩) سورة المائدة] يعني اليهود؛ لأنهم قالوا: {هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف] أي رجعنا إليك، والهَوْد بمعنى الرجوع، وقد سبق الكلام على هذا المعنى.

ثم قال: {وَالصَّابِئُونَ} الصابئون سبق بيان المراد بهم، وقال هنا: إنهم طائفة من النصارى، يعني فرقة من النصارى على التوحيد، وهذا الاسم يطلق على طوائف متعددة، فهو يطلق على طائفة من النصارى، ويطلق على قوم ليس لهم دين يعني ليسوا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين وإنما هم على أصل الفطرة لم يقعوا في الإشراك، ويطلق أيضاً على قوم من عبدة الكواكب الذين يتقربون إليها ويقدمون لها القرابين، وما أشبه ذلك، ويقال: إنهم هم الذين اجتاز بهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما هاجر إلى الشام، وناظرهم المناظرة المعروفة لما رأى الكوكب وقال هذا ربي، والصابئة طائفة لا زالت موجودة إلى اليوم في العراق وهم قوم من المشركين، وعلى كل حال فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الصابئين هنا لا يراد بهم عبدة الكواكب ولا يراد بهم طائفة من أهل الإشراك وإنما يمكن أن يحمل -والله تعالى أعلم- على أنهم قوم من أهل التوحيد، يعني من أهل الفطرة ممن ليسوا من اليهود ولا من النصارى؛ لأن الله -عز وجل- وعدهم بهذا الوعد، ولو كانوا من المشركين لما حصل لهم ذلك؛ لأنه قال: {مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٩) سورة المائدة] مع أنه لقائل أن يقول: إن الله ذكر هذه الطوائف ووعد من آمن منهم، وهذا التعقيب في الآية: {مَنْ آمَنَ} هو الذي جعل بعض المفسرين يقول: إن المراد بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ} هم أهل النفاق، يعني المنتسبين للمسلمين وإلى الإسلام لكنهم كفار في الباطن، فإن صححوا إيمانهم وتابوا فهم موعودون بما ذُكر: {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٩) سورة المائدة] والأقرب -والله تعالى أعلم- أنها في أهل الإيمان وليست في أهل النفاق.

وعلى كل حال هذه الآية مقيدة بخاتمتها {مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا} [(٦٩) سورة المائدة] ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد أن بُعث، فهذه تصدق على هذه الطوائف فمن كان محققاً للإيمان قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو موعود بهذا، وأما بعد مبعثه -صلى الله عليه وسلم- فلا ينفعهم إيمانهم بل هم كفار إن لم يؤمنوا به -عليه الصلاة والسلام-، وفي الحديث يقول -عليه الصلاة والسلام-: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[1].

ولهذا لا يجوز لأحد أن يأتي ويحتج بهذه الآية على تصحيح الأديان سوى دين الإسلام، ويقول: نحن لا نكفِّر هؤلاء اليهود ولا النصارى ولا غيرهم؛ لأن الله -عز وجل- ذكرهم في سياق واحد مع المسلمين وقال: {مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} ومن كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر فقد حصل المقصود، وهؤلاء يكونون من

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

الناجين عند الله -عز وجل- بل الصواب أن هؤلاء لا يكونون من الناجين وإنما هم من حطب جهنم، والنصوص في هذا كثيرة وواضحة، وقد تكلمتُ على هذه الآية في جملة الآيات التي يفهمها الناس على غير وجهها فالله المستعان.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ} [(٦٩) سورة المائدة] المتبادر أن يقال: والصابئين؛ لأن هذه متعاطفات على اسم "إن" وهو منصوب لكنه قال: {وَالصَّابِئُونَ} فلماذا ارتفعت بين المنصوبات؟

يقول ابن كثير: "**لما طال الفصل حسن العطف بالرفع**" والقاعدة في هذا الباب أن العرب تقطع في صفة الواحد أو في الأوصاف المتعاطفة إذا استطالت في مقام المدح أو الذم بالرفع أحياناً وبالنصب أحياناً، وذلك أبلغ في المدح أو الذم؛ لدفع السآمة وتنشيط السامع وهذا من التفنن في الكلام، ويوجد له نظائر في كلام العرب وهو أسلوب معروف، وتوجيه ذلك من جهة الإعراب تعددت فيه أقوال أهل العلم، فمنهم من قال هذا الذي ذكرته وهو راجع إلى كلام ابن كثير -رحمه الله-، ومنهم من يقول: إن قوله: {وَالصَّابِئُونَ} مرفوع على الابتداء وليس اسم "إنَّ"، ومنهم من يقول: إن الكلام فيه تقديم وتأخير، وهذا الذي مال إليه سيبويه والخليل بن أحمد وقالوا: تقدير الكلام إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك، يعني أن الكلام فيه تقديم وتأخير، والقاعدة أن الكلام إذا دار بين التقديم والتأخير والترتيب فالترتيب أولى، ولذلك فالمعنى الأول الذي ذكرته أقرب -والله تعالى أعلم- وهو أوضح، وقيل غير ذلك في توجيهه وإعرابه.

وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا.

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ* وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(٧٠-٧١) سورة المائدة].

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه، ولهذا قال تعالى: {كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ* وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ} [(٧٠-٧١) سورة المائدة] أي: وحسبوا أن لا يترتب لهم شرٌّ على ما صنعوا فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا.

لاحظ كلام ابن كثير في قوله تعالى: {وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ} [(٧١) سورة المائدة] إذ يقول: "أي: **وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا**" يعني ابن كثير حمله على أن ذلك من قبيل العقوبة التي وقعت لهم، لذلك تجد أنه لم يفسر الفتنة وكأنه يريد أن يقول:

{وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} أي عقوبة، فعاقبهم الله -عز وجل- بأن عموا وصموا، وهذا معنىً تحتمله الآية، وقد تفسر بما هو أحسن من هذا، وذلك بجعل قوله: {فَعَمُواْ وَصَمُّواْ} [(٧١) سورة المائدة] أنه من نتيجة حسبانهم هذا لا على أنه عقوبة وإنما على أن ذلك من قبيل أنه تفريط وقع لهم بسبب سوء حسبانهم وظنهم كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [(١٦) سورة المجادلة] أي أنهم لما استمرءوا هذه الأيمان ورأوا أنها تخلصهم من المواقف الصعبة وما يوجه إليهم من التهم نتج عن ذلك الصدود، أي أنهم قالوا: نستمر على هذه الحال وإذا سُئلنا عن شيء حلفنا فبقوا في صدود في أنفسهم وبقوا يصدون غيرهم عن سبيل الله -عز وجل- بالتثبيط والتعويق، وإذا قيل لهم حلفوا أنهم ما فعلوا، فهذه نتيجة ليست من باب العقوبة وإنما من باب أنهم استمرءوا هذا، وهكذا هؤلاء حسبوا أن لا تكون فتنة فبسبب هذا الظن الفاسد وقع منهم هذا الإعراض الكامل.

والمراد بقوله: {وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(٧١) سورة المائدة] من أهل العلم من فسره بأن المراد أنهم حسبوا ألا يكون لهم ابتلاء، مع أن الله -عز وجل- وعد بالابتلاء كما قال تعالى-: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [(١٨٦) سورة آل عمران] وقال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [(٢١٤) سورة البقرة] إلا أن هؤلاء -على هذا المعنى- حسبوا ألا تكون فتنة.

وأصل الفتنة الفتن من عرض المعدن أو الذهب على النار لتخليصه من شوائبه وتنقيته وتصفيته، فيقال للإحراق بالنار كما قال الله -على أحد المعنيين بل المعاني فيه متلازمة-: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [(١٠) سورة البروج] بمعنى أحرقوهم بالنار، وكذلك المعنى الآخر بفتنهم أي بصرفهم عن دينهم، فهم صرفوهم بالإحراق، فعلى كل حال الفتنة تقال لهذا وتقال للاختبار، وهو راجع إلى هذا المعنى؛ لأن الذهب إذا عرض على النار فإنه يختبر بذلك ويتبيّن الزائف من المنقود، فيكون هنا حسبوا ألا تكون لهم فتنة، أي أنهم حسبوا أن لا يكون لهم ابتلاء؛ لأنهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه لهم منزلة عنده فلا يوقِع بهم أمراً مكروهاً، وهذا المعنى وإن كانت الآية تحتمله إلا أن غيره قد يكون أولى منه.

وقوله: {أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(٧١) سورة المائدة] فيه قراءة متواترة وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي، (أَلاَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ) بضم النون على أنَّ "أنْ" مخففة من الثقيلة، وحَسِبَ: بمعنى علم، والمعنى أن هذا الاعتقاد الفاسد عندهم -أنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يبتليهمَ- نزَّله منزلة العلم فعبر هنا بالحسبان، فيكون حسب بمعنى علم، فالمقصود: أن هذه الآية {وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} يمكن أن تفسر -والله تعالى أعلم- بأن هؤلاء ظنوا ألا يترتب على فعلهم عقوبة فنتج عن هذا الظن الفاسد أنهم استمرءوا السير في الباطل وبقوا على ضلالهم وإعراضهم فعموا وصموا، فيكون عموا وصموا ليس من قبيل العقوبة الناتجة عن حسبانهم بل هو تصرف منهم بنوه على هذا الظن الفاسد، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- وأظنه هو الأقرب في معنى الآية، والله أعلم.

وهو أنهم عموا عن الحق وصمُّوا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، {ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ} أي: مما كانوا فيه {ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ} أي: بعد ذلك، {كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(٧١) سورة المائدة].

قوله تعالى: {فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ} [(٧١) سورة المائدة] يعني عموا وصموا مرتين، ولم يبيّن هذا العمى والصمم في كل مرة، فمن أهل العلم من يقول: إن الأول {فَعَمُواْ وَصَمُّواْ} إشارة إلى تركهم العمل بالتوراة وقتلهم شعيا -كما في الروايات الإسرائيلية- ثم تابوا فتاب الله عليهم، ثم حصل منهم عمىً وصمم وذلك بقتلهم يحيى -عليه الصلاة والسلام- ومحاولتهم قتل المسيح، وهذا الكلام كله لا دليل عليه.

ومن أهل العلم -مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- من فسر هذه الآية بآية الإسراء: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} [(٤) سورة الإسراء] فهذا الإفساد مرتين يفسر به عموا وصموا الأولى وعموا وصموا الثانية.

وبعبارة أخرى يقول: إن الإفساد الأول الذي وقع منهم هو المراد بقوله: {لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا* فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ} [(٤-٥) سورة الإسراء] أي سلط الله عليهم عباداً -قيل: إنه بختنصر- {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ} [(٥-٦) سورة الإسراء] أي أن هذا لما تابوا من الإفساد الأول {وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} [(٦) سورة الإسراء] ثم قال: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} [(٨) سورة الإسراء] وهذا هو الإفساد الثاني، لكن هذا التفسير قد لا يخلو من إشكال وبُعد، والله تعالى أعلم.

ولذلك يحسُن أن يقال في تفسير الآية: إن الله -عز وجل- ذكر منهم إفساداً مرتين ولم يبيّن هذا الإفساد فيُترك على هذا الإجمال والإبهام ولا يُتعرض له بتحديد معين إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وليس عندنا دليل لا من الكتاب ولا من السنة نستطيع أن نجزم به بحيث نقول: الإفساد الأول هو كذا، والإفساد الثاني هو كذا، لكن حصل منهم غفلة وإعراض وعمىً وصمم ثم حصلت منهم توبة، ثم بعد ذلك حصل منهم عمىً وصمم، وما أكثر ما يقع منهم هذا فقد عبدوا العجل ثم تابوا، وقالوا لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] ثم عفا الله -عز وجل- عنهم، وكذلك قالوا لموسى: {إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة]، وكذلك قالوا له: {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [(١٣٨) سورة الأعراف] فكل هذه الأمور وقعت منهم فقد يكون المراد بعض ذلك وقد يكون المراد غير ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-.

{وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(٧١) سورة المائدة] أي: مطَّلعٌ عليهم وعليمٌ بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم.

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ* لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [(٧٢-٧٥) سورة المائدة].

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله -تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً-.

قد سبق الكلام على هذه الطوائف وعلى اختلافهم في الأقانيم وتفسيرهم لذلك وعقيدة التثليث عندهم، وما المراد بالثلاثة، هل هو الله والمسيح ومريم أو أنه الله والمسيح وجبريل، فليراجع ذلك.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} [(٣٠) سورة مريم] ولم يقل: أنا الله ولا ابن الله، بل قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [(٣٠) سورة مريم] إلى أن قال: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٣٦) سورة مريم]، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: {وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ} [(٧٢) سورة المائدة] أي فيعبد معه غيره {فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [(٧٢) سورة المائدة] أي: فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [(٤٨) سورة النساء] وقال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الأعراف].

وفي الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث منادياً ينادي في الناس: ((إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة))[٢] وفي لفظ: ((مؤمنة))[٣].

ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(٧٢) سورة المائدة] أي: وما له عند الله ناصرٌ ولا معينٌ ولا منقذ مما هو فيه.

وقوله: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [(٧٣) سورة المائدة] إنها نزلت في النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد.

وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمَّه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ} الآية [(١١٦) سورة المائدة].

قال الله تعالى: {وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ} [(٧٣) سورة المائدة] أي: ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: {وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ} [(٧٣) سورة المائدة] أي: من هذا الافتراء والكذب {لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٣) سورة المائدة] أي: في الآخرة من الأغلال والنكال.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب كيف الحشر (٦١٦٣) (ج ٥ / ص ٢٣٩٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) (ج ١ / ص ٢٠٠).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣٠٩٢) (ج ٥ / ص ٢٧٦) والنسائي في كتاب مناسك الحج – باب قوله -عز و جل-: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف] (٢٩٥٨) (ج ٥ / ص ٢٣٤) وأحمد (٥٩٤) (ج ١ / ص ٧٩).

ثم قال: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٧٤) سورة المائدة] **وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.**

وقوله تعالى: **{مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}** [(٧٥) سورة المائدة] أي: **له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال:** **{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}** [(٥٩) سورة الزخرف].

وقوله: **{وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}** [(٧٥) سورة المائدة] أي: **مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها فدلَّ على أنها ليست بنبية.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}** [(٧٤) سورة المائدة] هذه من أعظم الآيات ترجية في القرآن؛ لأن الله -عز وجل- تلطف بهؤلاء الذين نسبوا إليه الصاحبة والولد وعبدوا معه غيره وجاءوا بما لم يأت به أحد قبلهم مما هو شنيع في القول، حتى قيل: إن عقيدة النصارى وصمة عار على البشرية، فهو قول يندى له الجبين إذ كيف يُنسب لله -عز وجل- الولد، ويقال: إن الله -تبارك وتعالى- تمثل بالمسيح وحل اللاهوت بالناسوت، وأنه قد قتل ليكفِّر خطيئة ابن آدم وما أشبه ذلك، فهذا قول في غاية البشاعة، ومع ذلك يتلطف الله بهم فيقول: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}** [(٧٤) سورة المائدة] مع عظيم جرمهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}** [(٧٥) سورة المائدة] الصدِّيق هو من كمُل صدقه وتصديقه، وفي الحديث: ((وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً))[4] وممن كمُل تصديقهم أبو بكر -رضي الله عنه- حيث كان إذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً، قال: صدق، فلُقِّب بالصدِّيق، فمن كان هذا حالهم فإنهم من أهل الكمال في الصدق والتصديق، فهم يبلغون هذه المرتبة بصدق الإيمان وصدق القول وصدق العمل وصدق الحال وهي من أعلى مراتب أهل الإيمان، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ}** [(٦٩) سورة النساء] فعطفهم على النبيين ثم ذكر بعدهم الشهداء والصالحين فقال: **{وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [(٦٩) سورة النساء] وأم عيسى –عليهما السلام- صدِّيقة كما قال تعالى: **{وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}** [(٧٥) سورة المائدة].

قوله: "**واستدلوا بهذا على أنها ليست نبية فهذا أعلى مقاماتها**" يشير الحافظ ابن كثير إلى أنها ليست نبية، وأن أعلى مقاماتها أنها بلغت مرتبة الصديقية ولم تبلغ مرتبة النبوة، هذا معنى كلام الحافظ، ولذلك فإن القول الذي لا ينبغي العدول عنه، هو أن الله تعالى لم يبعث امرأة نبيةً، قال الله -عز وجل-: **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ}** [(٧) سورة الأنبياء] ومعلوم أن من ألفاظ العموم ما يختص بجماعة الذكور ولا يدخل فيه الإناث كلفظ "الرجال" ومنها ما يطلق على الذكور ويدخل فيه النساء بحكم التبع مثل "القوم" ومنها ما يشترك فيه الرجال والنساء مثل الاسم الموصول وأسماء الشرط "مَن" وما أشبه ذلك، ومنها ما يختص بجماعة النساء مثل "النساء" فالله -عز وجل- لم يبعث امرأة نبيةً أبداً.

---

[4] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧) (ج ٤ / ص ٢٠١٢).

وقوله تعالى: {كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ} [(٧٥) سورة المائدة] **أي: يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.**

يعني أنهما كانا يأكلان الطعام كغيرهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فعيسى -عليه الصلاة والسلام- كغيره من الأنبياء، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}** [(٢٠) سورة الفرقان] ومن هذا حاله لا يكون متصفاً بصفة الألوهية.

ثم قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ} [(٧٥) سورة المائدة] **أي نوضحها ونظهرها.**

{ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [(٧٥) سورة المائدة] **أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟.**

الأفك هو القلب، ويؤفكون أي: يصرفون عن الحق، فقوله: **{أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [(٧٥) سورة المائدة] أي: كيف يصرفون عن الحق مع وضوح براهينه ودلائله؟.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [(٧٦-٧٧) سورة المائدة].

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية فقال تعالى: {قُلْ} أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: {أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا} أي: لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم {وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالسياق في الكلام في الآيات السابقة كله في النصارى حيث قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [(٧٢) سورة المائدة] وقال: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [(٧٣) سورة المائدة] وقال: {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ} [(٧٤) سورة المائدة] وقال: {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ} [(٧٥) سورة المائدة] ثم قال: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ} [(٧٦) سورة المائدة]، فقوله: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ} [(٧٦) سورة المائدة] متوجه أيضاً إلى النصارى؛ لأن الحديث كان عنهم، ويكون السياق قرينة تدل على هذا، وهذا الذي رجحه كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- أي أنها في النصارى، وأما الحافظ ابن كثير فيرى أن الخطاب أعم من ذلك وأنه يدخل فيه النصارى، والذي يقول: إن هذا في النصارى يقول: إن قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا} [(٧٧) سورة المائدة] يعني اليهود، أي أنه يخاطب النصارى ويحذرهم من اتباع سنن اليهود الذين ضلوا قبلهم فيكونون مشابهين لهم وعلى طريقتهم في الضلال، والله أعلم.

{وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٧٦) سورة المائدة] أي: السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء فلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟!

ثم قال: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ} [(٧٧) سورة المائدة] أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تُطْروا من أُمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح -عليه السلام- وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً.

في قوله: {لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ} [(٧٧) سورة المائدة] يقول: "**أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق**" وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو تفسير عام على المعنى، لكن حينما ننظر إلى التركيب والألفاظ نجد أن قوله:

{غَيْرَ الْحَقِّ} يمكن أن يكون في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره لا تغلوا في دينكم غلواً غير اتباع الحق، لكن هل يجوز للإنسان أن يغلو غلواً حقاً، يعني هل يوجد غلو حق وغلو باطل؟

من فسر بهذا التفسير قال: المقصود بالغلو الحق هنا استفراغ الوسع في طلب الحق والبحث عنه وبذل الجهد في تطلبه وهذا ليس مذموماً، وبعضهم يقول: إن قوله: {غَيْرَ الْحَقِّ} [(٧٧) سورة المائدة] في محل نصب على الاستثناء المتصل، وبعضهم يقول: استثناء منقطع، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [(٧٧) سورة المائدة] أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ* كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ* تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [(٧٨-٨١) سورة المائدة].

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه -عليه السلام- وعلى لسان عيسى ابن مريم -عليه السلام- بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان. ثم بيّن حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم.

على كل حال يذكرون في هذا بعض الروايات ومن ذلك أن داود -عليه الصلاة والسلام- لعن أولئك الذين مسخوا قردة، وأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لعن الذين كفروا من أصحاب المائدة، ويقولون: إن الكفار من أصحاب المائدة مسخوا إلى خنازير، هكذا جاء في بعض الروايات المأخوذة عن بني إسرائيل ولا يبنى عليه التفسير، لكن القرآن الكريم قد نصَّ على أن اليهود المعتدين مسخوا قردة وخنازير في مثل قوله تعالى: {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ} [(٦٠) سورة المائدة]، وأخبر الله -عز وجل- عن هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أنهم لعنوهم؛ لكفرهم وعتوهم وعنادهم وتمردهم على الله -تبارك وتعالى- ومن ذلك أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه كما سيأتي.

ثم بيّن حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال تعالى: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر، {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ} أي: لا ينهى بعضهم بعضاً {عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] أي: عن المنكر الذي أتوه وقارفوه، والمعنى واضح، ولذلك تجد عامة أهل العلم إذا تحدثوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكروا هذه الآية للدلالة على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للعن، وهذا ذائع شائع معروف، ومن أهل العلم -وعلى الأخص ابن جرير -رحمه الله- من حملها على معنىً آخر، فقال: {لاَ يَتَنَاهَوْنَ} أي: لا يقصرون بل هم في تمادٍ وإسراف على أنفسهم في الباطل، فلا يرعوي الواحد منهم ولا ينزجر ولا ينكف عن فعل الباطل والمنكر، وإنما هو غارق فيه ومتمادٍ لا يتوب، ولا يفتأ يعمل الباطل والمنكر من غير ملل ولا كلل، هكذا فسره كبير

المفسرين -رحمه الله- لكن الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الأقرب، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو المتبادر إلى الذهن، وكأن هذا التفسير الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- صدر منه باعتبار أن الله -عز وجل- قال: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] فأضاف الفعل {يَتَنَاهَوْنَ} إليهم جميعاً ففسره بأنهم لا يقصرون ولا ينكفون ولا يرعوون عن منكر فعلوه، فالفعل مضاف إلى الجميع، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أنهم لا ينهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنه نسب الفعل إليهم؛ لأنه صدر من بعضهم وإذا صدر من البعض صح أن ينسب إلى الجميع تنزيلاً للجميع منزلة النفس الواحدة، ومعلوم أن لهذا الأسلوب نظائر فالله -عز وجل- يضيف كثيراً من الأفعال إلى الطائفة وإن كان ذلك قد صدر من بعضها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٩١) سورة البقرة] والذين قتلوا أنبياء الله هم بعض أسلافهم، ومن ذلك قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} [(٣٠) سورة التوبة] وقد قال ذلك طائفة من اليهود، ومثل ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ} [(٩٢) سورة البقرة] والذين عبدوا العجل ليسوا كل اليهود، ومن ذلك أيضاً أن الله -عز وجل- ذكر عنهم كثيراً من الأفعال وقد صدرت من طوائف منهم ولم تصدر من كل واحد منهم، وهذا أسلوب عربي معروف، أي أن يضاف الفعل إلى القوم أو إلى الطائفة، وإن كان قد صدر من بعضها وذلك إذا كان أولئك الذين صدر منهم الفعل لهم الغلبة والظهور، أو كان هؤلاء على طريقتهم وسنَنَهم، أو أنهم قد رضوا فعلهم ووافقوهم، ومن ذلك ما يقع عليهم كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} [(٤٩) سورة البقرة] وهذا وقع لأجدادهم في زمن فرعون ولم يقع لكل بني إسرائيل، وكذلك الأمر في قوله: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] أي: لا ينهى بعضهم بعضاً، فــ أضاف {فَعَلُوهُ} إلى الجميع مع أن الفعل واقع من بعضهم، والله أعلم.

ثم ذمهم على ذلك؛ ليحذر أن يُركَب مثل الذي ارتكبوه فقال: {لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(٧٩) سورة المائدة].

في قوله: {لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(٧٩) سورة المائدة] سمى تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعلاً -أي سمى الترك فعلاً- وهذا يستدل به الأصوليون الذين يقولون: إن الفعل أربعة أقسام ويذكرون منه الترك، وقد قال صاحب المراقي:

فكفنـــا بـــالنهي مطلـــوب النبـــي والترك فعل في صـــحيح المـــذهب

وفي البيت المشهور:

لـــئن قعـــدنا والنبـــي يعمـــل فـــذاك منـــا العمـــل المـــضلل

سمى القعود عن العمل عملاً، فالمقصود أن الترك فعلٌ والإنسان يحاسب على الترك كما يحاسب على الفعل.

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً.

على كل حال هذه الآيات يذكرها الله -عز وجل- في سياق ذكر مخازيَ ومعايبَ بني إسرائيل إلا أن ذلك لا يختص بهم، فهم لعنوا بسبب هذا، وذلك وعيد لهذه الأمة أيضاً وتهديد أن لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إســـرائيل كما سبق في الآيات السابقة: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا} [(٧٦) ســورة المائــدة] فالسياق في النصارى لكن هذا أيضاً يتوجه لغيرهم؛ لأن الجميع منهيون عن عبادة غيـــر الله -عـــز وجـــل-

وعن الغلو في الدين وما أشبه ذلك، والمقصود بالغلو في الدين مجاوزة الحد بالإفراط والتفريط من تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، أما الذي يتمسك بدين الله -عز وجل- ظاهراً وباطناً فهذا ليس بغالٍ إلا عند المفرطين الذين يرون أن إطلاق اللحية غلوٌ، كما أن عند البيئات التي اعتادت على شرب الخمور الذي يتعفف من شرب الخمر عنده غلو، والبيئات المتبرجة يرون المرأة المحتشمة المستترة المحجبة أنها متشددة وأن عندها غلواً، والناس الذين اعتادوا على سماع الأغاني وسماع المعازف وسماع الشر الذي لا يسمع عندهم هذا فيه غلو، والذين اعتادوا على أكل الحرام والربا الإنسان الذي لا يأكل الربا ويتحرز من الأشياء المشتبهات هذا متشدد وعنده غلو، وهكذا كل المضيعين والمفرطين يرون أن من تمسك بدينه أو بشيء من دينه أن عنده غلواً وأنه متشدد، فإذا جاء وقت الصلاة وهم في عملهم وأراد الملتزم أن يذهب ليصلي فهذا عندهم فيه غلو في الدين، وهكذا تجد اليوم من يردد هذا الكلام ويدعو إلى التحذير من الغلو، فأين الغلو؟

إن الغلو اليوم هو في ما نعاني من التفريط والتضييع وترك أمر الله -عز وجل- وانتهاك حدوده، هذا الذي نعاني منه، أما أن يوجد أحد يحرم الحلال أو يقول: أنا أقوم الليل ولا أنام، وأصوم ولا أفطر أو ما أشبه ذلك، فما رأينا أحداً يتبنى مثل هذا أبداً.

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام:

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)) ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن[١].

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) رواه مسلم[٢].

في قوله: **((مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده))** "مَن" من صيغ العموم، وبدأ باليد؛ لأنها أقوى وأبلغ في إزالة المنكر وهذا هو المطلوب، فإن عجز عنه انتقل إلى ما دونه مما يخفف المنكر أو يبرئ الذمة على الأقل أو يقيم الحجة، ولذلك قال: ((فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)).

وقوله: ((فإن لم يستطع فبقلبه)) أي يكون كارهاً، ولا يجزئه أن ينتقل من مرتبة إلى أخرى وهو قادر على التي قبلها.

ومسألة التغيير باليد تجب على كل قادر ما لم يترتب على ذلك مفسدة أكبر، وأما القول بأن هذا يختص بالسلطان فهذا ليس له أصل إطلاقاً؛ فحديث: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) عام، لكن إن ترتب عليه مفسدة أكبر فإنه لا يجوز أن يُغيَّر، ومن نظر في ما جاء عن الصحابة -رضي الله عنهم- فمن بعدهم يجد

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩) (ج ٤ / ص ٤٦٨) وأحمد (٢٣٣٤٩) (ج ٥ / ص ٣٨٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٧٠).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٤٩) (ج ١ / ص ٦٩).

أنهم كانوا يغيرون بأيديهم لكن فيما لا يترتب عليه مفسدة أكبر، فالإنسان في بيته يغير بيده، وقد يغير أيضاً في أماكن أخرى حيث لا يترتب عليه مفسدة، ومن أمثلة ذلك: لو رأى أحدنا وهو يمشي في الطريق رجلاً يريد أن يظلم أو يضرب أو يقتل أحداً ظلماً وجوراً فهل نكتفي بالنهي باللسان أم لا بد أن نخلصه باليد؟ لا شك أنك -إذا كنت مستطيعاً- تغير هذا المنكر بيدك.

ومن أمثلة ذلك لو رأيت بيت جارك يُسرق فهل تكتفي بالنهي باللسان فتقول: يا جماعة هذا حرام لا يجوز وتذهب وأنت تستطيع أن تغير باليد؟ هذا لا يكفي ولا تبرأ به الذمة.

وكذلك إذا رأيت الأطفال يلعبون والناس يصلون ألست تأتي وتأخذ الكرة من أيديهم وتقول لهم: هيا إلى الصلاة أم أنه يكفي أن تقول: اذهبوا إلى المسجد وتتركهم؟ الاكتفاء بالتغيير باللسان في مثل هذه الأمثلة البسيطة لا يكفي.

ابن عمر هتك الستر الذي في بيت الرجل الذي كان عنده وقال له: متى تحولت الكعبة إلى بيتكم؟ لكن ليس معنى ذلك إذا زرت إنساناً أن تأتي وتغير بيدك وتوقع مشكلة معه فهذا الرجل قَبِل هذا التصرف من ابن عمر إذ إن من الناس من يُقبل منه ويتحمل الناس منه مثل الرجل الكبير أو العالم الكبير لكن لا يقبلونه من كل أحد، ولهذا لا يجوز لأحد إذا ذهب إلى بيوت الناس أو زارهم أن يتلف بعض الصور التي في الجدران أو يأخذ بروازاً فيكسره وإنما يمكن هذا حيث لا تترتب مفسدة.

الخلال أو المروزي لما وجد جرة أو نحوها فيها خمر في بيت رجل فقال له الإمام أحمد: هلا وضعت فيها ملحاً، فحط فيها ملحاً يفسدها دون أن يشعر أحد، فهذا من التغيير باليد.

ومرة كان الإمام أحمد يمشي مع أحد أصحابه فوجد صبياً وامرأة ومع الصبي دف فخرقه، وإبراهيم النخعي قال: كانوا يأخذون –يقصد أصحاب ابن مسعود- كانوا يأخذون الدفوف من أيدي الصبيان ويخرقونها.

فالمقصود أن قاعدة تغيير المنكر مطلقة عامة، وأما عبارة: "التغيير باليد مختص بالسلطان" هذه عبارة غير دقيقة، وإنما الصواب إنه حيث لا يترتب عليه مفسدة، فليس لآحاد الناس أن يذهب ويغير في السوق بيده، ويكسر على الناس بضائعهم وأشياءهم، ويقول: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) فتقع فتنة في السوق، لكن حيث لا يترتب عليه مفسدة وهكذا.

فمثلاً: إذا دخلت المسجد ووجدت أحداً قد علق إعلاناً تجارياً أو عن مدرسة تجارية أهلية يبدأ التسجيل فيها في تاريخ كذا فبادر بتسجيل ابنك، فهل هذا يصلح في المسجد؟ لا يصلح في المسجد، فما الذي عليك فعله؟ عليك أن تزيل هذا الإعلان وما شابهه كأن يكون تقويماً فيه صور ذات أرواح ونحوه، فهذا من التغيير باليد.

ومن أمثلة ذلك لو أن أحداً علَّق ورقة فيها كلام لا يصلح، كأن يكون فيها تحريض على الخروج على ولي الأمر، فهذا مما لا يصلح، لذلك عليك أن تأخذ هذه الورقة وتمزقها، وذلك من التغيير باليد، وهذه الصورة الأخيرة أظنها مما لا يخالف فيها أحد فهي بالإجماع أي أنك تأخذها فترميها، وهكذا الأمر بالنسبة لما لا يترتب عليه مفسدة أكبر، فالإطلاقات ينبغي أن تضبط، ولا بد أن يكون كلام طالب العلم دقيقاً فيقول: حيث لا يترتب عليه مفسدة أكبر، وبالنسبة لمسألة تعارض المفاسد والمصالح فهذه مسألة طويلة فيها تفصيل، ليس هنا محل ذكرها، والله أعلم.

روى أبو داود عن العرسي عن ابن عميرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها -وقال مرة- فأنكرها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها)) تفرد به أبو داود[٣].

وروى أبو داود عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم))[٤].

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام خطيباً فكان فيما قال: ((ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه)) قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا[٥].

وفي حديثٍ عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه[٦].

وروى الإمام أحمد عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه)) قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال: ((يتعرض من البلاء لما لا يطيق)) وكذا رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب[٧].

في قوله-عليه الصلاة والسلام-: **((ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه))** يقول أبو سعيد -رضي الله عنه-: "**قد والله رأينا أشياء فهبنا**" يقول هذا وهو من علماء الصحابة.

وفي قوله –عليه الصلاة والسلام-: ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)) وقوله في الحديث الآخر: ((سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله))[٨] صار من اتصف بهذه الصفة بمنزلة سيد الشهداء وجهاده من أفضل الجهاد؛ لأن هذا أمر تحجم عنه النفوس بما جبلت عليه من الضعف والخوف الذي يعتريها، فمثل هذه الأشياء ينبغي أن تراعى، ولذلك لا ينبغي أن يكون لسان الإنسان سليطاً يفري به أعراض أهل العلم بحجة أنهم قصروا وأنهم ما قاموا بواجبهم ونحو ذلك، بل ينبغي أن يكون هناك مذاكرة ومناصحة وتذكير، وإلا فإذا وضع الإنسان نفسه في هذا المقام فقد يكون أعجز من غيره،

---

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب الأمر والنهى (٤٣٤٧) (ج ٤ / ص ٢١٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٨٩).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب الأمر والنهى (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ٢١٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٣١).

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن - باب ما جاء أخبر النبي صلى الله عليه و سلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١) (ج ٤ / ص ٤٨٣) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٧) (ج ٢ / ص ١٣٢٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٦٨).

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب الأمر والنهى (٤٣٤٦) (ج ٤ / ص ٢١٧) والترمذي في كتاب الفتن – باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (٢١٧٤) (ج ٤ / ص ٤٧١) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١١) (ج ٢ / ص ١٣٢٩) وأحمد (١٨٨٥٠) (ج ٤ ص ٣١٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح وصححه الألباني أيضاً في مشكاة المصابيح برقم (٣٧٠٥).

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن – باب ٦٧ (٢٢٥٤) (ج ٤ / ص ٥٢٢) وابن ماجه في كتاب الفتن - باب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٦) (ج ١ / ص ١٣٣٢) وأحمد (٢٣٤٩١) (ج ٥ / ص ٤٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٩٧).

[8] - أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٨٨٤) (ج ٣ / ص ٢١٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٦٧٥).

ولذلك فإن كثيراً من الناس من لا يعرف عيوبه وضعفه وتقصيره ولا يعرف أحياناً أن عنده مشكلة، لكن إذا جاء مقام خوف وصار أمام الموت أمام القتل أمام العدو فإن الذي يحصل لبعض الناس أن تجده قد انعقدت ركبه فلا يستطيع أن يقوم ولا يقعد، ولذلك فالحريق الذي وقع قبل سنوات في منى حصل عنده لكثير من الناس وبالذات النساء أن انعقدت أرجلهن فمما صارت الواحدة منهن تستطيع القيام، مع أنه قبل ذلك الموقف يمكن أن يكون كثير من الناس لم يكن يظن أن الخوف قد بلغ به هذا المبلغ، وهكذا فيما يزاوله الإنسان من قدرة وقوة سواء كان ضبط النفس أو قوة بدنية، فإنه إذا جاء موقف يستثير وغضب يجد نفسه لا يستطيع أن يتصرف لا بيديه ولا بعلامات وجهه فتراه مثل المجنون وكان يظن أنه حليم، وهكذا فيما يبذله الإنسان ببدنه قد يظن أنه قوي وما عنده مشكلة وتمشي معه مسافة فتراه قد اصفر وجهه وجلس وبدأ يشعر بإغماء وتدرك ضعفه الشديد وعجزه وأنه ضعيف في غاية الضعف، حتى لم يكن يتصور هو نفسه هذا الكلام.

وكذلك بعض الناس نجده إذا جرح في حادث ولو كان بسيطاً إذا رأى الدم بدأ يصفر وجهه وترتعش أطرافه، وصارت رجله لا تحمله ويشعر بإغماء وهو من قبل ما كان يشعر بهذا ولا يظن أنه في هذه الدرجة من الضعف.

فالمقصود أن كثيراً من الأشياء لا يدركها الإنسان من نفسه، ومن أراد أن يعرف هذا الجانب من الضعف في الإنكار فليتأمل في نفسه وهو يصلي إذا سمع من أحد العمال أو السائقين جواله يرن بالموسيقى والأغنية ونحو ذلك في الصلاة، أو كان من بجواره مسبلاً ثوبه، أو لابساً خاتم ذهب هل ينكر عليه أم لا؟ ربما لا ينكر خوفاً من لا شيء!!

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن ترى إنساناً في الطريق أو في الشارع أو عند الإشارة مشغلاً أغاني وبأصوات مرتفعة ومع ذلك لا تنكر عليه، فلماذا لا تنكر عليه؟ إنه الخوف من لا شيء!!

وتجد الواحد يجلس مع ناس على وليمة وهم ضعاف لا يملكون حولاً ولا طولاً فيشرب من بجواره بيده اليسرى ولا إنكار، فلماذا؟ وتجلس في المجلس وهذا يغتاب وأنت تنظر وتبتسم، فلماذا تبتسم بدلاً من أن تنهاه عن الغيبة وخاصة أنه لا يملك حولاً ولا قوة؟ فكيف حالك إذن لو جلست مع ناس أعظم من هذا ممن لهم مكانة وسلطة وهيبة ونحو ذلك؟.

فالإنسان لا يدرك في كثير من الأحيان عيوبه وليس هذا تبريراً للقعود عن الحسبة، لكن أقول: ينبغي للإنسان أن ينظر إلى عيوبه قبل أن ينظر إلى عيوب الناس، وينظر إلى تقصيره قبل أن ينظر إلى تقصير الناس، ينشغل بذنوبه قبل أن ينشغل بذنوب الناس، هذا هو القدر الذي أقصده فقط،ولو أن الإنسان التفت إلى نفسه ونظر إليها بهذا النظر لاستراح من كثير من الكلام، لكن في كثير من الأحيان الإنسان ينسى نفسه وينشغل بغيره، ويأتيه الشيطان ويزهده بأهل العلم، ثم يكون هو الذي يفتي نفسه أو يكون له من أقرانه ونظرائه من يفتيه ومن يجعلونه رئيساً لهم في العلم ويفتيهم وهو جاهل أو لم ينضج بعد ثم تقع المصائب والمشكلات والبلايا، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٨٠) سورة المائدة] **قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين.**

وقوله: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(٨٠) سورة المائدة] **يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين.**

قوله: {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٨٠) سورة المائدة] السياق في بني إسرائيل وليس في المنافقين وإن كان يقع في هذا أهل النفاق فهم يوالون الكافرين لكن الله -عز وجل- ذكر هذا في جملة ما ذكر من معايب بني إسرائيل ومساوئهم من أجل أن يحذر فلا يقع فيه المسلم، فالسياق هنا ليس في المنافقين، فالله ذكر من عيوب بني إسرائيل التي سببت لهم اللعن أنهم {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] ثم ذكر أن من ضمن الأمور التي سببت لهم هذا اللعن أن {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٨٠) سورة المائدة].

{لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(٨٠) سورة المائدة] **يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، ولهذا قال:** {أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ} [(٨٠) سورة المائدة] **وفسر بذلك ما ذمهم به ثم أخبر عنهم أنهم** {وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} [(٨٠) سورة المائدة] **يعني يوم القيامة.**

وقوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء} [(٨١) سورة المائدة] أي: **لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه** {وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [(٨١) سورة المائدة] أي: **خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [(٨٢-٨٦) سورة المائدة].

وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما: نزلت في وفدٍ بعثهم النجاشي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين.

وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم -عليه السلام- فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا، واختار ابن جرير أن هذه الآيات في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الروايات من المراسيل، وما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- في معناها أو فيمن نزلت فيه هو الأصح، أي أنها لا تختص بالحبشة بل هي في كل من كان بهذه المثابة، فمن اليهود الذين أسلموا عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- وتنطبق أيضاً على من أسلم من النصارى، فالمقصود أن من أسلم من أهل الكتاب ممن هذه صفته فالآية تنطبق عليه.

وهذه الآيات ينبغي أن يربط أولها بآخرها، فالله -عز وجل- ذكر صفتهم فقال: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [(٨٣) سورة المائدة] أي آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا بالقرآن.

ويقول الله عنهم أنهم قالوا: {وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(٨٣-٨٥) سورة المائدة] فهذه الآيات لا يصح بحال من الأحوال أن يفصل آخرها عن أولها؛ لأنه لا يمكن أن يقال: إن هذه الآيات في عموم النصارى، بل هي في من أسلم منهم وكانت هذه صفته، وأما هؤلاء الذين لم يسلموا سواء في هذا العصر أو

في غيره من العصور فهم أشبه ما يكونون باليهود حيث عرفوا الحق وظهرت لهم دلائله ومع ذلك عاندوا وكفروا فهم أهل غضب كما أنهم أهل ضلال، أي أنهم جمعوا بين الغضب والضلال، وهل بلاء المسلمين في هذه العصور وقبلها من العصور إلا من النصارى، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((الروم ذات القرون))[1] فالحروب الصليبية مَن الذي قام بها خلال قرون متطاولة إلا النصارى؟، ومن الذين أقام دولة اليهود ومن الذي يحميها ومن الذي يمدها إلا النصارى؟، ومذابح المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من الذي يقوم بها إلا النصارى؟، والأذى الذي يلقاه المسلمون في كل مكان من الذي وراءه إلا النصارى؟، والواقع أنك كلما نظرت في طائفة من الطوائف قلت: هذه الطائفة شرٌّ مجتمع، فإذا نظرت إلى اليهود وأمعنت النظر فيهم قلت: هؤلاء هم كتلة من الشر، وإذا نظرت إلى النصارى قلت: هؤلاء شر محض وبلاء يلقى المسلمون منهم أنواع الأذى، وإذا نظرت إلى ما يفعله الهندوس وعبَّاد البقر، قلت: لا يوجد أسوأ من هؤلاء، فكل هؤلاء الكفرة أعداء لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولدينه، وكلهم قد بلغوا في الشر غايته، وإن كان لا يوجد في المكر والدس والإفساد في الأرض أسوأ من اليهود، لكن هذه الآيات لا يقال: إنها تنطبق على عموم النصارى أبداً وإنما من أسلم منهم، وأما من لم يسلم فلا يمكن أن يقال فيه: إنه إذا سمع ما أنزل إلى الرسول فاضت عيناه من الدمع وقال: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومن يقتصر على أول الآيات ويترك آخرها، فهو كالذي يقتصر على قوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} [(٤) سورة الماعون] ويترك ما بعدها، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، والله تعالى أعلم.

وتكلمت على هذا المعنى في رمضان في الآيات التي يخطئ الناس في فهمها، وذكرت الآيات التي تذم أهل الكتاب في القرآن أو جملة منها، وقلت: ما تفهم الآيات بالاجتزاء، وإنما تضم الآيات في الموضوع الواحد، سواء كان هنا أو في غيره، كالآيات التي قد يفهم منها الثناء على أهل الكتاب مثل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٩) سورة المائدة] الآيات السابقة، فمثل هذه يتبين المراد بها إذا جمعت مع الآيات الأخرى.

فقوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(٨٢) سورة المائدة] ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقّص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غير مرة وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} [(٨٢) سورة المائدة] أي: **الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً}** [(٢٧) سورة الحديد] **وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر.**

---

[1] - أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٣٤٢) (ج ٤ / ص ٢٠٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٩٥٤).

طبعاً هذا الكلام كله لا ينطبق على النصارى أبداً لا على علمائهم في الدين ولا غيرهم، فليس فيهم إلا الغلظة والجفوة وليسوا على قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} [(٢٧) سورة الحديد] فهؤلاء أبعد ما يكونون عن المسيح -عليه الصلاة والسلام-.

وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [(٨٢) سورة المائدة] أي: يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم قِسِّيس وقَسّ أيضاً، وقد يجمع على قسوس.

واحدهم قَسّ - بفتح القاف- يقال: قسيس وقَس، والقَسُّ يقال: أصله من التتبع، يقال: قَسَّ العلم أي تتبعه وتطلبه، قَسَّ الشيء تتبعه، ويقال للعالم من النصارى: قَسّ وقِسِّيس، ويُجمع على قَسَس وقَسَاوِسَة.

واحدهم قسيس وقَسّ أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان: جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان وفرسان.

الرهبان هم العباد الذين ينقطعون -في الغالب- في الأديرة ويعكفون على العبادة، فالقساوسة هم علماؤهم والمقدمون فيهم ورؤساؤهم في دينهم، وأما الرهبان فهم العباد المنقطعون للعبادة.

روى ابن أبي حاتم عن حامية بن رئاب قال: سمعت سلمان -رضي الله تعالى عنه- وسئل عن قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا} [(٨٢) سورة المائدة] فقال: هم الرهبان الذين في الصوامع والخرب فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي -صلى الله عليه وسلم- {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ} [(٨٢) سورة المائدة] فأقرأني: (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا) [(٨٢) سورة المائدة] فقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [(٨٢) سورة المائدة] تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع.

ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف فقال: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ} [(٨٣) سورة المائدة] أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-، يقول: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [(٨٣) سورة المائدة] أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به، وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران] وهم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} [(٥٢-٥٣) سورة القصص] إلى قوله: {لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [(٥٥) سورة القصص].

ولهذا قال تعالى هاهنا: {فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ} [(٨٥) سورة المائدة] أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} [(٨٥) سورة المائدة] أي: ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون {وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} [(٨٥) سورة المائدة] أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} أي: جحدوا بها وخالفوها {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [(٨٦) سورة المائدة] أي: هم أهلها والداخلون فيها.

قوله: {وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} [(٨٥) سورة المائدة] هذا -كما ذكرنا سابقاً- أن الله -عز وجل- قد يذكر أمراً خاصاً ثم يأتي بعده بالحكم العام ليشمل المذكور ويدخل فيه غيره أيضاً ممن ينطبق عليه هذا الوصف، وهذا كثير في القرآن، وهي قاعدة معروفة على كل حال وهذا من أمثلتها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ} [(٨٧-٨٨) سورة المائدة].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان فبلغ ذلك النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني))[2] ورواه ابن أبي حاتم، وروى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- نحو ذلك.

قوله هنا: {لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ} [(٨٧) سورة المائدة] يدخل فيه نوعان من التحريم، ما كان على سبيل الترهب كما تدل عليه رواية علي بن أبي طلحة هذه، ويدخل فيه نوع آخر وهو أن يحرم الإنسان على نفسه شيئاً، كأن يقول مثلاً: يحرم عليَّ كذا، وكذا علي حرام، وما أشبه ذلك مما يقوله الإنسان، فهذا لا يجوز، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [(١) سورة التحريم]، فلا يجوز أن يحرم الإنسان على نفسه لا زوجة ولا أمة ولا طعاماً أو لباساً أو غير ذلك مما أباحه الله تبارك وتعالى.

يقول تعالى: {لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ} [(٨٧) سورة المائدة] "تحرموا" فعل مضارع مسبوق بالنهي وهو للعموم، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فلا يجوز التحريم سواء كان على قصد الترهب والعبادة أو كان ذلك على وجه آخر، والله أعلم.

وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن ناساً من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سألوا أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على الفراش، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[3].

ربما يكون الدافع لهذا الذي قال: لا آكل اللحم هو ما يذكره المتقدمون من أن اللحم يقوي الغريزة عند الرجل والشهوة، وكان بعض من يتنسك ويتعبد يتقلل منه أو يتركه لهذا الغرض، وقد يكون هؤلاء قصدوا بترك اللحم ترك أطيب ما كان عند العرب من الطعام ولا يجدونه إلا قليلاً، فقد يكون الدافع هذا أو ذاك، والله أعلم، لكن هذه الأشياء الثلاثة المذكورة -لا أتزوج النساء ولا آكل اللحم وأصوم ولا أفطر- يجمع بينها الجامع

---

[2] - الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦) (ج ٥ / ص ١٩٤٩) ومسلم في كتاب النكاح - باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (١٤٠١) (ج ٢ / ص ١٠٢٠).

[3] - سبق تخريجه في الصحيحين إلا أن قول أحدهم: "لا آكل اللحم" في مسلم دون البخاري وليس فيهما قوله: ((وآكل اللحم)).

المشترك وهو كسر الشهوة والتخلص منها، فالصيام يفتر الغريزة ويضعفها ومعلوم أن أكثر ما يشغل الإنسان ويشوش ذهنه ويفرق عليه قلبه هي هذه الغرائز التي أودعها الله -عز وجل- فيه حيث تشغل الإنسان فيتشوش ذهنه، والذهن يتشوش مثل المرآة، فالمرآة حينما يلحقها الغبش فإنها تحتاج إلى أن تُجلى فإذا كانت هذه الغريزة تعاوده حيناً بعد حين، فهو كهذه المرآة التي تحتاج إلى صقل، ولذلك فإنها -أي الغريزة- تنطفئ بما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم))[٤] فإذا تزوج كان ذلك كالمرآة التي تجلى، يعني أن المعاشرة يعود بعدها صفاء النفس وصفاء الذهن، والعقل يصير خالياً من أي تشويش، ثم ما يلبث أن يعاود الإنسان ويبدأ ذهنه يتفرق وهكذا، ولذلك قال بعده: ((ومن لم يستطع فعليه بالصوم)) فإنه يضعفها، والمقصود بالصوم إدمان الصوم، أي الصوم المتتابع الكثير جداً، أما صوم الاثنين والخميس وحده أو الأيام البيض فلا يكفي، أو صوم رمضان وحده لا يكفي، فالحاصل أنه قد يكون الجامع المشترك بين هذه الأشياء الثلاثة -والله تعالى أعلم- هو كسر الشهوة والتخلص من هذه الغريزة والإعراض عنها بالكلية، ولذلك ذكروا هذا، ومثل هذا حديث عثمان بن مظعون لما استأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- في شيء من هذا.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَعْتَدُواْ} [(٨٧) سورة المائدة] أي: لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، ولا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه كما قال تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ} الآية [(٣١) سورة الأعراف] وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [(٦٧) سورة الفرقان] فشرْعُ الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه لا إفراط ولا تفريط ولهذا قال: {لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٨٧) سورة المائدة] ثم قال: {وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا} [(٨٨) سورة المائدة] أي: في حال كونه حلالاً طيباً {وَاتَّقُواْ اللّهَ} [(٨٨) سورة المائدة] أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه {الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة المائدة].

{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٨٩) سورة المائدة] وقد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا -ولله الحمد والمنة- وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله.

هذا هو المشهور في تفسير اللغو في اليمين، أي هو ما يجري على اللسان من غير عقد القلب وقصده لليمين كأن تقول وأنت تتكلم: لا والله ولا تقصد الحلف، وهذا قول الجهور في تفسير اللغو في اليمين، والإمام الشافعي -رحمه الله- ذكر اللجاج واليمين في حال الغضب وأنه من اللغو، وعلى كل حال كلام أهل العلم في

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر أحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح (٤٧٧٨) (ج ٥ / ص ١٩٥٠) ومسلم في كتاب النكاح - باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (١٤٠٠) (ج ٢ / ص ١٠١٨).

تفسير اللغو في اليمين كلام مشهور وأقوالهم في هذا معروفة، وأشهر هذه الأقوال هذا القول الذي قال به الجمهور، وكذا القول الآخر وهو أنه ما قاله الإنسان لشيء يعتقده فتبين خلافه، فهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان، وهذا القول لا ينافي القول الأول وإن كان يختلف عنه.

قوله: "**لا والله، وبلى والله**" ونحو ذلك أيضاً مما يجري على الألسن هذا لا شك أنه من لغو اليمين الذي لا يؤاخذ الإنسان عليه.

ومما لا يؤاخذ الإنسان عليه أن يحلف الإنسان على شيء يعتقده فيتبيّن خلافه ولم يقصد بذلك الكذب، فمثل هذا لا يؤاخذ الإنسان فيه حقيقة فهو ملحق بلغو اليمين باعتبار عدم المؤاخذة، وإلا فإنه ليس من اللغو في حقيقته؛ لأن الإنسان يعقد قلبه عليه عقداً تاماً، فلا يقال لذلك: إنه لغو لكنه ملحق به في حكمه باعتبار أن الإنسان لا يؤاخذ عليه؛ لأن اليمين التي يؤاخذ عليها الإنسان ويكون حانثاً إن لم يلزمها -عند الجمهور- هي أن يحلف على شيء مستقبل أنه يفعله أو لا يفعله أو يفعله غيره أو لا يفعله أو نحو ذلك فهو يلزم بهذه اليمين نفسه أو يلزم غيره وهذه هي التي فيها الكفارة إذا كان قد عقد قلبه أو عقد هذه اليمين في قلبه، قال تعالى: **{وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ}** [(٨٩) سورة المائدة] **(عاقدتم الأيمان) (عقَدتم الأيمان)** -على القراءات الثلاث- هذا الذي يوجب الكفارة، أما أن يحلف الإنسان على شيء في الماضي أو على شيء حاضر أنه كذا، ويتبيّن خلافه كأن يقول: والله إن زيداً في داره -وهو يعتقد هذا- ثم يتبيّن خلاف ذلك فهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان، وكذلك لو أنه حلف في الماضي وقال: والله إن زيداً لم يسافر فتبيّن خلافه فمثل هذا لا يؤاخذ الإنسان عليه، فإن كذب في هذا فهذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، وهذه على الأرجح، -وهو قول الجمهور- أنها لا كفارة فيها، لكنها من الكبائر وتحتاج إلى توبة.

والخلاصة أن عندنا ثلاثة أنواع من اليمين: لغو لا يؤاخذ الإنسان عليه وهو ما يجري على الألسن، ويلحق به ما حلف الإنسان عليه معتقداً له على حال معينة فتبيّن خلافه، فهذا لا يوجب الكفارة وهو ملحق بلغو اليمين، ويبقى ما يوجب الكفارة وهو ما كان على أمر مستقبل يفعل أو لا يفعل، وبقي نوع آخر وهو اليمين الغموس وهذه لا توجب الكفارة، لكن توجب التوبة.

{فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ} [(٨٩) سورة المائدة] **يعني محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه.**

وقوله: {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير وعكرمة أي: من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال عطاء الخرساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم.

في قوله تعالى: **{مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة**: "**من أعدل ما تطعمون أهليكم، وقال عطاء الخرساني**: "**من أمثل ما تطعمون أهليكم**" يوجد فرق بين القولين؛ لأن كلمة أوسط تأتي لمعنيين، فهي تأتي لما وقع بين طرفين، ومنه قولهم: خير الأمور الوسط أي ما بين طرفين، وتأتي بمعنى: الأمثل والأحسن تقول مثلاً: النبي -صلى الله عليه وسلم- من أوسط قومه نسباً، يعني من أحسنهم نسباً، وعلى أحد الوجوه في التفسير في قوله تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ}** [(٢٨) سورة القلم] يعني أفضلهم وأعقلهم، وهنا **{مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ}** هل المقصود من أمثله، أو أن المقصود به ما

كان بين طرفين، يعني ليس الشيء الذي يكون في غاية الجودة ولا الشيء الرديء وإنما هو الوسط، فهل المراد الوسط بين الإسراف والتقتير، أو أن المراد الوسط بين الكثرة والقلة في المقدار؟

تفسيره بأنه الأمثل أي بمعنى أنه يُخرج الأفضل هذا فيه بعد؛ لأنه حتى في الزكاة إنما تخرج من وسط المال يعني المتوسط فلا يؤخذ الأفضل -كرائم الأموال- ولا يؤخذ أردأ المال وأقله قيمة وإنما الوسط وهذا هو العدل الذي جاءت به الشريعة، والقول بأنه بين الإسراف والتقتير لعله هو الأقرب، والله أعلم، يعني لا تكون من أجود الطعام ولا تكون من أردأ الطعام وإنما بين هذا وهذا، وإذا كان الأمر كذلك فيتبيّن خطأ من يعمد في إخراج الكفارات إلى أرخص نوع من الطعام ويخرجه.

ومن الصور الغريبة في إخراج الكفارات أنه إذا كان بعضهم يدفع كفارته للجمعيات وهي تساوي مائة ريال يشترون بها طعاماً من وسط قوت البلد فإن بعضهم يدفعها في بلد تكون فيه المائة ريال قيمة لأربع كفارات، فهل من هذا حاله يكون محققاً مراد الله تعالى في قوله: {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} [(٨٩) سورة المائدة]؟ الجواب لا، ولذلك فإن صاحب الكفارة لا بد أن ينظر إلى الذي يطعمه أهله فيخرج منه، وهذا يختلف من شخص إلى شخص؛ لأن الأقرب أن يحمل قوله: {أَهْلِيكُمْ} على أهله هو وليس المقصود عموم الناس، فهذا يختلف باختلاف الناس غنىً وفقراً وتوسعةً وتقتيراً أو ضيقاً في العيش وما أشبه هذا، فيراعى فيه حال هذا الإنسان والبلد التي يعيش فيها، فلا يعمد إلى بلد يأخذ من الطعام الذي لا يأكله هو أو حتى ربما لا تأكله بهائمه فيخرجه هناك ثم يقول: إن الذمة قد برئت، لا وإنما {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} ولذلك فالذين يخرجونها هناك ينبغي أن يراعوا هذا المعنى، فمثلاً حينما نقول: إنه يجزئ في الكفارات أن يملكهم الطعام المصنوع مثل الأرز واللحم ونحو هذا وهو مطبوخ وجاهز بحيث يأكلون منه إلى أن يشبعوا، فما القول فيما لو كان في بلد من البلدان الفقيرة التي لا يجد أهلها إلا أردأ أنواع الأرز وأرخصها ولا يكون معه شيء مما لا يأكله هو لو عُرض عليه، هل نقول: يعطيهم هذا؛ لأن هذا قوتهم وتبرأ ذمته؟ هل هذا من أوسط ما يطعم أهله؟

نقول: لا، ولكن إذا أخرجتها هناك فتخرج النوع اللائق {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} وهذه القضية يغفل عنها كثير من الناس عند إخراج الكفارات، والله أعلم.

وهناك قول آخر: وهو أنه وسط بين القلة والكثرة وهذا قول ابن جرير، وعمد إلى هذا القول بناء على النظر فيما ورد في تحديد بعض الكفارات، حيث جاءت الروايات بصاع وفي بعضها بالمد وفي بعضها بنصف الصاع، فما هو الأوسط بين الصاع في مثل زكاة الفطر ونصف الصاع في مثل من كان عليه كفارة الجماع في رمضان، حيث لما جيء للنبي -صلى الله عليه وسلم- بفرق من طعام من أجل الرجل الذي جامع في نهار رمضان وكان هذا الطعام بقدر ثلاثين صاعاً بحيث إنه إذا قسم نصف صاع فهو يعدل طعام ستين مسكيناً، فابن جرير نظر إلى هذا ونظر إلى هذا في الكفارات، وقال: الوسط هنا في كفارة اليمين أن يخرج نصف صاع، وقال: هذا هو الأعدل وجزم بهذا وقال: إن الأدلة تدل عليه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {أَوْ كِسْوَتُهُمْ} [(٨٩) سورة المائدة] هي أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه، إن كان رجلاً أو امرأة كلٌّ بحسبه، والله أعلم.

وقد يقال في هذا -والله أعلم-: إنه أيضاً من أوسط ما يخرج من الكسوة، يعني لا يعمد إلى أنواع رديئة جداً فيخرجها في الكفارة، وهذه المسألة الكلام فيها مثل الكلام في قوله -تبارك وتعالى-: {مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} [(٤) سورة المجادلة] بعد أن ذكر عتق الرقبة في كفارة الظهار وصيام الشهرين ثم ذكر بعد ذلك إطعام الستين مسكيناً ولم يقل بعده: من قبل أن يتماسَّا، فالعلماء اختلفوا إذا كان عادماً للرقبة ولم يقدر على الصيام هل يقال في الإطعام: إنه من قبل أن يتماسا أيضاً أم لا؟ فبعضهم قال: نعم إلحاقاً له بما سبق، فالمقصود أنه يقال في هذا مثل ما يقال هناك، فالكسوة هل تكون أيضاً من أوسط ما يلبس لأن المعنى الذي من أجله طولب بهذا متحقق؟!

وفي قوله: {أَوْ كِسْوَتُهُمْ} [(٨٩) سورة المائدة] لم تقدَّر بمقدار، ولهذا قال بعضهم: أدناه الثوب ولا حدَّ لأعلاه، لكن هذا يختلف من عصر إلى عصر، فقديماً الذين جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- مجتابي النمار، يعني ما علي الواحد منهم إلا قطعة قماش خرقها من الوسط وأخرج رأسه منها؛ لأنه ليس لديه شيء آخر، وربما يكون عند الإنسان الإزار وليس عنده رداء -مثل كثير من أصحاب الصفة- فقديماً ربما يلبس الرجل إزاراً وليس عنده رداء، وربما يلبس القميص وليس عنده سواه، فأدنى الكسوة هو الثوب، أما الآن إذا أراد الإنسان أن يعطي كسوة فإن ذلك لا يكفي فيه أن يدفع قميصاً أو إزاراً ويقول هذا يكفي، وإنما ينظر إلى عرف الناس فيما يلبسون، فالذي يصدق عليه هذا في عصرنا الحاضر أكثر من قيمص، والمراد بالقميص الثوب المعروف.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: عباءة لكل مسكين أو شملة، وقال مجاهد: أدناه ثوب وأعلاه ما شئت، وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك: ثـــوب ثوب.

قول أبي مالك: "**ثـــوب ثوب**" يعني يعطي لكل مسكين ثوباً، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير أيضاً، أي أنه يكفي فيه ثوب فما أعلاه مما يصدق عليه الثوب، والثوب عندهم مثل الرداء فهو يعتبر ثوباً، فقطعة القماش هذه تسمى ثوباً، وفي البخاري: "كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان"[٥]، يعني عليه إزار ورداء.

وقوله: {أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} [(٨٩) سورة المائدة] ولا بد أن تكون مؤمنة كما ثبت من حديث معاوية بن الحكم السلمي -رضي الله تعالى عنه- الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أين الله؟)) قالت: في السماء، قال: ((من أنا؟)) قالت: رسول الله، قال: ((أعتقها فإنها مؤمنة)) الحديث بطوله[٦].

قوله في تحرير الرقبة: "**ولا بد أن تكون مؤمنة**" أخذاً من هذا الحديث وأخذاً من حمل المطلق على المقيد، فالمطلق مع المقيد له أربعة أحوال، في بعضها يحمل المطلق على المقيد، وفي بعضها لا يحمل المطلق على

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وحض على اتفاق أهل العلم وما اجتمع عليه الحرمان مكة والمدينة وما كان بها من مشاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- والمهاجرين والأنصار ومصلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمنبر والقبر (٦٨٩٣) (ج ٦ / ص ٢٦٧٠).

[6] - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (٥٣٧) (ج ١ / ص ٣٨١).

المقيد بالإجماع، وفي بعض الصور خلاف، فتحرير الرقبة جاء مقيداً بالإيمان في كفارة القتل وجاء مطلقاً في كفارة الظهار وكفارة اليمين، فسبب الإعتاق في كفارة القتل وكفارة اليمين وكفارة الظهار مختلف والحكم واحد بالنسبة لمن عليه عتق –أي أن الحكم هو العتق- فهذه الصورة هي إحدى الصور الوسط التي فيها الخلاف، فالصورتان الأوليان هما:

الأولى: أن يتحد الحكم والسبب فيحمل المطلق على المقيد، والثانية أن يختلف الحكم والسبب فلا يحمل المطلق على المقيد، وبقيت صورتان وسط هما: الأولى: أن يختلف السبب ويتحد الحكم ومثال ذلك هذه الصورة التي في مسألتنا، والأقرب فيها أنه يحمل فيها المطلق على المقيد، والصورة الثانية: هي إذا اتحد السبب واختلف الحكم، ومثال هذه الصورة مسألة التيمم حيث أطلق الله -عز وجل- في قوله: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [(٤٣) سورة النساء] ولم يحدد هل المسح إلى المرافق أم لا؟، وفي الوضوء قيَّد فقال: {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [(٦) سورة المائدة] فالسبب واحد وهو الطهارة والحكم مختلف، فهنا الغسل بالماء وهناك المسح بالتراب، فلا يحمل المطلق على المقيد في هذه الصورة.

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة.

يعني أن "أو" هنا للتخيير وليست للترتيب فيتخير المرء من هذه الخصال شاء.

فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام.

نحكم بأنه لم يجد بأن نقول له حينما حنث: هل تجد رقبة أو كسوة أو طعاماً؟ فإن كان لا يستطيع ذلك بمعنى أنه لا يملك قدراً زائداً على قوت يومه وليلته ومن يعول وجهَّناه إلى صيام ثلاثة أيام، وهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم وهو اختيار ابن جرير، لكن لو أن إنساناً قال: والله أنا عندي أموال في أسهم أو عندي أراضٍ لكن هذه اللحظة ليس بيدي مال فهل أصوم؟ نقول: هذا كله مال فلا يجزئك الصيام، كما أن حال الناس اليوم اختلفت عن السابق، فمثلاً لو أن شخصاً له راتب لكن حينما حنث ليس عنده سوى قوت يومه وليلته فهل نقول: هذا عادم، وهو بعد خمسة أيام سيأتيه الراتب؟ نقول: هذا غير عاجز فلا يقال: إنه يصوم، لكن إنسان آخر ليس لديه دخل ولا شيء ولا يملك إلا قوت يومه وليلته مع عياله، فماذا يصنع؟ هذا نقول له: يجزئك الصيام، فالمقصود أن من صام وهو يستطيع العتق أو الإطعام أو الكسوة فإنه لا يجزئه الصيام.

فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام كما قال تعالى: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ} [(٨٩) سورة المائدة] وقد قرأها أبي بن كعب وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وأصحابه: (فصيام ثلاثة أيام متتابعات).

التتابع في صيام كفارة اليمين يستدل عليه بهذه القراءة وهي من القراءات الآحادية، والقراءة الآحادية تفسر بها القراءة المتواترة ويستدل بها في الأحكام ويُحتج بها في اللغة، فهذه القراءة دليل على هذا، ويحتج عليه أيضاً -من الناحية الفقهية- بحمل المطلق على المقيد في الصورة الأولى التي ذكرناها وهي إذا اتحد الحكم والسبب.

والقاعدة في القراءات أن القراءتين إن كان لكل واحدة منهما معنىً يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فضع القراءة الأولى مع القراءة الأخرى ونقول: عندنا قراءتان {ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ} هذا مطلق، و(ثلاثة أيام متتابعات) هذا مقيد فالسبب واحد وهو كفارة اليمين، والحكم واحد وهو صيام ثلاثة أيام، فنجد أنه اتحد الحكم واتحد السبب فيحمل المطلق على المقيد، وبالتالي نقول: يجب التتابع في صيام كفارة اليمين.

وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً فلا أقل أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع.

هذا كلام ابن كثير، ومراده أنه يحتج بهذا، وابن جرير يقول: إن الإنسان إذا صام متتابعاً فإنه يجزئه عند الفريقين، وإذا صام مفرَّقاً فإنه لا يجزئه عند طائفة، فطالما أن الأمر كذلك فإنه يصومه متتابعاً بهذا الاعتبار، والله أعلم.

وقوله: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ} **أي: هذه كفارة اليمين الشرعية** {وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ} **قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير** {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} **أي: يوضحها ويفسرها** {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٨٩) **سورة المائدة].**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ* وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ* لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(٩٠-٩٣) سورة المائدة].

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: "الشطرنج من الميسر" ورواه ابن أبي حاتم.

روى ابن أبي حاتم عن عطاء ومجاهد وطاوس -قال سفيان: أو اثنين منهم- قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز.

وعن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: الميسر هو القمار، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة.

وأما الأنصاب فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قداح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبي حاتم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد سبق الكلام على هذه المعاني التي في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ..} [(٩٠) سورة المائدة] وذكرنا أن كل الأنواع التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- كالنرد والشطرنج وسائر الألعاب التي يُقامرُ بها داخلة فيه.

وأما الأنصاب فذكرنا كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ومن وافقه أن المراد بها كل ما نُصب ليُعبد من دون الله -عز وجل- من الأحجار والأشجار وما إلى ذلك مما يقصده العابدون ليذبحوا عنده ويتقربوا إليه، وبعضهم خصَّ ذلك بأحجار كان يُذبح عندها، وقيل غير ذلك، وعلى كل حال فالأنصاب هي كل ما نصب ليعبد من دون الله -عز وجل-.

والأزلام قال: "**هي قداح كانوا يستقسمون بها**" ويدخل في هذا كل ما يفعلونه طلباً لمعرفة الغيب والكشف عن المستقبل حيث كان الواحد إذا أراد سفراً أدخل يده في كيس أو خريطة ويستخرج قدحاً، وهذه الأقداح قد كتب على بعضها "لا تفعل" وكتب على الآخر "افعل" والثالث لا يكتب عليه شيء، وعلى كل حال العلماء تكلموا بالتفصيل في أخبار العرب وفي قصص العرب وما كانوا يتعاطونه في جاهليتهم من هذه القضايا، وقد مضى شيء يسير من ذلك ومن أراد معرفة شيء من هذا فليتطلبه في مظانه حيث إنه ألفت كتب في الميسر وفي ألعاب الصبيان عند العرب، وكتبت كتابات تتعلق بالأزلام وطريقة العرب فيها واسم هذه القداح، وبعضهم زاد فيها على الثلاثة وذكر أسماء كثيرة، ولهم في ذلك طرق معروفة، وعلى كل حال فكل ما كانوا يتعاطونه مما يطلبون فيه معرفة الغيوب فهو داخل في هذا سواء عن طريق قدح يستخرجه، أو بطريقة أخرى يريد أن يعرف بها هذا.

وقوله تعالى: {رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [(٩٠) سورة المائدة] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي سُخط من عمل الشيطان.

عبارات السلف في الرجس سواء قيل: السخط أو الإثم أو كما قال ابن جرير هو النتن، كل هذا صحيح؛ لأن الرجس والركس يقال بإزاء معنيين اثنين أو هو يدور على معنى النجس ويدخل فيه النجس حساً والنجس معنىً، فالنجاسة المعنوية يقال لها: رجس قال تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [(٣٠) سورة الحج] ونجاسة الأوثان قطعاً ليست نجاسة حسية، فكل دنس يقال له: رجس سواء كان ذلك من الدنس الحسي أو كان ذلك من الدنس المعنوي، والدنس الحسي مثل الأقذار والنجاسات، فإنه يقال لها: رجس وركس، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في روثة الحمار: ((هذه ركس))[1] والركس هو النجس، وكذلك يقال أيضاً للأمور النجسة نجاسة معنوية كالشرك، وسائر الآثام يقال لها رجس، ولهذا فسره بعضهم بالإثم، وفسره بعضهم بالنتن -كما قال ابن جرير- وقال هنا: أي سخط من عذاب الله -عز وجل-، والسخط إنما يكون بسبب مقارفة ما حرم الله -تبارك وتعالى- وهذا هو الإثم.

وقال سعيد بن جبير: إثم، وقال زيد بن أسلم: أي: شرٌّ من عمل الشيطان.

قوله: "**من عمل الشيطان**" يعني من تسويله وتزيينه للناس، فصار بهذا الاعتبار من عمل الشيطان، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ} [(١٠) سورة المجادلة] يعني من تزيينه وتسويله، فصارت من عمله بهذا الاعتبار، وهكذا كل ما يزينه الشيطان لابن آدم فهو من عمله، فهذا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ليس مما دعا إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أو أنه مما يعد من مكارم الأخلاق ومن الأعمال الطيبة الحسنة وإنما هو من الأمور السيئة التي تجلب العداوة والبغضاء بين الناس، فمثل هذا يقال: إنه من عمل الشيطان، يعني من تزيينه وتسويله لابن آدم.

{فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] الضمير عائد إلى الرجس أي: اتركوه.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الطهارة - باب الرخصة في الاستطابة بحجرين (٤٢) (ج ١ / ص ٣٩) وأحمد (٣٩٦٦) (ج ١ / ص ٤١٨) وصححه الألباني في صحيح النسائي برقم (٤٢).

يقول: "**الضمير عائد إلى الرجس**" والرجس يعود إلى هذه الأمور المذكورة جميعاً أي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس، والرجس هو النجس.

والعلماء الذين يقولون: إن الخمر نجاستها نجاسة حسية وليست معنوية مما يحتجون به بل أشهر الأدلة التي احتجوا بها هو هذا الدليل {رِجْسٌ} وعلى كل حال الله -عز وجل- هنا قرنها بالميسر والأنصاب والأزلام وهذه الأشياء الثلاثة قطعاً ليست نجاستها نجاسة حسية إطلاقاً، وإنما هي نجاسة معنوية، ولما حرمت الخمر ماذا فعل بها الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-؟ أراقوها في سكك المدينة فلو كانت نجاسة الخمر نجاسة حسية لما أريقت بسكك المدينة؛ لأن هذا تقذير لها وتلويث لها بالنجاسات التي يلامسها الناس ويمرون بها ويطئون عليها، إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على أن الخمر طاهرة العين ولكنها نجسة نجاسة معنوية، ولكن يمكن لمانع الانتفاع بالخمر أو بما أسكر بوجه من الوجوه أن يحتج بعموم المقتضى -يعني المحذوف المقدر في قوله: {فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة]- فإن الله -عز وجل- ما قال: فاجتنبوا شربه مثلاً وإنما قال: {فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] والأصل في المقتضى أنه يحمل على أعم معانيه، وهذا الذي عليه الجمهور، فيقال: {فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] أي اجتبوا شربه واجتنبوا سائر أنواع الانتفاع من التطيب أو غير ذلك، وليس لأنه نجس نجاسة حسية، وهذا وجه إلا أن هذا فيه إشكال، والذي قد يكون أقرب -والله تعالى أعلم- أن يقال: إنما وضع من أجل أن يُتعاطى على وجه الإسكار فيحرم ويجب إراقته ولا يجوز إبقاؤه بحال من الأحوال، ولا إهداؤه ولا بيعه ولا غير ذلك، وأما ما وضع على وجه آخر فإنه لا يقال: إنه يحرم تعاطيه على ذلك الوجه الذي وضع له ولو كان إن استعمله أحد أسكره فإنه لم يوضع لهذا أصلاً كما يقال في أنواع من المصنوعات والمنتجات والأشياء كالغراء ونحوه فهي لم توضع من أجل أن تكون مسكرة لكن لو تعاطاها الإنسان بأكل أو شرب أو شم أو غير ذلك فقد يسكر، فلا يقال: إنها تحرم، والله تعالى أعلم، وإنما ما وضع لهذا المعنى -يعني ليؤكل أو ليشرب أو يشم أو يكون عن طريق إبر أو نحو ذلك للإسكار- فهذا يحرم اقتناؤه ويحرم تعاطيه ويحرم إهداؤه وبيعه وصناعته، وإلا فهل يقال لمن يصنع الصمغ مثلاً -حيث إن بعض أنواعه يسكر-: إنه ملعون كما لعنت الخمر وحاملها والمحمولة إليه؟ وهل يقال لهؤلاء الذين يصنعون البنزين: إنهم ملعونون وكذا حامله والمحمول ومشتريه وبائعه؟ يعني أن الله لعن في الخمر عشرة والبنزين يسكر –أيضاً- فهل يقال فيه هذا؟ وإذا أصاب البنزين ثوبك فمعنى ذلك أنك تحتاج إلى غسل الأثر، فهل يقال هذا؟!

المقصود أن نجاسة الخمر نجاسة معنوية وليست حسية، وإنما يحرم بيع وتصنيع ما عمل لهذا الغرض وما عداه فلا يحرم، لكن لو أن أحداً تعاطى تلك الأشياء على وجه الإسكار فهذا يحرم قطعاً بلا مرية، والله تعالى أعلم.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] وهذا ترغيب.

"لعلَّ" في جميع المواضع في القرآن يمكن أن تفسر بأنها للتعليل إلا في موضع واحد وهو قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [(١٢٩) سورة الشعراء] أي: كأنكم تخلدون، وبهذا ينحل الإشكال؛ لأن أصل "لعل" للترجي والله لا يترجى، ولو فسرت للترجي يمكن أن يُخرّج هذا على وجه معروف وهو أن الخطاب قد يرد

مراعىً فيه حال المخاطب، كما في قوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [(٤٤) سورة طـه] أي على رجائكما، وهذا له أنواع كثيرة، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] وهذا تهديد وترهيب.

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ} [(٩١) سورة المائدة] أي إنما حرمت هذه الأشياء من أجل هذا، فيدخل فيه سائر أنواع الألعاب التي تصد عن ذكر الله -عز وجل- وتشغل عنه ولو لم يرد فيها النص بخصوصه، ولذلك فإن السلف نصوا على تحريم الشطرنج مع أن الحديث ورد في النرد سواء كان على سبيل اللعب من غير مال يدفعه الإنسان أو كان بمال، فالشطرنج يدخل فيه أيضاً غيره من الألعاب التي تلهي عن ذكر الله -عز وجل- وتسبب العداوة والبغضاء والمشاحنات بين الناس فلا فرق بينها وبين هذه الأمور.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنهما فأنزل الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} إلى آخر الآية [(٢١٩) سورة البقرة] فقال الناس: ما حرما علينا إنما قال: {فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله أغلظ منها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [(٤٣) سورة النساء] فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أنزلت آية أغلظ منها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] قالوا: انتهينا ربنا، وقال الناس: يا رسول الله..

هذا الترتيب في ذكر المراحل الثلاث هو المشهور وهو الذي تدل عليه الروايات خلافاً لمن قال: إن أول ما نزل في الأشربة –يعني الخمر- هو قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} [(٦٧) سورة النحل] يقولون: امتن عليهم بها لشدة حبهم لها وكانت من مفاخرهم، والواقع أن قول الله -عز وجل-: {سَكَرًا} فسره كثير من السلف بأن المراد ليس المسكر فالله لا يمتن عليهم بالمسكر، وإنما المراد به ما يتخذ من العصير من هذه الثمرات، ولا يلزم من ذلك أن يكون على وجه الإسكار، وعلى هذا يكون الذي نزل في الخمر أولاً هو قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} [(٢١٩) سورة البقرة] ثم {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء] ثم بعد ذلك قوله: {فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] يعني على هذه المراحل الثلاث.

وقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وناس ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] إلى آخر الآية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم)) انفرد به أحمد.

على كل حال هذا الجزء أو هذه الرواية في سبب النزول تدل على أن قوله: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] فيمن لم يبلغه الحكم، أي أنه شربها ولم يبلغه الحكم أو أن ذلك كان قبل التحريم كما نزلت هذه الآية في هؤلاء الذين سألوا عمن قتل قبل تحريمها، وبهذا نعرف أنه لا يجوز لأحد بحال من الأحوال أن يحتج بهذه الآية {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] على أنه يمكن أن يكون متقياً وهو يشرب الخمر، ومعلوم ما وقع من قدامة بن مظعون حينما كان في البحرين فشرب الخمر مع بعض أصحابه ثم شهد عليه أبو هريرة -رضي الله عنه- وجماعة، وجيء به إلى عمر، أو دعاه عمر وهو من أهل بدر فاحتج بهذه الآية: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ} [(٩٣) سورة المائدة] فعمر -رضي الله تعالى عنه- بيّن وجه هذه الآية، وعلى كل حال أولئك تأولوا هذا التأويل، فبيّن لهم فرجعوا وتركوها، فليس لأحد أن يشربها محتجاً بمثل هذا، فإنه لا يكون متقياً إذا كان يفعل ما حرم الله -عز وجل- عليه من هذه الآثام والكبائر.

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [(٢١٩) سورة البقرة] **فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى}** [(٤٣) سورة النساء] **فكان منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قال: حي على الصلاة نادى: لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}** [(٩١) سورة المائدة] **قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: انتهينا انتهينا، وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي**[٢].

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال في خطبته على منبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

يعني في زمانهم كانت الخمر تصنع من هذه الأشياء، لكن هذه الجملة التي ختم بها "**والخمر ما خامر العقل**" تدل على أن كل ما يصنع مما يكون مسكراً فإنه داخل فيها، فألوان الثمرات في الدنيا صار الناس يصنعون منها الخمر كما يصنعونه من أشياء أخرى ليست من جملة المطعومات، فهذا كله داخل فيها ولا تختص بنوع دون نوع ولا بثمرة دون ثمرة، فالله -عز وجل- إنما علق التحريم بهذا {إِنَّمَا الْخَمْرُ} [(٩٠) سورة المائدة] فكل ما خامر العقل فهو خمر وما خص به بعض هذه الأنواع، خلافاً لمن خصه ببعضها فأباح النبيذ المسكر، وعلى كل حال ذلك قول قد انقرض قائلوه فلم يعرف من يقول بهذا اليوم، والله تعالى أعلم.

---

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة – باب في تحريم الخمر (٣٦٧٢) (ج ٣ / ص ٣٦٤) والنسائي في كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر قال الله تبارك وتعالى: {{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة} (٥٥٤٠) (ج ٨ / ص ٢٨٦) وأحمد (٣٧٨) (ج ١ / ص ٥٣) وصححه الألباني في صحيح النسائي برقم (٥٥٤٠).

وروى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربه ما فيها شراب العنب.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبيَّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آتٍ من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حُرِّمت؟، فقالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس اسكب ما بقي في إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ" [أخرجاه في الصحيحين].

وفي رواية عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر، فإذا منادٍ ينادي، قال: اخرج فانظر، فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت فجرت في سكك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم: قتل فلان وفلان وهي في بطونهم قال: فأنزل الله:{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} الآية [(٩٣) سورة المائدة].

كان من عادتهم وهي عادة العرب حتى في الجاهلية أنهم كانوا يشربون الخمر إذا أرادوا الحرب، وقد ذُكرت بعض منافعها عند الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [(٢١٩) سورة البقرة] ومما ذكر من جملة منافعها أن الجبان يتشجع في الحرب وذُكر هذا كثيراً في أشعارهم من أنه إذا شربها فإنه لا يبالي بشيء مما يلاقيه أمامه من العدو، وذكروا من جملة فوائدها -قبحها الله- أن البخيل يجود وربما أتلف ماله وهو لا يُخرج شيئاً في حال الصحو، لكن هذه منافع ضئيلة في مقابل مفاسدها الكثيرة.

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- حتى مالت رءوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرِّمت، قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سُليم -رضي الله تعالى عنها- ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [(٩٠) سورة المائدة] إلى قوله تعالى: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] فقال رجل: يا رسول الله فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} الآية [(٩٣) سورة المائدة] فقال رجل لقتادة: أنت سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: نعم، أو حدثني من لم يكذب وما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لُعِنَت الخمر على عشرة أوجه لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحمالها والمحمولة إليه وآكل ثمنها)) ورواه أبو داود وابن ماجه[٣].

وروى أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المربد فخرجت معه فكنت عن يمينه.

قوله: "**إلى المربد**" المربد يطلق على المكان الذي تُجمع فيه الغنم أو الإبل، ويقال أيضاً للمكان الذي يجمع فيه التمر.

فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكنت عن يساره، ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره، فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر، قال ابن عمر: فدعاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدية.

قوله: "**فإذا بزقاق على المربد**" يعني ظرفاً أي وعاء من جلد أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يشقه.

قال ابن عمر: وما عرفت المدية إلا يومئذ، فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: ((لعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحمالها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها))[٤].

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث، قال: وصنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرَّم حتى انتشينا فتفاخرنا فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لَحْى جزور فضرب به أنف سعد ففزره وكان أنف سعد مفزوراً فنزلت {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ} [(٩٠) سورة المائدة] إلى قوله تعالى: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] أخرجه مسلم[٥].

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: إن هذه الآية التي في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] قال: هي في التوراة "إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب والمزامير والزفن والطنابير والشعر..".

الأحاديث السابقة كلها أحاديث صحيحة، وهي إما صحيحة بذاتها وإما بطرقها أو شواهدها، وأقل ذلك ما كان من قبيل الحسن لغيره، والمختصر ينتقي، لكن هذه الرواية التي جاء بها هنا هي من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- وقد كان يقرأ في كتب أهل الكتاب، ومعلوم أنه في وقعة اليرموك حصل زاملتين فكان يقرأ منهما ويحدث بذلك.

---

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة - باب العنب يعصر للخمر (٣٦٧٦) (ج ٣ / ص ٣٦٦) وابن ماجه في كتاب الأشربة - باب لعنت الخمر على عشرة أوجه (٣٣٨٠) (ج ٢ / ص ١١٢١) وأحمد (٤٧٨٧) (ج ٢ / ص ٢٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٣٨٠).

[4] - أخرجه أحمد (٥٣٩٠) (ج ٢ / ص ٧١) وقال شعيب الأرنؤوط: حسن والمرفوع منه صحيح بطرقه وشواهده.

[5] - أخرجه أحمد (١٦١٤) (ج ١ / ص ١٨٥) والبيهقي (١٧٧٨٨) (ج ٨ / ص ٢٨٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وبعض هذا الحديث في صحيح مسلم مختصراً في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (١٧٤٨) (ج ٤ / ص ١٨٧٦).

يقول -أي في التوراة-: "**أنزل الله الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب**" اللعب يعني اللعب الباطل، وعلى كل حال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل شيء من لهو الدنيا باطل))[٦] ثم استثنى الثلاث، وكلمة "باطل" في الحديث لا تعني التحريم، فاللعب منه ما هو محرم، ومنه ما يذم الإكثار منه كما قال الشاطبي -رحمه الله-؛ لأن الإكثار من المباحات والتوسع فيها كالإكثار من اللعب أو التنزه يُذهب المروءة وترد شهادة من فعل ذلك، وتسقط به عدالته -يعني مَن أكثر من اللعب حتى عُرف به- وهناك لعب محرم أيضاً.

يقول: "**يبطل به اللعب والمزامير والزَّفْن**" المزامير يعني المعازف، والزفن يعني الرقص، والكَبَارات يعني الطبول سواء كان مغطىً من الوجهين أو من وجه واحد، ولهذا إذا قال المؤذن الله أكبار –بزيادة الألف- فإن المعنى يتحول فبدلاً من أن يكون المعنى "الله أكبر" صار شيئاً آخر، فالكَبَر هو الطبل، فالكَبَارات تقال للطبول في كلام العرب والبَرابِط آلة موسيقية توضع على الصدر مثل العود، والزَّمَّارات معروفة فهي قصبة مثقوبة تصدر صوتاً إذا نفخ فيها، والمقصود أن هذه الأنواع من الملاهي والمعازف كلها محرمة فهي تصد عن ذكر الله -عز وجل- وتشغل عنه، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ}** [(٦) سورة لقمان] وكلام ابن مسعود في هذا معروف حيث قال: "والذي لا إله غيره إنه الغناء" وأبو بكر -رضي الله عنه- حينما دخل بيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وجد الجاريتين تضربان بالدف –أي بنتين صغيرتين- ومع ذلك قال: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فما أنكر عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- الحكم أنه مزمور الشيطان وإنما بيّن له علة استُثني فيها هذا، فقال: ((دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد))[٧] فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقره على أن هذا مزمور الشيطان، فمن أين عُرف هذا؟

في قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [(١١) سورة الجمعة] ذُكر في سبب النزول أن عيراً أتت لدحية بن خليفة الكلبي -رضي الله عنه- قبل إسلامه فضرب بين يديها بالطبل إيذاناً بقدوم العير كما كانت عادة الناس إذا قدمت العير، وهذا الرجل ما كان من المسلمين، وقد يكون هذا حصل قبل تحريم المعازف، قال تعالى: **{انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [(١١) سورة الجمعة] أي إلى عير التجارة، فالمقصود أن الله سمى هذا لهواً، فهذا وغيره يدل على أن هذه المعازف بجميع أنواعها من الباطل وأنها لا تجوز إلا في حالتين فقط: الأولى: في العيد لقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((دعهما فإنها أيام عيد))، والثانية: في الزواج كما في حديث عائشة: "هلا بعثتم معهم بلهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو، أعلنوا هذا النكاح واضربوا عليه بالدف" والمراد بإباحته في النكاح أنه يباح في اليوم الذي يعلن فيه النكاح وليس دائماً، وكذلك قولنا في العيد يعني في يوم عيد الفطر فقط -يوم واحد وليس ثلاثة أيام- أما في عيد الأضحى -العيد الأكبر- فهناك ثلاثة أيام بعده كلها أيام عيد بنص حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأما ما عدا أيام العيد والنكاح فلا يجوز، وهذه قضية لا يكاد ينازع فيها أحد من أهل العلم لكن في هذا الوقت -وقت الفتن

---

[6] - أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣٠٩) (ج ٥ / ص ٢٧٨) وفي الكبير (١٣٠٩) (ج ٢٠ / ص ٤٤) والحاكم (٢٤٦٨) (ج ٢ / ص ١٠٤).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب العيدين – باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى (٩٤٤) (ج ١ / ص ٣٣٥) ومسلم في كتاب صلاة العيدين - باب الرخصة في اللعب الذي لامعصية فيه في أيام العيد (٨٩٢) (ج ٢ / ص ٦٠٧).

التي تموج بالناس- تجد من يكتب أن اللحية لا يجب إعفاؤها ويجوز حلقها، وربما قال بعضهم يستحب حلقها، والمعازف مباحة ومع أن الحديث في الصحيح: ((ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف))[٨] فتجده يضعفه، لكن مثل هؤلاء لا تُشترَى كُتبهم ولا يلتفت إلى كلامهم ولا يُشتغل بهم، وينبغي لطالب العلم أن ينأى بنفسه عن الشذوذات؛ لأنه حتى لو كان الإنسان يعتقد هذا فليس من المصلحة إخراج هذا في زمن اضطرب فيه الناس غاية الاضطراب وصاح بهم الشيطان حتى زلزلهم عن كثير من ثوابتهم وعقائدهم وقال لهم: كل ما تعلمتموه عبر هذه العقود الطويلة لا تسمعون فيه غير إنه حرام!!.

إباحة الضرب بالدف خاص بالنساء:

إباحة الضرب بالدف في العيد وعند إعلان النكاح إنما هو للنساء فقط، لكن إذا وصل صوت الدف إلى الرجال بسبب قربهم فإن الرجال لا يطالبون بالانتقال إلى مكان حيث لا يسمعون فيه، وكذلك إذا جاءت الجارية في البيت لتضرب بالدف وأهل البيت من الرجال موجودون فلا يطلب منهم الخروج، وكذا لو ضربت فيه المرأة من محارمهم فلا إشكال في هذا، لكن المقصود أن ذلك لا يكون للرجال، ولذلك عندما يأتون في الأعراس بشريط فيه رجال يضربون بالدف وينشدون فإنه يقال: ليس لهم هذا أصلاً وإذا كان هذا لا يجوز لهم فليس لكم سماع هذا الباطل؛ لأن فعلهم هذا منكر، فليس للنساء أن يأتين بصوت رجل ينشد ويضرب بالدف في العيد أو في الزواج ثم يقال: إنما الدف للنساء، فهذا هو الفرق؛ لأنه إذا كان فعل الرجل هذا محرم -وهو الإنشاد مع ضربه بالدف- فليس لأحد من الرجال ولا النساء أن يسمع هذا الباطل وإنما يرخص فيه للنساء بمعنى أن يضربن بالدف في هذه الحالات فقط، والله أعلم.

والطنابير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها، أقسم الله بيمينه وعزته من شربها بعدما حرمتها لأعطشنه يوم القيامة، ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه في حظيرة القدس، وهذا إسناد صحيح.

هو إسناد صحيح إلى عبد الله بن عمرو، لكنه متلقًّى من كتبهم الإسرائيلية –من التوراة- وهذه دخلها التحريف إلا أن هذا في الجملة يوافق ما في القرآن.

حديث آخر: قال الشافعي -رحمه الله-: أنبأنا مالك عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة)) أخرجه البخاري ومسلم[٩].

وروى مسلم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مسكر خمر وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة))[١٠].

---

[8] - أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الأشربة - باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه (٥٢٦٨) (ج ٥ / ص ٢١٢٣) وابن حبان (٦٧٥٤) (ج ١٥ / ص ١٥٤) والطبراني في الكبير (٣٤١٨) (ج ٣ / ص ٢٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٤٦٦).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الأشربة (٥٢٥٣) (ج ٥ / ص ٢١١٩) ومسلم في كتاب الأشربة - باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها بمنعه إياها في الآخرة (٢٠٠٣) (ج ٣ / ص ١٥٨٧).

[10] - أخرجه مسلم في كتاب الأشربة - باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠٣) (ج ٣ / ص ١٥٨٧).

هذه الأحاديث وردت في خصوص شارب الخمر، ومن أهل العلم من ذهب إلى أن من تعاطى شيئاً من الشهوات المحرمة فإنه يُحرم نظيره في الآخرة، وهذا مشى عليه ابن القيم -رحمه الله- ولم يقتصر فيه على ما ورد فيه النص، إلا أن هذا لا يخلو من إشكال؛ لأن مثل هذه الأمور إنما تتلقى من الوحي ولا يدخلها القياس، لكن لا شك أن من تعاطى هذه الشهوات فإنها تنقص مرتبته في الآخرة، بل حتى التوسع في المباحات شأنها كذلك على قول بعض السلف كعمر -رضي الله تعالى عنه- حيث كان يتأول في ذلك قول الله -عز وجل-: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا} [(٢٠) سورة الأحقاف] مع أن المشهور أن تعاطي المباحات في الدنيا لا ينقصه عند الله -تبارك وتعالى- إذا أدى حق الله عليه فلم يكن مضيعاً، وهما قولان للسلف معروفان، ومن أراد أن يستزيد في تعاطي المباحات هل يؤثر أم لا فليراجع كتاب الموافقات في الكلام على المباح حيث ذكر مذهب عمر وما نقل عنه في هذا، ومن وافقه من السلف.

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- يقول: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً فقال: زيدوني فلم يَرِم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه" [رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح] **وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر مرفوعاً، والموقوف أصحُّ والله أعلم.**

وروى أحمد بن حنبل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما حرمت الخمر قال ناس: يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} إلى آخر الآية [(٩٣) سورة المائدة] **ولما حوّلت القبلة قال ناس: يا رسول الله، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة][11].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لما نزلت {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] **فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((قيل لي: أنت منهم)) وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريقه**[12].

في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(٩٣) سورة المائدة] ثم بعد ذلك كرره {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} ثم كرر أيضاً فقال: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] ذكر هذا ثلاث مرات، فمن أهل العلم من يقول: هذا للتوكيد، ومنهم من يجعل ذلك بحسب

---

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة المائدة (٣٠٥٠) (ج ٥ / ص ٢٥٤) وأحمد (٢٤٥٢) (ج ١ / ص ٢٧٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٥٠).

[12] - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه -رضي الله عنهما- (٢٤٥٩) (ج ٤ / ص ١٩١٠).

الأزمنة الثلاثة، بمعنى أن قوله: {اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} في الماضي، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} في الحاضر، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ} في المستقبل.

ومعلوم أن التحليل والتحريم -بل التكليف عموماً- من شروطه بلوغ الخطاب والعقل، وهؤلاء الذين شربوا الخمر قبل نزول الحكم لا يتعلق بهم التحريم، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف} [(٩٥) سورة المائدة] كما سيأتي في الكلام على الصيد، ويقول: {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ} [(٢٢) سورة النساء] وما أشبه ذلك، فهذه من شروط التكليف.

ولما حرم الله الربا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ} [(٢٧٨-٢٧٩) سورة البقرة].

وبعض أهل العلم يقول في قوله تعالى: {إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(٩٣) سورة المائدة] أي: اتقوا المحرمات وعملوا الصالحات، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} يعني بعد التحريم اتقوا ما حرم عليهم، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ} يعني ما حرم عليهم بعد ذلك التحريم؛ لأن الشريعة نزلت شيئاً فشيئاً حتى اكتملت، كما قال الله -عز وجل-: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [(٣) سورة المائدة] وكما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الله فرض عليهم الإيمان، ثم بعد ذلك زادهم الصلاة، فلما أذعنت قلوبهم زادهم الزكاة، ثم لما أذعنت قلوبهم زادهم، وهكذا حتى اكتمل الإيمان.

وبعضهم يقول: هذه الجمل الثلاث هي باعتبار المراتب الثلاث وهي المبدأ والوسط والمنتهى، وبعضهم يقول: هي بالنظر إلى ما يتقيه الإنسان ويجتنبه، فالمحرمات يتركها الإنسان من أجل اتقاء العذاب، والشبهات توقياً للحرام، ويتقي التوسع في المباحات حفظاً للمروءة؛ لأن التوسع فيها قد يذهب مروءته، وهذا لا يخلو من إشكال في تفسير الآية.

وبعضهم يقول: قوله: {اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} يعني اتقوا الإشراك وآمنوا بالله ورسوله، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ} [(٩٣) سورة المائدة] يعني اتقوا الكبائر، وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] يعني اتقوا الصغائر، وهذا أيضاً لا يخلو من إشكال.

وعلى كل حال يمكن أن يقال: إن الأول {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] بتلقي أمر الله -عز وجل- بمعنى أنهم كانوا محققين للإيمان منقادين لله -تبارك وتعالى- بقلوبهم وجوارحهم ويقبلون عن الله -عز وجل- ويصدقون أحكامه ويعملون بطاعته.

وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ} [(٩٣) سورة المائدة] أي ثبتوا على إيمانهم وعلى تقواهم.

وقوله: {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ} أي تقربوا إليه بألوان القربات التي ترفعهم كألوان النوافل وتوقي المشتبهات وما أشبه ذلك مما يصل به الإنسان إلى درجة الإحسان.

هذا هو الأقرب في تفسير الآية وهو الذي قال به كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- والعلم عند الله -عز وجل-.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [(٩٤-٩٥) سورة المائدة].

قال الوالبي عن ابن عباس قوله: {لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ} [(٩٤) سورة المائدة] قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه.

وقال مجاهد: {تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ} [(٩٤) سورة المائدة] يعني صغار الصيد وفراخه {وَرِمَاحُكُمْ} يعني كباره.

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون {لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [(٩٤) سورة المائدة].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ} [(٩٤) سورة المائدة] ذهب بعض أهل العلم -كالإمام مالك -رحمه الله- إلى أن هذا الخطاب للمُحلِّين، وكان ذلك في عام الحديبية، ومعلوم أن الصيد يحرم على المحرم سواء كان ذلك في أرض الحرم أو في غيره، وأما غير المحرم فإنه يشترك مع المحرم في التحريم إذا كان في أرض الحرم -في حدود الحرم- والحديبية منها ما هو في الحرم ومنها ما هو في الحل، فالمقصود أن الإمام مالك ذهب إلى أنها في المُحلِّين، وكان ذلك في عام الحديبية، وعلى كل حال فالخطاب عام {لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ} [(٩٤) سورة المائدة] فهو لا يختص بالمُحلِّين، ويمكن أن يقال: إنه أيضاً لا يختص بالمحرمين، كما ذهب إليه كثير من أهل العلم، بل هو حيث يحرم الصيد، سواء كان ذلك لحالٍ تلبّس بها العبد -وهي الإحرام- أو كان ذلك لمحل دخله -وهو أرض الحرم- فحيث ما حرم عليه الصيد في حال أو محل فإنه مخاطب بهذا.

وقوله: {لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ} [(٩٤) سورة المائدة] يدل على قرب الصيد منهم، ودنوّه بحيث إنه يكون قريب المأخذ، هذا هو المراد والله تعالى أعلم، وهذا ابتلاء وامتحان كما قال الله:

{لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [(٩٤) سورة المائدة] فاللام للتعليل، فالله ابتلاهم بذلك كما جاء في الرواية التي عن مقاتل "**فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم**" وهذا أحسن من أن يُخص ما تناله اليد بالبيض كبيض النعام مثلاً والفراخ التي لا تستطيع أن تنأى بنفسها عمن أرادها، والذي تناله الرماح ما عدا ذلك، فالصيد يكون قريباً منهم يبتليهم الله -عز وجل- به، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في طريقه إلى مكة مر بظبي حاقف يعني قد مال رأسه على جنبه فنهاهم عن أن يريبوه وأوقف عنده رجلاً[١] وهم على كثرتهم ما رابه أحد ولا اعتدى عليه أحد، وهذا من فضل الله -عز وجل- على هذه الأمة فقد ابتلاهم في بعض المناسبات بخوف وطمع كما ابتلى بني إسرائيل بخوف وطمع حيث أمرهم بدخول قرية الجبارين فقالوا: {يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [(٢٤) سورة المائدة] وابتلاهم بطمع في القرية التي كانت حاضرة البحر فكانت تتهافت عليهم الحيتان في يوم السبت، فلم يحجزهم التحريم عن التعدي في يوم السبت، فحملهم القَرَمُ على تعدي حدود الله -عز وجل- والاصطياد في ذلك اليوم الذي حرم عليهم الاصطياد فيه، وأما هذه الأمة فابتلاهم بطمع كما في هذا المقام فما تعدى منهم أحد، وابتلاهم بخوف كما في يوم بدر حيث سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا له: لا نقول لك كما قال أصحاب موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل نقول: إنا معك مقاتلون نقاتل عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ومن خلفك.

فالحاصل أن قوله: {تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ} [(٩٤) سورة المائدة] يشمل هذا جميعاً فيكون قريباً منهم في متناول اليد، والله تعالى أعلم.

{لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [(٩٤) سورة المائدة] يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(١٢) سورة الملك].

وقوله هاهنا: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ} [(٩٤) سورة المائدة] قال السدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلان والإنذار والتقدم، {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٩٤) سورة المائدة] أي: لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ} [(٩٥) سورة المائدة] وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ونهي عن تعاطيه فيه، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور))[٢].

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور)) أخرجاه[٣].

---

1 - أخرجه النسائي في كتاب مناسك الحج – باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد (٢٨١٨) (ج ٥ / ص ١٨٢) وأحمد (١٥٧٨٢) (ج ٣ / ص ٤٥٢) وقال الألباني: صحيح الإسناد.

2 - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب ما يقتل المحرم من الدواب (١٧٣٢) (ج ٢ / ص ٦٥٠) ومسلم في كتاب الحج - باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (١١٩٩) (ج ٢ / ص ٨٥٨).

ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنهما- مثله، قال أيوب: فقلت لنافع: فالحية؟، قال: الحية لا شك فيها ولا يختلف في قتلها، وألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد؛ لأنها أشد ضرراً منه أو لأن الكلب يطلق عليها، فالله أعلم.

الكلب له إطلاقان، له إطلاق متبادر وهو الكلب المعروف، والأصل: أن يحمل مثل هذا الخطاب على الظاهر المتبادر، وقد يطلق بإطلاق أوسع من هذا وهو عند العرب يدخل فيه ما ذكر، كالذئب والنمر والأسد والفهد وما أشبه ذلك، ويدل على هذا: الحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم سلط عليه كلباً من كلابك))[4] فعدا عليه الأسد، فهو كلب بهذا الاعتبار، ولذلك فإن بعض من ذكر أسماء الكلب ذكر منها كل هذه الأشياء وقال: إن أبا العلاء المعري -وهو رجل أعمى البصر والبصيرة ولكل مسمى له من اسمه نصيب- كان يمشي في المسجد فعثر برجْل رجلٍ نائم في المسجد فقال النائم: من هذا الكلب فقال: الكلب الذي لا يعرف للكلب سبعين اسماً، فالسيوطي لما رأى هذا ألف رسالة سماها "التبري من معرة المعري" فجمع للكلب مائة اسم ثم نظمها، فله رسالة في هذا، وذكر من أسماء الكلب الذئب والأسد والنمر، وذكر هذه الأشياء جميعاً، فهي عند العرب بهذا الاعتبار، وأما أهل علم الحيوان المعاصر فعندهم فصيلة الكلبيات لا يدخلون فيها الأسد مثلاً؛ لأنه عندهم من فصيلة السنوريات، وعلى كل حال لا عبرة بهذه الاصطلاحات الجديدة، لكن الكلام يحمل على الظاهر المتبادر.

والمقصود بالعقر في قوله: الكلب العقور أي الذي يعدو على الناس فيعقرهم، وما كان فيه هذا المعنى، بمعنى أنه يعدو فيفسد ويضر فإنه يلحق به، والله تعالى أعلم.

قال: وعن أبي سعيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عما يقتل المحرم؟ فقال: ((الحية والعقرب والفويسقة، ويرمي الغراب ولا يقتله، والكلب العقور والحدأة والسبع العادي)) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن[5].

وقوله تعالى: {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [(٩٥) سورة المائدة] **قال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذلك أمره أعظم من أن يكفِّر وقد بطل إحرامه، وهو قول غريب والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه.**

هذا القول الذي ذكره عن مجاهد هو في غاية الغرابة حيث يقول: إن المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه، يعني أنه قصد قتله وليس حاله كمن أراد أن يقتل كلباً عقوراً يطارد الظباء مثلاً، فأصاب ظبياً فهذا بالخطأ وقد ينسى أنه محرم ويقتل الصيد، ففي هذه الحال يكون **{وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ}** [(٩٥) سورة المائدة] لكن إذا كان ذاكراً لإحرامه -فعند مجاهد- الأمر يختلف فهو يرى أن الإحرام

---

[4] - أخرجه الحاكم (٣٩٨٤) (ج ٢ / ص ٥٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٨٣٢) (ج ٥ / ص ٢١١) وصححه الذهبي في التلخيص.

[5] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب ما يقتل المحرم من الدواب (١٨٥٠) (ج ٢ / ص ١٠٨) وأحمد (١١٠٠٣) (ج ٣ / ص ٣) وضعفه العلامة الألباني وشعيب الأرنؤوط.

قد بطل، وهذا قول في غاية الغرابة، فارتكاب محظورات الإحرام وقتل الصيد لا تبطل الإحرام وإنما يبطله الجماع فقط.

وجمهور أهل العلم يقولون في قوله: {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا} [(٩٥) سورة المائدة]: مفهوم المخالفة لهذا الشرط غير معتبر، أي من قتله متعمداً ومن قتله غير متعمد، فإنْ قتَله غير متعمد كأن يكون قتله خطأ أو قتله متعمداً؛ لأنه قد نسي إحرامه فعليه الجزاء ولا إثم عليه؛ لأنه لا يؤاخذ بالخطأ والنسيان، وإنْ قتله متعمداً ذاكراً للإحرام فإنه في هذه الحال يكون عليه الجزاء ويأثم، فهذا الجزاء ليس بكفارة، وهذا المعنى أكده ابن جرير وقوّاه، وقال: هذا ليس من باب الأمور المكفِّرة خلافاً لما جاء في الحدود بأنها كفارات..الخ، فالحاصل أن هذا عندهم من قبيل الجناية التي توجب العوض، والإثم يبقى بينه وبين الله -عز وجل-.

وهناك قول آخر: وهو أن هذا الشرط {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا} [(٩٥) سورة المائدة] هو قيد معتبر، ومفهومه أنه إن قتله من غير عمد فلا شيء عليه؛ لأن هذا القيد علق عليه الحكم، {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [(٩٥) سورة المائدة] مفهوم المخالفة إن قتله غير عامد فلا جزاء، هذا هو ظاهر القرآن، وهو الأقرب والله تعالى أعلم، وهذا القول منقول عن ابن عباس –رضي الله عنهما- وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد خلافاً للأئمة الثلاثة، وبه قال جماعة كداود الظاهري وسعيد بن جبير وطاوس بن كيسان وأبي ثور، والحسن، وإبراهيم النخعي، وهو الذي رجحه ابن جرير الطبري، ومال إليه الشيخ محمد الأمين -رحمه الله- وعلى كل حال فمفهوم المخالفة حجة، لكن الذين قالوا: إنه هنا غير معتبر جعلوه أحد الأنواع السبعة أو الثمانية التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، ومنها أن يكون ذلك خرج مخرج الغالب، فإذا خرج مخرج الغالب فليس بمعتبر نحو قوله تعالى في المحرمات من النساء: {وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ} [(٢٣) سورة النساء] فلو كانت الربيبة ليست في حجره وإنما هي عند جدتها فإنها تحرم عليه أيضاً، إذاً قول الله -عز وجل-: {وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ} [(٢٣) سورة النساء] مفهوم المخالفة لهذه الآية أنها إن لم تكن في حجره فإنها تحل له لكن قالوا: هذا خرج مخرج الغالب، وهذا هو الراجح في هذه الآية، وذلك أن الغالب أن تكون مع أمها عنده فتحرم عليه، فإن كانت في مكان آخر –خلاف الغالب- فإنها تحرم عليه أيضاً.

وهنا في الصيد الذين قالوا: إن المفهوم غير معتبر، قالوا: إن قوله: {مُّتَعَمِّدًا} خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب أن الإنسان يعمد إلى قتل الصيد ويستفزه الصيد إذا رآه حيث إنه لا يتمالك ولا يصبر فينسى نفسه ويسرع إلى قتله، هذا هو الغالب، وقالوا: إن الصيد أحد وجوه المكاسب المعروفة عند العرب فهم يتطلبونه غاية التطلب بخلاف غيرهم من بعض الأمم الذين لا يشتغلون بالصيد، والله المستعان.

قال: والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، وقال الزهري: دل الكتاب على العامد وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: {لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ} [(٩٥) سورة المائدة] وجاءت السنة من أحكام النبي -صلى الله عليه وسلم- وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم.

الذين قالوا: إنه لا يضمن الصيد، قالوا: الإتلاف مضمون في حق الآدميين، فلو أن إنساناً صدم دابة إنسان، أي قتلها خطأً فإنه يضمن، ولو أتلف سيارته خطأً فإنه يضمن، فالخطأ لا يذهب معه الحق، لكن هذا يختلف، فهذا في حق الله -عز وجل- وصاحب الحق يقول: {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [(٩٥) سورة المائدة] أي فمن قتله غير متعمد فلا جزاء، هذا صاحب الحق جعل ذلك على العامد دون غيره، هذا جواب من قال: إن ذلك يختص بالعمد، والله أعلم.

قال: وفي قوله: {فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [(٩٥) سورة المائدة] دليل لوجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي كما حكم به الصحابة.

قوله: {فَجَزَاء مِّثْلُ مَا} الراجح أن المثل ثم ما ذكر بعده {أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] ليس للتخيير، وإنما ما كان له مثل فيجب فيه المثل وهذه المثلية إنما تكون لوجه من الشبه في الظاهر، ولهذا قالوا: الحمامة فيها شاة مع أنها ليست مثلها في الحجم، لكن قالوا: إنها عندما تشرب تعب الماء عباً، فهي تشرب بنفس الطريقة التي تشرب فيها الشاة فجعلوا فيها الشاة، وأما الدجاجة فطريقة شربها تختلف عن الحمامة فهي التي تقر الماء بأن تأخذه بمنقارها ثم ترفع رأسها حتى ينحدر، فالمقصود أن المثلية تكون لوجه من الشبه وليس للمطابقة، وهذا مما يستدل به على أن لفظة المثل لا تعني المطابقة من كل وجه في كل المواضع خلافاً للمشهور، فالمشهور أن الشبيه هو الذي يوجد بينه وبين مشابهه بعض وجوه التطابق أي يتطابق معه من بعض الوجوه فتقول: فلان يشبه فلاناً، وأما المثل فالمشهور أنه ما كان مطابقاً لنظيره، لكن المثل هنا في الآية {فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [(٩٥) سورة المائدة] ليس المراد به المطابقة، ولذلك يقولون مثلاً: الوعل فيه بقرة، والنعامة فيها بدنة، والزرافة فيها بدنة مع أن الزرافة أكبر من البعير، والشاة أكبر من الحمامة والجدي أكبر من الضب، وهكذا.

وما حكم فيه الصحابة -رضي الله عنهم- رُجع فيه إلى حكمهم، فقوله: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٩٥) سورة المائدة] يعني من المسلمين، فيُرجع إلى أحكام الصحابة في هذا فيما حكموا فيه وما لم يحكم فيه الصحابة فإنه يحكم به اثنان من ذوي العدالة من المسلمين، وما ليس له مثل فإنه ينتقل إلى ما ذكر بعده {أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [(٩٥) سورة المائدة] والمراد بالمساكين هنا يعني من مساكين الحرم، والعلماء اختلفوا في تقدير هذا الإطعام، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك باعتبار قيمة الصيد، لكن أيضاً اختلفوا في تحديد قيمة الصيد هل هو بسعره في ذلك المحل في ذلك اليوم؟، فقد يوجد في منطقة ما من يأكلون الصيود ولا يرفعون لها رأساً أو نحو ذلك فمثل هذا لو جاء الإنسان يبيع الصيد أو يشتريه فيمكن أن لا يباع ولا بريال وفي مكان آخر قد يباع بألف أو أكثر، فبعضهم قال: إنه يرجع في القيمة إلى المحل الذي هو فيه في يومه.

وقال بعضهم: بل يعرف ثمن الصيد الذي يستحقه فعلاً ثم يخرج بقدر ذلك من الطعام بحيث لو فرضنا أن قيمة الصيد تساوي خمسمائة ريال فإنه يشترى بهذا المبلغ برّاً أو أرزاً أو نحو ذلك ثم يُعطى للفقراء.

فإن عُدل إلى الصيام فيقدر هذا الذي قيمته خمسمائة ريال من البُر بحيث لو فرضنا أن كيلو البُر بريالٍ واحد فمعنى ذلك أن المطلوب منه خمسمائة كيلو كل مُد منه لمسكين، فإذا كان الصاع أربعة أمداد، والصاع كيلوان

ونصف -كما في بعض التقديرات- فعلى هذا عليه أن يصوم يوماً عن كل مد، وعلى هذا سيحتاج إلى صيام مدة طويلة، فلا شك أن إخراج الطعام في هذه الحالة أسهل بكثير من الصيام.
وبعضهم قال: يطعم ستة مساكين أو يصوم ثلاثة أيام، وهؤلاء كأنهم جعلوه كفدية الأذى، لكن نقول: هناك فرق بين جزاء الصيد وبين فدية الأذى، والله تعالى أعلم.

فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة، رواه البيهقي.

بالنسبة للثمن فالله -عز وجل- قال: {فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ} [(٩٥) سورة المائدة] أي أن هذا المثل يقرب إلى الكعبة، يعني يوصل به إلى أرض الحرم وليس المقصود بالكعبة البناء المعروف وإنما المراد إلى أرض الحرم فيذبح هناك ويوزع على فقراء الحرم كما يفعل بالهدي، لكن الطعام قال الله -عز وجل- فيه: {أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ} [(٩٥) سورة المائدة] ما قال: لفقراء الحرم، ولهذا قال بعضهم: يطعمه من حضره، كما يقال في فدية الأذى: إذا ذبح فإنه يذبح في مكانه، وكذلك المحصر في مكانه الذي أحصر فيه، وأما ابن عباس -رضي الله عنهما- فيقول: إن الثمن والطعام يرسلان إلى الكعبة.

قال: وقوله تعالى: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٩٥) سورة المائدة] يعني أنه يحكم بالجزاء بالمثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين.

وروى ابن جرير عن أبي جرير البجلي قال: أصبت ظبياً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر.

قوله: "**عن أبي جرير البجلي**" أبو جرير هذا يروي عن عمر -رضي الله عنه- وعن بعض الصحابة، فهو غير جرير بن عبد الله البجلي الصحابي المعروف.

قال: فذكرت ذلك لعمر فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك، فأتيت عبد الرحمن وسعداً، فحكما عليَّ بتيس أعفر.

وروى ابن جرير عن طارق قال: أوطأ أربد ظبياً فقتله وهو محرم.

أوطأ أربد ضباً هكذا الرواية ضباً وليس ظبياً، بمعنى أنه جعل دابته تطأ الضب فقتله وهو محرم، فهذا متعمد لكن لو أنه حصل من غير عمد بأن وطِئت الدابة الضب أو وطِئت الجراد فليس عليه شيء، فالجراد إذا انتشر صار مثل البساط في الأرض فلا يمكن توقيه لذلك ليس عليه شيء إن قتله.

قال: فأتى عمر ليحكم عليه، قال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ثم قال عمر.

قوله: "**جدياً قد جمع الماء والشجر**" يعني أنه مفطوم قد رعى الشجر وشرب الماء واستغنى عن لبن الأم، فعمر هنا في هذه الرواية -إن صحت- قال له: احكم معي مع أن الكثيرين من أهل العلم يقولون: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٩٥) سورة المائدة] غير الجاني الذي وقع منه قتل الصيد، فمن وقع منه لا يحكم وإنما يحكم عليه.

قال: احكم، فقال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر، ثم قال عمر: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٩٥) سورة المائدة].

وقوله تعالى: {هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ} أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرَّق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليهفي هذه الصورة.

يبقى الخلاف في الطعام هل لا بد أن يوصل إلى الحرم أو لا؟.

قال: وقوله: {أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال.

الجمهور -ومنهم ابن جرير- على أنه مخير، إما المثل وإما الإطعام وإما الصيام، وهذا على أن "أو" هنا للتخيير، ومنهم من يقول: إن "أو" هذه ليست للتخيير وإنما هي للتقسيم، وهذا الخلاف مثله الخلاف الذي في قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ} [(٣٣) سورة المائدة] فهل الإمام مخير بحسب ما يراه من المصلحة أو أن ذلك ليس للتخيير، وإنما هو للتقسيم إن قتلوا قُتلوا، وإن أخذوا المال وقتلوا فإنهم يصلبون أو تقطع أيديهم، أو ينفوا الأرض إن أخذوا المال وأخافوا السبيل دون أن يقتلوا، هكذا قال بعض أهل العلم كالشافعي، وهنا الخلاف في "أو" كذلك، فمن قال: إنها للتخيير قال هو مخير وهذا قول الجمهور، وذهب بعض أهل العلم كابن عباس إلى أن ذلك لمن لم يجد المثل.

قال: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

يقول: " **فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام**" هذا الإطعام لستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام ورد في فدية الأذى عند قوله تعالى:{وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] ثم رخص فقال: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [(١٩٦) سورة البقرة] وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لكعب بن عجرة: ((أتجد شاة؟))[٦] وذكر له أيضاً الإطعام -إطعام ستة مساكين- أو صيام ثلاثة أيام، وهذا في فدية الأذى، فالأقرب -والله أعلم وهو الذي عليه عامة أهل العلم- أن ذلك ليس كفدية الأذى بل يكون الإطعام مراعىً فيه القيمة، والصيام يكون عن كل مُدٍّ يوماً؛ لأن إطعام ستة مساكين أين هو من قيمة الصيد إذا كان كبيراً؟! والله أعلم.

قال: فإن قتل أيّلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: الطعام مُدٌّ مـــد يشبعهم.

وقوله: {لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [(٩٥) سورة المائدة] أي أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة.

{عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف} [(٩٥) سورة المائدة] أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية.

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب الفدية لحلقه وبيان قدره (١٢٠١) (ج ٢ / ص ٨٥٩).

ثم قال: {وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ} [(٩٥) سورة المائدة] أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه {وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [(٩٥) سورة المائدة] قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما {عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف}؟ [(٩٥) سورة المائدة] قال: عما كان في الجاهلية، قال: قلت: وما {وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ}؟ [(٩٥) سورة المائدة] قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة، قال: قلت: فهل في العود من حد تعلمه؟، قال: لا، قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟، قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله -عز وجل- ولكن يفتدي، رواه ابن جرير.

وقيل: معناه فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء، ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد.

قوله: "الأولى والثانية والثالثة" يعني كل ما قتل صيداً فإنه عليه الجزاء بناء على قوله: **{وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ}** [(٩٥) سورة المائدة] يعني ليست الأولى فيها الجزاء والثانية كما قال بعضهم: إن من قتله متعمداً فهذا يترك؛ لأن عقوبته أشد وأعظم عند الله -عز وجل-، فهذا غير صحيح، بل الصحيح أنه كلما قتل صيداً فعليه الجزاء، وينتقم الله -عز وجل- منه بما شاء يوم القيامة.

قال: وقال ابن جرير في قوله: {وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [(٩٥) سورة المائدة] يقول -عزَّ ذكره-: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه والأمر أمره له العزة والمنعة.

وقوله: {ذُو انْتِقَامٍ} يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [(٩٦-٩٩) سورة المائدة].

قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ} يعني ما يصطاد منها طرياً {وَطَعَامُهُ} ما يتزود منه مليحاً يابساً.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً وطعامه ما لفظه ميتاً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} [(٩٦) سورة المائدة] البحر معروف ولا نحتاج أن نقول: إنه الماء الكثير المستبحر، ولكن نبهت على هذا؛ لأن كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فسره في هذا الموضع بالأنهار، وهذا فيما أظن -والله أعلم- لا حاجة إليه لسببين:

السبب الأول: أن البحر إذا أطلق فأول ما يتبادر منه الماء الكثير المالح المعروف الذي يقال له البحر، ويُلحق به الأنهار وما يعيش في الماء بالنسبة لهذا الحكم في صيد البحر، يعني لو وجد شيء من البحيرات أو المستنقعات أو الآبار التي يوجد فيها أسماك فإنه يحل صيدها.

الأمر الثاني: أن الأنهار لا وجود لها في جزيرة العرب، والكلام عن الإحرام، فمن أين يحرم الإنسان، لا يحرم من بلاد فيها أنهار، فالحاصل أن البحر هنا هو البحر المعروف ويحلق به غيره مما يصطاد منه.

ونقل عن سعيد بن جبير -رحمه الله- أنه قال في صيد البحر: "**ما يصطاد منه طرياً**" وهذا القيد لا حاجة إليه أيضاً، فصيد البحر يبقى على ظاهره، وهو ما يصطاد منه أي من البحر.

وقوله: {وَطَعَامُهُ} قال هنا: "**ما يتزود منه مليحاً يابساً**" يعني جعل صيد البحر هو الطري وجعل طعامه من المليح المجفف الذي يتزودونه معهم وينقلونه معهم مما ليس بطري، ويمكن أن يقال: في حكمه اليوم المبرد أو المثلج، لكن هذا غير مراد -والله تعالى أعلم-؛ لأن هذا المليح -يعني المملوح أو المجفف أو المبرد أو نحو ذلك- في الواقع إن كان مما صيد فهو من جملة صيد البحر، ولهذا يقال: إن هذا التفسير فيه بعد، والعلم

عند الله -تبارك وتعالى-، وابن جرير -رحمه الله- أرجعه إلى ما ذكرت، أي أن هذا المليح إن كان مما صيد فهو من جملة صيد البحر.

وبعضهم قال: إن طعامه هو ما ينعقد فيه من الملح، وبعضهم يقول: طعامه هو ما يؤخذ منه من النباتات ونحوها، وهذا لا حاجة إليه، وإنما يقال: صيد البحر ما صيد منه فإنه حلال للمحرم، ومن باب أولى للمحل، {وَطَعَامُهُ} ما طفا أو ألقاه ميتاً فإنه يحل؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أحلت لنا ميتتان ودمان))[1].

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} [(١٤) سورة النحل] يعني أنه يستخرج منه اللحم الطري وغير الطري لكنه ذكر أشرف النوعين وأحسن النوعين؛ لأن المقام مقام امتنان لا يذكر فيه إلا الأشرف.

وبعض أهل العلم يقول: هذا من الاكتفاء كقوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [(٨١) سورة النحل] يعني والبرد {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [(٩) سورة الأعلى] أي وإن لم تنفع، فذكر أشرف القسمين، وهناك أمثلة معروفة في هذا، والله أعلم.

وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري.

وقوله: {مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ} [(٩٦) سورة المائدة] أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون.

{وَلِلسَّيَّارَةِ} وهم جمع سيَّار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر والسفر، وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر.

القول بأن طعامه أي ما لفظه ميتاً هو الذي عليه الجمهور، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وهو القول الذي لا ينبغي العدول عنه.

وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر {وَطَعَامُهُ} ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِّح وقُدِّد زاداً للمسافرين والنائين عن البحر.

قوله: {مَتَاعًا لَّكُمْ} [(٩٦) سورة المائدة] يعني أنه متاع لمن كان مقيماً منكم فينتفع به غاية الانتفاع، وقوله: {وَلِلسَّيَّارَةِ} أي: وللمسافرين يحملونه معهم مليحاً مجففاً يأكلون منه في أسفارهم ويتنقلون به وما أشبه ذلك.

وقد روي نحوه عن ابن عباس - -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والسدي وغيرهم.

وروى الإمام مالك بن أنس عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً قِبَل الساحل فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة وأنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنيَ الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمـــرة، فقلت: وما تغني التمرة؟، فقال: قد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِب.

قوله: "**فإذا حوت مثل الظَّرِب**" يعني حوت مثل الجبل الصغير.

---

[1] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة – باب الكبد والطحال (٣٣١٤) (ج ٢ / ص ١١٠٢) وأحمد (٥٧٢٣) (ج ٢ / ص ٩٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١١٨).

فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلم تصبهما، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[٢].

وروى مالك عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: سأل رجل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هو الطهور ماؤه الحل ميتته))[٣] وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربع، وصححه البخاري والترمذي وابن حبان وغيرهم، وقد روي عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنحوه.

وقوله: {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا} [(٩٦) سورة المائدة] **أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك.**

قال: "**يحرم عليكم الاصطياد**" هذه اللفظة "صيد" في قوله: {صَيْدُ الْبَحْرِ} أو {صَيْدُ الْبَرِّ} [(٩٦) سورة المائدة] مصدر، والمصدر تارة يراد معناه المصدري، وتارة يراد معنى المفعول، فالمعنى المصدري لصيد البر أو صيد البحر يعني الاصطياد، مثل ما يقال في الكلام والكتابة وما أشبه ذلك فتقول مثلاً: هذا الذي أفعله كلام، أي تكلُّم، فهذا مصدر، وتقول: هذا كلام زيد، يعني ما تكلم به، هذا كلام الله تعني به القرآن، وتقول للأخ وهو يقرأ: هذه قراءة، ويقال للمقروء أيضاً قراءة،، يقال: أكْل لعملية الأكل -بالمعنى المصدري- ويقال أكْل للمأكول، ويقال: شرْب لنفس عملية الشرب، ويقال: شرْب للمشروب، وهكذا الصيد هل المراد به هنا المعنى المصدري أي حُرِّم عليكم الاصطياد بحيث إذا لم تصده أنت حلٌّ لك، أو أن المراد بقوله: {صَيْدُ الْبَرِّ} [(٩٦) سورة المائدة] ما صيد في البر بحيث تكون الصيود محرمة على المحرمين سواء صادوها هم أو صادها غيرهم؟

خلاصة ذلك أن من أهل العلم من جعله بمعنى المفعول فقال: {صَيْدُ الْبَرِّ} [(٩٦) سورة المائدة] يعني جميع أنواع ما صيد منه -أي الصيود- بمعنى المفعول، فهي محرمَّة على المحرم سواء صادها أو صادها غيره له أو لم تصد له، ويحتجون بحديث الصعب بن جثامة لما أهدى للنبي -صلى الله عليه وسلم- حماراً وحشياً، فرده النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه فلما رأى ما بوجهه من الكراهة بيّن له أنه إنما رده لكونه محرماً فقال: ((إنا لم نرده عليك إلا أنَّا حرم))[٤] وكذلك جاء عن علي -رضي الله عنه- أنه كان يرى تحريم ذلك كما في القصة المعروفة حينما وضع بين يدي عثمان بن عفان -رضي الله عنه- حين استقبله أمير مكة في الطريق، وضع له لحم الصيد فعليٌّ -رضي الله عنه- امتنع من الأكل وأخبر أن هذا لا يحل، فالحاصل أنه

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة - باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٣٥١) (ج ٢ / ص ٨٧٩) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان – باب إباحة ميتات البحر (١٩٣٥) (ج ٣ / ص ١٥٣٥).

[3] - أخرجه أ[و داود في كتاب الطهارة – باب الوضوء بماء البحر (٨٣) (ج ١ / ص ٣١) والترمذي في أبواب الطهارة - باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (٦٩) (ج ١ / ص ١٠٠) والنسائي في كتاب الطهارة – باب ماء البحر (٥٩) (ج ١ / ص ٥٠) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها – باب الوضوء بماء البحر (٣٨٦) (ج ١ / ص ١٣٦) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤٧٩).

[4] - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب إذا أهدى للمحرم حماراً وحشياً حياً لم يقبل(١٧٢٩) (ج ٢ / ص ٦٤٩) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم الصيد للمحرم (١١٩٣) (ج ٢ / ص ٨٥٠).

مذهب معروف لبعض السلف -رضي الله عنهم- وهو أنه لا يجوز أكل لحم الصيود سواء صيدت للمحرم أو لم تصد له، صادها أو صادها غيره.

ومنهم من يقول: إنما يحرم عليه ما صاده هو، فجعلوا الصيد بالمعنى المصدري، يعني يحرم عليهم الاصطياد فإذا حرم عليهم الاصطياد فإن ما نتج عنه فهو حرام، والأعدل في هذا -والله تعالى أعلم- أنه يفرق بين ما إذا صاده المحرم أو صيد له أو كان بإشارته أو إعانته، فهذا لا يجوز، وأما ما صاده المحل لنفسه أو صاده لغيره من المحلين فإنه يجوز للمحرم أن يأكل منه، ولذلك جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث أبي قتادة حينما صاد أيضاً حماراً وحشياً ثم سألوا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألهم: ((هل معكم منه شيء؟))[5] فالحاصل أنه أباحه، فالجمع بينه وبين حديث الصعب أن الصعب بن جثامة صاده لهم، وأما حديث أبي قتادة فهو لم يصده لهم، ولهذا سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: عما إذا كانوا أعانوه على ذلك أو أشاروا إليه، أو نحو هذا، فأجابوا بالنفي.

وقد حمل ابن جرير -رحمه الله- هذه اللفظة {صَيْدُ الْبَرِّ} على ذلك جميعاً إلا ما صاده المحل لنفسه أو لمحل مثله فجعل {صَيْدُ الْبَرِّ} بالمعنى المصدري -هكذا ظاهر كلامه- أي أنه جعلها بمعنى المفعول، وهذا الذي عليه كثير من المحققين، والله تعالى أعلم.

فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثم وغرم، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله؛ لأنه في حقه كالميتة وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين.

على كل حال يحرم على المحرم صيد البر فلا يشتريه ولا يبيعه ولا يأكله ولا يقتله ولا غير ذلك سوى ما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

لأنه في حقه كالميتة وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين.

أما كون أنه يصطاد أو يقتل الصيد وهو مخطئ فالأقرب أنه لا غرم عليه؛ لأن مفهوم المخالفة هنا معتبر {من قتله منكم متعمداً} فمن قتله غير متعمد فلا جزاء.

وأما إذا صاد حلال صيداً فأهداه إلى محرم فإن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة -رضي الله تعالى عنه- أنه أهدى للنبي -صلى الله عليه وسلم- حماراً وحشياً، وهو بالأبواء -أو بوَدّان- فرده عليه فلما رأى ما في وجهه قال: ((إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم))[6] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة.

قالوا: فوجهه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ظن أن هذا إنما صاده من أجله فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه؛ لحديث أبي قتادة -رضي الله تعالى عنه- حين صاد حمار وحش وكان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله -صلى الله عليه

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب اسم الفرس والحمار (٢٦٩٩) (ج ٣ / ص ١٠٤٨) ومسلم في كتاب الحج – باب تحريم الصيد للمحرم (١١٩٦) (ج ٢ / ص ٨٥١).

[6] - سبق تخريجه.

وسلم- فقال: ((هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟)) قالوا: لا، قال: ((فكلوا)) وأكل منها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة[7].

{وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٩٦) سورة المائدة] **قد ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات هي السادسة والتسعون والسابعة والتسعون والثامنة والتسعون والتاسعة والتسعون، ثم فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها، وهذا هو الثابت في كل الأصول المخطوطة والمطبوعة، والظاهر أنه سها عن ذلك -رحمه الله- فمن البعيد جداً أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه في جميع النسخ على اختلاف مصادرها، فرأيت تكميل هذا النقص بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري بشيء من الاختصار والتصرف والاقتصار على التفسير نفسه مراعياً الدقة في المحافظة على العبارة العالية ما استطعت إن شاء الله وبه الاستعانة.**

تكميل بقلم الشيخ أحمد شاكر:

هذا كتب هنا في الأصل: سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات -السابعة والتسعين والثامنة والتسعين والتاسعة والتسعين- وتُرك لها بياض في النسخة المكية، وليس فيه هذا التكميل [الناشر].

{وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٩٦) سورة المائدة] **يقول تعالى: واخشوا الله أيها الناس واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم -صلى الله عليه وسلم- من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم فإن لله مصيركم ومرجعكم فيعاقبكم بمعصيتكم إياه ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.**

{جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ} [(٩٧) سورة المائدة] **يقول تعالى: صيَّر الله الكعبة البيت الحرام قِواماً للناس الذين لا قِوام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم.**

قيل للكعبة كعبة؛ لأنها مكعبة، وبعض أهل العلم يقول: لأنها ناتئة فكل ناتئ يقال له ذلك، ولهذا يقال: الكواعب جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعب ثديها مع أن شكله ليس مكعباً، وكذلك كعب الرِّجل سمي كذلك لنتوئه وبروزه.

قوله تعالى: **{قِيَامًا لِّلنَّاسِ}** يقول: "**قواماً للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم وظالمهم عن مظلومهم**" والمعنى **{جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ}** كل ذلك قياماً للناس، وهذا القيام للناس يحصل بصور متعددة، ومن ذلك أنه يحجز بين القوي والضعيف؛ لأن العرب لم يكن لهم رئيس مطاع وكانوا يأنفون من ذلك غاية الأنفة، والشريعة التي عندهم بين هذه القبائل هي شريعة الغاب، القوي يأكل الضعيف، فالكعبة المراد بها الحرم فهذا يحرم عليهم التعدي فيه والظلم حتى إن الرجل كان في الجاهلية -على عتوهم وتمردهم فلا أمن ولا قوة تمنع هذا من هذا- كان يرى قاتل أبيه في الحرم ولا يحرك ساكناً مع قوة دوافع الثأر عنده، وكذلك الأمر بالنسبة للشهر الحرام والهدي والقلائد، فالحاصل أنهم في الأشهر الحرم كانوا يعظمونها ولا يتعدون فيها فيحصل لهم بذلك

---

[7] - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب لا يشير المحرم إلى الصيد لكي يصطاده الحلال (١٧٢٨) (ج ٢ / ص ٦٤٨) ومسلم في كتاب الحج (١١٩٦) (ج ٢ / ص ٨٥١).

ألوان المصالح، فكانوا يتنقلون في هذه الأشهر الحرم ويسافرون فيها يقصدون البيت الحرام ويأمنون فيها على أنفسهم وتجارتهم وما أشبه ذلك، فكأنها بمثابة قوة تمنع القوي من التعدي على الضعيف، فتقوم نفوسهم وأمنهم وحياتهم ومعايشهم بهذا.

وكذلك الهدي والقلائد حيث كانوا يعلقون على هذا الهدي -وقد يكون كثيراً يغري من رآه- يعلقون عليه القلائد أو يشعرون البدن فإذا رآها من رآها عرف أنها مقدمة مهداة للبيت الحرام فلا يقربها أحد، وربما أيضاً هم قلدوا على نفوسهم من لحاء شجر الحرم يطلبون بذلك الأمان فلا يتعرض لهم أحد، إضافة إلى ما يحصل لهم بسبب ما أقامه الله -عز وجل- لهم من بيته الحرام من قيام الدين، فهو مظهر لقيام الدين يجتمعون فيه لعبادة الله -عز وجل- ويحصل فيه أيضاً ألوان من المصالح الدنيوية من التجارة فيأتون من أنحاء مختلفة يجلبون معهم ما يجلبون من بضائعهم وسلعهم، وتقوم أسواقهم وتزدهر من البوادي ومن القرى، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [(٢٨) سورة التوبة] لذلك فبسبب منع المشركين من دخول الحرم حُرموا مصدراً كبيراً في الاقتصاد فحصل بسبب ذلك كساد خافوا منه فوعدهم الله -عز وجل- بإغنائهم من فضله.

فالمقصود أن البيت الحرام وما جعل أيضاً من الهدي ومن القلائد كل ذلك كان سبباً لقيام دينهم وقيام مصالحهم ومعايشهم، والله تعالى أعلم.

{وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ} [(٩٧) سورة المائدة] **يقول: وجعل هذه أيضاً قياماً للناس كما جعل** في قوله تعالى: {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ} [(٩٧) سورة المائدة] نحتاج هنا إلى تقدير والمقدر ينبغي أن يكون أليق بالسياق، فما هو الأليق هنا أن يقال: جعل الله نُصب الكعبة قياماً للناس، أو جعل الله حرمة الكعبة قياماً للناس {وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ}؟ [(٩٧) سورة المائدة].

عند التقدير ينبغي أن يُتخير الأليق والأنسب بالسياق، والأليق والأنسب بالسياق هنا حرمة الكعبة ليكون موافقاً لما بعده يعني جعل الله حرمة الكعبة وحرمة الشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس.

فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض إذ لم يكن لهم قيام غيره، وجعلها معالم دينهم ومصالح أمورهم، وجعل تعالى الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قِواماً -لمن كان يحرم ذلك من العرب ويعظمه- بمنزلة الرئيس الذي يقوم به أمر تُبَّاعه، وأما الكعبة فالحرم كله، وسماها الله حراماً لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يختلى خلاها أو يعضد شجرها وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قوام أمر العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية وهي في الإسلام معالم حجهم ومناسكهم ومتوجههم لصلاتهم.

{ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} **[(٩٧) سورة المائدة] يقول تعالى: صيرت لكم أيها الناس ذلك قياماً كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث مما به قوامكم علماً منه بمنافعكم ومضاركم أنه كذلك يعلم جميع ما في السماوات والأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم، ولتعلموا أنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم وهو محصيها عليكم حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه والمسيء منكم بإساءته.**

{اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٩٨) سورة المائدة] **يقول تعالى: اعلموا أن ربكم الذي يعلم ما في السماوات والأرض ولا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها شديدٌ عقابه من عصاه وتمرد عليه وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه، رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها.**

{مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [(٩٩) سورة المائدة] **وهذا من الله تهديد لعباده ووعيد، يقول: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا ثم علينا الثواب على الطاعة وعلينا العقاب على المعصية، وغير خفي علينا المطيع منكم القابل رسالتنا من العاصي الآبي رسالتنا؛ لأنا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه وما تخفونه في أنفسكم من إيمان وكفر أو يقين وشك ونفاق، فمن كان كذلك لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور وظواهر أعمال النفوس مما في السماوات والأرض وبيده الثواب والعقاب فحقيق أن يُتقى وأن يطاع فلا يعصى.**

{قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ* قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ} [(١٠٠-١٠٢) سورة المائدة].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد لا يستوي الخبيث والطيب {وَلَوْ أَعْجَبَكَ} أي: يا أيها الإنسان {كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث: ((ما قل وكفى خير مما كثر وألهى))[8].

قوله تعالى: **{لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ}** [(١٠٠) سورة المائدة] هنا قال: النافع والضار، وعلى كل حال فالآية تحمل على أعمِّ معانيها، فالله -عز وجل- لم يحدد شيئاً، وبالتالي نقول: لا يستوي الخبيث والطيب من الذوات، فالمؤمن لا يستوي مع الكافر، والمطيع لا يستوي مع العاصي، وصاحب السنة لا يستوي مع المبتدع.

وكذلك أيضاً في المعاني والأعمال والمكاسب وما إلى ذلك لا يستوي الخبيث والطيب، ولا يستوي المال الخبيث والمال الطيب ولا يستوي الكلام السيئ مع الكلام الطيب، ولا يستوي العمل الصالح مع العمل السيئ، ولا يستوي الكفر مع الإيمان، والطاعة مع المعصية، وما أشبه هذا، هذا هو الذي يناسب ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم، وظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- أنه حملها على أعم معانيها.

وكذلك الأمر في قوله تعالى -مع الفارق-: **{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ}** [(٢٦) سورة النـــــور] فبعضهم يقول: هذا في الذوات أي النساء الطيبات للطيبين من الرجال والعكس، وكذا الخبيثات من النساء للخبيثين، يعني الزواني لأمثالهم وما أشبه هذا، وبعضهم يقول: هذا في الأقوال، فالأقرب -والله أعلم- حمل ذلك على ما هو أعم، وهو الذي فسره به أيضاً ابن جرير -رحمه الله- هناك، أي الخبيثات من النساء والأقوال والأعمال والأوصاف للخبيثين من الناس فهي تناسبهم وتشاكلهم وهم المحل القابل لها، ثم إن الخبيثين والخبيثات تصدر منهم الأقوال والأفعال الخبيثة، والطيبات والطيبين تصدر منهم

---

[8] - أخرجه أحمد (٢١٧٦٩) (ج ٥ / ص ١٩٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٤٧).

الكلمات الطيبة وتناسبهم الذوات الطيبة والأعمال الطيبة فهم أهل لذلك ومحل قابل له، والعلم عند الله -عز وجل-.

{فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١٠٠) سورة المائدة] **أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [(١٠٠) سورة المائدة] **أي في الدنيا والآخرة.**

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] **هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشقَّ عليهم سماعها.**

المراد بقوله تعالى: **{لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء}** [(١٠١) سورة المائدة] يحمل على معنيين: السؤال عن الأشياء الشرعية التي لا يسوغ السؤال عنها، والسؤال عن الأمور القدرية التي لو كشفت لهم لساءهم ذلك، وهذا الذي مشى عليه بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- أي: لا تسألوا عن أشياء قدرية أو شرعية من شأن السؤال عنها أنه يسوءكم ما تسمعونه من الجواب.

ومثال السؤال عن الأشياء القدرية: سؤال عبد الله بن حذافة -رضي الله عنه- حين قال: من أبي؟ فإنه سأل عن شيء قدري، فلو أُخبر بغير أبيه الذي ينسب إليه لكانت فضيحة له ولأمه ولذريته، ولهذا لامته أمُّه على هذا السؤال، فالحاصل أن هذا سؤال عن أمر قدري، وكذلك لا ينبغي السؤال عن الأشياء الشرعية التي فيها تكلف؛ فهذا أمر مذموم، كالسؤال عن الأمور التي لا ينبني عليها عمل، ومثال ذلك أن يسأل سائل: هل أصل اللغات توقيفي أم ليس توقيفياً؟ وهل الاسم هو المسمى أو ليس هو المسمى؟

ومن أمثلة ذلك السؤال عن مسائل لا تقع إلا نادراً، وكذلك تتبع صعاب المسائل، فكل هذا مذموم، ومن ذلك الإكثار من الأسئلة، فمن الناس من إذا رأى عالماً فكأنه لا يعرف عن الإسلام شيئاً، حيث تجدهم يأتون بالأسئلة المكررة المعادة المعروفة وكأن المهم عندهم أنهم يسألون، وهذا خطأ فلا يكون السؤال تفكهاً، ومن الأسئلة المذمومة السؤال عن الأمور التي أعرض عنها الشارع وسكت عنها بحيث يكون السؤال عنها سبباً لتحريم أشياء عُفي عنها، ومثال ذلك لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((قد فرض الله عليكم الحج فحجوا)) قام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟[٩].

المقصود أن ما سكت عنه الشارع فهو عفو، ولهذا قال تعالى: **{عَفَا اللّهُ عَنْهَا}** [(١٠١) سورة المائدة] أي فما تركها من نسيان.

ومن الأمثلة الواضحة سؤال بني إسرائيل الذين قيل لهم: اذبحوا بقرة، فسألوا عن سنها، ثم سألوا عن لونها، ثم سألوا عن عملها، فوضع لهم من الأوصاف والقيود ما ضاق بسببه عليهم هذا الأمر غاية الضيق فما كادوا يجدون هذه البقرة، فمثل هذه الأسئلة مذمومة، وليس المقصود بذلك أن الإنسان لا يسأل عما هو بصدده مما يعنيه ويحتاج إليه، فهذا أمر مطلوب، والله -عز وجل- يقول: **{فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}** [(٤٣) سورة النحل] وجبريل سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- السؤالات المعروفة والصحابة -رضي الله عنهم- سألوه، لكن إنما يسأل الإنسان عما يعنيه وما هو بصدده مما لا يكون تكلفاً، فالسؤال وقت نزول الوحي عن

---

[٩] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

أمور سكت عنها الشارع قد يكون سبباً لتحريمها أو لفرض أمور على الناس نتج هذا الفرض عن هذا السؤال، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المخرج في الصحيحين: ((إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته))[١٠].

وقوله تعالى: {وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] فمعنى ذلك أنه وقت التنزيل وليس المقصود الوقت المقارن لنزول الآية، وإنما المقصود ذلك العصر فقد تنزل أحكام جديدة يضيق الأمر على الناس معها بسبب الأسئلة فأدبهم بهذا الأدب، أي أن يتلقوا عن الله -عز وجل- ولا ينقروا ولا يتكلفوا ولا يبحثوا عما سكت عنه الشارع وعفا عنه.

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطبة ما سمعت مثلها قط،، وقال فيها: ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً)) قال: فغطى أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجوههم لهم حنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: ((فلان)) فنزلت هذه الآية: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء} [(١٠١) سورة المائدة] وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي[١١].

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩) (ج ١ / ص ٢٦٥٨).

[11] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٥) (ج ٤ / ص ١٦٨٩) ومسلم في كتاب الفضائل - باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك (٢٣٥٩) (ج ٤ / ص ١٨٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وروى ابن جرير عن قتادة في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} الآية [(١٠١) سورة المائدة] قال: فحدثنا أن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال: ((لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيّنته لكم)) فأشفق أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحي فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: ((أبوك حذافة)) قال: ثم قام عمر أو قال: فأنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولاً -عائذاً بالله- أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن، قال: وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لم أرَ في الخير والشر كاليوم قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط)) [أخرجاه من طريق سعيد][1].

ثم روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان قوم يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] حتى فرغ من الآية كلها، تفرد به البخاري[٢].

وروى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] قالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: ((لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم)) فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} الآية [(١٠١) سورة المائدة] وكذا رواه الترمذي وابن ماجه[٣].

وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب التعوذ من الفتن (٦٠٠١) (ج ٥ / ص ٢٣٤٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك (٢٣٥٩) (ج ٤ / ص ١٨٣٢).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٦) (ج ٤ / ص ١٦٨٩).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب الحج عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم– باب ما جاء كم فرض الحج؟ (٨١٤) (ج ٣ / ص ١٧٨) وأحمد (٩٠٥) (ج ١ / ص ١١٣) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب فرض الحج (٢٨٨٤) (ج ٢ / ص ٩٦٣) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٨٨٤).

فهذه الأسباب التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في نزول هذه الآية، سواء كان ذلك بسبب أنهم أحفوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في المسألة، أو أنه سأله بعضهم عن بعض الأمور تكلفاً كالذي سأل: أفي كل عام يا رسول الله؟ أو الذي يسأل يقول: من أبي؟ وإذا ضلت دابته قال: أين دابتي؟ فكل هذا من سبب النزول، يعني وقع منهم ذلك جميعاً فنزلت الآية، فيحتمل أن تكون هذه الأمور مجتمعة هي سبب النزول وأن الآية نزلت مرة واحدة تأديباً لهم وتعليماً عن كيفية السؤال، ولا نحتاج في مثل هذا أن نرجح بين هذه المرويات؛ لأنها صحيحة، وإنما يقال: إن الآية نزلت بعدها جميعاً، والله أعلم، وقد عرفنا من قبل أن النازل قد يكون واحداً، وأن سبب النزول يكون متعدداً، والعكس أيضاً، فهذا من الأول، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تبيَّن لكم، وذلك على الله يسير.

هذا كما ذكرنا سابقاً من أن هذه الكراهة وهذا الذم وهذا النهي يدخل فيه جملة أمور منها أن يسأل عن أشياء وقت التنزيل فتكون سبباً لفرض أحكام جديدة لم يفرضها الله -عز وجل- وقد يكون سبباً لتحريم أمور لم يحرمها الله -عز وجل- أو ذكر قيود لم ترد في خطاب مطلق فيشق ذلك على الناس.

وقوله: {وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] هذا في الشرعيات، وقلنا في الأمور القدرية: أن يسأل عن أمر فيكون الجواب مما يسوءه، مثل الذي قال: من أبي؟ فقد يذكر له غير أبيه الذي عرف به؛ فيكون ذلك سبباً لفضيحة تلازمه.

ثم قال: {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} أي: عما كان منكم قبل ذلك.

هذا المعنى في قوله: {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} أي عن مسألتكم قبل ذلك فبعد هذا لا تسألوا، هكذا فسره ابن كثير وهو اختيار ابن جرير أيضاً.

وهناك معنىً آخر لقوله: {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} أي هذه المسائل، فالله -عز وجل- ما تركها نسياناً وإنما تركها توسعة وعفواً، كما روي: ((وما سكت عنه فهو عفو))[4] فيكون {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} بهذا المعنى: أي أن الله -عز وجل- لم يفرضها عليكم ولم يكلفكم بها، ولم يتركها غفلة وذهولاً عنها، فلا حاجة للتنقير والاستقصاء كما فعل بنو إسرائيل لما قال لهم موسى -عليه السلام-: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [(٦٧) سورة البقرة] حيث سألوا عن سنها ثم سألوا عن لونها ثم سألوا عن عملها حتى ضيقوا على أنفسهم، ولو أنهم أجابوا من دون هذا التنقير فإن أيَّ بقرة ذبحوها كانت تجزئهم، وأظن -والله أعلم- أن هذا المعنى هو الأقرب المتبادر في تفسير قوله: {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} أي لم يكلفكم بها فلا تنقروا عنها، لئلا يكون ذلك سبباً للتضييق عليكم، وهذا قال به طائفة من السلف فمن بعدهم، والله أعلم.

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة - باب ما لم يذكر تحريمه (٣٨٠٢) (ج ٣ / ص ٤١٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٢٥٦).

{وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٠١) سورة المائدة] والمراد لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: ((أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحرم من أجل مسألته))[٥].

وفي الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم))[٦].

وفي الحديث الصحيح أيضاً: ((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها))[٧].

هذا الحديث قد لا يصح من جهة الإسناد، وإن كان المعنى تدل عليه مثل هذه الآية، وهكذا -والله أعلم- يمكن أن تفسر الآية بمثل ما ورد فيه: وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها.

ولا يقال: إن التعقيب في الآية بقوله: {وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٠١) سورة المائدة] يقتضي بالضرورة أن يكون قرينة دالة على أن المراد {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة] أي عن سؤالكم، وإنما يمكن أن يقال: إن قوله: {وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٠١) سورة المائدة] يشمل هذا وهذا، فهو يقول لهم: لا تسألوا عن أشياء قد تركها الله -عز وجل- وأعرض عنها ولم يفرضها عليكم، فلما كان فعلهم هذا فيه إساءة وتكلف ناسب بعده أن يقول: {وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٠١) سورة المائدة] أي لم يعاجلكم في العقوبة على هذا السؤال والتنقير.

وأما قوله: {عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة] فهو راجع إلى هذه المسائل أو الأشياء التي سكت عنها وليس راجعاً إلى السؤال على المعنى الآخر، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ} [(١٠٢) سورة المائدة] أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين أي: بسببها، أي بيّنت لهم فلم ينتفعوا بها؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد.

ويدخل في هذا الأشياء التي طلبوها كالمائدة {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء} [(١١٢) سورة المائدة] ويدخل فيه ما سأله قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- حيث طلبوا آية فأخرج الله -عز وجل- تلك الناقة فكفروا وعقروها، وهكذا يدخل فيه جميع السؤالات والأمور التي طلبها المكذبون، سواء كان ذلك على سبيل الآيات والبينات لنبوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أو ما كان ذلك من قبيل التنقير والسؤال عن أمور على وجه التكلف لم يفرضها الله -عز وجل- عليهم كسؤال بني إسرائيل عن أوصاف البقرة، ويدخل فيه أيضاً صور كثيرة أشرت إلى بعضها في مناسبة سابقة، وكتبت أوراقاً تجمع أشياء من هذا الموضوع، وكلام أهل العلم فيه كما سيأتي.

السؤال عن الأمور التي لم تقع:

---

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩) (ج ٦ / ص ٢٦٥٨).

[٦] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٦٨٥٨) (ج ٦ / ص ٢٦٥٨) ومسلم في كتاب الحج - باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

[٧] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٤٤١) (ج ٢٢ / ص ٢٢١) وفي الأوسط (٧٤٦١) (ج ٧ / ص ٢٦٥) والحاكم (٧١١٤) (ج ٤ / ص ١٢٩) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (١٥٩٧).

إن السؤال حينما يكون عن أمر يحتاج الإنسان إلى معرفته فإن ذلك السؤال يكون محموداً، وأما السؤال المتكلف الذي يكون التنقير فيه عن أمور مفترضة غير واقعة ولا قريبة الوقوع فإن ذلك يعد مذموماً؛ لأنه سؤال عما لا يعني السائل، ومن هنا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال، وفي حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعا: ((ذروني ما تركتكم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم))[8] وهذا يدل بظاهره على أن الإكثار من الأسئلة مذموم، وقد قال البخاري -رحمه الله-: باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه، وقوله تعالى: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] ومن هنا كان الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يتهيبون سؤال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويفرحون بقدوم الأعرابي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليسأله فيسمعون الجواب، كما ثبت أنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أمور متنوعة قبل وقوعها، ومن هنا وقع الخلاف بين العلماء في توجيه ما ورد من ذم كثرة السؤال، ويمكن تلخيص مذاهبهم في ذلك فيما يلي:

١ - ذهب جماعة من العلماء إلى أن ذلك محمول على ما كان على سبيل التكلف والتعنت فيما لا حاجة بالسائل إليه، وما لا خير له فيه من التكاليف الشاقة، بخلاف من سأل بضرورة عن مسألة وقعت له، والله يقول: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٤٣) سورة النحل].

٢ - ذهب طائفة من العلماء إلى أن ذلك مختص بزمن نزول الوحي خشية أن ينزل بسبب ذلك تحريم أمر أو إيجاب آخر فتلحقهم بسبب ذلك مشقة وكلفة، وهذا المعنى قد ارتفع بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد استقرت الأحكام فزال الأمر الذي من أجله نهي عن السؤال، ولهذه العلة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم من أجل مسألته))[9]، وفي رواية عند مسلم: ((رجل سأل عن شيء ونقر عنه))[10] وكما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا)) فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم)) ثم قال: ((ذروني ما تركتكم فإنما هلك)) إلى آخره[11].

واستدل أصحاب هذا القول بما ثبت من سؤال الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- للنبي -صلى الله عليه وسلم- عن أمور قبل وقوعها، وبما جاء عن الصحابة من أنهم تكلموا في أحكام الحوادث قبل نزولها، وتبعهم في ذلك التابعون ومن بعدهم من فقهاء الأمصار بل عد الخطيب البغدادي ذلك إجماعاً منهم على أنه جائز لا كراهة فيه ومباح لا محظور فيه، كما حمل الآثار المنقولة عن السلف في الامتناع من الإجابة عن

---

8 - سبق تخريجه.

9 - سبق تخريجه.

10 - صحيح مسلم في كتاب الفضائل - باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك (٢٣٥٨) (ج ٤ / ص ١٨٣١).

11 - سبق تخريجه.

المسائل التي لم تقع على التورع وتوقي القول بالرأي خوفاً من الزلل وهيبة للاجتهاد، ولهم مندوحة عنه حتى تقع النازلة فيجتهدون فيها عند قيام المقتضي فيكون ذلك سبباً مقرباً للإصابة.

٣- ذهب الحافظ ابن رجب -رحمه الله- مع اعتباره المعنى السابق إلى أن ذلك أيضاً من أجل علة أخرى، وهي أن الله تكفل في كتابه لعباده أن يبيّن لهم ما يحتاجون إليه وهو أعلم بمصالحهم كما قال تعالى: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ} [(١٧٦) سورة النساء] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا المعنى، ومن هنا فلا حاجة للسؤال عما لم يقع، وإنما ينبغي أن تكون الهمة متجهة إلى العمل بما أنزل، مع تدبره وتفهمه لا أن ينصرف المخاطب إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع، ولهذا كره كثير من السلف، السؤال عن ذلك.

وقد جعل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- الكلام على المسائل التي لم تقع على قسمين:

الأول: ما كان فيه نص من كتاب أو سنة أو أثر عن الصحابة فإنه لا يكره الكلام فيه.

الثاني: ما لا نص فيه وهو نوعان:

أ- ما كان بعيد الوقوع، أو ما كان بعيد الوقوع، أو مما لا يقع أصلاً، فهذا لا يستحب الكلام فيه.

ب- ما لا يبعد وقوعه، وكان غرض السائل معرفة الحكم فيما لو وقعت، فإنه يستحب في هذه الحالة بيان الحكم، وعلى هذا حمل ابن رجب -رحمه الله- ما ورد من سؤال الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أمور لم تقع.

٤- حمل ذلك النووي -رحمه الله- على أن المراد بالذم الإكثار من السؤال والابتداء بالسؤال عما لم يقع؛ لما يترتب على ذلك من المفاسد، إضافة إلى ما سبق من أنه قد يكون سبباً لتحريم شيء أو إيجاب آخر، كأن يكون في الجواب ما يكرهه السائل ويسوءه، وذلك في وقت نزول الوحي كما جاء في سبب نزول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة] وذلك أن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وألحفوا في المسألة، فقام على المنبر وذكر الساعة ثم قال: ((من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه، فو الله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا)) فقام ابن حذافة وقال: من أبي؟ قال: ((أبوك حذافة)) فنزلت الآية[١٢].

وفي الصحيح من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان قوم يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استهزاءً، فيقول الرجل من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية[١٣] ومن تلك المفاسد أنه قد يسترسل في ذلك حتى يقع في المحظور ويداخله الشك والحيرة كما

[12] - سبق تخريجه.

[13] - سبق تخريجه.

دل عليه حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- في الصحيح مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟))[14].

{مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ} [(١٠٣-١٠٤) سورة المائدة].

قبل الشروع في الكلام على تفسير هذه الآيات ينبغي أن نعرف أن مثل هذه الأمور يمكن أن يعرف أصل المعنى فيها، أي أصل معنى البحيرة وأصل معنى السائبة وأصل معنى الوصيلة، ولكن تحديد المراد بذلك على وجه الدقة لا بد فيه من معرفة ما كان عليه العرب في الجاهلية، فإنه لا يتوصل إلى هذا بمجرد معرفة المعاني من اللغة، فهذا مما يطلب فيه معرفة حالٍ واقعة، وهذا الأمر ورد فيه روايات كثيرة وكثير منها صحيح وثابت إلا أن هذه الروايات من حيث مدلولها ومضمونها مختلفة غير متفقة على تفسير هذه الأشياء بمعنىً واحد يتفق عليه هؤلاء الذين فسروها من الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- الذين أدركوا ذلك أو أدركوا مَن أدركه، فلما لم نجد شيئاً يحدد هذه الأمور بحيث يقال: هذا هو المراد بالبحيرة وهذا هو المراد بالوصيلة، وهذا هو المراد بالسائبة فإن غاية ما يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- هو أن يبيّن معنى البحيرة، فنقول: هي من البحر في اللغة، وهو شق الأذن، حيث كانوا يشقون أذن البهيمة لمعنىً عندهم يعتقدونه في الجاهلية، فقد كانوا يتصرفون هذه التصرفات ويشرِّعون من عند أنفسهم أو من وحي الشيطان هذه التشريعات التي يحرمون فيها على أنفسهم ما أحله الله -عز وجل- من هذه البهائم والدواب لمعانٍ باطلة، وهذه المعاني الباطلة يحتمل أن تكون ما ذكر في بعض الروايات على وجه التفصيل، أو ما ذكر في غيرها، ومعرفة ذلك على وجه الدقة لا يترتب عليه عمل، وإذا كان لا يترتب عليه عمل فإنه لا يكون من صلب العلم، وإنما يتجلى المراد بالآية أن هذه من أوضاع الجاهلية ومن تشريعات الشيطان حيث حرَّموا على أنفسهم ما أحله الله -عز وجل- وتصرفوا هذا التصرف الذي لا يليق بالعقلاء، ويُكتفى بهذا القدر، ولا بأس أن ينظر في الروايات الواردة في هذا المعنى ولكن الوصول إلى تحديد المقصود بدقة أمر لا يمكن؛ لأن ذلك لا يوصل إليه إلا عن طريق الرواية، والرواية في ذلك قد اختلفت، فيبقى النظر في مثل هذا من فضول العلم، ولهذا نجد كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أعرض عن ذلك وبيّن أصول المعاني لهذا الأشياء، وقال: يحتمل أن يكون البحيرة ما ذكره فلان، أو ما ذكره فلان، أو ما ذكره فلان، يعني في التوصيف كما ورد في الروايات، لكن الجزم بشيء من هذا لا سبيل إليه، وأقول: مثل هذا لا يترتب عليه عمل ولا يترتب عليه فهم القرآن وإنما يكفي أن نعرف أنها أوضاع جاهلية وأن نعرف أصل معنى البحيرة. وأصل معنى الوصيلة وأصل معنى الحام، وقد يكون تفصيله كما جاء في بعض هذه الروايات أو غير ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

14 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١٣٤) (ج ١ / ص ١١٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ} [(١٠٣-١٠٤) سورة المائدة].

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يُحمل عليها شيء.

قال: وقال أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب)) والوصيلة الناقة البكر تُبكَّر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فذكرنا في الدرس السابق أن المحتاج إليه هو معرفة أصل المعنى في مثل هذه الأشياء، وذكرنا أنها كانت اعتقادات في الجاهلية يحرِّمون فيها بعض ما أحل الله -عز وجل- لهم تشهياً من عند أنفسهم أو من وحي الشيطان، وتفصيل ذلك قد اختلف الناقلون فيه ولا ضرورة إلى معرفته على وجه الدقة، لكن يكفي تصور المعنى في الجملة.

قوله: "**البحيرة التي يمنع درُّها للطواغيت**" البحيرة، فعيلة بمعنى مفعولة، فهي بمعنى مبحورة، والبحر المراد به شق الأذن، يقال: بحر الأذن: أي شقَّها، فهؤلاء كانوا يشقون أذن البهيمة إيذاناً بأن هذه متروكة ليست كغيرها من الدواب أو البهائم، فربما خليت بلا راعٍ -كما يقول بعضهم- أي تترك فلا تُصدُّ ولا تُردُّ ولا تُذاد عن ماء ولا مرعىً ولا غيره وإنما يتركونها هكذا.

ومن تركها أيضاً أن يجعلوا درّها للطواغيت فلا ينتفعون بلبن ولا يسلئون منها زبداً ولا يأقطون أقطاً، ولا غير ذلك، فالمقصود أنهم لا ينتفعون بشيء منها بل تجد كثيراً من الروايات التي تذكر بعض التفاصيل في ماذا يصنع بهذه البحيرة -في كثير من هذه الروايات- أنهم يشقون الأذن علامة على ذلك، ويعتقدون فيها هذه الاعتقادات الفاسدة.

ثم قال: "**والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم**" السائبة من التسييب وهو الترك، فكانوا يسيبونها بحيث لا يحمل عليها ولا تركب ولا تذبح فينتفع بها وإنما سائبة ترعى وترد الماء لا يتعرض لها أحد بحال من الأحوال

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٧) (ج ٤ / ص ١٦٩٠).

وسواء فعلوا ذلك في الناقة أو البعير أو غيرها على سبيل النذر كأن يكون الإنسان مسافراً فينذر بقوله: إذا وصلتُ فعليَّ نذر أن أُسيِّب هذه الناقة أو يقول: عليَّ نذر أن أسيَّب هذا البعير إذا وصلت سالماً فيسيبه، ثم يضع له علامة يُعرف بها حتى لا يتعرض له أحد فيُترك لا ينتفع به أحد، فأهل الجاهلية كانوا يسيبونها للطواغيت.

والوصيلة: من الوصل، أي وصل الشيء بالشيء، وهذا الوصل المراد به في الآية تختلف تفاصيل الروايات فيه، فهذه الرواية التي ذكرها هنا من أن الناقة تصل بين أنثيين، يعني تلد أنثى وهي أنفس المولودين، بمعنى أنه بالنسبة للبهائم الأنفس فيها هي الأنثى؛ لأنها محل التكاثر فهي الأحسن عندهم بخلاف الذكر فإنه وحده، فالحاصل إذا جاءت بأنثى ثم أنثى مباشرة، يقولون: وصلت أنثى بأنثى فهذه وصيلة فيتركونها فكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

والحام من الحماية، والمعنى هنا أنه قد حمى ظهره، وهذا الذي حمى ظهره هو البعير، حيث يجعلون له حداً محدوداً من الضراب فإذا أنتج مثلاً عشرة بطون فإنهم يقولون: حمى ظهره، يعني أدى ما عليه وقام بإنجاز جيد فبعد ذلك لا يتعرض له أحد، ويضعون له علامة ويقولون هذا حام لا أحد يركبه ولا أحد يحمل عليه ولا يذبح، وهذا أصل هذا المعنى، لكن كم مرة يحتاج من الضراب حتى يحمي ظهره؟ هذه القضية تختلف الروايات في تفصيلها ولا سبيل إلى معرفتها؛ لأن المنقول عنهم اختلفت الروايات فيه، ونحن لا يمكن أن نعرف هذا بطريقة الترجيح، فالمعنى اللغوي وحده لا يكفي في معرفة ذلك، والله أعلم.

والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه وَدَعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي، وكذا رواه مسلم والنسائي.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار))[2] تفرد به أحمد من هذا الوجه.

عمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل -عليه السلام- فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} [(١٣٦) سورة الأنعام] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء وإن كان أنثى جدعوا آذانها فقالوا: هذه بحيرة، وذكر السدي وغيره قريباً من هذا.

وأما السائبة فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو أنثى أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم.

---

[2] - أخرجه أحمد (٤٢٥٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٦٧٧).

وقال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سيبت فلم تركب ولم يجزَّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا لضيف.

وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها فجعلها للطواغيت فما ولدت من شيء كان لها.

وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

وأما الوصيلة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا، رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب: {وَلاَ وَصِيلَةٍ} [(١٠٣) سورة المائدة] قال: فالوصيلة من الإبل، كانت الناقة تبتكر بالأنثى ثم تثنت بأنثى فسموها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- تعالى.

وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن، سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث، وإن كان ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام فقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل: حام فاتركوه. وكذا قال أبو روق وقتادة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزون له وبراً ولا يمنعونه من حِمى رعي، ومن حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه.

وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

الروايات في هذا كثيرة الاختلاف في التفاصيل، لكن يتبيّن أن أصل هذا المعنى أنها طقوس وأوضاع كانت عندهم في البهائم، وأما التفاصيل فهي نظم جاهلية وأوضاع بعيدة عن شرع الله -عز وجل- وربما يكون عندهم خلاف في التفصيل متى يحمي ظهره ومتى لا يحمي، ومتى تكون الوصيلة ومتى لا تكون، وهذا يحتاج إلى فقه وأناس يتفرغون لدراسة هذه الأشياء ومتابعة تاريخ ميلاد للبهيمة حتى يُعرف كم أنجبت من الذكور وكم من الإناث، وهذا البعير كم صار له من الضراب لمعرفة متى يحمي ظهره أو ما يحمي ظهره، فإذا اشتراه الإنسان لا بد أن يأخذ معه شهادة بذلك حتى لا يغلط، وهذا كله من أمور الجاهلية، ومن يقرأ في مثل كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام يجد فيه أشياء مضحكة من تشريعات في هذا أو في طقوس الحج وأوضاع الحج وأوضاع الحرام عندهم ومتى يروح إذا ذهب إلى بعض المتنسك عندهم من الأصنام

والأوثان ومحلات الذبح والقرابين قبل الحج ما الأحكام التي تترتب عليه وإذا ذهب بعد الحج ما الأحكام التي تترتب عليه، وإذا كان من الحمس فلا يسلئون ولا يأقطون ولا يزبدون، وإذا كان من غير الحمس إذا دخل حدود الحرم لا بد أن يريق الطعام الذي عنده فلا يدخل إلى أرض الحرم ومعه منه شيء، وإذا جاء يطوف ألقى ثيابه وطاف وهو عار -والمرأة تطوف بالليل- إلا إن كان عنده ثوب جديد أو له صاحب من الحمس، بهذين الشرطين، فإذا كان عنده واحد من الحمس أو عنده ثوب جديد لبسه وطاف فيه لكن لا بد أن يلقيه في نهاية الطواف بمعنى أن العري هذا أمر لا بد منه ويدوسون هذا الثوب الملقي وليس لأحد أخذه ويسمونه اللقا لا يجوز أخذه ولا الانتفاع به حتى يبلى ويتمزق، ولذلك تجد الطواف كله ثياباً مرمية.

وهكذا تجد أوضاعاً وأموراً عجيبة منها أن قبيلة عك لا بد أن يقف أمامها اثنان من الأرقاء -أي غلامان أسودان أمام الموكب الذاهب إلى الحج- ويرددون: نحن غرابا عك، عك إليك عانية عبادك اليمانية... الخ.

فمن قرأ الأوضاع العجيبة وكيف مسألة الدخول إلي البيت والاستظلال لمن أحرم وكيف أنه لا بد أن يتسور الداخل إلى البيت سيشعر بنعمة العقل ونعمة الإسلام الذي وهبه الله إياه فيحمد الله -عز وجل- على ذلك.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- في خلقان من الثياب، فقال لي: ((هل لك من مال؟)) فقلت: نعم، قال: ((من أي المال؟)) قال: فقلت: من كل المال من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: ((فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك)) ثم قال: ((تنتج إبلك وافية آذانها؟)) قال: قلت: نعم وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟، قال: ((فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه بُحير، وتشق آذان طائفة منها وتقول: هذه حرم؟)) قلت: نعم، قال: ((فلا تفعل، إن كل ما آتاك الله لك حل)) ثم قال: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها، وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة: فالشاة تلد ستة أبطن فإذا ولد السابع جدعت وقطع قرنها فيقولون: قد وصلت فلا يذبحونها، ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض"[3] هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث، وقد رُوي وجه آخر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عوف بن مالك من قوله وهو أشبه، وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه به، وليس فيه تفسير هذه والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [(١٠٣) سورة المائدة] أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم.

---

[3] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٢٨٠) وابن حبان في صحيحه (٥٦١٥) والحاكم في مستدركه (٦٥) وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب مختصراً وصححه برقم (١٠٩٣).

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٠٤) سورة المائدة] أي: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ} [(١٠٤) سورة المائدة] أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟!، ولا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(١٠٥) سورة المائدة].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً.

هذا الآية سبق الكلام عليها في الآيات التي يخطئ كثير من الناس في فهمها أعني قوله تعالى: {لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] وقلنا: ليس المراد أن يكون الإنسان مهتدياً في نفسه بمعنى أنه ينشغل بنفسه دون أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ثم يحتج بها لإسقاط التبعة عن نفسه، ويقول: إن الله يقول: {لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] فكل إنسان يتحمل ذنبه وأنا لست معنياً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا غير صحيح إطلاقاً.

قال ابن كثير: "**يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً**" يكون الإنسان قد أصلح أمره بأن يكون كما عبر بعض السلف: إذا عملتم بطاعة الله لم يضركم عمل غيركم بمعصيته، ويفسره قول الآخرين: المعنى إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر؛ لأن الإنسان لا يكون مهتدياً إلا إذا قام بما أمره الله -عز وجل- به، وإلا فإن الله يقول: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ* كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [(٧٩) سورة المائدة] فلا يكون مهتدياً بحال من الأحوال ولا يكون عاملاً بطاعة الله -تبارك وتعالى- إذا كان لا يأمر ولا ينهى، فهذا غير مهتدٍ بل هو عاصٍ ومقصر تقصيراً قد يستوجب عليه اللعن والطرد والإبعاد عن رحمة الله -تبارك وتعالى-، ولذلك فإن معنى قوله تعالى: {لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فإنه لا يضركم ضلال من ضل، فاعملوا بما أمرتم به وليس عليكم هداية الناس ولن تحاسبوا عنهم، ويدخل في هذا قول من قال: إن المراد بقوله: {لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] أن الرجل ربما كان مسلماً وأبوه على الكفر وأخوه على الكفر وأمه على الكفر، فإن ذلك لا يضره ولو كان هؤلاء من عتاة الكفار فإن ذلك لا ينقصه من مرتبته ولا يؤثر في عاقبته وأجره عند الله -تبارك وتعالى-، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان أبوه بتلك المثابة وما نقص ذلك في مرتبته، فإذا أنتم بقيتم على طاعة واستقامة وهدى فإن كفر من كفر ولو كان من أقرب الناس لا ينقص من مرتبتكم ولا يذهب بشيءٍ من أجركم، ولا يؤثر في عاقبتكم، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [(٣٨) سورة المدثر] وقال -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام] فقد يكون الإنسان مهتدياً وأخوه من أبعد

الناس فلا يضره ذلك، وهكذا كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يسلم الرجل ويبقى أهله في كثير من الأحيان على الكفر، فهذا هو معنى الآية، وليس المقصود بذلك أن يبقى الإنسان سلبياً لا يأمر ولا ينهى ويظن أنه بذلك يكون محققاً للنجاة.

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- يقول: هاهنا ناس يقولون: في المسجد لحىً غوانم -يقال: لحية غانمة، أي: رجُل طيب- يقولون: في المسجد لحىً غوانم يقرءون القرآن ويذكرون الله -عز وجل- وليس لهم شأن بغيرهم، يعني لا يأمرون بالمعروف بل تاركين الناس وكافِّين عنهم لا يتدخلون بشئونهم ولا يغيرون عليهم منكراً، يقول ابن عبد الوهاب: أما أنا فأقول: إنهم لحىً فوائن، والفوائن جمع فائن، والفائن في تعبيرهم يعني المرأة السيئة البغي، يقال: فائن أي: تالف وسيئ وفاسد العمل غاية الفساد، يقول الشيخ: أنا ما أقول: إنهم لحى غوانم إنما أقول لحى فوائن؛ لأنهم لا يأمرون ولا ينهون، تجد الواحد جالساً على مصحفه لا يغير شيئاً، فالفساد والشر ينتشر وهو يذهب إلى المسجد ليس له شأن بهذا كله، وهذا لا يجوز.

وقد روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] **وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله -عز وجل- أن يعمهم بعقابه)) قال سمعت أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- يقول: يا أيها الناس إياكم والكذب فإن الكذب مجانب للإيمان**[4].

قوله -عليه الصلاة والسلام-: **((إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله أن يعمهم بعقابه))** هذا هو الذي مشى عليه أهل العلم، وهذا الذي ذكره ابن جرير في تفسير الآية وكذا غيره من المفسرين كالقرطبي والشنقيطي وغير هؤلاء، وهو معنىً لا ينبغي أن يُختلف فيه، فقوله تعالى: **{لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}** [(١٠٥) سورة المائدة] معناها إذا قمتم بما أمرتم به ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كفر من كفر ومعصية من عصى لا تضركم، حتى لو وقع العذاب فإن الذين يأمرون وينهون ينجيهم الله -عز وجل- وأما إذا سكت الناس فإذا نزل العذاب أخذ الساكتين معهم، وفي الحديث: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: ((نعم إذا كثر الخبث))[5].

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ* فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ* ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [(١٠٦-١٠٨) **سورة المائدة**].

---

4 - أخرجه أحمد (١٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

5 - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ويل للعرب من شر قد اقترب)) (٦٦٥٠) (ج ٦ / ص ٢٥٨٩) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠) (ج ٤ / ص ٢٢٠٧).

هذه الآية قال جماعة من أهل العلم كمكي بن أبي طالب والنحَّاس والسعد التفتزاني -وهو من علماء اللغة من أهل البلاغة والبيان- وغير هؤلاء، قالوا: هذه أصعب آية في القرآن إعراباً ومعنىً وحكماً، كما ذكر هذا بعض المفسرين غير هؤلاء، وهذه الآية لا شك أنها تحتاج إلى تدبر وتأمل.

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز فقوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ} أي شهادة اثنين، وقيل: أن يشهد اثنان.

قوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ} أي شهادة اثنين، أو أن يشهد اثنان، وبعضهم يقول: في العبارة حرف مقدر محذوف، أي شهادة ما بينكم، وحذف للعلم به كقوله تعالى: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ} [(٣٣) سورة سبأ] أي مكرٌ في الليل {وَالنَّهَارِ} [(٣٣) سورة سبأ] أي مكرٌ في النهار.

وفي قوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} المعنى المتبادر للشهادة معروف، ومن أهل العلم من حملها على هذا المعنى، قال: المقصود الشهادة التي تُتحمل وتُؤدى إذا طُلبت لإثبات حق أو لدفع أمر من الأمور، فهذه الشهادة هنا يراد بها المعنى المعروف للشهادة، يقال: شهد على كذا، ويشهد على كذا..

ومن أهل العلم من قال: إن الشهادة في هذه الآية تعني الوصية، وهذا معنىً بعيد؛ إذ لو قيل: إن المراد بها الوصية لاختل المعنى، تأمل: يا أيها الذين آمنوا وصية ما بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية!! نجد أن المعنى يختل ولا ينضبط.

وبعضهم يقول: هي بمعنى الحضور للوصية من الشهود أي ضد الغياب والمعنى إذا حضرتم وصية الميت، فالشهادة بمعنى شهد الوصية أي حضرها يقال: شهد الواقعة يعني حضرها، فالشهادة بمعنى الحضور الذي يقابله الغيبة، وليس المقصود بها الشهادة المعروفة، هكذا قال بعض أهل العلم وهو بعيد أيضاً؛ لأن المسألة ليست مجرد الحضور فهو رتّب على الحضور أمراً آخر بعده.

ومن أهل العلم من قال: إن الشهادة المراد بها هنا اليمين، وهذا الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري، حيث قال: الشهادة بمعنى اليمين؛ لأنه ذكر الأيمان بعدها، وقال: ولا نعلم شهادة يطلب فيها الأيمان؛ فالشاهد يؤدي الشهادة لكن كونه يوقف ويحلف بعد الصلاة فإذن {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} أي يمين، ففسرها بهذا، وهذا وإن كانت تحتمله الآية لكنه أيضاً لا يخلو من إشكال وهو حمل للفظة على غير المعنى المتبادر والقرينة التي ذكرها أنه غير معلوم إلى آخره، لكن يقال: هذا حكم من الأحكام فيكون بهذا الاعتبار إذا حصل الشك والريبة مستثنى، وقد ردَّ الحافظ ابن القيم من ثلاثة عشر وجهاً على قول من قال: إنها اليمين في كتابه الطرق الحكمية[6]، وهي ردود في جملتها قوية وجيدة وتُبيّن ضعف هذا القول، وعلى كل حال فالأقرب -والله أعلم- أن تفسر الشهادة بمعناها المتبادر، فقوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} أي شهادة ما بينكم، أو ليشهد بينكم اثنان ذوا عدل منكم.

والذي فسرها بالوصية قال في قوله: {اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ} [(١٠٦) سورة المائدة]: أي وصيان، وهذا بعيد، وهكذا الذي فسرها بالحضور، فقال: أي الذين يحضرون، وهذا أيضاً كما يقول ابن القيم: إخراج للكلام عن فائدته، والله أعلم.

---

[6] - الطرق الحكمية لابن القيم (ص ٢٧٢ – ٢٧٤).

وعلى كل حال فقوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} يقول: أي شهادة اثنين أو أن يشهد اثنان في مثل هذه الحال كأن يكون إنسان مسافراً وحضرته الوفاة وعنده وصية فإن وجد من المسلمين أحداً أشهد منهم اثنين عدلين عليها.

وقوله تعالى: {اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] يعني من المسلمين، خلافاً لقول من قال: إن المراد قرابة الميت أو عشيرته.

وقوله: {أَوْ آخَرَانِ} [(١٠٦) سورة المائدة] أي من غير المسلمين، خلافاً لقول من قال: أي من الغرباء فهذا بعيد، ولم يحدد هنا فيدخل فيه أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، وهذا هو الموضع الوحيد الذي تصح فيه شهادتهم، فتقبل شهادتهم هنا للاضطرار حيث مات هذا الرجل في سفر ولم يوجد إلا هؤلاء من غير المسلمين، فيشهدون في الوصية أن الميت أوصى بكذا وكذا، وأدى كذا وكذا، وهذا متاعه وهذا ماله.

وهذه الآية أكثر السلف يقولون: إنها محكمة لم تنسخ ومعمول بها إلى اليوم، وذهب طائفة -ومنهم الأئمة الثلاثة غير الإمام أحمد- إلى أنها منسوخة بالنصوص الأخرى كقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٢) سورة الطلاق] وما شابه ذلك، والواقع أنه لا تعارض بين عام وخاص، فقوله: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(٢) سورة الطلاق] إن وجد فإن لم يوجد في السفر فهذه حالة تستثنى، فالأصل أن نُشهد كما قال الله -عز وجل-: {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء} [(٢٨٢) سورة البقرة] فإن لم يوجد من نرتضيه في مثل هذه الحال خاصة فعندئذ يجوز إشهاد هؤلاء، فالأئمة الثلاثة مشوا على أنها منسوخة، وهذا فيه بعد، ولذلك نقول: الجمهور من السلف فمن بعدهم على أن الآية محكمة والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ولا تعارض بين عام وخاص.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٣٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] وصف الاثنين بأن يكونا عدلين، وقوله: {مِّنكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] أي: من المسلمين.

وقوله: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] قال: من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب.

وقوله تعالى: {إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ} [(١٠٦) سورة المائدة] أي سافرتم، {فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ} [(١٠٦) سورة المائدة] وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية كما صرح بذلك شريح القاضي، روى ابن جرير عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ولا تجوز في سفر إلا في الوصية.

وقوله تعالى: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ} [(١٠٦) سورة المائدة] قال العوفي: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني صلاة العصر، وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله تعالى: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ} [(١٠٦) سورة المائدة] القول بأن هذه الصلاة هي صلاة العصر هو قول أكثر أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وكذا هو قول جمهور السلف ومن بعدهم؛ وذلك لأن القسم بعد العصر أعظم، فقد جاء الحديث في الرجل الذي حلف بعد العصر على سلعة كاذباً[1].

ومنهم من قال: إن الله ذكر هذا الوقت؛ لأنه وقت معظم عند الكفار باعتبار أنه وقت قرب غروب الشمس، وهذا القول غير صحيح إطلاقاً بل هو وقت معظم عند المسلمين، وهو وقت للذكر، وبعضهم يقول: الصلاة هنا صلاة الظهر.

ومن أهل العلم من قال: إنه لا يختص بالعصر؛ لأن قوله تعالى: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ} [(١٠٦) سورة المائدة] لم يحدد فيه صلاة معينة، فيدخل فيه العصر وسائر الفرائض إلا أن القول بأنها صلاة العصر قول قريب.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المساقاة – الشرب – باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه (٢٢٤٠) (ج ٢ / ص ٨٣٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٨) (ج ١ / ص ١٠٣).

وأما تحديد الوصية بأهل الذمة فإن هذا لا دليل عليه، فإن الله -عز وجل- قال: {ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] يعني من المسلمين خلافاً لمن فسره بأقارب الميت وعشيرته، ثم قال: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] يعني من غير المسلمين أياً كانوا؛ فهذه حال ضرورة، ثم إن القول بأن ذلك يختص بأهل الذمة قد يرده ما ورد في سبب النزول كما في الحديث الذي أخرجه البخاري أنها نزلت في رجل من بني سهم خرج من مكة وحضرته الوفاة في أرض ليس فيها مسلم، فشهد على وصيته رجلان هما عدي بن بداء وتميم الداري، وهؤلاء لم يكونا من أهل الذمة فتميم الداري من أهل الشام، وأهل الشام في ذلك الوقت كانوا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالحاصل أن سبب النزول يدل على هذا، والقول بأنه يختص بأهل الذمة قول يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم.

{فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ} [(١٠٧) سورة المائدة] أي: فيحلفان بالله {إِنِ ارْتَبْتُمْ} أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلَّا فيحلفان حينئذ بالله {لاَ نَشْتَرِي بِهِ} [(١٠٦) سورة المائدة] أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان.

يعني أن الضمير -الهاء في قوله: {لاَ نَشْتَرِي بِهِ} [(١٠٦) سورة المائدة]- عائد إلى اليمين، وهذا هو المتبادر وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- خلافاً لمن قال: إن الضمير في قوله: {لاَ نَشْتَرِي بِهِ} [(١٠٦) سورة المائدة] يرجع إلى الله، أي لا نبيع حظنا من الله بعرض قليل من الدنيا.

وبعضهم يقول: {لاَ نَشْتَرِي بِهِ} يعني لا نشتري بهذه الشهادة عرضاً قريباً من الدنيا أو لا نستبدل بها عرضاً زائلاً، والأقرب أنه يرجع إلى اليمين؛ لأن الكلام في اليمين، يقول الله: {فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ} [(١٠٧) سورة المائدة]، ومن قال: إنه عائد إلى الله فهذا باعتبار أنه أقرب أو آخر مذكور، والله أعلم.

{ثَمَنًا} [(١٠٦) سورة المائدة] أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٠٦) سورة المائدة] أي: ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه {وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ} [(١٠٦) سورة المائدة] أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها.

يقول: "**أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها**" وكذلك الله -عز وجل- هو الذي أمر بإقامتها كما قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [(٢) سورة الطلاق].

{إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ} [(١٠٦) سورة المائدة] أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: {فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا} [(١٠٧) سورة المائدة] أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلَّا شيئاً من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك {فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ} [(١٠٧) سورة المائدة] أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال.

الأوليان تثنية الأَولى، والمراد بالأولى الأقرب إلى الميت، أي الأولى بالميراث كالوالد والولد مثلاً.

وقراءة الجمهور لهذه الآية بالبناء للمجهول هكذا (مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ) فالأوليان يمكن أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي كأنه قيل: (فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ) فقيل من هما؟ فقال: هما الأوليان، أي أننا لا نأتي بأي إنسان ليشهد أو يحلف وإنما نأتي بالأولى بالميت، فــ"هما" مبتدأ، والأوليان خبر، كما أنه يمكن أن يعرب الأوليان بدلاً من الضمير في قوله: {يِقُومَانُ}، ويمكن أن يكون بدلاً من آخران.

وقوله: (مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ) يعني من الذين وقع عليهم الجناية وهم أهل الميت وعشيرته فهم أولى بالشهادة.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: فآخران من أهل الميت الذين استحق المؤتمنان على مال الميت الإثم فيهم، يعني استُحِقَّ الإثم فيهم، وهذا يرجع إلى المعنى السابق باعتبار أنهم جنوا على هؤلاء بأخذ أموالهم.

وعلى القراءة الأخرى: {من الذين اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ} [(١٠٧) سورة المائدة] بالبناء للمعلوم يعني الأوليان بالميت فيقومون من بين عشيرته وأقاربه بهذه الشهادة فيظهر بذلك كذب هؤلاء الذين كتموا وخانوا في هذه الوصية، فهم أولى بالميت وأولى بالمال، ولا حاجة لتحديد أنهما أولى بالمال أو أولى بالميت؛ لأن ذلك متلازم، فالذي هو أولى بالميت يكون أولى بالمال والعكس، والله أعلم.

{فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا} [(١٠٧) سورة المائدة] أي لَقَوْلنا: أنهما خانا أحقُّ وأصحُّ وأثبت من شهادتهما المتقدمة {وَمَا اعْتَدَيْنَا} أي: فيما قلنا فيهما من الخيانة {إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [(١٠٧) سورة المائدة] أي: إن كنا قد كذبنا عليهما.

قوله: {فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا} [(١٠٧) سورة المائدة] يعني ليميننا أحق من شهادتهما، وقد قلنا: إن الشهادة في قوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] المراد بها الشهادة المعروفة، ويمكن تفسير الشهادة هنا في قوله: {لَشَهَادَتُنَا} [(١٠٧) سورة المائدة] بالشهادة المعروفة أيضاً وكذلك {أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا} [(١٠٧) سورة المائدة] كما أنه يمكن أن تفسر هنا باليمين باعتبار أنهما يقومان فيحلفان، فالمقصود أن تفسير الشهادة باليمين هنا له وجه، والله أعلم.

وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل.

قوله: "**إذا ظهر لوث في جانب القاتل**" اللوث عبارة عن أمارات وليست بيِّنة، ومثال ذلك أن يوجد إنسان يتشحط بدمه وإنسان آخر معه سكين وبيده دم، فمثل هذا يكون هو المتهم الأول في قتله وإن كان هذا ليس بالضرورة، فقد تقع بعض الأمور مثل ما ذكر التنوخي في كتابه الفرج بعد الشدة حيث قال: خرج رجل في ليلة ظلماء فنظر كأنه رأى بعض اللصوص في بغداد فخافهم فدخل في مكان خرِب مظلم وتوارى وبقي فيه، فلما أصبح نظر فإذا رجل مقتول في هذا المكان، فرآه الناس وأُخذ فوضع في الحبس نحو ثمان سنين فحصل أمر بعد ذلك به فرج الله عنه، فالمقصود أنه في مثل هذه الحال لا يقطع بهذا، لكن هذه قرائن وأمارات، ومثلها الإحن والعداوات وما أشبه ذلك بحيث لو جاء أولياء المقتول وقالوا: نحن ما نعرف إلا هذا؛ لأنه سبق أنه هدده وتوعده أو سبق أنه حاول قتله أكثر من مرة فدمُه في بطن هذا، وفي هذه الحالة يُلجأ إلى الحلف.

فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

يعني لو وُجد رجل مقتول في محل أو مكان أو حي أو في عشيرة أو في أرض قبيلة فجاء أولياء المقتول وقالوا: هؤلاء هم الذين قتلوه حيث قُتِل بينهم أو قتل في بيت هذا الرجل فعندئذ يحلفون، وهذه تسمى القسامة حيث يأتي خمسون من هؤلاء، وأولئك إذا أرادوا نفي هذه التهمة أتوا أيضاً بخمسين، فهذا من الأخذ بالأمارات، وهذه المسألة فيها خلاف لكن إذا تعذر القطع واليقين فإن الشريعة دلت على أنه ينتقل في بعض الحالات إلى القرائن والأمارات مع أنه لا يقطع بها، وهذا لا إشكال فيه، ففي اللعان يقوم الرجل ويشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم تقوم المرأة وتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، وفي القصة المعروفة النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الله يعلم أن أحدكما كاذب))[2] وهذا لا بد منه قطعاً؛ لأن الرجل حلف عليها أنها زنت وهي حلفت أنها لم تزنِ فلا بد أن أحدهما صادق والآخر كاذب، لكن هذا هو الحكم الشرعي أعني الأخذ بالظاهر.

وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصافاً معينة للجنين إن جاءت به بهذه الصفة فهو للرجل الذي اتُّهِمت به، وإن جاءت به بالصفة الأخرى فهو لأبيه، فجاءت به على الوصف المكروه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن))[3] أي: لرجمها –عليه الصلاة والسلام- فهذا أخذ بالظاهر.

والشهود عندما يشهد اثنان على شيء فإنه يُستحق بهذه الشهادة مع أنهما قد يكونا كاذبين، وكذا لو شهد أربعة على امرأة أنها زنت وجاءوا بالشهادة مفصلة عُمل بهذه الشهادة؛ لأن هذا أمر الله –عز وجل- به إلا أن مثل هذا لا يقطع به تماماً، وهذا له أمثلة كثيرة.

وقوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا} [(١٠٨) سورة المائدة] **أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهديْن الذميين.**

قوله: {أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ} يعني هؤلاء الذين قال عنهم: إنهم أهل الذمة -يعني غير المسلمين- عليهم أن يأتوا بالشهادة على وجهها؛ لأنهم يعرفون أنهم إن خانوا فسترد الأيمان إلى غيرهم من أولياء الميت ويحلفون ويحكم على هؤلاء بمقتضى ذلك بأنهم كذبة خونة، فيقولون من البداية: لماذا نضع أنفسنا في هذا المقام الذي يشنَّع علينا فيه؟ فيأتوا بالشهادة على وجهها.

من تحليف الشاهديْن الذميين وقد استريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي.

يعنى عليهم أن يأتوا بالشهادة على وجهها خوفاً من الله أو خوفاً من أن ترد الأيمان بعد أيمانهم إلى غيرهم من أولياء الميت، فإذا ما خافوا من الله -عز وجل- خافوا على الأقل من الأمر الآخر.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الطلاق - باب قول الإمام للمتلاعنين: ((إن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب؟)) (٥٠٠٦) (ج ٥ / ص ٢٠٣٥) ومسلم في كتاب اللعان (١٤٩٣) (ج ٢ / ص ١١٣٠).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النور (٤٤٧٠) (ج ٤ / ص ١٧٧٢).

وقوله: {أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ} [(١٠٨) سورة المائدة] أي: **يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدَّعون، ولهذا قال:** {أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ} [(١٠٨) سورة المائدة].

ثم قال: {وَاتَّقُوا اللّهَ} [(١٠٨) سورة المائدة] أي: **في جميع أموركم** {وَاسْمَعُواْ} أي: **وأطيعوا** {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [(١٠٨) سورة المائدة] أي: **الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.**

هذا الآية سبب نزولها كما في البخاري هو ما وقع للرجل من بني سهم لما خرج فأدركه الموت في أرض ليس فيها مسلم فأراد أن يوصي فشهد على ذلك رجلان من غير المسلمين هما عدي بن بداء وتميم الداري، وجاءوا إلى أهله وأوليائه وأعطوهم ما ترك، وقالوا: هذا ما أوصى به، ثم بعد ذلك وجدوا إناء من فضة مخضوباً بذهب يباع في مكة وهم يعرفون أنه لصاحبهم؛ لأنه ما اشتراه للتجارة وإنما اشتراه للاقتناء فالحاصل أنهم سألوا الذين يبيعونه، فقالوا: اشتريناه من تميم الداري وعدي بن بداء، فكان ذلك محركاً لهم للمطالبة بهذا الحق[4].

وفي بعض الروايات: أن تميم الداري لما أسلم ندم، وكانوا قد باعوه بألف درهم وأخذ تميم خمسمائة وأخذ عدي خمسمائة، فندم تميم لما أسلم وذهب إلى أهله وأعطاهم الخمسمائة، وقال: عند صاحبي مثلها، وذكر لهم ما حصل، فطالبوا الآخر فنزلت هذه الآيات[5].

وبالنسبة لمعنى قول الله تعالى: {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} [(١٠٦) سورة المائدة] أن الله -عز وجل- يعلم المسلمين كيف يتصرفون إذا أدركهم الموت وهم بأرض ليس فيها أحد من المسلمين، فإن كان فيها أحد من المسلمين فيشهد على ذلك اثنان، فإن لم يوجد فيشهد آخران من غير المسلمين لقوله تعالى: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة].

قوله: {إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ} [(١٠٦) سورة المائدة] هذا قيد، ومعناه إن حصل ذلك الموت في حال السفر.

يقول تعالى: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] يعني يُحبسون في حال الريبة وإلا فالذي عليه عامة أهل العلم أنهم لا يحبسون من غير ريبة.

ومعنى يحبسون أي: يوقفون إلى ما بعد الصلاة، فالأصل أنهم إذا شهدوا وأدوا ما تحملوا وائتمنوا عليه ولم تقم ريبة تستوجب الطعن في هذه الشهادة فعندئذ يقبل ذلك منهم، فإن حصلت ريبة كما قال: {فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا} [(١٠٦) سورة المائدة] أي أن هذا يكون فيما لو جاء أولياء الميت وقالوا: لا، هو أخبرنا عن أشياء، أو اتصل علينا أو وجدنا كتاباً له يذكر فيه أشياء أخرى غير موجودة، أو نحن حمّلناه

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا – باب قول الله تعالى: {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} إلى قوله: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [(١٠٦-١٠٨) سورة المائدة (٢٦٢٨) (ج ٣ / ص ١٠٢٢).

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة المائدة (٣٠٥٩) (ج ٥ / ص ٢٥٨) وهذه الرواية كما يقول الألباني: ضعيف الإسناد جداً، إلا أن أصله في البخاري كما في الرواية السابقة.

أشياء حينما ذهب على أن يرجع بها والآن هي غير موجودة، ففي هذه الحال {فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٠٦) سورة المائدة] أي أنهم يُحبسون بعد صلاة العصر ويقال لهم: احلفوا أنكم لا تشترون بهذه الأيمان ثمناً ولو كان ذا قربى، يعني ما تحلفون كاذبين من أجل هذا الذي أخذتموه وطمعت نفوسكم فيه من عرض الدنيا الزائل، فيحلفون، ثم يقوم من أولياء الميت اثنان من أقرب الناس إليه فيحلفان أن هؤلاء قد خانوا وكذبوا فيقبل ذلك فيهم فيتحملون غرمه، فإن كانت دراهم ردوها وإن كان شيئاً من متاع أو غيره وجد عندهم وقال أولياء الميت: هذا لنا أُخذ، كأن يكون ثوباً يلبسه أو عمامة أو ساعة أو خاتماً، وقد يكون الخاتم مثلاً قيمته مئات الألوف أو عشرات الألوف وقد يكون بريال، فالمقصود أنهم إذا قالوا: هذا الخاتم خاتم صاحبنا وهذه ساعته وهذه نظارته نحن نعرفها، فيحلفون فإذا حلفوا أخذ منه وأعطي لهؤلاء أو يغرمون القيمة إذا لم يوجد.

يقول تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا} [(١٠٨) سورة المائدة] يعني ذلك أدنى أن يأتي أولئك -أي غير المسلمين- بالشهادة؛ لأنهم يعرفون أن قولهم ليس هو النهائي، فإن قام أهل الميت وحلفوا استحقوا ذلك، فمن البداية يقولون: نحن لماذا نخون أو نكتم ما دام الأمر كذلك؟، هذا هو المعنى، والله أعلم.

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة] هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ} من أهل العلم من يقول: إن هذا متعلق بما قبله، أي أن الله -عز وجل- في آخر الآية السابقة خوفهم بقوله: {وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ* يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ} [(١٠٨-١٠٩) سورة المائدة] فهو يحذرهم ويخوفهم.

ومنهم من يقول: إنه متعلق بمقدر محذوف تقديره: واذكر أو واذكروا، ويمكن أن يكون التقدير: وخافوا يوم يجمع الله الرسل كما يقول ابن جرير –رحمه الله- وقيل غير ذلك.

كما قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] وقال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٩٢-٩٣) سورة الحجر].

وقول الرسل: {لاَ عِلْمَ لَنَا} [(١٠٩) سورة المائدة] قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

قال عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن مجاهد: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ} [(١٠٩) سورة المائدة] فيفزعون فيقولون: {لاَ عِلْمَ لَنَا} [(١٠٩) سورة المائدة] رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة] يقولون للرب -عز وجل-: لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا.

طبعاً هذا الكلام كله بناء على أن هناك سؤالاً قد يرد وهو أنهم يعرفون حال الأمم وبماذا أجابوهم حيث بُعثوا إليهم وعرفوا جوابهم وموقفهم من دعوتهم فكيف قالوا: {لاَ عِلْمَ لَنَا}؟ فكل هذا الكلام وغيره هي محاولة في

الجواب عن هذا الإشكال، أي أنهم من شدة الفزع والذهول قالوا: {لاَ عِلْمَ لَنَا} وهذا وجه ذكره جماعة من السلف.

وهنا قال: هو من باب التأدب مع الله -عز وجل- فهذا مقام عظيم والله مطلع على كل الخفايا، وكل شيء مكتوب لا يخفى عليه خافية، فمن تمام التفويض التأدب معه -سبحانه وتعالى- وإظهار العجز، ولذلك قالوا: لا علم لنا بما أجابوا {إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة] وهذا كقول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة] مع أن المتبادر وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، فهو لم يقل: إنك أنت الغفور الرحيم وإنما قال: إنك أنت العزيز الحكيم، فيمكن أن يقال فيه -والله تعالى أعلم-: لما كان هذا المقام مقاماً عظيماً يغضب فيه الرب -تبارك وتعالى- غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله فوَّض عيسى -صلى الله عليه وسلم- إلى الله أمر هؤلاء وأن مغفرته لهم أو عقوبته إنما تكون مع كمال القدرة، فإن عفا عنهم فليس ذلك لعجز ولا لضعف ولا لوضع للشيء في غير موضعه {فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة] والله أعلم.

رواه ابن جرير ثم اختاره وهو من باب التأدب مع الرب -جل جلاله- أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء، فعِلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم؛ فإنك أنت علام الغيوب.

{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ* وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١٠-١١١) سورة المائدة].

طبعاً فيما يتعلق بالآية السابقة فهناك أقوال فيها بعد، وذلك كقول من قال: لا علم لنا أي ببواطنهم، أو قول من قال: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، فهذا فيه بعد؛ لأنه إنما يسألهم عما واجهوه من جواب قومهم، ومعلوم أن البواطن أمرها إلى الله -عز وجل- وما ذكر ثانياً من أن ذلك لكمال التفويض هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليه السلام- مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال: {اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ} [(١١٠) سورة المائدة] أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء {وَعَلَى وَالِدَتِكَ} حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة {إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} وهو جبريل -عليه السلام-.

قوله: "{إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} **وهو جبريل عليه السلام**" هذا هو الأقرب وهو المتبادر، وبعضهم يقول: إن روح القدس هنا يعني الطهر، أي أن هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الروح الطاهرة، وحتى لو فسر بهذا فالروح الطاهرة إذا أطلق بمثل هذا اللفظ فإنه جبريل -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن نظائره في

القرآن محمولة على هذا، قال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ} [(١٠٢) سورة النحل] فهو هنا جبريل، وكذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((إن روح القدس نفث في روعي))[٦] يعني جبريل -عليه الصلاة والسلام- فالحاصل أن بعضهم يقول: إن المراد بقوله: {إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} الروح الطاهرة التي خصه الله بها، ولذلك شرفها بنسبتها إليه وأنها إضافة تشريف وليست إضافة خلق.

وبعضهم يقول: قوله: {إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} يعني ما كان يقوله بإحياء الموتى حيث ترجع إليهم الأرواح، وهذا بعيد، والأقرب أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغَرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي.

قوله تعالى: {تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} هذه هي المعجزة، وقوله: {وَكَهْلاً} كلامه في الكهولة ليس بمعجزة وإنما أراد أنه كلمهم في المهد وكلمهم في كهولته على حد سواء، وبالنسبة لكلامه في المهد كان إظهاراً للمعجزة وكان مما قال لهم: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [(٣٠) سورة مريم] إلى آخره، وظهرت بكلامه براءة أمه، وأما كلامه في الكهولة فهو في دعوته إلى الله -عز وجل- وبيان بعثته، إلى غير ذلك مما أُمر بتبليغه.

والمهد معروف وهو ما يوطأ للصغير من الفراش أو نحو ذلك، والكهولة يرى بعض أهل العلم أنها تبدأ من الثلاثين، وأخذوا ذلك من هذه الآية؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام- رُفع ولم يبلغ الأربعين بعدُ، ولذلك قالوا: من بلغ الثلاثين فهو كهل، وعلى كل حال هنا أطلق عليه أنه كهل ومثل هذه الإطلاقات قد تتفاوت، فهنا دلَّ على أن من بلغ الثلاثين يقال له كهل، وقد يكون في كلام العرب أن ذلك يقال لمن بلغ سناً معينة، ولذلك يختلفون في مثل هذه الأشياء مثل: الشيخ والكهل والشاب وبلوغ الأشُدّ، فهم يختلفون في تقديره، وقد تكون بعض هذه الإطلاقات وإن تعددت كلها صحيحة لكن يشتد ذلك ويضعف بحسب المراحل السنية، فبلوغ الأشد مثلاً يمكن أن يكون كما قال بعضهم: هو سن البلوغ، وبعضهم قال: أن يبلغ ثماني عشرة سنة، وبعضهم قال: أن يبلغ الأربعين، وبعضهم قال: أن يبلغ الخمسين، وبعضهم قال غير هذا، فهذا الذي بلغ الخمسين قد اكتمل عقلُه ونضجُه ونموُّه من كل وجه فما بقي عليه إلا الضعف، ومن بلغ الأربعين فهو في أعلى اكتمال الأشد العقلي والبدني وليس بعده أي نمو يرجى لمثل هذا الإنسان إلا أن تحنِّكه التجارب، لكن إن كان سفيهاً وقد بلغ الأربعين فلا يرجى له بعد ذلك رشد؛ لأن اكتمال العقل والفهم والنضج يكون في الأربعين، لكن المراهق أو الشاب الحدث قد يكون عنده شيء من النزوات والطيش لكن يرجى له بعد ذلك أن يهدأ وينضج ، لكن إذا رأيته سفيهاً قد بلغ الأربعين فهذا لا يرجى له عقل بعد ذلك؛ لأنه قد بلغ منتهى العقل.

ولهذا قال: {تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [(١١٠) سورة المائدة] أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمَّن {تُكَلِّمُ} تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب.

---

[6] - أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٠٠) (ج ١١ / ص ١٢٥) وأبو نعيم في الحلية (ج ١٠ / ص ٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥) وهو عند البيهقي في شعب الإيمان (١١٨٥) (ج ٢ / ص ٦٧) ولفظه: ((إن الروح الأمين قد نفث في روعي)).

يقول: "**وضمَّن** {تُكَلِّمُ} **تدعو**" سبق الكلام على التضمين، وهنا التضمين ليس من أجل التعدية، يعني في مواضع أخرى يقال: هذا مضمن لكذا؛ لأنه عدي بكذا والأصل أن هذا الفعل لا يتعدى بهذا الحرف، لكن هنا ليس من أجل التعدية وإنما من أجل المعنى أي أن تكليمه في حال الكهولة ليس بمعجزة فهو مضمن معنى تدعو، أي أن المعجزة هي أنك تكلم الناس في المهد، كما أنك تدعوهم كهلاً.

وقوله: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١١٠) سورة المائدة] أي: **الخط والفهم**.

في قوله تعالى في سورة الجمعة: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢) سورة الجمعة] من أهل العلم من قال في قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} يعني الخط بالقلم، ومن القرائن التي ذكروها على هذا التفسير أنه ذكر قبل ذلك الأمية في مقام الامتنان، وقد ارتفعت عنهم هذه الأمية ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي غزوة بدر كان فداء الأسارى ممن يعرف القراءة أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين، ومن القرائن أيضاً أنهم قالوا: إذا كان قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} [(٢) سورة الجمعة] يعني القرآن فإن قوله: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] يكون تكراراً والتأسيس مقدم على التوكيد، ونحن نقول: إن هذا التفسير تحتمله الآية هناك، وهنا لدينا مثال آخر من سورة المائدة، أعني قوله: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١١٠) سورة المائدة] قال ابن كثير: "**الخط والفهم**" وهذا الذي قاله ابن كثير لتفسير الكتاب بالخط والحكمة بالفهم هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وهؤلاء قالوا في الكتاب هنا: الخط ولم يقولوا: كتاب الله -عز وجل-؛ لأنه قال بعده: {وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [(١١٠) سورة المائدة] فلو قيل: إن الكتاب هنا كتاب الله فسيكون هذا من قبيل التكرار، فيلاحظ أن القرينة هنا تشبه القرينة التي في سورة الجمعة.

ومن أهل العلم من قال: {عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ} يعني جنس الكتاب {وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} يكون من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن ذلك أعلق به فعيسى -عليه الصلاة والسلام- أنزل عليه الإنجيل وأما التوراة فكان متعبداً بها ولم تنسخ إلا بعض الأحكام فيها، ولذلك قال في موضع آخر: {مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [(٦) سورة الصف] فذكر التوراة والإنجيل بعده، لكن لهؤلاء الذين قالوا: إنه الخط بالقلم أن يقولوا: كيف عُلِّم جنسَ الكتاب إن لم يكن المراد به التوراة والإنجيل؟ هل هي صحف إبراهيم؟ سيقال: هذا بعيد، لذلك قالوا: هنا العطف يقتضي المغايرة {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [(١١٠) سورة المائدة] قالوا: {الْكِتَابَ} الخط بالقلم {اوَالْحِكْمَةَ} الفهم، يعني أن الله تعالى جمع له بين القراءة والفهم والتوراة والإنجيل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة المائدة (٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي} [(١١٠) سورة المائدة] أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك.

{فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [(١١٠) سورة المائدة] أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

وقوله تعالى: {وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي} [(١١٠) سورة المائدة] قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته.

وقوله: {وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي} [(١١٠) سورة المائدة] أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته.

وقوله تعالى: {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [(١١٠) سورة المائدة] أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنكم حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم ورفعتك إليَّ وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم.

وهذا يدل على أن هذا الامتنان يكون واقعاً يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي} [(١١١) سورة المائدة] وهذا أيضاً من الامتنان عليه -عليه السلام- بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً.

ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} الآية [(٧) سورة القصص] وهو وحي إلهام بلا خلاف كما قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً} الآية [(٦٩) سورة النحل].

قال الحسن البصري: ألهمهم الله -عز وجل- ذلك وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك فقالوا: {آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١١) سورة المائدة].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي} [(١١١) سورة المائدة] يقول: إن هذا من وحي الإلهام، بمعنى أن الله -عز وجل- ألقى ذلك في قلوبهم، والوحي قد يكون بهذا المعنى كما قال

الله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى} [(٧) سورة القصص] وقد يكون بطريقة أخرى كما قال بعض أهل العلم في تفسير هذه الآية من سورة المائدة: {أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ} يعني عن طريق عيسى -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن أصل الوحي -على الأرجح مما ذكر في معناه والله تعالى أعلم- هو كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه فهو وحي، ولا يشترط فيه -كما يقوله كثير من أهل العلم- الإلقاء السريع الخفي، فالسرعة والخفاء ليس من شرطه، وقد جاء جبريل –عليه السلام- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- على صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر[١] وتكلم معه بكلام فهمه الجميع ولم يكن فيه هذا المعنى، وكذلك كان يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أحياناً بصورة دحية الكلبي.

والمقصود أن هذه قضية لا شك -والله أعلم- أنها واقعة وتدل على خلاف ما هو مشهور مما يذكره كثير من أهل العلم في معنى الوحي.

كما أن الوحي قد يأتي أيضاً عن طريق المَلَك إلى غير الأنبياء، ولا يعني ذلك أنهم أنبياء، فجبريل جاء إلى مريم قطعاً بنص الآية ومع ذلك مريم ليست نبيَّة؛ فقد يأتي الملك ابتلاء وامتحاناً وقد يأتي ببشرى من الله -عز وجل- فجبريل تمثل لمريم بشراً سوياً، ومن أمثلة ذلك أيضاً قصة الرجل الذي أرصد الله على مدرجته ملكاً لما زار أخاً له في قرية[٢]، ومن ذلك الابتلاء الذي حصل للأقرع والأبرص والأعمى حيث جاءهم ملك على صورة رجل[٣] فلا يقال: إن هؤلاء أنبياء بحال من الأحوال ولا يُتوهم ذلك ولم يقل ذلك أحد.

فالملك قد يأتي إلى أحد من الناس بمثل هذه الصور التي ذكرت ولا يعني أنه نبي، كما أنه قد يُلقي الله -عز وجل- المعنى في القلب إما بواسطة الملك وإما بغير واسطة والذي يكون بالواسطة هو الذي سماه بعض أهل العلم بالإلقاء في الروع يعني القلب، وفي الحديث عنه –صلى الله عليه وسلم-: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها))[٤] ويكون بهذا مفارقاً للإلهام عند من فرق بينهما، فيكون الإلهام هو ما يلقيه الله مباشرة في القلب.

الحاصل أن الله هنا أوحى إلى الحواريين، فيمكن أن يكون أمرهم بذلك عن طريق عيسى -صلى الله عليه وسلم- كما قاله بعض المفسرين، والمشهور أن الله ألقى ذلك في قلوبهم، وهو ما يعرف بالإلهام، وما وقع لأم موسى هو من قبيل الإلهام -والله تعالى أعلم- خلافاً لمن قال: إنه من قبيل الإلهام الغريزي، فهذا غير صحيح؛ لأن الغرائز ما جبلت على هذا بل هو ضد ما تقتضيه؛ لأن الغريزة تأبى أن تلقي المرأة ولدها وصغيرها في البحر إذا خافت عليه، فهذا ليس من الإلهام الغريزي لكن يمكن أن يقال: من الإلهام الغريزي قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [(٦٨) سورة النحل] والله تعالى أعلم.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (٣٦) (ج ١ / ص ٣٦).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب – باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٧) (ج ٤ / ص ١٩٨٨).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٧) (ج ٣ / ص ١٢٧٦) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤) (ج ٤ / ص ٢٢٧٥).

[4] - أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٠٠) (ج ١١ / ص ١٢٥) وأبو نعيم في الحلية (ج ١٠ / ص ٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥) وهو عند البيهقي في شعب الإيمان (١١٨٥) (ج ٢ / ص ٦٧) ولفظه: ((إن الروح الأمين قد نفث في روعي)).

وقوله تعالى: {آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١١) سورة المائدة] هنا لم يفسر لمن كان خطابهم، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك متوجه إلى الله -تبارك وتعالى- أي: واشهد يا ربنا بأننا مسلمون.

والاحتمال الثاني أن ذلك خاطبوا به عيسى -عليه الصلاة والسلام- لكن السياق يدل على الأول؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا} [(١١١) سورة المائدة] أي: استجابوا وقالوا {وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١١) سورة المائدة] فيكون ذلك متوجهاً إلى الله -تبارك وتعالى- والله أعلم.

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ* قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ* قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [(١١٢-١١٥) سورة المائدة].

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال: سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى -عليه السلام- لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة.

وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} [(١١٢) سورة المائدة] وهم أتباع عيسى -عليه السلام-: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء} [(١١٢) سورة المائدة] والمائدة هي الخوان عليه الطعام.

يقول: "{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} **وهم أتباع عيسى -عليه الصلاة والسلام-**" يعني هم خلاصة أصحاب المسيح وليسوا كل أتباع عيسى -صلى الله عليه وسلم- وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره))[٥].

فالحاصل أن خلاصة الأصحاب يقال لهم ذلك، وقيل: إن ذلك مأخوذ من الحوَر وهو شدة البياض، وقيل غير ذلك، لكنها تدل على الصفاء والنقاء، فخلاصة الشيء يقال له هذا، وسبق الكلام على هذا في سورة آل عمران.

قوله: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} [(١١٢) سورة المائدة] في هذه الآية قراءة أخرى متواترة: **(هل تستطيعُ ربَّك)** وقد فسرها بعضهم -أعني **(هل تستطيع ربَّك)**- بأن التاء والسين للطلب أي تستدعي طاعته، والمعنى هل تستدعي إجابته بأن ينزل علينا ذلك؟، وهذا الذي فسرها به كثير من أهل العلم، أي هل تستطيع أن تسأله؟، وهذه القراءة لا إشكال فيها، وأما القراءة المشهورة: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} [(١١٢) سورة المائدة] فهل هذا من قبيل الشك في قدرة الله -عز وجل- وأنهم لا يعرفون قدرة الله -تبارك وتعالى-؟ إذا كان الأمر كذلك فهذه مشكلة، خاصة وأنهم خلاصة أصحاب المسيح، فهذا السؤال هو سؤال من لم يعرف الله -عز وجل- وهذا السؤال كفر، فكيف يصدر منهم!! ولهذا قال بعض أهل العلم كابن جرير الطبري -رحمه الله-:

---

[٥] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٥٠) (ج ١ / ص ٦٩).

إن هذا صدر منهم؛ ولهذا قال عيسى -صلى الله عليه وسلم- بعدها: {اتَّقُواْ اللّهَ} يزجرهم وينهاهم عن هذا السؤال الذي لم يتأدبوا فيه مع الله -تبارك وتعالى- ولم يقدِّروه حق قدره، فيكون قوله: {قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ} على سبيل الإنكار.

وكيف يقولون هذا؟ بعض أهل العلم قال: إنهم قالوه في أول أمرهم قبل أن يتعلموا حقائق الدين، وما عرفوا الله -عز وجل- معرفة لائقة كما قال بعض من أسلم عام الفتح مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو متوجه إلى هوازن أو الطائف: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط[6]، وكما قال بنو إسرائيل لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [(١٣٨) سورة الأعراف] فقالوا: إن هؤلاء أصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- كانوا في أول أمرهم.

وتكلف بعضهم في تفسير قوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} [(١١٢) سورة المائدة] فقالوا: لم يصدر هذا القول منهم وإنما من بعض من خالطهم ممن ليس منهم، وهذا خلاف الظاهر، فالله -عز وجل- هنا أضافه إلى الحواريين ولا يمكن أن يضاف إلى من خالطهم ممن ليس منهم ولا يصدق عليه ذلك، والأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير قوله: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} [(١١٢) سورة المائدة] هو ما مشى عليه بعض أهل العلم أي: هل يفعل؟ فإن الاستطاعة يعبر بها أحياناً عن الفعل كما تقول: هل تستطيع أن تذهب معي وأنت تستطيع لكن المعنى هنا هل تفعل، أو هل يقع منك ذلك، أو هل توافق عليه، وكما تقول: هل تستطيع أن تعيرني هذا الكتاب فأنت مستطيع قطعاً لكن هل تستجيب فتفعل ذلك؟، هذا هو الأقرب في تفسيرها، والله أعلم.

والمائدة هي الخوان عليه الطعام.

بعضهم يفسر المائدة بالطعام، وبعضهم يفسرها بالخوان عليه الطعام، يعني بمجموع الأمرين، والخوان ما يوضع عليه الطعام، والمشهور أنها تفسر بالخوان الذي يوضع عليه الطعام بما عليه من طعام.

وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوَّون بها على العبادة.

الله أعلم بهذا، لكن هم أرادوا أن يكون ذلك آية لهم كما هو مصرح به في الآية.

{قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١١٢) سورة المائدة] أي: **فأجابهم المسيح -عليه السلام- قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.**

بعض أهل العلم يقول: إنه قال لهم: اتقوا الله من أجل إنزالها، يعني تهيئوا لتحقيق الطلب بتقوى الله -عز وجل- أي من باب قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف] هكذا فسره بعضهم وفيه بُعد وهو عكس قول ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: إنه قال لهم ذلك على سبيل الزجر والإنكار لشكهم في قدرة الله -تبارك وتعالى-.

والذي أظنه أحسن من هذا كله -والله أعلم- أنه قال لهم: اتقوا الله؛ لأنهم سألوا آية من الآيات، وليس للناس أن يقترحوا على الله الآيات فقد لا يقومون بما تستوجبه هذه الآيات فينزل عليهم العذاب كما هي عادة الله -عز وجل- في الأمم المكذبة.

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتب الفتن - باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠) (ج ٤ / ص ٤٧٥) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٥٤٠٨).

{قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا} أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها {وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا} إذا شاهدنا نزلوها رزقاً لنا من السماء {وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا} أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك {وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [(١١٣) سورة المائدة] **أي: ونشهد أنها الآية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.**

{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا} [(١١٤) سورة المائدة] **قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه.**

{وَآيَةً مِّنكَ} أي: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك {وَارْزُقْنَا} أي: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب {وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [(١١٤) سورة المائدة].

{قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ} [(١١٥) سورة المائدة] **أي: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها {فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ}** [(١١٥) سورة المائدة] **أي: من عالمي زمانكم كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [(٤٦) سورة غافر] **وقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}** [(١٤٥) سورة النساء].

هنا أراد أن يجمع بين هذه الآية وبين الآيات الأخرى فقال: "**أي عالمي زمانكم**" دفعاً لما قد يُتوهم من التعارض بينها وبين قوله تعالى عن آل فرعون في الآخرة: **{أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [(٤٦) سورة غافر] أي العذاب الذي قد بلغ في الشدة غايته، وبينها وبين قوله تعالى عن المنافقين: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}** [(١٤٥) سورة النساء] وأظن -والله أعلم- أنه لا حاجة لدفع هذا التوهم؛ لأن قوله: **{فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ}** [(١١٥) سورة المائدة] يعني أن صفة العذاب التي يعذبهم بها تختص بهم ولا يعني أن ذلك يكون أشد أنواع العذاب مما لا يدانيه غيرهم كآل فرعون أو المنافقين الذين في الدرك الأسفل من النار، فهو يعاقبهم بعقوبة مختصة، فكما يقال: إن المزية لا تقتضي الأفضلية فكذلك يقال هنا: الاختصاص لا يقتضي أنهم الأشد بإطلاق، فقد يكون عذاب آل فرعون أشد منهم ولكن هؤلاء يختصون بنوع من العقوبة لا يعذب بها غيرهم، والفرق في هذا واضح، ومثاله أن يقول الإنسان لمن يتوعده: لأقتلنك قِتلة ما سمع بها أحد، أو ما قُتل بها أحد، أو نحو ذلك، فهذا لا يعني أن هذه القتلة هي الأشد وإنما قد تكون بطريقة خفية، فالمقصود أنه لا يوجد إشكال بين هذه الآية وبين الآيات الأخرى، والله أعلم.

وقوله تعالى: **{قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}** [(١١٥) سورة المائدة] فهذا خبر من الله -عز وجل- ووعد منه نتيجة لهذا الدعاء ولا شك أنه تحقق، والعجيب أن مجاهد بن جبر -رحمه الله- يقول: إن المائدة لم تنزل وإنما هذا من قبيل ضرب المثل، فهو مثل ضربه الله -عز وجل- للزجر عن اقتراح الآيات على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فقط، وهذا تفسير باطل؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن.

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون.

ذكرنا قبلُ أن أفعل التفضيل لا تمنع التساوي وإنما تمنع الزيادة، فأشد الناس يعني كلهم قد بلغوا في الشدة غايتها، وتقول: فلان أكرم الناس، ثم تذكر آخر وتقول: هو أكرم الناس، ثم تقول لثالث: إنه أكرم الناس، فلا

تعارض في هذا؛ لأن المعنى أنهم كلهم قد بلغوا في الكرم الغاية، فالمقصود أن أفعل التفضيل -نحو أكرم وأعلم وأشد- لا تمنع من التساوي، وقد ذكرنا هذا في تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ} [(١١٤) سورة البقرة] أي لا أحد أشد ظلماً، والله تعالى أعلم.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن عيسى ابن مريم -عليه السلام- قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

مثل هذا مما يؤخذ عن بني إسرائيل، والروايات المأخوذة عن بني إسرائيل في هذا الموضع في كتب التفسير كثيرة جداً ومختلفة غاية الاختلاف، حيث يصفون هذه المائدة بأوصاف عجيبة وهي مختلفة تماماً، فمنهم من يقول: سمك، ومنهم من يقول: لحم، ومن يقول: خبز وسمك، والله تعالى أعلم، فمثل هذا لا يمكن أن يوصل إليه إلا عن طريق الوحي، وما يذكر من هذه الإسرائيليات لا نصدقه ولا نكذبه إن كان لا يخالف ما عندنا، ولا فائدة في معرفة نوع هذه المائدة والأصناف التي نزلت فيها؛ فهذا لا يترتب عليه عمل بل هو من التكلف، ولو كان فيه فائدة لذكره الله -عز وجل- وإنما العبرة في سؤالهم ونزولها.

وروى ابن جرير عن إسحاق بن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم -عليه السلام- عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاءوا، قال: فسرق بعضهم منها، وقال: لعلها لا تنزل غداً فرفعت.

وهذه الآثار وغيرها دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم {قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ} الآية [(١١٥) سورة المائدة].

وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة، ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود -عليهما السلام- فالله أعلم.

طبعاً هنا لا يقصد بالمائدة الطعام وإنما يقصد الخوان أو الشيء الذي يوضع عليه الطعام، إلا أن هذه الواقعة الله أعلم بها، وإن كان صحيحاً أنهم وجدوا شيئاً فلا يقال: إن هذا مما نزل على عيسى -عليه الصلاة والسلام- ولا يقطع أنه مما كان لداود -صلى الله عليه وسلم- أو لسليمان أو غير ذلك فمثل هذه الأخبار لا يوثق بها، كما يزعم كثير من الناس إلى اليوم أن هذا المكان أو أن هذا الشيء أو أن هذا السيف للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو لفلان فمثل هذا قد لا يثبت، كما نشاهد الآن توجد أماكن ومساجد ينسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه صلى فيها أو أن فلاناً صلى فيها، أو أن فلاناً قُبر هنا مع أنه لم يثبت شيء من هذا في كثير من الأحيان، ومن أمثلة ذلك مكان قبر الحسين فهو موجود في أماكن متعددة حسب زعم الزاعمين.

{وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٦-١١٨) سورة المائدة].

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليه السلام- قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} [(١١٦) سورة المائدة] وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [(١١٩) سورة المائدة].

وهذا أحسن من تفسير من فسره بأن ذلك وقع حينما رفعه الله -عز وجل-.

وقوله: {سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [(١١٦) سورة المائدة] هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: يلقَّى عيسى حجته ولقَّاه الله تعالى في قوله: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} [(١١٦) سورة المائدة] قال أبو هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فلقَّاه الله {سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [(١١٦) سورة المائدة] إلى آخر الآية))[٧] وقد رواه الثوري عن معمر عن ابن طاوس عن طاوس بنحوه.

وقوله: {إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ} [(١١٦) سورة المائدة] أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا ربِّ فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ} [(١١٦-١١٧) سورة المائدة] بإبلاغه {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [(١١٧) سورة المائدة] أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه.

قوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [(١١٦) سورة المائدة] هذا يدل على إثبات صفة النفس لله -تبارك وتعالى- وقال بعضهم: هذا من باب المشاكلة، وهذا غير صحيح؛ لأن المشاكلة نوع من المجاز عند أهل المجاز، وقد تجد بعض طلبة العلم من يعبر بمثل هذا في الصفات، وهذا غير صحيح، وهو تأويل لهذه الصفة حيث يقولون: المشاكلة أن يعبر بلفظ مشاكل للفظ آخر عبر به أو خوطب به أو نحو هذا فقوله: {وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} يعني أنه أراد أن يشاكل اللفظة الأولى في قوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} وإلا فالله لا يوصف بهذا، وهذا الكلام غير صحيح، بل نحن نثبت ما أثبته الله -عز وجل- لنفسه، وعيسى أعلم بالله -عز وجل-، ولقد تطاول بعض الجهمية وقال: إن عيسى -عليه الصلاة والسلام- مشبِّه حينما قال: {وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [(١١٦) سورة المائدة] نسأل الله العافية.

ومن جعل ذلك من المشاكلة جعل قول عيسى هنا من باب قول القائل:

---

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣٠٦٢) (ج ٥ / ص ٢٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨١٥٩).

قالوا اقترح شيئاً نجد لـــك طبخـــه قلت اطبخوا لـــي جبـــة وقميـــصاً

فلما كانت الجبة والقميص لا تطبخ قالوا: أراد أن يشاكل اللفظة التي خاطبوه بها، وهؤلاء جعلوا كلام عيـسى في قوله تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [(١١٦) سورة المائدة] وفي قوله: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [(٣٠) سورة الأنفال] وفي قوله: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا} [(١٥-١٦) سورة الطـارق] جعلـوه مـن المشاكلة في الألفاظ، وتأويلهم لهذا أنه من المشاكلة تأويلاً للصفة لا يصح، بل يجب أن نثبـت لله مـا أثبتـه لنفسه على الوجه اللائق به، فهناك أشياء تثبت بإطلاق على الوجه اللائق كالنفس، وهناك أشياء تثبت حيـث تكون كمالاً ولا يشترط أن تكون على سبيل المقابلة مثل الكيد في قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْـدِي مَتِـينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف] فإنه لم يذكر ما يقابله هنا ومع ذلك نثبته لله لكن حيث يكون الكيد كمالاً؛ لأن هذا لـيس من الصفات التي تكون كمالاً من كل وجه وفي كل حال، بل أحياناً تكون كمالاً وأحياناً لا تكون كذلك، فـإذا كانت في موضعها الذي تكون فيه كمالاً فإنها تثبت، والله أعلم.

{أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [(١١٧) سورة المائدة] أي: هذا هو الذي قلت لهم.

وقوله: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ} [(١١٧) سورة المائدة] أي: كنت أشهد على أعمالهم حـين كنـت بين أظهرهم {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [(١١٧) سورة المائدة].

قوله: {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي} [(١١٧) سورة المائدة] يحتمل أن يكون أراد الوفاة في النهاية؛ لأن عيسى -عليه الـصلاة والسلام- رفع ثم يرجع ثم بعد ذلك يتوفاه الله -عز وجل- فهو يقول هذا الكلام في اليوم الآخر، ويحتمـل أن يكون قال ذلك باعتبار معنى الوفاة الذي ذكرناه في قوله: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] وقلنا هناك: إن الوفاة لها معنىً لغوي ولها معنىً شرعي، فالوفاة في معناها اللغوي مأخوذة من الاسـتيفاء، ولهـذا قال بعضهم في قوله: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] أي: مستوفيك، يعني مستوفيه إليه بروحه وجسده، والمعنى الشرعي للوفاة يأتي بإزاء أمرين: الأول: مفارقة الروح الجسد المفارقة المعروفة التي يحـصل بهـا الموت للإنسان ومفارقة الدنيا، ومنه قوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [(٤٢) سورة الزمر].

الثاني: يأتي بإزاء معنىً آخر وهي الوفاة الصغرى وذلك بنوع من مفارقة الروح للجسد مفارقة يبقـى معهـا الإدراك وليست مفارقة كلية، وهذه أمور غيبية الله أعلم كيف تتم، فالله يقول: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَـلٍ مُـسَمًّى} [(٤٢) سـورة الزمر] ويقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} [(٦٠) سورة الأنعام] يعني النوم، فالنوم هنا سماه وفاة، فـإذا احتملت الآية المعنى الشرعي والمعنى اللغوي فالأولى بها أن تفسر بالمعنى الشرعي، ولذلك يقال في قولـه: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] أي: إنه رافعه في حال النوم، وهنا {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي} [(١١٧) سورة المائـدة] أي رفعتني في الصفة المشار إليها وهي {كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [(١١٧) سورة المائدة] فهذا محتمل أيضاً.

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قام فينا رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم- بموعظة فقال: ((يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله -عز وجل- حفاة عراة غُـرْلاً {كَمَـا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] وإن أول الخلائق يُكْسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيأخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:

{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٧-١١٨) سورة المائدة] **فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)) ورواه البخاري عند هذه الآية**[8].

من أهل العلم من قال: وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال: ((فأقول أصحابي)) إلا أن المقصود بأصحابه أتباعه الذين على ملته، وقالوا: هذا من عموم أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- في أي عصر من العصور ممن بدل وغيَّر فهو -عليه الصلاة والسلام- يعرفه بمعرفته لهذه الأمة بعلامات، وهذا وإن كان يحتمله الحديث، لكن الأقرب في ظاهره -والله أعلم- أن الصحبة تقتضي المخالطة، فقوله: ((أصحابي)) يعني ممن صحبه، ومعلوم أنه قد ارتد من ارتد بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- فالذين حجوا معه -صلى الله عليه وسلم- أكثر من مائة ألف فلما توفي النبي -صلى الله عليه وسلم- ارتدت العرب وما بقي إلا أهل المدينة ومكة وثبّتهم سهيل بن عمرو بعد ما كادوا أن يتضعضعوا حيث ذكَّرهم بأنهم آخر الناس إسلاماً فلا ينبغي أن يكونوا أول الناس ارتداداً، فثبت هؤلاء وثبت من ثبت من بني عبد القيس، والمقصود أنه ما بقي إلا هؤلاء وأما الباقون فقد ارتدوا بأنحاء جزيرة العرب فمنهم من تبع مسيلمة، ومنهم من تبع الأسود العنسي، ومنهم من تبع سجاح، ومنهم من أنكر الزكاة إلى غير ذلك من أنواع صنوف المرتدين، فهذا وقع بلا شك، ويصدق عليهم هذا الحديث، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يُتخذ هذا الحديث للطعن والتشكيك في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كما يفعل الرافضة، ويقال لهؤلاء الرافضة: إذا كان هذا مما يُتخذ ذريعة للطعن فيهم والتشكيك فإن ذلك يتوجه إليكم قبل كل شيء، فإذا كنتم بلغتم بالتقديس غايته مما لا يصلح للبشر من تقديسكم لبعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن ما تقولونه في غيرهم قد يتوجه إلى هؤلاء، فلا فرق، والوحي قد انقطع بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنتم تقولون: وما يدرينا أن يكون هؤلاء ممن ارتد؟ فنقول: وهؤلاء الذين تقدسونهم من الصحابة ما يدرينا أنهم ممن ارتد؟ طبعاً نحن ندري أن هذا لم يحصل حاشاهم –رضي الله عنهم وأرضاهم- لكن من باب إلقامهم الحجر، نقول: الوحي انقطع وما يدرينا أن هؤلاء ممن حصل منهم هذا كما تقولون في أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم-؟ لكن نحن نقول: إن الله -عز وجل- قال: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} [(١٨) سورة الفتح] وهم -قبحهم الله- يقولون: إن "إذ" في الآية تقتضي وقتاً معيناً يعني رضي عنهم في تلك اللحظات لكنهم بدلوا بعدها، نقول: كذبتم، فالله -عز وجل- يقول: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [(١٠٠) سورة التوبة] ويقول –تبارك وتعالى-: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [(٢٩) سورة الفتح] فقد وصفهم بأحسن الأوصاف، وكما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: إن الله نظر إلى أهل الأرض -وكان مما ذكر -رضي الله عنه- أنه قال: اصطفى محمداً من بين سائر الناس واصطفى أصحابه هؤلاء لصحبته من بين سائر أهل زمانه، أو كما جاء عن ابن مسعود -رضي الله عنه- فالمقصود أن هؤلاء خيار الأمة وأفضلها،

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ١٦٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

وكما قيل: لو سئل اليهود من أفضلكم؟ لقالوا: أصحاب موسى، ولو سئل النصارى: من أفضلكم؟ لقالوا: أصحاب عيسى، ولو سئل الرافضة -قبحهم الله-: من شراركم؟ لقالوا: أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-.

على كل حال هذا الحديث يحمل على الذين ارتدوا من الأعراب ونحوهم ممن وقع منهم ردة، وهم معروفون لا يخفون، ناهيك عن الذين قاتلوهم وعلى رأسهم الصديق الأكبر -رضي الله تعالى عنه- ووزيره عمر -رضي الله عن الجميع- فهؤلاء هم الذين ردوا الناس إلى الجادة حيث ردوهم إلى الإسلام وقاتلوهم عليه فليس هؤلاء ممن بدل وغيَّر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى اللحظات الأخيرة وهو يقول: ((يأبى الله ورسوله والمؤمنون إلا أبا بكر، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس))[9] يقول ذلك والموت ينازعه -صلى الله عليه وسلم- فهل يمكن أن يصدر ممن يوحى إليه في حق من ينكص على عقبيه ويكون مرتداً؟ هذا مستحيل غير ممكن.

وقوله: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة] هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله -عز وجل- فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قام بها ليلة حتى الصباح يرددها.

إن هذا المقام مقام عظيم يغضب فيه الرب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فعيسى -عليه الصلاة والسلام- فوَّض الأمر إلى الله -عز وجل- تمام التفويض، فما أراد أن يكون مدافعاً عنهم وفي صفهم وهم قد نسبوا له الصاحبة والولد، فقال: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة] فقد ختم الآية بهذين الاسمين مع أن المتبادر أن يقول: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأن المقام ليس مقام استعطاف كما يقال أو كما يعبَّر أو مقام استرحام أو مدافعة عنهم أو نحو ذلك من استجلاب العفو وإنما هو مقام تفويض إلى الله -تبارك وتعالى-.

والتعبير في قوله: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} [(١١٨) سورة المائدة] له سر لطيف -والله أعلم- وهو أن السيد لا يعذب عبده بل من شأنه أن يرفق به وأن يستبقيه وإنما يكون ذلك إذا جنا جناية لا يناسب أو لا يصلح العفو عنها بأن يكون قد جنا جناية عظيمة جداً يستحق عليها العقوبة فيكون ذكر العباد هنا ليس لمطلق التفويض وإنما فيه أيضاً ما يشعر بالعلة والأدب مع الله -عز وجل-، فهو يقول: هؤلاء عبادك فإن عذبتهم فإنما تعذبهم لأمر قد استحقوه وعمل قبيح قد عملوه يستحق العقوبة، وإلا فالسيد لا يعذب عبده بل يستبقيه ويحسن إليه لقربه منه، وإن عذبه فإن ذلك يكون لجرم عظيم يستحق العقوبة عليه، هذا ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- رداً على الذين يقولون:

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٣٣) (ج ١ / ص ٢٣٦) ومسلم في كتاب الصلاة - باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس وأن من صلى خلف إمام جالس لعجزه عن القيام لزمه القيام إذا قدر عليه ونسخ القعود خلف القاعد في حق من قدر على القيام (٤١٨) (ج ١ / ص ٣١١) واللفظ لأحمد (٢٤١٠٧) (ج ٦ / ص ٣٤).

ما ثم غير مشيئة قد رجحت مثلاً على مثل بلا رجحان

يقولون: الله -عز وجل- ليس متصفاً بالحكمة وإنما يعذب هؤلاء ويعذب هؤلاء لأنهم خلقه وعبيده وتحت قبضته ويتصرف بهم كما شاء، فهو يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، والصواب أن الله عليم حكيم يعذب من يستحق العقوبة ويرحم من شاء من خلقه ممن كتب لهم الرحمة من أهل الإيمان والعمل الصالح، والله أعلم.

{قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١١٩-١٢٠) سورة المائدة].

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليه السلام- فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن ردِّ المشيئة فيهم إلى ربه -عز وجل- فعند ذلك يقول تعالى: {هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [(١١٩) سورة المائدة] **قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم.**

على قراءة الرفع يقول تعالى: **{قَالَ اللّهُ}** وجملة مقول القول: **{هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}** فهو خبر من الله -عز وجل- عن ذلك اليوم أنه ينفع الصادقين صدقهم.

وعلى قراءة النصب: **(قال اللهُ هذا يومَ ينفع الصادقين صدقهم)** من أهل العلم من يقول: إن المقصود أن هذا القول يقوله الله في ظرف معين وذلك الظرف هو يوم ينفع الصادقين صدقهم، أي: أن الله يقول هذا القول يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وهناك معنى آخر لقراءة النصب **(قال اللهُ هذا يومَ ينفع الصادقين صدقهم)** [(١١٩) سورة المائدة] وهو أنه لما رد عيسى -عليه الصلاة والسلام- بهذا الرد **{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [(١١٨) سورة المائدة] عقب الله بذلك فقال: **(هذا يومَ ينفع الصادقين صدقهم)** وهو يوم القيامة، وعلى كل حال قراءة النصب هذه قراءة متواترة، والله تعالى أعلم.

{لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [(١١٩) سورة المائدة] أي: **ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}** [(١١٩) سورة المائدة] **كما قال تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ}** [(٧٢) سورة التوبة] **وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث.**

وقوله: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [(١١٩) سورة المائدة] **أي: هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ}** [(٦١) سورة الصافات] **وكما قال: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}** [(٢٦) سورة المطففين].

وقوله: {لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٢٠) سورة المائدة] **أي: هو الخالق للأشياء المالك لها المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه.**

قال ابن وهب: سمعت حُيَيّ بن عبد الله يحدث عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.

قوله: "**آخر سورة أنزلت سورة المائدة**" يعني آخر سورة تتعلق بالأحكام أي أنه لم ينسخ شيء مما في المائدة مع أن دعاوى النسخ موجودة، كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ}** [(١٠٦) سورة المائدة] فالأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأبو حنيفة يقولون: إنها منسوخة، وهذا القول وإن كان مرجوحاً فالمقصود أن دعاوى النسخ موجودة في السورة، والمقصود أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام لم ينسخ منها شيء وإلا فقد نزل بعدها كثير من القرآن.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنعام وهي مكية.

قال العوفيّ وعِكْرِمة وعَطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح[1].

وقال السُّدِّي عن مُرَة عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: نزلت سورة الأنعام يشيِّعُها سبعون ألفًا من الملائكة[2].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة -كما نقل القرطبي -رحمه الله- عن بعض أهل العلم- أصل في محاجّة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذّب بالبعث والنشور، فهي تتحدث عن كثير من قضايا الاعتقاد.

وقد جاءت روايات كثيرة جداً عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- تدل وتصرح بأن هذه السورة قد نزلت جملة واحدة، ومع ذلك ورد عن بعض السلف استثناء جملة من الآيات، فمنهم من قال: ست آيات، ومنهم من قال: غير ذلك، كالثلاث الآيات المحكمات من قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] وكقوله: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام].

وبعض هؤلاء نظروا إلى المعنى الذي تضمنته بعض تلك الآيات، ومنهم من اعتمد في ذلك على ما يروى في سبب النزول، وسيأتي الكلام على هذه الآيات في مواضعها -إن شاء الله- لكن الأصل أن السورة قد نزلت جملة واحدة بمكة، والله تعالى أعلم.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ* وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(١-٣) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة وحامداً لها على خلقه السماوات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ "الظلمات" ووحَّد لفظ "النور"؛ لكونه أشرف، كقوله

---

[1] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٩٦٣) (ج ١٢ / ص ٢١٥) من طريق علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، انظر تخريج أحاديث وآثار كتاب الظلال لعلوي بن عبد القادر السَّقَّاف (ج ١ / ص ١١٩).

[2] - رواه الطبراني في الصغير (٢٢٠) (ج ١ / ص ١٤٥) وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف، انظر مجمع الزوائد (ج ٦ / ص ٣٨٣).

تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ} [(٤٨) سورة النحل] وكما قال في آخر هـذه السـورة: {وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ} [(١٥٣) سورة الأنعام].

قوله تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام] عامة أهل العلم فسروا قوله: {وَجَعَلَ} بمعنـى خلـق، أي: خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور.

كما أن الذي عليه عامة أهل العلم -وهو ما مشى عليه ابن كثير -رحمـه الله- أن الظلمـات جمـع ظلمـة والمقصود بها ظلمة الليل وأن النور هو الضياء أي: ضياء النهار.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الظلمات يراد بها الكفر، وأن النور يراد به الإيمان، وهذا علـى خـلاف الأصل؛ فالأصل في استعمال الظلمات والمعنى المتبادر إلى الذهن أنها الظلمات الحقيقية كما قال ابن كثيـر، فالله تعالى يقول: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام] فـذَكَر خلْقَ السماوات والأرض وذَكَر خلْقَ الظلمات وخلْقَ النور أي سواد الليل وبياض النهار.

ومن أهل العلم من جمع بين هذه المعاني فقال: إن الظلمات تشمل المعنيين جميعاً، وكذلك النور، فالله -عـز وجل- قد سمى الهداية نوراً وسمى الكفر ظلمات كما في هذه السورة نفسها {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ} [(١٢٢) سورة الأنعام].

فالقرآن دلَّ على هذا المعنى ومعلوم أن اللفظ إذا أطلق وله حقيقة ومجاز أو كان مشتَركاً -بمعنى أنه يطلـق على معانٍ متعددة- فإنه يمكن حمل المشترك على معنييه أو معانيه إن لم يوجد معارض، وهكذا يطلق علـى حقيقته ومجازه -عند القائلين بالمجاز- دون إشكال، ولذلك نجد من أهل العلم من يقول: إن هـذين اللفظـين يشملان هذه المعاني جميعاً، لكن عامة أهل العلم على المعنى الأول ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمـه الله تعالى-.

ثم يقول ابن كثير –رحمه الله-: "**وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في لـيلهم ونهـارهم، فجمـع لفـظ "الظلمات" ووحَّد لفظ "النور"؛ لكونه أشرف**" لكن نجد أنه قد لا يظهر وجه إفراد النور لكونه أشـرف –كمـا يقول الحافظ- وإنما يمكن أن يقال -كما قال بعض أهل العلم–: إن النور جنس، وهو يصدق علـى الواحـد والكثير، وأما الظلمات فذكرت بصيغة الجمع لتنوعها وكثرة أسبابها، لا سيما إذا حملنا الآيـة علـى المعنـى الثاني –أنها ظلمات الكفر ونور الإيمان- فيكون ذلك كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، كما أنه معلـوم من كلام أهل العلم أن الصراط ذُكِر مفرداً؛ لأن طريق الله واحد كما قال تعالى: {اهدِنَا الـصِّرَاطَ المُـستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] وأما الشيطان فله طرق متعددة كما قال تعالى: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ} [(١٥٣) سورة الأنعام].

وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه خط خطاً وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثـم وضع يده في الخط الأوسط فقال: ((هذا صراط الله)) ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [(١٥٣) سورة الأنعام][3].

---

[3] - أخرجه ابن ماجه في افتتاح كتاب السنن في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- (١١) (ج ١ / ص ٦) وصححه الألباني في سنن ابن ماجه برقم (١١) وفي ظلال الجنة برقم (١٦).

والخلاصة أننا إذا حملنا الظلمات والنور في الآية على الكفر والإيمان فإنها تُفسَّر حينئذٍ بالآية والحديث السابقيْن ونقول: وحَّد لأن طريق الحق واحد، وجمع لأن طُرق الباطل متعددة، والطرق المحدثة والضلالات المتنوعة كلها داخلة في السبل، والله تعالى أعلم.

فإن قيل في قوله تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام]: لماذا قدم الله -تبارك وتعالى- ذكر الظلمات على النور؟ فالجواب –على المعنى الحقيقي الذي ذكره الجمهور في معنى الظلمات والنور- أن يقال: لما كان الظلام هو الأصل؛ بدليل قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} [(٣٧) سورة يس] قدمه بهذا الاعتبار، لكن لا يصح هذا الجواب إذا اعتبر القول الثاني في تفسير الآية؛ فالأصل هو الإيمان وليس الكفر بدليل قوله –صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي عن ربٍّ العزة أنه قال: ((خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))[٤].

ثم قال تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [(١) سورة الأنعام] أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً واتخذوا له صاحبةً وولدًا، تعالى الله -عز وجل- عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام] يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب.

قوله: "**ومع هذا كله كفر به بعض عباده**.." يشير –رحمه الله- إلى أن "ثم" في هذا الموضع للاستبعاد، أي: كيف يقع منهم هذا الكفر الشنيع حيث يعدلون بربهم -تبارك وتعالى- الأنداد والأصنام مما لم تخلق شيئاً ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً وهو –جلَّ وعلا- الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور؟!!

وقوله: "**وجعلوا معه شريكاً وعدلاً**" من أهل العلم من لم يفرق بين العَدل –بفتح العين- والعِدل –بكسرها- وعلى هذا فلا إشكال.

ومن أهل العلم من فرَّق فقال: العَدل –بفتح العين- لما كان من غير جنسه، والعِدل لما كان من جنسه، ومن الأول قوله تعالى: {أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [(٩٥) سورة المائدة] فالصيام ليس من جنس ما وقع من جناية قتل الصيد ولذلك فتحت العين، وفي كفارة الظهار يقال أيضاً: عَدل رقبة –بفتح العين- لأنها ليست من جنس الموجِب أيضاً.

أما في كفارة قتل النفس فيقال: عِدل رقبة –بكسر العين-؛ لأنها من جنسه، ومنع قول مهلهل:

على أن ليس عِدلاً من كليب غداة بلابل الأمر الكبير

وهذا التفريق هو المشهور عند أهل العلم، والله أعلم.

قوله: "**وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام] يعني: أباهم آدم**.." هذا هو الذي عليه عامة المفسرين سلفاً وخلفاً، فالذي خُلق من طين هو أبوهم آدم -صلى الله عليه وسلم- ولا مانع أن يخاطب الله -عز وجل- الناس بخطاب اعتُبر فيه أصلهم كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف] فهذا الخلق والتصوير هو خلق آدم -صلى الله عليه

[٤] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

وسلم- لمّا أمر الملائكة بالسجود له، فباعتبار أصل الإنسان يقال: إنه خُلق من طين كما في هذه الآيـة {هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام].

ولا تعارض بين هذه الآية مع الآيات الأخرى التي ذكرت أن الإنسان خُلق من صلصال أو من تراب كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [(٢٦) سورة الحجر] وكقوله: {إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ} [(١١) سورة الصافات] وما أشبه ذلك من الآيات؛ لأن هذا الطين هو تراب بُلَّ بالماء فصار طيناً ثم تُرك فصار حمأً مسنوناً، فكل ذلك يصدق عليه، فلا تعارض بين هذه الآيات حيث إن ذلك كله يعود إلى الأصـل، والمقصود أن هذا خطاب للأبناء بأمر اعتبر فيه أصلهم وهو كقوله -عز وجل- مخاطباً بني إسـرائيل: {يَـا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] وكقوله -عـز وجل-: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِـسَاءكُمْ} [(٤٩) سورة البقرة] ويقول أيضاً: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الـصَّاعِقَةُ وَأَنـتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] ويقول: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ} [(٦١) سورة البقرة].

لقد خاطبهم –تبارك وتعالى- بهذا الأسلوب مع أن الذين قالوا وفعلوا هذه الأمور هم أسلافهم وليـسوا الـذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء والنِّقَم الحالَّـة بالآبـاء تلحق الأبناء إن كانوا على طريقتهم، والمقصود أن الخطاب في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام] جاء هكذا بهذا الاعتبار.

وبعض أهل العلم نظر إلى ظاهر الخطاب فقال: إنه قال: {خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سـورة الأنعـام] باعتبـار أن أصل النطفة من الطين، إلا أن هذا القول فيه بُعد، فلا حاجة إليه، والله أعلم.

وقوله: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] قال سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً} يعني الموت {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} يعني الآخرة، وهكذا رُوي عن مجاهـد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والـسُّدِّي، ومُقاتِـل بـن حَيَّان، وغيرهم.

يقول تعالى: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] الأجل الأول هو الموت والأجل الثاني هو القيامة، وهذا المعنى هو من أحسن ما تفسر به هذه الآية -والله تعالى أعلم- وهذا هو الذي مشى عليه عامـة أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير، وبعضهم يقول: الأجل الأول هو ما بين أن يُخلق الإنسان إلى أن يموت، والأجل الثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث، يعني أن الأجل الأول هو حياة الإنـسان فـي الـدنيا، والأجل الثاني هو الحياة البرزخية، وهذا القول لا دليل عليه.

وبعضهم يقول: الأجل الأول قبض الأرواح في النوم، والأجل الثاني قبض الأرواح عند المـوت أي كقولـه تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] وكقوله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْـأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَـلٍ مُـسَمًّى} [(٤٢) سورة الزمر].

وبعضهم يقول: الأجل الأول هو ما أجله ووقته في الدنيا مما أعلم به خلقه وأظهره لهم، كالأهلّة التي جعلها مواقيت لهم والمطالع ومنازل الشمس والقمر وما أشبه ذلك، والأجل الثاني هو أجل الموت، وهذا أيضاً فيه بعد.

وبعضهم يقول: قوله: {قَضَى أَجَلاً} [(٢) سورة الأنعام] يعني لمن مضى وقوله: {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] أي في الباقين ممن سيأتون حيث تأتيهم آجالهم يعني الموت الذي ينتظرهم.

وبعضهم يقول: الأول في الأجل المحتوم، والثاني في الزيادة عليه كما فُسِّر بذلك قوله -تبارك وتعالى-: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [(٣٩) سورة الرعد] وهذا باعتبار أن التقدير أنواع كما هو معلوم، فهناك التقدير الأزلي الذي هو في علم الله -عز وجل- وقد كتبه في اللوح المحفوظ، فهذا لا يحصل له محو ولا تغيير، وهناك -كما يقول بعض أهل العلم-: التقدير العمري حينما يُبعث المَلك إلى الجنين فيؤمر بأربع كلمات، وهناك التقدير الحولي في ليلة القدر، قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [(٤) سورة الدخان]. والحاصل أن الذي يحصل فيه التغيير هو ما في أيدي الملائكة كما قال تعالى: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ} ثم قال: {وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [(٣٩) سورة الرعد] يعني اللوح المحفوظ، ومن هنا قالوا: الأجل الأول هو ما قضاه وقدره يوم خلق حين خلق السماوات والأرض في اللوح المحفوظ ومثل هذا لا يتبدل ولا يتغير، والأجل الثاني هو الذي يحصل به الزيادة والنقص، كما دل على ذلك ما ورد عن صلة الرحم أنها تزيد في العمر وأنه لا يرد القضاء إلا الدعاء[5] فيكون الله -عز وجل- قد كتب في الصحف التي بأيدي الملائكة أن عمر هذا خمسون سنة، وكتب وقدَّر في علمه أن هذا الإنسان يصل الرحم فزيد في عمره إلى ستين مثلاً، فيحصل المحو في الصحف التي بأيدي الملائكة ويزاد العمر بهذا الاعتبار.

وعلى كل حال فإن أحسن هذه الأقوال هو الأول -كما سبق، والله أعلم، ومن أحسن مَن عبَّر عن المعنى الأول الذي عليه الجمهور كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: "معناه ثم قضى أجل الحياة الدنيا وأجلٌ مسمى عنده وهو أجل البعث؛ لأنه -تعالى ذكره- نبه خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس إن الذي يعدل به كفاركم الآلهة والأنداد هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صوراً أجساماً أحياء بعد إذ كنتم طيناً جماداً، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم، وأجلٌ مسمىً عنده؛ لإعادتكم أحياءً وأجساماً كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [(٢٨) سورة البقرة]"[6] هذا أحسن ما تفسر به الآية، والعلم عند الله -عز وجل-.

---

[5] - عن أبي هريرة وأنس بن مالك -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه)) [أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٦٣٩) (ج٥ / ص ٢٢٣٢) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧) (ج ٤ / ص ١٩٨٢)، ومعنى قوله: ((يُنسأ له في أثره)) يعني يمد له في عمره ويؤخر أجله ويخلد ذكره.

وعن سلمان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر)) [أخرجه الترمذي في كتاب القدر- باب ما جاء في "لا يرد القدر إلا الدعاء" (٢١٣٩) (ج ٤ / ص ٤٤٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٨٩).

[6] - انظر تفسير الطبري (ج ١١/ ص ٢٥٩).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً} [(٢) سورة الأنعام] **يعني مدة الدنيا** {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] **يعني عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا:** {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} **الآية** [(٦٠) سورة الأنعام].

ومعنى قوله: {عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] **أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله:** {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [(١٨٧) سورة الأعراف] **وكقوله:** {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا* إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [(٤٢-٤٤) سورة النازعات].

وقوله: {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [(٢) سورة الأنعام] **قال السُّدِّي وغيره: يعني تشكُّون في أمر الساعة.**

لفظة "ثم" في قوله: {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [(٢) سورة الأنعام] هي أيضاً للاستبعاد، يعني ومع هذا كله يحصل منكم هذا الامتراء والشك، وفرق بين المرية والشك حيث إن المرية هي بمعنى الشك لكن مع ريب، والله أعلم.

وقوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] **أي: هو المدعو "الله" في السماوات وفي الأرض، أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السماوات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس كقوله تعالى:** {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [(٨٤) سورة الزخرف] **أي: هو إلهُ مَنْ في السماء وإلهُ من في الأرض، وهو الله** {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] **وقوله:** {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] **أي: جميع أعمالكم خيرها وشرها.**

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وحام حوله هو أجود ما تفسر به الآية والله أعلم، وهو الذي عليه عامة المحققين من أهل العلم من المفسرين وغيرهم، أعني قوله: "**أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السماوات ومن في الأرض، ويسمونه الله**" يعني يعبده أهل السماء ويعبده أهل الأرض.

وقوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] يعني ومن صفته أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون.

ومن أهل العلم من قال: قوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] يعني وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض، وهذا المعنى اختاره بعض أهل العلم، وقال النحاس: إن هذا هو الوجه في تفسيرها وأحسن ما قيل في معناها، لكنه لا يساعد عليه ظاهر السياق، أي ليس هذا هو المعنى المتبادر من الآية، والله تعالى أعلم.

وذهبت طائفة من أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- إلى أن قوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} [(٣) سورة الأنعام] يعني وهو المألوه في السماوات، ثم وقفٌ تام، ثم تبدأ جملة جديدة: {وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] فيكون قوله: {وَفِي الأَرْضِ} متعلقاً بما بعده وليس معطوفاً على ما قبله، وهذا المعنى وإن كانت تحتمله الآية إلا أن المعنى الأول أقرب منه، وقد وهَّن هذا القول الإمام ابن القيم -رحمه الله- وقال: قال بعض المتسننة: إن المعنى كذا وكذا.. ثم رده وضعفه.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- له كلام في هذه الآية وفيه أشياء مفيدة يحسن الوقوف عليها،

كلام الشنقيطي في الآية:

قال الشيخ محمد الأمين -رحمه الله- تعالى:

"قوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [(١) سورة الأنعام]، في قوله تعالى {يَعْدِلُونَ} وجهان للعلماء: أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف والميل عنه، وعلى هذا فقوله: {بِرَبِّهِمْ} متعلق بقوله: {كَفَرُواْ} وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن (الباء) بمعنى (عن) أي: يعدلون عن ربهم فلا يتوجهون إليه بطاعة ولا إيمان.

وثانيهما: أن الباء متعلقة بيعدلون، ومعنى يعدلون يجعلون له نظيراً في العبادة، من قول العرب: عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً، ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً ... عدلتَ بهم طهية والخشابا

يعني: أجعلت طهية والخشاب نظراء وأمثالاً لبني ثعلبة وبني رياح؟

وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة الشعراء] وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة].

وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق -قبحهم الله تعالى- كقوله: {أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [(١٦) سورة الرعد] وقوله: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [(١٧) سورة النحل] وقوله: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(٢٨) سورة الروم] إلى غير ذلك من الآيات.

وعِدْل الشيء في اللغة مثله ونظيره، قال بعض علماء العربية: إذا كان من جنسه فهو عِدل -بكسر العين- وإذا كان من غير جنسه فهو عَدل -بفتح العين- ومن الأول قول مهلهل:

على أن ليس عِدلاً من كليب ... غداة بلابل الأمر الكبير

يعني أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب الذي قتله جسَّاس بن مرة البكري لا يكافئونه ولا يعادلونه في الشرف.

ومن الثاني قوله تعالى: {أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] لأن المراد نظير الإطعام من الصيام وليس من جنسه، وقوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ} [(٧٠) سورة الأنعام] وقوله: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(١٢٣) سورة البقرة] والعَدل الفداء؛ لأنه كأنه قيمة معادلة للمفدى تؤخذ بدله.

قوله تعالى: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} الآية [(٣) سورة الأنعام] في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير وكل واحد منها له مصداق في كتاب الله تعالى:

الأول: أن المعنى {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} أي: وهو الإله المعبود في السماوات وفي الأرض؛ لأنه -جل وعلا- هو المعبود وحده بحق في الأرض والسماء، وعلى هذا فجملة (يعلم) حال أو خبر، وهذا المعنى يبينه ويشهد له قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [(٨٤) سورة الزخرف] أي: وهو المعبود في السماء والأرض بحق ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره؛ لأنه وبال عليهم يخلدون بها في النار الخلود الأبدي، ومعبوداتهم ليست شركاء لله -سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً- {إِنْ هِيَ إِلَّا

أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [(٢٣) سورة النجم] {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [(٦٦) سورة يونس] وهذا القول في الآية اظهر الأقوال، واختاره القرطبي.

الوجه الثاني: أن قوله: {فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} يتعلق بقوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] أي وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض، ويبيّن هذا القول ويشهد له قوله تعالى: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(٦) سورة الفرقان] قال النحاس: وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية، نقله عنه القرطبي.

الوجه الثالث: وهو اختيار ابن جرير، أن الوقف تام على قوله: {فِي السَّمَاوَاتِ} وقوله: {وَفِي الأَرْضِ} يتعلق بما بعده، أي: يعلم سركم وجهركم في الأرض، ومعنى هذا القول أنه -جل وعلا- مستوٍ على عرشه فوق جميع خلقه مع أنه يعلم سرَّ أهل الأرض وجهرهم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ويبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [(١٦-١٧) سورة الملك] وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [(٥) سورة طـه] مع قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد] وقوله: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] وسيأتي إن شاء الله تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة الأعراف.

واعلم أن ما يزعمه الجهمية -من أن الله تعالى في كل مكان مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض- ضلالٌ مبين وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده -جل وعلا- أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حالٌّ فيها، أو في كل جزء من أجزائها؟ حاشا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السماوات والأرض أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٣) سورة سبأ].

سبحانه وتعالى علواً كبيراً، لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [(١١٠) سورة طـه] "[٧].

---

[7] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج ١ / ص ٤٦٩ – ٤٧١) لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى عام ١٣٩٣هـ ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ* فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٤-٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم من آية أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها.

قال الله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(٥) سورة الأنعام] **وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ولَيجدُنَّ غبّه وليذوقُنَّ وَباله.**

ثم قال تعالى واعظاً ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حلَّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها، فقال: {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} [(٦) سورة الأنعام] **أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالقرن: هم أهل الزمان الواحد -أعني المتعاصرين- وسمُّوا بذلك لاقتران بعضهم ببعض، وإن كان أهل العلم يختلفون في تحديد ذلك في المدة الزمانية، هل القرن يكون مائة سنة أو ثمانين أو ستين أو خمسين أو سبعين، أو غير ذلك، فالحاصل أن أهل العلم اختلفوا في تحديده، وتكلموا على هذه المسألة عند قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((خير الناس قرني))[1].

يقول -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ}** [(٦) سورة الأنعام] هذه الآية وأمثالها يردُّ بها على الخرَّاصين الذين يقولون: إن الإنسان حينما جاء إلى هذه الدنيا جاء بصورة بدائية تماماً ولا زالت الأجيال والقرون تتطور كما هو زعم أصحاب نظرية التطور الذين منهم من يقول: أصل الإنسان قرد ثم تطور، وهذه النظرية وإن اغتر بها من اغتر في القرن الماضي إلا أن الكفار الذين جاءوا بها -وقلدهم بعض المنتسبين إلى الإسلام- أسقطوها، ولهذه النظرية فروع ومن فروعها القول

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات- باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٩) (ج ٢ / ص ٩٣٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣) (ج ٤ / ص ١٩٦٢).

بأن الأجيال المتعاقبة تطورت، ومن فروعها تسمية بعض العصور المتقدمة بأسماء يزعمون أنها كانت موجودة، كالعصر الحجري والعصر البرونزي وغير ذلك، وهذا كله كذب لا صحة له؛ فالله تعالى خلق آدم على أكمل صورة وعلمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته، وكان في أحسن حال، وهكذا جاءت الأمم من نسله، ومن تلك الأمم وجدت أمم ممكّنة لا زال الناس يتحيرون فيما وجد من آثارها مما لا يعرفه أهل هذا الزمان، وآثارهم شاهدة ومنها آبار عجيبة جداً قد لا يجدون تفسيراً للإمكانات التي حفرتها حتى قالوا: إن هذا من عمل الجن الذين سخرهم الله -عز وجل- لسليمان.

ومن آثار الأمم السابقة تلك الجبال التي نُحتت وحوّلت إلى بيوت مما لم يصل إليه أهل هذا العصر وعليها نقوش دقيقة من طيور وغيرها.

ومن الآثار كذلك هذه الأهرام العجيبة التي لا يمكن نقل صخورها واستجلابها من أماكن بعيدة عن طريق الحيوانات والأشياء البسيطة ولا يمكن أن يرفعها الإنسان حتى توضع في مواضعها إلا بطرق لم يتوصل إليها أهل هذا العصر!

فهذه أمم ممكَّنة أخبر الله -عز وجل- عنها فقال: {مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} [(٦) سورة الأنعام] وهذا كله يدل على بطلان قول المتخرصين الذين يعيشون في وهم كبير ويقولون: إن الناس قد تطوروا ووصلت بهم الحال إلى هذا العصر.

ومن فروع نظرية التطور الزعم بأن الناس تطوروا في العبادة، وذلك أن مبدأ الإنسان كان من ملايين السنين -وهذا كله كذب- وأول ما بدأ لم يكن يعرف شيئاً وهكذا شيئاً فشيئاً حتى صار يخاف من الطبيعة ثم صار يعبد الطبيعة، ثم بدأ يتعلم الشعوذة والسحر فجاءت عصور السحر، ثم صارت عبادة الجن ثم عبادة الملائكة، وهكذا شيئاً فشيئاً حتى عبد الله، ثم يقولون: أصبح الإنسان الآن هو الله؛ لأنه استطاع أن يسيطر على الطبيعة وأن يقهرها فلم يعد الإنسان بعد ذلك بحاجة إلى معبود يلجأ إليه ويلوذ به؛ لأنه كان يجهل هذه الطبيعة ولا يعرف تفسيراً لكثير من الظواهر فكان يلجأ إلى اختراع عبادة أو معبود أو إله يطلب منه الحماية، أما الآن فلا حاجة إلى ذلك!!

والحق أن الله -عز وجل- خلق آدم وجعله نبياً يعبد الله حيث أنزله من الجنة إلى الأرض وبقي الناس عشرة قرون على التوحيد، ثم جاءت الرسل بهذا الأمر وتتابعوا عليه.

ولهذا قال: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا} [(٦) سورة الأنعام] أي: شيئًا بعد شيء {وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ} [(٦) سورة الأنعام] أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي استدراجًا وإملاء لهم. {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} [(٦) سورة الأنعام] أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها {وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٦) سورة الأنعام] أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث.

{وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٦) سورة الأنعام] أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فأُهلكوا كإهلاكهم.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه.

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ* وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ* وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(٧-١١) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧) سورة الأنعام] أي: عاينوه، ورأوا نزوله وباشروا ذلك {لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [(٧) سورة الأنعام] وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [(١٤-١٥) سورة الحجر] وكقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ} [(٤٤) سورة الطور].

كان المشركون يقترحون الآيات على النبي -صلى الله عليه وسلم- ومما قالوا له: إنهم لن يؤمنوا حتى يرقى في السماء ويأتيهم بكتاب من عند الله كما في سورة الإسراء {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} [(٩٣) سورة الإسراء] فالله -عز وجل- ردّ على قولهم ذلك قائلاً: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ} [(٧) سورة الأنعام] يعني مكتوباً في قرطاس {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧) سورة الأنعام] وذلك أبلغ ما يكون من الإحساس، لكذبوا ولكابروا، وهذا كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [(١٤-١٥) سورة الحجر] وفي القراءة الأخرى: (سُكِرَتْ) يعني سُدَّت، يعني لو رأوا باباً مفتوحاً إلى السماء فظلت الملائكة تعرج أمامهم -على أحد القولين في تفسير الآية- لقالوا: نحن قد سُحِرنا.

وعلى القول الآخر لو فتح هذا الباب لهم وصاروا يعرجون إلى السماء لقالوا: إنما سكِّرت أبصارنا، وذلك على سبيل المكابرة لا على ما يقوله أصحاب الإعجاز العلمي بأنهم يصلون إلى ظلمة بعد الغلاف الجوي فيقولون: سكرت أبصارنا، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً والآيات الأخرى كلها تدل على أنه مهما جاءهم من الآيات فإنهم يكذبون ويكابرون كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [(٥٩) سورة الإسراء] وسيأتي بيان ذلك أيضاً عند قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [(٩) سورة الأنعام].

والحاصل أنهم يقترحون أن يكون الرسول إليهم ملَكاً والله -عز وجل- يقول: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} [(٨) سورة الأنعام] يعني أنهم لن يؤمنوا به وسيأتيهم العذاب بسبب تكذيبهم، والله تعالى أعلم.

{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [(٨) سورة الأنعام] أي: ليكون معه نذيراً.

قال تعالى: {وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [(٨) سورة الأنعام] أي: ليكون معه نذيراً كما قال الحافظ –رحمه الله- بمعنى أنهم يريدون أن يكون معه ملك يشهد بما جاء به ليكون معيناً ومقوياً له ومصدقاً لكلامه، كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى التي تفسر مرادهم بطلب الملَك حيث قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [(٧) سورة الفرقان].

قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} [(٨) سورة الأنعام] أي: **لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ}** [(٨) سورة الحجر] **وقوله: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} الآية** [(٢٢) سورة الفرقان].

وقوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [(٩) سورة الأنعام] أي: **ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيّ ملكًا، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكيًا لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه.**

ليس بالضرورة أن يكون المراد بقوله: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً}** [(٩) سورة الأنعام]: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، كما يقول الحافظ -رحمه الله-؛ وذلك أنهم ربما كانوا يعتقدون أن الرسل لا تكون إلا من الملائكة، ولهذا قالوا لأقوامهم: **{إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا}** [(١٠) سورة إبراهيم] يعني أنهم نزّلوا المعلوم منزلة المجهول، يعني أن المعلوم لا يحتاج إلى تأكيد فجاءوا به بأسلوب الحصر لمعنىً وهو أن ذلك وقع جرياً على اعتقادهم بأن الرسول لا بد أن يكون ملائكياً مع أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعرفون أنهم بشر وهم لم يقولوا: نحن لسنا من البشر، فالله -عز وجل- ردَّ عليهم فقال: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً}** [(٩) سورة الأنعام] أي: لجعلناه رجلاً يستطيعون الأخذ عنه؛ لأنهم لا يطيقون التلقي من ملك بل ولا رؤية الملك على صورته الحقيقية، وحتى لو أطاقوا رؤيته فإن كل ما يعمله هذا الملك لا تحصل به الأسوة والقدوة؛ لأنه منزوع الشهوات وهو في خلق آخر يختلف تماماً عن خلقهم حيث إنه خُلق من نور وليس فيه النزعة الطينية التي تشده إلى الأرض، ثم إن الناس اليوم إذا قيل لهم: اقتدوا بالصحابة في كذا وكذا قالوا: هؤلاء صحابة وأين نحن منهم حتى نقتدي بهم في كل شيء -مع أن الصحابة بشر مثلهم- فكيف سيكون الحال إذا طُلب منهم الاقتداء بملك من الملائكة؟!

قال تعالى: **{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [(٩) سورة الأنعام] أي: إذا كانوا يلبسون على أقوامهم وعلى الناس بأن الرسول لا بد أن يكون ملائكياً، أو لا بد أن يأتي معه ملك يشهد على رسالته، فالله -عز وجل- يقول: لو نزلناه ملكاً، لجعلناه في صورة رجل ولخلطنا عليهم الأمر فوقع لهم الالتباس هل هذا ملك أو بشر؟.

ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري.

وهذا أحد المعنيين في قوله: **{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [(٩) سورة الأنعام] فالمعنى الأول أنهم يلبسون على الناس -كما سبق- والمعنى الثاني أي ما يلبسون على أنفسهم.

كقوله تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [(٩٥) سورة الإسراء] **فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية** [(١٦٤) سورة آل عمران].

ومن أشباه هذه الآية قوله -تبارك وتعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [(٢) سورة الجمعة] فهو يمتن -تبارك وتعالى- على عباده أن أرسل إليهم رسولاً بشرياً منهم ليكون مُشاكِلاً لأحوالهم يستطيعون التلقي والفهم عنه بخلاف ما لو أرسل إليهم فيلسوفاً -مثلاً-

فإنهم لن يعرفوا لغته ولن يفهموا عنه ولن يعقلوا ما يقول وما يأمرهم به، لكن لما أرسل إليهم رسولاً أميَّاً وهم في أمة أمية كان ذلك أدعى للقبول والفهم، إضافة إلى ما في ذلك من تحقيق المعجزة وتصديق بشارات الأنبياء.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية، يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور.

{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [(٩) سورة الأنعام] أي: **ولخلطنا عليهم ما يخلطون، وقال الوالبي عنه -رضي الله تعالى عنهما-: ولشبهنا عليهم.**

وقوله: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(١٠) سورة الأنعام] **هذه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من قومه ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.**

ثم قال تعالى: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(١١) سورة الأنعام] أي: **فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية -الذين كذبوا رسله وعاندوهم- من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادَّخَر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين.**

يقول الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}** [(١٠) سورة الأنعام].

قصَّ الله -عز وجل- علينا في القرآن الكريم أخبار الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وما وقع من استهزاء أقوامهم بهم وكيف كانت عاقبتهم ابتداءً من نوح -عليه الصلاة والسلام- حيث سخروا منه وقالوا: كنت نبياً ثم أصبحت نجاراً، فقال لهم -عليه الصلاة والسلام-: **{إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}** [(٣٨) سورة هود] ثم ذكر -تبارك وتعالى- عاقبتهم وما حصل لهم من الغرق.

وهكذا قصَّ علينا ما حصل لهود -عليه الصلاة والسلام- إذ قال له قومه: **{مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ}** [(٥٣) سورة هود].

وسخروا من صالح -عليه الصلاة والسلام- وقالوا: **{قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}** [(٦٢) سورة هود] فعلى أحد المعاني: كنا نرجو عقلك ورأيك فالآن ما الذي أصابك؟ وعلى المعنى الآخر كنت مبعداً ليس لك شأن، فكيف جئتنا تنهانا عن عبادة آلهتنا؟

وقال تبارك وتعالى عن قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام- الذين استهزءوا به: **{قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}** [(٩١) سورة هود].

وهكذا قوم لوط -عليه الصلاة والسلام- لما نهاهم عن الفاحشة استهزءوا به وقالوا: **{أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [(٥٦) سورة النمل].

وأما فرعون فخبره -كما قال الله -عز وجل- عنه- أنه قال لموسى -صلى الله عليه وسلم-: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ* فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}** [(٥٢-٥٣) سورة الزخرف].

والمقصود أن هؤلاء الأقوام والأمم كانوا كلما جاءهم نبي استهزءوا به فوقع لهم ما وقع من الهلاك والاستئصال.

وأما قوله: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(١١) سورة الأنعام] -وأمثال هذه الآية التي تدعو إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين- فهو خطاب يتوجه لمن عنده شك وتردد وريب وليس دعوة لجميع الناس.

والنظر في دلائل وحدانية الله -عز وجل- على نوعين: فمن الناس من يصل إلى مرتبة عالية جداً حيث يستدل بالله -تبارك وتعالى- وبما عرف عن ربه -جل جلاله- من أسمائه وصفاته على كثير مما يجري حوله كما قالت خديجة -رضي الله تعالى عنها-: "كلا، والله لا يخزيك الله، فإنك تصل الرحم وتحمل الكلَّ.." إلى آخر ما ذكرت[٢]، فهي من خلال معرفتها لأوصاف ربها -جل جلاله- عرفت أنه لا يخزي من كان هذا خلقه وتلك أوصافه.

إن استدلال المرء بما عرف من أوصاف المعبود على أمور يراها ويشاهدها وتقع له أو لغيره هذه طريقة عالية في الاستدلال، وهي طريقة لا يصل إليها كثير من الناس، وإن كانت من طرق الاستدلال تلك الطريقة الدارجة التي هي أكثر ما ورد في القرآن، أعني الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، ولهذا ذكر الله -عز وجل- خلق السماوات والأرض وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس إلى غير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية، وهذه الطريقة هي التي تصلح لعامة الناس وأكثر الخلق، فإذا نظروا في هذا دلّهم على إله واحد عظيم قادر -سبحانه وتعالى-.

والمقصود أن من احتاج إلى النظر في هذه الأمور من آثار الأمم المكذبة وكيف أهلكهم الله -عز وجل- وما أشبه ذلك وجه إليه مثل هذا الخطاب: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ} [(١١) سورة الأنعام] أما من كان لا يحتاج إلى هذا النظر باعتبار أن هذه قضايا متقررة عنده فلا يتوجه إليه هذا الخطاب، ولذلك فإن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه- وأمثاله يقولون:

وليس يصح فــي الأذهــان شــيء ... إذا احتــاج النهــار إلــى دليــل

وبهذا نعرف خطأ المتكلمين الذين يستدلون بمثل هذه الآية على أن أول واجب على المكلف هو النظر، بل قال بعضهم: أول واجب على المكلف هو الشك -نسأل الله العافية- فهذا من أبطل الأقوال، وإنما أول واجب هو التوحيد وهو قول: لا إله إلا الله كما قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [(١٩) سورة محمد] وأما هذه الآيات التي أُمر الناس فيها بالنظر فتكون لمن كان شاكاً متردداً حيث يقال لهم: انظروا، وسيروا في الأرض، يعني من أجل أن يرتفع عنهم هذا اللبس والشك والتردد إذا وقفوا على الحقيقة بأنفسهم، ولذلك لا يطلب من الناس أن يذهبوا ليتتبعوا أماكن المعذبين، بل لا يُقَرُّون على ذلك لا سيما من يذهبون من أجل الفرجة فإن هذا غير مشروع؛ ويدل على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مرَّ على ديار ثمود أسرع -عليه الصلاة

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣) (ج ١ / ص ٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١٦٠) (ج ١ / ص ١٣٩).

والسلام- وقال لمن معه: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم))[3] ونهى أن يُشرب من آبارهم إلا بئر الناقة، ولما مرَّ عليٌّ -رضي الله عنه- بأرض الخسف من بابل أسرع وتلثم.

والمكان المعروف بمحسِّر بين مزدلفة ومنى الذي أسرع النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر به يقال: إنه مكان إهلاك الفيل، وإن كان هذا لا يثبت من الناحية التاريخية، والله أعلم.

والمقصود أن الإنسان لا يقصد هذه الأماكن للفرجة ولا للزيارة ولا حتى للنظر فيها احتجاجاً بمثل هذه الآيات؛ لأنه كما قلنا: هذا الخطاب إنما يتوجه للمترددين للشاكين أما من يقول: هذه قضايا أوضح من أن أبحث عن أدلة لها فلا حاجة له بها، والله أعلم.

{قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ* قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [(١٢-١٦) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لما خَلَقَ الخَلْق كتب كتابًا عنده فوق العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي))[4].

وقوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده.

يقول تعالى: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(١٢) سورة الأنعام]

من أهل العلم من يقول: إن "إلى" في قوله تعالى: **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(١٢) سورة الأنعام] بمعنى "في" أي: ليجمعنكم في يوم القيامة.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}** [(١٢) سورة الأنعام] من أهل العلم من يقول: إن الكلام قد تم هاهنا، ثم استأنف بكلام جديد لبيان قضية جديدة فقال: **{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(١٢) سورة الأنعام] أي: أنه –تبارك وتعالى- أخبر بخبر مستقل أنه كتب على نفسه الرحمة، ثم أقسم أنه سيجمع الخلق إلى يوم القيامة، فيكون ذكر قضيتين مستقلتين ليس بينهما ارتباط، وهذا ذكره بعض أهل العلم من أئمة اللغة ومن غيرهم، وبعضهم يقول: إن السياق هكذا: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ}** وفسروا هذا الجمع بأنه يجمع ما تفرق من أبعاضهم وأجسادهم في القبور إلى يوم القيامة، أي يجمعها في يوم القيامة أو ليوم القيامة،

---

[3] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٢٣) (ج ١ / ص ١٦٧) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠) (ج ٤ / ص ٢٢٨٥).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) (ج ٤ / ص ٢١٠٧).

وهذا التفسير هو أحد المعاني في قوله تعالى أيضاً: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} [(٦) سورة المجادلة] أي: مجتمعة أبعاضهم وما تفرق منهم في الأرض وتحلل في هذا اليوم الذي أنكروه فكيف يستغربون ويستنكرون هذا البعث فيقولوا: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} [(٤٩) سورة الإسراء] ويقولوا: أئذا كنا عظاماً نخرة تلك إذاً كرة خاسرة؟

وبعضهم يقول: إن قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} [(١٢) سورة الأنعام] مرتبط بما قبله تمام الارتباط هكذا: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] ويقولون: إن اللام في قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} بمعنى "أنْ" وإن قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} بدلٌ من الرحمة وكأنه يقول: كتب ربكم على نفسه أن يجمعكم ليوم القيامة، فتفسيره بأنه بدل يعني أن هذه الجملة مرتبطة بما قبلها غاية الارتباط.

وبعضهم يقول: هذا ساقه للترهيب فقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي بإمهالكم وأنه لم يعاجلكم بالعقوبة، ثم أقسم أنه سيجمعهم ليوم القيامة فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، فهو يخبر أنه أمهلهم بالرحمة ثم أخبر بعد ذلك أن جمعهم أمر كائن لا محالة فيجازي كلاً بعمله.

{إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [(٥٠) سورة الواقعة] وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون.

وقوله: {الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ} أي: يوم القيامة {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢) سورة الأنعام] أي: لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم.

الهاء في {فِيهِ} من قوله تعالى: {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] يُحتمل أن ترجع إلى يوم القيامة، أي: لا ريب في يوم القيامة، ويحتمل أن ترجع إلى الجمع، أي لا ريب في جمعكم، والأول أقرب؛ لأنه أقرب مذكور والضمير يعود إليه، أي لا ريب في يوم القيامة، ثم إن بين المعنيين ملازمة، ولا ضرورة للترجيح بين المعنيين؛ لأن يوم القيامة هو يوم الجمع فلا ريب في هذا الجمع ولا ريب في وقوع يوم القيامة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٣) سورة الأنعام] أي: **كل دابة في السماوات والأرض، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو.**

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٣) سورة الأنعام] أي: **السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٣) سورة الأنعام]: يمكن أن يكون الاقتصار على ما سكن باعتبار أنه الأغلب؛ لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما هو متحرك كالنباتات والجمادات وما شابه ذلك.

ويمكن أن يكون اقتصاره على ذكر ما سكن هو من قبيل ما يسميه البلاغيون بالاكتفاء، أي: أنه ذكر أحد المتقابلين ليدل به على الآخر، أو ذكر أحد الأمرين ليدل به على الآخر، وعلى هذا يقال: {وَلَهُ مَا سَكَنَ} أي: وما تحرك، ومن نظائر هذا قوله -تبارك وتعالى-: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [(٨١) سورة النحل] أي: وسرابيل تقيكم البرد.

ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٤) سورة الأنعام] **كقوله:** {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [(٦٤) سورة الزمر] **والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السماوات والأرض أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.**

{وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] أي: **وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى:** {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} **الآية** [(٥٦) سورة الذاريات] **وقرأ بعضهم هاهنا: (وهو يُطعِمُ ولا يَطعَمُ).**

قوله تعالى: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] هو بمعنى الصمد، أي الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها وأرزاقها وحوائجها، فالكل مفتقر إليه وهو ليس مفتقراً لأحد سواه -سبحانه وتعالى- فله الغنى الكامل، وهذا أحد المعاني التي تذكر في الصمد، ومن معاني الصمد أي الذي لا جوف له.

وفي هذه الآية قراءة أخرى هكذا: (وهو يُطعِمُ ولا يَطعَمُ) فقوله: {وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] يعني أنه الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، وقوله: (ولا يَطعَم) يعني أنه لا يأكل، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى كمال غناه وعدم افتقاره إلى غيره، والقراءة الثانية هي قراءة سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش لكنها من الشواذ وليست متواترة.

وكمال الغنى يعرف من نصوص كثيرة، فالاسم المباشر الذي يدل عليه هو الغَنِيّ والصفة المباشرة التي تدل عليه هي الغِنَى، ويعرف ذلك من نصوص أخرى كهذا الذي في سورة الأنعام، وكقوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [(٢٥٥) سورة البقرة] يعني لا أحد يشفع عنه إلا بإذنه، فهذا يدل على كمال غناه؛ لأن الذي يُشفع عنده من المخلوقين إنما يقبل شفاعتهم عنده بغير إذنه، فهو إما أنه يقبل شفاعتهم لافتقاره إليهم كخوف غوائلهم أو لأن سلطانه لا يقوم إلا بهم أو نحو ذلك، أما الله -عز وجل- فهو الغني عن خلقه، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

وكذلك قوله تعالى: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(٢٥٥) سورة البقرة] يدل على كمال الملك وكمال الغنى أيضاً.

ومن النصوص الدالة على كمال غناه أيضاً قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يد الله ملأى لا تغيضها نفقة)) وقال: ((أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده))[1].

وقرأ بعضهم هاهنا: (وهو يطعم ولا يَطعَم) أي: لا يأكل.

وفي حديث عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي -صلى الله عليه وسلم- وغسل يديه قال: ((الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب وكسانا من العري، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأً ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين))[2].

{قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [(١٤) سورة الأنعام] أي: من هذه الأمة {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٤-١٥) سورة الأنعام] يعني يوم القيامة.

في قوله تعالى: {قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [(١٤) سورة الأنعام] قال: "أي: **من هذه الأمة**" وهذا باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مسبوق إلى الإسلام، فنوح -صلى الله عليه وسلم- ومن جاء بعده من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ووصية يعقوب لبنيه، وما دل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ} [(٤٤) سورة المائدة] كل هؤلاء سبقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فالمقصود بذلك ضرورة من هذه الأمة.

{مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ} أي: العذاب {يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} يعني رحمه الله {وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [(١٦) سورة الأنعام] كقوله: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] والفوز حصول الربح ونفي الخسارة.

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ* قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [(٧٥) سورة ص] (٦٩٧٦) (ج ٦ / ص ٢٦٩٧).

[2] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى – كتاب عمل اليوم والليلة - ما يقول إذا غسل يديه (١٠١٣٣) (ج ٦ / ص ٨٢)

لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(١٧-٢١) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [(١٧) سورة الأنعام] **كقوله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ} الآية** [(٢) سورة فاطر].

وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد))[3] **ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [(١٨) سورة الأنعام] **أي: وهو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه.**

{وَهُوَ الْحَكِيمُ} [(١٨) سورة الأنعام] **أي في جميع أفعاله {الْخَبِيرُ} بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا من يستحق ولا يمنح إلا من يستحق.**

قوله: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [(١٨) سورة الأنعام] يقول: "أي: **وهو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه**" فسَّر القاهر بأنه الذي ذل له كل شيء وخضع له كل شيء.

والفوقية في قوله: **{فَوْقَ عِبَادِهِ}** تشمل الفوقية بأنواعها، فالفوقية بالذات بمعنى علو الذات داخلة هنا كما قال تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [(٥) سورة طـه] وكما قال تعالى: **{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}** [(٥٠) سورة النحل]، ويشمل ذلك أيضاً الفوقية في القدر والمنزلة -علو القدر- ويشمل أيضاً الفوقية بالقهر، فكل ذلك متحقق ثابت له -سبحانه وتعالى- ولذلك لا يُكتفى بتفسير الآية بفوقية القهر أو فوقية القدر، فإن هذه بعض المعاني الداخلة فيها، والله تعالى أعلم.

ثم قال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً} [(١٩) سورة الأنعام] **أي: من أعظم الأشياء شهادة {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [(١٩) سورة الأنعام] **أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي.**

قال: "**{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً}** [(١٩) سورة الأنعام] **أي: من أعظم الأشياء شهادة**" يعني من يشهد على صدق ما جئت به، ثم قال: **{قُلِ اللّهِ}** فهذا هو الجواب.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب من لم ير رد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٢٨٩) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفة (٥٩٣) (ج ١ / ص ٤١٤).

ومن أهل العلم من يقول في الآية: إن الكلام تمَّ عند لفظ الجلالة بمعنى {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ} [(١٩) سورة الأنعام] انتهى -وهو ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- ثم يبدأ الكلام هكذا: {شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(١٩) سورة الأنعام] يعني قل الله هو أكبر شهادة، ثم قال: {شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(١٩) سورة الأنعام].

ومن أهل العلم من يقول: هذا كله في ضمن الجواب، أي أن الجواب هو: {اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(١٩) سورة الأنعام] وبعبارة أخرى: أي شيء أكبر شهادة؟ الله شهيد بيني وبينكم، والآية تحتمل الأمرين، والله أعلم.

ثم قال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً} [(١٩) سورة الأنعام] أي: من أعظم الأشياء شهادة {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} أي: هو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود].

قوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ} يعني الذين خاطبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَمَن بَلَغَ} يعني من يأتي بعدهم ممن لم يدرك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكل من بلغه هذا القرآن وفهمه الفهم الذي يصلح لمثله -وليس بالضرورة أن يكون فهمه كفهم أبي بكر وعمر- فإنه تقوم عليه الحجة ولا تبرأ ذمته ولا تحصل له النجاة إلا باتباعه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٤].

وحينما يقال: بلغه هذا القرآن وفهمه يعني بلوغ الحجة وفهم الحجة، وفهم الحجة يتفاوت غاية التفاوت بين الناس لكن المقصود أنه لا يكون -مثلاً- من الأعاجم ممن لا يفقه حرفاً من العربية بحيث إذا قرئ عليه القرآن من أوله إلى آخره لم يفهم شيئاً فمثل هذا لا تقوم عليه الحجة وإنما يبلغه من القرآن ما تقوم به الحجة عليه.

وقال الربيع بن أنس: "حق على من اتبع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو كالذي دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأن ينذر بالذي أنذر.

وقوله: {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ} أيها المشركون {أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ} [(١٩) سورة الأنعام] كقوله: {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} [(١٥٠) سورة الأنعام] {قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [(١٩) سورة الأنعام].

ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته.

الضمير في {يَعْرِفُونَهُ} من قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ} [(٢٠) سورة الأنعام] إما أن يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإما أن يرجع إلى ما جاءهم به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الوحي والقرآن، أي: إنهم يعرفون هذا القرآن أنه من عند الله حقاً وليس بمختلق كما يعرفون أبناءهم، أو يعرفون أن محمداً رسول الله إلى العالمين كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم، بل قد قال له بعضهم:

---

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

والله إنا نعرفك أكثر مما نعرف أبناءنا؛ يعني أنه لا يدري هل ولده هذا من صلبه فعلاً أم لا، مع أن المقصود بمعرفتهم أبنائهم أنهم ينسبونهم إليهم من بين سائر الناس دون أن يشتبه ذلك عليهم.

يقول ابن كثير –رحمه الله- في الآية: "**أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم**" يعني أنه يرى أن الضمير يرجع إلى القرآن.

والقول بأنه الرسول -عليه الصلاة والسلام- أو أنه القرآن الذي جاء به بينهما ملازمة، فهم يعرفون النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو -عليه الصلاة والسلام- قد جاءهم بالقرآن.

وهناك احتمال ثالث في عود الضمير في قوله: **{يَعْرِفُونَهُ}**؛ وذلك أن الله -عز وجل- قال قبل هذه الآية: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّه شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ}** [(١٩-٢٠) سورة الأنعام] فيحتمل أن يرجع الضمير أيضاً إلى الله –تبارك وتعالى- ليكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب يعرفون وحدانية الله، وذلك أن هذه السورة مكية فهي تقرر توحيد الله -عز وجل- وإفراده بالوحدانية، فهذا احتمال أيضاً يضم إلى ما سبق.

وقد حمل كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- الضمير في **{يَعْرِفُونَهُ}** على المعاني الثلاثة، أي: يعرفون الله ويعرفون الرسول -عليه الصلاة والسلام- ويعرفون الوحي الذي جاء به النبي –عليه الصلاة والسلام-.

وعلى كل حال فالآيات في سياقها تتحدث عن الوحدانية وتتحدث أيضاً عن صدق النبي –صلى الله عليه وسلم- فهذه القضايا الثلاث مذكورة قبل ضمير **{يَعْرِفُونَهُ}** فالله -عز وجل- يقول: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً}** [(١٩) سورة الأنعام] يعني على صحة ما جئت به، ثم قال: **{قُلِ اللّهِ}** يعني يشهد على صدقي وصدق رسالتي، ثم بعد ذلك قال: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ}** [(٢٠) سورة الأنعام] أي: يعرفون هذا الحق الذي جئت به وأنه صدق من الله -تبارك وتعالى- وهذا المعنى هو الذي تدل عليه الآيات الأخرى، ولهذا قال الله -عز وجل- في موضع آخر: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [(١٤٦) سورة البقرة] فقوله: **{لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [(١٤٦) سورة البقرة] يعني أنهم يكتمون وحدانية الله وهم يعلمون، أو أن أنبياءهم أخبروهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن صفته فكتموا ذلك، فالثاني هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

هل يمكن ترجمة هذه الآية إلى لغات أخرى حرفياً؟:

لابد من معرفة أن المترجم للقرآن إلى لغة أخرى لا يمكن أن يترجم الآية ترجمة صحيحة إلا أن يكون قد فسرها؛ لأن الترجمة الحرفية مستحيلة، أعني لا يمكن أن تنقل كلام الله تعالى بحروفه بكل معانيه الأصلية والخادمة إلى لغة أخرى إلا بأن تفهم معاني هذه الآية.

فإذا أردت أن تترجم قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ}** [(٢٠) سورة الأنعام] إلى لغة أخرى فلابد أن تفهم تفسيرها أولاً، ولذلك فإنك إذا كنت تعتقد أن معنى قوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** أي اليهود والنصارى، وأن الضمير في قوله: **{يَعْرِفُونَهُ}** يعني الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإنك ستقول في

ترجمتك للآية: اليهود والنصارى يعرفون الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنه من عند الله كما يعرف الواحد منهم ابنه.

وإذا كنت تعتقد أن الضمير في {يَعْرِفُونَهُ} يرجع إلى الله ستقول: اليهود والنصارى يعرفون وحدانية الله كما يعرفون أبناءهم.

وإذا كنت تعتقد أن الضمير يرجع إلى القرآن ستقول: اليهود والنصارى يعرفون أن هذا القرآن حق من عند الله -عز وجل-.

وكذلك لو فهمت أن الآية تحمل على المعاني الثلاثة فإنك تنقلها عند الترجمة بناء على الفهم الذي فهمته منها. والمقصود أنه لا بد من فهم معنى الآية أولاً ثم بعد ذلك ينقل هذا الفهم إلى اللغة الأخرى سواء كان صواباً أو خطأً وهذا هو ما يحصل، ولذلك تجد كثيراً من الترجمات فيها أخطاء كثيرة جداً وانحرافات بحسب فهم المترجم، فالمترجم ليس مترجماً فحسب بل هو مفسر في الدرجة الأولى ولذلك لا بد في المترجم أن يعرف اللغتين الأصلية والمنقول إليها معرفة تامة، وأن يعرف معاني القرآن وتفسيره، وكلما كان أحذق كانت ترجمته أقرب إلى الإصابة، لكن أين تجد من يفهم اللغتين ويكون حاذقاً في التفسير في نفس الوقت؟ فالله المستعان.

فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعده: {الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ} [(٢٠) سورة الأنعام] **أي: خسروا كل الخسارة {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [(٢٠) سورة الأنعام] **بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه.**

ثم قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [(٢١) سورة الأنعام] **أي: لا أظلم ممن تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** [(٢١) سورة الأنعام] **أي لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.**

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ* وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٢٢-٢٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} يوم القيامة.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] الظاهر المتبادر أن تكون هذه جملة استئنافية تخبر عن هذا الأمر الذي سيكون لا محالة حينما يحشرون ويسألون عن شركائهم.

وابن جرير -رحمه الله- ربط هذه الآية بما قبلها أي بقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢١) سورة الأنعام] والمعنى: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ولا يفلحون يوم نحشرهم جميعاً في الآخرة، ثم ذكر ما يحصل لهم فقال: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ} [(٢٢) سورة الأنعام].

لكن الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- ومشى عليه كثير من المفسرين أن هذه الآية لا ترتبط بما قبلها، أي أن المعنى تمَّ عند قوله: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢١) سورة الأنعام] ببيان أنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله -عز وجل- أطلق نفي الفلاح عنهم، ثم ذكر ما يحصل لهم حينما يوجه إليهم هذا السؤال يوم القيامة وذكر كيف يكون جوابهم فقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} الآيات [(٢٢) سورة الأنعام].

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه.

لفظة: "جميعاً" في قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] تحتمل معنيين: الأول: أي: يم نحشرهم مجتمعة أبعاضهم وأجسادهم وما تفرق منهم في الأرض.

والثاني: نحشرهم جميعاً أي فلا نغادر منهم أحداً كما قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [(٤٧) سورة الكهف] فالله يحشر الأولين والآخرين، والذين ظلموا ونظراءهم وأشكالهم كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} [(٢٢) سورة الصافات] وهذا المعنى الثاني هو المتبادر وهو الأقرب في تفسير الآية وفي تفسير نظائرها من الآيات، والله تعالى أعلم.

قائلاً لهم: {أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٢٢) سورة الأنعام] كقوله تعالى في سورة القصص: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٦٢) سورة القصص] وقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] أي: حجتهم، وقال عطاء الخرساني: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] بليَّتهم حين ابتلوا.

هذه المعاني متقاربة؛ وذلك أن أصل الفتنة هي الاختبار، وأصل ذلك يكون بعرض الذهب أو المعدن على النار ليتميز خالصه من شائبه، ومثل هذا قوله تعالى عن أصحاب الأخدود: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [(١٠) سورة البروج] فالفتنة هنا تحتمل المعنيين كما يمكن أن تحمل على المعنيين، أعني أنهم أحرقوهم بالنار أو فتنوهم عن دينهم، فالفتن هو الاختبار.

يقول تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] قال بعض السلف: بليتهم أي: اختبارهم، ففسروه باعتبار أصل المعنى.

وقال بعضهم {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] أي: نتيجة هذه الفتنة، وهذا يشبه قول من قال: {لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} أي: جوابهم حينما سُئلوا هذا السؤال، وهو يشبه أيضاً قول من قال -كالحافظ ابن القيم وهو ظاهر كلام ابن جرير-: أي: عاقبة كفرهم، وهكذا هو تفسير من فسر فتنتهم بالكفر، فإنه قصد بالكفر عاقبته، وعاقبة كفرهم هي {أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] فهذا هو الجواب، أي: أنهم حينما سئلوا عن إشراكهم هذا قالوا: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام].

وابن جرير -رحمه الله- يذكر وجه التعبير عن العاقبة أو الجواب بالفتنة فيقول: حينما سئلوا عند الاختبار {أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٢٢) سورة الأنعام] تبيّن لهم عندئذ أنهم لم يكونوا على شيء فجحدوا هذا الإشراك ولم يقولوا: هؤلاء شركاؤنا بل كان الجواب: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] فلما

كان الجواب واقعاً بسبب الامتحان والفتن والاختبار أطلق على هذا الجواب بأنه فتنة فقال تعالى: {لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام]، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فإن هذه العبارات التي قالها السلف هي عبارات متقاربة يمكن الجمع بينها وإن كانت تختلف في معناها من حيث هي، ولذلك فإن حملها على اختلاف التنوع أقرب من حملها على اختلاف التضاد، وعليه فلا حاجة إلى الترجيح بينها، والله أعلم.

{إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة الأنعام] وهذا كقوله: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} [(٧٣-٧٤) سورة غافر].

وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: يجيئون ليستمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي: أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} أي: صمماً عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء} الآية [(١٧١) سورة البقرة].

هذا مثل ما ذكر الله -عز وجل- في الموضع الآخر أنهم إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [(١٦) سورة محمد] فهم يأتون ويسمعون ولكن لا ينتفعون بما سمعوا كما ينتفع المؤمنون، قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة].

قوله: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [(٢٥) سورة الأنعام] الوَقر -بفتح الواو- هو الصمم أي الثقل الذي يكون في السمع، والوِقر -بكسر الواو- هو الحمل، فتقول مثلاً: أوقرت دابته، وتقول: معه وِقرٌ من طعام.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين {لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كقوله تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ} الآية [(٢٣) سورة الأنفال].

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: يحاجونك ويناظرونكم في الحق بالباطل، {يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذاً من كتب الأوائل ومنقول عنهم.

الأساطير جمع أسطار أو أسطورة أو أسطارة أو أسطور أو أسطير فكل ذلك قد قيل فيه، ويُقصد به ما كتبه الأولون وسطروه، فهو من السطر بمعنى الكتابة، ومرادهم هنا أن ما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام- ليس من عند الله -عز وجل- وليس بوحي وإنما هو من مختلقات الأولين وحكاياتهم وأخبارهم وما أشبه ذلك.

وقوله: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: أنهم ينهون الناس عن اتِّباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن {وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: ويبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع.

هذا هو المعنى الظاهر المتبادر من معنى الآية خلافاً لمن قال: إن قوله: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} أي: ينهى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بالذب عنه، وأن المراد بذلك أبو طالب حيث كان ينهى عن أذى النبي -صلى الله عليه وسلم- ويدافع عنه، وينأى بنفسه عن الإيمان، فهذا القول بعيد غاية البعد حيث لا دليل على ذلك، ولا يصح في ذلك شيء، وإنما هي في صفة المشركين، والله أعلم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ} يردون الناس عن محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يؤمنوا به.

وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم- وينهون عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد.

{وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ* وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٢٧-٣٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ} [(٢٧) سورة الأنعام] أي: إذ حبسوا، حيث يقال: وُقِف الرجل يعني حبس، ومنه قيل للوقف: وقف؛ لأنه تحبيس الأصل مع تسبيل المنفعة، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا هو الفصيح في كلام العرب، لا أن يقال: أوقف الإنسان بمعنى حبس.

{وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ} [(٢٧) سورة الأنعام] بعضهم يقول: أي حبسوا في النار باعتبار أن "على" بمعنى "في" -فحروف الجر تتناوب كما هو معروف- وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله- ويشبه هذا قول من قال: إن قوله {إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} أي: أُدخلوها، فهذا القول راجع إلى المعنى الذي قبله.

وبعضهم يفسر "على" بمعنى الباء، والمعنى: {وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [(٢٧) سورة الأنعام] أي: حبسوا قريباً منها فرأوها يحطم بعضُها بعضاً، ورأوا بأم أعينهم ما فيها من الأهوال والأوجال، فقالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

وهذه الآية {فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام] فيها ثلاثة أفعال هي: "نرد، ونكذب، ونكون"، وهذه الأفعال في الآية قرأها الجمهور من القراء ما عدا حفص وحمزة برفع الأفعال الثلاثة هكذا (يا ليتنا نردُّ ولا نكذبُ بآيات ربنا ونكونُ من المؤمنين) [(٢٧) سورة الأنعام] وهذه القراءة على أنهم تمنوا تلك الأمور جميعاً، أي: تمنوا الرد وعدم التكذيب وتمنوا أن يكونوا من المؤمنين.

وقرأ حفص وحمزة -قراءتنا هذه-: {فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام] وعلى هذه القراءة يكون الذي تمنوه هو الرجوع إلى الدنيا، وانتصبت الأفعال التي بعد ذلك بـــ"أن" مضمرة بعد الواو هكذا: "وأن لا نكذبَ وأن نكونَ من المؤمنين".

وهناك قراءة ثالثة على أن النصب يكون في الفعل الأخير فقط، هكذا (**يا ليتنا نردُّ ولا نكذِّبُ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين**) باعتبار أن الأول والثاني داخلان في التمني، وأما الثالث فغير داخل فيه.

واختار بعضهم أن قولهم: {**وَلاَ نُكَذِّبَ**} -بالنصب- مقطوع غير داخل في التمني، والمعنى أنهم يثبتون على ترك التكذيب سواء رُدُّوا أو لم يُرَدوا كما تقول: لن أعود إلى هذا الأمر سواء قبلت عذري أو لم تقبل، فكذلك هؤلاء يقولون: يا ليتنا نردُّ ولا نكذِّبَ سواء حصلت لنا الرجعة أو لم تحصل.

فعند ذلك قالوا: {**يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**} [(٢٧) سورة الأنعام] **يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.**

قال الله تعالى: {**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: **بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير:** {**ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**} [(٢٣-٢٤) سورة الأنعام].

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى -عليه السلام- أنه قال لفرعون: {**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ**} **الآية** [(١٠٢) سورة الإسراء] **وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه:** {**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**} [(١٤) سورة النمل].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر معنيين في قوله تعالى: {**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**} [(٢٨) سورة الأنعام]:

المعنى الأول: أنه ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفونه من الكفر والتكذيب، وحمل إخفاءهم المقصود في الآية على أنه وقع منهم في الدنيا ويقع منهم في الآخرة أيضاً قبل هذا الظهور.

المعنى الثاني: أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، يعني مما عرفوه في الدنيا وجحدوه من صدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنهم على باطل وليسوا على شيء في عبادتهم للأصنام.

والقول الأول عليه مأخذ وهو كيف يقال: إنهم أخفوا الكفر والتكذيب في الدنيا وهم قد جاهروا به وحاربوا الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- غاية المحاربة.

وأما القول بأنهم أخفوا ذلك في الآخرة فهذا ممكن باعتبار أن الآخرة على أطوار وأحوال؛ فهم في بداية الأمر عندما يرون الأهوال والعذاب الذي سيحل بهم يكذبون ويجحدون أنهم كانوا مشركين كما قال الله -عز وجل- قبله: {**ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**} [(٢٣) سورة الأنعام].

والمقصود أنه يمكن حمل إخفائهم الكفر والتكذيب على أنه في وقت من أوقات الآخرة، وأما حمل ذلك على أنه كان في الدنيا فليس سائغاً لما سبق.

وقال بعضهم: إن قوله تعالى: {**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: من أعمالهم القبيحة كما قال الله -عز وجل-: {**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**} [(٤٧) سورة الزمر] وهذا المعنى

اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- لكن كيف يقال: إنهم كانوا يخفون أعمالهم القبيحة وأعظم الأعمال القبيحة ذلك الكفر الذي كانوا يجاهرون به ويحاربون في سبيله؟

وقال بعضهم: المعنى بدا لهم ما كانوا يخفونه من جزاء الكفر الذي في الآخرة، أي أن في الآية مقدراً محذوفاً هو جزاء، والمعنى بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون من قبل، ويرد هذا بأن الأصل عدم التقدير.

وأبعد الأقوال قول من قال: إن المعنى: بل بدا للأتباع ما كان يخفيه عنهم الرؤساء، أي: أن الرؤساء كانوا يعرفون صدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وكذب ما كانوا يدَّعونه من أنه سحر وكذب، فبدا للأتباع ما كان يخفيه الرؤساء، وهذا القول في غاية البعد؛ لأن فيه تفريقاً للضمائر من غير حاجة ولا قرينة ولا دليل.

والخلاصة أن المعنى الثاني هو الأقرب، أي أنهم عرفوا حقيقة ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وصدقه وأمانته وردوا ذلك وكذبوه واتهموه -عليه الصلاة والسلام- أو اتهموا الأنبياء عموماً بأنهم سحرة ومجانين وكذبة على الله -تبارك وتعالى- فهم كما قال الله -عز وجل-: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [(١٤) سورة النمل] فيوم القيامة يعرفون أو يبدوا لهم هذا الأمر الذي كانوا يخفونه من قبل.

وهذا المعنى نصره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بقوة وردَّ على جميع المعاني السابقة وضعّفها، والله تعالى أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ} [(٢٨) سورة الأنعام] فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: في قولهم: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

يعني إنهم بقولهم هذا لم تتحول حالهم إلى صلاح ومحبة لله ومحبة للخير وما أشبه ذلك، وإنما أرادوا الخلاص -لمّا رأوا العذاب- بذكر مثل هذا الذي ظنوا أنه يخلصهم، فقالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [(٢٧) سورة الأنعام].

وقد مثَّل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- قولهم هذا بمثال يوضح المراد مما يوافق كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقال: هذا مثله كإنسان كان يحب إنساناً وهو يخفي هذه المحبة، ويعلم أنه لو اطُّلِع على ذلك منه لعوقب أشد العقوبة، يعني كرجل يحب امرأة ويحاول أن يخفي هذا على الناس؛ لأنه لو اطَّلَع وليُّها على هذا لعاقبه أشد العقوبة، فإذا أُخذ قال: دعني ولا أرجع إلى شيء من ذلك، فهو بهذا يريد الخلاص والنجاة من هذا الموقف وإلا فإن حبه لها مستقر في قلبه؛ إذ لو تُرك وحصلت له الفرصة فإنه باق على حاله الذي كان عليه؛ لأن ما قبله من حبها لم يتغير إلى بغض، وهكذا من كان يهوى شيئاً فأُخذ به فإنه قد يقول: دعني ولن أعود، ولكن لما كان هذا الأمر مستقراً في نفسه متجذِّراً فيها فإنه إذا تُرِك وحصلت له العافية رجع إلى حالته

الأولى، ويكون إنما قال تلك المقولة في ذلك المقام ليعتق نفسه فقط، وكذلك هؤلاء الكفار قد تعمق الكفر في نفوسهم ولن يرجعوا عنه حتى لو رُدُّوا إلى الدنيا، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** [(٢٨) سورة الأنعام].

{وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [(٢٩) سورة الأنعام] أي: **لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا: {إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}** أي: **ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها، ولهذا قال: {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [(٢٩) سورة الأنعام].

"إن" في قوله تعالى: **{وَقَالُواْ إِنْ هِيَ}** بمعنى "ما" النافية، أي ما هي إلا حياتنا الدنيا، وهذه الآية تابعة لما قبلها فهي ليست جملة جديدة، والمعنى أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا ما كانوا يقولون من قبل: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، مع أنهم قد عاينوا حقائق الآخرة، وهذا غاية الكفر والإعراض والجحود والانغماس في هذا الوحل، وهذا من أعجب الأشياء -نسأل الله العافية- وإلا كيف يرى حقائق الآخرة أمام عينه وإذا رجع -لو رُدَّ- لقال: **{إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [(٢٩) سورة الأنعام].

هذا المعنى عليه عامة المفسرين بل لا تكاد تجد من يخالف فيه، وهو معنى يفسر كيف أن من أراد الله -عز وجل- خذلانه فإنه لو رأى الآيات التي يؤمن بها الجماد ما آمن، والله المستعان.

إنك تستغرب يوم ترى بعضهم يشاهد آية من آيات الله منذرة بعذابه فيستهزئون بها بدلاً من اللجوء إلى الله -تبارك وتعالى- لكشف الضر والتوبة مما وقع منهم من الشرك ونحوه من الذنوب.

وقد حكى الله تعالى عن قوم هود كيف كان جوابهم وهم يرون عذاب الله نازلاً بهم فقال تعالى: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [(٢١) سورة الأحقاف] إلى أن قال سبحانه: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا}** فرد عليهم: **{بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}** [(٢٤-٢٥) سورة الأحقاف].

ومن العجائب أن يقوم الناس بأداء صلاة الاستسقاء طلباً لرحمة الله تعالى بإنزال الغيث فينزل المطر، فإذا بالصحفيين يكتبون في الصحف: هؤلاء درسوا الأحوال الجوية وعلموا أنه يوجد منخفض جوي فوقَّتوا للاستسقاء وضحكوا على الناس وقالوا: نزل المطر يوم استسقينا!!

والأعجب من ذلك أنه حدث زلزال في بعض البلاد بعد كسوف الشمس بأيام فيقول بعضهم: دخلنا المسجد وليس فيه أحد والناس في الساحات الضخمة حول المسجد حيث خرجوا في ليلهم شبه عراة، ثم أذَّن المؤذن -كأنه لصلاة الفجر- يقول: ولم يصلِّ إلا أنا وصاحبي والمؤذن والإمام، فالزلزال دمرهم تدميراً وهم ممن ينتسبون إلى الإسلام ومع ذلك ما قالوا: هذه آية ينبغي أن تكون لنا عبرة فنرجع إلى الله، بل عوقب من خطب أو تكلم فقال: هذه عقوبة من الله؛ أي أنهم أنكر عليهم كيف يسمون ذلك عقوبة؟!

وهكذا لو فتشت عن يمينك وشمالك ومن حولك من البلاد التي أنزل الله -عز وجل- عليهم بأسه في ليلة فإنك تجدهم رجعوا إلى أسوأ مما كانوا عليه بعد أن كنَّا نظن أنهم سيتوبون ويرجعون إلى الله -عز وجل- مما جرى، فنسأل الله العافية.

إنك إذا رأيت هذه الآيات التي يرسلها الله على عباده من الفيضانات والتدمير ونحوها فإنك تقول: إن هؤلاء الذين نجوا قد رأوا الموت بأم أعينهم ونجاهم الله وأحياهم حياة جديدة وسيكونون من العباد الذين لا يخرجون من المساجد، لكن الواقع أنك تراهم أشد مما كانوا عليه من الضلال –إلا من رحم الله- ولذلك فإن أصحاب هذه النفوس والقلوب الميتة لو قيل لأحدهم: إنك ستموت غداً لما كان عنده من مزيد خير وطاعة، فالله المستعان.

ثم قال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: أوقفوا بين يديه {قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟.

قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [(٣٠) سورة الأنعام] هو كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [(٢٧) سورة الأنعام] إذا قلنا: إنه بمعنى حبسوا على النار أو بقربها.

فقوله: {وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} أي: حُبسوا على حكمه وقضائه فيهم، فهم ينتظرون حكم الله فيهم لدخول النار، هذا معنى والآية تحتمله، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف.

{قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: بما كنتم تكذّبون به فذوقوا اليوم مسّه {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [(١٥) سورة الطور].

الاستفهام في قوله: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [(٣٠) سورة الأنعام] استفهام تقريع، فهو يقرعهم بهذا فيقول: أليس هذا بالحق الذي أنكرتموه وجحدتموه وكابرتم غاية المكابرة؟ {قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [(٣٠) سورة الأنعام] لكن لا ينفعهم هذا الاعتراف في ذلك اليوم.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ* وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٣١-٣٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعل، ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام].

قوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] الخسارة تكون في البيع والشراء، وأعظم ما تكون الخسارة هي في خسارة الإنسان لحظِّه ونصيبه عند الله -تبارك وتعالى-، هذا أعظم الخسار وهو أعظم الغبن، ولهذا سمى الله -عز وجل- يوم القيامة بيوم التغابن لما يحصل فيه من الغبن العظيم؛ لأن الله -عز وجل- قد أعطى كل إنسان رأس مال في هذه الحياة الدنيا وهي هذه الأنفاس، وهي متقضية لا محالة، فمن الناس من سعى وجدّ واجتهد وقضاها من أجل أن يحجز مقعداً في النار، ومنهم من جدّ واجتهد واستغلها من أجل أن يشتري مقعداً في الجنة، فإذا جاء يوم القيامة دخل هؤلاء الجنة ودخل هؤلاء النار التي و طَّئوها لأنفسهم وعملوا من أجل دخولها وقضوا فيها الأعمار، من أجل الوصول إليها -نسأل الله العافية- وعندئذ يتوارث أهل الجنة مقاعد ومنازل أهل النار من الجنة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنة التي في النار؛ لأنه كما في الحديث لكل إنسان مقعد في الجنة ومقعد في النار، فهذا في غاية الغبن؛ لأنها صفقة خاسرة بعد

أن أنفق أموالاً وجهوداً وأوقاتاً وأعمالاً في هذه الحياة الدنيا، فهو قضى سبعين سنة أو أكثر أو أقل من أجل أن يشتري منزلاً في النار، ولذلك كان هذا اليوم يوم التغابن.

يقول تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] "قد" في الآية للتحقيق، ولهذا يقول: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٧) سورة البقرة].

والمراد بلقاء الله -عز وجل- في الآية هي القيامة.

قوله: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [(٣١) سورة الأنعام] من أهل العلم من يقول: إن الساعة سميت بهذا الاسم لسرعة الحساب فيها، ومنهم من يقول: سميت بالساعة لسرعة قيامها، فهي تقوم لحظة كما ورد في الحديث: ((لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها))[1] ولهذا قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [(١-٢) سورة الحـــج].

وقيل: إنها سميت ساعة؛ لأنها الساعة العظيمة فصار ذلك علماً عليها.

يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] يعني نادوا: يا حسرتنا احضري، والحسرة هي الندم الشديد، فغاية الندم يقال له: حسرة.

{عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها.

ذكر -رحمه الله- بشأن الضمير في قوله تعالى عن الخاسرين: {عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] ثلاثة أقوال وجعلها احتمالات؛ لأن الآية تحتملها فقال: "**وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها**" فعلى عود الضمير إلى الحياة الدنيا يكون المعنى يا حسرتنا على ما ضيعنا في الحياة الدنيا حتى صرنا إلى هذه الحال، وعلى عوده إلى الأعمال يكون المعنى يا حسرتنا على ما فرطنا في الأعمال، وعلى عوده إلى الدار الآخرة يكون المعنى يا حسرتنا على ما فرطنا في الآخرة.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا الخلاف هو من قبيل اختلاف التنوع فلا حاجة للترجيح بين هذه الأقوال؛ لأن التفريط وقع منهم في الدنيا، وكان هذا التفريط في حقيقته هو تضييع للعمل الصالح ومقارفة العمل السيئ، وهذا التفريط كائن وواقع في عمل الآخرة.

وقال بعضهم ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: إن الضمير يعود إلى الصفقة، ويدل على ذلك أنه ذكر الخسارة قبلُ بقوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] فهي صفقة حصل فيها خسارة، فيقولون: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها أي: في هذه الصفقة التي صارت خاسرة.

وهذا أيضاً تحتمله الآية فلا حاجة للترجيح أيضاً؛ لأن من فرط في العمل فرط في الحياة الدنيا وفرط في عمل الآخرة فصفقته خاسرة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٣١) سورة الأنعام]: أي: يحملون.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب خروج النار (٦٧٠٤) (ج ٦ / ص ٢٦٠٥).

قوله تعالى: {أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} يعني ألا ساء ما يحملون؛ فالأوزار جمع وِزر، وهو الحمل، فيقال للرجل إذا بسط ثوبه ووضع فيه المتاع: احمل وزرك، يعني حملك، ومنه الوزير؛ لأنه يتحمل أعباء المهام التي توكل إليه، والمقصود بالأوزار في الآية الأثقال التي يحملونها من الذنوب، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [(١٣) سورة العنكبوت].

وقال أسباط عن السدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون منتن الريح، وعليه ثياب دنسه، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك؟ قال: كذلك كان عملك قبيحاً، قال: ما أنتن ريحك؟ قال: كذلك كان عملك منتناً؟ قال: ما أدنس ثيابك؟ قال: فيقول: إن عملك كان دنساً، قال له: من أنت؟ قال: عملك، قال: فيكون عمله في قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٣١) سورة الأنعام].

وقوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} أي: إنما غالبها كذلك {وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٣٢) سورة الأنعام].

هذا الأثر عن السدي لا يقال من جهة الرأي لكن له حكم المرسل، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على هذه المعنى في أصله، أي أن عمل الإنسان يصور له إما بأحسن صورة أو بأسوأ صورة كما في حديث البراء الطويل[2].

يقول تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام]: أقوى صيغة من صيغ الحصر هي النفي والاستثناء، فهنا جاء بأسلوب الحصر فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام] فهذا أبلغ تصوير لحقيقتها وما يتنافس عليه الناس فيها من الحطام والاستكثار من أحجار الذهب والفضة وكأنهم خلقوا لذلك حيث يتنافسون في البنيان ويتنافسون في الحطام وفي المراكب وما إلى ذلك، ثم لا يمر على ذلك وقت قريب إلا ويتقادم به العهد وتزهد به نفوسهم وتتطلب غيره، وهكذا يجرون خلفها حتى يصبّحهم الموت أو يمسِّيهم ثم بعد ذلك يعرفون أنهم قد ضيعوا الأيام في البحث عن أمور يستكثرون منها استكثاراً لم يأمرهم الله -عز وجل- به.

في قوله تعالى: {إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام] من يقول بوجود الترادف يقول: اللهو واللعب بمعنى واحد، ومن يمنعون من الترادف حاولوا أن يوجدوا فرقاً بين اللهو وبين اللعب، وذكروا في هذا أشياء قد لا تخلو من مناقشة، وهذا من الأمثلة التي قد يصعب بيان وجه الفرق بين اللفظتين فيها، يعني إنه توجد أشياء تتشابه في الألفاظ وتتشابه معاينها أو تتقارب مما يقال عنها إنها مترادفات ويظهر وجه الفرق بينها مثل: أقبل وجاء، حيث تقول: أقبل أي بوجهه وجاء بمعنى حضر، وتقول: الإنسان والبشر، فالأول باعتبار طبيعته وما قيل في ذلك بأنه من الأنس أو نحو ذلك، والبشر باعتبار أن بشرته بادية ظاهرة وهكذا، لكن ما الفرق بين اللهو واللعب؟

الفرق بين اللهو واللعب؟:

---

[2] - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

بعضهم يقول: اللهو كل شيء شغلك وألهاك، ويرد على هذا اعتراض فيقال: ألهاه يلهيه لكن لها يلهو كأن المادة أخرى غير مادة ما ذكر.

وبعضهم يقول: اللهو أصله من الصرف عن الشيء، ولهذا قال من قال: اللهو هو صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف الهم فيه، واللعب هو طلب الفرح بما لا يحسن طلبه فيه، باعتبار أن اللعب فيه شيء من الفرح، لكن يقال: هذا ليس بلازم؛ لأن اللهو قد يكون فيه فرح أيضاً.

ومنهم من يقول -كأبي هلال العسكري-: إن اللهو أعم من اللعب باعتبار أن اللعب قد يكون حقاً، كملاعبة الرجل لأهله، وملاعبته لولده، وأما اللهو فإن أكثره باطل، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً، رمية عن قوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق))[3] فهذا اللعب استثني من اللهو الباطل وإلا فهو من جملة اللهو، فاللهو يشمل اللعب سواء كان بحق أو بباطل، وهو أعم من اللعب، فهو قد يكون لعباً وقد يكون بغير اللعب.

وبعضهم يقول: اللهو هو الاستمتاع بلذات الحياة الدنيا، واللعب هو العبث، وبعضهم يقول: اللهو هو الميل من الجد إلى الهزل، واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع، وبعضهم يقول: اللهو هو الإعراض عن الحق واللعب هو الإقبال على الباطل.

وابن القيم -رحمه الله- فرَّق بينهما بفرق وهو أن اللهو يكون في القلب، تقول: قلبه في لهو، أو لاهٍ ساهٍ، واللعب يكون بالجوارح، ويكون متسبباً عن لهو القلب.

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ* وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ* وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٣-٣٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مسلياً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر] كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [(٣) سورة الشعراء] {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف].

يقول تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ} [(٣٣) سورة الأنعام] "قد" إذا دخلت على الفعل المضارع فإن الغالب أنها للتقليل، كما يقولون: قد يجود البخيل، وقد يكبو الجواد فهذا للتقليل.

وإذا دخلت في فعل يتعلق بالله -عز وجل- كقوله تعالى هنا: {قَدْ نَعْلَمُ} وكقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} [(٦٤) سورة النـــور] وكقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [(١٨) سورة الأحزاب] فليس المراد بها التقليل فهذا لا يمكن أبداً؛ لأن علم الله -عز وجل- متحقق ثابت، فعلمه أحاط بكل شيء، ولذلك يكون المعنى أن "قد" إذا

---

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله (١٦٣٧) (ج ٤ / ص ١٧٤) وأحمد (١٧٣٧٥) (ج ٤ / ص ١٤٨) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده.

دخلت على الفعل المضارع المنسوب إلى الله -عز وجل- فهي للتحقيق دائماً، فالقاعدة هي أنك إذا رأيت "قد" دخلت على فعل مضارع مضاف إلى الله -عز وجل- فهي للتحقيق، فقوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: قد علمنا، وقوله: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} [(٦٤) سورة النـــور] أي: قد علم، وقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [(١٨) سورة الأحزاب] أي: قد علم.

يقول تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ} [(٣٣) سورة الأنعام]: الحزن هو التأسف على أمر فائت، وأما الخوف فهو الاغتمام من أمر مستقبل، وهذا هو الفرق بين الحزن والخوف، وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف قليلاً.

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم.

يقول تعالى: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} هذه قراءة بالتشديد وهناك قراءة أخرى بالتخفيف (لا يُكْذِبُونَك) وهي متواترة أيضاً.

وعلى القراءة الأولى فسرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: "**أي: لا يتهمونك بالكذب**" أي: لا ينسبونك إلى الكذب، كما تقول: كذّبته إذا نسبته للكذب أو أخبرت بأنه جاء بالكذب أو إذا قلت له: كذَبت، فيكون بهذا مكذَّباً وتكون قد كذّبته.

لكن على قراءة (لا يُكْذِبُونَك) هي كما تقول: أكذبتُه أي: وجدتُه كاذباً، (لا يُكْذِبُونَك) أي: لا يجدونك كاذباً، وبعضهم يقول: أكذبته أي أخبرت أنه كاذب، أو أن ما جاء به كذب، لكن المقصود أنهم يعرفون أنك صادق لا تكذب وهم لا ينسبونك إلى الكذب ولكنهم يجحدون هذا الذي جئت به لأمر في نفوسهم كما قال الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} [(١٤) سورة النمل] كما جاء عن أبي جهل عند أصحاب السير أنه ذكر المنافسة بينهم وبين عبد مناف وقال: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا حتى إذا جثونا معهم على الركب وتساوينا -يعني في المكارم- قالوا: منا نبي، فمن أين نأتي بهذه؟ فو الله لا نؤمن به أبداً، فهذا يبين أنهم لا يكذبونه –عليه الصلاة والسلام- بل يعرفون أنه صادق لكنهم يجحدون هذا مكابرة لغلبة أهوائهم.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك، فذكر له ما جاء به، ثم تعاهدوا ألا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم؛ لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية، جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان، لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

وقوله: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [(٣٤) سورة الأنعام] هذه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمْر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: {وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ} [(٣٤) سورة الأنعام] أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(١٧١-١٧٣) سورة الصافات] وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [(٢١) سورة المجادلة].

وقوله: {وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [(٣٤) سورة الأنعام] أي: من خبرهم، كيف نصروا وأُيِّدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [(٣٥) سورة الأنعام] أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك {فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [(٣٥) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة

عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: النفق: السرب فتذهب فيه، فتأتيهم بآية أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به، فا فعل. وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما.

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٣٥) سورة الأنعام] **كقوله تعالى:** {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} **الآية** [(٩٩) سورة يونس] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله:** {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [(٣٥) سورة الأنعام] **قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.**

وقوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] **أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله:** {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٧٠) سورة يـــس].

وقوله: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] **يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال:** {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] **وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم.**

{وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٣٧-٣٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: {لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} **أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم:** {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} **الآيات** [(٩٠) سورة الإسراء].

{قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٧) سورة الأنعام] **أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى:** {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا} [(٥٩) سورة الإسراء] **وقال تعالى:** {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [(٤) سورة الشعراء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قولهم: {وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} [(٣٧) سورة الأنعام] أي: أنهم اقترحوا أن ينزل عليه آية تلجئهم إلى الإيمان إلجاءً كما فعل الله -عز وجل- لبني إسرائيل حينما رفع فوقهم الجبل فصار فوقهم كأنه ظله، وأمرهم بأن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة، وهكذا ما وقع من الآيات العظام التي تلجئ من رآها إلى الإيمان إن كان كتب الله -عز وجل- له الإيمان في سابق علمه، وأما إذا حصل منه التكذيب بعد ذلك فإنها تأتي العقوبات المستأصلة كما وقع للأمم السابقة كقوم صالح حينما اقترحوا آية فأخرج الله -عز وجل- لهم الناقة مبصرة، كما قال تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [(٥٩) سورة الإسراء] أي: إنها آية

مبصرة -وليس المعنى إنها ناقة مبصرة- فظلموا بها فأهلكهم الله -تبارك وتعالى- وهكذا كان حال سائر الأمم.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً} [(٣٧) سورة الأنعام] أي كما اقترحوا {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٧) سورة الأنعام] أي: ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه قادر، أو ولكن أكثرهم لا يعلمون ما عليهم من التبعة والبلاء إذا نزلت الآيات ولم يؤمنوا بها، وهذا المعنى الأخير هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فالله قادر على تنزيل الآيات، ولكن هؤلاء المقترحين لا يعلمون تبعة هذا الأمر حيث إذا أنزل عليهم آية كما اقترحوا ولم يؤمنوا بها نزل بهم العذاب المستأصل.

ومن حكمة الله -عز وجل- أيضاً أنه يرسل الرسل ويري الناس من آيات ودلائل صدقهم ما تقوم عليهم به الحجة، وأما الآيات الملجئة فإنها إن ظهرت للناس فإن حكمة الابتلاء قد تكون منتفية، فالله -تبارك وتعالى- لم يقدّر ذلك في بعث نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وله في ذلك حكمة بالغة فهو لم يقدر إهلاك هذه الأمة بالعذاب المستأصل كما كان الحال مع الأمم السابقة، ولذلك كانت هذه الأمة باقية، ورسالتها هي الرسالة الخالدة إلى قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة.

يمكن أن نربط بين هذه الآية وبين ما قبلها بما ذكر بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- وهو أن الله -عز وجل- يقول لهؤلاء المقترحين لنزول الآيات المكذبين للرسول -صلى الله عليه وسلم-: لا تظنوا أن الله -تبارك وتعالى- غافل عن أعمالكم وعن مجازاتكم، إذ كيف يكون ذلك ويقع والله -تبارك وتعالى- لم يغفل أمر هذه المخلوقات على كثرتها وصنوفها ومعايشها وما أشبه ذلك؟!، فهو قد أحصاها عدداً وهو الذي خلقها -سبحانه وتعالى- وقدر أقواتها وأرزاقها وآجالها، وكتب كل ما يتعلق بها في تقلبها وأحوالها وأطوارها المختلفة وجميع ما يصدر منها من الحركات والسكنات، وكيف يغفل عن أعمالكم وأنتم محل التكليف وقد خلقكم لعبادته!.

وقال قتادة: الطير أمة والإنس أمة والجن أمة، وقال السدي: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: خلقٌ أمثالكم.

الأمة -كما هو معروف في الوجوه والنظائر- تأتي لمعانٍ متعددة، فتأتي بمعنى الجماعة من الناس كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ورد ماء مدين: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص] ويقال للمدة الزمنية أيضاً، كما قال تعالى: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [(٤٥) سورة يوسف] وهذا لا تعلق له بهذه الآية.

ويقال ذلك أيضاً للطائفة المجتمعة على دين، كقوله -عز وجل- عن هذه الأمة: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٥٢) سورة المؤمنون] فهذه الأمة هي طائفة مجتمعة على دين.

ويقال: فلان أمَّة، للرجل الذي جمع أوصاف الكمال التي تفرقت في غيره، كقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [(١٢٠) سورة النحل].

والحاصل أن المراد بقوله تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] يعني جماعاتٍ وأصنافاً خلقها الله -عز وجل-.

والمثلية هنا اختلف أهل العلم فيها، فمنهم من قال: إن المراد بالمثلية أي: أن في هذه المخلوقات شبهاً ببني آدم من جهة أن من الناس من فيه دناءة الخنزير، ومن فيه عقوق الضب، ومن فيه خفة أحلام الطير، ومن فيه غدر الذئب، وحيلة الثعلب، وما أشبه ذلك من الأوصاف الموجودة في هذه المخلوقات سواء كانت حسنة أو سيئة، وهذا وإن قال به بعض السلف إلا أنه قول بعيد في تفسير الآية.

وبعضهم يقول: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: يذكرون الله -عز وجل- مثلكم، وبعضهم يقول: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: أنهم يحشرون كما تحشرون في الآخرة.

وبعضهم يقول: وجه المثلية هو أن الله -عز وجل- خلقها وقدر لها أرزاقاً وآجالاً ويبعثها يوم القيامة كما يبعث البشر -كما في قوله في آخر هذه السورة: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] وكما دل عليه الحديث الآخر -الذي سيأتي- وما أشبه ذلك مما قضاه الله -عز وجل- وقدره في شأن هذه المخلوقات، وهذا هو أرجح هذه الأقوال.

ويدخل في المثلية كل ما يوجد من المشابهة بين الناس وبين هذه المخلوقات، فالله يرزقهم كما يرزقكم، وداخلون تحت علمه وقدرته، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ} [(٣٨) سورة الأنعام] مضى فيما سبق تفسير الدابة أنها كل ما يدب على الأرض، وقد تطلق في عرف الاستعمال على نوع خاص مما يدب على الأرض كذوات الأربع مثلاً، وهذا من تخصيص العرف، وقد يكون العرف أخص من هذا كإطلاق الدابة على الحمار، أو إطلاق الدابة على الحية، والخلاصة أن كل ما دب على الأرض فهو دابة.

ثم عطف عليها الطير فقال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] فدل على أن المراد بالدابة هنا ليس المعنى العرفي كذوات الأربع مثلاً وإنما المقصود كل ما يدب على الأرض، ويقابله ما يطير في السماء.

في قوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] معلوم أن الطائر إنما يطير بجناحيه، وقد سبق الكلام على مثل هذا المعنى، وذلك أن من أهل العلم من يقول: إن ذكر الجناحين مع أنه معلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه إنما جرى على طريقة العرب لتأكيد الكلام، فالعرب تقول: قال بفمه -أو بفيه- وكتب بيده، ومشى إليه برجله، ونظر بعينه، وما أشبه هذا.

ومنهم من يقول: لما كانت العرب تعبر عن السرعة بمثل هذا فتقول: اقض حاجتي على وجه الطيران، أو طِر بحاجتي، أو طِر بهذا الخبر، أو فلان طار بهذا، بمعنى أسرع فيه، وكما قال الشاعر:

قومٌ إذا الشرّ أبـدى ناجذيـه لهـم طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووحـدَانا

فحتى لا يتوهم أن المراد بذكر الطائر الإسراع قال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] والله أعلم.

وقوله: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان برياً أو بحرياً.

الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي يدل عليه السياق في هذه الآية، حيث ذكر الكائنات بقوله: **{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}** [(٣٨) سورة الأنعام] أي: خلقها وقدر أقواتها وآجالها وأعمالها وما أشبه ذلك ثم يحشرها يوم القيامة، فالسياق كله يدل على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه هذه الأشياء وأحصيت وجمعت.

والقول الآخر هو أن الكتاب في الآية يراد به القرآن، وبناء على هذا المعنى يكون المراد بقوله: **{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}** [(٣٨) سورة الأنعام] أي مما تحتاجون إليه في هدايتكم ونجاتكم.

وبهذا يظهر أنه حتى على هذا التفسير قالوا -أي المحققون من أهل العلم-: إن المراد ما يتعلق به النجاة والخلاص والهداية ولم يقولوا: إن المقصود اشتمال القرآن على جميع العلوم كما قال بعض المتكلفين: إن القرآن تبيان لكل شيء باعتبار أنه يحتوي على جميع العلوم، فهؤلاء قد تكلفوا غاية التكلف، كالرجل الذي اسمه كوك لما قال لآخر: تقول إن القرآن فيه كل شيء فأين اسمي في القرآن؟ قال: **{وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [(١١) سورة الجمعة] فانظر كيف لم تعيه الحيلة أن يستخرج اسمه من القرآن!.

وسئل بعضهم عن الطب في القرآن فقال: جُمِع في آية واحدة هي قوله تعالى: **{وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ}** [(٣١) سورة الأعراف] فهذه اشتملت على الطب بكامله من الغذاء الصحيح والحمية، فالطب يقوم على هذا، وهذا الكلام له وجه، لكن الكلام أو النظر إلى القرآن بأنه يحتوي جميع العلوم، فهذا كلام غير صحيح.

ومن كلام المتكلفين قولهم: ما من علم إلا ويدل عليه القرآن ولو بالإشارة أو بالإجمال، ومن ذلك علوم الفلك والفلسفة والطب والصيدلة وعلم الأثر والخط بالرمل، بل قالوا: إنه ذكر أو أشار إلى كل العلوم، وهذا الكلام فيه نظر؛ فالقرآن لم ينزل لهذا الأمر وهو ليس موسوعة في الجغرافيا أو في الحساب أو في العلوم أو غير ذلك، وإنما هو كتاب هداية فينبغي أن ينظر إليه بهذا الاعتبار، وبهذا نعرف خطأ من أسرف في تحميل القرآن ما لا يحتمل من النظريات التي يصل إليها العلم الحديث والاكتشافات والمخترعات وما أشبه ذلك في العلوم المختلفة، فالقرآن ما أنزل لهذا فلا داعي أن نشتط بهذا الطريق الخطر ونحمل القرآن ما لا يحتمل، ولكن ما لاح وجهه وظهر فلا إشكال إن كان ذلك ثابتاً ويُفهم من ظاهر القرآن، وأما ما لا يثبت أو لا يدل عليه ظاهر القرآن فإنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يحمل القرآن عليه؛ لأن هذا التصرف في النظر البعيد والعاقبة خطير ومردوده كبير على القرآن حيث سينسب إليه الخطأ بعد ذلك حينما يُكتشف أن هذه النظريات غير صحيحة أو إذا جاء ما يبطلها.

على كل حال من فسر الكتاب في قوله تعالى: **{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}** [(٣٨) سورة الأنعام] بأن المراد به القرآن قال: يعني ما من شيء يُحتاج إليه في هدايات الخلق إلا قد ذكرناه فيه إما تفصيلاً وإما إجمالاً، كقوله تعالى: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}** [(٨٩) سورة النحل][1].

كقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [(٦) سورة هود] **أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانِّها وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: {وَكَأَيِّن من دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٦٠) سورة العنكبوت].**

---

[1] - من أهل العلم من ذكر حجج هؤلاء وحجج هؤلاء كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- فمن شاء فليراجع كلامه في كتاب إعلام الموقعين.

يعني أن الله -عز وجل- أحصى هذه المخلوقات من الحيوانات البرية والبحرية وما يعيش تحت الأرض وما يعيش فوق الأرض ودبر أقواتها وأعمالها وأماكن عيشها وما يصلح لمثلها وأين تموت، والأطوار التي تمر بها، كل ذلك قدره الله -عز وجل- وأحصاه.

وهذه الآية لو أن الناس عقلوها وتدبروا معناها فإنهم سيكونون في غاية التوكل على الله -عز وجل- في الرزق وفي كل أمر من أمورهم، فهذه المخلوقات على كثرة أنواعها -منها ما يرى بالعين ومنها ما لا يرى بالعين- أحصى الله كل حركاتها وسكناتها وما يتصل بها من أعمال وأرزاق وآجال، فنحن خلْق من خلقه قدر الله -عز وجل- لنا مثل هذه الأمور ولن يسبق الإنسان رزقه ولا أجله مهما عمل ومهما كان حذراً متوقياً بل إذا جاء أجله سقط على أم رأسه، وهكذا الأرزاق مهما كان حذقه وذكاؤه ومهارته وجلده وكده ليلاً ونهاراً لا يمكن أن يحصِّل أكثر مما كتب له، ولن يفوته من رزقه شيء ولن يأكل رزقه أحد غيره إطلاقاً، ولهذا ينبغي ألا يحزن على ما فات وألا تذهب نفسه حسرات، وذلك أن ما خرج من يده فإن الله لم يقدره ولم يكتبه له وإنما هو مكتوب لغيره، فالله -عز وجل- قد يرزق غيره بسببه وعن طريقه، فالتأسف على الدنيا وذهاب النفس حسرات عليها لا معنى له إطلاقاً، فالله قد أحصى كل شيء ولا يخرج من هذا الإحصاء شيء؛ لأن علمه –تبارك وتعالى- قد أحاط بكل شيء، فمن تأمل في هذا الأمر كان ذلك نافعاً له في باب المراقبة لله تعالى، وهذه الآية تحتاج إلى وقوف وتأمل طويل؛ فلو حصل ذلك لانتفع العبد بها غاية الانتفاع.

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] قال: حشْرها الموت، وقيل: إن حشرها هو يوم بعثها يوم القيامة؛ لقوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [(٥) سورة التكوير].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغوا من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجمَّاء من القرناء ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ][2] وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور.

ويدل على هذا أيضاً الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: ((لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء))[3] يعني التي نطحتها في الدنيا.

فالله -عز وجل- يحشر هذه الدواب جميعاً ويقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً فتكون تراباً، فعندئذ إذا رآها الكافر قال: {ويَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ].

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن الحشر المراد هنا هو حشر الآخرة، والقول الآخر أن الحشر هو الموت، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن هذين المعنيين

---

2 - أخرجه الحاكم (٣٢٣١) (ج ٢ / ص ٣٤٥) وقال الألباني: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم غير ابن ثور وهو محمد الصنعاني وهو وإن كان موقوفاً فإنه شاهد قوي للمرفوع؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي، انظر السلسلة الصحيحة (ج ٤ / ص ٤٦٥).

3 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) (ج ٤ / ص ١٩٩٧).

لم يوجد دليل على ترجيح أحدهما على الآخر، فيقول: الآية تحتمل المعنيين، وهذه هي طريقته –رحمه الله- عندما لا يوجد دليل للترجيح بين الأقوال.

وعلى كل حال فالحشر معناه الجمع وحمله على الجمع في الآخرة، هو الأقرب وهو الظاهر المتبادر والله أعلم، ثم إن الإخبار بأنهم يحشرون بالموت ليس فيه فائدة جديدة؛ لأن هذا شيء مشاهد ومعلوم، ثم إن وجه كونهم يجتمعون في الموت فيه إشكال، لكن كونهم يجتمعون في الحشر والنشر في الآخرة هو المقصود، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} [(٣٩) سورة الأنعام] أي: **مثَلهم في جهلهم وقلَّة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصمٍّ -وهو الذي لا يسمع- أبكم -وهو الذي لا يتكلم- وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله:** {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٧-١٨) سورة البقرة] **وكما قال تعالى:** {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [(٤٠) سورة النـــــور] **ولهذا قال:** {مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٣٩) سورة الأنعام] أي: **هو المتصرف في خلقه بما يشاء.**

{قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ* وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٤٠-٤٥) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه الفعَّال لما يريد المتصرف في خلقه بما يشاء وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ} [(٤٠) سورة الأنعام] أي: **أتاكم هذا أو هذا** {أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} **[(٤٠) سورة الأنعام].**

قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم} [(٤٠) سورة الأنعام] الكاف والميم عند البصريين من النحاة يراد بها الخطاب ولا محل لها من الإعراب.

وقيل: إن الكاف والميم في محل نصب على المفعولية، يعني كأنه يقول: أرأيتم أنفسكم، فالكاف للخطاب كما في قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [(٦٢) سورة الإسراء] فقالوا: الكاف مفعول به مثل: أرأيت زيداً كأنه يقول: أرأيت نفسك، والاستفهام في قوله: {أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ} [(٤٠) سورة الأنعام] للتقريع.

{أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٤٠) سورة الأنعام] أي: **لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه، ولهذا قال:** {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٤٠) سورة الأنعام] أي: **في اتخاذكم آلهة معه.**

{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} [(٤١) سورة الأنعام] أي: **في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كقوله:** {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} **الآية** [(٦٧) سورة الإسراء] **وقوله:** {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء} [(٤٢) سورة الأنعام] **يعني الفقر والضيق في العيش.**

يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ} [(٤٢) سورة الأنعام] يعني فكذبوا {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [(٤٢) سورة الأنعام] على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- يكون فيه مقدر محذوف معلوم من السياق، أي أن البأساء والضراء وقعت لهم بعد التكذيب كما قال تعالى عن آل فرعون: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} [(١٣٠) سورة الأعراف].

إذن: هذه الأمور وقعت لهم بعد تكذيبهم وإلا لو آمنوا لأغدق الله عليهم الأرزاق كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف]، هذا المعنى تحتمله الآية، والله تعالى أعلم.

ولو قال قائل: قوله: إن ذلك واقع حتى مع الإيمان فإن هذا قد يدل عليه قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ} [(٢١٤) سورة البقرة] فهي سنته في الابتلاء.

لكن قوله: {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [(٤٢) سورة الأنعام] يمكن أن يفهم منه أنهم لما كذبوا أخذهم بالبأساء والضراء من أجل أن يتضرعوا، وإن كان هذا أيضاً ليس بلازم؛ لأن الله يحب من عباده التضرع إليه سواء كانوا من أهل الإيمان أو كانوا من الكافرين، ولكن قوله بعده: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [(٤٣) سورة الأنعام] يدل على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- أي أن هؤلاء كذبوا وما تضرعوا حينما أخذهم بالبأساء والضراء، ولذلك يقال: ليس المخبر عنهم هنا أهل الإيمان الذين يبتليهم الله تعالى وإنما هو على الأمم المعذبة المهلكة، والله أعلم.

{فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء} **يعني الفقر والضيق في العيش** {وَالضَّرَّاء} **وهي الأمراض والأسقام والآلام.**

قال: "**وهي الأمراض والأسقام والآلام**" وقيل غير ذلك لكنها أقوال بعيدة، ومنها أن المقصود بالبأساء تسليط السلطان عليهم، لكن الظاهر الذي عليه عامة أهل العلم أن البأساء هو الضر المتعلق بالأموال من الفقر وضيق العيش، والضراء ما يتعلق بالأجسام من المرض والألم وما أشبه ذلك، هذا هو التفسير المشهور، والله أعلم.

{لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [(٤٢) سورة الأنعام] أي: **يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.**

قوله: {لَعَلَّهُمْ} أي: من أجل أن، وقد سبق في "لعل" أنها تأتي للترجي وأن الله لا يقع منه ذلك، فهنا تفسر بأنها تعليلية وقد سبق أن قلنا: إنها في جميع المواضع -في القرآن- تفيد التعليل إلا في موضع واحد وهو قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [(١٢٩) سورة الشعراء] فإن معناها كأنكم تخلدون.

والتضرع هو الانكسار والتذلل لله -جل وعلا-، والله -عز وجل- من حكمته في ابتلاء الخلق بالمكاره أنه يحب من عباده أن ينكسروا وأن يذلوا بين يديه وأن يدعوه فيكشف عنهم ذلك إن شاء.

ومن التذلل والتضرع إلى الله تعالى صلاة الاستسقاء التي يفعلها الناس إذا حصل لهم القحط وأجدبوا ولم ينزل المطر، ولذلك على كثرة التقصير حتى في هذه الصلاة وفي الحضور لها وفي صفتها وفي التضرع في الدعاء إلا أن مع ذلك كله يلاحظ أنه لا يكاد الناس يستسقون حتى ينزل المطر بفضل الله ورحمته بخلقه، بل عرف عن بعض أهل العلم قديماً وحديثاً أنه إذا استسقى لم ينزل من المنبر حتى ينزل المطر من شدة تضرعه وإلحاحه على الله -عز وجل- بالدعاء.

فالله –تبارك وتعالى- يحب من عباده التذلل والتضرع مع كثرة ما يقع منهم من التقصير والظلم والمعصية إلا أنه يلطف بهم ويرحمهم، ولو عاملهم بأعمالهم وذنوبهم لما أنزل قطرة واحدة من السماء؛ فهم يُمعنون في الفساد والشر وهو -عز وجل- يلطف بهم ويرحمهم، وفي الحديث: ((ولولا البهائم لم يمطروا))[4].

قال الله تعالى: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا، {وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: ما رقَّت ولا خشعت {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي.

قوله: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ} [(٤٣) سورة الأنعام] يؤيد ما سبق عن ابن جرير في قوله: {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [(٤٢) سورة الأنعام] أي: لعلهم يتضرعون فلم يتضرعوا؛ لأن قوله: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [(٤٣) سورة الأنعام] معناه أن التضرع منهم لم يقع.

قوله: {فَلَوْلا} سبق أن "لولا" إذا كانت في أمر فائت لا يمكن استدراكه فهي للتبكيت كما في هذه الآية: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، فهذا لا يمكن استدراكه؛ لأنهم قد أهلكوا وانتهوا، وأما إذا كانت "لولا" في أمر يمكن استدراكه فإنها تكون للتحضيض والتحريض.

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم.

النسيان هنا يفسر بالترك كما في قوله تعالى: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] وكما في قوله: {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [(١٩) سورة الحشر]، وهذا هو المشهور عند أهل العلم في هذا الموضع خلافاً لمن قال: إنه الذهول؛ لأن الله لا يؤاخذ بالنسيان الذي هو زوال المعلوم من الذهن، والله أعلم.

{فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون.

قوله: "أي: **فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون**" هذا المعنى تحتمله الآية، وليس لغبي أن يقول: توجد أشياء ما أعطاهم الله إياها مثل الهداية؛ لأن قوله: {فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام] يقصد به أبواب كل شيء مما يدل عليه المقام والسياق من إدرار الأرزاق عليهم وصحة الأبدان وما أشبه ذلك مما يحصل به الاستدراج، وإلا فإن هناك أشياء في الدنيا من ألوان النعيم لم يعطوا إياها، لكن أراد ما يحصل لمثلهم كما قال تعالى: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [(٢٥) سورة الأحقاف] فإن معناها تدمر كل شيء مما جاءت لتدميره، فلا يقول أحد: إنها لم تدمر السماوات والأرض ولا الجبال.

---

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن - باب العقوبات (٤٠١٩) (ج ٢ / ص ١٣٣٢) والحاكم (٨٦٢٣) (ج ٤ / ص ٥٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٧٨).

ويقال ذلك أيضاً في قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [(٥٧) سورة القصص] فلا يقول عاقلٌ: هناك ثمرات رأيتها في المشرق والمغرب لم أرها في مكة؛ لأن المقصود بالآية ما يحصل جبايته لمثلها، وهكذا يقال في قوله تعالى عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [(٢٣) سورة النمل] لا يقال: إنها لم تؤتَ لحية سليمان أو ملك سليمان مثلاً؛ لأن هذا ليس مراداً في الآية، وهذا يسميه الشاطبي -رحمه الله- "العموم الاستعمالي" يعني أن اللفظ يكون عاماً في كل مقام بحسب استعماله مما يصلح له.

وقوله: {أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: مما أغلق عليهم كما يقول ابن جرير –رحمه الله- والمعنى أن الله –عز وجل- قلّبهم في الأحوال المختلفة، فتارة يأخذهم بالبأساء والضراء –أي الشدة- وتارة بالتوسعة عليهم، ثم إن الأبواب التي سدها عليهم وأدت إلى حصول البأساء والضراء فتحت عليهم فصحت أجسامهم ونمت أموالهم وحصل لهم ما يحتاجون إليه من نزول المطر وذهاب القحط وما أشبه ذلك.

وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم عياذاً بالله من مَكْره، ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ} [(٤٤) **سورة الأنعام] أي: من الأموال والأولاد والأرزاق** {أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: **على غفلة** {فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) **سورة الأنعام] أي: آيسون من كل خير.**

قال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: المبلس الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم يرَ أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتّر عليه فلم يرَ أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) **سورة الأنعام] قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.** [رواه ابن أبي حاتم].

المبلس هو الذي قد يئس وانقطع أي سكن وهمد ولم يتحرك ليبحث عن المخرج والحيلة من شدة يأسه، ولهذا قال بعضهم: إن اسم إبليس مأخوذ من الإبلاس.

وقوله: {أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: أخذناهم بغتة فإذا هم ساكنون لا حراك لهم؛ لأنه -عز وجل- قد أهلكم.

قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٤٥) سورة الأنعام] أي: قطع آخرهم؛ لأن الدابر هو الآخر، والمعنى أنهم استؤصلوا استئصالاً فلم يبق منهم أحد.

ويقال: إن التدبير مأخوذ من هذا باعتبار أنه إحكام عواقب الأمور، بمعنى أنه يرتب ويدبر أوائلها لتصح له عواقبها، فيقال: فلان حسن التدبير لأمر المعيشة، وفلان سيئ التدبير.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ* قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ* وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٤٦-٤٩) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} **أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى:** {هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} **الآية** [(٢٣) سورة الملك].

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال: {وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم} [(٤٦) سورة الأنعام] **كما قال:** {أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ} [(٣١) سورة يونس] **وقال:** {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [(٢٤) سورة الأنفال].

وقوله: {مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ} [(٤٦) سورة الأنعام] **أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال:** {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} **أي: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال.**

{ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} **أي: ثم هم بعد هذا البيان يصدفون: أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتِّباعه.**

وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً} [(٤٧) سورة الأنعام] **أي: وأنتم لا تشعرون حتى بغتتكم وفاجأكم** {أَوْ جَهْرَةً} **أي: ظاهراً عياناً** {هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٧) سورة الأنعام] **أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له** {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٤٨) سورة الأنعام] **كقوله:** {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} **الآية** [(٨٢) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} [(٤٦) سورة الأنعام] يعني أخبروني.

وقوله: {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} [(٤٧) سورة الأنعام] فسر البغتة هنا: أي وهم في غفلة لا يشعرون بذلك، أي: يأخذهم أخذاً مفاجئاً لهم، وقد فسره بعض السلف بأن المراد به أن يأخذهم ليلاً، وأن الجهرة أن يأخذهم نهاراً، لكن ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في المعنى هنا أشمل وأتم؛ وذلك أن البغتة هي أخذ الفجأة، يعني من غير مقدمات ومن غير أن تتهيأ نفوسهم لاستقبال العذاب.

والله -تبارك وتعالى- ذكر في القرآن كيف يأخذهم فقال: {بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [(٥٠) سورة يونس] فأخْذه بياتاً هو من أخذ الغفلة في الغالب؛ لأنهم في نوم لا يطالعون مقدمات العذاب وأسبابه، وقد يكون الأخذ بالنهار أيضاً بغتة؛ لأن الله -عز وجل- ذكر ذلك أيضاً فقال: {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٨) سورة الأعراف] أي: وهم في حال غفلتهم ينزل بهم العذاب مفاجئاً لهم.

والمقصود أن البغتة هي الأخذ بالعذاب من غير معرفة بمقدماته، فيكون مباغتاً لهم، وأما الجهرة فهي أن يأخذهم العذاب حينما تنعقد أسبابه ويشاهدون ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: بالنسبة لما يستقبلونه {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٤٩) سورة الأنعام] أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.

{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ* وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ* وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ* وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٠-٥٤) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: لست أملكها ولا أتصرف فيها {وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله -عز وجل- ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه {وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} أي: ولا أدعي أني ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إليَّ من الله -عز وجل- شرفني بذلك وأنعم عليَّ به.

يقول تعالى: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام]: هذه الآية ردٌّ على المقترحين على الله -عز وجل- الآيات، وذلك أن هؤلاء تارة يطلبون أن يحول لهم الصفا إلى ذهب، وتارة يطلبون ملكاً ينزل من السماء من أجل أن يكون معه نذيراً، وتارة يتعجبون من صفته كما قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [(٧) سورة الفرقان] إلى غير ذلك، فردَّ عليهم قائلاً: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام]
هذا أحد المواضع التي يتكلمون فيها على المفاضلة بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبين الملائكة أو بين الملائكة وبين صالحي البشر، وهو مبحث لا طائل تحته، والاشتغال فيه لا يُجنى منه فائدة، وإنما هو اشتغال بما لا يعني، والاشتغال بما لا يعني مذموم، ثم إن هذه الآية لا تدل على هذا الأمر إطلاقاً؛ وإنما ذَكَرَت أن هؤلاء القوم أرادوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون رسولاً ملائكياً وأن يتخلى عن صفات البشرية من الأكل والاكتساب وما أشبه ذلك، فقال لهم: كل ذلك لا يتأتى مني، فأنا لست بملَك ولست بعالم للغيب، وليست خزائن الله بيدي، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه.

قوله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] جاء بصيغة الحصر رداً عليهم، ولا تدل الآية على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يقع منه اجتهاد أو لا يقع منه، فهذه الصيغة في الحصر تدل على أنه يتبع ما يوحى إليه في كل شيء، لكن قد جاءت أدلة أخرى تدل على أنه قد يجتهد في بعض الأمور -عليه الصلاة والسلام- ولكن الوحي يؤيده، فإذا وقع اجتهاده على وجه جاء الوحي يقومه أو يقرره، ولهذا يقال: إن كل ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو حق؛ لأنه مؤيد بالوحي، وقد اجتهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في أسارى بدر فجاء الوحي وبيّن العمل الذي كان ينبغي أن يكون تجاه هؤلاء الأسارى، قال تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} [(٦٧) سورة الأنفال].

فهذه الآية وإن كانت في أسلوب الحصر إلا أن مثل هذا يجمع مع غيره لا سيما أن هذه الآية في مقام الرد على المشركين الذين يطالبونه بأشياء من عند نفسه، فهو يقول: أنا أتبع ما يوحى إليَّ، كقوله تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] فهذه الآية لا تدل على أنه لم تحرم أشياء أخرى لكن هذا في مقام الرد على هؤلاء المفترين على الله -عز وجل- الذين حرموا ما أحل الله وحللوا ما حرم الله، فهو ردَّ عليهم بهذه الطريقة، والله أعلم.

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: هل يستوي من اتبع الحق وهُدي إليه ومن ضل عنه فلم ينقد له؟ {أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [(٥٠) سورة الأنعام].

هذا الاستفهام في قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي} مضمن معنى النفي، أي: لا يستوي، والقاعدة أن نفي الاستواء في مثل هذا يحمل على أعم معانيه، أي لا يستوي في عمله وحاله، ولا يستوي في مآله وعاقبته فهذا إلى الجنة وهذا إلى النار.

{أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [(٥٠) سورة الأنعام] وهذه كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(١٩) سورة الرعد].

وقوله: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} [(٥١) سورة الأنعام] أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب.

الضمير في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} يعود إلى القرآن، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو الظاهر المتبادر، وقد قال قبله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] فأول ما يتبادر أن الذي يوحى إليه هو القرآن وإن كان يوحى إليه أيضاً غير القرآن، لكن وإن كان قوله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] أعم من القرآن فإن الضمير يمكن أن يرجع إلى غير مذكور قبله؛ لأن ذلك معلوم من السياق، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [(١) سورة القدر] أي: القرآن، ومن ذلك قوله: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [(٤٥) سورة فاطر] يعني الأرض.

وقوله -تبارك وتعالى- عن سليمان -صلى الله عليه وسلم-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [(٣٢) سورة ص] -على التفسير المشهور- أي الشمس غابت، مع أن الشمس لم تذكر قبل وإنما علم أنها مرادة من السياق.

وبعضهم يقول: {وَأَنذِرْ بِهِ} [(٥١) سورة الأنعام] يعني وأنذر بالله -عز وجل- وهذا فيه بعد وليس معهوداً بالقرآن.

وقول من قال: {وَأَنذِرْ بِهِ} [(٥١) سورة الأنعام] يعني اليوم الآخر، وإن كان أقرب من الذي قبله -أي القول بأنه يعني الله -تبارك وتعالى- إلا أن الظاهر المتبادر أن الضمير يعود إلى القرآن، والله -عز وجل- يقول: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام] فالنذارة تكون بالقرآن، والله أعلم.

{الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ} [(٥١) سورة الأنعام] أي: يوم القيامة.

يقول: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} [(٥١) سورة الأنعام] والخوف يأتي بإزاء معنيين:

المعنى الأول: الخوف بمعنى العلم، كقول الشاعر:

وإذا ما مت فادفني تحت كرمة	تروي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإني	أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فيقول: أخاف ألا أذوقها، وهو يعلم أنه إذا مات لن يشرب الخمر في قبره، فهو يريد أن يُزرع فوق قبره شجرة عنب أو أن يدفن تحت شجرة عنب من شدة حبه للخمر، والحاصل أن قوله: فإني أخاف بمعنى فإني أعلم.

المعنى الثاني: الخوف بمعنى الغم من أمر مستقبل، وهذا هو الاستعمال الشائع الأغلب، والآية هنا تحتمل المعنيين، فقوله: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ} [(٥١) سورة الأنعام] يمكن أن يفسر بمعنى العلم أي: يعلمون أنهم يحشرون إلى الله -تبارك وتعالى- فيدخل بهذا أهل الإيمان ويدخل فيه أيضاً من كان مؤمناً بالبعث كأهل الكتاب.

ويفسر الخوف بالمعنى الآخر –أي الخوف بمعناه الشائع الأغلب- فيكون على هذا شاملاً لمن كان من أهل الإيمان ولمن لم يؤمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه يخاف أن يحشر إلى الله -عز وجل- فتكون صفقته خاسرة، أي أنه قد لا يؤمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه يغتم لتوقعه المكروه في الآخرة، فهو يريد أن يبحث عن مخرج يحصل به خلاصه إن حصل البعث، ومثل هؤلاء قد ينتفعون ويتأثرون بالقرآن، والآية تحتمل المعنيين كما سبق، والله أعلم.

{لَيْسَ لَهُم} [(٥١) سورة الأنعام] أي: **يومئذ {مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ}** [(٥١) سورة الأنعام] أي: **لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم {لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** [(٥١) سورة الأنعام] أي: **أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله -عز وجل- لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.**

سبق في (لعل) أنها يمكن أن تكون للترجي ويمكن أن تكون للتعليل، فعلى الأول يكون قوله: {لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٥١) سورة الأنعام] أي على رجائك، وبهذا يكون روعي فيها حال المخاطب، وعلى أنها للتعليل يكون المعنى من أجل أن يتقوا الله -عز وجل- أو يتقوا اليوم الآخر.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: **لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصَّاءك، كقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [(٢٨) سورة الكهف].

وقوله: {يَدْعُونَ رَبَّهُم} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: **يعبدونه ويسألونه.**

في قوله: {يَدْعُونَ رَبَّهُم} [(٥٢) **سورة الأنعام**] قال الحافظ: "**أي يعبدونه ويسألونه**" وهو بهذا جمع بين المعنيين؛ وذلك أن الدعاء نوعان: دعاء المسألة ودعاء العبادة، ولهذا قال بعض السلف: إن المراد بالدعاء في هذه الآية الصلاة مطلقاً، وبعضهم فسره ببعض الصلوات، أي التي تكون بالغداة والعشي، وبعضهم فسره بذكر الله -عز وجل- أي أن قوله: {يَدْعُونَ رَبَّهُم} [(٥٢) سورة الأنعام] يعني يذكرونه في أول النهار وفي آخره، والصحيح أن كل ذلك داخل فيه أعني يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة بصلاتهم وذكرهم وقراءتهم وسؤالهم وغير ذلك مما يتقربون به إلى الله -تبارك وتعالى-.

وقوله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [(٥٢) سورة الأنعام] دليل على إخلاصهم لله تعالى في عبادتهم.

سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه الإمام مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: إنها نزلت في ستة نفر منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وذلك أن المشركين من الكبراء يطلبون من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينحي هؤلاء عنهم لئلا يجترئوا عليهم، بمعنى أن هؤلاء من الضعفة والفقراء وأولئك يأنفون من الجلوس معهم فكرهوا أن يجلسوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه هؤلاء خوفاً من أن يجترئوا عليهم فتسقط منزلتهم وهيبتهم في نفوسهم بالمجالسة، فوقع في نفس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما وقع وحدث نفسه بذلك، فأنزل الله: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [(٥٢) سورة الأنعام][1].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فكر في هذا أو همّ به كان مقصوده هو استصلاح هؤلاء القادة والسادة من كبراء المشركين فيسلم قومهم، فنهاه الله -عز وجل- عن ذلك، كما قال تعالى في السورة الأخرى:

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (٢٤١٣) (ج ٤ / ص ١٨٧٨).

{عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَن جَاءهُ الْأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [(١-٦) سورة عبس] أي: تتصدى لدعوته ومجالسته واستقباله، فالمقصود أن الله تعالى عاتبه بذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في الكبير وهو مخرّج أيضاً في ابن ماجه أن ذلك وقع بسبب أن بعض الكبراء من غير قريش كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده بعض الضعفة مثل خباب وبلال وعمار وصهيب -رضي الله تعالى عنهم- فطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد هؤلاء من أجل أن يجلسوا معه ويسمعوا منه، وهذه الرواية صححها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- وهي غريبة[٢]؛ لأن هذه السورة مكية، ولهذا قال بعضهم: إن هذه الآية من الآيات المدنية.

والجواب عن هذا -إن صحت الرواية- أنه يمكن أن يقال: إن الآية قد تنزل أكثر من مرة، -كما ذكرنا في مناسبات شتى- ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل] فإنها نزلت في يوم أحد لما مُثِّل بحمزة، والروايات في هذا كثيرة جداً -وإن كانت لا تخلو من ضعف لكن تتقوى بمجموعها- ونزلت كذلك في عام الفتح لما قال سعد بن عبادة -وكان يحمل راية الخزرج-: اليوم ذهبت قريش، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخذ الراية منه وأعطاها لابنه قيس، فنزلت الآية.

ومن الأمثلة أيضاً أن المشركين قالوا: صف لنا ربك فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص] وورد أن اليهود قالوا ذلك أيضاً فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص].

وكذلك قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [(٨٥) سورة الإسراء] ورد أنها نزلت بمكة بسبب سؤال المشركين، وورد أنها نزلت بعد سؤال اليهود في المدينة، وكل ذلك من الأسباب الصحيحة الصريحة، فالآية قد تنزل أكثر من مرة، ولذلك فهذه الآية قد تكون نزلت مرتين -ولا إشكال في هذا- بأن طلب رؤساء المشركين في مكة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد عنهم هؤلاء الضعفة ووقع أيضاً من غيرهم كالأقرع بن حابس إلى آخره، وإنما نقول ذلك لتباعد الزمان وإلا لو كان متقارباً لقيل لعله حصل هذا وهذا فنزلت الآية بعده.

وأظن أن هذا الذي أشرت إليه آنفاً هو أحسن من الترجيح وأحسن من رد هذه الرواية بالكلية أو القول بأن السورة مكية وأن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن لم يسلما ولم يأتيا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا في المدينة، والمقصود أن هذا الوجه من الجمع لا إشكال فيه.

ومن أوضح ما يدل على أن الآيات قد تنزل أكثر من مرة أن السور المكية التي فيها أوجه من الأحرف لا شك أنها نزلت مرة أخرى في المدينة وهذا أمر لا إشكال فيه إطلاقاً –أعني الأحرف الستة- وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، مرة بسبب قول المشركين ومرة بسبب قول اليهود.

وهذه الآية تشبه ما ذكره الله -عز وجل- عن نوح -صلى الله عليه وسلم- وما قال له قومه وما أجابهم به حيث طلبوا منه أن يطرد الضعفاء واتهموهم بأنهم ما يأتون إلا لحاجة من الدنيا، فنوح -صلى الله عليه

---

[2] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد - باب مجالسة الفقراء (٤١٢٧) (ج ٢ / ص ١٣٨٢) والطبراني (٣٦٩٤) (ج ٤ / ص ٧٥) وابن أبي شيبة (ج ١ / ص ٣١٨).

وسلم- قال لهم: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٤) سورة الشعراء] وقال: {وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(٢٩) سورة هود] وهؤلاء كانوا يتهمون جلساء النبي -صلى الله عليه وسلم- الضعفاء أنهم جاءوا من أجل طعام يأكلونه أو شيء من متاع الدنيا، ولهذا قال بعده: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ} [(٥٢) سورة الأنعام] وهناك قال: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي} [(١١٣) سورة الشعراء] أي: أنا لست الذي أحاسبهم وإنما الله هو الذي يعلم نيات الخلق ويجازيهم على مقاصدهم وأعمالهم، فنحن ليس لنا إلا الظاهر وهو أن هؤلاء أناس دخلوا في الإيمان ولا يجوز إبعادهم من أجل السادة والكبراء.

{بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [(٥٢) سورة الأنعام] قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة: المراد به الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [(٦٠) سورة غافر] أي: أتقبل منكم.

وقوله: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: يريدون بذلك العمل وجهَ الله الكريم، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقوله: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ} [(٥٢) سورة الأنعام] كقول نوح -عليه السلام- في جواب الذين قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} [(١١١-١١٣) سورة الشعراء] أي: إنما حسابهم على الله -عز وجل- وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

وقوله: {فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

وقوله: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض.

يقول: "**وقوله: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض**" يعني أن الله -عز وجل- ابتلى الفقراء بالأغنياء وابتلى الأغنياء بالفقراء، وابتلى الضعفاء بالأقوياء والأقوياء بالضعفاء، فإذا رأى الأقوياءُ الضعفاءَ قد سبقوهم للإيمان استنكفوا واستكبروا وقالوا: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [(١١) سورة الأحقاف] والفقراء حينما يرون الأغنياء وما أعطاهم الله -عز وجل- من الإمكانات والأموال وما أشبه ذلك قد يفتتون بهذا، فالله -عز وجل- ابتلى الناس بعضهم ببعض كما قال في آخر سورة الأنعام: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] ففاوت بين الخلق في الأرزاق والقدر والإمكانات من أجل أن يبتلي بعضهم ببعض، فهؤلاء يبتلون بهؤلاء وهؤلاء يبتلون بهؤلاء، فالغني يأتيه الفقير فيكون قد ابتلي به حيث ينظر الله -عز وجل- كيف يرد عليه، والفقير قد ابتلي بالغني يراه يُنَعَّم وهو يتشحط في الفقر لا يجد شيئاً يأكله فينظر الله -عز وجل- في صبره ورضاه عنه وثقته بما عنده، وهل يحسن ظنه بربه -تبارك وتعالى- أم لا، وكل هذا من الابتلاء الذي يبتلى به الخلق.

يقول تعالى: {فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ} [(٥٣) سورة الأنعام] وكأن اللام هذه لام العاقبة كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [(٨) سورة القصص] وذلك أنهم ما أخذوه من أجل أن يكون لهم عدواً بل لو علموا بهذا لقتلوه من البداية لكن العاقبة هي التي كانت كذلك.

ومن أمثلة ذلك أن تقول لإنسان: تأخذ هذا معك أو تشتري هذا ليشغلك عما أنت بصدده، فهو ما أخذه ليشغله عما هو بصدده، لكنك تريد أن العاقبة ستكون هكذا.

ومن ذلك قولك: تصحب فلاناً ليقعدك عن معالي الأمور، فهو ما صحبه ليقعده، لكنك تريد أيضاً أن العاقبة ستكون هكذا.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] فقولهم: {لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] اللام للعاقبة بمعنى أن تلك المحاجة ستكون في العاقبة.

والخلاصة أن اللام في قوله تعالى: {لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] إما أن تكون للعاقبة بمعنى أنهم يقولون ذلك في النهاية، وإما أن تكون للتعليل، والعلم عند الله -عز وجل-.

{لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح -عليه السلام-: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} الآية [(٢٧) سورة هود] وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل.

وبهذا يحصل الابتلاء وإلا لو آمن الرؤساء والكبراء من أول الأمر لتبعهم مَن تحت أيديهم وتحت ولايتهم، أما وقد آمن الضعفاء وبقي الكبراء يخافون على رئاساتهم ومراتبهم ومكانتهم وما كانوا يتعاطونه من أخذ أموال الناس بالباطل وما أشبه ذلك فبهذا حصل الابتلاء، ولذلك كان أكثر أهل الجنة من الضعفاء، وأكثر أهل النار من الكبراء، والله المستعان.

والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: {أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيراً- ويدعنا، كقولهم: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [(١١) سورة الأحقاف] وكقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [(٧٣) سورة مريم] قال الله تعالى في جواب ذلك: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} [(٧٤) سورة مريم] وقال في جوابهم حين قالوا: {أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام]: {أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [(٦٩) سورة العنكبوت].

وفي الحديث الصحيح: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[3].

وقوله: {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي: فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم.

---

3 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) (ج ٤ / ص ١٩٨٦).

قوله تعالى: **{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ}** [(٥٤) سورة الأنعام] لا يختص بالضعفاء الذين طلب الكبراء طردهم وإنما هذا في عموم أهل الإيمان، يعني ليس المراد: وإذا جاءك هؤلاء الذين نهيتك عن طردهم فقل: سلام عليكم، وإنما ذلك في عموم المؤمنين؛ لأنه لو كان المراد أولئك الضعفاء الذين قال له عنهم: **{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}** [(٥٢) سورة الأنعام] لقال: وإذا جاءوك فقل سلام عليكم، ولكنه قال: **{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يعنى أن ذلك في عموم أهل الإيمان.

ولهذا قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [(٥٤) سورة الأنعام] كل من عصى الله فهو جاهل.

على هذه القراءة -بفتح الهمزة- في قوله **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة هكذا: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة..." الخ، وقراءة الفتح هي قراءة الثلاثة عاصم وابن عامر ونافع.

وعلى قراءة بقية السبعة -بكسر الهمزة- **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ مَن عَمِلَ)** تكون جملة **(إِنَّهُ مَن عَمِلَ..)** الخ جملة استئنافية لكنه استئناف بياني مبين للرحمة هكذا: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة والمراد بهذه الرحمة إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة..." الخ.

وفي قوله: **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "**كل من عصى الله فهو جاهل**" وهذا أحسن ما تفسر به -والله تعالى أعلم- وذلك أنه لا يصلح أن يكون المقصود به هنا انعدام العلم؛ لأن الجهل بهذا المعنى من أسباب عدم المؤاخذة؛ فالتكليف من شروطه العامة البلوغ والعقل وفهم الخطاب، وإن شئت فقل: العلم، وإن شئت فقل: بلوغ الحجة، فإذا كان الإنسان لم يعلم بذلك فهو غير مؤاخذ ما لم يكن مفرطاً.

وإذا أردنا أن نربط الجهل في الآية بالمعنى المعروف فإنه يأتي بمعنى التعدي كما قال القائل:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقوله: ألا لا يجهلن أحدٌ علينا أي: لا يتعدى أحد علينا، كما أن مجاوزة حدود الله -عز وجل- تُعدُّ من الجهل أيضاً.

وإذا أردنا أن نربط الجهل بالمعنى الأول الذي هو ذهاب العلم فيقال: كل من عصى الله فهو جاهل؛ لأنه لو عرف عظمة الله -تبارك وتعالى- على الحقيقة ما اجترأ على معصيته، ولذلك كان كل من عصاه جاهلاً بهذا الاعتبار.

فقوله: **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}** [(٥٤) سورة الأنعام] أي: عصى الله -عز وجل- ولو كان يعلم أنها معصية.

وقوله: **{ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يقبل منه ذلك؛ لأن التوبة تجبّ ما كان قبلها، أما إذا فعل الإنسان الشيء وهو لا يعلم أنه محرم فهذا لا يحتاج إلى توبة؛ لأن وقوع ذلك منه لا يصيره عاصياً، لأن هناك فرقاً بين فعل المعصية وبين أن يكون الإنسان عاصياً بفعلها، ولذلك فإن في إنكار المنكر إذا شرب الطفل الخمر فإن الذي يُحاسب على ذلك هو وليه ولكن لا يترك الطفل يشربها بحجة أنه غير مكلف بل يؤخذ

على يديه ويمنع منها؛ لأن المعصية يُطلب رفعها ودفعها وليس بالضرورة أن تكون تلك المعصية قد صدرت من عاصٍ أو مَن يُحكم عليه بالمعصية أو الفسوق، ومثال ذلك أن يأكل ويشرب في نهار رمضان ناسياً أنــه صائم؛ فإنّ فعله هذا منكر لكن فاعله غير عاص، ومع ذلك فإن على من رآه يأكل ويشرب أن يذكره الــصيام ولا يتركه بحجة أنه أطعمه الله وسقاه؛ لأن الأكل والشرب في نهار رمضان يعتبر منكراً.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه لا يصح أن يترك الصبي يسبل ثيابه أو يلبس بنطلون جينز ويظهر في هيئة منكــرة بحجة أنه طفل صغير بل يؤمر أن يلبس فوق الكعبين ويمنع من لبس الأشياء التي يتشبه فيها بأعداء الله -عز وجل-؛ لأن وجود هذه الأمور منكر يجب رفعه ولو كان الطفل لا يزال صغيراً، والمحاسب على هــذا هــو وليه، والله أعلم.

{ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي: **رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل.**

يقول: "أي: **رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود**" هذه قيود مهمــة فــي التوبــة الصادقة؛ وهي من علامات التوبة الصحيحة التي لا يكون فيها تردد.

قوله: "**وأصلح العمل في المستقبل**" أي أن عليه أن يصلح العمل بعد هذه التوبة، فإذا كان الذنب فيــه إفــساد متعدٍّ فإنه يصلح ما أفسده، بحيث إذا كان العمل بدعة نشرها أو مجوناً نشره أو ضلل الناس بأي طريق مــن طرق الشبهات أو الشهوات فعليه أن يصلح ما أفسده.

{فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٤) سورة الأنعام] **روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قــال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنــده فــوق العــرش: إن رحمتي غلبت غضبي)) [أخرجاه في الصحيحين]**[4].

قوله: {فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٤) سورة الأنعــام] على هذه القراءة –بالفتح- وهي قراءة ابن عامر وعاصم تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، ويمكن أن يقدر فيقال: فأمْره أن الله غفور رحيم.

وعلى قراءة الكسر (فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وهي قراءة بقية السبعة تكون جملة استئنافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [(٢٧) سورة الروم] (٣٠٢٢) (ج ٣ / ص ١١٦٦) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) (ج ٤ / ص ٢١٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ* قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ* قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ* قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ* وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٥٥-٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد، {كَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ} [(٥٥) سورة الأنعام] **أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}** [(٥٥) سورة الأنعام] **أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقُرئ: (وليستبين سبيل المجرمين) أي: وليستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [(٥٥) سورة الأنعام] هذه قراءة الجمهور برفع {سَبِيلُ} باعتبار أنه فاعل، أي لتظهر سبيل المجرمين، والسبيل هي الطريق تُذكَّر وتؤنث.

وقرأ نافع بنصب سبيل هكذا: (ولتستبين سبيلَ المجرمين) أي: ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، يعني لتعرفها وتتبينها، والفرق بين القراءتين واضح.

وهناك قراءة أخرى بالياء (وليستبين سبيلُ المجرمين) والمعنى واحد في القراءتين باعتبار أن {سبيل} فاعل أي: تظهر وتتكشف بما يبينه الله -عز وجل- ويظهره فتكون لا خفاء فيها.

أما على قراءة (ولتستبين سبيلَ المجرمين) بمعنى ولتستبين يا محمد طريقَ المجرمين أي: لتعرفها، فـ{سبيلَ} على هذه القراءة تكون مفعولاً به.

وقوله: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} [(٥٧) سورة الأنعام] **أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليَّ {وَكَذَّبْتُم بِهِ}** [(٥٧) سورة الأنعام] **أي: بالحق الذي جاءني من الله.**

قوله: {إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] قال ابن كثير: "أي: **بالحق الذي جاءني من الله**" والحق الذي جاء به هو القرآن، وبعضهم يقول: {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي: بربي الله، وبعضهم يقول: بالقرآن، وبعضهم يقول: بالبينة المذكورة في قوله: {إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: بالبينة،

وإن كانت البينة مؤنثة فإن الضمير رجع إليها مذكراً باعتبار المعنى أي أن البينة بمعنى البرهان وهو مذكر، ومعلوم أنه قد يعود الضمير مذكراً باعتبار المعنى، وبعضهم يقول: قوله: {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي: بالعذاب.

{مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: **من العذاب** {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: **إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجَّل لكم ما سألتموه من ذلك وإن شاء أنظركم وأجَّلكم لما في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال:** {يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: **وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.**

يقول: {يَقُصُّ الْحَقَّ} على قراءة نافع وابن كثير وعاصم بالصاد، ويمكن أن يكون المعنى {يَقُصُّ الْحَقَّ} من القصص كما قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} [(٣) سورة يوسف]، ويمكن أن يكون من قص الأثر بمعنى تبعه، أي: يتبع الحق فيما يحكم به بينكم.

وفي القراءة الأخرى المتواترة (يقضِ) بالضاد من القضاء بمعنى يحكم ويفصل، وهذا معروف.

وقوله: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(٥٨) سورة الأنعام] أي: **لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك.**

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: خير الحاكمين، وهذه الخاتمة قرينة على تفسير القصِّ بالاتِّباع، وإن كان هذا ليس بلازم، لكن يمكن أن يقول هذا من قال: إن القص هنا من الاتّباع أي: تبع أثره بمعنى يتبع الحق فيما يحكم بينكم فيه.

كما أنه يمكن أن تكون خاتمة هذه الآية قرينة على القراءة الأخرى (يقضِ) التي بمعنى يحكم فيقال: إن المعنى: إنه يحكم الحق وهو خير الحاكمين.

وعلى كل حال فالقاعدة أنه إذا كان للآية أكثر من قراءة وكان لكل قراءة معنى يخصها فإن تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات.

وقوله: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(٥٨) سورة الأنعام] أي: **لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك** {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} [(٥٨) سورة الأنعام].

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: ((لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفس على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل -عليه السلام- فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت

أطبقت عليهم الأخشبيْن)) فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)) وهذا لفظ مسلم[1].

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير؛ لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمينَ}؟ [(٥٨) سورة الأنعام]

فالجواب -والله أعلم- أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبيْن -وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً-، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.

الجواب واضح، وهو أنهم في هذه الآية طلبوا العذاب فقال: لو أنه عندي لأتيتكم به، وأما في الحديث فإنه لقي منهم هذا الإعراض والتكذيب فأصابه الهم بسبب ذلك فجاءه الملك فعرض عليه أن يعجل العقوبة لهم أو يفعل بهم ما شاء فاستأنى بهم، أي أن الحديث كان لمّا لم يؤمنوا وليس عند طلبهم العذاب، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ} [(٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}** [(٥٩) سورة الأنعام] المِفتح -بكسر الميم- يمكن أن تجمع على مفاتيح ومفاتح، وأما المَفتح -بفتح الميم- فلا تجمع إلا على مفاتِح، ولذلك يحتمل أن تكون المفاتِح هنا جمع مَفْتَح وعلى هذا فهي الخزانة فيكون قوله: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ}** أي: خزائن الغيب، ويحتمل أن تكون جمع مِفْتَح وعلى هذا تكون مفاتح جمع مفتاح، وهذا كله معروف في كلام العرب، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى؛ فإن مخازن الشيء قد لا يتوصل إليها إلا بفتحها بمفاتيحها، فالله -عز وجل- عنده مفاتح الغيب -بمعنى خزائن الغيب- وعنده مفاتيح الغيب، والله تعالى أعلم.

.روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [(٣٤) سورة لقمان]))[2].

وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٥٩) سورة الأنعام] **أي: محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريِّها وبحريِّها لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٥٩) (ج ٣ / ص ١١٨٠) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥) (ج ٣ / ص ١٤٢٠).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥١) (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

وقوله: {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا} [(٥٩) سورة الأنعام] **أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنُّك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى:** {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [(١٩) سورة غافر].

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ* ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [(٦٠-٦٢) سورة الأنعام]

يقول تعالى: إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [(٥٥) سورة آل عمران] **وقال تعالى:** {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [(٤٢) سورة الزمر] **فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى.**

سبق الكلام في غير موضع من التفسير أن الوفاة لها معنى لغوي وهو الاستيفاء، ولها معنى شرعي وهو الموت، ويكون الموت بالوفاة الكبرى أي بخروج الروح من الجسد، ويكون بالوفاة الصغرى أي بارتفاعها عن الجسد ارتفاعاً خاصاً غيبياً ينتفي معه الإدراك مع بقاء الحياة، وهذا هو المعنى الشرعي، وقد ذكرنا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] أن الأصل أن يحمل التوفي على المعنى الشرعي فإن لم يوجد فإنه يلجأ بعد ذلك إلى العرف أو اللغة، والذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- هنا هو المعنى الشرعي؛ لأن الله تعالى يقول: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} [(٤٢) سورة الزمر].

وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] **أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.**

فسر الاجتراح هنا بالكسب، وأصل الاجتراح هو اكتساب الإنسان بالجارحة، أي: باليد أو بالرجل أو بالفم، فاكتسابه بالجوارح هو الاجتراح، ثم بعد ذلك تُوسِّع في استعمال هذه اللفظة فصار ذلك يطلق على كل اكتساب ولو كان بغير هذه الجوارح، وعلى هذا فقوله: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ما كسبتم بأي طريق كان.

وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] **أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.**

وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [(١٠) سورة الرعد] **وكما قال تعالى:** {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [(٧٣) سورة القصص] **أي: في الليل،** {وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} **أي: في النهار، كما قال:** {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [(١٠-

١١) سورة النبأ] ولهذا قال تعالى هاهنا: **{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ}** [(٦٠) سورة الأنعام] أي: **ما كسبتم من الأعمال فيه.**

يقول ابن كثير –رحمه الله-: "**وهذه جملة معترضة**" وعلى هذا يكون المعنى وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم ليُقضى أجل مسمى، وتكون الجملة المعترضة -أعني قوله: **{وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ}** [(٦٠) سورة الأنعام]- لتقرير هذا المعنى وتوضيحه وما إلى ذلك.

{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: **في النهار.**

قوله: "أي: **في النهار**" هذا قال به أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال ابن كثير: قاله مجاهد وقتادة والسدي.

وبعضهم يقول: في الآية تقديم وتأخير، والتقدير يكون هكذا: وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه بعد انقضاء الليل، فينتشرون في مصالحهم كما ذكر الله -عز وجل- بأنه جعل النهار معاشاً، وأما الليل فهو يسبتون فيه وينقطعون فيه عن الأشغال والأعمال ويخلدون فيه إلى الراحة.

وبعضهم يقول: إن قوله: **{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ}** [(٦٠) سورة الأنعام] أي: في المنام.

وقوله: {لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى} [(٦٠) سورة الأنعام] **يعني به أجل كل واحد من الناس.**

الأجل المسمى هنا يراد به الموت، وهو أحسن ما يفسر به، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وما عداه من الأقوال ففيها بعد.

{ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} [(٦٠) سورة الأنعام] **أي يوم القيامة {ثُمَّ يُنَبِّئُكُم}** [(٦٠) سورة الأنعام] أي: **فيخبركم {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [(٦٠) سورة الأنعام] أي: **ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.**

وقوله: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [(٦١) سورة الأنعام] أي: **وهو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء.**

{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً} أي: **من الملائكة يحفظون بدن الإنسان.**

سبق في قوله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [(١٨) سورة الأنعام] أن المراد بالفوقية فوقية الذات، وفوقية القدر والمنزلة، وفوقية القهر.

كقوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(١١) سورة الرعد] **وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كقوله: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} الآية** [(١٠) سورة الانفطار] **وكقوله: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ* مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [(١٧-١٨) سورة ق].

يعني أنه لم يحدد هنا من ماذا يحفظونهم الحفظة حيث قال: **{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً}** وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقد جاء في القرآن أن هؤلاء الحفظة يحفظون جسده حيث قال تعالى: **{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ}** [(١١) سورة الرعد]، وجاء أيضاً في مواضع أخرى أنهم يحفظون عمله، قال تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [(١٨) سورة ق] وقال تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}** [(١٠) سورة الانفطار].

وقوله: {حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} [(٦١) سورة الأنعام] **أي: احتضر وحان أجله {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}** [(٦١) سورة الأنعام] **أي: ملائكة موكلون بذلك.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة.

هذا جواب على سؤال مقدر وهو أن الله -عز وجل- قال: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [(١١) سورة السجدة] فهو واحد، وهنا قال الله -عز وجل-: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [(٦١) سورة الأنعام] بالجمع فكيف الجمع بين الآيتين؟

يكون الجواب أن ملك الموت له أعوان من الملائكة، فأضيف ذلك الجمع إليهم بهذا الاعتبار، ولما قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [(١١) سورة السجدة] فهذا باعتبار أنه الموكل بهذا وهو كبيرهم ورئيسهم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم.

وقوله: {وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [(٦١) سورة الأنعام] **أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله -عز وجل-، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذاً بالله من ذلك.**

وقوله: {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ} [(٦٢) سورة الأنعام].

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله -عز وجل-، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول))[3].

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {ثُمَّ رُدُّواْ} [(٦٢) سورة الأنعام] **يعني الخلائق كلهم {إِلَى اللّهِ} يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله، كما قال: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}** [(٤٩-٥٠) سورة الواقعة] **وقال: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}** [(٤٧) سورة الكهف] **إلى قوله: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [(٤٩) سورة الكهف] **ولهذا قال: {مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}** [(٦٢) سورة الأنعام].

يقول: {وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [(٦٢) سورة الأنعام] باعتبار أنه -تبارك وتعالى- لا يحتاج إلى عد ولا يحتاج إلى مدة يحسب فيها الأعمال على كثرتها وكثرة المحاسبين من الخلائق مع كثرة جرائمهم وأعمالهم، فحساب

---

[3] - أخرجه أحمد (٨٧٥٤) (ج ٢ / ص ٣٦٤) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

هذه النفوس الكثيرة كحساب نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرته -جل وعلا- وأنه لا يعجزه شيء ولا يتعاصاه شيء.

{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ* قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [(٦٥) **سورة الأنعام]**.

يقول تعالى: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} الظلمة معروفة وهي ضد النور، وفسرها بعض أهل العلم هنا بخفاء الطريق وانطماس معالمها، والمعنى إذا تاهوا في البر أو في البحر، وعلى كل حال فالعرب تعبر بالظلمات عن الشدائد فيقولون: يوم مظلم، وربما قالوا في اليوم الشديد: يوم ذو كواكب، بمعنى أن ذلك اليوم لشدة ظلمته يُحتاج فيه إلى الكواكب، يعني إذا لم يوجد القمر فإنهم يضطرون إلى الكواكب لشدة الظلمة، ويعبرون بذلك أو يكنون به عن اليوم الذي فيه كرب شديد.

وعلى كل حال فإن الله تعالى قال: {مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٦٣) سورة الأنعام] ثم قال بعده: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} [(٦٤) سورة الأنعام] وهذا يكون كالتفسير لما قبله باعتبار أن ظلمات البر والبحر هي كروب البر والبحر، أي ما يحصل للإنسان فيها من الكرب سواء كان ذلك إذا ضل فيها فهذا يعني أنه قد وقع في شدة؛ لأن الهلاك ينتظره، ويمكن أن يكون المراد بذلك أيضاً هي الكروب كما فسره بعضهم، وليس بين هذه المعاني منافاة، بمعنى أنه إن غابت عنه العلامات التي يعرف بها الطريق فلم يهتدِ إليها وضل في طريقه، أو كان ذلك بشدةٍ تقع له بأي لون كان سواء أوشك على الغرق أو وقع في مَسْبَعة في البر، أو غير ذلك من الأمور فكل هذا من كروب البر والبحر.

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المَهامِهِ البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} [(٦٧) **سورة الإسراء] الآية وقوله:** {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} **الآية [(٢٢) سورة يونس] وقوله:** {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [(٦٣) **سورة النمل] وقال في هذه الآية الكريمة:** {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} [(٦٣) **سورة الأنعام] أي: جهراً وسراً** {لَّئِنْ أَنجَانَا} [(٦٣) **سورة الأنعام] أي: من هذه الضائقة** {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [(٦٣) **سورة الأنعام]أي: بعدها.**

قوله: {لَّئِنْ أَنجَانَا} [(٦٣) سورة الأنعام] هذه قراءة الكوفيين، وعلى قراءة أهل المدينة وأهل الشام (لَئِنْ أَنجَيْتَنَا) [(٦٣) سورة الأنعام] والمعنى يرجع إلى شيء واحد، فإن قالوا: {لَّئِنْ أَنجَانَا} [(٦٣) سورة الأنعام] فالمقصود: الله، وإن قالوا: (لَئِنْ أَنجَيْتَنَا) [(٦٣) سورة الأنعام] فباعتبار الخطاب.

وعلى قراءة {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} [(٦٣) سورة الأنعام] يكون هذا من قبيل الالتفات من الغائب إلى المخاطب كما في سورة الفاتحة: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٢-٣) سورة الفاتحة] يعني هو الرحمن الرحيم، ثم قال: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] يعني هو مالك يوم الدين، ثم قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] فهنا توجه الخطاب إليه، وفي قوله: {مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ} [(٦٣) سورة الأنعام] جاء الكلام بضمير الغيبة، ثم قال: {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} [(٢٢) سورة يونس] توجه بالخطاب إليه أيضاً، وهذا أسلوب معروف في القرآن وهو كثير، وهذا الالتفات سواء كان من الغائب إلى المخاطب أو العكس، أو بغير هذا من أنواع الالتفات كله معروف عند العرب، والله أعلم.

قال الله: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

الكرب بمعنى الغم، فقول الله -عز وجل-: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} [(٦٤) سورة الأنعام] أي: من كل غم وشدة وضيق كما قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه ... بطعنة فيصل لما دعاني

يعني ومغتم كشفت الكرب عنه.

قوله تعالى: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} [(٦٤) سورة الأنعام] المحترزات في القرآن تقع في كل موضع بحسبه، فقد يفهم من قوله: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا} [(٦٤) سورة الأنعام] أي أنه ينجيكم من ظلمات البر والبحر خاصة، لكنه بيّن أنه ينجيكم من جميع الكروب وليس من هذه التي ذكرت فقط.

وقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] لما قال: {ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] عقبه بقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا} [(٦٥) سورة الأنعام] أي: بعد إنجائه إياكم، كقوله في سورة سبحان: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا* وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا* أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً* أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [(٦٦-٦٩) سورة الإسراء].

قوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] الخطاب {عَلَيْكُمْ} هل يرجع إلى المسلمين أو يرجع إلى غيرهم؟ ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذا الخطاب متوجه إلى المشركين المكذبين، واحتج لذلك بما سبق من قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] فيقول: هؤلاء الذين إذا ركبوا في البحر أو وقع لهم شدة في البر دعوا الله -عز وجل- وأفردوه بالعبادة فإذا حصلت لهم النجاة والخلاص رجعوا إلى تكذيبهم وشركهم، وعلى هذا فقوله: {أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] يعني يا أهل الإشراك ومن سلك سبيلهم في التكذيب ومعارضة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

روى البخاري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}** [(٦٥) سورة الأنعام] **{يَلْبِسَكُمْ}: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً**[4].

بمعنى أن الله -عز وجل- يجعلهم على أهواء مختلفة مختلطة حيث تختلف آراؤهم الاختلاف المذموم الذي يحصل به التدابر والتقاطع ثم القتال، فيكون العذاب واقعاً عليهم بهذا الاعتبار، أي أن قوله: **{وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ}** يعني يتسلط بعضهم على بعض وتقع بينهم العداوة والبغضاء فيكون الاقتتال والشر الذي يذوقون فيه هذا العذاب -نسأل الله العافية- كما هو الحاصل في حال هذه الأمة حيث صارت فرقاً وأهواء مختلفة، وحصل بينهم من العداوة والقتال ما لا يخفى، حيث كان ذلك قد وقع منذ أزمان متطاولة -منذ عهد الخلفاء الراشدين -رضي الله تعالى عنهم- بظهور رءوس الفرق، ثم لا زال هذا الأمر يتسع في الأمة وربما لقوا من هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام أشد مما يلقون من اليهود والنصارى وسائر طوائف الكفر والإشراك كما هو مشاهد في هذه الأيام، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[4] - صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

روى البخاري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [(٦٥) سورة الأنعام] {يَلْبِسَكُمْ}: يخلطكم من الالتباس، يُلْبَسوا: يُخلَطوا، شيعاً: فرقاً[١].

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بوجهك)) {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال: ((أعوذ بوجهك)) {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذه أهون أو أيسر)) وهكذا رواه أيضاً في كتاب التوحيد، ورواه النسائي أيضاً في التفسير[٢].

حديث آخر:

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: أقبلنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه -عز وجل- طويلاً ثم قال: ((سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)) انفرد بإخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن[٣].

حديث آخر:

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت -رضي الله تعالى عنه- مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدراً مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: وافيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من صلاته فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألت ربي -عز وجل- فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي -عز وجل-

---

[1] - صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٢) (ج ٤ / ص ١٦٩٤) وفي كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [(٨٨) سورة القصص] (٦٩٧١) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) وأخرجه النسائي في السنن الكبرى – كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (١١١٦٤) (ج ٦ / ص ٣٤٠).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠) (ج ٤ / ص ٢٢١٦).

أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي -عز وجل- أن لا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي -عز وجل- أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها)) ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه والترمذي في الفتن وقال: حسن صحيح[4].

وقوله: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} [(٦٥) سورة الأنعام] يعني يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين.

وقال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة))[5].

وقوله تعالى: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل.

وقوله تعالى: {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(٦٥) سورة الأنعام] أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها.

{لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ* لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ* وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٦-٦٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ} أي: بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتصريف الشيء يعني أن يؤتى به في صور شتى، وقال في قوله -تبارك وتعالى-: {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(٦٥) سورة الأنعام] "] أي نبينها ونوضحها" أي أن الله -تبارك وتعالى- يبيّن لهم ما يحتاجون إليه تارة بذكر العبر والعظات بالقصص، وتارة بذكر أحوال الآخرة، وتارة بإبطال شبهات الكافرين، وتارة بضرب الأمثال وما إلى ذلك مما صرفه الله -عز وجل- في هذا القرآن، وذلك كله من أجل حصول الفقه الذي هو بمعنى الفهم، وهو معرفة ما دق من العلم مما يحتاج إلى لطافة ذهن واستنباط.

يقول: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ} [(٦٦) سورة الأنعام] قال الحافظ: "**يعني القرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان**" وهذا هو الظاهر، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من قال: إن الضمير يعود إلى العذاب، أي: كذب قومك بالعذاب؛ وهذا مبني على أن الله -عز وجل- قال في الآية التي قبل هذه: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٦٣) سورة الأنعام] ثم قال: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ..} [(٦٥) سورة الأنعام] ثم قال: {وَكَذَّبَ بِهِ} [(٦٦) سورة الأنعام] يعني بالمذكور قبله وهو العذاب، لكن لعل حمْله على القرآن أقرب، والله تعالى أعلم.

---

[4] - أخرجه النسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار - باب إحياء الليل (١٦٣٨) (ج ٣ / ص ٢١٦) وأحمد (٢١٠٩١) (ج ٥ / ص ١٠٨) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[5] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن - باب افتراق الأمم (٣٩٩٣) (ج ٢ / ص ١٣٢٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٤٢).

{قَوْمُكَ} يعني قريشاً {وَهُوَ الْحَقُّ} [(٦٦) سورة الأنعام] **أي: الذي ليس وراءه حق.**

{قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [(٦٦) سورة الأنعام] **أي: لست عليكم بوكيل ولست بموكل بكم، كقوله: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}** [(٢٩) سورة الكهف] **أي: إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة.**

قوله تعالى: **{قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ}** [(٦٦) سورة الأنعام] قال بعض أهل العلم: إن هذه من جملة الآيات التي نسخت بآية السيف، وقالوا: إنه أمَر بغير ذلك في آخر الأمر في الآية الخامسة من سورة براءة إذ قال: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [(٥) سورة التوبة] وقالوا: إن هذه الآية نسخت مائة وأربعة وعشرين آية، لكن الأقرب أن هذه لم تنسخ، والله أعلم.

ولهذا قال: {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ} [(٦٧) سورة الأنعام] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: أي لكل نبإٍ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}** [(٨٨) سورة ص] **وقال: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}** [(٣٨) سورة الرعد] **وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: {وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}** [(٦٧) سورة الأنعام].

النبأ في الأصل يطلق على الخبر الذي له شأن، وبعضهم يقول: إن النبيّ مأخوذ من هذا؛ لأنه منبأٌ من الله، أو لأنه يأتي بالنبأ من الله، فكل خبر له خطب وشأن يقال له: نبأ، ولا يقال للخبر الحقير أو الذي لا شأن له: نبأ، فلا يقال: جاءنا نبأ حمار الحجَّام -كما يقال- وإنما يقال: جاءنا نبأ المعركة، أو جاءنا نبأ الجيوش، وما أشبه هذا.

وقوله تعالى: **{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ}** [(٦٧) سورة الأنعام] قال ابن عباس –رضي الله عنهما- وغيره: "**أي لكل نبإٍ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع ولو بعد حين**" والمعنى أن له قراراً يستقر عنده ونهاية ينتهي إليها -كما يقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- والمعنى أن لكل نبإ مستقراً يستقر إليه ويصير إليه فيتبيّن حقه وصدقه من كذبه وباطله، ومن ذلك الأنباء التي جاء بها القرآن من الوعيد الذي قبل هذه الآية حيث إن الله -تبارك وتعالى- توعدهم بقوله: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً}** [(٦٥) سورة الأنعام] وقد وقع بعض ما توعدهم الله -عز وجل- به مما أراد إيقاعه بهؤلاء المكذبين كما حصل لهم في يوم بدر وكما حصل لهم قبل ذلك في مكة من الجوع لما دعا عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وغير ذلك مما توعد الله -عز وجل- به المكذبين وأراد إيقاعه بهم، وكذلك ما أخبر الله به من أمر فإنه واقع لا محالة في وقته المحدد فنبأ الآخرة هو من أعظم النبأ وقد أخبر الله عن وقوعها وعما يجري فيها من الأهوال والأوجال وما يحصل فيها من العذاب والنعيم، وكل ذلك سيكون له حقيقة واقعة في الوقت والحين الذي قضى الله -عز وجل- أن يكون فيه، ولهذا قال: **{وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}** [(٦٧) سورة الأنعام] أي: سترون ذلك وتعرفون حقِّيَّته، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] **أي: بالتكذيب والاستهزاء {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}** [(٦٨) سورة الأنعام] **أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب.**

يقول تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] بعضهم يقول: أصله من الخوض في الماء، يعني في المحسوس، ثم استعمل في المعاني للتخليط والدخول في غمرات الأشياء التي لا يحسنها الإنسان ولا ينبغي له أن يدخل فيها سواء كان ذلك من ألوان الأباطيل أو الشبهات أو الأمور التي هي من قبيل المجاهل.

فقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] بمعنى يخلطون ويستهزئون بآياته ويكفرون بها، فالله -عز وجل- نهى عن مجالسة الذين يستهزئون بآياته ويكفرون بها كما قال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا} [(١٤٠) سورة النساء] فهذا معنى الخوض الذي في قوله: {يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] يعني يستهزئون ويكفرون ويدخل فيه كل لون من ألوان الاستهزاء والكفر والتكذيب، فلذلك قال: {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء].

{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ} [(٦٨) سورة الأنعام] والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد معهم ناسياً {فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى} [(٦٨) سورة الأنعام] بعد التذكر {مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٦٨) سورة الأنعام] ولهذا ورد في الحديث: ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[6].

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} الآية [(١٤٠) سورة النساء] أي: **إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه.**

وقوله: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] أي: **إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم.**

يقول تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} قال ابن كثير: "أي: **إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم**" كأنه يقول: وما على الذين يتقون الله من تبعة ووزر يحملونه من أوزار هؤلاء الخائضين إذا اتقوهم بالإعراض عنهم وعدم مجالستهم في هذا الخوض.

ومن أهل العلم من قال: إن المراد: وما على الذين يتقون مجالستهم عند الخوض، لكن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أحسن من هذا.

ومن أهل العلم من قال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} أي: يتقون الخوض، يعني يجلسون معهم لكن لا يدخلون معهم في هذا الخوض ولا يرتضونه ولا يشاركونهم فيه، وهذا معنى بعيد؛ لأن الله -عز وجل- نهى عن مجالسة هؤلاء الخائضين فقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء] ومقتضى إنكار المنكر بالقلب أن يفارقهم، فالإنسان ينكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ولا يكون منكراً بقلبه وهو جالس مع المنكر كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء] فهو مشارك لهم بحضوره في مثل هذا المجلس.

---

[6] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٣) (ج ١ / ص ٦٥٩) وصححه الألباني في مختصر الإرواء برقم (٢٥٦٦).

والعجيب أن ابن جرير -رحمه الله- حمل قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] على هذا المعنى الأخير، أي: يتقون الخوض معهم والمشاركة، بمعنى أنهم إذا حضروا فليس عليهم من وزرهم شيء، ثم قال ابن جرير: ولكن ليعرضوا عنهم ذكرى لأمر الله لعلهم يتقون، أي: لو جلسوا معهم وتجنبوا هذا الخوض وما شاركوهم فيه، فليس عليهم من وزرهم شيء لكن ليفارقوهم لعل ذلك يحرك في نفوسهم شيئاً فيتركوا ما هم فيه من الباطل والخوض، وهذا المعنى بعيد؛ فلا يجوز الجلوس مع الخائضين، ومن جلس معهم فهو في حكمهم إلا أن يكون مكرهاً لا حيلة له، والله أعلم.

وبعضهم يقول: إن هذه الآية {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] منسوخة بالآية الأخرى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [(١٤٠) سورة النساء] وقالوا: هذا كان في أول الإسلام حيث كان المسلمون ضعفاء ويحتاجون إلى مجالسة الكفار فكانوا يشتركون معهم في المجالس بل ربما يكونون معهم في بيوتهم؛ لأنهم من قراباتهم وما أشبه ذلك فخفف الله عنهم وقال: أنتم لا تحملون من أوزارهم إذا لم تشاركوهم في هذا الخوض، وقوموا عنهم ليتذكروا فقط وإلا فإن جلوسكم ليس فيه تبعة عليكم ما لم تشاركوا، قالوا: ثم نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [(١٤٠) سورة النساء] لكن نقول: إن النسخ لا يثبت بالاحتمال والأصل عدم النسخ، وإذا أمكن توجيه الآيات والجمع بينها عُمل بذلك، ولا معارضة بين الآيات هنا فلا يقال: إنها منسوخة.

وكأن الذي حمل ابن جرير -رحمه الله- ومن قال بقوله: إنها منسوخة أن الله تعالى قال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] فقالوا: إذا كانوا منهيين عن مجالستهم أصلاً فقد صار هذا معلوماً ولا يحتاج أن ينبه عليه فيقال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] لكن ما ذكره ابن كثير هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} يعني لا يحملون تبعة حتى وإن قيل: إنه يرخص لهم بالمجالسة إذا جالسوهم لكن عليهم أن يذكروهم وأن يعظوهم أو ينهوهم عن ذلك لعلهم يتقون.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] يعني ولكن هذه ذكرى من أجل أن يتقوا ذلك.

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية -{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا}- [(٧٠) سورة الأنعام] منسوخة بآية السيف التي تقول: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ} [(٥) سورة التوبة] يعني لا تتركوهم، لكن

الأقرب أنها غير منسوخة، وذلك أن قوله: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [(٧٠) سورة الأنعام] فيه معنى الوعيد كالذي في قوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [(١١) سورة المدثر] وقوله تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر] وقوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف] وما أشبه ذلك من الآيات، والمعنى : فلا تغتم بسبب كفرهم.

وابن جرير –رحمه الله- لا يقول –فيما أعلم- بأن آية السيف نسخت مائة وأربعة وعشرين آية –كما قال بعض أهل العلم- لكنه يقول: إنها نسخت بعض المواضع ومنها هذه الآية: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [(٧٠) سورة الأنعام]، ويقول: إن هذه الآية معناها اتركهم وذكرهم، وآية السيف أمر بمجاهدتهم.

ولهذا قال: {وَذَكِّرْ بِهِ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: ذكر الناس بهذا القرآن، حذِّرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة.

الضمير في قوله: {وَذَكِّرْ بِهِ} يرجع إلى القرآن، وهذا هو المتبادر، وهو الذي تدل عليه الآيات الأخرى، إلا أن من أهل العلم من يقول: إن الضمير يرجع إلى الحساب.

وقوله تعالى: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: لئلا تبسل.

يقول: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: **لئلا تبسل**" أي: كراهة أن تبسل، فهذا فيه نفي معلوم من السياق.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي: {تُبْسَلَ} تسلم، وقال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تُفتَضح، وقال قتادة: تحبس، وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ، وقال الكلبي: تجزى، وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى وحاصلها الإسلام للهلكة.

قوله: "**وحاصلها الإسلام للهلكة**" أي يسلمه للهلكة، يعني وذكِّر به لئلا تسلم تلك النفوس للهلكة بتفريطها وإضاعة حظها من الله -عز وجل- وترك العمل الصالح؛ لأن الآخرة لا تصلح للمفاليس، ولهذا يقال فيمن سُلِّم أو رهن في دم: إنه أبسل، بمعنى أنه قدِّم لهلكة، بمعنى أنه إذا لم يؤتَ بالجاني فإن هؤلاء سيقتلون الذي في أيديهم، وهكذا كانت العرب تقول: أُبسل يعني سلِّم للهلاك.

وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب.

يرتهن يعني يحبس، فالرهن بمعنى الحبس، وكل هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد، ولذلك من مزايا هذا التفسير -تفسير الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه يجمع بين المعاني بخلاف بعض التفاسير التي تشقق المعاني وتذكر خمسة معانٍ أو ستة أو أكثر من غير طائل سوى التكثير للأقوال، فالقارئ الذي لا يميز يتحير، بينما هذا الاختلاف الذي أورده ابن كثير هو من اختلاف التنوع، فتبسل وترتهن وتحبس وتسلم كل ذلك يرجع إلى شيء واحد فهي ألفاظ متقاربة، ولذلك يقال: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: أن تسلم لهلكتها وترتهن بجريرتها وتحبس بذنوبها وأعمالها السيئة.

والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٨-٣٩) سورة المدثر]، وقوله: {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} [(٧٠) سورة الأنعام] وقوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: ولو بذلتْ كل مبذول ما قبل منها.

قوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام] يعني وإن تقدم كل فدية لا يقبل منها.

أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} **الآية** [(٩١) سورة آل عمران] **وكذا قال هاهنا:** {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة الأنعام].

قوله: {أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ} أي: سلموا للهلاك، وقوله: {لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ} [(٧٠) سورة الأنعام] الحميم هو الحار الشديد الحرارة كقوله: {وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} [(١٥) سورة محمد] وكقوله: {شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة الأنعام].

{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [(٧١-٧٣) سورة الأنعام].

قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله -عز وجل-: {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا} **أي: في الكفر** {بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ} **فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام.** [رواه ابن جرير].

قوله: {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ} يعني أنرجع القهقرى وننكص إلى الكفر والشرك بالله -عز وجل- بعدما عرفنا الإيمان والتوحيد وبطلان هذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى-؟ هذا لا يكون، وإنما هذا هو حال الإنسان المتذبذب الذي سمع داعي الله -عز وجل- ودعته الشياطين إلى الكفر والإشراك فهذا حاله كحال ذلك الإنسان الذي صور الله حاله {لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} [(٧١) سورة الأنعام] والشياطين تدعوه إلى الكفر والشرك، فهو في حيرة لا يعرف كيف يتصرف.

وبالنسبة للكلام الذي نقله عن السدي -أعني قوله: "**فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض**"- هذا أيضاً هو كلام ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة، ورواية علي بن أبي طلحة من جهة الثبوت والإسناد جيدة -إن شاء الله- فهي من أحسن الطرق المروية عن ابن عباس.

وقوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ} **هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه.**

في قوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ} [(٧١) سورة الأنعام] الكاف –مع ما بعدها- يمكن أن تكون نعتاً لمصدر محذوف تقديره: أي نرد على أعقابنا رداً كالذي استهوته الشياطين، ويمكن أن تكون أيضاً في محل نصب على الحال من فاعل نرد، أي: نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين.

وقوله: {اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ} [(٧١) سورة الأنعام] السين والتاء للطلب، وهوى: تأتي بمعنى أسرع إلى الشيء، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى كلمة الهوى التي هي هوى النفس بمعنى زين له الشيطان هواه.

وفي هذه الآية قراءة لحمزة: (كالذي استهواه) وفي قراءات غير متواترة من قراءات الصحابة -كقراءة ابن مسعود وأبي بن كعب وهي قراءة الحسن البصري أيضاً-: (كالذي استهواه الشيطان).

وقوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ} هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله -عز وجل- [رواه ابن جرير].

ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ} [(٧١) سورة الأنعام] كما قال: {وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ} [(٣٧) سورة الزمر] وقال: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٣٧) سورة النحل].

قوله: "**هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه فيتبعها وهو يرى أنه في شيء**" هذا من كلام ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة، والمعنى أن هذا تمثيل وتصوير لحال الإنسان الذي وصف الله حاله بأنه لمّا لم يستقر على الإيمان ويقبل على طاعة الله -عز وجل- وتوحيده وعبادته فهو كإنسان يمشي في البرية فتغولت الغيلان له لتضله عن الطريق كما قال ابن عباس، وقد كانت العرب تعتقد أن الغيلان تضل الناس في أسفارهم.

والمقصود بالغيلان جمع غول وهم الجن والشياطين حيث يتشكلون ويتصورون بصور شتى ويضلون المسافرين وذلك بأن يدعوا الشخص باسمه أو يظهروا له بصورة إنسان يرشده إلى طريق آخر أو نحو ذلك.

وجاء في الغيلان آثار وأحاديث منها ما هو ضعيف ومنها ما هو صحيح، وفي حديث العدوى يقول –عليه الصلاة والسلام-: ((ولا غول))[7] فبعض أهل العلم يقول: هذا نفي للغول وبيان أنه لا أصل ولا حقيقة له وإنما هو من خيال الناس ومن دعواهم، وهي من مختلقات العرب كاختلاقهم العنقاء كما في المراقي:

ومــا ســواه مثــل عنقــا مُغــرب　　　في كل قطر من نــواحي المغــرب

يعني أن العنقاء تذكر ولا وجود لها، وكذلك غير مذهب الإمام مالك في أقطار المغرب يُذكر ولا وجود له.

وبعضهم يقول: إن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا غول)) ليس نفياً لها، وإنما هو كقوله في نفس الحديث: ((لا عدوى))[8] فهذا ليس نفياً لأصل العدوى وإنما هو نفي لما كانوا يعتقدونه من تشكلها وتصورها بصور مختلفة.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب الجذام (٥٣٨٠) (ج ٥ / ص ٢١٥٨) ومسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح (٢٢٢٠) (ج ٤ / ص ١٧٤٢).

[8] - الحديث نفسه الذي أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب الجذام (٥٣٨٠) (ج ٥ / ص ٢١٥٨) ومسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح (٢٢٢٠) (ج ٤ / ص ١٧٤٢).

وصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان))[9] والمقصود أنه توجد بعض الآثار الصحيحة وتوجد فيها أشياء لا تصح، وهنا يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن هذا المثل الذي في قوله تعالى: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ} [(٧١) سورة الأنعام] مثل الله تعالى حال هذا الشخص بحال إنسان مسافر فتغولت الغيلان وجعلت تضله عن الطريق ليصل إلى مكان لا يستطيع الخروج منه فيتلف ويهلك وينقطع في سفره، وربما قتلته أو أكلته أو غير ذلك، هكذا قال ابن عباس.

ويمكن أن يقال -كما قال كثير من المفسرين-: إن قوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ} [(٧١) سورة الأنعام] أي: في باب الضلال، بمعنى أنرجع بعد إذ هدانا الله -عز وجل- فنكون في حال نشبه فيها حال أولئك الذين هذه صفتهم في الحيرة حيث وجد من يدعوهم إلى الهدى ووجد من يدعوهم إلى الضلال من الشياطين فبقوا متحيرين لا يدرون كيف يتصرفون؟

هذه حال بائسة لا نكون عليها، وإنما نبقى على الحق الذي عرفناه ونلزمه ولا نبقى متحيرين بسبب هذه الشبهات والضلالات ودعاء الكافرين لنا بموافقتهم والرجوع إلى ديننا الذي كنا عليه من الإشراك بالله -عز وجل- وعبادة الأوثان، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[9] - أخرجه النسائي في السنن الكبرى – كتاب عمل اليوم والليلة - الأمر بالأذان إذا تغولت الغيلان (١٠٧٩١) (ج ٦ / ص ٢٣٦) وأحمد (١٤٣١٦) (ج ٣ / ص ٣٠٥) وقال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٧١) سورة الأنعام] **أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له.**

{وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ} [(٧٢) سورة الأنعام] **أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال.**

{وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٧٢) سورة الأنعام] **أي: يوم القيامة.**

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [(٧٣) سورة الأنعام] **أي: بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما.**

وقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام] **يعني يوم القيامة الذي يقول الله: كن، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب.**

{وَيَوْمَ} منصوب، إما على العطف على قوله: {وَاتَّقُوهُ} وتقديره: واتقوا يوم يقول: كن فيكون، وإما على قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٣) سورة الأنعام] **أي: وخلق يوم يقول: كن فيكون، فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب، وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول: كن فيكون.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الكلام قد تم في هذا الموضع، أي يكون الكلام هكذا: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يعني ويوم يقول: كن تُبدّل السماوات والأرض، ثم ابتدأ في الكلام الجديد وهو الخبر عن القول فقال: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام] بمعنى أن وعده هذا الذي وعده هو الحق، يعني تبديل السماوات والأرض وعد حق لا شك فيه، وقيل بهذا الاحتمال؛ لأنه قال: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] أي ويوم يقول: كن يحصل تبديل السماوات والأرض، والمقصود أن الآية تحتمل هذا باعتبار أنه ذكر خلق السماوات والأرض، فيكون قوله: **{كُن}** متعلقاً بتبديلها يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام] متعلقاً بقوله: **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] وعلى هذا يكون المعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يبدلها غير السماوات والأرض فيقول لذلك: كن، فيكون قولُه الحق، وعلى هذا يكون **{قَوْلُهُ}** مرفوعاً متعلقاً بـ**{يَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يعني أن الذي يكون هو قوله الحق.

هذان وجهان تحتملهما الآية ذكرهما كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وأما الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيقول: "**وقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] **يعني يوم القيامة الذي يقول الله:**

كن، فيكون..." وعلى هذا يكون فيه مقدر محذوف، والمقدر المحذوف هو التبديل والتغيير في نظام هذا الكون حيث تبدل السماوات والأرض يوم القيامة الذي يقول الله له كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب.

يقول الحافظ –رحمه الله-: "**{وَيَوْمَ} منصوب، إما على العطف على قوله: {وَاتَّقُوهُ} وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون**" يعني واتقوا يوم يقول: كن فيكون، لكن هذا المعنى لا يخلو من بُعد؛ لأنه قال: {وَاتَّقُوهُ} [(٧٢) سورة الأنعام].

يقول الحافظ –رحمه الله-: "**وإما على قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٣) سورة الأنعام] أي: وخلق يوم يقول كن فيكون، فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب**" يعني أن يكون مرتبطاً بقوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٣) سورة الأنعام].

ثم قال: "**وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون**" وهذا كثير في القرآن، ويذكره كثير من المفسرين في مثل هذا الموضع، أي أن قوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام] معناه: واذكر يوم يقول: كن فيكون، ويكون ذكر اليوم لأهميته وما يقع فيه من الأهوال والأوجال من أجل الحذر منه والعمل من أجل الخلاص من العذاب الذي يقع فيه للمفرطين المضيعين المكذبين، والله أعلم.

وقوله: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} [(٧٣) سورة الأنعام] جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين.

يقول: {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٧١) سورة الأنعام] ثم يقول: {قَوْلُهُ الْحَقُّ} [(٧٣) سورة الأنعام]، فجملة {قَوْلُهُ الْحَقُّ} في محل جر صفة، أي أن صفة هذا الرب أن قوله الحق.

ويحتمل أيضاً –كما سبق- أن يكون في محل رفع، ويكون متعلقاً بقوله: {كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام] والمعنى أن الذي يكون إذا قال: كن هو {قَوْلُهُ الْحَقُّ} [(٧٣) سورة الأنعام] وهذا هو المعنى الثاني الذي ذكره ابن جرير –رحمه الله- وعلى المعنى الأول يكون المعنى أن وعده من تبديل السماوات والأرض حق لا شك فيه، ثم ابتدأ كلاماً جديداً فقال: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} [(٧٣) سورة الأنعام] إلى آخر الآية، والله أعلم.

وقوله: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} [(٧٣) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام].

يعني أن الموعد الذي يقول فيه كن فيكون هو يوم ينفخ في الصور، وعلى هذا يكون الكلام هكذا: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول: كن فيكون وله الملك يوم ينفخ في الصور، ويكون بهذا الاعتبار {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} بدلاً من {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} أي أن يوم يقول: كن فيكون هو يوم القيامة وهو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور.

ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: {وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} [(٧٣) سورة الأنعام] كقوله: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر].

وكقوله تعالى أيضاً: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] ويكون خص يوم القيامة بهذا -مع أن الملك لله -عز وجل- في الأولى والآخرة- لعظم ذلك اليوم وشدته، ولأنه لا يدعي الملك فيه أحد سواه، ولأنه اليوم الذي لا

يوم بعده، وما قبله فكأنه ساعة، وإذا كان له الملك في ذلك اليوم العظيم فإن الملك له فيما قبله في الدنيا من باب أولى.

كقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [(٢٦) سورة الفرقان] **وما أشبه ذلك.**

والمراد بالصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، فعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ)) **رواه مسلم في صحيحه**[1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: ((قرن ينفخ فيه))[2].

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٤-٧٩) سورة الأنعام].

المقصود أن إبراهيم -عليه السلام- وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه كما قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [(٧٤) سورة الأنعام].

الله -تبارك وتعالى- هنا سمى أبا إبراهيم بآزر، وهكذا يجب أن يقال، لا أن نتعدى القرآن فهو أصدق الكلام.

والعجيب أن كثيراً من المفسرين ومن المؤرخين يقولون: إن اسم أبي إبراهيم هو تارَخ، وهذا إنما تلقوه من المرويات عن بني إسرائيل مع أن هذه الكتب -كما هو معلوم- قد دخلها من التحريف الشيء الكثير.

وبعضهم يقول: إن آزر هو عمه، ويزعمون أن القرينة في ذلك هو أنه ذكر الأبوة مع الاسم فقال: {لأَبِيهِ آزَرَ} [(٧٤) سورة الأنعام] يقولون: لو كان اسم أبيه آزر لقال: وإذ قال إبراهيم لأبيه، أو قال: وإذا قال إبراهيم لآزر، هكذا زعموا، وهذا غير صحيح، ولا حاجة إليه؛ لأن الله -عز وجل- ذكر أبوته وذكر اسمه.

وبعضهم يقول: إن اسمه تارخ وأن آزر هو لقب له، وهؤلاء كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين هذا وهذا، ونحن نقول: إذا ثبت في القرآن شيء فلا يُشتغل بغيره، ولا نحاول أن نوفق بين ما جاء في القرآن وبين ما جاء في كلام الناس لا سيما أهل التحريف والتبديل والكذب على الله -عز وجل- وعلى الأنبياء –عليهم السلام-.

وزعم بعضهم أن الاسم هو تارخ وأن آزر للسب والذم، ويقولون: إن معناها معوج، وعلى هذا يكون الكلام هكذا في زعمهم: وإذ قال إبراهيم لأبيه معوج يعني قال له: أنت معوج أي: منحرف، ويقولون: إن هذه أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه، وهذا غير صحيح وليس هو المتبادر من القرآن.

وبعضهم يقول: إن آزر هذا اسم صنم وأطلق على أبي إبراهيم باعتبار أنه عابد له، وهذا من أعجب الأقوال.

---

[1] - هذا الحديث ليس في صحيح مسلم وإنما أخرجه الترمذي في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الزمر (٣٢٤٣) (ج ٥ / ص ٣٧٢) وأحمد (١١٠٥٣) (ج ٣ / ص ٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٧٩).

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠) (ج ٤ / ص ٦٢٠) وأحمد (٦٥٠٧) (ج ٢ / ص ١٦٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٥٦٨).

وبعضهم يقول: على تقدير محذوف هكذا: يا عابد آزر، وبعضهم يقول: على سبيل الاستفهام تقديره: أتعبد آزر؟

وهذا كله خلاف ظاهر القرآن، وإنما اسمه آزر، وأما لفظة تارخ فلا تثبت ولا نشتغل بمثل هذا ولا ينبغي أن نحاول التوفيق بين هذا وبين ما في القرآن، فليبحثوا لتارخ هذه عن تخريج، فإن صحت فليقولوا: هي لقب أو غير ذلك، أما آزر فلا نتعرض لها من أجل أن نبقي على ما ذكره هؤلاء، فهذا غير صحيح إطلاقاً، ولولا كثرة من ذكره لم نتعرض له، والله تعالى أعلم.

كما قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: **أتتألّه لصنم تعبده من دون الله** {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: **السالكين مسلكك** {فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: **تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلالة بيّن واضح لكل ذي عقل سليم.**

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا* يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا* يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا* قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا} [(٤١-٤٨) سورة مريم] **فكان إبراهيم -عليه السلام- يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبيّن إبراهيم -عليه السلام- ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى:** {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} [(١١٤) سورة التوبة].

وثبت في الصحيح أن إبراهيم -عليه السلام- يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي ربِّ ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم انظر ما وراءك، فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

قوله: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(٧٥) سورة الأنعام] أي: **نبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله -عز وجل- في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.**

لعل من أحسن ما يفسر به الملكوت في قوله: {مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ} -والله تعالى أعلم- أي: ملْك السماوات وما فيها من أفلاك ومخلوقات عظيمة تدل على قدرة الله -عز وجل- وربوبيته للعالم وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى وحدانيته وأنه المعبود وحده لا يستحق العبادة أحد سواه.

وتكون الواو والتاء بهذا الاعتبار قد زيدت في هذه اللفظة للمبالغة، مثل ما يقال: رغبوت ورهبوت، وما أشبهها من الكلمات التي بنيت هذا البناء لهذا المعنى، والله تعالى أعلم، وقيل غير ذلك، لكن لعل هذا من أقرب ما يفسر به، وهذا هو معنى كلام الحافظ ابن كثير الذي قال فيه: "أي: **نبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله -عز وجل- في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه**".

كقوله: {قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠١) سورة يونس] وقال: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} [(٩) سورة سبأ].

وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: تغشاه وستره {رَأَى كَوْكَبًا} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: نجماً {قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: غاب {قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [(٧٦) سورة الأنعام] قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول.

قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- للنجم أو الكوكب ثم القمر ثم الشمس: هذا ربي، من أهل العلم من قال: إنه قاله ناظراً لا مناظراً، وهذا الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وجماعة من أهل العلم، وهذا بناء على أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ربما يكون الواحد منهم على دين قومه قبل أن يوحي الله إليه -يعني على الشرك- وهذه المسألة فيها خلاف كثير بين أهل العلم، أعني هل كان الأنبياء على دين قومهم قبل أن يوحى إليهم؟ ومن يقولون بهذا يحتجون أيضاً بقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(١٣) سورة إبراهيم] وأجابوهم أيضاً بقولهم: {إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا} [(٨٩) سورة الأعراف].

والحاصل أنهم قالوا: إن التعبير بالعود يدل على أنهم كانوا على هذه الحال قبلُ، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا قط على الإشراك وعلى دين قومهم، وأما الاحتجاج بالتعبير بقوله: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(١٣) سورة إبراهيم] فيقال: إن العود في لغة العرب له معنيان -وهذا من خصائص هذه اللغة-:

المعنى الأول: هو أن الشيء يرجع إلى حاله الأولى، كما قال بعضهم:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وعاد القار كاللبن الحليب

فقوله: عاد القار يعني رجع، وهذا المثال في هذا البيت يفيد الرجوع إلى غير حاله الأولى، وقول النبي –عليه الصلاة والسلام-: ((حتى يعود اللبن في الضرع))[3] هذا رجوع إلى حاله الأولى، والرجوع أو العود في الآية: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] يحمل على رجوعه إلى حال غير الأولى، ويفسر بمطلق الصيرورة، فيقال: وعاد القار كاللبن الحليب يعني صار، كما تقول: عاد الصبي شيخاً، يعني صار كبيراً، فهو لم يكن كذلك في السابق، وتقول: عاد الطين خزفاً أي صار خزفاً؛ لأنه لم يكن قبل خزفاً، وتقول: عاد الخشب كرسياً وهكذا، فرجع وعاد تأتي بمعنى العود إلى الحالة الأولى، وتأتي بمعنى مطلق الصيرورة.

---

[3] - الحديث بتمامه يقول فيه النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((لا يلج النار رجل بكي من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جنهم)) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣) (ج ٤ / ص ١٧١) والنسائي في كتاب الجهاد – باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠٨) (ج ٦ / ص ١٢) وأحمد (١٠٥٦٧) (ج ٢ / ص ٥٠٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٢٨).

وفي الحديث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً))[٤] فهذا يحتمل المعنيين، يحتمل أن يكون المعنى حتى تصير مروجاً وأنهاراً أي أنه لم يتعرض لحالها الأولى التي كانت عليها، ويحتمل أن يكون المقصود رجوع جزيرة العرب إلى حالها الأولى التي كانت عليها، والذين يشتغلون ويتكلمون في الإعجاز العلمي يذكرون هذا على أن المعنى الثاني هو المعنى الوحيد الذي لا يحتمل الحديث سواه، ويقولون: هذا من الإعجاز، وهذا الكلام غير صحيح، فالحديث يحتمل المعنيين ولذلك يقال: هذا على أحد الوجهين في تفسير الحديث.

والحاصل أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على دين قومهم قط، والله -عز وجل- قال عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٦١) سورة الأنعام] ونفْي الكون في الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، أي ما كان في وقت من الأوقات من المشركين، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا على التوحيد ثم اختارهم الله -تبارك وتعالى- وأوحى إليهم.

وأما قوله تعالى عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [(٧) سورة الضحى] فإنه يفسر بقوله تعالى: {مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [(٥٢) سورة الشورى] بمعنى: ضالاً عن الوحي والرسالة وتفاصيل شرائع الإيمان وما أشبه ذلك، وليس المراد أنه ضال عن الحق مائل إلى الباطل؛ لأن أصل كلمة الضلال بمعنى الذهاب، فكل من كان ذاهباً عن الشيء يقال له: ضال، كما قال الشاعر:

فآب مضلوه بعين جلية   وغدر بالجولان حزم ونائل

قوله: آب مضلوه: أي رجع دافنوه لما ضلوه في الأرض.

وقوله تعالى: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [(١٠) سورة السجدة] يعني ذهبنا فيها، إذا ماتوا ودفنوا.

وقول أخوة يوسف -عليه الصلاة والسلام- لأبيهم يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] لو كانوا يقصدون فيه الذهاب عن الحق مطلقاً لكانوا كفاراً بهذا القول؛ إذ كيف يقولون هذا الكلام لنبي من أنبياء الله تعالى؟ وإنما قصدوا بقولهم: {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] يعني أنت ذاهب عن الحق في شأن يوسف -صلى الله عليه وسلم-.

والخلاصة أن هذه النصوص لا تدل على أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا على دين قومهم بحال من الأحوال، والله تعالى أعلم، ولهذا يقال: إن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] قاله مناظراً لا ناظراً، يعني قاله على سبيل التنزل.

وبعض أهل العلم يقول: إنه على تقدير الاستفهام {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: أهذا ربي؟، وذلك أنه قد يحذف الاستفهام وهو مراد كما في قوله تعالى: {أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [(٣٤) سورة الأنبياء] أي: أفإن مت أفهم الخالدون؟.

ومن ذلك قول الهذلي:

---

[٤] - وهذا جزء من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة - باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧) (ج ٢ / ص ٧٠٠).

رقوني وقالوا يا خويلـد لـم تـرع   فقلت وأنكرت الوجـوه هـمُ هـمُ؟

يعني أهمُ هم؟

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة في الأبيات التي قالها في فاطمة بنت طلحة:

بَدَا لي مِنْها مِعْـصَمٌ يَـوْمَ جَمَّـرَتْ   وكَـفٌّ خَـضيبٌ زُيِّنَـتْ بِبَنَـانِ

فـوالله مـا أدري وإنـي لحاسـبٌ   بِـسَبْعٍ رَمَيْـتُ الجَمْـرَ أَمْ بِثَمـان

فقوله: يوم جمَّرت يعني وهي ترمي الجمار.

وقوله: فوالله ما أدري وإني لحاسبٍ بسبع، أي أبسبع؟ ففيه استفهام مقدر معروف من الكلام هكذا: أبسبع رميت الجمر أم بثمان؟ وهذا معروف في كلام العرب حيث تَحذف الاستفهام، لكن الأقرب أن قوله هنا: {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] ليس فيه استفهام مقدر وإنما قال ذلك على سبيل التنزل مع الخصم في المناظرة شيئاً فشيئاً حتى أقام عليه الحجة، والله تعالى أعلم، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير هنا، وهو اختيار جماعة من المحققين من أهل العلم، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى-.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} [(٧٧) سورة الأنعام] أي: طالعاً {قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي} [(٧٧-٧٨) سورة الأنعام] أي: هذا المنير الطالع ربي {هَذَآ أَكْبَرُ} أي: جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة {فَلَمَّا أَفَلَتْ} [(٧٨) سورة الأنعام] أي: غابت، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} [(٧٨-٧٩) سورة الأنعام] أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي {لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٩) سورة الأنعام] أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق.

يعني ابتدأ خلقهما على غير مثال سبق، يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(١) سورة فاطر] يعني المنشئ الأول على غير مثال يُحتذى.

{حَنِيفًا} [(٧٩) سورة الأنعام] أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد.

معنى الحنف هنا هو الميل من عبادة غير الله -عز وجل- إلى عبادة الله -تبارك وتعالى-، وذلك أن أصل معنى الحنف هو الميل، وقد سمي الأحنف بن قيس بذلك لميل في رجليه، ويقال: إن أمه كانت ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لـولا حنـف فـي رجلـه   ما كـان فـي فتيـانكم مـن مثلـه

فالحنف هو الميل، وقوله: {حَنِيفًا} أي مائلاً.

ولهذا قال: {وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٩) سورة الأنعام] والحق أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشهدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبيّن أولاً -صلوات الله وسلامه عليه- أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية.

ثم انتقل إلى القمر فبيّن فيه مثلما بيّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [(٧٨) سورة الأنعام] **أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون.**

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٩) سورة الأنعام] **أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [(٥٤) سورة الأعراف].

قال الله في حقه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥١-٥٢) سورة الأنبياء] **الآيات.**

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [(٨٠) سورة الأنعام].

ومن القرائن الدالة على أنه قال هذا الكلام مناظراً لا ناظراً أن الله -عز وجل- عطف قوله: **{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ}** [(٧٦) سورة الأنعام] على قوله: **{نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(٧٥) سورة الأنعام] وهذا يقتضي أن يكون قال ذلك مناظراً لا ناظراً -عليه الصلاة والسلام- والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ* وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٠-٨٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم -عليه السلام- حينما جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: {أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} أي: تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟!.

وقوله: {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] **أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظروني بل عاجلوني بذلك.**

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] **استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله -عز وجل-.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لقومه: **{وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هذا الاستثناء -كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الذي عليه المحققون ومنهم الحافظ ابن القيم- منقطع باعتبار أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، ويكون المعنى أنهم قالوا له: إن آلهتنا ستخبلك أو تمرضك أو تقتلك أو تُلحق بك ضرراً فقال لهم: إنه لا يخاف من هذه المعبودات أن تلحق به ضرراً **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** فقوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] لا يرجع إلى ما قبله باعتبار أنه يخاف أن توصل إليه ضرراً مما شاء الله -عز وجل- أن توصله، وإنما المقصود إلا أن يشاء ربي شيئاً من الضرر فيلحقني من مرض أو موت أو فقر أو غير ذلك مما لا تعلق له بهذه الآلهة، أي أنه يقول: أنا لا أخاف من آلهتكم ومعبوداتكم الباطلة ولا أخشى منها ضرراً فهي لا تضر ولا تنفع إلا أن يشاء ربي ضرراً يقع بي فيقع لكن لا يكون واصلاً إليَّ من جهة هذه الآلهة، وبهذا الاعتبار قيل: إن قوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هو من قبيل الاستثناء المنقطع.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية.

{أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: فيما بينتُه لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟.

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود -عليه السلام- على قومه عاد فيما قصَّ عنهم في كتابه حيث يقول: {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٣-٥٦) سورة هود].

وقوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله {وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [(٨١) سورة الأنعام].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [(٢١) سورة الشورى] وقوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [(٢٣) سورة النجم].

وقوله: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون من تمام قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] ثم أجاب فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] وإن كانت الآية تحتمل هذا إلا أن غير هذا القول قد يكون أولى منه، أي القول الذي عليه عامة أهل العلم وهو أن ذلك من قول الله -تبارك وتعالى-، قاله على سبيل الفصل بين الفريقين، وذلك أنه لما قال لهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما قال، حكم الله بينهم فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] وهذا مما يسمونه بالموصول لفظاً المقطوع معنىً، وله نظائر في القرآن ومن ذلك قول الله -عز وجل- فيما جرى من امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] فهذا الكلام يحتمل أن يكون من تمام كلام امرأة العزيز، فهي قالت: {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [(٥١) سورة يوسف] ثم قالت: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] فهذا يحتمل أن يكون من كلامها وتقصد به زوجها باعتبار أنها تقول: إنها حصلت مراودة فقط ولم تحصل خيانة بالغيب أكثر من ذلك، كما أنه يحتمل أن يكون من كلامها أيضاً لكن باعتبار أنها أرادت بقولها: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يوسف -صلى الله عليه وسلم- فهو -عليه الصلاة والسلام- كان في السجن، فحينما طُلب أبى أن يخرج حتى يظهر صدقه وبراءته ونزاهته أمام الناس، فقالت: {أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [(٥١) سورة يوسف] وعقبت بقولها: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] أي إنها تقول: لا أقول فيه إلا الصدق والعدل والحق ولا أفتري عليه في غيبته.

ويحتمل أن يكون قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- والمعنى أنه يقول: {ذَلِكَ} يعني أنا طلبت هذا التحقيق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، أي أني أُدخلت السجن بتهمة فلا يمكن أن أخرج من غير أن تظهر براءتي وينكشف الأمر على حقيقته، بل لا بد أن يعرف أني لم أخنه بالغيب، وعلى هذا القول يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً.

وهذا الأسلوب أنواع ففي قول الله -عز وجل- في سورة الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} [(١٨٩-١٩٠) سورة الأعراف] فقوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} إما أن يكون راجعاً إلى ما قبله باعتبار أن هذا حصل من آدم وحواء أو يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً باعتبار أن الحديث انتقل إلى الذرية وما وقع عندهم من الإشراك، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، ومنه قوله تعالى هنا في سورة الأنعام: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] فهذا يحتمل أن يكون من قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ويحتمل أن يكون من قول الله -عز وجل- باعتبار أنه حكم بين الفريقين، وهذا هو الأقرب وهو الذي عليه عامة المحققين كابن جرير وابن القيم والشنقيطي، وأبعد الأقوال أن هذا من قول الكفار الذين ناظرهم إبراهيم كما يقول بعض المفسرين.

روى البخاري عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان][1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] إنما هو الشرك))[2].

هذا وقع للصحابة -رضي الله عنهم- حينما استشكلوا قوله تعالى: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] فقالوا ما قالوا باعتبار ما فهموه من لغتهم وذلك أن لفظة "ظُلم" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم، فقوله: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] أي بأي نوع من أنواع الظلم سواء كان ذلك كبيراً أو صغيراً، هذا الذي يفهم من ظاهر الكلام وهو مقتضى لغة العرب، ولكن بيّن لهم النبي -صلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب ظلم دون ظلم (٣٢) (ج ١ / ص ٢١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب قول الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} [(١٢) سورة لقمان] (٣٢٤٦) (ج ٣ / ص ١٢٦٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤) (ج ١ / ص ١١٤) وأحمد (٣٥٨٩) (ج ١ / ص ٣٧٨) واللفظ لأحمد.

الله عليه وسلم- أن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، أي: أنه نوع خاص من الظلم وهو الشرك، ففسرها لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا من قبيل التفسير النبوي الذي فسر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن بالقرآن، حيث فسره بآية لقمان، والقاعدة أن التفسير إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يلتفت إلى قول أحد بعده.

والتفسير النبوي نوعان: نوع منه يدخله الاجتهاد وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فهذا قد يخطئ المفسر وقد يصيب بتفسيره به، ونوع لا يدخله الاجتهاد وهو الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية وفسرها كما في هذه الآية، فهذا من أجلى صوره إذا صحَّ فلا مجال للنظر في قول أحد سواه، وبهذا نعرف جرأة الزمخشري حينما قال عند هذه الآية: إن تفسير الظلم بالشرك مع لفظ اللبس في الآية لا يتأتى -نسأل الله العافية- فهو فهم أن اللبس هو مجرد الخلط وأنه لا يجتمع الشرك مع الإيمان وأن الشرك إذا حدث أفسد الإيمان ولم يُبقِ منه شيئاً، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يمكن أن يبقى إيمان مخروم لا ينفع صاحبه كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف] فيوجد في الإنسان إيمان وشرك، وإيمان ونفاق لكن قد يكون هذا الشرك أو النفاق من النوع الأكبر، فهذا من هذا النوع، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] ذكر كلاماً جيداً فقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال: ولم يظلموا أنفسهم؛ لأنه لو قال: لم يظلموا أنفسهم فإن ذلك سيتطرق إلى أي نوع من أنواع الظلم ولكن قال: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم}** ولبس الشيء بالشيء تغطيته وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، كما قال الله -عز وجل-: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}** [(٨١) سورة البقرة] فالخطيئة التي تحيط بالإنسان إنما هي الشرك، فلا يحيط شيء من الذنوب بالإنسان فيكون هالكاً إلا الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، إلا أن يقول قائل: إن هذا المعنى متحقق بلا مرية، لكن قد يكون في الآية أيضاً دلالة على معنىً آخر أعني قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وذلك فيما يتعلق بالنجاة وتحقق الخلاص ووجود شيء من الأمن للإنسان في الدنيا والآخرة وأن هذا يحصل للإنسان بالإيمان الصحيح المنجي ولو وُجد عنده ذنوب إذ لا ينتفي عنه الإيمان بالكلية إلا إذا وجد عنده ما يخرم هذا الإيمان من الكفر الأكبر أو النفاق الأكبر أو الشرك الأكبر فهذا لا يبقى عنده شيء من الأمن لانتفاء الإيمان بالكلية، لكن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا أن لهم الأمن فهو معلق على وصف هو أنهم آمنوا إيماناً بهذه الصفة بحيث لم يخلطوه بظلم فهذا الحكم يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه، فهو يزيد من أمن الإنسان في الدنيا ويوم القيامة ويزيد من اهتدائه بقدر ما حقق من الإيمان الذي لم يخالطه ظلم ولو بالمعاصي، وذلك أن المعاصي والذنوب تؤثر في أمن الإنسان، فالناس يأتون آمنين يوم القيامة بقدر ما عندهم من تقوى لله -عز وجل- ويكون لهم من الاهتداء بقدر ما عندهم من الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، ومعلوم أن الذنوب والمعاصي متفرعة من شجرة الكفر، كما أن الطاعات متفرعة من شجرة الإيمان، فالإنسان إذا عمل المعاصي فإنه لا يكون

خارجاً من الإسلام بذلك كما يزعم الخوارج لكن عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا عمل الإنسان المعاصي نقص إيمانه وإذا ازداد من الطاعات ازداد إيمانه، فالناس يتفاوتون في الإيمان وبناء عليه يتفاوتون في الأمن والاهتداء، وقوله: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] يشمل الأمن والاهتداء في الدنيا والأمن والاهتداء في الآخرة، والاهتداء منه الاهتداء إلى معرفة الصواب والحق وما اختلف فيه الناس، والاهتداء على خير الخيرين، والاهتداء بالتوفيق إلى العمل الصالح، والاهتداء إلى العمل بالعلم، والاهتداء أيضاً إلى الثبات على الحق إلى الممات وأن يختم له بذلك، كل هذا من الاهتداء كما قال تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] ومنه الاهتداء بعد الموت عند سؤال الملكين حينما يسألانه فهو يحتاج إلى هداية وتثبيت كما قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ} [(٢٧) سورة إبراهيم] وكذلك الاهتداء عند الحساب، والاهتداء إلى الصراط، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [(٤-٥) سورة محمد] أي: يهديهم بعد ما قتلوا إلى الصراط وعلى الصراط، ويهديهم إلى الجنة ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، فهذه هدايات في الآخرة.

كما أن أهل الإيمان يحصل لهم الأمن في الدنيا بقدر إيمانهم وأما المشرك أو الكافر أو العاصي فإنه يختل أمنه واهتداؤه بقدر ما اختل إيمانه، ولذلك فهو يعيش في قلق وتساوره الهموم والأوهام ويعيش في حال من النكد والكدر والتخوف على مستقبله وعلى مستقبل أولاده ولا يدري ما ينتابه، وأما المؤمن فإنه مطمئن النفس قرير العين، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

والخلاصة أن الأمن والاهتداء ينتفيان تماماً من الإنسان إذا وجد عنده الإشراك، وينقص من أمنه واهتدائه بقدر ما نقص من إيمانه، هذا تفصيل لو قال به قائل فإن ذلك لا يُعدُّ تكذيباً ورداً لتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: وجهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ} الآية [(٨١) سورة الأنعام].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن الحجة التي آتاها اللهُ إبراهيم على قومه هي قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ} [(٨١) سورة الأنعام] يعني: أنتم ما خفتم من الله الملك الجبار حيث أشركتم به واجترأتم عليه -عز وجل- غاية الجرأة فكيف تريدون مني أن أخاف من أصنام لا تنفع ولا تضر؟ هذا غير معقول! وهذا القول هو الذي مشى عليه كثير من أهل العلم من المفسرين.

ومنهم من قال: إن الحجة في قوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا} [(٨٣) سورة الأنعام] مفرد مضاف إلى معرفة وهي الفاعل {حُجَّتُنَا} فقالوا: إن الحجة هي ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...} [(٧٥-٧٦) سورة الأنعام] الآيات وفيها أنه قال عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربي على سبيل التنزل فاحتج عليهم حتى بيّن لهم بطلان معبوداتهم، فقالوا: هذه المجادلة التي دارت معهم وأوصلته إلى أن يحتج عليهم هي

المقصودة بهذه الآية: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى-.

والصواب أن الآية تحتمل هذا وهذا، فقول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] هو من جملة الحجة، وكلامه الذي قبل هذا المتعلق ببيان بطلان معبوداتهم من الأصنام هو أيضاً من جملة احتجاجه عليهم، فهو داخل في الحجة المذكورة في الآية، والله أعلم.

وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

يقول ابن كثير: "**وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام]**" معناه أن ابن كثير يعدُّ هذا من قول الله -عز وجل- في الحكم والفصل بين الفريقين، ولعل هذا هو الأقرب والله أعلم، وهذا اختاره الحافظ ابن القيم والشيخ محمد الأمين الشنقيطي وعامة أهل العلم، حيث قالوا: هذا من قول الله -عز وجل- وليس من قول إبراهيم، وذكرنا آنفاً أن أبعد الأقوال قول من قال: إن هذا من قول الكفار.

ثم قال بعد ذلك كله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: حكيم في أقواله وأفعاله {عَلِيمٌ} أي: بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس] ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام].

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ* وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٨٤-٩٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق -عليهما السلام- بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(٧٢-٧٣) سورة هود] فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٢) سورة الصافات] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة.

وقال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد؛ لبقاء النسل والعقب، ولمّا كان ولد

الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم -عليه السلام- حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله -عز وجل- عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه كما قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [(٤٩) سورة مريم] **وقال هاهنا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا}** [(٨٤) سورة الأنعام].

وقوله: {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} [(٨٤) سورة الأنعام] **أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة.**

قوله عن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: "**وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية**" هذا باعتبار أن يعقوب اسم عربي لكن إذا نظرنا إليه باعتبار أنه اسم أعجمي -كما هو الواقع- فلا يقال فيه مثل هذا، والله تعالى أعلم، وقد وُجد في كثير من الأحيان أن المفسرين يذكرون أشياء من هذا القبيل في أسماء الأنبياء وفي تعليلها ومعناها وما أشبه ذلك والواقع أنها أعجمية لا تعلل بمثل هذه التعليلات ولا ينبغي أن يُتكلف فيها هذا التكلف -والله تعالى أعلم- إلا إن قيل: إن هذا الاسم عربي ترجمة لاسم آخر، فربما يقال فيه ذلك لكن المعروف أن أسماء الأنبياء جميعاً أعجمية إلا أربعة وليس يعقوب منهم، لكن قد تكون بصفة في لغة العجم تختلف عن لغة العرب، فيوسف يقولون عنه بالأعجمية "جوزيف" ويعقوب باللاتينية يقولون عنه "جيكو" والحاصل أن العلماء يقولون: إن أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وصالح وشعيب وهود، وهنا ذكر ثمانية عشر نبياً، وإذا كانوا يقررون هذا الأصل ويقولون: إنها أعجمية وأن يعقوب اسم أعجمي، فلا يقال: إنه مشتق من العقب، وأما على قول من يقول بوجود أسماء مشتركة بين اللغات فإنهم لا يقولون ذلك في الأعلام كأسماء الأنبياء وإنما يقولونه في أسماء النكرات كإستبرق ومشكاة وما أشبه ذلك، وبالنسبة لأسماء الأعلام فإنها بالاتفاق تقال كما هي في اللغات وهذا لا إشكال فيه، ولذلك أجمعوا على أن أسماء الأعلام في باب المعرب ثلاثة أنواع: نوع من قبيل الأعلام، فهذا موجود بالاتفاق، ونوع من قبيل النكرة مثل إستبرق ومشكاة وهذا فيه خلاف، ونوع لا خلاف في أنه غير موجود وهو الكلام المركب، فلا يوجد كلام مركب أعجمي في القرآن ، ولهذا قال في المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل	ويوسف قد جاء في التنزيل
إن كان منه واعتقاد الأكثر	والشافعي النفي للمنكر

وأما ما ذكره هنا من أن الله عوضه لما هاجر فهذا المعنى من أراد أن يتوسع فيه فلينظر في مثل كتاب القواعد الحسان لابن سعدي حيث ذكر أمثلة على هذا، تدور على قضية أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فإبراهيم اعتزل قومه وهجرهم في الله -تبارك وتعالى- فعوضه الله -عز وجل- من العقب والذرية ما ينسيه الوطن والقرابة والعشيرة.

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح -عليه السلام- فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل

إبراهيم -عليه السلام- فلم يبعث الله -عز وجل- بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية [(٢٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٦) سورة الحديد] وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [(٥٨) سورة مريم] قوله في هذه الآية الكريمة: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] أي: وهدينا من ذريته {دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} الآية [(٨٤) سورة الأنعام] وعود الضمير إلى نوح؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله، حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً، وكما قال في قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [(٣٠-٣١) سورة الحجر] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذُمَّ على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم فعومل معالمتهم ودخل معهم تغليباً وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار والملائكة من النور.

قوله تعالى: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [(٨٤) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم أي: من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ويحتمل أن يكون من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي اختاره ابن جرير واختاره الفراء وابن عطية وجماعة، واحتجوا لذلك بأمور، منها أن يونس -عليه الصلاة والسلام- لم يكن من ذرية إبراهيم وإنما هو من ذرية نوح وكذلك لوط -صلى الله عليه وسلم- هو ابن أخ لإبراهيم -عليهما السلام- وهذا معروف فهو ليس من ذريته.

والذين قالوا: إن الضمير يعود إلى إبراهيم كالزجاج أجابوا عن هذا بأن المحدّث عنه هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان نوح هو أقرب مذكور والقاعدة أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور لكن السياق إنما هو في الحديث والثناء على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما حصل له من إكرام الله -جل وعلا- ثم أجابوا عن أدلة أولائك بأن لوط -صلى الله عليه وسلم- عمه إبراهيم والعم يقال له: أب، ودليل ذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٣٨) سورة يوسف] فإسماعيل -عليه الصلاة والسلام- عمه بالاتفاق وليس من أجداده ومع ذلك سماه أباً، وبعض أهل العلم يقول: الخال والد والعم والد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخالة بمنزلة الأم))[٣].

وبعضهم خرج ذلك باعتبار التغليب فقال: هذا مثل قول الله -عز وجل- عن إبليس {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ} [(٧٤) سورة ص] مع أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن لكن توجَّه الأمر إليه

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

معهم باعتبار أنه كان معهم ويتشبه بهم فدخل في هذا الأمر، لكن الأقرب أن الضمير في قوله {وَمِن ذُرِّيَّتِــهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] يعود إلى نوح -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وفي ذكر عيسى -عليه السلام- في ذرية إبراهيم أو نوح -عليهما السلام- على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل؛ لأن عيسى -عليه السلام- إنما ينسب إلى إبراهيم -عليه السلام- بأمِّه -عليها السلام- فإنه لا أب له.

روى ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي -صلى الله عليه وسلم- تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} [(٨٤) سورة الأنعام] **حتى بلغ {وَيَحْيَى وَعِيسَى}؟** [(٨٥) سورة الأنعام] **قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت، فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من دخول أولاد البنات في الذرية يمكن أن يدخل في النوع المعروف عند الأصوليين من أنواع دلالة المنطوق بما يعرف بالإشارة، وهي كما قال في المراقي:

فأول إشارة اللفظ لما ... لم يكن القصد له قد عُلما

بمعنى أن الخطاب ما سيق من أجل تقرير هذا المعنى لكنه يستنبط منه ويفهم، أي: وإن لم يكن وروده ابتداءً من أجل بيان هذا الحكم، فهذه الآية ذكر الله -عز وجل- فيها فضائل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أنعم عليهم، وذكر أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- من ذرية إبراهيم -على أحد القولين أو من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- على القول الآخر- وعيسى -صلى الله عليه وسلم- ليس له أب يرتبط به نسباً بهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإنما نُسِبَ عن طريق الأم.

فالذرية هي ما تناسل من الإنسان، ويدخل فيها كل ما تناسل منه من جهة الذكور ومن جهة الإناث، وهذا هو الذي دل عليه القرآن بهذا النوع من الدلالة -دلالة الإشارة- وذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة] وسبق الكلام على هذا المثال في سورة البقرة، وذكرنا أن الآية سيقت لبيان جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام بعد أن كان محرماً، لكن يستنبط من الآية بدلالة الإشارة أنه يجوز للإنسان أن يصبح وهو جنب، ولا إشكال في ذلك؛ لأنه إذا جاز له أن يجامع في كل جزءٍ من أجزاء الليل **{حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة] فمعنى ذلك أنه لن يبقى وقت للاغتسال إلا بعد الفجر، فهذا مثالٌ مفرد في دلالة

الإشارة، ومعنى مثال مفرد أي أن هذا الحكم يستخرج من دليلٍ واحد، وقد يستخرج من آيتين، أو أكثر كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [(١٥) سورة الأحقاف] مع قوله: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} [(١٤) سورة لقمان] فإذا خصمتَ العامين من الثلاثين شهراً فإنه يبقى للحمل ستة أشهر، فيُستنبط من الآيتين أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فهذا من دلالة الإشارة.

والخلاصة أن هذه الآية دلت بدلالة الإشارة على أن أولاد البنات من جملة الذرية، ولا عبرة بقول الشاعر:

بنونـا بنـو أبنائنـا وبناتُنـا ... بنـوهن أبنـاء الرجـال الأباعـد

فهذا قول شاعر لا عبرة به، ولا يفاضل بينه وبين كلام الله -عز وجل-.

وقوله: {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ} [(٨٧) سورة الأنعام] ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٨٧) سورة الأنعام] ثم قال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [(٨٨) سورة الأنعام].

من جملة الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآيات إلياس واليسع –عليهما السلام- فإلياس -عليه الصلاة والسلام- هو من الأنبياء بلا شك، لكن بعضهم يقول هو من ولد إسماعيل وبعضهم يقول هو من ولد إسحاق، والمشهور أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- لم يكن في عقبه نبي سوى النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ولذلك يقول بعضهم إن إلياس من سبط يوشع بن نون أي من ولد إسحاق فهو من جملة أنبياء بني إسرائيل.

وأما اليسع ففي قراءة أخرى (الليسع)، فبعضهم يقول: هو إلياس، وهذا عجيب وغريب غاية الغرابة؛ لأن الله -عز وجل- ذكره بهذا السياق وذكر إلياس فلا يمكن أن يكون ذكره مرتين فهو نبيٌ آخر غير إلياس، وبعضهم يقول هو صاحب إلياس، وبعضهم يقول: إن إلياس هو إدريس، وهذا أيضاً غير صحيح، وبعضهم يقول: إلياس هو الخضر وهذا غير صحيح أيضاً، والخضر مختلف فيه هل هو نبي أو ليس نبياً، وبعضهم يقول: اليسع هو الخضر، وهذا كله غير صحيح أيضاً.

فالحاصل أن إلياس واليسع -عليهما الصلاة والسلام- من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وليس عندنا تفاصيل كثيرة عن نسبهما وحياتهما وما يتعلق بهما، فالله تعالى أعلم، لكنهما من الأنبياء قطعاً، وليسا من المشكوك في نبوتهم كما هو الحال في الخضر فإنه مختلف فيه هل هو من الأنبياء أو لا؛ فهؤلاء ذكرهم الله في سياق الأنبياء، وقد قال الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [(٩٠) سورة الأنعام] وأخبر أنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة وذلك يرجع إلى جميعهم، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [(٨٨) سورة الأنعام] إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام].

النبوة -كما هو معلوم- هي منحة إلهية لا تُكتسب مهما كان عليه الإنسان من قُدر وإمكانات وذكاء وصلاح وتقوى، وهذا هو الذي لا يجوز أن يُعتقد سواه خلافاً للفلاسفة الذين يقولون: إن النبوة مكتسبة، فهي منحة إلهية، فعقيدة المسلمين تقوم على أن النبوة يمنحها الله -عز وجل- لمن شاء من عباده ممن يعلم أنهم يصلحون لذلك، قال تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [(٦٨) سورة القصص].

قوله تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] هذا حكم معلق على شرط وهو لا يقتضي الوقوع، وهذه قاعدة معروفة، أي أن المعلق على شرط لا يقتضي ذلك وقوعه أو جواز حصوله كما في قوله تعالى: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] أي: ولا يمكن أن يكون للرحمن ولد، وهنا: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] يعني حاشاهم من الشرك، فالمقصود أن هذا التعليق لا يقتضي جواز الحصول وإنما ذكر لبيان حكمٍ وهو أن هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على منزلتهم وشرفهم وقربهم من الله -تبارك وتعالى- واصطفائهم لو وقع منهم الشرك لحبطت عنهم الأعمال الصالحة التي عملوها، فكيف بغيرهم؟ فهو تحذيرٌ من الإشراك.

{وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} الآية [(٦٥) سورة الزمر] وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] وكقوله: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} [(١٧) سورة الأنبياء] وكقوله: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [(٤) سورة الزمر].

وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة.

يقول تعالى: {آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [(٨٩) سورة الأنعام] المراد بالكتاب هنا جنس الكتاب، وقد أنزل الله -عز وجل- منه التوراة والإنجيل والقرآن، وأما الحُكم ففسره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- بأنه الفهم بالكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام.

{فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة.

وقوله: {هَؤُلاء} يعني أهل مكة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد.

السورة -كما سبق- مكية، فقوله: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء} [(٨٩) سورة الأنعام] يعني من مشركي قومك {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام].

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- حمله على هذا المعنى أي فيمن كفر من قومه أصلاً، وقال: ويدخل فيه تبعاً كل من كفر.

{فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين فقد وكلنا بها قوماً آخرين أي: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة.

قوله: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} وكلنا بها قوماً أي ألزمنا بالإيمان بها وكلفنا ذلك وحمّلناهم هذه الرسالة والأمانة والتبعة فقاموا بها خير قيام، وحملوها للناس، ودعوا إليها، ونافحوا عنها، وذبوا عنها غاية الذب، وجاهدوا

في سبيل ذلك غاية المجاهدة، وهجروا في ذلك القريب والبعيد من أجل ما يعتقدون، فكان ذلك منهم من القيام بحق هذه النعمة على الوجه المطلوب ومعرفة حقها وقدرها، بخلاف هؤلاء الذين كفروا بها.

وهؤلاء الذين أشار الله -عز وجل- إليهم بقوله: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] قال: هم المهاجرون والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، وهذا وجهٌ حسن، وبعضهم يقول هم الأنبياء المذكورون، أي أن قوله: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] يعني إن كفرتم بها أيها المشركون فقد وكلنا بها قوماً وهم هؤلاء الذين عدهم الله -تبارك وتعالى- وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: هم الملائكة، وهذا في غاية البعد، وبعضهم يقول: هم الصحابة ولا يخص ذلك بالمهاجرين والأنصار -رضي الله تعالى عنهم- وبعضهم يقول هي في كل مؤمن، وهذا يرجع إلى قول ابن كثير على كل حال حيث قال: هم المهاجرون والأنصار ومن تبعهم إلى يوم القيامة.

وبعضهم يخص ذلك بالأنصار، بمعنى أنه قد كفر بها أهل مكة فآمن بها أهل المدينة من الأوس والخزرج، وانتقل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم.

ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير -من أنها في الأنبياء الذين ذكرهم الله -عز وجل- صحيح و يدخل فيه من تبعهم من أهل الإيمان، فيدخل فيه من قام بدين الله -عز وجل- ونصره ودعا إليه وذب عنه، وأولى من يدخل بذلك الوصف هم المهاجرون والأنصار -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وسائر أهل الإيمان داخلون في ذلك تبعاً، ولابن القيم -رحمه الله- كلام جيد في هذا المعنى لعله يحسن قراءته.

قال ابن القيم -رحمه الله-:

"وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفْر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً ومستحقاً سواهم، فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائهم الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٧-١٠٨) سورة الإسراء].

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره فنظر إليهم وقال: إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيداً سواهم وهم أنتم تطيعون أمري وتحفظون عهدي وتؤدون حقي فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان، وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل

الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه، و{بِهَا} الأولى متعلقة بـــ{وَكَّلْنَا} [(٨٩) سورة الأنعام] و{بِهَا} الثانية متعلقة {بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام]، والباء في {بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] لتأكيد النفي، فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكَّلين إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولي الله؟ قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال: خليفة الله؛ لقوله: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [(١٢٩) سورة الأعراف].

وقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [(٥٥) سورة النـــور] فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم إنه خليفة الله؛ لأنه استخلاف مقيد.

ولما قيل للصديق -رضي الله تعالى عنه- يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحسبي ذلك.

ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك كما قال تعالى: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} [(٨٩) سورة الأنعام] والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام به علماً وعملاً وجهاداً لأعدائها وذباً عنها ونفياً لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وأيضاً فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه، ولهذا قال بعض السلف: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} [(٨٩) سورة الأنعام] يقول: رزقناها قوماً فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها إنه وكيل الله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة فإنها المحبة والقرب، فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال: وليه، والله تعالى يوالي عبده إحساناً إليه وجبراً له ورحمة بخلاف المخلوق، فإنه يوالي المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته؛ لذل العبد وحاجته، وأما العزيز الغني فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة.

قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [(١١١) سورة الإسراء] فلم ينف الولي نفياً عاماً مطلقاً بل نفى أن يكون له ولي من الذل، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة يونس]، وقوله: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(٢٥٧) سورة البقرة] فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذلّ.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم -عليه السلام- وما أراه من ملكوت السماوات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده ويكذب رسله كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به ويحفظ من حرماته ما أضاعوه، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب

المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها، ولو كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال..." انتهى.

هذا الكلام في غاية النفاسة ولا تكاد تجد مثله في كتب التفسير، ولذلك نقول: من أراد أن ينمِّي ملكته وأن يوسِّع مداركه في التفسير فينبغي أن يدمن قراءة كلام شيخ الإسلام وكلام ابن القيم، وكلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وتفسير ابن جرير الطبري، ولا يستغني عن تفسير ابن كثير –رحمهم الله جميعاً- بل عليه أن يكثر من القراءة في هذه الكتب.

{لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: **لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه وإحسانه.**

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: {أُوْلَئِكَ} [(٨٩) سورة الأنعام] **يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه {الَّذِينَ هَدَى اللّهُ}** [(٩٠) سورة الأنعام] أي: **هم أهل الهدى لا غيرهم.**

قوله: "**مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه**" يعني بذلك قوله تعالى: **{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ}** [(٨٧) سورة الأنعام] فالأشباه أو المتشبهون بغيرهم هم إخوان للمتشبه بهم كما هو أحد المعاني في قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}** [(٢٧) سورة الإسراء] حيث قيل: يعني أشباه الشياطين؛ لأنهم تشبهوا بهم في هذا، وكل من سار على سنة غيره واتبعه واقتفى أثره أو اشترك معه في العاقبة فإنه يقال له ذلك، والله أعلم.

{فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: **اقتدِ واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول -صلى الله عليه وسلم- فأمته تبعٌ له فيما يشرعه ويأمرهم به.**

روى البخاري عند هذه الآية أن مجاهداً سأل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أفي "ص" سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٨٤) سورة الأنعام] **إلى قوله: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}** [(٩٠) سورة الأنعام] **ثم قال: هو منهم، زاد في رواية عن مجاهد: قلت: لابن عباس فقال: نبيكم -صلى الله عليه وسلم- ممن أمر أن يقتدي بهم**[1].

بمعنى أن داود -صلى الله عليه وسلم- سجدها، فسجدها النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقال يفعل اتباعاً للنبي -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: **{فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}** [(٩٠) سورة الأنعام] بعض أهل العلم حمل ذلك على عبادة الله -عز وجل- وطاعته والاستقامة على دينه وما أشبه ذلك.

وبعضهم يحتج بهذه الآية على أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم ينسخ، وهذه المسألة فيها قولان مشهوران لأهل العلم، منهم من يقول: هو شرعٌ لنا ما لم ينسخ، وبعضهم يقول: ليس بشرع لنا إلا ما ورد في شرعنا من موافقته وتقريره مثل سجدة "ص".

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٦) (ج ٤ / ص ١٦٩٥).

والواقع أن هذا يكون من قبيل الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- وليس من اتباع شرع من قبلنا، وبناءً على هذا استنبط العلماء أشياء كثيرة مما ورد في قصص الأنبياء، ففي قوله -تبارك وتعالى-: {خَرَقَهَا} [(٧١) سورة الكهف] أي: الخضر، قالوا: يؤخذ منه جواز إفساد البعض لإبقاء واستصلاح الكل أو الباقي.

وفي قوله تعالى في قتل الغلام: {فَقَتَلَهُ} [(٧٤) سورة الكهف] ثم بين ذلك وعلله بأن الغلام له أبوان على الإيمان فقال: {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [(٨٠) سورة الكهف] فهنا هل يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه، بمعنى أن القاضي إذا كان يعرف أن هذا الإنسان سيئ وسارق وفاجر فهل يحكم عليه بناء على هذه المعلومات التي عنده أو لابد أن يسمع البينات وكلام الشهود، ثم يحكم بناءً على ما يسمع؟

على كل حال إن جاء في شرعنا ما يوافق شرع من قبلنا فهذا لا إشكال في أنه يعمل به، وإن جاء في شرعنا ما يخالفه فهذا لا إشكال أنه لا يعمل به، لكن يبقى النظر فيما لم يأت في شرعنا ما يوافقه أو يخالفه هل يعمل به أو لا؟

وقوله تعالى: {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً، أي أجرة، ولا أريد منكم شيئاً.

هذا يؤخذ منه أنه إذا كان هذا قاله الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- فكذلك الدعاة من بعده لا يأخذون أجراً على دعوتهم وما يقدمونه للناس، لا مباشرةً ولا بطريقٍ غير مباشر عملاً بقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ} [(٤٧) سورة سبأ] فالدعوة تقدم وتبذل للناس مجاناً دون أن يطلب من المدعوين مقابلاً على ذلك، فالداعية إلى الله -تبارك وتعالى- ينبغي أن يكون أمره لله في كل شئونه، لا ينتظر من الناس شيئاً، ولا يأخذ على دعوته أجراً لا مباشرةً بأن يطلب مقابلاً على هذا ولا بطريق غير مباشر كأن يكلف الناس أشياء تحتاج إلى نفقات وما أشبه ذلك من أجل أن يتفضل عليهم بدرسٍ أو محاضرةٍ أو دورة أو نحو هذا، فهذا لا يليق، وكذلك الأمر أيضاً حينما يذهب معهم في حجٍ أو نحو ذلك لا ينبغي أن يطلب منهم شيئاً، أو يشترط عليهم شيئاً، وإذا أُعطي شيئاً لا يليق به أن يأخذه بحالٍ من الأحوال.

وهكذا أيضاً لا يصلح أن يبيع ما يبذله ويقدمه من محاضرات وأشرطة؛ فذلك يؤدي إلى أن تنطفئ نور الكلمة ويذهب أثرها وتبقى الكلمات ميتة تخرج من فم الإنسان ولا أثر لها ولا نفع -نسأل الله العافية- فالدعوة تبذل للناس مجاناً لا يؤخذ عليها مقابل وإلا فإن هذا يعني نهاية الداعية وذلك بأن يقبر وهو حي، بمعنى أنه يتكلم ويلقي، لكن كلامه لا يجاوز الأسماع ولا يكون فيه بركة ولا نفع مهما تأول في ذلك، نسأل الله العافية.

{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان.

{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ* وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [(٩١-٩٢) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، وقيل نزلت في طائفة من اليهود {قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] كما قال: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ} [(٢) سورة يونس].

قوله: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}** [(٩١) سورة الأنعام] أي: ما عظموه حق تعظيه؛ لأنهم قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] فمن عرف الله -عز وجل- حق المعرفة وعرف حكمته وكمال عدله -سبحانه وتعالى- فإنه يحكم بأن الله -تبارك وتعالى- حكيم في غاية الحكمة، وأن مقتضى عدله أن يرسل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأن ينزل الكتب، وهذا أيضاً من كمال رحمته بالخلق.

يقول تعالى: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] من نظر إلى أن السورة مكية وأن السياق السابق كان في المشركين، وأن السورة نزلت جملة واحدة، قال هذه الآية في المشركين من قريش، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- قاله لهذا السبب، والله تعالى أعلم.

والقول الآخر إنها في اليهود، وهذا يؤيده سبب النزول الذي جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من طريق ابن أبي طلحة -وقد عرفنا أن هذا الإسناد إسناد جيد- وفيه أن اليهود قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] فأنزل الله: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ}** [(٩١) سورة الأنعام] وهذا القول يشكل عليه أن السورة مكية، فكيف تكون نزلت بسبب قول اليهود؟ كما أن القول بأنها نزلت في المشركين يشكل عليه ما ذكر بعده: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] فالذي فعل هذا هم اليهود قطعاً وليس مشركو قريش.

وهذا كله يذكِّر بما ذكرناه في أول السورة أن بعض أهل العلم استثنى بعض الآيات وقال: إنها مدنية نظراً لمثل هذا كما أنه يمكن أن يقال -كما سبق أيضاً- إن الآية قد تنزل مرتين.

وابن جرير -رحمه الله- كان يقرأ بالقراءة الأخرى **(يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً)** فعلى هذه القراءة يكون السياق حكاية عن اليهود هكذا: **(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس يجعلونه قراطيس يبدونها)** وعلى هذه القراءة تكون الآية نازلة في المشركين دون إشكال، لكن قد عرفنا أن تعدد القراءات ينزّل منزلة تعدد الآيات فإذا كان للآية أكثر من قراءة فهما بمنزلة الآيتين أو الآيات المتعددة.

ولهذا فإن ابن القيم -رحمه الله- في ظاهر كلامه يرى أن هذه الآية في كل من قال ذلك، أي قاله المشركون وقاله اليهود فيدخل فيه هؤلاء وهؤلاء.

وأجاب -رحمه الله- عن الإشكال في قوله: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] بأن هذا من باب الاستطراد، أي أن الله تعالى ذكر هذا لإيضاح قضية حيث استطرد من شيء إلى نظيره وشبيهه وما أشبه ذلك، بمعنى أنه قال: إذا كان قوله:**{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] في المشركين فمعنى ذلك أنه رد عليهم بهذا؛ لأنهم قد لا ينكرون أن الله أنزل على موسى كتاباً، فالمشركون من قريش يعرفون هذا، فهو احتج عليهم بما يعرفونه وما يسلمون به فقال: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ**

{الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [(٩١) سورة الأنعام]، وعلى فرض أنهم لا يؤمنون بهذا أو لا يرفعون له رأساً فالمعنى أنه يقول لهم: أنتم جهلة فاسألوا أهل الكتاب الذين لهم رسوخ في هذا ويعرفون الكتب والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}؟ [(٩١) سورة الأنعام] ثم استطرد في ذكر اليهود فقال: تجعلونه أيها اليهود قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً.

وقال ابن القيم –رحمه الله-: إن هذا الأسلوب من الكلام موجود في القرآن ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} [(١٢) سورة المؤمنون] أي آدم -صلى الله عليه وسلم- فالكلام في هذه الآية عن آدم الذي هو أصل الخلق، ثم قال: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [(١٣-١٤) سورة المؤمنون] فالمقصود هنا ليس آدم -صلى الله عليه وسلم- وإنما المقصود ذريته، وبمثل ذلك يقال في آية الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً} [(١٨٩-١٩٠) سورة الأعراف] فالحديث في البداية عن أصل الخلق آدم –عليه الصلاة والسلام- لكن قوله تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} [(١٩٠) سورة الأعراف] فهنا بدأ يتحدث عن ذرية آدم وليس المراد آدم نفسه.

ومن أمثلة الاستطراد الذي يشبه هذا قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [(٩) سورة الزخرف] ثم استطرد في ذكر صفته فقال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} [(١٠) سورة الزخرف] فكان يسألهم من خلق السماوات والأرض ثم يحتج عليهم بذكر صفة هذا الخالق -سبحانه وتعالى- والخلاصة أن الحافظ ابن القيم يرى أن آية الأنعام يدخل فيها أهل الإشراك ويدخل فيها اليهود.

وكقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً* قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} **[(٩٤-٩٥) سورة الإسراء] وقال هاهنا:** {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} **[(٩١) سورة الأنعام].**

قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} **[(٩١) سورة الأنعام] أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة:** {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} **[(٩١) سورة الأنعام] وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران** {نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} **[(٩١) سورة الأنعام] أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويُهتدى بها من ظلم الشبهات.**

هم نفوا نفياً مطلقاً أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الوحي إذ قالوا: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] فـ"شيء" نكرة في سياق النفي، وأُكِّدت بـ"من" التي تنقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، وفي باب الجدل والمناظرة يقال: أُبطل هذا الادعاء أو الاحتجاج بما يسمى بالنقض فهم لما قالوا: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] نقض الله –تبارك وتعالى- عليهم هذا بقوله: {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام]،

والمعنى أن هذه قضية سالبة -أعني قولهم: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام]- فهو نقضها عليهم بقضية موجبة فقال: {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام] وبعبارة أخرى يقال: إن قولهم: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] رُدَّ بقوله: {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام] فإن نفوه كفروا بكتابهم الذي يؤمنون به، وإن قالوا: إن الذي أنزله هو الله تكون مقولتهم الأولى كاذبة -أعني قولهم ما أنزل الله على بشر من شيء-، ولهذا فإن من وجوه الجدل والمناظرة التي وردت في القرآن النقض، ولذلك إذا استطعت أن تثبت شيئاً خلاف ما أنكره الخصم فإنك تكون قد أبطلت قوله ودعواه، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام] **أي: تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطع تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون، وتقولون: {هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ}** [(٧٩) سورة البقرة] **أي: في كتابه المنزل {وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ}** [(٧٨) سورة آل عمران] **ولهذا قال: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] **أي: ومن أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] مضت الإشارة إلى أنه على قراءة الياء **(يجعلونه قراطيس يبدونها)** يكون في اليهود، وذلك ظاهر من هذه القراءة والله تعالى أعلم، وأما على قراءة التاء **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] فمن قال: إن الآية من أولها في اليهود، قال: إنه رد عليهم بهذا، فقال مخاطباً لهم: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام]، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر السياق، ولكن يشكل على هذا كما سبق أن السورة مكية، وذكرنا توجيه الحافظ ابن القيم لهذا المعنى على قراءة **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] أن هذا من باب الاستطراد على قول من قال: إن الآية مكية وأن ذلك في المشركين من قريش، فلما ذكر الرد عليهم **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] استطرد في ذكر اليهود **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] وذكرنا نظائر ذلك.

وقوله: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] سبق الكلام في موضعين من القرآن عن التحريف، وهل كان الذي قد حرف هو أصل الكتاب أو أن الذي حرف هي تلك القراطيس التي كانوا يبدونها للناس ولم يقع التحريف في أصل الكتاب؟، وقد ذكرنا قبل بأن الأقرب من أقوال أهل العلم -والله تعالى أعلم- أن التحريف وقع في أصل كتابهم؛ ويدل على هذا تلك النسخ المنتشرة في الآفاق التي تتناقض غاية التناقض، ولا يوجد ما يثبت في حال من الأحوال أنهم يحتفظون بأصل الكتاب الذي لم يحرف.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** يعني تظهرونها للناس **{وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] هذه الآية أو ما قبل هذه الجملة من قوله: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] مندرج تحت قاعدة معروفة وهي أن القرآن إذا ذكر مقالة قائل فإنه إن لم يذكر معها ما يبطلها أو يدل

على بطلانها قبلها أو في أثناء ذكرها أو بعد أن يذكرها فإن ذلك يدل غالباً على صحتها، كما قلنا في قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [(٢٢) سورة الكهف] فما رد على من قال بالعدد الأخير، فقد يؤخذ منه أن هذا هو القول الصحيح فيهم، وفي عامة المواضع في القرآن يذكر ما يدل على البطلان كما في هذه الآية: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} فرد قائلاً: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [(٩١) سورة الأنعام] فرد هذه المقالة وأبطلها.

وقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: والحال أنكم علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لمضمون الجملة التي قبلها {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام]، والذي عُلِّموه هو الذي أخبرهم عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأمور التي أوحى الله -عز وجل- بها إليه، فهي مشتملة على علم ما لم يعلموه من كتبهم إذا قلنا: إن ذلك يقصد به أهل الكتاب، أي: وعلمتم ما لم تعلموا مما أظهره النبي -صلى الله عليه وسلم- لكم وأبانه مما ليس في كتابكم.

وكذلك إذا قيل: إن الخطاب متوجه للمشركين -أعني قوله: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام]- فيعني عن طريق هذا الوحي الذي أنزله الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ويجوز أن تكون "ما" من قوله: {وَعُلِّمْتُم مَّا} يقصد بها ما علموه من التوراة؛ ليكون ذلك على وجه الامتنان عليهم بإنزال التوراة، أي: قل لهم: من الذي علمكم هذا، فهذا رد على اليهود وامتنان عليهم بذلك.

وبعضهم يقول: إن هذا الخطاب للمؤمنين، بمعنى أنه انتقل من الكلام على اليهود أو من الكلام على المشركين ثم قال: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] أي كنتم في جهالة وعماية ثم بعث الله -عز وجل- لكم هذا النبي فعلمتم من الوحي ما صرتم به بمنزلة عالية رفيعة من العلم والإيمان، فهو يمتن على المؤمنين بهذا، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وقد يقال -والله أعلم-: إن ظاهر السياق أن ذلك في اليهود، وأن الله -عز وجل- يرد عليهم ويذكر مننه وإنعامه وافضاله الذي كفروه ولم يقابلوه بالشكران، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {قُلِ اللّهُ} [(٩١) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي: قل الله أنزله.

وقوله: {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ} يعني القرآن {أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى} [(٩٢) سورة الأنعام] يعني مكة {وَمَنْ حَوْلَهَا} من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [(٩٢) سورة الأنعام] أم القرى مكة، ومن حولها العالم بأكمله، وهذا من الأدلة الدالة على عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم-، ومن توهم غير هذا من هذه الآية فينبغي أن يضم

إليها سائر الآيات والأحاديث الدالة على عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- كقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف] وما شابه ذلك.

وقال: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} **[(١٩) سورة الأنعام] وقال:** {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود] **وقال:** {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} **[(١) سورة الفرقان] وقال:** {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} **[(٢٠) سورة آل عمران].**

وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي)) وذكر منهن: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[1] ولهذا قال: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ} **[(٩٢) سورة الأنعام] أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن** {وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} **[(٩٢) سورة الأنعام] أي: يقومون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.**

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} **[(٩٣-٩٤) سورة الأنعام].**

يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} **[(٩٣) سورة الأنعام] أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى:** {أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} **[(٩٣) سورة الأنعام] قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب.**

ذكر هنا قضيتين: الأولى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [(٩٣) سورة الأنعام] والثانية: {أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذلك من أظلم ممن قال أوحي إلي ولم يوحَ إليه شيء، وهذا داخل في عموم الذي قبله؛ لأن الذي يقول: أوحي إلي ولم يوحَ إليه هو مفترٍ على الله الكذب.

وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ} أي: لا أحد أظلم؛ فهذا استفهام مضمنٌ معنى النفي كما سبق في نظائر هذه الآية كقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآيات، بمعنى أيهما أظلم الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أم من افترى على الله كذباً؟ قلنا: يجاب عن هذا بجوابين أحدهما: أن أفعل التفضيل تمنع أن يزيد أحد الطرفين على الآخر ولكنها لا تمنع التساوي، أي أن هؤلاء وغيرهم كلهم قد بلغوا في الظلم غايته، فلا إشكال

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم (٣٢٨) (ج ١ / ص ١٢٨) وفي أبواب المساجد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) (٤٢٧) (ج ١ / ص ١٦٨) وأخرجه أيضاً مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

أن يُذكرَ أصناف ويقال: إنهم أظلم الناس أو لا أحد أظلم منهم؛ لأن المراد أنه لا أحد يزيد عليه لكن يبقى من يشتركون معهم بقدر معين من الظلم الذي وصلوا إليه دون أن يزيدوا عليهم فيه.

الجواب الثاني: أن هذه الآيات تشترك في أن كل آية منها تقول: لا أحد أظلم ممن فعل هذا الفعل على أن كلاً منها تكون مختصة بباب معين، ففي باب الافتراء لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المنع من دخول المساجد لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وهكذا كل واحدة مختصة بالباب الذي ذكرت فيه، والله أعلم.

يقول -رحمه الله-: "**قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب**" هذا عن عكرمة وقتادة من قبيل المراسيل، والمرسل من أنواع الضعيف كما هو معلوم، وقد جاءت روايات أخرى أنها نزلت في عبد الله بن أبي السرح في قصته المعروفة لكنها لا تصح أيضاً وذلك أنه قال في آخر الآية التي كان يمليها عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد كان من كُتَّاب الوحي، قال: فتبارك الله أحسن الخالقين، أي قال ذلك من عند نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هكذا أنزلت)) فقال: إن كان محمد يختلق القرآن فقد قلت مثله، وإن كان يوحى إليه فقد أوحيَ إليَّ فارتدَّ ورجع إلى مكة[2] فلما جاء عام الفتح ذهب إلى أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- فطلب له الأمان من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالمقصود أن الروايات الواردة في أنه قال ذلك وأنه ارتد بسبب هذه القضية لا يثبت منها شيء، ولو ثبتت فمعلوم أن القرآن قد ينزل موافقاً لما جرى على لسان بعض الناس كما في موافقات عمر -رضي الله تعالى عنه- والله أعلم.

{وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول كقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} الآية [(٣١) سورة الأنفال].

قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: في سكراته وغمراته وكرباته.

الغمرات جمع غمرة، وهي الشدة والكرب والحال الصعبة، وأصل ذلك كأنه مأخوذ مما يغمر الشيء ويغطيه، تقول: غمره الماء، فيقال: فلان في غمرة يعني في كرب وشدة.

{وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالضرب، كقوله: {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي} الآية [(٢٨) سورة المائدة].

قوله: "**{وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ}** [(٩٣) سورة الأنعام] قال: أي: **بالضرب**"؛ لأن البسط يأتي بهذا المعنى كما قال تعالى: **{وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ}** [(٢) سورة الممتحنة] فالبسط يكون بإيصال الأذى بالقول أو بالفعل، يقال: بسط إليه يده ولسانه، بمعنى أنه آذاه بيده ولسانه.

[2] - هذه القصة أوردها الواحدي والقرطبي ونسباها لرواية الكلبي عن ابن عباس، والكلبي متهم بالكذب، وروايته ساقطة وللقصة أصل عند أبي داود والنسائي، انظر كتاب " تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن" (ج ١ / ص ١٣٣).

فقوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني بالضرب الوجيع وذلك عند نزع أرواحهم أو في اليوم الآخر، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن تفسر بما بعدها أعني بقوله: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] وإن كان يحتمل أن يراد بالبسط بسط اليد لاستلام الروح، لكن أحسن من هذا أن تفسر بالآية الأخرى وهي قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [(٥٠) سورة الأنفال] فهذا الضرب هو المراد بقوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] والله تعالى أعلم؛ وذلك أن خير ما يفسر به القرآن القرآنُ.

وإن كان قوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني في الآخرة وباسطو أيديهم يعني بالضرب والعذاب فإن قوله: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم وخلصوها مما أنتم فيه إن استطعتم، وإذا قلنا: إن هذا عند الموت فإن معنى {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي يضربونهم لينتزعوا منهم الأرواح ويقولون لهم: أخرجوا أرواحكم لنقبضها، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ} الآية [(٢) سورة الممتحنة] وقال الضحاك وأبو صالح: {بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالعذاب كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [(٥٠) سورة الأنفال] ولهذا قال: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم فتتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ} الآية [(٩٣) سورة الأنعام] أي: اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله.

قوله: {عَذَابَ الْهُونِ} [(٩٣) سورة الأنعام] هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وعذاب الهون -بضم الهاء- يعني العذاب المهين، وأما الهَون -بفتح الهاء- فمعناه الرفق كما في قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [(٦٣) سورة الفرقان] يعني يمشون برفق.

وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر عند الموت، وهي مقررة عند قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [(٢٧) سورة إبراهيم].

وقوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٤٨) سورة الكهف] أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث.

المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} هو المعنى الأول، يعني منفردين، وهذه الآية هي كقوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] بمعنى أن الله كما ابتدأ خلقكم أعاده ثانية.

والمعنى الثاني الذي يحتمله قوله تعالى: {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] أن الإنسان يأتي يوم القيامة كما خلقه الله -عز وجل- حين خلقه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً))[٣] أي غير مختونين، فيكون قوله: {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] يعني كهيئة خلقكم الذي خلقكم الله عليه من غير شيء يغير ذلك.

فإن كانت الآية في سياق الاحتجاج على النشأة الثانية بالنشأة الأولى، فالمعنى أن الذي خلقكم أولاً قادر على أن يعيدكم ثانية، وهذا الذي قد يفهم من ظاهر الآية، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- حملها على المعنى الآخر حينما قرأها على المنبر حيث ذكر معها قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً)) ولذلك يقال: إن الآية تحمل على المعنيين وإن كان السياق في الاحتجاج على المشركين بالبعث، وما يقال في قوله -تبارك تعالى-: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] يقال أيضاً في قوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] ولهذا حملها ابن جرير وجماعة من أهل العلم ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على أن المراد حفاة عراة غرلاً لا ثياب ولا خدم ولا حشم ولا أموال، وإنما يأتي الإنسان متجرداً من ذلك كله، هكذا قالوا فيها، والحافظ كما رأينا جعلها من قبيل الاحتجاج على النشأة الثانية بالنشأة الأولى، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذا يوجد ما يشهد له في القرآن، ويوجد ما يشهد له أيضاً من السنة، والله أعلم.

وقوله: {وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ} أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا {وَرَاء ظُهُورِكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام].

الخول هو ما يعطاه الإنسان من متاع الحياة الدنيا، فقوله: {وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: ما أعطيناكم من متاع الدنيا من الأموال والزينة والأولاد وما أشبه ذلك.

وثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس))[٤].

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج، فيقول الله -عز وجل-: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئاً، وتلا هذه الآية: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ} الآية [(٩٤) سورة الأنعام] [رواه ابن أبي حاتم].

يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل، والبذج هو ولد الضأن، والمعنى أنه يؤتى به وهو في غاية الضعف والذلِّ بعد أن كان يشمخ بأنفه ولا يرى الناس شيئاً، وفي الحديث الآخر: ((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان))[٥] نسأل الله العافية.

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب كيف الحشر (٦١٦٢) (ج ٥ / ص ٢٣٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

[٤] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٣).

[٥] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٧) (ج ١ / ص ١٩٦) والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ٤٧ (٢٤٩٢) (ج ٤ / ص ٦٥٥) وحسنه الألباني رحمه الله.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول ابن آدم مالي مالي))[6] يعني أنه في الدنيا يتحدث فيقول: هذا مالي، وهذه أرضي، وهذا داري، وليس له إلا ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذا هو الذي يبقى، ولو عقل الإنسان وفكر لعرف هذه الحقيقة جيداً، ولذلك لو نظرت إلى الناس فيما يملكون وما تحت أيديهم من الأموال فإنك ترى عجباً، فأحياناً قد ترى الإنسان فتظنه من الفقراء وهو يملك أموالاً طائلة لم تؤثر عليه فلم تُرَ نعمة الله عليه، وربما لا يتصدق ولا تراه يلبس لباساً حسناً، وهكذا إنما يشقى غاية الشقاء.

يقول أحد الإخوة المدرسين: كنت عند الصرافة فجاء شخص لا يعرف القراءة والكتابة وبالتالي لا يستطيع استعمال الصرافة، ورأيت ثيابه في غاية الرثاثة فاستغربت كونه يمتلك بطاقة مع أن شكله فقير حتى ظننت أنه يسأل!!

يقول: فقال لي: اسحب لي من الصرافة مائة ريال وإن كنت لست بحاجة إليها لكني أريد أن أعرف رصيدي! يقول: قلت له: يمكنك أن تعرف الرصيد دون أن تسحب مائة ريال، قال: إذن: انظر لي كم الرصيد، يقول: والله ما عرفت أن أقرأ الرصيد، فقلت له: لم أعرف، لكن أخرج لك ورقة من الآلة وخذها معك! هذه من القصص العجيبة، فهذا ماذا يستفيد من ماله؟ لا شيء إلا أنه سيحاسب عليه، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء} [(٩٤) سورة الأنعام] تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب -جل جلاله- على رءوس الخلائق: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٦٢) سورة القصص] ويقال لهم: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ} [(٩٢-٩٣) سورة الشعراء] ولهذا قال هاهنا: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع أي: شملُكم.

قوله تعالى: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع (بينُكم) أي: تقطَّع شملُكم باعتبار أن (بينُكُم) فاعل، وهذه القراءة هي التي عليها عامة القراء عدا نافعاً والكسائي وحفصاً حيث قرأها هؤلاء بالنصب ليكون المعنى لقد تقطع ما بينكم، بل ورد هذا المعنى على أنها قراءة أحادية وهي قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه-.

وعلى قراءة {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] يمكن أن يكون النصب على الظرفية، فـــ بينكم يكون منصوباً على الظرفية، ويكون فاعل تقطع محذوفاً تقديره تقطع ما بينكم أو تقطع الوصل بينكم أي: تقطع وصلكم وشملكم وتمزقت الأواصر والوشائج التي بينكم وبين معبوداتكم وأعوانكم ومن يشاركونكم في هذا الجرم ولو كانوا من قراباتكم، نسأل الله العافية.

{لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع: أي شملُكم، وبالنصب: أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل {وَضَلَّ عَنكُم} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: ذهب عنكم {مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٩٤)

---

[6] - قد سبق أنه في صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٣).

سورة الأنعام] من رجاء الأصنام والأنداد كقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٦-١٦٧) سورة البقرة] وقال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [(١٠١) سورة المؤمنون] وقال تعالى: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٥) سورة العنكبوت] وقال: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} الآية [(٦٤) سورة القصص] وقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(٢٢) سورة الأنعام] إلى قوله: {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة الأنعام] والآيات في هذا كثيرة جداً.

{إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ* فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٥-٩٧) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى.

قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ} يعني يفلق الحب فيخرج منه النبات، ويفلق النوى فيخرج منه الشجر.

وبعضهم يفسر قوله: {فَالِقُ} بمعنى خالق، يعني خالق الحب والنوى، والمعنى الذي قبله هو الذي عليه عامة المفسرين وهو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

وبعضهم يقول: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] المقصود أن الله -عز وجل- جعل صفتها وهيئتها مفلوقة أي مشقوقة من الوسط، فأنت ترى النواة مشقوقة من الوسط وترى حبة البر فيها هذا الشق أيضاً، فبعضهم يقول: إن هذا هو المراد بقوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] أي خلقه بهذه الهيئة، وبعضهم يقول: يفلق الحب عن السنبل ويفلق النواة من التمرة.

والأقرب -والله أعلم- أن قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: يفلق من الحب النبات فيخرج منه السنبلة، ويفلق النواة فيخرج منها الشجرة التي يخرج منها الثمر.

وعلى كل حال فالله -تبارك وتعالى- أخبر أنه فالق الحب والنوى فيدخل في هذا المعنى أنه يفلق الحب فيخرج منه النبات، ويفلق النوى فيخرج منه الشجر، ولا مانع أن يدخل فيه المعنى الآخر وهو أن الله خلقها بهذه الصفة فهو فالقها، والمعنى الثالث داخل في ذلك أيضاً وهو أنه خالقها فكل هذا يصدق عليه أنه فلق، ولهذا قال: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [(٩٦) سورة الأنعام] أي أن الله خلقه، أو أنه ينشق عمود الصبح عن الظلام فيظهر نور الصبح، وذلك يرجع إلى الخلق أيضاً، ولهذا يقال: إن قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] يمكن أن يدخل فيه أنه خالق وبهذه الصفة يفلق تعالى من الحب النبات ومن النوى السنبلة.

والنوى لا يختص بالتمر بل النوى يصدق على الخوخ والمشمش وما شابه ذلك مما فيه نوى، والله أعلم.

ولهذا فُسِّر قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] بقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: يخرج النبات الحيَّ من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت.

الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أن قوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} من قبيل التفسير لفالق الحب والنوى، بمعنى أنك إذا قلت: ما معنى قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}؟ [(٩٥) سورة الأنعام] قال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} [(٩٥) سورة الأنعام] وهذا الذي مشى عليه ابن كثير تحتمله الآية وهو لا ينافي القول السابق، فالنواة تعتبر ميتة والحبة تعتبر ميتة فيخرج منها الحي وهي الشجرة الخضراء، أو النبتة الخضراء.

ويمكن أن يكون ذلك من قبيل عطف الأخبار فهو أخبر عن الله -عز وجل- أخباراً تدل على قدرته وعظيم شأنه -سبحانه وتعالى- ودقة خلقه وبديع صنعه، فأخبر أنه فالق الحب والنوى وأخبر أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وعلى هذا يكون هذا خبراً جديداً يقرر فيه قضية جديدة تدل على قدرة الله تعالى هي قضية غير القضية الأولى.

كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [(٣٣) سورة يـــس] **إلى قوله**: {وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [(٣٦) سورة يـــس].

وقوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام] **معطوف على** {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] **ثم فسره، ثم عطف عليه قوله**: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام].

وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

على القول بالمجاز نقسم الحي والميت إلى قسمين: حي حقيقة وحي مجازاً، وميت حقيقة وميت مجازاً، والقاعدة أن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز فالأصل حمله على الحقيقة، وإذا حملناه هنا على الحقيقة يكون معنى الآية أن الإنسان الحي خلق من نطفة ميتة، ولا يقول قائل: اكتشف العلم الحديث أن الحيوانات المنوية تسبح، فالكلام الذي يقصده الفقهاء بلغة الكتاب والسنة أن الميت هو ما لا روح فيه، فيقولون: النطفة ميتة يعني لا روح فيها، فهذا لا ينافي كون النطفة فيها حيوانات منوية تسبح.. إلى آخره.

والخلاصة أن النطفة تخرج من الإنسان ميتة وهو حي، والفرخ الحي يخرج من الدجاجة الميتة، والبيضة ميتة تخرج من الدجاجة الحية، وهكذا، ويمكن أن ندخل في هذا القول أن النبات حي باعتبار أن الله -عز وجل- سمى ذلك إحياء وحياة كما في قوله تعالى: {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [(١٩) سورة الروم] فيقال أيضاً: يخرج النبات الحي من الحبة الميتة، والشجرة الحية من النواة الميتة، والنواة الميتة تخرج من الشجرة الحية، وهكذا، هذا هو المقصود بالموت والحياة إذا حملنا لفظ الموت والحياة على المعنى الحقيقي.

وإذا حملنا الحياة على المعنى المجازي فيدخل في الحياة والموت الهدى والضلال والإيمان والكفر، فالله -عز وجل- يقول: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [(١٢٢) سورة الأنعام] فقوله: {مَيْتًا} يعني ضالاً، وقوله: {فَأَحْيَيْنَاهُ} يعني أحياه الله -عز وجل- فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} [(٩٥) سورة الأنعام] يعني يخرج المؤمن من صلب الكافر والمهتدي من الضال، وقوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام] يعني يخرج الكافر من المؤمن، والضال من المهتدي، ولهذا فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: هي معان متقاربة، وهذا صحيح فالقاعدة أنه يمكن حمل الكلام على حقيقته ومجازه ما لم يوجد مانع يمنع من

ذلك؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فتفسر الآية بهذا كله، والله -تبارك وتعالى- ما خص شيئاً دون شيء، فيخرج الحي من الميت أي: يخرج المهتدي من الضال، ويخرج الفرخ من البيضة، وهكذا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {ذَلِكُمُ اللّهُ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: **فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له** {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: **كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره.**

وقوله: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: **خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة:** {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام] أي: **فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود ويستنير الأفق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه كقوله:** {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [(٥٤) سورة الأعراف] **فبيّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله:** {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} **[(٩٦) سورة الأنعام].**

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [(٩٦) سورة الأنعام]: "**يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود ويستنير الأفق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه**".

وبعضهم يقول: أي أنه فالق عمود الفجر عن بياض النهار؛ لأن النهار يستنير بانفلاقه من عمود الفجر الذي يسمونه الفجر الصادق، فهو يبدو في أول ما يبدو مختلطاً بالظلام ثم بعد ذلك لا يزال ينبلج وينجلي حتى يصير أبيض خالصاً.

قوله: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال تعالى: {وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [(١-٢) سورة الضحى].

وقوله: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] فيه قراءة أخرى هكذا (ساكناً) والمعنى واحد؛ لأن سكناً يعني ساكناً أو محلاً للسكن، فالله جعل الليل مظلماً من أجل أن ينقطع الناس من أشغالهم وكدّهم وسعيهم وانتشارهم فيسكنون في الليل ويستريحون من الكد والتعب وأعباء النهار، فهو -عز وجل- يمتن بهذه الآية على خلقه أنه جعل الليل بهذه المثابة كما قال في الآية الأخرى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} [(٦٧) سورة يونس] وقال أيضاً: {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} [(٧٣) سورة القصص].

وفي آية القصص هذه ذكر قضيتين ثم ذكر ما يتعلق بكل واحدة منهما على الترتيب الذي سبق، وهذا من باب ما يسمى باللف والنشر المرتب، فقوله: {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} [(٧٣) سورة القصص] أي: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، والله أعلم.

وقابل ذلك بقوله: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: **ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال:** {وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} **[(١-٢) سورة الضحى] وقال:** {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} **[(١-٢) سورة الليل] وقال:** {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} **[(٣-٤) سورة الشمس].**

وقوله: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [(٩٦) سورة الأنعام] **أي: يجريان بحساب مقنَّن مقدر لا يتغير ولا يضطرب بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً.**

في قوله: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] قال: "**يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير**" وهذا هو المعنى المتبادر -والله أعلم-، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: إن قوله: **{حُسْبَانًا}** مصدر حسبت، والاسم هو الحساب؛ لأنك تقول: حسبت حساباً، وبعضهم يقول: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] أي: ضياءاً، ويحتجون لهذا بقوله -تبارك وتعالى-: **{حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء}** [(٤٠) سورة الكهف] يعني النار، وقيل لها ذلك لإضاءتها، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] أي: يجريان بحساب مقدر فيترتب على ذلك اختلاف الأوقات، وتحصل ألوان المنافع من الضياء، وبالتالي فإن من فسر ذلك بالضياء فكأنه فسره باللازم، وحساب الأوقات يكون عن طريق الشمس والقمر، والله أعلم.

كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} الآية [(٥) سورة يونس] وكما قال: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٤٠) سورة يــــس] وقال: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} [(١٢) سورة النحل].

وقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(٩٦) سورة الأنعام] **أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.**

وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(٣٧-٣٨) سورة يــــس]، ولما ذكر خلق السماوات والأرض وما فيهن في أول سورة {حم} السجدة، قال: {وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(١٢) سورة فصلت].

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٩٧) سورة الأنعام]، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وقوله: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ} [(٩٧) سورة الأنعام] **أي: قد بيّناها ووضحناها لقوم يعلمون، أي: يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.**

جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين كما قال تعالى: **{وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا}** [(١٢) سورة فصلت] وكما قال: **{بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ* وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ* لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}** [(٦-٩) سورة الصافات] وقال تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ}** [(٥) سورة الملك]، وكذلك أيضاً جعلها الله -عز وجل- للاهتداء بها كما قال هنا: **{لِتَهْتَدُواْ بِهَا}** [(٩٧) سورة الأنعام]، فهذه ثلاث فوائد للنجوم ذكرها الله تعالى في كتابه.

قوله: **{لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** [(٩٧) سورة الأنعام] الظلمات تشمل ما يصدق عليه هذا اللفظ ابتداء وهي الظلمة المعروفة، ويدخل فيها المعنى الآخر الذي ذكره طائفة من السلف، أي إذا اختلطت عليهم السبل

وخفيت عليهم الطرق وتاهوا فصاروا في عماية لا يهتدون، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حملها على المعاني الثلاثة، وهي اشتباه الطرق، والتباس السبل بحيث لا يعرف كيف يهتدي، وظلمة الليل، وبعبارة أخرى يدخل في الظلمات ظلمة الخطأ، وظلمة الضلال، وظلمة الليل، ويقول: إن الله لم يخص شيئاً من هذه المعاني ولذلك دخلت فيها جميعاً.

وقوله: {ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٩٧) سورة الأنعام] أي: ظلمة الأرض والماء، فظلمة البر يعني ظلمة الأرض وظلمة البحر يعني ظلمة الماء، وكونه أضاف الظلمات إلى البر والبحر يمكن أن يكون ذلك باعتبار ملابسة الظلمة لهما.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ* وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [(٩٨) سورة الأنعام] يعني آدم -عليه السلام- كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء} [(١) سورة النساء].

وقوله: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وأبو عبد الرحمن السلمي وقيس بن أبي حازم ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسُّدِّي وعطاء الخرساني وغيرهم: {فَمُسْتَقَرٌّ} أي: في الأرحام، قالوا -أو أكثرهم-: {وَمُسْتَوْدَعٌ} أي: في الأصلاب.

وعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وطائفة: عكسه، وعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] ذكر القول الأول وهو أن المستقر أي في الأرحام وأن المستودع أي في الأصلاب، وهذا عزاه القرطبي -رحمه الله- إلى أكثر المفسرين، أي أن عامة المفسرين من السلف ومن بعدهم يقولون بذلك، والتقدير: فلكم مستقر، أي: على ظهر الأرض، ولكم مستودع أي: في الأصلاب، أو فلكم مستقر على ظهرها ومنكم مستودع في الرحم، يعني منكم من لم يخرج إلى الآن على وجه البسيطة بل هو لا يزال في الأرحام، أو {فَمُسْتَقَرٌّ} يعني على ظهر الأرض {وَمُسْتَوْدَعٌ} أي: منكم مستودع في بطنها قد ضمته بعد أن فارق الحياة، أو فمستقر على ظهرها، ومستودع في الأصلاب لم يخرج بعد إلى الحياة.

وبعضهم يقول: المستقر في الأرحام والمستودع في الأرض، وبعضهم يقول: المستقر في القبر، وبعضهم يقول: المستقر من خُلِق والمستودع من لم يخلق، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكروها، وليس عندنا دليل

يحدد واحداً من هذه المعاني، والذي عليه عامة أهل التفسير هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أي: مستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب.

وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على أعم معانيها فقال: هذه الأقوال التي ذكرت كلها جائز أن تكون مرادة بهذه الآية.

قوله: {فَمُسْتَقَرٌّ} هذه اللفظة فيها قراءة أخرى متواترة وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء -بكسر القاف- أي: (فمستقِرٌّ) وفسرت بمعنى أن منكم مستقِرٌّ يعني على ظهر الأرض، والله أعلم.

وقوله تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [(٩٨) سورة الأنعام] أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغياثاً للخلائق رحمة من الله بخلقه.

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] كقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [(٣٠) سورة الأنبياء] {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: زرعاً وشجراً أخضر.

يقول تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [(٩٨) سورة الأنعام] وحينما ذكر إخراج النبات وإنزال المطر قال: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٩) سورة الأنعام] وقبل هذه الآية قال: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٩٧) سورة الأنعام] ثم قال: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] فنوّع في أواخر هذه الآيات حيث ذكر العلم ثم ذكر الفقه ثم ذكر الإيمان، ومعلوم أن الفقه أخص من مطلق العلم، فالفقه علم خاص يحتاج إلى دقة واستنباط، فليس كل علم يكون فقهاً ولذلك تقول: علمت بنزول المطر ولا تقول: فقهت ذلك، وتقول: علمت أن الارتواء يحصل بالماء ولا تقل: فقهت ذلك، فلما كان هذا المذكور هنا هو الإنشاء من نفس واحدة واحتاج قوله: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] إلى شيء من دقة النظر ولطافته لخفاء ذلك عُبِّر عنه بالفقه، وأما ما ذُكر قبله وبعده فإنه لا يحتاج إلى دقة في النظر ولذلك عبر بالتعبير المناسب، أعني في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] فهذا أمر يعلمه كل أحد، وهكذا الأمر في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٩) سورة الأنعام] فهذا أيضاً يدركه أهل الإيمان ويقرُّون أن الله -عز وجل- هو الخالق المدبر المحيي المميت الذي ينزل الغيث ويحيي الأرض بعد موتها.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**كقوله**: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [(٣٠) سورة الأنبياء] وقال: "**أي بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغياثاً للخلائق**" تفسيره لهذه الآية بقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [(٣٠) سورة الأنبياء] يكون باعتبار أن المعنى في قوله: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي أنه ينبت منه كل شيء، فتنبت منه أجسام الآدميين، وتنبت منه أيضاً الدواب بجميع أنواعها، وينبت منه النبات بجميع أنواعه، أي أن قوله: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] يعني ينبت منه كل شيء من

الأجسام وسائر الكائنات الحية وليس المقصود النباتات والزروع فقط، وهذا التفسير هو الذي اختـاره كبيـر المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أيضاً، لكن من أهل العلم أيضاً من فسره بالنبات المعـروف، أي: سـائر أنواع النباتات المختلفة من الثمار والزروع فكل ذلك يخرجه الله -عز وجل- بالماء الذي أنزله من السماء.

قوله: {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: أخرجنا من هذا الماء الذي أنزلناه؛ لأن المُحدَّث عنه هو الماء وليس الإخراج من النبات وذلك أن إخراج الخضر ليس من النبات وإنما يكون من الماء الـذي يُـسقى منه.

قوله: {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] قال: "**أي زرعاً وشجراً أخضر**" ففسر الخـضر بالأخـضر، وبعضهم يقول: الخضر هو الرطب من البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة، وبعـضهم يقول: المراد بالخضر سائر أنواع الحبوب كالبر والشعير والذرة وما أشبه ذلك، والله تعالى أعلم.

{فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحـب والثمـر، ولهذا قال تعالى: {نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها.

{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: جمع قنو وهي عذوق الرطب، {دَانِيَةٌ} [(٩٩) سـورة الأنعام] أي قريبة من المتناول كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضـي الله تعـالى عنهمـا-: {قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض [رواه ابن جرير].

قوله: {نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا} [(٩٩) سورة الأنعـام] أي كما نرى في السنبلة فإن الحبة فيها بهذه الصفة التـي ذكرها الله -عز وجل-.

قال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] الطلع فُسِّر بالكُفُرَّى وهو الذي يسميه العامة "الكافور"، وهو الغلاف الذي يحوي الإغريض، وذلك أنه أول ما تطلع النخلة فإنه يخرج منها الكُفُـرَّى الـذي نـسميه الكافور؛ وهذه التسمية من الكَفر حيث يستر ما بداخله من الإغريض، والإغريض هو الشيء الأبـيض فـي أوله الذي يؤبَّر ثم بعد ذلك يخضر، ثم بعد ذلك تبدأ تنعقد منه أصول البُسر، وهو ما يسمى بعد ذلك بـالقنو أو العذق، أي عذق النخيل وهو بمنزلة عنقود العنب فإذا تطاول عليه الزمن وذهب ما فيه من البسر أو الرطـب قيل له: العرجون.

قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] يعني يخرج من طلعها قنـوان، والقنوان جمع قنو، وهو العذق، وقد فسره بعضهم بهذا الكُفُرَّى أي الغلاف، وفسره بعضهم بنفس الإغـريض، وكل هذا يقال له: طلع في اللغة، فهذا الغلاف في الواقع يخرج منه الإغريض، ويخرج من هـذا الإغـريض -الذي في أوله ومبدئه بالهيئة المعروفة- حبات صغيرة جداً تتحول بعد ذلك إلى الرطب والتمر الذي يكـون في غاية الحلاوة.

قال تعالى: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: قريبة من المتناول، وفي سـورة "ق" قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} [(١٠) سورة ق] والباسقات هي الطوال، والثمر الأجود يكون في النخل النخلة القصيرة والسبب أن وصول الماء والغذاء في القصيرة يكون أسهل وذلك أنه كلما ارتفعت الشجرة إلى الأعلى كان وصول الغذاء والماء إلى ثمرها أصعب، ولذلك نجد أهل الزراعـة يقومـون بتـسميد النباتـات

بالنجاسات، ويقولون: إن ذلك يكون للشجر الطوال ولا يكون للزروع؛ لأن الزروع تتشرب ذلك وتتشبع بـــه، ولذلك إذا نظرنا إلى زروع تسقى من هذه النجاسات كالكراث وأنواع البقول والنعناع، وما أشبه ذلك لرأيناها في غاية النضارة، أي تكون مترعرعة جيدة في مظهرها تستهوي الناظر، وذلك أنه يؤثر فيها تأثيراً ســريعاً مباشراً بخلاف الأشجار الطويلة.

ومما يذكر هنا أن الله -عز وجل- في سورة "ق" قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [(١٠) سورة ق] أي طويلة وهنا قال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي قريبة لمن أراد أن يتناولها، ولهذا التفــاوت فــي الوصف وجه، فعلى قول بعضهم –كالزجاج- أن هذا من باب الاكتفاء فقال سورة الأنعام: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: وبعيدة، فاكتفى بأشرف النوعين ليدل به على الآخر.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [(٩) سورة الأعلى] على قول الفراء: أي: وإن لــم تنفــع فذكر، فاكتفى بأشرف القسمين ليدلل به على الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [(٨١) ســورة النحل] أي: والبرد، وهكذا، وهذا لا إشكال فيه.

لكن إذا قيل: إن دانية مقصود بالذكر فيكون هذا من باب الامتنان، ويكون قوله فــي ســورة "ق": {وَالنَّخْــلَ بَاسِقَاتٍ} [(١٠) سورة ق] من باب ذكر مظاهر العظمة والقدرة على الخلق، ومظاهر العظمــة والقــدرة علــى الخلق تكون في النخل الطوال، وفي الامتنان يكون بذكر النخل القصار التي تكون قنوانها في متنــاول اليــد بحيث لا يحتاج مريدها إلى كلفة وصعود وتعب، ولذلك فالمشاهد عند أهل النخيل أنهم ربما تركوا فيه الثمر؛ لأن مئونة إخراج هذا الثمر وقطافه أكثر من الانتفاع به عند بيعه والتصرف فيه حيث يكلفهم أكثر من قيمتــه فيتركونه ثم يصرمونه بعد ذلك للدواب في آخر الوقت، فهذا مشاهد، والخلاصة أن المنة تكون بالقصار أكثر من المنة في الطوال، والعظمة تظهر في الطوال أجلى من ظهورها في القصار، والله أعلم.

وفي قوله: {قِنْوَانٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] القنوان هي العذق -وهذا هو المشهور- وبعــضهم فــسروا القنــوان بالجُمَّار، وهذا بعيد، والجمار هو الذي نسميه قلب النخلة، وهو مادة بيضاء تؤكل توجد في مكمن الحياة فــي قلب النخلة الذي يخرج منه الفروع الجديدة أو العُسُب الجديدة فإذا مات هذا انتهــت النخلــة، والمقــصود أن تفسير القنوان بهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعــان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز.

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] في قراءة عاصم بالرفع (وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ) [(٩٩) سورة الأنعام] والتقدير ولهم جنات من أعناب، وهذه القراءة –بالجر- على العطف.

وهنا سؤال مقدر هو لماذا اقتصر الله -عز وجل- على ذكر هذين النوعين من الثمار –النخيل والأعنــاب- مع أنه توجد ثمار أخرى؟ فالجواب هو قول الحافظ –رحمه الله-: "**وهذان النوعان هما أشرف الثمار عنــد أهل الحجاز**"؛ أي لأن هذين النوعين هما اللذان يعرفهما العرب وهما أفضل وأنفع ما عندهم من الثمار، فــالله يمتن على المخاطبين بما يعرفونه وقد جرت عادة القرآن أنه يخاطب العرب بمعهودهم، ولذلك لما ذكر ثمــار الجنة أيضاً لم يذكر لهم ألوان الثمار الأخرى الموجودة في الدنيا مما قد يكون أجود طعماً من التمر والعنــب

وإنما خاطبهم بمعهودهم، وكذلك لما ذكر لهم عجائب الخلق في الحيوان ذكر لهم الجمل ولم يذكر لهم الفيل ولا وحيد القرن ولا الزرافة، ولم يذكر لهم أيضاً بعض الحيوانات البحرية الضخمة كبعض الحيتان ونحو ذلك؛ لأنهم ربما ما رأوا ذلك ولا عرفوه، فخاطبهم بما يعرفون.

وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [(٦٧) سورة النحل] **وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال:** {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [(٣٤) سورة يس].

هذا بناء على تفسير السكَر بالمسكِر -مع أن ذلك أباه جمع من أهل العلم، وقالوا: المقصود بالسكَر يعني العصير الحلو المستلذ- ومعلوم أنهم كانوا ينتبذون في الأسقية بأن يلقوا التمر أو الرطب في جرة ماء أو نحوها فيتحول لون الماء أو طعمه إلى لون من الشراب يقال له: النبيذ حيث يكون حلو الطعم، وربما ألقوا العنب ونحوه بدل التمر فيصير حلواً، فإذا مضى عليه مدة ربما اشتد وألقى بالزبد وصار مسكراً.

وقوله تعالى: {وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] **قال قتادة وغيره: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً.**

يعني أن أشكالها في الظاهر ربما تتشابه، لكن الطعوم تتخلف، فالزيتون أنواع كثيرة جداً، والرمان كذلك، وهكذا سائر الثمار، والآن تقام معارض لبعض الثمار كما هو معروف ونجدها تتشابه بالشكل وتختلف في الطعم، وكل نوع له خصائصه، فالتمر متشابه في الظاهر ولكنه مختلف في أنواعه وطعومه وخصائصه وتركيبه، وهكذا يشتبه شجره في ورقه وأغصانه وفروعه ولكن ثماره تكون مختلفة، فهذه شجرة عنب وهذه شجرة عنب، وهذه نخلة وهذه نخلة، إلا أن هذه يخرج منها لون من الثمر وهذه يخرج منها لون آخر، تختلف ألوانه من أحمر إلى أصفر، وتختلف أيضاً طعومه وأنواعه.

وقوله تعالى: {انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: **نضجه، قاله البراء بن عازب وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- والضحاك وعطاء الخرساني والسدي وقتادة وغيرهم، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق -سبحانه وتعالى- من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كقوله تعالى:** {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ} **الآية** [(٤) سورة الرعد].

قوله تعالى: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [(٤) سورة الرعد] يعني تجد النخلة أحياناً تشترك في أصل واحد ثم يخرج من جوانبها نخيل، وأحياناً تجد كل نخلة مستقلة عن الأخرى.

ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ} **أيها الناس** {لآيَاتٍ} أي: **دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته** {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي: **يصدقون به ويتبعون رسله.**

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [(١٠٠) سورة الأنعام] **هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.**

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا* لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا* وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا* يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [(١١٧-١٢٠) سورة النساء] **وكقوله تعالى:** {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} **الآية** [(٥٠) سورة الكهف].

وقال إبراهيم -عليه السلام- لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [(٤٤) سورة مريم] **وكقوله:** {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٦٠-٦١) سورة يس] **وتقول الملائكة -عليهم السلام- يوم القيامة:** {سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [(٤١) سورة سبأ].

هذا التوجيه الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لعبادتهم للجن أحسن من تفسير من فسر الآية بأن المقصود بالجن الملائكة لاجتنانهم بمعنى أنهم لا يراهم الناس وإنما يجتنُّون بمعنى أنهم مستترون عنهم.

ومن العرب -وليس كل العرب- من عبدت الملائكة كما هو معلوم، وادعى طائفة منهم أن الملائكة بنات الله، وعلى كل حال فهذا التفسير -والله تعالى أعلم- الذي ذكره الحافظ لعله من أفضل ما يقال في معنى الآية، ويدخل في ذلك أيضاً صرف أنواع من العبادة مباشرة للجن، مثل الذبح للجن الذي كان موجوداً عندهم، ومن ذلك الاستعاذة بالجن حيث كان يقول قائلهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ويدخل أيضاً ما أشبه ذلك من العبادات المباشرة التي يصرفونها للجن كما هو معروف، هذا كله داخل في قوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ} [(١٠٠) سورة الأنعام].

والجن يحتمل هنا أن يكون بدلاً من شركاء أي: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء} ثم فسره بقوله: {الْجِنَّ} أي أن المقصود بهؤلاء الشركاء هم الجن، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ} [(١٠٠) سورة الأنعام] **أي: وخلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كقول إبراهيم -عليه السلام-:** {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [(٩٥-٩٦) سورة الصافات] **ومعنى الآية أنه -سبحانه وتعالى- هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.**

على هذا يكون قوله: {وَخَلَقَهُمْ} [(١٠٠) سورة الأنعام] جملة حالية، يعني والحال أنه خلقهم، أو الحال أنهم علموا أنه خلقهم، أو {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ} [(١٠٠) سورة الأنعام] والحال أنهم قد علموا أنه خلقهم.

وقوله تعالى: {وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٠٠) سورة الأنعام] **ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزير -عليه السلام- ومن قاله من النصارى في عيسى -عليه السلام- ومن قال من مشركي العرب في الملائكة -عليهم السلام-: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.**

ومعنى {وَخَرَقُواْ} أي: اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف، ولهذا قال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [(١٠٠) سورة الأنعام] **أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء.**

بعض هذه المعاني التي ذكرها السلف والتي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أيضاً ترجع إلى شيء واحد، ولذلك ما احتاج إلى أن يرجح شيئاً منها، بل سرد جملة منها وقال: هذا كله داخل في معنى هذه الآية، أي أن قوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] يعني اختلقوا واخترعوا، وما أشبه ذلك. وقوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] قرأه نافع بالتشديد هكذا: **(وخرَّقوا له)** ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فقوله: **(وخرّقوا)** يدل على التكثير، أي لكثرة ما وقع من ذلك حيث زعم اليهود ما زعموا وزعم النصارى ما زعموا، وهكذا العرب حينما قال بعضهم: الملائكة بنات الله، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** وقوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] بيان أن هذه من مخازيهم وفظائعهم وجناياتهم العظيمة.

وبعضهم فسر قوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] بأن المراد بذلك الزنادقة الذين قالوا: إن الله والشيطان هما إلهان يختص كل واحد منهما بشيء من المخلوقات، فالله -عز وجل- هو الذي خلق الخير، والشيطان هو الذي خلق الثعابين والعقارب والهوام والدواب الضارة، والحشرات الضارة والنار وما أشبه ذلك، هذا قول الزنادقة، وهو يشبه قول بعض الزنادقة المعاصرين الذين يقولون: إن الله هو الشيطان وجهان لعملة واحدة -قبحهم الله-.

ومن أهل العلم من قال: إن المراد بقوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] أي مثل أولائك المجوس والمانوية الذين قالوا: إن في الكون إلهين اثنين أحدهما خلق النور والآخر خلق الظلام، وعلى كل حال ما ذكره الحافظ ابن كثير يكفي في بيان المراد، والله تعالى أعلم.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} **[(١٠١) سورة الأنعام].**

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠١) سورة الأنعام] **أي: مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف.**

{أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] **أي: كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟!، أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا}** [(٨٨-٨٩) سورة مريم] **إلى قوله: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}** [(٩٥) سورة مريم].

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] **فبيّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.**

{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ* لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٠٢-١٠٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ} أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة {لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ} [(١٠٢) سورة الأنعام] أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [(١٠٢) سورة الأنعام] أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: "من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب"[1] وفي رواية: "على الله، فإن الله تعالى قال: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام]"[2].

وثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[3].

وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده، أي تدعثر.

وقال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] ونفْي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه -تعالى وتقدس وتنزه- فلا تدركه الأبصار.

يقول تعالى: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] الإدراك غير الرؤية؛ فالإدراك يعني الإحاطة، فنحن نرى السماء لكننا لا ندركها، والله -عز وجل- قال لموسى -صلى الله عليه وسلم- ووعْده صدق وحق لا يتخلف-: {لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [(٧٧) سورة طه] يعني أن فرعون لن يدركك، قال تعالى: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [(٧٧) سورة طه] ومع ذلك قال الله -عز وجل- عن قول قوم موسى: {فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ} [(٦١) سورة الشعراء] يعني كل طائفة نظرت إلى الأخرى {قَالَ

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٦٢) (ج ٣ / ص ١١٨١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب معنى قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [(١٣) سورة النجم] وهل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه ليلة الإسراء؟ (١٧٧) (ج ١ / ص ١٥٩) إلا أن لفظ البخاري: "فقد أعظم" بدل قولها: "فقد كذب" ولفظ مسلم: "فقد أعظم على الله الفرية".

[2] - سنن الترمذي في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٨) (ج ٥ / ص ٢٦٢) وصححه الألباني.

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب في قوله -عليه السلام-: "إن الله لا ينام" وفي قوله: "حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (١٧٩) (ج ١ / ص ١٦١).

{أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا} [(٦١-٦٢) سورة الشعراء] لاحظ، فنفى الإدراك، أما الرؤية فتحققت مع أن الله -عز وجل- وعده بقوله: {لَّا تَخَافُ دَرَكًا} [(٧٧) سورة طــه] فرؤية الفراعنة لموسى ومن معه ليست من الإدراك؛ لأن الله وعده بأن لا يقع الإدراك، وبهذا نعرف الفرق بين الإدراك وبين الرؤية، فالله -عز وجل- قال: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا تحيط به {وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: يحيط بها، فنظر الناظرين إليه واقع في الآخرة كما قال -سبحانه وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [(٢٢) سورة القيامة] يعني من النضرة والحسن {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٣) سورة القيامة] يعني تنظر إلى الله -عز وجل-.

والنظر إذا عُدِّي بـ"إلى" فالمقصود به نظر العين، وإذا عدي بـ"في" فالمقصود به نظر القلب والتفكر، تقول: نظرت في كذا، سأنظر في أمرك، بمعنى التفكر، وهنا قال الله -عز وجل- في النظر إلى الله -تبارك وتعالى-: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٣) سورة القيامة] وفي الحديث: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته))[٤].

وأحاديث الرؤية متواترة، فعقيدة أهل السنة والجماعة أن أهل الإيمان يرون الله -تبارك وتعالى- في الآخرة، أما في الدنيا فإن هذه الرؤية لا تكون، ولم يره لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا غير النبي -صلى الله عليه وسلم- ولهذا لما طلب موسى -صلى الله عليه وسلم- الرؤية قال له ربه: {لَن تَرَانِي} [(١٤٣) سورة الأعراف] ثم علق هذه الرؤية -أعني إمكانها- على أمر ممكن وليس مستحيلاً فقال: {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف] فكون الجبل يبقى وأن الله -عز وجل- يقويه على هذا هو أمر ممكن، فلما لم يعلقه بشيء مستحيل دل على أن الرؤية ممكنة ولكنها ممتنعة في الدنيا لضعف قوى الخلق عنها، وأما في الآخرة فإن الله -عز وجل- ينشئوهم نشأة أخرى، والله أعلم.

ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء.

وقوله: {وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها، كما قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٤) سورة الملك] وقد يكون عبَّر بالإبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام]: لا يراه شيء وهو يرى الخلائق.

على هذا يكون معنى الأبصار أي: الناس، ويكون قوله تعالى: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا يدركه الناس وهو يدركهم، لكن هذا القول لا حاجة إليه.

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل صلاة العصر (٥٢٩) (ج ١ / ص ٢٠٣) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣) (ج ١ / ص ٤٣٩).

وقال أبو العالية في قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] قال: اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، والله أعلم، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [(١٦) سورة لقمان].

أحد معاني اللطيف أي الرفيق، والمعنى الآخر أي: الذي يعلم دقائق الأشياء، فالخبير هو الذي يعلم بواطن الأشياء، واللطيف هو الذي يعلم دقائقها، فالله تعالى ذكر هنا اللطيف والخبير فقال: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] أي هو الذي يعلم دقائق الأمور، ويعلم بواطنها، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسر قوله تعالى: {قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ* وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٤-١٠٥) سورة الأنعام] البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

{فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ} [(١٠٤) سورة الأنعام] كقوله: {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [(١٠٨) سورة يونس] ولهذا قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} لما ذكر البصائر، قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} أي: إنما يعود وباله عليه، كقوله: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [(٤٦) سورة الحج].

{وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(١٠٥) سورة الأنعام] أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو هكذا نوضّح الآيات ونفسرها ونبيّنها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى-: {قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ} [(١٠٤) سورة الأنعام] البصائر: جمع بصيرة، وهي نور القلب، فالبصر هو نور العين والبصيرة هي نور القلب، والمقصود بالبصيرة هنا الحجج والبراهين والبينات التي تدل على الحق وتوضحه.

يقول -تبارك وتعالى-: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] {وَلِيَقُولُواْ} يمكن أن تكون معطوفة على محذوف، أي: وكذلك نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست.

أو تكون علة لفعل محذوف يقدر متأخراً هكذا: وليقولوا درست صرفناها، وعلى هذا المعنى فاللام تكون للعاقبة أو للصيرورة، وعلى كل حال فهذان المعنيان يرجعان إلى شيء واحد -والله تعالى أعلم- أي سواء كان المعنى وليقولوا درست صرفناها أو وكذلك نصرف الآيات لإقامة الحجة وليقولوا درست، فعلى المعنى الأول تكون اللام لام التعليل التي تسمى لام كي، وعلى المعنى الثاني يمكن أن تكون للصيرورة، وعلى كل منهما يكون في عاقبة الأمر ونهايته أنهم يقولون: درست.

قال الحافظ ابن كثير: "**وليقول المكذبون: دارست يا محمد من قبلك**"، هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير، أي **(دارست)** من المدارسة، والمفاعلة غالباً تأتي لما كان بين طرفين فأكثر، والمعنى إنك دارست أهل الكتاب ودارسوك.

وعلى قراءة ابن عامر **(وليقولوا درَسَت)** أي أن الآيات درست بمعنى ذهبت واضمحلت وتقادم عهدها وعفت وانقطعت، وقيل غير ذلك لكن هذا هو الأقرب في تفسير هذه القراءة، والله تعالى أعلم، وهو الذي مشى عليه القرطبي وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

وقرأ الباقون **{وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ}** [(١٠٥) سورة الأنعام] وهي بمعنى قراءة **(دارستَ)** أي درست على غيرك كما قال الله -تبارك وتعالى- أنهم قالوا: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}** [(١٠٣) سورة النحل] وكما في قوله: **{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [(٥) سورة الفرقان] والمقصود أن هؤلاء زعموا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يدرس على غيره أو كان يتلقى القرآن من غيره.

وهذه القراءات الثلاث قراءات متواترة، والمعنى في القراءة الأولى والثالثة يرجع إلى شيء واحد، وأما القراءة الثانية فمعناها يختلف، ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، وخلاصة معنى القراءتين: أن الآيات عفت وتقادم عهدها، أو أنك تلقيت هذا القرآن ودرسته وتعلمته من غيرك وليس من الله -عز وجل-.

وروى الطبراني عن عمرو بن كيسان قال: سمعت ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: دارست تلوت، خاصمت جادلت، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [(٤-٥) سورة الفرقان] **وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}** [(١٨-٢٥) سورة المدثر].

وقوله: {وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] **أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}** الآية [(٢٦) سورة البقرة] **وكقوله: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ}** [(٥٣) سورة الحج] **{وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(٥٤) سورة الحج] **وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [(٣١) سورة المدثر] **وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا}** [(٨٢) سورة الإسراء] **وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}** [(٤٤) سورة فصلت] **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضلُّ به من يشاء ويهدي من يشاء.**

هذا الكلام يوضح فيه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وجه ما ذكر من أن الله يوضح الآيات ويبينها، أي أن قوله: {وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] معناه لكي يقولوا درست، -على القول بأن اللام في قوله: {وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] لام كي-، وهذه الآيات توضح هذا المعنى، فالله -عز وجل- يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهؤلاء الذين هذه صفتهم يكون القرآن وسماع الآيات لهم عمى كما قال الله -عز وجل- عنهم: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [(٤٤) سورة فصلت].

وعلى القول الآخر بأن اللام للعاقبة فالمعنى أن الله -عز وجل- قد علم أنهم ليسوا بأهلٍ لفقه هذه الآيات والعمل بها والاهتداء بها، فصار سماع هذه الآيات لا يزيدهم إلا إعراضاً، ولهذا قال بعده: {وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] مع أن القرآن بيان للجميع، ولكنه خص الذين يعلمون؛ لأنهم الذين ينتفعون به كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] مع أنه هدى لجميع الناس، فصح أن يخص به المنتفع به دون غيره مع أنه هدىً لجميع الخلق.

{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٦-١٠٧) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولمن اتبع طريقته: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} أي: اقتدِ به واقتفِ أثره واعمل به فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو.

{وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] أي: اعف عنهم واصفح واحتمل آذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لجمعهم على الهدى {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام].

قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] بعض أهل العلم يقول: إنه منسوخ بآية السيف، وممن ذهب إلى هذا كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا على قاعدة أن كل آية فيها عفو وصفح وإعراض قالوا: إنها منسوخة بآية السيف، فلا صفح ولا إعراض، وهذا غير صحيح والله تعالى أعلم، لكن يقال: هذه الآيات غير منسوخة، لكن في مكة أمر بالإعراض ثم بعد ذلك أمر بالجهاد في المدينة، وهذه أحوال وأطوار، فإذا كانت الأمة في حال من الضعف فعندئذ يتأتى الإعراض والصفح، وإذا كانت الأمة قوية وممكنة فعندئذ تتأتى مجاهدة الكفار بالسيف، ثم إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] معناه لا تكترث بهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وليس عليك حسابهم كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: إنما عليك البلاغ، فإذا فعلت ذلك فليس من شأنك الوقوف مع هؤلاء، والله تعالى أعلم.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [(٢٣) سورة الأنبياء].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [(٤٨) سورة

الشورى] **كما قال تعالى:** {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [(٢٢) سورة الغاشية] **وقال:** {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد].

{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٠٨) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين عن سبِّ آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين وهو الله لا إله إلا هو، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: قالوا: يا محمد لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسبُّ الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ} [(١٠٨) سورة الأنعام] **ومن هذا القبيل -وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها- ما جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:** ((ملعون من سب والديه)) **قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال:** ((يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه))[١] **أو كما قال -صلى الله عليه وسلم-.**

أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- باتباع ما أوحي إليه وجعل هذا هو الواجب عليه، وقال: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] أي: حسابهم ليس عليك كما قال: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر].

ثم قال: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام] وقال في الآية الأخرى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١١٢) سورة الأنعام] فالله -تبارك وتعالى- له الحكمة البالغة، لكن المؤمن مأمور بالاتباع ولزوم الحق، فلا يميل مع أهل الباطل لأي سبب من الأسباب ويكون متنازلاً عن الحق مضيعاً له بموافقة هؤلاء المبطلين، ولا تذهب نفسه أيضاً حسرات وتصيبه أنواع الأمراض بسبب شدة ما يجد مما يقوله هؤلاء أو يبينون عنه من شر وافتراء ونفاق، أي: لا يكون المؤمن بهذه المثابة؛ ولهذا يقول سبحانه: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: أنت مأمور بالاستقامة على أمر الله -عز وجل- وتبليغ دين الله -عز وجل- وهؤلاء لو شاء الله ما أشركوا، فلله الحكمة البالغة حيث أراد الله -عز وجل- إضلالهم فكانوا بهذه المثابة، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [(٩٩) سورة يونس] فهذا أصل كبير يحتاج إليه الدعاة إلى الله -عز وجل- والمصلحون، وإلا فإذا تتبع الإنسان ما يقوله القائلون ويكتبه الكاتبون ويفسده المفسدون فإنه قد يصيبه العجز والعِيُّ من كمد ما يجد ومن كثرته، ومن جراءة أولئك الصنف من الناس على الله -تبارك وتعالى-.

ثم ذكر أيضاً قضية مهمة جداً لمن أراد أن يصلح حال الناس أو يدعو إلى الله -عز وجل- {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٠٨) سورة الأنعام] فهذا أصل في المصالح والمفاسد

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب لا يسب الرجل والديه (٥٦٢٨) (ج ٥ / ص ٢٢٢٨) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠) (ج ١ / ص ٩٢).

فالمآلات معتبرة في الشريعة فلا يجوز للإنسان أن يقدم على علم صالح إذا كان يترتب عليه مفسدة أعظم من الصلاح الذي يحصل من جرائه، فهذا العمل يتحول من كونه عملاً صالحاً إلى أن يصير عملاً سيئاً فاسداً يأثم عليه ويكون من معصية الله -عز وجل- وهو في الظاهر من الأعمال الصالحة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله من لعن والديه))[2] حيث إنه لما كان متسبباً بلعن والديه صار بمنزلة من لعن والديه، وهكذا من تسبب في سب الدين أو سب الله -عز وجل- فإنه يصير بمنزلة من سب الدين أو سب الله -عز وجل-؛ لأنه قد ارتكب من الحماقات ما أثر هذا التأثير بحيث جعل الناس يتصرفون بهذه الطريقة.

وقوله: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره.

{ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: معادهم ومصيرهم {فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يقول تعالى: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] هذا ظاهره العموم، وقد راعى هذا كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فقال: هذا في الخير وفي الشر، أي: كذلك زينا لكل أمة تعمل عملها إن كانت أعمالاً صالحة طيبة كأعمال أهل الإيمان، أو كانت أعمالاً فاسدة سيئة كأعمال الكفار بجميع صنوفهم وطوائفهم.

والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو أن ذلك يختص بأعمال أهل السوء والفساد والشر من الكفار والمنافقين أخذاً من سياق الآية، حيث يقول تعالى: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٠٨) سورة الأنعام] وعلى كل حال فالتزيين لا شك أنه واقع للجميع؛ لأن الله -عز وجل- يقول في حق أهل الإيمان: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [(٧) سورة الحجرات] فالله أثبت الإيمان في قلوب المؤمنين وزين ذلك في قلوبهم ولذلك بذلوا في سبيل هذا الإيمان النفوس والمُهَج والأموال، وكذلك زُيِّن لغيرهم أعمالهم السيئة الفاسدة، ولذلك تجد أهل الباطل يتوارثون الباطل القرون المتطاولة، بل آلاف السنين حيث يلقنه الجيل لمن يأتي بعده من الأجيال ويتمسكون به، ويبذلون في سبيل نصرة باطلهم ويقاتلون دونه، ويقضي الواحد منهم جهده ووقته وماله وهو ينشر هذا الباطل فيكون قد زيِّن له، وهذه قضية عجيبة من صنع الله -عز وجل- في الخلق حتى العصاة منهم، حيث تستغرب أحياناً فتقول: هذا الإنسان المتدين الذي كان يطلب العلم كيف تحول إلى هذه الحال فصار يناضل عن الشر ويدافع عنه وينشره ويدعو إليه،؟ كيف تحول من داعية إلى الخير إلى داعية إلى الشر؟

الجواب أنه زاغ قلبه فصار الذي يفعله الآن قد زُيِّن في نفسه ويرى أن هذا شيء جيد لا إشكال فيه، أي أنه قد انقلبت نظرته حتى إنك ترى شكله قد تغير فإذا رأيته قد لا تعرفه وإن كان البدن هو نفس البدن الأول لكن القلب تغير -والعياذ بالله- وتحول هذا الذي كان يحمل هم الإسلام ويضيق صدره لما يرى ويشاهد ويسمع

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي - باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) (ج ٣ / ص ١٥٦٧).

من اعتداء على دين الله -عز وجل- وشرعه تحول إلى الفسق ومقارفة الفواحش وترك الصلوات، فأنت لا تقبل أن ترى من يجرؤ على معصية الله -عز وجل- كأن يصبح ويمسي على سماع الأغاني أو شيئاً من ذلك لكن هو لا، فما يحس في الغالب أن هذا منكر بل يتلذذ بهذا وهو يستمتع قد زُيِّن له هذا العمل كما قال تعالى: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [(٨) سورة فاطر] فهو لا يجد غضاضة بهذا.

ومن صور ذلك أن المرأة المتبرجة لا تجد غضاضة بتبرجها لكن لو أعطيت المرأة المحجبة الصالحة التقية ملء الدنيا ذهباً على أن تنزع حجابها وتخرج بصورة تلك المرأة السافرة النافشة لشعرها وما أشبه ذلك لتمنت الموت دون أن تفعل هذا، لكن من تغيَّر حاله فإنه يرى الأمور الحسنة سيئة، والسيئة حسنة، نسأل الله العافية، فهذه قضية مهمة جداً في معرفة نظر الإنسان واستحسانه للعمل الطيب أو السيئ، ولذلك ينبغي أن يدعو الإنسان ربه دائماً: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ لأنه إذا تغير قلبه تغير نظره للأعمال وتقييم الأشياء، فينظر بمنظار آخر تماماً، نسأل الله العافية والسلامة.

{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: ابتلاء وامتحاناً واستدراجاً أيضاً لهؤلاء الكافرين فيموتوا على كفرهم وباطلهم، وإلا فلو لم يزين لهم العلم السيئ لزهدوا فيه ولما بذلوا في سبيله، أو في أقل الأحوال إذا لحقهم به مشقات تركوه ومع ذلك تجد أهل الباطل عتاة في التمسك بباطلهم ونصرته والذب عنه، وتعينهم الشياطين من الجن ليقرروه ويثبتوا دعائمه وأركانه، ولا يألون جهداً في محاربة الله ورسوله، قد زُيِّن لهم عملهم، نسأل الله العافية.

وبقيت هنا قضية تحتاج إلى تنبيه وهي أنه في قوله: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أضاف التزيين إلى نفسه -تبارك وتعالى- مشيئة وخلقاً، فالله -عز وجل- خالق كل شيء، وفي الآية الأخرى: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} [(٢٤) سورة النمل] أضافه إلى الشيطان، وذلك من باب إضافة الشيء إلى سببه، فسبب ميل قلوب هؤلاء الناس إلى هذا الباطل، ومحبته أن الشيطان زينه لهم وغرهم فيه وبهرجه حتى صار في صورة تنجذب نفوسهم إليه، صاروا يهوونه ويحبونه وربما يجدون لذة في مقارفته وتعاطيه، فلما جرى هذا التزيين على يد الشيطان أضيف إليه.

{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٠٠-١١٠) سورة الأنعام].

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة {لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: معجزة وخارقة {لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: ليصدقنها.

يقول تعالى: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} [(١٠٩) سورة الأنعام] الجَهد -بالفتح- هو المشقة، والجُهد -بالضم- هو الوسع، تقول: بذلت جُهدي يعني بذلت وسعي، وتقول: هذا غاية الجُهد يعني غاية الوسع فلا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا، وتقول: بلغ مني الجَهد يعني المشقة، ومن أهل العلم من يقول: المعنى واحد سواء كان بالفتح أوبالضم، وقوله: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: مجتهدين غاية الاجتهاد فيحلفون أشد الأيمان التي يقدرون عليها أنهم إذا جاءتهم آية يعني من الآيات التي اقترحوها، وإلا فقد جاءتهم

آيات كانشقاق القمر، بل انشقاق القمر كان آية ظاهرة حيث شاهدوها ومع ذلك لم يؤمنوا، وهذا القرآن أعظم آية، لكنهم كانوا يقترحون الآيات كتحويل الصفا إلى ذهب وما إلى ذلك، فهم أقسموا على هذا الأساس.

{لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: **ليصدقنها** **{قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: **قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم.**

وقوله تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] **قيل المخاطب بما يشعركم المشركون، وإليه ذهب مجاهد، وكأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها، وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر "إنها" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان.**

هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** أي هم اقترحوا الآيات وأقسموا أنها إذا جاءتهم الآيات فإنهم سيؤمنون بها، فالله -عز وجل- يخاطب المشركين فيقول: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: تقولون: إنكم تؤمنون إذا جاءت وما يشعركم؟ ثم بدأ بكلام جديد يقرر فيه حقيقة غيبية فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وهذا مثل قوله تعالى: **{وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ}** [(٢٨) سورة الأنعام] فهم طلبوا الرجعة فأخبر الله -عز وجل- أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وهنا يقول: لما اقترحوا الآيات وأقسموا أنهم سيؤمنون بها قال: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] يعني وما يدريكم، ثم بيّن ما سيكون في المآل لو جاءت الآيات فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وعلى هذا يكون الخطاب **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] للمشركين، ثم جاء بجملة جديدة يقرر فيها مسألة غيبية فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون).**

وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر "إِن" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقيل: المخاطب بقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ} [(١٠٩) سورة الأنعام] **المؤمنون، أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في قوله: {أَنَّهَا} الكسر كالأول، والفتح على أنه معمول يشعركم.**

على القول الثاني يكون المخاطب بقوله: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] هم المؤمنون، وقد جاء به الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بصيغة التمريض وكأنه يضعفه وإن كان هذا هو قول كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبه قال الفراء أيضاً، أي أن الخطاب لأهل الإيمان باعتبار أن المؤمنين تمنوا نزول آية من أجل إيمان هؤلاء الكفار، وذلك أنه لما أقسم الكفار الأيمان المؤكدة أنها إذا جاءت آية سيؤمنون تمنى أهل الإيمان لو نزلت آية من أجل أن يؤمن هؤلاء الناس الذين حلفوا هذه الأيمان المغلظة، يعني كأنهم يقولون: ليت آية تنزل من أجل أن يؤمنوا، فالله على كل شيء قدير، فردَّ الله عليهم فقال: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] يعني وما يدريكم؟ ثم قال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وعلى القراءة الأخرى **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [(١٠٩) سورة الأنعام].

وقراءة الفتح هذه هي قراءة أهل المدينة وحمزة والكسائي وعاصم وابن عامر، وبعضهم -كالخليل بن أحمد الفراهيدي- فسر **{أَنَّهَا}** بفتح الهمزة بمعنى التعليل، أي بمعنى "لعلها" فيكون المعنى وما يشعركم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون" وهذا صحيح في أصل اللغة، ويوجد ما يدل عليه من الشواهد في كلام العرب، وهذا

تحتمله الآية على قراءة فتح الهمزة، والمعنى الآخر وما يدريكم أن ذلك إذا وقع لا يحصل المقصود وهو إيمانهم؟ والله أعلم.

فتكون {لاَ} في قوله: {أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] صلة كقوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [(١٢) سورة الأعراف] وقوله: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [(٩٥) سورة الأنبياء].

يقول: "**فتكون {لاَ} في قوله: {أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] صلة**" يعني وما يشعركم يا معاشر المؤمنين أنها إذا جاءت يؤمنون، فـ{لاَ} هذه قال: إنها صلة، ويقصد أنها زائدة، فهم يعبرون بصلة تأدباً، ويقصدون بقولهم: زائدة أي إعراباً، وإلا فهي لمعنى وهو التأكيد، ومنه قول طائفة من المفسرين في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] أي: أقسم بهذا البلد، وقولهم في قوله: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(١) سورة القيامة] أي: أقسم بيوم القيامة -على أحد المعاني- وذكر -رحمه الله- هنا قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] أي أن معناها وما منعك أن تسجد؟، وعلى هذا لا يُفهم أن "لا" هنا نافية، بل هي صلة كما قال.

وبالنسبة للكلام على الزيادة هل يصح أن يعبر بها في القرآن مع العلم أن المقصود بالزيادة هي الزيادة إعراباً؟ هذا قال به طائفة من أهل اللغة مثل الكسائي والفراء، وردَّه آخرون مثل الزجّاج والنحّاس فقالوا: هذا كلام غير صحيح وإنما هذا من باب الاكتفاء، أي أن قوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: أو يؤمنون، لكن هذا القول أضعف من القول الذي قبله؛ لأن المقصود هنا هو أن الله -عز وجل- يقرر لهم أنه حتى لو نزلت الآية فإنهم لن يؤمنوا، هذا هو الأقرب في معنى الآية، والله تعالى أعلم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [(٥٩) سورة الإسراء].

أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟، وحرام أنهم يرجعون، وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون؟.

وقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورُدَّت عن كل أمر.

وقال مجاهد في قوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [(١١٠) سورة الأنعام] ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملَهم قبل أن يعملوه.

وقال: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [(١٤) سورة فاطر] جل وعلا، وقال: {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [(٥٦) سورة الزمر] إلى قوله: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٨) سورة الزمر] فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى، وقال: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] **وقال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حُلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.**

يقول تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [(١١٠) سورة الأنعام] الأفئدة هي القلوب، والمقصود بالأبصار هنا نظر القلب، فمن قُلِبَ فؤاده فقد انطمست بصيرته ولا يرى الحق حقاً بل يرى الأشياء على غير حقيقتها، فيرى الباطل حقاً والحق باطلاً.

وهذا التقليب في قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [(١١٠) سورة الأنعام] المتبادر أنه ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا، أي: أن الله -عز وجل- يصرّف قلوبهم وأبصارهم فلا تؤمن بالحق ولا تبصره -نسأل الله العافية- وهذا المعنى أصح خلافاً لمن قال: إن المراد أن هذا التقليب يكون بالنار في الآخرة عقوبة لهم، بمعنى أن قوله: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي كما لم يؤمنوا به في الدنيا.

وقوله: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] هذه الكاف يمكن أن تكون للتشبيه ولكنها مشعِرةٌ بالتعليل، فإن لم نقل: إنها للتعليل فيبقى فيها من معنى التعليل، ويكون المعنى يحتمل أمرين:

الأول: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي أنهم في أول مرة طرق أسماعهم فلم يؤمنوا به، وكذلك في آخر الأمر لن يؤمنوا، وحتى لو جاءتهم الآيات التي اقترحوها سيحصل نفس الموقف السابق القديم، أي كحالهم في أول مرة حينما سمعوا هذا القرآن.

والمعنى الثاني: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي أن ذلك وقع لهم جزاء وفاقاً بمعنى أنهم لما أعرضوا عن الحق وكابروا غاية المكابرة أزاغ الله قلوبهم مجازاة وعقوبة لهم، فعلى هذا يكون قوله: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ} [(١١٠) سورة الأنعام] مشعراً بالتعليل والمكافأة، أي فكافأهم على كفرهم الأول وإعراضهم ومكابرتهم، فحتى لو رأوا الآيات فإنهم لن يؤمنوا؛ لأنهم كفروا أول مرة، والخلاصة أن الآية تحتمل المعنيين، أي إما أن يكون ذلك من باب المجازاة على الكفر الأول أو أنه يقرر هذا المعنى فيقول: هم باقون على كفرهم حتى لو نزلنا الآيات فهم كحالهم أول مرة، والقول بأنه مجازاة لهم استحسنه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وإن لم يصرح بترجيحه لكن قال: وهو معنى حسن، فالله أعلم.

وقوله: {وَنَذَرُهُمْ} **أي: نتركهم** {فِي طُغْيَانِهِمْ} **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والسدي: في كفرهم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: في ضلالهم.**

{يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] **قال الأعمش: يلعبون، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره: في كفرهم يترددون.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [(١١١) سورة الأنعام].

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها، فنزّلنا إليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً} [(٩٢) سورة الإسراء] **و {قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] **{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا}** [(٢١) سورة الفرقان].

{وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى} [(١١١) سورة الأنعام] **أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً}** [(١١١) سورة الأنعام] **قرأ بعضهم (قِبَلاً) -بكسر القاف وفتح الباء- من المقابلة والمعاينة، وقرأ آخرون بضمهما قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.**

وقال مجاهد: {قُبُلاً} أي: أفواجاً قبيلاً قبيلاً، أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**قرأ بعضهم (قِبَلاً) بكسر القاف وفتح الباء**" هذه قراءة نافع وابن عامر، وذلك من المقابلة، والقراءة الأخرى -قراءة الضم- هي قراءة بقية السبعة.

وقوله: "**من المقابلة**" بمعنى أن القراءتين بمعنى واحد، أو أن المراد بذلك: أفواجاً أفواجاً، كما قال الحافظ -رحمه الله-: "**أفواجاً قبيلاً قبيـــلاً**".

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بقراءة الضم أي: ضمناء وكفلاء، كما تقول: أنا قبيلي فلان، وفلان أنا قبيله، يعني أنا ضمينه وكفيله، وبهذا فُسِّرت أيضاً الآية التي استشهد بها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي قوله -تبارك تعالى-: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً} [(٩٢) سورة الإسراء] أي: ضميناً وكفيلاً، ويحتمل أن يكون بمعنى المقابلة أيضاً، والله تعالى أعلم.

{مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ} [(١١١) سورة الأنعام] أي أن الهداية إليه لا إليهم، **بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعَّال لما يريد** {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [(٢٣) سورة الأنبياء] **لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته.**

وهذه الآية كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس].

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ* وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [(١١٢-١١٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ} **الآية** [(٣٤) سورة الأنعام]، **وقال تعالى:** {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [(٤٣) سورة فصلت] **وقال تعالى:** {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} **الآية** [(٣١) سورة الفرقان]، **وقال ورقة بن نوفل -رضي الله تعالى عنه- لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي".**

وقوله: {شَيَاطِينَ الإِنسِ} [(١١٢) سورة الأنعام] **بدل من** {عَدُوًّا} **أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن.**

والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم.

بعضهم يقول: قيل له شيطان لخروجه عن نظائره، ولهذا يفسره بعضهم بقوله: إنه مأخوذ من شطنت البئر إذا بعُد غورها وقعرها، وبعضهم يقول: قيل للشيطان ذلك لبعده عن طاعة الله -عز وجل- وعن الخير، وبعضهم يقول: إن الشيطان بمعنى العاتي المتمرد، فكل عاتٍ متمرد هو شيطان، ولهذا قال الشاعر:

أيام يدعونني الشيطان من غزل وكنَّ يهوينني إن كنت شيطانا

يحكي عن الغواني اللاتي أعرضن عنه حينما لاح الشيب في رأسه، فهو يذكِّر بما كان في زمن مضى أيام عتوه وشبابه وقوته حين كنَّ هؤلاء النسوة يسمينه بالشيطان، وقوله: من غزلٍ يعني كنَّ يتغزلن به ويطلقن عليه هذا.

فالشياطين ربما قيل لهم شياطين لعتوهم وتمردهم، ولهذا قال كثير من أهل العلم كابن جرير: الشياطين يعني المَرَدة، وهذا لا إشكال فيه، وبعضهم يقول ما ذكره الحافظ ابن كثير: "**كل من خرج عن نظيره بالشر**" وهذا أيضاً لا إشكال فيه؛ فهؤلاء إنما كانوا مردة لخروجهم عن صفة نظائرهم.

وهذه الآية نص صريح في أن الإنس فيهم شياطين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الكلب الأسود شيطان))[1] وعلى كل حال فالمردة من الإنس والجن يقال لهم شياطين، وأعداء الرسل الذين ذكرهم الله -عز

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

وجل- هم من النوعين -من شياطين الإنس وشياطين الجن- ولا يختص ذلك بزمان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأيام حياتهم بل يبقون ما شاء الله في كل زمان ومكان.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن قتادة في قوله: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [(١١٢) سورة الأنعام] قال: من الجن شياطين ومن الإنس شياطين، يوحي بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزيَّن المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره.

يقول الحافظ -رحمه الله- في قوله: {**يُوحِي بَعْضُهُمْ**} "**أي: يلقي بعضهم لبعض**" الإيحاء أو الوحي أصح معانيه التي يفسر بها من كلام العرب هو كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه، ولا يختص ذلك بالإلقاء السريع الخفي -كما هو المشهور- بل يكون بهذا وبغيره، فجبريل -صلى الله عليه وسلم- جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر.. إلى آخر الحديث[٢] والمقصود أنه لم يُلقِ الوحي بسرعة وخفاء، ولذلك يقال: لا يلزم في الوحي أن يكون بسرعة وخفاء بل يطلق على ما ألقي بسرعة ويطلق على غيره، كما يقال في الكتابة: إنها وحي، ولهذا يقولون: وحي في حجر، ويقال للرمز والإشارة أيضاً وحي، ويطلق على غير ذلك أيضاً، والله أعلم.

فقوله تعالى: {**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**} [(١١٢) سورة الأنعام] أي: يلقي بعضهم إلى بعض.

وقوله: {**زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**} [(١١٢) سورة الأنعام] يعني ما تُموّه به الحقائق وتضلل به الأفهام سواء كان ذلك بتغيير الأسماء كما ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- كلاماً عن هذا في غاية الحسن والجودة حيث قال: يسمون الخمرة بغير اسمها، ويسمون الزنا بغير اسمه، ويسمون الربا بالفائدة، ويسمون الإفساد بالإصلاح، وقد قال تعالى: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**} [(١١) سورة البقرة] إلى غير ذلك من الأسماء المبهرجة التي يروجون بها الباطل فيستهوي ذلك بعض النفوس ويغتر به بعض أهل البلادة، فيرددون خلفهم هذه الألفاظ، ويتابعونهم في هذا التزيين والتضليل، فيقع بسبب ذلك مطلوبهم ومبتغاهم.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [(١١٢) سورة الأنعام] أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء، {فَذَرْهُمْ} أي: فدعهم {وَمَا يَفْتَرُونَ} أي: يكْذِبون، أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: ولتميل إليه، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

اللام في قوله: {**وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ**} [(١١٣) سورة الأنعام] لام التعليل، والمعنى أن هؤلاء يوحي بعضهم إلى بعض بإلقاء التلبيسات والوساوس والأباطيل من أجل أن يغروا غيرهم بذلك، ومن أجل أن تميل قلوبهم إلى تلك الأباطيل وترتاض عليها نفوسهم، ثم تفسد أعمالهم تبعاً لذلك.

---

[2] - جزء من حديث جبريل الطويل أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (٨) (ج ١ / ص ٣٦).

ويحتمل أن يكون ذلك تعليلاً لفعل الله -تبارك وتعالى-، ويكون المعنى أن الله -تبارك وتعالى- جعل لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] أي وذلك بحكمته ومشيئته، ومن هذه الحكم والغايات البعيدة أن تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون، فهذه حكمة مقصودة لغيرها، وهي أن ينقسم الناس إلى فريقين ويحصل الابتلاء ويظهر مقتضى الأسماء الحسنى، وأن الله -تبارك وتعالى- يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويظهر معنى اسمه -تبارك وتعالى- المنتقم والعزيز والرحيم والحليم وما أشبه ذلك، ولذلك كان دفع الباطل بحاجة إلى مجاهدة وصبر على الحق، ولذلك كان للإيمان تبعة وكلفة، ولهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم- صار أكثر الخلق على غير الهدى كما سيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ} [(١١٦) سورة الأنعام]، وهذا الظن الذي يتبعونه هو من جملة ما زينه لهم شياطين الإنس والجن، ولو شاء الله -تبارك وتعالى- ما حصل شيء من ذلك، لكن أراد الله ذلك للابتلاء، كما قال تعالى: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد] فكل ذلك مما يقع على أيدي هؤلاء الشياطين إلى يوم الدين هو بإرادة الله وحكمته ومشيئته، وعلى أهل الإيمان الصبر والمجاهدة والمدافعة، قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [(٢٥١) سورة البقرة] ولنعلم أن مثل هذه الأمور يحصل بها التوازن في هذه الحياة، ويحصل بها الصراع بين الخير والشر فيظهر فيها حزب الله -عز وجل- على حزب الشيطان، وما يسمعه الإنسان وما يقرؤه وما يراه وما يشاهده من الكيد الكبّار لدين الله -تبارك وتعالى- وما ينفثُه بعض الأفاعي في كتاباتهم من السموم التي يطعنون فيها بدين الله -عز وجل- بحيث إذا قرأها الإنسان يكاد يتميز من الغيظ، كل ذلك لو شاء ربك ما فعلوه، لكن علينا أن نتمسك بالحق وندعو إليه ونرد الباطل قدر الاستطاعة، وهذا هو الواجب على الإنسان وإلا فهذا دين الله -تبارك وتعالى- وهو منصور –بإذن الله- والملك ملك الله والخلق خلقه، ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً.

{أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم، وقال السدي: قلوب الكافرين، {وَلِيَرْضَوْهُ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: يحبوه ويريدوه.

الأفئدة هي القلوب، ويقال: إن الفؤاد قيل له فؤاد لكثرة تفؤده أي لكثرة توقده بالمعاني والخواطر والأفكار فالقلب تتحرك فيه الخواطر والإرادات فيمكن للإنسان أن يغمض عينه فلا يرى، وأن يسد أذنه فلا يسمع، أو يبقى في مكان لا يسمع فيه صوتاً، وما أشبه ذلك، لكن لا يستطيع أن يوقف قلبه فلا ترد عليه الخواطر والأفكار وما أشبه ذلك، وإذا كان الإنسان ينظر بعينه ففي الغالب أن القلب يتبع البصر، وإذا كان يسمع بأذنه فالغالب أن القلب يتبع السمع، لكن إذا كان لا يسمع ولا يبصر فالقلب يبقى في تحرك متواصل إما بأن يعيد شريط أشياء مضت أو يفكر بأشياء في المستقبل، أو غير ذلك.

{وَلِيَرْضَوْهُ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: يحبوه ويريدوه، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ* مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ* إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [(١٦١-١٦٣) سورة الصافات]، وقال تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [(٨-٩) سورة الذاريات].

وقوله: {وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [(١١٣) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وليكتسبوا ما هم مكتسبون، وقال السدي وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

على هذا تكون اللام للتعليل يعني ولتصغى وليرضوه وليقترفوا.

{أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١١٤-١١٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} أي: بيني وبينكم {وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً} [(١١٤) سورة الأنعام] أي: مبيناً.

الهمزة للإنكار في قوله: **{أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}** والحَكَم أبلغ من الحاكم -كما هو معلوم - وأصل الحكم معروف أنه يدور على معنى المنع في كل استعمالاته وذلك على قول كثير من أهل العلم، والله تعالى أعلم، فالحَكَم هو الذي يمنع أحد الخصمين من التعدي على الآخر أو من أخذ حقه، وقل ذلك كذلك في مثل موارد هذه اللفظة، فالحَكَمَة هي الحديدة التي توضع في فم الدابة لتمنعها من الانفلات، والحِكْمَة تمنع صاحبها من الشطط في القول والرأي والفعل، والله أعلم.

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} [(١١٤) سورة الأنعام] أي: من اليهود والنصارى {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين.

{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} كقوله: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(٩٤) سورة يونس] وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه.

من أهل العلم من يربط بين قوله: **{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [(١١٤) سورة الأنعام] وبين ما قبله مباشرة، أعني قوله: **{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}** [(١١٤) سورة الأنعام] يعني أنهم يعلمون ذلك فلا تشك في هذا، والاحتمال الآخر أن قوله: **{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** يعني لا تكن من الشاكّين في حقيقة الأخبار التي أوحى الله -عز وجل- إليك بها في هذا الكتاب، فالله -عز وجل- أخبره في هذا القرآن عن أمور ومنها أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق، فإذا كان هؤلاء الجهلة من المشركين يكذبونه ويقولون: إنه أساطير الأولين فإن الذين أوتوا الكتاب من قبله يعلمون أنه منزل من ربه بالحق لما يعرفون من دلائل صدقه التي يجدونها في كتابهم، ولما يجدون من الموافقة والمطابقة بين هذه الحقائق التي يُبين عنها القرآن وبين ما في كتبهم من الأخبار الغيبية، سواء كان ذلك عن أمور مضت أو عن أمور مستقبلة، أو كان ذلك مما يتعلق بصفات الله -عز وجل- فهناك مطابقة كبيرة بين ما في القرآن وبين ما في التوراة، ولذلك فإن الصفات الإلهية في التوراة -إلا ما حرفوه بسبب كذبهم على الله وافترائهم عليه- نجد أن الله وصف نفسه فيها كما جاء في القرآن وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وخبر الحبر الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكر ما يكون في اليوم الآخر معروف، ومنه قوله: إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرضين على ذه.. إلى آخره، فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم-(٣)؛ إقراراً لما قاله الحبر.

وقوله: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} [(٩٤) سورة يونس] يقول الحافظ: "**هذا شرط والشرط لا يقتضي وقوعه**" هذه قاعدة معروفة، ومن أمثلتها قوله تعالى: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] على أحد المعاني التي فسرت بها هذه الآية.

وقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] قال قتادة: صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم.

يقول تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [(١١٥) سورة الأنعام] هذا على قراءة الكوفيين، وقرأ الباقون بالجمع: **(وتمت كلمات ربك)** والقراءة بالإفراد لـ{كَلِمَتُ} يمكن أن تحمل على معنى الجمع باعتبار أن المفرد إذا أضيف فإنه يكون للعموم مثل قوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل] يعني نعم الله، فـ{نِعْمَتَ} أضيفت إلى الاسم الظاهر -وهو الله- وكذلك إذا أضيف إلى الضمير كما في قوله تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي} [(١) سورة الممتحنة] يعني لا تتخذوا أعدائي، فـ"عدو" هنا أضيف إلى ياء المتكلم، ومنه أن يضاف إلى كاف الخطاب كقوله تعالى: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــور] يعني أو أصدقائكم.

قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [(١١٥) سورة الأنعام] أو **(وتمت كلمات ربك)** كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فسر الكلمة أو الكلمات بأنها القرآن، وهذا مشى عليه كثير من المفسرين وإن اختلفت عباراتهم، وبهذا يكون المراد بالكلمة هنا الكلمات الشرعية.

قوله: {صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فأخبار هذا القرآن صدق وأحكامه في غاية العدل.

يقول: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك.

قوله: "**عدلاً في الطلب**" المراد بالطلب يعني الأحكام -الأمر والنهي-؛ لأن الكلام إما أن يكون خبراً أو إنشاءً، والطلب من الإنشاء وهي الأحكام.

فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [(١٥٧) سورة الأعراف] إلى آخر الآية.

{لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

{وَهُوَ السَّمِيعُ} لأقوال عباده {الْعَلِيمُ} [(١١٥) سورة الأنعام] بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله.

قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [(١١٥) سورة الأنعام] فسر بالكلمات الشرعية، وقوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام] يمكن أن يفسر أيضاً بالكلمات الشرعية، فيكون {لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة

---

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الزمر (٣٢٤٠) (ج ٥ / ص ٣٧١) وصـــححه الألباني.

الأنعام] بمعنى أنه إذا أخبر عن شيء فلا بد أن يقع، وقد أخبر عما يكون في يوم القيامة فلا بد أن يقع، وأخبر عما يكون للكافرين فوقع ما أخبر به، وأخبر عن ظهور دين الرسول -صلى الله عليه وسلم- فكان ذلك، وكذلك سائر الأخبار كما قال الله -عز وجل- مثلاً عن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: {قُل لَّن تَتَّبِعُونَا} [(١٥) سورة الفتح] حيث أرادوا أن يبدلوا كلام الله فقالوا: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} [(١٥) سورة الفتح] فتكون هذه مفسرة للآية التي بين أيدينا وهي قوله تعالى: {لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام]، والله أعلم.

وعلى كل حال فالكلمات تطلق على الكلمات الشرعية وتطلق على الكلمات الكونية القدرية، فإذا قال الإنسان: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فهذا مقام استعاذة، فلو قصد بها الكلمات الشرعية فهذا يصح؛ لأن القرآن كلام الله، وكلامه صفة من صفاته، والاستعاذة بالصفة أمر جائز لا إشكال فيه، فتقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بوجهك))[4] فهو استعاذ بالصفة، وهذا بخلاف الدعاء فإن الصفة لا تدعى، فلا تقول: يا عزة الله، وإنما تقول: يا الله.. يا صاحب العزة.. يا عزيز..، ففرق بين الاستعاذة وبين الدعاء.

كذلك يحتمل أن يكون معنى أعوذ بكلمات الله التامات، يعني الكلمات الكونية القدرية التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، لكن أليق المعنيين وأنسب بالمقام -مقام الاستعاذة- الكلمات القدرية؛ لأنك تستعيذ من شر كل ذي شر، فكون ذلك يحمل على الكلمات القدرية أليق وأنسب وأكثر ارتباطاً بمقام الاستعاذة، والمقصود بالكلمات الكونية القدرية: كن فيكون من قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٤٠) سورة النحل] فهذه لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر؛ لأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ* إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(١١٦-١١٧) سورة الأنعام].

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [(٧١) سورة الصافات] وقال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [(١١٦) سورة الأنعام] فإن الخَرْص هو الحَزْر، ومنه خرْص النخل وهو حزْر ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته.

{هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ} [(١١٧) سورة الأنعام] فييسره لذلك {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(١١٧) سورة الأنعام] فييسرهم لذلك، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له.

قوله تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ} [(١١٦) سورة الأنعام] لا حاجة لحمله على زمان معين كأن يقال: أي في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية، كما أنه لا حاجة إلى حمله على مكان معيّن كأن يقال: هذا في مكة باعتبار أن "أل" عهدية" في قوله: {مَن فِي الأَرْضِ} [(١١٦) سورة الأنعام] فهذا لا دليل عليه، بل هذا عام في كل زمان ومكان؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٢) (ج ٤ / ص ١٦٩٤).

يوسف] وقال الشيطان متوعداً بإضلال الناس: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٧) سورة الأعراف] والله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [(٢٠) سورة سبأ].

الحاصل أن أكثر الناس ضالون مضلون -بلا شك- ويبقى من هداهم الله -عز وجل- واصطفاهم واجتباهم، ممن يطيع ربه -تبارك وتعالى- ويتبع هذا الوحي المنزل فيكون بذلك مهتدياً، وكل من كان قائده غير الوحي من رأي وعقل وذوق ووجد، أو شياطين الإنس والجن فلا شك أنه في عماية وضلال يتخبط فيها ويتقلب ظهراً لبطن، وهذا هو حقيقة الأمر وإن ادعى المدعون أنهم مستنيرون، والله المستعان.

{فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ* وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [(١١٨-١١٩) سورة الأنعام].

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليها اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها.

ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [(١١٩) سورة الأنعام] **أي: قد بيّن لكم ما حرم عليكم ووضحه، قرأ بعضهم** {فَصَّلَ} **بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح.**

بعض السلف كعطاء حمل قوله تعالى: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] على العموم، يعني في سائر المطعومات، والذي عليه عامة أهل العلم، وهو الذي يدل عليه السياق ومقتضى الحال أن المقصود بذلك الذبائح، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} [(٥) سورة المائدة] المقصود به الذبائح على قول عامة أهل العلم، وأما غير الذبائح فلا يختص ذلك بأهل الكتاب مما يصنعونه من خبز ونحوه، فهنا في قوله: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] أي في الذبائح، وهذا أمر مستلزم لمعنى النهي، ودلالة الالتزام هذه مصرح بها فيما سيأتي بعده من قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام]، فقوله: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] يعني ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه.

وإذا كانت هذه الآية في الذبائح فإن ابن جرير –رحمه الله- حمل ذلك على اعتبار حال الذابح يعني من يقوم بالتذكية ممن تحل ذبيحته، وهو المسلم الذي لا يذبح لغير الله -عز وجل- أو الكتابي الذي لا يذبح لغير الله أيضاً، بخلاف طوائف المشركين الذين يذبحون لأوثانهم وأصنامهم وما أشبه ذلك، ولهذا لا يرى –رحمه الله- وجوب التسمية عند الذبح، وغير ابن جرير حمل ذلك على أن المراد وجوب التسمية عند الذبح، وسيأتي الكلام على هذا عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [(١١٩) سورة الأنعام] فأين فصّل هذا؟ فصّله عند قوله تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ

رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] وبعض العلماء قال: فصّله في سورة المائدة، لكن هذا في غاية البعد؛ لأن سورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام وهذه السورة مكية.

{إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [(١١٩) سورة الأنعام] **أي: إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم.**

ثم بيّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلال الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [(١١٩) سورة الأنعام] أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

سيأتي أن من إضلالهم في هذا الباب ما ذكر الله -تبارك وتعالى- في قوله: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ} [(١٣٨) سورة الأنعام] إلى غير ذلك من الفِرى التي يفتيرها هؤلاء الجهلة الذين يقولون على الله -عز وجل- بغير علم، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

قال مجاهد: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} المعصية في السر والعلانية، وقال قتادة: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} أي: سرّه وعلانيته، قليله وكثيره، كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} الآية [(٣٣) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام] نقل هنا قول قتادة -رحمه الله- إنه قال: أي سره وعلانيته، وكذا قول مجاهد: {ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام] إنه المعصية في السر والعلانية.

وبعضهم فسر الظاهر بأفعال الجوارح، والباطن بما خفي مما لا يطلع عليه إلا الله -تبارك وتعالى- وهو ما في القلب من أعمال القلوب، وبعضهم فسر ظاهره بنكاح المحارم وباطنه بالزنا، وبعضهم فسر ظاهره بالزنا مع البغايا المعلنات، وباطنه بالزنا سراً مع الخليلات، وبعضهم يقول غير ذلك، والأحسن -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذه المعاني المذكورة داخلة تحت عموم هذه الآية، وإن ظاهر الإثم يدخل فيه كل ما يصدق عليه ذلك مما ظهر على الجوارح من زنا معلن أو من كلام بذيء فاحش يسمعه غيره أو من نكاح المحارم -لأن النكاح لا يخفى-، أو غير ذلك مما يظهر به الإثم ويعلمه الناس ويشاهدونه أو يتسامعون به، ويدخل في الباطن ما ينطوي عليه القلب مما لا يحبه الله -عز وجل- ولا يرضاه، وأعظم ذلك الشرك بالقلب، وكذلك يدخل فيه الزنا سراً، والخوف من غير الله -تبارك وتعالى- خوفاً لا يصلح إلا من الله، وكذلك سائر الأمور التي تكون خفية، وهذا الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمل الآية على العموم، وهذا يرجع إلى المعنى الذي ذكره مجاهد وقتادة: أي سره وعلانيته، فظاهر الإثم هو العلانية، والباطن هو السر، ومعنى ذلك أن يترك الإنسان جميع الآثام -يعني جميع الذنوب- فالإثم يطلق على الذنب لأنه متسبب عنه فتقول: الكذب إثم، ويطلق على جريرة الذنب وهي التبعة والعقوبة التي تكون على الذنب كما تقول: من أكل المال الحرام يأثم، من سمع المعازف يأثم، بمعنى أنه يلحقه تبعة وهي أنه يستحق العقوبة، وبعضهم يطلق الإثم على نوع من المعاصي وذلك راجع إلى عرف الاستعمال، يعني في بعض الأعراف قد يطلقون

الإثم على نوع خاص من المعصية، إما لكثرة ضرره وشره وما ينبني عليه من كثرة المعاصي كما تسمى الخمر التي هي أم الخبائث إثماً، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [(١٢٠) سورة الأنعام] **أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.**

روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الإثم فقال: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه))[1].

كأن هذا معيار يرجع فيه الإنسان إلى نفسه عند التردد، بمعنى أن هناك أموراً واضحة مثل شرب الخمر والزنا فهذه لا يقال فيها مثل هذا؛ لأنه قد جاء النص الواضح الصريح في تحريمها، ولكن من الأمور ما قد يتردد فيه الإنسان فربما يجد من يسوغ له ذلك فيفتيه بالجواز، وربما وجد لنفسه المخارج أن هذا لا بأس به ونحو ذلك، فكيف يعرف في مثل هذه الحالات؟ عندنا هذا الحديث وعندنا الحديث الآخر: ((استفت قلبك))[2] وليس معنى استفت قلبك ترك العلم والحكم بما أنزل الله -عز وجل- وترك سؤال أهل العلم، وإنما المراد أن الإنسان أحياناً يسأل ومع ذلك لا يطمئن؛ لأنه لم يجد الدليل الكاشف الذي يدل على جواز هذا الشيء، فلا تطيب نفسه لفعله، وقد يفعله متتبعاً للرخص، فعندئذ يقال: استفت قلبك، يعني أن الإنسان يجد في قلبه أحياناً إنكاراً لهذا الشيء إذا كان القلب حياً نابضاً بالإيمان، أما القلب الميت فمثل هذا لا يستفتى؛ لأنه لا يشعر كما قال الشاعر:

من يهن يسهلِ الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

لكن القلب الحي يكون فيه نفور عن العمل السيئ وانقباض، فقد يحصل له مال بطريقة معينة قد يجد من يسوغ له أخذه ولكنه يجد في نفسه شيئاً، فهنا يقال له: استفت قلبك، ويقال له: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))[3].

ولذلك بعض الناس يتردد في بعض المسائل ويجد أن هذا الأمر غير سائغ فمثل هذا يقال له: دعها طالما أنك تجد في نفسك مثل هذا الحرج؛ لأنه ليس فيها نص واضح بيّن، والأمثلة على هذا كثيرة جداً في المكاسب وفي المعاشرة والنكاح وغير ذلك مما يفعله الإنسان، فإذا قال: أجد في نفسي شيئاً من هذا، نقول: دعه، وأعرض عنه؛ فالإثم ما حاك في الصدر.

{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] **استُدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم**

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

2 - أخرجه الدارمي في كتاب البيوع - باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (٢٥٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٠) وأحمد (١٨٠٣٥) (ج ٤ / ص ٢٢٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٣٤).

3 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

يذكر اسم الله عليها، وإن كان الذابح مسلماً، وبقوله في آية الصيد: {فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ} [(٤) سورة المائدة].

قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] جاء في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة جداً، وكثير منها من المراسيل، فعامة هذه الروايات لا تخلو من ضعف، ومنها ما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من بعض الطرق التي لا بأس بها، ويمكن من مجموع تلك المرويات -من المراسيل وغيرها- أن يتقوى الأثر الوارد في ذلك، وذلك أن المشركين احتجوا على المسلمين فقالوا: ما ذبحتم بأيديكم تقولون إنه حلال وما ذبحه الله أو ما قتله الله بيده الشريفة تقولون: إنه حرام؟ أأنتم أحسن من الله حتى يكون فعلكم أفضل من فعل الله بحيث صار فعلكم يحلها وفعل الله يحرمها؟

هذه شبهة ألقاها عليهم الشياطين من أجل مجادلتهم، فالله -تبارك وتعالى- رد عليهم فقال: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] فالرد جاء بهذه الطريقة كما في قوله: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [(٢٧٥) سورة البقرة] لما قالوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} [(٢٧٥) سورة البقرة]، وهذه الردود لم يذكر الله -عز وجل- فيها طرقاً في الاحتجاج والإقناع العقلي؛ لأن هؤلاء لا يؤمنون بالوحي أصلاً، وإلا فقد كان بالإمكان أن يرد على هؤلاء في بيان قبائح الميتة ومضارها الصحية وما يحصل في داخلها من التحولات، وأمور كثيرة قد تقنع السامع بأن هذه الميتة لا تصلح للأكل، لكن في مثل هذا اكتفى الله -تبارك وتعالى- بمثل هذا اللون من الرد، وطرق الرد متعددة فيمكن أن يرد على المبطل ويقال: هذا حكم الله -عز وجل- وانتهى الأمر، ويمكن أن يرد عليه بطريقة فيها تفصيل وذلك بمراعاة الجانب الذي يقر به، بمعنى أنه إن كان ينكر الوحي فيمكن أن يقتنع بأدلة العقول مثلاً، ولا مانع من ذكر الأدلة العقلية بإثبات أمر أو نفيه، وفي القرآن يوجد من هذا، ولذلك ذكر الشاطبي -رحمه الله- في أنواع الاستدلال أن هناك من الأدلة ما يستدل به على الموافق والمخالف، وهي الأدلة العقلية مثل قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [(٢٢) سورة الأنبياء] وقوله: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [(٩١) سورة المؤمنون]، وهناك أدلة يستدل بها على الموافق الذي يقر أن هذا نص أوحاه الله -عز وجل- وأنه معصوم فهذا يقال له: هذا حرام لا يجوز؛ لأن الله تعالى قال كذا وكذا، والله أعلم.

قال الله تعالى هنا: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام] وقال في الآية الأخرى: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] فمفهوم قوله: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] أي: ولا تأكلوا غيره مما لم يذكر اسم الله عليه، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً سواء ترك ذلك عمداً أو نسياناً أخذاً بالظاهر، فالظاهر من قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] أنه إذا لم يذكر اسمه فإنه لا يحل للأكل، وبهذا المنع المطلق في كل الحالات، قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم كابن عمر ومولاه نافع والشعبي وابن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، وأحمد وبه قال داود الظاهري.

وقال بعض أهل العلم: إن التسمية تسقط في حال النسيان؛ لأن الله تعالى قال: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [(٢٨٦) سورة البقرة] وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان))[4].

ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: المراد بذلك اعتبار حال الذابح، يعني إن كان الذي ذبح من أهل الأوثان فهو المراد بمنع أكل ذبيحته، وأن ما ذكر اسم الله عليه معناه أن يكون الذابح ممن تحل ذبيحته ممن لم يذبح لغير الله.

ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله.

يقول تعالى: **{وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}** [(١٢١) سورة الأنعام] يعني الأكل أو المأكول، أي إن أكلكم منه لفسق، أو إن المأكول لفسق، والمعنيان بينهما ملازمة؛ فإذا كان ذلك الطعام من الفسق فإن تعاطيه وأكله من الفسق، إلا لعذر كما دل على ذلك قوله تبارك تعالى: **{إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ}** [(١١٩) سورة الأنعام] وإذا كان تعاطيه من الفسق فإن هذا يقتضي أنه فسق يعني أنه محرم.

والفسق هو الخروج عن طاعة الله -تبارك وتعالى-، وأصل مادة الفسق يرجع إلى معنى الخروج، سواء كان هذا الخروج من طاعة الله مطلقاً -الفسق الأكبر- أو كان جزئياً بالمعصية.

وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديث عدي بن حاتم وأبي ثعلبة -رضي الله تعالى عنهما-: ((إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك)) وهما في الصحيحين[5].

في الحديث ذكر شرطين يحل بهما الأكل: الأول: ((إذا أرسلت كلبك المعلم)) أي لا بد أن يكون معلماً لا يصيد لنفسه، والثاني: ((وذكرت اسم الله عليه)) فإذا انتفت هذه الشروط أو انتفى بعضها انتفى المشروط، أي لا يحل الأكل من الصيد.

وحديث رافع بن خديج -رضي الله تعالى عنه-: ((ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه)) وهو في الصحيحين أيضاً[6].

عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- من الصحابة ولا يرد عليه إطلاقاً ما ذُكر من أن الاعتبار بحال الذابح أو الصائد؛ فعدي بن حاتم -رضي الله عنه- لا يتقرب بشيء إلى غير الله -تبارك وتعالى- ومع ذلك قال: ((وذكرت اسم الله عليه)) فالمقصود هو ذكر التسمية باللسان، ومثله الأمر بالتسمية عند ذبح الهدايا حيث قال تعالى: **{فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}** [(٣٦) سورة الحج] يعني عند نحرها، والأصل أن الأمر للوجوب.

---

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٣) (ج ١ / ص ٦٥٩) وصححه الألباني.

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٣) (ج ١ / ص ٧٦) وفي كتاب الذبائح والصيد - باب صيد القوس (٥١٦١) (ج ٥ / ص ٢٠٨٧) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩) وفيه أيضاً برقم (١٩٣٠) (ج ٣ / ص ١٥٣٢).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة - باب قسمة الغنم (٢٣٥٦) (ج ٢ / ص ٨٨١) ومسلم في كتاب الأضاحي - باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام (١٩٦٨) (ج ٣ / ص ١٥٥٨).

وحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال للجن: **((لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه))** رواه مسلم[٧].

وحديث جندب بن سفيان البجلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله))** أخرجاه[٨].

من أهل العلم من حمل هذا الأمر بالتسمية على الاستحباب، واعتبروا الصارف هو حديث عائشة -رضي الله عنها- لما سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذبائح تأتي من أناس لا يدرون هل ذُكر اسم الله عليها أو لا فقال: ((سموا أنتم وكلوا))[٩] فقالوا: وهذا يدل على أنه لا يجب، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم، كالشافعي، وهو رواية عن مالك وأحمد، وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم كابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، إضافة إلى قول من قال منهم: إن المقصود بهذه النصوص هو ما ذبح لغير الله -تبارك وتعالى-.

وذهب بعضهم وهو المشهور عن مالك وأحمد وبه قال أبو حنيفة وإسحاق بن راهويه إلى أنه تجب التسمية لكن يعفى عن النسيان؛ لقوله تعالى: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [(٢٨٦) سورة البقرة] وهذا مروي أيضاً عن جماعة من الصحابة والتابعين كعلي -رضي الله عنه- وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن وغيرهم -رحمهم الله- والقول بأنها تسقط مع النسيان لا يبعد؛ نظراً للأدلة الأخرى، لكن القول بأنها مستحبة لا يخلو من إشكال؛ لأن هذه نصوص صريحة تأمر بالتسمية وتنهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، والأصل أن الأمر للوجوب والنهي للتحريم.

وقوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام].

الشياطين صنفان: شياطين الإنس وشياطين الجن؛ كما قال الله -عز وجل-: **{شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [(١١٢) سورة الأنعام] فيحتمل أن يكون المراد بقوله: **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}** [(١٢١) سورة الأنعام] يعني شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، أي أن الوحي يكون متبادلاً بين الطرفين.

ويحتمل أن يكون المراد أن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويحتمل أن يكون المراد أن شياطين الإنس يوحون إلى إخوانهم ونظرائهم من شياطين الإنس بحيث كل واحد يلقن الثاني الحجج والشبهات من أجل إضلال الناس، فهذه المعاني تحتملها الآية إلا أن إيحاء شياطين الإنس لشياطين الجن قد لا يكون له وقوع؛ لأن العادة أن الإنس يتلقون من الجن، وشياطين الجن هم الذين يقذفون الشبهات في قلوبهم والوساوس وما أشبه ذلك، والله -عز وجل- قال: **{يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [(١١٢) سورة الأنعام] أي شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس والجن،

---

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٥٠) (ج ١ / ص ٣٣٢).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فليذبح على اسم الله)) (٥١٨١) (ج ٥ / ص ٢٠٩٥) ومسلم في كتاب الأضاحي – باب وقتها (١٩٦٠) (ج ٣ / ص ١٥٥١).

[9] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الذبائح - باب التسمية عند الذبح (٣١٧٤) (ج ٢ / ص ١٠٥٩) والدارمي في كتاب الأضاحي - باب اللحم يوجد فلا يدري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ (١٩٧٦) (ج ٢ / ص ١١٤) وصححه الألباني.

وهكذا، لكن الذي مال إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أنها من الطرفين -من الجنسين-؛ لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟! قال: صدق، وتلا هذه الآية: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ} [(١٢١) سورة الأنعام].

ابن عمر -رضي الله عنه- متزوج بأخت المختار، والمختار معروف أنه من كبار قادة ابن الزبير، وجرى على يده قتل عامة الذين شاركوا في قتل الحسين -رضي الله عنه-، وكانت جيوشه تشرّق وتغرب، ثم بعد ذلك فتن وزعم أنه يوحى إليه، وصار يخبر الناس بأشياء فيقول لهم: سيحصل كذا وسيحصل كذا، فإذا لم يحصل ما أخبر به قال -قبحه الله-: بدا لله في هذا الأمر كذا وكذا، يعني كما تقول: فلان غيَّر رأيه، ولذلك فإن مسألة البداء يقول بها الرافضة ويوغلون فيها، وقال بها هذا المتنبئ المختار الثقفي الكذاب، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يخرج من ثقيف مُبير يكثر القتل وهو الحجاج، ويخرج كذاب وهو المختار الثقفي وهو قائد من قادة ابن الزبير -نسأل الله العافية- وإذا كان قد حدث هذا في ذلك الزمان الشريف -زمان الصحابة- بل وحدث ذلك من قائد لابن الزبير حيث أتى بمثل هذه العجائب والغرائب دون حياء من الله ولا من الناس فلا غرابة أن يخرج في زماننا من يأتي بأعجب من هذا؛ وقد وُجد من يقول: إنه يوحى إليه وأنه المهدي أو أنه رسول، ويأتي بالمضحكات المبكيات، ثم تجد بعض البهائم الذين يصدقونه ويقبلون قوله بل ويستميتون في الدفاع عنه، نسأل الله العافية.

وعن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وحجَّ المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس: صدق، فقال ابن عباسٍ: هما وحيان، وحي الله ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] وقد تقدم عن عكرمة في قوله: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] نحو هذا.

وحي شياطين الإنس لشياطين الإنس واضح، وذلك أنهم يلقنونهم الشبهات ويزينون لهم الباطل ويغرونهم به، ويشجعونهم ويثبتونهم ويقوون قلوبهم، ويتعاضدون على هذا ويتواصون عليه، وأما وحي شياطين الجن لشياطين الإنس فيكون بإلقاء الشبهات وإلقاء الوساوس في قلوبهم، وما أشبه ذلك، وقد يجرونه على ألسنتهم بطرق شتى، ومن ذلك أن الإنسان قد يكون فيه شيء من المسّ أو السحر أحياناً فتجري على لسانه أمور عجيبة جداً وربما كانت في غاية التلبيس والتدليس، ويستخرج عليها شبهات أو أدلة إذا سمعها الجاهل اغتر بها ولا يعرف الجواب عنها، أعني أنها تُجرى على ألسن هؤلاء فيغتر بهم كثير من الناس فيضللونهم.

وقد يأتونهم عن طريق الرؤى فيرى مثلاً مائة إنسان أن فلاناً هو المهدي المنتظر، فإذا رأوه قالوا: أنت الذي رأيناك على أنك المهدي، وقد يكون هذا الإنسان ليس من نسل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد لا يكون اسمه محمد بن عبد الله، ومع ذلك يأتون لهم بألوان التلبيسات مما يقْنعون به أن هذا هو المهدي، ويجيبون

بتلبيساتهم عن كون اسمه ليس محمداً، وعن كونه ليس من نسل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالجاهل يظن أن هذه الإجابات حق، وخاصة أن مائة إنسان قد رأى هذه الرؤى فيقول: لا يعقل أن يرى هؤلاء كلهم هذا الأمر ثم لا يكون حقيقة.

ومن المعلوم أن الناس الذين عندهم مس أو سحر يلقي الشيطان على ألسنتهم أشياء عجيبة جداً قد لا تُتصور وقد يكون ذلك عن طريق الرؤى وقد يكون في اليقظة، ومن صور ذلك أنه بكل بساطة يقول: الآن سيتصل بي فلان، فيدق الهاتف وإذا هو فلان اتصل من بلدة أخرى، وقد لا يقصد التلبيس لكن لو أراد أن يلبس لاستطاع.

وقد يقول: الحمل الذي وقع لفلانة هو ولد، وقد يقول: ستحمل امرأتك وستأتي بولد ويكون هذا مما استرقوه من السمع!

وقد يكون هذا الإنسان من الرقاة فيضلل الناس ويلبس عليهم بقراءة القرآن، ويأتيهم بأشياء من هذا القبيل، ويخبرهم عن أشياء غيبية يتلقاها عن طريق الشياطين شعر بذلك أم لم يشعر، لكن الغالب أنه يشعر ويعرف ويضلل ويلبس عن طريق قراءة القرآن، ليظهر لهم أنه يرقي بالقرآن وهو دجال وقد يكون ساحراً، ولو علم الناس بحقيقة الأمر لوضعوا أيديهم فوق رءوسهم مستغربين أن يكون فلان ساحراً، وللعلم فإن هناك أموراً لا يمكن أن تفسر إلا بالسحر.

ومن أنواع التضليل أن بعضهم يستدل على بعض الأمور بنصوص أهل العلم كشيخ الإسلام وابن القيم فيقرأ كلاماً من كتبهم وهو من أجهل الناس لا يفهم كلام العلماء، بل قد يكون قسيساً ومع ذلك يأتي لك بنصوص من كلام شيخ الإسلام ومن كلام ابن القيم وغيرهما مع ذكر الصفحة والجزء فمن أين عرف هذا القسيس كلام شيخ الإسلام وأمثاله من أهل العلم إلا أن يكون ساحراً أو ممسوساً؟ مع أنه قد يأتي في البداية بكلام ممتاز ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لكن إلى حين، ثم يبدأ بالإفساد بصور وأساليب كثيرة وذلك إذا ظهر وصار متمكناً من قلوب الناس وعقولهم، فالله المستعان.

وقوله: {لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام] إلى قوله: {لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] قال: يوحي الشياطين إلى أوليائهم: تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه، وأن الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه.

وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟، فقال الله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] فأكلتم الميتة {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف.

يلاحظ في قوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] أن هذا شرك الطاعة والاتباع، وهو أحد أنواع الشرك، ولا يقال هنا: شرك دون شرك بل هو شرك أكبر، فإذا كانوا أطاعوهم في قضية واحدة هي تحليل الميتة فحكم الله عليهم بالشرك، فكيف لو بدلوا لهم كل شرائع الإسلام من أولها إلى آخرها وجاءوا لهم بشرع آخر؟ ذلك شرك من باب أولى، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- قد أطال

الكلام في هذه القضية في عدد من المواضع في دروسه التي سجِّلت في المسجد النبوي -رحمه الله- في هذا الموضع وفي غيره من المواضع، وبين أن طاعتهم في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

وقوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} الآية [(٣١) سورة التوبة].

وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: ((بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم))[10].

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٢) سورة الأنعام] هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً أي: في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله.

يعني أن المقصود بالموت هنا الكفر والضلال، وبالحياة الإيمان والهدى، والله -عز وجل- ذكر هذا المعنى في مواضع من كتابه، وهو معنى صحيح مشهور، وذلك أنه يعبر بالحياة عن حياة القلب واستنارته وإيمان العبد وهدايته.

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأً لم يحيَ بالعلم ميت	فليس له حتى النشور نشور

ولا حاجة أن يقال بما قاله بعض السلف -رحمهم الله- أنه كان ميتاً باعتبار أنه كان نطفة فأحياه الله -عز وجل- حيث نفخ فيه الروح.

يقول تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا} وفي القراءة الأخرى -وهي قراءة نافع-: {أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا} [(١٢٢) سورة الأنعام] بإسكان الواو وتشديد الياء.

{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، يعني هالكاً في الضلالة فأحياه الله -عز وجل- بإحياء قلبه بالإيمان، وهذا هو المتبادر -والله تعالى أعلم- في معنى الآية.

وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على معنى آخر وهو أنها نهيٌ عن طاعة المشركين المجادلين وقال: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] وأمرٌ بطاعة المؤمن الذي كان كافراً فهداه الله، حيث إن طاعته أولى من طاعة ذلك الإنسان الضال الذي قد تحير وهو يتخبط في الظلمات لا يعرف كيف يخرج منها.

لكن المعنى المتبادر -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله-، أي أن هذه مقارنة بين المهتدي وبين الضال كما في قوله تعالى: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

---

[10] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة التوبة (٣٠٩٥) (ج ٥ / ص ٢٧٨) وحسنه الألباني.

[(٢٢) سورة الملك] وليس الكلام فيها متعلقاً بقضية الطاعة، والله تعالى أعلم، أي أن قوله: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًـــا} ليس المقصود به أن طاعة من كان كافراً ثم آمن هي المطلوبة وأنها مقدمة على طاعة الكافر، والله أعلم.

والنور هو القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضـــي الله تعـــالى عنهمـــا- وقـــال السدي: الإسلام، والكل صحيح.

هذه العبارات –الإسلام، الإيمان، الهدى، العلم- كلها ترجع إلى شيء واحد، وبعضهم يقول: إن هذا النور في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] هو الذي يكون للمؤمن على الصراط، وهذا لا دليل عليه، لكن ذلك النور هو نتيجة لنور الهداية والإيمان والإسلام الذي يكون للعبد.

وقد تكلم الحافظ ابن القيم -رحمه الله- على هذه الآية بكلام جيد، وخلاصته أن الــضلال بمنزلـــة المـــوت، والهداية والعلم بمنزلة الحياة، فهو يقول: إن الحياة التي عليها مدار النجاة للإنسان على قدر اهتدائه وبـــصره بما أنزل الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكلما عظمت هدايته واكتملت كلما كان ذلـــك أكمـــل فـــي الحياة التي توهب له، وكلما نقص من هدايته ومن بصره بما أنزل الله كلما قلت هذه الحياة وضعفت، ولـــذلك فإن الإنسان كلما زاد إيمانه يشعر أن حياته أكمل وأعظم ولها معنى يعيش من أجله، ويجد من الروح واللـــذة والسرور والانشراح ما لا يقادر قدره، وكذلك من ارتاضت نفسه بالعلم يجد حياته في مجالس العلم، ويرتفـــع إيمانه، ويقوى يقينه، ويحصل له من أسباب الثبات ومعرفة معالم الطريق التي رسمها الله -عز وجل- لعباده وأمرهم بسلوكها، وتفاصيل الصراط المستقيم، ويعرف أموراً تخفى على غيره من الناس ممـــن لـــم تنـــشرح صدورهم لهذا، ولم تستنر قلوبهم بهذا العلم، فالعلم حياة، وعلى قدر ما عند الإنسان من العلم يكون عنده مـــن الانشراح والبصيرة، وهذه هي الحياة الحقيقية.

{كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] **أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة،** {لَيْسَ بِخَـــارِجٍ مِّنْهَا} [(١٢٢) سورة الأنعام] **أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه.**

وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثـــم رشَّ عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل))[11] كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّـــذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـــاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة] **وقال تعالى:** {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٢) سورة الملك] **وقال تعالى:** {مَثَلُ الْفَـــرِيقَيْنِ كَـــالأَعْمَى وَالأَصَـــمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [(٢٤) سورة هـــود]، **وقال تعالى:** {وَمَا يَـــسْتَوِي الْـــأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُـــسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ* إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [(١٩-٢٣) سورة فاطر].

والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول الـــسورة {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام].

---

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان – باب ما جاء في افتراق الأمة (٢٦٤٢) (ج ٥ / ص ٢٦) وأحمـــد (٦٦٤٤) (ج ٢ / ص ١٧٦) وصـــححه الألباني في المشكاة برقم (١٠١).

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: حسّنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدَراً من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٢) سورة الأنعام] هو كقوله تعالى: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] وقد سبق أن المعنى: أنه -تبارك وتعالى- زينه لهم قدراً وخلقاً، وأن ذلك جرى على أيدي الشياطين فنُسب إليهم كما في قوله تعالى: {زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} [(٤٨) سورة الأنفال]، وهذا التزيين حصل لحكمة من الله -تبارك وتعالى- علِمها وقدرها لينقسم الناس إلى فريقين ويتمايزون في الدنيا والآخرة، ويحصل بسبب ذلك ألوان المجاهدات، وتظهر معاني الأسماء الحسنى وما إلى ذلك.

والعجيب أنها ظلمات ومع ذلك زُيِّنت لهم، ولذلك نجد الكفار مهما كان كفرهم وضلالهم إلا أنهم يتوالدون ويربون أبناءهم على ذلك الكفر وينشئونهم عليه، وهكذا تعيش أمم تقتات على هذا الضلال والظلمات وليس عندهم غضاضة بهذا إطلاقاً؛ لأنهم قد زُيِّن لهم هذا العمل، نسأل الله العافية.

وهكذا تجد الرجل مع أنه في غاية الفقر طيلة حياته إلا أنك تراه يجمع بقرات أو عسلاً وأموالاً طائلة ويشرك بالله شركاً أكبر، حيث يعطيها لحجر أو شجر أو صاحب قبر كالسيد البدوي أو السيد الحسين أو السيدة نفيسة، يصنع ذلك وهو منبسط لا مشكلة عنده بل ويرى أنه قدم قرباه وأنه قد أراح ضميره وهو في الواقع يتخبط في الظلمات إلى النخاع، والمقصود أنه زُيِّن له سوء عمله ذلك، نسأل الله العافية.

وإذا جادلتهم رأيت العجب العجاب، حتى إن أحدهم لما نوقش وذكرت له آية من كتاب الله -عز وجل- حيث قيل له: إن الله -عز وجل- يقول: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [(٦١) سورة العنكبوت] قال: يا أخي هذه آية وهابية!! وذلك أنه يسمي من يستدل بهذه الآية وهابيين، نسأل الله العافية، وهكذا يصنع التزيين، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ}** [(١٢٣-١٢٤) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} الآية [(٣١) سورة الفرقان] **وقال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} الآية** [(١٦) سورة الإسراء] **قيل: معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمَّرناهم، وقيل: أمرناهم أمراً قدرياً، كما قال هاهنا: {لِيَمْكُرُواْ فِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك**" هكذا قال الحافظ -رحمه الله- أي: لست وحدك الذي تواجه هؤلاء العتاة من المكذبين المجرمين الماكرين.

وأما ابن جرير -رحمه الله- فإنه يربط هذه الآية بقوله تعالى: **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] يعني يكون المعنى: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها.

والجعل في قوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا}** بمعنى صيرنا؛ لأن لفظة "جعل" تأتي لمعنيين في كلام العرب، فهي تأتي بمعنى صيَّر، كما في هذا الموضع، وتأتي بمعنى خَلَق، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}** [(١٨٩) سورة الأعراف] أي: خلق منها زوجها، ومنه قوله تعالى: **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [(١) سورة الأنعام] أي وخلق الظلمات والنور.

وقوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] يحتمل فيه أكثر من إعراب، فيحتمل أن تكون لفظة "أكابر" مضافة إلى لفظة "مجرميها" وعلى هذا يكون "أكابر" هو المفعول الأول لجعل؛ وذلك أن الفعل جعل الذي يكون بمعنى صيّر له مفعولان، والمفعول الثاني لـــ"جعل" يكون هو الجار والمجرور، أي أن قوله: **{فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}** [(١٢٣) سورة الأنعام] في محل نصب مفعول به ثانٍ لـــ"جعل"، وعلى هذا الإعراب

يكون معنى الآية وكذلك جعلنا أكابر المجرمين في كل قرية، والجار والمجرور محله التأخير من الناحية الإعرابية.

والاحتمال الإعرابي الثاني أن مجرميها مفعول أول لــ"جعل" و"أكابر" مفعول ثانٍ، وعلى هذا يكون المعنى: وكذلك جعلنا مجرميها أكابرها، وهذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: أي: وجعلنا مجرميها عظماءها.

وعلى المعنى الأول يكون قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا} [(١٢٣) سورة الأنعام] معناه أن كبار المجرمين هم في كل قرية أعداء الرسل، وعلى المعنى الثاني يكون قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا} [(١٢٣) سورة الأنعام] معناه: أنه جعل مجرميها أكابرها لحكمة وهي ابتلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم بهم، والله تعالى أعلم.

يقول الحافظ -رحمه الله-: "**كما قال تعالى:** {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} **الآية [(٣١) سورة الفرقان] وقال تعالى:** {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} **الآية [(١٦) سورة الإسراء] قيل: معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمَّرناهم، وقيل: أمرناهم أمراً قدرياً**" إذا فسر قوله تعالى: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} يعني بالفسق والمعصية فإن المقصود بالأمر هنا هو الأمر الكوني القدري؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالأمر الشرعي المتمثل بالإيمان والقسط والمعروف، وإذا فسر بالمعنى الثاني أي أنه الأمر الشرعي فالمعنى أنه أمرهم بالطاعة فكفروا فدمرهم وأهلكهم، والشاهد هنا في ذكر المترفين وليس في قوله: {أَمَرْنَا}، فالمترفون هم الأكابر كما قال تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ} [(١١) سورة المزمل].

وقوله تعالى: {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} **[(١٢٣) سورة الأنعام] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} **[(١٢٣) سورة الأنعام] قال: سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وقال مجاهد وقتادة:** {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا} **عظماؤها، قلت: وهكذا قوله تعالى:** {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} **[(٣٤) سورة سبأ].**

هذا كله بيان بأن الأكابر المجرمين هؤلاء هم المترفون من النعمة، وهذا من بيان القرآن بالقرآن، فقوله: {إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا} يعني أكابر المجرمين.

{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} **[(٣٥) سورة سبأ] وقال تعالى:** {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} **[(٢٣) سورة الزخرف] والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح -عليه السلام-:** {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} **[(٢٢) سورة نوح].**

المكر هو الحيلة، وبعضهم يقول: أصله مأخوذ في اللغة من الفتل، فالماكر يدبر للإفساد، وهم يمكرون بمعنى يخططون لمحاربة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ولإفساد الخلق ونشر الباطل والصد عن سبيل الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} **[(٣١) سورة سبأ].**

في هذه الآية توضيح لمكر الأكابر هؤلاء، فلو قال قائل: كيف يمكرون؟ قيل: هذا ينكشف ويتجلى في مثل هذه الآيات، قال تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(٣٢-٣٣) سورة سبأ] ما هو مكر الليل والنهار؟ {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا} [(٣٣) سورة سبأ] يعني يأمرونهم بهذا أمراً مباشراً وبكل ما يستطيعون من حيلة يتوصلون بها إلى هذا المطلوب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثنا ابن أبي عمر قال: حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عمل.

يقول: "**كل مكر في القرآن فهو عمل**" يعني يعمل على كذا، لكن هذا يحتاج إلى استقراء، وهذه يقال لها: الكليات في القرآن، أعني قولهم: كل كذا فهو كذا، وهي مبنية على الاستقراء فإذا صح الاستقراء صحت، لكن نجد عند الاستقراء كثيراً مما يقولون فيه: إنه كذا، قد لا يثبت.

وقوله تعالى: {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(١٢٣) سورة الأنعام] أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وقال: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٢٥) سورة النحل].

وقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، كقوله -جل وعلا-: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} الآية [(٢١) سورة الفرقان].

حمل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قوله تعالى: {حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] على أن المراد به الرسالة، أي: حتى نؤتى الرسالة، وذلك باعتبار أن ما أوتيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هي الرسالة، كما أنه –رحمه الله- نظر إلى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] وهذا المعنى مشى عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، لكن الآية تحتمل معنى آخر رجحه ابن جرير -رحمه الله- وهو أن المراد بقوله: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] يعني حتى نؤتى من الآيات والمعجزات مثل ما أوتي رسل الله، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [(٢١) سورة الفرقان] فهذا من طلب رؤية الآيات وليس من طلب الرسالة، والله أعلم.

وقوله: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ* أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} الآية [(٣٢) سورة الزخرف].

يعني على قول ابن كثير والشنقيطي ومن وافقهم أنهم طلبوا أن يُعطَوا الرسالة فردَّ الله –عز وجل- عليهم بقوله: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] وهذا واضح.

وعلى قول ابن جرير -أنهم طلبوا آيات- يكون قوله تعالى: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] ردا عليهم بأن هذه الآيات إنما تكون للرسل -عليهم الصلاة والسلام- ولا تكون لغيرهم، فليس لكم أن تطلبوا ذلك وأن تقترحوا على الله -عز وجل- شيئاً لا يصلح لمثلكم.

يعنون: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ} [(٣١) سورة الزخرف] **عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم {مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ}** [(٣١) سورة الزخرف] **أي: من مكة والطائف؛ وذلك أنهم -قبحهم الله- كانوا يزدرون بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا}** [(٤١) سورة الفرقان] **وقال تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}** [(٣٦) سورة الأنبياء] **وقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ}** [(١٠) سورة الأنعام]**، هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه -صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه- حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: الأمين، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته -عليه السلام- على صدق نبوته وصحة ما جاء به[1].**

وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)) انفرد بإخراجه مسلم[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه))[3].

وقوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ} الآية [(١٢٤) سورة الأنعام] **هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبَّر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار، وهو الذلة الدائمة؛ لما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}** [(٦٠) سورة غافر] **أي: صاغرين ذليلين حقيرين.**

وقوله تعالى: {وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [(١٢٤) سورة الأنعام] **لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيُّل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً، ولا يظلم ربك**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) (ج ١ / ص ٧) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٣٩٣).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦) (ج ٤ / ص ١٧٨٢) إلا أنه دون قوله: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل)) وأخرجه الترمذي بتمامه في كتاب المناقب – باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم- (٣٦٠٥) (ج ٥ / ص ٥٨٣).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- (٣٣٦٤) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

أحداً، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [(٩) سورة الطارق] **أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر، وجاء في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان))**[٤].

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ} أي: ييسره له وينشطه ويسهله، لذلك فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} الآية [(٢٢) سورة الزمر]، **وقال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}** [(٧) سورة الحجرات].

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ} [(١٢٥) سورة الأنعام] **يقول تعالى: يوسِّع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذلك قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر.**

وقوله تعالى: {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا} [(١٢٥) سورة الأنعام] **قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون {ضَيِّقاً} بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان كهَيْن وهَيّن.**

قوله تعالى: **{ضَيِّقاً}** بالتشديد هي قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى -بالإسكان- هي قراءة ابن كثير، والمعنى واحد، وفي الغالب أن القراءات إذا كانت ترجع إلى معنى واحد فإننا لا نقف عندها ولا نشير إليها.

وقرأ بعضهم (حَرِجًا) بفتح الحاء وكسر الراء.

وهذه أيضاً خلاف قراءة الجمهور، فقراءة الجمهور **{حَرَجًا}** بفتح الحاء والراء، و **(حَرِجًا) بفتح الحاء وكسر** الراء هي قراءة نافع، والحرِج يحتمل أن يكون معناه آثماً، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه من الحرج وهو بمعنى الضيق، يقال: هذا مكان حرِج يعني مكان ضيّق، ومعنى الآية على هذا أن صدر هذا الإنسان لم يشرح للإسلام ولم يفتح الله -عز وجل- قلبه لتقبّل الهدى الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى قراءة الفتح فهو يدل أيضاً على هذا المعنى، ولذلك يقال للشجرة -بين الشجر- التي لا يوصل إليها حَرَجة، وفي السيرة في قصة غزوة بدر نجد أن أبا جهل الملقب بأبي الحكم كانوا يقولون عنه: أبو الحكم في حرَجة، أو كأنه في حرجة، يعني أنه يحيط به لفيف من المقاتلين معهم الرماح والسلاح حماية وحراسة له حتى لا يوصل إليه، وكذلك الشجرة التي لا يوصل إليها لكثرة الأشجار التي حولها، يقال لها: حرجة.

فقوله تعالى **{يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] يعني لا يصل إليه الهدى ولا يقبل الموعظة ولا ينتفع بالتذكير، والله المستعان.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب إذا قال عند القوم شيئا ثم خرج فقال بخلافه (٦٦٩٤) (ج ٦ / ص ٢٦٠٣) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب تحريم الغدر (١٧٣٨) (ج ٣ / ص ١٣٦١).

وقرأ بعضهم (حَرِجًا) بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم، قاله السدي، وقيل: بمعنى القراءة الأخرى {حَرَجًا} بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه، وقد سأل عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر -رضي الله تعالى عنه-: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

قوله: "**لا تصل إليه راعية**" يعني كالإبل والغنم.

وقوله: "**ولا وحشية**" يعني كالوعول ونحوها.

{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} [(١٢٥) سورة الأنعام] **من شدة ذلك عليه، وقال سعيد بن جبير: {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] **قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صُعُداً.**

يقول تعالى: **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ}** -بتشديد الصاد والعين، وفي قراءة ابن كثير بالتخفيف **(يصْعَد)** وزيادة المبنى لزيادة المعنى فقوله: **{يَصَّعَّدُ}** تدل على المعاناة، والذي يذكره المفسرون في معنى **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}** [(١٢٥) سورة الأنعام] أنه مثل الذي يحاول الصعود ولا يستطيع، فهو يتكلف أمراً لا يقدر عليه مما يتعذر فعله.

وأصحاب التفسير العلمي والإعجاز العلمي يقولون في هذه الآية: إن الإنسان كلما صعد إلى أعلى ضاق نفسه؛ لأن نسبة الأكسجين تقل كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، لكن نحن نقول: لا بد من أن يُنظر إلى كلام السلف هل قال أحد منهم بمثل هذا المعنى، ولا أقصد هل يقولون: إن الأكسجين يقل أو لا، وإنما أقصد هل قالوا: إن الإنسان إذا حاول أن يصعد إلى السماء يضيق صدره أم أنهم قالوا فقط: إن قوله تعالى: **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}** [(١٢٥) سورة الأنعام] معناه أنه يحاول الصعود ولا يستطيع؛ لأنه لا يستطيع الصعود إلى السماء أصلاً، بغض النظر عن موضوع الأكسجين؟

وعلى كل حال فالآية لا شك أنها تدل على معنى المعاناة في الصعود، ولا يبعد أن يُضمَّ إضافة هذا المعنى إلى ما قاله السلف -رضي الله تعالى عنهم-، بمعنى أنه قد يحاول أن يصعد ولا يستطيع، وأن الذي يصعد أو يحاول الصعود ويحصل له بعض الصعود فإنه يعاني من ضيق الصدر إضافة إلى عجزه عن الصعود إلى السماء لبعدها، وإنما قلت ذلك؛ لأن الآية فيها قرينة تشعر بهذا المعنى، فالقضية في معرض ذكر شرح الصدر وضيقه، فالذي يحاول أن يقفز ليصعد إلى السماء، هل يحصل له ضيق الصدر بمجرد هذه المحاولة، هذا لا يظهر، وأما أن يقال: إنها من قضايا الإعجاز وأن العلم الحديث اكتشفها، فهذا غير صحيح؛ لأن هذه مسألة يدركها الناس مسبقاً، ولو سألنا كبار السن الذين لم يدرسوا الأكسجين ولم يعرفوه ولم يسمعوا به، لماذا لا تصعد إلى الجبل أو نحوه من المناطق المرتفعة لقال: أنا لا يناسبني ذلك؛ لأني إذا صعدت يحصل عندي ضيق، والمقصود أن هذا أمر موجود يدركه الجميع لكن لا يعرفون فلسفته.

ومن ذلك أننا ندرك أن الماء يحصل به الري وأن الأكل يحصل به الشبع، لكن لو جئنا بإنسان متخصص فإنه سيبيّن كيف يحصل الري بالماء وكيف يحصل الشبع بالطعام، بمعنى أن فلسفة ذلك ليست واضحة إلا عند أهلها، وقل مثل ذلك في كون الإبصار يكون بالعين، فلو أتينا بمتخصص فإنه سيبيّن كيف يحصل الإبصار بالعين، وهكذا، والخلاصة أنه ليس لنا أن نرد أقوال السلف ونثبت معنى جديداً يتعارض مع أقوالهم، لكن إذا

كان المعنى الجديد يمكن إضافته إلى أقوال السلف بحيث لا يتعارض معها فلا إشكال، والله أعلم، ولذلك نقول: قال السلف في الآية كذا ويدخل فيها المعاناة والضيق الذي يحصل للإنسان إذا حاول الصعود، والله أعلم.. وعلى كل حال فهذه مسألة تحتاج إلى زيادة مراجعة.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} [(١٢٥) سورة الأنعام] **يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه.**

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته.

يلاحظ أن عباراتهم تدور على أن معنى {يَصَّعَّدُ}: أنه يحاول الصعود ويعجز.

وقال في قوله: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام] **يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله.**

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الرجس: الشيطان، وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

وبعضهم يقول: أصل الرجس في كلام العرب النَّتن، ولذلك يقال للنجاسات الحسية: رجس ويقال لها: ركس أيضاً، ويقال ذلك أيضاً في النجاسات المعنوية، كما قال تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [(٩٠) سورة المائدة] تقول: هذا رجس، ونقول أيضاً عن الشيطان إنه رجس؛ لأنه محل للعمل السيئ -نسأل الله العافية- ويقال ذلك أيضاً للعلم السيئ والفساد والإفساد والشر والإغواء، ويقال عن أهل الفساد والشر: إنهم رجس.

والله -عز وجل- قال عن المنافقين: {فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ} [(٩٥) سورة التوبة] وقال عن المشركين: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [(٢٨) سورة التوبة] والنجس بمعنى الرجس، أي: نجاسة معنوية، والنجاسة نجاستان: حسية ومعنوية.

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام] يعني يسلط عليهم الشيطان، ويدخل في معنى ذلك كل المعاني التي يمكن أن تصلح في هذا المقام، فهم أهل ومحل لهذه القاذورات من الكفر والأعمال السيئة، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ} [(٢٦) سورة النـــور] وقال -تبارك وتعالى-: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [(٢٦) سورة النـــور] قال ابن جرير -رحمه الله- وهو أحد المعاني الداخلة فيها-: الكلمات الطيبة للطيبين والعقائد الطيبة للطيبين والأعمال الطيبة للطيبين، والخبيثون هم محل للفواحش وللكلام السيئ الرديء وما لا يليق، فهم أهل لذلك وموطنه.

{وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ* لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٦-١٢٧) سورة الأنعام] **لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادِّين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى:** {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا} [(١٢٦) سورة الأنعام] **منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم.**

{قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ} **أي: وضحناها وبيَّناها وفسرناها** {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] **أي: لمن لهم فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله.**

{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **وهي الجنة** {عِندَ رَبِّهِمْ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام.**

{وَهُوَ وَلِيُّهُمْ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: حافظهم وناصرهم، ومؤيدهم،** {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه.**

يقول تعالى: {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ} [(١٢٧) سورة الأنعام] إضافة الدار إلى السلام هنا يحتمل أن يكون المراد بالسلام أي: الله -تبارك وتعالى- فتكون الإضافة إلى السلام يعني لهم دار الله التي بناها لأوليائه وعباده المتقين، فهذا تحتمله الآية؛ لأن الله هو السلام، وهذا القول اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ويحتمل أن يكون المراد بالسلام التحية، فتحية أهل الجنة السلام، كما قال الله -عز وجل-: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} [(٢٣) سورة إبراهيم] ويشمل المعاني الثلاثة التي ذكرها السلف، أي: أن الله يحييهم بذلك كما قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [(٥٨) سورة يـــس] والملائكة تحييهم بهذا كما قال تعالى: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [(٢٤) سورة الرعد] وكذلك يحيي بعضهم بعضاً كما قال تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [(٤٤) سورة الأحزاب] فيحتمل هذه المعاني الثلاثة وكلها حق، فعلى هذا تكون الإضافة في قوله: {دَارُ السَّلاَمِ} باعتبار تحية أهل الجنة.

والمعنى الثالث هو أن المراد السلامة من الآفات، وهذا المعنى هو الأقرب، فالجنة هي دار النعيم المقيم الذي لا تنغيص فيه، ولهم فيها المقام الكريم، فلا يجدون فيها شيئاً من المنغصات التي يجدها أهل الدنيا في دورهم ومساكنهم، كما أن هذه المعاني الثلاثة التي ذكروها متلازمة كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، فمعنى السلام من أسماء الله -عز وجل- السالم من كل عيب ونقص وآفة، وهو الذي سلم عباده من أن يظلمهم، وهو الذي يسلمهم أيضاً من الآفات، وما أشبه ذلك، ولذلك إنما تطلب السلامة منه -سبحانه وتعالى-.

والسلام في التحية حينما تقول: السلام عليكم، هل المراد به أنك تلقي الاسم الكريم على هؤلاء الذين حييتهم بذلك؟ هذا يكون من قبيل الخبر وهو محتمل، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء.

وأذكر لابن القيم -رحمه الله- كلاماً في هذا المعنى جمع فيه هذه الأشياء جميعاً، في التحية بالسلام، وذكر أنها معانٍ متلازمة وفصّل في هذا تفصيلاً حسناً.

والخلاصة أن قوله: {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ} [(١٢٧) سورة الأنعام] يمكن أن يكون معناه: لهم دار السلامة من الآفات، على أنه لا منافاة بين هذا المعنى والمعاني الأخرى بل بين هذه المعاني ملازَمة، باعتبار أن السلام سواء نظرت إليه باعتبار أنه من أسماء الله أو باعتبار التحية أو باعتبار السلامة فإن معناه السلامة من الآفات الحسية والمعنوية، ولذلك فإن الله -عز وجل- حينما يذكر الجنة يذكر الخلود معها غالباً؛ لأن الموت هو الذي ينغص على الإنسان لذته وراحته وسعادته، فمهما كان المكان الذي يقيم فيه مليئاً بالحبور والسعة والنعيم والراحة إلا أنه إذا تذكر الموت تنغص عليه ذلك، فالجنة لا يوجد فيها مثل هذا التنغيص بل هي مقام كريم، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ} [(١٢٨) سورة الأنعام].

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ} أي: ثم يقول: يا معشر الجن، وسياق الكلام يدل على المحذوف، ومعنى قوله: {قد استكثرتم من الإنس} أي: من إغوائهم وإضلالهم، كقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [(٦٠-٦٢) سورة يـــس].

{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [(١٢٨) سورة الأنعام] **يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.**

قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرتْ وعمِلت الإنس، وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة، وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم باستعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] **قال السدي: يعني الموت.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} يشمل كل ما قاله السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فاستمتاع الإنس بالجن له صور متعددة، والذي ذكره السلف -رضي الله عنهم- إنما هو من قبيل المثال، ومن ذلك أن الإنس يتحقق لهم بعض ما يطلبون عن طريق الجن -كالسحر الذي يتم عن طريق الشياطين، وكذلك ما يحصل للكهان من الأخبار الغيبية التي تأتي عن طريق استراق السمع فيضللون بها الناس ويلقون لهم أشياء من الأمور الغيبية التي يبحث عنها هؤلاء الناس.

ومن ذلك ما يحصل لهم من الانتفاع عن طريق تحصيل الضالة بتصرفات تقع من المشعوذين والدجالين الذين يستعينون بالشياطين.

ومن ذلك ما يحصل لهم من أنواع من الانتفاع المحرم من خلال ما يحصل من سرقات للأموال عن طريق الجن فيعطونها لأوليائهم، ومن ذلك ما يتوهمونه أيضاً من الحماية حيث إنهم إذا نزلوا وادياً قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي، ومن ذلك ما يظنون أنهم يتداوون به.

وأما استمتاع الجن بالإنس فهذا أيضاً يقع على صور كثيرة، منها أنهم قد يذبحون لهم ويعظمونهم ويستعيذون بهم إلى غير ذلك مما يبذله الإنس للجن والشياطين، فيحصل لهم التذاذٌ بسبب ذلك، ويتعاظمون به ويحصل لهؤلاء الجن بسبب هذا بعض الانتفاع المحرم.

وعلى كل حال فإنهم يقولون: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [(١٢٨) سورة الأنعام] قال الحسن: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرتْ وعمِلت الإنس، يعني عملت بما زينه لهم الجن -هذا أحد المعاني الداخلة فيه- بمعنى أن الشياطين يضلون الناس ويزيِّنون لهم الباطل والمنكر فيعمل به من شاء الله، فيحصل للشياطين التذاذٌ وفرح بإغوائهم للناس.

وقوله: {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] قال: يعني الموت، مع أنهم قالوا هذا الكلام في اليوم الآخر، فيحتمل أن يكون الموت؛ لأن هذا الصراع وهذا الالتذاذ وهذا الإغواء كله يحصل في الحياة الدنيا فينتهي بموت الإنسان.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] هو المشار بقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] فالأجل الأول هو الموت، والأجل الثاني هو البعث، وهذا اختاره ابن القيم -رحمه الله- أي: {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا} بالموت وبالأجل الآخر الذي وقفنا فيه بين يديك للحساب، وهو أجل البعث.

وقولهم: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] يعنون أن ذلك الاستمتاع والاستلذاذ الذي وقع منهم قد انتهى، وقد يفهم من أسلوبهم هذا في الخطاب أنهم أرادوا استجلاب الرحمة كما قد يعبر عنه في كلام الناس بالاستعطاف، فهم يقولون إنما كان ذلك في وقت ثم تصرّم وزال وصار خبراً بعد عين، والآن قد صرنا إلى هذه الحال بعيداً عن هذا الالتذاذ الذي تصرّم وانقطع فلم يبقَ له أثر، فكأنهم يقولون: هذا الكفر كان في مدة محددة وقد مضت وانتهت فتجاوزْ عنا، وهذا ما فهمه ابن القيم -رحمه الله- والآية تحتمل هذا، والله أعلم.

{قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم {خَالِدِينَ فِيهَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: ماكثين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله.

من أهل العلم من قال في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام]: إن المستثنى هنا هو مدة الحشر من القبور والحساب، وبعضهم -ككبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: إلا مدة بقائهم في القبور إلى مصيرهم إلى جهنم، يعني ما بين الموت ودخول النار، وبعضهم يقول غير هذا، لكن هذه التأويلات لا تخلو من تكلف وبُعد؛ لأن الله -عز وجل- يخبر عن بقائهم في النار فيقول: {خَالِدِينَ فِيهَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] يعني إذا دخلوها، فهم يبقون فيها أبداً بلا انقضاء كما قال الله -عز وجل-: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ} [(٧٧) سورة

الزخرف] وأخبر أن عذابهم لا يفتّر عنهم، وأنهم لا يموتون ولا يخفف عنهم من عذاب النار فقال تعالى: **{لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}** [(٧٥) سورة الزخرف] وقال تعالى: **{لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}** [(٣٦) سورة فاطر] وقال: **{وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}** [(١٦٧) سورة البقرة] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الخلود.

فقوله تعالى: **{إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] أظهرُ الوجوه في تفسيره -والله تعالى أعلم- أن هذا التعليق على المشيئة إنما هو من قبيل التعليق على المشيئة في الأمر المتحقق دون أن يراد به مطلق التعليق، يعني هذا الاستثناء **{إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] على وجه التحقيق لا على وجه التعليق، ومعنى على وجه التحقيق يعني في الأمر الذي يكون قطعاً لكن تذكر المشيئة؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل- كقوله -تبارك وتعالى-: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ}** [(٢٧) سورة الفتح] فهم داخلوه قطعاً ومع ذلك علقه على المشيئة.

والله -عز وجل- لما ذكر خلودهم في النار في سورة هود قال: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [(١٠٧) سورة هود]، ولما ذكر خلود أهل الجنة قال: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [(١٠٨) سورة هود] فهذه الآية مثل هاتين الآيتين حيث ذكر فيهما الاستثناء في حق أهل الجنة وحق أهل النار مما يبيّن ويوضح أن الاستثناء هنا ليس المراد به -بحال من الأحوال- أن أهل النار يخرجون منها في وقت من الأوقات كما قد يفهمه من شذَّ في فهم مثل هذه النصوص.

وقد جاءت روايات أن النار تفنى وأنه ينبت على شفيرها أو على نواحيها أو جوانبها أو فيها ينبت الجرجير، وما أشبه ذلك، وهذه الروايات كلها لا تصح بحال من الأحوال، لذلك يقال: هذا الاستثناء كالاستثناء في نعيم أهل الجنة الذي لا ينقطع وكالاستثناء في قوله تعالى: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ}** [(٢٧) سورة الفتح]، ثم إن الأدلة كلها تدل على أن أهل النار لا يخرجون منها بحال من الأحوال، ولذلك يقال -والله تعالى أعلم-: إن الاستثناء هنا إنما هو من باب التحقيق، أي علق ذلك على مشيئة الله -عز وجل-؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته وليس المراد التعليق المطلق الذي قد يفهم منه أنهم قد يخرجون وأن عذاب أهل النار يفنى وينقطع.

وأما التأويلات التي ذكرها بعض أهل العلم في الاستثناء أنه مدة الحساب أو من الموت إلى دخولهم النار، هذه تأويلات بعيدة؛ لأن قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] هو كلام عن بقائهم في النار فإذا قلنا: إن المقصود بالاستثناء أي من الموت إلى كذا أو أنه البقاء في القبور فإنهم ما دخلوا النار بعد، فكيف يكون ذلك مستثنى من خلودهم فيها؟ هذا لا يصح أن يقال، والله تعالى أعلم.

{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] **وقال معمر عن قتادة في تفسير الآية: يولِّى الله بعض الظالمين بعضاً في النار، يتبع بعضهم بعضاً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}** [(١٢٩) سورة الأنعام] **قال: ظالمي الجن**

وظالمي الإنس، وقرأ: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [(٣٦) سورة الزخرف] قال: ونسلط ظلَمة الجن على ظلَمة الإنس.

القول الأول في تفسير قوله: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}** [(١٢٩) سورة الأنعام] هو رواية معمر عن قتادة: يولِّى الله بعض الظالمين بعضاً في النار يعني يتبع بعضهم بعضاً، أي يلي بعضهم بعضاً في الدخول إلى النار فكلما جاءت دفعة فدخلت النار جاءت الثانية بعدها والثالثة والرابعة وهكذا يدخلون النار دخولاً متتابعاً كما قال تعالى: **{كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ}** [(٣٨) سورة الأعراف] وهذا -والله تعالى أعلم- خلاف الظاهر المتبادر من الكلام.

والقول الثاني –وهو الأقرب- هو رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس، يعني نسلط بعضهم على بعض **{جَزَاء وِفَاقًا}** [(٢٦) سورة النبأ] أي: أن الله يعاقبهم في الدنيا بأن يأتي للظالم من هو أظلم منه فيتسلط عليه.

وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

ابن الزبير -رضي الله عنه- حينما كان في أيام إمارته بلغه خبر عمرو بن سعيد بن العاص الذي يلقب بالأشدق وقد كان معروفاً بأنه ظالم جبار حيث كان يرسل الجيوش من المدينة إلى مكة لقتال ابن الزبير، حتى ذَكر له بعضُ الصحابة حديثَ حرمة مكة فقال: نحن أعلم بهذا منك، وكان عبد الملك بن مروان قد وعد عمرًا هذا بالخلافة من بعده، لكن عبد الملك بن مروان لما تمكن جعل الأمر لأربعة من أبنائه، فلما خرج عبد الملك من دمشق يريد قتال مصعب بن الزبير وضع الأشدق يده على دمشق وحصنها ووضع الرجال على القلاع وعلى الأسوار وأغلق الأبواب، فعلم عبد الملك بذلك فرجع وحاصر دمشق ثم انتهوا إلى صلح واتفاق، وهو أن يكتب عبد الملك لعمرو بن سعيد بن العاص كتاباً أنه هو الخليفة من بعده وأن لا يُمَس بسوء وأن لا يتعرض له، فدخل عبد الملك دمشق وبينما هو جالس بين بني مروان بعث للأشدق أن يأتي إليه، فقال له بعض أصحابه: لا تذهب إليه، قال: وماذا عسى أن يصنع؟ -قالها؛ لأنه جبار لا يبالي!- فلبس درعاً تحت ثيابه وذهب مع خادمه ودخل عليه فلما رأى بني مروان قد اجتمعوا كأنه توجس الغدر، فقال لخادمه: اذهب إلى أخي وقل له يحضر، ثم تقدم وقال له: مرحباً، فقال له عبد الملك: تعال، فأجلسه عنده، ثم قال: إني قد نذرت نذراً أني إن تمكنت منك أن أضعك في كيس وأن أقبض مجامعه بيدي، قال له: اتق الله؛ لقد أعطيتني عهداً، فقال من حضر من بني مروان نحن شهود على ذلك لكن هذا نذر أمير المؤمنين ماذا عليك أن يفي بنذره، فأخرج عبد الملك الكيس من تحت سريره وبسطه فأدخله فيه فلما شده تلَّه تلَّةً فضربت ثنيته بالسرير فانكسرت، فقال له عمرو وهو في الكيس: اتق الله يا أمير المؤمنين، لا يحملنك زهوق عضو مني على إزهاق نفسي، ثم أُذِّن للصلاة فبدأ الناس يطرقون الباب، وعهد عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز بن

مروان –والد عمر بن عبد العزيز- وهو أخوه لأبيه عهد به إليه ليقتله ويخرج هو إلى الصلاة، فقال له الأشدق: دع قتلي بيد غيرك -لما بينه وبينه من الرحم-، فتركه، فدخل عبد الملك بن مروان ووجده لم يُقتل، فعيَّر عبد العزيز بأمه، وأخذ الرمح وضرب بها الأشدق، فما نفذت فيه، فقال: ودارعٌ أيضاً، فأخذه وذبحه ذبحاً، ثم قال: ما رأيت طالب دنيا ولا طالب آخرة مثل هذا، يعني ما رأيت أحداً من طلاب الدنيا ولا من طلاب الآخرة مثل هذا في بأسه وشدته.

المهم أن ابن الزبير بلغه الخبر وهو في مكة، فقال على المنبر يلمز عبد الملك بن مروان: إن فلاناً قد قتل فم الذئاب -يعني الأشدق- وقرأ قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] أي أنه استشهد بهذه الآية على تسليط الظالم على الظالم.

والآية تحتمل معنى ثالثاً: هو أن ذلك من الولاية، بمعنى أن قوله: {نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} أي: يكونون أولياء بعض، كما قال الله -عز وجل- عن المؤمنين: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [(٧١) سورة التوبة] وقال عن المنافقين: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [(٦٧) سورة التوبة] وقال عن الكافرين من اليهود والنصارى: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٥١) سورة المائدة] فالله -تبارك وتعالى- قال قبل هذه الآية: {وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] ثم قال: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [(١٢٩) سورة الأنعام] أي: يكونون أولياء لبعض يتناصرون على باطلهم، وما أشبه ذلك، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- بقرينة الآية التي قبلها {وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ} ولكن السياق قد يشعر بغير هذا والله تعالى أعلم، وذلك أن الله -عز وجل- قال: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٨-١٢٩) سورة الأنعام] فالباء للسببية والتعليل في قوله: {بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} فكأن ذلك من باب أن الله يسلط بعضهم على بعضهم بكسبهم السيئ وعلمهم السيئ، وعلى قول ابن جرير يعني بأعمالهم السيئة صار بينهم مجانسة وصار بعضهم ولي لبعض، لكن التعليل قد يكون أدل على المعنى الذي قبله وهو تسليط بعض الظالمين على بعض، والله أعلم.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(١٣٠) سورة الأنعام]، **وهذا أيضاً مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم -وهو أعلم-: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير.**

قد يكون الكلام فيه مقدر محذوف يعلم من السياق، فذلك جائز كما قال ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيدٌ بعدَ من عندكما

يعني يكون الكلام في قوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: يوم نحشرهم نقول لهم: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام].

ويحتمل أن يكون هذا شروعاً في حكاية ما سيكون في المحشر، أي أنه انتهى من القضية الأولى التي في قوله: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] ثم شرع في ذكر ما يحصل في المحشر من سؤالهم سؤال تبكيت ليقروا على أنفسهم بالظلم والتمرد والعتو على الله -عز وجل-.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي من جملتكم، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل.

يقول تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] يعني من مجموعكم الصادق على الإنس، أي يكون ذلك في بعضهم من الإنس، وأما الجن فليس منهم رسل بل منهم نُذُر كما قال تعالى: {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} [(٢٩) سورة الأحقاف].

وبعض أهل العلم يقول: {رُسُلٌ مِّنكُمْ} أي: ممن هو مجانس لكم في الأمور المشتركة كالخلق والتكليف وتوجه الخطاب إليهم، فالجن مكلفون بهذا الخطاب، ومتعبدون لله -عز وجل- بالشرائع، فقوله: {يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} يعني من جملة أهل التكليف ممن يتوجه إليهم الخطاب.

وربما يكون هذا من باب التغليب، يعني غُلِّب الإنس على الجن كما يُغلَّب الرجال على النساء في الذكر.

وبعضهم يقول: إن المراد بالرسل في قوله: {رُسُلٌ مِّنكُمْ} رسل من الإنس ورسل من الجن، فالرسل من الإنس هم الذين يوحي الله -عز وجل- إليهم ويشرفهم بالنبوة ويرسلهم إلى قومهم، والرسل من الجن هم النُّذر الذين يسمعون الحق كما سمعوه من النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يذهبون إلى قومهم فينذرونهم، فيصدق عليهم بهذا الاعتبار أنهم رسل، لكن ليس الله هو الذي أرسلهم وإنما جاءوا إلى قومهم يدعونهم ويحثونهم على الإيمان الذي عرفوه من رسل الله، والله تعالى أعلم.

والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف.

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} [(١٦٣) سورة النساء] إلى قوله: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [(١٦٥) سورة النساء].

أول الرسل نوح -عليه الصلاة والسلام- وجميع الذين أرسلهم الله تعالى بعده -عليهم الصلاة والسلام- ليس فيهم أحد من الجن.

وقوله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته.

وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [(٢٠) سورة الفرقان] وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} [(١٠٩) سورة يوسف].

ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا

كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [(٢٩-٣٢) سورة الأحقاف].

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ* فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [(٣١-٣٢) سورة الرحمن] **وقال تعالى في هذه الآية الكريمة:** {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا} [(١٣٠) سورة الأنعام] **أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.**

وقال تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [(١٣٠) سورة الأنعام] **أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات؛ لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها.**

{وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ} **أي: يوم القيامة** {أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(١٣٠) سورة الأنعام] **أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-.**

يقول الله تعالى: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام] في هذه الآية دليل على أن الكفار من الجن يدخلون النار ويعذبون فيها كالكفار من الإنس، قال تعالى: {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام] يعني الكفار من الجن والإنس، وأما دخول المؤمنين من الجن الجنة فالذي عليه الجماهير من السلف والخلف أن المحسن منهم والمؤمن يدخل الجنة أيضاً.

ومن أهل العلم من قال: إن الجن لا يدخلون الجنة وإنما يكون جزاؤهم النجاة من العذاب، واستدلوا بقوله -تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٣١) سورة الأحقاف] أي أنه لم يذكر دخولهم الجنة، لكن ليس بلازم أن يذكر في المقام الواحد جميع ما يترتب على الإيمان والعمل الصالح، بل اكتفى بذكر بعض الأمور المترتبة على إيمانهم، ولهذا فإننا نقول: إن الجن المؤمنين يدخلون الجنة كالإنس فهم مكلّفون ومتعبدون بالشرائع، وبعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- كل الجن متوجه إليهم خطاب الشارع الذي يخاطب به الإنس في الجملة، وهم متعبدون بالقرآن تلاوة وعملاً وتحاكماً وما أشبه ذلك، فهم تبع للإنس في مثل هذه الأمور وحتى في السنة وما يتعلق بها، فأهل السنة منهم يعملون ويشرحون القرآن ويفهمونه بما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من السنة الشارحة المبينة له، وهذه الكتب مثل الكتب الستة، والكتب المعتمدة عند المسلمين، هي معروفة لديهم ويقرءون بها ويحفظون منها كالإنس، فهم تبع للإنس في مثل هذه القضايا وإن كانت توجد فروقات في الخلق وفي بعض التفصيلات أو الجزئيات وما أشبه ذلك، لكن يبقى أنهم متعبدون مكلفون كالإنس، وفيهم الطوائف من الرافضة والزيدية والمعتزلة والخوارج وغيرهم من أهل الأهواء قديماً وحديثاً كالإنس، وفيهم المتلبس بالشهوات وفيهم الطيب والرديء والصالح والفاسد، والله المستعان.

{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ* وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٣١-١٣٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} أي: **إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يؤاخذ أحدٌ بظلمه وهو لم تبلغه دعوة.**

اسم الإشارة {ذَلِكَ} في قوله: {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى} يقول ابن كثير: "أي **إنما أعذرنا بإرسال الرسل للناس إلى الثقلين وإنزال الكتب؛ لئلا يؤاخذ أحد بظلمه**" أي أن اسم الإشارة يعود إلى الإعذار بإرسال الرسل.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {ذَلِكَ} يرجع إلى شهادتهم على أنفسهم، يقول: {قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ* ذَلِكَ} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: شهادة هؤلاء على أنفسهم {أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [(١٣١) سورة الأنعام] يعني هؤلاء أقروا على أنفسهم واعترفوا، والاعتراف هو سيد الأدلة، فالله لم يكن ليهلك المكذبين والظالمين بظلم وأهلها غافلون.

قال الحافظ ابن كثير: "**لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه الدعوة**" هذا تفسير لقوله: {بِظُلْمٍ} في قوله: {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} [(١٣١) سورة الأنعام] أي بظلم منه لهم بأن يأخذهم ويعذبهم ولم يبعث إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً فيكون ظالماً لهم بتعذيبهم، إنما يكون الإعذار بالإنذار وإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان ما يجب عليهم، فإذا تركوا ذلك كانوا مستحقين للعقوبة، فيكون على هذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-: {لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [(١٣١) سورة الأنعام] يعني بظلم منه فيكون ظالماً لهم.

وهناك احتمال آخر وهو أن قوله: {بِظُلْمٍ} يعني بظلم منهم، أي: أن الله -عز وجل- لم يكن ليأخذهم بظلم صادر منهم -وهو الشرك كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]- حتى يبعث فيهم رسولاً، وبعبارة أخرى: ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم صادر منهم وأهلها غافلون لم تأتهم الرسل، ومن هنا يتبين الفرق بين المعنيين، فعلى المعنى الأول الظلم المنفي صادر من الله -عز وجل- أي لا يعذبهم وهو ظالم لهم حيث لم يرسل لهم رسولاً.

والمعنى الثاني أن الله لم يكن ليعذبهم بظلمهم الذي هو بمعنى الإشراك والكفر وهم غافلون لم يأتهم رسل يبينون لهم ما هم عليه من الباطل، بل إنه يبعث إليهم الرسل ويحصل لهم التذكير والتنبيه أولاً.

والمعنى الأول لعله هو المتبادر وهو الأقرب -وهو الذي ذكره ابن كثير –رحمه الله تعالى- وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- واحتج عليه ببعض الآيات كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء] وقوله تعالى: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [(١٦٥) سورة النساء]، والله أعلم.

ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [(٢٤) **سورة فاطر**] **وقال تعالى**: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) **سورة النحل**] **كقوله**: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) **سورة الإسراء**] **وقال تعالى**: {كُلَّمَا أُلْقِيَ

فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} [(٨-٩) سورة الملك] **والآيات في هذا كثيرة.**

قال: وقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} [(١٣٢) سورة الأنعام] **أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها.**

هذه الآية كقوله تعالى في الآية الأخرى في الأحقاف: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [(١٩) سورة الأحقاف].

إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قلت: ويحتمل أن يعود قوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا} [(١٣٢) سورة الأنعام] **أي: من كافري الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ}** [(٣٨) سورة الأعراف] **وقوله: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ}** [(٨٨) سورة النحل].

{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٣٢) سورة الأنعام] **قال ابن جرير: أي: وكل ذلك من عملهم يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: **{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ* إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ* قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** [(١٣٣-١٣٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَرَبُّكَ} يا محمد {الْغَنِيُّ} أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، {ذُو الرَّحْمَةِ} أي: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أي: إذا خالفتم أمره {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء} أي: قوماً آخرين، أي يعملون بطاعته، {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين كما قال تعالى: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [(١٣٣) سورة النساء] **وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ* إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}** [(١٥-١٧) سورة فاطر].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}** [(١٣٣) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "**أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين**" يعني جاء بكم فأحدثكم وابتدعكم وأنشأكم وأوجدكم من نسل خلق آخرين كانوا قبلكم هلكوا أو أهلكهم الله -تبارك وتعالى- فهو قادر على إذهابكم كما أذهبهم.

وقوله تعالى: **{ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}** [(١٣٣) سورة الأنعام] أي من نسلهم، فالذرية تطلق على النسل، وقد تأتي بمعنى الآباء والأجداد ولذلك فإن بعضهم ربما يفسر هذه الآية بهذا، ويظهر هذا المعنى في أحد الأوجه المشهورة في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** [(٤١) سورة يــــس].

ومعلوم أن الذين حملوا في الفلك هم آباء المخاطبين الذين خاطبهم القرآن بهذا من قريش أو العرب أو كل من يتوجه إليه الخطاب باعتبار أن المقصود بالفلك المشحون سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام-، وعلى هذا المعنى يكون المراد بالذرية الآباء والأجداد، وهذا جواب للإشكال الذي قد يرد في هذه الآية، وإن كان بعض

أهل العلم قال: إن الفلك المشحون في الآية ليس المقصود به سفينة نوح، وإنما المقصود به السفن التي يحملون عليها، وينتقلون فيها من محل إلى آخر.

والخلاصة أن الذرية في كلام العرب تطلق على ما تناسل من الإنسان وتطلق على ما تناسل منه الإنسان من الآباء والأجداد، فقوله تعالى: {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [(١٣٣) سورة الأنعام] أي: من نسلهم.

قال تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [(٣٨) سورة محمد] وقال محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبان بن عثمان يقول في هذه الآية: {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [(١٣٣) سورة الأنعام] الذرية الأصل، والذرية النسل.

يقول: "**الذرية الأصل والذرية النسل**" هذا عن أبان بن عثمان في زمن الاحتجاج، فهي بهذا الاعتبار تطلق على المعنيين المتقابلين الذي يسمونه "الأضداد"، فالأضداد هي الكلمات التي تطلق على معانٍ وعلى ما يقابل تلك المعاني مثل: "عسعس" بمعنى أقبل وأدبر، والقرء بمعنى الطهر والحيض، وهكذا.

وقوله تعالى: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [(١٣٤) سورة الأنعام] أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [(١٣٤) سورة الأنعام] أي ولا تعجزون الله بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة الأنعام] هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: {وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ* وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٢٢) سورة هود].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {عَلَى مَكَانَتِكُمْ} ناحيتكم، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(١٣٥) سورة الأنعام] أي: أتكون لي أو لكم.. وقد أنجز الله موعده لرسوله -صلوات الله عليه- أي فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- كما قال الله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [(٢١) سورة المجادلة] وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٥١-٥٢) سورة غافر] وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [(١٠٥) سورة الأنبياء].

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(١٣٦) سورة الأنعام] هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً وجعلوا لله جزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء

-سبحانه وتعالى- ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ} أي: مما خلق وبرأ {مِنَ الْحَرْثِ} أي: من الزرع والثمار {وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} أي: جزءاً وقسماً، {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا} [(١٣٦) سورة الأنعام].

وقوله: {فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ} [(١٣٦) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمي للوثن تركوه للوثن.

وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} الآية [(١٣٦) سورة الأنعام] وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ: {سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(١٣٦) سورة الأنعام] أي: ساء ما يقسمون فإنهم أخطئوا أولاً في القسمة؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا -فيما زعموا- القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله -جل وعلا-: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ} [(٥٧) سورة النحل] وقال تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ} [(١٥) سورة الزخرف] وقال تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} [(٢١) سورة النجم] وقوله: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [(٢٢) سورة النجم].

{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١٣٧) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ} زينوا لهم قتل أولادهم وقال مجاهد: {شُرَكَآؤُهُمْ} شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة.

هذا هو المتبادر من قوله: {شُرَكَآؤُهُمْ} أي أن شركاءهم من الشياطين هم الذين لبَّسوا عليهم وزينوا لهم قتل أولادهم، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن المراد بالشياطين في الآية هم السدنة والخدم الذين كانوا يخدمون الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله -عز وجل- بمعنى أنهم شياطين من الإنس، وبعضهم يقول: الشياطين هم الغواة

من الإنس الذين يضلونهم ويزينون لهم الباطل كما زين لهم عمرو بن لحي الخزاعي كثيراً من الأمور التي غيَّر بها دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

والمقصود أن هؤلاء الشركاء زينوا لهم قتل الأولاد لفرط غيرتهم فصار للشيطان نصيب فيها، فقتلوا البنات من أجل حفظ الشرف ودفعاً للعار؛ لأنهم يخشون أن تفتقر البنت فتقارف ما لا يليق، وزينوا لهم قتل الأولاد مخافة الفقر؛ لأنهم ألقوا في قلوبهم أن رزقهم يقل وتصيبهم الحاجة إذا كثر أولادهم، فهذا كله من تزيين الشيطان، وإلا فإن الله -عز وجل- قال في الإسراء: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} [(٣١) سورة الإسراء] وقال في الأنعام: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ} هي قراءة الجمهور وفيها قراءة أخرى لابن عامر هكذا **(وكذلك زُيِّن لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلاَدَهِمْ شركائهم)** بضم الزاي على البناء للمجهول والرفع في **(قتلُ)** باعتبار أنه نائب فاعل مع نصب **(أولادَهم)** مع أن المتبادر أن **(قتلُ)** مضاف و**(أولادِ)** مضاف إليه مجرور لكن في هذه القراءة لم يضفه إلى ما بعده باعتبار أنه فصل بين المضاف والمضاف إليه، أي أن المضاف إليه هو قوله: **(شركائهم)** ولذلك استشكل هذه القراءة كثير من أهل العلم، لكن القراءة سنة متبعة إذا ثبتت فلا يجوز أن ترد بقاعدة نحوية وإنما تؤخذ القواعد النحوية من القراءات، فمثل هذا يجوز في لغة العرب وإن كان في الاستعمال قليلاً، والله تعالى أعلم.

وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما {لِيُرْدُوهُمْ} فيهلكوهم وإما {لِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} أي: فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك.

المشهور أنهم كانوا يقتلون البنات خشية العار لكن لم يكونوا يقتصرون على قتل البنات فقط بل قد يقتلون الأولاد أيضاً خشية الفقر، ويصح في كلام العرب أن يطلق اللفظ العام فيراد به بعض أفراده، وهذا يسمونه "العام المراد به الخصوص" فلو قلنا: إن المراد بقوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ} [(١٤٠) سورة الأنعام] يعني البنات فقط فيكون ذلك من باب استعمال اللفظ العام –الأولاد- الذي أريد به الخصوص –البنات- أي أن استعمال ذلك يكون صحيحاً لا إشكال فيه.

قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ} [(١٣٧) سورة الأنعام] أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامَّة في ذلك، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

{فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١٣٧) سورة الأنعام] أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(١٣٨) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: الحِجْر: الحرام، مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا، وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

الحِجْر هنا مصدر يراد به المفعول، فقوله تعالى: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ} أي محجور، ويبيّن هذا الحجر ما ذُكر بعده وهو قوله: {لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ} [(١٣٨) سورة الأنعام] أي فليس لهم فيها

مطلق التصرف، بل منها ما يحجر على الأصنام في الحمل والركوب فلا يحمل عليه ولا يركب، ومنها ما حرموا أكله ودرَّه وما أشبه ذلك بحسب التفصيلات التي أملاها عليهم الشيطان.

قال ابن عباس: الحجر: الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا، يعني ما حرموه على أنفسهم لأصنامهم، أي جعلوا ذلك للأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله -تبارك وتعالى-.

وقال قتادة: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ} [(١٣٨) سورة الأنعام] تحريمٌ كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظ وتشديد، ولم يكن من الله تعالى، وقال ابن زيد بن أسلم: {حِجْرٌ} إنما احتجروها لآلهتهم، وقال السدي: {لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ} [(١٣٨) سورة الأنعام] يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} [(٥٩) سورة يونس] وكقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [(١٠٣) سورة المائدة].

وقال السدي: أما الأنعام التي حُرِّمت ظهورها، فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها لا إذا ولدوها ولا إن نحروها.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود: قال لي أبو وائل: أتدري ما في قوله: {وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا}؟ [(١٣٨) سورة الأنعام] قلت: لا، قال: هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها.

وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئاً {افْتِرَاء عَلَيْهِ} [(١٣٨) سورة الأنعام] أي: على الله، وكذبهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم {سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(١٣٨) سورة الأنعام] أي: عليه، ويسندون إليه.

قوله تعالى: **{وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا}** [(١٣٨) سورة الأنعام] المتبادر أنهم لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها أو نحرها وإنما يذكرون أسماء الأصنام والمعبودات من دون الله -تبارك وتعالى- وهذا لا يمنع أن يدخل فيه ما ذُكر من أنهم لا يذكرون اسم الله عليها في شأن من شئونهم باعتبار أنهم جعلوا هذه الأنعام لأصنامهم، والله أعلم.

{وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ} [(١٣٩) سورة الأنعام].

قال أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] الآية، قال: اللبن.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرناهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وكذا قال السدي.

وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

التفصيلات في القضايا التي ذكرها الله تعالى بقوله: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} [(١٠٣) سورة المائدة] لا تعرف إلا بمعرفة ما كان عليه أهل الجاهلية، وبالنسبة للمنقولات التي ذكرت عنهم ما كانوا يفعلونه في الجاهلية فهي مختلفة وليست متفقة؛ ولذلك فإن الجزم بأن هذا هو الذي كانوا عليه، أو أن هذا هو المراد بدقة، أمر صعب؛ لأنه يحتاج إلى معرفة هذه التفصيلات، وكذلك ما قد يذكر في بعض التفصيلات عند قوله: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] فالأنعام التي جعلوها لغير الله -عز وجل- هي الوصيلة والسائبة والبحيرة والحام، فما الذي في بطونها؟

المتبادر أن الذي في بطونها هي الأجنة، لكن هل كانوا يفرقون بين المولود الذكر والمولود الأنثى؟ هذا لم يرد في الآية وإنما ذكر في جملة ما ذكر من أخبارهم، فالله تعالى أعلم.

وهل قولنا: إن الذي في بطونها هي الأجنة ينفي قول من قال: إنه اللبن أم أن هذا من جملة ما يدخل فيه، ويكون هذا من قبيل التفسير بالمثال؟

قد يكون كذلك، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على ما يصدق عليه أنه داخل في هذا الإطلاق، ويقول: إن الله -عز وجل- لم يخص نوعاً دون نوع ولا شيئاً دون شيء، فيدخل فيه الأجنة ويدخل فيه اللبن.

وقال مجاهد في قوله: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] قال: هي السائبة والبحيرة.

في قوله: {وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] هل يقصدون بهذا أنه يحرم على الزوجة فقط أم المقصود جملة النساء؟

المقصود أنه محرم على النساء؛ لأن الزوجة هي بنت بالنسبة لأبيها، وهي أم بالنسبة لأولادها، وهي أخت بالنسبة لأخيها وهكذا، فالأزواج في كلامهم -كما يقول ابن جرير وكما هو معروف في كلام العرب- المقصود به نساؤهم، فليس المراد أنهم يحصرون ذلك التحريم على الزوجة فقط، بل المقصود جملة النساء، والله أعلم.

وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قول الله: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} [(١٣٩) سورة الأنعام] أي: قولهم الكذب في ذلك، يعني كقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ} الآية [(١١٦-١١٧) سورة النحل].

في قوله تعالى: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} [(١٣٩) سورة الأنعام] بعضهم يقول: هذا على نزع الخافض، أي: سيجزيهم بوصفهم، وبعضهم يقول: فيه مقدر محذوف هكذا: سيجزيهم جزاء وصفهم، والوصف هذا هو الكذب والافتراء على الله -تبارك وتعالى- والقول عليه بلا علم، وسيجزيهم بهذا العمل وبهذا الافتراء الذي افتروه عليه.

{إِنَّهُ حكِيمٌ} أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره {عَلِيمٌ} [(١٣٩) سورة الأنعام] بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٤٠) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {قَدْ خَسِرَ} الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرَّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٦٩-٧٠) سورة يونس].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٤٠) سورة الأنعام] وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب مناقب قريش من صحيحه[1].

{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٤١-١٤٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرَّف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، وقسموها وجزَّءوها فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَعْرُوشَاتٍ} مسموكات، وفي رواية: فالمعروشات ما عرش الناس، {وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} ما خرج في البر والجبال من الثمرات.

على هذه الرواية: "**فالمعروشات ما عرش الناس**" يعني ما زرعه الناس، وغير المعروشات يعني ما يخرج في البراري ونحو ذلك من غير زرع الإنسان، وهذا هو المعنى الأول.

وبعض أهل العلم حمل المعروشات على ما ينفرش سواء رفع أو لم يرفع كالعنب والبطيخ وما أشبه ذلك من الأشجار التي تنفرش على الأرض، وغير المعروشات يعني التي تقوم على ساق كالنخيل وسائر الأشجار التي تقوم على سوقها.

لكن المتبادر -والله تعالى أعلم- أن المعروشات هي ما يوضع له ما يقوم عليه مما يعرش، كما قال الله -عز وجل- في النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [(٦٨) سورة النحل] يعني يبنون بحيث يجعلون لها السقف وما تمتد فروعها عليه بحيث تكون مرتفعة، وغير

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب قصة زمزم وجهل العرب (٣٣٣٤) (ج ٣ / ص ١٢٩٧).

المعروشات ما ليس كذلك والله تعالى أعلم، أي أن ما يخرج من الأشجار يكون على نوعين كل واحد منهما يحصل به الامتنان وتتجلى فيه عظمة الله -عز وجل- وبديع خلقه.

وقال عطاء الخرساني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَّعْرُوشَاتٍ} ما عرش من الكرم {وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام] **ما لم يعرش من الكرم، وكذا قال السدي.**

وقال ابن جريج: {مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [(١٤١) سورة الأنعام] **قال: متشابهاً في المنظر وغير متشابه في المطعم، وقال محمد بن كعب: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] **قال: من رطبه وعنبه.**

وقوله تعالى: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] **قال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وروى عبد الرزاق عن مجاهد: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}** [(١٤١) سورة الأنعام] **قال: عند الزرع يعطي القبضة وعند الصِّرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصِّرام.**

آثار الصرام يعرف باللقاط، والمعنى أن الفقراء يأتون ويلتقطون ما تساقط من الحب بعد الحصاد، وهذا كان معروفاً عندهم، وفي ترجمة الإمام أحمد أنه خرج يلتقط مع الناس ثم رجع وعجّل في الرجوع فلما سئل عن هذا أخبر أنه رأى منظراً كرهه وهو أنه رأى الناس يحبون على أربع؛ لأجل الالتقاط وذلك أنه مع تقارب الحب لا حاجة للقيام والقعود، والمقصود أن الإمام أحمد رأى هذا المنظر فكرهه ورجع.

الحاصل أن الفقراء كانوا يحضرون عند الحصاد علَّهم يعطون شيئاً ويحضرون بعد الحصاد يلتقطون ما تساقط من الحب، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] بعضهم يقول: هذا حق لا تقدير فيه، فالله -عز وجل- لم يذكر فيه حداً محدوداً فعلى المرء أن يعطي شيئاً يوم الحصاد، لكن هل هذا الذي يعطيه يوم الحصاد هو زكاة أو أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ يعني هل هذه الآية محكمة أم أنها منسوخة؟ أو هل هذا مما نزل قبل تقرير الحكم؟ وباعتبار أن سورة الأنعام مكية هل هذه الآية مدنية باعتبار أن الزكاة فرضت في المدينة وعليه فنقول: إن هذا مما نزل قبل فرض الحكم؟ أم نقول: إن هذه الآية أصلاً مدنية مستثناة من بقية السورة التي نزلت في مكة؟ أم نقول: إن هذه الآية مكية حيث كان فرض الزكاة أولاً بهذه الطريقة بحيث يعطى من حضر من الفقراء شيئاً من هذا الحصاد دون حد ولا تقدير، ثم بعد ذلك فرضت وبيّنت الأنصباء في المدينة، وعلى هذا القول الأخير تكون هذه الآية منسوخة بآيات الزكاة وما جاء عن الشارع من تحديد الأموال الزكوية وأنصبائها.

هذا القول الأخير ذهب إليه طائفة من أهل العلم لكن النسخ لا يثبت بالاحتمال، والأقرب أن أصل الزكاة فرض في مكة، ثم فرضت الأنصباء وحددت وفصلت وبيّنت وما الذي يُخرج منه الزكاة من الأموال في المدينة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] بعض العلماء يقول: هذا غير الزكاة، وفي بعض الآثار "في المال حق سوى الزكاة" لكن الجمهور على أنه لا يجب في المال سوى الزكاة وهذا الإخراج كان في أول الأمر، ويقول ابن جرير -رحمه الله-: ليست الزكاة هي المقصودة بهذه الآية، ويحتج على ذلك بقوله: معلوم أن الزكاة لا يجب أن تُخرج في يوم الحصاد؛ لأن الحب لا يزال في سنبله فهو لا زال بحاجة إلى عدة عمليات حتى تخرج منه الزكاة.

وعلى كل حال فالتفاصيل التي بينها الله -عز وجل- في الزكاة كانت في المدينة وأما ما في هذه الآية فهو أمر من الله -عز وجل- أمرَ به في مكة، أي أن عليهم يوم الحصاد أن يعطوا من حضر من الفقراء شيئاً من غير تحديد مما حصدوه، والله تعالى أعلم.

وقد تكون هذه الآية محكمة باعتبار أن هذا حق لا تقدير فيه بل على المرء أن يعطي الفقراء شيئاً يوم الحصاد كما قال الله -عز وجل- في المواريث: **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}** [(٨) سورة النساء]، وبعضهم يقول أيضاً: هي محكمة، لكنها للندب وليست للوجوب، وسبق أن الجمهور يقولون: إنها نسخت بعد ذلك بالزكاة التي فصلها الله -عز وجل- وهذا الذي اختاره أيضاً ابن جرير -رحمه الله-، وعلى كل حال فالأقرب أن يقال في هذه الآية: إن الزكاة فُرض أصلها بمكة ثم بيّنت تفاصيلها بالمدينة، والله تعالى أعلم.

وروى الثوري عن إبراهيم النخعي قال: يعطى مثل الضغث، وروى ابن المبارك عن سعيد بن جبير: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال: كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته.

يعني أن القبضة من الحب والضغث كالحشيش وسوق الذرة ونحو ذلك لعلف الدابة، وكل ما قبضت عليه بيدك يقال له: قبضة ويقال له: ضغث كما قال تعالى: **{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا}** [(٤٤) سورة ص].

وقد ذمَّ الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة "ن": {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلَا يَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [(١٧-٢٠) سورة القلم] أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة {فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ* أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ* فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ* أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ* وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} [(٢١-٢٥) سورة القلم] أي: قوةٍ وجلدٍ وهمةٍ {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [(٢٦-٣٣) سورة القلم].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(١٤١) سورة الأنعام]

قيل: معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف

وقال ابن جريج: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- جذَّ نخلاً له فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(١٤١) سورة الأنعام] **[رواه ابن جرير عنه].**

لكن الظاهر -والله أعلم- من سياق الآية حيث قال تعالى: {كُلُواْ من ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ} [(١٤١) سورة الأنعام] **أن يكون عائداً على الأكل، أي: لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ} الآية** [(٣١) سورة الأعراف] **وفي صحيح البخاري تعليقاً ((كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة))**[1] **وهذا من هذا، والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون المراد به لا تسرفوا في النفقة في سبيل الله؛ لأنه قال: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ}** [(١٤١) سورة الأنعام] يعني ولا تسرفوا في هذا الإيتاء؛ لأنه غير مقدر.

وأما الرواية التي ذكرها عن ثابت بن قيس -رضي الله عنه- فلا تصح؛ لأنها من رواية ابن جريج عنه، فهي من رواية ابن جريج لسبب النزول ومثل هذا يكون من قبيل المرسل.

ويبقى النظر في مسألة هل في الإنفاق في سبيل الله -تبارك وتعالى- إسراف؟

هذه المسألة مختلف فيها، فمن أهل العلم من يقول: ليس فيه إسراف، ويستدلون على هذا ببعض الأدلة نحو ما ثبت أن أبا بكر -رضي الله عنه- تصدق بجميع ماله، فلما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- عما أبقى لأهله؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله[2] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أقره على هذا الفعل.

وكذلك عمر -رضي الله عنه- جاء بشطر ماله فأقر على ذلك.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الزكاة - الاختيال في الصدقة (٢٥٥٩) (ج ٥ / ص ٧٩) وأحمد (٦٦٩٥) (ج ٢ / ص ١٨١) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٤٣٨١).

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة – باب الرخصة في الرجل يخرج من ماله (١٦٨٠) (ج ٢ / ص ٥٤) والترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما كليهما- (٣٦٧٥) (ج ٥ / ص ٦١٤) والدارمي في كتاب الزكاة - باب الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١٦٦٠) (ج ١ / ص ٤٨٠) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٦٠٢١).

إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لبعض الصحابة -رضي الله عنهم- كسعد -رضي الله عنه-: ((الثلث والثلث كثير))[٣] ونهاهم عن أن يتصدقوا أو أن يوصوا بمالهم، وعلى كل حال قد وردت الأحاديث التي توصي الإنسان بأن ترك عياله وأهله أغنياء خير من أن يدعهم عالة يتكففون الناس، وهناك نصوص يفهم منها أن الإنسان لا يتصدق بكل ماله ولا بنصف ماله، ولذلك فالأقرب - والله تعالى أعلم- أن يقال فيما يتعلق بالنفقة في سبيل الله: إن هذا يتفاوت بتفاوت الناس ويختلف باختلافهم، فمن كان بمنزلة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- بحيث إذا أنفق ماله لا ينتظر من الناس شيئاً ولا يتعلق قلبه بهم، ولا يسأل أحداً شيئاً فلا بأس أن ينفق كل ماله، ومن كان دون ذلك بحيث إذا أنفق تعلق قلبه بالخلق أو سألهم أو انتظر منهم عطاء، فمثل هذا يقال له: لا تنفق إلا بالقدر الذي لا يلحق فيه من تعول شيء من الإجحاف.

ومما يدل على ذلك قصة الرجل الذي تعرض للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه قطعة من ذهب فأعطاها النبي -صلى الله عليه وسلم- فأعرض عنه، فتعرض له فأعرض عنه، ثم أعطاه الثالثة، فأخذها فرماه بها وقال: ((يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس))[٤] فهذا يوضح هذا المعنى خاصة وأنه لم يقله لأبي بكر ولا لعمر -رضي الله عنهما-.

ولذلك لعل من أحسن ما يقال في الجمع بين هذه النصوص ما ذكره الشاطبي -رحمه الله- في الموافقات من أن ذلك يختلف باختلاف الناس، فهو أحسن من قول من قال: إن النفقة في سبيل الله يدخلها الإسراف، وأحسن من قول من قال أيضاً: إنه لا يدخلها الإسراف بإطلاق، بل يقال فيه هذا التفصيل، والله أعلم.

والله -عز وجل- لما ذكر النفقات على الوالدين والأقارب في سورة الإسراء قال: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} [(٢٦) سورة الإسراء] وقال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء]، فقوله: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء] أي تقعد منقطعاً لا تستطيع التصرف لعدم وجود المال عندك فتلومك نفسك ويلومك الناس من أصحاب الحقوق من الأولاد وغيرهم؛ لأنك لم تبق لهم شيئاً من النفقة.

وقوله تعالى: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(١٤١) سورة الأنعام] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يحملها على منع الإسراف في الإنفاق في سبيل الله، ولا على سبب النزول؛ لأن سبب النزول لم يصح؛ إذ لو صحَّ لكان دخوله في هذا العموم دخولاً قطعياً؛ لأنه كما هو معلوم أن سبب النزول إذا صح فإنه يدخل في العموم قطعاً وإخراجه بالاجتهاد ممنوع، لكن لما لم يصح هنا حمله ابن كثير -رحمه الله- على النهي عن الإسراف في الأكل والشرب وما أشبه ذلك.

والإسراف ضابطه -أو أحسن ما قيل فيه والله أعلم- هو إنفاق المال بغير وجه صحيح، فإنفاقه في معصية الله -عز وجل- سواء كان ذلك قليلاً أو كثيراً إسراف، فكل مال ينفق في معصية الله -عز وجل- هو

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا - باب الوصية بالثلث (٢٥٩٣) (ج ٣ / ص ١٠٠٧) ومسلم في كتاب الوصية – باب الوصية بالثلث (١٦٢٨) (ج ٣ / ص ١٢٥٠).

[4] - أخرجه الدارمي في كتاب الزكاة - باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل (١٦٥٩) (ج ١ / ص ٤٧٩) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٦٤٠٨).

إسراف وتبذير قلّ أو كثر، وأما الذي ينفق في غير معصية الله -عز وجل- وإنما ينفق في الأمور المباحة فهذا ليس له ضابط محدد وإنما يختلف باختلاف الناس، فقد تكون النفقة بالنسبة لفلان من التبذير، وبالنسبة لفلان ليست من التبذير، فهذا قد يشتري الثوب بأربعمائة لكنه يملك الملايين فهذا ليس تبذيراً بالنسبة إليه، لكن الذي دخله في الشهر كله أربعمائة ريال أو خمسمائة أو سبعمائة ثم يشتري جوالاً بسبعمائة، فهذا تبذير بالنسبة له، أما من كان دخله في الشهر عشرة آلاف ثم اشترى التليفون بسبعمائة مثلاً فهذا ليس من التبذير، وقل مثل ذلك فيما يقتنيه الإنسان من أثاث ومتاع وما يستأجره من المساكن، فقد يستأجر بيتاً بأربعين ألف ودخله أربعة آلاف فهذا تبذير، لكنّ إنساناً دخله أربعين ألف ريال ويستأجر بيتاً بعشرين ألف ريال فهذا ليس تبذيراً إلا أن يكون ذلك خارجاً عن حاجة الإنسان فيعتبر من التبذير، وهكذا الأمر في القِرى، فلو أن إنساناً وضع للضيف كما فعل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أعني عجلاً كاملاً فهذه نفقة في محلها إن لم يكن المقصود بها التفاخر والمباهاة مع كونه يُنتفَع بهذا، لكن إذا كان ما ينتفع به فإن إضاعته من التبذير، وهكذا.

وقوله -عز وجل-: {وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا} [(١٤٢) سورة الأنعام] **أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة: ما يحمل عليه من الإبل، والفرش: الصغار منها كما قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {حَمُولَةً} ما حمل عليه من الإبل {وَفَرْشًا}** [(١٤٢) سورة الأنعام] **الصغار من الإبل** [**رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه**][5].

الحَمولة فَعولة بمعنى فاعلة أي حاملة، والمعنى أنها تحملكم وتحمل متاعكم، والحمولة من الأنعام هي الإبل، ولا حاجة لقول من قال: إن الحمولة الإبل والخيل والحمير والبغال، فهذه تَحمِل لكنها ليست من الأنعام؛ لأن المراد بالأنعام الأصناف الثمانية التي سيأتي ذكرها، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيه -المعز والضان- فهذه هي الأنعام.

فقوله: **{وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً}** [(١٤٢) سورة الأنعام] لا يدخل فيها الحمير والبغال والخيل؛ لأنها ليست من الأنعام، فهي الإبل ويبقى النظر في البقر هل يحمل عليها أو لا يحمل عليها؟

نحن نعرف حديث البقرة التي قالت: إني لم أخلق لهذا[6] فالأصل في البقر أنه لا يحمل عليها، وهذا هو المعروف في بلاد العرب؛ لأن أبقارهم لا تحتمل ذلك، لكن يوجد في بعض بلاد العجم أبقار تحتمل هذا ويحملون عليها الأمتعة العظيمة وينقلونها من مسافات شاسعة، فحيث وجدت الأبقار التي تحمل الأمتعة -إن كان ذلك مما تطيقه- فإنها تدخل في قوله: **{حَمُولَةً}** والحاصل أن هذا خلاف الأصل وإلا فالأصل أن البقر لا يحمل عليها ولذلك يقال: الحمولة هي الإبل.

---

[5] - أخرجه الحاكم (٣٢٣٥) (ج ٢ / ص ٣٤٧) والطبراني في الكبير (٩٠٣٧) (ج ٩ / ص ٢٠٨).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب المزارعة - باب استعمال البقر للحراثة (٢١٩٩) (ج ٢ / ص ٨١٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (٢٣٨٨) (ج ٤ / ص ١٨٥٧).

ويبقى المراد بالفرش في قوله: {حَمُولَةً وَفَرْشًا} [(١٤٢) سورة الأنعام] فبعضهم خصه بصغار الإبل التي لا تحتمل أن يُحمل عليها، وهذا هو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وذهب الكثيرون إلى أن الفرش هو ما يقابل الحمولة، يعني ليس صغار الإبل فقط بل يدخل فيه الغنم أيضاً.

وسبب إطلاق الفرش عليها إما باعتبار أنها قريبة من الأرض لقوائمها، ولذلك فأنت حينما تشاهد الإبل والغنم من بعيد تشعر كأن الغنم لاصقة في الأرض والإبل طويلة القوائم مرتفعة.

وإما أن يكون قيل لها فرش باعتبار أن هذا من المنافع التي تؤخذ منها، حيث تؤخذ من أصوافها وأشعارها ما يفترش من ألوان الفرش التي ينامون عليها ويجلسون عليها أو نحو ذلك، فهم ينتفعون بلحومها وألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها.

وقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً.

هذا القول يدخل فيه القول الذي قبله، أعني قول من قال: الفرش صغار الإبل؛ لأن معناه أن ما لا يركب فهو داخل في الفرش، فيدخل فيه صغار الإبل ويدخل فيه الغنم، إلا أن القائل بأن الفرش صغار الإبل قد يقصد بذلك المثال لا الحصر، فيحتمل أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، والله تعالى أعلم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [(٧٢) سورة يـــــس] وقال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} [(٦٦) سورة النحل] إلى أن قال: {وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [(٨٠) سورة النحل].

وقوله تعالى: {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم.

{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: طريقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي من الثمار والزروع افتراء على الله.

{إِنَّهُ لَكُمْ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: إن الشيطان أيها الناس لكم {عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: بيّن ظاهر العداوة كما قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [(٦) سورة فاطر] وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} الآية [(٢٧) سورة الأعراف].

وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [(٥٠) سورة الكهف] والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

الأمر في قوله تعالى: {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(١٤٢) سورة الأنعام] هل يقال: هو أمر للوجوب أو للاستحباب أو للإباحة؛ لأنه في سياق الامتنان؟

هو للإباحة، ولذلك لا تكاد تجد في القرآن الحث على الأكل والشرب وما إلى ذلك من الأمور التي يطلبها الإنسان بما طبع عليه وما جبل عليه لافتقاره إليها في بقائه في هذه الحياة، ولما يجد فيها من اللذة إلا أن يذكر ذلك على سبيل الامتنان مثلاً، بينما العبادات الشاقة يتردد الأمر بها، كالصلاة والزكاة وما أشبه ذلك مما يشق على الإنسان.

قوله تعالى: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٤٢) سورة الأنعام] الخُطُوَات جمع خُطْوَة وهي واحدة الخَطْو، والخَطَوات جمع خَطْوَة، ففرق بعضهم بين هذا وهذا، فالخَطْوَة هي المسافة التي تكون بين القدمين في المشي، والخُطْوَة واحدة الخطى.

وخُطُوات الشيطان أي طرائقه ومسالكه التي يزينها للإنسان بأن يدرجه فيها حتى يسلك في سبيل الغواية شيئاً فشيئاً، فالشيطان يزين للإنسان أمراً قد لا تتكره نفسه ابتداء ثم بعد ذلك يبلغ به إلى أمور لم تخطر له على بال أنه يلج فيها أو يقع فيها، سواء في باب الشهوات أو في باب الشبهات، نسأل الله العافية، وسد الباب هو الطريق الذي يصل به إلى النجاة، وإلا فإن الإنسان قد يتوسع في الكلام مع النساء من باب الدعوة إلى الله، أو التواصي على البر والتقوى أو التواصل في قضايا زواج مثلاً بأن يكون وسيطاً يبحث لهن عن أزواج، أو بالمشاركات عبر منتديات الحوار والكلام وما أشبه هذا، كل هذا مما يزينه له الشيطان شيئاً فشيئاً حتى يمرض قلبه، وقد يقع في الفاحشة مع أنه لم يخطر في باله أنه يبلغ إلى هذا الحد، لكن البداية كانت بأن فتح على نفسه باباً كان في غنىً عنه، فزينه له الشيطان باسم باب التواصي على البر والتقوى، حتى وصل به إلى أمور جسيمة.

ومن تزيين الشيطان أن يدخل الإنسان في أمور باسم الغيرة على الدين، فيفتن ويبتلى ويدخل في أشياء يخالفه عليها أهل العلم حتى يدخله في أمور قد تذهب بآخرته مع أنه لم يخطر بباله في البداية أنه سيصل إلى هذا الحد، نسأل الله العافية، فالله المستعان.

{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٣-١٤٤) سورة الأنعام].

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعاً، بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبيّن تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن.

قوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} يحتمل أن يكون النصب بفعل مقدر محذوف هكذا: كلوا ثمانية أزواج أو أنشأ ثمانية أزواج، أو خلق ثمانية أزواج، ويحتمل أن يكون المراد كلوا ثمانية أزواج باعتبار أنه عائد إلى قوله: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [(١٤١) سورة الأنعام] ولكن هذا الثاني -أي أن يكون عائداً إلى قوله: {كُلُواْ}- فيه بعد؛ لأن الكلام هناك في الثمر حيث قال: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [(١٤١) سورة الأنعام] ثم قال: {وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً

وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا ثمانية أزواج، يعني يكون قوله: {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(١٤٢) سورة الأنعام] والذي رزقهم الله هو ثمانية أزواج.

ويحتمل أن يكون قوله: {ثَمَانِيَةَ} بدلاً من قوله: {حَمُولَةً وَفَرْشًا} [(١٤٢) سورة الأنعام] يعني ومن الأنعام ثمانية أزواج، وهذه الثمانية لا يخرج منها الحمولة والفرش.

ويمكن أن يكون بدلاً من "ما" في قوله: {مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(١٤٢) سورة الأنعام] والذي رزقهم الله هو ثمانية أزواج، والله أعلم.

والمقصود بالأزواج هنا الأفراد؛ فالزوج يطلق على الذكر والأنثى، تقول: هذا زوج، فتطلقه على الذكر والأنثى معاً، ويقال للواحد منهما زوج باعتبار ما يقابله، ولهذا يقال: هذا زوج فلانة، وهذه زوج فلان، فهنا أطلق على الأفراد لفظ زوج، فقوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} يعني أنها باعتبار المجموع تعتبر أربعة؛ أي أن الذكر والأنثى زوج، وباعتبار الأفراد تعتبر ثمانية.

يقول تعالى: {مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] الضأن معروف وهو جمع ضائن.

وقوله: {وَمِنَ الْمَعْزِ} قرأه كثيرون كابن عامر وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين هكذا (المعَز) وهي لغة فيه، والمعنى واحد.

ثم بيّن أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك.

وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [(٦) سورة الزمر].

وقوله تعالى: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] رد عليهم في قولهم: {مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} الآية [(١٣٩) سورة الأنعام].

سألهم هذا السؤال، فقال لهم: {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] يعني لا يخلو الحال من أن يكون ما حرمتموه على أنفسكم هو الذكور مطلقاً -أي يحرم عليهم كل ذكر- فالواقع أنكم تنتفعون بها، في أوجه مختلفة من الأكل والأشعار والأصواف، إذن أنتم لم تمتنعوا من الانتفاع بها، وإما أن يكون المحرم عليكم هي كل أنثى والواقع أنكم تنتفعون بها أكلاً وبألبانها شراباً وما أشبه ذلك،.

وبقي ما في بطونها فقال تعالى: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] فسواء كان ما في بطونها ذكراً أو أنثى فالواقع أن ما يخرج من بطونها لم تمتنعوا من الانتفاع به، فالله -عز وجل- لم يحرم عليكم شيئاً من ذلك ومع ذلك فأنتم متناقضون غاية التناقض لا تقومون على أصل وقاعدة صحيحة، وإنما هو إفك وافتراء وتخرّص ما أنزل الله -عز وجل- به من سلطان.

هذا وجه الرد في قوله: {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] يعني وأنتم في الواقع لم تمتنعوا من ذكورها ولا من إناثها ولا مما اشتملت عليه البطون ذكوراً كانت أو إناثاً.

وقوله تعالى: {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٤٣) سورة الأنعام] **أي: اخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟.**

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] **فهذه أربعة أزواج.**

{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] **يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك، {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] **يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى، فلمَ تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً؟ {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] **يقول تعالى: كله حلال.**

وقوله تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا} [(١٤٤) سورة الأنعام] **تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك.**

في قوله: **{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ}** يلاحظ أن قوله: **{آلذَّكَرَيْنِ}** منصوب بـ"حرَّم" يعني حرَّم الذكرين.

وقوله: **{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا}** [(١٤٤) سورة الأنعام] "أم" هنا يسمونها المنقطعة وهي بمعنى بل ومعها الهمزة؛ لأن الاستفهام هنا للإنكار، والمعنى بل أكنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا؟ أي كيف عرفتم أن هذا حرام؟ هل كنتم حضوراً حينما خلقها الله -عز وجل- أو حينما عهد إليكم بذلك فأنتم على بينة من الأمر تستطيعون الوقوف عندها؟

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٤٤) سورة الأنعام] **أي: لا أحد أظلم منهم، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [(١٤٤) سورة الأنعام] **وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة؛ لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيَّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي كما ثبت ذلك في الصحيح**[7].

{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: {لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} [(١٤٥) سورة الأنعام] **أي: آكل يأكله، معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية.**

يقول: **{لاَّ أَجِدُ فِي مَا}** هذا الحصر هو أقوى صيغ الحصر كما ذكرنا مراراً في باب مفهوم المخالفة، ومفهوم المخالفة أنواع وأنواعه متفاوتة من حيث القوة، فأقوى أنواع مفهوم المخالفة مفهوم الحصر بالنفي والاستثناء،

---

7 - الثابت في صحيح البخاري قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب)) - كتاب المناقب – باب قصة خزاعة (٣٣٣٣) (ج ٣ / ص ١٢٩٧) وفي مستدرك الحاكم (ج ٤ / ص ٦٤٧) ((عرضت عليَّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو عمرو و هو يجر قصبه في النار و هو أول من سيب السوائب و غير عهد إبراهيم -عليه السلام- وأشبه من رأيت به أكثم بن أبي الجون)) قال: فقال أكثم: يا رسول الله، يضرني شبهه؟ قال: ((لا؛ إنك مسلم و إنه كافر)) وزاد في مسند البزار (ج ٢ / ص ٤٧٩): ((إنه كان أول من غير دين إسماعيل فسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الواصلة وحمى الحامي)) وقال الألباني: "وإسناده حسن فهو شاهد قوي لحديث الترجمة" انظر السلسلة الصحيحة (١٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٤٢).

ثم يليه الحصر بـــ"إنما" ثم يأتي بعد ذلك مفهوم الصفة ومفهوم الشرط إلى أن تصل إلى مفهوم اللقب وهو أضعفها وليس بحجة، والحاصل أن هذا أقوى صيغ المفهوم وهو الذي وردت فيه كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- فقوله: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(١٤٥) سورة الأنعام] يدل على أن هذه الأنواع هي المحرمة بطريق الحصر في سورة الأنعام وهي مكية، ولذلك فإن كثيراً من أهل العلم يقولون: إن هذا الحصر كان في أول الأمر، ثم جاءت التحريمات الأخرى في سورة المائدة، حيث قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [(٣) سورة المائدة] وجاء تحريم الحمر الأهلية في عام خيبر.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما-: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير"[٨].

وعلى كل حال من أهل العلم من الصحابة وبعض من جاء بعدهم وقفوا عند هذه الآية وقالوا: لا يحرم سوى هذه المذكورات في الآية فقط وما عدا ذلك فحلال! وتوسع بعض الفقهاء في هذا جداً حتى أباحوا أكل الأسد والفيل وأنواع الوحوش والحشرات والحيات وما أشبه ذلك، ومن أراد التوسع في بحث هذه المسألة فلينظر في مثل كتاب أضواء البيان حيث ذكر أشياء كثيرة جداً في المطعومات من الحشرات وغيرها وذكر أقوال أهل العلم فيها، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية كانت في أول ما نزل ثم بعد ذلك حرمت أشياء أخرى، فكل ما ورد عن الشارع تحريمه فإنه داخل في جملة المحرمات ولو لم يكن داخلاً ضمن المذكورات في هذه الآية.

ومن أهل العلم كالشافعي -رحمه الله- من وجه هذه الآية توجيهاً آخر وقال: إن هذا جاء على سبيل الرد مع المبالغة فيه، فالمشركون حرموا أشياء مما أباحه الله -عز وجل- وأحلوا أشياء مما حرمه الله، فردَّ عليهم وكأنه يقول: الحلال ما حرمتم والحرام ما أحللتم -يعني على سبيل المبالغة- {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ..} الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] أي وما سوى ذلك فحلال، فهذا توجيه الإمام الشافعي، لكن عامة أهل العلم يقولون: هذا كان في أول الأمر وليس الحامل على ذلك هو الرد على افتراء المشركين، والله أعلم.

والحصر في هذه الآية يشبه الحصر في حديث: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[٩] وذلك أنه ورد تشريع

---

[8] - أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (١٩٣٤) (ج ٣ / ص ١٥٣٤).

[9] - أخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات- باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) (ج ٣ / ص ١٣٠٢).

القتل لغير هؤلاء، كقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[١٠].

وكذلك صح عنه –عليه الصلاة والسلام- أنه قال: ((حد الساحر ضربة بالسيف))[١١] وغير ذلك مما ورد فيه أنه يقتل غير ما ذكر في الحديث، والله أعلم.

{أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} [(١٤٥) سورة الأنعام] **وقال قتادة: حرَّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به.**

كانوا يأكلون الميتات في الجاهلية والشبهة التي احتجوا بها أنهم كانوا يقولون: ما ذبحتم بأيديكم حلال وما قتل الله بيده الشريفة تقولون: إنه حرام، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}** [(١٢١) سورة الأنعام].

والمقصود بالدم المسفوح في قوله: **{أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا}** [(١٤٥) سورة الأنعام] أي الذي يخرج من أوداج الذبيحة عند الذبح، فهذا الدم كانوا يتلقونه بإناء ثم يطبخونه ويأكلونه، وهذا دم نجس لا يجوز شربه ولا أكله، وهذا الدم المسفوح يختلف حكمه عن حكم الدم الذي يكون عالقاً باللحم أو باقياً في العروق فإن هذا لا إشكال فيه، وكذلك أيضاً ما أصله الدموية كالكبد والطحال فإن هذا يجوز أكله بلا إشكال؛ لأنه مستثنى بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أحلت لنا ميتتان ودمان))[١٢].

وقال الحميدي حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-..

يقول: "**قلت لجابر بن عبد الله**" والرواية بهذا السياق في البخاري عن عمرو بن دينار، لكن قال: قلت لجابر بن زيد"[١٣] وأصل الحديث أيضاً جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- لكن ليست بهذا السياق وإنما جاءت في سياق تحريم الحمر الأهلية عام خيبر[١٤] والله أعلم.

قال: قلت لجابر بن زيد -رضي الله تعالى عنه-: إنهم يزعمون أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خبير فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

---

[10] - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود - باب من عمِل عمَل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حد الساحر (١٤٦٠) (ج ٤ / ص ٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٦٩٩) وأما الترمذي فقال: "لا نعرفه إلا مرفوعاً من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة، ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً" وقال الحاكم: صحيح غريب، ووافقه الذهبي.

[12] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة - باب الكبد والطحال (٣٣١٤) (ج ٢ / ص ١١٠٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١١٨).

[13] - صحيح البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب لحوم الحمر الإنسية (٥٢٠٩) (ج ٥ / ص ٢١٠٣).

[14] - ونصه: "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في الخيل" صحيح البخاري في كتاب المغازي – باب غزوة خيبر (٣٩٨٢) (ج ٤ / ص ١٥٤٤).

لفظة "زعم" تارة تذكر ويراد بها التوهين أو تكذيب الخبر بحسب مرتبته، وأحياناً تذكر بمنزلة قال، فهي هنا بمنزلة قال؛ لأن الذين يزعمون هنا هم الصحابة -رضي الله عنهم-.

فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكنْ أبى ذلك الحبرُ.

الحكم بن عمرو هو الغفاري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: "**ولكنْ أبى ذلك الحبرُ**" هذا خطأ والصواب "**أبى ذلك البحرُ**" يعني ابن عباس –رضي الله عنهما- وقد قيل له: البحر؛ لتبحره في العلم.

ولكنْ أبى ذلك البحرُ، يعني ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقرأ: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] وكذا رواه البخاري وأخرجه أبو داود[١٥].

وروى أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً، فبعث الله نبيَّه وأنزل كتابه وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فما أحلَّ فهو حلال وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفوٌ، وقرأ هذه الآية: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إذا استثنينا المذكورات في الآيات -الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ..الخ- ومعها كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فإنه يبقى النظر في حكم أشياء أخرى كالحشرات ونحوها، فالعلماء اختلفوا في حكم أكل الضفدع ولذلك لا يحل تذكيتها على قول من منع من أكلها، ولا يحل قتلها؛ لأنه نُهي عن ذلك[١٦].

ومن أهل العلم من يمنع من أكل السحالي والحشرات الأخرى باعتبار أن الله قال: **{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] وهذه من الأمور المستخبثة.

فيبقى النظر في ضابط الاستخباث وقد قال العلماء: أسلم الناس ذوقاً هم العرب فما استخبثه العرب الذين نزل عليهم القرآن بطبعهم فهو خبيث لا يؤكل؛ لعموم قوله تعالى: **{وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] فهذه من المستخبثات، وهذا لا ينضبط أيضاً؛ لأن الأعرابي الذي سئل ماذا تأكلون في الصحراء؟ قال: نأكل ما هب ودب ودرج إلا أم حبين، وقال: لتهنأ أم حبين العافية، فمثل هؤلاء ما يتنزهون عن شيء وقد يكون الذي حملهم على هذا شدة الفقر والحاجة فلا يعني هذا أنهم ما كانوا يستقذرونها أو يستخبثونها، وعلى كل حال الأشياء المستخبثة عرفاً ليس للإنسان أن يأكلها، كالحشرات، والله تعالى أعلم، وكذلك الأشياء الضارة، لعموم الأدلة الواردة في هذا المعنى، فما ثبت ضرره -باعتبار أن الضرر غالب فيه- لا يجوز أكله؛ لقوله

---

[15] - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب لحوم الحمر الإنسية (٥٢٠٩) (ج ٥ / ص ٢١٠٣) وأبو داود في كتاب الأطعمة -باب في أكل لحوم الحمر الأهلية (٣٨١٠) (ج ٣ / ص ٤٢٠).

[16] - "عن عبد الرحمن بن عثمان أن طبيباً سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتلها" أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في قتل الضفدع (٥٢٧١) (ج ٤ / ص ٥٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٩٧١).

-صلى الله عليه وسلم-: ((لا ضرر ولا ضرار)) فهذه لا يجوز أكلها، وما عدا ذلك مما لم يرد فيه دليل -ما لم يكن من ذوات المخالب ولا ذوات الأنياب- فإنه يجوز أكلها.

والخلاصة أن كل ما لم يكن من ذوات الأنياب ولا المخالب ولا من الأشياء المستخبثة أو لم يغلب عليه الضرر فإنه يجوز أكله، وأما الحيوانات البحرية فالأصل أنها تؤكل جميعاً الحي منها والميت إلا ما ثبت ضرره، وإن كان العلماء قد اختلفوا في بعض الأشياء مثل كلب البحر لكن الأصل في كل ذلك الجواز، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة -تعني الشاة- قال: ((فلولا أخذتم مسكها))[١٧].

قوله: "**فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة**" وذلك أنهم كانوا يسمون الدواب بأسماء معينة، فهذه دلدل وهذه القصواء وهكذا، فهذه إحدى الشياه ماتت وكان لها اسم معين.

قال: ((فلولا أخذتم مسكها)) قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما قال الله: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] **وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به)) فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها، ورواه البخاري والنسائي نحوه**[١٨].

في قوله: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} } الأصل أن الضمير يرجع إلى المضاف؛ لأنه هو المحدث عنه وهو اللحم هنا، وقد تكلف بعضهم فقال: إنه يرجع إلى المضاف إليه من أجل أن يدخل فيه الشحم لكن لا حاجة إلى هذا؛ لأن اللحم إذا أطلق في لغة العرب فإنه يدخل فيه الأحمر والأبيض، وبناء على هذا يدخل في الآية لحم الخنزير وشحمه فلا يجوز الانتفاع بدهون الخنزير ولا جميع المشتقات التي تستخرج منه، وكذا ما يلحق بلحمه كالأمعاء وما أشبه ذلك.

وفي قوله: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] الضمير عاد مفرداً فيحتمل أن يرجع إلى المذكورات السابقة كلها {إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] هذا احتمال، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه يرجع إلى المذكور الأخير؛ لأن الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولأن الضمير مذكر إضافة إلى كونه مفرداً، ثم إن ذكر الفاء مع "إنَّ" يدل على التعليل، وهذا التعليل يحتاج إلى بيانه في الخنزير؛ لأن الذين يأكلون الخنزير يلتذون به وربما قدموه على سائر اللحوم كما هو مشاهد، وأما الميتة والدم المسفوح فلا يخفى على الجميع أنها ليست من أطايب الطعام حتى عند الذين يأكلونها، ولذلك رجح ابن القيم -رحمه الله- أن الضمير هنا يرجع إلى لحم الخنزير من هذه الأوجه التي ذكرتها آنفاً.

يقول تعالى: {أَوْ فِسْقًا} [(١٤٥) سورة الأنعام] "أو" حرف عطف، لكن {فِسْقًا} معطوفة على قوله: {لَحْمَ خِنزِيرٍ} وليس على{رِجْسٌ}، فيكون معنى الآية: قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به، أي أنها أربع محرمات كقوله تعالى: {حُرِّمَتْ

---

[17] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

[18] - أخرجه أحمد (٣٠٢٧) (ج ١ / ص ٣٢٧) والطبراني في الكبير (١١٧٩٢) (ج ١١ / ص ٢٨٨) وصححه شعيب الأرنؤوط في مسند أحمد.

عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(٣) سورة المائدة] فتلك الآية بمعنى هذه تماماً، وسماه فسقاً لتوغله في الفسق؛ لأنه ذبح لغير الله -عز وجل- من الأصنام والقبور وما إلى ذلك من المعبودات سوى الله -تبارك وتعالى- والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أي: غفور له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية.

والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حرَّم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أُهِّل لغير الله به، وما عدا ذلك فلم يحرم وإنما هو عفوٌ مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] سبق الكلام على هذا كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، لكن ذكره هنا من باب التذكير به بحيث إن من أشرف على الهلكة فإنه يجوز له أن يأكل من هذه المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

وقوله: {غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] سبق كلام أهل العلم على معنى الباغي والعادي، فابن جرير -رحمه الله- يفسر الباغي بأنه يأكل من الميتة من غير اضطرار ويجد مندوحة عنها، والعادي هو الذي يتجاوز الحد، يعني اضطر ولكنه يأكل أكثر من المقدار الذي يحتاج إليه؛ وأهل العلم اختلفوا في القدر الذي يأكله من الميتة وهل يتزود منها أو لا يتزود، بمعنى إذا حلت له الميتة هل له أن يأكل حتى يشبع؟ وهل له أن يتزود منها أو لا؟

الحاصل أن هذا مما يدخل في معنى الباغي والعادي، وقد ذكر بعض أهل العلم هنا أيضاً الذي يكون سفره محرماً، هل يجوز له أن يأكل من الميتات أو لا؟

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(١٤٦) سورة الأنعام]، يقول تعالى: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطير كالإبل والنعام والأوز والبط.

يقول تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} يعني حرمت عليهم ذوات الأظفار، وهي كل ما لم يكن مشقوق الأصابع، وهذا هو المشهور عند أهل العلم والذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه

الله-، وما لم يكن مشقوق الأصابع كالبط والنعام والإبل وما شابه ذلك، كل ذلك يحرم عليهم، وفسره بعضهم بأوسع من هذا لكن فيه بُعد، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا} [(١٤٦) سورة الأنعام] **قال السدي: يعني الثَّرْب وشحم الكليتين.**

الثَّرب -بإسكان الراء- هو الشحم الرقيق الأبيض الذي يكون في داخل البطن على الكرش والأمعاء.

يعني الثرب وشحم الكليتين، وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه.

لماذا قال: "**يعني الثرب وشحم الكليتين**"؟ قال ذلك؛ لأنه ليس مما حملت ظهورها وليس مما اختلط بعظم مما أبيح لهم، فالشحم الذي يكون على الفخذ مثلاً أو الظهر أو الرقبة هذا يكون مما اختلط بعظم، وكذلك الشحم الذي يكون في الإلية هذا اختلط بعظم وهو العصعص، فلذلك هذا لا يحرم عليهم، إنما الذي يحرم ما لم يختلط بعظم، هذا هو الذي حمله على القول: "**يعني الثَّرْب وشحم الكليتين**".

قوله: "**وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه**" يعني حرمه يعقوب -صلى الله عليه وسلم- لكن هذا ليس صحيحاً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا} [(١٤٦) سورة الأنعام] **يعني ما علق بالظهر من الشحوم.**

وقوله تعالى: {أَوِ الْحَوَايَا} **قال الإمام أبو جعفر بن جرير: الحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويَّة، وهو ما تحوَّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء.**

قوله: "**وهي بنات اللبن**" يعني خزائن اللبن، ولذلك العلم الحديث يقول: إن الدم يمتص الغذاء من الأمعاء ثم ينتقل إلى سائر الجسم.

يقول: "**وهي المباعر**" ويقصدون بالمباعر ما نسميه الآن بالأمعاء الغليظة، وتسمى المباعر؛ لأن البعر يجتمع فيها، والمقصود أن ما حملته هذه الحوايا من الشحوم فإنه يجوز لهم أكله.

وبعضهم يقول: إن الحوايا هي الأمعاء مطلقاً فما كان عليها من الشحم فإنه يحل لهم، بمعنى أنه لا يختص ذلك بالأمعاء الغليظة، والله أعلم.

يقول: "**وتسمى المرابض**" الأمعاء وأحشاء البطن يقال لها المرابض.

قال: ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملت الحوايا.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَوِ الْحَوَايَا} **وهي المبعر، وقال مجاهد: الحوايا المبعر والمربض.**

يعني أن الشحم الذي يكون في أحشاء البطن حلال لهم.

وقوله تعالى: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] **يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم.**

"أو" في قوله: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] حرف عطف فيكون ما بعد "أو" عائداً إلى الأشياء التي أبيحت لهم، فيكون الذي أبيح لهم من الشحوم {مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] وهذا الذي عليه عامة المحققين من أئمة اللغة ومن المفسرين.

وبعضهم يقول: إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوف على الشحوم، فيكون الكلام هكذا: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما والحوايا وما اختلط بعظم، وهذا القول فيه تكلف وهو خلاف الظاهر، والأصل حمل الكلام على ظاهره إلا لدليل يجب الرجوع إليه، ولا حاجة لمثل هذا التكلف.

والخلاصة أن الأشياء التي حرمت عليهم هي كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم الشحوم ويستثنى من ذلك ما حملت الظهور أو الحوايا من الشحوم التي على الأمعاء، أو ما اختلط بعظم، فكل ذلك مباح لهم، والله أعلم.

وقال ابن جريج: شحم الإلية ما اختلط بالعصعص، فهو حلال، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال، ونحوه قاله السدي.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ} [(١٤٦) سورة الأنعام] أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} [(١٦٠) سورة النساء].

وقوله: {وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(١٤٦) سورة الأنعام] أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به.

وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه.

يقول: "**لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه**"؛ لأن الله -عز وجل- قال: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] فكذبهم الله -عز وجل- بهذا.

وقد جاء في التوراة أيضاً هذا النص: حرمتُ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلَّ دابة ليست مشقوقة الحافر، وكل حوت ليس فيه سفاسف -يعني ليس فيه بياض- وقوله: "وكلَّ دابة ليست مشقوقة الحافر" هذا ما فسرنا به قوله: {حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام].

مسألة:

من جملة ما حُرِّم على الذين هادوا الشحوم إلا ما اختلط بعظم أو الحوايا -على القول بأنها مستثناة مما لا يحل- فقد يقول قائل: إن ما حُرِّم عليهم الشيء اليسير من الشحوم كالتي في العينين وفي القلب والكليتين ونحو ذلك، فما الحكمة من تحريم هذه الأشياء اليسيرة مع أن هناك شحماً كثيفاً في الإلية –مثلاً- وفي غيرها لم يحرم عليهم؛ لأنه مما اختلط بعظم أو من الحوايا؟ فالجواب أن تحريم الشحوم عليهم بهذه الصفة تجعلهم يحتاجون إلى فصل الشحم من بعض أجزاء الجسم مما يتم فصله بصعوبة، فهذا يحل وهذا لا يحل وهكذا، فكأن في هذا معنى التضييق، عقوبة لهم، والله أعلم.

وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- أن سمرة باع خمراً فقال: قاتل الله سمرة، ألم يعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها)) [أخرجاه][(١)].

يعني جاءوا وحولوها إلى شيء آخر كأن يكونوا أذابوها وباعوها ودكاً ثم قالوا: نحن ما بعنا الشحوم.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول عام الفتح: ((إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)) فقيل يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس، فقال: ((لا، هو حرام)) ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك: ((قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه)) ورواه الجماعة[(٢)].

{فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١٤٧) سورة الأنعام] يقول تعالى: فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم {فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [(١٤٧) سورة الأنعام].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع المعاني التي قيلت فيمن يتوجه إليه قوله: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** فبعضهم يقول: هم المشركون؛ لأن سياق الحديث أصلاً في تحريم المشركين بعض الأشياء وتحليل بعض الأشياء، فالله -عز وجل- يرد عليهم وكان من جملة ما ذكر أنه قص ما وقع لليهود في المحرمات، فالله –عز وجل- أمر رسوله –صلى الله عليه وسلم- أن يقول للمشركين: **{لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] وذلك عندما حرموا ما حرموا وأباحوا ما أباحوا، قال تعالى: **{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء}** الآية [(١٣٨) سورة الأنعام] والمقصود أنه جاء الكلام على اليهود في ثنايا الرد على المشركين، ثم قال: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** أي هؤلاء الذين حرموا أشياء وأحلوا أشياء من عند أنفسهم من المشركين **{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}** [(١٤٧) سورة الأنعام].

وبعضهم يقول: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] يعني اليهود الذين قال الله -عز وجل- فيهم: **{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}** أي: فيما أخبرتك ما الذي حرمت عليهم **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] وقالوا لا، ليس الأمر كذلك **{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}** [(١٤٧) سورة الأنعام]، وبه قال ابن جرير –رحمه الله-.

فالشاهد أن الحافظ ابن كثير جمع بين المعنيين باعتبار أنه لا يوجد دليل يدل على تخصيص المشركين أو اليهود بالضمير في قوله: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] فقال: "**فإن كذبك يا محمد مخالفوك من**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه (٢١١٠) (ج ٢ / ص ٧٧٤) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨٢) (ج ٣ / ص ١٢٠٧).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب بيع الميتة والأصنام (٢١٢١) (ج ٢ / ص ٧٧٩) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨١) (ج ٣ / ص ١٢٠٧).

المشركين واليهود" أي الذين يحللون ويحرمون ويعتدون على شرائع الله -عز وجل- {فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [(١٤٧) سورة الأنعام].

{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [(١٤٧) سورة الأنعام] وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتِّباع رسوله.

{وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١٤٧) سورة الأنعام] ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام] وقال: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٦) سورة الرعد] وقال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [(٤٩-٥٠) سورة الحجر] وقال تعالى: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} [(٣) سورة غافر] وقال: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ* إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [(١٢-١٤) سورة البروج] والآيات في هذا كثيرة جداً.

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ* قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ* قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [(١٤٨-١٥٠) سورة الأنعام].

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيّره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منّا بذلك، ولهذا قالوا: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} [(١٤٨) سورة الأنعام].

يعني أن هؤلاء المشركين احتجوا بالقدر على شركهم وجعلوا ذلك دليلاً على رضا الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو الذي يحتج به الجبرية، لكن الله -عز وجل- ردَّ عليهم -كما ذكرنا في القاعدة التي أشرنا إليها مراراً- وهي أن كل حكاية في القرآن يحكيها الله -عز وجل- عن قائلٍ فإنه يذكر قبلها أو معها أو بعدها ما يدل على بطلانها وإلا فهي صحيحة غالباً، فالله -عز وجل- رد على هؤلاء، وهذا فيه إبطال لحجة الجبرية أيضاً حيث يقول تعالى: {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [(١٤٨) سورة الأنعام] ثم بين أنهم بذلك ما يتبعون إلا الظن، وأنهم يخرصون خرصاً، فلا حقيقة عندهم ولا يقين.

يقول تعالى:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا} [(١٤٨) سورة الأنعام] هذا إخبار من الله -عز وجل- أنهم سيقولون ذلك، وأخبر في مواضع أخرى من كتابه -عز وجل- كما في سورة النحل أنهم قالوه فعلاً، أعني أن هذا قاله في سورة الأنعام وهي سورة مكية، وسورة النحل سورة مكية لكنها نزلت بعد سورة الأنعام بدليل قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ} [(١١٨) سورة النحل] وقد قص

هذا في سورة الأنعام في هذا الموضع: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] إلى آخر ما ذكر، فالإجمال في سورة النحل مبين بهذا التفصيل الذي في سورة الأنعام.

والحاصل أنه قال: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(١٤٨) سورة الأنعام] ثم بين في سورة النحل أنهم قالوه فعلاً كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} [(٣٥) سورة النحل] وقال أيضاً في سورة الزخرف: {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} [(٢٠) سورة الزخرف] فهم قالوا ذلك فعلاً، فجعلوا وقوع ذلك منهم بمشيئته -سبحانه وتعالى- دالاً على محبته ورضاه.

ونحن نعرف أن المشيئة الكونية لا تقتضي المحبة فالله -عز وجل- يقول: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [(٧) سورة الزمر] وإنما الذي يقتضي المحبة هي الإرادة الشرعية فحيث لم يفرقوا بين الإرادتين ظنوا أن وقوع ذلك بمشيئته وإرادته دليلٌ على محبته ورضاه.

كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} الآية [(٢٠) سورة الزخرف] وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء.

هؤلاء بالإمكان أن يُرَدَّ عليهم بكل بساطة فيقال لهم: إذا كان وقوع الشيء يدل على محبة الله -عز وجل- له فلماذا تحاربوننا وتعادوننا غاية العداوة، وقد أسلمنا لله رب العالمين؟ فالله -عز وجل- يحب ذلك ويرضاه، فلماذا أنتم تنكرونه وتعادون أهله وتضيقون عليهم وتضطرونهم إلى الخروج من بلادهم؟ لماذا خالفتم إرادته ومحبوباته؟

بهذا الرد لن يكون عندهم جواب، ومثل هذا الأسلوب يستعمل مع العصاة الذين يحتجون بالقدر حيث يقول الواحد منهم: إن الله -عز وجل- كتب هذا عليَّ وقدره، ولذلك لا يتوب من معصيته ولا يرعوي فيقال له: ما دام الله -عز وجل- كتب عليك هذا وأنت راضٍ به فلماذا لا ترضى أن يضربك شخص أو يكسر سيارتك أو نظارتك دون أن تغضب وتحاول الانتقام لنفسك فالله -عز وجل- كتب عليك ذلك ولا بد لك من الرضا بهذا القضاء؛ لأن هذا الفعل الذي صدر في حقك وأجراه الله على يد هذا الإنسان مكتوب لا محالة أن يقع عليك فلا بد أن نرضى أنا وأنت بما قدر الله -عز وجل- وانتهينا!.

ومثله ذلك الطالب الذي عنده اختبار يقال له: لا تقرأ ولا تفتح كتاباً ولا تمش إلى المدرسة أيضاً وما قدره الله لك من النجاح أو الفشل سيقع لا محالة، هكذا يرد على من يحتج بالقدر على ترك السعي إلى الآخرة، لكن المشكلة أنك تراهم يتهافتون ويسعون لأجل الدنيا دون ملل فإذا قلت للواحد منهم: لا تهلك نفسك لأجل الدنيا فما قدره الله لك سيكون إذا ببعضهم يؤلفون هنا حديثاً قدسياً نصه: اسعَ يا عبدي وأنا أسعى معك!! أما في باب العمل الصالح فيحتجون بالقدر، والله كاتب عليَّ أن أكون بهذه المثابة فادع لي، وهكذا يتهربون من إقامة الحجة عليهم، والله المستعان.

قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم} [(١٤٨) سورة الأنعام] أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ} [(١٤٨) سورة الأنعام] أي: **بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه** {فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} أي: **فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه.**

{إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ} [(١٤٨) سورة الأنعام] أي: **الوهم والخيال والمراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد.**

{وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} [(١٤٨) سورة الأنعام] **تكذبون على الله فيما ادعيتموه.**

من المناظرات التي ذكرها بعض السلف في هذا قصة ذلك الرجل الذي احتج بالقدر فلطمه صاحبه فلما غضب قال له: هذا شيء قدره الله عليك ولابد من الإيمان بالقدر.

والآخر احتج بحل الخمر قائلاً: ما تقول في الماء والخل؟ فقال له صاحبه: هما حلال، قال: وما تقول في العنب؟ قال: هو حلال، قال: فالخمر إنما هي عنب وماء وخل فلماذا تحرمها؟

قيل له: أرأيت إن أخذت تراباً وألقيته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: فإن أخذت ماءً وصببته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: لو أخذت تبناً فألقيته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: أرأيت لو أني جمعت التراب وبللته بالماء ثم وضعت معه التبن فتماسك وتركته حتى جف ثم بعد ذلك ضربت به رأسك، هل يضرك؟ قال: إذن تقتلني؟ فقال: هكذا إذاً الخمر، هي عنب وماء يترك حتى يشتد ويلقي بالزبد ويصير مسكراً فإذا شربته حصل من ذلك الأثر والضرر منه.

وقوله تعالى: {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [(١٤٩) سورة الأنعام] **يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: قل لهم يا محمد** {فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} أي: **له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل** {فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [(١٤٩) سورة الأنعام] **فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى:** {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [(٣٥) سورة الأنعام] **وقال تعالى:** {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ} [(٩٩) سورة يونس].

وقوله: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [(١١٩) سورة هود] **قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.**

وقوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ} [(١٥٠) سورة الأنعام] أي: **أحضروا شهداءكم** {الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا} [(١٥٠) سورة الأنعام] أي: **هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه** {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} [(١٥٠) سورة الأنعام] أي: **لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً.**

{وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [(١٥٠) سورة الأنعام] أي: **يشركون به ويجعلون له عديلاً.**

"هلمَّ" في قوله: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ} [(١٥٠) سورة الأنعام] يعني أحضروا، فبعضهم يقول: إنها مركبة من كلمتين، أو من حرفين، وبعضهم يقول: إنها مركبة من "هل" الاستفهامية" و "أُمّ" يعني هل أقصد كذا؟، لكن لكثرة الاستعمال قيل هلُمَّ، وبعضهم يقول غير هذا، فأهل اللغة مختلفون في أصلها وفي تركيبها، وعلى كل حال هي بهذا المعنى اسم فعل، وأسماء الأفعال -كما هو معلوم- تأتي بمعنى الأمر أحياناً كقولك: صه يعني

أنصت، وقولك: مَهْ بمعنى كُفَّ، وكذلك تقول: هلم يعني أقبل، ومن أسماء الأفعال قول: "بخٍ" فهي كلمة تدل على استحسان الشيء، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام].

قال داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} [(١٥١) سورة الأنعام] إلى قوله: {لَعَلَّكُمْ تتقونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام][(١)].

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٢)].

وروى الحاكم أيضاً في مستدركه عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيكم يبايعني على ثلاث؟)) ثم تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} حتى فرغ من الآيات، فمن وفّى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم -وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم- قل لهم: {تَعَالَوْاْ} أي: هلموا وأقبلوا {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم، حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه الآيات مشتملة على هذه الوصايا المعروفة بالوصايا العشر، وتعرف أيضاً بالآيات المحكمات، وكثير مما تضمنته هذه الآيات من الوصايا مذكور في الوصايا التي في سورة الإسراء من قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٠) (ج ٥ / ص ٢٦٤) والطبراني (١٠٠٨٠) (ج ١٠ / ص ٩٣) وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.

[2] - أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٢٣٨) (ج ٢ / ص ٣٤٧) وصححه الذهبي في التلخيص.

{وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} [(٢٣) سورة الإسراء] إلى آخر ما ذكره الله -عز وجل- مع وجود بعض الفروق.

وهذه الآيات التي في الأنعام مبدوءة بقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام]، وهناك قال الله -عز وجل-: {وَقَضَى رَبُّكَ} [(٢٣) سورة الإسراء] أي: حكم ووصى، وما أشبه ذلك من المعاني.

ومن أهل العلم كالطاهر بن عاشور -رحمه الله- من يذكر في الفروقات بين هذه الآيات وتلك أن آيات الأنعام لما كانت خطاباً للمشركين وهم بُعداء عن الحق أصلاً قال لهم: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] والتي في الإسراء كان الخطاب فيها متوجهاً إلى الداخلين في الإسلام فقال: {وَقَضَى رَبُّكَ} [(٢٣) سورة الإسراء].

وقوله: {تَعَالَوْاْ} يعني أقبلوا، وأصل هذه الكلمة تقال ممن كان في علو لمن هو منسفل عنه وكأنه يدعوه إلى أن يرتفع، ثم صارت تستعمل في الطلب والنداء بإطلاق، بمعنى أقبل.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الوصايا موجودة في التوراة، وذكروا ترجمتها وأنه يقول: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكون لك إله غيري، ويقول: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض.. لا تقتل لا تزنِ لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشتهِ بنت قريبك، ولا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

{وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} [(٣٦) سورة النساء] وكأن في الكلام محذوفاً دلَّ عليه السياق وتقديره: وأوصاكم ألا تشركوا به شيئاً.

في الإسراء يقول: {وَقَضَى رَبُّكَ} [(٢٣) سورة الإسراء] فلفظة "قضى" تأتي لمعانٍ كثيرة إلا أنها هنا مضمنة لمعنى وصّى؛ لأن القضايا المذكورة بعد هذا اللفظ متضمنة لأمور منهي عنها ولأمور مأمور بها، ولا يجمع ذلك إلا الوصية بخلاف ما إذا فسر "قضى" بمعنى أوجب، فالوصية تقول فيها: افعل كذا وافعل كذا ولا تفعل كذا ولا تفعل كذا.

ولهذا قال في آخر الآية: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام] وفي الصحيحين من حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر))[3].

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١١٨٠) (ج ١ / ص ٤١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار (٩٤) (ج ١ / ص ٩٤).

عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك))[4] ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [(٤٨) سورة النساء].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ((من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة))[5] والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] وقرأ بعضهم: (ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) [(٢٣) سورة الإسراء].

هذه القراءة في الإسراء وهي ليست متواترة، لكنها دليل على تفسير قوله: {وَقَضَى} بمعنى وصَّى.

وقوله: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] أي: أمركم أن تحسنوا إليهم إحساناً.

أي أحسنوا إليهم والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(١٤-١٥) سورة لقمان] فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما.

وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} الآية [(٨٣) سورة البقرة]، والآيات في هذا كثيرة.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)) قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)) قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو استزدته لزادني[6].

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات – باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠) (ج ٥ / ص ٥٤٨) وصححه الألباني.

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١١٨١) (ج ١ / ص ٤١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٣) (ج ١ / ص ٩٤).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الجهاد والسير (٢٦٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٢٥) ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥) (ج ١ / ص ٨٩).

تزاني حليلة جارك)) ثم تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} الآية [(٦٨) سورة الفرقان[7].

وقوله تعالى: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة والسدي وغيره هو الفقر، أي ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل.

وقال في سورة الإسراء: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} [(٣١) سورة الإسراء] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً قال: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] لأنه الأهمّ هاهنا، والله أعلم.

يقول تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] الولد كما هو معلوم يصدق على الذكر والأنثى، والمشهور أنهم كانوا يقتلون البنات خشية العار، وذلك لا ينافي قوله هنا: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وفي الإسراء: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] لأنهم كانوا يخشون أن تفتقر البنت ثم تضطر إلى بيع عرضها، هذا هو الذي عرف في التاريخ، أي أنهم كانوا يخشون أن تفتقر ثم بعد ذلك يضيع شرفها:

إذا تــذكرت بنتــي حــين تنــدبني ... جرت لعبرة بنتــي عبرتــي بــدمِ

مخافة الفقــر يومــاً أن يلــم بهــا ... فيكشف الستر عن لحم على وضم

أخشى فظاظــة عــم أو جفــاء أخٍ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلــم

تهوى حياتي وأهوى موتها شــفقا ... والموت أكرم نزَّال علــى الحــرم

فهو يقول: أخشى أنها تفتقر ويجفوها أخوها وعمها فتضطر إلى كشف سترها ثم بعد ذلك تبيع عرضها وتهتك شرفها بسبب الحاجة.

والآخر كان عنده بنت اسمها أميمة يقول:

أميمة تهوى عــيش شــيخ يــسره ... لهــا المــوت لــو أنهــا تــدري

الثالث كان عنده بنت يقولون: إن اسمها الجرباء يقول:

إنّــي وإن ســيق إلــيَّ المهــر ... ألــفٌ وعبــدان وذودٌ عــشر

أحبّ أصهاري إليّ القبر

هكذا كانوا يصنعون خوفاً من ضياع الشرف، وفعلهم ذلك كله موافق لما ذكره الله -عز وجل- عنهم بقوله: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] وقوله: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهو نهي أن يحمل هذا الفقر على ما لا يليق من شدة غيرتهم، وربما قتلوا بعض الذكور بسبب الفقر أيضاً كما هو معروف في التاريخ.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [(٦٧) سورة المائدة] (٧٠٩٤) (ج ٦ / ص ٢٧٣٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦) (ج ١ / ص ٩٠).

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] المعنى المشهور الذي عليه عامة أهل العلم من المفسرين ومن أهل اللغة أنه الفقر، يقال: أملق الرجل يعني لم يبق له إلا المَلَقات، والمَلَقات يقصد بها الحجارة الملساء أو الحصى أي ليس له مال كما يقال: لم يبق له إلا التراب، وكما يقال: تربت يداه، ورغم أنفه وما أشبه ذلك.

وبعضهم يفسره بالإنفاق أي أن قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] يعني لا تقتلوهم لأجل النفقة، ولكن هذا فيه بعد والله تعالى أعلم، فالقرآن إنما يحمل على المعنى المشهور المتبادر ولا يحمل على معنى خفي أو مغمور إلا بدليل يجب الرجوع إليه، والله تعالى أعلم.

والمعنى الذي ذكره ابن كثير في الفرق بين آية الأنعام وآية الإسراء في التقديم والتأخير هو معنى لطيف، وهو من لطائف القرآن، وهو الذي يسمونه بالمتشابه اللفظي، وقد أُلِّفت فيه مصنفات خاصة مثل كتاب "البرهان" للكرماني، ومثل كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، ومثل كتاب "ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، ومثل كتاب "متشابه القرآن" لزكريا الأنصاري.

هذه الكتب تُعنَى بأمثال هذه الآيات، ومن أمثلة المتشابه اللفظي قوله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [(٩٧) سورة الكهف] ولماذا قال في سورة الأنفال: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(١٠) سورة الأنفال] وقال في آل عمران: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] ويعتني بهذا الجانب أيضاً بعض المفسرين ممن يُعنون بالجوانب البلاغية كالطاهر بن عاشور في تفسيره، وأمثاله.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف] وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

يعني ما يقال هناك يقال هنا إلا أنه هنا صرح بذكر الفواحش، وذكرنا في بعض المناسبات السابقة أن من أهل العلم من يقول: إن الفاحشة إذا عرفت باللام فإنها بمعنى الزنا وما في معناه، وإذا ذكرت منكرة فهي الذنب العظيم، وإذا ذكرت مقيدة كقوله تعالى: {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١٩) سورة النساء] فإنه يراد بها عقوق الزوج، هكذا قال بعض أهل العلم، لكن قد لا يكون هذا هو المعنى المترجح في تفسير الفاحشة، فالفاحشة كل ذنب عظيم، وأطلقت كثيراً في عرف الاستعمال على الزنا وما في معناه، والله -عز وجل- في سورة الإسراء لما نهى عن قتل الأولاد قال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى} [(٣٢) سورة الإسراء] وذلك أنهم كانوا يقتلون الأولاد خشية الفقر من أجل أن لا تضطر أن تبيع عرضها، وهنا نهى عن مقارفة الفواحش فقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] كما سبق في قوله: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

وقوله: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا} يعني ما كان علانية مما كانوا يفعلونه مع البغايا المجاهرات ذوات الرايات في دور البغاء، يعني مما كان علانية لا يُسره ولا يخفيه صاحبه.

وقوله: {وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] يعني ما خفي مثل الزنا مع الخليلات، وما يفعله الإنسان خلسة مما لا يظهره للناس، هكذا يقال والله تعالى أعلم، فكل ما كان ظاهراً من الزنا أو مقارفة الفواحش فهو داخل في قوله: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا} وكل ما كان يفعل خفية فإنه داخل في قوله: {وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وهو يجمع ما ذكره المفسرون مما ورد من عبارات السلف -رضي الله عنهم- في معناها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهرمنها وما بطن))[٨].

وقال عبد الملك بن عمير عن ورَّاد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح.

قوله: "**لضربته بالسيف غير مصفح**" يعني سيضربه بحد السيف لا بعرضه؛ لأن ضربه بعرضه لا يقتل غالباً، بل يكون كأنما ضربه بعصا، فإذا أراد أن يضربه بالسيف ضرباً يؤدبه فيه دون أن يقتله فقد يضربه بعرض السيف، وإذا أراد قتله ضربه بحده.

قال سعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنه-: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير مني؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)) أخرجاه[٩].

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهذا مما نص -تبارك وتعالى- على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل الفواحش على أعم معانيها أي أنها كل ذنب عظيم، والزنا وما في معناه يدخل فيها دخولاً أولياً.

فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة))[١٠].

هذا الحصر الوارد في هذا الحديث من أهل العلم من يقف عنده ويقول: لا يحل قتل المسلم إلا بهذه الثلاث، وعرفنا مراراً أن هذا النوع من الحصر -بالنفي والاستثناء- هو أقوى أنواع الحصر كما سبق قريباً في قوله

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٨) (ج ٤ / ص ١٦٩٦) ومسلم في كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا شخص أغير من الله)) (٦٩٨٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٨) ومسلم في كتاب اللعان (١٤٩٩) (ج ٢ / ص ١١٣٦).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الديات – باب قول الله تعالى: {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] (٦٤٨٤) (ج ٦ / ص ٢٥٢١) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) (ج ٣ / ص ١٣٠٢).

تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] وسبق أنه ورد في السنة تحريم أشياء أخرى غير التي في هذه الآية.

وكذلك ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- الحكم بالقتل على أمور أخرى غير ما في هذا الحديث كقوله -صلى الله عليه وسلم- في الساحر: ((حد الساحر ضربة بالسيف))[١١] وكقوله -صلى الله عليه وسلم-: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[١٢] إلى غير ذلك مما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كشارب الخمر في المرة الرابعة.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد، وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوعاً: ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما))[١٣].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً)) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح[١٤].

من قتل معاهداً أو مستأمناً أعطي أماناً ولو من امرأة أو أيٍّ من آحاد المسلمين ففيه هذا الوعيد ((لم يرح رائحة الجنة)) وهذا يدل على أن الإنسان أبعد ما يكون عن الخير وعن التقرب إلى الله -عز وجل- بهذا الأمر، فكيف بمن يطلب الجنة بمثل هذه الأمور -نسأل الله العافية- ولذلك يقال: من كان هذا حاله فإنه قد زُيِّن له سوء علمه فرآه حسناً مهما ذكر من الأعذار؛ لأن آحاد الناس إذا أعطوا أحداً من الكفار أماناً أو عهداً فإنه يلزم الوفاء به، فالله المستعان.

وقوله: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

يعني أن الأمر والنهي المؤكد يقال له وصية، تقول: أوصيك بكذا، وأوصيك بكذا وكذا، فهذه الأمور الله -تبارك وتعالى- يؤكد على التزامها والتمسك بها وعدم الإخلال بها، والله المستعان.

---

11 - أخرجه الترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حد الساحر (١٤٦٠) (ج ٤ / ص ٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٦٩٩) وأما الترمذي فقال: "لا نعرفه إلا مرفوعاً من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة، ويروى عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً" وقال الحاكم: صحيح غريب، ووافقه الذهبي.

12 - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود - باب من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

13 - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم (٦٥١٦) (ج ٦ / ص ٢٥٣٣).

14 - أخرجه الترمذي في كتاب الديات – باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة (١٤٠٣) (ج ٤ / ص ٢٠) وابن ماجه في كتاب الديات - باب من قتل معاهدا (٢٦٨٧) (ج ٢ / ص ٨٩٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٠٠٩).

العلم -بإذن الله -عز وجل- سياج وحصن حصين من الآفات والشبهات الغلّابة والأهواء المردية، وإلا فإن الإنسان يهلك حيث يبحث عن النجاة ولذلك تجد إنساناً عمره تسع عشرة سنة أو عشرون أو اثنتان وعشرون سنة يفتي في قضايا كبيرة وهو لم يعقل من تلك الأمور شيئاً، فكيف دخل في هذه الأمور وكيف توصل إلى هذه النتائج؟ ولذلك إذا تفكر الإنسان في هذا عرف آفة الجهل كيف تصنع بصاحبها، والله المستعان.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [(١٥٢) سورة الأنعام].

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما أنزل الله: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] و {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} الآية [(١٠) سورة النساء] فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} [(٢٢٠) سورة البقرة] قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم [رواه أبو داود][١٥].

يعني أن لله -عز وجل- وسَّع عليهم وأباح لهم مخالطة الأيتام كما قال الله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٥٢) سورة الأنعام] يعني إلا بالخلة والخصلة التي هي أحسن وأجمل، ويدخل في هذا ما ذُكر هنا من مخالطتهم في طعامهم وشرابهم، وذلك أنهم في السابق تحرجوا في وضع طعام وشراب اليتيم في إناء منفردٍ عن طعامهم وطعام عيالهم لما في ذلك من المشقة الكبيرة فرخص الله -عز وجل- لهم بتقدير طعام اليتيم، ويقدر لنفسه ولعياله ما يحتاجون إليه من الطعام فيخلط الطعام معاً ثم يقدر ما لليتيم وما عليه، فهذه الطريقة هي الصحيحة بدلاً من أن يُرمى باقي الطعام الذي أعد لليتيم وحده باعتبار أن بقاء الطعام إذا وضع للأكل فلم يؤكل يفسده، ولذلك قال الله -عز وجل-: **{وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** [(٢٢٠) سورة البقرة] بمعنى أن هناك فرقاً بين من يتحرى وقصده حفظ مال هذا اليتيم وبين من يفعل ذلك استغلالاً ومبادرة يريد أن يستحوذ على مال اليتيم قبل أن يكبر ويبلغ أشده.

ويدخل في قوله: **{إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٥٢) سورة الأنعام] تثمير مال اليتيم كما في الحديث: ((اتَّجِروا في أموال اليتامى لا تُذهبها الزكاة))[١٦] والمقصود بتثمير مال اليتيم أن يكون ذلك بالطرق المأمونة، ولو كانت الأرباح قليلة، بمعنى أنه لا يضع أموال اليتيم في مشروعات قد تكون عالية الربح لكنها عالية المخاطرة، مثل الاتجار بالأسهم مثلاً بالطريقة المعروفة فمثل هذا لا يضع فيه مال اليتيم، وكذلك لا توضع أموال اليتامى عند الذين يوظفون أموال الناس زعماً فيعطونهم طعماً لمدة سنوات من أموال المساهمين لا أرباحاً حتى إذا ارتاضت نفوسهم واستحوذ عليهم الطمع أضاعوا أموالهم وأتلفوها، وكم ذهب من أموال اليتامى بمثل هذه

---

[15] - أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا – باب مخالطة اليتيم في الطعام (٢٨٧٣) (ج ٣ / ص ٧٣) وحسنه الألباني.

[16] - أخرجه مالك في موطئه في كتاب الزكاة - باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها (٨٦٣) (ج ٢ / ص ٣٥٣) موقوفاً على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- وأما رفعه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فلم يثبت، انظر ضعيف الجامع للألباني حديث رقم (٨٧).

الطرق، ومن وضعها في مثل هذه المشاريع فهو ضامن، والناس غالباً إذا كان لم يكن المال لهم تساهلوا في صرفه وتصريفه وفي التعامل معه والاتجار به فإن ربح وإلا فإنهم لا يخسرون شيئاً، فالحاصل أن مال اليتيم يُثمَّر ولو بأرباح زهيدة جداً، لكن تكون هذه الطرق في الاستثمار من الطرق المأمونة غالباً.

وفي قوله تعالى في سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} [(١٠) سورة النساء] عَبَّر بالأكل والمقصود به سائر وجوه الانتفاع لكن لما كان غالب وجوه الانتفاع هو الأكل عبر به وإلا فكما هو معروف عن الأصوليين في مفهوم الموافقة المساوي فإن تغريق مال اليتيم وتحريق مال اليتيم أو صرف مال اليتيم باللعب أو النزهة أو السياحة أو غير هذا، كله داخل في أكل مال اليتيم.

وفي سورة الأنعام نهى عن الاقتراب من مال اليتيم فقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ} [(١٥٢) سورة الأنعام] ولا شك أن هذا الأسلوب أبلغ من النهي عن أكله؛ لأنك إذا قلت: لا تقرب هذا الشيء فمعنى ذلك أنك تكون بمنأى عنه تماماً.

وقوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] أي بالخصلة التي هي أحسن مثل ما سبق الكلام حول المخالطة والاتجار به.

ومعلوم أن أموال الأيتام يُتصرف فيها لمقتضى المصلحة فيعالج هذا اليتيم من ماله وينفق عليه منه، وإذا كان ولي هذا اليتيم الذي يقوم على شئونه فقيراً فكما قال الله -عز وجل-: {فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [(٦) سورة النساء] وهذا داخل في قوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يعني أنه يأكل ويلبس ما يصلح لمثله دون أن يتوسع في أخذ مال هذا اليتيم والصرف منه فيكون ذلك سبيلاً إلى إتلافه، وإذا كانت المصلحة مقتضية أن يسكن مع اليتيم في داره فإن كان يجد قيمة بأن كان هذا الإنسان غنياً فإنه يحسب مقابل سكنه أجرة يضعها في مال اليتيم وإذا كان فقيراً فإن سكناه إن كانت مبنية على مصلحة اليتيم وليس استغلالاً لضعفه فلا بأس أن يسكن معه من غير أجرة، قال تعالى: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [(٢٢٠) سورة البقرة].

قوله تعالى: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم.

بعضهم يقول: حتى يحتلم، لكن المقصود بالبلوغ هنا بلوغ الأشد فبعضهم يقول: إذا بلغ ثماني عشرة سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ خمساً وعشرين سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ الثلاثين، وبعضهم يقول: إذا بلغ الأربعين، وبعضهم يقول: إذا بلغ الخمسين، وهذا كله من بلوغ الأشد، لكنه يكتمل إذا بلغ الإنسان الأربعين، ومن بلغ الخمسين فإنه يقال له أيضاً: قد بلغ أشده لكن لم يبلغ أشده حينما وصل إلى الخمسين وإنما بلغ ذلك قبله، ومن لم يحصل له ذلك من الرشد وبلوغ الأشد في سن الأربعين والخمسين فلا يُرجى له بعد ذلك رشد، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن يكون ذلك بمجموع أمرين: الأول: أن يصل إلى سن البلوغ، والثاني: أن يحسن التصرف في المال؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى} [(٦) سورة النساء] أي: اختبروهم {حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [(٦) سورة النساء] فهو ذكر الأمرين: {بَلَغُواْ النِّكَاحَ} هذا سن البلوغ {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا} [(٦) سورة النساء] أي: إن علمتم منهم رشداً، يعني حسن التصرف في المال، فيُختبر بأن يُعطى شيئاً من المال ويُنظر كيف يتصرف فيه بأن يعطى خمسين ريالاً مثلاً

فإن رجع فاشترى بها شيئاً لا يفعله الإنسان العاقل الرشيد الذي يحسن التصرف بالمال فمعنى ذلك أنه لم يحن الوقت لإعطائه المال فيُنتظر مدة ثم يُختبر مرة ثانية، فإن أحسن التصرف دفع إليه ماله.

وقوله تعالى: {وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٦) سورة المطففين] وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وقوله تعالى: {لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(١٥٢) سورة الأنعام] أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٥٢) سورة الأنعام] كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ} الآية [(٨) سورة المائدة] وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال.

وقوله: {وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ} [(١٥٢) سورة الأنعام] قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

{ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أي: تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا.

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام].

قوله: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}** يحتمل أن يكون في موضع نصب بمعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وأن هذا صراطي مستقيماً، يعني في جملة ما أمر أن يتلوه عليهم: وأن هذا صراطي مستقيماً، ويحتمل أن يكون في محل جر هكذا: ذلكم وصاكم به وبأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه. وبعضهم يقول كالخليل وسيبويه: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل.

وعلى قراءة حمزة والكسائي بكسر همزة "إن" **(وإن هذا صراطي مستقيماً)** يكون على الاستئناف، والله أعلم، يعني كأنه يقول: هذه الوصايا التي ذكرت في هذه الآيات هي صراطي المستقيم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [(١٥٣) سورة الأنعام] وفي قوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [(١٣) سورة الشورى] ونحو هذا في القرآن.

قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد.

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله وهو ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطاً بيده ثم قال: ((هذا سبيل الله مستقيماً)) وخط عن يمينه وشماله ثم قال: ((هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)) ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ

تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [(١٥٣) سورة الأنعام] **وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه**[17].

وروى الإمام أحمد وعبد بن حميد واللفظ لأحمد عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: كنا جلوساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فخط خطاً هكذا أمامه فقال: ((هذا سبيل الله)) وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: ((هذه سبل الشيطان)) ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام] **ورواه أحمد وابن ماجه في كتاب السنة من سننه والبزار**[18].

وروى ابن جرير أن رجلاً قال لابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركَنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادّ وعن يساره جوادّ، ثم رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} الآية [(١٥٣) سورة الأنعام][19].

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)) ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب[20].

هذه الأشياء المذكورة في الوصايا كالتوحيد وما ذكر بعده من حدود الله -عز وجل- والنهي عن قتل الأولاد ومقارفة الفواحش وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وإيفاء المكيال والميزان، وما أشبه ذلك، هذه تفاصيل شرائع الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، فكلما كان الإنسان محققاً لهذه الشرائع ممتثلاً كلما كان سيره على الصراط مستقيماً، وكلما خرج عنها كان سيره متعثراً، كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من استقام سيره على هذا الصراط في الدنيا رُجي أن يستقيم سيره على الصراط في الآخرة.

وأما الدعاة الذين يدعون إلى تلك السبل فهم الدعاة إلى جهنم، وكل من دعا إلى ما يخالف الصراط المستقيم فهو من هؤلاء الدعاة أياً كانت دعوته، وهذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: مثل ما لا ينقض

---

17 - أخرجه أحمد (٤٤٣٧) (ج ١ / ص ٤٦٥) والحاكم (٢٩٣٨) (ج ٢ / ص ٢٦١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

18 - أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١١) (ج ١ / ص ٦) وأخرجه أحمد (١٥٣١٢) (ج ٣ / ص ٣٩٧) وعبد بن حميد (١١٤١) (ج ١ / ص ٣٤٥) وصححه الألباني في الظلال برقم (١٦).

19 - أخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول (٧٠١٦) (ج ٩ / ص ٣٧١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (ج ٣ / ص ٣٨٦).

20 - أخرجه أحمد (١٧٦٧١) (ج ٤ / ص ١٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٨٨٧).

الوضوء، يعني لا تستطيع أن تستقصي هذه الأشياء؛ لأن كل دعوة مضلة موجودة أو توجد في المستقبل فهي داخلة في هذا.

وقوله تعالى: {فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ} [(١٥٣) سورة الأنعام] **إنما وحَّد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى:** {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) **سورة البقرة].**

مسألة: هل يصح أن يوصف اللقيط باليُتم؟ وهل له أحكام اليتيم؟

اللقيط لا يقال له: يتيم شرعاً، لكن إن كان له مال فحكمه كحكم اليتيم في هذا، وله أيضاً ما يذكر في اليتيم من الحنو عليه والشفقة والإحسان إليه وعدم قهره كما قال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [(٩) سورة الضحى] يقال فيه مثل هذا بل قد يقال: يعامل بذلك من باب أولى؛ لأن اليتيم قد يكون له أم أو أعمام وأقارب وجدّ وما أشبه ذلك، فهو ربما يعيش في أسرة تحوطه، أما اللقيط فهو لا أقارب له في الوجود أصلاً ولا يوجد في قاموسه شيء اسمه أم أو أب أو عم أو خال أو أحد في هذا العالم، ويشعر أنه هباء ليس له أحد، فهو يعيش في مجتمع لا يمت إليه بصلة؛ ولذلك فإن وضع اللقيط أشد من اليتيم، ولذلك إذا وصل إلى سن يميز ويعي فيه بعض الشيء فزاره شخص فاطمأن إليه واستراح له وأحبه فإنه يتعلق بثوبه ويقول: أنت أبي لا تذهب عني!!

وبعض هؤلاء اللقطاء ربما وصل إلى سن البلوغ وتعداه بل ربما وصل إلى سن الزواج -في عرفنا بعد سن العشرين- وهو لا يعرف أنه لقيط لا ينتسب إلى الأسرة التي تربيه ولا يعلم أنه وضع له أسم أب يظن أنه حقيقي، وربما قيل له: إن أهلك قد ماتوا أو نحو هذا فإذا عرف الحقيقة فربما اعترته حالة من الهستيريا، فينهار ويبكي، وهذا شيء يقع ويتكرر ما بين الفينة والأخرى، نسأل الله العافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(١٥٤-١٥٥) سورة الأنعام].

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [(١٥٣) سورة الأنعام] عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله -تبارك وتعالى- أوصى بتلك الوصايا العشر التي ابتدأها بقوله: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] الآيات ثم قال بعدها: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] والتعبير هنا بـــ"ثم" -التي في أصل معناها تفيد الترتيب مع التراخي- قد يسبب إشكالاً أو يثير سؤالاً وهو أن الله -تبارك وتعالى- قد أرسل موسى -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه الوصايا، فكيف عبر بذلك فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] مع أن موسى قد أرسله الله -عز وجل- وآتاه الكتاب قبل هذا بزمان بعيد كما هو معلوم؟ ولهذا فإن بعض أهل العلم قال: إن ثم هنا بمعنى الواو، والواو لا تقتضي الترتيب، فقوله: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني وآتينا موسى الكتاب، أي أنه أخبر عن إيتاء موسى الكتاب، فـــ"ثم" هنا تفيد العطف فقط كالواو تماماً.

ومن أهل العلم من يقول: إن هناك مقدراً محذوفاً، والتقدير: ثم كنا قد آيتنا موسى الكتاب تماماً على الذي، و"كان" تدل على الزمن الماضي كما هو معلوم.

ومن أهل العلم من يربط بين الآيات فيقول: إن المعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم –وذكر المحرمات- ثم أتلو إيتاء موسى الكتاب تماماً، وعلى هذا يكون قوله: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] من جملة المأمور بتلاوته عليهم، فالمعنى تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم أتل خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- وأن الله آتاه الكتاب.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الوصايا العشر قديمة أوصى بها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أقوامَهم، ذكرها الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر بعد ذلك إيتاء الكتاب لموسى، أي أن هذه الوصايا قبل موسى -عليه الصلاة والسلام- أوصىَ بها الأنبياء أقوامهم، فلما ذكر هذه الوصايا القديمة التي يوصي بها الأنبياء،

قال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] وعلى هذا المعنى تكون "ثم" على بابها للترتيب والتراخي، أي أن الوصايا سابقة لإيتاء موسى الكتاب.

وبعضهم يقول: إن "ثم" هنا هي لترتيب الأخبار فقط وليست دالة على ترتيب الوقائع والأشياء الحاصلة في الخارج، وهذا معروف في لغة العرب ومثال ذلك أن تقول: أنت أتيت إلى المسجد، ثم إنك ذهبت إلى السوق، ثم إنك تزوجت، ثم إنك تاجرت فقد لا تكون هذه الأشياء في الخارج مرتبة بهذه الطريقة، وإنما المقصود هو ذكر خبر بعد خبر وإن كان الوقوع ليس بهذه الطريقة في الترتيب، يعني أن "ثم" تفيد الترتيب لكنها هنا لترتيب الأخبار فقط، كقوله تعالى مثلاً -على قول بعض أهل العلم-: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [(١٧) سورة البلد] مع أن الإيمان هو أصل في العمل لكن ليس المقصود بذلك الترتيب بحسب الوقوع وإلا لكان مشكلاً.

وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول بقول من قال بالتقدير، أي أن فيه مقدراً محذوفاً لكن المقدر المحذوف عند ابن جرير -رحمه الله- هكذا: ثم قل بعد ذلك يا محمد: آتى ربك موسى الكتاب، يعني أن الله أمره بأن يتلوَ الوصايا العشر ثم يقول: إن ربي آتى موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن.

هذه الأقوال كلها تحتملها الآية، والجميع يعلم أن إيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يخبر الله -عز وجل- محمداً -صلى الله عليه وسلم- عن هذه القضايا، ولذلك فإن هذا قطعاً لا يدل على ترتيبها بحسب الوقوع.

وقول من قال: إن هذه الوصايا قديمة كان يوصي بها الأنبياء أقوامهم لا دليل عليه، بل غاية ما نعلم أن هذه الوصايا كانت موجودة في التوراة، أما الادعاء بأنها كانت موجودة قبلُ، ثم قال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] بعد ما كان يوصي بها الأنبياء فهذا بعيد.

وقول من قال: إنها لترتيب الأخبار قول له وجه قريب من النظر، ولعله أقرب هذه الوجوه، وهذا له نظائر في القرآن، والله تعالى أعلم.

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [(١٥٣) سورة الأنعام] عطف بمدح التوراة ورسولها فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام].

وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا} [(١٢) سورة الأحقاف] وقوله أول هذه السورة: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} الآية [(٩١) سورة الأنعام] وبعدها: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} الآية [(٩٢) سورة الأنعام].

وقال تعالى مخبراً عن المشركين: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} [(٤٨) سورة القصص] قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [(٤٨) سورة القصص] وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} الآية [(٣٠) سورة الأحقاف].

وقوله تعالى: تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً} [(١٥٤) سورة الأنعام] أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه {تَمَامًا} [(١٥٤) سورة الأنعام] كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ} الآية [(١٤٥) سورة الأعراف].

يعني أن قوله: {تَمَامًا} [(١٥٤) سورة الأنعام] يمكن أن يكون مصدراً، تقول: تمّ تماماً، ويمكن أن يكون مفعولاً لأجله، أي: آتينا موسى الكتاب لأجل التمام، والله أعلم.

وقوله تعالى: {عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] أي: **جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله:** {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [(٦٠) سورة الرحمن] **وكقوله:** {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] **وكقوله:** {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [(٢٤) سورة السجدة].

في قوله: {عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] قال: "**أي جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا**".

عامة أهل العلم على أن "أحسن" فعل ماض، وهذا هو الظاهر المتبادر، وعلى هذا فالذي أحسن يحتمل أن يكون موسى -عليه الصلاة والسلام- وهذا هو الذي مشى عليه ابن كثير، والمعنى أنه أحسن في طاعة الله والاستجابة لأوامره والانقياد لربه -تبارك وتعالى- وعليه فقوله: {الَّذِيَ أَحْسَنَ} يكون صفة لموسى -صلى الله عليه وسلم- وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: {تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني تتميماً لنعمتنا عليه، وذلك أنه أحسن في طاعة ربه فصارت نعمة الله عليه سابغة تامة، إذ امتن الله عليه بالإيمان والقبول والإذعان والعمل الصالح وفوق ذلك أيضاً آتاه الكتاب.

هذا هو المعنى الذي مشى عليه ابن كثير، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومن أهل العلم من يقول: إن "الذي" من قوله: {تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] اسم موصول، والأسماء الموصولة سواء كانت مفردة أو مثناة أو مجموعة فإنها من صيغ العموم كقوله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [(١٧) سورة الأحقاف] -على أحد المعنيين- يعني كل من وقع منه هذا القول، فالأسماء الموصولة هي للعموم، فمن أهل العلم من أجرى الاسم الموصول هنا على العموم ليكون معنى {تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني: الذين أحسنوا بالعمل الصالح والإيمان أتم الله -عز وجل- عليهم النعمة، وبعث موسى -صلى الله عليه وسلم- وآتاه الكتاب، أي أن قوله: {عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] لا يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- فحسب وإنما يرجع إلى كل من اتصف بهذه الصفة، ويؤيد هذا المعنى قراءة غير متواترة في الآية **(تماماً على الذين أحسنوا)** [(١٥٤) سورة الأنعام].

ومن أهل العلم من يرجع الضمير المستتر إلى الله -عز وجل- وعليه يكون الكلام "ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن الله إليه" وذلك أن كل نعمة تحصل للعبد -حسية أو معنوية- هي بإحسان الله -تبارك وتعالى- وإفضاله على العبد.

لكن المعنى الأول أكثر تبادراً وأقرب، وهو الذي يلوح من ظاهر هذه الآية، والله تعالى أعلم، أي أن موسى -صلى الله عليه وسلم- أتم الله عليه النعمة بعد أن كان محسناً منقاداً مطيعاً لربه -تبارك وتعالى- فأنزل عليه الكتاب وكان ذلك تتميماً للنعمة عليه.

وقوله تعالى: {وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً} [(١٥٤) سورة الأنعام] **فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه** {لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [(١٥٤) سورة الأنعام].

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(١٥٥) سورة الأنعام] فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يرغب -سبحانه- عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة؛ لأنه حبل الله المتين.

في قوله: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} تحمل لفظة "مبارك" على أعم معانيها فيقال: هذا كتاب عظيم البركات لمن اتبعه في الدنيا وفي الآخرة، كما قال بعض أهل العلم: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات، أي أنه يبارك للعبد في وقته وفي عمله وفي بذله، وفي شئونه كلها، فهو يتقلب في بركة إذا كان يعيش مع هذا القرآن ويشتغل بهذا القرآن، وتحصل له البركة أيضاً بتوفيق الله -تبارك وتعالى- له إلى ألوان الخيرات، وتحصل له أيضاً أنواع الهدايات إضافة إلى ما يحصل له في الآخرة من الأجور والدرجات العلى، فهذا القرآن مبارك.

وتوجد كثير من الأشياء لا نجد لها تفسيراً إلا أنها من بركة الاشتغال بالقرآن، فبعض الناس يبذل جهوداً بسيطة تنتج عنها أمور عظيمة لا تفسير لها فيما يظهر إلا بركة هذا القرآن، فمن ذلك المدارس النسائية وما فيها من جهود عجيبة لا أجد تفسيراً لكثير مما يجريه الله -عز وجل- على أيديهن إلا بركة القرآن فقط، فمن اشتغل بالقرآن غمرته البركات؛ لأنه كتاب مبارك وعزيز كما وصف الله -عز وجل-، ومن عزته أنه لا يوفق لمعانيه ولا تفتح مغاليقه على القلوب المعرضة عنه والمشتغلة بغيره من اللهو أو العلوم التي هي دونه، أو نحو ذلك مع الغفلة عن هذا القرآن، وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى ذلك فيما ينقله بعضهم عند قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة))[1] ومما قال: كذلك القلوب إذا كانت تحمل أخلاق الكلاب فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة، والله المستعان.

{أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} [(١٥٦-١٥٧) سورة الأنعام] قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى: {وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} الآية [(٤٧) سورة القصص].

هذا الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- هو من أحسن ما قيل فيها، وقريب من هذا قول من قال: كراهية أن تقولوا، يعني كراهية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي لئلا تقولوا ذلك يعني لنقطع عذركم ونقيم عليكم الحجة.

وقوله تعالى: {عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا} [(١٥٦) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هم اليهود والنصارى، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء (٣١٤٤) (ج ٣ / ص ١٢٠٦) ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحـوه وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب (٢١٠٦) (ج ٣ / ص ١٦٦٥).

وقوله: {وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [(١٥٦) سورة الأنعام] أي: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه.

قوله: {وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [(١٥٦) سورة الأنعام] يعني عن تلاوتهم؛ لأنا لا نعرف لغتهم، ولذلك أنزل الله -عز وجل- هذا الكتاب بلغتهم، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة].

وقوله: {أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنَّا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} الآية [(٤٢) سورة فاطر].

هذا القسم عزم منهم أنهم سيتبعون النذير لكن حتى لو كانوا صادقين حينما قالوه فإنه عند الامتحان قد لا يستطيعون تحقيق هذا أو لا يوفقون إليه أو لا تنهض هممهم للقيام به؛ فالإنسان يعزم لكنه قد ينثني عزمه عند المطالبة بالشيء، ومن صور ذلك أن بني إسرائيل قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فلما بعث إليهم الملك انثنت عزائمهم.

وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: وددنا أنا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله فنعمل به فقال الله -عز وجل-: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [(٤) سورة الصف] فتثاقلوا في ذلك، ومن ذلك ما حكى الله عن الذين كانوا يطالبون ويبدون رغبتهم وعزمهم على جهاد عدوهم بقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٧٧) سورة النساء] فلما كتب عليهم القتال قالوا: {رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [(٧٧) سورة النساء].

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- في كثير من كتبه الفرق بين العزم على الصبر وبين الصبر، فالإنسان في كثير من الأحيان يقول: لو حصل كذا لفعلت كذا، ولو كان لي مال لتصدقت به فإذا أعطي من المال مثل أموال قارون فربما بخل وأمسك ما في يده، وبعضهم يقول: لو أني أصبت بمرض أو نحوه لكنت صابراً لم أجزع جزع فلان، فإذا أصيب فربما يقع له من الجزع أضعاف ما يقع لغيره ممن كان ينكره، والله المستعان.

وهكذا قال هاهنا: {فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة الأنعام] يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد -صلى الله عليه وسلم- النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله، أي: صرف الناس وصدهم عن ذلك، قاله السدي، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة {وَصَدَفَ عَنْهَا}: أعرض عنها.

على قول السدي: صدَّ غيره تكون "صدف" متعدية، أي صرف غيره وصده عن الإيمان، وعلى قول مجاهد وقتادة بمعنى أعرض تكون "صدف" لازمة أي أعرض في نفسه ولم يؤمن بها، فالآية تحتمل المعنيين؛ لأن

صدف تأتي لازمة وتأتي متعدية في كلام العرب أصلاً، وابن جرير -رحمه الله- فسرها باعتبار أنها لازمة لكن قد توجد في الآية قرينة تدل على أنها متعدية لكن هذا لا يقطع به؛ لأن الآية تحتمل المعنى الآخر احتمالاً قريباً، والقرينة في نفس الآية هي أنه قال قبل: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي كذب بها فهذا كفره بها، فيكون معنى {وَصَدَفَ عَنْهَا} يعني صد غيره عن الإيمان بها، ويمكن أن يؤيد هذا المعنى جملة من الآيات كقوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: ينأون بأنفسهم وينهون غيرهم عن الإيمان، وكقوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى* أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى* أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} [(٩-١٢) سورة العلق] يعني هو في نفسه بعيد وكذلك ينهى عن الخير والإيمان وطاعة الله -عز وجل-.

ومما يؤيد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [(٨٨) سورة النحل] يعني الذين كفروا في أنفسهم وصدوا غيرهم، فهذه الآيات هي كقوله تعالى هنا: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي كذب هو بآيات الله وصد غيره عن الإيمان بها، فعلى كل حال هذا القول تؤيده مثل هذه النصوص، والآية -كما سبق- فيها القرينة التي ذكرنا، والقول الذي قبله هو قول تحتمله الآية احتمالاً قريباً أيضاً، والقول بأنها متعدية هو الذي صرح الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بترجيحه حيث ذكر القولين ثم قال: وهذا أقوى القولين، أي باعتبار أنها متعدية، وهذا القول أيضاً هو الذي اختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- والله أعلم.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٥٨) سورة الأنعام]

يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادِّين عن سبيله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} وهذا كائن يوم القيامة {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا} [(١٥٨) سورة الأنعام] وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها.

قوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ} يحتمل أن يكون المعنى أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، وهذا المعنى هو الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أن يكون ذلك بناء على اقتراحهم وطلبهم فيأتيهم العذاب معه، كما اقترحوا هم وقالوا: {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [(٢١) سورة الفرقان] فرد الله -عز وجل- عليهم بقوله: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا} [(٢١) سورة الفرقان] ثم قال: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} [(٢٢) سورة الفرقان] ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بإتيان الملائكة في الآية يعني في اليوم الآخر كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [(٢٥-٢٦) سورة الفرقان] فيكون تنزل الملائكة في الآخرة.

وقوله: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي يأتي ربك لفصل القضاء، ولا يصح أن يفسر بمجيء الملائكة أو مجيء أمر الله -عز وجل-؛ لأنه أضاف الإتيان إليه -سبحانه وتعالى- ولا يجوز صرف القرآن عن

ظاهره وحمل ذلك على مجاز الحذف كما يقولون إلا بدليل، ولا يوجد دليل فوجب أن يقال: إن الله -عز وجل- يأتي يوم القيامة لفصل القضاء.

وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة.

قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني يأتي بعض أشراط الساعة كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وكما سيأتي أن المراد بها طلوع الشمس من مغربها، وهذا ما عليه عامة المحققين من أهل العلم من المفسرين وغيرهم.

ومن أهل العلم من قال: إن الآيات المشار إليها في قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني الآيات التي اقترحوها وذلك أنهم اقترحوا أن ينزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو نحو ذلك، فإذا نزلت هذه الآيات وتحققت فالإيمان يكون ملجأً، يعني أن ذلك لا مجال معه للمكابرة إطلاقاً ولذلك في هذه الحال لا ينفع الإيمان، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [(٣) سورة البقرة] فإذا رأوا هذه الآيات التي اقترحوها فعندئذ يكون الإيمان ملجأً لا ينفعهم، ولكن في هذا القول نظر؛ لأن الله -عز وجل- قد أنزل آيات على الأنبياء فآمن من آمن فنفعهم الإيمان، ونزول هذه الآيات لا يقال: إنه لا ينفع معه إيمان، فالمعجزات إنما نزلت من أجل إقامة الحجة على الخلق وإثبات النبوة فينفع الإيمان معه، والخلاصة أن قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** يعني طلوع الشمس من مغربها، والله أعلم.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل))[٢].

هذا التفسير من قبيل التفسير النبوي الذي لا احتمال فيه ولا يدخله الاجتهاد، وقد صحَّ ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا يلتفت إلى قول من سواه كقول من قال: إن المقصود بها الآيات المقترحة أو غير ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الآية في هذا المقام طلوع الشمس من مغربها وقال: ((فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) فالقول الآخر وإن قال به جماعة من أهل العلم من السلف لكنه مخالف لصريح ما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تفسير الآية.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض))[٣] **ورواه أحمد وعنده: ((والدخان))**[٤].

روى الإمام أحمد عن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات يقول: إن أولها الدجال، قال: فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٩) (ج ٤ / ص ١٦٩٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧) (ج ١ / ص ١٣٧).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٨) (ج ١ / ص ١٣٨).

[4] - مسند أحمد (٩٧٥١) (ج ٢ / ص ٤٤٥).

فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات فقال: لم يقل مروان شيئاً، حفظت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ضحى فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها)) ثم قال عبد الله -وكان يقرأ الكتب-: وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل -أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع- فلم يرد عليها شيء، ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء.

قوله: "**حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها** " يعني حتى إذا أراد ذلك.

حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت: رب ما أبعد المشرق؟ من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت بالرجوع فيقال لها: من مكانك فاطلعي، فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} الآية [(١٥٨) سورة الأنعام] **وأخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه في سننيهما**[٥].

بعض من يتكلم بالتفسير العلمي والإعجاز يقول عند هذه الآية: إن هناك تناقصاً محسوباً في الحركة وهو مستمر مطرد حتى يأتي يوم من الأيام فتخرج من مغربها، فقال أحد الحاضرين: إذن نستطيع أن نحسب هذا وبالتالي نعرف متى تطلع الشمس من مغربها، يعني نعرف متى يوم القيامة؟! فقال: لا، ليس الأمر كذلك؛ لأنه قد تحصل أمور في الكون تسرع بهذا الموضوع أو تبطئه، فالمعنى أنه لو استمر الوضع على ما هو عليه فإننا نستطيع أن نعرف متى القيامة بالضبط، وهذا كلام غريب.

ومنهم من لا يفهم أن الشمس تسجد تحت العرش فهذا مما لا يصل إلى عقولهم، بل يضيق عَطَنُهم عنه تماماً، حتى كأن الحديث لم يرد أصلاً، فهم لا يفهمون إلا أن المسألة عبارة عن هذا البطء المحسوب ثم بعد ذلك تكون النتيجة الطبيعية أنها تطلع من الغرب وانتهى الأمر عند هذا الحد.

لا يعرفون مسألة السجود تحت العرش ولا أنها تُحبس ثم يقال لها: ارجعي من حيث أتيت، وإذا جئت تناقشهم قالوا: إن هذا الذي يقولونه ليس تفسيراً أصلاً.

المقصود: أن هذا الحديث ((أول الآيات خروجاً طلوع الشمس)) فيه إشكال؛ لأن خروج الدجال يكون قبل طلوع الشمس من مغربها، ولهذا قال بعض أهل العلم: الآيات منها ما هي آيات سماوية ومنها ما هي آيات أرضية، فأول الآيات السماوية هي طلوع الشمس من مغربها، وأول الآيات الأرضية هي خروج الدجال، وأما الدابة فإن خروجها يكون قريباً من طلوع الشمس من مغربها حيث تخرج ضحى، وعموماً فالآيات الكبرى تتابع.

وقد تكلم العلماء على مسألة طلوع الشمس من مغربها هل إذا طلعت ترجع إلى حالتها الأولى بعد ذلك، حتى قال بعض أهل العلم: إن ذلك يستمر حتى يتناسى الناس ذلك اليوم الذي خرجت فيه من مغربها ويرجع الكافر

---

[5] - أخرجه مسلم مختصراً في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير (٢٩٤١) (ج ٤ / ص ٢٢٦٠) وأحمد بطوله في المسند (٦٨٨١) (ج ٢ / ص ٢٠١).

إلى كفره والعاصي إلى معصيته وعندئذ يقبل العمل، وهذا قول فيه نظر ولا دليل عليه، بل الأصل أنها إذا خرجت من مغربها فالحال كما قال الله -عز وجل-: **{لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني لا ينفعها لا في تلك الحال ولا بعدها فذلك هو الحد الذي لا يقبل فيه الإيمان ولا التوبة بالنسبة لعموم الخلق، وأما بالنسبة لكل إنسان فلا ينفعه الإيمان إذا بلغت الروح الحلقوم بخلاف ما إذا كان في مرض الموت، ولذلك فالنبي -صلى الله عليه وسلم- دعا أبا طالب في مرض موته قائلاً له: ((كلمة أحاج لك بها عند الله))[6] وذلك قبل أن يصل إلى الغرغرة، والله أعلم.

وبالنسبة لحديث أبي هريرة –رضي الله عنه: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض))[7] فأمر الدابة قد سبق أنها تكون قريبة جداً من طلوع الشمس من مغربها لكن ذكْر خروج الدجال لا يخلو من إشكال، ولذلك تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على هذه القضية كلاماً جيداً أطال فيه حيث تكلم على هذه الروايات وذكر كلام أهل العلم ورجح بينها وذلك في تفسيره الذي كان يلقيه في المسجد النبوي وليس في أضواء البيان.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] إذا أرادت أن تجدد الإيمان بعد إتيان بعض تلك الآيات لا ينفع منها ذلك الإيمان، وجماهير علماء التفسير والأحاديث الصحيحة دلت على أن المراد ببعض الآيات التي إذا جاءت لا يُقبل إيمانٌ من كافر ولا توبة من عاصٍ، أن المراد بها طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس ستطلع يوماً من مغربها يقيناً كما تواترت به الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ثابت في الصحاح -في الصحيحين وغيرها- وفي صحيح البخاري أنها إذا طلعت من مغربها فرآها الناس آمن جميع من على وجه الأرض ولم يكن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، وهذا فيه إشكالات معروفة؛ لأن الأحاديث الصحيحة هنا فيها إشكالات معروفة، ونحن في الحقيقة لم نرَ من حرر المقام فيها تحريراً شافياً؛ لأن كون الآية التي إذا أتت هي طلوع الشمس من مغربها هذا ثابت في الصحيحين وفي غيرهما وهو يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات وأن مجيء الدجال يُقبل بعده إيمان الكافر وتوبة العاصي.

ونزول عيسى يقبل بعده إيمان الكافر كما قال تعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] وهذا يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات، ويشكل عليه حديثان ثابتان في صحيح مسلم وغيره، فإنه في صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها)) وفي صحيح مسلم أنه قيل لعبد الله بن عمرو: إن مروان بن الحكم يقول: إن أول الآيات خروج الدجال، فقال: ما قال مروان شيئاً، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها)) وهذا الحديث مشكل إذا كان طلوع الشمس من مغربها قبل الدجال، والعلماء مجمعون على أنه لا إيمان يقبل من كافر بعد طلوع الشمس من مغربها، إذن يكون زمن الدجال

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة براءة (٤٣٩٨) (ج ٤ / ص ١٧١٧).

[7] - سبق تخريجه.

وعيسى ابن مريم -عليه السلام- لا تنفع فيه الأعمال، وهذا مخالف لظواهر النصوص الكثيرة؛ ففي حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- هذا أعظم إشكال.

ومن الأحاديث المشكلة أيضاً ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) ثم ذكر الثلاث: الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها. وهذا يدل على أنه لا توبة تقبل بعد مجيء الدجال، وهذا خلاف الظاهر المعروف من النصوص، فحديثا مسلم هذان مشكلان جداً على قوله: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا} [(١٥٨) سورة الأنعام] وعلى ما عليه جمهور العلماء من أنه طلوع الشمس، والإشكال في هذه الأحاديث لم نجد من حرر المقام فيه تحريراً شافياً يجب الرجوع إليه.

والذي يظهر لنا أن الآيات العظام نوعان، فقد ثبت في صحيح مسلم أن الآيات الكبار عشر، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات))[8] وهذه الآيات العشر عند العلماء هي العلامات الكبار، ثم عدها النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما روى عنه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري -رضي الله تعالى عنه- وعدَّ منها ثلاثة خسوف: خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وخروج دابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها والدخان، وهذا الدخان الذي ذكره مسلم في صحيحه هنا، قال بعض العلماء: إنه هو المذكور في سورة الدخان وأنه لم يأتِ إلى الآن وأنه هو في قوله: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} [(١٠) سورة الدخان] قالوا: وهو دخان يمكث أياماً يأخذ بنفس الكافر ويأخذ المؤمن منه شبه الزكام، وأنه من العلامات التي ستأتي، ولم يأتِ إلى الآن.

وكان عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: إن الدخان المذكور قد مضى وهو ما أصاب ربيعة ومضر من الجوع لما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- عليهم وقال: ((اللهم اشدد وطأتك على مضر، الله اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف))[9] وأنهم جاءهم من الجوع ما أكلوا معه العلهز، والعلهز: شيء كانوا يصنعونه من الوبر والدم يأكلونه عند شدة الحاجة، كأن الإنسان لشدة الجوع يخيل له أن أمام عينيه شبه الدخان، وأن ذلك الذي يخيل لعينيه مما يشبه الدخان من شدة الجوع أنه هو معنى {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ} [(١٠) سورة الدخان] أي: فيما تظنه أعينهم من شدة القحط والجوع.

هذا تفسير عبد الله بن مسعود وطائفة من العلماء للدخان، وفسره جماعة آخرون بالدخان الذي عده مسلم في الآيات العشر العظام التي هي: الدخان، والدابة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم -وفي بعض الروايات بدل نزول عيسى ابن مريم ريح تلقيهم في البحر -

---

[8] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١) (ج ٤ / ص ٢٢٢٥).

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب الدعاء على المشركين (٦٠٣٠) (ج ٥ / ص ٢٣٤٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥) (ج ١ / ص ٤٦٦).

وخسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، وآخرها نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، أو ترحل الناس إلى المحشر.

هذه الآيات العشر، أما الأحاديث الصحيحة الثابتة في أنه تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى فهذه قد مضت بلا نزاع، وهي النار التي اشتعلت في الحرة، واشتعالها وتاريخ اشتعالها معروف فقد فاتت، وهي من معجزاته -صلى الله عليه وسلم-.

وكان الشيخ ابن الجوزي يقول: إن الخسوف الثلاثة قد مضت، وأنه وقع في عراق العجم خسف عظيم هو خسف المشرق، هلك فيه خلق عظيم، وأنه وقع كذلك في المغرب، ويزعم أنه وقع في جزيرة العرب.

فعلى كل حال هذه الآيات العشر هي التي ذكرها مسلم في صحيحه أنها الآيات العظام -العلامات الكبرى للقيامة- وقد بيّنا أن جل علماء التفسير والأحاديث الصحيحة تبيّن أن بعض الآيات التي إذا أتت لا ينفع نفساً إيمانها أنه طلوع الشمس من مغربها، وستطلع من مغربها يقيناً بلا شك؛ لأن الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- بيّن أنها ستطلع من مغربها بروايات صحيحة لا مطعن فيها وهو الصادق المصدوق لا يقول إلا الحق، وطلوعها من مغربها أكبر دليل على تخريف وخرق أصحاب الهيئة الكذابين الذين يقولون: إن حالة الشمس والقمر دائبة لا تتغير ولا يعروها تغيُّر، فسيرى الحاضرون منهم لذلك الوقت أنها تتغير وأنها تطلع صباحاً من مغربها كما كانت تطلع من مشرقها، ويعلمون أن لها صانعاً حكيماً مدبراً هو الذي يجريها كيف يشاء على النحو الذي يشاء.

ووجه إشكال حديثي مسلم أن حديث عبد الله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها))[10] وطلوع الشمس من مغربها لا خلاف بين العلماء أنه من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فيلزم على هذا الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه لا إيمان ولا توبة أيام الدجال وعيسى، وهذا خلاف التحقيق، فالحديث مشكل.

والحديث الثاني: هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)) وذكر الثلاث فقال: ((الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها)) فعلى مقتضى هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم أن العمل لا يقبل أيضاً بعد الدجال، وهو خلاف الظاهر والتحقيق.

وقد ذكرنا أنا لم نرَ ممن تكلموا على أحاديث مسلم من شفا الغليل في هذا شفاء واضحاً تتفق به الأحاديث مع الواقع، والذي يظهر لنا -والله تعالى أعلم- أن الآيات الكبار العظام على نوعين، أحدهما: آيات أرضية تدل على حدوث أمور عظام هائلة في العالم السفلي والأرض، وأول هذه: الدجال كما كانوا يقولونه؛ لأن الدجال ينزل قبل نزول عيسى ابن مريم، أو أول هذه الآيات العظام الدجال؛ لأن الدجال يدرك عيسى ابن مريم فيقتله، وبعض العلماء يقول: إن عيسى ابن مريم ينزل قبل الدجال ويصلي مع إمام المسلمين المهدي

---

10 - سبق تخريجه.

الذي ثبتت الأحاديث الصحاح به، وعقد له أبو داود كتاباً باسم المهدي وهو أيضاً آتٍ لا محالة وإن أنكره من أنكره؛ لأن الأحاديث الصحيحة ثابتة بمجيئه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثبوتاً لا مطعن فيه، فأول الآيات الأرضية العظام نزول الدجال؛ لأن الدجال أكبر حادث يقع في الأرض وأعظم فتنة تقع في الأرض، وقد صرحت الأحاديث أنه منذ خلق الله الدنيا لم تقع في الأرض فتنة أعظم من الدجال؛ لأن معه ناراً ونهراً، وناره ماء ونهره نار، ولأنه يأتي القوم فيصدقونه فيقول للسماء: أمطري، وللأرض: أنبتي، فتطيعه في ذلك، فتروح سارحتهم أعظم ما كان ضروعاً وأمدَّه خواصر، ويُحيي للرجل أباه وأمه، ويشق الرجل نصفين حتى يروه نصفين ثم يجمع بين نصفيه فيرون أنه يحييه، وهو أعظم فتنة في الأرض، كأن -مثلاً- من قال: إن أول الآيات خروجاً الدجال يعني أول الأحداث الأرضية التي تكون في الأرض تؤذن بأمور عظام، وقرب انقضاء الدنيا، وأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي هي من العالم العلوي، المؤذنة بزوال العالم العلوي وانقضائه، فيكون كون الشمس أول الآيات يعني باعتبار ما هو من جنسها، كتغيير العالم العلوي، ويكون الدجال أول الآيات باعتبار العالم الأرضي.

وعلى كل حال فالشمس إذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة، وطلوع الشمس والدابة مترادفان، بينهما قليل، جاء في بعض الأحاديث أن الشمس إذا طلعت من مغربها خرجت الدابة ضحى[11].

والدابة هي التي يأتي ذكرها في النمل في قوله: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [(٨٢) سورة النمل] وفي القراءة الأخرى: (إن الناس كانوا بآياتنا) الآية.

وقال بعض العلماء: والحكمة في إتيان الدابة بعد الشمس أن الشمس إذا طلعت من مغربها ختم على الأعمال، ولم يقبل من كافر إيمان، ولم يقبل من عاص توبة، وانقطع تجديد إيمان جديد أو توبة جديدة، فيرسل الله بعد ذلك الدابة فتكتب على جبهة كل إنسان "سعيد" أو "شقي" يعرفه من يراه، لتبيّن حال الناس عند انقطاع أعمالهم من هو الكافر منهم ومن هو السعيد.

والحاصل: أن أكثر أهل العلم والأحاديث الصحيحة دلت على أن الآية التي إذا جاءت لا يقبل من أحد إيمان هو طلوع الشمس من مغربها وفيها أحاديث كثيرة، وفيها حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- المشهور: أنها تسير كل يوم فتسجد لمستقر لها تحت العرش، ثم تستأذن فيؤذن لها فترجع، فإذا كان اليوم الذي يريد الله طلوعها من مغربها تستأذن فلا يؤذن لها[12].

ويقول المفسرون وبعض المحدثين: إن تلك الليلة تطول جداً، وينتظر الناس الصباح فيطول عليهم الليل، فتستأذن الشمس فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة للناس من مغربهم، فإذا رأوها آمن جميع من في الأرض وعلموا أن للكون خالقاً حقاً، ولم يبق أحد منهم إلا وهو مؤمن، وذلك الوقت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

---

[11] - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير (٢٩٤١) (ج ٤ / ص ٢٢٦٠) وأحمد بطوله في المسند (٦٨٨١) (ج ٢ / ص ٢٠١).

[12] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٠٢٧) (ج ٣ / ص ١١٧٠).

وذهب بعض العلماء ونصره أبو عبد الله القرطبي أنها بعد طلوعها من مغربها سترجع إلى عادتها وتطلع من مشرقها، وترجع الدنيا إلى حالها، وأنه إذا تقادم عهدها وصار الناس يسمعون بخبرها أنها حينئذ تُقبل توبة الكافر إذا تاب والعاصي إذا تاب، وهذا قال به بعض العلماء، ولكنه خلاف التحقيق؛ لأن ظاهر الأحاديث الكثيرة والآية الكريمة أنه بعد إتيان الآية لا ينفع نفساً إيمانها، وهو نفي مطلق إلى يوم القيامة.

وقال بعض العلماء: تؤمر الحفظة بطي الصحف وطرح الأقلام ولا ينفع أحداً عمل، ويختم على كلٍ بعلمه.

وقوله: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] **يفهم منه أن النفس التي طلعت عليها الشمس من مغربها وهي مؤمنة من قبلُ أنها في خير، وعلى خير وأن إيمانها نافع لها.**

وقوله: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام] **يفهم منه أن النفس المؤمنة التي كانت تعمل الخير أنها في خير وعلى خير، وأما النفس التي كانت مؤمنة ولم تعمل في إيمانها الخير بأن كانت ترتكب المعاصي وتخالف الله ثم أرادت عند طلوع الشمس أن تتدارك ذلك بالتوبة فلا يقبل ذلك منها؛ لقوله: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة الأنعام].

كان بعض العلماء يقول: من طلعت الشمس من مغربها وهو على الاستقامة وطاعة الله كتب له ما كان يفعل دائماً، وهذا القول وإن كان ظاهر الآية لا يساعد عليه إلا أنه غير بعيد؛ لأنه دلت نصوص أخر على أن الإنسان المواظب على الخير إذا عاقه عنه عائق كمرض أو سفر أنه يكتب له ما كان يواظب عليه من الخير إذا عاقه عنه مرض.

من أراد أن ينظر في استعداد كثير من الناس لاتِّباع الدجال الأكبر فلينظر إلى حالهم في هذا العصر في إتباعهم للدجالين وكيف كان حالهم يوم صاح بهم دجال العصر -نسأل الله العافية-: "ومن لم يكن معنا فهو ضدنا" فإنهم تهافتوا عليه وانجفلوا وهو لا يملك عشر ما يملكه الدجال الأكبر الذي يشق الرجل نصفين ثم يحييه من جديد، ويمر على الأرض الخربة ويقول: أخرجي كنوزك فتتبعه كيعاسيب النحل، ويمر على القوم ممحلين فيطيعونه، ويمر على القوم لا يستجيبون له فيحصل لهم الجدب، فتلك أعظم فتنة، فإذا كان الناس تهافتوا في هذا الزمان على من هو دون الدجال الأكبر ممن يهددهم بالحصار الاقتصادي أو يهددهم أنه يقاتلهم –وقد يتورط فينهزم- فكيف بالدجال الأعظم الذي لا قبل لهم به، نسأل الله العافية؟

فالثبات على المبادئ أمر مهم جداً؛ لأن الذين يثبتون على مبادئهم هذه الأيام هم الذين يرجى لهم الثبات إذا خرج الدجال الأكبر، والله المستعان.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: فقوله تعالى: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته؛ كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه قوله تعالى: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية دلت على أن الكافر لا ينفعه الإيمان إذا طلعت الشمس من مغربها، وأن المؤمن إذا كان مفرطاً مضيعاً تاركاً للعمل ثم تاب إلى الله -عز وجل- بعد رؤيته لهذه الآية العظيمة فإنه لا ينفعه ذلك ولا يقبل منه هذا العمل، وإنما الذي ينفعه العمل هو الذي يكون مؤمناً قبل طلوع الشمس من مغربها ويكون قد كسب في إيمانه خيراً، أما إذا طلعت الشمس من المغرب فتوبة الكافر من الكفر لا تنفعه، وتوبة المضيع لحدود الله -عز وجل- كذلك لا تنفعه؛ لأن باب التوبة يغلق يومئذٍ، وهذا هو معنى قوله تعالى: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام] -والله تعالى أعلم- فمن تحقق فيه الشرطان -الإيمان والعمل الصالح- قبل طلوع الشمس من مغربها فإن أعماله الصالحة بعد ذلك تنفعه وتقبل منه، وبعبارة أخرى لا بد من توفر شرطين قبل طلوع الشمس من مغربها هما الإيمان والعمل الصالح، والمقصود بالإيمان الانقياد والتصديق والإقرار، وعليه فالكافر لا تنفعه توبته من الكفر إذا طلعت الشمس من مغربها، والمؤمن لا تقبل توبته من المعاصي والذنوب إذا طلعت الشمس من مغربها، أما بقية الأعمال الصالحة لمن كان مؤمناً قد كسب في إيمانه خيراً فإنه يستمر على عمله الصالح ويقبل منه ذلك العمل الصالح، أما من كان مؤمناً لا يعمل صالحاً فإنه لا تقبل منه التوبة بالعودة إلى الأعمال الصالحة، وكذا التوبة من الأعمال السيئة إذا تاب بعد طلوع الشمس من مغربها؛ لأن باب التوبة يغلق للآية والأحاديث التي دلت على ذلك.

وقوله تعالى: {قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٥٨) سورة الأنعام] تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [(١٨) سورة محمد] وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} الآية [(٨٤-٨٥) سورة غافر].

الأشراط جمع شرط وهي العلامات، وعلامات الساعة التي ظهرت هي العلامات الصغرى، ومن ذلك بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] **قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى.**

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا} [(١٥٩) سورة الأنعام]: وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فتفرقوا، فلما بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم- أنزل الله عليه: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} الآية [(١٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا} هذه قراءة الجهور، وفي قراءة حمزة والكسائي: (إن الذين فارقوا دينهم) يعني تركوه، وأما قراءة: {فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} فإنه يوضحه ما بعده من قوله: {وَكَانُواْ شِيَعًا} والمقصود بالشيَع: جمع شيعة وهي الطائفة التي ينصر بعضها بعضاً ويقوي بعضها بعضاً ويتشيَّع بعضها لبعض، فقوله: {فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} يعني أنهم صاروا متفرقين في دينهم مختلفين على طوائف ونحل لم يجتمعوا في أمر الدين وإنما أحدثوا ما أحدثوا وبدلوا ما بدلوا، فصاروا منقسمين إلى طوائف متناحرة.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} يعني أنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهذا الصنيع -إذا كان يؤمن ببعض ويكفر ببعض- لا شك أنه يؤدي إلى الانقسام والتفرق، وقد قيل: من وافق عقده عقدك وافق قلبه قلبك ومن خالف عقده عقدك خالف قلبه قلبك، فالناس أسرى لمعتقداتهم، فلا بد أن يحصل بينهم الافتراق والانقسام بناء على هذا الاختلاف، فهذا أمرٌ لا بد من وقوعه، وعلى كل حال فإن قوله: {فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} يدخل فيه ما أحدثوا فيه حيث كفروا ببعض وآمنوا ببعض، فصاروا بهذا الاعتبار على طوائف، ويدخل فيه أيضاً، ما اختلفوا فيه من الدين الاختلاف المذموم الذي حولهم إلى نحل وطوائف ومذاهب شتى يضلل بعضها بعضاً.

وإذا كانت هذه الآية في أهل الكتاب إلا أنه يدخل في هذا الذم كل من وقع في هذه الصفة؛ لأن هذا الذم متوجه إلى وصف مذموم فمن تلبس به من أهل البدع والأهواء من هذه الأمة فإن ذلك يشمله، وذلك أن الانقسام والافتراق والاختلاف على نوعين كما هو معلوم، فالصحابة اختلفوا في أمور من مسائل الدين والأحكام، واختلفوا في بعض المسائل العلمية، ولم يؤدِّ ذلك إلى التقاطع والتدابر، ولم يتحولوا إلى فرق، وإن كان اختلافهم في بعض القضايا أدى بهم إلى الاقتتال إلا أنهم مع ذلك لم يتحولوا إلى فرق كالعلوية والمعاوية، أو الشامية والعراقية أو البيتية أو غير هذا، لم يحصل هذا إطلاقاً بل كانوا يترضون عن بعضهم ويدعو بعضهم لبعض وقلوبهم بقيت سليمة لإخوانهم، حتى إن عائشة -رضي الله عنها- لما جاءت في جيش أهل الشام قال عنها عمار وعلي -رضي الله عنهما-: والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا وفي الآخرة ولكن ابتليتم بها" فما أدى ذلك بهم إلى تكفيرهم وتضليلهم لبعض، ولهذا فإن ضابط الاختلاف المذموم الذي ذكره كثير من أهل العلم هو أن يصاحبه هوى يؤدي إلى التدابر والتقاطع، وهكذا يُذم خلاف الجهلة الذين يجعلون من الخلاف في بعض المسائل خلافاً يؤدي إلى التفرق.

ومنه أيضاً ما يعرف بخلاف التنوع الذي لا يذم أصلاً، لكنه إن خالفه الهوى وحصل بسببه التدابر والتقاطع فإنه يدخل في هذا، ومعنى اختلاف التنوع أن يكون هذا له اهتمام بالعلم، وهذا له اهتمام بالفقراء والمحتاجين، وهذا له اهتمام بالدعوة، وهذا له اهتمام بالجهاد ونحو ذلك، فإذا أدى هذا الاختلاف إلى تقاطع وتدابر بحيث يقرّب كل فريق من وافقه على عمله أو عمِل بعمله ويجفو على من لم يشتغل بهذا العمل، فهذا من الاختلاف المذموم، وهو داخل في عموم هذه الآية {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا} [(١٥٩) سورة الأنعام] فهي وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن ذلك يشمل كل من تلبس بهذا الوصف القبيح، والله المستعان.

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه {وَكَانُواْ شِيَعًا} [(١٥٩) سورة الأنعام] أي: **فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برَّأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.**

حمْل الآية على العموم وأن أهل البدع يدخلون فيها، هذا هو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهو الذي اختاره ابن جرير أيضاً، وبه قال طائفة من السلف، بل صرح بعض السلف أنها في أهل البدع أي أنها وإن كانت في أهل الكتاب لكن أهل البدع يدخلون في هذا المعنى، والله أعلم.

فإن الله تعالى قد برأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية [(١٣) سورة الشورى].

في قوله: {لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [(١٥٩) سورة الأنعام] يقول ابن كثير: "**فإن الله برأ رسوله -صلى الله عليه وسلم- مما هم فيه**" وبعضهم يقول: معناها لست من تفرقهم في شيء، وبعضهم يقول: يعني لست من السؤال عنهم في شيء، بل الله هو الذي يتولى حسابهم أما أنت فعليك البيان والبلاغ وليس لك من شأن هؤلاء شيء، ولا يلزمك من ذلك شيء، فلا تسأل عنهم وعن سبب تفرقهم، وبعضهم يقول: أي لست من عقابهم في شيء فعقابهم على الله -عز وجل- لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك من تبرئته -صلى الله عليه وسلم- منهم حيث جرت عادة العرب أنهم يتبرءون ممن أساء، بالقول: لست مني في شيء، أو أنا بريء من عملك، أو أنا لست من عملك هذا في شيء، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))[1] فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها كما قال الله تعالى: {لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [(١٥٩) سورة **الأنعام].**

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] **كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الآية [(١٧) سورة الحج].**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى -عليه السلام- (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧).

قوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] يعني ليس عليك من حسابهم من شيء، فالله هو الذي يتولى عقابهم.

وبعض العلماء يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقد عرفنا مراراً أن آية السيف لم تنسخ هذا القدر من الآيات التي تدل على الإعراض والعفو والصفح عن هؤلاء المسيئين وما أشبه ذلك، فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ} برّأ نبيه -صلى الله عليه وسلم- ثم أخبر أن أمرهم إليه وأنه هو الذي يتولى حسابهم، وهذا لا ينفي أن الله -عز وجل- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالجهاد، فلا منافاة بين هذا وهذا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بالجهاد لمن لم يؤمن بالله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم- كما قال الله -عز وجل-: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة] فإذا دفع هؤلاء الذين تتحدث الآية عنهم الجزية تُركوا، ويبقى أن الله هو الذي يتولى حسابهم بعد ذلك.

ثم يبيّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة، فقال تعالى: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(١٦٠) سورة الأنعام] وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} [(٨٤) سورة القصص] وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى-: ((إن ربكم -عز وجل- رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله -عز وجل- ولا يهلك على الله إلا هالك)) ورواه البخاري ومسلم والنسائي[2].

قوله: ((ولا يهلك على الله إلا هالك)) كما قيل: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، فالحسنة بعشر أمثالها، وفي الآية الأخرى قال عن الإنفاق: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} [(٢٦١) سورة البقرة] وأخبر عن الصبر فقال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(١٠) سورة الزمر] وفي الصيام يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -جل وعلا-: ((إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))[3] وهو من الصبر، ولذلك يقول هنا: ((ولا يهلك على الله إلا هالك)) لأن السيئة بواحدة والحسنة بعشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فكيف به، وما معنى أن يأتي وسيئاته أكثر من حسناته في الميزان لا سيما وأن الحسنة تعظم والصدقة يربيها الله -عز وجل-؟!

وروى أحمد أيضاً عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله -عز وجل- من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر،

---

[2] - أخرجه الدارمي في كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة (٢٧٨٦) (ج ٢ / ص ٤١٣) والنسائي في السنن الكبرى (٧٦٧٠) (ج ٤ / ص ٣٩٦) وهذا لفظهما، ورواه البخاري في كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦) (ج ٥ / ص ٢٣٨٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٣١) (ج ١ / ص ١١٨) و أحمد (٢٥١٩) (ج ١ / ص ٢٧٩).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب ما يذكر في المسك (٥٥٨٣) (ج ٥ / ص ٢٢١٥)ومسلم في كتاب الصيام - باب فضل الصيام (١١٥١) (ج ٢ / ص ٨٠٦).

ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)) ورواه مسلم[4].

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونيّة، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: ((فإنما تركها من جرائي))[5] **أي: من أجلي، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينوِ خيراً ولا فعل شراً، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))**[6].

هذا التقسيم الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مسألة ترك السيئات تقسيم جيد، ويمكن أن يزاد عليه، فالإنسان في تركه للسيئة من حيث الأجر والثواب أو العقاب أو أن لا تكون له ولا عليه على أنواع، النوع الأول: هو النوع الذي يثاب عليه، وذلك أن يكون هم بسيئة، والهم قد يكون بمعنى ما يخطر في البال، -حديث النفس كما قال الله -عز وجل- في هم يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَهَمَّ بِهَا} [(٢٤) سورة يوسف] فهو من باب الخطرات، لكن الأكثر في الاستعمال لمادة "همَّ" هو انبعاث النفس إلى الفعل دون أن يصل ذلك إلى حد العزم المصمم، أما الخطرات فإن الغالب أن الهم لا يطلق عليها في عرف الاستعمال، فالحاصل أن الخطرات لا يحاسب عليها.

يقول عليه الصلاة والسلام-: ((ومن هم بسيئة فلم يعملها)) خوفاً من الله -عز وجل- فإنه يثاب، تكتب له حسنة، لأنه كما قال: ((فإنه تركها من جرائي)) أي خوفاً من الله.

أما إذا همَّ بالسيئة ولكنه تركها ذهولاً أو نسياناً، أو تركها حياء من الناس أو لعدم تمكنه منها أو لم يجد الطريق إليها ففي هذه الحالة لا تكتب له حسنة ولكن لا تكتب عليه أيضاً سيئة؛ لأنها مجرد همّ، أما العزم المصمم فهو بمنزلة الفعل كما قال –عليه الصلاة والسلام-: ((القاتل والمقتول في النار)) فلو أنه ذهب إلى المعصية وفي الطريق إليها وقع فانكسر أو صدم، ومن صور ذلك أن يواعد امرأة في مكان فذهب ولم يجدها فهذا تكتب عليه سيئة؛ لأنه عزم مصمم، ومثله من عزم على أن يسرق مالاً فلما ذهب لم يجده، فهذا تكتب عليه سيئة.

---

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٨) وأحمد (٢١٣٩٨) (ج ٥ / ص ١٥٣) واللفظ له.

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٦٢) (ج ٦ / ص ٢٧٢٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩) (ج ١ / ص ١١٧) واللفظ لمسلم.

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الديات – باب قول الله تعالى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [(٣٢) سورة المائدة] (٦٤٨١) (ج ٦ / ص ٢٥٢٠) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨) (ج ٤ / ص٢٢١٣).

وأما من ترك السيئات من غير هم ولا خطرٍ في البال وإنما هو ذاهل عنها مشتغل بما هو بصدده فمثل هـذا لا تكتب له حسنات على تركه ذلك، ولذا لا يقال: إن الناس المشغولين بأعمالهم من البيع والـشراء وغيـره، والنائمين وغيرهم تكتب لهم الحسنات؛ لأنهم لم يذهبوا إلى المراقص والخمارات ونحوها من أماكن الفـساد؛ لأن ترك الذنوب والسيئات على أنواع كما سبق.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قـال رسـول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى قال: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام]**)).**

وعن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من صام ثلاثة أيـام من كل شهر فقد صام الدهر كله)) رواه الإمام أحمد -وهذا لفظه- والنسائي وابن ماجه والترمـذي وزاد: "فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام] **اليوم بعـشرة أيام"، ثم قال: هذا حديث حسن**[7]**.**

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة.

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَـاْ أَوَّلُ الْمُـسْلِمِينَ} [(١٦١-١٦٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً نبيه -صلى الله عليه وسلم- سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهدايـة إلـى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

{دِينًا قِيَمًا} أي: قائماً ثابتاً.

قوله تعالى: **{دِينًا قِيَمًا}** -بالتخفيف- هذه قراءة الكوفيين وابن عامر، وعلى قراءة بقية السبعة بالتشديد **(دينـاً قيّماً)** والمعنى في القراءتين واحد، بمعنى أنه دين مستقيم لا اعوجاج فيه كما قال: **{هَدَانِي رَبِّي إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** وكقوله تعالى: **{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** [(٣٠) سورة الروم] يعني الدين المستقيم، وكقوله تعالى: **{وَذَلِكَ دِيـنُ الْقَيِّمَةِ}** [(٥) سورة البينة] فـ "قِيَماً وقيِّماً" بمعنى الدين المستقيم، ثم بيّنه ووضحه بقوله بعدُ: **{مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** يعني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً مستقيماً ملة أبي إبراهيم -عليـه الـصلاة والسلام-.

{مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كقوله: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَـن سَـفِهَ نَفْـسَهُ} [(١٣٠) سورة البقرة] **وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}** [(٧٨) سورة الحـج] **وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ**

---

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر (٧٦١) (ج ٣ / ص ١٣٤) والنسائي في كتاب الصيام – باب ذكر الاختلاف على أبي عثمان في حديث أبي هريرة في صيام ثلاثة أيام من كـل شـهر (٢٤٠٩) (ج ٤ / ص ٢١٩) وأحمـد (٢١٣٣٩) (ج ٥ / ص١٤٥) وأبو يعلى (٦٦٥٠) (ج ١٢ / ص ٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٢٤).

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٠-١٢٣) سورة النحل] **وليس يلزم من كونه -صلى الله عليه وسلم- أُمر باتِّباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم -عليه السلام- أكمل منه فيها؛ لأنه -عليه السلام- قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال.**

هذا جواب على سؤال مقدر هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا كان له في إبراهيم أسوة وقدوة وهو مأمور باتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فإن المتبوع أكمل من التابع، فهو يقتدي به ويتأسى به ليحصل الكمال، فهل هذا يعني أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أكمل وأفضل من نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-؟ فالجواب: لا، وقد ذكر أهل العلم هذا الإشكال والجواب عنه، وخلاصة ذلك أشار إليه الحافظ ابن كثير، ويمكن أن يوضح بعبارة أبين من هذا وهو أن يقال: إن اقتداء النبي -صلى الله عليه وسلم- بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ليكون بذلك محصلاً للكمال الذي حصله فيزيد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بما حباه الله به من الفضائل والكمالات فوق ذلك.

وهذه المسألة ذُكرت عند الكلام على الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في التشهد -اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم- حيث إن بعض أهل العلم ذكر الكلام على هذه المسألة هناك.

ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل -عليه السلام-.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: ((الحنيفية السمحة))[8].

وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٦٢) سورة الأنعام] **يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** [(٢) سورة الكوثر] **أي: أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.**

قال مجاهد في قوله: {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} [(١٦٢) سورة الأنعام] **النسك: الذبح في الحج والعمرة.**

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى هنا على أساس أن النسك بمعنى الذبح، والنسك يطلق على الذبح وهو عبادة من أجلِّ العبادات فيقال للهدي والأضحية: هذه نسيكة، ولهذا عبر بعض السلف عن هذا بالأضحية، وبعضهم قال: ما يذبح في الحج من الهدي، وبعضهم فسره بما هو أعم من هذا فقال: هو الحج، فالحج يقال له نسك، ولهذا يقال: أحكام المناسك، وبعضهم فسره بأعم من ذلك كله فقال: المراد بالنسك العبادة، يقال: فلان ناسك، وفلان يتنسك يعني يتعبد، فكل ذلك يقال له: نسك، فإذا فسر قوله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} [(١٦٢) سورة الأنعام] بهذا المعنى العام يكون هذا من باب عطف العام على الخاص، يعني صلاتي وعبادتي،

---

[8] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) (ج ١ / ص ١٠٨) وأحمد (٢١٠٧) (ج ١ / ص ٢٣٦) والطبراني في الكبير (١١٥٩٧) (ج ١١ / ص ٢٢٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٠).

وإذا فسر ببعض معناه كأن يقال: إن صلاتي وحجي أو إن صلاتي وذبحي لله -سواء كانت الأضحية أو الهدي الذي في الحج- فهذا يكون من عطف المتغايرات، أي عطف الأنواع بعضها على بعض، ومن قال: إن النسك يعني الأضحية أو أنه الهدي فهذا من باب المثال، والذبيحة تشمل ذلك جميعاً، والله تعالى أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: ضحى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))[٩].

وقوله: {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي} [(١٦٢) سورة الأنعام] قال بعضهم: ومحياي أي: ما أعمله في حال الحياة من ألوان البر والعمل الصالح، ومماتي أي: ما أتسبب في وقوعه بعد الموت كالوصية التي تنفذ بعد موته من صدقة ونحو ذلك.

وبعضهم قال: ومحياي ومماتي أن المراد بذلك الحياة والموت، أي أنه قد وجه وجهه لله رب العالمين وحده، وأفرده بالعبادة فهو لا يتوجه إلى أحد سواه في صلاته وفي ذبحه وعبادته، وحياتُه كلها لله ومماتُه كله لله لا يتوجه إلى أحد سواه، وهذا الذي فسرها به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والقول بأن المراد بذلك ما يعمله في الحياة وبعد الموت لا يبعد عن هذا؛ لأنه إذا كانت حياة الإنسان لله أصلاً، فمعنى ذلك أنه مشتغل بطاعته وتوحيده والتقرب إليه والتوجه إليه، لا يشغله عن ذلك انصراف إلى معبود سواه ولا يشغله عن ذلك اشتغال بهوى؛ فالهوى أيضاً سماه الله إلهاً، قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [(٤٣) سورة الفرقان] فتكون حياته لغير الله -عز وجل-، فهو يحيا لشهواته ونزوات نفسه ويكون مضيعاً لأمر الله -تبارك وتعالى- تاركاً له.

وقوله -عز وجل-: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [(١٦٣) سورة الأنعام] قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام.

هذا هو المعنى المتعيّن في قوله: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [(١٦٣) سورة الأنعام] أي هو مسبوق إلى الإسلام، لكن لا بد هنا من تقدير: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة، وهكذا يقدر في جميع المواضع في القرآن حتى قول الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مما ورد على لسانهم مما حكاه الله -عز وجل- عنهم، فالمراد أول المسلمين من أمته وإلا فهم مسبوقون بآدم -صلى الله عليه وسلم- وكان على الإسلام، ولذلك لا حاجة لقول من قال: إن المراد بقوله: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [(١٦٣) سورة الأنعام] أي أن هذه الأمة وإن كانت متأخرة إلا أنها تكون متقدمة على سائر الأمم حيث إنها تحاسب قبلها وتدخل الجنة قبلها، فليس هذا هو المراد، وإنما المراد وأنا أول الداخلين في الإسلام من هذه الأمة، والله أعلم.

وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء].

---

[9] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) (ج ١ / ص ٥٣٤).

وقد أخبرنا تعالى عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٧٢) سورة يونس] وقال تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة] وقال يوسف -عليه السلام-: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [(١٠١) سورة يوسف] وقال موسى -عليه السلام-: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ* فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(٨٤-٨٦) سورة يونس] وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} الآية [(٤٤) سورة المائدة] وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١١) سورة المائدة] فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نُسخت بشريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- التي لا تُنسخ أبد الآبدين ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال -عليه السلام-: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))[١٠] فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا كبّر استفتح ثم قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك))، ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد، وقد رواه مسلم في صحيحه[١١].

هذا الاستفتاح كان يقوله -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الليل، وذكرنا في شرح العمدة أن ما ورد مقيداً من الأذكار في صلاة الليل من أدعية الاستفتاح وأدعية الركوع والسجود فإنه يقال في صلاة الليل، ومن ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم- في دعاء استفتاح الصلاة: ((الله أكبر –ثلاثاً- ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة))[١٢] فإنه يقال في صلاة الليل.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى:{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى -عليه السلام- (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧).

[11] - هو في مسلم مختصر –كما سبق- وأخرجه بتمامه أبو داود في كتاب الصلاة - باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٠) (ج ١ / ص ٢٧٧).

[12] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٤) (ج ١ / ص ٣٢٥) والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب الدعاء بين السجدتين (١١٤٥) (ج ٢ / ص ٢٣١) وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٢٠٠).

{قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [(١٦٤) سورة الأنعام].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه {أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا} [(١٦٤) سورة الأنعام] أي: أطلب رباً سواه {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [(١٦٤) سورة الأنعام] يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] وقوله: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [(١٢٣) سورة هود] وقوله: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [(٢٩) سورة الملك] وقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [(٩) سورة المزمل] وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ} [(١٦٤) سورة الأنعام] إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٨) سورة فاطر] وقوله تعالى: {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [(١١٢) سورة طـه] قال علماء التفسير: أي: فلا يُظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٨-٣٩) سورة المدثر] معناه كل نفس مرتهنة بعملها السيئ {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٩) سورة المدثر] فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرابتهم كما قال في سورة الطور: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٢١) سورة الطور] أي: ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال بل في أصل الإيمان.

{وَمَا أَلَتْنَاهُم} أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته، ثم قال: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [(٢١) سورة الطور] أي: من شر.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام] لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وما ورد من مضاعفة العذاب للأئمة المضلين فإن ذلك مما تسبب عن عملهم ونتج عنه، فإنهم يحملون أوزار من أضلوهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها[13] ولذلك فإن قوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: أن الإنسان لا يتحمل جريرة عمل غيره، وإنما يتحمل عمله فقط، فإن تسبب في إضلال أحد من الناس فإن ذلك من عمله ويجازى عليه ويضاعف له بذلك الأوزار والعذاب، فمن ابتدع بدعة اتبع عليها فإنه يحمل أوزار من عمل بذلك العمل ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، فالآيات

---

13 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧) (ج ٢ / ص ٧٠٤).

متوافقة، فهذه الآية تدل فقط على أن الإنسان لا يُظلم ولا يُؤخذ وزر إنسان آخر ويوضع عليه، كما قال تعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [(١٣) سورة الإسراء] يعني عمله في عنقه، فيجازى على أعماله فقط ولا يجازى على أعمال الآخرين، إلا إن كان متسبباً.

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [(١٦٤) سورة الأنعام] أي: **اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله:** {قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ* قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [(٢٥-٢٦) سورة سبأ].

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ} أي: **جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف -قاله ابن زيد وغيره- كقوله تعالى:** {وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} [(٦٠) سورة الزخرف] **وكقوله تعالى:** {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ} [(٦٢) سورة النمل] **وقوله:** {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] **وقوله:** {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [(١٢٩) سورة الأعراف].

وقوله: {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [(١٦٥) سورة الأنعام] أي: **فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك.**

قوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ} يقول ابن كثير: "**جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف**" وخلائف الأرض أي يخلف بعضكم بعضاً.

وابن جرير -رحمه الله- قال: أي أن الله جعلكم خالفين للأمم التي أهلكها قبلكم، يعني استخلفكم بعدهم، وهذا المعنى لا يخرج عن المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحم الله الجميع-.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] يقول بعضهم: خليفة من الجن الذين كانوا في الأرض قبل بني آدم وأنهم أفسدوا فيها ثم قاتلتهم الملائكة فجعل الآدميين خلائف من الجن -وهذا كله مبني على الإسرائيليات- وبعضهم يقول: يعني أنه يخلف بعضهم بعضاً، وعلى كل حال ليس المراد بأي آية من هذه الآيات أن الإنسان خليفة الله في الأرض -كما قال بعضهم- فالله أعظم وأجل من ذلك، فهذا المعنى وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه خلاف التحقيق فلا يصح أن يقال إطلاقاً.

كقوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا} [(٣٢) سورة الزخرف] **وقوله:** {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [(٢١) سورة الإسراء].

قوله: {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [(١٦٥) سورة الأنعام] يعني في العقول والقوة والعلم والغنى والشرف والمرتبة.

وقوله: {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] هذه هي الحكمة من هذا التفاوت، فحساب الذكي ليس كحساب الغبي، وحساب الغني ليس كحساب الفقير، وحساب القوي ليس كحساب الضعيف، فالناس يتفاوتون بحسب ما أعطاهم الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات.

وفي بعض المواضع بيّن الله -عز وجل- أن هذا التفاوت من أجل أن يتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ليُسخَّر بعضهم لبعض؛ لأنهم لو كانوا صبة واحدة لا تفاوت بينهم في العقول والإمكانات والغنى وما أشبه ذلك لما وجدت أحداً يعمل لأحد، ولاستغنى الناس بعضهم عن بعض، بمعنى أنك لن تجد من يقُمُّ الطريق، وما وجدت من يبني، ولا من يحمل المتاع ولا من يصلح السيارة، ولا من يزاول المهن أو الخدمة ولا غير ذلك، لكن لما كان هذا يحتاج إلى المال وهذا عنده مهنة يكتسب بها، وهذا فقير وهذا غني صار بعضهم يحتاج إلى بعض، فهذا ميزه الله -عز وجل- بالعلم في هذا الجانب فيحتاج الناس إليه، وهو يحتاج إليهم في علم آخر أو يحتاج إلى من لهم مهن يزاولونها، وهكذا يكمل الناس بعضهم بعضاً وتقوم الحياة بهذه الطريقة.

قوله تعالى: {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[١٤].

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام] ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله، {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب، وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٦) سورة الرعد].

وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [(٤٩-٥٠) سورة الحجر] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينْجَع في كلٍ بحسبه.

جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من

[١٤] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٢) (ج ٤ / ص ٢٠٩٨).

الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون)) ورواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه مسلم[١٥].

وعنه أيضاً -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما خلــق الله الخلــق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي))[١٦].

آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمنة..

---

[15] - أخرجه مسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).

[16] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأعراف، وهي مكية.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* المص* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(١-٣) سورة الأعراف].

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف.

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} [(٢) سورة الأعراف] أي: هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [(٣٥) سورة الأحقاف] ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٢) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالكلام على الحروف المقطعة سبق في أول سورة البقرة بشيء من التفصيل، وسبق بيان القول الذي قد يكون أقرب الأقوال، وذلك أن هذه الحروف هي من حروف المعجم -حروف التهجي- وأنها ليس لها معنى في نفسها وأنها تشير إلى الإعجاز بالقرآن، فكأنه يقول: هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله، ولذلك لا تكاد تذكر هذه الحروف إلا ويذكر القرآن أو الوحي بعدها، كما في قوله هنا: **{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ}** [(٢) سورة الأعراف] وذكرنا أن الحروف المقطعة تمثل نصف الحروف الهجائية وأنها تمثل من الحروف الهجائية أشرفها، وبالنسبة لما عدا ما ذكرنا في معناها فقد ذكر بعض أهل العلم عشرات الأقوال في تفسيرها ولا حاجة إلى التطويل في هذا.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] يقول الحافظ: "**قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه**" وعلى هذا تكون هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: **{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [(١٤٧) سورة البقرة] والممتري هو الشاكّ.

يقول: "**وقيل: لا تتحرج في إبلاغه والإنذار به**" أي: لا تتحرج مخافة التكذيب والإيذاء والمخالفة والكفر بما جئت به، كما قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: ((إذن يفلقوا رأسي فيجعلوه خبزةً))[1]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحرج من تكذيبهم حتى أنزل الله عليه مثل هذه الآية.

أو يكون المعنى لا يضيق صدرك لعدم استجابتهم وإيمانهم كما قال الله -عز وجل-: **{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [(٦) سورة الكهف] فقوله: **{بَاخِعٌ نَّفْسَكَ}** أي: مهلكٌ نفسك، كقوله تعالى: **{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}** [(١٢) سورة هود] وكقوله تعالى: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}** [(٩٧) سورة الحجر] فهذا تفسير للحرج بالضيق، ويدل على أن الحرج يأتي بمعنى الضيق الآية التي سبقت في سورة الأنعام وهي قوله تعالى: **{يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] وقوله تعالى في سورة الحج: **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [(٧٨) سورة الحـج] يعني ما جعل عليكم من ضيق، وإنما وسع عليكم بتيسير هذه الشريعة.

الخلاصة أن المعنى الأول لقوله: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] يعني لا يكن في صدرك شك منه، والمعنى الثاني لا يكن في صدرك ضيق مما يقع بسبب تكذيب المكذبين.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر القول الأول، فإن كان المختصر دقق في نقل عبارة ابن كثير حيث ذكر القول الآخر بـــ قيل، أي إن كان كذلك في الأصل فمعنى ذلك أن الحافظ –رحمه الله- يرجح القول بأنه الشك.

وبالنسبة لكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فقد جمع بين المعنيين، وهذا وجه حسن من التفسير، وذلك أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقد تكون الكلمة في الآية تحتمل معنيين وكل معنىً من هذه المعاني يشهد له آيٌ من القرآن وفي هذه الحال تحمل الآية على ذلك جميعاً، ولذلك يقال في قوله تعالى: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] أي: لا يكن فيه شك ولا ضيق.

والجمهور من المفسرين يفسرون الحرج بالضيق، وكأن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يميل إلى تفسيره بالضيق أيضاً.

يقول ابن كثير: "**ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف]**" أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين، كما قال الله -عز وجل-: **{وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}** [(٩٧) سورة مريم] وقوله تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل].

قال تعالى: **{لِتُنذِرَ بِهِ}** [(٢) سورة الأعراف] ولم يذكر المنذَر ولا المنذَر منه أي لم يذكر المفعول الأول ولا المفعول الثاني، لكن المراد معلوم أي لتنذر به هؤلاء الكافرين الذين يخاصمون خصومةً شديدة في الحق ويردونه مع وضوح دلائله، وتنذرهم من عذاب النار كما قال تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل] وكما قال: **{لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ}** [(٢) سورة الكهف].

وعلى كل حال الإنذار في القرآن يأتي عاماً كما في قوله تعالى: **{لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}** [(١٩) سورة الأنعام] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- منذرٌ بهذا القرآن لجميع الناس سواء الأبيض أوالأحمر أوالأسود.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

ويأتي الإنذار أيضاً بمعنىً خاص وهو إنذار المكذبين، وأما أهل الإيمان والتصديق والانقياد فإنه يبشرهم، وبهذا الاعتبار يكون القرآن منذراً لقومٍ ومبشراً لآخرين كما قال الله -عز وجل-: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(٩٧) سورة مريم] فهذا بالنظر إلى الإطلاق الثاني للإنذار وهو أنه يأتي للمكذبين خاصة.

ومن الإنذار العام قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ} [(١-٢) سورة المدثر] يعني أنذر جميع الناس.

وأصل الإنذار في كلام العرب هو إعلامٌ خاص، فهو الإعلام المقترن بتهديد، وبهذا الاعتبار يكون الإنذار إعلاماً خاصاً، فكل إنذار إعلام وليس كل إعلامٍ إنذاراً، فحينما تخبر إنساناً بقولك: جاء زيد فهذا إعلام وليس إنذاراً، وحينما تقول لإنسان: الموت قريب والساعة حق، والله -عز وجل- قد أعد النار للمكذبين، فهذا كله من الإعلام لكنه إعلامٌ خاص، وحينما تقول لإنسان: سترى مغبة فعلك وعاقبة جريرتك، فهذا كله إعلامٌ يقال له إنذار؛ لأنه إعلام مقترن بالوعيد والتهديد.

وعلى كل حال فإن قوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} أي: لا يكن فيه شكٌ ولا ريب ولا ضيق من تبليغ الناس به وما تضمنه.

وقوله: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف] أي: من أجل الإنذار.

وإذا قلنا: إن الحرج بمعنى الشك فيكون ذلك متوجهاً إلى الأمة بحيث لا يقع من أحد شك في هذا القرآن بحال من الأحوال، ومن آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فإنه يكون في صدره شيء من الحرج بقدر ما رد منه وكذّب، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من لم يؤمن بأسماء الله وصفاته ففي صدره حرجٌ منه؛ لأن القرآن دل على هذه الأشياء، ومن لم يرض بالقرآن حاكماً يتحاكم إليه، فإنه قد وقع في صدره حرجٌ منه، ومن شك في أخباره فقد وقع في صدره حرجٌ منه، والناس يتفاوتون في ذلك.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٣) سورة الأعراف] أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

هذه الآية {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] تدل على أن كل من لم يتبع القرآن فهو متبعٌ لأولياء من دونه، فليس هناك إلا اتباع القرآن واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو اتباع الأولياء، فليس هناك شيء وسط بين هذا وهذا.

{قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(٣) سورة الأعراف] كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وقوله: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} الآية [(١١٦) سورة الأنعام] وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٦) سورة يوسف].

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ* فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ* فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٤-٧) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(١٠) سورة الأنعام] **وكقوله: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}** [(٤٥) سورة الحـــج] **وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}** [(٥٨) سورة القصص].

وقوله: {فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} [(٤) سورة الأعراف] **أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته {بَيَاتًا} أي: ليلاً.**

{أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ* أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٧-٩٨) سورة الأعراف] **وقال: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ* أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ* أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(٤٥-٤٧) سورة النحل].

وقوله: {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [(٥) سورة الأعراف] **أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا.**

قوله تعالى: **{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ}** [(٥) سورة الأعراف] فسره بعض أهل العلم بالدعاء كما قال الله -عز وجل-: **{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}** [(١٠) سورة يونس] أي: دعاؤهم، وفسره آخرون بالادعاء، يعني أنهم اعترفوا وأقروا بأنهم كانوا على باطل وأن المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله لا حقيقة لها ولا نصيب لها في الإلهية، وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا على ظلمٍ وباطلٍ.

وهذا المعنى في قوله: **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بينه الله -عز وجل- في الآيات الأخرى، كقوله: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ* لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ}** [(١١-١٥) سورة الأنبياء] فهذه هي دعواهم، وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن الله -عز وجل- قد بعث لجميع الأمم رسلاً فلم يعذبهم حتى جاءهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأنهم أقروا على أنفسهم بالظلم ولم يحتجوا فيقولوا: ما جاءنا من رسول وإنما قالوا: **{إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بمعنى أنه قد بلغهم ما تقوم عليهم به الحجة، ولم يعذبهم حتى بعث إليهم رسولاً فكذبوه.

كقوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [(١١) سورة الأنبياء] **إلى قوله: {خَامِدِينَ}** [(١٥) سورة الأنبياء].

وقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} الآية [(٦) سورة الأعراف] **كقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [(٦٥) سورة القصص].

هذا سؤال متوجه للمرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ وهذا من النماذج والأمثلة الواضحة جداً في تفسير القرآن بالقرآن، وقد ذكرنا مراراً أن تفسير القرآن بالقرآن يدخله اجتهاد المفسر وبالتالي قد يصيب وقد يخطئ، لكن توجد أمثلة تكون في غاية الوضوح، فقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} [(٦) سورة الأعراف] أي: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص].

وقوله: {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] أي يُسأل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ، إلا أن هذا السؤال ليس سؤال استثبات واستعلام؛ لأن الله -عز وجل- لا تخفى عليه خافية، وإنما المقصود بذلك معنىً آخر، وحينما يقال لهؤلاء: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص] فهذا سؤال تقريع، كما قال الله -عز وجل-: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [(٢٤) سورة الصافات] وهكذا يقال في مواضع متعددة من القرآن كقوله: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [(٤٢) سورة المدثر] يعني ما الذي أدخلكم النار؟، فهذه أسئلة تقريع لا أسئلة استثبات واستعلام.

وبالنسبة للمواضع التي نفى فيها السؤال كقوله: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [(٣٩) سورة الرحمن] فالمعنى أنه لا يسأل سؤال استعلام واستثبات لكن لا ينفي ذلك أنه يسأل سؤال تبكيت، كما أنه لا يسأل سؤال استعتاب من أجل أن يذكر عذره فيقبل منه، لا، وإنما يسأل لتبكيته، فإن من وقع في ورطة ثم قيل له على سبيل التبكيت: ما الذي أوقعك في هذا؟ ألم نقل لك كذا؟ ما الذي أدخلك في هذا؟ فإن هذا يكون فيه مزيداً في ألمه وعذابه.

وقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة].

هذا سؤال للمرسلين {مَاذَا أُجِبْتُمْ} [(١٠٩) سورة المائدة] يعني ماذا أجابكم قومكم؟ كما أنه يسألهم عن البلاغ.

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته.

هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] فيدخل فيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هل بلغوا قومهم؟ وماذا بلغوهم؟.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر في الموقف الأكبر يوم عرفة أننا مسئولون عنه، فقال: ((ماذا أنتم قائلون؟)) فقالوا له -عليه الصلاة والسلام-: نشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وكان -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا هل بلغت؟)) قالوا: نعم، نشهد أنك قد بلغت، فكان يشير بأصبعه إليهم ويرفعها إلى السماء يقول ((اللهم اشهد))، فالناس يُسألون عن الإجابة، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ.

ويدخل في قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] سؤال أتباع الرسل من الدعاة إلى الله -عز وجل- عن الإيمان وعمَّا يتعلق ببلاغ الناس ودعوتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] قال: عمَّا بلغوا.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

{وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] **يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٥٩) سورة الأنعام].**

قوله تعالى: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** يعني نخبر بما وقع منهم، فالله -عز وجل- قد أحصى ذلك جميعاً وكتبه كما قال سبحانه: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}** [(٤٩) سورة الكهف] فهو يخبر الناس بما عملوا ويحاسب كل إنسان -عملت كذا وعملت كذا وعملت كذا- وهذا هو العرض، فإذا نوقش الحساب عذب، وهذا يدل على أن السؤال في قوله: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}** [(٦) سورة الأعراف] ليس سؤال استعلام واستثبات وإنما هو سؤال تقريع؛ لأن الله -عز وجل- يعلم ما عملوا وما حصل منهم، ولذلك قال بعده: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** [(٧) سورة الأعراف].

وهناك جملةً من الآيات التي جاء السؤال فيها للتقريع والتبكيت، منها قوله تعالى: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}** [(٤٢) سورة المدثر] وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}** [(١٠٥) سورة المؤمنون] وقوله تعالى: **{أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ}** [(٥٠) سورة غافر] فهذا كله للتبكيت، أما سؤال الأمم عن بلاغ الرسل فهذا بالنسبة للمؤمنين ليس سؤال تبكيت، وكذلك حينما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم مسئولون عن البلاغ فهذا ليس سؤال تبكيت، لكن حينما يسأل الكفار ويقال لهم **{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ* فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ}** [(٦٦) سورة القصص] فهذا سؤال تبكيت.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأعراف، وهي مكية.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* المص* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(١-٣) سورة الأعراف].

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف.

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} [(٢) سورة الأعراف] أي: هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [(٣٥) سورة الأحقاف] ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٢) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالكلام على الحروف المقطعة سبق في أول سورة البقرة بشيء من التفصيل، وسبق بيان القول الذي قد يكون أقرب الأقوال، وذلك أن هذه الحروف هي من حروف المعجم -حروف التهجي- وأنها ليس لها معنى في نفسها وأنها تشير إلى الإعجاز بالقرآن، فكأنه يقول: هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله، ولذلك لا تكاد تذكر هذه الحروف إلا ويذكر القرآن أو الوحي بعدها، كما في قوله هنا: {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} [(٢) سورة الأعراف] وذكرنا أن الحروف المقطعة تمثل نصف الحروف الهجائية وأنها تمثل من الحروف الهجائية أشرفها، وبالنسبة لما عدا ما ذكرنا في معناها فقد ذكر بعض أهل العلم عشرات الأقوال في تفسيرها ولا حاجة إلى التطويل في هذا.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} [(٢) سورة الأعراف] يقول الحافظ: "**قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه**" وعلى هذا تكون هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة] والممتري هو الشاكّ.

يقول: "**وقيل: لا تتحرج في إبلاغه والإنذار به**" أي: لا تتحرج مخافة التكذيب والإيذاء والمخالفة والكفر بما جئت به، كما قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: ((إذن يفلقوا رأسي فيجعلوه خبزةً))[1]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحرج من تكذيبهم حتى أنزل الله عليه مثل هذه الآية.

أو يكون المعنى لا يضيق صدرك لعدم استجابتهم وإيمانهم كما قال الله -عز وجل-: **{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [(٦) سورة الكهف] فقوله: **{بَاخِعٌ نَّفْسَكَ}** أي: مهلكٌ نفسك، كقوله تعالى: **{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}** [(١٢) سورة هود] وكقوله تعالى: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}** [(٩٧) سورة الحجر] فهذا تفسير للحرج بالضيق، ويدل على أن الحرج يأتي بمعنى الضيق الآية التي سبقت في سورة الأنعام وهي قوله تعالى: **{يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] وقوله تعالى في سورة الحج: **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [(٧٨) سورة الحـج] يعني ما جعل عليكم من ضيق، وإنما وسع عليكم بتيسير هذه الشريعة.

الخلاصة أن المعنى الأول لقوله: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] يعني لا يكن في صدرك شك منه، والمعنى الثاني لا يكن في صدرك ضيق مما يقع بسبب تكذيب المكذبين.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر القول الأول، فإن كان المختصر دقق في نقل عبارة ابن كثير حيث ذكر القول الآخر بـــ قيل، أي إن كان كذلك في الأصل فمعنى ذلك أن الحافظ –رحمه الله- يرجح القول بأنه الشك.

وبالنسبة لكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فقد جمع بين المعنيين، وهذا وجه حسن من التفسير، وذلك أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقد تكون الكلمة في الآية تحتمل معنيين وكل معنىً من هذه المعاني يشهد له آيٌ من القرآن وفي هذه الحال تحمل الآية على ذلك جميعاً، ولذلك يقال في قوله تعالى: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] أي: لا يكن فيه شك ولا ضيق.

والجمهور من المفسرين يفسرون الحرج بالضيق، وكأن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يميل إلى تفسيره بالضيق أيضاً.

يقول ابن كثير: "**ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف]**" أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين، كما قال الله -عز وجل-: **{وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}** [(٩٧) سورة مريم] وقوله تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل].

قال تعالى: **{لِتُنذِرَ بِهِ}** [(٢) سورة الأعراف] ولم يذكر المنذَر ولا المنذَر منه أي لم يذكر المفعول الأول ولا المفعول الثاني، لكن المراد معلوم أي لتنذر به هؤلاء الكافرين الذين يخاصمون خصومةً شديدة في الحق ويردونه مع وضوح دلائله، وتنذرهم من عذاب النار كما قال تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل] وكما قال: **{لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ}** [(٢) سورة الكهف].

وعلى كل حال الإنذار في القرآن يأتي عاماً كما في قوله تعالى: **{لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}** [(١٩) سورة الأنعام] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- منذرٌ بهذا القرآن لجميع الناس سواء الأبيض أوالأحمر أوالأسود.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

ويأتي الإنذار أيضاً بمعنىً خاص وهو إنذار المكذبين، وأما أهل الإيمان والتصديق والانقياد فإنه يبشرهم، وبهذا الاعتبار يكون القرآن منذراً لقومٍ ومبشراً لآخرين كما قال الله -عز وجل-: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(٩٧) سورة مريم] فهذا بالنظر إلى الإطلاق الثاني للإنذار وهو أنه يأتي للمكذبين خاصة.

ومن الإنذار العام قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ} [(١-٢) سورة المدثر] يعني أنذر جميع الناس.

وأصل الإنذار في كلام العرب هو إعلامٌ خاص، فهو الإعلام المقترن بتهديد، وبهذا الاعتبار يكون الإنذار إعلاماً خاصاً، فكل إنذار إعلام وليس كل إعلامٍ إنذاراً، فحينما تخبر إنساناً بقولك: جاء زيد فهذا إعلام وليس إنذاراً، وحينما تقول لإنسان: الموت قريب والساعة حق، والله -عز وجل- قد أعد النار للمكذبين، فهذا كله من الإعلام لكنه إعلامٌ خاص، وحينما تقول لإنسان: سترى مغبة فعلك وعاقبة جريرتك، فهذا كله إعلامٌ يقال له إنذار؛ لأنه إعلام مقترن بالوعيد والتهديد.

وعلى كل حال فإن قوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} أي: لا يكن فيه شكٌ ولا ريب ولا ضيق من تبليغ الناس به وما تضمنه.

وقوله: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف] أي: من أجل الإنذار.

وإذا قلنا: إن الحرج بمعنى الشك فيكون ذلك متوجهاً إلى الأمة بحيث لا يقع من أحد شك في هذا القرآن بحال من الأحوال، ومن آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فإنه يكون في صدره شيء من الحرج بقدر ما رد منه وكذّب، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من لم يؤمن بأسماء الله وصفاته ففي صدره حرجٌ منه؛ لأن القرآن دل على هذه الأشياء، ومن لم يرض بالقرآن حاكماً يتحاكم إليه، فإنه قد وقع في صدره حرجٌ منه، ومن شك في أخباره فقد وقع في صدره حرجٌ منه، والناس يتفاوتون في ذلك.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٣) سورة الأعراف] أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

هذه الآية {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] تدل على أن كل من لم يتبع القرآن فهو متبعٌ لأولياء من دونه، فليس هناك إلا اتباع القرآن واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو اتباع الأولياء، فليس هناك شيء وسط بين هذا وهذا.

{قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(٣) سورة الأعراف] كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وقوله: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} الآية [(١١٦) سورة الأنعام] وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٦) سورة يوسف].

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ* فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ* فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٤-٧) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(١٠) سورة الأنعام] **وكقوله: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}** [(٤٥) سورة الحـــج] **وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}** [(٥٨) سورة القصص].

وقوله: {فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} [(٤) سورة الأعراف] **أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته {بَيَاتًا} أي: ليلاً.**

{أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ* أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٧-٩٨) سورة الأعراف] **وقال: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ* أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ* أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(٤٥-٤٧) سورة النحل].

وقوله: {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [(٥) سورة الأعراف] **أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا.**

قوله تعالى: **{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ}** [(٥) سورة الأعراف] فسره بعض أهل العلم بالدعاء كما قال الله -عز وجل-: **{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}** [(١٠) سورة يونس] أي: دعاؤهم، وفسره آخرون بالادعاء، يعني أنهم اعترفوا وأقروا بأنهم كانوا على باطل وأن المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله لا حقيقة لها ولا نصيب لها في الإلهية، وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا على ظلمٍ وباطلٍ.

وهذا المعنى في قوله: **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بينه الله -عز وجل- في الآيات الأخرى، كقوله: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ* لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ}** [(١١-١٥) سورة الأنبياء] فهذه هي دعواهم، وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن الله -عز وجل- قد بعث لجميع الأمم رسلاً فلم يعذبهم حتى جاءهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأنهم أقروا على أنفسهم بالظلم ولم يحتجوا فيقولوا: ما جاءنا من رسول وإنما قالوا: **{إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بمعنى أنه قد بلغهم ما تقوم عليهم به الحجة، ولم يعذبهم حتى بعث إليهم رسولاً فكذبوه.

كقوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [(١١) سورة الأنبياء] **إلى قوله: {خَامِدِينَ}** [(١٥) سورة الأنبياء].

وقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} الآية [(٦) سورة الأعراف] **كقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [(٦٥) سورة القصص].

هذا سؤال متوجه للمرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ وهذا من النماذج والأمثلة الواضحة جداً في تفسير القرآن بالقرآن، وقد ذكرنا مراراً أن تفسير القرآن بالقرآن يدخله اجتهاد المفسر وبالتالي قد يصيب وقد يخطئ، لكن توجد أمثلة تكون في غاية الوضوح، فقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} [(٦) سورة الأعراف] أي: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص].

وقوله: {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] أي يُسأل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ، إلا أن هذا السؤال ليس سؤال استثبات واستعلام؛ لأن الله -عز وجل- لا تخفى عليه خافية، وإنما المقصود بذلك معنىً آخر، وحينما يقال لهؤلاء: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص] فهذا سؤال تقريع، كما قال الله -عز وجل-: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [(٢٤) سورة الصافات] وهكذا يقال في مواضع متعددة من القرآن كقوله: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [(٤٢) سورة المدثر] يعني ما الذي أدخلكم النار؟، فهذه أسئلة تقريع لا أسئلة استثبات واستعلام.

وبالنسبة للمواضع التي نفى فيها السؤال كقوله: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [(٣٩) سورة الرحمن] فالمعنى أنه لا يسأل سؤال استعلام واستثبات لكن لا ينفي ذلك أنه يسأل سؤال تبكيت، كما أنه لا يسأل سؤال استعتاب من أجل أن يذكر عذره فيقبل منه، لا، وإنما يسأل لتبكيته، فإن من وقع في ورطة ثم قيل له على سبيل التبكيت: ما الذي أوقعك في هذا؟ ألم نقل لك كذا؟ ما الذي أدخلك في هذا؟ فإن هذا يكون فيه مزيداً في ألمه وعذابه.

وقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة].

هذا سؤال للمرسلين {مَاذَا أُجِبْتُمْ} [(١٠٩) سورة المائدة] يعني ماذا أجابكم قومكم؟ كما أنه يسألهم عن البلاغ.

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته.

هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] فيدخل فيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هل بلغوا قومهم؟ وماذا بلغوهم؟.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر في الموقف الأكبر يوم عرفة أننا مسئولون عنه، فقال: ((ماذا أنتم قائلون؟)) فقالوا له -عليه الصلاة والسلام-: نشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وكان -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا هل بلغت؟)) قالوا: نعم، نشهد أنك قد بلغت، فكان يشير بأصبعه إليهم ويرفعها إلى السماء يقول ((اللهم اشهد))، فالناس يُسألون عن الإجابة، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ.

ويدخل في قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] سؤال أتباع الرسل من الدعاة إلى الله -عز وجل- عن الإيمان وعمَّا يتعلق ببلاغ الناس ودعوتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] قال: عمَّا بلغوا.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

{وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] **يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٥٩) سورة الأنعام].**

قوله تعالى: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** يعني نخبر بما وقع منهم، فالله -عز وجل- قد أحصى ذلك جميعاً وكتبه كما قال سبحانه: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}** [(٤٩) سورة الكهف] فهو يخبر الناس بما عملوا ويحاسب كل إنسان -عملت كذا وعملت كذا وعملت كذا- وهذا هو العرض، فإذا نوقش الحساب عذب، وهذا يدل على أن السؤال في قوله: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}** [(٦) سورة الأعراف] ليس سؤال استعلام واستثبات وإنما هو سؤال تقريع؛ لأن الله -عز وجل- يعلم ما عملوا وما حصل منهم، ولذلك قال بعده: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** [(٧) سورة الأعراف].

وهناك جملةً من الآيات التي جاء السؤال فيها للتقريع والتبكيت، منها قوله تعالى: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}** [(٤٢) سورة المدثر] وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}** [(١٠٥) سورة المؤمنون] وقوله تعالى: **{أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ}** [(٥٠) سورة غافر] فهذا كله للتبكيت، أما سؤال الأمم عن بلاغ الرسل فهذا بالنسبة للمؤمنين ليس سؤال تبكيت، وكذلك حينما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم مسئولون عن البلاغ فهذا ليس سؤال تبكيت، لكن حينما يسأل الكفار ويقال لهم **{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ* فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ}** [(٦٦) سورة القصص] فهذا سؤال تبكيت.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [(٨-٩) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَالْوَزْنُ} **أي: للأعمال يوم القيامة** {الْحَقُّ} **أي: لا يظلم تعالى أحداً، كقوله:** {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [(٤٧) سورة الأنبياء] **وقال تعالى:** {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٤٠) سورة النساء] **وقال تعالى:** {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ} [(٥-١١) سورة القارعة] **وقال تعالى:** {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ* فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [(١٠١-١٠٣) سورة المؤمنون].

فصل:

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف"[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [(٨) سورة الأعراف] فسره بعض السلف بالحسنات، أي: فمن ثقلت حسناته، وبعضهم يقول: فمن ثقلت موازينه أي ما يوضع في الموازين فيرجح بالميزان، وهذا بمعنى القول الأول في الواقع -فهو من اختلاف التنوع- أي: هي الحسنات.

وبعضهم يقول: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [(٨) سورة الأعراف] أي: رجحت كفة على كفة، فهو ميزان حقيقي له كفتان، وهذا أيضاً لا ينافي ما قبله، فإذا وضعت الحسنات والأعمال الصالحة وكانت مرجحة لإحدى الكفتين فإن العبد يكون ناجياً.

ولا شك أن الأعمال توضع في ميزان حقيقي له كفتان، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- عند تفسير هذه الآية، والمسألة معروفة في كتب

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

العقائد، وقد دلت الأدلة على أن هذا الميزان ميزانٌ حقيقي، فقد جاء في الحديث: ((ما وضع في الميزان شيء أثقل من حسن الخلق))[2] وجاء في الحديث أيضاً: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[3].

وجاء كذلك حديث السجلات المليء بالأعمال السيئة المشهور بحديث البطاقة، حيث توضع في كفة الحسنات تلك البطاقة المكتوبٌ عليها "لا إله إلا الله" فترجح، وتطيش الكفة التي فيها السجلات التي دونت فيها تلك السيئات.

والمقصود أن الميزان هو ميزان حقيقي توضع فيه الأعمال، وأما قول من قال: إن الله -عز وجل- لا حاجة به إلى ذلك، وإنما يزن من لا يعرف مقادير الأشياء على حقيقتها، فهذا قولٌ معارضٌ للنصوص؛ فالله -تبارك وتعالى- لا شك أنه قد أحصى كل شيء عداً وقدراً، ولكن من كمال عدله -سبحانه وتعالى- ومن حكمته البالغة أن جعل الأعمال توزن بالميزان، كما جعل الإنسان ناطقاً شاهداً على نفسه بما عمل مع أن الله قد أحصى عمله، كما جعل أيضاً الأرض شاهدةً عليه، وجعل الجوارح والجلود تشهد على أصحابها، فالله -تبارك وتعالى- حكمٌ عدلٌ حكيم، يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، لكن مثل هذه الأمور إذا ثبتت عن الشارع فإنه يجب التسليم لها دون معارضتها بالعقول، مع أن ذلك لا ينافي مقتضى العقول بل هو موافقٌ لها غاية الموافقة.

ويبقى النظر في الشيء الذي يوضع في الميزان هل هي الحسنات والسيئات؟ أم هي السجلات التي تكتب بها الأعمال كما في حديث البطاقة، أم أن الذي يوزن هم الناس للحديث الذي سبق: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[4].

إذا جمعت النصوص وحكمت بمقتضاها قلت: إن ذلك كله واقع؛ لأنه ثابتٌ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالإنسان يوضع في الميزان، وسجلات الأعمال توضع في الميزان، وتوضع في هذا الميزان الحسنات والسيئات، والله تعالى أعلم.

ومن ذلك في الصحيح: قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: ((من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك))[5].

أورد -رحمه الله- هذا الحديث ليرد على من يقول: إن الأعمال -الحسنات والسيئات- أعراض وليست جواهر؛ وهذه من عبارات أهل المنطق حيث يقولون: الإنسان جوهر، والضحك عرض، والكلام عرض،

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب (٢٧٠) (ج ١ / ص ١٠٣) والترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٣) (ج ٤ / ص ٣٦٣) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ج ١ / ص ١٢٢).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الكهف (٤٤٥٢) (ج ٤ / ص ١٧٥٩) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٥) (ج ٤ / ص ٢١٤٧).

[4] - الحديث السابق نفسه.

[5] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب ثواب القرآن (٣٧٨١) (ج ٢ / ص ١٢٤٢) وأحمد (٢٣٠٢٦) (ج ٥ / ص ٣٥٢) وقال شعيب الأرنؤوط: " إسناده حسن في المتابعات والشواهد ".

والسرور والانشراح عرض، والحزن عرض، والخوف عرض، فهذه الأشياء ليست متشخصةً في الخارج فهم يسمونها أعراض.

ويقولون: الفرس جوهر، والمسجد جوهر، واللذة عرض، وهكذا، ومن هنا فهم يقولون: إن الأعمال أعراض، والأشخاص الذين يعملون جواهر، والأعراض لا توزن، هكذا زعموا، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه ثبت في الحديث أن القرآن يأتي يحاجّ عن صاحبه بصورة معينة، وثبت أن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، والله -عز وجل- على كل شيء قدير، لا يعجزه أن يزن الأعراض ولا يعجزه أن يقلب الأعراض إلى جواهر، ومثل هذه الفلسفات إنما نشأت عن أهل الكلام ومَن شابههم ووافقهم فهم يعترضون على النصوص بمثل هذه الآراء والأفكار التي أنتجتها عقولهم والله المستعان.

وفي حديث البراء -رضي الله تعالى عنه- في قصة سؤال القبر: ((فيأتي المؤمنَ شابٌّ حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح)) وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق[6].

وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مدّ البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها "لا إله إلا الله" فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فطاشت السجلات وثقلت البطاقة))[7] رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه.

وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[8] ثم قرأ: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [(١٠٥) سورة الكهف].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أتعجبون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد))[9].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارةً توزن الأعمال وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

هذا هو الجمع الصحيح وهو الذي قرره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وهو قول عامة المحققين، وهو الحكم بمقتضى هذه النصوص جميعاً فلا يرد شيء، وهذا من كمال عدل الله -جل جلاله-.

قال تعالى: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [(٨-٩) سورة الأعراف] أي: من رجحت حسناته على سيئاته فهذا هو المفلح الذي ينجو عند الله -عز وجل-، والفلاح هو إدراك المطلوب، والنجاة من المرهوب، والعبرة برجحان الحسنات على السيئات، فهو بحسب ما غلب عليه.

---

[6] - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧).

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) (ج ٥ / ص ٢٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) (ج ٢ / ص ١٤٣٧).

[8] - سبق تخريجه.

[9] - أخرجه البزار (ج ١ / ص ٢٩٤) والطبراني في الكبير (٨٤٧٣) (ج ٩ / ص ٧٨).

ومن رجحت سيئاته على حسناته فإنه يكون تحت مشيئة الله -عز وجل- إن كان محققاً للإيمان الواجب، فالله -تبارك وتعالى- يغفر له إن شاء، وقد لا يدخل النار بشفاعة، وقد يدخل النار ثم يخرج منها بعد ذلك بشفاعة أو برحمة أرحم الراحمين، وأما من لم يحقق الإيمان الواجب ممن وقع في الشرك الأكبر أو نحو ذلك فإن هؤلاء يدخلون النار ولا يخرجون منها أبداً.

ومن تساوت حسناتهم وسيئاتهم فكثيرٌ من أهل العلم قالوا إن هؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين يوقفون كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] مع أن الآية فيها أقوالٌ غير هذا، فالله تعالى أعلم.

يقول تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [(٩) سورة الأعراف] في قوله: {بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} الباء للسببية، أي بسبب ظلمهم لآيات الله -عز وجل- وهذا الظلم يكون بالتكذيب والرد والمعارضة وما أشبه ذلك، فهذه الآية يؤخذ من عمومها أن الكفار توزن أعمالهم أيضاً، أي أن الوزن ليس لأهل الإيمان فقط بل حتى الكفار توضع أعمالهم في الميزان، وليس لهم حسنات عند الله -عز وجل-؛ لأنه يعجل لهم ذلك في الدنيا حتى إذا جاءوا عند الله -عز وجل- جاءوا ليس لهم حسنة، لكن عموم هذه الآية في ظاهرها يدخل فيه الكفار بهذه الصفة أي أنهم خسروا أنفسهم بظلمهم بآيات الله -تبارك وتعالى- ثم بعد ذلك تنشر الصحف وتوزع الكتب على أصحابها فآخذٌ كتابه بشماله وآخذٌ كتابه بيمينه.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} [(١٠) سورة الأعراف] **يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكَّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً وجعل فيها رواسي وأنهاراً وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [(٣٤) سورة إبراهيم].**

في قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ} [(١٠) سورة الأعراف] أي جعلناكم متمكنين.

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [(١٠) سورة الأعراف] كقوله -تبارك وتعالى-: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا} [(٢٤-٢٩) سورة عبس] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل- فهذا من المعايش التي أشارت إليها هذه الآية، وكما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ} [(٢٧) سورة السجدة] وما شابه ذلك من الآيات التي توضح هذا المعنى، وهو كيف جعل الله -عز وجل- لنا في هذه الأرض معايش.

وقد قرأ الجميع معايش بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً ومعيشة.

قراءة (معائش) بالهمز هي قراءة سبعية وليست قراءة عبد الرحمن بن هرمز فقط، لكن القراءة التي عليها عامة السبعة بالياء، والقراءة سنةٌ متبعة كما هو معلوم فإذا ثبتت فالقاعدة أنه لا يجوز محاكمتها إلى قاعدةٍ لغوية أو نحوية وإن كانت مائة قاعدة، وهل تؤخذ القواعد أصلاً إلا من القرآن وسنة النبي -صلى الله عليه

وسلم-؟ بل أخذ اللغات والقواعد من القرآن والسنة أفضل وأكمل آلاف المرات من أخذها من قول شاعرٍ مجهول لا يدرى من هو ممن يحتجون بقوله على صحة لغةٍ من اللغات.

فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت مَعِيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل معايش ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدنَ وصحفَ وأبصرَ، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك، والله أعلم.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [(١١) سورة الأعراف] **ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ}** [(١١) سورة الأعراف] **وهذا كقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٨-٢٩) سورة الحجر] **وذلك أنه تعالى لما خلق آدم -عليه السلام- بيده من طين لازب وصوَّره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين.**

وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة، فدلَّ على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [(٥٧) سورة البقرة] **والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى -عليه السلام- ولكن لما كان ذلك منَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء.**

يعني أن الخطاب في قوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ}** [(١١) سورة الأعراف] جاء بصيغة الجمع فهل المقصود به آدم -صلى الله عليه وسلم- أم جميع الناس؟

الخلق والتصوير لا شك أنه واقع لجميع الناس، فالله -عز وجل- خلقهم ثم صورهم، وقد تمدَّح -تبارك وتعالى- بأنه هو الخالق البارئ المصور لكن في الآية قرينة تدل على أن المراد بهذا الخطاب الذي جاء بصيغة الجمع هو آدم -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه عقبه بقوله: **{ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(١١) سورة الأعراف] أي: خلقنا أباكم آدم -صلى الله عليه وسلم- وصورناه بعد الخلق ثم قلنا للملائكة اسجدوا له، ويوضح هذا الآيةُ التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي قوله -تبارك وتعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٩) سورة الحجر] هذا معنى **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ}** [(١١) سورة الأعراف] ويؤيد هذا أيضاً القاعدة المعروفة وهي أن الخطاب يكون متوجهاً للأبناء فيما وقع للآباء؛ لأن المنة على الآباء متوجهةٌ للأبناء، كما أن المذمة الواقعة على الآباء متوجهةٌ للأبناء إن كانوا على طريقتهم، كما في قوله تعالى: **{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}** [(٥٧) سورة البقرة] مع أن ذلك إنما وقع لأجدادهم كما قال

تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ} [(٦١) سورة البقرة] وكما قال: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] فهذا إنما وقع من الأجداد، فلما كانوا على طريقتهم صاروا في حكمهم، فصارت هذه المذمة لاحقةً لهم وواقعةً عليهم، وهنا يمتن الله على الناس فيقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف] فهذا تفضيل لآدم، وهذا التفضيل يلحق ذريته.

وهذا بخلاف قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} الآية [(١٢) سورة المؤمنون] فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصحَّ هذا؛ لأن المراد من {خَلَقْنَا الْإِنسَانَ} الجنس لا معيناً، والله أعلم.

قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} [(١٢) سورة المؤمنون] يعني باعتبار الأصل، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وأما الذرية فمن النطف.

ومن أهل العلم من يقول: إن معنى قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} [(١١) سورة الأعراف] أي: نطفاً {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني بعد ذلك، لكن هذا القول يأباه قوله بعده: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف] فإن "ثُمَّ" تدل على التعقيب والتراخي في أصل معناها.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} أي خلقنا آدم من تراب {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني في ظهره.

وبعضهم يقول: إن "ثم" في الآية بمعنى الواو، يعني ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، أي أنها ليست للتعقيب وعلى هذا يكون الخلق والتصوير لعموم الخلق ولا يختص ذلك بآدم في الآية، يعني أن الله ذكر جملةً من الأمور التي يمتن بها على الناس فقال: ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، لكن هذا خلاف الأصل ولا حاجة إليه؛ لأن "ثم" في أصل معناها تفيد التراخي والتعقيب.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} يعني من ظهر آدم {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أي حينما استخرجناكم من صلبه كأمثال الذر، وأخذنا عليكم الميثاق، لكن يقال: وماذا عن قوله: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}؟ [(١١) سورة الأعراف]، لذلك نقول: لا حاجة لمثل هذا التكلف.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} أي: خلقنا الأرواح {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أي: الأشباح، يعني أعطي كل إنسان قالباً وجسماً وصورةً تكون فيها هذه الروح.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} في أصلاب الآباء {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني في الأرحام؛ فالتصوير يكون في الأرحام.

وبعضهم يقول: خلقهم في ظهر آدم، ثم صُوروا في الأرحام، والفرق بين هذا القول والذي قبله أن الأول معناه أنهم خُلقوا في ظهور الآباء ثم صُوروا في أرحام الأمهات، والثاني أنهم خُلقوا في ظهر آدم ثم كان تصويرهم في أرحام الأمهات، وهذا كله لا حاجة إليه، وإنما يقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} [(١١) سورة الأعراف] أي: خلقنا آدم -صلى الله عليه وسلم- {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} آدم -عليه الصلاة والسلام- {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف]، والله أعلم.

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(١٢) سورة الأعراف].

قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، قاله ابن جرير، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

الحافظ ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله- فسرا {مَنَعَكَ} بمعنى أحرجك واضطرك، وبهذا الاعتبار لا إشكال في الآية، لكن إذا نظرت إلى لفظة "منع" و"اللام" التي تدل على النفي فإن ذلك قد يكون مشكلاً، وذلك أن المتبادر أن يقال: ما منعك أن تسجد، أو ما منعك من السجود، وهنا قال: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] "ألا" مكونة من "أن" و"لا" أي ما منعك أن لا تسجد، فلفظة "منع" واجتماعها مع "لا" هذا موضع الإشكال، فالكلام بهذا التركيب لا يخلو من إشكال، ولذلك فإن بعض أهل العلم قال: إن "لا" زائدة إعراباً، لكن من حيث المعاني لا يوجد في القرآن شيء زائد، فقالوا: جيء بها للتأكيد وتقوية الكلام؛ بدليل أن الله -عز وجل- قال في الموضع الآخر: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] بدون "لا" فقالوا: إن قوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] يفسره قوله تعالى في الآية الأخرى {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] وهذا كما في قوله -تبارك وتعالى- أيضاً: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ} [(٢٩) سورة الحديد] فالمعنى "ليعلم" وذلك أنه ذكر هذا من أجل أن يعلموا، ولهذا نظائر قالوا فيها ذلك، ففي سورة الأنعام مرَّ بنا قوله تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] وذكرنا في بعض توجيهاته قول من قال: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، وسبق الكلام على هذا وعلى القراءتين وذكرنا أن هذا التوجيه يقال على قراءة فتح همزة "أنّ" وأما على قراءة الكسر فلا إشكال.

وهكذا أيضاً في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [(٩٥) سورة الأنبياء] أي: وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم يرجعون، وهكذا.

وبعضهم يفسر "منع" هنا بمعنى "قال" ويجعلون "ما" بمعنى "مَن" أي: من قال لك لا تسجد؟ وهذا فيه بُعد، وبعضهم يقول: يعني ما دعاك ألا تسجد، وهذا يشبه قول ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله-.

وبعضهم يقول: فيه تقدير محذوف، أي: ما منعك من الطاعة وأحوجك ألا تسجد؟ لكن نقول: الأصل عدم التقدير.

ولذلك لعل أحسن الأقوال وأوضحها قول ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله- أي ما حجزك وأحرجك واضطرك، ويليه القول بأنها زائدة إعراباً بدليل الآية الأخرى في سورة ص: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والله أعلم.

وقول إبليس -لعنه الله-: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ} [(١٢) سورة الأعراف] من العذر الذي هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني -لعنه الله- وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟

ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر].

لما سأله ما منعك من السجود؟ قال: أنا خيرٌ منه، مع أن الذي منعه حقيقةً هو الكبر، كما قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} [(٣٤) سورة البقرة] والحامل له على هذا الكبر هو

اعتقاده الفاسد أنه أفضل من آدم، فهو عرف أن هذا السجود للتفضيل والتكريم فقال ما قال، وأجاب بهذا الجواب حيث ذكر سبب علة الامتناع وهو اعتقاده الفاسد الذي أورثه هذا التعاظم، وأما العلة فهي الكبر.

وهذا الموضع يتكلم فيه العلماء كثيراً على القياس الفاسد المصادم للنصوص، والذي يسمونه بـ"فاسد الاعتبار" فكل قياس خالف النص يقال له فاسد الاعتبار، أي: قياس باطل لا حقيقة له ولا صحة له بحالٍ من الأحوال، ولهذا يقولون: أول من قاس قياساً فاسداً مقابل النص هو إبليس، وذلك أن الله تعالى قال له: اسجد، فرد هذا الأمر بهذا القياس، فهو أول من عارض النص بالرأي والنظر الباطل، وكل من قاس قياساً باطلاً فاسداً فله نصيبٌ من هذه الصفة، وقد تكلم على هذه المسألة كثير من العلماء منهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في إعلام الموقعين.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الآية في دروسه التي كانت في المسجد النبوي، ففي درس كامل تكلم على القياس والرد على ابن حزم في القياس بكلامٍ رصينٍ متين حتى إنه لما كتب وعرض عليه -رحمه الله- قال: لو لم أسمع هذا بصوتي لما صدقت أني قلته في الدرس، فالله -عز وجل- فتح عليه بأشياء كثيرة، ولذلك يحسن مراجعة ذلك.

والعلماء -رحمهم الله- ردوا على إبليس -لعنه الله- وممن ردَّ عليه ابن القيم وابن كثير والشنقيطي وغيرهم -رحمهم الله- وقد ردوا عليه من وجوه كثيرة.

فشذَّ من بين الملائكة لترك السجود..

قوله: "**فشذَّ من بين الملائكة**" لا يفهم منه أن إبليس من الملائكة فهو إنما كان من الجن كما قال الله -عز وجل- في سورة الكهف: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}** [(٥٠) سورة الكهف] ثم إنه ذكر أصله هنا فقال: **{خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ}** [(١٢) سورة الأعراف] والملائكة خلقوا من النور كما في الحديث الصحيح[١٠].

فشذَّ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة أي أيس من الرحمة فأخطأ -قبحه الله-.

هذا وجه تسميته بهذا الاسم حيث قيل: إنه مأخوذٌ من الإبلاس وهو بمعنى القنوط واليأس من رحمة الله -عز وجل-.

فأخطأ -قبحه الله- في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت.

هذا من وجوه رد الحافظ على إبليس في قياسه الفاسد، ومعناه أن إبليس كان فهمه خطأ واحتجاجه خطأ، فهو يقول أنا أشرف منه لأني خلقت من نار وخلق آدم من الطين، فابن كثير -رحمه الله- يقول هذا كلام غير صحيح أيضاً إذا جئنا لمناقشته، وذلك أنه إضافة إلى كونه اعترض على الأمر الذي يفترض مقابلته بالتسليم والانقياد والإذعان فإن قوله هذا الكلام غير صحيح؛ فليست النار أفضل من الطين بل الطين أفضل من النار؛

[10] - سيأتي تخريجه.

لأن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، وليس المقصود بهذا الكلام أن الحلم صفة أصل الطين وإنما المقصود أن المخلوق من الطين هو الذي من شأنه الحلم والأناة والتثبت خلافاً للذين خلقوا من النار.

ولهذا ذكر شيخ الإسلام مثلاً في بعض المناسبات أن من صفة الجن الخفة والطيش حيث خلقوا من مارج من نار، يعني حتى المسلمين من الجن يوجد فيهم الكذب والظلم والخفة والطيش أكثر من وجوده في المسلمين من الإنس ولذلك تجد الواحد منهم مسلما وربما يزعم أنه من أهل العلم ومع ذلك يتلبس بالإنسان ويؤذيه غاية الأذية بحجج تافهة كأن يقول: إنه جلس في هذا المكان وما سمّى، أو جلس عليَّ أو نحو ذلك!!

والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح.

هذه كلها من وجوه تفضيل الطين على النار.

والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

كذلك يمكن أن يقال: إن الطين أطول بقاءً من النار، فالنار تبقى بقدر ما فيها من الوقود، ثم تتلاشى وتذهب، أما الطين فهو أبقى منها وأطول، وهو موجود في الجنة، وأما النار فلم يذكر لها وجود في الجنة، بل هي عذاب، والطين ليس بعذاب، والنار أيضاً تحتاج إلى مكان تتحيز فيه، والطين مسجد وطهور، والنار لا مسجد ولا طهور، ومن شأنها الإتلاف بخلاف الطين.

ويمكن أن نرد على إبليس من وجه آخر فنقول: الملائكة خلقوا من نور والنور أشرف من النار ومع ذلك سجدوا، وأنت من نار فحتى لو فرضنا أن النار أفضل من الطين فالملائكة ما اعترضوا بهذا الاعتراض وهم أشرف منك قطعاً، وأنت دونهم حيث خلقت من نار فلماذا تعترض هذا الاعتراض؟

هذا يدل على كبر في نفسه، ظهر حينما أمر بالسجود لآدم، فكانت علة خفية يعلمها الله -عز وجل- ظهرت في هذا المقام، ولهذا فإن الإنسان قد يكون فيه دين وعبادة، أو يكون من أهل العلم، لكن لا تظهر كوامن النفس وما فيها من العلل إلا إذا وجد المحرِّك لذلك، نسأل الله العافية، ولذلك الإنسان دائماً يستعيذ: اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

فإبليس حسد آدم على هذا التكريم والتفضيل وظهر هذا الحسد حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فامتنع من السجود، وهكذا الإنسان قد يكون في دين وصلاح لكن ما يظهر ما فيه من علة إلا إذا وجد المحرك لها، وهذه مداخل دقيقة جداً في النفس قد لا يعرفها الإنسان من نفسه ولكنها تظهر بعدُ بوجود محركها، وهذا له صور كثيرة جداً، فلو نظرت إلى المنتسبين إلى العلم فقط الذين يفترض أن يكونوا أشرف وأكمل من غيرهم فإنك تجد عند بعضهم من هذه الأمور الخطيرة، وإذا نظرت إلى العلل الكامنة في نفوس كثير من الناس -إلا من وفقه الله -عز وجل- وجاهد نفسه وأصلحها وتنبه لعللها وفتش عنها- تجد من العلل أشياء كثيرة، فالرجل يُثنَى عليه ويُذكر بأوصاف من الكمالات والعلم والعمل والتحقيق والعبادة، فتبدأ تتحرك بعض النفوس التحرك السلبي ويبدأ الحسد وربما يلتمس بعض الحاسدين ما يعيب هذا الإنسان وينقصه، وربما يفرح إذا سمع كلمة حفظها إنسان مما يحط من مرتبته، فلو قال قائل: سمعته يقول كذا وحصل منه مرةً كذا، فإن هذا الحاسد يتنفس من هذا التنقص.

وبعضهم قد يكون فيه من ضعف الدين وخفة العقل ما يجعله لا يتمالك فينطلق لسانه بالعيب والذم والثلب وأمور ربما يلفق معها أشياء من الأكاذيب لينتقص هذا الإنسان، وكل ذلك من الحسد، لكن بعضهم قد يكون فيه ذكاء وعقل فيصل إلى هذا بطرق خفية، وبعضهم يكون فيه دين وخوف من الله -عز وجل- فيبقى هذا في النفس لكنه يحبسه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه"[11] فهذه مشاعر إذا وجدت في النفس وما خرجت بقولٍ أو فعلٍ أو غير ذلك مما يصدر من الإنسان فلا يؤاخذ الإنسان عليها، وعليه أن يدافع هذا وينزه قلبه قدر المستطاع، وما يغلب عليه لا يؤاخذ عليه ما لم يصدر منه شيء، فالإنسان يحتاج إلى معرفة مثل هذا، وإلى النظر في نفسه، وعليه أن يفتش في عيوبه، وما أشبه ذلك.

تجد بعض الناس أحياناً قد يدعى إلى مناسبة، ويرى أناسا يقدّمون وربما يكون لهم شيء من الكلمة أو نحو ذلك، وهو يرى أنه أولى منهم أو لا يقل عنهم، ثم ينتهي هذا الحفل أو هذا البرنامج من أوله إلى آخره وما طُلب منه شيء، فإذا خرج بدأ يذكر بعض المثالب والعيوب والملاحظات، ولو قيل له: تكلم، لخرج وهو يثني، والسرور يلوح في وجهه! فالذي جعله يخرج وهو يذكر العيوب -إن كانت هناك عيوب حقيقية- هي شرور النفس حيث ظهرت بعد أن تحركت في نفسه لما رأى غيره يقدم عليه، وكان يظن أنه هو المقدم، وما نفعه العلم إن كان من أهل العلم حقيقةً، وقد لا يكون من أهل العلم أيضاً لكنه يلبس زيهم، فهذه بلوى ابتلى الله -عز وجل- الناس بها، وهذه أمور تحتاج إلى معالجة، فهذا إبليس امتنع وتحركت نفسه بسبب هذا التكريم والتفضيل لآدم.

وهذا لا يختص بأهل العبادة وأهل العلم بل حتى الطلاب الصغار إذا رأوا الأستاذ يعامل أحدهم معاملة طيبة تسلطوا عليه وكرهوه وحسدوه وذموه ولاموه، وهكذا.

تجد الرجل يشتط ويجتهد في الدعوة إلى الله -عز وجل- ويحصل على يده خير كثير، ثم يقدَّم غيره عليه أو يكرم إنسان آخر ويعطى درعاً أو نحو ذلك، فتبدأ تتحرك نفس هذا وربما ينقطع من العمل بالكلية، وإذا تساءلت وبحثت لماذا؟ وما الذي حصل له؟ وجدت أنه يرى أنه يعمل وأن الذي يكرّم غيره، وتحولت المعاني الجميلة التي يدعو إليها، والإخلاص والكلام والصدق وكذا تحولت إلى لا شيء، فالله المستعان.

وفي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم))[12].

المارج من النار هو اللهب الذي لا دخان فيه، وبعضهم فسره بطرفها الأعلى، وهذا لا شك أنه أخف النار، وليس معنى هذا أن شياطين الجن أو أن الجن عموماً هم نار تتحرك بل هم مثل بني آدم حيث خلقوا من طين فنحن أصلنا من الطين، وهم أصلهم من النار، ومع ذلك يعذبون بالنار في الآخرة وقد يحترقون بها في الدنيا، فلا يلزم أن يكون هذا الاحتراق بالنار المحرقة هذه؛ لأنها قد لا تضرهم، والله تعالى أعلم، وهذا مشاهد في أن الإنسان الذي يتلبسون به قد يأكل الجمر، أعني أولئك الذين يبحثون عن اللهو والطرب ممن تركبهم

---

11 - مجموع الفتاوى (ج ١٠ / ص ١٢٥).

12 - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق - باب في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) (ج ٤ / ص ٢٢٩٤).

الشياطين يشاهد أنهم يأكلون الجمر وكذلك من تركبهم الشياطين ممن يتعاطون السحر والشعوذة والدجل على الناس يأكلون الجمر والنار تخرج من أفواههم ولا يحترقون، ويمشي الواحد منهم على النار فمثل هؤلاء قد لا يحترقون بالنار لكن قد يحترقون بشيء آخر كالرقية، والمقصود أن كونهم خلقوا من النار لا يمنع أن يعذبوا في نار جهنم فالإنسان المخلوق من الطين إذا ضرب بلبنة من الطين فإنه قد يموت أو على الأقل يشج رأسه، بمعنى أن الطين يضره ويؤذيه فكذلك هؤلاء خلقوا من نار ثم يعذبهم الله -عز وجل- فيها، والله تعالى أعلم.

وروى ابن جرير عن الحسن في قوله: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(١٢) سورة الأعراف] قال: "قاس إبليس وهو أول من قاس" إسناده صحيح.

وروى عن ابن سيرين قال: "أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس" إسناد صحيح أيضاً.

المقصود بهذه الآثار المقاييس الباطلة الفاسدة وإلا فإن المقاييس الصحيحة لا إشكال فيها، والله -عز وجل- قال: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [(٢) سورة الحشر] والاعتبار فيه معنى المقايسة، ولهذا فإن حقيقة الاعتبار أن تنتقل من حال هذا الإنسان المعتبر به إلى حالك أنت، فلا تقع فيما وقع فيه، فهو من العبور والمجاوزة حيث ينتقل من حاله إلى حالك ولهذا قيل: العبْرة هي انتقال بصورة من الصور، فهذه النصوص وغيرها مما ورد في ذم القياس المقصود به القياس الفاسد الذي تُعارَض به النصوص، أما القياس الصحيح فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر -رضي الله عنه- لما سأله عن القبلة للصائم: ((أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم))[13] فالمضمضة أصل لا إشكال فيه، وليس عند عمر -رضي الله عنه- شبهة في المضمضة أنها لا تؤثر في الصوم، فالمضمضة ماء يدخل إلى الفم والقبلة للصائم مثلها.

وبعض أهل العلم قال: لما كانت المضمضة مقدمة للشرب فالقبلة مقدمة للجماع، ويمكن أن ينظر فيه إلى ملحظ آخر وهو أن القبلة أصلاً في الفم فيخالطه من الريق ما يخالطه وهذا لا يؤثر كما أن المضمضة لا تؤثر، فالقبلة فرع والمضمضة أصل والعلة الجامعة أن هذه مقدمة لمحظور في الصوم، سواء قلنا: مقدمة لمحظور هو ما يحصل في الفم من مخالطة الريق أو قلنا: مقدمة للجماع، فهي مقدمة لمحظور، والحكم هو الجواز والإباحة، فالمضمضة جائزة للصائم لا تؤثر على صومه وكذلك القبلة لا تؤثر وهذا هو الحكم الجامع، وهذا هو القياس، وأمثلة ذلك كثير، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[13] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب القبلة للصائم (٢٣٨٧) (ج ٢ / ص ٢٨٤) والدارمي في كتاب الصوم - باب الرخصة في القبلة للصائم (١٧٢٤) (ج ٢ / ص ٢٢) وأحمد (١٣٨) (ج ١ / ص ٢١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٨٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} [(١٣-١٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني: {فَاهْبِطْ مِنْهَا} أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي.

{فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [(١٣) سورة الأعراف] **قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى.**

{فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} [(١٣) سورة الأعراف] **أي: الذليلين الحقيرين؛ معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين.**

{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} [(١٤-١٥) سورة الأعراف] **أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.**

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٦-١٧) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس إلى يوم يبعثون واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١٦) سورة الأعراف] **أي: كما أغويتني.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك -الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه- على صراطك المستقيم أي: طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول إبليس: **{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}** [(١٦) سورة الأعراف] ذكر هنا قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: كما أضللتني، والقول الآخر: كما أهلكتني، والمعنى في هذا يرجع إلى شيء واحد؛ فإن الإغواء بمعنى الإضلال، ومن أضله الله -عز وجل- فقد أهلكه، وهذا هو عين الهلكة والخسار كما هو معلوم، فهذا كله من اختلاف التنوع، ومثل هذا ظاهر من هذه اللفظة والله تعالى أعلم، فالإغواء هو الإضلال، ولا حاجة للتكلف في حمله على المحامل البعيدة، فالله -عز وجل-

يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء فكل ذلك بيده وراجع إلى مشيئته، يضل من أضله بعلم وحكمة ويهدي من هداه بعلم وحكمة، فهو يحكم لا معقب لحكمه، وهذا هو الواجب اعتقاده وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

قوله: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} [(١٦) سورة الأعراف] يمكن أن تكون الباء هنا للسببية، يعني بسبب إغوائك لي {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١٦) سورة الأعراف].

قال مجاهد: {صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} يعني الحق.

روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبي الفاكه -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟، قال: فعصاه وأسلم، قال: وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل؟، فعصاه وهاجر))[1].

قوله: ((كالفرس في الطوَل)) هذا من كلام إبليس، معناه أنه يقول له: كيف تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما المهاجر كالفرس في الطول؟، فهو يثبطه عن الهجرة.

والطِّوَل هو الحبل الذي يربط طرفه في الوتد والطرف الآخر بيد الفرس، فيجول هذا الفرس في حدود هذا الحبل -يجول في طوله- فلا يتعدى هذا النطاق، فالإنسان المهاجر يكون غريباً في البلد الذي هاجر إليه ويكون تحركه وتقلبه فيها قليلاً ولا يكون كأهلها الذين ينطلقون ويتصرفون كيف شاءوا؛ لأنه غريب وعلاقاته بالناس قليلة ومحدودة، ومعارفه قليلة وليس عنده من القرابات والعشيرة والتجارات وما أشبه ذلك مما يكون لأهل ذلك المحل، فالغريب يبقى كأنه يعيش في الظل، ولذلك فالشيطان يقول له: كيف تترك بلدك وتذهب إلى بلد أنت غريب فيه لا تتحرك إلا بنطاق محدود وربما تكون في بيتك فقط لا يعرفك أحد ولا قرابة لك ولا عشيرة ولا قبيلة؟.

((ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكَح المرأة ويقسم المال؟، قال: فعصاه وجاهد)) وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة))[2].

وقوله: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} الآية [(١٧) سورة الأعراف] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} أشكّكهم في آخرتهم {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أرغِّبهم في دنياهم {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} أشبِّه عليهم أمر دينهم {وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} أشهّي لهم المعاصي.

هذا أحد الأقوال في تفسير الجهات الأربع المذكورة في الآية، ما بين أيديهم أي: ما يستقبلون، وهي الآخرة، ومن خلفهم يعني ما يتركونه وراء ظهورهم وهي الدنيا، وعن اليمين يعني الأعمال الطيبة، وعن الشمال

---

[1] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

[2] - أخرجه النسائي في كتاب الجهاد - باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٣١٣٤) (ج ٦ / ص ٢١) وأحمد (١٦٠٠٠) (ج ٣ / ص ٤٨٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٥٢).

يعني الأعمال السيئة، هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: ذكر الجهات الأربع؛ لأنها الجهات التي يأتي منها العدوُّ عدوَّه، فهو إما أن يأتي من الأمام أو الخلف أو عن اليمين أو عن الشمال.

عبر بـــ"من" فقال: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] وعبر بـــ"عن" فقال: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] وقد ذكر بعض أهل العلم في وجه المغايرة أن الذي يأتي الشخص من الأمام أو من الخلف يكون متوجهاً إليه بكامل بدنه، أما الذي يأتي من اليمين أو الشمال فإنه يكون منحرفاً عنه لا مواجهاً له، والله تعالى أعلم.

والقول بأن قوله: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني الآخرة هذا تحتمله الآية، لكن القطع به يصعب؛ إذ ليس عليه دليل، ولذلك فإن بعضهم يقول: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني دنياهم، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني عكس القول الأول.

وقوله: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] قيل اليمين الحسنات، والشمال السيئات، يعني أنه يأتيهم من جهة الحسنات فيثبطهم عنها، ويأتيهم من جهة السيئات فيغريهم بها.

وبعضهم يقول: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون، فالإنسان يبصر ما أمامه ولا يبصر من خلفه مثلاً، وقد لا يبصر عن يمينه ولا عن شماله، وعلى كل حال هذا كله تحتمله الآية، لكن ليس عندنا دليل يحدد أحد هذه المعاني، والمقصود: أنه يأتيه من كل طريق مستطاع لإضلاله، فهو لا يترك سبيلاً لإغوائه إلا سلكه، فإذا كان الإنسان فيه رغبة في الخير حاول أن يثبطه عنه، فإن لم يتثبط عنه حاول أن يفسده عليه، فإن كان فيه ميل إلى الدين والعبادة أوقعه في الغلو، وإذا كان فيه ميل إلى إنكار المنكر والغيرة على الدين أوقعه في شيء من الإفراط، وإن كان فيه ميل إلى النساء فإنه يدخل عليه من هذا الباب، وإن كان له ميل إلى المال فإنه يغويه من هذا الباب وهكذا، يحاول أن يضله، وأن يوقعه في الشرك وترك عبادة الله -عز وجل- بالكلية، فإن لم يستطع فإنه يحرص أن يفسد عليه عمله، فإن لم يستطع فإنه يشغله بالوساوس والخواطر المزعجة، فهو لا يترك سبيلاً يستطيع إيذاءه منه إلا سلكه.

والمراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يحببه لهم.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] **ولم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم.**

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} **[(١٧) سورة الأعراف] قال: موحدين.**

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقعَ، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} **[(٢٠-٢١) سورة سبأ].**

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: ((اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسلك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)) قال وكيع: من تحتي يعني الخسف، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٣].

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ} [(١٨) سورة الأعراف] **أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: {اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا}** [(١٨) سورة الأعراف].

قال ابن جرير: أما المذءوم فهو المعيب، والذأم -غير مشدد- العيب، يقال: ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذءوم.

ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم.

قال: والمدحور المقصَى والمبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً.

وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا} قال: مقيتاً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- صغيراً مقيتاً.

وقال السدي: مقيتاً مطروداً.

وقال قتادة: لعيناً مقيتاً.

وقال مجاهد: منفياً مطروداً.

وقال الربيع بن أنس: مذءوماً منفياً، والمدحور المصغر.

هذه الأقوال متقاربة وهذا كله من اختلاف التنوع، فإن المذءوم هو المستحق للذم، ومن كان كذلك فهو صغير وهو أيضاً مقيت وذليل، ومن فسره باللعن أو نحو ذلك، فإن ذلك يقع لمن كان مذءوماً، والمدحور أيضاً هو الطريد المبعد، ومن لُعن فهو مدحور، فهذه المعاني التي يذكرها السلف يمكن أن ترجع إلى شيء واحد، ولا حاجة أن يقال: قيل كذا وقيل كذا والراجح هو كذا، بل يقال: المذءوم هو المستحق للذم، أو ينسب إليه الذم، أو هو منسوب إلى الذم، والمدحور هو المبعد يقال: دحره وأبعده وطرده، وإن قلت: لعنه، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله -عز وجل-.

---

[٣] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠) (ص ٤١١) وأبو داود في كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٦) (ج ٤ / ص ٤٧٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة – باب ما يقول إذا أمسى (١٠٤٠١) (ج ٦ / ص ١٤٥) وأحمد (٤٧٨٥) (ج ٢ / ص ٢٥) وابن حبان (٩٦١) (ج ٣ / ص ٢٤١) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٥٠٨).

والمذءوم على المشهور غير المذموم، وإن كان في المعنى يرجع إلى شيء واحد وهو العيب، لكن المذءوم أبلغ في العيب، ولا يكون هذا من باب الهمز والتسهيل، بمعنى أنها نفس الكلمة همزت فقيل: مذءوم ومذموم، وإنما هي على المشهور تختلف، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: أما المذءوم فهو المعيب، والذأم -غير مشدد- العيب، يعني المشدد هو الذمّ، فهي مادة أخرى فليست القضية من باب التسهيل والهمز فقط إلا بناء على ما سبق من قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً، يعني المسألة تكون من باب الهمز والتسهيل على هذا القول.

وقوله تعالى: {لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين} كقوله: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا} [(٦٣) سورة الإسراء].

اللام في قوله: **{لَّمَن تَبِعَكَ}** [(١٨) سورة الأعراف] بعض أهل العلم يقول: هي لام القسم والجواب قوله: **{لأَمْلأَنَّ}** [(١٨) سورة الأعراف] وبعضهم يقول: هذه اللام هنا للتوكيد، ولام القسم هي اللام الثانية أي التي في قوله: **{لأَمْلأَنَّ}** [(١٨) سورة الأعراف] والله أعلم.

كقوله: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا* وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا* إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} [(٦٣-٦٥) سورة الإسراء].

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(١٩-٢١) سورة الأعراف].

يذكر تعالى أنه أباح لآدم -عليه السلام- ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة -وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة- فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة.

يقول تعالى: **{فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}** [(١٩) سورة الأعراف] في كتب المبهمات وفي كتب التفسير تجد أقوالاً كثيرة في هذه الشجرة ما هي، وهذا كله لا دليل عليه حيث لم يرد تحديدها في كتاب الله -عز وجل-، ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولو كان في هذا نفع للناس لذكره الله -تبارك وتعالى- ولكن لا خير لهم فيه، فالتنقيب عن مثل هذا والاشتغال به هو اشتغال بما لا يعني.

قال تعالى: **{وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}** [(٣٥) سورة البقرة] هذا نهي صريح وواضح، وهو يُبعد قول من قال: إن آدم -صلى الله عليه وسلم- قد تأول في أكل الشجرة بأن حمل الأمر على الندب أو النهي على الكراهة، فهذا في غاية التكلف؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}** [(٣٥) سورة البقرة].

يقول الله -عز وجل-: **{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ}** [(٢٠) سورة الأعراف] الوسوسة في الأصل هي الصوت الخفي، وتقال أيضاً لحديث النفس، والعرب يطلقون ذلك على أشياء أخرى مثل صوت الأساور والحلي إذا

تحركت في يد لابسها، وعلى كل حال فإن ما يلقيه الشيطان ويزينه للإنسان من معصية الله -تبارك وتعالى- أو ما يثبطه ويشغله به عن الطاعة أو ما يشوش عليه فكره، كل ذلك من الوسوسة.

فعند ذلك حسدهم الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن وقال كذباً وافتراء: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} [(٢٠) سورة الأعراف] أي: لئلا تكونا ملكين أو خالديْن هاهنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما.

في قوله: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا} [(٢٠) سورة الأعراف] يمكن أن تكون هذه اللام للتعليل، يعني لماذا وسوس لهما الشيطان؟ من أجل أن يبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما، ويمكن أن تكون للعاقبة، أي وسوس لهما الشيطان من أجل الإزاغة والإضلال وكان من عاقبة ذلك في النهاية أن آل الأمر إلى أن بدت لهما سوءاتهما من جراء هذه المعصية، لكن القول بأنها للتعليل ربما يكون هو المتبادر، وهذا ليس وحده الذي من أجله وسوس الشيطان لهما، وإنما وسوس لهما من أجل إخراجهما من الجنة، وإضلال آدم وحواء -عليهما السلام-.

وقوله: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ} [(٢٠) سورة الأعراف] يعني ما غطي وستر أياً كان هذا الستر سواء كان لباساً أو نوراً يستر العورات، والمقصود أنه انكشف ذلك الستر بعد ذلك بسبب هذه المعصية، وهذا يدل على أن التعري من عمل الشيطان ومن تزيين الشيطان، فآدم -صلى الله عليه وسلم- وحواء كانا كاسيين في الجنة، والذي عراهما هو إبليس، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} [(٢٧) سورة الأعراف] وما نشاهده من تعري النساء وإبداء الزينة والعورات في مناسبات شتى في الأفراح أو ما يفعله من لا خلاق له على الشواطئ والمسابح وما أشبه هذا كل ذلك من عمل الشيطان وهو لا شك أنه انسلاخ من الكمال؛ لأن الكمال هو في أخذ الزينة وستر العورة، ولما حصل النقص لآدم -صلى الله عليه وسلم- حصل له مثل هذا، حيث كان في أكمل حال في الجنة، فهؤلاء لا شك أن فيهم من النقص بقدر ما وقع لهم من هذا التعري، وهذا خلافاً لما يزعمون ويظنون ويتوهمون من أن هذا نوع من المدنية والتحضر، وهكذا يفهم كثير من النساء؛ حيث تستحي الواحدة منهن أن تلبس عباءة ضافية؛ لأن غيرها يعيرونها في الكلية وفي المدرسة ويثبطونها عن ذلك بقولهم: إنها قروية وقديمة بل حتى البنت الصغيرة في الابتدائي تبكي وترفض أن تذهب إلى المدرسة بالعباءة؛ لأن البنات يعيبون عليها ذلك ويقولون لها: إن البنت المتمدنة المتحضرة هي التي تلبس لبساً ملفتاً، وهذا من تزيين الشيطان، والله المستعان.

قوله تعالى: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [(٢٠) سورة الأعراف] قال: "**أي لئلا تكونا ملكين**" وهذا على قول الكوفيين من النحاة، وهذا الإيضاح أو هذا التفسير أسهل وأقرب، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وأما ابن جرير -رحمه الله- فيقول: ما نهاكما ربكما عن هذا الشجرة إلا لئلا تكونا ملكين، أي فأسقطت "لا"؛ لأنها معلومة، وقد مرَّ في بعض الآيات مثل هذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ} [(١٧٦) سورة النساء] يعني لئلا تضلوا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} [(٢٠) سورة الأعراف] هذا أحد المواضع التي يحتج بها من يقول: إن الملائكة أفضل من البشر، ومن ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام] فيقولون هذا يدل على أن الملائكة أفضل، لكن الصواب أن هذه الآيات لا تدل على هذا؛ لأن الملك ليس له شهوات وبناء على ذلك فهو ليس ممتحَناً ومبتلىً كما هو الحاصل للثقلين، وعلى كل حال هذه المسألة لا طائل تحتها، والبحث فيها لا فائدة منه إطلاقاً والاشتغال بها اشتغال بما لا يعني؛ لأن الإنسان لن يستفيد شيئاً إذا عرف أن الملائكة أفضل أو أن صالحي البشر أفضل، لذا ينبغي أن يشتغل بما هو بصدده من العمل ويترك الفضول والبحث عما لا يغنيه شيئاً.

كقوله: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} [(١٢٠) سورة طـه] كقوله: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ} [(١٧٦) سورة النساء] أي: لئلا تضلوا {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} [(١٥) سورة النحل] أي: لئلا تميد بكم.

{وَقَاسَمَهُمَا} [(٢١) سورة الأعراف] أي: حلف لهما بالله {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(٢١) سورة الأعراف].

ابن كثير -رحمه الله- يوافق ابن جرير على أن هذا من هذا القبيل أي مما أسقط فيه "لا"؛ لأن المعنى معلوم.

{إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(٢١) سورة الأعراف] فإني من قبلكما هنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين.

المفاعلة مثل المكاتبة والمقاتلة والمجاهدة وما أشبه ذلك الأصل أن تكون بين طرفين، لكن قد تأتي أحياناً ولا يراد بها ذلك وإنما هي من طرف واحد، مثل قوله هنا: {وَقَاسَمَهُمَا} [(٢١) سورة الأعراف] فالقسم صدر من طرف وهو إبليس، وإن كان بعض أهل العلم يذكر أن آدم وحواء أقسما له بالطاعة، وهو أقسم لهما بأنه صادق وأنه ناصح وعلى هذا يكون القسم قد صدر من طرفين لكن هذا لا دليل عليه فهو بعيد، وإنما صدر القسم من إبليس وحده وإن جاء بصيغة المفاعلة فهذا سائغ كما سبق بيانه.

أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما.

ابن القيم -رحمه الله- ذكر تأويل آدم -صلى الله عليه وسلم- أنه كان من هذه الحيثية بمعنى أنه ما كان يتصور أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فانظر إلى هذه الأشياء التي جاء بها إبليس يؤكد هذا الكلام، حيث جاء بمؤكدات متعددة، وهي أنه قاسمهما، أي أقسم بالله، ثم أتى بـــ"إنَّ" المؤكدة، وجاء باللام في قوله: "لمن الناصحين" وجاء بلفظ النصح، وكل هذه الأشياء يؤكد بها قوله، وما كان آدم يتصور أن أحداً يحلف بهذه الطريقة بالله -عز وجل- وهو يكذب، فصدقه، وعلى كل حال مهما يكن فالله -عز وجل- قد قدر هذا وقضاه، وهذا الذي وقع من آدم -عليه الصلاة والسلام- لا شك أنه معصية كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [(١٢١) سورة طـــه] وهذا أحد الأدلة التي يستدل بها أهل السنة على أن المعاصي تقع من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم المعاصي، لكن بالنسبة لمسألة الشرك، هل يقع منهم قبل البعثة أو لا يقع؟ فقد قلنا سابقاً: إن الراجح أنهم لا يقعون فيه، حيث ذكرنا ذلك عند الكلام على قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- على الكوكب: {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام].

وأما الكبائر فإنها لا تقع منهم، وإنما التي تقع منهم هي الصغائر لكن لا يصرون عليها، ثم إن هذه الصغائر التي تقع منهم ليست هي الصغائر المدنِّسة التي تخل بالمروءات، التي يسمونها صغائر الخسة وهي التي تنبئ عن لؤم، فهذه لا تقع من الأنبياء؛ لأنهم أشرف الناس نفساً -عليهم الصلاة والسلام- ولا حاجة للتكلف في دفع المعاصي عنهم مطلقاً كتكلف من يتأولون معصية آدم بقولهم: إن قوله تعالى: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** [(١٢١) سورة طــه] هذا من غوى الفصيل، يعني ولد الناقة، بمعنى أنه بشمَ من كثرة ما رضع من الحليب، أي أن آدم أكل من الشجرة حتى انتفخ بطنه من كثرة الأكل، فهذا كلام غير صحيح، ثم إن قيل هذا في "غوى" فأين يذهبون بقوله: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ}** [(١٢١) سورة طــه].

{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ* قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٢-٢٣) سورة الأعراف].

قوله: **{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ}** أصل التدلية هي إهباط الشيء من أعلى إلى أسفل، تقول: دلّى دلوه في البئر، وقال تعالى: **{وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ}** [(١٩) سورة يوسف] أي: أنزله في البئر، وتقول: تدلى الرجل من الحصن يعني هبط، وقوله: **{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ}** من أهل العلم من يقول: أهبطهما عن تلك المنزلة أو المرتبة إلى معصية الله -عز وجل- وهو كقول من قال: أي أوقعهما في الهلاك، أو خدعهما، أو جرأهما، والمعنى أنه صور لهما أمراً لا حقيقة له وزينه حتى أوقعهما فيما أوقعهما فيه.

قوله: **{فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا}** [(٢٢) سورة الأعراف] أي: ظهرت سوءاتهما.

والسوءات هي العورات، وسميت العورة سوءة؛ لأنه يسوء صاحبها ظهورها وانكشافها.

عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس.

النخلة السحوق هي الطويلة جداً.

فلما وقع فيما وقع به من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه -عز وجل- يا آدم أمنّي تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك، فقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

إذا صح إسناد الموقوف فمثل هذا يكون له حكم الرفع؛ لأن هذا لا يقال من جهة الرأي، وأبي بن كعب -رضي الله عنه- لا يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} [(٢٢) سورة الأعراف] قال: "ورق التين" [صحيح إليه] وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب.

قوله: **{وَطَفِقَا}** الفعل "طفق" من أفعال المقاربة، ومعنى "طفقا" يعني شرعا، تقول: طفق فلان يفعل كذا يعني شرع فيه.

قوله: **{يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}** [(٢٢) سورة الأعراف] يعني يقطعان الشجر ويلزقانه على العورات، تقول: خصفت النعل إذا وضعت فيه طبقات من الجلد فوق بعض من أجل أن يكون سميكاً يحتمل ما يمر

عليه الماشي، والمقصود أن آدم وحواء صارا يأخذان من ورق الجنة ويلزقانه على عورتهما لسترها بدلاً من اللباس الذي زال عنهما، وهذا يدل على أن الحياء قضية فطرية بدليل أنهما قاما مباشرة بستر العورة؛ فكشف العورة أمر لا يقبله إنسان ذو فطرة حية بدليل أن ذهول المعصية والمصيبة التي وقعت لهما لم تؤثر على انشغالهما بستر العورات مع أنه لا أحد عند آدم غير حواء، فانشغل بهذا، فينبغي أن يتأمل الناس في ذلك فيدعوهم إلى ملازمة الستر والحشمة واللباس اللائق بدلاً من هذا التعري وهذه اللحوم التي تتكشف في أدنى مناسبة وبدون مناسبة، والله المستعان

وقال وهب بن منبه في قوله: {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} [(٢٧) سورة الأعراف] **قال:** "**كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عروة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما**" [رواه ابن جرير بسند صحيح إليه].

قول وهب بن منبه: "**كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما..**" هذا لا دليل عليه، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله- لما ذكر هذه الأقوال لم يحدد شيئاً منها بل قال: هذا كله لا دليل عليه، فقد يكون هذا أو هذا أو هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه لا فائدة من معرفة ذلك هل كان نوراً أو حريراً أو غيره، لكن المهم أن نعرف أن الستر أمر فطري، وأنه مما ينبغي على الإنسان أن يفعله، وأن التعري من عمل الشيطان وتزيينه الذي يدعو إليه.

إن معاقل إبليس في هذه الدنيا كثيرة ومن معاقله وأوكاره دور الأزياء العالمية التي يصممون فيها الأزياء ويصيحون في هذا الخلق صيحة في المغرب يتداعى لها الناس في أقاصي المشرق أن قد ظهرت ألبسة في غاية العري، والله المستعان.

وروى عبد الرزاق عن قتادة قال: "**قال آدم:** أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت، **قال:** إذن أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله.

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف] **هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ* وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٠-٨٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم -عليه السلام- حينما جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: {أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} أي: تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟!.

وقوله: {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] **أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظروني بل عاجلوني بذلك.**

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] **استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله -عز وجل-.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لقومه: **{وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هذا الاستثناء -كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الذي عليه المحققون ومنهم الحافظ ابن القيم- منقطع باعتبار أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، ويكون المعنى أنهم قالوا له: إن آلهتنا ستخبلك أو تمرضك أو تقتلك أو تُلحق بك ضرراً فقال لهم: إنه لا يخاف من هذه المعبودات أن تلحق به ضرراً **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** فقوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] لا يرجع إلى ما قبله باعتبار أنه يخاف أن توصل إليه ضرراً مما شاء الله -عز وجل- أن توصله، وإنما المقصود إلا أن يشاء ربي شيئاً من الضرر فيلحقني من مرض أو موت أو فقر أو غير ذلك مما لا تعلق له بهذه الآلهة، أي أنه يقول: أنا لا أخاف من آلهتكم ومعبوداتكم الباطلة ولا أخشى منها ضرراً فهي لا تضر ولا تنفع إلا أن يشاء ربي ضرراً يقع بي فيقع لكن لا يكون واصلاً إليَّ من جهة هذه الآلهة، وبهذا الاعتبار قيل: إن قوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هو من قبيل الاستثناء المنقطع.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية.
{أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: فيما بينتُه لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟.

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود -عليه السلام- على قومه عاد فيما قصَّ عنهم في كتابه حيث يقول: {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٣-٥٦) سورة هود].

وقوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله {وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [(٨١) سورة الأنعام].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [(٢١) سورة الشورى] وقوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [(٢٣) سورة النجم].

وقوله: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون من تمام قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] ثم أجاب فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] وإن كانت الآية تحتمل هذا إلا أن غير هذا القول قد يكون أولى منه، أي القول الذي عليه عامة أهل العلم وهو أن ذلك من قول الله -تبارك وتعالى-، قاله على سبيل الفصل بين الفريقين، وذلك أنه لما قال لهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما قال، حكم الله بينهم فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] وهذا مما يسمونه بالموصول لفظاً المقطوع معنىً، وله نظائر في القرآن ومن ذلك قول الله -عز وجل- فيما جرى من امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] فهذا الكلام يحتمل أن يكون من تمام كلام امرأة العزيز، فهي قالت: {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [(٥١) سورة يوسف] ثم قالت: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] فهذا يحتمل أن يكون من كلامها وتقصد به زوجها باعتبار أنها تقول: إنها حصلت مراودة فقط ولم تحصل خيانة بالغيب أكثر من ذلك، كما أنه يحتمل أن يكون من كلامها أيضاً لكن باعتبار أنها أرادت بقولها: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

{بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يوسف -صلى الله عليه وسلم- فهو -عليه الصلاة والسلام- كان في السجن، فحينما طُلب أبى أن يخرج حتى يظهر صدقه وبراءته ونزاهته أمام الناس، فقالت: **{أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}** [(٥١) سورة يوسف] وعقبت بقولها: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] أي إنها تقول: لا أقول فيه إلا الصدق والعدل والحق ولا أفتري عليه في غيبته.

ويحتمل أن يكون قوله: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- والمعنى أنه يقول: **{ذَلِكَ}** يعني أنا طلبت هذا التحقيق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، أي أني أُدخلت السجن بتهمة فلا يمكن أن أخرج من غير أن تظهر براءتي وينكشف الأمر على حقيقته، بل لا بد أن يعرف أني لم أخنه بالغيب، وعلى هذا القول يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً.

وهذا الأسلوب أنواع ففي قول الله -عز وجل- في سورة الأعراف: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء}** [(١٨٩-١٩٠) سورة الأعراف] فقوله: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء}** إما أن يكون راجعاً إلى ما قبله باعتبار أن هذا حصل من آدم وحواء أو يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً باعتبار أن الحديث انتقل إلى الذرية وما وقع عندهم من الإشراك، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، ومنه قوله تعالى هنا في سورة الأنعام: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] فهذا يحتمل أن يكون من قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ويحتمل أن يكون من قول الله -عز وجل- باعتبار أنه حكم بين الفريقين، وهذا هو الأقرب وهو الذي عليه عامة المحققين كابن جرير وابن القيم والشنقيطي، وأبعد الأقوال أن هذا من قول الكفار الذين ناظرهم إبراهيم كما يقول بعض المفسرين.

روى البخاري عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان][1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] إنما هو الشرك))[2].

هذا وقع للصحابة -رضي الله عنهم- حينما استشكلوا قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] فقالوا ما قالوا باعتبار ما فهموه من لغتهم وذلك أن لفظة "ظُلم" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم، فقوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] أي بأي نوع من أنواع الظلم سواء كان ذلك كبيراً أو صغيراً، هذا الذي يفهم من ظاهر الكلام وهو مقتضى لغة العرب، ولكن بيّن لهم النبي -صلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب ظلم دون ظلم (٣٢) (ج ١ / ص ٢١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب قول الله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}** [(١٢) سورة لقمان] (٣٢٤٦) (ج ٣ / ص ١٢٦٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤) (ج ١ / ص ١١٤) وأحمد (٣٥٨٩) (ج ١ / ص ٣٧٨) واللفظ لأحمد.

الله عليه وسلم- أن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، أي: أنه نوع خاص من الظلم وهو الشرك، ففسرها لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا من قبيل التفسير النبوي الذي فسر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن بالقرآن، حيث فسره بآية لقمان، والقاعدة أن التفسير إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يلتفت إلى قول أحد بعده.

والتفسير النبوي نوعان: نوع منه يدخله الاجتهاد وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فهذا قد يخطئ المفسر وقد يصيب بتفسيره به، ونوع لا يدخله الاجتهاد وهو الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية وفسرها كما في هذه الآية، فهذا من أجلى صوره إذا صحَّ فلا مجال للنظر في قول أحد سواه، وبهذا نعرف جرأة الزمخشري حينما قال عند هذه الآية: إن تفسير الظلم بالشرك مع لفظ اللبس في الآية لا يتأتى -نسأل الله العافية- فهو فهم أن اللبس هو مجرد الخلط وأنه لا يجتمع الشرك مع الإيمان وأن الشرك إذا حدث أفسد الإيمان ولم يُبقِ منه شيئاً، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يمكن أن يبقى إيمان مخروم لا ينفع صاحبه كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف] فيوجد في الإنسان إيمان وشرك، وإيمان ونفاق لكن قد يكون هذا الشرك أو النفاق من النوع الأكبر، فهذا من هذا النوع، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] ذكر كلاماً جيداً فقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال: ولم يظلموا أنفسهم؛ لأنه لو قال: لم يظلموا أنفسهم فإن ذلك سيتطرق إلى أي نوع من أنواع الظلم ولكن قال: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم}** ولبس الشيء بالشيء تغطيته وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، كما قال الله -عز وجل-: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}** [(٨١) سورة البقرة] فالخطيئة التي تحيط بالإنسان إنما هي الشرك، فلا يحيط شيء من الذنوب بالإنسان فيكون هالكاً إلا الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، إلا أن يقول قائل: إن هذا المعنى متحقق بلا مرية، لكن قد يكون في الآية أيضاً دلالة على معنىً آخر أعني قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وذلك فيما يتعلق بالنجاة وتحقق الخلاص ووجود شيء من الأمن للإنسان في الدنيا والآخرة وأن هذا يحصل للإنسان بالإيمان الصحيح المنجي ولو وُجد عنده ذنوب إذ لا ينتفي عنه الإيمان بالكلية إلا إذا وجد عنده ما يخرم هذا الإيمان من الكفر الأكبر أو النفاق الأكبر أو الشرك الأكبر فهذا لا يبقى عنده شيء من الأمن لانتفاء الإيمان بالكلية، لكن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا أن لهم الأمن فهو معلق على وصف هو أنهم آمنوا إيماناً بهذه الصفة بحيث لم يخلطوه بظلم فهذا الحكم يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه، فهو يزيد من أمن الإنسان في الدنيا ويوم القيامة ويزيد من اهتدائه بقدر ما حقق من الإيمان الذي لم يخالطه ظلم ولو بالمعاصي، وذلك أن المعاصي والذنوب تؤثر في أمن الإنسان، فالناس يأتون آمنين يوم القيامة بقدر ما عندهم من تقوى لله -عز وجل- ويكون لهم من الاهتداء بقدر ما عندهم من الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، ومعلوم أن الذنوب والمعاصي متفرعة من شجرة الكفر، كما أن الطاعات متفرعة من شجرة الإيمان، فالإنسان إذا عمل المعاصي فإنه لا يكون

خارجاً من الإسلام بذلك كما يزعم الخوارج لكن عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا عمل الإنسان المعاصي نقص إيمانه وإذا ازداد من الطاعات ازداد إيمانه، فالناس يتفاوتون في الإيمان وبناء عليه يتفاوتون في الأمن والاهتداء، وقوله: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] يشمل الأمن والاهتداء في الدنيا والأمن والاهتداء في الآخرة، والاهتداء منه الاهتداء إلى معرفة الصواب والحق وما اختلف فيه الناس، والاهتداء على خير الخيرين، والاهتداء بالتوفيق إلى العمل الصالح، والاهتداء إلى العمل بالعلم، والاهتداء أيضاً إلى الثبات على الحق إلى الممات وأن يختم له بذلك، كل هذا من الاهتداء كما قال تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] ومنه الاهتداء بعد الموت عند سؤال الملكين حينما يسألانه فهو يحتاج إلى هداية وتثبيت كما قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ} [(٢٧) سورة إبراهيم] وكذلك الاهتداء عند الحساب، والاهتداء إلى الصراط، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [(٤-٥) سورة محمد] أي: يهديهم بعد ما قتلوا إلى الصراط وعلى الصراط، ويهديهم إلى الجنة ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، فهذه هدايات في الآخرة.

كما أن أهل الإيمان يحصل لهم الأمن في الدنيا بقدر إيمانهم وأما المشرك أو الكافر أو العاصي فإنه يختل أمنه واهتداؤه بقدر ما اختل إيمانه، ولذلك فهو يعيش في قلق وتساوره الهموم والأوهام ويعيش في حال من النكد والكدر والتخوف على مستقبله وعلى مستقبل أولاده ولا يدري ما ينتابه، وأما المؤمن فإنه مطمئن النفس قرير العين، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

والخلاصة أن الأمن والاهتداء ينتفيان تماماً من الإنسان إذا وجد عنده الإشراك، وينقص من أمنه واهتدائه بقدر ما نقص من إيمانه، هذا تفصيل لو قال به قائل فإن ذلك لا يُعدُّ تكذيباً ورداً لتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: وجهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ} الآية [(٨١) سورة الأنعام].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن الحجة التي آتاها اللهُ إبراهيم على قومه هي قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ} [(٨١) سورة الأنعام] يعني: أنتم ما خفتم من الله الملك الجبار حيث أشركتم به واجترأتم عليه -عز وجل- غاية الجرأة فكيف تريدون مني أن أخاف من أصنام لا تنفع ولا تضر؟ هذا غير معقول! وهذا القول هو الذي مشى عليه كثير من أهل العلم من المفسرين.

ومنهم من قال: إن الحجة في قوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا} [(٨٣) سورة الأنعام] مفرد مضاف إلى معرفة وهي الفاعل {حُجَّتُنَا} فقالوا: إن الحجة هي ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...} [(٧٥-٧٦) سورة الأنعام] الآيات وفيها أنه قال عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربي على سبيل التنزل فاحتج عليهم حتى بيّن لهم بطلان معبوداتهم، فقالوا: هذه المجادلة التي دارت معهم وأوصلته إلى أن يحتج عليهم هي

المقصودة بهذه الآية: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى-.

والصواب أن الآية تحتمل هذا وهذا، فقول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] هو من جملة الحجة، وكلامه الذي قبل هذا المتعلق ببيان بطلان معبوداتهم من الأصنام هو أيضاً من جملة احتجاجه عليهم، فهو داخل في الحجة المذكورة في الآية، والله أعلم.

وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

يقول ابن كثير: "**وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام]**" معناه أن ابن كثير يعدُّ هذا من قول الله -عز وجل- في الحكم والفصل بين الفريقين، ولعل هذا هو الأقرب والله أعلم، وهذا اختاره الحافظ ابن القيم والشيخ محمد الأمين الشنقيطي وعامة أهل العلم، حيث قالوا: هذا من قول الله -عز وجل- وليس من قول إبراهيم، وذكرنا آنفاً أن أبعد الأقوال قول من قال: إن هذا من قول الكفار.

ثم قال بعد ذلك كله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: حكيم في أقواله وأفعاله {عَلِيمٌ} أي: بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس] ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام].

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ* وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٨٤-٩٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق -عليهما السلام- بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(٧٢-٧٣) سورة هود] فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٢) سورة الصافات] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة.

وقال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد؛ لبقاء النسل والعقب، ولمّا كان ولد

الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم -عليه السلام- حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله -عز وجل- عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه كما قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [(٤٩) سورة مريم] **وقال هاهنا:** {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا} [(٨٤) سورة الأنعام].

وقوله: {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} [(٨٤) سورة الأنعام] **أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة.**

قوله عن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: "**وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية**" هذا باعتبار أن يعقوب اسم عربي لكن إذا نظرنا إليه باعتبار أنه اسم أعجمي -كما هو الواقع- فلا يقال فيه مثل هذا، والله تعالى أعلم، وقد وُجد في كثير من الأحيان أن المفسرين يذكرون أشياء من هذا القبيل في أسماء الأنبياء وفي تعليلها ومعناها وما أشبه ذلك والواقع أنها أعجمية لا تعلل بمثل هذه التعليلات ولا ينبغي أن يُتكلف فيها هذا التكلف -والله تعالى أعلم- إلا إن قيل: إن هذا الاسم عربي ترجمة لاسم آخر، فربما يقال فيه ذلك لكن المعروف أن أسماء الأنبياء جميعاً أعجمية إلا أربعة وليس يعقوب منهم، لكن قد تكون بصفة في لغة العجم تختلف عن لغة العرب، فيوسف يقولون عنه بالأعجمية "جوزيف" ويعقوب باللاتينية يقولون عنه "جيكو" والحاصل أن العلماء يقولون: إن أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وصالح وشعيب وهود، وهنا ذكر ثمانية عشر نبياً، وإذا كانوا يقررون هذا الأصل ويقولون: إنها أعجمية وأن يعقوب اسم أعجمي، فلا يقال: إنه مشتق من العقب، وأما على قول من يقول بوجود أسماء مشتركة بين اللغات فإنهم لا يقولون ذلك في الأعلام كأسماء الأنبياء وإنما يقولونه في أسماء النكرات كإستبرق ومشكاة وما أشبه ذلك، وبالنسبة لأسماء الأعلام فإنها بالاتفاق تقال كما هي في اللغات وهذا لا إشكال فيه، ولذلك أجمعوا على أن أسماء الأعلام في باب المعرب ثلاثة أنواع: نوع من قبيل الأعلام، فهذا موجود بالاتفاق، ونوع من قبيل النكرة مثل إستبرق ومشكاة وهذا فيه خلاف، ونوع لا خلاف في أنه غير موجود وهو الكلام المركب، فلا يوجد كلام مركب أعجمي في القرآن ، ولهذا قال في المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل	ويوسف قد جاء في التنزيل
إن كان منه واعتقاد الأكثر	والشافعي النفي للمنكر

وأما ما ذكره هنا من أن الله عوضه لما هاجر فهذا المعنى من أراد أن يتوسع فيه فلينظر في مثل كتاب القواعد الحسان لابن سعدي حيث ذكر أمثلة على هذا، تدور على قضية أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فإبراهيم اعتزل قومه وهجرهم في الله -تبارك وتعالى- فعوضه الله -عز وجل- من العقب والذرية ما ينسيه الوطن والقرابة والعشيرة.

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح -عليه السلام- فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل

إبراهيم -عليه السلام- فلم يبعث الله -عز وجل- بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية [(٢٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٦) سورة الحديد] وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [(٥٨) سورة مريم] قوله في هذه الآية الكريمة: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] أي: وهدينا من ذريته {دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} الآية [(٨٤) سورة الأنعام] وعود الضمير إلى نوح؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله، حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً، وكما قال في قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [(٣٠-٣١) سورة الحجر] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذُمَّ على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم فعومل معالمتهم ودخل معهم تغليباً وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار والملائكة من النور.

قوله تعالى: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [(٨٤) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم أي: من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ويحتمل أن يكون من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي اختاره ابن جرير واختاره الفراء وابن عطية وجماعة، واحتجوا لذلك بأمور، منها أن يونس -عليه الصلاة والسلام- لم يكن من ذرية إبراهيم وإنما هو من ذرية نوح وكذلك لوط -صلى الله عليه وسلم- هو ابن أخ لإبراهيم -عليهما السلام- وهذا معروف فهو ليس من ذريته.

والذين قالوا: إن الضمير يعود إلى إبراهيم كالزجاج أجابوا عن هذا بأن المحدّث عنه هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان نوح هو أقرب مذكور والقاعدة أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور لكن السياق إنما هو في الحديث والثناء على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما حصل له من إكرام الله -جل وعلا- ثم أجابوا عن أدلة أولائك بأن لوط -صلى الله عليه وسلم- عمه إبراهيم والعم يقال له: أب، ودليل ذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٣٨) سورة يوسف] فإسماعيل -عليه الصلاة والسلام- عمه بالاتفاق وليس من أجداده ومع ذلك سماه أباً، وبعض أهل العلم يقول: الخال والد والعم والد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخالة بمنزلة الأم))[3].

وبعضهم خرج ذلك باعتبار التغليب فقال: هذا مثل قول الله -عز وجل- عن إبليس {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ} [(٧٤) سورة ص] مع أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن لكن توجَّه الأمر إليه

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

معهم باعتبار أنه كان معهم ويتشبه بهم فدخل في هذا الأمر، لكن الأقرب أن الضمير في قوله {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] يعود إلى نوح -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الأعراف: وقوله تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [(٢٩) سورة الأعراف] إلى قوله: {الضَّلاَلَةُ} [(٣٠) سورة الأعراف] اختُلف في معنى {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياءً.

وقال قتادة: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيَّده بما رواه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بموعظة فقال: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [(١٠٤) سورة الأنبياء])) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالآثار التي ذكرها المفسر عن طائفة من السلف عند قوله -تبارك وتعالى-: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} كلها ترجع إلى شيء واحد، وهو الاحتجاج أو الإخبار عن قدرته -تبارك وتعالى- على البعث محتجاً بابتداء الخلق، فالذي أنشأ الخلق أولاً من العدم قادر على أن يعيدهم ثانية، وهذا كثير في القرآن، وهو من طرق إثبات البعث كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [(٢٧) سورة الروم] وكقوله: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٧٩) سورة يـــس] وأشباه ذلك من النصوص كثير، وطرق إثبات البعث في القرآن معروفة، ذكر الله تعالى منها خمسة في سورة البقرة، والمقصود هنا أن هذا القول في الآية هو بهذا المعنى، وجميع الآثار التي ذكرها ترجع إليه، وهذا ما اختاره كبير المفسرين -رحمه الله- واختاره أيضاً الحافظ ابن القيم، إلا أن الآية تحتمل معنى آخر قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- بقرينة ما بعد هذه الجملة {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ* فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٢٩-٣٠) سورة الأعراف] فالمعنى الثاني {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} أي كما قدر عليكم من السعادة والشقاوة فإنكم تصيرون إلى ما قدر عليكم في الكتاب الأول، كما جاء في الحديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يبقى بينه وبينها

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ١٦٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها -باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[2] وهذا المعنى هو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [(٢) سورة التغابن] أي أن الله -عز وجل- قد خلق قوماً للنار وخلق قوماً للجنة، خلق قوماً للسعادة وخلق قوماً للشقاوة، طبع قوماً على الكفر وطبع آخرين على الإيمان، ولا بد أن يحصل مقتضى ذلك، فالحاصل أن هذا المعنى من حيث هو صحيح، وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر، ولكن هل هو المراد بالآية؟ لا شك أن الآية تحتمله لكن لو قيل: إن هذه الآية محمولة على نظائرها في كتاب الله -عز وجل- وذلك أن الله يحتج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة لكان هذا له وجه قريب من النظر، والعلم عند الله -عز وجل-.

وعلى كل حال فالذين قالوا: إنه يحتج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية استدلوا بحديث: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ})) وقد سبق في بعض المناسبات أن قوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} يحتمل معنيين: الأول: أنه احتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، وهذا الذي مشى عليه ابن القيم وابن جرير وأمثال هؤلاء، ويحتمل المعنى الآخر وهو المذكور في هذا الحديث، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أي أن الإنسان يرجع ثانيةً إلى الهيئة التي وجد فيها أولاً -حفاة عراة غرلاً- فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذا المعنى عند الآية، لكن هذه الآية وإن كانت في سياق تقرير البعث إلا أن عمومها يشمل ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يحمل الآية على معنى مما يحتمله عمومها وإن كان السياق في غيره، ولهذا نظائر وهي من الأدلة التي يستدل بها على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [(٥٤) سورة الكهف] فهذه الآية وإن كانت في جدل الكفار بالنبوة والوحي والوحدانية إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها في سياق آخر وهو جدل الإنسان مطلقاً وذلك أنه حينما أتى علياً وفاطمة وهما نائمان، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه-: إن أرواحنا بيد الله.. وفي الحديث: فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يضرب فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[3].

ومن ذلك أنه حينما سئل عن أي المسجدين أسس على التقوى أولاً؟ فمن المعلوم أن السياق في مسجد قباء، ومع ذلك حملها النبي -صلى الله عليه وسلم- على مسجده؛ لأنه أحق بهذه الصفة، وذلك لا ينفي هذا الوصف عن مسجد قباء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٢٩-٣٠) سورة الأعراف] قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [(٢) سورة التغابن] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً، قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في صحيح البخاري: ((فوالذي

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [(١٧١) سورة الصافات] (٧٠١٦) (ج ٦ / ص ٢٧١٣) ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) (ج ٤ / ص ٢٠٣٦).

[3] - أخرجه البخاري في أبواب التهجد - باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (١٠٧٥) (ج ١ / ص ٣٧٩) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٥) (ج ١ / ص ٥٣٧).

لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة))[٤].

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**ويتأيد هذا بحديث ابن مسعود**.." وذكَرَه، يعني أن حديث ابن مسعود يؤيد القول بأن قوله: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [(٢٩) سورة الأعراف] أي كما قدر على الإنسان وكتب عليه من هدى وضلال يرجع إليه ويصير إليه في آخر الأمر، فهذا القول تؤيده هذه النصوص، ولذلك فإن بعض أهل العلم -مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على طريقته المعروفة عند أهل العلم حمل الآية على المعنيين، وقد ذكر قاعدة في أول الكتاب، وهي أن الآية قد تحتمل معنيين ويوجد ما يدل على صحة كل معنى من هذه المعاني في الكتاب أو في السنة من غير قيام مانع يمنع من حملها على كل تلك المعاني فتحمل عليها جميعاً؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، ولذلك فهو يقول: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [(٢٩) سورة الأعراف] احتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، وهذه القاعدة لا تمنع من أن يحمل ذلك على أن الناس يعودون كما خلقهم الله -عز وجل- حيث خرجوا من بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً، فيرجعون في الآخرة كذلك، كما دل عليه حديث ابن عباس السابق، ويصح أن يقال أيضاً: إن قوله: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [(٢٩) سورة الأعراف] يعني كما قدر عليكم من هدى وضلال تصيرون إلى ذلك، فالله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك وأطلق، وعندنا ما يدل على أن المعنى الأول صحيح -وهو كثير في القرآن- وعندنا ما يدل على أن المعنى الثاني أيضاً أنهم يرجعون بالصفة التي خرجوا فيها من بطون أمهاتهم كما قال تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] عندنا ما يدل على المعنى الثالث أيضاً أي أنكم تصيرون إلى ما كتب عليكم وقدر من هدى وضلال، وهذه المعاني كلها لا تحتاج إلى الترجيح بينها وإنما تحمل عليها جميعاً، والله أعلم

لكن يبقى هنا سؤالان: السؤال الأول: ما وجه المناسبة بين حمل الآية على الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة وما ذكر بعده من قوله: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ}؟ [(٣٠) سورة الأعراف]

والسؤال الثاني هو كيف الجمع بين معنى أنه يرجع إلى ما قدر عليه أولاً –حيث إن من الناس من طبع على الكفر ومنهم من طبع على الإيمان- وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((خلقت عبادي حنفاء))؟

أما السؤال الأول فقد أجاب عنه ابن القيم حيث عرفنا أنه رجح المعنى الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- من أنه احتجاج على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، ويرى –رحمه الله- أن هذه الآية قد تضمنت قواعد الدين من الإيمان بالقدر والشرع والمبدأ والمعاد والأمر بالعدل والإخلاص، ثم ختم بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه قد والى الشياطين من دون ربه، واتخذهم أولياء، فانظر إلى سياق الآية حيث يقول سبحانه: {{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [(٢٩) سورة الأعراف] فإنه قد ذكر العدل وبين أنه يكون بالإخلاص والتوحيد له سبحانه، ثم ذكر بقية القواعد التي يجب الإيمان بها فقال: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ* فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٢٩-٣٠) سورة

[4] - أخرجه البخاري في كتاب القدر (ج ٦ / ص ٢٤٣٣).

الأعراف] فهو يرى أن هذه الآية متضمنة لهذه القواعد العظيمة وهي الإيمان بالله والإيمان بالقدر والأمر بالعدل والقسط وذِكر اليوم الآخر.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فقد ذكره ابن كثير -رحمه الله-.

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول -إن كان هو المراد من الآية- وبين قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [(٣٠) سورة الروم] **وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه))**[5] **وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم..)) الحديث**[6] **ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}** [(٢) سورة التغابن] **وفي الحديث: ((كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))**[7] **وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو {الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [(٣) سورة الأعلى] **و{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [(٥٠) سورة طـه] **وفي الصحيحين: ((فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة))**[8] **ولهذا قال تعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ}** [(٣٠) سورة الأعراف] **ثم علل ذلك فقال: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ} الآية** [(٣٠) سورة الأعراف] .

هذا المعنى الذي ذكره من أن الإنسان يولد على الفطرة وأن الآية تحتمل أن يرجع إلى ما كتب عليه من سعادة وشقاوة هو معنى كبير لذلك ينبغي للإنسان أن يكثر من دعاء ربه أن يثبته، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإن الناظر إلى حال كثيرٍ من الناس يجد بعضهم قد نشأ في بيئة طيبة ومع ذلك ينتكس على عقبيه، ومن الناس من ينشأ في بيئة أسوأ ما يكون كأن يكون في أرض غربة ومع ذلك هو في غاية التهذيب والصلاح والاستقامة على دين الله -عز وجل- ومن الناس من يبقى مدة طويلة ربما عشرات السنين وهو يعلّم الناس الخير ويدعوهم إلى الاتباع والسنة، وفي غاية الثبات والقوة ثم يرجع إلى حال ربما كان الضعف في التدين أسهل منها وذلك بأن يبتلى بالشبهات فيُلبس على الناس في دينهم ويرجع إلى أمور كان ينكرها فينظِّر لها ويستسيغها، فالناس في هذه الفتن يتقلبون ظهراً لبطن، والإنسان لا يأمن على نفسه ولذلك لا ينبغي أن يستشرف للفتن بل يسعه أن يقف في كثير من الأشياء دون أن يقحم نفسه فيها فيسلم له دينه وإيمانه، فإن

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب القدر - باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٦٢٢٦) (ج ٦ / ص ٢٤٣٤) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧)

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء (٢٢٣) (ج ١ / ص ٢٠٣).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الليل (٤٦٦٦) (ج ٤ / ص ١٨٩١) ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) (ج ٤ / ص ٢٠٣٩).

وجد من يقبل منه حمد الله، وإلا فليزم بيته وليغلق عليه بابه، ولن يسأله الله -عز وجل-: لماذا لم تخرج في القنوات الفضائية وتكون في مقدمة الناس دائماً؛ لأن حفظ رأس المال مقدم على كل شيء، فعلى الإنسان أن يبقى ثابتاً على مبادئه لا يتنازل عن شيء منها ويلقى الله -عز وجل- على ذلك، فالعبد بحاجة إلى كثرة الدعاء والصبر والثبات، والله المستعان.

إن الإنسان لا يأمن على نفسه، ولقد رأينا أناساً طلبوا العلم وجدّوا فيه واجتهدوا غاية الاجتهاد، والآن إذا رأيت الواحد منهم ما عرفته من سواد وجهه، وقبح هيئته، وانسلاخه من كل ما يميزه؛ لأنه قد انحرف غاية الانحراف والفسوق، فمن الناس من ابتلي بالشهوات ومنهم من ابتلي بالشبهات، نسأل الله السلامة.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذِّب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هادٍ وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

"إنَّ" مشعرة بالتعليل في قوله تعالى: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ} [(٣٠) سورة الأعراف] وتدل على التوكيد أيضاً، والمعنى لماذا كانوا كذلك أي فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة؟ الجواب: إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون، ولذلك فابن جرير -رحمه الله- يقول: "**هذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها**" فهذه الآية رد على كثير ممن قد يتوقف أو يجادل عن الأتباع من أهل الضلال والبدع وذلك أنهم يقولون: هؤلاء يتدينون حقيقة ويبذلون أموالهم ويبكون في عبادتهم وعند صلاتهم وإنما قد يكون الزندقة في رؤسائهم وكبرائهم وأما هؤلاء الأتباع فمساكين وهم صادقون ويريدون الخير بأفعالهم!

ونحن نقول: لو قلنا بهذا لانجر هذا القول أيضاً إلى عوام اليهود وعوام النصارى وليس إلى أهل البدع فقط، لكن الله -عز وجل- قد أخبر أن النار فيها الأتباع وفيها المتبوعون من الكبراء وقادة الشر والضلال والكفر كما سيأتي في الآيات القادمة حيث يتبرأ هؤلاء من هؤلاء، ويدعون الله -عز وجل- أن يزيدهم ضِعفاً من العذاب، لذلك كان يجب على هؤلاء حينما سمعوا داعي الله وسمعوا القرآن أن لا يقلدوا غيرهم وأن لا يحسنوا الظن بكبرائهم وقادتهم بل هم مكلفون مسئولون، لكنهم حينما ألغوا عقولهم وجعلوا الآخرين يفكرون عنهم بالنيابة صاروا إلى هذه الحالة التي هي أسوأ من حالة الأنعام، فهم جعلوا انقيادهم لهؤلاء الكبراء وعندئذ يندمون حيث يقودونهم إلى النار، فالنار فيها أتباع وفيها متبوعون وهذه القضية لا بد أن تعرف لكن الله -عز وجل- لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وبعد قيام الحجة وبلوغها، فبلوغ الحجة قال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٩] وأما قيام الحجة فذلك بأن يفهم منها ما يصلح لمثله وليس

---

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

بالضرورة أن يفهم منها فهم علماء المسلمين كأبي بكر وعمر وإنما يكفي ما يصلح لمثله، أما أن يكابر ويقول: وجدنا الشيوخ على هذا، أو يحمله الغضب على المهاترة فيعبد قبر عبدٍ من عباد الله وإذا أنكر عليه قال: أنت تنكر كرامات الأولياء، فهذا قد قامت عليه الحجة ولا يلومنَّ إلا نفسه.

{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] **هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم، والنسائي، وابن جرير -واللفظ له- من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، وما بدا منه فلا أحله، فقال الله تعالى:** {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} **الآية** [(٣١) سورة الأعراف] **قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس وهو ما يواري السوءة، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك، ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة، والسواك؛ لأنه من تمام ذلك.**

الزينة تطلق على ما لا بد منه من اللباس وهو المعنى الذي نزلت فيه الآية -وهو ستر العورة- وتطلق أيضاً على ما هو أعم من ذلك، والشائع في استعمال الزينة أنها تقال لما كان زائداً عن القدر الضروري، فهذا البناء مثلاً القدر الضروري منه السقف والعمد والجدران، وما عدا ذلك فهو من باب الزينة وليس من الأمور الضرورية، وهكذا أيضاً ما يلبسه الإنسان، فالقدر الزائد عن الضرورة يقال له زينة، كالحلي مثلاً كما قال القائل:

وما الحلي إلا زينــة مــن نقيــصة	تتمم من حسن إذا الحــسن قــصرا
أمـــا إذا كـــان الجمـــال مـــوفراً	كحسنك لم يحتج إلـــى أن يــزورا

فالحلي يكمل النقص الذي في المرأة ولذلك فإن الرجل لا يحتاج إليه بل يكون نقيصة فيه، فلو أن رجلاً لبس الخلاخل والأساور وما أشبه ذلك من الحلي فإن ذلك يكون في غاية القبح في حقه؛ لأنه يكفيه جماله الطبيعي، وكل شيء له ما يناسبه، وعلى كل حال فالزينة تطلق على هذا وهذا، والآية نزلت في ستر العورات فهي رد على المشركين الذين كانوا يتقربون إلى الله -عز وجل- ويتدينون بإبداء العورة عند الطواف ويرون أن هذا من القُرب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن غير الحمس إما أن يطوف بثوب جديد وبعد الطواف يلقيه في المطاف، ويسمونه اللقى يدوسه الناس بأقدامهم حتى يبلى، أو يستعير ثوباً من أحمسي، وكانوا يقولون: إنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله -عز وجل- فيها، فهم يتقربون إلى الله بهذا، فنهاهم عن هذا وقال: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف] أي بستر العورات، لكن لما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيقال:

هو أمرٌ باتخاذ الزينة عند الصلاة مطلقاً فلا يصلي الإنسان بثوب النوم، ولا يصلي بسراويل أو نحوها مما لا يلقى به الناس، وقد جاء في الأثر أن مولى ابن عباس خرج معه وهو حاسر الرأس، فقال له: أين تريد؟ قال: إلى الصلاة، فاحتج عليه بهذه الآية حيث قال له: أتلقى الناس هكذا؟ قال: لا، قال: فالله أحق أن يتجمل له، فلا ينبغي للإنسان أن يجعل الله -عز وجل- أهون الناظرين إليه بأن يتزين للناس إذا خرج وإذا صلى يصلي بهيئة يستحي أن يراه الناس فيها، وهكذا ينبغي التزين لصلاة الجمعة حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يلبس لها لبساً خاصاً كما هو معروف، وهكذا الأعياد، وكذلك يدخل فيه ستر العاتقين ((لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء))[10] فالعاتق وإن لم يكن عورة إلا أنه يستر من باب كمال الزينة لقوله تعالى: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف].

ومعنى قوله تعالى: {عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف] يعني عند كل صلاة، أو موضع الصلاة.

ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، وإنّ خير أكحالكم الإثْمِد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر)) هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح[11].

أخذ الزينة له أثر في عبادة الإنسان وفي صلاته وفي إقبال ربه، فالثياب البيضاء لها أثر ينعكس على قلب العبد وعلى نفسه، وكذلك الطيب ينشرح له الصدر ويحصل للإنسان فيه انشراح كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد، أي أن مثل هذه الأمور الظاهرة تؤثر في باطن الإنسان فمن المعلوم أن هناك ملازمة بين الظاهر والباطن كما يذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [(٤) سورة المدثر] ولذلك إذا جئت بإنسان يعمل في محطة أو عامل بناء وقد اعتاد على تلويث الثياب والبدن وما أشبه ذلك، وأعطيته أنواع المنظفات وتنظف وأعطيته ثياباً بيضاء وطيبته بأحسن الطيب فإنه سيجد أثر هذا في نفسه وسيكون هناك فرق بين دخوله المسجد بثيابه الأولى وبين دخوله المسجد في الثياب الثانية، وكذلك يتغير حاله حتى خارج المسجد وأذكر أني قرأت تقريراً عُمل في بعض السجون في أمريكا حيث أخذوا المساجين وصاروا يأمرونهم بالاغتسال يومياً ويعطونهم ثياباً بيضاء نظيفة كل يوم فوجدوا تغيراً في سلوك المساجين، وهذا مشاهد، ولذلك انظر إلى نفسك حينما تسافر سفراً شاقاً ستشعر أنك بحاجة إلى أن تغير ملابسك وتصل إلى بيتك وأنت في غاية التثاقل ولا تحب أن يراك أحد، فإذا اغتسلت وتطيبت شعرت بالراحة والاطمئنان، وانظر إلى الحال في الحج وخاصة أيام شدة الحر فالإنسان ما يصل إلى يوم النحر وينتهي من الرمي ويحلق إلا وهو يشعر أنه في غاية الثقل، ويحتاج أن يغتسل ويغير ملابسه، فإذا اغتسل وجد خفة ونشاطاً وارتياحاً، ولذلك نقول: إن مثل هذه الأمور تؤثر في النفس، والناس يسألون كيف نخشع في الصلاة، وكيف نرتاح في

---

10 - أخرجه النسائي في كتاب القبلة - صلاة الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء (٧٦٩) (ج ٢ / ص ٧١) وأحمد (٩٩٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٢٦).

11 - أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الأمر بالكحل (٣٨٨٠) (ج ٤ / ص ٩) والنسائي في كتاب الزينة – باب في الكحل (٥١١٣) (ج ٨ / ص ١٤٩) وابن ماجه في كتاب الطب-(باب الكحل بالإثمد (٣٤٩٧) (ج ٢ / ص ١١٥٧) وأحمد (٢٢١٩) (ج ١ / ص ٢٤٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٢٣٦).

الصلاة فنقول: جرب هذا الأمر وانظر الفرق، كذلك اغتسل قبل أن تذهب إلى العمل وقارن هذا اليوم بالأيام الأخرى، لا شك أنك ستجد أثر ذلك في نفسك.

وقوله تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ} الآية [(٣١) سورة الأعراف] وقال البخاري: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرف أو مخيلة" إسناده صحيح[١٢].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلثٌ طعامٌ وثلثٌ شرابٌ وثلث لنفسه))[١٣] ورواه النسائي والترمذي وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة: حسن صحيح.

يلاحظ أن هذه الآية {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ} [(٣١) سورة الأعراف] اشتملت على الأمر والنهي والإباحة وهذه الأمور هي التي يرجع إليها خطاب الشارع.

قوله: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ} الأمر هنا للإباحة، وأخذ منه بعض أهل العلم أن الزهد لا يكون في ترك الأكل والشرب وأخذ الزينة من اللباس وإنما الزهد معنىً في القلب، وهو أن تكون الدنيا في يده ولا تكون في قلبه، وهذا معنى وجيه، فكثير من الناس قد يكون في حالة من الرثاثة ويترك كثيراً من متاع الدنيا من مطاعمها ومشاربها وألوان اللباس الجيد، وهو يملك أموالاً طائلة أو يملك أموالاً قليلة لكن الدرهم أو الريال لا يخرج إلا وقد خرج معه قطعة من قلبه، فهذا لا يكون زاهداً، وتجده يترك كثيراً من اللباس والطعام الطيب لكن يتركه إما لأنه لا يجده أو يتركه لأنه بخيل، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحب الحلوى والحلو البارد، وكان -صلى الله عليه وسلم- يأكل الثريد -وهو أطيب الطعام- ويحب الطيب، ويقول: ((حبب إلي من الدنيا النساء والطيب))[١٤] ومثل هذا كله من الطيبات، فليس الزهد أن يترك الإنسان الزواج والتمتع بألوان الطيبات من المآكل والمشارب، وإنما الزهد ألا تدخل هذه الأشياء في قلبه، فهذه الأشياء قد يتعاطاها الإنسان وقد لا يتعاطاها فليس ثمة مشكلة، لكن المشكلة أن يكون القلب مشغولاً بها فإذا كانت تسيطر على قلبه وهي غالبة عليه فليس بزاهد وإن تركها، وما يفعله كثير من الناس ممن ينتسب إلى التصوف بلبس الصوف وترك الطيبات فهذا أمر لم يكن عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا أصحابه وهم أزهد الناس -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- فالإنسان لا مانع من أن يركب مركباً جيداً وأن يلبس اللباس الجيد لكن

---

[12] - أخرجه البخاري (ج ٥ / ص ٢١٨٠) عن ابن عباس ولفظه: "كل ما شئت والبس واشرب ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة".

[13] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠) (ج ٤ / ص ٥٩٠) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب آداب الأكل - ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل (٦٧٧٠) (ج ٤ / ص ١٧٨) وأحمد (١٧٢٢٥) (ج ٤ / ص ١٣٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢١٣٥).

[14] - أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء – باب حب النساء (٣٩٣٩) (ج ٧ / ص ٦١) وأحمد (١٢٣١٥) (ج ٣ / ص ١٢٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٢٤).

لا يخرجه ذلك إلى الإسراف والخيلاء ولا يفعل ذلك مباهاة للناس، ولا يكثر من ذلك بحيث يكون ذلك صارفاً وملهياً له، وإنما ينبغي عليه أن يترك فضول هذه الأشياء؛ لئلا تشغل قلبه، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عنده ناقة يقال لها: القصواء وهي مما لا تكاد تسبق، فمثل هذه الأشياء لا تخرج الإنسان عن الزهد، وكل إنسان له ما يناسبه أيضاً من اللباس والمراكب والمساكن وما أشبه هذا، فأهل العلم لهم ما يناسبهم ويجملهم فإن خرجوا منه إلى غيره فإن ذلك يكون إزراء بهم، وقد يحسن من غيرهم لكنه لا يحسن منهم، وهكذا كل إنسان له ما يليق به من مركب وثوب ومسكن وما أشبه هذا، وطالب العلم الذي يسكن في قصر هذا لا يليق به التوسع بهذه الصورة في البناء، وهكذا إذا لبس زيّاً معيناً قد لا يكون لائقاً به وإن كان مباحاً فإنه لا يصلح لمثله فهذا يزري به، وهكذا إذا ركب مركباً لا يصلح لمثله فهذا يكون منقصة في حقه، وليس معنى ذلك أنه يتخذ الرديء من هذه الأشياء، لكن هناك أشياء لا تليق به ولا تناسبه، والله المستعان.

وقال عطاء الخرساني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] **في الطعام والشراب.**

وقال ابن جرير: وقوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] **يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ولكنه يحب أن يحلَّل ما أحلّ، ويحرَّم ما حرّم، وذلك العدل الذي أمر به.**

بذل المال في المحرم إسراف وإن كان ذلك قليلاً، وكذلك تضييع المال فيما لا فائدة فيه يعتبر إسرافاً وإن كان قليلاً، وهكذا إذا توسع الإنسان في المأكل أو المشرب أو الملبس أو نحو هذا فوق حاجته فهذا يعتبر من الإسراف، وهذا أيضاً يختلف الحكم فيه في بعض الصور من شخص إلى آخر، فقد يكون بالنسبة لهذا من الإسراف وبالنسبة لهذا ليس من الإسراف، بحسب حال الإنسان من الغنى والفقر، فهذا الإنسان الذي يشتري ساعة بألف وراتبه ثمانمائة ريال يعتبر مسرفاً، وإنسان آخر راتبه عشرة آلاف ويشتري ساعة بألف ليس من الإسراف، وكذلك من يملك الملايين إذا اشترى أثاثاً بخمسين ألف ريال ليس مسرفاً، أما من كان راتبه ألفاً ومائتي ريال ويشتري أثاثاً بخمسين ألف ريال فهذا يعتبر من الإسراف، والإنسان الفقير الذي يعيش على الصدقات ما إن يجتمع من دخله خمسمائة ريال إلا ويلبس عمامة من أفخر الأنواع، ويلبس نعلاً بحدود أربعمائة ريال، فهذا سفيه يحجر عليه، وكذلك الفقير الذي راتبه سبعمائة ريال وكلما ظهر نوع من الجوالات اشتراه، فهؤلاء يعتبرون مسرفين، وهذا يختلف من شخص إلى شخص، والله المستعان.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٣٢) سورة الأعراف].

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم وابتداعهم: {مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وإن شركَهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار؛ فإن الجنة محرمة على الكافرين.

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ} هذا استفهام إنكاري، والمعنى أن الطيبات من الرزق هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرُهم من المشركين وغيرهم، لكن الآخرة تكون خالصة للمؤمنين ينفردون بها لا يشاركهم فيها أحد، كما قال تعالى: {وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [(٣٥) سورة الزخرف] ويشهد لهذا المعنى أيضاً ما مضى في سورة البقرة لما قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} فقال تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة] فرزْقُ الله في الدنيا وعطاؤه لا يختص بالمؤمنين، ويشهد لهذا أيضاً قوله تعالى: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} [(٢٠) سورة الإسراء] وقد قال قبل هذا في السورة نفسها: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} [(١٨) سورة الإسراء] وقال في آية أخرى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ} [(١٥-١٦) سورة هود] فهذا كله يؤيد ويشرح هذا المعنى، أي أنها في الدنيا يشترك فيها المؤمنون والكفار؛ فالدنيا لا تساوي شيئاً مما في الآخرة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[١٥] فالدنيا للجميع، وأما الآخرة فهي خالصة للمؤمنين.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين الصادقين الفائزبن في الدنيا والآخرة، إن ربي قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[15] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز و جل- (٢٣٢٠) (ج ٤ / ص ٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) **سورة الأعراف].**

روى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله)) أخرجاه في الصحيحين[١]، وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام.

وقوله: {وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٣٣) سورة الأعراف] **قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيُه على نفسه.**

وحاصل ما فُسِّر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}** [(٣٣) سورة الأعراف] عرفنا قبلُ بأن أقرب الأقوال في تفسير ما ظهر من الفواحش هو أن الفواحش هي الذنوب العظام وأنها لا تختص بالزنا، فيدخل فيما ظهر من الفواحش الزنا علانية مع البغايا ذوات الأعلام في الجاهلية، وفي دور البغاء في مثل هذه الأيام، ويدخل فيه أيضاً سائر ألوان الفواحش وتعاطيها علانية.

قوله: **{وَمَا بَطَنَ}** ما أخفاه الإنسان من الجرائم العظام، والذنوب الكبار مثل الزنا سراً، وسائر ما يفعله الإنسان من الكبائر ويخفيه عن الناس.

قوله: **{وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}** الإثم: يطلق على المعصية سواء كان كبيراً أو صغيراً، فيكون ذلك من عطف العام على الخاص، فكل فاحشة لا شك أنها من الإثم وليس كل الآثام من الفواحش، ويطلق الإثم أيضاً على بعض الذنوب خاصة، وذلك يرجع إلى عرف الاستعمال لكنه هنا محمول على العموم، وقد تطلقه العرب على أم الخبائث وهي الخمر، كما قال الشاعر:

شربت الإثـم حتـى ضـل عقلـي ... كـذاك الإثـم تفعـل بـالعقول

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الأعراف (٤٣٦١) (ج ٤ / ص ١٦٩٩) ومسلم في كتاب التوبة - باب غيـرة الله تعـالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

وذكرنا في بعض المناسبات أن الإثم أيضاً يطلق على تبعة الذنب وهي المؤاخذة، تقول: من فعل كذا فهو آثم، فهذه هي التبعة، وهذا لا إشكال فيه فهو يطلق على الذنب وعلى تبعة الذنب التي هي المؤاخذة، والله أعلم.

والبغي هو نوع من الآثام أيضاً، وهو النوع المتعدي إلى الناس، وقيَّده هنا بأنه غير الحق، وهذا القيد معتبر، بمعنى أن هذا القيد ليس من قبيل الصفة الكاشفة بل هو قيد معتبر؛ لأن البغي يكون تارة بحق وتارة يكون بغير حق، بخلاف بعض القيود، كقوله تعالى بعد هذه: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] فقوله: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] هذا مبيّن للحقيقة كاشف لها وإلا فلا يمكن لأحد أن يشرك بالله ولديه سلطان على هذا الشرك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ} [(١١٧) سورة المؤمنون] ولا يمكن لأحد أن يدعو إلهاً آخر له فيه برهان، وهكذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٦١) سورة البقرة] فلا يمكن لأحد أن يقتل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بحق، وعلى كل حال تارة تكون هذه القيود معتبرة، وتارة لا تكون معتبرة، ومن أمثلة القيود المعتبرة: القيد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [(٥٨) سورة الأحزاب] فهذا قيد معتبر.

وقوله تعالى: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] أي: تجعلوا له شركاء في عبادته.

{وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف] من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} الآية [(٣٠) سورة الحـــج].

ويدخل في هذا كل قول على الله بلا علم كالذي يفتي الناس بجهل ويتكلم في الأحكام، أو يفسر القرآن أو حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بغير علم، كل ذلك يدخل في عموم قوله: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف].

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ* يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٤-٣٦) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ} أي: قرن وجيل.

الأمّة تطلق على الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره، كما قال تعالى عن إبراهيم –عليه السلام-: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [(١٢٠) سورة النحل] وتطلق أيضاً على المدة الزمنية كما قال تعالى: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [(٤٥) سورة يوسف] وتطلق أيضاً على الجماعة من الناس كما قال تعالى: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص] وتطلق أيضاً على الطائفة المجتمعة على دين كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٥٢) سورة المؤمنون] فالأمة تطلق على هذه الأشياء كلها، وهنا قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "**أي: قرن وجيل**" ولعل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أدق؛ لأن الطائفة المجتمعة على دين منها من يكون قد مات ومنها من لا يزال حياً موجوداً.

ومعنى قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي لكل طائفة من الناس وجماعة من الناس اجتمعت على شيء أجل، وهؤلاء يكونون في قرن وجيل يعني يكون لهم وقت محدد لنزول العذاب بهم، فالله تبارك تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وبيّن حدوده وشرائعه فوقّت لهذه الأمم وقتاً وزماناً ينزل عليهم به العذاب إذا كذبوا رسله -عليهم الصلاة والسلام- فالله -تبارك وتعالى- يمهلهم حتى يأتي هذا الأجل، هذا قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} يعني يموتون فيه أي أن الله -عز وجل- يميتهم إذا جاءت آجالهم.

{فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ} أي: ميقاتهم المقدر لهم {لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [(٣٤) سورة الأعراف].

ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشَّر وحذر فقال: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ} [(٣٥) سورة الأعراف] أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٥) سورة الأعراف].

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا} [(٣٦) سورة الأعراف] أي: كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٦) سورة الأعراف] أي: ماكثون فيها مكثاً مخلّداً.

لعل قوله: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف] قرينة تقوي القول الأول، أي أن قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} يعني مدة وزماناً محدداً ينزل عليهم به العذاب، فهذا المقام يبيّن الله -تبارك وتعالى- فيه للناس شدة بأسه وعقابه لمن كذب رسله -عليهم الصلاة والسلام-.

وقوله: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ} [(٣٥) سورة الأعراف] أصل لفظة "إمَّا" أنها مركبة من "إنْ" و"ما" فـ"إن" هذه هي الشرطية، و "ما" يقولون عنها: إنها صلة أو زائدة إعراباً جاءت لتقوية الكلام وتأكيده.

وقوله: {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف] يعني إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويبيّنونها لكم.

وقوله: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٥) سورة الأعراف] يمكن أن تكون هذه الجملة التي هي فعل الشرط وجوابه هي جواب الشرط لقوله: {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف]، ويمكن أن يكون جواب الشرط مقدراً، وتقديره فأطيعوهم، والله أعلم.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(٣٧) سورة الأعراف].

يقول: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة.

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} يعني لا أحد أظلم منه، وذكرنا مراراً أن مثل هذا الاستفهام مضمن معنى النفي، وأن ذلك في كل مقام يختص بالباب الذي ذكر فيه؛ للجمع بين هذه الآية والآيات المشابهة لها كقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة] وما أشبه ذلك، أي تكون كل آية مختصة بالباب الذي ذكرت فيه.

أو يكون الجواب عن هذا أن يقال: إن أفعل التفضيل لا يمنع من التساوي وإنما يمنع من أن يزيد أحد هذه المذكورات على الآخر، والله أعلم.

قال محمد بن كعب القرظي: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] **قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كقوله:** {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} **[(٦٩-٧٠) سورة يونس] وقوله:** {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا} **الآية [(٢٣-٢٤) سورة لقمان].**

في قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بعض المعاني التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم- فقال: "**عمله ورزقه وعمره**" فالكتاب إذا حمل على اللوح المحفوظ يكون المعنى: ينالهم ما قدر لهم، والذي قدر لهم هي السعادة والشقاوة فيكون ذلك واقعاً لا محالة، وكذلك أيضاً ما قدر لهم من أرزاق وأعمار وكذلك ما قدر لهم من العذاب.

ويحتمل أن يكون المراد بالكتاب في الآية: القرآن، حيث إن القرآن أخبر عما يقع بالمكذبين من العقوبة، فيكون ذلك تحقيقاً لما أخبر به، لكن المعنى الأول أقرب من هذا، والله تعالى أعلم.

وحمْله على اللوح المحفوظ وجمْع المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- مما يرجع إلى هذا أولى وأحسن وأقرب، وهذا الذي جرى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، وسبقه إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وكذلك الحافظ ابن القيم، وجماعة من العلماء المحققين كالشنقيطي -رحمه الله-، فهؤلاء العلماء وغيرهم يقولون: إن المراد بقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] أي يقع لهم ما قدر لهم في اللوح المحفوظ مما قدره الله -عز وجل- من الهدى والضلال فذلك واقع بهم لا يجاوزونه، ويدخل في ذلك أيضاً ما يحصل لهم من أرزاق وأعمار كما قال عليه الصلاة والسلام-: ((لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها))[٢].

وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} **الآية [(٣٧) سورة الأعراف].. يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبْض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه** {قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} **[(٣٧) سورة الأعراف] أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم** {وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ} **[(٣٧) سورة الأعراف] أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم** {أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} **[(٣٧) سورة الأعراف].**

قوله: {قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} [(٣٧) سورة الأعراف] يعني ذهبوا، وذلك أن الضلال يفسر بالذهاب كما قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] فهم لا يقصدون هنا ضلاله الذهاب عن الهدى كما هو المعنى المتبادر عند إطلاق الضلال، وإنما يقصدون أصل معناها اللغوي، وهو الذهاب عن حقيقة الشيء، كما قال الشاعر:

---

[2] - أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات - باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤) (ج ٢ / ص ٧٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٤٢).

فـــآب مـــضلوه بعـــين جليـــة وغودر بـــالجولان حـــزم ونائـــل

فمضلوه هنا يعني أنهم دفنوه، فصار ذلك إخفاء له.

وكما قال الآخر:

شربت الإثــم حتــى ضــل عقلــي كـــذاك الإثـــم تفعـــل بـــالعقول

يعني شرب الخمر حتى ذهب عقله، وهكذا توجد شواهد كثيرة تدل على أن الضلال يطلق بإزاء ذهاب الشيء عن حقيقته.

وقول إخوة يوسف: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] لا شك أن معناه الذهاب عن حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- إذ لا يمكن أن يصفوا نبياً من أنبياء الله بأنه ضال الضلال الشرعي المعروف؛ إذ لو قصدوا ذلك لكفروا، والله المستعان.

{قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ* وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [(٣٨-٣٩) سورة الأعراف] **يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته {ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ}** [(٣٨) سورة الأعراف] **أي: من أمثالكم وعلى صفاتكم.**

قوله: {ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ} [(٣٨) سورة الأعراف] يعني في جملة أمم من أمثالكم وعلى صفاتكم.

{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم} [(٣٨) سورة الأعراف] **أي: من الأمم السالفة الكافرة {مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ}** [(٣٨) سورة الأعراف] **يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: {فِي أُمَمٍ}** [(٣٨) سورة الأعراف] **ويحتمل أن يكون {فِي أُمَمٍ} أي: مع أمم.**

وقوله: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا} [(٣٨) سورة الأعراف] **كما قال الخليل -عليه السلام-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} الآية** [(٢٥) سورة العنكبوت]**.**

وقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٧) سورة البقرة]**.**

يقصد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن قوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا} [(٣٨) سورة الأعراف] أنها تلعن أهل ملتها، يعني إذا اجتمعت هذه الأمم في النار، اجتمع أولها وآخرها فيلعن بعضها بعضاً ويتبرأ بعضها من بعض، فالأمة الواحدة يحصل بينها هذا في النار، وليس المقصود أن كل أمة تلعن الأمة الأخرى، وإنما الأمة الواحدة إذا ادّاركوا في النار بأن دخل الأولون ودخل الآخرون وقع بينهم هذا اللعن والتبرؤ، فيتبرأ الأتباع من المتبوعين ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، ويتبرأ آخرهم من أولهم وأولهم من آخرهم -نسأل الله العافية-، وهذا المعنى هو المعنى المتبادر المشهور الذي عليه عامة المحققين من المفسرين، أي كلما دخلت أمة لعنت وشتمت أهل ملتها، وهذا صرح به جماعة من أهل العلم ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ويدل على هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: {وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ} الآيات [(٣٩) سورة الأعراف].

وقوله: {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا} أي: اجتمعوا فيها كلهم.

يعني أدرك بعضهم بعضاً فاجتمعوا فيها.

{قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع {لأُولاَهُمْ} وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم.

الحافظ ابن كثير –رحمه الله- من دقة عبارته جمع بين معنيين مشهورين في قوله تعالى: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ} [(٣٨) سورة الأعراف] فالمعنى الأول: أي أخراهم دخولاً في النار، أي الطائفة المتأخرة التي دخلت تقول للتي دخلت قبلها، والمعنى الثاني {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} يعني الأتباع يقولون للمتبوعين، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما احتاج أن يرجح بين المعنيين، بل جمع بينهما فقال عن الآخرة: أي دخولاً وهم الأتباع بمعنى أن الأتباع يدخلون بعد المتبوعين؛ لأن المتبوعين تقدّموهم حيث كانوا قبلهم وهم قدوتهم في الشر والضلال الكفر.

أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم، فيشكونهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون: {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا* وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} الآية [(٦٦-٦٨) سورة الأحزاب].

وقوله: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كقوله: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا} الآية [(٨٨) سورة النحل] وقال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وقال: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ} الآية [(٢٥) سورة النحل].

يعني باعتبار أن الأتباع أضلوهم فتحملوا ذنوب أنفسهم وذنوب من وقع لهم الإضلال عليهم، وهؤلاء الأتباع أيضاً لا يخلو الواحد منهم من أن يضل غيره كأن ينشئ ولده على الكفر أو نحو ذلك كما قال –صلى الله عليه وسلم-: ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[3] وكذلك يحصل منه أن يقتدي به ويتأثر به، ويقبل منه غيرُه فيحصل منه إضلال له، فيتحمل ذلك أيضاً كما تحمل الذي قبله، لذلك قال: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [(٣٨) سورة الأعراف].

{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ} أي: قال المتبوعون للأتباع {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} [(٣٩) سورة الأعراف].

قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا.

قولهم: {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} [(٣٩) سورة الأعراف] يعني نحن ما أجبرناكم وإنما جاءتكم الرسل ونزلت عليكم الكتب وأعطاكم الله عقولاً فلم تستعملوها ولم تعقلوا عن الله -عز وجل- فأنتم ونحن سواء، وهذا كما يقول إبليس: {إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} الآية [(٢٢) سورة إبراهيم].

{فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [(٣٩) سورة الأعراف] وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٣) (ج ١ / ص ٤٥٦) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

كُنتُم مُّجْرِمِينَ* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٣٣) سورة سبأ].

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ* لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٤٠-٤١) سورة الأعراف].

قوله: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} قيل المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكر قبض روح الفاجر وأنه يُصعد بها إلى السماء، قال: ((فيصعدون بها فلا تمرُّ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان -بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا- حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له)) ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} الآية [(٤٠) سورة الأعراف]، هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه[4].

وقد قال ابن جريج في قوله: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} [(٤٠) سورة الأعراف] لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم.

المعنى الأول دل عليه الحديث، وإذا ثبت التفسير عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا مقال لأحد بعده، لكن هذا لا يعني أن عموم الآية لا يدخل فيه المعنى الآخر، بمعنى أنه يُقطع بالمعنى الذي ذكر في الحديث وهو أنها لا تفتح لأرواحهم، لكن هذا لا ينفي دخول المعنى الآخر وهو أنها لا تفتح لأعمالهم، ولهذا فهذا القول الذي ذكره عن ابن جريج -رحمه الله- هو جمعٌ بين المعنيين، وهذا هو الذي فسرها به ابن جرير -رحمه الله- وابن القيم وجماعة من أهل العلم، أي لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول في بعض كتبه: لما لم تفتح السماء لأعمالهم الصالحة لم تفتح لأرواحهم، بخلاف أهل الإيمان فالعمل الصالح يرتفع لهم صباح مساء فإذا ماتوا فتحت أبواب السماء لأرواحهم[5].

والله -عز وجل- يقول: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [(١٠) سورة فاطر] فترفع الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى- وإليه يصعد الكلم الطيب، وأما الكفار فلا يصعد لهم كلم طيب ولا عمل صالح، وإذا ماتوا فإن أبواب السماء تغلق فلا تدخل أرواحهم منها، والله أعلم.

---

4 - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

5 - له -رحمه الله- كلام بهذا المعنى في مدارج السالكين (ج ١ / ص ٧٢).

وقوله تعالى: {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [(٤٠) سورة الأعراف] فسروه بأنه البعير، قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجمل، ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة.

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إنه كان يقرؤها (حتى يلج الجُمَّل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم، يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة.

يقول تعالى: {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [(٤٠) سورة الأعراف] قال الحافظ: "**قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجمل، ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة**" الذي يقرأ هذا الكلام لأول وهلة قد يستغرب من هذا الإيضاح إذ كيف يقول: ابن الناقة ويقول: زوج الناقة؛ لأن هذا إيضاح لما لا يخفى، لكن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ابتلي بمن ينقر ويسأل، ولهذا فإن بعض السلف -رضي الله عنه- لما ذكر هذا قال: الجمل الذي له أربع قوائم، والسبب أن من الناس من ينقر تنقيراً كما قيل عن ذلك الأديب الذي قرأ بعضهم عليه بيتاً وفيه ذكر الجمل، فسأل ذلك القارئُ -وكان في المسجد أمام الناس- ما هو الجمل؟ فقال الأديب: هو البعير، قال: وما هو البعير؟ قال: ابن الناقة، قال: وما هو ابن الناقة؟ فغضب هذا الأديب وخرج عن طوره فجعل يحبو على أربع أمام الناس وله رغاء كرغاء البعير وهو يقول: هو الجمل الذي يقول هكذا!!

المقصود أن من الناس من يسأل عن الأشياء الواضحة البينة فتأتي مثل هذه العبارات، لذلك لا تستغرب أن ينقل عن ابن مسعود مثل هذا "ابن الناقة .. زوج الناقة..".

يقول تعالى: {حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [(٤٠) سورة الأعراف] المعنى المتبادر أن الجمل هو الجمل المعروف، وأما على القراءة الأخرى التي قرأ فيها ابن عباس (حتى يلج الجُمَّل) وهي قراءة متواترة فيمكن أن يفسر الجُمَّل بمعنى آخر فيقال مثلاً: الجُمَّل هو الحبل الغليظ، وبعضهم يمثل له بحبل السفينة، وهو عبارة عن مجموعة من الحبال المفتولة بحيث تكون في غاية الغلظ والضخامة.

وفي هذه الآية أيضاً قراءات أخرى غير متواترة، وعلى كل حال فعلى القراءة المتواترة {حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [(٤٠) سورة الأعراف] يكون الجمل في الآية هو الجمل المعروف، وأما على قراءة (الجُمَّل) فيقال هو الحبل الغليظ أو حبل السفينة الذي يقال له: القَلْس، وأما السَّم والسِّم والسُّم فهو كل ثقب، وإذا أضيف إلى الخيط فيراد به ثقب الإبرة، والله أعلم.

وقوله: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ} [(٤١) سورة الأعراف] قال محمد بن كعب القرظي: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ} قال: الفرش {وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [(٤١) سورة الأعراف] قال اللحُف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي، {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٤١) سورة الأعراف].

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٤٢-٤٣) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها.

وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} [(٤٢-٤٣) سورة الأعراف] أي: من حسد وبغض.

في قول الله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [(٤٢) **سورة الأعراف**] يمكن أن يكون قوله: **{لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [(٤٢) سورة الأعراف] جملة اعتراضية، وعلى هذا يكون معنى الآية: والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، وجاء بهذه الجملة المعترضة لدفع توهم قد يتوهمه السامع وهو أن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات قاموا بكل الأعمال الصالحة المقدور عليها وغير المقدور عليها فبيّن أن هذا غير صحيح؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فقوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}** يعني وعملوا الصالحات مما يقدرون عليها؛ لأننا لا نكلف نفساً إلا وسعها، فهو جاء بهذا القيد لبيان هذا المعنى، ومعلوم أن القيود في القرآن تأتي في كل موضع بحسب الحاجة إليها وهي أنواع كثيرة، ومن شاء فليراجع قواعد التفسير فهناك أمثلة وأنواع تذكر فيها هذه القيود في القرآن.

وقوله تعالى: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [(٤٣) سورة الأعراف] **قال الحافظ**: "**أي: من حسد وبغض**" هذا يمكن أن يفسر بهذا الحديث الذي ذكره هنا وهو أنهم يقفون على قنطرة بين الجنة والنار فيصفى ما في قلوبهم بسبب ما وقع بينهم من المظالم في الدنيا فيدخلون الجنة بقلوب نقية طاهرة لا غل فيها، والإنسان قد يكون في قلبه غل على إخوانه، نسأل الله العافية.

وقد قال علي -رضي الله عنه- لما كان يوم صفين: أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله فيهم: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [(٤٣) سورة الأعراف] وهذا يدل على أن الغل على اسمه، وذلك أن الغل أصله الرباط الذي يكون في العنق، فهذا الغل يربط القلب، فلا يهنأ الإنسان براحة ولا يلتذ بعيش وقلبه يحمل الغل على أحد من المسلمين -نسأل الله العافية- وأول من يعذب بهذا الغل هو صاحبه حيث يتكدر عليه عيشه ويتنغص، لذلك لما كان الغل يكدر النعيم نفاه الله -عز وجل- عن أهل الجنة، ونزعه من قلوبهم قبل أن يدخلوها.

وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يرى -وبه قال طائفة من السلف- أن المقصود بالآية أنهم في الجنة حينما يتفاضلون في المراتب والمنازل لا يقع في نفوسهم حسد بسبب ما يرون من تفاوت النعيم كما هو الحال في الدنيا، فالناس فيها يتحاسدون بما يرون من تفاوتهم في هذا العرَض والحطام الذي يتفاضلون فيه، وكذلك ما يتفاضلون فيه من القدرات العقلية وغير ذلك من العلوم وما إلى ذلك مما يحصل به التفاضل بين الناس في الدنيا، أما في الجنة فلا يحصل ذلك.

وعلى كل حال إذا نُزع ما في صدورهم من الغل قبل دخولهم الجنة فإن قلوبهم تبقى طاهرة فلا يقع فيها غل وحسد بما يرون من التفاضل بين مراتب أهل الجنة.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلُّ منه بمسكنه كان في الدنيا))[6].

وقال السدي في قوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} الآية [(٤٣) سورة الأعراف]: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يتسخوا بعدها أبداً.

هذا الأثر عن السدي، ومثل هذا يكون له حكم المرسل؛ لأن مثله لا يقال من جهة الرأي، ثم إنه يتعلق بتفسير آية، إلا إذا قيل: إن هذا مما أخذ عن بني إسرائيل، فالله أعلم.

روى النسائي وابن مردويه واللفظ له عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة))[7].

قوله: **{هَدَانَا لِهَذَا}** من قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}** [(٤٣) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون المعنى هدانا للجنة، ويشهد له الحديث الذي مضى آنفاً وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلُّ منه بمسكنه في الدنيا))، وهو أيضاً بعض ما يفسر به قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** [(٤-٥) سورة محمد] أي: يهديهم إلى الصراط، ويهديهم على الصراط ويهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، كل ذلك حاصل لهم.

ويحتمل أن يكون المراد **{هَدَانَا لِهَذَا}** [(٤٣) سورة الأعراف] يعني هدانا في الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح الذي تسبب في دخول الجنة وهذا النعيم المقيم الذي أدركوه فيها، وهما معنيان متلازمان، فلا حاجة للترجيح بينهما ، والله تعالى أعلم، وعلى هذا يقال: **{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا}** [(٤٣) سورة الأعراف] أي: هدانا لسببه وهو الإيمان والعمل الصالح، وهدانا أيضاً إلى هذا النعيم في الجنة، وهداهم إلى منازلهم فيها، وهذا الوجه من الجمع ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وهذا أحسن من الاقتصار على أحد هذين المعنيين والله تعالى أعلم؛ لوجود الملازمة بينهما، ومعلوم أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر وكان بينهما ملازمة فإنها تحمل عليهما إلا إذا وجد مانع يمنع من ذلك.

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت

---

6 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب القصاص يوم القيامة (٦١٧٠) (ج ٥ / ص ٢٣٩٤).

7 - أخرجه أحمد (١٠٦٦٠) (ج ٢ / ص ٥١٢) والحاكم (٣٦٢٩) (ج ٢ / ص ٤٧٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٥١٤).

في الصحيحين عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))[٨].

أي أن الباء للسببية في قوله: {الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٤٣) سورة الأعراف] وقد جعلها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا سبباً لنيل الرحمة التي بها تنال الجنة، ولا إشكال في ذلك كما يمكن أن يقال أيضاً: إنها سبب لدخول الجنة، لكن هذا السبب ليس مستقلاً، بمعنى أنه لا يكفي وحده لدخول الجنة للحديث المذكور، وعلى كل حال العمل سبب، ورحمة الله -عز وجل- فوق ذلك، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٨) (ج ٥ / ص ٢٣٧٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) (ج ٤ / ص ٢١٦٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٤-٤٥) سورة الأعراف].

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم {أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا} "أن" هاهنا مفسرة للقول المحذوف و"قد" للتحقيق أي قالوا لهم: {قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ} كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ* أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ* إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [(٥٥-٥٩) سورة الصافات] **أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرِّعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة، يقولون لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ* أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ* اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [(١٤-١٦) سورة الطور].

وكذلك قرَّع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قتلى القليب يوم بدر فنادى: ((يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة -وسمى رءوسهم- هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً)) وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيّفوا؟، قال: ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن أهل الجنة لما خاطبوا أهل النار قالوا لهم: **{فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا}** [(٤٤) سورة الأعراف] فلم يقولوا: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، ووجه ذلك يحتمل أن يكون -والله أعلم- باعتبار أن الوعد هاهنا لا يختص بهم بل هو لكل الناس، فالله -عز وجل- توعد جميع المكذبين وتوعد من كذب وأعرض أي لم يكن الوعيد متوجهاً لهؤلاء بأعيانهم أو بخصوصهم وإنما هو وعيد عام.

ويحتمل أن يكون الخطاب كان بهذه الصورة؛ لسقوط مرتبة هؤلاء الكافرين عن رتبة التشريف بالخطاب، أي لم يتوجه إليهم خطاب الله -عز وجل- لانحطاط مرتبتهم، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الجنائز – باب أرواح المؤمنين (٢٠٧٥) (ج ٤ / ص ١٠٩) وأحمد (١٨٢) (ج ١ / ص ٢٦)

وقوله تعالى: {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ} [(٤٤) سورة الأعراف] أي: أعلم معلم ونادى مناد.

هنا لم يحدد من هذا المؤذن، لكن بعض أهل العلم يقول: إنه من الملائكة، وليس على هذا دليل من الكتاب ولا من السنة، فالله تعالى أعلم.

{أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} أي: مستقرة عليهم.

ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٥) سورة الأعراف] أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد.

يقال في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} ما يقال في قوله -تبارك وتعالى-: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [(١٦) سورة المجادلة] باعتبار أن "صدَّ" تأتي لازمة وتأتي متعدية، فقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} أي يصدون في أنفسهم فلا يؤمنون ولا يتبعون صراط الله المستقيم، وباعتبار أنها متعدية يقال: أي يصدون غيرهم ويضلونهم، فكل ذلك داخل في معناها والله تعالى أعلم.

والقول بأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله قد يتضمن المعنى الأول باعتبار أنهم ضلوا في أنفسهم ولم يكتفوا بهذا، بل أضلوا غيرهم وصدوهم وصرفوهم.

{وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٥) سورة الأعراف] أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة {كَافِرُونَ} أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شرٌّ في الناس أقوالاً وأعمالاً.

{وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ* وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٦-٤٧) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبَّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة.

قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [(١٣) سورة الحديد] وهو الأعراف.

تفسير السور في قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ} [(١٣) سورة الحديد] -أي: بين المؤمنين وبين المنافقين- بأنه الأعراف ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره أيضاً كبير المفسرين ابن جرير وذكره طائفة من أهل العلم كابن القيم وكذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، ويكون ذلك من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، ولكن في مثل هذا الموضع لا يجزم بأن هذا هو تفسيره فقد يكون كذلك وقد لا يكون، ومعلوم أن تفسير القرآن بالقرآن منه ما يلوح فيه وجه الارتباط كقوله -تبارك وتعالى-: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] مع قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ} [(١١٨) سورة النحل] فآية النحل هذه تفسرها آية الأنعام، وهكذا في مثل قوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] مع قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [(٢٣-٢٤)

سورة الشعراء] بهذا يفسر هذا اللفظ، لكن تفسير قوله: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] بقوله: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ} [(١٣) سورة الحديد] هذا احتمال قد يكون كذلك، وقد يكون السور الذي يضرب بين المؤمنين والمنافقين ليس هو الحجاب المذكور في سورة الأعراف، والعلم عند الله -عز وجل-.

وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [(٤٦) سورة الأعراف]: وهو السور وهو الأعراف.

وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار، سور له باب.

قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

ومن أهل العلم من وجهه مثل قول السدي: أي أن أصحابه يعرفون الناس باعتبار أنهم في مكان مشرف على أهل الجنة وأهل النار فيعرفون أهل الجنة بعلاماتهم كمواضع السجود التي لا تأكلها النار، ويعرفون أهل النار بعلاماتهم، ومن علاماتهم ما ذكره الله تعالى في قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [(١٠٢) سورة طــه] ويعرفونهم بالسواد كما قال -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران].

وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

هذا القول هو المشهور في تفسير أصحاب الأعراف، وهو الذي عليه عامة السلف من الصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم، ولم يرد تحديد ذلك في شيء ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يتفق الصحابة -رضي الله عنهم- على معنىً فيه، وإنما فيه أقوال متعددة، لكن هذا هو الأشهر، أي: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا أحسن من أن يفسر أصحاب الأعراف بأنهم من الملائكة؛ لأنهم لو كانوا كذلك فإن السياق بعده لا يساعد على هذا، كما سيأتي في قوله تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] يعني أصحاب الأعراف -على الراجح- وهذا لا يرد في الملائكة.

وكذلك القول بأنهم ناس من أفضل أهل الإيمان قد فرغ من حسابهم فتفرغوا للاطلاع على حال هؤلاء وهؤلاء -كما قال بعضهم- فهذا قول فيه بعد أيضاً؛ لقوله تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] فأهل الإيمان السابقون لا يكونون بمثابة من يطمعون في دخول الجنة، وإنما يكون هذا في قوم يرجون دخولها لم تبلغ بهم أعمالهم أن تدخلهم الجنة.

ويبعد قول من قال أيضاً: إنهم الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله -عز وجل- وقتلوا في سبيله ممن لم يأذن لهم آباءهم فحبسوا عن الجنة لذلك، وكذلك قول من قال: إن هؤلاء أولاد الزنا وكذا قول من قال: إنهم أهل الفترة، فأهل الفترة ورد أنهم يمتحنون ولذلك لا يحكم على جميعهم أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون، والمقصود أن أقرب هذه الأقوال -والله أعلم- أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم ترجح كفة السيئات فيدخلوا النار ولم ترجح كفة الحسنات فيدخلوا الجنة، فبقوا على الأعراف بسبب ذلك، والله أعلم.

وأصحاب الأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم- وغير واحد من السلف والخلف -رحمهم الله-.

وروى ابن جرير عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلّفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وأبعد الأقوال قول من قال: إن أصحاب الأعراف هم الأنبياء، فالأنبياء لا يقال في حقهم: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** [(٤٦) سورة الأعراف].

والقول: إنهم العدول من كل أمة من الأمم -الشهداء يوم القيامة- الذين يشهدون على الناس هذا لا دليل عليه.

وقال معمر عن الحسن: إنه تلا هذه الآية {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

التمني هو أن يرجو المرء حصول شيء يستحيل وقوعه، أو يطلب حصول شيء يستحيل وقوعه أو يبعد في مجاري العادات كما قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

ومن صور طلب المستحيل أن يتمنى الإنسان المفرّط المهمل أن يكون متفوقاً في دراسته ونتائج اختباره، فمثل هذا يسمى تمنياً.

أما الرجاء والطمع فهو الشيء قريب المنال، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** [(٣٢) سورة الأحزاب] وذلك أنها إذا خضعت بالكلام وتغنّجت وتكسرت مع الرجال الأجانب فإنهم يطمعون فيها، بمعنى أنّ أخْذها قريب وأنها سهلة التناول بتغنجها وتكسرها خلافاً للأخرى النزيهة الشريفة العفيفة فإنهم لا يطمعون فيها، ولذلك تقول: أطمعته فطمع أي أنك ترجّيه حتى تجعل ذلك الشيء قريب المنال بالنسبة إليه فيطمع في حصوله، فهؤلاء لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها؛ لأن دخلوها أمر قريب بالنسبة إليهم، فهم في حال لم ييأسوا معها من دخول الجنة خلافاً لأهل النار ولذلك لا يكون ذلك تمنياً بالنسبة إليهم بل هو شيء قريب المنال، فهم من أهل الإيمان وعندهم من العمل الصالح ما يُطمعهم بدخول الجنة لكن عملهم السيئ هو الذي أقعدهم، والعبرة بما غلب؛ فالله -عز وجل- يضع الموازين وتوزن أعمال الناس فمن غلبت حسناته نجا، وويل لمن غلبت آحاده عشراته فهذا هو الهالك.

وفي قوله تعالى: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** [(٤٦) سورة الأعراف] بعض أهل العلم يفسر الطمع بالعلم، يعني وهم يعلمون، وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والله أعلم.

والضمير في قوله: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا}** [(٤٦) سورة الأعراف] هل يرجع إلى أصحاب الجنة أم إلى أصحاب الأعراف؟ بمعنى هل أصحاب الأعراف يقولون: إن أصحاب الجنة لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون وإنما دخلوها برحمة الله -عز وجل- أم أن أصحاب الجنة هم الذين يقولون: إن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في ذلك؟

الثاني هو الأقرب، والله تعالى أعلم، يعني أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن القيم -رحمه الله- وهو الذي يدل عليه قول قتادة وقول الحسن –رحمهما الله- فقد قال الحسن: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم،

وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وهذا يدل على أن الضمير يعود إلى أصحاب الأعراف، أي أن الله يصف حالهم في هذه الآية فيقول: إنهم ما دخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها.

وقوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٧) سورة الأعراف].

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٧) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ} [(٤٧) سورة الأعراف] معنى "تلقاء" يعني جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة.

ولفظ "تلقاء" مصدر على وزن تِفعال لا يوجد له في اللغة العربية نظير إلا "تبيان" فقط، وإلا فالباقي بالفتح، فتقول: تَكرار -بالفتح- ولا يصح تِكرار -بالكسر-.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ* أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [(٤٨-٤٩) سورة الأعراف].

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: {مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ} أي: كثرتكم {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [(٤٨) سورة الأعراف].

السيما هي العلامة كما قال تعالى: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} [(٢٧٣) سورة البقرة] وعلامة أهل النار كما سبق في قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [(١٠٢) سورة طـه] أي أن عيونهم زرق، ومثل هذا قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران] يعني يُعرَفون بسواد وجوههم.

{وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [(٤٨) سورة الأعراف] أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال.

{أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ} [(٤٩) سورة الأعراف] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني: أصحاب الأعراف {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [(٤٩) سورة الأعراف].

إذا فسرت الإشارة في قوله: {أَهَؤُلاء} أنها عائدة إلى أصحاب الأعراف فيكون ذلك ليس من كلام أصحاب الأعراف وإنما هو كلام متكلم آخر يقول: {أَهَؤُلاء} يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم أيها المشركون أنهم لن ينالهم الله برحمة يقال لهم: ادخلوا الجنة.

والقول الآخر أن هذا من تمام كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل النار: {أَهَؤُلاء} أي أصحاب الجنة الذين كنتم تحتقرونهم في الدنيا وتقولون عنهم: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [(١١) سورة الأحقاف] وتقولون: إنَّ الآخرة -لو كان ثمَّ بعث- لكم كما قال قائلكم: {لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [(٧٧) سورة مريم] وكما قال بعضكم: {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [(٢٧) سورة هود] وأشباه ذلك مما كنتم تحتقرونهم به وترجّون لأنفسكم أنه لو كان بعث ونشور فإن الآخرة ستكون لكم! أي هاهو يقال لمن احتقرتموهم: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [(٤٩) سورة الأعراف].

وقول من قال: إن قوله: {أَهَؤُلاء} عائد إلى أصحاب الأعراف، لعله حمله على ذلك القرينةُ المذكورة في الآية وهي قوله: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ} [(٤٩) سورة الأعراف] باعتبار أن أهل الجنة قد دخلوا الجنة وما بقي إلا هؤلاء قد حبسوا عنها وذلك أن أهل النار يسيئون الظن بهم لكن يجدونهم قد قيل لهم: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ} [(٤٩) سورة الأعراف].

وقد قال جماعة من السلف: إن أصحاب الأعراف هم آخر من يدخل الجنة ممن لم يدخل النار، والعلم عند الله -عز وجل-.

{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ* الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [(٥٠-٥١) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

في قوله: "**يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم**" من أين جاء الطعام؟ قولهم: {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(٥٠) سورة الأعراف] محمولٌ على الطعام، والله أعلم.

قال السدي: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(٥٠) سورة الأعراف] **يعني الطعام.**

وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيد بن جبير في هذا الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: {إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الأعراف].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الأعراف] **يعني طعام الجنة وشرابها.**

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة.

وقوله: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [(٥١) سورة الأعراف] أي: **يعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى:** {فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [(٥٢) سورة طــه] **وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله:** {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] **وقال:** {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [(١٢٦) سورة طــه] **وقال تعالى:** {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا} [(٣٤) سورة الجاثية].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [(٥١) سورة الأعراف] **قال: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر.**

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ((ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني))[2].

النسيان في كلام العرب يأتي لمعنيين، يأتي بمعنى ذهاب المعلوم من الذهن، -والسهو هو الذهول عنه مع بقائه في الذهن، كما قال صاحب المراقي:

ذهاب ما علم قل نسيان   والعلم في السهو له اكتنان

-ويأتي النسيان بمعنى آخر هو الترك، وهو المراد هنا والله تعالى أعلم، وهذا معنى معروف في كلام العرب.

قوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] أي أعرضوا عن أمره ونهيه وتركوه وراء ظهورهم فتركهم الله -عز وجل- في الآخرة وأعرض عنهم ولم تنلهم رحمته بل تركوا في النار، ولا حاجة أن يقال: إن النسيان هنا من قبيل المجاز ولا يحتاج مثل هذا المقام إلى تطويل، وإنما يقال: النسيان في كلام العرب يأتي لهذا وهذا، والمقصود به هنا الترك، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٢-٥٣) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصَّل مبيّن كقوله: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} الآية [(٣) سورة هود].

وقوله: {فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ} [(٥٢) سورة الأعراف] أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [(١٦٦) سورة النساء].

والمقصود أنه لما أخبر بما صاروا من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء] ولهذا قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد.

قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به؛ لأن التأويل من الأَوْل وذلك يأتي لمعنيين: الأول: هو التفسير، وتأويل الكلام هو تفسيره، وتأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسير الرؤيا كما قال تعالى: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] أي بتفسيره، وتأويل الرؤيا أيضاً وقوعها وتحققها كما قال تعالى: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ} [(١٠٠) سورة يوسف] وذلك لما رأى الشمس والقمر قد سجدوا له.

ويأتي التأويل بمعنى ما يئول إليه الشيء في ثاني الحال، وتأويل الأمر هو فعل المأمور كما في حديث عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٩)

ربنا وبحمدك الله اغفر لي)) يتأول القرآن"[3] أي: يمتثل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر].

وتأويل الخبر يعني وقوع المخبر به وهو المراد بقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به من القيامة والبعث والنشور والجنة والنار.

وأما صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح فهذا اصطلاح حادث لا يفسر به القرآن؛ لأنه لا يجوز حمل القرآن على مصطلح حادث.

وقوله: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا.

{قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه {أَوْ نُرَدُّ} إلى الدار الدنيا {فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [(٥٣) سورة الأعراف] كقوله: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٧-٢٨) سورة الأنعام] كما قال هاهنا: {قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم -عليه السلام-.

واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام، كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-؟، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيدي فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين،

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) (ج ١ / ص ٢٨١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ،آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل))[٤].

يقول –رحمه الله-: "**فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت وهو القطع**" وقوله تعالى: **{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً}** [(١٦٣) سورة الأعراف] أي: يوم ينقطعون عن الأعمال، وذلك يوم إجازتهم.

وعلى كل حال فالمشهور الذي دلت عليه الأدلة أن يوم السبت لم يقع فيه خلق، والله -عز وجل- خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان ابتداء الخلق يوم الأحد.

وبالنسبة لأهل الجاهلية فإنهم كانوا يسمون يوم الأحد "أول" ويعتبرونه أول أيام الأسبوع، ويوم الجمعة كانوا يسمونه "عروبة".

والحاصل أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، وآخر الخلق كان يوم الجمعة، وآدم -صلى الله عليه وسلم- خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة.

وهذا الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- فيه إشكالان: الأول: أنه جعل الخلق مبتدأً يوم السبت، وهذا خلاف الأدلة الأخرى.

والإشكال الثاني: أنه جعل أيام الأسبوع كلها أيام خلق، فذكر السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة فصار الخلق في سبعة أيام، أضف إلى ذلك أنه ذكر في خلْق هذه الأشياء -التربة والشجر والمكروه والنور والدواب- يومَ الخميس، وخلْق آدم في يوم الجمعة، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق الأرض في يومين وخلق السماوات في يومين وأنه بثّ أو قدر فيها أقواتها في يومين فصار ما يتعلق بالأرض جميعاً من خلْق ودَحْوٍ في أربعة أيام، فهنا جعل الخلق في سبعة أيام وهو مخالف لقوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}** [(٣) سورة يونس].

وقد تكلم العلماء على هذا الحديث وقالوا: إنه غلط وليس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما هو مما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن بني إسرائيل، ورفْعه لا يصح إلى رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وقد قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في دروسه التي كانت في التفسير كلاماً جيداً يمكن الاستفادة منه.

قال الشنقيطي –رحمه الله تعالى-: والعلماء يقولون: إن هذه الأيام المراد بها أوقاتها؛ لأنه في ذلك الوقت لم يكن هنالك يوم؛ لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، وإن لم يكن هنالك شمس لا يعرف اليوم، إلا أن الله قبل أن يخلق الشمس والقمر يعلم زمن الأيام قبل وجود الشمس.

وهذه الأيام قد جاء في روايات كثيرة أن أولها الأحد وآخرها الجمعة، والقرآن بيّن أنه خلق الأرض في يومين، ثم خلق فيها الجبال والأقوات والأرزاق في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، فهي ستة أيام، ويوم السبت ليس منها، وما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن الله

---

[4] - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب ابتداء الخلق وخلق آدم -عليه السلام- (٢٧٨٩) (ج ٤ / ص ٢١٤٩).

خلق التربة يوم السبت، وجعل في كل من أيام الأسبوع بعض الخلق وإن كان في صحيح مسلم فهو غَلَطٌ، غَلِط بعض الرواة في رفعه، والظاهر أنه أخذه أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن كعب الأحبار أو نحوه من الإسرائيليات؛ لأنه خلاف القرآن الصحيح أن السبت لم يكن من الأيام التي خُلق فيها شيء، وأن السماوات والأرض وما بينهما خلقت في ستة أيام من الأسبوع أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، خلق الله فيه آدم بعد صلاة العصر.

وهذه الأيام قال بعض العلماء إنها كأيام الدنيا، وقال بعضهم: اليوم منها هو المذكور في قوله: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٤٧) سورة الحـج] والله خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام -مع أنه قادر على أن يخلق الجميع في لحظة واحدة كلمح البصر- لحكمته -جل وعلا-.

قال بعض العلماء: أراد أن يعلّم خلقه التمهل في الأمور والتدرج فيها؛ ليقدروا عليها، وهو قادر على خلق ما يشاء في لحظة واحدة {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [(٥٠) سورة القمر] فهو يقول للشيء: كن فيكون، هذا معنى قوله: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [(٥٤) سورة الأعراف].

قال الحافظ ابن كثير: وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [(٥٤) سورة الأعراف] فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [(١١) سورة الشورى] بل الأمر كما قال الأئمة، منهم: نعيم بن حماد الخزاعي -شيخ البخاري- قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [(٥٤) سورة الأعراف] أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي: سريعاً لا يتأخر عنه.

في قوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [(٥٤) سورة الأعراف] قراءة أخرى لعاصم وحمزة والكسائي بالتشديد (يغشّي الليل النهار).

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى قوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}: "أي: **يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا**" أي يغشي الليل النهار ويغشي النهار الليل مع أنه ما ذكرت الآية إلا واحداً {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [(٥٤) سورة الأعراف] ولذلك قال بعض أهل العلم: إنه ما ذكره من باب الاكتفاء، كما ذكرنا -مراراً- أنه قد يذكر أحد المتقابلين أو النظيرين اكتفاء به عن ذكر الآخر؛ لأنه يدل عليه، ولذلك فإن بعضهم يجعل من هذا قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [(٩) سورة المزمل] أي: والشمال والجنوب، وبعضهم يقول غير ذلك في هذا المثال، وكذلك هو الحال في قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [(٩) سورة

الأعلى] يعني وإن لم تنفع على أحد الأقوال في تفسير الآية، وكذلك قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [(٨١) سورة النحل] أي: والبرد.

بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وعكسه، كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٣٧-٤٠) سورة يـــس].

فقوله: {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} **أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال:** {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} **[(٥٤) سورة الأعراف] منهم من نَصَبَ ومنهم من رَفَعَ، وكلاهما قريب المعنى.**

قوله: "**منهم من نصَب ومنهم من رفعَ**" يعني في الشمس والقمر والنجوم، فالرفع قراءة ابن عامر وهي قراءة متواترة (**والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ بأمره**) على أنها جملة اسمية من المبتدأ والخبر، يخبر الله عن تسخيرها.

وعلى قراءة النصب وهي قراءة البقية يكون ذلك عائداً على قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٥٤) سورة الأعراف] يعني وخلق الشمس والقمر وخلق النجوم في حال كونها مسخرات.

منهم من نصب ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال منبهاً: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} **[(٥٤) سورة الأعراف] أي: له الملك والتصرف.**

يقول تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [(٥٤) سورة الأعراف] أي: هو الذي يخلق وهو الذي يحكم ويشرع ويأمر وينهى -سبحانه وتعالى-.

وقد فرَّق تعالى هنا بين الخلق والأمر وهذا مما استدل به أهل السنة على أن الأمر غير الخلق، وهو مما ردوا به على من قال بخلق القرآن، والله المستعان.

{تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} **[(٥٤) سورة الأعراف] كقوله:** {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} **الآية [(٦١) سورة الفرقان].**

تبارك بمعنى كثرت بركته واتسعت، وبعضهم يقول: تبارك أي: تعاظم.

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- وروي مرفوعاً: "اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله"[5].

---

[5] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرفوعاً عن أبي سعيد الخدري (٤٤٠٠) (ج ٤ / ص ٩٧) وقال الألباني: "موضوع" كما في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (٩٦٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٥-٥٦) سورة الأعراف].

أرشد -تبارك وتعالى- عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} قيل: معناه تذللاً واستكانة، {وَخُفْيَةً} كقوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ} الآية [(٢٠٥) سورة الأعراف].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيها الناس ارْبَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إن الذي تدعون سميعاً قريباً)) الحديث[1].

وقال ابن جرير: {تَضَرُّعًا} تذللاً واستكانة لطاعته {وَخُفْيَةً} يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهراً مراءاة.

الدعاء ينقسم إلى دعاء مسألة وإلى دعاء عبادة، وبين النوعين ملازمة لا تخفى، وكثير من المواضع في القرآن محمولة على النوعين، على خلاف بين أهل العلم في تفاصيل تلك الأمثلة، فالله -عز وجل- يقول: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}** [(١٨٦) سورة البقرة] أي: أنه يجيب السائلين فيعطيهم سؤلهم، وهذا هو دعاء المسألة، ويثيب العابدين على عابدتهم وهذا هو دعاء العبادة.

ولا شك أن العابد سائل بفعله، فهو حينما يصلي فإنما يطلب بهذه الصلاة ثواب الله -تبارك وتعالى- فهو سائل بهذا الفعل، وهكذا أيضاً الذاكر، وقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أفضل الدعاء الحمد لله)) وهو بإسناد حسن[2] فمن أهل العلم من حمله على هذا المعنى باعتبار أن المُثني على الله -تبارك وتعالى- الحامد له إنما يفعل ذلك طلباً لما عنده، وبعضهم يقول غير هذا.

وقوله تعالى: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}** [(٥٥) سورة الأعراف] يمكن أن يحمل على النوعين، وإن كان المتبادر أن المراد به دعاء المسألة، لكن دعاء العبادة ملازم لدعاء المسألة.

فقوله: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ}** يعني لا تدعوا غيره، وعلى معنى العبادة لا تعبدوا غير الله -عز وجل- وكونوا متذللين بعبادتكم له بحيث لا يكون الإنسان حينما يعبد ربه -تبارك وتعالى- كالمانِّ على الله -جل جلاله- فالله غني

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي- باب غزوة خيبر (٣٩٦٨) (ج ٤ / ص ١٥٤١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) (ج ٤ / ص ٢٠٧٦).

[2] - أخرجه الحاكم (١٨٣٤) (ج ١ / ص ٦٧٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٧١)(ج ٤ / ص ٩٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤).

عنه وعن عبادته، وهكذا أيضاً يخفي عمله الصالح فذلك أدعى للإخلاص، والمقصود أن هذا المعنى تحتمله الآية –أي دعاء العبادة- وإن كان المتبادر فيها هو دعاء المسألة، ومثل ابن القيم -رحمه الله- فإنه يحمل هذه الآية بخصوصها على النوعين.

والحاصل أنه في دعاء المسألة ينبغي على المسلم أن يدعو وهو في حال من التذلل ولا يدعو بشيء من العلو والترفع أو يدعو بأسلوب لا يليق ولا يتأدب فيه مع الله -جل جلاله- كالذي يرفع صوته رفعاً لا يليق، أو يتخير من العبارات ما لا يتناسب مع مقام المعبود -جل جلاله-، بل عليهم أن يدعوا ربهم ضارعين أي متذللين مخفين لهذا الدعاء، وذلك أدعى للإخلاص.

والعلماء -رحمهم الله- ذكروا فوائد كثيرة جداً لإخفاء الدعاء، والله -عز وجل- يعلم السر وأخفى ولا حاجة لرفع الصوت عند دعائه، فهذه عبادة وهي حاجة يرفعها العبد إلى مولاه الذي يعلم حاله ونجواه، فلا حاجة إلى إبداء ذلك للناس، فإن مقتضى الإخلاص أن يخفيه، ومن شاء فلينظر في بدائع الفوائد، فقد أطال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في فوائد إخفاء الدعاء.

ثم روي عن عطاء الخرساني عن ابن عباس في قوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف] في الدعاء ولا في غيره.

إي أن قوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف] يدخل فيه الاعتداء في الدعاء دخولاً أولياً؛ لأنه ذكر معه، فقوله: {إِنَّهُ} مشعر بالتعليل، أي لأنه لا يحب المعتدين، لكنه لم يخصص الدعاء، فيدخل فيه غير الدعاء أيضاً، فهو لا يحب المعتدين مطلقاً، الذين يجاوزون حدوده.

وقال أبو مجلز: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف]: لا يسأل منازل الأنبياء.

وروى الإمام أحمد عن أبي نعامة أن عبد الله بن المغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور))[٣] وهكذا رواه ابن ماجه وأخرجه أبو داود، وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

الاعتداء في الدعاء يقع على صور وأنواع، فمن سأل ما يمتنع عقلاً فهو معتدٍ، كأن يسأل أن يجعله الله -عز وجل- في مكانين في وقت واحد، فهذا ممتنع عقلاً، وكذلك من سأل ما يمتنع شرعاً بحيث إن الشارع حكم بامتناعه كالذي يدعو للكافر الذي مات على الكفر بالمغفرة والرحمة، فهذا من الاعتداء في الدعاء، وكذلك من سأل ما يمتنع عادة، كالذي يسأل الولد من غير نكاح، فهذا ممتنع في مجاري العادات، وكذلك أيضاً من سأل شيئاً محرماً فيدعو أن ييسر الله له ذلك الحرام، فهذا لا يجوز وهو من الاعتداء، وهكذا أيضاً من رفع صوته رفعاً زائداً في الدعاء فهذا من الاعتداء لا سيما أن الله قال بعده: {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [(٥٥) سورة الأعراف] لكن إذا كان ذلك في محضر غيره ممن يؤمِّنون على دعائه فيرفع رفعاً يتأدب فيه، وأما رفع الصوت الزائد فهذا خلاف الأدب مع الله -تبارك وتعالى-.

---

3 - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب الإسراف في الوضوء (٩٦) (ج ١ / ص ٣٦) وابن ماجه في كتاب الدعاء - باب كراهية الاعتداء في الدعاء (٣٨٦٤) (ج ٢ / ص ١٢٧١) وأحمد (١٤٨٣) (ج ١ / ص ١٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٩٦).

ومن الاعتداء رفع الصوت بالبكاء أثناء الدعاء بحيث يتحول ذلك إلى مناحة، فهذا من سوء الأدب مع الله -تبارك وتعالى-.

ومن الاعتداء سؤال التفاصيل، وإنما الذي ينبغي على الداعي أن يدعو بجوامع الكلم ويترك التفاصيل كهذا الذي سأل ربه قصراً أبيض عن يمين الجنة، فهذا من الاعتداء.

ومن الاعتداء تحويل الدعاء إلى موعظة كما يفعل كثير من الناس فبدلاً من أن يقول الداعي: رب إني أسأل كذا يتحول إلى ذكر القبور واللحود، وإذا سالت العيون، وذكر الجنادل والدود والصديد، وهذا في غاية القبح؛ فالدعاء ليس موعظة تُستجلب بها عواطف الناس وتستثار فيها نفوسهم ليبكوا منها، فهذا غير صحيح، فعلى الإنسان أن يحمد الله -عز وجل- ويثني عليه بما هو أهله ويصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ويدعو بجوامع الكلم ولا يحوّل الدعاء إلى موعظة.

ومن الاعتداء ما يفعله بعض الناس حيث يأتون بالأسماء الحسنى المذكورة في بعض الأحاديث كما عند الترمذي والحاكم والتي لا تصح أسانيدها -أعني التسعة والتسعين- ثم يتكلف لكل اسم دعاء وتتحول القضية إلى فرجة للاستماع بعد أن امتلأ المسجد بالمصلين بل إن المساجد الأخرى تنتهي فيها الصلاة فيأتي المصلون ليسمعوا هذا الدعاء وتمتلئ الشوارع بالناس لأجل هذا كما يحصل في بعض البلاد، والله المستعان.

ومن ذلك التطويل الزائد، حتى إن مدة الصلاة تكون نصف ساعة ودعاء القنوت يستمر ساعة، وهذا غير صحيح.

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله- عمَّا إذا زاد عما ورد في حديث الحسن: ((اللهم اهدنا فيمن هديت))[٤] فقال: اقطع صلاتك، فكيف لو رأى الدعاء الذي يستمر إلى ساعة إلا ربعاً أو ساعة؟

وبعض الأئمة يضعون وريقات صغيرة في كف اليد بحيث لا يراها الناس فيقلبها ويدعو بما كتب فيها لمدة ساعة كاملة، وهذا لا يليق!

وقد اشترطت مرة على أحدهم -أراد أن يلقي كلمة- أن لا يطيل في الدعاء، فأطال إطالة زائدة وكنت قد صليت خلفه فرفعت رأسي وجلست أنظر إليه وإذا به يقلب أوراقاً صغيرة بيده يقرأ منها هذا الدعاء الطويل مدة ساعة إلا ربعاً تقريباً!

وآخر صلى بجانبي وكان يبكي بكاء شديداً ورفع صوته بالبكاء إلى درجة قبيحة، حتى خشيت أن أخرج بمقت الله -عز وجل- ثم قطع صلاته وخرج من المسجد، أهذه صلاة وهذا دعاء؟!

هذا مما لا يليق، ولكنْ كثير من الناس تحكمهم عواطفهم لا الشرع، ولا يُعملون عقولهم ولو أعملوا عقولهم لما رضوا بمثل هذا.

على كل حال صور الاعتداء في الدعاء متنوعة يدخل فيها ما ذكرت وغير ما ذكرت، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [(٥٦) سورة الأعراف] ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض -وما أضره بعد الإصلاح-؛ فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان

---

[4] - أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٠١) (ج ٣ / ص ٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٦٧٥٩) (ج ١٢ / ص ١٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٢٦٦) (ج ٢ / ص ٢١٠) وصححه الألباني في الإرواء برقم (٤٢٩).

أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} [(٥٦) سورة الأعراف] أي: **خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.**

قوله تعالى: **{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}** [(٥٦) سورة الأعراف] يدخل فيه تغيير شرائع الإسلام، والخروج على أحكام الله -تبارك وتعالى-، والكفر به، ومحادة رب العالمين، وفعل المعاصي، كل ذلك من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، فالله -عز وجل- أنزل الكتب وأرسل الرسل بالهدى ودين الحق، وهذا هو عين الإصلاح، فلا يجوز لأحد أن يخرج عن ذلك وأن يكفر بالله -جل جلاله- أو يخرج عن شرعه فيكون بذلك مفسداً في الأرض بعد إصلاحها، أي بعد أن أصلحها الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

ومن دعا إلى الضلال، وفتن الناس عن الحق، ولبَّس عليهم أو أشاع الفاحشة في المجتمع فهذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

ويدخل في الإفساد في الأرض تخريب العمران والسكك، وإفساد أموال الناس وقطع الأشجار وتخريب الأنهار، وتغوير المياه، وما أشبه ذلك مما يحصل به إفساد حياة الناس، وكذلك العبث والتخريب بالحروب التي تفسد ولا تصلح أو غير ذلك من صور الإفساد في الأرض وإفساد حياة الناس ومعاشهم، كل ذلك داخل في قوله: **{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}** [(٥٦) سورة الأعراف].

ثم قال: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] ذكر –تبارك وتعالى- أدبين في أول الآية السابقة وأدبين في آخر هذه الآية، فأما الأدبان في أول الآية فقوله: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}** [(٥٥) سورة الأعراف] أي: ادعوه تعالى بتذلل وإخفاء، وأما الأدبان في آخر هذه الآية فهما الخوف والطمع حيث قال: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] فالإنسان بجمعه بين الخوف والطمع يكون خائفاً راجياً.

وقوله: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] يعني لا يكُن مدلاً لربه –جل وعلا- في دعائه، بمعنى أنه لا يدعو بترفع وكأنه متفضل على الله -عز وجل- وإنما يدعو في حال من الخوف وفي حال من الطمع.

والفرق بين الطمع والتمني أن التمني هو أن يؤمِّل حصول شيء أو يطلب حصول شيء محال أو بعيد المنال، أما الطمع فهو رجاء الشيء القريب المأخذ أي: الذي يرجى حصوله عن قريب.

قوله: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] أي لا يدعو الإنسان ربه وهو يائس من إجابة الله -عز وجل- لدعائه، فهذا لا يليق؛ لأنه سوء ظن بالرب -جل جلاله- والله -عز وجل- يقول: ((أنا عند ظن عبدي بي))[5] فعلى العبد أن يحسن الظنَّ بالله -عز وجل- أنه يجيب دعوة الداعين، فالله –عز وجل يقول: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** [(٦٠) سورة غافر].

ثم قال: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف] **أي: إن رحمته مرسلة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الآية**

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

[(١٥٦) سورة الأعراف] وقال: قريب، ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمَّن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: {قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف].

وقال مطر الوراق: "تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته؛ فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين" [رواه ابن أبي حاتم].

يقول تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف] لفظ "قريب" مذكر و"الرحمة" مؤنث، فلماذا لم يقل: إن رحمت الله قريبة من المحسنين؟ هذا وجه السؤال، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جوابين عن هذا الإشكال، الأول: أنه لم يقل: إن رحمت الله قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، والثواب مذكر، والمراد بالتضمين معلوم، فالعرب قد تضمن الفعل أو ما يقوم مقامه معنى فعل آخر وذلك أبلغ في الكلام، فقوله: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ} [(٥٦) سورة الأعراف] تكون الرحمة مضمنة معنى الثواب أو مفسرة بالثواب، يعني: إن ثواب الله قريب، والثواب مذكر، فيكون بذلك قد روعي المعنى.

والمعنى الثاني الذي ذكره الحافظ هو قوله: "**أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: {قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف]**"

ومن أهل العلم من يقول: فيه مقدر محذوف، أي: إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين، والقاعدة أن الكلام إذا دار بين الحذف والاستقلال فالأصل الاستقلال، يعني لا حاجة لدعوى الإضمار والتقدير إذا كان يمكن للكلام أن يكون مستقلاً على ظاهره من غير دعوى الحذف، وهذا ممكن هنا.

ومن الأجوبة الحسنة في هذا أن الرحمة مؤنث غير حقيقي والمؤنث غير الحقيقي يمكن أن يكون العائد إليه أو الصفة التي يوصف بها أو الضمير أو نحو ذلك يمكن أن يكون مذكراً أو مؤنثاً.

ومن الأجوبة أيضاً -ولعل هذا أحسن من الذي قبله- أن يقال: إن لفظة قريب إذا أريد بها قرابة النسب فإنها تكون مؤنثة مع المؤنث ومذكرة مع المذكر، تقول: زيد قريبي، زيد قريب لعمرو، ومع المؤنث تقول: فلانة قريبتي، وفلانة قريبة لزيد، وأما إذا أريد قرب المسافة أو قرب الزمان أو نحو ذلك فإنه يقال: قريب ولا يقال: قريبة، والله -عز وجل- وصف الساعة بأنها قريب وذلك قرب الوقت والزمان، وهنا: رحمة الله قريب من المحسنين بهذا الاعتبار، فهذا جواب جيد، وقد قيل غير ذلك، حتى إن بعضهم ذكر في هذا عشرة أجوبة.

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [(٥٧-٥٨) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى أنه خالق السماوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر، نبَّه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: (وهو الذي يرسل الرياح نشراً) أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ {بُشْرًا} كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} [(٤٦) سورة الروم].

هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أعني قوله: "**لما ذكر تعالى أنه خلق السماوات والأرض...**" إلى آخره، هذا يسمونه بالمناسبة، وهو وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا} -بضم الباء وإسكان الشين- هذه قراءة عاصم، والمعنى أنها تبشر بالمطر كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} [(٤٦) سورة الروم] فهي تهب بين يدي المطر.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "(وهو الذي يرسل الرياح نشراً) أي: **ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ** {بُشْرًا}" وقلنا: {بُشْرًا} هذه قراءة عاصم، والمعنى أنها تبشر بالمطر، و(نُشْراً) بضم النون وإسكان الشين هذه قراءة ابن عامر، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو بضم النون والشين (نُشُراً) فبعضهم يقول: هذا جمع الجمع، وبعضهم يقول: إن (نُشُراً) يعني الرياح التي تهب من كل ناحية من النواحي المختلفة، وقراءة حمزة والكسائي بفتح النون والشين على المصدر يعني (نَشَراً) وفسر هذه القراءة كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- بأنها الرياح الطيبة.

وعلى كل حال فقراءة {بُشْرًا} يعني أنها تبشر بالمطر، فإذا رآها الناس أمّلوا بنزول المطر، وهي رياح معينة فليست كل رياح يأتي معها المطر، وهذا الشيء الذي يستبشرون به لا يتنافى مع ما يداخله ويخالطه من الخوف من أن يكون ذلك عذاباً، فهذا إنما يكون لأهل المعرفة بالله -عز وجل-، وأهل الخشية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا رأى السحاب دخل وخرج وظهرت عليه أمارات الخوف، ويخبر -صلى الله عليه وسلم-: أن قوماً قد رأوا هذا السحاب فكان عذاباً، مع أنهم لما رأوه استبشروا به وقالوا: {هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [(٢٤-٢٥) سورة الأحقاف].

فالسحاب قد يكون نعمة وقد يكون عذاباً، ولهذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاف غاية الخوف حتى ينزل المطر، فهذا لأهل المعرفة بالله -تبارك وتعالى-، وأما على قراءة (نُشْراً) فالمعنى أنها ناشرة للسحاب.

وقوله: {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} **[(٥٧) سورة الأعراف] أي: بين المطر، كما قال:** {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} **[(٢٨) سورة الشورى] فقال:** {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} **[(٥٠) سورة الروم].**

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً} **[(٥٧) سورة الأعراف] أي: حملت الرياح** {سَحَابًا ثِقَالاً} **أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة كبيرة من الأرض مدلهمة.**

يقول الحافظ: "{بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} **[(٥٧) سورة الأعراف] أي: بين يدي المطر**" يعني تهب هذه الرياح ثم بعد ذلك يكون نزول المطر، وهذا شيء معروف يدركه الناس، فالرياح المثيرة للمطر هي التي تسوق السحاب وتنشره فينزل المطر بعدها، وفي بعض النواحي لا يكاد يخطئ توقع الناس لنزول المطر حينما تهب الرياح من ناحية معينة أو حينما يأتي السحاب من ناحية معينة.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً} [(٥٧) سورة الأعراف] {أَقَلَّتْ} يعني حملت ورفعت، فهذه الرياح هي التي تحمل السحاب وتسوقه حيث أراد الله -تبارك وتعالى-.

وقوله: {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ} **[(٥٧) سورة الأعراف] أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله:** {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} **الآية [(٣٣) سورة يـــس] ولهذا قال:** {فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ

{الْمَوْتَى} [(٥٧) سورة الأعراف] أي: **كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله -سبحانه وتعالى- ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [(٥٧) سورة الأعراف].

يعني ذكْر إحياء الأرض بعد موتها في القرآن هو أحد أنواع الأدلة الدالة على البعث، حيث يدل على قدرة الله -عز وجل-، وقد مر معنا خمسة أنواع من هذه في سورة البقرة، ومعلوم أن كل نوع من هذه الأنواع تحته أمثلة كثيرة في القرآن، فإحياء الأرض بعد موتها يتكرر في القرآن كثيراً حيث يستدل ربنا -تبارك وتعالى- به على قدرته على بعث الأجساد بعد موتها.

وقوله: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [(٥٨) سورة الأعراف] أي: **والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}** [(٣٧) سورة آل عمران].

{وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا} [(٥٨) سورة الأعراف] **قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها.**

قوله تعالى: **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ}** [(٥٨) **سورة الأعراف] قال فيه** بعض أهل العلم: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لسريع الفهم والبليد، لكن هذا القول فيه بعد.

وبعضهم قال: هذا مثل للقلوب من جهة تأثير الموعظة، فمنهم من إذا سمع الموعظة أثر فيه ذلك أبلغ التأثير، ومنهم من لا يرفع لذلك رأساً ولا يتأثر.

وبعضهم قال: هذا مثل لقلب المؤمن وقلب المنافق.

وبعضهم يقول: هذا مثل للطيب والخبيث، ولعل الحديث الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا –وسيأتي بعد قليل- يدل على ذلك، أعني حديث أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- حيث مثل حال الناس في قبول هدى الله -تبارك وتعالى- والانتفاع به فجعلهم على ثلاثة أقسام، فقال تعالى: **{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا}** [(٥٨) سورة الأعراف] فمن أراد الله هدايته وصلاح حاله إذا سمع هدى الله -تبارك وتعالى- ومواعظ القرآن أثرت فيه غاية التأثير فأنبت ذلك في قلبه الخوف والرجاء والمحبة، فأقبل على الله -تبارك وتعالى- وصار عابداً له، وأما الآخر فهو كما قال الله -تبارك وتعالى-: إنهم إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}** [(١٦) سورة محمد] **{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}** [(١٢٥) سورة التوبة] فلا ينتفعون بهذه الآيات، ولا بوحي الله -جل جلاله-.

وروى البخاري عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))[6].

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب فضل من علم وعلم (٧٩) (ج ١ / ص ٤٢) ومسلم في كتاب الفضائل - باب بيان مثل ما بُعث به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهدى والعلم (٢٢٨٢) (ج ٤ / ص ١٧٨٧).

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٥٩-٦٢) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء -عليهم السلام- الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح -عليه السلام- فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم -عليه السلام- وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ، وهو إدريس.

طبعاً هذه الأسماء في الكتب تختلف، أي أنها يدخلها شيء من التحريف، والله أعلم، فإذا نظرت في البداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير، والسيرة لابن هشام، وغير ذلك من المصادر التي تُذكر فيها هذه الأسماء تجد فروقات في ضبط هذه الأسماء، فهنا يقول: "**نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس**" وبالطبع فإن هذه أسماء أعجمية.

وقوله: "**ابن خنوخ وهو إدريس**" هذا بناء على أن إدريس -صلى الله عليه وسلم- كان قبل نوح وأنه من أجداده، وهذا ذكره بعض المؤرخين، وذكره ابن إسحاق أيضاً، لكنه لا يثبت، بل قال ابن العربي المالكي: إن هذا وهم، فالأقرب أن إدريس -صلى الله عليه وسلم- كان بعد نوح، ومعلوم أن نوح -عليه الصلاة والسلام- هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض فلم يكن قبله رسول، وآدم -صلى الله عليه وسلم- كان نبياً.

وعلى قول من قال: إن إدريس -عليه الصلاة والسلام- من أجداد نوح يقولون: على هذا يكون من الأنبياء وليس من الرسل، وعلى كل حال لا يثبت أنه كان قبله.

وكثير ممن كتبوا في تاريخ الأهرام وتكلموا عليها ممن ينقلون من الأخبار الإسرائيلية والأشياء التي لا يمكن أن يوثق بها، يقولون: إن الذي بناها هو إدريس -عليه الصلاة والسلام- وإن كانوا لا يذكرونه بهذا الاسم لكنهم يقصدون إدريس -عليه الصلاة والسلام-، ويقولون: إنها كانت قد بنيت قبل الطوفان ولو كانت بعد الطوفان لعرفنا خبرها، يعني لو كان الذين بنوها هم الفراعنة مثلاً لعرفوا خبرها فحيث قد انقطع خبرها، هذا يدل على أنها بنيت قبل الطوفان.

هكذا يقولون، ويمكن الرجوع في هذا إلى ما كتبه المقريزي في كتاب الخطط، وكذلك السيوطي في حسن المحاضرة حيث أطال في الكلام على هذا.

وعلى كل حال لعل الأقرب -والله أعلم- أن إدريس -عليه الصلاة والسلام- كان بعد نوح ولم يكن قبله، وكان بين نوح وآدم -عليه الصلاة والسلام- عشرة قرون كلها على التوحيد، ولا يعني هذا بالضرورة أن المدة التي كانت بين آدم وبين نوح عشرة قرون، وإنما المقصود أن الذين كانوا على التوحيد عشرة قرون، ثم وقع الشرك في قوم نوح فبعث الله -عز وجل- إليهم نوحاً.

وهو نوح بن لامك بن متوشَلَح بن خنوخ- وهو إدريس النبي -عليه السلام- فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم- ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم -عليه السلام-، هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله -سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة- رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحدة لا شريك له، فقال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(٥٩) سورة الأعراف] **أي: من عذاب يوم القيامة، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به {قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ}** [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء.**

الملأ يقال لجماعة الرجال خاصة ولا يقال للنساء، وقيل لهم: ملأ؛ لأنهم يتمالئون على الأمر، فهم أهل الحلِّ والعقد، حيث إنهم الكبراء والأشراف والسادة، هكذا قيل، وقيل: إنهم قيل لهم ذلك؛ لأنهم يملئون صدور المجالس -وهذا يرجع أيضاً إلى المعنى السابق-أي أنهم من أشراف الناس، فالمقصود أن قوله: **{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ}** يعني قال الكبراء من قومه.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ} [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}** [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا.**

وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلال، كقوله: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ} [(٣٢) سورة المطففين] **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}** [(١١) سورة الأحقاف] **إلى غير ذلك من الآيات.**

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦١) سورة الأعراف] **أي: ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب العالمين، ربِّ كل شيء ومليكه {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [(٦٢) سورة الأعراف] **وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً، عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: ((أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: ((اللهم اشهد، اللهم اشهد))**[7].

قوله: **{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي}** [(٦٢) سورة الأعراف] يعني رسالة ربي، فلما تضمنت شرائع وأحكاماً أطلق عليها رسالات بالجمع، أي أن الله خاطبهم بأمور كثيرة.

وقوله: **{وَأَنصَحُ لَكُمْ}** يعني أنه يمحّض لهم النصح بحيث لا يكون فيه غش ولا كتمان ولا دَخَل، وإنما يكون نصحاً محضاً.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [(٦٣-٦٤) سورة الأعراف].

---

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦).

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: {أَوَعَجِبْتُمْ} الآية [(٦٣) سورة الأعراف] أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم {لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ} [(٦٣) سورة الأعراف] **نقمة الله ولا تشركوا به، {وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** [(٦٣) سورة الأعراف].

قال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: **تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضع آخر.**

{فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: **السفينة، كما قال: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ}** [(١٥) سورة العنكبوت].

{وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [(٦٤) سورة الأعراف] **كما قال: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا}** [(٢٥) سورة نوح].

وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: **عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} الآية** [(٥١) سورة غافر] **وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أنّ العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلبة لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجَّى نوحاً وأصحابه المؤمنين.**

قال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً" رواه ابن أبي حاتم، وروي متصلاً من وجه آخر عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

هذا مما يؤخذ عن بني إسرائيل ولا يمكن التحقق من صحته، فالله أعلم، لكن الله -عز وجل- أخبر أنه ما آمن معه إلا قليل، حتى إن بعض المفسرين قال: ما آمن إلا بنوه -عدا الابن الذي غرق- وأزواج بناته، هؤلاء الذين ركبوا معه في السفينة، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٩)

الشيخ/خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ* قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ* أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٦٥-٦٩) سورة الأعراف].

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً -عليه السلام- كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً -عليه السلام-.

قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح -عليه السلام-.

قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [(٦-٨) سورة الفجر]؛ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [(١٥) سورة فصلت].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله: "**قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم..**" إلى آخر ما ذكر، هذه الأنساب التي يذكرونها، وأسماء هذه الأمم، وأسماء الأنبياء الذين بعثوا إليهم من جهة النسب، يوجد فيها اختلاف في الروايات الواردة في ذلك من جهة الزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وضبط هذه الأسماء وما يتعلق بحروفها أيضاً، فالله تعالى أعلم.

وقوله: "**الذين كانوا يأوون إلى العمد**" يعني أنهم -على ما ذكره بعض المؤرخين- كانوا يضعون الخيام ذات العماد العالية الرفيعة؛ لطول قاماتهم، وقد ذكروا من ضخامة أجسامهم وطول قاماتهم شيئاً كثيراً حتى أوصله بعضهم إلى ستين ذراعاً في السماء، وحتى زعم بعضهم أن رأس الواحد منهم بقدر القبة، وزعم بعضهم أن عين الواحد منهم تلد فيها الذئبة أو الكلبة، وذكروا أشياء هي من قبيل المبالغات، حتى ذكروا أن حبة البر في ذلك الزمان بقدر كلية البقرة، وأن الرمانة يجلس فيها العشرة من الرجال، وأشياء قد لا تصدق، فالله تعالى ذكر أنه أعطاهم بسطة وقوة ولكن مثل هذه الأشياء التي يذكرها بعض المؤرخين قد يكون فيها كثير من المبالغات، فالله تعالى أعلم.

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

وفي بعض الروايات "وهي حبال الرمل" وأظن أنها أدق، والمقصود بحبال الرمل الكثبان المتواصلة، وهذا معروف في جنوب الجزيرة العربية، وهو ما يعرف بالربع الخالي الآن، فهم في جنوب الربع الخالي، وذكر بعضهم أن إرم هذه تطل على البحر عند بلدة يقال لها: الشِّحر وهي معروفة إلى اليوم، فبعضهم قال: إنها كانت تطل على البحر، وعلى كل حال هم في تلك الناحية، في حبال الرمل قريباً من حضرموت.

قوله تعالى: {إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [(٢١) سورة الأحقاف] يعني حبال الرمل، وهذا يدل على أن هذا المكان منذ ذلك الحين وذلك الزمان –قريباً من زمن نوح -عليه الصلاة والسلام- وقبل إبراهيم- وهو بهذه الصفة تقريباً، وما يزعمه بعضهم أن تلك الناحية ليست كما هي الآن وإنما كانت شيئاً آخر هذا فيه نظر؛ فالآية تقول: {أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [(٢١) سورة الأحقاف] يعني حبال الرمل، لكن لا يلزم أن تكون حبال الرمل لا يتخللها أنهار أو لا يكون فيها شيء من الجنات وما أشبه ذلك.

وروى محمد بن إسحاق عن أبي الطفيل عامر بن واثلة -رضي الله تعالى عنه- سمعت علياً -رضي الله تعالى عنه- يقول لرجل من حضرموت: "هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرة حمراء ذا أراكٍ وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟"

المدر هو قطع الطين اليابس.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه؟ قال: "لا، ولكني قد حدثت عنه" قال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: "فيه قبر هود -عليه السلام-" [رواه ابن جرير].

وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، فإن هوداً -عليه السلام- دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشدِّ الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود -عليه السلام- إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

قبر هود -عليه الصلاة والسلام- في تلك الناحية، وكان يزار محلٌ يزعم الناس أنه قبر هود -عليه الصلاة والسلام- ولست أدري هل لا يزال عندهم شيء من هذا أو لا؟ فأهل البدع القبوريون يزورون محلاً هناك ويزعمون أنه قبر هود، لكن طبعاً لا يثبت مكان بعينه أنه قبر هود، ولذلك يوجد عند أهل الشام مكان يزعمون أيضاً أنه قبر هود -عليه الصلاة والسلام-، ولست أدري أيضاً هل هذا الأمر موجود إلى الآن أو لا؟ لكن على كل حال ذكر هذا أهل العلم في كتبهم، وهذا لا يستغرب؛ فقبر الحسين -رضي الله عنه- في كربلاء، وفي مصر، وفي الشام، كما يزعمون وكذلك السيدة زينب موجودة في مصر وفي الشام، وهكذا تجد القبر الواحد موجوداً في أكثر من مكان!!

وعلى كل حال هؤلاء أحياناً يخترعون مكاناً بأن يقول بعضهم: إنه رأى الولي الفلاني في المنام وهو في المكان الفلاني ويقول: اتخذ هنا مكاناً أو مقاماً أو مزاراً، فينسب إلى هذا الشخص أنه في ذلك المكان ويأتون ويتعبدون عنده، وهكذا تبتكر أماكن جديدة لنفس الشخص بهذه الطريقة، وهكذا تلعب بهم الشياطين.

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} [(٦٦) سورة الأعراف] **والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [(٦٦) سورة الأعراف] أي: في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة**

الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجَّب الملأ من قريش من الدعوة إلى إلهٍ واحد فقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} الآية [(٥) سورة ص].

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦٧) سورة الأعراف] أي: لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كلَّ شيء فهو رب كل شيء ومليكه.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [(٦٨) سورة الأعراف] وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ} [(٦٣) سورة الأعراف] أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم.

هكذا ذكر الله -عز وجل- عن الأمم أنهم كانوا يستنكفون ويتعجبون أن يبعث الله -عز وجل- رجلاً رسولاً، كما قال الله تعالى عنهم: {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [(٩٤) سورة الإسراء] فهذا شيء عندهم في غاية الاستغراب والاستبعاد، والله -عز وجل- أجاب عن هذا في مواضع من القرآن، وقال: {وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [(٢٠) سورة الفرقان] وهكذا أخبر أن المرسلين كانوا رجالاً، وقضية استغراب الأمم والرد عليهم من الله -تبارك وتعالى- ومن أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام- هذه كثيرة في القرآن.

{وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} [(٦٩) سورة الأعراف] أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح -عليه السلام- الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه.

{وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [(٦٩) سورة الأعراف] أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت: {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [(٢٤٧) سورة البقرة].

{فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ} أي: نعمه ومننه عليكم {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٦٩) سورة الأعراف] والآلاء: جمع إلٍّ، وقيل: إلىً.

إلىً وآلاء، مثل عنب وأعناب، ومعًا وأمعاء، وإنًا وآناء.

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ* فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [(٧٠-٧٢) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود -عليه السلام-: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ} الآية [(٧٠) سورة الأعراف]، كقول الكفار من قريش: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٣٢) سورة الأنفال].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صدى، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء، ولهذا قال هود -عليه السلام-: {قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ} أي: قد

وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: معناه سخط وغضب.

{أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم} [(٧١) سورة الأعراف] **أي: أتحاجُّونِّي في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: {مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}** [(٧١) سورة الأعراف] **وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}** [(٧٢) سورة الأعراف].

قوم هود قالوا لهود -عليه الصلاة والسلام-: **{مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ}** [(٥٣) سورة هود] وقالوا له: **{إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ}** [(٥٤) سورة هود] هكذا كانوا يجادلونه في هذه الآلهة ويخوفونه من أن توصل إليه مكروهاً كما خوّف قوم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- من آلهتهم، فهو يقول لهم: **{أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم}** [(٧١) سورة الأعراف] يعني لا حقيقة لها وإنما اخترعتم لها هذه الأسماء وجعلتموها آلهة وهي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا حقيقة لها وليس لها نصيب من الإلهية!

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [(٤٢) سورة الذاريات] **كما قال في الآية الأخرى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ* فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}** [(٦-٨) سورة الحاقة] **لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أمِّ رأسه فتثلغ رأسه حتى تُبينه من جثته، ولهذا قال: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** [(٧) سورة الحاقة].

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عُمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هوداً -عليه السلام- وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [(١٥) سورة فصلت] **واتبعه منهم ناس، وهم يسيرٌ يكتمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}** [(١٢٨-١٣١) سورة الشعراء].

يعني من شدة بطرهم وأشرهم كانوا يبنون على الأماكن المرتفعة قصوراً لا حاجة لهم بها، أي فوق حاجتهم. وقوله تعالى: **{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}** [(١٢٩) سورة الشعراء] ذكرنا مراراً أنها الآية الوحيدة في القرآن التي تفسر فيها "لعل" بـــ"كأن" والباقي للتعليل، وفسرت المصانع بأنها القصور، وهي عملُ مَن كأنه سيخلد في هذه الدنيا.

ومن أوصاف قوم عاد ما ذكره الله عنهم في قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [(٦-٨) سورة الفجر] هذا بعض ما وصف الله -عز وجل- به حالهم وجبروتهم وقوتهم. {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ} [(٥٤) سورة هود] أي: **بجنون** {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٤-٥٦) سورة هود].

وروى الإمام أحمد عن الحارث البكري -رضي الله تعالى عنه- قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي -رضي الله تعالى عنه- إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقَطَعٍ بها.

قوله: "**منقَطَعٍ بها**" يعني لا تجد من يبلغها إلى المكان الذي تريد، أو لا تجد وسيلة تصل بها إلى مبتغاها، والربذة منطقة معروفة وهي التي كان فيها أبو ذر -رضي الله عنه- وهي ناحية شرقي المدينة، فعلى بعد مائة وعشرين كيلو من المدينة تقريباً تأتي الحناكية -على الطريق القديم- فإذا دخلت في داخل الصحراء نحو الحناكية قريباً من أربعين كيلو تأتي الربذة التي لا زال بعض أطلالها إلى اليوم.

فإذا بعجوز من بني تميم منقطَعٍ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إنّ لي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حاجة، هل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصٌ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً.

جاء في بعض الروايات أنها سرية ذات السلاسل، وفي بعض الروايات أن عمرو بن العاص قد قدم بهذا الجيش وقد وصل إلى المدينة.

قال: فجلست، فدخل منزله أو قال: رحله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت وسلمت فقال: ((هل بينكم وبين تميم شيء؟)) قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم.

الدبرة تقال للنصر والغلبة، وهي من الأضداد فيقال الدبرة للهزيمة أيضاً.

ومررت بعجوز من بني تميم منقطَعٍ بها، فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- من مضر وقولها: "**تضطر مضرك**" يعني تضيق عليهم بهذا.

قال قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: "معْزى حملتْ حتفها"؛ حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، قال لي: ((وما وافد عاد؟)) وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه

قوله: "**يستطعمه**" يعني يستزيده من الحديث.

قلت: إن عاداً قحطوا، فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمرَّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمدَداً، لا تبق من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا، قال أبو وائل: وصدق، قال: وكانت المرأة والولد إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد، هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي نحوه ورواه النسائي وابن ماجه[1]**.**

بعضهم رواه بسياق أطول من هذا وأكثر تفصيلاً، وبعضهم مختصراً، وهو في المسند قد ذكر له عدة روايات، وحسنه محقق المسند، وفي كتب التاريخ يذكرون تفاصيل أكثر من هذا، ويذكرون الأشعار التي كانت تغني بها الجاريتان، وأن معاوية بن بكر لما أطالوا المكث عنده لقن هؤلاء الجواري أبياتاً فرددنها على مسامع هؤلاء الوفد من أجل أنه أُحرج معهم وكره أن يشعرهم بشيء لئلا يظنوا أنه قد استثقل مكثهم عنده، ولما سمعوا بعض الأبيات حصل ما حصل، والله أعلم.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ* فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ* فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٧٣-٧٨) سورة الأعراف].

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل -عليه السلام- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، إلى وادي القُرى وما حوله، وقد مرَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لمَّا نزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالناس على تبوك، نزل بهم الحِجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: ((إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم))[2].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥٩٩٦) (ج ٣ / ص ٤٨٢) وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن".

[2] - أخرجه أحمد (٥٩٨٤) (ج ٢ / ص ١١٧) وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو بالحِجر: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم)) **وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين**[٣].

يؤخذ من هذا الحديث أن الإنسان لا يقصد هذه الأماكن لزيارتها والفرجة، لكن من مرَّ بها فأراد أن يدخلها فإنه يدخل باكياً أو متباكياً، والآيات التي أرشد الله -عز وجل- بها في القرآن إلى السير في الأرض والنظر في عواقب المكذبين هذه لمن كان عنده تردد وشك فإنه يذهب وينظر في حال هؤلاء وما حصل لهم ليعتبر، وأما من عرف الحق وآمن به فلا حاجة به لمثل هذا.

قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ} [(٧٣) سورة الأعراف] أي: **ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود** {أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [(٧٣) سورة الأعراف] **فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:** {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء] **وقال:** {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل].

ويدخل في هذا قوم لوط -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن الله -عز وجل- لم يذكر في دعوتهم -كما سيأتي- أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بالتوحيد ولهذا فهم منه بعض أهل العلم أنه لم يكن عندهم إشراك، وإنما كان عندهم الفاحشة، وهذا ليس بلازم، وإنما كان هؤلاء قد جاءوا بأمر لم يسبقوا إليه، وهو هذه الفاحشة، فجاءهم لوط -صلى الله عليه وسلم- فأنكرها عليهم، فلا يعني هذا بحال من الأحوال أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- ما خاطبهم بالتوحيد، ثم لو كان هؤلاء عندهم إيمان بالله -تبارك وتعالى- لما فعلوا هذا الفعل حتى كابروا غاية المكابرة واستهزءوا بلوط -عليه الصلاة والسلام- وهموا بإخراجه وإخراج المؤمنين معه حيث قالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [(٨٢) سورة الأعراف] وكانوا يراودونه عن ضيوفه، وهذا لا يفعله أناس من أهل الإيمان، ثم إن كانوا مؤمنين فمن أين جاءهم ذلك الإيمان؟ فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هاجر إلى الشام وآمن له لوط، وهو ابن أخيه، ولم يكن في تلك الناحية بل حتى على وجه الأرض أحد من المؤمنين، ولهذا استشكل العلماء قوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} [(٤) سورة الممتحنة] فمن الذين كانوا مع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولا يُعرف أنه آمن له أحد حينما كان في تلك الناحية عند قومه؟ ثم بعد ذلك لما هاجر آمن له لوط أو آمن له لوط عند هجرته {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [(٢٦) سورة العنكبوت] فهاجر إلى الشام، ولوط -عليه الصلاة والسلام- ذهب إلى ناحية قريبة من فلسطين فمن أين جاءهم التوحيد قبل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-؟

الحاصل أن الله -عز وجل- لم يذكر أنه دعاهم إلى التوحيد، ولا يلزم ذلك أنه لم يدعهم إليه، فالله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الحجر (٤٤٢٥) (ج ٤ / ص ١٧٣٧) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠) (ج ٤ / ص ٢٢٨٥).

ويقول: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل] أي كل رسول كان يأمر قومه بعبادة الله وحده، ومنهم لوط -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً} [(٧٣) سورة الأعراف] أي: **قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً -عليه السلام- أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجر يقال لها الكاثبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منه ناقة عُشَراء تَمْخض.**

العُشَراء هي التي بلغت الشهر العاشر في الحمل.

فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح -عليه السلام- إلى صلاته ودعا الله -عز وجل- فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحُباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له: شهاب بن خليفة بن وخلة بن لبيد بن جواس، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال: له مهوش بن عنمة بن الدميل -رحمه الله-:

وكانت عصبة من آل عمرو	**إلى دين النبي دَعوا شهابا**
عزيزَ ثمود كلهم جميعاً	**فهمّ بأن يجيب فلو أجابا**
لأصبح صالحٌ فينا عزيزاً	**وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا**
ولكن الغواة من آل حجر	**تولُّوا بعد رشدهم ذؤابا**

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبون فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ} [(٢٨) سورة القمر] **وقال تعالى:** {هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [(١٥٥) سورة الشعراء]**، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترِدُ من فجٍّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذُكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي -عليه السلام- عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها.**

قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهنَّ وعلى الصبيان، قلت: وهذا الظاهر لقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [(١٤) سورة **الشمس].**

يعني أنهم تواطئوا على قتلها جميعاً ما عدا المؤمنين الذين آمنوا حينما رأوا هذه الآية، والدليل على أن قتلها كان بمواطأة من الجميع -من غير المؤمنين- أن الله نسب عقْرها إليهم فقال: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِمْ} [(٧٧) سورة الأعراف] وقال تعالى: **{وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}** [(٧٧) سورة الأعراف]؛ فنبي الله قال لهم: **{وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [(٧٣) سورة الأعراف] فلما عتوا عن أمر الله -عز وجل- قالوا له: ائتنا بهذا العذاب الذي توعدتنا به.

وقال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [(٥٩) سورة الإسراء].

قوله: **{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}** أي آية مبصرة، وليس المقصود وصف الناقة أنها مبصرة.

وقال: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ} [(٧٧) سورة الأعراف] فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم.

أصل العقْر في كلام العرب هو الجرح، وبعضهم يقول: هو قطع عضو يؤثر في تلف النفس، تقول: عقرتُ الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف.

وبعضهم يقول: أصل العقْر هو كسر عرقوب البعير، ثم أطلق بعد ذلك على نحره؛ لأن كسر عرقوبه يؤدي إلى ذلك غالباً، أي يكون سبباً لنحره، يعني هم يضربون عرقوبه مثلاً من أجل أن يسهل عليهم نحره، وحتى في بعض الروايات في تفاصيل قتل الناقة –وهذا من المأخوذ عن بني إسرائيل- أنهم لما تآمروا على ذلك كمن لها أحدهم في صخرة فلما مرت به ضرب عرقوبها، ثم جاء الآخر وضربها في لبتها فنحرها، وفي الآية الأخرى أضاف العقر إلى واحد منهم فقال: **{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** [(٢٩) سورة القمر] يعني عمل عملاً فعقر، وهذا هو أحيمر ثمود، ويذكرون في التواريخ تفاصيل كثيرة في فعلهم ذلك وأسبابه، فالله تعالى أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتل الناقة أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة بنت غَنَم بن مجلز وتكنى أم غنم، كانت عجوزاً كافرة.

عنيزة بنت غَنَم يقال: كان لها غَنَم كبير وكانت الناقة إذا مرت نفرت الغنم منها، فكان هذا سبباً لمطالبتها بقتل الناقة.

وأما اسم هذه المرأة –عنيزة- فقد تكون نسبت إلى غنمها فقيل: بنت غَنَم لكثرة غنمها، أو من باب أن لكل مسمى له من اسمه نصيب سميت عنيزة بنت غنَم، وقيل: إنها كنيت بأم غنم لكثرة غنمها على ما ورد في بعض الأخبار، أما في أسماء بعض قادة التاريخ الإسلامي فيرد غنْم –بتسكين النون- وليس بفتحها، ومن أولئك عبد الرحمن بن غَنْم، وليس ابن غنَم كما يقول بعض الناس.

وكانت من أشدِّ الناس عداوة لصالح -عليه السلام- وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له الحُباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قُدارَ بن سالف بن جندع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: صهياد، ولكن وُلد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أيَّ بناتي شئت

على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [(٤٨) سورة النمل] **وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها لقدار وذمَّرته وشدَّ على الناقة بالسيف فكسف عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة، تحذّر سَقْبَها.**

قوله: "**تحذر سقبها**" يعني ولدها.

ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقْبها -وهو فصيلها- حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه ورغى، فروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا ربي أين أمي؟ ويقال: إنه رغى ثلاث مرات وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمِّه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبرُ صالحاً -عليه السلام- فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ} الآية [(٦٥) سورة هود].

الأهرامات هل هي ديار قوم معذبين فلا تجوز زيارتها؟:

بعض المؤرخين يقول: غالب الظن أنها كانت قبل الطوفان، أي قبل نوح -عليه الصلاة والسلام-، وكثير منهم يذكرون أن الذي بناها هو إدريس -صلى الله عليه وسلم- على أنه كان قبل نوح، ولا يثبت أن إدريس -عليه الصلاة والسلام- كان قبل نوح، وابن العربي يقول: هذا وهم، والأقرب أنه كان بعده.

وعلى كل حال فالأهرام إن كانت قبل الطوفان فهي ليست أماكن أناس معذبين، وإن كانت بعد الطوفان فينظر إن كانت لقوم ليسوا من المعذبين فلا ينطبق عليها هذا، وإن كانت كما يزعمون للفراعنة فهذا أيضاً محل نظر؛ باعتبار أن محل العذاب الذي وقع هو البحر وليست أرض مصر وإلا لكانت تلك الناحية جميعها أرضاً للمعذبين، وهذا لم يقل به أحد؛ والمقصود أن الذي لا يجوز زيارته هو المحل الذي نزل به العذاب.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن وادي محسِّر لما مرَّ به النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرع؛ لأنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل، وهذا لا يثبت -أعني أن الله أهلك الفيل هناك- ولذلك ذكر بعضهم مكاناً آخر، وربما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرع؛ لأن المحل يقتضي هذا، وكذلك نقل عن علي -رضي الله عنه- أنه لما مر بأرض الخسف من بابل أسرع وتلثم وأخر الصلاة حتى تجاوزه.

والناس يسألون كثيراً عن منتجات البحر الميت حيث توجد محلات ومصانع تصنع ألوان المستحضرات التجميلية وأشياء أخرى مما يتعالج به الناس وما أشبه ذلك وكلها مستخرجة منه، فيقولون: هل هذا هو المكان الذي عذب الله فيه قوم لوط -صلى الله عليه وسلم-؟

فأقول: وإن قال بهذا بعضهم إلا أني أظنه لا يثبت، والله -عز وجل- قال: **{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ}** [(١٣٨) سورة الصافات] فهل المقصود بذلك أنهم كانوا يمرون على البحر الميت أو أن لهم قرى كانوا يمرون عليها، فالله تعالى أعلم، فالأصل أن المكان الذي لا يثبت أنه محل للمعذبين لا تجري عليه الأحكام

التي رتبها النبي -صلى الله عليه وسلم- على مدائن قوم صالح، حيث نهاهم أن يستقوا من الآبار، وما عُجن بتلك المياه أمرهم أن يعلفوه الدواب، وإنما يكون هذا الحكم سارياً على المكان الذي عرف بهذا، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح -عليه السلام- وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ* وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ} الآية [(٤٩-٥١) سورة النمل] **فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله -سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله- عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس -وهو اليوم الأول من أيام النظرة- ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح -عليه السلام- وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل -وهو يوم الجمعة- ووجوههم محمرَّة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع -وهو يوم السبت- ووجوههم مسودَّة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه -عياذاً بالله من ذلك- لا يدرون ماذا يُفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة.**

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٧٨) سورة الأعراف] **أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، قالوا: إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بن السِّلْق، ويقال لها: الزُّرَيْقة، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح -عليه السلام-، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم**" هذا جمع بين ما ورد في كتاب الله -عز وجل- مما يُذكر فيه عقوبتهم، فقد ذكر الله -تبارك وتعالى- أنهم أخذتهم الرجفة، والرجفة: هي الزلزلة، أي اضطربت بهم الأرض واهتزت بهم.

وبعضهم يقول: أي الصيحة الشديدة، كما قال الله -عز وجل- في سورة هود: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}** [(٦٧) سورة هود] وأحسن ما يقال في هذا -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير ومشى عليه جماعة من المحققين، وممن قال به الشيخ محمد الأمين الشنقيطي من

المعاصرين، وهو أن الله -عز وجل- أخذهم بالرجفة، حيث صاح بهم الملك فاضطربت بهم الأرض ورجفت بهم فصاروا في دارهم جاثمين.

وأصل الجثوم هو اللصوق بالأرض والجُثِيّ على الركب والوجوه، والمقصود أنهم هلكوا وماتوا وفارقت أرواحهم أجسادهم.

يقول: "**إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السِّلْق ويقال لها: الزريقة**" ويقال لها: الزريعة -هكذا ضبطُه في تفسير ابن جرير، وهو الذي رجحه الشيخ محمود شاكر -رحمه الله-؛ باعتبار أن العرب تقول للكلاب أولاد زارع.

والسِّلْق هو الذئب، فهي كلبة بن السلق وأولاد زارع يعني الكلاب، ولذلك يقال لهذه الزريعة، والعرب تقول: بأن الذئب ينزو على الكلبة ويولدها.

قال علماء التفسير: ولم يبقَ من ذرية ثمود أحد سوى صالح -عليه السلام- ومن تبعه -رضي الله عنهم- إلا أن رجلا يقال له: أبو رِغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله.

قال عبد الرزاق عن معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرَّ بقبر أبي رغال فقال: ((أتدرون من هذا؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا قبر أبي رِغال رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرمُ الله عذابَ الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن)) وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف[1].

هذه الرواية عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي واضحة أنها من المرسل، ولذلك ضعفها أهل العلم، فالله أعلم.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [(٧٩) سورة الأعراف] **هذا تقريع من صالح -عليه السلام- لقومه، لما أهلكهم الله لمخالفتهم إياه، وتمرُّدهم على الله وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب -قليب بدر- فجعل يقول: ((يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً؟)) فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: ((والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون))**[2].

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الخراج - باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (٣٠٩٠) (ج ٣ / ص ١٤٨) والطبراني في الأوسط (٢٧٨٨) (ج ٣ / ص ١٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٩٨٩) (ج ١١ / ص ٤٥٤) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٣٦).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب قتل أبي جهل (٣٧٥٧) (ج ٤ / ص ١٤٦١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٣) (ج ٤ / ص ٢٢٠٢).

وهكذا صالح -عليه السلام- قال لقومه: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [(٧٩) سورة الأعـراف] أي: فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: {وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [(٧٩) سورة الأعراف].

الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه قال لهم ذلك بعد أن أهلكم الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه ذكـره بعـد إهلاكهـم، والآية تحتمل أيضاً أن يكون قال ذلك لهم حينما عقروا الناقة واستوجبوا العذاب فقال لهم ذلك وفارقهم قبل أن ينزل بهم عذاب الله -عز وجل- ونقمته، وهذا قال به طائفة من السلف، لكن الأقرب هو ما ذكره ابن كثيـر -رحمه الله- ويدل عليه ظاهر القرآن، أي أنه قال ذلك بعد نزول العقوبة بهم، وكونه يوجه لهم هذا الخطـاب بعد ما هلكوا ليس ذلك بمشكل للحديث الذي سبق عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [(٨٠-٨١) سورة الأعراف].

يقول: ولقد أرسلنا لوطاً، أو تقديره، واذكر لوطاً إذ قال لقومه.

ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وكان قد آمن مـع إبـراهيم -عليه السلام- وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سَدُوم وما حولها من القرى يدعوهم إلـى الله -عز وجل- ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفـواحش التـي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكـن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سَدُوم -عليهم لعائن الله-.

في قوله: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [(٨٠) سورة الأعراف] ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وجهين لنصب لوط -عليه الصلاة والسلام- الأول: واذكر لوطاً، أو يكون التقدير: لقد أرسلنا لوطاً، والحاصل أن لوطاً -عليـه الصلاة والسلام- قال لقومه: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف] قال ذلك على سبيل الاستنكار، وعبر عنها بالفاحشة وأدخل عليها "أل"، وكأن ذلك -والله تعالى أعلم- يشعر بأنها قد استحقت الوصف الكامل في الفحش، فهي في غاية الفحش، وذكر الله -عز وجل- فيها ما لم يـذكره فـي الزنا، فقال هنا: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف]، وقال: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [(٨١) سورة الأعراف] وذكر قرية هؤلاء وقال: {الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} [(٧٤) سورة الأنبياء] فهو وصف القرية ويعني أهلها أنهم كانوا يعملون الخبائث ووصفهم بالفسق.

وقال لوط -صلى الله عليه وسلم-: {رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [(٣٠) سـورة العنكبـوت] فوصـفهم بالإفساد، ووصفهم أيضاً بالظلم في قوله: {إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} [(٣١) سورة العنكبوت] وذلك لمـا جـاءت الملائكة لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبشروه بهلاكهم.

فهذه الأوصاف جميعاً ذكرها الله -عز وجل- لهؤلاء الذين يقارفون هذا المنكر الشنيع فهو في غاية البـشاعة والمنافاة للفطَر، وقد قال بعض خلفاء بني أمية: لولا أن الله -عز وجل- ذكر ذلك في القرآن لما صـدقت أن أحداً يقارف ذلك، أي أنه لا يتصور أن يقع هذا من أحد لولا أن الله -عز وجل- ذكره في كتابه.

وهذه الفاحشة مع منافاتها للفطرة فإن فيها أيضاً ألواناً من القبائح والرذائل والرزايا، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن من وقع عليه ذلك فإن ماء الرجل يدخل في كل عصب ومفصل فيفسد فطرته ويحصل له بسبب ذلك من المسخ والانتكاس ما لا يقادر قدره.

يقول: "**وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سَدوم**" وقال: "**وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدُوم وما حولها من القرى**" وسدوم هذه مجموعة من القرى كما قال الله تعالى: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}** [(٥٣) سورة النجم] وكما قال: **{وَالْمُؤْتَفِكَاتِ}** [(٧٠) سورة التوبة] فالمؤتفكة جنس يشمل جميع القرى، يعني القرى المؤتفكة، والمؤتفكات باعتبار أنها قرى وليست قرية واحدة، فسدوم يقولون عنها: إنها الأم، يعني هي عاصمة تلك البلاد، ويذكر بعضهم أنها من أعمال حلب، وأما القول بأنها في البحر الميت فلا أعلم عليه دليلاً، والله -عز وجل- ما ذكر أنها تحولت إلى بحر، وإنما أخبر أنه قلبها وأنه جعل عاليها سافلها، وقال: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}** [(٥٣) سورة النجم] يعني المنقلبة، أي أنه رفعها ثم قلبها ثم أتبع ذلك بالحجارة، والعلم عند الله -عز وجل-.

قال عمرو بن دينار في قوله: {مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف] قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط، ولهذا قال لهم لوط -عليه السلام-: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ} [(٨٠-٨١) سورة الأعراف].

قوله: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}** هذا على قراءة نافع وحفص، ويكون ذلك على سبيل الإخبار، وقرأه الباقون بهمزتين **{أَئِنَّكُمْ}** فيكون ذلك على سبيل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ، فهو يوبخهم على هذا الفعل.

أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله.

في قوله: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً}** يدل على أن الفطَر منتكسة، يعني أنهم لا يأتون ذلك لأمر أو لمعنى آخر، وإنما شهوة، والشهوة لا تتوجه إلى مثل هذا، ثم أيضاً يفعلون ذلك قضاء لوطرٍ ناشئ عن فطرة منكوسة وشذوذ.

وهذا الذي فعلوه وأخبر الله -عز وجل- أنهم فعلوه شهوة من غير اعتبار ولا نظر للمعاني التي جعلها الله -عز وجل- في المحل النظيف، وهو مقتضى الفطرة، حيث أودع الله -عز وجل- في فطر الرجال الميل الطبيعي للنساء، وذلك يجده الرجال في نفوسهم فيحصل بسبب هذا النكاح، ويحصل بسببه المودة والرحمة التي تنسى معها المرأة أباها وأمها وأخاها وقومها وعشيرتها، قال تعالى: **{وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}** [(٢١) سورة الروم] وهذا المعنى لا يتصوره الإنسان إلا إذا تزوج، فهناك معانٍ لا يعرفها الإنسان إلا إذا جربها، مثل: شعور الآباء نحو الأبناء هذا لا يعرفه إلا من له ولد، وهذا مثلما لو تحدثت عن حلاوة الإيمان لمن لم يتذوق حلاوة الإيمان فإن ذلك الحديث لا ينفعه، وكذلك عندما تتحدث عن إعجاز القرآن لفاسد السليطة فإنه لا يتذوق الإعجاز وإن ردد مع الناس كلمة الإعجاز لكنه لا يتذوق هذا إطلاقاً، فهناك جملة من المعاني لا يتصورها الإنسان إلا إذا تحقق أمر زائد على مجرد السماع أو التصور، فيدرك عندئذ هذا المعنى، فالله -تبارك وتعالى- جعل في فطر الرجال الميل إلى النساء، وجعل من مقتضى النكاح المودة والرحمة، بل إن

الوطء يكون سبباً لمزيد من الإلف والمودة والرحمة وهو شيء معلوم، وقد ذكره جمع من أهـل العلـم، ولا يحتاج مثل هذا أن ينبه عليه، وهو أيضاً سبب للولد، وبقاء النسل الآدمي، ويخرج منـه الأنبيـاء والـصلحاء والمجاهدون في سبيل الله، والعلماء، كل ذلك بسبب هذا النكاح، ويحصل فيه قضاء الوطر أيضاً، وأما هـذه الفاحشة والشناعة فلا يحصل منها شيء من ذلك إطلاقاً، ثم إن هذا الممسوخ الذي يقع عليه ذلك هو لا يلتـذ به ولكنه فساد الفطَر.

ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: {هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [(٧١) سورة الحجر] **فأرشدهم إلى نـسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن.**

قال: "**فأرشدهم إلى نسائهم**" مع أنه قال: {بَنَاتِي} وهذا كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبـار أن النبي بمنزلة الأب لقومه، فبهذا الاعتبار يكون أبناءُ قومه أبناءه وبناتُهم بناتَه، والله -تبارك وتعـالى- قـال: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [(٦) سورة الأحزاب] وفي القراءة الأخرى: **(وهـو أب لهم وأزواجه أمهاتهم)** وهي قراءة أحادية معروفة -قراءة أبيّ وقراءة ابن عباس- وهذه الأبوة هـي أبـوة تربية، ورجحها بعض أهل العلم على أبوة النسب؛ لأن أبوة النسب يخرج فيها الإنسان إلى الحياة الدنيا، وأمـا هذه الأبوة فيخرج بها الإنسان من الظلمات إلى النور وإلى الحياة الحقيقية الكاملة التي يسعد بها فـي الـدنيا ويسعد بها في الآخرة، فقوله: {هَؤُلاء بَنَاتِي} [(٧٨) سورة هود] يعني بنات القبيلة، أو بنات قومه، فهـو يقـول لهم: تزوجوا هؤلاء النساء، وبعضهم يقول: إنه عرض بناته عليهم ليتزوجوهن، فأبوا ذلك عليه.

{قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [(٧٩) سورة هود] أي: **لقد علمت أنـه لا أرَب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.**

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [(٨٢) سورة الأعراف] أي: **ما أجابوا لوطاً إلا أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين.**

وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} **قال قتادة: عابوهم بغير عيب، وقال مجاهد:** {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّـرُونَ} **من أدبار الرجال وأدبار النساء، وروي مثله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً.**

قولهم: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} يحتمل أنهم قالوا ذلك على سبيل التهكم والسخرية، ويحتمل أنهم قـالوا ذلـك على سبيل الحقيقة، ومن قال: إنهم قالوا هذا على سبيل السخرية فعلى أنهم لا يرون أن هـذا مـن التطهـر والتنزه، وذلك أنهم لما فسدت فطرهم صاروا يرون أن هذا هو عين الذوق والكمال، فزُين لهم سوء عملهـم، كما هو مشاهد الآن في بلاد لا تعرف الله -عز وجل- حيث تجد أنه يُقر للمرأة في الكنيسة أن تعاشر المرأة، وللرجل أن يتزوج الرجل، وهذا في غاية القبح والمسخ، وفي البلاد التي لا يعترف لهم بذلك بصورة رسـمية يخرجون بالملايين بمظاهرات حاشدة يطالبون بحقوقهم كما يزعمون، بل قد تجد بعض رؤساء الدول الكبـار في أيام الانتخابات يزورون هؤلاء في مقارهم ويعدونهم بأن يعترفوا بحقوقهم وما أشبه ذلك، وهذا يدل علـى أن هؤلاء يمثلون وزناً وثقلاً في المجتمع، وأنهم أعداد كبيرة هائلة لا يستهان بها.

وأما الذين يتعاطون هذا الأمر في تلك المجتمعات فحدث ولا حرج حيث يقعون على كل شيء ويقع عليهم كل شيء، حتى الكلاب وغير الكلاب، ويقع الرجل على ابنته، وهكذا هي الفطَر الممسوخة، نسأل الله العافية.

قامت مظاهرة في إحدى الولايات الأمريكية التي تنتشر فيها المخدرات وهذه الولاية عُرف أهلها بالشر والشراسة والفساد حيث حكى ذلك رجل من المسلمين حضر إلى تلك الولاية ونزل في فندق وهو في غاية التوجس والخوف، فسمع جلبة بعد يوم، فأطل وإذا بمظاهرة عارمة كبيرة لمجموعة من الشواذ تحمل أعلام جميع الدول وتحمل لافتات، ثم سمع جلبة في ناحية أخرى وإذا هم بعض من يحملون الأعلام، فحمله الفضول على النزول، فلما وصل إذا بأناس من المسلمين ينازعونهم علم "لا إله إلا الله" ويقولون: لا تحملونه، وهم يقولون: بل نحمله، وهم يحتجون في هذه المظاهرة على جميع الدول لماذا لا تقر هذا الأمر رسمياً، فالله المستعان.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [(٨٣-٨٤) سورة الأعراف].

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٣٥-٣٦) سورة الذاريات].

وهذا مما يستدل به على أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بالتوحيد وأن جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- دعوا إلى التوحيد، فالله -تبارك وتعالى- ما أرسل من رسول إلا أوحى إليه: **{أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [(٢٥) سورة الأنبياء] فهذه دعوة جميع الرسل، وقوم لوط ممن لم يكونوا على التوحيد، فهاجر لوط -صلى الله عليه وسلم- إلى تلك الناحية ودعا الناس إلى الله -تبارك وتعالى- فكونه لم يذكر في دعوته أنه دعاهم إلى التوحيد لا يعني أنه لم يوجه ذلك إليهم أو أنهم كانوا موحدين، وإنما ذُكروا بهذه الشناعة التي لم يسبقوا إليها.

هذا هو الجواب على قول من قال من أهل العلم: إنهم قد يكونون ممن لم يقع لهم شرك، فهذا القول فيه نظر؛ وإلا فمن أين تعلموا التوحيد؟.

إلا امرأته فإنها لم تؤمن به بل كانت على دين قومها تمالئُهم عليه وتُعْلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم.

هذه هي خيانة امرأة لوط، فالله -عز وجل- قال: **{فَخَانَتَاهُمَا}** [(١٠) سورة التحريم] يعني امرأة نوح وامرأة لوط، فالخيانة المقصود بها أنها كانت تدل على أضيافه، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تحمل الخيانة على الفجور والفاحشة وذلك أنه ما خانت امرأة نبي قط، فالله -عز وجل- يحفظ عرض أنبيائه ويصونه؛ لأن ذلك لو وقع فإنه يرجع إلى النبي فيدنس عرضه بهذا، فهذا لا يجوز بحال من الأحوال.

ولهذا لما أُمر لوط -عليه السلام- ليسري بأهله أُمر ألا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: {إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [(٨٣) سورة الأعراف] أي: الباقين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللازم.

لفظة "غبَر" هي من الأضداد، فتأتي بمعنى ذهب وتأتي بمعنى بقي، فقوله تعـالى: {إِلاَّ امْرَأَتَـهُ كَانَـتْ مِـنَ الْغَابِرِينَ} [(٨٣) سورة الأعراف]، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي الباقين، وهذا هو المعنى المـشهور -أي أن معنى الغابرين: الباقين- فالذين فسروه بالباقين منهم من قال: أي من المعمرين، كما قاله أبو عبيـدة معمر بن المثنى، وذكره كبير المفسرين ابن جرير لكنه لم يرجحه وإنما قال: قيل من الباقين، أي أنها بقيـت زماناً طويلاً قبل نزول العذاب، والله -عز وجل- قال: {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [(١٧١) سورة الشعراء] فهي عاشت مدة طويلة، ثم جاء العذاب فهلكت، هكذا قال بعضهم، وأحسن من هذا -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن المراد بقوله: {إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [(٨٣) سورة الأعراف] أي: كانت من الباقين في العذاب فلم تـنجُ منه، وعلى المعنى الآخر يقال: كانت من الذاهبين أي: من الهالكين.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وهو تفسير باللازم**" وذلك أن معنى ذهب هو أحد المعنيين للفظة "غبر"، وهذا من المشترك الذي يحمل المعاني المتضادة، والحاصل أن المشترك يجوز حمله على معنييه أو معانيه ما لم يوجد مانع يمنع من هذا، وهذا الذي ذكره الشافعي -رحمه الله- في "الرسالة" وذكره جماعة من أهل العلـم وهو الراجح من أقوال الأصوليين، أي أنه يجوز حمل المشترك على معنييه، وفي هذا الموضع يمكن حمـل المشترك على معنييه فيقال: {مِنَ الْغَابِرِينَ} [(٨٣) سورة الأعراف] أي من الباقين في العـذاب الـذين ذهبـوا وهلكوا من الهالكين.

فقول ابن كثير -رحمه الله-: إن هذا من التفسير باللازم معناه أنها بقيت في العذاب ويلزم مـن ذلـك أنهـا هلكت، وبهذا الاعتبار لا حاجة إلى الترجيح بين هذين المعنيين، والله أعلم.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا} [(٨٤) سورة الأعراف] مفسر بقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَـارَةً مِّـن سِـجِّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [(٨٢-٨٣) سورة هود].

وهذا السجِّيل المنضود مفسر أيضاً بقوله -تبارك وتعالى-: {حِجَارَةً مِّن طِينٍ} [(٣٣) سورة الـذاريات] فالسجيل هو الطين.

ولهذا قال: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [(٨٤) سورة الأعراف] أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله -عز وجل- ويكذب رسله.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قـال: قـال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[3].

العلماء اختلفوا في عقوبة من فعل ذلك، فبعضهم قال: يلقى من أعلى بناء ثم يتبع بالحجـارة، كمـا فعـل الله -عز وجل- بهم حيث رفعهم ثم قلب عليهم القرى ثم أتبعهم بالحجارة، وقال بعضهم غير ذلك، والراجح هـو ما ورد في هذا الحديث، أي يقتل الفاعل بهذه الطريقة، والمفعول به إذا كان راضياً فإنه يقتـل بالـسيف، ولا يفرق في هذا الأمر بين بكر ولا ثيب، وقد جاء في الحديث الآخر عن ابن عباس –رضي الله عنهما- أيـضاً

---

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود – باب حد اللـوطي (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود – باب من عمِل عمَل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وأحمـد (٢٧٣٢) (ج ١ / ص ٣٠٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

أن من وقع على بهيمة قتل وقتلت البهيمة، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الحكمة من قتل البهيمة مـــع أنـــه لا ذنب لها أنها تُذكِّر بهذا الفعل القبيح، فمن رآها تذكر هذه الفاحشة، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨٥) سورة الأعراف].

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه بالسريانة يثرون، قلت: مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب مَعَان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص] **وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**قال ابن إسحاق: "هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر**" قد ذكرتُ من قبل أن هذه الأسماء وقع فيها تحريف تارة بسبب الطباعة، وتارة بسبب آخر، والله تعالى أعلم، وهذه أسماء أعجمية في الغالب وحينما حولت إلى اللغة العربية وقع فيها شيء من الاختلال، والعرب لا يدققون في نقل الأعجمية، وعلى كل حال يبدو أن أكثر الأخطاء كانت بسبب النقَلة وما يقع من التصحيف في الكتب، والله تعالى أعلم، والأسماء التي مرت في أنساب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأمم الأنبياء إذا نظرت في المصادر وجدت إختلافاً كثيراً.

وهنا يقول: "**وشعيب هو ابن ميكيل**" وفي بعض المصادر ميكائيل، فقد يكون حصل تحريف، وفي تفسير ابن جرير قال كما هنا: "ابن يشجر" وفي البداية والنهاية بالنون "يشجن" وفي القرطبي "يشجر" وفي بعض المصادر بالباء "يشجب" وهكذا كلما تتبعت تجد أشياء لا تخرج معها بنتيجة في الغالب.

وبعضهم يقول في اسمه غير هذا، فيقول: هو شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم، وبعضهم يقول: شعيب بن حُرّة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق، وبعضهم يقول: شعيب بن صفوان بن عيفاء ين ثابت بن مدين بن إبراهيم، فالله أعلم.

{قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} [(٨٥) سورة الأعراف] **هذه دعوة الرسل كلهم.**

{قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أي: **قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به.**

ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً.

الله -تبارك وتعالى- يقول: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} فالكيل مصدر والميزان اسم آلة، فعطَف اسم الآلة –الميزان- على المصدر، فما قال: فأوفوا المكيال والميزان، ولا قال: أوفوا الكيل والوزن، فيكون عطْف اسم على اسم، أو مصدر على مصدر، وإنما قال: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} فبعض أهل العلم يقول: المقصود بالكيل المكيال فيكون هذا من قبيل عطف الاسم على الاسم، وبعضهم يعكس فيقول: الميزان يقصد به الوزن، فالله تعالى أعلم.

كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} [(١) سورة المطففين] إلى قوله: {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦) سورة المطففين].

قال لهم: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} [(٨٥) سورة الأعراف] والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على الوجه البخس.

والبخس هو النقص، ويكون بأي صورة من الصور التي يقع بها، ومن ذلك العبث بالموازيين والمكاييل كالذي ينقص ما يكيله للناس أو يزنه لهم، قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [(١-٣) سورة المطففين] فهم ينقصون حينما يكيلون للناس تارة بتثقيلها وبالإخلال بها أو بأي لون من الحيل التي لا يطلع عليها الناس، ويكون بخس الناس أشياءهم بالاحتيال عليهم لأخذ ما في أيديهم بدون ما يستحقه من الثمن، كالتزهيد فيه، وعيبه وذمِّه أو غير ذلك مما يُخدع به صاحب السلعة، كأن يقال له: هذه لا تساوي شيئاً، أو هذه لا يرغب بها أحد، أو هذه فيها عيوب، فمن فعل ذلك بقصد الحط من قيمتها فهذا من بخس الناس أشياءهم، ومِن بخس الناس أشياءهم أيضاً التجني عليهم بوصفهم بما ليس فيهم.

وحينما يكون الإنسان مبغضاً لآخر فيسلبه من كل المقومات في الدين والأخلاق، أو العلم أو العمل، أو غير ذلك، كأن يقول: فلان لا خير فيه؛ لأنه لا يحبه، فهذا من بخسه حقه، ومن ذلك أن يقول: فلان ليس من أهل العلم؛ لأنه يبغضه، وإذا أحب أحداً ولو كان دون ذلك بمراحل جعله علّامة ومحدثاً وأعطاه الأوصاف التي لا يستحق عُشْر معشارها، فكل هذا من بخس الناس أشياءهم، وكل ذلك مذموم، والله المستعان.

كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} [(١) سورة المطففين] إلى قوله: {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦) سورة المطففين] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب -عليه السلام- الذي يقال له خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عبارته وجزالة موعظته: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ* وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [(٨٦-٨٧) سورة الأعراف].

ينهاهم شعيب -عليه السلام- عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدي وغيره: كانوا عشَّارين.

القطع الحسي معناه أنهم يقعدون في طريق الناس ويقطعون عليهم الطريق كقُطَّاع الطرق، ومن ذلك أخذهم المكوس من الناس.

قوله: "**كانوا عشّارين**" يعني يأخذون العشر من أموال الناس الذين يجتازون تلك الناحية، وهذا كان يفعله أهل الجاهلية أيضاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في المرأة التي زنت: ((لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس..))[1] فالمكوس بهذه المنزلة من الإثم.

يقول الحافظ -رحمه الله-: "**أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم**" وهذا صنيع قطاع الطرق، وأما قطع الطريق المعنوي فهو قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}** [(٨٦) سورة الأعراف] أي أنهم يصدون الناس عن دين الله -عز وجل- ويحذرونهم من الإيمان بشعيب -عليه الصلاة والسلام- ولهذا قال: **{وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا}** [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تريدون أن تكون الطريق مائلة عن الحق تابعة لأهوائكم وشهواتكم، هكذا كانوا يقطعون على الناس الطريق بهذا أو بهذا أو بالأمرين معاً.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب -عليه السلام- ليتبعوه، والأول أظهر؛ لأنه قال: {بِكُلِّ صِرَاطٍ} وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(٨٦) سورة الأعراف].

في أول الكلام جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين المعنيين حيث قال: "**ينهاهم شعيب -عليه السلام- عن قطع الطريق الحسي والمعنوي**" لكن قال هذا الكلام باعتبار الجملتين من قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(٨٦) سورة الأعراف] وإن كان قد حمل بعض أهل العلم قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ}** على الصراط المعنوي أي صرف الناس عن دين الله -عز وجل- فالآية تحتمل هذا، لكن الحافظ ابن كثير قال في أول كلامه: "**ينهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي**" ولا يقصد بهذا أن الجملة الأولى هي التي تحمل على المعنيين؛ لأن كلامه في النهاية واضح في الترجيح حيث قال: "**فنهاهم عن قطع الطريق الحسي بقوله: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}** [(٨٦) سورة الأعراف] **والطريق المعنوي بقوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ}** [(٨٦) **سورة الأعراف**]" وهذا أحسن، والله تعالى أعلم؛ لئلا تكون الجملة الثانية من قبيل التكرار؛ لأن قطع الطريق المعنوي إذا كان مضمناً في الجملة الأولى فما معنى الجملة الثانية: **{وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ}**؟ [(٨٦) سورة الأعراف]

من هنا كان الأحسن أن تحمل الأولى على قطع الطريق الحسي بأخذ المكوس أو سلب أموال الناس بالقوة، والجملة الثانية معناها قطع الطريق المعنوي، والله أعلم.

وهذا الثاني هو قوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة.

هذه الآية هي كقول الله -عز وجل-: **{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا}** [(٢٧) سورة النساء]، وبعض أهل اللغة –كالزجّاج- يقول: إنّ "عِوَج" -بالكسر- يكون في المعاني و"عَوَج" -بالفتح - يكون في الأمور المحسوسة، هكذا فرّق بعض أهل اللغة بين المكسور والمفتوح.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الحدود - باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥) (ج ٣ / ص ١٣٢١).

{وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: **كنتم مستضعفين لقلتكم، فصرتم أعزَّة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك.**

{وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: **من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.**

وقوله: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: **قد اختلفتم عليَّ** {فَاصْبِرُواْ} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: **انتظروا** {حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: **يفصل.**

يعني أن الصبر المطلوب هنا ليس هو الصبر على الكفر، وإنما معناه انتظروا واحتبسوا حتى يأتي حكم الله فيفصل فيه بين الفريقين.

{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [(٨٧) سورة الأعراف] **فإنه سيجعل العاقبة للمتقين والدَّمار على الكافرين.**

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ* قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٨ - ٨٩) سورة الأعراف].

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه، ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم، والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

قولهم: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] هل العود الذي طالبوهم به هو عود إلى ما كانوا عليه من الكفر قبل الإيمان، وهل كان شعيب -عليه الصلاة والسلام- على الكفر قبل أن يُبعث في قومه نبياً رسولاً؟ أم أن العود هنا يحمل على معناه الآخر وهو الصيرورة؟، فيكون المعنى صِيروا كفاراً، باعتبار أن العود يفسر بمعنيين: الأول العود إلى الحال السابقة والثاني بمعنى الصيرورة.

من أهل العلم من يقول: إن الأنبياء كانوا على دين قومهم، وعلى هذا يقولون: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما قال للكوكب {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] قاله: ناظراً لا مناظراً، إلا أن الأرجح أنه قال ذلك مناظراً، أي قال ذلك على سبيل التنزل ليبين بطلان قولهم.

وبعض أهل العلم قال: إن قولهم: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] كان على سبيل التغليب، أي أنهم خاطبوا المجموع، فقوم شعيب ممن آمن معه كانوا قبلُ على دين قومهم، فتركوا دين قومهم لما دعاهم إلى الله، فالكفار طالبوهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه، وعليه فلا يعني أن واحداً منهم -وهو شعيب -عليه الصلاة والسلام- كان كذلك وإنما خاطبوا المجموعة فغلّبوا أصحابه؛ لأنهم الأكثرية، فقالوا: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] وهذا معنى كلام ابن كثير -رحمه الله- حيث قال: "**وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة**" فالخطاب في قوله:{لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] هو خطاب للجميع، لشعيب -عليه الصلاة والسلام- ومن

معه، فالعلماء قالوا: غُلّب الأتباع، وهذا على تفسير العود بمعنى الرجوع إلى الحال التي سبقت الحال الحاضرة.

ومن فسروا العود بمعنى الصيرورة قالوا: إن قوله: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] أي: تصيرون إليها، كما تقول: عاد الخل خمراً أي صار خمراً وتقول: عاد الطين صخراً، وتقول: عاد الماء ثلجاً، وعاد الصبي شيخاً، وهكذا.

فالفعل "عاد" يأتي في اللغة لمعنيين كما ذكر ذلك الثعالبي في كتابه "فقه اللغة" حيث قال: إن هذا من خصائصها.

وهذا الموضع من القرآن هو أحد المواضع التي يتكلم العلماء فيها هل كان الأنبياء على دين قومهم أو لا؟ والذين يقولون: كانوا على دين قومهم يحتجون بمثل هذا الموضع، بل هو من أشهر المواضع التي يحتجون بها، ومن ذلك قصة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع الكواكب.

والشنقيطي -رحمه الله- له كلام جيد حول هذه المسألة في أضواء البيان حيث أشار إشارة قصيرة لهذا المعنى، وتكلم بشكل أطول في مكان آخر.

قال -رحمه الله-: وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور؛ لأن ظاهر القرآن هنا أن شعيباً قد دخل في ملتهم سابقاً يوماً ما؛ لأن قولهم مخاطبين له: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] **وقول شعيب مجيباً لهم: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا} [(٨٩) سورة الأعراف] يدل بظاهره على أنه قد كان فيها سابقاً يوماً ما.**

وأكثر العلماء يقولون: إن الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- معادن وحيٍ ومحل الخير، والله يقول: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] **وفي القراءة الأخرى: (حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ)** [(١٢٤) سورة الأنعام] **فلا يكفرون بالله؛ لأن فطرتهم التي ولدوا عليها لا يبدلها الله بالكفر لمكانتهم عنده، فبعض العلماء يقول: لو فرضنا أنهم وقع منهم بعض الشرك وأنابوا إلى الله فإنهم يصيرون إلى مثل حالهم قبله، وصار كأنه لم يكن.**

وأكثر الأصوليين وعلماء التفسير أن شعيباً لم يكن كافراً يوماً ما، ويجاب عن ظاهر الآية بجوابين:

أحدهما أن العرب تطلق لفظة "عاد" إطلاقين: أحدهما: عاد إلى أمر كان فيه سابقاً، والثاني تقول العرب: عاد كذا كذا، بمعنى صار إلى كذا من جديد، ومنه قولهم: عاد الطين خزفاً، وعاد الخل خمراً، ولا شك أن هذا الاستعمال موجود في "عادَ" تقول العرب: عاد رجلاً فلان، أي صار إلى الرجولة، ولم يتقدمه وصف مماثل قبلها، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وربيته حتى إذا مـا تركتـه أخـا	**القوم واستغنى عن المسح شـاربه**
وبالمحض حتى عاد جعداً عطنطنا	**إذا قام ساوى غارب الفعل غاربـه**

قالوا: معناه صار جعداً.

الوجه الثاني وبه قال غير واحد: أن نبي الله شعيباً كان معه جماعة من قومه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومه كانوا كفاراً على ملة قومهم، وهم عدد كثير وهو رجل واحد فعُبِّر باسم العدد الكثير وغلبوه على ذلك الواحد، والتزم معهم شعيب في هذا الخطاب تغليباً لقومه الأكثرين.

وظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ذاهباً أن شعيباً كان معهم سابقاً على ملتهم، وكذلك قال صريحاً عن إبراهيم -عليه السلام- في قوله: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] **فنقل ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب في ذلك الزمن، ونحن نقول: إن قوله في الخليل إبراهيم -عليه السلام- غلط محض لا شك فيه، وإنْ نسبه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-؛ لأن الآيات القرآنية صرحت بأن إبراهيم لم يكن من المشركين، ونفى عنه الشرك في الكون الماضي، والكون الماضي يستغرق كل الزمن، كقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(٦٧) سورة آل عمران].

قوله: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران] **نفى الشرك عن إبراهيم في الكون الماضي، والكون الماضي مستغرق، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(١٢٠) سورة النحل] **ونحو ذلك من الآيات، فنفْي هذا عن إبراهيم -عليه السلام- صريحٌ، ونفيه عن شعيب -عليه السلام- لم يقم دليل عليه في الصراحة كإبراهيم، وأقوال أهل العلم قد ذكرناها لكم الآن فيه، وهذا معنى قوله: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] **الملة: الشريعة والدين.**

وقوله: {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [(٨٨) سورة الأعراف] **يقول: أوَ أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟**

الهمزة في قوله: **{أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}** [(٨٨) سورة الأعراف] هي لإنكار ما طالبوهم به، أو إنكار وقوع ما طلبوا منهم من العود إلى ملتهم، والمعنى أوَ أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين؟ يعني أتخرجونا من قريتنا إن لم نعد في ملتكم؟

فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تعبير منه عن أتباعه.

{وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] **وهذا رد إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً.**

ليس المقصود بقولهم: **{إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا}** [(٨٩) سورة الأعراف] أن الله -عز وجل- يشاء الكفر ديناً وشريعة، وإنما المقصود بالمشيئة هنا المشيئة الكونية؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}** [(٧) سورة الزمر] فالله -تبارك وتعالى- لا يشاء وقوع الكفر ديناً -الإرادة الشرعية- وأما كوناً فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته -تبارك وتعالى- قال الله تعالى: **{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [(١٣) سورة السجدة].

ومعنى قوله -تبارك وتعالى-: {إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] -على قول أهل السنة وهو ما عبر به ابن جرير -رحمه الله- يعني إلا أن يكون سبق في علم الله أننا نعود فيه فلا بد من وقوع ذلك، أما بحسب ما نعتقده الآن وما نؤمن به فنقول: لا يصلح أن يقع منا الرجوع إلى الكفر موافقة لإرادتكم ودعائكم لنا، فنحن لن نفعل إلا أن يشاء الله ربنا، أي إذا كان سبق في علمه -تبارك وتعالى- أن يقع منا ذلك، فهو واقع لا محالة؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما قدره الله -عز وجل- فلا بد أن يحصل.

{عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر.

{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم.

يقول: {وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٩) سورة الأعراف] الفُتاحة هي الحكومة، والفتح هو الحكم، والفاتح والفتاح هو الحاكم، وهي لغة لبعض العرب حيث يقولون للقاضي: فاتح، وفتاح، ويقال: تعال أفاتحك، يعني تعال أقاضِك.

وقوله: {افْتَحْ بَيْنَنَا} أي: احكم، والله -عز وجل- يقول: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [(١٩) سورة الأنفال] يعني إن تطلبوا الحكم بين الفريقين فقد جاءكم الفتح.

{وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ* فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [(٩٠-٩٢) سورة الأعراف].

يخبر تعلى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} [(٩٠) سورة الأعراف] فلهذا عقَّبه بقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩١) سورة الأعراف].

أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً -عليه السلام- وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود].

والمناسبة هناك -والله أعلم- أنهم لما تهكموا به في قولهم: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ} الآية [(٨٧) سورة هود] فجاءت الصيحة فأسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٨٩) سورة الشعراء]؛ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ} الآية [(١٨٧) سورة الشعراء] فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله فأخذهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام.

هذا جمع لما ورد في الآيات التي تذكر عقوبتهم، حيث قال الله -عز وجل- هنا: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [(٩١) سورة الأعراف] وقال في سورة هود: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [(٩٤) سورة هود] أي صاح بهم الملك ورجفت بهم الأرض، والله تعالى أعلم.

وبالنسبة لقوله: {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [(١٨٩) سورة الشعراء] من أهل العلم من يقول: إن شعيباً -صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى قوم وقع لهم ذلك العذاب جميعاً، ومن ذلك أنهم أصابهم حر شديد ثم رأوا سحابة فذهبوا يستظلون تحتها، فوقع لهم العذاب يوم الظلة، فهو في قوم معينين.

ومن أهل العلم من يقول: إنه أرسل إلى طائفتين: هذه الطائفة التي أخذتهم الصيحة والرجفة، وطائفة أخذهم العذاب، أي ذلك الذي وقع لهم بما وصفه الله -عز وجل- بقوله: {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [(١٨٩) سورة الشعراء] والإمام الشنقيطي -رحمه الله- له كلام في هذا.

يقول –رحمه الله-:

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور عند العلماء وطلبة العلم، وهو أن الله في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف بيّن أن الذي أهلك الله به قوم شعيب رجفة، حيث قال: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩١) سورة الأعراف] جاثمين أي: موتى. وكل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده، والجاثم الذي يلزم محلاً واحداً لربما كان على وجهه كما هو معروف، ومنه قول زهير في معلقته:

بها العينُ والآرامُ يمــشينَ خِلْفــةً وأطلاؤها ينهضنَ من كــل مَجْــثَمِ

المَجْثَم: مكان الجثوم، وهو المكان الذي كان فيه منكباً على وجهه غالباً.

وهنا قال: إن سبب إهلاكهم بالرجفة، وصرَّح بسورة هود بأن سبب إهلاكهم صيحة، حيث قال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود].

وصرح في سورة الشعراء أن قوم شعيب أصحاب الظلة كان عذابهم في ظلة، المذكور في قوله: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٨٩) سورة الشعراء]، تارة يعبّر عن سبب إهلاكهم بالرجفة، وتارة بالصيحة، وتارة بالظلة، فهذا هو وجه السؤال المعروف في هذه الآيات.

وحاصل الجواب: أن العلماء اختلفوا كما قدمنا، هل شعيب أرسل إلى أمة واحدة أو أرسل إلى أمتين؟ وكان قتادة -رحمه الله- في طائفة من العلماء يقولون: أرسل شعيب إلى أمتين، أرسل إلى مدين فأهلكم الله بالصيحة، وأرسل إلى أصحاب الأيكة بعد أن هلك أصحاب مدين فأهلكم الله بالظلة، وهذا القول قال به بعض العلماء، واستدلوا باختلاف نوع العذاب، وفي أن الله قال في أهل مدين: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [(٨٥) سورة الأعراف] ولم يقل في أصحاب الأيكة أخاهم، وأكثر العلماء على أن أهل مدين هم أهل الأيكة، وأنها أمة واحدة، وأنهم نسبوا إلى جدهم مدين بن إبراهيم، وأنه كانت لهم أيكة غيضة ملتفة من الشجر يعبدونها، وبعض المؤرخين يقول: كانت أيكتهم من شجر الدوم، والله تعالى أعلم.

الجواب عن هذا هو ما قال به غير واحد، وممن ألمّ به ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره، أن كل ذلك وقع لقوم شعيب، وأن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، والاسم مختلف فيهما والمسمى واحد.

قوله: "**ألمَّ به**" يعني تعرض له.

قالوا: لما أراد الله أن يهلكهم صاح بهم الملك صيحة شديدة ولهذا قيل: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [(٩٤) سورة هود] فلما صاح الملك اهتزت الأرض بهم هزاً عنيفاً، ورجفت بهم رجفة قوية، فصار هو معنى

قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [(٩١) سورة الأعراف] ثم إن الله أضرم عليهم الظلة ناراً فاحترقوا، فاجتمعت لهم الصيحة من أعلى، والرجفة من أسفل، وأحرقهم الله، واجتمع لهم ذلك كله، والعياذ بالله تعالى.

قال بعض العلماء: وممن ذكره ابن كثير: أنهم كان لهم كاهنان أحدهما يسمى: سُميراً والثاني يسمى: عمران بن شداد، وأن رجلاً منهم يقال له: عمر بن جلهاء نظر إلى الأيكة ورأى فيها العذاب، فأطلعه الله عليه، وأنه كان يقول لهم أبياته المعروفة، يقول لهم:

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا	عنكم سُميراً وعمران بن شداد
إني أرى غَيْبة يا قوم قد طلعت	تدعو بصوت على صَمّانة الوادي
وإنكم لن تروا فيها ضحى غد	إلا الرقيم يمشي بين أنجاد

والرقيم كلبهم، يقول: في ضحى غد لن يُرى إلا الكلب وحده يمشي؛ لكونهم قد أبادهم الله.

وزعم جماعة من المؤرخين: أن أبْجد وهوّز وحُطِّي وكَلَمُن وسَعْفص وقَرْشت، أنها أسماء ملوك مدين الذين أرسل إليهم شعيب، وأن وقت إهلاكهم كان في ذلك الوقت ملك مدين المسمى كلمن، وأنه لما أهلكه الله قالت ابنته -وبعضهم يقول: أخته- تبكيه:

كَلَمُن قدَّ هد ركني	هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الـ	حتف ناراً وسط ظُلة
جُعلت ناراً عليهم	دارهم كالمُضْمَحِلّة

وعلى كل حال فقد أهلكهم الله ودمرهم بالرجفة والصيحة والإحراق بعذاب يوم الظلة.

{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} [(٩٠) سورة الأعراف] أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود] ثم قال تعالى: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} [(٩٢) سورة الأعراف] أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

يقول الله تعالى: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} [(٩٢) سورة الأعراف] يقال: غنيت بالمكان أي بقيت فيه أو مكثت فيه أو حللت فيه أو نزلت فيه، فهذه المادة "الغَنَى" يعني المكث والحلول بالمكان، تقول: غنينا بأرض كذا، يعني مكثنا فيها، فقوله: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} [(٩٢) سورة الأعراف] يعني أنها صارت خاوية وخالية كأنهم لم ينزلوا فيها، وذلك أنها صارت لا يمشي فيها أحد، ولا يعمر دورها أحد، وأسواقها فارغة بعد أن أهلكهم الله -تبارك وتعالى-.

ومن مادة "الغنى" يقال: الغَناء، يعني النفع، فيقال: فلان ليس به غَناء، يعني ليس به نفع، ويقال: فلان لا يغني عنك، والغِنَى هو كثرة العرض، نقول: فلان غَنيّ، والغناء -بالمد- هو الطرب الخبيث.

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: {الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [(٩٢-٩٣) سورة الأعراف] أي: فتولى عنهم شعيب

-عليه السلام- بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: **{يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ}** [(٩٣) سورة الأعراف] أي: **قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال:** **{فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}** [(٩٣) سورة الأعراف].

هذا الخطاب من شعيب لقومه يشبه خطاب نبي الله صالح لقومه، حيث قال الله تعالى: **{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}** [(٧٩) سورة الأعراف].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٤-٩٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك.

{لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} أي: يدْعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدَّة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} [(٩٥) سورة الأعراف] **أي: حوَّلنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنىً؛ ليشكروا على ذلك فما فعلوا.**

وقوله: {حَتَّى عَفَواْ} أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر.

{وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا؛ ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسَّنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيح: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له))[١] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: {فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٥) سورة الأعراف] **أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة أي: على بغتة وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة كما في الحديث: ((موت الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر))[٢].**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[١] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) (ج ٤ / ص ٢٢٩٥) ولفظه: ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)).

[٢] - أخرجه أحمد (٢٥٠٨٦) (ج ٦ / ص ١٣٦) ولفظه: ((راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر)) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٨٩٦).

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ} [(٩٥) سورة الأعراف] لفظة "عفوا" من الأضداد فتأتي بالمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو المراد بقوله: {حَتَّى عَفَواْ} أي: كثرت أموالهم وكثروا وحصل لهم الرخاء والقوة بعد الضعف، وما أشبه ذلك.

وتأتي "عفا" بضد هذا المعنى، أي بمعنى ذهب واندرس، تقول: عفت آثارهم أي: اندرست، وعفت ديارهم إذا ذهبت وتلاشت.

وهؤلاء الأقوام قلّبهم الله -عز وجل- بين هذا وهذا، فقالوا: هذه أمور لا علاقة لها بالأعمال، وإنما تحصل للناس جيلاً بعد جيل، فالدهرُ قُلَّب، ولا علاقة لهذا الأمر بإيمان أو كفر وطاعة أومعصية، وهذا ما يقوله أكثر الخلق اليوم من الأمم المكذبة الكافرة، بل إنهم يعاقِبُون من أضاف تلك المَثُلات والعقوبات التي تنزل هنا وهناك إلى أعمال الناس، وأنه بسبب جرمهم وكفرهم وعتوهم على الله -عز وجل-، ويتندرون بهذا ويتهكمون به، والله المستعان.

فالحاصل أن هؤلاء يقولون: هذا كله وقع لآبائنا وما حصل لهم ليس بعذاب وإنما هي أمور تعرض للخلق لا تتعلق بأعمالهم.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ* أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ* أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ* أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [(٩٦-٩٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [(٩٨) سورة يونس] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ* فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [(١٤٧-١٤٨) سورة الصافات] وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} الآية [(٣٤) سورة سبأ].

وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: آمنت قلوبهم بما جاءت به الرسل، وصدقت به واتبعوه {وَاتَّقَواْ} بفعل الطاعات وترك المحرمات {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: قطر السماء ونبات الأرض.

قال تعالى: {وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوِّفاً ومحذِّراً لمخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [(٩٧) سورة الأعراف] أي الكافرة {أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا} أي: عذابنا ونكالنا {بَيَاتاً} ليلاً {وَهُمْ نَآئِمُونَ} [(٩٧) سورة الأعراف].

{أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٨) سورة الأعراف] أي: في حال شغلهم وغفلتهم.

{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف] أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم.

{فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [(٩٩) سورة الأعراف] **ولهذا قال الحسن البصري -رحمه الله-: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.**

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف] فسَّر الحافظ ابن كثير بركات السماء بقطر السماء، وبركات الأرض بنبات الأرض، والمعنى أعم وأوسع من ذلك -والله تعالى أعلم- فبركات السماء لا تختص بالمطر وبركات الأرض لا تختص بالنبات، والله -عز وجل- أخبر أنه أنزل على بني إسرائيل المنَّ والسلوى.

وعلى كل حال فإن البركة من الله -عز وجل-، فإذا أنزل الله البركة في شيء للإنسان مِن ولدٍ وزوجة ومتاع ومال وزرع وضرع وغير ذلك فإنه يحصل به مقصوده ومطلوبه وزيادة، فيحصل له الانتفاع، فبركات الأرض لا تختص بالنبات وهكذا بركات السماء لا تختص بالمطر.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [(٩٩) سورة الأعراف]، يُلاحظ أن هذه الصفة لم تأتِ على سبيل المقابلة، مع أنه في بعض المواضع تأتي كذلك، كقوله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا} [(٥٠) سورة النمل] وكقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [(٣٠) سورة الأنفال]، وكثير من أهل العلم يقولون: إن هذه الصفات تنسب إلى الله -عز وجل- وتضاف إليه إذا كان ذلك في مقابل فعل الكافرين، وهذا القول يرده هذا الموضع من كتاب الله -عز وجل- {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف] حيث لم يجعل مكره في مقابل مكرهم.

وهكذا الكيد تارة يأتي في مقابلة كيدهم كقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا} [(١٥-١٦) سورة الطارق]، وقد يأتي بغير المقابلة كقوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف].

والمقصود أن هذه الصفات ثابتة لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، فنحن نثبت لله -تبارك وتعالى- ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، ولكن مثل هذه الصفات لا تضاف إلى الله -عز وجل- على سبيل الإطلاق، فلا يقال: إن الله -عز وجل- كائد، أو ماكر، كما يقال: سميع وبصير وعليم وحكيم؛ لأن السميع والبصير والعليم والحكيم والرزاق وما أشبه ذلك هي أوصاف كمال على سبيل الإطلاق، وأما هذه الصفات فإنها تكون كمالاً في المحل الذي تكون كمالاً فيه، وتكون نقصاً في غير ذلك، ولذلك فإنها تطلق على الله -عز وجل- مقيدة، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يعبر بأن هذا من قبيل المشاكلة، وقد تجد هذا القول عند بعض طلاب العلم ممن ينتسب إلى السنة، والحقيقة أن المشاكلة نوع من المجاز، والذين يقولون: مشاكلة ممن يُقرأ في كتبهم يقصدون أنه لا حقيقة لهذه الصفات، أي أنه عبر بعبارة لا حقيقة لها فيما أطلقت فيه، وإنما ذكرت للمشاكلة اللفظية كما قال القائل:

قالوا اقترح شيئاً نُجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبّة وقميصاً

قالوا هذه مشاكلة، فالجبة والقميص ما تطبخ، لكن هم عبروا بالطبخ، فلما أراد أن يعْلمهم أنه ليس بحاجة إلى طعام وإنما بحاجة إلى لباس، شاكَل عبارتهم وقال: اطبخوا لي جبة وقميصاً.

فهؤلاء الذين يقولون هذا، يقولون: الله -عز وجل- لما قال: {وَيَمْكُرُونَ} [(٣٠) سورة الأنفال] استعمل نفس اللفظة فيما يتعلق به -عز وجل- فقال: {وَيَمْكُرُ اللّهُ} ومثلها قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا}

[(١٥-١٦) سورة الطارق] فسماه كيداً مع أنه لا يمتّ إلى هذا بصلة، لكن يقال لهم: وماذا تقولون في قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف] وماذا يقولون في هذه الآية: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف] أين المشاكلة التي يزعمون؟ لا توجد مشاكلة ولا يستطيعون أن يقولوا: فيها مشاكلة.

والحاصل أن أهل السنة يقولون: هذه الأوصاف ثابتة لكن حيث يكون ذلك لائقاً ومناسباً وكمالاً، ومعلوم أن هذا قد يكون كمالاً وقد يكون نقصاً، فلو أن أحداً مفسداً ضارباً في الفساد، يسفك الدماء، وينتهك الأعراض، ويؤذي الناس غاية الأذية، ولا يبالي بهم، فجاء من استدرجه حتى أوقعه في سيئ عمله واستراح الناس منه ومن شره، ألا يُحمد هذا الذي استدرجه؟ هذا الاستدراج كمال في هذه الحالة فيُحمد صاحبه، لكن الذي يمكر بالناس لينتهك أعراضهم ويسفك دماءهم ويوقعهم في حبائله من غير جرم اقترفوه، فمثل هذا لا يحمد، بل هذا ماكر وصاحب حيلة، وهذا نقص في حقه.

والخلاصة أن من الصفات ما تكون كمالاً بإطلاق، فهذه تطلق على الله -عز وجل- إن كانت قد وردت في الكتاب والسنة، وقد يقال هذا الوصف أو ذاك على سبيل الخبر، ومعلوم أن الخبر أوسع من باب التسمية والوصف، فالعليم مثلاً اسم يتضمنه صفة كمال، والحكيم والرزاق والقدير والرحيم وما أشبه ذلك، هذه كلها أوصاف كمال تقال لله -عز وجل-.

وهناك أوصاف تكون كمالاً بالنسبة للمخلوق ونقصاً بالنسبة للخالق، مثل الولد فإنه كمالٌ بالنسبة للمخلوق ويكون نقصاً بالنسبة للخالق، فلا تضاف إلى الله -عز وجل- وهذا يسمى الكمال النسبي، أي بالنسبة للمخلوق كمال وبالنسبة للخالق نقص، ومن أمثلة ذلك النوم فهو بالنسبة للمخلوق كمال والذي لا ينام مريض، لكن هذا لا يقال على الله -عز وجل-؛ فهو -سبحانه وتعالى- كما قال: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [(٢٥٥) سورة البقرة].

وهناك أوصاف تكون كمالاً في موضع وتكون نقصاً في موضع آخر كهذه التي مرت معنا آنفاً، فهذه لا تقال على الله بإطلاق ولا يشتق منها اسم له -تبارك وتعالى- والله أعلم.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [(١٠٠) سورة الأعراف].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا} [(١٠٠) سورة الأعراف]: أولم نبيّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم؟، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أولم نبيّن للذين يُستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف].

الصواب أن عبارة ابن جرير بالياء هكذا "**أولم يَبِن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف]**".

والمعنى ألم يتبين لهؤلاء الذي حلوا مكان المعذبين وتظهر لهم قدرتنا على إهلاكهم وإفنائهم والقضاء عليهم؟، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أولم يبن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف] **يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}** [(١٠٠) سورة الأعراف] **يقول: ونختم على قلوبهم {فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}** [(١٠٠) سورة الأعراف] **موعظة ولا تذكيراً.**

قلت: وهكذا قال تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} [(١٢٨) سورة طـه] **وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ}** [(٢٦) سورة السجدة] **وقال: {أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ* وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} الآية** [(٤٤-٤٥) سورة إبراهيم].

قوله تعالى: **{وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ}** [(٤٥) سورة إبراهيم] هذه الآية تفسر ما جاء في المواضع الأخرى كقوله تعالى: **{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}** [(١٢٨) سورة طـه] يعني أولم يتبيّن ويتضح ويظهر لهم؟.

قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [(٩٨) سورة مريم] **أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ* وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ}** [(١٠١-١٠٢) سورة الأعراف].

لما قصَّ تعالى على نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل -صلوات الله عليهم أجمعين- قال تعالى: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ} [(١٠١) سورة الأعراف] **أي: يا محمد {مِنْ أَنبَآئِهَا} أي: من أخبارها {وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}** [(١٠١) سورة الأعراف] **أي: الحجج على صدقهم فيما أخبروا به، كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [(١٥) سورة الإسراء]**، وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ}** [(١٠٠-١٠١) سورة هود].

وقوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف] **الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، حكاه ابن عطية -رحمه الله- وهو متجّه حسن، كقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} الآية** [(١٠٩-١١٠) سورة الأنعام].

هذا الموضع أعني قوله تعالى: **{فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ}** [(١٠١) سورة الأعراف] يحتمل معانيَ متعددة، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال فيه ما ذكره في آية الأنعام، وما ذكره في آية الأنعام هو أن الله -عز وجل- قال: **{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [(١١٠) سورة الأنعام] يعني عقوبة

لهم، حيث إنهم طلبوا الآيات، فالله -عز وجل- قال: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] وفي القراءة الأخرى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون) فقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] يعني لما كذبوا به أول مرة قلب الله قلوبهم وأبصارهم عن الحق، فزاغوا وضلوا جزاءً وفاقاً، كما قال الله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(٥) سورة الصف] وكما قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون} [(١٢٧) سورة التوبة] فالجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي: أن الله جازاهم على كفرهم الأول بأن قلب قلوبهم وأبصارهم فلم تعُد تنفع فيهم الآيات والمعجزات ودلائل الحق، ولا تصل المواعظ إلى قلوبهم، بل سدت منافذ هذه القلوب، فلا يصل إليها وعظ ولا تذكير ولا تنتفع بالبراهين وبالآيات الواضحات الدالة على صدق ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وهذا المعنى استحسنه الشنقيطي -رحمه الله-.

ومن المعاني التي تحتملها هذه الآية: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] وقوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف] يعني لم يؤمنوا كما سبق في علم الله حينما استخرجهم من ذرية آدم على هيئة الذر، وأخذ عليهم الميثاق أنهم يكفرون ولا يهتدون، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- على أحد المعاني التي تحتملها الآية: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٧) سورة يونس] يعني سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون فلن تنفع فيهم الآيات مهما وردت على أسماعهم وشاهدوا من دلائل الحق فإنهم لا يؤمنون كما قال تعالى: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(١٠١) سورة يونس].

وهذا المعنى في قوله تعالى: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي: كما سبق في علم الله -عز وجل- حينما أخذ عليهم الميثاق أنهم لن يؤمنوا، هذا قاله بعض أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يذكر معنى آخر فيقول: إن قوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف]: يعني أنهم عندما يتمنون الرجعة إلى الدنيا ولو ردوا لكذبوا به كما لم يؤمنوا به أول مرة كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] لكن هذا المعنى فيه بُعد، والله أعلم، لذلك يمكن أن يقال: إن الباء سببية في قوله: {بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} ويكون المعنى أن تلك القرى المهلكة التي نقص عليك لم تنفعهم الآيات التي اقترحوها على الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- بسبب تكذيبهم الأول، فقوم صالح قالوا: نريد ناقة فخرجت لهم ناقة لكن لم ينفعهم ذلك ولم يؤمنوا عقوبة لهم، قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١١٠) سورة الأنعام].

ولذلك ينبغي على الإنسان إذا عرف الحق وقامت دلائله أن يؤمن به وأن ينقاد ويذعن ويمتثل أمر الله -عز وجل- ولا يكابر، فإن المكابرة والإعراض، قد يكون سبباً للطمس على القلب، أما إذا أذعن وانقاد وقال:

سمعاً وطاعة لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فإن هذا يكون سبباً لهداية قلبه ونقله من هداية إلى هداية، ومعلوم أن من أعرض عما هو بصدده شغل بما يضره ولا ينفعه، كما قال الله -عز وجل- عن اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي أنهم عوقبوا بنقيض ما هم بصدده فبدلاً من اتباع الوحي صار اتباعهم للشياطين والسحر الذي يقابل الوحي، فالوحي فيه الهدى الكامل، والسحر هو معدن الشر والضلال، والمحادة لله -عز وجل-.

ولهذا قال هنا: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ* وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم} [(١٠١-١٠٢) سورة الأعراف] أي: لأكثر الأمم الماضية {مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف]

{وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [(١٠٢) سورة الأعراف] أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال.

قوله تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] بعض العلماء يقول: هذا في الأمم المعذبة التي قص الله أخبارها، يعني تلك القرى نقص عليك من أنبائها وما وجدنا لأكثرهم من عهد.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] هذا في عموم الناس، وهذا العهد بعضهم يحمله على الميثاق الأول الذي أُخذ عليهم حينما استخرجهم الله -عز وجل- من صلب آدم، والمعنى فما بقي أكثرهم على هذا العهد وما عملوا بمقتضاه، وهذا المعنى هو الذي مال إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لكن لا يبعد أن يكون المعنى أوسع من هذا وأعمّ فلا يحمل على خصوص هذا العهد الذي كان في الأصلاب، بل يقال -كما قال ابن جرير -رحمه الله-: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] أي: من وفاء بما وصيناهم به، وأمرناهم من الإيمان وطاعة الله -عز وجل- والقيام بحقه وتوحيده واتباع رسله، والعمل بطاعته.

وفي قوله تعالى: {وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [(١٠٢) سورة الأعراف] قال بعض العلماء: "إن" هذه نافية، وذلك أنّ "إنْ" تأتي أحياناً للنفي، وأحياناً تكون مخففة من الثقيلة، ومن شواهد مجيئها للنفي شاهد ابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك:

إنْ هـو مـستولياً علـى أحـد إلا علـى أضـعف المجـانين

يعني ما هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين.

ومن شواهد مجيئها للنفي قوله تعالى: {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} [(١٠) سورة إبراهيم] يعني ما أنتم إلا بشر مثلنا، والمقصود أن بعضهم يقول في قوله تعالى: {وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ} [(١٠٢) سورة الأعراف]: يعني وما وجدنا أكثرهم، وقالوا: إن اللام في قوله: {لَفَاسِقِينَ} هي بمعنى "إلا" ويكون معنى الآية: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين، لكن هذا المعنى لا يخلو من تكلف، وليس هو الظاهر المتبادر، والله أعلم.

والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء

فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[٣] **وفي الصحيحين: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) الحديث**[٤].

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الروم (٤٤٩٧) (ج ٤ / ص ١٧٩٢) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(١٠٣) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم} أي: الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب -صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين-.

{مُّوسَى بِآيَاتِنَا} أي: بحججنا ودلائلنا {إِلَى فِرْعَوْنَ} وهو ملك مصر في زمن موسى،{وَمَلَئِهِ} أي: قومه، {فَظَلَمُواْ بِهَا} أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(١٤) سورة النمل] **أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر كيف فعلنا بهم، أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله -موسى وقومه- من المؤمنين به.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** [(١٠٣) سورة الأعراف]، فالملأ هم علية القوم بصرف النظر عن السبب الذي من أجله سموا بذلك، كقول بعضهم: لأنهم يملئون صدور المجالس، يعني أنهم في مقدمة القوم، أي أنهم الكُبراء، أو قول من قال: إنهم يتمالئون على الأمر، يعني هم أهل الحل والعقد، فكل هذا حاصل في الملأ، فهم الذين يتصدرون المجالس، وهم الذين يتمالئون.

قوله تعالى: **{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي: قومه**" فإذا كان الملأ يطلق على علية القوم -كما ذكرنا- فما وجه تخصيص ذلك بالملأ مع أنه أرسل للجميع؟

الجواب: أنه عبر بالملأ؛ لأن غيرهم تبعٌ لهم، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله-: "**إلى فرعون وقومه**" فلا يأتِ أحد ويستدرك على ابن كثير هذا التفسير ويقول: الملأ ليسوا كل القوم، بل علية القوم.

قال الله تعالى: **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** [(١٠٣) سورة الأعراف] قال الحافظ: "**أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً**".

ويمكن أن يُختصر فيقال: **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** أي: كفروا بها.

فإن قيل: لماذا سمي الكفر ظلماً؟ يقال: لأن الكفر أظلم الظلم، كما قال الله تعالى: **{لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [(١٣) سورة لقمان].

وأصل الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، ومنه قول المرأة التي تضرب اللبن قبل أن يروب قائلة:

ظلمـــــتُ لكـــــم ســـــقائي وهل يخفى علـى العَكِـدِ الظَّـيمُ

العَكِد هو عصب اللسان، وقولها: ظلمت لكم سقائي: يعني أنها ضربته قبل أن يروب، وهذا يضيِّع زبده، فتكون بذلك قد وضعت الضرب في غير موضعه، وهكذا القبر لما كان محفوراً في مكان ليس محلاً للحفر، قيل لتلك الحفرة: المظلومة.

وعلى كل حال فقوله تعالى عن فرعون: {فَظَلَمُواْ بِهَا} [(١٠٣) سورة الأعراف] أي: كفروا، كما قال عنهم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [(١٤) سورة النمل] فكفر فرعون كان من قبيل الجحود.

{وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ* قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [(١٠٤-١٠٦) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن مناظرة موسى -عليه السلام- لفرعون وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٠٤) سورة الأعراف] أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه.

{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: واجب وحق عليَّ ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

قوله: {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ} يقول: "**أي واجب وحق عليّ ذلك**" وقرأ بعضهم **(حقيق عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق)** [(١٠٥) سورة الأعراف]، وفي قراءة لابن مسعود: **(حقيق ألا أقول على الله إلا الحق)** [(١٠٥) سورة الأعراف].

وبعض أهل العلم في القراءة المشهورة {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [(١٠٥) سورة الأعراف] قال: إن "على" بمعنى الباء، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، فيكون المعنى:حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق"، وبهذا وردت قراءة غير متواترة قرأ بها بعض السلف كأُبَيّ والأعمش **(حقيق بأن لا أقول)**.

والقراءة الآحادية يستفاد منها ثلاث فوائد، ومن هذه الفوائد أنه يفسر بها القراءة المتواترة، فقوله تعالى في القراءة المشهورة {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [(١٠٥) سورة الأعراف] تفسرها قراءة أُبَيّ والأعمش فيقال: أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق.

وبعض أهل العلم يقول بتضمين الفعل وما في معناه معنى الفعل، ففي هذا الموضع يقولون: إن لفظة {حَقِيقٌ} ليست فعلاً لكنها مضمنة معنى الفعل حرص، ولفظة حريص تُعدَّى بـــ"على" فتقول: فلان حريص على فلان، وفلان حريص على ماله، وفلان حريص على شبابه، وهكذا فإن قوله: {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [(١٠٥) سورة الأعراف] إذا كانت مضمنة معنى حريص يكون المعنى: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق.

وإذا ضمن الفعل أو ما في معناه معنى الفعل فإنه يُعدَّى تعديته كما في قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [(٦) سورة الإنسان] فقوله: {يَشْرَبُ بِهَا} مضمّن معنى يرتوي أو يلتذُّ، فيكون المعنى عيناً يرتوي بها، حيث ضمِّن الشرب معنى الارتواء أو الالتذاذ، وهكذا يمكن أن يقال في قوله: {حَقِيقٌ عَلَى} أنه مضمن معنى حريص، وحريص يتعدى بـــ"على" ويكون المعنى كما سبق: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق،

وهذا ليس ببعيد، وإن كان القول الذي قبله قد يقال: إنه أوضح وأقرب وأسهل منه، لكن تضمين الفعل وما في معناه معنى الفعل أبلغ، والله أعلم.

{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: **بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به.**

{فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: **أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.**

{قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [(١٠٦) سورة الأعراف] أي: **قال فرعون: لستُ بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.**

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [(١٠٧-١٠٨) سورة الأعراف].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} الحية الذَّكر، وكذا قال السدي والضحاك.

فسَّر الثعبان بأنه الحية الذكر، وأما المبين فيعني البيّن الظاهر الذي لا لبس فيه، أي أن العصا تحولت إلى حية لا لبس فيها ولا خفاء، فأمرها لا يلتبس أنها حية بل هي واضحة وليس ذلك من الأمور التي تَحتمل أن يكون البصر اختلط عليه الأمر أو نحو ذلك، بل هي حية ظاهرة لا لبس فيها.

يقول تعالى: **{فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}** [(١٠٧) سورة الأعراف] قال ابن عباس –رضي الله عنهما-: "الحية الذَّكَر" وفي موضع آخر قال الله -تبارك وتعالى-: **{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}** [(١٠) سورة النمل] فالعرب تطلق الجان على صغار الحيات.

وبالنسبة للجمع بين قوله تعالى: **{فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}** [(١٠٧) سورة الأعراف] وقوله تعالى: **{فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}** [(٢٠) سورة طــه] يقال: إنها في ضخامتها ثعبان مبين وفي سرعة الحركة كأنها صغار الحيات لا تكاد تدركها لسرعتها وخفة حركتها، والله أعلم.

وأما الروايات الإسرائيلية فحدِّث ولا حرج، ومن ذلك أن هذه الحية وضعت فكها الأسفل في الأرض وفكها الأعلى على جدار القصر، وكذلك يذكرون من طول الحية وضخامتها الشيء العجيب، ويقولون: إنها توجهت إلى فرعون فاغرة فاها وأن الرجل ولّى هارباً وجعل يستغيث بموسى، ويذكرون أموراً يستحي الإنسان من ذكرها، فالله تعالى أعلم.

وفي حديث الفُتون من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: فألقى عصاه فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ففعل.

حديث الفتون -وفي بعض الكتب يقولون: حديث النتوق من قوله تعالى: **{وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ}** [(١٧١) سورة الأعراف]- هو حديث طويل في نحو اثنتي عشرة صفحة وهو من حديث ابن عباس -رضي الله عنه- وليس من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فابن عباس يورد فيه خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- دون أن يضيف ذلك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لكن يظهر -والله أعلم- أن هذا الحديث يوجد منه قطع

هي من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- أي أن ابن عباس –رضي الله عنهما- سمعها من النبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو بواسطة، وفيه قطع أخرى هي من أخبار بني إسرائيل، فابن عباس -رضي الله عنهما- مزج ذلك في سياق واحد طويل، هذا هو حديث الفتون.

وقال السدي في قوله: {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [(١٠٧) سورة الأعراف] **الثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك.**

هذا كله من الإسرائيليات، وهذا الكلام لا يصدَّق ولا يكذب.

وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأُرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى -عليه السلام- فعادت عصا.

وقوله: {وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [(١٠٨) سورة الأعراف] أي: **أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برَص ولا مرض، كما قال تعالى: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} الآية [(١٢) سورة النمل].**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في حديث الفتون: {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [(١٢) سورة النمل] **يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كمِّه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد.**

قوله تعالى: **{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** [(١٢) سورة النمل] هذه آية غير الآية التي في قوله تعالى: **{وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}** [(٣٢) سورة القصص] فالأولى هي أنه كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها صار لها نور ساطع، أما الثانية فهي أنه إذا أصابه شيء من الخوف فضمَّ إليه جناحه اطمأنت نفسه وذهب عنه ما يجد من الخوف، فإذا جاء إلى فرعون أعتى أهل الأرض فإنه يصيبه ما يصيبه من الخوف الذي ذكره الله في قوله: **{إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى}** [(٤٥) سورة طــه] فالله -عز وجل- قال: **{لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}** [(٤٦) سورة طــه] وأرشده إلى أنه إذا ضم إليه جناحه ذهب عنه هذا الخوف، فالمقصود أن هذه الآية غير إدخال اليد في الجيب.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ* يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [(١٠٩-١١٠) سورة الأعراف] أي: **قال الملأ -وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون- موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعُه واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}** [(١٠٩) سورة الأعراف] **فوافقوا وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}** [(٦) سورة القصص] **فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: {قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}** [(١١١-١١٢) سورة الأعراف].

أراد الحافظ ابن كثير –رحمه الله- أن يجمع بين الآيات فأضاف هذا القول إلى الملأ، وفي الموضع الآخر قال: إن هذا من قول فرعون، أعني قوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [(٣٤) سورة الشعراء] فهو أراد أن يجمع بين هذه الآيات فقال:: لما هدأ فرعون وذهب عنه الفزع حينما رأى الحية تشاوروا فيما بينهم ماذا يقولون؛ من أجل أن تصدر عنهم كلمة موحدة يتناقلها الناس، وذلك أن هذه الإسقاطات تؤثر في الناس، فاتفقوا وائتمروا على إطلاق معين يرِد على ألسنة هؤلاء الكبراء جميعاً فيتبعهم الناس في ذلك وينفرهم من موسى، فاجتمعوا كما اجتمع كبراء قريش لينتقوا بعناية لقباً أو إطلاقاً يطلقونه على النبي -صلى الله عليه وسلم- فيصدر على ألسنتهم ويتناقله الناس وينطبع ذلك فيه لينفّروا الناس منه، فهنا ائتمروا فصدر ذلك الإطلاق من فرعون وصدر من الملأ حيث كلهم قالوا: إنه ساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون؟.

وقولهم: فماذا تأمرون يحتمل أن يكون من كلام الملأ موجهاً إلى الملأ؛ لأنها بصيغة الجمع؛ لأنهم هم أهل الحل والعقد، أي ما هو الشيء الذي تتفقون عليه وترون أن يُفعل تجاه موسى؟ ويحتمل أن يكونوا وجهوا الخطاب إلى فرعون ولكن خاطبوه بصيغة الجمع من باب التعظيم، فما قالوا له: ماذا تأمر وإنما قالوا: ماذا تأمرون، أي ماذا ترون في هذا الأمر؟

ويحتمل أن يكون هذا من كلام فرعون، فالملأ قالوا: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [(١٠٩) سورة الأعراف] وفرعون قال: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [(١١٠) سورة الأعراف] ويكون بهذا الاعتبار من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنىً، وذكرنا له أمثلة من قبل، كقوله تعالى في سورة النمل: {وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [(٣٤) سورة النمل] فقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} يحتمل أن يكون من كلام ملكة سبأ، ويحتمل أن يكون من كلام الله يقرر كلامها، ومن ذلك قوله تعالى في سورة مريم: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] وقوله تعالى في سورة يوسف: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يحتمل أن يكون من بقية كلامها، ويحتمل أن يكون من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام-.

فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: {قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [(١١١-١١٢) سورة الأعراف].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَرْجِهْ} [(١١١) سورة الأعراف] أخِّرْه {وَأَرْسِلْ} [(١١١) سورة الأعراف] أي: ابعث {فِي الْمَدَآئِنِ} أي: في الأقاليم ومدائن ملكك {حَاشِرِينَ} أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى -عليه السلام- من قبيل ما تشعبذه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة يعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى* قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى* فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [(٥٨-٦٠) سورة طـه].

قوله تعالى: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [(١١٢) سورة الأعراف] فيها قراءة أخرى متواترة للكوفيين عدا عاصماً (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) [(١١٢) سورة الأعراف] والسحار صيغة مبالغة، والمعنى شديد السحر أو عظيم

السحر، أي أنهم لم يجمعوا له كل من اشتغل بالسحر وإنما جمعوا أعلم السحرة وأشدهم، والروايات الإسرائيلية كثيرة في ذكر ذلك، فبعضهم يقدّرهم بثمانيين ألفاً، وبعضهم يذكر أنهم عشرات فقط، وهذا من التباين الشديد في الأخبار الإسرائيلية، فلم يكن الفرق يسيراً حتى يمكن أن يقال: هذا من جبر الكسر أو نحو ذلك، وإنما بعضهم يذكر أنهم عشرات، وبعضهم يقول: مئات، وبعضهم يقول: إنهم آلاف، وبعضهم يقول: هم ثمانون ألفاً، وبعضهم يقول: أكثر من ذلك، فالله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [(١١٣-١١٤) سورة الأعراف] **يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى -عليه السلام- إن غلبوا موسى ليُثِيبنّهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول السحرة في هذه الآية: {إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [(١١٣) سورة الأعراف] يكون هذا تقريراً جاءوا به بصيغة خبرية ليتوثقوا منه، وكأنه شيء قريب المنال، أو أنه شيء يتوقعونه أو يثقون بحصوله، فقالوا: لنا أجر إذا كنا نحن الذين غلبنا موسى -صلى الله عليه وسلم-، وفي الآية الأخرى جاء بأسلوب الاستفهام {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا} [(٤١) سورة الشعراء] أي أنهم يسألونه: هل تعطينا أجراً؟ والفرق بين القراءتين ظاهر، لكن هذه الآية وإن لم تكن بصيغة الاستفهام إلا أن المقام والسياق يشعر به، فهم يقولون لفرعون: {إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [(١١٣) سورة الأعراف] كأنهم يشترطون ذلك عليه فجاءوا به على صيغة الخبر.

فلما توثقوا من فرعون -لعنه الله- {قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ* قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [(١١٥-١١٦) سورة الأعراف] **هذه مبارزة من السحرة لموسى -عليه السلام- في قولهم: {إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ}** أي: **قبلك، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}** [(٦٥) سورة طـه] **فقال لهم موسى -عليه السلام-: {أَلْقُوْاْ}** [(١١٦) سورة الأعراف] **أي أنتم أولاً.**

قولهم: {إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} يدل على شدة ثقتهم بأنفسهم وأن ما سيأتي به مستعدون لإبطاله، فهم واثقون من أنفسهم تماماً.

ومن أهل العلم من يقول: إنهم قالوا ذلك من باب الأدب الذي اعتاده من يتبارون من أهل العلوم أو الصناعات أو الأعمال المختلفة إذا كانوا في مقام التباري والتنافس، كما يقال في المناظرة مثلاً: تسأل أو أسأل؟ لكن هذا لا يقوله إلا من كان واثقاً بنفسه تمام الثقة، وإلا فإنه يطلب شيئاً معيناً؛ لأنه قد رتب عليه أمراً آخر، فيخاف أن يفوته.

قيل الحكمة في هذا -والله أعلم- ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجليّ بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يعلل لماذا قال لهم موسى -صلى الله عليه وسلم-: ابدءوا أنتم، فيقول: ليكون ذلك أوقع في نفوس الناس، باعتبار أنهم يرون البهرج ثم بعد ذلك ينتظرون ماذا سيلقي موسى.

ويمكن أن يقال بعبارة أخرى -وكل هذا وجه ظاهر والله تعالى أعلم-: إنه أراد أن يكون الحق هو آخر ما يلامس أو يصادف أو يراه الناس؛ فإنه يعلق في آذان الناس عادة آخر ما يرون، ولذلك فالنهايات معتبرة في كل شيء، فمن كانت نهايته سيئة فلا عبرة بحسن بدايته، فلو أن إنساناً دعا ناساً وأكرمهم ثم في آخر المجلس أساء إليهم فإن الذي يعلق في الأذهان تلك الإساءة التي نسخت كل الإحسان، وهكذا في كل شيء يبقى الإنسان يعلق في ذهنه ما كان في آخر المطاف، أو آخر الأمر، فموسى –عليه السلام- أراد -والله تعالى أعلم- أن يكون آخر ما يقع عليه أبصار الناس وآخر ما يقفون عليه هو الحق؛ ليكون هو العالق في الأذهان؛ لأن ما تقدمه ينتقل إلى الذاكرة ويختزن فيها وقد يفوت منه ما يفوت فإذا جاء بعده أخذ نصيباً من الأول، وهكذا، فإذا كثرت الأشياء أنسى بعضها بعضاً، وما يأتي ثانياً فالعادة أنه يُذهل عن الذي قبله، فالمقصود أن موسى -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يكون الحق هو آخر ما يراه الناس، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} [(١١٦) سورة الأعراف] أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

السحر الذي جاء به السحرة الذين أرادوا أن ينتصروا به على موسى -صلى الله عليه وسلم- هو من باب سحر التخييل، لكن ليس معنى ذلك أن السحر بجميع أنواعه من هذا القبيل، فبعض أهل العلم يقول: السحر هو سحر أعين الناس فقط بمعنى أنه لا حقيقة للسحر وإنما هو تخييل وتزييف فيتراءى للإنسان مثلاً أن هذا يدخل حديدة في جوفه، فهذا تخييل، لكن ليس كل السحر تخييلاً، فمثلاً من يرفع الإنسان ويجعله معلقاً بالهواء -كما تعرض بعض القنوات الفضائية- هذا قد يكون تخييلاً للناس وهو ليس كذلك، وقد تكون الشياطين هي التي ترفعه، ولذلك إذا جاء أحد وذكر الله، وقال رقية أو نحو ذلك فإن هذا المعلق يسقط، حيث يبطل عمل الساحر ويتخلى عنه الشيطان الذي يحمله كما حصل لأناس كانوا يرتفعون بالهواء ويطيرون فلما حصل لبعض من ورث ذلك عن أبيه وذكر الله لما ارتفع سقط وتكسر وتحطمت عظامه.

والمقصود أن السحر الذي وقع من سحرة فرعون كان من قبيل سحر التخييل، وإلا فإن السحر منه ما له حقيقة، ويُمرض بإذن الله -عز وجل-، وقد يقتل بإذن الله -عز وجل- لكن تبقى بعض التفاصيل مثل: هل يستطيعون تغيير حقائق الأشياء مثل تغيير الإنسان إلى بهيمة فعلاً أم لا؟ هذه مسائل العلماء تكلموا عليها لكن يبقى الأصل أن السحر له حقيقة، وبالنسبة للسحر الذي وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو من قبيل سحر التخييل.

كما قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى* قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى* وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [(٦٧-٦٩) سورة طـه].

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

الإسرائيليات في هذا لا تحصى، فهناك أمور عجيبة وغريبة ذكرت في الأشياء التي ألقوها، وكم وكيف كانت تملأ الوادي، لكن مثل هذه الإسرائيليات لا يعول عليها.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ* فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ* وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ* قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١١٧-١٢٢) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى -عليه السلام- في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل- يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه {فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ} [(١١٧) سورة الأعراف] **أي: تأكل {مَا يَأْفِكُونَ}** [(١١٧) سورة الأعراف] **أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حقٌ وهو باطل.**

وفي قراءة أخرى متواترة، وهي قراءة الأكثر **(تلقَّف)** وهذا يدل على التكثير، والتعبير بالمضارع لا يخفى ما يدل عليه؛ لأنه يصور الأمر الماضي بصورة كأنك تطالعها وتشاهدها وأنت تسمع هذا السياق والخبر عما حصل.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا: {آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١٢١-١٢٢) سورة الأعراف].

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتلع تلك الحبال والعصيّ واحدة واحدة حتى ما يُرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً {قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١٢١-١٢٢) سورة الأعراف] **لو كان هذا ساحراً ما غلبنا.**

وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فأُلقي السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

ورد في بعض الآثار عن بعض السلف أنهم رأوا الجنة والنار، لكن مثل هذا حتى لو قيل: له حكم الرفع؛ لأنه لم يؤخذ من الإسرائيليات فإن هذا يكون في حكم المرسل، لكن لو أن ذلك صح فهو يفسر أمراً قد يُتساءل عنه هنا -وهو وراد تماماً- وذلك أن هؤلاء سحرة وهم أسوأ الناس وأظلم الناس نفوساً، وأبعد الناس عن الخير، وهو جاء بكل سحار عليم، وهؤلاء السحرة بهذه المثابة وبهذه المنزلة معناها أنه جاء بأقذر من في مصر وأظلم الناس نفوساً وقلوباً وأبعدهم عن الحق والهدى، والعجيب أن التفاصيل التي جاءت بعده في هذه السورة وفي غيرها **{إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(٧٣) سورة طـه] و**{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى* وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى* جَنَّاتُ عَدْنٍ}** [(٧٤-٧٦) سورة طـه] وتفاصيل من أين عرفوها بهذه اللحظات؟!

أنا كنت أقف دائماً عند مثل هذه الآيات وأقول: ما الذي وقع للسحرة، كيف عرفوا هذه التفاصيل العجيبة، وهم أظلم الناس نفوساً وأبعد الناس عن الخير؟ من أين عرفوا هذه التفاصيل كلها وكيف كان منهم هذا الثبات العظيم؟، ثم إن الله –تبارك وتعالى- عقّب بالفاء في بعض الآيات كقوله: **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا**

بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [(٧٠) سورة طـه] فيدل على المباشرة أي أنهم بمجرد ما رأوا هذا خروا سجداً، وثبتوا هذا الثبات العظيم، وأمام من؟ وهم قبل لحظات كانوا يقولون: **{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** [(٤١-٤٢) سورة الشعراء] فمن الذي يستطيع أن يكون مقرباً عند فرعون وهم إنما جاءوا لطمع، ولا تسأل عن الآفات والأمراض فكل أمراض الدنيا موجودة في نفوس هؤلاء العتاة من السحرة، من الحسد والتنافس غير الشريف، والتهافت على الدنيا وعلى التوصل إليها بأقذر الأشياء، فهذا معروف، ومع كل ذلك يتحولون مباشرة إلى هذا الثبات العظيم، وهذا الرد البليغ، وهذه التفاصيل في الرد، فكيف عرفوها؟ لو صحّ أنهم رأوا الجنة والنار أو الجنة والثواب فقد يكون هذا جواباً، أي أن هؤلاء لما رأوا الجنة ذكروا هذه الأشياء وحصل لهم هذا الثبات العظيم، فالإنسان قد يرى آية ولا يؤمن، كما حصل لفرعون، فموقفهم لا يقل عن موقف فرعون؛ لأنه في مقام المباراة والمناظرة أو المحاجَّة أو المغالبة يكون للنفوس حضور كبير عند العلماء بالشريعة فضلاً عن السحرة الذين هم أوسخ الناس، فالعلماء في الفقه إذا حصل بينهم تناظر أو نحو ذلك يكون لحظوظ النفس حضور كبير، ولذلك تجد الوجه يحمر، وتجده يحتج بأشياء هو لا يرتضيها أصلاً ولا يرى أنها تصلح متمسكاً في الاحتجاج، ومع ذلك يتمسك بها وربما رد الآية أو الحديث في مقام المناظرة والطيش ونحو ذلك، بل ذكر بعضهم -كابن قدامة والجويني- وجماعة: أنه يصل الأمر إلى أن الرجل يأخذ بلحية صاحبه، وربما قذفه في عرضه وأمه من الغضب أثناء المناظرة وهم علماء! فإذا كان هذا يحصل بين علماء في مقام المناظرة في أمور شرعية، فتصور سحرة جاءوا أمام فرعون وأمام الناس في يوم عيد حيث إن العالَم ذلك اليوم في أجازة وهم جالسون يتفرجون فرأوا هزيمة ساحقة، وليس ذلك فقط بل القضية أن فرعون سيسحقهم حيث سيقول لهم: خذلتموني وسيكون مآلهم القتل حتى لو لم يؤمنوا، والله أعلم.

أضف إلى ذلك أن هؤلاء الناس حينما أتوا ليس لهم صنعة إلا السحر فهل يُتوقع أنه يكون خلال أيام أو شهور ناجحاً في مجالات أخرى كأن يتحول إلى فقيه أو عالم أو نحو ذلك؟ مثل هذا يحتاج أن يبدأ من الصفر في الكتاتيب، ولهذا فإن الشيخ المعلمي اليماني -رحمه الله- في كتاب التنكيل الذي أفرد جزءاً منه فسماه "القائد إلى تصحيح العقائد" ذكر فصلاً في غاية الأهمية في أسباب رد الحق، فقال: "ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة" أي أن بعض الناس يردون الحق؛ لأن لهم في الباطل شهرة ومعيشة، فالساحر له شهرة وله معيشة فهو يقدّر في باله أنه إذا اتبع الحق وأعلنه فمعنى ذلك أن شهرته والأضواء التي كانت له ستذهب، وستذهب معها الأموال التي يأخذها من الناس وسيصبر فقيراً لا يجد له وظيفة إذ ليست عنده مؤهلات.

ومنهم من يقدر أشياء أخرى فيقول مثلاً: إذا أعلنتُ الحق أو اتبعت صاحب الحق فمعنى ذلك أن الحق ظهر على يده وصار له فضل عليَّ فكيف أقر له بهذا إذ كيف يفضل عليّ ويجيء الحق على يده؟، وهذا باب من أبواب الحسد، ثم يقدر أشياء أخرى فيقول: إذا قلت: إن ما مع الآخر هو الحق فمعنى ذلك أنني كنت على الباطل طول عمري الذي ذهب حتى شابت مفارقي! وليس ذلك فحسب بل الأهل والعشيرة وقومي كلهم على الباطل، إذاً ما هو الحل؟ الإصرار على هذا الباطل والتمسك به ومكابرة الأدلة وبراهين الحق، وردها ولو كانت أوضح من الشمس!

والمقصود أن هذه الأمور كلها مجتمعة لهؤلاء السحرة ومع ذلك أقروا في لحظة أنهم كانوا على باطل ولم يبالوا بفرعون، ولو كان حصل منهم هذا الرجوع إلى الحق في غياب فرعون لقيل: غيبة فرعون عن مشاهدة الحدث جعلت ذلك أخف وطأة في النفوس وأثراً لكن العجيب أن هذا كله حصل أمامه وهو حاضر بكل ما عنده من إمكانية في الحضور من جنده ووزرائه، فكل هذه الأمور مجتمعة تجعلهم يتمسكون بالباطل ويكابرون موسى -صلى الله عليه وسلم- لكن الذي حدث أنهم في لحظات رجعوا إلى الحق وصاروا أناساً متهذبين فسجدوا لله خاضعين مقرين بالحق.

{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ* لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ* قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [(١٢٣-١٢٦) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما توعد به فرعون -لعنه الله- السحرة لما آمنوا بموسى -عليه السلام- وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: إنّ غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم بذلك، كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [(٧١) سورة طـه] وهو يعلم وكل من له لبّ أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى -عليه السلام- بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختاره هو والملأ من قومه، وأحضرهم عندهم ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى -عليه السلام- لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [(٥٤) سورة الزخرف] فإن قوماً صدقوه في قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [(٢٤) سورة النازعات] من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- في قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [(١٢٣) سورة الأعراف] قال: التقى موسى -عليه السلام- وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فو الله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

على كل حال هذا عن السدي، ومثل هذا لو صح إسناده فإنه مما لا يقال من جهة الرأي، فإن لم يكن مأخوذاً عن بني إسرائيل فإنه يكون له حكم الرفع، لكن طريق السدي لا تصح أصلاً، فالله أعلم.

وقوله: {لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [(١٢٣) سورة الأعراف] يعني خطة مبيتة، فالتدبير بخفاء يقال له: مكر.

قوله: {مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [(١٢٣) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون المعنى أن هذا المكر حيك حينما كنتم في المدينة، يعني تكون المدينة ظرفاً للمكر بمعنى أن هذا المكر وقع فيها، يعني هي خطة اتفقتم عليها في المدينة التي هي مصر، ويحتمل أن يكون {لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [(١٢٣) سورة الأعراف] يعني أنكم دبرتم أمراً

ضد هؤلاء الناس من أهل المدينة، أو ضد البلد وأهل البلد؛ وعلى هذا لا يكون المعنى أن المكر وقع ونُسج داخل المدينة، وهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم، أي أن المقصود أن هذا مكر موجه إلى البلد وأهل البلد {لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] والله أعلم.

وقوله: {لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتُخرجوا منها الأكابر والرؤساء.

يعني هو يريد أن يقول: أنتم فقط تريدون السلطة وليست مسألة دعوة ولا وحي ولا هدى ولا نبوة ولا رسالة ولا شيء.

وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ} [(١٢٤) سورة الأعراف] يعني يقطع يد الرجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس.

{ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} وقال في الآية الأخرى: {فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [(٧١) سورة طـه] أي: على الجذوع.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وكان أولَ من صَلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون.

وقول السحرة: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [(١٢٥) سورة الأعراف] أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشدّ من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرنَّ اليوم على عذابك؛ لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} [(٢٥٠) سورة البقرة] أي: عُمنا بالصبر على دينك والثبات عليه {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [(١٢٦) سورة الأعراف] أي: متابعين لنبيك موسى -عليه السلام-.

وقالوا لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى* إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى* وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [(٧٢-٧٥) سورة طـه] فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء.

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ* قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [(١٢٧-١٢٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى -عليه السلام- وقومه من الأذى والبغضة.

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ} أي: **لفرعون {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ}** [(١٢٧) سورة الأعراف] أي: **أتدعهم {لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [(١٢٧) سورة الأعراف] أي: **يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك.**

يا لله العجب؛ صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف].

وقال السدي في قوله: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف]: **وآلهته فيما زعم ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار.**

قوله: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [(١٢٧) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون المقصود مجموع الأمرين، يعني أتتركه ليفسد في الأرض، ويذرك وآلهتك، كيف ترضى منه هذين الأمرين؟

ويحتمل أن يكون المعنى غير هذا، وذلك أن قوله: **{وَيَذَرَكَ}** فيها قراءة أخرى بالرفع **(ويذرُك)** فعلى هذه القراءة يكون كأنه نتيجة، يعني أنهم قالوا: أتتركه يفسد في الأرض؟، ثم ذكروا قضية أخرى هي نتيجة لذلك وتتمثل في أن يذرك وآلهتك.

وقوله: **{وَآلِهَتَكَ}** المعروف أن فرعون كان يقول: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [(٢٤) سورة النازعات] فكيف أخبر الله -عز وجل- فقال: **{وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** هل كان له آلهة؟

هنا نرجع إلى ما ذكره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنهم كان يعبدون البقر، ويقال: إن فرعون أصلاً من أهل اصتخر، وفي بعض الروايات أنه أصلاً من أهل المشرق، فقد تكون جاءته عبادة البقر من تلك الناحية، لكن هذه لا يثبت فيها شيء، ويحتمل -كما قيل-: إنهم كانوا يعبدون النجوم، أي أنهم كانت لهم معبودات متعددة، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الأصنام تقرباً إلى فرعون، فإذا قال: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [(٢٤) سورة النازعات] فالمعنى أنهم لهم أرباب لكن هو الرب الأعلى، وقوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [(٣٨) سورة القصص] يكون باعتبار أنهم كانوا يعبدون الأصنام تقرباً إليه؛ لأنه أمرهم بهذا، هكذا جاء في بعض الروايات عن التابعين والعلم عند الله -عز وجل-.

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الشمس، ويمكن أن يكون قد قال: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [(٣٨) سورة القصص] باعتبار أنه هنا في مقام الإلزام والرد فقال ذلك على سبيل المبالغة ولا سيما أنه يرى أن كل شيء لا بد أن يكون بإذنه، فكيف يعبدون الله -عز وجل-، والآمر الناهي هو فرعون؟

ويمكن أن يكون قوله: **{وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** كما فسره بعض أهل العلم أي: يذرك وعبادتك، وهذا يكون أوضح في القراءة الأخرى وهي قراءة غير متواترة عن علي وابن عباس والضحاك: **(وإلهتك)** وهذه واضحة؛ فإلهتك يعني عبادتك، فالإلهة هي العبادة، تقول: أله يأله إلهة يعني عبادة، والمألوه هو المعبود.

وفي قراءة غير متواترة لأبيّ بن كعب **(ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك)** وهذه واضحة صريحة، وعليها لا تكون الآلهة بمعنى المعبودات الأخرى، وذلك أنه يزعم أنه هو الإله الوحي بالنسبة لهم، فالله أعلم.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} [(١٢٧) سورة الأعراف] وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى -عليه السلام- حذراً من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

القتل الأول المشهور سببه أن الكهنة قالوا له: إنه سيولد ولد يكون ذهاب ملكك على يديه فصار يقتل ويقتل، فقيل له: إن قتلت هؤلاء جميعاً فمعنى ذلك أن الفراعنة سيتولون الخدمة في الأمور المهينة، فصار يقتل سنة ويترك سنة، ويمكن أن يكون فعل ذلك لإضعافهم أي أنه يبقي بقية منهم من أجل امتهانهم وابتذالهم ليعملوا له في الأمور الوضيعة؛ لئلا يتولاها الفراعنة، واستحياء النساء معناه أنهم يبقون البنت حية لا يقتلونها من أجل الخدمة، وهذا لا يقل عن القتل بل هو أشد من القتل، أي أن تبقى بنت الإنسان في قبضة عدوه يذلها ويهينها ويستعملها في الأمور المهينة ويحملها التكاليف الشاقة، فهذا لا شك أنه أمر صعب وشديد على النفوس.

والتقتيل الثاني أيضاً من أجل الاستضعاف، وهذا ظاهر حيث قالوا له: كيف تترك هؤلاء يفسدوا في الأرض؟، قال: هم تحت السيطرة، فنحن سنقتل أولادهم وسيبقون بقيةً قليلة جداً ضعيفة، لا يكون لهم شأن ولا قوة.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل، قال موسى لقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ} [(١٢٨) سورة الأعراف] ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [(١٢٨-١٢٩) سورة الأعراف] أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك.

هذا يدخل فيه كل الأذى الذي حصل لبني إسرائيل من الفراعنة قبل ذلك من كونهم يعملون في الخدمة، ومن كون التقتيل وقع على أبنائهم في المرة الأولى واستحياء النساء، وغير ذلك ولا حاجة لتخصيص نوع معين من الأذى، ولذلك فإن موسى -صلى الله عليه وسلم- طالبه فقال: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [(٤٧) سورة طـه] ومعنى ذلك أنه كان مُحكِم القبضة عليهم مبقيهم عنده يعملون بالأعمال الشاقة، فكانوا أمة ممتهنة مبتذلة مصادرة الحقوق عند هؤلاء الفراعنة، فطالبه موسى -صلى الله عليه وسلم- بإطلاقهم وتركهم، وترك تعذيبهم وأذيتهم، لذلك قالوا: {قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [(١٢٩) سورة الأعراف] أي: ويتوعدنا بهذه الأمور من بعد ما جئتنا.

فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ} الآية [(١٢٩) سورة الأعراف] وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

"عسى" إذا كانت من كلام الله -عز وجل- فهي متحققة الوقوع، فالله –عز وجل- إذا قال: عسى أن يجعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فيقولون كما جاء عن ابن عباس وغيره: عسى من الله واجبة، وهكذا إذا صدر من نبي كريم يخبرهم عن وعد الله -عز وجل- لهم فهو مؤيد بالوحي، فالله يقول: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [(٤٦) سورة طـه] فـ"عسى" حينما يقولها نبي فمعنى ذلك أنها متحققة الوقوع؛ لأن أصل معنى عسى الترجي، فيكون ذلك على سبيل الوعد الثابت، لكن قال بعض أهل العلم: إنها جرت عادة الكبراء والعظماء

والملوك أنه إذا أراد أن ينجز حاجة غيره يقول له: عسى أن نفعل لك كذا، عسى أن يحصل مقصودك، وهـــو يقصد العِدَة، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (15)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(130-131) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ} أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم {بِالسِّنِينَ} وهي سِنِيُّ الجوع بسبب قلة الزروع {وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} قال مجاهد: وهو دون ذلك، وقال أبو إسحاق عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [(130) سورة الأعراف].

{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ} [(131) سورة الأعراف] **أي: من الخصب والرزق {قَالُواْ لَنَا هَذِهِ} أي: هذا لنا بما نستحقه {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أي: جدب وقحط {يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} أي: هذا بسببهم وما جاءوا به، {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} يقول: مصائبهم عند الله {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}** [(131) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ} [(130) سورة الأعراف] يعني الجوع والقحط {وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} [(130) سورة الأعراف]، أي: أن الثمار لا تخرج كما كانت تخرج في مجاري العادات بل يصيبها من الآفات التي تنقصها وتضعفها.

{لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} لعل تفيد التعليل، أي: من أجل أن يتذكروا، فالله -عز وجل- يسوق إليهم ذلك من أجل أن يعودوا ويرجعوا إليه -عز وجل-.

يقول تعالى: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ} [(131) سورة الأعراف] يعني هذا لنا بما نستحقه.

قال: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(131) سورة الأعراف] جاءت الحسنة معرّفة والسيئة منكّرة، ويحتمل -والله تعالى أعلم- أن هذا التفاوت جاء باعتبار أن الحسنة هي الأصل، فالحسنة هي الشيء المستمر أو الغالب أو المعهود، وأما السيئة فجاءت منكرة باعتبار أنها شيء عارض على خلاف الأصل، فهي شيء نادر أو قليل الوقوع.

قوله: {يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(131) سورة الأعراف] يعني أنهم يتشاءمون به، فيقولون: هذا بسببك، ما رأينا الشر والآفات والرزايا إلا منك حينما جئتنا، كما قال الله -عز وجل- عن المشركين: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ} [(78) سورة النساء]، وقال قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- لنبيهم صالح: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} [(47) سورة النمل]، وكذلك أصحاب القرية

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} [(18-19) سورة يـــــس].

قال: {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ} [(131) سورة الأعراف] أي: مصائبهم عند الله، وقيل: إن المراد ما كتب عليهم، وقيل: إن سبب خيرهم وشرهم هو عند الله -عز وجل- والطائر يطلق على العلم، كما قال الله -عز وجل-: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [(13) سورة الإسراء]، ويمكن أن يراد به هنا في هذا الموضع {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ} [(131) سورة الأعراف] يعني: ما قدّر عليهم من خير أو شر، كله عند الله -تبارك وتعالى- وليس بسبب مجيئك، ولهذا قال: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(78) سورة النساء] كل ذلك عند الله -تبارك وتعالى- قدّره وخلقه وكتبه وأراده.

{وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ* وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [(132-135) سورة الأعراف].

هذا إخبار من الله -عز وجل- عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [(132) سورة الأعراف] **يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به.**

قال الله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ} عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وعنه -رضي الله تعالى عنه- في رواية أخرى: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال.

قال أبو جعفر النحاس: إن الطوفان كل ما يطوف بالإنسان من آفة مرض أو مياه مغرقة، أو غير ذلك مما يُهلِك يقال له طوفان، وهذا المعنى قريب مما ذكره ابن جرير -رحمه الله-: أن الطوفان هو أمر من الله -عز وجل- طاف بهم.

والطوفان بالنسبة لعرف الناس اليوم إذا أطلق فهو لا يتجه إلا إلى الماء خاصة، لكن مثل معاني القرآن لا تحمل على ما استقر عليه العرف في العصر الحديث، وإنما تحمل على عرف المخاطبين بالقرآن، فالطوفان عندهم أعم من الماء وهم عرب خلّص.

وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله تعالى عنه- عن الجراد، فقال: "غزونا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سبع غزوات نأكل الجراد"[1].

إذا نزل الجراد بمكان ما فإنه يغطي وجه الأرض، ولا يترك شيئاً إلا أكله، ومن عادة الناس أن يصيدوه ليلاً لنزوله على الأشجار والأرض.

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة الجراد، (1546/3)، برقم: (1952).

وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أحلت لنا ميتتان ودمان، الحوت والجراد والكبد والطحال))[2].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ} [(133) سورة الأعراف] قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب.

وأما القُمَّل فعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه أنه الدبى، وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد، وعكرمة وقتادة، وعن الحسن وسعيد بن جبير: القُمَّل دواب سود صغار.

القُمَّل هو السوس الذي يكون بالحنطة، ويفسدها تماماً ولا يبقى منها إلا مثل بقايا القطن إذا ضرب، ولا تصلح للأكل.

قال: "**وعنه: أنه الدبى**" الدبى: الجراد الصغير، وهو أعظم آفة من الجراد الكبير؛ لأن الجراد الكبير ينزل في مكان ما، ثم بعد ذلك يغادر إلى مكان آخر فيفسد مكاناً ثم ينتقل إلى آخر، أما الدبى فإنه لا يطير وهو جالس في مكان معين يقرضه، فلا يطير ولا يغادر، ولا يؤكل، ويفتك فتكاً ذريعاً.

وقال بعضهم: القُمَّل هو البراغيث، وبعضهم قال: هو نوع من القراد الصغير الذي يكون في البهائم وتصل الأعداد التي اكتشفت منه إلى حوالي خمس وثلاثين ألف نوع، ولا يزالون يكتشفون ويقولون: الرقم مؤهل إلى الخمسين ألفاً، وهو أنواع: منه نوع طفيلي صغير يعيش على جسم الإنسان، يوجد في البيوت.

وقال بعضهم: القُمَّل هو الجعلان، وكل هذه الأقوال تدور على أن القُمَّل حشرة صغيرة مزعجة مؤذية، تنغص عليهم عيشهم وحياتهم، وإن كان المشهور -والله أعلم- أن القُمَّل هو الذي يكون في الحنطة والسوس، وبعضهم فسره بالقَمْل، وفيه قراءة غير متواترة، قراءة الحسن البصري.

وروى أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى -عليه السلام- فرعون قال له: {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(105) سورة الأعراف] **فلم يرسلهم، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصبّ عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القُمَّل -وهو السوس الذي يخرج منه- فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القُمَّل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك**

---

[2] - رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال (1102/2)، برقم: (3314)، وأحمد (97/2)، برقم: (5723).

من هذا؟، فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟، فأتوه وقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

تقول بعض الروايات: إذا استقت المرأة الإسرائيلية الماء لم يتغير، وإذا استقت الفرعونية صار دماً، فلما اشتد بهم العطش، كانت المرأة الفرعونية تقول لجارتها الإسرائيلية: مُجِّي الماء في فمي، فتمجّه من فمها إلى فمها فيتحول إلى دم، وبعض أهل العلم فسر الدم هنا: بالرعاف، والله تعالى أعلم.

وقد رُوي نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف: أنه اخبر بذلك.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله-: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القُمَّل ثم الضفادع ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك، قالوا: {يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(134) سورة الأعراف] **فدعا موسى ربه فكشف عنهم.**

{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ} [(134) سورة الأعراف] أي: بما استودعك من العلم، وقال بعضهم: **{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ}** [(134) سورة الأعراف] يعني: من معرفة الاسم الأعظم الذي إذا سألت ربك به أعطاك، وبعضهم يقول: **{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ}** [(134) سورة الأعراف] بما أعطاك الله -عز وجل- من النبوة واختصك به من القرب والاصطفاء والتكليم.

فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القُمَّل، فذكر لي أن موسى -عليه السلام- أُمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

هذه كلها من العقوبات، وجنود الله -عز وجل- لا تحصى، وكل شيء له آفة إلا نعيم الجنة، وليس في الدنيا مصلحة خالصة، وإنما هي مشوبة، والمصالح الخالصة في الجنة.

(مسألة): يقول: رجل أتى بوالدته وزوجته من مصر لأداء فريضة الحج، ثم أصيب في ركبته فلا يستطيع الذهاب معهم، فهل يجوز أن يذهبا بدون محرم، علماً بأن خال الزوجة موجود بمكة، ويمكن أن يصطحبها، في المناسك؟

(الجواب): لا بد في السفر من محرم، ودليل ذلك حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني كتبت في غزوة كذا وكذا وامرأتي حاجّة، قال: ((ارجع فحج مع امرأتك))[3] .

(مسألة): هل يصح تحديد آيات معينة تقرأ على المصروع أو الممسوس؟

(الجواب): الرقى باب من أبواب الطب، والأصل في باب الطب الإباحة ما لم يشتمل على شيء محرم، فإذا سلمت الرقى من شيء محرم، أو أمور مبهمة غامضة فلا بأس أن تكون بآيات معينة، إذا دلت التجربة على أنها تؤثر بإذن الله -عز وجل- ولا بأس أن يقرأ الإنسان في كل مقام بحسب ما يناسب المقام، فمثلاً الذي يعاني من الضيق والاكتئاب يقرأ عليه الآيات التي فيها الانشراح، والذي يعاني من الخوف فيمكن أن يُرقى بآيات السكينة، وكان شيخ الإسلام يكتب على جبين من أصيب بالرعاف قول الله -عز وجل- **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ}** [(44) سورة هود] فيقف الرعاف بإذن الله -عز وجل[4]-.

---

[3] - رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب كتابة الإمام الناس (1114/3)، برقم: (2896).

[4] - نقل عنه ذلك تلميذه ابن القيم – رحمه الله – في زاد المعاد (4 / 326).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ* وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٦ - ١٣٧) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا -مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة- انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى -عليه السلام- فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون -وهم بنو إسرائيل- مشارق الأرض ومغاربها.

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: {مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [(١٣٧) سورة الأعراف] يعني الشام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالأرض المذكورة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [(١٣٧) سورة الأعراف]، فيها خلاف على قولين:

الأول: الأرض هي جميع الأرض مشارقها ومغربها، ومعلوم أن الذين كانوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أغرق الله فرعون لم يحصل لهم ملك الأرض جميعاً، ولكن الذي قال بهذا القول قصد به أن ملك الأرض حصل لبني إسرائيل فيما بعد، فقد كان ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- يبلغ ذلك، وعلى هذا لا تكون "أل" في الأرض للعهد.

الثاني: أن "أل" في الأرض عهدية ويبقى النظر في هذه الأرض، هل هي الشام أو فلسطين، أو مصر والشام؟، واختار ابن جرير -رحمه الله- أن الأرض المباركة هي أرض الشام

والتعبير بالإيراث في قوله: {وَأَوْرَثْنَا} باعتبار أنها حصلت لهم بعد غيرهم، فالذين كانوا في بلاد الشام هم العمالقة، فجاءها بنو إسرائيل.

ودليل من قال: إن الأرض المباركة هي فلسطين قول الله -تبارك وتعالى-: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [(١) سورة الإسراء].

وقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ} [(١٣٧) سورة الأعراف] قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}[(٥) سورة القصص].

صرح ربنا –تبارك وتعالى- في قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] وفي قوله: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٩) سورة الشعراء] أن القوم الذين أورثهم الأرض هم بنو إسرائيل.

ومعنى قوله –تبارك وتعالى-: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: مضت على التمام، وقد وعدهم فتم وعده على ما وعد، من غير تخلف ولا نقصان فمكنهم في الأرض، كما قال الله -عز وجل-: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [(٥ - ٦) سورة القصص].

وقوله: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعون من العمارات والمزارع، {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: يعرشون: يبنون.

قال بعض أهل العلم: إن معنى قوله –تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف]، أي: من الجنات، كما قال الله -عز وجل-: {جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام]، والمشهور أن معنى قوله: {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: يبنون، وذلك معروف في كلام العرب، وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٣٨-١٣٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى -عليه السلام- حينما جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا {فَأَتَوْاْ} [(١٣٨) سورة الأعراف] أي فمروا {عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ} [(١٣٨) سورة الأعراف] قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، وقيل: كانوا من لخم، قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: {يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [(١٣٨) سورة الأعراف].

هذه الروايات تستند إلى الأخبار الإسرائيلية، ولا يعتمد عليها.

قوله –تبارك وتعالى-: {يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ} [(١٣٨) سورة الأعراف]، العكوف هو المكث الطويل، أي: أنهم قد اشتغلوا بعبادتها وانكبابهم عليها، وهذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥٢) سورة الأنبياء].

{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [(١٣٨) سورة الأعراف] **أي: تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل،** **{إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ}** [(١٣٩) سورة الأعراف] **أي: هالك** **{وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** [(١٣٩) سورة الأعراف].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية عن أبي واقد الليثي -رضي الله تعالى عنه- أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}))[1] [(١٣٨-١٣٩) سورة الأعراف].

{قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ* وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [(١٤٠-١٤١) سورة الأعراف].

يذكرهم موسى -عليه السلام- نِعَمَ الله عليهم من إنقاذهم من أسْر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}** [(١٤١) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون هذا الخطاب خوطب به أولئك الذين عبدوا العجل، فقد ذُكِّروا بنعمة الله -عز وجل- عليهم، وأن أقدامهم لم تجف من ماء البحر حتى طلبوا إلهاً غير الله -عز وجل- وهذا في غاية الإساءة، ويحتمل أن يكون ذلك متوجهاً إلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- من اليهود، فهو يخاطبهم ويذكرهم بنعمة الله -عز وجل- عليهم، والقاعدة أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء، كما أن النقم والرزايا التي تحصل على الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، ولهذا يرد الخطاب كثيراً في القرآن لبني إسرائيل الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة].

وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى}** [(٥٥) سورة البقرة] مع أن الذي قال ذلك هو أجدادهم وأسلافهم، لكن لما كانوا على طريقتهم صح أن يخاطبوا بذلك، فهم أمة واحدة، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله.

والإشارة في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}** [(١٤١) سورة الأعراف] ترجع إلى الإنجاء، أي: الإنجاء **{بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}**، وقيل: إن الإشارة راجعة إلى العذاب، والآية تحتمل القولين،

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٨/٥)، برقم (٢١٩٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٤/٣)، برقم (٣٢٩١)، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٨٧)، برقم (١١٠١٦)، وقال: فيه كثير بن عبدالله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه.

أي: في إنجائنا لكم، أو في تعذيبنا لكم بهذا العذاب بلاء من ربكم عظيم، وعبارة ابن جرير جمعت بين المعنيين، فقد فسر قوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي: بلاء من ربكم أي اختبار لكم وإنعام.

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [(١٤٢) سورة الأعراف].

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى -عليه السلام- وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى -عليه السلام- وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، فلما تم الميقات وعزم موسى الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} [(٨٠) سورة طـه] **فحينئذ استخلف موسى -عليه السلام- على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون -عليه السلام- نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.**

من أهل العلم من يقول: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- أُعطي التوراة والألواح، وأن الألواح غير التوراة، والعلم عند الله -عز وجل- وورد في هذا آثار لا تخلو من ضعف، وبعض هذه الأحاديث قد تصل إلى درجة الحسن.

{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن موسى -عليه السلام- أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي} [(١٤٣) سورة الأعراف] **حرف "لن" هاهنا على نفي الرؤية في الدنيا؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى:** {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة].

معنى {لَن تَرَانِي} [(١٤٣) سورة الأعراف] أي: لن تراني في هذا المقام، أو لن تراني في الدنيا، ولا تفيد "لن" النفي المؤبد.

وقد رد أهل العلم على المعتزلة الذين ينفون رؤية الله –تبارك وتعالى- في الآخرة، واستدلوا عليهم بأدلة كثيرة، فمن ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة]، ومعنى ناضرة: من النضارة والحسن {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٣) سورة القيامة]، أي: تنظر إلى ربها، والنظر إذا عُدي بإلى فهو النظر بالبصر العين، وإذا عدي بفي فهو النظر بالقلب والفكر، تقول: نظرت في أمرك أي: تفكرت فيه، وفي هذه الآية عداه بإلى.

ومما يدل على أن أهل الإيمان يرون ربهم في الآخرة قول الله –تبارك وتعالى-: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [(٢٣) سورة القيامة]، فلما حجب عنه أهل السخط والغضب، فأهل الرضا يرونه.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤية))[2]، فلا يلحقكم ضيم، ولا تتزاحمون.

ولم ينكر ربنا -تبارك وتعالى- على موسى -عليه الصلاة والسلام- لما قال له: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف]، كما أنكر على نوح لما قال: {رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي} [(٤٥) سورة هود] فقال الله -عز وجل- له: {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٤٦) سورة هود]، فدل على أن موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يطلب محالاً، وليست توبة موسى المذكورة في قوله {تُبْتُ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف]، كانت من ذنب وإساءة.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى -عليه السلام-: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف].

روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال: "قال هكذا -يعني أنه أخرج طرف الخنصر"[3]. وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[4]. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[5].**

وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قول الله تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر، {جَعَلَهُ دَكًّا}** [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال: تراباً {وَخَرَّ موسَى صَعِقًا}** [(١٤٣) سورة الأعراف].

قوله: {جَعَلَهُ دَكًّا} [(١٤٣) سورة الأعراف] على قراءة أهل المدينة والبصرة، أي: تراباً مدكوكاً متفتتاً تفتت الجبل، وقرئ {دكاء} بالهمزة، تقول: هذه ناقة دكاء، أي: لا سنام لها.

{وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال: مغشياً عليه، رواه ابن جرير؛ لأن هنا قرينة تدل على الغشي وهي قوله: {فَلَمَّا أَفَاقَ}** [(١٤٣) سورة الأعراف] **والإفاقة لا تكون إلا عن غشي.**

{قَالَ سُبْحَانَكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، وقوله: {تُبْتُ إِلَيْكَ}** [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال مجاهد: أن أسألك الرؤية، {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}**[(١٤٣) سورة الأعراف]، **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير.**

وفي رواية أخرى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **أنه لا يراك أحد.**

---

[2] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٢٠٣/١)، برقم (٥٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٤٣٩/١)، برقم: (٦٣٣).

[3] - رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩ / ٢٨١)، برقم: (١٢٢٦٠)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم.

[4] - الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف (٥ / ٢٦٥)، برقم (٣٠٧٤).

[5] - المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف (٣٥١/٢)، برقم (٣٢٤٩).

وقوله: {وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف] فيه أبو سعيد وأبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فأما حديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قد لُطم وجهه، وقال: يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ((ادعوه)) فدعوه، قال: ((لم لطمت وجهه؟)) قال: يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: قلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غضبة فلطمته، فقال: ((لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور))[٦]، وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء وأبو داود في كتاب السنة من سننه، وأما حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- فرواه الإمام أحمد والشيخان بنحوه.

معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- ((لا تخيروني من بين الأنبياء))، أي: لا تخيروني تخييراً يؤدي إلى تنقيص غيري من الأنبياء، تعصباً وحمية.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: أن مِن جهلة المسلمين مَن إذا وقف ورأى النصارى يسبون النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحرب، قام بسب عيسى -صلى الله عليه وسلم- وكذلك بعض جهلة أهل السنة إذا سمعوا الرافضة يسبون الشيخين، قاموا بسب علي -رضي الله تعالى عنه- لإغاظتهم، كما قال قائلهم:

سُبوا علياً كما سَبوا عتيقكم *** كفر بكفر وإيمان بإيمان[٧].

أما إذا ذكرت فضائل النبي -صلى الله عليه وسلم- لبيان فضله ومنزلته فلا شك أنه أفضل الأنبياء، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا سيد ولد آدم))[٨].

---

[6] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [(١٤٣) سورة الأعراف] (١٧٠٠/٤)، برقم (٤٣٦٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (١٨٤٤/٤)، برقم (٢٣٧٣).

[7] - انظر: مجموع الفتاوى (٦ / ٢٦).

[8] - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق، (١٧٨٢/٤)، برقم (٢٢٧٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (17)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ*وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [(144- 145)سورة الأعراف].

يذكر تعالى أنه خاطب موسى -عليه السلام- بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل -عليه السلام- ثم موسى بن عمران كليم الرحمن -عليه السلام- ولهذا قال الله تعالى له: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ} [(144)سورة الأعراف]، أي: من الكلام والمناجاة، {وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [(144)سورة الأعراف] أي: على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} [(43) سورة القصص]، وقيل: الألواح أعطيها موسى -عليه السلام- قبل التوراة، والله أعلم.

وقوله: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [(145)سورة الأعراف]، أي: بعزم على الطاعة، {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} [(145) سورة الأعراف].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أمر موسى -عليه السلام- أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [(145) سورة الأعراف] أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى-: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي} [(145)سورة الأعراف]، يعني: اصطفاه -عليه الصلاة والسلام- على أهل زمانه، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم صفوة قومهم وأفضلهم، فيصطفيهم الله -عز وجل- من بين سائر الناس، ولا يقال: إن هذا الاصطفاء كان بسبب الرسالات والكلام، فقد جاء قبل موسى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو أفضل منه، وأتى بعده النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل منه.

فإن قيل: إن "أل" في الناس للجنس.

نقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- اصطفاه الله -عز وجل- برسالاته وبكلامه، فقد كلمه الله -عز وجل- وكلم الله آدم -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} كقوله: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [(12) سورة مريم]، يعني: بعزم ودون تراخٍ وتكاسل.

قال: {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} فسر الأحسن هنا باعتبار أن أفعل التفضيل على بابها، يعني بالعزائم، وبعضهم قال: {بِأَحْسَنِهَا} يعني: بفعل المأمور واجتناب المنهي.

ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل لا يراد على بابه، فكل ما في الرسالة حسن، فأمرهم بالأخذ بها، كما قال الله -عز وجل-: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [(55) سورة الزمر]، يعني: اتبعوا ما أنزل الله إليكم، باعتبار أن أفعل التفضيل ليست على بابها، والله تعالى أعلم.

وقوله: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [**(145)سورة الأعراف]**، فسر الحافظ ابن كثير هذه الآية بتفسير قريب وهو المتبادر -والله أعلم- فقال: "**سترون عاقبة من خالف أمري**"، يعني: سأريكم نهاية الفاسقين وسوء المنقلب والمصير الذي يرجعون إليه.

ومن أهل العلم من نظر إلى لفظة الدار، وأراد أن يفسرها وينزل التفسير عليها، فقال: {دَارَ الْفَاسِقِينَ} يعني: مصر، وهي دار الفراعنة، فقد أغرقهم الله -تبارك وتعالى-، وهذا القول فيه بعد.

وبعضهم يقول: الفراعنة أُهلكوا، في الوقت الذي جاء فيه موسى -عليه الصلاة والسلام- للميقات، وكان هذا بعدما تجاوز موسى وقومه البحر ونجاهم الله -عز وجل- ولهذا قال بعض أهل العلم -ممن أراد أن يحذو هذا الحذو في التفسير-: إن دار الفاسقين هي أرض العمالقة في الشام، بمعنى أن الله -عز وجل- سيُديلهم عليهم ويخذل أولئك ويهزمهم، وتتلاشى دولتهم.

وقول من قال بأن دار الفاسقين هي النار، عائد إلى التفسير الأول، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن دار الفاسقين هي النار، والله تعالى أعلم.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ*وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(146 -147) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(146) سورة الأعراف]، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(110) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(5) سورة الصف].

هذا التفسير من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تفسير دقيق، وقد ذكرتُ في مناسبات شتى أن الإنسان قد لا يتبيّن له جودة التفسير وحسنه وما ينطوي عليه من المعاني والدقة إلا إذا قارنه بغيره، أو كان له اطلاع في

كتب التفسير، فيعرف قيمة الكتاب الذي يقرأ فيه، فقال ابن كثير في قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(146) سورة الأعراف]: "**سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين**"، وهذا الكلام جمع أنواع الآيات الثلاث، فيحتمل أن يكون المراد بالآيات هي الآيات المنزلة، فلا يفهمها أو لا يؤمن بها، ويحتمل أن يكون المراد الآيات الكونية، ويحتمل أن يكون المراد بها المعجزات، وكل هذه براهين وأدلة تدل على وحدانية الله -عز وجل- وعلى عظمته ، فالحافظ ابن كثير جاء بهذه العبارة التي تشمل ذلك جميعاً، "**الأدلة الدالة على عظمتي**"، وهذا يوجد في الآيات الكونية وفي غيرها، "**وشريعتي**" وهذا يوجد في الآيات المنزلة، "**وأحكامي**"، والمعجزات تدل على صحة الشريعة، وصدق من جاء بها.

وقوله -تبارك وتعالى-: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ} يحتمل أن يكون الصرف بمعنى: الصرف عن الإيمان بها، ويحتمل أن يكون الصرف عن فهمها والانتفاع بها، والقولان بينهما ملازمة، ولا نحتاج إلى ترجيح أحدهما؛ لأن الصرف عن فهم الآيات ملازم للصرف عن الإيمان بها كما كان حال المنافقين الذين يحضرون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرون القرآن ينزل، فإذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: ماذا قال آنفاً؟ فطبع الله -عز وجل- على قلوبهم وأعماهم، فلا ينتفعون بالآيات المنزلة ولا ينتفعون بالمعجزات.

وحمل الآيات على المعاني الثلاثة التي ذكرتها آنفاً وهي الآيات المنزلة والمعجزات والآيات الكونية هو الراجح -والله أعلم- وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وفي قوله: {الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} هذه الصفة لا يستفاد منها التقييد فلا يقال: إن الذين يتكبرون بالحق لا يصرفون عن آيات الله، فالقيد غير معتبر، وإنما هو يكشف عن الأمر الواقع الحاصل، وهو أن كل من تكبر عن آيات الله -عز وجل- فهو متكبر بغير الحق، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(61) سورة البقرة] فليس هناك أحد يقتل نبياً بحق.

وقال سفيان بن عيينة في قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} **[(146) سورة الأعراف] قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي.**

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة، قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطردٌ في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} كل من كان متصفاً بهذا الوصف فهو مصروف عن آيات الله -عز وجل- وعن فهمها والإيمان بها، سواء كان في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- أو في زماننا هذا، فإذا قيل: يؤخذ من هذه الآية أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق يُصرفون عن فهم القرآن والانتفاع به، فهذا المعنى صحيح.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} **[(146) سورة الأعراف]، كما قال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ*وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} **[(96- 97) سورة يونس].**

من المعلوم عن علماء الأصول أن "كل" هي أقوى صيغ العموم، فتدخل الأنواع الثلاثة من الآيات التي ذكرناها، وهي: المعجزات والآيات الكونية والآيات المنزلة.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً} [(146) سورة الأعراف] أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [(146) سورة الأعراف] أي: كذبت بها قلوبهم، {وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [(146) سورة الأعراف]: أي لا يعلمون شيئاً مما فيها.

وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، [(147) سورة الأعراف] أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله.

وقوله: {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، [(147) سورة الأعراف]، أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

قوله: {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} الحبوط هو: البطلان، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطاً أو يلم))[1]، والدابة إذا أكلت كثيراً ولم تجتر هذا الطعام فتنتفخ، ثم بعد ذلك تموت.

لذلك بعض الأمهات تدعو على ولدها إذا قضى حاجته على الأرض، أو ضجرت من كثرة ما تذهب به إلى دورة المياه، فتقول له: حبط، وهي لا تعرف معنى هذا الدعاء، فحبطت أعمالهم بمعنى بطلت، وهذا معنى الحبوط، والله أعلم.

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(148-149) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل -عليه السلام- فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار: صوت البقر.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} [(148) سورة الأعراف]، الاتخاذ يدل على العناية بهذا الشيء المتخذ، وأضافه إليهم جميعاً مع أن الذي فعل هذا هو السامري؛ لأنهم رضوا به وأقروه وعبدوه فنسب ذلك إليهم، كما أضاف الله -عز وجل- قتل الناقة إلى قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- مع أن الله قال: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [(29) سورة القمر]، وقال: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} [(12) سورة الشمس] .

يقول المفسرون بناء على الروايات الإسرائيلية: إن النساء الإسرائيليات، كنّ يستعرن الحلي، من الفرعونيات فخرجوا ومعهم الحلي، الذي استعاروه، وبعضهم يقول: خرجوا في يوم عيد، ولذلك تجد من أعياد اليهود عيداً يوافق اليوم الذي حصل فيه الاجتياز، فأخذ السامري هذا الحلي وجمعه وصور لهم منه عجلاً، وأخذ قبضة من أثر فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام- فألقاها عليه فصار له صوت.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الرقائق -باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (2362/5)، برقم: (6063)، ومسلم في كتاب الزكاة -باب تخوف ما يخرج من زهرة الدينا (728/2)، برقم: (1052).

والعلماء مختلفون في قوله -تبارك وتعالى-: {عِجْلاً جَسَدًا} هل العجل بقي من ذهب، أم أنه صار لحماً ودماً؟، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} يدل على أنه لا حياة فيه، فهو مجرد صورة وهيئة دون أن يكون له حياة حقيقية.

{لَّهُ خُوَارٌ}، جاء عن ابن عباس أن الخوار هو الهواء الذي يدخل من فمه ويخرج من دبره فيصوت، وهذا ممكن، والله تعالى أعلم.

وهذا الفعل من الحيل التي يحتال بها السحرة للتلبيس على الناس، فقد ذكر العلماء أن رجلاً جاء إلى بعض اليهود ووجدهم يعظمون قبراً، فلاحظ أن أشجار الزيتون عندهم كثيرة، فكان الطائر يصدر صوتاً معيناً، ثم تأتي الكبار من هذا النوع من الطيور، وتأخذ حب الزيتون وتلقيه عليه، فألقى الشيطان في نفس هذا الإنسان أنه يجعل لهذا الميت قبة، ويجعل فيها فتحة في الأعلى، ويجعل فيها شيئاً يصدر هذا الصوت، مثل صوت الطائر إذا جاء الهواء في أوقات معينة، فكانت تأتي الطيور وتلقي الزيتون على هذه الفتحة التي يصدر منها هذا الصوت، فعظم اعتقادهم به وظنوا أن ذلك لكرامته وولايته ومنزلته عند الله -عز وجل- فهذا السامري ممكن أن يكون فعل هذه الطريقة، والله تعالى أعلم.

وفعل "اتخذ" في قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا}، يتعدى إلى مفعولين، فالفعل الأول عجلاً، وأما جسداً فهي صفة له، وحذف المفعول الثاني في جميع المواضع التي ذكرت فيها هذه القصة، وتقديره إلهاً، فلا يتصور ولا يعقل ولا يليق أن يُذكر ويقال: إن العجل قد عُبد من دون الله تعالى، ولهذا السبب حذف المفعول الثاني.

وقد أشار الله -عز وجل- إلى عبادتهم للعجل بقوله: {فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [(88) سورة طـه].

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [(85) سورة طـه].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (18)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} [سورة الأعراف(148)]: وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟، على قولين والله أعلم، ويقال: إنهم لما صوت العجل رقصوا حوله وافتتنوا به، وقالوا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [سورة طـه(88)]، قال الله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [سورة طـه(89)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً} [سورة الأعراف(148)]، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم في العجل، وذهولهم عن خالق السماوات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى طريق الخير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلالة.

وقوله: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} [سورة الأعراف(149)] أي: ندموا على ما فعلوا، {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} [سورة الأعراف(149)] وقرأ بعضهم: {لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا} بالتاء المثناة من فوق، {رَبَّنَا} منادى {وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف(149)] أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله -عز وجل-.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} يعني -والله تعالى أعلم- أنهم ندموا على فعلهم، كما قاله الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو تفسير قريب، والإنسان إذا ندم يعض على أصابعه، قالوا: فكأن فمه سقط في يده، {سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ}، قالوا: هذا أصله، وقال آخرون: إن ذلك يعبر به عن القلب والنفس.

وقوله: {سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} يعبر به عن القلب والنفس، والعرب تضيف ما يقع للإنسان إلى يده؛ لأن غالب الاكتساب بها.

وقوله: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [سورة الحـج(10)] تقول: يداك أَوْكتا وفوك نفَخ، فتضيفه إلى اليد، وقالوا: إنّ ما يقع في النفس يظهر على يده، كقوله: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا} [سورة الكهف(42)]، وقوله: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [سورة آل عمران(119)]، فما يقع في نفس الإنسان يظهر على جوارحه، هكذا قال جماعة كالأزهري الإمام المعروف في اللغة، وأبي جعفر النحّاس، وغيرهم، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن أصل ذلك من الأخذة والأسر بحيث إنه يُلقى على الأرض وتكتف يداه إلى ظهره، فهذا أصل هذه الكلمة، كما يقال في اليمين: أصلها أن الرجل كان إذا حلف يأخذ بيمين صاحبه تأكيداً للحلف بالفعل، يعني: القول والفعل، ثم بعد ذلك صار يطلق على الحلف بإطلاق وإن لم يكن فيه مثل هذا التصرف،

وهكذا في كثير من الاستعمالات يذكر بعض أهل العلم الأصل في هذا الإطلاق، وقد يكون كذلك وقد لا يكون، فالله تعالى أعلم، فالمقصود بقوله: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ}: يعني: ندموا، تقول: فلان فعل كذا وكذا ثم أُسقط في يده، بمعنى أنه لم يحصل مطلوبه، بل حصل عكس ذلك مما يستوجب الندم والتحير والتحسر، والله أعلم.

وقوله: {وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} يقول: قرأ بعضهم {لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا} وهي قراءة حمزة والكسائي وهي متواترة، قال: {لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}: أي: من الهالكين.

والسياق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} [سورة الأعراف(148)] أخبر عن اتخاذهم العجل، وفي الآية الثانية ذكر ندمهم ومقالتهم، وقالوا ما قالوا بعدما رجع موسى -صلى الله عليه وسلم-، ونهاهم عن هذا، ولذلك قال بعدها: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ} [سورة الأعراف(150)]، فالأسف والندم وقع لهم حينما قالوا: {لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا} بعد مجيء موسى -صلى الله عليه وسلم- فقدّمه هنا، فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكنه قُدم لنكتة، فمن أهل العلم من يقول: إنه قدم من أجل أن يجمع القول والفعل.

قوله: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا} هذا فعلهم وصنيعهم السيئ، وما الذي صدر منهم أيضاً؟ صدر منهم قول وهو: {لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} ندموا على هذا، فجمع ما يتعلق بهم هنا، ثم ذكر مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله -عز وجل- في سورة البقرة في قصة البقرة لما قال: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [سورة البقرة(67)]، ثم ذكر أوصافها، ثم قال: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} [سورة البقرة(72)]، فهذا القتل للنفس والتدارؤ -يعني التدافع، هؤلاء يقولون: هؤلاء قتلوها، وهؤلاء يقولون: هؤلاء قتلوها- حصل قبل مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو سبب الأمر لهم بذبح البقرة فأُخّر.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [سورة الأعراف(150 - 151)].

يخبر تعالى أن موسى -عليه السلام- لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف، قال أبو الدرداء -رضي الله تعالى عنه-: الأسف أشد الغضب.

{قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ} يقول: بئسما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى.

قوله: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله، وقيل: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} يعني: الميعاد الذي وعده الله -عز وجل- موسى -صلى الله عليه وسلم-، {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [سورة الأعراف(142)]، فهو الأربعون، ومن أهل العلم من يقول: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ}: أي: سخَط الرب -تبارك وتعالى-، وهذا فيه بعد، والله أعلم.

وقوله: {وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}، وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))[1].

يعني أن الله أخبر موسى -صلى الله عليه وسلم- بأنه فتن قومه من بعده وأضلهم السامري، وموسى -عليه الصلاة والسلام- على الطور، فما ألقى الألواح، فلما وصل إليهم ورآهم يعبدون العجل ألقى الألواح.

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وقوله: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [سورة طه(92-94)]، **وقال هاهنا: {ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [سورة الأعراف(150)] **أي: لا تسُقْني مساقهم ولا تخلطني معهم، وإنما قال ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.**

من أهل العلم من قال: إنه شقيقه، ومنهم من قال: إنه لأمه، لكن المشهور أنه شقيقه، وذكر بعض المؤرخين أن هارون -عليه الصلاة والسلام- كان أكبر سناً من موسى -عليه الصلاة والسلام-، وكان ليناً مع بني إسرائيل، ولذلك كانوا يركنون إليه ويميلون إليه، هكذا قال بعض المؤرخين، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا} [سورة الأحزاب(69)]، مما ذكر فيه أن هارون -عليه الصلاة والسلام- حينما مات زعم من زعم من بني إسرائيل أن موسى -صلى الله عليه وسلم- هو الذي قتله، قالوا: لأنك تحسده لميل قومه إليه لطبعه، فموسى -صلى الله عليه وسلم- كان يعاملهم بالحزم؛ ولذلك لما رجع انتهت المشكلة، بينما هارون -عليه الصلاة والسلام- كما قال: {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء}، وهذا فيه عبرة، فهارون نبي من خيار الخلق، وقومه على قول هؤلاء المؤرخين يميلون إليه ومع ذلك يقول: {فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء}؛ لأنه ما يسلم أحد، مهما عامل الناس بلطف ومداراة ومراعاة لهم، وقومه هم بنو إسرائيل، وهم الذين خرجوا ونجوا وكانوا في صحبته، منهم مَن يشمتون به ويعادونه ويتهكمون به إذا حصل مثل هذا.

فلما تحقق موسى -عليه السلام- براءة ساحة هارون -عليه السلام-، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [سورة طه(90)]، **فعند ذلك قال موسى -عليه السلام-: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [سورة الأعراف(151)].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه -عز وجل- أن قومه فُتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح))[2].

---

1 - رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما(341/3)، برقم (1842)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5373).

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(152-153)].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة البقرة(54)]، **وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا.**

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} فقال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

فكل من خالف أمر الله –عز وجل- كأصحاب البدع والمعاصي فإن ذلك يكون نقصاً في عزتهم، فعلى قدر اتباع الإنسان واستقامته يكون له من العزة والهيبة بحسب حاله، فالناس يتفاوتون في هذا تفاوتاً كبيراً.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} الله -عز وجل- يذكر الحكم خاصاً في قضية من القضايا، فإذا كان الجزاء لا يختص بهؤلاء فأراد أن يعممه جاء بالحكم العام بعده؛ لئلا يفهم أن ذلك يختص بهم، فلم يقل: وكذلك نجزيهم، بل قال: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}، أي: لكل من افترى -وليس هؤلاء- الذل والصغار والعذاب، وهكذا في مواضع كثيرة في القرآن يذكر قضية خاصة ثم يعقبها بحكم عام {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأعراف(41)] ونحو ذلك، ليشمل هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل، وغيرهم ممن شابههم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [سورة هود(83)].

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: {وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ} [سورة الأعراف(153)] **أي: يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة، {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد تلك الفعلة، {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.**

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن ذلك، يعني: عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: {وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(153)]، **فتلاها عبد الله -رضي الله تعالى عنه- عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها**[3].

{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف(154)].

---

2 - رواه الحاكم في المستدرك برقم (3435)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، كتاب التفسير، تفسير سورة طه، وابن حبان في صحيحه برقم(6214) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

3 - رواه البيهقي في السنن الكبرى (13664)، كتاب النكاح، باب ما يستدل به على قصْر الآية على ما نزلت فيه أو نسخها، وابن سعد في الطبقات (200/6)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، عمدة التفسير (61/2).

يقول تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ}: أي سكن، {عَن مُّوسَى الْغَضَبُ}: أي غضبه على قومه، {أَخَذَ الأَلْوَاحَ}: أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له، {وفي نسختها هدى ورحمة}.

قوله:{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ} أي: سكن، ويقال: جرى الوادي ثم سكت، أي: سكن، يعني عن جريانه، فكأن الغضب كان يدفعه ويحركه إلى أن يقول لهم ما قال، وأن يفعل ما فعل، ثم بعد ذلك سكت، ومن أهل العلم من يقول: هذا من القلب في اللغة، يقولون: {سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ} يعني: سكت موسى عن الغضب، والله أعلم.

ولا حاجة لهذا، وإن كان يتأتى في بعض الصور وبعض الأمثلة، كأن تقول: أدخلت الخاتم بأصبعي، وأدخلت أصبعي بالخاتم، هذا لا إشكال فيه، يقولون: هذا قلب، لكن {سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ}: أي سكن وهدأ.

{وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك.

قوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ} من أهل العلم من يقول: {وَفِي نُسْخَتِهَا} يعني: فيما نسخ له من اللوح المحفوظ، {فِي نُسْخَتِهَا} لماذا سميت نسخة؟ أصل النسخ يأتي لمعنيين، أحد هذين المعنيين: هو النقل، بنوعيه: النقل مع ذهاب الأصل، كتناسخ الأرواح، وهي عقيدة فاسدة باطلة، يعتقدون أن الروح تنتقل من هذا إلى هذا، والنقل مع بقاء الأصل، تقول: نسخت الكتاب، فهذه نسخة والأصل يبقى، فقوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا} يقولون: مما نسخ من اللوح المحفوظ، أي أنها نسخت من اللوح المحفوظ فقيل لها ذلك.

قوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا}: أي: وفيما كتب له فيها هدىً ورحمة، والنسخ هو الكتابة، وهذا اختيار ابن جرير، ومن أهل العلم من يقول: {وَفِي نُسْخَتِهَا} ما نسخ من الألواح المتكسرة، وهذا فيه بعد، ليس المقصود {وَفِي نُسْخَتِهَا}: أي ما نسخ من الألواح المتكسرة، والله تعالى أعلم.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك.

قوله: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [سورة البقرة(248)] يعني: مما ترك موسى وهارون، فالآل يطلق أحياناً على ذات الشخص {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} [سورة آل عمران(33)] يعني: إبراهيم وعمران على قول بعض المفسرين، فمن أهل العلم من يقول: إن الذي كان في التابوت هو ما ترضض من هذه الألواح، والعلم عند الله -عز وجل-.

وكان بنو إسرائيل ينقلونه معهم في حروبهم ومعاركهم، وكانوا يضعونه ويصلون إليه، ثم صاروا يضعونه على الصخرة إذا كانوا في البلد ثم يصلون إليه، ثم بعد ذلك صاروا يصلون إلى الصخرة، والله أعلم.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا، وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها {هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف(154)] ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

الرهبة تتعدى بنفسها تقول: فلان يرهب فلاناً، لكن حينما تقول: يرهب لفلان، فيقال بتضمين الحرف معنى الحرف، كما عليه كثير من أهل اللغة، ومعلوم أن تضمين الفعل وما في معناه أبلغ؛ لأن ذلك يكون أوسع في المعنى، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

وقوله: {لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} الرهبة: شدة الخوف، الخوف الشديد يقال له: رهبة، فضُمن معنى الخضوع، يرهبون مع خضوع، فالخضوع يعدى باللام، يقال: خضع فلان لفلان، وتقول: هو يرهبه، فعُدى بنفسه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (19)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [سورة الأعراف(155-156)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم، وكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ} الآية.

وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً} على عينيه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان، قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم، {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ}.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيّرَ فالخيّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سينا؛ لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال السبعون -فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه- لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا: {يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [سورة البقرة(55)]، {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [سورة الأعراف(78)]، وهي الصاعقة، فافتُلتتْ أراحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ} قد سفهوا، أفتهلك مَن ورائي من بني إسرائيل.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادة العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}، وقوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً} أي: اختار من قومه سبعين رجلاً، {لِّمِيقَاتِنَا} أي: للموعد والوقت الذي وقّته الله -عز وجل- له لتكليمه ومناجاته، {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}، الرجفة هي: الزلزلة الشديدة، وفي سورة البقرة {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} [سورة البقرة(55)].

وقوله: {قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير عن جماعة من السلف فمن بعدهم ليس فيها شيء تقوم به حجة؛ لأنها من الإسرائيليات، والأمور الغيبية لا تتلقى من مثل هذه الروايات، بل تحتاج إلى خبر عن المعصوم -عليه الصلاة والسلام-، وهذه القضايا لا يدخلها الاجتهاد، فاختيار الموعد والميقات وسبب صعقهم قد يكون بسبب قولهم: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، أو بسبب أنهم طلبوا رؤية الله -عز وجل- لما سمعوه يكلم موسى طمعوا في الرؤية، ويكون هذا المقام هو المذكور في سورة البقرة {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة(55)]، أو أن هؤلاء لما سمعوه يأمر موسى وينهاه قالوا: سمعناه يقول كذا وكذا وكذا ثم قال: إن شئتم فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، فبدلوا وغيروا وهم على الطور، أو أن هؤلاء جاءوا للاعتذار من عبادة العجل، والتوبة إلى الله -تبارك وتعالى- كما قاله بعض السلف وهو اختيار ابن جرير، فهذا كله يحتمل، أو أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزايلوا عبادة العجل، لم يفارقوهم ويفاصلوهم، وإنما بقوا معهم ينتظرون حتى رجع موسى -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء خيارهم، قال: ولم يزايلوهم فعاقبهم الله -عز وجل- بهذا، وهكذا قوله: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}، وهنا قد يكون إشكال وهو أن هؤلاء وهم خيار بني إسرائيل، أمة عظيمة جداً يختار منها في زمن موسى -عليه الصلاة والسلام-، والذي يصطفيهم هو نبي الله صلى الله عليه وسلم- مؤيداً بالوحي، ثم بعد ذلك يكونون سفهاء، {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}، هذا باعتبار أن الصاعقة أو الرجفة التي وقعت بسبب سؤال هؤلاء عما لا يليق، إما بسبب سؤال الرؤية، أو بسبب سؤالهم أن يعطيهم ما لم يعطِ أحدا قبلهم أو بعدهم، أو أن قولهم: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} أي: الذين عبدوا العجل، ولعل هذا أقرب -والله أعلم-، وتكون الرجفة بسبب ما وقع من عبادة العجل، يبينه أن موسى -عليه الصلاة والسلام- قال: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}، والله -عز وجل- يقول لموسى -صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [سورة طـه(85)]، فهنا يقول: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}، فالله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلو قال قائل: إن هذا القول هو أقرب هذه الأقوال، وإن هذه الرجفة وقعت بسبب هذا، لم يكن ذلك بعيداً، لكنه يحتمل غير هذا أيضاً، والقطع والجزم في مثل هذا يصعب؛ لأنه قد يكون بسبب سؤالهم كما قال الله -عز وجل-: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} [سورة البقرة(55)] وكل هذا من تفسير القرآن

بالقرآن، فيحتمل أن يكون المراد بهذا الموطن هو المشار إليه في سورة البقرة، ويحتمل غيره، فمن أهل العلم من يقول: هو نفسه، الرجفة بسبب سؤالهم الرؤية، فالعلم عند الله -عز وجل-، ومثل هذا لا شك أنه وقع بسبب إساءة وذنب، فكان عقوبة لهم، أما تحديد السبب ما هو، فمثل هذا بالنسبة إلينا لا يترتب عليه عمل، وليس من الصواب الدخول في مزيد من التفصيلات، وليس عندنا فيها مستند، -والله أعلم-.

وقوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}: أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: {أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} الغفر: هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، {وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}: أي لا يغفر الذنب إلا أنت.

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ} الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود، {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ}: أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة.

{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}: أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة.

قوله: {أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا} [سورة الأعراف (155)]، قال: الغفر هو الستر وترك المؤاخذة، هو كذلك يتضمن أمرين، إذا قلت: رب اغفر لي، يعني أنك تطلب الستر وعدم الفضيحة، والتجاوز عن الذنب، وعدم المؤاخذة، والوقاية من شؤم المعصية، كما يقال: المِغْفَر للذي يستر الرأس ويقي لابسه من الضرب، قال: {وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}، {فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا} يقول: والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، هذا جزء من الرحمة، من رحمة الله -عز وجل- بالعبد، الغفر: ستر الذنب وعدم المؤاخذة به، والرحمة أعم من هذا، فستره وعدم المؤاخذة به من الرحمة، {وَارْحَمْنَا} معناه أن يفيض عليهم ألوان الإفضال في الدنيا والآخرة {فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}، فيهدي قلوبهم، ويصلح أحوالهم، ويدخلهم الجنة ويباعدهم من النار، يرفع لهم الدرجات، كل هذا داخل في الرحمة، فالعبد لا يستغني عن رحمة الله -عز وجل-، فطلبوا السلامة من آفة هذا الذنب وتبعته، وطلبوا أمراً أكبر من هذا وهو الرحمة العامة الشاملة التي تحصل لهم في الدنيا والآخرة، يقول: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً}، يقول: تقدم تفسير الحسنة في البقرة، الحسنة كل ما يُسرّ به الإنسان في الدنيا والآخرة من إفضال الله وإنعامه من النصر والتمكين، وكل ألوان الفلاح فذلك من الحسنات، {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ} [سورة النساء(79)]، وكذلك في الآخرة دخول الجنة، والسيئة: كل ما يسوء الإنسان في الدنيا والآخرة، {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} من هاد يهود إذا رجع، يا أيها المذنب هدْ هدْ، يعني: ارجع ارجع، قالوا: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}: يعني رجعنا إليك، {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا} [سورة الجمعة(6)] سُموا بذلك

لتوبتهم العظيمة المعروفة في التاريخ التي قصها القرآن -كما قاله بعض العلماء- والله تعالى أعلم-، وذلك حينما عبدوا العجل فكانت توبتهم كما ذكر الله في سورة البقرة {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة(54)]، فصار يقتل بعضهم بعضاً، اقتلوا أنفسكم، أي: ليقتل بعضكم بعضاً، فقُتل منهم خلق كثير، جاء في بعض المرويات عن بعض السلف -وهي من المأخوذ عن بني إسرائيل- أنه قُتل منهم في يوم واحد سبعون ألفاً، حيث ألقي عليهم الغمام، فكان الرجل يضرب وجه أبيه بالسيف، وأقرب الناس إليه، فحصلت فيهم مقتلة عظيمة، حتى رفع الله ذلك عنهم وتاب عليهم، وقبل توبتهم.

{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف(**156**)].

يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ} الآية، قال: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}: أي أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [سورة غافر(7)]**، وروى الإمام أحمد عن جندب وهو ابن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟)) قالوا: بلى، قال: ((لقد حظرْتَ رحمة الله واسعة، إن الله -عز وجل- خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها، وبهائمها، وعنده تسعٌ وتسعون، أتقولون هو أضل أم بعيره؟))**[1]**، رواه أحمد وأبو داود.**

هذا الحديث في إسناده ضعف، لكن بعض ما ورد فيه يوجد من الصحيح ما يشهد له، مثل، أصل الخبر، خبر الأعرابي الذي بال في المسجد، فزجروه ونهروه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((لا تُزْرِموه بوله))**[2] ثم علّمه: أن هذه المساجد لا تصلح لشيء من أذى الناس، الشاهد أن الرجل قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم أحداً معنا، وقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((لقد حجرت واسعاً))**[3] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك في الرحمة خلق مائة رحمة.

---

1 - رواه أحمد في المسند برقم(18322)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده ضعيف لاضطرابه، وأبو داود برقم (4885)، كتاب الأدب، باب من ليست له غيبة، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (1041).

2 - رواه البخاري برقم(5679)، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ومسلم برقم (285)، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها.

3 - رواه البخاري برقم(5664)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن لله -عز وجل- مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة))[4]. تفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي منّة مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [سورة الأنعام(54)]**، وقوله: {لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}: أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، {لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}: أي الشرك والعظائم من الذنوب.**

قوله: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قيل: زكاة النفوس، وقيل الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، {وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}: أي: يصدقون.

وقوله:{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قال قوم: المقصود زكاة النفوس، فيكون كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [سورة الأعلى(14)]، باعتبار أن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة، ولا إشكال أن يفسر ذلك في الزكاة؛ لأن الزكاة فرضت في المدينة هذا على القول بأن الزكاة لم تفرض بمكة، والراجح -والله أعلم- أن أصل الزكاة فرض بمكة، وأن تفاصيل الزكاة كان في المدينة، ففي سورة الأنعام {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام(141)]، فالذين قالوا: المقصود زكاة النفوس، قالوا: لأن الزكاة لم تفرض أصلاً بمكة والسورة مكية، ومن أهل العلم من ينحو منحىً آخر في مثل هذا، فيقول: هذه الآية مدنية، ويخرج من هذا الإشكال، وهو ليس بإشكال في الواقع، ويمكن أن يقال: هذا مما نزل قبل فرض الحكم، على فرض أن الزكاة فرضت بالمدينة، والخطاب في قوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو يشمل هؤلاء من بني إسرائيل، ويشمل كل من كان متصفاً بهذه الأوصاف.

---

4 - رواه مسلم برقم (2752)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، وأحمد في المسند برقم(9607)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الملك فمن رجال مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (20)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(157) سورة الأعراف].

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}، [(157) سورة الأعراف]، وهذه صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي -رضي الله تعالى عنه- حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشراً التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟)) فقال برأسه هكذا، أي لا، فقال ابنه: إي، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فقال: ((أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه))[(1)]. هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس -رضي الله تعالى عنه-.

وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التوراة، قال: "أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عميا، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته قال:

---

[1] - رواه الإمام أحمد برقم : (23539) (411/5)

قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً"[2]. وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد بعد قوله: "ليس بفظ ولا غليظ": "ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح"[3].

وذكر حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما، ثم قال: ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

بعد أن ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بعض الآثار في التبشير ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "**ثم يقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب**"، وهذا جواب على إشكال وارد، وهو أن هذه الآثار قد لا توجد في التوراة؛ لأن العلماء يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب كلها، وهذه الكتب قد حرفت وفي نسخها تباين كبير، وقد سبق الكلام على هذه المسألة عند تفسير قول الله تعالى: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(91) سورة الأنعام]، والراجح في هذه الكتب أنها محرفة، ولا يعني هذا أن ناقل هذه الروايات كذاب، ككعب الأحبار وغيره من الرواة.

وقد اعتنى غير واحد من علماء التفسير بنقل المبشرات ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد ذكر الرازي عند قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [(6) سورة الصف] بعض هذه المبشرات.

ومن الكُتاب الذين اهتموا بنقل المبشرات صديق حسن خان في فتح البيان، والكرواني الهندي في إظهار الحق، وغيرها من الكتب.

وقوله تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} [(157) سورة الأعراف] هذه صفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله -عليه الصلاة والسلام- لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ((إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فأَرْعها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه))[4]، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(36) سورة النحل]، وقوله: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ} [(157) سورة الأعراف]، أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}

---

[2] -رواه البخاري، كتاب البيوع وقول الله عز وجل: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [(275) سورة البقرة]، وقوله: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ} [(282) سورة البقرة]، بَاب كَرَاهِيَةِ السَّخَبِ فِي السُّوقِ (747/2)، برقم: (2018)، بلفظ: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، قال: في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)).

[3] - رواه البخاري (1831/4)، برقم: (4558) كتاب المغازي -بَاب إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا.

[4] - حلية الأولياء (1 / 130).

[(157) سورة الأعراف]، **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى.**

قوله: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ} لا يلزم أن يكون ذلك بمقابل ما حرموه على أنفسهم، فيدخل فيه ما حرموه على أنفسهم ويدخل فيه كل ما أباحه الشارع للناس من أكل الطيبات، وما كان نفعه غالباً وإن وجد فيه بعض الضرر فهو من جملة الطيبات، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن ألبان البقر شفاء لحومها داء، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((عليكم بألبان البقر وسمنانها، وإياكم ولحومها، فإن ألبانها وسمنانها دواء وشفاء، ولحومها داء))[5]، وليس معناه أن هذا هو الغالب عليها، ومن المعلوم أن المصالح الخالصة هي في الجنة، أما في الدنيا فسائر اللحوم وسائر المطعومات لا بد أن تشتمل على بعض الآثار السلبية.

وقوله: {يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ} [(157) سورة الأعراف]، دليل على تحريم الحشرات، وكل ما يستخبث، كالخنافس والوزغ والحيات والعقارب، وعلى جواز أكل اللأمة الكنغر والجربوع؛ لأنها من جملة الطيبات.

وقد قال بعض أهل العلم: ضابط الخبائث ما استخبثته العرب؛ لأنهم أعدل الناس ذوقاً وطبعاً، أما غيرهم فأذواقهم منكوسة معكوسة، فمن الناس في بعض البلدان من يأكل الكلاب، ويفضلونها على سائر الأطعمة، ويأكلون الحيات والضفادع، ويأكلون مخ القرد وهو حي، ويأكلون الحيات وهي حية، ويصل الطبق الواحد من لحم الحية إلى ثلاثين دولاراً، ولهم أسواق واسعة لبيع وشراء هذه المستخبثات.

وقوله: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(157) سورة الأعراف]، أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة، وقال -صلى الله عليه وسلم- لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنهما- لما بعثهما إلى اليمن: ((بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا))[6].

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي -رضي الله تعالى عنه-: إني صحبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وشهدت تيسيره، وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضُيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))[7]، وقال: ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[8]، ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ

---

[5] - أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم: (8232)، (4 / 448)، وحسنه الألباني في السلسلة (1/ 8).

[6] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير - بَاب ما يُكْرَهُ من التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ في الْحَرْبِ وَعُقُوبَةِ من عَصَى إِمَامَهُ وقال الله تَعَالَى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} (2873) (1104/3)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (1359/3) برقم: (1733)، بلفظ: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا)).

[7] - رواه البخاري، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق إلا لوجه الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لكل امرئ ما نوى ولا نية للناسي والمخطئ، (894/2)، برقم: (2391)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (116/1)، برقم: (127)، بلفظ: ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)).

[8] - رواه ابن ماجه (2045)، (659/1)، بلفظ: ((إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(1 / 123).

من قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وارحمنا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(286) سورة البقرة]، **وثبت في صحيح مسلم أن الله قال بعد كل سؤال من هذا: ((قد فعلت، قد فعلت))**[9].

قوله: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [(157) سورة الأعراف]، الآصار هي التكاليف الشاقية الثقيلة على النفوس، فتوبة بني إسرائيل كانت بقتل أنفسهم، أما في هذه الأمة فالتوبة بالندم والإقلاع عن الذنب والعزم على ألا يعود إلى الذنب، وإن كان الذنب يتعلق بالمخلوقين فيرد المظالم إلى أهلها.

وكان اليهودي يقطع ثوبه الذي أصابته نجاسة، وأما في هذه الأمة فيكفي المسلم أن يغسل ثوبه بالماء، وكانت اليهود لا يجالسون المرأة الحائض ولا يأكلون معها ولا يخالطونها، أما المسلم فيأكل مع المرأة ويجالسها ويباشرها وهذا كله من يسر هذه الشريعة.

وقوله: {فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ} [(157) سورة الأعراف] أي: عظموه ووقروه.

أصل العزر المنع، ومعنى عزروه أي: منعوه من عدوه، والنصر أبلغ من المنع من العدو، ولذلك استشار النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس وسألهم عدة مرات لما جاء يوم بدر، وأراد -صلى الله عليه وسلم- أن يعرف ما يقول الأنصار؛ لأن مبايعته لهم كانت للدفاع عنه من عدوه.

وقوله: {وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ} [(157) سورة الأعراف]، أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس، {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(157) سورة الأعراف] أي في الدنيا والآخرة.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(158) سورة الأعراف]، يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي، {إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}، أي: جميعكم وهذا من شرفه وعظمته -صلى الله عليه وسلم- أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(19) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(17) سورة هود]، وقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ} [(20) سورة آل عمران]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى الناس كلهم، روى البخاري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: ((كانت بين أبي بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال أبو الدرداء: ونحن عنده- فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أما صاحبكم هذا فقد غامر، أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقص على رسول الله -صلى الله عليه

---

[9] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (116/1)، برقم: (126).

وسلم- الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت))[10]. انفرد به البخاري.

قوله صلى الله عليه وسلم: ((أما صاحبكم هذا فقد غامر)) يعني أبا بكر -رضي الله عنه- لما أقبل ورأى هيئته، وقد عرف ذلك -صلى الله عليه وسلم- بالفراسة، ومعنى قوله: "غامر" أي غاضب، ويحتمل أن يكون المعنى أنه بذل جهده وفعل ما عليه في استدراك التقصير والاعتذار.

ومن محبة أبي بكر –رضي الله عنه- لعمر أنه اعتذر له، وخاف أن يسبق من النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى عمر شيء بسببه فأراد أن يهدئ من غضب النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال: أنا أظلم، أي: أنا المخطئ.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً))[11]، إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقوله: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [(158) سورة الأعراف] صفة الله تعالى في قوله: {رَسُولُ اللّهِ}، أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم.

وقوله: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} [(158) سورة الأعراف] أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، {النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال: {النَّبِيِّ الأُمِّيِّ}.

{وَاتَّبِعُوهُ}، أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، {لعلكم تهتدون}: أي إلى الصراط المستقيم.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} [(158) سورة الأعراف]، اختلف أهل العلم في معنى الأمي، على أقوال:

الأول: الأمي منسوب إلى هذه الأمة الأمية التي لا تعرف الكتابة.

الثاني: نسبة إلى الأم، أي: أن الله تعالى أخرج الإنسان من بطن أمه وهو لا يعرف شيئاً، قال –عز وجل-: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [(78) سورة النحل].

---

[10] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ولو كنت متخذا خليلاً (1339/3)، برقم: (3461).

[11] - رواه أحمد في مسنده (301/1)، برقم: (2742)، ورواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا (168/1)، برقم: (427)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (370/1)، برقم: (521) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة)).

الثالث: الأمي نسبة إلى أم القرى، وهذا بعيد.

وقد امتن الله تعالى ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفة؛ تحقيقاً للمعجزة، وحتى لا يقال: إنه -صلى الله عليه وسلم- تعلم على يد أحد الناس، وتصديقاً للأخبار التي وردت في الكتب السماوية.

وقوله: {الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ} [(158) سورة الأعراف]، أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه.

اختلف أهل العلم في تفسير الكلمات على أقول:

الأول: الكلمات هي الكتب المنزلة.

الثاني: المقصود بالكلمات هو عيسى -عليه الصلاة والسلام- لأنه كان بكلمة "كن" قال -عز وجل-: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(171) سورة النساء].

الثالث: من أهل العلم من فسر الكلمات بقوله -تبارك وتعالى-: **{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** [(109) سورة الكهف]، وبقوله: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [(27) سورة لقمان] فهذا يشمل الكلمات الكونية والكلمات الشرعية.

والكلمات جمع مضاف إلى معرفة، فيفيد العموم، فمن قال: إن الكلمات هي الكلمات الشرعية والكونية لم يكن بعيداً عن الصواب -والله أعلم-.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[12]، هي الكلمات الكونية، ولهذا ورد في بعض الروايات، ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر))[13]، فالتي لا يجاوزها بر ولا فاجر هي الكلمات الكونية، وهي المعبَّر عنها في مراتب القدر بالخلق.

قوله: **{وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** **[(159) سورة الأعراف] يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [(113) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(199) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [(54) سورة القصص] الآية، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً *وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [(107 - 109) سورة الإسراء].**

---

[12] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (2080/4)، برقم: (2708).

[13] - رواه أحمد في مسنده (24 / 202)، برقم: (15461).

قوله تعالى: {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}، أي يهدون الناس ويدعونهم إلى الحق، وقال ابن جرير: {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}، أي تهتدون بالحق، {وَبِهِ يَعْدِلُونَ} في تعاملاتهم وأخذهم وعطائهم.

وقد فسر ابن كثير -رحمه الله- قول الله: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [(159) سورة الأعراف]، بآياتٍ ذكرها، وهذا من عناية المصنف -رحمه الله- بتفسير القرآن بالقرآن، ومما تميز به كتاب ابن كثير -رحمه الله-.

قال -عز وجل-: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [(160-162) سورة الأعراف]

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

سبق الكلام على هذا كله في تفسير سورة البقرة، وهناك كتبٌ اعتنت بالمتشابه اللفظي ككتاب درة التنزيل للإسكافي، والبرهان للكرماني، فيذكرون مثلاً الفرق بين قول الله {فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [(160)سورة الأعراف]، وبين قوله تعالى: {فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً} [(60) سورة البقرة]، والتقديم والتأخير في مثل قوله تعالى: {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [(161) سورة الأعراف]، وقول الله {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [(58) سورة البقرة]، ففي آية الأعراف قدم القول على الفعل، وفي آية البقرة قدم الفعل على القول، ولا تخلو مثل هذه الكتب من تكلف في بعض التعليلات.

قوله -تبارك وتعالى- {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا}[(160) سورة الأعراف]، أصل السبط هو ولد الولد، والأسباط يتفرعون من أولاد يعقوب -عليه السلام-.

وقوله -تبارك وتعالى- {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ} [(161) سورة الأعراف] اختلف العلماء في مكان القرية، فقال بعض أهل العلم: هي أريحا، وقال آخرون: بل هي بيت المقدس، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومعنى قوله -عز وجل-: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [(161) سورة الأعراف] أي: حطّ عنا ذنوبنا وخطايانا، فمسألتنا حطة، والمقصود بالسجود الركوع، فقد أمروا أن يدخلوا في هيئة السجود، {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لهم} [(162) سورة الأعراف]، فقالوا حنطة، ودخلوا يزحفون على أدبارهم.

قال -عز وجل-: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(163) سورة الأعراف].

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ} [(65) سورة البقرة] الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: {وَاسْأَلْهُمْ}، أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحلّ بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذا القرية هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم.

قوله -تبارك وتعالى- {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ} [(163) سورة الأعراف]، قال بعض أهل العلم: القرية هي طبرية، وقيل: هي مدين، وقيل: هي أيلة، والأهم من هذا هو أخذ العظة والعبرة من هذه القصة، ولا فائدة من البحث عن المبهمات، وقد ألف فيها السهيلي كتاباً، وجاء البلنسي وضمن في كتابه كلام السهيلي وزاد عليه أشياء كثيرة، ولكن الفائدة في مثل هذه الكتب قليلة.

ولا يُحتاج إلى ذكر المبهمات إلا لدفع تهمة مثلاً وهذا نادر، مثال ذلك ما جاء من طريق محمد بن زياد قال: ((لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر، فقال: مروان هذا الذي أنزل الله فيه {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [(17) سورة الأحقاف] ، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كذب والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ...))[14].

قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [(163) سورة الأعراف]، **قال: هي قرية يقال لها: أيلة بين مدين والطور، وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي، وقوله: {إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ}، أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك، {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً}، قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي ظاهرة على الماء.**

كانت الحيتان تأتيهم ظاهرة منكشفة بينة، وأما ما ورد من بعض الأخبار الإسرائيلية، أنها كانت تأتي كالخراف، وتصل إلى أبوابهم، فمثل هذا الله أعلم به، ولا حاجة إليه.

قال ابن جرير: وقوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(163) سورة الأعراف]، **أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده.**

قوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ} [(163) سورة الأعراف]، أصل معنى السبت القطع، فقد حرم الله -عز وجل- عليهم العمل يوم السبت فصاروا يحتالون، فيضعون الشباك يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد، وهذا من الحيل، ولهذا مسخهم الله -عز وجل- إلى قردة، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن القرد فيه شبه بالإنسان إلا أنه

---

[14] - سنن النسائي الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [(17) سورة الأحقاف] (458/6)، برقم: (11491)، وأصل الحديث في البخاري من حديث يوسف بن ماهك قال: ((كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه { {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لكما أتعدانني} [(17) سورة الأحقاف] ، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري)) رواه البخاري، كتاب التفسير، بَاب {وَالَّذِي قال لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وقد خَلَتْ الْقُرُونُ من قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فيقول ما هذا إلا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [(17) سورة الأحقاف] (4 / 1827) برقم: (4550).

في هيئة وصورة بشعة وهو يختلف عنه أصلاً ووصفاً، وهؤلاء مسخوا الأحكام الشرعية وجـاءوا بـالمحرم بصورة فيها شبه من الحكم الشرعي، مع أنه يخالفه في أصله وفي وصفه.

وتحريم العمل يوم السبت مختص باليهود، ولذلك ذكر شيخ الإسلام في الاقتـضاء بـالكلام علـى الأعيـاد والتشبه، بأنه لا يجوز للمسلمين مضاهاة اليهود بترك العمل يوم الجمعة، وليس معنى ذلـك ألا يكـون يـوم الجمعة أجازة رسمية، لكن المحرم ترك العمل فيه بالكلية كما تترك اليهود العمل في يوم السبت بالكلية.

وليس لنا أن نضع الأجازة في يوم السبت؛ لأن هذا الفعل مضاهاة لليهود في تعظيمهم لهذا اليوم، والمـصلحة الدينية مقدمة على المصلحة الدنيوية.

{كَذَلِكَ نَبْلُوهُم} نختبرهم {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهـؤلاء قـوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))[15]، وهـذا إسناد جيد.

---

[15] - أخرجه ابن بطة في إبطال الحيل (1 / 47)، وصححه الألباني في الإرواء (5 / 375).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (21)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [سورة الأعراف(164- 166)].

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعلْ ولم تنهَ ولكنها قالت للمنكِرة: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكِرة: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} يقولون: ولعلهم لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}: أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة، {أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا}: أي ارتكبوا المعصية بعذاب بئيس، فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا.

وعن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ} أم لا؟، قال: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة.

وقوله تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، وبئيس معناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية أليم، وقال قتادة: موجع، والكل متقارب، والله أعلم.

وقوله: {خَاسِئِينَ}: أي ذليلين حقيرين مهانين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، المشهور الذي عليه عامة المفسرين هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أنهم انقسموا إلى ثلاث طوائف، ومن أهل العلم من يقول بأن هؤلاء هم أهل المنكر، قالوا للذين نصحوهم وأنكروا عليهم: إذا كنتم تقولون: إن الله سيعذبنا فلما تتعبون أنفسكم، {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، فأجابوهم: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} فهذا القول وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه قول مرجوح، وظاهر القرآن يدل على خلافه؛ لأن الله

-عز وجل- قال: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا} فلو كان هذا قول الطائفة الثانية وأنهم انقسموا إلى فرقتين، لكان التعبير بغير هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه قال: {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأعراف(174)]، فلو كان هؤلاء يتحدثون عن أنفسهم حينما قالوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ} لقال: ولعلكم ترجعون، وفي {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، لقال: ولعلكم تتقون، ولكنه قال: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

وقوله: {قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} يقول الحافظ: أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} هذا القول تضمن فائدة من فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أن الإنسان حينما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإن ذلك لانتفاع الناس الذين يأمرهم وينهاهم، وقد لا ينتفعون، ولكنه يلقي بالتبعة هو أيضاً ويقوم بما أوجب لله عليه، {قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} فإنها لا تبرأ الذمة ولا يسلم الإنسان من التبعة إذا قصر، وتضمن حكماً وهو: أن الإنسان يأمر وينهى حتى لو كان لا يرجو انتفاع المأمور والمنهي، إعذاراً إلى الله -عز وجل-، وإقامة للحجة على الخلق، وإحياء لهذه الشعيرة، ودفعاً لاندراس العلم، وظهور الجهل، وإلف المنكر، وإبقاء لحيوية القلب تجاه المنكر، والقيام بالعبودية لله -تبارك وتعالى- في هذا المقام، والإنسان سيحاسب على تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ هو مأمور به لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده))[1]، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى(9)]، فقد لا يكون حجة للقول بأنه إن لم يرجُ الانتفاع لا يجب عليه التذكير والأمر والنهي {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} من أهل العلم من يقول: إنه ذكر أشرف الأمرين؛ ليدل به على الآخر، أي: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} وإن لم تنفع، اكتفى بأحد الأمرين ليدل على ما يقابله، فالراجح أن الإنسان يجب عليه أن يأمر وينهى وإن لم يرجُ انتفاع المأمور والمنهي.

وقوله: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} هذه قراءة حفص عن عاصم بالنصب، وقرأه الباقون بالرفع {مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ}، فعلى قراءة النصب يكون "معذرةً" مصدراً، أي: فعلنا ذلك معذرةً، وعلى القراءة الأخرى قراءة الجمهور يكون على تقدير مبتدأ، يعني: موعظتنا معذرةٌ إلى الله.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(167)].

تأذن: تفعَّل من الأذان، أي: أعلم، قاله مجاهد وقال غيره: أمر.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ} قال: أعلم، يعني آذن {فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} [سورة الأنبياء(109)]، أي: أعلمتكم، الإيذان هو الإعلام، والأذان هو الإعلام بالصلاة، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة الأعراف(167)] قال: وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ}، كما تقول: علم الله، شهد الله، تقول: شهد الله أني ما قلت كذا، علم الله أني ما ذهبت إليه، فهو في قوة القسم، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}.

---

[1]- رواه مسلم برقم(49)، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله:{لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ}، أي: على اليهود، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [سورة الأعراف(167)]، **أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم.**

قوله: **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ}**: يعني يذيقهم **{سُوءَ الْعَذَابِ}**.

ويقال: إن موسى -عليه السلام- ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد -صلى الله عليه وسلم- فكانوا تحت قهره وذمته، يؤدون الخراج والجزية.

تاريخ اليهود مليء بهذا، ولذلكم لا تكاد تجد بقعة في العالم إلا وفيها حفنة من اليهود، قطّعهم في الأرض أمماً كما أخبر، وحصل لهم من العذاب والقتل الشيء الكثير، حتى إنه كان ينادى في ممالك الروم في أوقات مختلفة بقتل اليهود، ولربما قام عليهم بعض الأمراء من الرومان، في بعض النواحي بالشام، ونادوا على كل من في البلد من اليهود لمَا كانوا يلقون منهم من الدسائس والفساد والشر، وكانوا أقذر الناس في ممالكهم وأسوأ الناس طوية وخلقاً، وإفساداً في الأرض، كان أولئك لا يطيقون ما يرونه منهم، فكانوا يأمرون بقتل كل اليهود، والله المستعان.

سبب قِلة اليهود:

السبب في قِلتهم ليس القتل لهم؛ ولكن هم ديانة ليسوا كالنصارى، النصارى ينشرون دينهم، فنشروه في جميع البلدان، وقد روي أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- قال: إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، **{وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة آل عمران(49)]، أما اليهود فهم منطوون على أنفسهم، وحتى من يدعي اليهودية منهم، لا يعترفون به، لأنهم يشترطون أن تكون أم هذا الإنسان يهودية؛ ولذلك هم لا يدْعون إلى دينهم، هم يرون أن هذا شرف حُبي به الإسرائيليون، ولذلك لا يخاطبون بدينهم سائر الناس؛ فالذين يأتون إلى فلسطين شُذّاذ الآفاق وعندهم مشكلات، فمنهم من لا يُعترف به بأنه يهودي إلى الآن، لأنه لم يثبت أن أمه يهودية، أبوه يهودي لكن أمه ليست يهودية، جاءوا من بيئات شتى ليكونوا دولة، هذا جاء من أمريكا وهذا جاء من روسيا، وهذا جاء من أثيوبيا وهذا جاء من اليمن، وهذا جاء من الهند، ومن كل مكان، ولذلك تجد يهود العرب يعملون في النظافة، والأعمال المهنية الوضيعة، ويعاملونهم بشيء من الازدراء والاحتقار، والأوروبي تجد أن منزلته والوظائف التي يتقلدها تختلف عن الآخرين، هذا هو المجتمع عندهم هناك، يُرون من بعيد أنهم دولة متقدمة وحضارية، وهم بينهم ما بينهم من الشر وأسباب التفكك والتشرذم، إضافة إلى التشرذم الذي داخل اليهود أصلاً، فالسبب في قلتهم أنهم أصحاب ديانة مغلقة.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية، قال: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم.

وروى عبد الرزاق وسعيد بن المسيب قال: يستحب أن يبعث الأنباط في الجزية، قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم -عليه السلام-، وذلك آخر الزمان.

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ} أي: لمن عصاه وخالف شرعه، {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[سورة الأعراف(168-170)].

يذكر تعالى أنه فرّقهم في الأرض أمماً، أي: طوائف وفرقا، كما قال: {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [سورة الإسراء(104)].

{مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ} أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [سورة الجن(11)].

{وَبَلَوْنَاهُمْ}: أي: اختبرناهم، {بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}: أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة والعافية والبلاء {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

ثم قال تعالى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد في قوله تعالى: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى} قال: لا يشرف لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه.

وقال قتادة في قوله: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى}: أي والله لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، أورثهم الله وعهد إليهم.

قوله: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} ما يتاح لهم من الدنيا، ويتيسر ويتحصل لهم فإنهم يأخذونه غير مبالين بحله أو بحرمته، {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} فالحلال عندهم ما حل باليد، ينظرون إلى المتاع القريب غير عابئين بحساب الله -عز وجل-، ومن أهل العلم من فسر الأدنى هنا بما يدل على معنى الدناءة، أي: يأخذون العرض الدنيء مستعيضين به عما عند الله -عز وجل-، فالذي يلوح لهم من الطمع في هذه الحياة الدنيا العاجلة المتقضية الفانية يأخذوه ويقولون: سيغفر لنا، ولا يكتفون بهذا بل إذا حصل لهم مرة أخرى لا يترددون في أخذه {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}، ليست مرة واحدة ثم يتوبون، ومن أهل العلم من يقول: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} أي: أنه إذا جاء بعدهم قوم ورثوهم فيعملون كعملهم، بل هم أنفسهم كلما لاح لهم طمع سارعوا إلى أخذه، وتهافتوا عليه، والخَلْف والخَلَف من أهل العلم من فرق بينهما، فقال: الخَلَف

للوارث الطيب، والخَلْف للوارث السيئ، لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون..))[2]، ومن أهل العلم من لم يفرق بينهما.

وقال الله تعالى في آية أخرى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ} [سورة مريم(59)] الآية، قال: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}، تمنوا على الله أمانيَ وغرّة يغترون بها، {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}، لا يشغلهم شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

كلما هف لهم، يعني: خف لهم وأسرع إليهم، أي: كلما أتيح لهم، هف: خف.

وقال السدي: قوله: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} إلى قوله: {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ} [سورة الأعراف(169)]، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإنّ خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِع، وجُعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرضُ الدنيا يأخذوه.

قوله: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ} يعني: الذي يأتي بعده يرتشي، ثم الذي يأتي بعدهم يفعل كفعلهم؛ لترحل التقوى من قلوبهم.

قال الله تعالى: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [سورة الأعراف(169)] الآية، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق، ليبيننّ الحق للناس ولا يكتمونه، كقوله: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [سورة آل عمران(187)]، وقال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} قال: فيما يتمنون على الله في غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها.

قوله: {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ} يعني: والحال أنهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فهم حينما يفعلون ذلك ويقدمون عليه فإنهم لا يفعلونه جهلاً، وإنما عن علم وفهم ومعرفة بأحكام الله -عز وجل-، وهذا هو المتبادر من معناها، ودرسوا ما فيه: أي لم يكن ذلك عن جهل وغفلة، ومن أهل العلم من قال: {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ}، من الاندراس يعني: أن ما في الكتاب قد ذهب وانمحى لترك العمل به، والقول الأول أرجح وهو المتبادر، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة الأعراف(169)]، يرغبهم في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد -

---

2 - رواه مسلم برقم (50)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

صلى الله عليه وسلم- كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ} [سورة الأعراف(170)]
أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره، {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [سورة الأعراف(١٧١-١٧٢)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} يقول: رفعناه، وهو قوله: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ}[سورة النساء(١٥٤)].

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: رفعته الملائكة فوق رءوسهم وهو قوله: { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ}.

وقال القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ثم سار بهم موسى -عليه السلام- إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رءوسهم، رواه النسائي بطوله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ} من أهل العلم من قال: إن النتق أصله أن ترفع الشيء، أو أن تستخرج الشيء من مكانه بقوة ثم ترمي به، فيكون المعنى: قلعه من مكانه، والظلة: كل شيء أظلك من سحاب ونحوه، {كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} صار كأنه سحاب فوق رءوسهم، {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} أي: بجد وعزيمة، {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي: من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم العمل بها، اذكروا ما فيه من الأحكام.

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [سورة الأعراف(١٧٢-١٧٣)].

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [سورة الروم(٣٠)]**، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه**

وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء))[١]، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[٢]. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم -عليه السلام-، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي))[٣]، أخرجاه في الصحيحين.

وروى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال: أي رب من هذا؟، قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟، قال: ستين سنة، قال: أي رب وقد وهبتُ له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟، قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته))[٤]، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[٥].

فهذه الأحاديث وأمثالها دالة على أن الله -عز وجل- استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، ثم قال: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى}: أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: {قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا} [سورة الأنعام(١٣٠)] الآية، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [سورة

---

1 - رواه البخاري برقم(١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما قيل في أولاد المشركين.

2 - رواه مسلم برقم(٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

3 - رواه البخاري برقم(٦١٨٩)، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم برقم(٢٨٠٥)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، وأحمد في المسند (٣٠٢/١٩)، برقم (١٢٢٨٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، واللفظ له.

4 - رواه الترمذي برقم (٣٠٧٦)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن تفسير سورة الأعراف، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم(٥٢٠٨).

5 - رواه الحاكم في المستدرك (٣٥٤/٢) برقم(٣٢٥٧)، كتاب التفسير، في تفسير سورة الأعراف، وهو صحيح كما تقدم.

التوبة(١٧)] أي: **حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** [سورة العاديات(٧)]، **كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}** [سورة إبراهيم(٣٤)] **قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قاله، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول -صلى الله عليه وسلم- كافٍ في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: {أَن تَقُولُواْ} أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}: أي التوحيد {غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا} الآية.**

يرى الحافظ ابن كثير رحمه الله- أن الميثاق والعهد في قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}**: هو ميثاق الفطرة، ويرى أن الإشهاد ليس بلسان المقال، وإنما بلسان الحال، فحالهم شاهدة بهذا، كما قال -رحمه الله-: كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، ويقول: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم، ولم يقل: استخرج ذرية آدم، فهو يرى أن استخراج الذرية من الأصلاب، يتناسلون فيخرجون على الفطرة، هذا معنى الإشهاد عنده، فهو يقول: إنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، فهذه العبارة دقيقة، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم، شاهدين بلسان الحال، فالله -تعالى- فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، فهم يخرجون شاهدين على أنفسهم بلسان الحال، وأن الله أودع في فطرهم ما يقتضي ذلك، فُطروا على الدين، وعلى التوحيد، وذكَرَ أحاديث الفطرة، وأحاديث استخراج الذرية من صلب آدم، ثم صرح بعد ذلك بأن المراد بذلك: أنهم خرجوا إلى الدنيا شاهدين بلسان الحال، وهذا الكلام مطابق لما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله في كتاب الروح وقد أطال الكلام في ذلك، وفي كتاب أحكام أهل الذمة، ومن أهل العلم مثل ابن قتيبة -رحمه الله- من فسر ذلك بالمعرفة: أن الله -عز وجل- أخرجهم من بطون أمهاتهم عارفين بتوحيده، ورد عليه الإمام محمد بن نصر المروزي -رحمه الله- في كتاب خاص، وساق الأدلة الكثيرة على استخراج الذرية من صلب آدم، مثل هذا الحديث وغيره، فحاول ابن القيم -رحمه الله- أن يوجه كلام ابن قتيبة؛ لأن الرد كان قاسياً من الإمام محمد بن نصر المروزي -رحم الله الجميع-، فتلطف وحاول أن يحمل كلام ابن قتيبة على معنى غير الذي فهمه الإمام المروزي، وقرر ابن القيم -رحمه الله- أن الإشهاد بلسان الحال، وأن المقصود بذلك الفطرة، وهذا مخالف لهذه الأحاديث الصريحة التي تدل على استخراج الذرية من صلب آدم من ظهر آدم، وأن الله أشهدهم على أنفسهم، ومثل هؤلاء العلماء كابن كثير وابن القيم -رحمهم الله- ومن وافقهم على هذا يحتجون بما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن هذا جعله الله حجة عليهم وهم لا يذكرونه، فكيف يحتج عليهم بشيء لا يذكرونه؟، ويقول -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ}** ولم يقل: من آدم، **{مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}** وفي قراءة ابن كثير: {من ظهورهم ذرياتهم}، فالشاهد أن هذا أكثر ما احتج به هؤلاء واحتجوا بأشياء أخرى، ومن أهل العلم من يقول غير هذا فقالوا: المأخوذ هم الذرية جيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل، ودلهم بخلقه عليهم، فقامت عليهم هذه الدلالة مقام الإشهاد، والذين فسروه بالأحاديث التي تدل على استخراج الذرية من صلب آدم قالوا: إن قوله: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}**

من بني آدم أي: من آدم، فاستخرج منه الذرية، كما تدل عليه الأحاديث، وقالوا: هذا معروف واقع في كلام العرب، أنْ يعبر بمثل هذا التعبير، وابن جرير -رحمه الله- يقول: استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، والراجح في تفسيرالآية -والله تعالى أعلم-: أن تحمل على هذه الأحاديث الصريحة الواضحة في أن الله استخرج الذرية من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم، وإذا ورد نهر الله بطل نهر معقل، لا كلام مع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يقال: إن الناس لا يذكرون هذا العهد والميثاق، فلا يُعارَض ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا، فالله -عز وجل- أخذ الذرية من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، أخرجهم كهيئة الذر، كما تدل عليه هذه الأحاديث، ولكن ذلك لا يتوقف عليه الجزاء والحساب، ودخول الجنة أو النار، ثم أودع في فطرهم مقتضى التوحيد ((كل مولود يولد على الفطرة))، فهو يفطر على توحيد الله -عز وجل-، لا يفطر على الشرك، ومع ذلك الله -عز وجل- لا يحاسبهم بمقتضى هذه الفطرة، ثم أقام الله لهم الدلائل، والبراهين مما يشاهدونه من الآيات في الآفاق وفي الأنفس الدالة على الوحدانية، ومع ذلك الله -عز وجل- لا يحاسبهم بمقتضى هذا، فأعطاهم عقولاً تدرك وتعرف أن الله -عز وجل- واحد لا شريك له، وأدرك جملاً من هذه المعاني، وتفاصيل ذلك يؤخذ من الوحي كأسماء الله -عز وجل- وصفاته، كما أن العقل قد يدرك بعض هذه الأمور، مثل أن الله حي، عليم، قدير، وما أشبه هذا، وتفاصيل هذه الأمور توقيفية، وهذه الفطرة لا تكون بمجردها سبباً لدخول الجنة أو النار، بل أرسل إليهم الرسل، **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء(١٥)]، فهذا العهد أخذه عليهم وهم في ظهر آدم، لكن لا يتوقف عليه المحاسبة ودخول الجنة أو النار، فكونهم لا يذكرونه لا يغير من الحكم، والله تعالى أعلم.

قوله: **{قَالُواْ شَهِدْنَا}** هذا من كلامهم، ومن أهل العلم من يقول: **{قَالُواْ شَهِدْنَا}** إن هذا من كلام الملائكة، والأرجح والأصل أن الكلام للذرية، وهذا اختيار ابن جرير وعامة أهل العلم.

وقوله: **{أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}** [سورة الأعراف(١٧٢)]، في قراءة أبي عمرو في الموضعين بالياء، **{أن يقولوا}**، **{إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}** يعني: كراهة أن يقولوا، وبالتاء: كراهة أن تقولوا.

{وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (23)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [سورة الأعراف(175-177)].

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعوراء، وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو صيفي بن الراهب، وقال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو رجل من أهل اليمن يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى -عليه السلام- إلى ملك مدين، يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى -عليه السلام-.

وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو بلعم بن باعر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وغيره من السلف.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعام، وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما نزل موسى -عليه السلام- بهم -يعني بالجبارين ومن معه- أتاه -يعني بلعم- أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: {فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فضرب الله تبارك وتعالى- في هذه الآية مثلاً لصاحب العلم الذي لم ينتفع بعلمه، ولم يرتفع به، وهو أسوأ مثلٍ في القرآن {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث...} [سورة الأعراف(176)]، وهذا مثل قيل: إنه مضروب لأمة من قريش حيث أنزل الله عليهم القرآن وبعث منهم محمداً -صلى الله عليه وسلم- فكذبوه، وهذا خلاف المشهور، وقيل: إنها في أهل الكتاب، والمشهور: أنها في رجل من بني إسرائيل آتاه الله العلم، وليس في ذلك شيء مرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما هي من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، فمن قائل: إنه من علمائهم، وقيل: إنه كان يعلم الاسم الأعظم وكان مجاب الدعوة، وقيل: إنه من علمائهم ويعلم الاسم الأعظم، وقيل: كانت له ثلاث دعوات مستجابة، وكانت له امرأة فطلبت وألحت عليه أن يدعو ربه أن تكون أجمل بني إسرائيل، فلما صارت كذلك ترفعت عليه، فدعا عليها، يقولون: فمسخت كلبة، فجاءه أولادها وجعلوا يتضرعون أنهم قد افتضحوا أمام الناس وأنه نزل بهم ما لا طاقة لهم به، أن أمهم صارت كلبة، فدعا لها الدعوة الثالثة، فرجعت إلى حالها، فضيع هذه الدعوات الثلاث في امرأة، قيل: إنه دعا على موسى، وقيل غير ذلك، فهذا رجل آتاه الله العلم ولكنه لم ينتفع بهذا العلم، فانسلخ منها، وللحافظ ابن القيم -رحمه الله-، كلام جيد في المجلد الثاني من بدائع التفسير، وهناك مثل آخر في القرآن لا يقل سوءًا عنه، وهو أن أمة أوتيت العلم وحملت التوراة ثم أنها لم تعمل بها ولم تهتدِ بما فيها من المواعظ والعبر، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والحمار من أبلد الحيوانات، ومن أقواها على الحمل وهو من أقلها زينة كما ذكر الله -عزوجل-: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل(8)]، وهو من أصبرها على التحمل مع غاية الذل، قال الله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة الجمعة(5)]، وتكلم الحافظ ابن القيم –رحمه الله- على هذا المثل بكلام مفيد جيد، وهذه الأمثال في القرآن للاعتبار والاتعاظ، قال الله -عز وجل- عنها: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت(43)]، والعلم يراد به العمل والاعتبار والاتعاظ، وأما أن يتعلم الإنسان ولا يظهر ذلك في سمته وهديه، بحيث لا يزيد في عمله، فإن هذا يكون نقصاً في حقه، وأسوأ من ذلك إذا تحول العالم، لا سيما في أوقات الفتن وغيّر وانسلخ، وصار يضلل الناس، ويلبس عليهم ويستغل ما عرفه من العلم في التلبيس على الناس وإضلالهم، فهذا أشد ما يكون.

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى: "فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهاً وحرصاً، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصاً وشرهاً، لا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعظه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، العذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه،

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال رزية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهثه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهث عليها، ولهفه نظير لهث الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع، قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهث عليها، فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثاً، يلهث قائماً وقاعداً وماشياً وواقفاً، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهذا مشبهه شدة الحرص، وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتدِ إلى خير، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق دُعي أو لم يدعَ، وُعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرداً وتركاً"[1].

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قول من قال بأنه أمية بن أبي الصلت، وأمية بن أبي الصلت كان من الشعراء الذين كثر في شعرهم ذكر الآخرة، وفي شعره من العظات والأمور التي لا شك قد تعلّمها من أهل الكتاب، ويذكر أموراً كثيرة من حقائق الآخرة في شعره، ويعظ في هذا الشعر، ويذكر أشياء من عظمة الله -عز وجل-، والدعاء إلى عبادته، فشعره من أعجب الشعر، والعجيب أنه لم يسلم، كما قيل: أسلم شعره ولم يسلم قلبه، فلما بلغته دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- وظهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعرض وكابر ونأى بجانبه، لكن المشهور أنها في رجل من بني إسرائيل، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل متقدم"، فهذا على سبيل التوسع في العبارة، وإلا فسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه، أما أخبار الماضين فإن ذلك ليس من أسباب النزول، لكن قد يتوسع بعض العلماء في التعبير فيعبرون بمثل هذا، فليس هذا هو سبب النزول، وإنما هذا من قصص بني إسرائيل.

---

1 - إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/194-196)، للإمام ابن القيم.

ووجه الشبه في قوله -عزوجل-: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ} [سورة الأعراف(176)]، من أهل العلم من يقول: إنه على ظاهره أن الرجل يلهث حقيقة، أو اندلع لسانه لما دعا على موسى -عليه الصلاة والسلام-، فخرج لسانه كالكلب، فيكون وجه الشبه ظاهراً أنه صار بهيئة الكلب، مسخه الله -عزوجل-، لكن ليس معنى ذلك أن صارت هيئته هيئة الكلب بكل شيء وإنما شابهه بخروج لسانه، وما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فيما نقله عن بعض السلف في قلة صبره عن الشرب، وبالنسبة لهذا الإنسان في قلة صبره عن شهواته، فهذا الجامع المشترك، هذا لا يصبر عن العطش، وذاك لا يصبر عن شهواته، وهذا كقول من قال: إن كبد الكلب حراء، وفؤاده منقطع، أي: لقلة صبره، وهذا الإنسان أيضاً كبده حراء وفؤاده منقطع لا صبر له عن الشهوات، فكلما لاحت له شهوة سارع إليها، وهذا ما يمكن أن يفسر به -والله تعالى أعلم-؛ لأنه لا يثبت مثل تلك الأخبار فيبنى عليها حكم، ويفسر بها القرآن فيقال: إن لسانه خرج حقيقة، لأنها من الأخبار الإسرائيلية، والكلب إن حملت عليه وطردته فإنه يلهث، وإن تركته في حاله فهو يلهث وهو رابض على جنبه، ويلهث وهو يمشي، ويلهث وهو واقف، فالكلب يلهث في جميع حالاته، وهذا من أسوأ صور الكلب، ولا يعرف هذا عند أي حيوان بصورة مستمرة كالكلب، فمن أهل العلم من قال: إن تحمل عليه أي: إن تطارده فهو يجري ويلهث، وإذا تركته فإنه يطاردك، هكذا قال بعضهم: والأول أحسن من هذا، -والله أعلم-.

وقوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [سورة الأعراف(176)].

وقوله تعالى: {فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [سورة الأعراف(175)] أتبعه الشيطان، يقول ابن جرير -رحمه الله-: "أي: صيره تابعاً له"، صار من أتباع الشيطان، والمشهور: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} أي: تبعه الشيطان، كما يقول ابن القيم: هذه اللفظة {فَأَتْبَعَهُ} تدل على أنه لحقه وأدركه الشيطان، {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}، أي: أن الشيطان يتبع الإنسان لكنه قد يدركه ويتمكن منه، وقد لا يتمكن منه فيشغله بالوساوس والخواطر والأحلام والرؤى المزعجة؛ لأن هذا غاية ما استطاعه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة))[2]، فإذا يئس من ابن آدم أن يضله أشغله بالخواطر والأفكار، فيقول له: من خلق كذا، من خلق كذا، ويقلقه في طهارته، فيجعله يعيد الوضوء عدة مرات، لأنه لا يريده أن يصلي أصلاً، فعلى هذا يكون الأقرب -والله تعالى أعلم- في {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [سورة الأعراف(175)] أي: تبعه، كما قال الله: {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ}، والشيطان كما قال الحافظ ابن القيم -في بعض كتبه-: مع الإنسان مثل الكلب مع الغزال، الغزال سريع جداً، لا يقارن بسرعة الكلب، قفزة واحدة وإذا الكلب في ناحية والغزال في ناحية أخرى، لكن ما الذي يحصل؟ يطارده الكلب بلا توقف، يقول ابن القيم: فالذي يحصل كيف يصطاد الكلب الغزال والغزال أسرع؟، يطارده ثم بعد ذلك يلتفت الغزال، فإذا التفت ضعف وخارت قواه، فيظفر به الكلب، بهذه الطريقة، وإلا فهو أسرع منه، وهذا حاصل للإنسان، هو يقول: الإنسان إذا التفت للشيطان وطاوعه في خطواته وتزيينه وكذا، أدركه الشيطان، وإذا انطلق ولم يلتفت لا للوساوس ولا للخواطر ولا

---

2 - رواه أبو داود برقم (5112)، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، وأحمد في المسند (10/4)، برقم(2097)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في ظلال الجنة (658)، وفي تحقيق كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (102).

لخطوات الشيطان صار يسير سيراً صحيحاً مستقيماً، وإذا التفت إليه فإنه يزين له خطواته فيوقعه فيها، فيقع في المنكرات والفواحش، وغير ذلك من النظر في كُتب الشبه، وكذلك ما يقع فيه بعض الناس من الوسوسة في الوضوء مما يجعله يتوضأ عدة مرات حتى يخرج وقت الصلاة، فإذا لم يلتفت له فإنه سينجو من الوسوسة بإذن الله تبارك وتعالى.

يقول تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}: أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ}: أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها.

قوله: {لَرَفَعْنَاهُ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "رفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات"، وقيل أي: شرفناه، وهذا يرجع إلى هذا المعنى، وقيل: رفعناه في الآخرة، وقيل: رفعناه فلم يقع في الكفر والمعصية، وغير ذلك، وكل ذلك داخل فيه -والله تعالى أعلم- كما قال كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- {لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}: "رفعناه: شرفناه بالعلم"، رفعه عن الدنايا والمدنسات، رفعه عن الذنوب، رفعه عن الكفر، رفع مرتبته في الدنيا والآخرة، فبدلاً من أن يكون إماماً في الحق، صار مثله مثل الكلب، أخس الأمثلة، {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} فصار إماماً يقتدى به، مترفعاً عن كل دنس ورزية وخلق مشين، لكنه أبى: ((كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى)) قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: ((من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))[3].

{وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

أصل الإخلاد اللزوم، ومنه الخلود {خَالِدِينَ فِيهَا} [سورة المائدة(85)]، أي: يمكثون أبداً بلا انقطاع، {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} أي: ركن إليها، ومن لزم الدنيا شُغل بها، وصارت هي غايته ومطلوبه الأكبر، وصار تشاغُلُه بها على حساب الآخرة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث: أن موسى -عليه السلام- لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم، قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟!، قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟، أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟، تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها فخل الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا

---

3 - رواه البخاري برقم (6851)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

صرف الله لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟، إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن من السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين -اسمها كسبى ابنة صور رأس أمته- برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقربها؟، قال: أجل، هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله -عز وجل- الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديدة كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحييه -وكان بكر العيزار- وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفع الطاعون، فحُسب مَن هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} [سورة الأعراف(175)]**، إلى قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [سورة الأعراف(176)].

هذا من أخبار بني إسرائيل، وأخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب، يقولون: إنه رفع الرجل والمرأة بالرمح وهما متعلقان بالرمح ما ينزلان معه، مع ثقل الإنسان والرمح، كأنه رافع حمامتين، فالله أعلم بهذا.

وقوله تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} [سورة الأعراف(176)]**، اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زُجر وإن ترك ظاهرٌ، وقيل معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتين إن حملتَ عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين.**

هذا هو الأقرب، وهو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: أن التشبيه ليس أن هذا أخرج لسانه، وإنما في الوعظ، سواء وعظته أو لم تعظه، فهو على حاله.

فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة يــــس(10)]**، {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ}** [سورة التوبة(80)] **ونحو ذلك، وقيل معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره، وقوله تعالى:**

{فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الأعراف(176)]، يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ} أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه -في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب- في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران -عليه السلام-، ولهذا قال: لعلهم يتفكرون، أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يُعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: {سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [سورة الأعراف(177)]، يقول تعالى: ساء مثلاً مثلُ {الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همّة لها إلا في تحصيل أكلة وشهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثلُ مثلَه، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه))[4].

وقوله: {وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [سورة الأعراف(177)] أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى إلى الركون إلى دار البلاء، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

{مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة الأعراف(178)] يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر، وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ((إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله))[5] الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم.

وزيادة "نستهديه" هذه لا تصح[6].

---

4 - رواه النسائي برقم (3698)، كتاب الهبة، باب ذكر الاختلاف لخبر عبد الله بن عباس فيه، والترمذي برقم (1298)، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، صححه الألباني في صحيح الجامع (5426).

5 - رواه مسلم برقم (868)، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، دون لفظة "ونستهديه ونستغفره"، والنسائي برقم (3278)، كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح.

6 - هذه اللفظة وردت في مسند الإمام الشافعي (67)، برقم (287)، وأخرجها في كتاب الأم (179/1)، وقال الشيخ الألباني: منكر جداً بزيادة "الاستهداء والاستنصار"، والسبب في نكارتها هو تفرد إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هو أبو إسحاق المدني متروك من السابعة، انظر: تقريب التهذيب(93/1) وهاك كلام العلماء على الرجل، قال

يحيى بن سعيد القطان: سألت مالكا عنه أكان ثقة؟ قال: لا ولا ثقة في دينه، وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: كان قدريا معتزلياً جهمياً كل بلاء فيه، وقال أبو طالب عن أحمد: لا يكتب حديثه، ترك الناس حديثه كان يروي أحاديث منكرة لا أصل لها، وكان يأخذ أحاديث الناس يضعها في كتبه، وقال بشر بن المفضل سألت فقهاء أهل المدينة عنه فكلهم يقولون كذاب، وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد: كذاب، وقال المعطي عن يحيى بن سعيد: كنا نتهمه بالكذب" انظر: تهذيب التهذيب(137/1)، فهي زيادة تفرد بها، وهذا حال الرجل، فيكون تفرده من قبيل المنكر، فهي منكرة جداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (24)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف(179)].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ}: أي: خلقنا وجعلنا لجهنم {كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ} أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء))[1] والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية استدل بها أهل السنة والجماعة على مسألة القدر وأن الله -تبارك وتعالى- قدر مقادير الخلائق منذ الأزل، وهي كقوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}** [سورة التغابن(2)]، على أحد المعنيين للآية، وذلك أن الله -عز وجل- منذ خلقهم، خلق قوماً للجنة، قبض قبضة فقال: هذه للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة فقال: هذه للنار ولا أبالي، فمن كتب الله -عز وجل- أنه من أهل النار فإنه يعمل بعمل أهل النار أو يختم له بعمل أهل النار، كما في الحديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة))[2] إلى آخره، بخلاف قول المعتزلة الذي يقولون: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ}** [سورة الأعراف(179)] أي: ألقينا، من تذروه الرياح، أي: تلقيه، وهذا باطل، والأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة تدل على خلاف هذا، والله -عز وجل- خلق الخلق وهو أعلم بهم.

وقوله تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا} يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا

---

1 - رواه مسلم برقم (2653)، بلفظ: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل ...))، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

2 - جزء من حديث رواه البخاري برقم (3154)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}، ومسلم برقم (2643)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [سورة الأحقاف(26)]**الآية، وقال تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [سورة البقرة(18)]**، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** [سورة البقرة(171)]**، ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}** [سورة الأنفال(23)]**، وقال: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [سورة الحـــج(46)]**، وقال: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الزخرف(36-37)]**، وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ}**[سورة الأعراف(179)] **أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [سورة البقرة(171)]**، أي: ومثلهم -في حال دعائهم إلى الإيمان- كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: {بَلْ هُمْ أَضَلُّ} أي: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر.**

الله -عزوجل- خلق الأنعام ولم يجعل لها عقولاً، فهي بهذه المنزلة، وأما الكافر فقد أعطاه الله -عز وجل- عقلاً ومع ذلك لم ينتفع به فصار أحط من البهيمة، مع أن البهيمة قد تعي بعض ما يتصل بمصلحتها وشأنها كما إذا أبس بها، إذا قال لها: بِس، بِس، يدعوها إلى العلف أو نحو هذا، أو يزجرها عن شيء، أي: ساقها وزجرها يقول لها: بِس بِس، بكسر الباء وبضمها أيضاً، نعم ليزجرها أو يدعوها لشيء.

ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خُلق ليعبد الله وليوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}.

هذه الآية هي وصف لأهل النار في الحياة الدنيا **{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا}**، فهم لا يفقهون حقائق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، لا فقه عندهم، أفهامهم معكوسة وقلوبهم متعلقة بهذه الحياة الدنيا، ليس لهم نظر وراءها، فمهما رأوا وشاهدوا دلائل الحق وبراهينه، فإنهم لا ينتفعون بها **{لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا}** مهما سمع من الآيات والمواعظ والعبر والعظات فكأنه لم يسمع، والإنسان إذا عرف أن هذه الصفة من صفات أهل النار فإنه يرجع إلى نفسه وينظر هل هو متصف بشيء منها؟؛ لئلا يكون مشابهاً لهؤلاء، وهذه الحواس السمع والبصر والفؤاد يدور عليها العلم والمعرفة والفهم، فالسمع والبصر آلتان وميزابان يصبان في القلب، والوعي للقلب، وذلك إنما يكون بهذه الوسائط، فبها يقتبس الأمور التي يعيها، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}** [سورة الإسراء(36)]، والناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً في الانتفاع بما يشاهدون وما يسمعون، فمن الناس من ينتفع بكل ما يراه ويعتبر به، فمن السلف مَن كان إذا جاء في وليمة فجاء من يدور عليهم بالطعام أو بالشراب بكى، فإذا سئل عن بكائه قال: تذكرت قول الله -عز وجل-: **{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}**

[سورة الإنسان(19)] تذكّرَ نعيم أهل الجنة، وإذا انطفأ السراج بكى، فإذا أوقد السراج شوهدت دموعه على لحيته، وكان سبب بكائه أنه تذكر القبر وظلمته، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه"، هذه المسألة أي كون الإنسان المطيع أشرف من الملائكة، بدليل أن الله أسجد الملائكة لآدم -عليه الصلاة والسلام-، وما شابه ذلك مما يستدل به القائلون بمثل هذا، هي مسألة لا طائل تحتها، ولا ينبغي الاشتغال بها.

{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف(180)].

عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر))[3]. أخرجاه في الصحيحين، وأخرجه الترمذي في جامعه مثله.

قوله: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} الحسنى أي: البالغة في الحسن غايته، فهي حسنى من حيث الألفاظ، ليس فيها اسم يستقبح عند سماعه وإن كان معناه حسناً، وهي أيضاً في غاية الحسن من ناحية المعاني؛ لأن كل أسماء الله -عز وجل- مشتقة، فهي تتضمن أوصافاً من أوصاف الكمال، منها ما يتضمن صفة ومنها ما يجمع جميع صفات الكمال، فهي حسنى من هذه الحيثية، وهي كثيرة جداً، وقد ذكر بعض أهل العلم كابن العربي أن من العلماء من جمع من الكتاب والسنة ألف اسم، وهي ربما لا تبلغ هذا؛ لأن من العلماء من يجمع طائفة كثيرة من الأوصاف ويجعلها من جملة الأسماء، ومسألة الأسماء وتحديد الضابط الذي يضبطها بحيث يميزها عما هو صفة أو فعل لله -عز وجل-، أو نحو ذلك، قد يصعب أن يؤتى بضابط دقيق يميزها؛ ولذلك العلماء -رحمهم الله- يختلفون في بعض الأسماء إذا حاولوا جمع الأسماء الواردة مثلاً في القرآن والسنة، فتجدهم يتفاوتون، منهم من يذكر بعض الأسماء، ومنهم من لا يذكرها، والله تعالى أعلم.

وقد جمع الحافظ ابن حجر -رحمه الله- من القرآن تسعة وتسعين اسماً، من أجل أن يوافق قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة))، وأما الحديث الوارد في هذا عند الترمذي والحاكم وغيرهما، فإن سرد الأسماء لا يصح؛ ولهذا قال ابن حزم بأنها مضطربة، وضعفها المحققون كالحافظ ابن كثير -رحمه الله- والحافظ ابن حجر -أي أحاديث سرد الأسماء-، فهي روايات مدرجة، أما حديث ((إن لله تسعة وتسعين اسماً)) فإنه حديث ثابت في الصحيحين وغيرهما، ومعنى ((من أحصاها دخل الجنة)) أي: أن أسماء الله كثيرة جداً، من هذه الأسماء هذا القدر الذي هو تسعة وتسعون له مزية، وإلا فأسماء الله لا تحصى؛ لأنه ورد في الحديث: ((أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته

---

3 - رواه البخاري برقم (2585)، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثّنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين، بدون زيادة: ((وهو وتر يحب الوتر))، فهي من زيادة همام عن أبي هريرة كما عند مسلم برقم (2677)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[4]، فأخبرنا الله -عز وجل- عن جملة كثيرة من أسمائه في الكتاب، وكذلك أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن هذا الحديث ليس فيه الحصر، ليس فيه ما يدل على أن أسماء الله -عز وجل- هي هذا العدد فقط إطلاقاً، ومعنى أحصاها يعني: بالعد عرفها وفهم معانيها، وما دلت عليه من أوصاف الكمال، وتعبد الله -عز وجل- بمقتضاها، فهذا كله داخل في الإحصاء.

وقوله: {فَادْعُوهُ بِهَا} يدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة، دعاء المسألة أن تدعو بكل اسم بما يناسب الحال، فتقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا تواب تب عليّ، تب علي يا رب إنك أنت التواب الرحيم، هذا هو المناسب، وأكثر دعاء الأنبياء في القرآن {رَبَّنَا} بذكر الرب -تبارك وتعالى-، وقد ذكر الشاطبي في الموافقات أن ذلك يرجع إلى أن إجابة دعاء الداعين وإعطاء السائلين، كل هذا من معاني الربوبية، فيقال: يا رب يا رب، فالرب هو المتصرف المدبر الرازق المعطي، ولا يقال: يا منتقم اغفر لي؛ لأنه غير مناسب، وكذلك دعاء العبادة، أن يتعبد الإنسان لله -عز وجل- بمقتضاها، فإذا عرف أن الله -تبارك وتعالى- هو القوي المتين فإنه سيتوكل عليه، إذا عرف أن الله -تبارك وتعالى- هو الغفور الرحيم فإنه لا يقنط ولا ييأس من رحمته، وإنما يلجأ إليه ويتوب إليه وهكذا، فيعبد ربه بمقتضى هذه الأسماء، فيدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً)) فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: ((بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها))[5].

على كل حال الحديث بهذا السياق لا يخلو من ضعف فيه؛ لجهالة أحد رواته.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ}، قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله.

---

4 - رواه أحمد في المسند (247/6)، برقم (3712) بإسناد ضعيف كما قال ذلك الإمام الدارقطني في العلل (201/5)، والحاكم في المستدرك (690/1)، برقم (1877)، كتاب الدعاء و التكبير و التهليل و التسبيح و الذكر، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إنْ سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (198/1)، برقم (199).

5 - رواه أحمد في المسند (246/6)، برقم (3712)، وقال محققوه: إسناده مسلسل بالضعفاء، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (171/2)، برقم (1822).

وقال ابن جريج عن مجاهد: {وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} قال: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز.

وقال قتادة: {يُلْحِدُونَ}: يشركون في أسمائه، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

الإلحاد في اللغة هو: الميل، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والمقصود بالإلحاد في أسمائه: العدول بها عن حقائقها ومعانيها وما دلت عليه من الحق الثابت لها، ويكون بالزيادة، كمن يسمي الله -عزوجل- بغير ما سمى به نفسه، وهذا فيه إساءة للأدب مع الله -عزوجل-، فبعض طوائف أهل البدع يقولون: إن من أسمائه واجب الوجود، أو العقل الفعال وغيرها من الأسماء التي اخترعوها، ويكون الإلحاد بالنقص كجحود بعض أسماء الله -عز وجل-، أو ما دلت عليه من الأوصاف كالذي يثبت الأسماء ويقول: إنما هي أعلام محضة، كما يقوله طوائف من أهل البدع، وبه قال ابن حزم، فتجهموا، ويكون أيضاً بالتحريف لمعانيها، فيصرفها عن دلالاتها التي دلت عليها وتضمنتها من الأوصاف الكاملة إلى معانٍ أخر، وهذا من أفعال أهل البدع، فعطلوا الله -عز وجل- من صفات الكمال التي دلت عليها هذه الأسماء، فأهل التعطيل أهل التحريف، كل هؤلاء داخلون في هذا الإلحاد، وما ذكره طوائف من السلف من تسمية المعبودات الباطلة بها، كالعزى من العزيز إذا كان مشتقاً منه، واللات من الله، ومناة من المنّان، إن كان مشتقاً منه، فمنهم من يقول: هذه اشتقت من أسماء الله، وقيل: إنها لا تعلق لها بأسماء الله -عز وجل-، وهكذا تسميته بما لا يليق، فالنصارى يسمون الله أباً، وكذلك أيضاً تشبيه صفات الله -عز وجل- بصفات المخلوقين، كل هذه المعاني داخلة في هذا الإلحاد.

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[سورة الأعراف(181)]، يقول تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا} أي: بعض الأمم، {أُمَّةٌ} قائمة بالحق قولاً وعملاً، {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} يقولون: هو يدعونا إليه، {وَبِهِ يَعْدِلُونَ}: يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في هذه الآية هي هذه الأمة المحمدية، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة))[6]، وفي رواية: ((حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))[7]، وفي رواية: ((وهم بالشام))[8].

---

6 - لم يأت بهذا اللفظ في الصحيحين، وإنما رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)) برقم (6881)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)) وهم أهل العلم، ومسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)) برقم (1920)، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه و سلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم))، ووردت لفظة: ((حتى تقوم الساعة)) عند الحاكم في المستدرك من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (496/4)، برقم(8389)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححها الألباني في السلسلة الصحيحة (455/4)، برقم (1956)، وفي صحيح الجامع برقم (7287).

7 - رواه البخاري برقم (7022)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ} [سورة النحل(40)].

ثم بعد أن ذكر الله -عزوجل- صفة أهل النار في الدنيا قال: **{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}**، فالناس منهم من كان بتلك الصفة التي ذكر الله -عز وجل- لأهل النار، ومنهم من يكون على حال صحيحة مستقيمة على مراد الله -تبارك وتعالى- على الصراط المستقيم، وهذا موجود في الأمم قبلنا من أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهو موجود في هذه الأمة، والذي يظهر أن هذا لا يختص بهذه الأمة، وإن كان تحققه في هذه الأمة أكمل، لأن سياق الآيات في ذكر صفة أهل النار، ثم بعد ذلك ذكر أن من الناس من يكون على الحق والصراط المستقيم، وهذا موجود في أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، -والله تعالى أعلم-.

---

8 - رواه البخاري بالرقم السابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (25)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(182-183) سورة الأعراف]

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ}**، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى:** {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(44-45) سورة الأنعام]**، ولهذا قال تعالى:** {وَأُمْلِي لَهُمْ} **أي: وسأملي لهم، أي أطوّل لهم ما هم فيه،** {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} **أي: قوي شديد.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة السلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} [(182) سورة الأعراف] الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، حتى يوقعه في مغبّة فعله، فالله -تبارك وتعالى- يملي للكافرين، قال –عز وجل-: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(178) سورة آل عمران] فيعطيهم ويغدق عليهم من الأموال والأرزاق والخيرات في الدنيا حتى تستحكم الغفلة على قلوبهم، ثم يأخذهم فيهلكهم.

قوله: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(183) سورة الأعراف]، تعليل لما سبق، فمن الكيد أن يملي الله –عز وجل- لهؤلاء الكفار ويستدرجهم، وهذا الموضع في القرآن من المواضع التي ذكر فيها الكيد في غير مقابلة، مما يدل على أن هذه الصفة لا يشترط فيها أن تكون من قبيل المقابلة، أو من قبيل المشاكلة، وهو نوع من المجاز، لكن هذه الصفة لا تطلق على الله -عز وجل- ولا تقال لله -عز وجل- بإطلاق وإنما بقيد، فيقال: الله -عز وجل- يكيد للكافرين وللمجرمين وللظالمين، فهي صفة كمال بهذا الاعتبار.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(184) سورة الأعراف] **يقول تعالى:** {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ} **هؤلاء المكذبون بآياتنا** {مَا بِصَاحِبِهِم}**: يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-،** {مِّن جِنَّةٍ} **أي: ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق،** {إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}**: أي: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى:** {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [(22) سورة التكوير]**، وقال تعالى:** {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [(46) سورة سبأ]**، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد،**

{مَثْنَى وَفُرَادَى} أي: مجتمعين ومتفرقين، {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان يا بني فلان، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(184) سورة الأعراف].

وهذا مرسل عن قتادة، وإن كان وقوف النبي على الصفا ثابتاً بأحاديث مسندة.

{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف] يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِن فعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

قوله –تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ} [(185) سورة الأعراف]، الواو هذه عاطفة تعطف قوله –عز وجل-: {وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ}، على ما قبلها وهو قوله: {مَلَكُوتِ}، ويكون المعنى: أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وينظروا في ما خلق الله -عز وجل- فيتفكروا ويعتبروا.

قوله: {وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} [(185) سورة الأعراف] هذه الجملة أيضاً معطوفة على ملكوت، يعني يتفكروا في قرب آجالهم، أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، يتفكروا في هذا، وينزجروا عما هم فيه.

وقوله: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف] يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب -بعد تحذير محمد -صلى الله عليه وسلم- وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه- يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله -عز وجل-؟!.

قوله –تبارك وتعالى-: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف]، يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى ما تقدم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى القرآن، أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟، ولعل هذا هو المتبادر، ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الأجل المذكور في قوله: {وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف] باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولكن هذا فيه بعد -والله تعالى أعلم- والأقرب أن ذلك يرجع إلى القرآن، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد -صلى الله عليه وسلم- وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه**" فعبر ابن كثير بهذه العبارة التي تشتمل على أنه محمد -صلى الله عليه وسلم- والقرآن.

ثم قال تعالى: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(186) سورة الأعراف] يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، وكما قال تعالى: {قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(101) سورة يونس].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف]

يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ} [(63) سورة الأحزاب] قيل: نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(25) سورة الملك]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [(18) سورة الشورى].

الذين كانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة منهم من سأله سؤال تكذيب واستبعاد، ومنهم من سأل سؤال مستخبر ومستعلم، فقد جاء أعرابي يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، وجاء جبريل -عليه الصلاة والسلام- وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة؛ لتعليم الناس أن هذا الأمر مما اختص الله -عز وجل- به.

والساعة اسم من أسماء القيامة كما هو معلوم، وسميت بهذا الاسم لسرعة وقوعها، كما دلت الأحاديث على هذا المعنى، فربما ينشر الرجلان الثوب يتبايعانه فلا يتم البيع، وربما يصلح الرجل حوضه فلا يسقي منه، وربما أخذ الرجل بلبن لقحته ولا يشربه.

وقيل: سميت الساعة بهذا الاسم؛ لسرعة وقوع الحساب فيها، فحساب جميع النفوس عند الله -عز وجل- كحساب نفس واحدة، وقيل: لأنها مؤقتة بوقت، وما كان كذلك فإنه يقال له: الساعة.

وقوله: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [(187) سورة الأعراف]، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- "منتهاها"، أي: متى محطها؟، وأيان: آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة.

الأقوال التي قالها السلف في معنى مرساها متقاربة، تقول: رست السفينة، أي: انتهت إلى المكان الذي تقف فيه، ووقفت عندها، فمعنى {أَيَّانَ مُرْسَاهَا}، أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [(187) سورة الأعراف] أمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى.

قوله: {لاَ يُجَلِّيهَا} التجلية: أصلها بمعنى الإظهار، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها ولا يبديها عن وقتها إلا هو.

ولهذا قال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[(187) سورة الأعراف] **قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون.**

قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، أي: ثقل علمها، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وذلك باعتبار أن ما لا يعلمه الإنسان فإنه يثقل عليه، فإذا علمه وانكشف له حقيقته وعرفه، فإنه يخف عليه ويسهل، ومثال ذلك قول الخضر لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [(78) سورة الكهف]، ثم لما أعلمه قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [(82) سورة الكهف] فلمّا كان علْم ذلك مستثقلاً عند موسى -صلى الله عليه وسلم- قال له في الأولى {لَمْ تَسْتَطِع}، وموسى -عليه الصلاة والسلام- منشغل بهذه الأشياء التي شاهدها، فلما أخبره عن حقائق هذه الأشياء وما وراء هذه التصرفات، سرّي عنه وخف عنه.

قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض، يقول كبُرت عليهم.

هذا قول آخر في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، فإذا وقعت الساعة فإنها تكون ثقيلة شديدة تحصل فيها من الأهوال والأوجال ما لا طاقة للبشر به، يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وتنفطر السماوات، وتنكدر النجوم، وتتغير هذه الأفلاك، وتزلزل هذه الأرض، وتسجر البحار وتزال الجبال عن أماكنها، إلى غير هذا من الأمور التي أخبر الله -عز وجل- عنها.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

وقال ابن جريج: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} قال: إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم، وكورت الشمس وسيرت الجبال، وكان ما قال الله -عز وجل- فذلك ثقلها.

هذه الروايات الثلاث ترجع إلى المعنى الأول، أي: ثقل علمها.

وقال بعض أهل العلم في معنى قوله –تبارك وتعالى-: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: عظُم وصفها، وقيل: أي: ثقلت المسألة عنها، والراجح –والله أعلم- في معنى هذه الآية أنه ثقل علمها، وإذا وقعت فإنها تكون شديدة على الخلق، وهذا هو القول الأول والثاني.

وقال السدي: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، يقول: خفيت في السماوات والأرض، فلا يعلم قيامَها حين تقوم ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل.

هذا يرجع إلى القول الأول، أي خفي علمها، وما خفي علمه ثقل على النفوس حتى ينكشف.

{لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}، يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة، وقال قتادة في قوله تعالى: {لا تأتيكم إلا بغتة} قضى الله أنها لا تأتيكم إلا بغتة، قال: وذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه)).

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع

نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها))[1].

[1] - رواه البخاري كتاب الرقائق، باب طلوع الشمس من مغربها، (2386/5)، برقم: (6141).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (26)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [(187) سورة الأعراف] الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [(187) سورة الأعراف] يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما سأل الناس النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- حفي بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [(187) سورة الأعراف]، قال: استَحْفيتَ عنها السؤال حتى علمتَ وقتها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}** [(187) سورة الأعراف] الحفي بالشيء هو العالم به، كما قال ابن فارس -رحمه الله- وذكر له معنى آخر وهو: كثرة السؤال عن الشيء.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لمعنى قوله: **{حَفِيٌّ عَنْهَا}** معنيين:

المعنى الأول: **{كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}** جملة معترضة، ويكون المعنى يسألونك عنها أي عن الساعة كأنك حفي بهم، للقرابة التي بينك وبينهم، لتطلعهم على أمر لم يطلع عليه أحد من الخلائق، وورد هذا في بعض القراءات الشواذ.

المعنى الثاني: **{كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}**، أي: استحفيتَ عنها بالسؤال واستقصيت أمرها حتى علمت وقتها، وهذا القول هو الأقرب، والله تعالى أعلم .

ولهذا قال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف] ولهذا لما جاء جبريل -عليه السلام- في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مجلس السائل المسترشد، وسأله -عليه السلام- عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[1]، أي: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] الآية، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة، فبيّن له أشراط الساعة، ثم

---

[1] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

قال: ((في خمس لا يعلمهن إلا الله))[2] وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد جواب: صدقت، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل، يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))[3]، وفي رواية قال: ((وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه))[4].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: ((إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم))[5]، يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة، ثم روى مسلم عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة))[6] انفرد به مسلم.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل أن يموت بشهر: ((تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة))[7]. رواه مسلم.

بعض الذين كانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة لم يكن سؤالُهم سؤالَ تعجيز أو استهزاء أو اختبار، وإنما كان سؤال استعلام.

وفي قول النبي – صلى الله عليه وسلم- ((وأقسم بالله ما على الأرض...)) دليل على أن الخضر قد مات، وفيه رد على الصوفية الذين يقولون بحياة الخضر إلى الآن.

ولا يدخل الدجال في عموم هذا الحديث؛ لأنه يعيش في جزيرة من جزر البحر ولا يراه الناس وهو من أمر الغيب.

وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- مثله[8].

قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: وإنما أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- انخرام ذلك القرن.

---

[2] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

[3] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

[4] - سنن النسائي الكبرى (446/3)، برقم: (5883).

[5] - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2269/4)، برقم: (2952).

[6] - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (2269/4)، برقم: (2953).

[7] - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم (1966/4)، برقم: (2538).

[8] - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا النبي -صلى الله عليه وسلم- العشاء في آخر حياته فلما سلم قام، فقال: ((أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)) رواه البخاري، كتاب العلم، باب السمر في العلم، (55/1)، برقم: (116)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله صلى الله عليه وسلم لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم، (1965/4)، برقم: (53).

أي أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يقصد أن البشرية تهلك وتموت على رأس المائة سنة، وإنما المقصود: أولئك الذين كانوا أحياء.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة، قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم -عليه السلام- فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله -عز وجل- وفيما عهد إليّ ربي -عز وجل- أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله -عز وجل- إذا رآني، حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله -عز وجل- ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم، فأدعو الله -عز وجل- عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجْوى الأرض من نتن ريحهم، أي تنتن، قال: فينزل الله -عز وجل- المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر)). قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تُنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم، ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلي ربي -عز وجل-: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادتها، ليلاً أو نهاراً))[9]، ورواه ابن ماجه نحوه[10].

الحديث بهذا السياق فيه ضعف، لكن بعض الجمل الواردة في هذا الحديث -كما هو معلوم- ثابتة في أحاديث أخرى.

وقد مضت أكثر العلامات الصغرى، وهي مؤذنة بقرب وقوع الساعة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[11].

والعلامات الكبرى مؤذنة بأن الساعة على وشك الوقوع، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه العلامات الكبرى تتابع تتابعاً سريعاً كالعقد إذا انفرط[12]، وكل هذا يشعر بقرب قيام الساعة، واللحظة التي تقع فيها القيامة هي لحظة سريعة كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [(77) سورة النحل]، وهذه اللحظة لا يعلمها إلا الله -عز وجل-.

وفي بدايات العلامات الكبرى، يكون أهل الإيمان مع عيسى -عليه الصلاة والسلام- حتى تأتي الريح الطيبة وتأخذ أرواحهم فيموتون من تحت آباطهم، ولهذا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة إلا

---

9 - رواه الإمام أحمد (375/1)، برقم: (3556)، وقال محققو المسند إسناده ضعيف.

10 - رواه ابن ماجه (1365/2)، برقم: (4081)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (9 / 81)

11 - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (2385/5)، برقم: (6140)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2268/4)، برقم: (2950).

12 - عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- , قال: ((خروج الآيات , بعضها على إثر بعض، يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام)) المعجم الكبير للطبراني (19 / 334)، برقم: (814)، قال الألباني صحيح بشواهده. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم (3210).

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الآيات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك ...)) رواه أحمد (11 / 617)، برقم (7040)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (4 / 261)، برقم (1762).

على شرار الناس))[13] فهم يتسافدون في الطرقات تسافد الحمر، ولا تقوم الساعة ويقال في الأرض: الله الله، يعني لا يُعرف الله -عز وجل- فعندئذ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها، آمن الناس أجمعون، فذلك حين{لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(158) سورة الأنعام].

وقد قال بعض أهل العلم: إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس أجمعون، ثم ترجع إلى طبيعتها، فينسى الناس هذه الآية ويرجعون إلى حالهم التي كانوا عليها فعندئذ تنفع التوبة، ولكن هذا قول ضعيف، والأقرب أن باب التوبة يغلق إذا طلعت الشمس من مغربها إلى أن تقوم الساعة، وتقوم على شرار الناس.

فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى -عليه السلام- فتكلم على أشراطها، بأنه ينزل في آخر هذه الأمة، منفذاً لأحكام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، فقال: ((علمها عند ربي -عز وجل- لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً)) قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟، قال بلسان الحبشة: ((القتل، قال: ويُلقَى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً))[14]. لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [(187) سورة الأعراف]، ورواه النسائي وهذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد -صلوات الله عليه وسلامه-، نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقفّي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد -رضي الله تعالى عنهما-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعين السبابة والتي تليها))[15]، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف].

الحاشر الذي يحشر الناس على قدمه فكأنه بعث ليحشر الناس، والعاقب الذي جاء عقب الأنبياء وليس بعده نبي، والمقفّي هو الذي قفى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس وقافية البيت.

---

13 - رواه مسلم، باب قرب الساعة، كتاب الفتن وأشراط الساعة (2268/4)، برقم: (2949).

14 - رواه أحمد (389/5)، برقم: (23354)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(6 / 274).

15 - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (2385/5)، برقم: (6140)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2268/4)، برقم: (2950).

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(188) سورة الأعراف].

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} [(26) سورة الجن].

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}[(188) سورة الأعراف] أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه.

في معنى الخير المذكور في قوله -تبارك وتعالى- **{وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}**[(188) سورة الأعراف]، قولان:

الأول: الخير هو المال وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** [(8) سورة العاديات] أي لحب المال، وكقوله: **{إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}**[(180) سورة البقرة] يعني: إن ترك مالاً، وكقوله: **{قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}** [(215) سورة البقرة]، أي: من مال.

الثاني: **{لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}** أي: من العمل الصالح الذي يقربني إلى الله -تبارك وتعالى- والأقرب -والله تعالى أعلم- هو القول الأول، لأنه الأكثر وروداً في القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان مجتهداً في طاعة الله -عز وجل- وهذا لا يحتاج أن يعلم الغيب.

{وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}[(188) سورة الأعراف] ولا يصيبني الفقر، وقال ابن جرير وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}[(188) سورة الأعراف] قال: لاجتنبت ما يكون من الشر واتقيته، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(97) سورة مريم].

وردت آيات تدل على أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون الغيب، فهذا نوح -عليه السلام- يقول: **{إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي}** [(45) سورة هود]، فقال الله -عز وجل- له: **{ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}** [(46) سورة هود]، وكذلك إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ذبح عجله وأنضجه، وأتعب أهله في صنع الطعام، ثم بعد ذلك لم يعلم أن هؤلاء من الملائكة وأنهم لا يأكلون، ولوط -عليه الصلاة والسلام- قال لقومه: **{لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ* قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ}** [(80 -81) سورة هود]، فلم يكن يعرف أن الضيوف الذين أتوه ملائكة، إلى غير هذا من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن الرسل -عليهم الصلاة السلام- وهم أشرف الخلق لا يعلمون الغيب، فالذين يضللون الناس ويقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم الغيب، أو أن الأولياء يعلمون الغيب، ماذا سيقولون في مثل هذه الآيات؟ الله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (27)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الأعراف(189-190)].

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم -عليه السلام-، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [سورة الحجرات(13)]، **وقال تعالى:** {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [سورة النساء(1)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

الإشراك في قول الله -عزوجل-: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، لأهل العلم من الصحابة ومن بعدهم كلام، هل وقع من آدم -صلى الله عليه وسلم-، أو أن المقصود غيره؟، والمشهور الذي عليه عامة أهل العلم ولا ينبغي العدول عنه، أن المراد به آدم -صلى الله عليه وسلم- وحواء، وإن قال من قال بأن المراد بالنفس الواحدة، أي: أن الله -عزوجل- خلق الناس من نفس واحدة، أي: من هيئة وشكل واحد، وهو هيئة الإنسان وحقيقتها، وإن اختلفوا في بعض الفوارق غير المؤثرة في هذه الحقيقة، فقوله: {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: من هيئة واحدة، وهذا تأويل بعيد، والذي دعاهم إلى هذا القول هو أنهم يريدون أن يقولوا: إن آدم صلى الله عليه وسلم- وحواء لم يقع منهما هذا الإشراك وليس هو المراد، وكان بإمكانهم أن يقولوا غير هذا الكلام الذي فيه ما فيه من التعسف في حمل النفس على الهيئة الواحدة، وليس في فصل أول الكلام عن آخره أي إشكال، فيقولوا: إن أول الكلام في آدم صلى الله عليه وسلم-، وإن آخره {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} ليس في آدم، فالآية لا تتحدث عن آدم -صلى الله عليه وسلم-، والمشهور كما سبق أن الله خلق آدم -صلى الله عليه وسلم-، وخلق منه زوجه حواء كما قال الله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [سورة النساء(1)]، ومن أهل العلم من يقول بأن قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي: جعله من جنسها، فهو كقوله -تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} [سورة النحل(72)]، وظاهر الآيات تدل على خلاف هذا المعنى بالنسبة لآية الأعراف، وإن كان ذلك ملزوماً للمعنى المشهور وهو أن الله -عز وجل- خلق آدم وخلق منه حواء، فهي من جنسه، -والله أعلم-.

وقال في هذه الآية الكريمة: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} أي: ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} [سورة الروم(21)]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} أي: وطئها، {حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا} وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: {فَمَرَّتْ بِهِ} قال مجاهد: استمرت بحمله.

وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته، وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: {فَمَرَّتْ بِهِ} قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي، إنما هي فاستمرت به.

وقال قتادة: {فَمَرَّتْ بِهِ} استبان حملها.

وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: استمرت به فشكّت أحملت أم لا.

قوله: {فَمَرَّتْ بِهِ} أي: استمرت، هو المشهور والأقرب -والله تعالى أعلم-، ويدل عليه قراءة ابن عباس -رضي الله عنه-، وهي في الشواذ {فاستمرت به}، والقراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة، هذا الذي عليه أكثر السلف، وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت، فاستمرت فسره بمعنيين، الأول: مرت أي: استمرت، فقال: قامت به وقعدت؛ لأنه جاء في قراءة أخرى شاذة {فمارت به}، المور هو الحركة، {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا} [سورة الطور(9)]، ولعله راعى هذه القراءة وهي قراءة أيضاً منسوبة لابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، وفي قراءة أخرى أيضاً مروية عن ابن عباس ويحيى بن يعمر {فَمَرِتْ بِهِ} أي: جزعت بهذا الحمل، والأول أشهر -والله أعلم-.

{فَلَمَّا أَثْقَلَت} أي: صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها.

قوله: {فَلَمَّا أَثْقَلَت} أي: صارت ذات ثقل إذا كبر الولد.

{دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً} أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أشفقا أن يكون بهيمة، وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً.

قوله: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً}، هذا الدعاء يمكن أن يحمل على أعم معانيه، وهذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-، فيدخل فيه صلاح الدين، وصلاح العقل، وكمال الخلقة وصلاحها، بحيث لا يكون مشوهاً.

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً {لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

روى ابن جرير عن الحسن -رضي الله تعالىعنه-: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن في آدم.

فالكلام موصول لفظاً مقطوع معنى، فكأنه يتحدث عن قضية واحدة، لكنه في المعنى مفصول، فالكلام الأول -وعليه عامة أهل العلم- في آدم وحواء، وضمير التثنية يدل عليه في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ}، {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} كل هذا في آدم وحواء {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}، ذهب كثير من السلف إلى أن المراد به آدم وحواء في قوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً}، ويذكرون روايات إسرائيلية أنه جاءهما إبليس وطاف بهما، وقال: إنه يكون له قرن أيل ويشق بطنك، فخافت من هذا فأرشدها إلى المخرج من هذا كله، وهو أن تسميه بعبد الحارث، وأن الحارث هو الشيطان، فسموه بعبد الحارث -يعني آدم -صلى الله عليه وسلم- وحواء- والشيطان قد أغواهما من قبل بالأكل من الشجرة، فأُخرجا من الجنة، فنزلا إلى دار الشقاء، وآدم نبي، يوحى إليه، ثم بعد ذلك يقع مرة ثانية في الشرك، هذا شيء لا يمكن أن يعقل ولا يقبل، نبي ويقع في الشرك، ويخدعه الشيطان مرتين، والثانية أشد من الأولى، قالوا: هذا شرك تسمية، وشرك التسمية ما هو بشرك، فسموه بهذا الاسم خوفاً من حصول مشكلة، وهذا الكلام غير صحيح، ولا مقبول ولا يصح إطلاقاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في هذا، ومثل هذه الروايات لا يعوّل عليها، مع كثرة القائلين بها، لذلك قال الحسن وطائفة: إن هذا الكلام من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، فيكون أول الآية في آدم وحواء، وهذا الجزء الأخير {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} في بعض أهل الملل، يعني في غير آدم وحواء، هذا فيمن وقع من ذريته من الإشراك، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من قال: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} أي: آدم وحواء، لكن المفصول عنده في الذرية؛ لأنها جاءت بصيغة الجمع {فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} عما وقع من إشراك من أشرك بالله -عز وجل- من ذرية آدم -صلى الله عليه وسلم-، فابن جرير -رحمه الله- نظر إلى التثنية في الضمير وأنه متسق مع كل ما قبله ثم جاء بصيغة الجمع، والذين قالوا: هذا كله في آدم وحواء، قالوا: إن هذا من الالتفات، التفت من التثنية إلى الجمع، وقد يعبر عن الاثنين بصيغة الجمع، كما قال الله -عز وجل-: {فإن كان له أخوة}، ومعلوم أن هذا الحجب -حجب النقصان- يحصل بأخوين، تحجب الأم من الثلث إلى السدس، فالذي يظهر -والله أعلم- أن أول الآية في آدم وحواء، وأن قوله: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} ليس في آدم وحواء، وقول الحسن هو الأقرب والأحسن -والله أعلم-.

وعنه قال: عنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، يعني {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}.

وعن قتادة قال: كان الحسن -رضي الله تعالى عنه- يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن -رضي الله تعالى عنه-، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، وأنه ليس المراد بهذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [سورة الملك(5)] الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

قوله: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} لا يرجم بالمصباح، ولكن يرجم بالشهب.

{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[سورة الأعراف(191 - 199)].

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك؟، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[سورة الحج(73 - 74)]، أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمَن هذه صفته وحاله كيف يُعبَد ليرزق ويُستنصر؟!، ولهذا قال تعالى: {لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي: بل هم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل -عليه السلام-: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [سورة الصافات(95)] الآية.

قوله: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ} إلى آخره، سياق الآية يدل على أن المراد بها المشركون، وهي قرينة تدل على أن المراد بأول الآيات آدم وحواء وآخرها في الذرية وما وقع منهم من الإشراك، -والله أعلم-.

ثم قال تعالى: {وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا} أي: لعابديهم، {وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل -عليه الصلاة والسلام- يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [سورة الصافات(93)]، وقال تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [سورة الأنبياء(58)]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنهما- وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك ويرتئوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح -وكان سيداً في قومه- صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلَّياه في حبل في بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال:

تالله لو كنتَ إلهاً مُسْتَدَن *** لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- وجعل جنة الفردوس مثواه.

وقوله: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم} الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم -عليه السلام-: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} [سورة مريم(42)]، ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ} الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم، {إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} أي: الله كافيِّ وحسبي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود -عليه السلام- لما قال له قومه: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود(54 – 56)]، وكقول الخليل -عليه السلام-: {أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}[سورة الشعراء(76 - 78)] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الزخرف(27 - 28)].

وقوله: {إن الذين تدعون من دون الله} إلى آخر الآية مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [سورة الأعراف(197)].

وقوله: {وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}، كقوله تعالى: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ} [سورة فاطر(14)] الآية.

وقوله: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} إنما قال: ينظرون إليك أي يقابلونك بعيون مصورة، كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان، {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} فعبر عنها بضمير من يعقل.

هذه الآيات تتحدث عن آلهة المشركين {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} فإنك إذا نظرت إلى التمثال المصور الذي له أعين، تراه كأنه ينظر إليك، ينظر إلى من ينظر إليه، أو يقابله، لكنه لا يبصر، وهذا ظاهر السياق، ومن أهل العلم من قال: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} أي: المشركين، {وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي: لا يبصرون الحق، لكن هذا القول بعيد، والذي ألجأ القائل إلى هذا القول التعبير بصيغة العقلاء في قوله: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ}، ولم يقل تنظر إليك هذا أمر، والأمر الآخر هو: أن الأصنام لا تنظر، فقالوا: المراد العُبَّاد لهذه الأصنام، وهذا لا داعي له؛ لأن هذه التماثيل على هيئة من ينظر، وإن كانت لا تبصر، والسياق كله في هذا، وإرجاع الضمائر إلى مرجع واحد أولى من التفريق بها بلا شك، وقال في هذه الآيات: {وَإِن تَدْعُوهُمْ} ولم يقل: وإن تدعها إلى الهدى {لاَ يَتَّبِعُوكُمْ}، ولم يقل: لا تتبعكم، وقال: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ} ولم يقل: تنظر إليك.

وقوله: {وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي: لا تبصر، ثم قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ} ولم يقل: لا تستطيع، فالتعبير عن غير العقلاء بهذه الطريقة: لا تستطيع، تنظر، وعن العقلاء: ينظرون، يستطيعون، وما أشبه ذلك، فعبر عنها بهذه الصيغة التي تكون للعقلاء؛ لأن هؤلاء ما جعلوها مجرد عقلاء، بل جعلوها آلهة، فجاراهم في ذلك، والخطاب في القرآن قد يأتي بحسب نظر المخاطب، وإن كان المخاطب لا يعتقده، وهو نوعان: قد يكون لاعتقاد المخاطب باطلاً، وقد يكون صحيحاً، فقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}[سورة الحجر(6)] خاطبوه بناء على قوله واعتقاده، والمخاطِب لا يعتقد هذا، لا يعتقد أنه نزل إليه الذكر، وهو حق كونه أنزل إليه الذكر، وأحياناً لا يكون صحيحاً، والمخاطب لا يعتقده مثل هذا، فهؤلاء ليسوا بآلهة، كما يُسمي أحياناً شبهات الكفار حجة، {حُجَّتُهُمْ}، مع أنها شبهة، ولكن قال هذا بناء على اعتقادهم أنها حجج، ويسمي هذه المعبودات الباطلة أحياناً آلهة بناء على اعتقادهم، جعلوها آلهة، وهكذا التعبير عنها بهذه الصيغ، فإذا نُزِّل غير العاقل منزلة العاقل عومل معاملته، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف(4)]، ولم يقل: رأيتها لي ساجدة؛ لأن الشمس والقمر أضيف إليها فعل من أفعال العقلاء وهو السجود، فعوملت معاملة العقلاء، -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأعراف(١٩٩-٢٠٠)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {خُذِ الْعَفْوَ} أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم.

وقال غير واحد عن مجاهد في قوله: {خُذِ الْعَفْوَ} قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفي رواية قال: خذ ما عُفي لك من أخلاقهم.

وفي صحيح البخاري عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: "إنما أنزل {خُذِ الْعَفْوَ} من أخلاق الناس"[1].

وفي رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، وفي رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنهما قالا مثل ذلك والله أعلم.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً حدثنا يونس قال: حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أميٍّ قال: لما أنزل الله -عز وجل- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك))[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {خُذِ الْعَفْوَ} فيها ثلاثة معانٍ، المعنى الأول: الصفح عن إساءة المسيء، والإعراض والتجاوز عن ذلك بحيث لا يقف عند الإساءة، والمعنى الثاني: وهو ما عفا أي: زاد فيما يتصل بأموال الناس، بحيث يتصدق بما زاد عن حاجته وحاجة أهله، وهذا كان في أول الإسلام، حينما كان الناس في شدة وضيق، فقد قال بعض أهل العلم: لا يجوز للإنسان أن يدخر شيئاً، وهذا الذي فارق عليه أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذهب إلى قومه وبقي فيهم سنين متطاولة، ثم جاء إلى النبي

---

1 - رواه البخاري برقم (٤٣٦٧)، كتاب التفسير، باب {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف(١٩٩)].

2 - رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (١٣/٣٣٠)، برقم (١٥٥٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/٣٢٠)، برقم (٩٤٤٩).

-صلى الله عليه وسلم- في المدينة بعد ذلك بزمن طويل وكان الله -عز وجل- قد وسع على المسلمين، وصار يجوز للإنسان أن يدخر، وأن ذلك لا يكون كنزاً وأنه إذا أخرج الزكاة برئت ذمته، وأما أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- فكان يرى أن كل ما يُدخر فهو كنز يكوى به جبينه وجنبه وظهره، وخالفه على هذا الصحابة -رضي الله عنهم-، والمعنى الثالث -وهو المعنى المشهور الذي عليه عامة السلف وهو الأقرب في تفسيرها والله تعالى أعلم-: أن المراد {خُذِ الْعَفْوَ} أي: من أخلاق الناس، فيكون المعنى لا تستقصِ الناس في معاشرتهم ومخالطتهم، وتطلب حقك منهم، فلا تطالبهم بكل حقوقك وتدقق معهم في هذا، وتستقصِ كل حق، فلا تفوت شيئاً لا دقيقاً ولا جليلاً، فإن من فعل ذلك فإنه سيتعب ويُتعب الناس، فالنفس من شأنها أن تضعف، ويكون لها حالات من الإقبال والإدبار، وقد تسوء النفس وتسوء الطباع والأخلاق بسبب ظاهر، أو بغير سبب أحياناً، فالنفس تمر في حالات من الارتفاع والهبوط، فالبشر من طبيعتهم الضعف والتقصير والعجز، فخذ العفو: يعني ما جاء منهم سهلاً بإقبال نفس فاقبل به، ولا تطالبهم بأكثر من هذا، وهذا أصل كبير في التعامل مع الناس، وراحة لقلبك ولهؤلاء الناس أيضاً، أما الذي يريد أن يحاسب الناس على كل صغيرة وكبيرة، ماذا قالوا وماذا فعلوا؟ وكيف تصرفوا وكيف استقبلوه، وطريقتهم في الاستقبال؟، أو أنهم ما اكترثوا به أو ما أعاروه اهتماماً، وكأنهم لا يعرفونه حينما سلموا عليه، ثم يغضب، فمثل هذا سيتعب، وسيُتعب الآخرين معه، وإذا عرفوا منه ذلك، فإنهم سيتكلفون ويتصنعون له، فيكون مستثقلاً، فهذا أحسن ما فسرت به -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار ابن جرير وابن القيم، -رحمهم الله-.

وقال البخاري: قوله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} العرف: المعروف، ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال...

قوله: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} قال: العرف هو المعروف، والمعروف هو: كل خصلة جميلة يحبها الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، كل ما تطمئن إليه النفوس، وتستحسنه العقول السوية من الأقوال والأعمال، وكل ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو من المعروف، فالمعروف أقرتْ بحسنه الشريعة، وما يدرك منه بالعقل؛ فإن العقول تستحسنه، ولا يمكن للعقول السوية أن تستقبح المعروف، لكنها قد تتوقف في البعض بحيث لا تدرك ما فيه من الحسن، وإنما يُعرف ذلك من جهة الشرع فيما لا مجال للعقول في إدراكه، فمن الأفعال ما فيه حسن ذاتي، يُدرك بالعقل وإن لم يأت النقل بتقريره، وهناك أشياء لها قبح ذاتي، ولو لم يأت النقل بذمها، فالكذب والزنى والفواحش والظلم كلها قبائح، تدرك ذلك العقول السوية، وجاءت الشرائع بتقرير هذا، فمثل هذه الأمور قررها العقل والنقل، ولا يقال الشرع والعقل؛ لأن العقل الصحيح هو من جملة أدلة الشرع، فلا يقابل بالشرع، وإنما يقال: العقل والنقل، وأدلة الشرع: العقل والنقل والفطرة، وقوله: {خُذِ الْعَفْوَ} جمعت أصولاً عظيمة، ومعناها أي: لا تستقصِ في التعامل مع الناس، وتستأصل حقك منهم، {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: اؤمرهم بما يعمر القلوب، ويهذب الأخلاق، ويرفعهم، ويقبل ذلك من يقبله، وينتفع به من ينتفع، ويستجيب من يستجيب، وستجد سفهاء لا يتعاملون بطريقة صحيحة، يصدر منهم ما يؤذيك، فهؤلاء لا تقفْ معهم على الإساءة ولا تُجارِهم بهذا، فتكون منحدراً منسفلاً، تستوِ معهم في أخلاقهم، وعدوانهم على الناس،

وجهالاتهم، وحماقاتهم، فإن الإنسان إذا نزل مع هؤلاء وأراد أن يجاريهم فإنه يكون قرِناً لهم ونظيراً لهم، فتكون مرتبته بذلك منحطة، فالواجب على الإنسان أن يُعرض عن الجاهلين لقول الله: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [سورة الفرقان(٦٣)]، وقوله: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [سورة القصص(٥٥)]، فإذا مروا باللغو أعرضوا عنه، واللغو يشمل جهالات الجاهلين، فالله -تبارك وتعالى- أمر بالصفح والعفو والإعراض في القرآن، إزاء جهالات الجاهلين وحماقاتهم، إلا في موضع واحد -قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}[سورة الشورى(٣٩)]- في مقام المدح للمؤمنين، وهذا لا يعارض الآيات الأخرى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة المؤمنون(٩٦)، وسورة فصلت(٣٤)]، وإنما يُحمل ذلك -والله تعالى أعلم- على معنى وهو أن الإنسان إذا كان في مقام يورثه المذلة، ففي هذا الموطن يتعين الانتصار، فالمؤمن لا يكون ذليلاً، فالعفو الذي يورده موارد الذل لا يقبل به، لا يُستذل، يُستذل ثم يُستذل ثم يُستذل ويقول: أعفو وأصفح، وإنما العفو الممدوح هو الذي يزيد الإنسان عزةً ورفعةً، والعفو الذي يزيد المؤمن ذلة وضعة وهواناً هذا لا ينبغي أن يكون للمؤمن؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه))[3]، فجاء في هذا الموضع الواحد {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}.

وفي هذه السورة يقول: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} وستجد من مخالطة الناس التقصير في حقك فخذ العفو ولا تعنتهم، وأمُر بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وبكل قول وفعل جميل، ومع هذا فستجد منهم ما تتأذى به من الأقوال والأفعال ممن لا يحسبون للكلمة حساباً، ولا ينضبطون بضوابط الشرع، فمثل هؤلاء لا تهبط معهم ولا تُجارِهم في هذه الجهالات والحماقات، فتكون بمنزلتهم -والله أعلم.

ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر- وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته -كهولاً كانوا أو شباناً-، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله -عز وجل-، انفرد بإخراجه البخاري[4].

---

3 - رواه الترمذي برقم (٢٢٥٤)، كتاب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، وابن ماجه برقم (٤٠١٦)، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم"، وأحمد في المسند (٤٣٥/٣٨)، برقم(٢٣٤٤٤)، وقال محققوه: إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٢/٢)، برقم (٦١٣).

4 - رواه البخاري برقم(٤٣٦٦)، كتاب التفسير، باب {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف(١٩٩)].

هذا يوضح عدل عمر رضي الله عنه الذي يضرب به المثل والذي هو في قمة النزاهة، والزهد، والخوف من الله -عز وجل-، يقول: لو عثرت بغلة في العراق لكنت مسئولاً عنها، ويقول: لئن بقيت ليصلنّ هذا المال إلى راعي الغنم في غنمه على جبل في صنعاء دون أن يأتي إليه، ويخرج يطارد بعيراً من إبل الصدقة خارج المدينة، ويمشي وهو يستقبل في الفتح، فتح الشام، بلاد إمبراطورية وفيها ناس ووجهاء وناس يستقبلونه، يأتي يخوض الماء رافعاً ثيابه، ويتعاقب عليه هو والخادم وفترة يجعلونه يرتاح، ليس لديه موكب ولا حرس ولا غير ذلك.

وقد أخذ بعض الحكماء معنى الآية فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما * أُمرتَ وأعرض عن الجاهلين**

ولِن في الكلام لكل الأنام * فمُستحسَن من ذوي الجاهلين**

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمُره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُون} [سورة المؤمنون(٩٦-٩٨)]، **وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيم}**[سورة فصلت(٣٤-٣٥)]، أي: **هذه الوصية.**

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[سورة فصلت(٣٦)]، **وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [سورة الأعراف(٢٠٠)].

عدو الإنسان قد يكون من الإنس، وقد يكون من الشياطين، فالأول قد تنفع فيه المصانعة؛ لطيب أصله، فإذا أحسن إليه تحول وكف إساءته، وربما تحول إلى ولي حميم، أما الآخر فهذا لا تنفع معه المصانعة ولا الإحسان، لكن الله -تبارك وتعالى- أخبرنا بشيء نتخلص به منه هو الاستعاذة **{فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}**، والنزغ: هو النخس، والمقصود به: ما يلقيه الشيطان، فيحرك الإنسان ويوسوس له، ويزين له الباطل والمنكر والإساءة والظلم والعدوان على الناس -والله تعالى أعلم-، **{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}** فيحرك النفس المُغضبَة، ويأمره بالانتقام أو العدوان والظلم، ويلقي في نفسه الخواطر والوساوس السيئة، يقول له: إن عفوت فإن هذا يحمل على غير وجه، ويظن أنك تضعف عن الانتقام، فانتقم، وهكذا، فيحمله على رد الإساءة بإساءة مثلها أو أكثر منها، فكل هذه المعاني يفسر بها النزغ.

فهذا الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف وبالتي هي أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

وقال ابن جرير في تفسير قوله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ}: وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} يقول: فاستجر بالله من نزغه {إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يُذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه، وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا.

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف(٢٠١-٢٠٢)].

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم أي: أصابهم طيف، وقرأ الآخرون {طَائِفٌ}، وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد، وقيل بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: {تَذَكَّرُواْ}...

قوله: **{إِذَا مَسَّهُمْ}** أي: أصابهم طيف، هذه قراءة متواترة، وهي قراءة أهل البصرة وابن كثير، **{إذا أصابهم طيف}**، وقرأ الآخرون **{طَائِفٌ}** وهما قراءتان مشهورتان، هما بمعنى واحد، وهذا هو المشهور، وذكر بعضهم فرقاً بينهما، فبعضهم قال: الطيف هو التخيل، والطائف: هو الشيطان، وهذا فيه بعد -والله تعالى أعلم-.

ثم اختلف العلماء في المراد بالطائف في قوله: **{إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ}**، فقيل: هو الشيطان، وقيل: هو الغضب، ويكون الطائف والطيف بمعنى الغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، وقيل: الذنب، وقيل: نفس إصابة الذنب، وقيل: هو الوسوسة؛ لأنها من إلمام الشيطان بقلب ابن آدم، وتشبه ما ألم به من الخيال في قلب الإنسان، وقيل: ما يتخيله قلب الإنسان أو ما يراه في المنام، والأقرب حمل الآية على هذه المعاني جميعاً -والله تعالى أعلم-.

قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ}** أي: إذا ألم بهم لمم من الشيطان من غضب يحركهم إلى الانتقام، أو ألقى في قلبهم الوساوس والخواطر الرديئة، والأفكار المضلة، أو الإغراء بالشهوات، أو زين لهم المنكر، أو غير ذلك من المعاني التي ذكرها السلف، فإن الذين اتقوا إذا أصابهم هذا يتذكرون وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه، فيورثهم هذا التذكر والتبصر عند حدود الله جل جلاله، فإذا كان هذا الذي ألقاه في قلبه هو الغضب وتحريكه إلى الانتقام تذكر ما عند الله -عز وجل-، **{تَذَكَّرُواْ}**، لما قال معاوية -رضي الله عنه- حين جاء إلى المدينة وكان يريد أن يأخذ البيعة لولده يزيد فتكلم بحضرة من حضر من الصحابة ومنهم ابن عمر وقال: من يرى أنه أحق منا بهذا الأمر، فليخرج قرنه فنحن أحق به منه ومن أبيه، يقول ابن عمر: فحللت حبوتي وهممت أن أتكلم، أراد أن يقول: أحق به منك، مَن قاتلك وأباك على الإسلام؟، لكنه تذكر ما عند الله، غضب وأراد أن يرد عليه، لكنه قال: تذكرت ما عند الله، إذا أصابهم طائف من الشيطان تذكروا، فعلى الإنسان أن يكون منضبطا بضوابط الشرع، فلا يصدر منه إلا ما يليق، لا يتحول إلى سفيه، فمن الناس من يقول: والله ما كنت أدري عن شيء، وربما قد حصل منه الطلاق أو الضرب العنيف،

فيفتخر أنه إذا غضب ما يدري ما يقول، وما يعمل، أي أنه يتصرف كالمجنون في حال الغضب، {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ} وفي حال الوساوس يأتي الشيطان فيشككه ويلبّس عليه فيتذكر، ويتبصر ويعرض عن هذا كله، ويكف عن الاسترسال مع هذه الوسوسة، وإذا ألم بذنب أو حصل له تزيين المنكر، فإنه يتذكر وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه ويكف، فيوسف -صلى الله عليه وسلم- دعته امرأة العزيز وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ}[سورة يوسف(٢٣)]، مع أن الله -عز وجل- قال: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء} [سورة يوسف(٢٤)]، فهم يوسف -صلى الله عليه وسلم- من قبيل الخواطر التي لا يؤاخذ عليها الإنسان، وكان هم امرأة العزيز من قبيل العزم فقد غلقت الأبواب، ثم دعته إلى الفاحشة، والعزم هو التصميم على الأمر، فهذا ينزل منزلة الفعل ويحاسب الإنسان عليه، كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((القاتل والمقتول في النار)) لما سئل عن هذا قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[5]، فالمقصود: أن الشيطان إذا أغوى الإنسان بالفاحشة أو بالمنكر، فإنه يتذكر ما عند الله -عز وجل-، ولا يستمر عليه، بل يتوب مباشرة ويتذكر أن هذا بلاء نزل به من الشيطان، ويندم على ما عمل، فيكون حاله أحسن من حاله قبل اقتراف الذنب، لما يقع في نفسه من الندم والتوبة، أما الإنسان الغافل اللاهي الذي استحوذ عليه الشيطان فإنه كما قال الله -عز وجل-: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} [سورة المجادلة(١٩)] فهو لا يرعوي ولا يكف، ولهذا قال بعده: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}[سورة الأعراف(٢٠٢)]، أي: أن المتقين {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}، كفوا {وَإِخْوَانُهُمْ} أي: إخوان الشياطين من الإنس، يعني أن الإنسي أخ للشيطان من الجن، هذه الأخوة للمشابهة والمتابعة، كما قال الله -عز وجل- لمن شابه غيره أو سار على سننه وخطاه فإنه يكون أخاً له: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء(٢٧)]؛ لأنهم يسيرون على نهجهم، وشابهوهم، فهذا أحد المعاني في قوله تعالى: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}[سورة الأحزاب(١٨)]، ويحتمل أخوة النسب، ويحتمل الأخوة بالأمر الجامع المشترك حيث إنهم يسكنون المدينة، ويحتمل أن يكون الأخوة في الدين حيث إنهم من المنافقين مثلهم، فقال: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} أي: أنهم عكس هؤلاء تماماً، يدخل في المنكر ويدخل في الفواحش ويسترسل ويستمر عليها، ولا يكف عنها بحال.

وقوله: {تَذَكَّرُواْ} أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، {فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} أي: قد استقاموا وصَحَوا مما كانوا فيه.

وقوله تعالى: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ} أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء(٢٧)]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم.

هذه الآية فيها كلام كثير لأهل العلم ما المراد بقوله: {وَإِخْوَانُهُمْ}؟، أي: الشياطين يمدون الإنس بالغي، أو الإنس إخوان الشياطين من الجن يمدونهم، والسبب في اختلافهم هو عود الضمير في يمدونهم، لكن الأقرب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {وَإِخْوَانُهُمْ} يعني: إخوان الشيطان تمدهم في الغي، لا يزال يزين

---

5 - رواه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه برقم (٣١)، كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} فسماهم المؤمنين.

له الباطل والمنكر حتى يلقى الله -عز وجل- على ذلك، لا يكف ولا ينقطع ولا يرعوي ولا يقصر،-والله تعالى أعلم-.

{يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} أي: تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، وقال ابن كثير: المد الزيادة، يعني يزيدونهم في الغي، يعني الجهل والسفه {ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} قيل معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم.

{لاَ يُقْصِرُونَ} لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [سورة مريم(٨٣)]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.**

قوله: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ}** [سورة الأنعام(١٢٨)]، أي: فاستكثروا منهم بإغوائهم وإضلالهم، **{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ}** [سورة الأنعام(١٢٨)]، أي: أن الجن يستمتعون بطاعة الإنس لهم، وخوفهم منهم، وتعظيمهم لهم، فكان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فينتفش الجن ويتعاظمون، ويقولون: سُدنا الإنس والجن، وكذلك ما يتقربون به إليهم من القرابين كفعل السحرة والكهنة، والضُّلال من بني آدم حيث يتقربون للجن بالذبح والنذر وما أشبه ذلك، فإذا سكن أحدهم داراً ذبح على البحر أو ذبح في أسس هذه الدار أو نحو هذا مما يستمتع به الجن، واستمتاع الإنس بالجن -كذلك أيضاً- يكون بنشد الضالة، والتعاون مع السحرة والشياطين، وقد يحصل على مطلوبه، وقد يعرف العلة والمرض، أو يعرف سحر من سحره، أو يسحر هذا ويفسد عليه عيشه، وينغص عليه حياته، ويفرق بينه وبين أهله، أو يبتز ماله، أو نحو ذلك مما يحصل على يد هؤلاء بإعانة الشياطين لهم، فكل هذا من استمتاع الإنس بالجن، واستمتاع الجن بالإنس، فهذه أخوة بينهم **{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}**.

{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف(٢٠٣)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا} يقول: لولا تلقيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في قوله: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا} قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك، وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير.

قوله: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** أي: اصطفيتها واخترتها وأنشأتها من عندك، وهذه المعاني كلها متقاربة، فقالوا ذلك لأنهم يرون أنه يختلق ذلك ويفتريه، وتحتمل الآيات معنيين: يحتمل أن يكون المراد بها الآيات المتلوة التي تخبرهم عما سألوا عنه مثلاً **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** واختلقتها، ويحتمل أن يكون المقصود به: الآيات التي يقترحونها على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كأن يحول الصفا إلى ذهب، أو يزيح عنهم جبال مكة، أو ينزل عليهم

كتاباً من السماء يقرءونه، وما أشبه هذا من الأشياء التي اقترحوها.

ومعنى قوله تعالى: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ} أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [سورة الشعراء(٤)].

قال بعض أهل العلم في قوله: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** هذا في الآيات المتلوة، لما كان الوحي يتأخر يقولون: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}**، أي: لولا اخترتها، لولا اختلقتها، وكانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أشياء فينتظر الوحي، فيقولون ذلك استهزاء وسخرية.

يقولون للرسول -صلى الله عليه وسلم-: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟، قال الله تعالى له: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي} أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به، فأمتثل ما يوحيه إليّ، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات فقال: {هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأعراف(٢٠٣-٢٠٤)]**، لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ}** [سورة فصلت(٢٦)] **الآية، قال ابن جرير: قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** [سورة الأعراف(٢٠٤)].

قوله: **{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ}** السين والتاء تدل على فرق بين السماع والاستماع، فالتاء تدل على طلب، بمعنى أن الإنسان يقصد الاستماع، والإنصات هو السكوت للاستماع، فلا ينشغل عنه بشيء، والذي عليه عامة أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم- فمن بعدهم أن هذه الآية في الصلاة، إذا قرأ القارئ في الصلاة؛ لأن الإنسان مأمور بهذا، لحديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: كنا خلف رسول الله -صلى الله عليه و سلم- في صلاة الفجر فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فثقلت عليه القراءة فلما فرغ قال: ((لعلكم تقرءون خلف إمامكم؟)) قلنا: نعم يا رسول الله، قال: ((لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها))[6]، وعن أبي قتادة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تقرءون خلفي؟))، قالوا: نعم، قال: ((فلا تفعلوا إلا بأم الكتاب))[7] فالشاهد: أن الإنسان في الصلاة مأمور بالإنصات، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك في الصلاة وفي الخطبة، باعتبار أن الإنسان مأمور أن ينصت في الخطبة، وإذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا، ومن مس الحصى فقد لغا، فلا يشتغل عن

---

6 - رواه أبو داود برقم (٨٢٣)، في كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/١٨٦)، برقم (٨٥٤).

7 - رواه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٠٩)، برقم (٢٢٦٢٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين سليمان التيمي -وهو ابن طرخان- وعبد الله بن أبي قتادة.

الخطبة بشيء، وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على الأمرين، الإنصات في الصلاة، وفي حال الخطبة؛ لأن ذلك هو الذي أُمرنا به، في حال الصلاة وفي حال الخطبة، ولكن الأقرب أن الآية تحمل على أعم معانيها، والله -عز وجل- ما حدد شيئاً لا في الصلاة ولا في غير الصلاة، قال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ} فهذا الأمر معلق على شرط، فيحمل على أعم معانيه، فكلما وجد الشرط، وجد المشروط، وهذا من الأدب مع القرآن أن لا يشتغل الإنسان عنه بغيره إذا سمعه، فيستمع له وينصت، -والله تعالى أعلم-.

{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}[سورة الأعراف(٢٠٥-٢٠٦)].

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [سورة ق(٣٩)] **وقد كان هذا.**

كلام ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر من السياق، في قوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، وهو ظاهر القرآن، وابن جرير -رحمه الله- حمل ربط هذه الآية بالتي قبلها، قال: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} عند سماع القرآن، في حال سماع القرآن، يقول: إذا قرئ القرآن فاذكر ربك في نفسك أي: عظّمه، فإذا كان في الآيات تخويف تخاف، وإذا كان في الآيات تعظيم لله -عز وجل- فإنك تعظمه، وتذكره في نفسك وتتذلل، وتستجيب وتنقاد وتؤمن بهذا الذي سمعته من كلام الله -عز وجل-، وهذا فيه بعد، فالآية في الذكر، وليس في حال سماع قراءة القرآن {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} اذكر ربك في نفسك يعني: سراً، وليس المعنى أن الإنسان يذكر في قلبه، وإنما يحرك الإنسان لسانه وشفتيه في الذكر، أما الذكر بإمرار ذلك بالقلب فقط، فإن هذا لا يكون من الذكر الذي يجزيه في القراءة، وقول الأذكار التي أمره الشارع بها، وليس كما يقال: يقرأ بعينه، أو يقول الأذكار في نفسه فقط دون أن يحرك لسانه بها، فلا يكون الذكر إلا بتواطؤ القلب واللسان.

وقوله: {تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} يعني بضراعة وتذلل وخضوع وإخبات مع الخوف من الله -عز وجل-، لا تدعُ أو تذكر في حال كأنك مُدل ومتفضل على الله -عز وجل-، وإنما ذكْر المتضرع الذليل الخائف.

وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

يحتمل أن الصلاة كانت في أول النهار وفي آخره، ويحتمل أن يكون المقصود به الذكر عموماً.

وقال هاهنا: بالغدو وهو أول النهار.

الغدو معناه ما بعد الفجر وطلوع الشمس، ثم أطلق بعد ذلك بتوسع على أول النهار، فبعض أهل العلم وقف عند المعنى اللغوي في الألفاظ فقال في التهجير يوم الجمعة: يبدأ من الزوال، فالساعة الأولى تبدأ من بعد الزوال، والساعة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة، قال بهذا جماعة من أهل العلم فأخذوا لفظ التهجير من الهاجرة، ثم صارت تطلق بمعنى أوسع من مجرد المعنى الأصلي الذي وضعت له ابتداء.

{وَالآصَالِ} **جمع أصيل، كما أن الإيمان جمع يمين.**

الآصال جمع أصيل وأُصل وهو ما بعد العصر، ويكون ذلك بصورة أوضح من بعد اصفرار الشمس.

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أسائلها *** عَيّتْ جواباً وما بالربع من أحد

بمعنى وقت الأصيل، بعد اصفرار الشمس، وهذا أفضل ما يكون في وقت الذكر، {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} فالغدو بعد الفجر إلى طلوع الشمس، {وَالآصَالِ} يقول أذكار المساء، المساء يبدأ من بعد زوال الشمس، هذا كله يقال له مساء، فلو قال الإنسان الأذكار بعد الظهر -أذكار المساء- لأجزأه؛ لأن هذا مساء، لكن الذكر كما قال الله -عز وجل-: {وَالآصَالِ} وهو بعد العصر، وآكد ما يكون ذلك وأحسن ما يقع فيه هو عند ذبول الشمس.

وأما قوله: {تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}، وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً.

الذكر يكون بصوت خافت بحيث يسمع الإنسان نفسه، ولا يؤذي الآخرين، فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمسر بالصدقة))[٨].

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أيها الناس ارْبَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته))[٩] والمراد: الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال: {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} الآية.

قال الله –عز وجل- في الدعاء: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [سورة الأعراف(٥٥)]، تضرعا: يعني بضراعة وذل واستكانة وخضوع وإخبات، {وَخُفْيَةً} لا ترفعوا أصواتكم في الدعاء إذا كان الإنسان يدعو لنفسه، وإذا كان خلفه من يؤمن عليه، فإنه يدعو بأدب دون رفع زائد للصوت فإن هذا من الاعتداء في الدعاء وسوء الأدب مع الله -تبارك وتعالى-، {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}، وقال في الذكر: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} فذكر الخيفة وذكر الإسرار دون الجهر بالقول بالغدو والآصال، وقوله: {فِي نَفْسِكَ} يدل على أن المراد به الذكر، لا كما قال ابن جرير -رحمه الله- من أن ذلك في حال سماع القرآن، إذ كيف يكون بالغدو والآصال؟، -والله أعلم-.

وإنما ذكَرهم بهذا ليُقتدَى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله -عز وجل-، كما جاء في الحديث: ((ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها؟ يتمون الصفوف الأول

---

8 - رواه أبو داود برقم (١٣٣٣)، كتاب التطوع، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، والنسائي برقم (٢٥٦١) كتاب الزكاة، باب المسر بالصدقة، والترمذي برقم (٢٩١٩) وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٠٤)، وفي صحيح الجامع برقم (٣١٠٥).

9 - رواه البخاري برقم(٢٨٣٠)، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم برقم (٢٧٠٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ورواه بدون زيادة: ((أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)) فهي عند أحمد في مسنده (٣٧٤/٣٢) برقم (١٩٥٩٩)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، قاله محققو المسند، والنسائي في الكبرى برقم (٧٦٨٠).

فالأول ويتراصون في الصف))[10]، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

10 - رواه مسلم برقم (٤٣٠)، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، من حديث جابر بن سمرة -رضي الله عنه-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنفال: وهي مدنية، آياتها سبعون وخمس آيات، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١)].

قال البخاري قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الأنفال: المغانم، ثم روى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس -رضي الله عنهما-: سورة الأنفال قال: نزلت في بدر.

أما ما علّقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خالصة ليس لأحد منها شيء، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة، وعطاء الخرساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغانم، وقيل: النفل ما ينفِّله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وقيل: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، وقيل: هو الفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وما شذ منهم إلى المسلمين من دابة أو عبد أو متاع.

وروى ابن جرير عن علي بن صالح بن حيي قال: بلغني في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينفِّله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة مدنية، بجميع آياتها، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وإن قال من قال: إنه يستثنى منها قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ}[سورة الأنفال(٣٠)]، وما بعدها بنحو ست آيات، ومستندهم في هذا هو أنهم لاحظوا المعنى، فما يتعلق بهذا المكر بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ليقتلوه أو يخرجوه إنما كان بمكة، لكن هذا لا يكفي للحكم بأن هذه الآية مكية أو مدنية، وأن الأصل في السورة المكية أن تكون جميع الآيات نازلة بمكة، وأن السورة المدنية تكون جميع الآيات نازلة في المدينة إلا لدليل، وأما ما يذكر من جهة المعنى فحسب فهذا لا يكفي، ومعنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، كما قال الله -عز وجل-: {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ} [سورة الأنفال(٢٦)] تُذكِّرهم بشيء مضى، فهذه السورة بجميع آياتها مدنية، -والله تعالى أعلم-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} هذا السؤال سؤال استعلام، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} لم يذكر ربنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية المسئول عنه على سبيل التحديد والتفصيل، وإنما أبهمه كما في سائر المواضع الذي ورد فيها السؤال، ولم يقل: يسألونك عن حكم الأنفال، هل هي حلال أو حرام؟، فقد كانت محرمة على الأمم السابقة، فكانت تُجمع في مكان واحد بعد المعركة، ثم تنزل نار من السماء فتحرق هذه الأنفال -أي الغنائم-، وهذه الأمة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذكر خصائصها: ((وأحلت لي الغنائم))[1]، وهذا السؤال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} لم يحدد فيه المسئول عنه من حيث أنه الحكم في أصل الأنفال هل هي حلال أو حرام، أو لمن تكون، ولا كيفية التقسيم، وهي كقول الله -عز وجل-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ} [سورة البقرة(٢٢٢)]، يحتمل أن يكون السؤال عن سبب المحيض، لماذا يأتي المرأةَ الدمُ؟، أو عن هذا المحيض هل هو نجس أو طاهر؟، أو عن هذا المحيض ما الأحكام التي تتصل بالمرأة من الصلاة وغيرها، ومخالطة الرجل ومؤاكلته، أو عن الجماع في حال الحيض؟، وهو المراد {قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ} [سورة البقرة(٢٢٢)] وقد جاء في قراءة ليست متواترة، قرأ بها بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، وغيره {يسألونك الأنفال}، ومعنى هذه القراءة أي: يطلبونك الأنفال؛ لأنهم طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسأل سعد -رضي الله تعالى عنه- النبي -صلى الله عليه وسلم- سيفاً أعجبه، وكانت هذه أول معركة تحصل بها غنائم للمسلمين، واختلفوا فيها ولم ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في حكم ذلك، فاختلفوا فيها لمن تكون، لأنهم كانوا على ثلاث طوائف: طائفة بقيت تحرس النبي -صلى الله عليه وسلم-، وطائفة ذهبوا يطاردونهم، وطائفة عكفوا على جمع الغنائم، فلما رجع أولئك واجتمعوا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تنازعوا، هؤلاء قالوا: نحن قبضناها، وهؤلاء قالوا: نحن الذين ذهبنا نطارد العدو فنحن أولى بها منكم، والآخرون قالوا: نحن كنا رفداً لكم لو أنكم انهزمت لانحزتم إلينا، بقينا نحرس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحوطه، فنحن أحق بها، فالله -تبارك وتعالى- قال: {قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} فجعل حكمها لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وليس لهم، يحكم فيها بأمر الله، والأنفال: جمع نفل، ويأتي لمعانٍ عدة، الذي يصلح منها هنا هو الزيادة، مثل: صلاة النافلة، باعتبار أنها زائدة على الفريضة، وولد الولد يقال له نافلة {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}[سورة الأنبياء(٧٢)] ولد الولد زيادة على الولد، وهذه الغنائم قيل لها: أنفال؛ لأنها زيادة لهذه الأمة، أحلت لهذه الأمة ولم تحل لأحد قبلها، أو قيل لها ذلك: لأنها زيادة في حظ المجاهد، فوق الأجر الذي يحصل له بسبب هذا الجهاد، ويقول ابن كثير -رحمه الله-: قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: المغانم. هذا القول هو المشهور الذي عليه الجمهور، الأنفال هي الغنائم، والعلماء رحمهم الله اختلفوا كثيراً في الأنفال وفي الفيء أيضاً، ما المراد بهذه الأنفال؟، وذُكر هنا عن ابن عباس أنه قال: إن هذه نزلت في بدر، وذلك حينما تنازعوا في أمر الأنفال، وأنها كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالصة ليس لأحد منها شيء، بمعنى أن قوله: {قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} أي: أن حكمها لله والرسول، قيل: المراد بأنها لله والرسول، بأن الله -عز وجل- جعلها لرسوله

1 - رواه البخاري برقم (٤٢٧)، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه و سلم: ((جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا))، ومسلم برقم (٥٢١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

-صلى الله عليه وسلم- فهي حق له، وليست القضية تتعلق بحكمها، وليست للمقاتلين، هذا في أول الأمر، ثم نسخها قول الله -تبارك وتعالى- بعد ذلك حينما اطمأنت نفوسهم، وانقادوا لحكم الله -عز وجل-، وارتفع الشقاق والنزاع بينهم أنزل الله -عز وجل-: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى} [سورة الأنفال(٤١)] قال هذا جمع من أهل العلم، وعلى هذا تكون هذه الآية {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم} نزلت في بدر، وهذا هو الأقرب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قسم غنائم بدر وخمسها، بدليل حديث علي -رضي الله عنه- في الشارف، أوفي الشارفين اللذين نحرهما حمزة -رضي الله تعالى عنه- والقصة في الصحيحين[2]، فعلي -رضي الله تعالى عنه- ذكر أن أحدهما وقع له في سهمه في الغنيمة، وأن الآخر أعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- إياه من الخمس، فدل على أنها خمست، ولذلك قال ابن كثير -رحمه الله-: إنها كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالصة ليس لأحد منها شيء، أي: أن الأنفال التي هي الغنائم، على المشهور، وهو الأقرب، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- جملة ممن قال به وهو قول الجمهور، وذكر قولاً آخر وهو: أن الأنفال ما يعطيه الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، فقالوا: هذه هي الأنفال، أنس -رضي الله تعالى عنه- أعطاه أمير شيئاً من الغنيمة قبل أن تقسم فأبى وقال: حتى تقسم[3]، فالأمير قد يعطي زيادة بعد القسم لبعض الناس، لبلائه وشدته على الكفار وما أشبه هذا، وقيل: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، يعني أن الغنيمة تقسم، فأربعة أخماس للمقاتلين، الفارس له سهمان سهم له وسهم لفرسه، وغير الفارس ممن يركب البعير أو الحمار أو البغل أو على قدميه له سهم واحد، الأربعة الأخماس تعطى لهم، والخمس يقسم إلى خمسة أقسام، كقسم الفيء، فهذا القول يقول: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، وهو المقصود بقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} إلى آخره، لكن هذا فيه بعد؛ لأنهم ما تنازعوا في هذا، وإنما حصل النزاع في أصل الغنيمة حينما حصلت لهم، وقيل: هو الفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وما شذ منهم إلى المسلمين من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، وقد جعله على خمسة أقسام كما قال الله -عز وجل- في سورة الحشر: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [سورة الحشر(٧)]، لكن هذا فيه إشكال؛ لأن الذي اختلفوا فيه لم يكن قد حصل من غير قتال، الذي حصل لهم إنما كان بقتال وانتصار ساحق على الكفار، الفيء نزعه الله -عز وجل- من أيديهم، قال:{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ} [سورة الحشر(٦)]، {مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ}، يعني ما نافية، ويكون المعنى أي: لم توجفوا عليه، والإيجاف هو الإسراع، {مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} يعني لم يحصل لكم فيه قتال للعدو وإغارة؛ لأن الخيل ترمز لهذا، كما في وقعة أحد لما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-: ((ائتنا بخبر

---

2 - رواه البخاري برقم (١٩٨٣)، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصَّوَّاغ ، ومسلم برقم (١٩٧٩)، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر والبسر والزبيب وغيرها مما يسكر.

3 - رواه الإمام أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي في المصنف في الأحاديث والآثار (٦/٥٠٠)، برقم (٣٣٢٩٢)، كتاب السير، باب في الإمام ينفل قبل الغنيمة وقبل أن يقسم، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، ط١، سنة النشر: ١٤٠٩هـ.

القوم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهي الغارة على المدينة))[٤]، فالخيل تستعمل للإغارة، والإبل تستعمل للسفر الطويل، فالله -عز وجل- يقول لهم: {مَا أَوْجَفْتُمْ}، أي: ما حصل منكم إيجاف أي إسراع ولا كد ولا تعب بهذا الفيء، لا بإغارة على العدو ولا بسفر طويل، ووقع هذا مع اليهود في بني قريظة، وبني النضير، ووقع لبعض أهل القرى، والفيء ليس للمقاتلين منه شيء، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى الفيء الذي حصل من بني النضير أعطاه جميعاً للمهاجرين؛ لأنه خيّر الأنصار فقال لهم: إن شئتم بقي المهاجرون في أرضكم وقسمته بينكم، يعني ما حصل من بني النضير، وإن شئتم خرجوا من أرضكم وقسمته بينهم؛ لأنهم كانوا فقراء تركوا كل شيء، فقالوا: لا يا رسول الله، يبقون في أرضنا وتقسمه بينهم دوننا، فهذا الذي قال الله -عز وجل- فيه: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر(٩)]، وقال: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا}، والحاجة هي الحسد، {مِّمَّا أُوتُوا} أي: مما أوتيه إخوانهم من المهاجرين، فالفيء يخمس خمسة أقسام كما في آية الحشر، والغنيمة أربعة أخماس للمقاتلين، والخمس يقسم كقسمة الفيء، ومعنى قول علي بن صالح: بلغني في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} قال: هي السرايا، أي: ما ينفِّله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، بمعنى أن الجيش قد ينبعث منه سرية ويحصل لها ظفر، فيعطون زيادة على ما يحصل لهم من أصل الغنيمة التي تحصّل عليها الجيش، وبعضهم قال: المقصود به خمس الخمس، وخمس الخمس يقسم لله وللرسول، والراجح أن سهم الله وسهم النبي -صلى الله عليه وسلم- واحد، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأخذ منه نفقته ونفقة أهله لمدة سنة، والباقي يصرفه في الكراع، وفي المصالح العامة كإعداد الجيش، وشراء السلاح، ومصالح المسلمين العامة، وهذا أيضاً بعيد؛ لأن النزاع كان في أصل الغنيمة، وأسباب النزول الواردة في الآية كثيرة جداً تدور حول هذا المعنى، وابن جرير -رحمه الله- اختار أن المراد به: ما يعطى لبعض الناس زيادة على السهم، وهذا يؤيده بعض الروايات في سبب النزول، قال سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-: " يا رسول الله إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو فهب لي هذا السيف، قال: ((إن هذا السيف ليس لي ولا لك))، فذهبت وأنا أقول يعطاه اليوم من لم يبلِ بلائي، فبينما أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب، فظننت أنه نزل فيّ شيء بكلامي فجئت فقال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنك سألتني هذا السيف، وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي فهو لك))، ثم قرأ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} إلى آخر الآية"[٥]، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه))[٦]، قال بعض أهل العلم: هذا هو المراد، والذي يظهر أن الأنفال هي الغنائم، - والله أعلم-، والخمس للإمام أو للقائد وله النظر

---

4 - المغازي للإمام الواقدي (٢٩٨).

5 - رواه أبو داود برقم (٢٧٤٠)، كتاب الجهاد، باب في النفل، والترمذي برقم (٣٠٧٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأنفال، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٧٨).

6 - رواه البخاري برقم (٢٩٧٣) كتاب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلا فله سلبه من غير أن يخمس وحكم الإمام فيه، ومسلم برقم (١٧٥١)، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

في إعطاء بعض الحوافز مثل أن يقول للناس: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فله سلبه، وله أن يعطي فوق السهمان، ويمكن له أن يعطي شخصاً لشدة بلائه زيادة على سهمه، وهذا ما أظنه أقرب -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى: وروى الإمام أحمد عن سعد بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: ((إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه))، قال: فوضعته ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يُبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً، قال: ((كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وُهب لي، فهو لك))، قال: وأنزل الله هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [سورة الأنفال(١)]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث احتج به من قال: إن الأنفال ليست هي الغنائم، وإنما ما يعطى زيادة على السهم، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، وتقدم أقوال العلماء في المراد بالأنفال فمنهم من قال: الغنائم، ومنهم من قال: إنها ما جاء للمسلمين من غير قتال؛ كالفرس يند، والعبد يدركه المسلمون، وما يحصل من غير قتال، ومنهم من يقول: هي ما يعطى للسرايا زيادة على سُهمانهم من الغنيمة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطيهم فوق ذلك، ومنهم من يقول: هو خمس الغنيمة لأنها تقسم على خمسة أقسام، فهذا الخمس يعطون منه، ومنهم من يقول: خمس الخمس، وسبب النزول في هذا الحديث هو طلب السيف، قال: أعطنيه، فأبى، ثم بعد ذلك أعطاه إياه، وليس في قسم الغنيمة، يقول: فنزلت الآية، ويحتمل أن يكون المراد أنها نزلت بعد هذا كله؛ لأنه ورد فيها أسباب صحيحة متعددة، وأخرى ضعيفة، ومن هذه الأسباب طلب سعد -رضي الله تعالى عنه- للسيف، فهذا مما يعطاه فوق قسم الغنيمة، ووردت أحاديث أخرى تدل على أنهم تنازعوا في أصل الغنيمة، فنزلت الآية، فتكون الآية نزلت في بدر بعدما وقع ما وقع فيما يتعلق بأصل الغنيمة، وكذلك فيما يطلبه بعضهم من العطاء من الغنائم قبل قسمها، وكذلك ما يتصل بالخمس ما شأنه وكيف يُصرف وكيف يتصرف به؟، فالآية نازلة بعد هذه الأمور جميعاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} [سورة الأنفال(٤١)]، إما ناسخة على قول بعض أهل العلم، أي: جعل الله الغنائم لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- وليست للمقاتلين في أول الأمر، ثم نسخ بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} فخمسها، ويحتمل أن تكون غير منسوخة وإنما هي مبينة لها، ثم بيّن هذا الحكم بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم} والنسخ لا يثبت بالاحتمال.

---

1 - رواه أبو داود برقم(٢٧٤٠)، كتاب الجهاد، باب في النفل، والترمذي برقم (٣٠٧٩)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأنفال، وأحمد في المسند (١١٧/٣)، برقم (١٥٣٨)، وقال محققوه: إسناده حسن، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٧٨).

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقسمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء[٢].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال(١)]، **فقسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المسلمين، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أغار في أرض العدو نفَّل الربع، فإذا أقبل -وكلُّ الناس- راجعاً نفَّل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: ((ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم))[٣]، وروى الترمذي وابن ماجه نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن[٤].**

وقوله تعالى: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

قوله: **{وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}** [سورة الأنفال(١)]، أي: أصلحوا فيما بينكم، وبعض أهل العلم يقول: **{وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}** أي: ما وقع بينكم من الكلام حينما اختلفتم، **{وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}**، ما وقع بينكم علانية، فكل منكم يقول ويرد ويجادل، هذا يقول: أنا أحق، وهذا يقول: أنا أحق، فيحصل التشاحن، وهذا يقابل ما يقع في سر الإنسان ويقال له: ذات الصدور **{عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}**[سورة الأنفال(٤٣)]، فما يقع بين الإنسان وإخوانه يقال: ذات البين، وفسره بعضهم بالوصلة التي تكون بينهم، وهي أقوال متقاربة، وهذه الوصلة هي الرابطة الإيمانية، والأخوة الإسلامية، فتكون نقية من كدر الحقد والغل والغش والشحناء، أي أصلحوا حقيقة ما بينكم.

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [سورة الأنفال(١)]، **أي: في قسمه بينكم على ما أراد الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا تحريج من الله ورسوله على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد.**

---

2 - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٧/٤١١)، برقم (٢٢٧٤٧)، وقال محققوه: إسناده حسن لغيره.

3 - رواه أحمد في المسند (٣٧/٤٢٢)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

4 - رواه الترمذي برقم (١٥٦١)، كتاب السير، باب في النفل، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وأحمد في المسند (٣٧/٤٢٢)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

وقال السدي: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: لا تستبوا.

قوله: لا تستبوا، أي: ارفعوا أسباب الشر والخلاف، والشحناء وكل ما يوغر الصدر بين المسلم وأخيه.

قوله: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١)]، هذا يدل على أن صلاح ذات البين من الأمور الواجبة، ولذلك علّقه بالإيمان فقال: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فافعلوا ما أمرتكم به، ومثل هذا مفهوم المخالفة فيه غير مراد، بمعنى أن الإنسان الذي يكون بينه وبين إخوانه شحناء ليس معنى ذلك أنه ليس بمؤمن، فيكون المعنى إن كنتم مؤمنين حقاً فأصلحوا ذات بينكم، وهذا الأسلوب يستعمل للتحضيض والتحريض، كقولك: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، تريد حثه على هذا الفعل وتحفيزه، وأنت تعلم أنه ابن أبيه.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال(٢-٤)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فأدوا فرائضه، {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} يقول: زادتهم تصديقاً، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فرقت، أي فزعت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن، حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران(١٣٥)]، وكقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[سورة النازعات(٤٠-٤١)] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية فيقال له: اتق الله، فَيجِل قلبه.

الوجل هو الخوف، أو خوف خاص، وهو خوف مع خشية، وقد يكون واقعاً من العذاب، وقد يكون خوف إجلال وتعظيم، كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}[سورة المؤمنون(٦٠)]، أي: في حال الإحسان قلوبهم وجلة خائفة مشفقة، يخشون الله -عز وجل-، يخشون أن لا يقبل ذلك منهم، فقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [سورة الأنفال(٢)]، جاء بأسلوب الحصر والقصر، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، وهي من أقوى الصيغ في الحصر، أعلى وأقوى منها النفي والاستثناء نحو لا إله إلا الله، ثم تأتي هذه الصيغة، ومفهومها أيضاً كذلك في القوة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} لكن مفهوم المخالفة غير مراد، ولكن حينما يذكر الله -عز وجل- مثل هذا بأسلوب القصر والحصر {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، فهذا يدل على أن هذا من الصفات الواجبة في الإيمان، أي من الإيمان الواجب، وكذلك إذا نفى الإيمان عنه حيث قال: ((والله لا يؤمن، والله لا

يؤمن، والله لا يؤمن)) قيل: من يا رسول الله؟ قال: ((من لا يأمن جاره بوائقه))[٥]، نفى عنه الإيمان، لكن مفهوم المخالفة في هذا الحديث غير مراد، فلا يكفر الإنسان بالمعصية والذنب بمجرد فعله، وإنما هذا يدل على أن هذا الفعل من الإيمان الواجب، أن يكون الإنسان مأمون الجانب لدى الجار، لا يصل إليه منه الشر والسوء والأذى، وإلا فإنه يكون قد نقص من إيمانه الواجب الذي يستحق عليه العذاب، فلا يخلص ولا ينجو عند الله -تبارك وتعالى- حتى يمحَّص أو يغفر له بحسنات ماحية، أو مصائب تصيبه في الدنيا تكفر عنه، لكن هذا من المعاني أو الأمور التي يجب تحقيقها، أو مثلما جاء بأسلوب الحصر: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحجرات(١٥)]، فهذه الصفات كلها من الإيمان الواجب، الذي لا يتحقق إلا به أصلاً، وهناك إيمان واجب يحصل أصل الإيمان به فتحصل النجاة عند الله -عز وجل-، لكن صاحبه يستحق العقوبة حتى يمحص، إلا أن يغفر الله -عز وجل- له، وهناك كمال في الإيمان مستحب، ((الإيمان بضع وستون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى))[٦].

فقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: خافت وأشفقت، وحصلت لهم الخشية.

وقوله: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[سورة الأنفال (٢)]، **كقوله**: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[**سورة التوبة** (١٢٤)].

هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، كقول الله -عز وجل-: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}[سورة المدثر(٣١)]، والنصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جداً في الكتاب والسنة، وحديث "نافَقَ حنظلة" يدل على هذا المعنى، فهو يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إنهم إذا كانوا عنده فإنهم يكونون في حالة من الإيمان عالية؛ كأنهم يرون الجنة والنار، وإذا رجعوا إلى بيوتهم وعافسوا الأزواج والأولاد والضيعات نقص[٧]، وكل ما يزيد فهو ينقص ولا بد، فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقوله: زادتهم تصديقاً، ليست الزيادة تصديقاً فقط؛ لأن الإيمان قول واعتقاد وعمل، قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [سورة الأنفال(٢)]، أي: زادتهم تصديقاً وانقياداً وإقراراً واعترافاً، فالتصديق يزيد وينقص، وهذا أمر مشاهد، فالإنسان يتفاوت تصديقه في الأمور، فأحياناً يسمع الخبر ويجزم أنه كذب، وأحياناً يسمع الخبر من ناقل آخر ويتردد فيه، وأحياناً يسمع الخبر ممن يثق به ويحصل له به العلم، فإذا جاء مخبر آخر ازداد هذا العلم، فإذا وُجدت قرائن تدل على صدقه ازداد هذا العلم، وهكذا، فالتصديق يزداد وينقص {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}: زادتهم إقراراً وإذعاناً وتصديقاً وانقياداً أيضاً، وكذلك أيضاً

---

5 - رواه البخاري برقم (٥٦٧٠)، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم برقم (٧٣)، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، واللفظ للبخاري.

6 - رواه البخاري برقم (٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم برقم (٥٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

7 - رواه مسلم برقم (٢٧٥٠)، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا.

تزيدهم عملاً، فالصلاة إيمان، والزكاة إيمان، وقبول شرائع الإسلام كل ذلك من الإيمان، فكل آية تنزل يصدقون بها، وأنها من عند الله -عز وجل-، فهذا إيمان جديد، وما تضمنته من الأحكام والآداب وما أشبه ذلك يذعنون له ويقبلونه عن الله -عز وجل-، ويعملون به، فهذا أيضاً إيمان، فكل ذلك داخل في زيادة هذا الإيمان، {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

هذه المسألة أي: زيادة الإيمان لم يخالف فيها إلا بعض أهل البدع الذين قالوا: لا يزيد ولا ينقص وإنما زيادته ونقصانه بزيادة ونقص متعلقاته فقط، فنفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، وهذا قول باطل وهو مخالف لما استقر في النفوس، وما دلت عليه النصوص؛ ولذلك يقول بعض هؤلاء: إن العلم لا يزيد ولا ينقص، وإنما يزيد بزيادة متعلقاته، وهذا بناء على عقيدتهم الفاسدة، وهكذا تجد مثل هذا الكلام في أصول الفقه، وفي علوم الحديث، حيث يقولون: إن خبر الواحد مطلقاً يفيد الظن ولا يفيد العلم؛ لأن العلم عندهم لا يتفاوت، بناء على أن الإيمان لا يتفاوت، كل هذا مبني على عقائدهم الفاسدة، والله أعلم.

قوله: "كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري ولله الحمد والمنة"، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- شرح البخاري لكنه لم يكمله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال]، **أي: لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.**

وقوله: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] **ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.**

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال] معنى التوكل أن يفوض العبد أمره إلى ربه ثقة به، فيركن إلى جنابه -سبحانه وتعالى- ولا يرجو غيره ولا يخاف غيره.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال] يفيد الحصر، فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله، ومن هذه الآية وأمثالها من الآيات أخذ طائفة من أهل العلم أن التوكل من الأمور المختصة بالله -عز وجل- ولا يجوز أن يتوجه بها إلى غير الله، فلا يجوز أن يقول العبد: أنا متوكل عليك يا فلان، ولا يجوز له أن يقول: أنا متوكل على الله ثم عليك.

قوله –تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] في جميع مواضع القرآن حينما يذكر الله -عز وجل- الصلاة ويأمر بها يقول: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ}، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت] ولم يقل: يؤدون الصلاة، فالصلاة المؤثرة المطلوبة التي يثنى على صاحبها هي الصلاة التي يقيمها المصلي، فيأتي بما يجب لها من شروط وأركان وواجبات ومستحبات.

قال: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] "مِن" للتبعيض باعتبار أن الإنفاق لا يكون لكل المال، وإنما يكون لبعضه، وإنفاق جميع المال يختلف بحسب حال الإنسان، فمن الناس من يُقبل منه أن ينفق كل ما يملك

كما قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- من أبي بكر -رضي الله عنه- ومن الناس من لا يقبل منه هذا، فالذي ينفق كل ماله ثم يتعلق قلبه بالناس ويتطلع إلى ما في أيديهم لا يجوز له أن ينفق كل ماله، ومن كان إيمانه قوياً وتوكله على الله -تبارك وتعالى- كبيراً ولا يتطلع إلى ما في أيدي الناس فلا بأس أن ينفق جميع ماله.

وقوله: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [(٤) سورة الأنفال] أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

الفصل بين طرفي الكلام بضمير الفصل "هم" يفيد تقوية مدلول هذه الجملة، والإشارة بالبعيد "أُوْلَئِكَ" يشعر بمنزلة المؤمنين وعلوّهم ورفعتهم.

وقوله: {لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ} [(٤) سورة الأنفال] أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنة، كما قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(١٦٣) سورة آل عمران]، {وَمَغْفِرَةٌ} أي: يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات.

تنكير المغفرة في قوله: {وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٤) سورة الأنفال] دليل على أنها مغفرة عظيمة، وهذا يدل على أن من حقق الإيمان وتوكل على الله -عز وجل- وأنفق في سبيل الله فإن الله -عز وجل- يغفر له الذنوب ويرفع منزلته ودرجته في الجنة، وهذا دليل على أن الحسنات تمحو السيئات، والله -عز وجل- يقول: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[(١١٤) سورة هود] وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[١].

وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**ويشكر لهم الحسنات**"، ليس من معنى المغفرة؛ لأن العبد إذا نادى ربه "يا رب اغفر لي" فإنه يطلب من ربه أن يستره، وأن يقيه شؤم المعصية فلا يعذب عليها، وكلمة الغفر تدل على هذين المعنيين، ومنه سمي المغفر بهذا الاسم؛ لأنه يستر رأس لابسه ويقيه الضرب بالسلاح.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء))، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟، فقال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[٢]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَماً))[٣].

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ* يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ*وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

---

[1] - رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (٤/٣٥٥)، برقم (١٩٨٧)، وأحمد (٣٥ / ٢٨٤)، برقم (٢١٣٥٤)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣ / ١٠٢).

[2] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣/١١٨٨)، برقم (٣٠٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفتها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٤/٢١٧٧)، برقم (٢٨٣١).

[3] - رواه ابن ماجه (١ / ٣٧)، برقم (٩٦)، والترمذي (٥ / ٦٠٧)، برقم (٣٦٥٨) وأحمد (١٨ / ٤٢٢)، برقم (١١٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١ / ١٦٨).

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [(٥-٨) سورة الأنفال].

قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال]، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم- فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد، رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢١٦) سورة البقرة].

قال السدي: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} لطلب المشركين.

قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال] اختلف علماء التفسير في الجالب لهذه "الكاف" التي في قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ}، وما الذي شُبِّه بإخراج الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- من بيته بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. وقالوا: معنى ذلك أن الله يقول: وأصلحوا ذات بينكم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- من بيته بالحقّ، فكان خيرًا له، وهذا كلام ابن جرير -رحمه الله- في هذه الآية وقد ربطها بقوله -تبارك وتعالى- {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١) سورة الأنفال].

وهذا الكلام فيه مغايرة لكلام ابن كثير -رحمه الله- فقد قال: "**ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم- فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد**"

فمعنى كلام ابن كثير -رحمه الله- أن انتزاع الغنائم من أيديكم وقسم الله -عز وجل- وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم- خير لكم، كما أن إخراجكم لقتال عدوكم وكتب ذات الشوكة لكم على كره منكم خير لكم، فلو خيروا بعد المعركة بين العير والفتح المجيد، لاختاروا النصر والفتح.

وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال] الأنفال ثابتة لكم مثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق، أي: خروجاً متلبساً بالحق.

وقال بعضهم: قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال] قسم وتقديره والذي أخرجك، والكاف بمعنى الواو، و"ما" اسم موصول بمعنى الذي، وهذا وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أنه أبعد من سابقيه وخلاف الظاهر المتبادر، والله أعلم.

وقال بعضهم: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١) سورة الأنفال]، {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [(٥) سورة الأنفال] فلا تدرون العواقب فليس لكم إلا أن تطيعوا وأن تذعنوا وتسلموا، والله -عز وجل- يصرفكم بما فيه الخير.

وقال بعضهم: قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال]، متعلق بقوله: {لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٤) سورة الأنفال] يعني: هذا الوعد ثابت حق للمؤمنين كما أخرجك ربك، وهذا هو اختيار أبي عبد الله القرطبي -رحمه الله-.

ويحتمل أن يكون المقصود التشبيه بحال كراهتهم للتنفيل، ككراهتهم للخروج ابتداءً أو ملاقاة الجيش.

وقولا ابن جرير وابن كثير هما أقرب الأقوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: قال السدي: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [سورة الأنفال(٥)] لطلب المشركين، {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [سورة الأنفال(٦)]، قال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعْلمنا قتالاً فنستعد له، {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [سورة الأنفال(٧)] أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ} [سورة البقرة(٢١٦)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} الصحابة -رضوان الله عليهم- عندما خرجوا من المدينة لطلب العير لم يكن ذلك فيه كراهة، خرج من خف منهم ولم يُلزَم أحد بالخروج، وبقي الكثير منهم في المدينة؛ لأن القتال لم يكن متوقعا، وعبر بالكراهة باعتبار العاقبة وما آل إليه أمرهم من كراهتهم لقتال المشركين، ولقاء ذات الشوكة أي: الجيش –والله تعالى أعلم-.

وقوله: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أي: يجادلونك في الحق، ثم اختلف أهل العلم في المراد بالذين يجادلون من المقصود بهم؟ فقال البعض: إن الذين يجادلون هم الكفار، يجادلونه في الحق أي: في التوحيد، ولكن هذا بعيد، وإنما المراد المؤمنون؛ لأن الخبر عنهم، فهم الذين جادلوه في الحق وذلك حينما نجت العير وبقي النفير، بقي الجيش، فكان لا بد من المواجهة، فصاروا يجادلون النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحق بعدما تبيّن، يعني تبيّن أن النفير هو الخيار الوحيد الآن، ومن أهل العلم من يقول: {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أي: تبيّن أنه الشيء الذي أمرتهم به، وهذا يرجع إلى القول الأول، والمقصود بالحق: القتال، ويحتمل أن يكون بعدما تبيّن لهم أنك لا تأمرهم بشيء إلا بعد إذن الله -عز وجل- ووحيه، أو بعدما تبيّن لهم أن إحدى الطائفتين لهم، والأقرب -والله أعلم- {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أن العير قد نجت وأن النفير هو خيارهم، وأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ}، هذا ليس من صفة المشركين، وإنما سياق الآيات يتحدث عن المؤمنين.

قوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} قال: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ} يعني العير أو النفير {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} أي: تودون أن غير الجيش والنفير، وهو الغنيمة الباردة

وهي العير التي كانت مع أبي سفيان، فأبو سفيان نجا بالعير عندما ذهب ناحية الساحل، فنجت العير، وقد وصف الله مكانهم حينما قال في هذه الآيات: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ} [سورة الأنفال(٤٢)] يعني من عدوتَي الوادي، فالدنيا هي ما يلي المدينة، الأقرب إلى المدينة، والقصوى من ناحية مكة، وذكر لهم موضع العير فقال: {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ} يعني ناحية الساحل، وقوله: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ}، الشوكة: السلاح، يقال: طائفة ذات شوكة، ويقال: شاكي السلاح، {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} أي: يريد أن يظهره وأن يعليه وأن ينصر أهله وأتباعه وأن يهزم الكفار ويخذلهم، فالحق ثابت في نفسه، فلا يقال: إن إحقاقه تحصيل حاصل، وإنما المقصود إظهار الحق وإشهاره ونصر أهل الإيمان أهل الحق، وكبت أهل الباطل، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} [سورة الأنفال(٨)]، ولهذا فسره بعضهم {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} قالوا: ما وعد به من النصر، وبعضهم يقول: لقاء الكفار؛ لأنه أمر حق، وقد قدره وقضاه فلا بد أن يقع، ولعل الذي ألجأ هؤلاء إلى مثل هذه الأقوال أن الحق ثابت في نفسه، فكيف يكون إحقاق الحق؟، فيقال: ما تقدم من إظهاره وإشهاره ونصر أهله وإذلال الكفر وهزيمة الكفار -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} المراد بالكلمات الآيات المتلوة، وكل ما أنزله على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من كلامه، وكذلك يدخل في كلماته أمره للملائكة وخطابه لهم، ويدخل فيه أيضاً الكلمات التكوينية التي يدبر بها أمر الخليقة، يخلق ويرزق ويعطي ويمنع، فهذا كله من كلماته -تبارك وتعالى- قال الله -عز وجل-: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} [سورة الكهف(١٠٩)]، فقوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ} يحتمل أن تكون الآيات المتلوة التي أنزلها في هذا الشأن، يبيّن بها ذلك وما جرى، ويحتمل أن تكون هذه الكلمات هي أمره للملائكة بما أمرهم به من تثبيت المؤمنين وقتل الكافرين، وإمداد أهل الإيمان، ويحتمل أن تكون هذه الكلمات هي الكلمات عموماً، الكلمات الكونية الأزلية، حيث قضى الله -عز وجل- إذلال الكفر وأهله، وكبتهم، وإنزال المَثُلات بهم في الدنيا والآخرة، كما فعل بالمشركين يوم بدر، فهو واقع لا محالة، ولعل هذا أقرب الأقوال -والله أعلم-.

وبعضهم يفسر قوله: {يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} يعني يثبت ما وعد به، ويتحقق ذلك من نصر أهل الإيمان، فالله -عز وجل- وعد وعداً عاماً وأخبر بذلك، ووعد وعداً مشروطاً فقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر(٥١)]، ووعد وعداً مشروطاً: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [سورة محمد(٧)]، {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [سورة المجادلة(٢١)]، فهذه الغلبة لا بد أن تكون، وقد تكون بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان، وهذا غالب ما تأتي له هذه الكلمة (غلبة) في القرآن.

وقال محمد بن إسحاق -رحمه الله- عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: ((هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفلكُموها)) فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض

الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً على مكة، وخرج رسول الله صلى الله عليه في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- فقال فأحسن، ثم قام عمر -رضي الله تعالى عنه- فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [سورة المائدة(٢٤)] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد -يعني مدينة الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((أشيروا علي أيها الناس)) وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: ((أجل)) فقال: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فسُرّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: ((سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم))[1]. ورواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

وقوله أي ابن كثير -رحمه الله-: برك الغماد، يقال: بَرْك وبِرك، والغِماد والغُماد، قال: يعني مدينة الحبشة، لكن المشهور خلاف هذا، بعضهم يقول: موضع باليمن، وبعضهم يقول: تحت مكة بخمسة ليال، وهذا كله يقال له: يمن، ما عن يمين الكعبة، هذا هو المشهور، وحينما تذكر هذه لا يعني أن الوصول إليها في غاية الصعوبة، وأنه أمر شاق جداً، وإنما قد يذكر الإنسان الشيء الذي لا عهد له به وفي ظنه أنه بعيد فيقول: لو سرت بنا إلى كذا، يعبر بهذا لينبئ ويفيد السامع بالقبول والاستجابة والمتابعة والطاعة، تقول مثلاً: لو سرت بنا إلى اليمن، أو لو أردت أن أحملك إلى مكة، يقصد أنه لا يتردد في فعل ذلك.

---

1 - انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (١٤/٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة (٢٢٣).

وقوله: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} دابر الشيء: هو آخره، وقطْع دابرهم يعني استئصالهم، تقول: قطع الله دابرهم يعني استأصلهم، ويقول: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ} وتقدم قوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} فالحق في الموضع الأول {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} لبيان إرادته -سبحانه وتعالى-، وأنها تختلف عن إرادتهم، فهذا الحق في هذا الموضع فسره بعضهم بتحقيق ما وعد به المؤمنين من النصر، وفسره بعضهم بلقاء الكفار - المواجهة مع الجيش وليس تحصيل العير- والحق في الثانية قال: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} اللام هذه للتعليل، فهو تعليل لإرادته، فهم يريدون العير، والله يريد أن يحق الحق بالنفير وكبت الكفار وقطع دابر المشركين، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} بإعزاز الشريعة وإعلاء كلمته -سبحانه وتعالى-، وفسره بعضهم بالنصر يعني الحق الثاني {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} فهذا تعليل لما يريده، أي أنه يريد ذلك بإحقاق الحق، لإظهاره ووضع الباطل وكبت أهله، وليس هو من التكرار؛ لأن القرآن ليس فيه تكرار محض.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال(٩-١٠)].

قال البخاري في "كتاب المغازي" باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[سورة الأنفال(١٣)][1]، ثم روى عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال موسى {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} [سورة المائدة(٢٤)] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- أشرق وجهه وسرّه -يعني قوله"[2].

ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر: ((اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد)) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ((سيهزم الجمع ويولون الدبر))[3]، ورواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} الاستغاثة هي طلب الغوث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يهتف بربه ويسأله النصر، ويقول: ((اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض))[4]، فقوله: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ} بالجمع، يحتمل أن يكون قال ذلك على سبيل التعظيم، ويقصد به النبي -صلى الله عليه

---

1 - صحيح البخاري (١٤٥٥/٤).

2 - رواه البخاري برقم(٣٧٣٦)، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

3 - رواه البخاري برقم (٣٧٣٧)، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٥٧)، باب قوله تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر}.

4 - رواه مسلم برقم(١٧٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

وسلم-، ويحتمل أيضاً أن يكون الصحابة أمّنوا على دعائه، والمؤمّن داعٍ، كما قال الله -عز وجل- لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا} [سورة يونس (٨٩)]، والذي كان يدعو موسى، ويحتمل أن يكون الصحابة دعوا، وهذا جاء في بعض الروايات في السير، أنهم كانوا يتضرعون إلى الله -عز وجل- ويسألونه النصر، وهذا أمر يقع عادة من أهل الإيمان، وإن لم يُنقل، {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} وفي سورة آل عمران قال الله -تبارك وتعالى-: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [سورة آل عمران(١٢٥)]، وقال قبلها: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} [سورة آل عمران(١٢٣-١٢٤)]، من أهل العلم من فهم أن هذه الآية في غزوة بدر لأن الله قال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: واذكر إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم، يعني في بدر، ثم بعد ذلك {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ} بشرط الصبر والتقوى يزيد المدد فيصل إلى خمسة آلاف، فقالوا: قال الله -عز وجل- في أول الأمر-: إنه ممدهم بألف مردفين، في القراءة الأخرى قراءة نافع {مُرْدَفِينَ} يعني أنهم يردفون بغيرهم من الملائكة، فألف إذا أردفوا بغيرهم صاروا ثلاثة آلاف، ثم بعد ذلك يصيرون خمسة آلاف، وقالوا: هذا وجه الجمع بين الآية في سورة الأنفال هذه {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ} [سورة الأنفال(٩)] وآية آل عمران، ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية في غزوة بدر كما هو السياق {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم} وسياق هذه الآية {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [سورة آل عمران(١٢١)] في يوم أحد قطعاً، فسورة آل عمران تتكلم عن غزوة أحد {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ} [سورة آل عمران(١٢١- ١٢٤)]، قالوا: هذا في أحد، وليس في بدر، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} هذه جملة للتذكير، ثم رجع السياق في أحد، {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} قالوا: هذه جاءت للذكرى، ثم رجع الكلام عن غزوة أحد {إِذْ تَقُولُ} في غزوة أحد {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ} [سورة آل عمران(١٢٤)] هذا في أحد {مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [سورة آل عمران(١٢٤-١٢٥)]، أي مُعلَّمين بعلامات يعرفون بها، ثم قال في آل عمران: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ} [سورة آل عمران(١٢٦)] إلى آخره، قال به طائفة من أهل العلم، قالوا: تلك في أحد، وهذه الآية في غزوة بدر، وذكْر بدر كان للتذكير فقط في سياق آيات أحد، وإلا فالكلام في سورة آل عمران في غزوة أحد، والملائكة نزلوا في غزوة أحد، وإن اختلف العلماء في قتال الملائكة، هل قاتلوا في كل الغزوات أو لا؟ والراجح الذي عليه المحققون أنهم قاتلوا في غزوة بدر، ويدل على هذا أدلة، ولم ينزلوا فقط للتثبيت، وأنهم في غزوة أحد

نزلوا ولكنهم لم يقاتلوا، وكذلك زلزل جبريل بني قريظة[٥]، وعن ابن عباس -رضي الله عنهمـا- أن النبـي -صلى الله عليه وسلم- قال يوم بدر: ((هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب))[٦] فجاءت الملائكـة أيضاً في غزوة الخندق، وقال الله -عز وجل-: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة الأحـزاب(٩)]، وفي حنين أيضاً ذكر بعض أهل العلم أن الملائكة أيضاً نزلوا ولكنهم لم يقاتلوا، {ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَـى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [سورة التوبة(٢٦)]، حينما قـال: {وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَـزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}[سورة التوبة(٢٥- ٢٦)] هذا في غزوة حنين.

وقوله تعالى: {بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} أي: يردف بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مُرْدِفِينَ} متتابعين.

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: وأمد الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة.

إي مجنبة، يعني على جانب الجيش، الميمنة يقال لها: مجنِّبة، والميسرة يقال لها: مجنِّبة.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم عن ابن عباس عن عمر -رضي الله تعالى عنهم- حديثاً فيه: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: "أقدم حيزوم"، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة))[٧].

هذه الأدلة صريحة في الدلالة على أن الملائكة باشرت القتال مع المسلمين يوم بدر، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا يعرفون من قتل على يد الملائكة من المشركين بأنه يضرب كضربة السوط فيخضر، وكان الرجل يتبع المشرك، فيسقط قبل أن يصل إليه السيف، بعضهم رأى رجالاً على خيل، وبصفة لم يشاهدها ولم تكن معهم في عسكرهم، فكل هذا يدل على أن الملائكة باشرت القتال معهم، وأما باقي الغزوات فلا يوجد دليل بهذه الصراحة يدل على أن الملائكة باشروا القتال، ولو باشروه يوم أحد لما انهزم المسلمون، و"حيزوم" اسم فرس الملَك.

فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين، وقال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً[٨]، ثم روى رفاعة بن رافع الزرقي -رضي الله تعالى عنه- وكان من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما تعدون أهل بدر فيكم؟))، قال: ((من أفضل المسلمين)) أو كلمة نحوها، قال: ((وكذلك من شهد

---

5 - انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٧٤).

6 - رواه البخاري برقم (٣٧٧٣)، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

7 - رواه مسلم برقم (١٧٦٣)، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

8 - صحيح البخاري (٤/١٤٦٦).

بدراً من الملائكة))[٩]. انفرد به البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج -رضي الله تعالى عنه-[١٠] وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: ((إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))[١١].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى} الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}، كما قال تعالى: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [سورة محمد(٤-٦)]، وقال تعالى: {وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران(١٤٠-١٤١)]، فهذه حِكَم شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ} [سورة القصص(٤٣)]، وقتْل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [سورة التوبة(١٤)]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب -لعنه الله- بالعَدَسة، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه.

العَدَسة، مرض بذرة مثل العدسة، مثل البذور في الجسم، تعدي بإذن الله -عز وجل-، ويموت صاحبه مثل الطاعون، ولذلك يقولون: إنهم رموا عليه الحجارة لأنهم خافوا أن يقتربوا منه عندما رأوا جسده.

كما مات أبو لهب -لعنه الله- بالعَدَسة، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ} أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة

---

9 - رواه البخاري برقم (٣٧٧١)، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

10 - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/٤)، برقم (٤٤١٢).

11 - رواه البخاري برقم (٢٨٤٥)، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ومسلم برقم (٢٤٩٤)، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

غافر(٥١)] {حَكِيمٌ} فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته -سبحانه وتعالى-.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}** أي: نزول الملائكة، والبشرى غالباً تستعمل في الخبر الذي تطمئن إليه النفوس، وتُسرّ به، وقيل له ذلك: لظهور أثره أحياناً على بشرة المبشَّر، يظهر أثر السرور والفرح والبهجة **{إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}** [سورة الأنفال(١٠)]، وهذا الذي أخذ منه بعض أهل العلم ممن قال: إنهم لم يقاتلوا، وإن الله حصر العلة في نزولهم بهذا، قال: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}**، فهي مجرد بشرى لطمأنينة القلوب، وقال -عز وجل-: **{فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}** [سورة الأنفال(١٢)]، قالوا: هذا الخطاب للمؤمنين وليس للملائكة، حتى تفهم وجه الاحتجاج، قالوا: إن الملائكة لم تقاتل، وإن نزولهم للتبشير والطمأنينة، وقوله: **{فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}**، للتثبيت، وقوله : **{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}**، تعليم من الله عز وجل للمؤمنين مواضع النكاية وكيف يفتكون ويثخنون في العدو، وهذا ليس بحجة في أن الملائكة لم تقاتل، **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}** أي: أن نزولهم بشرى للقتال مع المؤمنين للتثبيت والبشرى والطمأنينة، وليس الملائكة الذين يقلبون كفة المعركة، ويتحقق النصر على أيديهم إطلاقاً، فالنصر من الله -عز وجل-: **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}** [سورة آل عمران(١٢٦)]، فالكفار عددهم ألف، وأهل الإيمان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، بل حتى في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- الروم جمعوا مائتي ألف لقتال المؤمنين، فعددهم لا يساوي شيئاً مقابل الكفار، ولكن النصر من الله -عزوجل-، فالله -عز وجل- يبتلي الناس على قدر ما عندهم من إمكانات، وما أعطاهم من قدر، فتجد ثلاثمائة وستة عشر أو سبعة عشر أو أربعة عشر، يقابلهم ألف، والآلات: رماح وسنان وسيوف ودروع ونحو ذلك.

ونزول ألف من الملائكة، والكفار عددهم ألف، والملَك الواحد يمكن أن يقلب الأرض عليهم قلباً، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلي عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[١٢] سبعمائة سنة، هذه المسافة لملك واحد، وجبريل من أعظم الملائكة له ستمائة جناح، وهو وميكائيل معهم، فلا يساوي أبو سفيان ولا أبو جهل ولا جيشهما شيئاً أمام واحد منهم، لكن الله -عز وجل- يعلم خبايا النفوس، وما ركبت عليه وجبلت عليه، فإذا جاء هؤلاء الخبرَ الصادق أنه قد تنزل الآن ألف من الملائكة تقوى النفوس ويصبح الإنسان مقداماً لا يبالي بشيء، يضرب في الكفار بسيفه، وترتفع المعنويات، وإلا فالله -عز وجل- يمكن أن يرسل إليهم ملكاً، ويمكن أن ينزل المطر عليهم فينشغلون بأنفسهم، فلا يستطيعون القتال ولا المشي ولا الحركة، فكيف بنزول الملائكة؟، فهذه أمور يجب على الإنسان أن يتأملها ويتعقلها، **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}** إذا كان هؤلاء الملائكة لا يملكون النصر، فكيف بالبشر؟، فلا يلتفت إليهم ولا يركن إليهم، ولا يحسن الظن بأعداء الله أن ينصروه، ففي هذا عبرة بالغة، والله المستعان.

---

12 - رواه أبو داود برقم (٤٧٢٧)، كتاب السنة، باب في الجهمية والمعتزلة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠/١)، برقم (١٥١).

فائدة:

قال الله تبارك وتعالى- في سورة آل عمران: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ}**، وفي آية الأنفال **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}**، بدون لكم، وقال: **{وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}**، وفي سورة آل عمران قال: **{وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ}**، وقوله: **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [سورة آل عمران(١٢٦)]، وقال: **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [سورة الأنفال(١٠)]، هذا الفن يسمى المتشابه اللفظي، وتكلم عليه بعض العلماء في كتب خاصة مثل كتاب ملاك التأويل للغرناطي، وكتاب درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، والبرهان للكرماني وغيرها، وبعض ما يذكرون لا يخلو من تكلف -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}[(١١- ١٤) سورة الأنفال] يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً، آمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] الآية، قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف.

وروى الحافظ أبو يعلى عن علي -رضي الله عنه- قال: "ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح"[1].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: "النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان"[2].

وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، وكما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥- ٦) سورة الشرح]، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق -رضي الله عنه- وهما يدعوان أخذت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال:

---

[1] - رواه الإمام أحمد (١/١٢٥) ، برقم (١٠٢٣) وأبو يعلى (١/٢٤٢)، برقم (٢٨٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إباحة بكاء المرء في صلاته إذا لم يكن ذلك لأسباب الدنيا (٦/٣٢)، برقم (٢٢٥٧)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الدليل على أن البكاء في الصلاة لا يقطع الصلاة مع إباحة البكاء في الصلاة (٢/٥٢)، برقم (٨٩٩).

[2] - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩ / ٢٨٨)، برقم (٩٤٥١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢ / ٤٩٩)، برقم (٤٢١٩).

((أبشر يا أبا بكر فهذا جبريل على ثنايا النقع..))[3]، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [(٤٥) سورة القمر].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ}** [(١١) سورة الأنفال] وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو **{إذ يغشاكم النعاسُ}** وعلى هذه القراءة يكون النعاس فاعل.

أما قراءة **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ}**، أي: أن الله يعشيكم النعاس، وقد نقل عن قتادة –رحمه الله- أن النعاس في الرأس والنوم في القلب، والنعاس هو مقدمة النوم وما يعتري الإنسان من الضعف الطبيعي بحيث لا يغيب عن الإدراك بالكلية، ومن أهل العلم من يقول: السِّنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب.

وفي حالة الحرب والخوف يذهب النوم من الإنسان من شدة الفزع، لكن الله –تبارك وتعالى- نزّل على عباده المؤمنين النعاس أمنة منه فحصل لهم بذلك طمأنينة القلب وارتفاع عوارض الخوف والفزع، وحصل لهم راحة الجسد.

فالنعاس في الحرب أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقد قال بعض السلف فيمن ينام في مجالس العلم: ذاك حمار في مسلاخ إنسان.

قال: "**وهم تحت الحجف**"، الحجف هي تروس يستظلون بها من المطر.

وقوله: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء} [(١١) سورة الأنفال]، **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزل النبي -صلى الله عليه وسلم- حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشطيان وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مجنِّبة وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة، وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي -رحمه الله-: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، طابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.**

وقوله: {لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ} [(١١) سورة الأنفال]، **أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر،** **{وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ}** [(١١) سورة الأنفال] **أي: من وسوسة وخاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة:** **{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}**

---

3 - دلائل النبوة، للبيهقي (٣ / ٥٤)، ورواه البخاري من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد ((هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب))رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا (٤/١٤٦٨)، برقم (٣٧٧٣) .

[(٢١) سورة الإنسان] **فهذا زينة الظاهر،** {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [(٢١) سورة الإنسان] أي: **مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته،** {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [(١١) سورة الأنفال] أي: **بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن،** {وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[(١١) سورة الأنفال] **وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.**

قوله: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [(١١) سورة الأنفال] ذكرت هذه الآية فوائد نزول المطر على المجاهدين، فقوله: {لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ} أي: الطهارة من الجنابة، فقد أجنب بعض الصحابة –رضي الله عنهم- فاحتاجوا إلى الماء، فوسوس إليهم الشيطان، كيف تزعمون أنكم على حق ولم تجدوا الماء؟ وكيف تلقون عدوكم غداً على غير طهارة؟

قال –تبارك وتعالى-: {وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} [(١١) سورة الأنفال] أصل الرجز العذاب، فالشيطان يلقي الوساوس والخواطر وهي تزعج الإنسان وتقلقه ويصل الأمر بالبعض إلى حد أنهم يتمنون الخلاص من هذه الحياة، لشدة ما يجد، ومن الناس من يجلس من صلاة العصر إلى آذان المغرب في دورة المياه يعيد الوضوء، وبعضهم وصل به الأمر إلى حالات انهيار وبكاء، فهم في عذاب وشقاء بسبب الشيطان.

قوله -عز وجل-: {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [(١١) سورة الأنفال] أي: ترتفع عنهم خواطر السوء، وتطمئن القلوب ويربط عليها حتى يصير الثبات غالباً ومهيمناً عليها، ولهذا عبر بعلى ولم يقل: وليربط قلوبكم.

قال: {وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [(١١) سورة الأنفال] الضمير يرجع إلى المطر الذي نزل، مع أنه يحتمل أنه يرجع إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى الربط على القلوب يكون سبباً لتثبيت الأقدام، وذلك أن القلب إذا حصل له الثبات ثبت القدم في أرض المعركة فلا ينهزم الإنسان، وإنما ينهزم لضعف قلبه، وغلبة دواعي الخوف عليه، والراجح –والله أعلم- أن الضمير يرجع إلى المطر فقد كان سبباً في تثبيت الأقدام في ساحة القتال.

وقوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٢) سورة الأنفال] **وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه -تعالى وتقدس وتبارك وتمجد- أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينه أن يثبتوا الذين آمنوا.**

وقوله: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ} [(١٢) سورة الأنفال] **أي: ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم، بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي،** {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال]، **أي: اضربوا الهام، فَفَلَقوها، واحتزوا الرقاب، فَقَطَعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم، وقوله:** {فَوْقَ الأَعْنَاقِ} [(١٢) سورة الأنفال] **قيل معناه: اضربوا الرءوس، وقيل معناه** {فَوْقَ الأَعْنَاقِ} **أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك وعطية العوفي، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى:** {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [(٤) سورة محمد]**، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.**

وقوله: {وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] **قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة، وقال العوفي عن ابن عباس،**

فذكر قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرّفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى، فأوحى الله إلى الملائكة {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] **الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين -يعني قتيلاً-، ولهذا قال تعالى: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتّباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين.**

{وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال] **أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء -تبارك وتعالى- لا إله غيره ولا رب سواه {ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}** [(١٤) سورة الأنفال] **هذا خطاب للكفار، أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.**

قوله –تبارك وتعالى-: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}** [(١٢) سورة الأنفال] أي: مع الملائكة.

قوله: **{فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}** [(١٢) سورة الأنفال] جاء في بعض الروايات أن التثبيت كان بتكثير السواد، فكان أهل الإيمان يرون رجالاً لا يعرفونهم ويقاتلون معهم، وجاء في بعض الروايات أنه كان يأتي الواحد من الملائكة إلى الرجل من المسلمين فيقول: سمعت هؤلاء يقولون: إنهم لو عزموا وشدوا علينا شدة لانهزمنا، فيقوى عزمه، ويقدم على القتال.

ومما هو معلوم أن الشيطان له لِمّة على قلب ابن آدم، وقد أذهبها الله –تبارك وتعالى- وبقيت لِمّة الملَك فثبت أهل الإيمان.

وقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- أصحابه بأنه رأى جبريل -عليه الصلاة والسلام- في خمسمائة من الملائكة، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة، وحدد –صلى الله عليه وسلم- قبل المعركة مصارع الكفار، فكل مثل هذه الأشياء تجعل الإنسان يقدم على عدوه غير هيّاب.

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة *** يرى غمرات الموت ثم يخوضها

قال –عز وجل-: **{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ}** [(١٢) سورة الأنفال]، الرعب: هو الخوف الشديد الذي يملأ القلب، والإنسان الخائف لا يثبت في أرض المعركة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[٤]، وهذا لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بل لأتباعه من بعده حظ من ذلك على قدر ما عندهم من الاتباع والإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، فيخافهم أعداؤهم ويرهبون منهم على قدر ما عندهم من الاستقامة.

قال ابن كثير –رحمه الله- في قوله:**{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}** [(١٢) سورة الأنفال]: "أي: **اضربوا الهام، فَفَلِقوها، واحتزوا الرقاب، فَقَطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم**" وهذا من أحسن ما فسرت به هذه الآية، فقد جمعت عبارة ابن كثير المعاني التي قالها السلف وهي التي تحتملها الآية، فالعنق،

---

[4] - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (١/١٦٨)، برقم (٤٢٧)، ورواه مسلم، كتاب المساجد، (١/٣٧٢)، برقم (٥٢٣).

هي الرقبة، والله -عز وجل- يقول: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [(٤) سورة محمد]، وقال بعض السلف: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} أي: اضربوا رءوسهم، ويحتمل أن يكون: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} بمعنى اضرب على العنق، ويحتمل أنه علمهم مواضع القتل الذريع والفتك الشديد بحيث إذا ضرب ذلك الموضع بالسيف طار الرأس، وذلك في أعلى الرقبة تحت العظم الذي تحت الأذن، وعبارة ابن كثير قد جمعت بين كل هذه الأقوال، وهو اختيار ابن جرير.

والخطاب في قوله: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} يحتمل أن يكون موجهاً للمؤمنين، ويكون المعنى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق، والأقرب -والله أعلم- أن الخطاب للملائكة.

قوله: {وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] البنان: هي الأطراف، فإذا قطعت الأطراف انشلت حركة الإنسان، ولا يستطيع أن يقاتل.

قال –تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال]، شاقوا أي: خالفوا الله ورسوله فصاروا في شق، فتركوا أمره وشرعه ودينه وحاربوا أولياءه، ثم جاء بالحكم العام {وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال].

قوله: {ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} [(١٤) سورة الأنفال] أي: ذوقوا العذاب والنكال في الدنيا من قتل وضرب للأعناق، وتقطيع الأطراف.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ* وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٥ -١٦) سورة الأنفال].

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً}: أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} أي: تفروا وتتركوا أصحابكم، {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ} أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير والسدي، وقال الضحاك: أي يتقدم على أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

{أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ}، أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيز إليّ لكنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبي عبيد قال عمر: أيها الناس أنا فئتكم، وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر: أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثنا حسان بن عبد الله المصري، قال: حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي قال: حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر، قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة

إمامنا أو عسكرنا؟، فقال: إن الفئة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: إن الله يقول: {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً} الآية، فقال: إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: {أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ} المتحيز الفار إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات))[5] ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ بَاء} أي: رجع {بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ} أي: مصيره ومنقلبه يوم معاده جهنم وبئس المصير.

قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [(١٥) سورة الأنفال]** الزحف: هو الدنو شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، وقيل ذلك للجيش؛ لأن العدد الكثير إذا رأيتهم من بعيد كأنهم وقوف لا يتحركون، وحركتهم بطيئة جداً.

وقوله: زحفاً: يمكن أن يكون حالاً من الكفار، يعني إذا لقيتم الذين كفروا زاحفين، ويمكن أن يكون حالاً من المؤمنين، ويكون المعنى: إذا لقيتم الذين كفروا في حال كونكم زاحفين إليهم، ويحتمل أن يكون حالاً من الفريقين، يعني متزاحفين، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ}** [(١٥) سورة الأنفال] هذا نهي، والنهي للتحريم، ويدل على أن الفرار من الزحف من كبائر الذنوب، ويدل على ذلك ما ذكر في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(١٦) سورة الأنفال] وتولية الدبر كناية عن الانهزام؛ لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه، ولهذا يفتخر الشجعان والأبطال بأن دماءهم لا تسيل على ظهورهم، وإنما على أقدامهم، كما قال ابن الزبير -رضي الله عنه- لما شج وجهه -ضُرب بالمنجنيق وأصاب بعض السواري في المسجد الحرام، فأصيب وجهه -رضي الله تعالى عنه- فنزل الدم على قدميه، فتمثل بهذا البيت:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا***ولكن على أقدامنا تقطر الدم

وذهب طائفة من أهل العلم -وهو منقول عن عمر وابن عمر وأبي هريرة -رضي الله عنهم- وجماعة كبيرة من التابعين وبه قال أبو حنيفة- إلى أن الفرار من الزحف كان محرماً في يوم بدر خاصة، وكان عمر -رضي الله عنه- يقول: أنا فئة كل مؤمن، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(١٦) سورة الأنفال] وعمر -رضي الله عنه- كان في المدينة، والفتوح كانت في العراق وفي الشام.

---

[5] - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء] (١٠١٧/٣)، برقم (٢٦١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٢/١)، برقم (٨٩).

واحتجوا أيضاً بحديث عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: بعثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سرية فحاص الناس حيصة فقدمنا المدينة فاختبينا بها وقلنا هلكنا، ثم أتينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلنا: يا رسول الله، نحن الفرارون، قال: ((بل أنتم العكّارون وأنا فئتكم))[6] والعكّار: هو الذي يرجع مرة ثانية إلى عدوه.

واستدلوا بقوله: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} قالوا: إن هذه الآية مختصة بيوم بدر، وقالوا: إن المسلمين إذا انهزموا ليس لهم مكان يتحيزون فيه وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض))[7]، أما بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- فيأتون إلى الإمام.

وهذا فيه نظر، فالمسلمون كانوا في المدينة وكثير من الصحابة لم يخرجوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- والذي عليه الجمهور من أهل العلم: أن الفرار من الزحف من الكبائر، ولا يجوز ذلك، وقد ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- من السبع الموبقات.

وليس المقصود بقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} يوم بدر، بدليل أن الآيات نزلت بعد غزوة بدر، فالراجح -والله أعلم- أنه لا يجوز الفرار من الزحف إلا إذا كان الكفار أكثر من ضعف المسلمين، قال -تبارك وتعالى-: {إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا} [(٦٥) سورة الأنفال] ثم قيَّد هذا الحكم بقوله -تبارك وتعالى-: {الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ} [(٦٦) سورة الأنفال]

وقد قال عمر -رضي الله عنه- في يوم الجسر: "لو انحازوا إليّ لكنت فئتهم"، وكان قائدَ المسلمين في يوم الجسر أبو عبيد الثقفي، وكان النهر بين المسلمين وبين الفرس، فجاء خطاب من قائد الفرس يستفز فيه أبا عبيد، فعبر أبو عبيد مع الجيش الجسر، فاستشهد أبو عبيد وحصل قتل ذريع في المسلمين، وتفرق الناس وانهزموا، وانقسموا إلى أقسام، منهم من ذهب ولم يستطع الرجوع إلى المدينة حياءً من الله وخوفاً، ومنهم من جمع الفلول من أجل مواجهة جديدة، فقال عمر هذه المقولة: "لو انحازوا إليّ لكنت فئتهم"، وقد كان بإمكان المسلمين أن ينسحبوا؛ لأن عدد الكفار أضعاف المسلمين.

وقد انحاز خالد بن الوليد -رضي الله عنه- بالجيش في يوم مؤتة؛ لأن جيش الروم كان مائة ألف وكان عدد جيش خالد ثلاثة آلاف.

---

[6] - رواه الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (٢١٥/٤) برقم (١٧١٦)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب التولي يوم الزحف (٤٦/٣) ، برقم (٢٦٤٧)، وأحمد (١٠٠/٢)، برقم (٥٧٥٢)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥ / ٢٧).

[7] - رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٣٨٣/٣)، برقم: (١٧٦٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [سورة الأنفال(١٧- ١٨)].

يبيّن تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ} أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [سورة آل عمران(١٢٣)] الآية، وقال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}[سورة التوبة(٢٥)]، يُعلم -تبارك وتعالى- أن النصر ليس على كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعُدد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة البقرة(٢٤٩)]، ثم قال تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال: ((شاهت الوجوه))[1] ثم أمر أصحابه أن يصْدُقوا الحمْلة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى} أي: هو الذي بلّغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله: {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً} أي: ليُعَرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث: ((وكل بلاء حسن أبلانا))[2].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: أي سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

---

1 - رواه مسلم برقم (١٧٧٧)، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.

2 - رواه النسائي في السنن الكبرى (٨٢/٦)، برقم (١٠١٣٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٢/١٢)، برقم(٥٢١٩)، والبيهقي في الشعب (٢١٨/٦)، برقم (٤٠٦٧)،وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٤٢/٦)، للإمام أبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٤، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الشيخ مقبل الوادعي: حسن على شرط مسلم كما في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين برقم (١٣٢٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (٧٦٥/١).

وقوله: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم وأنهم وكل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ} أي: لم تقتلوهم بحولكم وقوتكم وعددكم، وإنما قتلهم الله جل جلاله، وهذا لا إشكال فيه، وأما قوله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي: هو الذي بلّغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت، وهذا تفسير أهل السنة لهذا الآية، بلّغ ذلك إليهم، وليس نفياً ولا يدل ذلك على عقيدة الجبرية، قال: وكبتهم بها لا أنت، فيكون المعنى أن الله -عز وجل- أثبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- الرمي، ولكن الذي بلّغ هذه الرمية إلى الكفار ففعلت فعلها هو الله جل جلاله، فالرمي من النبي -صلى الله عليه وسلم- وأثر هذا الرمي من الله، فهذا الرمي الذي رمى به -صلى الله عليه وسلم- {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى} ليس ذلك نفياً للرمي من أصله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن نفي لهذا الرمي بهذا الأثر، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذ حفنة من تراب ثم رماها في وجوههم، فكان ذلك سبباً لهزيمتهم، دخل هذا في عيونهم، ومن أهل العلم كالإمام مالك -رحمه الله- من يقول: إن هذا كان في يوم حنين، وذلك أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا وما بقي معه إلا نحو عشرة، أخذ حفنة من التراب ثم رمى بها وجوههم، وقال: ((شاهت الوجوه)) فما بقي أحد منهم إلا دخل في عينيه من هذا التراب فانهزموا، وهذا وإن كان قد وقع في يوم حنين، إلا أن هذه الآيات تتحدث عن يوم بدر، وهكذا قول من قال: إن المقصود تلك الرمية التي رمى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحربة حينما ضرب أبي بن خلف في يوم أحد، وكان ذلك سبباً لموته في الطريق حينما كانوا راجعين إلى مكة، أو قول من قال: إن ذلك حينما رمى النبي -صلى الله عليه وسلم- بسهم في يوم خيبر فأصاب به مَن وراء الحصن، أصاب به ابن أبي الحقيق، ولكن هذا في ثبوته نظر، وليست الآيات في هذا، والراجح أن هذا كان في يوم بدر، وسياق الآيات كله في بدر، {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى} قال ابن كثير: أي هو الذي بلّغ ذلك إليهم.

قوله: {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً} قال: أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، والإبلاء: بمعنى الإنعام، أي: لينعم عليهم ويتفضل عليهم، بإظهارهم على عدوهم، وكبت هذا العدو، وقد استحر القتل فيهم على أيدي أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحصل الظفر، والنصر الكبير، والغنيمة التي حازوها من الكفار، فأبلاه: يقال في الخير، وابتلاه: غالباً في الشر، أو في المكروه، {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً} أي: لينعم عليهم ويتفضل عليهم بحصول هذه الأمور المطلوبة المحبوبة لهم، وقوله: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} يقول: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد عدوهم فيما يستقبل، والإشارة في قوله: {ذَلِكُمْ} يحتمل أن تعود إلى البلاء الحسن؛ لأن الله موهن كيد الكافرين، فهذا الإبلاء هو قتلهم، وهزيمتهم، وإظهار المؤمنين عليهم، {ذَلِكُمْ} أي: الإبلاء الحسن، وقيل: إن الإشارة عائدة إلى القتل الذي وقع

والرمي، فتلهم الله وأوصل التراب حتى دخل في أعينهم؛ من أجل كسرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم، وهذه المعاني صحيحة، ويمكن أن تحمل الآية على الجميع كما قال كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فالقتل الذي وقع وإيصال الرمي بالتراب إليهم وهزيمتهم؛ لإذلالهم وإضعاف قوتهم، وكسرهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [سورة التوبة(١٤- ١٥)] كل هذه الأمور تحصل لمجاهدتهم، وقتالهم ولا شك أن حصول هذه الأمور على أيدي المؤمنين أشفى للصدور.

{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١٩)].

يقول تعالى للكفار: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تستنصروا وتستقضوا الله.

تستقضوا الله أي: تطلبون منه القضاء، فالسين والتاء للطلب، تستقضوا الله: يعني تطلبون أن يقضي بينكم وبين عدوكم.

وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير: أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} إلى آخر الآية.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان المستفتح. وأخرجه النسائي في التفسير، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وروي نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فقال الله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} السين والتاء للطلب يعني: تطلبوا الفتح، و{الْفَتْحُ} أي: الحكْم، ويقال للحاكم فاتح، ويقال للحكْم أيضاً فتاحة.

فإني عن فتاحتكم غني.

أي: عن حكمكم غني، ويقول بعض العلماء: تسمية الحكْم بالفتح، هذا في لغة حمير، وهي لغة عربية صحيحة جاءت في القرآن، كما قال الله -عز وجل- عن شعيب وقومه: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف(٨٩)]، افتح بيننا وبينهم أي: احكم بيننا وبينهم بالحق، وفي نفس القصة ذكر الله -عز وجل- عن شعيب -صلى الله عليه وسلم- قوله: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} [سورة الأعراف(٨٧)]، فالشاهد: {حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} هذا مفسر لقوله: {افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} يعني احكم بيننا وبين قومنا بالحق، {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الحكم والقضاء بين الفريقين، فقد جاءكم الحكم، وهو هذه الهزيمة الساحقة، وقتل هؤلاء الصناديد الكبراء، ومن أراد أن يعرف

حقيقة ما جرى في يوم بدر فليقرأ في السيرة مثل سيرة ابن هشام مثلاً، أبداً لا يكاد يخطر في بالك أحد من الكبراء، وإن كنت لا تعرف من هم الكبراء فإذا قرأت أول مسير المشركين إلى بدر فستعرف من هم الكبراء ومن هم المطعمون العشرة، نعم، فلا يمر عليكم اسم من أسماء هؤلاء الكبراء إلا وقد ذكر في القتلى، ومن لم يذكر في القتلى فستجده في الأسرى، شيء هائل، يقف الإنسان عنده متفكراً: كل هذا قد وقع وهو لا يخطر في البال، ولا يدور في الخيال، مع ما هم فيه من التحصن والتحرز والقوة والكثرة والغرور، حتى إن أبا جهل جاء وحوله كوكبة من المدججين بالسلاح، وحتى إنهم ليقولون: إن أبا جهل كالحرجة، من كثرة من يحيط به، -والشجر الملتف الذي له شوك ولا يستطاع التوصل إلى منتهاه أو إلى وسطه يقال له: حرجة- وكل ذلك قد أذهبه الله -عز وجل- وولوا الأدبار، واقرءوا ما قيل في هذا من الأشعار وما قيل في هجائهم، ما قاله حسان بن ثابت -رضي الله عنه- وغير حسان، ذهبوا وتركوا الإخوان والأحباب والقادة والسادة على الأرض ثم سحبوا بعد ثلاثة أيام إلى القليب، حتى ما دفنوا، السادة العظام يسحبون بعد ثلاثة أيام بعدما جيفوا، يسحبون سحباً إلى القليب.

وصح في قوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} سبب النزول الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قول أبي جهل حين التقى القوم: اللهم أقطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتِح، وأبو جهل هو القائد وهو كبيرهم، فيكون ذلك استفتاحاً منهم، استفتاح أبي جهل هو استفتاح من المشركين، ولذلك أضافه إليهم فقال: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}؛ لأن ذلك جرى على مقدمهم وكبيرهم وقائدهم، فنسب ذلك إليهم، فأحنه معنى الأحن الهلاك والمحْق والاستئصال، فأحنه: امحقه أي: أهلكه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو قوله تعالى إخباراً عنهم: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ} [سورة الأنفال(٣٢)] **الآية، وقوله: {وَإِن تَنتَهُواْ} أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله فهو خير لكم، أي في الدنيا والآخرة.**

قد يأتي في كتب التفاسير أقوال لا وجه لها إطلاقاً، وهذا دليل على تباين الأفهام، ومن ذلك قول البعض في قوله:{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ}، {وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ}: إن بعضها راجع إلى المؤمنين، وبعضها يرجع إلى الكفار، وبعضهم يقول: هذه تتعلق بالمؤمنين يوم أخذوا الغنائم، وإن تعودوا إلى أخذ الغنائم نعد إلى معاتبتكم، يقول الله -عز وجل-: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}، وهذا في غاية البعد، والسياق لا يدل عليه لا من قريب ولا من بعيد.

وقوله تعالى: {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} كقوله: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} [سورة الإسراء(٨)] **معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.**

قوله: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} أي: إن تعودوا إلى قتال المؤمنين، إن تعودوا إلى الاستفتاح، كل ذلك {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} فعادوا إلى كفرهم وعادوا إلى قتال المؤمنين، وجاءوا في يوم أحد فقتل منهم سبعون في أول المعركة، وهزموا شر هزيمة، وسقط اللواء، وأخذته جارية وحملته، كما قيل في هجائهم:

وعبد الدار سادتهم الإماء.

وفر الرجال والنساء وكان في النساء هند بنت أبي سفيان، شاهدها الصحابة، وهي تشتد في الجبل منهزمة، وما كان دون أخذهم إلا الشيء اليسير، ثم وقع ما وقع من عصيان للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فحصل ما حصل من الهزيمة وتغيرت موازين المعركة.

{وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ} أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له.

{وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

هذا أصل كبير ينبغي أن يعقله أهل الإيمان، أن الكفار مهما كانت أعدادهم، لا تغني عنهم ولا تدفع عنهم بأس الله -عز وجل- ولا القتل ولا الهزيمة على يد المؤمنين إن كانوا محققين للإيمان، ولهذا قال: {وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} ولم يقل: وأن الله مع الأوس والخزرج، وإنما ربط ذلك بالإيمان، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فمعيّة الله -عز وجل- للمؤمنين على قدر تحقيقهم للإيمان، فإذا كانوا محققين للإيمان، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة -والله لا يكلف نفساً إلا وسعها- فإنه مهما تمالأ أهل الأرض عليهم، ومهما كان عند العدو من العُدد والعَدد فإن ذلك لا يغني عنهم شيئاً، فالله ينصر أولياءه، والواقع شاهد كبير بهذا، ولم يكن ذلك لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فحسب، وإنما لكل تابع لآثارهم ومقتفٍ لطريقتهم وسنتهم، فله من ذلك نصيب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة **الأنفال**(٢٠-٢٣)].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}.

قوله: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} الضمير مفرد وقد ذكر قبله طاعة الله، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فذكر شيئين وأعاد الضمير بالإفراد، فيحتمل أن يكون الضمير يعود على أحدهما، ويحتمل أن يعود إلى الأخير، كما هي القاعدة: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، {أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا القول يمكن أن يرجَّح لأنه أقرب مذكور، ومن جهة أخرى أن الآية قد تحتمل معنيين فأكثر، ويكون أحد القولين متضمناً للقول الآخر أو مستلزماً له، فتحمل الآية عليه أو عليهما، باعتبار الملازمة، فإما أن نرجح ونقول: إنه يعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قوله: {وَرَسُولَهُ} باعتبار أنه أقرب مذكور، وباعتبار أن طاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طاعة لله -عز وجل-، أو يقال: إنه عائد إلى الله -عز وجل- {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ}؛ لأن طاعة الله -عز وجل- هي المقصودة، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- تبع لطاعة الله -جل جلاله-، ويحتمل أن يعود الضمير إلى الأمرين، بناء على أن الآية تحتمل معنيين، ويكون أحد المعنيين مستلزماً للآخر، أو متضمناً له، فتحمل

عليهما جميعاً؛ لأن من أطاع الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد أطاع الله، {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: الرسول -صلى الله عليه وسلم- وطاعته طاعة لله، كما في قوله تعالى مثلاً: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق(٣)]، الغاسق: القمر، وبعضهم يقول: الليل تنتشر فيه الهوام والسباع والشياطين من شياطين الإنس والجن، وهذان القولان بينهما ملازمة؛ فالقمر يظهر ليلاً فلا يحتاج أن نرجح، وقوله: {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} يحتمل أن يكون أصلاً المراد به طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ابتداء، ولكنه قد يُذكَر أمران ويعود الضمير إلى أحدهما والمقصود الجميع، وكأحد الأقوال المشهورة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة(١١)]، أعاد الضمير مفرداً {إِلَيْهَا} ما قال: إليهما، ويمكن أن يفسر بغير هذا، لكن على هذا القول يكون داخلاً ضمن هذا الأصل الذي تقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [سورة الأنفال(٢١)]: وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى بأن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ}[سورة الأنفال(٢٢)]، أي: عن سماع الحق، {الْبُكْمُ} عن فهمه، ولهذا قال: {الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء} [سورة البقرة(١٧١)] الآية، وقال في الآية الأخرى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف(١٧٩)]، وقيل المراد بهؤلاء المذكورين: نفر من بني عبد الدار من قريش، روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهماً فقال: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا}[سورة الأنفال(٢٣)]، أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ولو أسمعهم أي: أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم {وَهُم مُّعْرِضُونَ} عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} المراد بذلك ما نُقل عن ابن عباس ومجاهد أنهم نفر من بني عبد الدار، قال: واختاره ابن جرير، هذا صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، والذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن المراد بذلك كفار قريش، واحتج لترجيح هذا القول بالسياق، قال: السياق في هذه الآيات يتحدث عن كفار مكة الذين جاءوا بجيشهم لقتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقول ابن إسحاق بأن المراد أهل النفاق، لأنهم أظهروا الاستجابة بألسنتهم، والقبول والانقياد ولكن قلوبهم معرضة فهي منطوية على الكفر، وهذا لا شك أن ظاهره يصدق على المنافقين {قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}، ولكن قد يستشكل هذا القول باعتبار أن النفاق لم يكن موجوداً في أول الهجرة، ووقت غزوة بدر، وإنما وجد النفاق بعد غزوة بدر، فعبد الله بن أبي لما انتصر المسلمون في بدر سارت لهم قوة وشوكة فقال لأصحابه: هذا أمر قد توجه فأرى أن تدخلوا فيه ظاهراً، أي أظهروا لهم الموافقة، لا تصادموا هذه القوة التي لا تستطيعون الوقوف في وجهها، فبدأ الكيد الخفي، فبهذا يتبين أن قول ابن جرير -رحمه الله هو الراجح، والحافظ ابن كثير

-رحمه الله- حمل الآية على المعنيين، والآية بظاهرها وعمومها تشمل كل من يصدق عليه هذا الوصف، أي كل من أظهر قبولاً وطاعة وانقياداً وهو ليس كذلك.

وقوله: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ} هذا من علمه -تبارك وتعالى- للغيب، وهي كقوله: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة(٤٧)]، وقال أيضاً عن المنافقين الذين تولوا اليهود ووعدوهم بالنصر، أو أن يتحد مصيرهم بمصيرهم فإذا أُخرجوا خرجوا معهم قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر(١٢)]، فعلم ما سيكون والحال التي يكونون عليها لو حصل أمر آخر غير ما وقع، وقال: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ}، فهم يسمعون القرآن ويسمعون دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن لا يسمعون سماع فهم، فهم لا يفقهون عن الله -عز وجل-، وكما قال الله -عز وجل- في مواضع عن المنافقين مثلاً وحالهم إذا سمعوا الوحي والقرآن وما ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرجون ويقولون: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد(١٦)]، {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ} أي: لأفهمهم، ثم قال: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ} أي: أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً، بعد فهمهم، فهم لا يفقهون، ولو أنهم سمعوا سماع تفهم لما حصل لهم الإيمان لفساد قصدهم، فجمعوا بين عدم الفقه والفهم عن الله -تبارك وتعالى- وفساد القصد، ومن كان بهذه المثابة -أي يجمع بين هذين الأمرين: لا علم له ولا فهم، وليس له قصد صحيح، إنما قصده فاسد- فقد جمع بين أصلي الضلال، فهذا مهما جاءته من الحجج والبينات والبراهين لا يمكن أن يؤمن.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة الأنفال(٢٤)].

قال البخاري: {اسْتَجِيبُواْ} أجيبوا، {لِمَا يُحْيِيكُمْ} لما يصلحكم[1]، ثم روى عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت أصلي فمر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ})) ثم قال: ((لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج)) فذهب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليخرج فذكرت له -وقال معاذ: إن حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا- وقال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة(٢)] هي السبع المثاني[2].

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوّاكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} كثير من السلف حملها على القتال في سبيل الله، فبه تحصل لهم المنعة، وبه يكون حفظ النفوس والأعراض والبلاد والأموال، وبه يكون حفظ

---

1 - صحيح البخاري (١٧٠٣/٤)، كتاب التفسير، باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

2 - رواه البخاري برقم (٤٣٧٠)، كتاب التفسير، باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

الدين، ويكونون أعزة بين الناس، فإذا ضيعوا ذلك ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[سورة البقرة(١٩٥)]، وظاهرها العموم، {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} أي في كل ما تحصل به التهلكة، لكن ابن عباس -رضي الله عنهما- فسرها بالامتناع من الإنفاق في الجهاد؛ لأن ذلك يتسبب عنه ضعف المجاهدين فيقوى عليهم عدوهم ويظهر، وإذا ظهر عليهم عدوهم حصل ما حصل من القتل والأسر والاستحواذ على ما في أيديهم، وينشأ عن ذلك أيضاً إضعاف دينهم وفتنتهم وغير ذلك من الأمور التي لا تخفى، وهو معنى صحيح، وإن كانت الآية تشمل هذا المعنى وغيره، لا شك أنه إذا دعاهم إلى القتال والجهاد في سبيل الله أن هذا من الدعاء إلى ما يحييهم، لكن الآية أعم من هذا، ولهذا حملها بعض المحققين كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- على أنها تشمل كل ما فيه الحياة لهم، فيدخل فيه الجهاد في سبيل الله، ويدخل فيه كل ألوان الحياة الحقيقية الكاملة في الدنيا والآخرة، وذلك أن الاستجابة لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم- تحصل به الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة والراحة والنعيم الذي يجده أهل الإيمان بحسب إيمانهم، وبه تتحقق ضروراتهم وتحصل مصالحهم؛ لأنهم إذا لم يستجيبوا لله ولا للرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن ذلك يعني ذهاب الدين والعقل، فيتحول الإنسان إلى مشرك عابد لوثن وهذا فساد العقول، وتفسد العقول أيضاً بالخمر والمخدرات وما أشبه هذا، ويكون ذلك سبباً لسلب الأعراض والشرف وضياع النسل، وكثرة أولاد الزنى، ويحصل به أيضاً فساد الأموال، فيأكل الناس أموال بعضهم بالباطل، لا يتحرزون من معاملة محرمة، قصدهم هو الكسب، بأي طريق كان بالقمار والربا والرشى، وغير ذلك، فالضرورات الخمس التي بها الحياة الكاملة لا تتحق، وبهذا تصير حياة الناس أشبه بالحيوانات، فالذي يدخل النار لا يموت فيها ولا يحيى، وأهل الجنة يحصل لهم كمال النعيم، {اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} كل ما يأمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو داخل في هذا، ففيه الخير وكرامة الإنسان ورفعته وسعادته في الدنيا والآخرة، وحديث أبي سعيد بن المعلى -رضي الله عنه- الذي ذكره الحافظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعاه وهو يصلي فلما لم يجب احتج عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآية: {اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}، وظاهر سياق قوله: {إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}، يعني من طاعة الله -عز وجل- والنبي -صلى الله عليه وسلم- احتج بها على أبي سعيد في الدعاء، أي: إذا ناداكم، كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقصرها على هذا المعنى، فالآية عامة، ومن عمومها الدعاء، فإذا هتف بك يجب عليك إجابته، وقيل: ظاهر السياق: {إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} يعني من طاعة الله -عز وجل-، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها، ولهذا يقال بأن الآية قد تنزل في معنى وتُحمل على معنى آخر أخذاً من عمومها، كما في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال لعلي وفاطمة -رضي الله عنهما-: ((ألا تصليان؟))، فقال علي -رضي الله عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء أن يبعثها بعثها، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يلطخ فخذه ويقول: (({وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[سورة الكهف(٥٤)]))[3]

---

3 - رواه البخاري برقم (١١٢٧)، كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، ومسلم برقم (٧٧٥)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح.

فالآية نازلة في معنى أن الإنسان يجادل في البعث والتوحيد والنبوة والوحي، فحملها النبي -صلى الله عليه وسلم- واحتج بها في هذا المعنى، وهكذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً)) وقرأ الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء(١٠٤)] [٤]، فذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المعنى الذي هو {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أي: يعاد كما خرج من بطن أمه غير مختون، وليس عليه ثياب، وسياق الآية في الاحتجاج على البعث بالنشأة الأولى، {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة يـــس(٧٩)]، ولما اختلف الخدري والعوفي -رضي الله عنهما- في أول مسجد أسس على التقوى، قال العوفي: قباء، وقال الخدري: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هو مسجدي هذا)) فهذا لا ينفي عن قباء، وسياق الآية في قباء، لكن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بهذه الصفة، وأكمل من مسجد قباء، والله تعالى أعلم.

فالشاهد من هذا أن الآية قد تنزل في سياق معنى، ويؤخذ من عمومها معنى آخر -والله أعلم-.

وقوله تعالى: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [سورة الأنفال(٢٤)]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً وقال: صحيح ولم يخرجاه[٥]، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي.

وفي رواية عن مجاهد في قوله: {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} أي: حتى يتركه لا يعقل.

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما يناسب هذه الآية.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قال: فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟، قال: ((نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها))، وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه وقال: حسن[٦].

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه

---

4 - رواه البخاري برقم (٣١٧١)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلا}، ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما برقم (٢٨٦٠)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

5 - رواه الحاكم في المستدرك (٣٥٨/٢)، برقم (٣٢٦٥)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنفال.

6 - رواه الترمذي برقم (٢١٤٠)، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وأحمد في المسند برقم (١٢١٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٨٥).

أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه))، وكان يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قال: ((والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه))، وهكذا رواه النسائي وابن ماجه[7].

قوله: {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} المعاني التي ذكرها الحافظ وغيرها مما نقل عن السلف، يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان، وما ذكر أن الإنسان لا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذن الله -تبارك وتعالى- يحول بينه وبين التوبة، فلا يحصل عليها، يحول بينه وبين قلبه فلا تحصل له الهداية، كل ذلك داخل فيه، ولذلك حملها كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- على أعم معانيها، وأدخل فيها جميع أقوال السلف، فالله -تبارك وتعالى- أملك للقلوب من أصحابها، فهي بين أصبعين من أصابعه، يقلبها ويصرفها كيف شاء، فلا يقدر صاحب قلب على أن يدرك به شيئاً إلا بإذن الله -تبارك وتعالى-، هذا -والله أعلم- من أحسن ما تفسر به الآية، ومناسبة قوله: {أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}، بعد قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم} [سورة الأنفال(٢٤)]، أن الإنسان الذي يُعرض عن الاستجابة فإن ذلك قد يكون سبباً لإزاغة قلبه، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف(٥)]، فهذا من الجزاء الوفاق، والحكم العدل الذي جازاهم الله -تبارك وتعالى- به، فمن أعرض عن الحق فإن ذلك قد يكون سبباً لطمس قلبه، والله يقول: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة(٧٥- ٧٧)]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأيما قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، وأيما قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، حتى تصير القلوب على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من مراه))[8]، الكوز المجخي أي المنكوس المقلوب، فلا يعي قلبه هدىً ولا ينتفع بموعظة، فالقلوب المعرضة عن الله -عز وجل- لا تدخلها الهداية.

{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الأنفال(٢٥)]، يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أي: اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما رواه الإمام أحمد عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟، ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه!، فقال الزبير -رضي الله تعالى عنه-: إنا قرأنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله تعالى عنهم-: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت"[9].

---

7 - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٧٦٣٠)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٩١).

8 - رواه مسلم من حديث حذيفة -رضي الله عنه- برقم (١٤٤)، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين.

9 - رواه الإمام أحمد في المسند (٣١/٣)، برقم (١٤١٤)، وقال محققوه: إسناده جيد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} يعني: أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة، وقال في رواية له عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً.

قال كثير من المفسرين: إن هذه في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن ذلك وقع لهم في الاقتتال الذي وقع في الجمل وصفين، فهذا مما يدخل في الآية: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً}، فهم داخلون في هذا ولكنها عامة لهم ولغيرهم، فلا تختص بأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا يرد على هذا قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [سورة النجم(٣٨)]، بأن الإنسان لا يتحمل تبعة ذنب الآخرين، فإن ذلك محمول على من رأى المعاصي والمنكرات ولم ينكر، فإن العقوبة قد تنزل وتكون عامة، والله -عز وجل- إذا أهلك هؤلاء بعثهم على نياتهم كما دلت عليه النصوص، {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} إذا نزلت العقوبة عمت، إذا كان الشر والمنكر والفساد ظاهراً، والله -عز وجل- ذكر ذلك في الآيات، فقال: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [سورة الأنفال(٧٣)]، فهذا الفساد الكبير والفتنة التي تكون في الأرض تعم، الصالح وغير الصالح، يلقون من نتائجها وآثارها السيئة ويعانون ما يعانون، وهذا هو المنتشر في أقطار الدنيا، لم يحقق أهل الإيمان هذا المعنى بأن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً، ولم يتركوا موالاة الكفار فحصل الإخلال بمقتضى هذه الأمور فحصلت الفتنة الكبيرة والفساد الكبير.

ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن حبيب وغير واحد.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة التغابن(١٥)]، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن"[١٠]، رواه ابن جرير.

فالأموال والأولاد لا تخلوا من فتنة بحال من الأحوال، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يخطب على المنبر، فدخل الحسن والحسين وعليهما ثوبان أحمران، يعثران ويقومان فنزل فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: ((صدق الله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}))[١١]؛ لشدة تعلق القلب بهم، لكن الفتن منها ما هو مضل ومنها ما هو ليس كذلك، ولهذا روي عن أم سلمة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنها- أنها قالت: يا

---

10 - رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٤٧٥/١٣)، رقم (١٥٩١٢).

11 - رواه الإمام أبو داود من حديث بريدة رضي الله عنه برقم (١١٠٩)، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، والترمذي برقم (٣٧٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب الحسن و الحسين عليهما السلام، والنسائي برقم (١٤١٣)، كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ورجوعه إليه يوم الجمعة، وابن ماجه برقم (٣٦٠٠)، كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٠١٦).

رسول الله، ألا تعلمُني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: ((بلى، قولي: اللهم رب النبي محمدٍ، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا))[١٢]، بدلاً من أن تقول: أعوذ بك من الفتن، لكن قول الإنسان: أعوذ بالله من الفتن لا إشكال فيه؛ لأن هذا ورد كثيراً، فلا يقال: إن هذا من الأخطاء.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم -وإن كان الخطاب معهم- هو الصحيح.

---

12 - رواه الإمام أحمد في المسند (٢٠١/٤٤)، برقم (٢٦٥٧٦)، وقال محققوه: بعضه صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر، وهو ابن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين، غير عبد الحميد - وهو ابن بهرام -، فقد روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، وهو ثقة، والطبراني في الكبير (٣٣٨/٢٣)، برقم (٧٨٥)، وابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٦)، برقم (٦٦٥٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٤) سورة الأنفال] أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة؟، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: {وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- كما قال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [(١٧-١٨) سورة التوبة]، وقال تعالى: {وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ} [(٢١٧) سورة البقرة] الآية.

وروى الحاكم في مستدركه عن رفاعة -رضي الله تعالى عنه- قال: جمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قريشاً فقال: ((هل فيكم من غيركم؟)) فقالوا: فينا ابن اختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: ((حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون))[1] ثم قال: هذا صحيح ولم يخرجاه.

وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} قال: هم محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا.

ثم ذكر –تعالى- ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به فقال: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} [(٣٥) سورة الأنفال] قال عبد الله بن عمر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير. وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وكذا روي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا.

---

[1] - المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنفال (٢/٣٥٨)، برقم (٣٢٦٦).

وروى ابن جرير عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} قال المكاء: الصفير، والتصدية التصفيق.

وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: {وَتَصْدِيَةً} قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله -عز وجل-قال: {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٥) سورة الأنفال] قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكانت عمارة المشركين للبيت الحرام كما أخبر ربنا –تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} [(٣٥) سورة الأنفال]، ولذلك لما كانوا بهذه الحال من الإشراك والاشتغال بالباطل والصد عن سبيل الله -عز وجل- لم يكونوا أولياء البيت الحرام؛ لأن عمارته إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح والصلاة والذكر، وقد قال الله -عز وجل-: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} [(١٧) سورة التوبة].

والذي عليه عامة أهل العلم أن المكاء هو التصفير، والتصدية هي التصفيق، قال عنترة:

حَلِيل غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَنْدَلاً *** تَمْكُو فَرَائِصُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ

وقال حسان بن ثابت -رضي الله عنه-:

إذا قام الملائكة انبعثتم*** صلاتكم التصدي والمكاء

وبعضهم فسر المكاء بوضع الأصابع في الفم، والتصدية بالتصفير، وهذا خلاف المشهور، وقد كان الكفار يفعلون المكاء والتصدية لسببين:

الأول: تقرباً إلى الله -عز وجل- وتعبداً.

الثاني: يصفرون ويصفقون ليشغلوا النبي – صلى الله عليه سلم- وحتى لا يستمع إليه أحد، وقد قال الله –تبارك وتعالى- عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [(٢٦) سورة فصلت] وهذا الفعل منهم في غاية السفه، ولا يفعله صاحب المروءة وإنما يفعله سفهاء الناس.

وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية المنع من التصفيق والتصفير؛ لأن الله –عز وجل- قد ذم ذلك وعابه، فلا يليق بالمسلم أن يشابه الكفار.

وفي بعض الروايات الإسرائيلية أن المراد بقوله -تبارك وتعالى- عن قوم لوط -صلى الله عليه وسلم-: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ} [(٢٩) سورة العنكبوت] التصفير والتصفيق والأفعال التي لا تليق، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم- ((إنما التصفيق للنساء))[٢].

ويفهم من هذا الحديث أن تصفيق المرأة في غير الصلاة جائز من باب أولى، فالتصفيق في حق النساء أسهل منه في حق الرجال، ومعلوم أن المرأة قد يترخص في حقها أكثر مما يترخص في حق الرجل، مثل الضرب

---

[2] - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول فتأخر الأول أو لم يتأخر جازت صلاته فيه عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم، (٢ / ٩٥)، برقم (٦٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تسبيح الرجل وتصفيق المرأة إذا نابهما شيء (٢ / ٢٧)، برقم (٩٨٢).

بالدف فإنه لا يجوز للرجال لا في النكاح ولا في العيد ولا في غيره، ولكن النساء يحل لهن ذلك، نظراً لما جُبلن عليه، ومغايرتهن للرجال في الطبيعة والخلقة.

فلا يحسن بالرجل أن يصفق ولا يصفر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أعجبه شيء كبر، وإذا تعجب من شيء سبح.

قوله: {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٥) سورة الأنفال] هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى- {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [(٤٩) سورة الدخان]، مع أن العذاب إنما يقع على أبدانهم ونفوسهم، والذوق معلوم أنه يختص باللسان، ولكن صار يعبر عنه بكل من وجد غبّ شيء وألمه.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٣٦-٣٧) سورة الأنفال]، **قال محمد بن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنزل الله -عز وجل-:** {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ} **إلى قوله:** {هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

هذه الرواية لا تصح، ومعلوم أن المشركين حينما خرجوا في بدر وأُحد أنفقوا أموالهم في الصد عن سبيل الله -عز وجل- وكانوا في مسيرهم إلى أحد يذبحون كل يوم نحو عشر من الإبل.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} لا يختص بكفار قريش، بل هو عام في كل الكفار، ومعلوم أن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم ومبادئهم، فهم ينفقون نفيس الأموال في سبيل نصرتها وإعزازها ونشرها بين الناس، بل ويبذلون المُهَج في سبيل مبادئهم.

قوله: {يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٦) سورة الأنفال] سواء كان في ميدان المعركة أو في غير ذلك من الميادين.

قال: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} العبرة بالنهايات لا بكمال البدايات، وهذا معلوم ومشاهد إلى يومنا هذا، فعبدة الصليب ينفقون المليارات في حرب المسلمين، وفي القنوات التنصيرية والإباحية التضليلية وعند النظر إلى هذه الأرقام قد يصاب الإنسان بالإحباط الشديد، ولكن إذا تذكر قول الله -تبارك وتعالى-: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [(٣٦) سورة الأنفال] يشعر بالأمل من جديد.

وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدي وابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذا الأسلوب ليس صريحاً في سبب النزول، فأبو سفيان ممن تشمله الآية، ونزلت في المطعمين من قريش، والآية تعم كل أهل الكفر؛ لأن الله قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} ولم يقل: إن قريشاً ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ومن المعلوم أن الاسم الموصول من صيغ العموم.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة، حيث لم تجز شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [(٨) سورة الصف] **وناصر دينه ومعلٍ كلمته ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}** [(٣٦) سورة الأنفال].

وقوله تعالى: {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(٣٧) سورة الأنفال] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء وليميز من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}** [(١٧٩) سورة آل عمران] **الآية، وقال تعالى{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}** [(١٤٢) سورة آل عمران] **فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ}** [(٣٧) سورة الأنفال]**، أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض فيجعله في جهنم {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [(٣٧) سورة الأنفال] **أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.**

قدّر الله -عز وجل- ذلك لحكمة وهي أن يتميز الناس؛ لأن بذل النفوس والأموال في سبيل الله -عز وجل- أمر شاق غاية المشقة، قال –عز وجل-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} [(٢١٦) سورة البقرة] وأقدَرَ هؤلاء الكفار وأنهض عزائمهم من أجل قتالكم وبذل الأموال في الصد عن سبيل الله، فالله -عز وجل- يبلو المؤمنين بالكفار ويبلو الكفار بالمؤمنين {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} فيظهر أهل النفاق في هذه الأعمال والعبادات الشاقة كما قال الله -عز وجل- في قصة أحد: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٢٢) سورة آل عمران]، وقال في الأحزاب: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} [(١٥) سورة الأحزاب] قيل: هؤلاء من بني سلمة انهزموا في أحد فندموا فعاهدوا الله -عز وجل- ألا يعودوا، وأخبر الله عن المنافقين بقوله: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا *وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [(١٢-١٣) سورة الأحزاب] .

{قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ*وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٣٨-٤٠) سورة الأنفال].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ} أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة {يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ} أي: من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم.

قوله: {إِن يَنتَهُواْ}، يعني انتهوا عن الكفر، فسبب المغفرة هو دخول الإسلام، ولا يكفي الانتهاء عن القتال، وهذا دليل على أن ما عمله الكفار يكفّره الله –عز وجل- إذا دخلوا في دين الله أفواجاً، وإن لم يستحضروا توبة من أعمالهم.

كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر))[٣].

قد يفهم من هذا الحديث أن العبد إذا أساء وعصى، فإنه يؤاخذ بأعماله التي كانت في الجاهلية، وهذا ليس مراداً -والله تعالى أعلم- لأن النصوص تدل على أن الله –تبارك وتعالى- يغفر لهم جميع الذنوب.

وقال بعض أهل العلم: إنه إذا دخل الإسلام وهو مصر على بعض الذنوب، كالزنى مثلاً، فإنه لا يغفر له ما قارف في الجاهلية من هذا النوع من المعاصي، وهذا القول رواه ابن هانئ عن الإمام أحمد -رحمه الله-، لكن الذي عليه عامة أهل العلم: أن الكافر إذا دخل في الإسلام فإن الله يغفر له جميع الذنوب، أما معنى قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر))، فهو أن من أحسن في الإسلام فلم يبدل ولم يغير ولم تحصل منه ردة أو نفاق، فلا يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، أما من دخل في الإسلام ثم ارتد، أو دخل في الإسلام رياءً أو نفاقاً فإنه لا يغفر له، وهذا الذي عليه عامة المحققين.

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها)).

هذا الحديث جاء من طريق يزيد بن أبي حبيب عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول يا أبتاه، أما بشّرك رسول الله -صلى الله عليه و سلم- بكذا ؟ أما بشرك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكذا ؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاثة لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم-

---

[3] - رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة (٢٥٣٦/٦)، برقم (٦٥٢٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية؟ (١١١/١)، برقم (١٢٠).

فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ((مالك يا عمرو؟)) قال: قلت أردت أن أشترط، قال: ((تشترط بماذا؟)) قلت: أن يُغفر لي، قال: ((أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟))[٤] إلى آخر الحديث.

وقوله: {وَإِنْ يَعُودُواْ} [(٣٨) سورة الأنفال] أي: **يستمروا على ما هم فيه،** {فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ} [(٣٨) سورة الأنفال] أي: **فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.**

والسنة هي الشيء الثابت، والسنن لا تقاس باليوم والسنة والعشر السنوات، ومن نظر إلى صفحة التاريخ كاملة يتضح له ذلك، فأين التتر؟، وأين تلك الجيوش العارمة والهمج الذين هجموا على بلاد المسلمين؟ وأين الحملات الصليبية والاستعمار الذي طبق جميع بلاد المسلمين؟

---

4 - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١ / ١١٢)، برقم (١٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٤٢) سورة الأنفال].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي: إذ أنتم نزولٌ بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، {وَهُم}، أي: المشركون نزولٌ {بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة {وَالرَّكْبُ} أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة {أَسْفَلَ مِنكُمْ} أي: مما يلي سيف البحر، {وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ} أي: أنتم والمشركون إلى مكان {لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}، قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم، {وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: إنما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دنا من بدر- علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجَوْا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسجد سجدتين ثم سلم وقال: ((إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟)) قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، -والكثيب العقنقل-، فقال لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كم القوم؟)) قالا: كثير، قال: ((ما عدتهم؟)) قالا: ما ندري قال: ((كم ينحرون كل يوم؟)) قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((القوم ما بين التسعمائة إلى الألف)) ثم قال لهما: ((فمن فيهم من أشراف قريش)) قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن

عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ودّ، فأقبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الناس فقال: ((هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها))[1].

وقوله: {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [(٤٢) سورة الأنفال] **قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد، وبسْطُ ذلك: أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، {وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ} أي: يؤمن من آمن {عَن بَيِّنَةٍ} أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}** [(١٢٢) سورة الأنعام] **وقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها- في قصة الإفك: فهلك فيّ من هلك. أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك.**

وقوله: {وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ} أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به،{عَلِيمٌ} أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى}** [(٤٢) سورة الأنفال]، المقصود بالعدوة الدنيا: شاطئ الوادي، فكل ناحية من نواحي الوادي يقال لها: عدوة.

قال: **{وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}** [(٤٢) سورة الأنفال] هذا توصيف لمواقع الطوائف الثلاث في أرض المعركة، ومن كان خارجاً عنها وهم عير أبي سفيان، فقد كانوا في ناحية الساحل، ولم يكن المسلمون يعرفون موقع العير حينما كانوا ببدر، فصادفهم الجيش، والركب جمع راكب ولا يقال ذلك إلا لراكبي الإبل.

وقول ابن كثير –رحمه الله-: "**والكثيب العقنقل**" أي: الكثيب العظيم من الرمل المتداخل.

قوله: **{لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ}** [(٤٢) سورة الأنفال] أي: ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فقد كان أهل الإيمان ضعفاء ولم يكن لهم ظهور وكانت العرب تسمع من قريش، ولا تعرف عن المسلمين إلا أنهم من الصابئين الذي صبئوا وتركوا دينهم ويسمعون عنهم سيئ القول الذي تذيعه قريش، فلما انتصر المسلمون ظهر أمرهم واتضح وبان، ولم يعد فيه لبس ولا غبش ولا غموض، فمن أراد الحق فدلائله ظاهرة وواضحة.

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى

---

[1] - انظر السيرة النبوية، لابن هشام (١٦٤/٣).

اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٤٣- ٤٤) سورة الأنفال].

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وكذا قال إسحاق وغير واحد.

وقوله: {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ} أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، {وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ} أي: من ذلك بأن أراكهم قليلاً، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [(١٩) سورة غافر].

وقوله: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً} [(٤٤) سورة الأنفال] **وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرِّئهم عليهم ويطمعهم فيهم.**

قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لقد قُللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقوله: {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال] **روى ابن أبي حاتم عن عكرمة: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ} الآية قال: حضض بعضهم على بعض، إسناده صحيح.**

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى: {لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} [(٤٤) سورة الأنفال] **أي: ليلقي بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا: أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ}** [(١٣) سورة آل عمران] **وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة.**

أرى الله -عز وجل- رسوله -صلى الله عليه وسلم- المشركين بعدد قليل، فأخبر أصحابه بهذا فقويت قلوبهم على مواجهتهم، وحينما تراءى الجمعان كان المسلمون يرون المشركين قلة، وكان المشركون يرون المسلمين قلة، فأغرى الله -عز وجل- بعضهم ببعض، وكان ذلك دافعاً ومقوياً لعزائمهم حتى وقع الالتحام، ثم بعد ذلك صار المشركون يرون المسلمين ضعفيهم، فحصل للمشركين الخوف والانكسار والضعف وكان ذلك سبباً لهزيمتهم، وهذا هو الجمع بين قول الله -تبارك وتعالى- **{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ}** [(٤٤) سورة الأنفال] وقوله -تبارك وتعالى-: **{يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ}** [(١٣) سورة آل عمران].

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٥-٤٦) سورة الأنفال].

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ} ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله تعالى عنه-

عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: ((يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))، ثم قام النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم))(٢).

وعن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} [(٤٥) سورة الأنفال].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ} [(٤٥) سورة الأنفال] أي: لا تنهزموا وتفروا، ثم ذكر -سبحانه- أهم الأمور التي يحصل بها الثبات، فقال: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ}، والفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، والظفر والنصر من الفلاح، والذكر هو السبب في هذا الفلاح، وسبب لتفريج الشدائد، وقد مدح الله -تبارك وتعالى- الذاكرين بقوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [(٣٥) سورة الأحزاب]، وأمر عباده بالذكر فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [(٤١ -٤٢) سورة الأحزاب]، وقال -صلى الله عليه وسلم- في أهل الذكر: ((سبق المفردون)) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟، قال: ((الذاكرون الله كثيراً والذاكرات))(٣).

وذكْر الله -عز وجل- شيء يسير((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان))(٤)، ويستطيع العبد أن يذكر ربه على أي حال، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [(١٠٣) سورة النساء].

وأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم.

{وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [(٤٦) سورة الأنفال] أي: قوتكم وحدّتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٦) سورة الأنفال] وقد كان للصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، فقهروا الجميع حتى علت كلمة

---

2 - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو (١١٠١/٣)، برقم (٢٨٦١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عن اللقاء (١٣٦٢/٣)، برقم (١٧٤٢).

3 - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٠٦٢/٤)، برقم (٢٦٧٦).

4 - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٢٣٥٢/٥)، برقم (٦٠٤٣).

الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب.

قوله -تبارك وتعالى-{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٦) سورة الأنفال] الفاء في قوله: {فَتَفْشَلُواْ} تدل على التعليل والتعقيب، وهذا دليل على أن التنازع سبب محقق للفشل، ولا شك أن التنازع والاختلاف من أعظم أسباب فشل الأمة وهزيمتها في هذا العصر، وبهذا تكون الأمة غير مؤهلة للنصر بل هي إلى العقوبة أقرب، وقد أخبر الله عن المنافقين بقوله: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} [(١٤) سورة الحشر] ، فالذين يعقلون هم الذين يجتمعون وتكون كلمتهم واحدة، ولما قال موسى -عليه الصلاة والسلام- لقومه: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} [(٦١) سورة طـه] ، أخبر عنهم ربنا -عز وجل- بقوله: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} [(٦٢) سورة طـه]، فقد أسروا النجوى حتى لا يطلع خصمهم على النزاع الذي بينهم فيقوى طمعه فيهم، فقالوا: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [(٦٣ -٦٤) سورة طـه]

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [(٤٦) سورة الأنفال]، أي: قوتكم.

قوله -عز وجل-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٤٧ -٤٩) سورة الأنفال]، **يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي: دفعاً للحق** {وَرِئَـاء النَّاسِ} **وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليهم أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر، ووردوا به الحمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال:** {وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} **أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى:** {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ} [(٤٧) سورة الأنفال] **قال: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله:** {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَـاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} **[(٤٧) سورة الأنفال].**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَـاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [(٤٧) سورة الأنفال] البطر: هو التعالي في الأرض بغير الحق، ويدخل فيه ما ذكره

الحافظ ابن كثير: أي: "**دفعاً للحق**" فهو مقتبس من تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للكبر: ((بطر الحق وغمط الناس))[5]، وقال بعضهم: البطر هو استعمال نعم الله –عز وجل- في معاصيه.

قوله: **{وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(٤٧) سورة الأنفال]، أي: يصدون أنفسهم عن سبيل الله بفعلهم هذا وبكفرهم، فهم صادون معرضون، ويصدون غيرهم؛ لأن "صدَّ" تأتي لازمة وتأتي متعدية، فهي لازمة باعتبار إعراضهم بأنفسهم عن الحق، ومتعدية باعتبار أنهم يصدون غيرهم عن الحق.

وقوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [(٤٨) سورة الأنفال] الآية، حسّن لهم -لعنه الله- ما جاءوا له وما همّوا به، وأطمعهم أنهم لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [(١٢٠) سورة النساء].

قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وإني جار لكم.

فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة نكص على عقبيه، قال: رجع مدبراً، وقال: {إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ} [(٤٨) سورة الأنفال] الآية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: {لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} فلما اصطف الناس أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل -عليه السلام- إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: {إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٤٨) سورة الأنفال] وذلك حين رأى الملائكة.

يذكر بعض أهل السير: أن المشركين لما أرادوا الخروج لاستنقاذ العير، ذكّرهم بعضهم بما بينهم وبين بني بكر من العداوة، فخشوا أن يعرجوا على مكة حينما يخرج هؤلاء منها، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، فقال: **{إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}** وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة دفعه في صدره ثم انطلق إلى ناحية البحر، وهذه الروايات ليست بتلك من ناحية الثبوت، وقال بعضهم: إن إبليس سار يوم بدر مع المشركين وألقى في قلوبهم **{إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}**.

قوله: **{إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [(٤٨) سورة الأنفال]، جاء عن كثير من السلف أن إبليس كان كاذباً بقوله هذا، والمقصود أن إبليس لما رأى الملائكة خاف أن يقع به بأس الله -عز وجل- ونكاله وبطشه في الدنيا، كما يخاف الكافر أو الفاجر من مغبة فعله، فهذا الخوف لا يستلزم الإيمان.

---

[5] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩٣/١)، برقم (٩١).

وقال بعض أهل العلم: إن إبليس خشي أن يكون هذا هو يوم الوقت المعلوم الذي حدده الله –عز وجل- له.
قوله –تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٤٨) سورة الأنفال] هذه الجملة يحتمل أن تكون من بقية كلام الشيطان، ويحتمل أن تكون من كلام الله -عز وجل-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [(٥٥ -٥٧) سورة الأنفال].

أخبر تعالى أن شر ما دبَّ على وجه الأرض هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، {وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} **أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام،** {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ} **أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب** {فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ} **أي: نكل بهم، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن البصري والضحاك والسدي، وعطاء الخرساني وابن عيينة ومعناه: غلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة،** {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} **وقال السدي: يقول لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} [(٥٦) سورة الأنفال]، حينما حصلت غزوة بدر لم يكن بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين المشركين عهد، وإنما كانت عهوده -صلى الله عليه وسلم- مع اليهود، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم، ولهذا قال كثير من السلف: إن المقصود من هذه الآية هم اليهود، ومن أهل العلم من خص هذه الآية ببني قريظة، واختار ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن هذه الآية في بني قريظة ونظرائهم ممن عاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ووادعهم، أما كفار مكة فلم يكن بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهد إلا في غزوة الحديبية في السنة السادسة.

قوله: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ} [(٥٥ -٥٧) سورة الأنفال]، الثَّقْف هو الحذق في إدراك الشيء، والحاذق في صنعة أو في علم يقال له: مثقف.

والتشريد هو التفريق مع اضطراب، ومعنى: {فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ} أي: نكل بهم واقتلهم قتلاً ذريعاً وأوقع بهم بأسك من أجل أن يرتدع من وراءهم فيخاف، ولا يجرؤ على نقض العهد أو الخيانة، وهذا الذي حصل لبني قريظة، فقد قتل كل من يقدر على حمل السلاح في صبيحة واحدة، وسبى النساء والذرية، وأخذت الأموال.

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [(٥٨) سورة الأنفال]، يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ} قد عاهدتهم {خِيَانَةً} أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، {فَانبِذْ إِلَيْهِمْ} أي: عهدهم، {عَلَى سَوَاء} أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} أي: حتى ولو في حق الكافرين لا يحبها أيضاً.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال: كان معاوية -رضي الله تعالى عنه- يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء)) قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عنبسة -رضي الله تعالى عنه-[1] وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قوله: {عَلَى سَوَاء} أي: إذا تخوفت من قوم خيانة بنقض العهد فأعلمهم بنبذ العهد إليهم، وأنه لا عهد بينك وبينهم، فتستوي معهم في هذه الحال وأن الحرب قائمة، هذا من أحسن ما فسرت به هذه الآية -والله تعالى أعلم- وذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى قوله: {عَلَى سَوَاء} أي: يستوي في علم ذلك أولهم وآخرهم، وقول ابن كثير هو الأرجح.

{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ* وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [(٥٩-٦٠) سورة الأنفال].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ولا تحسبن يا محمد {الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ} أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(٤) سورة العنكبوت] أي يظنون.

وقوله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(٥٧) سورة النور]، وقوله تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٩٦-١٩٧) سورة آل عمران]، ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم} أي مهما أمكنكم {مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو على المنبر: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} ((ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي))[2]، رواه مسلم.

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير (٨٣/٣)، برقم (٢٧٥٩)، والترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر (١٤٣/٤)، برقم (١٥٨٠)، وأحمد (١١١/٤)، برقم (١٧٠٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٤٧٢).

[2] - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٥٢٢/٣)، برقم (١٩١٧).

قوله: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ} [(٥٩) سورة الأنفال] هذه قراءة حفص وابن عامر وحمزة، وقرأ الباقون {وَلا تَحْسَبَنَّ}، وقد أنكر قراءة الياء كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ولا شك أنها قراءة متواترة، وما ذكره ابن جرير وغيره مجاب عنه في مواضعه.

قوله: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [(٦٠) سورة الأنفال]، {مِّن قُوَّةٍ} أي: كل قوة مستطاعة، {وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} الخيل من جملة القوة، وهذا من باب عطف الخاص على العام، فيدل على أهمية الخيل، والمقصود برباط الخيل، أي: الخيل التي ترتبط في سبيل الله، وبعض أهل اللغة جعل ذلك مختصاً بما كان يبلغ الخمس فما فوقها، فيقال له: رباط الخيل.

وقد أمر -تبارك وتعالى- المؤمنين بإعداد العدة لحرب الكفار -مع أن الكفار تحت قبضته -سبحانه- ونواصيهم بيده-؛ لكي يحصل التمايز بين الناس، ويحصل اصطفاء الشهداء، وشفاء صدور المؤمنين، وبلاء المؤمنين بالكفار، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد].

وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلى درجات القوة وأشدها فتكاً بالعدو فقال: ((ألا إن القوة الرمي))[٣]، ولهذا جاء الحث على تعلم الرمي فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً))[٤]، وقد فسر بعض أهل العلم القوة بالحصون وهي نوع واحد من أنواع القوة.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخيل لثلاثة لرجل أجْر ولرجل ستر وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواء، فهي على ذلك وزر))، وسئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الحمر فقال: ((ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة]))[٥]، رواه البخاري وهذا لفظه ومسلم.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((في مرج أو روضة)) المرج: الأرض الواسعة ذات النبات الكثير، تسرح فيها الدواب، والروضة أخص من المرعى، فهي الأرض ذات النبات الكثير.

قال: ((فما أصابت في طيلها)) أي: الحبل الذي تربط فيه يد الدابة، وعادة الحبل الذي يربط به الفرس أن يكون طويلاً؛ لأن الفرس يحتاج إلى تربية ولا بد أن ينطلق.

---

[3] - تقدم تخريجه.

[4] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي (١٠٦٢/٣)، برقم (٢٧٤٣).

[5] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل لثلاثة (١٠٥٠/٣)، برقم (٢٧٠٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٦٨٢/٢)، برقم (٩٨٧)، واللفظ للبخاري.

قوله: ((فاستنت شرفاً أو شرفين)) يحتمل أن يكون المعنى أنها تنطلق فتصعد على مكان عالٍ، وهذا من طبيعة الخيل، أو أنها تنطلق شوطاً أو شوطين، فهي لا تتوقف عن الحركة، وكل هذه الخطوات مكتوبة لصاحبها؛ لأنها قد ربطت في سبيل الله.

قوله: ((ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر)) يعني الذي ربطها تغنياً وتعففاً من أجل استيلادها وبيع أولادها ونحو هذا، فهي له ستر؛ لأنه ربطها لغرض مباح.

قوله: ((ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواء، فهي على ذلك وزر))، أي: ربطها رياء ومناوأة ومعاداة لأهل الإسلام فهي عليه وزر.

قوله: وسئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الحمر فقال: ((ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة].

بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من اتخذ الحمر لأمر يحبه الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فإنه يؤجر عليه، وذلك لعموم قوله تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخيل ثلاثة، ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله)) وذكر ما شاء الله، ((وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليها، وأما فرس الإنسان فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها فهي له ستر من الفقر))[6].

وفي صحيح البخاري عن عروة بن أبي الجعد البارقي -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم))[7].

وقوله: {تُرْهِبُونَ} أي: تخوِّفون {بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} أي: من الكفار {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ} قال مجاهد: يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، ويشهد له قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [(١٠١) سورة التوبة]، وقوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [(٦٠) سورة الأنفال] أي: مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، كما تقدم في قوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦١) سورة البقرة].

---

6 - رواه أحمد (١/٣٩٥)، برقم (٣٧٥٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥ / ٣٣٨).

7 - رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد مع البر والفاجر (٣/١٠٤٨)، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٣ / ١٤٩٢)، برقم (١٨٧١)، واللفظ للبخاري.

ذكر الله -سبحانه- العلة من أمره بإعداد العدة فقال: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[8]، وقال: ((وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[9].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [(٦٠) سورة الأنفال]

قوله: {تُرْهِبُونَ} أي: تخوفون {بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} قدم عداوة الله -عز وجل- على عداوة المؤمنين؛ لأن عداوة المؤمنين تبع لعداوة الله -عز وجل- فهم يعادون من عاداه الله ولو كان أقرب قريب إليهم، ويوالون من والى الله ولو كان أبعد ما يكون نسباً عنهم.

قال: {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ} قال مجاهد: يعني بني قريظة وقيل: فارس.

قال: {لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ} أي: هؤلاء الآخرين لا تعلمونهم الله هو الذي يعلمهم، فمن أهل العلم من قال: هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وقال الإمام ابن جرير -رحمه الله-: المراد بهم الجن، والذي حمل ابن جرير -رحمه الله- على هذا القول هو أن عداوة قريظة كانت معروفة ولم تكن خفية، وأما أهل النفاق فلم تكن ترهبهم قوة المسلمين؛ لأنهم يظهرون الموافقة، والقوة لم تكن قد أعدت لهم، وذكر ابن جرير بعض الآثار من أن الجن يخافون من الخيل وصهيلها، وهذه الآثار لا يثبت منها شيء.

وإعداد هذه القوة ترهب أعداء الله الظاهرين، وترهب آخرين من دونهم لا يعلمهم المسلمون، وهذا أمر لا شك فيه، فالمسلمون إن كان عندهم قوة ظاهرة ضاربة فإنه يخافهم عدوهم الظاهر وعدوهم الآخر الخفي، فتكون الأمة مرهوبة الجانب يحترمها القريب والبعيد، وكلمتها نافذة، وهذا الذي كان لهذه الأمة في أزمان وقرون متطاولة، فقد كان لا يُعيَّن حاكم في أوروبا إلا بموافقة الخليفة العثماني، وحصل في بعض المرات تعيين بعض الملوك الأمراء، فأرسل الجيش حتى أُبعد وعُزل، وقد كانت روسيا تدفع الجزية للدولة العثمانية.

{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٦١-٦٣) سورة الأنفال].

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، {وَإِن جَنَحُواْ} أي: مالوا {لِلسَّلْمِ} أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، {فَاجْنَحْ لَهَا} أي: فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضْعَ الحرب بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأُخَر.

---

[8] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت الرعب مسيرة شهر)) (٣ / ١٠٨٧)، برقم (٢٨١٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/٣٧٠)، برقم (٥٢١).

[9] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح (٣ / ١٠٦٦)، وأحمد (٩ / ١٢٣)، برقم (٥١١٤)، واللفظ لأحمد.

قوله: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} أي: مالوا، والجنوح هو الميل، تقول: جنحت الإبل بأعناقها، أي: مالت بأعناقها، قال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ لأن الله -عز وجل- قال في الآية الخامسة من سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥) سورة التوبة] فقالوا: لا مجال للسلم والمصالحة مع العدو الكافر، ولكن القول بالنسخ فيه نظر، والقاعدة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وأنه لا يصار إليه إلا مع التعارض من كل وجه، ولا يوجد معارضة، وقد قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن قوله: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} نزلت في أهل الكتاب الذين يخيرون بين القتال أو الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون، فإذا قبلوا المسالمة ورضوا بدفع الجزية، كف عن قتالهم، وأما أهل الأوثان فإنه لا تقبل منهم الجزية، على خلاف بين أهل العلم في هذه المسألة.

وتجوز المسالمة للكفار إذا كان أهل الإسلام في ضعف لا يستطيعون قتال العدو، وقد اشترط بعض أهل العلم ألا تزيد هذه الهدنة عن عشر سنين؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- وادع المشركين عشر سنين، والمقصود ألاَّ تكون الهدنة دائمة؛ لأن المسلمين مأمورون بإعداد القوة ومجاهدة أعدائهم.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه سيكون بعدي اختلاف -أو أمر- فإن استطعت أن يكون السلم فافعل))[١٠].

هذا الحديث لا يصح ولكن على فرض صحته، فمعناه -والله تعالى أعلم- يشير إلى ما وقع بين المسلمين من الاختلاف، ووجّه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك إلى علي -رضي الله عنه- وهذا من دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ} أي: كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} أي: جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك، {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٣) سورة آل عمران]**، وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: ((يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟)) كلما قال شيئاً قالوا: الله**

---

[10] - رواه أحمد (١/٩٠)، برقم (٦٩٥)، وقال محقق المسند: إسناده ضعيف.

ورسوله أمَنَ[11]**، ولهذا قال تعالى:** **{وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [(٦٣) **سورة الأنفال**] أي: **عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.**

التأليف بين القلوب لا يختص بما كان بين الأوس والخزرج، أو بما حصل من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لأن الآية أعم من ذلك، فقد صار يجتمع في المدينة الأوسي والخزرجي والقرشي والجهني وغير هؤلاء من قبائل العرب من أنحاء الجزيرة العربية بعدما كانوا طوائف متناحرة.

قوله: **{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [(٦٣) سورة الأنفال].

لا يمكن أن تحصل هذه الألفة والإخاء إلا بالتوحيد والإيمان واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويستحيل جمع الناس على المال والدنيا ولو كان هذا المال ملء الأرض؛ لأن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم ولا يمكن أن يتخلوا عنها بشيء من المال.

---

[11] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال (١٥٧٤/٤)، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (٧٣٨/٢)، برقم (١٠٦١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٧٢) سورة الأنفال].

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين -خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك- وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما.

روى الإمام أحمد عن جرير -هو ابن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة))[1]، تفرد به أحمد، وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ} [(١٠٠) سورة التوبة] **الآية، وقال:** {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [(١١٧) سورة التوبة] **الآية، وقال تعالى:** {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [(٨ -٩) سورة الحشر] **الآية، وأحسن ما قيل في قوله:** {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} **أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك.**

---

[1] - رواه أحمد (٣١ / ٥٤٧)، برقم (١٩٢١٥)، وقال محققو المسند: صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فسر الحافظ ابن كثير –رحمه الله- قول الله –تبارك وتعالى- {أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٧٢) سورة الأنفال] بتفسير فيه شيء من الإجمال، فقال: "**أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد**"، فتحتمل العبارة أن يكون المراد أحق بالآخر أي من جهة الميراث، هذا يشعر به ما أورده بعده من المؤاخاة التي عقدها النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار، فهذه أخوة خاصة يحصل بها التوارث، كما أن العبارة تحتمل أنهم أولياء بعض من جهة النصرة والمعونة، وقد حمل طائفة من السلف الآية على التوارث في الميراث فقالوا: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}، أي: في التوارث في الميراث، كما كان الأمر عليه في أول الأمر، فكان الأنصاري يرثه أخوه من المهاجرين دون قراباته من الأنصار، وهذا القول هو ظاهر كلام ابن كثير –رحمه الله- ويحتمل أن معنى قول الله –تبارك وتعالى-: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}، أي: في النصرة والإعانة وغيرها من المعاني الداخلة تحت الموالاة وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

وحمل الآية على المواريث يدل على أنها منسوخة بقول الله-تبارك وتعالى-: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [(٦) سورة الأحزاب]، ويحتمل أن يكون الناسخ هي الآية التي في آخر هذه السورة وهي قوله –تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٥) سورة الأنفال]

أما إذا حملنا الآية على النصرة والإعانة، فالتوارث الذي كان بين المهاجرين والأنصار ثبت بالسنة النبوية ونسخ بقول الله-تبارك وتعالى-: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [(٦) سورة الأحزاب]، وبقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٥) سورة الأنفال]، وهذا من نسخ القرآن للسنة، كما في نسخ التوجه إلى بيت المقدس، فقد نسخ بالقرآن.

ولعل هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- وهو أن قول الله –تبارك وتعالى-: {أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} ليس في المواريث، وإنما هو في الموالاة، ولهذا قال بعدها: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال].

وقد أورد المصنف قول الله –تبارك وتعالى- {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً} [(٩) سورة الحشر]، وقال في معناها: "**أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم**" وهذا كلام مجمل من العلامة ابن كثير –رحمه الله-.

ولما فتح الله عليه النضير، خيَّر النبي –صلى الله عليه وسلم- الأنصار، أن يبقى المهاجرون في أرضهم فيقسمها النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار، أو أن يخرج المهاجرون من أرضهم، فيقسمها بين المهاجرين خاصة، فقالوا: بل يبقون في أرضنا وتقسمها بينهم خاصة دوننا، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا

أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٩) سورة الحشر].

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم} [(٧٢) سورة الأنفال]، قرأ حمزة {وِلايتهم} بالكسر، والباقون بالفتح وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة، {مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ} [(٧٢) سورة الأنفال] هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد عن بريدة بن الحصيب الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: ((اغز باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم))[2]، انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر.

قوله: {مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٧٢) سورة الأنفال] يحتمل أن يكون المراد بهذه الآية الميراث، ويحتمل أن يكون المراد بها النصرة، وابن جرير -رحمه الله- حملها على الأمرين، ولم تكن مسألة التوارث متعلقة بالهجرة، وإنما كانت تتصل بالمؤاخاة، فالآية -والله أعلم- يراد بها النصرة، ويكون المعنى ما لكم من أمر ولايتهم ونصرتهم من شيء حتى يهاجروا.

(مسألة) قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا هجرة بعد الفتح))[3] لا يدل على انقطاع الهجرة فحكمها باقٍ إلى قيام الساعة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد يهاجر الإنسان من بلد الإسلام إذا لم يجد مجالاً للدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- والتعريف المشهور للهجرة -أنها الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام- فيه نقص، وهو نوع من أنواع الهجرة.

وقوله: {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [(٧٢) سورة الأنفال] الآية، يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ} أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-

---

[2] - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (٣ / ١٣٥٦)، برقم (١٧٣١).

[3] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية (٣ / ١٠٤٠)، برقم (٢٦٧٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٣ / ١٤٨٧)، برقم (١٣٥٣).

الأعراب الذين بقوا في بواديهم ولم يهاجروا، والذين بقوا بين الكفار ولم يهاجروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-ليس لهم من الغنيمة ولا الفيء، ولهم النصرة بشرط ألا يكون بين المسلمين وبين الكفار ميثاق.

{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]، لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم في مستدركه عن أسامة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً)). ثم قرأ: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}[4] ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم))[5] ومعنى قوله: {إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]، أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}** [(٧٣) سورة الأنفال]، حمل بعض أهل العلم هذه الآية على المواريث، وإيراد المصنف -رحمه الله- لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يتوارث أهل ملتين)) يشعر بهذا، وإن كان المصنف في آخر كلامه حملها على المحبة والنصرة، والراجح أن الآية ليست في المواريث، وإنما هي في الموالاة المعروفة من المحبة والمودة والنصرة، ولكن حينما تتحقق الموالاة للمؤمنين والبراءة من الكافرين فينقطع التوارث؛ لأن مقتضى البراءة من الكفار هو عدم التوارث، وقطع الموالاة له صور كثيرة، ولهذا كان من أبلغ صور معاداة الكفار وقطع الموالاة عنهم الهجرة من بلادهم ومقاتلتهم، وهذا الذي حققه المسلمون مع نبينا -صلى الله عليه وسلم- فقد قدموا الرابطة الإيمانية على رابطة النسب، وهذه المعاني أصول للدين، لا يجوز المساس بها والعبث بها تحت أي عذر كان، وينبغي أن تربى الأجيال عليها، والوقوف عندها، لا يجوز لأحد أن يتجاوزها، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا أن يسمي الأشياء بغير مسمياتها، فقد وصل الأمر بالبعض أن يستكثر على الكافر أن يقال عنه الكافر، فيقول له: الآخر.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٤ - ٧٥) سورة الأنفال] لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي ولا يُسأم ولا يُمل لحسنه وتنوعه.

---

4 - المستدرك، كتاب التفسير، باب قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- مما لم يخرجاه وقد صح سنده (٢/٢٦٢)، برقم (٢٩٤٤).

5 - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم (٦/٢٤٨٤)، برقم (٦٣٨٣)، ورواه مسلم، كتاب الفرائض، (٣ / ١٢٣٣)، برقم (١٦١٤).

في كلام ابن كثير -رحمه الله- تفريق بين قول الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٧٢) سورة الأنفال]، وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٧٤) سورة الأنفال] فالآية الأولى بيّنت الحكم في الدنيا من جهة التوارث -على تفسيرها بالتوارث-، والآية الثانية بيّنت ما للمؤمنين من الأجر في الآخرة، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الآية الأولى تتحدث عن قضية الموالاة، والآية الثانية عن الثناء عليهم ومدحهم، والله تعالى أعلم.

قوله: {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} أي: ليس فيه تنغيص بحال من الأحوال.

ثم ذكر أن الأتباع على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ} [(١٠٠) سورة التوبة] الآية، وقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ} [(١٠) سورة الحشر] الآية، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((المرء مع من أحب))[6]، وفي الحديث الآخر: ((من أحب قوماً فهو منهم)) وفي رواية ((حشر معهم))[7].

قوله: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٠) سورة الحشر].

جعل الله -عز وجل- هذه الأمة منقسمة إلى مهاجرين وأنصار، ومن يسيرون على طريقتهم، فقال -سبحانه- {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [(١٠٠) سورة التوبة] فمن لم يكن من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان ممن يقولون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٠) سورة الحشر]، بل يمتلئ قلبه غلاً على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فماذا سيكون؟ ولهذا قال الإمام مالك -رحمه الله-: إن الرافضة لا نصيب لهم في الفيء؛ لأن الله جعل الطوائف التي تستحق الفيء ثلاثاً، والرافضة ليست منهم.

وأما قوله تعالى: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} [(٧٥) سورة الأنفال] أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ} خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد

---

[6] - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله عز وجل (٥ / ٢٢٨٣)، برقم (٥٨١٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٤ / ٢٠٣٤)، برقم (٢٦٤٠).

[7] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦ / ٢٩٣)، برقم (٦٤٥٠).

على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث))[٨] قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

قوله: **{وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ}** [(٧٥) سورة الأنفال] أي: في حكم الله، وقال بعض أهل العلم: **{فِي كِتَابِ اللّهِ}** يعني القرآن، وقال بعضهم: **{فِي كِتَابِ اللّهِ}** يعني اللوح المحفوظ، وهذه المعاني لا منافاة بينها فإن قول الله: **{وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا}** [(٦) سورة الأحزاب] هو حكم لله ومثبت في كتاب الله وفي اللوح المحفوظ.

وليس المراد بقوله: **{وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ}** ما يطلقه علماء الفرائض من أن الأرحام هم القرابة الذين ليسوا من أصحاب الفروض ولا من العصبات.

---

[8] - رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث (٣ / ٧٣)، برقم (٢٨٧٢)، وابن ماجه (٢ / ٩٠٥)، برقم (٢٧١٣)، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦ / ٨٨).

(مسألة)

هذا جمع لما ذكره المفسرون في قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [(٤٩) سورة الأنفال].

وكان المفسرون -رحمهم الله تعالى- في كلامهم على هذه الآية على قسمين، فمنهم من يجمل الكلام على الآية ولا يفصل، ومنهم من يفصل فتجده يتكلم عن قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ} ثم يتكلم بعد ذلك عن الذين في قلوبهم مرض، قال الكاتب وفقه الله: وسأذكر أولاً -إن شاء الله- خلاصة أقوال القسم الأول بالإضافة إلى بعض النقولات عنهم ثم أقوال القسم الثاني والنقولات على ذلك.

أولاً: من تكلم عن الآية إجمالاً ولم يفصل، ولهم في الآية أقوال:

الأول: أن المراد هم المشركون، قال ابن جرير: حدثني حجاج عن ابن جريج في قوله: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض" قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض فقلل الله المسلمين في أعين المشركين، فقال المشركون: {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}، وقال السيوطي في الدر المنثور: وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} فأنزل الله: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ} .

غير أن هذه الروايات لا تصح.

الثاني: أن المراد هم المنافقون بمكة، قال ابن جريج في قوله: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} هم قوم من المنافقين كانوا بمكة قالوه يوم بدر وهم يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ذكره ابن جرير وابن كثير وليس عند ابن كثير "وهم يومئذ".

وهذا القول غير صحيح؛ لأنه لم يكن في مكة نفاق، بل كان فيها شدة وتعذيب وأذى للمسلمين، ولم يكن أحد بحاجة إلى النفاق

الثالث: أن المراد بهم قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، قال ابن جرير: قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر.

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبي في الآية قال: كان أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا.

قال الثعالبي في تفسيره: قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق إنما هم عسكر الكفار، فمن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم مكره وغير مكره، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم ارتابوا وقالوا مشيرين إلى المسلمين: {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}.

الرابع: أن المراد هم المنافقون بالمدينة، قال ابن جرير: حدثنا محمد بن الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين.

وهذا غير صحيح؛ لأن الناس لم يطالبوا بالخروج في غزوة بدر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من أجل العير وبقي كثير من الصحابة في المدينة لم يخرجوا، فلا تُلحَق بأحد تهمة أو لوم أو معاتبة على التخلف.

قال الثعالبي في تفسيره: وقد يحتمل أن يكون منافقوا المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا هذه المقالة.

قال أبو الليث السمرقندي في تفسيره -بحر العلوم-: قوله تعالى: {إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض}. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه.

الخامس: أن المراد هم ضعاف الإيمان من المؤمنين، قال ابن سعدي -رحمه الله-: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(٤٩) سورة الأنفال]، أي: شك وشُبه من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قلتهم على قتال المشركين مع كثرتهم.

***ثانياً: من تكلم عن الآية بالتفصيل، أقوالهم في المراد بالمنافقين:**

الأول: أن المراد هم المنافقون في المدينة، قال ابن الجوزي في زاد المسير: وقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج.

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط: وظاهر العطف التغاير، فقيل: المنافقون هم من الأوس والخزرج، لما خرج الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال بعضهم: نخرج معه، وقال بعضهم: لا نخرج.

قال الزمخشري في الكشاف: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** بالمدينة.

قال الرازي في التفسير الكبير: هم قوم من الأوس والخزرج.

الثاني: أن المراد هم المنافقون الذين كانوا يومئذ في المسلمين، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** قال: وهم يومئذ في المسلمين، الدر المنثور.

قال أبو حيان الأندلسي: ولم يذكر أن منافقاً شهد بدراً مع المسلمين إلا معتِّب بن قشير فإنه ظهر منه يوم أحد قوله: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** [(١٥٤) سورة آل عمران].

قال صاحب تفسير المنار: من المعلوم مما ورد في أهل بدر من آيات هذه السورة، ومن الأحاديث الصحيحة والحسنة: أنه لم يكن فيهم أحد من أولئك المنافقين ولا من الذين في قلوبهم مرض، فإن ضعفاءهم قد محصهم الله بما كانوا من جدالهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومصارحتهم له في كراهة القتال قبل وقوعه، وباقتناعهم بجوابه لهم، كما تقدم، ثم أتم تمحيصهم بخوضهم المعركة، فهم من الذين وصفهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض بأنهم غرهم دينهم، وهل يعقل أن يقول أحد منهم في المؤمنين "غرهم دينهم" وهم تبرءوا من عد أنفسهم من أهل هذا الدين؟، فإن صح ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: هم يومئذ في المسلمين، يكون أراد بهم أنهم كانوا معدودين في جملتهم، لا أنهم كانوا في الغزاة، وإلا كان خطأً مردوداً، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- لم يكن في سنه يوم بدر يميز هذه المسائل بنفسه، والرواية عنه فيها كما علمت آنفاً.

أقوالهم في المراد بالذين في قلوبهم مرض:-

الأول: قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرهاً، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا: **{غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}** قاله أبو صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وإليه ذهب الشعبي في آخرين، وعدهم مقاتل فقال: كانوا سبعة: قيس بن الوليد بن المغيرة،

وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعلي بن أمية بن خلق، والعاص بن منبه بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة.

قال أبو حيان الأندلسي: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا: {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} فقتلوا جميعاً.

ذكر الألوسي في روح المعاني: قيل: فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، والعاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه، فالمرض على هذا: مجاز عن الشبهة.

قال الرازي في تفسيره: هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا ثم إن قريشاً لما خرجوا لحرب الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا.

قال الشنقيطي في العذب النمير: وذهبت جماعة من العلماء إلى أن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية من سورة الأنفال خُص بهم أناس معروفون، هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم، على حرف هكذا وهكذا.

قيل: إنه وصف للمنافقين، ذكر الألوسي: قيل: المراد بهم المنافقون، ويكون من باب تعاطف الصفات، كقوله –تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(١-٤) سورة الأعلى] فذلك لموصوف واحد، يعني العطف تارة يكون من باب عطف الصفات، والمقصود الموصوف واحد، وتارة يكون العطف يقتضي المغايرة بتعدد الذوات، وينزل تعدد الصفات منزلة تعدد الذوات بهذا الاعتبار فيصح التعاطف، وقد تتعاقب مع حذف حرف العطف.

والقول بأن المنافقين كانوا في صف المسلمين في يوم بدر قول باطل، فهذه الآية إما أن تكون تحدثت عن القضية فيما بعد، بعدما ظهر النفاق، فبعد غزوة بدر وجد النفاق، ويمكن أن تكون هذه الآية تتحدث عن الذين خرجوا بمكة، قال الله –عز وجل- فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [(٩٧) سورة النساء].

وقال الشوكاني -رحمه الله- في فتح القدير: قيل المنافقون: هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} هم الشاكون من غير نفاق، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة أعني: {غَرَّ هَؤُلاء} أي: المسلمين {دِينُهُمْ} حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش.

وقيل: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون المدينة وما حولها، وأنهم هم المنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم في قلة من العدد، وضعف من العُدد، وذكر ابن عطية عن القاضي أبو محمد قال: إن النفاق أخص من مرض القلب؛ لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضه شبهة وعلى من بينهما.

وفرق الطاهر بن عاشور بين المنافقين وبين الآخرين فقال: فنظم الكلام هكذا: وزين الشيطان للمشركين أعمالهم حين كان المنافقون يقبحون أعمال المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلة التدبير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور، ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا، والقول هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشامل لحديث النفس؛ لأن المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأما الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم ممن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم فيقولونه في أنفسهم لما لهم من شك في صدقه.

وهذا غير صحيح؛ لأن القول كالكلام يطلق على مجموع اللفظ والمعنى، ولا يكون في حديث النفس إطلاقاً، ولا يقال: قول، ويراد به حديث النفس إلا بقيد، قال في نفسه، زورت في نفسي مقالة، أما أن يكون هكذا يطلق القول ويراد به حديث النفس، فهذا لا يعرف لا في اللغة ولا في القرآن وإنما هذا يتأتى على عقيدة الأشاعرة، والمؤلف -رحمه الله- كان على عقيدة المتكلمين.

وقال الألوسي -رحمه الله- في الجواب عن الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال هم يومئذ في المسلمين، قال: وفي القلب من هذا شيء، فإن الذي تشهد الآثار أن أهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١ إلى الآية ٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة التوبة، وهي مدنية.

{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:١-٢].

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما روى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: آخر آية نزلت: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ} [سورة النساء:١٧٦] **وآخر سورة نزلت براءة**[١].

وإنما لا يبسمل في أولها؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه سورة براءة، وسميت بهذا؛ لأنها بُدئت بالبراءة من المشركين، **{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**، ولها أسماء أخرى وردت أيضاً عن بعض الصحابة -رضي الله عنهم-، وبعض هذه الأسماء جاءت بروايات صحيحة، ومما ورد في أسمائها غير براءة أنه يقال لها: سورة التوبة، وذلك لما جاء في آخرها من توبة الله -عز وجل- على الثلاثة الذين خُلفوا عن غزوة تبوك، وهذان الاسمان من أشهر أسمائها، ويقال لها أيضاً: سورة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، فما بقي إلا أن تذكر أسماءهم، وقد ذكرت أوصافهم الدقيقة، فما زال -كما قال ابن عباس -رضي الله عنه-: ينزل: ومنهم، ومنهم، ومنهم، يقول: حتى ظننا أنها لا تترك أحداً[٢]، وذكرت مقالاتهم، **{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي}** [سورة التوبة:٤٩]، وذكرت أعذارهم الكاذبة، وكذلك يقال لها: سورة البحوث؛ لأنها بحثت في نفوس المنافقين، واستخرجت مكنوناتهم، وما يخفون من النفاق، وهكذا يقال لها: المبعثرة؛ لأنها بعثرت عن نفوسهم، والمقشقشة؛ لكونها تبرئ من النفاق، والمخزية فهي خزي على المنافقين، أخزتهم فضحتهم، وهكذا المثيرة، أثارت عما في نفوس أهل النفاق، والحافرة والمنكلة والمدمدمة، هذه جملة أسماء هذه السورة.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٧٧).

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، برقم (٤٦٠٠)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، برقم (٣٠٣١).

قال: **هذه السورة من أواخر ما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-**، وهذا لا شك فيه، ولذلك فإن ما ورد في شأن القتال آخر ما نزل منه كان في هذه السورة، وإن كان بعض الآيات التي تضمنتها مما قد يقال: إنها منسوخة، وغالب ذلك يكون ناسخها من هذه السورة، كقوله تعالى مثلاً: **{انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً}** [سورة التوبة:٤١] كما سيأتي، نسخ بقوله: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً}** [سورة التوبة:١٢٢].

فهذه السورة نزلت بعد اكتمال قوة المسلمين، وكثرة عددهم، فجاءت بهذه الأحكام والآيات، كقوله -تبارك وتعالى- في الآية الخامسة منها وهي آية السيف: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [سورة التوبة:٥] الآية، فهذه قيل: إنها نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، قالوا: كل آية فيها عفو وصفح وإعراض عن المشركين فهي منسوخة بهذه الآية، وهي آية السيف، وهذا وإن كان فيه نظر إلا أن ذلك يدل على أن هذه السورة قد تضمنت أحكاماً قوية، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذه الآيات كآية السيف يعمل بها في أوقات قوة المسلمين وظهورهم وتمكنهم في الأرض، وإذا كانوا في حال من الضعف فإنهم يعملون بآيات العفو والصفح والصبر والإعراض عن المشركين، والكف، كف الأيدي حتى تصير لهم قوة، ولذلك يقال: إنه لا يصح أن يصور حال الإسلام بالآيات التي نزلت بمكة في وقت القلة والضعف والعجز، أو أوائل ما نزل في المدينة كقوله -تبارك وتعالى-: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}**، أو قوله: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ}**، وأشباه ذلك، لا يمكن أن تصوَّر طبيعة الإسلام وحال الإسلام بالآيات المكية: **{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}** [سورة البقرة:١٠٩]، وآيات الكف والإعراض، ولا بأوائل ما نزل في المدينة، وإنما هذه السورة تمثل ما انتهى إليه التشريع فيما يتعلق بالقتال والعلاقة مع المشركين، والآيات الأولى الراجح أنها لم تنسخ، وإنما هذا الدين فيه عزائم وفيه رخص، ففي أوقات الضعف يُعمل بالرخص، وفي أوقات القوة يعمل بالعزائم، لكن حينما نصور الإسلام بصورة مبنية على الآيات النازلة بمكة من العفو والصفح والإعراض أو أوائل ما نزل في المدينة، فهذا تشويه لصورة الإسلام ولا شك، والناس في هذا بين طرفين وواسطة، فمن الناس من يمسخ الإسلام مسخاً، ويصور الإسلام بصورة على غير ما أنزله الله -عز وجل-، فيملئون الدنيا بكتاباتهم وكلامهم عن التسامح، وأن هذا الإسلام دين التسامح، وأن القتال شرع للدفاع، وحتى الدفاع ما سلم منهم، فهذا خطأ، ومن الناس من يريد أن يأخذ بآيات العزائم، ويطبقها في حالٍ من تشتت الأمة وضعفها، وكأن الأمة في أقوى مراحلها، هذا غير صحيح، إنما ينبغي النظر في مثل هذه الأمور بحسب حال الأمة، ولا يجوز لأحد أن يفتئت عليها، ولا أن ينوب عنها من آحاد الناس بإقامة مثل هذه الأمور.

وهنا قال: **وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه**، هذا جواب حسن؛ لأن الصحابة لم يكتبوها، لكنه يرِد على هذا أيضاً سؤال، لماذا لم يكتبها الصحابة؟

فمن أهل العلم -وقد نقل هذا عن بعض الصحابة -رضي الله عنهم- كعلي -رضي الله عنه- من قال: إن هذه السورة نزلت بالقتال والبراءة من المشركين، فأسقطت فيها البسملة لذلك، وقد قال بعض أهل العلم: إنه كانت من عادة العرب أنهم إذا كتبوا في نقض العهد مع من بينهم وبينه عهد إذا أرادوا أن ينبذوا إليه عهده لم

يبسملوا في الخطاب، قالوا: فالبسملة أمان، وهذه السورة جاءت بالبراءة والقتال للمشركين، هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: إنه نسخ أولها، وكان مما نسخ البسملة، وجاء في رواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه سأل عثمان -رضي الله عنه- عن هذا، فكان من حاصل الجواب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا نزلت عليه سورة بين لهم، وأنه -صلى الله عليه وسلم- قد توفي ولم يبين لهم ما يتصل بسورة التوبة والأنفال، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فلما رتبوا السور في القرآن جعلوا براءة بعد الأنفال؛ لأنها شبيهة بها، فمنهم من يقول: إنهما سورة واحدة، ومنهم من يقول: هما سورتان، فجعلوهما هكذا، ولم يجعلوا (بسم الله الرحمن الرحيم) بينهما، وهذا باطل، والرواية التي فيه لا تصح، لا تصح من جهة الإسناد وهي منكرة أيضاً من جهة المعنى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن ما يتعلق بالقرآن بياناً شافياً لا إشكال فيه، والصحابة -رضي الله تعالى عنهم- لم يلتبس عليهم شيء من أمر القرآن إطلاقاً، وسورة براءة هي هكذا نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم-، والصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كانوا يسمعونها من النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر وفي الصلاة وفي خارج الصلاة، كما جاء أن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ من سورة براءة، يقرأ آيات من سورة براءة على المنبر، في القصة المعروفة لما سأل متى نزلت هذه السورة، أثناء الخطبة، فالشاهد: أن الصحابة كانوا يسمعون ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويتلقونه عنه، فيثبتون ما سمعوا وما أُقرئوا، ولا يتصرفون من عند أنفسهم.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-...

الأقوال التي تقول بأن السورة نزلت من غير البسملة؛ لأنها نزلت بالسيف، أو لأنها نزلت بالبراءة من المشركين أو إلى آخره، هذا كله باعتبار أنهم تلقوها من النبي -صلى الله عليه وسلم- من غير البسملة، كل هذه الأقوال ترجع إلى هذا طبعاً، إلا على الأثر المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه سأل عثمان، فيكون الصحابة بهذا الاعتبار هم الذين تركوا البسملة، ولكن هذا باطل، فالحاصل أن السورة نزلت هكذا، لكن هذه التعليلات التي سمعتم من قائلٍ بأنها جاءت بالسيف، وابن كثير -رحمه الله- أعرض عن هذا، قال: كتبها الصحابة هكذا.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما رجع من غزوة تبوك وهمَّ بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- أميرًا على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويُعلِم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- ليكون مبلغًا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكونه عَصَبَة له، كما سيأتي بيانه.

يعني أن صدر سورة براءة نزل بعدما انطلق أبو بكر -رضي الله عنه- في السنة التاسعة إلى الحج، فنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فبعث به علياً ينادي بهذه الآيات، وبعضهم يقول: إن الذي نزل من صدرها ثلاثون آية، والسورة لم تنزل جملة واحدة قطعاً، وكثير من الآيات التي فيها تحدثت عن غزوة تبوك

وما وقع من المنافقين في أثنائها، وما حصل منهم من الأعذار الكاذبة بعدها، وما حصل منهم قبل الغزوة، فالله -عز وجل- يقول: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [سورة التوبة:١١٧]، وقال: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ} [سورة التوبة:١١٨]، هذا كان بعد غزوة تبوك، بعد الغزوة، وقال: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ} [سورة التوبة:٧٤]، وذكر الأعذار الكاذبة التي جاءوا بها للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما رجع من غزوة تبوك.

فقوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: هذه براءة، أي: تبرؤٌ من الله ورسوله.

مما نزل في أثنائها -في أثناء غزوة تبوك- في القصة المعروفة لما استهزءوا، استهزأ مجموعة من المنافقين بالقرّاء، فنزلت الآيات: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ} [سورة التوبة:٦٥-٦٦]، هذه نزلت في أثناء غزوة تبوك، بدليل حديث ابن عمر لما نزلت هذه الآيات، يقول: فكأني أنظر إلى أحد هؤلاء متعلقاً بخطام ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- والحجارة تنكأ قدميه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونعلب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يزيد أن يقرأ هذه الآية، ولا يلتفت إليه، فهذا في أثناء الغزوة.

فقوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: هذه براءة، أي: تبرؤٌ من الله ورسوله، {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}.

قوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، قال: **أي هذه براءة**، فتكون "براءة" بهذا الاعتبار خبراً لمبتدأ محذوف، المبتدأ "هذه"؛ لأنه لا يجوز الابتداء بالنكرة، فبراءة نكرة، مثل سورة النور، {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} [سورة النور:١]، فكيف ابتدأ بالنكرة، ومعروف عند النحاة أنه لا يجوز الابتداء بها إلا إذا أفادت، كما قال ابن مالك:

ولا يجوز الابتدا بالنكرة *** ما لم تُفد كعندَ زيدٍ نَمرَة

وذكر الحالات التي يجوز فيها الابتداء، مثل إذا كان الخبر جارا ومجرورا ومتقدما عليها، نحو عند زيدٍ نَمرةٌ، الأصل: نمرة عند زيد.

وهل فتىً فيكم فما خِلٌّ لنا *** ورجلٌ من الكرام عندنا

هل فتىً فيكم؟ يعني في سياق الاستفهام، وكذلك أيضاً: رجل من الكرام، إذا كانت موصوفة، فهنا {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، و{سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} هذه نكرة موصوفة، وُصفت، فهنا يحتمل على كلام ابن كثير أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، فما يكون ابتداء بالنكرة بهذا الاعتبار، ليست مبتدأ، وإذا قيل بأنها مبتدأ نقول: إنه جاز الابتداء بها لأنها نكرة موصوفة، براءة حاصلة أو كائنة من الله ورسوله، ويكون الخبر {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، هذا لا إشكال فيه.

قال: **أي تبرؤٌ من الله ورسوله**، تقول: برئتُ من كذا إذا أزلته عن نفسك ودفعته وقطعت ما بينك وبينه من سبب، تقول: أنا أتبرأ من فعل فلان، أنا أتبرأ من فلان، أتبرأ من كذا، يعني أزلت عن نفسك أنك لم تفعله لم تتصف به لم ترضه، وقطعت ما بينك وبينه من سبب، {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، والتنكير هنا يفيد التعظيم.

{إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة.

قوله: {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، هذه البراءة إلى الذين عاهدتهم، العهد: هو العقد في الأصل، العقد المؤكد الموثق باليمين، هذا الأصل، قال: {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ}، السياحة هنا بمعنى السير، سيروا في الأرض أربعة أشهر لا يتعرض لكم أحد، اختاروا لأنفسكم.

هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته مهما كان؛ لقوله تعالى: {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} الآية. ولمَا سيأتي في الحديث: ((ومن كان بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد فعهده إلى مدته))[٣]، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغير واحد.

الآن هذه الآية {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ}، هذه {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم} إلى أصحاب العهود، فصار عندنا: أصحاب عهود، وعندنا: غير معاهدين، غير المعاهدين من ليس بينهم وبين المسلمين عهد، قال الله فيهم: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة:٥]، هؤلاء الذين ليس لهم عهد، والذين لهم عهد هنا قال: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} مع قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ} [سورة التوبة:٧]، وفي الآية {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} [سورة التوبة:٤]، فالذي بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسبر والتقسيم العقليين- لا يخلو من الحالات الآتية: إما أن يكون لهم عهد أقل من أربعة أشهر، فهؤلاء يكمل لهم إلى أربعة أشهر؛ لأن من لا عهد لهم يكون إلى نهاية الأشهر الحرم على خلاف سيأتي، فهؤلاء الذين لهم عهد أقل من أربعة أشهر يكمل لهم أربعة أشهر، والذين لهم عهد أطول من أربعة أشهر مؤقت محدد يعني منتهاه فهؤلاء يتم لهم عهدهم، يعني بين المسلمين وبينهم عهد لمدة سنة مثلاً، فيوفى بهذا العهد {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}، والذين لهم عهود مطلقة مفتوحة غير محددة بوقت -إن وجد- فهؤلاء يكون عهدهم أربعة أشهر فقط، وهذا وجه حسن في الجمع بين الآيات، واختاره جمع من المحققين، وابن جرير -رحمه الله- يذكر هذا ويزيد عليه أن الذين بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهد محدد أكثر من أربعة أشهر ولكنهم نقصوا هذا العهد فإنه يكون أربعة أشهر، وهذا لا إشكال فيه؛ لأن الله -عز وجل- قال: {ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}، فيصير الذين يكونون إلى أربعة: من له عهد دون أربعة أشهر، ومن له عهد مفتوح فهذا إلى أربعة أشهر، ومن له عهد محدد أكثر من أربعة أشهر ولكنه نقص ولم يكن عهده على الوفاء والتمام فهذا يجعل له أربعة أشهر، بقيت طائفة واحدة ممن لهم عهد وهم: من كان لهم عهد أكثر من أربعة أشهر ولم يخلوا به فهؤلاء {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من

---

٣ - رواه الترمذي، باب ما جاء في كراهية الطواف عريانا، برقم (٨٧١)، وأحمد في المسند، برقم (٥٩٤)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٦٧٠).

"براءة" فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّلهم عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر.

يعني الآن على هذا تكون الأربعة الأشهر مبتدَأة من يوم النحر؛ لأنه قال: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}، على الخلاف كما سيأتي في يوم الحج الأكبر هل يوم النحر أو يوم عرفة؟ فتكون الأربعة الأشهر مبتدَأة من ذلك اليوم، فتنتهي في العاشر من ربيع الآخر، أربعة أشهر، {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود منذ نزول الآيات، وهذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- أعلمهم بهذا، وقال لهم: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، فهم منذ سمعوها يكون قد أمهلهم هذه المدة، لا من وقت نزولها وهم لا يعلمون هذا، فتكون منتهية بهذا الاعتبار.

{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، وسيأتي الكلام على {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [سورة التوبة:٥].

وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: ((لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان))[٤].

ولهذا قال تعالى: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة التوبة:٣].

يقول تعالى: وإعلامٌ {مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} وتَقَدُّمٌ وإنذار إلى الناس، {يَوْمَ الْحَجِّ الأكْبَرِ} وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً.

{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، أذان أيضاً نكرة، ويقال فيه -كما قيل في "براءة"-: يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هذا أذان، ويحتمل أن يكون مبتدأ وابتُدِئ به لعلة من العلل المسوّغة كما سبق الكلام على "براءة"، والواو هنا {وَأَذَانٌ} عاطفة على جملة براءة، {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، أي: إعلام، الأذان: هو الإعلام، يؤذنهم أي: يعلمهم بالبراءة منهم ومن عهودهم.

هنا قال: {إِلَى النَّاسِ}، و{بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ} مِن: لابتداء الغاية، أي: براءة واصلة {مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأكْبَرِ}، قال: **وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك**، وهذا عليه عامة أهل العلم، قال به كثير من الصحابة فمن بعدهم، واختاره من المفسرين ابن جرير والقرطبي، وورد في ذلك أحاديث صحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، من هذه الأحاديث المرفوعة -إضافة إلى كثير من الآثار- حديث رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم النحر على ناقة حمراء مخضرمة، فقال: ((هذا يوم الحج الأكبر))[٥]. أخرجه الإمام أحمد والنسائي في الكبرى، ورجاله ثقات.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، برقم (٤١٠٥).

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب يوم الحج الأكبر، برقم (١٩٤٥).

وكذلك حديث ابن عمر: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: ((أي يوم هذا؟))، قالوا: يوم النحر، قال: ((هذا يوم الحج الأكبر))، أخرجه البخاري تعليقاً، ووصله أبو داود في المناسك باب يوم الحج الأكبر، وابن ماجه، والحديث ثابت صحيح.

وورد أيضاً عن جماعة من الصحابة أحاديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة، قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: ((لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان))، يؤذن يوم النحر، والله -عز وجل- يقول: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}، فكان يؤذن في يوم النحر، ثم قال: وإنما قيل الأكبر -يعني يوم الحج الأكبر- في مقابل الحج الأصغر وهو العمرة، وفي أحاديث أخرى منها حديث عبد الله بن أبي أوفى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يوم النحر يوم الحج الأكبر))، وهذا فيه ضعف، فعلى كل حال من جهة النظر يوم النحر فيه عامة أعمال الحج، فيه رمي الجمار، وفي ليلته الوقوف بعرفة، وفيه نحر الهدي، وفيه أيضاً الطواف، وفيه التلبية والتكبير والحلق، كل هذا في ذلك اليوم، هذا قال به كثير من الصحابة والتابعين وكثير من أهل العلم، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وممن قال به من الصحابة علي وعبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة، وأبو موسى الأشعري، وابن عمر، وهو مروي عن ابن عباس وقال به خلق لا يحصيهم إلا الله من التابعين فمن بعدهم، والله أعلم.

{يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ} وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك.

{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} أي: بريء منهم أيضاً.

رسولُهُ مرفوع يعني أن الله بريء ورسوله بريء من المشركين، {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، وسبب كتابة النحو أن زياد بن أبيه كان أميراً على العراق فطلب من أبي الأسود الدؤلي أن يكتب له، قيل: في كتابة النحو، يقال: إن أبا الأسود الدؤلي هو أول من كتب النحو، وإن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال له: الكلام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالاسم كذا، وانح نحو هذا، فقيل له: النحو، وتشكيل المصاحف يقال: إن زياد بن أبيه طلب ذلك من أبي الأسود الدؤلي لأن المصاحف لم تكن مشكولة ولا منقوطة، فامتنع من هذا، يقال: إنه جعل رجلاً يقرأ -حيث يسمع- في طريقه، فقرأ بجر "رسوله" في قوله: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} فصار المعنى بهذا الاعتبار أن الله بريء من رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ففزع أبو الأسود الدؤلي وذهب إلى زياد، فوافق أن يكتب المصحف مشكولاً، هكذا ذُكر، وجاءت قراءة بالجر، لكنها غير متواترة، ولا أحد يحمل ذلك على المعنى الباطل إطلاقاً، ولا يتصور هذا من مسلم، لكن القراءة تلك الشاذة بعضهم قال: إن الإعراب، {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، "المشركين" مجرور {وَرَسُولِهُ} قالوا: جر للمجاورة، وبعضهم قال غير هذا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: {فَإِنْ تُبْتُمْ} أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} أي: استمررتم على ما أنتم عليه {فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: في الدنيا بالخزي والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

هنا أطلق البشارة على خلاف المعنى المشهور، وهو الإخبار بما يسر، فهنا ذكرها في الإخبار بما يسوء، فالغالب المعروف المشهور أن البشارة تقال في الإخبار بما يسر، وهذا وإن كان هو الغالب إلا أن إطلاقها في الإخبار بما يسوء صحيح، وليس بمجاز، ومعروف في كلام العرب، ومنه هذه الآية: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، كما قال الشاعر:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ *** تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ

فعبر بالتحية عن الضرب الوجيع، كما قال الآخر:

يبشرني الغرابُ ببيْنِ أهلي *** فقلتُ له ثكِلْتُك مِن بشيرِ

وقول الآخر:

وبشرتَني يا زيدُ أنّ أحبتي *** جفوْني وأنّ الودَّ موعدُه الحشرُ

وبشرتني، فسمى ذلك بشارة، وهذا موجود في كلام العرب، وعلى كل حال قيل للبشارة بشارة؛ لأنه يظهر أثر ذلك في بشرة الإنسان، إذا بشرتَه ظهر ذلك على وجهه.

روى البخاري -رحمه الله- أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر -رضي الله عنه- في تلك الحَجَّة في المُؤَذِّنين، بعثهم يوم النحر يُؤَذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد: ثم أردف النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤَذِّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأَذَّنَ معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان(٦).

ورواه البخاري أيضاً أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: "الأكبر"، من أجل قول الناس: "الحج الأصغر"، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مشركٌ(٧).

وهذا لفظ البخاري في كتاب "الجهاد".

وروى محمد بن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت "براءة" على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: ((لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي))، ثم دعا عليا فقال: ((اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يَطُوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد فهو له إلى مدته))، فخرج علي -رضي الله تعالى عنه- على ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العضباء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة التوبة، برقم (٤٣٧٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

٧ - رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب كيف ينبذ إلى أهل العهد، برقم (٣٠٠٦).

كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو إلى مدته.

من له عهد فهو إلى مدته، وهذا موافق لقوله: {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}، فهذا ما يدخل في {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}.

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

يقول: فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى، يعني يريد أن يقول: إن الذين لا عهد لهم فالإمهال في حقهم إلى نهاية الأشهر الحرم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٤ إلى الآية ٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:٤].

هذا استثناء مِن ضرْب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: "ومن كان له عهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعهده إلى مدته" وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم مَن سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} أي: **الموفين بعهدهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الاستثناء {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} يحتمل كما قال الزجاج أنه يعود إلى براءة: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة التوبة:١]، {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا}، وذهب كبير المفسرين ابن جرير إلى أنه يعود إلى ما قبله، وهو قوله: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ} [سورة التوبة:٣]، فهذا يكون استثناء منه، وكلام ابن كثير -رحمه الله- هنا واضح، وهو مرتبط بالمعنى، تفسير على المعنى، يعني لم يربطه بلفظ بعينه، والعادة أن النحاة وأهل اللغة حينما يقولون: يعود إلى كذا يذكرون لفظة معينة يربطون الاستثناء بها، وابن كثير -رحمه الله- أعاده إلى المعنى قال: **هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت**، إلى آخره، يعني ضرب مدة التأجيل بأربعة {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [سورة التوبة:٢]، {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ}، فيكون ذلك عائداً إلى المعنى، بمعنى أن {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} فيستثنى منه هؤلاء، {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} فيستثني منه هذا، فربطه بالمعنى.

{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:٥].

قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [سورة التوبة:٢].

انسلاخ الشهر تكامله جزءاً فجزءاً، شيئاً فشيئاً حتى ينقضي، فشبه ذلك بسلخ الجلد ومباينته للجسد، تقول: سلخت الشاة، فانسلاخ الأشهر الحرم معناه انقضاؤها، فإذا انسلخ الأشهر الحرم: المتبادر عند إطلاق الأشهر الحرم أنها الأشهر الأربعة التي قال الله -عز وجل- في هذه السورة: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [سورة التوبة:٣٦]، وهي ثلاثة سرد وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فهل المراد {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} يعني المشركين الذين لا عهد لهم؟، قلنا: إن المشركين منهم من له عهد مطلق، فهذا يحد بأربعة أشهر، ومنهم من عهده دون الأربعة الأشهر، فيكمل له أربعة أشهر، ومن له عهد أكثر من أربعة أشهر –محدد- ولكنه ظهر منه إخلال ونقص فيمهل أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلا قال الله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، فمن أهل العلم من قال: المراد هؤلاء، يعني إذا انسلخت الأشهر الحرم المعروفة التي بقي منها من يوم النحر خمسون يوماً، عشرون يوماً من ذي الحجة، وشهر المحرم فهذه خمسون يوماً، فما تكون أربعة أشهر التي بقيت عليهم إذا حملناها على هذا المعنى فيكون ذلك مختصاً بالمشركين الذين ليس بين المسلمين وبينهم عهد، فإنهم لا يقتلون أصلا، يعني هؤلاء ليس بينهم وبين المسلمين عهد، فهؤلاء لايقتلون في الأشهر الحرم، يعني لا في ذلك العام ولا في غيره بناءً على أن آية براءة التي يقول الله -عز وجل- فيها عن الأشهر الحرم {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} يعني لا يجوز القتال فيها، ومن أهل العلم -كما سيأتي- من يقول: إنها منسوخة، بعضهم يقول: منسوخة بالذي بعدها مباشرة، وهو قوله: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} يعني في كل حين ولا تتقيدوا بوقت معين، وسيأتي الكلام على هذا، والأرجح أنها غير منسوخة، فعلى كل حال الكلام الآن في هذه الآية {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، يحتمل أن يكون المراد اقتلوا المشركين الذين لا عهد بينكم وبينهم، فهذه هي آية السيف، ويحتمل أن يكون المراد بالأشهر الحرم أشهر الإمهال الأربعة، هل هذه أشهر الإمهال الأربعة التي تبدأ من يوم النحر، أربعة أشهر من يوم النحر هل هذه يقال لها: الأشهر الحرم؟ بأي اعتبار أُطلق عليها ذلك، وتُرك ما اشتهر وعرف من أن الأشهر الحرم هي الأشهر الأربعة المعروفة فيجيب من يقول بهذا يقول: إنها أشهر حرم باعتبار أن دماء المشركين حرمت فيها؛ لأن الله أمهلهم هذه المدة، أربعة أشهر، فيحرم قتالهم وقتلهم في هذه المدة، فقيل لها أشهر حرم بهذا الاعتبار، كما قيل للأشهر الحرم المعروفة بذلك؛ لحرمة القتال فيها، فلما حرم القتال في هذه -في وقت الإمهال- قيل لها: أشهر حرم، {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}، وقالوا -أيضا-: إن الباقي ما يقال له: أشهر بالجمع، إنما هو شهر وعشرون يوماً، وأشهر الحرم المعروفة، والله ذكر ذلك بصيغة الجمع قال: الأشهر الحرم، والذين يقولون: إن المقصود بها الأشهر الحرم المعروفة يجيبون عن هذا {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} بأنها التي بقي منها خمسون يوماً.

ثُمَّ قال {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم.

وقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [سورة البقرة:١٩١].

قوله هنا: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} أي إذا أنقضت الأشهر الأربعة، ابن كثير حمله على أشهر الإمهال، وقيل لها: حُرم؛ لأنه تحرم فيها دماء المشركين فيقول: **إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم**، ابن كثير كلامه لم ينتهِ، والمؤلف اختصر منه جزءًا مهما كان المفروض أن يُذكر، وهو يتضمن قاعدة، وبقية كلامه يقول: **لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر**، هذا وجه الترجيح، فقال: إنها أشهر الإمهال؛ لأن عود العهد على مذكور {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}، فـــ"ال" في الأشهر العهدية، "الحرم" معهود العهد هنا هل هو عهد ذكري؟ أو عهد ذهني؟ أو عهد حضوري؟ العهد الذهني معناه أنه غير مذكور هنا، عهد ذهني أيْ شيء معهود تعرفونه لو قيل: إنها الأشهر الحرم يعني {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ} [سورة التوبة:٣٦]، المقصود منها أربعة حرم هذا يسمى بالنسبة للآية هنا {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} عهد ذهني معهودة في أذهانكم، والآية التي فيها الأشهر الحرم الأربعة المعروفة لم تأت إلى الآن، وإذا كان العهد هو المذكور قبله {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، فيكون العهد هنا عهداً ذكرياً مذكوراً قبله، كما قال الله -عز وجل-: {أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} [سورة المزمل:١٥-١٦]، والرسول هو المذكور قبل قليل، فهذا عهد ذكري فتكون "ال" عهدية، الرسول مذكور آنفا، والعهد الحضوري مثلما تقول: الرجل غير منتبه، أيُّ رجل؟ الذي أنا انظر إليه مثلا، تقول: الرجل غير منتبه، فهذا عهد حضوري، فابن كثير وجّه الترجيح يقول: إن كون العهد يعود إلى مذكور أولى من معهود في الذهن، هذا وجه الترجيح، {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} أي إذا انقضت الأشهر الأربعة، وهذا الذي قاله ابن كثير رجحه جماعة منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله-، والأول: أنها الأشهر الحرم المعروفة {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ} التي بقي منها خمسون يوما من يوم النحر هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والآية تحتمل هذا وهذا، ولو نظرنا من الناحية الواقعية العملية بالنسبة إلينا الآن لا يترتب عليها عمل بالنسبة لنا، وإنما نريد أن نعرف مسألةً وقعت وحصلت وانتهت، لكن الآن الذي عندنا فقط هو هل الأشهر الحرم يجوز القتال فيها أو لا يجوز؟ القتال فيها فقط، فالأشهر الحرم الأربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أمّا أنه متى يبدأ الإمهال، متى تبدأ هذه من يوم النحر وما بعده خمسون يوما أو أنها أشهر الإمهال؟ انتهى هذا كله ولسنا الآن من الناحية العملية نستفيد شيئا من معرفة هذا، والمسائل التي لا ينبني عليها عملٌ الجهلُ بها لا يضر، وتطويل الزمان بدراستها وبحثها أمر غير محمود، مع أن هذه الصورة أو هذا المثال من أوضح الأمثلة على مسألة علمية في أصلها -ليست من فضول العلم- يترتب عليها عمل كبير إلا أنه بالنسبة إلينا نحن الآن لا يترتب عليها عمل، فتكون

بهذا الاعتبار من فضول العلم، وهذا من أعجب الأشياء، بهذا الاعتبار من فضول العلم، العادة أن فضول العلم مثل: كم عدد طوابق سفينة نوح؟ ومن أي الخشب صنعت؟ ومن أول من ركب؟ وآخر من ركب؟ وأين رست؟ وأين يقع الجودي؟ إذا كان اسم جبل {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [سورة هود:٤٤]، والكهف أين يقع؟ وكم عدد الذين كانوا فيه؟ فمعرفة هذا لا يترتب عليه فائدة، هنا هذه مسألة في ذلك الحين يترتب عليها أمر عظيم يتعلق بالدماء ولكن بالنسبة لنا الآن مايترتب عليها شيء {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ} سواء كانت أشهر الإمهال الأربعة أو غير ذلك، فهذا من الأمثلة الفريدة التي تتحول فيها مسألة من صلب العلم إلى فضول العلم، ولو طَرَق سمع كثير من الناس لأول وهلة أن الاشتغال بهذا من فضول العلم لربما مافهموا وجه ذلك، هو من فضول العلم بالنسبة لمن جاء بعدُ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بمراد الله -عز وجل- وحملها على مراد الله -تبارك وتعالى-، وحصل {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} وهذه إما أن تخص بالذين لاعهد لهم، ويقال: كما يقول ابن جرير: هؤلاء إذا انتهت الأشهر الباقي منها خمسون يوما فاقتلوهم، أو يقال: إنها في الجميع فيمهلون أربعة أشهر وهي أشهر الإمهال، {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} التي أمهلناهم فيها فاقتلوهم، وهذا الأمر بقتلهم في آية السيف هذه هو في وقت قوة الأمة، والذي خوطب بهذا -فاقتلوا المشركين- ليس الآحاد، وإنما خوطبت الأمة باعتبار أن الذي يقوم بهذا من بسط يده يعني الإمام لا يقوم به أفراد الناس، ولا يجوز لأحد أن يقتل المشركين من عند نفسه هكذا، فيكون افتئاتاً على الأمة، هذا لا يجوز بحال من الأحوال، والمشركون أنواع منهم من يكون له عهد فهذا لا يجوز قتله في عهده، ومنهم من يكون له أمان وهذا لا يجوز قتله ولو أعطاه الأمان واحد من أدنى المسلمين، ومن له ذمة بمعنى أنه من أهل الذمة، يعني يكون من أهل البلد مثل القبط في مصر، وكذا البلاد التي فتحها المسلمون وفيها أهل كتاب فهؤلاء لا يجوز قتلهم، والمستأمن والحربي، الحربي هو الذي يقتل المحارب، طبعا في أوضاع الأمة الآن المنقسمة إلى كيانات قد يكون محارباً بالنسبة لهؤلاء وليس محارباً بالنسبة لهؤلاء، فهذه المسائل تحتاج إلى أن يفرق بينها وأن يتفقه الإنسان في الدين، ويعرف مراد الله -تبارك وتعالى-، ولا يُحمل النصوص مالا تحتمل، ولا أحد من أهل العلم يقول: إنه يجوز لآحاد الناس أن يقوموا بمثل هذه الأمور {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} أبداً، وإلا لصارت أمور الناس فوضى، أما إن كان لهم عهد أو ذمة فإنه لا يجوز لا للإمام ولا لغير الإمام أن يقتلهم، يعني لو قتلهم الإمام لكان ظالما لهم، ومن كان يتخوف منه الخيانة ينبذ إليه عهده، والذي ينبذ إليه العهد الإمام وليس آحاد الناس، وإلا صارت أمور الناس فوضى، ويحصل بسبب ذلك من الفساد الشيء الكثير تصور لو أن أحمقَ جاء إلى سائقك أو سائق جارك البوذي أو الهندي وقتله ورمى برأسه في الزبالة، أو علق جثته بجدار الجيران، فلا أحد يقبل هذا، ولا يجوز بحال من الأحوال، ولا فرق بين هذا وبين مَن عيونه زرقاء، مثله، كلهم كفار، كما أن هذا لا يقتل، لماذا يخص القتل بغيره من الأجناس الأخرى من الكفار؟!، فالحاصل أن هذا لا يجوز ولا يفهم من هذه الآية أبداً أن ذلك لآحاد الناس، وما جنى على الجهاد إلا مثلُ هذه الحماقات، وما يحصل بسبب هذا إلا الفساد العريض، والآن صار كثير من الناس يتحرج من الدعاء للمجاهدين، يقول: اللهم انصر المستضعفين من المسلمين، ولا يقول: المجاهدين!! كله بسبب الحماقات، وصار كثير من الناس يفهم إذا قيل: المجاهدون أنهم من يرتكبون مثل هذه الحماقات، فينبغي أن نفرق بين

هذا وهذا، ونفهم معنى الجهاد حقيقة، وما خرج عنه، وأحيانا للأسف تستوي التصرفات لو أنه فعلها أشد أعداء الإسلام أو فعلها من ينتسب للإسلام النتيجة واحدة، أحيانا الجهل وضعف النظر وقلة النظر في العواقب يؤدي أحيانا بالشخص إلى أن يفعل فعل أعدى أعداء الإسلام!! يعني على سبيل المثال الآن ما وقع في الحبانية، وسمعتم بالذي في العراق المسجد الجامع جاءت شاحنة، وفُجر أكثرُ من سبع وخمسين جثة، من رجال ونساء وأطفال مسلمين مصلين، فبعضهم ينسبه لبعض من ينتسب للجهاد، وبعضهم يقول: لا، هؤلاء بعض المندسين الذين يريدون الإساءة إلى المجاهدين، ما تدري من الذي يفعل هذا، هذا متوقع وهذا متوقع، والنتيجة واحدة، فعل هذا الجاهل يمكن أن يقوم به واحد من الموساد، أو من الرافضة؛ من أجل أن يضرب هؤلاء المجاهدين ويؤلب الناس عليهم، ويقول لهم: هؤلاء مجرمون و...، فهذه المفاهيم لا يمكن أن تكون هي مراد الله -عز وجل- بهذه الآيات، بل إن الأمة حتى ممثلة في الإمام أو الخليفة إذا كانت الأمة ضعيفة فإنها لا تعمل بهذه الآية: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، تعمل بالآيات المكية: {كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ} [سورة النساء:٧٧]، {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [سورة البقرة:١٠٩]، لكن في نفس الوقت لا تغير حقائق الدين، يقال: هذا دين الجهاد، والجهاد ذروة سنام الإسلام، والجهاد منه جهاد دفع، ومنه جهاد طلب، والأمة لن تكون قوية ممكّنة إلا إذا كانت أمة مجاهدة تجاهد أعداءها، ولا يجوز أن الأمة تكون بحالة من الاستخزاء: إذا لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر، وإنما كما قال الله: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ} [سورة الشورى:٣٩]، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وحتى يقاتل آخرهم الدجال، فهذا ماضٍ وسيأتي رجال في أصلاب آبائهم يجاهدون في سبيل الله -عز وجل-، لكن تبقى هذه الحماقات والجهالات مثل الفقاعة تذهب ولا يصح إلا الصحيح، ويبقى الحق الجهاد الخالص النقي الذي يرضاه الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا أنفع للناس من العلم والفقه في الدين، فهذا الإنسان المسكين الجاهل الذي تاب لحينه ويرى أن عنده ذنوباً ما يكفرها إلا القتل في سبيل الله، ويرى أن دراسة التجويد والفقه والحديث هذا تطويل، فالأفضل أن يموت ويرتاح وبأقرب وقت، فيتهافت على الموت بأي طريقة، ثم قد يلقي بنفسه إلى التهلكة في الدنيا والآخرة -نسأل الله العافية-، فيحتاج الإنسان إلى فقه، والفِرَق ما ظهرت في التاريخ إلا بسبب الجهل أو الهوى.

وقوله: {وَخُذُوهُمْ} أي: وأسروهم، إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا.

يعني باعتبار أن الأخذ هو الأسر، والأخيذ هو الأسير {وَخُذُوهُمْ} أي ائسروهم.

وقوله: {وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام.

{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} المرصد هو الموضع الذي يرقب فيه العدو، يعني اجلسوا لهم في كل طريق وفي كل مكان تستطيعون أن تتمكنوا منهم فيه، فهذا خطاب للأمة ممثله بالإمام، هو الذي يطلب المشركين، ويقتلهم ويقعد لهم في كل مرصد بالشروط المعروفة، وليس بالظلم والبغي إلا جهاد الدفع إذا هجم الكفار على بلد من

بلاد المسلمين فيجب صدهم، ما في إمام للبلد، قُتل الإمام الذي فيها أو مات أو ما كان يستحق أصلا فيجب على كل مستطيع أن يدفعهم، فهذا جهاد الدفع.

ولهذا قال: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، ولهذا اعتمد الصديق -رضي الله عنه- في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله -عز وجل-، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعدٍّ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة))[1] الحديث.

يعني كلام الحافظ ابن كثير: **نبه بأعلاها على أدناها**، يعني فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة يعني وصاموا رمضان وحجوا بيت الله الحرام هذا معناه، اقتصر على الصلاة والزكاة قال: **نبه بأعلاها على أدناها**، بمعنى أن الصلاة هي رأس العبادات البدنية وأشرفها، والزكاة هي رأس العبادات المالية، ((ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه))[2]، فالزكاة أفضل من الصدقة، فنبه على هذا وهذا بهذين، ووجه الجمع بين الصلاة والزكاة من أهل العلم من قال: إن سعادة العبد دائرة بين أمرين الإحسان إلى الخلق ورأس ذلك الزكاة، والإحسان مع الخالق ورأس ذلك الصلاة، فهي صلة بين الرب والعبد، {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ} [سورة التوبة:١١]، وهذا يحتج به من يقول: إن تارك الصلاة كافر؛ لأن الله -عز وجل- جعل ذلك مقيداً به {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ}، يعني: مفهوم المخالفة إن تابوا ولم يقيموا الصلاة فليسوا بإخوان لنا في الدين، وهذا معناه.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين أحد من المشركين، وكل عقد، وكل مدة.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

هذا يقال فيمن لا عهد له، لا عهود جديدة في ذلك الوقت، حينما نزلت الآية، لكن ليس معنى الآية أنه لا يجوز للمسلمين أن يعاهدوا المشركين، لا، وقد حصل عهود بعد هذه الآية بين المسلمين وبين المشركين بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا بحسب ما تقتضيه المصلحة، فإن اقتضت مصلحة المسلمين أن يوجد عهد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة:٥]، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...، برقم (٢٢).

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع، برقم (٦١٣٧).

فإنهم يعاهدونهم لكن لا يعاهدونهم عهوداً مفتوحةً، وإنما إلى مدة، وإن لم تقتضِ المصلحة فلا عهد، لكن الكلام في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- من كان ليس لهم عهد فلا عهود جديدة لهم، وإنما السيف بعد انقضاء الأشهر الحرم، وذلك بالنسبة للعهود بعدهم، أي بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- بحسب حاجة المسلمين بحسب ضعفهم، وحسب قوتهم، وحسب مصالحهم وهكذا، تصور لو أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حاشاهم- انطلقوا في الأرض كلما رأوا مشركاً جلسوا يقتلونه بمفردهم، هم هكذا؟! هذا معاهد، وهذا ذمي، وهذا مستأمن، والسيف المرهف كلما وجدوا مشركاً قطعوا رأسه!! يتصور هذا؟! يتصور هكذا؟! أبداً، لكن من الناس من لربما تستفزه نفسه، وقلة العلم، وقلة الورع، فيظن أنه بهذا يتقرب إلى الله -عز وجل.

{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة:٦].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، {اسْتَجَارَكَ} أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته {حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، {ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ} أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟))، قال: نعم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك))[٣]، وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله، ولعنه.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٧٠٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، يزيد: وهو ابن هارون سمع من المسعودي -وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة- بعدما اختلط، والمسعودي أيضا كان يغلط فيما يرويه عن عاصم -وهو ابن أبي النجود- وهو متابع. وأبو وائل: هو شقيق بن سلمة الأسدي.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أُعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

بل حتى لو أعطاه أحد من عامة المسلمين الأمان فلا يجوز لأحد أن يقتله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧ إلى الآية ١٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:٧].

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثُقفوا، فقال تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ} وأمان ويُتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} الآية [سورة الفتح:٢٥]، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين {فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} وقد فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقتلوهم معهم في الحرم أيضا، فعند ذلك غزاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعِكْرِمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ}، والمقصود بمن عوهدوا عند المسجد الحرام يعني في صلح الحديبية، وهذا معلوم لا إشكال فيه، والمراد بهؤلاء الذين عاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عند المسجد الحرام في صلح الحديبية هم قريش، ومن دخل في هذا العهد، وذلك -كما هو معلوم في السيرة والتاريخ- أن بعض القبائل اختارت الدخول مع قريش في هذا العهد، وبعض القبائل اختارت أن تدخل مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني تحالفوا مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فقريش نقضت العهد، وذلك

بأنهم أعانوا حلفاءهم من بني بكر على حلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من خزاعة، أعانوهم بالسلاح كما في القصيدة المعروفة التي جاءت خزاعة تستنهض بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفيها:

*** إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا *** وجعلوا لي في كداء رصدا

إلى أن قال:

***وقتلونا ركّعاً وسجداً

فالشاهد أنهم بهذا يكونون قد نقضوا العهد، وعليه لا يكون المراد هنا: {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} ليس المراد به قريش؛ لأن قريشاً نقضت ولقيت جزاءها، يعني حينما نزلت هذه الآيات كانت مكة قد فتحت، وإنما سيّر لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الجيش في السنة الثامنة بناء على نقضهم العهد، فليست هي المرادة بقوله: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} ولهذا اختلف المفسرون في المراد بذلك، ولا شك أن المراد به بعض من دخل في هذا العقد، والعهد والصلح، وابن جرير -رحمه الله- يقول: المقصود بهم قوم من جذيمة ابن الدُّئل، فهؤلاء دخلوا في هذا الصلح، أو أن ابن جرير ذكر هذا على أنه أحد الأقوال، وذلك لا يبعد، لكن البعيد أن يكون المراد به قريش، وبعضهم قال: إن المراد بهذا هم قوم من خزاعة، وخزاعة اختلف فيهم العلماء من أهل السير وغيرهم، هل كانوا مسلمين أو لم يكونوا مسلمين؟ فمن قالوا: إنهم كانوا على الإسلام احتجوا بقوله:

***وقتلونا ركعاً وسجداً

قالوا: كانوا مسلمين، وبعضهم يقول: لم يكونوا مسلمين ولكن كانوا حلفاء لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أنهم بعض بني بكر من كنانة ممن أقام على العهد ولم ينقض، فقريش نقضت وهؤلاء لم ينقضوا، فقريش أعانوا حلفاءهم -على قول ابن جرير- من بني الدُّئل على حلفاء النبي -صلى الله عليه وسلم- من كنانة، هذا اختيار ابن جرير، ذكر الأقوال و اختار هذا، على كل حال تحديد هؤلاء بالاسم أمر لا يترتب عليه بالنسبة إلينا كبير فائدة، لكن معنى الآية أن الله -عز وجل- يذكر أهل الإشراك كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله، كيف يكون لهم عهد وهم بهذه المثابة؟ جعلوا لله -عز وجل- ندًّا وعبدوا غيره {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فالإسلام يأمر بالوفاء بالعهود، فهؤلاء الذين عاهدوا عند المسجد الحرام، منهم من نكث كقريش، فقاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومنهم من بقي على عهده، فالذين بقوا على عهدهم الله تعالى يأمر بالوفاء بهذا العهد {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة التوبة:٨].

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد؛ لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأدِيلوا عليهم، لم يُبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة.

قال علي بن أبي طلحة، وعِكْرِمة، والعوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "الإلّ": القرابة، "والذمة": العهد، وكذا قال الضحاك والسدي.

كان المفروض أن يذكر قول ابن كثير -اختيار ابن كثير- فهذا خلل في الاختصار، ما يعرف به قول ابن كثير، وابن كثير ما يترك مثل هذه دون أن يرجح، فالشاهد إن "الإل" يطلق على القرابة

وأَشْهَدُ أَنَّ إِلَّكَ من قُرَيْشٍ *** كإلِّ السَّقْبِ من وَلَدِ النَّعَامِ

كما في بعض روايات البيت، فالشاهد أن الإل يطلق على القرابة، يعني لا يقرّبون فيكم قرابة، لا يراعون القرابة التي بينكم وبينهم، إذا ظفروا بطشوا بكم، قتلوكم ونكلوا بكم كما وقع في يوم أحد، مثلوا بهم، وتشفوا منهم غاية التشفي، ويطلق الإل على العهد، ويطلق على الله -تبارك وتعالى-، ولهذا يذكر في قول أبي بكر -رضي الله عنه- حينما جاءه بعض من يمثل مسيلمة الكذاب في أيام حروب الردة في خلافة أبي بكر -رضي الله عنه- فقال أبو بكر: أسمعني شيئا مما يقول صاحبكم، فقرأ عليه بعض الخزعبلات، فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: أشهد أن هذا لم يخرج من "إل" يعني من رب، وبعضهم يقول: إن جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وما أشبه ذلك أسماء معبدة لله -عز وجل-، وهذه أسماء أعجمية، فالإل يطلق على الرب يعني لا يراقبون فيكم الله، وعلى الآخر لا يراعون القرابة، وعلى المعنى الآخر لا يراعون العهد، {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} ولما كانت هذه المعاني جميعا صحيحة، وثابتة في لغة العرب فإنه يمكن حملها على الجميع من باب حمل المشترك على معانيه، وهذا أمر سائغ لا إشكال فيه ما لم يوجد مانع يمنع من هذا، سواء كان المشترك يحمل معانيَ متضادة أو معانيَ متخالفة ليست متضادة، فإنه يمكن حمله إلا إذا وجد ما يمنع من هذا، متضادة مثل: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧]، أقبل وأدبر، قيل: أقسم الله بالليل في حالة إقباله وفي حالة إدباره، وهنا {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ} هذه معانٍ ليست متضادة لكنها متخالفة، فيقال: {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ} يعني عهدا ولا قرابة ولا يراقبون فيكم الله -سبحانه وتعالى- وهذا كله صحيح؛ ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إنها تحمل على ذلك كله، والله أعلم.

{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة:٩-١١].

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} إلى آخرها، تقدمت.

{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني كما قال ابن كثير -رحمه الله-: **اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا**، فأطلق ذلك على الاستعاضة، والاختيار والإيثار، آثروا ملاذ الدنيا وشهواتها على اتباع ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من ربه، وهذا يقال له: اشتراء، ويقال له: استبدال، واستحبوا

العمى على الهدى {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [سورة البقرة:١٦] كل هذا يدور ويرجع إلى هذا المعنى كما قال الشاعر:

بدّلت بالجُمة رأسا أزعرا *** وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا***

يعني اختار، فـ"اشتروا" هنا {بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني بما استعاضوا به من اتباع أهواء النفوس والشهوات، وهذا لا إشكال فيه، خلافاً لمن حمل ذلك على اليهود باعتبار أن اليهود هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً بما كانوا يأخذونه من الرشى فيحرفون الكلم عن مواضعه؛ ولهذا قال بعض أهل العلم كالنحاس: إن هذه الآية في اليهود {اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ}، ثم قال بعدها: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً} يقول: هذه في اليهود ما فيه تكرار، والآية التي قبلها: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} في المشركين، هذا الفرق على قول النحاس، ولكن هذا فيه نظر -والله تعالى أعلم-، فهذه الآيات في الكفار، ويدخل فيها أيضا اليهود، فكل الكفار اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، كلهم {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} [سورة البقرة:١٧٥]، والمعاوضة تكون بأن يدفع شيئا ويأخذ شيئا مكانه، وهذا ليس بالضرورة من أثر الضلالة على الهدى، فإنه يكون قد استعاض واشترى كما قال الشاعر:

*** كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فلا يلزم أن تكون القضية مقايضة مثل أن يأخذ الرشوة ويحرف الكلم عن مواضعه في مقابل هذا مثلا، أو يكتم الحق أو نحو هذا لا يلزم أن تكون هذه الصورة فقط من أثر الضلال والكفر على الهوى، ويمكن أن يطلق عليه ويقال: {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} فهذه الآية في الكفار عموما، وإذا كانت في الكفار فيكون قوله: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} للتأكيد، وليس من قبيل التكرار، وسبق الكلام في مناسبات متعددة على أن التكرار المحض غير موجود، وأن كل آية محمولة على معنى فتؤسس معنى جديداً، فهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} لاحظ الفرق هناك: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}، وهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} فمن أهل العلم من قال: إن هذه الآية: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ} هي في عموم المؤمنين، وهناك في طائفة من المؤمنين، وهذا توجيه، وقد يقال غير هذا، {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}، وهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} والآية الثانية لا شك أن العموم فيها أظهر، {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ} نكرة في سياق النفي، {اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ} فلفظة "صدّ" تأتي لازمة، وتأتي متعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى أنهم صدوا يعني في أنفسهم بإعراضهم عن قبول الحق واتباعه، وإذا كانت متعدية فتعني أنهم صدوا غيرهم عنه، صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦]، صدوا في أنفسهم لما رأوا أن الأيمان تدفع عنهم في الدنيا التهم والعقوبات فاستمرءوا ذلك فبقوا على ضلالهم {فَصَدُّوا} أي في أنفسهم، والمعنى الآخر {فَصَدُّوا} أي صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، إذا جاء واحد يدخل في الإسلام قالوا: انتبه، إذا ارتددت تقطع رقبتك، وإذا سرقت تقطع يدك، وإذا زنيت ترجم فأحسن لك كن بعيداً!! وصدوا المسلمين أيضا عن الجهاد مع النبي -صلى الله عليه

وسلم- بالأموال، والأنفس كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [سورة النساء:٧٢]، وقال: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، وصدوا أيضا المؤمنين عن إقامة حكم الله فيهم بسبب هذه الأيمان، وكل هذه المعاني داخلة في هذا، فالشاهد هنا {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي صدوا في أنفسهم وصدوا غيرهم عن اتباع الحق، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} والذمة هي العهد، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} **يقول: سبق الكلام عليها.**

وهنا قال: {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}، وهناك قال: {فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} [سورة التوبة:٥]، والفرق واضح بين الآيتين، فليس هذا من التكرار، فهناك يُتركون إذا تابوا من كفرهم يعني بدخولهم للإسلام، {وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} فذلك يكون سببا لتخليتهم والإعراض عن قتالهم، وهنا أثبت لهم الأخوة في الدين.

{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [سورة التوبة:١٢].

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، {وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} أي: عابوه وانتقصوه، ومن هاهنا أُخذ قتل من سب الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص؛ ولهذا قال: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدد رجالا.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وروى عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، مثله.

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر -رضي الله عنه-، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مجوفة رءوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} رواه ابن أبي حاتم.

المجوفة يعني المحلوقة من الوسط يحلقونه ويتركون الباقي، الهَبَل قديم!! وليس هذا في هذا الوقت فقط، فهنا يقول: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} ذكر قضيتين: نكث العهد، والطعن في الدين {وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ}، هل المقاتلة {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} هنا يقال: إنها مرتبة على شرطين لا تحصل إلا باستجماعهما بمعنى لو طعنوا في الدين، وما نكثوا العهد -هكذا افتراضنا- لا نقاتلهم؟ أو نقضوا العهد وما طعنوا في الدين؟ هكذا فهم أبو حنيفة -رحمه الله-، قال: لو أنهم طعنوا في الدين، وما نكثوا العهد فإن ذلك لا يوجب أن نقاتلهم؛ لأن الله ذكر أمرين إن فعلوا كذا وكذا فقاتلوا، وليس ذلك معنى الآية أبداً، قطعا ليس هذا معنى الآية والعلم عند الله -عز وجل-؛ ولهذا قال الجمهور منهم مالك والشافعي قالوا: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} إن نكث العهد يكفي لمقاتلتهم كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- مع

قريش حينما أعانوا حلفاءهم على حلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يشترط أنهم يطعنون في الدين، وإذا طعنوا في الدين يكون عهدهم قد انتقض، وقد يجمعون بين الأمرين، وقد يوجد واحد منهم، {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فنقض العهد منهم يقع بصور شتى منها: الطعن في الدين، وسب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وقريظة نقضوا العهد، ودخلوا مع الأحزاب، وطعنوا في الدين وسبوا النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فالذمي إذا طعن في الدين فإنه يقتل، ومن سب الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقتل، يكون قد انتقض عهده هكذا فهم الجمهور، وهنا **قال: ومن هنا أُخذ قتل من سب النبي -صلى الله عليه وسلم-** باعتبار أنه يكون قد نقض العهد مع أن الآية في المقاتلة وفرق بين المقاتلة والقتل، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ} [سورة التوبة:٢٩] إلى آخره، ويقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله))[1]، والفقهاء يقولون مثلا: إن الطائفة التي تنتسب للإسلام إذا امتنعت عن شيء من شرائع الدين فإنها تقاتل، وكذلك في قوله: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي} [سورة الحجرات:٩]، قاتلوا، ما قال فاقتلوا التي تبغي! فالمقاتلة غير القتل، فهنا قال: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} يقاتلون، وإن كان الذي فعل ذلك من أهل الذمة فمثل هذا يكون نقضا للعهد، وإذا نقض العهد استحق القتل، وهنا قال: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} هنا ذكر بعضهم كقتادة: أن أئمة الكفر كأبي جهل وعقبة وشيبة وأمية بن خلف إلى آخره، وهذه الآية نزلت متأخرة يعني كما عرفنا بعد فتح مكة نزلت سورة براءة وأئمة الكفر هؤلاء الذين سماهم قتادة قد ذهبوا وولوا قتل أكثرهم في غزوة بدر، فقاتلوا أئمة الكفر وهم لا شك أنهم أئمة الكفر، لكن هل هم من أراد الله -عز وجل- بهذه الآية: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} إن نكثوا عهدهم؟، أئمة الكفر: الإمام هو المقدم في الناس الذي يتبعه غيره، أو يقتدي به غيره، فهؤلاء الذين يعقدون العهود، وينوبون عن قومهم في المعاهدات وما أشبه هذا، ويقودون الجيوش، هؤلاء كلهم أئمة لقومهم فإذا نكثوا العهد قوتلوا، وليس هؤلاء الذين يقاتَلون فقط، بل يقاتَلون ومَن وراءهم: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فالآية عامة فيدخل فيها أئمة الكفر من المشركين، ويدخل فيها أيضا أئمة الكفر من سائر الطوائف، وذكر أئمة الكفر؛ لأن كسرهم يكون سبيلا لظهور الإسلام وبلوغ كلمة الحق للعالمين، لأن هؤلاء هم الذين يقفون دون ذلك.

{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٣-١٥].

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- من مكة.

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} [سورة التوبة:٥]، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...، برقم (٢٠).

{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا} هذا الاستفهام استفهام توبيخي وهو يتضمن التحضيض والتحريض.

كما قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة الأنفال:٣٠].

وقال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} الآية [سورة الممتحنة:١]، **وقال تعالى:** {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} [سورة الإسراء:٧٦]، **وقوله:** {وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، **قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال، بغيا وتكبرا، كما تقدم بسط ذلك.**

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حتى سار إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

يعني المراد بالبدء أول مرة هل المقصود به يوم بدر هم جاءوا وأرادوا القتال؟ أو في النقض هم الذين بدءوا بالنقض؟، وهذه الآية: {أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ} والذين هموا بإخراج الرسول -صلى الله عليه وسلم- هم قريش، فهذه الآية إذا كانت نزلت متأخرة بعد فتح مكة فيبقى فيها إشكال وهو أن هؤلاء قد قاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وفتح مكة، وأظهر الله -عز وجل- رسوله -صلى الله عليه وسلم- عليهم فكيف جاء التحريض هنا {أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ}؟! قاتلوهم وانتهوا، ولا يمكن أن يقال هنا: {أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} إن المراد به عموم الكفار؛ لأنه قال: {نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ} فالذين هموا بإخراج الرسول -صلى الله عليه وسلم- هم كفار مكة، وهذا الهم معروف قبل الهجرة حينما تواطئوا وتمالئوا وآذوه فتسببوا في إخراجه، هموا بإخراج الرسول مع أنهم في نهاية الأمر أرادوا ألا يخرج، ولكن تضييقهم عليه كان سبباً في إخراجه، وكانت إحدى الأفكار التي يتداولونها بينهم أن يخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم فيستريحوا منه، ثم بعد ذلك تراجعوا عن هذا، والله -عز وجل- قال: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} [سورة الممتحنة:١] وهم كانوا لا يريدونه أن يخرج، ولكن لما ضيقوا عليه كانوا متسببين في إخراجه، وإخراج المؤمنين فنسب ذلك إليهم قال: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ}، فمن أهل العلم من لاحظ هذا المعنى {وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ} وهم كانوا لا يريدونه أن يخرج، كانوا يريدون قتله -عليه الصلاة والسلام-، فبعضهم قال: هذا كان حينما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ليعتمر بعد صلح الحديبية، وأن خزاعة امتنعت ولم تواطئهم على هذا، وكان ذلك سببا لحصول خلاف مقصودهم، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} **يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي.**

هذا الاستفهام هنا {أَتَخْشَوْنَهُمْ} استفهام للتوبيخ والتقريع.

فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعِكْرِمة، والسدي في هذه الآية: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} يعني: خزاعة.

وأعاد الضمير في قوله: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} عليهم أيضا.

قيل: خزاعة باعتبار أنهم قد كُلموا، وهذا السياق كله على هذا التفسير تكون الآيات نازلة قبل فتح مكة، وعامة سورة براءة نزلت بعد ذلك، وكثير منها نزل في غزوة تبوك، وبعد غزوة تبوك، فعلى هذا التفسير -أنهم خزاعة- يكون الكلام كله على أن هذه الآية أو الآيات نازلة قبل فتح مكة، ولذلك فإن الكثيرين من المفسرين لا يتكلمون عن هذا، بل ما رأيت أحدا يتعرض لهذا، ولم أستقصِ، باعتبار أن الآية تتحدث عن شيء كان، لا يصرحون بهذا، لكن عندهم الآية تتحدث عن شيء قبل فتح مكة، وممن قال بأنها في خزاعة مجاهد وعكرمة والسدي، ومما يدل على هذا هنا: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}، {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} قيل: خزاعة باعتبار أن خزاعة كانوا على الإسلام، وهذا فيه خلاف بين أهل السير، وأنهم قد كُلموا وقتلوا:

*** وقتلونا ركّعاً سجداً

فكانوا في غاية الحنق وجاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال قائلهم القصيدة المشهورة المعروفة، وقال الله: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}، ولو قيل: إنها لا تختص بخزاعة، إن كانت خزاعة على الإسلام فهم من جملة المؤمنين الذين يحصل لهم الشفاء،

تَعلَّم شفاءَ النفسِ قهرَ عدوها ***

فيحصل التشفي بقهر الأعداء؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٠]، فهذا نوع من التشفي أن يهلك الله العدو وأنت تنظر، وأبلغ من هذا أن يكون هلاك العدو على يد عدوه، قال: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} بالفتح وانتكاسة العدو وهزيمته، وقتل الكفار فيحصل به التشفي، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} لا حاجة أن يقال: لخزاعة فقط بل خزاعة وغير خزاعة من أهل الإيمان، يذهب الحنق الذي في النفوس يذهب بالانتصار على الأعداء، وقهرهم ودحرهم وقتلهم، {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} وهذا يحصل بالنصر عليهم، وقتلهم، والعلماء -رحمهم الله- منهم من تكلم على الفرق بين الأمرين شفاء الصدور وذهاب غيظ القلوب، فبعضهم قال: هذا للتأكيد، هذا بمعنى هذا، وهناك فرق بين شفاء الصدر وبين ذهاب الغيظ، فشفاء الصدر أبلغ من ذهاب الغيظ، وبعضهم قال: شفاء الصدور يكون بالنصر وظهور الإسلام، وذهاب الغيظ بقتلهم، من انتقم من عدوه فإنه بذلك يكون قد ذهب ما فيه من الحنق والكمد والغيظ على هذا العدو، وهذه أمور يبدو أنها متلازمة، قال: **وأعاد الضمير في قوله: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} عليهم أيضا**، قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ} أي من عباده، فالأول والذي قبله

مجزوم، {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ} باعتبار أنه جواب للشرط إذا قاتلتموهم عذبهم الله، {يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ} الأشياء التي ذكرها هنا نتيجة القتال تعذيب الله -عز وجل- لهم بأيديكم، وإخزاؤهم، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، هذه خمسة أشياء وكلها مجزومة هي نتيجة لمقاتلتهم، ثم جاء ما بعده مرفوعا قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ} فــ {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء} ليست نتيجة لمقاتلتهم، فالخمسة الأولى هي نتيجة للمقاتلة {قَاتِلُوهُمْ} تَحصُلْ هذه الفوائد الخمس، ثم قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء} يعني هذا يذكر الله -عز وجل- فيه ما سيكون في المستقبل في علم الغيب من دخول بعضهم في الإسلام، كما دخل أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو العامري، والحارث بن هشام، وعكرمة، وأمثال هؤلاء كلهم قد أسلموا كما قال الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة الممتحنة:٧]، وكما جاء عن ابن عباس وغيره أن "عسى" من الله واجبة، يعني لابد أن يتحقق، فأسلم من أسلم من هؤلاء ومنهم أبو سفيان -رضي الله عنه-، فهنا قوله: {وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} يعني بدخولهم في الإسلام كما قال ابن جرير وغيره.

{وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} أي: من عباده، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بما يصلح عباده، {حَكِيمٌ} في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٦ إلى الآية ٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٦].

يقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ} أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب، ولهذا قال: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [سورة العنكبوت:١-٣] **وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}** [سورة آل عمران:١٤٢]**، وقال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} الآية** [سورة آل عمران:١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده، من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا} "أم" هذه هي المنقطعة التي بمعنى "بل"، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ}، {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ} فالله -تبارك وتعالى- عالم بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ومثل هذا يراد به العلم الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لا يعذب خلقه بمقتضى علمه، فالله -جل جلاله- علم منذ الأزل كل من سيخلق ويوجد، وعلم ما هو عامل، ولكن الله -عز وجل- من لطفه ورحمته وكمال عدله لا يعذب بمقتضى هذا العلم الأزلي، والله -جل جلاله- لا يتجدد له علم بشيء كان خافياً عليه إطلاقاً، ولا يحاسب خلقه ولا يعذبهم إلا بأعمالهم، فمثل هذا {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} يعني العلم الذي يترتب عليه الجزاء، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} [سورة محمد:٣١]، يعني العلم الذي يكون بعد تحقق الوقوع وهو مناط الجزاء، هذا هو المراد في هذا ونظائره، والله تعالى أعلم، قال: {وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} قال الحافظ ابن كثير -رحمه

الله- في معنى الوليجة: **أي بطانة ودخيلة،** كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فإنه يقال له: وليجة، وقد فسر بالبطانة، وهذا صحيح، فالذي يدّعي الإيمان ويظهر الإيمان ويكون له وجه إلى الكفار يتخذهم ويجعل منهم خاصة له يطلعهم على أمور المسلمين، ويظهر لهم مواضع الضعف في الأمة، أو بجعلهم إما مستشارين له أو مقربين إليه يطلعون على أمور ما كان ينبغي لهم أن يطلعوا عليها فهذا من اتخاذهم وليجة، لا تُدنِهم ولا تقربْهم، ولا تدخلهم ولا تطلعهم على شيء من أمور المسلمين الخاصة، أمّا مجرد تقريبهم بحيث إن هذا التقريب يطلعهم على أمور ما كان ينبغي لهم أن يطلعوا عليها كأن تتخذه كاتباً، أو مستشارا أو في مركز يمكنه من الاطلاع على كثير من الخبايا والخفايا فهذا لا يجوز، وهذا من اتخاذهم وليجة، أو كان ذلك بالإفضاء إليهم، يجعلهم جلساء وخاصة له، ويطلعهم ويخبرهم فهذا كله لا يجوز، وهو من موالاتهم، عبارة ابن كثير هنا يقول: **أي بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر** يعني الآية **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً}** وإنما يتخذ من أهل النصح لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- أهل الصدق والإيمان.

{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [سورة التوبة:١٧-١٨].

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: "مسجد الله" فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك.

{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} أي: بشركهم، {وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}، وقال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة الأنفال:٣٤].

هنا في قوله: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ}** مثل هذا الاستعمال تارة يرد في الممتنع شرعاً مثل قول الله -عز وجل-: **{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ}** [سورة التوبة:١٢٠]، وتارة يأتي في الممتنع عادة، وتارة يأتي في الممتنع عقلا، فالله -عز وجل- يقول: **{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ}** [سورة الأحزاب:٤٠]، **{مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}** [سورة النمل:٦٠]، فالسياق هو الذي يبين المراد، وهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}** أي أن ذلك لا يقع منهم، ولا يتأتى منهم، ولا ينتظر منهم؛ لأنهم على الضد من ذلك، **{أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ}** فهم ليسوا بكفء ولا أهل لهذا، **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}** إنما تكون عمارة المساجد من قِبل أهل الإيمان، وقوله هنا: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا**

{مَسَاجِدَ اللَّهِ} قرء الجمهور {مَسَاجِدَ اللَّهِ} بالجمع، وهناك قراءة أخرى أشار إليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي متواترة قرأ بها أبو عمرو وابن كثير {أن يعمروا مسجد الله}، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن مسجد الله المراد به المسجد الحرام ذكره بعض السلف، بل إن من أهل العلم من قال: إن {مَسَاجِدَ اللَّهِ} عبر به عن المسجد الحرام بناء على القاعدة المعروفة أنه قد يعبر بالجمع عن المفرد والعكس، فقالوا: إن {مَسَاجِدَ اللَّهِ} بمعنى مسجد الله، والحسن البصري -رحمه الله- وجه هذا باعتبار أن المسجد الحرام هو قبلة المساجد، فمن عمر المسجد الحرام فهو عامر لسائر المساجد، ومساجد الله جمع، ومسجد الله أيضا مفرد مضاف، والمفرد المضاف يفيد العموم، فيمكن أن تكون القراءتان بمعنى واحد، إما باعتبار أن مسجد الله بمعنى الجمع، أو عكس هذا أن {مَسَاجِدَ اللَّهِ} يقصد به المسجد الحرام، والذين قالوا: إن المقصود بهذا هو المسجد الحرام نظروا الى أن الآيات تتحدث عن المشركين الذين كانوا يفتخرون بعمارة المسجد الحرام كما قال الله -عز وجل-: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [سورة التوبة:١٩]، فإذا كان هذا هو المراد فهنا احتاجوا إلى أن يقولوا: إن {مَسَاجِدَ اللَّهِ} بمعنى المسجد الحرام هذا هو السبب، وهذه الآيات وإن كانت تتحدث عن المشركين الذين افتخروا بعمارة المسجد الحرام إلا أن ظاهرها العموم، فهي فيهم وهم السبب المتعلق بنزولها، ولكن العبرة بعموم اللفظ، إذا حملنا ذلك على العموم، فيقال: هذا فيهم وفي غيرهم ممن يفعل المتناقضات، ويحارب دين الله -عز وجل-، ويسعى في الأرض فساداً ثم بعد ذلك يدعي أنه يبني المساجد ويعمرها، ويفاخر بها وما أشبه هذا، وهذا موجود في بلاد كثيرة، تجد حرباً لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتجد في المقابل من يبني مسجداً تحفة معمارية هائلة ويأتيه السواح عراة يتفرجون عليه من أقطار الدنيا، تحفة معمارية للسياحة تنفق فيه أموال هائلة في بلاد يطحنها الفقر، وهذا الذي بناه يحارب الدعوة إلى الله، ويحارب الدعاة، ويحارب العلماء، ويحارب الحجاب، ويحارب الإسلام والمسلمين، فهذا تناقض، والعمارة يدخل فيها العمارة الحسية ببنائها وتشييدها من غير مبالغة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن تشييد المساجد وبنائها للمباهاة، ويدخل فيها العمارة المعنوية عمارة المساجد بذكر الله -عز وجل-، وإقام الصلاة، وما شابه ذلك من المعاني التي بنيت المساجد من أجلها، إقامة ذكر الله -عز وجل- في الأرض، فهذا كله من عمارتها، والمشركون على خلاف هذا، فكيف يعمرون المساجد عمارة حسية؟!

وأيضا إن نظرنا إلى المشركين في مكة الذين تتحدث عنهم الآيات هؤلاء {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} [سورة الأنفال:٣٥]، تصفيق وتصفير هذه عمارة المسجد الحرام عندهم، والشرك بالله -عز وجل- وتلبية شريكه كما تعرفون، "لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك"، فهذا هدم للمساجد وليس ذلك من عمارتها في شيء.

مسألة: بناء الكافر للمسجد: بمعنى أنه يتبرع ببناء مسجد، فمن أهل العلم من يقول: إن هذا لا يفعله الكافر؛ لئلا يكون له منة على المسلمين، ومثل هذه القضايا ينظر فيها إلى المصلحة، ينظر فيها إلى المصالح الشرعية، فقد يتخذ المسلمون مسجداً بناه لهم الكفار يعني لو أن المسلمين في بلاد الكفار تبرعت لهم البلدية أو الجامعة التي يدرسون فيها ببناء وقالوا: هذا مسجد لكم صلوا فيه، فيُصلَّى فيه ولا يقال: لا، نحن نبنيه، أو

نشتريه بمالنا، فمثل هذا يقبل ويصلى فيه، لو قالوا لهم: هذه كنيسة ما صار يأتيها أحد، خذوها وغيروا معالمها واجعلوها لكم مسجداً فهذا لا إشكال فيه، لكن لو أن أحدا من الكفار جاء وقال في بلاد المسلمين وفيهم أهل غنى ويسار قال للمسلمين: أنا أريد أن أتبرع ببناء مسجد يمكن أن يقولوا له: لا نريد منك مسجداً، نحن في غنى عنك، يمكن أن يقولوا هذا، لكن لا يجب عليهم هذا الجواب، والآيات هنا تتحدث عن أناس يفتخرون أنهم أهل للدين وأهل مكة، وأهل عبادة و أهل عمارة المسجد الحرام يقولون: ماذا صنعتم أنتم؟ نحن أهل السقاية والرفادة، ونحن أهل الحرم والعمارة، فالله رد عليهم بهذا الاعتبار، وأما دخول الكفار إلى المسجد للبناء كأجير عامل، أو مهندس صوتيات أو نحو هذا فهذا لا إشكال فيه، يجوز ولا يحرم، وسيأتي قول الله -عز وجل-: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [سورة البقرة:١١٤]، لكن ليس المعنى أنه يحرم دخول الكافر المسجد ليس هذا معناه، لكن هناك صور يمنعون منها مثل إذا جاء هؤلاء العراة، الحفاة من الدين، إذا جاءوا يتفرجون ويتسكعون في بلاد المسلمين يريدون أن يدخلوا هم ونساؤهم المتبرجات العاريات ويتفرجوا على المساجد، والمساجد القديمة، كما يقولون: التراث الإسلامي يقال لهم: لا يدخل هؤلاء هذه المساجد، ففرق بين هذا وهذا، فالكافر يجوز أن يدخل المسجد إما أن يكون بنّاء أو يكون هذا الكافر يريد أن يسمع أو يرى المسلمين، فبعض الناس قد يأتي بكافر معه يقول: أريده أن يتعلم الإسلام، يريد أن يرى المسلمين وهم يصلون، وهم يفطرون في رمضان وهم كذا فهذا لا إشكال فيه، وهذا يقع كثيرا في البلاد التي فيها جاليات وكذا، يأتى بكافر وهذا يأتي بصاحبه، وهذا يأتي بشخص يعرفه لعله يسلم ويرى المسلمين وما يعملونه بالمسجد فلا إشكال في هذا، بل حتى المسجد النبوي حرم المدينة لا يمنع من دخوله الكفار، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وجبير بن مطعم في المسجد، وجاء وفد نجران للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وقيل: إنه أسكنهم بالمسجد، الآن إذا قلنا العمارة محمولة على هذا وهذا واعتبرنا أو قلنا بالمجاز: فالعمارة التي هي بالمعنى الحقيقي تصدق على العمارة الحسية أي البناء، وكون عمارة المساجد بالذكر والصلاة وكذا من قبيل المجاز فعلى القول بالمجاز ما ذكرناه من أن العمارة تشمل هذا وهذا يكون هذا من قبيل حمل اللفظ على معنييه الحقيقي والمجازي وهو أحد وجوه الجمع بين الأقوال في التفسير المشترك، يحمل على معنييه أو معانيه إذا لم يوجد مانع، وكذلك الحقيقة والمجاز عند القائل به إلى غير ذلك من الصور المتعددة.

ولهذا قال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} فشهد تعالى بالإيمان لعُمار المساجد، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه.

هنا سقطَ حديث من الأصل عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان))[1]، وقوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ} من تمام الحديث وتخريجه هو الذي قال فيه رواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه، فهذه سقطت ولكن لابد منها.

وهذا الحديث لا يصح.

وقال عبد الرازق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم يقولون: ((إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها))[2].

وقوله: {وَأَقَامَ الصَّلاَةَ} أي: التي هي أكبر عبادات البدن، {وَآتَى الزَّكَاةَ} أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، {وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ} أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، {فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، {وَأَقَامَ الصَّلاَةَ} يعني: الصلوات الخمس، {وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ} يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: {فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [سورة الإسراء:79] **يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل "عسى" في القرآن فهي واجبة.**

هنا يقال كقوله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وهكذا أيضا الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، لكن كثيراً ما يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الدافع والمحرك للإنسان من أجل العمل، والامتثال والوقوف عند حدود الله -عز وجل-، وهكذا في ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكذلك الصيام والحج لكنه كثيراً ما يكتفي بهذا للأمور التي ذكرناها، الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين بين حسن صلته مع الله، وبين إحسانه إلى المخلوقين، فهنا أيضا في قوله: {فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، وقال: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} أي سيبعثك، **وكل "عسى" في القرآن فهي واجبة**، وعسى من المخلوق ليست واجبة؛ لأنها قد تحصل وقد لا تحصل، لكن القرآن جاء بلغة العرب، ومن عادة العرب أن الملوك والعظماء يأتون بالوعد بقولهم: "عسى أن نعطيك ما أردتَ"، "عسى أن يحصل لك ما قصدتَ"، وهم يقصدون بذلك الوعد، فـــ "عسى" من الله واجبة هذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أيضا، بمعنى أنها متحققة الوقوع، يعني إذا قال الله -عز وجل- عسى أن نفعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فهذا أمر متحقق الوقوع، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة

---

1 - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (2617)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، برقم (802)، وأحمد في المسند، برقم (11725)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (509).

2 - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (2943)، وعبد الرزاق في المصنف، برقم (20584).

الممتحنة:٧]، وحصل هذا بإسلام أبي سفيان وسهيل بن عمرو العامري، وأمثال هؤلاء كصفوان بن أمية وكذلك أيضا {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} [سورة المائدة:٥٢]، وكل ذلك قد تحقق، فإذا قال الله مثل هذا: عسى الله أن يفعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فالله -عز وجل- لا يترجى {فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}؛ لأن أصل "عسى" للترجي، والله لا يترجى؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، عالم بكل شيء، وإنما يترجى المخلوقُ الذي لا يدري هل يحصل أو لا يحصل هذا الشيء؛ لهذا السبب يقولون: "عسى" من الله واجبة، فالترجي لا يكون إلا لمن لا يعلم عواقب الأمور، ومن أهل العلم من يحمل مثل هذا على قاعدة أن الكلام قد يرد باعتبار أو بالنظر إلى حال المخاطب يعني مراعى فيه حال المخاطب، وله صور منها: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤] يعني على رجائكما، باعتبار نظر المخلوق كما سبق، وكذلك ما يرد للشك على القول بأن "أو" للشك {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧] يعني الناظر إليهم من المخلوقين يحزرهم هكذا، {مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} على هذا القول، ويمكن أن يكون بالنظر إلى المخاطب، والأحسن أن يقال: "عسى" من الله واجبة، وأن هذا جاء على طريقة العرب في الكلام أن العظماء والملوك حينما يتكلمون يُخرجون الكلام بهذه الصيغة ويقصدون به الوعد المتحقق.

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة التوبة:١٩-٢٢].

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد, وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعُماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ} [سورة المؤمنون:٦٦-٦٧] يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال {بِهِ سَامِراً} كانوا يسمرون به ويهجرون القرآنَ والنبيَّ -صلى الله عليه وسلم-، فخَيّر الله الإيمان والجهاد مع النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به، قال الله تعالى: {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

هذه الآية رد على المشركين، وإنكار عليهم حيث افتخروا، وفضلوا ما هم فيه من العمل وسقاية الحاج على من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ} يعني أنهم يسمرون بالبيت ويقولون كلاماً قبيحاً في القرآن، وفي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهنا: {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} نفي الاستواء هنا يدل على تفضيل الطائفة الثانية، {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} يعني أهل الإيمان أفضل منهم، {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني المصرين على ظلمهم، وإلا فإن الله -عز وجل- قد هدى كثيراً من الظالمين

والكافرين فمثل هذا يحمل على هذا المعنى، -والله أعلم-، وقيل غير ذلك، يعني بعضهم يقول: الذين سبق في علمه أنهم أشقياء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله -عز وجل-: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ -إلى قوله- وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبلُ ما كان في الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج، فأنزل الله {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} الآية.

هذا الأثر مرسل.

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلابد من ذكره هنا، روى عبد الرزاق عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر -رضي الله عنه- وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذلك يوم الجمعة-، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألناه، فنزلت {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -إلى قوله- لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ}[٣].

هنا ثلاث روايات في سبب النزول تأملوها ونريد أن نعرف ما هو سبب النزول منها:

الأولى: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- نزلت في العباس بن عبد المطلب حينما أسر يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني قال الله -عز وجل-: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ}، هذه الرواية غير صحيحة، وغير صريحة في سبب النزول، وإنما مما يدخل في معناها العباس بن عبد المطلب.

والثانية: عن الضحاك بن مزاحم: لمّا أنّبوا العباس، وهي رواية ضعيفة.

والثالثة: في صحيح مسلم في الرجلين من المسلمين اللذين قالا ما قالا فنزلت الآية، لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا هو سبب النزول.

ولو فرضنا أن رواية على بن أبي طلحة صحيحة مثلا، أو أن رواية الضحاك بن مزاحم صحيحة يمكن أن يقال: الحادثتان متقاربتان، فإن كان عندنا علم بأن الحادثتين متقاربتين نقول: الآية نزلت بعد الحادثتين، وإذا لم يكن عندنا علم بهذا فنقول: إن كان الزمان متقارباً فقد نزلت آية بعد آية، وإن كان الزمان متباعداً فيمكن أن تكون الآية نزلت مرتين، ومن أمثلة ما يحتمل أن تكون الآية نزلت مرتين أو أن الزمان متباعد قصة هلال بن أمية وعمير العجلاني كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))[٤]، فإن

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٨٧٩).

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦).

كان نزل عليه الحكم -حكم اللعان- فلن يقول له: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))، وكلاهما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، فدل ذلك على أن الآية نزلت بعد الواقعتين، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٢٣-٢٤].

أمر الله تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباءً أو أبناءً، ونهى عن موالاتهم إذا {اسْتَحَبُّوا} أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} الآية [سورة المجادلة:٢٢].

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} الآية[1].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا} أي: اكتسبتموها وحصلتموها {وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا} أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا} أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وروى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد، عن جده قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه))، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله: ((الآن يا عمر))[2]، انفرد بإخراجه البخاري.

---

١ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٨٢٩١)، وقال: وجعل أبوعبيدة يحيد عنه.

٢ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٢٥٧).

وروى الإمام أحمد وأبو داود -واللفظ له- عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم))[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ}** أورد المصنف -رحمه الله- ما رواه البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة.... إلى آخره، وفيها أن سبب نزول الآية هو أن أبا عبيدة -رضي الله عنه- قتل أباه في يوم بدر، وهذا لا يثبت ولا يصح، وليس بسبب لنزول الآية، وقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ}** إلى آخر ما ذكر، في الأولى قال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء}** والإنسان يتقوى بآبائه ويعتز بهم، ويستنصر بإخوانه؛ فذكر الآباء والإخوان في الموالاة، وفي الآية التي بعدها: **{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ}** العلماء في مثل هذا يذكرون بعض التوجيهات التي من أجلها قدم هذا على هذا، وهذه ليست بقاطعة، ولكن منها ما يكون ظاهراً، ومنها ما يكون خفياً، والكلام فيه لا يخلو من التكلف، ومما ذكر في هذا أن الله -عز وجل- ذكر الآباء أولاً؛ لأنهم أصل الإنسان الذين يعتز بهم، فالإنسان يعتز بآبائه فابتدأ بذكرهم هنا، ثم ذكر الأبناء؛ لأنهم امتداد له ويتفرعون منه، وهم زينة الحياة الدنيا، ولشدة علوق القلب بهم، ثم ذكر الإخوان؛ لأنهم يلونهم في القرب، ولأن الأخ هو الناصر، وذكر بعده الأزواج، فالأزواج عنهن عوض، فلسن كالآباء والأبناء والإخوان، فهؤلاء لا عوض عنهم، وذكر الزوجات من ضمن هؤلاء؛ لأن الإنسان يحب زوجته، ولربما كانت سببا لترك كثير مما أمره الله -عز وجل- به كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** [سورة التغابن:١٤]، وكما ذكرنا من قبل أن هذه العداوة الجالب لها المحبة، فزوجته لربما من شدة محبتها له تثبطه عن كثير من الأعمال الصالحة من الجهاد في سبيل الله، والحج، والعمرة، أو الهجرة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ذكر العشيرة وهم رهطه وقومه الأدنوْن، قيل: الذين يتفرعون إلى الجد العاشر، عشيرة وهذه اللفظة تدل على المعاشرة والمخالطة، فالناس حينما كانوا مع قبائلهم وفيهم فالذين تكثر مخالطته لهم هم الأقرب إليه من هذه القبيلة، وهم عشيرته، فهذا يدل على كثرة المخالطة والمعاشرة، فهو يحبهم ويأنس بهم، وهم قريبون منه، ثم بعد ذلك ذكر الأموال التي اكتسبوها **{وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا}**، وأصل الاقتراف الاقتطاع، اقتطاع الشيء من مكانه يقال له: اقتراف، وهذه اللفظة تدل على معنى الدنوّ، فالكاسب والمقترف يُدني هذا المكسب إلى نفسه، ويدخله تحت ملكه، **{وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا}**، فقدم الأموال التي اقترفوها على التجارة التي يخشون كسادها فالأموال التي حصلوها هي أعلق بقلوبهم من التجارة التي يرجون نفعها فهذا شيء حصلوه فهو بمنزلة رأس المال، وأما التجارة فالمنتظر فيها الربح، ومن غرائب التفسير التي تذكر في

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، برقم (٣٤٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٢٣).

هذا ما جاء عن ابن المبارك -رحمه الله- أنه فسر التجارة التي يخشى كسادها بالأخوات والبنات، يعني أنه يهاجر فيترك أخواته أو بناته ثم بعد ذلك لا يتزوجن، وكذلك لربما هاجر معهن فينتقل إلى بلاد يكون غريباً فيها ثم تبقى بناته وأخواته لا يتزوجن، وهذا لا تُحمل عليه الآية، ولا يقال للأخوات والبنات: إنهن تجارة، مع أنه يقال لبقاء البنت أو الأخت التي لم تتزوج، يمكن أن يقال في كلام العرب: إنها كسدت، لكن لا تسمى تجارة، فالله -عز وجل- يقول هنا: {وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا}، ثم بعد ذلك ذكر المساكن التي يرضونها المساكن الطيبة المريحة فهذا آخر هذه الأمور، وما قبله لربما يكون أكثر شغلاً وتعلقا بالقلب منه، هكذا ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والله تعالى أعلم.

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة:٢٥-٢٧].

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من سورة براءة.

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه -إن شاء الله تعالى- مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

هنا ما نقله عن مجاهد من أن هذه أول آية نزلت من "براءة"، والكلام في أول ما نزل وآخر ما نزل مرجعه إلى النقل ممن شهدوا التنزيل، وبهذا الاعتبار إذا قال التابعي: إن هذه أول آية نزلت فإن هذا يكون له حكم المرسل، والمرسل من أنواع الضعيف، بهذا الاعتبار هذه أول آية نزلت من "براءة"، و"براءة" لم تنزل جملة واحدة، وهذه الآية: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} من الآيات التي مر ما قد يفهم منه أنها نزلت قبل فتح مكة كما قال الله -عز وجل-: {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [سورة التوبة:١٣-١٤]، وأما هذه الآية فصريحة أنها نزلت بعد فتح مكة وغزوة حنين، فالله تعالى أعلم، وهنا يقول الله -عز وجل-: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} المواطن جمع موطن وهي مقامات الحرب كيوم بدر وغيرها مما نصر الله -عز وجل- به المسلمين، {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} الرحب هو المكان الواسع، والرحب يعني السعة {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} يعني على سعتها {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ} هذه حال الإنسان المنهزم:

وضاقت الأرضُ حتى ظن هاربهم *** إذا رأى غيرَ شيء ظنه رجلا

فالشاعر يصف حال المنهزمين: حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شيء يعني يظن أنه مقاتل أو فارس يطارده،

فهنا ضاقت بما رحبت، والناس يقولون: على الرحب والسعة، والرحب يعني المكان الواسع، يعني لو قالوا: على الرحب -والرحب يعني على السعة والمكان الواسع- فيؤدي نفس المعنى:

فما زلتَ تحسب كلَّ شيء بعدهم *** خيلاً تكر عليهم ورجالا

هذا يصف حال المنهزم.

وقد كانت وقعة: "حُنين" بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ -عليه السلام- من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري...

"النضري" ليس من بني النضير، وإنما هو مالك بن عوف النضري، وهو قائد هوازن، ومَن جاء معهم من ثقيف، وكان قائدهم غير مالك بن عوف، لكن القائد العام هو مالك بن عوف النضري وإلا فإن مع هوازن من بني عبد ياليل، ومعهم آخرون من بني جشم، وكان معهم قائد كبير عمره مائة وعشرون سنة وهو دريد بن الصمة الشاعر المعروف كان فارساً، وداهيةً، ورجلا مجرباً، ولم يكن فيه غناء من جهة الحرب لضعفه وكبر سنه، وكان أعمى لكن جيء به للانتفاع برأيه، لما جاءوا به سأل عن المكان وسأل عما فعل مالك بن عوف فقيل له: إنه أمر الناس أن يخرجوا بأموالهم ونسائهم وكل شيء، فجعلوا النساء والأطفال خلف الجيش، وجعلوا خلفهم الإبل والبقر والغنم بحيث إن الإنسان يموت دون أهله وماله، فلما قالوا لدريد بن الصمة نبر بنغمة يعني أصدر صوتا من شفته يستهزئ، وقال: راعي غنم، وذكر أن هذا لا يصلح؛ لأن الرجل إذا انهزم فإنه لا يرده شيء، المنهزم لا يلوي على شيء، فمالك بن عوف أبى وهددهم إن لم يقبلوا كلامه أن يقتل نفسه! فالحاصل أنه حصل ما حصل وانهزموا الهزيمة المعروفة وكان دريد يقول:

ليتني فيها جَذَعْ *** أخُبُّ فيها وأضع

لذلك قتل بعد المعركة، أسر ثم ضربت عنقه وهو شيخ كبير أعمى، والسبب أنهم كانوا يستفيدون من رأيه في الحرب، جاءوا به من أجل هذا.

وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له: "حنين"، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن.

حنين في شرق مكة، يبعد عن مكة حوالي "٣٠" كيلو، وأنت متجه من جهة عرفة طريق الطائف إلى مكة تأتيك الشرائع بعد ثلاثين كيلو تقريبا أو "٢٨" كيلو، هناك وادي حنين منسوب إلى قرية هناك وبئر.

فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله -عز وجل.

هؤلاء كانوا رماة عُرفوا بهذا، لا تكاد تخطيء لهم رمية، فجاءت النبال كأنها مطر تزعزعه الريح، والمسلمون على غفلة ما ظنوا أن هؤلاء قد وُجدوا في هذا المكان، وكمنوا لهم في الوادي، فصاروا أمام سيل من مطر من النبال فتقهقرت دوابهم، وتقهقر الناس وانهزموا وما بقي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في بعض الروايات إلا تسعة، وقيل غير ذلك، ثم بعد ذلك دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أهل الشجرة، وأهل سورة البقرة، فعطفوا عليه عطف البقر على أولادها، قالوا: لبيك لبيك، وكان الرجل منهم إن لم يطاوعه بعيره من شدة الهلع من كثرة النبال والرماح والحراب نزل فتركه.

وثبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوِّه باسمه -عليه الصلاة والسلام-، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: إليَّ يا عباد الله، إليَّ أنا رسول الله"، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب**

وهذا منتهى الشجاعة، راكب على بغلة لا تحسن الكر والفر، ولا تسرع، بغلة، والبغلة لا تستعمل لمثل هذا للإغارة على العدو أو الخلاص منه والفرار لأنها تدرَك بسرعة، وينوِّه باسمه في هذا الموقف الرهيب، والنبال والناس انهزم الشجعان "١٢" ألفا انهزموا، وما بقي معه إلا نحو تسعة وهو يقول:

أنا النبي لا كذب *** أنا ابن عبد المطلب.

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون.

والذين ثبتوا في أول الأمر تسعة أو عشرة، وذكر الحافظ في الفتح كلاماً من هذا، وذكر بعض الأبيات التي افتخر بها من افتخر منهم، وكذلك في السيرة لابن هشام وفي غيرها، ثم بعد ذلك تتابع الناس، وتكاثروا، وثبت معه الذين رجعوا لما دعا وقال: يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، جاء معه عدد عشرات من الناس، وثبتوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتكلم من تكلم ممن خرج في هذه الغزوة ممن هم حدثاء عهد بالإسلام، وبعضهم لم يسلم مثل صفوان بن أمية كان موجوداً في هذه الغزوة، خرج وخرج أبو سفيان وخرج مُسلمة الفتح، وصفوان خرج ينظر في هذه الغزوة ولم يخرج مقاتلاً، ومعه أخ له لأمه فلما نظر إليهم منهزمين، قال: الآن بطل سحر محمد، والله لا يردهم إلا البحر، فقال له صفوان بن أمية: اسكت قطع الله لسانك، أو قال: فض الله فاك لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، يعني من باب العصبية أن يسودني رجل من قريش أحب إلى من أن يسودني رجل من هوازن ثم بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه -رضي الله تعالى عنه.

فمنهم: أبو بكر، وعمر -رضي الله عنهما-، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم -رضي الله عنهم.

هذا أبو سفيان بن الحارث هو الذي يهجوه حسان بن ثابت كان من أشد الناس عداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو من أكثرهم شبها به في الخلقة، الذين يشبهون النبي -صلى الله عليه وسلم- الفضل بن عباس

وأبو سفيان بن الحارث، وهوشديد الشبه به، وكان شديد العداوة جداً، والهجاء الذي تعرفونه من كلام حسان -رضي الله عنه- في هذا وليس في أبي سفيان بن حرب قائد قريش:

ألا أبلغْ أبا سفيان عني *** فإنك مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ *** فشرُّكما لخيركما الفداء.

يقصد أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم.

ثم أمر -صلى الله عليه وسلم- عمه العباس -وكان جهير الصوت- أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة -يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه.

هذا هو الراجح: قيل بايعوه على الموت، والراجح أنهم بايعوه أن لا يفروا.

فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فرجعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما رجعت شرذمة منهم، عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-...

الشرذمة يعني فئة قليلة، والناس يتوهمون كثيرا أن الشرذمة يعني الطائفة المذمومة، وليس كذلك، مثل كلمة **{هَلَكَ}** يظنونها تعني المعنى المذموم، وليس ذلك صحيحاً، إنما تعني: فارقَ الدنيا **{حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** [سورة غافر:٣٤].

أمرهم -عليه السلام- أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: "اللهم انجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

حينما رجعت الطائفة التي هي الخلاصة والصفوة، والتي تربت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحاب الشجرة أصحاب سورة البقرة، كما حصل في حروب الردة في قتال مسيلمة يوم اليمامة تقهقر الناس وانهزموا، فجاء خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فكان الأعراب هم الذين في أول الصفوف، فأبعدهم وجاء بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أهل بدر، فوضعهم في الصفوف الأولى في الصف الأول فانتصروا.

وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما-، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم حنين؟، فقال: لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوما رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب *** أنا ابن عبد المطلب(٤)

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفرٍّ ولا لكرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين-، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} أي: طمأنينته وثباته على رسوله، {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي: الذين معه.

يعني من المحتمل أن الله أنزلها على بقية المؤمنين، على الجيش الذين معه فبعد ذلك حصل لهم الثبات ورجعوا وتتابعوا، ويحتمل أن يكون المراد {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} يعني الذين رجعوا إليه فصبروا وقاتلوا معه حتى حصل الانتصار.

{وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف -هو ابن أبي جميلة الأعرابي- قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بَرْثَن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم حنين لم يقوموا لنا حَلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

العلماء اختلفوا في قتال الملائكة، والراجح أنه لم يحصل قتال من الملائكة إلا في يوم بدر، وأما ما عدا ذلك من المواطن فكانوا يثبتون المؤمنين، ويقذفون الرعب في قلوب الكافرين.

وقوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدِموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما.

يعني قوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يحتمل أن يكون المراد {يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:١٠٢] يعني الذين انهزموا {يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}، فكما قال الله -عز وجل- في الذين انهزموا في يوم أحد أو كادوا {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [سورة آل عمران:١٥٥]، فهنا {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} يمكن أن تفسر بهذه الآية، يتوب على من انهزم، والمشهور عند المفسرين -ولعله هو المتبادر والله تعالى أعلم-، أنه لما ذكر هوازن وما حل بهم، ومن جاء معهم وأنه عذبهم قال {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} يعني منهم، فأسلموا وجاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- طائعين منقادين وأسلم قائدهم مالك بن عوف النضري لما لجأ إلى حصن الطائف

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، برقم (٢٧٠٩).

وحاصر النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- حصنَ الطائف، ويذكر أهل السير أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كتب إليه سراً ووعده، فالرجل تسلل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الحصن وجاء إليه وأسلم ومدحه بقصيدة.

فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة.

هم جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك وتكلموا معه، وذكروا له قصيدة يستعطفونه -صلى الله عليه وسلم- بها، ويذكرون رضاعته عندهم، وما حل بهم من قدر الله -تبارك وتعالى-، وما حصل بهم من البلاء والمصيبة التي نزلت، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- خيرهم بين أزواجهم وأولادهم، وبين أموالهم، فقالوا: خيرتنا بين أموالنا و أحسابنا، أو قالوا: أعراضنا فاختاروا الأولاد والنساء فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بردها إليهم بعدما فُرقت يعني ابن عمر -رضي الله عنه- كان أخذ امرأة، وذهب بها إلى أخواله من أجل أن يصلحوها له فكان يطوف بالبيت وإذا برجل يأتي إليه يشتد ويقول: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رد إلينا نساءنا وأولادنا.

هو جاء بهم خلف الجيش، كانوا مجتمعين ما يحتاج أن يذهبوا إليهم في بيوتهم، في ميدان المعركة ستة آلاف.

فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل.

يعني أعطى أبا سفيان بن حرب مائة، وأعطى معاوية مائة، وأعطى صفوان مائة، وأعطى رجلا ما بين جبلين غنماً، فكان ذلك سببا لإقبالهم عليه -عليه الصلاة والسلام-، ومحبتهم له حتى قال قائلهم: إنه -صلى الله عليه وسلم- يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إنْ رَأيتُ ولا سَمعتُ بمثْلِه * في النَّاس كُلّهم بمثل مُحَمَّد**

أوْفَى وأعْطَى للجزيل إذا اجتُدى * ومَتى تَشَأ يُخْبِرْكَ عَمّا في غَد**

هذا البيت غير صحيح، والرجل حديث عهد بالإسلام، فلا يعلم ما في غد إلا الله، وتعرفون خبر الجاريتين كن يقلن:

أتيناكم أتيناكم *** فحيونا نحييكم

ولولا الحبة السمراء *** ما جئنا بواديكم

ثم لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- قلن:

*** وفينا نبي يعلم ما في غد

فنهاهن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: لا يعلم ما في الغد إلا الله، وأمرهن أن يَعُدن على ما كن يقلنه من الكلام الأول، فهذا كان حديثَ عهد بالإسلام، مثلما قال حديثو العهد الذين كانوا معه حينما ذهب إلى

حنين، ومروا على سدرة فقالوا: ((اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط))[٥]، والإنسان في مثل هذه الأمور يعذر بالجهل مثل حديث العهد بالإسلام يعذر بذلك.

وإذَا الكتيبة عَرّدَتْ أنيابها * بالسَّمْهَرِيّ وَضَرْبِ كُلّ مُهَنَّد**

فَكَأنَّه ليث على أشْبَاله * وسط الهَبَاءة خَادر في مَرْصَد**

وهذا وقع أيضا في نفوس الأنصار -رضي الله عنهم- حينما لم يعطهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ووَكَلهم إلى إيمانهم، فقال بعضهم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لقي قومه فأعطاهم ولم يعطنا، وسيوفنا ما زالت تقطر من دمائهم، فجمعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لهم كلامه المعروف -عليه الصلاة والسلام-: ((يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟))، كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: ((ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم؟))، قال كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: ((لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)) [٦].

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء لتركبن سَنَن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٨٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٥٤٠٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٢٨ إلى الآية ٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [سورة التوبة:٢٨-٢٩].

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين، الذين هم نَجَس دينًا، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام**، يعني أن المؤمنين جمعوا بين الطهارتين الطهارة الحسية فالمؤمن لا ينجس، والطهارة المعنوية وهي أنهم على الإيمان والهدى والحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والكفار قال الله -تبارك وتعالى- عنهم: إنهم نجس، فيقول ابن كثير هنا: الذين هم نجس دينا يقصد أن نجاستهم معنوية باعتبار أنهم مشركون محادون لله -عز وجل-، متبعون للباطل، فهذا معنى كونه نجساً، ولذلك يقال: إن بدن الكافر طاهر، وهو الذي عليه الجمهور منهم الأئمة الأربعة، خلافا للظاهرية وما روي عن الحسن البصري الذين قالوا: إن نجاستهم حسية! وهذا غير صحيح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أو قبل ذلك الله -تبارك وتعالى- أباح التزوج من المرأة الكتابية، ولو كانت نجسة لما جاز التزوج منها كيف يقارفها وهي نجاسة؟، وكذلك أيضا طعام أهل الكتاب حل لنا ولو كانت نجاستهم حسية لما حل، وكذلك أيضا النبي -صلى الله عليه وسلم- توضأ من مزادة مشركة، ودعته يهودية إلى طعام، وكذلك في يوم خيبر لما دعته اليهودية على شاة مصلية، فكل هؤلاء كفار ومع ذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأكل طعام أهل الكتاب، وكان يتوضأ من مزادة المشركة، فهذا كله يدل على أن نجاستهم نجاسة معنوية، وليست حسية، بمعنى أنك لو مسست الكافر وهو رطب فإنك لا تحتاج إلى أن تغسل يدك، أو تعيد الوضوء، كما نقل عن بعضهم أنه إذا صافح الكافر توضأ!، فهذا نقل عن بعض السلف وهم قليل إلا أن الجمهور على خلاف هذا، فـــ"نجس" هذا مبالغة في وصفهم بالنجاسة، كأنهم عين النجاسة، وبعضهم يقول: على تقدير "ذوو نجس" إنما المشركون ذوو نجس، ولا حاجه لمثل هذا -والله أعلم-، {إِنَّمَا

{الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} كأنهم هم عين النجاسة، واعتبر هذا بما يقوله كثير من المأفونين المفتونين الذين يستكثرون على الكافر أن يقال له: كافر هذه لغة القرآن {نَجَسٌ}.

وكان نزولها في سنة تسع.

يعني {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} الراجح أن المقصود {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} أي بعد سنة تسع لأن الآيات قرئت على الناس بذلك الحين في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- خلافا لمن قال: إن المراد سنة عشر {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}، وهذا في غاية البعد، فالمقصود أنهم حجوا سنة تسع مع المسلمين، فكان ذلك آخر العهد {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} يعني بعد سنة تسع حيث حجوا فيها مع المسلمين.

ولهذا بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليًّا صحبة أبي بكر -رضي الله عنهما-، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك، وحكم به شرعا وقدرا.

وروى عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} إلا أن يكون عبدًا، أو أحداً من أهل الذمة.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}.

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح: ((المؤمن لا ينجس))[1].

قوله هنا: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ} قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة، قال روى عبد الرزاق عن جابر في قوله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} بمعنى أنه إذا كان عبداً أو أحداً من أهل الذمة، على هذا القول يجوز له أن يدخل الحرم، يدخل المسجد الحرام، وهذا أحد الأقوال في المسألة، والأقرب أنه لا يجوز لهم دخول الحرم ولا المسجد الحرام بظاهر هذه الآية {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} فهذا يشمل ما إذا كان هذا المشرك عبداً أو كان من أهل الذمة فلا فرق، ونقل عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه قال: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، هنا الله -تبارك وتعالى- قال: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، ولم يقل: سائر المساجد فيوقف عنده، عند ظاهره بحيث يمنعون من دخول المسجد الحرام، أما بقيه المساجد فالآية لا تدل على هذا، والذين عمموها وقالوا: إنها تشمل سائر المساجد نظروا إلى العلة، ما العلة في منع دخولهم إلى المسجد الحرام؟ هو ما ذكر قبله قال: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، (فلا يدخلوا) فـــ"الفاء" هذه تدل على أن ما بعدها مرتب على ما قبلها، وهذا الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإيماء والتنبيه أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً في نظر العقلاء،

---

١ - رواه البخاري، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، برقم (٢٨١)، ومسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، برقم (٣٧١).

فلا يدخلوا المسجد الحرام؛ لأنهم نجس، فهذه النجاسة علة مانعة من دخولهم سائر المساجد التي هي محل الطهر والطهارة من هذا الباب، لهذا السبب عممها بعض أهل العلم باعتبار أن العلة قد تعمم وقد تخصص.

وقد تُخصص وقد تُعمم*** لأصلها لكنها لا تخرم

فهذا مثال عند القائل بهذا القول على أن العلة تعمم، الحكم المعلول، ومنعُ المشركين من دخول المساجد عموما -منع الكفار من دخول أي مسجد- هو قول معروف للمالكية، والشافعي -رحمه الله- فرق قال: يجوز أن يدخلوا للحاجة ليس في الحرم، وإنما في المساجد أن يدخلوا للحاجة، وأما ما يروى عن أبي حنيفة فهو أنه أطلق أنه يجوز لحاجة وبغير حاجة، بل حتى في المسجد الحرام هذا مروي عنه -إن صح- حتى في المسجد الحرام أنه يجوز لهم أن يدخلوا فيه، وقال الآية: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، يعني الحج، وإن القضية في منعهم من الحج أن لا يحجوا مع المسلمين، ((أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان))[٢]، هكذا فهم -رحمه الله-، رأيتم كيف العلماء يفهمون؟ رأيتم كيف يختلفون؟ والآن لو جاء وقال: يجوز للمشرك أن يدخل الحرم، فإنه يُشنع عليه وربما يتهم في دينه، ويتهم في عقله، ويتهم في علمه، على أن هذا القول مرجوح لا يصح، والراجح أنه لا يجوز لهم أن يدخلوا المسجد الحرام لا أهل الذمة ولا غير أهل الذمة، حتى ولو كان مملوكاً أو أجيراً أو خادماً أو غير ذلك، ومن أهل العلم من خص المسجد الحرام بالمسجد نفسه أما الحرم فقال: يجوز لهم أن يدخلوا فيه، وهذا غير صحيح، وإنما يطلق المسجد الحرام على المسجد وعلى الحرم كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح:٢٥] يعني عن الحرم، و{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [سورة الإسراء:١] على أحد الأقوال المشهورة أنه الحرم إلى غير ذلك مما يأتي من إطلاق المسجد الحرام مراداً به منطقة الحرم كلها فهم لا يدخلونها، ومن السلف كقتادة من فرق بين الذمي وغير الذمي، فقال: أهل الذمة يجوز لهم أن يدخلوا الحرم، والمسجد الحرام، وغير الذمي من المشركين لا يجوز له أن يدخله، فهذا خلافهم فيما يتعلق بالحرم، وأما ما يتعلق بدخولهم جزيرة العرب فخلافهم في هذا أكثر، فمنهم من قال: اختلفوا في تحديدها أصلا هل هي الحجاز فقط، وهذا قال به طائفة من أئمة السلف، ومنهم من حدد جزيرة العرب بحد أكبر من البحر إلى البحر شرقاً وغرباً، و جنوباً وشمالا من البحر إلى أطراف الشمال، ولكن ذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب))[٣]، وقال: ((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب))[٤]، فهل المقصود بهذا أن يخرج من كان مستوطنا فيها مثل اليهود الذين في خيبر والنصارى الذين في نجران مثلاً أو نحو هذا؟ أو المقصود به كل يهودي ونصراني ومشرك حتى لو كان أجيراً أو عبداً أو مملوكاً أو نحو هذا؟

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، برقم (١٥٤٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب جوائز الوفد، برقم (٢٨٨٨)، وبرقم (٢٩٩٧)، في أبواب الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم (١٦٣٧).

٤ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٨٥٣١)، ومالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، برقم (١٥٨٤)، وابن أبي شيبة في المصنف، برقم (٣٢٩٩٢)، وعبد الرزاق في المصنف، برقم (٩٩٨٤).

إذا نظرت إلى فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وفعل الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم تجدهم لم يفعلوا ذلك، يعني عمر أخرج اليهود من خيبر لكن بقي النصارى واليهود في نجران، اليهود كانوا موجودين إلى عهد قريب، يعني يحتمل من خمسين سنة في نجران وفي الأحساء، وفي اليمن لا زالوا موجودين وهي من جزيرة العرب على أحد التفسيرات، لم يخرجهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا الخلفاء الأربعة، فمثل هذه القضايا تحتاج إلى شيء من الفقه والفهم والتروي، ولا يقال: إن الصحابة عجزوا عن هذا مثلا، كانوا في ضعف، الخلفاء والدولة الأموية والعباسية والعثمانية كلها كانت في ضعف ما قويت، والآن الأمة قوية وممكَّنة وعندها قدرة أن تفعل ما لم يستطيعوا فعله في القرون المتطاولة خلال الألف والأربعمائة سنة، عندها ثبات الدين، والقوه في اليقين والغلبة على العدو والقهر أنها تستطيع أن تفعل هذا ولم يستطيعوا أن يفعلوه؟! أو أن المراد غير هذا، وإذا كان عمر -رضي الله عنه- كان له وجهة نظر سياسية وهي أن المدينة يوضع عليها سور ما يدخلها أحد من الأعاجم، لا يدخلها أحد من هؤلاء، نظرة سياسية أن تبقى المدينة رمزاً فالشاهد أنه ما وافقه على هذا بعض الصحابة كالعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن عباس، فترك رأيه وصاروا يأتون، فالمغيرة بن شعبة جاء بقيْنٍ -صانعٍ حدّادٍ- هو أبو لؤلؤة المجوسي إلى المدينة، وهو الذي قتل عمر -رضي الله عنه-، جاء به الصحابة إلى المدينة، وليس إلى مكان آخر، فكانوا يأتون بهؤلاء الخدم والعبيد والأرقّاء إلى المدينة، وغير المدينة بكثرة، لما طعن عمر قال للعباس وقال لابن عباس: كنت أرى ألا يدخلها كذا فقال له: إن شئت أخرجناهم وقتلناهم قال: هيهات بعد أن تكلموا لغتكم، ودانوا دينكم، اختلطوا مع الناس وامتزجوا، لكن كان يؤتي بهم أي السبايا والأسرى يؤتى بهم إلى المدينة، المقصود من هذا ليس التبرير لتصرفات كثير من الناس حيث إنه يأتي بخادمة مثلا مشركة، نحن نقول: لا تأتِ بها، أو سائق كافر نقول لا تأتِ به، لكن في المقابل يحتاج الإنسان أن يكون عنده فقه في النظر إلى مثل هذه الأشياء، ولا ينظر إليها بجهل أو هوى، وإن كان جاهلاً لا يتكلم، فكثير من الأحيان الإنسان لو نظر إلى قول يخالف قوله لربما اتهم القائل بعقله، بينما تجد هذا القول قال به كثير من السلف، وكذا مسائل الحج، فالذي يعتقده الإنسان شيء يعني أنا اعتقد أنه لا يجوز الرمي قبل الزوال، والمبيت بمنى واجب، ولا يجوز الخروج من عرفة قبل الغروب، وأن السعي ركن، كل هذا الكلام أعتقده، لكن أعلم أنه يوجد من قال بأن السعي سنة!! وأن المبيت في منى سنة، وأن المبيت بمزدلفة سنة، أئمة كبار معتبرون، ويوجد من يقول بأنه لا يجب أن يكون الرمي بعد الزوال، ويجوز الخروج من عرفة قبل الغروب، وهم أئمة كبار، و لذلك فمن الناس من لو وجد من يقول بأن السعي بين الصفا و المروة سنة كان يقول: هذا يربط ويضرب بمقاريع على رأسه حتى ينطحن الحب الذي في رأسه، بهذه اللغة؟ وهذا غير صحيح، فرق بين من يتكلم بهوى أو جاهل وبين من اجتهد وبذل وسعه في الاجتهاد، واتقى الله قدر استطاعته، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فرق بين هذا وبين هذا، ثم هناك فرق بين الإنسان الذي يتبين له رأي أو مسألة من المسائل وبين أنه يبدأ يحكم بمقتضى هذا الرأي ويطبق فهذه مشكلة أخرى كبيرة!!.

والكلام في قضايا الخلاف وما أشبه ذلك الذين يتكلمون فيها للأسف منهم من يتكلم بهوى بحيث يريد أن يضيع حقائق الدين ويحتج أنه فيه خلاف، فيه أقوال تدل عليها الدليل، وفيه شيء يخالف الدليل، فيريد أن

يضيع حقائق الدين بحجة أنه فيه خلاف، فيحتج بالخلاف على تضييع حقائق الدين وهذا غلط، فأحياناً تحتاج أن تذكر مثل هذا الكلام الذي سمعتموه الآن، لكن ممكن الكلام نفسه يقوله صاحب هوى، ومن الفهم والفتاوى ترى أنها ليست فيه، بل قيل عكس هذا تماماً، وترى العلماء كثر، هذا يقوله ناس وجعلوا العامة في لبس وحيرة، فتنة للناس، فالعامة لا يخاطبون بهذه الطريقة إطلاقاً، العالم يجتهد بعيداً عن الهوى فإذا أداه اجتهاده إلى شيء من هذا فلا يعاب ولا يذم، وأما إذا تكلم الإنسان بجهل أو بهوى، ولو كان عنده علم فهذا لا يقبل منه، ويرد عليه -والله أعلم-، فالحاصل أن عطاء هنا يقول: **الحرم كله مسجد** {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} يعني فلا يقربوه.

وقوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتُقْطَعنّ عنا الأسواق، ولتَهلكنّ التجارة وليذهبنّ ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} من وجهٍ غير ذلك {إِنْ شَاءَ} إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية.

وهكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرِمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

يعني الآن {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} عيلة يعني الفقر لمّا يمنع هؤلاء الكفار من المجيء إلى الحجن كانوا يأتون معهم من أنحاء الجزيرة يأتون بالبضائع والأسمان والأزباد و غيرها من البوادي، ومن الحواضر فخاف المسلمون أن ينقطع ذلك عنهم، ويسبب لهم هذا ضيقا في الحال، فوعدهم الله -عز وجل- بالإغناء من فضله، بأن يفتح لهم أبواباً أخرى سواء كان ذلك من الجزية أو كان ذلك بإنزال الغيث، وإخراج الأرض النبات، وما يحصل من البركات، أو غير ذلك من الأسباب فلا يخص ذلك بسبب دون سبب، والله أعلم.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ} أي: بما يصلحكم، {حَكِيمٌ} أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره -تبارك وتعالى-؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد -صلوات الله عليه-، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}.

{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} هذه الآية -والله تعالى أعلم- مختصة بأهل الكتاب كما هو ظاهر، ولهذا ذهب الشافعي وأحمد إلى أن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب، ومن أُلحق بهم وهم المجوس، وأما غير أهل الكتاب فإنهم لا تؤخذ منهم الجزية، بالقتال أو الإسلام، خلافاً للإمام مالك -رحمه الله- ومن وافقه الذين قالوا: تؤخذ من عموم الكفار حتى المشركين، واختلفوا في تفصيلات أخرى هل تؤخذ من نصارى العرب أو لا؟.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحر، وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامَه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله.

وقوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} أي: **إن لم يسلموا،** {عَنْ يَدٍ} أي: **عن قهر لهم وغلبة،** {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: **ذليلون حقيرون مهانون.**

{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} الجزية قيل: إنها من جزى يجزي، بمعنى كافأ يعني كأنها في مقابل الحماية التي تحصل لهم من المسلمين، فيدفعون هذا المال إزاء هذا المطلب، فالمسلمون يوفرون لهم الحماية، وهم يدفعون مقابل ذلك هذه الرسوم التي يقال لها: الجزية، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، فسروه بهذا وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنها بهذا الاعتبار، ومن أهل العلم من فسرها بغير هذا فقالوا: الجزية هي الطائفة، قطعة أو جزء من المال، جزية جزء من المال يدفعه أهل الذمة، بمعنى يجزوه أي يقضوه للمسلمين، يعني قضاء، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، ومن الفقهاء ابن قدامة، {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} **قال:** أي **إن لم يسلموا** يعني يعطوا الجزية قال: {عَنْ يَدٍ} أي: **عن قهر لهم وغلبة،** وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- {عَنْ يَدٍ}، وبعضهم قال: يعني عن يد مواتية غير ممتنعة {عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وهذا كأنه فيه بعد، وبعضهم قال: {عَنْ يَدٍ} يعني أن يسلمها بيده غير مستنيب، لا يستنيب أحداً، لماذا لا يستنيب أحداً؟ ليكون ذلك إذلالاً له، كل واحد يأتي بجزيته بنفسه ما في أحد يقول: يرسل الخادم ولا يرسل السائق، ولا يرسل طرفا آخر يؤديها عنه، لا، لابد أن يأتي هو بها فلا يستنيب كما قال ابن جرير: من يده إلى يد الأخذ مباشرة ما في وسيط، ولا يضعها في صندوق ولا يضعها في حساب، وإنما يدفعها يسلمها بيده مباشرة؛ لأن هذا فيه شيء من الإذلال ولا يخفى، وبعضهم يقول: {عَنْ يَدٍ} يعني نقداً ما يدفعها مقسطة، وبعضهم يقول: {عَنْ يَدٍ} يعني منكم، أنتم تفضلتم وتكرمتم بقبولها منهم، وما قتلتموهم أو أخرجتموهم، فهذا تفضل منكم {عَنْ يَدٍ} يعني منكم تجاههم أي إنعام صادر منكم، وهذا بعيد غاية البعد، وقوله هنا: {عَنْ يَدٍ} أي: **عن قهر لهم وغلبة،** قال: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي

ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم عن المسلمين إلى آخره، فبعض أهل العلم قال: **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** أي يأتي بها ماشياً، ويدفعها بنفسه ما يركب وهو قادم بها!! إذلالا، وبعضهم قال: لابد أن يشعر بالمهانة والذلة بحيث إنه يُترك فترة ينتظر، يعني يشعر بالاستخفاف، ولهذا قال الإمام أحمد: يستحب أن يشعر بالمهانة أو بالذلة أو نحو ذلك؛ لأن الله قال: **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** ما يأتي مكرماً ومعززاً ويستقبل وتؤخذ منه، يأتي بها وهو صاغر ويدفعها، وبعضهم قال: يكون الآخذ جالساً والمعطي واقفا، وبعضهم يقول: يدفعها هكذا يعني يكون الآخذ يده فوق والمعطي يده أسفل ؛ لأن ((اليد العليا خير من اليد السفلى))[٥]، والعادة أن اليد التي تعطي هي اليد العليا، قال: لا **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** لابد أن يكون هكذا، وبعضهم قال أكثر من هذا قال: يُترك فترة حتى يشعر بالمهانة ثم يُجر!!.

ولا يساء إليهم بهذه الطريقة بتَلْتلتِهم وكذا، وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن هذا ليس هو المطلوب، وإنما المقصود أن التزامه بأحكام الملة وجريان الجزية عليه هذا هو الصغار، والذل فــ **{يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** خلاص قبل أن يدفع هذه الجزية، ومن الصور التي يحصل بها مثل هذا أن يأتي بها بنفسه مثلا كما قال بعض السلف، فهو لا يُعزَّز ولا يكرم.

فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه))[٦].

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا.

يعني هذا على لسان النصارى، كتبوه لعمر.

وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قِلاية ولا صَوْمَعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خُطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا، ولا ندعو إليه أحدًا؛ ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، برقم (١٣٦١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، برقم (١٠٣٣).

٦ - رواه الترمذي، كتاب السير عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، برقم (١٦٠٢)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم (٧٦١٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٠٤).

إذا كانوا لا يبنون كنيسة جديدة، ولا يجددون القديمة، فمعنى ذلك أن المسألة مسألة وقت سيضمحل هذا كله، أماكن العبادة التي أقاموها ولا يجددون شيئاً منها ولا يبنون شيئا جديداً ثم يتلاشون وينتهون يعني هذه المسألة مسألة الجيل الموجود ينقرض وينتهي، والبقية يذوبون مع المسلمين، ويدخلون في الإسلام، أو يبقون بدون دور عبادة؛ لأنها ستندثر وتتهدم ولا يجددونها.

وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف.

يعني ما يركبون الخيل ولا يتقلدون، العرب من عادتهم تقلد السيف يضعون السيف كالقلادة، فهذه عادتهم والعجم يربطون حزاما ويكون بجانبه السيف، فلا يتشبهون بالمسلمين بتعليق السيف على صدورهم.

ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجزَّ مقاديم رءوسنا، وأن نلزم زِينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا.

الزنار معروف هو حزام عريض يضعه النصارى يلبسونه بطريقة معينة، ويكون نازلاً من إحدى الجهات يتميز به النصارى، ليس الحزام الذي يلبسونه على البنطال.

وألا نظهر صُلُبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيفاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظَفْنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

هذه الشروط العمرية معروفة، ومشهورة، وفي بعض رواياتها أكثر من هذا راجعوا أحكام أهل الذمة، وهذا رد على الذين يقولون: الإسلام دين التسامح والمحبة، فإذاً الإسلام دين العزة، والعدل والقوة والقهر لأعداء الله -تبارك وتعالى-، لكن المسلمين إن كانوا ضعفاء فيأخذوا بالرخص من العفو والصفح والإعراض والصبر وما أشبه ذلك، وإذا كانوا أقوياء طبقوا عليهم مثل هذه الأشياء، والله المستعان يعني هناك فرق كبير بين أن نغير دين الله نمسخ دين الله ونكذب على الله، وبين أن نقول: هذا ليس وقته هذا كله حق وهذا هو الدين لكن الأمة ضعيفة لا تستطيع أن تطبق هذه الأشياء، فالمصلحة تقتضي أن المسلمين يكونون في مرحلة مثل المرحلة المكية، {كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [سورة النساء:٧٧]، إلا إذا اعتدى الكافر عليهم في بلادهم فيجب دفعه بكل مستطاع، فرق بين أن نقول هذا وبين أن نقول لا، الإسلام ما فيه جهاد، ولا فيه قتال، الإسلام دين العفو والصفح والتسامح والمحبة والوئام والسلام، وإذا ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر!! هذا هو الإسلام، والجهاد في سبيل الله هو حماية المشروع الإسلامي، والكلام الفارغ الذي يُكذب فيه

على الله، هذا الكلام ليس صحيحاً، الإسلام دين القوة والعزة والغلبة والقهر لأعداء الله -عز وجل-، لكن هذا إذا كان في المسلمين قوة، أما إذا كانوا ضعفاء فعندئذ الإعراض والصفح والصبر والأخذ بأسباب القوة حتى تتمكن الأمة من أعدائها وتستطيع أن تحمي نفسها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة التوبة:٣٠-٣١].

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفِرْية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في عُزَير -عليه السلام-: "إنه ابن الله"، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وأما ضَلال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: {ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، {يُضَاهِئُونَ} أي: يشابهون {قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} وقال ابن عباس: لعنهم الله، {أَنَّى يُؤْفَكُونَ}؟ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} هذه المقالة أضافها الله -عز وجل- إلى اليهود، ويحتمل أن يكون ذلك من العام المراد به الخصوص، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ} يعني طائفة من اليهود، من العام المراد به الخصوص، وهذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم- ومعروف أن العام منه ما هو عام باقٍ على عمومه، ومنه ما هو عام مخصوص، ومنه ما هو عام يراد به الخصوص، فهذا من هذا النوع الثالث باعتبار أن الذي قال ذلك هو بعض اليهود لا كل اليهود، ويمكن أن يضاف إلى جميع اليهود إذا كانوا يعتقدون هذا وقالوه، أو قاله أحدهم، أو بعضهم، وأقره الآخرون فيضاف إليهم، وهذا كثير في القرآن، ولما كان طوائف اليهود لا تقول بهذا القول، وإنما قال به بعضهم صح أن يقال: إنه من العام المراد به الخصوص، والله تعالى أعلم، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ}، والمرويات الواردة في هذا مأخوذة عن بني إسرائيل، وعامتها يدور على أن عزير جاءهم بالتوراة بعد أن ذهبت حينما غزاهم بُخْتُنَصَّر فلم يبقَ شيءٌ منها، يعني أن بُخْتُنَصَّر أتلفها، مسخ التوراة، وما كانوا يحفظون الكتاب، فجاء عزير بالتوراة على تفاوت في تلك الروايات واختلاف كيف حصل له ذلك، وهل هو الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها؟ ولا يثبت في هذا شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، -والله تعالى أعلم-، فالشاهد أن هذه المرويات الإسرائيلية تقول: إن سبب هذه

المقالة هو أنه جاءهم بالتوراة فبالغوا في تقديسه وتعظيمه، {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} فأضاف القول إلى الأفواه، ويحتمل أن تكون الإضافة إلى الأفواه هنا بمعنى أنه قول لا يجاوز الأفواه، بمعنى أنه لا حقيقة له، كما قال الله -عز وجل-: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة النور:١٥] في قصه الإفك فـ{ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي أنه قول لا يجاوز الأفواه، لا حقيقة له، ويحتمل أن يكون المراد التأكيد، ويسجل ذلك عليهم، كما تقول: كتب ذلك بيده، وتقول: مشيت إليه برجلي، ونظرت إليه بعيني، وقد يكون منه أيضا قوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [سورة الأنعام:٣٨]، {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة:٧٩]، وما شابه ذلك يحتمل أن يكون المعنى في كل موضع ما يناسبه، يعني مثلا {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} يعني قد يعبر بالطائر عن الإسراع، ولا يقصد به الطائر الحقيقي، قد يعبر بهذا فأكده وأرد أن يبين أنه طائر ذو جناحين فقال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} يحتمل هذا، تقول: طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحداناً، يعني أسرعوا إليه، وهنا يقول: {ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ}، يحتمل هذا وهذا، و{يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقول: **أي يشابهون**، هذا صحيح، المضاهاة: هذا يضاهي هذا أي يحاكيه ويشابهه، وقوله: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} هذه الكلمة تأتي للدعاء، وتأتي بمعنى اللعن، وهو عائد إلى الدعاء، "قاتله الله" أي لعنه الله، وقد قال بعض السلف: كل "قاتله الله" في القرآن فهي بمعنى لعنه الله، ثم صار ذلك أيضا يستعمل في كلام العرب للتعجب ولا يقصد معناه، يقال: قاتله الله ما أشجعه!، قاتله الله ما أصبره!، ما أجلده!، ما أحذقه!، ما أحفظه!، فيكون مثل: تربتْ يداه، ورغِم أنفُه، وما أشبه ذلك.

وقوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه-، أنه لما بلغته دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثمَّ منَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقدم عَدِيٌّ المدينة، وكان رئيسا في قومه طيِّئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: "بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم". وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا عدي، ما تقول؟ أيُفرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يُفرك؟ أيفرّك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟))، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: ((إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون))[1].

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥)، وجامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٤/٢١١).

ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

{لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [سورة التوبة:٣٢-٣٣].

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب {أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} أي: ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لابد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل "كافرا"؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [سورة الحديد:٢٠].

ثم قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها))[٢].

روى الإمام أحمد عن تميم الداري -رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر))، فكان تميم الداري يقول: "قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلَّ والصغار والجزية"[٣].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [سورة التوبة:٣٤-٣٥].

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٩٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: {لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [سورة المائدة:٦٣]، والرهبان: عُباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة المائدة:٨٢].

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: ((لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة))، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟))[٤]، وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ((وَمَن الناسُ إلا هؤلاء؟))[٥].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم؛ ولهذا قال تعالى: {لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ *** وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة.

وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال.

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} [سورة التوبة:١٠٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} "صد" هنا تحتمل أن تكون لازمة، وأن تكون متعدية، لازمة بمعنى يصدون في أنفسهم فهم يأخذون -أو يأكلون- أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله في

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "لتتبعن سنن من كان قبلكم"، برقم (٦٨٨٩).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨٣٠٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وبرقم (٨٤٣٣)، ولفظه: "وما الناس إلا أولائك"، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

أنفسهم، ويحتمل أن تكون بمعنى المتعدية، ولا مانع من الجمع بين المعنيين؛ لأنهم يصدون في أنفسهم عن الحق، ويصدون غيرهم من الناس عن اتباعه، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا} هذا الجزء يحتمل أن يكون مرتبطا بما قبله يعني أنه يعود إلى هؤلاء الذين تحدث عنهم {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} يعني أن ذلك من أوصافهم أيضا يأكلون أموال الناس بالباطل، ويكنزون الذهب والفضة، ولهذا قال معاوية -رضي الله عنه- حينما وقع بينه وبين أبي ذر -رضي الله عن الجميع- محاورة واختلاف، فكان أبو ذر -رضي الله عنه- يرى أن ما زاد على حاجة الإنسان أنه كنز يكوى به جبينه وظهره وجنبه، فمعاوية -رضي الله عنه- لما قرأ أبو ذر -رضي الله عنه- هذه الآية قال له: هذه في أهل الكتاب، فأبو ذر -رضي الله عنه-قال: "هذه فينا وفي أهل الكتاب"، فهذه الآية ليست في أهل الكتاب، وإنما هذه الآية عامة، {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} فهي لا تعود إلى الأحبار والرهبان، وإنما هذا كلام مستأنف {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا}، والكَنز أصله في المعنى يرجع إلى الضم والجمع، فكل شيء جمعت بعضه إلى بعض فإن العرب تقول عنه: كنز، ولهذا يقال: مكتنز اللحم مثلا بمعنى مجتمع، وقوله: {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} فذكر هنا الذهب وذكر الفضة، وأعاد الضمير مفرداً، فيحتمل أن يكون الضمير يعود على أحدهما لاعتبار من الاعتبارات، كمن قال: إنه يعود إلى الذهب، الضمير الآن مفرد، ذكر شيئين وأعاد الضمير على أحدهما، يمكن أن يكون عائداً إلى أحدهما فعلاً، وهو الذهب {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} فالذهب العرب تذكره وتؤنثه، فـ {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} يكون عائداً إلى الذهب، والفضة معطوف عليه بهذا الاعتبار، ويحتمل أن يكون ذلك يعود إلى الفضة باعتبار أنها الأكثر في الاستعمال عندهم، فالذهب قليل، وأكثر ما كانوا يتعاطون و يتداولون الدراهم من الفضة، {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} أي الفضة، ويحتمل أن الضمير يرجع إلى الأمرين لكنه أعاده إلى أحدهما اكتفاء بذلك عن الآخر، أو ليدل على الآخر كما سبق في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة:١١]، وهذه الآيات يحتمل أن يكون {انفَضُّوا إِلَيْهَا} باعتبار أن التجارة هي المقصودة، فأعاد الضمير إليها {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}، ويحتمل غير هذا، و هنا يمكن أن يكون أعاد الضمير إلى أحدهما إلى الفضة مثلاً ليدل ذلك على الآخر، وهذا كثير في كلام العرب، يقول الشاعر:

رَماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي *** بريئًا ومن جُولِ الطَّويِّ رماني

يعني بريئين، فهذا معروف في كلام العرب يعود الضمير إلى أحد المذكورَيْن لمعنى من المعاني، وبعضهم يقول: إنه يعود إليهما، والمقصود {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} يعني الأموال يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها، وبعضهم يقول: {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} يعني الزكاة، وهذا فيه بُعد، وبعضهم يقول: إن الذهب والفضة جنسان تحتهما أفراد دنانير ودراهم، {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} يعني باعتبار ما تحت هذا الجنس الذي هو الذهب والفضة كما قال الله –عز وجل-: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} [سورة الحجرات:٩] ما قال: اقتتلا باعتبار أن الطائفتين كل طائفة تحتها أفراد فأعاد الضمير مجموعاً بعد أن ذكر شيئين، والعلم عند الله -عز وجل.

قوله: {وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ} هذا الذي عليه عامة الصحابة -رضي الله عنهم- بل كل الصحابة -سوى أبي ذر- وهو الذي عليه أهل العلم: أن المقصود

من لم يخرج الزكاة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أرسل معاذاً إلى اليمن أخبره بأن يأمرهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوه لذلك فيخبرهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات، ثم ذكر الزكاة، و الإنسان لا يزكي إلا إذا كان غنياً، وهذا الغنى معناه أنه عنده فوق حاجته، والمواريث تكون، إذا كان الإنسان ينفق ما زاد على حاجته لن يكون هناك ميراث، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عندهم أموال، وأخبارهم في هذا مستفيضة عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان وأما ما قد يفهم منه أن الإنسان لا يجوز له أن يدخر شيئاً مثل الرجل الذي توفى من أهل الصفة فوجد أنه قد ترك دينارين، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كَيَّتان))[٦]، فهذا محمول على أنه كان في أول الأمر لضيق الحال والشدة لا يجوز للإنسان أن يدخر فوق حاجته، ثم بعد ذلك رُخص للناس أن يدخروا، وإذا كان الإنسان قد أخرج الزكاة فإن ذلك لا يكون كنزاً سواءً كان فوق الأرض أو في باطنها، قلّ ذلك أو كثر هذا الذي عليه عامة الصحابة وأهل العلم ، أما أبو ذر -رضي الله عنه- فقد اعتذر له بعض الصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم بأنه كان يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم-، جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسمع منه أشياء ثم رجع إلى قومه، وبقي فيهم مده طويلة، وفاته أشياء، فلم يبلغه بعد ذلك الترخيص في هذا -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: إن هذه الآية منسوخة بقوله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [سورة التوبة:١٠٣] والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ولذلك يمكن أن يقال: إن هذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي محكمة وهي في من لم يخرج الزكاة فهو متوعد بهذه العقوبة.

وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة؛ ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقي، روى عبد الرزاق عن علي -رضي الله عنه-، في قوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تَبًّا للذهب، تَبًّا للفضة))، يقولها ثلاثا، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ فقال: عمر -رضي الله عنه-، أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، وقالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ قال: ((لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه))[٧].

وقوله تعالى: {يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما في قوله: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [سورة الدخان:٤٨-٤٩] **أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب -لعنه الله- جاهدًا في عداوة الرسول،**

---

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٨٨)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة عتيبة وبريد بن أصرم، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٢٥٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (٣٢٦٣)، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٣٧).

٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣١٠١)، وقال محققوه: " حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح غير سلم -وهو ابن عطية الفقيمي- فقد لينه الحافظ ابن حجر في التقريب"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٩٠٧).

-صلى الله عليه وسلم- وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا {فِي جِيدِهَا} أي: عنقها {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [سورة المسد:٥] **أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه -كان- في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.**

خص الجباه والجُنوب والظهور فيمكن أن يقال: إن هذه المواضع أشد إيلاماً لما تحويه فهي أعضاء شريفة، وتحوي ما تحوي مما يحصل به شدة الألم إذا حصل إحراقها، ويحتمل أن يكون أراد -والله تعالى أعلم- جميع الجهات تكوى بها جباههم هذا الأمام، وجنوبهم يعني الأمام يدل على الخلف، والظهر يدل على المقدمة، والجبهة على أعلاه، والجنب على الناحية الأخرى الجنب الآخر، يعني أنه يحرق بالنار من كل الجوانب.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ثوبان أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شُجاعًا أقرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك، ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيُقَصْقِصَهَا ثم يتبعها سائر جسده))[٨]، ورواه ابن حبان في صحيحه[٩]، من حديث يزيد، عن سعيد به، وأصل هذا الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه-[١٠].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يَرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار))[١١] وذكر تمام الحديث.

هذا الجزء من الحديث هو الذي استدل به عامة أهل العلم على أن من منع الزكاة بخلا أنه لا يكفر، يعني الله -عز وجل- يقول: {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ} [سورة التوبة:١١] فهذه من الأدلة على أن تارك الصلاة كافر؛ لأن مفهوم المخالفة في الآية أنه إن لم يفعل ذلك فليس من إخواننا في الدين، فهذا في الصلاة، والزكاة لو بقينا مع هذه الآية فقط {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} لفهم منها هذا، فإذا نظرت إلى الأحاديث والنصوص الواردة في الصلاة والزكاة تجد أن الأحاديث الواردة في الصلاة ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة

---

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٣٢/١٤).

٩ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (٣٢٥٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٢٥٥).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (١٣٣٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٨).

١١ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٧).

فمن تركها فقد كفر))[١٢]، ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة))[١٣] إلى غير ذلك، أما الزكاة فمثل هذا الحديث يدل على أنه لا يكفر إن تركها وامتنع منها بخلا؛ لأنه قال هنا: ((ثم يرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى النار)) ولا يمكن أن يرى سبيله إلى الجنة إذا كان كافراً، و الله أعلم.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال: "مررت على أبي ذر بالرَّبَذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟، قال: كنا بالشام، فقرأت: {وَالَّذِينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم"[١٤].

---

١٢ - رواه النسائي، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، برقم (٤٦٣)، والترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ترك الصلاة، برقم (٢٦٢١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، برقم (١٠٧٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٣٠٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٤٣).

١٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، برقم (٨٢).

١٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** [سورة التوبة:٣٦].

روى الإمام أحمد عن أبي بكرة -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب في حجته، فقال: ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان))، ثم قال: ((أي يوم هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس يوم النحر؟))، قلنا؛ بلى، ثم قال: "أي شهر هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس ذا الحجة؟)) قلنا: بلى، ثم قال: ((أي بلد هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: ((أليست البلدة؟))، قلنا: بلى، قال: ((فإن دماءكم وأموالكم -قال: وأحسبه قال: وأعراضكم- عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه))[١] ورواه البخاري[٢] في التفسير وغيره، ورواه مسلم[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ}** المراد بـــ"كتاب الله -عز وجل-" هنا اللوح المحفوظ، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)) من أهل العلم من قال: المراد به أنهم كانوا يتلاعبون بأشهر السنة، فمنهم من جعل السنة ثلاثة عشر شهراً، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بهذه الآية، **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ}**، فأبطل ذلك وأقر الشهور وأبقاها على ما خلق الله -تبارك وتعالى-، ومن أهل العلم من يقول: كانوا يتلاعبون بالشهور بمعنى أنهم يؤخرون محرم إلى صفر، وصفر إلى ربيع الأول، وربيع

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٣٨٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٢ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٦٥٤).

٣ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩).

الأول إلى الثاني وهكذا، فلما حج النبي -صلى الله عليه وسلم- في تلك السنة كان عندهم لربما شهر ذي الحجة يقع في شهر محرم، فلما حج النبي -صلى الله عليه وسلم- كان شهر ذي الحجة في ذي الحجة، ووقعت حجته في شهر ذي الحجة، وبعضهم يقول: وقع ذلك في حجة أبي بكر ثم استمر ذلك و أبطل ما كان عليه عمل أهل الجاهلية من إنساء الشهور ابتداء من حجة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وبعضهم يقول: إن المراد أن الحجة التي وقعت للنبي -صلى الله عليه وسلم- كانت في وقت الاعتدال بين النهار والليل، فالليل مساوٍ للنهار ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)) يعني معتدلا طول الليل كطول النهار، فيحصل النقص والزيادة في بعض الأوقات في السنة صيفاً وشتاءً، وبعضهم يقول غير هذا.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السَّخاوي في جزء جمعه سماه "المشهور في أسماء الأيام والشهور": أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرا محرما، وعندي أنه سمي بذلك تأكيدا لتحريمه؛ لأن العرب كانت تتقلب به، فتحله عاما وتحرمه عاما، قال: ويُجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم.

بمعنى أنهم كانوا يستطيلون ثلاثة أشهر محرمة، ما يصبرون، أي ذو القعدة يقعدون فيه ما ينطلقون ولا يحصل منهم غزو ولا غارة، وفي الحج يحجون فيأتيهم محرم وهم يتلمظون على الغارات، ولربما حصل لهم شيء من المسغبة والحاجة؛ لأن كثيراً منهم يعيش على الغارة والنهب والسلب، فيطول عليهم الأمر ثلاثة أشهر بلا نهب ولا إغارة، وذلك قوام عيش كثير منهم فيتلاعبون بشهر محرم، يجعلونه في صفر، ويجعلون صفر هو المحرم، وهي فرصة أيضا ثمينة أن الحجاج يرجعون فينهبونهم ويغيرون عليهم، غنيمة باردة.

صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار.

يعني كأن البيوت تكون صفراً من أهلها، ينتشرون بعدما تنتهي أشهر التحريم، هم يستطيعون أن يسافروا في أشهر التحريم لكن المقصود الإغارة، فهذا يدل على كثرة ما يقع من ذلك عندهم، تخلو البيوت.

يقال: صَفِرَ المكان: إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال.

وشهر ربيع أول: سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع الإقامة في عمارة الربع، ويجمع على أربِعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربِعة، كرغيف وأرغفة.

الارتباع الإقامة في عمارة الربع، يعني الدار يرتبعون أي يقيمون فيها.

وربيع الآخر: كالأول.

وجمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولابد من دورانها، فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيلَةٍ منْ جُمادى ذَاتِ أَنْدِيَة * لا يُبْصِرُ العبدُ في ظَلماتها الطُّنُبَا**

لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غَير وَاحدَةٍ * حَتَّى يَلُفَّ عَلَى خُرْطُومه الذَّنَبَا**

الآن بهذا الاعتبار إذا قيل: إن جمادى؛ لتجمد الماء، ومعروف أن جمادى قد يكون في الصيف، وأن شهر رمضان مثلاً؛ لشدة الحر، وقد يأتي رمضان في الشتاء، فيقول هنا: **وكانت الشهور في حسابهم لا تدور،**

يعني دائماً جمادى في البرد ورمضان في الحر الشديد، لكن هذا فيه إشكال بهذا الاعتبار! ربيع قبل جمادى والربيع يكون بعد الشتاء، يقول: **وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولابد من دورانها فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد** يعني سمي في وقت كانت الأجواء بهذا الاعتبار، فرمضان شديد الحر فسمي بهذا، وهكذا، ثم استمر هذا ولو صار جمادى في شدة الحر ورمضان في شدة البرد، والعلم عند الله -عز وجل-، ومثل هذا لا يترتب عليه عمل.

ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وحُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة.

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورِجَاب، ورَجَبات.

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعْبانات.

ورمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رمضت الفصال: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانات ورَماضين وأرْمِضَة قال: وقول من قال: "إنه اسم من أسماء الله"؛ خطأ لا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام.

شوال: من شالت الإبل بأذنابها للطراق، قال: ويجمع على شَوَاول وشَوَاويل وشَوَّالات.

القَعدة: بفتح القاف -قلت: وكسرها- **لقعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة.**

الحِجة: بكسر الحاء -قلت: وفتحها- **سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.**

أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحاد ووحود، ثم يوم الإثنين، ويجمع على أثانين، الثلاثاء: يمد، ويُذَكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابيع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس، ثم الجمعة -بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضا- ويجمع على جُمَع وجُمُعات.

السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع؛ لانتهاء العدد عنده، وكانت العرب تسمي الأيام أول، ثم أهون، ثم جُبَار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر -من العرب العرباء العاربة المتقدمين-:

أُرَجِّي أن أعيشَ وأن يَومِي * بأوّلَ أو بأهونَ أو جُبَارِ**

أو التالي دُبَار فإن أَفُتهُ * فمؤنس أو عروبةَ أو شيارِ**

وقوله تعالى: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: "البَسْل"، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديدًا.

وأما قوله: "ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبيّن -صلى الله عليه وسلم- أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحُرِّم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو

المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول.

وقال تعالى: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحج:٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا} الآية {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} في كلِّهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعَظم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة في قوله: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذِكْرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فَعَظِّموا ما عظّم الله، فإنما تُعظَّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وخلاصة ما ذكر في مرجع الضمير في قوله: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} أنه يرجع إلى الأشهر جميعاً، {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} يعني في كلهن، والمعنى الثاني وهو المشهور الذي عليه الجمهور {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} يعني الأشهر الحرم، وهذا هو الأقرب، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولا يقال هنا: إن مفهوم المخالفة {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} أي في الأشهر الحرم، يعني أنه يجوز أن يظلم الإنسان في ما عدا الأشهر الحرم، وإنما لحرمة هذه الأشهر فإن الظلم يقع فيها، فإذا وقع فيها فإنه يكون أشد من سائر الشهور، {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} أنفسكم بالقتال، و استباحة ما حرم الله -تبارك وتعالى.

وقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} أي: جميعكم، {كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} أي: جميعهم، {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

واعلموا أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ} الآية [سورة المائدة:٢]، وقال: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} الآية [سورة البقرة:١٩٤]، وقال: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} الآية [سورة التوبة:٥٠].

وأما قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} فهو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}

[سورة البقرة:١٩٤]، وقال تعالى: {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} الآية [سورة البقرة:١٩١].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا كأنه يرد على من قال: إن الآية منسوخة، {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} يعني بقتال فنُسخت، نُسخ تحريم القتال عند بعض أهل العلم، بعضهم يقول: بهذه الآية: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً} يعني في كل زمان، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن معنى {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً} أي جميعا، {كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً}، وهنا ابن كثير -رحمه الله- قال: إنّ {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً} تحمل على أن المراد إنْ بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام، ثم بعد ذلك بدء يرد على الأدلة الأخرى التي استدل بها من قال بأن حرمة الأشهر أو القتال في الأشهر الحرم أن ذلك قد نسخ، ومن أهل العلم من يقول: إن الآية منسوخة بآية السيف.

وإذا قال ابن كثير -رحمه الله-: "الأشهر أنه منسوخ" لا يعني أنه يرجح هذا، إذا قال: الأشهر كذا لا يعني أنه يرجحه.

أما حصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم، لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يبتدئ قتالهم بالشهر، وهم الذين أعدوا الجموع واجتمعوا لحربه -صلى الله عليه وسلم- وخرجوا من الطائف، فإذا كان مثل هذا فإنه لا يمتنع القتال، ويقاتلون، وهذا لا يدل على أنه منسوخ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قاتلهم في شوال، وشوال ليس من الأشهر الحرم، ثم استمر القتال، وهذا من الأدلة التي يستدل بها من قال: إن القتال في الأشهر الحرم منسوخ، وهذا الجواب عنه.

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:٣٧].

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضَبِية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله: الأشهر الأربعة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} قال: النسيء أنَّ جُنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى "أبا ثُمَامة"، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال، فيحله للناس، فيحرم صفرا عاما، ويحرم المحرم

عاما، فذلك قول الله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} إلى قوله: {الْكَافِرِينَ} وقوله {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} يقول: يتركون المحرم عاما، وعاما يحرمونه.

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} أصل لفظة النسيء من الإنساء وهو التأخير، يعني حينما يؤخرون المحرم إلى صفر فهذا من الإنساء، وقوله: {زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} يعني زيادة على كفرهم بالله -تبارك وتعالى- هم كفار مشركون، ومع ذلك يأتون بهذا التبديل والتغيير لدين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عن {زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، بالبناء للمجهول على قراءة الكوفيين، و قراءة الباقين {يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} والمعنى على القراءتين يضلهم الشيطان، يضلهم به رؤساؤهم وكباراؤهم وشياطينهم، {يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي يذهبون عن الحق والصواب وملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وهذه الآية تدل على أن الكفر وأن الكفار على مراتب في كفرهم وشدته وغلظه، فإضافةً إلى الإشراك بالله -عز وجل- يكون عندهم جرائم أخرى يعذبهم الله -عز وجل- عليها، ولهذا قال الله تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [سورة المدثر:٤٢-٤٥] وما أشبه هذا من الآيات والنصوص التي تدل على هذا المعنى.

وإنساؤهم للأشهر الحرم لم يكن على طريقة واحدة، يعني تارة يغيرون كل الأشهر كما جاء في بعض الروايات، وتارة يغيرون صفراً سنة وسنة، يعني سنة يغيرون المحرم يجعلونه صفراً، وتارة يغيرون كل سنتين يعني منهم من كان يغير كل سنتين، أهل جاهلية، كل شيء مما أملاه الشيطان وأهواء النفوس فعلوه، ولذلك تجد الاختلاف الكثير المنقول عنهم في قضية البحيرة والسائبة والوصيلة وكذا، فتتبُّعُ هذا وتطلب الوصف الدقيق له أمر قد لا يكون له جدوى، فتملي عليهم أهواؤهم فيفعلون هذا تارة وهذا تارة، ومنهم من يفعل هذا وهذا.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يا أيها الناس، إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مَرَدّ لما أقول، إنا قد حَرَّمنا المحرم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمنا صفر، وأخرنا المحرم، فهو قوله: {لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ} قال: يعني الأربعة {فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} بتأخير هذا الشهر الحرام.

يعني هم يريدون أن تكون الأشهر المحرمة أربعة فإذا استحلوا شهر المحرم صارت ثلاثة فهم يجعلون المحرم صفراً على أساس أن تكون أربعة {لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ}.

كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها، فيحلونه عاما ويحرمونه عاما؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئونه إلى صفر، أي: يؤخرونه.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب "السيرة" كلامًا جيدًا ومفيدًا حسنًا، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، -عز وجل-، "القَلَمَّس"، وهو:

حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعدَّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ثم من بعد عباد ابنه قَلَع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيبًا، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفراً، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله.

بعضهم يقول: إن الذي غير في الأشهر الحرم هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي غير دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وهو أول من سيب السائبة، وأول من حمى الحامي، وأول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وفيه الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رآه في النار يجر قصبه[٤]، وبعضهم يقول: إن الذي غيرها رجل يقال له: نعيم بن ثعلبة، وسواءً كان الرجل من كنانة أو غير ذلك، هذا لا أثر له، ولا يترتب عليه فهم الآية، ولا يترتب عليه حكم من الأحكام، و في هذا يقول كميت:

ألسنا الناسئين على معدٍّ *** شهورَ الحلِّ نجعلها حراما

يفتخرون بهذا.

وتكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على مسألة نسخ الأشهر فقال الشيخ -رحمه الله تعالى-: " نقولُ: إنَّ مِنْ عَادَتِنَا التي نَجْرِي عليها في هذه الدروسِ أن نتعرضَ لِمَا نَظُنُّ أنه يسألُ عنه طلبةُ العلمِ، وقد مَرَّ في الآيةِ الماضيةِ سؤالٌ معروفٌ يتساءلُ عنه طَلَبَةُ أهلِ العلمِ، وَنَسِينَا أن نتكلمَ عليه، فَأَحْبَبْنَا أن نَسْتَدْرِكَهُ الآنَ تَتْمِيمًا للفائدةِ، ونعنِي بذلك: أنا ذَكَرْنَا، أن العلماءَ اختلفوا في نسخِ الأربعةِ الْحُرُمِ، وأن قومًا قالوا: نُسِخَتْ، فجازَ للمسلمينَ الجهادُ في كُلِّ السَّنَةِ، وأن جماعةً من العلماءِ قالوا: إن تحريمَهَا باقٍ لم يُنْسَخْ، وذكرنا أنَّا كُنَّا أولاً نعتقدُ صحةَ نَسْخِهَا، وَأَنَّا عَرَفْنَا بعدَ ذلك أن الصحيحَ عدمُ نَسْخِهَا، وَذَكَرْنَا أن من أصرحِ الأدلةِ على نسخِها ما ثَبَتَ أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- حاصرَ ثقيفًا بالطائفِ في بعضِ ذِي القعدةِ وهو شهرٌ حرامٌ، ولو لم يكن القتالُ فيها حلالاً لَمَّا حَاصَرَهُمْ فيها، فَعَلِمْنَا مِنْ هنا أن طالبَ العلمِ يقولُ: إذا قررتُم أن التحقيقَ عدمُ نسخِها فما وَجْهُ حصارِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ في الشهرِ الحرامِ؟!

هذا هو السؤالُ الذي كُنَّا نَوَدُّ أن نتعرضَ للإجابةِ عنه، وهذا السؤالُ أجابَ عنه جماعةٌ من العلماءِ بما مُلَخَّصُهُ في نُقْطَتَيْنِ وَهُمَا:

أن حصارَ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ كان ابتداؤُه في شهرٍ حلالٍ، والدوامُ قد يغتفرُ فيه ما لا يغتفرُ في الابتداءِ؛ لأن مِنَ المسائلِ ما يُحَرَّمُ فيها الابتداءُ ولا يحرمُ فيها الدوامُ، ألا تَرَوْنَ أن الرجلَ الْمُحْرِمَ لا يجوزُ له أن يبتدئَ تزويجًا، ولو تزوجَ قبل إحرامِه ثم أَحْرَمَ لم يَنْفَسِخْ تزويجُه بهذا الإحرامِ الطارئِ على تزويجِه، وكذلك الإحرامُ يُمْنَعُ ابتداءُ الطِّيبِ فيه، فلو كان مُتَطَيِّبًا قبلَه لاَ يَمنعُ الدوامَ على الطِّيبِ الأولِ الإحرامُ عندَ جماهيرِ العلماءِ، فالشاهدُ أن الدوامَ في بعضِ الصورِ قد يُغْتَفَرُ فيه ما لا يُغتفر في الابتداءِ، وفي

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، برقم (٣٣٣٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥٦).

هذه الصورةِ يتأكدُ بشيءٍ آخرَ وهو ما قَدَّمْنَا في كلامِنا على غزوةِ حُنَيْنٍ في تفسيرِ آيةِ: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} [سورة التوبة:٢٥] أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا فَتَحَ مكةَ في رمضانَ عامَ ثمانٍ، ولم يكن يريدُ أن يغزوَ هوازنَ، سَمِعَ أن مالكَ بنَ عوفٍ النصريَّ، سيدَ هوازنَ جَمَعَ مَنْ أَطَاعَهُ من هوازنَ وفيهم ثقيفٌ؛ لأن ثقيفًا من هوازنَ؛ لأن ثقيفَ بْنَ منبهِ بنِ بكرِ بنِ هوازنَ بنِ منصورٍ، وأنهم تَجَمَّعُوا له يريدونَ حربَه، فَهُمُ الذينَ بدءوا بإرادةِ الحربِ، ولم يكُنِ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- قَاصِدًا حربَهم -في ذلك الوقت- قبلَ ذلك، فلَمَّا هَزَمَهُمُ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يومَ حنينٍ واستفاءَ أموالَهم، رَجَعَ فَلُّهُمْ والفَلُّ بقيةُ المنهزمينَ فَتَحَصَّنُوا بحصنِ الطائف.

فحصارُه -صلى الله عليه وسلم- للطائفِ ليستنزلَ الذين كانوا يقاتلونَه في غزوةِ حنينٍ من تمامِ غزوةِ حنينٍ، وكانوا هم البادئين بالقتالِ، والأشهرُ الْحُرُمُ إذا بُدِئَ المسلمونَ فيها بالقتالِ قَاتَلُوا، كما تَقَدَّمَ في قوله: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [سورة البقرة:١٩٤] وكما قَدَّمْنَاهُ في الكلامِ على قولِه تعالى: {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة:١٩١]، فهذا هو الذي أَجَابَ به العلماءُ عن حصارِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ على القولِ ببقاءِ حرمةِ الأشهرِ الْحُرُمِ"[٥] أ.هـ.

فالشيخ -رحمه الله- كان يرى أن الأشهر الحرم قد نسخ تحريم القتال فيها، ثم تراجع عنه.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى-: " قَوْلُهُ: بَابُ قَوْلِه: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ -سبحانه وتعالى- لَمَّا ابْتَدَأَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ السَّنَةَ اثنَى عَشَرَ شهرا، قَوْله: {مِنْهَا أَرْبَعَة حرم} قَدْ ذُكِرَ تَفْسِيرُهَا فِي حَدِيث الْبَاب، قَوْلُهُ: {ذَلِك الدّين الْقيم} قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْله: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقيم}مَجَازُهُ الْقَائِمُ أَيِ الْمُسْتَقِيمُ، فَخَرَجَ مَخْرَجَ سَيِّدٍ مِنْ سَادَ يَسُودُ كَقَامَ يَقُومُ، قَوْلُهُ: {فَلَا تظلموا فِيهِنَّ أَنفسكُم} أَيْ فِي الْأَرْبَعَةِ بِاسْتِحْلَالِ الْقِتَالِ، وَقِيلَ: بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي.

قَوْلُهُ: إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِه، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي أَوَائِلِ بَدْءِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّمَانِ السَّنَةُ، وَقَوْلُهُ: كَهَيْئَتِهِ أَيِ اسْتَدَارَ اسْتِدَارَةً مِثْلَ حَالَتِه، وَلَفْظُ: الزَّمَانِ يُطْلَقُ عَلَى قَلِيلِ الْوَقْتِ وَكَثِيرِهِ، وَالْمُرَادُ بِاسْتِدَارَتِهِ وُقُوعُ تَاسِعِ ذِي الْحِجَّةِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ الشَّمْسُ بُرْجَ الْحَمَلِ، حَيْثُ يَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَوَقَع فِي حَدِيث ابن عمر عِنْدَ ابن مَرْدَوَيْهِ أَنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ فَهُوَ الْيَوْمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، قَوْلُهُ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا أَيِ السَّنَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْهِلَالِيَّة، وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ فِي سَبَبِ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ كَانُوا يَجْعَلُونَ السَّنَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَمِنْ وَجْهٍ آخَرَ كَانُوا يَجْعَلُونَ السَّنَةَ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، فَتَدُورُ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ هُوَ تَفْسِيرُ الْأَرْبَعَةِ الْحرم، قَالَ ابن التِّينِ: الصَّوَابُ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ، يَعْنِي لِأَنَّ الْمُمَيِّزَ الشَّهْر قَالَ: وَلَعَلَّه أَعَادَهُ على المعنى، أَيْ ثَلَاثُ مُدَدٍ مُتَوَالِيَاتٍ انْتَهَى، أَوْ بِاعْتِبَارِ الْعِدَّةِ مَعَ أَنَّ الَّذِي لَا يُذْكَرُ التَّمْيِيزُ مَعَهُ يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيث، وَذكرها مِنْ

---

٥ - العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، (٤٩٧/٥-٤٩٩)، تحقيق: د/ خالد بن عثمان السبت.

سَنَتَيْنِ لِمَصْلَحَةِ التَّوَالِي بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَإِلَّا فَلَوْ بَدَأَ بِالْمُحَرَّمِ لَفَاتَ مَقْصُودُ التَّوَالِي، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى إِبْطَالِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَأْخِيرِ بَعْضِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، فَقِيلَ: كَانُوا يَجْعَلُونَ الْمُحَرَّمَ صَفَرًا، وَيَجْعَلُونَ صَفَرًا الْمُحَرَّمَ؛ لِئَلَّا يَتَوَالَى عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ لَا يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا الْقِتَالَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: مُتَوَالِيَاتٌ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَنْحَاءٍ مِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الْمُحَرَّمَ صَفَرًا، فَيُحِلُّ فِيهِ الْقِتَالَ وَيُحَرِّمُ الْقِتَالَ فِي صَفَرٍ وَيُسَمِّيهِ الْمُحَرَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجْعَلُ ذَلِكَ سَنَةً هَكَذَا وَسَنَةً هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ سَنَتَيْنِ هَكَذَا وَسَنَتَيْنِ هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَخِّرُ صَفَرًا إِلَى رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، وَرَبِيعًا إِلَى مَا يَلِيهِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَصِيرَ شَوَّالٌ ذَا الْقَعْدَةِ، وَذُو الْقَعْدَةِ ذَا الْحِجَّةِ ثُمَّ يَعُودُ فَيُعِيدُ الْعَدَدَ على الأَصْلِ، قَوْلُه: وَرَجَب مُضر أَضَافَهُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْظِيمِهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ، فَيُقَالُ: إِنَّ رَبِيعَةَ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَدَلَهُ رَمَضَانَ، وَكَانَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَجْعَلُ فِي رَجَبٍ وَشَعْبَانَ مَا ذُكِرَ فِي الْمُحَرَّمِ وَصَفَرٍ فَيُحِلُّونَ رَجَبًا وَيُحَرِّمُونَ شَعْبَانَ، وَوَصَفَهُ بِكَوْنِهِ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ تَأْكِيدًا، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ قَدْ نَسَئُوا بَعْضَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَيْ أَخَّرُوهَا فَيُحِلُّونَ شَهْرًا حَرَامًا وَيُحَرِّمُونَ مَكَانَهُ آخَرَ بَدَلَهُ حَتَّى رُفِضَ تَخْصِيصُ الْأَرْبَعَةِ بِالتَّحْرِيمِ أَحْيَانًا وَوَقَعَ تَحْرِيمُ أَرْبَعَةٍ مُطْلَقَةٍ مِنَ السَّنَةِ، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَشْهُرَ رَجَعَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَبَطَلَ النَّسِيءُ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: كَانُوا يُخَالِفُونَ بَيْنَ أَشْهُرِ السَّنَةِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ لِأَسْبَابٍ تَعْرِضُ لَهُمْ، مِنْهَا: اسْتِعْجَالُ الْحَرْبِ فَيَسْتَحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ثُمَّ يُحَرِّمُونَ بَدَلَهُ شَهْرًا غَيْرَهُ فَتَتَحَوَّلُ فِي ذَلِكَ شُهُورُ السَّنَةِ وَتَتَبَدَّلُ، فَإِذَا أَتَى عَلَى ذَلِكَ عِدَّةٌ مِنَ السِّنِينَ اسْتَدَارَ الزَّمَانُ وَعَادَ الْأَمْرُ إِلَى أَصْلِهِ، فَاتَّفَقَ وُقُوعُ حَجَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عِنْدَ ذَلِكَ"[٦].

وقال الجصاص -رحمه الله-: "وَقَوْلُهُ: **{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ}** رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ أَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَبُو جَهْلٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَهُمْ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَلَمْ يُخْتَلَفْ فِي أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- بَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِيَقْرَأَهَا عَلَى النَّاسِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي حَجَّ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ قَدْ كَانُوا قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ يُظْهِرُ الْكُفْرَ فِي وَقْتِ نُزُولِ بَرَاءَةٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى ذَلِكَ فِي رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، وَهَمٌ اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَوْمًا مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ كَانُوا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، وَهُمْ الطُّلَقَاءُ، مِنْ نَحْوِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَحْزَابِهِ مِمَّنْ لَمْ يَنْقَ قَلْبُهُ مِنْ الْكُفْرِ"[٧].

هذا بعيد لكن يمكن أن تكون الآية صدر براءة نزل بعد الفتح، ويكون بعض الآيات نزلت قبل ذلك، ويمكن أن يكون أئمة الكفر كما سبق لا يختص بأئمة الكفر من قريش، وإنما سائر الطوائف وملل الكفر، وخص أئمة الكفر؛ لأن الناس تبع لهم في نقض العهود ومحادة الله -عز وجل.

ويقول -رحمه الله-: "فَيَكُونُ مُرَادُ الْآيَةِ هَؤُلَاءِ دُونَ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرُوا الْإِسْلَامَ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ، وَبَدَرَهُمْ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ

---

٦ - فتح الباري، لابن حجر (٣٢٤/٨-٣٢٥)، دار المعرفة -بيروت.

٧ - أحكام القرآن، للجصاص (١١٢/٣)، عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا، وَسَائِرَ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا مُعَاضِدِينَ لِقُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ إِنْ هُمْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ، وَطَعَنُوا فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ"[8].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويسمون هذا العيد وكل مخرج يخرجونه إلى الصحراء باعوثا، فالباعوث اسم جنس لما يظهر به الدين كعيد الفطر والنحر عند المسلمين"[9].

يعني خروجهم للاستسقاء: باعوث، خروجهم للعيد: باعوث.

"الشعانين: عيد مسيحي يقوم يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بحمل السعف ذكرى لدخول السيد المسيح بيت المقدس، وهي كلمة دخيلة"[10].

وفي كتاب: "أعياد القبط": عيد الزيتونة ويعرف عندهم بعيد الشعانين، ومعناه التسبيح، ويكون في سابع أحد من صومهم، وسنّتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو -وهو الحمار- في القدس، ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف، ويحث على عمل الخير وينهى عن المنكر ويباعد عنه، وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التي تزين فيها كنائسهم، فلما كان لعشر خلون من شهر رجب سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة كان عيد الشعانين، فمنع الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم، وحمْلِهم الخوص على ما كانت عادتهم، وقبض على عدة ممن وجد معه شيئاً من ذلك وأمر بالقبض على ما هو مُحّبس على الكنائس من الأملاك، وأدخلها في الديوان وكتب لسائر الأعمال بذلك وأُحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة"[11].

---

٨ - المرجع السابق (١١٢/٣).

٩ - اقتضاء الصراط، لابن تيمية(٢١٣/١)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية -القاهرة.

١٠ - انظر: القاموس الفقهي، للدكتور: سعدي أبو حبيب (١٩٨).

١١ - المواعظ والاعتبار، المقريزي (٣٣١/١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ * إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة التوبة:٣٨-٣٩].

هذا شروع في عتاب من تخلَّف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمَارّة القيظ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ} أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟.

ثم زهّد -تبارك وتعالى- في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ} كما قال الإمام أحمد عن المستَوْرِد أخي بني فِهْر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع؟ وأشار بالسبابة))[1]، انفرد بإخراجه مسلم[2].

وقال الثوري، عن الأعمش في الآية: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ} قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه فلما وُضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لي من كَبِير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أفٍّ لكِ من دار، إن كان كثيرُك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} ما الذي يمنعكم إذا طلب منكم النفير في سبيل الله أي الجهاد؟ وهذا غالب ما ترد فيه هذه اللفظة من المعنى،

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٠٠٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه المستورد بن شداد، فمن رجال مسلم، وروى له البخاري تعليقا.

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٨).

كثيراً ما يعبر في القرآن بـــ"سبيل الله" ويراد به الجهاد، ومن أهل العلم من عممه بجميع المواضع، بل إن من أهل العلم من قال مفسراً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من صام يوما في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفا))[٣] قالوا: صام يوماً في سبيل أي في الجهاد، وهو تفسير له وجه من النظر معتبر، وقوله: {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} النفْر بمعنى الانتقال بسرعة من مكان لآخر لأمر يحدث، {انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} قال: **أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار**، {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} اثاقلتم أصلها تثاقلتم وعدي بـــ "إلى"؛ لأنه متضمن معنى الميل والإخلاد، ملتم إلى الأرض أخلدتم إلى الأرض، ومعلوم أن الفعل قد يضمن معنى الفعل فيعدى بتعديته، وهذا أبلغ و أكثر في المعاني، {اثَّاقَلْتُمْ} مضمن معنى الإخلاد والميل، فعدي بـــ "إلى".

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: {إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} **قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: استنفر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيًّا من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم.**

وهذه الرواية فيها ضعف على كل حال.

{وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} **أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى:** {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} **[سورة محمد:٣٨].**

ولا حاجة للاشتغال بتحديد هذا، يعني مثلاً في قوله: {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} لا داعي للتكلف بأن هذا العذاب يكون في الدنيا بإمساك القطر أو غير ذلك، بل هو عام يعني يعذبهم عذاباً أليماً إما في الدنيا وإما في الآخرة، وإذا أراد الله -عز وجل- بعبده المسيء المذنب خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، و{مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ثم قال: {إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} أيضاً هنا لا حاجة للتكلف في البحث عن هؤلاء القوم هل هم فارس أو اليمن أو غير ذلك، {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} الله -عز وجل- لم يحدد شيئاً فيأتي بآخرين يقومون بحمل أعباء الرسالة والجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى.

{وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} **أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه.**

يعني هذا نأخذ منه عبرة كبيرة وفائدة ومعنى، وهو أن من أدار ظهره عن دين الله -عز وجل- وتلون وتغير في أوقات الفتن، أو في غير أوقات الفتن، أو أعرض عن الدعوة إلى الله -عز وجل- وتركها بعد أن كان يحمل لواءها، أو غير ذلك فإنه لا يضر الله شيئاً {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا} والله -عز وجل- لا يزال يغرس لهذا الدين غرساً، فكل من تولى وأعرض وترك فإن الله -تبارك وتعالى- غني عنه وعن عمله، ولا يضر الله شيئاً، والله -عز وجل- يأتي بمن هو خير منه، وأنفع للناس، وإنما يضر الإنسان بهذه الأعمال والإخلاد نفسه، والدعوة إلى الله -عز وجل- كل ذلك مما يدخل في عموم "في سبيل الله" وإن كان رأسه الجهاد، فــ {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: الجهاد في سبيل الله، {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ}

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، برقم (٢٦٨٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق، برقم (١١٥٣).

فيعتبر من هذا، ويؤخذ منه أيضاً من تثاقل إلى الأرض، واشتغل بالعيال والكسب وما إلى ذلك عن دعوته، وعن تعليم الناس، وعن الاشتغال بإصلاح الأمة، ودعوة الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فمن أعرض فلا يضر إلا نفسه.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، والمناسب للسياق **{وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** أي قادر على أن يستبدل غيركم ويأتي بخير منكم، ولا يحصل من جراء ذلك ضرر، **{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}** [سورة الشمس:١٥]، فالإنسان قد يفعل الشيء ولكنه يراقب عقوبة، يتخوف من العواقب، وقد يمسك عن كثير مما يريده تخوفاً من العواقب، أما الله -عز وجل- فهو على كل شيء قدير المُلك ملكه، والخلق خلقه يفعل ما يشاء، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

{إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٤٠].

يقول تعالى: {إِلا تَنْصُرُوهُ} أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ} أي: عام الهجرة، لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة -رضي الله تعالى عنه-، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطُّلَّبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر -رضي الله عنه-، يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، -عليه السلام- منهم أذى، فجعل النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يُسَكِّنه ويَثَبِّته ويقول: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))، كما روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))[٤]، أخرجاه في الصحيحين.

{إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} فالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي خرج، وأضيف الإخراج إليهم؛ لأنهم هم الذين تسببوا فيه، اضطروه إلى الخروج بتضييقهم عليه، **{ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ}** وهذا لا شك أنه من المناقب العظيمة لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- التي لا يلحقه بها أحد، -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- ولعن من لعنه، وأبغض من أبغضه.

وعبر بالحزن في قوله: **{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}**، المعروف أن الحزن هو الغم من أمر فائت هذا المشهور، والخوف هو الغم من أمر مستقبل متوقع هذا هو المشهور في المعنى، ولذلك نفاه الله -عز وجل- عن أهل الجنة **{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [سورة يونس:٦٢] لا يغتمون من أمر مضى، ولا

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، برقم (٢٣٨١).

يقلقون ويغتمون من أمر مستقبل، وهنا عبر بالحزن عن أمر مستقبل {لا تَحْزَنْ} بمعنى لا تخف، ولذلك حينما نقول: إن الحزن هو الغم من أمر مضى نقول غالباً؛ لأنه في بعض المواضع يستعمل هذا مكان هذا، يستعمل الحزن مكان الخوف، والمعية هنا معية نصر وتأييد وحفظ، {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] قالها الله لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا قال تعالى: {فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} أي: تأييده ونصره عليه، وقيل: على أبي بكر.

الآن {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} هنا {فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} يحتمل أن يكون لأبي بكر -رضي الله عنه- أنزل عليه الطمأنينة ورباطة الجأش، وأَمَنَةً، فحصل له السكون وذهب عنه الحزن أو الخوف، ذهب عنه الروع، ويحتمل أن يكون ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الراجح؛ لأن القاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها فالآن انظر {إِلا تَنْصُرُوهُ} الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد نصر الله النبي -صلى الله عليه وسلم-، {إِذْ أَخْرَجَهُ} النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} القائل هو النبي -صلى الله عليه وسلم- لصاحبه، {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-، و{وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} والذي أُيِّد بجنود لم تروها هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيحتج على أن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمرين:

الأمر الأول: قاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

الأمر الثاني: أنه قال بعده: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} وهذا إنما يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهو المؤيد بالملائكة.

ثم قال: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} أي: الملائكة، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني {كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الشرك و{كَلِمَةُ اللَّهِ} هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[٥].

وقوله: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ} أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، {حَكِيمٌ} في أقواله وأفعاله.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحَى مسلم بن صَبيح: هذه الآية: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} أول ما نزل من سورة براءة.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضْرمي أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا أو كبيراً، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} الآية.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، برقم (٢٦٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، برقم (١٩٠٤).

رواية أبي الضحى من قبيل المرسل، وهو من أنواع الضعيف، والرواية الثانية في سبب النزول أيضاً لا تصح من جهة الإسناد -والله تعالى أعلم-، وأقوال أهل العلم في قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً} متنوعة متعددة، فمنهم من يقول: انفروا في حال النشاط وفي حال الكسل، والميل إلى الدعة، والإخلاد إلى الأرض، وبعضهم يقول: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً} يعني انفروا أصحاء ومرضى، وبعضهم يقول: شيوخاً وشباباً، وبعضهم يقول: انفروا في حال فراغكم وفي حال شغلكم، يعني المشغول والفارغ الجميع ينفر، وبعضهم يُفهم من كلامه أن المراد {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً} أنه الخفة والثقل يعني من ناحية البدن الثقيل، والخفيف كل هؤلاء يخرجون ولا يعتذر أحد بأنه بدين مثلاً أو نحو هذا، هكذا يفهم من بعض الأقوال أو المرويات إلى غير ذلك مما يقال في معنى {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً}، والأحسن في تفسيره -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن ذلك جميعا داخل فيه، {انْفِرُوا} جماعات وفرادى، انفروا في طلائع الجيوش خفافاً، وفي الجيش نفسه وهو الثقيل، انفروا في حال نشاطكم وإقبال نفوسكم، وفي حال تقاعسها، انفروا في حال الصحة والمرض، احتمال أن يكون هذا داخلاً فيها كما ذكر بعض السلف، فيكون ذلك قد خصص بقوله -تبارك وتعالى-: {لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ} [سورة التوبة:91]، وبقوله: {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} [سورة النساء:95]، الذين هم مرضى بمرض مزمن فهؤلاء يعذرون، و{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ} [سورة النور:61]، كل هذه مخصصة لهذه الآية، فالراجح أن هذه الآيات ليست بناسخة، وإن قال بعض السلف بأن الآية التي عذر فيها المرضى ناسخة للآية، والراجح أنها مخصصة، ومن أهل العلم من قال: إن الذي نسخها هو قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:122]، يعني على الأرجح أن التي تتفقه هي التي تنفر {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ} بصحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتلقي عنه، فالشاهد أن هذه الآية كانت تأمر بالنفير العام، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أمر الناس في غزوة تبوك بأن ينفروا ولا يتخلف عنها أحد، وما وقع للذين تخلفوا –الثلاثة- ثم بعد ذلك رُخص للناس، وخفف عنهم، فقال الله -عز وجل-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً} فتنفر طآئفة وتبقى طائفة -والله تعالى أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إن الآية محكمة وليست منسوخة.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر، فقال: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً}.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولا وشَبَابًا ما سمع الله عذر أحد.

كهولاً وشبانا، منفردين أو مجتمعين، أغنياء وفقراء، من له عيال، ومن ليس له عيال، الفرسان وغير الفرسان، يخرجون على أرجلهم، لكن في غزوة تبوك جاء أناس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يريدون أن يحملهم فقال: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [سورة التوبة:92]، فالله -عز وجل- نفى عنهم الحرج، {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء} [سورة

التوبة:٩٢-٩٣]، فالآية محمولة على جميع هذه المعاني التي ذكروها، فلا يخص معنىً دون معنى -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وطائفة من المحققين.

ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخًا وشَبَابًا جهزوني يا بَنِيَّ، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وقال السدي قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} يقول: غنيًا وفقيرًا، وقويًا وضعيفًا فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيما سمينًا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة التوبة:٩١].

هذه الرواية لا تصح.

قال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشَّرْعِبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليا على حمص قِبَل الأُفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا هَمًّا.

بضم الهمزة الأُفسُوس هذا في الشام، وهو تابع لثغور طرسوس، ويقال: إن هذه البلدة هي بلده، يقال: إنها بلدة أصحاب الكهف.

قال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشَّرْعِبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليا على حمص قِبَل الأُفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا هَمًّا، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار، فأقبلت إليه، فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله -عز وجل.

كان بعض الصحابة فمن بعدهم يرون أن هذه الآية محكمة، وأنه لا يجوز لأحد أن يتخلف عن الجهاد، وهذا لا يخلو من إشكال، فلما كان المسلمون قلة كان الأمر عاماً لهم ولا يعذر أحد بالتخلف، ثم بعد ذلك لما كثروا رخص لهم أن يبقى بعضهم وأن ينفر بعضهم؛ ولذلك -كما هو معلوم- كان من سياسة عمر مثلاً في المدينة أنه يمسك أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عنده فلا يكاد يرسل أحداً إلى شيء من الثغور أو البلاد الأخرى، وإذا بعث أحداً يبعث الواحد أو الاثنين أو نحو هذا، وكان عمر -رضي الله عنه- يستفيد منهم في المشاورة ونحو هذا وأيضاً كانت له سياسة في ذلك، كان يتخوف أن يجتمع عليهم الناس في كل مصر من الأمصار، وهؤلاء يجتمعون على هذا وهؤلاء يجتمعون على هذا وهؤلاء يجتمعون على هذا ويتربون على يده، ثم بعد ذلك يحصل بسبب هذا في المستقبل شيء من التفرق، أو التنازع، كان يتخوف ذلك، ثم لما جاء عهد عثمان -رضي الله عنه- أذن لهم فتفرقوا في الأمصار، وعلى كل الصحابة بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- كان منهم من يبقى في المدينة ولا يخرج في الغزوات كما هو معلوم.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المُهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة))[٦].

ولهذا قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:٢١٦].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد عن أنس؛ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل: ((أسلِم))، قال: أجدني كارها، قال: ((أسلم وإن كنت كارها))[٧].

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة التوبة:٤٢].

يقول تعالى موبّخًا للذين تخلفوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} قال ابن عباس: غنيمة قريبة، {وَسَفَرًا قَاصِدًا} أي: قريبا أيضا، {لاتَّبَعُوكَ} أي: لكانوا جاءوا معك لذلك.

{لَوْ كَانَ عَرَضًا} العَرض ما يعرض من منافع الدنيا، {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} يعني غنيمة قريبة لا تحتاج إلى سفر ومشقة وعنت، {وَسَفَرًا قَاصِدًا} السفر القاصد فسر بالقريب، هذا الذي عليه الأكثر، ومنهم من نظر إلى هذه اللفظة باعتبار أن القصد يأتي بمعنى التوسط يعني سفراً متوسطاً، لكن السياق يدل -والله أعلم- على أن المقصود {وَسَفَرًا قَاصِدًا} أي سفراً قريباً ليس بعيداً كتبوك في شدة الحر وطيب الثمار.

{وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} أي: المسافة إلى الشام، {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ} أي: لكم إذا رجعتم إليهم {لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

{يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ} يعني بأيمانهم الكاذبة، ولا شك أن قعودهم أيضاً هو السبب لهلاكهم، {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فيحلفون كذباً للنبي -صلى الله عليه وسلم- فكانت أيمانهم هذه سبباً لاستمرائهم الباطل، كقوله -تبارك وتعالى-: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦] صدوا في

---

٦ - رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة))، كتاب الخمس، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أحلت لكم الغنائم)، برقم (٢٩٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم (١٨٧٦).

٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٢٠٦١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٤٥٤).

أنفسهم، وصدوا غيرهم، فهذه الأيمان جعلتهم يستمرئون ما هم فيه من القعود عن طاعة الله -عز وجل-، والنفاق، ومحادة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [سورة التوبة:٤٣-٤٥].

روى ابن أبي حاتم عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} وكذا قال مُوَرِّق العِجْلي وغيره.

وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء: {فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} [سورة النور:٦٢] **وكذا رُوي عن عطاء الخرساني.**

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذِنُوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} أي: في إبداء الأعذار، {وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} المشهور في المعنى وهو المتبادر وهو الذي يدل عليه السياق، والملابسات التي نزلت فيها الآيات أنه كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنها معاتبة من الله -عز وجل-، {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} ابتُدئت بهذه البداية اللطيفة، قدم المعاتبة بالعفو، ومن أهل العلم من يقول: إن هذه ليست معاتبة، وإنما كقولك لمن تخاطبه: أصلحك الله ما شأن كذا وكذا؟، أو عفا الله عنك ما شأن كذا وكذا؟، وإذا كان المعنى على هذه فإنه يوقف عليها، يقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ}، والأقرب هو الأول -والله تبارك وتعالى أعلم- أنها معاتبة؛ ولذلك يوصل الكلام {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} فليس هذا باستفتاح كلام كما يقوله بعضهم، فمن الناس من يستفتح الكلام بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ} تقول: لأبيك أو لأستاذك أو نحو هذا تقول: عفا الله عنك أين أجد كذا وكذا؟، والأول أرجح يقول: **قال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: {فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ}** يعني باعتبار أن الآية التي في

سورة النور ناسخة لآية براءة، وإذا كانت ناسخة فالمعنى أنه ترك الأمر للنبي -صلى الله عليه وسلم-، أذن له أن يأذن لمن شاء منهم، فهذا على النسخ، ولكن النسخ لا يثبت بالاحتمال؛ ولهذا فإن بعض أهل العلم حاول أن يجمع بين الآيتين بين الآية التي عندنا هنا **{لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا}** وبين آية النور: **{فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ}** [سورة النور:٦٢]، فقال بعض أهل العلم: إن الآية التي في سورة براءة فيها النهي عن الإذن قبل الاستثبات، قبل أن يتبين له الصادق من الكاذب، والآية التي في سورة النور بعد الاستثبات بعد أن يتبين له، وهذا ليس من الظهور لدرجة كافية، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية بموضوع يختلف عن موضوع آية النور أصلاً، فهذه الآية في الإذن لهم عن التخلف في الغزو، يأتون ويعتذرون إليه بمعاذير كاذبة، فكان يأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن تخلف منهم، وهو كاذب، فمن هؤلاء المعتذرين هؤلاء المنافقون، فأما الآية التي في سورة النور فهي تتحدث عن أدب من آداب المؤمنين أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، ثم قال بعد ذلك: فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم، واستغفر لهم الله، يعني من آداب المجالسة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يؤخذ هذا الأدب أيضاً مع غيره طالما أنه أدب من آداب المجلس، فإذا كانوا معه على أمر جامع يعني ليس بمجلس عفوي، وإنما اجتمعوا لأمر من الأمور ما يذهب الإنسان يقوم من المجلس من غير إذن، يستأذن إذا عرضت له حاجة ولا شك أن هذا هو الأدب اللائق خلافاً لأهل الجفاء، فالله -عز وجل- أدب المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ولا يجهروا له بالقول، ولا يقوموا عنه إن اجتمعوا معه على أمر من الأمور حتى يستأذنوه، فهذه في آداب المجالسة والمخالطة والمصاحبة، ويمكن أن يؤخذ منها أيضاً -أي آية النور **{وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ}**- [سورة النور:٦٢]، أنهم لو كانوا معه في الغزو لم يذهبوا حتى يستأذنوه، مثل لمّا كان الصحابة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- يرابطون على الخندق الله -عز وجل- قال: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** [سورة النور:٦٣]، سواءً من المجلس أو من المقام الذي هم فيه في القتال؛ لأن الله -عز وجل- سمى ذلك جميعا مجلساً، كما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة المجادلة: **{إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا}** [سورة المجادلة:١١]، فإن المجالس فسرها بعض السلف في سورة المجادلة بمجالسته -صلى الله عليه وسلم-، وفسرت بالمجالس للصلاة يعني كما في صلاة الجمعة **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}**، وفي القراءة الأخرى {في المجلس} وهذه تدل على هذه، وفسرت أيضاً بالمجالس في القتال قاله بعض السلف، وكل هذه المعاني صحيحة، إذا طلب منكم التفسح سواءً في مقام القتال في مجلس القتال، الصفوف، أو في مجلسه -صلى الله عليه وسلم- بدلاً من أن يقام أحد من مجلسه فيكون ذلك إيذاءً له وجرحاً لمشاعره، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا، **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}** فهذا كله يقال له: مجالس، فأذنْ لمن شئت منهم، ففي القتال من الناس من يتسللون من مقام المرابطة كما حصل في الخندق، منهم من يستأذن **{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}** [سورة الأحزاب:١٣]، وبعضهم يتسلل دون أن يستأذن فهنا هذه الآية في الاستئذان في القعود عن الغزو **{عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ}** [سورة التوبة:٤٣] في غزوة تبوك، وتلك في الاجتماع به -صلى الله عليه وسلم- ومجالسته، أو الكون معه في أمر جامع، لا ينسحب أحد، ولا يخرج أحد، لا يذهب أحد حتى يستأذن، فهذا

أدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أدب يطلب مع غيره ممن حصل لهم مثل هذا، اجتمعوا على شيء، وليس كل من أراد أن يخرج خرج!، هذا يخرج يتكلم بالهاتف وهذا يخرج يشرب، وهذا يخرج يرجع إلى بيته هذا ليس من الآداب في شيء، هذه أخلاق صحراوية لا تصلح، فرباهم القرآن على خلاف هذا، هنا قال: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}، {لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ} يعني هنا فسرها أو نقل ما يدل على أن "حتى" بمعنى أنه يقول له: لا يأذن لهم حتى يتبين الصادق، ويتبين الصادق أنه إن قال له: لا، وهو صادق فسيتحامل على الخروج، ويخرج لا يجد بداً، لكن المنافق أو الكاذب سيقعد ويتخلف، ويتبين بهذا نفاقه، فهو مبيّت أصلاً للقعود، وجاء يعتذر بهذه الأعذار الكاذبة {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ}، وبعضهم يقول غير هذا في المعنى لكنه غير ظاهر.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: {لا يَسْتَأْذِنُكَ} أي: في القعود عن الغزو {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}؛ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ} أي: في القعود ممن لا عذر له {الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: شكت في صحة ما جئتهم به، {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} أي: يتحيرون، يُقَدِّمُون رِجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

{وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} هنا قال: **أي شكت** يمكن أن نقول هذا باعتبار المعنى الأصلي أو على القول بأن هذه مرادفة لهذه، والواقع أن الريب وإن كان يشترك مع الشك في المعنى الأصلي لكنه يختلف عنه، فـــ "الريب" أخص من مطلق الشك، والفرق بينهما أن "الريب" شك مع قلق، هذا التردد الذي في النفس حينما يصاحبه شيء من القلق يقال له ريب، فقد تقول: أنا أشك مثلاً هل نزل مطر أو لا؟ هل نزل مطر الليلة أو لم ينزل؟، لكن لا يقال: أنا مرتاب هل نزل مطر أو لم ينزل؟، ولو عبر واحد بهذه الطريقة لقيل عنه: هذا ليس عربياً، لكن يمكن أن يقال: أنا مرتاب في أمر فلان، بمعنى شك يساوره قلق، أنا مرتاب في القضية الفلانية، أنا مرتاب في التصرف الفلاني، أنا عندي ريب أنا مرتاب في عذر فلان أنا مرتاب في سلوك هذه المرأة، شك مع قلق، لكن لا يقال: أنا مرتاب هل أصلحت الباب أو لا؟ أنا شاك يعني هل أصلحت الباب أو ما أصلحته؟ ناسٍ فهو شاك، واضح الفرق؟ شك مع قلق يقال له: ريب.

{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [سورة التوبة:٤٦-٤٧].

يقول تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ} أي: معك إلى الغزو {لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} أي: لكانوا تأهبوا له، {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} أي: أبغض أن يخرجوا معك قَدرًا، {فَثَبَّطَهُمْ} أي: أخرهم، {وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} أي: قدرًا.

ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا} أي:

لأنهم جبناء مخذولون، {وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي يستأذن -فيما بلغني- من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول والجَدُّ بن قيس، وكانوا أشرافا في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قومٌ أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}.

هنا يقول الله -عز وجل-: {وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} أي خروجهم للقتال، فثبطهم ثنى عزائمهم عن ذلك، وقد يرد سؤال هنا وهو أن الله -عز وجل- يحب الجهاد في سبيله، ويدعو إليه، وأمر به عباده المؤمنين، فكيف قال هنا: {وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} {انبِعَاثَهُمْ} أي الغزو؟ والجواب عن هذا واضح على عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو أن الله يحب الجهاد ديناً وشرعاً، فكره انبعاث هؤلاء إليه فثبطهم قدراً، كره انبعاثهم؛ لأن هؤلاء لا يخرجون يجاهدون في الواقع هؤلاء يخرجون للإفساد، فخروجهم يحصل من جرائه مفسدة عظيمة للمسلمين كما ذكر بعده {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ} يعني أسرعوا، {خِلالَكُمْ} يعني للإفساد بينكم، {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} يطلبونها لكم، والمشكلة أن فيكم سماعين لهم، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} فكره الله -عز وجل- انبعاثهم لهذا فخروجهم ليس بجهاد وإنما هو عكس مقصود الجهاد وإن كانوا قد خرجوا بصورة المجاهدين، فهم أهل شر وإرجاف وإفساد بين الناس، فالله أراده ديناً وشرعاً وكرهه لهم أو ثبطهم عنه قدراً {كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ}، وهنا أيضاً: {وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} قال: قدراً، يعني قيل لهم ذلك قدراً فكان لابد من تخلفهم؛ لأن الله قدر ذلك، وهذا من أحسن ما تفسر به -والله أعلم-؛ لأن بعضهم يقول: {وَقِيلَ اقْعُدُوا} يعني الشيطان ألقى ذلك في قلوبهم، وبعضهم يقول: قال ذلك بعضهم لبعض: {اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}، وبعضهم يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك على سبيل الغضب والسخط عليهم حينما استأذنوه وهم أغنياء {اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}، والأقرب -والله أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا {وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} فعبر به عن الخذلان لهم، والمراد بـــ "القاعدين" النساء والصبيان، وأهل الأعذار من الزمنى والمرضى و الأعرج والأعمى، فرضوا بهذا، وهذا لا يرضى به من كان مؤمناً صادقاً، فعليٌّ -رضي الله عنه- لما خلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة قال له: يا رسول الله أتجعلني مع النساء والصبيان؟، فقال: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي))[1]، فالمؤمن الصادق لا يرضى بالتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا كان أصحاب الأعذار الصادقة ليسوا بأصحاب أعذار فكان الفقراء الذين لا يجدون ما يتجهزون به إذا جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لهم: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ} [سورة التوبة:٩٢-٩٣]، الخوالف

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن -رضي الله عنه-، برقم (٣٥٠٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٤).

يعني مثل هؤلاء النساء والمرضى، يقول: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} أي: **لأنهم جبناء مخذولون**، والخبال معناه الفساد بالنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف بين المؤمنين، {مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً}، فيحصل الوهن والضعف في الجيش، فخروجهم لا خير فيه، وإنما هو ضرر على المسلمين، قال: أي: **لأنهم جبناء مخذولون**، {وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ} الخلل الفرجة بين الشيئين، وقيل: منه الخلة يعني الحاجة والفقر والمسغبة خلة، وفسر بهذا الخصاصة {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:٩] كما في سورة الحشر في مدح الأنصار -رضي الله عنهم- {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} قيل هو من خصاص الدار، بمعنى الخلة التي تكون كالشقوق في الجدران والسقف تظهر منها أشعة الشمس، ومنه الخلل الذي في المنخل، {وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ} أي بينكم يعني يسعون بينكم بالفساد {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} يعني يطلبونها لكم، فهم يسعون لإيقاع الفتنة بين المؤمنين، هذا إذا قلت: بغيتُه لكذا، يعني طلبته له، وإذا قلت: أبغيته كذا يعني أعنته على طلبه، أبغوني ضعفاءكم، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} هنا فسرها قال: **أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين** {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي هناك ناس يقبلون منهم ويستجيبون لهم وهذا المعنى الذي رجحه ابن القيم -رحمه الله- خلافاً لمن فسره كابن جرير بأن فيكم سماعون لهم أي ينقلون حديثكم لهم، ينقلون الحديث لهم بمعنى كأنهم عيون وجواسيس ينقلون أخباركم وحديثكم إليهم، ووجه ترجيح ابن القيم لهذا، ابن القيم رجحه بأن المنافقين أصلاً كانوا مخالطين للمسلمين، ولا يحتاجون إلى عيون فهم أنفسهم عيون، هم مخالطون لهم؛ ولذلك جاءت الخطورة، فالمنافقون أخطر على المسلمين من الكافرين؛ لأنهم يخالطونهم صباح مساء في المسجد وفي الغزو وفي كل مكان، فيعرفون كل ما يجري معهم في داخل الصف، فهؤلاء هم الذي يمكن أن يدلّوا العدو على جوانب الضعف عند المسلمين، ويخبرون عن كل شيء يتعلق بهم من عَددهم، وعُددهم، وكلامهم، وما يخططون له، فهذه الخطورة، وابن القيم -رحمه الله- يقول: إن هؤلاء المنافقين ليسوا منعزلين منفردين فيحتاجوا إلى إرسال العيون من أجل التعرف على ما يجري، فهم مخالطون فلذلك {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي: يقبل منهم ويستجيب، وليس ينقل حديثكم إليهم، وأما ابن جرير -رحمه الله- فوجه الترجيح عنده {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، يقول: إن هذه اللفظة {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} تستعمل في مثل هذا -في نقل الحديث-، وأما في الاستجابة فإنه يقال: فلان يسمع لفلان أو سامع لفلان، لا يقال: سمّاع له، وجرت العادة أن يعبر عن الشخص المستجيب يقال: فلان يسمع لفلان، فلان سامع لفلان، أي سامع ومطيع، لكنْ سمّاع لفلان يقول: ما جرت العادة أن يعبر بهذا عن الاستجابة والقبول.

والمعنى الأقرب -والله أعلم- المتبادر {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي مستجيبون، فيكم من يقبل ويؤثر فيه هذا الكلام، فلو خرجوا لحصل الخلاف والشر بين المسلمين، يوجد من المسلمين من لا يتفطن ولا يحذر من هؤلاء المنافقين وما يلقونه ويطرحونه فيجلس فيقبل منهم، هذا هو المعنى الأقرب، والمعنى الثاني غير ممتنع، يعني من قال من أهل العلم كابن القيم -رحمه الله: لو ناس بهذه المثابة يسمعون لهم فهم منهم، لكن قد لا يكون منافقاً قد ينقل لهم الحديث ثقة بهم وهو لا يعلم بنفاقهم، باعتبار منزلتهم ومكانتهم من ناحية التعصب القبلي، أو غير ذلك، يمكن أن يوجد هؤلاء، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتل المنافقين، ولم يقتل عبد الله بن أبي، ولما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر في قصة الإفك وقال: ((من يعذرني

برجل قد بلغ أذاه أهلي أو في أهلي......)) فقام أسعد بن زرارة -رضي الله عنه- من الأوس، وقال: يا رسول الله مرنا إن كان منا معشر الأوس قتلناه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا بأمرك، فقام سعد بن عبادة -رضي الله عنه- وقال: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله! وقام رجل آخر يرد عليه قال: بل كذبت أنت وأنت منافق تدافع عن المنافقين، هؤلاء ناس ليسوا من المنافقين، ولا من ضعفاء الإيمان، هذا سعد بن عبادة سيد الخزرج وهذا أسعد بن زرارة، وجاء في بعض الروايات أن الذي قام سعد بن معاذ، لكن سعد بن معاذ -رضي الله عنه- قد لا يكون دقيقاً أنه الذي قام، فهؤلاء كبار سواء كان سعد بن معاذ، أو أسعد بن زرارة، وأسعد بن زرارة هو الذي استقبل مصعب بن عمير قبل هجرة المسلمين إلى للمدينة، وهو الذي كان بمنزله القيم أو العريف أو الأمير على من آمن في البداية، فإذا كان هذا يقع بين هؤلاء الكبار الثقات فكيف بالضعفاء ضعفاء الإيمان ومن كان إيمانه مدخولاً! {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا} فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام: ٢٨]**، وقال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}** [سورة الأنفال:٢٣]**، وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}** [سورة النساء:٦٦-٦٨] **والآيات في هذا كثيرة.**

{لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} [سورة التوبة:٤٨].

يقول تعالى محرضا لنبيه -عليه السلام- على المنافقين: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ} أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها.

يعني حاربه منافقوها قبل أن يظهروا النفاق حينما كانوا من المشركين، ومعلوم خبر عبد الله بن أبيّ لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- على حمار يعود سعد بن عبادة فمر على مجلس فيه المشركون والمسلمون، فوضع عبد الله بن أبيّ قبل أن يظهر إسلامه وضع كمه أو طرف عمامته على أنفه، وقال: لا تغبروا علينا! فلما وقف النبي -صلى الله عليه وسلم- يعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى الله قال: أيها الرجل اجلس في رحلك يعني في مكانك أو في بيتك فمن أتاك فأسمعه حديثك ولا تغْشَنا في مجالسنا، فقام عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-، وقال: بل يا رسول الله اغشنا في مجالسنا، وعبد الله بن أبيّ كان ذلك الوقت لم يظهر الإسلام، فحصل بين الناس شجار، وضرب بالجريد وبالنعال، فالمقصود أنهم كانوا يقاومون إلى آخر شيء يمكنهم أن يقاوموا به، ثم بعد غزوة بدر قال لهم -قبحه الله-: هذا أمر قد تَوجَّه فادخلوا، يعني لا سبيل لمقاومته، شب وخرج عن الطوق فدخلوا فيه ظاهراً، وبدءوا يكيدون له إلى آخر نفس.

فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: {حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}.

هؤلاء المنافقون طول الفترة التي بقوا فيها لم يكن أحد منهم مقرباً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم من الأيام إطلاقاً، ولم يكن أحد منهم يذكر له بلاء قط في يوم من الأيام أبداً، ولا مقام ينصر فيه دين الله -عز وجل-، فعبد الله بن أبي كان يقف قبل صلاة الجمعة ويمسك المنبر ويجلس يتكلم قبل وقوف النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، ويقول: أيها الناس لقد ساق الله إليكم هذا النبي، وكذا فآمنوا به، واتبعوه، فلما وقع منه ما وقع حينما قال: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [سورة المنافقون:٨] لما جاء ليقوم سحبوه وأخرجوه من المسجد وطردوه ودفعوه بالباب فلقيه بعض الصحابة فقال: كأنما قلت هجراً، يعني أنا ماذا قلت: أنا أمرت بطاعته!! غضبان، فمواقفهم كلها تدل على النفاق حتى أسماؤهم غلط! يعني هذا الذي اسمه ربما "صالح" والآخر اسمه "أُبيّ"، والباقون كلهم كالجد بن قيس أسماء موحشة ينقبض منها القلب، يعني انظر إلى أسماء هؤلاء الجد بن قيس ومخشي بن حمير، وإن كان مخشي بن حمير ذكر أنه تاب آخر الأمر، وهو من الناس الذين نزلت فيهم آيات براءة، فأسماؤهم موحشة إذا سمعتها ينقبض القلب منها بخلاف أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- عمر بن الخطاب معاذ بن جبل أبي عبيدة عامر بن الجراح سعد بن أبي وقاص علي بن أبي طالب الأسماء التي إذا سمعها المؤمن انفتح لها قلبه، وهذه الجد بن قيس وابن نبتل وغيرها من الأسماء، الحمر المستنفرة، فلا يأتِ من يقول: ما دام فيه منافقون، ما الذي يعرفنا أن الصحابة هؤلاء الذي رووا ما يكونون من المنافقين؟ والجواب أن المنافق يدخل ويخرج ويقول: **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}**؟ [سورة محمد:١٦] لا يفقه، ولا يحفظ، ولا ترتفع همته لشيء، وإذا حضر المجلس نام هو فقط، فشغلُه جالس يطالع في الموجودين، ليس له شغل إلا هذا، لا يحفظ آية ولا يحفظ حديثاً ولا ينتفع بشيء، ليس أهل لذلك، ولذلك ما يمكن لهذا أن يروي حديثاً، وحتى لو رواه لا يقبلون منه، فالصادق يعرف من كلامه، **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** [سورة محمد:٣٠] ويعرف من قسمات وجهه، ويعرف من حاله ومسلكه وطريقته، هذا أمر لا يخفى عند الناس، وقد ذكر بعض أهل العلم مثل ابن الجوزي كلاماً طويلاً في هذه القضية، أن الناس يعرفون الصادق ولو لم يتكلم ويجدون محبةً له ولو لم يطلعوا على حقيقة عمله في السر، يجدون طمأنينة إليه، ومحبة ويكون له من الذكر الجميل حتى في أشياء لربما لم يعملها، أو في أمور يعملها في السر فيظهرها الله -عز وجل-، والكاذب تنقبض منه القلوب، وينقبض منه الناس، ويكرهونه، ويجعل الله -عز وجل- له من النفرة في قلوب المؤمنين ما لا يخفى، فهؤلاء المنافقون الله -عز وجل- حافظ دينه لا يمكن أن يكون هؤلاء حملة للدين، ولذلك لا تراهم أبداً في موقف واحد مشرف في الجهاد، أو في غيره حتى لو كان يلتبس على الناس، يعني الرجل الذي قال فيه الصحابة: فلان أبلى اليوم وفلان كذا فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هو في النار))[٢]، فلا يقال: الله ختم له بالسعادة، فلان جيد، فلان شهيد، لا، هو في النار، فيذهب ويتابع ثم يصاب

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، برقم (١١٢).

بالجراحة الشديدة ويتكئ على ذباب سيفه ثم يقتل نفسه، ويقول: كنت أقاتل حمية لقومي!! لاحظ! كنت أقاتل حمية لقومي! تبين أمره للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قيل: فلان كذا، قال هو في النار، حتى الذي غلّ الشملة، دخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، ويرسل معاذاً إلى اليمن، ويقول عن عمر -رضي الله عنه-: ((لو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً آخر))[٣]، والأشياء التي جاءت في مناقب الصحابة، ومحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم كما في قوله: إنك لست منهم، إنك تحب الله ورسوله، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لثابت بن قيس بن شماس لما كان يرفع صوته، خشي أن يحبط عمله: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [سورة التوبة:١١٧]، وبعدها {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ} [سورة التوبة:١١٨]، هكذا تأتي الآيات، فهذا أمر لا يخفى أبداً، ولا يمكن أن يأتي نقل الدين والرواية والعلم وكذا عن طريق هؤلاء المنافقين إطلاقاً، فالواحد منهم يبقى ليأكل فقط هذا غاية همه، هو لأجل ماذا ينافق ويتقلب وكل يوم طالع له، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [سورة الأحزاب:١٤] "أتوها" يعني يعطون الكفار الغزاة الذين دخلوا المدينة مباشرة، هم يعلنون الردة، فهؤلاء لا يكونون من حملة الرسالة ولا من القادة، ولذلك ما تجد في أي مقام ولا حتى قائد سرية من المنافقين.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:٤٩].

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: {ائْذَنْ لِي} في القعود {وَلا تَفْتِنِّي} بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم.

ومن أهل العلم من يقول المراد: {ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} يعني لا تمتنع من الإذن فيكون ذلك فتنة لي، لا تحملني على الخروج وأنا لا أستطيع الخروج، {وَلا تَفْتِنِّي} رخِّصْ لي في القعود ولا يكن امتناعك سبباً لفتنة، يعني بعضهم يرى أن هذا هو المعنى، وورد في سبب نزولها أن الجد بن قيس -عدد من الروايات- أنه هو الذي قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: هل لك في بنات بني الأصفر؟ أو بجلاد بني الأصفر؟ كما جاء في بعض الروايات فهو يقول: {ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} يقول: أنا لا أتحمل بنات بني الأصفر، بنات الروم الشقراوات فأفتن، ما شاء الله يتظاهر بالورع يريد غض بصره!! فيتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكل هذا من أجل -ما شاء الله- حفظِ وحياطة دينه، ورع الكاذب البارد، وبعضهم يقول: إنهم قالوا هذا يفتنكم يعني يغريكم بالغزو يذكر نساء بني الأصفر نساء الروم يقول: {ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} وبعض هذه الروايات مثل ما صحت في أنها نزلت في الجد بن قيس {ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} يقول: أنا لا أحتمل أن أرى نساء بني الأصفر.

قال الله تعالى: {أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا.

وبتخلفهم وبنفاقهم.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، برقم (٣٤٨٠).

كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: ((هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟))، فقال: يا رسول الله، أوْ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((قد أذنت لك))، ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} الآية[٤].

ذكر هذه الروايات عن محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة كل هذا مراسيل لكنه صح ذلك من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه.

أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم.

وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة.

تضبط سلِمة بكسر اللام بني سلِمة، وفيها: ((بني سلِمة ديارَكم تُكتب آثاركم))[٥]، وهم الذين ورد فيهم {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} [سورة آل عمران:١٢٢]، ومساكنهم معروفة قريبة مما يسمى الآن بمسجد القبلتين.

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: ((من سيدكم يا بني سلمة؟))، قالوا: الجد بن قيس، على أنا نُبَخِّله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وأي داء أدوأ من البخل؟، ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بِشْر بن البراء بن مَعْرُور))[٦].

وقوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سيدكم يا بني سلمة؟))، في أول الهجرة.

---

٤ - رواه ابن جرير الطبري في التفسير، (٢٨٧/١٤)، برقم (١٦٧٨٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٩٨٨).

٥ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخُطى إلى المساجد، برقم (٦٦٥).

٦ - رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم (٢٩٦)، والحاكم في المستدرك، برقم (٤٩٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم (٢٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التوبة:٥٠-٥١].

يعلم -تبارك وتعالى- نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من {حَسَنَةٌ} أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسرّه ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، {وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، {وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} فأرشد الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: {قُلْ} أي: لهم {لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، {هُوَ مَوْلانَا} أي: سيدنا وملجؤنا {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ} [سورة التوبة:٥٢-٥٤].

يقول تعالى: {قُلْ} لهم يا محمد: {هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا}؟ أي: تنتظرون بنا {إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} شهادةٌ أو ظَفَرٌ بكم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم، {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}.

وقوله: {قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين {لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يُتقبل منهم، لـ{أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان، {وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى} أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، {وَلا يُنْفِقُونَ} نفقة {إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ}.

وقد أخبر الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- أن الله لا يمل حتى تملوا، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.

{فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:٥٥].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ} كما قال تعالى: {وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:١٣١].

وقال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وقوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقوله: {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم -عياذا بالله من ذلك-، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} تفسير الحسن -رحمه الله- أن تعذيبهم بما يطالبون به من الحقوق يعني كالزكاة، وأن ذلك يشق عليهم، ويؤلم نفوسهم كما قال الله -تبارك وتعالى- عن المنافقين: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [سورة التوبة:٩٨]، فهو يرى أن هذا الذي أُخذ منه أنه مال لا عوض له، فهو لا يرجو العاقبة في الآخرة والجزاء عند الله -عز وجل-، وإنما يدفع هذا المال ليدفع التهمة عن نفسه وهو كاره، ولا يرجو عليه ثواباً فهكذا قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ} لكن الأقرب من هذا -والله تعالى أعلم- هو أن تعذيبهم بها هو ما يحصل لهم من العناء والشقاء والنصَب بجمعها كما هو الحال بالنسبة لطلاب الدنيا التي صارت الدنيا هي شغلهم وغايتهم، فيشقْوْن في جمعها، ويقضون الزمان الطويل في تحصيلها من طرق كثيرة فيحصل لهم من التعب الشيء الكثير، أضف إلى ذلك ما يحصل لهم من العناء والتعذيب بسببها من جهة حياطتها وحفظها والإبقاء عليها فهو مشغول بها، يشقى بجمعها، ويشقى بحفظها، ويتفرق قلبه معها، قال حذيفة -رضي الله عنه-: "اللهم إني أعوذ بك من تفرق القلب"، وفسر هذا بأن يكون له في كل وادٍ مال، فصاحب المال يشقى بماله في جمعه وفي حفظه، وهو دائماً يفكر في هذا المال أين يضعه، وأين يثمره، وإذا خسر تألم بسبب هذا، وحصل له من النكد والتنغيص ولربما مات من الغم كما هو مشاهد، فطلاب الدنيا إذا نزلت الأسهم نزل عنده الضغط، وإذا ارتفعت الأسهم ارتفع الضغط فهو في عناء وعذاب، ومنهم من يطلق امرأته! ومنهم من يصاب بجلطة! ومنهم من يصاب بطاعون!! كل هذا من أجل هذا المال، ولو أن إنساناً قيل له: أنت عندك الآن مائة مليون، ربما لا يستطيع أن ينام الليلة يفكر هذه المائة مليون يا ترى ماذا سيصنع بها؟ هل سيضعها في استثمار؟ وأين هذا الاستثمار؟ وإذا رأى بعض الأمور التي يتخوفها من بوادر حرب أو نحو ذلك بدأ يفكر أين يضع هذه الأموال؟ في دولارات، أو يورو، أو ذهب، أو يوزعها ويفرقها يضع شيئاً في هذا، وشيئاً في هذا، وشيئاً في هذا احتياطا؟، وإذا بدأ يفتح بها أعمالاً ومشروعات يفتح عشرين مشروعاً؛

من أجل إذا خسر هذا يعوضه الآخر، ويفتح له منجرة، ومخبزاً، وحدادة وكل شيء، ويشقى هنا وهناك، وكان من الممكن أن يكتفي ببعض هذا، لكن أهل الدنيا يشقون في جمعها فهذا هو المعنى -والله تعالى أعلم-، وهو أحسن ما ذكر في تفسيرها، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، ورجحه ابن القيم بقوة، {وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} أيضاً يكون هذا المال سبباً لمزيد من غفلتهم ولهوهم واشتغال قلوبهم فتنقضي أيامهم من غير توبة، ولا إيمان فيكون مصيرهم إلى النار.

{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [سورة التوبة:٥٦-٥٧].

يخبر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم-، عن جزعهم وفزعهم وفَرَقهم وهلعهم أنهم {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ} يمينًا مؤكدة، {وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} أي: في نفس الأمر، {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} أي: فهو الذي حملهم على الحلف، {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً} أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به، {أَوْ مَغَارَاتٍ} وهي التي في الجبال، {أَوْ مُدَّخَلا} وهو السَّرَب في الأرض والنفَق، قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة، {لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}.

الفَرَق هو شدة الخوف، {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} فحلفهم هذا كما أخبر الله -عز وجل- في مواضع من كتابه {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ} [سورة المنافقون:١]، فهذه الشهادة بمنزلة الحلف، و{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المنافقون:٢]، حتى في يوم القيامة {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨]، استمرءوا هذا فرأوا أن هذا الحلف يخلصهم من كثير من الحرج والمواقف في الدنيا والإدانة، فظنوا أن ذلك ينفعهم في الآخرة، فيحلفون إذا بعثهم الله -عز وجل- من قبورهم، وهكذا أيضاً فرَقهم وصفه الله -عز وجل- في مواضع كقوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} [سورة الحشر:١٤]، هذه في المنافقين، والكلام كله عن المنافقين {تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة المجادلة:١٤]، هي في المنافقين وكبيرهم عبد الله بن أُبيّ لما تولوا اليهود من بني النظير، وقال لهم: لا تخرجوا من دياركم، وسنقف معكم، ونقاتل معكم إن قتلتم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فكذبهم الله -عز وجل- في هذا كله قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر:١٢]، {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} [سورة الحشر:١٣] يعني أشد مرهوبية، كذلك وصفهم بحال الخوف والشدة، {فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [سورة الأحزاب:١٩] و {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [سورة المنافقون:٤] إذا نزلت آيات إذا نادى المنادي للجهاد ظنوا أن هذه الدعوة والصيحة أنهم هم مستهدفون بها؛ لشدة خوفهم وفرَقهم كحال المنهزم الذي صوره الشاعر بقوله:

ما زلتَ تحسب كلَّ شيء بعدهم *** خيلاً تكرّ عليهم ورجالاً

فهو يخاف ويتوقع الشر ويتوجس لما فيه من الريب، فالإنسان إذا كان صاحب ريبة فهنا {وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}، ثم صور شدة الحال التي هم فيها {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} يقول: لو وجدوا مكاناً يستعصمون به وينحازون إليه لذهبوا وما بقوا عندكم وقتاً يذكر {لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}، قال: **يسرعون**، هذا من جمح الفرس إذا لم يردّه اللجام ينطلق لا يلوي على شيء يقول: لو يجدون مجالا ما بقوا طرفة عين عندكم هم يعيشون في توجس وخوف رهيب، ولكنهم مضطرون إلى هذا البقاء.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [سورة التوبة:٥٨-٥٩].

يقول تعالى: {وَمِنْهُمْ} أي ومن المنافقين {مَنْ يَلْمِزُكَ} أي: يعيب عليك {فِي} قَسْم {الصَّدَقَاتِ} إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن {أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} أي: يغضبون لأنفسهم.

بمعنى لا ينكرون للدين يعني إنكارهم ليس غيرة لله -عز وجل- وطلباً للحق والعدل، يعني حينما يقوم رجل ويقول: اعدل فإنك لم تعدل، فيقول: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله -عز وجل- مثل هذه المقامات التي يقولها بعض الناس، وهو لا يريد بها وجه الله -عز وجل-، فهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن من الناس من يقوم في الظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فينكر على أهل الظلم ظلمهم، وأهل البغي والفساد فسادهم، فإذا أعطى شيئاً من الدنيا من ولاية أو أعطي من مال أو غير ذلك صار شريكاً لهم، وإذا تأملت الكثير من النفوس وجدت ذلك ظاهراً فيها لأنك تجد عند هذا الإنسان أصلاً من منابت هذا الشر ومن التخلق به بالنسبة لما تحت يده ما يدل على أنه لو كانت له قدرة، وتمكن لفعل ما هو أعظم مما ينتقده ويعيبه على غيره، انظر إلى حاله وسلوكه إذا كان معلماً مع طلابه، انظر إلى حاله وسلوكه إذا كان مديراً مع من تحت يده، انظر إلى حاله في الأموال، وكيف تورعه فيها، وإذا تمكن أن يأخذ أرضاً أو مكسباً من المكاسب بأي طريقة من الطرق فقد لا يتوانى ولا يتورع، وهكذا تجد أحياناً الإنسان يعيب أشياء وإذا نظرت إلى حاله من الظلم، ومن بحسب ما عنده بحسب ما يمكنه لكن لو اتسعت قدرته لفعل أعظم مما ينتقد، وهذا كثير للأسف فقد يقوم في الظاهر على أنها غيرة لله -عز وجل-، وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وقد يخطب خطبة قوية، ويتكلم، وإذا نظرت إلى حاله تقول: هذا لو كان له من الأمر شيء للقي الناسُ منه أضعافَ ما ينتقد، تأمل في أحوال الخلق تجد هذا، فشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: من الناس من يكون بهذه المثابة لا يكون أمره لله فإذا أعطى أو قُرِّب، أو ولي فإنه يتحول إلى شريك لهذا الذي كان يعيبه وينتقده، وينكر عليه ويحتسب، والله المستعان.

وقال قتادة في قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذُكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديثَ عهد بأعرابية، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقسم ذهبا وفضة،

فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت، فقال نبي الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ويلك، فمن ذا يعدل عليك بعدي))، ثم قال نبي الله: ((احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرءون القرآن لا يجاوز تَرَاقيَهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم))[1]، وذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن))[2].

وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان عن أبي سعيد -رضي الله عنه- في قصة ذي الخُوَيصرة -واسمه حُرْقوص- لما اعترض على النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال: ((لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل))، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد رآه مقفياً إنه يخرج من ضِئْضِئ هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرُوق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء"[3] وذكر بقية الحديث.

أسماء المنافقين موحشة مثل هذا الاسم "حرقوص"، وهذه الرواية التي ذكرها عن قتادة: وذُكر لنا أن رجلاً من أهل البادية..... إلى آخره مثل هذا الإسناد لا يصح، ثم ذكر قصة ذي الخويصرة، وهما واقعتان، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: " ذَكَرَ كثيرٌ من أهلِ العلمِ أن هذه الآيةَ نَزَلَتْ في حرقوصَ بن زهيرِ ذي الخويصرةِ التميميِّ رأسِ المنافقينَ. قالوا: وَجَدَ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُقَسِّمُ مالاً فقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ اعْدِلْ؛ فإنك لَمْ تَعْدِلْ -قَبَّحَهُ اللَّهُ- وَقِصَّةُ ذِي الخويصرةِ معروفةٌ ثابتةٌ في الصحيحِ، ولكن الذي يظهرُ أن هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ من كبراءِ المفسرينَ أنها نازلةٌ في ذِي الخويصرةِ، وإنما قُلْنَا إن الأظهرَ أنها نازلةٌ في غيرِه أن المعروفَ أن القسمةَ التي قال فيها حرقوصُ بنُ زهيرٍ التميميُّ المعروفُ بذي الخويصرةِ أصلُ الخوارجِ -قَبَّحَهُ وَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ- أن ذلك في قَسْمِ النبيِّ لغنائمِ حنينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يُصَرِّحُ اللَّهُ فيها بأنهم لَمَزُوهُ في قسْمِ الصدقاتِ وهي الزكواتُ والصدقاتُ غير الغنائم، فالأظهرُ أن الأصوبَ فيها هو ما قاله ابنُ جريجٍ -رحمه الله- وغيرُه أنها نَزَلَتْ في رجلٍ من الأنصارِ من المنافقينَ حَضَرَ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُقَسِّمُ مالاً من الصدقاتِ فقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ، اعْدِلْ فإنك لم تَعْدِلْ -قَبَّحَهُ اللَّهُ- فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ فيه"[4].

وفي حاشية العذب النمير تعليقاً على كلام الشيخ الشنقيطي -رحمه الله-: " الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٥٥٦٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف.

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨١٥٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [سورة المعارج:٤]، وقوله -جل ذكره-: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [سورة فاطر:١٠]، برقم (٦٩٩٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٣).

٤ - العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٥/٥٨١-٥٨٢).

الأولى: في قَسْم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: ((يا محمد اعدل)) كما في حديث جابر -رضي الله عنه-، عند البخاري (٣١٣٨) ومسلم (١٠٦٣).

الثانية: في قَسْمِ ذُهيبة بعث بها علي -رضي الله عنه- من اليمن والنبيُّ -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، وقد قسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله: اتق الله... الحديث، كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريبًا، وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي، وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٩، وفيهما أيضًا التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٨): "تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين ووَهمَ من خلطها بها" اهـــ.

وقال في (١٢/ ٢٩٣): "وقد ظهر أن المعترض في الموضعين واحد" اهـــ.".

ثم قال تعالى مُنَبِّها لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٦٠].

لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي -صلى الله عليه وسلم- ولمْزهم إياه في قَسْم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يَكِلْ قَسْمها إلى أحد غيره، فجزّأها لهؤلاء المذكورين.

وإنما قدم الفقراء هاهنا لأنهم أحوج من البقية -على المشهور-، لشدة فاقتهم وحاجتهم.

ورُوِي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد، واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم.

قول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي -صلى الله عليه وسلم- ولمْزهم إياه في قَسْم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها، وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه،** هذا يسمى عند المفسرين علم المناسبة بين الآية والآية التي قبلها، ثم قال: **ورُوِي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد....... إلى آخره**، وقال: **واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو...** هذا في الفرق بين الفقير والمسكين إذا ذكر المسكين منفرداً دخل في معناه الفقير، وإذا ذكر الفقير منفرداً دخل في معناه المسكين، بلا إشكال، لكن إذا ذكر الفقير والمسكين معا فهل هما بمعنى واحد أو أن المعنى يختلف؟

كثير من أهل العلم يقولون: هذا مما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني إذا اجتمعا في اللفظ الفقراء والمساكين افترقا في المعنى، صار الفقير له معنى والمسكين له معنى، و إذا افترقا يعني ذكر أحدهما اجتمعا يعني في المعنى، وخلاف العلماء في هذا كثير، ولا أعلم شيئا يمكن أن يحتج به يرفع هذا الخلاف، وكل طائفة تحتج لما ذهبت إليه ببعض الأمور التي تلتمسها، يقول هنا: اختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس، فهم مشتركون في الحاجة لكن على هذا القول قول ابن جرير، وقال به آخرون غير ابن جرير أيضاً، وهو منسوب لابن عباس وبه قال الإمام الأزهري اللغوي المعروف باعتبار أنهما مشتركان في الحاجة، واختار ابن جرير والأزهري أن حال الفقير أشد؛ لأنهما نظرا إلى معنى المسكنة قال: المسكنة هي الذل، مذلة، وهذا الذل أتاه من مد يده، فيذهب إلى هذا، ويقوم يتكلم بالمسجد، ويتبع هذا، ويطرق باب هذا، فيحصل له ذل بسبب ذلك، وهذا الذل هو المسكنة، فصار الذي يسأل ذليلاً والذي لا يسأل يكون متعففا وهو الفقير، يقول: **وقال قتادة: الفقير من به زمانة والمسكين صحيح الجسم** يعني يشتركان في الحاجة لكن جعل الفقير هنا أشد من المسكين، ليس بعكس القول الأول، فالقول الأول لا يقول: إن المسكين أشد، المسكين يذهب ويطوف ويسأل ويحصل، وهنا جعل الفقير أشد، باعتبار أن فيه إعاقة، والمسكين صحيح الجسم لكنه ما عنده شيء، الفقير والمسكين، وهذا لا دليل عليه، وبعض أهل العلم كابن قتيبة يقول: المسكين أشد حالاً من الفقير، فالفقير قد يجد بعض الشيء، ولكنه لا يكفيه، والمسكين لا يجد شيئاً فكأنه تمسكن من شدة الحاجة، ظهر ذلك عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقد يحتج هؤلاء ببيت من الشعر يقول:

أما الفقير الذي كانت حلوبته *** ....

إلى آخر البيت، يقول هذا عنده حلوبة فيسمى فقيراً، ومن يعكسون القضية ويقولون: الفقير أشد حاجة من المسكين يحتجون بقول الله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [سورة الكهف:٧٩]، قالوا: عندهم سفينة ويؤجرون أو يشتغلون في البحر بالصيد، ولكنهم لا يحصلون كفايتهم، وإذا تأملت تجد أن هذه الاحتجاجات فيها نظر؛ لأنا قررنا في الأول أنه إذا ذكر أحد الاسمين دخل فيه الآخر، فقوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} يعني معناه فقراء، وهكذا بيت الشعر هذا وإن كان لا يحتج به في هذا المعنى أصلاً، ولا يعرف هذا الشاعر، وما قيمة كلامه أصلاً حتى يرجح به بين الأقوال، {لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} وكثير من السلف يفسرون ذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان))[٥]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فمثل هذا من الناحية العملية نحن نحتاج إلى أن نعرف أن الفقراء من مصارف الزكاة سواء كان يسأل أو لا يسأل، وهذا الذي يترتب عليه العمل، سواء كان يسأل الناس ويتعرض لهم أو يتعفف، والمتعفف أولى حينما نوازن، المتعفف أولى من غيره، يعني المصرف الواحد فيه أولويات حينما يقال مثلاً: {وَالْغَارِمِينَ} فأصحاب الديون يتفاوتون، فالذي لحقه دين وهو محبوس بدينه أولى من الطليق، ثم الذي لحقه دين بسبب التكثر يريد أن يكون تاجراً، ويستدين

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [سورة البقرة:٣١]، برقم (٤٢٦٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يُفطن له فيتصدق عليه، برقم (١٠٣٩).

من أجل أن ينشىء مصانع، وينشئ ورشاً، ونحو هذا تكثراً، هو موظف وراتبه عشرة آلاف لكنه يستدين من هذا خمسمائة ألف، ومن هذا مليوناً، ومن البنك الفلاني خمسمائة؛ ليشتري مزرعة، ويشتري خمسين من الإبل، ويشتري مخبزاً، ويشتري محل منجرة، ومصنع ألمنيوم، ويركب سيارة قيمتها أربعمائة ألف، ثم بعد ذلك يتورط، فالعشرة الآلف لا تسدد، ويأتي ويطوف بورقة ويقول: يا جماعة أنا ركبتني الديون وأنا تعبت وأنا ما عاد أستطيع عجزت فمثل هذا لا يعطى من الزكاة، بخلاف من أصابته الديون في جائحة، أصابته الديون في أمور ضرورية من العلاج، أو من تحصيل قوت عياله، أو نحو هذا فمثل هذا أولى الناس بالزكاة.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية.

فأما "الفقراء"، فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تحل الصدقة لغَنِيٍّ ولا لذي مِرَّة سَوِيّ))[٦] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

قوله: ((لا تحل الصدقة لغني)) وهذا معروف، ((ولا لذي مِرة سويٍّ)) يأتيك شاب عمره ثلاثين سنة ((ذي مرة)) أي قوي، و((سَويّ)) يعني ليس به إعاقة، سليم الأعضاء، ويأتي ويقول: أعطوني من الزكاة، لماذا لا تعمل؟ قال: ما وجدت عملاً!! فمثل هذا ليس به بأس شاب نشيط، لا يُعطَى، وهو أيضاً لا يعذر بأخذها، لا تحل له صدقة التطوع إذا كان هو الذي يسأل، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المسألة لا تحل إلا لثلاثة، وهذا ليس منهم.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان))، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: ((الذي لا يجدُ غنًى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا))[٧]، رواه الشيخان.

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس -رضي الله عنهما- يسألان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليستعملهما على الصدقة، فقال: ((إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس))[٨].

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني، برقم (١٦٣٧)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها، برقم (٢٥٩٧)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة، برقم (٦٥٢)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، برقم (١٨٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (٦٥٣٠)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير ريحان بن يزيد العامري، وثقه ابن معين وابن حبان، وقال حجاج، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم وهو الراوي عنه سفيان: هو الثوري"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٢٥١).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [سورة البقرة:٣١]، برقم (٤٢٦٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه، برقم (١٠٣٩).

٨ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، برقم (١٠٧٢).

والعاملون عليها كم يعطون؟ ومن أين يعطون؟ من أهل العلم من قال: إنهم يعطون الثمن وهو قول الشافعي -رحمه الله-، باعتبارهم صنفاً من الأصناف الثمانية، فتقسم بالسوية فيعطون الثمن، وهذا فيه نظر، ويقابله قول من قال كالإمام مالك -رحم الله الجميع-: إنهم يعطون من بيت المال، وهذا فيه إشكال؛ لأن الآية صريحة في أنهم يعطون من الزكاة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ...}، هم يعطون من الزكاة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنهم يعطون من الزكاة بحسب عملهم، حسب ما يؤدون من العمل بما يصلح مما يليق، كما يقال: أجرة المثل، فيقدر لهم شيء من هذا يعطونه، والزكوات لا تقسم بالسوية إلى ثمانية أقسام، ولا يجب أن يستوعب بها الأقسام الثمانية، يعني عندك زكاة لا يجب أن تقسمها ثمانية أقسام وتعطي كل هذه الأصناف الثمانية، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، بل نقل بعض أهل العلم الإجماع كالإمام مالك -رحمه الله- على أنه لا يجب استيعاب هذه الأصناف الثمانية، ولكن هذا الإجماع فيه إشكال؛ لأن من أهل العلم من خالف في هذا كالشافعي -رحمه الله- فإنه يرى أنها تستوعب، لكن ابن عبد البر -رحم الله الجميع- حمل قول الإمام مالك على أن ذلك من إجماع الصحابة: أنه لا يجب الاستيعاب، وهذا الذي دل عليه القرآن والسنة، فمن تأمل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً في حديث معاذ -رضي الله عنه- لما بعثه إلى اليمن: ((تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم))[9] فذكر صنفاً واحداً، واعتذار النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: إن خالد بن الوليد منع زكاة ماله، وبين لهم أمراً وهو أنه حبس أدْراعَه وأعْتادَه، وفي رواية: ((وأعْتادَه في سبيل الله))[10]، فمن أهل العلم من فسر هذا بأنه احتسب الزكاة في هذا الذي احتبسه في سبيل الله على هذا التفسير، وهو أحد الأقوال في معناها ويحتج به على أن الزكاة تصرف في مصرف واحد، يمكن هذا، فجعلها في سبيل الله وهو الجهاد، فلا إشكال في أن تصرف الزكاة في باب من هذه الأبواب، والله تعالى أعلم.

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (١٣٣١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٦٠ إلى الآية ٦٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تعداد أهل الزكاة: **وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يُعطَى ليُسلم، كما أعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركا، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: "أعطاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إليّ"[١]، ورواه مسلم والترمذي.**

ومنهم من يُعْطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطَى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، مائة من الإبل وقال: ((إني لأعطي الرجل وغيرُه أحبُّ إليّ منه، مخافة أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جهنم))[٢].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد -رضي الله عنه-: أن عليا بعث إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بذُهَيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيد الخير، وقال: ((أتألّفهم))[٣].

ومنهم من يُعطَى لمَا يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطَى ليَجبِي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن أسلم ولم يثبت إسلامه فإنه يعطى الزكاة لتثبيت الإسلام في قلبه، أو لكف شره أحياناً عن المسلمين سواء كان من المسلمين أو كان من غيرهم، وعمر -رضي الله تعالى عنه- لم يعطهم، وبين علة ذلك أن الله -عز

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧٦٣٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئا قط فقال لا، وكثرة عطائه، برقم (٢٣١٣)، غير أنه قال غزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غزوة الفتح فتح مكة، ورواية أحمد أنها غزوة حنين، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم، برقم (٦٦٦)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٤٨٢٨).

٢ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [سورة البقرة:٢٧٣]، وكَمْ الغنَى، برقم (١٤٠٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألُّفِ قلبِ من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، برقم (١٥٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [سورة المعارج:٤]، وقوله -جل ذكره-: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [سورة فاطر:١٠]، برقم (٦٩٩٥).

وجل- قد أعز دينه فلم يعد بحاجة إلى أحد، وعلى هذا مشى جماعة من أهل العلم كالشعبي من التابعين، وهو مذهب الإمام مالك وأصحاب الرأي، وهذه مسألة ترجع إلى السياسة الشرعية؛ لأنه لا يجب استيعاب هذه الأصناف، فيمكن أن يستغني عن هؤلاء في وقت من الأوقات يكون الدين فيه قويًّا، وظهر فلا يعطون، ولكن ليس معنى ذلك أن نصيبهم قد ارتفع، فلا يوجد دليل على النسخ، وإنما غاية ما هنالك أن عمر -رضي الله تعالى عنه- رأى في وقته أن هؤلاء الآن لا حاجة إليهم، فإذا احتيج إلى مثل هذا فإنهم يعطون، و رفْعُ عمر -رضي الله تعالى عنه- لها ليس من تغيير الأحكام الشرعية، فإنه -رضي الله عنه- لم يغير حكماً أنزله الله -تبارك وتعالى-، وإنما رأى أن هؤلاء لا يعطون فقط، لا أنه غير الحكم، يعطون في وقت ضعف المسلمين، في وقت الحاجة، وفي وقت عمر كان الدين أعز ما يكون، وأقوى ما يكون، فإذا احتيج إلى هذا أُعطوا وللأسف إن مثل هذه القضية احتج بها الملبسون الذين ينادون بتجديد الدين بطريقتهم، وهو تغيير شرائع الإسلام، فيقولون: عمر ألغى سهم المؤلفة قلوبهم، فهم يريدون أن يلغوا جملة من شرائع الإسلام التي لا تروق لهم، ويريدون أن يقرءوا القرآن كما يقولون بطريقة جديدة معاصره بعيداً عن فهم السلف، ويقولون: لسنا متعبدين بفهم السلف، فهؤلاء يريدون مسخ الدين، ولهذا بعضهم رأى إسقاط الحدود الشرعية أصلاً وإلغاء حكم الردة!! وهلم جرا، وإذا تولى الإنسان إعطائها -إعطاء الزكاة- بنفسه، فالذين قالوا بأن المؤلفة قلوبهم لم يعد هنالك حاجة إليهم لمّا كثر الإسلام وانتشر، يقولون: يقسمها على ستة!! بحيث إنه يُسقط السعاة؛ لأنه هو الذي قدمها بنفسه، ما يعطي العاملين عليها، وهؤلاء الذين من المؤلفة قلوبهم.

وأما الرقاب: فرُوي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنَّخعي، والزهري، وابن زيد: أنهم المكاتَبون، وروي عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- نحوه.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، أي: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالا.

وقد ورد في حديث مرفوع أن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، {وَمَا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٣٩].

هنا يقول: **قال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة**، يعني "وفي الرقاب" هل المراد به أن تشتري عبداً وتعتقه؟ أو أن المراد المكاتب؟، والمكاتب هو العبد أو الأمة الذي يتعاقد مع سيده على أن يصير حراً إذا دفع له قدراً من المال يتفق معه عليه ويكون منجماً بأقساط، فيقول له مثلاً: تدفع لي عشرة آلاف، كلَّ شهر ألفاً ثم بعد ذلك تكون حراً، فيمكّنه من العمل من أجل أن يكتسب ثم بعد ذلك يؤدي إليه الكتابة، فهل المراد بـــ "الرقاب" هذا أو المراد بـــ "الرقاب" كما قال ابن عباس والحسن بأنه العتق؟، والقول بأنه هو العتق قال به جماعة غير ابن عباس، كابن عمر من الصحابة، وهو مذهب الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، والذين قالوا بأنه المُكاتَبة مثل عمر بن عبد العزيز وهو مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة، وهو اختيار ابن جرير، قالوا: إن الرقاب هم المكاتبون؛ لأن الزكاة تنتقل من الغني للفقير، وقالوا: هي في المكاتبين وليس في اشتراء الأرّقاء وإعتاقهم؛ لأنهم نظروا إلى قضية وهي أن الرقيق إذا اشتراه وأعتقه يترتب عليه الولاء لمن أعتق، وهذا نفعٌ يرجع إلى المُعتِق، قالوا: فالزكاة يبذلها ولا يرجع إليه نفع من جراء ذلك، وهذا كيف يتحقق في

المكاتب؟، المكاتب حينما يعتق لو جاء أحد وساعده في مال المكاتبة ما يكون الولاء للذي ساعده، فقالوا: الزكاة لا يرجع نفع من جرائها للمزكي، فإذا أعتق الرقبة صار له الولاء، وهذا نفع، والأقرب -والله أعلم- أن الرقاب يشمل هؤلاء جميعاً، يشمل الأرقاء الذين يُشترون ويعتقون، ويشمل المكاتب لقوله تعالى: {وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}، وأيضاً يشمل الأسارى إطلاق الأسير -فك الأسير- فإنه يعطي من الزكاة.

وفي المسند عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار، فقال: ((أعتق النسَمة وفك الرقبة))، فقال: يا رسول الله، أوَليسا واحداً؟ قال: ((لا، عتق النسمة أن تُفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها))[٤].

وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قَبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسأله فيها.

تحملت حمالة يعني لو جاء بين طائفتين بينهم شر وقتال ونزاع فأصلح بينهم وقال لهم: القتلى عليّ ديتهم، والجراح وكذا أنا أتحملها بعروشها، فركبه من جراء هذا ديون، وهو ما عنده، وقد يكون عنده مال فيعطَى من الزكاة ولو كان غنياً، يعني لو أن أحداً من الناس عنده ملايين وجاء وتحمل حمالة بين طائفتين حصل بينهم قتال وتحمل الديات يعطى من الزكاة.

فقال: ((أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها))، قال: ثم قال: ((يا قَبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش -أو قال: سدادًا من عيش- ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثةٌ من ذوي الحِجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواما من عيش -أو قال سدادا من عيش- فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتا))[٥] **رواه مسلم.**

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: أصيب رجل في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ثمار ابتاعها، فكثر دينُه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- تصدقوا عليه، فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لغرمائه: ((خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك))[٦] **رواه مسلم.**

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان.

بالنسبة للغارمين ومن ركبته الديون فالأولى بذلك أن لا يكون هذا على سبيل التوسع والسفه في التصرف بالمال، ثم يعطى من الزكاة، فإن هذا لا يعطى، ولو فتح هذا المجال للناس كل الناس سيكونون من الغارمين، يذهب ويقترض من البنوك ومن غير البنوك، ويركب ما يشاء من المراكب، ويسكن ما يشاء من القصور

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٦٤٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٧٤).

٥ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، برقم (١٠٤٤).

٦ - رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين، برقم (١٥٥٦).

ويقول: أنا من الغارمين أعطوني من الزكاة، فهذا لا يعطى، و{فِي سَبِيلِ اللّهِ} هذا هو المشهور أن سبيل الله هو الجهاد وهذا لا شك فيه، لكن من أهل العلم من وسع المراد بذلك فأدخل الحج والعمرة في سبيل الله، وهذا قال به ابن عمر -رضي الله عنه- وكان الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه يقولان: إن الحج في سبيل الله داخل في هذا الحد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لما سألته عائشة -رضي الله عنها- عن الجهاد للنساء قال: ((عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة))[٧]، فسماه جهاداً، فبهذا الاعتبار قال بعض أهل العلم بأن الإنسان يعطى للحج، وعلى هذا القول ليس معنى ذلك أن يكون هذا مقدماً ويبدأ الناس يجمعون الزكوات من أجل أن يُحجِّجوا من لا يستطيع الحج! وهناك ما هو أولى من هذا بكثير، فهؤلاء الناس أصلاً قد أسقط الله عنهم الحج، وهم معذورون، {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [سورة آل عمران:٩٧] فالذي لا يستطيع أن يحج فإنه لا حاجة به إلى أن يأخذ من الزكوات ليذهب إلى الحج، وهناك مصارف معطلة هي أحوج ما تكون إلى هذه الزكوات، والله تعالى أعلم.

و ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه، والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد، -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تحل الصدقة لغنيّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكين تُصُدق عليه منها فأهدى لغنيّ))[٨].

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ابن السبيل يشمل من أراد أن ينشئ سفراً وليس معه شيء، يعني هذا ليس على إطلاقه، فلو أن أحداً في بلده وأراد أن يذهب ويسافر ليتنزه يبغي يسافر للسياحة في الأجازة هو وأولاده ويقول: أنا ما عندي أعطوني من الزكاة!! يقال له: لا تحل لك الزكاة، لكن يكون هذا في حالات يكون سفره فيها تدعو إليه الحاجة التي تنزل منزلة الضرورة، أو للضرورة، ولو أن أحداً من الناس يريد أن يسافر للعلاج مثلاً وليس عنده ما يكفيه للسفر، ليس عنده قيمة التذكرة ما عنده شيء فإنه يعطى من الزكاة، ولو أن أحد هؤلاء العمال جاء وجلس شهراً واحداً ثم أراد أن يرجع إلى بلده لمرض أو لأي سبب من الأسباب، فقال له صاحب العمل: أنت لم تجلس المدة التي تعاقدنا عليها فأنت لابد أن تتحمل التذكرة تشتريها من مالك!! والرجل ما عنده شيء ومضطر أن يسافر فإنه يعطى من الزكاة، وهكذا من فقد ماله في السفر، أو أن النفقة قد قصرت انتهت، فإنه يعطى ما يصلح لمثله، ولو كان غنياً في بلده، والمقصود أنه لا يستطيع

---

٧ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، برقم (٢٩٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٣٢٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٣٠٧٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل، (٤/١٥١)، برقم (٩٨١).

٨ - رواه ابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من تحل له الصدقة، برقم (١٨١٤)، وأحمد في المسند، برقم (١١٥٣٨)، قال محققوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين لكن اختلف في وصله وإرساله، وصحح الموصول ابن خزيمة والحاكم والبيهقي وابن عبد البر والذهبي وعلى فرض إرساله يتقوى بعمل الأئمة ويعتضد، ورجح المرسل الدارقطني وابن أبي حاتم.

أن يتوصل إلى ماله، أما اليوم فيمكن عن طريق البنوك، أو الحوالات، فإذا كان يستطيع أن يتوصل إلى ماله فلا يعطى لكن إذا كان لا يستطيع فإنه يعطى ولو كان غنياً في بلده، ولا يكون ذلك على سبيل الإقراض والدين، يعطى ما يصلح لمثله، فينقل بالوسيلة التي ينتقل بها عادة، ويسكن ويأكل مما يسكن فيه ويأكله عادة في بلده فقد يكون لا يركب ولا يسكن إلا في أرقى الأماكن فيعطى ما يصلح لمثله؛ لأن المسلم تحفظ له كرامته، فهؤلاء يعطون من مال الزكاة، ويعطون من الفيء، ويعطون من الغنيمة، فإن لم يوجد شيء من هذا يعطون من بيت مال المسلمين، ولو وَجد أحداً يقرضه فإنه يعطى، وقد قال الإمام مالك -رحمه الله-: إنه إن وجد من يقرضه فإنه لا يعطى، وهذا الآية ظاهرها العموم -والله أعلم-، {وَابْنِ السَّبِيلِ} [سورة التوبة:٦٠] لماذا سمي بابن السبيل؟ نسب إلى الطريق؛ لملازمته لها، {وَابْنِ السَّبِيلِ} كما يقال للطائر المعروف: ابن الماء؛ لملازمته للماء، ولا زال الناس يعبرون بمثل هذا يقولون: فلان طرقيّ يعني على سفر، مسافر، ابن السبيل نسبوه هنا إلى الطريق.

وقوله: {فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ} أي حكما مقدرا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، {حَكِيمٌ} فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٦١].

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- بالكلام فيه ويقولون: {هُوَ أُذُنٌ} أي: من قال له شيئا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا.

{أُذُنٌ} يعني أن من جاءه قَبِل منه، يصدق ويقبل مِن كل من حدّثه، فالعرب تعبر بذلك على سبيل المبالغة، فسموه "أذناً" كأنهم سموه بالجارحة التي يسمع بها وهي الأذن، كما يقال للجاسوس: إنه عين فأطلقوا على هذا اسم الجارحة، فأُذن للمبالغة، وهم يقصدون الإساءة أنه يقبل ويصدق كل من جاء إليه وكلمه، {هُوَ أُذُنٌ} فيسمع فينا وإذا أتيناه أيضاً قبِلَ منا.

روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، قال الله تعالى: {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب.

يعني كأنه قال نعم هو أذن، ولكن نِعْم الأذن هو لكم، هو{أُذُنُ خَيْرٍ} يعني يسمع ما فيه صلاحكم ونفعكم، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يحدثوه عن أحد من الصحابة بشيء يكرهه، وعلل هذا أنه يحب أن يخرج إلى أصحابه وليس في قلبه شيء على أحد منهم فـــ {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} بمعنى أنه خير للمؤمنين ويسمع ما فيه النفع لهم ويؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين، يصدقهم، وأما الكفار والمنافقون فإنه لا تنطلي عليه أكاذيبهم.

{يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: ويصدق المؤمنين، {وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} إذاً لا يصدق المنافقين والكافرين {وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ}، وأما الكافر فهو -صلى الله عليه وسلم- نبي الملحمة، هذا على قراءة الجمهور برفع {وَرَحْمَةٌ} وقرأ حمزة بالجر فيكون هكذا {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٍ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ} يعني: أذن خيرٍ ورحمةٍ، والمعنى واضح على هذه القراءة.

{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٦٢-٦٣].

الضمير هنا مفرد يقول: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} ذكر شيئين وأعاد الضمير مفرداً، وهذا أسلوب من أساليب العرب، والعلماء يجيبون عن هذا يبينون وجه هذا ويعللونه بتعليلات مختلفة فهنا منهم من قال بأنه أعاد الضمير إلى الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} تفخيماً وتعظيماً للجناب الإلهي، وبعضهم يقول: لأن إرضاء النبي -صلى الله عليه وسلم- تابع لإرضاء الله -عز وجل-، فأفرد الضمير، وبعضهم يقول: هذا من باب حذف ما يعلم والاكتفاء بذكر أحد الأمرين استغناءً به عن الآخر وما أشبه هذا، نقول: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:٦٢] يعني والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، مثل: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] يعني والبرد، و{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة:١١] إنما أعاد الضمير للتجارة؛ لأنها هي المقصود أو غير ذلك، {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا} [سورة التوبة:٣٤]، ولم يقل: ينفقونهما، إما أن يكون المراد الأموال أي ينفقون الأموال كما سبق، أو الفضة باعتبار أنها الأغلب في الاستعمال والتداول عندهم أو غير ذلك، فهنا: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} فمثل سيبويه والنحاس يقولون: إن المعنى هكذا "والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك"، يعني يكون فيه مقدر محذوف في باب الترجيح، والأصل عدم التقدير يعني مهما أمكن أن نتلافى التقدير فهو مطلوب، وهو أولى، ومن أهل العلم من يقول: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} يعني الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأن قوله: {وَاللّهُ} استفتاح كلام، للاستفتاح، وهذا لا يظهر، والله أعلم.

قال قتادة في قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ} الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإنْ كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟، فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله -عز وجل- الآية.

هذه الرواية عن قتادة وهي من قبيل المرسل، وهو من أقسام الضعيف

وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...} الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ {فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا} أي: مهانًا معذبا؟، {ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

قوله هنا في المحادة قال: **وكان في حدٍّ والله ورسوله في حدٍّ**، هذا أصل المعنى اللغوي المحادة تكون بين طرفين فأكثر، كما يقال في المشاقّة: هذا في شق وهذا في شق، والعداوة أن يكون هذا كأنه في عُدوة، وهذا في عُدوة، شق الوادي هذا أصلها، والمقصود بالمحادة هي الإعراض عن دين الله -عز وجل- والكفر ومحاربة أوليائه، كل هذا من محادة الله -تبارك وتعالى.

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:٦٤].

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا.

بمعنى أنّ "يحذر" هذا خبرهم أنهم حذرون من تنزل سورة تفضحهم هذا هو الراجح، وهو المتبادر، وأنه من قبيل الخبر خلافاً لمن قال: إن هذا صيغة الخبر وهو مضمن معنى الإنشاء يعني بمعنى الأمر ليحذرْ.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة المجادلة:٨].

هذه الآية الثانية هي في اليهود لكن وجه الإرتباط وجه الشبه أن المنافقين يحذرون في أنفسهم أن تنزل سورة تفضحهم، واليهود حينما كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم- السام عليك {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ} يحتمل معنيين أن الواحد يتلجلج في نفسه، يقول في نفسه: إن هذا لو كان نبياً لاستجيب له فيما يقول: وعليك، فدعاؤه علينا يستجاب، وكذلك قولنا له: السام عليك لو كان نبياً لعذبنا الله -عز وجل- بما نقول، ويحتمل أن {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ} يعني فيما بينهم، فإن المجتمعين على أمر ينزلون منزلة النفس الواحدة كقوله تعالى: {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ} [سورة النساء:٢٩]، {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة:٥٤]، {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة النساء:٢٩].

وقال في هذه الآية: {قُلِ اسْتَهْزِءُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} **أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال:** {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} **إلى قوله:** {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [سورة محمد:٢٩-٣٠]؛ **ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة "الفاضحة"، فاضحة المنافقين.**

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [سورة التوبة:٦٥-٦٦].

عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تَنكُبُه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون...} الآية.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّن بن حُميّر.

الصواب: يقال له: مخشي بن حمير.

ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّي بن حُميّر يشيرون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مُقَرّنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُخَشّي بن حُمَيّر: والله لوددتُ أني أقاضِي على أن يُضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني- لعمار بن ياسر: أدرِك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مُخَشّي بن حُمّير: يا رسول الله، قَعدَ بي اسمي واسمُ أبي، فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُخَشّي بن حُمّير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[٩].

وقوله: {لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به.

يعني {بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} هم كفار في الباطن والمقصود هنا بعد الإيمان الذي ادعيتموه وأظهرتموه، لم يكونوا مؤمنين وإن كان من أهل العلم من قال: إن بعض هؤلاء كانوا مؤمنين من ضعفاء الإيمان فكفروا بسبب هذه المقالة لكن لا حاجة لهذا.

{إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً} أي: لا يُعْفى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم، {بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

الطائفة الواحد فما فوق.

ثم إن هؤلاء استهزءوا بأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو ببعض أصحابه قالوا هذه الكلمة، قالوا: كنا نقول هذا من باب قطع الطريق والمؤانسة ونحو هذا، ما وجدوا شيئاً يضحكون ويتسلون به، ويهون عليهم بُعد الطريق إلا الاستهزاء بهؤلاء القراء فكانت هذه هي النتيجة {قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، وللأسف ابتلينا في هذا الزمان بشرذمة تستهزئ بالله ورسوله وبالمؤمنين، وفي أفضل أيام العام في شهر رمضان والناس على الإفطار جعلوا ديدنهم الاستهزاء من شرائع الإسلام، ومن المتمسكين به، وممن يمثلونه، تارة يستهزئون بالعالِم!! يأتون بالعالم يفتي الناس أن هذا حرام وهذا لا يجوز ثم يأتون به مع طلابه وهو يقول لهم: إنما نقول هذا فقط من أجل ضبط الناس، وإلا لا يوجد عليه دليل!! وهذه لا يمكن أن يأتي بها إلا واحد ناكص على عقبيه، خالط العلماء وعرف أن بعض المسائل تقال من باب الأحوط، ومن باب سد الذريعة، لا يمكن أن يأتي بها -أبداً لا يمكن أن يعرف هذه- إلا واحد نكص على عقبيه، ويأتون يستهزئون بالغيرة على

---

٩ - انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥٢٤/٢).

الأعراض، ويُظهرون الرجل مع أهله –الظاهر- في بريّة، واضعاً السيارات من جميع الجهات ومعه منظار يدور، لا يكون هناك أحد من بعيد يراهم مع هذا كله!! يستهزئون بالغيرة ليضحك الناس من هذا، ومن هؤلاء أهل الدين ويستهزئون بالقضاة، ويعرضون قاضياً عليه نظارة عريضة جداً، ولحيته مبعثرة، والشِّماغ على جنب، والطاقية وهكذا ثم يقرأ، وقبل أن يسمع كلام الخصم يقول: عليك كذا جلدة، فيقول له: ذاك ما سمعتَ مني؟ فيقول: عليك مثلها!! يستهزئون بالقضاة، والقضاء في أي مكان في العالم هو ركن من أركان النظام، يعني الحُكم يستهزءون به، وهكذا من ألوان الاستهزاء للأسف في شهر رمضان، والآيات شديدة وقوية: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} فالذي يريد أن يلعب ويستهزئ يذهب يلعب أي لعبة أخرى أما أن يلعب بالدين ويستهزئ بأهل الدين وبالعلماء وبالقضاة وكذا فهذا أمر لا يمكن أن يفعله إنسان مؤمن بالله واليوم الآخر أسأل الله أن يقطع هذه الألسنة ويريحنا منهم.

تكاثرت الكلابُ على خراشٍ *** فما يدري خراشٌ ما يصيد

فمنهم من يكتبون في الصحف ويبثون سمومهم والذين يظهرون في قنوات السحر، وكلٌّ ينهش من جهة، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٦٧ إلى الآية ٧٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [سورة التوبة:٦٧-٦٨].

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء {يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} أي: **عن الإنفاق في سبيل الله،** {نَسُوا اللَّهَ} أي: **نسوا ذكر الله،** {فَنَسِيَهُمْ} أي: **عاملهم معاملة مَن نسيهم، كقوله تعالى:** {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [سورة الجاثية:٣٤]، {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: **الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.**

وقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} أي: **على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم،** {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: **ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار،** {هِيَ حَسْبُهُمْ} أي: **كفايتهم في العذاب،** {وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ} أي: **طردهم وأبعدهم،** {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} قال: **أي نسوا ذكر الله،** {نَسُوا اللَّهَ} يمكن أن يحمل هنا على ما ذكره المصنف -رحمه الله-: **نسوا ذكر الله** أي ذكره بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر، وإذا حُمل على هذا المعنى فلا إشكال فيه، فمن نسي الله بقلبه بمعنى أنه لم يؤمن به ولم يستحضر عظمته، وما يليق به، ولم يتوكل عليه، ولم يقم في قلبه من الأمور الواجبة في الإيمان فضلاً عن الأمور المستحبة، فالخوف والرجاء والمحبة والتوكل منه قدر واجب، فهؤلاء نسوا الله بقلوبهم فلم يراقبوه ولم يخافوه ولم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه {فَنَسِيَهُمْ} وكذلك أيضاً نسوه بجوارحهم فلم يعبدوه ونسوه بألسنتهم فلم يذكروه، فهذا المعنى بهذا الاعتبار لا إشكال فيه إذا فهم من هذه العبارة هذا العموم، وإلا فإنه يمكن أن يعبر عن هذا فيقال: {نَسُوا اللَّهَ} أي: تركوا الإيمان به وأعرضوا عن عبادته بالقلب واللسان والجوارح بهذه الأمور، والمقصود بالنسيان هنا الترك؛ لأن النسيان في كلام العرب يأتي لمعنيين:

المعنى الأول: ذهاب المعلوم من الذهن، قد يكون الإنسان عَلِم شيئاً أو حفِظه ثم بعد ذلك ينساه.

ذهابُ ما عُلِمَ قُل نسيانُ *** والعلمُ في السهوِ له اكتنانُ

فالسهو يكون الشيء موجوداً في ذهن الإنسان لكنه يصيبه شيء من الذهول عنه فقط، وإلا فهو متيقَّن عنده تقول: سهوت عن هذا الشيء، بخلاف نسيه إذ نسيه انمحى من الذهن، فالنسيان يأتي بمعنى الترك، ويأتي بمعنى ذهاب المعلوم من الذهن، فهنا المقصود بالنسيان {نَسُوا اللَّهَ} يعني الترك تركوا الإيمان، تركوا العمل بطاعته، هذا أيضاً كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الحشر: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، وقوله هنا أيضاً: {فَنَسِيَهُمْ} قال: **أي عاملهم معاملة مَن نسيهم**، بمعنى تركهم، ويمكن أن يقال هنا مباشرة: إن النسيان المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- دائماً هو الترك، هو بمعنى الترك -المعنى الآخر للنسيان- وليس هذا من قبيل المجاز، وإنما هو حقيقة، والله -تبارك وتعالى- لا يضل ولا ينسى {لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [سورة طه:٥٢]، فالله منزه عن النسيان الذي هو ذهاب المعلوم، وهو سبحانه: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق:١٢]، فيكون المعنى هنا {فَنَسِيَهُمْ} أي تركهم فلم يشملهم برحمته، ولم يدخلهم جنته، وتركهم في العذاب يخلدون لا يخرجون منه أبداً، كما قال -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [سورة الأعراف:٥١]، ينساهم في النار يعني يتركهم في النار لا يخرجون منها {جَزَاء وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦]، والفاء هنا تدل على التعليل {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} وهي تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهذا الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإيماء والتنبيه، بعضهم يقول: إن هذا من باب المشاكلة {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} لا حاجة لهذه المشاكلة، المشاكلة عندهم نوع من المجاز عند كثير من أهل البلاغة، ولا حاجة لهذا، وليس من باب المشاكلة، والنسيان بالمعنى الذي ذكرته لا إشكال في إضافته إلى الله -تبارك وتعالى-، وهكذا قوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} فلاحظ المؤكدات هنا "إنّ" بمنزلة إعادة الجملة مرتين {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ} الفصل بضمير الفصل بين طرفي الكلام يفيد تقوية النسبة.

نسبة الصفة للموصوف أو الموصوف للصفة ودخول "ال" على "الفاسقين" {هُمُ الْفَاسِقُونَ} يشعر بأن هؤلاء قد استحقوا من هذه الصفة الأكملَ منها كأنه لا فاسق إلا هؤلاء، وكل ما مر عليك في القرآن بهذه الطريقة {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة البقرة:٢٥٤] وأشباه ذلك فهو من هذا الباب، والله أعلم.

{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة التوبة:٦٩].

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب مَن قبلهم، وقوله: {بِخَلاقِهِمْ} قال الحسن البصري: بدينهم، {كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} أي: في الكذب والباطل.

هنا {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً} باعتبار أن الخطاب هنا للمنافقين، {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} فهنا يقول: العمل نفس العمل، وما ذكره من كونهم أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً هذا وصف غير مؤثر بالنسبة للعقوبة، يعني السبب الجالب للعقوبة في الطائفتين: المتقدمة، ومن ضاهاها أي الطائفة المتأخرة هو الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لكن حينما أقصد أنه وصف غير مؤثر أي في

باب القياس في أصول الفقه، أما من ناحية المعنى فإذا كان أولائك مع كثرة أموالهم وقوتهم، ومع ذلك حلت بهم نقمة الله -عز وجل- وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فأهلك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وفرعون والمؤتفكات كل هؤلاء فإن أخذه لهؤلاء أيضاً يكون أمراً متحققاً، أو فحينما نقول وصف غير مؤثر أي في باب العلة في القياس، أوصاف غير مؤثرة يعني في تحقق المعنى أو في وقوع الحكم، ومعنى وصف غير مؤثر من الناحية التفسيرية، من ناحية العلة التي أوجبت وقوع هذا، هل هم لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً؟ أو لأنهم استمتعوا بخلاقهم وخاضوا بالباطل؟ هذا هو السبب {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} **يقول هنا: قال الحسن البصري: أي بدينهم**، الخلاق أصله بمعنى النصيب، والحظ كأنه يعني الشيء الذي خلق للإنسان فصار خلاقاً، والنصيب كأنه الشيء الذي نصب له، والقدر كأنه الشيء الذي قدر له، فخلاقه أي حظه ونصيبه، {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} يعني استمتعوا بحظهم من الدنيا وتمتعوا بألوان اللذات وكانت لذاتهم أكمل من لذات هؤلاء المنافقين لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً والأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا، فهذا معنى الاستمتاع بالخلاق استمتعوا بنصيبهم، وابن جرير -رحمه الله- يضيف إلى نصيبهم من اللذات والدنيا يضيف أيضا الاستمتاع بنصيبهم من دينهم الباطل، لكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن هذه الآية تضمنت أمرين من معافسة الباطل ومواقعته التي أوجبت العذاب وهما: الولوج والإغراق في الشهوات والأمر الثاني الخوض في الشبهات بالباطل فقوله: {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} يعني في باب الشهوات تمتعوا بألوان اللذات وعافسوا ما عافسوا من حظوظ النفوس، ومطلوباتها، قال هنا: {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ} حذو القذّة بالقذّة شابهتموهم في هذا {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} وهنا هذا باب الشبهات وابن كثير -رحمه الله- هنا **يقول: أي في الكذب والباطل** {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} بالتكذيب والكفر والاستهزاء بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- وبالكتاب الذي أنزله عليكم، أو في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- خضتم وقلتم كذاب وساحر وما شابه ذلك {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} فيكون الأول في الشهوات والثاني في الشبهات، فيكونون جمعوا بين طرفي الضلال الشهوة والشبهة، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وشرحه في عدد من كتبه كإغاثة اللهفان وإعلام الموقعين.

{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} أي: **بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة** {فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

بالنسبة للحبوط قال هنا **بطلت**، وأصله من حبطت الدابة يعني أكلت حتى بشمت، ثم بعد ذلك ماتت كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإنّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يقتلُ حَبَطاً أو يُلِّمُّ))[1] يقارب الدابة يعني وهي تأكل كثيراً فينتفخ بطنها ولا تستطيع أن تصرف هذا الذي أكلته فتموت.

لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} **هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه**

---

١ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٠٦٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (١٠٥٢).

قال: ((والذي نفسي بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبٍّ لدخلتموه))[٢].

قوله: **بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال:** ((والذي نفسي بيده...)) يعني شبهنا بهم بالحديث، وإلا فالآية أعم من بني إسرائيل، {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} كما جاء في الآية التي بعدها من تسمية هؤلاء الأقوام من قوم نوح ومن بعدهم.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده، لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وباعا بباع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه))**، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال:** ((فَمَهْ؟))[٣]**، وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.**

تكلم شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم فذكر نحو عشرة أوجه أو عشر صور من مشابهة هذه الأمة لبني إسرائيل، في موضع واحد ذكرها، وفي أواخر الكتاب ذكر صوراً أخرى.

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة التوبة:٧٠].

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل {قَوْمِ نُوحٍ} وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح -عليه السلام-، {وَعَادٍ} كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا -عليه السلام-، {وَثَمُودَ} كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا -عليه السلام-، وعقروا الناقة، {وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ} كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني -لعنه الله-، {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ} وهم قوم شعيب -عليه السلام-، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، {وَالْمُؤْتَفِكَاتِ} قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] **أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي "سدوم"، والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا -عليه السلام-، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.**

ويمكن أن يكون {وَالْمُؤْتَفِكَاتِ} يعني القرى، وهي مجموعة من القرى، فعُبر عنها بالجمع وعبر عنها بالإفراد، فبالنظر إلى مجموعها يقال: مؤتفكات، قرى مؤتفكة، والإفك أصله القلب، ومنه الإفك: قلب الحقيقة، الكذب الفج الذي لا أساس له، يعني لا شبهه فيه، قد يلتبس الأمر على الإنسان، فيعبر بغير الحق، فيتكلم بغير الحق لكن إذا كان الشيء مختلقاً لا أساس له فهذا إفك {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ} [سورة النور:١١] فالمؤتفكات: المنقلبات باعتبار أنها رفعت وقلبت ثم بعد ذلك أُتبعوا بالحجارة {الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ} [سورة الفرقان:٤٠].

---

٢ - رواه البزار في مسنده، برقم (٨٤١١)، وأصله في مسلم كما سيأتي في الحاشية التالية.

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٣٤٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ، فمن رجال مسلم"، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سَنَن اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩).

{أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل القاطعات، {فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٧١].

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))، وشبك بين أصابعه"[٤]، وفي الصحيح أيضا: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[٥].

وقوله: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، كقوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران:١٠٤].

وقوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، {وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، {حَكِيمٌ} في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، -تبارك وتعالى.

بمعنى أن التعقيب هنا ختَمَ الآية بقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} يعني قد يقال: إن المتبادر {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فمقتضى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ذلك لا يختص بهذه الجزئية {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} وإنما يرجع إلى ما سبق، فالله -تبارك وتعالى- {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، وهكذا أيضاً وعد المؤمنين {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...} فهذا كله بمقتضى عزته وحكمته، فعزته -تبارك وتعالى- أي بمعنى أنه الغالب القاهر، الذي يفعل ما يشاء، و حكيم حيث يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، ففعل هذا بالمنافقين والكفار، وفعل هذا بالمؤمنين، وقوله هنا: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ} الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي من جملة طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذا من باب عطف العام على الخاص، فذِكرُ بعض أفراد الخاص وتخصيصه قبل العام أو بعده يكون لنكتة، كبيان أهميته مثلاً، كقوله -تبارك وتعالى-: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [سورة البقرة:٢٣٨]، فهنا عطف الخاص على العام، وقوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، برقم (٢٣١٤).

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (٢٥٨٦).

[سورة البقرة:٩٨]، فهذا من باب عطف الخاص على العام و{مَا بَيْنَ أَيْدِينَا} [سورة مريم:٦٤]، أما هنا فهو من باب عطف العام على الخاص.

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٧٢].

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبدا، {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً} أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[٦].

وبه قال -رضي الله عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَة من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفة، طولها ستون ميلا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضا))[٧]، أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها))، قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: ((إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن))[٨].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة))، قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: ((أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو))[٩].

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المُدِلَّة، عن أبي هريرة، -رضي الله عنه- قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: ((لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٠).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٨)، ومسلم -واللفظ له- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، برقم (٢٨٣٨).

٨ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [سورة هود:٧]، {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة التوبة:١٢٩]، برقم (٦٩٨٧).

٩ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٢)، وأحمد في المسند، برقم (٧٥٩٨)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٧٦٧).

المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه))[١٠].

بعض أهل العلم يقول: إن **{جَنَّات عَدْنٍ}** بمعنى جنات إقامة، وبعضهم يقول: إن هذا يعني به وسط الجنة، وبعضهم يقول: اسم لمدينة الجنة، وبعضهم يقول غير هذا، وهذه اللفظة في كلام العرب تدل على الإقامة، **{جَنَّات عَدْنٍ}** أي إقامة، أي أنهم يمكثون فيها لا يخرجون عنها، يخلدون، ويكون ما يذكر بعده إذا كان هذا هو المعنى **{خَالِدِينَ فِيهَا}** يمكن أن تكون بمعنى الصفة الكاشفة، ويمكن أن تكون هذه الصفة تؤكد وتبين أن هذه الإقامة غير منقطعة الخلود، فهو البقاء الأبدي السرمدي.

وقوله تعالى: **{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** أي: **رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك -رحمه الله-، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري، -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله -عز وجل- يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا))**[١١] **أخرجاه من حديث مالك.**

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** التنكير عرفنا في مناسبات شتى أنه يأتي تارة للتعظيم، وتارة للتحقير، فهنا **{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** ما المراد به؟ هل التنكير هنا يفيد التعظيم ولا يفيد معنى آخر كما في قوله تعالى مثلاً: **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** [سورة الصف:١٠]، "تجارة" فالتنكير هنا للتعظيم، وكقوله -تبارك وتعالى-: **{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [سورة آل عمران:١٣٣]، **{إِلَى مَغْفِرَةٍ}** يعني مغفرة عظيمة، فهنا هذا التنكير للتعظيم، لكن قد تجد في بعض كتب التفسير من يعبر، ويقول: التنكير هنا للتحقير، هذا موجود فلا يهولنّك ذلك، هذا الذي قال: إن التنكير للتحقير، يعني لو عبر بعبارة أخرى غير كلمة التحقير كالتقليل مثلا لكان أفضل، بمعنى أن أدنى رضوان من الله -عز وجل- أفضل من جميع الملاذ والنعيم، قصدَ هذا المعنى، ذكرت هذا؛ ليُفهم كلام أهل العلم، فقد يقرأ الإنسان أحياناً ويقول: هذا كلام غير معقول، يمكن أن يكون سبق قلم، لا، هو يقصد هذا المعنى الذي ذكرته آنفا، والله أعلم.

---

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨٠٤٣)، وقال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وقال الألباني صحيح لشواهده في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٦٣٠).

١١ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا، برقم (٢٨٢٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧٣ إلى الآية ٧٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [سورة التوبة:٧٣-٧٤].

أمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} قال: بيده، فإن لم يستطع فليَكْفهرّ في وجهه.

وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} هذه الأقوال التي ذكرها بما يتصل بالمنافقين إنما اختلفت بناء على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحصل منه مقاتلة، بل ولا قتل لأحد من المنافقين كما هو معلوم في هديه وسيرته -صلى الله عليه وسلم- في التعامل معهم، فقوله: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ} هذا واضح يشمل جميع أنواع الجهاد بالقتال، وقد جاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم، والجهاد أيضاً بالحجة والبيان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [سورة الفرقان:٥٢] يعني القرآن فهذا كله واقع منه -عليه الصلاة والسلام-، ولا إشكال في هذا، ولم يختلف السلف في هذا الجزء من تفسير الآية، وإنما الكلام في {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} فهنا هذه الأقوال التي ترونها، قال: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، فقال ابن مسعود: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ}، **قال بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه**، {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} يجاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- المنافقين بيده بعضهم فسره بإقامة الحدود عليهم، وبعضهم قال: إن الذين كانوا يقارفون ما يوجب الحد إنما كان يقع ذلك من المنافقين، وهذا غير صحيح، والنبي

-صلى الله عليه وسلم- أخبر عن المرأة التي زنت وعن توبتها العظيمة أنها لو قسمت بين أربعين من أهل المدينة لوسعتهم، وقالوا: وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها[1]؟!، فمجاهدة المنافقين هنا يقول ابن مسعود: **فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه** ذكر هذا بعد الجهاديْن: جهاد المنافقين، وجهاد الكافرين، بالنسبة للكفار الكافر المحارب يجاهد باليد، لكن الكافر غير المحارب هل المسلم مطالب بأن يكفهر في وجهه؟ وهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكفهر في وجوه الكافرين؟ الجواب: لا، ويبقى الكلام في المنافق قال ابن عباس: **أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم**، معلوم أن المنافقين تجري عليهم أحكام الظاهر يعني يعاملون بحسب ما أظهروا يعاملون معاملة المسلمين، فإذا ظهر منهم شيء فإنهم يعاملون بمقتضاه، إن ظهر منه ردة وثبت ذلك عليه فإنه يقتل، كمن سب النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو سب الله -تبارك وتعالى- أو نحو ذلك إذا ثبت ذلك عليه فيجاهد بإقامة الحد عليه، وإن سُمع منه منكر من المنكرات فإنه ينكر ذلك عليه، وهذا من المجاهدة، فأهل النفاق وهكذا أصحاب البدع الغليظة وأشباه هؤلاء يغلظ عليهم إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، يعني كان المسلمون فيهم قوة، وأهل السنة فيهم ظهور، فهذا الأصل، واغلظ عليهم بزجرهم وردعهم، وهكذا الذين يظهرون المنكرات، ويتبجحون بها، يعلنون بها لا يرعوون فإن هؤلاء ينكر عليهم، ويغلظ عليهم بزجرهم وردعهم عن ما هم فيه من الغيّ، هذا هو الأصل ولكن إذا لم يمكن ذلك لضعفٍ لدى أهل الحق فإن هذه الشريعة فيها عزائم ورخص فينتقل بعد ذلك إلى الرخص، وابن جرير -رحمه الله- كان يرى أن الآية على ظاهرها {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} أنه لا فرق بين الجهادين، وأن المنافقين يجاهَدون كما يجاهد الكفار إذا أظهروا كفرهم الذي أبطنوه، هم يخفون الكفر ويظهرون الإسلام، فإذا أظهروا كفرهم فإنهم يجاهدون كما يجاهد الكفار، لكنهم إذا تنصلوا من ذلك وأنكروه كما كان عبدالله بن أبيّ يقول: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [سورة المنافقون:٨] ثم حينما يسأل يحلف أنه ما قال! فإذا كان كذلك فإنه يترك لا يقتل وهذا مما يدخل في معنى الآية أنهم يقتلون إلى آخره، إذا أظهروا كفرهم، ولكن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي يبين معاني القرآن فالله يأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين، أما جهادهم بالقرآن فلا شك أن الطائفتين يدخلون في هذا ويبقى لكل طائفة من المجاهدة نصيب، فالكفار يجاهدون بالسيف، والمنافقون لم يكن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقتلهم أو أن يقاتلهم، وإنما كان يكلهم إلى ظواهرهم، فالإنكار عليهم والزجر والغلظة على كل ذلك مطلوب، قال: **قال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم**، فالذي حدا بهؤلاء العلماء -رحمهم الله- إلى القول بهذا هو ما عُرف من هديه -صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع المنافقين قال: **وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم**، هذا جزء من مجاهدتهم وليس ذلك فحسب وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال يعني كل ذلك من الجهاد بإقامة الحد وبالإنكار وإقامة الحجج والرد على فِراهم وما أشبه هذا، هذا كله من مجاهدتهم يبقى جهاد واحد هو الذي لم يقع، وهو قتالهم بل لم يقتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وفرْقٌ بين القتل والقتال، فلم يقتلهم؛

---

١ - رواه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، برقم (١٦٩٦).

لئلا يقول الناس: إن محمداً -صلى الله عليه وسلم- كان يقتل أصحابه، وحتى أولائك الذين أطلعه الله -عز وجل- على نفاقهم تركهم!!.

قال "الأموي" في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه عن جده قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم-: الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت، وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حِجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد فقال: والله -يا جلاس- إنك لأحب الناس إليّ، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم عليّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتفضحَنِّي ولئن كتمتُها لتُهلكنِّي، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب عليّ، فأنزل الله -عز وجل-، فيه: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ} إلى آخر الآية[٢]، فوقّفه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع.

هذه الرواية جاءت من طرق متعددة، ومما ورد في هذا أن رجلاً سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب فقال: إن كان ما يقول هذا حقاً فنحن كذا وكذا، يعني هذه الكلمة التي قالها، فنزلت الآية، وهي رواية تتقوى بمجموع طرقها، وجاءت روايات أخرى في هذا المعنى، فهذا إذا كان يمكن أن يكون الحديث فيه عن قضية واحدة تارة سمي فيها القائل، وتارة لم يسمّ، -وهذا لا يخلو من بُعد عن التأمل لألفاظ الروايات-، وقد يكون ذلك من زمان متقارب فيقال: إنها نزلت بعد هذه المواقف جميعاً إذا كان الزمان متقارباً، وإذا كانت هذه بينها تباعد فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت أكثر من مرة، مرة في هذا ومرة في غيرها.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالسا في ظل شجرة فقال: ((إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه))[٣].

في بعض الروايات في ظل حجرة.

فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق.

رجل أزرق العرب تطلق الأزرق أحياناً على أزرق العينين، وأحياناً يطلق الأزرق على من كان لونه يخالطه السواد، بخلاف الاصطلاح الآن الموجود عند بعض الناس، يقولون: مثل هذا أخضر -الذي فيه سواد خفيف-، ويقال: ومن كان شديد السواد يقولون له: أزرق، لكن هذا اصطلاح حادث أزرق يعني شديد السواد هذا موجود يعبر به في بعض النواحي، ولكنه اصطلاح حادث.

---

٢ - رواه عبد الرزاق في المصنف، كتاب العقول، باب قسامة الخطأ، برقم (١٨٣٠٣).

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٣٦٣/١٤)، برقم (١٦٩٧٣).

فدعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((علام تشتمني أنت وأصحابك؟))، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله -عز وجل-: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا} الآية.

وقوله: {وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ}، قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

الجزء الذي في الآية السابقة لم يتكلم عليه {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} هذا يوضح قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [سورة التوبة:٦٦]، وعرفنا أن المنافقين ما كانوا مؤمنين، وإنما المقصود بعد إيمانكم الذي أظهرتموه، وهنا قال: {وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} وهذه توضح المراد بالإيمان في الآية السابقة، فالمعنى الذي أظهروه هو إسلام الظاهر {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [سورة الحجرات:١٤] فكل هذا محمول على هذا المعنى -والله تعالى أعلم-: أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، {وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} أي إسلام الظاهر.

وقوله: **هم بقتل ابن امرأته** يعني عمير بن سعد الذي مضى في الرواية السابقة، لكن هذا يحتاج إلى إثبات، ولا أعلم رواية صحيحة في هذا، وأسباب النزول موقوفة على النقل والسماع ولا مجال للاجتهاد فيها، وإذا كانت الرواية لا تصح -يعني في أنه هم بقتله- فلا يقال: إن هذا هو سبب النزول.

وقيل: في عبد الله بن أبيّ هم بقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وهذا أيضاً لا يعرف في رواية صحيحة.

و قال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتوِّجوا عبد الله بن أُبيّ وإن لم يرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

كل هذه مراسيل، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن أكثر المرويات الواردة في أسباب النزول هي من قبيل المراسيل، لا تصح.

وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقود به، وعمار يسوق الناقة -أو أنا أسوقه، وعمار يقوده- حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فانتهرهم فأنبهتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل عرفتم القوم؟))، قلنا: لا يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الرِّكاب، قال: ((هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟))، قلنا: لا، قال: ((أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة، فيلقوه منها))، قلنا: يا رسول الله، أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: ((لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم

يقتلهم))، ثم قال: ((اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة))، قلنا: يا رسول الله، وما الدُّبَيلة؟ قال: ((شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك))[٤].

قوله: **{وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ}** كون هذا هو سبب النزول كما ترون الرواية ليس فيها شيء من هذا، يحتمل أن يكون هذا هو السبب أنهم هموا بأذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك بمزاحمة ناقته حتى يسقط من العقبة، لكن ليس عندنا رواية صحيحة في أن هذا هو سبب نزول الآية.

حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس.

من أهل العقبة ليس المقصود بيعة العقبة، وإنما هؤلاء الذين هموا بمزاحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- في العقبة في الطريق إلى تبوك.

فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك، قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذرَ ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حَرَّة فمشى، فقال: ((إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد))، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم يومئذ.

وما رواه مسلم أيضا عن عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- قال: أخبرني حذيفة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((في أصحابي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية تكفيكهم الدُّبَيْلة: سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم))[٥].

ولهذا كان حذيفة يقال له: "صاحب السر، الذي لا يعلمه غيره" أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دون غيره، والله أعلم.

وقوله: {وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال -صلى الله عليه وسلم- للأنصار: ((ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟)) كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن[٦].

هؤلاء من المنافقين، بعضهم يقول: إن بعض من نزلت فيه هذه الآية كان له دية فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- فأغناه الله بذلك، وهذا لا يحصر بهذا المعنى، وإنما أغناهم الله -عز وجل- بما فتح الله عليهم من الفتوح، وما حصل ببعثته -صلى الله عليه وسلم- مِن غناهم بعد الفقر الذي كان هو الغالب على أحياء العرب، ففتح الله -عز وجل- قريظة والنضير وخيبر وما شابه ذلك، فصار هؤلاء -كما تجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر- يأخذون من الغنيمة إذا شاركوا في المعركة، ويأتيهم ما يأتيهم من الأموال والصدقات

---

٤ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للإمام أبو بكر البيهقي (٢٦١/٥).

٥ - رواه مسلم، في بداية كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٩).

٦ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦١).

وغير ذلك فصاروا أغنياء بعد أن كانوا عالة ((ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ قال: وعالة فأغناكم الله بي؟))، وهؤلاء من المنافقين عامتهم كانوا في المدينة إلا ممن حولهم من الأعراب، فحصل لهم الغنى بما فتح الله -عز وجل- به على المسلمين، وقوله: {وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ} [سورة المائدة:٥٩] الآية، وكقوله في أصحاب الأخدود: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} [سورة البروج:٨] فإيمانهم هو سبب نقمتهم وهذا ليس بعيب، وليس فيه ما يوجب النقمة، وذلك كقول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم *** بهنّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

فهذا الذي يسميه البلاغيون: المدح بما يشبه الذم، وهذه الآيات ترجع إلى هذا المعنى، وإن كان ذلك عند المنافقين بغيضاً مكروهاً، فالشاهد أن المؤمنين لم يصدر منهم، ولا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما يوجب هذا النقمة من المنافقين، بل صدر منهم عكس ذلك، وهو أنه حصل لهؤلاء المنافقين الغنى {وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قيل له: إن ابن جميل قد منع صدقته، قال: ما يَنقِمُ ابنُ جميل إلا أن أغناه الله من فضله، يعني كان الواجب عليه أن يشكر وأن يخرج زكاة ماله.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ...} الآية [سورة البروج:٨].

ثم دعاهم الله -تبارك وتعالى- إلى التوبة فقال: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} أي: وإن يستمروا على طريقهم {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا} أي: بالقتل والهم والغم، {والآخرة} أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، {وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يُحصّل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

هنا فسر العذاب في الدنيا بالهم والغم، ولم يفسره بغير هذا كالقتل مثلاً، أو المقاتلة؛ لأن ذلك لم يقع لهم، والله -عز وجل- وعْدُه حق وصدق، وهم قد تولوا فلم يقع عليهم القتل، ففسر العذاب في الدنيا بما يحصل لهم من النقص في الأموال، وما يحصل لهم من العلل والأوجاع في الأبدان، وما يحصل لهم من الغم بسبب ما يفقدونه في هذه الدنيا من الأولاد وغير ذلك من المتع التي يتحسرون على فواتها، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧٥ إلى الآية ٨٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [سورة التوبة:٧٥-٧٨].

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله -عز وجل- يوم القيامة، عياذا بالله من ذلك.

وقوله تعالى: {بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[١].

وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ}: اللام في قوله: {لَئِنْ آتَانَا} لام قسم، واللام الثانية في قوله تعالى: {لَنَصَّدَّقَنَّ} ليست لام قسم، وإنما هي اللام الداخلة على جواب القسم، وجواب الشرط، فهذه الجملة فيها شرط وقسم، يعني الآن الشرط هكذا لو قال أحد: إن آتاني الله من فضله تصدقت، هذه جملة شرطية، والقسم: والله لئن آتاني الله من فضله لأتصدقن، وقد يحذف المقسم به وأداة القسم أو فعل أقسم أيضاً، فبدلاً من أن تقول أقسم بالله، تقول: والله، بدلاً من أقسم، تحذف فعل القسم وتأتي بحرف القسم فتقول: والله لئن آتاني الله من فضله لأتصدقن.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

وقد يحذف أيضاً المقسم به وأداة القسم، ويدل على ذلك لام القسم {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} "لئن" فهذه اللام لام قسم، وإذا اجتمع شرط وقسم فالجواب عنهما يكون واحداً بطبيعة الحال، لا يأتي جوابان جواب للقسم وجواب للشرط لا يمكن هذا، لكن الجواب يكون هل هو للشرط أو للقسم؟

القاعدة أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم منهما، ويغنى ذلك عن الآخر ويدل عليه، إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم، ويستغني به عن الآخر، فالآن المتقدم القسم، اللام لام القسم، و"إن" هي أداة الشرط "لئن"، فتقدم القسم فقوله: {لَنَصَّدَّقَنَّ} الجواب هنا جواب القسم أغنى عن جواب الشرط هذه قاعدة، ولها أمثلة كثيرة في القرآن، قوله: **يقول الله تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله**... إلى آخره السياق، فالكلام على المنافقين {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ}، {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي} [سورة التوبة:٤٩]، فعامة المفسرين حتى ابن كثير -رحمه الله- في الأصل يذكرون في ذلك سبباً للنزول، وهو أن ثعلبة بن حاطب -رضي الله تعالى عنه- طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو له أن يرزقه الله مالاً، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تؤدي شكره))[٢]، فأعاد ثانية وثالثة ألح في الطلب فدعا له النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يؤتيه الله ويرزقه مالاً فاتخذ أغناماً فتكاثرت تكاثر الدود، فخرج من المدينة ثم صار لا يحضر إلا في صلوات هكذا في الرواية صلوات النهار ولا يحضر في الليل، ولم أتتبع الروايات، وقد يكون بالعكس فالشاهد أنها تكاثرت فاتخذ مكاناً آخر أبعد فصار يحضر الجمعة!! ثم تكاثرت حتى أبعد بها وصار لا يحضر الجمعة ولا الجماعة!! فأرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلين لأخذ الصدقة –الزكاة- منه ومن رجل آخر من بني سليم فأتياه، فنظر في كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفيها أسنان الصدقة الإبل والغنم وأوصافها فقال: ما هذه إلا أخت الجزية!! اذهبا فارجعا إليه حتى أنظر في أمري، فذهبوا إلى السلمي فوجدوه قد هيأ أطيب الإبل للزكاة فقالوا: ما أمرنا بأخذ هذا وإنما يعني من أوساط المال فقال: هذا كله مال الله، وأبَى، فأخذوا من هذه الإبل ثم رجعوا إلى هذا فنظر في الكتاب مرة أخرى وقال: ما هذه إلا أخت الجزية! اذهبا حتى أنظر، فرجعوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وحينما رآهما قال: ويحك ثعلبة، ثم بعد ذلك نزلت الآيات، فذهب بعض قومه -وهو من الأنصار- إليه وأخبروه فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وندم، وطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقبل صدقته فأبى، وقال: إن الله قد نهاني أن أقبل صدقتك، ثم بعد ذلك جاء إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فأبى أن يقبل صدقته، وقال: لم يقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا أقبلها، ثم جاء إلى عمر فقال: ردها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر فلا أقبلها ثم جاء إلى عثمان فقال له مثل ما قال، حتى توفي في خلافة عثمان، فهذا السبب للأسف مبثوث في كتب التفسير لا يكاد يخلو منه كتاب، وهي رواية لا تصح بحال من الأحوال، لا من جهة السند، ولا من جهة المتن، وثعلبة بن حاطب -رضي الله عنه- هو صحابي، وليس من المنافقين، ولا يصح نسبة ذلك إليه، ومتنها أيضاً

---

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٨٧٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جداً في السلسلة الضعيفة، برقم (١٦٠٧).

فيه ما فيه، فمتن هذه الرواية كما ترون، والله -عز وجل-: **{يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}** [سورة التوبة:١٠٤]، ومن تاب تاب الله عليه، وأعظم ذلك الإشراك بالله -عز وجل-، فإن الله يتوب على من تاب، بل إن الله -عز وجل- يقول للذين نسبوا له الصاحبة والولد يتلطف بهم: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}** [سورة المائدة:٧٤]، ويقول للذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا}** [سورة البروج:١٠] يعني أحرقوا، **{الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** فعلوا هذا كله ويقول: **{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}** فالتوبة يقبلها الله -عز وجل- من عبده، فهذا الرجل ندم وتاب فكيف لا تقبل زكاته؟! فالشاهد أن هذه الرواية لا تصح بحال من الأحوال.

صح عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في علامات المنافقين: ((إذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا عاهد غدر))[٣] فأنزل الله -عز وجل- تصديق ذلك: **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ}** فإذا أخذنا بظاهر هذه الرواية، واعتبرنا جانب الصناعة فإن هذا يعتبر من قبيل الصريح في أسباب النزول، والروايات الصريحة في سبب النزول قد يوجد منها ما ليس بسبب نزول، وقد يوجد من غير الصريح ما هو سبب نزول في حقيقة الأمر، ولكن الكلام عن الغالب، وعرفنا المراد بالصريح وغير الصريح، فهذه من الناحية الصناعية تعتبر من قبيل الصريح بسبب النزول، وإذا أجرينا عليها القاعدة قلنا: إن هذا هو سبب النزول، وقد لا يكون كذلك، قد يكون الصحابي يقصد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال هذا ثم بعد ذلك نزلت آية ليس بسبب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، نزلت آية توافق هذا المعنى فيما بعد، ولكن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن سبب النزول؛ لأن سبب النزول -كما هو معروف- هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أيام وقوعه، سؤال أو حادثة، لكن **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** هذا يؤخذ منه أن الإنسان إذا عاهد الله -عز وجل- ينبغي عليه أن يفي، وإلا فإن الله قد يعاقبه بسبب ذلك ليطمس على قلبه، ويحصل له نفاق ونحو هذا، والفاء في **{فَأَعْقَبَهُمْ}** تدل على التعليل، والباء في قوله: **{بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ}** للسببية، أي السبب هو إخلاف ما وعد الله -عز وجل- به، وقد يقول قائل: إذا كانت هذه الآية في المنافقين أصلاً فكيف قال الله -عز وجل- في جزائهم: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** فهم كانوا من المنافقين، فيقال: لا إشكال، فزادهم نفاقاً على نفاقهم مع الديمومة والاستمرار، النفاق قد يكون عارضاً يعرض للإنسان فيحصل له نفاق، نافق فلان، هنا **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** ليس نفاقاً عملياً، وإنما هو نفاق اعتقادي، ومستمر دائماً إلى يوم يلقونه، وقوله هنا: **{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}** السر والنجوى الفرق بينهما ظاهر، فـــ "السر" كل ما قصد الإنسان إخفاءه، و"النجوى" نوع من السر خاص وهي الحديث الذي يكون بين اثنين وأكثر يقصد به الاختصاص دون الآخرين هذه حقيقة النجوى كل حديث بين اثنين أوأكثر يقصدون به الانفراد والاختصاص، وألا يطلع عليه أحد حتى لو يتكلمون بصوت مرتفع؛ لأنهم في مكان بعيد عن الناس أو بلغة أخرى بين الناس، لغة أخرى لا يفهمها الآخرون، وهم يقصدون التكلم بها لئلا يفهم أحد، فهذه هي النجوى.

---

٣ - رواه البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، برقم (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٨).

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٧٩].

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُراءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري قال: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود -رضي الله عنه- قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مُراءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ} الآية[٤]، وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه.

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن ينثره في الصدقات، فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا، وما يصنعون بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لم يبق أحد غيرك)) فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون، قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت))، ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء، وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله -عز وجل- عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} الآية.

قوله: الجرير يعني: الحبل.

والروايات الواردة في سبب النزول كثيرة منها ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، والرواية الصحيحة منها ما جاء مبهماً لم يسمَّ فيه أحد يعني كالرواية الأولى التي قال فيها: إنه لما نزلت ((كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق))[٥] الرجل مبهم، وكذلك الآخر، وفي بعض الروايات جاءت تسمية المتصدق، غير هذه الرواية التي من طريق العوفي فإنها لا تصح، لكن جاءت روايات أخرى صحيحة، وفيها مراسيل كثيرة قد

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، برقم (١٣٤٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرة يُتصدّق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدِّق بقليل، برقم (١٠١٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، برقم (١٣٤٩).

تتقوى لمجموعها، فلا منافاة سبب النزول واحد -والله تعالى أعلم- جاء في بعض الروايات تسمية بعض من تصدق وفي بعضها بالإبهام.

وكذا روي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطّوّعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رغب في الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسْق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده: أبو عقيل أخو بني أنيف الإراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عَقيل.

وقوله: {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

فيكون بهذا التفسير من قبيل الإخبار {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} ويحتمل أن يكون المراد به الدعاء عليهم، ولعل الأول أقرب، والله أعلم.

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٨٠].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما قال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ، انطلق ابنه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما اسمك))، قال الحباب بن عبد الله، قال: ((بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان))، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عَرِق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: ((إن الله قال: {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين))[٦].

وكذا روي عن عُرْوَة بن الزبير ومجاهد بن جُبَير، وقتادة بن دِعَامة، رواه ابن جرير بأسانيده.

بالنسبة لهذه الرواية كما ترون: قال الشعبي، والتي قبلها قال ابن إسحاق، ومثل هذه الروايات التي يسميها الأصوليون من قبيل المرسل سواء كانت من رواية التابعي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو ما دون التابعي، كما يسميه الأصوليون بالمرسل أيضاً كل هذا لا يصح.

---

٦ - رواه الطبراني في جامع البيان في تأويل القرآن، (١٤/٣٩٥)، برقم (١٧٠٢٤).

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة التوبة:٨١-٨٢].

يقول تعالى ذَامًّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، {وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا} معه {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا} أي: بعضهم لبعض: {لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ}؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: {لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} قال الله تعالى لرسوله: {قُلْ} لهم: {نَارُ جَهَنَّمَ} التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم {أَشَدُّ حَرًّا} مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نار بني آدم التي يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم))، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: ((فضلت عليها بتسعة وستين جزءا))[٧] أخرجاه في الصحيحين.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَمَن له نعلان وشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل، لا يرى أحداً من أهل النار أشد عذابا منه، وإنه أهونهم عذابا))[٨]، أخرجاه في الصحيحين.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: {كَلا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى} [سورة المعارج:١٥-١٦]، وقال تعالى: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة الحج:١٩-٢٢]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [سورة النساء:٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

ثم قال الله تعالى -جل جلاله- متوعدا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً...} الآية، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله -عز وجل- استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا.

هنا في قوله: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} المخلفون سواء قيل: إن الذي خلفهم الشيطان، أو خلفهم الله -عز وجل- حيث ثبطهم عن الخروج فقعدوا كما يقول بعض المفسرين، والمقصود أنه حصل منهم التخلف فصح نسبة ذلك إليهم {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} بمقعدهم أي بمقامهم في المدينة،

---

٧ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٣).

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٩٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، برقم (٢١٣).

{خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} خلافه يحتمل معنيين، يحتمل {خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} أي بأنهم قعدوا وذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه إلى تبوك، ويحتمل أن يكون {خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} أي مخالفة له حيث دعاهم للخروج فلم يخرجوا، والأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وقوله: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} هذا أمر، لكن وإن كانت الصيغة صيغة إنشاء -أي أمر هنا- فإنها بمعنى الخبر، يخبر الله -عز وجل- عنهم أن أُنسهم في هذه الحياة الدنيا وضحكهم وسرورهم فيها قليل؛ لأن أيام الدنيا منقضية وقليلة، وأن بكاءهم في النار طويل لا انتهاء له، والله المستعان.

{فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [سورة التوبة:٨٣].

يقول تعالى آمرا لرسوله -عليه الصلاة والسلام- {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ} أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه {إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ} قال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ} أي: معك إلى غزوة أخرى، {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} أي: تعزيرا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: {إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وهذا كقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام:١١٠] فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا...} الآية [سورة الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة.

قوله هنا {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} الخالفون يقال: للأطفال والنساء، ولمن قعد بعد الغزاة، ومن تأخر عنهم وقعد، يقال له: خالف، وخوالف وهم خالفون فرضوا بأن يكونوا مع الأطفال والنساء، وأهل الأعذار من المرضى والزمْنى، وهذا أمر لا يفرح به أحد، وتعرفون ما جاء عن عليٍّ -رضي الله عنه- لما خلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- على المدينة فكره ذلك وقال: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان، فقال: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي))[٩]، وفي الآية التي سبقت {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} نسيت أن أذكر الكلام على العدد المذكور هنا، وهنا ذكر ابن كثير -رحمه الله- أن العرب من أساليبها أن تذكر السبعين، وتقصد بذلك الكثرة ثم جاء بالرواية عن الشعبي التي تُشعر أن العدد مقصود، هذا الكلام من ابن كثير وإيراده الرواية هو إشارة إلى القول الآخر أن العدد مقصود؛ لأن هذه الرواية وإن كانت مرسلة لكن يقول الله: {إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً}، وإنما أخذ باعتبار أن العدد مراد، وقال في سبب نزول قوله تعالى: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا} [سورة التوبة:٨٤]: الروايات صريحة وصحيحة في الصحيح وفي غيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصد الزيادة على السبعين، فاعتبر العدد سبعين مرة، فلو كان العدد غير مراد لفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من الآية أن الاستغفار لهم ممنوع بقوله: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ} إلا أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتبر التخيير {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ

---

٩ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، برقم (٤١٥٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٤).

لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} فلم يمنعه من ذلك حتى نزل قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا}**، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
سورة التوبة من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة التوبة:٨٤].

أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يَبْرَأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين، كما روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما توفي عبد الله -هو ابن أبيّ- جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما خيرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} وسأزيده على السبعين))، قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله -عز وجل-، آية: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}[1].

وقد رُوِي من حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا وفيه: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرغ منه -قال: فَعَجَبٌ لي وجراءتي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله ورسوله أعلم- قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}، فما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، -عز وجل.

وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن صحيح، ورواه البخاري[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٩٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل عمر -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٠)..

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٣١).

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} يقول الحافظ -رحمه الله-: **أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يَبْرَأَ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له،** {وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} للدعاء والاستغفار، ومن أهل العلم من فسره بغير هذا، {وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} أي: لا تتولَّ دفنه ولا تباشر ذلك، ولا تقبره، والله -عز وجل- نهاه عن القيام على قبره، والقيام على قبره يشمل القيام على القبر للدعاء له، والاستغفار، وتولي الدفن، وهو منهي عن الصلاة عليه، {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} ويدخل ضمناً في النهي عن الصلاة عليه أيضاً المعنى اللغوي للصلاة وهو الدعاء؛ لأن صلاة الجنازة إنما شرعت للدعاء للميت كما هو معلوم، فـــ {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ} صلاة الجنازة، وهذا يدل على أنه لا يدعو له، {وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} لا تتولَّ دفنه، وتقبره أو تقف على قبره للدعاء له، فكل هذه المعاني -والله أعلم- تضمنتها الآية، وابن جرير -رحمه الله- اختار من المعنى {وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} أي لا تتولَّ دفنه، بخلاف قول ابن كثير هنا، ويمكن الجمع بين هذه الأقاويل -والله أعلم-، ثم أورد الحديث في سبب النزول في صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- على عبد الله بن أبيّ، قال كما روى البخاري عن ابن عمر والحديث مخرج في الصحيحين، وقوله في آخر الآية: {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} هذا إما للتعليل يعني لأنهم كفروا، فكل من كفر يعني الكافر والمنافق لا يقوم الإنسان على قبره ولا يتولى دفنه، ولا يدعو له ولا يصلي عليه لا يدعو له بالرحمة والمغفرة لكن من الممكن أن يدعو له بالهداية بحياته قال: {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}، والفسق هو مطلق الخروج الخروج عن طاعة الله -عز وجل-، ومنه ما هو خروج أكبر، ومنه ما هو خروج أصغر، فهنا قال: {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال في تفسير هذه الجزئية قبل الحديث: **لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه** يعني أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون، يعني ماتوا على الكفر هذا معنى كلام ابن كثير، وهو معنى ظاهر، بمعنى أنه ختم لهم بهذا، وبعض أهل العلم يقول: إنه وصفهم بالفسق -يعني بعد الكفر- باعتبار أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، يعني أن دينه يأمره بما يجمل وما يليق فيما يتعلق بالوفاء بالعهد، والصدق في الحديث فيكون هذا الكافر متديناً، ويكون دينه يمنعه من هذه الأشياء ويلتزم بها، وهم ليسوا على جادة، ولا خلق، ولا دين يتقيدون به يمنعهم من هذه الأشياء، ولو كان باطلاً، ففسره بعضهم {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} فسره بالفسق في المعنى المشهور عرفاً، تقول: فلان فاسق فيكون ذلك سبباً لذهاب عدالته، ورد شهادته وما أشبه ذلك؛ لأنه يأتي من الذنوب إما صغائر الخسة، أو يكثر من الذنوب والمعاصي حتى يغلب ذلك عليه، ويعرف به، هكذا فسره بعضهم، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه لا يفسر بهذا، يعني ليس معنى -{كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} هم كفار- {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} الفسق الذي يطلق على صاحب الذنوب والمعاصي، لا، وإنما هنا الفسق الأكبر يعني {وَمَاتُوا} على هذا الكفر، هذا المعنى، ما هو مات فاسق بمعنى أنه مقارف لإخلاف الوعد ونقض العهد، والتلون وما يفعله المنافقون من كل رزية ورذيلة لا يرعوون عن شيء في سبيل حفظ أموالهم وحقن دمائهم، فيحلفون على الكذب -نسأل الله العافية-، ليس هذا المراد بقوله: {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}، وانظروا إلى المثال الذي يذكره الأصوليون دائماً {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [سورة الحجرات:٦] حمله كثير منهم على الفسق

الذي هو الفسق الأصغر، {فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} يعني الفاسق الذي يكذب، ويخلف الوعد ويحلف على الكذب، ولا يتورع عما حرم الله -عز وجل-، قالوا: فمفهوم الموافقة من باب الأولى، إن جاءكم كافر فتثبتوا، فيوردون على أنفسهم إيراداً وهو أن هذا مفهوم الموافقة الأولوي أنه من قبيل الظني؛ قالوا: لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، فيتورع من الكذب ديانة؛ لأن دينه يحرم عليه الكذب، فلهذا نتثبت إذا جاءنا بالخبر؛ لأن هذا الإيراد يجعل مفهوم الموافقة في قوله: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ} أي كافر من باب أولى، لكن لا نقطع بهذا لأنه قد يكون عدلاً في دينه، ومفهوم الموافقة الأولوي منه ما هو قطعي مثل {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [سورة الإسراء:٢٣]، الضرب قطعاً من باب أولى، لكن مثلا نهى عن التضحية بالشاة العوراء فالعمياء من باب أولى، هذا ليس قطعياً؛ لأن القصد هو أن العور لا ترى معه إلا نصف المرعى فيكون ذلك مظنة للهزال، فالتي تكون عمياء هي لا ترى المرعى أصلاً فهي ترعى وهي رابضة يأتيها صاحبها بأفضل العلف، ولا تحتاج أن تمشي مسافات وتبحث عن العشب ونحو هذا، فهذا مظنة السِّمن، ولهذا يقولون: إن مفهوم الموافقة هذا ظني وليس بقطعي والواقع أن المثال الذي يذكرونه، {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} لا يصلح لهذه القضية –أي مفهوم الموافقة الظني-؛ لأن الفسق يطلق على الفسق الأصغر، والفسق الأكبر {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ} سواء كان كافراً أو كان يشمل هذا، وهذا، فلا يقال: الكافر من باب أولى؛ لأن الكافر أصلاً فاسق، وهذا المثال مشهور عند الأصوليين جداً، والسبب أنهم حملوا الفاسق على صاحب الذنوب والمعاصي وما أشبه ذلك.

{وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:٨٥].

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد.

إذا تأملت الآية التي سبقت يعني آية رقم (٥٥) التي مضت، وهذه الآية تجد بعض الفوارق، يعني هناك {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ} [سورة التوبة:٥٥]، وهنا {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ}، ما فيه {وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ}، وهناك {لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وهنا {إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا}، بعض العلماء يذكر تعليلات لهذه الفروق، ووجه التفريق في اللفظ بين تلك الآية وبين هذه الآية، فأحياناً ممن يتكلمون على هذا يذكرون بعض الوجوه لكنها لا تخلو من تكلف وعندئذ قد يدخل الإنسان في القول على الله -عز وجل- بلا علم، فالوجوه المتكلفة لا حاجة إليها إذا ظهر هذا، مع أنه لا يقطع بهذا، والكلام الذي يذكرونه في هذا مثل الإسكافي، في "درة التنزيل وغرة التأويل"، وكذلك زكريا الأنصاري في كتاب "البرهان" وجوه متكلفة جداً، لا حاجة إليها، يذكرون مثلاً يقولون: هنا الآية التي قبلها قال: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...}، ثم قال: {إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ} هذا في الماضي، فقال بعده: {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا} هو يتحدث عن أمر تعلق بالماضي {كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ} بينما تلك ذُكر فيها أشياء مستقبلية، يعني فيما قبلها، فهو في الآية السابقة لها قال: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ} [سورة التوبة:٥٤] ثم قال: {وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ} يعني في الحال وفي المستقبل، هكذا قالوا: {إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى}، قال: {وَلاَ يُنفِقُونَ} يعني ما ينفقون في الحال وفي المستقبل إلا وهم كارهون، ثم قال

بعده معلماً له كيف ينظر إليهم في المستقبل {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ} فهذا الوجه غير ظاهر، وفيه تكلف شديد، وهكذا بقية كلامهم على الفروقات الأخرى في هذه الآية.

{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة:٨٦-٨٧].

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: {ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال الله تعالى عنهم في الآية الأخرى:

{فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [سورة الأحزاب:١٩] **أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء.**

وقال تعالى في الآية الأخرى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} الآية [سورة محمد:٢٠].

وقوله: {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، {فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

قوله هنا: {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} بعضهم فسره بالمنزلة والشرف، أي الناس الذين يُنظر إليهم ويقتدي بهم، ويمكن أن يفسر بالمعنى الآخر وهو أنه الغنى والسعة {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ}، فهم لا عذر لهم أغنياء، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ} [سورة التوبة:٩٣]، هنا قال: {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي **بسبب نكولهم عن الجهاد** {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}، هم جمعوا بين أمرين الرضا بالقعود من غير عذر، وحصل لهم الطبع نتيجة لذلك فأثَّرُ ذلك عدم الفقه قال: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم، والفقه -كما هو معروف- أخص من الفهم، فالفقه هو الفهم فيما يدِق فمثل هذه الأمور: كون الإنسان يتطلب الحياة الحقيقية الكاملة في المواطن التي يظنها الآخرون أنها تكون سبباً لتلف النفس وذهاب المال إلى آخره، هذا يحتاج إلى فقه، هم يظنون أن هذه مهلكة، الذهاب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- لقتال الروم وهذه المسافات البعيدة ونحو ذلك، ما علموا أن هذه هي الحياة الحقيقية.

{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٨٨-٨٩].

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بيَّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا} إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

هذا هو الظاهر المتبادر في تفسير {الْخَيْرَاتُ}، وبعضهم فسره بالنساء الجميلات، {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [سورة الرحمن:٧٠] فالخيرات كل خير في الجنة فهو داخل في هذا، وبعضهم فسره بأنه جمع خيِّرة، وهنا قال بعضهم: إن الخيرات هنا {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} جمع خيِّرة، وقد يخفف لا يكون مشدداً، ويجمع على الخيْرات، وتفسيره بأن الخيرات كل نعيم الجنة، ويدخل ضمن ذلك الحور العين.

{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٩٠].

ثم بَيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: "وَجَاءَ المُعْذَرُون" بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر.

لأنه قال بعد هذا: {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: لم يأتوا فيعتذروا.

يعني الآن على قراءة ابن عباس -رضي الله عنهما- "وَجَاءَ المُعْذَرُون" من أعذر، يعني بالغ في العذر تقول: "أعذَرَ من أنذر" فيكون هؤلاء هم أصحاب الأعذار الصادقة الحقيقية، أي أن الأعراب منهم من جاء وعنده عذر فاعتذر، ومنهم من قعد وتخلف ولم يعتذر، فهؤلاء من المنافقين، هذا على قراءة ابن عباس وتفسيره لها، والقراءة التي قرأناها {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} بالتشديد، بعضهم فسرها بالمعتذرين، قالوا: أدغمت التاء في الذال فصارت {الْمُعَذِّرُونَ}، وهؤلاء قالوا: هم الذين لهم عذر حقيقي عذر صادق، {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} يعني المعتذرون الصادقون المحقون في اعتذارهم، والمعنى الآخر الذي تحتمله على أنها من عذَّر، {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} من عذَّر بمعنى قصَّر، والمعنى {جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} أي أصحاب الأعذار الكاذبة، فعلى المعنيين المعنى الأول يكون هؤلاء الذين جاءوا هم أصحاب الأعذار المقبولة، والطائفة الثانية هي التي قعدت ولم تعتذر أصلاً، هؤلاء هم المنافقون، أي بعدما تكلم عن أهل المدينة والأعذار الكاذبة التي اعتذروا بها، {ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي} [سورة التوبة:٤٩] إلى آخره الآن جاء الكلام على الأعراب، فمنهم من جاء واعتذر بعذر صادق، ومنهم من قعد ولم يعتذر هذا أحد التفسيرين، وعلى المعنى الآخر {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ} أن المنافقين من الأعراب منهم من جاء واعتذر بأعذار كاذبة، ومنهم من لم يعتذر وقعد.

ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة:٩١-٩٣].

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو

بسبب فقره، لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

{لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى} يقول: **ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال** هذه الأعذار الصادقة الحقيقية، قال: **فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب** بمعنى أن الضعفاء هم الذين مثل الزمْنى الإنسان الضعيف في بنيته الذي لا يستطيع أن يجاهد والإنسان المقعد، فمثل هؤلاء أعذارهم دائمة ومستمرة، وهناك أعذار عارضة طارئة في البدن مثل المرض العارض ونحو ذلك فهذا معذور، وهناك أعذار أخرى مثل الفقر الشديد ليس عنده ما يتجهز به، فكل هؤلاء عَذرهم الله -عز وجل- بهذا الشرط: {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}، قال هنا: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} لكن إذا نصحوا لله ورسوله معناها أن هؤلاء يعذرون بهذا الشرط، نصحوا لله ورسوله أي مع محبتهم للمجاهدين ودفاعهم عن أعراضهم، وتوليهم وتولي أولياء الله، وأهل الإيمان، والبراءة من أعداء الله -عز وجل-، والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، وبغض كل ما خالف شرع الله، ودينه وأمره وكتابه، هذا معنى إذا نصحوا لله، والناصح هو الخالص من كل شيء، أما إذا جلس وهو معذور أعرج أو أعور وجمع بين العور الحقيقي والعور المعنوي، منافق كالشاة العوراء تعور بين الغنمين، فجلس يخذل ويثبط ويستهزئ، يوالي أعداء الله -عز وجل-، يكذب على الله -عز وجل-، وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويقول في دين الله -عز وجل- ما ليس منه، فمثل هذا لا يعذر حتى لو كان مقعداً أو أعمى أو أعرج، فقد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة، فهذا معنى إذا نصحوا لله ورسوله، ثم قال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} يمكن أن تكون هذه الجملة مقررة لمضمون ما سبق، أي ليس على المعذورين الناصحين من سبيل، هؤلاء معذورون ونصحوا لله ورسوله، فهؤلاء ليس عليهم من سبيل لمعاتبتهم، أو مؤاخذتهم، أو معاقبتهم على قعودهم، ويمكن أن تكون عامة {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء الذين ذكروا هم من جملتهم {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} وهذه الآية كثيراً ما تُذكر في موطن ليس هو معناها، فأحياناً هذا يقع في ألسن الناس كثيراً يستعملون هذا، فإذا الإنسان تبرع بشيء ثم بعد ذلك قصر فيه أو ضيعه أو تركه يقال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} تبرع به من عند نفسه قام وأراد أن يعمل بعمل تطوعاً تبرعاً من عنده دون أن يأخذ عليه مقابلاً، ثم بعد ذلك أدار ظهره ومشى!! لا تستطيع إلا أن تهز كتفيك أحياناً وتقول: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} فهذا ليس معناها، فهذا ليس من المحسنين وإنما من المسيئين، فالإنسان إذا التزم بشيء ووعد به يجب عليه الوفاء، فإذا أخلف ونكل فهذا من المسيئين وليس من المحسنين، ولا يقال له: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} لكن يقال هذا: من باب جبر الخواطر أحياناً، وعدم جرح المشاعر وما أشبه هذا، وإلا فمثل هذا مذنب ومسيء، وما ضيع أعمالَ الناس والدعوة إلى الله -عز وجل- والأعمال الخيرية والبرامج التطوعية إلا هذه النوعيات من الناس، يأتي ويضرب صدره ويقول: أنا أتولى المشغلة الفلانية، أنا أتولى العمل الفلاني، أنا أتولى اللجنة الفلانية، ويشتغل يوماً ويومين وثلاثة ثم تكتشف أن الرجل مضيع لعمله، ولا يأتي، ولم يصنع شيئاً، ويقول: والله انشغلت بمشوار وكذا!!، تقول له: {مَا عَلَى

{الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} وما هو بمحسن وإنما مسيء، فالإنسان ما يتكلم بشيء إلا ويعرف كيف يكون الخروج منه، وما يلتزم بشيء إلا ويقوم به على الوجه الكامل، وإلا من البداية يقول: لا أستطيع، ويكون هذا أفضل له وخيراً له، يتجمل أحياناً بوعود ويعطيك الشمس بيد والقمر بيد، ويشتغل أياماً وبعدها يدير ظهره، هذا لا يساوي شيئاً بعد ذلك، لا يمكن أن تكل إليه عملاً، ولا تثق منه بوعد، ولا تطمئن إلى أي عمل يمكن أن يقوم به، فدائماً لا أحد يدخل في عمل إلا ويعرف الخروج منه، ولا تلتزم بشيء إلا إذا كنت تستطيع أن تقوم به على الوجه المطلوب، وإلا اعتذر وأرِح الناس، ابن القيم -رحمه الله- ذكر أن الإنسان إذا عرض له عمل من الأعمال أو نحو هذا ينظر هل يستطيع هو القيام به أو لا؟ هل له نية فيه أو لا؟ إذا كان يحتاج إلى أعوان هل عنده أعوان أو لا؟ فيقلب أمره في هذه الأمور جميعاً ثم بعد ذلك يقول: نعم، أو يقول: لا.

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقِنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقُوا.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن معقل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال لهم: ((والله لا أجد ما أحملكم عليه))[٣]، فتولوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملا، فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ...} إلى قوله تعالى: {فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

وقال مجاهد في قوله: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} نزلت في بني مقرن من مُزَيْنة.

هذه رواية عن مجاهد مرسلة ولا تصح أنها نزلت في هذا، وكذلك رواية العوفي عن ابن عباس لا تصح.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شَرِكوكم في الأجر))، ثم قرأ: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} الآية[٤].

وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتم مسيرًا إلا وهم معكم))، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: ((نعم، حبسهم العذر))[٥].

---

٣ - رواه الروياني في مسنده، برقم (٩٠٩).

٤ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٧٦/٧)، برقم (١٠٧٠٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو، برقم (٢٦٨٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، برقم (١٩١١)، وفيه:"حبسهم المرض"، بدل: "العذر".

هذا الحديث إيراده هنا في غاية المناسبة، وذلك أن هؤلاء من أصحاب الأعذار الذين أقعدهم المرض، أو الحمى أو نحو هذا إذا نصحوا لله ورسوله تكون قد قعدت أجسادهم، وإلا فهم في حكم من غزا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهم مشاركون لهم في الأجر، وإن تخلفوا بسبب العذر.

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، {وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٩٤ إلى الآية ٩٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٩٤-٩٦].

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، {قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} أي: لن نصدقكم، {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} أي: سيُظهر أعمالكم للناس في الدنيا، {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤَنِّبُوهم، {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ} احتقارا لهم، {إِنَّهُمْ رِجْسٌ} أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، {وَمَأْوَاهُمْ} في آخرتهم جهنم {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، {فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة "فُوَيسقة" لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: "فسقت الرطبة" إذا خرجت من أكمامها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} قال الحافظ -رحمه الله-: **أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم** {إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ}، هنا قال: {إِلَيْهِمْ} ولم يقل: إلى المدينة؛ لأن المقصود -والله تعالى أعلم- أن اعتذارهم يكون برجوعهم إليهم، وإن كان هذا الرجوع من الناحية العملية إلى المدينة لكن ليس ذلك بمقصود لهم، ثم قال: {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ} قال: **أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم**، فإنهم رجس أطلق عليهم الرجس كأنهم تحولوا إلى رجس، والمقصود أن اعتقادهم وعملهم سيء في غاية السوء، فأطلق ذلك عليهم، وهذا يسميه البلاغيون ويعدونه من باب المبالغة، كأنهم صاروا وتحولوا إلى رجس، إلى نجاسة {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ}، قال:

ومأواهم في آخرتهم جهنم، ثم هنا في قوله: **الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة**، قال: **ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها**، يعني لعله يقصد إذا خرجت من قشرتها، يقال: فسقت، والذي يخرج من الأكمام هو الطلع ينشق عن أكمامه ثم بعد ذلك يخرج، والطلع هو الذي يكون أصل القِنْو في أول ظهوره في النخلة، والله أعلم.

{الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:٩٧-٩٩].

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟.

يعني هو يقول: أخشى أن يكون أقيم عليك الحد لأنك سارق، فقال له: هذه الشمال؛ لأن القطع يكون لليمين كما جاء أيضاً في القراءة الأخرى غير المتواترة "فاقطعوا أيمانهما".

فقال زيد بن صوحان صدق الله: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}.

وروى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن))[1]**، ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.**

ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: ((لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي، أو أنصاري، أو دَوْسيّ))[2]**؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.**

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، برقم (٢٨٥٩)، والنسائي، كتاب الصيد والذبائح، باب اتباع الصيد، برقم (٤٣٠٩)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٢٥٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند، برقم (٣٣٦٢)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا سند ضعيف لجهالة أبي موسى فإنه لم يروِ عنه غير سفيان، ولم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٦).

٢ - رواه النسائي، كتاب العُمْري، باب عطية المرأة بغير إذن زوجها، برقم (٧٣٥٩)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في ثقيف وبني حنيفة، برقم (٣٩٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢١١٩).

الأعراب يعني كل من سكن البادية، والعرب: هم قوم معروفون من ولد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، ومن كان في حكمهم، وبعضهم يقول: من سكن جزيرة العرب، وتكلم بلسانها فهو عربي، وبعض أهل العلم يقسم العرب إلى عرب في النسب، وعرب في اللسان، وعرب في الموطن، فمن استوطن جزيرة العرب وتكلم بلسانها وينتسب ويمتد نسبه إلى العرب فهذا هو الذي يكون عربياً من كل وجه، ومن الناس من يكون لسانه عربياً، ولا يستوطن بلادهم فهو عربي اللسان، ومنهم من يكون عربي النسب أعجمي اللسان، ومنهم من يكون غير ذلك، فالعرب معروفون، والفرق بينهم وبين الأعراب: أن الأعراب من سكن البادية، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} بمعنى أن سكان البادية يغلب عليهم الجفاء، والغلظة، ويؤثر ذلك في نفوسهم، وفي طبائعهم، فيكون ذلك مضافاً إلى نفاقهم، إن كانوا منافقين، {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} يعني ليس عندهم تهذيب، وترويض كما هو الحاصل بالنسبة لأهل القرى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول مثلاً: ((الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية))[٣]، وقال: ((من سكن البادية جفا))، وهذا الوصف الذي ذكره الله -عز وجل-: {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} ليس في كل الأعراب، وإنما في الأعراب الذين هم من المنافقين، وإلا فالطائفة الأخرى -كما سيأتي- أهل إيمان وتقوى {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ} فالأعراب منهم ومنهم، والأعراب الذين انتقلوا إلى القرى واستوطنوها يكون لهم حكم أهل القرى، فهم يحضرون الجُمع والجماعات، ومجالس العلم، وما أشبه ذلك فيحصل لنفوسهم من التهذيب كما يحصل لغيرهم من الناس، فلا فرق من هذه الحيثية بينهم وبين غيرهم، والأحاديث التي وردت والتي يفهم منها ترك التشبه بالأعراب كالنهي عن تسمية صلاة العشاء بالعتمة في قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((لا يغلبنكم الأعراب))[٤]، وما شابه هذا المقصود بها الأعراب سكان البادية، وليس كما يفهمه كثير من الناس اليوم أن من ينتسب إلى قبيلة مباشرة باسمه أنه يقال: إن هذا من الأعراب، هذا غير صحيح، وإنما المقصود الذين يسكنون البادية؛ فهؤلاء هم أهل الجفاء، والذين يسكنون القرى لو انتقلوا إلى البوادي، وبقوا فيها صاروا من أهلها، وصار لهم حكم ذلك، ومن كان أصله من البادية ثم جاء واستوطن فهو لا يكون أعرابياً، وكثير من الناس انتقلوا من البادية إلى الأمصار والقرى ونحو ذلك فلا يطلق عليهم أنهم أعراب، والشاهد أن الله -عز وجل- قال: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} يعني إن كانوا كذلك، يعني إن كانوا منافقين فنفاقهم أشد، وإن كانوا كافرين فكفرهم أشد، فإن كانوا مؤمنين فكما ذكر الله -عز وجل- في الآية الأخرى، أقول: هذا المعنى؛ لأنه يوجد من يفهم خلاف ذلك، كتب إليّ أحدُ الأشخاص رسالة في الجوال في درس التشبه -أحكام التشبه- قلت: ومن أنواع التشبه المذموم التشبه بالأعراب، وكان الكلام دقيقاً ومحسوباً، وموزونٌ فيه الحرفُ، ولو تأمله

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، برقم (٤١٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، برقم (٥٢).

٤ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، برقم (٥٧٨).

ما كتب!! فذكرتُ أن الأعراب هم سكان البادية، فقال: "هذا مفيد جداً إلا أن هذه القضية يعني فيها شيء من الإزراء على أبناء القبائل"، لا أقصد هذا والكلام ليس فيه هذا إطلاقاً.

وقوله: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بمن يستحق أن يعلّمه الإيمان والعلم، {حَكِيمٌ} فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم {مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ} أي: في سبيل الله {مَغْرَمًا} أي: غرامة وخسارة.

{مَغْرَمًا} المغرم هو ما يخرجه الإنسان، ولكنه لا يؤمن ولا يعتقد صحة مخرجه، ولكنه يشعر بأنه ملزم بهذا، يفعل ذلك تقية أو رياءً أو نحو ذلك، ولكنه لا يرجو بره ولا ذخره ولا أن هذا مخرج له وجه، فهو منتزع منه، يشعر أنه قد أُخذ منه، وأنه خسارة، ولكنه مضطر إلى إخراجه {مَغْرَمًا}، وبعضهم يُرجع أصل هذه الكلمة المغرم إلى اللزوم بمعنى أنه يشعر أن هذا الشيء يلزمه فيعطيه وهو كاره أن هذا شيء لا خلاص منه، مثل حينما يدفع الكتابي الجزية يخرجها وهو مكره {مَغْرَمًا} لأنه لا يؤمن بأن هذه الصدقة تنفعه وتقربه إلى الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه لا يؤمن أصلاً بهذه المعاني.

{وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات.

أصل الدائرة هو ما يحيط بالشيء كما هو معلوم، وتطلق الدائرة على انقلاب الحال من النعمة إلى النقمة تقلب الأحوال يقال لها: دوائر، فهؤلاء صارت الدائرة عليهم يعني انقلبت بهم الحال فتحول حالهم إلى كارثة إلى مصيبة إلى هزيمة إلى بلاء، والتربص هو الانتظار فهم ينتظر أن تقع بكم مصيبة وتحل بكم نازلة من أجل أن يستريح منكم ويتشفى، ويحصل مقصوده من ذلك، فهو منتظر لا زال يؤمّل أن يأتي ما يشغلكم، ويقطع دابركم.

{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم.

هذا من إضافة الوصف إلى صفته {دَائِرَةُ السَّوْءِ} يعني هذا دعاء عليهم بأن تدور عليهم دوائر السوء تقع لهم البلايا والمحن والرزايا والكوارث، و"السَّوء" قراءة أبي عمرو وابن كثير بالضم، ضم السين "السُّوء" والمعنى ظاهر.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} أي: ألا إن ذلك حاصل لهم.

{أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ} يحتمل أن يكون المراد النفقات يعني أنها واقعة كما أمّلوها وأرادوا لها أن تكون قربة، فهي قربة، ويحتمل أن يكون {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ} يرجع إلى أقرب مذكور وهو صلوات الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} بمعنى أن صلوات الرسول -عليه الصلاة والسلام- واستغفاره ودعاءه يقربهم إلى الله -تبارك وتعالى-، ألا إنها قربة لهم، والأقرب -والله أعلم-: أنها النفقات التي أنفقوها وقعت كما أمّلوها وأرادوا فصارت قربة لهم.

{سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يعني الجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٠ إلى الآية ١٠٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه-، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديقَ الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة -رضي الله عنه-، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم -عياذًا بالله من ذلك-، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهؤلاء هم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} أقوال المفسرين في بيان المراد من {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ} متعددة مختلفة فمنهم من قال: هم أهل بدر، ومنهم من قال: من صلى إلى القبلتين، وهنا أيضاً قال: من شهد بيعة الرضوان إلى غير ذلك من الأقاويل المتعددة، {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ} يدخل فيهم أهل بدر ومن صلى إلى القبلتين، ويدخل فيهم أهل بيعة الرضوان، والله -عز وجل- يقول: {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [سورة الحديد:١٠] وهذا الفتح كثير من أهل العلم يقولون: هو صلح الحديبية، وبعضهم فسره بفتح مكة، ولا شك أن الصحابة -رضي الله عنهم- على مراتب، فأعظمهم الخلفاء الأربعة، ثم بعد ذلك بقية الستة من العشرة، ثم سائر أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، فهؤلاء هم خيار الصحابة

وأفضلهم الذين شهد الله -عز وجل- لهم بالرضا، {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [سورة الفتح:١٨]، وهم أفضل وأعلى مرتبة ممن أسلم بعد الفتح، ويدخل في قوله {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ} من أسلم بعدهم من الصحابة ومن جاء بعدهم ممن لم يدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يوم القيامة {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ} كما قال الله -عز وجل- في سورة الحشر حينما ذكر الطوائف الثلاث: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ} [سورة الحشر:٨]، ثم بعد ذلك قال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة الحشر:٩]، ثم بعد ذلك قال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ} [سورة الحشر:١٠] يدخل فيها من أسلم بعد ذلك إلى يوم القيامة من العرب وغيرهم، وهكذا قوله -تبارك وتعالى- في سورة الجمعة: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [سورة الجمعة:٣] فإن الآخرين في سورة الجمعة منهم من فسره بمن أسلم بعد هذا، ومنهم من فسره بالتابعين، ومنهم من فسره بفارس، قال وهكذا: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} قيل: في الفضل والمنزلة، وقيل: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} يعني في الزمان ما أدركوهم، يأتون من بعدهم، فالشاهد أن هذه الآيات جميعاً تذكر هؤلاء الذين يأتون من بعد المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالى عن الجميع-، وهناك في سورة الحشر وصفهم بأنهم يقولون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحشر:١٠]، فهذا يدل على كونهم يدعون لهم ولا يحملون غلًّا عليهم، ويدل على أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وأنهم يقتفون آثارهم، وكلام أهل العلم في هذا كابن عمر وغير ابن عمر -رضي الله عنهم- حينما يسمعون رجلاً يتكلم في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: هل أنت من السابقين الأولين؟ هل أنت من فقراء المهاجرين؟ يقول: لا، هل أنت من: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} الأنصار؟ فيقول: لا، فيقال: وأنا أشهد أنك لست من {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} فمن سب الصحابة -رضي الله عنهم- وعاداهم وأبغضهم كالرافضة فإنه قطعاً ليس على طريقهم ومنهاجهم، فقوله هنا: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} إلى آخره ما تكلم عنها، {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} على ظاهره إثبات صفة الرضا لله -عز وجل-، ولا يصح أن يفسر بمجرد لازمه كأن يقال: جازاهم وأحسن إليهم، وأثابهم {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} يعني أثابهم وأجزل لهم المثوبة، وأحسن لهم العاقبة، فرضوا عنه، كما جاء في الحديث في الشهداء الذين قتلوا في بئر معونة "أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا"، فـ{رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ} هذه قراءة الجمهور، وقراءة ابن كثير {تجري من تحتها الأنهار}، وبناءً على القول الراجح في الأحرف السبعة وأن عثمان -رضي الله عنه- جمع الناس على حرف واحد هو حرف قريش، وأنه أمر الناس حينما كتب في المصاحف أن يقتصروا على القراءة التي بها يقرءون ويحرقوا ما عداها من صحيفة ومصحف، فكانوا يقرءون بتلك المصاحف وهي على طريقة الكتابة آنذاك غير منقطة ولا مشكولة، فدخل في الأحرف السبعة ما يحتمله الرسم العثماني، وهو ما عرف بعد ذلك بالقراءات، وهذه التي في هذا المثال في هذه الآية {تَجْرِي تَحْتَهَا} و{تجري من تحتها} هذه كتبها عثمان -رضي الله عنه- في مصحف هكذا، وفي مصحف هكذا، وهذا يدل على أنها من حرف قريش، فما كان من حرف قريش كهذه ومثل: {بِالْبَيِّنَاتِ

{وَالزُّبُرِ} [سورة النحل:٤٤]، و{بالزبور} فظاهر هذا يكون كله مرجعه إلى حرف قريش فكتبها بالمصحف بهذه اللفظة وباللفظة الأخرى في مصحف آخر.

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [سورة التوبة:١٠١].

يخبر تعالى رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضا منافقون {مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

{مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} كلمة مرد تدل على التجرد، تقول: أرض مرداء، يعني لا نبت فيها، وفرس أمرد يعني لا شعر عليه، وغصن أمرد يعني لا ورق فيه، فهذا معنى المَرَد {مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} كأنهم تجردوا للنفاق يعني أنهم منافقون نفاقاً خالصاً، فمن الناس من يكون فيه شعبة من نفاق، عنده نفاق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[1]، فالمؤمن قد يجمع بين الإيمان وشيء من صفات المنافقين، لكن هؤلاء مردوا على النفاق يعني أنهم خلّص، واللفظة هذه تشعر أيضاً بأنهم قد حذقوا وتمرسوا على التلون؛ لأن لفظة مرد كما تدل على التجرد تدل على ملاسة وليونة، فهذا يعطيك -مثل جلد الحرير- ملمساً ناعماً ويستطيع في كل مقام أن يتحدث باللغة التي تناسب هذا المقام، ويتلون بحسب مقتضى الحال، متمرس، وليس أخرق يمكن أن يأتي بواقع ويخبط ويخلط في المجلس الواحد، وإنما يتكلم بطريقة مناسبة، إذا تكلم أعجبك كلامه كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} [سورة المنافقون:٤]، فهذا يحسن التمثيل، يحسن النفاق بحيث لا يستطيع كثير من الناس أن يعرفوا نفاقه، أو أن يثبتوا عليه ذلك.

وقوله: {لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} لا ينافي قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لأرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} الآية [سورة محمد:٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا، وإن كان يراه صباحا ومساء، وتقدم في تفسير قوله: {وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا} [سورة التوبة:٧٤] أنه -صلى الله عليه وسلم- أعلَمَ حُذَيفةَ بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح -عليه السلام-: {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الشعراء:١١٢]، وقال نبي الله شعيب -عليه السلام-: {بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [سورة هود:٨٦] وقال الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ}.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٨).

بمعنى أن هذا الأثر الذي هو مستنبط من هذه الآية يدل على معنى عظيم وهو الطريقة التي كان عليها السلف -رضي الله عنهم-، أنه ما كان شغلهم في الأشخاص فلان فيه وفلان ما فيه، فلان فعل وفلان ترك، ثم يختلفون هل هو كذلك أو ليس كذلك، ثم بعد ذلك يتعادون وكل واحد يتهم الآخر، ما كان السلف بهذه الطريقة، كان السلف -رضي الله عنهم- يحذرون مما حذر الله منه، وينكرون المنكرات، ولا يكون شغلهم بعد ذلك هل فلان بفعله هذا فسقَ أو لا؟ هل اجتمعت فيه الشروط وانتفت الموانع أو لا؟ فواحد يقول: فسق، والثاني يقول: لم يفسق، ثم ينقسمون إلى فرقتين كل فرقة تلعن الثانية، فالسلف كانوا على غير هذه الطريقة، فهذه طريقة الجهال وأصحاب الهوى، السلف ما كانوا بهذه الطريقة، يأتي الشاب ما ثني ركبته في مجلس علم يوما واحدا، ولا رأيته في يوم واحد يطلب العلم ومعه دفتر! فلان كافر أو لا؟! أسئلة كلها عن العذر بالجهل وتكفير المعين، تسأله تقول: ماذا درست من العلم؟ وعلى من قرأت؟ ما هي الكتب التي درستها؟ يقول: ما علاقة هذا بهذا؟ مع أنه يسأل عن كبار العلم؟ مسائل تتعلق بالعذر بالجهل، وتكفير المعين، فالسلف يحذرون مما حذر الله -عز وجل- منه، هذا لا يجوز، هذا حرام هذا كفر، ولذلك لما وقعت مسألة القول بخلق القرآن حذروا منها، وأفتى خمسمائة من علمائهم -رضي الله عنهم- بكفر من قال بخلق القرآن، لكن ما تحولوا بعد ذلك إلى معركة فيما بينهم وانقسموا إلى سبعين فرقة، هل المأمون كافر أو لا؟ هل المعتصم كافر أو لا؟ وهل المتوكل كافر أو لا؟ وكذلك ابن أبي دؤاد كافر أو لا؟ أبداً هذا لم يحصل بينهم، هذه أمة واحدة مجتمعة، فهذه المسائل يعني الحكم على الإنسان المعين أنه فسقَ أو صار مبتدعاً، أو أنه صار كافراً يحتاج إلى اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، ولستَ معنياً أنت بهذا، ويقال لهذا الشاب: لستَ معنياً بهذا، لا حاجة لك بهذا الدفتر، اطلب العلم، ادرس الأصول الثلاثة، والقواعد الأربعة، ومسائل الجاهلية، وكتاب التوحيد، والواسطية، والحموية، ادرس العلم، ادرس الحديث والأصول والتفسير، وهذه العلوم كلها مترابطة، وآخر ما تدرس هي مسائل العذر وما العذر، والذين يكتبون في هذا غالباً الذي يقرأ وهو خالي الذهن يقرأ لهذا، هذا كلام شيخ الإسلام، وكلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكلام من الدرر السنية، هذا كلام ممتاز، لكن في كلام آخر لهم ونفس العالم له كلام آخر في موضع آخر، هو في مقام الرد يقول كلاماً، وفي مقام التقعيد والتنظير يقول كلاماً آخر، هذه الرسالة كتبت في مناسبة معينة للتحذير من كذا، فما تجعل هي القاعدة فيأتي الذي هو خالي الذهن يقول فقط هذا الكلام!! هذا كلام العلماء صريح!!، ويأتي الشخص الذي في الضفة الأخرى، ويأتي بكلام آخر لهم ينقله من كتبهم، يقول: هذا كلامهم، ويأتي من يقرأ وهو خالي الذهن صادف قلباً خاوياً فتمكنا، هذه مشكلة!! فلو اشتغلنا بهذا نبين للناس الحق ودين الله -عز وجل- الذي بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحذرهم ما حذرهم الله منه، وبعد ذلك لا نبدأ نمسك هذا وهل تنطبق عليه الشروط؟، هو فعل هذا أو ما فعله؟، ويأتي الإنسان ما عنده مبادئ من العلم، ويريد أن يكون حاكماً، وقاضياً ومنفذاً أحياناً!! فهذا خطأ! خطأ! وافتراق الناس على أن فلاناً جيد أو غير جيد كله من عمل الشيطان، لا يفعله إلا من كان جاهلاً لا يعلم ما يجب به الافتراق ونحو هذا، أو عنده هوى!! وأحياناً يجمع بين الجهل والهوى، مستعد أن يرمي من خالفه في هذا بكل قبيحة، فهذا الكلام عن قتادة -رحمه الله- كلام جيد مفيد. والله المستعان.

وقال مجاهد في قوله: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} يعني: القتل والسباء وقال -في رواية-: بالجوع، وعذاب القبر.

يعني هنا {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} الله -عز وجل- لم يبين لنا هاتين المرتين؛ لأنه لا حاجة لنا بهذا، هو سيتولى تعذيبهم وليس لنا ذلك فحسابهم على الله -عز وجل-، وبعض العلماء يقول: ما يحصل لهم من التعذيب في الدنيا بالأموال والأولاد، والمرة الثانية في عذاب النار، وبعضهم يقول: المرة الثانية هي عذاب القبر؛ لأن الله قال: {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} يعني عذاب النار، والذين قالوا: إن المرة الثانية هي عذاب النار، قالوا: إنهم يعذبون عذاباً خاصاً، المرة الثانية في النار ثم بعد ذلك يردون إلى عذاب عظيم، إلى العذاب الشامل عذاب أهل النار، وبعضهم يقول: يعذبون في النار ثم يردون إلى الدرك الأسفل منها، وبعضهم يقول: العذاب في الدنيا أخذ الزكاة منهم، وفضيحتهم، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة، ولا حاجة إلى تعين هذا، ولا دليل على تعين هذه الأمور، والله أخبرنا إنه سيعذبهم مرتين، يحتمل أن يكون هذا ما يحصل لهم في الدنيا من الفضيحة، وكراهية المؤمنين لهم، وأنهم يشعرون دائماً بهاجس وقلق وخوف وانزعاج فلا تقر أعينهم، ويعذبون بهذه الأموال والأولاد، والتي من أجلها وقعوا في النفاق، والمرة الثانية عذاب القبر، يحتمل هذا، لكن لا توجد حاجة إلى تحديد هذه الأمور، والله -عز وجل- لم يحددها.

{ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما العذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [سورة التوبة:٨٥].

ولهذا ابن جرير -رحمه الله- قرر أن التحديد لا دليل عليه، وأن الاحتمال قائم، لكنه ما يقول لا يبعد أن يكون المراد عذابهم في الدنيا بأموالهم وأولادهم، وفضيحتهم وعذابهم الثاني في القبر {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} وهو عذاب النار.

فهذه المصائب لهم عذاب -وهي للمؤمنين أجر- وعذاب في الآخرة في النار {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}

قال: النار.

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٢].

لما بَيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزَاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكا، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمال أُخرَ صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلِّطين المتلوثين.

وقال ابن عباس: {وَآخَرُونَ} نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما أنزل الله هذه الآية: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} أطلقهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعفا عنهم.

وروى البخاري عن سَمُرَة بن جُنْدَب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لنا: ((أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ولَبِن فضة، فتلقانا رجال شَطْرٌ مِن خلقهم كأحسن ما أنت رَاءٍ، وشطْرٌ كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَن وشطرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، فتجاوز الله عنهم))[٢]، هكذا رواه البخاري مختصرًا، في تفسير هذه الآية.

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة التوبة:١٠٣-١٠٤].

أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضُهم الضمير في "أموالهم" إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا.

يعني {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} أي من أموال المؤمنين، {صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} يعني الزكاة، وبعضهم قال: إن هذا يرجع إلى ما قبله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا}، {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً}، وهذه الصدقة بعضهم يقول: هي صدقة خاصة يتطهرون بها كما جاء عن كعب بن مالك -رضي الله عنه- أنه بذل ماله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما تاب الله عليه قال: "إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من جميع مالي"[٣]، فالشاهد أن تصدقهم يكون له هذا الأثر {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}، والضمير "الهاء" في الموضعين {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} قيل: يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} أنت، وبعضهم يقول: إن الأول للصدقة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} أنت بأخذك إياها تزكيهم بها، والقاعدة أنه مهما أمكن توحيد مرجع الضمائر فإنه أولى من تفريقه، وعلى هذه القاعدة يمكن أن يقال: إن الضمير في الموضعين يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} أنت، والقول الآخر أيضاً تحتمله الآية.

ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} الآية وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديقُ أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عِقالا -وفي رواية: عَناقًا- يُؤدُّونه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأقاتلنهم على منعه.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٢]، برقم (٤٣٩٧).

٣ - رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا نذر ثم أسلم قبل أن يفي، برقم (٣٨٢٣).

وقوله: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أُتِيَ بصدقة قوم صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: ((اللهم صلِّ على آل أبي أوفى))[٤].

وقوله: {إِنّ صَلاتَك}: قرأ بعضهم: "صلواتك" على الجمع.

هذه قراءة الجمهور خلافاً لحمزة وحفص والكسائي قرءوه بالإفراد، ولا منافاة بين القراءتين كلاهما يرجع إلى شيء واحد؛ لأن {صَلاتك} صلاة هذا مفرد مضاف إلى كاف الخطاب، مضاف إلى معرفة، والمفرد إذا أضيف فإن ذلك يكون بمعنى الجمع، يعني يكسبه العموم فـــ {صَلاتك} و"صلواتك" المعنى واحد.

وآخرون قرءوا: {إِنَّ صَلاتَكَ} على الإفراد.

{سَكَنٌ لَهُمْ} قال ابن عباس: رحمة لهم.

يعني السكن هو ما تسكن إليه النفس وتطمئن به، فتسكن نفوسهم بما يحصل لهم من الرحمات بسبب هذه الصلوات وهي دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم.

وقوله: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ} أي: لدعائك {عَلِيمٌ} أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ} هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

من أهل العلم من يقول: إن هذا الخطاب {أَلَمْ يَعْلَمُوا} لغير التائبين يحرضهم على التوبة يحثهم عليها، وبعضهم يقول: إن هذا لهؤلاء الذين تابوا، الخطاب للذين تابوا قبل أن يقبل توبتهم كما سيأتي في آخر السورة {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ} [سورة التوبة:١١٧] إلى أن قال: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ} [سورة التوبة:١١٨] فخصها بعض أهل العلم بهؤلاء، ومن أهل العلم -كابن جرير- من حملها وخصها بالذين أوثقوا أنفسهم، فالصحابة -رضي الله عنهم- الذين تخلفوا الثلاثة جاءوا واعتذروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقوا ينتظرون، ومن الصحابة من أوثق نفسه حتى يتوب الله عليه، يعني لا يفك وثاقه حتى يتوب الله عليه، فابن جرير -رحمه الله- حملها على هذا المعنى، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ}، يعني ابن جرير -رحمه الله- يقول: لماذا يفعلون هذا بأنفسهم ويقولون لا نطلق وثاقنا حتى يطلقنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ كان يكفيهم أن يتوبوا إلى الله، فإن التوبة تكون لله وليسوا بحاجة إلى هذا، هكذا خصها بهؤلاء، وعلى أساس هذا هم {اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا}.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربِّيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم مُهره، حتى إن اللقمة لتَصير مثل أحد))[٥]، وتصديق ذلك في كتاب الله، -عز وجل-: {أَلَمْ

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، برقم (١٠٧٨).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، برقم (٦٦٢)، وقال الألباني: صحيح لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٨٥٦).

يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ}، وقوله: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}
[سورة البقرة:٢٧٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٥ إلى الآية ١٠٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٠٥].

قال مجاهد: هذا وَعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرضُ عليه -تبارك وتعالى-، وعلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٨]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [سورة الطارق:٩]، وقال {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [سورة العاديات:١٠] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، وقال البخاري: قالت عائشة، -رضي الله عنها-: إذا أعجبك حُسن عمل امرئ فقل: {اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقول مجاهد: إن هذا وعيد إذا ضم إليه قول عائشة -رضي الله تعالى عنها- نخرج من ذلك بأنه وعيد للمنحرفين الظالمين، وهو حث وتنشيط وتبشير للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فالآية فيها هذا الأمر العام للجميع {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} اعمل وسيظهر هذا العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنتم شهداء الله في الأرض))[1]، فالله مطلع على الأعمال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته يرى عملكم فيما يراه منه أو يبلغه، ويراه أهل الإيمان، فمن الناس من يكون مُجداً في طاعة الله -تبارك وتعالى- فيكون ذلك تنشيطاً له، ومن الناس من يكون مقصراً في طاعة الله مُجداً في معصيته ومخالفة أمره فهذا وعيد له؛ ليرعوي، فإن الله مطلع عليه، وأهل الإيمان يرون عمله ويكرهونه، ويدل على ذلك حديث أنس -رضي الله عنه- التالي.

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له؟ فإن العامل يعمل زمانًا من عمره -أو: بُرهَةً من دهره- بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحًا، وإذا أراد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، برقم (١٣٠١)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب فيمن يُثنَى عليه خير أو شر من الموتى، برقم (٩٤٩).

الله بعبد خيرًا استعمله قبل موته))، قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟، قال: ((يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه))[٢] تفرد به أحمد.

هذا الحديث الصحيح يدل على معنى كبير وهو أن الناس يعملون ثم بعد ذلك تتكشف بعض الحقائق التي قد تكون خافية على الناس، وذلك من جهة حال هذا الإنسان، وما يصير إليه، فعلّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- لئلا نتعلق بأحد من الناس، أو نبالغ في الثناء عليه أو نجعله إماماً نذب عن أقواله، ونشتغل بالمدافعة عنه، وبتقديمه ومحبته، وتقديسه وإطرائه، ثم بعد ذلك تتغير الحال ويصير هذا الإنسان الذي كان يعمل عملاً صالحاً يعجب منه الناس أصبح يعمل بخلاف ذلك فيُسقَط بأيدي هؤلاء الناس ويحبط كثيرون!! ولهذا قال ابن مسعود -رضي الله عنه- : "من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة"[٣]، ولذلك:

أحبِبْ حبيبَك هوناً ما *** عسى أن يكون بغيضَك يوماً ما

فالذين يبالغون في المدح، ويبالغون في المحبة والإطراء والتقديم فهؤلاء قد يندمون على ما بذلوا من جهود كبيرة وأضاعوا من أوقات طويلة بالدفاع عن فلان، وبيان منزلة فلان وما شابه ذلك، فالله -عز وجل- لا يضيع عنده شيء، والأمة تعرف الصادق من الكاذب ومن يمثّل، يعني ليست النائحة الثكلى كالمستأجَرة، لابد أن يظهر ويتبين ولو بعد حين، والله المستعان.

{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٦].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية -رضي الله عنهم-، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكًّا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه -رضي الله عنه-، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} الآية [سورة التوبة:١١٧]، {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} الآية [سورة التوبة:١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: {إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو {عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

هنا في هذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا المعنى من أحسن ما قيل فيها، يعني هناك قال الله -عز وجل-: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} فحُمل على أولائك الذين ربطوا أنفسهم بالسواري، وقد جاءت بعض الروايات التي تصح من مجموع طرقها، وتدل على هذا المعنى، وهناك من أُخّر أكثر من ذلك كما هو معروف في حال الثلاثة {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}، وأولائك قال فيهم: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [سورة التوبة:١٠٣]،

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٢١٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣ - رواه البيهقي موقوفاً في السنن الكبرى، برقم (٢٠١٣٦)، وضعفه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٩٣).

والروايات الواردة في هذا كثيرة لكن من هذه الروايات مثلاً: عن ابن عباس عن طريق علي بن أبي طلحة وهذا إسناد حسن، قال: جاءوا بأموالهم يعني أبا لبابة وأصحابه حين أطلقوا، هم أوثقوا أنفسهم فنزلت توبتهم فأُطلقوا فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا، فأنزل الله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} فهذه غير الزكاة، وإنما هي صدقة، {وَتُزَكِّيهِم بِهَا} قال: يعني بالزكاة، يقول ابن جرير: يعني الزكاة طاعة الله والإخلاص {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} يعني استغفر لهم فالشاهد أن هؤلاء هم الذين اعترفوا بذنبهم، ثم بعد ذلك جاء هؤلاء {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ} قال: أي مرجئون لأمر الله وقضائه، بمعني مؤخرون، ثم ذكر الأقوال في هؤلاء، ومما ذكر أن هؤلاء أناساً ندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا عند قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري فأرجأ أمرَهم إلى أن صحت توبتهم، فتاب الله عليهم ثم ذكر الأقوال في هذا.

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة:١٠٧-١٠٨].

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} هذه قراءة الجمهور بالواو، وفي القراءة الأخرى قراءة ابن عمر وأهل المدينة {الَّذِينَ اتَّخَذُوا} بدون واو، و ذلك يرجع إلى حرف قريش، يعني ما كان بحرف قريش كتبه عثمان -رضي الله عنه- في مصحف هكذا، وفي مصحف هكذا؛ لأنه جمع الناس على حرف واحد، وهنا قال: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} فعلى القراءة بـــ"الواو" يمكن أن تكون الواو عاطفة على ما سبق، وهو بعدد أوصاف المنافقين منهم كذا، ومنهم كذا، ومنهم كذا، والذين تخلفوا عن غزوة تبوك منهم من اعتذر بأعذار كاذبة، ومنهم من كان صادقاً واعتذر بكذا ثم ذكر {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا}، وعلى القراءة بغير الواو {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} تكون جملة مستقلة مستأنفة، ويكون الاسم الموصول "الذين" مبتدأ، والخبر اختلفوا فيه، فبعضهم قال: {لاَ تَقُمْ فِيهِ} الخبر، وقيل غير ذلك، والاتخاذ بمعنى الإعداد والارتقاب وما شابه ذلك من المعاني، وبعضهم يزيد عليه، يقول: كلمة الاتخاذ بمعنى الإعداد ولكنه إعداد بعناية، يعني ليس مطلق الإعداد، وإنما إعداد بعناية، إعداد خالص تقول: "اتخذت فلاناً خليلاً"، و"اتخذت فلاناً صديقاً"، و"اتخذت الكتاب جليساً" وهكذا، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} هذا يدل على أنهم اعتنوا بهذا المسجد، وصاروا يقضون أوقاتهم فيه، ويتخلفون عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} ضرراً يعني مضارة، فهم أرادوا أن يفرقوا الناس عن مسجد قُباء؛ لأن هذا المسجد كان قريباً من قُباء، فأرادوا تفريق الناس عنه، وبعض أهل العلم -كابن جرير- يقول: أرادوا تفريق الناس عن مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والمشهور أنهم أرادوا تفريقهم عن مسجد قباء ولا يمتنع هذا وهذا، فهم يفرقون الناس الذين يأتون إلى مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلون معه، والذين يصلون في قباء لربما جذبوا طائفة منهم فـــ {اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} بهذا الاعتبار، يعني يصلون معهم ويفرقون الجماعة {وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ} فالإرصاد بمعنى الإعداد أو الارتقاب، وبعضهم يزيد عليه أن يكون ذلك بعداوة {وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ} لكن هنا يفسر بالإعداد

وبالارتقاب، {حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ}، يحتمل أن يكون يعنى به أهل النفاق الذين حاربوا {اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ} يعني من قبل بناء المسجد، وجاء في كثير من الروايات أن المقصود بهذا هو أبو عامر الراهب، هذا الرجل كان محسوباً على الأنصار، وكان قد تنصر قبل الإسلام، وتعبد حتى لقب بالراهب، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- والإسلام لم يقبل الإسلام وذهب إلى المشركين في مكة بعد غزوة بدر لما انتصر المسلمون ذهب يحرض المشركين!! وجاء معهم في غزوة أحد، ووعدهم عند التقاء الصفين أنه سيخرج ويعرفه قومه، ثم بعد ذلك يدعوهم إلى الالتحاق بجيش المشركين!! وعندئذ تحدث الهزيمة للمسلمين قبل القتال!! يلتحق الأنصار به وكذا، ويقال: إنه الذي حفر الحُفر بميدان المعركة بين الصفين قبل بدئها فسقط النبي -صلى الله عليه وسلم- في إحدى الحفر وشج وجهه -صلى الله عليه وسلم- وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، فالشاهد أن أبا عامر الراهب ظهر لهم في يوم أحد وقال لهم: أنا فلان وكذا فسبوه وأقذعوا في سبه وشتمه وكذا، فخاب ظنه، وقال للمشركين: لقد أصاب قومي بعدي شراً، يعني ما هم بالقوم الذين كنت أعرفهم يثقون بي ويقدرون عبادتي وتنسكي، فالشاهد أن الرجل بعد ذلك ذهب إلى الروم لما رأى أن المشركين ما حصلوا كبير طائل، ولا يمكن أن يستأصلوا المسلمين ذهب إلى الروم يطلب منهم المدد بجيش يأتي به إلى المدينة لاستئصال المسلمين!! وقال للمنافقين: اتخذوا لكم مكاناً تتوجه إليه الرسل، يعني والكتب ليرسلها لهم، مكان معين معقل يجتمعون فيه، بحيث يكون هناك تجمع، انحياز، إذا أرسل مندوباً أو أرسل وفداً يأتون إلى هذه المجموعة المنحازة، وفي ذلك الوقت ما يمْكن هذا إلا أن يظهر بصورة مسجد!! فوضعوا لهم مسجداً وطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يصلي لهم فيه؛ من أجل أن يكون هذا المسجد مُقرًّا من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا شُبه فيه، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- خارجاً إلى تبوك فآجلهم إلى أن يرجع، ثم أوحى الله إليه عند مقدمه إلى المدينة بحال هذا المسجد وأهله فأُهدم وأحرق.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهبُ.

بعد ذلك صار يسمى أو يلقب بأبي عامر الفاسق.

وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قَدِم رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه -صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمرَ الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فوعده ومنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه مَن يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته -عليه السلام-، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله.

فلما قفل -عليه السلام- راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم -مسجد قُباء- الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجنود من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله -عز وجل-: {لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} إلى {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

في ذلك الزمان أفضل جيل ورأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وعاشروه، وعرفوا أحواله، وصدقه، ومع ذلك ينتظرون الروم متى يأتون حتى ينشروا لهم الحرية!! -نسأل الله العافية-، في ذلك الزمان فلا يستغرب من المنافقين في أي عصر من العصور إذا كان هذا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه الجهود والمحاولات فكيف بغيره من الأزمان؟! فما على المؤمن إلا أن يعمل بطاعة الله ويجد ويجتهد في نشر دينه، والله -عز وجل- يوفق من يشاء إلى ما شاء فيستعمل أقواماً في طاعته، ويخذل آخرين فيكونون من أولياء الشيطان وحزبه، والله المستعان، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَلَيَحْلِفُنَّ} أي: الذين بنوه {إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى} أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارا لمسجد قباء، وكفرا

بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: "الراهب" -لعنه الله.

وقوله: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} نهيٌ له -صلى الله عليه وسلم-، والأمة تَبَع له في ذلك عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدا.

النهي عن القيام يستلزم النهي عن الصلاة، فالصلاة يقال لها: قيام كقيام الليل، قام ليلة، قام يصلي ((وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه))[٤] فلا إشكال في هذا.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعا لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صلاة في مسجد قُباء كعُمرة))[٥].

الحافظ ابن كثير يرى أنه مسجد قباء، باعتبار السياق، والسياق ظاهر أنه في مسجد قباء، والقول بأنه مسجد قباء قال به جماعة من السلف، ومروي عن ابن عباس والضحاك، والحسن، والشعبي، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إنه مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا قال به طائفة، وبناءً على ذلك فسر قوله -تبارك وتعالى-: {اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} بمعنى أنهم يفرقون الناس عن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلى كلٍّ مستند ابن جرير -رحمه الله- ومن وافقه على هذا هو الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه أنه اختلف رجل خدري مع آخر عوفي كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- اختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال الخدري: هو مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال العوفي: هو مسجد قباء، فاحتكموا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((هو مسجدي هذا))[٦]، وهو حديث صحيح نص على أن المسجد مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا نظرت إليه بهذا الاعتبار تقول: إنه المسجد النبوي وإن كان السياق في مسجد قباء، فالتفسير النبوي إذا صح فإنه لا يعارض لا بسياق ولا بقول أحد كائناً من كان، لكن القول بأنه مسجد قباء لا ينافي هذا، وقد صحت بعض الأحاديث بشواهدها ومجموع طرقها أن المراد به مسجد قباء، وصح ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الذي رواه بعض أصحاب السنن كأبي داود والترمذي

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، برقم (٨٩٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، برقم (٧٥٧).

٥ - رواه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، برقم (٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، برقم (١٤١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣١٩).

٦ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

وابن ماجه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح بأن المراد به مسجد قباء، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نزلت هذه الآية في أهل قباء {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}))[٧]، وكذلك صح أيضاً عن عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- نحو هذا، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم عن سبب ثناء الله -عز وجل- عليهم، سأل أهل قباء، فمثل هذه المرويات لا تعارض ما صح عنه -صلى الله عليه وسلم- بأنه مسجده -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد ولسنا بحاجة إلى أن نرجح ونقول الرواية التي في صحيح مسلم مقدمة على هذه الروايات، وذلك من وجه الجمع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ما هو أولى بهذه الصفة وأحق، وهو مسجده -صلى الله عليه وسلم- وهذا لا إشكال فيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفسر الآية بالأحق في الاتصاف بها، وقد يفسرها بجزء معناها، وقد يفسرها بلازمه، وقد يفسرها بأن يحملها على معنى باعتبار اللفظ الأعم وإن كانت نازلة في غيره، وفي حديث أبي سعيد يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- حمل الآية على الأحق بهذه الصفة، فلا شك أن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بهذا الوصف أنه {أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} أولى من مسجد قباء، لكن هذا لا ينفي عن مسجد قباء هذه الصفة، فمسجد قباء أسس على تقوى من أول يوم، هذا وجه الجمع بين هذه المرويات والأحاديث وما دل عليه السياق، والله أعلم، فمن قال بأن الآية في أهل قباء فإن قوله صحيح، ومن قال هو مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون فسرها بالأولى بهذا الوصف، والله أعلم.

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يزورُ مسجد قُباء راكبًا وماشيًا[٨].

مثل هذا، والأحاديث الواردة في مسجد قباء لا تدل على ترجيح في هذا الموضوع، وإنما تدل على فضل مسجد قباء فقط.

وفي الحديث: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّن له جِهَةَ القبلة، فالله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري -رضي الله عنه-: أنه حَدّثه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتاهم في مسجد قُباء، فقال: ((إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطَّهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟))، فقالوا: والله -يا رسول الله- ما نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا[٩]**، ورواه ابن خُزيمة في صحيحه.**

---

٧ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، برقم (٤٤)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣١٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٩٦٠).

٨ - رواه البخاري، أبواب التطوع، باب مسجد قباء، برقم (١١٣٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته، برقم (١٣٩٩).

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٤٨٥)، وقال محققوه: "حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف، أبو أويس -وهو عبد الله بن عبد الله المدني- قد تكلم فيه الأئمة من جهة حفظه، وشرحبيل: هو ابن سعد أبو سعد الخطمي، ضعيف، وقال ابن حجر في "تهذيب التهذيب" ١٥٨/٢: "وفي سماعه من عويم بن ساعدة نظر، لأن عويماً مات في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويقال: في خلافة عمر -رضي الله عنه".، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود، (٧٥/١)، في كلامه على الحديث رقم (٣٤).

يعني الروايات الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً، وكثير منها ضعيف، منها ما يتقوى، ومنها ما هو من قبيل الحسن، ومثل هذه الرواية هي مما يقوّي ما ذكرتُ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يسألهم ما هذا الشيء الذي أثنى الله عليكم به، وهو يقصد هذه الآيات {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} فهذا كله يؤيد أن السياق، وأن الآيات في مسجد قباء، ومسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذه الصفة، يعني لو كان المراد {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} غير الطهارة التي هي طهارة الإيمان فإن هذا يمكن أن يكون مختصاً أو شبه مختص بأهل قباء؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم عن هذا، لمّا قالوا له -في بعض الروايات التي فيها ضعف- إنهم يغتسلون غسل الجنابة ويتوضئون وكذا، سألهم عن شيء آخر، يعني هذا أمر يشتركون فيه مع غيرهم من المؤمنين فلما ذكروا له هذه القضية لم يطلب غيرها أي أنها هي السبب، وهذا يرجح أن الطهارة هنا ليس المراد بها طهارة الإيمان وصلاح العمل والحال والقلب، وإن كانت هذه طهارة {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} يعني بعضهم قال: طهارة الإيمان {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [سورة الأعلى:١٤] يعني زكى نفسه بالإيمان، هكذا حتى فسروا قوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [سورة الشمس:٩] زكى نفسه بطاعة الله، وبالإيمان بالله وبرسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه وإن كان يقال لها: تزكية، ويقال لها: طهارة إلا أن المقصود هنا -والله أعلم- طهارة أخرى، وهي الطهارة المذكورة في هذا الحديث، وبعضهم حمل الطهارة على معنى آخر بعيد.

وقوله: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلَّى بهم الصبح فقرأ بهم الروم فأوْهمَ، فلما انصرف قال: ((إنه يَلبِس علينا القرآنَ أن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء))[10].

فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

قوله: ((إنه يَلبِس علينا القرآنَ أن أقواما...)) يعني بسبب هؤلاء، فدل ذلك على أن صلاة الإمام تتأثر بحال المأموم، تتأثر إما بجهةٍ مِن ظاهره وهي أن المأموم يقرأ مع الإمام مثلا كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم لتقرءون خلف إمامكم))[11]، وإما بسبب خفي وهو ما يحصل من إخلال المأموم أحياناً حتى في الطهارة، فتتأثر صلاة الإمام، فهناك أشياء غير مدركة بالنسبة إلينا كثيرة جداً، يعني الله -عز وجل- أعلم

---

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٨٧٤)، وقال محققوه: "حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لإرساله"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٢٢).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، برقم (٨٢٣)، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٨٥٤).

بها كيف تقع، حتى في التثاؤب، فلو تثاءب شخص ثم التفت فإذا بآخر يتثاءب ولو لم يره، في نفس الوقت!، إلى غير ذلك من الأمور لمن تأمل في أحوال الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٩ إلى الآية ١١٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٩-١١٠].

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبنى هؤلاء بنيانهم {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} أي: طرف حُفيرة مُثالة {فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-: رأيت المسجد الذي بُني ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} أي: شكًّا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا في قلوبهم، كما أُشرب عابدو العجل حبَّه.

وقوله: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} أي: بموتهم، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بأعمال خلقه، {حَكِيمٌ} في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} يقول الحافظ -رحمه الله-: **فإنما يبنى هؤلاء بنيانهم** {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ}، قال: **أي طرف حُفيرة**، {عَلَى شَفَا جُرُفٍ} الشفا يعني الشفير، {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} أي شفير جُرُف، والجُرُف ما يتجرف بالسيول، وفسره بعضهم بالذي يذهب أصله ويبقى كأنه معلق، فهو يسقط بأدنى ملابسة، فهو سريع السقوط، و{جُرُفٍ هَارٍ} أي ساقط، فهؤلاء بنوا على غير أساس من تقوى الله -عز وجل- وإرادة ما عنده، فكان بنيانهم بهذه الهشاشة والضعف المتناهي كالذي أسس بنيانه على هذا المكان الذي لا ثبات له بحال من الأحوال، {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} أي وقع وسقط به في نار جهنم، وقال هنا: {لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معناه هو من أحسن ما قيل

في تفسيره، يعني أن هذا الصنيع تسبب عن نفاق دائم وشك يصاحبه قلق في نفوس هؤلاء يلازمهم إلى الوفاة، والجزاء من جنس العمل، كما قال الله -عز وجل-: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة:٧٧]، فالله -عز وجل- يجازي عباده على أعمالهم السيئة، تارة بالطبع على القلب، وتارة بالنفاق الدائم حتى يموت الإنسان عليه، إلى غير ذلك من ألوان العقوبات فقوله: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} يعني بموتهم، هذا هو الأقرب، ومنهم من قال: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} يعني بالندم، وهذا فيه بُعد، والأقرب ما ذكره الحافظ -رحمه الله- هنا {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ}، يعني إلا أن يموتوا بمعنى أن هذا النفاق مستمر إلى الموت لا يفارقهم ولا يزول عنهم.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:١١١].

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة.

يعني هذا معنى الشراء أنه معاوضة، وسبق الكلام على قوله: {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} [سورة البقرة:١٧٥]، اشتروا الكفر بالإيمان، وأصل الشراء هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر، ويعبر عنه بعبارات أخرى مقاربة، وقد سبق الكلام على هذا في أول الكلام على البيوع من العمدة، فالشاهد: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} فالنفوس والأموال مبيع والثمن هو الجنة.

وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايَعَهم –والله- فأغلى ثمنهم.

وقال شَمِر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله -عز وجل- في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية.

ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قَبِل هذا العقد ووفى به.

وقوله: {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة.

وفي القراءة الأخرى قراءة حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول {فيُقتَلونَ ويَقتُلون} وهذا مما يحتمله الرسم العثماني، وهو وجه من أوجه التغاير في الأحرف السبعة بالتقديم والتأخير.

ولهذا جاء في الصحيحين: "وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة".

وقوله: {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا} [سورة النساء:٨٧]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [سورة

النساء:١٢٢]؛ ولهذا قال: {فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} أي: **فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.**

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:١١٢].

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير ووافقه عليه ابن جرير معناه أن هذه الأوصاف المذكورة ترجع إلى ما سبق، {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} التائبين العابدين الحامدين السائحين هؤلاء هم الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فهذا فردٌ لأوصافهم، وتفصيل لها، وقرأ ابن مسعود -رضي الله عنه- وهي قراءة ليست متواترة- بالجر "التائبين العابدين" إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين...إلى آخره، بمعنى أن يكون هذا تفصيلاً لما سبق، الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم من هم؟ هم هؤلاء، وهنا الرفع في القراءة المتواترة يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هم {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}، فيكون هذا يرجع إلى ما سبق {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} هم {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ} هؤلاء هم الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، ويحتمل أن يكون {التَّائِبُونَ} مبتدأ وتكون جملة جديدة، يعني الله -تبارك وتعالى- ذكر أوصاف الأولين {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} هذه طائفة ممن يدخلون الجنة، والطائفة الثانية هم أصحاب هذه الأوصاف، {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ} {التَّائِبُونَ} مبتدأ، وما بعده معطوف عليه، والخبر مقدر يعني لهم الجنة، فيكون الذين وُعدوا بالجنة هم الطائفتين، الطائفة الأولى هم الذين {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}، والطائفة الثانية هم أصحاب هذه الأوصاف، وعلى القول الأول كل هذا طائفة واحدة موصوفة بهذه الأوصاف، فأولائك الذين يقاتلون في سبيل الله يجب أن تتحقق فيهم هذه الأوصاف على القول الأول المشهور أن يكونوا من التائبين العابدين الحامدين السائحين...إلى آخره.

{التَّائِبُونَ} **من الذنوب كلها، التاركون للفواحش،** {الْعَابِدُونَ} **أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال:** {الْحَامِدُونَ}.

يعني ذكر هذه الأوصاف {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ} فالتوبة تكون بترك ما نهى عنه، والعبادة تكون بفعل ما أمر به، جمعوا بين هذا وهذا، {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}، {الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ}.

ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: {السَّائِحُونَ} **كما وصف أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك في قوله تعالى:** {سَائِحَاتٍ} **[سورة التحريم:٥] أي: صائمات.**

أصل السياحة هي السير في الأرض، ساحَ في الأرض، ساح الماء بمعنى جرى وانساب، يعني الذهاب على وجه الأرض يقال له: سياحة، فهنا {السَّائِحُونَ} من نظر إلى هذا المعنى إلى أنه الذهاب فسره بتفسيرات ترتبط بهذا المعنى، فبعضهم قال: الذين يسافرون في طلب العلم، وبعضهم قال: هم الذين يجاهدون في سبيل الله، فسياحة هذه الأمة الجهاد، يتنقل من أرض إلى أرض مجاهداً في سبيل الله، وبعضهم قال: هم الدعاة إلى

الله، وبعضهم قال: هم الذين يعلمون الناس الخير، وأكثر أهل العلم –الجمهور- فسروه بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، وهو الصيام قال: **ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع** هذا الذي عليه الجمهور، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، ووجه الارتباط مع المعنى هنا أن مَن يترك الملاذ يشبه السائح، يعني الذي يذهب في الأرض فإنه يتقلل يترك كثيراً من ملاذه من النوم والراحة، والأكل وما اعتاده وما أشبه ذلك فيفطم النفس عن كثير من مألوفاتها، فقالوا هذا يشبه هذا، فالصائم يترك هذه الشهوات لله -عز وجل-، يترك ما اعتاده من أكل وشرب ونكاح طلباً لمرضاة الله، وهذه المعاني وغيرها مما ذكر أرجعه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- إلى أصل واحد، ففسر السياحة بسياحة القلب بذكر الله -عز وجل- والتألّه له، ومحبته، والشوق إلى لقائه، واستحضار عظمته وما أشبه ذلك، فإذا وُجد هذا في القلب وجد فيه كل بر، ومعروف، وخصلة جميلة من جهاد وهجرة، وطلب للعلم، وبذل له، وما إلى هذا من المعاني كالصيام ونحوه، واحتج لهذا بأن الله -عز وجل- قال: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ} [سورة التحريم:٥]، وذكر من الأوصاف {سَائِحَاتٍ} قال: وليس المراد بذلك أنهن مجاهدات أو يسافرن في طلب العلم، أو يُدمِنَ الصيام، فعائشة -رضي الله عنها- كانت تؤجل القضاء إلى شعبان، فمثل هذا قال: ليس هو المراد، وإنما المراد سياحة القلب، ولفتَ النظر إلى ما اقترن به وهو أن الله -عز وجل- هنا في هذه الآية قال: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ} فهذا الاقتران التوبة والعبادة ترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به، {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}، {الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ} ذكرُ اللسان، وذكْرُ القلب، فسر السائحين بهذا بذكر القلب، التأله لله -عز وجل-، وما إلى ذلك من معانٍ ذكرناها، ثم قال: {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ} الركوع والسجود قرينان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينان، وهكذا في وصف النساء الآتي ذكرَ الله -عز وجل-: {تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ} وذكر أيضاً السائحات.

وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

هنا قال: عطف هذه الأوصاف جميعاً بدون حرف العطف بدون "الواو"، وفي قوله: {الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ} ذكر الواو فيحتمل أن يكون ذكر الواو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار أنها خصلة واحدة، يعني هما متلازمان، هي قضية واحدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي بعدها، {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ} باعتبار أنه جاورها فذكر الواو معه، وهذا لا يخلو من إشكال بالنسبة لقوله: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}، يعني هذا الجواب ما هو من الوضوح بمكان، القرب وحده قد لا يكون كافياً في تبرير هذا، والعطف بالواو يأتي في كلام العرب تارة تَذكرُ العطف بالواو، وتارة تُسقطُه في ذكر الأوصاف، ومنه قوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي

أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤]، فذكر بعض هذه الأوصاف بالواو، وبعض هذه الأوصاف بغير واو، كقوله: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ} [سورة غافر:٣]، فيذكر الواو مع هذا، ويحذفه في بعض المواضع، وبعضهم يقول: هذه الواو واو الثمانية، وإن كان بعض أهل اللغة كأبي على الفارسي ينكر واو الثمانية أصلاً!!، ويثبتها آخرون {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [سورة الكهف:٢٢]، وفي قوله في الآية المتقدمة: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}، وهكذا {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [سورة الزمر:٧٣] فذكر الواو، والأمثلة على هذا كثيرة.

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة:١١٣-١١٤].

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضَرَت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: "أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله، -عز وجل-"، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك))، فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} قال: ونزلت فيه: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص:٥٦] أخرجاه[1].

وروى ابن جرير عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبرًا، فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت، قال: ((إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي))[2]، فما رئي باكيا أكثر من يومئذ.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} الآية: فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك فقال: ((فإنّ إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه))، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرُون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ} الآية.

هذه الروايات وغيرها مما لم يذكره كثيرة جداً، منها الصحيح، ومنها الضعيف، وقد ثبت أنها نزلت في قصة أبي طالب لما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عن ذلك))، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وثبت أنها نزلت حينما سمع عليٌّ -رضي الله عنه- رجلاً يستغفر لأبويه، فأنكر عليه هذا،

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٩٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل- في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٦).

فاحتج بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- استغفر لأبيه، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت، وهكذا ما جاء من روايات منها ما صح، ومنها ما لم يصح في طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- الاستغفار لأمه فلم يؤذن له، فالشاهد أن الروايات التي صحت في سبب النزول متنوعة، فإن كان الزمان متقارباً فيمكن أن يقال: إن هذه الآية نزلت بعد هذه القضايا جميعاً، وإذا كان الزمان متباعداً فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، يمكن أن يقال: إن هذا حصل فنهى الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهل يتصور أن يقع هذا من أحد بعد نزول الآية؟ الجواب أن هذا يتصور من غير النبي -صلى الله عليه وسلم-، من الناس من يخفى عليه فتنزل الآية كما قال الحافظ -بغير هذا الموضع-: إن الآية تنزل تذكيراً بالحكم، يمكن هذا وأحياناً لا يقال، مثل ما ورد في سبب نزول {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [سورة التحريم:١]، صح أنها نزلت بسبب العسل، وأيضاً بسبب تحريم الجارية، فهنا لابد أن يقال: من أهل العلم من يلجأ إلى الترجيح، أو يقال للجمع: إن الزمان كان متقارباً، ولا يمكن أن يقال: إن كان الزمان متباعداً حكم بتكرر الآية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يمكن أن يحرم ما أحل الله له مرتين، وهكذا ما جاء في قوله -تبارك وتعالى- في اللعان: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} [سورة النور:٦]، في قصة هلال بن أمية، وعويمر العجلاني، فلابد أن يقال هناك بأن الزمان كان متقارباً فنزلت الآية بعد هذه الوقائع جميعاً، ويمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لكل واحد منهما: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))[٣]، فلو كانت نزلت عليه كان طلب منه اللعان –أي من الثاني- لكن هنا يتصور، ولكن هل يتصور في جميعها؟ يعني هل يتصور أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قاله في قصة أبي طالب، وهذا كان في مكة فنزلت سورة براءة من آخر ما نزل، والواقعة في مكة، وقد تنزل الآية من السورة قبل نزول أكثرها، ويحكم على السورة بأنها مكية أو مدنية باعتبار صدر السورة، باعتبار الأغلب، فالشاهد أن هذه الآية تكون نزلت في مكة في قصة أبي طالب، ثم أيضاً نزلت متأخرة جداً حينما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يستغفر لأمه حينما مر بقبرها، وبعض الروايات التي وردت في هذا -وإن كان فيها ضعف- أنه حينما رجع من تبوك أراد أن يذهب، هذه فيها ضعف، يذهب إلى مكة فمر بقبرها، ومروره بقبرها كان متأخراً يعني إما أن يكون هذا في عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، أو يكون ذلك بعد فتح مكة، أو في حجة الوداع، فهو متأخر فهل يمكن أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- استغفر لعمه أبي طالب فنزلت الآية هنا، ثم أراد أن يستغفر لأمه، هذا فيه إشكال كبير، إلا أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستغفر لمّا مر على قبر أمه، وإنما قال: ((استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يؤذن لي)) استأذنه ولم يستغفر، فأما وقوع هذا من بعض الصحابة، وأنهم احتجوا بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- استغفر لأبيه، فيمكن أن يقال: إن هذا خفيَ عليهم فنزلت الآية تذكيراً، والله أعلم.

وقوله: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦)، وبرقم (٤٤٧٠)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور.

يعني أنه ختم له بالشقاوة، بالكفر كان يرجو أن يهديه الله -عز وجل- للإسلام.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم -رحمهم الله.

وقال عُبَيْد بن عمير، وسعيد بن جُبَيْر: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أيْ رَبي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ فأيّ خزْي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، أي: قد مُسخ ضِبْعانًا، ثم يسحب بقوائمه، ويلقى في النار.

الذِّيخ هو ذَكر الضبع، وبعضهم قيده بذَكر الضبع الذي يكون عليه شعر كثير، فالله -عز وجل- يقول: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى}، {مَا كَانَ} هذه في القرآن تأتي تارة للنهي، مثل هذا الموضع، وكقوله: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} [سورة الأحزاب:٥٣]، وتارة تأتي بمعنى النفي كقوله: {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا} [سورة النمل:٦٠]، و{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله} [سورة آل عمران:١٤٥]، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال الله -عز وجل- في شأنه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}، وهو قوله: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [سورة مريم:٤٧] فهذا هو الوعد، والله -عز وجل- يقول {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} [سورة الممتحنة:٤]، {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ} فهذا استثناء، فيحتمل أن يكون هذا الاستثناء عائداً إلى الأسوة والقدوة، فلكم فيه أسوة إلا في هذا الأمر فإنه كان عن موعدة ثم بعد ذلك تبين له أنه عدو لله فترك الاستغفار له، فتكون أسوة فيها استثناء، ومن هذا أخذ بعض أهل العلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهذا لا شك فيه، لكن هنا من ناحية أن الله لما ذكر الأسوة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستثنِ في سورة الأحزاب، وفي إبراهيم استثنى، ومن أهل العلم من يقول: {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ}: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، فما يكون ذلك استثناءً من الأسوة.

وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: الأوّاه: الدَّعَّاء.

باعتبار أن "أواه" صيغة مبالغة، فقال الدّعّاء وهذا الذي اختاره ابن جرير في معناه، الدّعّاء.

وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود، وقيل: المتضرع.

قوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ} الدّعّاء بمعنى أنه استغفر لأبيه، والاستغفار دعاء طلب المغفرة، وكذا روي من غير وجه عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، وقيل: المتضرع، وهذا التضرع في معنى التذلل.

وقيل: الرحيم، وقيل: الموقن المؤمن، وقيل: المُسبح، وقيل غير ذلك.

وقيل غير ذلك كمن فسره بأنه فقيه، أو يعلم الناس الخير، أو -وهذا من أشهر ما قيل فيه، وهو معنى قريب وجيد- أنه كثير التأوه، وهذا تفسير على الظاهر، ظاهر اللفظ {لأَوَّاهٌ} يعني كثير التأوه، ومعنى كثير التأوه أنه يتأوه كثيراً من ذنوبه، فالذي يتأوه بمعنى أنه يحصل له ويتنفس بطريقة يعني فيها قوة أو نحو هذا يتأوه،

وهكذا من يقول: أواه من ذنوبي، {لأوَّاهٌ} أي كثير التأوه، وابن جرير -رحمه الله- فسره بالدّعّاء، كثير الدُّعاء، والتضرع إلى الله -عز وجل-، والسؤال بالحزن والإشفاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١١٥ إلى الآية ١٢٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [سورة التوبة:١١٥-١١٦].

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} الآية [سورة فصلت:١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} قال: بيان الله -عز وجل- للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذَروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعا أو عاصيًا فيما لم يؤمر به ولم يُنه عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}، هذه جاءت بعد قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، فعامة أهل العلم على أن هذه الآية الثانية {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا} مرتبطة ومتعلقة بالآية الأولى، بمعنى أن الله -عز وجل- لا يؤاخذ ولا يحاسب من استغفر للمشركين قبل أن يبين الله -عز وجل- حكم ذلك، فإن الناس لا يلزمهم التكليف، ولا يقع عليهم حكم ولا يحاسبون على عمل إلا إذا سبق لهم من الله -عز وجل- البيان، وهذا معلوم من شروط التكليف العامة، فإن التكليف -كما هو معلوم- له شروط عامة، وله شروط خاصة، فمن شروطه العامة القدرة، يعني عند المكلف بمعنى الأهلية، وبلوغ الخطاب، وتبقى الشروط الخاصة في كل عبادة بحسبها مثل الصلاة: دخول الوقت، والطهارة وما أشبه ذلك، فهذه الآية عامة أهل العلم يقولون: تتعلق بما قبلها، وهي وإن كانت متعلقة بما قبلها إلا أن حكمها عام في كل شيء: أن الله -عز وجل- لا يكلف الناس ولا يؤاخذهم ولا يحاسبهم حتى يسبق منه بيان لهم، ولهذا جمع بين هذين المعنيين مجاهد -رحمه الله- هنا في هذا الأثر الذي نقله الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال:

بيان الله -عز وجل- للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة يعني أن هذا أوْلى ما يدخل تحت معنى الآية ثم قال: **وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة**، فهذا خفي من ظاهر الآية، ظاهر الآية **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}** في كل شيء فلا يطالبهم بشيء من الأوامر ولا يحاسبهم على شيء من الأعمال إلا إذا سبق منه بيان لهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

هذا المعنى الذي ذكره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- **{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}**: أن هذا في التحريض لقتال المشركين، ويمكن أن يتعلق بما قبله أيضاً، وتكون "إنّ" هنا مشعرة بالتعليل فالله -تبارك وتعالى- يحكم ما يشاء ويقضي ما يريد لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه فحكمَ -سبحانه وتعالى- بأن لا يعذب أحداً من الناس حتى يبين له البيان الذي يقطع الحجة، **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء:١٥].

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١١٧].

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، و حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله -عز وجل-، قد عَوّدك في الدعاء خيرا، فادع لنا، قال: ((تحب ذلك؟))، قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلَّت ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

وقال ابن جرير في قوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} أي: من النفقة والظهر والزاد والماء، {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} أي: عن الحق ويشك في

---

١ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (١٣٨٣)، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

دين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم، {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، {إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

في قوله: {لَقَدْ تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}، {تَابَ عَلَيْهِمْ} من أهل العلم من قال: إن هذا يتعلق بالاستغفار {تَابَ عَلَيْهِمْ} من استغفارهم للمشركين، وبعضهم يقول: {تَابَ عَلَيْهِمْ} من التخلف في الغزو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله -عز وجل- هنا يقول: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} فهذه الآية تتحدث عن غزوة تبوك وما حصل فيها من الأمور التي تعرفونها من الشدة ومن تخلفوا، فالله -تبارك وتعالى- يذكر هنا توبته على النبي والمهاجرين والأنصار، وتوبة الله -عز وجل- على عبده تأتي بمعنى أن يوفقه إلى التوبة {تَابَ عَلَيْهِمْ} بمعنى وفقهم للتوبة؛ لأن التوبة تأتي بمعنى الرجوع، تاب بمعنى رجع، رجع إلى الله -عز وجل-: {تَابَ عَلَيْهِمْ} أي وفقهم إلى الرجوع إليه والإنابة، وأيضاً توبة الله -عز وجل- على العبد تأتي بمعنى رجوعه إلى عبده بالقبول وغفران الذنب والستر ستر الإساءة فلا يفتضح، وهذه التوبة لا يلزم أن تكون من ذنب، وإنما تكون من رجوع العبد من حال إلى حال ولو كان ذلك من قبيل فعل خلاف الأولى، فهنا يذكر الله -عز وجل- توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، فالله -تبارك وتعالى- تاب على أهل بدر، وقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم[٢]، وهنا في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات يذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار، فهذا لا يختص بموضوع الاستغفار للمشركين، {الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} والساعة تطلق على الوقت المحدد من الزمان كما هو معروف، وتطلق على الزمن وهو المراد هنا، ليست ساعة محددة معينة {فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} يعني وقت الشدة الحر والقيظ والحاجة والضيق {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} بماذا؟ فسره بعضهم بأن ذلك يرجع إلى الشدة التي أصابتهم أصابتهم شدة عظيمة كادت نفوسهم أن تتلف، وهذا فيه بعد؛ لأن الله -عز وجل- ذكر هنا "الزيغ" وعلقه بالقلوب، ولم يقل: تتلف نفوسهم، فلا يفسر ذلك بتلف النفوس بسبب الشدة التي أصابت الناس، ومنهم من فسره بمعنى آخر وهو أن هذه الشدة التي تحصل كادت أن تورث شكاً وخللاً في إيمان بعضهم!! كادت نفوسهم أن تضطرب ففي الشدائد تمحّص النفوس، وكما ذكر الله -عز وجل- في غزوة الأحزاب {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [سورة الأحزاب:١٠] تفرقت ظنونهم في الله -عز وجل-، فالمنافقون ظنوا الظنون الكاذبة السيئة، وأهل الإيمان حسنت ظنونهم بالله -جل جلاله-، وهناك معنى ثالث ولعله الأقرب من هذه المعاني: {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} وذلك بالقعود عن الغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-مع أنه يجب عليهم في ذلك الحين- وترك نصرة الله، ونصرة رسوله -صلى الله عليه وسلم- كراهية للشدة بسبب طول السفر وقوة العدو وكثرته، وشدة الوقت حر شديد مع طيب الثمار.

وقوله: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} ذكره مرة أخرى فقال: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} يمكن أن يكون هذا يرجع إلى الأول {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}، قال: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} كل ذلك عناية

---

٢ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الممتحنة، برقم (٤٦٠٨).

واهتماماً بشأن هذه التوبة، أو يكون المعنى الأول وفّقهم للتوبة {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} أي قَبِلها منهم، رجع عليهم بالقبول، ويمكن أن يكون متعلقاً بما قبله {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} يكون "الهاء" الضمير يرجع إلى أقرب مذكور {تَابَ عَلَيْهِمْ} مَن؟ هؤلاء الذين ذكروا {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} تاب على هؤلاء.

{وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [سورة التوبة:١١٨-١١٩].

روى الإمام أحمد أن عبد الله بن كعب بن مالك -وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِي- قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غَزاة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازًا، واستقبل عدوا كثيرًا فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- فقال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، -عز وجل-، وغزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصْعَر.

أصْعَر يعني أميل.

فتجهز إليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضِ من جهازي شيئا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غاديا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فَصَلُوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يَتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزوُ، فهممت أن أرتحل فأدركهم -وليت أنّي فعلتُ- ثم لم يقدّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَطُفتُ فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلا مَغْموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، -عز وجل-، ولم يذكرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ((ما فعل كعب بن مالك؟))، قال رجل من بني سَلَمة: حبسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر

في عَطْفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد تَوجَّه قافلا من تبوك حضرني بَثّي.

بثي يعني الحزن

فطفقت أتذكر الكَذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أظلّ قادما، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعتُ صدقه، وصَبَّح رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له -وكانوا بضعة وثمانين رجلا- فيقبل منهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: ((تعال))، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: ((ما خلَّفك، ألم تك قد اشتريت ظهرا؟))، قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أعطيتُ جَدَلا ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم بحديث كَذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يُسْخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تَجدُ عَليّ فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله -عز وجل- والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك))، فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَب القوم وأجلَدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفت نحوه أعرَض، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت حائط أبي قتادة -وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ- فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشُدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدتُ فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط الشام، ممن قَدم

بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفِقَ الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيممت به التنور فَسَجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأتيني، فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت له: يا رسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: ((لا ولكن لا يقربَنَّك))، قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما أدري ما يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نَهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجُل فرسًا، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بتوبة الله، يقولون: لِيَهْنِك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال وهو يبرُق وجهه من السرور: ((أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أمّك))، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: ((لا، بل من عند الله))، قال: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: ((أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك)) قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كَذبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما

بقي، قال: وأنزل الله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يومئذ ألا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه حين كَذَبُوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٩٥-٩٦]، قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خُلفوا خُلّفنا عن أمر أولائك الذين قبل منهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله تعالى: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته[٣]، رواه صاحبا الصحيح: البخاري ومسلم بنحوه.

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا رُوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار.

هذا الحديث عظيم فيه أحكام فقهية، وفيه فوائد إيمانية كثيرة جداً، وقوله هنا: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} قال: **وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلفنا بتخلفنا عن الغزو**، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه بمعنى وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ليس المراد خُلفوا عن الغزو؛ لأنه لو كان كذلك لقال وعلى الثلاثة الذين تخلفوا، وإنما قال: {خُلِّفُوا} يعني أُخروا وأُرجئ أمرُهم، فالذين اعتذروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل عذرهم واستغفر لهم وتركهم، وهؤلاء الثلاثة أرجأهم -صلى الله عليه وسلم-، وكما سبق أنه قال لكعب: **قم حتى يقضي الله في أمرك**، {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} فبقوا خمسين ليلة حتى نزل في شأنهم قرآن يتلى، وتاب الله عليهم.

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، أي: مع سعتها، فسُدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: {يَا

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله -عز وجل-: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [سورة التوبة:١١٨]، برقم (٤١٥٦)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، برقم (٢٧٦٩).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا.

{اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} الكون مع الصادقين هنا ما المراد به؟ ابن جرير -رحمه الله- يقول: كونوا من أهل ولاية الله وطاعته يعني في الدنيا تكونوا مع الصادقين في الآخرة، في الجنة في العاقبة كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [سورة النساء:٦٩]، فهذا معنى، واحتج له بأن كون الإنسان في الدنيا مصاحباً لأهل الصدق مجتمعاً معهم ببدنه أن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً ما لم يكن متصفاً بأوصافهم متحلياً بأخلاقهم، عاملاً بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقال: إن المنافقين كانوا مع المؤمنين في الدنيا يصلون معهم ويخالطونهم ومع ذلك لم ينفعهم، وليسوا من الصادقين، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن تفسر الآية -والله تعالى أعلم- **{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** أي في حكمهم وعلى حالهم وصفتهم، تعملون بعملهم.

وقد قال الإمام أحمد عن عبد الله -هو ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا))[٤]، أخرجاه في الصحيحين.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** [سورة التوبة:١١٩]، وما يُنهَى عن الكذب، برقم (٥٧٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧)، واللفظ له.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٢٠ إلى الآية ١٢٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة التوبة:١٢٠].

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم {لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ} وهو: العطش {وَلا نَصَبٌ} وهو: التعب {وَلا مَخْمَصَةٌ} وهي: المجاعة {وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ} أي: ينزلون منزلا يُرهبُ عدوهم {وَلا يَنَالُونَ} منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم- أعمالا صالحة وثوابا جزيلا {إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} كما قال تعالى: {إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا} [سورة الكهف:٣٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ} "ما كان" أحياناً تأتي مراداً بها النفي كقوله تعالى: {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا} [سورة النمل:٦٠]، وأحياناً تأتي مراداً بها النهي كما في هذا الموضع، وتدل على الامتناع كما مضى في بعض المناسبات تارةً الامتناع الشرعي، وتارةً الامتناع العادي، يعني عادة، وتارةً الامتناع العقلي، وقوله: {وَلا مَخْمَصَةٌ} قال: **هي المجاعة**، وبعضهم قيده بالمجاعة التي يحصل معها الجوع ويحصل معها ضمور البطن، وقوله: {إِلا كُتِبَ لَهُمْ} قال الحافظ -رحمه الله-: **بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم- أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً** بمعنى أن هذه الآية ذكر فيها أموراً تحصل للإنسان من غير أن يتطلبها أو أن يقصدها، فهي تحصل له من غير إرادته تعب وعطش جوع وما أشبه هذا فهذه لا يطلبها الإنسان، ولا يقصدها بل تحصل له من غير إرادة، فهنا قال: {إِلا كُتِبَ لَهُمْ} فهذه الأعمال قال: **ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم- أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً**، أما الأعمال الأخرى التي ذكرها {وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً}، {وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا} [سورة التوبة:١٢١] في تلك قال: {إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ}، فيه ففرق في العبارة بين هذا وذاك، وهنا قال: {إِلا كُتِبَ لَهُمْ}، وهناك {إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} وهو من أعمالهم وحسناتهم التي عملوها.

{وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٢١].

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله {نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً} أي: قليلا ولا كثيرا {وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا} أي: في السير إلى الأعداء {إِلا كُتِبَ لَهُمْ} ولم يقل ها هنا "به" لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، -رضي الله عنه-، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، وروى عبد الله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه-، قال: جاء عثمان إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بألف دينار في ثوبه حتى جَهَّز النبي -صلى الله عليه وسلم- جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقلبها بيده ويقول: ((ما ضَرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم))، يرددها مرارا[١].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ} الآية: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعدًا إلا ازدادوا من الله قربا.

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:١٢٢].

هذا بيان من الله تعالى لمَا أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك.

نفير الأحياء يعني أحياء العرب القبائل التي كانت حول المدينة.

فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} [سورة التوبة:٤١]، وقال: {مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ}، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده -صلى الله عليه وسلم- تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده، {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} يعني: عصبة، يعني: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه، فتمكث السرايا

---

١ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، برقم (٣٧٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٦٣٠)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل كثير -وهو ابن أبي كثير- مولى عبد الرحمن بن سمرة، ضمرة: هو ابن ربيعة الفلسطيني"، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٦٠٦٤).

يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلّموا السرايا إذا رجعت إليهم {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

في هذه الآية كما ترون هذا الخلاف هل هي منسوخة؟ أو محكمة؟ والخلاف واقع في المراد بالطائفة التي تتفقه، هذه القاعدة أو الخارجة، فهنا قال: **فنسخ ذلك بهذه الآية** يعني {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا}، و{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ}، فنسخ بـــ{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} ومن أهل العلم من يقول: إنها مُحكمة؛ لأنه لا دليل على النسخ، ولا يوجد تعارض من كل وجه؛ لأنه يمكن الجمع بين هذه الآية وبين تلك الآيات، فعند ابن جرير -رحمه الله-، ومن وافقه أن تلك الآيات هي حينما استنفرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا أمرهم بالخروج واستنفرهم فلا يسعهم المقام والبقاء بعده -عليه الصلاة والسلام-، وأما هذه الآية فحيث لم يُستنفروا فلا يخرج جميعهم، وإنما يخرج بعضهم ويبقى آخرون، ثم هنا قال: **وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما ينزل عليه من الوحي، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء،** فقال هنا: ليتفقه الخارجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصار {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} يرجع إلى أقرب مذكور، وهم الذين خرجوا، فالتفقه يكون بملازمتهم ومصاحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعرفة ما ينزل من الوحي، ليعرفوا أحكام الدين، وبعد ذلك هنا فسر الإنذار قال: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} يعني ينذرونهم بما يحصل من أمر العدو وبما شاهدوا من أمره هذا معنى، وبعضهم يقول: هذا الإنذار بما حصل لهم من التفقه، والفهم بمصاحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقال هنا: تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه، وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء، ومن أهل العلم من قال: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} أي لطلب العلم ليتفقهوا في الدين، وهذا إذا كانوا لا يجدون العلم في بلادهم التي يقيمون فيها، فيسافرون في طلبه، ولكن هذا فيه بُعد، فالآيات تتحدث عن الجهاد، ولفظ النفير يدل على هذا المعنى، فإنه إنما يعبر به عن الجهاد، كقوله -تبارك وتعالى-: {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [سورة التوبة:٣٨]، ثم ذكر هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وما كان المؤمنون لينفروا كافة، قال: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً، ويتركوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده فعكس المعنى الأول، هذا المعنى الجديد الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو اختيار ابن جرير: أن التفقه يحصل بالقعود، في المعنى الأول التفقه يحصل بالخروج مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجهاد ومصاحبته، فيعرفون ما نزل عليه، ويعرفون سنته -عليه الصلاة والسلام-، وأحواله في الحرب وغيرها، وهذا المعنى أن التفقه يكون بالقعود وليس بالنفير، فتخرج طائفة، يعني السرايا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يبعث سراياه، وكان المسلمون يتسارعون ويتسابقون إلى الخروج في هذه السرايا فلا يقعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده في المدينة، وإنما يخرج من يخرج من هذه السرايا ممن تقوم بهم الكفاية، ويبقى آخرون مع النبي -صلى الله

عليه وسلم- يتفقهون في الدين، فإذا رجع إليهم أصحابهم الذين خرجوا في تلك السرايا فقّهوهم وعلّموهم، فهذا معنى كما ترون هو عكس المعنى الأول تماماً، واحتج له ابن جرير بأن التخلف عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يجوز؛ لأن الله عاتبهم على ذلك حيث استنفرهم، فإذا خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- للجهاد وجب عليهم أن يخرجوا معه، فذلك بينه قوله -تبارك وتعالى-: {مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ} هذا إذا خرج ثم بين لهم الحال إذا بقي في المدينة، قال: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} الآية التي قبلها إذا خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فليس لهم أن يتخلفوا عنه في هذه السرايا فيبقى النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده، فتبقى معه طائفة من أجل أن يتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، قال هنا: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} قال: يعني السرايا، وهنا قال: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون، {لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ} ابن جرير -رحمه الله- حمل هذا على التي تخرج، والإنذار بما شاهدوا من فعل الله -عز وجل- بالكفار حينما يشاهدون غلبة المسلمين وهزيمة الكفار وما أشبه ذلك، فينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم؛ لئلا يحل بهم ذلك، فتقع بهم نقمة الله -عز وجل-، وهذه معانٍ تحتملها الآية، وابن القيم -رحمه الله- كان يرى أنه المعنى الأرجح -ونسبه إلى الأكثر-: أن الطائفة التي تتفقه هي التي تقعد، وقال: هذا ما يحصل به قوام الدين، وهو الجهاد والعلم، فطائفة تخرج تجاهد، وطائفة تبقى تتفقه وتتعلم.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال الله -عز وجل-: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} يبتغون الخير، {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ} الناس كلهم {إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الجيوش، أمرهم الله أن يغزوا بنبيِّه -صلى الله عليه وسلم-، وتقيم طائفة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

قوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على مُضر بالسنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبِل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلّوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأجهدوهم، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله إلى عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} الآية.

يعني الإنذار هنا عن الخروج إلى المدينة، وهذا الكلام بعيد، ولا يدل عليه ظاهر القرآن، وكان حقه أن يحذف من هذا المختصر، يعني هنا الله -عز وجل- يقول: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} على هذا القول

الذي لا يوجد ما يدل عليه: أن المقصود هؤلاء الذين جاءوا إلى المدينة بسبب الجوع، وهم لا يقصدون الهجرة ولا الإيمان، هذا بعيد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:١٢٣].

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته -عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجَّة الوداع، ثم عاجلته المنية -صلوات الله وسلامه عليه- بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَةِ الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيّه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدًا وقُربا، ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار، فكُسى الإسلامُ رياسة حلة سابغة، وأُمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجةُ الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علَوا أمةً انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}، وقوله تعالى: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كما قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة:٥٤]، وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح:٢٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}

[سورة التوبة:٧٣، وسورة التحريم:٩]، وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخَسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يُمانَعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٢٤ إلى الآية ١٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:١٢٤-١٢٥].

يقول تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} فمن المنافقين {مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد بُسط الكلام على هذه المسألة في أول "شرح البخاري" -رحمه الله-، {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ} [سورة الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة فصلت:٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غُذي بما غُذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} يقول الحافظ -رحمه الله-: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} **فمن من المنافقين من يقول:** {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} أي يقول بعضهم لبعض {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} هذا هو المتبادر، ويحتمل أن يكون ذلك موجهاً للمؤمنين، بمعنى أن المنافقين يسألون المؤمنين {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} يقولون ذلك على سبيل التهكم، والاستهزاء، والسخرية، وهذا قال به بعض السلف: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}، وقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: المقصود بـــ"المرض" هنا: مرض الشك، والنفاق، والمرض في القرآن يأتي بمعنى الشك، والنفاق، ويأتي أحياناً مراداً به ضعف الإيمان، وذلك كما في قوله -عز وجل- في سورة الأحزاب -مع أحد المعاني المشهورة-: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[سورة الأحزاب:١٢] فالذين في قلوبهم مرض هناك بعضهم يقول: هذا من عطف الأوصاف فهي عائدة إلى موصوف واحد، هذه أوصاف المنافقين، وبعضهم يقول المراد بـــ{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢] في آية الأحزاب: هم ضعفاء الإيمان، {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} والمقصود بالمرض في هذا الموضع الوحيد في القرآن: هو الميل المحرم إلى النساء،

فالشاهد أن الله -عز وجل- يقول: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا} المقصود به هنا: مرض النفاق والشك {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا} قال: **أي شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم**، وهكذا يمكن أن يقال: زادتهم سوءًا وخبثاً، وهكذا قول من فسره بأن المراد زادتهم إثماً إلى إثمهم، وهذا من باب التفسير باللازم؛ لأنه إذا زادتهم رجساً أي سوءًا وخبثاً، أو زادتهم شكاً أو نحو هذا فإن هذا يلزم منه أن تزيدهم إثماً، وهذه الآيات التي هي هدايات وشفاء لأهل الإيمان لم تجد محلاً قابلاً فأثرت هذا التأثير.

{أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة:١٢٦-١٢٧].

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون {أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ} أي: يختبرون {فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكّرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسَّنَة والجوع.

يعني {يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} قال: **بالسَّنة والجوع** لكن هل هذا حاصل أن المنافقين يفتنون على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- {فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} بالسَّنة والجوع حتى بعدما وسع الله -عز وجل- على المسلمين؟، ومعلوم أن المنافقين أحرص ما يكونون على دنياهم، فهم يشحون بالنفقة، وأحرص ما يكونون على أخذ الغنيمة كما قال الله -عز وجل-: {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} [سورة الأحزاب:١٩] يعني المال، ويقول: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يعني يقولون: أعطونا من الغنيمة، أعطونا من مال الله، فهم بهذه المثابة والله -عز وجل- وصفهم قال: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [سورة المنافقون:٤]؛ لشدة عنايتهم بهذه الأجسام فهم مُترفون لها مُنعِّمون لها، هي غايتهم، ومنتهى مطالبهم، فتفسيره بأنهم يفتنون بالجوع {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} قد لا يخلو من إشكال، وبعضهم قال: إن ذلك يكون بالغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهم يبتلون بهذا وهو أثقل ما يكون عليهم؛ لأنه فيه مشقة {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} [سورة البقرة:٢١٦] وهذا خلاف مقصود المنافق تماماً، وكذلك بما يرون في هذا الغزو من ظهور الإسلام، وعلو المسلمين ويرون من دلائل صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- أشياء، فهذا معنى ذكره بعض أهل العلم، وذكر بعضهم أن هذا الفتْن يكون بما يحصل لهم من العوارض كالمرض الذي لا يخلو منه إنسان، فهو يحصل لهم، وهذه المعاني محتملة، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إنه يجوز أن يكون ذلك بالغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو بالجوع يحصل لهم، شدة تقع أو نحو هذا.

وقوله: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} أي: تَلَفَّتُوا.

يعني بعضهم فسر {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} فسر نظر بمعنى: قال، ولكن هذا على خلاف الظاهر، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} ويحتمل أن يكون هذا النظر يدل على هذا المعنى، يعني ينظرون

نظرة يتساءلون فيها هل يراكم أحد؟ فينسلوا دون أن يشعر بهم، ويحتمل أن يكون هناك تقدير معلوم من السياق {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ}.

{هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا} أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه.

هنا فسر الانصراف بأنه انصراف عن الحق، ولا شك أن هذا حاصل لهم، ولكن الظاهر المتبادر أنهم انصرفوا عن المجلس الذي تتلى فيه هذه الآيات، لاسيما إذا كانت هذه الآيات تتحدث عن أوصاف المنافقين، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} فهذه قرينة تدل على أن انصرافهم هو انصراف عن المجلس وإلا ما نظر بعضهم إلى بعض يتساءلون {هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} فهم يريدون الانسلال من المجلس دون أن يُشعر بهم، فيفسر الانصراف بهذا المعنى، وهو متضمن للانصراف الآخر، فإن انصرافهم عن مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما تنزل الآيات أو تتلى هو انصراف عن قبول الحق، فهم لا يريدون سماعه أصلاً؛ لأن ذلك يشق عليهم ويثقل عليهم.

كما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [سورة المدثر:٤٩-٥١].

كما في الآية التي قبلها {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} بمعنى أنهم لا يتأثرون ولا ينتفعون فتزيدهم رجساً، وهكذا هنا {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون}.

وقوله تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [سورة المعارج:٣٦-٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} كقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف:٥]، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

يعني أنهم جمعوا بين أصلي الضلال: الانصراف عن الحق فلا يقبلون عليه ولا يسمعونه، والأمر الثاني انعدام الفقه والفهم عن الله -تبارك وتعالى-، إذا كان الإنسان لا يسمع الحق أصلاً أو لا يريد سماعه، وإذا سمع فإنه لا يفهم لا يفقه، فمثل هذا متى يسلك الطريق ويعرفها ويتبصر بما ينفعه؟ لا يمكن هذا، إذا كان الإنسان منصرفاً عن الحق، وإذا كان لا يريد سماعه أصلاً فإنه لا يمكن أن يعرفه، وإذا سمعه ولكنه لا فقه له فإنه لا يعرف الحق، فهؤلاء جمعوا بين الإعراض عن الحق وعن سماعه، وبين قلة الفقه، فالأول يدل على سوء قصدهم لا يقصدون الحق ولا يريدونه، والثاني يدل على قلة فهمهم واستيعابهم، فأنّى لهم بمعرفة الحق وتمييزه من الباطل، وقوله: {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} يحتمل أن يكون من قبيل الدعاء عليهم، {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} دعا عليهم بصرف القلوب، وصرف القلوب بمعنى أن تكون صادة عن قبول الحق، فلا تنفذ إليها موعظة، ولا تقبل عن الله -تبارك وتعالى-، يكون القلب منكوساً مصروفاً {جَزَاءً وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦].

والتصدي يعني الإقبال على الشيء مع المناوءة، ليس ذلك بأصل معناه في اللغة كما قال الله -عز وجل-: {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [سورة عبس:٦]، يعني تقبل عليه وتوجه كلامك ودعوتك إليه {تَصَدَّى} فالتصدي هو بمعنى الإقبال عليه الاهتمام به.

وفي الآية السابقة في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} في قراءة حمزة وهي قراءة متواترة بالتاء {أَوَلاَ تَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ}، فيكون الخطاب موجهاً للمؤمنين، وفي بعض القراءات الشاذة {أولا ترى} يعني يا محمد -عليه الصلاة والسلام.

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة التوبة:١٢٨-١٢٩].

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ} [سورة البقرة:١٢٩]**، وقال تعالى:** {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [سورة آل عمران:١٦٤]**، وقال تعالى:** {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} **أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.**

يعني على هذا التفسير الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يكون الخطاب للعرب {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أيها العرب يعني يتكلم بلغتكم، وتعرفونه تعرفون أمانته، ولم يكن خافيا عليكم شأنه، ويحتمل أن يكون الخطاب لعموم الناس كما قال الزجاج، {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي من جنسكم ليس من الملائكة، تفهمون عنه، وتقتدون به، فهذا المعنى تحتمله الآية {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} يعني أيها الناس من البشر، والمعنى المشهور الذي عليه عامة أهل التفسير أنه خطاب للعرب، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة بالعرب، ولكن هذا كما قال الله -عز وجل- على سبيل الامتنان، يمتن على هؤلاء العرب الأميين ببعثه -صلى الله عليه وسلم- منهم، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢] فهو واحد منهم متصف بصفتهم وهي الأمية، يسهل عليهم الأخذ عنه، وفهم خطابه، لم يبعث إليهم فيلسوفاً لا يفهمون ما يقول، ولم يبعث إليهم أعجمياً لا يعرفون لغته، ولم يبعث إليهم ملَكاً لا يستطيعون مخاطبته ومعايشته والاقتداء به.

وقوله: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} **أي: يعز عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمتَه ويشق عليها؛ وفي الصحيح: ((إن هذا الدين يسر))[١]، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.**

{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} يعني العنت الذي يحصل لكم يشق عليه، وهذا العنت ابن جرير -رحمه الله- فسره بالضلال، {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} ولا شك أن الضلال من أعظم العنت الذي يحصل للإنسان، ولكن هنا العنت يشمل كل ما يصدق عليه، فالعنت يشمل ما يحصل للإنسان من المشقة والكلفة غير المعتادة، ولهذا فسره بعضهم بما يحصل من القتل الذي يقع عليهم {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}، وكل عنت يحصل لأهل الإيمان

---

١ - رواه النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر، برقم (٥٠٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٦١).

فذلك يشق على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم فسره بما هو أعم من هذا بمعنى أنه لا يختص بأهل الإيمان، إذا كان الخطاب لعموم الناس لا يختص ذلك بالمؤمنين، {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} ما يحصل لكم من العنت، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: من الضلال فهو رحيم بالناس يحب لهم الهداية والإيمان، ويكره لهم الكفر، وكأن تفسير ابن جرير -رحمه الله- هو من تفسير الشيء بسببه بمعنى أن الضلال الذي يحصل لهؤلاء الناس يكون سبباً لعذابهم، وشقوقهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}.

{حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لم يُحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطَّلِعها منكم مُطَّلِع، ألا وإني آخذ بحُجَزِكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش، أو الذباب))[٢].

وقوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} كما قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} [سورة الشعراء: ٢١٥-٢١٧].

وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة.

{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} هذه للحصر كما هو معلوم؛ لأن تقديم المعمولات على عواملها يفيد هذا المعنى فهنا قدم الجار والمجرور أصل الكلام "رءوف رحيم بالمؤمنين"، قال: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} فهذا يفيد الحصر، والرأفة هي أرق الرحمة، {رَءُوفٌ رَحِيمٌ} مثل ما يقال في الشفقة مع الخوف، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} وهذا يختص بأهل الإيمان كما هو صريح في الآية، وأما مع الكفار فكما وصفه الله -عز وجل- وأصحابَه، {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح:٢٩]، فإذا كان هذا حال أتباعه -عليه الصلاة والسلام- فهو أحق بهذا الوصف، والله -عز وجل- وصف المؤمنين بمثل هذه الأوصاف، ويأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:٧٣، وسورة التحريم:٩]، {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة:١٢٣].

{فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ} أي: الله كافِيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [سورة المزمل:٩].

{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقَدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

هذا على قراءة الجمهور {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} بالكسر فيكون العظيم صفة للعرش، وفي القراءة الأخرى بالرفع (العظيمُ) يكون ذلك عائداً إلى الله -عز وجل-، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٧٠٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن".

فيكون ذلك من صفة العرش، و{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [سورة البروج:١٥] فيكون ذلك من صفة الله -تبارك وتعالى.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن أبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} إلى آخر السورة.

وفي الصحيح أن زيدا قال: فوجدت آخر سورة "براءة" مع خزيمة بن ثابت[٣] -أو: أبي خزيمة- وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

قول أُبيّ بن كعب -رضي الله عنه-: آخر آية نزلت من القرآن، قاله في مناسبة، وذلك أنهم حينما كانوا يجمعون القرآن وكانوا لا يقبلون شيئاً إلا ما جاء عليه شهيدان، وفُسر "الشهيدان" بالكتابة والحفظ كما قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، وقيل: شاهدان يشهدان أن ذلك مما كتب بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد أن هذه الآية {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} هم يطلبون أن يكون هذا مما كتب بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويشهد على ذلك شاهدان، ويطلبون الحفظ والكتابة، والذين يحفظونها كثير لكن طلبوها مكتوبة، والشاهد أن خزيمة بن ثابت الذي جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- شهادته بشهادة رجلين جاء بها فلما أتى بها تذكروها، وهذا على قول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إن ذلك الشرط يعني الذي اشترطوه الحفظ والكتابة أدى إلى أنهم لم يجدوها إلا عند خزيمة بن ثابت، فهنا حديث أُبي بن كعب قاله في هذه المناسبة: إنها آخر ما نزل من القرآن، يعني من سورة براءة، أي أنه لا يقصد بذلك أنها آخر ما نزل من القرآن بإطلاق، وغاية ما هناك أنه لو قصد أنها آخر ما نزل من القرآن فإن هذا يكون من قبيل الاجتهاد، وقد خَلَفَ ما تعلمون: أن المشهور أن آخر ما نزل هي الآيات التي في سورة البقرة آية الربا، وآية الديْن، {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [سورة البقرة:٢٨١] فهذه تكون آخر ما نزل من القرآن من سورة براءة ولهذا جعلوها في آخرها، وخزيمة بن ثابت -رضي الله عنه- غير أبي خزيمة.

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣١٠٣)، وأحمد في المسند بنحوه، برقم (١٧١٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق، ولانقطاعه".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (2)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة يونس(7-8)].

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها نفوسهم، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} من المعاني التي يأتي لها الرجاء الخوف، فحمل على ذلك بعض الآيات كقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} فقال به طائفة من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- {لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} أي: لا يخافون، وفسره بعضهم فقال: {لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}: أي لا يطمعون، أو لا يتوقعون لقاء الله -عز وجل- الذي يجازيهم فيه على كفرهم ومحادّتهم لرسله -عليهم الصلاة والسلام-، ويمكن أن يكون بعض هذه المعاني متضمناً للخوف، فيقال: لا يتوقعون لقاء الله -عز وجل- فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه، وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} حمله ابن كثير على الآيات بنوعيها، الآيات الكونية والآيات الشرعية، أو الآيات المتلوة، فكل ذلك لا يتأملونه ولا يتفكرون فيه فهم غافلون عنه.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة يونس(9-10)].

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم، حتى يَجُوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقوله: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: هذا حال أهل الجنة، وهذه الآية فيها شبه من قوله: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب(44)] **الآية، وقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا**

تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[سورة الواقعة(25-26)]، وقوله: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يـــــس(58)]. وقوله: {وَالمَلآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [سورة الرعد(23)] الآية.

وقوله: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}[سورة الكهف(1)]، {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [سورة الأنعام(1)] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، وفي الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: ((إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس))[1] وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

قوله: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} ذكر المعنيين بسبب إيمانهم، وهذا يحتمله ظاهر اللفظ وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، كما أن المعنى الثاني {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} بحيث يكون ذلك نوراً لهم بقدر هذا الإيمان، وهذا أيضاً تحتمله الآية، ومن هذه الهدايات التي تحصل لأهل الإيمان هو ما يحصل لهم من الهداية إلى الصراط، وقبله يحصل لهم هداية عند سؤال الملكين، ويحصل لهم هداية عند الحساب، ويحصل لهم هداية على الصراط، ومن الهدايات التي تحصل لهم على الصراط أن الله يجعل لهم نوراً يمشون به، ومنها أن الله يهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد(4)]، فهذه من الهدايات التي تكون في الآخرة، فيهديهم ربهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم، وتفسير من فسره بأن الله يجعل لهم نوراً على الصراط، يكون مضمناً في هذا المعنى، قوله -تبارك وتعالى-: {تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} أي: بين أيديهم، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرجلهم وهم فوقها، كما قال الله -عز وجل- لمريم {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} [سورة مريم(24)]، والسَرِيّ هو الجدول الصغير من الماء على أحد المعاني المشهورة التي فسر بها، كما قال الله -عز وجل- عن فرعون: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [سورة الزخرف(51)] يعني: من تحت قصوره وهذا هو المراد -والله أعلم-، فعلى كل حال {تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {دَعْوَاهُمْ} "أي: هذا حال أهل الجنة"، فالدعوى: من أهل العلم من فسرها بالدعاء، {دَعْوَاهُمْ} أي: دعاؤهم فيها {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، وبهذا فسره ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسر الدعاء هنا بالعبادة {دَعْوَاهُمْ} أي: عبادتهم {فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، لا يكلفون بصلاة ولا بصيام ولا بجهاد ولا غير ذلك، وإنما يلهمون التسبيح، ومن أهل العلم من فسر الدعوى {دَعْوَاهُمْ} بالتمني، كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} [سورة يـــــس(57)] يعني يطلبون ويتمنون، ولكن هذا التفسير أبعد من غيره في

---

1 - رواه مسلم من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون، قالوا فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس))، برقم (2835)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا.

هذه الآية، وبعضهم أيضاً فسر {دَعْوَاهُمْ} أي: سيرتهم ودَيْدَنهم {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، والأقرب في معناها -والله أعلم- أن دعواهم أي دعاؤهم، وقوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} التحية: مصدر، والمصدر يمكن أن يكون بمعنى الفاعل، ويمكن أن يكون بمعنى المفعول، بمعنى أن التحية يمكن أن يكون ما يصدر منهم من التحية يُحيُّون غيرهم، ويحتمل أن يكون: ما يُحيَّون به، {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحييهم به الله، ما تحييهم به الملائكة، أو ما يحيي بعضهم بعضاً به، والآية تحتمل هذه المعاني كلها، وقد دل عليها القرآن كما في الآيات التي ذكرها الحافظ -رحمه الله-، وقال: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يـــس(58)] هذا ما يحيون به، {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحيون، يحييهم به الله، والملائكة أيضاً {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [سورة الرعد(23-24)]، فهذه تحية صادرة من الملائكة، فقوله: {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحيي بعضهم بعضاً به.

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة يونس(11)].

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه- لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} الآية، أو لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم)). رواه أبو داود[2]، وهذا كقوله تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} [سورة الإسراء(11)] وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

قال الحافظ -رحمه الله-: "فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم"، فهذا معنى استعجالهم في الآية: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} فهم يستعجلون الخير ويستعجلون الشر، ومن استعجالهم الشر {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال(32)]، ويدخل فيه دعاء الإنسان على نفسه، أو على ولده، أو نحو هذه الأمور، فقوله: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} يعني كما يعجل لهم الخير، وليس استعجالهم بمعنى كما يستعجلون الخير ويطلبون حصوله عن وقت قريب، فهناك فرق بين ما قد يُتوهم من ظاهر الآية وبين

---

2 - هو جزء من حديث طويل عند مسلم برقم (3014)، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ورواه أبو داود واللفظ له برقم (1532)، كتاب الوتر، باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، وصححه ابن حبان في صحيحه (51/13)، برقم (5742)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1371).

المعنى المراد، وإلا فلو كان المقصود استعجالهم أي: كما يستعجلون هم ويطلبون الخير عاجلاً، لكان المعنى غير واضح، فوضْع الاستعجال موضع التعجيل يشعر بسرعة إجابته -سبحانه وتعالى- لما يطلبون، حتى كأن استعجالهم بالخير صار تعجيلاً، والذي عليه عامة أهل اللغة: أن المعنى كتعجيلهم بالخير، {لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} أي: لهلكوا، وقوله: {فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} لا يرجون لقاءنا، يمكن أن يفسر بمعنى الخوف، ويمكن أن يفسر بمعنى التوقع أو الطمع، و{فِي طُغْيَانِهِمْ} أي: في تطاولهم ومحادتهم وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، {يَعْمَهُونَ} أي: يتحيرون في كفرهم وضلالهم وتكبرهم.

{وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة يونس(12)].

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [سورة فصلت(51)] **أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثَرَ الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، {مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} ثم ذم تعالى مَن هذه صفتُه وطريقته فقال: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنىً من ذلك، كقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}** [سورة هود(11)]**، وكقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن إصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن))**[3].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: حمل هذه الآية والتي قبلها على المؤمن والكافر، {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ} لعموم الناس، {الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} فهذا يقع من المؤمنين ويقع من الكافرين في الدعاء على النفس والولد وما أشبه ذلك، وكذلك {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ} هذه طبيعة الإنسان، وهذا يقع من المؤمنين، وذلك لا يختص بالكفار، ومن الآيات ما يكون مختصاً بالكفار، ومنها ما يشمل هؤلاء وهؤلاء، مثل قوله تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء(11)]، شاملة للمسلمين والكفار، وقوله: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق(6-7)]، هذا يشمل هذا وهذا إلا من رحمه الله ولطف به، ومن الآيات ما يكون مراداً بها الكفار، واللام في قوله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ} يحتمل أن تكون للتوقيت، -والأقرب والله أعلم- أنها بمعنى (على)، {دَعَانَا لِجَنبِهِ} أي: على جنبه، ويحتمل أن تكون (أو) في قوله: {دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} بحسب حاله إذا أصابه الضر، وهو قائم أو قاعد دعا بحسب الحال، ويحتمل معنى آخر وهو -الأقرب والله أعلم- أن المراد {دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} أي: في الأحوال كلها يدعو وهو قائم وقاعد، فلا يفتر لسانه من الدعاء والتضرع إلى الله -عز وجل-

---

3 - رواه الإمام مسلم من حديث صهيب -رضي الله عنه- بلفظ: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))، برقم (2999)، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

أن يكشف ما به من ضر، وهذا هو الموافق لحال الإنسان كما لا يخفى، {دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} ولم يذكر أحوالاً أخرى كالسجود والركوع، باعتبار أن هذا هو الغالب، فالإنسان يكون إما قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، وقال: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} مر: يحتمل أن يكون بمعنى مضى، كأن لم يدع كقوله: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ} [سورة الزمر(8)]، يغفل بل لربما لو ذُكّر بالعلة والمرض الذي أقلقه وأزعجه لربما نسيه، ولم يتذكر، فالإنسان تمر عليه أحوال من الضر والبأس، ويحصل له من الانزعاج والقلق والاضطراب الشيء الكثير، ولربما يُذَّكر به بعد سنوات ولا يذكره، ويحتمل أن يكون {مَرَّ} بمعنى استمر على كفره، أو إعراضه أو ضلاله أو معصيته، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} يحتمل أن يكون الشيطان هو المزين، فالشيطان يزين لهم أعمالهم كما أخبر الله -عز وجل- في مواضع متعددة في القرآن، ويحتمل أن يكون المزين النفس الأمارة بالسوء، فهي تزين لصاحبها المنكر {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [سورة يوسف(53)]، ويحتمل أن يكون الذي زين لهم هو الله -عز وجل- {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ} [سورة النمل(4)] أي: أبهمه.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [سورة يونس(13-14)].

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل، فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[4].

وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر -رضي الله تعالى عنهما-: رأيت فيما يرى النائم كأن سبباً دُلِّي من السماء، فانتشط رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أعيد فانتشط أبو بكر، ثم ذرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاثة أذرع حول المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك، قال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أولم تنتهرني؟ قال: ويحك، إني كرهت أن تنعي لخليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نفسه، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ "ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع" قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة، وأما الثانية: فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، قال: فقال: يقول الله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}، فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل، وأما قوله: فإني لا أخاف في الله لومة لائم، فما شاء الله، وأما قوله شهيد: فأنَّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به.

قوله: أما إحداهن فإنه كائن خليفة، هذا الإيضاح والبيان، جاء في نفس الرؤيا.

---

4 - رواه مسلم برقم (2742)، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يونس(15-16)].

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، {أَوْ بَدِّلْهُ} إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي} أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ}.

يقول الحافظ -رحمه الله-: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، {أَوْ بَدِّلْهُ} أي: إلى وضع آخر، {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} بمعنى بقرآن بديل، يعني يبدل بالكلية، لا نريد هذا القرآن الذي بزعمهم يذم آلهتهم ويعيب دينهم ويذْكر الآخرة، {أَوْ بَدِّلْهُ} بمعنى غيّر فيه الأشياء التي لا تروق لهم، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، ويحتمل معنى آخر {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: نريد قرآناً آخر غير هذا، هات معه كتاباً آخر مع بقائه، {أَوْ بَدِّلْهُ} مع ذهاب هذا، يعني يذهب هذا ويأتي آخر بدلاً منه، وهذا تحتمله الآية، والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أقرب في الاحتمال، وقوله: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي} ذكر أحد القسمين ولم يقل: قل ما يكون لي أن آتي بقرآن غير هذا أو أن أبدله من تلقاء نفسي، وهذا باعتبار أن المجيء بقرآن آخر ليس داخلاً تحت قدرته وتصرفه، وإنما يأتي به الله، والتبديل، بمعنى التغيير، وعلى أحد الاحتمالين، تبديل بعض الأشياء فيه هذا يمكن للإنسان أن يفعله، لو كان ذلك جائزاً، فنَفَى الأمر الذي يدخل تحت طوق البشر {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ}، لأن هذا لا يحل لي ولا يجوز، بل إنما يكون ذلك مختصاً بالله -عز وجل- {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ} [سورة النحل(101)]، {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [سورة البقرة(106)]، {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي}، ويحتمل أن يكون ذكر أحد الأمرين باعتبار أنه الأسهل، فيقول: ما يكون لي هذا، فإذا كان ذلك ما يكون له فالأصعب من باب أولى، ذكر أحد القسمين؛ ليدل على نفي الآخر من باب أولى، وكلمة (ما يكون) تأتي أحياناً للامتناع الشرعي، وأحياناً للامتناع العادي، أي: في مجاري العادات، وأحياناً للامتناع العقلي.

ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ} أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله -عز وجل-، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال: {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يونس(16)] أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليَدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه -عليه السلام- بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.

قوله: **{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** في قراءة ابن كثير **{وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** بمعنى ما يكون هذا القرآن موحى به إليّ وإنما يُعلمكم الله -عز وجل- به مباشرة، **{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** يصلكم بغير طريقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس(١٧)].

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله كذباً وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟، فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد -صلى الله عليه وسلم- وبين مسيلمة الكذاب، لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حِندس الظلماء.

فمِن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} أي: لا أحد أظلم، والاستفهام إذا كان مضمناً معنى النفي فإنه يدل على أنه قد بلغ في الظلم غايته، لا أحد أظلم، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [سورة البقرة(١١٤)]، يعني: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} [سورة السجدة(٢٢)] وغير ذلك، فيمكن الجمع بين هذه الآيات {وَمَنْ أَظْلَمُ} بأن أفعل التفضيل تمنع الزيادة ولا تمنع التساوي، فيمكن أن يشترك هؤلاء المذكورون بكونهم قد بلغوا أعلى درجات الظلم، فهي لا تمنع التساوي، كقولك: أشجع الناس زيد، وفي مناسبة أخرى يمكن أن تقول: أشجع الناس عمرو وهكذا، ولا منافاة بين قولك الأول وقولك الثاني باعتبار أن هؤلاء قد بلغوا، لكن لا يزيد أحدهم على الآخر في هذه الصفة، ويمكن الجمع أيضاً بين الآيات بأن يقال: إن هذا يختص في كل مقام بالصفة المذكورة، ففي المفترين لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي المعرضين، لا أحد أظلم ممن ذُكر بآيات ربه ثم أعرض عنها وهكذا، وقوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} الافتراء: هو الاختلاق والكذب، ووجه مجيء لفظة الكذب بعد الافتراء في قوله -عز وجل-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} يمكن أن يكون ذلك للتأكيد كما يقال: الصراط المستقيم، ومعلوم بأن الصراط أصلاً لا يطلق إلا على الطريق المستقيم، فأتى بلفظ المستقيم بعده من باب أنها صفة كاشفة وليست صفة مقيِّدة بخلاف ما إذا قلت: الطريق، فالطريق قد يكون مستقيماً وقد لا يكون مستقيماً، فإذا قلت: الطريق المستقيم، فهذه الصفة أفادت قيداً

في هذا الموصوف، فالشاهد أن قوله: {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} يمكن أن يجاب عنه بمثل هذا الجواب، وهذا لا إشكال فيه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، ويمكن أن يقال: إن الافتراء قد يكون من جهة نسبة الشيء إلى غير من صدر عنه ، فمثلاً تنسب إلى هذا جرم هذا، أما {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} فهذا مختلق من أصله، هكذا يذكر بعض أهل العلم في الجواب عن مثل هذا، وهو لا يحتاج إلى الجواب -والله أعلم-، فقوله: {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} من باب تحقيق هذا الأمر وتقرير هذا الوصف وتأكيده، كما يقول الله -عز وجل-: {وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [سورة آل عمران(١١٢)] ولا يمكن يقتل الأنبياء بحق، ولكن هذا من باب التسجيل عليهم هذا الأمر وبيان شناعة جرمهم، وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [سورة المؤمنون(١١٧)]، فلا يمكن لأحد أن يفهم بمفهوم المخالفة بأن يقول: إن الذي يدعو مع الله إلهاً آخر له به برهان فإنه لا يلحقه حرج.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب.

عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فهو ما رأى معجزة، وإنما بمجرد ما رآه عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب، كذلك حينما سمع كلامه يأمرهم بإطعام الطعام وصلة الأرحام ... إلى آخره، فبهذه الدلائل النبوية عَرف نبوته -صلى الله عليه وسلم-، وآمن به أقوام بناء على هذه الدلائل، وهذا الذي جاء في الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح تسميته بآيات الأنبياء، يقال له: آيات الأنبياء، ومن الآيات ما هو معجز مثل انشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه -عليه الصلاة والسلام-، وما شابه ذلك، ومنها ما ليس بعجز، وكل ذلك داخل في آيات الأنبياء، وقد يسميه بعض المتقدمين بدلائل النبوة، ثم ما كان خارقاً للعادات فيما يقع للأنبياء في عرف المتأخرين يقال له المعجزات، وما يقع لأتباعهم يقال له: كرامات الأولياء، وكل ذلك عائد إلى آيات الأنبياء، وقال هود -عليه الصلاة والسلام- لقومه متحدياً: {إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ} [سورة هود(٥٤-٥٦)] رجل يتحدى أمة، هذا ليس من خوارق العادات، ولا من المعجزات، ولكنه من دلائل النبوة، شدة الوثوق بما عنده من الحق وتيقنه وما أشبه هذا، كل هذه الأمور هي من دلائل النبوة.

فكان أول ما سمعته يقول: ((يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلِوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)) [1]، ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: ((الله))، قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: ((الله))، قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: ((الله))، قال: فبالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: ((اللهم نعم))،

---

١ رواه ابن ماجه برقم (١٣٣٤)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، والترمذي بمعناه برقم (١٨٥٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل إطعام الطعام، وأحمد في المسند (٢٠١/٣٩)، برقم (٢٣٧٨٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٦٥).

ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص"[٢]، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه -صلوات الله وسلامه عليه-، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه.

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم -يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [سورة العصر(١-٢)] إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبْر يا وبْر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفْرٌ نقْرٌ، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب. فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد -صلى الله عليه وسلم- وصدقه، وحال مسيلمة -لعنه الله- وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحِجا؟؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ} [سورة الأنعام(٩٣)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم منه.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة يونس(١٨-١٩)].

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}، وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة؛ ليَهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة.

قال ابن جرير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}: إن معناها أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، كأن هذا من قبيل التفسير باللازم وليس من قبيل التفسير بالمطابق، بما لا يكون: يعني ظاهر الآية، {أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ} يعني بما لا يعلم وجوده ولا وقوعه، هذا المعنى هو التفسير بالمطابق، فابن جرير

---

٢ رواه البخاري برقم (٦٣)، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم.

-رحمه الله- قال: أتخبرونه بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، فالذي لا يعلمه -سبحانه وتعالى- معنى ذلك أنه غير كائن، فمثل هذه القضية لا يمكن أن تحصل وأن تقع، هذا هو المعنى، ولا يحتاج إلى كثير من التكلفات التي يذكرها المتكلمون، ولسنا بحاجة إلى جدل ربما يثير في النفوس سؤالات وإشكالات، الناس في غنى عنها، ومعنى الآية ظاهر جداً ولله الحمد، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة يونس(١٩)]، لم يصرح بالآية لكنه جاء بالمعنى، وفسر {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} بقول ابن عباس -رضي الله عنه-: "**إن الناس كانوا على التوحيد عشرة قرون**"، وهذا أحسن ما تفسر به الآية.

وقوله: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي: على التوحيد فاختلفوا، وليس المعنى كما يقول بعضهم: أنهم كانوا على الفطرة ثم بعد ذلك حصل لهم تغير، أو أن هؤلاء الناس كانوا على دين واحد من الشرك، نشئوا عليه ثم بعد ذلك تفرقوا واختلفوا، فمنهم من غير دينه، ومنهم من وحد الله -عز وجل-، وهذا ليس هو المراد، بعضهم يقول: هذه في قريش {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ} جعلوه على الشرك، وهذا غير صحيح، فالمعنى لعموم الناس، فجنس الناس كلهم كانوا على التوحيد والإيمان، عشرة قرون كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ثم وقع الشرك في قوم نوح فاختلفوا، فعبد بعضهم غير الله -عز وجل-، وبقي آخرون على عبادة الله وتوحيده على الأصل.

وقوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ} الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود؛ لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعدَ المؤمنين وأعنت الكافرين.

وابن كثير -رحمه الله- جمع بين معنيين، وهذا تفسير جيد، ومن السلف من فسر هذه الكلمة بأنه لا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولاً {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء(١٥)] فلم يؤاخذهم الله -عز وجل- بعلمه السابق المتقدم، ولم يؤاخذهم بما وقع منهم حتى يبعث إليهم الرسل، فهذا معنى وهو معنى صحيح، {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} وكذلك أيضاً الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة فإن الله -عز وجل- قد أجل لهم آجالاً وقدر لهم أقداراً فلا بد أن يبلغوا هذه الآجال، فلم يكن مجرد وقوع الكفر منهم سبباً لانقضاء آجالهم وإهلاكهم وإنما وقّتهم إلى وقت معلوم، فابن كثير -رحمه الله- جمع بين هذين المعنيين، أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود، وابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمعنى الثاني: أجّل لهم آجالاً، وما ذكره ابن كثير أوسع في المعنى، وأبلغ، وما ذكره بعض السلف في معناها لا يخرج عن هذا، -والله تعالى أعلم-.

{وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ}[سورة يونس(٢٠)]، **أي: يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} [سورة الفرقان(١٠-١١)]، وكقوله: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا**

{الْأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء(٥٩)] **الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- إلى الجواب عما سألوا {فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ}** أي: **الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور.**

الله -تبارك وتعالى- يعلم ما يُصلحهم وما يحتاجون إليه، ويعلم ما سينزل من الآيات، ويعلم حال الخلق حينما تنزل الآيات، فهؤلاء كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا}**، ثم إن الله -عز وجل- لا يستجيب لهؤلاء الكفار في كل ما طلبوه بحيث يقترحون الآيات، فإن هذا ليس من شأنهم، ولا يحق لهم هذا، فالله -عز وجل- قد أراهم من الآيات والدلائل الدالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ما يكفيهم، وإنما يسألون هذه الآيات ويطلبونها تعنتاً وتكلفاً.

{فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} أي: **إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته -صلى الله عليه وسلم- أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق فلقة من وراء الجبل وفلقة من دونه، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ}** [سورة يونس(٩٦-٩٧)] **الآية، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ}** [سورة الأنعام(١١١)] **الآية، ولما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ}** [سورة الحجر(١٤)] **الآية، وقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا}** [سورة الطور(٤٤)] **الآية، وقال تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}** [سورة الأنعام(٧)]**، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنه لا فائدة في جوابهم؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: {فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}.**

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة يونس(٢١ – ٢٣)].

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك، {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} الآية، وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل -أي مطر- ثم قال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟)) قالوا:

الله ورسوله أعلم، قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب)) [٣].

قوله: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ} "إذا" هذه شرطية، وإذا الثانية في قوله: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} تسمى بالفجائية، يعني بمجرد ما تحصل لهم هذه الرحمة إذا بهم يسارعون إلى الإعراض والتكذيب والطغيان والبطر، كما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق(٦-٧)]، وهذه عادة الإنسان إلا من -رحمه الله- ولطف به، فكان الإنعام باعثاً للشكر ولمزيد من العبودية، وقال: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} فسر المكر بالتكذيب، والمكابرة، والاستهزاء.

وقوله: {قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} [سورة يونس(٢١)]، أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه.

يعني أن الله -عز وجل- يمكر بهؤلاء فيعطيهم ويغدق عليهم النعم، ويدرّ عليهم الأرزاق، وهم يزدادون بطراً وإعراضاً وعتواً على الله -جل جلاله-، فيكون هذا من قبيل الاستدراج، فالله -عزوجل- إذا كان يدرّ الأرزاق ويتابع الإنعام على الإنسان وهو في حال من الإعراض فإن ذلك يكون استدراجاً، {قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} وهذه صفة وصف الله -عز وجل- بها نفسه في مقامات تكون كمالاً، ولكن ذلك لا يضاف إلى الله -عزوجل- على سبيل الإطلاق، وإنما يكون ذلك بقيد هو أن المكر يكون بالماكرين كما يقول بعض أهل العلم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [سورة الأنفال(٣٠)]: إن هذا في المقابلة، أي يكون المكر بهؤلاء الذين يستحقونه، هذا هو المعنى -والله تعالى أعلم-، ولا يلزم أن يأتي ذلك بقيد مكرهم أو في مقابل مكرهم، بعضهم يسمي هذا مشاكلة وهي نوع من المجاز، فهذا غير صحيح، وهكذا ما يقال في الكيد.

والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير، ثم أخبر تعالى أنه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا}، أي: بسرعة سيرهم رافقين.

قوله: {يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} يسيركم في البر على الدواب التي تحملكم من مكان إلى آخر، ويسيركم في البحر على الفلك التي هداكم لصنعها فتنقلكم وتنقل معكم الأثقال إلى أماكن بعيدة لم يكن لكم أن تبلغوها إلا بشق الأنفس.

وقوله: {كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا} ذكر الريح، قال: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} وجاء في عبارات بعض السلف أن الريح تكون للعذاب، وهذا باعتبار الأغلب، وقولهم: كل ريح في القرآن فهي عذاب، هذه على كل حال ليست كلية بمعنى الكلية المعروف، وإنما هي أغلبية، والرياح للرحمة وهي التي تأتي بالمطر، وما أشبه ذلك، وتأتي الريح وتكون لغير العذاب كما في قوله: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}، وهذه الآية على هذه القراءة فيها التفات كما هو ظاهر {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ} هذا للمخاطب، {فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} هذا للغائب، التفت

---

٣ رواه البخاري برقم (٩٩١)، كتاب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [سورة الواقعة(٨٢)]، قال ابن عباس: شكركم، ومسلم برقم (٧١)، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء.

من المخاطب للغائب، وبعض المفسرين يذكر لهذا تعليلات لا تخلو من تكلف، ولكن يبقى الأصل والمعنى العام فيما يتعلق بالالتفات أنه أبلغ، وأن ذلك أدعى لنشاط السامع وتيقظه، ولفت انتباهه، -والله أعلم-.

فبينما هم كذلك {جَاءتْهَا} أي: **تلك السفن** {رِيحٌ عَاصِفٌ} أي: **شديدة،** {وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ} أي: **اغتلم البحر عليهم،** {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} أي: **هلكوا،** {دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: **لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى:** {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء(٦٧)]، **وقال هاهنا:** {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ} أي: **هذه الحال،** {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي **لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى:** {فَلَمَّا أَنجَاهُمْ} أي: **من تلك الورطة،** {إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي: **كأنْ لم يكن من ذلك شيء،** {كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} [سورة يونس(١٢)].

وهذه أيضاً "إذا" فجائية.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم} أي: **إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث:** **((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))** [٤].

وقوله: {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: **إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة،** {ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ} [سورة يونس(٢٣)] أي: **مصيركم ومآلكم،** {فَنُنَبِّئُكُم} أي: **فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.**

في قراءة حفص {مَتَاعَ} **بالنصب،** لكن القراءة الثانية وهي التي اعتمدها ابن كثير -رحمه الله- {مَتَاعُ} بالرفع، وهي متواترة، {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وفسرها بناء على هذا، قال: أي إنما لكم متاعٌ في الحياة الدنيا، هذا على قراءة الرفع، وقيل: إنها خبر، وقيل غير هذا، وقراءة النصب بعضهم يقول: هي مصدر، وقيل: مفعول لأجله، وقيل: منصوبة بنزع الخافض، وقيل غيره هذا.

---

٤ رواه أبو داود برقم (٤٩٠٢)، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، والترمذي برقم (٢٥١١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب أبواب الطهارة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩١٨)، وفي صحيح الجامع برقم (٥٧٠٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٤-٢٥) سورة يونس].

ضرب -تبارك وتعالى- مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أُنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضْب وغير ذلك، {حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا} أي: زينتها الفانية، {وَازَّيَّنَتْ}: أي حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، {وَظَنَّ أَهْلُهَا} الذين زرعوها وغرسوها {أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} أي: يابساً بعد الخضرة والنضارة، {كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ} أي: كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} [(٢٤) سورة يونس]، أي: اختلط بسببه نبات الأرض، واشتبك بعضه ببعض، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ضرب -تبارك وتعالى- مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أُنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضْب وغير ذلك**".

الأبُّ: هو النبت الذي قد تهيأ للرعي وصار متهيئاً للجز، والقضْب: هو النبات الرطب كالبقول ونحو ذلك.

وقد قال الله -عز وجل- عن الحياة الدنيا: **{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}** [(٤٥) سورة الكهف] فبهجة الدنيا كالمطر النازل الذي تخرج الأرض به بهجتها وزينتها فتستهوي الناظرين، ثم ما يلبث عن قريب أن ييبس ويتغير وتتحول خضرته إلى صفرة حتى يصير بعد ذلك هشيماً تذروه الرياح، والله المستعان.

وقوله: **{حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ}** [(٢٤) سورة يونس] الزخرف يقال للذهب كما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الزخرف: **{وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا}** [(٣٣-٣٤) سورة الزخرف]

وهو الذهب، وشبّه ما يخرج من الأرض بألوانه حتى يكون حلة زاهية يكسوها بالزخرف، ومعنى الآية: حتى إذا أخذت الأرض رونقها ولونها الحسن.

وقال قتادة: {كَأَن لَّمْ تَغْنَ} كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ولهذا جاء في الحديث: ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له: هل رأيت خيراً قط، هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا))[1]، وقال تعالى إخباراً عن المهلَكين {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ} [(٦٧-٦٨) سورة هود].

قوله: {تَغْنَ}، أي: كأن لم تنعم، تقول: غنينا بالمكان يعني بقينا أو أقمنا به مدة ثم ارتحلنا عنه، ومن أراد أن يعرف هذا المعنى فليرجع إلى نفسه وينظر إلى أيام الصبا وماذا تمثل له بالنسبة إليه، فهو لا يجد شيئاً من متعها ولذاتها، ولعبها وإنما يجد ما يعانيه في ساعته ويكابده من هموم وآلام ومشقات وكد في طلب العيش، وتلك الأيام تلاشت، وإذا فارق الإنسان الحياة الدنيا ستكون ذكرى قصيرة عابرة كذكرى الطفولة، وإذا كان الإنسان في لحظاتها الأخيرة تكون كأنه ما مر عليه عمر طويل ذاق فيه الحلوة والمرة، وأنس واجتمع بمن يحب، وصار له من ألوان اللذات ما لربما ينسيه ذكر الله -عز وجل- فكل ذلك يتلاشى، وتبقى ذكرى عابرة لا طعم لها، فهذه طبيعة الحياة الدنيا، ولذلك تجد الرجل يكون من أكثر الناس ثروة وغنىً وتمتعاً في الحياة الدنيا، ثم بعد ذلك يتلاشى ويموت، ويوضع في حفرة لربما بجوار أفقر الناس، فلا يُختار له حتى في حفرته من يشاكلونه في الغنى والثروة.

ثم قال تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ} أي: نبيّن الحجج والأدلة **{لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}** [(٤٥) سورة الكهف] **وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.**

وقوله تعالى: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ} الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، فقال: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٥) سورة يونس].

ذكر ابن كثير –رحمه الله- مناسبة قول الله –تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ}، فقال: "**لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات**"

ومعنى قوله: {دَارِ السَّلاَمِ} أي: دار السلامة من الآفات والنقائص والنكبات، بخلاف هذه الحياة الدنيا، فأعظم آفة فيها هو الموت يفسد على أهل النعيم نعيمهم، فهي ليست محلاً للإقامة ولا يشعر الإنسان فيها بالاستقرار،

---

[1] - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صبغ أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة (٤ / ٢١٦٢)، برقم (٢٨٠٧).

ويشعر بأن إقامته مؤقتة مهما سكن من القصور، فمن سكن في شقة صغيرة ومن سكن في قصر واسع يشعرون جميعاً بأن إقامتهم مؤقتة.

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: السلام هو الله، والجنة هي داره، وقال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ}، أي: دار التحية؛ لأن ربهم يحييهم بالسلام: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [(٤٤) سورة الأحزاب]، {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [(٥٨) سورة يـــس]، وتحييهم الملائكة، قال -تبارك وتعالى-: {يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [(٢٣-٢٤) سورة الرعد].

والراجح أن الجنة سميت بدار السلام؛ لأنها سالمة من كل آفة وعيب ونقص، فهي دار السعادة الكاملة واللذة التامة، لا يحصل فيها لون من ألوان الكدر الذي يحصل للناس في الدنيا.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فقال: ((إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها))[2]. رواه ابن جرير.

وعن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى))[3]. قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله: {والله يدعو إلى دار السلام} الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

تدل هذه الأحاديث على أنه يجب على المؤمن ألا يغتر بالحياة الدنيا، وأن يكون إقباله على مستقبله الحقيقي في دار المقامة من النعيم الكامل، ويبتعد عن الفتن التي تجذبه وتستهويه إلى هذه الحياة الدنيا، وقد جاء في حديث أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- عن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[4].

{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٦) سورة يونس]، يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [(٦٠) سورة الرحمن].

---

[2] - رواه الترمذي، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده (٥ / ١٤٥)، برقم (٢٨٦٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة يونس (٢ / ٣٦٩)، برقم (٣٢٩٩).

[3] - رواه أحمد (٣٦ / ٥٢)، برقم (٢١٧٢١)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

[4] - رواه مسلم، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٨ / ٨٩)، برقم (٧١٢٤).

يخبر تعالى أن من أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى في الدار الآخرة، والحسنى هي الجنة.

وقال بعض أهل العلم: الحسنى هي المثوبة الحسنة، وهي وصف لمقدر محذوف، لكن الأصل عدم التقدير، مهما أمكن الاستغناء عن التقدير فهو أولى منه، والقاعدة أن الكلام إذا دار بين الاستقلال والإضمار فالأصل فيه الاستقلال، وأكثر السلف على أن الحسنى هي الجنة.

وقوله: {وَزِيَادَةٌ} هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته.

وقد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا هذه الآية: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى} وقال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو، ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخرجنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم))[٥]، وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

قول ابن كثير -رحمه الله- في الزيادة: "**هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً...**" هذا قول لبعض السلف.

وقال بعض أهل العلم: الحسنى هي لؤلؤة لها أربعة أبواب مجوفة، فقال هنا: ما يعطيهم من هذا النعيم.

قال: "**والرضا عنهم**" يعني الزيادة هي الرضا عن أهل الإيمان لحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا))[٦]، وقال -عز وجل-: **{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [(٧٢) سورة التوبة].

قال: "**وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته**" وهذا القول جمع المعاني التي ذكرها السلف،

---

[5] - رواه أحمد (٣١ / ٢٧٠)، برقم (١٨٩٤١).

[6] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا (٤ /٢١٧٦)، برقم (٢٨٢٩).

وهو وجه حسن من التفسير، لكن الذي عليه كثير من علماء أهل السنة أن الزيادة المراد بها النظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى- لأن الله عطف الزيادة على الجنة، والنعيم والقصر المجوف من لؤلؤ كله من الجنة، فدل على أن الزيادة أمر زائد على نعيم الجنة، ويدل على هذا المعنى ما ورد من تفسير النبي –صلى الله عليه وسلم- للزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ} [(٢٦) سورة يونس] أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة.

{وَلاَ ذِلَّةٌ} [(٢٦) سورة يونس]، أي: هوان وصغار، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [(١١) سورة الإنسان]، أي: نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

قوله: **{وَلاَ يَرْهَقُ}** أي: لا يلحق، وقال بعضهم: **{وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ}** أي: لا يغشى وجوههم.

وقال ابن كثير –رحمه الله- في القَتَر: "أي: **القتام والسواد**" وبعضهم فسر القتم بالكآبة، وفسره البعض: بدخان النار، والأقرب –والله أعلم- في معنى قوله: **{وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ}** أي: سواد يعلوها.

وقول ابن كثير: "**في عرصات المحشر**" يعني أن الكفار والمجرمين يحشرون ويعرضون على النار تغشاهم الكآبة، ويكونون في حال من الخشوع، كما قال –تبارك وتعالى-: **{خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ}** [(٤٥) سورة الشورى]، وقال –سبحانه-: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران].

قوله: {وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٧) سورة يونس].

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، {وَتَرْهَقُهُمْ} أي: تعتريهم وتعلوهم، {ذِلَّةٌ} من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} [(٤٥) سورة الشورى] الآية، وقال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [(٤٢-٤٣) سورة إبراهيم] الآيات.

وقوله: {مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ} [(٢٧) سورة يونس]، أي: مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب، كقوله تعالى: {يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [(١٠ - ١٢) سورة القيامة].

قوله: **{مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ}** [(٢٧) سورة يونس] يعني: يعصمهم من الله، ويحول بينهم وبين عذابه وأخذه، ومن أهل العلم من قال: من عاصم يجعله الله -عز وجل- لهم، وهذا غير صحيح.

وقوله: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ} [(٢٧) سورة يونس] الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران

، **وقوله تعالى:** {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ *وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} [(٣٨-٤٠) سورة عبس] **الآية.**

قوله: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [(٢٧) سورة يونس] القِطع جمع قطعة، والمقصود: شدة الظلمة والسواد.

(سؤال) قوله –تبارك وتعالى- في سورة النساء: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ} [(٨٩) سورة النساء]، وقال في الآية التي بعدها: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ} [(٩١) سورة النساء] فهل هناك فرق في المعنى؟ وهل هناك كتب توضح مثل هذه الأمور؟

(الجواب): الأصل أن المعنى واحد ولكن الثَّقف أخص من مطلق الظفر بالشيء؛ لأن الثقف هو الإدراك بحذق، تقول: غلام ثقف أي: حاذق.

وهناك كتب تعتني بالمتشابه اللفظي، مثل كتاب "ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، وكتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، وكتاب "البرهان" للكرماني، وكتاب "فتح الرحمن كشف ما يلتبس في القرآن" لزكريا الأنصاري .

(سؤال) هل كل نبي ورد ذكره في القرآن رسول؟

(الجواب) هذا كلام فيه نظر، ولا أعلم قاعدة تدل على هذا المعنى، وبعضهم فرق بين النبي والرسول فقال: من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه فهو رسول، ومن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي، ولكن هذا التفريق غير صحيح؛ لأن الله أخذ على أهل العلم وأهل الكتاب البلاغ والبيان.

وقال بعضهم: من أنزل عليه شريعة مستقلة فهو رسول ومن لم ينزل عليه فليس برسول، وهذا لا يخلو من إشكال، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- ما نزلت عليه شريعة مستقلة، ومع ذلك فهو رسول، قال الله عنه {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}[سورة يونس(٢٨ - ٣٠)].

يقول تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ} أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٧)].

{ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [سورة يـــس(٥٩)]، وقوله: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم(١٤)]، وفي الآية الأخرى: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [سورة الروم(٤٣)]، أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء، ولهذا قبل ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: ((نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس))[1].

كَوم بفتح الكاف أي: المكان المرتفع النشاز.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: {مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} [سورة مريم(٨٢)] الآية، وقوله: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ} [سورة البقرة(١٦٦)]، وقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً} [سورة الأحقاف(٥-٦)] الآية، وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم {فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه أحمد في المسند (٢٣/٦٤)، برقم (١٤٧٢١)، وقال محققوه: حديث صحيح، واللفظ له، ومسلم بمعناه برقم (١٩١)، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٢٥٠)، برقم (٢٧٥١).

فيقول الحافظ رحمه الله- في قوله: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} "أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر"، وهذا هو أقرب المعاني، أن الله يحشر الأولين والآخرين ويجمعهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[سورة الكهف(٤٧)]، وقال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود(١٠٣)]، ومن أهل العلم من فسر ذلك بمعنى تحتمله الآية، وهو أنه يحشرهم جميعاً -العباد والمعبودين- ويوجه إليهم هذا الخطاب {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} يعني يحشرهم وما يعبدون من دون الله، وهذا أيضاً دل عليه القرآن، والآية إذا كانت تحتمل معانيَ دل عليها القرآن أو السنة -دل على كل واحد منها- فإن الآية تحمل على هذه المعاني جميعاً، فالله -عز وجل- أخبر في القرآن أنه يحشر الأولين والآخرين ولا يغادر منهم أحداً، وأخبر أيضاً أنه يحشر الناس وما يعبدون من دون الله، والآية تحتمل معنىً ثالثاً وهو أن المراد {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} أي: أن الله يبعثهم من قبورهم، ويجمع ما تفرق من أبدانهم في التراب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً))[2]، فترجع إليهم أبعاضهم وأجزاؤهم التي ذهبت في الدنيا، وتفرقت في التراب، وهذه الأمور كلها حاصلة، والله -عز وجل- على كل شيء قدير، {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} مكانكم أي: الزموا مكانكم، {أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} الشركاء: هم جعلوا هذه المعبودات شركاء لله -عز وجل-، فأضاف هؤلاء الشركاء إليهم {أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} ووجه ذلك يمكن أن يقال والله تعالى أعلم: إنهم جعلوا هؤلاء شركاء لهم في أموالهم، {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ} [سورة الأنعام(١٣٦)] فأضاف الشركاء إليهم والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويمكن أن يكون ذلك باعتبار: أنهم شركاء لهم في هذا الخطاب وهذا أضعف من الأول، {نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} نبعث العباد والمعبودين، أو يبعث العابدين والمعبودين، ويقول لهم: {مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ}، ثم يفصل بينهم ويفرق بينهم كما قال الله تعالى: {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} المزايلة: هي المفارقة، {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: فصلنا وفرقنا بينهم، فيسأل هؤلاء ويسأل هؤلاء، فيوجه الخطاب إلى المعبودين، ويتبرءون من هؤلاء الذين عبدوهم {وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، بعض أهل العلم نظر إلى هذا المعنى وأنهم قالوا: {إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} فقال: هذا في مثل عيسى -صلى الله عليه وسلم- وعزير والملائكة ومن عُبد من دون الله من الصالحين، فهم يتبرءون منهم ويقولون: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، وكنا عن عبادتكم غافلين أصلاً، ومن أهل العلم من حمل هذا على الجمادات من الأوثان والأصنام التي لا تشعر بعبادتهم إياها، ومنهم من جعل ذلك عاماً حتى فيمن عُبد وهو راضٍ، إذا رأى هول ذلك اليوم فإنه يتبرأ منهم، وقوله: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} أي: لم نأمركم بذلك، لكن قوله: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} ليس بمعنى لم نأمركم بذلك، ويمكن أن يقصدوا بـــ {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} أنهم كانوا يعبدون الجن مثلاً أو يعبدون الشيطان، ومعلوم أن العرب كانوا يعبدون الأوثان من دون الله -عز وجل- التي ربما خاطبتهم أو سمعوا منها كلاماً، وذلك أن هذه الأصنام والأوثان يوجد معها من الشياطين ما يضللهم، وهذا يحصل من أجل فتْن الناس، وقد حصل عند

---

٢ - رواه مسلم برقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

قطع العزَّى، لما أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليها خالد بن الوليد وهي بيت على سمرات، فقطع السمرات، ثم رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه ما فعل شيئاً، فرجع وإذا بامرأة سوداء ناشرة شعرها تدعوا بالويل والثبور فعلاها بالسيف، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أخبره بذلك قال: ((تلك العزى))[3]، فهذه امرأة شيطانة كانت تضلل الناس، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي: ما كنا نشعر بها، ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، معنى ذلك أن ابن كثير حمل المعنى على العموم، كل من عُبد من دون الله -عز وجل-، سواء كان راضياً أو لم يكن راضياً فهو داخل في هذا الخطاب، بمعنى أنهم يتبرءون منهم ومن عبادتهم.

وقال تعالى: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ} أي: في موقف الحساب يوم القيامة تَختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير أو شر.

قوله: {تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ} تَختبر، وكثير من الناس يظن أنه في الدنيا على الجادة، وأنه على شيء، ويعيش في أوهام واسعة كبيرة، فيوم القيامة تعرف وتدرك وتختبر كل نفس ما أسلفت، يعرف عمله وأنه كان مضيعاً ومفرطاً وضالاً عن سواء الصراط، وفي قراءة حمزة والكسائي {تَتْلُو} أي: تتبع، {كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ}، تتلو على هذه القراءة المتواترة الأخرى {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ} فسره بعض أهل العلم بأنها تتلو كتاب العمل {اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء(14)]، {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ}، ويحتمل أنه يتبع ما أسلف من عمل، وقيل: {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ} أي: تعاين، والقراءتان كل قراءة لها معنى، وإذا كانت القراءتان لكل واحدة منهما معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فقراءة {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ} أي: تتبع، وقراءة {تَبْلُو} أي: تختبر، وبين المعنيين نوع ملازمة وارتباط؛ وذلك أن الإنسان في يوم القيامة يتجلى ويتبيّن له حاله التي كان عليها ويعرف حقيقة عمله، وتضييعه وتفريطه، فإذا عرف ذلك وانكشف عنه الغطاء فإنه يتبع عمله ويقرأ كتابه.

كقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[سورة الطارق(9)]، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة(13)]، وقال تعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء(13-14)].

وقوله: {وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ}[سورة يونس(30)] أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، {وَضَلَّ عَنْهُم} أي: ذهب عن المشركين {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[سورة يونس(31-33)].

3- رواه النسائي في السنن الكبرى (6/474)، برقم (11547)، وأبو يعلى في مسنده (2/196)، برقم (902)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح، وانظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (2/146).

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته، فقال تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته، ومشيئته فيخرج منها حبا {وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً}، {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّه}، {فَسَيَقُولُونَ اللّهُ}، {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} [سورة الملك(٢١)]، وقوله: {أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ} [سورة يونس(٣١)] أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}[سورة الملك(٢٣)] الآية، وقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ}[سورة الأنعام(٤٦)] الآية، وقوله: {وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ} أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقوله: {وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ} أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}[سورة الرحمن(٢٩)]، فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه، {فَسَيَقُولُونَ اللّهُ} أي: وهم يعلمون ذلك ويعترفون به: {فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟، وقوله: {فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ} الآية أي: فهذا الذي اعترفتم أنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ} أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له، {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء، وقوله: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ} الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة الزمر(٧١)].

{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة يونس(٣٤-٣٦)].

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره وعبدوا من الأصنام والأنداد، {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشئ ما فيها من الخلائق، ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ {قُلِ اللّهُ} هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟! {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال وإنما يهدي الحيارى والضُّلالَ ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد اللهُ الذي لا إله إلا هو، {أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى} أي: أفيَتبِع العبدُ الذي يهدي إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه؟، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم -عليه السلام-

أنه قال: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} [سورة مريم(٤٢)]، وقال لقومه: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات(٩٥-٩٦)] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي: فما بالكم أن يُذهَب بعقولكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، {إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس(٣٧-٤٠)].

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ} أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، {وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليه ومبيناً لما وقع فيه من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقّاً لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيْناً: "إن هذا من عند محمد"، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [سورة الإسراء(٨٨)]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[سورة هود(١٣)]، ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ

وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ} [سورة البقرة(٢٤)] **الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى -عليه السلام- لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى -عليه السلام- بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان هذا الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً))[٤].**

وقوله: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم السالفة، {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، {وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} بل يموت على ذلك ويبعث عليه، {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كُلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} {أَمْ}** هذه منقطعة بمعنى بل، وقوله -تبارك وتعالى-: **{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}**، يقول الحافظ -رحمه الله-: "يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه"، وقال في قوله: **{وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}**: "أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق"، والتأويل يأتي بمعنى التفسير، وبمعنى ما يئول الشيء إليه، فتأويل الخبر وقوع المخبر به، وتأويل الأمر فعل المأمور، فنصوص الوعيد التي جاءت في القرآن وما يذكره الله -عز وجل- من الحساب والجزاء وبعث الأجساد وما أشبه هذا، إذا حصل فهو تأويل ما أخبر عنه القرآن، كما قال الله -عز وجل-: **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا}**[سورة الأعراف(٥٣)] أي: يحصل حينما يتحقق ما أخبر عنه القرآن من وقوع الجزاء والحساب والقيامة، وما أخبر الله عنه في هذا القرآن من الوجل والأهوال والأمور العظام عند ذلك يقول الذين نسوه من قبل، أي: تركوه، وأعرضوا عنه، **{قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا}** فنتخلص مما نحن فيه، **{أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}** فيمكن أن يفسر التأويل بهذا المعنى،

٤- رواه البخاري برقم (٤٦٩٦)، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، ومسلم برقم (١٥٢)، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} "أي: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع به، ومنهم من لا يؤمن بك"، ومن أهل العلم من فسره بمعنى آخر، {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} يعني يعلم أنه حق، ولكنه يجحد ذلك عتواً وإعراضاً وتكبراً وعناداً، {وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} هو لا يصدق أنه من عند الله، وبعضهم يقول: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} أي: يؤمن به أي في المستقبل، ولا حاجة لهذا التفسير، وبعضهم حمل الضمير في الموضعين على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبين المعنيين ملازمة، فالذين يؤمنون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يؤمنون بما جاء به وهو القرآن، والذين يؤمنون بالقرآن لا شك أن هذا يقتضي أنهم يؤمنون بالرسول -عليه الصلاة والسلام-، والسياق أقرب إلى أن ذلك يراد به القرآن.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[سورة يونس(٤١-٤٤)].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم {فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [سورة الكافرون(١ - ٢)] إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل -عليه السلام- وأتباعُه لقومهم المشركين: {إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} [سورة الممتحنة(٤)] الآية.

وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم -وهو الأطرش-، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله.

{وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الواضحة على نبوتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا}[سورة الفرقان(٤١)] الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى، وبصّر به من العمى وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، وفي الحديث عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)) إلى أن قال في آخره: ((يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[1]. رواه مسلم بطوله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه الإمام مسلم برقم (٢٥٧٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} جاء بفعل الاستماع بصيغة الجمع {يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ}، وفي الموضع الآخر في النظر قال: {وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} بالإفراد، فالفعل يستمعون روعي فيه معنى مَن، فإن {مَّن} اسم موصول، وهو من صيغ العموم، فهو وإن كان في ظاهره الإفراد إلا أنه بمعنى الجمع، وأتى الفعل {ينظر} بالإفراد في قوله: {وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ}، روعي فيه أيضاً لفظ {مَن}، وهذا كثير في القرآن، تارة يراعى المعنى، وتارة يراعى اللفظ، مثل هاتين الآيتين، وأتى بالجمع في يستمعون، والإفراد في ينظر، باعتبار أن السمع أشمل، وأن الذين يستمعون أكثر من الذين يشاهدون؛ لأن الذين يشاهدون قد يحيطون به ومَن وراءهم لا يرى، أما السمع فإن الإنسان يسمع ما لا يبصر، والله أعلم.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}[سورة يونس(٤٥)].

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ} الآية، كقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ} [سورة الأحقاف(٣٥)]، وكقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات(٤٦)]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طـه(١٠٢-١٠٤)]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}[سورة الروم(٥٥)] الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[سورة المؤمنون(١١٢ - ١١٤)]، وقوله: {يَتَعَارَفُونَ} أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ} [سورة المؤمنون(١٠١)] الآية، وقال تعالى: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً} [سورة المعارج(١٠)] الآيات.

وقوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}[سورة يونس(٤٥)]، كقوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات(١٥)] لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الزمر(١٥)] ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

قوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ} يحتمل أن يكون ذلك في البرزخ، ويحتمل أن يكون في الدنيا، وبقاء الناس في البرزخ حتى يخرجوا من قبورهم يكون ذلك البقاء كأنه مدة يسيرة -والله تعالى أعلم-، ومما يدل على هذا قصة الرجل الذي قبضه الله –جل وعلا- ومعه حماره وطعامه كما قص الله -عز وجل-: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة(٢٥٩)]، فالله أماته مائة عام ثم بعثه، قال: {كَمْ لَبِثْت قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} هو لا يقصد أنه لبث في الدنيا، وإنما بعد موته، وأصحاب الكهف بقوا ثلاثمائة وتسع سنوات فلما استيقظوا سأل بعضهم بعضاً {كَمْ لَبِثْتُمْ}، فقالوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، فالبقاء في البرزخ إذا قام الإنسان منه يتراءى له أنه مدة يسيرة جداً، وقد يكون بقي في هذا البرزخ آلاف السنين، وهكذا مدة الحياة التي قضاها الإنسان تكون بالنسبة إليه قصيرة حينما يقوم من قبره؛ كأنها حلم مر به ثم انقضى، فالإنسان ما يذكره من أيامه ومتعه ولذاته، كأنه شيء يسير مر عليه ثم انتهى، فمن السلف

من قال: إن هذه الآية {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ} في البرزخ، والمشهور أن المراد بها الحياة الدنيا -والله أعلم-، وإن كان لا يمتنع أن يكون المراد بها البرزخ، فليست بمصرِّحة أن المراد الحياة الدنيا، لكن كأن الذي تدل عليه دلالة أظهر وأقرب أن المقصود البقاء في الحياة الدنيا، فقال: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، وكما في الآيات التي أوردها المصنف -رحمه الله- {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، {يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} وهذا لا يعارض الآيات الأخرى كقوله: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}، وكذلك {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} ولا منافاة في هذا فبعضهم يذكر أنه لبث مدة ساعة، وبعضهم يزيد وبعضهم ينقص، فهذه أقوالهم، فقوله: {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يكون هذا من تلك الساعة من النهار في الدنيا، أي: كأن مكثهم في الدنيا هذا المكث القصير كأنه ساعة تعارفوا فيها ثم انقضت، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والذي عليه عامة المفسرين أن المراد بذلك في الآخرة {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، منهم من يفهم أنهم إذا قاموا من قبورهم يحصل بينهم التعارف، وحاولوا أن يجمعوا بين هذه الآية على هذا المعنى وبين آيات أخرى كقوله: {وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة المؤمنون(١٠١)] أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، والآيات التي تدل على أن كل إنسان مشغول بنفسه، وكقوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} [سورة عبس(٣٤)] إلى آخره، فقالوا: إن القيامة يوم طويل، فحينما يقومون من قبورهم يحصل بينهم هذا التعارف، ثم بعد ذلك يشتغل كل أحد بنفسه، وعامة أهل العلم يقولون: إن قوله: {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} يعني أن بعضهم يعرف بعضاً، يعرف أقاربه ولكنه في شغل، {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ *وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} [سورة المعارج(١١-١٣)]، فربما يأتي الوالد إلى ولده ويطلب منه حسنة، فتتقطع بينهم العلائق والوشائج والروابط التي كانت في الدنيا، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ}، والذين كان بينهم المؤاخاة والمحبة والمودة في الحياة الدنيا على غير طاعة الله -عز وجل-، تكون حالهم كما أخبر الله -تبارك وتعالى-: {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف(٦٧)]، فهؤلاء يعرفون بعضاً، لكن تتحول مؤاخاتهم إلى عداوة، والمشهور أن هذا التعارف المقصود به أنه يراه كما قال الله -عز وجل-: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [سورة المعارج(١١)] هو يراه ويعرفه ولكنه ينشغل عنهم بنفسه ونجاته -والله تعالى أعلم-.

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[سورة يونس(٤٦-٤٧)].

يقول تعالى مخاطباً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، أو نتوفينك فإلينا مرجعهم، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ} قال مجاهد: يعني يوم القيامة {قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ} الآية، كقوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [سورة الزمر(٦٩)] الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمّة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم،

ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق))[٢] فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم} يحتمل أن يكون هذا في الدنيا، يدعوهم إلى الإيمان، ثم بعد ذلك يقضي الله -عز وجل- بينه وبين قومه، ويحتمل أن يكون ذلك في الآخرة، وهذا هو الأقرب الذي دل عليه ظاهر القرآن، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} [سورة الزمر(٦٩)]، فالأنبياء يأتون وكل نبي يأتي إلى قومه يوم القيامة، ثم يشهد الشهداء، ويحكم الله -عز وجل- بين هؤلاء، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ويحتمل المعنى الآخر في قول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}[سورة المائدة(١١٧)]، فهذا في الدنيا، والله -عز وجل- يسأله يوم القيامة: {أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} [سورة المائدة(١١٦)]، وكذلك يقول الله -تبارك وتعالى-: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ}[سورة الأعراف(٦-٧)] فكل هذا يوم القيامة، فيسأل الرسل عن أقوامهم، يُسألون عن البلاغ، ويُسأل هؤلاء الأقوام عن الإجابة {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص(٦٥)]، ويوم يناديهم بهذا النداء ويسألهم هذا السؤال {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء} [سورة القصص(٦٦)]، -والله تعالى أعلم-.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ* أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [سورة يونس(٤٨-٥٢)].

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [سورة الشورى(١٨)] أي: كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- إلى جوابهم فقال: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا} [سورة يونس(٤٩)] الآية، لا أقول إلا ما علَّمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم {فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة يونس(٤٩)] كقوله: {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا} [سورة المنافقون(١١)] الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: {قُلْ

٢- رواه البخاري برقم (٨٣٦)، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، ومسلم برقم (٨٥٥)، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، بدون زياة: ((المقضي لهم قبل الخلائق))، فهي عند مسلم برقم (٨٥٦)، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، ولفظ الحديث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق)).

{أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [سورة يونس(٥٠)] أي: ليلاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة يونس(٥١)] يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}[سورة السجدة(١٢)] الآية، وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر(٨٤-٨٥)].

{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ}[سورة يونس(٥٢)] أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور (١٣ - ١٦)].

{وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[سورة يونس(٥٣-٥٤)].

يقول تعالى: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي: ليست صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فـ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة يـــس(٨٢)]، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سورة سبأ(٣)]، وفي التغابن {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة التغابن(٧)]، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ} أي: بالحق، {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}.

قوله: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} هذا على سبيل الاستهزاء والسخرية والتهكم بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون المراد القرآن، ويحتمل أن يكون المراد البعث والآخرة، وقول من قال: إنه العذاب، يدخل في هذا، {أَحَقٌّ هُوَ} أحق قيام الساعة، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- أن السؤال عن هذا وليس عن القرآن؛ لأن الله -عز وجل- ذكر قبله ما يتعلق بالبعث والساعة، {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وبعد ذلك جاءت هذه الآية: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ}، وكذلك ما بعده من قوله: {وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ}، كل هذا في البعث والآخرة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ}، يحتمل أن يكون الذين أسروا الندامة هم عموم المكذبين بالبعث، أسروا الندامة من أجل أن لا يشمت بهم أهل الإيمان، فلا زال عندهم شيء من الجلد، وفي نفوسهم شيء من الأنفة، أسروا الندامة، رأوا الحقائق وشاهدوا وعاينوا تلك الغيوب التي أخبرهم عنها القرآن، رأوها عالماً مشهوداً، فعرفوا ما كانوا فيه من الباطل والمكابرة فأسروا الندامة، ويحتمل أن يكون المراد كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ} هنا ما ذَكَرَ مَن الذين أسروا الندامة، وقال كثير من المفسرين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-: {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ} يعني أسرها الرؤساء عن الأتباع، فهم الذين أضلوهم وأغووهم وقالوا لهم: هذا كذب، ولا يمكن أن يكون، فلما رأى

الأتباع الحقائق أسقط في أيديهم، فأسرّ هؤلاء الرؤساء الندامة كأنهم تخوفوا من الأتباع أن يعنفوهم، وهذا يحصل كما في قوله تعالى: {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا} [سورة الأعراف(٣٨)]، و{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا}[سورة البقرة(١٦٧)]، و{هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا} وهكذا.

{وَقُضِيَ بَيْنَهُم} يحتمل أن يكون المعنى وقضي بين هؤلاء الناس، ويحتمل أن يكن المراد وقضي بين الرؤساء والأتباع كما قال الله -عز وجل- حينما يدخلون النار: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ}[سورة غافر(٤٧)]، فيحصل بينهم جدل ومحاجة، أولئك الرؤساء يقولون: {إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [سورة غافر(٤٨)].

{أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[سورة يونس(٥٥-٥٦)] **يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.**

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس(٥٧-٥٨)].

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} **أي: زاجر عن الفواحش،** {وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ} **أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس،** {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} **أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى:** {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [سورة الإسراء(٨٢)]، **وقوله:** {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء} [سورة فصلت(٤٤)] **الآية، وقوله تعالى:** {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ} **أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به،** {هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} **أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.**

قوله: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ} فضله: بعضهم فسره بالإسلام، وأن الرحمة هي القرآن، يعني {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ} أي ما أنزل عليهم من هذا القرآن، وما أعلمهم الله -عز وجل- على يد نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فمن السلف من فسر الفضل بهذا، والرحمة بالقرآن، ومنهم من عكس، فقال: {بِفَضْلِ اللّهِ} يعني بالقرآن، والرحمة يعني الإسلام، وابن القيم -رحمه الله- جمع بين هذه المعاني {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ} بفضله وبرحمته بما أنزل من القرآن وهدى إلى الإسلام، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم، وهو كتاب الله الذي يبين فيه عن الإسلام، فمن اتبعه فهذا هو الإسلام، ولا منافاة بين المعنيين، {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ}، هذا هو الفرح المطلوب الذي يحبه الله -عز وجل-، {هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} أي: من حطام الدنيا وزهرتها الفانية، يعني يفرحون بالإسلام ويفرحون بالقرآن وبتعلمه والاشتغال به، هذا الذي يُفرح به، وليس العقارات والأموال والتجارات والمكاسب الدنيوية الحقيرة، وإنما هذا الذي ينبغي أن يُشتغل به، وأن تعقد عليه الخناصر.

فائدة من كتاب أضواء البيان للإمام الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} [سورة المؤمنون(١١٢-١١٣)] قال الشنقيطي -رحمه الله-:

في هذه الآية سؤال معروف وهو أنهم لما سئلوا يوم القيامة عن قدر مدة لبثهم في الأرض في الدنيا، أجابوا بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم مع أنه قد دلت آيات أخر على أنهم أجابوا بغير هذا الجواب، كقوله تعالى: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}[سورة طــه(١٠٣)]، والعشر أكثر من يوم أو بعضه، وكقوله تعال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [سورة الروم(٥٥)]، والساعة أقل من يوم أو بعضه، وقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات(٤٦)]، وقوله: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، وقوله تعالى: {لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الأحقاف(٣٥)] وقد بيّنا الجواب عن هذا السؤال في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية بما حاصله: أن بعضهم يقول: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} ويقول بعض آخر منهم: لبثنا ساعة، ويقول بعض آخر منهم: لبثنا عشراً، والدليل على هذا الجواب من القرآن أنه تعالى بيّن أن أقواهم إدراكاً وأرجحهم عقلاً وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، وذلك في قوله تعالى: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طــه(١٠٣ -١٠٤)] فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال، والعلم عند الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} [سورة يونس(٥٩-٦٠)].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يُحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايا، كقوله تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} [سورة الأنعام(١٣٦)] **الآيات.**

وروى الإمام أحمد عن مالك بن نضلة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا رثُّ الهيئة، فقال: ((هل لك مال؟)) قلت: نعم، قال: ((من أي المال؟))، قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: ((إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ عليك))، قال: ((هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر، وتشق جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟))، قال: نعم، قال: ((فإنّ ما آتاك الله لك حل، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك))[1] وذكر تمام الحديث، وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم الله بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: {وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، قلت: ويحتمل أن يكون المراد {لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه أحمد في المسند (٢٢٣/٢٥)، برقم (١٥٨٨٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، بلفظ: ((أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا قشف الهيئة... الحديث))، والحاكم في المستدرك (٢٠١/٤)، برقم (٧٣٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/١٩)، برقم (٦٠٨).

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً} هذا الاستفهام يفيد الإنكار، وإنزال الرزق، يعني الرزق الذي جعلوا منه حراماً وحلالاً، كما ورد في هذا الحديث، وما ورد في سورة الأنعام {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ} [سورة الأنعام(١٣٨)]، فما يفعلونه في حروثهم، وزروعهم وأنعامهم من ترهات الجاهلية في التحريم والتحليل بغير برهان من الله -تبارك وتعالى- فهو داخل في هذا، فقوله: {مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ} إنزال الرزق باعتبار أن خزائن الرزق بيد الله -تبارك وتعالى-، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء} [سورة الشورى(٢٧)]، فهو الذي ينزل الرزق، ولا إشكال في الحرث والأنعام والتعبير عنهما بالنزول، فأصل هذه المادة النزول من أعلى إلى أسفل، حتى إن بعض أهل العلم قال في قول الله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد(٢٥)]: نزل من السماء، وكذا في قوله: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر(٦)]، إما باعتبار أن الله أنزل أصلها من السماء، أو باعتبار أن ذكورها تنزو على إناثها، أو باعتبار أن المولود حينما يقع منها على الأرض، وهذا كله فيه معنى النزول.

فخزائن الأرزاق كلها بيد الله -عز وجل- كما في قوله: {وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء} [سورة الشورى(٢٧)]، ومن أهل العلم من يقول: إن الله ينزل الغيث فتحيا به الأرض ويرعاه الحيوان.

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}

[سورة يونس(٦١)].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض {وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، كقوله: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[سورة الأنعام(٥٩)]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [سورة الأنعام(٣٨)] الآية، وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[سورة هود(٦)] الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [سورة الشعراء(٢١٧-٢١٩)] ولهذا قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [سورة يونس(٦١)] أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال

-صلى الله عليه وسلم- لما سأله جبريل -عليه السلام- عن الإحسان: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٢].

قوله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ} الضمير في {مِنْهُ} يحتمل أن يرجع إلى الشأن، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ} باعتبار أنه أقرب مذكور، وهو الوحيد في اللفظ الذي يمكن أن يرجع إليه الضمير بالنظر إلى الألفاظ المعبر بها، وبهذا قال بعض أئمة اللغة كالزجّاج، وأحسن من هذا -والله تعالى أعلم-: أنه يرجع إلى معلوم من السياق وإن لم يكن مصرحاً به، وهو الكتاب، فالضمير أحياناً يرجع إلى ما يفهم من السياق، وإن لم يرد له ذكر، وهذا كثير في القرآن كقول الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر(١)] فالضمير يرجع إلى القرآن، ولم يسبق له ذكر، فالضمير في قوله: {مِنْهُ} أي: من الكتاب، فقوله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ} يعني: من الكتاب، وما تتلو من آي، ما تقرأ من القرآن {إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والخطاب في قوله: {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} يحتمل أن يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأمته تبع له في ذلك؛ لأن الخطاب في أوله جاء على سبيل الإفراد {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} يعني يا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأمته تبع له في هذا، ثم بعد ذلك جاء الضمير بصيغة الجمع {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ}، وكقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [سورة الطلاق(١)] بصيغة الجمع مع أن أول الخطاب صريح بأنه موجه للنبي -عليه الصلاة والسلام-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يخاطَب ويكون هذا الخطاب موجهاً لأمته، وهذا في كثير من المواضع من القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ} [سورة الإسراء(٢٣)]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مات أبواه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وهو صغير، فحينما نزلت عليه هذه الآيات لم يكن منهم أحد على قيد الحياة، فالخطاب موجه للأمة، فصيغة الجمع في قوله {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} يمكن أن يُقال: إنه جاء على سبيل التفخيم والتعظيم للنبي -صلى الله عليه وسلم- فجاء بصيغة الجمع، ولا حاجة لهذا؛ لأن الخطاب متوجه للأمة، كما سبق، ومن أهل العلم من يقول: إن الخطاب موجه للمشركين، {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} بعضهم يقول: المراد به القرآن، بمعنى أنهم يخوضون خوضاً باطلاً في القرآن، فيقولون فيه ما لا يليق من أنه سحر أو كهانة أو شعر أو نحو هذا، وهذا وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه بعيد؛ لأن الضمير في قوله: {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} يرجع إلى أقرب مذكور وهو العمل، أي تفيضون في هذا العمل، وظاهر الخطاب موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ولأمته، ولو كان هذا الخطاب يقصد به أهل الإشراك وأن الإفاضة في هذا العمل هي الخوض في القرآن بالاستهزاء وما أشبه ذلك لما كان الخطاب بهذه الصيغة، ولقال الله -عز وجل- مثلاً: وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن، ولا يعملون من عمل إلا كنا عليهم شهوداً إذ يفيضون فيه، فالخطاب جاء على نسق واحد {وَلاَ

---

٢ - رواه البخاري برقم (٥٠)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ومسلم برقم (٨)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى.

تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} والنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لم يكونوا، حاشاهم من مثل هذا، والمقصود بالإفاضة في العمل المشار إليه، {وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق(١٢)]، {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ} [سورة التوبة(١٠٥)] فيرى العباد ويعلم متقلبهم ومثواهم، وكل عمل صغير أو كبير فالله -عز وجل- شاهد على خلقه فيه، وهذا من معاني اسمه الشهيد، فهو مشاهد لخلقه شاهد على أعمالهم مطلع عليها، محيط بهم، والفرق بينه وبين العليم، أن الشهيد فيه معنى الحضور، وهذا قدر زائد على مجرد العلم.

{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة يونس(٦٢-٦٣)].

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً، {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما وراءهم في الدنيا.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء))، قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم، قال: ((هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس))، ثم قرأ: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[٣].

هذه الآية فيها بيان جلي وإيضاح لا يحتاج معه إلى خزعبلات الصوفية وترهاتهم في تفسير الولاية، بحيث أضافوا ذلك إلى طائفة من المجاذيب والمجانين والفجرة، وحملوا فجورهم على أنه تقوى وصلاح، وأن هذا الفجور هو فيما يبدو للمحجوبين من الناظرين الذين على أبصارهم الحجب الكثيفة التي تجعلهم يرون الطاعة بهذه الصورة، ولعل من آخر هؤلاء المجاذيب المجانين الذي استهووا خلائق لا يحصيهم إلا الله عز جل، ما وقع في القرن الماضي، أن أحد هؤلاء كان من قطاع الطرق، فكشف أمره ففر ولجأ إلى مغنية مشهورة في عهد الملك فاروق في مصر، فلجأ إلى مغنية مشهورة، وهو خائف في غاية الخوف، فجاء الناس يبحثون عنه ويطلبونه، فوضعت في يديه ورجليه الحديد، سلسلته بالحديد، والرجل صار يتصرف على أنه مجنون، فبدأت تضيف إليه كرامات وأنها ترى منه عجائب وغرائب مما يدل على ولايته لله -عز وجل-، وخفي هذا على الناس وصار يأتيه الصغير والكبير حتى الملك فاروق زاره وطلب منه الدعاء، إلى هذا الحد، فأين هذا من الولاية؟!

وآخر توفي قبل سنوات في بعض البلاد، تُنقل عنه خرافات وخزعبلات وأشياء أشبه ما تكون بتصرفات الحيوانات، يزعمون أنه مرض وذهب إلى مصر للعلاج، وعندما قرر الأطباء إجراء العملية قال لهم: أمهلوني إلى الغد، وفي ليلته أتاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلي بن أبي طالب وأبو ذر ومجموعة من

---

٣ - رواه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، برقم (١١٢٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٥/٦)، برقم (٨٩٩٧)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٣٣٢/٢)، برقم (٥٧٣)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٠٢٣).

الصحابة -رضي الله عنهم- فنظروا في حاله وعملوا له العملية، فقام في الصباح وليس به شيء، أُجريت له التحاليل والفحوصات والأشعة ولكنه قد زال عنه المرض، وغير ذلك من الخزعبلات.

روى ابن جرير عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: ((الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي جزء من أربع وأربعين جزءاً، أو سبعين جزءاً من النبوة))[٤].

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك عاجل بشرى المؤمن))[٥]. رواه مسلم.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا}، قال: ((الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه، فلينفث عن يساره ثلاثاً وليكبر ولا يخبر بها أحداً))[٦]. لم يخرجوه.

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}[سورة فصلت(٣٠-٣٢)].

وفي حديث البراء -رضي الله تعالى عنه-: ((أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء))[٧].

وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء(١٠٣)]، **وقال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[سورة الحديد(١٢)].**

---

٤ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥/١٣٢)، برقم (١٧٧٣٠)، وقال محققه الشيخ أحمد شاكر: "هذا إسناد ضعيف، لضعف موسى بن عبيدة، وهو إسناد منقطع أيضاً؛ لأن أيوب بن خالد لم يرو عن عبادة بن الصامت".

٥ - رواه مسلم برقم (٢٦٤٢)، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

٦ - رواه أحمد في المسند (١١/٦٢١)، برقم (٧٠٤٤)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

٧ - رواه أحمد في المسند (٣٠/٤٩٩)، برقم (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه-، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣٥٥)، برقم (٣٩٥)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٥٨)، وفي صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

وقوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ} أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

البشرى في هذه الأحاديث الصحيحة فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له، والتفسير النبوي إذا صح فإنه لا يحتاج معه إلى غيره، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، لكن هذا المعنى لا ينفي أن تكون البشرى في الدنيا بما جاء في الحديث الآخر، وإن لم يكن تفسيراً للآية مما يحصل للإنسان من الذكر الجميل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تلك عاجل بشرى المؤمن))، فالله -عز وجل- قال: {لَهُمُ الْبُشْرَى} والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفسر الآية بمعنى يؤخذ من عموم اللفظ، ولا يعني ذلك حصر المعنى فيما ذكر، وإنما هو أحد المعاني الداخلة فيها، ولا ينفي بعضَ المعاني التي تحتملها الآية أو جاء السياق فيها، فالتفسير بأنها الرؤيا الصالحة لا ينفي أن يكون هذا ما يحصل للإنسان من الذكر الجميل، ولا ينفي قول من قال بأن الملائكة تبشره عند قبض روحه مثلاً، وما أخبر الله -عز وجل- في القرآن في قوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة البقرة(٢٢٣)]، بشارة حاصلة في هذا القرآن لأهل الإيمان بما أعد الله -عز وجل- لهم في دار كرامته، وما يكون لهم في هذه الدنيا من الرفعة والنصر، والظهور والغلبة، والتمكين، فكل هذا داخل في هذه البشرى، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ}، أي: حكمُ الله -عز وجل- وقضاؤه لا يبدل، فالله -عز وجل- قضى ذلك لأهل الإيمان وقدّره فلا مبدل لكلماته، ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة يونس(٦٥-٦٧)].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: ولا يحزنك قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه فإن العزة لله جميعاً، أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين {هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحركاتهم، {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ} أي تكذيبك واتهامك بأنك ساحر وشاعر أو كذاب، أو غير ذلك مما يصدر عنهم من ألوان الإعراض والتكذيب والمكابرة، كما قال الله -عز وجل- في مواضع من كتابه: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [سورة النمل(٧٠)] فنهاه عن الحزن عليهم، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ} [سورة الكهف(٦)] أي: مُهلك نفسك {عَلَى ءاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} فهذا كله تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن الله -عز وجل- قدر ما قدر من الهدى والضلال عن علم وحكمة، وما على الأنبياء إلا البلاغ، وهكذا من جاء بعدهم من الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- إنما يبلغون الناس ويدعونهم وليس على أحد هداية الخلق، وإنما ذلك يختص بالله جل جلاله، وقوله هنا: {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا} هذا لا ينافي قوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون(٨)]، فالعزة التي تكون للرسول -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين هي مستمدة من عزة الله -عز وجل-، فإنما يحصل لهم ذلك بإعزاز الله لهم، فالعزة لله جميعاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء} هذا أيضاً لا ينافي قوله -تبارك وتعالى- في الآيات الأخرى {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ} [سورة الأعراف(١٩٥)] ونحو ذلك مما جاء في القرآن، فسماهم شركاء، وهنا نفى عنهم أن يكونوا شركاء، فالآيات

التي سماهم فيها شركاء، هذا باعتبار نظر هؤلاء الكفار، فهم نزلوها هذه المنزلة، والخطاب في القرآن يأتي كثيراً باعتبار نظر السامع ومراعاة لحاله، سواء كان يعتقد المخاطب، صحته أو لا يعتقد صحته، مثل قوله: {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ}، أو قولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [سورة الحجر(٦)] فهم لا يؤمنون أنه نزل عليه الذكر، فالحاصل أن هذا كثير في القرآن فبيّن حقيقتهم {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}، وقوله هنا: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} النهار مبصراً: أي تبصرون فيه، ينجلي الظلام وينطلق الناس في معايشهم ومصالحهم، هذا هو المعنى، فأضاف الإبصار إليه، وذلك على طريقة العرب، فخاطبهم بما يعهدون من المخاطبة، وإن كان النهار في نفسه لا يبصر، وإنما الناس هم الذين يبصرون في النهار، ولكن العرب تعبّر بهذا كثيراً وتضيف الإبصار إلى النهار فعبر بمعهودهم.

{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [سورة يونس(٦٨-٧٠)].

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً {سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له، عبد له؟، {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان، {أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [سورة مريم(٨٨-٩٥)] ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان(٢٤)] كما قال تعالى هاهنا: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا} أي: مدة قريبة، {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} أي: يوم القيامة {ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ} أي: الموجع المؤلم، {بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوا من الإفك والزور.

هنا في قوله: {قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} وجه هذا الرد باعتبار أن اتخاذ الولد يكون من حاجة، فالإنسان يحتاج إلى الولد ليكون عاضداً له، فهو مفتقر إليه، أمّا الغَنيُّ الغنَى الكامل المطلق فإنه لا يحتاج إلى الولد، ثم إن قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} يعني: أن الكل عبيده ومماليكه، والولد بخلاف ذلك، ولهذا فإن الإنسان لو اشترى ولده المملوك فإنه يعتق عليه بهذا الشراء، فالولد له حكم الأب، ولو كان لله ولد فإنه سيكون إلهاً، والله -عز وجل- يقول: كل من في السماوات والأرض فهم عبيده ومماليكه، هذا وجه الرد، هذا هو المقصود بهذا الجواب، والله تعالى أعلم.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة يونس(٧١-٧٣)].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه- {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك {نَبَأَ نُوحٍ} أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم؛ ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ} أي: عظُم عليكم، {مَقَامِي} أي: فيكم بين أظهركم، {وَتَذْكِيرِي} إياكم {بِآيَاتِ اللَّهِ}، أي: بحججه وبراهينه.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {مَقَامِي}: "أي **فيكم وبين أظهركم**"، المَقام بالفتح هو موضع الإقامة، وبالضم المُقام بمعنى الإقامة، إقامتي، {إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي} يعني: موضع الإقامة، وبالضم بمعنى الإقامة، ويحتمل أن يكون المراد أيضاً النفس؛ لأن ذلك يعبر به عنها، تقول: مقام فلان إلى مقامكم، ونحو هذا، ويعبر به أحياناً عن المكث -والله أعلم-، وهذه المعاني بينها ملازمة، وإنما شق عليهم ذلك؛ لقيامه عليهم بالدعوة إلى التوحيد، فكبُر عليهم ما يدعوهم إليه.

{فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن.

قوله: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ} قال الحافظ –رحمه الله-: "فاجتمعوا"، وأجمعوا بمعنى اعتزموا، تقول: أجمع أمره يعني عزم، أجمع أمره على كذا، بمعنى عزم عليه، {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} قال: الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن.

قوله: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ}أي: اعزموا عليه، {وَشُرَكَاءَكُمْ} نصب بفعل مقدر محذوف يصلح لمثل هذا؛ لأن هؤلاء الشركاء لا يحصل منهم العزم، فيكون {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ} وادعوا شركاءكم، ويدل على هذا المعنى قراءة أُبَيّ، وهي قراءة ليست متواترة، "فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم" وذكرنا من قبل أن القراءة الأحادية يستفاد منها ثلاث فوائد، من هذه الفوائد: أنها تفسر القراءة المتواترة، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فالله -عز وجل- يقول مثلاً في سورة الحشر: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [سورة الحشر(٩)]، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} تبوءوا بمعنى نزلوا واستوطنوا، يعني سكنوا الدار، من اتخاذ المباءة {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} الإيمان لا يُسكن، فعبر عنهما بفعل واحد وهو التبوُّء، فيمكن أن يكون {تَبَوَّءُوا الدَّارَ} يعني سكنوا الدار واعتقدوا الإيمان أو: ولزموا الإيمان، كقول الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى* متقلداً سيفاً ورمحاً.**

والتقلد إنما يكون للسيف، وهي طريقة معروفة عند العرب، يعني يجعلون للسيف حمائل ويضعونه في الرقبة ويتقلدونه، والعجم يربطونه بحزام في جانبهم كما هو معروف، والرمح يحمل باليد، فقال: متقلداً سيفاً ورمحاً،

والتقدير متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً، على كل حال {وَشُرَكَاءكُمْ} أي وادعوا شركاءكم، ويدعونهم تبكيتاً لهؤلاء العابدين.

{ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أي: لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي.

قال الحافظ -رحمه الله-: "**لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً**"، ويحتمل أن يكون المعنى: أي ظاهراً منكشفاً، {ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} فالشيء الذي يغم غيره يكون مغطياً له، ولهذا قيل الغم لاغتمام القلب، كأنه يغطيه، فلا يكون في الإنسان، فلا يتفكر بطريقة صحيحة، لكثرة ما يغطي قلبه من الغم، ولهذا قيل: الغمام -لهذا المعنى- التغطية، ((كأنهما غمامتان أو غيايتان))[1] فكل ما غيب الإنسان وغطاه فهو غيابة وغياية، ومنه غيابة الجب، فالغمة من غمه إذا غطاه، يعني {لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أي: فليكن ظاهراً منكشفاً.

فإن كنتم تزعمون أنكم محقون {ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ} أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء.

هنا ما فسر قولَه -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ} ما معنى اقضوا إلي؟ اقضوا إلي يمكن أن يكون فسر القضاء هنا بمعنى الفراغ، يعني افرغوا إلي، ويمكن أن يكون بمعنى امضوا إلي.

فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: {إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم} [سورة هود(٥٤-٥٦)] **الآية.**

وقوله: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ} أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، {فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ} أي: لم أطلب على نصحي إياكم شيئاً {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله -عز وجل-، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [سورة المائدة(٤٨)]**، قال ابن عباس: سبيلاً وسنة، فهذا نوح يقول: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [سورة البقرة(١٣١-١٣٢)]**، وقال يوسف: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}**[سورة يوسف(١٠١)]**، وقال موسى: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}** [سورة يونس(٨٤)]**، وقال السحرة: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}**[سورة الأعراف(١٢٦)]**، وقالت بلقيس: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[سورة النمل(٤٤)]**، وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ}**[سورة المائدة(٤٤)]**، وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ**

---

١ - هو جزء من حديث رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- ولفظه: ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخْذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة))، برقم (٨٠٤)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

{إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}[سورة المائدة(١١١)]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الأنعام(١٦٢-١٦٣)] أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: ((نحن معشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد))[2] أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: ((أولاد علات)) وهم الأخوة من أمهات شتى والأب واحد، وقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ} [سورة يونس(٧٣)] أي: على دينه {فِي الْفُلْكِ} وهي السفينة، {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ} أي: في الأرض، {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

وقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ} أي: يخلفون أولئك الذين أهلكهم الله -عز وجل- وأفناهم من الكفار.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ} [سورة يونس(٧٤)].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} أي: ما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}[سورة الأنعام(١١٠)] الآية، وقوله: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم.

التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا ظاهر، وهو أحد المعاني التي تحتملها الآية، ولا شك أنه المراد في بعض المواضع في القرآن، بمعنى أن قوله -تبارك وتعالى-: {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل الباء للسببية، لماذا لم يؤمنوا؟ بسبب تكذيبهم المتقدم، فالتكذيب المتقدم صار سبباً لطمس القلوب، وجاء بآيات في هذا المعنى، كما قال الله -عز وجل-: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ} [سورة الأنعام(١١٠)]، فيكون التكذيب المتقدم سبباً لصرف الإنسان عن الحق، والطبع على قلبه، فلا ينتفع بما يسمع، بينما ابن جرير -رحمه الله- لم يفسرها بهذا المعنى وإنما فسرها بمعنى آخر، فعند ابن جرير {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} بما كذبوا به {كَذَّبُواْ} مَن الذين كذبوا عند ابن جرير؟ الذين كذبوا هم الأمم المتقدمة، يعني يقول: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ} من بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} بما كذب به مَن قبلهم، يعني أن الكفر يتكرر ويتجدد في كل أمة، كلما جاء أمةً رسولٌ كذبوه، فأولئك الأمم كذبوا برسالة نبيهم، وقالوا: {سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}[سورة الذاريات(٥٢)]، وكذبوا بما يدعوهم إليه من وحدانية الله -عز وجل-، فيقول هؤلاء الذين أرسلوا بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- إلى أممهم: بقيت تلك الأمم

---

٢ - رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ قال فيه: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي))، برقم (٢٣٦٥)، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام.

على الكفر، ولم يؤمنوا، فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به من قبلهم، وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم، والآية تحتمل معنى ثالثاً: وهو أن هؤلاء لم يؤمنوا بما كذبوا به مِن قبل أن تأتيهم الرسل؛ لأنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان فاختلفوا فتفرقوا فبعث الله النبيين، فهؤلاء الذين جاءهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما قال الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة البقرة(٢١٣)]، جاءوهم يدعونهم إلى الله -عز وجل-، إلى توحيده وعبادته، فلما جاءوهم لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بماذا كانوا يكذبون قبل بعث نبيهم؟ كانوا يكذبون بالبعث مثلاً، كانوا يعبدون مع الله غيره، ينكرون التوحيد، فلما جاء الرسل ما حصل لهم الإيمان بهذه الأمور التي كذبوا بها، {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} فهذا معنى أقرب من المعنى الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله-، فصارت المعاني التي تحتملها الآية ثلاثة.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح -عليه السلام- فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم -عليه السلام- على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً -عليه السلام-، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ} [سورة الإسراء(١٧)] **الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فما ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟.**

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير توجد في الآية قرينةٌ تشهد له وهي قوله: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ} يعني: باعتبار أن "الباء" سببية {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ} بسبب تكذيبهم {مِن قَبْلُ} بمعنى أن الله طبع على قلوبهم بسبب ذلك، ولهذا قال: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ} والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس (٧٥ – ٧٨)].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا} من بعد تلك الرسل {مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} أي: قومه، {بِآيَاتِنَا}: أي حججنا وبراهيننا، {بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} كأنهم -قبحهم الله- أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}[سورة النمل:١٤] **الآية، قال لهم موسى منكراً عليهم: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا} أي: تثنينا {عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} أي: الدين الذي كانوا عليه، {وَتَكُونَ لَكُمَا} أي: لك ولهارون، {الْكِبْرِيَاءُ} أي: العظمة، والرياسة في الأرض {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا} قال هذا بعد أن قال: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ} [سورة يونس(٧٤)]، ويدخل من بين هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- موسى وهارون، ولكن الله -تبارك وتعالى- خصهما بالذكر لمنزلتهما وشرفهما وعظيم مقامهما ولشأن دعوتهما، حيث بعثهما الله -تبارك وتعالى- إلى فرعون.

وقال الله -عز وجل-: {قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا} الاستفهام في الآية: {أَسِحْرٌ هَذَا} من أهل العلم من قال بأنه من قوم موسى -صلى الله عليه وسلم- لما جاءهم الحق، فرد عليهم موسى -صلى الله عليه وسلم-: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا}، ثم هل كانوا يستفهمون عندما قالوا: {أَسِحْرٌ هَذَا}، أو أنهم قالوا: {هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}؟ [سورة النمل(١٣)].

من أهل العلم من قال: إن هذه هي مقالتهم، كما قال الأخفش: قالوا: {أَسِحْرٌ هَذَا}، وهذا فيه بعد، وبعض أهل العلم يقول: هناك مقدر تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم سحر؟ فلا تقولوا ذلك، فيكون قوله: {أَسِحْرٌ هَذَا} من كلام موسى -صلى الله عليه وسلم-، يرد عليهم، أتقولون للحق لما جاءكم سحر، {أَسِحْرٌ هَذَا} ما تعقلون؟! ما ترون؟! ما تميزون؟! إذاً قولهم كما تدل الآية التي قبلها أنهم قالوا: هو سحر، فقال: أتقولون للحق لما جاءكم سحر؟، ومن أهل العلم من قدره بغير هذا، فقال: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ} ما تقولون؟، {أَسِحْرٌ هَذَا}، ومن

أهل العلم من خرج من هذا السؤال ففسر القول بغير معناه المتبادر، تعرفون القول: هو الكلام سواء كان مفيداً أو غير مفيد، كما قال ابن مالك:

والقول عم...

يعرّف النحاة الكلام بأنه: اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، فالقول أعم منه؛ لأنه يشمل المفيد وغير المفيد، ويطلق القول في لغة العرب على الحركة، تقول: ثم قال بيده هكذا، قال بيده: يعني حركها، قال بعينه: أي: حركها، ومن أهل العلم من فسر القول بغير معناه المعروف المتبادر وإنما فسره بالعيب {أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا} يعني أتعيبون الحق، فهذا يمكن أن يكون من قبيل التفسير على المعنى، وليس من قبيل التفسير على اللفظ، والذي ألجأهم لهذا هو هذا السؤال {أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ} أتعيبون الحق لما جاءكم بقولكم: إنه سحر؟، {أَسِحْرٌ هَذَا} فعلى هذا: كل هذه الأقوال -ما عدا قول الأخفش- مفادها أن {أَسِحْرٌ هَذَا} من كلام موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يفهم من السياق.

وقوله: {أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} [سورة يونس(٧٧)] كما قال الله -عز وجل-: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طـه(٦٩)]، وقوله: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا} اللفت، تقول: لفتَه عن كذا بمعنى صرفَه عنه، وقال هنا أيضاً: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} خاطبوا موسى -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه المقدم، وهو الذي أرسل إليهم، {أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا}، {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} والخطاب في الجملة الثانية موجه إلى موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} فالمرسَل إليهم هو موسى -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا}، وهارون -عليه الصلاة والسلام- كان عضداً له، فوجهوا الخطاب لموسى -صلى الله عليه وسلم-، ثم قالوا: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} بمعنى إذا حصلت سياستهم بالدين بطلت سياسات فرعون، وسار لهما من الطاعة والانقياد والقبول عند الناس ما يكون لهم فيه علو المنزلة والظهور، فقالوا: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ}.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس(٧٩ – ٨٢)].

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة، وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى -عليه السلام- من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعوذين، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف(١٢٠- ١٢٢)] ، **فظن فرعون أنه سينتصر بالسُّحار على رسول الله عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.**

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} **وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وُعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل** {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ

وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [سورة طه(٦٥- ٦٦)]، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه(٦٧ – ٦٩)] فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}.

قوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} في قراءة أخرى متواترة هي قراءة حمزة والكسائي، {ائْتُونِي بِكُلِّ سَحَّارٍ} فهذه القراءة تفسر قراءة الجمهور {سَاحِرٍ} فالسَّحار هو كثير السحر، صيغة مبالغة، العليم بالسحر، المتمهر المتمرس في السحر {بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}، وقوله: {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ} ما جئتم، "ما" هذه موصولة بمعنى الذي، أي الذي جئتم به هو السحر، ثم قال: {وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} يحق الله الحق بلكماته، والكلمات: من أهل العلم من فسرها بالكلمات الشرعية، أي: الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- على أنبيائه ورسله مثل التوراة أنزلها على موسى يُحق بها الحق، يبيّن فيها الهدى من الضلال، والحق من الباطل هذا معنى تحتمله الآية، فالكلمات تصدق على الكلمات الشرعية، ولا شك أن الله يحق بها الحق، يفصل فيها بين الحق والباطل ولهذا سمى القرآن بالفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمات: الكلمات الكونية، {وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} يعني الكونية، ومن ذلك ما حصل من عصا موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، فهذا من كلماته الكونية، يعني ما حصل من أن العصا تحولت إلى حية، وأنها صارت تلقف ما يأفكون {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف(١١٨)]، فهذا كله بتقدير الله -عز وجل- وقضائه فخاب هؤلاء، وغلبوا بأمر الله -تبارك وتعالى-، وظهر الحق للناس، ويمكن أن يراد بالكلمات المعنيان: يحق الله الحق بكلماته الشرعية، وبكلماته الكونية، ويمكن أن تكون مراده في الحديث: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[1]، يمكن أن تكون الاستعاذة بكلماته الشرعية، أي القرآن، ويمكن أن يراد بذلك الكلمات الكونية، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل(٤٠)] والأرجح أن المراد بها في الحديث الكلمات الكونية؛ لأنه جاء تفسير هذا أيضاً: ((التي لا يجاوزها بر ولا فاجر))[2]، ويمكن حمل ذلك على الآيات الشرعية، ولكن حمله على الآيات الكونية أولى، فالله لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو المناسب في الاستعاذة أن الإنسان يريد بهذه الاستعاذة أن يحفظه الله، وأن يحميه من المخاوف فيكون ذلك بالكلمات الكونية، وتعليق الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على قوله -تبارك

---

١ - رواه مسلم برقم (٢٧٠٨)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

٢ - رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٥٠)، برقم (٢٣٥٩٩)، كتاب الطب، في الرجل يفرغ من الشيء، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

وتعالى-: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا} يقول: "فأراد موسى -صلى الله عليه وسلم- أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم"، الذي يعلق بأذهان الناس هو المشهد الأخير، قد يؤتى بشيء فيه آية وبرهان في البداية ثم تأتي بعده أشياء تشغل الناس وتشوش على أذهان هؤلاء، ويكون آخر ما يصادف أذهانهم الباطل، فالأنسب أن يكون الحق هو آخر ما يشاهدون، فألقى هؤلاء السحرة كل ما عندهم واستنفذوا قدرهم وطاقاتهم، ثم ألقى موسى -عليه الصلاة والسلام- العصا فإذا هي حية عظيمة تلقف هذه الأشياء جميعاً، فكان الحق هو آخر ما حصل في هذا الموقف.

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [سورة يونس(٨٣)].

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى -عليه السلام- مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات- إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجَلٍ وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون -لعنه الله- كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} قال: فإن الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وأما بنو إسرائيل فالمعروف أنهم كلهم آمنوا بموسى -عليه السلام- واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر، فلم يُجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، {قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف(١٢٩)].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} الضمير -الهاء- في {قَوْمِهِ} هل يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- أي: ذرية من قوم موسى من الإسرائيليين، أو يرجع إلى فرعون؟، فإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور كما هو الأصل، فإنه يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا خلاف قول ابن كثير -رحمه الله-، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ}، لكن يشكل هذا، باعتبار أن الإسرائيليين كما قال ابن كثير -رحمه الله- آمنوا بموسى وكانوا يعرفون صفته وينتظرون أصلاً مجيئه، ففرحوا به وسروا بهذا؛ لأن خلاصهم سيكون على يده، فالشاهد أن هذا الملحظ هو الذي جعل بعض أهل العلم يقول: إن الضمير يرجع إلى فرعون، وإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ} فإن هذا قد يفهم منه أن الذين آمنوا بموسى -صلى الله عليه وسلم- هم قلة من الإسرائيليين، {مِّن قَوْمِهِ} من قوم موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولم يؤمنوا كلهم، ويمكن أن يُخرج من هذا الإشكال بما ذكره بعض أهل العلم أن الضمير يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، وأن الإسرائيليين آمنوا به، {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} كما قال بعض السلف: إن الذين آمنوا به هؤلاء الذرية المقصود بهم من أدركوا نبوته، وبعثته؛

لأن الإسرائيليين كان فرعون يضطهدهم، وكانوا ينتظرون مجيء موسى -صلى الله عليه وسلم-، فهلك منهم كثير قبل مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام-، مات الأجداد والآباء وأدرك بعثَ موسى -صلى الله عليه وسلم- ذريةٌ من هؤلاء القوم {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} فعلى هذا الأساس: الإسرائيليون جميعاً آمنوا به، والضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، فما أدركه المتقدمون منهم مع طول انتظارهم، وإنما أدركه المتأخرون الأحفاد الذرية، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن الله قال: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} أولئك الذين ما أدركوه لم يطالَبوا باتباعه أصلاً، لكنهم كانوا يؤمنون بمجي نبي بالصفة التي عرفوها، فهل في مثل هذا يقال: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الضمير يرجع إلى فرعون، {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ} وبعضهم فسر الذرية بالقلة، وبعضهم فسرها: بأنهم من أبناء هؤلاء الفراعنة، آمنوا به وهم في حال من الخوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وقوله: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ}، ملئهم هنا جاءت بصيغة الجمع، ولم يقل: وملئه أن يفتنهم، {وَمَلَئِهِمْ} فالهاء ضمير يرجع إلى الإسرائيليين، فالذين آمنوا هم الإسرائيليون، وهذا بعيد، إلا إذا قلنا: إن الذين آمنوا من الإسرائيليين، وأن كبراءهم لم يؤمنوا؛ بسبب خوفهم من فرعون من جهة، وخوفهم من وجهائهم وكبرائهم من جهة أخرى، وهذا فيه بعد، وقيل لهم ملأ؛ لأنهم يملئون صدور المجالس، و يتمالئون على الأمر، والراجح أن المقصود بهم الكبراء والناس الذين لهم شأن، أهل الوجاهة وأهل الحل والعقد، وهم الذين يذكرهم الله -عز وجل- مع ذكر فرعون في آيات كثيرة، كقوله: {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى} [سورة الأعراف(١٢٧)]، فمن أهل العلم من فسر فرعون بالفراعنة، فقال: إنه عبر بفرعون عن قومه، فقال: المقصود: {عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ} يعني من آل فرعون، فعبر به عن قومه، وملئهم وكبرائهم وأشرافهم، وهذا فيه بعد، -والله أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إن المقصود فرعون وملأه، فأتى بضمير الجمع؛ لأنه كان جباراً ومتعالياً في الأرض، والعرب تأتي بهذا على سبيل التعظيم، فالمعظم نفسه يقول: فعلنا وقلنا، {وَمَلَئِهِمْ} يعني وملأ فرعون، كذا قال بعض أهل العلم، ويحتمل أن يكون الضمير يرجع إلى الذرية، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ} أي ملأ الذرية، فيكون المعنى أن الذين آمنوا هم من قوم فرعون، فهم على حال من الخوف من فرعون وملئهم، وهذا أقرب هذه الأقوال، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ} فهم على خوف من فرعون ومن ملئهم الكبراء من الفراعنة الوجهاء؛ لأنهم كانوا في غاية الكفر مثل فرعون، هم الذين يقولون لفرعون: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} كأن فرعون ناقصٌ في الشر، فهم يحثونه ويغرونه بموسى -عليه الصلاة والسلام.

ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة يونس(٨٤-٨٦)].

هذه الآيات لا تدل بحال على أن الذين آمنوا بموسى -صلى الله عليه وسلم- من الإسرائيليين قلة، وذرية من قومه بمعنى قلة أو الشبان منهم، فالخطاب للإسرائيليين، ولهذا لما خرج بهم موسى -صلى الله عليه وسلم-

من مصر، ما خرج بفئة قليلة، بل خرج بالإسرائيليين برمتهم: النساء والرجال والكبار والصغار، كلهم أخرجهم من مصر، فلم يبق لهم بقية في مصر كما هو معروف في التاريخ.

يقول تعالى مخبراً عن موسى -عليه السلام- أنه قال لبني إسرائيل: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} **أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه،** {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [سورة الزمر(٣٦)]، {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق(٣)]، **وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى:** {فاعبده وتوكل عليه}، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [سورة الملك(٢٩)]، {رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [سورة المزمل(٩)]، **وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة** {إياك نعبد وإياك نستعين}**، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا:** {عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} **أي: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سُلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى.**

وروى عبد الرزاق عن مجاهد: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} **لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله:** {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ} **أي: خلصنا برحمة منك وإحسان،** {مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} **أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.**

قوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} قال بعض السلف: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيُفتنوا بذلك، وقال مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، هذان قولان معروفان للسلف، والفتنة مصدر، والمصدر قد يراد به المفعول وقد يراد به معنى الفاعل، {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} أي: لا تجعلنا فاتنين، {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الممتحنة(٥)] أي: لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا، وهو القول الأول الذي عزاه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى أبي مجلز وأبي الضحى، {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} أي: لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا، قال: لا تسلطهم علينا فيُفتنوا بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما صاروا بهذه المثابة، فصرنا بهذا الاعتبار فتنة لهم يزهدون بما عندنا من الحق بسبب هذا الذي وقع من تسلطهم علينا وضعفنا وعجزنا، فيكون ذلك صارفاً لهم عن الهدى، ويدخل في هذا أيضاً {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} أي: فاتنين بسوء صنيعنا، وتصرفنا، بما يصدر منا من الأفعال التي تكون صادّة للناس عن سبيل الله، ومنفرة عن الحق، والمعنى الثاني {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} فتنة: مصدر بمعنى المفعول، أي: لا تجعلنا مفتونين، فلا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، والمصدر تارة يراد به هذا، وتارة يراد به هذا، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وكل واحد من المعنيين حق، فهذا يشمل هذا وهذا، والمعنى الأول متضمن المعنى الثاني، يعني لا تسلطهم علينا فيُفتنوا بذلك ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما صاروا بهذه المثابة، هم حينما يسلطون عليهم تحصل لهم أيضاً فتنة.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس(٨٧)].

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منه، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- أن يتبوءا، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً.

المبوأ هو المكان الذي يلازمه الإنسان، كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فليتبوأ مقعده من النار))[٣] أي: فليلزم مقعده من النار، وذلك من اتخاذ المباءة، وهو المكان الذي يلازمه الإنسان، أو يرجع إليه ويئول إليه، ويصير إليه بعد انتشاره في حاجاته ومصالحه وشئونه ويرجع إليه، {بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ} [سورة الأنفال(١٦)]، يعني: رجع بغضب من الله.

وقوله تعالى: {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى -عليه السلام- لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة.

وقال مجاهد: {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً، وكذا قال قتادة والضحاك.

لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة ويصلون فيها سراً، {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي: يمكن أن تكون إلى جهة القبلة، أو تكون مساجد، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، يعني صلوا في بيوتكم واتخذوها مساجد، اجعلوا بيوتكم قبلة، ولذلك قال بعدها: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، فمن أهل العلم من فسر البيوت بالمساجد، ولكن لا يخلوا من إشكال، اجعلوا مساجدكم قبلة، هذا أمر قد يكون معلوماً بالنسبة إليهم، وأضاف البيوت إليهم أيضاً في الآية، ومثل هذه الإضافة المتبادر منها أن المقصود: البيوت التي تختص بهم، {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}، وبعضهم فسر القبلة أي: متقابلة، بمعنى اجعلوها متقابلة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا جهة القبلة، يعني من ناحية يسهل عليهم فيها الخروج إذا جاءت لحظة الخروج من مصر، يعني ما يكونون متفرقين يسكنون في أحياء ونواحي في مصر يصعب جمعهم فيها، أمرهم أن يتكتلوا في مكان معين في ناحية من مصر يسهل فيها الخروج منها إذا أُمروا بذلك، والأقرب -والله أعلم- أن المقصود {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي: مساجد تصلون فيها تتعبدون لله -تبارك وتعالى- فيها، وهذا لا ينافي قول من قال: إنها إلى جهة القبلة، يستقبلون القبلة ولا تجعلوها مساجد، فهم سيستقبلون القبلة، بصرف النظر طبعاً عن القبلة هنا ما المراد بها، فمن أهل العلم من يقول: إن الكعبة هي المكان الذي يستقبله الأنبياء جميعاً، وبعضهم قال: من آدم -صلى الله عليه وسلم- فمن بعده يستقبلون الكعبة، وظاهر كلام ابن القيم -رحمه الله-: أن جميع الأنبياء كانوا يستقبلون الكعبة، وتكلم على استقبال النصارى للمشرق وأصل هذا، واستقبال اليهود للصخرة، وأن اليهود كانوا ينقلون معهم التابوت في حروبهم ونحو هذا، فيستقبلونه في صلاتهم، وكان يوضع في مكان عند الصخرة أو على الصخرة، فكانوا يستقبلونه ثم بعد ذلك لما انتهى التابوت، صاروا يستقبلون المكان الذي كانوا يضعونه فيه، فابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذه القبلة محرفة، يعني استقبال النصارى للمشرق، واستقبال اليهود للصخرة مثلاً، -فالله تعالى أعلم-.

---

٣ - رواه البخاري برقم (١٠٧)، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومسلم برقم (٢)، كتاب الإيمان، باب تغليظ الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٨٨-٨٩) سورة يونس].

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال موسى -عليه السلام-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً} أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، {وَأَمْوَالاً} أي: جزيلة كثيرة، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ} بفتح الياء، أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كقوله تعالى: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} وقرأ آخرون {لِيُضِلوا} بضم الياء، أي ليفتتن بما أعطيته من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: أي أهلِكها. وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقوله: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي اطبع عليها {فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} وهذه الدعوة كانت من موسى -عليه السلام- غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبيّن له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح -عليه السلام- فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [(٢٦-٢٧) سورة نوح] **ولهذا استجاب الله تعالى لموسى -عليه السلام- فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون -عليه السلام- فقال تعالى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا} أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقال تعالى: {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} الآية، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، قال ابن جريج عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَاسْتَقِيمَا} فامضيا لأمري، وهي الاستقامة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(٨٨) سورة يونس] الدعاء في هذه الآية توجه به موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى ربه -تبارك وتعالى- ثم قال الله -تبارك وتعالى- بعدها: **{قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا}** [(٨٩) سورة يونس]، وهنا قد يرد إشكال وهو أن أول الآية كان الدعاء من موسى -عليه السلام- على سبيل الإفراد، ثم كانت إجابة الله -عز وجل- بالتثنية، وما ذكره الحافظ ابن كثير هو جواب على هذا الإشكال، فقال -رحمه الله-: "**ولهذا استجاب الله تعالى**

لموسى -عليه السلام- فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون -عليه السلام- فقال تعالى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا}".

وقوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً} الزينة: كل ما يتزين به مما هو زائد على الأصل من زينة الأثاث والثياب والمراكب والسلاح، والقصور، وغير ذلك.

قوله: {رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ} [(٨٨) سورة يونس] قرأ الكوفيون بالضم {لِيُضِلُّواْ}، وقرأ الباقون بالفتح {لِيَضِلُّواْ}، فيستعينون بالزينة والأموال على الإضلال فيكون عندهم من أسباب القوة والتمكين ما لا يكون عند غيرهم ممن هو فاقد لهذه الأشياء، ثم يحصل بسبب ذلك ما يحصل من افتتان الكثيرين الذين لا يرون ولا يعرفون إلاَّ المباهج والمظاهر الدنيوية.

والناس أكثرهم فأهل مظاهر*** تبدوا لهم ليسوا بأهل معان

فهم القصور وبالقشور قوامهم*** واللب حظ خلاصة الإنسان

واللام في قوله: {لِيَضِلُّواْ} هي لام الصيرورة ولام العاقبة، كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [(٨) سورة القصص]، ويكون المعنى: أن هذه الأموال التي أعطاهم الله -عز وجل- إياها نتج عنها في آخر الأمر الضلال والإضلال، وهذا الذي قاله سيبويه والخليل بن أحمد.

وقال بعض أهل العلم: إنها لام كي، بمعنى أنها للتعليل، أي: {آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً} لكي يَضلوا عن سبيلك، فأعطاهم الله ذلك استدراجاً لهم، كما قال الله -عز وجل-: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون] يعني أننا نستدرجهم من أجل أن يموتوا على كفرهم وضلالهم.

قال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [(٨٨) سورة يونس] الطمس هو إهلاك الأموال، وبعضهم فسر الطمس بإذهاب الصورة، كقوله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [(٤٧) سورة النساء]، وهذا قول الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: "**جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت**" يعني الدينار المنقوش من ذهب تحول وصار حجراً، وهذا القول يحتاج إلى دليل.

قال -عز وجل-: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [(٨٨) سورة يونس]، أي: اربط على قلوبهم فلا يصل إليها الهدى ولا الموعظة والتذكير، وهنا يرد إشكال، وهو أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بعثوا لهداية الناس فكيف دعا موسى -عليه السلام- على قومه بأن يربط على قلوبهم فلا يدخل إليها الهدى؟

والجواب عند بعض أهل العلم أن الله أعلم موسى -عليه السلام- أن هؤلاء لن يؤمنوا، فدعا عليهم بأن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم، كما أعلم نوحاً -عليه الصلاة والسلام- بعدم إمكانية إيمان قومه، فقال: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(٣٦) سورة هود]، فدعا عليهم نوح فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [(٢٧-٢٦) سورة نوح].

وهذا الجواب قد لا يخلو من مراجعة وإشكال، وهو أنه إذا كان الله أخبر موسى بأن قومه لن يؤمنوا، فلماذا دعا عليهم بأن يربط على قلوبهم؟.

وقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} بعض أهل العلم كالمبرِّد والزجَّاج يرى أن هذه الآية تعود إلى قوله: {لِيُضِلُّواْ}، أي: آتيتهم أموالهم ليضلوا، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقال الكسائي والفراء: قوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} دعاء عليهم بعدم الإيمان.

وقال بعضهم: إن قوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} جواب الأمر في قوله: {اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ} [(٨٨) سورة يونس]، يعني: يكون كأنه نتيجة لهذا الطمس، وهذا قول له وجه ظاهر، اطمس على الأموال واشدد على القلوب فلا يؤمنوا، يعني من الربط على القلوب الختم عليها والطبع عليها بحيث لا يحصل لهم الإيمان حتى يروا العذاب، اشدد عليها واطبع عليها طبعاً لا يحصل لهم معه الإيمان إلا برؤية العذاب، وهذه الآية تحتمل هذه الأوجه جميعاً، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية يستفاد منها جواز الدعاء على الكافرين وأعداء الله –عز وجل- وقد دعا بعض الأنبياء على أقوامهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} قال ابن كثير –رحمه الله-: "**أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما**"، ونقل عن ابن عباس: {فَاسْتَقِيمَا}، أي: "**فامضيا لأمري وهي الاستقامة**".

وقال بعض السلف: {فَاسْتَقِيمَا} أي: اثبتا على دعوة فرعون إلى دين الحق.

قوله –تبارك وتعالى-: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [(٩٠-٩٢) سورة يونس].

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى -عليه السلام- وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، {فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [(٦١) سورة الشعراء]**، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى -عليه السلام- عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟، فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا** {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [(٦٢) سورة الشعراء] **، فلما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر** {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [(٦٣) سورة الشعراء] **أي: الجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشّفت أرضه** {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [(٧٧) سورة طــه] **وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين؛ لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج**

آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى -وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان- فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع وهيهات {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [(٣) سورة ص] نفذ القدر واستجيبت الدعوة، وجاء جبريل -عليه السلام- على فرس وديق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهمّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك: {آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} فآمن حيث لا ينفعه الإيمان {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [(٨٤-٨٥) سورة غافر]، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟، {وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} [(٤١) سورة القصص] وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة))[1] وقد رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [(٩٢) سورة يونس] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ} أي: نرفعك على نشز من الأرض، {بِبَدَنِكَ} قال مجاهد: بجسدك، وقوله: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعضهم: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}، أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)) فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: ((أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه))[2].

---

[1] - رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة يونس (٥ / ٢٨٧)، برقم: (٣١٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٦)، برقم (٢٠١٥).

[2] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة يونس، (٤ / ١٧٢٢)، برقم (٤٤٠٣).

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "**ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال**: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} ..."

وقال بعض أهل العلم: إن القائل: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ} هو جبريل، ومنهم من يقول: ميكائيل، وبعضهم يقول: الذي قال هذا هو فرعون، وهذا بعيد جداً.

قوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [(٩٢) سورة يونس] قرأ ابن مسعود -رضي الله عنه- {نُنَحِّيك ببدنك} من التنحية، وهذه القراءة توضح المقصود بقوله ننجيك، فلا يفهم أن الله نجاه ولم يغرق، وإنما النجاة كانت للبدن فقط دون الروح.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- "{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ} أي: **نرفعك على نشز من الأرض**"، وهذا القول قال به جماعة من السلف، باعتبار أنه مأخوذ من النجوة.

وجاء في بعض المرويات الإسرائيلية أن الإسرائيليين لم يصدقوا أن فرعون قد غرق، فأُلقي على نجوة من أجل أن يراه الإسرائيليون.

قوله: {بِبَدَنِكَ} "**قال مجاهد**: **بجسدك**"، جاء تفسير البدن بالجسد؛ لأن من السلف من قال: {بِبَدَنِكَ}، أي: بدرعك.

قوله: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} لمن خلفك أي: لهؤلاء الذين تركوا وبقوا في مصر، ولا يلزم أن فرعون بقي بعد ما رأته بنو إسرائيل لكي تراه الأجيال، ولا يوجد دليل على أن فرعون موجود إلى اليوم، ويرى كثير من أهل العلم أن الأهرام كانت قبل طوفان نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل أنه لا يعرف لها خبر، ولو كانت بعد الطوفان لعرف من الذي بناها، ثم من الذي جاء وأخذ فرعون ووضعه في الهرم؛ فالفراعنة هلكوا جميعا مع فرعون.

قوله: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(٩٣) سورة يونس]، **يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية.**

وقوله: {مُبَوَّأَ صِدْقٍ} **قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى**: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف]، **وقال في الآية الأخرى**: {فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٧-٥٩) سورة الشعراء] **وقال**: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [(٢٥) سورة الدخان] **الآيات.**

ولكن استمروا مع موسى -عليه السلام- طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل -عليه السلام- فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكَل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليه بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليه حيناً من الزمان.

وقوله: {وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [(٩٣) سورة يونس]، أي: أسكناهم منزلاً طيباً حسناً، وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا المسكن هو أرض مصر والشام، باعتبار أن الله -عز وجل- أورثهم أرض مصر كما قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٩) سورة الشعراء] وهذا صريح في أن الله أورثهم إياها.

وقال بعض العلماء: المبوأ الصدق هي بلاد الأردن وفلسطين، وقال بعضهم: هي الشام.

وقوله: {فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ} [(٩٣) سورة يونس]، أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بيّن الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: ((إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار)) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))[3]، رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ. ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ} أي: يفصل بينهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

قوله: {فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ} فسر بعض أهل العلم العلم المذكور في الآية بالتوراة، ومن أهل العلم من يقول: المقصود بقوله تعالى: {مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ} يعني القرآن، أي: أن اختلافهم لم يكن عن جهل بالحق، وخفاء معالمه، وإنما كان بسبب الهوى والبغي، وهذا المعنى يشهد له قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١٠٥) سورة آل عمران] فالتفرق والاختلاف حصل بعدما اتضح لهم الحق وظهر، فكان اختلافهم بسبب أهوائهم وبغيهم، ولهذا قال الله -عز وجل- في موضع آخر: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١٧) سورة الجاثية].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في اقتضاء الصراط المستقيم الأمور التي شابهت بها هذه الأمة أهل الكتاب، وذكر منها التفرق والاختلاف.

---

[3] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٢ / ٦٠٨)، برقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٢ / ١٣٢٢) برقم (٣٩٩٢)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة (٥ / ٢٦)، برقم (٢٦٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣ / ٤٨٠)، برقم (١٤٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}[سورة يونس(٩٤-٩٧)].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}[سورة الأعراف(١٥٧)] **الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس(٩٦-٩٧)] أي: **لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه قال:** {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس(٨٨)]، **كما قال تعالى:** {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [سورة الأنعام(١١١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ}، اختلف العلماء في الخطاب في الآية من المراد به، فمن أهل العلم من قال: إن الخطاب للكافر المكذب بما أنزل الله -تبارك وتعالى-، المكذب بالوحي والرسالة، {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ} يعني أيها الكافر المكذب {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} خطاب للشاكين في الوحي، لكن هذا القول وإن قال به بعض السلف إلا إنه بعيد جداً؛ لأن ظاهر الخطاب لا يدل على ذلك، والسياق لا يدل عليه، ثم أتى بعده بقوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وهذا القول قال به الإمام اللغوي ثعلب، والمبرد، ومن أهل العلم من قال: إن المراد بهذا الخطاب هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود غيره، قالوا: هذا يرد في القرآن، فيخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه الموحى إليه، وهو القدوة -عليه الصلاة والسلام-، فيخاطبه الله بمثل هذا وإن كان هذا الأمر لا يرد عليه، كما في قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [سورة الإسراء(٢٣)]، مع أنه لم يكن له عند نزول الآية أحد من الأبوين قطعاً، فالخطاب موجه إليه والمراد غيره، قالوا: هذا من باب إياك أعني فاسمعي يا جارة، فالأمة تخاطَب في شخص رسولها -عليه

الصلاة والسلام-، وهذا قول له وجه، ونظائره في القرآن كثير، ومن أهل العلم من قال: إن المراد بذلك هو النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن القاعدة: أن التعليق بالشرط لا يقتضي تحقق الوقوع، مثل {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف(٨١)] والله -عز وجل- لا يكون له ولد، على خلاف في معنى قوله: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} فمن أهل العلم من قال: فأنا أول العابدين لله، ومنهم من قال: المراد فأنا أول العابدين لهذا الولد، فالمقصود أياً كان المعنى: لكن {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} وهذا غير وارد أصلاً، فالمعلق على شرط لا يقتضي هذا التعليق تحققه ووقوعه، وقوع هذا المعلق، وله أمثلة أخرى على كل حال في القرآن، فقالوا هذا من هذا الباب، وهذا قول جيد: إن المعلق على شرط لا يقتضي هذا التعليق تحقق الوقوع، فالله -عز وجل- يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم- {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} ولم يكن -عليه الصلاة والسلام- في شك بحال من الأحوال، وإنما كان متحققاً بكمال اليقين -عليه الصلاة والسلام-، وابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الآية، وكذلك كبير المفسرين ابن جرير، وأقوالهم لا تخرج عن هذا الذي ذكرته، ابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذه الآية فيها تعليم لمن وقع عنده تردد وشك في مثل هذا كيف يستبين الحق ويخرج من هذا الشك، {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} يعلّمهم، وهذا يشبه قول من قال: إن الخطاب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمراد غيره.

ثم قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [سورة يونس(٩٨)].

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون} [سورة يـــس(٣٠)]، **{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}** [سورة الذاريات(٥٢)]، **{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}** [سورة الزخرف(٢٣)]، **وفي الحديث الصحيح: ((عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد))**[1]**، ثم ذكر كثرة أتباع موسى -عليه السلام-، ثم ذكر كثرة أمته -صلوات الله وسلامه عليه- كثرة سدت الخافقيْن الشرقي والغربي، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به.**

١- رواه البخاري برقم (٥٣٧٨)، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، من حديث ابن عباس رضي الله عنه ولفظه قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط والنبي ليس معه أحد...))، ومسلم برقم (٢٢٠)، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قوله: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} فلولا هذه إذا جاءت في أمر يمكن أن يستدرك فإنها تكون للتحضيض، يمكن أن يفعل، تقول: لولا صليت لولا أطعت والديك، وما أشبه هذا، ومن ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} [سورة النور(١٢)]، يعني ظنوا بإخوانهم خيراً، أو على القول الآخر: ظنوا بأنفسهم يعني رجعوا إلى أنفسهم أنا لا نفعله، فكذلك إخوانهم لا يفعلونه، {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا} [سورة النور(١٦)] فهذا للتحضيض، أما إذا كان هذا يمكن أن يُفعل والأمر قد فات ولا يمكن أن يستدرك، فعندئذ تكون للتبكيت، كما في هذه الآية {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} هؤلاء القرى أُهلكوا وانتهوا، عاقبهم الله -عز وجل- وأخذهم، فهذا للتبكيت؛ لأنه لا يمكن أن يستدرك، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} هذا في الأمم المهلكَة، فهو للتبكيت، -والله تعالى أعلم-، وقال: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ} إلى آخر الآية، قال ابن كثير -رحمه الله-: "**والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس**"، وظاهر كلامه -رحمه الله- أن الاستثناء في هذه الآية متصل، والاستثناء المتصل: هو ما كان فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، مثل حضر الرجال إلا زيداً، والاستثناء المنقطع ما لم يكن فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، نحو {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} [سورة البقرة(٣٤)] باعتبار أن إبليس من الجن -على القول الراجح- فاستثني من الملائكة فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع بمعنى لكن، يعني لكن إبليس لم يسجد، وابن كثير -رحمه الله- ظاهر كلامه أن هذا الاستثناء من قبيل المتصل، ولا يوجد ما يمنع من هذا، بل قد يدل عليه ظاهر السياق، فالله -عز وجل- يقول: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} الأمم السابقة لم يوجد فيهم أحد آمن فنفعه إيمانه سوى قوم يونس -عليه الصلاة والسلام-، إذ نزل العذاب أو أمارات العذاب أو عاينوه، أولئك لم يكونوا يؤمنون إلى آخر لحظة حتى يعاينوا العذاب، فهؤلاء لم يكونوا يؤمنون إيماناً ينفعهم إلا قوم يونس، فظاهر الكلام أن الاستثناء متصل، وكثير من أهل العلم يقولون: هذا الاستثناء منقطع، ومنهم أئمة كبار في اللغة كالكسائي والفراء يقولون: الاستثناء منقطع بمعنى لكن {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} لكن قوم يونس لما رأوا العذاب وآمنوا نفعهم إيمانهم، رأوا أمارات العذاب، ويمكن أن يخرّج قولهم على اعتبار أن الأمم التي أهلكها الله -عز وجل- كانوا يصرون على الكفر إلى آخر لحظة إلى الوقت الذي لا ينفع معه الإيمان مثل ما حصل من فرعون، حصل منه إيمان لكنه لم ينفعه هذا الإيمان فالأمم كما قال الله -عز وجل-: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} [سورة غافر(٨٤)]، فالإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب، فالذي حصل لقوم يونس أنهم لما رأوا أمارات العذاب، وأن العذاب سينزل، ورأوا هذه العلامات تضرعوا إلى الله وخافوا وفرقوا بين الأم وولدها، وأخرجوا دوابهم وفرقوا بين الوالدة وولدها، وجعلوا يتضرعون إلى الله -تبارك وتعالى- فرحمهم وكشف العذاب عنهم، قبل أن ينزل وقبل أن يعاينوه، فالبقية ما كانوا بهذه المثابة، أما إذا نزل العذاب وعاينوه فعندئذ لا ينفعهم الإيمان، فمن قال: الاستثناء منقطع، يقول: لكن قوم يونس لما رأوا العذاب، يعني أمارات العذاب، فقوم يونس لم يصلوا إلى الحد الذي وصلت إليه الأمم، والحالة التي لا ينفع معها الإيمان، والله تعالى أعلم.

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخروا، كما قال تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتُركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجُّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل، وكذا روي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة يونس(٩٩-١٠٠)].

يقول تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ} يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمته فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود(١١٨-١١٩)]، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [سورة الرعد(٣١)]، ولهذا قال تعالى: {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ} أي: تلزمهم وتلجئهم، {حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة البقرة(٢٧٢)]، {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء(٣)]، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص(٥٦)]، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد(٤٠)]، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [سورة الغاشية(٢١-٢٢)] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ} وهو الخبال والضلال {عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} أي: حججَ الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى وإضلال من ضل.

الرجس قال: "**هو الخبال والضلال**"، ويقال: الكفر، وقد يطلق على نتيجته وأثره، وهو العذاب كما قال ابن جرير -رحمه الله- وهو تفسير بالأثر، كما يقال: الإثم، والإثم أحياناً يطلق على سببه، تقول مثلاً: الخمر إثم والزنا إثم والسرقة إثم، وهذه آثام، وتقول: اجتنب الآثام، ومنه قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ***كذاك الإثم تفعل بالعقول

يعني الخمر، ويطلق على أثره، وهو ما يحصل من التبعة والمؤاخذة، يقال له: إثم، تقول: من فعل هذا يأثم، فمن فسره بالعذاب فقد فسره بالأثر والنتيجة، ومن فسره بالضلال أو الكفر أو نحو هذا فهو تفسير، **{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}** الذين لا يعقلون عن الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء هم المعرضون.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}[سورة يونس(١٠١ – ١٠٣)].

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار، وعمران وخراب، وما في الأرض من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخَّر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بهم برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} أي: وأي شيء تجدي أو تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون؟، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس(٩٦)] الآية، وقوله: {فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ}[سورة يونس(١٠٢)] أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم؟، {قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [سورة يونس(١٠٢-١٠٣)] أي: ونهلك المكذبين بالرسل، {كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}، حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[سورة الأنعام(٥٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وأي شيء تجدى أو تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها؟**"، ففسر الآيات بالآيات السماوية والأرضية التي تدل على وحدانية الله -عز وجل- وقدرته، وكذلك الآيات التي جاءت على أيدي الرسل من المعجزات والبراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، وأما النُّذر ففسره بالرسل، {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ} قال: "**والرسل بآياتها وحججها**" لعل الحافظ -رحمه الله- لاحظ فيه معنىً آخر للنذر، أنه جمع نذارة فيكون النذر جمع نذير، أي الرسل، ويحتمل أن يكون النذر من النذارة يعني ما يحصل به الإنذار، وهذا

يحصل بأمور كثيرة من الآيات التي فيها الوعيد، ويحصل ذلك بما يرونه ويشاهدونه، مما ينذرهم ويخوفهم بأس الله -تبارك وتعالى-، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فكل ما يصدق عليه ذلك فإن هذا لا يغني عن قوم لا يؤمنون، والمقصود بالقوم الذين لا يؤمنون: الذين طبع الله على قلوبهم وكتب عليها الكفر، فمهما جاءهم من الآيات والبراهين فإنهم لا ينتفعون به {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف(١٠٥)]، وقوله: {فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة يونس(١٠٢)] يعني ما وقع لهم من المَثُلات والعقوبات.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة يونس(١٠٤ – ١٠٧)].

يقول تعالى لرسوله محمد ٍ -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ} من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً} الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده، {حَنِيفاً} أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وهو معطوف على قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وقوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} أي: لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} هذا يمكن أن يكون -والله تعالى أعلم- من باب الرد عليهم من جهة أن هذه المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل- أحق بالشك، كأنه وجّه ذلك إليهم {إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} يعني هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هم أولى وأحرى بالشك، هكذا فهم بعض أهل العلم أنه عرّض بآلهتهم، بمعنى أنها أحق بالشك مما هو عليه، {فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ}، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [سورة الكافرون(١-٢)]، يعني في الحال، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [سورة الكافرون(٣-٤)] في المستقبل، لن أتحول إلى عبادة معبوداتكم.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [سورة يونس(١٠٨-١٠٩)].

يقول تعالى آمراً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ} أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ} أي: يفتح بينك وبينهم، {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

الحكم يقال له: فتح، والحاكم فتَّاح، ويقال للحكم فُتاحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة هود -عليه السلام-، وهي مكية.

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: ((شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت))[1].

وفي رواية: ((هود وأخواتها))[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[سورة هود(١-٤)].

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل سورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير.

ومعنى قوله: {مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور، {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ} أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء(٢٥)]**، وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}** [سورة النحل(٣٦)].

وقوله: {إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صعد الصفا فدعا بطون قريش،

---

١ - رواه الترمذي برقم (٣٢٩٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الواقعة، والحاكم في المستدرك (٢/٣٧٤)، برقم (٣٣١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥)، وفي صحيح الجامع برقم (٣٧٢٣).

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/١٢٣)، برقم (٣١٨)، وقال الألباني: "سنده جيد" كما في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥).

الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: ((يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقيّ؟))، فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[3].

وقوله: {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله -عز وجل- فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً} أي: في الدنيا، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل(97)] **الآية.**

وقوله: {وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذّب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة، {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} أي: معادكم يوم القيامة، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: أي هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقرب الأقوال في الحروف المقطعة أنها حروف تهجٍّ لا معنى لها في نفسها، وإنما تشير إلى الإعجاز، وأن هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، وعلى هذا جماعة من المحققين، ويستدل لهذا بما ورد من ذكر القرآن بعد ذكر هذه الحروف في عامة المواضع، إلا في نحو موضعين، ويمكن أن يحمل في هذين الموضعين على الوحي أو القرآن، فهذا القرآن مركب من هذه الحروف {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ} [سورة البقرة(1-2)]، {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [سورة آل عمران(1-3)]، وهكذا في سائر المواضع، ومن أوضحها {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، وحينما يقال بأن هذه الحروف حروف تهجٍّ لا معنى لها لا يرد على الذهن أن في القرآن شيئاً ليس له معنى، يعني أنه حشو، فالقرآن منزه عن الحشو، لكن هذه حروف تهجٍّ، وحروف التهجي في لغة العرب ليس لها معنى، لكن ليس في القرآن كلام مركب لا معنى له، والحروف منها حروف معانٍ مثل حروف الجر كـ من وإلى وعن وعلى، ومنها ما هي حروف مبانٍ مثل الفاء والسين والراء، فبالنظر إلى هذه الحروف ليس لها معنى في نفسها، وإنما يركب منها الكلام، أما حروف المعاني فكما يقول النحاة: الكلام مكون من اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ثم يعرفون الحرف: ما دلّ على معنى في غيره ولم يقترن بزمن، وهذا فيه نظر، وإن كان مشهوراً عند النحاة، فهو له معنى في نفسه، ففي تدل على الظرفية، وعلى تدل على العلو، ونحو

---

3 - رواه البخاري برقم (4523)، كتاب التفسير، باب قوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ(46)]؛ ومسلم برقم (208)، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[سورة الشعراء(214)]، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- ولفظهما قال: صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا ذات يوم فقال: ((يا صباحاه))، فاجتمعت إليه قريش قالوا ما لك؟ قال: ((أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونني؟))، قالوا: بلى، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

هذا، فحروف التهجي لا معنى لها في نفسها قطعاً، فليس في القرآن شيء مما يرد في كلام العرب لمعنى وليس له معنى، لا يوجد فيه حروف معانٍ ليس لها معنى، ولا يوجد فيه أسماء ولا أفعال ولا تراكيب ليس له لها معنى، قال صاحب مراقي السعود:

ولم يكن في الوحي حشو يقع..

يقول -رحمه الله- في معنى: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}: اختلف المفسرون في معنى الإحكام؛ وبناءً على ذلك وقع الاختلاف في معنى {ثُمَّ} هل هي للترتيب، يعني الترتيب من حيث الوقوع، حصل كذا ثم بعد ذلك حصل كذا، من أهل العلم من يقول: {أُحْكِمَتْ} أي إن أولها محكم، ذكر فيه هذه القضايا الكلّية، أمرهم بالاستغفار والتوبة وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك فصّل بما حصل بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعدائه، وما حصل لأعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فقالوا: هذا التفصيل، فعلى هذا التفسير تكون {ثُمَّ} للتعقيب، يعني أن أولها أحكم ثم بعد ذلك جاء التفصيل فيما وقع بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين هؤلاء الكفار، ومن أهل العلم من فسر الإحكام بمعنى أنها لم تنسخ، ومن أهل العلم من ذكر لها معنى آخر في الاستعمال كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، لكن المشهور أنها ترجع إلى معنى المنع، فإذا قلت: الحكمة، فهي صفة تمنع صاحبها ومن تحقق بها من الشطط في القول، والخطل في الرأي؛ ولذلك يقولون: الحكمة هي الصواب في القول والعمل، وإذا قلت: هذا الكلام محكم، بمعنى أنه منع منه النقص والعيب والخلل في ألفاظه وفي معانيه، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، فالله -عز وجل- وصف القرآن بأنه محكم، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} [سورة الزمر(٢٣)]، ووصفه بالتشابه يعني يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والفصاحة، ووصفه أيضاً بأنه محكم باعتبار أنه في غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام، لا يتطرق إليه عيب ولا نقص ولا خلل لا في ألفاظه ولا معانيه، وقال في آل عمران {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [سورة آل عمران(٧)]، فالمحكمات هي التي تقابل الآيات المنسوخة، ومن أهل العلم من نظر إلى هذا وقال: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} أي: لم تنسخ، ومنهم من نظر إلى أصل المعنى اللغوي من الإحكام، كما ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-؛ لأن الإحكام الذي يقابل النسخ هو معنىً خاص، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، محكمة في لفظها يعني أن لفظها في غاية الإحكام، بالغٌ في الفصاحة والبلاغة غايته، لا يتطرق إليه خلل في تراكيبه ولا في ألفاظه، ليس فيه لفظ ينبو عنه السمع، ولا يعاب، ولا يتطرق إليه لحن أوخلل، ومن جهة المعنى أيضاً ليس فيه تناقض وتعارض؛ ولهذا نفى الله -عز وجل- عنه الريب بقوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة(٢)]، ولا يدعو للريب، وإنما يدعو إلى كمال اليقين، وفيه كمال اليقين.

و{ثُمَّ} في قوله: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} ليست للترتيب والتعقيب، فمن جهة الوقوع حصل الإحكام ثم بعد ذلك حصل التفصيل، وتكون للترتيب في مثل {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، أي: استغفروا ربكم ومع ذلك توبوا إليه، كما قال تعالى أيضاً: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة البلد(١٧)] يعني: فوق ذلك؛ لأن الإيمان أصلاً يكون سابقاً، وقوله: {فُصِّلَتْ} أي: معانيها، و{أُحْكِمَتْ} ألفاظها، يقول: "**هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير**"، وإن كانت عبارة مجاهد وقتادة تختلف بعض الشيء عما ذكره الحافظ ابن كثير

لكن عند التأمل هي ترجع إلى هذا المعنى، وقول ابن جرير –رحمه الله: إنها أحكمت ألفاظها يعني من الباطل منعت، ثم فصلت بالأمر والنهي تشبه عبارات بعض السلف، وابن كثير -رحمه الله- يقول: "**محكمة في لفظها مفصلة في معناها**"، وكلام ابن كثير لا يعارض هذا ولا يعارض الأقوال التي أشار إليها عن السلف، وكلامه مجمل، إذا كانت محكمة في لفظها فمعنى ذلك أنها منعت من الباطل، في عبارات قوية فصيحة رصينة محكمة، والمعاني مفصلة، المعاني فيها الأمر والنهي، كما قال ابن جرير، فيها القصص والأمثال، فيها الأخبار، والتفاصيل التي تتعلق بالعقائد، صفات الله -عز وجل-، دلائل القدرة والوحدانية، وما أشبه ذلك من الأمور، كل هذا من التفاصيل التي جاءت في هذا القرآن، واختاره ابن جرير -رحمه الله-.

يقول: **{مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}** بعض أهل العلم يقول: **{أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّـــهَ}** مفعــول لـــه، حذفت منه اللام، يعني ،**{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}** لئلا تعبدوا إلا الله، وهذا القول له وجه مـــن النظـــر، وبعضهم يقول: إن "أنْ" هذه في **{أَلاَّ تَعْبُدُوا}** مفسرة، و "أن" المفسرة هي التي تأتي بعد القول الذي لـــم تـــذكر حروفه أي إذا ذكر بمعناه تكون همزة "أن" مفتوحة كقوله: **{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْـــرَةً وَعَـــشِيًّا}** [ســـورة مريم(١١)]، فكلمة أوحى فيها معنى القول، وإذا ذكر القول بحروفه تأتي همزة "إن" مكسورة كقـــول الله: **{قَـــالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ}** [سورة مريم(٣٠)]، وقوله: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء}** [سورة البقرة(٦٩)]، فالتفـــصيل فيـــه معنى القول، فمن نظر إلى هذا قال: إن "أنْ" هذه هي المفسرة، **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُـــصِّلَتْ}**، ثـــم جـــاء تفسير هذا التفصيل أو الإحكام أو هما معاً **{أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}**، وبعضهم يقول: **{كِتَابٌ أُحكِمَتْ آيَاتُـــهُ}**، بـــألا تعبدوا إلا الله، وهذا قول الكسائي، وابن جرير يقول قريباً من هذا القول، لكنه يجعل ذلك مرتبطاً بالتفـــصيل، **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}** بألّا تعبدوا إلا الله، وقيل غير هذا.

وقوله: **{فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** يعلم بعواقب الأشياء، وخباياها وخفاياها، فـــلا يتطـــرق إلـــى تفـــصيله وإحكامه وأمره ونهيه شيء من الشك؛ لأن الإنسان عادة يرتاب ويشك من إحدى جهتين حينما يؤمر بـــشيء، إما أنه يتخوف من جهة نقص العلم، أن الذي أمره معلوماته قد تكون خطأ، لأن هذا الشيء الذي أمر به فـــي نفسه غير صحيح، أو يتخوف من جهة الحكمة، قد يكون هذا الشيء الذي تقوله الآن صحيحاً لكن لـــيس فـــي هذا الوقت، مع أنه في نفسه حق، لكن الله -عز وجل- لا يرِد عليه لا هذا ولا هذا، لا نقص في العلم ولا في الحكمة، فهو يضع الأشياء في مواضعها، ولذلك إذا أمر بشيء ينبغي أن يُتلقى مباشرة، بكل ثقـــة، ولا يقـــال: هذه ما تصلح، هذه تؤدي إلى مفاسد، هذا يمكن أن يرد في كلام الناس، غير الوحي تقول فيه: قد يخطئ فلان فهم القضية، قد يقول كلاماً حقاً لكن لا يصلح لفلان من الناس، لا يصلح للبيئة الفلانية، لا يصلح لكذا..

قال ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **{أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}** "أي: **نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}" [سورة الأنبياء(٢٥)]**، وهذا تفسير جيد، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فجاء الأمر بالتوحيد وغيره، لكنه ذكر التوحيد لأن كل ما يذكر من الأمر والنهي عائد إليه، فيذكر القصص والأمثال وغير ذلك، من أجل أن يتعظوا ويعتبروا وينقادوا ويستجيبوا لله -تبارك وتعالى- إذا دعاهم لعبادته، وما يذكره من أسمائه وصفاته ودلائل قدرته كل ذلك راجع إلى التوحيد، ولهذا قال الشافعي -رحمه الله-: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع

السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح لأسماء الله وصفاته"، ولهذا قيل: إن سورة الفاتحة ترجع إليها جميع معاني القرآن، وأن جميع معاني الفاتحة ترجع إلى قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة(٥)]، وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} هو عين التوحيد، فرجع إلى التوحيد، ولهذا قال شارح الطحاوية: إن التوحيد هو أول الأمر وآخره. وقوله: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} من أهل العلم من يقول: يستغفرون عما مضى ويتوبون في المستقبل، وقيل غير ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، أصل الإمتاع الإطالة؛ ولهذا تقول: متّعنا الله بك، يعني أطال الله بقاءك ونفْعك، فهذا أصل الإمتاع، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، "متاعاً حسناً" يعني الحياة الطيبة الكريمة وطيب العيش، وسعة الرزق، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، **قال: "أي في الدنيا"**، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، أي: الموت، وبعضهم يقول: إلى القيامة، والأقرب أنه إلى الموت؛ لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وعندئذ يلقى جزاءه بعد ذلك، {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}، كقوله تعالى كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل(٩٧)] يعني: بعضهم قال: في الدنيا، وبعضهم قال في الآخرة، ولا مانع أن يكون ذلك جميعاً في الدنيا والآخرة، فالحياة الطيبة تحصل له في الدنيا وتحصل له في الآخرة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"[٤]، فهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهذه الآية نظير قول هود -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} [سورة هود(٥٢)]، فزيادة القوة وإدرار الأرزاق في الدنيا، من قوله: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [سورة الأعراف(٩٦)]، وكذلك في قول نوح -صلى الله عليه وسلم-: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [سورة نوح(١٠-١٢)]، هذا كله من المتاع الحسن الذي يكون في الدنيا، وما يعقبه في الآخرة من الجنة والنعيم.

{أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة هود(٥)].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، روى البخاري من طريق ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قرأ: "أَلا إِنَّهُمْ تَثْنوني صُدُورُهُم"، فقلت: يا أبا العباس ما "تَثْنوني صُدُورُهُم"؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي، أو يتخلى فيستحي، فنزلت: "أَلا إِنَّهُمْ تَثْنوني صُدُورُهُم"[٥]، وفي لفظ

---

٤ - انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/١٨٠)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، للكرمي (٣٤).

٥ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٥)، كتاب التفسير، باب {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

آخر له قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم[٦].

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَسْتَغْشُونَ} يغطون رءوسهم[٧].

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس في سبب النزول له حكم الرفع؛ لأنه بلفظ صريح، والمعنى أن هؤلاء الناس **{يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ}**: يعني حياءً من الله -عز وجل- ليكون ظهره حائلاً بين عورته وبين السماء، يستحي من الله -عز وجل- فينزل ظهره حينما يقضي حاجته، أو حينما يريد أن يجامع فهو يستحي من الله -عز وجل- أن ينظر إلى عورته وهذا لجهلهم، فالله -عز وجل- لا يخفى عليه من أمرهم خافية، فرد الله -عز وجل- عليهم لفعلهم هذا: **{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ}** يعني: حينما يلتحف في فراشه، الله -عز وجل- يعلم ماذا يحصل تحت هذا اللحاف، وما يتلجلج في نفسه **{يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}** [سورة النحل(٢٣)]، لا يخفى عليه خافية، فهذا معنى، وذكر هذه القراءة: "**أَلا إِنَّهُمْ تَثْنوني صُدُورُهُم**"، تثنوني يعني تنثني صدورهم، وهي قراءة غير متواترة، وفيها قراءات أخرى غير متواترة، وبعض أهل العلم حملها على المنافقين، لكن هذه السورة مكية، ولم يكن في أهل مكة نفاق، وقال بعضهم: هذه في المنافقين إذا رأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- استغشوا ثيابهم، فيغطون وجوههم؛ لئلا يراهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فيدعوهم إلى الإيمان، كما قال نوح -عليه الصلاة والسلام- عن قومه: **{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}**[سورة نوح(٧)]، **{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}** إصراراً ألا يسمعوا، **{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}** يعني: غطوا وجوههم ورءوسهم بهذه الثياب، من أجل أن لا يروه -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: إنهم يفعلون ذلك لشدة بغضهم له، لا يحبون رؤيته؛ لأن البغض إذا كان قوياً مستحكماً فإن الإنسان لا يطيق معه النظر إلى من يبغضه، وبعض أهل العلم يقول: **{أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}** العرب تعبر بمثل هذا ويقصد به الإعراض، فإذا رأوه حادوا ومالوا عنه؛ لئلا يسمعوا كلامه، حمله بعض أهل العلم على هذا المعنى، معنى الانحراف، وبعضهم قال: **{يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ}** كناية عما يطوونه في صدورهم ويكنونه في قلوبهم، وتنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والتكذيب، والضمير في قوله: **{لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}** يحتمل أنه يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يستغشون ثيابهم إذا رأوه من شدة البغض ليستخفوا منه، أو يستغشونها من أجل ألا يوجِّه خطاباً لهم؛ لئلا يأمرهم بالإيمان ويدعوهم، ويحتمل أن يكون الضمير يرجع إلى الله -عز وجل- على المعنى الذي ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مثلاً، أنه **{لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}** أي: من الله حينما يميل بظهره فيظن أنه يستر عورته عن الله -جل جلاله-، وكذلك قول من قال: إن ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر يظنون أنه يخفى على الله -عز وجل-، ويحتمل أنه يقصد به استخفاء ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا حمله بعضهم على المنافقين، قال: الكفار

---

٦ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٤)، كتاب التفسير، باب **{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}**.

٧ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٦)، كتاب التفسير، باب **{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}**.

ما كانوا يكنّون هذا ويخفونه بل يجاهرون بالعداوة والكفر، ويعلنون ذلك صراحة، إنما كان الذي يخفيه هم أهم النفاق، فإذا حملنا الآية على المعنى الذي ورد فيه سبب النزول فيمكن أن يكتفى به، وإن كان ورد بعض الروايات لكنها لم تصح في مثل ما ذكر بأنهم كانوا إذا رأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- غطوا، لكن لا يصح شيء في هذا، وابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على أن {يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} إشارة إلى ما ينطوي فيها من الكفر والتكذيب، وإذا صحت هذه الرواية -الرواية التي أوردها في سبب النزول وهي صحيحة- فيكفي هذا -والله أعلم- في تفسير الآية.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، أي: بما يجول في القلوب، وما يوجد فيها من الخوف والكفر أو الإيمان أو نحو هذا.

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة هود(٦)]، **أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها، بحريّها وبريّها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا} أي: حيث تأوي، {وَمُسْتَوْدَعَهَا}: حيث تموت، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كقوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}** [سورة الأنعام(٣٨)]، **وقوله: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}** [سورة الأنعام(٥٩)].

قوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}، الدابة: كل ما يدب على الأرض، هذا في أصل معناها في اللغة، {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}، بعضهم يقول: المستقر في الأصلاب، والمستودع في الأرحام، وبعضهم يقول: المستقر في الأرض أي على ظهرها، والمستودع في باطنها، إلى غير ذلك من الأقوال، فقوله: {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} قيل: المستقر في الأصلاب، يعني هذه الدواب، {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا}، قال: أي في الأرحام أو ما يقوم مقامها كالبيضة مثلاً، وبعضهم يقول هنا كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إنه يعلم مستقرها ومستودعها أي: يعلم أين منتهى سير هذه الأشياء، فحينما تنطلق الطيور من أوكارها، والدواب تخرج من جحورها ونحو ذلك فهي حينما تنطلق الله -عز وجل- يعلم منتهى ذلك، يعلم مستقرها أين تصل، أين تذهب، أين تجيء، أين تكون، حينما تقع على الأشجار أو على الجبال أو غير ذلك، {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا} أين تكون، ومنتهى سيرها، {وَمُسْتَوْدَعَهَا} المكان الذي تأوي إليه، كل ذلك يعلمه، كل ما يصدر منها من حركة وانتقال فالله -عز وجل- قد أحاط به وعلمه لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهذا معنىً جيد ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أين تأوي إليه من وكرها ومستودعها، وذكر "**عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مُسْتَقَرَّهَا} أي: حيث تأوي، والمستودع قال: حيث تموت**"، وهذا قال به ابن جرير -رحمه الله-، فالله -عز وجل- جعل الأرض مستودعاً لهذه المخلوقات، ثم يبعثهم الله -عز وجل- منها، ويدل عليه حديث أبي عزة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا قضى الله

لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة، أو قال: بها حاجة))[٨]، فتقول: هذا ما استودعتني، {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}، -والله أعلم-.

{كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} أي: يبين عما فيه من عددها وأرزاقها وحركاتها وسكناتها، وتفاصيل كل ما يتعلق بها، كما في الآية الأخرى {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}، قوله: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}، الراجح فيه: اللوح المحفوظ.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}

[سورة هود(٧-٨)].

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقبلوا البشرى يا بني تميم))، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، قال: ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن))، قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان، قال: ((كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء))، قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران انحلت ناقتكم من عقالها، قال: فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي[٩].

وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري[١٠] ومسلم[١١] بألفاظ كثيرة.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان

---

٨ - رواه الترمذي برقم (٢١٤٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها، وأحمد في المسند من حديث مطر بن عكامس -رضي الله عنه- (٣٦/٣٠٨) برقم (٢١٩٨٣)، وقال محققوه: صحيح لغيره، والحاكم في المستدرك (١/١٠٢)، برقم (١٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٢١).

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٣/١٠٨)، برقم (١٩٨٧٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

١٠ - رواه البخاري برقم (٣٠١٩)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم(٢٧)]، بلفظ أن عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: "دخلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال ((اقبلوا البشرى يا بني تميم))، قالوا قد بشرتنا فأعطنا مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم))، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر قال: ((كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض))، فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها".

١١ - رواه الإمام مسلم بمعناه برقم (٢٦٤٨)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

عرشه على الماء))[١٢]**. وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله -عز وجل-: أَنفِق أُنفِق عليك))، وقال: ((يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سَحّاءَ الليل والنهار))، وقال: ((أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغضِ ما في يمينه، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع))**[١٣]**.**

اختلف أهل السنة والجماعة في أول المخلوقات فقال بعضهم: إن أول المخلوقات كان العرش، ومنهم من يقول: القلم لحديث: ((أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب))[١٤]، فيحتمل أن الله -تبارك وتعالى- أول ما خلق القلم قال له: اكتب، وليس المراد بأنه أول المخلوقات فهي أولية نسبية، ومن أهل العلم من يقول: إن العرش أول المخلوقات، ويستدلون بهذه الآية والأحاديث المتقدمة، والستة الأيام من أهل العلم من يقول: إنها بحساب الله –عز وجل-: **{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [سورة الحـــج(٤٧)]، وبعضهم يقول: ليس الأيام التي عندنا، باعتبار أن هذه الأيام إنما وجدت بعد الشمس والقمر والسماوات الأرض، وحينما ذكر الله -عز وجل- هذا المعنى **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}** لم يكن هناك لا شمس ولا قمر، ويمكن أن يكون ذلك بحسابها وتقديرها -ولا مانع من هذا- في ستة أيام، والخلق بدأ يوم الأحد ثم بعد ذلك إلى يوم الجمعة، في يوم الجمعة خُلق آدم، وفيه اكتمل الخلق، وهو أحد المعاني في سبب تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم، لاجتماع الخلائق، يعني اكتمل خلقها في يوم الجمعة، أو لأنه اجتمع فيه خلق آدم، وقيل غير ذلك، فيمكن أن يكون ذلك بحسابها وإن لم يكن هناك شمس ولا قمر، ويوجد في الجنة يوم الجمعة، وورد في طوبى أن الراكب يمشي في ظلها مسيرة كذا، ولا يوجد شمس، فهذه المعاني التي جاءت عن الله -عز وجل- كلها حق، ولا يشترط أن يكون الظل من شمس، تقول: مشينا في ظل القمر، فالأنوار قد يوجد ما يحول بين الإنسان وبينها، فيوجد تحته ما يمكن أن يشبه الظل أو يكون ظلاً، فمثل هذه الأمور أخبر الله -عز وجل- عنها، وكلها حقائق ثابتة.

وقوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي: خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص(٢٧)]، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [سورة المؤمنون(١١٥-١١٦)]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات(٥٦)] الآية.

وقوله: {لِيَبْلُوَكُمْ} أي: ليختبركم، {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله -عز وجل- على شريعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

---

١٢ - رواه مسلم برقم (٢٦٥٣)، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام.

١٣ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٧)، كتاب التفسير، باب قوله **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء}** [سورة هود(٧)].

١٤ - رواه أبو داود برقم (٤٧٠٠)، كتاب السنة، باب في القدر، والترمذي برقم (٣٣١٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ن، وأحمد في المسند (٣٧٨/٣٧) برقم (٢٢٧٠٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠١٧).

الله -عز وجل- خلق الخلق من أجل إحسان العمل كما في قوله تعالى: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، ولم يقل: أكثر عملاً، فالعبرة ليست بالكثرة، وإنما العبرة بإتقان العمل، وهذا ينبغي أن يعتبر به الإنسان في كل أمر من أموره.

قوله: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي: ليختبر صبركم وعملكم وبذْلكم، وكل ما يصدر منكم، فالله -عز وجل- جعل هذه الدنيا داراً للابتلاء يبتلي بها خلقه فيتمايزون ويتفاضلون فيها غاية التفاضل والتمايز، فيظهر منهم من ينافق إما ابتداءً وإما لعارض حصل من شدة نزلت به أو نحو ذلك فيحصل له نوع نفاق، ومنهم من يحصل له ردة وتكذيب، ومنهم من يحصل له شك، ومنهم من يثبت إيمانه، {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب(٢٢)]، كل هذا يحصل للناس في هذه الحياة.

وقوله: {وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ} الآية، يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة الزخرف(٨٧)]، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة العنكبوت(٦١)]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم(٢٧)]، وقال تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان(٢٨)]، وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَن سحرتَه، فهو يتبعك على ما تقول.

ويحتمل أن يكون {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي: هذا الذي تقوله باطل كبطلان السحر، لكن هذا لا يظهر كل الظهور؛ لأنه جعله هنا بمنزلته، يعني مشبهاً به، وهنا الآية ظاهرها {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ}؛ لهذا قال بعضهم: إن اسم الإشارة "هذا" يرجع إلى القرآن، {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ} ، وهذا كثير في القرآن، أخبر عن مقالتهم في القرآن أنهم قالوا فيه: سحر، وقيل: إن اسم الإشارة يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار قراءة أخرى متواترة، قراءة حمزة والكسائي {إِنْ هَذَا إِلاَّ سَاحِرٌ مُّبِينٌ}، فقراءة {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ} يمكن أن يكون المراد بها القرآن ويدخل فيه ما جاء من الإخبار عن البعث، فهذا الذي جئت به سحر مبين، وعلى القراءة الأخرى يكون ذلك موجهاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} الآية، يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً {مَا يَحْبِسُهُ} أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبقَ لهم محيص عنه ولا محيد.

الأَمّ: القصد، تقول: أَمّ نحو كذا بمعنى قصد، و{إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} يعني إلى مدة قصدهم بالعذاب مثلاً، {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} هذا إذا ربطناها بأصل المعنى اللغوي، {إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} إلى مدة زمنية محدودة معدودة قليلة {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}.

والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: {إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ}، وقوله في يوسف: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [سورة يوسف(٤٥)].

لفظ الأمة من قبيل الألفاظ المشتركة، والمشترك: هو اللفظ الواحد الذي له معانٍ متعددة، وهذا الذي يسمونه بالوجوه والنظائر، فالأمة تأتي لمعانٍ متعددة في القرآن، يقول: متعددة فيراد بها الأمد، يعني المدة الزمنية.

وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل(١٢٠)].

باعتبار أنه يؤتم به، يقتدى به، أو باعتبار أنه جامع، فهو جامع للخصال والأوصاف الكاملة التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه، ولا منافاة بينهما.

وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [سورة الزخرف(٢٣)]، وتستعمل في الجماعة كقوله: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [سورة القصص(٢٣)].

الجماعة إما مطلقاً كقوله: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً} يعني: جماعة من الناس، وإما الجماعة المتفقة أو المجتمعة على دين واحد، كما في قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة البقرة(٢١٣)]، يعني: مجتمعة على دين واحد، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران(١١٠)] الأمة المجتمعة على الإسلام، على توحيد الله -عز وجل- واتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا، فهي الجماعة: تارة مطلقاً {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ} جماعة من الناس يسقون، أو الجماعة المجتمعة على دين.

وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [سورة النحل(٣٦)]، وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [سورة يونس(٤٧)]، والمراد من الأمة هاهنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[١٥]، وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، وفي الصحيح: ((فأقول: أمتي أمتي))[١٦].

يعني أن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- تنقسم إلى قسمين، أمة إجابة، وهم الذين اتبعوه وأسلموا وآمنوا، وأمة دعوة، وهم كل من وجهت إليهم الدعوة، فاليهود والنصارى الموجودون الآن وأهل الأوثان وغيرهم هؤلاء كلهم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، يعني أمة الدعوة، الذين خوطبوا بالدعوة، فهم كلهم من أمته.

وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [سورة الأعراف(١٥٩)]، وكقوله: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} الآية.

---

١٥ - رواه مسلم برقم (١٥٣)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)) كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة.

١٦ - جزء من حديث رواه مسلم برقم (١٩٣)، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها.

الطائفة والجماعة مما يرجع إلى معاني الأمة، وهي تأتي بأربعة معانٍ على المشهور: بمعنى المدة الزمنية، والرجل المقتدى به، الجامع لخصال الخير، والجماعة من الناس بفرعيها مطلقاً، أو المجتمعة على دين وملة واحدة -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(٩ - ١١) سورة هود].

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة -إلا من رحم الله من عباده المؤمنين- أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم يرَ خيراً ولم يرجُ بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} أي: فرح بما في يده بطر، فخور على غيره.

قال الله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: على الشدائد والمكاره، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: في الرخاء والعافية، {أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: بما يصيبهم من الضراء، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: ((والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه))[1]، وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن))[2]؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [(١-٣) سورة العصر]، وقال تعالى: {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } [(١٩) سورة المعارج]، الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ}** [(٩) سورة هـود]، اللام هي الموطئة للقسم، والإذاقة تدل على أن أدنى ما يحصل للإنسان من ذلك يؤثر عليه، والإنسان جنس يشمل، أو يصدق على الإنسان من حيث هو ولا يختص ذلك بالكافر، ومن أهل العلم من قال: المقصود به الإنسان الكافر؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}**، ثم إن الله استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات، فقال: **{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}** [(١١) سورة هود].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى (٥ / ٢١٣٧)، برقم (٥٣١٨)، ولفظه: ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)).

[2] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٤ / ٢٢٩٥)، برقم (٢٩٩٩)، ولفظه: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)) .

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [(١٠) سورة هود] المقصود بالفرَح في هذه الآية الفرَح المذموم كما قال المشفقون الناصحون لقارون: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [(٧٦) سورة القصص]، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} [(٣٧) سورة الإسراء] وهذا الفرَح هو الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر والتعالي في الأرض.

قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(١١) سورة هود]، "أي: **على الشدائد والمكاره**"، ولا يختص الصبر بالصبر على الشدائد والمكاره فقط، بل الصبر على طاعة الله –عز وجل- داخل في معنى هذه الآية؛ لأن الإنسان إذا أصابه الغنى فإن ذلك يحمله غالباً على ترك الطاعة وفعل المعصية، ولهذا تكلم العلماء في الغنيّ الشاكر هل أفضل أو الفقير الصابر؟ والواقع أن هذه المسألة بهذا العرض فيها شيء من اللبس؛ لأن الغنيّ يحتاج إلى الصبر ولربما يحتاج إلى أكثر من صبر الفقير.

قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، [(١٢-١٤)سورة هود].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر تعالى عنهم في قوله: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} [(٧- ٨) سورة الفرقان]، فأمر الله تعالى رسوله -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدرُه، ولا يصدنّه ذلك ولا يثنينَّه عن دعائهم إلى الله -عز وجل- آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [(٩٧) سورة الحجر] الآية، وقال هاهنا: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ} [(١٢) سورة هود] أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله -عز وجل-.

قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [(١٢) سورة هود] ضائق اسم فاعل وهو يدل على أن هذا الضيق عارض وحادث، وقد فرق بعض أهل العلم بين التعبير باسم الفاعل وبين التعبير بالصفة المشبَّهة مثل ضيّق، فالصفة المشبَّهة تدل على اللزوم، واسم الفاعل يدل على العروض والحدوث، فهذا الضيق الذي يحصل للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو ضيق عارض بسبب التكذيب، تكذيب قومه، فيضيق صدره بسبب ذلك، وهذا يختلف عن قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام]، فلكون الضيق ملازماً للإنسان البعيد عن الله –تبارك وتعالى-ولا يفارقه عبر عنه بـ{ضَيِّقًا}، وأما

الضيق العارض فعبر عنه بـــ{ضَائِقٌ}، وهذا من سعة اللغة العربية ودقتها، وأفانينها، فتجد اللفظة الواحدة يعبر بها مع اختلاف يسير في الحروف وتدل على معانٍ دقيقة في كل استعمال.

وتأمل قول الله –تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [(٢) سورة الحــج] فهناك فرق بين مرضعة ومرضع، فالمرضعة هي التي تقوم عملياً بالإرضاع وتباشر إرضاع طفلها، والمرضع هي من كانت صفتها الإرضاع، فلم يقل الله -عز وجل-: تذهل كل مرضع؛ لأن المرأة قد تذهل عن ولدها لأمر ما كأن تكون بعيدة عنه، ولا تذهل عن ولدها وهي تقوم بإرضاعه إلا لأمر عظيم؛ لأن أعظم حالات مشاعر الأمومة عند المرأة -وتفيض من جميع جسدها وقلبها يمتلئ بذلك- في حال الإرضاع.

ومعنى قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ}، أي: هل أنت تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك مخافة أن يقولوا كذا وكذا؟.

قوله –تبارك وتعالى-: {أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ} أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا، و{لَوْلاَ} للتحضيض بمعنى هلا.

ثم بيّن تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} [(١٤) سورة هود] **فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه، {وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٤) سورة هود].

قوله –تبارك وتعالى- {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، "أم" بمعنى بل والهمزة، والمعنى بل أيقولون افتراه؟ هذا هو التحدي الأوسط فيما يتصل بالقرآن، فقد تحداهم الله –تبارك وتعالى- أن يأتوا بكتاب مثل القرآن فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

قوله: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} [(١٤) سورة هود] الضمير في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ} يرجع إلى الكفار، وقوله {لَكُمْ} يحتمل أن يكون المراد بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- وجاء بصيغة الجمع على سبيل التفخيم والتعظيم له -صلى الله عليه وسلم- لأن الكلام كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [(١٢) سورة هود] ، والعرب قد تخاطب الواحد خطاب الجماعة، ويحتمل أن يكون المقصود هو النبي –صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان؛ لأنهم تبع للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ويحتمل أن يكون الخطاب في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} للكفار والضمير في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ} يرجع إلى الاسم الموصول في قوله: {وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ} [(١٣) سورة هود]، أي: هؤلاء الذين تدعونهم ليأتوكم بمثل هذا القرآن ويعينوكم عليه أيها الكفار، إن لم يستجيبوا لكم {فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ} [(١٤) سورة هود]، أي: أن نزوله متلبس بعلم الله، وهذا الذي قاله ابن جرير، ولعل الأقرب -والله أعلم- أن الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأهل الإيمان.

قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٥- ١٦) سورة هود].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى: أوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله للتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين.

وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى.

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبيته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاءً، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وقال تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [(١٨-٢١) سورة الإسراء]، **وقال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}** [(٢٠) سورة الشورى].

قوله -تبارك وتعالى-: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [(١٥- ١٦) سورة هود].

اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية، فحملها بعضهم على الكفار؛ لأن الإنسان لا يخلوا من إرادة للحياة الدنيا وزينتها وقد قال عن أهل بدر وهم خيار أهل الأرض: **{تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ}** [(٦٧) سورة الأنفال]

ومن أهل العلم من حملها على أهل الرياء؛ ولهذا لما حدّث معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- بحديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة فبكى معاوية -رضي الله عنه- بكاءً شديداً، حتى ظنوا أنه هلك من شدة البكاء، ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال صدق الله ورسوله **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}** [(١٥) سورة هود][٣].

فحملها معاوية -رضي الله عنه- على أهل الرياء، ولا يعنى هذا أن أعمال أهل الرياء تحبط جميعاً، بل يعذبون على قدر معصيتهم، أو تكون لهم حسنات ماحية، ولا يخلدون في النار إلا إذا وقع الرياء في أصل الإيمان.

---

3 - رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤ / ٥٩١)، برقم (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

ومن أهل العلم من قال: معنى هذه الآية من كانت الدنيا غايته وطلبته ومنتهى مناه، فإنه لا يعمل إلا من أجلها، فمن أجلها يقوم، ومن أجلها يقعد، ومن أجلها يعطي ومن أجلها يمنع، فهذا ليس له في الآخرة إلا النار، ولهذا جاء في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وذكر الآية.

وقوله –تبارك وتعالى- {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ} [(١٥) سورة هود]، يعني: من كان يريد الحياة الدنيا تُوفّ كاملة إليه ولا يبخس منها شيئاً، وهذه الآية كقوله: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [(٢٠) سورة الشورى]، ومثل قوله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [(١٤٥) سورة آل عمران]، وهذه الآيات مطلقة ورد تقييدها في سورة الإسراء: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} [(١٨) سورة الإسراء]، ولذلك أكثر الخلق ليس لهم همٌّ إلا الدنيا وهم فقراء.

(مسألة)

من الكتب التي تعتني بالجوانب البلاغية كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وهو من أحسن الكتب في هذا الباب، ومن أراد الاطلاع على بعض الجوانب البلاغية في القرآن فليرجع إلى أشرطة للدكتور السامرائي ففيها نماذج كثيرة من البلاغة القرآنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٧) سورة هود].

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [(٣٠) سورة الروم] **الآية.**

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟))[1]، الحديث.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، فالمؤمن باق على هذه الفطرة))[2].

قوله: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [(١٧) سورة هود] **أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}** [(١٧) سورة هود] **وهو القرآن بلغه جبريل -عليه السلام- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وبلغه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أمته.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}** [(١٧) سورة هود]، الذي هو على بينة من ربه هو من كان على الفطرة، والشاهد هو الوحي وهو القرآن والمراد بقوله: **{عَلَى بَيِّنَةٍ}** أي: أن الله أودع في هذا الإنسان الفطرة، فاجتمع نور الفطرة مع نور القرآن، فأبصر الحق، ولم يلتبس عليه.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥)، برقم (١٣١٩)، ورواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤ / ٢٠٤٧)، برقم (٢٦٥٨).

[2] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤ / ٢١٩٧)، برقم (٢٨٦٥).

وقوله: {وَيَتْلُوهُ} أي: يعقبه نور الوحي.

وقال بعض أهل العلم في قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هو طالب الآخرة، وبعضهم فسر هذه الآية بمعنى أخص، فقال: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هو النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} هو جبريل -صلى الله عليه وسلم-.

وقال بعض أهل العلم: الضمير في {يَتْلُوهُ} راجع إلى البينة، والضمير في {مِّنْهُ} راجع إلى القرآن، وقال بعضهم: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} أي: شاهد من الله، وقال بعضهم: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} أي: من الإنجيل، وذلك أن عيسى -عليه السلام- بشر بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا دعوة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وبشارة عيسى))[3]، والآية تحتمل جميع هذه الأقوال.

ثم قال تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} [(١٧) سورة هود]، أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى -عليه السلام- وهو التوراة.

وبعض أهل العلم قال في معنى قوله: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى}: يعني: ومن قبله شاهد آخر وهو كتاب موسى يشهد بصحة نبوته -عليه الصلاة والسلام-.

وفي قول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [(١٧) سورة هود]، مقدر وهو: خيرٌ أم ذلك الذي على ضلالة وكفر وإعراض وتخرص وجهل، وقول على الله بلا علم؟.

قوله: {إِمَامًا وَرَحْمَةً} [(١٧) سورة هود] أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٧) سورة هود]، ثم قال متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود]، أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[4].

وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- على وجهه إلا وجدت مصداقه -أو قال: تصديقه- في القرآن، فبلغني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))، فجعلت أقول:

---

3 - رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٥٣)، برقم (٣٥٦٦).

4 - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس (١ / ١٣٤)، برقم (١٥٣).

أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}، قال: من الملل كلها[٥].

وقوله: {فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٧) سورة هود] الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: {الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة]، وقال تعالى: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(١- ٢) سورة البقرة]، وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٧) سورة هود]، كقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف]، وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٠) سورة سبأ].

قوله: {فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٧) سورة هود] سبق الكلام على هذه المسألة، وقال بعض أهل العلم: هذا الخطاب لأمته -صلى الله عليه وسلم-.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ} [(١٨-٢٢) سورة هود].

يبيّن تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرِّز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: ((إن الله -عز وجل- يدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ})) [٦]. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

قوله -عز وجل-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} يعني: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وقوله: {أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ}، الأشهاد هم جميع الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر، والمعنى أن من كذب على الله سيفتضح في يوم القيامة، وتقول جميع الخلائق: {هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ}.

---

5 - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة هود (٢ / ٣٧٢)، برقم (٣٣٠٩).

6 - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: { أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٨) سورة هود] (٢ / ٨٦٢)، برقم (٢٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٨ / ١٠٥)، برقم (٧١٩١).

ومن أهل العلم من فسر الأشهاد بالرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومنهم من فسرهم بالملائكة، ومنهم من قال: الحفظة من الملائكة، يحفظون أعمال الناس ويشهدون عليهم بذلك، ومنهم من قال: الأشهاد يشمل الملائكة والرسل، وقال بعضهم: هذا يصدق على الملائكة والرسل والعلماء، فهؤلاء يشهدون على الناس، والله -عز وجل- يقول: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} [(٦٩) سورة الزمر]، والله -عز وجل- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [(٤١) سورة النساء]، فلا شك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يشهدون على أقوامهم، والملائكة الذين يتعاقبون في الناس، والذين يكتبون الأعمال من جملة الشهداء، والله -عز وجل- يقول: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [(١٨) سورة ق]، وقال: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ} [(٢٣-٢٥) سورة ق].

قوله: {أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٨) سورة هود] يحتمل أن يكون هذا القول من الأشهاد، ويكون الكلام من الموصول لفظاً ومعنى، ويحتمل أن يكون هذا القول من الله –تبارك وتعالى- والأقرب -والله أعلم- أنه من كلام الأشهاد؛ لأن الأصل في الكلام أن يكون متصلاً لفظاً ومعنى.

وقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(١٩) سورة هود] أي: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله -عز وجل- ويجنبونهم الجنة، {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، {وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [(١٩) سورة هود]، أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء} [(٢٠) سورة هود]، أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [(٤٢) سورة إبراهيم]، وفي الصحيحين: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))[7].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا}، أي: يريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، والضمير في {يَبْغُونَهَا} يرجع إلى السبيل، وهذه الآية بعموم لفظها تصدق على كل من صد عن سبيل الله -عز وجل- ومن ضلل الناس بكتاباته، وضاق ذرعاً بشرائع الإسلام فلبّس على الناس، وشككهم في دينهم، وضللهم وأغراهم بالفساد والشر والمنكر، ودعا المرأة إلى التمرد والاختلاط ومزاحمة الرجال، ونزع الحجاب، واستهزأ بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وجمعيات التحفيظ، والحفظة لكتاب الله، والدعاة إلى الله -تبارك وتعالى-.

ولهذا قال تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} [(٢٠) سورة هود] الآية، أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [(١٠) سورة الملك]، وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ

---

7 - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة هود (٤ / ١٧٢٦)، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٧)، برقم (٢٥٨٣).

زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [(٨٨) سورة النحل] الآية، **ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه.**

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه**"، هذا باعتبار قول الله -عز وجل-: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [(٤٢-٤٦) سورة المدثر]، ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة مسألة خلافية بين علماء الأصول.

ولا شك أن أهل النار يتفاوتون في العذاب، وقد قال الله –عز وجل-: {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٨) سورة الزلزلة].

قوله -تبارك وتعالى-: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] أي: لا يستطيعون السمع؛ لأنهم عُمي عن رؤية الحق، وصم عن سماعه، فلهم سمع لم ينتفعوا به، ولهم بصر لم ينتفعوا به.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} أنهم من شدة عداوتهم للنبي –صلى الله عليه وسلم- لم يكونوا يستطيعون السمع، فلا يتحملون أن يسمعوا كلامه، ولا يطيقون النظر إليه.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: قوله تعالى: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة **أن** معنى {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ}، أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى، وقد كانت لهم أسماع وأبصار. ويدل لهذا قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [(٢٦) سورة الأحقاف] الآية.

الثاني: وهو أظهرها عندي أن عدم الاستطاعة المذكور في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة التي جعل على أبصارهم. ويشهد لهذا القول قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [(٤٦) سورة الإسراء]، ونحو ذلك من الآيات.

وذلك الختم والأكنّة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: {بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [(١٥٥) سورة النساء]، وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(٥) سورة الصف]، وقوله: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [(١٠) سورة البقرة] الآية، وقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(١٢٥) سورة التوبة]، وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع أي: لشدة كراهيتهم لكلام الرسل، على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا، إذا كان شديد الكراهية والبغض له، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ

آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [(٧٢) سورة الحـج]، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} [(٢٦) سورة فصلت] الآية، وقوله: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} [(٧) سورة نوح] الآية.

الرابع: أن "مَا" مصدرية ظرفية، أي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا، أي: يضاعف لهم العذاب دائماً.

الخامس: أن "ما" مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم.

السادس: أن قوله: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلاً بقوله: {وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء} [(٢٠) سورة هود]، وتكون جملة: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} اعتراضية.

وقوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢١) سورة هود] أي: خسروا أنفسهم لأنهم أُدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [(٩٧) سورة الإسراء]، {وَضَلَّ عَنْهُم} أي: ذهب عنهم، {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تُجدِ عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [(٦) سورة الأحقاف]، وكقوله: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم، ولهذا قال: {لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} [(٢٢) سورة هود]، يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديّان وعقوبته، فـــ {لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ}.

قال الخليل بن أحمد وسيبويه: إن قوله: {لاَ جَرَمَ} كلمة واحدة بمعنى حقاً، وقال بعض أهل العلم: إن معنى {لاَ جَرَمَ}، أي: لابد، ولما كثر استعمالها صارت بمعنى حقاً، وبعضهم يقول: {لاَ جَرَمَ} بمعنى لا منْع، لا صرْف، وصارت تستعمل بمعنى حقاً.

(مسألة) من الموصول لفظاً والمفصول معنى قول الله -تبارك وتعالى-: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨١-٨٢) سورة الأنعام]

وقول الله -عز وجل-: {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [(٥١) سورة يوسف] إلى قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [(٥٢) سورة يوسف].

وقوله -عز وجل-: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [(٣٤) سورة النمل].

(مسألة) الفرق بين كلمة الخاسرين والأخسرين أن الأخسر أفعل تفضيل، أي أنه قد بلغ في الخسران غايته وأما الخاسر فليس كذلك، ولهذا جاء بضمير الفصل "هم" بين طرفي الكلام في قوله: {هُمُ الأَخْسَرُونَ}؛ لأن ذلك يفيد تقويته، ودخول "أل" يدل على أنهم حققوا الوصف الكامل من الخسارة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [سورة هود(٢٣-٢٤)].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون، ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسكٍ يعرقون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} ذكر الإخبات مع الإيمان والعمل الصالح، والإخبات من جملة الأعمال الصالحة؛ لأنه لا يخلو من أن يكون عملاً يتصل بالقلب أو يتصل بالجوارح، وفُسر الإخبات بالإنابة، وفسر بالخضوع، وفسره كثيرون بالخشوع، وفُسر بالسكون، وهي معانٍ متقاربة، وبعضهم قال: هو بمعنى الخشوع والطمأنينة، جمعاً بين الأقوال، وكبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- يفسره بالخشوع والتواضع، وهو قريب من الذي قبله، ومن أهل العلم من يرجع معانيه إلى التواضع والسكون كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وهذه المعاني لا منافاة بينها، فالمُخبِت يكون خاشعاً متواضعاً مطمئناً ساكناً، وعُدِّي بـــ "إلى"؛ لأن قوله: {وَأَخْبَتُوا} فعل ضُمن معنى فعل آخر يصح تعديته بهذا الحرف وهو "إلى"، وتضمين الفعل معنى الفعل أبلغ من القول بتضمين الحرف معنى الحرف، فـــ {وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} يكون قد ضمن معنى التواضع والطمأنينة، {وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} يعني سكنوا إلى ربهم، أنابوا إلى ربهم، تواضعوا إلى ربهم، -والله أعلم-.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ} أي: **الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به،** {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ} [سورة الأنفال(٢٣)] **الآية، وأما المؤمن ففطِنٌ ذكي لبيب بصير بالحق، يميّز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل**

يستوي هذا وهذا أفلا تذكرون؟، أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؟، كما قال في الآية الأخرى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر(٢٠)]، وكقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [سورة فاطر(١٩ - ٢٤)].

ذكر الله -عز وجل- أربع أوصاف، {كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ} وهذه الأوصاف ترجع إلى طائفتين لا إلى أربع طوائف، وذلك أن الواو عاطفة عطفت صفة على صفة لموصوف واحد، فالفريق الأول وهم الكفار كالأعمى والأصم، والصفات قد تتابع إما بالعطف بالواو أو بإسقاطها ويكون الموصوف واحداً، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى(١-٢)]، ولم يذكر الواو، {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}[سورة الأعلى(٣)] جاء بالواو {فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى(٣-٤)]، وقول الشاعر:

هو الملك القرن وابن الهمام *** وليث الكتيبة في المزدحم

كل هذا يرجع إلى موصوف واحد، والأمثلة على هذا كثيرة جداً في كلام الله -عز وجل- وفي كلام العرب. {كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ} هذا مثل لطائفة واحدة، وإذا كان موصوفاً بالصمم فمعنى ذلك أنه موصوف بأنه أبكم؛ لأن الإنسان إذا كان لا يسمع منذ نشأته وولادته فإنه لا يمكن أن يتكلم، فالصمُّ هؤلاء ليس بألسنتهم علة، وإنما العلة في أسماعهم، ولذلك إذا كان الصغير فيه بطءٌ في الكلام فإن أول ما يلتفت إليه هو السمع، فقد يكون سمعه ضعيفاً فلا يصل إليه كثير من الكلام الذي يقوله المتكلمون عنده، فيتأخر في الكلام، وإذا كان لا يسمع بالكلية فعندئذ لا يمكن أن يتكلم، فهذا الإنسان الذي لا يبصر ولا يتكلم ولا يسمع شيئاً كيف يكون تعلمه؟، والله -عز وجل- امتن على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، فالسمع والبصر ميزابان يصبان في القلب، هذا في عالم المشاهدات، وهذا في عالم الأصوات والمسموعات، إنما المعارف ترجع إلى هذا وهذا، يعني الإنسان إما أن يقرأ شيئاً أو يراه أو يشاهده أو يسمعه -وإن كان السمع أكثر من البصر- لكن إما يكون تحصيله من جهة السمع وإما من جهة البصر، فهذا لا سمع ولا بصر، فكيف يرى دلائل عظمة الله -عز وجل-، وكيف يسمع آياته؟، لا يمكن أن يحصل له شيء من ذلك، فهؤلاء بهذه المنزلة، الذين لا يفقهون عن الله -عز وجل-، ويعرضون عن آياته، هذا هو الصمم والعمى الحقيقي، وهو أعظم وأشد ممن ابتلاه الله -عز وجل- بحاسته، وقد يكون مؤمناً تقياً أعظم إيماناً وتُقىً من كثير من المبصرين الذي أعطاهم الله -عز وجل- آلة السمع وآلة البصر، كما هو مشاهد، فهنا هذه الوصفان الأولان لفريق الكفار، {كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ}، أعمى عن رؤية الحق ودلائله، وبراهينه، وآياته المشهودة الدالة على وحدانية الله -عز وجل-، وأصم لا يسمع الآيات، ولا ينتفع بها، والفريق الآخر البصير والسميع {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً}، والمقصود بالمثل الصفة؛ لأن المثل يأتي لمعانٍ متعددة منها الصفة كما في هذا الآية، وكما في قوله تعالى: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة الرعد(٣٥)] أي: صفة الجنة، وهو أحد الأقوال أيضاً في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة(١٧)] أي: صفتهم، والله أعلم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [سورة هود(٢٥-٢٧)].

يخبر تعالى عن نوح -عليه السلام-، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ فلهذا قال: {أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}.

وقوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة.

قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} الإرسال مضمن معنى القول، أي: أنه أرسله إليهم فقال لهم: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، ومعلوم أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بالبشارة والنذارة، فهو يبشر المؤمنين وينذر الكافرين، وهذا كثير في القرآن، واقتصر على الإنذار لأنه يمكن أن يكون من باب الاكتفاء، اكتفى بذكر أحد القبيلين أو الطرفين؛ ليدل بذلك على الآخر، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل(٨١)] أي: والبرد، وكقوله -تبارك وتعالى- في أحد الأقوال في تفسير الآية: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى(٩)] أي: وإن لم تنفع، فذكر أشرف الاحتمالين، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، ويمكن أن يكون ذكر الإنذار هنا باعتبار أن هؤلاء في غاية المكابرة، والإعراض، والجحود فهو ينذرهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا النذير العريان))[1]، فاقتصر على هذا، فتارة يحسن الإنذار وتارة التبشير وتارة الجمع بين هذا وهذا، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}، فهذا بدل من قوله: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}، وقيل غير ذلك، وأما قوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} فـ(إن) هنا تفيد التعليل، فهو يأمرهم وينهاهم خوفاً عليهم وشفقة من أن يمسهم عذاب الله -تبارك وتعالى-.

{فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ}: والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم.

الملأ هنا من الكافرين، وإلا فالملأ لا يلزم أن يكونوا كفاراً، فالملأ هم الأشراف والكبراء، وغالباً ما يكون هؤلاء هم أعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

{مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا} أي: لست بملَك ولكنك بشر، فكيف أُوحي إليك من دوننا.

هذه الآية كقوله: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [سورة المؤمنون(٤٧)] في موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، وقوله: {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء(٩٤)]، وقوله: {قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً} [سورة فصلت(١٤)]، والآيات في هذا كثيرة، فهم يتعجبون ويستنكفون أن يكون الله -تبارك وتعالى- قد بعث بشراً، فرد الله -عز وجل- عليهم في مواضع من كتابه فقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان(٢٠)]، وأخبر عن الذين بعثهم أنهم رجال يوحي إليهم، وكذلك أخبر أن الناس لا يطيقون مشاهدة الملَك فقال: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} [سورة

---

١ - رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- برقم (٦١١٧)، كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم برقم (٢٢٨٣)، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته.

الإسراء(٩٥)]؛ لأن الناس إن رأوا الملَك لم يستطيعوا الأخذ عنه، {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً}، وقال الله -عز وجل-: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً} [سورة الأنعام(٩)]؛ أي: لأجل أن يستطيعوا التلقي عنه، فالله -عز وجل- أعلم وأحكم، وليس لأحد أن يقترح على الله -تبارك وتعالى-.

ثم {مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك.

هذا كقوله -تبارك وتعالى- في قصة نوح -عليه الصلاة والسلام-: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [سورة الشعراء(١١١)]، فهم يستنكفون ويقولون: هؤلاء الأراذل هم الذين اتبعوك، وهؤلاء في مؤخرة الناس، وفي حاشيتهم، ليس لهم شأن ولا قيمة، فكيف سبقوا إلى هذا الذي جئت به، {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [سورة الأحقاف(١١)]، فنحن أهل العقول والنظر البعيد والتقدم في كل خير وفضيلة، فكيف يسبق إليك هؤلاء الأعبُد والبسطاء والأراذل الحقراء ويكون الذي جئت به هو الحق؟ يظنون أن المقاييس في اتباع الحق ومعرفته هي بما يملكه الإنسان من أموال، وما يتنعم به في هذه الحياة الدنيا، لكن الأمر عند الله -عز جل- يختلف عن هذا، وهذا الاستنكاف وقع في قوم نوح، ووقع أيضاً للذين بُعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا له: أبْعِد عنا، واطرد عنا هؤلاء النتْنى.

ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قالوا: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ}.

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في اتبعك هؤلاء الأراذل {بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: من غير تعمق ولا نظر ولا روية ولا فكر، وإنما دعوتهم إلى شيء فهرولوا خلفك، ليس عندهم عمق في النظر والتقصي والتفكير، والتمييز بين معدن الحق ومعدن الباطل؛ ولذلك اتهموهم ولمزوهم في بعض الآيات، ويدل عليه أنهم إنما اتبعوه لأشياء يريدونها فقط، ليأكلوا عنده طعاماً أو يجدوا عنده شيئاً من متاع الدنيا، ولم يكونوا مخلصين صادقين في اتباعهم لهذا النبي -عليه الصلاة والسلام-، هكذا في زعمهم؛ ولهذا يأتي الرد عليهم بأنه لا يعلم ما في نفوسهم، وأن حسابهم إلى الله -تبارك وتعالى-، طبعاً ويحتمل أن يكون المراد بقول: {بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: فيما يبدو لنا من النظر والرأي {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} أي: فيما يبدو لنا، فهم ليسوا بهذا المستوى من الأدب والتواضع حتى يتكلموا بهذه الطريقة.

{بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: في أول بادئ الرأي، {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلْق ولا خُلُق ولا رزق ولا حال لمّا دخلتم في دينكم هذا، {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح -عليه السلام- وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلْق ولا خُلُق ولا رزق ولا حال، لمّا دخلتم في دينكم هذا**"، أي: ما رأيناكم تميزتم حينما دخلتم في هذا الدين، ويمكن أن يكون المعنى: أنه ما

المؤهل لكم أن تتقدموا بهذا الفضل فتحصل لك النبوة والرسالة وأنت بشر لا نراك تتميز علينا، ولا نرى لهؤلاء الذين تزعم أنهم صاروا إلى الحق، لا نرى لهم أي فضل علينا، فهم يخاطبون النبي -عليه الصلاة والسلام- ومن معه من أهل الإيمان، فيقولون: ليس لكم منقبة ومزية حتى يحصل لكم مثل هذا الأمر الكبير الذي تقولون إنكم عليه، من أنك يوحى إليك، وأن الله اختارك من بين سائر الخلق، وأن هؤلاء الذين اتبعوك لهم المنازل العالية عند الله -عز وجل-، ما نرى شيئاً فضلكم علينا، لمّا دخلتم في الإيمان ما رأينا شيئاً حصل، {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} أنتم تقولون على الله هذا ولكن لا حقيقة له.

ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحقَّ ضعفاءُ الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} [سورة الزخرف(٢٣)].

كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في ما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم: {بَادِيَ الرَّأْيِ} ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق، والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيِيٌّ، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعون- إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

وقوله: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عميٌ عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [سورة هود(٢٨)].

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح -عليه السلام- على قومه في ذلك: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، {فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} أي: نغصبكم بقبولها {وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}.

هذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو من أحسن ما قيل في معنى الآية، وهو بمعنى قول ابن جرير -رحمه الله-: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} قال: أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ}، ما هي البينة؟، {وَآتَانِي رَحْمَةً}، ما هذه الرحمة؟ فمن أهل العلم من يقول: البينة: هي النبوة، والرحمة أيضاً هي النبوة، {كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: أن الله أوحى إليّ {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} بهذا الإيحاء، والنبوة، ومن أهل العلم من يقول: {كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على أمر جلي بيّن واضح لا لبس فيه ولا خفاء، على يقين، {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} هذه الرحمة هي النبوة، وهذا المعنى هو الأقرب إلى السياق -والله تعالى أعلم-.

{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [سورة هود(٢٩-٣٠)].

يقول لقومه: {لا أَسْأَلُكُمْ} على نصحي لكم {مَالاً}: أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله -عز وجل-، {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا}.

فقوله: {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً} يعني: لا آخذ عليه عرضاً من الدنيا، شيئاً من المال، أجرة أتقاضها منكم في سبيل هذا البلاغ والتعليم والدعوة إلى الله -عز وجل- والنصح، وهذا كثير في القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سورة سبأ(٤٧)]، وكقوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص(٨٦)]، وهكذا في قوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [سورة الفرقان(٥٧)]، {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنعام(٩٠)]، {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة هود(٥١)] إلى غير ذلك من الآيات، وذلك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعلمون الناس ولا يأخذون على ذلك شيئاً، فيؤخذ من هذه الآية ونظائرها أن الإنسان ينبغي له أن يدعو إلى الله -عز وجل- ولا يأخذ في مقابل دعوته لهم شيئاً من الأجر، ويوجد في بعض البلاد الأعجمية في كل مسجد صندوق للدعوة، تقوم عليه لجنة من المسجد لشئون المسجد، فيؤتى أحياناً ببعض الدعاة ممن يرتاحون له؛ لأنه يذكر لهم بعض الأشياء الطريفة أو القصص أوالحكايات وما أشبه ذلك، فيجلس معهم ساعة أو نحو ساعة بأكثر من ألفي دولار، مع أنها بلاد فقيرة جداً، متوسط دخل الإنسان فيها ما يصل إلى ثلاثمائة ريال، وللأسف الشديد ابتلينا بشيء من هذا فتجد الدرس الواحد أو المحاضرة تباع بأربعمائة ألف ريال، وربما يذهب الواحد مع حملة بمائة ألف، ومثل هذا المفروض أنه لا يقع مهما تأول الناس في هذه الأشياء، ومن فعل ذلك فتقوا تماماً أن الكلمات تخرج ميتة من فمه، ويذهب النور الذي على كلامه، ولا ينتفع الناس بما يقول إطلاقاً، أيضاً من أراد أن يعلم الناس القرآن لا يأخذ على تعليمه أجراً، والعلماء تكلموا على هذه المسألة هل يجوز له أن يشترط أو لا يشترط، إلا من اضطر فالضرورات لها أحكامها، حتى لا يتعطل التعليم، بخلاف ما يعطاه من بيت مال المسلمين إذا كان قد انقطع لهذا وتفرغ له، فإن هذا يختلف عن الأجرة، أما أن يشارط الناس ويقول: لا أعلّم إلا بكذا العلوم الشرعية، أو لا أعلّم القرآن إلا بكذا، فالمفروض أن تبذل مجاناً، ومثل هذا ينبغي للإنسان أن يترفع عنه، وقد قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: " قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ} الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-، أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجرة في مقابله، وبيّن في آيات كثيرة أن ذلك هو شأن الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-، كقوله في سبأ عن نبينا -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} الآية، وقوله فيه أيضاً في آخر ص: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، وقوله: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} [سورة الطور(٤٠)، وسورة القلم(٤٦)]، وقوله في الفرقان: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}، وقوله في الأنعام: {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}، وقوله عن هود في سورة

هود: {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} الآية، وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب -عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام-: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء(١٠٩)]، وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس: {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا}[سورة يـــس(٢٠-٢١)] الآية، وقد بيّنا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [سورة الشورى(٢٣)]، في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" في سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سورة سبأ (٤٧)]، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض عن ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام، ويعتضد ذلك بأحاديث تدل على نحوه، فمن ذلك ما رواه ابن ماجه والبيهقي والروياني في مسنده عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: علمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً، فذكرت ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((إن أخذتها أخذت قوساً من نار))، فرددتها[٢]، قال البيهقي وابن عبد البر في هذا الحديث: هو منقطع، أي بين عطية الكلاعي وأبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه-، وكذلك قال المزي، وتعقبه ابن حجر: بأن عطية ولد في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأعله ابن القطان بأن راويه عن عطية المذكور هو عبد الرحمن بن سلم وهو مجهول، وقال فيه ابن حجر في التقريب: شامي مجهول، وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وله طرق عن أبيّ -رضي الله تعالى عنه-، قال ابن القطان: لا يثبت منها شيء، قال الحافظ: وفي ما قاله نظر. وذكر المزي في الأطراف له طرقاً منها: أن الذي أقرأه أبيّ هو الطفيل بن عمرو، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط عن الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالى عنه- قال: أقرأني أبيّ بن كعب القرآن فأهديت له قوساً، فغدا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد تقلدها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تقلدها من جهنم))[٣] الحديث، وقال الشوكاني أيضاً: وفي الباب عن معاذ -رضي الله تعالى عنه- عند الحاكم والبزار بنحو حديث أبيّ، وعن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- عند الدارمي بإسناد على شرط مسلم بنحوه أيضاً، ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: علّمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن فأهدى إليّ رجل منهم قوساً فقلت: ليس بمالٍ، أرمي بها في سبيل الله -عز وجل-، لآتين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله أهدى إليّ رجل قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب

---

٢ - رواه ابن ماجه برقم (٢١٥٨)، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣١٦/٥)، برقم (١٤٩٣).

٣ - رواه الطبراني في الأوسط (١٣٩/١)، برقم (٤٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: "عبد الله بن سليمان بن عمير ولم أجد من ترجمه ولا أظنه أدرك الطفيل" (١١١/٤)، برقم (٦٤٤٦).

والقرآن، وليست بمال، أرمي عليها في سبيل الله، فقال: ((إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها))[٤]، وفي إسناده المغيرة بن زياد الموصلي، قال الشوكاني: وثّقه وكيع ويحيى بن معين، وتكلم فيه جماعة، وقال الإمام أحمد: ضعيف الحديث حدّث بأحاديث مناكير، وكل حديث رفعه فهو منكر، وقال أبو زرعة الرازي: لا يحتج بحديثه، وقال فيه ابن حجر في التقريب: المغيرة بن زياد البجلي أبو هشام أو هاشم الموصلي صدوق له أوهام، وهذا الحديث رواه أبو داود من طريق أخرى ليس فيها المغيرة المذكور، حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا: حدثنا بقية حدثني بشر بن عبد الله بن بشار، قال عمرو: وحدثني عبادة بن نسي عن جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- نحو هذا الخبر، والأول أتم، فقلت: ما ترى فيها يا رسول الله؟ -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها))[٥]. انتهى منه بلفظه، وفي سند هذه الرواية بقية بن الوليد وقد تكلم فيه جماعة ووثقة آخرون إذا روى عن الثقات، وهو من رجال مسلم، وأخرج له البخاري تعليقاً، وقال فيه ابن حجر في التقريب: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، والظاهر أن أعدل الأقوال فيه أنه إن صرح بالسماع عن الثقات فلا بأس به، مع أن حديثه هذا معتضد بما تقدم، وبما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اقرءوا القرآن واسألوا الله به، فإنّ مِن بعدكم قوماً يقرءون القرآن يسألون به الناس))، قال الترمذي في هذا الحديث: ليس إسناده بذلك[٦].

وكل الأحاديث الواردة في هذا لا تخلو من مقال؛ ولهذا ذكر عامة أهل العلم أن ما أخذه الإنسان من غير استشراف نفس فلا إشكال فيه، وإنما الإشكال في الاشتراط، ومسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن ألف فيها بعض أهل العلم رسائل مستقلة، وذهب كثير من الفقهاء إلى أنه يجوز ذلك للمصلحة، يعني مصلحة التعليم وإذا كان الإنسان منقطعاً لهذا الغرض، ولا يجد بداً من هذا، والعلماء -رحمهم الله- حتى الذين منعوا كالحنفية وتشددوا في هذا، المتأخرون منهم لانوا في هذه المسألة، فلا ينبغي للإنسان أن يشترط هذا، فإن أعطي وكان محتاجاً أخذ، وإن كان مستغنياً فلا يأخذ، حتى في تعليم الحديث ونحو ذلك، وقد تكلم بعض أهل العلم ولمز من كان لا يحدّث إلا بمقابل؛ لفقره.

---

٤ - رواه أبو داود برقم (٣٤١٦)، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم، وابن ماجه برقم (٢١٥٧)، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، والحاكم في المستدرك (٤٨/٢)، برقم (٢٢٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٩١٥).

٥ - رواه أبو داود برقم (٣٤١٧)، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم، وأحمد في المسند (٤٢٦/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٦)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٩١٦).

٦ - رواه الترمذي برقم (٢٩١٧)، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، وأحمد في المسند (١٤٦/٣٣) برقم (١٩٩١٧)، وقال محققوه: إسناده حسن لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٤٦٧).

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا}، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}[سورة الأنعام(٥٢)] **الآية.**

وقال في قصة نوح -عليه الصلاة والسلام-: **{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء(١١٣-١١٤)]، يقولون: إن هؤلاء غير صادقين في اتباعهم لك وإيمانهم، وإنما يريدون شيئاً من عرض الدنيا، على أحد الأقوال في تفسيرها، فهو يقول: حسابهم على الله -تبارك وتعالى-، وليس ذلك إليّ، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم كابن القيم -رحمه الله- من يقول: إن المقصود بقوله في هذه الآية: **{اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}** [سورة هود(٣١)] أن المراد أنه أعلم بهؤلاء أنهم أهل لقبول الحق واتباعه؛ لما فيهم من التجرد، بخلاف هؤلاء من أصحاب الرئاسات فهم يحسبون حسابات طويلة لما يفوتهم بسبب اتباع الحق من ذهاب رئاساتهم وأموالهم؛ وللشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني -رحمه الله- في كتاب التنكيل كلام نفيس، في القسم الأخير منه الذي أفرد بكتاب مستقل سمي بالقائد إلى تصحيح العقائد، ذكر جملة من الأمور التي يردّ الإنسان بها الحق، فذكر من ذلك، قال: ومنهم من له في الباطل شهرة ومعيشة، فهو لا يريد أن تذهب عنه هذه الشهرة والأضواء والنجومية، ويصير في النهاية آخر الناس، كان مغنياً مهرجاً ممثلاً مخرجاً فناناً لاعباً، فإذا تاب وصلح حاله واستقام، تبقى المؤهلات الحقيقة، ماذا عنده من العلم والعمل، متخرج من رابع ابتدائي، فيبقى في المحل الطبيعي فهو يحسب حساباته، من أين يأتيه الدخل والأموال والملايين، والسيارات والهدايا والعطايا، من أين تأتيه، وهو ربما ما يصلح يوزع إعلانات، ما عنده شيء، لا يحسن القراءة، وقد سمعت أحدهم يتكلم وهو مغضب على تلامذته يقول: تربينا مع الكلاب، يعني يقول: نحن عصاميون، نحن الذين بنينا أنفسنا بأنفسنا حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه، وهو لاعب، يقول: وصلنا إلى هذا المجد بجهد ومجاهدة وصبر، نشأنا مع الكلاب، ولا يعرف وجه الفخر، فمن الناس من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة فيرد الحق بسبب هذا، فهؤلاء من أصحاب الرئاسات والملأ رأوا أنهم إذا اتبعوا الحق سيستوون مع هؤلاء الضعفاء، وتذهب عنهم الأموال والرئاسات؛ ولذلك تجد كبار شيوخ الطرق الصوفية الذين سخّروا الناس في إقطاعاتهم أو في مصالحهم أو يأخذون منهم أموالاً، وهكذا شيوخ الطوائف كالرافضة وغيرهم، يأخذون من الخمس ونحو هذا، هذا إذا اتبع الحق ستذهب هذه الأشياء كلها، وقد لا يجد له وظيفة بألفين وخمسمائة ريال، تذهب كل هذه الأشياء، بعدما كان عالماً معمماً، إذا رجع إلى الحق سيبقى من أجهل الناس في دين الله -عز وجل-، يحتاج يتعلم الحروف الهجائية، ويقرأ القرآن ويحفظ، ويتعلم الأربعين النووية، ويتعلم الأحاديث والمتون، يبدأ من الصفر، فهو ما عنده استعداد.

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام(٥٣)] الآيات.

{وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة هود(٣١)].

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاءً الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

قوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، هل المراد أن هؤلاء يقصدون أنهم غير صادقين، فالله يقول: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ} أو أن المقصود أن الله أعلم بما في أنفسهم ولذلك هداهم للحق، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، استدل به من قال: إن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة لا طائل تحتها، ولا ينبغي التشاغل بمثل هذه القضية، ولا يترتب على ذلك عمل، والذين قالوا: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة احتجوا بحجج كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}[سورة البقرة(٣٤)] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل- من خبر آدم وتعليمه، وإقرار الملائكة لآدم بذلك، وهذه المسألة لا يترتب عليها عمل، لكن أشرت إليها؛ لأن هذا الموضع هو الذي يذكر فيه العلماء مثل هذه المسألة غالباً.

فائدة:

الرقية أمرها يختلف عن التعليم، فالرقية من باب الطب، وليست فيما نحن بصدده من التعليم للقرآن أو الدعوة إلى الله -عز وجل-، هي من باب الطب؛ ولذلك تجري أحكام الطب فيها، فيقال: الأصل في باب الرقية الإباحة ما لم تشتمل على محرم، فكل ما دلت التجربة على صحته في باب الرقية من تخصيص بعض الآيات لبعض الأشياء، إذا دلت التجربة على هذا فلا إشكال فيه، فهي من باب الطب، لكن الذين قالوا بالجواز وأطلقوا احتجوا بما ورد في الحديث من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله))[٧]، والشاهد أنه لم يشترط عليهم في رقية الرجل، مع أن هذا لا يبرر ولا يعني بحال من الأحوال أن ينقطع الإنسان للرقية ويفتح عيادة في بيته، ويتوارد إليه الناس، ويكون طريقاً للتكسب بهذا الأسلوب الذي للأسف نراه اليوم، ويحصل فيه كثير من المخالفات، فمثل هذا لا يحسن أن يفعله الإنسان، فرق بين هذا وبين إنسان يرقي نفسه أو يرقي من حوله، أو طلب منه إنسان بصفة خاصة فرقاه أو نحو ذلك، وصلى الله على نبينا محمد.

---

٧ - رواه البخاري برقم (٥٤٠٥)، كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[سورة هود(٤٤)].

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، {وَغِيضَ الْمَاءُ} أي: شرع في النقص، {وَقُضِيَ الأَمْرُ} أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديّار، {وَاسْتَوَتْ}: واستوت السفينة بمن فيها، {عَلَى الْجُودِيِّ}، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله -عز وجل- فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح -عليه السلام-.

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها.

قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح -عليه السلام- على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً.

وقوله: {وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ} بدأ بالأرض؛ لأن الماء والنبع بدأ منها، كما قال الله -عز وجل-: {فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ} [سورة المؤمنون(٢٧)]، فكان ابتداء الطوفان من الأرض، ربما يقال هذا -والله أعلم-، والتعبير بالبلع يدل على أنه لم يكن تنشيف الأرض بالطريقة المعهودة التي يحصل بها ذهاب الماء بالتبخر، وما يغيض في الأرض منها، وإنما كان ذلك سريعاً، بطريقة غير معهودة، {ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} تقول: أقلع المطر إذا أمسك، يعني: أمسكي عن المطر، {وَغِيضَ الْمَاءُ} قال: "**شرع في النقص**"، {وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، يقول مجاهد عن الجودي: "**إنه جبل في الجزيرة**"، والمقصود بالجزيرة التي بين الشام والعراق، وليست جزيرة العرب، ويقول: "**تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله –عزوجل- فلم يغرق**"، وهذا الكلام ليس عليه دليل، والله -عز وجل- ذكر هذا بعد قوله: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} فبعد أن غيض الماء، وأوقفت السماء إمطارها، والأرض بلعت ماءها استوت على الجودي، فهذا ليس فيه ما يدل على أنه لم يغرق، وقول قتادة بأنها استوت عليه شهراً حتى نزلوا، لا دليل عليه، وإنما هو مأخوذ عن بني إسرائيل، والروايات عنهم في هذا كثيرة، بعضهم يوصل ذلك إلى سنة، في تفاصيل لا دليل

عليها، ويقول: "**وقد أبقى الله سفينة نوح -عليه السلام- على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة**". وهذا لا دليل عليه، ولا يعرف عن أحد برواية ثابتة من أوائل هذه الأمة أنه رآها، وإذا كان الله أبقاها هذه القرون المتطاولة جداً فأين تذهب من أوائل هذه الأمة إلى عهد قتادة؟ لو صح عن قتادة -رحمه الله-، فقتادة من التابعين يقول: "**وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً**". ويوجد من يُعنَى بالآثار ويُعرض عن البحث عن الحقائق عن هذه السفينة، وينقبون ويبحثون عن جبل الجودي أين هو، وهل يوجد بقايا من هذه السفينة أو لا؟ والعبرة العظيمة من إغراق أهل الأرض من أجل الكفر بالله -عز وجل-، هذا تجدهم بمنأى عنه، فالله -عز وجل- أخبرنا أنها استوت على الجودي، بعضهم يقول: هو جبل معيّن، وبعضهم يقول: هو كل جبل، يعني أن كل جبل يقال له: الجودي، فليس ذلك يختص بجبل معيّن اسمه الجودي، كل جبل يقال له: الجودي، وأما قضية السفينة وبقايا السفينة فهذا لا فائدة فيه، ولا يدل على أنها بقيت نفس السفينة أو بقاياها، أخذاً من قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[سورة القمر(١٥)]، أي: القصة والعبرة جعلها الله -عز وجل- آية، وهذه السفن التي نشاهدها تذكّر بهذا الأمر الذي امتن الله به على عباده المؤمنين حيث حملهم على الفلك، فالشاهد أنه ليس فيه ما يدل على أنها بقيت، وقوله: {وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، يحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل-، ويحتمل أن يكون من كلام نوح، فالله تعالى أعلم، لكن هذه الآية من الآيات التي جمعت صنوف البلاغة، هذه آية بالغة في الفصاحة والبلاغة مبلغاً عظيماً؛ ولذلك فإن العلماء الذين يُعنَون بالإعجاز القرآني البلاغي اللغوي يطيلون في الحديث عن هذه الآية.

{وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة هود(٤٥-٤٧)].

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح -عليه السلام- عن حال ولده الذي غرق، {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي} **أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعْدك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟** {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} **أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال:** {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ} [سورة المؤمنون(٢٧)]، **فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً -عليه السلام-، وقوله:** {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} **أي: الذين وعدتك نجاتهم.**

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية.

قال عكرمة في بعض الحروف: إنه عَمِل عملاً غير صالح.

نادى نوح -صلى الله عليه وسلم- ربه، دعاه {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي} أخذاً من العموم في قوله: {وَأَهْلَكَ}، و"أهل" أضيف إلى المعرفة -كاف الخطاب- فأكسبه العموم، فنوح -عليه الصلاة والسلام- احتج بهذا، فبيّن الله -عز وجل- له أن هذه اللفظة لا تدل على العموم، فقال: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، أي: ليس من

أهلك الموعود بنجاتهم؛ وذلك أنه لم يكن على دينه، وليس معنى ذلك قطعاً أنه ليس ولداً له، وأنه كان مولوداً على فراشه، وأن امرأته خانته، فالله -عز وجل- لا يختار للأنبياء امرأة تخون، فالمرأة امرأة النبي ولو كانت كافرة إلا أن الله يحفظ العرض؛ لأن ذلك يدنس شرف الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولا يمكن أن يقع إطلاقاً، ولا يجوز لأحد أن يورد في التفسير قولاً يشتمل على مثل هذه القبائح، وللأسف يوجد في بعض كتب التفسير من يورد مثل هذا، ولو كان يذكره من جملة الأقوال ولا يعتمده، لكن إيراده بمجرده رزية وخطأ، ولا يليق بحال، ومثل هذا يعرض عنه، قال: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، عمل هذا الولد غير صالح، يمكن أن يكون هذا على سبيل المبالغة، كأنه جعله نفس العمل مبالغةً في ذمه، -والله أعلم-، هذا على قراءة الجمهور، وابن جرير يفسر هذه القراءة -قراءة الجمهور- {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}: أن ذلك لا يرجع إلى الولد، وإنما يرجع إلى السؤال، سؤال نوح قال: {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}، فالله قال له: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}: يعني هذا السؤال، {فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، هذا اختيار ابن جرير: أن سؤالك في غير محله، {فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، وربما يحتج لهذا بأنه عقبه بالفاء {فَلَا تَسْأَلْنِي}؛ لأنها لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والأول أشهر، وعليه عامة أهل العلم، وهو الأقرب، {إِنَّهُ عَمَلٌ} أي: الولد، {غَيْرُ صَالِحٍ}، وعلى قراءة الكسائي وهي متواترة: {إِنَّهُ عَمِلَ}: يعني الولد، أي أنه كفر بالله -عز وجل- فعمله سيئ وشر لا يحبه الله جل جلاله.

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة هود(٤٨)].

يخبر تعالى عما قيل لنوح -عليه السلام- حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

قوله -تبارك وتعالى-: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ}، قاله الله -عز وجل-، والفعل وإن بني للذي لم يسم فاعله إلا أن هذا القول يدل على قائله: {اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} [سورة هود(٤٨)، {وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ}، بعض أهل العلم يقول: أي ناشئة ممن معك، أمم توجد وتولد وتتفرع ممن معك، وأمم ممن معك تنشأ؛ لأن ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- هم الباقون كما أخبر الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء الأمم الناشئة هم المتشعبون من ذريته -عليه الصلاة والسلام-، الذين كانوا معه، وبعض أهل العلم يقول: {وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ}: الذين كانوا مع نوح -عليه الصلاة والسلام- أمم، فبنو آدم أمة، والطير أمة، وهكذا، وكل نوع من الطيور أمة، أو كل جنس من الوحش، أو غيره؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}[سورة الأنعام(٣٨)]، فكلها أمم، ويمكن أن يكون {وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} يعني: هذه الطيور والحيوانات وألوان الدواب، إضافة إلى الآدميين، وبعض أهل العلم يقول: {وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} يعني: من كان مؤمناً من ذريتهم، {مِّمَّن مَّعَكَ}، فتكون (من) تبعيضية.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغوط الأكبر، وأبواب السماء، يقول الله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه.

وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئي رءوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست وفي فِيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه قيل: {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا} الآية.

هذه من الروايات الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب، وليس وراء العلم بها فائدة، وكان الأولى أنها لا تذكر في مثل هذا المختصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (8)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [(49) سورة هود].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه القصة وأشباهها {مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ} يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها، {نُوحِيهَا إِلَيْكَ} أي: نُعْلمك بها وحياً منا إليك، {مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا} أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [(51) سورة غافر] الآية، وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ} [(171- 172) سورة الصافات] الآية، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}.

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [(50-52) سورة هود].

يقول تعالى: لقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره، {أَفَلا تَعْقِلُونَ} من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: {يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها خبر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم قد مضى كثير منها في سورة الأعراف، ومضى بعض مضامينها في غيرها، كما مر في قول نوح -صلى الله عليه وسلم-: **{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً}** [(29) سورة هود]، وهنا ذكر الأجر **{إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ}** [(51) سورة هود]، وهكذا، فما يتعلق بالاستغفار والتوبة وتعقيب التوبة بعد الاستغفار بـــ "ثم"، وما يترتب على ذلك، قد مضى الكلام عليه.

{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

[(53-56) سورة هود].

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} أي: بمجرد قولك اتركوهم نتركهم، {وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} بمصدقين، {إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ}، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، {فَكِيدُونِي جَمِيعاً} أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً، {ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ} أي: طرفة عين، وقوله: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة اللهُ وحده لا شريك له، الذي بيده الملك وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

قول الكفار لنبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ}، لا يدل على أنه -عليه الصلاة والسلام- لم يأتهم ببينة، فإن هؤلاء يكابرون غاية المكابرة، ومن أهل العلم من فهم من هذا أن هوداً -صلى الله عليه وسلم- كانت معجزته هي أنه تحداهم وقال لهم: {إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ}، والواقع أن الله –تبارك وتعالى- أعطى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الآيات والبينات ما آمن على مثله البشر، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن لم تذكر هذه الآية أو البينة في خبره وقصته التي قصها الله -عز وجل- علينا، وإن زعم قومه أنه لم يأتهم ببينة فلا عبرة بقولهم؛ لأنهم أهل مكابرة، وما ذكر أن آية هود -صلى الله عليه وسلم- هي التحدي ليس بصحيح، ويمكن أن يكون هذا من جملة دلائل نبوته –صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن آيات الأنبياء على نوعين:

النوع الأول: المعجز: كالقرآن وانشقاق القمر، وناقة صالح -عليه الصلاة والسلام- والآيات التسع التي أعطاها الله -عز وجل- لموسى -صلى الله عليه وسلم-.

النوع الثاني: ليس بمعجز مما يعرف به صدقه، مثل الأشياء التي سأل عنها هرقل أبا سفيان.

وقوله –تبارك وتعالى-: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}، أي: تحت قهره وسلطانه، {آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} باعتبار أن الأخذ بالناصية يدل على القهر.

ومن أهل العلم من قال: {آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} أي: أنه مالكها، فالملك كله بيده -تبارك وتعالى- {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}، فهم عبيده وتحت ملكه وقهره وسلطانه.

قوله: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: الحاكم العدل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم في تصرفه وقضائه وقدره وتدبيره وعطائه ومنعه، وأمره ونهيه، وعقابه وثوابه وجزائه، وشرعه وأسمائه وصفاته، وكل ما يتعلق به -سبحانه وتعالى- فإن ذلك جميعاً يجري على أكمل الوجوه، وهو مطابق لكمال ذاته وصفاته جل جلاله، ولا يوجد شيء من هذا يخرج عن هذا المعنى، لكونه على صراط مستقيم، وهذا هو المعنى الصحيح في هذه الآية، وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

وقال بعض أهل العلم في قوله: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: أن جميع الخلق يرجعون إليه، وأن مصيرهم إليه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فطريقهم إليه، لا يفوتونه كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [(14) سورة الفجر].

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}. [(57-60) سورة هود].

يقول لهم هود -عليه السلام-: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ} يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، {إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} وهو الريح العقيم، فأهلكم الله عن آخرهم، ونجى هوداً -عليه السلام- وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه، {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} كفروا بها وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود فنزّل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، {وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد؛ فلهذا أتبعوا في الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد {أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ} الآية.

قوله: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [(59) سورة هود] الآيات المذكورة في هذه الآية هي التي جاءهم بها هود -عليه الصلاة والسلام- وقد قالوا له: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [(53) سورة هود].

وقوله: {وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ}، أي: عصوا هوداً –عليه السلام- ومعلوم أن من عصى رسولاً فقد عصى جميع الرسل –عليهم الصلاة والسلام- ومثل هذه الآية قول الله –تبارك وتعالى-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [(105) سورة الشعراء] ومعلوم أنه لم يسبق إلى أهل الأرض رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام- فالذين كذبوا نوحاً –صلى الله عليه وسلم- فقد كذبوا بجميع الأنبياء.

قوله: {أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}، أي: بعداً لهم وهلاكاً.

قوله: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } [(61) سورة هود].

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى ثمود، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم {أَخَاهُمْ صَالِحًا}، فأمرهم بعباده الله وحده؛ ولهذا قال: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ} أي: ابتدأ خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} أي: جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها، {فَاسْتَغْفِرُوهُ}؛ لسالف ذنوبكم، {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} فيما تستقبلونه، {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [(186) سورة البقرة] الآية.

{قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} [(62-63) سورة هود].

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح -عليه السلام- وبين قومه، وما كان من الجهل والعناد في قولهم: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت، {أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}.

قوله: **{قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا}**، أي: كنا نرجو رأيك وعقلك وأن تكون فينا سيداً كبيراً عظيماً؛ لما نرى فيك من النجابة وحسن النظر ثم أتيتنا بهذه الدعوة، ويحتمل أنهم قالوا ذلك استهزاء بصالح –عليه السلام- وقال بعض أهل العلم في قوله: **{قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا}**: أي: مُبعَداً، من أرجاه، أي أخره، وهذا أضعف من القول الذي قبله، وقال بعضهم: معناه نرجو أن ترجع عما أنت فيه من عيب آلهتنا ومعبوداتنا، ثم بعد ذلك جئتنا تقول: إنك نبي، والمعنى الأول هو الأرجح، والله أعلم.

{أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} وما كان عليه أسلافنا، {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} أي: شك كثير، {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}.

الريب: هو شك مع قلق، ويمكن أن يكون بمعنى شك مريب، أي: يكون سبباً للريب.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، {وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحدة فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني {غَيْرَ تَخْسِيرٍ} أي: خسارة.

قوله: **{فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}** أي: تخسير لي إن أطعتكم، فأخسر رضا الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(116) سورة الأنعام]، وقال ابن جرير –رحمه الله-: إن قوله: **{فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}** أي: حينما تدعوني إلى ما تدعوني إليه، وتذكرون ما تذكرون بمجادلتكم هذه ما تزيدونني غير تخسير في حقكم، فيظهر بذلك ضعف عقولكم، وسوء نظركم، وإدراككم، وما أنتم عليه من التعصب للباطل، واتباع الظن، والإعراض عن الحق مع وضوح دلائله، فليس لكم برهان فيما أنتم عليه، ولا تستحق مقالتكم أن تسمع.

قوله: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ}. [(64-67) سورة هود].

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفىً في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

قوله: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}** وجاء في سورة الأعراف **{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}** [(78) سورة الأعراف]، ولا منافاة بين الآيتين، فيمكن أن يكون قد صاح بهم الملَك صيحة انخلعت لها قلوبهم فرجفت بهم الأرض فهلكوا وماتوا، عن آخرهم.

قوله: **{فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}**، الجاثم: هو الساقط على وجهه على الأرض، أي: أنهم أصبحوا هلكى موتى قد سقطوا على وجوههم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (9)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}. [(69-73) سورة هود].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا} وهم الملائكة، {إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى} قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [(74) سورة هود].

{قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ} أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام، {فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [(69) سورة هود] أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة وهو عجل: فتى البقر، {حَنِيذٍ}: مشوي على الرَّضْف وهي الحجارة المُحْماة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [(26-27) سورة الذاريات].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [(69) سورة هود]، "أن" يحتمل أن تكون بمعنى "حتى" ويكون المعنى فما لبث حتى جاء بعجل حنيذ، وقال سيبويه: "أن" في محل نصب بنزع حرف الجر، ويكون التقدير: فما لبث عن أن جاء بعجل حنيذ، والمقصود أن إبراهيم –عليه السلام- أسرع في قِراهم وضيافتهم.

قال: "**{حَنِيذٍ}: مشوي على الرَّضْف وهي الحجارة المُحْماة**"، وهذا هو القول المشهور، وقال بعضهم: الحنيذ المشوي مطلقاً، وفسره بعضهم بالسمين.

وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

من آداب الضيافة المذكورة في هذه الآية: التحية والسلام، والإسراع في إكرام الضيف، ويدل على ذلك قوله: {فَمَا لَبِثَ أَن جَاء}، وقال –تبارك وتعالى-: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [(26) سورة الذاريات]، والروغان هو الذهاب بسرعة وخفية؛ من أجل أن لا يحرج الضيف، فلا يتثاقل أمامه ولا يتباطأ فيحرجه بهذا، ثم إنه جاءهم بعجل سمين كامل، ثم قربه إليهم، وهذا من كمال كرمه –صلى الله عليه وسلم- ثم تلطف مع الضيوف وعرض عليهم الأكل فقال: {أَلَا تَأْكُلُونَ} [(27) سورة الذاريات].

وفيه أن الإنسان لا يوقع نفسه مواقع الريب، فإذا بدا منه شيء يجعل الآخرين يتساءلون فإنه يبيّن لهم ذلك، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنها صفية))[1]، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- خاف من الأضياف، وقال لهم: {إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ} [(52) سورة الحجر] فبيّنوا له حالهم وقالوا له: {إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} [(70) سورة هود].

وفي هذه الآية أن الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون الغيب وغيرهم من باب أولى، فهذا إبراهيم الخليل –عليه الصلاة والسلام- ذبح عجله وتعب وأتعب أهله في إنضاجه، ثم جاء به لهؤلاء الأضياف وهو يظنهم من البشر، وكذلك لوط -عليه الصلاة والسلام- حينما جاءوا إليه قال لهم: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [(80) سورة هود]، فلم يعلم أنهم ملائكة، وقال لقومه: {يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} [(78) سورة هود] ولم يعلم أنهم ملائكة.

وقوله: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} تنكرهم، {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، وذلك أن الملائكة لا همَّة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة.

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم -عليه السلام- فتضيفوه، فلما رآهم أجلّهم، {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [(26) سورة الذاريات] فذبحه ثم شواه في الرَّضْف، وأتاهم به، فقعد معهم، فلما قربه إليهم قال: {أَلَا تَأْكُلُونَ} [(27) سورة الذاريات]، قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً.

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} [(70) سورة هود] يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت، وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: {قَالُوا لا تَخَفْ} أي: قالوا: لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

ضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، وهذا السبب غير السبب الأول الذي هو التعجب من عدم أكلهم للطعام، وقال بعض أهل العلم: ضحكت، أي: حاضت وعمرها قد جاوز التسعين، وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(72) سورة هود]، وفي آية أخرى: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات] فجمعت بين العقم وكبر السن، وهذا القول وإن كان معروفاً في كلام العرب إلا أنه ليس الظاهر المتبادر عند الإطلاق، ومن المعلوم أن ألفاظ القرآن ومعانيه تحمل على الظاهر

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (717/2)، برقم (1933)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (1712/4)، برقم (2175).

المتبادر، ولا يجوز حملها على معنىً آخر خفيٍّ أو قليل في الاستعمال إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولا يوجد دليل.

وقال بعضهم: إنها ضحكت فرحاً بالبشرى، وهذا القول يحتاج من قائله أن يقول: في الآية تقديم وتأخير، ويكون المعنى: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت فرحاً، وهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل في الكلام الترتيب، وقال بعضهم: إنها ضحكت لما رأت ما به من الخوف، وهذا أبعد ما يكون ولا يليق بالمرأة أن تضحك من زوجها لمثل هذه الحال، بل ستكون أشد خوفاً منه، والذي يظهر -والله أعلم- أن ضَحِكها كان فرحاً واستبشاراً بهلاك قوم لوط.

وقوله: {وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(71) سورة هود] أي: من ولد لها يكون له ولد وعقبٌ ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(133) سورة البقرة]، ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعْد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعيّن أن يكون إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

يدعي اليهود أن الذبيح هو إسحاق -عليه السلام- وهذا قال به بعض أهل العلم من أهل السنة، وهو غير صحيح، والذي عليه عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم أن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- وهذه الآية تدل على هذا، فكيف يُبشَّر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم يؤمر بعد ذلك بذبحه وهو صغير، فأين الولد الذي سيكون من عقبه؟ وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا ابن الذبيحين))[2]، ومعلوم أن النبي –صلى الله عليه وسلم- هو من نسل إسماعيل –عليه السلام- وقد جاء في كتب اليهود ما هو صريح في أن الذبيح هو إسماعيل – صلى الله عليه وسلم-.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [(72) سورة هود] الآية، حُكي قولها في هذه الآية كما حكي فعلها في الآية الأخرى، {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

تعجبت سارة فجمعت بين القول والفعل، فقالت: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات]، و{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(72) سورة هود]، وضربت وجهها بكفها.

والبعل هو الزوج، وقيل له ذلك لظهوره، وكونه هو قيّم المرأة وسيدها.

قوله: {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(73) سورة هود] أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير.

قال: {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(73) سورة هود]، أي: من حكمه وقضائه، فإنه على كل شيء قدير.

---

[2] - رواه الحاكم في المستدرك (2 / 609)، برقم (4048)، وقال الألباني: لا أصل له، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (4 / 172).

قوله: {رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(73) سورة هود] أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: ((قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد))[3].

قوله: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}. [(74-76) سورة هود]

يخبر تعالى عن إبراهيم -عليه السلام- أنه لما ذهب عنه الروع -وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط- أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم -عليه السلام- عند ذلك: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ} [(32) سورة العنكبوت] الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ} [(74) سورة هود]، الرَّوع: بالفتح هو الخوف، وبالضم الرُوع: القلب.

وقوله: {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [(74) سورة هود] ظاهر الآيات أن المجادلة كانت في نفس قوم لوط، وفي دفع العذاب عنهم، أو تأجيل العذاب، ويدل على هذا -والله أعلم- قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [(75) سورة هود]، وقوله: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [(76) سورة هود]، فدل ذلك على أنه كان يجادلهم في قوم لوط.

وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [(75) سورة هود] مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة.

الأواه، هو كثير التأوه من ذنوبه، وخوفه من الله -تبارك وتعالى-.

قوله تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ} [(76) سورة هود] الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

(مسألة)

قيام امرأة إبراهيم لا يدل بالضرورة على أنها كانت تخدم الأضياف، وكل ما ورد في ذلك هو من المرويات المأخوذة عن بني إسرائيل، ولو كانت تخدمهم فهي امرأة كبيرة قد جاوزت التسعين، لا تمتد إليها الأنظار، فلا بأس بجلوسها، وقد قال -عز وجل-: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(60) سورة النـــــور]، ثم لو كانت شابة فالكلام في شرع مَن قبلنا معروف، فليس لأحد أن يتعلق بمثل هذا الدليل.

---

[3] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-(1233/3)، برقم (3190)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد (305/1)، برقم (405).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} [(٨٤) سورة هود] يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً -عليه السلام- وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: {أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}، يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ} أي: في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تُسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، {وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} أي: في الدار الآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}، مدين هم قبيلة من العرب، قيل: سميت بذلك نسبة إلى أبيهم مدين بن إبراهيم، وقيل: نسبة إلى مدينتهم التي يقال لها مدين، والله أعلم.

وقوله: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، كل الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- أول ما يدعون أقوامهم إلى التوحيد، إلا أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- في جميع المواضع التي وردت في القرآن لم يأت عنه أنه خاطبهم كخطاب الأنبياء، بل قال لهم: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف]، وقد فهم من هذا الخطاب بعض أهل العلم أن قوم لوط –عليه السلام- لم يكن عندهم إشراك كما عند الأمم الأخرى المكذِّبة، وهذا ليس بلازم، ونهيهم عن الفاحشة؛ لأنهم أول من ابتكرها ولا شك أنهم كفار، فقد كذبوا نبيهم واستهزءوا به، وسخروا منه وممن آمن معه غاية السخرية، وقالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [(٨٢) سورة الأعراف].

وأما شعيب –عليه الصلاة والسلام- فبعد أن دعا قومه إلى التوحيد، قال لهم: {وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [(٨٤) سورة هود]، أي: في معيشتكم ورزقكم.

قوله: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} [(٨٤) سورة هود] أي: إني أخاف أن يُسلب ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، وبعضهم فسر الخير برخص الأسعار، وبعضهم فسره بزينة الحياة الدنيا والغنى الذي هم فيه، وهذه المعاني لا منافاة بينها، فكانوا في حالة متعة في الأمور الدنيوية، لم يكن بهم قحط ولا جوع، وهذا الفعل القبيح منهم يؤدي إلى سلبهم هذه النعمة، وفساد الحال، وتحول الأمور عنهم، وقد قال –عز وجل- ناهياً عن نقصان الميزان: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلاً} [(٣٥) سورة الإسراء]، وقال: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ} [(١-٤) سورة المطففين].

قوله: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [(٨٥-٨٦) سورة هود].

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العُثُوّ في الأرض بالفساد.

قوله: {وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} [(٨٥) سورة هود] أي: لا تبخسوا الناس حقوقهم ووفوا لهم إذا كلتم في المكيال وإذا وزنتم في الوزن، ويدخل في عموم الآية العدل مع الناس في كل شيء، فكما أن البخس يحرم في المكاييل والموازين كذلك يحرم في التطفيف والبخس في حقوق الناس المعنوية، كالذي ينتقص الناس ويهضمهم حقوقهم، ويظلمهم، وقد قال الله –عز وجل- {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [(٨) سورة المائدة].

{وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٨٥) سورة هود] يشمل العُثُوّ ما يقع من الإفساد والعبث وإلحاق الضرر بالناس في الممتلكات الخاصة أو العامة.

وقال أبو جعفر بن جرير: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(٨٦) سورة هود] أي: **ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس. قال: وقد روي هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.**

قلت: ويشبه قوله تعالى: {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [(١٠٠) سورة المائدة].

وقوله: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [(٨٦) سورة هود] أي: **برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله -عز وجل- لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله -عز وجل-.**

قول ابن كثير –رحمه الله- "أي: **ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس**" هو من أحسن ما فسر به قول الله –تبارك وتعالى-: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ}، وقال بعضهم: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ}، أي: الدين، وقال بعضهم: أي: وصيته خير لكم، وقال بعضهم: مراقبته خير لكم.

قوله: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [(٨٧) سورة هود] **يقولون له على سبيل التهكم -قبحهم الله-:** {أَصَلاَتُكَ}، **قال الأعمش: أي: قراءتك،** {تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} **أي: الأوثان والأصنام.**

قوله: {أَصَلاَتُكَ}، وفي القراءة الأخرى المتواترة: {أَصَلَوَاتُكَ}، والقراءتان بمعنىً واحد، فالصلوات جمع، والصلاة مفرد لكنها أضيفت إلى معرفة وكاف الخطاب، وهذا بمعنى الجمع، وفسر بعض السلف قوله: {أَصَلاَتُكَ}، أي: قراءتك، وقال بعضهم: أي: دينك.

{أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء} [(٨٧) سورة هود] **فنترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد.**

"أو" حرف عطف بمعنى الواو، والمعنى: وتأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الأخذ والتصرف والعطاء، والتطفيف والبخس، فليس لأحد سلطان علينا في ذلك.

قال الحسن في قوله: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}: إي والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثوري في قوله: {أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء}: يعنون الزكاة.

قد يؤخذ من هذه الآية أن الزكاة واجبة على الأمم السابقة، ويدل على ذلك قول الله –تبارك وتعالى-: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [(٥٥) سورة مريم].

{إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وميمون بن مهران، وابن جريج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل.

قوله: {إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} يقول الكفار ذلك على سبيل الاستهزاء، وقال بعضهم: خاطبوه بذلك باعتبار نظره واعتقاده، ومنه قول الله –تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، وقال بعضهم: إنهم كانوا يعتقدون حقيقة أنه حليم ورشيد، والأقرب -والله أعلم- أنهم قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

قوله: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}. [(٨٨) سورة هود]، يقول لهم: هل رأيتم يا قوم {إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على بصيرة فيما أدعو إليه.

في قوله –تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [(٨٨) سورة هود] جواب الشرط محذوف، ويمكن أن يقدر بـــ "أتقولون فيّ ما تقولون؟ أو أأترك دعوتكم وأمركم ونهيكم؟" ومثل هذا يفهم من السياق، والعرب تحذف من الكلام ما يمكن الاستغناء عنه ثقة بفهم المخاطب.

{وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً} [(٨٨) سورة هود] قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

النبوة والعلم والرزق الحلال كلها من الرزق الحسن، واختار ابن جرير –رحمه الله- أن الرزق الحسن هو الرزق الحلال.

وقال الثوري: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم.

كما قال قتادة في قوله: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه.

هذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٤٤) سورة البقرة]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه))[1]

لا تنه عن خلق وتأتي مثله*** عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها*** فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

{إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} أي: في ما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي.

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٤ /٢٢٩٠) (٢٩٨٩).

{وَمَا تَوْفِيقِي} أي: في إصابة الحق فيما أريده، {إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

{وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [(٨٩-٩٠) سورة هود].

يقول لهم: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي} أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

وقال قتادة: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي} يقول: لا يحملنكم فراقي، وقال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

قوله {لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي}، أي: لا تحملكم عداوتي على الإعراض والكفر والتكذيب فيقع بكم، وينزل بكم العذاب الذي نزل بغيركم.

وقوله: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران.

{وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ} من سالف الذنوب، {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} في ما تستقبلونه من الأعمال السيئة، وقوله: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} لمن تاب.

الود بمعنى المحبة، والودود بمعنى المحب، فالله -تبارك وتعالى- يحب أهل الإيمان والتقوى، كما قال الله -عز وجل-: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [(٥٤) سورة المائدة]، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله))[٢].

{قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}. [(٩١-٩٢) سورة هود]، يقولون: {يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ} ما نفهم، {كَثِيراً} من قولك، وقال الثوري: كان يقال له: خطيب الأنبياء.

حُسْن المحاورة والبيان والمجاوبة من شعيب –عليه السلام- كان سبباً لإطلاق خطيب الأنبياء عليه، وورد هذا في بعض الآثار[٣].

قال السدي: {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً} قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} أي: قومك، لولا معزتهم علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك.

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب (١٣٥٧/٣)، برقم (٣٤٩٨).

[٣] - عن محمد بن إسحاق قال : و شعيب بن ميكائيل النبي -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله نبيا فكان من خبره و خبر قومه ما ذكر الله في القرآن، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكره قال : ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه. رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٢٠) (٤٠٧١)

الرهط: من الثلاثة إلى العشرة، أي: أن رهطه كانوا قلة، فلم يكن قوياً ممنعاً في قومه، وليس له قبيلة كبيرة وجماعة أقوياء كُثْر يحمونه، وقد قال قومه: {تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(٤٩) سورة النمل]، وقوله: {لَرَجَمْنَاكَ} قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك، وقيل: لقتلناك.

{وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} أي: ليس عندنا لك معزة، {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ} يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب -تبارك وتعالى- أن تنالوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم جانب الله وراءكم ظهرياً، أن نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه.

{إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

قوله: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}. [(٩٣-٩٥) سورة هود]، **لما يئس نبي الله شعيب -عليه السلام- من استجابتهم له، قال: {يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي: طريقتكم، وهذا تهديد شديد، {إِنِّي عَامِلٌ} على طريقتي، {سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ} أي: مني ومنكم، {وَارْتَقِبُوا} أي: انتظروا، {إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}، قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، وقوله: {جَاثِمِينَ} أي: هامدين لا حراك بهم، وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ}** [(١٨٩) سورة الشعراء]، **وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] **ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصحية التي استلبثتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}** [(١٨٧) سورة الشعراء] ، **قال: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [(١٨٩) سورة الشعراء]، **وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.**

وقوله: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، {أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

قوله –تبارك وتعالى-: {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، أي: طريقتكم، أو اعملوا على غاية تمكنكم، ونهاية استطاعتكم.

وسبق في سورة الأعراف أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، وأنهم طائفة واحدة ولم يُبعث إلى قومين، وهذه العقوبات وقعت لهم مجتمعة.

وقوله: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} أي: كأن لم يقيموا فيها.

(مسألة)

الأخوة في قوله –تبارك وتعالى-: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [(٨٤) سورة هود] أخوة باعتبار القبيلة والنسب، فقد تكون الأخوة باعتبار النسب أو القبيلة، أو باعتبار الشبه في العمل، أو باعتبار الاجتماع في البلد الواحد، أو باعتبار الدين، فإذا كان باعتبار الدين فالمسلم ليس بأخٍ للكافر، قال –تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [(١٠) سورة الحجرات]، وأما بالاعتبارات الأخرى فيمكن أن يقال أخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [سورة هود(٩٦-٩٩)].

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى -عليه السلام- بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه، {فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ} **أي: منهجه ومسلكه وطريقته في الغيّ،** {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} **أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مُقدَّمهم ورئيسهم كذلك هو يَقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى:** {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [سورة المزمل(١٦)]، **وقال تعالى:** {فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [سورة النازعات(٢١-٢٦)]، **وقال تعالى:** {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}، **وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى:** {لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف(٣٨)]، **وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار:** {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} [سورة الأحزاب(٦٧-٦٨)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة**"، الآيات هي الدلالات، وأصل معنى الآية العلامة، يقول: {بِآيَاتِنَا} أي: بأدلتنا على التوحيد، {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} يعني: البرهان والحجة التي تبين لمن عاينها الحق والهدى، كما يعبر ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يقول: إن الآيات المراد بها الآيات التسع، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء(١٠١)]، والسلطان المبين هو العصا، والعصا هي من جملة الآيات التسع، لكن يقولون: إنها أفردت بالسلطان -على هذا القول-؛ لتميزها وشأنها وأهميتها، حيث إنها التقفت ما يأفكه السحرة، ومن أهل العلم من يقول: إن الآيات المقصود بها التوراة، والسلطان المبين: المعجزات.

وقوله: {وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} **الآية أي: أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا،** {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ}، **قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان.**

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك وقتادة.

وهو كقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} [سورة القصص(٤١-٤٢)]، وقال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [سورة غافر(٤٦)].

فسر قوله -تبارك وتعالى-: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} باللعنتين في الدنيا والآخرة، وهذا لا إشكال فيه، ومعنى الرِّفد الإعانة، فيكون معنى {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} أي: بئس العون الذي قدموه لهم، وأعانوهم به، وذلك بأن أُتبعوا لعنة بعد لعنة.

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [سورة هود(١٠٠-١٠١)].

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى} أي: أخبارهم، {نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ} أي: عامر، {وَحَصِيدٌ} أي: هالك.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جيد وواضح، {مِنْهَا قَائِمٌ} أي: عامر، {وَحَصِيدٌ} أي: هالك، وقيل: {قَائِمٌ} أي: على عروشه، {وَحَصِيدٌ} يعني لا أثر له، بمعنى أن الله أزاله بالكلية، وقيل: إن القائم هو الخاوي على عروشه، والحصيد هو الخراب.

فقوله: {مِنْهَا قَائِمٌ} يعني: أن من ديار هؤلاء ما هو قائم، كما هو الحال في ديار ثمود، فهي موجودة وقائمة إلى يومنا هذا، {وَحَصِيدٌ} يعني: أن الله -عز وجل- قد أزالها ومحاها، كما هو الحاصل في قرى قوم لوط، فمنها هكذا ومنها هكذا، وأصل ذلك -يعني الحصيد- ما يحصد من الزرع، فهذا الزرع الذي يحصد لا يكون له قيام بعد الحصاد، وهذا شاهَده الناس في هذا الزمان، في طوفان تسونامي، فصارت القرى حصيداً، وتحولت تلك الديار والمدن أو القرى إلى شيء كالهشيم، محطمة، لا ترى منها شيئاً قائماً، فبأس الله -عز وجل- قوي ونكاله شديد، والله المستعان.

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} أي: إذا أهلكناهم، {وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ}: أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها، {مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، {وما زادوهم غير تتبيب}، قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير؛ وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة؛ فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود(١٠٢)].

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}.

وفي الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ} الآية[1].

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}[سورة هود(١٠٣-١٠٥)].

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين {لآيَةً} أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر(٥١)]، وقال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [سورة إبراهيم(١٣)] الآية.

وقوله: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ} أي: أولهم وآخرهم، كقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٧)]، {وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} أي: عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها.

{يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} أي: يومَ يأتي يومُ القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: {لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [سورة النبأ(٣٨)]، وقال: {وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} [سورة طـــه(١٠٨)] الآية.

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: ((ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذٍ اللهم سلِّم سلِّم))[2].

هذه الآيات يذكر الله -عز وجل- فيها أنهم لا يتكلمون، أو لا يتكلم أحد إلا بإذنه، وما شابه ذلك، ومنها ما ذكر الله فيه كلامهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، وكذلك أنهم يقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يـــس(٥٢)]، وأشباه ذلك من الكلام الذي يقولونه حينما يتساءلون عن مدة مكثهم وبقائهم في الحياة الدنيا، والجمع بين هذه الآيات أن يقال بأن يوم القيامة يوم طويل، ففي وقت منه لا يتكلم أحد، وفي بعض الأوقات يتكلمون، كما ذكر الله -عز وجل- عن الكفار: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}[سورة الرحمن(٣٩)]، وفي موضع آخر يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [سورة الصافات(٢٤)]، فكذلك أيضاً، لا يُسألون في وقت ويُسألون في وقت آخر، أو أنهم لا يُسألون

---

١ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٩)، كتاب التفسير، تفسير سورة هود، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، ومسلم برقم (٢٥٨٣)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

٢ - جزء من حديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٧٠٠٠)، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة(٢٢-٢٣)]، ومسلم برقم (١٨٢)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

سؤال استعتاب، وإنما يُسألون سؤال تبكيت وتقريع، كقوله تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [سورة المدثر(٤٢)]، حينما يدخلون النار -والله أعلم-.

وقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [سورة الشورى(٧)].

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر عن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله علام نعمل؟، على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: ((على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له))[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}: يعني في الآخرة، وحديث عمر وحديث سراقة بن مالك -رضي الله تعالى عنهم- في الدنيا، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن(٢)]، فالفاء تدل على التعقيب المباشر، ولهذا فإن الآية تحتمل كما قال طائفة من السلف: أنه خلقهم بهذه الصفة، طبع قوماً على الكفر، وقوماً على الإيمان، كما في حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي))، قال: فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: ((على مواقع القدر))[٤]، وكذلك أيضاً ما جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، حديث الصادق المصدوق وفيه: ((ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...))[٥]، والمعنى الآخر الذي تحتمله الآية: {خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}: أن الفاء للتعقيب المباشر، لكن المباشرة في كل شيء بحسبه، خلقهم فدرجوا في هذه الحياة، ثم بعد ذلك منهم من اختار طريق الإيمان، ومنهم من اختار طريق الكفر، وهذان المعنيان لا منافاة بينهما، فالله -تبارك وتعالى- قد علم منذ الأزل أصحاب النار وأصحاب الجنة، وكتب ذلك في كتاب، ونحن لم نطلع على هذا الكتاب، والله -عز وجل- أعطى الإنسان قدرة واختياراً ومشيئة، ولا يخرج شيء من ذلك عن إرادته ومشيئته، {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الإنسان(٣٠)]، والإنسان مأمور بأن يعمل ويتقرب إلى الله -عز وجل-، وأن

---

٣ - رواه الترمذي برقم (٣١١١) واللفظ له، كتاب تفسير القرآن، باب ومن تفسير سورة هود، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو، والبخاري بمعناه برقم (٤٦٦٦)، كتاب التفسير، باب {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل(١٠)]، من حديث علي -رضي الله عنه-، ومسلم برقم (٢٦٤٩)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-، أما رواية الحافظ أبي يعلى فلفظها من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله نعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نأتنفه؟ قال: ((لأمر قد فرغ منه))، فقال سراقة بن مالك: ففيم العمل إذا؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل ميسر لعمله))، (٤/٤٥)، برقم (٢٠٥٤)، وقال محققه حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح.

٤ - رواه أحمد في المسند (٢٠٦/٢٩)، برقم (١٧٦٦٠)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

٥ - رواه البخاري برقم (١٢٢٦)، كتاب القدر، باب في القدر، ومسلم برقم (٢٦٤٣)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

يطيع ربه ولا يطيع الشيطان، والناس ليس لهم أن يحتجوا بشيء من هذا، فهم في دنياهم لا يتركون العمل، وأقل ذلك الأكل والشرب، فإذا كان الإنسان يقول: إن الله كتب كل شيء ومن ذلك الأجل والرزق فلماذا نأكل إذاً؟ فهو في هذه الأمور لا يترك فعل الأسباب في الكسب والتجارة وما شابه هذا، وبعض الناس -لغلبة هواه في عمل الآخرة- ربما يحتج بمثل هذه النصوص، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله-: ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}. [(١٠٦-١٠٧) سورة هود].

يقول تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق؛ لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأورد المصنف -رحمه الله- قول ابن عباس -رضي الله عنهما- في قول الله -تبارك وتعالى-: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}، قال: "**الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق**"، يعني: الذي يدخل يقال له: شهيق، والذي يخرج يقال له: زفير، وهذا معنى تنفسهم، فليست الجملتان معناهما واحد، بل إحداهما عكس الأخرى، وقال بعض أهل العلم: الزفير هو الصوت الشديد المرتفع، وهذا القول وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أنه لا يخلو من بعد، وقال بعضهم: الزفير هو ابتداء صوت الحمار، والشهيق هو آخر صوته، وهذا القول اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال بعضهم: الزفير هو إخراج النفس، والشهيق إدخاله، وهذا هو المشهور المعروف.

وقال بعضهم: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: الزفير هو تردد النفس بسبب الخوف، وعند التأمل نجد أن بعض هذه الأقوال لا منافاة بينها.

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} [(١٠٧) سورة هود] **قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائمٌ دوام السماوات الأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمير، وما لألأت العفر بأذنابها، يعنون بذلك كله (أبداً)، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}.**

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو جواب على سؤال معروف، وهو أن السماوات والأرض ليست دائمة ومستمرة باقية، والله -عز وجل- يقول: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(٤٨) سورة إبراهيم]، والله -عز وجل- قال عن أهل الجنة وأهل النار من جهة خلودهم: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}، فيرد سؤال: أن السماوات والأرض يحصل لهما الزوال، فكيف علّق خلودهم بأمر زائل؟ والجواب: هو أن العرب قد تعلق الأمر بزائل وتقصد بذلك التأبيد،

كما يقولون: هذا باقٍ بقاء السماوات، هذا باقٍ ما غرد الطير، وهبت الريح، وتتابع الليل والنهار، وما أشبه هذا، ويقصدون به الدوام والاستمرار، والقرآن نزل بلغة العرب وبأساليبهم، فنعيم أهل الجنة لا يزول، وعذاب أهل النار لا يزول.

قلت: ويحتمل أن المراد بـــ {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [(٤٨) سورة إبراهيم]؛ **ولهذا قال الحسن البصري في قوله: {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} قال: يقول سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.**

وقوله: {إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}، كقوله: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(١٢٨) سورة الأنعام]، **قيل: إن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين.**

بعد أن انتهى من السؤال الأول وهو: كيف علق خلود أهل الجنة أو أهل النار ببقاء السماوات والأرض؟ وأجاب عنه بجوابين، جاء السؤال الثاني، وهو أن الله علق الخلود بالمشيئة، فقال: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [(١٠٧) سورة هود]، وللعلماء في هذه المشيئة أقوال مختلفة. **قيل: إن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.**

هذا المعنى وجه جيد في الجواب، وهو اختيار ابن جرير، وهناك أقوال أخرى في توجيه هذه الآية، فمن أهل العلم من قال: إن الاستثناء في قوله -تبارك وتعالى-: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [(١٠٧) سورة هود] يرجع إلى قوله: **{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}** [(١٠٦) سورة هود]، إذا كانت هذه الآية تعم المسلمين والكافرين فالذين شقوا يكونون في النار **{إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** ويكون المعنى: الذين شقوا في النار إلا من شاء الله، فلا يدخل النار بسبب رحمة الله، أو بشفاعة أحد الشافعين، أو مصائب مكفرة، أو غير ذلك من الموانع.

وقال بعض أهل العلم: الاستثناء في قوله: **{إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** يرجع إلى الزفير والشهيق، أي: لهم أنواع من العذاب غير الزفير والشهيق، وهذا لا يخلو من بعد.

وقال بعضهم: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}، يرجع إلى قوله: {خَالِدِينَ}، وهذا الذي مشى عليه المصنف -رحمه الله- وسبقه إليه طائفة من السلف، وقال به ابن جرير الطبري –رحمه الله- فيخلد الكفار ويخرج أهل الإيمان، كما جاء في الأحاديث، ((أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان))[1].

وقال بعضهم: إن الاستثناء في قوله –تبارك وتعالى-: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} يرجع إلى قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا}، وهم الكفار، قالوا: إن الكفار يفنون، تفنيهم النار ثم يتجدد خلقهم، ثم تفنيهم ويتجدد خلقهم وهكذا.

ومنهم من قال: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} دليل على أن النار تفنى، وهذا القول منسوب إلى طائفة من السلف، واحتجوا ببعض الآثار الواردة في ذلك، ولكن لا يصح من هذه الآثار شيء، واحتجوا بقوله –تبارك وتعالى-: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [(٢٣) سورة النبأ]، وهذا القول وإن قال به بعض السلف إلا أنه قول باطل، والنصوص والآيات واضحة في بقاء العذاب ودوامه، وأنه لا ينقطع ولا يفتر ولا يخفف عنهم، كما قال الله -عز وجل- في آيات كثيرة: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}.

وقال بعض أهل العلم: الاستثناء في قوله: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} بمعنى سوى، وهذا بعيد.

وأرجح الأقوال في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود] أن التعليق فيها بالمشيئة كالتعليق في قول الله –تبارك وتعالى-: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [(٢٧) سورة الفتح]، فدخولهم المسجد الحرام حاصل قطعاً، فقد قضاه الله -عز وجل- وقدره، وإنما ذكر المشيئة؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل- فكذلك التعليق في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}.

قوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [(١٠٨) سورة هود]، يقول تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ} وهم أتباع الرسل، {فَفِي الْجَنَّةِ} أي: فمأواهم الجنة، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبداً، {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس.

وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها. وعقّب ذلك بقوله: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: غير مقطوع، قاله مجاهد وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو العالية وغير واحد؛ لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثَمّ انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود] كما قال: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [(٢٣) سورة الأنبياء].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١ / ١٦)، برقم (٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخـراج الموحدين من النار (١ / ١٧٢)، برقم (١٨٤).

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى**" هو القول الراجح في هذه المسألة، وقد قال أهل البدع والأهواء بانقضاء نعيم الجنة وقد رد عليهم ابن القيم -رحمه الله- في النونية، والشنقيطي في العذب المنير، وفي دفع إيهام الاضطراب في تفسير سورة عم، وغيرهم من أهل العلم.

وهنا طيّب القلوب وثبت المقصود بقوله: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، وقد جاء في الصحيحين: ((يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت))[٢]، وفي الصحيح أيضاً: ((فيقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً))[٣].

من أسماء الله -عز وجل- الأول والآخر، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، بقاء الجنة وأهلها بإبقاء الله تعالى، والله -عز وجل- هو قائم بنفسه.

{فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}. [(١٠٩-١١٠) سورة هود].

يقول تعالى: {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ} المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى -عليه السلام- الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهيدنّك ذلك.

قوله: **{وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}** قال بعض أهل العلم: التوفية لا تستلزم الكمال؛ ولهذا قال: **{غَيْرَ مَنْقُوصٍ}**، وقال عبد الرحمن بن زيد: لموفوهم من العذاب نصيبهم، وقيل: **{لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ}** أي: ما قدره الله -عز وجل- وكتبه لهم من الخير والشر، يحصل لهم في الدنيا، فينالهم ما كتبه الله -تبارك وتعالى- لهم منذ الأزل لا ينقص منه شيء، ولا يفوت شيء من هذا الذي قضاه الله -عز وجل- وقدره، وهذا قال به كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [(١١٠) سورة هود]، **قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.**

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} (٤/١٧٦٠)، برقم (٤٤٥٣) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٨)، برقم (٢٨٤٩).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٤ / ٢١٨٢)، برقم (٢٨٣٧).

كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]**، فإنه قد قال في الآية الأخرى:** {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [(١٢٩-١٣٠) سورة طـه].

ويحتمل أن تكون الكلمة هي: أن رحمته سبقت غضبه، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة: ما قضاه الله -عز وجل- وقدره أنه لا يعذبهم بعذاب الاستئصال، والقول بأن المراد بالكلمة أنه قد جعل لهم وقتاً معلوماً لا يتقدم ولا يتأخر أقرب هذه الأقوال، وهو قول ابن جرير –رحمه الله-.

والضمير في قوله: {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يرجع إلى قوم موسى؛ لأن الله –عز وجل- قال في بداية الآية: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ}، وقال بعضهم: يرجع الضمير إلى المكذبين بالنبي –صلى الله عليه وسلم-، والأول أقرب.

ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال: {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(١١١) سورة هود] **أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى:** {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [(٣٢) سورة يــس].

قوله: {وَإِنَّ كُلاًّ} قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ نافع وابن كثير بالتخفيف {وَإِنْ كلاًّ}، وليست "إنْ" المخففة نافية؛ لأنها لو كانت كذلك لصار الذي بعدها مرفوعاً، وقرأ عاصم وحمزة ونافع: {لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ} بالتشديد، وقرأ الجمهور بالتخفيف {لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ}.

وقد قال بعض أهل العلم: {لَّمَّا} بمعنى "إلا" التي تدل على الاستثناء، وهذا القول قال به جميع نحاة البصرة، وهو قول الخليل بن أحمد وسيبويه، وهو من أحسن الأقوال وأقواها، وقال بعض أهل العلم: إن {لَّمَّا} بمعنى "مَن" وهو اختيار ابن جرير الطبري –رحمه الله-.

قوله: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ} [(١١٢-١١٣) سورة هود]**، يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، -وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء- ومخالفة الأضداد، ونهَى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعْلَمَ تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.**

الطغيان يأتي بمعنى تجاوز الحد، ويكون بمعنى الغلو والزيادة على ما شرعه الله -عز وجل- .

وقوله: {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} [(١١٣) سورة هود] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لا تداهنوا.**

وقال ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم.

القول بأن الركون: هو الميل، قول معروف عند أهل اللغة وبه قال كثير من المفسرين، وعلى كل حال هذا لا ينافي قول من قال: لا تداهنوا؛ فإن مداهنة هؤلاء الكفار لا تجوز، وهي لون من الركون إليهم، وهكذا قول من قال: لا تستعينوا بالظلمة، أو لا تميلوا إلى الظلمة، وهذه الأقوال ترجع إلى معنىً واحد.

{فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} [(١١٣) سورة هود] أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

{وَأَقِمْ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. [(١١٤-١١٥) سورة هود].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَأَقِمْ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} قال: يعني الصبح والمغرب، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر.

وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره.

وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه.

عامة أهل العلم يتفقون على أن الطرف الأول هو الفجر، وإن وجد من قال: إنه الظهر، لكنهم اختلفوا كثيراً في الطرف الثاني، فبعضهم يقول: العصر، وبعضهم يقول: الظهر، وبعضهم يقول: الظهر والعصر، وبعضهم يقول: المغرب، فالذين قالوا: إن طرف النهار الأول هو الظهر قالوا: إن النهار يبدأ من طلوع الشمس، فالفجر ليس بطرف للنهار، وإنما هو أول اليوم، والنهار لا يكون إلا بعد طلوع الشمس، والقول بأن الطرف الأول هو الفجر والطرف الثاني هو المغرب هو قول ابن جرير، وليس ببعيد.

قوله: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء، وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} يعني: المغرب والعشاء، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هما زُلْفَتا الليل: المغرب والعشاء))[4]، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

القول الذي قال به الحسن في رواية ابن المبارك قال به مجاهد {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} يعني: المغرب والعشاء، ولو صح الحديث الذي أورده المصنف ((هما زُلْفَتا الليل: المغرب والعشاء)) لكان رافعاً للخلاف؛ لأن التفسير إذا صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يُلتفت إلى غيره.

والزُّلَف جمع زلفة، وفسره بعضهم بالساعات القريبة، وقال ابن جرير: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} ساعات من الليل، وبعضهم فسر الزلف من الليل بأول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول، والله أعلم.

---

٤ - ذكره ابن جرير في تفسيره، (١٥ / ٥٠٨).

هذا القول ليس بلازم، بل لا يخلو من إشكال وبعد، والسبب في هذا أن سبب النزول يدل على أن الآية نزلت في المدينة في الرجل الذي قبّل امرأة، كما ورد ذلك في الصحيحين[٥]، ولو فرضنا أن قول الله –تبارك وتعالى-: **{وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ}** يعني الفجر والمغرب، فإن هذا لا يعني أن الآية تتحدث عن الأمر الأول وأن الناس كانوا يصلون صلاة في أول اليوم، وصلاة في آخره، فإن ذكر الطرفين يتضمن ذكر ما بينهما، كما يقول الله -عز وجل-: **{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [البقرة: من الآية١١٥].

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (١ / ١٩٦)، برقم (٥٠٣)، ومسلم (٤ / ٢١١٥)، برقم (٢٧٦٣)، كتاب التوبة، باب قول الله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأنزل الله {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}، فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا ؟ قال: (لجميع أمتي كلهم)

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [سورة هود(١١٤)] **يقول: إنّ فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر -وصدق أبو بكر- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له))[1]، وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: هكذا رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتوضأ وقال: ((من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه))[2].**

وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يُبقى من درنه شيئاً؟))، قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((وكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا))[3].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((الصلوات الخمس، والجمعة إِلى الجمعة، ورمضان إِلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر))[4].

---

١ - رواه أبو داود برقم (١٥٢١)، كتاب الوتر، باب في الاستغفار، والترمذي برقم (٤٠٦)، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، وابن ماجه برقم (١٣٩٥)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، وأحمد في المسند (٢١٩/١)، برقم (٤٧)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٣٦١)، وفي صحيح الجامع برقم (٥٧٣٨).

٢ - رواه البخاري برقم (١٥٨)، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا، ومسلم برقم (٥٦١) كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، ورقم (٥٦٦)، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه.

٣ - لم أجده بهذا اللفظ وإنما رواه البخاري برقم (٥٠٥)، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ولفظه: ((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبقي من درنه)). قالوا: لا يبقى من درنه شيئا، قال: ((فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا))، ومسلم برقم (٦٦٧)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

٤ - رواه مسلم برقم (٢٣٣)، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

وروى البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأنزل الله: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: ((لجميع أمتي كلهم))[٥] هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير بنحوه.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تبايعه فأدخلتُها الدولج فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك لعلها مُغيبة في سبيل الله؟ قال: أجل، قال: فائت أبا بكر فسله، قال فأتاه فسأله فقال: لعلها مُغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له مثل ذلك، فقال: ((لعلها مُغيبة في سبيل الله))، ونزل القرآن: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب -يعني عمر- صدره بيده وقال: لا، ولا نَعمَة عين، بل للناس عامة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق عمر))[٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} الحسنات "ال" إما أن تكون العهدية، بمعنى أنها حسنات خاصة، وهي المذكورة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ}، وعامة أقوال أهل العلم تدور على أنها الصلوات الخمس، على اختلاف في التفاصيل في المراد بالصلاة طرف النهار، والصلاة في زلف من الليل، فالحسنات يعني تلك الصلوات التي تكون في طرف النهار أو في طرفي النهار، أو في طرفه وفي طرفيه، وفي زلف من الليل تذهب السيئات، باعتبار هذا المعنى والأحاديث التي وردت، كما أورد الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا، وإما أن يقال: إن "ال" في الحسنات للتعريف، يعني جنس الحسنات يذهب جنس السيئات، وابن جرير -رحمه الله- حمل الحسنات على الصلوات الخمس باعتبار أن الله قبلها ذكر {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ}، وكذلك الأحاديث الواردة في هذا المعنى، ولا شك أن الصلوات الخمس كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- كفارة لما بينهن، وذلك لا يختص بالصلوات؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[٧]، وذلك مما يندب في التوبة، وإتباع السيئة بالحسنة تكفير لها لا سيما -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذا كان ذلك من جنسها، لو أنه حصل له تقصير في الصلاة، يعني فاتته صلاة من الصلوات بتفريط، فإنه يكثر من النوافل، فالحسنات يذهبن السيئات، ولهذا ثبت عن النبي

---

٥ - رواه البخاري برقم (٥٠٣)، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة.

٦ - رواه أحمد في المسند (٨٤/٤)، برقم (٢٢٠٦)، وقال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد، ولين يوسف بن مهران، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٥/١٢)، برقم (١٢٩٣١).

٧ - رواه الترمذي برقم (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في معاشرة الناس، وأحمد في المسند (٢٨٤/٣٥)، برقم (٢١٣٥٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٦٥٥).

-صلى الله عليه وسلم- أنه قال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه-: ((إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا –عزوجل- لملائكته -وهو أعلم-: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئا قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم))[٨]، وهكذا بالنسبة للصيام، فالحسنات لفظ عام؛ والعبرة بما غلب، فالناجي هو الذي غلبت حسناته على سيئاته، والله -عز وجل- يقول: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} [سورة الأعراف(٨-٩)]، وقوله أيضاً: {السَّيِّئَات} هل يقال: إن "ال" للجنس، أو يقال: هذا من العام المخصوص، فيما يتعلق بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[٩] بهذا القيد؟، فيكون المقصود بذلك الصغائر، فالصغائر تكفر بالتوبة، وتكفر أيضاً بما يفعله الإنسان من الحسنات، كالوضوء مثلاً، والصلاة، والصدقات وغير هذا، وإذا كانت الحسنات عظيمة فإن السيئات قد تنغمر في بحر هذه الحسنات، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم))[١٠]، وقال في قصة حاطب: ((ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم))[١١]، والأصل في الكبائر أنها تحتاج إلى توبة، وقد يزول أثرها ولا يعاقب الإنسان بها لسبب آخر، كالشفاعة، أو المصائب التي تقع للإنسان، مصائب مكفرة، أو غير ذلك مما يذكره أهل العلم، ثم ذكر سبب النزول، وقد جاء هذا في روايات كثيرة منها الصحيح ومنها ما هو دونه، ومجموع ذلك يدور على أن رجلاً ألم بامرأة فيما دون الفرج، يعني مما لا يوجب الحد، فجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فنزلت هذه الآية: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ

---

٨ - رواه أبو داود برقم (٨٦٤)، كتاب الصلاة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه))، والنسائي برقم (٤٦٥)، كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، والترمذي برقم (٤١٣)، وقال: "حديث حسن غريب من هذا الوجه"، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، وأحمد في المسند (٢٩٩/١٥)، برقم (٩٤٩٤)، وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم" (٣٩٤/١)، برقم (٩٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٢٠)، وفي صحيح أبي داود برقم (٨١٠).

٩ - رواه مسلم برقم (٢٣٣)، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

١٠ - رواه الترمذي برقم (٣٧٠١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، من حديث عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه-، والحاكم في المستدرك (١١٠/٣)، برقم (٤٥٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٣/٣)، برقم (٦٠٦٤).

١١ - رواه البخاري برقم (٢٩١٥)، كتاب الجهاد والسير، باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن، ومسلم برقم (٢٤٩٤)، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

{الْحَسَنَات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات}، وهذه الرواية عند الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تبايعه، يقول: فأدخلتها الدولج – الدولج هو المِخدع، ويقال بالفتح أيضاً: المَخدع، وهي غرفة صغيرة داخل غرفة، يعني غرفة يوضع فيها نفيس المتاع داخل غرفة، يعني أشبه ما تكون بخزانة داخل غرفة-، وقال لها: عندي تمر جيد في الداخل ما عرضته، فأدخلها الدولج، فنال منها، فقال: ويحك، لعلها مُغيبة، يقال: امرأة مُغيبة إذا غاب عنها زوجها، ذهب للجهاد، وهذا لا شك أنه أعظم أن ينتهك حرمتها ويخونه في أهله، وهذه الرواية التي ذكرها هنا عند الإمام أحمد في إسنادها ضعف ولكن مجموع الروايات لا شك أنها تتقوى به، وإن كانت هذه الرواية لا تخلو من ضعف.

{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [سورة هود(١١٦-١١٧)].

يقول تعالى فهلّا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: {إِلَّا قَلِيلاً} أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته؛ ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قول الله -عز وجل-: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ}، {فَلَوْلاَ} أي: هلّا، {كَانَ مِنَ الْقُرُونِ} يعني: الأمم الماضية المهلَكة، هلا كان فيهم {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ}، البقية في الأصل اسم لما يبقيه الإنسان حينما يُخرج من ماله، فإنه يستبقي عادة أجوده؛ ولهذا أطلقت هذه اللفظة على ما يدل على الجودة، فإذا قيل: فلان من البقية الباقية، أو قيل: فلان من أولي البقية، هلا كان من القرون من قبلكم أولو بقية، لولا كان {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} يعني: أصحاب عقول راجحة رزينة ناضجة، وأهل دين، فهؤلاء هم أولو البقية، ناس عقلاء، فيهم عقل ودين، {يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً، فيكون {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} كانوا أصحاب بقية، كانوا أهل بقية فأنجاهم الله -عز وجل-، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} [سورة الأعراف(١٦٥)]، في قصة أصحاب السبت، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي ما كان فيهم من كانوا بهذه الصفة {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} ممن ينهون عن الفساد في الأرض.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {إِلاَّ قَلِيلاً} أي: "**قد وجد منهم من هذه الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله**"، فعلى هذا يكون الاستثناء من قبيل المتصل، وهذا هو الأقرب، ولا حاجة للقول بأنه من قبيل المنقطع، فيكون المعنى: فهلا كان من القرون من قبلكم من الأمم المهلَكة {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} عقلاء أصحاب عقول راجحة ودين ينهون عن الفساد في الأرض {إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ} [سورة المائدة(١٣)] يعني: وُجد منهم قليل؛ لأن قوله: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ} مضمن معنى النفي، لم يوجد منهم ناس بهذه الصفة، ولهذا جاءت لولا هذه للتحضيض، هلا كان فيكم من يفعل كذا وكذا، وإلا لما قال لهم ذلك {إِلاَّ قَلِيلاً} يعني:

كأنه يقول: لم يوجد فيهم من يتصف بهذا الوصف إلا قليلاً ممن أنجاهم الله -عز وجل-، وهذا كما جاء في الآيات في إنجاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- في الآيات التي سبقت، ومن معهم، ابتداءً من نوح -عليه الصلاة والسلام- فمن بعده، ولا شك أن هؤلاء الأمم الذين قص الله خبرهم فيهم من ينطبق عليه هذا الوصف ولابد، وهم الأنبياء الذين دعوهم إلى الله -عز وجل-، قال: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [سورة العنكبوت(٣٢)]، وكذلك نوح -عليه الصلاة والسلام- وهود وصالح وشعيب -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران(١٠٤)]، **وفي الحديث: ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب))**[١٢].

ولهذا قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}، وقوله: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ} أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فَجَأهم العذاب {وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ} ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قريةً مصلحةً بأسُه وعذابُه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود(١٠١)]، **وقال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** [سورة **فصلت(٤٦)**].

قوله -عز وجل-: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ}، المترَف: هو الذي غذي باللذات والنعم، وقيل: هو الذي أبطرته النعم، أكثر منها وتوسع فيها، فهو الإنسان المنعم، ولا يشترط في المترف أن يكون قد أبطرته النعم، فمن غذي بالنعم وأكثر منها فإنه يكون بهذه الصفة، بخلاف من لقي من العيش كدراً وعناءً بسبب تحصيله، فهذا لا يكون مترفاً، فالله -عز وجل- قال: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ} يعني: صاروا تابعين للنعم التي صاروا مترفين بها، اتبعوا الشهوات، اتبعوا ملذات الدنيا، ومظاهرها ومباهجها واشتغلوا بها عن الدار الآخرة، وصارت هي همهم ومقصودهم ومطلوبهم عن اتباع الرسل والعمل بعمارة آخرتهم.

وقوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: بالشرك، لقوله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان(١٣)]، من باب العام المراد به الخصوص، وإلا فظاهر اللفظ العموم؛ لأن كلمة ظلم نكرة في سياق النفي، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أيّ ظلم، صغير أو كبير، هذا ظاهر اللفظ فمن فسره بأنه الشرك يعني: بشركٍ قال: إن هذا من العام المخصوص، كقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام(٨٢)] فهذه مثلها باعتبار أن ظاهرها العموم، نكرة في سياق النفي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فسر تلك بآية لقمان {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، فيكون المعنى على هذا التفسير: أي أن الله لم يكن يهلك القرى بشركٍ، أي: بسبب إشراكهم -فالباء للسببية- إلا ومعه أمر آخر، يعني أن الله أهلك قوم شعيب -عليه

---

١٢ - رواه أحمد في المسند (٢٢١/١)، برقم (٥٣)، من حديث أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين.

الصلاة والسلام- لأنهم كانوا يطففون -مع الشرك- المكاييل والموازين، وقوم لوط لأنهم يفعلون الفاحشة، وهكذا، فما كان الهلاك واقعاً بهم لمجرد إشراكهم أو بسبب إشراكهم فحسب، بل لابد أن يكون معه أمر آخر من الظلم والفساد المتعدي، وعلى هذا يكون قوله: {بِظُلْمٍ} يرجع إلى المفعول المهلَكين، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: بظلم واقع منهم، أي بشرك حاصل منهم فلابد أن يكون معه أمر آخر، والمعنى الثاني: أن قوله: {بِظُلْمٍ} حال من الفاعل، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: وهو ظالم لهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود(١٠١)] أي: أنه لم يقع هذا الإهلاك والتدمير الذي قص الله فيه أخبارهم وما جرى لهم من المثُلات وهو ظالم لهم، وإنما كان ذلك بسبب ظلمهم هم وعصيانهم وكفرهم بالله -عز وجل-، وهذا المعنى هو المعنى الراجح، والمعنى الأول لا حاجة إليه، فالأصل فيما ظاهره العموم أنه محمول على الظاهر إلا لدليل يدل على أنه يراد به خلاف الظاهر، ولا يوجد، والأمر الثاني أن الشرك هو أعظم الظلم، أكبر الجرائم، فهو وحده يكفي لإهلاكهم وتدميرهم ولا حاجة لأن يكون عندهم جرائم أخرى مع الشرك، -والله أعلم-.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود (١١٨-١١٩)].

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً}، وقوله: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} أي: ولا يزال الخُلف بين الناس.

ولا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونِحَلهم ومذاهبهم وآرائهم.

وقوله: {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً: ((إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة))، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))[١٣] رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

---

١٣ - رواه أبو داود برقم (٤٥٩٦)، كتاب السنة، باب شرح السنة، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- ولفظه: ((افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة))، وصحح هذا اللفظ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣)، وابن ماجه برقم (٣٩٩٢)، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، والترمذي برقم (٢٦٤١)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- بلفظ: ((ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي))، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٤٨)، والحاكم في المستدرك (٢١٨/١)، برقم (٤٤٤).

قوله: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} يفسر الآية، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي: على الإيمان، ولكن اقتضت مشيئته -سبحانه وتعالى- أن يوجد بينهم الاختلاف في الأديان والمذاهب والأهواء، الاختلاف المذموم طبعاً، {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} فهؤلاء أمم الكفر على أهواء ومذاهب شتى، منهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البشر، وبعضهم يضلل بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، فهذا اختلاف أهل الأهواء، سواء كانوا من الأمم الأخرى، أو كان ذلك من المذاهب المنتسبة للإسلام، المذاهب الباطلة المنحرفة، الذين اختلفوا في الدين، فالله -عز وجل- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق، وقوله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، قال: "أي: **لا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم**" أي الاختلاف.

قال الحافظ في قوله: {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}: "أي: **إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين**"، فهؤلاء يكون الله -عز وجل- قد استثناهم من هؤلاء المختلفين، يعني: الناس أهواء شتى إلا من رحم الله -عز وجل- فليسوا كذلك، فهم على الإيمان والحق، وهذا المعنى هو أقرب المعاني، وقيل: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} يعني: من هؤلاء المختلفين، إلا من رحمه الله -عز وجل- فهداه، فانتشله وهداه من هؤلاء المختلفين، والأقرب هو الأول -والله أعلم-، لا يزال هؤلاء على هذا الاختلاف والشر والتفرق الذي ذمه الله -تبارك وتعالى- {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة آل عمران(١٠٥)].

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة البقرة(٢١٣)] يعني يكون التقدير: كان الناس أمة واحدة على الإيمان فاختلفوا، وإن الذين استثناهم الله -عز وجل- هم الذين بقوا على الأصل على الإيمان وهم المرحومون، ومن عداهم فهؤلاء هم أهل الذم والتفرق والاختلاف، {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [سورة الأنعام(١٥٩)].

وهذا الحديث الذي ذكره الحافظ هو في معنى الآية {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، فهذه الفرقة الواحدة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست من المختلفين، هم الذين بقوا على الأصل منذ أن أنزل الله -عز وجل- آدم على التوحيد، قال: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق))[١٤]، وأولئك تفرقوا واختلفوا وخرجوا عن الصراط المستقيم، وهذه الفرق التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أي: الثنتان والسبعون فرقة، قال

---

١٤ - رواه أبو داود برقم (٤٢٥٢)، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، والترمذي برقم (٢٢٢٩)، وقال: وهذا حديث حسن صحيح، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الأئمة المضلين، وأحمد في المسند (٩٤/٢٨)، برقم (١٦٨٨١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وبرقم (١٩٨٥١)، (٨٣/٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في المستدرك (٥٩٣/٤)، برقم (٨٦٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٠)، وفي صحيح الجامع برقم (١٧٧٣).

عنها: ((كلها في النار))[١٥]، وليس المقصود أن هؤلاء خرجوا عن الإسلام بسبب تفرقهم واختلافهم وتشعب آرائهم ومذاهبهم، ولهذا فإن الثنتين والسبعين فرقة لا يحكم عليها أنها خالدة في النار، وإنما متوعدة بالنار، تُعذَّب ما شاء الله أن تعذب، وفيهم من يخرج من الإسلام، وفيهم من لا يخرج من الإسلام، لكن الحديث لا يدل على التخليد في النار، وأن هؤلاء قد خرجوا عن الإسلام قطعاً، ولهذا شيخ الإسلام والشاطبي وأهل العلم لما تكلموا على معناه، قالوا: هؤلاء ليس المقصود بأنهم في النار يعني يخلدون فيها، يعني الفرق التي ذكرها العلماء مثلاً، مثل الجهمية أو المعتزلة أو الطوائف الخوارج والشيعة وأمثال هؤلاء، فهم يتفاوتون غاية التفاوت، فمنهم من يخرج من الإسلام، ومنهم من لا يخرج، يعذب، وقد يغفر الله -عز وجل- له لسبب أو لآخر، قد يكون قلد غيره ولم يجد غير هذا، وهذا كان غاية ما أمكنه، فمات عليه، وقد يكون هذا الإنسان اجتهد وبذل وسعه في طلب الحق، وهذا غاية ما توصل إليه، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالله -تبارك وتعالى- أرحم بعباده من أنفسهم، لكنهم مُتوعَّدون بالنار في الجملة، لكن هذا ما ينطبق على كل الأفراد الذين ينتسبون إليهم؛ لأنه لابد من تحقق الشروط وانتفاء الموانع، فالوعيد العام قد يتخلف لسبب.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في الأصل على قوله {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} -لأن المختصر لم يتطرق لها-:

"وقوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال الحسن البصري -في رواية عنه-: وللاختلاف خلقهم، وقال مكي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}، وقيل: للرحمة خلقهم، قال ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاوس: أن رجلين اختصما إليه فأكثرا، فقال طاوس: اختلفتما وأكثرتما، فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا، فقال طاوس: كذبت، فقال: أليس الله يقول: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}؟ قال: لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة، كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة، ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات(٥٦)]**، وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال: الناس مختلفون على أديان شتى {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له: لذلك خلقهم قال: خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش، وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد"**[١٦].

هذا الكلام مهم جداً، وحذفه من هذا المختصر غفلة وسهو من المُختصِر.

---

١٥ - رواه ابن ماجه برقم (٣٩٩٣)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، وأحمد في المسند (٢٤١/١٩)، برقم (١٢٢٠٨)، وقال محققوه: حديث صحيح بشواهده، والحاكم في المستدرك (٢١٨/١)، برقم (٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٤٢).

١٦ - انظر: تفسير القرآن العظيم (٥٦٥/٢)، للحافظ ابن كثير، تحقق: محمود حسن، دار الفكر للنشر والتوزيع.

اسم الإشارة في قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} على ماذا يعود؟ الله -عز وجل- قال: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، ثم قال: {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، {وَلِذَلِكَ} واسم الإشارة "ذلك" للبعيد، فمن نظر إلى هذا المعنى قال: {وَلِذَلِكَ} البعيد هو الاختلاف {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}؛ لأن الله قال: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} فاقتضت مشيئته وإرادته الكونية وقوع الخلاف بينهم، فلابد أن يقع، قال: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} فهو يبلوهم بهذا، ثم يجازيهم عليه، وتظهر معاني أسمائه وصفاته، فيعذب أقواماً ويرحم آخرين، فالشاهد أن هذا المعنى معنىً له وجه، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن نظر إلى أن المذكور آخراً هو الرحمة، {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، قال: للرحمة خلقهم، وهذا -والله أعلم- دون الأول، وبعضهم قال: لمجموع الأمرين، للرحمة وللاختلاف، وهذا ليس بمستبعد باعتبار أن الله -عز وجل- قد اقتضت حكمته ومشيئته أن يوجد هذا وهذا، فرحمته لأهل الإيمان وأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وغضبه لغيرهم، {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} للاختلاف وللرحمة، والله أعلم.

وقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره -لعلمه التام وحكمته النافذة- أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي: ثبتت كلمة ربك، والمقصود بكلمة الله -عز وجل- التي ثبتت مفسرَّة بما بعدها {لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، قضى الله ذلك وقدّره فلابد من وقوعه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله -عز وجل- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قطْ قطْ، وعزتك))[١٧].

---

١٧ - رواه البخاري برقم (٧٠١١)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الأعراف(٥٦)]، بدون زيادة: ((وعزتك))، ولفظه: ((اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، وقالت النار -يعني أوثرت بالمتكبرين-، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ثلاثا، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قطْ قطْ قطْ))، ورواه برقم (٤٥٦٩)، ولفظه: ((تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، قال الله -تبارك وتعالى للجنة- أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول قطْ قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا))، كتاب التفسير، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [سورة ق(٣٠)]، ومسلم برقم (٢٨٤٦)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

هذا الحديث باعتبار الغالب، أغلب أهل النار من الكبراء والمجرمين الكبار، وأهل الجنة من الضعفاء، وإلا فيوجد في الجنة من أئمة العدل، وليسوا من الضعفاء، ويوجد فيهم من قادة أهل الإيمان، ومن المجاهدين في سبيل الله، والنار يوجد فيها من سقط الناس ومن ضعفائهم، كما ذكر الله -عز وجل- حال الأتباع والمتبوعين ومحاجتهم في النار، فالكلام باعتبار الأغلب.

{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة هود(١٢٠)].

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما نثبت به فؤادك، أي: قلبك يا محمد؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} أي: هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وهو الصحيح، يعني في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

قوله: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} قال: "أي: **في هذه السورة**"، وهذا الذي عليه عامة المفسرين باعتبار أن اسم الإشارة "هذه" مؤنث وهو للقريب، فهذا من هاتين الجهتين يصدق على هذه السورة، وابن جرير -رحمه الله- اعتبر هذا القول ورجحه ولم يستجز مخالفته للإجماع، والإجماع عند ابن جرير يقصد به قول عامة المفسرين وأكثرهم، وهذا المعنى ليس محل إجماع؛ لأن من العلماء من قال: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ} يعني: آيات القرآن وسور القرآن، القرآن كله، وبعضهم يقول: {فِي هَذِهِ} أي: الدنيا جاءك الحق، والأول هو الأقرب، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: في هذه الأنباء التي قصها الله -عز وجل- في القرآن، ولا تختص بهذه السورة.

{وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [سورة هود(١٢١-١٢٢)].

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: {اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي: على طريقتكم ومنهجكم.

أو على تمكنكم وحالكم، معانٍ متقاربة.

{إِنَّا عَامِلُونَ} أي: على طريقتنا ومنهجنا، {وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} أي: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [سورة الأنعام(١٣٥)]، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة هود(١٢٣)].

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

آخر تفسير سورة هود -عليه السلام- ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة يوسف -عليه السلام- وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [سورة يوسف(١-٣)].

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدأ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالوا: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لو قصصت علينا؟ فنزلت: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}** يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وهو القرآن المبين، أي: الوضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها**"، وهذا ظاهر الآية، ويحتمل أن يكون من أبان أو من بان بمعنى أنه ظاهر أمره؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أنزله مبيناً، أو أنه مبينٌ لما فيه من الأحكام، وهذه المعاني جميعاً تحتملها هذه الجملة، وكلها صحيحة -والله تعالى أعلم-، فالقرآن مبينٌ لمن قرأه أو سمعه أنه من عند الله -عز وجل- وليس من كلام البشر، كما أنه مبين للأحكام، وأنه في غاية الوضوح، ليس فيه إلغاز ولا غموض، كما قال -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}** [سورة القمر(١٧)].

وسبب نزول هذه الرواية التي ذكرها في قوله: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}** عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تخلو من ضعف، لكن ورد بسياق أطول من هذا عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- أنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحدثهم، فنزلت.

ثم سألوه أن يحدثهم فنزل قول الله: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}** [سورة الزمر(٢٣)].

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف(٤)].

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، وقال ابن عباس -رضي لله تعالى عنهما-: رؤيا الأنبياء وحي، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، روي هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش -وهو سريره- وإخوته بين يديه {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [سورة يوسف(١٠٠)].

{قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [سورة يوسف(٥)].

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف -عليهما السلام- حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب -عليه السلام- أن يحدّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك فيبغوا له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا} أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدُونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره))[١]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت))[٢].

هذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، وقال البعض: إنه من قبيل الحسن لغيره، ثم قالوا: إن أبا بكر -رضي الله عنه- طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعبر الرؤيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أذن له بهذا،

---

١ - رواه البخاري برقم (٦٦٣٧)، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ومسلم برقم (٢٢٦١) عن أبي سلمة -رضي الله عنه- بلفظ قال: " إن كنت لأرى الرؤيا تمرضني، قال فلقيت أبا قتادة فقال: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الرؤيا الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب، وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ من شر الشيطان، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره))، كتاب الرؤيا.

٢ - رواه أبو داود برقم (٥٠٢٠)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وابن ماجه برقم (٣٩١٤)، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على وادّ، وأحمد في المسند(٢٦/١٠٠)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٥).

فعبرها ثم سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- هل أصاب أو أخطأ؟، فأخبره أنه أصاب بعضاً وأخطأ في بعض، فلو كانت تقع بحسب ما حصل من تعبيرها فإن ذلك خلاف ظاهر الحديث، يعني لو كان كذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقره على هذا التعبير ولا يأذن له فيه؛ لئلا تقع على غير الوجه، ويحتمل أنها تقع على ما هي عليه ولو أخطأ المعبر في تفسيرها، ويحتمل أن تكون تقع بحسب ما فسرت، هذه بعض الروايات، وكلام بعض أهل العلم عليها في هذا الحديث.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-: حدثنا هشيم قال: أخبرنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الرؤيا على رجل طير ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت))، قال: ((والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))، قال: ((وأحسبه قال لا يقصها إلا على وادٍّ أو ذي رأي))[٣]، له شاهد من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- عند الحاكم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرؤيا تقع على ما تعبر، ومثل ذلك مثل رجُل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحاً أو عالماً))[٤] وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

وآخر من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- عند الدارمي بسند حسنه الحافظ في الفتح، قالت: كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر يختلف -يعني في التجارة- فأتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: إن زوجي غائب وتركني حاملاً، فرأيت في المنام أن سارية بيتي انكسرت، وأني ولدت غلاماً أعور، فقال: خيرٌ يرجع زوجك إن شاء الله صالحاً وتلدين غلاماً برّا، فذكرت ذلك ثلاثا، فجاءت ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- غائب، فسألتها فأخبرتني بالمنام، فقلت: لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك وتلدين غلاماً فاجراً، فقعدت تبكي، فجاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((مه يا عائشة، إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها))[٥].

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن عطاء كان يقال: الرؤيا على ما أولت. قال السندي: قوله على رجل طير بكسر الراء، أي: كأنها معلقة برجل الطير، قيل هذا مثل، والمراد أنها لا تستقر قرارها ما لم تعبر، فإن الطير في غالب أحواله لا يستقر، فكيف ما يكون على رجله؟.

قوله: ما لم تُعْبَر، على بناء المفعول من عبَر كنصر، ويجوز التشديد، وقوله: جزء إلى آخره.

هذا المعنى الذي ذكر من كون الطائر لا يستقر وأنها لا تستقر إلى آخره، يعني أنها لا تقع بحسب التعبير، فلو أخطأ المخطئ في تعبيرها كما أخطأ أبو بكر -رضي الله عنه- في بعض ما عبر فيه تلك الرؤيا، فهؤلاء يقولون: إنها تقع بحسب معناها وليس بحسب ما عُبرت به.

---

٣ - رواه أحمد في المسند (٢٦/١٠٠)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره.

٤ - رواه الحاكم في المستدرك (٤/٤٣٣)، برقم (٨١٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٠)، وصححه في صحيح الجامع (١٦١٢).

٥ - رواه الدارمي في سننه (٢/١٧٤)، برقم (٢١٦٣)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده رجاله ثقات غير أن ابن إسحاق قد عنعن، ومع ذلك فقد قال الحافظ في الفتح: إسناده حسن، قلت: وكذا قال الأرنؤوطان في تحقيق زاد المعاد: إسناده حسن.

وقوله: جزء إلى آخره: حقيقة التجزؤ لا تدرى، والروايات أيضاً مختلفة، والقدر الذي أريد إفهامه هو أن الرؤيا لها مناسبة بالنبوة من حيث إنها اطلاع على الغيب بواسطة الملَك إذا كانت صالحة، فعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الرؤيا معلقةٌ برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت ولا تحدثوا بها إلا عالماً أو ناصحاً أو لبيباً، والرؤيا الصالحة جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوة))[٦].

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في التمهيد: اختلاف آثار هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا من النبوة ليس ذلك عندي باختلاف تضاد وتدافع -والله أعلم-؛ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على ستة وأربعين جزءاً، أو خمسة وأربعين جزءاً، أو أربعة وأربعين جزءاً، أو خمسين جزءاً أو سبعين جزءاً على حسب ما يكون الذي يراها من صدق الحديث وأداء الأمانة والدين المتين وحسن اليقين، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد -والله أعلم-، فمن خلصت له نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء يتفاضلون، والنبوة كذلك -والله أعلم-.

{وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [**سورة يوسف(٦)**].

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف -عليهما السلام-: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، {وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: {كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ} وهو الخليل -عليه السلام- {وَإِسْحَقَ} ولده -عليه السلام-، {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** يحتمل أن يكون المراد كما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الظاهر المتبادر، وهو الذي دلَّ عليه القرآن، فالله -عز وجل- علم يوسف -صلى الله عليه وسلم- تعبير الرؤى كما قال -تبارك وتعالى-: **{وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** [سورة يوسف(٢١)]، وهكذا قوله -صلى الله عليه وسلم- في هذه السورة فيما ذكره الله -عز وجل-: **{وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** [سورة يوسف(١٠١)]، ومعلوم ما وقع له مع صاحبيه في السجن، قال: **{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ...}** [سورة يوسف(٤١)] إلى آخر ما ذكر، وفي رؤيا الملِك قال لهم: **{تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...}** [سورة يوسف(٤٧)] الآية، فهذا هو الظاهر الذي دلت عليه هذه الآيات في هذه السورة، ويحتمل أن يكون المراد بتعبير الأحاديث أي الكلام -والله -عز وجل- وصف كتابه بقوله: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}** [سورة الزمر(٢٣)]- وما جاء في سنن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فتعليمه لتأويل الحديث يعني ما نزل من كتب الله -عز وجل- وما جاء أيضاً من سنن الأنبياء، فهذا معنى تحتمله الآية والله -عز وجل-

---

٦ - رواه أحمد في المسند من حديث أبي رزين -رضي الله عنه- (١٠٣/٢٦)، برقم (١٦١٨٣)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره.

قال: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[سورة يوسف(٢٢)]، والمعنى الأول هو الظاهر والأقرب وعليه عامة أهل العلم، بل إن من أهل العلم من نقل على هذا الإجماع، ولكن هذا الإجماع قد يقصد به قول أكثر المفسرين، وإلا فإن منهم من قال غيره، والعلامة الشنقيطي -رحمه الله- ذكر المعنيين وقال: إن الآية تحتمل عليهما، فالآية التي تحتمل معنيين ويدل على كل واحدٍ منهما دليل من القرآن فأكثر، لا يوجد مانع من حملها على هذه المعاني، فتحمل عليها.

لكن قوله -تبارك وتعالى-: {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} قد لا يكون دليلاً واضحاً فيما ذكر من أن المقصود بتأويل الأحاديث تفسير الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- أو كلام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

فالأقرب -والله تعالى أعلم- أن يحمل ذلك على المعنى الأول.

{لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [سورة يوسف(٧-١٠)].

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه، {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا} أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه.

القسم ينقسم إلى قسمين: ظاهر، ومضمر، فالمضمر من القسم هو ما حذف منه فعل القسم وحرف القسم والمقسم به، هذا يقال له مضمر، ويستدل عليه باللام مثلاً {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} والتقدير أنهم قالوا: والله ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا.

وقوله: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} أي: للسائلين عن خبره، بعضهم يقول: هذا في النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: لكل من سأل عنه أو طلب هذا، وبعضهم يذكر بعض المرويات التي لا تصح من أن بعض اليهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن خبره اختباراً له، فالله -عز وجل- أطلق هذا {آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} بما تضمنته هذه السورة من الأمور العجيبة والعواقب الحميدة، وما يدبره الله -عز وجل- لأوليائه وما يحصل لهم من الابتلاء، ونقلهم من حال إلى حال، ومن طورٍ إلى طور، حتى يبلغوا ألوان الكمالات، إلى غير ذلك من العجائب الموجودة في هذه السورة.

قوله عن بنيامين: "**وكان شقيقه لأمه**"، هذا جاء في بعض الروايات وهي متلقاة عن بني إسرائيل، كان شقيقه لأمه بمعنى أن شقيقه لأمه هو شقيقه لأمه وأبيه، ويقصد أن بقية الإخوة كانوا من أم أخرى، وبعض الروايات فيها غير هذا، -فالله تعالى أعلم-.

{أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} يعنون في تقديمهما علينا ومحبته إياهما أكثر منا.

الضلال في القرآن يأتي لمعنيين، المعنى الأول هو الغالب في الاستعمال وهو الذهاب عن الحق، هذا أكثر ما ورد فيه الضلال في القرآن {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة(٧)]، و{رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا}

[سورة الأعراف(٣٨)]، {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الصافات(٧١)]، وهم لا يقصدون هذا؛ لأنهم لو قصدوا هذا كفروا، كيف يقولون عن نبي كريم: إنه في ضلال، وإنما يقصدون المعنى الآخر الذي ربما يكون هو أصل معناه في لغة العرب، وهو الذهاب عن حقيقة الشيء مطلقاً، فهو في ضلالٍ مبين، وكما قالوا أيضاً {لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف(٩٥)]، يعني الذهاب عن الحق في حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- هكذا، {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}، أي: في ذهابٍ عن الحق في هذا التصرف والنظر، حيث آثر اثنين على هؤلاء العصبة، والعصبة أكثر نفعاً ودفعاً، وهؤلاء صغار، فكيف يؤثرهم على البقية؟.

هذا هو المقصود وهذا معنىً معروف في كلام العرب، كما جاء كثيراً في أشعارهم، ومن ذلك قولهم: ضل اللبن في الماء، يعني ذهب، أو ضل الماء في اللبن يعني ذهب، واختلط به، ولم يتميز، وهكذا يقال عن دفن الميت: إنه إضلال له؛ لأن هذا الميت يغيب في التراب.

فآبَ مُضلّوه بعينٍ جليةٍ ***وغودر بالجولان حزمٌ ونائلُ

يعني بمضلوه أي دافنوه.

وقول الشاعر عندما يذكر الأطلال

ألم تسأل فتخبرك الديار***عن الحي المضلل أين ساروا

فالحي العرب، والمضلل يعني الذاهب، أين ساروا يعني الذين ذهبوا.

فالمقصود بقوله: {لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} أي: ذهابٍ عن الحق في هذه القضية بعينها.

قوله: {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} أي: ونحن جماعة، البعض يقول هم العشرة فما فوق، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر هؤلاء يقال لهم عصبة.

{اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم.

قوله: {اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} ربما يكون هذا باعتبار اختلاف الأقوال، وليس باعتبار أن القائل واحد يقول اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً، وإنما هذا مجموع الأقوال، والمعنى: اطرحوه أرضاً بعيدة لا يحصل له الرجوع بعد ذلك؛ لأن هذا الأب قد شغل عن هؤلاء الأولاد العصبة بهذين الولدين، هكذا في نظرهم، وأن هؤلاء قد استحوذوا على اهتمامه، شغلوا قلبه عنهم، فهم يقولون {يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} إذا تخلصتم من هؤلاء لم يكن لهذا الأب سواكم، فتستحوذوا على همه، وهذا كله من العجائب التي في قصة يوسف -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء ليسوا بأناسٍ صغار، هؤلاء رجال كبار، وقيل: إنهم كانوا أنبياء، وهذا فيه بعد، يعني قد يكون حصلت لهم نبوة بعد ذلك، لكن كيف يقع من أنبياء محاولة قتل، أو التفكير في قتل أخ لهم، وهذا العقوق العظيم للأب، والكذب، هذا لا يقع من أنبياء، وإن قال بهذا بعض أهل العلم، فمهما يكن هؤلاء أولاد نبي كريم، وابن نبي ابن نبي، نسب ممتد بأنبياء، وجدهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أبو الأنبياء، ومع ذلك يقع منهم مثل هذا، نبي قام بتربيتهم ومع ذلك وصل بهم الأمر إلى هذا الحد، محاولة القتل أو الإلقاء في البئر، فلا يمكن للإنسان أن يفعل عشر معشار هذا بأبعد الناس إليه، فكيف يفعله

بأقرب الناس إليه؟، وصغير يريدون قتله أمر عظيم وشنيع فهذه الغيرة وقعت من هؤلاء مع اجتماع هذه الأمور، ليسوا بأطفال، فهذا يدل على أن مثل هذه الأمور يجب مراعاتها في تربية الأولاد، أو التعامل مع الناس المشتركين في شيء واحد؛ لأن هذا يحرك الغيرة في نفوسهم، سواء كانوا صغاراً أو كباراً، إذا رأوا إيثاراً لأحدٍ منهم.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- عنهم بأنهم يريدون أن يفعلوا كل هذا، ثم يريدون أن يكونوا من بعده صالحين، على القول بأن المراد بذلك التوبة، كيف يقدم الإنسان على هذا ويرجو لنفسه التوبة بعده؟، وقول يعقوب -صلى الله عليه وسلم- منذ البداية لولده: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا} وهذا لم يكن مستبعداً عند يعقوب -عليه الصلاة والسلام-؛ لذلك من الخطأ أن الإنسان يتحدث عن أمورٍ حباه الله -عز وجل- بها واختصه بها عند كل أحد، يعني من الناس من يتحدث عن أشياء كثيرٌ من الناس قد فقدوها، من حاله وما حصل له من التوفيق في تجارته، وفي زواجه وفي دراسته وفي كذا، فهذا يحرك كثيراً من النفوس.

والتحدث بنعمة الله -عز وجل- يمكن أن يحصل على سبيل الإجمال، لا يجحد ولا ينكر كما يفعل بعض الناس، والله المستعان.

{وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} فأضمروا التوبة قبل الذنب.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختاره جماعة، منهم كبير المفسرين ابن جرير أنهم أرادوا أن يفعلوا الذنب ويتوبوا من بعده، فيكونوا قوماً صالحين، يعني بالتوبة، وبعضهم يقول {وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} يعني في أمور دينكم، وقيل: في دنياكم، {تَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} يعني تصلح لكم الحياة وأمور المعاش والعلاقة بالأب، فلا تبقى حالكم بهذه المثابة من اشتغال قلب أبيكم بيوسف وأخيه، فهذا الذي قد شغله عنكم يذهب، وبعد ذلك يكون نظره إليكم، فأفكارهم يحركها الحسد والضغائن التي تقع في نفوسهم وتتجدد كلما رأوا هذا الوالد قد اهتم به وأولاه عنايةً.

{قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ} قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل، وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون الصفا.

هذا من الإسرائيليات التي لا فائدة من ذكرها، والتي كان ينبغي أن يخلو عنها هذا المختصر.

{لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ} أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله.

الغيابة: كل شيء غيّب غيره يقال له غيابة؛ ولهذا جاء في سورة البقرة وآل عمران: ((كأنهما غيابتان))[٧] وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران،

---

٧ - صححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٣٩٥٤)، من حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه.

فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))(٨)، فكل شيء غيّب غيره فإنه يقال له غيابة، و{غَيَابَةِ الْجُبِّ} الجب هو البئر العميقة جداً، بحيث إذا نظرت إلى قعرها فإنك لا تبصرها؛ لعمقها.

{يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} أي: **المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله.**

السيارة من السير، الجمع الذين يسيرون مع بعضهم يقال لهم سيارة، يسيرون في الطريق فيأخذونه، وبعضهم يفسر الالتقاط بمعنىً أخص من مجرد الأخذ، وهو أخذ الشيء من مضيعة، الشيء المشرف على الضياع يقال له التقاط، والتقط؛ ولهذا يقال لقطة، ولقيط.

{إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} أي: **إن كنتم عازمين على ما تقولون.**

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه.

يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين فقد احتملوا أمراً عظيماً، رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

---

٨ - رواه مسلم برقم (٨٠٤)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة يوسف(١١- ١٢)].

لما تواطئوا على أخذه وطرحه في البئر -كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل- جاءوا أباهم يعقوب -عليه السلام- فقالوا: ما بالك {لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له {أَرْسِلْهُ مَعَنَا} أي ابعثه معنا غداً نرتع ونلعب، وقرأ بعضهم بالياء {يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ}: "**يسعى وينشط**"، روي هذا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قيل هذا من مأخوذٌ من رتْع البعير -رتعت الدواب يعني إذا أكلت كيف شاءت-؛ ولهذا يعبر به عن الاتساع في الخصب، الدواب ترتع بمعني أنها تأكل من النبات كيف شاءت، وهذه العبارة التي ذكرها هنا قال: يسعى وينشط، أو على قراءة نرتع ونلعب أي نسعى وننشط، يعني نلهو ونلعب وما أشبه ذلك، هذا قال به كثيرٌ من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وبعضهم نظر إليه من جهةٍ ثانية نرتع ونلعب قال: أي نتحارس ويحفظ بعضنا بعضاً، وهذا قالوا: إنه كقولك رعاك الله، فإنه يعبر بذلك عن الحفظ والحراسة يعني حفظك الله وحرسك ورعاك، فهذه اللفظة أصلها من رتعت الدابة، فيعبر بذلك عن الحفظ والحراسة والرعاية وما أشبه ذلك، فهذا وإن قال به بعض أئمة اللغة إلا أنه لا يخلو من بُعد في تفسير الآية -والله تعالى أعلم-، فالمقصود أن مثل هذه يعبر بها عن معنى الاتساع في اللهو واللعب والأكل وما أشبه ذلك، وهذا اللعب فسره بعض أهل العلم بالمسابقات في الرمي، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} [سورة يوسف(١٧)]، فعلى كل حال المقصود به اللعب المباح.

وكما هو معلوم أنه ليس كل لعبٍ باطل بإطلاق.

{قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} [سورة يوسف(١٣-١٤)].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} أي: يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق -صلوات الله وسلامه

عليه-، وقوله: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة {لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون.

يعني كيف يتمكن الذئب من الوصول إليه ونحن بهذا العدد من الرجال؟، فهذا عجزٌ وضعف وخسران، وقوله: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} معروف أن الحزن هو الاغتمام من أمرٍ فائت، وأما الخوف فهو الاغتمام من أمرٍ مستقبل، هذا هو الفرق بينهما كما هو مشهور، وقد يعبر بأحدهما عن الآخر، وهو قليلٌ في الاستعمال، ومنه هذا الموضع، عبر بالحزن عن الخوف {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} يعني أنه يتخوف عليه من أمرٍ يحصل في المستقبل، كأكل الذئب له.

{فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)].

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك {وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه -فيما يظهرونه له- إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب -عليه السلام- لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له.

قوله: {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} هذا شرط فأين جوابه؟ بعض أهل العلم يقول: الجواب مقدر، وتفاوتت عباراتهم في هذا المقدر، فمن ذلك قول من قال بأنه فعلوا ما فعلوا {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} فعلوا ما فعلوا، يعني ألقوه في الجب، وبعضهم يقول غير ذلك في التقدير، ومن أهل العلم من قال بأن الجواب مذكور، وهذا الجواب هو قوله: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}، وقالوا إن الواو هنا صلة، ويقصدون بـ صلة أنها زائدة، وهذا يقع في كلام العرب، بمعنى أنهم لما ذهبوا به وهم مجمعون على أن يجعلوه في غيابة الجب أوحى الله إليه في هذه الأثناء بهذا الوحي {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا}، {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}.

فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها.

هذا لا يعتمد عليه؛ لأنه من الإسرائيليات.

وقوله: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك،

وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

هذا هو المشهور، وهو المتبادر من السياق، أن الله أخبره بما سيجري في العاقبة في المستقبل، بمعنى أن هذا الإلقاء في البئر، أو أن هذه المؤامرة لن تودي به إلى التلف، وإنما سيكون له من ذلك فرجٌ ومخرج {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} فهذا وعدٌ من الله -عز وجل- له بما سيكون في المآل بينه وبين إخوته، وهذا هو الذي حصل وهو ما ذكره الله -عز وجل- بعد ذلك في آخر هذه القصة لما قال لهم يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ} [سورة يوسف(٨٩)]، فقالوا له: {أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا} [سورة يوسف(٩٠)]، فالشاهد أنه أخبرهم بهذا، ثم قالوا له: {تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} [سورة يوسف(٩١)، ثم قال لهم: {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} [سورة يوسف(٩٢)]، فالشاهد أنه أخبرهم بهذا كما وعده الله -تبارك وتعالى-، والمقصود بقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يعني حينما قال لهم ذلك ودخلوا عليه، حينما كان هو العزيز في مصر ما كانوا يعرفون أنه يوسف، فلما سألهم وقال لهم هذا الكلام عرفوا بعد ذلك {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} نبأهم بهذا وهم لم يشعروا أنه يوسف.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يعود إلى الوحي، يعني وأوحينا إليه وهم لا يشعرون، يعني بإيحائنا في هذه الأثناء، ما علموا أن الله أوحى إليه، لكن هذا فيه بعد، والأقرب هو الأول كما يدل عليه ظاهر القرآن.

{وَجَآءُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [سورة يوسف(١٦-١٨)].

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} أي: نترامى.

نستبق بمعني نترامى، يعني نَنْتَضِل، يعني نرمي بالسهام، وبالنبال، وهذا يدل عليه قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه- وهي ليست من القراءات المتواترة بطبيعة الحال "نَنْتَضِل"، وكما سبق أن القراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، "ننتضل"، والانتضال هو الرمي بالسهام، كما أن الرهان يقال للمسابقة في الخيل، والسباق يشمل ذلك جميعاً كما قال بعض أئمة اللغة كالأزهري، ويحتمل أن يكون ذهبنا نستبق: يعني نعدو على الأقدام، لكن الأول أولى؛ لدلالة القراءة التي أشرت إليها والله تعالى أعلم {نَسْتَبِقُ} يعني ننتضل، وهو بمعنى قوله هنا: أي نترامى.

{وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا} أي: ثيابنا وأمتعتنا {فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، وقوله: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} تلطفٌ عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه- لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

يعني أنه حذرهم وقال: إني أخاف أن يأكله الذئب، فقالوا له: نحن عصبة وكيف يأكله الذئب من بيننا؟، ثم يأتون إليه ويقولون له: أكله الذئب، فهذا أمرٌ كيف يصدق وكيف يقبل وهم قد ذكروا له ما يدل على بُعده ونفيه؟، ثم يحتجون به، لكنهم تلقوا هذه الحجة منه، عندما قال لهم: أخاف أن يأكله الذئب، وكأن ذلك من الشيء الذي لهم به عهد، يعني ربما كانوا يحدثونه عن ذئبٍ إذا خرجوا يعرض لهم أو نحو ذلك، فقال: أخاف أن يأكله الذئب، وتكون "ال" عهدية، الذئب المعهود، وربما يكون المكان الذي يذهبون إليه أصلاً كثير الذئاب، لكن لو كان كذلك لقال: أخاف أن يأكله ذئبٌ، لكن حينما يقول: أخاف أن يأكله الذئب، فهو ذئب معهود، كأنهم حدثوه عنه، والذئب معروف، حتى إنه قيل له ذلك لأنه يأتي من كل وجه، يأتي وهو كثير الحركة والانتقال، وخفيف في هذا جداً، فيأتي من هنا ويأتي من هنا، ويذهب من هنا ويرجع من هنا، فتارةً يأتي من الجنب وتارة من الناحية الأخرى، وتارةً من الخلف، وتارة.. لا يفْتُر، إذا دفعته من جهة لا تشعر إلا بمجيئه من جهة أخرى، فقيل له ذلك، والله أعلم.

{وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} أي: **مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة.**

قال بعض أهل العلم في قوله: "كَذِب": إن "فَعِل" هنا بمعنى مفعول، "دمٍ كذب" أي دمٍ مكذوب، ولكن لو أخذنا ظاهر اللفظ {بِدَمٍ كَذِبٍ} هنا وصف اسم العين باسم المعنى، فالدم عين والكذب معنى، فهنا وصف اسم العين الذي هو الدم باسم معنى، بأنه كذب، يعني من الممكن أن يقال: بدمٍ طري مثلاً، ولهذا جاء في قراءة غير متواترة "كَدِب" بالدال، ومعنى "كدب" يعني طري، دم جديد رطب، بدمٍ كدب، فهنا يكون وصْفُه على هذه القراءة وصفَ اسم العين باسم عينٍ، لكن "كذب" هذا اسم معنى، فإذا حصل ذلك في كلام العرب فإنه يكون من المبالغة في تأكيد الشيء، وشدة ارتباطه بهذه الصفة، يعني كأن هذا الدم هو عين الكذب.

وهو أنهم عمدوا إلى سخلة -فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد- فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} أي: **فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، {وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}** أي: **على ما تذكرون من الكذب والمحال.**

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} سولت بمعنى سهلت وزينت، وأصل ذلك يقال: التسويل هو تقرير معنىً في النفس، يطمع صاحبه بإتمامه، {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} يحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً، أي فشأني صبرٌ جميل، أو صبري صبرٌ جميل، أو الذي أنا عليه صبرٌ جميل، ويحتمل أن يكون الخبر هو المحذوف، أي صبرٌ جميل صبري، والصبر الجميل هو الذي لا جزع معه ولا شكاية، والهجر الجميل هو الهجر الذي لا يكون معه أذى، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [(١٩-٢٠) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف -عليه السلام- حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث -عليه السلام- في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يَصنع وما يُصنع به، فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من ذلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف -عليه السلام- فيها فأخرجه واستبشر به وقال: {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ}.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ} يباع فباعه إخوته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ} [(١٩) سورة يوسف]، السيارة هم المجموعة من الرفقاء المسافرين السفر، وقول ابن كثير –رحمه الله-: "**فمكث -عليه السلام- في البئر ثلاثة أيام**" هذه الرواية مما أخذ عن بني إسرائيل.

وقد قصد إخوة يوسف وضْعه في مكانٍ يمر عليه المسافرون؛ لأنهم قالوا: {وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} [(١٠) سورة يوسف]، فهو في مكانٍ يأتيه الناس من أجل أن يستقوا منه الماء، والله تعالى أعلم.

قوله –تبارك وتعالى-: {فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ} [(١٩) سورة يوسف]، أي: أرسلوا الذي يستقي لهم الماء {فَأَدْلَى دَلْوَهُ} والدلو هو ما يستقى به، قال: {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ} وقرأ الجمهور {يا بشرايَ}.

والنداء في قوله: {يَا بُشْرَى} هو للبشرى وهذا معروف في كلام العرب، خلافاً لمن زعم أن قوله: {يَا بُشْرَى} نداء لرجل اسمه بشرى، وهذا القول وإن قال به بعض السلف إلا أنه بعيد غاية البعد، وهو من غرائب التفسير ولا يدل عليه السياق.

قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} [(١٩) سورة يوسف] أي: أسروه حال كونه بضاعة، ومعنى أسروه أي: أنهم كتموا أمره، والضمير في قوله: {وَأَسَرُّوهُ}، يحتمل أن يكون راجعاً إلى إخوة يوسف، وهذا هو اختيار ابن كثير

-رحمه الله- وقد ذكر رواية العوفي عن ابن عباس -مع ضعف هذه الرواية- فقال: "**يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ} يباع فباعه إخوته**"، وقد جاء في بعض الروايات الإسرائيلية أنهم قالوا: هذا مملوكٌ لنا آبق، فلما استُخرج من البئر باعوه من المسافرين، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} راجعاً إلى الوارد المستقي وأصحابه من التجار، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [(٢٠) سورة يوسف] يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى إخوة يوسف، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- ومعنى {وَشَرَوْهُ} أي: باعوه، ويرجح هذا المعنى قوله: {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}، وهم إخوة يوسف، أما الذين وجدوه فقد حرصوا عليه غاية الحرص، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الذين وجدوه في غيابة الجب.

وقوله: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي: عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف].

قوله: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، أي: عليمٌ بمكر إخوة يوسف، فهو عليم بكل شيء، وقد تجلى هذا العلم في هذه القضية عن هذه العواقب العظيمة، وما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من ألوان البلاء من إلقائه في البئر، ودخوله في السجن بتهمة سيئة في غاية السوء، ويبقى في هذا السجن هذه السنوات الطويلة.

وقد قال بعض أهل العلم: إن نعمة خروج يوسف -صلى الله عليه وسلم- من السجن أعظم من نعمته عليه بخروجه من البئر.

وفي هذا تعريض لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وإعلام له بأنّي عالم بأذى قومك لك وأنا قادرٌ على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} [(٢٠) سورة يوسف]، **يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة، والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: {فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}** [(١٣) سورة الجن] **أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دونٍ قليلٍ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سُئلوه بلا شيء لأجابوا، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: {وَشَرَوْهُ} عائد على إخوة يوسف.**

قوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} أي: بثمنٍ قليل، وقال بعض أهل العلم: أي بثمنٍ يحرم عليهم أخذه، فقد باعوا حراً كريماً نبياً وهو أخٌ لهم بثمنٍ بخس، كما قال الشاعر:

بدلتُ بالجمة رأساً أزعرا***وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذا تنصرا

قوله: {دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} الدراهم هي التي توزن، أما إذا كانت قليلة فالعادة أنها تعد ولا توزن فإذا بلغت أربعين درهماً فإنها توزن.

وكانوا قد باعوه بأنقص الأثمان ولهذا قال {دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} فعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: باعوه بعشرين درهماً.

وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين، وقال الضحاك في قوله {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله -عز وجل-.

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [(٢١، ٢٢) سورة يوسف].

يخبر تعالى بألطافه بيوسف -عليه السلام- أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}.

معنى {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} أي: أكرمي منزله بالطعام الطيب واللباس الحسن، وهيئي له ما يحتاج إليه من أطايب اللباس والطعام.

وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}، والمرأة التي قالت لأبيها {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ} [(٢٦) سورة القصص] **الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما-.**

يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} يعني بلاد مصر، {وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا.

تأويل الأحاديث هو تعبير الرؤى، وذكر بعض السلف أن الأحاديث هي الكتب التي أنزلها الله –تبارك وتعالى- على أنبيائه –عليهم الصلاة والسلام- ولذلك سمى الله –عز وجل- القرآن حديثاً، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، ولكن السياق يدل على أن المقصود بتأويل الأحاديث هو تفسير الرؤى، وقد قال الله في آخر هذه السورة: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} [(١٠٠) سورة يوسف].

{وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبير في قوله: {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}: أي فعَّالٌ لما يشاء، وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد، وقوله: {وَلَمَّا بَلَغَ} أي يوسف -عليه السلام- {أَشُدَّهُ} أي استكمل عقله وتم خلقه.

قول ابن كثير "{أَشُدَّهُ} **أي استكمل عقله وتم خلقه**" هو تفسير حسن، وقد قال بعض أهل العلم: إذا بلغ الإنسان الثامنة عشرة فقد بلغ الأشد، وقال بعضهم: بلوغ الأشد ببلوغ الحلم، وقال بعضهم: ببلوغ الخامسة

والعشرين، وقال بعضهم: بلوغ الأشد ببلوغ الأربعين، وقيل خمسين سنة، واختار ابن جرير أن بلوغ الأشد من الثامنة عشرة إلى الستين.

{آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} يعني: النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام.

قال بعضهم: الحكم والعلم هما النبوة، وقال بعض أهل العلم: الفهم والعلم، وبعضهم يقول: يعني الحكم بين الناس، والأقرب -والله أعلم- أن الحكم والعلم هما النبوة

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى.

ليس معنى ذلك أن من كان محسناً يعطى النبوة، وإنما النبوة هي موهبة إلهية لا يصل إليها الإنسان مهما كان عمله وجدّه واجتهاده وتهذيبه، وهذا قول المسلمين، ويوجد من قال من الفلاسفة: إن النبوة قضية كسبية، وإن الإنسان إذا ترقى في مدارج الكمال والتهذيب فإنه يصل إلى هذا بكسبه، وهذا الكلام من أبطل الباطل، فالله -عز وجل- يصطفي من عباده ما شاء لهذا الأمر {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [(٧٥) سورة الحج].

ومعنى قوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: بما يدبره الله -عز وجل- لهم، ويجعل العاقبة الحميدة لهم دائماً، وينجيهم، ويحصل لهم من ألوان الكرامات والمنح الإلهية، ومن أهل العلم كابن جرير من خصه بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم- كما فعلنا ذلك بيوسف كذلك نفعل بك، ونجعل العاقبة لك، وننصرك على قومك ونظهرك عليهم، والراجح –والله أعلم- أن الآية عامة.

(مسألة)

ابتداء يوسف -عليه السلام- بدعوة من كان في السجن إلى توحيد الله –عز وجل- لم يكن بوحي؛ لأن يوسف –عليه السلام- كان قد نشأ وتربى على التوحيد فهو ابن نبي، ولهذا قال: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(٣٧) سورة يوسف].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (٢٣)}.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف -عليه السلام- في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها؛ وذلك أنها أحبته حباً شديداً؛ لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلّقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ}، المراودة: هي الإرادة، والمحاولة برفق ولين، فقد حاولت امرأة العزيز من أجل أن يتحقق مطلوبها، ومن أهل العلم من يقول: إنه مأخوذ من الرود وهو الرفق واللين، وبعضهم يقول: من راد يرود إذا ذهب وجاء، ففعلت هذا الفعل كالذي يذهب ويجيء ويتردد من أجل أن يحقق مأربه، يعني كأنها فعلت فعل المخادع، وقد قال الله –عز وجل-: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا}، ولم يقل امرأة العزيز، فالآية فيها زيادة تقرير، وفيها محافظة على الستر.

قوله: {وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ}، غلّق: على وزن فعّل تدل على التكثير، بخلاف أغلق فإنه يدل على القلة أو على المرة الواحدة، لو قال: وأغلقت الأبواب.

{وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، وقال: {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}، وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي {أَحْسَنَ مَثْوَايَ} أي: منزلي، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله، {إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}، قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

قوله: {إِنَّهُ رَبِّي}، أي: العزيز، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وهذا القول لا إشكال فيه؛ لأن كلمة الرب تأتي لمعانٍ متعددة، وقد ذكر منها بعض أهل العلم سبعة، فمن معاني كلمة الرب السيد، ومن معانيها المتصرف، ومن معانيها المربي، ومن معانيها المالك، فيوسف -عليه الصلاة والسلام- بيع للعزيز كما هو معلوم، فهو مملوك، وما ورد من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال ((لا يقل أحدكم أَطْعِم ربَّك وضّئ ربك اسق ربك، وليقل سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي))[1] ، هو من باب الأدب، وإلا فإن ذلك ليس بمحرم.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢ / ٩٠١)، برقم (٢٤١٤)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٤ / ١٧٦٤)، برقم (٢٢٤٩).

وقيل في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} أي: الله، لكن الأشهر والأقرب -والله أعلم- أنه قصد العزيز، ويدل على ذلك قول العزيز لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} [(٢١) سورة يوسف].

وقد اختلف القراء في قوله: {هَيْتَ لَكَ}، فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال البخاري: وقال عكرمة: {هَيْتَ لَكَ} أي: هلم لك، بالحورانية، وهكذا ذكره معلقاً، وقرأ آخرون: {هِئْتُ لَكَ}، بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، من قول القائل: هئت بالأمر أهيئ هئة، وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو وائل، وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك.

هذه القراءة مروية عن بعض الصحابة كعليّ، وهي رواية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما، وبها قرأ هشام وآخرون، مع أنه أنكرها بعض أئمة القراءة، وبعض أئمة اللغة، كأبي عمرو بن العلاء، وقال: هذا لا يعرف في كلام العرب، وقال: لو ذهبتَ من هاهنا إلى اليمن لا تجد من يقول: {هِئْتُ لَكَ}، وأنكرها أيضاً الكسائي، وأقرها آخرون من أهل اللغة، وقالوا: هي لغة عربية ومعروفة، هئت لك.

وقرأ عبد الله بن إسحاق: {هَيتِ} بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة {هَيتُ} بفتح الهاء وضم التاء.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: {هيتَ} لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيتَ لك، وهيتَ لكم، وهيتَ لكما، وهيتَ لكن، وهيتَ لهن.

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [(٢٤) سورة يوسف].

وقيل: المراد بهمه بها: خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هاهنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها))[٢]، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها، وقيل: همّ بضربها.

بالناسبة لهَّم لامرأة العزيز كان من قبيل العزم؛ لأنها راودته وغلقت الأوباب وقالت: {هَيْتَ لَكَ} فقد كانت عازمة غاية العزم، وأما بالنسبة ليوسف -عليه الصلاة والسلام- فقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك من خطرات النفس، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، والله تعالى أعلم.

وسُئل الإمام أحمد -رحمه الله- عن هذا الهمّ الذي همَّ به يوسف -عليه السلام- فذكر أنه كان من باب الخطرات، فلا يؤاخذ الإنسان عليه، ولا تنقص به مرتبته، ولا يحصل له بذلك مذمة ولا ملامة؛ لأن هذه

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} (٦ / ٢٧٢٤)، برقم (٧٠٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١ / ١١٧)، برقم (١٢٩).

الخطرات التي تقع في النفوس تهجم على النفس دون أن يتطلبها الإنسان ودون أن يقصدها، فما تلبث أن يدفعها الإنسان، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١١٠) سورة يوسف] فالرسل –عليهم الصلاة والسلام- لا يمكن أن يحصل منهم مثل هذا الظن، فيقال في مثل هذا –والله أعلم-: إن هذا من الخطرات التي تقع في النفوس في أوقات الشدائد، ثم ما تلبث أن تزول ولا تضر.

وقال بعض أهل العلم: الهم الذي همَّ به يوسف –عليه السلام- هو الميل الطبيعي من الرجل للمرأة، ولكن أهل الإيمان يزمونه بالتقوى.

وقال بعض أهل العلم: إن يوسف –عليه السلام- همَّ بضربها، ولكن هذا القول بعيد، لا يدل عليه ظاهر السياق.

وقال بعض العلماء: إن يوسف –صلى الله عليه وسلم- لم يهم إطلاقاً، وقالوا: بتقديم جواب {لَوْلا}، وجواب {لَوْلا} في قوله –تبارك وتعالى-: {لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ} هو ما قبله من قوله: {وَهَمَّ بِهَا} وهذا قول الكوفيين، ومنعه نحاة البصرة.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال: قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملَك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال بعض علماء التفسير: إنه رأى صورة يعقوب -عليه الصلاة والسلام- يعض أنامله، ويتوعده، وقال بعضهم: تصور له جبريل -عليه الصلاة والسلام- بصورة أبيه، وقال بعضهم: رأى يوسف –عليه السلام- في السقف كلاماً مكتوباً يزجره عن هذا الفعل، وقال بعضهم: إن امرأة العزيز لما أرادت فعل الفاحشة أخذت غطاءً أبيض ووضعته على صنم مزين بالجواهر، فسألها يوسف –عليه السلام- عن هذا الفعل، فقالت: حياءً من ربي أن يراني على هذه الفعلة، فقال: فأنا أحق أن أستحي من ربي، وهذا القول لا دليل عليه.

وقوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء} [(٢٤) سورة يوسف] أي: كما أريناه برهاناً صرَفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} أي: من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

قرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير بكسر اللام، {الْمُخْلِصِينَ}، وقرأ آخرون بالفتح {الْمُخْلَصِينَ} والقراءتان بينهما ملازمة، فهو من عباد الله {الْمُخْلَصِينَ} ، فهو من أهل الإخلاص، ومن أهل الاجتباء والاصطفاء، وهذا يدل على أن الاخلاص من أسباب نجاة العبد من الشدائد والكروب والفتن.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ} الآية، ظاهر هذه الآية الكريمة قد يُفهم منه أن يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- همَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته -عليه الصلاة والسلام- من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بيّنت شهادة كل من له تعلق بالمسألة براءته، وشهادة الله له بذلك، واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي} [(٢٦) سورة يوسف]، وقوله: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [(٣٣) سورة يوسف].

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ} [(٣٢) سورة يوسف]، وقولها: {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [(٥١) سورة يوسف].

وأما اعتراف زوج المرأة، ففي قوله: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [(٢٨-٢٩) سورة يوسف].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} [(٢٦) سورة يوسف] الآية.

وأما شهادة الله -جل وعلا- ببراءته، ففي قوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [(٢٤) سورة يوسف].

قال الفخر الرازي في "تفسيره": قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: {لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ} واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: {وَالْفَحْشَاءَ}، أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا}، مع أنه تعالى قال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [(٦٣) سورة الفرقان].

والرابع: قوله: {الْمُخْلَصِينَ}، وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل. وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه. اهـــ من تفسير الرازي.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: {مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢٣) سورة يوسف].

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته، ففي قوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٨٢-٨٣) سورة ص]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلَصين، ولا شك أن يوسف من المخلَصين، كما صرح تعالى به في قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}، فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف -عليه السلام- هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته.

ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه، كما قال الخوارزمي:

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى*** بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أُحسن بعده*** طرائق فسقٍ ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل: أن يوسف -عليه السلام- بريء مما يقول هؤلاء الجهال. ا هـ كلام الرازي.

ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح! وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح.

وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته -عليه السلام- مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: {وَهَمَّ بِهَا}؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بهمِّ يوسف بها خاطرٌ قلبي صرفه عنه وازعُ التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جلي لا يتعلق به التكليف، كما في الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم-: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: ((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك))[٣]، يعني ميل القلب الطبيعي.

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة))[٤]؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله، وامتثالاً لأمره، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [(٤٠-٤١) سورة النازعات].

وهَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد، كهمِّ يوسف هذا، بدليل قوله: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٢٢) سورة آل عمران]؛ لأن قوله: {وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا} يدل على أن ذلك الهم ليس معصية، لأن إتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية.

والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه: هذا ما يهمني، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إليّ، بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.

ومثل هذا التصميم على المعصية: معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه -صلى الله عليه وسلم- من حديث أبي بكرة -رضي الله تعالى عنه-: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[٥]، فصرح -صلى الله عليه وسلم- بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.

---

[٣] - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (١ / ٦٤٨)، برقم (٢١٣٤).

[٤] - رواه البخاري (٥ / ٢٣٨٠)، برقم (٦١٢٦).

[٥] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (١ / ٢٠)، برقم (٣١).

وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل، كقول العرب: قتلته لو لم أخف الله، أي قاربت أن أقتله، كما قاله الزمخشري، وتأويل الهم بأنه همّ بضربها، أو همّ بدفعها عن نفسه فكل ذلك غير ظاهر، بل بعيد من الظاهر، ولا دليل عليه.

والجواب الثاني -وهو اختيار أبي حيان-: أن يوسف لم يقع منه همٌّ أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

قال مقيده عفا الله عنه: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}، أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب، لأن جواب الشروط وجواب {لَوْلا} لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة.

وكقوله: {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١١١) سورة البقرة]، أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية، {وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} أي: لولا أن رآه –أي البرهان- هم بها. فما قبل {لَوْلا} هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة.

ونظير ذلك قوله تعالى: {إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} [(١٠) سورة القصص]، فما قبل {لَوْلا} دليل الجواب. أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب {لَوْلا} وتقديم الجواب في سائر الشروط، وعلى هذا القول يكون جواب {لَوْلا} في قوله: {لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، هو ما قبله من قوله: {وَهَمَّ بِهَا}، وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه: والذي أختاره أن يوسف -عليه السلام- لم يقع منه همٌّ بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان؛ كما تقول: لقد فارقتَ لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب {لَوْلا} متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد.

قال ابن القيم –رحمه الله-: فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله؛ فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك لوجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة؛ كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يُذم إذا صادف حلالاً، بل يحمد.

الثاني: أنَّ يوسف -عليه السلام- كان شاباً، وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سُرِّيَّة تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال؛ بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبتَه في المرأة إباؤها وامتناعها؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها.

وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كَلَفاً في الحب أن مَنَعتْ*** وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحلّ عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته، وإبائها بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبتْ وأرادتْ وراودت وبذلت الجهد، فكفته مئونة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تَنِمّ عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلّقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار؛ بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا يُنكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي؛ كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنا؟ قالت: قرب الوساد وطول السَّواد؛ تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن فقال: {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} [(٣٣) سورة يوسف].

الثاني عشر: أنها توعّدته بالسجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: {أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} وللمرأة {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [(٣٣) سورة يوسف] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه

وبنفسه، وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحِكَم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا -إن وفق الله- أن نفردها في مصنف مستقل. انتهى كلام ابن القيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- عند تفسير قوله تعالى: {وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [سورة يوسف(٢٥-٢٩)].

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدّته قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه واستمر يوسف -عليه السلام- هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: {مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا} **أي: فاحشة،** {إِلاّ أَن يُسْجَنَ} **أي: يحبس،** {أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} **أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ -رحمه الله-: "**فأمسكت بقميصه من ورائه فقدّته قداً فظيعاً**"، في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ}، قدّته يعني شقته، ويستعمل القدّ في الشق طولاً، وأما الشق بالعرض فإنه قد يعبر عنه بغير ذلك يقال القّط، يقول الله -تبارك وتعالى- حينما ألفيا سيدها لدى الباب قالت: {مَا جَزَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، "ما" هذه تحتمل أن تكون استفهامية، هي تسأل تقول: ما جزاؤه، ما عقوبته؟، ثم أجابت نفسها فقالت: {إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قال به طائفة من المفسرين، ويحتمل أن تكون "ما" نافية، فتكون هذه الجملة مركبة من نفي واستثناء، فتفيد الحصر، ما جزاؤه إلا أن يسجن، أي: ليس له جزاء إلا أن يسجن، لا جزاء لمن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يفعل به كذا وكذا، فألقت إليه التهمة وحددت العقوبة، على كل واحد من هذه الاحتمالات، الاحتمال الأول أن تكون استفهامية، هي تسأل تقول: ما جزاؤه؟ ثم أجابت قالت: {إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وعلى الثاني لا جزاء له إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

{إِلاّ أَن يُسْجَنَ} **أي: يحبس،** {أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} **أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.**

فعند ذلك انتصر يوسف -عليه السلام- بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال باراً صادقاً {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}**، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه،** {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ}**: أي من قدامه،** {فَصَدَقَتْ} **أي: في قولها إنه راودها عن نفسها؛ لأنه يكون لمّا دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه، فيصح ما قالت،** {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

{الصَّادِقِينَ} وذلك يكون -كما وقع- لمّا هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدّت قميصه من ورائه.

القد من قُبل قرينة وإن لم تكن قاطعة بحد ذاتها، والعلماء أخذوا من هذا أنه يجوز العمل بالقرائن إذا تعذرت البينة، وإلا فيمكن أن تكون قد جذبت قميصه من الأمام فانشق من الوراء، والعكس أيضاً، يعني في مجاري العادات هذا غير ممتنع، ولكن الغالب إذا كان الجذب من الخلف يكون القد من الخلف، والعكس بالعكس، ولكن هذا ليس بقاطع مائة بالمائة، فدل على جواز العمل بالقرائن، وهذا مثال على استنباط الأحكام من القصص، يعني الآيات التي أُوردت بقصد تقرير حكم شرعي هي التي يسميها العلماء -رحمهم الله- بالخمسمائة آية -آيات الأحكام-، وألف فيها كثيرون، وأكثرُ من ألّف في أحكام القرآن في الخمسمائة آية، وأول كتاب وصلنا في هذا كتاب مقاتل بن سليمان المتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة، اسمه تفسير الخمسمائة آية، ولا يقصدون أن آيات الأحكام هي خمسمائة آية فقط، وإنما يقصدون الآيات الصريحة التي سيقت لتقرير الحكم مثل: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** [سورة البقرة(٤٣)]، **{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ}** [سورة البقرة(٢٢٨)]، وما أشبه هذا، لكن هناك أشياء أخرى من الأحكام تستنبط من القصص، مثل هذه يستنبط منها جواز العمل بالقرائن، ويستنبط من قول الله: **{وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ}** [سورة يوسف(٧٢)] مسألة الكفالة، والجعالة، ومسألة شرع من قبلنا إذا جاء في شرعنا ما يوافق ذلك فلا إشكال قطعاً في العمل به، أما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه ولم يرد فيه ما يوافقه، فهذا الذي قال بعض أهل العلم: إنه لا يعمل به، وأكثر أهل العلم على أن ذلك يشرع العمل به، والقرطبي -رحمه الله- في تفسيره -وهو من أجل التفاسير- لم يقتصر على الخمسمائة آية فقط، بل فسر جميع القرآن واستنبط من كل ما يمكن الاستنباط منه، وهكذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ فروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} قال: ذو لحية، وقال الثوري: عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان من خاصة الملك، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً.

يعني أنه كان رجلاً من خاصة الملك، بعض أهل العلم يقول: هذا رجل كان يستشيره الملك، وبعضهم يقول: كان ابن عمها، وبعضهم يقول: ابن خالها، وبعضهم يقول غير ذلك، أقاويل كثيرة، وعامة هذه الأقوال إن لم يكن كل هذه الأقوال لا دليل عليها، إلا قول من قال: إنه كان صغيراً في المهد؛ لما أخرجه الإمام أحمد وغيره في الذين تكلموا في المهد[1]، والحديث أقل أحواله -إن شاء الله- أنه حسن، وفي الصحيحين ذكر أنهم

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠/٥)، برقم (٢٨٢١)، وفيه قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: " تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم -عليه السلام-، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون"، وقال محققوه: إسناده حسن.

ثلاثة[٢] والأحاديث التي جاءت في الذين تكلموا في المهد يمكن أن يجمع منها أكثر من أربعة، لكنّ عدداً من هذه الأحاديث لا يصح، والحديث الذي رواه أحمد ذكر أربعة وهم ابن ماشطة بنت فرعون، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وصح أيضاً في بعض الأحاديث في قصة الأخدود المرأة التي كانت تحمل صبياً فترددت حينما قدمت على الأخدود تلقي بنفسها أو لا، فقال: يا أمه إنك على الحق[٣]، وصح خبر المرأة التي كانت تحمل صبياً فمر بها فارس فقالت: ((اللهم اجعل ابني مثل هذا، وكان قد التقم الثدي يعني يرضع، فترك الثدي وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم مرت بجارية يضربها أهلها، وقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك الثدي وقال: اللهم اجعلني مثلها))[٤]، وجاء في بعض الروايات الضعيفة غير هذا، فإذا صحت هذه الرواية أن من هؤلاء ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف فإنه يوقف عنده، وباقي الأقوال لا دليل عليها، قد يكون كذا أو كذا أو غير ذلك، إلا أن من هذه الأقوال قولاً يمكن الجزم ببطلانه، وهذا من غرائب التفسير، وإن قال به أحد من التابعين، يقول: إنه ليس بإنسي ولا جني، أو ولا ملَك، كيف يكون هذا والله -عز وجل- يقول: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}، وأهل هذه المرأة من الإنس قطعاً؟.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} قال: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- وهلال بن يَساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير.

الصبي الذي كان في الدار قد لا يكون في المهد، قد يكون طفلاً، لكنها لم تكترث به، ولم تلتفت إليه، ربما ظنت أنه لا يميز أو لا يؤبه له، فتكلم بمثل هذا، وإذا صحت هذه الرواية فإنه يقال: إنه كان في المهد، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ} أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، {قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ} أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}، ثم قال آمراً ليوسف -عليه السلام- بكتمان ما وقع: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} أي: اضرب عن هذا صفحاً، أي: فلا تذكره لأحد.

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٣٢٥٣)، كتاب الأنبياء، باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [سورة مريم(١٦)]، وذكر ثلاثة، عيسى ابن مريم -عليه السلام-، وصاحب جريج، وولد المرأة التي مر بها فارس فقالت: اللهم اجعل ولدي مثل هذا، فقال: اللهم لا تجعلني مثله...، ومسلم برقم (٢٥٥٠) كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها .

٣ - رواه مسلم من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب -رضي الله عنه- برقم (٣٠٠٥)، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.

٤ - رواه البخاري برقم (٣٢٥٣)، كتاب الأنبياء، باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}، ومسلم برقم (٢٥٥٠)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

{وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ} يقول لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذْفِه بما هو بريء منه، {إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}.

الصحيح أنه كان سهلاً، قليل الغيرة؛ لأنه أبقاه عندها، وهي لا زالت مصرة، وتقول بعد ذلك: {وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ} [سورة يوسف(٣٢)]، فهي تهدده وتأتي به إلى النساء، ويفتن أولئك النسوة به، فهو باق معها بعد هذه المحاولات جميعاً، والعزم المصمم، وتغليق الأبواب، وغاية ما فعل قال ليوسف: لا تخبر أحد بهذا، وأنت استغفري لربك، وانتهت المشكلة، فهذه قلة غيرة، ويبدو أنها تعرف أن زوجها بهذه المثابة؛ ولذلك اجترأت هذا الجرأة العظيمة.

{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة يوسف(٣٠-٣٤)].

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر، حتى تحدث به الناس، {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ} مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبْنَ ذلك عليها.

العزيز في لغة العرب هو الملك كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويقول الحافظ: "**مثل نساء الكبراء والأمراء**"، وبعض السلف يقول: إن هؤلاء النسوة، يعني امرأة الحاجب وامرأة الذي يخبز له، وامرأة القائم على بعض أعماله، أو على الدواب، ناس يشتغلون عند العزيز، وهذا لا دليل عليه، فقد يكون نساء الكبراء، أو نساء هؤلاء الذين هم تحت يده من أعوانه، وقد يكون غير ذلك، -والله أعلم-.

{امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها، {قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً} أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه.

قوله: {قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً} أي: تغلغل في قلبها، وبعضهم يقول: وسط القلب، والمشهور هو الذي اختاره ابن جرير، وقال به كثير من السلف: إن هذا غلاف القلب، يعبر بمثل هذا عن تغلغل الحب، وأنه قد خالط القلب ومازَجه ودخل فيه، وقيل: مثل هذه العبارة تدل على معنىً كبير في الحب، إذا قتلها الحب يقال: شغفها، وإذا قتله يقال: شغفه.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الشعف: الحب القاتل، والشغف دون ذلك.

كلمة الشعف تطلق على أعلى الشيء، أعالي الأشياء، فقالوا: هذا أعلى الحب، الحب القاتل، فهو أعلى من الشغف، وقرأ الحسن وابن محيصن "قد شعفها حباً".

والشغاف حجاب القلب، {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه، {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} قال بعضهم: بقولهن: ذهب الحب بها.

قوله: {إِنّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ}، كما قال إخوة يوسف -عليه الصلاة والسلام- عن أبيهم -صلى الله عليه وسلم-: {إِنّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ} يعني: ذهابٍ عن الحق، فهؤلاء ينتقدْنها بأنها قد فتنت بمملوك عندها، وأخذ بلبها، وشغفها حباً، قد تكون هؤلاء النسوة قلن ذلك ليتوصلن إلى النظر إليه ورؤيته، ويكون هذا هو المكر الذي صدر منهن والكيد، وقد لا يخلو هذا من بعد، ويحتمل أن يكون المقصود بهذا المكر {سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} أنها غيبة، ولما كانت الغيبة في الخفاء فأشبهت المكر الذي يكون في الخفاء، {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ}، فيحتمل هذا ويحتمل هذا، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ} أي: دعتهن إلى منزلها لتضيِّفهن، {وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكَأً}. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد، وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أُتْرُجٍّ ونحوه.

هذا جواب لتساؤل: ما هو المكر الذي مكرنه هؤلاء النسوة؟

وقوله: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكَئَاً} المتكأ: المجلس الذي فيه ما يُتكأ عليه، ويرتفق به، وفيه طعام، باعتبار قوله: {وَآتَتْ}، لم يقل الله -تبارك وتعالى-: وفيه طعام، وإنما عرف هذا، من قوله: {وَآتَتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مّنْهُنّ سِكّيناً}، ولهذا فسر بعضهم المتكأ بأنه يصدق على كل ما يُتكأ عليه من الأثاث، والطعام، ولا يقصد أنه يُتكأ على الطعام، وإنما ما يشتغل به الناس، فالمجالس عادة يوضع فيها ما يتلهى به الجالسون من مطعوم ومشروب ونحو ذلك، فيكون يشمل هذا وهذا، وقيل غير هذا.

ولهذا قال تعالى: {وَآتَتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مّنْهُنّ سِكّيناً}.

جاء في قراءة لسعيد بن جبير، قرأ بها بعض السلف، بإسكان التاء ومن غير همز "مُتْكاً"، قالوا: والمُتْك هو الأُتْرُنْج، بعضهم قال: هذا في لغة القبط، وبعضهم يقول: في لغة أزد شنوءة، أنها أعدت لهن متْكاً يعني أُتْرُنْجًا، ومعنى الإعداد: تهيئة الشيء بعناية ونحو ذلك، يعني جهزتْه من أجل أن يقع ما وقع، لكن هذه القراءة ليست متواترة، وهذا أوردته من أجل أن تدرك -سواء مما ذكره الحافظ في الرواية السابقة أو غير ذلك مما يوجد في كتب التفسير من الروايات- أنهم يذكرون الأُتْرُنْج ، وإنما قرأ بهذه القراءة بعض السلف كسعيد بن جبير وغيره مثل مجاهد "متْكاً": أي أُتْرُنْجًا ، والقراءة الأحادية هذه يستأنس بها، وتفسر بها القراءة المتواترة، إذا صح سندها، -والله أعلم-.

وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، {وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنّ} وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، {فَلَمّا} خرج و{رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} أي: أعظمنه، أي أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأُتْرُجَّ بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

يعني من شدة الذهول، من شدة جمال يوسف -صلى الله عليه وسلم- حصل لهن هذا، فكانت الواحدة لا تشعر ماذا تصنع، مع أن الحز يؤلم، فصارت الواحدة تقطع يدها، والمقصود بتقطيع اليد: الحز وأنها تخدش أو تجرح يدها، لا أنها تبين اليد وتنقطع تماماً، وإن قال بعض المفسرين: إنهن قطعن أيديهن تماماً، وابن جرير

-رحمه الله- يقول: لا يوجد عندنا ما يمنع من هذا ولا هذا، يحتمل أن تكون الأيدي انقطعت تماماً وهن لم يشعرن من شدة الذهول، وبعضهم فسر الأيدي بالأنامل، يعني جرّحن أناملهن بالسكين بدلاً من أن يقطعن الأُتْرُجَّ، {وَقَطّعْنَ أَيْدِيَهُنّ} بدل من تقطيع هذا الأُتْرُجّ أو غيره، يعني من الفاكهة، أو ما وضع لهن مما يحتاج إلى قطع، فتصور أنهن جالسات يشتغلن بقطع أيدهن وهن لا يشعرن من شدة الذهول لما رأينه، {أَكْبَرْنَهُ} أي: أعظمنه، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر، وقيل: {أَكْبَرْنَهُ} أي: أمذين، والهاء للسكت، واحتجوا بقول الشاعر:

إذا ما رأينَ الفحلَ من فوق قلَّةٍ *** صهلنَ وأكبرنَ المنيَّ المقطَّرا

وبعضهم قال: أمْنين، يعني أنهن استفرغن شهوتهن وأنزلن لمّا رأينه من شدة الرغبة والشهوة الجامحة، واحتجوا بنفس البيت لكنه برواية مقاربة:

ولمّا رأته الخيلُ من رأس شاهقٍ *** صهلنَ وأمنينَ المنيَّ المدفّقا

وبعضهم فسر هذه اللفظة {أَكْبَرْنَهُ} بالحيض، أي: حضنْ، وهذا قال به أئمة من أهل اللغة وأنكره آخرون، قالوا: لأن الهاء موجودة، فأجابوا بأن الهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة: أي حاضت، ومنه قول الشاعر:

نأتي النساء على أطهارهن ولا *** نأتي النساء إذا أكبرن إكباراً

فمن شدة الدهشة والذهول والصدمة التي أصابتهن من شدة جمال يوسف -عليه السلام- عندما رأينه، نزل الدم في غير حينه.

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أُتْرُجًّا وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ {وَقُلْنَ حَاشَ للّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه.

قوله: "**لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه**" هذا جواب على سؤال مقدر، لماذا قلن: {مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}، هل رأين الملائكة أصلاً؟ والجواب: لا، لكنهن ما رأين بشراً بهذه الصفة والجمال الباهر، فمباشرة حكمن بأن هذا ملَك؛ لمَا استقر في أذهان الناس أن الملك فيه ألوان الكمالات، وكما يقولون في صفة الشيء البشع: كأنه شيطان، أو المتناهي في القبح: كأنه شيطان، والله -عز وجل- قال عن شجرة الزقوم: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}[سورة الصافات(٦٥)]، فشبهه برءوس الشياطين؛ لأنه قد استقر عند الناس أن رءوس الشياطين وصورة الشياطين في غاية القبح، وهذه الآية من الآيات التي احتج بها من قال: إن الملائكة أفضل من البشر، وأكمل من البشر، وهذا لا دليل فيه، وهؤلاء النسوة قالوا: {إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}، ومسألة المفاضلة بين البشر أو بين صالحي البشر والملائكة لا طائل تحتها -فالله تعالى أعلم-.

فإنه -عليه السلام- كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بيوسف -عليه السلام- في السماء الثالثة، قال: ((فإذا هو قد أعطي شطر الحسن))[٥].

قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله {مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله، {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} أي: فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال.

يعني الإنسان إذا أعطي جمالاً باهراً ولم يكن معه عفاف فإن ذلك يكون نقصاً فيه، وقد تكون امرأة في غاية الجمال لكن إذا علم أنها بائعة هوى فإن ذلك يكون سفولاً وانحطاطاً في مرتبتها، فلا تمتد إليها أنظار من أكرم نفسه، ورفعها وعرف قدرها، بل يحتقرها، فهي تقول: ليست هذه الصورة الظاهرة التي ترون فقط، لا بل فيه من صفات الكمالات الباطنة التي لا تعرفن، وهي العفاف، {فَاسْتَعْصَمَ}، عفيف، وكثير من الناس لا يحسن له هذا لا من الرجال ولا من النساء إلا من لطف الله -عز وجل- به، وابن القيم له كلام شديد عندما تكلم عن الجمال، وأولئك الذين يبحثون عن الجمال في المرأة، كلام شديد في المرأة التي تعطَى جمالاً كبيراً وماذا يؤثر هذا الجمال فيها من المفاسد، وكذلك كثير من الرجال إذا أعطي جمالاً فإنه قد يغتر، ويستغل هذا الجمال في اصطياد النساء، ومواقعة الفواحش، فإذا وُجد الجمال مع العفاف فهذا هو الكمال.

ثم قالت تتوعده: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} فعند ذلك استعاذ يوسف -عليه السلام- من شرهن وكيدهن، و{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} أي: من الفاحشة، {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ} أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، بصيغة جمع، وأصل القضية والتي طالبته بهذا هي امرأة العزيز، ما قال: وإلا تصرف عني كيدها، وهي التي قالت: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ}، بعض أهل العلم يقول: هذا قصد به امرأة العزيز وأن صيغة الجمع للتعظيم، وهذا فيه بعد، التعظيم ما يقال بهذه الصيغة، بضمير الغائب، وإنما ذلك يقال للمخاطب، أنتم قلتم كذا، ذكرتم كذا، أو المتكلم، ذكرنا كذا، لكن الغائب لا يقال له هذا عادة، ولهذا {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، ما يقال: هذا للتعظيم، وقيل: إن هؤلاء النسوة قلن ليوسف -عليه الصلاة والسلام-: طاوعها، وخوّفنه من مخالفتها، فكنّ أعواناً لها على هذا المطلب الذي طلبته، وهذا كيد هؤلاء النسوة، وقيل: إن كل واحدة منهن حاولت أن تخلو به؛ لتدعوه إلى نفسها وتقول له: أنا أفضل من امرأة العزيز، لما رأينه، -فالله تعالى أعلم-، وكنّ يلمنها في هذا فلما رأينه عذرنها على ما وقع؛ ولهذا اجترأت بحضرتهن وقالت مكاشفة ومصارحة: {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ}، تقول لهن: أنا مصرة أيضاً على هذا، لا صبر لي عنه، فما

---

٥ - رواه مسلم برقم (١٦٢)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات.

اجترأت وقالت هذا الكلام إلا بعد ما عرفت أنها معذورة أمام هؤلاء النسوة، كأنهن قلن: والله ما تلامين، فيكون هذا هو الكيد، {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، والله المستعان.

{أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ} الآية، وذلك أن يوسف -عليه السلام- عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ومن الدواعي كونه مملوكاً، إذ المملوك عادة يترخص بأمور كثيرة؛ ولهذا فهذا أحد التعليلات في كون حد الزنا نصف الحد بالنسبة للملوك، وليس له تلك المرتبة في الشرف، فيضرب نصف الحد، وكذلك أيضاً الله -عز وجل- يقول: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ} [سورة النـــور(٣٢)] يعني: من الأحرار، والأيْم: هو من لم يتزوج ذكراً كان أو أنثى، {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} أي: الصالحين منهم، ولم يقل: كل العباد والإماء، وإنما قال: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى}، وفي المماليك قال: {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}، فهؤلاء هم الذين يطلبون العفاف، وإلا فكثير من المماليك يترخصون في أمور كثيرة، ولهذا فإن الأمَة لا تطالب بالحجاب كما تطالب الحرة، وعمر كان يعاقب الأمة إذا رآها تحتجب وتلبس لباس الحرة إذا خرجت، لأن الأمة الشرف بالنسبة إليها أدنى من شرف الحرة، فهذا مملوك عندها في بلد ليست بلده كما سبق، وفي قصرها، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة السابقة.

وقوله: {أَصْبُ إِلَيْهِنَّ}، أي: أميل إليهن.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه))[٦].

---

٦ - رواه البخاري برقم (٦٢٩)، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم برقم (١٠٣١)، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [سورة يوسف(٣٥)].

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة؛ وذلك بعد ما عرفوا براءته، وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم ــ والله أعلم ــ إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك؛ ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبيّن براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض -صلوات الله عليه وسلامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ}: ما ذكره الحافظ -رحمه الله- من أن هذه الآيات هي الدالة على براءته هو الأرجح من أقوال المفسرين، وينبغي أن لا يدخل مع هذه الآيات تقطيع النسوة لأيديهن، فإن هذا لا تعلق له بهذا الموضع -والله تعالى أعلم-، فتقطيع النسوة لأيديهن يمكن أن يتعلق بقول آخر في تفسير الآيات، كقول من قال: إن المراد رأوا الآيات الدالة على كماله وأوصافه العظيمة التي كانت مبهرة، فكان ذلك سبباً لمراودة امرأة العزيز له، ولما رآه النساء قطعن أيديهن، فهؤلاء يقولون: إنهم سجنوه من أجل الحيلولة بينه وبين امرأة العزيز التي فتنت وفعلت كل شيء بمستطاعها من أجل أن تصل إليه، وتوعدته إن لم يفعل، وعلى هذا القول يمكن أن يدخل ما حصل من هؤلاء النسوة في المراد بهذه الآيات، ولكنه قول مرجوح، وأما على القول الراجح من أن الآيات يعني الدالة على صدقه مثل شق القميص، وقول امرأة العزيز: {فَاستَعْصَمَ} [سورة يوسف(٣٢)]، يدل على أنه كان بريئاً {لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} إلى زمن من أجل أن تهدأ القالة، ويُنسى خبره، ويترك الناس الانشغال بما جرى بينه وبين امرأة العزيز، -والله تعالى أعلم-.

{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[سورة يوسف(٣٦)].

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه، ثم إنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره.

قوله: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ} الفتى يقال للشاب في مكتمل العمر، ويقال للخادم أيضاً، ويقال للمملوك، وبعضهم يقول: هؤلاء كانوا من المماليك للعزيز، وهذا لا دليل عليه، وكثير من الروايات المنقولة عن السلف مرجعها إلى بني إسرائيل، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: كان أحدهما هو ساقي الملك، والثاني هو

الخباز، ويذكرون من خبرهم أشياء -الله تعالى أعلم بها-، يقال: إنهم أغراهم أهل مصر بوضع السم في طعامه، فلما أراد أن يأكل قال له الساقي: لا تأكل من هذا الطعام فإن فيه السم، إما لأنه ندم أو خاف، فقال الخباز: فلا تشرب من هذا فإن فيه السم، يعني كأنه أراد أن يتهمه أيضاً في تخصصه وفي صنعته وهي السقاية، سقاية الملك، فأمر بهما إلى السجن، وفي بعض هذه الروايات، أنه أمر الساقي أن يشرب من هذا الشراب الذي أعده فشرب منه، وما أصابه شيء، وأمر الخباز أن يأكل من هذا الخبز أو الطعام فأبى، فجيء ببهيمة فأعطي لها فماتت، فأمر بهما إلى السجن، ربما لو صح هذا باعتبار أن هذا الساقي كان يعلم، فبينهما مواطأة، لكنه لم يطل مكثه، بل جاء في بعض الروايات أنه لما ذكر الرؤيا ليوسف -عليه الصلاة والسلام- ذكر له أنه سيخرج بعد ثلاثة أيام، وهذه الروايات لا يعول عليها لأنها من الإسرائيليات، أما يوسف -عليه الصلاة والسلام- فإنه بقي بعده مدة طويلة كما يدل عليه ظاهر الآيات، وظاهر القرآن أن هؤلاء دخلوا في وقت متزامن مع دخوله **{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ}**، وهؤلاء سألوه عن تعبير الرؤيا، قال أحدهما كذا، وقال الآخر كذا، يذكرون أنهم سألوه حينما دخل السجن عن عمله، فأخبرهم أنه يعبر الرؤى، وهذا أمر يحصل أن هؤلاء الذين في السجن كلما دخل عليهم واحد جلسوا معه وسألوه: من أين جاء؟ وماذا عمل؟ وأين يعمل؟ ليتعرفوا على أحواله؛ لأنه ليس لهم عمل ولا شغل، فالشاهد أنهم سألوه فأخبرهم أنه يعبر الرؤى، وذكر بعض المفسرين أنه لم يكن ذلك الذي أخبروه به رؤيا حقيقة، وإنما هو شيء مختلق، أرادوا أن يختبروه به، وهذا ظاهر كلام ابن جرير، وهذا لا دليل عليه، وإن قال به بعض السلف، ويقولون: هذا يشير إليه قوله: **{قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}** [سورة يوسف(٤١)]، يعني أنهم لما سمعوا هذا التفسير أو التعبير، وفيه أن أحدهما يصلب، كأنه أراد أن يتراجع، قال: لا، ما رأيت شيئاً، فقال: الموضوع انتهى، باعتبار أن الرؤيا على رجل طائر، وأنها تقع كما عُبرت، على هذا التفسير: أنه حتى لو أرى الإنسانُ عينَه مالا ترى، وفُسر له هذا، أنه يقع كما فسر، هذا على قول بعض أهل العلم، وهو ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله-، ولا دليل على أن هؤلاء اختلقوا ذلك وافتروه من أجل اختبار يوسف -عليه الصلاة والسلام-، على كل حال فهذا يقول: **{إِنِّيَ أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً}**أي: أعصر عنباً؛ لأن الخمر لا تعصر كما هو معلوم، وإنما تتخذ من عصير العنب، والعرب تعبر بهذا كثيراً، قد ذكر الأصمعي عن بعض الأئمة أنه لقي رجلاً من الأعراب في البادية وقال له: ما معك؟ فقال: خمر، وهو يحمل عنب، وبعضهم يقول: هذا في لغة أهل عمان، يسمون العنب بالخمر، ولا إشكال أيّاً كان فالشيء يمكن أن يعبر عنه باسم يئول إليه، فسماه بالاسم الذي يئول إليه، **{إِنِّيَ أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً}**، قالوا: هذا هو الساقي، الذي يسقي الملك، **{أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}**، قالوا: وهذا هو الذي كان خباز الملك، **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**، بعضهم يقول: **{نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**: يعني من المحسنين في تعبير الرؤى، وبعضهم يقول: **{مِنَ الْمُحْسِنِينَ}** يعني لأهل السجن، كان يحسن إليهم ويواسيهم ويرفق بهم، ويتفقد حاجتهم، ويخفف عمن كان محزوناً أو يواسي المريض أو نحو هذا، **{إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**، ويحتمل هذا وهذا، فهم رأوا فيه من أمارات الإحسان وأعمال المحسنين ما حملهم على هذا، ولا يقال: لماذا لم يقولوا: إنا لنراك عالماً بتعبير الرؤى مثلاً؟، وإنما قالوا: **{إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**، فإنه بتعبير رؤاهم يكون قد أحسن إليهم، فهذا شيء يقدمه لهم،

وهم بحاجة إليه، ولربما كانت حاجتهم إليه أعظم من حاجتهم أحياناً لطعام يطعموه أو شراب يشربوه، فإن الكثيرين يتطلبون تعبير الرؤى، ولربما أقلقتهم وشغلتهم عما هم بصدده، والله المستعان.

{قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} [سورة يوسف(٣٧-٣٨)].

يخبرهما يوسف -عليه السلام- أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره، يخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، قال مجاهد: يقول: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ} في يومكما، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا} وكذا قال السدي.

قوله: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا}، يحتمل أن يكون لا تعلق له بتعبير الرؤى، وإنما هو كالمقدمة لما سيذكره بعده من دعوتهم إلى التوحيد، فأراد أن يبيّن لهما علمه وما أعطاه الله -عز وجل- إياه؛ من أجل أن يكون ذلك سبباً داعياً للقبول، وأن الله -تبارك وتعالى- علمه وأطلعه على ما شاء أن يطلعه عليه من الأمور الغيبية، كما قال عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران(٤٩)]، فبعض أهل العلم يقول: هذا كهذا، ذكره مقدمة للدعوة إلى التوحيد، ولا تعلق له بتعبير الرؤى، وقيل: هذا له اتصال بما ذكر من تعبير الرؤى، فهذا رأى نفسه يعصر خمراً، والآخر يحمل فوق رأسه خبزاً، فهذا مطعوم وهذا مشروب، فقال لهما: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ} يعني في المنام، ما تريانه في المنام، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، فهذا الذي يعصر خمراً قلنا: يعصر عنباً، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود: "إني أراني أعصر عنباً"، فهذا مما يشرب، والآخر مما يؤكل، والطعام يطلق على هذا وهذا، والدليل على هذا قول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} [سورة البقرة(٢٤٩)]، والمقصود به شيء مشروب من النهر، وبعض أهل العلم يقول: هذا فيما يريانه في المنام، وهذا الذي عليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا يكون ذلك مرتبطاً بتعبير الرؤيا، وهذا جواب على سؤال يرد، هما سألاه عن رؤيا، فقال لهما: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا}، فإن كان ذلك يتعلق بنفس الرؤيا فالأمر واضح، {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ} في الرؤيا، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، وإن كان لا تعلق له فالجواب أنه مقدمة للدعوة إلى التوحيد.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله -عليه الصلاة والسلام-: {تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} لا يفهم منه أنه كان على هذا ثم تركه، إطلاقاً، فهو ابن نبي ابن نبي ابن نبي، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سورة إبراهيم(١٣)]، الأقرب أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على دين قومهم، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حينما قال في مناظرته: {هَذَا رَبِّي} [سورة الأنعام(٧٦)] للكوكب، قال على سبيل المناظرة، كان مناظراً لا ناظراً، وأنه لم يشك إطلاقاً في أن عبادة الكوكب باطل بكل حال، ولهذا قال الله -عز وجل- عنه:

{وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل(١٢٠)]، ونفْيُ الكون يشمل الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، وكـذلك قال يوسف -عليه الصلاة والسلام-: {مَا كَانَ لَنَآ أَن نّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ}، فترك ملة هؤلاء الناس، عـرف أنها باطلة وأعرض عنها، ولم يكن عليها في يوم من الأيام، كيف يكون عليها وهو ابن يعقـوب -صـلى الله عليه وسلم-؟، ولهذا قال: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}، ابتدأ بالجد الأبعد؛ لأنه هو الأصل، والتوحيد، والحنيفية تنسب إليه -عليه الصلاة والسلام-، يقال: ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد، {مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ}، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، {مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا} أي: أوحاه إلينا وأمرنا به. {وَعَلَى النَّاسِ} إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ} أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل {بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}.

هذه الآيات وغيرها من الآيات المتعلقة بهذه السورة مليئة بالفوائد، حتى إن ابن القيم -رحمه الله- ذكر أنه يستخرج من هذه السورة أكثر من ألف فائدة، فمن هذه الفوائد العجيبة أن الله -تبارك وتعالى- أعطاه في تعبير الرؤى، فجعل ذلك مفتاحاً لدعوته إلى التوحيد، وأن هذا أول دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- في كل أحوالهم، فهو في السجن يدعو إلى التوحيد، ويبيّن ذلك أحسن البيان، بهذه الطرق التي سمعتم، {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة يوسف(٣٩)]، وأيضاً يوسف -عليه الصلاة والسلام- قال: {ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا} أن من هداه الله -عز وجل- للتوحيد واتباع الحق والسنة فقد أنعم عليه نعمة عظيمة جداً، حُرمها كثير من الناس، فينبغي أن يحمد الله -عز وجل- عليها، ويتمسك بها، ويثبت على ذلك، فهي منحة ومنة عظيمة لا يقدَّر قدرُها، كثير من الناس يتمرغون في الشرك وعبادة غير الله -عز وجل- وألوان الأهواء والبدع، فإذا منَّ الله -عز وجل- على عبد بالتوحيد والاتباع فهذه نعمة تستوجب مزيداً من الشكر والإقبال على الله جل جلاله.

{يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ أَسْمَآءً سَمّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف(٣٩-٤٠)]، **ثم إنّ يوسف -عليه السلام- أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلْع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: {أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ} أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بيّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله.**

قوله: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ}، نسبهما إلى السجن باعتبار أنهما يقيمان فيه، ولا إشكال في هذا، يقال: أصحاب النار، أصحاب الجنة، وما أشبه ذلك، فقوله: {أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ}، أرباب متفرقون

في الذوات، في الصفات، في العدد، في كل ذلك أرباب متفرقون، {خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ}، و"خير" أفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأن "خير" تأتي بمعنى التفضيل، كما هو معلوم، كما قال ابن مالك:

وغالباً أغناهم خير وشر *** عن قولهم أخير منه وأشر

لكن هنا ليست على بابها، وإنما المقصود بها مطلق الاتصاف؛ لأن أفعل التفضيل تكون بين اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها، فهذه المعبودات من الأحجار والأشجار لا يمكن أن تقارن، أو أن يوجد بينها اشتراك في معنىً مع الله -تبارك وتعالى- أبداً، ففي الخيرية لا وجه للمقارنة حتى يقال: هي خير أم الله الواحد القهار؟.

أما ترى أنّ السيفَ يَنقصُ قدرُه *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

ثم قال لهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ أَسْمَآءً سَمّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}، {إِلاّ أَسْمَآءً}، يعني هي ليس لها حظ من الإلهية والربوبية سوى أنكم سميتموها بهذه الأسماء التي لا تغير من الحقائق شيئاً، أنتم أضفيتم عليها أسماء الآلهة، وذلك لا يصيرها آلهة، فهي أسماء لا حقيقة لها ولا نصيب لها من هذه المعاني التي تضمنتها، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: إذا سُمى قشر البصل لحماً، فإنه لا يتحول إلى لحم، وإذا سُمى التراب خبزاً فأكله، فإنه لا يكون خبزاً بهذه التسمية، وهكذا أيضاً في سائر الأشياء، فالتسمية لا تغير من الحقائق، فهذه عبارة عن أحجار وأشجار، فإذا سموها بأسماء الآلهة، وعدّوها آلهة، فهي مجرد أسماء سموها هم وآباؤهم، {مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} أي: حجة.

ولهذا قال: {مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: {ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ} أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، {وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، {وَمَا أَكْثَرُ النّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}.

ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما فقال: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبّهُ خَمْراً وَأَمّا الآخر فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطّيْرُ مِن رّأْسِهِ قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [سورة يوسف(٤١)].

يقول لهما: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبّهُ خَمْرًا} وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك؛ ولهذا أبهمه في قوله: {وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ} وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرت وقعت.

وروى الثوري عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: {قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}، وحاصله أن من تحلَّم بباطل، وفسره فإنه يُلزم بتأويله، -والله تعالى أعلم-، وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن

معاوية بن حيدة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرت وقعت))[1].

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}

[سورة يوسف(٤٢)].

ولما ظن يوسف -عليه السلام- أن الساقي ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر -والله أعلم- لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}.

لا يلزم أن يكون قاله خفية؛ لأن التعبير واضح جداً أن الذي يعصر خمراً هو الذي يسقي، والثاني يصلب فتأكل الطير من رأسه؛ لأنه قال: **{أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}**، وهو سيفهم مباشرة أنه هو المراد، ومثل هذا لا يخفى إطلاقاً، **{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا}**، الظن يأتي بمعنى العلم، وعلى هذا: كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً على أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- علم أنه سينجو، وعبّر بالظن عن العلم، كما قال الله -عز وجل-: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ}** [سورة البقرة(٤٦)]، أي: يتيقنون ويعلمون، فأحياناً يطلق الظن على الطرف الراجح، فيقال مثلاً: أظن كذا، يعني بحسب الغلبة؛ لأن القسمة كما هو معلوم رباعية، فطرفان: الظن، والوهم، والشك في الوسط -وهو استواء الطرفين-، واليقين -وهو ثبوت العلم وتحققه-، فهذا الطرف المرجوح يقال له: وهم، والطرف الراجح يقال له: ظن، والمستوي يقال له: شك.

الظن والوهم وشك محتمل*** لراجح وضده وما اعتدل

هذه ثلاثة أشياء، أعلاها اليقين، فلا يمكن أن يكون تعبير يوسف -عليه السلام- من باب الظنون التي تصيب وتخطئ، وبعضهم حمله على ظاهره، فقال: المقصود به الظن، أي ما يترجح عنده وإن لم يقطع به، والأول أقرب، -والله أعلم-، ولما ظن يوسف -عليه السلام- أن الساقي ناجٍ قال كما قال الله: **{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}**.

يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصَى أن يذكّر مولاه الملك بذلك.

يقول: ذكِّر الملك، يعني الملِك الأكبر ما هو العزيز، وإنما ملك مصر، اذكر له شأني، قل له: يوسف في السجن مظلوم، الرجل رأينا منه كذا وكذا وكذا، يعني مما رأوا من إحسانه، **{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}**، تركوه في السجن ونسوه فيه، **{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}**، باعتبار أن هذا قريب من الملك، هو ساقي الملك، فهذا من اتخاذ الأسباب، والرب في قوله: **{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}** أي: عند سيدك، فالرب يتأتي بمعنى السيد.

وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد.

---

١ - رواه أبو داود برقم (٥٠٢٠)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وابن ماجه برقم (٣٩١٤)، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على وادّ، وأحمد في المسند (١٠٠/٢٦)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٥).

قوله: {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ} يعني: أنسى الشيطان هذا الرجل الذي نجا، أنساه أن يذكر يوسف -عليه الصلاة والسلام- عند الملك، وهذا قال به كثير من أهل العلم، والمعنى الثاني الذي تحتمله الآية: "أنساه" أي أنسى يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- الشيطانُ أن يذكر ربه، فعاقبه الله -عز وجل- بالبقاء هذه المدة الطويلة في السجن، بمعنى أنه توجه إلى هذا الملِك وأراد الخلاص منه، ولم يتوجه إلى الله -تبارك وتعالى-، وكان ينبغي أن يعتمد عليه، دون أن يلتفت إلى أحد سواه، هكذا قال بعض المفسرين، فلما حصل هذا، أي الالتفات إلى هذا المخلوق كان نتيجة ذلك أن بقي يوسف -صلى الله عليه وسلم- مدة طويلة في السجن، والآية تحتمل المعنيين، يقول: {وَقَالَ}، يعني يوسف، فالضمير يرجع إليه، {لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} فالضمير في قوله: {لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا}، يرجع إلى هذين السجينين، والقائل هو -يوسف عليه السلام-، {اذْكُرْنِي}، والياء هنا ياء المتكلم -كما هو ظاهر- ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، {عِندَ رَبِّكَ}، وكاف الخطاب لهذا الساقي، {فَأَنسَاهُ} الضمير يحتمل أن يرجع إلى هذا الساقي أو يرجع ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}، فإذا جعلناه يرجع إلى يوسف -عليه الصلاة والسلام- فالمعنى: فأنسى الشيطانُ يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- ذكر ربه، يعني أن يتوجه إلى الله، فتوجه إلى هذا المخلوق بأمر يجوز أن يطلبه بلا إشكال، وهذا من اتخاذ الأسباب المباحة {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}.

وأما البِضْع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب -عليه السلام- في البلاء سبعاً، ويوسف -عليه السلام- في السجن سبعاً، وعذّب بختنصر سبعاً.

البضع: بعضهم يقول: من واحد إلى أربعة، وقيل: من ثلاثة إلى سبعة، وقال ابن جرير -رحمه الله-: إنه من الثلاثة إلى التسعة إلى العشرة، ولا يزيد على العشرة، ولا يقل عن الثلاثة بحال من الأحوال، وقيل: من الثلاثة إلى الخمسة، فهذا الذي يدور عليه عامة أقوال أهل العلم في تفسير البضع، وبهذا نعرف أن قول من قال: إن يوسف -عليه الصلاة والسلام- بقي أربع عشرة سنة في السجن، وقول من قال: إنه جلس اثنتي عشرة سنة فيه إشكال؛ لأنه بقي بضع سنين؛ لأن هذا التعبير للرؤى كان عند دخوله للسجن، في أول الأمر، فلا يقال بأن هؤلاء العلماء ذكروا معنى البضع باعتبار أنه مثلاً من الثلاثة إلى التسعة أو إلى العشرة، وأنه جلس قبل أن يقول له: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} مثلاً لمدة سنتين فيكون المجموع اثنتي عشرة سنة، -والله أعلم-؛ لأن تعبير الرؤيا وقوله: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، كان في وقت دخول أو عند دخول السجن، -والعلم عند الله -عز وجل-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [(٤٣-٤٩) سورة يوسف].

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف -عليه السلام- من السجن معززاً مكرماً، وذلك أن الملِك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها {أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ} **أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه،** {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ} **أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها -وهو تعبيرها-، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذيْن كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمّة، أي مدة، وقرأ بعضهم** {بعد أمَه} **أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي للملك والذين جمعهم لذلك:** {أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} **أي: بتأويل هذا المنام،** {فَأَرْسِلُونِ} **أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاءه، فقال:** {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا}**، وذكر المنام الذي رآه الملك.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} [(٤٣) سورة يوسف]، عبر الرؤيا من العبور، ومنه: عبر النهر، أي: أنه بلغ إلى شاطئه، فتعبير الرؤيا: ذكر تفسيرها ومعناها وما تئول إليه.

قوله: {أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ} الأضغاث: جمع ضغث وهي الأخلاط.

قوله: {بَعْدَ أُمَّةٍ} أي: بعد مدة من الزمان، ولفظ الأمة يأتي بمعانٍ متعددة، ومنها المدة الزمنية، وقرأ بعضهم: {بعد أمَه} أي: بعد نسيان، وهذه القراءة ليست متواترة، وهي مروية عن بعض السلف كابن عباس وعكرمة، وأما القراءة المتواترة فهي التي نقرأ بها {بَعْدَ أُمَّةٍ}.

فعند ذلك ذكر له يوسف -عليه السلام- تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك.

ذكر يوسف –عليه السلام- تعبير الرؤيا من غير تعنيف للفتى بسبب نسيانه، ومن غير امتناع، ولم يقل: أنتم فعلتم وفعلتم، وتعبير هذه الرؤيا التي يتوقف عليها حياة أمة بأكملها، فماذا لو بقي الناس على سجيتهم في الإنفاق والازدراع، ثم جاءهم هذا القحط سبع سنين؟ فقد يكون ذلك فيه هلاكهم المستأصل، لكن الله -عز وجل- أنقذهم بيوسف -عليه الصلاة والسلام-.

بل قال: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً} أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض.

{تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً}، يحتمل أن يكون المراد بـــ {دَأَباً} أي: كما هو دأبكم وعادتكم التي كنتم عليها، وهذا المعنى الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال بعضهم: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً} أي: دائبين، وقال بعضهم: إن قوله: {دَأَباً} يرجع إلى السنين السبع.

ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

البقرات السمان ترمز للسبع السنين المخصبة، والسبع السنبلات الخضر ترمز للسبع السنين المخصبة، والعجاف والسنبلات الصفراء التي قد التوت، ترمز للسنين العجاف.

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال: {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ} أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه.

يتركوه في سنبله حتى لا تأتيه الآفات التي تتلفه كالسوس وغيرها، قال: {إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ}، عبّر بالأكل؛ لأنه هو المقصود.

إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: {يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ}، ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك {عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} أي: يأتيهم الغيث: وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه.

معنى قوله: {يَعْصِرُونَ}، أي: ما يعصرون على عادتهم من الزيت، وهذا هو الظاهر المتبادر، وقال بعضهم: إن معنى {يَعْصِرُونَ} أي: يحلبون، وهذا وإن كان يقال في لغة العرب إلا أنه قليل، وليس ذلك بالظاهر المتبادر، وتحمل معاني القرآن على المتبادر الأكثر والأغلب في الاستعمال، وقال بعضهم: {يَعْصِرُونَ} أي: ينجون ويحصل لهم النجاة، وهذا قليل في الاستعمال فلا يفسر به مثل هذا الموضع، والله تعالى أعلم.

وقوله: {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [(٤٩) سورة يوسف]، هذا القدر الذي ذكره يوسف -صلى الله عليه وسلم- ليس في نفس الرؤيا -والله تعالى أعلم- وكأن الله أوحى إليه بذلك، فأخبرهم به زيادة على مضمون الرؤيا التي عبّرها لهم.

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٠-٥٣) سورة يوسف]

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه -بتعبير رؤياه التي كان رآها- بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف -عليه السلام- وعِلْمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: {ائْتُونِي بِهِ} أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} الآية.

قوله: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} أي: ارجع إلى سيدك، والمقصود بالرب الملِك وليس العزيز، وقوله: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} فلم يقل: فاسأله عن امرأة العزيز، ولم يذكر المراودة، وهذا لربما -والله تعالى أعلم- من أجل أن لا يصرح بذكر هؤلاء فيكون ذلك مستثقلاً في الأسماع أو أن التعبير عنه بمثل هذه العبارة ألطف من ذكر المراودة، أو ذكر امرأة العزيز الذي هو وزيره، ولربما يحرك ذلك نفس العزيز فينتصر لنفسه، فقد سأل عن ألطف ما في هذه القضية التي وقعت له وهو تقطيع النسوة لأيديهن.

قوله: {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} الرب هو الله لا يصح أن يفسر بالعزيز، وقال بعض أهل التفسير: إن الرب هو العزيز.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره -صلوات الله وسلامه عليه-، ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ} [(٢٦٠) سورة البقرة]، **ويرحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي))[١]، وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}** [(٥٠) سورة يوسف]**، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر))[٢].**

وقوله تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ}، [(٥١) سورة يوسف] **إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو**

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} (٣ / ١٢٣٣)، برقم (٣١٩٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٤ / ١٨٣٩)، برقم (١٥١).

[٢] - رواه أحمد (١٤ / ٢٢٨)، برقم (٨٥٥٤).

العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: {مَا خَطْبُكُنَّ} أي: شأنكن وخبركن {إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ} يعني: يوم الضيافة؟ {قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: تقول: الآن تبيّن الحق وظهر وبرز.

معنى {حَصْحَصَ} هو القطع، أي: انقطع الحق من الباطل، وظهر وبان واتضح، ويحتمل أن يكون من الحصة، أي ظهرت وبانت حصة الحق من الباطل، والمقصود بهذا ظهور الحق بعد خفائه.

{أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} أي: في قوله: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}، {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة، {وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأن {النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} أي: إلا من عصمه الله تعالى: {إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله- فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف -عليه السلام- يقول: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ} في زوجته {بِالْغَيْبِ} الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز {أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ} في زوجته {بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} الآية.

وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه، والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف -عليه السلام- عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [(٥٢) سورة يوسف] يحتمل أن يكون هذا القول من كلام امرأة العزيز كما رجحه الحافظ ابن كثير وعزاه لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وقال به طائفة من السلف والخلف، وهو اللائق بسياق الكلام، باعتبار أن الأصل في الكلام الاتصال لا الانفصال، وإذا كان من كلام امرأة العزيز فإنه يحتمل معنيين في عود الضمير الهاء، في قوله: {لَمْ أَخُنْهُ} يحتمل أنها تعني زوجها وهذا اختيار ابن كثير –رحمه الله- ويكون المعنى ليعلم العزيز أني لم أخنه في غيبته، ويحتمل أنها قصدت يوسف -صلى الله عليه وسلم- أي أنها لم تفترِ عليه، ولم تقل عليه غير الحقيقة، وهو غائب في السجن، والمعنى الأول هو الأقرب –والله تعالى أعلم- لأن التعبير بالخيانة في قضية كهذه الأقرب فيها أن المقصود بها الخيانة في العرض.

ويحتمل أن يكون قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- فيكون هذا من الموصول لفظاً المفصول في المعنى، ويكون المعنى: ليعلم العزيز أني لم أخنه في حال غيبته في أهله، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٣) سورة يوسف]، إذا قلنا: إن الكلام الأول من كلام امرأة العزيز فهذه الآية من كلامها، وإذا قلنا إن الكلام الأول من كلام يوسف فهذه الآية من كلامه، وهناك قول ثالث وهو أن قوله: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} من كلام العزيز، وهذا قول بعيد.

قوله: {إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ} يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويحتمل أن يكون منقطعاً ويكون المعنى: لكن من رحم ربي فكف نفسه عن أن تكون كذلك.

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [(٥٤-٥٥) سورة يوسف].

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف -عليه السلام- ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: {ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، {فَلَمّا كَلّمَهُ} أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُقٍ وكمال، قال له الملك: {إِنّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ} أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة.

قوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} كان يوسف -عليه السلام- مستخلصاً للعزيز، فطلبه الملك أن يكون مستخلصاً لنفسه ويكون من خاصته وأهل القرب منه وأهل مشورته، ولا يشاركه فيه أحد.

قوله: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ}، يحتمل أن يكون المعنى: فلما كلّم الملكُ يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار ابن جرير، بدليل أنه قال بعد ذلك: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ}، ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسفُ -صلى الله عليه وسلم- الملكَ أعجبه كلامه، فقال له: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ}.

فقال يوسف -عليه السلام-: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [(٥٥) سورة يوسف] مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة.

هذا لا إشكال فيه، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- للأنصار: ((ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟))[٣]، ثم طلب منهم -صلى الله عليه وسلم-، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لما أوذي من قبل المبتدعة، احتاج أن يتكلم ببعض الكلام، وذكر لهم ما وقع منه من رد التتار وجمْع الناس الذين كادوا أن يفروا من الشام من التجار والأمراء وغيرهم وتثبيتهم، وذكر مواقفه وعددها؛ لأنه احتاج إلى ذلك، وكذلك الأصل ألا يطلب الإنسان الإمارة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤ / ١٥٧٤)، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (٢ / ٧٣٨)، برقم (١٠٦١).

من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها))[٤] لكن لو أنه رأى أن المصلحة الشرعية تقتضي هذا، فله أن يسألها.

وذكر -عليه السلام- أنه {حَفِيظٌ} أي: خازن أمين، {عَلِيمٌ} ذو علم وبصيرة بما يتولاه.

{حَفِيظٌ} أي: خازن أمين يحفظ ما وكل إليه وما تحت يده لا يضيعه، {عَلِيمٌ} أي: بما يتولاه، فجمع بين الأمانة وبين البصر في الأمور والعلم والمعرفة، هذا هو أقرب ما تفسر به هذه الآية.

وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلّات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له.

ولهذا قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [(٥٦-٥٧) سورة يوسف].

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} أي: أرض مصر، {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء} قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

أي على كل حالٍ يتصرف، تبوأ من اتخاذ المباءة، وهي المسكن يعني أنه ينزل منها حيث شاء فهو ممكّن بعد أن كان في ضيق الجب وضيق السجن صار بهذه المثابة.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نشاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله -عز وجل- السلام والنصر والتأييد، {وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}، يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف -عليه السلام- في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان -عليه السلام- {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [(٣٩-٤٠) ص]، **والغرض أن يوسف -عليه السلام- ولاه ملِكُ مصر الريانُ بن الوليد الوزارةَ في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف -عليه السلام- قاله مجاهد.**

ليس هناك دليل على إيمان ملك مصر ويدل على أن ملك مصر لم يؤمن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ}** [(٣٤) سورة غافر]، ولو كان الملك آمن لتبعه الناس، والناس على دين ملوكهم.

قوله: {وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها (٦ / ٢٦١٣)، برقم (٦٧٢٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٣ / ١٤٥٤)، برقم (١٦٥٢).

تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٥٨-٦٢) سورة يوسف].

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف -عليه السلام- لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب -عليه السلام- وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف -عليه السلام- للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصلَ من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان -عليه السلام- لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

فكان من جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوبُ -عليه السلام- عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف -عليه السلام-، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، {وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله.

لا يدل دليل لا في الكتاب ولا في السنة على حصول هذه المحاورة بين يوسف – عليه السلام- وبين إخوته ويحتمل أنه تحدث معهم، سألهم سؤالاً فعرف من خلاله أن لهم أخاً من أبيهم فقال: **{ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ}** [(٥٩) سورة يوسف].

قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم، {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ}، أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، {أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} يرغبهم في الرجوع إليه.

قوله: **{وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ}**، والجَهاز والجِهاز بالكسر، يقال لما يزود به الإنسان، وما يأخذه معه أو يحمله من بضاعة أو متاع أو طعام، أو ما تقتضيه حاله، جهزهم بهذه الأطعمة التي جاءوا يشترونها، وقال لهم: **{أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ}**، أي: هو ذكر لهم أوصافه الكاملة، أنه يوفي الكيل، وأنه خير المنزلين، أي: خير من يضيّف الناس في هذه الأرض أو في بلاد مصر.

يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي} الآية، أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، {وَلا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نُبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه، {وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ} أي: غلمانه {اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ}، أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها، {فِي رِحَالِهِمْ} أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون.

أصل الرحل يطلق على ما يستصحبه المسافر معه من أوعية أو مركب يوضع على البعير، ويقال الرحل للمنزل الذي ينزله الإنسان، ومنه قوله: ((صلوا في رحالكم))[٥]، والمراد بالرحل هنا الأوعية التي يوضع فيها الطعام.

قال: {اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ} أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها، {فِي رِحَالِهِمْ} أي: في أمتعتهم، سواءً كانت هذه البضاعة هي عبارة عن نقود، أو كانت عبارة عن أشياء معمولات ومصنوعات.

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} بها، قيل: خشي يوسف -عليه السلام- أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} "لعل" لتعليل، أي: من أجل أن يرجعوا، فخشي -صلى الله عليه وسلم- أنهم إذا رجعوا لا يكون عندهم شيء؛ لأن الناس في جدب وحاجة، فوضع لهم البضاعة من أجل أن يرجعوا، ويحتمل أن يكون وضع لهم هذه البضاعة في رحالهم لكونه عرف أنهم إذا وصلوا وفتحوا المتاع ووجدوا الطعام وقيمته في الرحال عرفوا أن هذا خطأ حصل ولا يحل لهم هذا الطعام، وهذا لا يخلوا من بعد؛ لأنهم إذا احتاجوا للرجوع فلن يرجعوا جمعياً، وإنما يكتفون بإرسال واحد منهم لإرجاع المتاع.

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمْع وقول المؤذن الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة (١ / ٢٢٧)، برقم (٦٠٦)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الصلاة في الرحال في المطر (١ / ٤٨٤)، برقم (٦٩٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}

[سورة يوسف(٦٣-٦٤)].

يقول الله تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم {قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ} يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون، قرأ بعضهم بالياء أي: يكتل هو، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة يوسف(١٢)]، ولهذا قال لهم: {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ} أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً} وقرأ بعضهم "حِفظاً" {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَري وضعفي ووَجْدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ}**، يقصدون بذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: **{فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ}** [سورة يوسف(٦٠)]، مع أنه أعطاهم في هذه المرة ورد عليهم بضاعتهم، ومن غرائب التفسير ما ذكره بعضهم من أن اسم أخيهم نكتل **{فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ}**، قالوا: اسمه نكتل، وهذا غلط، ومما يدل على أنه غلط القراءة الأخرى التي أشار إليها، وهي قراءة الكوفيين "يكتل"، وقراءة **{نَكْتَلْ}** ليست بمخالفة للقراءة الأخرى، فقراءة الجمهور **{نَكْتَلْ}** أي: مجتمعين، ويحصل لنا ما نطلبه ونقصده من الكيل؛ لأن ذلك قد علق بهذا الشرط أن نأتي به معنا، فأرسله معنا نكتل، وعلى القراءة الثانية: "يكتل" موافق للقراءة الأخرى وإن كان المعنى مغايراً له، لكن ليس بينهما اختلاف تناقض إطلاقاً، فأرسله معنا يكتل، أي يحصل له كيل إضافة إلى الكيل الذي يعطَى لنا، فكل واحد يعطى حمل بعير من الكيل، وقوله: **{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً}**، قال: وقرأ بعضهم: "حفظاً"، وهي قراءة أهل المدينة، وقراءة الجمهور **{حَافِظاً}**.

{وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}[سورة يوسف(٦٥-٦٦)].

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمرَ يوسفُ فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم {قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي} أي: ماذا نريد، {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا}، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل، {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، {وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ}، وذلك أن يوسف -عليه السلام- كان يعطي كل رجل حمل بعير.

قوله: {قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي}، نبغي: حملها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على ماذا نطلب وماذا نريد، وهو الظاهر المتبادر، تقول: ابتغى كذا أي طلب، {مَا نَبْغِي} ماذا نطلب أكثر مما وقع من أن العزيز أوفى لنا الكيل ورد بضاعتنا إلينا؟، فعندنا ما يمكننا معه أن نأتي بكيل آخر إضافة إلى ما حصلناه في هذه السفرة، أو في هذا القدوم على العزيز، فهم مغتبطون بما حصل من العزيز، وما حصل لهم من الرجوع بالطعام، وببضاعتهم التي اشتروا بها هذا الطعام، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: {مَا نَبْغِي} أن تكون "ما" نافية و"نبغي" من البغي: وهو التجاوز والزيادة في الحد، {مَا نَبْغِي} أي: أننا في قولنا في ما وصفنا به العزيز لا نزايد ونتوسع في القول، ولا نصف العزيز بأكثر مما رأيناه، ولا نقول غير الحق، والبغي يأتي بمعنى التجاوز والزيادة والظلم، والمعنى الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا}، كما قال قتادة: ما نبغي وراء ذلك، قال: {مَا نَبْغِي} أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة -أي: الطعام-، {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} من العجائب أن بعضهم فسر البعير بالحمار، فهذا حتى لو كان يوجد قليلاً في لغة العرب إلا أنه لا يفسر به القرآن، فإن القرآن يجب أن يحمل على الظاهر المتبادر الشائع دون أن يحمل على معنى خفي قليل أو نادر في الاستعمال.

{ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ} أي: تحلفون بالعهود والمواثيق {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ}: إلا أن تُغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه، {فلما آتوه موثقهم} أكده عليهم، فقال: {اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بُداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

قوله: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} فسره الحافظ -رحمه الله- قال: "**هذا من تمام الكلام وتحسينه**"، أي: أن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، يعني أنهم الآن أخذوا من الميرة في سفرهم الأول، بحيث إن كل واحد أخذ حمل بعير ويرون أن هذا لا يكفي، وأنه شيء يسير؛ لأنهم يتزودون بذلك سائر العام، فيقولون: إذا جاء معنا أخونا فإننا نرجع بكيل مثل هذا، فالذي حصل كيل يسير، والمعنى الذي أشار إليه ابن كثير أنه يسيرٌ بالنظر إلى مقابله، فعندما يأتون بأخيهم معهم، فهذا مطلب سهل عند الموازنة، فعبّر عنه بأنه كيل، ولعل الأقرب هو الأول -والله تعالى أعلم-، أقرب من الذي قصده ابن كثير أنه عند الموازنة نأتي به معنا فيحصل لنا ضعف هذا الكيل أو أكثر مع زيادة حمل لأخيهم، فالذي قصده ابن كثير -رحمه الله- أن عند الموازنة المقابل لهذا هو اصطحاب هذا الأخ، فهذا مطلب يسير بإزاء ما نحصل عليه وما يتحقق لنا من هذا السفر، وبعضهم يقول: إن المقصود {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}؛ لأنهم قالوا: أرسله معنا نكتل، ثم قالوا: {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ

{يَسِيرٌ}، يكون اسم الإشارة ذلك إلى الكيل الأخير، هذا المشار إليه "ونزداد" كيلاً زائداً لأخينا وهو حمل البعير، {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي: أن هذا الحمل الذي يكون من نصيب أخينا كيل يسير لا يشق على الملِك، ويمكن أنهم قصدوا بقولهم: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أن ما يحصلون عليه في نظرهم يسير فيحتاجون إلى الزيادة عليه بأخذ أخيهم، من أجل أن يكثر، فهذه المعاني تحتملها الآية، واسم الإشارة "ذلك" للبعيد في الأصل، من أهل العلم من النحاة من يقول: إن اسم الإشارة على ثلاثة أنواع: للقريب "هذا"، والمتوسط "ذاك"، وللبعيد "ذلك" باللام، وبعضهم يقول: على درجتين "هذا" و"ذاك وذلك"، وعلى كل تقدير فإن قولهم: "ذلك" يرجع إلى البعيد، فلو ألغينا درجة التوسط فـ"ذلك" يرجع إلى البعيد؛ لذلك تجد أكثر التفاسير على أنه لا يرجع إلى الحمل، أو كيل الواحد منهم {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}، يعني لو كان يقصدون نزداد كيلَ بعير لقال: هذا كيل يسير، يعني يرجع إلى القريب، وأكثر الأقوال المتقدمة لا تُرجع إلى هذا الأخير الذي هو كيل البعير، وإنما أعيد إلى ما قبله، فإما أنهم قصدوا ما جاءوا به أصلاً، فقالوا: هذا ما يكفي لسنة، نرجع مرة ثانية، ونأتي بمثله وزيادة حمل بعير لأخينا، وإما أنهم قصدوا أنهم إذا ذهبوا سيأتون بكيل مثل هذا وأن هذا كيل يسير يحتاج معه إلى الزيادة، فطالما أنه يتأتى مع اصطحابهم لأخيهم أن يحصل لهم كيل بعير، فذلك كيل يسير، يعني الذي يعطى لنا كيل يسير، -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف(٦٧-٦٨)].

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام-، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين؛ وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قيل يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ} الآية، ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- خشية العين هو الذي عليه عامة المفسرين من السلف والخلف، وبعضهم يقول: إنه قال لهم ذلك؛ لأنه خاف عليهم من الملِك إذا رآهم وقد دخلوا مجتمعين مع ما لهم من الهيئة والكمال والصورة والحسن أن يوصل إليهم أذى، أو أن يتخوفهم على ملكه أو نحو ذلك، لكن الله -تبارك وتعالى- لم يبيّن العلة التي من أجلها قال يعقوب -عليه الصلاة والسلام- ما قال، والمقصود أنه قال ذلك خوفاً عليهم من أمر تخوفه، والأكثر أنه خشية العين، ولا شك أن في الاجتماع قوة، لكن أحياناً يكون على خلاف ذلك، فالأصل أن الاجتماع قوة لكن مقتضيات الأحوال في بعض الأحيان قد تجعل القوة في التفرق وليس في الاجتماع، فقد يكون اجتماعهم إذا دخلوا مجتمعين سبباً لحصول الأذى لهم، والتفرق المقصود به التفرق بالأبدان وليس التفرق بالقلوب، فاجتماع الناس المقاتلة في الحروب في مكان واحد يكون سبباً لإبادتهم، وإذا تفرقوا كان ذلك أدعى لبقائهم ونكايتهم بالعدو، وليس المقصود التفرق بالقلوب، {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال(٤٦)]، وهذا لا إشكال فيه.

وقوله {مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ} أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالَف ولا يمانَع.

فغاية ما هنالك أن هذا من باب بذل السبب، والإنسان مطالب ببذل السبب، ويتخذ ما يمكن أن يحصل به الخلاص، فإذا جاء القدر خلي بين العبد وبين ما قدّره الله -عز وجل- عليه وقضاه، فلابد من وقوعه به،

فهذا يعقوب -عليه الصلاة والسلام- يتخذ الأسباب، وليس ذلك من باب أنه من الحذر الزائد، أو سوء الظن بالناس، أو الوسوسة أو نحو هذا، فإن هذه الأمور تقع، ووقوعها كثير، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أكثر من يموت من أمته بسبب العين، لكن الإنسان قد لا يشعر بهذا، فقد تظهر هذه العين بصورة مرض معروف عند الأطباء، يموت الإنسان منه عادة، وقد يصاب به بسبب العين وهكذا.

{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} **قالوا: هي دفع إصابة العين لهم.**

يحتمل أن تكون الحاجة هي دفع إصابة العين، {إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}، فيكون الاستثناء متصلاً، "ما كان"، ويحتمل أن يكون منقطعاً بمعنى "لكن"، أي ولكن لحاجة في نفس يعقوب قضاها، ويحتمل أن تكون هذه الحاجة هي أنه أظهر لهم شفقته عليهم، ومحبته لسلامتهم، فقال لهم ما قال، ثم بيّن أن هذا لا يرد عنهم من قضاء الله -عز وجل- شيئاً، لا ينجي حذر من قدر، ولما سئل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن الهدهد وما قيل من إنه يرى الماء وهو في الهواء، يراه تحت الأرض، فقالوا: فكيف يضع له الصبي الفخ ويصطاده؟ فقال: إذا جاء القدر عمي البصر، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: {قَضَاهَا} يرجع إلى الدخول {إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}أي: دخولهم متفرقين، وذلك أنه اطمأن أنهم لن يؤتوا من هذه الناحية التي تخوفها، فلو وقع لهم شيء وقد دخلوا مجتمعين لربما يقول: هذه عين أصابتهم، لكن طالما أنه حصل مقصوده من تفرقهم وما أوصاهم به، فزال ما كان يتخوفه عليهم واستراح من أن يؤتوا من هذه الناحية، لكن يمكن أن يؤتوا من أمر آخر كما حصل مما قصه الله -عز وجل- بعد ذلك مما وقع لأخيهم، فاطمأنت نفسه بهذا الدخول الموصوف بهذه الصفة أنهم لم يؤتوا من قِبل دخولهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

{وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ} **قال قتادة والثوري: لذو عملٍ بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علمٍ لتعليمنا إياه** {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله: {لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ} يحتمل ما ذكر من أنه {لَذُو عِلْمٍ} أي: عمل بعلمه، وإن كان هذا خلاف الظاهر، لكن هذا من باب أن العلم الحقيقي الذي ينفع هو الذي يعمل به صاحبه، ويمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم، وليس من التفسير بالمطابق، يقول: "**وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه**"، هذا هو الظاهر المتبادر، وبعض أهل العلم يقول: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ} أي: بأن الحذر لا ينجي من القدر، قال لهم هذا وهو يعلم أن الحذر لا ينجي من القدر، وبعضهم يقول: {لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ} أي: بأن الحذر وبذل الأسباب مطلوب، ولكن هذا أبعد هذه المعاني.

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، أي: لا يعلمون ما يعلمه يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-.

{وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة يوسف(٦٩)].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرّفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا

يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرّماً معظماً.

قوله: {آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ}، يذكرون في كتب التفسير أو ما تلقي من الإسرائيليات، أنهم أحد عشر، ويقولون: إنه حينما استضافهم جعل كل اثنين في منزل في ضيافته، وبقي واحد وهو بنيامين، فضمه إليه، وقال له: إني أنا أخوك، الظاهر المتبادر أنه أخبره أنه أخوه يوسف، وبعض المفسرين يقول: ما أخبره بهذا، وإنما قال: {إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ} يعني: اعتبرني أخاً لك، فلا تحزن ولا تبتئس من عملهم ومعاملتهم لك، أو أنا أخوك مكان ذلك الأخ الذي فقدته، لكن الظاهر المتبادر أنه أخبره أنه أخوه، وهنا أشار إلى أنه أخبره أنه سيحتال بحيلة، يقولون: إنه لما قال له: {إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ} أراد بنيامين أن يبقى معه، فقال له يوسف -عليه الصلاة والسلام- ذلك، وأخبره بأن هذا سيزيد في حزن أبيهم ويضاعف ذلك الحزن عليه، وأنه لا يتمكن من أخذه إلا أن يحتال بحيلة ينادى عليه بها، فقال له: لا أبالي بما تفعل، فحصل ما حصل {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [سورة يوسف(٧٠)]، إلى آخره، وهذا جواب عن أسئلة ترد هنا، وهي كيف روّع أخاه هذا الترويع، وأخذه على أساس أنه يسترقّه، ولا يجوز ترويع المسلم إلى آخره، بعضهم قال: أصلاً هذا كان باتفاق، وبنيامين يعلم، ويمكن أن يكون ذلك وقع بوحي الله -عز وجل- إليه، أوحى إليه بهذا ففعله، وإذا قال قائل: هذا يترتب عليه عقوق ليعقوب -عليه الصلاة والسلام-، وزيادة الأذى والحزن حتى كف بصره وتضاعفت عليه الهموم والأحزان، فإذا قيل: إن هذا كان بوحي فينتفي هذا الإشكال، وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الأمور الله -عز وجل- قدرها ورتبها من أجل أن يحصل له كمال الصبر، فيصل إلى مرتبة الصابرين ثم بعد ذلك يحصل له ما يحصل من عظيم الثواب إضافة إلى حسن العاقبة، فجرى له ما جرى مما قص الله -عز وجل- بعد الامتحان والابتلاء، كما امتحن الله -عز وجل- إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بأن يذبح وحيده، وفلذة كبده ابتلاءً وامتحاناً، فالله -عز وجل- يبتلي أولياءه، وعلى قدر مقامهم وإيمانهم، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سُئل أي الناس أشد بلاء؟ فقال: ((الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه،...))[1]، على قدر دينه إن كان دينه صلباً شدد عليه في البلاء، والله المستعان.

{فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ}[سورة يوسف(٧٠-٧١)].

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة -في قول الأكثرين-، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد: كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال شعبة عن أبي

---

١ - رواه أحمد في المسند (٧٨/٣)، برقم (١٤٨١)، وقال محققوه: إسناده حسن، والحاكم في المستدرك (٩٩/١)، برقم (١٢٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣)، وفي صحيح الجامع برقم (٩٩٢).

بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكُّوك، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد.

ثم نادى منادٍ بينهم: {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}.

الجَهَاز والجِهاز، فهذا الذي يعطونه من الطعام يطلق عليه أنه جهاز {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}، فالبضاعة التي يحملها الراكب، أو المؤن التي يحملها كل ذلك يقال له جهاز، {جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}.

والمكُّوك هو عبارة عن مكيال يختلف من بلد لآخر، ويتفاوت فليس له مقدار محدد، ويطلق على وعاء واسع من الوسط يضيق من الأعلى يشرب به، وقول: {صُوَاعَ الْمَلِكِ}، وفسر الصواع بأنه كان يشرب فيه، والصواع يقال لما يشرب فيه، قال بعضهم: كل إناء يشرب فيه يقال له: صواع، ومن ذلك قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهاراً *** وترى المسك بيننا مستعاراً

والإثم أي: الخمر.

فما يشرب به يقال له: صواع، وما يكال به يقال له: صواع.

والعير: يطلق على الإبل المرحولة التي وضع عليها الطعام أو المتاع أو الأحمال، وبعض أهل العلم يقول: العير يطلق على كل ما يحمل الطعام أو المتاع من الإبل أو البغال أو الحمير، بل بعضهم يقول: هي الحمير، وهذا لا دليل عليه.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: {ماذا تفقدون قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ} أي: صاعه الذي يكيل به، {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ} وهذا من باب الجعالة، {وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} وهذا من باب الضمان والكفالة.

في قوله عزوجل-: {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} دليل على أن الأحكام تستنبط من القصص والأخبار وليس من الأمر والنهي الصريح، أو الآيات التي سيقت لبيان الأحكام فقط، فهذه الآية ما سيقت لبيان حكم، ولكن يؤخذ منها جواز الجعالة وجواز الكفالة.

وقوله: {جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ}، هذه الحيلة التي احتال بها يوسف -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن يُبقي أخاه عنده، فوضع الصواع في رحل أخيه كما في قول: {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} فقوله: "ثم" تدل على التراخي، ولهذا يقال: إنه تركهم حتى انطلقوا وفارقوا البلد أو كادوا، ثم بعد ذلك أرسل في أثرهم من أجل أن تكون الصورة محكمة، يعني لا يشك هؤلاء بأن المسألة مدبّرة، يعني لو أنه مجرد ما وضع هذا وهم عنده قال: {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فإنهم سيقولون كيف عرفت؟ ومتى فقدته؟ لكن تركهم، فكأنهم بحثوا عن صواعهم، ثم لما فقدوه استدركوا وتبعوا هذه العير، ونادى المنادي {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فأطلق عليهم أنهم سارقون مع العلم بأنهم ما سرقوه، ويمكن أن يقال: إن الذي نادى لم يكن يعلم أن القضية كانت بمكيدة كاد بها يوسف -صلى الله عليه وسلم- ليتمكن من أخذ أخيه، فهو نادى بحسب ظنه، وبعض أهل العلم يقول: ما حدد هنا المفعول، ما قال: إنكم سرقتم الصواع، أو لسارقون لصواع الملك، وإنما أطلق، وأن يوسف -عليه الصلاة والسلام- حينما قال للفتى هذا، فتنادى به، قصد يوسف -عليه الصلاة والسلام- ما فعلوا من أنهم وقع منهم ما يمكن أن يقال عنه: إنه سرقة، حيث إنهم أخذوه من أبيهم وهو صغير وألقوه في الجب، وفعلوا به ما فعلوا، فقال: {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فأطلق عليهم هذا الوصف، وفي ضمن

هذا الوصف يمكن أن يكون ما وقع من الصواع بحسب ظن الفتى الذي نادى بذلك {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فالله تعالى أعلم.

{قَالُواْ تَاللّه لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[سورة يوسف(٧٣-٧٦)].

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: {تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرْضِ وَمَا كُنّا سَارِقِينَ} أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنّا {مّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرْضِ وَمَا كُنّا سَارِقِينَ} أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: {فَمَا جَزَآؤُهُ} أي: السارق إن كان فيكم {إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ}.

يُحمل: ما جزاؤه، على السارق، ويحتمل أن يكون ما جزاؤه، أي سرقة الصواع، إن كنتم كاذبين.

أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ {قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، وهكذا كانت شريعة إبراهيم -عليه السلام-، أن السارق يُدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف -عليه السلام-.

قوله: {قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}، جزاؤه: مبتدأ، وخبره يمكن أن يكون الجملة الشرطية بحيث يكون الخبر هو الشرط والجواب، وقوله: {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} خبر، ويحتمل أن يكون الخبر {مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ}، ويكون قوله: {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} من باب التأكيد والإيضاح وزيادة التقرير، والمعنى أن جزاء من وجد في رحله فإنه يجازى هو دون أحد سواه، من وجد في رحله فإن الجزاء يختص به دون أن يؤخذ به أحد آخر، لا يجني أحد على أحد، الذي تجدون عنده هذا الصواع في رحله فإنه يتحمل العقوبة منفرداً مختصاً بها دون البقية، والجزاء عندهم حينما حكموا بهذا {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} أي: أنه يجازى بذلك بشريعتهم، شريعة يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، بل شريعة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قالوا: إنه يُسترقّ سنةً، يسترقه المسروق منه سنة، وبعضهم قال: يسترقه وأطلق، وأما في شريعة الملك فإنه يضرب، ويؤخذ منه الضِّعف، ضعف ما سرق، ولا يسترقّ؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} يعني في شريعة الملك، لو طُبق عليه قانون الملك فإنه سيضرب ويغرم ثم يذهب معهم، ولن يتمكن من أخذه وإبقائه عنده، لكن هم نطقوا بألسنتهم وقالوا: {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} هذا المعمول به عندنا وهذه شريعتنا، فأخذهم بها، فلما جاءوا يريدون الخلاص ويريدون أن يدخل واحد مكانه في هذا، قال: {مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ}، فهذا {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} -والله أعلم-.

وهذا هو الذي أراد يوسف -عليه السلام-؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله تورية، {ثُمّ اسْتَخْرَجَهَا من وِعَآءِ أَخِيهِ}.

هذا من حسن التدبير، ومن كيده لهم، أو من كيده لأخذ أخيه، ما بدأ بوعاء الأخ على أساس أنه ما يحصل لهم شك، فبدأ بأوعيتهم وأخّر هذا، ويذكر بعض المفسرين، أنه كان يفتش فحينما لا يجد شيئاً في رحل من

فتشه يستغفر، فلما بقي بنيامين قال: أما هذا الصغير فلا يحصل منه شيء، فأصروا هم من أجل إظهار البراءة، وأن يطمئن الطرف الآخر من أنه لم يحصل منهم سرقة، فأصروا إلا أن يفتش الأخير: بنيامين، فلما فتح رحله فإذا به الصواع، وهذا ليس له مستند إلا الإسرائيليات.

{ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ} فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} وهذا من الكيد المحبوب، المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

قوله تعالى على لسانهم: **{جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}** أي: جزاء السارق أن يؤخذ هو دون أحد سواه، نطقوا بالحكم واختاروا شريعة يعقوب، أو شريعة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فكان ذلك إلزاماً لهم بما أجراه الله -عز وجل- على ألسنتهم فليس لهم أن يحتجوا بعد ذلك بحجة يتنصلون بها من هذا الحكم، وكان ذلك سبباً لتمكنه من أخذ أخيه **{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}** أي: في شريعة الملك، و"ما" هذه نافية، ما كان ليأخذه في شريعة الملك وقانونه؛ لأن قانون الملك ليس فيه أن من وُجِد عنده المسروق يصير أمره إلى المسروق منه، إنما يعاقب بالعقوبة المتقدمة ثم يذهب، فلو أعمل فيه قانون الملك لفاته هذا المقصود، -والله أعلم-.

وقوله: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} أي: **لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه الله تعالى فقال: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ}، كما قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ}** [سورة المجادلة(١١)] **الآية، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله -عز وجل-، وكذا روى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت: الله العليم وهو فوق كل عالم.**

ما ذكره الحسن -رحمه الله-، وقول الإنسان: فوق كل ذي علم عليم، لا إشكال فيه إطلاقاً، والله -عز وجل- صرح بهذا: **{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}**، ولا يقصد به أن ذلك بإطلاق بحيث يكون فوق علم الله -تبارك وتعالى- ما هو أعلم، وإنما المقصود من الخلق، فوق كل ذي علم عليم، فإذا قالها الإنسان وأطلقها في مناسبة من المناسبات أو من غير مناسبة، فهذا لا تحفظ فيه إطلاقاً، ويوجد في كثير مما يذكر في المنهيات أن بعض العبارات تؤخذ وتوضع في بعض كتب المنهيات، ويقال: لا يسوغ أن يقال كذا، على أنه من المنهيات اللفظية، وهذا ليس على إطلاقه، فمنه ما ليس بمنهي أصلاً، ومنه ما يحتاج إلى تفصيل، إن قصد به القائل كذا فهو منهي، وإن قصد به القائل كذا فهو صحيح، بحسب قصد القائل.

وكذا روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة: وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله: "وفوق كل عالم عليم".

{قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} [سورة يوسف(٧٧)].

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ} **يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعَلَ كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف -عليه السلام-.**

قوله على لسانهم: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ} يقصدون بذلك يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وبعض المفسرين يقول: إن يوسف كان في صغره عند عمته، وأنها قد أحبته محبة عظيمة، فطلبه أبوه بعد ذلك، ولم تصبر على فراقه، وكانت هي أكبر من يعقوب، وكانت منطقة إسحاق -عليه الصلاة والسلام- عندها باعتبار أنها الكبيرة، فقد كان في شريعتهم أن الوارث هو الأكبر، والمنطقة ما يتمنطق به الإنسان مما يضع فيه السلاح أو نحو هذا، فوضعتها تحت ثيابه، ثم بعد ذلك ذكرت أنها فقدتها، فنظروا فوجودها معه من أجل أن تأخذه عندها، كما فعل يوسف -عليه الصلاة والسلام-، فظنوا أنه سرقها وهو صغير، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: إنهم قصدوا بذلك أنه في صغره وجد عند جده لأمه صنماً من ذهب فأخذه فكسره، فعيره إخوانه بذلك، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: إنهم قصدوا بهذا أنه قد سرق قلب أبيهم، وهذا خلاف الظاهر، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنهم كذبوا عليه بهذا، وهم فعلوا أكبر من الكذب، فعلوا به ما فعلوا، وهذا القياس الذي قاسوه هو من أبطل القياس، فلا علاقة بين سرقة أخيه كما زعموا وبين سرقة هذا، ولا توجد علة جامعة، والقياس كما هو معلوم هو إلحاق فرع بأصل في حكم في علة جامعة بينهما، ولا يوجد علة، حتى ما يسمونه بقياس غلبة الأشباه مثل قياس الخيل على الحمير في عدم وجوب الزكاة مثلاً بحكم الشبه الظاهر، هذا القياس باطل لا يعول عليه، فكيف بهذا.

وقوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} **يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله:** {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} **أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}**، قال: أسر في نفسه** {أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون}.

قوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، المشهور وهو الظاهر المتبادر أنه أسر الجملة التي بعدها، يعني لمّا قالوا هذا قال في نفسه: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ}، ويحتمل أن يكون أسرها في نفسه ليس المقصود هذه الجملة، أسرها في نفسه يعني كأنه تلقى هذه التهمة ولم يبدِ لهم رداً ولا إنكاراً، وإنما كظمها في نفسه وسكت، سمع منهم شيئاً كرهه ولم يرد هذه التهمة وإنما أبقاها في نفسه وتحملها ومضت، ويحتمل أن يكون {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} بمعنى أنه أجل الجواب، لم يجبهم في ساعته وإنما أجل ذلك إلى أن قال لهم فيما بعد: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} [سورة يوسف(٨٩)]، يعني حينما جاءوا إليه فيما بعد وقالوا له: {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} [سورة يوسف(٨٨)].

والضمير في قوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، بعض العلماء قال: إنما أسرها يوسف في نفسه عندما تلقى هذه التهمة وكظمها، ولم يرد عليهم، ولا إشكال في مثل هذا التعبير، وقيل: يعني أسر في نفسه قوله: {أَنتُمْ

شَرٌّ مَّكَانًا}، من باب الإضمار قبل الذكر، كنى عنها بالضمير ثم ذكرها بعد ذلك، ولم يقل: فأسر يوسف في نفسه قوله: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا}، فلو قالوا: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} وانتهى الكلام وما ذكرت الجملة التي بعده كان يقال: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} أي: لم يجبهم في الحال وإنما أجّل ذلك، أو كظم ذلك وتحمله ولم يرد عليهم، لكن حينما قال: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا} يكون ذلك تفسيراً للضمير الهاء في قوله: {فَأَسَرَّهَا}، وهذا معنى الإضمار قبل الذكر.

{قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ} [سورة يوسف(٧٨-٧٩)].

لما تعيّن أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم {قَالُواْ يَأَيّهَا الْعَزِيزُ إِنّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً} يعنون وهو يحبه حباً شديداً، ويتسلى به عن ولده الذي فقده، {فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ} أي: بدله يكون عندك عوضاً عنه، {إِنّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي: العادلين المنصفين، القابلين للخير، {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نّأْخُذَ إِلاّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} أي: كما قلتم واعترفتم: {إِنّآ إِذاً لّظَالِمُونَ} أي: إن أخذنا بريئاً بسقيم.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} قال: "أي من **العادلين المنصفين القابلين للخير**"، يمكن أن يفسر على ظاهره، فهو أحسنَ إليهم غاية الإحسان، أوفى لهم الكيل وأحسن ضيافتهم، فقالوا: نراك من المحسنين فأحسِن إلينا بدفع بنيامين لنا، ثم من لطيف تعبيره أنه قال لهم: {مَعَاذَ اللّهِ أَن نّأْخُذَ إِلاّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} ولم يقل: معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق، فلم يتهمه بالسرقة ولم يصفه بذلك.

{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [سورة يوسف(٨٠-٨٢)].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك {خَلَصُواْ} أي: انفردوا عن الناس، {نَجِيًّا} يتناجون فيما بينهم، {قَالَ كَبِيرُهُمْ} وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله.

بعض أهل العلم يقول في قوله: {كَبِيرُهُمْ} أي: في السن، وبعضهم يقول: في الرأي والقدر والمنزلة، ولهذا اختلفوا فيه هل هو فلان أو فلان، فمن نظر إلى أنه الأعقل والأرجح رأياً، ذكر من كان معروفاً بهذه الصفة، ومن نظر إلى أن الكبير إذا أطلق فالأصل أنه كبير السن قال: إنه روبيل، -والله تعالى أعلم-، ولا فائدة في تعيينه، فهذا من المبهمات التي سبق الإشارة إلى أنه لا فائدة من تحديد المسمى بذلك.

قال لهم: {أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ} لتردنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ} أي: لن أفارق هذه البلدة {حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي} في الرجوع إليه راضياً عني، {أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي} قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي.

وذلك بأن يقاتلهم حتى يستخلصه، أو يقضي الله -عز وجل- ما شاء، وهذا فيه بعد.

{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرءوا مما وقع بقولهم.

قوله -عز وجل-: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا}، استيأسوا: يعني فقدوا الأمل من أن يرجعه إليهم، والسين والتاء في استيأسوا للمبالغة، وقوله: {ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا} يعني: بما علمنا من استخراج الصواع من وعائه، ويحتمل أن يكون {وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا} أي: حينما قيل لنا: {فَمَا جَزَآؤُهُ}، فشهدنا بما علمنا من شريعتك من أنه يؤخذ السارق دون غيره، فنحن لا نستطيع أن نقول غير هذا، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو القول الأول.

وقوله: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}. قال قتادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألَنا ما جزاء السارق؟

قوله: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}، بعضهم فسر الغيب بالليل، قالوا: إنهم كانوا نياماً فسرق، وهذا فيه بعد وشيء من التكلف، وقيل: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} أي: أن ذلك وقع في وقت غيابهم عنه، ما كانوا معه، فقالوا: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}، والذي قاله **قتادة وعكرمة**: "**ما علمنا أن ابنك سرق**" أي: لم يكن ذلك بحضرتنا حتى نكفه عن ذلك، فهذا توجيه هذا القول، والقول الآخر: "**قال عبد الرحمن بن زيد: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً إنما سألَنا ما جزاء السارق؟**"، أخبروه بحكم السارق عندهم؛ لأنه سألهم عن ذلك فقالوا -ولم يكن عندهم علم بما حصل-: {مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}، فتبيّن فيما بعد أن هذا قد وقع منه ما وقع، فأخذ بهذا الحكم، وقوله: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} أي: ما كنا نعلم أنه سيقع منه ذلك حينما أخذناه منك، فنحن طلبنا أخذه من أجل أنه منع منا الكيل، ولا نعلم ما تصير إليه الأمور في عواقبها، وهذا لعله هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وقيل: {إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا}، يعني نحن نتحدث عن الظاهر، وجد الصواع في رحله، هل سرق حقيقة أو ما سرق، أو كيف وقع هذا، هذا عند الله -عز وجل-، لكن نحن نشهد بحسب الظاهر، وهذا معنى تحتمله الآية، لكن ما ذكرته آنفاً أقرب منه -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول غير ذلك.

{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} قيل: المراد مصر، قاله قتادة، وقيل غيرها، {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} أي: التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

وقوله: {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} أي: اسألهم عن صدقنا وأمانتنا؛ لأنهم كانوا يشاهدون ذلك، فهم شاهدوا هذه الواقعة، ويعرفون حقيقة ما حصل، فإذا سألهم أخبروه، فلم يكن ذلك كذباً من أولاد يعقوب كما كذبوا في المرة الأولى، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٨٣-٨٦) سورة يوسف].

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدمٍ كذب: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب -عليه السلام- وأخبروه بما جرى اتهمهم، فظن أنها كفعلتهم بيوسف -عليه السلام- قال: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية ولهذا قال: {عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} أي: العليم بحالي {الْحَكِيمُ} في أفعاله وقضائه وقدره.

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} جدد له حزن الابنيْن الحزن الدفين، قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري عن سفيان العصفري عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يُعط أحدٌ غير هذه الأمة الاسترجاعَ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب -عليه السلام- {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك: فهو كظيم كئيب حزين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول يعقوب -صلى الله عليه وسلم- {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} أي: زينت لكم أنفسكم أمراً، وذكر بعض المفسرين أنه لم يقصد تكذيبهم فيما قالوا من أن بنيامين قد أخذه العزيز، وإنما قصد أمراً آخر وهو شاهدتهم وقولهم: {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} [(٧٥) سورة يوسف]، فهذه الشهادة كانت سبباً في أخذ العزيز له، وقال بعضهم: إن إخوة يوسف كانوا سبباً فيما حصل؛ لأنهم طالبوا أباهم أن يأخذوا أخاهم بنيامين معهم.

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} يمكن أن يكون قد حذف منه المبتدأ فهو خبر، يعني: صبري صبرٌ جميل، ويمكن أن يكون مبتدأ حذف منه الخبر، أي: صبرٌ جميل صبري.

قوله: {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} الأسف هو شدة التوجع والحزن على الشيء، والياء في قوله: {يَا أَسَفَى}

للنداء، كأنه يقول يا أسفي احضر.

قوله: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} [(٨٤) سورة يوسف] الكظيم هو الممتلئ حزناً، وهو الذي كتم حزنه ولم يظهره، وكظيم صيغة مبالغة على وزن فعيل لكثرة ما وقع ليعقوب من الحزن، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الصبر على المصائب لم يكن في شريعتهم كما هو في هذه الشريعة، وهذا فيه نظر، وقد أثنى الله -عز وجل- على الصبر وأهله، ومن ذلك ثناؤه على أيوب –عليه السلام- بقوله: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [(٤٤) سورة ص]، والواقع أن ما حصل من يعقوب -صلى الله عليه وسلم- لا ينافي الصبر؛ لأن حزن القلب ودمع العين لا ينافي الصبر، وقد قال –عليه الصلاة والسلام- {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} والصبر الجميل هو الذي لا جزع معه ولا تسخط، ولهذا أعرض عنهم، وقد أخبر الله عن ذلك فقال: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ}، ومعنى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} أي: أنه أصيب في بصره.

فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: {تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ} أي: لا تفارق تذكر يوسف.

{تَفْتَأُ تَذْكُرُ} أي: لا تفتأ، وهذا معروف في كلام العرب، فحذف اللام لعدم اللبس.

قوله: {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} أي: ضعيف القوة.

الحرض هو ضعيف القوة، أو هو الفساد في العقل أو البدن، إما بسبب كبر السن والهرم، أو بسبب شدة الحزن، أو بسبب شدة التعلق والعشق، فإذا اشتد ذلك بالإنسان لم يعد عقله يحتمله، فيصاب الإنسان في عقله، وقد يصاب في بدنه، وكما يقال: "تردّت عافيته" و"تردّت حاله" و"تردّى عقله" فيهيم ولا يكون في حالٍ سويةٍ في تفكيره أو في قوى بدنه.

وللحب آيات تبيَّن بالفتى *** شحوبٌ وتعرى من يديه الأصابع

قوله: {أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ} أي: أجابهم عما قالوا بقوله: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي} أي: همي وما أنا فيه.

من أهل العلم من يقول: إن البث أعظم من الحزن، فالبث هو الحزن الشديد الذي لا يستطيع صاحبه أن يكتمه، أما الحزن فيستطيع صاحبه أن يكتمه، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف هو الإشفاق من أمرٍ مستقبل، والحُزن هو التألم من أمر مضى.

وفسر بعض أهل العلم البث بالحاجة {أَشْكُو بَثِّي} أي: حاجتي، وبعضهم فسر البث بمعنى الهم {أَشْكُو بَثِّي} أي: همي.

{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي} أي: همي وما أنا فيه {إِلَى اللّهِ} وحده {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يعني: رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها.

رؤيا الأنبياء حق، وإن كان يوسف -عليه الصلاة والسلام- رأى ذلك قبل النبوة لكنها كانت رؤيا صادقة، وأبوه عرف ذلك، فهو ينتظر تحققها، وقال بعضهم: كان يعقوب –عليه السلام- يعلم أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- حي لم يمت، وقال بعضهم: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} من الأجر والثواب للصابرين.

قوله: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} [(٨٧، ٨٨) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب -عليه السلام-: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر.

ونَهّضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

أصل التحسس هو طلب الشيء بالحواس، {اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ}، أي: اطلبوا خبره، وما آل إليه أمره.

وقوله: {وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ}، أي: من فرجه وتنفيسه، وأصل الرَوح يقال لنسيم الهواء، وبعض أهل اللغة كالأصمعي يقول: إنه يدل على حركة، فصار ذلك يطلق باتساع على ما يتحرك له الإنسان، ويلتذ به، وييسر بحصوله، وقال بعضهم: {رَّوْحِ اللّهِ}، أي: رحمة الله، وهذه المعاني متقاربة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ} تقدير الكلام: فذهبوا، فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف، {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ} يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} أي: ومعنا ثمنُ الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد.

قوله: {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} مزجاة أي: القليلة الناقصة غير التامة والرديئة، بحيث إنها تعطى للتجار فيردونها ولا يقبلونها ولا يلتفتون إليها لرداءتها وسوء حالها، وعدم تمامها، وقال بعضهم: هي دراهم رديئة قليلة، وقال بعضهم: كانت عبارة عن صوف وسمن، وغير ذلك من الأقوال.

وقوله إخباراً عنهم {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: "فأوفر ركابنا وتصدق علينا" وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا، وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وعليهم-؟ فقال ألم تسمع قوله: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} رواه ابن جرير.

ما قاله سفيان بن عيينة -رحمه الله- استنباطاً من هذه الآية: إن الصدقة لم تكن تحرم على الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك من خصائصه، ولما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة وأراد أن يختبره سلمان الفارسي -رضي الله عنه- فأعطاه صدقة، فلم يقبلها النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفعها إلى أصحابه، فلما جاءه بهدية قبلها.

{فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي أكمله لنا، والمعنى: عاملنا بهذه البضاعة بما كنت تعاملنا به سابقاً حينما كنا نأتي بالدراهم الصحاح، أو بالبضاعة الجيدة، {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا}، تكون هذه الصدقة بالزيادة على الكيل، وقد تكون

بتكميل ما يقع من النقص، ويحتمل أن قوله: {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} متعلق بقوله: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي: أنك بإيفائك الكيل لنا وقبول هذه البضاعة المزجاة تكون قد تصدقت علينا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُواْ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [(٨٩-٩٢) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عن يوسف -عليه السلام- أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم، وقال {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه {إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} أي: **إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} هذا الاستفهام فيه معنى التقرير، وفيه معنى الإنكار، وهذه الآية تدل على أنه حصل لأخي يوسف شيئاً من أذيتهم وتضييقهم، ومن ذلك تفريقهم بينه وبين يوسف، وقال بعض أهل العلم: أي: ما كان يناله بنيامين من الاحتقار والأذى والمعاملة التي فيها شيء من الشدة والقسوة.

ولم يذكر يوسف –عليه الصلاة والسلام- ما فعلوه بأبيهم تعظيماً وإجلالاً لمقام أبيه، ويحتمل أنه لم يذكره لأن ما حصل ليعقوب –عليه السلام- لم يكن مقصوداً وقد أراد إخوة يوسف أن يستأثروا بأبيهم.

قوله: {إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} أي: إنما حملكم على هذا الفعل هو الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، ويحتمل أنه قصد بذلك الاعتذار لهم، يعني: أنكم فعلتم ذلك في حال جهلكم، ويحتمل أن يكون المعنى: أي لم تعملوا بمقتضى العلم، فإن العلم يقتضي العمل والخشية من الله –عز وجل-.

وقال بعض أهل العلم: {إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} أي: بما يصير إليه فعلكم هذا وما يكون من العواقب التي يئول إليها أمركم وأمر يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وهو ما يشاهدونه مما حصل ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من الرفعة والمكانة، وهم يأتون إليه في حالٍ من الضعف والتذلل، وهذا هو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

والظاهر ــ والله أعلم ــ أن يوسف -عليه السلام- إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأُولييْن بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال

واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥-٦) سورة الشرح] فعند ذلك قالوا: {أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ}، وقرأ أبي بن كعب {أَوَأَنْتَ يُوسُفُ} وقرأ ابن محيصن {إِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفَ} والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: {أَئِنَّكَ لَأَنت يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي}.

وقوله: {قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا} أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا في حقه.

معنى{آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} أي: فضلك واصطفاك واختارك.

وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا في حقه {قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} يقول: أي: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: {يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

التثريب هو التأنيب والعتب، والمعنى لا تأنيب ولا عتب، ويطلق التثريب على التوبيخ والتعيير بالذنب، واللوم عليه.

{اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٣-٩٥) سورة يوسف].

يقول: اذهبوا بهذا القميص {فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} وكان قد عمي من كثرة البكاء {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} أي بجميع بني يعقوب {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ} أي: خرجت من مصر {قَالَ أَبُوهُمْ} يعني: يعقوب -عليه السلام- لمن بقي عنده من بنيه {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} تنسبوني إلى الفند والكبر، روى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ولما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به.

وقوله: {لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تُسفّهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون.

قوله: {لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} أي: تضعفون عقلي وتسفهونني، وتتهمونني بالخرف وذهاب العقل.

وقولهم: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي: من حُب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله -صلى الله عليه وسلم- وكذا قال السدي وغيره.

المقصود بالضلال الذهاب عن حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- أو الذهاب عن الحق في شأن يوسف، حيث قدم يعقوب –عليه السلام- هذا الواحد على هؤلاء المجموعة من الرجال الأقوياء، وليس المقصود الذهاب عن الحق مطلقاً؛ لأنهم لو قالوا هذا لكفروا.

{فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [(٩٦-٩٨) سورة يوسف].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك: {الْبَشِيرُ} البريد، وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي: أعلم أن الله سيرده إليّ، وقلت لكم: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} [(٩٤) سورة يوسف].

البشير في هذه الآية مبهم، ولا ينبغِ الاشتغال بمعرفة من هو هذا البشير الذي جاء، فقد قيل: إنه هو البريد، يعني أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- أسرع بالبشرى فأرسل بها مع البريد، والبريد أسرع بكثير من القافلة.

فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [(٩٧-٩٨) سورة يوسف] أي: **من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود -رضي الله عنه- وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.**

قال بعض أهل العلم في قوله -تبارك وتعالى- {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} أن يعقوب -عليه السلام- أرجأ الاستغفار لهم إلى وقت السحر، وقال بعضهم: إنه أرجأ الاستغفار لهم إلى وقت آخر، وقال بعضهم: أراد أن يستأذن من يوسف حتى يعفو عنهم، وهذه الأقوال لا دليل عليها.

وقد قال بعض السلف: هناك فرق بين طلب الشيء من الشيوخ وبين طلبه من الشباب، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن يوسف -عليه السلام- أنه قال: {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [(٩٢) سورة يوسف]، فقد استغفر لهم مباشرة، ولما طلبوا من أبيهم الاستغفار قال لهم: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ}، وهذا غير صحيح؛ لأنهم لم يطلبوا الاستغفار من يوسف أصلاً، بخلاف أبيهم فقد طلبوا منه ذلك.

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٩٩، ١٠٠) سورة يوسف].

يخبر تعالى عن ورود يعقوب -عليه السلام- على يوسف -عليه السلام- وقدومه بلاد مصر لمَّا كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف -عليه السلام- باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب -عليه السلام- ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

وقوله: {وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} [(٩٩) سورة يوسف]، أي: قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: {ادْخُلُواْ مِصْرَ}، وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط.

ذكر كثير من علماء التفسير أن يوسف خرج لتلقيهم فقال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ}، وقال بعضهم: إنه نصب خيمةً أو مكاناً أو سرادقاً وجلس فيه ينتظرهم، فدخلوا عليه فآوى إليه أبويه، ثم بعد ذلك قال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} ثم بعد ذلك حصل السجود حينما كان في مجلسه مستقراً على سرير ملكه.

وقوله: {آمِنِينَ} أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، وقيل: كانوا لا يدخلون مصر إلا بشيء من الخوف والحذر؛ لأنهم ليسوا من أهلها فقال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} من غير تخوف.

وقوله: {آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً.

قالوا: إن أمه ماتت في نفاس بنيامين، وهذا الكلام لا دليل عليه، وهو خلاف ظاهر القرآن، بل بعضهم تكلف غاية التكلف وقال: لعل الله –عز وجل- أحيا أمه فسجدت، وهذا أيضاً لا دليل عليه.

وقال محمد بن إسحاق، وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المتصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا}، أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً، {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}، أي: التي كان قصها على أبيه من قبل {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} [(٤) سورة يوسف] الآية.

وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى -عليهما السلام-، فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصاً بجناب الرب -سبحانه وتعالى- هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً -رضي الله تعالى عنه- قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما هذا يا معاذ؟)) فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: ((لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها))[1].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف] أي: هذا ما آلَ إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

---

[1] - رواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١ / ٥٩٥)، برقم (١٨٥٣)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٧ / ٥٥).

وقوله: {قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} أي: صحيحةً صدقاً، يذكر نعم الله عليه {وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ}، أي: البادية.

قوله: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}، التأويل هنا بمعنى تحقق الرؤيا، ويأتي التأويل بمعنى التعبير والتفسير ومنه قوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف]، ويأتي التأويل فيما يتعلق بالخبر بوقوع المخبر، وفيما يتصل بالأمر بفعل المأمور به، فمن تأويل الخبر بوقوع المخبر قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف]، يعني وقوع ما أخبر به، ومن تحقيق الأمر قول عائشة -رضي الله عنها-: ((كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن))[٢] يعني: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر].

وقوله: {وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} [(١٠٠) سورة يوسف] ذكر الخروج من السجن ولم يذكر الخروج من البئر، لئلا يجرح مشاعرهم ويؤذيهم؛ لأنهم هم الذين ألقوه في البئر وأما السجن فلم يكن لهم بذلك يد، أو أن المنة بالخروج من السجن أعظم من المنة بالخروج من البئر، فقد خرج من البئر للرق، وخرج من السجن للمُلك.

قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام.

وقوله: {وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ}، أي: من البادية، وقال بعض أهل التفسير: كانوا يسكنون في قرية معروفة يقال لها بدى، فنسبوا إليها، ولم يكونوا يسكنون البادية، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(١٠٩) سورة يوسف]، فاحتج بهذه الآية كثير من أهل العلم على أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا من أهل البوادي، وهذا الذي يجعل بعض العلماء يقولون: إن يعقوب وبنيه –عليهم الصلاة والسلام- كانوا من قرية يقال لها بدى، ولم يكونوا في البادية، وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والظاهر أنهم كانوا في البادية، ووجودهم فيها -والله أعلم- كان عارضاً ثم انتقلوا.

{مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء} [(١٠٠) سورة يوسف] أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدّره ويسره.

{مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ} أي: أفسد، وهذا التفسير من جهة المعنى، فالشيطان يحرك الإنسان ويستثيره من أجل أن يوقعه في المحظور.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} بمصالح عباده {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده.

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [(١٠١) سورة يوسف].

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود (١ / ٢٨١)، برقم (٧٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١ / ٣٥٠)، برقم (٤٨٤).

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه -عز وجل- لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه -عز وجل- كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وهذا الدعاء يحتمل أنَّ يوسف -عليه السلام- قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: ((اللهم في الرفيق الأعلى))[٣] ثلاثاً، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره.

قول من قال: إن يوسف –عليه الصلاة والسلام- تمنى الموت قول غير صحيح ولا دليل عليه.

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [(١٠٢-١٠٤) سورة يوسف].

يقول تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة {نُوحِيهِ إِلَيْكَ} ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ} حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم {إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ} أي: على إلقائه في الجب {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} به ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك، كقوله: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ} [(٤٤) سورة آل عمران]الآية، وقال تعالى: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} [(٤٤) سورة القصص]، الآية، إلى قوله: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} [(٤٦) سورة القصص] الآية، وقال: {وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [(٤٥) سورة القصص] الآية.

يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف]، وقال: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام]، كقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}، أي: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد {مِنْ أَجْرٍ} أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي -صلى الله عليه وسلم- (٤ / ١٦١٣)، برقم (٤١٧٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله عنهم- باب فضل عائشة -رضي الله عنها- (٤ / ١٨٩٣)، برقم (٢٤٤٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}[سورة يوسف (١٠٥-١٠٧)].

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.

وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَن خلق السموات ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيح: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك"[(١)]. وقال الله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان(١٣)]، وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[(٢)].

وقال الحسن البصري في قوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} قال: ذلك المنافق يعمل -إذا عمل- رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء(١٤٢)]، وثَمّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: دخل حذيفة -رضي الله تعالى عنه- على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه ــ أو انتزعه ــ ثم

---

١ - رواه مسلم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- برقم (١١٨٥)، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها.

٢ - رواه البخاري برقم (٤٢٠٧)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة(٢٢)]، ومسلم برقم (٨٦)، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده.

قال: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَهُمْ مّشْرِكُونَ} ، وفي الحديث: ((من حلف بغير الله فقد أشرك))[٣]. **رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك))**[٤]**، وفي لفظ لهما: ((الطيرة شرك وما منَّا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل))**[٥].

وقوله: {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ} الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل(٤٥-٤٧)] . **وقوله: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}**[سورة الأعراف(٩٧-٩٩)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}**، كأيٍّ، هذه الكلمة مركبة من كاف التشبيه وأي، وصارت بعد ذلك تستعمل استعمال اللفظة الواحدة، بمعنى "كم" التي للتكثير، **{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ}** أي: وكم من آية **{فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}** بمعنى: أنها لا تلفت أنظارهم، ولا يتفكرون فيها، ولا يقفون عندها، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}**، ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "**من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات من خلق الأرض من خلق الجبال؟، قالوا: الله وهم مشركون به**"، ونسب هذا إلى كثير من السلف، وذكر قولهم في التلبية "لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"، فهذا هو معنى الآية -والله تعالى أعلم-.

وقوله: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}**، لا إشكال فيه؛ لأن الله -تبارك وتعالى- عندما ذكر هذا الإيمان ذكره بهذه الصفة وهي الإشراك، ومعلوم أن الإشراك ينافي الإيمان، فلا يقال: كيف أثبت لهم الإيمان مع الشرك؛ لأن الإيمان المثبت هو الإيمان اللغوي، الإيمان المنخرم، الإيمان الذي لا ينجي ولا ينفع صاحبه

---

٣ - رواه أبو داود برقم (٣٢٥١)، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، وأحمد في المسند (٢٧٦/٩)، برقم (٥٣٧٥)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة محمد الكندي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٢٠٤).

٤ - رواه أبو داود برقم (٣٨٨٥)، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، وابن ماجه برقم (٣٥٣٠)، كتاب الطب، باب تعليق التمائم، وأحمد في المسند (١١٠/٦)، برقم (٣٦١٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٧٢).

٥ - رواه أبو داود برقم (٣٩١٠)، كتاب الطب، باب في الطيرة، والترمذي برقم (١٦١٤)، كتاب السير عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الطيرة، وأحمد في المسند (٢١٣/٦)، برقم (٣٦٨٧)، وقال: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٢٩).

في الآخرة، فلا شك أن المشركين عندهم شيء من الإيمان، ولكنه ليس بإيمان تحصل به النجاة ويتحقق به التوحيد الخالص لله -تبارك وتعالى-، ولذلك هؤلاء يثبتون مثلاً توحيد الربوبية، وكثيراً من أسماء الله -عز وجل-، قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة لقمان(٢٥)]، فهذا من الإيمان، ولكنه إيمان لا يكفي، لا تحصل به النجاة؛ ولهذا جاءت الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأقوامهم {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف(٦٥)]، فلما سمعوا هذا استنكفوا وأبوا وقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص(٥)]، فكانوا يشركون بالله -تبارك وتعالى- في إلهيته، وإن كانوا يقرون في الجملة بربوبيته، فالإيمان المثبت هنا يمكن أن يقال: هو الإيمان بالمعنى اللغوي، وليس الإيمان الشرعي الذي تحصل به النجاة؛ لذا أثبت لهم الإيمان مع الإشراك، والمعنى الآخر الذي ذكره بعد ذلك هو كلام الحسن البصري -رحمه الله-، أن هذه في أهل النفاق {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} يعني: يؤمنون إيماناً ظاهراً مع انطواء قلوبهم على الكفر، وليس هذا هو المراد، -والله تعالى أعلم-؛ لأن هذه السورة مكية، والنفاق وجد في المدينة، ولا يمكن أن يقال: إن المقصود بهم المنافقون أو المؤمنون الذين قد يقع منهم الإشراك: بالحلف بغير الله، أو برياء، فهذه الآية في الكفار، فالرياء أو الحلف بغير الله -عز وجل- يقع من أهل الإيمان، ولكنه لا يفسد إيمانهم إلا إذا كان الرياء في أصل الإيمان، فالشاهد أن معنى الآية هو ما ذكره أولاً، وهو الذي يدل عليه القرآن في مواضع كثيرة، -والله تعالى أعلم-، ثم قال: {أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ}، فسر الغاشية بقوله: "أي: **بأمر يغشاهم من حيث لا يشعرون**"، بأمر يغشاهم، وهذا جيد، حملها على معنىً عام يدخل فيه ما يذكره السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فالغاشية بعضهم يقول: ما يغشاهم من العذاب الذي ينزل بهم ويغمرهم، وبعضهم يقول: هي الساعة، وبعضهم يقول: هي القوارع التي تصيبهم، فهذه المعاني على كل حال ترجع إلى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، {غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ} أي: تنزل بهم نقمة من الله -تبارك وتعالى- تغشاهم وتغمرهم.

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[سورة يوسف(١٠٨)].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- إلى الثقلين الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: {وَسُبْحَانَ اللّهِ} **أي: وأُنزّه الله وأجلّه وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً،** {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة الإسراء(٤٤)].

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} أي: هذه طريقي، والطريق والسبيل تذكّر وتؤنث، {هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ} أي: أن سبيله الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، {عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} هذه الآية تحتمل معنيين، المعنى الأول: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ} أي: أن سبيله -صلى الله عليه وسلم- وسبيل

أتباعه هو الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، فأتباعه هم الدعاة إلى الله من بعده، وهذا معنىً صحيح، والله -عز وجل- أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب، قال: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [سورة آل عمران(١٨٧)]، وقال: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[سورة النحل(١٢٥)]، وقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا} [سورة فصلت(٣٣)] أي: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى، ومن ذلك: الآيات التي تدل على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من الدعوة إلى الله جل جلاله.

المعنى الثاني: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} يعني: المعنى الأول: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ}، ثم قال: {عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، يعني ذكر له صفتين: الأولى: الدعوة إلى الله، والثانية: أنه على بصيرة هو وأتباعه، يعني من أهل البصائر، {أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} يعني: أنا ومن اتبعني على بصيرة، على طريق واضح، وجادة مستقيمة، ليس فيها غبش ولا لبس، ولا شك، إذا وصلتَ قلت: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، فقوله: {عَلَى بَصِيرَةٍ} متعلق بـــ {أَدْعُو}، أدعو على بصيرة، ولا يحتاج إلى الترجيح بين هذين المعنيين، فكل واحد من هذين المعنيين حق، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- سبيله الدعوة إلى الله، وهي سبيل أتباعه من بعده، والنبي -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء، فأتباعه هم الذين يحملون الدعوة من بعده، كما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً على بصيرة هو وأتباعه بخلاف غيرهم ممن اتبعوا السبل، أو بقوا على كتب محرفة، فهؤلاء ليسوا على بصيرة، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} [سورة الشورى(١٤)] يعني: الشك الذي يبعث على القلق والتحير والتردد، والانزعاج في النفس، فهم ليسوا على ثقة، والله -عز وجل- يخبرنا عن مكنوناتهم وما في نفوسهم، مع أنهم يبذلون الشيء الكثير، أعني أولئك المنحرفين، من دعاة النصارى أو من كبرائهم وقساوستهم، وكذلك اليهود مهما أظهروا من محاولة إبداء التماسك والثقة بما عندهم إلا أن الله يخبرنا عما في نفوسهم {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}، فالشاهد: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه على بصيرة، هو وأتباعه، والمعنى الآخر: أن الدعوة على بصيرة، على محجة واضحة بيّنة لا غبش فيها ولا لبس، وهذه الشريعة جاءت -ولله الحمد- بالحق الواضح البيّن الجلي الذي لا لبس فيه، فالأصول الكبار وكليات الشريعة، ومحكماتها، وما تتحقق به النجاة عند الله -تبارك وتعالى- هذا كله بيّنه الله -عز وجل- بياناً واضحاً جلياً، كقضايا التوحيد، والإيمان، وما يتعلق بالشرك، وما يتعلق بالأصول الكبار، وأصول الدين، التي قال الله -تبارك وتعالى- فيها ممتناً على المؤمنين: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [سورة المائدة(٣)]، فما تتحقق به النجاة بيّنه الله بياناً شافياً، وأما ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل فإن الله -تبارك وتعالى- ذكر فيها مجالاً لاجتهاد العلماء، فيجتهدون، وكل من بذل وسعه في طلب الحق واتقى الله -عز وجل- ما استطاع فإن الله -تبارك وتعالى- يغفر له ما يقع منه من خطأ، ويأجره على اجتهاده، وإذا أصاب أعطاه أجرين، ولا يكون بذلك آثماً، ولا مؤاخَذاً، يعني إذا وقع منه الخطأ، وعلى العامة سؤال من يثقون بدينه وعلمه براءة لذمتهم، وهذا هو الواجب

عليهم، وبهذا لا يلحقهم الحرج، فهذه الآية عظيمة، تضمنت هذا المعنى الكبير: أن سبيله -صلى الله عليه وسلم- وسبيل أتباعه هو الدعوة إلى الله، وأن المؤمن المتبع للنبي -صلى الله عليه وسلم- على محجة واضحة، كما أن الدعوة إلى -تبارك وتعالى- تكون على بصيرة، وإنما يكون للإنسان من هذا بقدر ما يكون له من اتباع سبيل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الصراط المستقيم، وهو اتباع طريقة السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم-، وبقدر ما يحصل للإنسان من مخالفة هذه الطريقة، فإنه يكون عنده من الغبش والانحراف واللبس بقدر ما يكون عنده من المخالفة، فكلما كان الإنسان أكثر اتباعاً كلما كان أكثر سلوكاً للصراط المستقيم، وأسعد بهذه الآية ونظائرها في كتاب الله -تبارك وتعالى-، والذين يظنون أن مناط النجاة هو بتحقيق كل جزئية من الجزئيات وأن يكون له فيها حكم ونظر وقول فاصل، وإن لم يتحققوا في العلم، فهؤلاء يقع عندهم من القلق واللبس والتحير؛ لأنهم حملوا أنفسهم أمراً لا يمكنهم أن يحتملوه، فالكثير منهم يظن أنه مهما قل علمه لابد أن يكون له في كل جزئية، ليس في أحكام الشريعة فحسب، بل حتى مما يقع من أفعال الناس وأقوالهم وتصرفاتهم، وقول هذا وفعله صواب أو خطأ، وما أشبه ذلك، وتبقى بعض القضايا قد تشكل عليه، فإذا تتبع هذه الأمور فإنه يقع له من المشقة والاستشكال والتحير والتردد في كثير من القضايا الشيء الكثير، والله -عز وجل- لم يطالبنا بهذا، لم يأمرنا أن نحكم على كل شيء مما يجري حولنا من أفعال الناس وأقوالهم وتصرفاتهم، هناك أمور تتضح للإنسان فيحكم فيها، وهناك أمور تبقى، إما أنها لا تعنيه فيعرض عنها ويشتغل بما يعنيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه؛ ولهذا كان السلف يكرهون السؤال عن أمور لم تقع، أو السؤال عن أمور لا تقع إلا نادراً، والتكلف والتمحل في مثل هذه الأشياء، وما يسمونه بالأغاليط وهو تتبع صعاب المسائل، فإذا كان الرجل يتتبع هذه القضايا، ويتشاغل بها، وغلب ذلك عليه فإن هذا مؤذن بمزيد من التحير والقلق، واستشكال كثير من الأمور، وكان للإنسان أن يعرض عن هذا كله، لأنه سيسأل في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟، ولن يسأل: عن فلان، وفعل فلان، وعن رأيه في كتاب كذا، وقد ذكر الشوكاني -رحمه الله- في نهاية الأرب عن بعض علماء اليمن أنه قال: إن الناس ثلاث مراتب، يقول: مرتبة: هم العلماء، فهؤلاء يعرفون ما لهم وما عليهم، ومرتبة: هم العوام، فهؤلاء تبعٌ لعلمائهم، يقول: والمشكلة من الذين في الوسط ارتقوا عن مرتبة العوام ولم يصلوا إلى مرتبة العلماء، فهؤلاء هم الذين يسألون عما لا يعنيهم، وينشغلون ببحث بعض الأغاليط، أو بعض المسائل التي لا تعنيهم، أو لم يصلوا إلى مرتبتها، فيتزبب قبل أن يتحصرم، فيحكم في المسائل الكبار، ويتحدث عن دقيق القضايا، وهو لم يتأهل لها، -والله المستعان-.

{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يوسف(١٠٩)].

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، كما دلّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وعليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ} [سورة المائدة(٧٥)]، **فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدّيقة بنص القرآن.**

هذا الآية تضمنت معنيين فيما يتعلق بالرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، أخرج بقوله: {إِلاّ رِجَالاً} الملائكة، والنساء، والمقصود الذين يرسلون إلى الناس، وإلا فالملائكة فيهم رسل، كما قال الله -عز وجل-: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحـج(٧٥)]، فما يذكره بعض المفسرين في كتبهم أن الله لم يرسل ملائكة، يقصدون بهذا إلى أهل الأرض، وكونهم رجالاً بمعنى أنه ليس فيهم نساء، وليس لأحد أن يتكلف ويحمل القرآن على معانٍ شاذة أو نادرة، كقول بعضهم: إن المرأة قد يقال لها: رجلة، نِعْم الفتى وبئست الرجلة، فهذا لا يحمل عليه القرآن إطلاقاً، والألفاظ في كلام العرب منها ما يختص بالرجال كلفظة "رجل"، ومنها ما يختص بالنساء كلفظة "امرأة"، فهذا لا يحصل فيه الاشتراك، وإذا جاءت صيغ المذكر المختصة به في القرآن، في الأمر والنهي، فإن النساء يدخلن على سبيل التبع، ومنه ما يكون مشتركاً بين الرجال والنساء، مثل لفظة "من" {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} [سورة النحل(٩٧)]، فلفظة "من" من ألفاظ العموم فتشمل الرجال والنساء، وهناك ألفاظ اختلفوا فيها هل تشمل الرجال والنساء أو أنها تختص بالرجال، والنساء يدخلن فيها على سبيل التبع، كلفظة "القوم"، {لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء} [سورة الحجرات(١١)]، فهذه الآية احتج بها من الأصوليين مَن قال: إن لفظة القوم تختص بالرجال؛ لأنه قال: {وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء}، هذا هو الغالب في الاستعمال، وإن النساء يدخلن فيها على سبيل التبع، وإن كان ورد في بعض كلام العرب ما قد يدل على أن النساء يدخلن في ذلك، كقول الشاعر:

ولست أدري وسوف يقال أدري*** أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

هذه تدل على ما دلت عليه الآية، ولكن قول الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف(٥٩)]، يدخل فيه الرجال والنساء.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَآ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً} **الآية، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول من ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يعتضد بقوله تعالى:** {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان(٢٠)] **الآية، وقوله تعالى:** {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} [سورة الأنبياء(٨-٩)]. **وقوله تعالى:** {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف(٩)] **الآية.**

قوله: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، معنى الآية لا يشكل، {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا} بهذا القيد {جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، فهي مرتبطة ومقيدة بهذا القيد، ما جعلهم جسداً ليس من شأنه الأكل، وإنما هم جسد يأكلون الطعام.

وقوله: {مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىَ} **المراد بالقرى المُدن، لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً.**

القُرى جمع قرية، والقرية تدل على معنى الاجتماع، فهي مجمع البنيان، سواء كان كبيراً أو صغيراً، والآيات التي وردت في القرآن في ذكر القرى تحمل على هذا المعنى، {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [سورة الأعراف(٤)]، {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا} [سورة الأعراف(١٠١)]، وما أشبه ذلك، فالمدن والبلاد التي قد تكون حواضر واسعة كبيرة يقال لها: قرى، ولا يحمل هذا على اصطلاح الناس اليوم بالتعبير بالقرية عن مجمع البنيان الصغير، والمدينة مجمع البنيان الكبير، ليس هذا هو المعنى الذي نزل عليه القرآن، وبه يتعارف الناس الذين خوطبوا آنذاك بالقرآن، فقوله: {مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} قال: "**المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي**"، وذلك أن أهل القرى ألطف وأرق طبعاً، وليس فيهم جفاء أهل البادية في الجملة، وحينما يقال: أهل البادية يقصد به من يسكن في الصحراء، هذا هو المراد، وليس المقصود بهذا من كان ينتسب إلى قبيلة، كما يظنه بعض الناس، فالناس إما أن يكونوا من سكان القرى والأمصار والمدن وهو مؤذن برقة الطبع والفهم ومجانبة الأوصاف المذمومة مما يتصل بالشدة والغلظة والجفاء، تأثراً بالبيئة التي يعيشون فيها؛ ولذلك ورد النهي عن التشبه بالأعراب لهذا المعنى، وإلا فإن الله -عز وجل- قال: {وَمِنَ الأَعْرَابِ} والأعراب: هم سكان البادية، الذين يعيشون في الصحراء، فالله -تبارك وتعالى- قال: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ} [سورة التوبة(٩٩)].

وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ} يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض، {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} [سورة الحج(٤٦)] الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كقوله: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [سورة غافر(٥١-٥٢)]، وأضاف الدار إلى الآخرة، فقال: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ}، كما يقال: صلاة الأولى، ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس.

قوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ}، وكل ما جاء فيه الأمر صراحة بالنظر والسير في الأرض، كقول الله -تبارك وتعالى-: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [سورة الأنعام(١١)]، الأمر فيها بالسير في الأرض لمن كان عنده شيء من التردد والشك فإنه يؤمر بالسير في الأرض من أجل أن يعرف ويستيقن الحقيقة، وصدقَ ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما آل إليه أمر المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وليس المراد بذلك أن الجميع يخاطبون بهذا، فهذا لا يحتاج إليه إلا من كان متردداً؛ ولهذا: الناس على مراتب، من الناس من يحتج على الأشياء التي تقع بما عرف من أسماء الله -عز وجل- وصفاته، فهؤلاء أصحاب المراتب الكاملة، ولم يرد الخطاب في القرآن في عامة المواضع مطالباً للناس بالارتقاء إلى هذه المرتبة، فمن الناس من لا يحتاج أن ينظر -حتى يعرف صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى مثل هذا، كأبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وخديجة -رضي الله عنها-، فسُمي أبو بكر بالصديق؛ لتصديقه

لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كل ما أخبر به، وأول نزول الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم- أقبل على خديجة -رضي الله عنه- وهو يرتعد فقالت محتجة بما عرفت من أوصاف الله عزوجل على ما يقع في الخليقة: كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل[٦].. إلى آخر ما ذكرت، فهذه مرتبة عالية، لكن أكثر الخلق لا يصلون إلى هذا، أكثر الخلق يحتاجون إلى الاستدلال بالمخلوق على الخالق؛ لهذا نزلت آيات كثيرة تلفت النظر إلى السماوات والأرض وما فيهما، كالإبل، والجبال، والشجر، والدواب، والنجوم والكواكب، ينظرون فيها ليتوصلوا إلى أن الله -تبارك وتعالى- إله واحد، وأنه هو الرب وحده، المعبود وحده، خالق كل شيء، والنظر والاستدلال على الله تبارك وتعالى بمخلوقاته يكون للذين يحصل لهم تردد وشك، وبهذا يعرف بطلان استدلال المتكلمين بمثل هذه الآية على أن أول واجب على الإنسان هو النظر؛ لأن الله قال: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ}، فالله -عز وجل- ما أمر كل الناس بهذا، وإنما أمر به من يحتاج إليه، فالمؤمن المصدق الذي ليس عنده شك أن الله عزوجل- مثلاً- أهلك المكذبين من الأمم الماضية لا نقول له: اذهب وانظر في مدائن صالح وكيف أهلكهم رب العالمين، لكن من كان في شك أو كان مكذباً يقال له مثل هذا.

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [سورة يوسف(١١٠)].

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، كقوله تعالى: {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ} [سورة البقرة(٢١٤)] الآية، وفي قوله: {كُذِبُوا} قراءتان: إحداهما بالتشديد {قد كُذِّبوا}.

القراءة بالتشديد هي قراءة الجمهور، وقراءة التخفيف هي التي قرأ بها الكوفيون الثلاثة من القراء السبعة عاصم وحمزة والكسائي، بالتخفيف {كُذِبُوا}، وقراءة {كُذِّبُوا} بالتشديد لا إشكال فيها، {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} يعني: تأخر النصر، {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} بعضهم قال: الظن بمعنى العلم واليقين، {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة البقرة(٤٦)] يعني يتيقنون، {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} أي: تيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، إما بأنهم وعدوهم بالنصر فلم يحصل، بمعنى أنه تأخر، فيكون هذا في أتباع الرسل، فظنوا أن الرسل قد كذبوا عليهم، وإما أن يكونوا وعدوا أعداءهم بالعذاب، وأن الله يديلهم على عدوهم، فلم يحصل هذا، وتأخر وأبطأ عنهم، فقالوا لهم: أين ما تعدوننا به، وتخوفوننا به؟، وهذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول فيه إشكال إذ كيف يحصل من أتباع الرسل وهم أهل الإيمان، يقال: هذا مما يرد من الخواطر التي تقع في ذهن الإنسان وتهجم عليه من غير تطلب، ثم ما يلبث أن يدفعها فلا تضره، وهذا أحسن ما يقال فيه -والله تعالى أعلم-، فالله -عز وجل- لا يكلف نفساً إلا وسعها، فترد الواردات أحياناً على الإنسان في أوقات الشدة فيدفعها، وقد يحصل له بعض المخالفة في حال الفرح الشديد من غير قصد، مثل الذي قال: ((اللهم أنت

---

٦ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برقم (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٠).

عبدي وأنا ربك))[٧]، وحديث الرجل الذي قال: ((إذا مت فأحرقوني ثم أذروني))[٨]، إلى آخره، حمله شيخ الإسلام ابن تيمية على أن هذا في حال الخوف الشديد، وكثير من أهل العلم على أنه أوصى بهذا بسبب الخوف الشديد، ولذلك غفر الله -عز وجل- له، وهذا المعنى لا إشكال فيه.

وفي قوله: {كُذِبُوا} قراءتان: إحداهما بالتشديد {قد كُذِّبوا}. وكذلك كانت عائشة -رضي الله عنها- تقرؤها، روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} ممن كَذّبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كَذّبوهم، جاء نصر الله عند ذلك، قال عروة فقلت لها: لعلها قد كُذِبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله"[٩]. انتهى ما ذكره.

والقراءة بالتخفيف {كُذِبُوا} قراءة متواترة وثابتة ولا تنكر إطلاقاً، والمعنى في هذه القراءة عند أهل العلم: أي ظن القوم أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب، يعني هؤلاء الكفار ظنوا أنهم قد كذبوا، فحمل الضمير {كُذِبُوا} يعني: أن أقوامهم كذبوهم، وهذا فيه بعد، وبعضهم يقول: ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم، فيكون هذا في الأتباع الذين آمنوا بالرسل، {أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} يعني أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد كذبوا عليهم، حيث لم يأت النصر الذي وعدوهم به، وهذا فيه بعد، وبعضهم يقول: إن الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، هم الذين ظنوا أنه قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينتصرون على الكافرين، وهذا أيضاً فيه بعد، والأقرب هو أن الأمر قد بلغ من الشدة غايته بحيث إن هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وردت عليهم هذه الواردات، لكنهم ما لبثوا أن دفعوها، وبهذا لا يضر الإنسان ما يرد عليه في أوقات الشدائد العصيبة، -والله تعالى أعلم-.

وقال ابن جريج: أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قرأها: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} خفيفة. قال عبد الله -هو ابن أبي مليكة-: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، ثم تلا: {حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}[سورة البقرة:٢١٤].

ابن عباس -رضي الله عنهما- يحمل قوله: {كُذِبُوا} على أن الظن وقع من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وليس المقصود به أنهم وقع لهم شك، فضلاً عن أن يكون وقع لهم يقين بأن الله قد أخلف وعده، وإنما هي الخواطر والواردات التي ترد.

---

٧ - رواه مسلم من حديث أنس -رضي الله عنه- برقم (٢٧٤٧)، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

٨ - رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- برقم (٧٠٦٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [سورة الفتح(١٥)].

٩ - رواه البخاري برقم (٤٤١٨)، كتاب التفسير، باب قوله {حَتَّىَ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرّسُلُ} [سورة يوسف(١١٠)].

قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها خالفت ذلك وأبَتْه، وقالت: ما وعد الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذّبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا} مثقلة من التكذيب. والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما تقدم. وعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فيما رواه سفيان الثوري عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- أنه قرأ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره. وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك {فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ}.

وروى ابن جرير عن إبراهيم بن أبي حرّة الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا}؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً، ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني، وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أي وظن الكفار أن الرسل قد كَذَبوا -مخففة- فيما وعدوا به من النصر. وأما ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فروى جرير عن تميم بن حَذْلم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}: من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا بالتخفيف.

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة يوسف(١١١)].

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين.

ذكر الله -عز وجل- خبر يوسف -عليه الصلاة والسلام- وذكر أخبار الرسل في القرآن، فقال: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} ففي خبرهم عبرة، فمن أهل العلم من يقول: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ} يعني: في خبر يوسف -عليه الصلاة والسلام- وإخوته، ولا حاجة لتخصيص ذلك بيوسف -عليه الصلاة والسلام- وإخوته.

{عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ}: وهي العقول.

يعني أنهم يعتبرون بذلك وما جرى لهم وما وقع من نصر الرسل -عليهم الصلاة والسلام- على المكذبين، وما أشبه ذلك، والعبرة مأخوذة من العبور، فينتقل فيها الإنسان من النظر في أمر إلى غيره، فيحصل له

مقصوده بذلك، فلا يقع في المحظور والمكروه، ينظر فيما وقع مثلاً لغيره فينتقل من ذلك إلى نفسه، فيقول: لو كنت مكانه لحصل لي مثل ما حصل له، فيعتبر، ولهذا يقال: العاقل من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، وأنه إذا نظر الإنسان إلى ما حصل للمكذبين من العقوبات والعذاب والمثُلات، فإنه ينتقل من ذلك إلى نفسه، وأنه لو كان بهذه المثابة لحل به ما حل بهم، فيعرف قدر نعمة الله -عز وجل- عليه، فيتجنب أسباب الهلاك، وما أشبه هذا، والأصوليون يذكرون مثل هذه المواضع محتجين بها على إثبات القياس؛ لأنه فيه نوع اعتبار، والله -عز وجل- يقول: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [سورة الحشر(٢)]، فالقياس: هو إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما، ويقولون: العبرة أصلها بهذا المعنى، يعني تنتقل من الخد إلى العين، أو العكس.

{مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى} أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يُكذب ويُختلق، {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المنزلة من السماء وهو يُصدّق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، {وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب -تبارك وتعالى- بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فلهذا كان {هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيضةُ وجوههم الناضرة، ويرجع المسودّة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف -عليه السلام- ولله الحمد والمنة، وبه المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الرعد وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الرعد(١)].

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ} أي: يا محمد {مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن سورة الرعد: "**وهي مكية**"، هو قول جمهور أهل العلم، وهذا هو الأقرب، ومن أهل العلم من قال: إنها نزلت بالمدينة، وبعضهم قال: إنها نازلة في مكة سوى آيتين، والسورة التي نزلت قبل الهجرة هي مكية، ولو نزل شيء في مكة بعد الهجرة فإنه يكون من قبيل المدني وليس من قبيل المكي، ومن القواعد في هذا الباب: أن السورة النازلة في مكة الأصل أن جميع الآيات فيها نازلة في مكة إلا لدليل، وأن السورة النازلة في المدينة الأصل أن جميع الآيات التي فيها نازلة في المدينة إلا لدليل، والاستثناءات التي يذكرها المفسرون عادة، يقولون: إلا آية كذا، في كثير من الأحيان يكون مرجع ذلك النظر إلى المعنى، وهذا فيه نظر، فإذا كانت الآية مثلاً تتحدث عن اليهود، قالوا: هذه السورة مكية إلا الآية الفلانية فإنها مدنية، مع أنه لا إشكال أن تأتي السورة المكية متحدِّثاً فيها عن اليهود، كما أنهم يذكرون هذا أحياناً بناء على معنى لاح لهم في الآية من حكم فهموه منها، مع أن الآية تحتمل هذا كما تحتمل غيره، فقول الله -تبارك وتعالى-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى(١٤-١٥)]، هذه السورة مكية، ففهم بعضهم منها أن {تَزَكَّى} يعني: أخرج زكاة الفطر، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ} يعني: التكبير للعيد، {فَصَلَّى} يعني: صلاة العيد، قالوا: وزكاة الفطر والجهر، ورفع الصوت بالتكبير، وصلاة العيد كل ذلك ما شرع إلا في المدينة، فقالوا: هذه الآية مدنية، من سورة مكية، وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن معنى الآية غير هذا، ولأن الآية قد تنزل متحدثة عن أمر أو عن حكم قبل وقوعه، فلو فرضنا أن هذا هو المعنى، مع أنه ليس كذلك، فإنه يطبق عليه ما سبق أن الآية تنزل متحدثة عن أمر قبل وقوعه، وهذا موجود في القرآن، وما ذكروه في قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [سورة الكوثر(٢)]، مع أن هذه السورة مكية، لكن قالوا: في قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ

وَانْحَرْ} المقصود صلاة العيد –عيد الأضحى- والنحر يعني الهدي والأضاحي، وهذا المعنى قد لا يكون هو المراد بالآية، وإنما الآية تأمر بالإخلاص في كل الأعمال: في الصلاة، كقوله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الأنعام(١٦٢)]، والنسيكة: هي الذبيحة، فانحر أي اذبح لله ولا تذبح لغير الله -عز وجل- من الأصنام والمعبودات ونحو هذا.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة**"، وأقرب هذه الأقوال -والعلم عند الله -عز وجل- هو القول بأن هذه الحروف هي من حروف المعجم، ولا معنى لها في نفسها، ولا يقال: يوجد في القرآن شيء لا معنى له، فالقرآن ليس به حشو، والمقصود: أن هذه حروف مبانٍ وليست بحروف معانٍ، فحروف المعاني مثل: حروف الجر مثلاً، "في، إلى، عن، على"، فالنحاة يقولون: لا معنى لها في نفسها، وإنما تربط بين أجزاء الكلام، لكن الأمر ليس كذلك، فلها معنى في نفسها، فعلى تدل على العلو أو الاستعلاء، وفي تدل على الظرفية، وهكذا، والقسم الثاني هو حروف المباني التي تكون منها الكلمات، فالزاي من زيد، الزاي والياء والدال، هذه إذا أفردت ليس لها معنى في نفسها، فهذه الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها، وإنما تدل على معنى، والابتداء بها يدل على الإعجاز، وأن هذا القرآن قد ركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، فهو يتحداهم أن يأتوا بمثله، وأنزله على سبعة أحرف، سبعة أوجه من وجوه التغاير، وكل ذلك بالغ في الإعجاز غايته، وهم يعجزون عن محاكاته والإتيان بمثله، ولذلك تجد إذا ذكرتْ هذه الحروف المقطعة ذكر بعدها القرآن، {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة(٢)]، يذكر الكتاب، يذكر الوحي والتنزيل وما شابه ذلك، إشارة إلى هذا المعنى، {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [سورة آل عمران(١-٣)] وهكذا.

وقال في هذه السورة: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} يعني: القرآن وأن ما ذكر بعده من صفته، نفس القرآن، {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقّ}، ومن أهل العلم من السلف من يقول: إن الجملة الأولى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} ليس المقصود بها القرآن، بناء على أن العطف يقتضي المغايرة، فيكون معنى قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: الكتب التي نزلت على الأنبياء قبلكم، ثم عطف عليه القرآن، فقال: {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ}، فهذا هو القرآن، فلا يكون بهذا الاعتبار من قبيل عطف الصفات، وإنما هذا العطف عطف تغاير، فالأول غير الثاني، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والذين قالوا -كالحافظ ابن كثير- بأن هذا من قبيل عطف الصفات قالوا: إن الصفات تأتي متتابعة تارة بالعطف بذكر حرف العطف وتارة بحذفه، كما قال الله -عز وجل-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى(١-٤)]، فهذا كله يعود إلى موصوف واحد، فهذا من باب عطف الصفات.

إلى الملِك القَرْم وابن الهُمام *** وليث الكتيبة في المزدَحم

فقول ابن كثير {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} يعني: القرآن، {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} يعني: هو القرآن، فكل ذلك من صفته، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، فذلك يرجع إلى القرآن، والله -عز وجل- سمى هذا القرآن كتاباً، ولا يستشكل هذا بأنه في ذلك الحين لم يكن القرآن مكتوباً، ولم ينزل في كتاب، فالمراد بقوله -تبارك وتعالى- في أول سورة البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أنه القرآن قطعاً، ومن تتبع موارد هذه اللفظة في القرآن فإن الذي يترجح -والله تعالى أعلم- أن المراد بالكتاب هو القرآن، إلا لقرينة أو دليل يدل على ذلك، والعطف هنا ليس دليلاً.

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

{اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [سورة الرعد(٢)].

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمدٍ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض، وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} الآية.

وقوله: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة الحـج(٦٥)]**، فعلى هذا يكون قوله: {تَرَوْنَهَا} تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.**

في قوله تعالى: {اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، قولان مشهوران للمفسرين، القول الأول: أن الله رفع السماء بغير عمد نراها، فقوله -تبارك وتعالى-: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} يحتمل أن الله رفعها بغير عمد مرئية، يعني لها عمد لكنها غير مرئية، فيكون الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} عائداً إلى العمد، بغير عمد تُرى، وقيل: العمد هو قدرته -تبارك وتعالى-، وقيل: لها عمد لكنها لا تبصر بالأعين، أو أن الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} عائد إلى السماء، فالله خلقها من غير عمد كما نراها ونشاهدها، وكل واحد من القولين قال به طائفة من السلف، فالآية تحتمل المعنيين، فمن قال بأن الضمير يرجع إلى العمد، قال: هذا دليل على القدرة، فهذه عمد غير مرئية، وهذا أمر غير معهود للناس، ومن قال بأن الضمير عائد إلى السماء، قال: هذا أدل على القدرة، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، باعتبار أن هذا السقف العظيم الهائل لا يقوم على أعمدة، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يمسكه، فهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه -سبحانه وتعالى-، وهذا

المعنى الثاني هو الأقرب، وهو المتبادر إلى الذهن، ولا يقال: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهي العمد، فإن السياق وما يمكن أن تفسر به الآية من القرآن يدل على رجحان المعنى الآخر، وهو أن السماء ليس لها عمد أصلاً، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: لا نتكلم في هذا، وإنما نقول كما قال الله -عز وجل- إنه خلق السماء بغير عمد نراها، فهي كما نشاهد ليس لها أعمدة، سواء كان الأمر كما نشاهد ليس لها أعمدة أصلاً، أو كان لها أعمدة لا تُبصَر، فكل هذا من دلائل قدرته وعظمته ووحدانيته -سبحانه وتعالى-، ولا شك أن هذا القول أسلم، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في السموات: إن ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وأن سمكها مسيرة خمسمائة عام، إلى آخره. هذا الحديث الوارد في هذا المعنى لا يصح، "المسافات التي بين كل سماء وسماء خمسمائة عام"، الحديث لا يصح، لكن لا شك أنه بين كل سماء وسماء يوجد مسافة، وأن السماوات ليست منطبقة على بعضها، هذا أمر مقطوع به، وحديث المعراج يدل على ذلك، وأن لكل سماء من يسكنها من الملائكة، لكن يبقى النظر في الأرض، فالله -تبارك وتعالى- أخبر أنه خلق سبع سماوات قال: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [سورة الطلاق(١٢)]، فالأرض سبع طبقات، ولا يقال هل هذه الطبقات منفصلة كل طبقة عن الأخرى أو متصلة ملتصقة، هذا لا علم لنا به فلا نخوض فيه، وما ورد فيه في بعض المرويات بأن كل أرض فيها من يسكنها، وأن فيها من الأنبياء كأنبيائنا، إلى آخره، كل هذا لا يصح فيه شيء، -فالله تعالى أعلم- هل هي ملتصقة أو منفصلة، لكن الله -عز وجل- قال: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}، وهكذا ما يذكره أهل علم الأرض من أن هذه الطبقات هي: الطبقة القشرة، الطبقة الصخرية، ثم الطبقة المنصهرة، ... إلى النواة، هذا الكلام لا تفسر به طبقات الأرض السبع، وما يذكر في هذا إنما هو نظريات وليس عندهم فيه برهان، وهم يقرون بذلك، ومن قال بأن المقصود بهذه الطبقات الأرضية سبعة أفلاك، غير صحيح، وإنما بعضها فوق بعض، ويدل على هذا أدلة، منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((طوّقه إلى سبع أرضين))[1] في من غصب شبراً من الأرض، وكذلك النصوص الواردة التي يذكر فيها أحياناً الخسف، ((فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة))[2]، أي: في الأرض.

وقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يُمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

تُمر كما جاءت من غير تحريف أو تكييف، ويفسر المعنى، فكلمة "علا" في كلام العرب بمعنى استوى، وتأتي بمعنى علا وارتفع، فالاستواء علو خاص، استواؤه -تبارك وتعالى- على العرش هو أحد الأدلة الدالة على علوه -تبارك وتعالى-، فيفسر الاستواء بالعلو والارتفاع.

وقوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً} قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} [سورة يــــس(٣٨)] وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد

---

١ - رواه مسلم من حديث عروة -رضي الله عنه- برقم (١٦١٠)، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٤٥٢)، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، ومسلم برقم (٢٠٨٨)، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه.

ما يكون عن العرش؛ لأنه -على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة- قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، بمعنى ذللهما، فهما يسيران بهذه المنازل، وهذا السير المنضبط غاية الانضباط، لما قدره الله -عز وجل- وقضاه من مصالح العالم، فيتعاقب الليل والنهار، ويحصل التعاقب بين الفصول في السنة، إلى غير ذلك من المنافع، {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً}، الحافظ ابن كثير هنا قال: "**أي يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة**"، فهذا السير للشمس والقمر بهذه الطريقة المنتظمة غاية الانتظام، تخرج من المشرق ثم تغرب من جهة المغرب في كل يوم بهذا الانتظام العجيب الدقيق، كل ذلك إلى وقت معلوم، وهو وقت قيام الساعة، فيحصل التغير لهذه النجوم والأفلاك، وتتكدر النجوم وتكور الشمس وتُجمع مع القمر ويلقيان في النار، فتتغير أحوال العالم العلوي والعالم السفلي، وهذا عليه عامة أهل العلم من المفسرين، ومن أهل العلم من قال بأن المقصود في الدنيا، {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً}، والمقصود به منازل الشمس ومنازل القمر، فمنازل الشمس تكون في سنة، ومنازل القمر تكون في شهر، يبدأ القمر من أول ليلة في منزلة ثم الليلة الثانية في منزلة، وهكذا في ثمان وعشرين منزلة، والذي عليه عامة السلف فمن بعدهم أن المقصود {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً} أي: يوم القيامة، فإذا جاء يوم القيامة توقف هذا الجريان، وتغيرت هذه الأحوال التي نشاهدها.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة.

وقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}، وقيل: إن مستقرهما تحت العرش، الله -عز وجل- قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}، المستقر: يفسر بأنها تسجد تحت العرش، كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن ذلك في الشمس وليس القمر، والله -تبارك وتعالى- قرن بينهما في المسير في هذه الآية، والجريان، قال: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً}، فلا تفسر -والله تعالى أعلم- هذه الآية بالسجود تحت العرش، والأجل في قوله: {لِأَجَلٍ مُسَمّىً} أي: قيام الساعة، والله أعلم.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت.

والجريان ليس فقط للشمس والقمر كما هو معلوم، فالنجوم كذلك، فخص الله تبارك وتعالى الشمس والقمر دون سائر الكواكب والنجوم لظهورهما وعظم منافعهما مقارنة بغيرهما -والله أعلم-.

فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [سورة فصلت(٣٧)]، **مع أنه صرح بذلك بقوله:** {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة الأعراف(٥٤)]، **وقوله:** {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي: **يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ الّذِي مَدّ الأرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلّ الثّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللّيْلَ النّهَارَ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ * وَفِي الأرْضِ قِطَعٌ مّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنّاتٌ مّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىَ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا عَلَىَ بَعْضٍ فِي الأكُلِ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد(٣-٤)].

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، {مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}[سورة هود(٤٠)] **أي: من كل شكل صنفان، {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان، {إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتفكرونَ} أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الّذِي مَدّ الأرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلّ الثّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، {مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} أي: من كل شكل صنفان**"، الزوج يطلق على الاثنين، فالرجل وامرأته زوجان، ويقال لكل واحد مزاوج: زوج، فالمرأة زوج، وبعلها زوج، المرأة تقول: هذا زوجي، والرجل يقول: هذه زوجي، على الأفصح في اللغة والأشهر، ويصح أن يقال: زوجتي، وإن كان قليلاً في الاستعمال في لغة العرب، فهذه الكلمة -كلمة الزوج- تطلق على الاثنين، يقال: هذا زوج من الآدميين، يعني الرجل والمرأة، وهذا زوج من الطيور، يعني الذكر والأنثى، ويقال للواحد منهما المزاوج للآخر، فهذه الكلمة تأتي لهذا وهذا في كلام العرب، والمراد بالزوج في قوله: {مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} -والله تعالى أعلم- الواحد؛ ولذا ذكر بعده ما يوضحه ويبينه فقال: {اِثْنَيْنِ}، والمحترزات في القرآن والقيود تأتي في كل موضع بحسبه، تارة تكون لدفع توهم، مثل دفع توهم الإفراد، نحو كلمة "زوج" تأتي للواحد المزاوج للآخر، وتأتي للاثنين، فقال الله تعالى: {مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، يقول الحافظ: "**من كل شكل صنفان**"، وعليه عامة المفسرين من السلف فمن بعدهم، والمراد صنفان مثل الحلو والحامض في الثمار، والبرودة والحرارة، واليبوسة والرطوبة، والسواد والبياض في الألوان، ويدخل في ذلك الذكر والأنثى، لكنْ عامةُ المفسرين ما

حملوا الزوجين على الذكر والأنثى، وإنما جعلوا ذلك بمعنى الصنفين، إلا قليل منهم كالفراء، فإنه فسر ذلك بالذكر والأنثى.

وقوله: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} أي: أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيّبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه.

قوله: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ}، متجاورات: يعني متقاربات متدانيات، وقال أهل العلم: هي مع تقاربها مختلفة، ومتفاوتة غاية التفاوت، فهذه أرض طيبة، وهذه أرض سباخ لا تنبت، أو أن هذه الأرض أرض سهلية وهذه أرض صخرية، وذلك التنوع والتفاوت يدل على قوة الله -تبارك وتعالى-، أو كان ذلك التنوع في ألوانها، فهذه لونها أحمر وهذه لونها أبيض، وهذه تضرب إلى السواد كالحرار، وهذه جبال بيضاء، وقال بعض أهل العلم في معنى الآية: إنها متجاورات وتسقى بماء واحد لكن ثمارها تختلف غاية الاختلاف، فالتفاوت ليس في نفس الأرض، فهذه رملية وهذه أرض زراعية، هذه يخرج منها هذا اللون من الثمار، وهذه يخرج منها هذا اللون من الثمار، والأرض متقاربة متلاصقة، والماء واحد، وتخرج منها صنوف الثمار، لم يخرج الثمر صبة واحدة، بلون واحد وطعم واحد، مع أنها ليست متباعدة، ليست هذه في الجنوب، وهذه في الشمال مثلاً، فهذه الأرض تلاصق هذه، هذه متقاربة، قطع متجاورات، هذه فيها نخيل، وهذه فيها أعناب، أو هذه فيها هذا الصنف من العنب، فهي مع تقاربها واتحاد سقيها إلا أن ثمارها جاءت متفاوتة غاية التفاوت، وبعض أهل العلم فسره بمعنى آخر، قال: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} أي: وغير متجاورات، وجعل ذلك من باب الاكتفاء، أي أنه ذكر أحد المتقابلين وسكت عن الآخر للعلم به، كقوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل(٨١)] يعني: والبرد، فتركه لأنه معلوم، فالشاهد أنهم قالوا: ومن الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، ولا يخلو من بعد، وليس فيه كبير معنى فيما يتعلق بالمقصود من بيان قدرة الله -عز وجل-.

وقوله: {وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} مرفوعين.

قراءة الرفع قرأ بها ابن كثير وحفص وأبو عمرو من السبعة، قال الحافظ -رحمه الله-: "**أن تكون عاطفة على جنات، فيكون {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} مرفوعين**"، أي أن قوله: {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} معطوف على الجنات، في الأرض قطع متجاورات، وفي الأرض جنات، وفي الأرض زرع ونخيل، هذا على قراءة الرفع {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ}، وعلى قراءة الجر {وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ} يكون معطوفاً على الأعناب، فهنا يقول: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ}، جنات من الأعناب والزروع والنخيل، ووسّط هنا الزرع بين النخيل والأعناب - ذكره في الوسط- بناءً -والله تعالى أعلم- على الغالب في الواقع، فالزروع عادة تكون

بينها، ولا تكون في مزرعة -غالباً- مستقلة، وإنما تجعل هذه الزروع بين النخيل والأعناب، فوسّطها في الذكر مراعاة لهذا، والله تعالى أعلم.

والقراءتان إذا كان لكل واحدة معنى فهما بمنزلة الآيتين.

ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر -رضي الله تعالى عنه-: ((أمَا شعرتَ أن عم الرجل صنو أبيه؟))[1].

الصنو يطلق على المِثل، وفسر البعض قوله: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} بالتماثل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- وسّع المعنى، فجعل ذلك في النخيل وفي غير النخيل مما يكون متفرعاً كالرمان والتين، فهذه الفروع والأغصان في كل منها تجد هذه الثمار، فجعل كل ذلك من قبيل الصنوان، والذي عليه عبارات السلف وكلام المفسرين أن ذلك في النخيل، فالنخيل الذي يكون أصله واحداً يقال له: صنوان، والنخلة المنفردة غير صنوان، ويوجد من النخيل ما يرجع إلى أصل واحد، تجد النخلتين وأحياناً الثلاث وأحياناً الأربع تتفرع من أصل واحد، فهذا صنوان، فكلام أهل العلم الذي وقفت عليه، أنهم يجعلون ذلك في النخيل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل ذلك في النخيل وفيما –أيضاً- يكون متفرعاً بهذه الطريقة أو ما يشبهها، و كلمة "صنوان" تأتي مراداً بها المثنى، وتأتي مراداً بها الجمع، ولا إشكال في هذا.

وقوله: {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} قال: ((الدقل، والفارسي، والحلو، والحامض))[2]**، رواه الترمذي وقال: حسن غريب.**

قرأ عاصم وابن عامر بالياء، {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}، وقرأه الباقون بالتاء {تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}، وقوله تعالى: {وَجَنّاتٌ مّنْ أَعْنَابٍ}، الجنات جمع جنة، وهي مؤنث، قال: {وَجَنّاتٌ مّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىَ بِمَآءٍ وَاحِدٍ}، فالزرع مذكر، وكل هذه القراءات متواترة، ولا إشكال فيها، ويمكن أن يقال: {يُسْقَى} يعني: الزرع وما ذكر معه من النباتات والأشجار والبساتين، وإذا قيل: "تسقى" يعني: هذه الأعناب وهذه النخيل والجنات، قال: "{وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} **قال: ((الدَّقَل، والفارسي، والحلو، والحامض))**، الدقَل هو الرديء من التمر، وقد جاء في الأثر في قراءة القرآن هذا كنثر الدقل[3]، والفارسي

---

١ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٢٣٢٤)، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها.

٢ - رواه الترمذي برقم (٣١١٨)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الرعد، وحسنه الألباني.

٣ - رواه أبو داود موقوفاً على ابن مسعود -رضي الله عنه- برقم (١٣٩٦)، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، وأحمد في المسند (٧/٧٨)، برقم (٣٩٦٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٦٢).

نوع من أنواع التمر، رجح بعضهم أن يكون المقصود به البرني، وقالوا: إن أصل كلمة "برني" فارسية، وهو أجود أنواع التمر في المدينة، فهو في غاية الحلاوة وهو أصفر مدوّر.

أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفِص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى.

العفوصة بمعنى المرارة.

وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

هناك أشياء تنبت بطبيعتها، فإذا خرجتَ من هذه البلاد القاحلة الجرداء الصحراء، إلى بلاد مثل إفريقيا أو إلى بلاد أسيوية أو نحوها، تجد كثيراً من ألوان الأشجار المثمرة تخرج بطبيعتها، بإخراج الله -عز وجل- لها من غير إنبات الإنسان، وعلى شواطئ المحيطات، تجد أشجار جوز الهند على مد البصر، وتجد أنواع الثمر تخرج من غير إنبات الإنسان لها، وتتفاوت غاية التفاوت، تتفاوت في جودتها، وفي أنواع الثمار الخارجة منها، وهي تسقى بماء واحد وعلى أرض واحدة، فهذا صنف وهذا صنف، والصنف الواحد تجد أن ثماره تتفاوت، فهذا كله يدل على قدرته -سبحانه وتعالى-.

{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِيَ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ} [سورة الرعد(٥)].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِنْ تَعْجَبْ} من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكوّنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هُم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: {أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

قوله: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ}، أي: من إنكارهم للبعث، وتكذيبهم بالمعاد، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن قوله: {وَإِن تَعْجَبْ} المراد به: وإن تعجب من تكذيبهم لك في نبوتك ورسالتك وهم يعلمون أنك الصادق الأمين، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- قال: إن المراد {وَإِن تَعْجَبْ} يعني: وإن تعجب من عبادتهم للأصنام، وصرف العبادة إلى ما لا ينفعهم ولا يغني ولا يدفع عنهم تأليههم هذه الأحجار، {فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً}، إلى آخره، ولا يبعد أن يكون المراد بذلك الإطلاق، فإن هذا أسلوب عربي، يقال: وإن تعجب فعجب كذا، ولا يكون هناك مقدر معيّن، وإنما المقصود بيان حال هذا الشيء المتعجب منه، وأنه أمر لا يتصور وقوعه وصدوره من عاقل.

فالعجب من قولهم: {أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة **الأحقاف:٣٣]، ثم نعت المكذبين بهذا فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ}** أي: **يسحبون بها في النار {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** أي: **ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.**

قوله: **{وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ}**، أصل الغَل هو ما يربط به العنق مع اليدين، فهذا يقال له غَل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٦) سورة الرعد].

يقول تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ} أي: هؤلاء المكذبون, {بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} أي: بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ} [(٦-٨) سورة الحجر], **وقال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}** [(٤٧) سورة الحج]، [(٥٣) سورة العنكبوت] **الآيتين, وقال تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}** [(١) سورة المعارج]، **وقال: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}** [(١٨) سورة الشورى], **{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}** [(١٦) سورة ص], **أي: عقابنا وحسابنا, كما قال مخبراً عنهم: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...}** [(٣٢) سورة الأنفال] **, فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله, قال الله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ}** [(٦) سورة الرعد] **أي: قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله, أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ} [(٦) سورة الرعد]، المثلات: جمعٌ يراد به العقوبات, ومن أهل العلم كابن الأنباري من خصه بنوع من العقوبة وهي العقوبة التي تبقي أثراً في المعاقب, ومن ذلك المثلة والتمثيل فإن ذلك يكون بإبقاء آثار على الجسد, من بقر بطن, وجدع أنف, وسمل عين, وعامة أهل العلم يفسرون المثلات بالعقوبات, وما وقع لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط هو من المثلات.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة, كما قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [(٤٥) سورة فاطر], **وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ}** [(٦) سورة الرعد] **أي: إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار, ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف, كما قال تعالى: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام], **وقال: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٦٧) سورة الأعراف], **وقال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ}** [(٤٩-٥٠) سورة الحجر], **إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.**

فهم بعض أهل العلم من هذه النصوص وأمثالها أن الواجب على الإنسان هو الاعتدال بين الخوف والرجاء، أنهما كالجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما، وقال بعض أهل العلم: على الإنسان أن يغلب جانب الخوف في

حال القوة والعافية والصحة والنشاط ليكون ذلك رادعاً له عن مقارفة ما لا يليق, وأما عند الموت فعليه أن يغلب جانب الرجاء, بدليل قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه))[1].

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [(٧) سورة الرعد] ، **يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون, كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً, وأن يزيح عنهم الجبال, ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً, قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}** [(٥٩) سورة الإسراء] **الآية, قال الله تعالى: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ} أي: إنما عليك أن تبلّغ رسالة الله التي أمرك بها, و{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}** [(٢٧٢) سورة البقرة]**, وقوله: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}, قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي ولكل قوم داعٍ. كقوله: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ}** [(٢٤) سورة فاطر]**, وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد.**

قول –تبارك وتعالى-: **{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ}** المقصود بذلك الآيات التي كانوا يقترحونها على النبي –صلى الله عليه وسلم- وهذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}** [(٥٩) سورة الإسراء], ولو جاءتهم هذه الآيات التي اقترحوها على النبي –صلى الله عليه وسلم- فلن يؤمنوا.

وقوله -تبارك وتعالى- **{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}** [(٧) سورة الرعد] أي: لك قوم دليل يدلهم, ومتبوع يتبعونه, وقائد يقتدون به وهو الرسول الذي يرسله الله –عز وجل- إلى قومه وقد قال –تبارك وتعالى-: **{وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ}** [(٢٤) سورة فاطر], وقال: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [(١٥) سورة الإسراء], وقال: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ}** [(٤٧) سورة يونس], فمن أهل العلم من فسر الهادي هنا بالرسول, وهو اختيار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

وقال بعض أهل العلم: **{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}**، أي: داعٍ يدعوهم, وهذا وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله- ولم يحدد –رحمه الله- هذا الداعي من هو، فجائز أن يكون الرسول، وجائز أن يكون داعية بعد الرسول, وجائز أن يكون هذا الهادي يهديهم إلى النار, كما قال الله -عز وجل-: **{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ}** [(٤١) سورة القصص].

قوله: {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [(٨-٩) سورة الرعد].

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء, وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات, كما قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} أي: ما حملت من ذكر أو أنثى, أو حسن أو قبيح, أو شقي أو سعيد, أو طويل العمر أو قصيره, كقوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ} [(٣٢) سورة النجم] **الآية, وقال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}** [(٦)

---

[1] - رواه الإمام أحمد (٢٢ / ٣٦٦)، برقم: (١٤٤٨١).

سورة الزمر] أي: **خلقكم طوراً من بعد طور, كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}** [(١٢-١٤) سورة المؤمنون]، **وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً, ثم يكون علقة مثل ذلك, ثم يكون مضغة مثل ذلك, ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات, بكتب رزقه, وعمره, وعمله, وشقي أو سعيد))**[٢]**، وفي الحديث الآخر: ((فيقول الملك: أي رب أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله, ويكتب الملك))**[٣].

قوله –تبارك وتعالى-: **{اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى}**، يحتمل أن تكون "ما" موصولة بمعنى الذي، ويكون المعنى: الله يعلم الذي تحمله كل أنثى، ويحتمل أن تكون "ما" مصدرية, أي: ويعلم حمل كل أنثى.

وقوله: {وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [(٨) سورة الرعد] **روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مفاتيح الغيب خمس, لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله, ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله, ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله, ولا تدري نفس بأي أرض تموت, ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله))**[٤]**, وقال العوفي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} يعني: السقط, {وَمَا تَزْدَادُ} يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً, وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر, ومن تحمل تسعة أشهر, ومنهن من تزيد في الحمل, ومنهن من تنقص, فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى.**

قوله: **{وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}** الغيض: معناه النقص, ويقابله الزيادة، فمن أهل العلم من قال النقص يحصل بخروج الدم، والزيادة هو الدم الذي لا يخرج، ومن أهل العلم من قال: **{وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}** يعني: حيض الحامل فما يحصل لها من خروج الدم فإن ذلك يكون نقصاً في نمو الجنين, فإذا خرج من المرأة الدم في أيام حملها, مثلاً عشرة أيام فإن الحمل يزداد عشرة أيام تعويضاً.

وقال بعض أهل العلم: **{وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}** أي: ما ينقص فيه الحمل عن تسعة أشهر، وما تزيد فيه في الحمل فقد يكون في عشرة أشهر, وقد يكون في عامين, كما قال الضحاك: بأنه ولدته أمه لعامين, بل ذكر أن بعضهم أن أمه حملت به خمس سنوات, فجعلوا الزيادة في المدة, ومن أحسن ما ذكر في معنى هذه الآية ما قاله ابن القيم –رحمه الله-: "والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى، وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله ... فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب القدر (٦ / ٢٤٣٣)، برقم (١٢٢٦)، مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤ / ٢٠٣٦)، برقم (٢٦٤٣).

[٣] - رواه البخاري، كتاب الحيض، باب مخلقة وغير مخلقة (١ / ١٢١)، برقم (٣١٢).

[٤] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الرعد (٤ / ١٧٣٣)، برقم (٤٤٢٠).

بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان"[٥].

وأوضح منه ما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله- بأن مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض تنقص وتزداد أي تأخذه زائداً فيشمل النقص المذكور، نقص العدد، ونقص العضو من الجنين، ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل زيادة العضو، وزيادة العدد، وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله جل وعلا يعلم ذلك كله والآية تشمله كله[٦].

وقال قتادة: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} أي: بأجل, حفظ أرزاق خلقه وآجالهم, وجعل لذلك أجلاً معلوماً.

---

٥ - تحفة المودود (١ / ٢٦٨).

٦ - أضواء البيان (٢ / ٢٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقال قتادة: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ}[سورة الرعد(٨)] **أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنها- بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: ((إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب))[1]، الحديث بتمامه.**

وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [سورة الرعد(٩)] **أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، {الْكَبِيرُ} الذي هو أكبر من كل شيء، {الْمُتَعَالِ} أي: على كل شيء، {قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} فقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.**

{سَوَآءٌ مّنْكُمْ مّنْ أَسَرّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنّهَارِ * لَهُ مُعَقّبَاتٌ مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنّ اللّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّىَ يُغَيّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوَءًا فَلاَ مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مّن دُونِهِ مِن وَالٍ}[سورة الرعد(١٠-١١)].

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [سورة طـــه(٧)]**، وقال: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}**[سورة النمل(٢٥)]**، قالت عائشة -رضي الله عنها-: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}**[سورة المجادلة(١)]**، وقوله {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، {وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} أي: ظاهر ماشٍ في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} الآية. وقوله تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة يونس(٦١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- برقم (٦٩٤٢)، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة الإسراء(١١٠)]، ومسلم برقم (٩٢٣)، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

فقوله -تبارك وتعالى-: {سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، فسره بعض السلف بالتصرف في شئونه، والتقلب في أحواله، فالله -تبارك وتعالى- يعلم من القول السر وأخفى، يستوي عنده السر والعلانية في أحوال الناس، وتجلياتهم وخفائهم، واستتارهم عن الأعين، يستوي عنده من يتقلب ظاهراً أمام الناس منكشفاً، يرونه ويرون فعله وتقلبه، وتصرفه في أحواله، وشئونه جلية بينهم، كما أنه -تبارك وتعالى- يعلم من هو سارب بالليل، أي: مستخف ومستتر لا تراه العيون، ولا يطلع عليه إلا الله جل جلاله، فيستوي عنده الغيب والشهادة، والسر والعلانية، فالله يعلم أحوال الإنسان جميعاً، ولا حاجة لتخصيص ذلك كما قال بعضهم: إن السارب: يعني من دخل في السراب، فالمقصود من كان مستخفياً عن العيون، فالله -عز وجل- يراه ويطلع عليه، والمقصود من هذا جميعاً أن الإنسان يراقب ربه في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإن الله يستوي عنده السر والعلانية، هذا هو المعنى.

وقوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات.

الضمير في قوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}، يرجع إلى المستخفي بالليل والسارب بالنهار كما قال ابن جرير -رحمه الله-، وفسر المستخفي بالليل بالذي يستخفي ويستتر بمعصية الله -عز وجل-، مع أن ظاهر الآية العموم، يستوي عند الله -عز وجل- الإنسان في كل أحواله، فهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وابن جرير -رحمه الله- خصه بالعمل السيئ في الخلوة، فيقول: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: لهذا السارب {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}؛ لأنه فسر المعقبات بالحرس من الآدميين، يعني له حرس وجلاوزة يمنعونه من أن يصل إليه أهل الإيمان فيغيروا عليه ما هو فيه من المنكر والشر والفساد، فيكون المعنى عند أبي جعفر بن جرير -رحمه الله- هكذا، وفسرها ابن جرير -رحمه الله- بالأمراء والعظماء الذين يقيمون على معصية الله -عز وجل- ويتمنعون بما لهم من الجند، فلا يغير ذلك عليهم، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} يعني: بزعمه، وعلى قوله هذا يكون المعنى مترابطاً، وفسرها رحمه الله بهذه الطريقة، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: أنهم بزعمه يدفعون عنه أمر الله وقضاءه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وظاهر الآية العموم، وإذا حملت على هذا يكون {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: الإنسان، الذي تحدث الله -عز وجل- عنه بقوله: {سَوَآءٌ مِّنْكُمْ} أيها الناس، {مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، {وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} أي: ظاهر، فيكون المعنى {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}: جمع معقبة، والمعقبة تقال لمن يحصل بينهم التعاقب، هؤلاء لهم وقت وهؤلاء لهم وقت، كما يقال: هؤلاء لهم نوبة وهؤلاء لهم نوبة، يأتون في أوقات متفاوتة، ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار))[٢]، فهذه معقبات، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: الإنسان، {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}، فالإنسان جعل اللهُ -عز وجل- عليه الحفظة الكاتبين، كما أن الله -تبارك وتعالى- جعل ملائكة

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٣٠)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم برقم (٦٣٢)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما.

يتعاقبون لحفظه، وكل إنسان وكل الله -عز وجل- به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، فالملك له لمة بالقلب، والشيطان كذلك، فالشيطان يدعوه إلى الشر، والملك يأمره بالخير، وهؤلاء المعقبات يدفعون عنه الآفات، ويدفعون عنه ما قد تقصده الشياطين من إيصال الأذى إليه، فلا تتخطفه الشياطين، ولا يصلون إليه بسوء إلا إذا جاء قدر الله -عز وجل- خلي بين العبد، وقد ذكر بعض السلف أن الشياطين بالمراصد لبني آدم، فلو تركوا معه لتخطفوه وأوصلوا إليه كل أذى، وهذا شيء مشاهد، فكثير من الناس يبتلون بالسحر، ويرقون ويجدد لهم، فما يحصل للإنسان مما يعتبره من المكاره والآفات، من حوادث، ومن أذى يصيبه، فتخطئه هذه الأمور، وينجيه الله -عز وجل- من هذه المصائب والبلايا، وذلك بأن قيض الله -عز وجل- له معقبات من الملائكة يدفعون عنه، فإذا جاء أمر الله -عز وجل- وقضاؤه خلي بين العبد، فوقع به حتى لو كان محافظاً على أذكار الصباح والمساء، فإنه إذا جاء قدر الله -عز وجل- فلابد أن يقع، لكن هذا من فعل الأسباب، فالمقصود {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}، هي المتناوبات، وهي الملائكة، جمع معقبة، وجاءت بالتأنيث إما لأن الجماعة من الملائكة يقال لها: معقبة، وتجمع على معقبات في كلام العرب، وإما للمبالغة، لكثرة تعاقبها، مثل التاء في نسّابة، وعلّامة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون))[٣].

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة))، قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: ((وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير))[٤]، انفرد بإخراجه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.

---

٣ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٣٠)، وبرقم (٣٠٥١)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم برقم (٦٣٢)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، ولفظهما: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)).

٤ - رواه مسلم برقم (٢٨١٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا، وأحمد في المسند (٣٥١/٦)، برقم (٣٨٠٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} "**حافظان وكاتبان**" إلى آخره، ما يذكره السلف من عبارات فهي -والله تعالى أعلم- ترجع إلى معنى قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: فلا يصل إليه ما يكره، وهذا يأتي من المعاني التي ذكرها أهل العلم، يتأتى هذا على قول ابن جرير: أي في زعمه هو، ووهمه وظنه، وذلك إذا فسرت المعقبات بالجند والحرس، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} يحوطونه ويظن أنه بهذه الحماية يسلم من قدر الله وما أراد الله إيقاعه به، ولا يصل إليه أهل الإيمان بالتغيير والإنكار، والمعنى الثاني مما يتمشى مع تفسيرها بأنهم يحفظونه من أمر الله فلا يصل إليه ما يكره، لأنهم يحفظونه من أمر الله إذا عصى، كما قال بعض السلف: بالاستمهال والاستغفار، فلا يعاجل بالعقوبة، يستغفرون له، يطلبون المغفرة، لعله يراجع ويتوب، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: من عقابه.

فحفظهم حاصل وناشئ من أمر الله -عز وجل- وليس من عند أنفسهم، فالله وكلهم بذلك، وقوله: {مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: عن أمر الله، يعني أن حفظهم نتج عن أمر الله لهم بحفظه، هم منفذون منقادون لأمر الله -تبارك وتعالى-، فوكلهم بذلك، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، أو {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: بأمر الله؛ لأن حروف الجر تتناوب، فحفظهم واقع بأمر الله -عز وجل- لهم بحفظه، وقول من قال: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: من أجل أمر الله يرجع لنفس المعنى، فالله أمرهم بحفظه فهم يقومون بذلك، وليس حفظهم من عند أنفسهم وإنما الله تعالى قد وكلهم بذلك، فهو ناشئ عن أمر الله أو بأمر الله أو من أمر الله أو من أجل أمر الله، كل هذا يرجع إلى معنىً واحد، وهو الأقرب -والله تعالى-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [(١٢-١٣) سورة الرعد].

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء، وقوله: {خَوْفًا وَطَمَعًا} قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: {السَّحَابَ الثِّقَالَ} الذي فيه الماء، قال: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} كقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}.

وروى الإمام أحمد عن إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال له الشيخ: سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك))[1] والمراد ــ والله أعلم ــ أن نطقها الرعد وضحكها البرق.

وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً، ولا آنس منه منطقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنقَل العلامة ابن كثير في قوله -تبارك وتعالى-: {خَوْفًا وَطَمَعًا} قول قتادة: "**خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله**"، وهذا القول الذي قاله قتادة قال به جماعة من أهل العلم من المفسرين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ومن أهل العلم من قال: {خَوْفًا} من الصواعق، {وَطَمَعًا} في المطر، وهذه المعاني صحيحة، وهذا أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، ومن المعلوم أن المسافر يحصل له الخوف إذا رأى البرق؛ وذلك أنه أمارة على المطر، والمطر إذا حصل مع السفر فإن المسافر يتأذى به، لاسيما في تلك الأزمان، وأما الطمع فيحصل للمقيم بالمطر، وكذلك يحصل الخوف للجميع من الصواعق، ويحصل الطمع ببركة المطر.

---

[1] - رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٢ / ٢٥٥)، برقم (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة، برقم (١٦٦٥).

وأما ما نقل عن ابن عباس –رضي الله عنهما- أنه كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء، فهذا القول ليس هو الظاهر المتبادر، وذلك لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: أقبلت يهود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: ((ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله))، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: ((زجره بالسحاب، إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر...))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} أي: يسبح متلبساً بحمد الله -تبارك وتعالى- وإذا فُسر الرعد بأنه ملك من الملائكة يسبح بحمد الله –تبارك وتعالى- فهذا ظاهر لا إشكال فيه، وإذا فُسر بالصوت الذي يصدر من السحاب، فهذا أيضاً ظاهر لا إشكال فيه؛ لأن الله يقول: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [(٤٤) سورة الإسراء]، فــ"إن" نافية بمعنى "ما" والمعنى: ما من شيء، و"شيء" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فكل شيء يسبح بحمد الله –تبارك وتعالى- تسبيحاً يليق به.

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سمع الرعد والصواعق قال: ((اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك))[٣]، ورواه الترمذي والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه.

هذا الحديث وإن حسنه بعض أهل العلم إلا أن إسناده لا يخلو من ضعف، ففيه الحجاج بن أرطأة، وفيه أبو مطر فيه جهالة.

وعن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: "سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض"[٤]، رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال ربكم -عز وجل-: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولمَا أسمعتهم صوت الرعد))[٥].

هذا الحديث لا يخلو من ضعف وفي سنده رجل يقال له صدقة بن موسى، وأما ما جاء عن عبد الله بن الزبير فهو ثابت صحيح .

وقوله تعالى: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء} [(١٣) سورة الرعد] أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء؛ ولهذا تكثر في آخر الزمان.

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة الرعد (٥ / ٢٩٤)، برقم (٣١١٧)، وصححه الألباني في السلسلة، برقم (١٨٧٢).

٣ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد (٥ / ٥٠٣)، برقم (٣٤٥٠)، وأحمد (١٠ / ٤٧)، برقم (٥٧٦٣)، وضعفه الألبـاني، انظر مشكاة المصابيح (١ / ٣٤٣)، برقم (١٥٢١).

٤ - رواه مالك في الموطأ (٥ / ١٤٤٤)، برقم (٣٦٤١).

٥ - رواه أحمد في مسنده (١٤ / ٣٢٧)، برقم (٨٧٠٨)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢ / ٢٨٧)، برقم (٨٨٣).

قوله -تبارك وتعالى-: {فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءِ} لا يلزم أن يكون ذلك على سبيل النقمة والعقوبة، فقد يصيب -سبحانه وتعالى- بهذه الصواعق بعض الدواب، وقد تصيب هذه الصواعق بعض الناس ولا يكون ذلك نقمة.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن أربد بن قيس بن جزء بن جليد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم))، قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمتُ من بعدك؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل)) قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا))، فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يمنعك الله))، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية. قال أربد: أفعل، فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكلمه، وسل أربد السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سل السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرأى أربدَ وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى إذا كانا بالحرة ــ حرة واقم ــ نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا: اشخصا يا عدوي الله، لعنكما الله، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكتائب، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية، يرغب أن يموت في بيتها!، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} إلى قوله: {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} الآية[٦]. وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري مختصراً.

قوله: يرغب أن يموت في بيتها، أي: يرغب عن أن يموت، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} [(١٢٧) سورة النساء]، أي: ترغبون عن نكاحهن، فكان يأنف أن يموت في بيتها ويتنزه عن ذلك، فقد تعجب مما حل به.

---

[٦] - المعجم الكبير للطبراني (٩ / ١٨٧)، برقم (١٠٦٠٨)،

والثابت هو ما ورد في صحيح البخاري[٧] دون هذا السياق وهذا التفصيل، والحديث بهذا السياق الطويل، وهذه التفصيلات فيه ضعف، وفي إسناده عبد العزيز بن عمران.

وقد وردت رواية أخرى أصح من هذه الرواية، وهي من حديث أنس – رضي الله عنه - قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - مرة رجلاً إلى رجل من فراعنة العرب أن ادعه لي، قال: يا رسول الله إنه أعتى من ذلك، قال: اذهب إليه فادعه، قال: فأتاه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوك، قال: أرسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو؟ فرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما قال، قال: ((فارجع إليه فادعه)) فرجع فأعاد عليه المقالة الأولى، فرد عليه مثل الجواب فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم – فأخبره، فقال: ((ارجع إليه فادعه)) فرجع إليه فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، وأنزل الله - عز و جل - {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [(١٣) سورة الرعد]"[٨]

وقوله: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

قوله: {يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} أي: يجادلون في توحيده، كما قال – تبارك وتعالى -: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [(٥) سورة ص]، وكما قال الله -عز وجل-: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [(٣٠) سورة الرعد]، وكقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [(٦٠) سورة الفرقان].

{وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} قال ابن جرير: شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [(٥٠-٥١) سورة النمل]، وعن علي -رضي الله تعالى عنه- {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} أي: شديد الأخذ.

قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} قال ابن جرير: "أي شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وتمادى، وهذه الآية كقوله – تبارك وتعالى -: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}" [(٥٠) سورة النمل].

وقال بعض أهل العلم: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}، أي: شديد الكيد، وبعضهم فسرها بالشدة والقوة، وقال بعضهم: {شَدِيدُ الْمِحَالِ}، أي: شديد الأخذ، وقال بعضهم: أي: شديد العداوة لمن عاداه، وقال بعضهم: شديد العقوبة إذا عاقب، وهذه الألفاظ متقاربة، والله أعلم.

قوله: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} [(١٤) سورة الرعد]، قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} قال: التوحيد، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} لا إله إلا الله، {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ} الآية، أي:

---

[٧] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع (٤ / ١٥٠١)، برقم (٣٨٦٤).

[٨] - سنن النسائي الكبرى (٦ / ٣٧٠)، برقم: (١١٢٥٩).

ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله {كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ}، قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: {كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ} يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

قول الله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} أنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً فإنه يستحقها لذاته، فهو أهلٌ أن يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقاً وحالا صح له مقام التبتل والتجريد المحض، وقد فسر السلف دعوة الحق بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي -رضي الله تعالى عنه- دعوة الحق: التوحيد، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله وحده، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}** [(١٤) سورة الرعد]، نقل عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: **{كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ}** كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟، وقال مجاهد: كباسط كفيه يدعو الماء بلسانه، يشير إليه فلا يأتيه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- ويقول ابن كثير: "**ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة**" ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء لا ينتفعون.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: **{كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ}** كالذي يقبض على الماء بيده، يريد القبض عليه، فلا يحصل له شيء، فالماء ليس كالأجسام والأجرام التي يمكن قبضها باليد، فهو يحاول قبضه ولا يستطيع، كما قال الشاعر:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينها***من الود مثلَ القابضِ الماءَ باليد

(مسألة)

الرعد إذا أطلق يمكن أن يراد به الملَك، ويمكن أن يراد به الصوت المعروف، فالآية تحتمل هذا وهذا، فإذا فُسر بالملَك فهذا لا إشكال فيه، ويكون قوله: {وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [(١٣) سورة الرعد] من باب عطف العام على الخاص.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [سورة الرعد(١٥)].

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً على الكافرين، {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ} أي: البكور، {وَالآصَالِ}: وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ} [سورة النحل(٤٨)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} اختلف العلماء في المراد بالسجود في هذه الآية، هل المراد به {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [سورة النحل:٤٩]، "ما" هذه للعموم، ولم يستثن ولم يذكر ما يدل على تبعيض أو تخصيص، وإنما قال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، و"من" هذه للعموم، و"ما" تكون لغير العاقل، وقوله: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} فيه تغليب للعقلاء على غير العقلاء؛ لأن غيرهم يكون تبعاً لهم، أو لأنهم الأشرف، ومن أهل العلم من استشكل سجود الكفار، هل هم داخلون في هذا العموم، وما المراد بقوله: {طَوْعاً وَكَرْهاً}؟ فالمؤمن يسجد طوعاً هذا لا إشكال فيه، لكن من الذي يسجد كرهاً؟ قال بعض أهل العلم: إن العموم في قوله: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، على عمومه، وبعضهم يقول: مخصوص، والأدق من هذا أن يقال: إن هذا عام مراد به الخصوص، فمن قال: إنه عام مخصوص قال: إن الذي يخصصه أو يبيّن أنه مخصص في هذه الآية: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، لكن في الآية الأخرى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة الحج:١٨]، إلى أن قال: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} [سورة الحج:١٨]، ذكر سجود الشمس والقمر والدواب ثم قال في الناس ولم يعمم: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، ومعلوم أن لفظة كثير ليست من ألفاظ العموم، فمن أهل العلم من قال: إن هذا العموم في هذه الآية مخصص، خصصه قوله: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، ويمكن أن يقال: إنه عام مراد به الخصوص، وهذه الآية بيّنت ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {طَوْعاً وَكَرْهاً}، والكفار لا يسجدون لله -عز وجل- السجود المعروف؛ لأن السجود معناه في اللغة الخضوع، ومعناه الشرعي: وضع الجبهة على الأرض، هذا في أجلى صوره وحالاته، ويطلق على الركوع كما في قوله -تبارك وتعالى-: {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [سورة البقرة:٥٨]، فليس المقصود أنهم يدخلون وجباههم على الأرض، وإنما يدخلون في حال الانحناء والركوع تواضعاً لله -عز وجل- وشكراً وخضوعاً، فالشاهد: هذه الآية بهذا العموم الظاهر من أهل العلم من فسر السجود فيها بالمعنى

اللغوي، قالوا: السجود {وَلِلّهِ يَسْجُدُ} أي: يخضع؛ ليدخل الكفار في ذلك، فالكل خاضع لعظمته -تبارك وتعالى-، فأمر الله نافذ في الجميع، وهم تحت سلطانه وقهره، فالكافر يجري عليه أمر الله -تبارك وتعالى- وقدره لا يستطيع أن يخرج من ذلك طرفة عين، فهذا هو السجود بمعناه اللغوي، الجميع يخضع لعظمته جل جلاله، وإنما ألجأ إلى هذا القول -يعني التفسير بالمعنى اللغوي- هو كيف يسجد الكافر والآية ظاهرها العموم؟، فإما أن نقول: هذا العموم غير مراد، فيخرج منه الكافر، ونحمل السجود على المعنى الشرعي في الأصل، في ما يكون سجوده وضع الجبهة على الأرض، ولكلٍّ سجود يليق به، فالشجر له سجود والدواب كذلك فلكل شيء سجود يليق به، وسجود المؤمنين بوضع الجبهة على الأرض، فإما أن نقول بأن هذا العموم غير مراد؛ لأن الكافر لا يسجد، ونكون فسرنا السجود بالمعنى الشرعي، وإما أن نقول بأن هذه الآية على ظاهرها في العموم، وأن المقصود بالسجود الخضوع، وهذا تفسير بالمعنى اللغوي، والقاعدة المعروفة: أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعنى الشرعي أولاً، فإن لم يوجد فالعرف في عرف المخاطبين، في زمن نزول القرآن، فإن لم يوجد فاللغوي، فإذا فسرنا السجود بالخضوع فهذا خلاف القاعدة، فمن فسر السجود بأنه الخضوع قال: إن أهل الإيمان يخضعون لأمر الله طواعية وينقادون، وأما الكفار فيجري عليهم قضاؤه وقدره، وإن كانوا يكرهون ذلك، أو لا يخضعون طواعية لربهم وخالقهم جل جلاله، فأمْر الله جارٍ فيهم، "كرهاً"، ومن أهل العلم من فسر "كرهاً": بأن أهل الإيمان يسجدون طواعية، والذين يسجدون كرهاً هم أهل النفاق، فهم كفار في الباطن، فهم يسجدون وهم يكرهون السجود؛ من أجل أن لا يقام حكم الله فيهم، فهم ما دخلوا في الإسلام ظاهراً إلا من أجل حقن دمائهم وإحراز أموالهم، فهم يسجدون ويكرهون، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً على الكافرين**"، فهذا مجمل، وكأنه في أوله يشير إلى أن المقصود به الخضوع، فخضوع المؤمن يزيد على خضوع الكفار بأنه طواعية، ومن خضوع المؤمن وضع الجبهة على الأرض في السجود، وأما الكافر فهو وإن كان لا يسجد السجود الحقيقي، ولكن أمْر الله واقع عليه وقدره نافذ فيه، فهو خاضع لأمر الله -تبارك وتعالى-، قال: {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}، أي: أن ظلالهم تسجد تبعاً لهم، فإذا سجد الإنسان سجد ظله معه، وخص الغدو والآصال؛ لأن الظل يكون فيها أطول وأظهر، مثلاً في وقت الظهر فإنه بعد الزوال يكون الظل قليلاً، لا يظهر إذا سجد الإنسان كما يكون في العصر وفي أول النهار أيضاً، ومن أهل العلم من يقول: {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} قال: لا يبعد أن الله -عز وجل- يعطي الظل إدراكاً يليق به، فالظل يسجد، وليس المقصود أنه يسجد تبعاً للساجد، على القول الأول أنه تبع، الظل يتبع صاحبه فإذا سجد سجد الظل، على القول الثاني لا، وإنما المراد أن الظل يسجد، سواء كان الإنسان يسجد لله -عز وجل- أو لا يسجد، والله -عز وجل- أخبر عن هذا، {يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ} [سورة النحل:٤٨]، فانتقال الظل من ناحية إلى ناحية هذا سجوده، فكل شيء يسجد لجلاله وعظمته -تبارك وتعالى-، وإنما الذي يبقى لا يسجد السجود الشرعي المعروف هو الكافر، وإلا فالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كل ذلك يسجد لله -عز وجل-، {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} هذه أشهر الأقوال في معناه، ومن أهل العلم من فسره بتفسير أبعد من هذا

قليلاً، قال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، قالوا: إن المقصود أن السجود حق لله وواجب، {وَلِلّهِ يَسْجُدُ} يعني: ولله يجب أن يسجد {مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وفسرها بعضهم بدخول الكافر في الإسلام بالسيف، من الناس من يقاد إلى الجنة بالسلاسل، فقد يدخل بعض الناس الإسلام في البداية خوفاً من القتل، ثم بعد ذلك يستقر الإيمان في قلبه، ويحسن إسلامه، فيدخل الجنة، وهذا المعنى فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} الغدو: أول النهار، والآصال: بعد العصر، وأصدق ما يقع عليه لفظ الأصيل، آصال جمع أُصُل، وهو ما يكون بعد اصفرار الشمس، الأصل في الأصيل يطلق على ما بعد العصر، وأصدق ما يصدق عليه هذا اللفظ هو بعد الاصفرار، إذا اصفرت الشمس.

وقفتُ فيها أصيلاناً أسائلها *** عَيّتْ جواباً وما بالربع من أحد

فهذا هو الأصيل الذي يكون وقت ذبول الشمس، وهو أحسن وقت للذكر، -والله تعالى أعلم-.

{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[سورة الرعد(١٦)].

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تُحصّل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ}[سورة الرعد:١٦]، أي: **أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟، أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء، ولا يماثله، ولا ند له، ولا عدْل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.**

وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، **فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه،** {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة النجم:٢٦] الآية، وقال {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [سورة مريم(٩٣-٩٥)]، **فإذا كان الجميع عبيداً فلِمَ يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة مَن سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة** {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [سورة الكهف:٤٩].

قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ}، فـــ "أم" هذه هي المنقطعة، وهي هنا بمعنى "بل" والهمزة، فيكون معنى قوله: {أَمْ جَعَلُوا} بل أجعلوا.

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ} [سورة الرعد:١٧].

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً} أي: مطراً، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها.

هذه الجملة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ضرورية في فهم المثَل، فبعض أهل العلم يقول: إن عامة الأمثال في القرآن حينما تفسر فإنه ينظر إليها باعتبار المثل بكليته، لا بالنظر إلى أجزائه، فالمثل المركب الذي فيه قضايا متعددة، إذا أردت أن تتبع كل جملة منه وتركبها على معنى فيما يقابله أو فيما ضُرِب له فإن هذا قد يشكل في بعض المواضع، وبعض أهل العلم يقول: هذا غير مراد، وما يفهم من عموم هذا التركيب فهو المراد بالمثل، ومن أهل العلم من يفسر ذلك بأجزائه، فتقع الإشكالات والخلاف، مثل قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}[سورة البقرة:١٧]، إذا فسر تفسيراً مجملاً يقال: هذا مثل ضربه الله لهؤلاء، بأنه من استضاء بشيء ثم بعد ذلك انطفأ هذا النور وذهب، فهذا حال هؤلاء الناس، وإذا فسر كل هذا يقال: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ} السين والتاء للطلب {اسْتَوْقَدَ} فكأنهم استعاروها من غيرهم، هؤلاء أهل النفاق، فهم ليسوا على الإيمان حقيقة، استعاروا ذلك من غيرهم، استمدوه، وإلا ما هو نابع من قلوبهم، ادعوه، وتظاهروا به، {اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ}، هذه النار {اسْتَوْقَدَ نَاراً} فاستمتع بها في التدفئة والإضاءة، وهذا حال هؤلاء الكفار حينما أظهروا الإيمان انتفعوا به انتفاعاً مؤقتاً فحقنوا الدماء، وأحرزوا الأموال، قال بعده: {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ}، ذهب النور والضياء فبقوا في ظلمة وهي ظلمة الكفر، وبقي من النار -بعدما ذهب الضوء أو النور- الحرارة والإحراق، ويقول الله -عز وجل-: إنه: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً} هذا الماء الذي أنزله أي: المطر يقابل الوحي، فهو غيث للقلوب كما أن المطر غيث للأرض، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} كما أن المطر تسيل به الأودية في الأرض، كل وادٍ بحسبه من الصغر والكبر، فكذا القلوب وما تستوعبه من العلم بما أنزل الله -عز وجل-، هي كالأودية، كما وَصف أصحابَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بعضُ من أدركهم من التابعين، فقال: أدركتُ أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- كالإخاذ، والإخاذ يسع العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لوسعهم، من أهل العلم من يفسره بما ينتفع به الإنسان من هذا الوحي، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}، فأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- إيمانه يوزن بإيمان الأمة، وفسر بالعلم وتفاوت الناس في العلم بما أنزل الله، وبما يحصل لهم من الانتفاع به، فتفاوتوا في الاستفادة من هذا الوحي الذي أنزله الله -تبارك وتعالى-.

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السّيْلُ زَبَداً رّابِياً}، فالسيل الذي سالت به الأودية يحمل معه من الزبد والأشياء التي تعلوه من رغوة أو ما يحمله السيل معه {زَبَداً رّابِياً} أي: مرتفعاً، فهكذا الوحي إذا نزل غسل القلوب وحكّ ما فيها وأزال ما فيها من الشُّبه والشكوك، فتذهب وتضمحل وتتلاشى، إذا جاءت شمس النبوة والرسالة تبددت الظلمات والأوهام والتصورات الفاسدة، فهذا المثل الأول، فهذه الطريقة التي يفسر فيها المثل بأجزائه، كل جزء يركب على جزء مما يقابله مما ضرب له المثل، وهذه الطريقة فيها صعوبة وفيها إشكال، والعلماء لا يتفقون على التفسير فيها، يعني إذا فسروا بهذه الطريقة اختلفوا، ما المقصود بالزبد الرابي، وما المقصود بالماء الذي أنزله من السماء مثلاً، أو ما المقصود بالأودية؟، وإذا فسر تفسيراً إجمالياً فإن ذلك يكون أوضح في المعنى، وهكذا المثل الثاني، هذا يسمونه المثل المائي، والآخر المثل الناري، وفي البقرة {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} هذا المثل الناري، والثاني: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٩] هذا المثل المائي، فقال: {وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقّ وَالْبَاطِلَ}، فهذا المثل الناري، {وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} طلب حلية أو متاع، الحلية من الذهب والفضة، {أَوْ مَتَاعٍ} من الحديد والنحاس والمعادن الأخرى، تُصنع منه قِدرٌ أو آلة أو ملعقة أو سكين أو نحو ذلك، {زَبَدٌ مّثْلُهُ} يعلوه كذلك، فهذا المعدن إذا عرض على النار تحركت الشوائب التي بداخله؛ لأنه حينما يكون عنصراً في الأرض تخالطه الشوائب، فإذا عرض على النار تحركت هذه الشوائب فيه كما تتحرك الشكوك والأوهام إذا نزل الوحي، فتنجلي وتزول وتضمحل فكذلك هذه الشوائب التي في هذا المعدن تذهب وتتلاشى، ويبقى خالصه، فالمثل يفسره بعض أهل العلم بهذا المعنى أو بهذه الطريقة.

{فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً} أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل.

قوله: {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} يمكن أن يفسر على العموم بأن ذلك ما تبدده شمس النبوة، وما يزيله الوحي بأنواره الكاشفة، من جميع الأباطيل التي يتشبث بها الناس من عبادة غير الله –عزوجل- كعبادة الأصنام والأوثان والجن، وكذلك ما عندهم من التصورات الفاسدة عن الكون والحياة، بعيداً عن الوحي والاستضاءة به، وألوان الجهالات التي يعيشون عليها، سواء في أوضاعهم الاجتماعية، أو في علاقتهم بربهم -تبارك وتعالى-، أو غير ذلك من الأباطيل التي يعيشون عليها، ويقتاتون عليها، فإذا أشرقت شمس الرسالة بددت هذه الظلمات جميعاً وانجلت، ولهذا يقول الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: إن السحر يكثر إذا تلاشت أنوار الرسالة والنبوة، فإذا سطعت في مكان تلاشت هذه الأباطيل، فالسحر إنما يعشش ويكثر إذا صار في ضعف في الدعوة، والاستضاءة بنور الوحي، والأماكن التي يحصل فيها الوعي والعلم تبدد كل الأباطيل والأوهام، وهذا مشاهد في البلدان التي انتشر فيها علم الكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة من غيرها.

وقوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي ليجعل حلية نحاس أو حديد.

هذه القراءة {يُوقِدُونَ} هي قراءة حمزة والكسائي وحفص من السبعة، وقرأ الباقون بالتاء {وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ}.

وقوله:"**أي ليجعل حلية نحاس أو حديد**" الصحيح أنه: ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً.

وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية: أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه، {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} أي: لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}، كقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}.

قوله: **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}**، يقال: جفأ الوادي بمعنى ألقى، جفأ غثاءً بمعنى ألقى الغثاء، فيضمحل ويتلاشى مع جريان الماء فيعلق بأطرافه ونواحيه بالشجر والحجر ويبقى ما ينفع الناس، والترّهات والأباطيل وبنيات الطريق، كل ذلك يذهب، وهذا عام في كل ما لا ينفع، فالعلوم الفلسفية والعلوم الكلامية التي اشتغل الناس بها وقتاً طويلاً اندرست وذهبت وبقي: قال الله، وقال رسوله -صلى الله عليه وسلم-، **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}** فالزبد وإن كان ظاهراً على الماء، فهو كعلو الدخان، كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

فإذا اجتمعت الخصوم وصيحوا *** فاثبت فصيحتهم كمثل دخان

يرقى إلى الأرج الرفيع وبعده *** يهوي إلى قعر الحضيض الدان

فالذي يستقر ويثبت هو الماء الذي تحت الزبد، ما ينفع الناس يمكث في الأرض، والزبد لا ينتفع به الإنسان ولا الحيوان مع أنه يعلو الماء، وكذا كل ألوان الباطل مهما كان مبهرجاً، فإن العبرة بالحقائق، وما عدا ذلك فإنه سرعان ما يضمحل ويزول، ومهما حاول أهل الباطل أن يزينوا باطلهم فإن ذلك يتلاشى، والذي يبقى هو الحق، والحق أحق أن يتبع، وكم حاول أهل الباطل إخماد الحق وطمس معالمه، ولكن باطلهم هو الذي يذهب والحق يبقى، وانظر ما جرى على الإسلام منذ بعث الله -عز وجل- محمداً -صلى الله عليه وسلم-، يقول ابن القيم -رحمه الله-:

واللهِ لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدمت منه قوى الأركان

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: {فَأَمَّا الزَّبَدُ}: وهو الشك، {فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}: وهو اليقين.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر قوله -تبارك وتعالى-: **{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}** بالعلم، وابن عباس -رضي الله عنهما- فسره باليقين والإيمان، وهذا كله حق.

{وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقد ضرب -سبحانه وتعالى- في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ} [سورة البقرة:١٧] الآية، ثم قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} [سورة البقرة:١٩] الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين (أحدهما) قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ} [سورة النور:٣٩] الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين: فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أيْ ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً. ثم قال تعالى في المثل الآخر: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ} [سورة النور:٤٠] الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))[1]، فهذا مثل مائي. وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار، هلمّ عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها))[2]. وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.

قوله تبارك وتعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} عام في كل شيء في الكتب المؤلفة والأفكار والمعتقدات وغيرها، ومن نظر إلى الكتب والحواشي التي كتبت في التفسير يجد أن أكثرها لم تطبع أين ذهبت واضمحلت؟!، وانظر إلى تفسير ابن كثير مثلاً كم من الناس انتفعوا به وكم طبعات طبع، وتفسير ابن جرير -رحمه الله-، ما ينفع الناس يبقى، وكل شيء سيأخذ حجمه الحقيقي حتى الناس والأشخاص، فرب شخص ينتفش في وقت من الأوقات وفي النهاية يأخذ حجمه الحقيقي، ومهما ينبهر الناس بكتاب في وقت من الأوقات ويتناقلوه ويعكفوا عليه فبعد مدة يأخذ حجمه الحقيقي، ومثل هذا في الطوائف، فالمعتزلة حكموا في أيام الدولة العباسية وأرادوا حمل الناس على مذهبهم الباطل وفعلوا كل ما يستطيعون، ومن أسروه من المسلمين لا يتركونه حتى يُمتحن في مسألة القرآن، ومات كثير من العلماء وهم في القيود، ثم اضمحلت المعتزلة، وكان الإمام أحمد -رحمه الله- يوصي ابنه عبد الله، ويقول له: إياك وبنيات الطريق، بنيات الطريق هذه الزوابع التي يجدها حيناً بعد حين، ينشغل بها بعض صغار النفوس، ولا

---

١ - رواه البخاري برقم (٧٩)، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلّم، ومسلم برقم (٢٢٨٢)، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بُعث به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهدى والعلم.

٢ - رواه البخاري برقم (٦١١٨)، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم برقم (٢٢٨٤)، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، وأحمد في المسند (١٣/٤٧٦)، برقم (٨١١٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يكون له هم التشمير عن ساعد الجد في أمور تضره ولا تنفعه في القيل والقال، والكلام في الناس، والوقيعة في أعراضهم، وتوزيع التهم عليهم، وما أشبه هذا، وللإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- كلام جيد، حيث قال: "قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ} شبه الوحي لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيماً كوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاءً وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فانه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها وهكذا: {يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، ثم ذكر المثل الناري فقال: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق"[٣].

وقال -رحمه الله تعالى-: "شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء؛ لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً، وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً، فقال: {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً} هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء، وأخبر سبحانه أنه رابٍ يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربتْ فوق القلوب وطغت فلا تستقر فيه بل تُجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبَه والناسَ من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاءً، وما يعقل عن الله أمثالَه إلا العالمون.

ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر فقال: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} يعني: أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده، وضرب سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تُحيي القلوب كما تَحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها

---

٣ - انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٧٨)، والأمثال في القرآن الكريم (١٢).

كما تحرق النار ما تلقى فيها، وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه، فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم، قال الله تعالى: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [سورة العنكبوت:٤٣]"[٤].

فائدة:

يحمي الإنسان نفسه من الانحراف في الفتن والزوابع والأمور التي قد تصرفه عن الحق بأمرين اثنين لا بد منهما، وإن وُجد أحدهما دون الآخر فإن الإنسان على خطر، وهما:

الأمر الأول: التحقق بالعلم، بحيث يكون على بصيرة تنجلي له الشبهات، لا تنطلي عليه الأباطيل.

الأمر الثاني: أن يكون مخلصاً، ذا نيّة صالحة.

فالإنسان الذي ينجرف في هذه الفتن والشبهات والزوابع إما إنسان قل علمه فاتبع الباطل عن جهل يظنه حقاً، وإن كان له نية صالحة، فيوجد من أتباع الطوائف من قد يكون له نية في التقرب إلى الله تبارك وتعالى وعبادته وما أشبه ذلك، وإذا وُجد عنده علم لكن نيته فيها خلل فإنه يُخشى عليه أن يتبع الباطل، فربما يجد في نفسه شيئاً فيبحث له عن مخارج في الشريعة، كما جاء في بعض الآثار بأنه يبتدع لهم أشياء من أجل أن يتبع، والأمثلة في التاريخ كثيرة، والله -عز وجل- أخبر عن أقوام أنه أضلهم فقال: **{وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}** [سورة الجاثية:٢٣] أضله على علم لها معنيان: الأول: أضله على علم أي: منه، مَن علم الله باستحقاقه للضلال، والثاني: أي على علم منه هو، أي: لم يكن ضلاله عن جهل، فاليهود ضلوا عن علم؛ لفساد القصد عندهم حسداً، وأبو طالب لم يكن يخفى عليه حال النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن خشي أن يعيّر، فهذا لفساد القصد، وكبراء المشركين الذين تكلموا بما يدل على أنهم يعرفون أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلا بد للإنسان من علم صحيح وقصد صحيح، فإذا اجتمع هذا مع هذا فهو طريق السلامة المحققة بإذن الله –عز وجل- مع كثرة الدعاء والابتهال إلى الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وقد يجتمع في الإنسان فساد القصد ونقص العلم، كما هو الواقع عند الصوفية، مرة سألت أحد الصوفية عن قول صاحب البردة: "ومِن علومك علم اللوح والقلم"، "مِن" للتبعيض فيكون المعنى أن من علوم النبي -صلى الله عليه وسلم- علم اللوح والقلم، فما بقي لله تبارك وتعالى؟ وهذا كفر بالله تبارك وتعالى، والله تبارك وتعالى يقول: **{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}** [سورة النساء:٦٥]، وقوله: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** [سورة النـــــور:٥١]، فنتحاكم إلى الكتاب والسنة، أريد دليلا على هذا الكلام حتى أعتقده!، فقال: النبي -صلى الله عليه وسلم- لما عرج به إلى السماء أعطي حلاوة في السماء السابعة، فلما ذاقها وأكلها انجلى له ما بين العرش إلى الأرض السفلى.

---

٤ - انظر: مفتاح دار السعادة (٦١/٢).

فهذه أكذوبة عظيمة على أمر عظيم لا وجود لها في كتب السنة على الإطلاق، لا صحيحة ولا ضعيفة، فألجم وسكت ثم ذهب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد].

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ} أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم {الْحُسْنَى} وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً}، وقال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}.

وقوله: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ} أي: لم يطيعوا الله، {لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، {أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ} أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [(١٨) سورة الرعد]، الحسنى: يمكن أن تفسر بالجنة، كما قاله طائفة من السلف، ويؤيد هذا القول قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [(٢٦) سورة يونس]، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد]، سوء الحساب هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الحساب السيئ، كما تقول: عظيم الأجر، وعظيم الثواب، أي: الثواب العظيم، والأجر العظيم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد]، أصل المهاد هو ما يوطأ للصغير فيكون فراشاً ممهداً، فهؤلاء يكون مهادهم في النار.

{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(١٩) سورة الرعد]، **يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي {أُنزِلَ إِلَيْكَ} يا محمد {مِن رَبِّكَ} هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً}** [(١١٥)

سورة الأنعام] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدقَ ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه.

كقوله تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}، وقال في هذه الآية الكريمة: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [(٢٠-٢٣) سورة الرعد].

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ}، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة؛ فلهذا أمْرُهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [(٢٠) سورة الرعد]، الفرق بين العهد والميثاق: أن الميثاق عهد ولكنه مؤكَّد، فهو أخص من مطلق العهد.

وقد فسر بعض أهل العلم قوله –تبارك وتعالى-: {يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ} بالعهد الذي بينهم وبين الله –تبارك وتعالى- وما يتبع ذلك من العهود بينهم وبين الناس، وأما الميثاق فهو العهود المؤكدة بالأيمان.

وقال بعض أهل العلم: العهد هو جميع العهود التي تكون لله -عز وجل- وهي أوامره ونواهيه، ويدخل في ضمن ذلك ما التزمه العبد من عند نفسه كالنذر، وكالمعاهدة التي يجعلها بينه وبين الله، وأما الميثاق فهو ما أخذه الله على عباده حينما استخرجهم من ظهر أبيهم آدم -عليه الصلاة والسلام- فقد قال –تبارك وتعالى- {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [(١٧٢) سورة الأعراف].

والله –عز وجل- لا يحاسب بهذا الميثاق الذي أخذه على عباده لمّا أخرجهم من ظهر أبيهم آدم –عليه الصلاة والسلام- بل أودع فيهم الفطرة، وأرسل إليهم الرسل، وقال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، وهذا من كمال عدله -سبحانه وتعالى-.

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} [(٢١) سورة الرعد]، قال ابن كثير: "**من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف**" ويدخل في هذه الآية كل ما يمكن أن تحتمله، كالتقرب إلى الله –تبارك وتعالى- وطاعة النبي – صلى الله عليه وسلم -

وتوقيره وتعزيره، وصلة الوالدين وبرهم، وصلة الأرحام والقرابات، والقيام بحق الزوجات والجيران، وغيرها.

{وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] أي: **عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله -عز وجل- ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي، {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}** أي: **على الذي يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين، {سِرّاً وَعَلانِيَةً}.**

قوله: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] ، أي: أن صبرهم لله، ووجه التقييد بقوله: {ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ}؛ لأن البعض يصبر تجلداً أمام الناس، حتى يثنوا عليه ويطروه بأنه صابر على المصيبة، ومن المعلوم أن الصبر عبادة قلبية، يقع فيها ما يقع في غيرها.

{سِرّاً وَعَلانِيَةً} أي: **في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}** أي: **يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [(٣٤-٣٥) سورة فصلت]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} والعدن الإقامة.**

قوله: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، أي: يدفعون القبيح بالحسن، وهذه الآية كقوله – تبارك وتعالى-: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [(٣٤) سورة فصلت]، وقال بعض أهل العلم: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي: يدفعون المعصية بالتوبة، وقال بعضهم: يدفعون الشر بالخير، ومنهم من قال: يدفعون المنكر بالمعروف، ومنهم من قال: يدفعون المعصية بالطاعة، وقد قال – تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [(١١٤) سورة هود].

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} والعدن الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها.

وقوله: {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [(٢٣) سورة الرعد] أي: **يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بها حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}** [(٢١) سورة الطور] **الآية.**

وقوله: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [(٢٣-٢٤) سورة الرعد] أي: **وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.**

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخِيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب {سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}))[1].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه.

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه.

فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه، والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين -صلوات الله وسلامه عليه-، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقّاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقاتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحى الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصلة، ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو آخِيَّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] فلم يكتفِ منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

---

[1] - رواه أحمد (١١ / ١٣١)، برقم (٦٥٧٠).

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهى الصلاة فقال: {وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ}، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [(٤٥) سورة البقرة]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(١٥٣) سورة البقرة].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم، ثم ذكر حالهم إذا جُهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرءون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [(١١٤) سورة هود]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتبع السيئة الحسنة تمحها))[٢]، والتحقيق أن الآية تعم النوعين، والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، فاشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران]، وقوله: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ} [(٩٠) سورة يوسف].

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران]، فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور[٣].

(مسألة)

{جَنَّاتُ عَدْنٍ} أي: جنات إقامة، فهم لا يخرجون منها ولا يموتون ولا يفارقونها، وقال بعض أهل العلم: في الجنة جنة يقال لها: جنة عدن، كما يوجد جنة يقال لها: جنة المأوى، وجنة الفردوس، والقول الأول هو الأقرب – والله تعالى أعلم-.

---

[٢] - رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معاشرة الناس (٤ / ٣٥٥)، برقم (١٩٨٧)، وأحمد (٣٥ / ٢٨٤) برقم: (٢١٣٥٤).

[٣] - عدة الصابرين (١ / ٢٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٢٥) سورة الرعد].

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء {يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ}، كما ثبت في الحديث: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[١]. وفي رواية ((وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر))[٢]؛ ولهذا قال: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللّعْنَةُ} وهي الإبعاد عن الرحمة، {وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ} وهي سوء العاقبة والمآل، {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

{اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [(٢٦) سورة الرعد] يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتِّر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون]، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [(٢٦) سورة الرعد]، كما قال: {قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٧٧) سورة النساء]، وقال: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [(١٦-١٧) سورة الأعلى].

وروى الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر - رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع))[٣] وأشار بالسبابة، رواه مسلم في صحيحه، وفي الحديث الآخر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بجَدْيٍ أسكَّ ميت، والأسكّ الصغير الأذنين، فقال: ((والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه))[٤].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١ / ٢١)، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافقين (١ / ٧٨)، برقم (٥٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١ / ٢١)، برقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١ / ٧٨)، برقم (٥٨).

٣ - رواه مسلم (٤ / ٢١٩٣)، برقم (٢٨٥٨).

٤ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٤ / ٢٢٧٢)، برقم (٢٩٥٧)، بلفظ عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال أتحبون أنه لكم ؟ قالوا والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال: ((فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)).

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٧-٢٩) سورة الرعد].

يخبر تعالى عن قيل المشركين: {لَوْلا} أي: هلا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، كقولهم: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ} [(٥) سورة الأنبياء]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحوّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيَصير مكانها مروجٌ وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: ((بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة))[٥]؛ ولهذا قال لرسوله: {قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [(٢٧) سورة الرعد] أي: هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(١٠١) سورة يونس]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس]، وقال: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [(١١١) سورة الأنعام]؛ ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [(٢٧) سورة الرعد] أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} أي: هو حقيق بذلك.

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٩) سورة الرعد] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: فرحٌ وقرةُ عين، وقال عكرمة: نِعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقال في رواية: طوبى لهم: حسنى لهم، {وَحُسْنُ مَآبٍ}، أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها.

وروى البخاري ومسلم جميعاً عن سهل بن سعد - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها))، قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - عن النبي

---

[٥] - رواه أحمد (٤ / ٦٠)، برقم (٢١٦٦).

- صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمرَ السريع مائة عام ما يقطعها))[٦].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الله - عز وجل -: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر))[٧]، الحديث بطوله.

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبي حاتم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآيات هو في غاية الوضوح في المعنى، ولا يحتاج إلى مزيد إيضاح ومناقشة.

قوله - تبارك وتعالى -: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٩) سورة الرعد]، أقوال أهل العلم في تفسير {طُوبَى} أنها: خير لهم، أو نِعم ما لهم، أو غبطة لهم وفرح وقرة عين، أو أنها الحالة المستطابة، أو أنها الجنة، كل هذه المعاني بمعنى واحد.

وفسر بعض أهل العلم {طُوبَى} بأنها شجرة في الجنة، واستدلوا بحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - : عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها))[٨]، وهذا القول أخص من القول بأن {طُوبَى} هي الجنة.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى- في تفسير قول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: الصدق طمأنينة والكذب ريبة، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((البر ما اطمأن إليه القلب))[٩] أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه، وفي ذكر الله هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه، فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت، ويروى هذا عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -.

---

[٦] - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار (٥ / ٢٣٩٨)، برقم (٦١٨٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤ / ٢١٧٦)، برقم (٢٨٢٧)، واللفظ للبخاري.

[٧] - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧).

[٨] - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣ / ١١٨٧)، برقم (٣٠٧٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤ / ٢١٧٥)، برقم (٢٨٢٦).

[٩] - رواه أحمد (٢٩ / ٥٢٧)، برقم (١٨٠٠١).

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن، والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [(٣٦) سورة الزخرف]، والصحيح: أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - من أعرض عنه قيض له شيطانا يضله ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى، وكذلك القولان أيضا في قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [(١٢٤) سورة طـه]، والصحيح: أنه ذكره الذي أنزله على رسوله -وهو كتابه-؛ ولهذا يقول المعرض عنه: {رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [(١٢٥-١٢٦) سورة طـه]، وأما تأويل من تأوله على الحلف، ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب والبر والفاجر، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف، وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب[١٠]. انتهى.

قوله – تبارك وتعالى -: {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] أي: بذكر العبد لربه يطمئن قلبه ويستريح ويسكن، وهذا أمر حاصل لا شك فيه.

وكلمة "ذكر"، مصدر، تأتي للفاعل وتأتي للمفعول، {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ} فبذكر الله {تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}؛ فإذا ذكر العبد ربه اطمأنت نفسه وسكنت، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت))[١١].

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [(٣٠) سورة الرعد].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة {لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [(٣٠) سورة الرعد]، **أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى:** {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ} [(٦٣) سورة النحل] **الآية، وقال تعالى:** {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [(٣٤) سورة الأنعام] أي: **كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.**

---

[١٠] - انظر مدارج السالكين (٢ / ٥١٢).

[١١] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (٥ / ٢٣٥٣)، برقم (٦٠٤٤).

وقوله: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [(٣٠) سورة الرعد] **أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** [(١١٠) سورة الإسراء]**، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن))**[١٢].

قوله - تبارك وتعالى -: **{وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}** [(٣٠) سورة الرعد] يحتمل أن يكون المعنى أنهم يكفرون بهذا الاسم ولا يؤمنون به، وقد كانوا يقولون: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، وقد قال الله – تبارك وتعالى– عنهم: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا*}** [(٦٠) سورة الفرقان]، وهذه الآية تدل على أنهم كانوا ينكرون هذا الاسم إنكار مكابرة.

{قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(٣٠) سورة الرعد] **أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقر له بالربوبية والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.**

قوله: **{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}** [(٣٠) سورة الرعد]، تقديم العامل على المعمول يدل على الحصر، وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن التوكل لا يصلح إلا لله -عز وجل- فلا يقال: أنا متوكل على الله ثم عليك.

---

[١٢] - رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (٦ / ١٦٩)، برقم (٥٧٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف - رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(٣١) سورة الرعد].

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد - صلى الله عليه وسلم - ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: {وَلَوْ أَنّ قُرْآناً سُيّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها, أو تقطع به الأرض وتنشق, أو تكلم به الموتى في قبورها, لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره, أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله, ولا بسورة من مثله, ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به, جاحدون له.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله, أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا}** [(٣١) سورة الرعد], جواب "لو" تقديره: ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، لكن هذا القرآن؛ لعظمته وشدة تأثيره وإعجازه, كما قال الله - عز وجل -: **{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [(٢١) سورة الحشر], ويذكر كثير من علماء التفسير أن المشركين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم – آية وهي أن يزيح عنهم الجبال من أجل الزراعة، وأن يحيي لهم بعض الأجداد والآباء الذين ماتوا على الشرك, ولو صحت هذه الرواية لكان ذلك هو سبب النزول.

قوله: {بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا} [(٣١) سورة الرعد] أي: مرجع الأمور كلها إلى الله - عز وجل - ما شاء الله كان, وما لم يشأ لم يكن, ومن يضلل الله فلا هادي له, ومن يهد الله فما له من مضل, وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((خففت على داود القراءة فكان يأمر بدابته أن تسرج, فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته, وكان لا يأكل إلا من عمل يديه))[1]، انفرد بإخراجه البخاري. والمراد بالقرآن هو الزبور.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (٣ / ١٢٥٦)، برقم (٣٢٣٥)، وأحمد (١٣ / ٤٩٧)، برقم (٨١٦٠).

القرآن هنا هو الزبور, باعتبار أن القرآن مشتق من القراءة, وهذا هو القول الراجح, وأصل مادة "قرأ" مأخوذة من الضم والجمع, قيل ذلك لاجتماع الحروف والكلمات, والآيات والسور، وقال بعضهم: لأن الله جمع فيه القصص وأخبار الأمم, والأحكام, والعقائد, وخلاصة الكتب السابقة.

وقوله: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(٣١) سورة الرعد] أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا, أو يتبينوا {أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً}, فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن, الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر, وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي, فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[٢], معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته, وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء, هو الفصل ليس بالهزل, من تركه من جبار قصمه الله, ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

قوله: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [(٣١) سورة الرعد], قول ابن كثير – رحمه الله -: "**من إيمان جميع الخلق ويعلموا, أو يتبينوا** " جمعاً منه – رحمه الله – بين قول من قال: أن اليأس هنا بمعنى التبين، وبين قول من قال: أن اليأس هو انقطاع الأمل، والراجح – والله تبارك وتعالى أعلم – أن ييأس بمعنى يتبين، وهذا هو اختيار ابن جرير - رحمه الله – ومنه قول مالك بن عوف قائد المشركين في حنين:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني*** ألم تيأسوا أني ابن فارس زهداً

يعني: ألم تتبينوا وتعلموا؟ وقرأ ابن عباس – رضي الله عنهما – {أفلم يتبين الذين آمنوا} وهذه قراءة آحادية ولكنها تفسر القراءة المتواترة.

وقوله: {بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً} قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: أي: لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً.

هذه الرواية لا تصح ولو كانت هذه صحيحة لكان سياق الآيات يتمشى معها تماماً.

وقوله: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ} [(٣١) سورة الرعد] أي: بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم؛ ليتعظوا ويعتبروا, كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٢٧) سورة الأحقاف]، وقال: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(٤٤) سورة الأنبياء]. قال قتادة عن الحسن: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ} أي: القارعة وهذا هو الظاهر من السياق.

قوله – تبارك وتعالى -: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ}، أي: القارعة؛ لأن الأصل أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور خلافاً لابن جرير - رحمه الله – فقد قال أن الضمير في قوله: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ} يرجع إلى

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت بجوامع الكلم) (٦ / ٢٦٥٤)، برقم (٦٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس (١ / ١٣٤)، برقم (١٥٢).

النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: أي: تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم، يعني: أن سرايا النبي - صلى الله عليه وسلم - وجيوشه تكون قريباً منهم.

وقال العوفي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - {تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ} قال: عذاب من السماء ينزل عليهم, {أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ} يعني: نزول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهم وقتاله إياهم, وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - {قَارِعَةٌ} أي: نكبة. وكلهم قال: {حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ} يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

رواية العوفي عن ابن عباس لا تصح, ومعنى قول الله – تبارك وتعالى - : {تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ} أي: مصيبة, أياً كانت هذه المصيبة, سواءً كان ذلك بآفة سماوية تقع بهم أو غيرها.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [(٤٧) سورة إبراهيم].

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [(٣٢) سورة الرعد] **يقول تعالى مسلياً لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في تكذيب من كذبه من قومه: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ}** [(٣٢) سورة الرعد] **أي: فلك فيهم أسوة, {فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: أنظرتهم وأجلتهم, {ثُمّ أَخَذْتُهُمْ} أخذة رابية, فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم, كما قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}** [(٤٨) سورة الحــج] **وفي الصحيحين ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))**[٣] **ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [(١٠٢) سورة هود].

{أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [(٣٣) سورة الرعد].

يقول تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر, ولا يخفى عليه خافية, {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [(٦١) سورة يونس], **وقال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا}** [(٥٩) سورة الأنعام], **وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [(٦) سورة هود]، **وقال: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}** [(١٠) سورة الرعد], **وقال: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}** [(٧) سورة طــه], **وقال: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [(٤) سورة الحديد], **أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها, لا تسمع ولا تبصر, ولا تعقل, ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها, ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ} أي: عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان, {قُلْ سَمُّوهُمْ} أي: أعلمونا بهم, واكشفوا عنهم حتى يعرفوا, فإنهم لا حقيقة لهم.**

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة هود (٤ / ١٧٢٦)، برقم (٤٤٠٩).

ولهذا قال: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

"أم" هي منقطعة, بمعنى "بل" والهمزة, المعنى: بل أتنبئونه بما لا يعلم في الأرض, وخص بعض أهل العلم الأرض؛ لأن المشركين ادعوا لله شركاء في الأرض.

قوله: {أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} **قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول, أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة.**

قوله: {أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} أي: بظن من القول وباطل من القول, وقال بعضهم: {أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} أي: بحجة وبرهان من القول ظاهرة, وقال ابن جرير - رحمه الله -: أي: بظاهر من القول مسموع.

قوله: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} [(٢٣) سورة النجم], **{بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ}** [(٣٣) سورة الرعد] **قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار, كقوله تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم}** [(٢٥) سورة فصلت], **{وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ}** [(٣٣) سورة الرعد] **من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما هم فيه, وأنه حق دعوا إليه, وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل, ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه, صدوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: {وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}** [(٣٣) سورة الرعد], **كما قال: {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا}** [(٤١) سورة المائدة], **وقال: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}** [(٣٧) سورة النحل].

قوله: {وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ} [(٣٣) سورة الرعد] قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالضم، وقرأ الجمهور بالفتح، وعلى قراءة الضم يكون المعنى: صدهم الله - عز وجل – عن السبيل وأضلهم وهذا اختيار ابن جرير – رحمه الله – وقال بعضهم: أي: صدهم الشيطان وأضلهم.

والمعنى على قراءة الفتح: أنه لما زين لهم ما فهم فيه وأنه حق دعوا إليه, وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل.

وكلمة "صدَّ" تأتي متعدية وتأتي لازمة، وإذا فسرت بأنها لازمة، فيكون المعنى: أنهم زين لهم عملهم السيء فكفروا وانحرفوا، وصدوا أنفسهم، وإذا فسرت بأنها متعدية فيكون المعنى: أي صدوا غيرهم عن سبيل الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف - رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [(٣٤-٣٥) سورة الرعد].

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: {لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، {وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ} أي: المدخَر مع هذا الخزي في الدنيا، {أَشَقّ} أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمتلاعنين: ((إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة))[1]. وهو كما قال - صلوات الله وسلامه عليه- فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [(٢٥-٢٦) سورة الفجر]، **وقال تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيرًا}** [(١١-١٥) سورة الفرقان]؛ **ولهذا قرن هذا بقوله: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}** [(٣٥) سورة الرعد] **أي: صفتها ونعتها، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** [(٣٥) سورة الرعد]، **أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [(١٥) سورة محمد] الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [(٣٥) سورة الرعد] أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها، وأصل المثل في كلام العرب يطلق على الشبه وما في معناه، أي: صورة الشيء وصفته، والمقصود به هنا النعت والصفة، أي صفة الجنة التي وُعد المتقون.

وقوله: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت

---

[1] - رواه مسلم، كتاب اللعان، (٢ / ١١٣٠)، برقم (١٤٩٣).

شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: ((إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بَقِيَتْ الدنيا))[٢].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم جشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس))[٣] رواه مسلم، وروى الإمام أحمد والنسائي عن ثمامة بن عقبة، سمعت زيد بن أرقم - رضي الله تعالى عنه - قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: ((نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة))، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: ((تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه))[٤]. رواه الإمام أحمد والنسائي.

هذا الحديث صحيح، وهو من كمال النعيم، فأين أهل الدنيا عن هذا النعيم؟ معلوم من قديم الزمن أن كثرة الأكل من المحامد؛ ولذلك يأكلون ما يفتح الشهية، أما في الجنة فيؤتى الرجل الواحد من أهل الجنة قوة مائة رجل.

وقد قال الله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [(٣٢-٣٣) سورة الواقعة]، وقال: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [(١٤) سورة الإنسان]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [(٥٧) سورة النساء].

يذكر الظل في القرآن على أنه من نعيم الجنة، وكذلك الطلح، والمشهور من أقوال المفسرين أنه من شجر العضاه، وهو معروف في بلاد العرب، وأنه ليس الموز.

والله سبحانه وتعالى يذكر للعرب ما يلامس مشاعرهم، فيذكر الظل الممدود والطلح والنخيل والأعناب، ولم يذكر الله - تبارك وتعالى – البرتقال والتفاح وأنواع الفواكه غير الموجودة في بلاد العرب؛ لأنها ليست في بلادهم، وقد ذكر الله – تبارك وتعالى – في القرآن السماء والأرض والجمل والإبل، ولم يذكر لهم الفيل والزرافة؛ لأنها ليست في بلادهم.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار؛ ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [(٣٥) سورة الرعد]، كما قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [(٢٠) سورة الحشر].

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب رفع البصر إلى الإمام (١ / ٢٦١)، برقم (٧١٥)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أمر الجنة والنار (٣ / ٣٣)، برقم: (٢١٤٧).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، (٤ / ٢١٨٠)، برقم (٢٨٣٥).

[٤] - رواه أحمد (٣٢ / ١٨)، برقم (١٩٢٦٩)، والنسائي، كتاب التفسير، سورة الشورى (٦ / ٤٥٤)، برقم (١١٤٧٨).

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ} [(٣٦-٣٧) سورة الرعد].

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} وهم قائمون بمقتضاه، {يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] **الآية، وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ}** [(١٠٧) سورة الإسراء] **إلى قوله: {إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً}** [(١٠٨) سورة الإسراء] **أي: إنْ كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- لَحَقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده.**

قوله – تبارك وتعالى –: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: قائمون بمقتضاه؛ لأنه ليس كل الذين أوتوا الكتاب يفرحون بما أوتيه النبي - صلى الله عليه وسلم - بل كثير من هؤلاء كذب به ورده كما هو معلوم، وهذا قول الحافظ ابن كثير – رحمه الله - .

وقال الحافظ ابن جرير – رحمه الله -: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، أي: من أسلم منهم كعبد الله بن سلام والنجاشي، وقول الحافظ ابن كثير ليس ببعيد منه، وإن كان أوسع قليلاً.

وقال بعض أهل العلم: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} هم المسلمون، فمن دخلوا في الإسلام يفرحون بما ينزله الله عليك من القرآن، ويتلقونه بالقبول، ويعملون به، لكن هذا فيه بعد، وإذا أطلق أهل الكتاب فالأصل أنه يتوجه إلى أهل الكتب قبلنا، اليهود والنصارى.

{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا*} [(١٠٩) سورة الإسراء]**، وقوله: {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ}** [(٣٦) سورة الرعد] **أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ} أي: اليهود والنصارى، {مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.**

قوله: {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} أي: ومن اليهود والنصارى من ينكر بعضه، وهذه الآية تخصيص لقوله – تبارك وتعالى -: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، وقال بعض أهل العلم: {وَمِنَ الأَحْزَابِ} يعني من المشركين، ويكون المعنى: الذين آتاهم الله الكتاب، لعِلْمهم بالكتاب يفرحون بما أنزل إليك، ومن أهل الإشراك من ينكرون ما تأتيهم به من الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا وجه لتخصيصه بأهل الإشراك.

وهذا كما قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ} [(١٩٩) سورة آل عمران].

{قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ} [(٣٦) سورة الرعد] **أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، {إِلَيْهِ أَدْعُو} أي: إلى سبيله أدعو الناس، {وَإِلَيْهِ مَآبِ} أي: مرجعي ومصيري.**

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [(٣٧) سورة الرعد] **أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا**

الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت].

وقوله: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم} [(٣٧) سورة الرعد]، أي: آراءهم، {بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي: من الله سبحانه، {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ}، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [(٣٨-٣٩) سورة الرعد].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [(١١٠) سورة الكهف]، وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[٥].

وقوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [(٣٨) سورة الرعد] أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله - عز وجل - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [(٧٠) سورة الحج].

قوله: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}، قال ابن جرير – رحمه الله -: لكل أجل أمر قضاه، كتاب عنده قد كتبه، فالله - تبارك وتعالى- قد كتب مقادير الخلق في كتاب عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم -: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء))[٦].

(مسألة)

تمثيل الجنة بصورة بساتين وأشجار وأنهار داخل الحاسوب فيه هضم وغمط الجنة حقها ومنزلتها، فمهما صور من نعيم الدنيا فإن ذلك لا يقارب ما في الجنة إطلاقاً، كما جاءنا عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما– أنه قال: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء[٧]، وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))[٨] ، وعن البراء - رضي الله عنه - قال: أهدي للنبي - صلى الله عليه وسلم - ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، فقال

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥ / ١٩٤٩)، برقم (٤٧٧٦) ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مُؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (٢ / ١٠٢٠)، برقم (١٤٠١).

[٦] - رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام- (٤ / ٢٠٤٤)، برقم (٢٦٥٣)

[٧] - الترغيب والترهيب (٤ / ٣١٦).

[٨] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣ / ١١٨٧)، برقم (٣٠٧٨).

النبي - صلى الله عليه وسلم - ((أتعجبون من هذا ؟)) . قلنا: نعم، قال: ((مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا))[٩].

[٩] - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من مس الحرير من غير لبس (٥ / ٢١٩٥)، برقم (٥٤٩٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل سعد بن معاذ -رضي الله عنه- (٤ / ١٩١٦)، برقم (٢٤٦٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد من الآية ٣٩ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء} [سورة الرعد:٣٩] منها {وَيُثْبِتُ} يعني: حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله -صلوات الله وسلامه عليه.

وقال مجاهد: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ} إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} الآيتين، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يُغير.

وقال الأعمش عن أبي وائل شَقِيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، رواه ابن جرير، وروي نحواً من هذا عن عمر بن الخطاب وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما.

ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القَدرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر))[1]. ورواه النسائي وابن ماجه.

وثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر[2]، وفي الحديث الآخر: ((إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض))[3].

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٣٨٦)، وقال محققوه: "حسن لغيره دون قوله: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه"، وهذا إسناد ضعيف، عبد الله بن أبي الجعد أخو سالم لم يروِ عنه غير اثنين، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وقد عدَّه الحافظ ابن حجر من الطبقة الرابعة، وهي طبقة صغار التابعين الذين جُلُّ روايتهم عن كبارهم، ثم إنه كوفي، وثوبان شامي، فيغلب على الظن أنه لم يسمع منه، سفيان: هو الثوري، وعبد الله بن عيسى: هو ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٨٧٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة دون زيادة: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه"، برقم (١٥٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، برقم (٢٠٦٧)، وبرقم (٥٩٨٥)، في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.

٣ - رواه الترمذي، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، برقم (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٦٨٧).

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، وهو الذي يثبت.

وروي عن سعيد بن جُبَير: أنها بمعنى: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة البقرة:٢٨٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ}**، من أهل العلم من فسر المحو والإثبات بالنسخ الذي يقع في الكتب التي أنزلها الله -تبارك وتعالى-، فهي منسوخة بالقرآن، والقرآن مهيمن عليها، كما أن الله -تبارك وتعالى- ينسخ ما شاء من القرآن، كما قال الله -جل وعز-: **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [سورة البقرة:١٠٦]، وقال: **{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}** [سورة النحل:١٠١]، والأشهر أن المحو والإثبات في المقادير، وإن اختلف أصحاب هذا القول، ما الذي يحصل به المحو والإثبات؟، هنا نقل عن مجاهد، قال: **إلا الحياة والموت**، يعني: أن المحو يحصل في المقادير إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، إلا هذه الأشياء لا تتغير، هكذا قال بعض السلف، ومنهم من أطلقه، ولهذا أورد بعض الأدعية في طلب تغيير ما كتب من الشقاء إن كان قد كتب وتحويل ذلك إلى السعادة، فهذا باعتبار أن المحو يكون حتى في ديوان الشقاء، أو فيما يتعلق بالشقاء والسعادة، وهكذا الحياة والموت، كما أورد الأحاديث التي تدل على أنه يزاد في العمر، سواءً ما ذكره هنا أو مما لم يذكره، ((من سره أن ينسأ له في أثره...))[4] إلى آخره، فهذا في العمر، وهكذا الحديث العام: ((إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض...)).

وبعض أهل العلم يقول: إن المحو والإثبات -يعني ممن قال: إن ذلك يتعلق بالمقادير- هو محو من حان أجله، وإثبات من لم يحن أجله، وهذا هو اختيار ابن جرير، **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ}**، والتقدير: منه ما هو أزلي، قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، ((أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة))[5]، فهذا هو التقدير الأزلي، وهناك تقدير يقال له: التقدير العمري، فالجنين إذا بلغ أربعة أشهر، بعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، وهناك تقدير يقال له: التقدير الحولي **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [سورة الدخان:٤]، مما يكون خلال السنة، وكذلك الكتابة، يعني: القدر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله -عز وجل- الأزلي، وبكتابته أن الله كتب ذلك، بالإضافة إلى المشيئة، فالكتابة في اللوح المحفوظ، وهناك مكتوب في صحف في أيدي الملائكة، وهذه النصوص المنقولة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مما ذكره

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، برقم (٥٩٨٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٧).

٥ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠١٨).

ومما لم يذكره لا تتناقض، والأقرب -والله تعالى أعلم- من أقوال أهل العلم في هذه المسألة هو أن يقال: إن ما كتبه الله -عز وجل- في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير، ويمكن أن يقال: ما كان في علم الله فإنه لا يتبدل ولا يتغير، ولا يمكن أن يحصل له التغير؛ لأنه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، هذا لا يحصل به التبديل، والله لا يستجد له علم في شيء لم يكن يعلمه، فالذي في علم الله، الذي في اللوح المحفوظ لا يتغير، وإنما يتغير الذي كان في صحف الملائكة، فيكون هذا الإنسان قد كُتب في اللوح المحفوظ أنه يعيش سبعين سنة، وفي الصحف التي في أيدي الملائكة أنه يعيش ستين سنة، ويكون في علم الله الأزلي أن هذا الرجل سيصل الرحم وأنه سيزاد له في العمر عشر سنوات، فيُمحى الذي في صحف الملائكة ويزاد له في العمر، وهكذا يكون الرجل في علم الله الأزلي أنه يحصل له الأمر المعين، ويقدر الله -تبارك وتعالى- لهذا الإنسان أن يرفع يديه وأن يدعو، فيكون ذلك سبباً لحصول هذا المطلوب فيحصل المحو والإثبات في الصحف التي بأيدي الملائكة، لا يرد القضاء إلا الدعاء، يكون في علم الله الأزلي أن هذا الإنسان يبرأ من هذا المرض، في صحف الملائكة يحصل التبديل والتغيير، أن هذا الإنسان مثلاً قد يموت، والله في علمه الأزلي قد علم وكتب في اللوح المحفوظ أن هذا الإنسان يرفع يديه ويدعو فينجيه الله -عز وجل-، فما كان في علم الله لا يتغير، وعلمه محيط بكل شيء، هذا هو الأقرب -والله أعلم- في المحو والإثبات، أن الذي يمحى ما كان في صحف الملائكة، والذي في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل، وهذا من أشهر الأقوال في الآية، وقيل فيها غير هذا، يعني بعضهم يقول كما جاء عن بعض السلف: إن المحو والإثبات لا يتعلق بالقدر، وإنما يتعلق بالأعمال، فالملك يكتب كل شيء، وهذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم، هل يكتب الملك كل ما ينطق الإنسان به، {مَا يَلْفِظُ} كما هو ظاهر الآية: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨]، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه يكتب أكلت وشربت وقمت وقعدت، كل شيء، كل ما ينطق به الإنسان، ثم بعد ذلك يُمحى ما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، ويبقى ما يتعلق به الثواب والعقاب، وبعضهم يقول: الذي يمحى هو متعلق بالأعمال وليس بالقدر، فيمحو الله -عز وجل- من السيئات والذنوب ما شاء، فلا يعاقبه على بعض أعماله، ويثبت عليه ما شاء أن يثبته، لكن قوله: {وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} هنا قد يكون قرينة تقوي ما ذكر من أن ذلك يتعلق بالقدر، والله أعلم.

وقوله هنا: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ}، هذه قراءة ثلاثة من السبعة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم، وقرأ الباقون بالتشديد {ويُثبِّت}.

{وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة الرعد:٤٠-٤١].

يقول تعالى لرسوله: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ} يا محمد {بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} أي: قبل ذلك، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به، {وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} أي: حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [سورة الغاشية:٢١-٢٦].

هنا هذه الآيات تتعلق بقدر الله -تبارك وتعالى-، يعني من قوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}، ثم قال: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، ثم قال: {وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب}، فكل هذا يتعلق بقدر الله -عز وجل-، فالآية قد يختلف العلماء فيها على أقوال، ويكون فيها قرينة أو قرائن تقوي أحد هذه الأقوال، فيكون ذلك مرجحاً لهذا القول؛ ولهذا ذكرنا أن الأقرب أنها تتعلق بالقدر، وأن ذلك ليس مما يتصل بموضوع النسخ، نسخ القرآن، أو ما يتعلق بالثواب والعقاب، والله أعلم.

وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أولم يروا أنا نفتح لمحمد -صلى الله عليه وسلم- الأرض بعد الأرض؟.

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، كقوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى} [سورة الأحقاف:٢٧] الآية.

هنا في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}، هنا فسرها عن ابن عباس بالفتح لمحمد -صلى الله عليه وسلم- الأرض بعد الأرض، وهو موافق لما نقله عن الحسن بظهور المسلمين، وهذا هو الأشهر والأحسن في تفسيرها، أن الله -عز وجل- يقول لهؤلاء المشركين: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أي: أن الله -تبارك وتعالى- يظهر المسلمين على المشركين، فيأخذون أرضاً بعد أرض، وهؤلاء الذين يكذبونه -صلى الله عليه وسلم- ويحاربونه غاية المحاربة لا يعتبرون بذلك، من كفار أهل مكة، {أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} بالفتوح التي تحصل للمسلمين والغلبة والنصر، هذا هو الأقرب في تفسيرها، ومن أهل العلم من فسرها بغير هذا، ومنهم من قال: إن نقصها من أطرافها بموت العلماء، وبعضهم يقول: بما يحصل حولهم وما يرونه ويشاهدونه من نقص الثمرات وخراب البلاد، وما ينزل من الآفات وما يحصل من الموت للنفوس فيموت أهلها، وبعضهم يقول: {أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} بالعقوبات المستأصلة، ما يوقع الله -عز وجل- من يوقع بهم بأسه ونقمته وعذابه، إلى غير ذلك من الأقاويل، والأقرب ما نقل هنا وهو الذي اختاره ابن جرير: أن ذلك يكون بظهور المسلمين، ثم قال: {وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ}، المعقب: هو الذي يتبع الشيء فيستدركه ولا يُستدرك عليه، هذا هو المعقب، ويكون المعنى {وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} يمكن أن يقال: أي لا راد لحكمه، إذا حكم بشيء فإنه ينفذ ويكون ولا يمكن لأحد بحال من الأحوال ولو اجتمع أهل الأرض أن يغيروا شيئاً من حكمه أو يردوا قضاءه، فإنهم أعجز من أن يفعلوا ذلك بقليل ولا كثير، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، {يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} أي: لا راد لقضائه.

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد:٤٢].

يقول تعالى: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

{الْمَاكِرِينَ}، وقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} الآيتين.

وقوله: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله.

{وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ} والقراءة الأخرى: (الكُفَّارُ) {لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [سورة الرعد:٤٣].

يقول تعالى: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: {لَسْتَ مُرْسَلاً} أي: ما أرسلك الله، {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: حسبي الله، هو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: هم من اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الداري -رضي الله تعالى عنهم.

والصحيح في هذا: أن {وَمَنْ عِنْدَهُ} اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [سورة الأعراف:١٥٦-١٥٧] الآية، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:١٩٧] الآية، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

هذا القول الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الظاهر المتبادر من الآية، {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، فذلك يصدق على كل من كان من أهل العلم بالكتاب الأول، ولا يختص ذلك بعبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، وكان ذلك قبل إسلامه، وهذا الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- هو الذي قرره ابن جرير ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، أن ذلك لا يختص بعبد الله بن سلام بل من تحقق بهذه الصفة {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}.

آخر تفسير سورة الرعد، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة إبراهيم -عليه السلام- وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} [(١-٣) سورة إبراهيم].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، {لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ} أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [(٢٥٧) سورة البقرة] **الآية. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** [(٩) سورة الحديد] **الآية.**

وقوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم، {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ} أي: العزيز الذين لا يمانَع ولا يغالَب، بل هو القاهر لكل ما سواه، {الْحَمِيدِ} أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره. وقوله: {اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(٢) سورة إبراهيم] **قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(١٥٨) سورة الأعراف] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [(١) سورة إبراهيم] ما يحصل على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- من هداية الإرشاد إنما يكون ذلك واقعاً بإذن الله -تبارك وتعالى- فالله هو الذي أمره بذلك، وما يحصل للقلوب من الهداية والتوفيق فإن ذلك لا يكون إلا بإذن الله -تبارك وتعالى- فلا يهتدي أحد إلا أن يكون الله -تبارك وتعالى- قد كتب له الهدى؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(٥٦) سورة القصص]، فلا يحصل من النبي -صلى الله عليه وسلم- هداية التوفيق، وإنما الذي يحصل منه هو هداية الإرشاد، قال -تبارك وتعالى- {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى].

قوله -تبارك وتعالى-: {اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [(٢) سورة إبراهيم]، قرأ الجمهور{اللّهِ} بالجر، ويعرب لفظ الجلالة هنا عطف بيان لما قبله.

وقرأ نافع وابن عامر بالرفع {اللّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}، ويمكن أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ولا إشكال على القراءتين، إلا أن البعض قد يتساءل، ويقول: إن لفظ الجلالة يأتي أولاً وتأتي باقي الأسماء معطوفة عليه أو بعده من غير عطف، فالله هو العزيز الجبار الرحمن الرحيم المتكبر، ولا تقول: المتكبر الرحمن الرحيم الله العزيز الحكيم؛ وذلك أنه أعرف المعارف، كما قال سيبويه -رحمه الله- وقد قيل: إنه رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، أو قال: أدخلني الجنة بقولي: إن اسمه "الله" أعرف المعارف.

وجواب ذلك: أنه لا بأس أن يأتي لفظ الجلالة بعد الأسماء إذا لوحظ المعنى فيُذكر اسم قبله على سبيل العلمية مع تضمنه للصفة، ثم يُذكر بعد ذلك ما بعده من الأسماء، ومنها لفظ الجلالة "الله".

وقوله: {وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم {يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة} أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم، {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وهي اتباع الرسل، {وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً} أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم -والحالة هذه- صلاح.

قوله: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي عن اتباع الرسل، يصدون عن اتباعهم، والفعل "صدَّ" يأتي لازماً ويأتي متعدياً، ويمكن أن يحمل على المعنيين هنا، فهم يصدون أنفسهم عن اتباع الرسل، ويصدون غيرهم.

قال: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً} أي: يحبون ويريدون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة على أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [(٩) سورة القلم]، {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً} [(٧٣) سورة الإسراء].

قوله – تبارك وتعالى -: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [(٤) سورة إبراهيم].

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، وقوله: {فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} [(٤) سورة إبراهيم] **أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {الْحَكِيمُ} في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه**

خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[1]. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف].

قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} هذه الآية تتحدث عن الأنبياء السابقين، فكل نبي بعث بلغة قومه، وليست هذه الآية تتحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه قد بعث إلى الناس عامة على مختلف لغاتهم.

ومن أهل العلم من يقول: {إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} والنبي -صلى الله عليه وسلم- من العرب، وجاء إليهم وامتن الله -عز وجل- عليهم بهذا: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة]، فكانت أول دعوته -عليه الصلاة والسلام- في العرب .

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [(٥) سورة إبراهيم].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات، {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ} أي: أمرناه قائلين له: {أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ} أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، {وَذَكّرْهُمْ بِأَيّامِ اللّهِ} أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ} أيام الله هي الأيادي، وفسرها بعض أهل العلم بالنقم، وهذا هو اختيار ابن كثير وابن جرير، وقد قال به جماعة من السلف.

ومن أهل العلم من عمم الآية لتشمل النوعين، فنعمه -تبارك وتعالى- ونقمه هي في أيام الله، والأيام ظرف فعبر بها عن النعم والنقم، كما يقول الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [(٤٨) سورة البقرة] واليوم لا يُتقَى، والمقصود اتقوا أهوال يوم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وقد فسرت أيام الله بنعمه وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي، فالأول: تفسير ابن عباس وأبي بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، والثاني: تفسير مقاتل، والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياماً؛ لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١١١) سورة يوسف] ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التيمم (١ / ١٢٨)، برقم (٣٢٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١ / ٣٧٠)، برقم (٥٢١).

العبرة معه ألبتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فَأَرَتْه نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنّى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة[٢].

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة {لِّكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الضراء {شَكُور} أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له))[٣].

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٦-٨) سورة إبراهيم].

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: {وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل {بَلاءٌ} أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(١٦٨) سورة الأعراف].

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}** [(٦) سورة إبراهيم]، معنى **{مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}**، أي: من فرعون، ويمكن أن يكون المعنى، أي: من فرعون وملئه.

وقوله **{يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}** أصل السوم هو الذهاب في طلب الشيء، ومنه السائمة تذهب في طلب الكلأ والعشب، المعنى أي: يبغونكم، ثم فسر هذا العذاب، فقال: **{وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}**، والواو في قوله: **{وَيُذَبِّحُونَ}** ليست مقتضية للمغايرة، وإنما ذكر ذلك من جملة العذاب الواقع بهم، وهذا وجه حسن وتفسره آية البقرة، قال –تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}** [(٤٩) سورة البقرة].

وتذبيح الأولاد واضح أنه عذاب، وقوله: **{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}**، أي: يتركونهن أحياء، وذكر استحياء البنات من جملة العذاب الذي قرنه الله -عز وجل– بتذبيح الأولاد؛ لكونه أشد من التذبيح، فالبنت ضعيفة وعورة، وكان العرب في الجاهلية يدفنون بناتهم خوفاً من العار.

---

[٢] - مدارج السالكين (١ / ٤٤٩).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٤ / ٢٢٩٥)، برقم (٢٩٩٩) بلفظ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له).

قوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [(٦) سورة إبراهيم]، أي: إنعام وإفضال من الله -تبارك وتعالى- بإنجائكم وتخليصكم من فرعون وقومه، وقيل: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء} يعني ما كان يفعله فرعون بكم نقمة وأمر شديد، وصعب على النفوس، مؤلم لها غاية الإيلام، وقال ابن كثير - رحمه الله – "**ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى:** {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}"، وسبقه الحافظ ابن جرير الطبري –رحمه الله– وقال بهذا القول.

وقوله: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} [(٧) سورة إبراهيم] **أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى:** {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} **[(١٦٧) سورة الأعراف].**

قوله: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} ، تأذن يمكن أن تفسر بأعلم، والمعنى أي: أعلمتكم، ومنه قول الشاعر:

آذنتْنا ببيْنِها أسماءُ***رُبَّ ثَاوٍ يُملُّ منه الثَّوَاءُ

وقوله: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} **أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها،** {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ} **أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها** {إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} **وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث:** **((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))**[٤].

وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} **[(٨) سورة إبراهيم] أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كقوله:** {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} **الآية. وقوله:** {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٦) سورة التغابن]. **وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -عز وجل- أنه قال:** **((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر))**[٥]**. فسبحانه وتعالى الغني الحميد.**

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} **[(٩) سورة إبراهيم]. خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة.**

قوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ} [(٩) سورة إبراهيم]، يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام موسى -صلى الله عليه وسلم– فيذكرهم بنعم الله -عز وجل– ويذكرهم بما حل من النقم في الأمم السابقة.

ويحتمل أن يكون خبراً مستأنفاً من الله –تبارك وتعالى- موجهاً إلى هذه الأمة، بعدما قص خبر بني إسرائيل، ذكر ما تحصل به العظة، وهذا أحد المواضع التي يكون فيها الكلام محتملاً لكونه من كلام الله -عز وجل-

---

[٤] - رواه أحمد (٣٧ / ٦٨)، (٢٢٣٨٦).

[٥] - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧).

أو أنه من تمام كلام قبله لقائل آخر، وذكرنا أمثلة في بعض المناسبات، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] هذا من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ثم قال –تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام]، وهذا يحتمل أن يكون من كلام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، من تمام كلامه، ويحتمل أن يكون من كلام الله على سبيل الفصل بين الفريقين.

فالله تعالى قد قصَّ علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله -عز وجل- {جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقال ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- أنه قال في قوله: {لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ} كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان.

هذه الرواية جاءت عن طريق ابن إسحاق ولو صحت عن ابن مسعود لكان المعنى ما فسره عروة بن الزبير بقوله: "**ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان**" يعني أن ما بين معد بن عدنان إلى إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- لا يُعرف، والذين يزعمون من الناسبين أنهم يعرفون سلسة النسب ليس لقولهم مستند.

قوله: {لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ} أي: أن هذه الأمم لا تعرف بذاتها ولا بأسمائها، ولا بأوصافها، ولا بأحوالها وأعمالها، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ} أي: لا يعلم أحوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وأوصافهم إلا الله –تبارك وتعالى-.

وقوله: {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [(٩) سورة إبراهيم] **قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمرهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله -عز وجل-.**

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل، وقيل: معناه عضوا عليها غيظاً، وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم.

قلت: ويؤيد قولَ مجاهد تفسيرُ ذلك بتمام الكلام: {وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [(٩) سورة إبراهيم].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: {إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ} [(٩) سورة إبراهيم]**الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.**

قوله: {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} اختلف العلماء في عود الضمير في قوله: {أَيْدِيَهُمْ} والذي عليه عامة علماء التفسير أن الضمير يرجع إلى المكذبين، ويكون المعنى ردوا أيدي أنفسهم في أفواههم.

وقيل: إنهم ردوا أيدي الرسل في أفواههم، وهذا فيه بعد.

واختلف العلماء في عود الضمير في قوله: {أَفْوَاهِهِمْ} فقيل: الضمير يرجع إلى أفواه الرسل، وقيل: يعود الضمير إلى أفواه المكذبين، أي فردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، فإذا قيل: إن المقصود بالأفواه هي أفواه

الرسل، فيكون المعنى أنهم يسكتونهم بوضع أيديهم على أفواههم، وإذا قلنا: إن الضمير يرجع إليهم، فيكون المعنى أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم وفعلوا ذلك على سبيل التعجب والاستغراب كما يفعله المتعجب حينما يغطي فمه لدهشته أو شدة تعجبه، وقال بعض أهل العلم: إن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم؛ لأنهم سخروا وضحكوا من الرسل –عليهم الصلاة والسلام-.

والذي عليه جماعة من المحققين أنهم ردوا أيديهم في أفواههم من الحنق والغيظ، ومنه قوله –تبارك وتعالى-: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران]، أي: من شدة الحنق عليهم، وهذا اختيار ابن جرير ومحمد الأمين الشنقيطي، والله أعلم.

(مسألة)

هناك فرق بين بلوغ الحجة، وقيام الحجة، وهذه المسألة فيها تفاصيل كثيرة للعلماء، فلو خاطبت شخصاً بالعربية وهو أعجمي ولا يفهم العربية ودعوتَه إلى الإسلام، ولا يوجد مترجم، فهل نقول: إن الحجة قد قامت عليه؟!

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن كثير من اليهود والنصارى: إنه قامت عندهم صوارف وشبهات وأشياء منعتهم من الدخول في الإسلام، لم يتضح لهم حقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذه المسألة من أقدم المسائل ولا نظر فيها إلا لأهل العلم الراسخين، ولم يكن من منهج السلف -رضي الله عنهم– إطلاق التكفير بدون ضوابط، فكانوا يقولون: القول بخلق القرآن كفر، ولكن الإمام أحمد لم يكفر المعتصم، بل جعله في حلٍ لما فتح عمورية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكّ فَاطِرِ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخّرَكُمْ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى قَالُوَاْ إِنْ أَنتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدّونَا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نّحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَمُنّ عَلَىَ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَالَنَآ أَلاّ نَتَوَكّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنّ عَلَىَ مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُتَوَكّلُونَ}[سورة إبراهيم:١٠-١٢].

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ} أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} أي: في الدار الآخرة، {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً} أي: في الدنيا كما قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} الآية، فقالت لهم الأمم محاجّين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ}، "مِن" من أهل العلم من يقول بأنها صلة، أي: زائدة، فهي زائدة إعراباً، وإلا فالقرآن ليس فيه زائد؛ لأن الزيادة حشو في الكلام ينزه عنه القرآن، فعلى كل حال الذي حملهم على ذلك هو أن من آمن غفرت له جميع الذنوب، ومن أهل العلم –كسيبويه- من يقول بأن "مِن" هذه للتبعيض، وأنه لا مانع من ذكر البعض والمراد الكل، ذكر بعض الذنوب والمقصود جميع الذنوب، ليشمل ذلك ما ذكر وما لم يذكر، {لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ}، وممن قال بأنها للتبعيض، قال: لعل ذلك كان لتلك الأمم قبل الإسلام، وأنه من خصائص أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أن الإسلام يجب ما قبله، وهذا فيه إشكال ولا دليل عليه، وإنما كان مقصود من ذكره هو الخروج من هذا السؤال أو الإشكال، ومن أهل العلم من يقول بأنها ليست للتبعيض وليست زائدة، وإنما هي للبدل، فيكون {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ} أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُؤَخّرَكُمْ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى}، والمقصود بالأجل المسمى هو أجلهم الذي حده الله -تبارك وتعالى- لهم، فيتمتعون في هذه الحياة الدنيا حتى تأتي آجالهم.

وحاصل ما قالوه: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولمّا نرَ منكم معجزة؟، {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي: خارق نقترحه عليكم.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "أي: **خارق نقترحه عليكم**" تقدير لا بد منه؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بالآيات والحجج والمعجزات، فلم يقل أولئك الكفار ذلك لأنهم لم يروا آية، وإنما قصدوا بذلك الآيات التي يقترحونها على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}: أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي: بالرسالة والنبوة، {وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ} على وفق ما سألتم، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أي: في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ} أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} أي: من الكلام السيئ والأفعال السخيفة، {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

{وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنّكُمْ مّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنّ فِي مِلّتِنَا فَأَوْحَىَ إِلَيْهِمْ رَبّهُمْ لَنُهْلِكَنّ الظّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنّكُمُ الأرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلّ جَبّارٍ عَنِيدٍ * مّن وَرَآئِهِ جَهَنّمُ وَيُسْقَىَ مِن مّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [سورة إبراهيم:١٣-١٧].

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له -عليه السلام- ولمن آمن به: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا} الآية. وكما قال قوم لوط -عليه السلام-: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ} الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً}. وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، وكما قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[سورة الصافات:١٧١]، وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[سورة المجادلة:٢١]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ} [سورة الأنبياء:١٠٥] الآية، {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[سورة الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}[سورة الأعراف:١٣٨].

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، بعض أهل العلم يقول: إن "أو" على بابها في التخيير، يعني: إما أن تعودوا في ملتنا أو يكون لكم الإخراج، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى {لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ} إلا أن تعودوا في ملتنا، والعود يأتي لمعنيين: بمعنى الرجوع إلى الحال الأولى التي كان عليها، ومن فسر العود بهذا التفسير قال: لا مانع من أن يكون الرسل -عليهم الصلاة والسلام- على دين قومهم، فهم طالبوهم بالرجوع ثانية إلى دينهم، ومنهم من قال: إن مقصودهم بذلك أتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومن قال بأن الرسل -عليهم صلاة الله وسلامه- لم يكونوا على دين قومهم قال: إن العود معناه الصيرورة، وهو المعنى الآخر للعود، فالعود يأتي بمعنى عاد إلى كذا أي صار، تقول: عاد الماء ثلجاً، وليس بمعنى أنه رجع إلى حالته الأولى، فهو لم يكن ثلجاً، وإنما صار، وتقول أيضاً: عاد الثوب قميصاً، يعني القماش، ولم يكن كذلك من قبل، وعاد الفتى رجلاً، أو كهلاً، أو شيخاً، ولم يكن كذلك من قبل، وهكذا في أمثلة كثيرة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن:٤٦].

الوعد يكون في الخير غالباً، والوعيد في الشر، وقول الحافظ: "**لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة**" الصحيح لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف مقامه بين يدي، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقريب من هذا قول من قال: {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف موقفي، فالله -تبارك وتعالى- يحاسب كل واحد من الناس، فمن خاف لقاء الله –عز وجل- وحسابه فإنه ينتفع بالوعيد والآيات والعظات والتذكير، والله –عز وجل- يقول: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [سورة الأنعام:٣٠]، ومن أهل العلم من قال: {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف قيامي عليه ومراقبتي له، وهذا معنى آخر غير المعنى الأول، المعنى الأول في الآخرة في الحساب، وهذا أعم أي: من خاف مقامي عليه ومراقبتي له في كل حين، ومن ذلك المحاسبة، محاسبتي له في الآخرة.

وقوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة.

قوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} أي الرسل طلبوا النصر، وهذا اختيار ابن جرير، استفتحوا: أي طلبوا من الله أن ينصرهم على أعدائهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال:١٩]، فالفتح يأتي بمعنى النصر، وقيل: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الفتح وهو النصر، {فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}، ويأتي الاستفتاح بمعنى الحكم، والفتح هو الحكم، والحاكم يقال له: فاتح، والحكَم يقال له: فتاحة أيضاً، "فإني عن فتاحتكم غني": أي عن حكمكم، ويقال للحاكم أيضاً: فتّاح، {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الحكم بين الفريقين.

وقوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} يحتمل أن يكون المراد أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- طلبوا النصر، ويحتمل أن يكون ذلك عائداً إلى الفريقين، طلبوا أن يحكم الله بينهم، وأن يظهر صاحب الحق، وقد نقل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن بعض العلماء في الفتح: "أن الكفار والمكذبين وأصحاب الشبهات لربما يكونون في حال من

المكابرة والتكذيب بحيث إنهم يطلبون أن يُظهر الله الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل إظهاراً لشدة وثوقهم بما هم عليه، ويحتمل أن يكون الأمم كما قال: "**استفتحت الأمم على أنفسها**"، يعني: دعوا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[سورة الأنفال:٣٢]**، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}** [سورة **الأنفال:١٩] الآية، والله أعلم.**

{وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} أي: **متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}** [سورة ق:٢٤-٢٦]**، وفي الحديث: ((إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق، فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد))**[1] **الحديث.**

أي: **خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.**

وقوله: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} [**سورة الكهف:٧٩].**

كلمة "وراء" من الأضداد، تأتي بمعنى أمام وبمعنى خلف، وتستعمل للمعنيين **{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ}** أي: من أمامه، يعني فيما يستقبله، النار تنتظره، هو مفضٍ إلى النار، وهذا المعنى هو المتبادر؛ لأن ذلك شيء يستقبله، ويصير إليه، وهذا التفسير وإن لم يكن محل اتفاق لكن عليه كثير من المحققين، وهو الذي اختاره ابن جرير والشنقيطي وجماعة.

وقوله أيضاً -عليه الصلاة والسلام-: ((من ورائكم أيام الصبر))[2]، يعني فيما تستقبلون، وبعضهم يقول: **{مِنْ وَرَائِهِ}** أي: من بعده.

وكان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقرؤها: وكان أمامهم ملِك، أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويُعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد، {وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ}.

---

١ - رواه بمعناه الترمذي برقم (٢٥٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، كتاب صفة جهنم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة النار، وأحمد في المسند (١٤/١٥٢)، برقم (٨٤٣٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥١٢).

٢ - رواه أبو داود برقم (٤٣٤١)، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، وابن ماجه برقم (٤٠١٤)، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم}، والحاكم في المستدرك (٤/٣٥٨)، برقم (٧٩١٢)، وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كتاب الرقائق، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ}[سورة إبراهيم:١٦] **أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}** [سورة ص:٥٧-٥٨]**، وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم.**

يقول الله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [سورة محمد:١٥]**، ويقول: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ}** [سورة الكهف:٢٩] **الآية، وهكذا رواه ابن جرير.**

وقوله: {يَتَجَرَّعُهُ} أي: يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}[سورة الحج:٢١]**، {وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ}**[سورة إبراهيم:١٧] **أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع، {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ}** [سورة إبراهيم:١٧] **أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه، قال عمرو بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق.**

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [سورة فاطر:٣٦]**، ومعنى كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت، ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال تعالى: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}** [سورة إبراهيم:١٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ}**، الصديد ما كان من القيح والدم، قيل له ذلك؛ لأنه يصد عن النظر إليه، لقبح مرآه، فالنفوس تعافه وتنفر منه، وقوله -تبارك وتعالى-: **{يَتَجَرَّعُهُ}** أي أنه لا يمضي في مجرى حلقه إلا بصعوبة وشدة **{يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ}**.

وقوله: **{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ}** ذكر الحافظ -رحمه الله- معنيين لهذه الآية: الأول: أن الموت يأتيه من كل موضع في بدنه؛ لأنه يجد في ذلك الموضع ما لو نزل به وحده لأصابه الموت منه، يعني: ما نزل في هذا الموضع لوحده يكفي أن يحصل بسببه الموت، ولكنه لا يموت؛ لأن الله قضى أن يتعذب بهذا، **{لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}**[سورة فاطر:٣٦]، والقول الآخر االذي ذكره عن ابن عباس:

{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} أي: من كل نوع من أنواع هذا العذاب، فإذا شرب هذا الصديد الذي يقطع الأمعاء يأتيه الموت منه، وليس بين القولين منافاة -والله تعالى أعلم- فإن هذه أسباب، وما يقع عليه من ألوان العذاب فإنها مميتة، فيأتيه الموت من قِبَلها، وما يحصل له من آثار فإن ذلك أيضاً مميت، {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}، فحينما يضرب بالمقامع من حديد يأتيه الموت، وهكذا حينما يشرب هذا الشراب، أو يشوى بالنار، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [سورة إبراهيم:١٧] أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} [سورة الدخان:٤٣-٥٠]، وقال: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [سورة الواقعة:٤١-٤٤]، وقال تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٥-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله -عز وجل- جزاءً وفاقاً {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦].

الإنسان حينما يرى بعض الصور لأناس قد شُوهت أجسادهم مما وقع عليهم من الأذى والتعذيب، أو إلقاء المواد الحارقة، وما يحصل من التشويه والتمثيل بسلخ للوجه، وتقطيع للأنوف والآذان، وسمل للعيون، لا يسوغ له الطعام ولا الشراب ولا النوم بسبب هذه المناظر المقززة، فالذي يُخرق رأسه، أو تقطع أعضاؤه، أو تلقى عليه هذه المواد الحارقة، أو يسلخ حتى يموت، ولا يشعر بعد ذلك بما يجري له، قد يكون ذلك دقائق، أو ساعات، لكن لو تفكر الإنسان فيما ذكر الله ووصف من عذاب أهل النار فهو شيء لا يمكن للعقل أن يصل إلى مداه، أو أن يتصوره على حقيقته، وهو شيء دائم مستمر لا ينقطع، لا يفضي بهم هذا إلى راحة بعد مدة فيكون عند الإنسان شيء من الرجاء، نسأل الله أن يعيذنا وجميع المسلمين من النار.

{مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} [سورة إبراهيم:١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت، وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ} أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يُتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة، {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}

أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً} [سورة الفرقان:٢٣]، وقوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة آل عمران:١١٧]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة:٢٦٤]، وقوله في هذه الآية {ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ} أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه {ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ}.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قول الله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ} الآية: "فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور -لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله -عز وجل- وعلى غير أمره- برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه؛ فلذلك قال: {لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ} لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه، والأعمال أربعة فواحد مقبول وثلاثة مردودة، فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً، كما ينشيء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثّرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار"[1].

وجه تشبيهها بالرماد ولم يشبهها بالدقيق أنه لا يقدر من هذا على شيء ولا يبقى منه شيء، هذا في أصل المثل، فهذه قد احترقت بالنار وتحولت من شيء إلى شيء، وتحول الرماد إلى شيء لا ينتفع به أصلاً، فجاءت الريح فأطارت به، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها من صدقة ونحو ذلك، لمّا خالطتها نجاسة الشرك وكانت لغير الله -عز وجل-، صارت بمنزلة هذا الرماد، وجاءت عليه الريح، وصورة هذا المثل أن أعمال الكفار كرماد اشتدت به الريح فلا يبقى منه شيء، ولا ينتفعون بشيء.

{أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحقّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ} [سورة إبراهيم:١٩-٢٠].

---

١ - الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم (٣٤)، تحقيق: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارٍ وصحارٍ، وقفار وبحار، وأشجار ونبات، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[سورة الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة يـــس:٧٧-٨٣]، وقوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي: بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[سورة فاطر:١٥-١٧]، وقال: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [سورة محمد:٣٨]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}[سورة المائدة:٥٤]، وقال: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً}[سورة النساء:١٣٣].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحقّ}، الرؤية هنا بمعنى ألم تعلم، وقوله: {بِالْحقّ} يمكن أن يقال: خلقاً متلبساً بالحق، أي أن الله لم يخلق السماوات والأرض من أجل اللهو والعبث -سبحانه وتعالى- عما يقول الكافرون والظالمون علواً كبيراً، فالله جل جلاله يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [سورة الدخان:٣٨]، ويقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص:٢٧]، فهذه من الظنون الفاسدة، الظنون السيئة بالله -تبارك وتعالى-، فخلقها بالحق خلقاً متلبساً بالحق، وخلقها لغاية عظيمة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[سورة الملك:٢].

{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ}[سورة إبراهيم:٢١].

يقول تعالى: {وَبَرَزُواْ} أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} وهم الأتباع، لقادتهم وسادتهم وكبرائهم {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: {لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} ولكن حق

علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين، {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ}[سورة غافر:٤٧-٤٨]، وقال تعالى: {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}[سورة الأعراف:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً}[سورة الأحزاب:٦٧-٦٨]، وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[سورة سبأ:٣١-٣٣].

الكبراء والقادة لهم ضعف العذاب باعتبار أنهم أضلوا الأتباع، ((ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها))[٢]، لكن قوله: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} يشمل الأتباع، ووجه ذلك أن هؤلاء الأتباع لا يخلو الواحد منهم من إضلال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه))[٣]، فهذا التابع الفقير المسكين الذي يكون في غاية الضعف والمهانة، إذا جاءه أولاد فنشأهم على الكفر يكون قد أضلهم، فالواحد من الأتباع لا يخلو من إضلال لغيره.

---

٢ - رواه ابن ماجه برقم (٢٠٣)، كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، وأحمد في المسند (٥٣٦/٣١)، برقم (١٩٢٠٠)، وقال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٠٦).

٣ - رواه البخاري برقم (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مّن سُلْطَانٍ إِلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوَاْ أَنفُسَكُمْ مّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبّهِمْ تَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ}[سورة إبراهيم:٢٢-٢٣].

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً} [سورة النساء:١٢٠]، **ثم قال: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي: ما كان لي فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به {إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، {فَلا تَلُومُونِي} اليوم {وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ} أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} أي: بنافعيّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله -عز وجل-، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}** [سورة **الأحقاف:٥-٦]، قال: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً}** [سورة مريم:٨٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قيل الشيطان: **{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}**، يمكن أن يكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه، **{وَعْدَ الْحَقِّ}**، كقولك مثلاً: مسجد الجامع، ويمكن أن يكون فيه مقدر، تقديره: وعدكم وعد اليوم الحق، وهذا وإن كان قول البصريين من النحاة إلا أن الأصل عدم التقدير، ومتى ما أمكن أن يحمل الكلام على معنىً لا تكلف فيه يستغنى فيه عن التقدير فهو أولى، **{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}** فلا يتبادر منه أن المقصود وعدكم وعد اليوم الحق، وقوله -تبارك وتعالى- عن الشيطان يقول: **{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ**

{سُلْطَانٍ} أي: من حجة وتسلط، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، والأقوال التي قيلت في هذه الآية -آية الإسراء {جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}- يمكن أن يجمع بين كثير منها، فيمكن أن يقال: حجة، ويمكن أن يقال: {سُلْطَانًا} أي: تسلطاً على هذا القاتل، أي أن الله جعل لولي القتيل سبيلاً على هذا القاتل، وهذا مع القول الذي قبله ليس بينهما منافاة؛ لأن هذا السبيل إليه والتسلط إنما كان بجعل الله -عز وجل- له ذلك، فهذا هو السلطان، وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}، قيل: حجة، وقيل بأنه تسلط، ولا إشكال، فهو دعاهم من أجل أن يقبلوا قوله، ويتبعوا ما أمرهم به، ولم يكن له حجة ولا برهان، وإنما غاية ما هنالك أنه دعاهم، وهكذا لم يكن له سبيل إلى قهرهم وإجبارهم، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الإسراء:٦٥] أي: لا سبيل لك عليهم، وقال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، فهؤلاء يهيمن عليهم الشيطان، ويغلبهم، ويقهرهم، وذلك بأنهم سلموا له قيادهم، كما قال الله -عز وجل-: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [سورة المجادلة:١٩]، والأقوال التي قيلت في قوله: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} صحيحة، ولا منافاة بين {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ} أي: قهرهم، أو ضمهم إليه، أو جمعهم إليه حتى صاروا من حزبه وبين {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} [سورة المجادلة:١٩]، وليس معنى ذلك أنه سُلط عليهم ابتداءً بما عنده من الحجج والقهر الحسي، وإنما الذين يتولونه ويطيعونه سلموا له قيادهم، فصاروا ينقادون له في كل ما يأمرهم به، فتمكن منهم وغلبهم حتى صاروا طوع البنان، ورهن الإشارة، لا يردون له طلباً، فصارت الشياطين تتلاعب بهم وتملي لهم، فكلما أمرتهم بشيء -مهما كان متناهياً في القبح والسوء والشر- فإنهم ينقادون ويفعلون، فتمكن منهم وغلبهم، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} "إلا": هذا الاستثناء يمكن أن يكون من قبيل المنقطع، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فدعوته لهم ليست من قبيل السلطان، والاستثناء المتصل: هو أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، والاستثناء المنقطع عكسه، فيكون المعنى: ولم يكن لي عليكم سلطان، لكن دعوتكم فاستجبتم لي، {فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ}، ومما يدل على هذا ويقويه -والله أعلم- قوله: {إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ}، فـ{سُلْطَانٍ} نكرة في سياق النفي، وقد سبقت بـ"من"، وإذا سبقت النكرة في سياق النفي بـ"من" فإن ذلك ينقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} بوجه من الوجوه، لكن دعوتكم فاستجبتم لي، -والله أعلم-.

وقوله: {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ}، الصارخ: هو المستغيث، والمصرخ: هو المغيث المنقذ، والله -عز وجل- يقول: {فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ}[سورة يس:٤٣] يعني: ليس لهم من ينقذهم ويخلصهم، تقول: سمع صارخاً، يعني مستغيثاً.

وقوله: {إِنَّ الظَّالِمِينَ} أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم -عليه السلام-: {أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[سورة المائدة:١١٦] إلى قوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [سورة

المائدة:١١٩]، قال: ويقوم إبليس -لعنه الله- فيقول: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} **الآية.**

قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ}[سورة إبراهيم:٢٢]، هذا يكون يوم القيامة، وهو الراجح، وليس هذا محل اتفاق من أهل العلم، فقيل: إن هذا يكون في القيامة قبل دخول النار، يعني في المحشر، لكن الظاهر -والله أعلم- أن هذا يكون بعد دخولها، فهؤلاء الذين يتلاومون ويتحاجّون من الأتباع والمتبوعين، هذا كله بعد دخولهم النار، نسأل الله العافية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}**، سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا،** {خَالِدِينَ فِيهَا} **ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون،** {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ}**، كما قال تعالى:** {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} **[سورة الزمر:٧٣]، وقال تعالى:** {وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ} **[سورة الرعد:٢٣]، وقال تعالى:** {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً} **[سورة الفرقان:٧٥]، وقال تعالى:** {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} **[سورة يونس:١٠].**

قوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} تحية: مصدر، وقوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} يحتمل أن يكون بمعنى : ما يحييهم الله به، وهذا معنىً صحيح؛ لأن الله يقول: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}[سورة يــــس:٥٨]، ويمكن أن يكون من قبيل تحية الملائكة لهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ}[سورة الرعد:٢٣-٢٤]، ويمكن أن يكون {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، وهذا صحيح، فالسلام تحية أهل الجنة، فكل هذه المعاني صحيحة، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤] والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} [سورة إبراهيم:٢٤-٢٦].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً} **شهادة أن لا إله إلا الله،** {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} **وهو المؤمن،** {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} **يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن،** {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} **يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يُرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء.**

هذه الطريقة في تفسير الأمثال: أن يفسر كل جزء من المثل وينزل على ما ضرب له المثل، هذه الطريقة عليها كثير من أهل العلم من أهل اللغة، والمفسرين، والطريقة الأخرى تفسر المثل بجملته، يقال: هذا مثل ضربه الله -عز وجل- لكلمة التوحيد، وما لها من الآثار والمنافع والثبات وما يقابلها من كلمة الشرك التي لا أساس لها ولا أصل ولا ثبات، وإنما هي كلمة هشة، لا حقيقة لها ولا جذور، وليس عليها برهان ولا حجة،

هكذا تفسير المثل بإجمال، وأصحاب هذه الطريقة يقولون: قد لا تكون كل جزئية في المثل يقصد بها أن تكون موضحة أو منزلة على جزء مما ضرب له المثل، والذين يفسرون الأمثال بالطريقة الأولى يفسرون كل جزء من المثل، وهذا يكون أدعى للاختلاف، فالحاصل أن **{مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً}** مَن نظر إلى لفظة **{كَلِمَةً}**، والكلمة كما هو معروف: هي لفظة مركبة من الحروف الهجائية، إذا كانت غير مفيدة، فإنه يقال لها: لفظ؛ لأن اللفظ المراد به ما يلفظ، أي الملفوظ، فإذا قلت: ديز مثلاً مقلوب زيد فهذا لفظ، وأما الكلمة عندهم فتكون مفيدة، سواء كانت مفردة أو مركبة، تقول: زيد فهذا اسم غير مهمل -مثل ديز-، وتكون مركبة أيضاً كما يقال: "كلمة" للخطبة أو المحاضرة، كما قال ابن مالك:

"وكلمةٌ بها كلامٌ قد يُؤم".

أي: قد يقصد بالكلمة الكلام، تقول: فلان ألقى كلمة، فالحاصل أن الكلمة الطيبة، من نظر إلى لفظة كلمة قال: هي "لا إله إلا الله"، ومن نظر إلى المعنى قال: هي التوحيد، ولا منافاة، فبعض أهل العلم كابن جرير يقول: هي التوحيد، هذا مثل للتوحيد، والتوحيد يعبر عنه بـــ "لا إله إلا الله"، فهذه الأقوال لا يحتاج إلى ترجيح بينها، فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي الإيمان، وهي "لا إله إلا الله"، كل هذه الأقوال بمعنىً واحد، وترجع إلى شيء واحد، مثل هذه الكلمة في ثباتها وتأثيرها ونفعها وبركتها **{كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ}** جذورها عميقة، **{وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ}**، فهذه ثلاثة أشياء، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد في تفسير هذا المثل، فقال -رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية: "فشبه -سبحانه وتعالى- الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين، يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله فهو ثمرة هذه الكلمة، وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: **{كَلِمَةً طَيِّبَةً}** شهادة أن لا إله إلا الله **{كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ}** وهو المؤمن **{أَصْلُهَا ثَابِتٌ}** قول: "لا إله إلا الله" في قلب المؤمن، **{وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء}** يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وقال الربيع بن أنس: **{كَلِمَةً طَيِّبَةً}** هذا مثل الإيمان، فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه

الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كَلِماً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العملُ الصالح الكلِمَ الطيب، كما قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحاً كل وقت، والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً متصفاً بموجبها قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- في الصحيح[1]، ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ} يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء: يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض"[2].

وهذه الرواية ضعيفة لا تصح بحال من الأحوال.

وقال ابن القيم رحمه الله: "وقال عطية العوفي في قوله: {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ} قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله، وقال الربيع بن أنس: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ} قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له، {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} قال: أصل عمله ثابت في الأرض، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ} قال: ذكره في السماء، ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة"[3]أ.هـ.

والقول بأنها المؤمن فيه بُعد، والأقرب هو القول بأنها لا إله لا إله، أو أنها التوحيد، لكن بين القولين نوع ارتباط، باعتبار أن لا إله إلا الله لها أثر على هذا المؤمن حيث صار بهذه المثابة من العمل، والجد والاجتهاد في طاعة الله -عز وجل-، ولا يصدر منه إلا كل قول حسن، كما قال الله -عز وجل-: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}[سورة النــور:٢٦]، وقال: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ} [سورة النــور:٢٦]، يقول ابن جرير: إن الكلمات الطيبات للطيبين من الناس، والكلمات الخبيثات للخبيثين من الناس، فإذا قالها

---

١ - رواه البخاري برقم (١٣١)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم برقم (٢٨١١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة.

٢ - الأمثال في القرآن الكريم (٣٦-٣٧)، للإمام ابن القيم، تحقيق: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة - طنطا، ط١، سنة النشر:١٤٠٦هـ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٠٣-١٠٤)، دراسة وتحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر - القاهرة- سنة النشر:١٣٨٨هـ.

٣ - الأمثال في القرآن الكريم (٣٧) للإمام ابن القيم، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٠٤).

أهل الإيمان نفعتهم الكلمات الطيبة، إن صدرت منهم نفعتهم، وإن صدرت من الكافرين من الخبيثين لم تنفعهم، وإذا صدرت الكلمات الخبيثات في حق أهل الإيمان لم تضرهم، وهو أحد المعاني الداخلة تحتها؛ لأن ذلك يشمل الذوات، والآية نزلت في قضية الإفك، وتبرئة عائشة -رضي الله عنها-، فالطيبات من الذوات ومن الأقوال والأعمال، -والله تعالى أعلم-.

والكلمة في قوله: {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ} هي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، -والله تعالى أعلم-، ومُثلت بالشجرة الطيبة التي تكون بهذه المثابة، وأولى ما تصدق عليه هذه الشجرة هي النخلة، لكن ذلك لا يختص بها في ظاهر اللفظ، وإنما ضرب بمثل؛ لأن من الأشجار ما يكون طيباً، ومنه ما يكون خبيثاً، لا ثبات له، وليس له ثمرة ينتفع بها كالحنظل مثلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء}[سورة إبراهيم:٢٤] الآية: "وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به وحكمته، فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدّل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والهدي، والدّل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ومنها أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الإيمان يَخلَق في القلب كما يَخلَق الثوب فجددوا إيمانكم))[1]، وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلِب على الغراس والزرع ويكون الحكم له، أو يُضعف الأصلَ ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كبير وهو لا يشعر، فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

---

١ - رواه الحاكم في المستدرك، (٤٥/١)، برقم (٥)، وقال: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٥)، وصححه في صحيح الجامع برقم (١٥٩٠).

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل ولا جنى ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغدِق، ولا أعلاها مونق، ولا جنى لها، ولا تعلو بل تُعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك، فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، الذي هو كتاب الرب سبحانه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: **{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}** [سورة إبراهيم:٢٦] وهي الشرك، **{كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ}** يعني: الكافر **{اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}** يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وقوله: **{اجْتُثَّتْ}** أي: استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين، أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم"[٢]أ.هـ.

---

٢ - الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم (٣٨-٤١)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٢٠٤-٢٠٧).

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: وروى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أخبروني عن شجرة تشبه -أو كالرجل- المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها))، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هي النخلة))، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا"[٣].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ} قال: هي شجرة في الجنة، وقوله: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ} قيل: غدوة وعشياً، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين، {بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً، {وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "{بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي: **كاملاً حسناً**"، ليس هو معنى {بِإِذْنِ رَبِّهَا} وإنما أراد أن يصل المعنى فحسب، يعني يريد أن يصل هذه الجملة بكلامٍ، {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [سورة إبراهيم:٢٥] كاملاً تاماً لا نقص فيه، هذا الذي قصد، ومعنى {بِإِذْنِ رَبِّهَا}: لا يكون شيء إلا بإذنه -تبارك وتعالى- ومشيئته، وفي مثل هذه الأشياء المقصود بالإذن فيها الإذن الكوني، بخلاف قوله -تبارك وتعالى-: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [سورة الحشر:٥] والأقرب أنه يشمل الإذن الكوني والإذن الشرعي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مثّل المؤمن بالنخلة، لكن الكلام على الكلمة الطيبة، وليس الكلام على المؤمن، فالكلمة الطيبة كشجرة طيبة، والله -عز وجل- لم يحدد شيئاً بعينه، فيقال: كشجرة طيبة، وهو ما كان بهذه المثابة {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ}، فلا يختص هذا بشجرة في الجنة، أو بشجرة بعينها، وإنما المقصود هو البيان والإيضاح للحالة المشبه بها، المضروب بها المثل.

وقوله تعالى: {وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها الشريان، رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أنها شجرة الحنظل.

هذا على سبيل المثال، وإلا فإن ذلك لا يختص بشجرة الحنظل، وإنما كل ما ينطبق عليه هذا الوصف؛ ولذا قال بعض السلف غير هذا، وإنما ذكروا أشياء أخرى، بعضهم يذكر من الأشجار أشجار البرية، وبعضهم يذكر غير هذا، فالمقصود هو موطن العبرة، وهو ما ضرب له المثل، حال الكافر، أو حال الكفر، {كَشَجَرَةٍ

---

٣ - رواه البخاري برقم (١٣١)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم برقم (٢٨١١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة.

{خَبِيثَةٍ} فإن الكفر لا يورث ثماراً، وإنما يورث ثماراً مرة، فإذا كان الإنسان كافراً فسدت أعماله وأحواله كلها، وصار كده وسعيه وشغله فيما يضره ولا ينفعه، فيما يبعده من ربه -تبارك وتعالى-، ولا يقربه، فلا يصدر منه إلا كل سيئ إما لذاته وإما لفساد قصده فيه، لا يريد به وجه الله -تبارك وتعالى-، فالكفر نجاسة غليظة، وهي داء إذا دخل في قلب الإنسان أفسد عليه أمره كله، {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}، فالكفر والشرك ليس له أصل ثابت ولا برهان ولا حجة، وإنما هو شيء لا يجاوز أفواه قائليه، وهذه المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل- ما هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان.

وشجرة الحنظل ليس لها ساق، وتمتد في الأرض يخرج منها ثمر يشبه البطيخ، لكنه مستدير تقريباً، أخضر وإذا استوى صار أصفر، إذا فتحته وجدت فيه حباً أسود، في غاية المرارة، يضرب به المثل في المرارة، يقال: فلان حنظلة، يسمون حنظلة من أجل أعدائهم، أي شديد المرارة، وإذا وطأ عليه الإنسان بباطن القدم استطلق بطنه، وهو معروف ينبت ولا يُزرع، طفيلي في المزارع المهملة، أو في حواشيها، والصحاري.

وقوله: {اجْتُثَّتْ} أي: استؤصلت، {مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ}[سورة إبراهيم:٢٧].

روى البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}))[٤]. ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

هذا الحديث هو من قبيل التفسير النبوي، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه الآية، وهو ثابت في الصحيحين، لكن قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ})), إذا سئل في القبر، ليس بصريح في أن هذا من التثبيت في الحياة الدنيا أو في الآخرة، هذا الحديث ذكر السؤال في القبر وذلك داخل في قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فهذا مما يدخل فيه، النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نوعاً يدخل فيه التثبيت وهو الظاهر؛ لأنه ذكر الحياة الدنيا والآخرة، وهما داران، وذكر السؤال في القبر، فيبقى النظر، هل هذا التفسير من النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي قصد به السؤال في القبر هو من التثبيت في الحياة الدنيا؟، ثم يبقى النظر بعد ذلك في التثبيت في الآخرة عند سؤال الله -عز وجل- للعبد والحساب، فعلت كذا وكذا، والإنسان بحاجة إلى تثبيت عند سؤال الله -عز وجل-، والحساب، كما أن الإنسان بحاجة إلى تثبيت قدمه على الصراط، فمن أهل العلم من يقول: إن السؤال في القبر هو المراد بقوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} في الدنيا، {وَفِي الآخِرَةِ} هو عند الحساب، وقالوا: القبر لا زال في الدنيا، كيف لا زال في الدنيا، قالوا: إن الآخرة لا تكون إلا بعد البعث والنشور،

---

٤ - رواه البخاري برقم (٤٤٢٢)، كتاب التفسير، باب {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}، ومسلم برقم (٢٨٧١)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، واللفظ للبخاري..

فجعلوا التثبيت الأول في القبر في الحياة الدنيا، والثاني بعد البعث والنشور، عند الحساب، وهذا فيه إشكال؛ لأن القبر هو أول منازل الآخرة، وإذا مات ابن آدم قامت قيامته، ولهذا فإن من أهل العلم من يقول: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} إن هذا على ظاهره، يثبتهم على الصراط في الدنيا، فيثبتون على إيمانهم، وطاعتهم لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- حتى الممات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كثيراً ما كان يدعو: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[٥]، فيدعو الإنسان بهذا؛ لأنه بحاجة إليه، فهذا تثبيت في الحياة الدنيا، والتثبيت في الآخرة فسره بعض السلف بالقبر، فالقبر من الآخرة، ويمكن أن يقال: إن هذا أحد الأنواع الداخلة تحته، فالتثبيت في الآخرة يشمل سؤال الملكين، وكل ما يحتاج فيه الإنسان إلى التثبيت، على الصراط، وتثبيت قدمه على الصراط وعند سؤال الله -عز وجل- ومحاسبته إياه، {وَفِي الآخِرَةِ}، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: ((استعيذوا بالله من عذاب القبر)) مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: ((إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ: فتخرج تسيل، كما تسيل القطرة من فِي السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها، يعني على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذين بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال ــ: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك

---

٥ - رواه الترمذي من حديث أنس -رضي الله عنه- برقم (٢١٤٠)، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وأحمد في المسند (١٩/١٦٠)، برقم (١٢١٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٩١)، وفي صحيح الجامع برقم (١٣٩٤٧).

الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي))(٦).

---

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٩٩/٣٠)، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة سياقه لحديث البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-: قال:
((وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتَفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له -ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}- [(٤٠) سورة الأعراف] فيقول الله -عز وجل-: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً -ثم قرأ {حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}- [(٣١) سورة الحج] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة))[1]. **ورواه أبو داود وابن ماجه.**

وروى الإمام عبد بن حميد -رحمه الله تعالى- في مسنده عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة))، **قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:** ((فيراهما جميعاً))[2]، **قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون**

---

[1] - رواه أحمد (٣٠ / ٤٩٩- ٥٠١)، برقم (١٨٥٣٤).

[2] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (١ / ٤٦٢)، برقم (١٣٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب عرض مقعد الميت من الجنة (٤ / ٢٢٠٠)، برقم (٢٨٧٠).

ذراعاً، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد به، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب.

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذي -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إِذا قبر الميت ــ أو قال: أحدكم ــ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما منكر والآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، وينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك))[٣] ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [(٢٧) سورة إبراهيم] ، ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث))[٤].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده، إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول به، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حَيِيتَ وعلى ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب))[٥]، وذلك قول الله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، رواه ابن حبان فذكر جواب الكافر وعذابه.

---

[٣] - رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (٣ / ٣٨٣)، برقم (١٠٧١).

[٤] - تفسير الطبري (١٦ / ٥٩٨).

[٥] - رواه ابن حبان، كتاب الجنائز، باب المريض وما يتعلق به (٧ / ٣٨٠)، برقم (٣١١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣ / ٥٦)، برقم (١٢٠٦٢).

وروى عبد الرزاق عن ابن طاوس {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال: لا إله إلا الله، {وَفِي الْآخِرَةِ} المسألة في القبر.

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، {وَفِي الْآخِرَةِ} في القبر، وكذا روي عن غير واحد من السلف.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالتثبيت الذي يكون في الحياة الدنيا يمكن أن يحمل -والله تعالى أعلم- على التثبيت على الأعمال الصالحة، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى الإيمان في الحياة وعند الممات، حتى يختم للإنسان بالسعادة في الآخرة، وهي تبدأ منذ موت الإنسان، فالقبر أول منازل الآخرة، فإذا جاءه الملكان فسألاه فثبته الله -عز وجل- فهذا من هذا التثبيت، والله تعالى أعلم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [(٢٨-٣٠) سورة إبراهيم].

قال البخاري: قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً} ألم تعلم، كقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ} [(٢٤) سورة إبراهيم] **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ}** [(٢٤٣) سورة البقرة]، البوار الهلاك، **بار يبور بوراً، و{قَوْماً بُوراً} هالكين.**

حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء، سمع ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} قال: هم كفار أهل مكة.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً -رضي الله تعالى عنه- عن {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [(٢٨) سورة إبراهيم] **قال: هم كفار قريش يوم بدر، وقال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، والمعنى يعم جميع الكفار فإن الله تعالى بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.**

اختلف المفسرون في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} فقيل: المراد بهم كفار قريش، {وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} يعني في الدنيا، بما وقع لهم في يوم بدر حيث قُتل رءوسهم وسادتهم وكبراؤهم، وأُسر من أسر.

وقيل في قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} هذه الآية تعم جميع الكفار وهذا هو الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- فيكون {وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} يعني في النار، ويمكن أن تحمل الآية على عمومها فيدخل فيها القولان، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] **أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}** [(٣٠) سورة إبراهيم] **أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} أي: مرجعكم وموئلكم إلينا كما قال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى**

عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٤) سورة لقمان]، وقال تعالى: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة يونس].

قوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] أي: ليضلوا الناس عن دين الله -تبارك وتعالى- وعن الإيمان، وفي قراءة أبي عمرو وابن كثير {لِيَضلوا عن سبيله} بفتح الياء، وعلى هذه القراءة تكون اللام للعاقبة، كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [(٨) سورة القصص].

قوله: {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] كقوله -تبارك وتعالى-: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [(٤٩) سورة الدخان] فليس الأمر يدل على وجوب أو استحباب أو إباحة، وإنما يقال ذلك لهم وعيداً وتهديداً.

{قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم].

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية: وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ} وهو يوم القيامة {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(١٥) سورة الحديد]، وقوله: {وَلاَ خِلاَلٌ} قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخالّة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخالتّه، بل هناك العدل والقسط، والخِلال مصدر من قول القائل: خاللتُ فلاناً فأنا أُخالّه مُخالّة وخِلالاً، وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخِلالاً يتخالّون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيعٌ ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة].

قوله: {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم] اختلف العلماء في "مِن" هل المراد بها التبعيض أو غير ذلك؟، فمن حملها على التبعيض قال: لا يجب على الإنسان أن ينفق كل ماله.

وقد تكلم أهل العلم في إنفاق كل المال، فمنعه بعضهم، وفصل فيه آخرون -وهو الأقرب- وقالوا: إن ذلك يختلف باختلاف الناس، فأبو بكر -رضي الله عنه- تصدق بكل ماله، وعمر -رضي الله عنه- تصدق بشطر ماله، ولم يقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- من رجل تصدق بقطعة من ذهب.

قوله: {سِرًّا وَعَلانِيَةً}، قال بعض السلف {سِرًّا} أي: الصدقة، {وَعَلانِيَةً} أي الزكاة، والأقرب -والله أعلم- أن هذه الآية لا تختص بالصدقة أو الزكاة، فالزكاة لا تقيّد دائماً بالعلانية، والصدقة لا تقيد دائماً بالسر، وإنما يكون ذلك بحسب الحال والمصلحة، فالرجل الذي يكون في بلد لا تُخرج فيها الزكاة مثلاً، أو يقصر الناس فيها كثيراً فإظهارها من أجل إحياء هذه الشعيرة أمر مطلوب، ومن خشي التهمة فإنه يخرجها علانية.

فإذا قال قائل: أنا لا أستطيع أن أخلص في هذه العبادة إلا إذا أخرجتها سراً، أما إذا أعلنت بها دخل في قلبي الرياء، فنقول: الواجب عليك أن تخرجها سراً، وكذلك بالنسبة للصدقات.

فإذا كانت المصلحة إخراج الصدقات أو إنفاق الأموال سراً أنفقوها سراً، وإذا كانت المصلحة تقتضي إخراجها علانية أخرجت علانية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى الصدقة فيأتي أصحابُه أمام الناس، فهذا يأتي بصرّة قد عجزت عنها كفه، وهذا يأتي بشيء يسير، وآخر يأتي بشيء كثير، فكان أهل النفاق يلمزون من جاء بمال قليل بقولهم: الله غني عن هذا وصدقته، ويقولون فيمن جاء بمال كثير: هذا مُراءٍ، فأنزل الله: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٩) سورة التوبة].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ وَسَخّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ * وَسَخّر لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ * وَآتَاكُم مّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ}[سورة إبراهيم:٣٢-٣٤].

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان، والأشكال، والطعوم، والروائح، والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع، {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، {يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [سورة الأعراف:٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [سورة الحج:٦١]، {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}[سورة الزمر:٥].

وقوله: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} يقول: هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم.

وقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا} يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، وفي صحيح البخاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اللهم لك الحمد غير مكفيّ ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا))[١].

وقد روي في الأثر أن داود -عليه السلام- قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود. أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيّ أَن نّعْبُدَ الأصْنَامَ * رَبّ إِنّهُنّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مّنَ النّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنّكَ غَفُورٌ رّحِيمٌ} [سورة إبراهيم:٣٥-٣٦].

---

١ - رواه البخاري برقم (٥١٤٢)، كتاب النفقات، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه.

يذكّر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام بمكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرّأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: {رَبّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً} وقد استجاب الله له، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا} [سورة العنكبوت:٦٧] **الآية، وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً}** [سورة آل عمران:٩٦] **وقال في هذه القصة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً} فعرّفه لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ}** [سورة إبراهيم:٣٩]**، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق -عليهما السلام- بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً}، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً.**

وقوله: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ}**، الإحصاء: هو العد، وأصل ذلك فيما يُذكر -والله تعالى أعلم-: أن العادّ في السابق كان كلما بلغ عقداً في الأعداد وضع حصاة، من أجل أن يضبط العد، فصار ذلك يقال له: الإحصاء، أخذاً من وضع الحصى، هكذا قيل، كما قيل في اليمين: إن أصلها أن الرجل كان إذا حلف أخذ بيمين صاحبه توثيقاً لليمين، توثيقاً للقول بالفعل، فقيل له يمين، -والله تعالى أعلم-، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عند قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}**، والفرق بينه وبين ما في البقرة: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}**[سورة البقرة:١٢٦]، فدعا لها بشيئين: أن يصير هذا المكان بلداً؛ لأنه جاء إلى وادٍ ليس فيه أحد، ودعا لها بالأمن، كما في قوله: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً}** وجاءها مرة أخرى بعد أن صارت بلداً، فقال: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً}**، فدعا لها هنا بشيء واحد وهو الأمن.

ومن الأدلة على أن هذه هي المرة الثانية أنه قال: **{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}** [سورة إبراهيم:٣٩]؛ لأن إسحاق لم يكن موجوداً حينما جاء أول مرة، إنما جاء بإسماعيل وأمه.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى -عليه السلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[سورة المائدة:١١٨]**، وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك.**

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا قول إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ} الآية، وقول عيسى -عليه السلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} الآية، ثم رفع يديه ثم قال: ((اللهم، أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي)) وبكى فقال الله: اذهب يا جبريل

إلى محمد -وربك أعلم- وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل -عليه السلام- فسأله، فأخبره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"[٢].

قول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: **{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**، وقول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: **{وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**، والفرق بين هذا وبين قول الأنبياء كنوح -عليه الصلاة والسلام-: **{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** [سورة نوح:٢٦]، وقول موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ}** الآية [سورة يونس:٨٨]، فدعاء الأنبياء هؤلاء -عليهم الصلاة والسلام- على قومهم يمكن أن يقال فيه -والله تعالى أعلم-: إن نوحاً -عليه الصلاة والسلام- قال ذلك لما أخبره ربه -تبارك وتعالى-: **{أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ}** [سورة هود:٣٦]، وجلس فيهم هذه المدة الطويلة، وأما قول موسى -صلى الله عليه وسلم- فيمكن أن يكون قد قال ذلك بعد أن قالوا له: **{مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}**[سورة الأعراف:١٣٢]، فلما يئس منهم دعا عليهم، ولكل مقام مقال، فالحال أحياناً قد يكون المناسب فيها الدعاء عليهم، وأحياناً الدعاء لهم، فقد يقول: ((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون))[٣]، وقد يدعو عليهم ويقول: ((اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسِنِيِّ يوسف))[٤]، فالدعاء لهم ليس بمطرد في كل المواضع، ولا إشكال في هذا، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يقول: **{وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** الله -تبارك وتعالى- لا يغفر للكفار، فيحمل هذا باعتبار أن المراد وجود سبب المغفرة، بأن يتوب الله عليهم، يوفقهم للتوبة فيغفر لهم، ويمكن أن يقال بأن ذلك كقوله -عليه الصلاة والسلام- لما دعا لأبيه: **{وَاغْفِرْ لِأَبِي}** الآية، [سورة الشعراء:٨٦] وقال: **{سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}** [سورة مريم:٤٧]، و**{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}** [سورة إبراهيم:٤١]، حتى نهاه ربه -تبارك وتعالى- عن ذلك، كما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما استأذن ربه أن يستغفر لأمه، وقال لأبي طالب: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك))[٥]، واستغفر بعض الصحابة -رضي الله عنهم- لآبائهم الذين ماتوا على الشرك احتجاجاً باستغفار إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه، فأنزل الله -عز وجل-: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}**[سورة التوبة:١١٣].

---

٢ - رواه مسلم برقم (٢٠٢)، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته وبكائه شفقة عليهم.

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}، برقم (٣٢٩٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، برقم (١٧٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه.

٤ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، برقم (٦٠٣٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم (٦٧٥)

٥ - رواه البخاري برقم (١٢٩٤)، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ورواه بلفظ: "مالم أُنْهَ عنه" برقم (٣٦٧١)، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، ومسلم برقم (٢٤)، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل.

{رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[سورة إبراهيم :٣٧].

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله -عز وجل-؛ ولهذا قال: {عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}. وقوله: {رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ} قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: {الْمُحَرَّمِ} أي: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال: "أفئدة الناس" لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: {مِنَ النَّاسِ} فاختص به المسلمون وقوله: {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ} أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك.

قوله: {رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: {الْمُحَرَّمِ}، بمعنى: أنك جعلته محرماً ليقيموا الصلاة، والاحتمال الآخر أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعلهم عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، يعني: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي} في هذا المكان {لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، أي: أسكنتهم ليقيموا الصلاة، والآية تحتمل المعنيين، وما ذكره ابن جرير -رحمه الله- له وجه حسن، والله -تبارك وتعالى- وصف هذا البيت بأنه محرم فقال: {سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحـج:٢٥]، كما أن الله جعل بإزاء ذلك أوقاتاً، وهي الشهور الحرم من أجل أن يتمكن الناس من الوصول إلى البيت، فإذا نظرت إلى الأشهر الأربعة وجدت ثلاثة منها تتعلق بموسم الحج، فالناس قد يحتاجون شهراً حتى يصلوا إلى البيت، ثم يبقون في مناسكهم، ويحتاجون شهراً حتى يرجعوا، فصارت ثلاثة: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، وواحد فرد وهو رجب يأتون فيه للعمرة، فهذا في الأوقات، إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، وذلك أنه يعني كما ذكر بعض أهل العلم: أن إقامة الدين والعبادة إنما يكون ذلك مع وجود الأمن، فإذا أمن الناس تفرغوا للعبادة؛ ولهذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فضل العبادة في أيام الهرج، كثرة الهرج، أو الهرج: بمعنى القتل، وجاء تفسيره أيضاً بالاختلاف والفتن، ولا شك أن بين الأمرين ملازمة، فإذا وقع الاختلاف والفتن فإن ذلك يؤدي إلى وقوع القتل.

وقوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} الأفئدة: يعني القلوب، قال: {أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ}، وهذا التفسير ذكره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد وسعيد بن جبير بأن "من" تبعيضية، {أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ}، ويمكن أن تكون بيانية، {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ}، ولم يقل: تهوي إليه، ودعا للبيت أن يكون آمناً، ومعنى: {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} أي: تنزع إليهم، وفسر ذلك أيضاً بالإسراع، أو الإقبال، أو الميل، تميل إليهم، هوى نحوه أي مال، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- في أول زاد المعاد ذكر من خصائص مكة أن الأفئدة تهوي إليها، وذلك أن الإنسان كلما رجع منها عاوده الحنين والشوق إليها مرة ثانية، فلا يزال به حتى يرجع ثانية وهكذا، فيتكرر رجوعه إليها، بخلاف سائر البلاد، وهذا المعنى الذي ذكره باعتبار أن الدعاء {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} لمكة، فقال: {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} باعتبار أنهم نزلوا هذا المكان، فصار ذلك مختصاً به، والله تعالى أعلم.

{وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ} أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وادٍ غير ذي زرع فاجعل له ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا} [سورة القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل -عليه السلام-.

{رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ * الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}[سورة إبراهيم:٣٨-٤١].

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: {رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ} أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه -عز وجل- على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} أي إنه يستجيب لمن دعاه.

قوله: {وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ} جاء متصلاً بدعاء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وجاء بعده: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} إلى آخره، فهذا في ثناياه، فهل هو من جملة قول إبراهيم ودعائه {رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ}؟ أو أن هذا من كلام الله -عز وجل- فيكون من قبيل المتصل لفظاً، المفصول معنىً؟، ظاهره الاتصال، أنه من كلام متكلم واحد، ولكنه منفصل، هذا من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والجمهور على أن هذا من كلام الله، تعقيباً على دعاء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها، {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: فيما سألتك فيه كله، {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبيّن له عداوته لله -عز وجل-.

قوله: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} قال: "أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}: أي واجعلهم كذلك مقيمين لها"، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} يمكن أن تكون "من" هنا تبعيضية، ويمكن أن تكون بيانية، كما في قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}[سورة آل عمران:١٠٤]، والفرق بينهما أنها إذا كانت تبعيضية فهي دعاء للبعض، وإذا كانت بيانية فإنها دعاء للجميع، مثل قول الإنسان لأولاده: أريد منكم أبناء بررة، لا يقصد أن بعضهم يكون كذلك، والتبعيضية كأن يقول: أريد منكم فقهاء، وأطباء، فهو يقصد أن بعضهم يكون هكذا وأن البعض يكون هكذا، وقوله: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} قال: "أي: **فيما سألتك فيه**"، فهذا من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يُعد -كما هو ظاهر- تفسيراً للدعاء بالسؤال، {وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}؛ لأنه هو يدعو، فهو يطلب من ربه أن يتقبل دعاءه أي مسألته التي سألها، تقبل دعائي، وهذا هو الظاهر المتبادر، وهذا المقام مقام طلب وسؤال، وابن جرير ذهب إلى أن المراد بـــ {وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: تقبل عبادتي، فالدعاء يأتي بمعنى العبادة، ولا يخفى أن بين الأمرين ملازمة، فالسؤال هو عبادة من أجلّ العبادات؛

ولذلك فإن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- عمّمه، {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: تقبل سُؤْلي وتقبل عبادتي، {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ}، دعاء لوالديه، بعضهم يقول: إن أمه كانت مسلمة، ولا دليل عليه، وليس فيه جواب عن السؤال الذي سأله الصحابة -رضي الله عنهم- بأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- استغفر لأبيه وهو مشرك قطعاً، فالحاصل أنه جاء في بعض القراءات غير المتواترة -قراءة سعيد بن جبير- الإفراد: {اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي}، وجاء في قراءة إبراهيم النخعي: {اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ} يعني: إسماعيل وإسحاق، وهذه قراءات شاذة، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- دعا لأبيه، ودعا لوالديه؛ وذلك قبل أن ينهاه الله -تبارك وتعالى- عن هذا، رجاء أن يفتح الله على قلوبهما فيدخلا الإسلام، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}[سورة التوبة:١١٤].

{وَلِلْمُؤْمِنِينَ} أي: كلهم، {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قوله: {يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: يقوم الناس للحساب، {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة المطففين:٦]، ظاهر اللفظ واضح لا حاجة للتقدير: يوم يقوم الناس للحساب، {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: يقام الحساب والسؤال، كما هو الظاهر المتبادر.

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء} [سورة إبراهيم:٤٢-٤٣].

يقول تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ} يا محمد {غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عداً، {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} أي: من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم.

قوله: {لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} كقوله -عز وجل-: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا}[سورة الأنبياء:٩٧]، وشخوص البصر معناه: أنه يبقى البصر مفتوحاً، فلا يغمض الإنسان عينه؛ لشدة الهول.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: {مُهْطِعِينَ} أي: مسرعين، كما قال تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} الآية، وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ} [سورة طـه:١٠٨] إلى قوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [سورة طـه:١١١]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً} [سورة المعارج:٤٣] الآية.

قوله: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [سورة القمر:٧]، فالإهطاع فسره الحافظ بالإسراع، وهذا قال به طائفة من السلف، ومن بعدهم، والشنقيطي -رحمه الله- يرجح هذا المعنى، وفُسر بغير هذا فقيل: المُهطِع: هو الذي ينظر بذل وخشوع، وقيل: المهطع هو الذي يديم النظر، {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} ينظرون إليه، لا ينظرون إلى شيء آخر، وقيل: هو الذي لا يرفع رأسه من الخضوع، وبعضهم يفسره بالساكت، {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} وتفسيره بأنه الذي لا يرفع رأسه يصير مكرراً مع قوله: {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} إذا فسر إقناع الرأس بتنكيسه وطأطأته، فيكون ذلك تكراراً، إذا فسر بهذا.

وقوله {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم.

قوله: {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} فُسر بالرفع، وفسر بطأطأة الرأس وتنكيسه، فسر بهذا وهذا، ورافعي رءوسهم ليس من العز، وإنما ينظرون إلى الداعي، قد شخصت أبصارهم.

{لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} أي: أبصارهم طائرة شاخصة يديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف؛ ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف.

إذا فسر إقناع الرأس بمعنى تنكيسه فتكون شاخصة أبصارهم {لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} يعني ينظرون إلى الأرض بصورة قد شخصت فيها أبصارهم، أو أنهم قد رفعوا أبصارهم إلى الداعي ينظرون إليه نظراً مستمراً، والثاني هو الأقرب، -والله أعلم-.

وقوله: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}، العرب تقول للشيء الفارغ: أجوف، ويقولون: هواء، كما قال حسان -رضي الله عنه- حينما هجا أبا سفيان بن الحارث:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني *** فأنتَ مجوفٌ نخبٌ هواءُ[٦]

يعني يتهمه بالجبن والخور والضعف، فيكون قلبه هواء، كما يقال في الحرب أو الخوف: انتفخ سحره، والعرب تعبر بذلك يقولون: إن الرئة تنتفخ مع الخوف، وذكره بعضهم عند قوله تعالى: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} [سورة الأحزاب:١٠]، بعضهم حملوه على ظاهره، قالوا: وصل القلب إلى هذا المكان، والعرب تعبر بمثل هذا عن الخوف أو عن فراغ القلب من كل شيء، والله -عز وجل- قال عن أم موسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} [سورة القصص:١٠] مع الفارق بين الموضعين، {فَارِغًا} قالوا: أي من كل شيء إلا من ذكر موسى -عليه الصلاة والسلام-، والقصد أنه عبر عن الفؤاد بالفراغ، فقال: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: أن قلوبهم خالية، فلا تفسر بأنها ارتفعت إلى أعلى المكان؛ لأنه قال عن نفس الأفئدة: إنها هواء، فدل على أن هذه القلوب قد امتلأت بالخوف، فما عاد أصحابها يعقلون شيئاً، ولهذا وصفهم الله -تبارك وتعالى- في موضع آخر بالسكر، {سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى} [سورة الحج:٢]، فلا يعقل شيئاً من شدة الهول الذي رآه أو نزل به، والمعنى الظاهر والمتبادر والذي عليه المحققون أن قلوبهم خالية ليس فيها شيء، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ولا حاجة لأن يقال: إن قلوبهم لما وصلت الحناجر صارت هواء بهذا الاعتبار.

ثم قال تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[سورة إبراهيم:٤٤-٤٦].

---

٦ - المستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم الزمخشري (٣٨٦/١)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط٢، سنة النشر: ١٩٨٧م.

يقول تعالى مخبراً عن قِيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: {رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} كقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ} [سورة المؤمنون:٩٩] **الآية، وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ}** [سورة المنافقون:٩، ١٠] **الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ}** [سورة السجدة:١٢] **الآية، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا}** [سورة الأنعام:٢٧] **الآية، وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا}** [سورة فاطر:٣٧] **الآية، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: {أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره: {مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}** [سورة النحل:٣٨] **الآية، {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ}**[سورة القمر:٥].

قوله: {وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} المكر معروف، وفسره بعضهم بجزاء مكرهم، {وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} قالوا: أي عند الله جزاء مكرهم، أو أنه مكتوب عنده فيجازيهم عليه، وبعضهم يقول: {وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} أي: عند الله مكرهم الذي يمكرهم به، والأول هو المتبادر، -والله تعالى أعلم-، والمقصود بالمكر -والله أعلم- هو ما حصل منهم من التكذيب والسعي في الصد عن سبيل الله -عز وجل-، وإطفاء نوره، كما قال الله -عز وجل-: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة الأنفال:٣٠]، {قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [سورة يونس:٢١].

وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن دابيل أن علياً -رضي الله تعالى عنه- قال في هذه الآية {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} قال: أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسريْن صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا، قال: فأوثق رِجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: -ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم- فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب، قال: فصوِّب العصا، فصوبها فهبطا جميعاً، قال: فهو قوله -عز وجل-: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}.

قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ}.

هذه القراءة مروية عن بعض الصحابة كعمر وأبيّ {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، وهذه الرواية لعلها مأخوذة من الإسرائيليات، ولا شك أن فيها من الغرابة ما فيها، توضيح هذه الرواية: أن هذا النمرود جاء إلى نسور صغار فرباها، حتى قويت واشتدت، فجلس هو ورجل في تابوت وأوثق كل نسر على ناحية، ثم رفع عصا فيها لحم وهذه النسور مجوعة، فصارت تحاول الطيران من أجل أن تصل إلى هذا اللحم، فارتفع التابوت، حركت أجنحتها فارتفع التابوت، وفيه هؤلاء، ووصلوا إلى مكان مرتفع جداً فصاروا ينظرون إلى الجبال كما في بعض الروايات يقول: أرى الجبال كالذباب، يعني صغيرة جداً كما نرى في الطائرة، وقال:

أرى الدنيا كالذباب، ثم بعد ذلك قال: صوِّب العصا، نزلْها، فنزلَها فصارت هذه النسور تتبع العصا، وصار لها جلبة قوية كادت الجبال أن تندك. فهذه الراوية فيها من الغرابة مافيها من أنها:

أولاً: النسور لا تستطيع أن تحمل تابوتاً فيه رجلان.

ثانياً: هذه النسور مُجوّعة، لا تستطيع مع ضعفها والجهد الذي بلغ بها من الجوع أن تواصل حتى تصل إلى هذا المكان العالي جداً في الارتفاع، وهي محملة بشيء ثقيل.

ثالثاً: أنه لما صوّب العصا ونزلها، نزلت النسور بسرعة ولم يحصل لهم أي شيء.

رابعاً: النمرود ملك عظيم جداً، فلا يصل به الأمر إلى أنه يخاطر ويركب في تابوت مربوط بنسرين ويطير مثل المجنون، ويخاطر بملكه، وكان بإمكانه أن يربط عبداً من عبيده أو أحد أتباعه ويضعه في التابوت، فهذه كلها وجوه للرد، وأن الإنسان لا يمكن أن يقبل مثل هذه المبالغات، وعلى هذه القراءة {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، يعني: هذا لبيان شدة المكر أنه كادت الجبال تزول منه، وعلى هذه الرواية التي ذكرها أصلاً لا يصنع خفقان النسرين بالنسبة للجبال شيئاً، وعلى هذه القراءة {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ} لبيان شدة مكرهم، ويقال: حتى في هذه القراءة المشهورة {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، فسر {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ} يعني: لشدته {لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، يعني مكروا مكراً شديداً من شأنه أن يزيل الجبال لو وُجه إليها، وهذا هو المتبادر، يعني من شدة مكرهم، فإنه مكر كُبَّار عظيم يزيل الجبال، والعرب تعبر بمثل هذا، والله -عز وجل- يقول: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [سورة مريم:٨٩-٩٠]، فالكفر يقال عنه مثل هذا والكيد والمكر الشديد، هذا معنى، والمعنى الثاني يقابله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، باعتبار أن "إن" هنا نافية بمعنى "ما"، {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ}أي: وما كان مكرهم لتزول منه، مكرهم ليس بشيء، لا قيمة له، عكس المعنى الأول.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بُخْتنصَّر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصوّب الرماح فصوبّت النسور.

ففزعت الجبال من هدتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}.

ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها: {لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ} بفتح اللام الأولى وضم الثانية.

{لَتَزُولُ}، وهي قراءة الكسائي.

وروى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} يقول: شركهم، كقوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي شركهم، كقوله**: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ}"، أي شركهم، فيحتمل أن تكون "إن" هذه مخففة من الثقيلة، بمعنى أنها ليست نافية، {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، ويكون هذا بياناً لشدة مكرهم، أنه كاد يزيل، أو من شأنه أن يزيل الجبال، يعني يبلغ الكيد إلى حد أنه لو وُجه إلى جبل لأزاله، والمقصود بمكرهم هو افتراؤهم على الله، وحربهم لرسله -عليهم الصلاة والسلام-، وشركهم بالله -عز وجل-.

لكن كلام ابن جرير يوجه الآية ويفسرها باعتبار أن ذلك لبيان ضعف أثر مكرهم، فلا يضرون إلا أنفسهم، وما يضرون الله شيئاً، ومكرهم لا أثر له، والله -تبارك وتعالى- يبطله، فمكرهم ماذا سيصنع؟ لن يزيل الجبال، تحقيراً لهم ولما يبذلون، كالذي ينفخ على الشمس من أجل إطفائها، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [سورة الصف:٨].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم(٤٧-٤٨)].

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: {فَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، ولهذا قال: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ ليس فيها معلم لأحد))[١].

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [(٤٨) سورة إبراهيم] قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: ((على الصراط))[٢]. رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: إن ثوبان -رضي الله تعالى عنه- مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدثه قال: كنت قائماً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن اسمي محمدٌ الذي سماني به أهلي)) فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أينفعك شيءٌ إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعود معه فقال: ((سل)) فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هم في الظلمة دون الجسر)) قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: ((فقراء المهاجرين))، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ((زيادة كبد النون)) قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: ((ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها)) قال: فما شرابهم عليه؟ قال: ((من عين فيها تسمى

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٥ / ٢٣٩٠)، برقم (٦١٥٦)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٤ / ٢١٥٠)، برقم (٢٧٩٠).

[٢] - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٤/٢١٥٠)، برقم (٢٧٩١).

سلسبيلاً))، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: ((أينفعك إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد، قال: ((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة، أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل، أنّثا بإذن الله)) قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به))[٣].

وقوله: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ} أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله، {الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأورد ابن كثير –رحمه الله– في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [سورة إبراهيم (٤٨)] حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي))، والمقصود بقرصة النقي، أي: الدقيق الأبيض الذي يقال له: الحواري.

ومعنى التبديل في قوله –تبارك وتعالى- **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}** أي: تبديل الذات، فتبدل أرضاً أخرى غير هذه الأرض، ويحتمل أن يكون معنى التبديل من قبيل تبديل الصفات، وهذا عليه أكثر العلماء، والآية تحتمل المعنيين، وقد أخبر الله -تبارك وتعالى- عن تسيير الجبال، وبروز الناس لرب الناس، فإذا تأمل الإنسان النصوص في هذا الباب يجد أن المقصود بالتبديل هو تبديل الصفات.

وقول النبي –صلى الله عليه وسلم– ((هم في الظلمة دون الجسر)) يَحتمِل احتمالاً قوياً أن المقصود بالتبديل هو تبديل الذات، مع أنه لا يمتنع أن يكون المقصود به تبديل الصفات، وعندئذ يُنقلون منها، والله تعالى أعلم.

قوله: ((زيادة كبد النون)) يعني: الحوت.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل...))، يثبت أن الإنسان يخلق من مجموع الماءين، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: **{فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}** [الطارق:٥-٧]، وقد قال كثير من أهل العلم: إن خلْق الإنسان هو من صلب الرجل وترائب المرأة وهو عظام الصدر، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شبه الولد لأمه، فعن أم سلمة -رضي الله عنها- أن أم سليم قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟، قال: ((نعم إذا رأت الماء)) فضحكت أم سلمة، فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم – ((فبم شبه الولد؟))[٤].

---

[٣] - رواه مسلم، كتاب الحيض باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (١ / ٢٥٢)، برقم (٣١٥).

[٤] - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك وقالت فاطمة -عليها السلام- أسر إلي النبي -صلى الله عليه وسلم- فضحكت وقال بن عباس إن الله هو أضحك وأبكى (٥/٢٢٦٠)، برقم (٥٧٤٠).

والعجيب أن الأطباء المعاصرين إلى الآن ما توصلوا إلى أن الولد يخلق من ماء الرجل وماء المرأة، ويقولون: إن المرأة ليس لها ماء أصلاً، وغاية ما هنالك أن الحيوان المنوي يلقح البويضة، وليس هناك علاقة بين ماء المرأة وماء الرجل.

قوله: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم(٤٩-٥١)].

يقول تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم {مقرّنين} أي: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات(٢٢)] وقال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير(٧)]، وقال: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان(١٣)]، وقال: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [ص(٣٧-٣٨)] والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

وكان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وربما قرأها {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرٍ آنٍ} أي: من نحاس حار قد انتهى حره، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ} [إبراهيم:٤٩] يحتمل أن يكون المعنى أن المجرم يقرن بغيره من المجرمين، وهذا هو قول العلامة ابن كثير -رحمه الله-، ويحتمل أن يكون المعنى أن المجرم قرن وربطت يداه إلى رجليه.

وقوله: {سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ} [إبراهيم(٥٠)] أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي: تطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار.

يحتمل أن تكون كلمة "قطران" كلمة واحدة، وهو القطران المعروف الذي تطلى به الإبل، ويحتمل أن تكون كلمتين "قطر" و"آن" أي: حار، والمقصود به النحاس المذاب الحار، وهذا مثال على أحد الأسباب التي جعلت العلماء -رحمهم الله- يختلفون في عد كلمات القرآن.

وقوله: {وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} كقوله: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}، وقال الإمام أحمد -رحمه الله-: حدثنا يحيى بن إسحاق قال: أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب))[٥]. انفرد بإخراجه مسلم.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (٢ / ٦٤٤)، برقم (٩٣٤).

وقوله: {لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} [إبراهيم(٥١)] **أي: يوم القيامة كما قال: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}** [النجم(٣١)] **الآية، {إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [إبراهيم(٥١)] **أي: في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}** [لقمان(٢٨)]**، وهذا معنى قول مجاهد: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} إحصاءً.**

قوله: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} مع كثرة الخلق، فإن الله –عز وجل– سريع في محاسبتهم، فلا يطول الحساب بسبب كثرة الخلائق، فالله -تبارك وتعالى- علمه محيط، وهو على كل شيء قدير، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق.

قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [إبراهيم(٥٢)]**، يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: {لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}** [الأنعام (١٩)] **أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [إبراهيم(١)].

{وَلِيُنذَرُواْ بِهِ} أي: ليتعظوا به، {وَلِيَعْلَمُوَاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو {وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} أي: ذوي العقول.

قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ} أي: هذا القرآن، وهو اختيار ابن كثير وابن جرير والشنقيطي وغيره من أهل العلم، وقال بعضهم: هذه السورة، وقال بعضهم: هذا المقطع من السورة، من قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم(٤٢)] إلى قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسيره:

تفسير سورة الحجر. وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

{الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مّبِينٍ * رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر:١-٣].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: {رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ} الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار، وروى ابن جرير أن ابن عباس وأنس بن مالك -رضي الله تعالى عنهم- كانا يتأولان هذه الآية {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}.

وقوله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا} تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [سورة إبراهيم:٣٠]. **وقوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}** [سورة المرسلات:٤٦]؛ **ولهذا قال: {وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ} أي: عن التوبة والإنابة، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} أي: عاقبة أمرهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، ثم ذكر القرآن بعده {وَقُرْآنٍ مّبِينٍ}، بعض أهل العلم فسر الكتاب بجنس الكتب المتقدمة التي أنزلها الله -عز وجل- كالتوراة والإنجيل وغيرها، قالوا ذلك من أجل أن لا يكون تكراراً مع ذكر القرآن، وقيل: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} المقصود هذه السورة، وقيل: إن المراد {آيَاتُ الْكِتَابِ} آيات هذا القرآن، قال: {وَقُرْآنٍ مّبِينٍ} فالله -تبارك وتعالى- تنويهاً بشأنه وإعظاماً لذكره ذكر هذا وهذا من صفته، فإن أسماء القرآن -كما يقال في أسماء الله -عزوجل- أسماء وأوصاف، فكل اسم يدل على صفة، فالكتاب هو المكتوب، والقرآن هو المقروء، الذي جمع الله -عزوجل- فيه الهدى من التوحيد والأخبار والقصص والأحكام والآداب وما إلى ذلك، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الكتاب والقرآن كله شيء واحد، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد -صلى الله عليه وسلم-، {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مّبِينٍ}، ثم قال:

{رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ}، "رُبَما" قرأ نافع وعاصم بالتخفيف، وقرأ الجمهور بالتشديد "ربَّما"، والقراءة الأولى هي لغة أهل الحجاز، والقراءة الثانية هي لغة تميم ومن وافقهم، والمعنى في القراءتين واحد، وهذه اللفظة تأتي للتقليل، تقول: ربما يجود البخيل، وقد تأتي للتكثير؛ لذا فإن المفسرين منهم من حمل ذلك على التكثير، {رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ} أي: يكثر منهم ذلك، ومن حمله على التقليل خصّه بموطن معين، والذي يظهر - والله تعالى أعلم- أن الآية تحمل على الجميع، فمن السلف من قال: إن ذلك حينما قتلوا في يوم بدر، ولا شك أنهم أدركوا وعرفوا وعاينوا من الحقائق ما عرفوا به حقيقة ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد خطبهم فقال: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً))[1]، فالكافر يندم عند المعاينة، إذا خرجت روحه، وكذلك أيضاً يندم إذا جاءه الملكان في القبر، كما يندم عند البعث والحساب، فهو في القبر يقول: ((رب لا تقم الساعة، رب لا تقم الساعة))[2]، والله -عز وجل- يقول: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}[سورة الممتحنة:١٣]، فإن أحد المعنيين المشهورين في تفسير هذه الآية يعني: كما يئس الكفار الذين قبروا من رحمة الله -عز وجل-، وقوله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ}، الأمر يأتي لعدة معانٍ، وهذا الموضع هو للتهديد والوعيد كمن يقول مثلاً: افعل ما شئت فستجد جزاءك، وهكذا، والله أعلم.

{وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاّ وَلَهَا كِتَابٌ مّعْلُومٌ * مّا تَسْبِقُ مِنْ أُمّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}[سورة الحجر:٤-٥].

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

{وَقَالُواْ يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ * لّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ * مَا نُنَزّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاّ بِالحَقّ وَمَا كَانُوَاْ إِذاً مّنظَرِينَ * إِنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[سورة الحجر:٦-٩].

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: {يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ} أي: الذي تدعي ذلك، {إِنّكَ لَمَجْنُونٌ} أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا.

قوله: {وَقَالُواْ يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ}، قيل: هم لا يؤمنون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نزل عليه الذكر، وإنما يخاطبونه بحسب زعمه، والخطاب في القرآن أحياناً يأتي بحسب نظر المخاطب، وإن كان المتكلم لا يؤمن به، وإنما بحسب نظره، سواء كان حقاً أو باطلاً، فخاطبوه بقولهم: {يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ} هم لا يؤمنون بأنه نزل عليه الذكر، وهو حقيقة نزل عليه الذكر، فهذا بحسب نظر المخاطب مع أنه حق، لكن المتكلم لا يعتقده، مثل قول فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ

---

١ - رواه النسائي برقم (٢٠٧٤)، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، وأحمد في المسند (٢٣٧/٢٠)، برقم (١٢٨٧٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في المستدرك (٢٤٩/٣)، برقم (٤٩٩٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، باب ذكر مناقب أبي حذيفة، وصححه الألباني في صحيح فقه السيرة (٢٥٠).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند (٥٠٣/٣٠)، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}[سورة الشعراء:٢٧]، مع أنه لا يؤمن أنه رسول، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- عن قوم شعيب: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[سورة هود:٨٧]، هم على أحد القولين في الآية، فقيل: إنهم قالوا: {الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} تهكماً به، وقيل: كانوا يعتقدون فيه أنه حليم رشيد، فكيف صدر منك مثل هذا الشيء الذي يخالف ما عرف من خلقك؟، والله -عزوجل- يقول لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طـه:٤٤] يعني: على رجائكما، وإلا فالترجي لا يقع من الله -عز وجل-، فهذا أحد الأقوال في توجيه دخول "لعل" في كلام الله -عزوجل- في هذا الموضع، يعني بحسب نظركما، كما قال الله -عز وجل- عن يونس -عليه الصلاة والسلام-: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧]، مع أن الله يعرف كم عدد هؤلاء بدقة، ولكن بحسب نظر المخاطب إذا نظر إليهم، هذا على أحد الأقوال في تفسير الآية وتوجيهها، إذا نظر إليهم المخاطب فإنه يقول: هم مائة ألف أو يزيدون، وهكذا أمثلة وأنواع كثيرة.

{لَّوْ مَا} أي: هلّا، {تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ} أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من الصادقين، كما قال فرعون: {فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}[سورة الزخرف:٥٣]، {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً}[سورة الفرقان:٢١-٢٢]، وكذا قال في هذه الآية: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، وقال مجاهد في قوله: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ} بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

قوله: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، يعني {إِلَّا بِالْحَقِّ}: إلا نزولاً متلبساً بالحق، ومعنى النزول الذي يكون بالحق، أي ينزلون بالوحي والرسالة أو ينزلون بالعذاب، وهو الذي يختص بهم، ويتعلق بهؤلاء المقترحين؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، فإذاً، نزّل الملائكة، كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً}.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [سورة الحجر:١٠-١٣].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس -رضي الله تعالى عنه- والحسن البصري: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: الشرك.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، الشِّيَع: أصل هذه اللفظة من شاعه إذا تبعه، فالشِّيَع: هي الأمم التي يجتمع بعضها إلى بعض، ويتبع بعضها بعضاً، جمع شيعة، وهي الطائفة التي تجتمع على أمر يتبع بعضها بعضاً فيه، فهؤلاء يقال لهم: شيعة أو من شيعته فلان، {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ}[سورة الصافات:٨٣] يعني: من أتباعه وأنصاره، والمقصود {فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ} يعني: في أممهم وطوائفهم، يعني في الأقوام

السابقين، ثم في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، الضمير في قوله: {نَسْلُكُهُ} يرجع إلى الشرك كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**قال أنس والحسن يعني: الشرك**"، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}؛ لأن الله قال: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} يعني: يكفرون بدينه ويسخرون منه، لحكمة أرادها الله -تبارك وتعالى-، والله يقول: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}[سورة الأنعام:١١٦]، وبعضهم قال: إن الضمير يرجع إلى الاستهزاء، {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ} أي: الاستهزاء {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، كلما جاءهم رسول استهزءوا به، وسخروا منه، ولا يخفى أن بين المعنيين ملازمة، فالاستهزاء لا شك أنه كفر، وهو مظهر من مظاهر كفرهم وتكذيبهم لأنبيائهم، وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: يعني الذكر؛ لأن الله قال قبله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني الذكر، {نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} مكذَّباً به لا يدخل قلوبهم إلا على وجه التكذيب والكفر والاستهزاء والسخرية، وبعضهم يقول: المراد بـــ {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ}: أن هذه سنة الله -تبارك وتعالى- بالمجرمين، يعني كما فعلنا بالمجرمين الذين استهزءوا، نسلك الضلال في قلوب المجرمين، والآية تحتمل المعنيين، وابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك بالاستهزاء، والأقرب منهما إذا احتيج إلى الترجيح أن المقصود به الاستهزاء؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: الاستهزاء، والقول بأن المقصود به الذكر غير بعيد، يعني القرآن، يأخذونه مأخذ المستهزئ، ولا يأخذونه مأخذ المؤمن المصدق الذي يعظم القرآن، ويعتقد أنه كلام الله -تبارك وتعالى- ويمكن أن يجمع بين هذه المعاني لوجود الملازمة بينها، {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: الذكر وهو القرآن، مستهزءاً به على وجه التكذيب والكفر، -والله تعالى أعلم-.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- جمع بين هذه المعاني، فقال -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} الآية: "وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة الشعراء:١٩٨-٢٠١]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط". وقال أبو إسحاق: "أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين". واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: {نَسْلُكُهُ} فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "سلكنا الشرك". وهو قول الحسن، وقال الزجاج وغيره: "هو الضلال". وقال الربيع: "يعني الاستهزاء". وقال الفراء: "التكذيب". وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم. وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: {لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} هو الضمير في قوله: {سَلَكْنَاهُ}، فلا يصح أن يكون المعنى لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر

اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن، فإن قيل: فما معنى سلْكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلَكَه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به فدخل في قلوبهم مكذَّباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدَّقاً به.

وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم، فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدَّق به مؤمَن به مرضيّ به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب"[٣].

---

[٣] - انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن القيم الجوزية (٦١-٦٢)، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر - بيروت، سنة النشر: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [سورة الحجر:١٣] أي: قد عُلم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٤-١٥].

يخبر تعالى عن قوّة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل قالوا: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سُدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أُخذت أبصارنا، وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا. وقال ابن زيد: {سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، السكران الذي لا يعقل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمله على معنى الهلاك الذي يحل بالمكذبين، فعل الله بهؤلاء كما فعل بمن قبلهم، أو أنه يجري عليهم ما يجري على من قبلهم، وهذا معنىً له نظائر في القرآن، ومن أهل العلم من قال: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} يعني: في أن سلَكَ الكفر والضلال في قلوبهم، {لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، فالأولون كلما جاءهم رسول كذبوه، وقالوا: ساحر أو مجنون، ومن أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- من جمع بين المعنيين، وقال: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} أي: دأبهم وعادتهم في تكذيب أنبيائهم، وما يفعله الله -تبارك وتعالى- بهم من الإهلاك.

يقول: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**يخبر عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق**"، هؤلاء الذين يكابرون لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات، {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ}، ظلوا يصعدون إلى السماء لما آمنوا، فسيقولون مكابرة: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، وبعض السلف يقول: {فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ} يعني: الملائكة، فيكون الضمير قد عاد إلى غير مذكور، لكنه قد يفهم باعتبار أن الملائكة هم الذين يصعدون، والسماوات لها أبواب، فلو رأوا الملائكة تصعد إلى السماء فإنهم لا يؤمنون، {لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا} على القراءتين المتواترتين، {لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرِت}، و{إِنَّمَا سُكِرَتْ}، وبعضهم يقول: إن القراءتين بمعنىً واحد، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جاء بأقوال السلف، فمنهم من يقول: سُدت أو أخذت، ومنهم من يقول: سحرنا، وذكر بعضهم السكر، {سُكِرَت} و{سُكِّرَت}، بحيث صاروا لا يرون، أخذت منهم الأبصار، أو سدت،

فإنهم سيكابرون غاية المكابرة، ويقولون -لو صعدوا-: سحرنا محمد، كما أنهم لما رأوا القمر قد انشق قالوا أيضاً: سحرنا، هذان معنيان ذكرهما السلف، وأما ما يَذكره بعضُ من يتكلم على الإعجاز من أن المقصود بالآية أنهم يصيرون إلى ظلمة بعد مفارقة الغلاف الجوي فهذا غير مراد، ولم يقل به أحد من السلف، والقرآن إنما يخاطب الناس بما يفهمون وما يعهدون، ولا يخاطبهم بشيء لا يخطر لهم على بال، ولا يدور في خيال.

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيّنّاهَا لِلنّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلّ شَيْطَانٍ رّجِيمٍ * إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مّبِينٌ * وَالأرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ شَيْءٍ مّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}[سورة الحجر:١٦-٢٠].

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب. قلت: وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} [سورة الفرقان:٦١] الآية.

وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور الحرس. وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين؛ لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح.

قوله: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السّمَاءِ بُرُوجاً} أصل مادة البروج يدل على الظهور والانكشاف، ومنه يقال: البرج؛ لظهوره وانكشافه، ومنه قيل للمرأة التي تمشي في وسط الطريق أو بين الرجال أو تظهر محاسنها، قيل لها: متبرجة، فالبروج فسره بعض أهل العلم بالكواكب السيارة، وبعضهم فسره بالمنازل، منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي اثنتا عشرة منزلة معروفة، هي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، إلى آخر ما تعرفون، وبعضهم قال: هذا هو المراد، ونقل عن عطية العوفي: البروج هي قصور الحرس، ربما يقصد بذلك أن معناها اللغوي يطلق على قصور الحرس، أو الأماكن التي تكون للحرس، ولا يُفهم من القصر ما نفهم منه اليوم، فهم لا يقصدون به هذا، القصر اليوم نحن نطلقه على البناء الكبير، والمسكن الكبير، والقصر في لغة المتقدمين يطلقونه على البناء الذي يكون من الحجارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فيقال له: برج، هذا تفسير له بالمعنى اللغوي، ولعله يقصد التفسير بالمعنى اللغوي؛ ليبيّن أن هذه الشهب هي بمنزلة تلك البروج التي يحرس فيها المكان، فهذه الشهب حراسة للسماء، يقول: وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين؛ لئلا يسمعوا للملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، قال: {وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلّ شَيْطَانٍ رّجِيمٍ * إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السّمْعَ}، يمكن أن يكون الاستثناء منقطعاً، بمعنى "لكن"، أي لكن من استمع، يعني حُفظت من كل شيطان رجيم، والشيطان: كل عاتٍ متمردٍ فهو شيطان، من شَطَنَ

أي: بَعُدَ، أو من شاط يشيط كما يقول بعضهم: شاط يشيط إذا عتى وتمرد، فكل عاتٍ متمرد عند العرب من الإنس والجن وغيره شيطان كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكلب الأسود شيطان))[1].

أيام يدعونني الشيطانَ من غزل *** وكن يهوينني إذ كنت شيطاناً

و:

أيما شاطنٍ عتاه عكاه *** ثم يلقى في القيد والأكبال

هذا مدح لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، ويقول: إنه كان يقيد هؤلاء المردة والشياطين، كما قال الله -عز وجل-: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [سورة ص:٣٨]، فمن استرق السمع فإنه يرمى بهذه الشهب، {شِهَابٌ مُّبِينٌ} يمكن أن يكون المبين بمعنى بيّن ظاهر للأبصار، يُرى ويشاهد هذا الشهاب كما نشاهده، ويمكن أن يكون المراد {شِهَابٌ مُّبِينٌ} أي: ظاهر أثره فيمن وقع عليه، فيقتله، أو يحرقه، أو يخبّله، أو نحو ذلك، والعلماء مختلفون في هذه الشهب، هل تقتل هؤلاء الشياطين أو أنها تصيبهم بشيء من الحرق، أو نحو ذلك لكنها لا تقتلهم، فيلقي لمن بعده وهكذا حتى يصل إلى الكاهن ما يتلقونه؟، جاء في حديث عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على أن الملائكة تنزل في العنان، يعني في السحاب، وأن مسترق السمع يخطف الكلمة عندما يتحدثون بالشيء من أمر الوحي أو من أمر السماء، فيخطفها مسترق السمع، قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} يحتمل أن يكون المقصود بالسماء السقف المرفوع، وأن الشياطين يصلون إلى هناك، ثم بعدُ يرمون بالشهب، ويحتمل أن يكون المراد مطلق العلو، فالعرب تطلق السماء على ما علا وارتفع، فسماء الدار سقفها، والسحاب سماء، والله -عز وجل- يقول: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [سورة المؤمنون:١٨] يعني: من السحاب، فيحتمل أنهم يصعدون إلى ناحية السحاب ويخطفون السمع، ويحتمل أنهم يصلون إلى ما هو أعلى من ذلك، فيرمون بهذه الشهب، فذكر الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} زيناها بالنجوم والكواكب، {وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}، وبعض أهل العلم يجزم ويقول بأن هذه الشهب لا تقتلهم، وليس عليه دليل، وكون هؤلاء قد يخطفون الكلمة وتصل يُفهِم أنه قد لا تصيبهم الشهب، وقد تصيبهم ولا تقتلهم، لكن الجزم هكذا دائماً بأنها تصيبهم ولا تقتلهم هذا يحتاج إلى دليل، والله أعلم.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- يبلُغُ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان))[2]، قال عليٌّ وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، -ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض- فربما أدرك الشهاب

---

١ - رواه مسلم برقم (٥١٠)، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي.

٢ - رواه البخاري برقم (٤٤٢٤)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر.

المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدَّق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سُمعت من السماء.

يقول بعض أهل العلم كابن قتيبة وابن القيم: الناس يتعلقون بالمرة الواحدة التي يجدونها موافقة للواقع وينسون كل ما كان قبلها من عشرات الأخطاء، سواء ذلك في كلام هؤلاء الكهان أو كلام من أشبههم ممن يتنبئون بأمور غيبية، فإذا أصاب مرة وقع ذلك في نفوسهم، وتناقلوه، وتحدثوا به، والمرات الأخرى التي كثيراً ما يخطئ فيها ينسونها جميعاً، والله -عز وجل- يقول في هذا الموضوع أو في هذه القضية بعينها عن الجن، يقول: **{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}**[سورة الجن: ٨]، فهذا قد يفهم منه أنهم يصلون إلى ما فوق السحاب، فتارة تنزل الملائكة إلى السحاب، وهؤلاء يسترقون السمع، وتارة هؤلاء الجن يصلون إلى ما هو أعلى من ذلك، **{فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}** وهذه الشهب كان يرمى بها في الجاهلية، قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكنَّه كثف وكثر لما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستغرب الجن، وتساءلوا ما سبب ذلك **{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}** [سورة الجن:١٠].

والشنقيطي -رحمه الله- أطال الكلام على الذين يحاولون الصعود إلى القمر والكواكب أنهم كذبة، وأنهم لا يستطيعون ذلك، وتكلم على معنى الشيطان وأنه كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والحيوانات، وأن هؤلاء الذين يحاولون الصعود شياطين، وأنهم سيرمون بالشهب إذا حاولوا وصعدوا، ولن يستطيعوا الصعود، وسيرجعون خاسئين كما رجع الجن قبلهم، وفسر قوله تعالى: **{جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ}** [سورة ص:١١]، وقال: إن هذا التعبير **{جُندٌ مَّا هُنَالِكَ}** بالإشارة للبعيد يدل على أن المقصود بذلك هؤلاء ومن شابههم، ولكن الآية قد لا تدل على هذا **{جُندٌ مَّا هُنَالِكَ}**، فهذه الآية نزلت في مكة وكانت علامة تصديق في غزوة بدر، والشنقيطي -رحمه الله- لا ينكر هذا، لكن يقول: فيها زيادة معنى، وهذا هو الفرق بين كلام العلماء وبين كلام غيرهم يتركون المعاني التي قالها السلف ثم يأتون بمعنىً آخر يخالفها، فهو يثبت المعنى الذي قاله السلف، ويقول: وفيه زيادة تدل على هذا وهذا، وتكلم بكلام طويل على الذين يفسرون القرآن بالحقائق العلمية، وأتى بأمثلة، وردها، وكلامه فيه ما هو مقبول وصحيح، وفيه ما لا تدل عليه الآية، وقضية مكان القمر هل هو في السماء أو في الفضاء؟، الشنقيطي رحمه الله يقول بأن القمر في السماء، وليس في الفضاء، واستدل بقول الله -عز وجل-: **{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [سورة نوح:١٦]، **{فِيهِنَّ}** يعني: في السماوات، وفهم من هذا أنه في نفس السماء وليس في الفضاء، وهذا قد لا يكون هو المراد بالآية، وكون هؤلاء وصلوا أو ما وصلوا إذا استطاعوا أن يثبوا هذا الكلام فليس هناك ما يمنع، وهؤلاء على كلامهم -أن القمر يعتبر قريبا- فأين السماء من القمر؟، لكن إلى الآن لا نعرف ما يثبت أنهم وصلوا إلى القمر، ورد عليهم بعض علماء الفلك من الغربيين، وقال: إن هذه الصور التي التقطوها هي صور في صحراء، أظن قالوا: نيفادا، واستدلوا على هذا بأشياء، وقالوا: القمر ليس له ظل أصلاً، واستدلوا

بأن العلم كان يرفرف، قالوا: القمر لا يوجد فيه هواء، فالصورة دبلجت وعملت بشكل متقن، ثم إنهم على ولعهم وشغفهم بالاكتشافات وحرصهم عليها لماذا لم يذهبوا إلا مرةً واحدة؟، فهذا أمر يبعث الشك، والله تبارك وتعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قول الله -جل وعلا-: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [سورة الحجر:١٩].

قال: ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} **أي: معلوم، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة.**

وقوله: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}[سورة الحجر:٢٠] **يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة، وقوله:** {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [سورة الحجر:٢٠] **قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورِزْقُهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ}، قال: "أي: **معلوم**"، وبعضهم فسره {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} أي: مقدر، يعني أنزله الله -عز وجل- بقدر قدّره، وبعضهم قال: أي: معدود، وبعضهم يقول: مقسوم، وبعضهم يقول: بميزان {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} أي: بميزان الحكمة، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وهي من اختلاف التنوع، أنزل من كل شيء موزون يعني أن الله لم ينزل هذه الأشياء بلا تقدير، وإنما أنزل ذلك وفق حكمته -سبحانه وتعالى- بقدر قدّره، يعلم أن المصلحة والحكمة تقتضيه، كما قال سبحانه: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ} [سورة الشورى:٢٧]، هذا في أرزاق الناس، وهكذا ما ينزل عليهم من المطر وغير ذلك إنما هو بقدر قدّره الله -عز وجل- فلا ينزل في محل، ولا ينزل قطرة إلا بقدر، فيوجد نوع من الغزلان مثلاً في بعض الأماكن في أمريكا، هذه الفصيلة تتغذى على نباتات موجودة في تلك الناحية، ولكنها تتكاثر بسرعة، فكان يوجد نمور تفترس هذه الغزلان، فقاموا بقتل كثير من هذه النمور، فتكاثرت الغزلان جداً، وأكلت كل هذا النوع من النباتات، ولم يبق شيء، فصارت تتساقط وتموت بكميات كبيرة، فالله -عز وجل- نزل هذه الأشياء بقدر معلوم، بقدر معلوم متوازن، فكل هذه المعاني التي ذكرها السلف سواء من قال: بميزان الحكمة، أو

قال: بقدر الحاجة، أو قال: معدود، أو قال: مقسوم، كلها معانٍ متقاربة، وبعضهم يقول: الموزون: هو المحكوم بحسنه، كما تقول: هذا كلام موزون، فلان كلامه موزون أي ليس فيه ما يعاب عليه وكلامه حسن مرتب، لا خطل فيه ولا شطط ولا خلل، وهذا المعنى لا ينافي المعاني السابقة، فإذا كان الشيء مقدراً موزوناً بميزان الحكمة، فهذا مثل قول الناس: هذا قول موزون، كلام موزون، فلان هذا يزن فعله، يزن تصرفاته أي أنه يضبطها، فتكون على وجه حسن، وقال: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}، يقول الحافظ ابن كثير: "**المعايش جمع معيشة**"، وهذا الكلام الذي ذكره الحافظ -رحمه الله-، الكلام الذي قبله يبيّن مراده، قال: "**يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة**"، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- جعل الأرض صالحة للحرث، وأودع فيها من المعادن وغير ذلك من الأمور التي ينتفع بها الناس، فيتصرفون فيها بألوان التصرفات فتقوم معايشهم في هذه الحياة الدنيا، والمعنى الثاني: أن المقصود بالمعايش المطاعم والمشارب، وما يأكله الناس، يعني جعل فيها ما يعيش عليه الإنسان من الطعام والشراب، هذا المعنى الثاني، والآية تحمل المعنيين، وكل ذلك صحيح -والله تعالى أعلم-، فالله جعل هذه الأرض مهيأة بحيث تقوم عليها معايش الناس ومصالحهم، كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[سورة الملك:١٥]، فذللها لهم من أجل أن يتنقلوا عليها ويعملوا فيها من أجل تحصيل أرزاقهم وأقواتهم، والمعنى الثاني: جعل فيها ما تقوم عليه حياتهم من الطعام والشراب وهذا كله حاصل وواقع، وكله داخل في هذه المعايش، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، فسرها كثير من السلف بمعنى: لا تقومون برزقهم، وإنما الله -تبارك وتعالى- هو الذي يرزقهم، من الدواب التي تركبونها، أو تأكلونها، وكذلك قول من قال: الوحوش والسباع، يعني جعل الله -عز وجل- لها في الأرض معايش، وكذلك العبيد، الإماء، {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، فقوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} "مَن" هذه تفيد العموم، وهي وإن كانت تستعمل للعاقل إلا أنه يمكن أن يدخل فيها غير العاقل تغليباً للعاقل، فالله -تبارك وتعالى- جعل في هذه الأرض معايش تقوم عليها حياة الناس، وجعل فيها معايش تقوم عليها حياة غيرهم ممن لا يرزقونهم، بل قد لا نعلمهم نحن من صنوف الحيوان، وغير ذلك من الحشرات والطيور، ومن أهل العلم من يفسر الآية بغير هذا، فيقول بأن قوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} الضمير يعود على محل لكم في قوله: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} يعني كما جعلنا لكم فيها معايش جعلنا فيها من لا تقومون برزقهم، فجعل الأمرين، جعل المعايش وجعل هؤلاء من العبيد والإماء والدواب، والفرق بين المعنيين ظاهر.

{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[سورة الحجر:٢١-٢٥].

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، {وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} كما يشاء وكما يريد، ولِمَا له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة، قال يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة عن

عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه بينهم حيث شاء عاماً ههنا وعاماً ههنا، ثم قرأ: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} الآية، رواه ابن جرير.

قوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} بمعنى أنه مالك لكل شيء، خزائن السماوات والأرض بيده -تبارك وتعالى-، وبعضهم فسر الخزائن بالمفاتح، فمفاتح الرزق كلها بيده -تبارك وتعالى-، وإذا كانت مفاتح الرزق بيده فإن خزائنها بيده، وبعضهم خص ذلك بالمطر {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}، وهذا وإن اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، إلا أنّ أول الآية يدل على العموم، {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} يعني ما من شيء إلا عندنا خزائنه، فخزائن جميع الأشياء بيده -تبارك وتعالى- {وَمَا نُنَزِّلُهُ} الضمير في قوله: {ننزله} لا يختص بالمطر، وما ذكره بعض السلف فيما يتعلق بالمطر، وما أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- كل ذلك لا يعني الحصر، {وَمَا نُنَزِّلُهُ} أي: الرزق الذي منه المطر.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

"الرياح" على قراءة الجمهور، وقرأ حمزة: "الريح"، {أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}، ومما اشتهر في كلام بعض المتقدمين أن الريح إذا جاءت في القرآن فهي للعذاب، والرياح بخلاف ذلك، والإطلاق غير صحيح، ومما يرده هذه القراءة المتواترة، فليست هذه للعذاب، وكذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ}[سورة يونس:٢٢]، فذكر الريح الطيبة، ويمكن أن يقال: الغالب أن الريح تستعمل لما يكون عذاباً، والرياح لغير ذلك، {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} قال: "أي: **تلقح السحاب**".

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمري السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة.

اللقحة يعني الناقة، والناقة لا يستطيع أحد أن يأتي لها ويحلبها مباشرة، بل لا بد له أن يأتي إما بولدها ويجعله يبدأ في رضاعها أو يشمشم ضرعها أو نحو هذا فتبدأ تدر، أو يبدأ يمسح على ضرعها حتى تتهيأ ثم تدر.

وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وإبراهيم النخعي وقتادة.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمري السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة**"، فتدر يعني تخرج هذا المطر، وكذلك يقال في كلام العرب: مرت اللقحة إذا جمعت ماء الفحل في جوفها، فهذا السحاب الرياح تلقحه فيجمع المطر، هذا معنى، والمعنى الثاني: أن الرياح تلقحه بمعنى يكون ذلك كالمري فيدر، فالسحاب لا يكون منه المطر إلا إذا لقحته الريح، وبعض العلماء فسر {الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} بأن الرياح تحمل السحاب، كما أن الناقة يقال لها: لقحة لأنها تحمل في بطنها جنينها، فالرياح لواقح يعني تحمل السحب، والآية تحتمل المعنيين، لكن ظاهر اللفظ {لَوَاقِحَ} يدل على أنها تلقحه كما تلقح أيضاً الأشجار، وإن كان يحتمل المعنى الآخر.

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء.

بعض أهل العلم حمله على هذه المعاني، فاللفظ يحتمل هذا وهذا، **{الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}** يعني: تحمل كما أن الناقة تحمل اللقحة، قيل لها ذلك لحملها مثلاً، وهي أيضاً تلقح السحاب والشجر، فدل القرآن على أنها تحمل السحاب، فكل هذا داخل في قوله: **{لَوَاقِحَ}**، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أنها تقوم بحمل السحاب، وتقوم أيضاً بتلقيحه، كما قال الله -عز وجل-: **{أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً}**، أقلّته بمعنى حملته، ويقول الهذلي:

شَرِبْنَ بماء البحر حتى ترفّعتْ *** متى لُجَجٍ بيضٍ لهنّ نَئيجُ

السحب: الذي يرفعها هو الريح.

وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقُمّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلّفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}.

قوله: **{الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}** الله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، أي أنها تلقح الأشجار وتلقح السحب، واللقاح بين الأشجار يحصل سواء ما نعلمه أو ما لا نعلمه من نباتات في الصحراء، يتم ذلك بالرياح، والإنسان إنما يلقح النخيل من الأشجار فقط، يأخذ من فحولها ويضع ذلك في إناثها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسيره لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [سورة الحجر:٢٢].

وقوله: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه، لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}[سورة الواقعة:٦٨-٧٠]**، وفي قوله: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}**[سورة النحل:١٠]**، وقوله: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} أي: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله مَعيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "أي: **أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه**"، ومن أهل العلم من يفرق بين هذه اللفظة "أسقيناكم" وبين "سقيناكم"، فيقول: أسقاه بمعنى أعطاه، يعني من الماء ما يكفيه لشربه ولزرعه وبهائمه وما إلى ذلك، كأن يُجري له نهراً أو ينزل له المطر أو غير ذلك، فأسقاه أبلغ وأكثر من سقاه، تقول سقيته ماءً يعني أعطيته قدر ما يرتوي به، وأسقيته أي جعلت له سقيا من نهر، أو مطر، أو بحيرة، أو غير ذلك، مما ينتفع به أكثر من مجرد ما يرتوي به من كأس ماء أو نحو ذلك، ومن أهل العلم من لا يرى فرقاً بينهما، والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيرها ظاهر بأنه يريد أن الله -تبارك وتعالى- إذا أنزله فإنه يحفظه لهم في باطن الأرض، وبعد ذلك يستخرج بالآبار، فلا يذهب ويضيع فلا ينتفعون به، والناس لا يستطيعون هذا، وهم أضعف من أن يفعلوا ذلك، {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} ويدل على هذا المعنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ}[سورة المؤمنون:١٨] بمعنى أنه جعل الأرض محلاً وظرفاً ووعاءاً له تستخرجونه وقت حاجتكم، والمعنى الثاني: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} أي: ليست خزائنه عندكم في أيديكم، وإنما خزائنه عند الله -عز وجل-، فهو الذي ينزل منه ما يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فخزائن الرزق عند الله جل جلاله، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ويدل له قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ

عِندَنَا خَزَائِنُهُ} [سورة الحجر:٢١]، وكذلك أيضاً {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة المنافقون:٧]، والآية تحتمل المعنيين.

وقوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ} [سورة الحجر:٢٣] إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم.

الله -تبارك وتعالى- يرث الأرض ومن عليها كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [سورة مريم:٤٠] بمعنى أن كل شيء يرجع إليه، فالله -تبارك وتعالى- هو الوارث، وما بأيدي الخلق إنما هو عارية، ثم بعد ذلك يرجع إلى المالك المعبود -سبحانه وتعالى-.

فقال: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ} [سورة الحجر:٢٤] الآية، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم -عليه السلام-، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم.

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذاكر محمد بن كعب في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ} الميت والمقتول، و{الْمُسْتَأْخِرِينَ} من يخلق بعد، {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [سورة الحجر:٢٥]، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، ثم قال: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[سورة الحجر:٢٥]، ما قبلها وما بعدها يوضح المراد، فقوله: {عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ} أي: مَن مضى، بعض السلف يقول: الأمم المتقدمة، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} يعني: هذه الأمة، ويمكن أن يفسر بما هو أعم من هذا فيقال: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ} أي: من مضى من الأمم والأفراد ممن هلك وفارق الحياة، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} يعني: الذين لا زالوا على قيد الحياة، أو أولئك الذين سيوجدون بعد ذلك، ثم قال: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ} يجمع الأولين والآخرين، كما قال الله -عز وجل-: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة:٤٩-٥٠]، فاستعمال مثل هذه الجملة في القرآن يرد لهذا المعنى في المتقدمين والمتأخرين في الوجود والحياة، والله -عز وجل- يقول: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}[سورة الأحزاب:٢٣]، {قَضَى نَحْبَهُ} جميع الأقوال التي قيلت فيها -والله تعالى أعلم- ترجع إلى شيء واحد، والمقصود أنه {قَضَى نَحْبَهُ} يعني: مات على الصدق والوفاء، {وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} أي: لا زال على قيد الحياة، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ} أي: في فعل الخيرات، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} الذين يتباطئون ويتثاقلون، وبعضهم يقول: في صف القتال، مستقدمين في صف القتال، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**عن عون بن عبد الله أنه ذاكر محمد بن كعب -يعني القرضي- في الآية، وأنها في صفوف الصلاة، وقال محمد بن كعب: ليس هكذا، وإنما الميت والمقتول**"، يعني من مضى وفارق الحياة ومن بقي، ولما قال له محمد بن

كعب القرضي: إن القرينة تدل على هذا، "**فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً**"، يعني كأنه حل الإشكال، جاء في الحديث عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه أنها في صفوف الصلاة، -والحديث صححه جماعة، منهم الشيخ أحمد شاكر والشيخ الألباني -رحمهما الله- وأن المقصود بالمتقدمين والمتأخرين أنه كانت تصلي في مقدم صفوف النساء امرأة جميلة، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، فكان بعضهم يتقدم من أجل أن لا يراها، يصلي في الأمام، وبعضهم يتأخر؛ من أجل أن ينظر إليها إذا ركع، وهذا صح إسناده، لكنه من أشكل المواضع في التفسير، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هذه الرواية في الأصل وقال: "**وهذا فيه نكارة شديدة**"، وبعض الذين يحققون ويكتبون استغربوا من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا القول وردوا عليه، وهم إنما ينظرون إلى الإسناد، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ينظر إلى المتن فرأى أن فيه نكارة؛ لأن السياق لا يدل على هذا إطلاقاً لا من قريب ولا من بعيد، فلو نظرنا إلى السياق لا يفهم منه أنه في صف الصلاة من أجل النظر إلى المرأة، إذ كيف يحصل هذا ممن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أوسطهم وهو إمامهم ويصلي بهم، وزكت نفوسهم بالقرآن، فهل يظن بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهم يأتون ويصلي منهم من يصلي آخر الصف؛ من أجل أن ينظر لهذه المرأة وهو راكع بين يدي ربي العالمين في هذه اللحظات، هذا لا يفعله أراذل الناس أو أسفه السفهاء، ثم إذا وقع هذا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مستحيل أن يترك من يعمل هذا من غير تأديب؛ فلهذا استنكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على ما هو أعم من ذلك، ولم يحملها على هذا المعنى بخصوصه.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ} [سورة **الحجر**:٢٦-٢٧].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس، والظاهر أنه كقوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} [سورة **الرحمن**:١٤-١٥]**، وعن مجاهد أيضاً: الصلصال المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى.**

قوله: {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} أي: الصلصال من حمأ، وهو الطين، والمسنون: الأملس.

مما تميز به تفسير ابن كثير -رحمه الله- تفسير القرآن بالقرآن، فالصلصال، إذا ضربته فإنه يكون له صلصلة؛ ولهذا قال بعضهم: الصلصال هو الطين المخلوط بالرمل إذا يبس فإنه يصلصل إذا ضرب، وبعضهم يقول: هو الطين اليابس، أو الطين الدقيق الناعم إذا ضربته بعد أن ييبس يُصوّت، وهذا الذي اختاره عامة المفسرين، وهو قول المحققين منهم، واختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ/ محمد الأمين الشنقيطي، هذا الصلصال، فإذا طبخ في النار فإنه يكون فخاراً، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن خلق الإنسان أنه من تراب، **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ}** [سورة آل عمران:٥٩]، فهذا بدء الخلق، وأخبر أنه خلقه من طين، فهذا التراب لما بُلّ بالماء صار طيناً، ثم ترك فتغير فصار حمأً مسنوناً متغيراً، يميل إلى السواد، ثم بعد ذلك يبس فصار صلصالاً كالفخار، هذه أطوار خلق

الإنسان، وقد ذكر الله في كل موضع صفة تصدق على طور من أطواره، فالتراب باعتبار الأصل الأول، والطين مرحلة، والصلصال مرحلة، والله أعلم.

ومجاهد -رحمه الله- يقول: "**الصلصال هو المنتن**"، وهذا له أصل في كلام العرب، يقول: صلَّ اللحم إذا أنتن، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، وفي آية الكهف {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [سورة الكهف:٨٦] أي: متغيرة، وبعضهم قال: أي: منتنة، والمتغير يسميه الناس غرَباً، ففي موضع الماء الذي يجتمع فيه ويطول مكثه، يتغير لونه تارة يكون إلى الخضرة، وتارة بلون التراب، وتارة يميل إلى السواد، وهذا الذي يميل إلى السواد هو المنتن، فهذا الحمأ، فهذا توجيه لقول مجاهد -رحمه الله-: إن الصلصال هو المنتن بهذا الاعتبار.

وقوله: {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} "أي: **الصلصال من حمإ وهو الطين**"، وبعضهم يقيده ويقول: الطين الأسود، وبعضهم يقول: الطين المتغير، ولا منافاة، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} وبعضهم يقول: أصل ذلك أنك إذا حككت حجرين ببعضهما فما يكون منهما من فتات هو المسنون، يقال: وهذا مسن، للآلة التي تحد بها السكين أو السيف أو نحو هذا، ويقال: سننت الحجر، بمعنى حككته، ويقال: أسن الماء إذا تغير، وبه فسر بعضهم قوله تعالى: {مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ}[سورة محمد:١٥] يعني: غير متغير، فالماء إذا بقي مدة طويلة يتغير، وبعضهم يفسره بالمصبوب، وبعض أئمة العربية كسيبويه -رحمه الله-، يقول بأن الحمأ المسنون هو المصوَّر، وبعضهم يجمع بين المعنيين فيقول: صُبَّ بطريقة صُوِّر فيها، وبعضهم يقول: طويل يقال: وجه مصلول للوجه الطويل، وهذا يرجع إلى المصوَّر، كل هذه الأقوال ترجع إلى هذا المعنى، المصوَّر، والظاهر المتبادر أن المقصود به -والله تعالى أعلم- الطين المتغير.

وقوله: {وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ} أي: من قبل الإنسان {مِن نَّارِ السَّمُومِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي السموم التي تقتل.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمر الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السَّموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ {وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}. وقد ورد في الصحيح: ((خُلِقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم))[1]. والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم -عليه السلام- وطيب عنصره وطهارة محتده.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**هي السموم التي تقتل**"، أصل السموم هي الريح الحارة التي تتخلل المسام، ولهذا سميت بهذا الاسم، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**طهارة محتده**" يعني طهارة أصله، وطهارة معدنه، والله -عز وجل- أخبر عن خلق الجن فقال: {مِن نَّارِ السَّمُومِ} يعني: الحارة، وأخبر أنه خلق الجان من مارج من نار، والمارج: هو أعلاها، ما يكون في أعلى النار؛ ولهذا أخذ منه بعض أهل العلم أن الجن كما يقول شيخ الإسلام: فيهم خفة أعظم مما في الإنس، والعلماء لما ردوا على إبليس في قياسه الفاسد {قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة

---

[1] - رواه مسلم برقم (٢٩٩٦)، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة.

الأعراف:١٢] ردوا عليه من عدة أوجه، من ضمن الأوجه التي ردوا عليه فيها أنهم قالوا: إن الطين أشرف من النار، فالطين تضع فيه الحبة وتخرج سنبلة، والنار لا تضع فيها شيئاً إلا أحرقته، فهي تتلف، ثم الطين فيه من الرزانة ما ليس في النار، إلى غير ذلك من الوجوه التي ردوا عليه فيها، فالشاهد أن الجن خلقوا من مارج من نار، ولا شك أن أصل آدم أشرف وأفضل من أصل إبليس، والله -عز وجل- عليم حكيم، ولهذا كان في البشر من الرزانة ما ليس في الجن، وفيهم من الهداية والاستقامة والعلم، وفيهم النبوة، والصلاح فيهم أعظم وأكثر مما هو في الجن -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}[سورة الحجر:٢٨-٣٣].

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة؛ حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل؛ ولهذا قال: {لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، كقوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}[سورة الأعراف:١٢]**، وقوله: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}**[سورة الإسراء:٦٢] **الآية.**

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[سورة الحجر:٣٤-٣٨].

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم: أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها، رواه ابن أبي حاتم[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}**، فهذه الآية دلت على أن الله -تبارك وتعالى- أمرهم بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، حينما أخبرهم بخلقه، وقال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}**[سورة البقرة:٣٠]، فأخبرهم عن خلقه، ثم بعد ذلك بعدما خلقه قال: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ}**[سورة البقرة:٣٤]، هذا ظاهره أنه بعد خلقه؛ لأن الله قال: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ}** [سورة البقرة:٣١]، فبين لهم فضله ثم أمرهم بالسجود له، وفي هذه الآية **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}**، ويمكن أن يكون -والله تعالى أعلم- أن الله أعلمهم بخلقه، وأمرهم بالسجود له إذا خلقه، ثم بعد أن خلقه وبيّن فضله عليهم، وعلمه أسماء الأشياء، أمرهم

---

١ - انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦١/٩).

بالسجود له، ولا منافاة، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} فإذا قيل: إن إبليس من الملائكة فالاستثناء متصل، {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ} أبى أن يسجد، ومعلوم أن الملائكة {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦]، فالذين قالوا: إنه من الملائكة، قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قد كتب عليه الشقاء؛ وذلك لحكمة عظيمة وهي تحقق الابتلاء في هذه الحياة الدنيا، والصراع بين الحق والباطل والخير والشر، وقوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سورة الكهف:٥٠] تدل على أنه ليس من الملائكة، وقوله: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي: خرج عن أمر ربه، والذين يقولون: إنه من الملائكة مختلفون في توجيه قوله: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ} فيقول بعضهم: يوجد صنف من الملائكة يقال لهم: الجن، وبعضهم يأخذ المعنى العام لكلمة الجن، من الاجتنان، فتقول: المِجَنّ؛ لأنه يستر المقاتل من ضرب السيوف ورمي النبال وما أشبه ذلك، والجنين لأنه مختفٍ، والجَنّة؛ لأنها تستر من دخلها، لكثرة أشجارها، ونحو ذلك، وهذا كله لا يخلو من تكلف، والذين قالوا: إنه من الملائكة ليس لهم مستند إلا مثل هذا الاستثناء، ويمكن أن يكون هذا الاستثناء من قبيل المنقطع، بمعنى "لكن"، أي: سجد الملائكة لكن إبليس لم يسجد، ولم يكن منهم أصلاً، لكنه كان في الملأ الأعلى، وأما ما نقله عن سعيد بن جبير -رحمه الله- من أنه لما لعن تغيرت صورته عن الملائكة، فهذا باعتبار أنه من الملائكة، ثم إن مثل هذا يحتاج إلى دليل؛ لأن هذا إما أن يكون من قبيل المأخوذ عن بني إسرائيل، ولا عبرة به، وإما أن يكون مما تُلقي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي، ومثل هذا يكون من قبيل المرسل.

وقوله: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، رجيم على وزن فعيل، وفعيل يأتي بمعنى فاعل، ويأتي بمعنى مفعول، فرجيم يحتمل أن يكون بمعنى فاعل أي راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر السيئة، والمعنى الثاني -وهو المشهور المتبادر وهو المناسب للسياق- أن فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم، كما أنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يعني المرجوم فهو يُرجم بالسب واللعن وما إلى ذلك، {وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}، بعض أهل العلم يقول: إن عليه اللعنة إلى يوم القيامة، وما بعد يوم القيامة، أو إذا جاء يوم القيامة فإنه ينتظره العذاب الذي هو أعظم وأشد من اللعن، لكن إذا كان اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله -عز وجل- فإن هذا مستمر إلى يوم القيامة، فهو أبعد ما يكون عن رحمة الله، ولهذا فإن من معاني كلمة "الشيطان":المُبعَد، من شَطَنَ إذا بعُد، أي أنه بعيد عن رحمة ربه -تبارك وتعالى-، وبعيد عن الخير، فهذه اللعنة إلى يوم القيامة، وفي الآخرة يكون ملعوناً، والعرب تعبر بمثل هذا يقال مثلاً: هذا إلى يوم القيامة، أو: إلى يوم البعث، أو نحو ذلك، ويقصد به التأبيد، أي: أن هذا لا يكون، أو أنه لا يفعل ذلك أبداً، فالعرب قد تجعل الغاية إلى محدد كهذا وهي تقصد التأبيد.

{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ}[سورة الحجر:٣٩-٤٤].

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: {بِمَآ أَغْوَيْتَنِي} أي: بسبب ما أغويتني وأضللتني، {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ} أي: لذرية آدم -عليه السلام-، {فِي الْأَرْضِ} أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأؤزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجاً، {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك، {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} كقوله: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً}، قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قوله: {إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} بفتح اللام {الْمُخْلَصِينَ} يعني الذين خلصهم الله -عز وجل-، وكتب لهم الهداية، وهذه القراءة {الْمُخْلَصِينَ} هي قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة، وقرأه الباقون بالكسر، بكسر اللام {إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ}، إذا كان لكل قراءة معنىً يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فدلت القراءة الأولى على أنه لا يتخلص من كيد إبليس إلا من نجاه الله -عز وجل- وخلصه واصطفاه للهدى والإيمان، ودلت القراءة الثانية على أنه لا يتخلص من كيد إبليس إلا أهل الإخلاص، فقوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} أي: ولكن من اتبعه من الغاوين فإن سلطانه يكون عليهم، ولذلك يقال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ}، إذا قيل بأن المقصود في العباد الإضافة، يعني كل العباد {إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، فيكون الاستثناء متصلاً، استثنى من هؤلاء الخلق من اتبعه من الغواة، وإذا قيل بأن الإضافة إضافة تشريف وأن المقصود أهل الأيمان والتقوى والطاعة، {إِنَّ عِبَادِي} كما قال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان:٦٣]، عبودية الاختيار، {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} لكن {مَنِ اتَّبَعَكَ}، يكون الاستثناء منقطعاً، أي: فإن سلطانك يكون واقعاً عليهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، والمقصود بالسلطان: أنه ليس له حجة عليهم في الإغواء، كما مضى في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [سورة إبراهيم:٢٢]، فيقول: أنا لم يكن لي حجة في هذا الإضلال الذي أضللتكم وإنما دعوتكم فاستجبتم، واتبعتم النفوس الأمارة بالسوء والهوى، والسلطان يأتي بمعنى الغلبة والقهر والتسلط، وهذا كله داخل في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، فمن فسره بالحجة فإن تفسيره لا يخالف التفسير الآخر الذي هو التسلط والقهر، فإن السبيل إلى تسلط وليّ الدم على القاتل إنما هو حجته، وهو أنه صاحب حق، وهو ولي الدم، وهذا قُتل مظلوماً، وهذا قاتل، فيمكن أن يكون هذا، ويمكن أن يكون هذا.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول على قوله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}: "**أي مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر**"، مرجعكم جميعاً إليَّ، فيحتمل أن يكون هذا من قبيل التهديد والوعيد، كأنه يقول: أينما تذهب أنت ومن اتبعك فطريقكم عليّ، بمعنى أنك ستعاقبه وتحاسبه بما فعل وما صدر منه، وبعضهم يفسر هذا {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: هذا حق عليّ مراعاته، وهو أن عبادي الذين أخلصتهم ليس لك عليهم سلطان.

كقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [سورة الفجر:١٤]، كقوله: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [سورة النحل:٩].

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} من قبيل التهديد، يعني أن طريقكم عليّ فأعاقبكم وأحاسبكم وآخذكم، فأين تذهبون؟، {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، وقوله: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: بيان السبيل القاصد، والسبيل: هي الطريق، تذكر وتؤنث، والقصد صفة لها، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وعلى الله بيانها وإيضاحها، أو المعنى الثاني: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: أنها توصل إليه.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قول الله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}: "قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم، وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض. فقامت أداة "على" مقام "إلى"، والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي صراط موصل إليّ، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل: {عَلَيَّ} فيه: للوجوب أي: عليَّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل وهي: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر أن السبيل القاصد -وهو المستقيم المعتدل- يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طفيل الغنوي:

مضوْا سلفاً قصد السبيل عليهمُ *** وصرفُ المنايا بالرجال تشقلب

أي: ممرنا عليهم وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهنّ المنايا أي واد سلكته *** عليها طريقي أو عليّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة "إلى" التي هي للانتهاء لا أداة "على" التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[سورة الغاشية:٢٥-٢٦]، وقال: {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}[سورة لقمان:٢٣]، وقال: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [سورة القيامة:١٧]، وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[سورة هود: ٦] ونظائر ذلك.

قيل: في أداة "على" سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}[سورة البقرة:٥] وقال لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}[سورة النمل:٧٩]، والله -عز وجل- هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة "على" على هذا المعنى ما ليس في أداة "إلى" فتأمله فإنه سر بديع"[٢].

بمعنى أن "على" تدل على الظهور والاستعلاء، فمن سلك الصراط المستقيم فهو مستعلٍ بسلوكه، ولهذا جاء التعبير بعلى في بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل- فيما يتعلق بسلوك الصراط، فالآية تدور على هذين المعنيين، ويبقى التعليل إذا قيل بأن المقصود من قوله: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: "إليّ" لماذا عبر بـــ"على"؟، فيكون هذا من النكات البلاغية فقط، وإلا فيكون أصل المعنى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: أنه بمعنى "إليّ"، والمعنى الثاني: صراط عليّ بيانه وإيضاحه.

---

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٥-١٦).

وقال -رحمه الله-: "فإن قلت: فما الفائدة في ذكر "على" في ذلك أيضاً، وكيف يكون مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة "على" ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة "في" الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى: {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [سورة التوبة:٤٥]، وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ}[سورة الأنعام:٣٩]، وقوله: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}[سورة المؤمنون:٥٤] وقوله: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}[سورة هود:١١٠].

وتأمل قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[سورة سبأ:٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} قول ثالث وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} كما يقال: طريقك عليّ وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: {لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم، فقرر الله -عز وجل- ذلك أتم التقرير وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحَوْم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ولينظر إلى هذا المعنى ويوازن بينه وبين القولين الآخرين أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالةً فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليّ لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدد مستقيمة، فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله، فلا يستقيم هذا القول ألبته"[٣].

فقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} من قبيل الوعيد، {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} بالرصد، والرصد إنما يكون في الأصل على الطريق، فهو يقول: طريقكم عليّ، فأين تذهبون؟ وأين تفرون؟ هذا مرادهم بهذا القول، وإلا فهم لا شك أنهم غير سالكين للصراط، وللتعبير في مثل هذا الموضع بقوله: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} نظائره في القرآن، وإذا ذكر الصراط في القرآن، {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦]، فهو الطريق الذي يسلكه أولياؤه، وهو الطريق الذي رسمه الله -عز وجل- لعباده؛ ولهذا أضافه إلى نفسه فقال: {صِرَاطِ اللَّهِ}[سورة الشورى:٥٣] يعني: هو الذي رسمها وشرَّعها وأمر بسلوكها، وأضافها إلى أهل الإيمان قال: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [سورة الفاتحة:٧]، باعتبار أنهم هم السالكون، الشيء يضاف تارة إلى سالكه، وتارة إلى من يملك ذلك، كما قال الله -عز وجل-: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}[سورة الأحزاب:٣٣]، مع أن البيوت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال:

---

٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٦-١٧).

{لَا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ}[سورة الطلاق:١]، أضاف البيوت إليهن مع أنها للزوج، باعتبار أن الزوجة هي المنتفعة بها، هي الساكنة لها فأضافها إليها.

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية -رضي الله تعالى عنه- يقول: وهما نظير قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} [سورة الليل:١٢-١٣]، قال: فهذه مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١] إلا معنى الوجوب، أي علينا بيان الهدى من الضلال، ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي، وذكر في "الحجر" الأقوال الثلاثة، وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل، واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث"[٤] أ.هـ.

كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[سورة الإنسان:٣]، أي: سبيل الحق والهدى والرشاد والصراط المستقيم، {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

وقوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}[سورة الحجر:٤٢] أي: الذين قدرتُ لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم، {إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} استثناء منقطع، وقد أورد ابن جرير ههنا عن يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجةً من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبىء ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأله ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله ــ يعني إبليس ــ حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فقال عدو الله: أرأيت الذي تَعَوّذ منه؟ فهو هو، فقال النبي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، قال: فردد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟

قوله: "**أرأيت هذا الذي تتعوذ منه؟ فهو هو**"، عبر بضمير الغائب تأدباً؛ حتى لا يضيف القارئ هذا إلى نفسه، أو الناقل أو الراوي، تأدباً قال: "**فهو هو**"، كما في قصة أبي طالب لما دعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الإيمان، قال: ((هو على ملة عبد المطلب))[٥]، والأصل أنه قاله بضمير المتكلم، لكن لا يحسن بالإنسان أن ينسب إلى نفسه شيئاً قبيحاً مثل هذا، فكانوا يتنزهون ويتأدبون في العبارة، يقول له: إن الذي تستعيذ منه حاضر عندك، قد حضر، يعني الشيطان، ولكن مثل هذه الرواية في الغالب مأخوذة عن بني إسرائيل.

فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول الله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأعراف:٢٠٠]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت

---

٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٧-١٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، برقم (١٢٩٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، برقم (١٤١).

بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني، فقال النبي: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال آخذه عند الغضب والهوى.

يعني الإنسان يقع في المعصية ثم يدرك أن ذلك من الشيطان، **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ}** [سورة الأعراف:٢٠١-٢٠٢] يعني إخوان الشياطين **{يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}**، **{يَمُدُّونَهُمْ}** أي: أن الشياطين تمدهم في الغي فيزدادون غياً وضلالاً وإعراضاً عن الله -عز وجل-، والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، ومع ذلك إبليس يوقعه مرة بعد مرة بعد مرة في معصية الله -تبارك وتعالى-، ويقولون: إن إبليس جاء إلى آدم -عليه الصلاة والسلام- حينما حملت حواء، وقبل ذلك جاءه وأخرجه من الجنة، وحينما حملت حواء جاءه كما في قوله: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[سورة الأعراف:١٩٠]، ذهب كثير من السلف من الصحابة فمن بعدهم في تفسير الآية إلى أن ذلك في تسمية الولد، ولد آدم، قال: سمياه عبد الحارث، ولكن مثل هذا لا يثبت، ولا يعول عليه ولا يظن هذا بأهل الإيمان فضلاً عن نبي كريم وهو آدم -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذا هو من قبيل الإسرائيليات، لو قيل: إن ذلك يمكن أن يكون قد أخذ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من قبيل المرسل وهو من أنواع الضعيف.

قوله: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} أي: قد كُتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله، ومنازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}.

بعض أهل العلم يفسر ذلك باعتبار الطبقات، أن كل طبقة لطائفة، أعلى طبقة من النار هي للعصاة من المؤمنين، من الموحدين، وهذه هي التي قالوا بأنهم يخرجون منها، وهي تفنى عند بعض من فسر بعض النصوص الواردة في هذا المعنى، قالوا: طبقة أهل الإيمان، وهناك طبقات أخرى، طبقة لليهود، وطبقة للنصارى، وطبقة للمجوس، وطبقة للمشركين، وآخر طبقة للمنافقين، ولها سبعة أبواب، كل باب لطبقة من هذه الطبقات، هذا قاله طوائف من السلف فمن بعدهم، ومثل هذا لا يجزم به؛ لأن المقصود قد يكون غير ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-.

{إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَاناً عَلَىَ سُرُرٍ مّتَقَابِلِينَ * لاَ يَمَسّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مّنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ * وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأليمُ} [سورة الحجر:٤٥-٥٠].

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ} أي: سالمين من الآفات، مسلَّم عليكم.

الحافظ -رحمه الله- عادته الجمع بين المعاني التي قالها السلف، فالسلف فسروا قوله: **{ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ}**: بعضهم قال: ادخلوها حال كونكم مسلَّماً عليكم، الذي يسلم عليهم الله تبارك وتعالى لقوله: **{سَلَامٌ قَوْلًا من رَّبٍّ رَّحِيمٍ}** [سورة يـــس:٥٨]، وتسلم عليهم أيضاً الملائكة، لقوله تعالى: **{وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ***

{سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[سورة الرعد:٢٣-٢٤]، وكذلك يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، والمعنى الثاني: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} قال: أي سالمين من الآفات، وهذا معنى من معاني السلام، السلامة من الآفات، والعيوب، والنقائص، ولهذا من أسماء الله -عز وجل- السلام، {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}[سورة الحشر:٢٣] أي: السالم من كل عيب وآفة ونقص، فإذا ألقيت على أحد السلام قلت: السلام عليك، فهذا السلام اسم من أسماء الله -عز وجل-، وفيه تأمين لهذا المسلَّم عليه، فهو بمعنى الأمن، أنه لا يصل إليه مكروه من قبلك، وفيه أيضاً دعاء له بالسلامة، كل هذه المعاني داخلة في قولك: السلام عليكم، فقوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} أي: سالمين من الآفات مسلَّم عليكم، جمع فيها بين القولين، وهذه مزية لمثل هذا الكتاب، وللكتب التي تحرر فيها العبارة ويجمع فيها بين أقوال السلف -رضي الله عنهم-.

{آمِنِينَ} أي: من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

قوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ}، الأمن يكون بمعنى أنه لا تتتابهم فيها المخاوف، ولا يحصل لهم فزع كما يفزع غيرهم، فأهل النار يعيشون في فزع دائم وخوف لا ينقطع، وفي أهوال وأوجال لا طاقة لهم بها، ومن المعاني الداخلة في قوله: {آمِنِينَ} معنى أنهم يأمنون فيها من الموت، ومن الإخراج، والإنسان إذا كان في مكان يتنعم ويلتذ فيه، فإنه يتنغص إذا علم أنه سيفارقه، وينتقل عنه، أو أن الموت سيهجم عليه، أو إذا كانت تتتابه المخاوف فتتعطل لذاته، وتتلاشى وتتقشع، ولذلك الإنسان إذا كان في خوف شديد، أو في غم وهم، أو حزن شديد فإنه لا يجد لذة للطعام الذي يأكله، ولا يستطيع مضغه، وهكذا جميع اللذات، والدراسات التي تُنشر تَذكر في حال الناس الذين عندهم اكتئاب أن ذلك يكون سبباً لتعطل جوانب عندهم فيما يتعلق بحقوق الزوجات من المعاشرة مثلاً؛ لأنه لا يجد إقبالاً إطلاقاً على هذا، وهذا مشاهد من هؤلاء الذين يعانون من هذه المشكلات، أو يشعر بخوف، فالخائف لا يجد نفسه تقبل على شيء من لذاته، وإنما همه أن يؤمن نفسه، ثم بعد ذلك يتفرغ لما تطلبه هذه النفس من المطالب الأخرى، فذكر الأمن؛ لأن الإنسان إذا شعر أو تذكر بأنه سيفارق الحياة، أو كان خائفاً فإنه لا يتنعم.

هو الموت ليس كالموت شيء *** نغّص الموتُ ذا الغنى والفقير

فمهما كان الإنسان في لذة وحبور إذا تذكر أنه سيموت ويفارق كل ما يملك فإنه تتنغص عليه لذته ويتكدر عليه عيشه؛ ولهذا ذكر الله -عز وجل- الأمن في نعيم الجنة، وذكر الخلود فيها، وذكر في بعض المواضع الإذن، فالشيء المأذون فيه غير الذي يأخذه الإنسان مسارقة، أو بغير رضا صاحبه؛ ولهذا ذكر الله -عز وجل- الرضا في مواضع أخرى {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}[سورة المائدة:١١٩]، وهذا لا شك أنه كمال النعيم.

وقوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}، روى القاسم عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}، هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف، ولكن هذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة: حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- حدثهم

أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يَخْلصُ المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إِذا هُذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة))[٦].

هذا هو المعتمد، وليس ذلك بموافق لما قبله من الأثر عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه-، على ضعف هذا الأثر، فذاك الأثر يقول: إنهم يحصل لهم التنقية بعد دخول الجنة، ولكن هذا الحديث الصحيح يدل على أنهم ينقون قبل دخولها، فالجنة لا يدخلها إلا طيب، هي دار طيبة لا يدخلها إلا الطيب من الناس، ولذلك فإن الله يمحص أهل الإيمان، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٧]، وليس معنى ذلك أنه يخلد في النار، وإنما المقصود أنه ينقى بالعذاب ويطهر حتى يذهب ذلك منه، فيدخل الجنة وهو سالم من هذه الآفات، فمن لم ينقّ بالإيمان والتزكية في الدنيا فإنه ينقى بكير النار يوم القيامة، إلا من لطف الله به ورحمه، هذا الأمر الذي ذكره الله -عز وجل- **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** هو مكمل للنعيم السابق، يكون لهم الأمن ويدخلونها بسلام، ولهم الخلود، والله يكتب عليهم رضوانه، مع ذهاب الغل؛ لأن وجود الغل منغص للنعيم، تجد الرجل في غاية المُتع، وفي محل البهجة، ويعيش في أفضل الأماكن، ولكن إذا كان قلبه يحمل الغل فإنه يعذب بهذا الغل، يتنغص عليه عيشه، وتتكدر عليه حياته ولذاته، فإذا تذكر من يحمل عليه الضغينة، فإن قلبه ينعصر، ويفارقه النوم، ويشعر بالأسى، فمن كمال النعيم أن لا يوجد في قلب الإنسان غل، فأهل الجنة ينقيهم الله -عز وجل- من ذلك، فلا يكون فيها غل ولا حسد ولا شحناء، ويؤخذ من هذا أن صاحب الغل يعذب به يوم القيامة، نسأل الله العافية، وهو عذاب في الدنيا قبل الآخرة، مع أن الذي يَحمل عليه هذا الغلَّ ربما يكون ساهياً لاهياً لا يضره هذا الغل شيئاً، بل قد لا يشعر به أصلاً، وإنما الذي يتعذب بالغل ويجد ألمه وحسراته هو صاحب الغل الذي يحمله في قلبه، فهو يتنقل معه حيث ذهب، ويكدر عليه عيشه، ويشوش عليه فكره، ولا يجد لذة للعبادة، نسأل الله العافية، والموفَّق من وفقه الله -عز وجل-.

وحذف رواية سُنيد بهذا الاعتبار يكون خللاً في الاختصار، ورواية سُنيد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: "لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري"، ولابد من الإشارة إلى الذي يوافق ما في الصحيح، وهي رواية سُنيد بن داود المصيصي، وليست رواية القاسم التي ذكرها ابن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة.

وقوله: {لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: ((أن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب))[٨]. **وقوله: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} كما جاء**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب القصاص يوم القيامة، برقم (٦١٧٠).

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي -صلى الله عليه وسلم- خديجة وفضلها -رضي الله عنها-، برقم (٣٦٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، برقم (٢٤٣٢).

في الحديث: ((يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً))[٩]. وقال الله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف:١٠٨].

وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

هذه المواضع المذكورة في قوله: {لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ}، وفي الحديث إذا جُمعت فإنه يحصل منها كمال النعيم، بخلاف هذه الدنيا، ففيها المخاوف، وفيها النصب والتعب، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[سورة البلد:٤]، يدخل إليها باكياً ويخرج منها مبكياً عليه، وفيها ألوان الشقاء والعناء، وما يقع في قلب الإنسان من الغل وأمور كثيرة تنغص عليه لذته وسروره، ثم بعد ذلك الموت يأتي ويأخذه، والله المستعان.

مسألة:

هل المقصود من قوله تعالى: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}[سورة إبراهيم:٣٤]: كل ما يدعو به الإنسان يستجاب له؟

بعض أهل العلم فسر "مِن" هذه أنها تبعيضية، أي {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} شيئاً، وهذه الآية لا تدل على أن الإنسان يُعطى كل ما سأل، أو كل ما طلب، أو كل ما أراد، وإنما {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} الله يمتن على عباده فأعطاهم الله -عز وجل- ما يحتاجون إليه لإقامة معايشهم وبقائهم في هذه الحياة، وامتن عليهم بأنواع النعم من المآكل والمشارب واللباس والأثاث والرياش، ونحو ذلك من ألوان النعم، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ} [سورة هود:١٥] وقوله -تبارك وتعالى-: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}[سورة الإسراء:١٨]، والمراد به: يُفهم على ضوء الآيات الأخرى {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} فقيدها بقيدين، مع أنه أطلقها في آية هود، {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} فمن أراد الله إعطاءه أعطاه ما شاء من العطاء، وليس كل طالب لها يُعطى مطلوبه.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[سورة الصافات:١٤٧] بعضهم يقول: إن "أو" بمعنى الواو أي ويزيدون، فهي حرف تأتي بمعنى العطف، ويمكن أن تأتي بمعنى الواو، وبعضهم يفسر ذلك بالإضراب، {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ} أي بل يزيدون، وهذا لا إشكال فيه، لكن إذا قيل: إن "أو" بمعنى الشك {أَوْ يَزِيدُونَ} فهذا يفسر بأن ذلك خرج بحسب نظر المخاطبين {أَوْ يَزِيدُونَ} بحيث إن الناظر إليهم يقول: إن هؤلاء مائة ألف أو أكثر، لكن الله لا يخفى عليه شيء، ولكن يأتي الخطاب مُراعىً فيه حال السامع، وكما

---

٩ - رواه مسلم، بلفظ: ((ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: {وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف:٤٣]))، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، برقم (٢٨٣٧)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما.

ذكرنا في نظائره كقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طــه:٤٤] مع أن الله يعلم أنه لن يتذكر ولن يخشى، إذا فسرت "لعل" بالترجي، فالله لا يترجى.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ}[سورة الحجر:٥١-٥٦].

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف {دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ، {قَالُوا لا تَوْجَلْ} أي: لا تخف {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} أي: إسحاق -عليه السلام- كما تقدم في سورة هود، ثم {قَالَ} متعجباً من كبَره وكبَر زوجته ومتحققاً للوعد {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة {قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة**"، إن الله -عز وجل- في كل قصص الأنبياء مثلاً أو الأمم يذكر ما يناسب الأمر الذي سيقت له القصة، فأحياناً يذكر القصة مبسوطة مفصلة، وأحياناً يذكر ما يناسب، فذكر في الذاريات أنه جاءهم بعجل حنيذ، وأنه راغ إلى أهله -ذهب خفية وبسرعة- ثم بعد ذلك قربه إليهم وقال: **{أَلَا تَأْكُلُونَ}**[سورة الذاريات:٢٧]، وقال: **{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}**[سورة هود:٧٠]؛ لأن من أراد شراً فإنه لا يأكل مما يقدم إليه من الطعام، فخاف أن يكون هؤلاء قد أرادوا به سوءاً، فقالوا له: لا تخف، وقوله: **{وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}**[سورة الذاريات:٢٨] أي إسحاق -عليه السلام-، وهذا لا شك فيه، إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم هنا: **{أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}**، والواقعة التي جاءوا فيها إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وأخبروه عن إهلاك قوم لوط، وجادلهم في هذا هي واقعة واحدة، وهي التي حصلت فيها البشارة كما في قول الله -تبارك وتعالى- لما جاءوا إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فبشروه، قال: **{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}**[سورة هود:٧١-٧٢]، قالوا لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: لا تخف، لما رأوه وجل منهم، ثم بشروه بإسحاق، والمرأة التي بُشرت هي أم إسحاق، **{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ}**، فهذا هو الغلام العليم الذي ذكره الله -عز وجل-، وليس إسماعيل قطعاً.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوَاْ إِنّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىَ قَوْمٍ مّجْرِمِينَ * إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنّا لَمُنَجّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}[سورة الحجر:٥٧-٦٠].

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم -عليه السلام- لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا: {إِنّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىَ قَوْمٍ مّجْرِمِينَ} يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين؛ ولهذا قالوا: {إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} أي: الباقين المهلَكين.

وأخبروه في موضع آخر عن إهلاك قوم لوط {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [سورة العنكبوت:٣١-٣٢] إلى آخره، فذُكرت القصة في هذه السورة مختصرة.

وقوله -تبارك وتعالى- عن قِيل الملائكة: {إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}، قدرنا يعني قضينا وحكمنا، وقوله: {إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "أي: **الباقين المهلَكين**"، وكلمة الغابر تأتي بمعنى الذاهب، وتأتي بمعنى الباقي، فمن أهل العلم من فسر {مِنَ الْغَابِرِينَ}[سورة الأعراف:٨٣] أي: من الذاهبين في الهلاك، ومنهم من فسرها بالباقين، يعني الباقين في الهلاك، فهي من الأضداد، ولا إشكال في حملها على المعنيين -والله تعالى أعلم-، ومثل هذا لا يحتاج إلى ترجيح، فهي من الذاهبين في الهلاك، وإذا فسر بالباقين فهي من الباقين في العذاب، لا تنجو معه، مثل ما يقال في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [سورة القلم:٢٠] والصريم بعضهم قال: يعني سوداء محترقة، وبعضهم قال: بيضاء، يعني جرداء ليس فيها زرع، هذا هو المقصود، ولا إشكال، فالمقصود أن ما فيها من زروع وحروث وشجر وما أشبه ذلك كل هذا قد تلف وزال فأصبحت سوداء محترقة، أو أصبحت بيضاء بمعنى أن النبات الذي فيها قد اضمحلّ وزال.

{فَلَمّا جَآءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ مّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقّ وَإِنّا لَصَادِقُونَ} [سورة الحجر:٦١-٦٤].

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: {إِنّكُمْ قَوْمٌ مّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم، {وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ}، كقوله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ}. وقوله: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مّنَ اللّيْلِ وَاتّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمْرَ أَنّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مّصْبِحِينَ}[سورة الحجر:٦٥-٦٦].

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط -عليه السلام- يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمشي في الغزو إنما يكون ساقة يُزجي الضعيف ويحمل المنقطع. وقوله: {وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال.

من أهل العلم من حمل الالتفات على الالتفات الحسي، يعني لا تنظروا إليهم، امضوا في طريقكم ولا يلتفت منكم أحد، ومنهم من فسر ذلك بالالتفات المعنوي، يعني {وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ}: لا تقفوا عند إهلاكهم، وليس معناه النظر والالتفات بالرأس، والأول هو الأقرب -وهو ظاهر الآية- أنهم نهوا عن الالتفات، أن لا يلتفت أي: لا ينظر إليهم حال إهلاكهم.

{وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.

لا يلزم أن يكون معهم من يهديهم السبيل، و{حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} أي حيث يأمره الله -عز وجل- **عن طريق الوحي.**

{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ} أي: تقدمنا إليه في هذا، {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} أي: وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.

قوله: {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ} الدابر: هو الآخر، أن دابرهم مقطوع مصبحين، تقول: قَطع دابرَهم يعني استأصلهم عن آخرهم، لم يُبق منهم أحداً، معنى ذلك أنه أهلكهم جميعاً.

{وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ * قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[سورة **الحجر**:٦٧-٧٢].

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين، {قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ} وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه.

جاء الملائكة إليه على أنهم ملائكة، وأخبروه لما قال لهم: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ}، قالوا: {بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} عرف أنهم ملائكة، ثم جاء أهل المدينة يستبشرون، في ترتيب الآيات أنهم جاءوا بعد أن عرف أنهم من الملائكة، {وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ}، فالواو {وَجَآءَ} هي التي يتحدث عنها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**إنها لا تقتضي الترتيب**"، الواو أصلاً لا تقتضي الترتيب، {وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ} جاء أهل المدينة قبل أن يدور هذا الحوار بين لوط -صلى الله عليه وسلم- وبين الملائكة، وقبل أن يعرف أنهم ملائكة، فلما نزل به هؤلاء الأضياف جاءه قومه {وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً} [سورة هود:٧٨-٨٠]، على القولين أنه وجه هذا الخطاب للملائكة، أو أنه وجهه لقومه {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:٨٠]، عندئذ قال الملائكة: {يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ} [سورة هود:٨١] فالواو هذه لا تقتضي الترتيب.

فقالوا له مجيبين: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} أي: أوَ ما نهيناك أن تضيّف أحداً؟.

قوله: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ} يحتمل أنهم نهوه عن أن يضيّف أحداً، ويحتمل أن يكون المعنى {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} أي: أن تجادلنا فيهم، دع الناس وشأنهم، لا تجادلنا في أحد، ولا تنكر علينا هذا العمل، {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته.

قوله: {هَؤُلاء بَنَاتِي} قيل إنه عرض عليهم التزوج من بناته، والمشهور أن قوله: {هَؤُلاء بَنَاتِي} أي: بنات القبيلة، والنبي بمنزلة الأب لقومه، على قراءة آية الأحزاب "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم"، لكنها قراءة ليست متواترة، والقراءة الأخرى: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم"، قراءة أبيّ وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، والأبوة أبوتان كما قيل، أبوة ولادة، وأبوة تعليم وتربية.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم-: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الحجر:٧٢].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أنهم قوم لوط، يجادلونه في هؤلاء الأضياف، ويريدون فعل الفاحشة بهم، وهؤلاء ملائكة جاءوا بعذابهم، وهذا هو الظاهر المتبادر، والقول الآخر الذي قال به طائفة من السلف: إن ذلك يقصد به كفار قريش، {إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ}، ولكن هذا فيه بعد، والله أعلم.

وقوله: {لَعَمْرُكَ} المقصود القسم بعمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقال: عُمرٌ وعَمرٌ بالفتح والضم، ولكن صار الذي يستعمل مع القسم ما كان بالفتح؛ لأنه أخف على اللسان من أن يقول: لعُمرك، فيقال: لعَمرك، فهو قسم.

ولهذا قال تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم-: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} أقسم تعالى بحياة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

وقيل: إن هذا قسم بحياة لوط -عليه الصلاة والسلام-، وإن الذين أقسموا هم الملائكة، ولكن هذا بعيد.

قال عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد -صلى الله عليه وسلم-، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا. {إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} رواه ابن جرير.

وقال قتادة: {لَفِي سَكْرَتِهِمْ} أي: في ضلالهم، {يَعْمَهُونَ} أي: يلعبون، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {لَعَمْرُكَ} لعيشك {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} قال: يترددون.

قوله: {يَعْمَهُونَ} أي: يتخبطون ويتحيرون ويترددون، وذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أنه عبر بالسكرة {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ} على أن المراد -كما هو المشهور والظاهر المتبادر- قوم لوط، وليس المراد به قريش، عبر بالسكرة؛ لأن سكر الشهوة يماثل سكر الشراب، فإذا كانت الشهوة غالبة على الإنسان فإنه يصير في حال مثل السكر، فيوقعه ذلك في ما يدنس شرفه ومروءته، ولربما بلغ به الأمر أن يقع على بنته وأخته

ومحارمه -نسأل الله العافية- وكل ذلك بسبب سكر الشهوة؛ ولذلك فإن هؤلاء الذين يجنون على أنفسهم فيشاهدون الأفلام السيئة والمواقع السيئة، يصلون إلى حالة تشبه السكر، ثم بعد ذلك يقع على أقرب من يجد، فكم رجلٍ وقع على بناته، وهذا يقع على أخته، يكون في حال مثل السكران، مثل البهيمة تماماً، يريد شيئاً يقضي فيه وطره، ولو لم يقض هذا الوطر لوجد عنتاً وتعباً وألما في جسده، نسأل الله العافية، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الحجر:٧٣-٧٧].

يقول تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ}: وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس -وهو طلوعها- وذلك مع قلب بلادهم وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} أي: إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} قال: المتفرسين، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} للمتأملين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: **{حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}** جاء السجيل مفسراً في قوله: **{مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ}**[سورة الذاريات:٣٤] أي: معلمة، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقال في موضع آخر: **{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ}**[سورة الذاريات:٣٣]، فيكون ذلك تفسيراً للسجيل، وهذا من تفسير اللفظة بلفظة أوضح منها وأكثر استعمالاً، وقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}** قال: الحافظ رحمه الله: "**لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته**"، يعني بعين بصره أنه ينظر نظر المتأمل المتفحص، وبصيرته بأن يجيل فكره بما يرى، "**كما قال مجاهد: للمتفرسين، ونقل عن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} للمتأملين**"، كل هذه العبارات متقاربة، وما نقل من أنه للناظرين، هو من باب التعبير بما يقرب المعنى، وإلا فلا شك أن المتفرسين ليس المراد به الناظرين، وإنما التفرس يكون نظراً وزيادة، وذلك بأن ينظر الإنسان نظر تفحص وتأمل؛ ولهذا عبر من عبر بالمتفرسين والمتأملين، فهذا هو نظر الاعتبار، والله -عز وجل- قال عن فقراء المهاجرين: **{تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}**[سورة البقرة:٢٧٣] أي: بما يظهر عليهم من الحاجة والفقر في تقاطيع وجوههم، من شحوب ونحو ذلك، وهكذا في ثيابهم ولباسهم، وأحوالهم كلها، قال: **{لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ}**[سورة البقرة:٢٧٣]، **{تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}** يعرفهم المتفرس في أحوالهم.

وقوله: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كقوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} السبيل هو الطريق، يذكر ويؤنث، {مُقِيمٍ} أي: أنها قائمة مسلوكة، يعني ليست بطريق مندثرة مهجورة، {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} هي على الطريق، طريقكم في ذهابكم إلى الشام، وكانوا يمرون عليها في تجارتهم وأسفارهم ويعرفونها، يقول: "**حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم**"، ويقصد بهذه البحيرة البحر الميت، فيقال: إنها كانت قرى قوم لوط، -والله تعالى أعلم-.

{وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} [سورة الحجر:٧٨-٧٩].

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب -عليه السلام-، قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} أي: طريق مبين، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}[سورة هود:٨٩].

قوله: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ}، وقال الله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٧٦] بمعنى أنهم كذبوا جميع الرسل؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، كما قال الله -عز وجل-: {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، فمن فرق بين الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فآمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بجميعهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [سورة النساء:١٥٠-١٥١]، وهذا يفسر به جميع المواضع التي يذكر الله -عز وجل- فيها كفر قوم بالمرسلين، وجاء ذلك في قوم نوح، مع أن قوم نوح لم يسبق إليهم رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام-، {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [سورة الشعراء:١٧٦-١٧٧]، إلى أن قال الله -عز وجل-: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [سورة الشعراء:١٨٩] وقال: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}، {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} أظلتهم سحابة فكان عذابهم فيها، وقال: "**أصحاب الأيكة هم قوم شعيب**"، ونقل عن الضحاك وقتادة: الأيكة الشجر الملتف، أيكة تجمع على أيْك، وكان يكثر هذا الشجر ربما في ناحيتهم، {أَصْحَابُ الأَيْكَةِ}، أو عرفت أرضهم بشجر ملتف فقيل لها ذلك، فبعضهم يقول: الأيكة هي الشجر الملتف، وبعضهم يقول: هذا اسم لقريتهم ولبلدتهم، يقال لها: الأيكة، وفي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير "ليكة"، وعلى هذه القراءة تكون اسماً للمدينة، على ما ذكره بعض أهل

العلم في توجيه هذه القراءة، بفتح التاء، "كذب أصحاب ليكةَ المرسلين"، فبهذا الاعتبار تكون ممنوعة من الصرف، فهي بلا همز ولا تعريف، اسم غير منصرف، اسم للقرية أو المدينة التي كانوا فيها.

وقوله: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} يعني قرية شعيب -عليه الصلاة والسلام- وقرى قوم لوط على الطريق، وقيل للطريق إمام؛ لأن المسافر يأتم به، فإذا تبعه وصل إلى مطلوبه، والطرق كانت موجودة منذ القدم، كانوا يسلكون مسالك معلومة، قد سلكها سالكون وآثار الناس فيها ظاهرة، فمن أراد الانتقال سلك هذه الطرق، فبها يأتمون ويصلون إلى مطلوبهم، وفي الآية الأخرى قال لهم شعيب -عليه الصلاة والسلام-: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ}[سورة هود:٨٩] إذا فسر هذا بالقرب المكاني أي: أنهم ليسوا ببعيد منهم في المحل والمنزل والدار.

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}[سورة الحجر:٨٠-٨٤].

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم -عليه السلام-، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [سورة هود:٦٥]، وقال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [سورة فصلت:١٧] وذكر تعالى أنهم {كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ} أي: من غير خوف ولا احتياج إليها بل أَشَراً وبطراً وعبثاً.

قال الحافظ ابن كثير: {وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}[سورة الحجر:٨٢] يعني: أن نحتهم البيوت في الجبال ليس بسبب الخوف، يعني قد تنحت البيوت في الجبال بسبب الخوف، كما ينحت الناس في هذا العصر في الأماكن التي يكون فيها الخوف، ينحتون ربما أنفاقاً وسراديب وأماكن يتحصنون بها في داخل الجبال إذا كانوا يخشون العدو كما هو الآن في الأسلحة الحديثة، فالحافظ ابن كثير رحمه الله يقول: إنهم ما فعلوا هذا بسبب الخوف، وإنما فعلوه من زيادة البطر والترف والتوسع لا لحاجة، ومن أهل العلم من يقول في تفسير{آمِنِينَ} آمنين من الموت، بمعنى أن نحت الجبال يتطلب عملاً كثيراً وجهداً عظيماً ما يفعله من كان يوقن بالموت، وأنه كراكب استظل تحت ظل شجرة، وبعضهم يقول: {آمِنِينَ} يعني من أن تسقط عليهم، وبعضهم يقول: آمنين من الخراب؛ لأنها تبقى كما هو مشاهد إلى اليوم، حتى النحوت التي عليها والزينة لا زالت باقية، وبعضهم يقول: آمنين من عذاب الله أن يقع عليهم، والله -تبارك وتعالى- قال ذلك وأطلقه {آمِنِينَ}، فهم يفعلون ذلك في غفلة عما يراد بهم، يتقلبون ويتمتعون في أرض الله -عز وجل-، وينحتون من الجبال بيوتاً وهم في مأمن، وعذاب الله -عز وجل- ينتظرهم كما قال لهم صالح -عليه الصلاة والسلام-: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}[سورة الشعراء:١٤٦-١٤٨]، ثم قال لهم: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [سورة الشعراء:١٤٩].

كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ذاهب إلى تبوك، فقنّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: ((لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم))[1].

ومن هنا يؤخذ أنه ليس للإنسان أن يذهب إلى تلك الديار -ديار المعذبين- وأن يدخلها للفرجة، والآيات التي ورد فيها الأمر بالسير في الأرض والنظر في أحوال الأمم المكذبة وما حل بهم ليس لجميع الناس، **{قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ}**[سورة الأنعام:١١] إنما لمن كان عنده شيء من التردد والشك، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن بهذا، وأما بقية الناس فخاطبهم بقوله: **{أَفِي اللّهِ شَكٌّ}** [سورة إبراهيم:١٠]، وقال لهم: **{اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** [سورة الأعراف:٥٩] مباشرة، فلا يحتاج أن يذهب وينظر، هذا لمن كانت فطرته مستقيمة، أما من لا زال متردداً متحيراً فيقال له: اذهب فانظر، فإذا دخل تلك الديار للنظر والاعتبار بما حل بهم حمله ذلك على الإيمان، فيدخل في هذه الحالة متباكياً أو باكياً، أما أن يدخل وهو معلق الكاميرا في صدره ويضحك بملء فيه، ويأكل ويشرب فهذا حرام لا يجوز، ومن لم يحتجْ إلى هذا النظر ليس له أن يسافر إلى تلك الأرض، وما كان من هذا القبيل لمجرد الفرجة.

كذلك الذين يدخلون الأهرام، الأهرام لا يدرى ما هي وما أصلها؟

أكثر العلماء يقولون: كانت قبل الطوفان؛ لأنه لم يعرف لها خبر، ولو كانت بعد الطوفان لعرفها المؤرخون، والعلماء ذكروا أنهم فتحوا بعض الأهرام ودخلوا فيه ورأوا ما فيه من التوابيت، ورأوا ما فيه من الأشياء والجثث، وكل هذه الأشياء وصفوها وصفاً دقيقاً، ثم سدوه، فيقولون: لم يذكر لها أحد خبر، فيقولون: إذا كان كذلك فهذا يدل على أنها كانت قبل الطوفان فانقطع الخبر، -فالله أعلم-، لكن هذه الأماكن من نظر إليها في داخلها وكذا باعتبار أنها ليست لأناس من أهل الإيمان؛ لكفرهم، وهي أضرحة وأشياء من هذا القبيل، وفيها تماثيل، وأمور ليست محل معروف وطاعة وهدى يدخل فيه الإنسان وإنما محل منكرات، والمفروض أن تتلف هذه الأشياء جميعاً، يتلف ما فيها من تماثيل، وما فيها من جثث، فلا تبقى؛ لأن هذه مآثر وثنية، الواجب إتلافها، ويسأل بعض الناس فيقول: لماذا الصحابة لما فتحوا مصر ما أتلفوا مثلاً أبا الهول؟ هذه الأشياء كانت بعيدة عن المساكن، وكانت منطمرة يعني أبو الهول هذا كان مدفوناً في التراب، فلما جاءت الحملة الفرنسية بدءوا يبحثون عن الآثار؛ ليربطوا المصريين بالتراث الفرعوني، أو يبحثوا لهم عن شيء قبل الإسلام، فبدءوا ينبشون الآثار ويحفرون، فاستخرجوا ما يسمى بأبي الهول، ولا أدري من أين جاءوا بهذه التسمية، وقالوا للناس: هو أبو الهول، وهو تمثال حقه أن يكسر، وهو ضخم جداً لا يكسر بالمعاول، وكان مهجوراً لا أحد يأتيه، والأهرام لا يستطيعون هدمها، وحاول بعض الخلفاء أن يهدم بعضها، فهدم بعض الصغار، أكثر من محاولة جرت متأخرة في العهد العباسي، فبعض خلفاء بني العباس حاول وما استطاع، فهدم بعض الصغار، وكان الأهالي في بعض النواحي يأخذون من الحجارة ويضعونه في مزارعهم، وفي بيوتهم، وبقيت هذه

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}**، برقم (٣٢٠٠)، بلفظ: ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم)).

الكبيرة الضخمة جداً لا يمكن هدمها، تحمل صور تماثيل، كبيرة جداً مثل الجبال، وكانت مهجورة إلى أن جاء الفرنسيون وأحيوا هذه المآثر، وقالوا للناس: هذه آثار فرعونية، وقالوا: قرأنا في الكتابات، مع أن السابقين من العلماء ذكروا الكتابات، وفسروا بعض هذه الكتابات، وما قالوا: إنها آثار فرعونية، والله أعلم.

وقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} أي: **وقت الصباح من اليوم الرابع،** {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: **ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنُّوا بمائها عن الناقة حتى عقروها؛ لئلا تضيّق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ وَإِنّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنّ رَبّكَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ}[سورة الحجر:٨٥-٨٦].

يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ وَإِنّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ} أي: بالعدل، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}[سورة النجم:٣١] **الآية، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}**[سورة ص:٢٧]**، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}**[سورة المؤمنون:١١٥-١١٦]**، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**[سورة الزخرف:٨٩]**، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.**

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[سورة يونس:٨١-٨٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ} ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بعض نظائره من القرآن، كقوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، و{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ}، {وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ} أي: خلقاً متلبساً بالحق، لم يخلقهم الله -عز وجل- عبثاً وإنما لحكمة وغاية عظيمة، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاصْفَحِ الصّفْحَ الْجَمِيلَ}، نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن بعض السلف أنها كانت قبل القتال، بمعنى أنها منسوخة، وهو الذي مال إليه الحافظ -رحمه الله-، وعليه عامة المفسرين: أن هذه الآية منسوخة نسختها آيات القتال كآية السيف، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الآيات التي وردت في الصفح والعفو والإعراض عن المشركين لم تنسخ، وأن النسخ لا يثبت بمجرد الاحتمال، وإنما ذلك بحسب حال الأمة، فإذا كانت الأمة في حال من الضعف فإن المتعين هو الصفح والإعراض والمصانعة بالقول وما أشبه ذلك مما أمر الله به في كتابه، تجد هذا في مواضع من القرآن، {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ}، و{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [سورة البقرة:١٠٩] وما أشبه هذا، فهذه الآيات غير منسوخة، والقول بأن آية

السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية لا دليل عليه، وإنما يختلف ذلك بحسب حال الأمة، فهناك رُخص وهناك عزائم، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ رَبّكَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ} جمع بين الخلق وبين العلم، والعلة في هذا ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والله يقول: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[سورة يـــس:٧٩]، و{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[سورة الملك:١٤]، اللطيف الذي يعلم دقائق الأشياء، والخبير الذي يعلم بواطن الأمور.

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَىَ مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}[سورة الحجر:٨٧-٨٨] .

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:٢١٥] أي: **ألن لهم جانبك، كقوله:** {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[سورة التوبة:١٢٨]، **وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطوال. يعنون البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير. وقال سعيد: بيّن فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام. وقال ابن عباس: بيّن الأمثال والخَبر والعِبر.**

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. وروي ذلك عن عليٍّ وعمر وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد.

في قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، السبع المثاني، من أهل العلم من يقول: هي السبع الطوال، والحافظ -رحمه الله- ذكر سورة يونس بدلاً من التوبة والأنفال، فالسابعة هي الأنفال والتوبة، وليست سورة يونس، وهذا هو المروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، فالشاهد: أن من أهل العلم من يقول: السبع المثاني هي السبع الطوال، قيل لها مثانٍ؛ لأنه تثنى فيها القصص والأحكام والأمثال والعقائد وما أشبه ذلك، تثنى يعني تكرر، {سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**وقال سعيد: بيّن فيها الفرائض والحدود والقصص والأحكام**"، هذا تعليل للتسمية، "**وقال ابن عباس: بيّن الأمثال والخَبر والعِبر**"، هذا تعليل لتسميتها بالمثاني، وقول سعيد وقول ابن عباس متحدٌ في التعليل، قيل لها المثاني؛ لأنه ثنى فيها الأمثال والخبر، والقول الثاني: أنها الفاتحة وهي سبع آيات، وهذا القول هو الذي لا ينبغي العدول عنه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح به فلا التفات إلى قول غيره، وذلك في حديث أبي سعيد بن المعلى وفيه لما ذكر الفاتحة قال: ((وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))[1]، وبهذا استدل

---

[1] - رواه البخاري كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، برقم (٤٢٠٤).

الجمهور على أن سورة الفاتحة نزلت بمكة؛ لأن سورة الفاتحة من أهل العلم وهم قلة من قال: إنها نزلت بالمدينة، وبعضهم قال: إنها نزلت مرتين، وبعضهم قال: نزل نصفها في مكة، ونصفها في المدينة، وهذا في غاية البعد، فالشاهد أن سورة الفاتحة في مكة، ومن أقوى الأدلة على هذا آية الحِجر هذه، وسورة الحجر مكية، فهذه آية مكية يذكر الله -عز وجل- فيها سورة الفاتحة، وهذا من تفسير القرآن بالسنة، وقيل لها: مثانٍ؛ لأنها تثنى، وتكرر في كل ركعة، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم من يقول: مثانٍ؛ لاشتمالها على الثناء على الله -عز وجل-، إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، ومن أهل العلم من يقول: قيل لها مثانٍ؛ لأن آياتها متعاقبة يتلو بعضها بعضاً، قال: {وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، فالقرآن العظيم قيل له: مثانٍ، فيكون من باب عطف العام على الخاص، وصف القرآن كله بأنه مثانٍ في قوله: {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}[سورة الزمر:٢٣]، فوصف بأنه مثانٍ؛ لأن الأخبار والقصص والعبر والأحكام تثنى، وابن جرير -رحمه الله- يقول: لأن آيات القرآن تأتي متتابعة آية بعد آية، فقيل له: مثانٍ بهذا الاعتبار، والله -تبارك وتعالى- وصف القرآن كله بأنه مثانٍ، والفاتحة يقال لها: السبع المثاني، ويوجد أيضاً الجزء من القرآن يقال له: مثانٍ، فالسلف كانوا يقسمون القرآن بغير التجزئة هذه التي نقسم بها، يقولون: السبع الطوال، وآخرها سورة التوبة، ثم بعد ذلك يأتي المئين وهي السور التي تزيد على المائة، ثم يأتي بعد ذلك المثاني وهي التي تأتي دون المائة، ثم يأتي بعد ذلك المفصل، هذه أربعة أجزاء، من السلف من كان يقسم بهذه الطريقة، وأكثرهم كان يقسم إلى سبعة أجزاء، يختمونه في سبع، هذا الذي عليه أكثر السلف، ومنهم من يقسم بهذه الطريقة -إلى أربعة أقسام-، وبعضهم يفسر السبع المثاني بموضوعات القرآن، العلماء تكلموا على موضوعات القرآن، ابن عاشور في مقدمة التفسير ذكر الموضوعات التي يدور عليها القرآن، وذكر هذا جماعة من أهل العلم، فبعض أهل العلم قال للسبع المثاني: هي الموضوعات التي يدور عليها القرآن، الأقسام الموجودة مثل الأمر والنهي والإنذار والبشارة والأمثال وذِكْر النعم وأخبار الأمم.

وقد أورد البخاري -رحمه الله- ههنا حديثين:

(أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: مر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أصلي فدعاني فلم آته.

هذا الحديث يعتبر نصاً في الموضوع، وهو أن المثاني هي سورة الفاتحة، وهذا قول عامة أهل العلم، والسبع الطوال التي ذكرها بعض السلف أكثرها نزل في المدينة، وهذه الآية مكية.

عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: مر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته، فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟)) فقلت: كنت أصلي، فقال: ((ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ}[سورة الأنفال:٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن

قبل أن أخرج من المسجد)) فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخرج فذكّرته فقال: (({الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة:٢] **هي السبع المثاني والقرآن الذي أوتيته))**[٢].

(الثاني) عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم))[٣]**، فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ}** [سورة الزمر:٢٣] **فهو مثانٍ من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.**

متشابه يعني يشبه بعضه بعضاً في الحسن والفصاحة والبيان، ويصدق بعضه بعضاً، فالله وصف القرآن كله بأنه متشابه بهذا الاعتبار، ووصفه بأنه محكم، **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [سورة هود:١] أي: يصدق بعضه بعضاً، ووصف بعضه بأنه محكم، وبعضه بأنه متشابه والمقصود غير الوصف العام، فالمراد بقوله: **{مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}** [سورة آل عمران:٧]، هو إحكام خاص وتشابه خاص، فالمحكم هو ما استقل بنفسه في بيان المراد منه ولم يحتج إلى غيره ليفهم معناه، والمتشابه: ما احتاج إلى إرجاعه إلى غيره ليتبيّن المراد منه.

وقوله: {لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ} [سورة الحجر:٨٨] **أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.**

قال تعالى: **{وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}**، وقال: **{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}**[سورة طــه:١٣١]، وقال: **{لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}** يعني: استشراف النفس والتطلع إلى ما في أيديهم من الحطام والمتاع، وما أشبه ذلك، فما عند الله خير وأبقى، فذلك فيء زائل، وحطام لا بقاء له، **{إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ}**، أي: أصنافاً منهم مُتعوا بأنواع المتع في هذه الحياة الدنيا.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}، قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه.

وقال مجاهد: {إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ} هم الأغنياء.

وليس المقصود **{إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ}**: هم الأغنياء مطلقاً، وإنما المقصود الكفار، **{زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** ، فقوله: **{وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}** يبين أيضاً ذلك، **{وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}** أي: على عدم إسلامهم، فإن الله -عز وجل- لم يُرد ذلك.

---

[٢] - رواه البخاري كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، برقم (٤٢٠٤).

[٣] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}**، برقم (٤٤٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقُلْ إِنّيَ أَنَا النّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة الحجر:٨٩-٩٣].

يأمر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للناس: {إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} البيّن النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، وفي الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق))[١].

وقوله: {الْمُقْتَسِمِينَ} أي: المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح: إنهم {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}[سورة النمل:٤٩]الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا، {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}[سورة النحل:٣٨]، {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ} الآية {أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ}، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه، فسُموا مقتسمين.

وقوله: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} أي: جزّءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وقيل: المراد بالمقتسمين قريش، وبالقرآن هو هذا القرآن، ومعنى جعْله عضين هو ما قاله عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسمُ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا

---

١ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٨٥٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، برقم (٢٢٨٣).

فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} أصنافاً، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أولئك النفر الذين قالوا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ثم قال: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ} [سورة الرحمن:٣٩] **قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، قال بعض أهل العلم: إن الكاف زائدة -أي إعراباً-، يعني {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} نذير يعني منذر، أنذركم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب، هكذا قدره بعض أهل العلم، وبعضهم قال: فيه أن مفعول "أنزلنا" مقدر، يعني {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} عذاباً، فيخوفهم ويتوعدهم، فيكون المعنى: نذير لكم من عذاب كعذاب المقتسمين، {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} عذاباً، فأنا نذير لكم مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم، فيكون كقوله: {أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[سورة فصلت:١٣] يعني: يخوفهم من أن يُنزل بهم عذاباً كالعذاب الذي نزّله على المقتسمين، سواء كان هؤلاء -أعني المقتسمين- هم مِن مضى، ممن أهلكهم الله -عز وجل-، أو ممن كانوا في قريش وأهلكهم الله -تبارك وتعالى-، والآية تحتمل المعنيين، {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، وقوله: {الْمُقْتَسِمِينَ}: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، ففسره بهذا، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بالمقتسمين هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في القول الأول، يعني من القسَم وهو الحلف، يحلفون ويقسمون على عدم البعث، وعلى تكذيب الأنبياء، وعلى صحة إشراكهم وكفرهم بالله -تبارك وتعالى- وما شابه ذلك {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}[سورة النمل:٤٩] وهذا كله داخل في هذا المعنى، على هذا القول، سواء كانوا من الأمم السابقة أو كانوا من قريش، كل هؤلاء الذين يحلفون على الكفر وعلى أذى الأنبياء -على هذا المعنى- يدخلون فيه، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الكلام على قوله: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، قال: "**وقيل المراد بالمقتسمين قريش، وبالقرآن هذا القرآن**"، وبعضهم لا يفسره بالقسم وإنما الذين اقتسموا الشيء يعني بعّضوه، وجزّءوه وجعلوه أقساماً، وهذا هو الأقرب إلى ما فسره الله -تبارك وتعالى- به، في قوله: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، لكن مَن هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين؟ وهل المقصود بالقرآن هو هذا

الذي بين أيدينا أو الكتب السابقة؟ فمن قال بأنها الكتب السابقة، قالوا: جزءوا كتبهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فجعلوا كتاب الله -عز وجل- مجزّءاً، يقبلون بعضه ويردون ما يخالف أهواءهم، وبعضهم يقول: المراد بالقرآن هو هذا القرآن، والذين جعلوه عضين هم أهل الكتاب، كانوا يستهزئون، فبعضهم يقول: هذه السورة لي وهذه السورة لك، أو أنهم يؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضه، يؤمنون بما يوافق أهواءهم، ويكفرون بما يخالف أهواءهم، وبعضهم يقول: هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين هم قريش؛ لأنهم تفرقت فيه أقوالهم، فمنهم من قال: إنه سحر، ومنهم من قال: إنه كهانة، ومنهم من قال: إنه شِعر، فجعلوه عضين بهذا الاعتبار، والعضين بعضهم يقول: إن أصله جمع عِضَة، وتقول: أعضى الشاة بمعنى جعلها أجزاءً، وهذا موافق لما قبله من قوله: {الْمُقْتَسِمِينَ}، يعني جعلوا القرآن أجزاءً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أو أنهم يقولون: هذا سحر، وبعضهم يقول: شعر، وبعضهم يقول: كهانة ونحو ذلك، وقيل: إن العِضَة هي السحر، فمن أسمائه: العِضَة، وقد جاء ذلك أيضاً في النميمة؛ لأنها تفعل فعل السحر، {عِضِينَ} أي: سحر، وبعضهم يقول بأن العِضة هي السحر، والعَضة بالفتح يعني البهت، وابن جرير -رحمه الله- يقول: لا مانع من حمل الآية على هذه المعاني جميعاً، وأما المقتسمين فالقول بأنها من الحلف، {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} مع أنها تحتمله إلا أن السياق قد لا يدل عليه؛ لأن الله -عز وجل- قال: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، والأشهر أن يقال في الحالف: "كما أنزلنا على المُقْسِمين" وهنا قال: {الْمُقْتَسِمِينَ}، فالحاصل أن الكفار قالوا عن القرآن هذه الأقاويل ورموه بما هو معروف من أباطيلهم وكذبهم، -والله تعالى أعلم-، وقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، بعضهم يقول: إنه متعلق بقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعض، {كَمَآ أَنْزَلْنَا} أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على المقتسمين كتابهم، والأثر الذي ذكره الحافظ ابن كثير **عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش**، ..إلى آخره، لا يصح من جهة الإسناد.

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر:٩٤-٩٩].

يقول تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} أي: أَمْضِه، وفي رواية {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} [سورة الصافات:١٠٢]، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة، وقال أبوعبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهما-: ما زال النبي -صلى الله عليه وسلم- مستخفياً حتى نزلت {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}، فخرج هو وأصحابه.

الصدع معناه الأمر بإعلان الدعوة وإظهارها وإشهارها بعد أن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو سراً، وبعض أهل العلم يقول: إنه مأخوذ من الصديع وهو الصبح، فإذا صدع، فإنه يكون قد أبان وأظهر دعوته، كما ينصدع الصبح ويبين من ظلام الليل، وبعضهم يفسر الصدع بالشق، تقول: تصدع الجدار مثلاً، يعني

تشقق، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} يعني: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بالصدع، أي بما يكون به تفريق كلمتهم؛ لأنه جاء في أسماء القرآن بأنه الفرقان، فرق بين الحق والباطل، فينقسم الناس إلى فريقين: إلى مؤمنين وكفار، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}، وهذا لا يخلو من تكلف -والله تعالى أعلم-، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} أي: أعلن وأظهر دعوتك.

وقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أي: بلّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم:٩]، ولا تخفهم فإن لله كافيك إياهم وحافظك منهم، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[سورة المائدة:٦٧].

قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أي: لا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم، وقيل بأن قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} أي: أعرض عن معاقبتهم وإيصال الأذى إليهم، كقوله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[سورة الأنعام:١٠٦]، وقوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} [سورة الزخرف:٨٩]، {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[سورة النجم:٢٩]، وما شابه ذلك من الأمر بالإعراض فإن الكثيرين من أهل العلم يقولون: إن هذه الآية منسوخة، ويقولون: إن آية السيف نسختها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والأقرب -والله أعلم- أن ذلك ليس بمنسوخ، وأن هذه أطوار وأحوال تمر بها الدعوة، ففي وقت الاستضعاف: الإعراض والصفح والعفو، {وَقُلْ سَلَامٌ}، وفي وقت التمكن والقوة تكون المعاقبة.

قال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: ((اللهم أعم بصره، وأثكله ولده))[٢]، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- الاستهزاء أنزل الله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

رواه محمد بن إسحاق من غير إسناد، فلا يصح، والروايات الواردة في هذا المعنى {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أنهم خمسة، وجاءت تسميتهم على اختلاف في بعض الروايات، والعقوبات التي حلت بهم كثيرة منها ما هو موضوع، ومنها ما يمكن أن يقال: إن أقل أحواله أنه حسن لغيره، ومجموع الروايات يدل على أن لذلك أصلاً، فـــ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} نزلت في أشخاص بأعيانهم، كانوا معروفين بشدة عتوهم واستهزائهم

---

٢ - انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (٤/٣٩٥)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/٢٥٦).

فأنزل الله -عز وجل- بهم عقوبات متنوعة، فأهلكهم الله -تبارك وتعالى-، هذا الذي يؤخذ من مجموع الروايات، والروايات المذكورة تشبه هذه الرواية على تفاوت في ذكر بعض التفاصيل، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر(١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تتمة كلامه على قوله -جل وعلا-: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}[سورة الحجر:٩٥] الآيات.

قال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: ((اللهم أعم بصره، وأثكله ولده))[1]، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، ومن خزاعة: الحارث بن الطُلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان.

معنى الطلاطلة في اللغة: الداهية.

ضبط بعضهم مَلْكان، وبعضهم مَلَكان، وبعضهم مِلْكان بالكسر والإسكان.

فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- الاستهزاء أنزل الله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ}[سورة الحجر:٩٤-٩٦].

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حَبَناً، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرحٍ بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له.

الحَبَن انتفاخ البطن، فمات منه حَبَناً.

يريش نبلاً له: يعني يلصق فيه الريش، والسهم يوضع فيه الريش من أجل أن ينطلق بطريقة لا ميل فيها.

فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فقتله، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شِبْرِقة فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله.

---

١ - وذكره الحافظ –أيضا- في البداية والنهاية (١٠٥/٣)، وابن هشام في السيرة (٢٥٦/٢).

فانتقض: يعني جراحه انتقضت، أي تجددت بعدما برئت.

فامتخض بالضاد، فامتخض قيحاً، يعني تحرك القيح في رأسه وانتشر فمات.

وقوله: {الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكما أن الأثر السابق لا يصح، فكذلك هذا لا يصح، "**وعن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل.. إلى آخره**"، وجاء أيضاً بنحوه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عند أبي نعيم ولكن بإسناد حكم عليه بالوضع، ولا يوجد من الآثار التي تشبه هذا ما هو أحسن حالاً وأقوى سنداً، ومجموع هذه الروايات يدل على أن لذلك أصلاً، والله أعلم.

وقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [سورة الحجر:٩٧-٩٨] أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنّك ذلك ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}، كقوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} [سورة الأنعام:٣٣] وكقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، وقوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ}[سورة هود:١٢] الآية، فهذه الآيات ونظائرها تدل على هذا المعنى، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}، ثم أرشده إلى ما يفعله عند ذلك فقال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ}، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥] ثم قال له: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} [سورة المزمل:٦-٧]، الشاهد أنه أرشده إلى قيام الليل، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [سورة البقرة:٤٥] يستعان بها على هذا وعلى كل ما يصيب الإنسان من الشدائد، وحتى على القيام والنهوض بالتكاليف الشرعية.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نعيم بن همّار -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكْفك آخره))[٢].

وفي بعض الألفاظ: ((اكفني أربع ركعات))[٣].

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٢٤٦٩)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٤٢).

وقوله: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[سورة الحجر:٩٩] **قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما روى ابن جرير عن سالم بن عبد الله {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} قال: الموت، وفي الصحيح عن أم العلاء -امرأة من الأنصار -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما يدريك أن الله أكرمه؟)) فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: ((أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير))[٤]، ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله.**

لأن ذلك قيد إلى حد الوفاة، {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وسواء كان ذلك في الصلاة أو في غيرها، ويبين ذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن القلم رفع عن ثلاثة[٥]، فطالما أن الإنسان وجد فيه العقل فإنه مطالب بالعبادة إلى أن يأتيه الموت، فالعبادة لا تسقط عن المكلف ما دام يعقل، لا تسقط سقوطاً كلياً ولا تصير إلى بدل، بخلاف بعض العبادات التي تسقط بالعجز كالحج، ومنها ما يسقط إلى بدل مثل الوضوء إلى التيمم، أما تفسير بعض الصوفية بأن اليقين هو أن يصل الإنسان -كما يزعمون- إلى مرحلة الكشف، ثم تسقط عنه بعد ذلك التكاليف، فهذه زندقة وإلحاد.

ويقولون في قوله تعالى مثلاً: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[سورة المدثر:٤٣-٤٧] أتاهم اليقين يعني الكشف، هؤلاء الكفار في النار يقولون: {حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}! ومعنى اليقين: الموت، والقرآن يفسر بالقرآن، وهذا الحديث في عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- قال: ((فقد جاءه اليقين))[٦] يعني: الموت.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنْب))[٧]، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة

---

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٧٣٩٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير نعيم بن همار، فقد روى له أبو داود والنسائي، وهو في قول الجمهور صحابي، وعده العجلي تابعياً، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٩٤).

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، برقم (٢٥٤١).

٥ - رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، برقم (٤٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، برقم (٢٠٤١)، والنسائي، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، برقم (٣٤٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥١٢).

٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه، برقم (١١٨٦).

٧ - رواه البخاري، أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، برقم (١٠٦٦).

ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة النحل وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[سورة النحل:١].

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ}[سورة الأنبياء:١]**، وقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}**[سورة القمر:١]**. وقوله: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} أي: قرُبَ ما تباعد فلا تستعجلوه، كما قال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٥٣-٥٤].**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}**، مَن نظر إلى صيغة الماضي وأراد أن يفسر الكلام بمقتضاها قال: **{أَتَى أَمْرُ اللّهِ}** يعني التكاليف، أي ما يؤمر الله به عباده، من الحلال والحرام، ولكن هذا وإن قال به بعض السلف مراعياً لظاهر اللفظ إلا أنه بعيد؛ وذلك أن أحداً لم يستعجل هذه الفرائض والأحكام والأمر والنهي حتى ينزل **{فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}**، والقاعدة: "أنه يعبر بالماضي عن المستقبل إيذاناً بتحقق الوقوع"، فما كان متحقق الوقوع بلا مرية فقد يعبر عنه بالماضي، **{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}**، فهو آتٍ لا محالة، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}**[سورة الأعراف:٥٠]، **{وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ}**[سورة الأعراف:٤٨]، **{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا}**[سورة الأعراف:٤٤]، **{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}** [سورة غافر:٤٩]، وما أشبه ذلك وهو كثير في القرآن، **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ}** [سورة ق:٢٠]، كل هذا عبر فيه بالماضي عن أمر في المستقبل، ولا إشكال في هذا، وهو الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم فسره بهذا الأمر المنتظر أي: القيامة، كما دل عليه ظواهر القرآن في مواضع متعددة، **{يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا}** [سورة الشورى:١٨] يعني: الآخرة، الساعة، **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}** [سورة النازعات:٤٢]، كانوا كثيراً ما يسألون عنها، ويستعجلون بها، وممن فسروه بأنه يتعلق بأمر مستقبل عُبر عنه بالماضي يقول: هذا الذي استعجلوه هو العذاب، كما قال الله -عز وجل-: **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}** [سورة الحج:٤٧]، **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}** [سورة الرعد:٦]، وقالوا: **{عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا}** [سورة ص:١٦] يعني: نصيبنا، **{قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}** [سورة ص:١٦]، وما شابه ذلك في كتاب الله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -

رحمه الله- والأقرب -والله أعلم- أن قوله: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١] أي: الساعة، فهي قريبة، والله يقول: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [سورة الأحزاب:٦٣] وكذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[١].

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي منادٍ فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم، ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه))، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً)) قال: ((ويشتغل الناس))[٢].

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ} [سورة النحل:١-٢].

يقول تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ} أي: الوحي، كقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [سورة الشورى:٥٢]، وقوله: {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} وهم الأنبياء، كما قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤]، وقال: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}[سورة الحج:٧٥]، وقال: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٥-١٦]. وقوله: {أَنْ أَنْذِرُوا} أي: لينذروا {أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

قوله: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ} أحسن ما فسر به هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو أنه الوحي، الله -عز وجل- سمى الوحي بالروح؛ لأنه يحصل به حياة الأرواح والنفوس، كما تحصل حياة الأبدان بالطعام والشراب، كقوله: {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} [سورة غافر:١٥]، {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ}[سورة الأنبياء:٤٥] ينزلهم بالروح للإنذار، لينذروا بهذا الروح الذي أنزله، وقوله -تبارك وتعالى-: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ} [سورة النحل:٢] "من" هذه يمكن أن تكون بيانية، يعني بأشياء، ويمكن أن تكون تبعيضية، {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ}، وتكون ابتدائية كقوله: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [سورة الرعد:١٧]، أي مبتدأً.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}[سورة النحل:٣-٤].

---

١ - رواه البخاري، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، برقم (٦١٣٩)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٤٣١٣)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٥٠٠٩).

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١] ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان، {مِن نّطْفَةٍ} أي: مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً} [سورة الفرقان:٥٤-٥٥]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [سورة يس:٧٧-٧٩]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش -رضي الله تعالى عنه- قال: بصق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كفه، ثم قال: ((يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟))[٣].

قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، خلقاً متلبساً بالحق، أي ليس عبثاً، وللآية نظائر في القرآن، {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}، النطفة معروفة، وتقال للشيء القليل من الماء، {خَصِيمٌ مُّبِينٌ} يحتمل أن يكون المعنى أنه خصيم أي يخاصم في ربه -تبارك وتعالى-، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يجادل في وحدانية الله، ويكذب رسله، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- في تفسيرها والذي عليه عامة أهل العلم. والمعنى الآخر الذي تحتمله هو {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} أي: يخاصم ويجادل، ويبين عما في نفسه، فهو شديد الخصومة، وكثير الخصومة، ولو قيل: إن الآية تصدق على هذا وهذا، لم يكن ذلك بمستبعد، والله أعلم.

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}[سورة النحل:٥-٧].

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ} وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمَدّه خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسْنمةً، {وَحِينَ تُرِيحُونَ} أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى، {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ} وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، {إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كقوله: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت، برقم (٢٧٠٧)، وأحمد في المسند (٣٨٧/٢٩)، برقم (١٧٨٤٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٤٣).

وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [سورة المؤمنون:٢١-٢٢]، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُون * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ}[سورة غافر:٧٩-٨١]؛ **ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم:** {إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} **أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله:** {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}[سورة يس:٧١-٧٢]، **وقال:** {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [سورة الزخرف:١٢-١٣]، **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-:** {لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} **أي: ثياب،** {وَمَنَافِعُ} **ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.**

قوله: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا} الأنعام: أكثر ما يطلق ذلك على الإبل، وهذا اللفظ أيضاً يصدق على الأنواع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام: الإبل والبقر والغنم بنوعيه، كلها يقال لها أنعام، قال: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الدفء الثياب، يعني ما يصنع من أوبارها وأصوافها وأشعارها مما يحصل به الدفء، ويتقي فيه الإنسان البرد، وهذا هو الظاهر، وبعضهم حمل الدفء على معنىً أوسع من هذا، فحمله على ما يحصل منها من مشروب ومأكول، ونحو ذلك، وليس هذا هو المتبادر عند إطلاق هذه اللفظة، والقرآن إنما تُحمل معانيه على الظاهر المتبادر، لا سيما وأن الله -عز وجل- قال بعده: {وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فما يستخرج منها من الألبان والأزباد وما شابه ذلك مما يستخرجونه من ألبانها كالأجبان والأَقِط ونحوها، فإن ذلك داخل في قوله: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، وبقية الأشياء كأكل لحومها ذكرها الله -عز وجل- بالمنافع، هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، {وَحِينَ تَسْرَحُونَ} يعني: وقت الرواح هو في آخر النهار من المرعى، وقدّمه -مع أن الخروج حينما تسرح إلى المراعي يكون في أول النهار- لأنه أكمل في الحالة والصورة، فهي تغدو وتسرح وهي ضامرة البطون، ثم ترجع في آخر النهار وهي أمَدّ ما تكون خواصر وأملأ ما تكون ضروعاً، وهذا إنما تقوم عليه معايشهم، ومن يزاولون هذه الأنعام اليوم يطربون لرؤية هذه البهائم وهي ممتدة الخواصر، وقد امتلأت ضروعها بالألبان، فهذا شيء يحرك نفوسهم ويبهجها ويطربها؛ ولهذا -والله أعلم- قدم الرواح وهو الرجوع في آخر النهار على الذهاب في أوله، فالرواح يكون من المرعى إلى حظائرها والأماكن التي يكون بياتها فيها؛ ولهذا يسمى المكان الذي تبيت فيه المراح؛ لأنها تروح إليه أو تُراح إليه في وقت العشي، فهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير ومشى عليه كثير من المفسرين، {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ} يقولون: حينما تكون في حظائرها الناس لا يشاهدونها ولا ينظرون إليها ونحو ذلك، وهكذا حينما تكون متفرقة في المرعى، لكن عندما تخرج مجتمعة، أو حينما تكون راجعة تكون مجتمعة، سواء كانوا من أهل البادية أو من أهل القرى، فأهل البوادي تجتمع عندهم في المراح، وتخرج سارحة وهي مجتمعة، ثم بعد ذلك تتفرق في المرعى وهم لا يشاهدونها في المرعى أصلاً، ثم إذا جاءت في العشي كانت مجتمعة مسرعة وترجع من نفسها، فلو أن الراعي غفل عنها، أو نام، أو أصيب بشيء، تأتي لوحدها وتعرف طريقها، فتأتي مسرعة مندفعة، ثم تتفرق في الحظائر، وتعرف كل

واحدة بيت أهلها، فتنطلق إليه مسرعة، فتتفرق، فمنظرها حينما تكون ذاهبة وآتية مجتمعة، {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، فذكر هذين الحالين، ومن أهل العلم من حمل الجمال {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} على معنىً آخر وهو {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} أي: تتجملون أنتم بها، بمعنى أنكم تترفعون، وإنما تكون مكانة الإنسان ومنزلته في نظر الكثيرين بما له من مال وأنعام فيحصل لهم بذلك رفعة ومكانة في نفوس كثير من الناس، وعند أنفسهم أيضاً، فملكية هذه الأنعام تعود على صاحبها بشيء من الرفعة، وأشعار العرب كثيرة في هذا، وتفاخرهم بما عندهم من الأنعام، وبعض أهل العلم حمل الجمال على ما يحصل لهم من التجمل بما ملكوا من هذه الأنعام؛ لأنها هي أموالهم، فهذه أموال ظاهرة يراها الناس، بخلاف الأموال الباطنة التي لا يطلع عليها أحد.

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٨].

هذا صنف آخر مما خلق -تبارك وتعالى- لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[٤].

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل[٥]، وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنهما- قالت: نحرنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة[٦].

هذه الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أن من أهل العلم من فهم أن الخيل لا يجوز أكلها؛ لأن الله لما ذكر الأنعام قال: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [سورة النحل:٥]، وذكر الخيل مع البغال والحمير ولم يذكر الأكل، وإنما قال: {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}، ما قال: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فقالوا: إن حكم الخيل هو حكم البغال والحمير، لا يؤكل منها، وإنما للركوب والزينة فقط، فاحتجوا بأمرين من هذه الآية، الأول: دلالة الاقتران، قرنها مع البغال والحمير، والثاني: أن الله لم يذكر الأكل، وإنما ذكر الركوب والزينة بخلاف الأنعام، فقالوا: فرَّق بينهما، والواقع أنه لا دليل في واحد منهما، أما دلالة الاقتران فهي دلالة ضعيفة عند الأصوليين لا يحتج بها، وحينما ذكر الله -عزوجل- الركوب والزينة، يمكن أن يحتج بأنه سبحانه لم يذكر في الآية السابقة الركوب، وعليه يمكن أن يقال: لا يجوز ركوب الأنعام بما في ذلك الإبل، والعلماء اختلفوا في البقر هل

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب لحوم الخيل، برقم (٥٢٠١)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب في أكل لحوم الخيل، برقم (١٩٤١).

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل، برقم (٣٧٨٩)، وأحمد في المسند برقم (١٤٨٤٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني: وهذا على شرط مسلم، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٣٨/٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب النحر والذبح، برقم (٥١٩٣).

يجوز الحمل عليها والركوب؟ وفي الحديث: "الرجل الذي كان يركب بقرة فقالت: إني لم أخلق لهذا"[٧]، فأخذ منه بعض أهل العلم أن البقر لا يجوز ركوبها ولا الحمل عليها، ولكن هذا يختلف، فمن الأبقار ما لا يحتمل ذلك، ومنها ما تكون بهيئة عظيمة كما في بعض أنواعها وفصائلها كالجواميس ونحوها يحمل عليها الأثقال، ويركب عليها الناس في بعض البلاد ولا يضرها، فالشاهد أنه لما ذكر الأنعام ما ذكر الركوب، مع أنه لا إشكال في ركوبها إطلاقاً، والآيات واردة في هذا المعنى: **{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}**[سورة المؤمنون:٢١-٢٢]، **{وَعَلَيْهَا}** يعني: الأنعام، فذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ركوبها، وهكذا في قوله: **{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}** [سورة غافر:٧٩-٨٠]، تنتقلون إلى البلاد البعيدة، تحملون الأثقال، وتقطعون المسافات، ولم يذكر في آية النحل الركوب في الأنعام، فإذا أردنا أن نحتج أو نستدل على هؤلاء الذين قالوا: إن الخيل لا يجوز أكلها بناءً على أن الله ذكرها هنا وذكر المنفعة التي تحصل وتستخرج منها وهي الركوب والزينة، فنقول: هناك لم يذكر الركوب، فلا يقال: لا يجوز ركوب الأنعام؛ لأن الله لم يذكره، فذِكْر بعض المنافع في موضع وترْك بعضها لا يعني أن ذلك ليس من منافعها وأنه لا يسوغ ولا يجوز، ووردت أحاديث تدل على جواز أكل لحوم الخيل، والله -تبارك وتعالى- في هذه الآية لما ذكر الأنعام قال: **{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}**، ذكر هذين الوقتين، والجمال فسر بامتداد خواصرها وامتلاء ضروعها، والمعنى الثاني **{جَمَالٌ}** أنكم أنتم تتجملون؛ لأن هذه أموال ظاهرة ويراها الناس، ولما ذكر الخيل والبغال والحمير قال: **{لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**، **{وَزِينَةً}** يعني: تتزينون بركوبها، ولا شك أن أجمل هذه المذكورات جميعاً هو الخيل، ولما ذكر الله -عز وجل- هذه الثلاثة الخيل والبغال والحمير ذكرها مرتبة من الأعلى إلى الأدنى، فالخيل أجمل وأشرف ثم البغال ثم بعد ذلك الحمير، ومن حيث القوة والتحمل أقواها الحمار، ولهذا يكنى بأبي صابر، ثم يليه بعد ذلك البغل، وهو قوي جداً أقوى من الخيل من ناحية التحمل، ثم بعد ذلك يأتي الخيل، فهي بالنسبة للقوة مرتبة من الأدنى إلى الأعلى، وبالنسبة للجمال والشرف مرتبة من الأعلى إلى الأدنى، وبالمناسبة فقد ظهرت الاحتفالات التي تسمى مزايين الإبل، وهذه ليست مسابقة فقط بين الجميلات من الإبل بل يجمع لها الأموال الهائلة، فبعض القبائل جمعت أكثر من سبعين مليوناً، وبعضهم رصف طريقاً مُضاءً في الصحراء إلى المكان الذي تقام فيه المسابقة مع أن المسافة شاسعة، وسمعت أن بعضهم يحمِّل السيارة الكبيرة أغناماً ويدور على المخيمات ويعطيهم، ولا يمر أحد إلا ويدعى من الخيام للحم إن شاء أن يأكل مما صنع، وإن شاء أن يأخذه نيئاً لم يطبخ، فتصرف أموال هائلة، وسيارات وهدايا بأغلى الأثمان على الجميلة من الإبل، ولا فخر في هذا، فالإبل لا تعرف بالجمال، إنما الجمال في الخيل، وما ذكره الله -عز وجل- فيها من الجمال على معنيين -حينما تكون سارحة أو راجعة-: امتداد خواصرها أو امتلاء ضروعها، وليس في هيئتها

---

٧ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت متخذا خليلا))، برقم (٣٤٦٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، برقم (٢٣٨٨).

أنها جميلة تعشقها الأنظار ونحو ذلك إطلاقاً، وما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أنها جمال لأهلها بمعنى أنهم يرتفعون بامتلاك الأنعام؛ لأنها أموال العرب، والمقصود أن مثل هذه التصرفات خلاف الدين، فإن الله -عز وجل- نهى عن إضاعة الأموال، ثم هذه الأموال المصروفة لا فائدة منها للبهائم ولا للآدميين، ولا للمجتمع، وإنما فيها تفكيك المجتمع، وإحياء القبليات والنعرات الجاهلية، حتى عند الأطفال، فهم يتناقلون أشعاراً نبطية، والرموز المكتوبة على السيارات، وعلى الشوارع وعلى الجدران ترمز إلى قبائل، ونحن إذا شاهدنا تلك الرموز لا نعرفها، لكن نسمع من الصغار من يقول: هذا القبيلة الفلانية، وهذه القبيلة الفلانية، فضلاً عن الكبار، فكيف يفتخر بالقبيلة وما أشبه ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((دعوها فإنها منتنة))[8]، وقال: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟))، لما قال رجل: يا للمهاجرين، وقال آخر: يا للأنصار[9]، مع أن هذه أسماء شرعية، فهذا رد للناس إلى مآثر الجاهلية وافتخارها بالأحساب والأنساب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن ذلك مما يبقى في هذه الأمة، لا يتركونه من أمر الجاهلية، وهذا يعيدها فتيّة، وأصبح كثير من الناس يتناقلون في جوّالاتهم قصائد هذه القبيلة في هذه القبيلة، وهذه القبيلة في هذه القبيلة، ثم إن الخيل معروفة بالجمال وهي أحق وأولى بأن يقام لها مزايين، ولا تُهوّن من أمر الحمير والبغال، فربما تحتاج أيضاً أن يقام لها مزايين، فالله -عز وجل- ذكرها كلها وذكر الزينة بعدها، فضلاً عن البقر والشياه وغيرها، والقبائل الذين يربون البقر، ويربون الأغنام وليسوا بأهل إبل، هؤلاء تجدهم يتنافسون على الأقل فيما بينهم بمزايين البقر أو مزايين الغنم، فتخصيص الإبل بالمزايين تخصيص بلا مخصص، يعني بلا موجب، وتفريق بلا مفرق، وإلا فكما قيل:

ما ثم غير مشيئة قد رجحت *** مثلاً على مثل بلا رجحان

فمثل هذه الأشياء يجب إنكارها وبيان خطر هذا على المجتمع، وعلى الأمة، ولسنا بحاجة إلى مزيد من الفرقة والانقسام، والله المستعان.

وقوله: {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}، كثير من المفسرين يقولون: المقصود به: من المخلوقات من دواب البحر، والوحش، والديدان، والكائنات الحية بجميع أنواعها، مما نعرفه وما لا نعرفه، وما يمكن مشاهدته بالعين المجردة وما لا يمكن مشاهدته، فهذه عوالم لا زال الناس يكتشفون منها أشياء وأشياء إلى يومنا هذا، وبعض أهل العلم كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يقول: {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يعني من المركوبات؛

---

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة المنافقون:٦]، برقم (٤٦٢٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤).

٩ - رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقون، برقم (٤٦٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- ولفظه: ((ما بال دعوى جاهلية))، قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: ((دعوها فإنها منتنة)) الحديث، ومسلم بلفظ::((ما بال دعوى الجاهلية))، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤).

لأن السياق في ذكر المراكب، {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} من المركوبات، يقول: وذلك مثل القطارات والطيارات والسيارات وغير ذلك من المراكب المتنوعة.

{وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[سورة النحل:٩]، لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[سورة البقرة:١٩٧]، وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [سورة الأعراف:٢٦]، ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} كقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [سورة الأنعام:١٥٣]، وقال: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [سورة الحجر:٤١].

قال مجاهد في قوله: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} قال: طريق الحق على الله، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} يقول: وعلى الله البيان، أي يبين الهدى والضلالة، وكذا رَوى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، ولهذا قال تعالى: {وَمِنْهَا جَائِرٌ} أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، {قَصْدُ} هذه صفة، و{السَّبِيلِ} موصوف، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، يعني السبيل القاصدة، {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦]، {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، فحينما يقال: قصد السبيل يعني السبيل القاصد، يعني: أنها توصل إلى الله -عز وجل-، والسبل: هي بُنيّات الطريق، كما خط النبي -صلى الله عليه وسلم- خطاً مستقيماً وخط خطوطاً صغاراً فقال: ((هذا صراط الله، وهذه السبل))[10]، وقرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}[سورة الأنعام:١٥٣]، وهو الصراط الذي نطلبه من الله -عز وجل- في: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}[سورة الفاتحة:٦-٧]، وهذا المعنى هو الذي اعتمده الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو الذي اختاره ورجحه صاحب الأضواء، ويحتمل أن يكون {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} سبيل القصد والاستقامة: يعني بيانها وإيضاح معالمها للناس، فالله -عز وجل- بيّنها وجلاها ووضحها، والمعنيان مذكوران في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [سورة الليل:١٢]، وهذا المعنى: أن على الله البيان وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

{وَمِنْهَا جَآئِرٌ} أي: حائد مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {وَمِنكُم جَآئِرٌ}.

---

١٠ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٤١٤٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٦٢٩٧)، وحسنه الألباني في تحقيقه على مشكاة المصابيح برقم (١٦٦).

قوله: {وَمِنْهَا جَآئِرٌ}، ذكر الحافظ أن الضمير يرجع إلى الطريق، أي السبيل {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ} يعني: من السبل ما هو منحرف وجائر، خارج عن طريق القصد وعن الصراط المستقيم، هذا هو المعنى المشهور المتبادر، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {وَمِنْهَا جَآئِرٌ} من السبل ما هو منحرف لا يوصل إلى الله -تبارك وتعالى-، {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ} [سورة الأنعام:١٥٣]، وقال الحافظ -رحمه الله-: "**وقرأ ابن مسعود** {وَمِنْكم جَآئِرٌ}" وهي قراءة منقولة عن علي -رضي الله عنه-، وليست بمتواترة، {وَمِنْهَا جَآئِرٌ} قال: {وَمِنْكم جَآئِرٌ}، هذا موافق للقول بأن السبيل عُبر بها عن سالكيها، {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ} أي: ومن سالكيها جائر، من هو الجائر؟ هوالحائد عن طريق القصد والاستقامة، فيكون هذا موافقاً له، {وَمِنْكم جَآئِرٌ} أي: حائد عن الحق، معرض عنه.

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، **كما قال تعالى**: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} [**سورة يونس**:٩٩]، **وقال**: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [**سورة هود**:١١٨-١١٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الّذِي أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَآءً لّكُم مّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزّرْعَ وَالزّيْتُونَ وَالنّخِيلَ وَالأعْنَابَ وَمِن كُلّ الثّمَرَاتِ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ} [سورة النحل:١٠-١١].

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء -وهو العلو- مما لهم فيه بُلْغَة، ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ} أي: **جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً، {وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}** أي: **وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله: {فِيهِ تُسِيمُونَ}** أي: **ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.**

وقوله: {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} أي: **يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** أي: **دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}** [سورة النحل:٦٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الّذِي أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَآءً لّكُم مّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}**، هذه الآية اشتملت على ثلاثة من براهين البعث المعروفة التي تتكرر في القرآن، وهي خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من النطفة، وإحياء الأرض بعد موتها، وذكر في هذه الآية إنزال المطر من السماء، وما يحصل به من الإنبات، ثم ذكر بعدها آيات أورد فيها تلك البراهين، وقد ورد من براهين البعث وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى في سورة البقرة خمسة، وقوله تبارك تعالى: **{هُوَ الّذِي أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَآءً لّكُم مّنْهُ شَرَابٌ}** إلى آخره، كقوله -عز وجل-: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}**[سورة السجدة:٢٧]، وكقوله: **{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}** [سورة النبأ:١٤-١٦]، وكقوله: **{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}**[سورة ق:٩-١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

يقول: **{لّكُم مّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}**، فسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقال: **{تُسِيمُونَ}** "أي: **وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم**"، فسر ذلك بالرعي، قال: "**ومنه الإبل السائمة**"، والسوم: الرعي.

أصل السوم: بعض أهل اللغة يقول: إنه الإبعاد في المرعى، وبعضهم يقول: السوم من السِّمة وهي العلامة، وذلك أن هذه البهائم والدواب السارحة تترك أثراً في الأرض، فقيل لها: سائمة بهذا الاعتبار، هكذا قال أهل اللغة، والأول أشهر، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

العلماء يتكلمون على سبب تقديم الزرع على بقية الأشياء في قوله: {يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ} ويقولون: إنه أصل الغذاء بالنسبة للإنسان وما بعده كالزيتون هو فاكهة.

ثم قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [سورة النحل:١٢-١٣].

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة الأعراف:٥٤]؛ **ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.**

وقوله: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مختلفاً ألوانه} لما نبه تعالى على معالم السماوات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} ثم قال: {وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} على هذه القراءة التي هي قراءة حفص عن عاصم {وَالنُّجُومُ} يكون ذلك للاستئناف، وقرأ من السبعة ابن عامر قوله -تبارك وتعالى-: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ}: {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ} بالرفع، وقراءة الجمهور بالنصب على أن ذلك من المفعول للفعل قبله وهو {سَخَّرَ}، وهذه الآية {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} من آيات الله -تبارك وتعالى-، كقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا} [سورة فاطر:٢٧]، وقوله: {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} [سورة الروم:٢٢]، كل هذا من آيات الله -عز وجل-، وقد مضى أيضاً نظائره.

{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل:١٤-١٨].

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من

اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسنَّم الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح -عليه السلام-، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك؛ ولهذا قال تعالى: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: نعمه وإحسانه.

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [سورة النازعات:٣٢].

وقوله: {وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً} أي: جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخر لأهله وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقويّ السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسّر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً} [سورة الأنبياء:٣١]الآية.

وقوله: {وَعَلامَاتٍ} أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق.

وقوله: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، فقوله: {لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، هذا لا يخفى أنه في سياق الامتنان، ولا يفهم من هذا بحال من الأحوال أن ما يستخرج مما يؤكل من البحر لا يؤكل قديداً مثلاً أو مجففاً، وإنما ذكر على سبيل الامتنان والله أعلم، ذَكَرَ اللحم الطري، فهو يؤكل وهو طري ويؤكل أيضاً من غير طراوة.

وقوله: {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "**تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح**"، والمخر في كلام العرب يفسره بعضهم بصوت هبوب الريح، إذا اشتد هبوبها يقال له: مخر، وفسر بصوت السفينة عند هبوب الرياح تسيرها، وبعضهم يفسره كما ذكر أيضاً الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنها حينما تشق الماء بجؤجئها، وهو الخشبة المنقورة التي في مقدمتها -كما هو معلوم- فهي تشق الماء فيكون له صوت، يقول: "**ولا منافاة بين المعنيين**" وهذا صحيح، فهذه أمور متلازمة، كل ذلك له صوت يقال له: المخر، {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، ثم قال: {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يحتمل أن تكون الواو عاطفة على ما ذكر قبله، وهو قوله: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ}، فيكون المعنى هكذا: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً}، {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}،

وبعضهم يقول: إنه معطوف على مقدر، ويكون ما ذكر بعد الحلية من قبيل الاعتراض للتوضيح والبيان، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً} استطرد في وصفها فقال: {تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ} هذا كله اعتراض على التفسير السابق، وبعضهم يقول: إن الواو في {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} عاطفة على علة محذوفة، هذه العلة المحذوفة يمكن أن تقدر بـــ "لتنتفعوا"، ولتبتغوا، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} إلى آخره {وَلِتَبَتَغُواْ}، وربْطُ ذلك بمقدرٍ: الأصلُ خلافُه، وإن كان يحتمل هذا، يعني: لتنتفعوا بذلك {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}، أو أنه يقال: فعل ذلك لتبتغوا من فضله، ولعل الأحسن -والله أعلم- أنه معطوف على قوله: {وَلِتَبْتَغُواْ} فيكون المعنى هكذا {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} يعني: سخر البحر لتأكلوا وتستخرجوا وأيضاً لتبتغوا من فضله، بما يحصل من ألوان الابتغاء كركوب البحر للتجارة ونحو ذلك.

وهنا في قوله تعالى: {وَعَلامَاتٍ} قال الحافظ رحمه الله: "**أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً**".

تفسير قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} اقتصر على العلامات الأرضية من الجبال التي يعرف المسافرون فيها طريقهم، فهي علامة، والآكام وما جعله الله -عز وجل- في هذه الأرض بحيث يميز الناس فيها المسالك والأماكن بهذه العلامات، مع أن الله -عز وجل- أطلق في العلامات، فقال: {وَعَلامَاتٍ}، فبعضهم قال: هذا مرتبط بما قبله، وهو قوله: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، ثم قال: {وَعَلامَاتٍ}، ثم ذكر العلامات السماوية العلوية وهي قوله: {وَبِالنَّجْمِ}، فدل على أن الأول هي العلامات الأرضية، فقال: "**أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون**"، ومن أهل العلم كابن جرير من حمل العلامات على ما هو أعم من هذا مما يُستدل به من أدلة النهار عموماً، {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، ففي الليل يهتدون بالنجم، والنجم يمكن أن يحمل على النجوم عموماً، وحمله بعضهم على نوع من النجوم يهتدى بها، والنجوم لا شك أنه يهتدى بها، ولا يختص ذلك ببعضها، فالعرب كانت تصف الأماكن وصفاً دقيقاً بالنجوم، إذا أراد أن يصف لك محلاً أو منزلاً لبعض العرب أو نحو ذلك قال: هو تحت النجم الفلاني، فإذا تبعته وجدته كما وصف بدقة، ولا زال هذا لدى بعض الناس إلى يومنا هذا، هذه العلامات هي التي ذكرها الله -عز وجل- بعد العلامات الأرضية فقال: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، فابن جرير رحمه الله حملها على علامات النهار، وعلامات النهار لا تختص بالآكام والجبال، فهي نوع منها، وهناك علامات أخرى، ففي النهار مثلاً يعرف الشمال باتجاه التراب، فالتراب يكون مموجاً فتنظر إلى طرفه الممتد فهذا هو الجنوب، ووجهه الذي يستقبل يكون هو الشمال، والكثيب يكون وجهه محفوراً حفراً طبيعياً، فالمرتفع هو الشمال؛ لأن الرياح غالباً ما تأتي من جهة الشمال فتواجهها الجبال ولذا نجدها محفورة، وهذا ما يسمى بعلامات التعرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[سورة النحل:١٧] الآية.

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً، بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}، ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[سورة النحل:١٨] أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير، وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

{وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ}[سورة النحل:١٩-٢١].

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل -عليه السلام-: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٩٥-٩٦]، وقوله: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا}**، الإحصاء ورد أيضاً في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أحصاها دخل الجنة))[1] أي أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون، ومن معاني الإحصاء: الجمع، والإطاقة، وقوله: **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا}** أي: لا تستطيعون عدها وحصرها، ولا تطيقون القيام بحقها وشكرها، فهذا كله داخل في قوله -تبارك وتعالى-: **{لا تُحْصُوهَا}**، وقوله -تبارك وتعالى-:

---

١ - رواه البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثُّنْيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين، برقم (٢٥٨٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧).

{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} عن المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل-، معلوم أن الأموات غير أحياء، ولكن الله -عز وجل- ذكر ذلك في حقها {غَيْرُ أَحْيَاءٍ} أي: أنه لم يكن فيها حياة ففقدتها، فهي غير قابلة للحياة أصلاً، بخلاف الميت كان حياً ثم مات، ومن الأشياء ما لا يكون فيه القابلية أصلاً للحياة، وهو الذي يعبر عنه أهل الكلام والمنطق، وموجود في كتب ردود شيخ الإسلام -كالتدمرية في الرد على المناطقة- ما يسمى بالعدم والملكة، فلو قيل: هذه السارية لا تموت، وقيل: زيد لا يموت، فرق بين هذا وهذا، فالسارية حينما تنفى عنها الحياة هي غير قابلة للحياة أصلاً، لكن حينما تُنفى عن زيد الحياة فهذا نفي وصف يقبله، وقوله: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ}، هذه أحجار وأخشاب وأشجار وما إلى ذلك، هي غير قابلة للحياة أصلاً، لم تكن فيها الحياة ثم فارقتها، فقال: {أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، فقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} يحتمل معنيين: الأول: ما تشعر هذه المعبودات أيان يبعث من عبدها، هذا معنى، والمعنى الثاني: وما تشعر هذه المعبودات متى تبعث هي باعتبار أن الله -عز وجل- قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}[سورة الأنبياء:٩٨]، وقال عن النار: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[سورة البقرة:٢٤]، وفسرت الحجارة بأحجار الكبريت، وفسرت بالأصنام، ولا منافاة بين القولين، فهذه كلها تُلقى، النار يلقى فيها العابد والمعبود، إلا أن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}[سورة الأنبياء:١٠١]، فالشاهد أن الآية تحتمل المعنيين، {وَمَا يَشْعُرُونَ} وما تشعر هذه المعبودات بوقت بعث من يعبدها، والمعنى الثاني: وما تشعر بوقت بعثها هي، والمعنى الأول أقرب، فقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} يعني متى يبعث هؤلاء الذين يعبدونها ويتقربون إليها فهي لا عقل لها ولا فهم ولا إدراك، فليست بأهل للعبادة، ولو حملت الآية على المعنيين لم يكن ذلك بعيداً، فالقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإن كان المعنى الأول أقرب؛ لأنه قد يفهم من البعث: الإحياء، وهذه لا حياة فيها أصلاً، وإنما تؤخذ وتلقى في النار فحسب، وربما يشكل على القارئ أو السامع قول الله: {وَمَا يَشْعُرُونَ} فيظن أن الكلام يرجع إلى المشركين، {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: ما يشعر هؤلاء الكفار متى يبعثون، باعتبار أن العبارة جاءت هكذا {وَمَا يَشْعُرُونَ}، ومثل هذه الصيغ في الجموع إنما تأتي للعقلاء، يشعرون، يبعثون، وغير العقلاء يقال: وما تشعر أيان تبعث، كما أنه تستعمل لفظة "من" للعاقل، و"ما" لغير العاقل، ولكن يأتي هذا الاستعمال -فيما كان للعقلاء- لغير العقلاء إذا نزل غير العاقل منزلة العاقل، فهذه المعبودات جمادات غير عاقلة، لكن هؤلاء الكفار لم يجعلوها مجرد عاقلة بل جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الله -عز وجل-، فأجري عليها ما يجرى على العقلاء من العبارات، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف:٤] والأصل أن يقال: ساجدة؛ لأنها غير عاقلة، وإنما يقال: {سَاجِدِينَ} للعقلاء، لكن لما أضاف إليها شيئاً من أفعال العقلاء وهو السجود أجرى عليها ما يجري عليهم من العبارات، وهذا كثير، والخطاب يكون تارة بحسب اعتقاد المتكلم، وتارة بحسب اعتقاد المخاطب، وتارة لمعنىً آخر، وهنا بحسب ما يعتقد فيها عبادها، فعاملها هذه المعاملة {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}[سورة النحل:٢٢-٢٣].

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص:٥]، **وقال تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** [سورة الزمر:٤٥] **وقوله: {وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**[سورة غافر:٦٠]؛ **ولهذا قال ههنا: {لا جَرَمَ} أي: حقاً، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}.**

قوله: {لا جَرَمَ}، تفسر بمعنى حقاً، وهذا أحسن وأوضح ما فسرت به، والعلم عند الله -عز وجل-.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ} [سورة النحل:٢٤-٢٥].

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: {مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ} معرضين عن الجواب: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[سورة الفرقان:٥] **أي: يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}**[سورة الفرقان:٩]، **وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما {فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ}** [سورة المدثر:١٨-٢٤] **أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}، الأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وأصل ذلك من السطر وهو الكتابة، فـــ {أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} أي: أن ذلك مما سطر وكتب في كتب الأولين، ويوجد في كتب التفسير بعض من فسر ذلك -لا سيما الأقوال المنقولة عن السلف -رضي الله عنهم- بأنه الترّهات والأباطيل، وهذا لا يخالف قول من قال: إن أساطير الأولين أي ما سطر في كتب الأولين، فالذين قالوا: {أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، فهم يقصدون أن ذلك من الأباطيل التي في كتب الأولين التي لا خطام لها ولا زمام، إنما هي حكايات وأقوال ووقائع لا يعرف هل هي حق أو باطل، بل فيها من الأباطيل أشياء كثيرة، لا يعتمد عليها ولا يوثق بها، فقوله: {قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}، بمعنى الأكاذيب والأباطيل، ومن فسره بأنه مما كتب وسطر من كتب الأولين فهو نفس المعنى، يعني هم قصدوا الوصول إلى هذا المعنى، ثم في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} يلاحظ الجواب هنا، وفي جواب أهل الإيمان حين وجه إليهم هذا السؤال {مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا} [سورة النحل:٣٠]، فـــ{أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} جاءت مرفوعة، و{خَيْرًا} جاءت منصوبة، فهنا هؤلاء الكفار أصلاً لا يقولون: إنها منزلة؛ ولذلك قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيها: " **أي لم ينزل شيئاً إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين**"، فهم لا يؤمنون أنه

منزل أصلاً، ولهذا قالوا: {أَسَاطِيرُ الأوّلِينَ}، يعني كأنهم يقولون: هذه أساطير الأولين لم تنزّل، بينما أهل الإيمان يعتقدون أنه منزّل، {قَالُواْ خَيْرًا} أي: أنزل خيراً، هذا الفرق بين الجوابين.

قال تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ} أي: "**إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم**"، فتكون اللام على هذا التفسير للعاقبة، وهم لا يقولون هذا من أجل أن يحملوا أوزارهم، لكن قدر عليهم ذلك ليحملوا أوزارهم في عاقبة الأمر، كما قال الله -عز وجل-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨]، ومعلوم أنهم ما التقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً وحزناً، بل التقطوه من أجل أن يسعدوا به، وينتفعوا به، ولكنه في العاقبة كان عدواً لهم وحزناً، ويحتمل أن تكون اللام لام الأمر أي ليحملوا أوزارهم، والأول أقرب، -والله تعالى أعلم-.

كما جاء في الحديث: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً))[٢]، وقال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[سورة العنكبوت:١٣] وهكذا روى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أنها كقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ}، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

هذا لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[سورة فاطر:١٨]، فلا أحد يحمل وزر غيره وإنما كل أحد يحمل أوزاره، ولكن هؤلاء يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم باعتبار أن تلك الأوزار التي عملوها هي أيضاً من عملهم؛ لأنهم هم الذين دعوا إليها وأوقعوا هؤلاء فيها، فأولئك يعذبون عليها، وهؤلاء أيضاً يعذبون عليها، ومَن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكما قال الله -عز وجل-: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [سورة الأعراف:٣٨] باعتبار أنه لا يخلو من إضلال، يضل ولده ومَن تحت يده، فالشاهد أن قوله: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، "مِن" هذه تحتمل أن تكون تبعيضية، فهم لا يحملون كل أوزار الذين يضلونهم بغير علم؛ لأن بعض أعمال أولئك ليست من إضلال هؤلاء، أعمال أولئك كثيرة متنوعة، وإنما يحملون من تلك الأوزار ما كانوا متسببين بوقوعهم فيها، يحملون هذا النوع من الأوزار، ويحتمل أن تكون هذه بيانية، {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، وقوله: {بِغَيْرِ عِلْمٍ} حال، يمكن أن تكون من الفاعل {يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: أنهم يقومون بالإضلال بغير علم، فهم يحملون الأوزار، وأوزاراً مع الأوزار؛ لأنهم يقومون بإضلال الناس بغير علم منهم، أي من هؤلاء المضلِّين، المعنى الثاني: أن تكون حالاً من المفعول، {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ

---

٢ - رواه مسلم، كتاب العلم، باب مَن سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

{يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، فهم يضللون أقواماً جهلة لا يعرفون التوحيد والإيمان والوحي فيضللونهم بهذه الأباطيل والشرك بالله -عز وجل-، فيكون {بِغَيْرِ عِلْمٍ} عائداً إلى من يقع عليهم الضلال، والآية تحتمل المعنيين، ويؤخذ منها أن كون الكافر أو الضال -سواء كان الذي يُضِل أو الذي يقع عليه الإضلال- يفعل ذلك بغير علم أن ذلك لا يكون بمجرده عذراً يعذر فيه، يكفي أنه تبلغه الدعوة ويفهم منها ما يفهم أو ما يصلح لمثله في الفهم، يكفي هذا القدر، أما كونه يقتنع فهذا ليس شرطاً في قيام الحجة عليه، ولهذا تجد الله -عز وجل- يقول: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [سورة فاطر:٨] فهو يرى هذا العمل السيئ من الكفر وعبادة غير الله -عز وجل- يراه حسناً، يرى أنه على الحق، وأن غيره على الباطل، ويدعو إلى هذا، ويموت دونه، ويبذل الأموال في سبيله، فهذا ليس له عذر إذا بلغته الدعوة، وفَهِم من الخطاب ما يصلح لمثله، ولذلك تجد من الناس من يقول: هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى تربوا على هذا ونشئوا عليه وهم يعتقدون أنهم على حق، وأنهم على دين صحيح، وأن ما عداهم، على باطل، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي من هذه الأمة ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[3]، ويقول الله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[سورة يوسف:١٠٣]، وهم يجادلون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ويستنكفون عن الحق، ويقولون: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [سورة ص:٥] فليس من شرط قيام الحجة الاقتناع، إطلاقاً، وإنما يكفي بلوغ الحجة، وأن يفهم منها ما يصلح لمثله في الفهم فقط، فتقوم عليه الحجة، وكونه يملأ رأسه من الأباطيل وينشأ على هذا ويربى عليه صباح مساء، هذا مما يزيد في ضلاله ووزره وهلكته، وهذه القضية ينبغي أن يُتفطن لها، فلا يصح أن يُعتذر عن الكفار أو عن بعض الكفار بأنهم هكذا كانوا، فيقال لهم هذه الآيات والنصوص القرآنية: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

---

٣ - رواه الحاكم في المستدرك (٣٧٢/٢)، برقم (٣٣٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والنسائي في السنن الكبرى (٣٦٣/٦)، برقم (١١٢٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه برقم (٣٠٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة النحل:٢٦-٢٧].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، وقال آخرون: بل هو بُخْتُنَصَّر، والصحيح: أن هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح -عليه السلام-: {وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً}: أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}[سورة سبأ:٣٣] الآية.

وقوله: {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ} أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}[سورة المائدة:٦٤]، وقوله: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[سورة الحشر:٢]، وقال الله ههنا: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تكنّه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[سورة الطارق:٩] أي: تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان))[1]، وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ويقول لهم الرب -تبارك وتعالى- مقرعاً لهم وموبخاً: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ} تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ {هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ}[سورة الشعراء:٩٣]، {فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [سورة الطارق:١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار {قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} وهم السادة في الدنيا

---

١ - رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان))، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، برقم (٥٨٢٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، برقم (٤٦٢٩)، ورواه أيضاً مسلم عن أبي سعيد -رضي الله عنه- بلفظ: ((لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة))، كتاب الأدب، باب تحريم الغدر، برقم (١٧٣٨).

والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ مَكَرَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ مّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرّ عَلَيْهِمُ السّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}، ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قولين في الآية، القول الأول مرجعه إلى أن ثمة من بنى بناءً فاقتلعه الله -عز وجل-، بناءً حسياً سواء قيل: إنه النمرود، أو قيل: إنه بختنصر، أو قيل غير ذلك مما جاء في كتب التفسير، وهؤلاء كأنهم أخذوا من ظاهر اللفظ {قَدْ مَكَرَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ}، ذكر البنيان، وذكر القواعد وذكر السقف، فهذه مجتمعة قد يفهم منها أن البنيان كان له وجود حسي، والقول الآخر: أن هذا تقريب وتمثيل لمعنىً من المعاني فإن الله -عز وجل- يذكر الأمور المعنوية بصورة الحسية من أجل تقريبها للأذهان، فالذي اختاره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه لم يكن هناك بناء حسي، وليس المقصود أن أحداً من الناس بنى بناء ثم سقط عليه هذا البناء، وإنما يقال ذلك فيمن شيد شبهة أو مكر مكراً، أو خطط لأمر، ورتب له وهيأ له أسبابه، فأبطل الله -عز وجل- عليه كيده، ورد مكره عليه، وصار ذلك وبالاً ونقمة عليه وعلى أصحابه، هذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير.

وقوله: {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ مّنَ الْقَوَاعِدِ} اقتلع الله -عز وجل- مكرهم وكيدهم وصار ذلك عائداً إليهم، هذا معنى، والآية تحتمل هذا، وتفسير ذلك ببناء حسي لا يبعد، لكن تحديد هذا ببختنصر أو بغيره هذا كله لا دليل عليه، ويمكن أن يقال كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن الله اجتث باطلهم من أصله، وفسادهم وإفسادهم وكيدهم، وما أرادوا بأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام- فلم يُبق منه شيئاً، وعاد وبال ذلك عليهم، {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ مّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرّ عَلَيْهِمُ السّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}، ومثل هذا الاستعمال عادة يكون في الأمور الحسية، وهذا الذي جعل أكثر العلماء يقولون بتفسيره ببناء حسي، لكن اختلفوا من الذي بناه، والقواعد: هي الأسس، وخر عليهم السقف من فوقهم: معلوم أن السقف لا يكون إلا فوق الإنسان، فقال الله -عز وجل-: {فَخَرّ عَلَيْهِمُ السّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}؛ ليدلل على أنهم كانوا تحته حينما سقط، سواء قلنا: إنه بناء حسي وُجد، أو قلنا: إن ذلك في تصوير المعنى، أي أن ذلك وقع وباله عليهم، وعاد شؤم مكرهم على أنفسهم، والعرب تقول: سقط لنا جدار، وخر لنا سقف، ويقصدون أنه سقط دون أن يكونوا تحته، إذا كانوا يملكون ذلك، يقولون: تعطلت لنا آلة، وسقط لنا جدار، وانهدمت لنا دار، وخر عندنا سقف، أو خر لنا سقف، فإذا أرادوا أن يمثلوا، أو أرادوا أن يقرروا أنهم كانوا تحته حينما سقط يقولون: خر فوقنا السقف، خر علينا من فوقنا، لكن حينما يقولون: خر علينا سقف، أو خر لنا سقف، انهدم علينا جدار، أو انهدم لنا جدار، أو نحو ذلك، فقد يقصدون أنه حصل ذلك في أملاكهم، وقوله: {ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} أي: بالفضيحة، وقوله: {أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقّونَ فِيهِمْ}، هذه قراءة الجمهور وهي كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**تحاربون وتعادون في سبيلهم**"، إلى آخره، من المشاقة، ومثل هذه اللفظة من أهل العلم من يقول: إن أصل ذلك أن هذا يكون في شق، وهذا يكون في شق، كالعداوة يكون هذا في أحد عُدْوتي الوادي والآخر في العُدوة الأخرى،

وهكذا المحادة يكون هذا في حد ويكون هذا في حد، هكذا يقولون في أصل هذه اللفظة في الاشتقاق، وقراءة نافع بكسر النون {تُشَاقُّونِ فِيهِمْ} أي: تخاصمونني وتجادلونني في هؤلاء، وأنهم شركاء، أين هم؟ والقراءة الأولى -وهي قراءة الجمهور- أعم في المعنى من القراءة الثانية، {تُشَاقُّونَ}، ولم يذكر معموله، فهم يشاقون الله -عز وجل-، يشاقون الأنبياء وأتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقراءة نافع {تُشَاقُّونِ فِيهِمْ} أي يشاقون الله -تبارك وتعالى-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم}، المكر: هو الكيد الخفي، وهو ما يفعله الإنسان ليتوصل به إلى مطالبه السيئة، ومقاصده الذميمة، من إيذاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومن إشادة الباطل، ومن دفع الحق وقهر أهله، وما شابه ذلك، هذا كله يقال له: مكر، وهذا هو المتبادر من هذه اللفظة في كلام العرب، ومعناها أوسع من هذا، فكل ما يرتب بخفاء من أجل إبطال عمل أو تحقيق أمر أو نحو ذلك يمكن أن يدخل في هذا المعنى، لكن المتبادر منه حينما يذكر هكذا وحده فيقال: مكر، وفلان ماكر، وفلان يمكر: هو هذا المعنى السيئ الذي ذكرته آنفاً، ولهذا ما يضاف إلى الله -تبارك وتعالى- إلا في المواضع التي ذكر فيها حيث يكون كمالاً.

وقوله: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ} مثل قوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا} [سورة النمل:٥٠]، ففعل الله -عز وجل- فيهم هو من مكرهم، ومن مكره بهم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[سورة الأنفال:٣٠]، لكنه هنا لم يصرح بمكره بهم وإنما ذكر فعلاً يرجع إلى ذلك، فهنا ذكر مكرهم وفي بعض المواضع يذكر مكر الله، يصرح بمكر الله وبمكرهم، وفي بعض المواضع يذكر مكر الله أو كيد الله بالكافرين فقط، ولهذا من أهل العلم من يقول: إن كيد الله -عز وجل- لا يذكر، أو إن مكره لا يذكر إلا في مقابل مكر الكافرين دائماً، يقال: إن ذلك لا يحسن إلا حيث يكون واقعاً بمن يستحقه، هذا هو الكمال، لكن لا يلزم أن يذكر معه مكر هؤلاء، ولهذا حتى بعض المنتسبين للسنة يسميه مشاكلة، يقول: لا حقيقة له وإنما هو مشاكلة، قابَلَ مكرهم بمكره، فهو من باب الاستعمال اللفظي مثل:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه *** قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

الجبة لا تطبخ ، وكذلك القميص، لكن شاكل لفظهم فقط، استعمل اللفظة التي استعملوها، وهذا غير صحيح؛ لأن المشاكلة نوع من المجاز، فهذا تأويل للصفة، وإنما يقال: من يستحق المكر فإن الله يمكر به ويكون ذلك محموداً، ويدل على هذا أن الله -تبارك وتعالى- يفرده أحياناً {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[سورة الأعراف:١٨٣]، {إِنَّ كَيْدِي} فذكر كيده ولم يذكر كيدهم، وما قابله بكيدهم، وهكذا إذا تأملت تجد أن ما يذكره بعض أهل العلم من أن ذلك لابد أن يذكر معه مكر هؤلاء أو كيد هؤلاء ليس على إطلاقه، {قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ}، فسره بالسادة في الدنيا والآخرة يقصد العلماء، وهذا هو الظاهر المتبادر، ومن أهل العلم من فسره بالملائكة، وقيل: الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وظاهر اللفظ: {قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوَءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}، فالذين أوتوا العلم هم العلماء، وأئمتهم وكبراؤهم وسادتهم هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

لكن لا يقال الله ماكر، الله كائد، هكذا بإطلاق، لكن الله يكيد ويمكر بمن استحق ذلك، فالله يكيد الكافرين؛ لأنهم مستحقون، ولو أن أحداً من الناس سيئ وشديد الإفساد والعبث والأذية للناس، وقد بلغ أذاه الغاية، فجاء واحد من الناس وتلطف حتى أوقعه بمغبّة فعله، فمثل هذا يحمده الناس، حينما يوقع به فيقع في شراك إفساده وفساده، الناس يحمدون هذا ويرون أنه من قبيل الكمال.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوَاْ أَبْوَابَ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبّرِينَ}[سورة النحل:٢٨-٢٩].

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة، {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ} كما يقولون يوم المعاد: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨] **قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: {بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}** [سورة فاطر:٣٦]**، كما قال الله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [سورة غافر:٤٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} أحسن ما يفسر به -والله تعالى أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين**"، أي: الاستسلام، وهو أحد المعنيين اللذين فسر بهما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [سورة النساء:٩٤]، فقيل: الاستسلام، ألقى السلام أي الاستسلام، وهنا قال: {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} يعني استسلموا وأذعنوا، ثم قالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ}، وهذا لا يعارض قول الله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [سورة النساء:٤٢]، فإن القيامة، وأحوال القيامة، والآخرة -منذ أن تقبض روح الإنسان ويبقى في البرزخ ويأتيه الملكان، ثم يبعث، ثم بعد ذلك يكون في ذلك الموقف الطويل- أحوال متعددة، فهم في البداية يكابرون كما ذكر الله -عز وجل-، ونقل الحافظ ابن كثير بعض الشواهد كقوله: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣]، {فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨]، فهم في البداية ينفون هذا، ثم بعد ذلك يختم الله -عزوجل- على الأفواه، قال: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} [سورة يـــس:٦٥]، فتتكلم الجوارح وتشهد الجلود، {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة فصلت:٢١]، فحينما يكون الإنسان بهذه الحال، وبهذه المثابة، وتشهد عليه جوارحه فإنه بعد ذلك لا يستطيع المكابرة والإنكار، فيقول لجوارحه: ((بعداً لكنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل))[٢] كما جاء في الحديث، ففي البداية ينكر ثم يقر ويعترف بعد أن تشهد جوارحه، {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ} [سورة النحل:٢٨] ثم قال الله -عز وجل-: {فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} المثوى: هو مكان الثواء، كما يقال: المجثم مكان الجثوم، والمبرك مكان البروك، معاطن الإبل: مبارك الإبل، وهكذا في مثل هذا الاستعمال.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة النحل:٣٠-٣٢].

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: {مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ} قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: {خيراً}، أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} الآية، كقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ} [سورة القصص:٨٠] **الآية، وقال تعالى: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}** [سورة آل عمران:١٩٨]**، وقال تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [سورة الأعلى:١٧]**، وقال لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى}**[سورة الضحى:٤]**، ثم وصف الدار الآخرة فقال: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، قوله: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسوله فقال: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**"، ومقتضى ذلك أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن هذا الجزء من الآية من كلام الله -عز وجل-، وليس من كلام الذين اتقوا، وهذا كنظائره في القرآن، التي مر بعضها، كقول امرأة العزيز **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [سورة يوسف:٥٢] إلى غير هذا من الأمثلة، ويحتمل أن يكون من كلام الذين اتقوا **{قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}**، ويحتمل أن يكون من كلام الله -تبارك وتعالى-، انتهى كلامهم عند قوله: **{خيراً}** ثم حكم الله -عز وجل- بين الفريقين فقال: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، وهي كقوله -تبارك وتعالى-: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**[سورة النحل:٩٧]، ولا يفهم من المقصود بالحسنة والحياة الطيبة أنه يعيش في ترف ورغد من العيش ينعم به بدنه، ولو كان هذا

هو المقصود لكان أولى الناس به هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} هذا هو الوصف، {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} هذا هو الحكم، حكم لهم بالحسنة، فعلى قدر إحسانهم على قدر ما يكون لهم من هذا الجزاء من هذه الحسنة التي ذكرها، فلو كان هذا يقصد به نعيم الأبدان لكان أعظم الناس في هذا الباب هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أنه كان ينام على الحصير -عليه الصلاة والسلام- حتى يؤثر في جنبه، وكان يمر الهلال والهلال والهلال وما يوقَد في بيته نار، وحياته -صلى الله عليه وسلم- معروفة، وحياة أصحابة أيضاً كذلك، ما كانوا أهل ترف وتوسع في الملاذ، وهذه الحسنة التي وعد الله -عز وجل- بها يدخل فيها النصر على الأعداء، وما حصل لهم من الفتوح، كما قال الله -عز وجل-: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ} [سورة النحل:٤١] وعدهم بالمباءة الحسنة التي تكون بظهورهم على أعدائهم، وبتمكينهم في الأرض، ويحصل لهم من جراء ذلك من الولايات حتى صاروا أئمة يقتدى بهم، بعد أن كانوا لا يعبأ بهم، وليس لهم شأن، والعرب يقال لهم في الجاهلية: ذباب الصحراء، ثم بعد ذلك لما أحسنوا هذا الإحسان العظيم حصل لهم ما تعرفون، أضف إلى ذلك -وهو أعظم- أن هذا الإحسان ليس على مستوى الأمة فحسب وإنما على مستوى الواحد المعيّن، فلا يكون تمكين للأمة إذا كان الصلاح صلاح أفراد، فتكون الحسنة بالنسبة لهؤلاء ما يحصل لهم من لذة الإيمان وانشراح الصدر والنعيم القلبي، إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والله -تبارك وتعالى- أخبر عما يحصل للمؤمن من الانشراح، مما يقع في قلبه فيعيش في حياة كريمة، حياة طيبة، ويعيش غيره في أسر ذنوبه، فيقع في قلبه من الوحشة والظلمة وإن كان بدنه منعماً، فالنعيم هو نعيم القلب، والسرور، والراحة واللذة هي لذة القلب، ولو أتيت بمن أسر قلبه وأظلم ووضعته في أعظم الملاذ في الدنيا فإن كآبته لا تزول إلا إن كانت كآبته بسبب عارض من ضيق عيش أو نحو ذلك، وإلا فظلمة القلب ووحشته لا تزول، لا بالاجتماع بالناس ولا بتنعيم البدن، فوحشتهم وآلامهم وهمومهم والظلمة التي في قلوبهم تتنقل معهم، وتحل حيث حلوا، فيفهم هذا على هذا المعنى، ولا يقال: من الناس من يكون تقياً محسناً ومع ذلك يكون فقيراً، ليس هذا هو المراد بالحسنة، أضف إلى ذلك ما يكون لهم من الذكر الجميل، والله -عز وجل- إذا أحب عبداً، كما في الحديث: ((نادى جبريل إني إحب فلاناً))[1] إلى آخره، فيوضع له القبول في الأرض، وبقي الذكر الجميل لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إذا ذكروا ترضى الناس عنهم، وبقيت محبة الأمة لهم، وهكذا لمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، كل من كان متصفاً بالإحسان على قدر إحسانه.

وقوله: {جَنَّاتِ عَدْنٍ} بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن، أي مُقام يدخلونها.

---

١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)).

العدن هو الإقامة، عَدَنَ بالمكان أي أقام به، جنات إقامة.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: بين أشجارها وقصورها {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ}، كقوله تعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة الزخرف:٧١]، **وفي الحديث: ((إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك))**[٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أنس -رضي الله عنه-: ((إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى عليها في الآخرة، وأما الكافر فطُعم بحسناته حتى إذا وافى يوم القيامة لم يكن له عند الله حسنة))[٣]، ومثل هذا الحديث يفسر المراد، والله -عز وجل- يعطي المؤمن في الدنيا ويعطيه في الآخرة.

{كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلَّصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [سورة فصلت:٣٠-٣٢].

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ} [سورة النحل:٣٢] إنما يحصل هذا الاتصاف إذا كان الإنسان متحققاً بالإيمان والاستقامة على طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال الله: **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا}**، وتبشرهم بالجنة، وما قاله السلف في قوله: **{تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ}** قالوا: أي طاهرين من الشرك، وبعضهم قال: من الذنوب والمعاصي، وقيل بأن نفوسهم طيبة واثقة بوعد الله -عز وجل- لهم، يعني لأهل الإيمان، وما إلى ذلك من الأقوال، والشرك نجاسة مغلظة لا تطهرها مياه البحار، وهؤلاء أهل الإيمان **{تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ}** أي: زاكية أفعالهم وأقوالهم، وذلك بالإيمان وخلوصهم من الشرك.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[سورة إبراهيم:٢٧].

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[سورة النحل:٣٣-٣٤].

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم؟، قاله قتادة. {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

---

٢ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/٦٤٢)، من طريق الحسن بن عرفة، قال: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، عن محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي ظبية السلفي.

٣ - رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، برقم (٢٨٠٨).

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أن الملائكة تأتي لقبض الأرواح، {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} يعني يوم القيامة، ومن السلف من يقول: المقصود به العذاب المستأصل الذي يحصل لهم في الدنيا، والقول الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لعله هو الأقرب، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

وقوله: {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ}؛ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، {وَحَاقَ بِهِمْ} أي: أحاط بهم من العذاب الأليم، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال لهم يوم القيامة: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سورة الطور:١٤].

فائدة:

معنى كون الله -تبارك وتعالى- يجزي عباده بأحسن ما كانوا يعملون:

من أهل العلم من قال: إن أحسن بمعنى حسن، وإن أفعل التفضيل المقصود به مطلق الاتصاف، وإنه قد يأتي مراداً به مطلق الاتصاف، هذا معروف في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧] يعني: التقي، ومنه قول الشاعر:

تمنى رجالٌ أن أموت وإنْ أمت *** فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

يعني بواحد، فيكون {بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٦] يعني: بالأعمال الحسنة، والمعنى الثاني: أن الله يتفضل عليهم فيعاملهم في العطاء والجزاء والثواب بمعيار الأحسن، يعني هم قدموا أعمالاً متفاوتة، منها ما كان في غاية الإحسان، وهي أعمال عظيمة بحسب متعلقها مما قام بقلوبهم من الإخبات عند العمل بها مع المتابعة مع عظيم الإخلاص، {يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [سورة المؤمنون:٦٠]، وما إلى ذلك، فهذا في الدرجة العليا في الإحسان، وهناك أعمال دون ذلك، فتكون المعاملة لهم بالأحسن والأفضل والأكمل، فيَرفع لهم النقص ويَجبره، وهذا من معاني اسمه الجبّار، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}[سورة النحل: (٣٥-٣٧)].

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}: أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، قال الله تعالى رادًّا عليهم شبهتهم: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ}: أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه: {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح -عليه السلام- الذين أُرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[سورة الأنبياء: (٢٥)]، وقوله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}[سورة الزخرف: (٤٥)]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}؟، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}: أي: اسألوا عما كان مِنْ أمر مَنْ خالف الرسل، وكذب الحق كيف {دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}[سورة محمد: (١٠)]، فقال:

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[سورة الملك: (١٨)]، **ثم أخبر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى:** {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا}[سورة المائدة: (٤١)]، **وقال نوح -عليه السلام- لقومه:** {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}[سورة هود: (٣٤)]، **وقال في هذه الآية الكريمة:** {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ} **كما قال الله تعالى:** {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأعراف: (١٨٦)] **وقال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)]. **وقوله:** {فَإِنَّ اللّهَ}: **أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال:** {لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ}: **أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد،** {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}: **أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه،** {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[سورة الأعراف: (٥٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، هؤلاء كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يحتجون بالقدر على المعائب، ومعلوم أن القدر لا يجوز أن يحتج به على المعائب، وإنما يمكن أن يحتج به على المصائب، فالله -تبارك وتعالى- يهدي من يشاء، ويضل من يشاء بعلم وحكمة، وما قدره الله -تبارك وتعالى- وقضاه فهو كائن، وهو القائل: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}[سورة الليل: (٥-١٠)] والقائل: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}[سورة التوبة: (١١٥)]، وهؤلاء احتجوا على المعائب بالقدر، وهو احتجاج باطل، ووجه احتجاجهم قولهم: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}: أي: أن الله قدر ذلك علينا، واحتجوا بهذا التقدير على أن الله -تبارك وتعالى- يرضى هذا ويحبه، فظنوا أن مشيئته العامة وقدره الكوني يقتضيان المحبة، كما هو قول بعض طوائف المبتدعة، ومعلوم أن مشيئته العامة وقدره الكوني لا يقتضيان المحبة، فالله -تبارك وتعالى- قدر وجود الكفر ومع ذلك فهو يقول: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [سورة الزمر: (٧)]، وإنما يريد الإيمان والطاعة وفعل الخيرات واجتناب المعاصي، وهذه إرادة شرعية، وتجتمع هذه الإرادة مع الإرادة الكونية فيمن استجاب، وأناب، وآمن، وأطاع الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [سورة النحل: (٣٦)]، فسَّر الأمة هنا فقال: **بعث في كل أمة: أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً**، وهنا جمع بين معنيين، والأمة في أصلها تأتي للمدة الزمنية، وتأتي للجماعة من الناس، وتأتي لمعانٍ أُخَر، وهنا قال: {فِي كُلِّ أُمَّةٍ}: أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، ثم هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، الطاغوت: يقال لكل ما عبد من دون الله

-عز وجل- وهو راضٍ، وكل ما تجاوز حده أو تجاوز الناس به الحد وهو راضٍ إن كان ممن يعقل فهو طاغوت، فما عبد من الأشجار والأحجار والأصنام ومن البشر وما إلى ذلك كل هذا يقال له: طاغوت.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ} أي: من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟، {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: من أضله، فإنه لا أحد يهديه، هكذا فسرها الحافظ ابن كثير، فالمعنى: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: أي: من قدر عليه الضلالة فإنه لا يهديه، {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}، وهذا هو ظاهر الآية، ورجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تفسيرها، وتحتمل الآية معنىً آخر وهو أن الله {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: أي من يُضلُّ الناسَ، ولكن هذا فيه بعد؛ لأن المعنى أوسع من هذا، والآية فيها على كل حال قراءتان متواترتان، فهذه القراءة التي نقرأ بها {لاَ يَهْدِي} هي قراءة الكوفيين، وقرأ بقية القراء {لاَ يُهْدَى مَن يُضِلُّ}، وهذه القراءة في المعنى أكثر وضوحاً من الأولى، {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُهْدَى مَن يُضِلُّ}، من يضله الله -عز وجل- فلا أحد يهديه من الناس، وأما القراءة الأولى {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: من سبقت له الشقاوة عند الله -تبارك وتعالى- فإن الله لا يهديه.

{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل: (٣٨-٤٠)].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم ورادًّا عليهم: {بَلَى}: أي بلى سيكون ذلك، {وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً}: أي لا بد منه {وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}: أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: {لِيُبَيّنَ لَهُمُ}: أي للناس، {الّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}: أي من كل شيء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[سورة النجم: (٣١)].

في قوله هنا: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، الضمير في قوله: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} يرجع إلى من؟ يحتمل أن يكون عائداً إلى الموتى، {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا}: أي يبعثهم {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}: أي يبين لهؤلاء الذين ماتوا، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أعم في المعنى، أي {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ}: أي للناس المؤمن والكافر، فالله -عز وجل- يوم القيامة يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وهذا دل عليه القرآن في مواضع أخرى، ويحتمل أن يكون {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} متعلقاً بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً} أي: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، لكن ما قبله أقوى منه وأقرب في المعنى، ويحتمل أن يكون الضمير في {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} يرجع إلى هؤلاء الذين يجادلون في قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، والبعث، {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا}، {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} هؤلاء الذين يشاقون ويجادلون في البعث، هذا معنى {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} من أمر البعث وإحياء الموتى بعد فنائهم.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ}: أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدَعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دعاً، وتقول لهم الزبانية: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة الطور: (١٤-١٦)]، ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}[سورة القمر: (٥٠)]، وقال: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[سورة لقمان: (٢٨)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}: أي: أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانَع ولا يخالف؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[سورة النحل: (٤١-٤٢)].

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلّان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مُهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة؛ ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأبو سلمة بن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صدّيق وصدّيقة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، وقد فعل، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حُكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ}: أي: مما أعطيناهم في الدنيا، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}: أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ثم وصفهم تعالى فقال: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}: أي: صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

هذه الآية يقال فيها كما قيل في الآية التي سبقت وهي قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}[سورة النحل: (٣٠)] فهنا قال: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي مباءة حسنة، أو تبوئة حسنة، والذين هاجروا هنا يمكن أن يحمل على أعم مما ذكر، يعني لا يختص هذا بالذين هاجروا إلى الحبشة، أو الذين هاجروا من مكة إلى المدينة مثلاً، وإنما ذلك وعد من الله -عز وجل- عام لكل من هاجر بدينه فراراً به؛ فإن الله وعده بهذا الوعد، {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ}، ولا يؤثر على هذا أن التعبير جاء

بالفعل الماضي، {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ}، فكل من تحقق فيه هذا الوصف فهو موعود بذلك، وأولى من يدخلون فيه أولئك الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة أو إلى المدينة، فكل ذلك يشمله هذا العموم {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} فهذا وعد لمن هاجر، ولهذا عبر بالفعل الماضي، ما قال: والذين يهاجرون، أو سيهاجرون، وإنما هذا تسلية ووعد لمن فقد الأهل والعشيرة والوطن في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، والمباءة سبق الكلام عليها، {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، وهذه الحسنة التي تكون في الدنيا: من أهل العلم -كما سبق- من يقول: هي النصر على الأعداء، ومنهم من يقول: ما حصل من الفتوح، ومنهم من يقول: ما يقع لهم، أو ما وقع لهم من الذكر الجميل على مر العصور، وبعضهم يقول: الرزق الطيب ونحو ذلك، والآية هنا يقال فيها كما قيل في الآية السابقة {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، فلا يفهم من هذا أن المقصود هو رغد العيش، والنعيم الذي يكون للأبدان، فإن من هؤلاء من قتل ولم يرَ هذه الفتوح، ولم يحصل له التوسع والتلذذ بالطيبات، ولكن ما يحصل لأهل الإيمان من السعادة واللذة والأنس والانشراح بمعرفة الله -عز وجل-، وقد يحصل معه لهم شيء من هذا الحطام العاجل في الدنيا كما حصل لكثير من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى كل حال في قوله هنا: {وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}، يحتمل أن يكون قوله {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} راجعاً إلى المؤمنين، الذين وعدهم الله -عز وجل-، أو الذين تخلفوا عن الهجرة، فإن أجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الذين ظلموهم وآذوهم وأخرجوهم، فالله يقول: {وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}.

سؤال: من فسر الآية المتقدمة {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ} [سورة النحل: (٢٦)] **بأن الله أتى إليهم حقيقة، فما حكم ذلك؟**

لا، ليس كذلك ولا يفهم هذا من ظاهره، قال: {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ}، أتى بنيانهم من القواعد، بهذا القيد، فأتاه من القواعد ما معناه؟ معناه أنه دمره، وأبطله، وأزاله، هذا المقصود، لمّا تقول: فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، أتاهم يعني: جاءهم بنفسه من حيث لم يحتسبوا؟ لا، وإنما أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا بالعذاب، هذا هو ظاهر القرآن، وليس هذا من التأويل في شيء، فأتى بنيانهم: بمعنى أزاله.

فائدة: فيمَ يُهتدى بالنجوم؟

{وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل: (١٦)] يُهتدى بها في الأسفار، ونظرُ إبراهيم -عليه السلام- في النجوم ليس فيه دلالة على غير ذلك، وإنما ذكر بعض أهل العلم أنه أراد أن يشاكلهم، أو أن يفعل شيئاً لأنهم يعبدون ويعظمون هذه النجوم والكواكب، {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}[سورة الصافات: (٨٨-٨٩)] ليوهمهم بهذا المعنى من أجل أن يتوصل إلى تحطيم هذه الأصنام، ثم قال لهم بعد ذلك: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ} [سورة الأنبياء: (٦٣)]، وإلا فالنظر في النجوم هنا لا يدل على أنه عرف أنه سقيم، أو ليس بسقيم بمجرد النظر في النجوم، فإنها لا تُنبئ عن شيء من ذلك إطلاقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وأجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيّنَاتِ وَالزّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ} [سورة النحل:٤٣-٤٤].

قال الضحاك: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ}[سورة يونس:٢] **الآية، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} يعني: أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد -صلى الله عليه وسلم- رسولاً، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}** [سورة يوسف:١٠٩]**، ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وكذا روي عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وذلك كما قال تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً}** [سورة الإسراء:٩٣-٩٤]**، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}** [سورة الفرقان:٢٠]**، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}** [سورة الأنبياء:٨]**، وقال: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ}** [سورة الأحقاف:٩]**، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}** [سورة الكهف:١١٠]**، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم {بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل، {وَالزُّبُرِ} وهي الكتب، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرتُ الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}** [سورة القمر:٥٢]**، وقال: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}**[سورة الأنبياء:١٠٥]**، ثم قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} يعني: القرآن، {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} أي: من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصّل لهم ما أُجمل، وتبين لهم ما أشكل، {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ}، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} قال: "يعني أهل الكتب الماضية"، وهذا كقول من قال: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل، وقول من قال: أهل الكتاب، أو اليهود والنصارى، أو نحو ذلك فإن هذا يرجع إلى شيء واحد، الكتب أعم من هذا ولكن المتاح حينما نزلت هذه الآية والذي يمكن أن يسأل هم علماء أهل الكتاب، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ}، اسألوا هؤلاء عن الرسل الماضين هل كانوا بشراً أو ملائكة؟، وهذه الآية ترد على ألسن العلماء وغير العلماء كثيراً ويستعملونها في معنىً أعم من هذا، فأهل الذكر يعني كل من ينسب إلى الذكر والعلم، فلا يخصون ذلك بأهل الكتاب، كما يقول الزجّاج في تفسيرها، وهذا الاستعمال في محله، وهو استعمال صحيح غير منكر، فالآية وإن كانت نازلة في معنىً معين، لكن معناها مأخوذ من لفظها الأعم، يمكن أن يحتج به أو أن يورد في الموارد التي تصلح لهذا العموم، أو تدخل تحته فيقال: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} كل من ينسب إلى ذكر وعلم يُسأل، ليس في هذه القضية خاصة، وإنما فيما يصلح في كل مقام، فالناس إذا احتاجوا إلى معرفة ما أنزل الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتبس عليهم أمر، وأرادوا أن يعرفوا حكماً يقال لهم: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ}؛ لأن الله -عز وجل- أرشد هؤلاء الذين نزلت الآية مخاطبة لهم {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ}، إلى سؤال أهل الذكر -أهل العلم بالكتب- ليعرفوا أن الرسل كانوا بشراً، وهكذا كل من أراد أن يتوصل إلى شيء فعليه أن يسأل أهله العارفين به، والمختصين بهذا اللون من ألوان المعرفة، وحتى في الصنائع والأمور الدنيوية، فإذا كانت قضية تتعلق بالطب مثلاً فإنه يَسأل الأطباء ولا يَسأل الفلاحين، وإذا كانت قضية تتعلق بالزراعة فإنه يسأل أهل الزراعة، وهكذا.

ومن أهل العلم من يقول بأن الذكر هو القرآن، والله -عز وجل- قال بعده: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ}، وقال: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ}[سورة الأنبياء:٥٠] {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ}: يعني أهل القرآن، وفي هذه الآية ليس هو المراد؛ لأن هؤلاء يجادلون في القرآن، ويجادلون في إرسال محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويقولون: إنما يعلمه بشر، فكيف يحالون إلى سؤال أهل القرآن؟، وإنما كانوا يطمئنون إلى أهل الكتاب فكانوا يسألونهم؛ لمعرفتهم بما كان عليه الأنبياء قبلهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}، هذه اللفظة {بِالْبَيِّنَاتِ} من أهل العلم من يقول: إنها مرتبطة بما ذكر قبلها {لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}، أي إن كنتم غير عارفين بالبينات والزبر، ولا عهد لكم بها ولا معرفة فاسألوا أهل الذكر، ومن أهل العلم من يقول: إنها متعلقة بقوله: {أَرْسَلْنَا}، فالله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ}، {وَمَا أَرْسَلْنَا} {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}، والزبر: الكتب، والبينات: الحجج الواضحات، تقول: زبرت الكتاب أي كتبته، والمعنى: وما أرسلنا بالبينات والزبر، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومنهم من يقول: فيه تقديم وتأخير، -والأصل في الكلام الترتيب، وإذا دار الكلام بين التقديم والتأخير والترتيب فالأصل فيه الترتيب-، فيقولون: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا نوحي إليهم، وبعضهم يقول: متعلق بمحذوف، فيكون الكلام هكذا، {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} أرسلناهم بالبينات والزبر، والأصل في الكلام الاستقلال، و"إذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال"، ومهما أمكن

حمل الكلام على وجه صحيح من غير الحاجة إلى التقدير فهو المطلوب وهو الأصل، ومن أهل العلم من يقول: إنه متعلق بـــ {نُّوحِي}، ويكون الكلام هكذا {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ} بالبينات والزبر، وهذا أبعد من المعاني المذكورة قبله، وبعضهم يقول: متعلق بقوله: {رِجَالاً}، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً} يعني: متلبسين بالبينات والزبر، أرسلناهم بالبينات والزبر، لا بقوله: {أَرْسَلْنَا}، وإنما بـــ {رِجَالاً} أي: متلبسين بالبينات والزبر، وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم.

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل:٤٥-٤٧].

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب {مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [سورة الملك:١٦-١٧]، **وقوله: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدي: {تَقَلُّبِهِمْ} أي: أسفارهم، كقوله: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}**[سورة الأعراف:٩٧-٩٨].

وقوله: {فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}، يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك، وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم، ثم قال تعالى: {فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: ((لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم))[1]، وفيهما: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود:١٠٢][2]**، وقال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}** [سورة الحج:٤٨].

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ}: "**أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية**"، ونقل عن بعض السلف: "**أي تقلب هؤلاء في أسفارهم**"، هذا هو المعنى المتبادر، {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} أي: ذهابهم ومجيئهم وتنقلاتهم وأسفارهم، هذه المعاني التي يذكرها السلف داخلة فيه، ومن أهل العلم من فسره بمعنىً آخر فقال: {فِي

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، برقم (٥٧٤٨)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذىً من الله -عز و جل-، برقم (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه.

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

{تَقَلُّبِهِمْ}: يعني على فرشهم، وذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُمْ نَائِمُونَ}**[سورة القلم:١٩]، وهذا فيه بعد، ولا يتبادر إلى الذهن، وإنما التقلب في الذهاب والمجيء، وطلب المعايش والسفر ونحو ذلك، هذا هو المتبادر، والقرآن إنما يحمل على الظاهر المتبادر، دون المعاني البعيدة.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: في قوله تعالى: **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}**: "**أي أو يأخذهم الله في حال تخوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد**"، ومعنى ذلك كما قال الله -عز وجل-: **{أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ}**[سورة الأعراف:٩٧]، فإذا جاءهم بأس الله -عز وجل- بياتاً وهو نائمون، أو جاءهم ضحىً وهم يلعبون، فهم لاهون غافلون لا يتوقعون حصول هذا العذاب الذي ينزل بهم، فيقابله الأخذ على التخوف يعني أنهم حيث يتخوفون من الأخذ ونزول العقوبة، وله وجه، لكن غيره أولى منه -والله تعالى أعلم-، وذلك لأن تفسير الآية بالتنقّص عليه عامة المفسرين، بمعنى أن الله يأخذ هؤلاء على تخوف أي على تنقص، فلا يأخذهم أخذاً مستأصلاً بعذاب يستأصلهم ويقطع دابرهم، وإنما يأخذهم شيئاً فشيئاً، حتى يأتي على آخرهم، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه الموقف الذي صار لعمر -رضي الله عنه- حينما سأل عن التخوف فقام له رجل وقال: إنه التنقص، في لغتهم، وسأله عن شيء يشهد لهذا فذكر له البيت المعروف، يصف الناقة:

تخوف الرحل منها تامكاً قرِداً *** كما تخوف عود النبعة السَّفِن

يعني: الرحل اشتد على الناقة فأثر في سنامها، وتامكاً قرداً: يعني فيه القراد، وهي دويبة معروفة تعيش غالباً في الإبل، والغنم.

السفِن الذي يصنع السفينة، ينحت وينقر العود الذي في مقدمها، فالشاهد أن التخوف فُسر بمعنى التنقص الواحد ثم الواحد، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ}** يعني: العذاب المستأصل، ويقابله **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}**، قد يقول قائل: إنه لا يتعارض مع القول الآخر المذكور قبله، وهو أن يأخذهم وهم في حال خوف وترقب، وذلك أنه إذا أخذ صاحبه تخوف الأخذ بعده، لكن من فسر بهذا التفسير المذكور لا يقصد هذا، وإنما يقصد **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}** أي: تنقص، أي أنه لا يستأصلهم إنما الواحد بعد الآخر، وقد يشكل على هذا المعنى بأن ذلك يقع لجميع الناس، فالناس يفنون بهذه الطريقة الواحد بعد الواحد، فهذا المسجد الذي يوجد فيه هؤلاء الناس بعد مدة لا يبقى منهم أحد، يفارقون هذه الدار، الواحد بعد الآخر، كما نشاهد القرن الماضي والذي قبله والذي قبله، كانوا كثيراً يملئون الأسواق والجوامع وغير ذلك، هل ماتوا جميعاً مرة واحدة؟ إنما يموت الواحد بعد الآخر حتى لا يبقى أحد، وهذا هو الأشهر، وقول من قال بأنه يأخذهم على تخوف يعني على تنقص هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسره بمعنىً أبعد من هذا، قال: **{عَلَى تَخَوُّفٍ}** أي: على عجل، أي: يعاجلهم بالأخذ، ولكن هذا فيه بعد، والله أعلم.

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [**سورة النحل**:٤٨-٥٠].

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى، قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله -عز وجل-، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: {وَهُمْ دَاخِرُونَ} أي: صاغرون.

قوله: {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ} التفيؤ يكون بعد انتصاف النهار، والمعنى العام الذي تفسر به الآية {يَتَفَيَّأُ} يعني: يتنقل ذات اليمين وذات الشمال، وإنما يقال له: فيء إذا كان بعد انتصاف النهار، هذا هو الفيء، وما قبله يقال له: ظل، والفيء من فاء إذا رجع، فإذا رجع الظل ثانية بعد أن نسخته الشمس يقال له: فيء، فالظل الثابت الذي يُرى يقال له إذا طلعت الشمس ظل، فلا تزال الشمس تنسخه وينقص حتى يذهب، ولا يبقى إلا فيء الزوال، ثم بعد ذلك تنتقل الشمس إلى الناحية الأخرى فينتقل الظل إلى الجانب الآخر، فهذا الذي ينتقل إلى الجانب الآخر بعدما زال الظل جميعاً يقال له: فيء، انتقل الظل من هذه الناحية إلى هذه الناحية، {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}، فمن قال: يتنقل ظلاله، ينتقل ذات اليمين وذات الشمال، فهو يرجع إلى هذا المعنى -والله أعلم-.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيئه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيئها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: {وَلِلَّه يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ}، كما قال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [سورة الرعد:١٥].

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ}**"، هذا الآية لا شاهد فيها على تنزليهم منزلة العقلاء، لكن الشاهد في الآية التي بعدها؛ لأنه هنا استعمل لفظة "ما" وهي تستعمل لغير العاقل، لكن في الآية الثانية قال: {وَلِلَّه يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}، الأصل في غير العقلاء أن يقال: يسجد ما في السماوات، ويقال: وظلالها، فالشاهد أن ما يضاف إلى العقلاء يستعمل في غير العقلاء في حالات معلومة، وهو إذا كان من باب التغليب مثلاً، فالعقلاء أغلب، أو أن يكون من باب الأشرف، وتستعمل الألفاظ الخاصة بالعقلاء في غير العقلاء إذا اشترك غير العقلاء مع غيرهم وكانوا هم الأكثر، وكذلك إذا كان العقلاء أشرف فيعبر بعبارة ترجع إليهم، أو أنه أضاف إلى غير العقلاء فعلاً من أفعال العقلاء، مثل قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[سورة يوسف:٤]، ما قال: رأيتها لي ساجدة، كما هو الشأن لغير العقلاء يعبر عنها بمثل هذا، وعلة تنزيلهم منزلة من يعقل أنه أسند إليهم فعلاً من أفعال العقلاء وهو السجود.

وقوله: {وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} أي: تسجد لله، أي غير مستكبرين عن عبادته، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} أي: مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجره.

{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا

كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}[سورة النحل:٥١-٥٥].

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي دائماً، وعن ابن عباس أيضا: أي واجباً، وقال مجاهد: أي خالصاً له، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[سورة آل عمران:٨٣]**، هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** [سورة الزمر:٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ}** معروف أن الصيغة هنا صيغة تثنية، **{لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ}**، فقال: **{اثْنَيْنِ}** وكان يمكن أن يكتفي بقوله: **{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ} {إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ}**، ولكن الغرض التأكيد، ومن أهل العلم من يقول: فيه تقديم وتأخير، أي: وقال الله لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحدٌ إله، والأصل في الكلام الترتيب، ولا حاجة لمثل هذا التكلف، ومن أهل العلم من يقول: إنه قال: **{لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ}** ليبين أن الأمر الذي أنكره هو التعدد، لا إلى الجنسين، **{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ}** فالإله واحد لا يكون متعدداً، ومن أهل العلم من يقول: قال ذلك مبالغة في التنفير عن اتخاذ آلهة وشركاء مع الله -جل جلاله-، **{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ}** وهذان المعنيان أقرب من المعنى الأول الذي هو دعوى التقديم والتأخير، **{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ}** هل يكون الإله أكثر من واحد؟، فهذا القول مع القول الذي قبله يمكن أن يجتمعا.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}** نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أي: دائماً، ونقل عن ابن عباس: واجباً، ونقل عن غيره: خالصاً له، الدين: المقصود به الطاعة والعبادة، **{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}** قول من قال: أي ثابتاً، أو قول من قال: واجباً، أو قول من قال: مستمراً دائماً، أو نحو ذلك، كل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والمقصود أن كل من يدان له ويطاع من الملوك والرؤساء والعظماء إنما يدان لهم في مدة محدودة من الزمان ما يلبث الواحد منهم أن يموت أو يعزل، ثم بعد ذلك ينساه الناس، وتنقطع طاعته، فأما الله عز جل فإنه يطاع طاعة مستمرة دائمة، **{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}** أي: دائماً واجباً ثابتاً مستمراً لا ينقطع ولا يزول كما هو الحال بالنسبة لمن يطاع في هذه الدنيا، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لما ذكر تفسير من فسره بأنه خالصاً، قال: "**هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر**، -يعني في الذي قبله وهو "دائماً"-، **وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب**"، **{وَلَهُ الدِّينُ}** هي خبر متضمن معنى الطلب، حينما يخبر أن الدين خالص له على هذا التفسير، حينما يقول: وله الدين خالصاً، يعني لا تشركوا معه أحداً، ويكون خبراً مضمناً معنى الأمر، مضمناً معنى الطلب، وهذا له نظائر في القرآن، نحو قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ}** [سورة البقرة:٢٧٢] هذا خبر، فمن أهل العلم من قال: إنه خبر مضمن معنى الأمر، **{وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ}** أي: أنفقوا ابتغاء وجه الله، والله يقول في موضع

آخر: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٣] فهذا خبر بصيغة خبرية، ولكنه بمعنى الأمر والطلب، -والله أعلم-.

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً} [سورة الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى: قيضنا لهم ذلك {لِيَكْفُرُوا} أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: {فَتَمَتَّعُوا} أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} أي: عاقبة ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} الجؤار: هو رفع الصوت بالضراعة، {تَجْأَرُونَ} أي: ترفعون أصواتكم بتضرع أن يكشف الله عنكم هذا الضر، وما حل بكم، وتفسر اللام بالعاقبة، فيكون معنى الآية: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} يعني: أن وقوعهم في الإشراك بعد كشف الضر عنهم يكون عاقبته الكفر بنعمة الله -عز وجل- عليهم، وأصل الشرك هو أظلم الظلم، وذلك أنه وضع العبادة في غير مَن خَلَق، فهو توجه إلى غير المنعم بالعبادة والشكر، فالله الذي خلق وأعطى ورزق هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له، وعبادته هذه من شكره -تبارك وتعالى-، فإذا وُجه العمل والعبادة إلى غير من خلق، وإلى الذي لم يعطِ ولم يرزق، فهذا من الظلم، فتوجيه العبادة إلى جماد لا يملك نفعاً ولا ضراً، وترك المنعم المتفضل -سبحانه وتعالى- من أعظم الظلم، فتكون {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} للعاقبة بهذا الاعتبار، -والله أعلم-.

وقوله: {فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} من باب التهديد والوعيد مثل: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}[سورة فصلت:٤٠]، ومثل: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[سورة الزمر:٨]، والأمر صيغته هذه تأتي لمعانٍ منها التهديد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة النحل: (٥٦-٦٠)].

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله: {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ}[سورة الأنعام: (١٣٦)] أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: {تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ}، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطئوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم: (٢٢)].

وقوله ههنا: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ}: أي عن قولهم وإفكهم، {أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[سورة الصافات: (١٥١-١٥٤)].

وقوله: {وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ}: أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}: أي كئيباً من الهم {وَهُوَ كَظِيمٌ} ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ}: أي يكره أن يراه الناس {مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}: أي: إن أبقاها أبقاها مُهانة لا يورِّثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها {أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}: أي: يئدها، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ {أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}: أي بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [سورة الزخرف: (١٧)]. وقوله ههنا: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ

السَّوْءِ}: أي النقص إنما ينسب إليهم، {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}: أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ}**، قوله: **{لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ}** يمكن أن يكون ذلك عائداً إلى العابدين المشركين، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وذلك أنه قال: "**يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم**"، يعني بغير علم منهم لما لا يعلمون حقيقته من معبوداتهم من الأصنام والشياطين إلى غير ذلك، يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله -عز وجل- فسيَّبوا لهم السوائب، وبحَّروا البحائر، **{فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا}** إلى غير ذلك مما قص الله -تبارك وتعالى-، يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله -جل جلاله-، وهذا المعنى تحتمله الآية، ويشهد له قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ}**[سورة الحـج: (٧١)]، المعنى الثاني الذي تحتمله الآية: أن يكون ذلك عائداً إلى المعبودين، يعني **{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ}**: يعني لهذه المعبودات التي لا تعلم شيئاً عن عبادتهم، فهي غافلة عنهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}** [سورة الأحقاف: (٥)]، ويكون ذلك من وصف هذه المعبودات، والله قال عنها: **{أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}** [سورة النحل: (٢١)] كما سبق، وعلى كل حال الآية تحتمل المعنيين، والقرآن يعبَّر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإذا احتملت الآية معنيين فأكثر ولم يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني، فيمكن أن تحمل عليها جميعاً، فهؤلاء الكفار يعبدون آلهة مزعومة لا حقيقة لها، ولا يعلمون حقيقتها وإنما هو شيء زينه لهم الشيطان، وهذه المعبودات لا تعلم شيئاً عن عبادتهم، فهي غافلة عن ذلك كله، والله -تبارك وتعالى- أعلم.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**{سَاء مَا يَحْكُمُونَ}**: **أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها على جانبه**"، إلى آخر ما ذكر، ثم قال: **{وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ}** إلى أن قال: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى}**، البشارة تأتي غالباً معبراً بها عن الإخبار بما يسرُّ، هذا الاستعمال الشائع الذائع، وقد تستعمل قليلاً في الإخبار بما يسوء، كما يقول الله -عز وجل- مثلاً: **{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [سورة الانشقاق: (٢٤)] أو نحو ذلك، وهكذا أيضاً في كلام العرب:

أَبَشّرتني يا سعد أنّ أحبتي *** جَفَوني وقالوا: الود موعده القبرُ

وقول الآخر:

يبشرني الغراب ببيْن أهلي *** فقلت له: ثكلتك من بشيرِ

وأشباه ذلك، فقد تأتي لهذا المعنى قليلاً.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}** قال: "**أي ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن**"، **{كَظِيمٌ}** قيل: الذي قد امتلأ غيظاً وغماً وهماً وحنقاً، وقيل: هو الذي يكبت ما به من تغيظ وغم فلا يظهره، وبعضهم يقول: هو الذي يُطْبق فاه، مأخوذ من الكاظمة: وهو سد فم البئر، وهذه المعاني متقاربة، فالإنسان الكظيم: هو الذي قد امتلأ حنقاً، ولكنه يكتم ذلك ولا يظهره، أما الذي إذا غضب

وتحركت نفسه تكلم وأفضى بذلك، ولربما شتم، فمثل هذا لا يقال: إنه كظيم، ويعقوب -عليه الصلاة والسلام- لما قص الله -عز وجل- خبره وصفه بذلك، معنى ذلك أنه يكتم حزنه وغمه وقد امتلأت نفسه بذلك، فهذه العبارات التي يذكرونها لا منافاة بينها، لأنه لا يكون موصوفاً بهذا إلا إذا كان يكتمه، والذي يكتمه يقال عنه: ساكت، والذي يكون ساكتاً يعبر عنه بأنه قد أقفل فمه، ولا يكون هذا لمن كان خالي القلب، ليس فيه شيء من الغم أو الغضب أو نحو هذا، وهنا في هذه الآيات **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}** والمقصود هنا بالسواد: أنه يظهر على وجهه من الكراهة، وينعكس على الوجه؛ فالوجه مرآة للقلب، فإذا أظلم القلب أظلم الوجه، والعرب تعبر عما يحصل للإنسان من الخزي والذل ونحو ذلك بسواد الوجه، يقال: سوَّد الله وجهه، أو اسودَّ وجهه، أو يقولون: فلان سوَّد وجه قومه، أو نحو هذا، وهذا أمر يشاهد ويظهر على وجه الإنسان، والإنسان يعرف في وجهه المحبة والفرح والكراهة والغضب وما إلى ذلك مما يقع في قلبه، فسواد الوجه يكون لما يقع في القلب، تارة يكون بسبب البدعة، وتارة يكون بسبب المعاصي التي تسوِّد الوجه إذا كانت كباراً، أو كانت من الأمور المدنسات للشرف أو نحو هذا، فيظهر السواد على الوجه، حتى إنه يقوى أحياناً فيراه كل أحد، وتارة يكون هذا بسبب ما يعانيه الإنسان من أمر عارض يحصل له من ذلٍّ أو نحو هذا، تقول: فلان وجهه أسود، فأحياناً بسبب الغيظ أو الحقد الشديد، وهذا ظاهر كثير يعرفه كل أحد، حتى إنك لا تستطيع أن تنظر في بعض الوجوه لشدة ما فيها من السواد، وقد تكون بشرة الإنسان سوداء ولكن في وجهه من الصفاء والإشراق ما ينشرح الصدر بالنظر إليه ورؤيته، فليس السواد هو سواد البشرة، إنما السواد هو سواد القلب الذي ينعكس على الوجه فيظلم هذا الوجه، -نسأل الله العافية-، وهناك بعض الأشياء تكون أسرع إلى سواد الوجه -نسأل الله العافية- مثل الذي يحمل الأحقاد على الناس، وليس له شغل إلا الوقيعة في أعراضهم، والتشفي منهم، ورمي الناس بما ليس فيهم، فترى في وجهه من السواد ما لا تراه في غيره.

وعلى كل حال هذا المعنى الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- من استيائهم إذا بشر أحدهم بالأنثى معروف مشهور في كلام العرب، كما قال العقيل بن عُلَّفَة، وكانت عنده بنت يقال لها: الجرباء، خُطبت فقال:

إني وإن سيق إلي المهرُ *** ألفٌ وعبدان- يعني عبيد- وذود عشرُ
أحب أصهاري إليَّ القبرُ

وآخر عنده بنت يقال لها: مودة، يقول:

مودة تهوى عمْرَ شيخٍ يَسرُّه *** لها الموت قبل الليل لو أنها تدري

وقال آخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً *** والموت أكرم نزَّالٍ على الحُرَم

يدفن بنته، -يئدها-، ويقول بعد ذلك:

إذا تذكرت بنتي وهي تندبني *** فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدمي
أحاذر الدهر يوماً أن يلمّ بها *** فيهتك الستر عن لحم على وضمِ
أخشى عليها فظاظة عم أو جفاء أخٍ *** وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

فيدفنها، ويغالب نفسه كل ذلك من أجل الخشية على العرض والعار، وكثير من المسلمين اليوم للأسف ضيعوا هذا، وهذا آخر يقال له: عبد الله بن طاهر يقول:

لكل أبي بنت يراعي شئونَها *** ثلاثةُ أصهار إذا حُمِد الصهرُ

فبعل يراعيها وخدر يكنها *** وقبر يواريها وخيرهم القبرُ

يقول: وهذا أفضل الأصهار الثلاثة، وكلامهم في هذا كثير، تجدون في أخبار العرب أشياء من هذا، أحد الأعراب ولدت امرأته بنتاً، وعلى عادة العرب يكرهون البنات، فاعتزل امرأته، ونفر منها، فقالت هذه المرأة المسكينة البائسة، وكنيته أبو حمزة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا *** يظل بالبيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنين *** ليس لنا من أمرنا ما شينا -يعني ما شئنا-.

وإنما نأخذ ما أعطينا

والله المستعان.

{الْمَثَلُ الْأَعْلَى} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: أي الكمال المطلق من كل وجه. **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}** فالنقائص منسوبة إليهم، هم ينسبون إلى الله ما يكرهون من البنات، والنصارى نسبوا له الزوجة والولد، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}**، والمثل يأتي بمعنى الصفة، كما قال الله -عز وجل-: **{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ}** [سورة محمد: (١٥)] الآية، يعني صفة الجنة في هذا الموضع، فالمثل يأتي بمعانٍ متعددة، فهنا **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}**: يعني الصفة السيئة، والله -عز وجل- له المثل الأعلى، له الأوصاف الكاملة، الكمال المطلق من كل وجه، فهو الغني -سبحانه وتعالى-، غني عن الصاحبة والولد، والولد لا يكون إلا من فقر وحاجة، والله منزَّه عن ذلك.

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض}.

فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل: أي أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا، تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملاً، وهي الإيمان والعلم والمعرفة واليقين والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر والرضا والشكر، وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم -وهي صفات كمال- صار لهم مثل السوء، فمن سَلب صفات الكمال عن الله وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته وسائر ما وصف به نفسه فقد جَعل له مثل السوء، ونزهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في

الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وبصره وسائر صفاته عليا كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله؛ فإنه في غاية الظهور والقوة، ونظيرُ هذا القهرُ المطلقُ مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفء له فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفئاً، وكان القهار واحداً، فتأمل كيف كان قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى: (١١)]، وقوله: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [سورة الروم: (٢٧)]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه، فإن قلت قد فهمت هذا وعرفته فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره قالوا: {مَثَلُ السَّوْءِ}: العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد، وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية ولا أدري لم قيل للعذاب: مثَل السوء وللإخلاص: المثل الأعلى، قال: وقال قوم: المثل السوء: الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث؛ خوفَ العيلة والعار، ولله المثل الأعلى: الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح فالمثل كثيراً ما يرد بمعنى الصفة قاله جماعة من المتقدمين، وقال ابن كيسان: مثل السوء: ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى: نحو قوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ} [سورة النور: (٣٥)].

وقال ابن جرير: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}: نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه، ويحبونه، ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه، ويجلونه وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: {بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [سورة البقرة: (١١٦)]. فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره، وأكمل وأعظم من كلٍّ سواه.

الثالث: ذكْرُ صفاته والخبر عنها، وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى، فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. ا.هـ[1].

على كل حال هذه هي الخلاصة: أن المثل الأعلى بمعنى الصفة الكاملة، والكمال المطلق من كل وجه، وهؤلاء لهم مثل السوء، أي النقائص هم أحق بها، وهم أهلها، والله -تبارك وتعالى- هو الكامل في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله من كل وجه.

بعض ما ذكره الحافظ ابن القيم هنا يمكن أن يناقش على كل حال في كلامه على المثل الأعلى، بحيث إن هذا التركيب أو هذا اللفظ لا يمكن أن يشترك فيه اثنان من حيث اللغة، وكذلك في كلامه على القهار، فمثل هذا قد يناقش، لكن في الجملة: مثل هذا الكلام لا تكاد تجد من المفسرين من يشرح المثل الأعلى، أو يشرح التفسير عموماً بمثل هذه الطريقة الفذة، والله المستعان.

---

[1] - الصواعق المرسلة: (١٠٣٥/٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ وَلَكِن يُؤَخّرُهُمْ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنّ لَهُمُ الْحُسْنَىَ لاَ جَرَمَ أَنّ لَهُمُ النّارَ وَأَنّهُمْ مّفْرَطُونَ}[سورة النحل:٦١-٦٢].

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة: أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى، أي لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

روى ابن جرير عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما- رجلاً وهو يقول: "إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه، فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم"[(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ}**، ظاهر هذه الآية العموم فـــ"دابة" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وإذا سبقت بـــ"من" فإن ذلك ينقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، فهي نص صريح في العموم، **{مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ}**، فهذا عام لكل الدواب، يدل عليه قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}** [سورة فاطر:٤٥]، ومن أهل العلم من خص ذلك بالكفار، واحتج بالنصوص التي تدل على أنه لا تحمل وازرة وزر أخرى، وأن الله لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره، فقالوا: إن هذا العموم الظاهر في اللفظ مراد به الخصوص، وأنتم تعرفون أن العموم ثلاثة أنواع: العام الباقي على عمومه، والعام المخصوص، يعني الذي ورد ما يخصصه، والنوع الثالث: هو العام لفظاً، لكنه خاص في المعنى، يعني أنه أطلق لفظاً عاماً على معنىً خاص، فبعضهم يقول: إن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}** المقصود الكفار؛ لأنهم هم أصحاب الظلم والإجرام العظيم، فالله -عز وجل- يهلكهم، وإن اختلفت عبارات هؤلاء العلماء في المعنى المعبر عنه إلا أن ذلك يرجع إلى ما ذكرت، يعني بعضهم يقول: يهلك الآباء فيهلك بسبب هلاكهم النسل، وينقطع، وبعضهم يقول: يهلك الكفار، والأقرب -والله تعالى أعلم-، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وتدل عليه النصوص الأخرى: أن المراد بذلك العموم، والنصوص دلت على أن الظالم إذا لم يؤخذ على يده عم الناسَ العذابُ، وأن هذا الظلم والفساد والإجرام يكون سبباً للعقوبات العامة، ما لم يغير ويؤخذ على يد هؤلاء،

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٣١/١٧)، والبيهقي في الشعب (٥٤/٦)، برقم (٧٤٧٩).

"أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: ((نعم إذا كثر الخبث))[2]، فيأتي البلاء والعذاب عاماً شاملاً للجميع، وإنما ينجي الله -عز وجل- الذين ينهون عن السوء، وإذا نظرت إلى أعمال الخلق حتى أهل الإيمان منهم، فإن الإنسان لا يخلو من إساءة وظلم، ولا يخلو من تقصير في حق الله -تبارك وتعالى-، ولو يؤاخذنا الله -عز وجل- بذنوبنا لما بقي من الناس أحد، ليس الكلام في الناس فحسب وإنما الكلام في الدواب، قد تموت الجعلان في جحرها، والحبارى في وكرها بسبب ظلم بني آدم، وبغيهم وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، وهذا أمر لا ينكر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إلا منعوا القطر من السماء))[3]، يعني إذا منع الأغنياء زكاة الأموال، منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، فإذا منع الناس القطر من السماء عم ذلك الجميع، الفقير الذي لا تجب عليه الزكاة أصلاً، والغني، والبهيمة، فهذان قولان، والأقرب حمل الآية على العموم، والضمير في قوله -تبارك وتعالى-: {مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ}، يرجع إلى الأرض، والأرض لم يرد لها ذكر قبل ذلك، فرجع الضمير إلى غير مذكور، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنه إذا كان يفهم من السياق فإنه يمكن أن يرجع الضمير إليه، وإن لم يكن له ذكر سابق، كقوله -تبارك وتعالى- على أحد المعنيين في تفسير قوله -جل وعلا-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [سورة ص:٣٢]، ففسر ذلك بالخير وفسر بالشمس وهو الأشهر، {حَتَّى تَوَارَتْ} أي: الشمس، {بِالْحِجَابِ}، فالشمس لم يرد لها ذكر قبل ذلك، ولكن يفهم من السياق، كقول الشاعر:

أمَاوِيَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى *** إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

إذا حشرجت: يعني النفس والروح، وذلك لم يرد له ذكر في كلام الشاعر قبله، وكقول الآخر:

حتى إذا ألقتْ يداً في كافر *** وأجَنّ عوراتِ الثغور ظَلامُها

فرجع الضمير إلى غير مذكور.

وقوله: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [سورة هود:٩-١٠]، وكقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}[سورة فصلت:٥٠]، وقوله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً}[سورة

---

(٢) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم (٤٠١٩)، والطبراني في المعجم الكبير(٤٤٦/١٢)، برقم (١٣٦١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٦)، من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما.

مريم:٧٧]، وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً}[سورة الكهف:٣٥-٣٦]، **فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ} قراءة غير متواترة: قراءة ابن عباس ومجاهد وأبو العالية {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذُبُ} يعني: الألسنة الكاذبة، {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذُبُ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}، هذه الألسنة الكاذبة تزعم أن لهم الحسنى، والمعنى على هذه القراءة لا إشكال فيه، ولكن القراءة المتواترة {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} يمكن أن يقال في معناها -والله تعالى أعلم-: كأنه جعل قولهم هو عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم كانت واصفة لهذا الكذب، إذا نطقوا فإن نطقهم هذا يكون وصفاً لكذب، وهذا تعبر به العرب ويعرف في كلامهم، ويكون ذلك كالمبالغة في الوصف، كما يقولون: وجهه يصف الجمال أو الحسن، وعينها تصف السحر، فجعل العين هي الجمال، وجعل الوجه هو الحسن، فإذا قال: يصف وجهه الحسن، فإن ذلك على سبيل المبالغة، تصف عينها السحر، يعني أن عينها هي السحر، لما فيها من الجمال والجاذبية، وفي قراءة "الكُذُب" يكون الكُذُب صفة للألسن.

وفيما يتعلق بالحسنى، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}: "**أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى**"، {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}، الحسنى يمكن أن تفسر بهذا، فهي مؤنثة في الصيغة، يعني أن لهم الخلّة الحسنى، أو الصفة الحسنى، أو نحو ذلك، وفي أسماء الله الحسنى يعني أنها بالغة في الحسن غايته، فالحسنى هنا فسرها بعض أهل العلم بالجنة، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر ما يدل على هذا، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى}[سورة فصلت:٥٠] يعني: الجنة، لكن ابن كثير -رحمه الله- عبر بمثل هذه العبارة باعتبار أنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً ولا بالجنة ولا بالنار، فهو يقول: {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} يعني: في الدنيا، فإذا افتُرض أن يكون البعث حقاً فإن العاقبة تكون لهم، والجنة هي مآلهم ومصيرهم، وابن جرير -رحمه الله- يقول: يوم القيامة: يعني الجنة، وهذا الذي رجحه الشنقيطي، -والله تعالى أعلم-، ووجْهُ كلام ابن كثير -رحمه الله- حتى قال هذا الكلام-: أنهم لا يؤمنون أصلاً بالآخرة، فهم يضيفون إلى أنفسهم الكمالات في الدنيا، وإن كان هناك بعث فتكون الجنة هي مصيرهم، بل قال ابن كثير -رحمه الله-: "**إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى**"، ثم ذكر قول ابن جرير ورجحه، وكلامه الأول أعم من هذا، لأن المفسر أحياناً يكتب على فترات، ويغير بين حين وآخر، وابن جرير تجد له في تفسير الآية الواحدة كلاماً طويلاً، ثم يذكر أقوال السلف، ويفهم من أول كلامه معنىً، وفي آخره إذا جاء يرجح -أحياناً- يقول: قال أبو جعفر، ويذكر كلاماً يُفهم منه معنى آخر.

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: {لاَ جَرَمَ} **أي: حقاً لابد منه،** {أَنَّ لَهُمُ النَّارَ} **أي: يوم القيامة** {وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ}**، قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى:** {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} [سورة الأعراف:٥١]**، وعن قتادة أيضا:** {مُفْرَطُونَ} **أي: معجلون**

إلى النار من الفرط، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة؛ لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها أي يخلدون.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {لاَ جَرَمَ} أي: حقاً، {أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ}، ومفرطون ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لها معنيين، قال مجاهد ومن معه: "**منسيون فيها مضيعون**"، من قولهم: أفرطت فلاناً خلفي أي تركته، إذا خلفته ونسيته تقول: أفرطته، فهذا معنى أنهم متروكون، منسيون، مخلّفون في النار، كما قال الله -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، يقول ابن كثير: "**عن قتادة**: {مُّفْرَطُونَ} أي: **معجلون إلى النار من الفرط**"، من قولهم: أفرطته في طلب الماء مثلاً، فهذا الفارط هو الذي يسبق الناس ليستقي لهم، ولهذا يقال في الصغير الذي يموت: إنه فرط، كأنه سبق أبويه إلى الآخرة أو الجنة، فالذي يتقدم الناس إلى الماء مثلاً يقال له ذلك، {وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} على هذا المعنى يكون مفرطون: أي مقدمون إلى النار، معجلون إليها كما نقل عن قتادة، وفي قراءة أخرى في رواية ورش {مُفرطون} أي: أنهم مسرفون في الذنوب، وهي سبب العذاب، وهناك قراءة أخرى، لكنها ليست متواترة، {وَأَنَّهُم مُفَرِّطُونَ} أي: مضيعون لأمر الله -جل جلاله-، فهذه قراءات ثلاث في هذه الآية.

وبالنسبة للقراءات المتواترة إذا تعددت وكان لكل قراءة معنى فإنها تنزل منزلة الآيات المتعددة، ففي قوله: {مُّفْرَطُونَ} يحتمل معنى أنهم معجلون إلى النار، ويحتمل معنى أنهم متروكون منسيون في النار، وهذا كله تدل عليه هذه اللفظة في كلام العرب، والآية إذا كانت تدل على معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حملها عليها، فإنها تحمل على هذه المعاني جميعاً، ولا منافاة بين هذين المعنيين، فهم معجل بهم إلى النار، ويُتركون وينسون فيها لا يخرجون منها، فكل هذا تدل عليه هذه اللفظة، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقراءة الأخرى {وَأَنَّهُم مُفرِطون} أي: في الذنوب والمعاصي، مسرفون فيها، فيكون هذا من قبيل ذكر السبب الذي أوجب لهم النار، والله أعلم.

{تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللّهُ أَنْزَلَ مِنَ الْسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[سورة النحل: ٦٣-٦٥].

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ} أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- أن قوله: {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ} "أي: **في الآخرة يوم القيامة**"، هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل غير هذا، ويمكن أن يكون المراد بذلك الدنيا عامة، ويمكن أن يراد به وقت التزيين في الدنيا، ويمكن أن يكون المراد به بعضاً من الدنيا، أي حينما نزلت هذه الآية {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ}، وحمْل الآية على أن المراد بذلك الآخرة لعله هو الأقرب -والله أعلم-.

والولي: هو الناصر، ومعلوم أن هؤلاء لا ناصر لهم، والله -عز وجل- يقول: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة الأنبياء:٣٩]، فإذا كان الشيطان هو وليهم فمعنى ذلك أنه لا ولي لهم، فالشيطان لا يستطيع أن ينصرهم ولا أن يمنعهم، بل يقول: {إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ}[سورة إبراهيم:٢٢]: يعني بمنقذكم، فالشيطان يتبرأ منهم، ولا يستطيع أن ينصرهم، وكما قال الله -عز وجل- فيما وقع في يوم بدر: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ}[سورة الأنفال:٤٨]، فهو لا ينصرهم ولا يخلصهم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبيّن للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، {وَهُدًى} أي: للقلوب، {وَرَحْمَةً} أي: لمن تمسك به {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي: يفهمون الكلام ومعناه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[سورة النحل: (٦٦-٦٧)].

يقول تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ} أيها الناس {فِي الأَنْعَامِ}: وهي الإبل والبقر والغنم، {لَعِبْرَةً}: أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} أفردها ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى {مِّمَّا فِي بُطُونِهَا} [سورة المؤمنون: (٢١)]**، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ}** [سورة عبس: (١٢)] **وفي قوله تعالى: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ}** [(٣٦) سورة النمل]**: أي المال.**

وقوله: {مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا}: أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: {لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ}: أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} السَّكَر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء -وهو الدبس- وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [سورة يس: (٣٤-٣٦)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً} المقصود بالأنعام هي الأزواج الثمانية التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام، {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر: (٦)]، وقوله: {لَعِبْرَةً} قال: أي: **لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته**، وهذا تفسير بالمعنى، وأصل العبرة، قيل: مأخوذة من العبور وهو التجاوز، كما يقال: عَبرة، استعبَر؛ وذلك لانتقالها من العين إلى الخد، ويقال: مَعْبر؛ لأنه يعبر به من ناحية إلى ناحية، ويقال: هذا عِبرة فاعتبروا، والاعتبار هو النظر في أمرٍ ثم الرجوع، أو الانتقال منه إلى غيره، فتقول: لك في فلان عِبرة بمعنى أنك تنظر فيما جرى له، ثم تنتقل من ذلك إلى نفسك أنت وتعتبر بهذا وتنتفع، وقيل: العاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فابن كثير -رحمه الله- فسرها بالمعنى، وقوله هنا: {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أنه هنا أفردها عوداً على معنى النعم، فلم يقل: نسقيكم مما في بطونها، وإنما قال: {مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} وأعاده مذكراً {بُطُونِهِ}؛ واللبن يخرج من إناثها، ومع ذلك لم يؤنث هنا الضمير، وإنما ذكَّره، لماذا؟ قال: عوداً على الحيوان، فلفظ الحيوان مذكر {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ}، والأنعام حيوانات {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}: أي هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى {مِّمَّا فِي بُطُونِهَا} فأنثه، قال: ويجوز هذا وهذا كقوله: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} {إِنَّهَا} فأنثها، والتذكرة مؤنثة في اللفظ، ويمكن أن يقال في الكلام: إنه تذكرة، بالتذكير، ويمكن توجيهه باعتبار أنه مؤنث غير حقيقي، والمؤنث غير الحقيقي يمكن أن يعود الضمير إليه مذكراً أو مؤنثاً، أنت مخيَّر، وهكذا في قوله: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ}، والهدية مؤنثة، ثم قال: {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ} ما قال: جاءت سليمان، يعني الهدية، قال: {جَاء سُلَيْمَانَ}، فهنا يمكن أن يقال: باعتبار أن الهدية مؤنث غير حقيقي، أو يقال: باعتبار {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ}: أي جاء الوفد، أو جاء المال؛ لأن هذه الهدية مال، بهذا الاعتبار، وهذا له نظائر كثيرة في كلام الله -عز وجل-، وفي كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ *** كأنه في الجلدِ تَوليعُ البَهَقْ

قال: فيها خطوط، ثم قال: كأنه، ما قال: كأنها.

وفي قوله: {لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} قال: أي لا يغص به أحد؛ ولهذا ابن جرير قال: قيل بأنه لم يغص باللبن أحد {سَآئِغًا}: الذي لا يغص به الإنسان، يشربه دون عناء، وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ} مثل ما سبق، ما قال: تتخذون منها، وثمرات جمع ثمرة، مؤنثة، {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ} يقال فيه كما قيل في السابق.

يقول الحافظ -رحمه الله-: **وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال:** {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ} **دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه**، فالذي عليه ابن كثير -رحمه الله- أن السَّكَر هو المسكر، يعني: ما يسكر مما يتخذ من هذه الثمرات ، وهو الخمر، وعلى هذا تكون الآيات النازلة في الخمر -بهذا الاعتبار-: الآية الأولى: هذه الآية في "سورة النحل"، على سبيل الامتنان، والآية الثانية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [سورة البقرة: (٢١٩)]، فذكر هذا وهذا، والآية الثالثة: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [سورة النساء: (٤٣)]، والآية الرابعة: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ

{وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [سورة المائدة: (٩٠)]، فهذه أربع آيات، هكذا قال من فسر السَّكَر هنا بالمسكر، والقول الآخر المعروف في المسألة هو أن هذه الآية لا تعلق لها بالخمر، وأن الله -عز وجل- لا يمتن به على عباده وإنما كانت إباحته أصلية، والفرق بين الإباحة الأصلية والإباحة الشرعية أن الإباحة الأصلية: هي الإبقاء على الحال التي كانوا عليها قبل ورود الشرع، فلا يتعرض لها الشرع أصلاً، ولم يرد فيها دليل يدل على التحريم، ولا على الإباحة بعينها، ولا الاستحباب ولا الوجوب، ويقال لها: البراءة الأصلية، والإباحة الأصلية، وأما الإباحة الشرعية: فهو أن يرد عن الشارع ما يدل على إباحتها بخصوصها، فبهذا الاعتبار إذا امتن بها تكون إباحة لها، فتكون إباحة الخمر قبل التحريم إباحة شرعية.

والذين قالوا: إن هذه الآية ليس لها علاقة بموضوع الخمر قالوا: إن إباحتها كانت أصلية، فإذا جاء ما يرفع الإباحة الأصلية لا يقال له: نسخ، ولهذا يقولون: هذه الآية غير منسوخة أصلاً؛ لأن الشارع لم يتعرض فيها للخمر، إنما هي في العصير فقط، ولذلك بعضهم قال: إن السَّكَر هو الخل، بلغة الحبشة، والخل غير مسكر، وهؤلاء يقولون: الرزق الحسن هو ما يؤكل من الشجرتين، وبعض أهل العلم يقول: السَّكَر هو العصير الحلو الذي يتخذ منها، هذا العصير قيل له: سَكَر، قالوا: لأنه يشتد ويتحول إذا ترك مدة فيكون مسكراً فسمي سَكَراً بهذا الاعتبار، لما يئول إليه لو ترك، وعلى كل حال ابن جرير -رحمه الله- يفسر السَّكَر والرزق الحسن بمعنىً واحد، لا يفرق بينهما، يقول: العبارة مختلفة، ولكن المعنى متحد، فهو يرى أن السَّكَر ما يحل من الطعام والشراب من الشجرتين، هذا كله عند ابن جرير -رحمه الله- يُعد من السَّكَر، ما يحل أن يؤكل وأن يشرب من ثمرات النخيل والأعناب، وهو الرزق الحسن عنده.

ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **دل على إباحته شرعاً**، هذه الإباحة التي ذكرت لكم الإباحة الشرعية، وعبارته دقيقة، وينبني على هذا أثر وحكم، وهو أن رفعها يقال له: نسخ، فعندهم هذه الآية منسوخة، لأنهم فسروه بالمسكر، بخلاف الآخرين، قال: **ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب**، هذا بنص الآية، قال: **وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل**، هذا لم يؤخذ من الآية، قال: **كما جاءت السنة بتفصيل ذلك**، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام))[1]، ((ما أسكر))، وهذا للعموم، فكل نوع من أنواع الأشربة أو الأشياء التي تؤكل، أو عن طريق شم أو وخز بالإبر، أو غير ذلك مما يؤثر على العقل بالإسكار فإنه محرم، ولا يختص ذلك بما يتخذ من الثمرتين.

{وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، ابن جرير -رحمه الله- يقول: التقدير {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ} ما {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، فيوجد مقدر محذوف، يعني "ما" تتخذون منه، حُذف اختصاراً، والكلام يفهم مع حذفه، وبعضهم يقول: إنه معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، الله يقول: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً} ثم قال: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، فالواو هذه عاطفة على ماذا؟ بعضهم يقول: على قوله: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ}: يعني ومن ثمرات

---

[1] رواه أبو داود: باب النهي عن المسكر: برقم: (٣٦٨١) من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) وقال الألباني: حسن صحيح.

النخيل تتخذون سكراً، فالعبرة حاصلة بهذا وهذا، بالأنعام وما يخرج من بطونها، والثمرات وما يستخرج منها ويعصر من العصير، كل ذلك فيه عبرة، ولكن المعنى الأول الذي ذكره ابن جرير أقرب من هذا، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله: {مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}، يقول: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}، {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ}: يعني نسقيكم من ثمرات النخيل سَكَراً، سواء قلنا: إنه العصير أو المسكر، وعلى كلٍّ، منهم من يقول: إن قوله: {وَمِن ثَمَرَاتِ} متعلق بقوله: {تَتَّخِذُونَ}، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} فهو متعلق به، وهذا القول قول له وجه من النظر ظاهر، أما ارتباطه بالعبرة -{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً}: يعني وفيما تتخذون- ففيه بعد، والله وأعلم.

في قوله: **السَّكَر ما حرِّم من ثمرتيهما**، نقل هذا عن ابن عباس، **والرزق الحسن**: **ما أحل من ثمرتيهما**، هذا هو المشهور، وفي رواية: "السَّكَر حرامه، والرزق الحسن حلاله". طيب كيف يمتن به؟ يكون ذلك قبل التحريم، وعلى كلٍّ هذا قول الجمهور، أن السَّكَر هو المسكر، وأن الآية كانت قبل التحريم، وعلى هذا تكون منسوخة، والرزق الحسن حلاله.

يقول: **وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس**، المقصود بالدبس: ما يسيل من التمر يسمونه عسل التمر.

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: (٦٨-٦٩)].

المراد بالوحي هاهنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [سورة يس: (٧٢)] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

في قوله: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي} الإيحاء هنا قال: بمعنى الإلهام، وهذا صحيح، ليس معنى ذلك أن نزل عليها وحي بالمعنى المعروف كإرسال الملك أو نحوه، وإنما الإلهام والوحي كما قال الله -عز وجل-: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى} [سورة القصص: (٧)]، {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي} [سورة المائدة: (١١١)]، فيكون أحياناً لبعض بني آدم غير الأنبياء، وقد يكون أيضاً من قبيل الإلهام {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، وقد يكون ما يسمى بالوحي التسخيري لبعض الجمادات، {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا} [سورة فصلت:

(١٢)] على هذا التفسير، إلى غير هذا من الأنواع، على كل حال {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، بعض العلماء يقول: الترتيب هنا جاء بحسب الأفضل والأكمل ثم الأدنى، من الأعلى إلى الأدنى؛ بأن العسل الذي يكون في الجبال أفضل من العسل الذي يكون في الشجر، وهكذا، ثم بعد ذلك {وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} مما يضعه الناس من الصناديق أو الأشياء المعروشة التي تكون للنحل.
وقوله: {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}، قوله: {ذُلُلاً} هذه حال إما من السبل، أي: اسلكي سبل ربك مذللة، تسلك السبل مذللة، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر، ويحتمل أن يكون حالاً من النحل، {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي مذللة طائعة لله -تبارك وتعالى-، لا تخرج عن أمره وتسخيره، فألهمها ذلك، هذا معنى وهذا معنى، والآية تحتمل المعنيين، وابن جرير -رحمه الله- حملها على الأمرين، بناء على القاعدة التي ذكرتها في مناسبات شتى وهي: "أن اللفظ إذا احتمل معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حمله عليها فإنه يحمل على الجميع"، فهنا {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي هذه السبل مذللة لك، وهي أيضاً في الحال هذه: النحل طائعة مستجيبة لله -تبارك وتعالى-، سخرها هذا التسخير، ولا إشكال في هذا إن شاء الله.
هذه السبل مذللة لها بمعنى أنها تسلكها من غير مشقة ولا عناء ولا تعب، وإنما تسير فيها كما تشاء، والذين يعرفون النحل وكتبوا فيه ذكروا أشياء عجيبة من طرق اهتداء ومعرفة النحل الأماكن التي تأوي إليها، الخلية نفس الخلية، كل نحلة تذهب إلى خليتها، ما تذهب إلى خلية أخرى، ولو ذهبت إلى خلية أخرى فإن الحرس الذين يكونون على الخلية يقتلونها، فلا بد أن ترجع إلى نفس خليتها، ولو كانت خلايا كثيرة جداً متجاورة، كل نحلة ترجع إلى نفس خليتها، ولا تضيع، وتكلموا كيف تعرف هذه النحل المكان الذي تأوي إليه، وكيف تسير بزوايا معينة، وإذا رأت مكاناً يصلح للمرعى كيف تأتي وتخبر النحل في الخلية ليصلنَ إليه، وأين تجمع ما تأخذه في داخلها، ففي داخلها وعاءان، وعاء لغذائها الخاص بها، هي التي تأكله، وتعيش عليه وتقتات منه، ووعاء آخر مثل الخزان للعسل، هذا لا تعيش عليه، فتذهب به وتفرغه، وبعض النحل لا يحمل العسل، وإنما يحمل الماء، يذهب إلى الأماكن التي فيها ماء ويأتي به إلى الخلية، للأغراض التي يحتاج فيها إلى الماء، فهي تنقل ماء فقط، فلو عصرتها على ورقة أو نحو هذا ما يخرج إلا ماء، فهي صهريج يذهب ويحمل ويأتي فقط، والبقية يحملن العسل، وهناك ما دوره الحراسة، والملكة كما تعرفون هي التي تضع البيض، والشاهد هو حال النحل في تسخير الله -عز وجل- لها، وكيف تبني هذه الخلايا بهذه الطرق السداسية، وذلك آية من آيات الله -جل جلاله-، ولعله يأتي كلام على هذا -إن شاء الله تعالى- في الكلام على الأسماء الحسنى، وفي الكلام على اسم الله "الخالق"، ومن أراد أن يتوسع في هذا يمكن أن يرجع إلى بعض المؤلفات، مثل كتاب [غريزة أم تقدير إلهي؟]، هذا كتاب مفيد، ويوجد أيضاً شريط كامل عن النحل وعن كل ما يتعلق بها، في شريط سي دي أو فيديو، كل ما يتعلق بالنحل من معلومات.
وهكذا المعنى الآخر {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي أنك ذليلة مطيعة مستجيبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تتمة تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [سورة النحل:٦٩] الآيات.

وقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها، وقوله: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} أي: في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه-: أن رجلاً جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: ((اسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقا، قال: ((اسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله، ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اذهب فاسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً))[1] فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يعجبه الحلواء والعسل[2]، هذا لفظ البخاري، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشفاء في ثلاثة: في شرطة مِحجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي))[3].

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها، ومقدرها، ومسخرها، وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل، القادر، الحكيم، العليم، الكريم، الرحيم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، برقم (٥٣٦٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، برقم (٢٢١٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب شراب الحلوى والعسل، برقم (٥٢٩١)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينوِ الطلاق، برقم (١٤٧٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، برقم (٥٣٥٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الحافظ -رحمه الله- في قوله: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}: "**قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال:** {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} أي: **يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده**"، ووجه هذا القول أن "شفاء" نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم؛ ولذلك يوجد فرق بين هذا الموضع وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الشفاء في ثلاث))[٤]، وقوله: **قال**: ((الشفاء في ثلاثة))[٥] فدخول "ال" هنا إذا كانت "ال" هذه معرّفة فإن ذلك يكون للعموم، الشفاء كل الشفاء، وأما هنا فـ{فِيهِ شِفَاءٌ}، ومن أهل العلم من يقول: إذا استعمل العسل منفرداً كان شفاءً لبعض الأدواء، وإذا خلط مع غيره من المركبات والمعاجين فهو شفاء لكل الأدواء بالتركيب، -والله تعالى أعلم-، ثم إن الله -عز وجل- قال: {فِيهِ شِفَاءٌ} ولم يقل: دواء؛ لأن الدواء قد ينفع وقد يضر، وقد لا ينفع ولا يضر، فذكر النتيجة، فقال: {فِيهِ شِفَاءٌ} وهذا أبلغ ما يكون، وقوله -تبارك وتعالى-: {فِيهِ شِفَاءٌ} قال بعض أهل العلم من السلف وبعض من جاء بعدهم: إن المقصود به القرآن، هذا القرآن الذي قصصنا عليكم فيه القصص، وذكرنا فيه العبر فيه شفاء للناس، وهذا بعيد، والكلام فيما يخرج من بطون هذه المخلوقات العجيبة الصغيرة، ثم قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل:٦٩]، آية فيما ألهمها الله -تبارك وتعالى- وصرفها هذا التصريف، ودبرها هذا التدبير العجيب، وما يخرج من بطونها ويتحول إلى هذا الشفاء، ففيها عبرة بالغة من كل وجه، هذه النحلة حينما تنطلق وتبحث عن الأزهار أو المرعى ثم تأتي وتقوم بتصرفات عجيبة؛ من أجل أن يعرف بقية النحل هذا المرعى، فيجتمع حولها النحل، ثم بعد ذلك تبدأ تدور وتصدر صوتاً، وهذا الدوران بقدر بُعْد المكان، ثم يبدأ يدور حولها كل هؤلاء النحل من العاملات، يدرْنَ حولها مرة، ثم بعد ذلك يدرْن مرة ثانية، ثم يدرْن مرة ثالثة تأكيداً للمكان، أين هو بالضبط، ثم تنطلق مع هذه النحل إلى هذا المكان، وقد يكون بعيداً، وترجع كل واحدة محملة، وأما حبوب اللقاح فتضعها في بعض أطرافها، وهذه الجيوب لا توجد إلا في هذه الشغالة التي تمتص رحيق الأزهار، فتأتي محملة بهذا الرحيق، وتأتي محملة بحبوب اللقاح، وأصحاب النحل يعرفون أحياناً المرعى الذي ذهبت إليه، يعرفونه مما يتساقط أحياناً عند الخلية من هذه الحبوب، فيعرف من أين أخذت، ونوع الغذاء الذي تغذت عليه، فإذا ضاعت وذهبت إلى مكان آخر استقبلها الحرس الذي على باب الخلية ودفعوها، فإن أصرت قتلوها ولكنها لا تدخل خليتهم، وإنما ترجع إلى خليتها، وأخبارها في هذا عجيبة، فهي آية من آيات الله، وطريقة تركيب هذه الخلية والشمع، وكيف تصنعه؟! أمر عجيب.

{وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [سورة **النحل**:٧٠].

---

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب الكي، برقم (٣٤٩١)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٤٣٧)، برقم (١٢٢٤١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١١٥٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، برقم (٥٣٥٦)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم -وهو الضعف في الخلقة-، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [سورة الروم:٥٤].

وقوله: {لِكَيْلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً} أي: بعدما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو: ((أعوذ بك من البخل والكسل والهرم، وأرذل العمر وعذاب القبر، وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات))[٦]. وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين عاماً لا أبا لك يسأم**

رأيتُ المنايا خبطَ عشواء مَن تُصب * تمتْه ومن تُخطئ يُعمَّر فيهرم**

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}** [سورة الحج:٥]، أرذل الشيء هو أردؤه وأحطه، وأرذل العمر يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة**"، الله -عز وجل- قد بيّن هذا، فقال: **{لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}**، فهذا هو الذي يفسر به أرذل العمر، خلافاً لمن حد ذلك بسنة معينة فقال: إذا بلغ الخامسة والسبعين فهذا هو أرذل العمر، وبعضهم يقول: إذا بلغ التسعين، والصحيح أن مثل هذا لا يُحدّ؛ لأن الناس يتفاوتون، فمنهم من يبلغ الخامسة والسبعين وهو أحسن حالاً من ابن الخمسين، ومنهم من يبلغ التسعين وهو أحسن حالاً من ابن الستين، ويكون ممتعاً بسمعه وبصره وقواه، ولم يتغير، لكن أرذل العمر هو أن يتحول الإنسان إلى ما وصف الله -عز وجل-: **{لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}**، والأطباء يقولون: إن خلايا المخ عند الإنسان إذا تقدم به السن يموت بعضها، فإذا مات بعضها أصبح الإنسان يخلط، يدخل عليه ولده فيقول: من هذا، وتجلس عنده زوجته فيقول: هذه من؟، ويخرج من بيته ما يعرف يرجع، يحجرون عليه في البيت، يقفلون الأبواب مثل الطفل الصغير تماماً، يقفلون الباب على هذا الكبير الذي ربما كان صاحب رأي وحزم وقوة، يعامل كما يعامل الطفل الصغير، لا يخرج، انتبهوا له، لا أحد يترك الباب مفتوحاً، ولا يعرف عبادة ولا يعرف صياماً، ولا يعرف شيئاً، إذا قيل: تصوم؟ قال: نعم أنا صائم، وبعدها بلحظات يطلب الطعام، ويصلي ويتلفت، كالطفل الصغير، فهذا هو أرذل العمر، لكن الطفل الصغير ينتظر فيه الكمال، فليس هو بأرذل العمر، المرحلة التي يمر بها الصغير انتقال من نقص إلى كمال، هذا المنتظر فيه، وأما هذا فلا يرجى فيه بعد ذلك إلا المزيد من الضعف ثم الموت، ويحتاج إلى غيره في أخص شئونه، يضعف تماماً عن القيام بنفسه فضلاً عن أن يقوم بغيره فهذا أرذل العمر، وهو أصعب الأشياء على نفس الإنسان، ولذلك إن كان معه شيء من الإدراك والعقل فإن ذلك ربما يمرضه مرضاً فوق مرضه، واعتلالاً فوق علته أن يكون كَلاًّ على غيره، عبئاً عليهم، نسأل الله العافية، والعلماء ذكروا أن صاحب القرآن، وأهل القرآن لا يصلون إلى هذه المرحلة، لا يحصل لهم هذا الخرف، وذكر جماعة من أهل العلم، أن العلماء لا يردون إلى أرذل العمر، وبعضهم يربط بين هذه الآية

---

(٦) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجر، باب **{وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}** [سورة النحل:٧٠]، برقم (٤٤٣٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦).

وبين قول الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [سورة التين:٥]، ثم استثنى فقال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة التين:٦]، ففسروا قوله: {أَسْفَلَ سَافِلِينَ} بأرذل العمر، وقالوا: يستثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن الآية هذه تتحدث عن أمر آخر، وليس أرذل العمر أو المراحل العمرية الطبيعية التي يمر بها الإنسان، فإن مراحل عمر الإنسان كما يقسمها بعضهم: مرحلة النشوء، ثم مرحلة الوقوف، التي هي مرحلة الشباب، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الضعف المحدود، بداية الضعف يعني: مرحلة الكهولة، ثم بعد ذلك يأتي الضعف الظاهر، وهي مرحلة الشيخوخة، يقولون: يمر بمرحلة الطفولة بتقسيماتها، من صبىً وغيره، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الشباب، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الكهولة، وبعضهم يحد الكهولة بالثلاثين، فإذا بلغ الثلاثين كان كهلاً، يأخذون هذا من قوله تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [سورة آل عمران:٤٦] قالوا: إن عيسى -عليه الصلاة والسلام- رفع وهو في الثالثة والثلاثين أو قريباً من هذا، والله المستعان.

في قول زهير: رأيتُ **المنايا خبطَ عشواء**، هذا الكلام غير صحيح، وكل شيء بقدر الله -تبارك وتعالى-.

{وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [سورة النحل:٧١].

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟، كما قال في الآية الأخرى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [سورة الروم:٢٨] الآية، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟، فذلك قوله: {أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟.

وقوله: {أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره، وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: "واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق بلاءً يبتلي به كُلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكْره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟". رواه ابن أبي حاتم.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الظاهر المتبادر من قوله: {فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ}، أي أنتم لا تفعلون، وتأنفون من هذا، فتستنكفون أن تردوا ما أعطاكم الله -عز وجل- من الإفضال والإنعام والرزق إلى عبيدكم ومماليككم، فهم لا يملكون شيئاً معكم، وما بأيديهم فهو ملك لكم، ثم أنتم تشركون مع الله -عز وجل- غيره، وتضيفون إليهم ما ليس لهم وهم عبيد مربوبون لله -تبارك وتعالى-، وأما قول من قال: إن المقصود بذلك هو الإنكار عليهم أو أن هذا مضمن

للأمر والحث على أن يواسوا هؤلاء المماليك فيلبسوهم مما يلبسون، ويطعموهم مما يطعمون، فهذا بعيد، ليس هذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-.

{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[سورة النحل:٧٢].

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بنين وحفدة: وهم الولد وولد الولد، وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان، وقيل: الأصهار، قلت: فمن جعل {وَحَفَدَةً} متعلقاً بـ{أَزْوَاجِكُم}، فلابد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة.

وقوله: {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: {أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ} وهم الأنداد والأصنام، {وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفي الحديث الصحيح: ((إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟))[٧].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}**، يقال: حَفَدَ إذا أسرع في الخدمة، فالحَفْد هو الإسراع في الخدمة، هكذا فسره أئمة اللغة كالخليل وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأمثال هؤلاء.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: **{بَنِين وَحَفَدَةً}**، "**وهم الولد وولد الولد**"، وهذا القول هو الأظهر، وهو المتبادر إذا أردنا أن نرجح واحداً من هذه الأقوال، فالحفدة هم الأولاد وأولاد الأولاد، وهذا المعنى اختاره ابن العربي والقرطبي والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، قال: "**وقيل: الخدم**"، ومعلوم أن الأولاد وأولاد الأولاد يخدمون الإنسان ويسرعون في خدمته، "**وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان**"، هذا قال به جماعة من السلف، والختن: مَن كان مِن قِبل المرأة، فقرابة المرأة، يقال لهم أختان، كابنها وأخيها، يعني ابن المرأة من غيرك، إن كانت متزوجة قبل ذلك، والأصهار ما كان من قبل الزوج، وما كان من قبل الزوجة أيضاً يقال لهم: أصهار، فالشاهد أنه قال: "**قيل: الأختان وقيل: الأصهار**"، بمعنى أن الأصهار مثلاً أزواج البنات ممن يسارع في الخدمة إذا كان الإنسان قد صاهر أناساً كرماء وفضلاء، وقد يبتلى بغيرهم، كما يقول العامة: "النسب نشد"، فقد يبتلى بحنظل فلا يلقى منهم إلا الأذى والشقاء، لكن من حيث الأصل، يعني من قال هذا فهو باعتبار أن مثل هؤلاء إذا كانت نفوسهم كريمة فهم ممن يكونون كذلك، ويقول الحافظ -رحمه الله-: "**فمن جعل {وَحَفَدَةً} متعلقاً بـ{أَزْوَاجِكُم}**"، يعني يكون **{وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}**، ويحتمل **{وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ}** ثم قال: **{وَحَفَدَةً}**

---

(٧) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

يحتمل أن يكون متعلقاً بالأزواج، ثم قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**فلابد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات**"، فهذا له تعلق بالزوجات، أو أولاد الزوجة، وابن جرير -رحمه الله- حملها على هذه المعاني جميعاً باعتبار أن الحَفْد هو الإسراع في الخدمة، فقال: هذا يحصل بالأولاد وأولاد الأولاد وأزواج البنات والخدم والأعوان والمماليك، فكل هؤلاء ممن يسرع في الخدمة يقال لهم: حفدة.

فائدة:

الرقية هي من باب الطب والتداوي، والأصل في باب الطب الإباحة، ما لم يشتمل على محرم، فكل ما دلت التجربة على أنه ينفع ويفيد بإذن الله وليس فيه محظور فإنه جائز، هذه قاعدة الطب في الشريعة، والرقى هي من الطب، شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول بأن المرعوف يكتب على جبهته **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي}** [سورة هود:٤٤] إلى آخر الآية، فيتوقف الرعاف، ويقول: مجرب، فإذا كان كذلك فلا إشكال فيه، مع أنه لم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا كثير من الرقى ما وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((علميها رقية النملة))[٨]، ولم تتعلم منه أصلاً -عليه الصلاة والسلام-، وقال للقوم: ((اعرضوا عليّ رقاكم))[٩]، فما لم يشتمل على منكر أو شرك أو نحو هذا فلا بأس به، فقد تكون الرقية بالقرآن أو بالسنة أو بكلام آخر ليس فيه محرم، لا شرك ولا كلام غامض لا يفهم أو نحو هذا، فلا إشكال، وابن القيم -رحمه الله- يذكر أن الإنسان إذا أصابه خوف مثلاً يقرأ آيات السكينة، **{ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ}** [سورة التوبة:٢٦] الآيات هذه، يجمعها ويجلس يقرأها، يهدأ، أو يُرقى بها، وكذلك الإنسان الذي يعاني من قلة النوم والأرق يمكن أن تقرأ عليه آيات، وفي العين ممكن أن تركز على **{وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}** [سورة القلم:٥١]، والقرآن كله شفاء، وهذا يُعرف أثناء الرقية، فأحياناً عند رقية الممسوس إذا مررت على بعض الآيات يشتد هذا عليه جداً، ويطالب هذا الجني المتلبس فيه أن يخرج ويقول: أنا أتوب، وأنا سأتركه لكن لا تقرأ، عند بعض الآيات أحد الناس صرع وكان يسمع سورة النور، فلما وصل عند **{لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ}** [سورة النور:٢٧]، صاح بأعلى صوته، وقال: أنا سأخرج، أعاهدكم على الخروج، فمثل هذه الأشياء أحياناً تكتشف أثناء القراءة، إذا قرأت سورة الصافات، ووصلت عند قوله تعالى: **{وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}** [سورة الصافات:٨-٩]، ينقطع.

---

(٨) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى، برقم (٣٨٨٧)، عن الشفاء بنت عبد الله -رضي الله عنها- قالت: دخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا عند حفصة فقال لي: ((ألا تعلمين هذه رقية النملة (النملة قروح تخرج في الجنبين) كما علمتيها الكتابة))، وأحمد في المسند (٤٥/٤٦)، برقم (٢٧٠٩٥)، وقال محققوه: رجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٨)، وفي مشكاة المصابيح برقم (٤٥٦١).

(٩) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، برقم (٢٢٠٠)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: ((اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك)).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[سورة النحل: (٧٣-٧٤)].

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون مَن دونه من الأصنام والأنداد والأوثان {مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا}، أي لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}: أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً؛ {إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}: أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}.

قوله: {شَيْئًا} هنا يحتمل أن يكون بدلاً من الرزق، {وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا} ما لا يملك لهم شيئاً، والمعنى على هذا ظاهر، ويحتمل أن يكون {شَيْئًا} منصوباً بإيقاع الرزق عليه، {وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا}: أي: ما لا يملك لهم رزقاً شيئاً، يعني لا يرزقهم شيئاً، والذي لا يملك شيئاً من الرزق لا يستحق أن يكون إلهاً يعبد، ويمكن أن يكون توكيداً لقوله: {لاَ يَمْلِكُ}.

{ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة النحل: (٧٥)].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا} معلوم أن العبد مملوك، فهذه صفة كاشفة، ولماذا جيء بها هنا؟، لماذا لم يقل الله -عز وجل-: "ضرب الله مثلاً مملوكاً" أو "مثلاً عبداً"؟ يمكن أن يقال بأن

الجميع هم عباد الله -عز وجل-، وإنما المقصود هنا بالعبد: الرقيق الذي يباع ويشترى، وليس المراد بالعبودية هنا العبودية لله تعالى، {عَبْدًا مَّمْلُوكًا}، ووصفه هنا بأنه {لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}؛ وهذا وصف آخر، {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} هذه الصفة الثالثة، ويمكن أن يقال: جيء بهذه الصفة باعتبار أن المكاتب يملك بعض التصرف، وهو لا زال يتصف بالرق، وهكذا أيضاً المأذون له من الأرقّاء في بعض التصرف، لكن هذا عبد مملوك غير مأذون له ولا يملك شيئاً من الحرية، فرقّه رقٌ كامل، وهذه الآية ورد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت في هشام بن عمر ومملوك له، هشام بن عمر كان ينفق ويبذل، وهذا المملوك بخلافه تماماً بل كان ينهاه عن النفقة، ويحثه على تركها، وهذا المملوك يقال له: أبو الجوزاء.

يقول هنا: **قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن** {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} هذا هو الكافر، {وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا} هذا المسلم، قال: **وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير**، وقال مجاهد: **هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى،** للوثن: يعني لما عُبد من دون الله، يعني للآلهة المزعومة التي تعبد من دون الله، فالعبد المملوك المقصود به الوثن الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً، والذي يتصرف التصرف المشار إليه من آتاه الله مالاً فهو ينفق منه سراً وجهراً، فيكون مثلاً ضربه الله -عز وجل- لنفسه، فهل يستوي هذا وهذا؟، وبعضهم يقول: هذا المثل ضربه الله -عز وجل-: العبد المملوك للوثن، ومن أعطاه الله مالاً ينفق منه سراً وجهراً هذا لعابد الوثن، فهو خير منه وأشرف منه، كيف يعبد حجراً؟ كيف يعبد ما لا يملك ولا ينفع ولا يضر؟ كيف ينحط الإنسان إلى هذه المرتبة؟!.

وقوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} [سورة هود: (٢٤)]: يعني لا يستويان في الصفة بوجه من الوجوه وحال من الأحوال، فأين من يملك التصرف ومن لا ينفع ولا يضر ولا يملك هو شيئاً لنفسه، ولا يشعر بعابديه؟، ومعنى {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً}: أي لا يستويان مثلاً، ونفي الاستواء يحمل على أعم المعاني، لا يستويان في شيء من الأشياء بحال من الأحوال، لا في القدرة ولا في التصرف ولا في الملك، وقوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} {بَلْ أَكْثَرُهُمْ} وصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون يمكن أن يقال بأن إطلاق ذلك على الأكثر يراد به الكل، وهذا كثير في القرآن، وأحياناً يعبر بعبارة أخرى، كأن يقول: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [سورة البقرة: (٨٨)] أو نحو هذا باعتبار أن القليل ينزل منزلة العدم، أي لا يؤمنون أو لا يعقلون، وهنا {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} عبر بالأكثر وأراد الكل، باعتبار أن ما خرج عن الأكثر غير معتبر؛ لأن الشاذ والقليل لا حكم له، ويمكن أن يكون هذا باعتبار الخلق عموماً {بَلْ أَكْثَرُهُمْ}: يعني أكثر الخلق، {لاَ يَعْلَمُونَ} وقليل من هؤلاء الخلق هم أهل الإيمان والعلم الذين يعبدون الله -عز وجل- ولا يشركون به شيئاً، ويحتمل أن يكون المراد بذلك أهل الإشراك باعتبار أن أكثر المشركين لا يعلمون، وفيهم من يعلم ولكنه لم ينتفع بعلمه، ويوجد قلة منهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا حقيقة لها، والله أعلم.

{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة النحل: (٧٦)].

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كَلٌّ أي عِيال وكلفة على مولاه {أَيْنَمَا

يُوَجِّههُّ}: أي يبعثه {لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ} ولا ينجح مسعاه {هَلْ يَسْتَوِي} مَن هذه صفاته {وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ}: أي بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، {وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

هنا نقل عن مجاهد -رحمه الله- مثل ما جاء في المثل الأول، فهو يرى أن المثل الأول {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} في الوثن وفي الله -تبارك وتعالى-، وهذا المثل الثاني أيضاً يرى أنه كذلك، وابن جرير -رحمه الله- وافقه في هذا المثل الثاني على أنه في الله وفي الوثن، وأما في المثل الأول فوافق ابن عباس، في أنه مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، وابن عباس -رضي الله عنهما- يقول في المثل الثاني كما قال في المثل الأول، فصار عندنا الآن قول مجاهد أنه في الله وفي الوثن، المثل الأول والثاني، وقول ابن عباس أنه في الكافر والمؤمن في الأول والثاني، وابن جرير وافق ابن عباس في المثل الأول ووافق مجاهداً في المثل الثاني، وهذا المثل الثاني: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ} جاء أيضاً عن ابن عباس أنها نزلت في عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وكان عنده مملوك يكره الإسلام، وهو كما وصفه الله -عز وجل- {كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ}، وعلى كل حال هذا مثل، وكما نعلم "العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب"، فالله يضرب لهؤلاء الأمثال في عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى- كيف يعبدون من لا يضرهم ولا ينفعهم، كيف يعبدون العاجز الذي لا يملك التصرف، ويتركون الله -تبارك وتعالى- وعبادته الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، ويملك النفع والضر.

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النحل: (٧٧-٧٩)].

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالَف ولا تمانَع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر: (٥٠)]: أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} كما قال: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: (٢٨)]. ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيدَ في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشدَّه، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل

من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه))[1] **فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله -عز وجل-، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله -عز وجل-، مستعيناً بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله:** ((ورجله التي يمشي بها: "فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي)) **ولهذا قال تعالى:** {وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة النحل: (٧٨)] **كقوله تعالى في الآية الأخرى:** {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة الملك: (٢٣-٢٤)]**، ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك:** {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [سورة الملك: (١٩)] **وقال ههنا:** {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ}، {إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ} يحتمل أن يكون المراد أن الله -تبارك وتعالى- قادر على أن يأتي بها في لمح البصر أو أسرع من لمح البصر، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر: (٥٠)]، وبعض أهل العلم يقول: هذا في قربها عند الله -تبارك وتعالى- أي {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ} في قربها بالنسبة لله -تبارك وتعالى- إلا كلمح البصر أو هو أقرب، وأما بالنسبة إلى الكفار الذين يستبعدون وقوعها فهي بعيدة الوقوع، لا يتوقعون وقوعها ولا يرجون ذلك، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [سورة المعارج: (٦-٧)]: أي يوم القيامة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد بذلك أن وقوع الساعة كلمح البصر، أي: أنها تقع بسرعة، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي يذكر فيه قيام الساعة، وذكر فيه أموراً منها: أن الرجلين يتبايعان الثوب فينشرانه فتقوم الساعة ولا يقع هذا البيع، والآخر الذي يصلح حوضه فلا يسقي منه، والآخر الذي يرفع الإناء إلى فيه ليشرب فلا يشربه[2]، وهكذا، فشأنها كما وصف من سرعة وقوعها، {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ}، وهذا يدل على كمال قدرة الله -تبارك وتعالى-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} هذا يقال فيه ما قيل في بعض نظائره، كقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[سورة الصافات: (١٤٧)]، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[سورة طه: (٤٤)]، والله يعلم أنه لا يتذكر ولا يخشى، لكن عبر بلعل، {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ} التي للترجي، فمثل هذا -كما ذكرنا من قبل- من أهل العلم من يقول: إن الخطاب أو الكلام خرج فيه بحسب نظر المخاطب، فأمر الساعة بالنسبة إلى

---

[1] سنن البيهقي الكبرى: (٣/٣٤٦) (٦١٨٨) وأصله في البخاري.

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك: (٤/٥٨٢) برقم: (٨٦٢٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

المخاطبين كلمح البصر أو هو أقرب، أما الله -عز وجل- فهو يعلم ذلك بدقة، لا يخفى عليه شيء، أو تفسر (أو) بمعنى (بل) وعلى كل حال سبق الكلام على هذا المعنى، والله تعالى أعلم، {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}، وبعض أهل العلم يقول: إنه جيء بأو هنا {أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}: للإبهام على المخاطبين.

وقوله: {أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}، معنى {مَا يُمْسِكُهُنَّ}: ليس معناه ما يقبضهن كما قد يتوهم البعض، وإنما المقصود {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}: أي ما يقيمهن بين السماء والأرض فتحلق هذا التحليق، وتصفّ أجنحتها تارة وتحركها تارة وهي غير معلقة بشيء، ولا معتمدة على شيء، ولها جرم، وتقوم على هذا الهواء اللطيف ولا تسقط، من الذي يقيمها؟ هو الله -تبارك وتعالى-، هذا معنى {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا} [سورة فاطر: (٤١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مّن جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ * وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مّمّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلّوْاْ فَإِنّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللّهِ ثُمّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [سورة النحل:٨٠-٨٣].

يذكر -تبارك وتعالى- تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر؛ ولهذا قال: {تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا} أي: الغنم، {وَأَوْبَارِهَا} أي: الإبل، {وَأَشْعَارِهَا} أي: المعز -والضمير عائد على الأنعام- {أَثَاثاً} أي: تتخذون منه أثاثاً وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البُسُط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الأثاث المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخرساني والضحاك وقتادة، وقوله: {إِلَى حِينٍ} أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً}**، يقول الحافظ -رحمه الله-: "**يذكر تعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع**"، السكن: هو ما يسكن إليه الإنسان ويطمئن به، وذلك يكون في البيوت حيث إن الناس إذا أووا إلى بيوتهم سكنت نفوسهم فيها، ولا يدخل عليهم غيرهم إلا باستئذان، والواحد منهم ربما وضع ثيابه، أو جلس أو اضطجع كما يحلو له، ولا يكون مستوفزاً يتوقع في كل لحظة أن أحداً من الناس يدخل عليه، وإنما يكون دخول الآخرين عليه بعد الاستئذان، فهو سيد في بيته، يجد نفسه في هذا البيت من غير تكلف، ودون أن يقلق بسبب ملاحظته للآخرين، كما هو الحال لو أنه كان في مكان عام فإنه قد لا يتهيأ له ألوان الراحة، وقوله: **{وَجَعَلَ لَكُمْ مّن جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ}**، الأثاث هنا يمكن أن يحمل على هذه المعاني التي ذكرها السلف جميعاً، وقوله: **{إِلَىَ حِينٍ}** قال: **أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم**، وهذا التفسير هو من قبيل حمل المعنى على الأعم؛ لأن من أهل العلم من فسر قوله: **{إِلَىَ حِينٍ}** بيوم القيامة، ومنهم من فسره بالموت، ومنهم فسره

بالتلف، وما يحصل لها من البِلى، فهذه الملبوسات والبُسُط وما إلى ذلك تتلف بعد مدة، إلى غير ذلك من المعاني، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فسر ذلك بالموت، {مَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ} إلى الموت، وبعضهم يقول: إلى القيامة، وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أوسع من هذا كله، يقول: "**أي إلى أجل مسمىً ووقت معلوم**"، فالله -عز وجل- لم يحدّ حداً وإنما قال: {مَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ} فهم يتمتعون بها إلى أن تبلى، فالإنسان يتمتع بهذه الأثاث إلى أن يموت، فهذا يصدق عليه أنه إلى حين؛ لأن التمتع بها في الحياة الدنيا فحسب، فهي متاع بالنسبة إلى مجموع الناس، فهو متاع إلى حين، بما هيأ الله -عز وجل- لهم من هذه الأنعام التي ينتفعون بها {إِلَىَ حِينٍ} إلى يوم القيامة، فهذا يصدق على ذلك جميعاً، فمن تمتع بها إلى أن بَلِيت فهو متاع إلى حين، ومن تمتع بها مدة حياته فهو متاع إلى حين، وبالنظر إلى مجموع الناس فهم يتمتعون بها في الدنيا جيلاً بعد جيل، ثم بعد ذلك تنقضي هذه الحياة وينتقلون إلى الدار الآخرة، التي ليس فيها من هذا اللباس والأثاث الذي يستخرجونه من الأنعام.

وقوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ ممَّا خَلَقَ ظِلالاً} قال قتادة: يعني الشجر، {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً} أي: **حصوناً ومعاقل، كما {جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، {وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} كالدروع من الحديد المصفح والزَّرد وغير ذلك.**

الزَّرد: حلَق الدروع، وحلق المغفْر.

{كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} أي: **هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من {تُسْلِمُونَ}** أي من **الإسلام.**

قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ ممَّا خَلَقَ ظِلالاً}، "**قال قتادة: يعني الشجر**"، هنا لم يحمله على أعم من هذا المعنى؛ لأن الله ذكر بعده الجبال فقال: {مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً}، لما خلق ظلالاً، فلو أنه اقتصر على الظلال {ممَّا خَلَقَ ظِلالاً} ولم يذكر الجبال بعده لفسر بأعم من ذلك، ولكن لما ذكر الجبال صار الظلال بالشجر، والجبال يوجد فيها ما يكنهم من المطر ومن حر الشمس، بما فيها من الغيران والكهوف والتجاويف وما إلى ذلك.

قوله: {مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} قال: "**وهي الثياب من القطن والكتان والصوف**"، قال: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ}، ولم يذكر البرد مع أن الناس بحاجة إلى ما يقيهم من البرد، قال بعض أهل العلم: إنه ذكر الأهم باعتبار أن أول من خوطب بالقرآن هم العرب، وكانت بلادهم حارة، واشتهرت بذلك، فهم بحاجة إلى ما يقيهم من حر الشمس، وبعضهم يقول: هذا من باب الاكتفاء، أي أنه ذكر أحد القبيلين ليدل به على الآخر، والتقدير "سرابيل تقيكم الحر والبرد"، ثم قال: {وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ} وهو ما يلبس في الحرب مما يتقي به الإنسان الطعن والضرب وما إلى ذلك، وقوله: {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} قال: هكذا فسره الجمهور، يعني ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، قال: وقرءوه بكسر اللام من {تُسلِمون} أي: من الإسلام، وفي قراءة عن عكرمة وهي مروية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ولا تصح عنه: {لعلكم تَسلَمون} بفتح اللام يعني أن هذه السرابيل تقيهم بأسهم في الحرب لعلهم يَسلَمون أي من أجل أن يسلَموا، فتكون "لعل" بمعنى التعليل، يلبسونها من أجل السلام في الحرب، فلا يصيبهم السلاح الذي

يضربهم به عدوهم، {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} أي من أجل أن تسلموا، والقراءة المتواترة هي القراءة المعتبرة {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} أي: أن الله هيأ لكم هذه النعم وأفاض عليكم هذه الألطاف من أجل أن تستعينوا بها على طاعة الله -عز وجل-، لا أن تستعينوا بها على معصيته، -والله أعلم-.

وقوله: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} وقد أديته إليهم، {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} قال ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره**"، فقوله: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}، أي: يعرفون نعمة الله مما ذكره وغير ما ذكر، ثم ينكرونها فيوجهون العبادة والشكر إلى غير المنعم، ويعبدون الأحجار التي هي في الأصل مسخرة لهم، ويعبدون الجن الذين هم دونهم في المرتبة، فالله أخرج إبليس وطرده من أجل أنه امتنع من السجود لآدم، ويعبدون بشراً مثلهم، أو يعبدون الملائكة الذين أمروا بالسجود لأبينا آدم -عليه الصلاة والسلام-، وهم خلق من خلق الله -عز وجل-، ولا تصلح لهم العبادة، فهذا المعنى بهذا الاعتبار الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو قول ظاهر، واختاره جمع من أهل العلم، منهم من المعاصرين الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسره بالنبوة، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، فسره باعتبار ما قبله وما بعده، الله -تبارك وتعالى- قال قبله: {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}، ثم قال بعده: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [سورة النحل:٨٤]، الأقرب -والله تعالى أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير، و"نعمة" مفرد مضاف إلى معرفة، هو لفظ الجلالة، والمفرد إذا أضيف إلى معرفة يُكسبه العموم كما هو معروف، والمعنى يعرفون نعم الله ثم ينكرونها، وهذا يشمل سائر النعم التي أنعم الله -عز وجل- بها عليهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} بعضهم يقول: الكافرون بالنعمة، وبعضهم يقول: الكافرون بالله، والواقع أنهم كافرون بالنعمة وكافرون بالله؛ لأن مَن وجّه شكر النعم إلى غير المنعم فقد كفر بهذه النعمة، ومن عبد غير الله -عز وجل- فهو كافر بالله، وهذا متحقق فيهم جميعاً، ووجه التعبير عن ذلك بالأكثر فلم يقل مثلاً: "وهم كافرون" مع أنهم كلهم كفار، قال بعض أهل العلم: عبر بالكثرة وأراد بذلك الجميع، وهذا أسلوب عربي معروف؛ لأن القليل وما خرج عن الكثير لا حكم له، ولا اعتبار، وإنما العبرة والنظر إلى الأكثر، وبعضهم يقول: إن ذلك باعتبار أن المراد هنا الكفر والجحود {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} أي: يجحدونها، ولم يكن كفر الجميع من هذا القبيل، فبعضهم كفْرُ جحودٍ، وبعضهم كفرُ إعراضٍ، فكفرهم متنوع، وبعضهم يقول بأن قوله: {وَأَكْثَرُهُمُ} أي: العقلاء منهم، فيخرج من ذلك غير المكلفين كالمجانين والأطفال، والقرآن كثيراً ما يعبر بالكثرة ويراد بها الكل، ولو قيل: إن قوله: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} المراد به أن منهم من يقر بالنعمة، ويضيف ذلك إلى الله -عز وجل-، ولكنه يعبد مع الله غيره، فهذا الكلام على كل حال له وجه، ولكن ما قبله أولى منه لما ذكرتُ -والله أعلم-، من أن من أقر بهذه النعم ثم وجّه العبادة إلى غير من خلق فإنه لا يكون شاكراً بل يكون كافراً؛ ولهذا كان الشرك أظلم الظلم؛ لأنه

يضع العبادة في غير من خلق ورزق وأنعم وتفضل، فالله هو الذي ينعم عليه ويتفضل عليه ويرزقه ثم يعبد حجراً أو شجراً، ويشكر غير الله، من لا يضره ولا ينفعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ من كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ من دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [سورة النحل: (٨٤-٨٨)].

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ}**: أي في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله:** {هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[سورة المرسلات: (٣٥-٣٦)] **فلهذا قال:** {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}**: أي: الذين أشركوا** {الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ}**: أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة،** {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}**: أي: لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى:** {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [سورة الفرقان: (١٢-١٤)]**، وقال تعالى:** {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف: (٥٣)] **وقال تعالى:** {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} [سورة الأنبياء: (٤٠)].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} المجيء بثم هنا التي تدل على الترتيب: الله -عز وجل- قال: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ من كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} فيشهد عليهم وعلى إجابتهم وأعمالهم، {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} كأنه يدل -والله تعالى أعلم- على أن ما يُمْنَونَ به من المنع من الاعتذار يضاف إليه ما هو أشد عليهم من ذلك، وهو أن هؤلاء -نسأل الله العافية- يحصل لهم القنوط، وأنهم بعد أن يشهد عليهم الأنبياء بأعمالهم، يحصل لهم فوق ذلك المنع من الاعتذار، الأمر الذي يؤذن بقنوطهم ويأسهم من الخلاص والانفكاك من عذاب الله

-تبارك وتعالى-، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، لا يستعتبون؛ لأن العتاب حينما يقع إنما يكون -غالباً أو عادةً- لأجل العود إلى ما يرضي المعاتب، فهو يعاتب من قصر أو أخطأ من أجل أن يرجع إلى ما يرضيه فيرتفع عنه العتاب، أما إذا كان هذا العتاب متوجهاً على العزم وعلى السخط فإنه لا يجدي شيئاً، إنما يكون للتبكيت فيكون ذلك زيادة في الحسرة، فحينما تقول لمن لا تطلب منه الاعتذار لترضى عنه وإنما أنت عازم على عدم الغفران والمسامحة تقول له: ما الذي حملك على كذا؟ وما الذي حملك على كذا؟ فيكون فيه زيادة في التبكيت، وهذا لا شك أنه من زيادة العناء والشقاء على هذا المبتلى، والمقصود لا يستعتبون: أي لا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم -تبارك وتعالى-، فلا يذكرون الأعذار التي يستجلبون بها رضاه، فهم مهما قالوا ومهما تكلموا فإن الله -عز وجل- لا يرضى عنهم، فهم لا يُكلفون أن يرضوا ربهم، لا يستعتبون، وأصل هذه الكلمة من العتب وهو الموجِدة، وإذا رجع إلى ما يرضي المُعاتب، رجع إلى مسرته ومرضاته، يقال: أعتبه، ولهذا تقول: عاتبته فأعتبني، يعني صدر منه ما يرضي من عاتبه، والمستعتِب هو طالب العتبى، الذي يطلب الاعتذار، يقال له: مستعتِب، والسين والتاء كما هو معلوم للطلب، {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، وأشار إلى الحديث: أنه يخرج عنق من النار ويقول: وكلت بكذا وكذا، هنا يشير إلى حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عند الترمذي[1]، وفيه: ((أنه يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: إني وكلت بثلاثة)) وذكر ((من دعا مع الله إلهاً آخر، والمشرك))، وذكر أيضاً: المصورين، وكل جبار عنيد.

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ}: **أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا** {قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ}: **أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى:** {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف: (٥-٦)] **وقال تعالى:** {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم: (٨١-٨٢)]، **وقال الخليل -عليه الصلاة والسلام-:** {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} [سورة العنكبوت: (٢٥)] **الآية، وقال تعالى:** {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ} [سورة القصص: (٦٤)] **الآية، والآيات في هذا كثيرة.**

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ}، هنا في هذا المقام يعترفون، ويقولون: {هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ} [سورة النحل: (٨٦)]، وفي بعض المواضع ينكرون الإشراك أصلاً، {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة

---

[1] سنن الترمذي: باب ما جاء في صفة النار: (٢٥٧٤) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين)). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وصححه الألباني. انظر السلسلة الصحيحة (٢/٢٥) رقم (٥١٢).

الأنعام: (٢٣)]، فهم في البداية ينكرون، فإذا قامت عليهم الحجج وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم عندئذ يقرون ويعترفون، وهنا قال الله -عز وجل- عن هؤلاء المعبودين إنهم ينكرون عبادة هؤلاء {فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ}، كما أخبر الله -عز وجل- عنهم في يوم القيامة أنهم يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، فهؤلاء الذين يُعبدون سواء كانوا من الملائكة حينما يقولون: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} [سورة سبأ: (٤١)]، أو كانوا من غيرهم كعيسى -صلى الله عليه وسلم-، أو كانوا من الأصنام والأحجار والأشجار أو غير هذا، فهؤلاء يتبرءون منهم ومن عبادتهم، فيقولون هذا، فما المراد بذلك؟ أما من لا يرضى بعبادتهم فهذا ظاهر، لكن هم وجهوا العبادة إليه، وهو غير راضٍ بهذا، فكيف قال: {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [سورة القصص: (٦٣)]، {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [سورة يونس: (٢٨)] كيف أنكروا هذا؟ الجواب: أنهم في الواقع إنما عبدوا الشيطان الذي زين لهم هذا العمل، فهؤلاء الملائكة أو الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين عُبدوا، أو الصالحون لم يكونوا يرضون بهذه العبادة، ولم يدعوا الناس إليها، ولم يقروهم على ذلك، وإنما زين لهم الشيطان هذا العمل فاستجابوا له، فاستجابتهم هذه هي عبادة للشيطان، ولهذا قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم: (٤٤)] مع أن أباه ما كان يعبد الشيطان في الظاهر وإنما كان يعبد الأصنام {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [سورة الأنعام: (٧٤)] فسماها عبادة للشيطان، فهذه الأحجار والأشجار التي لا تعقل هي لا تصلح للعبادة، وإنما الذي يزين عبادتها هو الشيطان، فيكون هؤلاء من حزب الشيطان وأتباعه وعابديه، ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد إلى العزى فقطع السمرات ثم رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لم يفعل شيئاً فرجع إليها فوجد امرأة سوداء ناشرة شعرها، تولول، فعلاها بالسيف، فلما رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، قال: ((تلك العزى)) هي شيطان؛ ولهذا من المعروف عند العرب في أخبارهم أنهم ربما سمعوا من هذه المعبودات من الأحجار والأصنام من يجيبهم ويرد عليهم، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أيضاً عن أولئك الذين يعظمون القبور، ويعبدونها من دون الله -عز وجل-، ويعبدون من يسمونهم بالأولياء أنه ربما تلاعب بهم الشيطان، فإذا ركب الواحد منهم البحر وهاجت الريح وارتفع الموج وأوشكوا على الغرق والهلكة، ربما صاح الواحد منهم مستغيثاً بذلك المعبود من دون الله: يا فلان، يا جيلاني، يا بدوي، فتخرج لهم يد تنتشلهم في هذا المركب، ويكون هذا من عمل الشيطان، يلبّس عليهم، وذكروا أن الواحد منهم ربما كان يجلس على الطعام فيرى يد شيخه -وشيخه بعيد يمكن أن يكون في المغرب أو نحو هذا، وهذا في المشرق-، تأكل معه، فيظهر له أن ذلك على سبيل الكرامة، والواقع أن هذا هو الشيطان يتلاعب بهم، فحيله كثيرة ويأتي لكل أناس من الطريق الذي يميلون إليه، والله المستعان.

وقوله: {وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ} قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم: (٣٨)]**: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}** [سورة السجدة: (١٢)] **الآية، وقال: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}** [سورة طه: (١١١)]**: أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.**

وقوله: {وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}: أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ}، السَّلم هنا: بمعنى الاستسلام، يعني بعد أن أنكر المعبودون عبادة العابدين وتبرءوا منهم عندئذ استسلم الجميع لله -عز وجل-.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} معنى {ضَلَّ عَنْهُم}: أي ذهبت واضمحلت المعبودات التي كانوا يرجونها ويقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [سورة الزمر: (٣)] {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس: (١٨)]، إذا جاء في القيامة ذهب عنهم ذلك وتلاشى، فلا يشفعون لهم ولا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة: (٤٨)]، فنفى عنهم كل أسباب الخلاص وعند ذلك يعرفون حقيقة ما هم عليه، ويذلون ويخضعون ويستسلمون، فمعنى {ضَلَّ عَنْهُم}: أي ذهب واضمحل، هذا أصل معنى كلمة الضلال في كلام العرب، ويأتي كثيراً بمعنى الذهاب عن الحق خاصة، {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة: (٧)]، ولكن يأتي في القرآن على أصل معناه في اللغة وهو الذهاب عن حقيقة الشيء، أو الذهاب عن الشيء والاضمحلال، كقول أبناء يعقوب ليعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف: (٩٥)]، ليس المقصود أنه ضال عن الهدى، وإنما قصدوا بذلك أنه ذاهب عن الحق في شأن يوسف -عليه الصلاة والسلام- {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ}؛ لأنهم لو اتهموه بأنه ضال عن الهدى والإيمان لكفروا بذلك، فهو نبي من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما المقصود هنا الذهاب عن حقيقة الشيء، تقول: ضل الماء في اللبن بمعنى ذهب واضمحل، وهكذا.. وله شواهد كثيرة في كلام العرب.

ثم قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا} الآية: أي عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [سورة الأنعام: (٢٦)]: أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً، {وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [سورة الأنعام: (٢٦)] وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: (٣٨)].

في قوله هنا: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا}، كفروا وصدوا، صدَّ: تأتي لازمة وتأتي متعدية، تقول: صد صدوداً، وتقول: صد عن الحق، وصد في نفسه، فصد في نفسه هذا معنى كونها لازمة، أي: أعرض، وصد زيداً، أو صد الناس، هذه متعدية إلى المفعول، يعني صد غيره، فكلمة صد تأتي للمعنيين: صد في نفسه وصد غيره، كقول الله -عز وجل- عن المنافقين: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المنافقون: (٢)] صدوا في أنفسهم وصدوا غيرهم عن اتباع الحق، وصدوا المؤمنين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والعمل بطاعته، فثبّطوهم عن ذلك، {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [سورة النساء: (٧٢)] {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب: (١٨)]، هنا في هذا الموضع هل تُحمل صد على اللازمة أو المتعدية أو على المعنيين؟ الأحسن -والله أعلم- أن تحمل هنا على أنها

متعدية، {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}، فلو قلنا بأنها لازمة {صَدُّواْ}: يعني في أنفسهم فإن ذلك يكون من قبيل التكرار، مع قوله: {كَفَرُواْ}، فإن كفرهم صدود؛ لأن الذي كفر لا شك أنه صد عن الحق في نفسه، والقاعدة: "أن التأسيس مقدم على التوكيد" أي: القول بأن الكلمة الثانية أو الجملة الثانية تُنشئ معنىً جديداً أولى من القول بأنها مؤكدة للمعنى الأول، فإذا قلنا بأن صد هنا لازمة فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله: {كَفَرُواْ} فالقول بأن صد هنا متعدية أولى بناءً على القاعدة: "التأسيس مقدم على التوكيد"، فإذا كانت متعدية فسيكون المعنى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ} غيرهم، ويدل على هذا المعنى ما جاء بعده من قوله -تبارك وتعالى-: {زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} فالزيادة في العذاب بأي اعتبار؟ باعتبار أنهم تحملوا أوزار الآخرين الذين صدوهم، وتسببوا في ضلالهم، {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت: (١٣)]، فهذه قرينة تدل على أن المراد بصد هنا المتعدية، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه-: وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمّة شَهِيداً عَلَيْهِمْ مّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىَ هَؤُلاَءِ وَنَزّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لّكُلّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىَ لِلْمُسْلِمِينَ}[سورة النحل:٨٩].

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} يعني: أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} [سورة النساء:٤١]**، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حسبك))، فقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "فالتفتُ فإذا عيناه تذرفان"[1].**

وقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} قال ابن مسعود: قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، {وَهُدًى} أي: للقلوب، {وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، وقال الأوزاعي: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} مع قوله: {وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} أن المراد -والله أعلم-: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة، {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٦]**، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [سورة الحجر:٩٢-٩٣]**، {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}** [سورة المائدة:١٠٩]**، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}** [سورة القصص:٨٥] **أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك، هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ}**، معلوم أن "كل" أقوى صيغ العموم، **{تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ}** ، فأخذ بعضهم من هذا أن القرآن قد اشتمل على جميع العلوم، وأطالوا الكلام في هذا، وتكلفوا في

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قولة المقرئ للقارئ حسبك، برقم (٤٧٦٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، برقم (٨٠٠)، واللفظ للبخاري.

ذلك تكلفات كثيرة قالوا: إنه يشتمل على علم الجبر، والهندسة، والمساحة والأثر، والخط، والفلك، والرياضيات، والطب، والزراعة، والنجارة، والحدادة، إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة التي عددوها، وفي كتاب الإكليل للسيوطي، جملة كبيرة من هذا، وهذا تكلف، والقرآن لم ينزل ليكون كتاباً أو موسوعة علمية في هذه الفنون، وإنما هو كتاب هداية، فهو تبيان لكل شيء مما يحتاج الناس إليه في سيرهم إلى الله، حيث إنه عرفهم بالمعبود وعرفهم بالطريق الموصل إليه، وبالدار التي يصلون إليها، فالأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- في القرآن ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة، فما يذكره من القصص والأخبار وما إلى ذلك يرجع إلى هذا، وبهذا الاعتبار يكون قوله: {تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} من قبيل العموم الاستعمالي، كما يسميه الشاطبي -رحمه الله-، فلا يفهم منه العموم الذي يذكره الأصوليون، وهو ما يعبرون عنه باللفظ العام المستغرق، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥] يعني مما جاءت وسيقت هذه الريح لتدميره، فلم تدمر الجبال ولا السماوات ولا الأرض ولا مساكن هؤلاء، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}[سورة الأحقاف:٢٥]، وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣] يعني ملكة سبأ، ولم تؤتَ ملك سليمان، وقول الله -عز وجل- عن مكة: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧] مع أنه يوجد ثمرات في الدنيا لا تجبى إليه؛ ولأنه من العموم الاستعمالي لم يعترض أحد على مثل هذه الآيات فيقول: إن الثمار الفلانية لا تجبى إليه، وهكذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه))[٢] وقد جاء زمن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- بعد زمن الحجاج، والتكلف في تحميل القرآن ما لا يحتمل، والقول بأنه يشتمل على أربعمائة علم أو أكثر ليس صحيحاً، والقرآن وإن كان فيه بعض الإشارات إلى بعض الجوانب مثل الفلك أو نحو ذلك، وما يذكره الله -عز وجل- من دلائل قدرته ونحو هذا، فليس معنى ذلك أن القرآن جاء لشرح هذه العلوم، يقولون: يشتمل على علم الحدادة، ويحتجون بقوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ} [سورة الأنبياء:٨٠]، وعلم النجارة يقولون: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [سورة هود:٣٧]، وهكذا سائر العلوم في علم الهندسة مثلاً أو {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} [سورة الكهف:١٧] ويبدعون يتكلمون عن الزوايا وما أشبه هذا، وهذا غير صحيح.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل:٩٠]، يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[سورة النحل:١٢٦]، وقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[سورة الشورى:٤٠]، وقال: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [سورة المائدة:٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٦٦٥٧)، أن أنساً -رضي الله عنه- قال: "اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم -صلى الله عليه وسلم".

وقوله: {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً}[سورة الإسراء:٢٦]، **وقوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} فالفواحش: المحرمات، والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}** [سورة الأعراف:٣٣] **وأما البغي فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))**[٣].

وقوله: {يَعِظُكُمْ}: أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وقال الشعبي عن شُتَير بن شَكَل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} الآية، رواه ابن جرير.

تكلم العلماء على هذه الآية: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى}** وتقدم الأثر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنها أجمع آية في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وفيها الأمر بالأخلاق الجامعة، والنهي عن الرذائل، وهي التي أمر عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أن تقرأ على المنابر في خطبة الجمعة، في آخر الخطبة، فقد كان قبل ذلك يشتمون علياً -رضي الله تعالى عنه- في الشام، فلما جاء عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- نهى عن هذا، وأمر بأن تقرأ هذه الآية: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ}**؛ والعدل: هو الإنصاف وأن يعطى كل ذي حق حقه وما يستحقه، والإحسان: هو الفضل، يعني الزيادة، فالعدل هو الواجب، والإحسان هو ما ندب الله -عز وجل- إليه من العفو أو الإفضال على من أساء.

وفسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الفحشاء بالمحرمات، والمنكر بما ظهر منها من فاعلها، ولو قيل بأن الفحشاء هي كل ذنب عظيم، فإن هذه اللفظة تدل على هذا المعنى، فالشيء العظيم يقال له: فاحش، فيقال: هذا مال فاحش، ويقال: كلام فاحش، فهو الذنب العظيم، والمنكر: فهذا من عطف العام على الخاص، المنكر أعم، فقد يكون كل ما أنكره الشرع أو عرفت العقول نكارته؛ لأن المنكر عند أهل السنة والجماعة، والقبح يعرف بالشرع، وكذلك أيضاً العقول لها مدخل في هذا، خلافاً للمتكلمين من الأشعرية ونحوهم، الذين يقولون بأن التحسين والتقبيح شرعيان، وأنه لا مدخل للعقل في ذلك، يقولون: العقل لا يدرك حسن الأشياء ولا قبح الأشياء، ويقولون: لو أن الشرع أمر بالزنا والكذب والفواحش لكانت حسنة، وهذا من أغرب الأشياء، والشارع لا يمكن أن يأمر بهذا، وأهل السنة يقولون بأن المنكر ما دل الشرع على نكارته وقبحه، وما أنكرته العقول؛ لأن من الأشياء ما له حسن أو قبح ذاتي، يعرفه أصحاب العقول، فيقال مثلاً في الظلم والكذب ونحو هذا: هذه تدرك العقول قبحها، ولذلك حتى الكفار يعرفون قبح هذه الأشياء، ولو لم يرد الشرع بذلك، والشرع لا يمكن أن يأمر بمثل هذه الأشياء، فالأشياء التي نهى عنها الشرع هي قبيحة، ولكن قد تدرك العقول قبحها

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، برقم (٢٥١١)، من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البغي، برقم (٤٢١١)، وأحمد في المسند برقم (٢٠٣٩٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٥٥)، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩١٨)، وفي تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٤٩٣٢).

وقد يخفى عليها ذلك، فالشاهد أن الله -عز وجل- قال: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء} وهي الذنوب العظام، وكذلك أيضاً ينهى عن كل منكر، وهذا يشمل الفواحش وغير الفواحش، فيكون هذا من قبيل عطف العام على الخاص، وهو كثير في القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، يعظكم: الغالب في كلام أهل العلم أنهم يعبرون عن معنى الوعظ فيقولون: هو الأمر أو النهي المقرون بالترغيب والترهيب، ونجد في كثير من المواضع أن الله -عز وجل- يأمر وينهى دون أن يكون معه ترغيب ولا ترهيب، ويسميه وعظاً، والجواب عن ذلك بأن يقال: إن القرآن يُنظر إليه باعتبار أنه وحدة متكاملة، قد ذكر الله -عز وجل- فيه الترغيب والترهيب والتخويف، وإذا أمر الله -عز وجل- فإنه قد أخبر أن أمره يجب أن يمتثل، وإلا فإنه يتوعد ويعاقب ويعذب من عصاه.

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تجلس؟)) فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة!، فقال: ((وما رأيتني فعلت؟)) قال: رأيتك شخصَ بصرُك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: ((وفطنت لذلك؟)) فقال عثمان: نعم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس)) قال: رسول الله؟ قال: ((نعم))، قال: فما قال لك؟ قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً -صلى الله عليه وسلم-[٤]، إسناد جيد متصل حسن قد بيّن فيه السماع المتصل.

هذا الحديث في إسناده شهر بن حوشب، وهو مضعف، وفيه آخر أيضاً يقال له: عبد الحميد بن بهرام.

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا

---

٤ - رواه أحمد في المسند (٥/٨٧)، برقم (٢٩١٩)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، والطبراني في المعجم الكبير (٩/٣٩)، كلاهما من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، كلاهما فيهما كلام، بعضهم وثق عبد الحميد بن بهرام وبعضهم ضعفه، وبعض العلماء قبل روايته عن شهر بن حوشب؛ لأنه ممن لازمه وحفظ حديثه، والذين ردوا حديثه لأنه صدوق يروي عن ضعيف وهو شهر بن حوشب، انظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٧/٣٣٤)، وضعف العلماء شهر بن حوشب وللمزيد من الفائدة وبيان كلام العلماء عليه ينظر: كتاب سير أعلام النبلاء (٤/٣٧٤).

تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوّةٍ أَنكَاثاً تَتّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَأُمّةٌ هِيَ أَرْبَىَ مِنْ أُمّةٍ إِنّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيّنَنّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل:٩١-٩٢].

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} ولا تعارض بين هذا وبين قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لّأَيْمَانِكُمْ} [سورة البقرة:٢٢٤] الآية، وبين قوله تعالى: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [سورة المائدة:٨٩] أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله -عليه الصلاة السلام- فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: ((إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[٥] وفي رواية: ((وكفرت عن يميني))[٦] لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حثٍّ أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} يعني الحِلْف، حِلْفَ الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا حِلْف في الإسلام، وأيما حلْف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة))[٧] وكذا رواه مسلم، ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلْف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- أنه قال: حالف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار في دورنا[٨]، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث وبعده، برقم (٦٣٤٢)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٤٩)، من حديث أبي قلابة -رضي الله عنه-، واللفظ له.

٦ - رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، برقم (٦٣٤٠)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه.

٧ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب مؤاخاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أصحابه -رضي الله تعالى عنهم-، برقم (٢٥٣٠).

٨ - روى الإمام البخاري -رحمه الله- في مؤاخاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار -رضي الله عنهم- من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: "لما قدموا المدينة آخى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلقْها فإذا انقضت عدتها فتزوجْها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقِطٍ وسمن، ثم تابع الغُدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مَهْيَمْ؟))، قال: تزوجت، قال: ((كم سقت إليها؟))، قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب"، كتاب فضائل الصحابة، باب إخاء النبي -صلى الله عليه و سلم- بين المهاجرين والأنصار، برقم (٣٥٦٩).

حمل جماعة من أهل العلم قوله تبارك وتعالى: {بِعَهْدِ اللّهِ} على عموم العهود، العهد مع الله -عز وجل-، والعهد مع المخلوقين، فإذا عاهد الإنسان ربه فيجب عليه أن يفي {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} [سورة التوبة:٧٥]، فالشاهد: أن الله -تبارك وتعالى- لمّا أخلفوا هذا قال: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة:٧٧]، وهكذا النذر هو عهد مع الله يجب الوفاء به، والعهود مع الناس داخلة في هذا {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، والأيمان جمع يمين وهي الحَلِف، وعرفنا لماذا قيل لها: يمين، وأن الأصل أنه كان من عادتهم أن الواحد منهم إذا حلف أخذ بيمين صاحبه توكيداً للقول بالفعل، ثم نُسي ذلك، فصارت تطلق اليمين على كل حَلِف، وقوله: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} يقول: لا تعارض بين هذا وبين قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} [سورة البقرة:٢٢٤]؛ لأن المعنى في هذه الآية: لا تتركوا فعل الخير والصلة والبر والإحسان بحجة أنكم حلفتم أن لا تفعلوه، فلا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فإذا رأى الإنسان أنه حلف على شيء ثم وجد غيره خيراً منه فإنه يكفر عن يمينه كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} فهذه الأدلة التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تدل على أن الإنسان ينقض اليمين ويكفر عنها، ثم بيّن أن المراد بقوله: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ} أي: التي في العهود، وبعض أهل العلم يقول: المقصود به الأيمان المؤكدة، وهذا بعيد، ومنهم من يقول: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} المقصود به ليس الذي في العهود وإنما الأيمان التي ينعقد عليها القلب، {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [سورة المائدة:٨٩]، فهذه اليمين لا يجوز للإنسان أن ينقضها، فإذا رأى أن غيرها خيرٌ منها فإنه يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، أما ما يجري على ألسنة الناس ولا ينعقد عليه القلب فإن هذا ليس له حكم اليمين، فلا بأس بأن الإنسان يفعل خلاف مقتضاه، والمقصود بـــ {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} أي: لا تنقضوها غير مبالين بها، لأن لها حرمة يجب على الإنسان أن يقف عندها ويمتنع مما حلف عليه أن يتركه، أو يفعل ما حلف أنه يفعله، أو يكفر عن يمينه، ولعل هذا المعنى أقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً} منهم من فسره بالشهيد -أي شهيداً-، ومنهم من فسره بالرقيب، ومنهم من فسره بالحافظ، يرقبكم ويحفظ عليكم أعمالكم وأيمانكم، ويشهد عليكم بذلك، ويراعي أحوالكم من الوفاء والنقض، فهذه المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله عنهم- متقاربة، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل: (٩١-٩٢)].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا} قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: {أَنكَاثًا} يحتمل أن يكون اسم مصدر، {نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا}: أي أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أي: لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}: أي: خديعة ومكراً {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}: أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم؛ ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك؛ لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنُهوا عن ذلك. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة، رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد {وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا} جاءت روايات كثيرة في أن المراد بذلك امرأة معينة كانت بمكة، كانت تغزل الصوف، ثم بعد ذلك تنقضه، وهذه الروايات على كثرتها لا يصح منها شيء؛ ولذلك تحمل الآية كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على أنها من قبيل ضرب المثل، سواء كان هناك امرأة تفعل هذا بمكة، أو لم يكن، فالمقصود أنه ضربُ مثل لتصوير معنىً بأمر محسوس، وإنما تذكر الأمثال لهذا الغرض، تقريب المعاني بالأمور المحسوسات من أجل أن تُفهم ويُعرف المعنى، فكما تقول مثلاً: مثل هذا في نقضه ما بذل فيه جهده كالذي يغزل وينقض ما غزل، وتقول: مثل هذا في بعثرة

جهده وتضييعه كمثل الذي يكتب على الماء، ونحو هذا مما يقال، والتأنيث فيه {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا} سببه واضح، وهو أن التي تغزل عادة هي المرأة، وإنما ضرب المثل بنقض الغزل وذلك من شأن النساء، {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا}، ثم قال هنا: **وقوله**: {أَنكَاثًا} **يحتمل أن يكون اسم مصدر** {أَنكَاثًا}: أي أنقاضاً، وبعضهم يقول: هو مصدر، وبعضهم يقول: بدل، والحاصل أن لفظة الأنكاث بعض أهل اللغة يقول: هي جمع نِكث، والمراد به: النقض، فالغزل يحكم ثم بعد ذلك ينقض، فهكذا الذي يعقد العهد والميثاق، ثم ينقضه بعد أن أبرمه، كالتي تغزل ثم بعد ذلك تنقض ما غزلت، فالأنكاث جمع نِكث وهو ما ينكث فتله، وبعضهم كما سبق يقول: إنه جمع نَكِث: يعني الناكث، {أَنكَاثًا}: يعني ناكثين، ولهذا قال بعده: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}: أي **خديعة ومكراً**، وأصل لفظة {دَخَلاً} كل ما ليس له أساس صحيح فإنه يعبر عنه بذلك، يقال: هذا الأمر فيه دَخَلٌ، بمعنى أنه أمر ليس على الجادة، ليس بصحيح، ليس بمستقيم، فما هو الدخَل الذي يكون بالنسبة للأيمان؟ هو أن تُتخذ خديعة ومكراً، {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ} **قال**: **خديعة ومكراً**، فهذا التعبير فيما يختص بالأيمان، لكن تقول: هذا المذهب فيه دخل بمعنى أنه ليس بمستقيم، فيه انحراف، وهنا {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ} الأقرب -والله تعالى أعلم-: أن المعنى أن هؤلاء يعقدون الأيمان والمواثيق والعهود ثم بعد ذلك ينقضونها إذا رأوا أن مصلحتهم تقتضي ذلك من جهة أنهم وجدوا من هو أقوى من الذين عاهدوهم، وأعطوهم الأيمان والمواثيق والعهود، فيتركون هؤلاء ويحالفون هؤلاء، وهكذا يتنقلون ويتلونون ويتقلبون بحسب ما يرونه أوفق لهم فيما يتوهمون أن مصلحتهم تقتضيه، فينقضون العهد بسبب ذلك، يعني قد يعاهدون هؤلاء ثم بعد ذلك تتغير الأحوال فتضعف هذه الطائفة أو القبيلة التي عاهدوها أو حالفوها، ثم بعد ذلك يرون أنهم يقوون عليها فينقضون، أو وجدوا من هم أقوى منهم فيحالفونهم، أو وجدوا فرصة مواتية بأن وقعت حرب بين هؤلاء وهؤلاء، فحالفوا الآخرين، أو نحو هذا مما قد يفعله أهل الجاهلية ومن لم يراعِ للعهود والمواثيق حرمةً، {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، لفظة {أَرْبَى}: أصل هذه المادة يرجع إلى معنى الزيادة، {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}: يعني أكثر وأقوى، فيتركون أولئك الذين عاهدوهم ويتحالفون مع غيرهم، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ}، هنا نقل القولين: يبلوكم بالكثرة {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} فأعاد الضمير إلى أقرب مذكور ثم نقل قول ابن جرير بأن المقصود الوفاء بالعهد، وعلى كل حال بين القولين ارتباط وملازمة، وذلك أنهم إنما ينقضون حينما يجدون مثل هذه المسوغات من الكثرة والقوة وما إلى ذلك، فيبتليهم الله -عز وجل- بهذا لينظر في عملهم، هل يوفون بالعهد أو ينقضونه لطمعٍ قريب يحصِّلونه أو يتوهمونه؟، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ}، والتكاليف كما هو معروف عند الأصوليين مبناها على الابتلاء والامتثال، على الراجح من أقوالهم أنها تجمع بين الأمرين، وإن اختلفوا فيها فمنهم من يقول: للابتلاء، ومنهم من يقول: للامتثال، ويترتب على هذا مسألة عملية وهي إذا قلنا: إنها للابتلاء، فمعنى ذلك أنه يسوغ التكليف بما لا يطاق، وإذا قيل: إنها للامتثال فإنه لا يكلف الناس بما لا يطيقون، فبعضهم يقول: هي للامتثال، وبعضهم يقول: هي للابتلاء، كما قال في المراقي:

للامتثال كَلَّف الرقيبُ *** فموجبٌ تمكناً مصيبُ

أو الابتلاء، فذكر القولين، فيترتب إذا قيل: إنها للامتثال: أنه لا يكون إلا بالإطاقة، وعلى كل حال الراجح أنها للابتلاء والامتثال، فالله -عز وجل- يبتلي الناس بالتكاليف، ولا يكلفهم إلا من أجل الامتثال، ولا يوجد في الشريعة تكليف بما لا يطاق، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} [سورة البقرة: (٢٨٤)] الراجح أن هذه الآية لم تنسخ، وإنما هي مبينة بقوله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [سورة التغابن: (١٦)]، وكذا قول الله -تبارك وتعالى-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)] مبين بـــ {اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، فما يبديه الإنسان وما يخفيه مما تحت طوقه فإن الله -عز وجل- يحاسبه عليه من الإيمان والكفر والتوكل على غير الله -عز وجل- والتعلق، والمحبة التي لا تصلح إلا لله إذا وجهت للمخلوق، وهكذا من الرياء والسمعة والمقاصد السيئة، والله أعلم.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: (٩٣-٩٦)].

يقول الله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ} أيها الناس {أُمَّةً وَاحِدَةً} كقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [سورة يونس: (٩٩)]: أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود: (١١٨-١١٩)]، وهكذا قال ههنا: {وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها، على الفتيل والنقير والقطمير، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي: خديعة ومكراً؛ لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: {وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}: هناك نهى عن اتخاذ الأيمان هذا الاتخاذ { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}، وتوعدهم على ذلك، ونهاهم عن هذا تحت أي مبرر كان، بمعنى: لا يسوغ لكم التلاعب بالعهود والمواثيق والأيمان والنقض بتسويغ ذلك بكون هؤلاء أقوى من هؤلاء وأكثر ونحو هذا، إنما يلتزم الإنسان العهد ويفي به، وهنا {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، نهى عنه مبيناً أثره، وهناك ينهاهم عنه مهما كانت مبرراته، ولهذا قال: {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} ففيه تهديد مبطن، وهنا {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} ما هو الأثر؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: **مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها،** هو لا يقصد الآن تفسير الآية بكاملها، وإنما يقصد فقط {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} أن هذا يمثل به لمن حاد وزل وانحرف عن الطريق، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، تقول مثلاً: لا تتبع خطوات الشيطان فتزل قدم بعد ثبوتها، لا تقرأ الشُّبه ولا تصغِ إلى أهل الشبه وأهل البدع والأهواء فتزل

قدم بعد ثبوتها، من عرَّض نفسه للفتنة أولاً لم ينج منها آخراً، **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}**، فهذا مثل لمن حصل له انحراف وميل عن الطريق الصحيح، لكن معنى الآية: **{وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}**، الحافظ ابن كثير فسر ذلك بأنه يتسبب في فتن غير المسلمين حينما يرون المسلمين يتلونون، وينقضون العهود والمواثيق، بحسب ما يرونه مصالح عاجلة وقريبة، فهم مَصْلَحيُّون لا يقفون عند مبدأ ولا يرعون للعهد حرمة، وإنما ينكثون العهود والمواثيق متى ما رأوا الفرصة مواتية، فيصدهم ذلك عن دين الله -عز وجل-، ولا يقبلون الإسلام؛ لأنهم يرون الغدر والخيانة، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}**: يعني أن ذلك يكون صداً لغير المسلمين، لكن هذا لا يخلو من إشكال -والله أعلم-؛ لأن هؤلاء الكفار لم تثبت أقدامهم أصلاً على الصراط حتى تزل، هم بعيدون عن الصراط المستقيم، ولهذا قال بعضهم: **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}**: أي أن ذلك الناكث هو المراد بقوله: **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}**، فيكون قد حاد عن الحق وخرج عنه بنقضه للعهد وصار بهذا منحرفاً ظالماً مستحقاً للعقوبة، وهذا أقرب من المعنى الأول، وبعضهم يفسر هذا بأيمان البيعة التي تعطى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فخصه بنوع من الأيمان والعهود، فتلك في عموم العهود والمواثيق والأيمان، وهذه في نوع خاص منها وهو ما يعطى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أيمان البيعة، فإذا نقض فإن ذلك يكون فتاً في عضد المسلمين، وضعفاً في الإسلام، وسبباً للتضعضع والتراجع وغلبة العدو، إذا نكثتم عهودكم وبيعتكم ولم تفوا بذلك فإن ذلك يكون سبباً لضعف المسلمين وتراجعهم، وطمع عدوهم أو غلبته عليهم، وهذا لا دليل عليه، -أي التخصيص بهذا المعنى-، ولهذا الأقرب -والله تعالى أعلم-: **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}** أنه قدم الناكث، فهو الذي يكون قد انحرف وخرج عن الحق بنقضه للعهود والمواثيق، **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}**، الحافظ ابن كثير ربما يحتج بهذا الجزء من الآية بأنه قرينة على أن المقصود **{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}** قدمُ غير المسلمين، فتكونون قد صددتم عن سبيل الله، لكن على المعنى الذي ذكرته آنفاً وهو أنه تزل قدم الناكث **{وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** فلا شك أن نقض العهود يتسبب عنه صد الناس عن الحق، وليس فقط نقض العهود بل كل التصرفات التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين تكون صداً عن سبيل الله، ولهذا المؤمن يدعو ربه أن لا يكون فتنة للذين آمنوا، كما أن الله -عز وجل- علّمنا: **{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}** [سورة الممتحنة: (٥)]، وكما سبق أن الفتنة مصدر، تأتي بمعنى الفاعل وتأتي للمفعول، **{لَا تَجْعَلْنَا}** بمعنى الفاعل، لا تجعلنا فاتنين بأن تسلطهم علينا، كما قال طائفة من السلف -رضي الله عنهم-: أنْ تُسلطهم علينا فيغلبونا ويقهرونا فيقال: لو كان هؤلاء على الحق لما كانوا بهذه المثابة، فهذا معنى، ويدخل فيه **{لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً}** بأن الناس لا يلتزمون شرع الله -عز وجل-، ويصدر عنهم ما ينفر الناس عن الدخول في الإسلام، كما هو واقع الأمة اليوم، فيكون ذلك صداً عن سبيل الله وفتنة للناس عن الدخول فيه، وبمعنى المفعول **{لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}** لا تسلطهم علينا فيقهرونا ويغلبونا، فنفتن في ديننا، ونُصَدَّ عن سبيل الله، لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فهذه المعاني داخلة فيه، والله تعالى أعلم، لكن هنا **{وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** بتصرفهم السيئ هذا، ونقضهم للعهود والمواثيق، لا شك أن هذا يتسبب عنه الصد عن سبيل الله -تبارك وتعالى-.

ثم قال تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً}: أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها؛ فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ}: أي يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر مُتناهٍ {وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ}: أي وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} قسم من الرب تعالى مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

أحسن -كما تعلمون-: صيغة تفضيل، {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فهذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير هو الذي اختاره ابن جرير أيضاً، بمعنى يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيتجاوز عن السيئ، ويجازيهم بأحسنها لا بأسوئها، هذا معنىً، وبعض أهل العلم يقول: يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون أي: يجعل لهم الأجر والثواب على مقدار ما يكون فاضلاً من أعمالهم الصالحة، فالأعمال الصالحة تتفاوت، ويتفاوت الناس في إحسانهم فيها، من حضور القلب، وشدة الإخلاص والإخبات أثناء العمل، وما أشبه هذا مما يحصل فيه تفاضل بسبب المتعلق من جهة الزمان والمكان، فيكون الجزاء على الأرفع منها، فيرفع الضعيف وما كان جزاؤه قليلاً تكون المحاسبة على الأعلى، فمثلا: أنت عندك بضاعة منها ما هو جيد ومنها ما هو رديء، وكلها بضاعة، عندك مواد مصنوعة، عندك منسوجات منها ما هو جيد ومنها ما هو ركيك أو رديء، فتكون المحاسبة لك إذا أردنا أن نعطيك حقك تماماً أن يعطى كل نوع منها ما يستحقه، فعلى هذا المعنى هنا؟، لا، بل يعامل الجميع معاملة الأحسن والأفضل منها، من كرم الله -عز وجل- وفضله على عباده، يجبر لهم الضعف، ويرفع لهم الأجور، بحيث إنها تكافئ الأفضل من أعمالهم، نجزيهم {بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، وهذا معنىً ذكره بعض أهل العلم، وهو معنىً حسن، وسبب الاختلاف، أن "أحسن" أفعل تفضيل إذا استعملناها في بابها الذي وضعت له، وهو أن شيئين اشتركا في صفة فزاد أحدهما على الآخر، فحينئذ الأعمال السيئة -كما مشى عليه ابن كثير وابن جرير رحمهما الله- غير داخلة في المفاضلة؛ لأنه لا يفاضل بين الأعمال السيئة والحسنة، ما يقال: الطاعة أفضل من المعصية،

ألم تر أنّ السيف ينقصُ قدرُه *** إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا

وإنما يكون في شيئين اشتركا في صفة، تقول: زيد أعلم من عمرو، الفرائض أفضل من النوافل، وكل ذلك فاضل، فهنا تكون هذه الأعمال قد اشتركت بالحسن فزاد بعضها على الآخر، فبعضهم قال: السيئ غير مشترك في الحسن هنا، ما الذي يشترك في الحسن؟ قالوا: المباح، والسيئ مذموم، إذاً يجزيهم بأحسن: يعني بالطاعات دون المباحات، أعمالُهم فيها المعصية وفيها المباح وفيها العمل المشروع الذي أمر الله به ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أمْر إيجاب أو ندب، هذا المشروع، هذا القسم الثالث، فالتي اشتركت في الحسن غير مذمومة شرعاً هي المباحات والأمور الأخرى المشروعة، فيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، يعني بأحسن أعمالهم، وأما المباح فلا يحاسب الإنسان عليه، هذا المعنى الثالث، هي ثلاثة معانٍ على كل حال، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل(١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل(٩٧)].

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله- بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وجماعة إنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه- أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه))[1]، ورواه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة النحل(٩٧)] لو قال الله -تبارك وتعالى-: من عمل صالحاً وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة لفُهِم المعنى؛ لأن "مَن" تدخل على الذكور والإناث، لكن المجيء بقوله: {مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} هو لمزيد التأكيد.

وفي هذه الآية الكريمة شروط قبول العمل الثلاثة: فالعمل الصالح هو العمل الذي يكون خالصاً لله -عز وجل-، ويكون صواباً فيتابع فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا بد من الإيمان فلا يكون العمل مقبولاً إلا إذا كان صاحبه مؤمناً، فإن كان مشركاً كافراً فإن عمله لا يقبل، والله -عز وجل- يقول عن الكفار: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان(٢٣)].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل(٩٧)]، قد حمل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الحياة الطيبة على معنى واسع فقال: "**والحياة الطيبة تشمل وجوه**

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢ / ٧٣٠)، برقم (١٠٥٤).

الراحة من أي جهة كانت" وقد فسر بعض أهل العلم الحياة الطيبة بالقناعة، وفسرها بعضهم بالسعادة، وفسرها بعضهم بأنها الرزق الحلال الطيب، والظاهر أن هذه المعاني مترابطة؛ لأن القول بأن الحياة الطيبة هي الرزق الحلال متقارب مع القول بأنها القناعة؛ لأنه لا يرضى بالحلال الطيب إلا من رزق القناعة، فإن الذي يوقع الناس في الحرام هو الشره والطمع وقلة القناعة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن(١٦)] فربط الفلاح وعلقه بالوقاية والتخلص من شح النفوس، فتبين من هذا أن السعادة إنما توجد مع الطاعة، وهي نتيجة لها، ولا يمكن أن توجد السعادة إلا مع القناعة، وقد يعطى الإنسان القليل ولكنه في قلق دائم، وينظر إلى من فوقه في الدنيا، وقد أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأمور الدنيوية أن ينظر إلى من دونه، بخلاف أمور الآخرة فيستحب للإنسان أن ينظر إلى من فوقه، وقول ابن كثير بأن الحياة الطيبة تشمل ذلك جميعاً هو الذي رجحه الشيخ الأمين الشنقيطي.

فالحياة الطيبة هي جنة الدنيا وهي ما يجده أهل الطاعة والعمل الصالح والإيمان من الانشراح واللذة والسرور بمناجاة الله –عز وجل– وعبادته والقرب منه، مع ما يعتريهم من الأسقام والأمراض وضعف الحال، وذلك لأن نفوسهم اطمأنت بطاعة ربهم -جل جلاله-، فأنساهم ذلك هموم الدنيا وآلامها ومصاعبها، وما يلقونه فيها من الأكدار، فصار لهم الانشراح والحبور والراحة القلبية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه وهو أطيب الناس عيشاً.

وقد وصف الإمام ابن القيم شيخه ابن تيمية بأنه أطيب الناس عيشاً، مع ما كان يحصل له من إيذاء، وكان يقول –رحمه الله-: "إن جنتي وبستاني في صدري، سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة".

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الجواب الكافي عن الحياة الطيبة: "ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضات الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره -التي كانت متقسمة بكل وادٍ منها شعبة- على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى، وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث"[٢].

وقال -رحمه الله تعالى– في مفتاح دار السعادة: "هذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع

---

[٢] - الجواب الكافي (١ / ١٢٩- ١٣٠).

والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"[٣].

قوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [سورة النحل (٩٨- ١٠٠)].

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر؛ ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: {إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون: كقوله: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}.

{إِنَّمَا سُلْطَانه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله، {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} أي: أشركوا في عبادة الله تعالى.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، أي: إذا أردت قراءة القرآن، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [سورة الطلاق (٢)] أي: إذا قاربن بلوغ الأجل؛ لأن المطلقة إذا بلغت الأجل في العدة تكون قد بانت من زوجها، ولا يستطيع أن يمسكها.

وقال بعض أهل العلم في قوله –تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}: إن الاستعاذة تكون بعد القراءة، وهذا القول على غرابته موجه بتوجيه معقول، وهو أن الاستعاذة بعد القراءة؛ لئلا يحصل للقارئ العجب بالعمل الصالح، فتفسد عليه عبادته.

والراجح -والله أعلم– المعنى الأول وهو أن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم هي بين يدي القراءة، وذلك نوع طهارة وتهيؤ، كما أن الإنسان يتهيأ للقراءة بالطهارة فكذلك يتهيأ لها بنوع آخر وهو التخلص من الشيطان الرجيم، من أجل ألا يشوش عليه فكره، ويفرق قلبه، كما يحصل لبعض الناس من الوساوس والأفكار الفاسدة أثناء القراءة، ويلبس عليه أمره.

---

[٣] - مفتاح دار السعادة (١/٣٥-٣٦).

وقد بينت السنة كيفية الاستعاذة، فإذا قال القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أو قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أو زاد: من هَمْزه ونفخه ونفثه، فكل ذلك حسن.

ومعنى الشيطان: من شطن أي بعُد، فهو بعيد عن رحمة الله وعن الخير، يقال: شطنت البئر، يعني: بعد قعرها، أو من شاط يشيط، فكل عاتٍ متمرد فهو شيطان، ومنه قول الشاعر:

أيام يدعونني الشيطان من غزل *** وكن يهوينني إذ كنت شيطاناً

وقول الآخر يمدح سليمان -عليه الصلاة والسلام-:

أيّما شاطنٍ عصاه عكاه *** ثم يُلقَى في القيد والأكبال

ورجيم فعيل بمعنى مفعول أي: مرجوم، فهو مُبعَد عن الخير وعن رحمة الله -عز وجل-، وقال بعضهم: رجيم أي: مرجوم بالسب والشتم واللعن، وكل هذا صحيح، وبعضهم يقول: رجيم: فعيل بمعنى فاعل، أي: أنه راجم، يرجم الناس بالوساوس، والخواطر السيئة، لكن المشهور هو الأول.

قوله: { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل:٩٩- ١٠٠]

قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وهذا كثير في القرآن، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير، وعزاه الواحدي لعامة المفسرين.

وقد أثبت الله –تبارك وتعالى– للشيطان سلطاناً فقال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}، ونفى عنه السلطان في سورة إبراهيم فقال: { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم: ٢٢]، وقد بين العلامة الشنقيطي -في دفع إيهام الاضطراب- الجمعَ بين الآيتين، وللعلامة ابن القيم –رحمه الله– كلام على هذه المسألة.

وقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بسلطان الشيطان هو الحجة، ويكون المعنى: إنما زينت لكم ودعوتكم بلا حجة فاستجبتم لي.

وقال بعضهم: إن المقصود أنه لم يكن له تسلط عليهم بالقدرة والقهر والإجبار، وإنما دعاهم فاستجابوا له، وبين المعنيين ملازمة؛ لأن سلطان الحجة يؤثر ويورث الاستجابة والانقياد فهو يقهر بهذه الحجة؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً} [سورة الإسراء (٣٣)]، قيل: حجة، وقيل: تسلطاً على القاتل.

وقيل: إن المقصود أن الشيطان لم يكن له سلطان عليهم ابتداءً، ولكن هم الذين سلطوه على أنفسهم باتباع خطواته، والاستجابة لوساوسه وخواطره السيئة التي يلقيها في قلوبهم، فسلموا قيادهم له فصرعهم وغلبهم وأوقعهم فيما لا يرضي الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}.

(مسألة): قوله –تبارك وتعالى-: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا} [سورة الحجرات (١٤)]

هذا الخطاب موجه لطائفة مخصوصة وهم الأعراب، الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم، وإنما أسلموا إسلاماً ظاهراً فقط، فنهاهم الله –تبارك وتعالى- عن هذه الدعوى، والمقصود بالإيمان هنا الانقياد والاستجابة والتصديق والإقرار القلبي.

ولا يدل قوله – تبارك وتعالى –: {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [سورة النجم (٣٢)] على عدم جواز تزكية النفس، فيجوز للإنسان أن يقول: أنا مؤمن ويجزم بذلك، لكن لا يقول ذلك باعتبار أنه من أهل الجنة وأنه مقطوع له بدخول الجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى- في بدائع التفسير، في تفسير قوله تعالى: **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}**[سورة النحل:٩٨]: "ومعنى استعذ بالله: امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ والعياذ والمعاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لقد عذت بمعاذ))[1]، وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب أطيب اللحم عوذه: أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به، وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها عوذ كحُمر، ومنه في حديث الحديبية معهم العوذ المطافيل، والمطافيل: جمع مطفل وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة -منهم صاحب جامع الأصول-: استعار ذلك للنساء أي معهم النساء وأطفالهم، ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوى *** فصادف قلباً خالياً فتمكَّنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله -عز وجل- منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

---

١ - رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب متعة الطلاق، برقم (٢٠٣٧)، وأحمد في المسند (٤٦٠/٢٥)، برقم (١٦٠٦١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، وقال الألباني: منكر بذكر أسامة أو أنس، صحيح بلفظ: فأمر أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين، صحيح ابن ماجه برقم (١٦٥٧)، والحديث أخرجه البخاري بلفظ عن عائشة -رضي الله عنها-: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: ((لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك))، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، برقم (٤٩٥٥).

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعَمْر الله ملحظ جيد إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته كما في حديث أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال -عليه الصلاة والسلام-: ((تلك الملائكة))[٢]، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز و جل منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته"[٣] ا.هـ.

هذا فيه ضعف، لكن في الحديث الآخر الذي هو: ((ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يقرأ القرآن يتغنى به))[٤]، وفسر في بعض الوجوه بأن المراد به أنه من الأذن أي الاستماع.

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي **{إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}** [سورة الحـج:٥٢]، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتابَ الله أوّلَ ليلِهِ *** وآخره لاقى حِمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل -عليهم السلام- فكيف بغيرهم؟؛ ولهذا يُغلّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن شيطاناً تفلّت عليّ البارحة فأراد أن يقطع

---

٢ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، برقم (٤٧٣٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، برقم (٧٩٦).

٣ - انظر: بدائع التفسير، للإمام ابن القيم (٢/١٢١-١٢٣)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (١/٩١-٩٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [سورة سبأ:٢٣]، ولم يقل ماذا خلق ربكم، برقم (٧٠٤٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣).

عليّ صلاتي))[٥] الحديث، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر، وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه -رضي الله تعالى عنه-: أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل؟[٦]، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد))[٧]، فالشيطان بالمرصاد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد -رحمه الله-: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم[٨]، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتى به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحِكم وغيرها، فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عز وجل: **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}**.

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ، وقال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم.

---

٥ - رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة -أو كلمة نحوها-؛ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}**[سورة ص:٣٥]، قال رَوْح: فردَّه خاسئا))، أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، برقم (٤٤٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، برقم (٥٤١).

٦ - هو الحبل الذي يربط به الفرس،، يدور في مساحة معينة لا يتجاوزها.

٧ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، برقم (٣١٣٤)، وأحمد في المسند (٣١٥/٢٥)، برقم (١٥٩٥٨)، وقال محققوه: إسناده قوي، وابن حبان في صحيحه (٤٥٣/١٠)، برقم (٤٥٩٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٧٩)، وفي صحيح الجامع برقم (١٦٥٢).

٨ - أي: مثل عددهم.

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه))[٩].

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول قبل القراءة: ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))[١٠]، واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهو رواية عن أحمد بظاهر الآية وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبدالله: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))، لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس وكشف عن وجهه وقال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))[١١].

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: **{فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}**، ظاهره أنه يستعيذ بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقوله في الآية الأخرى: **{فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**، يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف "إن"؛ لأنه سبحانه هكذا ذكر"[١٢] ا.هـ.

حديث أبي داود في قصة الإفك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس وكشف عن وجهه وقال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))، قال: رواه أبو داود في الصلاة باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال: هذا حديث منكر.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ولما كان الغضب مركب الشيطان فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، برقم (٧٧٥)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، برقم(٢٤٢)، وأحمد في المسند (٥١/١٨)، برقم (١١٤٧٣)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في تحقيقه مشكاة المصابيح برقم (١٢١٧)، وفي صحيح أبي داود برقم (٧٤٨).

١٠ - قال الشيخ الألباني رحمه الله: " لم أقف على هذا في شيء من كتب السنة المعروفة إلا ما في " مراسيل أبي داود " عن الحسن أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يتعوذ فذكره، وهذا مع ضعفه -لأنه من مراسيل الحسن البصري- فليس فيه أن هذه الصيغة كانت في الصلاة، فالأفضل أن يستعيذ بما في حديث جبير بن مطعم وأن يزيد أحيانا : "السميع العليم" كما ورد في بعض الأحاديث مثل حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود والترمذي وغيرهما بسند حسن وهما مخرجان في" الإرواء " (٣٤٢)" انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة (١٧٦).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم،، وقال: هذا حديث منكر، برقم (٧٨٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (١٣٩).

١٢ - انظر: بدائع التفسير، للإمام ابن القيم (١٢٣/٢-١٢٥)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٩٣/١-٩٥). .

الإيمان والتوكل فأبطل سلطان الشيطان فـ {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة النحل:٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة، والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده"[١٣].

والسلطان يأتي بمعنى الحجة، ويأتي بمعنى القدرة، وقول الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، قال بعضهم المراد به: حجة، ويمكن أن يجمع بين هذا وهذا فيقال: له حجة وسبيل يتسلط به على القاتل، فيكون مخيراً بين ثلاثة أمور، فعبر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بعبارة دقيقة، ذكر الحجة وذكر القدرة؛ لأن الحجة هذه هي السبيل التي يتوصل بها إلى الاقتدار.

وقال -رحمه الله-: "وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، قال في سورة الحجر: {قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [سورة الحجر:٣٩-٤٢].

وقال في سورة النحل: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [سورة النحل:٩٩-١٠٠]، فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[١٤]، إلى آخره.

وقال -رحمه الله-: "فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}[سورة إبراهيم:٢٢]"[١٥].

ما يذكره الله -تبارك وتعالى- حكاية عن قول قائل فإما أن يأتي قبله أو معه أو بعده ما يدل على بطلانه، أو يسكت عنه، ويدل ذلك على صحته غالباً، فحينما يقول الله -عز وجل- مثلاً: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [سورة الكهف:٢٢]، فقوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} دل على أن هذا القول غير صحيح، ولما قال: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}، ما أبطله ولا ذكر ما يدل على بطلانه، ففهم منه أن هذا هو القول الصحيح، وقد يذكر أمرين فيكون أحدهما حقاً والآخر باطلاً، فيبطل الباطل ويسكت عن الحق، {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء} [سورة الأعراف:٢٨] وسكت عن {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا}، فهذا حق، لكن قوله: {وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} هذا باطل، وقوله: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة

---

١٣ - إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن القيم (٩٨/١).

١٤ - إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن القيم (٩٨/١).

١٥ - انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن القيم (١٧).

البقرة:١١١]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}[سورة المائدة:١٨]، وهذا غالباً، فقوله تعالى عن الذين غلبوا على أمرهم: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}[سورة الكهف:٢١]، وما عقب عليها، هل معنى هذا جواز اتخاذ المساجد على القبور؟، وهذا يحتج به القبوريون، ويجاب عنه بجوابين قطعاً لاحتجاجهم، الأول: أن يقال: إن القواعد أغلبية، وليست كلية، بمعنى الكلية التي تحيط بجميع الجزئيات، والأمر الثاني: أن ذلك لو كان كما قلتم، وأنه جائز في شرع من قبلنا، فقد دلت هذه الشريعة على تحريمه، والنصوص صريحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا، فغاية ما يقال في شرع من قبلنا: إنه شرع لنا ما لم ينسخ، مع أنه كان محرماً في الشرائع السابقة، وفي الحديث: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[١٦]، ولو كان يجوز في شرعهم لما استحقوا اللعن، كيف يلعنون على شيء يجوز في شريعتهم؟.

وقال -رحمه الله-: في قوله: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} [سورة سبأ:٢٠-٢١]

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد، بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان[١٧].

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً ألبته، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود: أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلَّط عليه ذلك العدو نفسه"[١٨].

وقال -رحمه الله- تعالى: "ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [سورة ص:٨٢-٨٣]، فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله -عز وجل- وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له سلطانٌ على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع فكيف ينفيه ....؟"[١٩]

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، برقم (١٢٦٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٢٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها.

١٧ - جمع -رحمه الله- بين الحجة والقدرة،، فالحجة هي السبيل إلى الانقياد والإذعان،، فإن الناس ينقادون لها، ويخضعون كما يخضعون لصاحب القدرة.

١٨ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن القيم (١٧-١٨).

١٩ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٩٩/١).

قال المصنف في تفسيره -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [سورة النحل:١٠١-١٠٢].

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ}: **أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد:** {بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ} **أي: رفعناها وأثبتنا غيرها.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}: قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} جملة اعتراضية، والقاعدة في مثل هذه الجمل الاعتراضية أنها تأتي في كل مقام بحسبه؛ للاحتراز تارة من فهمٍ قد يُساء، أو غير ذلك من المعاني، فقوله: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}، كأنه جواب على سؤال سائل، {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}، {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}، فالله قال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} يعني: أن الذي أبْدَلَه وأتَى بغيره منزل من الله -عز وجل-، وأن الله عالم بذلك، فهذا التبديل حق وليس بباطل، هو من عند الله، فالآية المبدلة من عند الله، والآية البديلة هي من عند الله، والله -عز وجل- إنما يفعل ذلك عن علم، والجميع منزل، ليس فيه شيء مختلق، فهذه الجملة الاعتراضية أفادت هذا المعنى، {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}، {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}، فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}، هذا التبديل إنما هو صادر عن علمه -تبارك وتعالى-، وكله من تنزيله، فهو حق.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [سورة البقرة:١٠٦] **الآية.**

يعني إذا علم أنه منزل من عند الله، وأنه حق وبعلمه، فيجب التسليم له والانقياد، كما يسلّم الإنسان للآية الأولى حينما نزلت، فإذا بدل ذلك ونسخه فيجب التسليم والانقياد.

فقال تعالى مجيباً لهم: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}: **أي جبريل.....**

قوله: {رُوحُ الْقُدُسِ} يعني الروح المقدسة، من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وكذلك: بيت المقدس، وتقول مثلاً: بلاد الطهر.

{مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} **أي: بالصدق والعدل،** {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا} **فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم،** {وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} **أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.**

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [سورة **النحل:١٠٣].**

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش.

على القاعدة السابقة أن الله -عز وجل- إذا ذكر قول القائلين، أعقبه بما يبطله أو يبين بطلانه، فقال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّهُمْ يَقُولُونَ إِنّمَا يُعَلّمُهُ بَشَرٌ}، فقال: {لّسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَهَـَذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مّبِينٌ}، ردَّ مقالتهم.

ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يردّ جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} أي: القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من العقل.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام.

القين يعني الصانع.

وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}.

هذه الرواية ضعيفة في سبب النزول، والأقوال في اسم هذا البشر الذي قالوا: إنه يعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرة جداً، وعامة ذلك لم يصح فيه شيء، عامتها من المراسيل ولا تصح، والمبهمات غالب ما يشتغل به المشتغلون منها مما لا طائل تحته وأنه لو كان فيه فائدة لذكره الله -عز وجل- وبيّنه ولكنه تركه؛ لأنه لا حاجة إليه، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص:٢٠]، فيقولون من هذا الرجل؟، {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ} [سورة النساء:١٠٠]، جاء عن عكرمة: أنه بقي أربع عشرة سنة يبحث عن اسم هذا المبهم، وألف فيه السهيلي وغيره مصنفات خاصة في المبهمات، تفسير مبهمات القرآن، والإعلام، والأقوال كثيرة جداً بعضهم يقول: اسمه جبر، وهو غلام للفاكه بن المغيرة، كان نصرانياً فأسلم، وبعضهم يقول: يعيش وهو عبد لبني الحضرمي، وبعضهم يقول: هو غلام لبني عامر بن لؤي، وبعضهم يقول: هما غلامان، اسم الأول: يسار، والآخر: جبر، وهما نصرانيان لبني الحضرمي، وهذه الرواية هي التي صحت في هذا -أنهما غلامان-، وبعضهم يقول: هو غلام نصراني في مكة يقال له: أبو ميسرة، وبعضهم يقول: عدّاس، وأصحاب السير يذكرون عدّاساً الذي كان في وادي نخلة لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، وأبعد هذه الأقوال أنه سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه-، وسلمان -رضي الله تعالى عنه- كان في المدينة، ولم يلقه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا في المدينة، وإنما كانوا يقولون ذلك لرجل كان في مكة، فالشاهد أن معرفة اسم هذا المبهم لا فائدة تحتها، وهو من الاشتغال بفضول العلم، وليس بمُلَح العلم، فضلاً عن أن يكون من أصله وصلبه.

قوله تعالى: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} يعني: أن لغته أعجمية، {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، {لِسَانٌ عَرَبِيٌّ} أي: كلام عربي، والعرب تعبر باللسان أحياناً وتريد به الكلام، {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} أي: كلام عربي مبين، فسماه لساناً.

{إِنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [سورة النحل:١٠٤-١٠٥].

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله -صلى الله عليه وسلم- ليس بمفترٍ ولا كذاب؛ لأنه إنما يفتري الكذبَ على الله وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- شرارُ الخلق، {الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان لِيَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله -عز وجل-[٢٠].

{مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنّهُمُ اسْتَحَبّواْ الْحَيَاةَ الدّنْيَا عَلَىَ الآخرة وَأَنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الْخَاسِرونَ} [سورة النحل:١٠٦-١٠٩].

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم، {لا جَرَمَ} أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته {أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأما قوله: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

---

٢٠ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برقم (٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، برقم (١٧٧٣).

قوله: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، قال: "**فهذا استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى**"، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**كفر بلسانه**"، أي باعتبار سبب نزول الآية، جاء عن عمار -رضي الله تعالى عنه-، أنهم آذوه وضربوه حتى تكلم ببعض ما يرضيهم من سب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((إن عادوا فعد))[٢١]، فهذه رخصة، وهي مسألة يترتب عليها أحكام عملية، كالحكم بالكفر، ثم هل الرخصة فقط في مسائل التكفير هي فقط فيما يتعلق بالنطق باللسان وأن ذلك لا يسوغ بحال فيما يتعلق بالفعل؟ من أهل العلم من يخصه باللسان، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- لا تدل على أنه يتبنى هذا الرأي، لكنه عبر بهذا باعتبار سبب النزول، ولربما أيضاً احتج بعضهم بحديث الذباب، وهو معروف مشهور، لما قيل للرجلين: قرّبا شيئاً، فأحدهما أبى فقتل، والآخر لم يجد شيئاً فقالوا: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فمات فدخل النار، لو صح هذا الحديث لصح الاحتجاج بهذا على أن الفعل غير القول، لكن الحديث ضعيف، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله -عز وجل- يقول: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، ما قال: فإنه يرخص له أن ينطق أو يقول الباطل، وإنما أطلقه، لهذا فالأقرب أن الإكراه عذر في القول والفعل، الإكراه بنوعيه، الإكراه الملجئ الذي ليس للإنسان فيه اختيار، كما لو جيء به وبالقوة وُضع أمام صنم وأُسْجِد له، أو طيف به على صنم أو نحو هذا، فهذا يعذر به، وكذلك الإكراه الذي يكون من قبيل الإكراه حكماً وهو فيما لو أنه هُدد بضرب معتبر، أو قتل، أو حبس، أو نحو ذلك فهذا يعتبر إكراهاً، فإذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان فهو معذور، العذر يكون بالإكراه بالقول ويكون بالإكراه بالفعل، وكون هذه وردت في قصة عمار وأنه تكلم بالباطل، إلا أن القاعدة المعروفة لا تهمل وهي "أن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب"، فاللفظ عام، وهذه من المسائل التي يحتاج إلى معرفتها في هذا الباب الذي كثر الخوض فيه والتبس على كثير من الناس؛ لما يترتب عليه من الأحكام الكبيرة العظيمة، ولهذا ليس من السهل أن يتكلم فيه كل أحد، صغار طلبة العلم، ومن لا يطلب العلم أصلاً، فبمجرد أن يستقيم أو يتوب من بعض الذنوب يبدأ يتكلم في هذه الأحكام العظيمة مباشرة، نسأل الله العافية.

وقد روى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر -رضي الله تعالى عنهما- حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله هذه الآية.

رواية العوفي عن ابن عباس لا تصح، لكن لفظ الرواية: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، هذا من قبيل غير الصريح، نزلت في فلان، لكن آخر الرواية: فأنزل الله هذه الآية، هذا صريح، فأولها غير صريح وآخرها صريح، ولهذا نقول في الكلام على هذه المسألة عادة: إن الغالب أن قولهم: نزلت هذه الآية في كذا أنه من قبيل التفسير، نقول: الغالب، ليس هو دائماً؛ لأنهم قد يقصدون بهذه العبارة سبب النزول.

---

٢١ - رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٦٦٧٣)، والحاكم في المستدرك (٣٣٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك، وروى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كيف تجد قلبك؟))، قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن عادوا فعد)).

وهذه الرواية ضعفها بعض أهل العلم.

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ما تُركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: ((كيف تجد قلبك؟)) قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: ((إن عادوا فعد))، وفي ذلك أنزل الله {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}؛ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال -رضي الله عنه- يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، -رضي الله عنه وأرضاه-، وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة -رضي الله تعالى عنه وعنهم- أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصَّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد -صلى الله عليه وسلم- طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقِدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت.

المقصود بقوله: بقرة من نحاس: ليس المراد أنه تمثال مثلاً من نحاس على هيئة بقرة، لا، وإنما لعله قدر كبيرة واسعة مأخوذ من التبقر بمعنى التوسع، التبقر في الدار، التبقر في البناء، التبقر في الأرض، التبقر في الزرع، التبقر في المال، بمعنى التوسع في القدر، جاء ببقرة مثلاً من نحاس، أي: قدر من نحاس كبيرة واسعة، ليلقيه فيها.

وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البَكَرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله، وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟، فقال: أما إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟، قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه

وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه -رضي الله تعالى عنهما-[٢٢].

---

٢٢ - انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٩/٤)، وضعفها الألباني -رحمه الله- في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(١٥٧/٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}. [سورة النحل: (١١٠-١١١)].

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى: أنه من بعدها -أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة- لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ}: أي تحاجُّ {عَن نَّفْسِهَا} ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، {وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ}: أي من خير وشر {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}: أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ}، صح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت فيمن كان بمكة من المسلمين، وأكرهوا على الخروج مع المشركين في يوم بدر، فمن حصل له ذلك بعدها من الهجرة والجهاد والتوبة والصبر فالله -عز وجل- يغفر له ذنبه، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، من بعد ماذا؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي من بعد تلك الفعلة والإجابة إلى الفتنة، يعني من بعد الذنب، {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} وهذا تحتمله الآية، وبعضهم يقول: المراد من بعد المهاجرة والجهاد والصبر والتوبة، فإن الله يغفر له ذلك، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى الجميع، {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد ما عملوا ذلك وتابوا منه وهاجروا وغيَّروا الحال فإن الله غفور رحيم، ولا شك أن هذه المغفرة التي ذكرتْ إنما كانت بعد أن تابوا ورجعوا وهاجروا وجاهدوا مع المسلمين، {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} فهذه المهاجرة ونحو ذلك مُرتَّبة على الفتنة التي حصلت لهم، فالذين كانوا في مكة من المستضعفين أُخرج من أخرج منهم في غزوة بدر وقتل بعضهم، وفي مثل هؤلاء يقول الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا}[سورة النساء: (٩٧)]، واستثنى من هؤلاء صنفاً وهم المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، تبينه الآية الأخرى وهم الصبيان

والنساء، فهؤلاء لا يستطيعون الهجرة، فهم معذورون، لكن الرجال الأقوياء وهم في الغالب شباب فمثل هؤلاء توعدهم الله بما توعدهم به حينما خرجوا مع المشركين، والله المستعان.

{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}. [سورة النحل: (١١٣)].

هذا مثلٌ أريد به أهل مكة؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، ويتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا لا يخاف، كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا} [سورة القصص: (٥٧)]، **وهكذا قال ههنا:** {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا}**: أي هنيئاً سهلاً** {مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}**: أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- إليهم، كما قال تعالى:** {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [سورة إبراهيم: (٢٨-٢٩)] **ولهذا بدلهم الله بحاليْهم الأوليْن خلافهما، فقال:** {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}**: أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لمّا استعصوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.**

الله المستعان، ولربما خلط بالقراد، الوبر والدم والقراد.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً}، الذي عليه الجمهور من المفسرين، واختيار الحافظ ابن كثير وقبله ابن جرير، وممن رجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أن المراد مكة، واحتجوا لهذا بقرائن من هذه الآية وما بعدها، وهو أن الله -عز وجل- قال: {قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}، {كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً} قالوا: القرآن دل على هذا، {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا}، و{يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ} قالوا: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}، والقرآن يفسر بالقرآن، و{فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} والنعمة هنا مفرد مضاف إلى المعرفة {نِعْمَةَ اللّهِ} مضاف إلى الاسم الظاهر لفظ الجلالة، وهذا للعموم، {بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا}: أي بدلوا نعم الله كفراً، {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} [سورة المائدة: (٧)]: يعني اذكروا نعم الله عليكم، هذا المعنى، فقالوا هنا: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} وذلك حينما دعا عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأصابهم ما أصابهم من شدة الجوع حتى إن الواحد منهم كان يرى ما بينه وبين السماء مثل الدخان من شدة الجوع، حتى أكلوا العِلْهز والميتات، وكذلك من القرائن ما قال الله بعدها: {وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ}: يعني لو قيل: الآية على العموم في أي وقت في أي قرية كانت آمنة مطمئنة، فكيف قال: {وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ}؟ فدل ذلك على أنها قرية معينة وهي مكة، وهذا القول هذه الشواهد مجتمعة تدل عليه، ولماذا ضرب الله هذا المثل بقرية معينة؟ من أجل أن يتعظ به الناس في كل زمان ومكان، فليس بين الله -عز وجل- وبين أحد من المخلوقين نسب، ولا سبب إلا العبادة

والتقوى والإيمان والتوحيد، فكل من فعل هذا الفعل فهو مستحق لهذه العقوبة، أن تُبدل نعمة الأمن إلى الخوف، ونعمة الرخاء إلى الشدة.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} هنا عبر بأمرين بالإذاقة وباللباس، فأما الإذاقة لـ{لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} -والذي يذاق هو الطعام من مشروب ومأكول- فعبر بها فيما يتعلق بالجوع والخوف، -والله تعالى أعلم- لشدة تمكنه منهم حتى بلغ منهم مبلغاً فصار ذلك بمنزلة الذوق الذي يجتمع فيه الإدراكان، {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}، وأما اللباس، فقد سماه لباساً، {لِبَاسَ الْجُوعِ} لما يظهر عليهم من آثاره، {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} من الشحوب والهزال وما إلى ذلك مما لا يخفى، حينما تقع الشدة في قوم فإن ما يعانيه الإنسان لا شك أنه يظهر على وجهه، فالسرور يظهر على وجه الإنسان، والنعمة والرغد تظهر على وجهه، وشدة الحال تظهر على وجهه، والمرض يظهر والخوف يظهر، كل ذلك يبين عنه الوجه، فهو مرآة تعكس حال الإنسان، ولهذا قال الله -عز وجل-: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} [سورة البقرة: (٢٧٣)]، والراجح في تفسيرها كما قال ابن جرير وغيره: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}: أي بما يظهر على وجوههم، وما يظهر عليهم من شدة الحال، من شحوب الوجه ورثاثة الثياب وما إلى ذلك، فالفقير يعرف من حاله ولباسه، وهكذا، حينما تأتي بناس فقراء وناس أغنياء ألا يظهر هذا على تقاسيم وجوههم، وأولادهم؟ يعرف الفقير من الغني من الوجه غالباً.

وقوله: {وَالْخَوْفِ} وذلك أنهم بُدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [سورة آل عمران: (١٦٤)] **الآية. وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}** [سورة الطلاق: (١٠-١١)]، **وقوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ* فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}** [سورة البقرة: (١٥٠-١٥١)] **وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري -رحمهم الله.**

مع أنه حكي عن الزهري، جاء عن الزهري أن المقصود بذلك المدينة، وهذا في غاية الغرابة، بل هو قول مردود -أن المراد بذلك المدينة-؛ لأنه متى بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟، متى وقع لهم مثل هذا، {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}؟.

{فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النحل: (١١٤-١١٧)].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير {وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}: أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا {فَمَنِ اضْطُرَّ} إليه أي احتاج من غير بغي ولا عدوان {فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ} ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، و"ما" في قوله: {لِمَا تَصِفُ} مصدرية، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}: أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان: (٢٤)] وقال: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [سورة يونس: (٦٩-٧٠)].

قوله هنا: **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}**، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أن "ما" مصدرية، **{لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}**: أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ما المعنى على هذا التفسير؟، وما مراد ابن كثير بأن "ما" مصدرية؟ كيف يكون المعنى؟ **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}**، يقول: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، واللسان: يعبر به عن الكلام، بمعنى لا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام، أي ما افترته ألسنتكم وادعته هذه الألسنة تقوّلاً على الله -عز وجل-، فقوله: **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}** أي: لوصف ألسنتكم الكذب لا تقولوا عنه حلال وحرام، مثل البحيرة والسائبة، إلى غير ذلك، ويحتمل أن تكون "ما" موصولة، فقوله: **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ}**: يعني للذي تصف ألسنتكم الكذب، **{هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}**، وهذه الآية وعيد لكل من قال على الله -عز وجل- بلا علم، ممن أفتى الناس ولم يتأهل، وتكلم في الحلال والحرام أو غير ذلك بغير علم، وسواء تعمد الكذب أو أنه وقع في ذلك على سبيل الخطأ، والله المستعان.

فائدة:

عبد الله بن كثير القارئ لا يعرف له اشتغال بالتفسير، والمنقول هنا عنه هو من التفسير، وفي كتب طبقات المفسرين لم يُذكر إطلاقاً، وفي كتب تراجم القراء لم يذكر له أي اشتغال بالتفسير، وهو معروف من القراء

السبعة، قارئ أهل مكة، لكن في بعض كتب التراجم يوجد آخر يقال له: عبد الله بن كثير السهمي، وآخر عبد الله بن كثير الداري القارئ، وكلاهما من أهل مكة، وكلاهما يروي عنه ابن جريج، الرواية السابقة عندنا من طريق ابن جريج عند ابن جرير في التفسير، فكلاهما يروي عنه ابن جريج، فتوقف فيه جمع من الأئمة، هل هو السهمي، وليس هو في الرواية عندنا، لكن عموماً في عدد من المواضع توقفوا فيه، هل هو هذا أو هذا؟، وبعضهم اختلف، يعني بعضهم يقول: فلان الذي روى الحديث الفلاني هو فلان، وفلان هو فلان، على كل حال فهناك اثنان كلاهما يقال له: عبد الله بن كثير ومن طبقة واحدة، ومن أهل مكة، ويروي عنهما ابن جريج، فالله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}[سورة النحل: (١١٨-١١٩)].

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر- ذكر -سبحانه وتعالى- ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}: أي في سورة الأنعام في قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [سورة الأنعام: (١٤٦)] **ولهذا قال ههنا: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}: أي فيما ضيقنا عليهم {وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}: أي فاستحقوا ذلك، كقوله: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا}**[سورة النساء: (١٦٠)]، **ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ}: أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا}: أي تلك الفعلة والزلة {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}**: أجمل الله -عز وجل- هنا ما قصه على نبيه -صلى الله عليه وسلم- في التحريم في باب المطعومات، وفصله في سورة الأنعام **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}**، فالشاهد أن هذه الآية يستدل بها على أن سورة النحل نزلت بعد سورة الأنعام، وكلاهما من السور المكية، وسورة النحل نازلة بعد سورة الأنعام والدليل على هذا هذه الآية، وهذا يُحتاج إليه فيما يقال فيه بالنسخ، فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: **{تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}** [سورة النحل: (٦٧)] الآية التي سبقت، وذكرنا أن بعضهم فسرها بالخمر، وقالوا: هذا قبل التحريم، فعلى هذا يكون ذكر هذه الآية على سبيل الامتنان، وفي سورة الأنعام الله -عز وجل- يقول: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ**

{إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [سورة الأنعام: (١٤٥)]، ولم يذكر شيئاً، والمشروب هو لون من المطعوم، بدليل قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [سورة البقرة: (٢٤٩)] فسمى الشراب مطعوماً؛ لأنه يطعم، وفي قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: {مِن بَعْدِهَا}: أي تلك الفعلة والزلة {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، {لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}، وليس المقصود بالجهالة -كما هو معلوم- أنه فعله وهو لا يعلم أنه محرم؛ فإن مثل هذا الجهل بشرطه يكون مغتفراً؛ لأن من شروط التكليف العامة في كل تكليف من التكاليف العلم بخطاب الشارع، يعني بلوغ الخطاب، العقل وبلوغ الخطاب، هذا في كل تكليف، يضاف إلى ذلك الإسلام، وكلام أهل العلم في مسألة توجه الخطاب إلى الكفار بفروع الشريعة... إلى آخر ما هو معروف، وعلى كلٍّ فبلوغ الخطاب شرط، وذلك بشرطه أيضاً؛ لأن المفرط له أحكام أخرى، وإنما المقصود بالجهالة أن كل من عصى الله -عز وجل- كما قال السلف فهو جاهل، فلو عرف عظمة الله وقدره لم يجترئ على معصيته، والجهل كما يقال لقلة العلم أو نقص العلم أو ذهاب العلم، أو عدم العلم، كذلك يقال أيضاً للتعدي حينما يقول:

ألا لا يَجهلنَّ أحدٌ علينا...

ليس معناه أنه لا يعلم، وإنما المقصود يتعدى، فالشاهد أن الله -عز وجل- هنا قال: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} كل من عصى الله فهو جاهل، قال: {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ} في الآية الأخرى قال: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} [سورة النساء: (١٧)] وكل من تاب قبل الغرغرة فقد تاب من قريب، فهنا قال: {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ} الإصلاح هنا يشمل إصلاح الحال، ولهذا اشترط ابن القيم -رحمه الله- كما سبق في الكلام على التوبة أن من شروط التوبة عنده الإقبال على الله -عز وجل-، فجعل ذلك من علامات التوبة الصادقة، أن يُقبل الإنسان على الله وأن تتغير حاله، ويشتغل بالطاعات بدلاً من أن كان يشتغل بالمعاصي، وأما ما يتعلق بما ضرره وفساده متعدٍ فلا شك أن ما يكون ضرره متعدياً من الإفساد والتضليل أن هذا من شرط التوبة فيه الإصلاح، فالذي نشر بدعاً وأهواء وضلالات، وضلل الناس ونحو هذا، فهذا من شرط توبته أن يصلح ما أفسده، وأن يبين الضلال الذي بثه في الناس، الشاهد هنا قال: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، {مِن بَعْدِهَا} هل المقصود من بعد ذلك العمل السيئ؟ أو المقصود {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد التوبة؟، يحتمل كما قلنا في الآية التي مضت، وعلى كل حال الله -عز وجل- ذكر هنا أن هؤلاء الذين عملوا هذا العمل السيئ تابوا وأصلحوا، {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد تلك الفعلة التي تاب أصحابها منها {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، فهذان متلازمان، التوبة والعمل السيئ؛ فإن المغفرة التي رتبها الله -عز وجل- على ذلك هنا كانت بعد التوبة، والله أعلم.

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل: (١٢٠-١٢٣)].

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء -عليهم السلام-، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا} فأما الأمة: فهو الإمام

الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وقال مجاهد: أمة: أي أمة وحده.

وقوله: {شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ}: أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[سورة النجم: (٣٧)]**: أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به.**

في قوله هنا: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} قال: **الأمة هو الإمام الذي يقتدى به**، وهذا التفسير من أحسن ما ذكر في تفسير هذه اللفظة في هذا المقام، وإلا فالأمة كما هو معلوم تأتي لمعانٍ متعددة في القرآن، وسبق الكلام على شيء من هذا، ومنهم من فسر الأمة بالعالم، {كَانَ أُمَّةً}: أي كان عالماً، ولا شك أن ما ذكره الحافظ ابن كثير: أنه الإمام الذي يقتدى به، أبلغ من مجرد العالم، فإن العالم قد لا يقتدى به، وقد لا يعمل بعلمه، وقد لا يكون أهلاً للاتباع، وبعضهم يقول: كان معلماً للخير، وبعضهم يجمع بين الأمرين فيقول: كان عالماً ومعلماً للخير، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أبلغ أيضاً من هذا، فإن الإنسان قد يكون معلماً للخير ولكنه ليس بأهل للاقتداء، فما كل من علَّم يصلح أن يقتدى به، وهكذا قول من قال: يؤمُّه الناس ليأخذوا عنه، فإن هذا يرجع إلى بعض ما سبق، إذا كان معلماً للناس الخير باذلاً للعلم، فإن معنى ذلك أنه يرجع الناس إليه ليأخذوا عنه، فهذه المعاني كما ترون هي معانٍ جزئية، فالسلف يفسرون الشيء أحياناً ببعض معناه، والأحسن أن يفسر اللفظ بما هو أوسع من ذلك وما يشمل هذه جميعاً، فالأمة هو الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره، ومن هنا صار محلاً للائتساء والاقتداء، فهو عالم معلم للخير يرجع الناس إليه فيما نابهم، وينتفعون بعلمه، إلى غير ذلك من المعاني التي ترجع إلى هذا، الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره يقال له: أمة، فتجد من الناس من يتصف بالعلم، ومن الناس من يتصف بنفع الناس، ومن الناس من يتصف بصفات أخرى، فهذا جامع لخصال الخير التي تفرقت، فصار أمة وحده بهذا الاعتبار، فالقرآن الأحسن أن يفسر بهذه الطريقة، {قَانِتًا} القنوت سبق الكلام عليه وأنه يأتي لمعانٍ متعددة، {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [سورة الأحزاب: (٣٥)]، {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ} [سورة الأحزاب: (٣١)]، وشيخ الإسلام ألَّف رسالة في قنوت الأشياء لله -عز وجل-، وحاول أن يستقرئ هذه اللفظة في القرآن، وما دلت عليه، والنتيجة التي خرج بها أن القنوت هو دوام الطاعة، وهذا الذي ذهب إليه أيضاً ابن القيم -رحمه الله-، دوام الطاعة يقال له: قنوت، فإن الذي يطيع فترة ثم بعد ذلك يفتر وينقطع، لا يقال له: قانت، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[1]: يعني طول القيام، وهكذا.

وقال هنا: {كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ}، قال: **القانت الخاشع المطيع**، هذا يحتاج إلى أن يقيَّد كما سبق، المطيع الذي يديم الطاعة، وهذا المعنى -أي أنه هو المطيع- هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

قال: والحنيف: **المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد**، هذا مثال يصلح على التفسير باللازم، فالتفسير يكون بالمطابق أو بدلالة التضمن، أو باللازم، وقد يكون بأنواع أخرى، وهذا مثال على التفسير باللازم، من حيث إن الحنيف: هو المقبل على الشيء، فهو حنيف: أي مقبل على ربه -تبارك وتعالى- بالتوحيد

---

[1] رواه مسلم: (١/٥٢٠) باب أفضل الصلاة طول القنوت، برقم: (٧٥٦) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

والاستجابة والإنابة، فالإقبال على الشيء يقال له: حَنَفٌ، ولهذا يقال فيمن تكون إحدى رجليه مقبلة على الأخرى: أحنف، ولهذا قيل للأحنف بن قيس -رحمه الله-: الأحنف لهذا السبب، يقال: إن أمه كانت ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لولا حَنَفٌ في رجله ** ما كان في فتيانكم من مثله

فهذا أصله بمعنى الإقبال، إقبال إحدى الرجلين على الأخرى، ولازم ذلك الميل، فبعضهم فسر به الحنَف، قال: هو الميل عن الشرك، والحنيف: هو المائل عن الشرك إلى الإسلام والتوحيد، تفسير باللازم، وإلا فأصله الإقبال على الشيء، ومِن لازم هذا الإقبال وجود هذا الميل والانحراف، فإذا فسرناه بلازمه قلنا بأنه مائل ومنحرف عن كل ملة وشرعة ودين سوى الإسلام، سوى التوحيد، هذا وجه التفسير هنا بالميل، وكثير من المفسرين يذكرون هذا، ويصح تفسير الشيء باللازم، وليس هذا من قبيل الخطأ إطلاقاً، وإذا تأملت في الأقوال المنقولة عن السلف في التفسير تجد جملة منها هي من قبيل التفسير باللازم.

وقوله: {اجْتَبَاهُ}: أي اختاره واصطفاه كقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ} [سورة الأنبياء: (٥١)]، **ثم قال: {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيٍّ.**

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

الحسنة: الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا قال: **أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته،** هذا من أجمع ما يكون في التفسير، وهذه على كل حال تجدها كثيراً في هذا الكتاب المبارك، أعني تفسير ابن كثير -رحمه الله-، فبعضهم يفسر الحسنة **{وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}** يفسرها بالخصلة أو الحالة الحسنة، لكن ليست هذه العبارة في الإبانة كعبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، بل بعضهم يفسرها بأضيق من هذا، يقول: الحسنة هي الولد الصالح، فإن الله -عز وجل- قال: **{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}** [سورة مريم: (٤٩)]، فيقولون: هذه هي الحسنة، وكذلك أيضاً بعضهم يقول: الذكر الحسن في الدنيا، **{وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}** [سورة مريم: (٥٠)]، وكذلك الله -عز وجل- أخبر عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا في مواضع، فالحاصل أن ابن جرير -رحمه الله- يقول: الذكر الحسن هو الحسنة، **{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}** [سورة الشعراء: (٨٤)]، أي يذكر بالخير، كما هو واقع عبر هذه القرون والأجيال المتعاقبة، وبعضهم فسر ذلك بهذا وهذا، يعني بالولد الصالح والذكر الحسن الجميل، وبعضهم يفسر هذا بالنبوة، وبعضهم يقول: الصلاة عليه في التشهد -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: القبول عند أهل الأديان، فأهل الأديان جميعاً يقبلونه ويعظمونه، ولذلك تجد اليهود يقولون: إنه منهم، والنصارى يقولون: إنه منهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا}** [سورة آل عمران: (٦٧)] والشاهد أن هذه العبارات التي قالها مَن قالها من السلف -رضي الله عنهم- ليست كعبارة ابن كثير.

وقال مجاهد في قوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي لسان صدق، وقوله: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}: أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنّا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد

الأنبياء {أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، **كقوله في الأنعام**: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [**سورة الأنعام**: (١٦١)].

الاتباع لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: بعضهم يقول: في أصل الدين، يعني في التوحيد، والله -عز وجل- لما ذكر الأنبياء الذين جاءوا بعده من عقبه، فهو أبو الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، لما ذكرهم قال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [سورة الأنعام: (٩٠)]، فالاقتداء بالنسبة لشرائعهم، فالله -عز وجل- قال: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [سورة المائدة: (٤٨)]، فالشرائع مختلفة، وأصل الدين واحد، فمن أهل العلم من قال: المقصود اتباع إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في التوحيد، وأصل الدين، ومن قالوا: هو الاقتداء به في كل شيء أخذوا من هذا، قالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث بالحنيفية، وقالوا أيضاً: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، فما لم ينسخ فنحن مأمورون بالاقتداء به فيه، وبعضهم خص ذلك بالمناسك، وهذا تضييق للمعنى؛ فملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أوسع من هذا، ولكن في قوله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [سورة البقرة: (١٢٥)] من فسره بغير المقام المعروف قال: مقام إبراهيم مفرد مضاف، يعني مقامات إبراهيم، وذلك باتباعه في المناسك، في منى وعرفة ومزدلفة وما أشبه ذلك، والمقصود بالمصلَّى يعني المتعبَّد، وبعضهم كابن جرير يقول: الاتباع لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} في التبري من المشركين ومن معبوداتهم، والتدين بدين الإسلام، وعلى كلٍ النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور باتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بعث بشريعة شاملة كاملة هي أوسع ما شُرِّع وأنزل على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إمام الحنفاء فيُتّبع في دعوته إلى التوحيد والبراءة من المشركين، ومن معبوداتهم.

فائدة في قول: أبو الأنبياء:

إبراهيم أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده، وليس الذين قبله.

ونوح -عليه الصلاة والسلام- يسمونه بآدم الصغير؛ لأن كل البشر الذين جاءوا بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- هم من ذريته، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}[**سورة الصافات**: (٧٧)]، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- الأنبياء الذين جاءوا من بعده كانوا من ذريته، عدا لوط فإنه كان معاصراً له، أما الذين قبله فليس الكلام في هذا، وإنما المقصود أن كل من جاء بعده فهو من ذريته من ولد إسحاق إلا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن هؤلاء من الكثرة بحيث قيل له: أبو الأنبياء، وليس كل الأنبياء حتى الذين قبله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى منكراً على اليهود: {إِنّمَا جُعِلَ السّبْتُ عَلَىَ الّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنّ رَبّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل:١٢٤].

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى -عليه السلام- فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمّل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعثه، وأَخْذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد))[١] لفظ البخاري، وعن أبي هريرة وحذيفة -رضي الله تعالى عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق))[٢] رواه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}**، ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن الله -عز وجل- شرّع لهم على لسان موسى -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة أن يكون عيداً لهم،

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم (٨٣٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٦).

فتركوه وأعرضوا عنه، واختاروا يوم السبت، فعلى هذا يكون هو الاختلاف المراد بقوله تعالى: {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ}، واختلفوا على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وخالفوه، ولم يعملوا بمقتضى ما شرّعه لهم، وبعض أهل العلم يقول: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} بمعنى أي فرض تعظيمه، وهذا لا يخالف القول الذي ذكره ابن كثير، {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ} فرض عليهم تعظيمه حينما تركوا يوم الجمعة، فأُلزموا بمقتضى اختيارهم وهو يوم السبت، فصار ذلك اليوم لا يعملون فيه ولا يشتغلون بشيء من أشغالهم في الكسب وأعمالهم الدنيوية، فأُلزموا بمقتضى هذا، وصار يحْرم عليهم العمل في يوم السبت، والنصارى لشدة بغضهم لليهود -وهم من بني إسرائيل-، وللعداوة التي بين اليهود وبين النصارى ترك النصارى العمل بالتوراة، وبقوا بلا شريعة، فوضعوا لهم كتاباً سموه "الأمانة الكبرى"، فيه القانون، وصاروا يتحاكمون إليه بعد أن تركوا العمل بالتوراة، وقوله: {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، من أهل العلم من يقول: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}: أي وبال السبت، وبال هذا اليوم، وما وقع من المسخ بسببه لبعض بني إسرائيل، مثل القرية التي كان أهلها يعدون في السبت، فمسخوا بسبب هذه العدوان لما ابتلاهم الله -عز وجل-، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو الأقرب في المعنى {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، وبعد ذلك أُقروا عليه، وفُرض عليهم تعظيمه.

وفي قول ابن كثير -رحمه الله-: "**لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، يعني يوم الجمعة**"، يوم الجمعة هو اليوم السادس بأي اعتبار؟ باعتبار أول يوم صار فيه الخلق هو يوم الأحد، فالجمعة هو السادس، فاليهود اختاروا يوم السبت باعتبار أنه لم يحصل فيه خلق، ويوم الجمعة هو المناسب لأن يكون عيداً؛ لأنه اليوم الذي فيه اكتمال الخلق، وأما النصارى فاختيارهم ليس له معنى أصلاً، فيوم الأحد أول يوم في الخلق، والله المستعان، السبت يأتي بعدة معانٍ: منها القطع، يعني ينقطعون من أعمالهم وأشغالهم، فيكون هذا اليوم بالنسبة لهم يوم إجازة، وهذا في دينهم، ولكن المسلمين -في التعليق على اقتضاء الصراط المستقيم- لا يجوز لهم أن يتخذوا يوم الجمعة يوماً يتفرغون فيه من كل أشغالهم، بمعنى لا يعملون في شيء من عمل الدنيا، وليس معنى هذا أنه لا يكون إجازة رسمية، لأن الناس يحتاجون إلى هذا، ليصلوا الجمعة، ولكن الذي عند اليهود هو أنه لا يذهب إلى متجره ولا يبيع ولا يشتري ولا يصطاد ولا يزاول شيئاً من أعمال الدنيا، فينقطعون تماماً، فهذا هو الذي لا يجوز، وفعل ذلك يعتبر مضاهاة لليهود.

{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[سورة النحل:١٢٥].

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة {وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكِّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [سورة العنكبوت:٤٦] **الآية، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى**

وهارون -عليهما السلام- حين بعثهما إلى فرعون في قوله: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طـه:٤٤].

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص:٥٦]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [سورة البقرة:٢٧٢].

قوله: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} قال: "**يعني بالكتاب والسنة**"، وفسر الموعظة الحسنة "**بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس**"، والمعنى -والله أعلم- أعم من هذا، وابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد خلاصته أنه يرى أن الدعوة تكون على مراتب بحسب أحوال الناس، فالقابل المستجيب يدعى بالحكمة، والذي عنده شيء من التباطؤ والغفلة يدعى بالموعظة الحسنة، ويحتاج إلى حفز وحث، فيذكر له ما يرغبه أو ما يرهبه، يحتاج إلى ترغيب وترهيب من أجل أن يُقبل على العمل الصالح، ومن كان عنده شبهة، أو أمور عارضة تحتاج إلى كشف وإزالة فمثل هذا يجادل بالتي هي أحسن، ولو قيل بأن الآية أيضاً أعم من هذا فإن ذلك لا يبعد، باعتبار أن الحكمة مطلوبة أصلاً مع الجميع، ولهذا جاءت الباء معها {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} أي: مستصحباً للحكمة، فالحكمة لا تفارق الدعوة إلى الله -عز وجل- أياً كان حال المدعو، سواء كان مستجيباً أو غير مستجيب، والحكمة تقال للإصابة بالقول والعمل، وتكون بوضع الشيء في موضعه، وإيقاعه في موقعه، وهذا يُحتاج إليه في كل أحوال الدعوة إلى الله -عز وجل-، فإن الدعوة يحتاج الناس معها إلى الوعظ، الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، ووصف الموعظة هنا بالحسنة؛ لأن الموعظة قد تكون شديدة، تنفر منها القلوب، فلابد من مراعاة هذا فيها، {وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، وقال: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وكذلك إذا احتيج إلى المجادلة فتكون بالتي هي أحسن، يعني بالطريقة التي هي أحسن، ولم يقل: بالطريقة الحسنة، وإنما جاء بأفعل التفضيل {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وذلك أن المقصود من الدعوة إلى الله -عز وجل- بيان الحق، وأن يقبله الناس، ويقبلوا عليه، وينقادوا له، فهذا يجب أن يقدم بطريقة وأسلوب تتقبلها قلوب هؤلاء الناس، لا تقدم لهم الدعوة بطريقة تنفرهم، فيزهدون في الحق ويرغبون عنه، ولهذا جاء عن بعض السلف: ما رفقتَ بأحد إلا قبل منك.

ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ} "أي: **قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب**"، باعتبار أنه {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} فالله أعلم، يعني لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وهناك معنى آخر وهو أنه ليس من شغلك الاشتغال بما في قلوبهم ونيّاتهم، وهل هؤلاء فعلاً قد أقبلوا على الحق رغبة فيه، أو لمعنىً في نفوسهم، أو لطمع من الدنيا، كما يقوله الكفار لأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟، ولهذا كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يجيبونهم بأن ذلك ليس من شأننا، وإنما الذي يطلع على القلوب ويحاسب الناس على أعمالهم هو الله -عز وجل-، {وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة هود:٢٩]، فالداعية إلى الله -عز وجل- يقدم الدعوة للناس وليس

من شغله وليس من عمله أن يشتغل بما في نفوس هؤلاء الناس، وأن هذا ما قبل وما استجاب إلا لشيء من الدنيا أو لمقصود سيئ أو نحو هذا، فهذا ليس من عمله، وإنما هو كالمطر، ينشر الخير، ويعلم الناس، ويدعوهم إلى الله -عز وجل-، ولا يشتغل بما وراء ذلك، وما تنطوي عليه القلوب لله -تبارك وتعالى-.

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}[سورة **النحل**:١٢٦-١٢٨].

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: {فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لا نتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

في قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}، نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن جماعة من السلف: "**إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله**"، هذه مسألة معروفة في الفقه، تسمى مسألة الظفر، ولها صورتين، الصورة الأولى: لو أن الإنسان وجد ماله عند من غصبه أو ظلمه، أو جحده، استعار منه متاعاً ثم جحده، ووجد عين المال، فهل له أن يأخذه خلسة؟ هذه صورة، والصورة الثانية: لم يجد عين المال، لكن هذا إنسان يعمل أجيراً عند أحد مثلاً، وظلمه ولم يعطه أجرته، ووجد مالاً لهذا الإنسان الذي جحده، فهل له أن يقتص ويأخذ بقدر ما أخذ منه أو لا؟ هذا الإنسان اشترى شيئاً ولم يعطه الثمن، ثم بعد ذلك استطاع أن يضع يده على شيء من ماله هل له أن يأخذ منه أو لا؟ هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، منهم من يقول: أما إذا وجد عين المال فيأخذ المال، لكن لو لم يجد عين المال، فهل له أن يأخذ من ماله أو لا؟ من أهل العلم من يقول: لا يأخذ؛ لأن هذا ليس بعين ماله، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك))[٣] فقالوا: هذه خيانة، قابل خيانته بخيانة، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} يدل على هذا، وذلك مشروط بأن لا يلحق هذا الإنسانَ تهمةٌ، أو فضيحةٌ، فيوقف على ذلك، ثم يخرج بعد هذا بصورة سارق، فإن كان يترتب عليه هذا فلا يفعل، لكن إن أمن هذه المفسدة قالوا: يأخذ، هذا قال به جماعة من السلف، والمسألة خلافية مشهورة، والمعنى أوسع من هذا، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} حتى في الجنايات مثلاً، المماثلة في القصاص، لو أنه قتله دهساً بالسيارة عمداً، يقتل بهذه الطريقة، وليس المقصود أنه يدهسه هو من عند نفسه، وإنما يكون ذلك عن طريق السلطان؛ لئلا تكون أمور الناس فوضى، فيُسلَّم له فيقتل بنفس الطريقة، هذا قال به جماعة من أهل العلم، واستدلوا على

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، برقم (٣٥٣٤)، وبرقم (٣٥٣٥)، والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر يبيعها له، برقم (١٢٦٤)، وأحمد في المسند (١٥٠/٢٤)، برقم (١٥٤٢٤)، وقال محققوه: مرفوعه حسن لغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٢٣)، وفي صحيح الجامع برقم (٢٤٠).

هذا بما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث فعل بالعرنيين الذين فعلوا براعي إبل الصدقة، سملوا عينيه، ففعل بهم كما فعلوا، ورض رأس يهودي بين حجرين؛ لأنه رض رأس يهودية، فقالوا: القصاص يكون بالمثل، إلا إن كان بشيء محرم، مثل لو أنه فعل الفاحشة بصبية فماتت، فلا يكون القصاص بمثل هذا، أو سقاه المسكر حتى مات، فلا يفعل به مثل هذا، لكن إن قتله بحجر قتل بحجر، وإن قتله بالسيف قتل بالسيف، قتله بسلاح آخر يقتل بمثله، وهذه الرواية التي ذكرها عن ابن زيد كما ترون هي من قبيل المرسل، كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال...، وهذه الرواية لا تصح.

وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا يُنال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}: أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ}: أي، غمٍّ {مِمَّا يَمْكُرُونَ} أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}[سورة الأنفال:١٢]، وقوله لموسى وهارون: {لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- للصديق -رضي الله تعالى عنه- وهما في الغار: ((لا تحزن إن الله معنا))[٤]، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الحديد:٤] وكقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [سورة المجادلة:٧]، وكما قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً}[سورة يونس:٦١] الآية، ومعنى {الَّذِينَ اتَّقَوْا} أي: تركوا المحرمات، {وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم، ويكلؤهم وينصرهم، ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٤١٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، برقم (٢٠٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الإسراء وهي مكية.

روى الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -رحمه الله تعالى- عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العِتاق الأُوَل وهن من تِلادِي[١].

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل، والزمر"[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن مسعود -رضي الله عنه- في هذه السور: إنهن من العتاق الأُوَل، العتيق: هو القديم، ويأتي بمعنى النفيس البالغ في النفاسة، أو البالغ النفاسة، وهناك ارتباط بين العتيق والقديم؛ لأن كلمة عتيق أحياناً تفيد التاقدم وطول العهد، والقدم يزيد الشيء نفاسة أحيانا، وهذا أحد الأسماء لبيت الله الحرام، البيت العتيق، قيل: المعتق من الجبابرة، ومن الأقوال: إنه القديم، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران:٩٦]، "إنهن من العتاق الأُوَل وهن من تِلادِي"، التلاد يقصد به الشيء القديم الذي حفظته، وتقول: الطارف والتليد، الطارف: هو الشيء الجديد، والتليد: هو الشيء القديم.

وحديث عائشة -رضي الله عنها-: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر"، القراءة تحتمل أن يكون ذلك في صلاة الليل، ويحتمل أن يكون ذلك من غير صلاة، وبعض أهل العلم يجعله مما كان يقرأه -صلى الله عليه وسلم- في الصلاة، في صلاة الليل –القيام-، ويحتج لذلك بذكر الصوم معه، كان يصوم، ذكرتْ صيامه، قالوا: وأرادت بذلك قيامه، يعني بقولها: وكان يقرأ، -والله تعالى أعلم-.

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[سورة الإسراء:١].

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم (٤٤٣١).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند (٤٥٢/٤٠)، برقم (٢٤٣٨٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، دون قوله: وكان يقرأ في كل ليلة ببني إسرائيل والزمر، وابن خزيمة في صحيحه برقم(١١٦٣).

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه؛ لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، {الّذِي أَسْرَىَ بِعَبْدِهِ} يعني: محمداً -صلى الله عليه وسلم-، {لَيلاً} أي: في جنح الليل، {مّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} وهو مسجد مكة، {إِلَىَ الْمَسْجِدِ الأقْصَى} وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل -عليه السلام-؛ ولهذا جُمعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-، وقوله تعالى: {الّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} أي: في الزروع والثمار {لِنُرِيَهُ} أي: محمداً، {مِنْ آيَاتِنَا} أي: العظام، كما قال تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه -صلى الله عليه وسلم-، وقوله تعالى: {إِنّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، سبحان: بعضهم يقول: هذا مصدر لسبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً، وبعضهم كسيبويه يقول: إن هذا اللفظ "سبحان" العامل فيه ليس من لفظه، يعني الكلام هكذا: نزّه ينزه تنزيهاً، فوضع مكان "تنزيهاً" "سبحان"، وبعضهم يقول: إنه مفعول مطلق، والكلام فيه كثير.

وقوله: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} يعني: محمداً -صلى الله عليه وسلم-، وذِكْر العبودية في هذا المقام الشريف الذي رقى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه السبع الطباق، يدل على شرف العبودية ومنزلتها، وهكذا ذِكْر ذلك في مقام الإيحاء {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [سورة النجم:١٠]، وفي مقام الدعوة: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [سورة الجن:١٩]، وفي مقام تنزيل الوحي: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، وما شابه ذلك.

قال: {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}، أسرى: الإسراء هو سير الليل، وبعضهم يخص ذلك بسير أول الليل، وإذا كان الإسراء لا يكون إلا بالليل -سواء قيل: في أوله، أو قيل: هو سير الليل مطلقاً- ولا يكون في النهار فوجْهُ قولِه بعدَه: {لَيْلاً}، من أهل العلم من يقول: إن هذا مع التنكير في قوله: {لَيْلاً}؛ لبيان أن ذلك وقع في بعض الليل لا في كله، وهذا فيه آية عظيمة، وهي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب هذا المسير الذي يقدر بأربعين ليلة، ثم بعد ذلك يعرج به إلى السماء في بعض ليلة وليس في ليلة كاملة، فهذا من آيات الله -تبارك وتعالى-.

قال: {مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} "**وهو مسجد مكة**"، ذهب إلى هذا بعض السلف، وبه قال الحسن وبعضهم يقول: إنه أسري به -صلى الله عليه وسلم- من بيت أم هانئ، وهذا ذهب إليه كثيرون، وبعضهم يقول: من بيته -عليه الصلاة والسلام-، والروايات الواردة في هذا كثيرة جداً، وهذه الروايات يفهم من بعضها أنه أسري به من المسجد، كان نائماً في المسجد، وفي بعضها أنه من بيته، والعلماء اختلفوا في ذلك بناء على اختلاف الروايات، وذهب كثير منهم إلى أنه أسري به -عليه الصلاة والسلام- من بيت أم هانئ، وقوله: {إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى}: وهو بيت المقدس، قيل له: الأقصى لبعده عن المسجد الحرام، فهو المسجد الأقصى: يعني الأبعد، وليس بعده مسجد، فحينما نزلت الآية لم يكن وراءه مسجد يُعبد الله -عز وجل- فيه، قال: {الّذِي

بَارَكْنَا حَوْلَه}، بعضهم يقول: يعني ببعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، والأقرب -والله أعلم- أن تحمل الآية على ظاهرها وإطلاقها، فالله -عز وجل- جعله مباركاً، ووصف الأرض تلك بأنه بارك فيها للعالمين، لمّا ذكر نجاة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولوط -عليه الصلاة والسلام- ذكر أن ذلك كان إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:٧١]، وذلك يعني بلاد الشام، وبعضهم يقول: أكناف بيت المقدس، بيت المقدس وما حوله، وبلاد الشام ورد فيها من الأحاديث أنها أرض مباركة، ومن البركة التي فيها ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنه لا تزال طائفة من الأمة منصورة))[٣]، وجاء في بعض الأحاديث قال: ((وهم بالشام))[٤]، وجاءت الأحاديث: ((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم))[٥].

والإسراء العلماء مختلفون فيه كثيراً متى كان؟، ولا شك أنه كان قبل الهجرة، فكثير من أهل العلم يقولون: قبل الهجرة بسنة، وبعضهم يقول: قبلها بسنوات باعتبار أن خديجة -رضي الله عنها- صلت مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: والصلاة لم تفرض إلا حينما عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، واختلفوا في وقت وفاة خديجة أيضاً، فبعضهم يقول: كان ذلك قبل الهجرة بخمس، وبعضهم يقول غير هذا، اختلفوا فيه كثيراً، وللعلماء كلام كثير فيها بناء على الروايات المتفاوتة، ثم اختلفوا هل أسري به في ليلة، وعرج في مرة أخرى غير ليلة الإسراء؟ هل صلى ببيت المقدس بالأنبياء قبل أن يعرج به أو بعدما عرج به؟ وحينما خُير بين الآنية من الخمر واللبن والعسل هل كان هذا قبل المعراج أو كان بعد المعراج؟ أو أن ذلك وقع مرتين؟ وحادثة شق الصدر أيضاً هل كانت مرة واحدة؟ ومتى كانت؟ لأن من الروايات ما يدل على أن ذلك وقع ليلة الإسراء، ومنها ما يدل على أنه وقع -كما في حديث أنس -رضي الله عنه- وهو في الصغر حينما كان مسترضعاً ببني سعد، فلذلك اختلفوا هل وقع ذلك مرة واحدة ومتى كانت؟ أو وقع أكثر من مرة؟ والأنبياء الذين رآهم جاء في الأوصاف التي ذكرها حينما أتى على وادي الأزرق -صلى الله عليه وسلم-، إلى غير ذلك مما ورد في سؤاله -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق إلى مكة: ((أي وادٍ هذا؟))، ((كأني أنظر إلى يونس بن متى، كأني أنظر إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-))[٦]، كذلك حينما ذكر الدجال وعيسى -عليه الصلاة والسلام- وهو يطوف بالكعبة، هل رأى ذلك في ليلة الإسراء والمعراج، أو أن ذلك كان رؤيا منام؟ أو أنه -عليه الصلاة والسلام- أخبر عن أمر أطلعه الله عليه مثلاً في علم الغيب دون أن يراه في ليلة

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي -صلى الله عليه وسلم- آية فأراهم انشقاق القمر، برقم (٣٤٤٢).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الشام، برقم (٢١٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٣).

٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٦).

المعراج، أو غير ذلك مما قاله أهل العلم في مثل هذه الأشياء؟، يعني هل هذا حديث عن أمر وقع في السابق، أو أنه قد وقع لهم هذا الحج وهم في الملأ الأعلى؟ وقد ذكر الإمام مسلم -رحمه الله- كثيراً من الروايات والتفاصيل في صحيحه، ويمكن الرجوع إلى ما قاله العلماء في فتح الباري، وشرح صحيح مسلم، وشرح الطحاوية، فشرح النووي على المسلم في الجزء الأول صفحة: (١٤٥، ٣٨٤، ٤٠٣) وكذلك شرح القاضي عياض على مسلم الجزء الأول: (٤٩٤)، والفتح الجزء الأول: (٤٥٨)، والثالث: (٤١٤)، والسادس: (٥٧٩، ٤٨٥، ٤٧٨)، والسابع: (٢٠٣)، والثامن: (٦٠٩)، والعاشر: (٧٠،٣٣)، والثالث عشر (٩٦، ٤٧٨)، تجدون فيها الكلام على هذه القضايا.

ومن الأشياء التي اختلفوا فيها هل كان الإسراء بالروح، أو بالجسد والروح؟ فذهب بعض السلف إلى أن الإسراء كان بالروح، وهذا قول غير صحيح، والذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن الإسراء كان بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، والأدلة على هذا كثيرة، منها ما في هذه الآية من الأدلة، {سُبْحَانَ} فالتسبيح لا يكون إلا على أمر عظيم، وأما ذهاب الروح فهو أمر يحصل للإنسان في المنام، وكذلك في قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} والعبد يكون لمجموع الروح والجسد، فالإنسان لمجموع الروح والجسد، وكذلك لقوله: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} المقصود بذلك رؤية العين، وللأحاديث الواردة في هذا، فقد ركب البراق، والركوب لا يكون للأرواح بمجردها -ولا تحتاج إلى ركوب-، وكذلك أنه كذبه المشركون واستفظعوا ذلك وشنعوا عليه، وارتد بعض ضعفاء الإيمان، ولو كانت رؤيا منام لما استكثروا شيئاً من ذلك، ففي الرؤيا يصل الإنسان إلى أبعد من هذا، ولكن إنما شنعوا واستكثروا هذا واتهموه بالكذب -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنها لم تكن بمجرد الروح.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((أُتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلَقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا...)).**

التخيير بين الآنية هنا كان في البداية، لكن في بعضها أنه لما نزل إلى بيت المقدس بعد المعراج، وبعض العلماء يقول: وقع ذلك مرتين، فذلك أولاً كان لضيافته، والضيافة يكون فيها الإكرام في أولها وفي آخرها، فأعطي في أول مجيئه ثم بعد العروج.

((... فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف -عليه السلام-، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي

ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول الله تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً} [سورة مريم:٥٧]**، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى -عليه السلام- فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم -عليه السلام-، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقُها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها))**[٧].

وسدرة المنتهى قيل: لأنه ينتهي إليها ما يعرج به إلى الله -عز وجل-، وما ينزل منه، وهكذا فسرها بعض السلف كابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وقيل: ينتهي إليها علم الخلائق، وقيل: لأنه انتهى جبريل عندها فلم يتقدم بعد هذا.

---

٧ - رواه أحمد في المسند (١٩٤٨٥)، برقم (١٢٥٠٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٤)، واللفظ لأحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في سياق ذكره لقصة الإسراء والمعراج: ((قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: أي ربِّ خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحطّ عني خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك)) فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت)) ورواه مسلم بهذا السياق[١].

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُتي بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه، قال: فارفضّ عرقا. ورواه الترمذي وقال: غريب.

وروى أحمد أيضاً عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما عرج بي إلى ربي -عز وجل- مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم))، وأخرجه أبو داود[٢]، وروى أيضاً عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مررت ليلة أسري بي على موسى -عليه السلام- قائماً يصلي في قبره))، ورواه مسلم[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[١] - صحيح مسلم: (١٤٥/١) باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات: برقم: (١٦٢).

[٢] - سنن أبي داود: (٢٦٩/٤) باب في الغيبة: برقم: (٤٨٧٨).

[٣] - صحيح مسلم: (١٨٤٥/٤) برقم: (٢٣٧٥) عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أتيت)) وفي رواية ((مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)).

فالرواية السابقة في مراجعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه فيما فرض عليه من الصلوات ذكر أنه خفف عنه خمساً خمساً، وفي بعض الروايات الأخرى: ((عشراً عشراً))، فيمكن أن يكون المقصود بذكر العشر أن ذلك على سبيل الاختصار والإجمال، وهذا على سبيل التفصيل، وقوله: ((فارفضّ عرقاً)): يعني سال عرقه، وفي هذا الحديث الذي مضى، قال: ((مررت ليلة أسري بي على موسى -عليه السلام- قائماً يصلي في قبره))، النبي -صلى الله عليه وسلم- كما مضى رأى موسى -عليه الصلاة والسلام- في السماء السادسة ورآه وهو يصلي في قبره، وكذلك صلى بهم في بيت المقدس بعدما هبط من السماء، فكل هذا لا تعارض فيه ولا منافاة؛ لما ورد في الروايات مما ذكر، وذلك أن الأرواح لها شأن آخر، لا تقاس على الأبدان وتنقلاتها وحركاتها، فرآه في مكانه في منزلته في الملأ الأعلى -والأرواح أيضاً لها تعلق بالأجساد فهي تهبط وتصعد- ورآه -صلى الله عليه وسلم- مرة في قبره يصلي، والأمر الآخر: وهو أن صلاته هنا ليست من قبيل التكاليف؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف في الأصل، وإن كان هناك بعض الأشياء التي يؤمر بها الناس مثل أنهم يدعون إلى السجود في عرصات القيامة، وكذلك أيضاً ما ورد من أن أهل الجنة يلهمون التسبيح إلهاماً، فإلهامهم التسبيح ليس ذلك من قبيل التكاليف، وإنما هو شيء يلتذّون به، وكذلك الذين يمتحنون في الآخرة: المجنون، والذي لم تبلغه الدعوة، فهذه خارجة من هذا الأصل ومستثناة من كون الآخرة ليست بدار تكليف، فهذا الذي يفعله موسى -عليه الصلاة والسلام- إنما هو لحبه للصلاة إذ صارت قرة عين، كما كان بعضهم يقول: "اللهم إن كنت آتيت أحداً الصلاة في قبره فآتني الصلاة في قبري".

وروى الإمام مالك عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالى عنهما- حدثه أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- حدثهم عن ليلة أسري به قال: ((بينما أنا في الحطيم))[4] وربما قال قتادة: في الحجر.

بعضهم يقول: إن الحطيم هو ما بين الركن والباب، وبعضهم يقول وهو المشهور: إن الحطيم هو هذا الجزء الذي لم يبن من الكعبة كما هو معلوم، لمّا قصرت النفقة عند قريش، فلم يبنوا هذا الذي فيه الحجر -وليس كل ذلك من الكعبة- فتُرك وقيل: إنه كان يلقى فيه الثياب، ثياب الطائفين إذا فرغوا من طوافهم، من غير الحمس، فإنّ غير الحمس كان الواحد منهم إذا جاء فإنه يطوف عارياً، إلا إن كان عنده ثياب جديدة، أو كان يعرف أحداً من الحمس، فأعاره ثوبه، ثم بعد ذلك إذا فرغ من الطواف ألقى هذا الثوب، فيسمونه اللقى، يطئونه بأقدامهم في الطواف، وكانوا يلقون هذه الثياب، تجمع حتى تبلى في هذا المكان الذي يقال له: الحطيم، والمقصود به الحجر في المشهور والله أعلم. ولاحظوا هذه الرواية: ((بينما أنا في الحطيم))، هذه الرواية صريحة بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أُسري به من المسجد، وكما سبق من الرواية الأخرى أنه من بيت أم هانئ، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم، وقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الإسراء: (١)] والمسجد الحرام تارة يطلق على مسجد الكعبة، وتارة يطلق على منطقة الحرم بكاملها، فيقال له: المسجد الحرام، {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح: (٢٥)].

---

[4] - صحيح البخاري: (١٤١٠/٣) كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: برقم: (٣٦٧٤).

قال: ((بينما أنا في الحطيم)) وربما قال قتادة: ((في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فقدَّ)) سمعت قتادة يقول: ((فشق ما بين هذه إلى هذه)) وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته.

الجارود: قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: ما رأيت مَن نسبَه، ولعله ابن سبرة البصري، صاحب أنس بن مالك -رضي الله عنه-، ويوجد آخر يدعى الجارود غير هذا، صحابي، لكن هنا مع أنس -رضي الله عنه-.

وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال: ((فاستخرج قلبي)) قال: ((فأُتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض)).

هذه الرواية في شق الصدر عند الإسراء، وفي بعض الروايات أن ذلك كان في صغره -صلى الله عليه وسلم-، حينما كان مسترضعاً في بني سعد.

فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم يقع خطوُه عند أقصى طرفه، قال: ((فحُملت عليه فانطلق بي جبريل -عليه السلام- حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء)) قال: ((ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم -عليه السلام-، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح)) الحديثَ بنحو ما سبق، وفيه في ذكر موسى -عليه السلام- قال: ((فلما تجاوزته بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي)).

طبعاً بكاء موسى -عليه الصلاة والسلام- هنا ليس من قبيل الحسد، حاشا وكلا، وإنما من قبيل الغبطة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فالإنسان قد يبكي غبطة، وكذلك حزناً على قومه الذين فضلهم الله -عز وجل- على العالمين في زمانهم، فبكى حزناً عليهم.

قال: ((ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء)) قال: ((ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم -عليه السلام- فقال: هذا إبراهيم فسلم عليه)) قال: ((فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح)) قال: ((ثم رُفعتْ إليّ سدرةُ المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى)).

قلال هجر، القُلَّة: ما يعرفونه بالقَلَّة -بالتفخيم- يوضع فيها التمر، زنبيل كبير، تَسَعُ مقدار قربتين، وهجر هذه قيل: هي التي في الساحل، وبعضهم يقول: قرية قرب المدينة، وهو الأرجح، والله أعلم.

قال: ((وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات)) قال: ((ثم رُفع إليّ البيتُ المعمور)).

قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

طبعاً هنا في هذا الحديث البيت المعمور في السماء السابعة، وجاء في بعض الروايات ما يفهم منه غير هذا، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن كل سماء فيها بيت معمور جمعاً بين الروايات، والله أعلم.

قال: ((ثم أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل)) قال: ((فأخذت اللبن. قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك)) قال: ((ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم)) قال: ((فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟)) قال: ((فقلت: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عني عشراً)) قال: ((فرجعت إلى موسى، فقال: بمَ أُمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً أُخَر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ قلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ قلت: أمرت بعشرين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً عني أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قال أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، فنفذتْ، فنادى منادٍ قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)) وأخرجاه في الصحيحين بنحوه[٥].

روى البخاري[٦] عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: كان أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- يحدث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد -صلى الله عليه وسلم-، فقال: أُرسِل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسوِدة، وعلى يساره أسودة)).

---

[٥]- صحيح البخاري: (١٤١٠/٣) كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: برقم: (٣٦٧٤) وصحيح مسلم: (١٤٥/١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات: (١٦٢).

[٦]- صحيح البخاري: (١٣٥/١) كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء برقم: (٣٤٢).

الأسودة يقال: السواد للشخص؛ لأنه لا يستبين من بعيد، نحو رأيت سواداً، جاء سواد إنسان، أو رأيت سواد إنسان، أسودة: يعني شخوصاً أو جماعات.

((فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح)) قال: ((قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية)) فذكر الحديث، قال: ((ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم)).

قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنهما- كانا يقولان: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)).

قال: قال الزهري: فأخبرني ابن حزم، ابن حزم يعني أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو لم يدرك أبا حبة الأنصاري، فأبو حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- من أهل بدر، واستشهد بأحد قبل أن يولد ابن حزم، وقبل أن يولد أيضاً أبوه محمد.

((لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)) صريف الأقلام يعني صوت الأقلام عند الكتابة، والأقلام اليوم ليس لها صوت، لكن الأقلام التي كانت في السابق يكتبون بها، -هم يعرفون مثل هذه العبارة- التي كانت تنحت نحتاً، فيضعها في الدواة ثم يكتب، كان لها صوت باحتكاك القلم بالورق، فيقال له: صريف.

قال ابن حزم وأنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى -عليه السلام-، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)) وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه في ذكر بني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان منه نحوه[٧].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر -رضي الله تعالى عنه-: لو رأيتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته، فقال: ((قد رأيته نوراً أنىّ أراه))[٨] هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه عن

---

[٧]- صحيح مسلم: (١٤٨/١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: برقم: (١٦٣).

[٨]- مسند أحمد بن حنبل: (١٤٧/٥) برقم: (٢١٣٥١).

عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل رأيت ربك؟ قال: ((نور أنىّ أراه))[٩].

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألتُ، فقال: ((رأيت نوراً))[١٠].

روى الإمام أحمد[١١] عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يحدث أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)) أخرجاه في الصحيحين[١٢] من طرق.

وعند البيهقي: قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز -أو كلمة نحوها-، ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سُمي أبو بكر: "الصديقَ"[١٣].

الصدِّيق يعني مبالغة من الصدق، يعني كثير التصديق، هذا كله يدل على أن الإسراء كان بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، وكما سبق لو أنه كان بروحه فإن ذلك ليس بمستبعد بالنسبة للناس، فلا يحتاج إلى هذا التكذيب.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ليلة أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل الجنة فسمع في جانبها وَجْساً، فقال: ((يا جبريل ما هذا؟))

سمع وَجْساً، بالسين والجيم، الصوت الخفي يقال له: وَجْس.

قال: هذا بلال المؤذن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين جاء إلى الناس: ((قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا)).

في ذاك الوقت لم يكن قد شرع الأذان، ولم تفرض الصلاة بعد، وبلال لم يكن يؤذن، ولهذا بعضهم يقول: إن المعراج تكرر أكثر من مرة، وبعضهم أوصل ذلك إلى ثلاث مرات، والراجح أنه كان مرة واحدة، لكن مثل هذا يمكن أن يقال فيه -والله أعلم-: إنه باعتبار ما سيكون، فيكون من باب الإخبار عن الأمر الغيبي، وإن

---

[٩]- صحيح مسلم: (١٦١/١) كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: ((نور أنى أراه)) وفي قوله: ((رأيت نوراً)) بـرقم: (١٧٨).

[١٠]- صحيح مسلم: (١٦١/١) كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: ((نور أنى أراه)) وفي قوله: ((رأيت نوراً)) بـرقم: (١٧٨).

[١١]- مسند أحمد بن حنبل: (٣٧٧/٣) برقم: (١٥٠٧٦).

[١٢]- صحيح البخاري: (١٤٠٩/٣) باب حديث الإسراء وقول الله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} برقم: (٣٦٧٣) ومسلم: (١٥٦/١) باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال: برقم: (١٧٠).

[١٣]- دلائل النبوة: (٣٦٠/٢).

اختيار بلال -رضي الله تعالى عنه- للأذان كان له مثل هذه المقدمات، فذُكر قبل أن تفرض الصلاة على الناس، قبل أن يصلى، ومكة لم يكن يصلى فيها جماعة، ولم يكن يؤذن للصلاة قبل الهجرة، ويحتمل أن يكون قال هذا ليوضح المقصود، فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يعيّنه؛ لئلا يلتبس بغيره مثلاً، فتكون لفظة ((المؤذن)) ليست من قول جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وإنما تكون من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأيضاً لا يستبعد أن يكون هذا من قول من رواه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده ليوضح المراد ببلال، فقد عرف بذلك "بلال المؤذن"، لكن ظاهره أن ذلك من كلام جبريل -عليه الصلاة والسلام- والله أعلم.

قال: ((فلقيه موسى -عليه السلام-، فرحب به قال: مرحباً بالنبي الأمي)) قال: ((وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى)) قال: ((فمضى)).

((رجل آدم طويل)) الآدم يعني الأسمر، ((آدم طويل سبط))، وجاء في بعض الروايات الأخرى في صفته غير هذا، وبعض العلماء حاول أن يجمع بين هذه الروايات، وقد يكون هذا يرجع إلى ضبط الرواة، والله أعلم.

قال: ((فمضى فلقيه شيخ جليل متهيِّب فرحب به وسلم عليه، وكلهم يسلم عليه)) قال: ((من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم)) قال: ((ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة)).

كما ورد أيضاً ((أحيمر ثمود))[14]، {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[سورة القمر: (٢٩)].

قال: فلما أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسجد الأقصى، قام يصلي فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، فلما انصرف جيء بقدحين: أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: ((أصبت الفطرة)). إسناده صحيح، ولم يخرجوه.

على كل حال هذا الحديث جملٌ منه لها شواهد أخرى، وإن كان إسناده عند الإمام أحمد فيه ضعف[15].

وروى الإمام أحمد[16] عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعِيرهم.

قافلة كانت آتيةً، هي عيرٌ لقريش، فرآها في الطريق.

فقال الناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال فقال: ((رأيته فيلمانياً)).

---

[14] - مسند أحمد بن حنبل: (٢٦٣/٤) برقم: (١٨٣٤٧).

[15] - مسند أحمد بن حنبل: (٢٥٧/١) برقم: (٢٣٢٤).

[16] - مسند أحمد بن حنبل: (٣٧٤/١) برقم: (٣٥٤٦).

هذا في ليلة المعراج، ومعروفٌ أن الدجال ليس في السماء، وأنه في جزيرة من جزائر البحر، ورآه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذه الأشياء هي من أمور الغيب وعالم الأرواح يختلف، قال: ((فيلمانياً)): يعني عظيم الجثة، ضخم الخلق، كما جاء وصفه بذلك في بعض الروايات.

وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال فقال: ((رأيته فيلمانياً أقمر هجاناً)).

((أقمر)) يعني شديد البياض، ((هجاناً)): يعني أبيض شديد البياض عظيم الخلق.

((إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري)).

((قائمة)): يعني على حالها في موضعها وهيئتها، لكنه لا يبصر بها، يعني صحيحة من حيث الصورة لكنه لا يبصر بها.

((كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى -عليه السلام- شاباً أبيض، جعد الرأس حديد البصر)).

هنا وصفه بأنه جعد الرأس، وفي بعض الروايات وصفه بأنه أملس، بخلاف ذلك، فالجعودة هي مثل شعر العرب، يقال له: جعد، والشعور التي فيها ملاسة يقال: سبط الشعر، فهذا جاء في بعض الروايات، وجاء في بعضها أنه جعد، وبعض العلماء حمل الرواية التي ورد فيها أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- جعد فقال: المقصود الخلق، يعني في اكتمال الخلق وقوته وتمامه، لكن في هذه الرواية أضاف ذلك إلى الشعر، جعد الشعر، بخلاف الروايات التي ورد فيها الإطلاق، والذي يظهر -والله أعلم- أن مثل هذا يرجع إلى ضبط الرواة.

((ورأيت عيسى -عليه السلام- شاباً أبيض، جعد الرأس حديد البصر ومبطَّن الخلْق)).

مبطن الخلق: يعني ليس له بطن كبير، يعني ضامر البطن.

((ورأيت موسى -عليه السلام- أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم -عليه السلام- فلم أنظر إلى إرْب منه إلا نظرت إليه مني)).

لم أنظر إلى عضو منه، إرْب: يعني عضو، لشدة المشابهة، أشبهه في كل أعضائه.

((إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلم على أبيك، فسلمت عليه)). ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال -وهو ابن خباب- به، وهو إسناد صحيح.

وروى البيهقي[١٧] عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم -صلى الله عليه وسلم- ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة)).

في رواية أخرى أيضاً قال عن موسى -عليه الصلاة والسلام- إنه: سبط الشعر، فهنا قال: ((طوالاً جعداً))، فبعض العلماء قال: المقصود بالجعودة هنا القوة يعني قوي الخلق ومكتمل الخلق ((كأنه من رجال شنوءة))، شنوءة: قبيلة من قبائل اليمن، ويقال: أزد شنوءة، قيل لهم ذلك: لشناءتهم، أو لشنوءتهم، يعني تقززهم أو

---

[١٧]- دلائل النبوة: (٣٨٦/٢).

تقذرهم أو تباعدهم من الأدناس أو الأقذار، وقيل: باعتبار أنهم تباغضوا، ويرجع إليهم من القبائل المعروفة الآن غامد وزهران، هم من أزد شنوءة.

((ورأيت عيسى ابن مريم -عليه السلام- مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، وأُرِى مالكاً خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه)).

عيسى -عليه الصلاة والسلام- هنا قال عنه: ((سبط الرأس))، وهناك قال: ((جعد الرأس)).

وقال هنا: ((مربوع الخلق)): يعني معتدلاً، ليس بالطويل ولا بالقصير.

قال: {فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ}[سورة السجدة: (٢٣)] **فكان قتادة يفسرها أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قد لقي موسى -عليه السلام- {وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة السجدة: (٢٣)] **قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل، رواه مسلم في الصحيح[18] وأخرجاه[19] عن قتادة مختصراً.**

وروى الإمام أحمد[20] أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما كان ليلة أسري بي، فأصبحت بمكة فظعتُ، وعرفت أن الناس مكذبيّ)).

يقول: ((فأصبحت بمكة))، الذي في السنن الكبرى للنسائي[21] قال: ((قطعت بأمري وعرفت أن الناس مكذبي))، وهنا قال: ((فظعتُ، وعرفت أن الناس مكذبي))، و((فظعت)): يعني اشتد الأمر عليّ وهبتُهُ.

فقعد معتزلاً حزيناً، فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم)) قال: وما هو؟ قال: ((إني أسري بي الليلة))، قال: إلى أين؟ قال: ((إلى بيت المقدس)) قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: ((نعم))، قال فلم يرَ أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوتُ قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم)) فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني أسري بي الليلة)) فقالوا: إلى أين؟ قال: ((إلى بيت المقدس)). قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: ((نعم)). قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب –زعم-، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت)) قال ((فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال)).

هذه العبارة ((دون دار عقيل أو عقال)) ليست في النسائي.

---

[18] - صحيح مسلم: (١/١٥١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم-: برقم: (١٦٥).

[19] - صحيح البخاري: (٣/١١٨٢) كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء برقم: (٣٠٦٧) و(٣/١٢٤٤) كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة طه: (٩)] {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [سورة النساء: (١٦٤)] برقم: (٣٢١٥).

[20] - مسند أحمد بن حنبل: (١/٣٠٩) برقم: (٢٨٢٠).

[21] - سنن النسائي الكبرى: (٦/٣٧٧) برقم: (١١٢٨٥).

((حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعتُّه وأنا أنظر إليه)) **قال:** ((وكان مع هذا نعت لم أحفظه)) **قال:** ((فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه)). **وأخرجه النسائي**[22] **ورواه البيهقي**[23].

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة.

هذه الرواية: أنها في السماء السادسة، الروايات الأخرى: أنها في السماء السابعة.

وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها.

هذا تفسير من ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لسدرة المنتهى، لماذا قيل لها ذلك؟

وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض منها، {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [سورة النجم: (١٦)] **قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحمات، يعني الكبائر، ورواه مسلم في صحيحه**[24].

المقحمات قيل لها ذلك؛ لأنها تقحم من قارفها في النار، وهنا: أعطي خواتيم سورة البقرة، وفي الحديث الآخر في صحيح مسلم[25] بينما النبي -صلى الله عليه وسلم- قاعد وعنده جبريل سمع صوتاً فرفع رأسه فقال: ((هذا باب فتح من السماء لم يفتح قبل قط، وهذا ملك نزل من السماء لم ينزل قبل قط، فقال: أبشِر بنورين أوتيتهما فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة))، هذا في المدينة؛ لذلك من أهل العلم من يقول: إن من القرآن ما نزل به غير جبريل، مع أن الله -عز وجل- يقول: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [سورة الشعراء: (١٩٣)]، قالوا: هذا من حيث الجملة، لكن لا يمنع أن يكون بعض الآيات نزل بها غير جبريل -عليه الصلاة والسلام-، واحتجوا بهذا الحديث، حديث ابن عباس، ويجاب عنهم بأن حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- فيه البشرى، ((أبشر بنورين أوتيتهما))، ولا يعني أنه نزل بها، وهذا الحديث يدل على أن هذا كان متقدماً، وسورة الفاتحة نزلت بمكة، وكانوا يصلون بمكة، وما كانوا يصلون بغير سورة الفاتحة، والذي عليه الجمهور أن سورة الفاتحة نزلت بمكة، ولم تنزل بالمدينة، وإن كان من أهل العلم من قال: إنها نزلت في المدينة، لكنه قول ليس بصحيح، ومنهم من يقول: نزلت مرتين، ومنهم من يقول: نزل شقها الأول في مكة، وشقها الثاني في المدينة، وهذا بعيد جداً، فعلى كل حال هنا ذكر في هذا الحديث في ليلة المعراج أنه أوتي خواتيم سورة البقرة.

وروى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟.

يقول لكعب الأحبار، كعب الأحبار معروف أن أصله كان من اليهود ثم أسلم، وكان من يهود اليمن.

فقال: إن أخذتَ عني صليتَ خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك.

---

[22] - سنن النسائي الكبرى: (٣٧٧/٦) برقم: (١١٢٨٥).

[23] - دلائل النبوة: (٣٦٣/٢).

[24] - صحيح مسلم: (١٥٧/١) كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى: برقم: (١٧٣).

[25] - صحيح مسلم: (٥٥٤/١) باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة: برقم:(٨٠٦).

إن أخذت عني: يعني إن قبلت ما أشير به صليت خلف الصخرة، الصخرة هي التي عليها الآن القبة التي لا تكاد تجد من يذكر المسجد الأقصى إلا ويضع هذه القبة قبة الصخرة، وهي صخرة تعظمها اليهود، وهي قبلتهم، يصلون إليها، وإنما عظمها هذا التعظيم وبنى عليها هذا البناء عبد الملك بن مروان لما أراد أن يصرف الناس عن مكة، لما كان فيها ابن الزبير فقال له أناس: إن الناس يأتون إلى مكة، ويلقون ابن الزبير، فذهب وعظم الصخرة وبنى عليها هذا البناء والقبة، وزينها، من أجل أن يأتي الناس إليها، فلما قتل ابن الزبير تركت، لكنه لم يهدم القبة، ولم يصنع شيئاً، فهذا كان بداية هذا البناء الذي لا يزال على هذه الصخرة، وليس لها شيء عند المسلمين إطلاقاً، تعظم وليس هذا هو المسجد الأقصى، وإنما مسجد قبة الصخرة، وقد نحت في قلوب الأجيال منذ نعومة أظفارهم أن المسجد الأقصى هو هذا -مسجد قبة الصخرة-، وهذا غير صحيح، حتى الذين يتكلمون عن المسجد الأقصى من الدعاة، وأحياناً من أهل البلد من فلسطين، يضعون قبة الصخرة خلف أظهرهم في المؤتمرات، وإلى الآن أنا لا أعرف وجه هذا، لا أدري لماذا؟.

فقال: إن أخذتَ عني صليتَ خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ضاهيتَ اليهودية.

ضاهيت اليهودية، بالفتح، يعني كأنه أشار عليه بشيء فيه تعظيم لبعض ما عند اليهود، قبلة اليهود.

طالب: والضم -رعاك الله- له وجه لو قال: ضاهيتُ.

لكن هي ضبطتْ هكذا ضاهيتَ اليهودية.

فقال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس.

الصخرة كان النصارى لشدة عداوتهم لليهود ولغلبتهم عليهم، كانوا قد جعلوها مكاناً للمزابل يلقون فيها الأقذار والنفايات على هذه الصخرة، فعمر -رضي الله تعالى عنه- أزال ذلك عنها، وبدأ بنفسه فأزال شيئاً فتتابع الناس.

فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم.

سبق في بعض المناسبات أن التابوت كانوا يستقبلونه في الصلاة، فإذا سافروا وذهبوا في غزواتهم ونحوها حملوه، فإذا أرادوا الصلاة وضعوه فصلوا إليه، فإذا كانوا في البلد وضعوه على الصخرة، واستقبلوه، ثم بعد ذلك لما ذهب التابوت من بين أيديهم صاروا يصلون إلى مكانه وهي الصخرة.

فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن منَّ الله عليه بالإسلام فهُدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك، قال له أمير المؤمنين عمر: ضاهيتَ اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه.

وهذه الرواية على كل حال إسنادها عند الإمام أحمد فيه ضعف، وفيه رجل اسمه عيسى بن سنان، ضعفه جماعة كالإمام أحمد وأبي زرعة وابن معين.

سؤال: ما معنى الشطر؟

الشطر: النصف، ((ووضع شطرها فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها قال: ارجع إلى ربك، فوضع شطرها، فرجعت)) إلى آخره، كل هذا إجمال يعني في عشر عشر عشر، خمس خمس خمس، هنا شطرها شطرها، فإذا وضع الشطر ثم وضع شطره الآخر، فشطر الشطر الذي بقي، وهكذا.

ترتيب الأنبياء في السماوات:

كلما ارتفع النبي كان أشرف، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في السماء السابعة، وموسى -عليه الصلاة والسلام- في السادسة، فكلما ارتفع كان أرفع، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء سوى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وموسى -عليه الصلاة والسلام- هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حين أسري بي لقيت موسى -عليه السلام-))، فنعته فإذا رجل -حسبته قال:- ((مضطرب، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة))، قال: ((ولقيت عيسى)) فنعته النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ربعة، أحمر كأنما خرج من ديماس)) -يعني حمام-، قال: ((ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)) قال: ((وأُتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة -أو أصبت الفطرة- أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك))[1]. وأخرجاه من وجه آخر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي، أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أقرب الناس شبهاً به صاحبكم -يعني نفسه- فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم فسلم عليه، فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام))[2].

روى البيهقي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟، قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة؛ فلذلك سمي أبو بكر: الصدِّيق"[3].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة طه:٩]، برقم (٣٢١٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، برقم (١٧٢).

٣ - رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٦١)، والحاكم في المستدرك، (٣/٦٥)، برقم (٤٤٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٠٦).

قال موسى بن عقبة الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة، وقال السدي: بستة عشر شهراً، والحق أنه -عليه السلام- أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج -وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها-، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماءٍ مقرَّبوها، وسلّم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما -صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء-، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لمّا حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله -تعالى-، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل -عليه السلام- له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم إنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، والدليل على هذا قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [سورة الإسراء:١]، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً}، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [سورة الإسراء:٦٠]، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري، وقال تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [سورة النجم:١٧] والبصر من آلات الذات لا

الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلو أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختار أوفى الروايات في هذا الباب واقتصر عليها لكان ذلك أحسن في التفسير -والله أعلم-؛ لأن المقصود هو إيضاح كلام الله -عز وجل- وبيان المعاني دون الخروج عن ذلك إلى الحديث عن الوقائع التي يذكرها القرآن بشيء من التفصيل وإيراد الأدلة، فهذا قد يكون خروجاً عن المقصود بالنسبة للتفسير، وإن كان لا يخلو من فائدة، لكن به يطول الكتاب، ولذلك أعرضَ عن هذا التفصيل كثير من المفسرين قصداً، ونبهوا على هذا، وأن هذا من طلبه وجده في الكتب المصنفة في السنة، وفي السيرة.

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمرو بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دحية بن خليفة إلى قيصر، فذكر وروده عليه وقدومه إليه، -وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل-، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء، قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا -أرض الحرم- في ليلة فجاء مسجدكم هذا -مسجد إيلياء-، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح، قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجتُه، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى، قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت لأصحابي ما حُبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث.

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه [التنوير في مولد السراج المنير] وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ،

وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة الصف:٨].

{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}[سورة الإسراء:٢-٣].

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد -صلى الله عليه وسلم- عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد -عليهما من الله الصلاة والسلام-، وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يعني التوراة، {وَجَعَلْنَاهُ} أي: الكتاب {هُدًى} أي: هادياً {لبني إسرائيل ألاّ تتخذوا} أي: لئلا تتخذوا، {مِن دُونِي وَكِيلاً} أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}** قال: يعني التوراة، **{وَجَعَلْنَاهُ}** أي: الكتاب **{هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}**، وبعضهم يقول: **{وَجَعَلْنَاهُ}** أي: موسى -صلى الله عليه وسلم- وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والأقرب -والله أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير، **{جَعَلْنَاهُ}** أي: الكتاب؛ لأنه أقرب مذكور، والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

{هُدًى} أي: هادياً، **{لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً}**، قال: "**أي لئلا تتخذوا**"، واللام هنا للتعليل، **{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ}**، يعني أن الله -عز وجل- أنزل الكتاب الذي أنزله على موسى -عليه الصلاة والسلام- وجعله هادياً لهم لئلا يتخذوا من دون الله وكيلاً، ويحتمل أن تكون "أن" هذه مفسرة، و"أن" المفسرة كما هو معلوم هي التي تأتي بعد معنى القول، لكن لا بحروفه، فـــ **{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ}**، **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}**، ثم فسر هذا الهدى وهو ألا يتخذوا، بمعنى أن الكتاب جاء بالتوحيد، بالأمر بالتوكل على الله -عز وجل-، وتفويض الأمور إليه، والاستعانة به وحده، والثقة بما عنده وأن يكون هو الوكيل.

يقول: "**أي لئلا تتخذوا {مِن دُونِي وَكِيلاً} أي: ولياً، ولا نصيراً، ولا معبوداً من دوني**"، فالوكيل فعيل من التوكل، أي متوكَّلاً عليه، تفوضون إليه أموركم فيوصل إليكم النفع ويدفع عنكم الضر، فإن هذا لا يكون إلا لله -عز وجل-، **{وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ}** [سورة المائدة:٢٣]، **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}** [سورة الفرقان:٥٨]، والأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- في هذا المعنى متقاربة وترجع إلى شيء واحد، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع جملة من هذه المعاني التي ذكروها بهذا السياق، فبعضهم يقول: **{وَكِيلاً}** أي: كفيلاً بأموركم، وبعضهم يقول: شريكاً، وبعضهم يقول: كافياً، والله -عز وجل- يقول: **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** تفوض أمورك إليه وتركن إلى جنابه، وتعتمد عليه، ولا تلتفت إلى أحد سواه، وهذا هو التوحيد، إفراد الله -عز وجل- بالتوكل، والثقة به، دون الالتفات إلى أحد سواه؛ لينفعك أو ليضرك.

ثم قال: {ذُرّيّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المِنَّة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم {إِنّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: {ذُرّيّةَ مَنْ حَمَلْنَا} منادى ويحتمل أن يكون منصوباً على الاختصاص، ومن أهل العلم من خص بذلك بني إسرائيل مع أن ذرية من حُملوا مع نوح -عليه الصلاة والسلام- تشمل جميع الناس، فكلنا من ذرية أولئك، من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، والله -عز وجل- كما أخبر: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ} [سورة الصافات:٧٧]، فمن أهل العلم من يقول: لما كان السياق في خطاب بني إسرائيل وجه ذلك إليهم خاصة، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من حمله على العموم، {ذُرّيّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح كيف يقع منكم الالتفات والإشراك والتكذيب، والله -عز وجل- قد حملكم في السفينة وأنجاكم وأغرق العالمين، ثم بعد ذلك يقع منكم ما وقع من أولئك الذين أغرقهم الله؟، هذا أمر لا يليق ولا يحسن!.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها))[٤]، وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال، وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)) بطوله وفيه: ((فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك))[٥]، وذكر الحديث بكامله.

وذكر الشكر {إِنّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}، والشكر كما هو معلوم لا يكون إطلاقاً ممن يضيف الإنعام أو يقابل الإنعام إلى غير المنعِم، يقابله بعمل يوجهه إلى غير المنعِم المتفضل، فيعبد غيره، ويستعين بغيره، ويتقرب إلى غيره، فهذا هو أظلم الظلم، وتوجيهُ أو جعلُ العبادة في غير مَن خلق خلافُ الشكر.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤)، وأحمد في المسند (٣٦/١٩)، برقم (١١٩٧٣)، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين.

٥ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[سورة نوح:١]، برقم (٣١٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنّ فِي الأرْضِ مَرّتَيْنِ وَلَتَعْلُنّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مّفْعُولاً * ثُمّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوّلَ مَرّةٍ وَلِيُتَبّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً * عَسَىَ رَبّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} [سورة النحل:٤-٨].

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تَقدّم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ}[سورة الحجر:٦٦] أي: **تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ}: قوله: {وَقَضَيْنَا} هذه الكلمة أو الفعل، أو المادة، مادة القضاء تأتي بمعنى الإعلام، وتأتي بمعنى الإحكام للشيء، والفراغ منه، ومعانيها الفرعية متعددة، قضينا، القضاء يأتي بمعنى الحكم، تقول: قضى بين الخصوم، ويقول الله -عز وجل-: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة:٢٠٠] يعني فرغتم منها، وتقول: قضاء الفائتة، يراد به الفعل، الصلاة خارج الوقت، وقوله: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} بناءً على الاختلاف في المعنى اللغوي اختلف المفسرون، ما معنى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟، فهنا يقول: يخبر أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب، فهنا فسر القضاء {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} بمعنى الإعلام، أعلمناهم، ومن أهل العلم -كابن جرير -رحمه الله- مَن قال: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: فرغنا إليهم، يعني بإعلامهم، وإخبارهم -عن طريق كتابهم الذي أنزلناه على موسى -صلى الله عليه وسلم- أن ما ذكر سيقع لا محالة، وكلمة "قضى" يمكن أن تكون مضمنة معنى الإيحاء، ولذلك عُديت بـــ"إلى"، بمعنى أوحى إليه، وإذا أردت الفصل بين الخصوم تقول: قضى بين الخصوم، وهكذا كل معنىً بحسبه، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم**" وهو التوراة، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، وبعضهم يقول: المقصود {فِي الْكِتَابِ} يعني: اللوح المحفوظ، أي أن الله قدر ذلك عليهم أزلاً، والأول هو

الأقرب؛ لأنه يتحدث عن بني إسرائيل وحينما يذكر الكتاب في مثل هذا المقام فهو الكتاب الذي أنزل عليهم، والله أعلم.

وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا} أي: أولى الإفسادتين، {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ} أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها، فانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، وكان وعداً مفعولاً.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم من هم؟

قول الله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، هذه الأرض قيل: هي أرض الشام، وقيل: بيت المقدس، وبعضهم يقول: هي مصر وهذا بعيد، والإفساد المعروف الذي حصل منهم كان في الشام أو في بيت المقدس؛ لأنه مكان وجودهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، ليس هناك شيء يمكن أن يعتمد عليه في هاتين الإفسادتين متى كانتا؟، ومتى كانت إدالة عدوهم عليهم؟ وكل ما يذكر في هذا الباب مرجعه إلى الأخبار الإسرائيلية، ومثل هذه الأخبار لا يعول عليها، ولذلك تجد بينها من الاختلاف والمنافاة الشيء الكثير، وبعضهم يقول: إن الإفسادة الأولى هي بقتل أشعيا، وبعضهم يقول: حبس أرميا، وبعضهم يقول: مخالفة أحكام التوراة، وبعضهم يقول: قتل زكريا -عليه الصلاة والسلام-، والثانية: بعضهم يقول: بقتل يحيى، ومحاولة قتل عيسى -عليه الصلاة والسلام-، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}، يقول: "**أي سلّطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد**"، ولا يوجد ما يعتمد عليه في معرفة من سُلطوا عليهم، بعضهم يقول: سلط عليهم في المرة الأولى بُخْتُنَصَّر، وبعضهم يقول: جالوت، وبعضهم يقول: جند من فارس، وبعضهم يقول: جند من بابل، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: الأولى جالوت، والثانية بُخْتُنَصَّر، وبعضهم يقول: في الأولى ملك يقال له: سنحريب من ملوك العراق الأقوياء، ومعرفة مثل هذا لا يترتب عليه شيء، {فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ} يعني أولى الإفسادتين المذكورتين اللتين قضاهما الله -عز وجل- على بني إسرائيل، فيعاقبهم بتسليط عدوهم عليهم وإدالته عليهم، فاستباح بلادهم وقتل نفوساً كثيرة، وخرب البلاد وأخذ الأموال، كل هذا قد وقع، لكن لا يدرى على يد من كان؟ -الله أعلم-، والمفسرون يطبقون على أن هاتين الإفسادتين قد وقعتا، وأن هذه العقوبات قد نزلت، وسلط الله عليهم من سلط من جنده، أو من خلقه فعثوا بهم فساداً، وخربوا ملكهم، كل هذا قد وقع، ولا حاجة إلى ما يقوله بعض الناس اليوم: إن الإفسادة الثانية لم تقع، وأنها هي التي وقعت الآن، يعني لم تقع في القديم، والمفسرون مطبقون على أن ذلك قد وقع، لكن الله -عز وجل- قال بعد ذلك: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، والمفسرون يقولون: إنهم قد عادوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنقض العهود وبتكذيبه -عليه الصلاة والسلام-، وبمحاولة قتله، فسلط الله -عز وجل- عليهم نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان، فوقع ما وقع لقريظة والنضير وقينقاع وأهل خيبر، فهؤلاء يقولون: هذه هي المرة الثالثة، وهذا الوعد مفتوح {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، والله -عز وجل- حكَمٌ عدلٌ، ويقول: {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ

أَنْفُسِكُمْ}[سورة آل عمران:١٦٥]، فما يُسلط هؤلاء الأراذل على المسلمين إلا بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في حق الله -عز وجل-.

وقوله: **{فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}** يقول: "**أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها، فانصرفوا ذاهبين**"، إلى آخره، هذا المعنى هو الذي عليه عامة المفسرين، والجوس يأتي بمعنى طلب الشيء باستقصاء، وفي قراءة لابن عباس **{فحاسوا}** يقال: جاسوا وحاسوا وهاسوا، كل ذلك بمعنى واحد، جاسوا خلال الديار، والمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير يشمل أقوالاً عدة، قال: تملكوا بلادكم، وسلكوا خلال بيوتكم، وانصرفوا ذاهبين، هذه معانٍ ذكرها المفسرون، **{فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}** بمعنى أنهم تمكنوا منها، ودخلوا فيها، حتى تمكنوا وصاروا يذهبون ويجيئون، ويتخللون البيوت والأحياء والطرقات ذاهبين وراجعين لا يخافون، بمعنى حصل لهم التمكن، وأصل المعنى: طلب الشيء باستقصاء، فإنهم بذلك كما قال بعض المفسرين: صاروا يطلبون من يخالفهم ومن يقف في وجوههم، أو يتطلبون النفوس بقتلها، يذهبون ويرجعون، يقتلون الناس وينهبون الأموال ويخربون ما وجدوه، والألفاظ القرآنية مهما وضعت من الألفاظ مكانها فإنها لا تؤدي معناها، يعني لو كانت مكان هذه اللفظة **{فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}**، لو قال مثلاً: فجاسوا، فتغلغلوا خلال الديار، أو جعلوا يذهبون ويرجعون، أو تمكنوا لما أدت المعنى المراد، ويمكن تصور هذا المعنى بتصور المحتل حينما يتغلغل ويتمكن في البلد، وتنتشر جنوده بين البيوت وفي الطرقات، وفي كل مكان يذهبون ويجيئون، فهذا معنى **{فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}**.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضْع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غُنْية عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله علينا في كتابه غُنْية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاءً وفاقاً، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦]، **فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء، وقد روى ابن جرير عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُخْتُنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كِبًا، فسألهم، ما هذا الدم؟**

على كِبًا: يعني على كناسة.

فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر.

يعني مهما وضع عليه من الكناسة يظهر ويعلوها.

قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} أي: فعليها، كما قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}.

الخطاب في قوله: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}، يحتمل أنه متصل بما قبله، {لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، فيقول لهم: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} فيكون الخطاب موجهاً إلى أولئك الذين وقع منهم الإفساد، ويحتمل أن يكون موجهاً لأحفادهم ممن عاصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون موجهاً للمخاطبين بالقرآن، وبعضهم يقول: للعرب من المشركين الكفار، ويمكن أن يحمل على العموم، وما قبله وما بعده في بني إسرائيل، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} أي: الكرّة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرّة الثانية وجاء أعداؤكم، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} أي: يهينوكم ويقهروكم، {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ} أي: بيت المقدس، {كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، {وَلِيُتَبِّرُوا} أي: يدمروا ويخربوا، {مَا عَلَوْا} أي: ما ظهروا عليه، {تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ} أي: فيصرفهم عنكم، {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} أي: متى عدتم إلى الإفساد، {عُدْنَا} إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حصيراً أي سجناً، وقال مجاهد: يحصرون فيها، وكذا قال غيره، وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحيَّ -محمداً -صلى الله عليه وسلم- وأصحابَه-، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

قوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} جواب "إذا" محذوف تقديره: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يهينوكم ويقهروكم**"، هذا تفسير بالمعنى، والمعنى الأدق من هذا يمكن أن يكون هكذا {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يعني: ليفعلوا بكم ما تحصل به المساءة لكم مما يظهر أثره في وجوهكم، فالإنسان يظهر على وجهه الأثر الذي يقع عليه، فالوجه مرآة، يعكس ما في داخل الإنسان من هم أو خوف أو ظلمة قلب، أو غير ذلك من المعاني والأحوال، فالشاهد {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يعني: ليفعلوا بكم ما يحصل به مساءتكم، فيظهر أثر ذلك على وجوهكم، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ}، قال: "**أي يهينوكم ويقهروكم**"، {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ} يعني بيت المقدس، {كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ} أي: يدمروا ويخربوا، {مَا عَلَوْاْ} أي: ما ظهروا عليه {تَتْبِيرًا}، قال: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ}، وعسى من الله واجبة، أي متحققة الوقوع، فأدالهم الله -عز وجل- على عدوهم وأظهرهم عليه، قال: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا}، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم، {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} عامة المفسرين يقولون: إن ذلك قد وقع في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وفي قوله هنا: {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} في قراءة لأبيّ {لَنسوءنْ وجوهكم} يكون من فعل الله -عز وجل-، وفي قراءة متواترة لحمزة وابن عامر {ليسوء}، وفي قراءة للكسائي {لنسوء} كل ذلك من فعل الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر الوجوه بالأشراف والسادة، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} [سورة النمل:٣٤] وهم وجوه الناس، وهذا المعنى بعيد؛ لأنه خلاف الظاهر المتبادر من القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}، ذكر المعنيين، المعنى الأول: أنها تحصرهم، وإذا كانت تحصرهم يلزم من ذلك أن تكون سجناً لهم، فمن فسره بالسجن فهذا تفسير باللازم، فجهنم تحصرهم {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [سورة الفرقان:١٣]، والمعنى الثاني: هو ما نقله عن الحسن قال: "**فراشاً ومهاداً**"، فسر هنا حصيراً بالحصير الذي يُفرش ويُجلس عليه، والله -عز وجل- قال: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف:٤١]، فيمكن أن يفسر الحصير هنا بهذا المعنى، فالمعنيان كلاهما تحتمله هذه اللفظة، ويمكن أن يفسر بهما فيقال: جهنم تكون سجناً لهم، لا يستطيعون الخلاص، ولا الخروج منها، وتكون كذلك أيضاً فراشاً ومهاداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} [سورة الإسراء:٩-١٠].

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ} به {الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ} على مقتضاه، {أَنّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} أي: **يوم القيامة، {وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة}** أي: **ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن {لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}** أي: **يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [سورة الإنشقاق:٢٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**لأقوم الطرق وأوضح السبل**"، والله -تبارك وتعالى- أطلق هنا {يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ} في كل شيء، مما يحتاج الناس إليه، فهذا القرآن قد اشتمل على ألوان الهدايات، والشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان تكلم على هذه الآية بكلام طويل مفصل يزيد على خمسين صفحة، تكلم على مسائل فيما يتعلق بتعدد الزوجات والمصالح المترتبة على هذا، وتكلم على الرق، وغير ذلك.

قال: {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ}، وهذا فيه ذكر لبعض الموضوعات التي تضمنها القرآن، أو جاء القرآن لتقريرها كالهداية، وكذلك البشارة لأهل الإيمان، {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ}، وهذا اشتمل على شروط قبول العمل الثلاثة: الإيمان والإخلاص والمتابعة.

وقوله: {وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة} قال: "**أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**"، البشارة كما هو معروف قيل لها بشارة لأنه يظهر أثرها على بشرة المبشَّر، وغالب ما تستعمل في الإخبار بما يسر، وقد تأتي معبراً بها عن الإخبار بما يسوء، كقوله: {فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، وبعضهم يقول: إن هذا الاستعمال هو من قبيل المجاز، وهذا عند القائلين بالمجاز، كقول بعضهم:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بَخيلٍ *** تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

فسماه تحية، الشاهد أن من يقول بالمجاز يقول: إن هذا من قبيل المجاز، والذين لا يقولون بالمجاز يقولون ما سبق من أن الاستعمال الغالب لهذه اللفظة إنما يكون في الإخبار بما يسر، وقد تستعمل في الإخبار بما يسوء، وبعضهم يقول: هذا من قبيل التهكم بهم، وهذه الآية من أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك البشارة لأهل

الإيمان بأمرين، يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالثواب، وبما ينتظر المكذبين من العقاب، يعني كل هذا بشارة لأهل الإيمان بأن الله -عز وجل- سيعذب أعداءه وأعداءهم وينتقم منهم، والأول أقرب أنه جاء مشتملاً على التبشير والإنذار.

{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}[سورة الإسراء:١١].

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه، أو ولده، أو ماله بالشر، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ} [سورة يونس:١١] الآية، وكذا فسره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: ((لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها))[1]، وإنما يحمل ابنَ آدم على ذلك قلقُه وعجلته؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً}، وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ههنا قصة آدم -عليه السلام- حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك يا آدم، فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده، جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا رب عجل قبل الليل.

قوله: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} المعنى المتبادر الظاهر المشهور الذي عليه عامة المفسرين هو أنه قد يدعو على نفسه، أو ماله أو ولده، ونحو هذا، ويدخل في هذا ما ذكره بعضهم مما قد يقع من الإنسان في حال جهالته أيضاً، كقولهم: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[سورة الأنفال:٣٢]، هذا من دعائه بالشر، وهناك معنىً آخر ذكره بعض أهل العلم، قال: إنه يدعو بالشر أي بتحصيله وطلبه، وهو ما لا يرضي الله -عز وجل-، فقد يدعو ربه أن ييسر له المعصية، وهذا دعاء بالشر، هكذا قال بعضهم، وبعض السفهاء يقول:

أطوف بالبيت فيمن يطوف *** وأرفع من مئزري المسبلِ
وأسجد بالليل حتى الصباح *** وأتلو من المحكم المنزلِ
عسى فارج الهم عن يوسف *** يُسخِّر لي رَبَّة المحملِ

ربة المحمل: يعني صاحبة الهودج، يطوف بالبيت فيمن يطوف، يسجد بالليل حتى الصباح، ويتلو من المحكم المنزل، كل هذا من أجل أن ييسر له ربة المحمَل، أو المَحمِل، والظاهر المتبادر أن المقصود بـــ{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} -لأنه قال: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}- أنه قد يدعو على نفسه، أو يدعو على ولده ومن يحب، أو على ماله، في حالات غضبه، ثم يندم على ذلك، ولو وقع ما دعا به لأكلته الحسرة والندامة.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، برقم (٣٠٠٩).

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [سورة الإسراء:١٢].

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضيّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: {لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، {وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة القصص:٧١-٧٣]، **وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً}** [سورة الفرقان:٦٢-٦٢]، **وقال تعالى: {وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [سورة المؤمنون:٨٠]، **وقال: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}** [سورة الزمر:٥]، **وقال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}**[سورة الأنعام:٩٦]، **وقال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}**[سورة يس:٣٧-٣٨]، **ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس؛ ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} إلى قوله: {لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}** [سورة يونس:٥-٦] **وقال تعالى: {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [سورة البقرة:١٨٩] الآية.

قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، قال: ظلمة الليلة وسدف النهار، وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، وقال ابن أبي نجيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله -عز وجل-.

قوله: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ}، يمكن أن يقال: إنه قدم الليل باعتبار أنه الأصل، ثم قال: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} يعني: قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ظلمة الليل وسدف النهار**"، وسدف النهار يعني ما يكون فيه من الاختلاط في أوله ما بين الفجر إلى طلوع الشمس، واختلاط النور بالظلام، وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، بمعنى جعل الليل مظلماً والنهار مضيئاً، هذا معناه، قال: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، وجاء هذا عن جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهو مروي عن علي -رضي الله عن

الجميع-، بعض أهل العلم يقول: كان القمر مثل الشمس يضيء، ثم بعد ذلك مُحي فصار بالصورة التي نراها، والعلماء يقولون: إن الضوء الذي في القمر أو النور الذي في القمر ليس من ذاته، وإنما هو انعكاس لما يحصل له من ضوء الشمس، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا}، فبعضهم يقول: هذا هو المحو: أن الله غيره بعدما كان كالشمس في الإضاءة، وبعضهم يقول: الله خلقه هكذا ابتداءً، ولم يكن كالشمس، والمقصود بقوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} أي: جعلناه لا يضيء كالشمس، فخلق الشمس بهذا الضياء لينكشف به الظلام، وخلق القمر بهذه الصفة، وأن هذا هو المحو، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ}: يعني ابتداءً منذ أن خلقناها، والآية تحتمل هذا وهذا، {فَمَحَوْنَا} هل هذا المحو كان بعدما خلقه على صفة أخرى ثم بعد ذلك تغير؟ أو أنه خلقه هكذا بهذا المحو؟ ليس عندنا دليل يحدد شيئاً من ذلك، -والله تعالى أعلم- كيف كان، لكن هنا يقول: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: "**السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى**"، يعني لم يكن مضيئاً كالشمس ثم بعد ذلك تغير، وإنما هكذا خلقه ممحوًّا، وقال هنا عن ابن عباس: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} قال: "**ليلاً ونهاراً، وكذلك خلقهما الله -عز وجل-**"، يعني نفس الليل ونفس النهار، يعني هما آيتان، قال: {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، بعضهم يقول: هذا من قولهم: أبصر النهار يعني إذا صار في حالة يُبصَر بها، فيكون من وصف الناس، يبصرون بها، {آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}: يعني يبصر بها الناس، أو أن المعنى {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} أي: مبصرة للناس، آية واضحة، فيكون ذلك من صفته، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} أي: بتعاقب الليل والنهار، فتنقضي بذلك الأيام والشهور والسنوات، والفرق بين العدد والحساب: {عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}، العدد: يقولون: هو إحصاء ما له كمية من غير أن يتحصل منه شيء، الآن لو جلس إنسان يعد سواري المسجد، واحد، اثنان، إلى آخرها، هذا يسمى عدد، وأما الحساب: فهو إحصاء ما له كمية مما يتحصل منه شيء، فالساعة ستون دقيقة، فإذا جلس يحصي أجزاء الساعة، حتى يتحصل منها ساعة يقولون: هذا هو الحساب، اليوم أربع وعشرون ساعة، فإذا جلس يعد ساعات النهار حتى يتحصل منها اليوم هذا يقولون له: حساب، الأسبوع سبعة أيام، فإذا جلس يعد السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، فهذا يقال له: حساب، والشهر يكون تسعاً وعشرين أو ثلاثين، فإذا جلس يعد هذا فيقال له: حساب، وهكذا العام حينما يعد شهور العام ليتحصل منها سنة فيقول مثلاً: المحرم وصفر إلى آخره حتى يصل إلى ذي الحجة ويقول: هذا عام، هذا هو الحساب، إحصاء ما له كمية؛ ليتحصل منه شيء، تَعدُّ اثني عشر شهراً على أساس أن تخرج بسنة، تعد أربعاً وعشرين ساعة من أجل أن تخرج باليوم، وهكذا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}[سورة الإسراء:١٣-١٤].

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [سورة الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[سورة ق:١٧-١٨]، وقال: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الإنفطار:١٠-١٢]، وقال: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة التحريم:٧]، وقال: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} [سورة النساء:١٢٣] الآية، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً} أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً، منشوراً أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره، {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة:١٣-١٥]؛ ولهذا قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} أي: إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ } إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه.

وقال معمر عن قتادة: {أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ} قال: عمله، {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} قال: نخرج ذلك العمل {كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، قال معمر: وتلا الحسن البصري {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [سورة ق:١٧]، يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووُكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، {اقْرَأْ كَتَابَكَ} الآية، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن -رحمه الله-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم**"، ويضبط هذا فيقال: بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو ما يسمى بعلم المناسبة، وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها، فقوله: في هذه الآية {وَكُلَّ إِنْسَانٍ} هذه في العمل، والتي قبلها في الزمان {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} [سورة الإسراء:١٢]، فالزمان ظرف للأعمال، الأعمال إنما تقع في الزمن، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، قال الحافظ -رحمه الله-: "**الطائر هو ما طار عنه من عمله**"، ما طار عنه، وعزى هذا إلى جماعة من السلف، وقال به طائفة منهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ما طار عنه، وإن شئت أن تقول: منه، من العمل، يعني أن طائره هو عمله الذي قدمه من خير وشر، هذا معنى، والمعنى الآخر هو ما طار له من عمل وسعادة وشقاوة في قدر الله -عز وجل-، ما قدره عليه، فإن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فهذا المعنى، سواء عبر عنه بما طار له من العمل في الأزل في القدر، أو ما قدر عليه من السعادة والشقاوة فهذا كله بمعنى، وبعضهم وسع هذا فقال: ما طار له في قدر الله -عز وجل-، ما كتب من رزق وأجل وعمل، {أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ} أن ذلك واقع لا محالة، {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، ولكن لو أنه قيل: إن هذا المعنى أوسع من المراد في الآية؛ لأن الله قال: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، فالذي يكتب في الكتاب الذي يلقاه منشوراً هو العمل، وليس الرزق والأجل، وما إلى ذلك مما قدره الله -عز وجل- على الإنسان من مصائب، ولذات وما أشبه هذا، إنما هو عمله الذي يجازى عليه، وفي بعض القراءات {وَيَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يعني: هذا الطائر، وفي بعضها {وَيُخْرَجُ له} فالشاهد أن القول بأن ذلك في السعادة والشقاوة، أي: ما سبق له في علم الله -عز وجل- من السعادة والشقاوة هو بمعنى قول من قال: ما قدره الله -عز وجل- عليه من الأعمال، ولكن القول بأنه ما طار منه أو عنه، فهذا يختلف، فهذان قولان، والثالث أوسع من الأول، وإن كان يشترك معه في بعض المعنى، أو في أصل المعنى، والجمع بين القولين -أعني ما قدر عليه من العمل أو السعادة والشقاوة، وما طار عنه من العمل، ما صدر منه- أن بينهما ملازمة، فإن ما صدر عن الإنسان من عمل طاعة ومعصية ونحو ذلك، لا يخرج عما قدره الله -عز وجل- عليه، فهذان متلازمان، فلا يكون شيء ولا يقع من الإنسان قليل ولا كثير إلا وهو في علم الله -عز وجل-، وهو مما قدره الله -عز وجل- وقضاه، ومما يدل على المعنى الأول -يعني السعادة والشقاوة- قول الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن:٢]، فعلى أحد المعنيين في الآية، {فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} بمعنى أن الله -عز وجل- خلقهم هكذا، خلق قوماً للجنة، وخلق قوماً للنار، كما جاء في النصوص الأخرى التي تدل على هذا المعنى: من بعْث الملَك إليه إذا بلغ أربعة أشهر، وهو في بطن أمة، فيؤمر بأربع كلمات ومنها عمله، شقي أو سعيد[١]، وهكذا أيضاً ما جاء من الأحاديث في أن الله -عز وجل- كتب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، وكذلك أهل النار، فهذا أمر حاصل دلت عليه

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب خلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٣).

النصوص، والمعنى الثاني: أن كل إنسان يلزمه عمله الذي صدر عنه، هذا دلت عليه نصوص كثيرة، كقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}، {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، إلى غير ذلك من النصوص، فبين القولين ملازمة، والطائر عند العرب يطلق على الحظ، وهنا قال: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، في تعليل ارتباط ذلك بالعنق وإضافته إليه، يقول: "**إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه**"، بمعنى أن اليد قد تنفصل، والقدم قد تنفصل، أما العنق فلا ينفصل إلا بانفصال الحياة؛ ولهذا تربط به هذه الأشياء، يقال: هذا في عنقك، فلان في عنقك، ما حصل لهؤلاء من الضلال والانحراف في عنقك، وهذا معنى: اللازم للإنسان لزوماً لا ينفك عنه، وقوله عن الحسن البصري -رحمه الله-: "**حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك**" هذا هو المعروف، وأما طيُّ الصحيفة نهاية العام فلا أعلم لهذا دليلاً، إنما تطوى صحيفة الإنسان إذا مات، فالصحيفة لا تطوى إلا إذا مات الإنسان، هذا الذي يعرف والله تعالى أعلم، والناس ينبغي أن يضبطوا كلامهم بالضوابط الشرعية، فلا يقال تطوى الصحيفة في نهاية العام ثم تفتح صحيفة أخرى، وبداية العام من شهر محرم إنما كان ذلك في زمن عمر -رضي الله تعالى عنه-، ولم يكن في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالحكم بأن صحيفة العمل تطوى في نهاية شهر ذي الحجة، وتبدأ صحيفة من بداية شهر محرم، إنما كان هذا التاريخ من أجل الضبط، وجدوا أن الناس يؤرخون الكتب فاحتاجوا إلى شيء يؤرخون فيه، فتشاوروا فاصطلحوا على أن يكون ذلك وقت الهجرة؛ لأنه الزمن الفاصل بين مرحلتين، من هذا الباب، لكن كونه تطوى الصحيفة أو تُرتب عليه أشياء جديدة من أمور في علم الله -عز وجل-، وفي أقداره، هذا يحتاج إلى دليل، -والله أعلم-، أما التهنئة بالعام الجديد فلا أعلم لهذا أصلاً في الشرع، وأخشى أن يكون هذا فيه مضاهاة للنصارى في احتفالهم وتهانيهم بعامهم الجديد، العام الجديد عندهم عيد وتهانٍ وبطاقات، فيكون ذلك كأنه فيه مضاهاة له، وصرنا نحتفل بالعام الجديد، أو نحتفي به أو نرسل التهاني مثل هؤلاء، وفي زمن أبي بكر وزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن فيه بداية العام الجديد.

{مّنِ اهْتَدَىَ فَإِنّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلّ فَإِنّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ وَمَا كُنّا مُعَذّبِينَ حَتّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء:١٥].

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصّل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، {وَمَن ضَلّ} أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ} أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} [سورة فاطر:١٨]، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت:١٣]، وقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [سورة النحل:٢٥]، فإن الدعاةَ عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا مَن أضلوا مِن غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: {وَمَا كُنّا مُعَذّبِينَ حَتّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً}.

قوله تعالى: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، كفى: إذا جاءت متعدية تأخذ مفعولين، لا تأتي الباء مع ما بعدها، تقول: كفى بالشيب واعظاً، لكن إذا جئت بها متعدية إلى مفعولين سقطت منها الباء، ففي قوله: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، ما قال مثلاً: كفى بنفسك اليوم لك حسيباً، عديت بعلى؛ لأن حسيباً مضمنة معنى الشهادة، شهد عليه {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ} [سورة فصلت:٢٠]، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي: إن ذلك عائد إليه، لا إلى غيره، وقال: أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أصل الوزر: من وَزَرَ يَزِرُ إذا حَمَلَ، فأصله الحمْل؛ لذلك يقال: الوزير لأنه يحمل أعباء تدبير ما أنيط به من أعمال السلطان، أو من شئون الدولة، يقال له: وزير، فهذا الفعل وزر بمعنى حمل، هذا أصله، -والله أعلم-.

وكذا قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}.

إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}[سورة الملك:٨-٩]، **وكذا قوله:** {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة الزمر:٧١]، **وقال تعالى:** {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[سورة فاطر:٣٧] **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء:١٥].

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة -رحمهم الله تعالى- فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه:

(فالحديث الأول): روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً))[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث الذي أورده المصنف -رحمه الله- هو أصل في هذا الباب، والكلام في أهل الفترة كثير، والمقصود بهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وقد يطلقه بعض أهل العلم بإطلاق خاص ويقصد به الذين كانوا بين عيسى -صلى الله عليه وسلم- والنبي -عليه الصلاة والسلام-، ولكن هؤلاء ليسوا جميعاً بأهل فترة، العرب كانوا على بقية من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وكان أول من غير دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- هو عمر بن لحي الخزاعي كما هو معروف، وهو أول من سيب السوائب، وبحر البحائر، وجاء بالأصنام إلى مكة، وأمرهم بعبادتها، وكان سيداً مطاعاً، ومعلوم أن خزاعة كانت مستولية، أو حاكمة في مكة مدة طويلة تبلغ ثلاثمائة سنة، فالشاهد أنهم كانوا على بقية من دين إبراهيم؛ ولهذا لا يقال: إن جميع هؤلاء كانوا أهل فترة؛ ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سأله رجل: أين أبي؟ قال: ((في النار))، ثم لما ولّى الرجل دعاه فقال: ((إن أبي وأباك في النار))[٢]، وكذلك لما استأذن ربه أن يزور قبر أمه فأذن له،

---

١ - رواه أحمد في المسند (٢٢٨/٢٦)، برقم (١٦٣٠١)، وقال محققوه: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٨١).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين، برقم (٢٠٣)، من حديث أنس -رضي الله عنه.

واستأذنه أن يدعو لها فلم يأذن له[٣]، ولما استغفر من استغفروا لآبائهم أنزل الله -عز وجل-: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، فهذه الأدلة تدل على أن مِن هؤلاء مَن بلغه ما تقوم عليه به الحجة، وأنه غير معذور، لكن من لم يبلغه شيء فيقال لهم: أهل الفترة، في أي زمان كانوا، وفي أي مكان، وهؤلاء العلماء تكلموا فيهم، وفي مآلهم، ولا ينبغي العدول عن هذا الحديث الذي أقل أحواله أنه حسن، حديث الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه-، هذا في هؤلاء الثلاثة: الأصم الذي لا يسمع شيئاً، والهرم، والأحمق، يعني المجنون، قال: ((وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب...)) إلى آخره، يمتحنون في الآخرة، ولا يرِد على هذا قول من قال: إن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل، فيقال: الحديث دل على هذا، وإذا دل عليه النقل فلا مجال لقول قائل، فالأصل أن الآخرة دار جزاء، ولكن يوجد فيها الأمر بالسجود {وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}[سورة القلم:٤٢]، وكذلك هؤلاء يمتحنون، ويبقى الكلام على الأطفال، أطفال المسلمين وأطفال المشركين، من مات وهو صغير، فهذه المسألة فيها كلام كثير لأهل العلم.

وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مثله، غير أنه قال في آخره: ((فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها))[٤]، وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد وقال: هذا إسناد صحيح، ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- فذكره مرفوعاً، ثم قال أبو هريرة: فاقرءوا إن شئتم {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- موقوفاً.

(الحديث الثاني): عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟))[٥]، وفي رواية قالوا: يارسول الله أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٦].

---

٣ - رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي))، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي - صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل- في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٦).

٤ - رواه أحمد في المسند (٢٦/٢٣٠)، برقم (١٦٣٠٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣٤).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم (١٢٩٣)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، برقم (٦٢٢٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٩).

هذا الحديث كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- توقف في هؤلاء، ومن أهل العلم من فهم غير هذا من هذا الحديث: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))، والحديث هنا لم يُبن عن مصيرهم، والأحاديث في هذا ثلاثة أنواع، منها ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه أنهم يلحقون بآبائهم، ومنها ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم في الجنة، أو ما في هذا المعنى، ومنها ما يدل على التوقف، وتبقى بعض الأحاديث العامة ((كل مولود يولد على الفطرة))؛ ولهذا فإن أهل العلم اختلفوا في الأطفال كثيراً، أما أطفال المسلمين فالإجماع أنهم في الجنة، ولكن الكلام في أطفال المشركين إلى أين يصيرون؟.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أعلم، شكَّ موسى - قال: ((ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم -عليه السلام-))[٧].

قوله: شكَّ موسى: يعني موسى بن داود وهو الذي يرويه عنه الإمام أحمد.

هذا خاص بذراري المسلمين، وهذا مجمع عليه وليس محل الإشكال.

وفي صحيح مسلم عن عياض -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الله -عز وجل- أنه قال: ((إني خلقت عبادي حنفاء))[٨]**، وفي رواية لغيره: ((مسلمين))**[٩].

من أهل العلم من يحتج بهذه العمومات، ((خلقت عبادي حنفاء))، ((كل مولود يولد على الفطرة))، أن الصغار سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار يولدون على الفطرة، فإذا ماتوا فهم على الإسلام.

(الحديث الثالث): عن سمرة -رضي الله تعالى عنه-: رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة))، فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: ((وأولاد المشركين))[١٠]**. وروى الطبراني عن سمرة قال: سألْنا رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين، فقال: ((هم خدم أهل الجنة))**[١١].

(الحديث الرابع): عن عم حسناء: روى أحمد عن حسناء بنت معاوية، من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة ؟ قال: ((النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة،

---

٧ - رواه أحمد في المسند (١٤/٧١)، برقم (٨٣٢٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٠٣).

٨ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥)، وهو حديث طويل.

٩ - رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠/٧)، برقم (٣٨٧٨).

١٠ - هذا الحديث جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه من طريق عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب -رضي الله عنه-، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (٦٦٤٠).

١١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٩٩٣)، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٦٨)، وصححه في صحيح الجامع برقم (٢٥٨٦).

والوئيد في الجنة))[١٢].

قوله: ((المولود في الجنة)) يعني: الذي يموت وهو صغير، وكذلك الوئيد، والوئيد هؤلاء الذين كان وأْدُهم في الجاهلية، وليسوا قطعاً من أبناء المسلمين، إن صح هذا الحديث، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**عن عم حسناء**"، وحسناء هذه تكلم فيها بعض أهل العلم، فقالوا: إنها مجهولة، وعم حسناء اسمه أسلم بن سليم، فضعف بعض أهل العلم هذا الحديث لجهالة حسناء.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية -رضي الله تعالى عنهم- وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهو على المنبر يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر))[١٣]، قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به، ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- موقوفاً.

بما أن الحافظ -رحمه الله- أورد بعض الأدلة في هذه المسألة يمكن أن أُورد بعض الأحاديث الصحيحة فيها، وشيئاً من كلام بعض أهل العلم المحققين في هذا الباب، هذه جملة من الأحاديث في هذا الموضوع:

حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((صغارهم دعاميص أهل الجنة))، والدعاميص: يعني دويبة صغيرة تميل إلى السواد في الماء تتحرك سريعة، ((صغارهم دعاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه))، أو قال: ((أبويه، فيأخذ بثوبه))، أو قال: ((بيده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا))، صنفة ثوبك: يعني طرفه، ((فلا يتناهى))، أو قال: ((فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة))[١٤]، هذا في المسلم.

وفي الحديث الآخر: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل مات ابنه صغيراً: ((ما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك))[١٥]، هذا في أطفال المسلمين.

ولما توفي إبراهيم بن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن له مرضعاً في الجنة))[١٦].

---

١٢ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، برقم (٢٥٢١)، وأحمد في المسند (١٩٠/٣٤)، برقم (٢٠٥٨٣)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة حسناء، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٢٧٦).

١٣ - رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٧٢٤)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٩٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا نعلم له علة ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥١٥).

١٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، برقم (٢٦٣٥).

١٥ - رواه الإمام النسائي، كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة، برقم (١٨٧٠)، من حديث قرة -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (١٧٥٦)، وفي أحكام الجنائز (١٦٢).

١٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، برقم (١٣١٦)، عن البراء بن عازب -رضي الله عنه.

وأيضاً: الحديث الطويل في الرؤيا التي رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه: ((فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل مِن أكثرِ وِلْدان رأيتهم قط))، ثم بعد ذلك لما سأل عنهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في الجواب: ((وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأما الوِلْدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة))[١٧]، وهذا ظاهره لا يختص بالمسلمين، مع أنه يوجد من الأحاديث مثلاً حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أولا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً))[١٨]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقرها على هذا.

يقول النووي -رحمه الله-: "أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو في الجنة؛ لأنه ليس مكلفاً، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به، -لحديث عائشة الذي ذكرته آنفاً- قال: وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- في قوله: "أعطه إني لأراه مؤمناً"[١٩]،... إلى أن قال: ويحتمل أنه -صلى الله عليه وسلم- قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم))[٢٠]"[٢١].

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: ((ما من مسلم)): " ...أن من يكون سبباً في حجب النار عن أبويه، أولى بأن يحجب هو؛ لأنه أصل الرحمة وسببها"[٢٢]، وقال في حديث إبراهيم بن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن له مرضعاً في الجنة: "وإيراد البخاري له في هذا الباب يشعر باختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة، فكأنه توقف فيه، ثم جزم به"[٢٣].

فظواهر الأحاديث كلها تدل على أن أطفال المسلمين في الجنة، وجاء عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم في الجنة.

---

١٧ - رواه البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (٦٦٤٠).

١٨ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٦٢).

١٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، برقم (٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إعطاء من يخاف على إيمانه، برقم (١٥٠).

٢٠ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، برقم (١٣١٥).

٢١ - شرح النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

٢٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٤/٣).

٢٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٤/٣).

وجاء من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً بلفظ: ((ذراري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم -عليه السلام-))[٢٤]، وأيضاً: ((أطفال المسلمين في جبل في الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة، حتى يدفعوهم إلى آبائهم يوم القيامة))[٢٥].

هذا بالنسبة لأطفال المسلمين، أما ما يتعلق بأطفال المشركين: فجاء في حديث الرؤيا السابق: ((وأما الوِلْدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة))، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وأولاد المشركين)).

وفي الحديث الآخر: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه)) قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وفي حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أولاد المشركين فقال: ((الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين))[٢٦].

وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذراري المشركين فقال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٢٧]، هذا كله في البخاري.

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلت: يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: ((هم من آبائهم))، فقلت: يا رسول الله بلا عمل؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))، قلت: يا رسول الله فذراري المشركين؟ قال: ((من آبائهم)) قلت: بلا عمل؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٢٨]، وقوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) في الأحاديث السابقة قد تفسره هذه، أي المقصود أنهم مع آبائهم.

يقول الخطابي -رحمه الله-: "معنى الحديث أنهم كفار ملحقون في الكفر بآبائهم؛ لأن الله سبحانه قد علم أنهم لو بقوا أحياء حتى يكبروا لكانوا يعملون عمل الكفار"[٢٩].

وقال ابن القيم ما خلاصته: "وأما أطفال المشركين فللناس فيهم ثمانية مذاهب، وذكر الأول قال: الوقف فيهم، وترك الشهادة بأنهم في الجنة أو في النار، بل يوكل علمهم إلى الله تعالى، ويقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، واحتجوا بالحديث، إلى غير ذلك، واحتجوا ببعض الأحاديث التي لا تصح أيضاً، وذكر المذهب الثالث: أنهم في الجنة، قال: واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة، قال: ((كل مولود يولد على الفطرة)) فقال الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: ((وأولاد المشركين))، واستدلوا أيضاً بما أخرجه الإمام أحمد من حديث خنساء بنت معاوية قالت: حدثتني عمتي قالت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال:

---

٢٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٨٣٠٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٠٣).

٢٥ - صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٦٧).

٢٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣١٧).

٢٧ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣١٨).

٢٨ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، برقم (٤٧١٢)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (١١١).

٢٩ - عون المعبود، (٣١٦/١٢).

((النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والموءودة في الجنة))، وهذا الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ، عن حسناء بنت معاوية، وعند أحمد خنساء بالخاء، وهذا الحديث حسّن إسنادَه الحافظُ ابن حجر، من أجل هذه المرأة.

وأيضاً مما جاء في هذا ما أخرجه الإمام أحمد -رحمه الله- من حديث الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وغزوت معه فأصبت ظفرًا، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان - وقال مرة: الذرية - فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟))، فقال رجل: يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين، فقال: ((ألا إن خياركم أبناء المشركين))، ثم قال: ((ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية))، ثم قال: ((كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها))[٣٠].

وذكر ابن حزم عن جمهور أهل العلم أنهم في الجنة، وكذلك أيضاً ذهب إلى هذا جماعة كالنووي، ومن المذاهب التي أوردها الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وعلى هذا يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار، وهذا قال به البيهقي واختاره ابن كثير.

يقول النووي: "وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب، قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم، وتوقفت طائفة فيهم، والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة"[٣١]، وعلق الحافظ ابن حجر -رحمه الله- على قول البخاري: "باب ما قيل في أولاد المشركين"، قال: "هذه الترجمة تشعر أيضاً أنه كان متوقفاً في ذلك، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم بما يدل على القول الصائر إلى أنهم في الجنة، والله تعالى أعلم"[٣٢].

فهذا الصغير الذي لم يعرب عنه لسانه، الذي قبل البلوغ مات وهو يعبد غير الله -عز وجل-، يشرك به، مثل هذا لا يقال: إنه على الفطرة، ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) وإنما الكلام فيمن مات وهو صغير، وليس المقصود بإطلاق من مات دون البلوغ، فالولد إذا كان عمره ثلاثة عشر مثلاً ويعبد غير الله - عز وجل-، يعبد الصليب، مثل هذا أعرب عنه لسانه؛ ولهذا الصبي غير المميز يلحق بأبيه، أو يلحق بأفضل الأبوين يعني من ناحية الدين، والعلماء اختلفوا في هذا، والأقرب -والله أعلم- أنه يلحق بالأصلح من أبويه من ناحية الديانة، فإن كانت الأم مسلمة والأبُ كافرٌ ألحق بالأم، والعكس كذلك، بالنسبة لهؤلاء هم الذين يكونون دون التمييز، وإلا فإسلام الصبي المميز معتبر، ولا يحتاج إلى تجديده بعد البلوغ، ويدل على هذا أن من الصبيان من أسلم وهو صغير في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- كعلي -رضي الله تعالى عنه- وإن

---

٣٠ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥٧/٢٤)، برقم (١٥٥٨٩)، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين لكن سماع الحسن من الأسود بن سريع لا يثبت عند بعضهم، والبيهقي في الكبرى برقم (١٧٨٦٨)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٢)، وصحيح الجامع برقم (١٠٥٠٨).

٣١ - شرح النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

٣٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٦/٣).

اختلفوا في الوقت الذي أسلم فيه، لكن لا شك أنه أسلم دون البلوغ، وكذلك ابن عباس، وجماعة، فالصبي إذا ميّز وأسلم اعتُبر إسلامه، فإذا وقع منه الكفر، كفر بالله -عز وجل- وصار يعبد غيره فهو بحسب حاله، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً} [سورة الإسراء: ١٦].

اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً}[سورة يونس:٢٤] **فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، رواه ابن جريج عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.**

قال علي بن طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا}، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[سورة الأنعام:١٢٣] **الآية، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.**

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة، وعن مالك عن الزهري {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أكثرنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا}، {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} ذكر عدة أقوال: القول الأول: بمعنى أنه أمر قدري، أي الأمر الكوني، ومعلوم أنه لا يمكن أن يقال بأن الأمر هنا الأمر الشرعي إلا إذا حمل على الأمر بالطاعة، ومعلوم أن الأمر نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فالأمر الكوني: بمعنى أن الله -عز وجل- يقضي بالأمر ويقدره فيكون، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠]، فهذا أمر قدري، فـ{أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أي: أمرناهم أمراً كونياً قدرياً بالمعصية والكفر والفجور {فَفَسَقُواْ}، وهذا الأمر كما هو معلوم لا يقتضي المحبة، ولا ملازمة بينه وبين الرضا؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [سورة الزمر:٧]، لا يرضاه لهم ديناً، وهذا القول بأنه الأمر الكوني قال به طائفة من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، باعتبار لفظ الأمر، وأنه لا يتأتى في الأمر الشرعي، ومثل هذا القول لا محظور فيه، يعني من جهة المعنى وهو جارٍ على الاعتقاد الصحيح، أمرناهم أمراً كونياً.

ثم ذكر القول الآخر: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة، والأمر في قوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} فيه مقدر محذوف، أمرنا مترفيها بالطاعة {فَفَسَقُواْ فِيهَا}، أما على القول الأول {أَمَرْنَا

{مُتْرَفِيهَا} فهو أقرب إلى الظاهر، أمرهم ففسقوا، فتكون الفاء مرتبة لما بعدها على ما قبلها، أمرناهم ففسقوا، تكون كالنتيجة لهذا الأمر، القول الآخر: أمرناهم بالطاعة فعصوا، ويكون الأمر هو الأمر الديني الشرعي، وهذا القول أيضاً ليس بمستبعد، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وممن اختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-.

يقول: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من طريق علي بن طلحة {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} يقول: "**سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله**"، وساق قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا}[سورة الأنعام:١٢٣]، وهذا يمكن أن يكون جارياً على القراءة المروية عن بعض السلف كأبي عثمان النهدي وأبي رجاء وأبي العالية والربيع ومجاهد والحسن {أمَّرنا مترفيها} يعني: جعلناهم متأمرين أمراء، هذا معنى سلطناهم، ففسقوا فوقع العذاب، وهو معنىً رابع عن ابن عباس من طريق العوفي ولا يصح هذا الطريق، يقول: "**أكثرنا عددهم**"، ونقله عن جماعة، {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أي: أكثرنا، تقول: أمر القوم إذا كثروا، وجاء في قراءة مروية عن بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، بعض الصحابة: علي وابن عباس والحسن {آمرنا مترفيها} بالمد، يعني أكثرها، {فَفَسَقُواْ فِيهَا}، بالنسبة للقراءة المتواترة {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} إما أن يحمل ذلك على الأمر الكوني، وإما أن يحمل على الأمر الشرعي، أمرناهم بالطاعة ففسقوا، ولا يبعد أن يحمل على المعنيين، أي أمرناهم أمراً كونياً فوقع منهم الكفر، وأمرناهم أمراً شرعياً فعصوا وكفروا، وبين الأمرين ملازمة بالنسبة لهذا الإنسان الكافر، إذا قلنا بأن الأمر هنا الأمر الكوني، أن الله قضى كفره، ثم إذا قيل: أيضاً الأمر الشرعي أمره بالطاعة فوقع منه الكفر، هذا الكفر الذي وقع منه إنما وقع بقضاء الله وقدره، لكن الإرادة الشرعية، تخلفت في هذا الكافر؛ لأن الله -عز وجل- لم يرد منه الكفر شرعاً، ومعلوم أن الإرادتين الكونية والشرعية تجتمعان في المؤمن، وتوجد الإرادة الكونية في الكافر، لكن إذا فسرت الآية هنا أمرناهم بالطاعة فكفروا، فكفرهم هذا إنما كان بقدر الله -عز وجل-، فلا يقع في الكون شيء إلا بإرادة الله الكونية، -والله تعالى أعلم-، ووجه تخصيص المترفين يمكن أن يقال: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} باعتبار أن الناس تبعٌ لهم، ولهذا قيل: عادات الملوك ملوك العادات، تنتشر العادات بين الناس عن طريق الكبراء أولاً، فيقتدي بهم بقية الناس، فقد يكون من هذا الباب أنه خص المترفين {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} فوقع الفجور من البقية والكفر بالله -عز وجل-.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[سورة الإسراء:١٧].

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-، بأنه قد أهلك من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى، وقوله: {وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} أي: **هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية -سبحانه وتعالى-.**

قوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ} يدل على التكثير، كما قال الله -عز وجل-: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا}[سورة الفرقان:٣٨].

{مّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَىَ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً}[سورة الإسراء:١٨-١٩].

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: {عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ} أي: في الدار الآخرة {يَصْلاهَا} أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، {مَذْمُوماً} أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، {مّدْحُوراً}: مبعداً مقصياً ذليلاً مهاناً. وقوله: {وَمَنْ أَرَادَ الآخرة} أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور، {وَسَعَىَ لَهَا سَعْيَهَا} أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء {فَأُولَـَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً}.

قوله -تبارك وتعالى-: {مّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ}، هذه الآية يقول الحافظ -رحمه الله-: "**.. أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له**"؛ لأن هذه الآية قيدها الله بقيدين، قيدها بالمشيئة فيما يتصل بالعطاء، وقيدها أيضاً بمن أراد إعطاءه {لِمَن نّرِيدُ}، يعني هي مقيدة في العطاء، ومقيدة في المعطَى، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}، وهذه الآية مقيدة للآيات الأخرى كآية هود، فالله -عز وجل- يقول فيها: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة هود:١٥-١٦]، وقوله: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}[سورة الشورى:٢٠]، وفي قوله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [سورة آل عمران:١٤٥]، فهي غير مقيدة، والمعلوم أن المطلق يحمل على المقيد، فالآيات الثلاث تقيدها هذه الآية، ما كل من أراد الدنيا أعطي حسب إرادته، وإنما يكون العطاء مقيداً بما شاءه الله -عز وجل-، وهكذا هؤلاء المعطَوْن: يعطي الله -عز وجل- من يشاء ويمنع من يشاء، فهذه الآية فيها سؤال معروف عند أهل العلم وهو أن الله -عز وجل- قال: {ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً}، وفي آية هود: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فهذا لا يكون إلا للكفار، وفي قوله: {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}، ففي هذه الآيات الثلاث وعد بالنار أو أخبر الله أنه لا حظ له في الآخرة، فالحاصل أن السؤال الذي يرد في هذا هو هل كل من كانت له إرادة للدنيا فإنه متوعد بالنار، أو الخلود بالنار مع أن الإنسان لا يخلو من إرادة للدنيا؟ والله قال عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في واقعة معينة: {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ} [سورة آل عمران:١٥٢] فالشاهد أن مثل هذا يستشكل من هذه الحيثية؛ ولهذا العلماء تكلموا على المراد في هذه الآيات، فبعض أهل العلم قال: هذه الآية في أهل الرياء، هذا قال به بعض الصحابة كمعاوية -رضي الله تعالى عنه-، وأبي هريرة راوي حديث: "أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة..."، وقال بعده: صدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقرأ آية هود: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}، فحملها

على أهل الرياء، وحينما تحمل الآية على أهل الرياء، يحتاج فيه إلى قيد، فإما أن يقال بأن ذلك فيمن كان مرائياً في أصل الإيمان، من أجل أن يكون متوعداً بالخلود بالنار، وإما أن يقال بأن جميع الأعمال التي يعملها إنما هي على سبيل الرياء، لكن من وقع له رياء في بعض الأعمال وأصل الإيمان صحيح فمثل هذا لا يكون خالداً في النار، ومن أهل العلم من حملها على أنها في الكفار، مع أن ظاهر الآية العموم {مَن كَانَ يُرِيدُ}؛ ولهذا يمكن أن يوجه هذا القول ويجمع بينه وبين قول آخر لعله الأوضح من هذه الأقوال، وهو أن يقال: من كانت الدنيا همه وغايته التي يسعى ويعمل من أجلها، وهي طلبته التي يقوم لها ويقعد، ليس له هم ولا مطلوب سوى الحياة الدنيا، فهذا متوعد بالنار، حتى الأعمال الصالحة التي قد يعملها، يعملها من أجل أمر دنيوي، فهو يزكي ماله من أجل أن ينمو ماله، ويصل الرحم من أجل أن ينسأ له في أثره مثلاً، ويصوم ليصح، ويحج للتجارة، ويجاهد للغنيمة، وهكذا، كل أعماله يبحث عن الفائدة من هذا العاجلة، فإذا رأى شيئاً عاجلاً فعله، فمن كانت الدنيا هي غايته التي يقوم من أجلها ويقعد فهو متوعد بالنار، وأهل الرياء يدخلون في هذا؛ لأنهم أشركوا بالله -عز وجل-، والذين كل أعمالهم رياء، أو دخل الرياء في أصل الإيمان، هم أيضاً كذلك؛ لأنهم أرادوا أمراً دنيوياً، أرادوا الحظوة في قلوب الناس، والثناء، وما أشبه هذا، وهذا جواب عن هذا الإشكال، فمن قال بأنها في الكفار، فمن كان بهذه المثابة في الوصفين اللذين ذكرت فهذا أصلاً إنما يكون للكفار، إما الكفار في الباطن كالمنافقين أو الكفار في الظاهر، والله المستعان، وإذا تأملت في الآية وجدت ما يدل على هذا فيها، فالتعبير بالكون الماضي مثلاً يدل على الثبوت، {مَن كَانَ}، ثم ذكر فعل الإرادة بالمضارع {يُرِيدُ} يدل على التجدد، أن هذا ديدنه في كل عمل يتجدد له، {يُرِيدُ} هذه الإرادة متجددة له، {يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ}، ثم مما يدل على أنه لا يريد إلا الدنيا أنه قابله بإرادة الآخرة، وهذه المقابلة تشعر بالحصر، بمعنى أنه ليس مجرد وجود الإرادة في قلبه للدنيا يعني أنه متوعد بهذه العقوبة، فهذا لا يخلو منه أحد، وإنما المقصود أنه ليس له مطلوب إلا الدنيا، فقابله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ}، فهذه قرائن في الآية تدل على هذا المعنى -والله أعلم-.

وهي الدنيا، وقيل لها: عاجلة لسرعة تقضِّيها، سواء تقضِّي ما فيها من اللذات والشهوات، أو تقضِّي تصرم الأوقات، فهي كأحلام النائم والظل الزائل، سريعة الانقضاء، والمراد بالتعجل في قوله: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء} المقصود في الدنيا؛ ولهذا قال: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا} فهو تعجيل عرفي، ليس المقصود أنه بمجرد ما تطلب نفسه هذا أنه يحصل له، قد يحصل له وقد لا يحصل، فإن حصل لا يعني أنه يحصل مباشرة، و"ثم" هذه تدل على الترتيب الرتبي، {ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً}.

المعنى الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- في قوله: "{وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: **قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء** {فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً}"، واضح، ففسر الإيمان بمجرد التصديق؛ لأنه ذكر العمل بعدها فقال: {وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، العلماء أحياناً يتوسعون في العبارة، فيفسرونه بما يقرب منه وإلا فإن أقرب ما يفسر به في اللغة بمعنى الإقرار والتصديق الانقيادي، فيكون التصديق مقيداً، وليس مطلق التصديق، تصديق انقيادي.

{كُلاًّ نّمِدّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاءِ رَبّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً * انظُرْ كَيْفَ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [سورة الإسراء:٢٠-٢١].

يقول تعالى: {كُلاًّ}: أي كل واحد من الفريقين: الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه[١] {مِنْ عَطَاءِ رَبّكَ} أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلًّا ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً} أي: لا يمنعه أحد، ولا يرده راد، قال قتادة: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً} أي: منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ} أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك، {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} أي: ولَتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الصحيحين: ((إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء))[٢]؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً}.

{لاّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مّخْذُولاً}، يقول تعالى -والمراد المكلفون من الأمة-: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً، {فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً} أي: على إشراكك به، {مّخْذُولاً}؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أجل عاجل وإما غنى عاجل))[٣]. رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

قوله تبارك وتعالى: {فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً} قال: "أي على إشراكك به، {مّخْذُولاً}؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك"، {فَتَقْعُدَ} هذه اللفظة تدل على معنىً أصلي ومعنىً فرعي، يمكن أن يقال: {فَتَقْعُدَ} يعني تصير إلى حال وهي

---

١ - وفي بعض النسخ من الأصل (تفسير ابن كثير): " نمدهم فيما هم فيه"، (٦٣/٥) طبعة دار طيبة، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

٢ - لم أجده في الصحيحين بهذا اللفظ وإنما رواه أحمد في المسند (٣٠٢/١٧)، برقم (١١٢٠٦)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وإنما الموجود في الصحيحين حديث عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق، أو المغرب لتفاضلِ ما بينهم))، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))، رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، برقم (٢٨٣١).

٣ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، برقم (١٦٤٥)، وأحمد في المسند (٤١٥/٦)، برقم (٣٨٦٩)، وقال محققوه: إسناده حسن، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها، برقم (٢٣٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٨٧)، وفي صحيح الجامع برقم (١٠٩٨٥).

ما ذكر، وهي تدل على أن هذا الإنسان بفعله هذا بالإشراك بالله -عز وجل- يتورط ولا يستطيع النهوض والخلاص من هذه البلية التي وقع فيها؛ ولهذا قال: {مَذْمُوماً مّخْذُولاً}، ليس له ناصر؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَاتّقُواْ يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}[سورة البقرة:١٢٣]، نفى عنهم كل ما يتخلصون به من فدية ونصر، أو وساطة وشفاعة، وهذا هو الخذلان، لا يجد من يخلصه أو ما يخلصه.

{وَقَضَىَ رَبّكَ أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمّا يَبْلُغَنّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لّهُمَآ أُفّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذّلّ مِنَ الرّحْمَةِ وَقُل رّبّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبّيَانِي صَغِيراً} [سورة الإسراء:٢٣-٢٤].

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: {وَقَضَىَ} يعني: وصّى، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم: {ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه}؛ ولهذا قرن بعبادته برّ الوالدين، فقال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[سورة لقمان:١٤].

قوله: {وَقَضَىَ} أي: أمر بعبادته، هذا أحد المعاني التي تأتي لها قضى؛ لأنها تأتي بمعنى أمر وتأتي بمعنى حكم، الله يقضي بالحق، وتأتي بمعنى وصى، وتأتي بمعنى الفراغ من الشيء، {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة:٢٠٠] وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} [سورة الجمعة:١٠] يعني فرغ منها، وتأتي بمعانٍ أخرى، وتفسيره لها بمعنى أمر، {وَقَضَىَ رَبّكَ أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ إِيّاهُ} يرد عليه إشكال وهو أن هذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه الآيات فيها أمور منهية، {وَلاَ تَقْتُلُوَاْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [سورة الإسراء:٣١]، {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزّنَىَ} [سورة الإسراء:٣٢]، {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[سورة الإسراء:٣٤]، وما شابه ذلك، فهذه منهيات، فإذا فسرت {قَضَىَ} بمعنى أمر يرد عليها هذا الإشكال؛ ولهذا أحسن ما تفسر به -والله أعلم- وهو الذي تدل عليه القراءة الأخرى غير المتواترة {ووصى}، والقراءة الآحادية تفسر القراءة المتواترة، فيكون {قَضَىَ} بمعنى وصى، {وَقَضَىَ رَبّكَ أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ إِيّاهُ} بمعنى وصى أن لا تبعدوا إلا إياه، وصى بعبادته، والوصية بمعنى الأمر والنهي، تجمع بينهما، فإذا جاءت النواهي بعدها فهذا داخل فيها، فهي أمر ونهي يقصد توثيقه وتأكيده، وتقريره، فتقول: أوصيك بكذا وأوصيك بكذا.

وقوله: {إِمّا يَبْلُغَنّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لّهُمَآ أُفّ} أي: ولا تُسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} أي: لا تنفض يدك عليهما.

أصل النهر، الإغلاظ في القول، ونفض اليد يلحق به من جهة الفعل، أما "نهره" فمعناه أغلظ له في القول، يعني قال له قولاً فيه غلظة وشدة، وقوله: {إِمّا يَبْلُغَنّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لّهُمَآ أُفّ}، لا يختص بحالة الكبر، لكن ذكرت حالة الكبر؛ لأن الحاجة فيها أشد إلى الرعاية واللطف؛ لأسباب كثيرة.

وقوله هنا: {أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا} فهذا إنما جيء به -والله تعالى أعلم- ليدل على أن حق كل واحد منهما ثابت على سبيل الاستقلال، حق ثابت له؛ لأن الإنسان قد يثقل عليه القيام بحقهما معاً وقد يقوم بحق أحدهما براً

بالآخر، يعني قد لا تكون علاقته على وئام بأحدهما فيقوم بحقه براً بالآخر، أبوه يأمره ببر أمه، وهو ليس على حالة مرضية معها، فيقوم بالبر من أجل أنه يبر أباه بهذا، فهذا لا يجوز، حتى لو حصل البر، فهذا حق ثابت لكل واحد منهما على سبيل الاستقلال، {أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا}، فهذان معنيان، والله تعالى أعلم.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً} أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

لا يكفي أن يكون الإنسان لا يصدر منه تصرف سيئ، يكف عما لا يليق في التعامل مع الأبوين فقط، بل لابد من التعامل الحسن، والكلام الطيب، والفعل الجميل من برٍ بالمال، إن كانا محتاجين، أو بالتلطف بالعبارة، وحسن المعاشرة، وما أشبه ذلك، فهذا كله داخل فيه، {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}.

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} أي: تواضع لهما بفعلك، {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} أي: في كبرهما وعند وفاتهما، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ثم أنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}[سورة التوبة:١١٣] الآية.

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: ثم أنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ}الآية، وقوله تبارك وتعالى: {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} مقيدة بالآيات الأخرى، أي ما لم يكونا على الإشراك، لكن لو أن أحداً دعا لوالديه في حال الحياة بالرحمة، قال: رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، وقصد بالرحمة أن الله يلطف بهما فيحصل من ذلك الدخول في الإسلام، هذا من رحمة الله بالعبد، فهذا لا محظور فيه، فقال هنا: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ}، قال الحافظ -رحمه الله-: "**تواضع لهما بفعلك**"، التواضع لين الجانب، والجناح مضاف إلى الذل، وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته، فيكون المعنى {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} يعني: جناحك الذليل، يعنى: تواضع، الجناح يطلق على الجانب، ويطلق على يد الإنسان جناح، فإذا أراد الإنسان أن يبطش رفع يده، ويمكن أن يتصوره الإنسان بتصور الطائر حينما يرفرف بجناحيه على صغاره، {مِنَ الرَّحْمَةِ} وهذا قيد يبيّن أن صدور هذا الفعل وهو التواضع ليس لمصلحة دنيوية ولا لخوف ولا رياء، وإنما يكون ناتجاً من الرحمة بهما، ولا يفعل ذلك خوفاً، ويدل على تأكده وتأصله وتجذره ما بعده من قوله: {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا} فهو يدعو لهما، لكن من يفعل هذا رياءً أو يفعل ذلك خوفاً أو رجاء مصلحة دنيوية، لن يتحرك في قلبه مثل هذا الدعاء فيدعو لهما في الصلاة وغيرها.

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس -رضي الله تعالى عنه- وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما صعد المنبر ثم قال: ((آمين آمين آمين)) قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: ((أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرتَ عنده فلم يصل عليك، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين))[٤].

---

٤ - رواه البخاري في الأدب المفرد، باب من ذُكر عنده النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يصلِّ عليه، برقم (٦٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٤٧١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: صحيح لغيره برقم (٥٠١).

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رغم أنف، ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كليهما عند الكبر ولم يدخل الجنة))[٥]، صحيح من هذا الوجه ولم يخرجوه، سوى مسلم.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن جاهمة السلمي: أن جاهمة -رضي الله تعالى عنه- جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك، فقال: ((فهل لك من أم؟)) قال: نعم، قال: ((فالزمها فإن الجنة عند رجليها))[٦]، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول، ورواه النسائي[٧] وابن ماجه[٨].

روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب))[٩]، وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش -رضي الله تعالى عنه- به.

روى أحمد عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته وهو يكلم الناس يقول: ((يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك))[١٠].

{رّبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ غَفُوراً} [سورة الإسراء:٢٥].

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: {رّبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ}، وقوله: {فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ

---

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، برقم (٢٥٥١)، وأحمد في المسند (٢٣١/١٤)، برقم (٨٥٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٦ - رواه أحمد في المسند برقم (١٥٥٣٨)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح: إسناده جيد، برقم (٤٩٣٩).

٧ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، برقم (٣١٠٤).

٨ - عن معاوية بن جهامة السلمي -رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله فقلت: يارسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم، قال: ((ارجع فبرّها))، ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم يا رسول الله، قال: ((فارجع إليها فبرها))، ثم أتيته من أمامه فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله، والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم، يا رسول الله قال: ((ويحك، الزم رجلها، فثَمّ الجنة))، كتاب الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبوان، برقم (٢٧٨١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٢٤١)، وحسنه في صحيح الجامع برقم (١٢٤٨).

٩ - رواه أحمد في المسند (٤٢٤/٢٨)، برقم (١٧١٨٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، برقم (٣٦٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩٢٤).

١٠ - رواه النسائي، كتاب الزكاة، باب أيتهما اليد العليا، برقم (٢٥٣٢)، وأحمد في المسند (٦٧٤/١١) برقم (٧١٠٥)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني: سنده جيد، في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل (٣١٩/٣)، وصححه في صحيح الجامع برقم (٨٠٦٧).

غَفُوراً} قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله: {فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ غَفُوراً} قال: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون.

وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير، وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك.

وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الرجاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} [سورة الغاشية:٢٥]**، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا رجع من سفر قال: ((آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون))**[١١].

هنا في قوله: {رّبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} يقول: "**قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه**"، إلى آخره، بمعنى أنه تحصل منه الإساءة دون قصد.

رامَ نفعاً فضرّ من غير قصدٍ *** ومن البرِّ ما يكون عقوقاً

وقد لا يوفق الإنسان، يريد البر فتحصل من جراء ذلك الإساءة إلى الوالدين فمثل هذا يغتفر، الله -عز وجل- يغفر له لحسن قصده، أنه ما أراد الإساءة والعقوق، وهناك معنىً آخر لا ينافي هذا المعنى، والآية بعمومها تشمل ذلك كله {رّبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} يعني: من صلاح القصد والنية والإخلاص في البر، ومن يفعل ذلك تصنعاً وتكلفاً أو رياءً، وما أشبه ذلك من المعاني الفاسدة، فتكون الآية مضمنة بهذا الاعتبار معنى الإخلاص أو الأمر بالإخلاص، {إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا}، "**قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة**"، فالمطيع راجع إلى طاعة الله -عز وجل-، والمتبادر أنه الذي يتوب، يصيب الذنب فيتوب، ولما كان الإنسان لابد له من ذنوب ولابد له من تقصير في الطاعات، كان لابد له من توبة مع كل تقصير وذنب، فأتى بلفظ الأوابين على صيغة المبالغة، كثرة التوبة وكثرة الرجوع. -والله أعلم-.

---

١١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يقول إذا رجع من الغزو، برقم (٢٩٢٠)، ومسلم، كتاب الحج ، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، برقم (١٣٤٥)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا}[سورة الإسراء: (٢٦-٢٨)].

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث ((أمك وأباك، ثم أدناك أدناك))[١]. وفي رواية: ((ثم الأقرب فالأقرب))[٢]، وفي الحديث: ((من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه))[٣].

وقوله: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} [سورة الفرقان: (٦٧)] الآية، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}: أي أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: التبذير الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق، والفساد.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين)) فقال: يا رسول الله أقلل لي، قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة

---

[١] - صحيح مسلم: (١٩٧٤/٤) كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق به: برقم: (٢٥٤٨) بلفظ: قال رجل يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: ((أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك أدناك)).

[٢] - سنن أبي داود: (٣٣٦/٤) باب في بر الوالدين: برقم: (٥١٣٩).

[٣] - صحيح البخاري: (٢٢٣٢/٥) باب من بُسط له في الرزق بِصلة الرحم: برقم: (٥٦٤٠) ومسلم: (١٩٨٢/٤) باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها: برقم: (٢٥٥٧). وفيهما: ((وينسأ له في أثره))، وعند ابن حبان: ((وينسأ له في أجله فليتق الله وليصل رحمه)) انظر: صحيح ابن حبان (١٨١/٢) ذكر البيان بأن طيب العيش في الأمن وكثرة البركة في الرزق للواصل رحمه إنما يكون ذلك إذا قرنه بتقوى الله: برقم: (٤٣٩).

إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها)).

وقوله: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}: أي في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}: أي جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ} الآية، أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا}: أي عِدْهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فَسّر قولَه: {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} بالوعد: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **لما ذكر تعالى بر الوالدين** ثم بعده في قوله: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} قال: **لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف**. إلى آخره، هذا كله مما يقال له المناسبة بين الآيات، وجه الارتباط بين الآية وما قبلها.

{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ} المتبادر إلى الذهن وهو الذي عليه الجمهور أن المقصود قرابة الإنسان، من يرتبطون معه بالقرابة، فإن حق الوالديْن هو الحق الذي يأتي بعد حق الله -عز وجل-؛ لأنهما سبب وجود الإنسان، وهما أصله، ثم بعد ذلك من يرتبط بهم من طريق الوالدين، من فروع الوالدين وهم الإخوة والأخوات، ومن حواشيهم الأعمام والأخوال، وما شابه ذلك، هؤلاء كلهم هم القرابة، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ}، فالمقصود قرابتك خلافاً لمن قال: إن المقصود بالقربى قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحق القريب هو الصلة سواء كانت بالمال أو بالتعهد بالزيارة أو غير ذلك مما يدخل في هذا الإطلاق، {وَالْمِسْكِينَ} معروف وهو الفقير هنا، {وَابْنَ السَّبِيلِ} أيضاً هو الذي انقطع في طريقه في السفر لفقد ماله، أو نفاد ما عنده، فهو بحاجة إلى إعانة حتى يرجع ويصل إلى أهله، أو إلى مبتغاه، فهذا ابن السبيل، والسبيل هي الطريق، ونسب إليها للملازمة، كما قيل للطائر المعروف ابن الماء؛ لملازمته للماء.

{ولا تبذر تبذيراً} يقول هنا: **عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: التبذير الإنفاق في غير حق**. وما ذكره بعده هو في نفس المعنى، فالتبذير هو الإنفاق في غير حق، هذا تفسير يشمل ما قيل فيها، فإذا قلنا بأن النفقة بالحرام قلَّ ذلك أو كثر، فهذا لا شك أنه تبذير، وهكذا أيضاً التوسع في المباح على وجه لا يصلح لمثله، فهذا يكون من التبذير، وهذا أمر نسبي يختلف من شخص لآخر، فقد يكون هذا النوع الثاني تبذيراً بالنسبة لبعض الناس، وليس بتبذير بالنسبة لبعضهم، بخلاف الأول، فالأول: يكون تبذيراً بإطلاق، ممن صدر منه، قل ذلك أو كثر، والثاني يكون تبذيراً أحياناً وليس بتبذير في بعض الأحيان، فهذا يختلف باختلاف الناس، فإذا كان الإنسان قليل ذات اليد ويشتري أشياء من الأمور الكمالية بأسعار وقيم مرتفعة فمثل هذا يعتبر من التبذير والتضييع للمال، ولو كان ينتفع بهذا الشيء، ولذلك لا يحكم على هذه الأمور بحكم واحد بالنسبة للناس، وإنما بحسب أحوالهم وتفاوتهم، فمن الناس من يقال له: إن هذا الثوب الذي اشتراه مثلاً بألف ليس من

التبذير، ويقال لآخر: هذا من التبذير، وهكذا ما يقال في المراكب واللباس والمساكن والمآكل وغير ذلك يكون تبذيراً باعتبار بعض الأشخاص وليس بتبذير لبعضهم، وقد يشتري أثاثاً بمائة ألف ولا يكون تبذيراً، وقد يشتري آخر أثاثاً بعشرة آلاف ويعتبر من التبذير، وكذلك أيضاً النوع الثالث: وهو بذل المال في شيء مباح لكن على وجه لا ينتفع فيه، مثل بذل الأموال في المآكل وغيرها مما لا يحتاج إليه، مما يزيد عن حاجته فيكون ذلك تضييعاً للمال فيتلف، فهذا كله داخل في هذا المعنى، ويبقى النوع الرابع، والعلماء مختلفون فيه، وهو الإنفاق في سبيل الله، هل فيه تبذير أو لا؟ فالله -عز وجل- لما أمر بالإنفاق أو بالصلة للوالدين والقرابات، نهى عن التبذير ثم قال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [سورة الإسراء: (٢٩)]، فهذا بعد الأمر بالإنفاق على القرابات، {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، فلو أن أحداً بسط يده كل البسط في الإنفاق في سبيل الله، هل يقال لهذا تبذير أو لا؟ من أهل العلم من يقول: نعم، وليس له ذلك، واحتجوا بهذه الآية، واحتجوا بما ورد من الأحاديث، كحديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- لما أراد أن يتصدق بماله ونهاه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان مما قال له: ((الثلث، والثلث كبير أو كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس))[٤]، وكذلك أيضاً ذلك الرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل البيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي، -فقال أحمد في بعض المعادن وهو الصواب- فقال: يا رسول الله، خذها مني صدقةً، فوالله مالي مال غيرها، فأعرض عنه، ثم جاءه عن ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك، ثم جاءه من بين يديه، فقال مثل ذلك، ثم قال: ((هاتها)) مغضباً، فحذفه بها حذفة لو أصابه لأوجعه، أو عقره، ثم قال: ((يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به، ثم يقعد يتكفف الناس))[٥] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فهذا استدل به من قال بأن الإنسان لا ينفق كل ما بيده، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو أن يقال: إن ذلك أيضاً يختلف باختلاف الناس، النفقة في سبيل الله تارة يمنع الإنسان من أن يتصدق بكل ماله، وتارة يقبل ذلك منه بحسب حاله، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل من أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- التصدق بكل ماله، ولما سأله عما تركه لأهله قال: تركت لهم الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وجاء عمر بنصف ماله فقبل ذلك منه، ولهذا يقال -والله أعلم- كما قال الشاطبي -رحمه الله-: إن ذلك يختلف باختلاف الناس، فمن كان في يقينه وتوكله كأبي بكر وعمر، بحيث لا يتطلع إلى ما في أيدي الناس، ولا يتعلق قلبه بهم ولا يلتفت إليهم فلا إشكال، ومن كان دون ذلك بحيث إذا أنفق ماله يبدأ قلبه يتوجه إلى الناس أن يعطوه، فمثل هذا لا يحسن به، فهذا التفصيل في مسألة التبذير، هل يكون في النفقة في سبيل الله أو لا، وما هو ضابط التبذير.

ثم بعد ذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر حينما استشهد بها أولاً قال: أي: **أشباههم في ذلك**، وهنا قال: **أي في التبذير والسفه، وترك طاعة الله**

---

[٤] - صحيح البخاري: (١/٤٣٥) باب رثى النبي -صلى الله عليه وسلم- سعد بن خولة: برقم: (١٢٣٣) و(٥/٢٠٤٧) كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل: برقم: (٥٠٣٩) وصحيح مسلم: (٣/١٢٥٠) كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: برقم: (١٦٢٨).

[٥] - سنن الدارمي: (١/٤٧٩) كتاب الزكاة، باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل: برقم: (١٦٥٩).

وارتكاب معصيته، والمعنى واحد، ما ذكره أولاً وما ذكره ثانياً، يعني أنهم شابهوهم في معصية الله -عز وجل- ومخالفة أمره، ومقارفة هذا الفعل الذي هو من كفر النعمة، والأخوّة تطلق باعتبار المشاركة في أمر من الأمور، ولهذا يمكن أن تكون الأخوة في قوله: {إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} باعتبار المشابهة، تشابهٌ بينهم وبين الشياطين في المعصية، وكفر النعمة، والإضاعة وما أشبه ذلك، شابهوهم في فعلهم، ولا يبعد من هذا قول من قال بأن وجه الأخوة بينهم وبين الشياطين هو أنهم يسيرون على آثارهم، ويتبعونهم فيما يملون عليهم، وكل من تابع غيره وسار على آثاره فإنه يقال له ذلك، يقال: فلان أخو فلان، ويمكن أن تكون هذه الأخوة باعتبار الاشتراك في المآل، أنهم جميعاً في النار، فهذه أخوة، وعلى كلٍّ فالذين يشتركون في أمر ما يمكن أن يقال لهم: إن هؤلاء إخوة لهؤلاء، كأن يشتركوا في بلد واحد مثلاً فيقال لهم: إخوة بهذا الاعتبار، كما قال الله -عز وجل- وهو أحد الأوجه في تفسير الآية: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب: (١٨)]، باعتبار أنهم في بلد واحد، أو يشتركون في نسب، فيقال لهم ذلك، وهو أحد الأقوال في تفسير الآية الآنفة، أو باعتبار الدين، وهكذا.

{كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}، الحافظ ابن كثير استأنس بهذا التعقيب في تفسير الأخوة هنا بالمشابهة أن الشياطين يكفرون نعمة الله -عز وجل-، وهذا المبذر لم يشكر هذه النعمة بل كفرها، فشابههم بهذا الاعتبار.

ثم قال: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} يقول: **أي عِدْهم وعداً بسهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسنصلكم**. قل لهم قولاً ميسوراً بالوعد الحسن، الرد الجميل، وهذا تعليم للمسلم بأن ينوي الخير دائماً، ولو لم يكن مقتدراً، ولو كانت قدرته لا تمكنه من فعله في الوقت الحالي، لكنه ينويه ويقصده، فيؤجر على ذلك.

{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [سورة الإسراء: (٢٩-٣٠)].

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذامًّا للبخل، ناهياً عن السرف: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}: أي لا تكن بخيلاً منُوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: {يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [سورة المائدة: (٦٤)]: **أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}: أي ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ}** [سورة الملك: (٣-٤)]: **أي كليل عن أن يرى عيباً، هكذا فَسّر هذه الآيةَ -بأن المراد هنا البخل والسرف- ابنُ عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.**

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغت -أو وفرت- على جلده حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع)). هذا لفظ البخاري في الزكاة[٦].

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مُزَرِّد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً))[٧].

وروى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً ((ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله))[٨] وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً ((إياكم والشحّ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا))[٩].

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ} إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}: أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغِنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياذاً بالله من هذا وهذا.

قوله: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}**، يقول: أي لا تكن بخيلاً مَنوعاً لا تعطي أحداً شيئاً... إلخ، وهذا تفسير بالمعنى، وجعل اليد مغلولة إلى العنق أي مربوطة مشدودة إليه، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يتصرف أو يبسط يده أو ينفق، لكن ليس هذا هو المراد، أن تكون اليد كما هو معلوم، ولكن يقال لتصوير هذا المعنى في البخل والإمساك والشح، **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** يقول: **وهذا من باب اللف والنشر**، والمقصود باللف والنشر أنه يذكر أموراً ثم يذكر أحكامها بعد ذلك، وهو على نوعين، لف ونشر مرتب، ولف ونشر مشوَّش، فالمرتب مثل هذا على هذا التفسير، باعتبار أنه قال: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}**، ملوماً إذا كان الإنسان

---

[٦] - صحيح البخاري: (٥٢٣/٢) كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل: (١٣٧٥)، ومسلم: (٧٠٨/٢) كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل: (١٠٢١).

[٧] - صحيح البخاري: (٥٢٢/٢) كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل: (٥-١٠)] اللهم أعط منفق مال خلفاً: برقم: (١٣٧٤) وصحيح مسلم: (٧٠٠/٢) كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك: برقم: (١٠١٠).

[٨] - رواه مسلم (٢٠٠١/٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع: برقم: (٢٥٨٨) ولفظه: ((ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)).

[٩] - سنن أبي داود: (١٣٣/٢) باب في الشح: برقم: (١٦٩٨) وسنن البيهقي الكبرى: (١٨٧/٤) باب كراهية البخل والشح والإقتار: برقم: (٧٦٠٧).

شحيحاً، يلومه الناس، إذا كانت يده مغلولة إلى عنقه، {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} فيكون محسوراً أي ينقطع فلا يستطيع التصرف والإنفاق وما أشبه ذلك، ولكل واحدة مما سبق حكمها، جاءت الأحكام على الترتيب بحسب القضايا المذكورة قبله، والمشوَّش: أن يذكر قضايا ثم يذكر أحكامها على غير الترتيب السابق، بتقديم وتأخير، مثل: قوله -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ}[سورة آل عمران: (١٠٦-١٠٧)] هذا يقال له: مشوّش.

وأيضاً يأتي هذا المعنى في البسط، {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}: أي تلومك نفسك ويلومك الناس، فصار بهذا الاعتبار قوله: {مَلُومًا} يرجع أيضاً إلى {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، بحيث يحصل له اللوم من نفسه، إذا بسط يده كل البسط، فقد يندم إذا احتاج، فتلومه نفسه، ويلومه أيضاً أصحاب الحقوق والقرابات، وأهله؛ حيث لم يُبقِ لهم شيئاً، فاللوم يحصل بهذا وبهذا، فإذا كان الإنسان شحيحاً فإن الناس يلومونه على الشح، وإذا كان مسرفاً مضيعاً فقد تلومه نفسه، ويلومه غيره ممن له حق.

وقوله: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} قال: **فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي عجزت عن السير فوقفت**، يعني التي انقطعت، الذي يقولون له: حرنت الدابة، حرنت القصواء -كما قالوا- يعني انقطعت؛ وذلك من طول السير والتعب الكبير، وهو معروف في الإبل، كما قال الشاعر:

بها جِيَف الحسرى فأما عظامها ** فبيضٌ وأما جلدها فصليب

هو يصف الأماكن التي قطعها من المفاوز البعيدة التي تنقطع فيها الدواب، واستطاع أن يقطعها، يقول: الأماكن التي قطعتها تجد فيها جيف الحسرى، يعني الدواب، والإبل، والمراكب التي انقطعت بالسفر من طوله، فيصور حالها:

... أما عظامها ** فبيض، وأما جلدها فصليب

يعني منكمشة ميتة، وتفسخت عنها جلودها، وعلى كلٍّ فهذا معنى {مَّحْسُورًا}: أي: تنقطع لا تستطيع التصرف في شئونك؛ لأنه لم يبقَ في يدك شيء، ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ} يقدر يعني يضيّق، {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} [سورة الطلاق: (٧)]. فكل ذلك يكون بحسب علم الله -عز وجل- لا ذهولاً ولا نسياناً ولا غفلة، وإنما بحسب ما يصلح الخلق، {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة الشورى: (٢٧)].

سؤال:

عن علاقة الشح بالفجور:

الله -عز وجل- يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الحشر: (٩)]، وذلك أن الشح يحمل الإنسان على فعل ما لا يجمل ولا يليق من قطيعة الرحم، والتطلع إلى ما في أيدي الناس، وتضييع المروءات، وارتكاب ما حرمه الله -عز وجل- من أكل الربا وغصب أموال الآخرين، وهكذا مما تذهب به دنياه وآخرته؛ إذ هو لا يتورع عن شيء، ولا يتنزه من شيء، ولا يؤدي الحقوق التي أوجبها الله -عز وجل- عليه ولا يفعل ما يجمل به، أو يترك ما لا يحسن مما يكون سبباً لضياع شرفه ومروءته ونحو هذا،

هذا هو الشح، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((فإنه أهلك من كان قبلكم، أمـــرهم بالبخـــل فبخلـــوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا))، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَـــى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [سورة النور: (٣٣)] نزلت في عبد الله بن أبي رأس المنافقين وكـــان عنـــده جاريتـــان أسلمتا، وكان يكرههما على الزنا بأجرة، من أجل أن يكتسب من هذا المال، ويضربهما على ذلك.

فائدة في المراد بالرحمة التي يرجوها:

المقصود -والله تعالى أعلم- ما يتعلق بهذا السياق، -وهو التوسعة في الرزق والعطاء- أن الله يوسع عليك فتعطيهم {ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا}، ترجو أن الله يعطيك ويرزقك فتعطي هؤلاء، وحين تعدهم تكون قد نويت الإعطاء والصدقة والبذل، ولو لم تكن مقتدراً ، وتؤجر على هذا، فيستصحب الإنسان النية الطيبة معه دائماً، وإن عجز عن الفعل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء(١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً}[سورة الإسراء:٣١]**، هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} أي: خوفٍ أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيّاكُم}، وفي الأنعام: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ} أي: من فقر {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}، وقوله: {إنّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً} أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم: كان خَطَأً كبيراً وهو بمعناه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تزاني بحليلة جارك))**[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} يقول: "**هذه الآية دالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده**"، ووجه هذا ظاهر؛ فالآباء يقتلون الأولاد، والله -تبارك وتعالى- أرحم بهؤلاء الأولاد من آبائهم، فهو ينهاهم عن قتلهم، يقول: "**كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث**"، {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ} [سورة النساء:١١]، وهل الوالد بحاجة إلى وصية وقد جُبِل قلبه على الشفقة والمحبة والحرص على مصلحة الولد؟، الله تعالى أرحم بالولد من الوالد بولده، ولهذا يعد العلماء مثل هذه الآيات من آيات الرجاء في كتاب الله تعالى.

قال: "**وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته**"، بمعنى أنه يكثر من يعول فيفتقر، وهذه الآية كما هو صريح من ظاهرها {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، يعني خوف الفقر، والمعروف في التاريخ أنهم كانوا يقتلون البنت خشية العار، والله -تبارك وتعالى- نهاهم عن قتل الأولاد، والولد يشمل الذكر والأنثى، {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} خوف الفقر، ويمكن أن يقال بأن الولد أطلق على أحد النوعين، وهو البنت، خشية العار فهذا يكون بالاعتبار الثاني، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنهم يخشون عليها أن

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [سورة الفرقان:٦٨]، برقم (٤٤٨٣).

تفتقر ثم بعد ذلك تضطر إلى بيع عرضها فيئول أمرها إلى الفضيحة من هذا الباب، فنهاهم عن قتلهم خشية الفقر، كما كانوا يقولون في كلامهم وأشعارهم.

إذا تذكرتُ بنتي وهي تندبني *** فاضتْ لعَبرة بنتي عبرتي بدمي

أحاذر الدهر يوماً أن يلمّ بها *** فيهتكَ السترِ عن لحم على وضم

أخشى عليها فظاظة عم أو جفاء أخٍ *** وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً *** والموت أكرم نزّال على الحُرم

والآخر الذي عنده بنت اسمها مودة:

مودةُ تهوى عمر شيخ يسره *** لها الموت لو أنها تدري

والآخر الذي عنده بنت يقال لها: الجرباء، خُطبت، فقال:

إني وإن سيق إليّ المهر *** عبدٌ وألفان وذود عشر

أحبُّ أصهاري إلي القبر

وكان بعضهم يقتل الولد الذكر من أجل الفقر، وهذا موجود، ولم يكن القتل سواءً للبنات أو للأولاد عند جميع العرب، وإنما كان عند بعضهم، كأسد، وتميم بن مر، وبعض قبائل العرب، ليس عند كل العرب، على كل حال يقول: فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، يعني هم الآن ليسوا فقراء، لكن يخشى أن يكثر من يعول فعند ذلك يفتقر، قال: ولهذا قدم الاهتمام، قال: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم}؛ لأن هنا ليسوا فقراء، {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} يخشى أن يفتقر في المستقبل، فوعد برزق الأولاد فيأتي رزقهم معهم، وفي آية الأنعام {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُم مِّنْ إمْلاقٍ}: يعني من فقر موجود واقع، فقدم رزق الآباء وقال: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}.

وقوله تعالى هنا: {إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا} قال: أي ذنباً عظيماً، يقول: وقرأ بعضهم: {كان خَطَأً كبيراً}، قرأ بها ابن عامر وهي قراءة متواترة، وقال: وهو بمعناه، وقيل: هما لغتان خِطْئاً وخَطَأً، ويوجد في بعض القراءات الأخرى المتواترة مثل قراءة ابن كثير {خِطاءً}، بعض أهل العلم يقول: إن خطاءً من خطئ إذا أجرم، وبعضهم يقول: "خطاءً" لغة من خطئ يقال: خطئ فهو خاطئ، وأخطأ فهو مخطئ، وبعضهم يقول: إن خطِئ يقال لما وقع فيه الإنسان من الخطأ عمداً، وخطَأ بالفتح لما وقع فيه من غير قصد، لكن قراءة ابن عامر، {كان خَطَأً كبيراً}، يدل على أن خطأ تأتي بمعنى الوقوع بالمخالفة قصداً، وأنها لغة فيها، ويمكن أن يقال: غالباً ما يأتي الخطأ في الوقوع، معبَّراً به عن الوقوع في المخالفة من غير قصد، وبالكسر يكون لما كان بقصد، فيكون صاحبه مذموماً، وقوله: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، الإملاق الفقر، وأصله يقال: أملق الرجل إذا لم يبق له إلا الملقات، والملقات هي الحجارة الكبيرة الملساء.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٣٢]، **يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}: أي ذنباً عظيماً، {وَسَاء سَبِيلاً} أي: بئس طريقاً ومسلكاً.**

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه-: أن فتى شاباً أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ، مَهْ، فقال: ((ادْنه)) فدنا منه قريباً، فقال: ((اجلس)) فجلس، فقال: ((أتحبه لأمك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم))، قال: ((أفتحبه لابنتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم)). قال: ((أفتحبه لأختك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم))، قال: ((أفتحبه لعمتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: ((أفتحبه لخالتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم))، قال: فوضع يده عليه، وقال: ((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه)) قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[٢].

قوله: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} الفاحشة هي الذنب العظيم، وكثيراً ما تطلق على الزنا وما في معناه، في عرف الاستعمال غالباً، وذكرنا قبل أن من أهل العلم من يفرق بين ثلاثة أشياء: الفاحشة ويقول: هي الزنا وما في معناه، وكلمة فاحشة منكرّة: هي الذنب العظيم، وما ورد مقيداً بالبيان {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [سورة الأحزاب:٣٠] قالوا: عقوق الزوج، وهذا لا يخلو من إشكال، وكثيراً ما تطلق على نوع من الذنوب خاصة، كما يقال في الإثم، فهو الذنب، ويطلق على تبعة الذنب وهو المؤاخذة، ويطلق في عرف الاستعمال عند بعضهم على نوع من الذنوب وهو الخمر.

وقوله: {وَسَاء سَبِيلاً}، فالله تبارك وتعالى أطلقه ليبقى على إطلاقه، ساء طريقه طريقاً، طريق الزنا، وذلك أنه سبب للآفات والبلايا في الدنيا والآخرة، وهو سبب للأوجاع والطواعين، كما أنه من أعظم أسباب الفقر، وبه ذهاب الشرف، وتلويث وتدنيس الفُرش، واختلاط الأنساب، وضياع الأعراض، وهو أيضاً سبب للدياثة، فإن الذي يزني تذهب غيرته، كما أنه سبب للعقوبة، قد تعجل له في الدنيا، وقد يعذب في الآخرة.

{وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[سورة الإسراء:٣٣]، يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[٣]، وفي السنن: ((لَزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم))[٤].

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٢٢١١)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٥٠٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٧٠).

٣ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦).

٤ - رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم))، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، برقم (٣٩٨٧)، والترمذي، كتاب الديات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، برقم (١٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٠٧٧).

وقوله: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً} أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية -رضي الله تعالى عنه- السلطنة وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل مظلوماً -رضي الله تعالى عنه-، وقد تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب.

وقوله: {فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، وقوله: {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} أي: إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدراً.

قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ}، النفس قيل لها النفس: من النفاسة، و{الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ} قتلها، {إِلاَّ بِالحَقِّ}، والنفس التي حرم الله قتلها هي النفس المعصومة، كالمسلم والمعاهد والذمي والمستأمن، هذه أربعة أصناف، قال: {إِلاَّ بِالحَقِّ}، وهنا ذكر الحديث: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس)) إلى آخره، فهذا مفسر لقوله: {إِلاَّ بِالحَقِّ}، فالآية مجملة فسرها الحديث، وينبغي أن يجمع كل ما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيما كان حكمه القتل ولا يقتصر على الثلاثة، مثل الساحر فإن حكمه ضربة بالسيف، يُقتل حداً، ومن عَمِل عمل قوم لوط، الأصح من أقوال أهل العلم أنه يقتل بالسيف، يقتل الفاعل والمفعول به إن كان راضياً بهذا، وهكذا البهيمة إذا فُجر بها فإنها تقتل، وكذلك كل ما ورد فيه أنه يقتل، كقطاع الطرق {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} [سورة المائدة:٣٣] فهؤلاء حكمهم القتل، أو يخير فيهم بين الأمور الثلاثة، فالشاهد أن الله -عز وجل- قال: **{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}** قال: "**أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَداً، وإن شاء عفا عنه**" على الدية، وأصل السلطان الحجة، ولمّا ثبتت لولي الدم الحجة صار له تسلط على القاتل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر السلطان بأنه مخيّر بين ثلاثة أشياء، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وذهب إليه جماعة من أهل العلم، قالوا: يخير بين الأمور الثلاثة، هذا هو السلطان، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك يختص بالقصاص، بالقتل فقط، هذا هو السلطان؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}**، قالوا: هذا مثل التفسير له، هذه قرينة تدل على أن المراد بالسلطان القتل القصاص، **{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}**، وهكذا في الآية الأخرى **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}** [سورة البقرة:١٧٨] إلى قوله: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [سورة البقرة:١٧٩]، فهذا قالوا: كله يفسر السلطان، وأن الحق الثابت له هو القتل قصاصاً، وإذا قلنا بأن الحق الثابت له هو القصاص فإذا أراد أن يتحول عنه إلى الدية، أو يطلب الدية بدلاً من القصاص فإن ذلك يرجع إلى موافقة الجاني، فإذا قال ولي الدم: أنا لا أريد القصاص أريد الدية، فعندئذٍ يرجع هذا إلى رضا الجاني، فإذا قال الجاني: لا، أنا لا أرضى بالدية، اقتلوني ولا أعطيكم دية، فعلى هذا القول فإنه ليس لهم أن يلزموه بدفع الدية، وإذا قلنا بأن الحق له ثابت وأنه مخير بين هذه الأمور الثلاثة، فإنه إن طلب الدية أُلزم بها الجاني، وهذا حق لولي القتيل، وبالنسبة للاستنباط الذي ذكره عن ابن عباس باعتبار أن معاوية كان يطالب بدم

عثمان -رضي الله عنه- فهو ولي القتيل بهذا الاعتبار، **{فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** يعني: تسلطاً على القاتل وظهوراً عليه فهذا الاستنباط الذي نقله عن ابن عباس قد لا يخلو من إشكال ومناقشة، باعتبار أن عليًّا -رضي الله عنه- لم يكن هو القاتل، ولم يكن له في القتل يدٌ أصلاً وإنما كان هو الخليفة الشرعي الذي بايعه الجميع، ومنهم طلحة والزبير -رضي الله عنهم- بايعوه، فجاءوا يطالبون، وكان الذين قتلوا عثمان -رضي الله عنه- دخلوا في جيش علي -رضي الله عنه-، فغاية ما هنالك أن يقال: إنهم يمكنون منهم ولو بعد حين، وهذا الذي حصل، فعلي -رضي الله عنه- ما استطاع أن يقتلهم، فتحصل فتنة في داخل الصف عنده، ولمّا ولي معاوية -رضي الله عنه- الخلافة لم يستطع أن يقتل واحداً منهم، حتى إنه لما زار المدينة صِحنَ بنات عثمان -رضي الله عنه- لما دخل عليهن، فقال لهن كلاماً ذكر فيه أنهم على صلح مع الناس على دخل وريبة، بمعنى أنه على صلح فيه توجس من كل طرف، فلا يريد أن يثير أمراً، فترك مطالبتهم، ولم يقتل أحداً منهم، لأنه لم يتمكن من هذا، وهذا يبرئ ساحة علي -رضي الله تعالى عنه-، وإنما تتبع من وجُد منهم بعضُ الأمراء فأخذوهم وقتلوهم، وعلى كل حال قال: "**{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** **قالوا**: **معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل**"، **{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** يعني: الولي، وفي قراءة أخرى متواترة **{فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}**، على الخطاب **{فَلاَ يُسْرِف}**، بعضهم يفسرها بمعنى فلا تسرف في القتل أيها الولي، وبعضهم يفسر القراءتين **{فَلاَ يُسْرِف}** و**{فَلاَ تُسْرِف}** أيها القاتل، يعني: يخاطب القاتل يقول: إن قتلت فالقتل ينتظرك، فعلى رسْلك، **{فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}**، وبعضهم يقول: **{إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}** أي الولي، وبعضهم يقول: القتيل، بأن يؤخذ بثأره ويقتص من قاتله، ومن أهل العلم كابن جرير من يقول: إن قوله: **{فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللأمة من بعده، وأيضاً جاء في قراءة غير متواترة لأبي بن كعب {فلا تسرفوا في القتل إن ولي القتيل كان منصوراً}، فيكون تفسيراً للضمير في قوله: **{إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}** أي: ولي القتيل، والإسراف في القتل يدخل فيه صور متعددة، ما كانوا عليه في الجاهلية مثلاً كالتمثيل بالقاتل لا على وجه القصاص وإنما كان تشفياً فقط، وكذلك يدخل فيه قتل أكثر من واحد بواحد إذا لم يكن لهم يد في قتله، يرون أنه ما يكافئه واحد، كما كانوا في الجاهلية، كما قال الشاعر:

كلُّ قتيلٍ في كليبٍ غُرَّة *** حتى يوافي القتلُ آلَ مُرّة

غُرة أي: عبد، والغُرة ما تأتي شيئاً بالنسبة لديّة الحر يعني تبلغ نصف العشر، أي خمس من الإبل إذا قدرنا العبد، فهي نصف عشر دية الحر، فهذا يقول:

كلُّ قتيلٍ في كليبٍ غُرَّة *** حتى يوافي القتلُ آلَ مُرّة

يقتلهم كلهم، وعساهم يكافئون كليباً، وبعضهم كان يقتل غير القاتل، يرى أن هذا المقتول هو فارس القبيلة مثلاً، وأنه لا يكافئه هذا الإنسان الذي قتله، فيرى أنه لا يُقتل فيه إلا فلان، فيقتلونه به، فهذا كله من الإسراف في القتل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.[سورة الإسراء: (٣٤-٣٥)].

يقول تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}: أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء: (٦)] **وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي ذر: ((يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال اليتيم))[١].**

وقوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ}: أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً}: أي عنه.

وقوله: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ}: أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، {وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ} قُرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس، وهو الميزان.

وقوله: {الْمُسْتَقِيمِ}: أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب {ذَلِكَ خَيْرٌ}: أي لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: أي مآلا ومنقلباً في آخرتكم، قال سعيد عن قتادة: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: أي خير ثواباً وأحسن عاقبة. وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} قال: **أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة**، يعني بما فيه مصلحة اليتيم، فيتجر به في التجارات المأمونة غالباً، كما جاء عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: "اتجروا في أموال اليتامى؛ لا تُذهبها الزكاة"[٢]. فأن يثمَّر مال اليتيم داخلٌ في قوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، والمراد: الخصلة أو الفعلة التي هي أحسن، كالاتجار به،

١- صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧) كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة برقم (١٨٢٦).

٢ - موطأ مالك: (٢٥١/١) باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها: برقم: (٥٨٨) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- "اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة".

وتنميته وتثميره بالطرق المأمونة، وأيضاً ما ذكره الله -عز وجل-: {وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء: من الآية: (٦)]، فإذا كان ولي اليتيم بحاجة وإعواز فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، من غير توسع وفعْل ما لا يحسن ولا يجمل، مما ينبئ عن استغلال لمال هذا اليتيم كما كان يفعله أهل الجاهلية، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا} [سورة النساء: من الآية: (٦)]، وذلك أنهم كانوا يبادرون إلى أخذها وأكلها قبل أن يصل هذا الصغير إلى سنٍّ يعرف فيها حقه، والسبل التي يمكن أن يحفظه بها.

وقوله: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} الأشُد قيل: جمعٌ لا واحد له من لفظه، وقيل: مفرد، وقيل: جمع واختلفوا في مفرده، فقيل: جمع شِدَّة، وقيل: جمع شِد، وقيل: جمع شَد، وأيضاً اختلفوا في تحديد الأشُد، فحدده بعضهم بالبلوغ، وذكر بعضهم سناً معينة، وهي الخامسة عشرة، وبعضهم حدده بالثامنة عشرة، وبعضهم حدده بالثلاث والثلاثين، وبعضهم حدده بالأربعين، وبعضهم حدده بالخمسين، وهذا تباينٌ كبير، والسبب أن كل واحد من هؤلاء نظر إلى معنىً صحيح مما يطلق عليه هذا اللفظ، فمن قال مثلاً بالبلوغ قال: إن الإنسان ينتقل من الطفولة إلى مرحلة الرجولة إذا بلغ، فهذا هو بلوغ الأشد، ومن نظر إلى أنه إذا بلغ الثامنة عشرة قالوا: إن مثل هذا يكون قد حصل له بعد البلوغ من النضج ما لا يكون له عند البلوغ، ومن قال: إنه إذا وصل إلى الأربعين، نظر إلى قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [سورة الأحقاف: من الآية: (١٥)]، ومن نظر إلى الخمسين أخذ ذلك من بيت لعلي -رضي الله عنه-:

أخو خمسين مجتمع الأشد ......

فالشاهد أن بلوغ الأشد يحصل باكتمال القوة، ويحسن هذا المعنى في هذا الموضع مع حسن التصرف في المال، بمعنى أنه إذا بلغ إلى حد يصير فيها رشيداً فإنه يدفع إليه ماله، فهذه الآية مفسرة بالآية الأخرى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [سورة النساء: من الآية: (٦)] يعني اختبروهم، حتى إذا بلغوا النكاح وهذا سن البلوغ، ثم قيده فقال: {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}، فلا بد من أمرين، الأمر الأول: البلوغ، والثاني: حسن التصرف في المال، كما سبق في موضعه من سورة النساء، وبلوغ الأشد يتفاوت، فالذي بلغ الأربعين لا شك أنه ليس كابن العشرين، مع أن ابن العشرين يقال: إنه قد بلغ الأشد، إذا كان يحسن التصرف في المال.

{وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ}:

قوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ} قال: أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، يدخل في عموم قوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ}: العهد مع الله، وذلك بالوعد، ومعاهدة الله -عز وجل-، والنذر، والإيمان عهد مع الله، والتوبة عهد مع الله، وهكذا، ويدخل في ذلك العهود مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالبيعة، ويدخل فيه العهود مع الناس بجميع أنواعها.

ثم قال: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} يقول: **قرئ بضم القاف وكسرها**، قِسطاس، كالقرطاس، وكلا القراءتين متواترة، قراءة الضم قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم

في رواية، والرواية الأخرى عن عاصم، قِسطاس بالكسر، تلك على كل حال رواية شعبة، وهذه رواية حفص عن عاصم، والقسطاس فُسر بالميزان وفسر بالعدل، ولا نحتاج إلى الترجيح هنا فبين القولين ملازمة، وذلك أن الميزان هو آلة العدل، إنما يتحقق العدل بمثل هذه الأمور، بالموازين، فإذا قلت بأنه الميزان فلا إشكال، وإذا قلت بأنه العدل فلا إشكال، فالميزان آلة العدل.

{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، وليس في الآخرة فقط، بل حتى في الدنيا، ففي الدنيا إذا كان الإنسان يزن بالقسطاس المستقيم –بالعدل- فإن ذلك خير له وأحسن عاقبة؛ لأن الذي يطفف حباتٍ من الميزان أو المكيال، يحصل له من الدناءة والحقارة في نفسه وعند الآخرين ماتذهب به مروءته وشرفه، وتنزع الثقة به من قلوب الناس، ولا يُقبلون على التعامل معه، لأنهم إذا عرفوا أن أحداً في بيعه وشرائه يتعامل معهم بالأمانة فإنهم يقبلون عليه، فالعاقبة بالنسبة لهذا تكون خيراً، ويحصل له من الكسب الطيب المباح الشيء الكثير، والذي لا يجاوز نظرُه أنفَه غاية ما يريد ابتزاز هذا أو ذاك بحباتٍ يطفف فيها المكاييل، الناس يعرضون عنه ولا يتعاملون معه، ومعلوم عند أهل التجارات أو الحذق فيها أو النظر البعيد أنه لو لم يربح في تعامله هذا إلا أنه يكفيه أن يجعل الذين يتعاملون معه في أول مرة يقبلون عليه دائماً، فهذا هو النظر الصحيح في البيع والتجارة، لا أن يربح عليهم مرة واحدة ثم بعد ذلك لا يعودون إليه، فالمكاييل والموازين يتعلق بها عصب الحياة اليومية للناس، مما يمس المعايش التي بها قوام حياتهم، في ضروريات وليس في أمور كمالية، فإذا حصل فيها الإخلال وقع بسبب ذلك فساد كبير، ولعلكم تسمعون عن ثورات الخبز، لا تقوم ثوراتهم وتضطرب أحوالهم ومعايشهم إذا ارتفعت أسعار الحلوى، وإنما إذا ارتفعت أسعار الأقوات الأساسية، عند ذلك يكون الضر قد لامس نفوسهم وحياتهم من قرب، وينتج عن ذلك نزع البركات، والفساد والإفساد.

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [سورة الإسراء: (٣٦)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: لا تقل. وقال العوفي: لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم ترَ، وسمعتُ ولم تسمعْ، وعلمتُ ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [سورة الحجرات: (١٢)] **وفي الحديث ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث))[٣]. وفي سنن أبي داود: ((بئس مطية الرجل زعموا))[٤] وفي الحديث الآخر: ((إن أفرى الفِرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا))[٥]. وفي الصحيح ((من تحلم حلماً كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل))[٦].**

---

٣ - صحيح البخاري: (٥/٢٢٥٣) باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا} برقم: (٥٧١٩)، وصحيح مسلم: (٤/١٩٨٥) باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها: برقم: (٢٥٦٣).

٤ - سنن أبي داود: (٤/٢٩٤) باب قول الرجل زعموا: برقم: (٤٩٧٢).

٥ - مسند أحمد بن حنبل: (٢/٩٦) برقم: (٥٧١١).

٦ - صحيح البخاري: (٦/٢٥٨١) باب من كذب في حلمه: برقم: (٦٦٣٥).

وقوله: {كُلُّ أُولئِكَ}: أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد {كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه عما عمل فيها، ويصح استعمال أولئك مكان تلك.

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} الأقوال التي ذكرها هنا، لا تقل، لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، شهادة الزور، لا تقل: رأيت، ولم تر، إلى آخره، كل هذا من قبيل التفسير بالمثال، فكله داخل في الآية، {وَلاَ تَقْفُ}: يعني لا تتبع، وأصل ذلك يرجع إلى القفو وهو الاتباع، وأصله أن يتبع قفاه، يعني يكون مقتفياً له، يمشي على أثره، ولهذا فسرها بعضهم بمعنىً خاص ملاحظاً لهذا الجانب في هذه اللفظة، حمل ذلك على ما يكون في القفا، مما يقال من النميمة والغيبة، وقذف الأعراض وما أشبه ذلك، والقفو مشعر بما يكون في القفا، وهذه الأمور تقع أيضاً في القفا من وراء الإنسان، في غيبته وغير ذلك، إلا أن العرب تستعمل ذلك في ما هو أوسع من هذا، فلان يقتفي أثر فلان، يعني يتبعه، وعلى كلٍّ فـــ{لاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} أي لا تتبع ما ليس لك به علم، فهذا يشمل كل الصور التي ذكرها السلف، وغير ذلك مما يكون من اتباع للظنون الكاذبة والشائعات، ((بئس مطية الرجل زعموا))، فيكون الإنسان ناقلاً لأمور لم يحققها ولم يتثبت منها، فمجرد ما يسمع الشيء أو يقرؤه في مكان فهو يسارع في نقله، وهكذا يدخل فيه كل ما لم يتثبت ويتوثق منه الإنسان في الديانة مما يتعلق بالعبادات، فيدخل فيه اتباع الأهواء والبدع، والأمور المضلة، والمقصود أن الإنسان يتوثق في كل ما يأتي وما يذر، لا يفعل شيئاً إلا عنده فيه من الله برهان، ولا يتكلم بشيء إلا ويعلم أنه حق، وأن التكلم فيه، فيه مصلحة ونفع، وأنه خير من السكوت، وإلا فـــ ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت))[٧] وما كل ما يُعلم يقال، وما كل ما يسمعه الإنسان يحدث به، ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع))[٨]، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة الداخلة تحت قوله: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، والعموم ظاهر فيها من هذا التركيب، فـــ "تقف" فعل مضارع مسبوق بـــ"لا" الناهية، ومثل هذا يدل على العموم، ومن "ما" أيضاً، {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، وهذا العموم يتوجه إلى أربعة أشياء الأفراد والأزمان والأمكنة والأحوال.

ثم قال: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ} رتبها بهذا الترتيب السمع والبصر، فالسمع أهم من البصر، كما هو معلوم؛ لأن الإنسان قد يتعطل بصره ويكون له من البصيرة ما يغنيه عن البصر، ويكون ذلك ربما أوفر في عقله وحفظه وحدة ذهنه، وأيضاً الإنسان حينما يبصر لا يبصر إلا الأمور المتشخصة، ولا يبصر إلا ما أمامه، وأما السمع فهو يسمع فيه غير المتشخصات كأصوات الرياح ويسمع الأشياء البعيدة التي لا تبصرها عينه، ويسمع من كل ناحية، ثم ذكر البصر بعده، ثم ذكر الفؤاد؛ لأنه هو المصبُّ، فالسمع والبصر سبيلان وطريقان يصبان في القلب، ميزابان يلقيان في القلب ما يتحصل بهما، فما يراه الإنسان من المناظر يقع في القلب، وما يقرؤه يقع في القلب، وما يسمعه الإنسان يصب في قلبه، فيتأثر سلباً أو إيجاباً، فلا يكون قلب الإنسان محلاً يلقى فيه كل بلاء وشر، وإنما يصون الإنسان سمعه وبصره، والفؤاد هو القلب، وقيل له:

---

٧ - صحيح البخاري: (٢٣٧٦/٥) باب حفظ اللسان: برقم: (٦١١٠) ومسلم: (٦٩/١) باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان: برقم: (٤٨).

٨ - صحيح مسلم: (١٠/١) باب النهي عن الحديث بكل ما سمع: برقم: (٥)

الفؤاد، قيل: لكثرة تفؤده أي: توقده بالمعاني والخواطر والأفكار، ولا يتوقف، بخلاف السمع والبصر، والمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا {كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} جمع بين المعنيين اللذين ذكرهما المفسرون في هذه الآية، فالعبارة دقيقة قال: {كُلُّ أُولئِكَ}: أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد {كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي **سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه، وعما عمل فيها**، وقوله: {عَنْهُ} يحتمل أن يكون المعنى {كَانَ عَنْهُ}: أي أنك تُسأل عنها، أي عن السمع والبصر والفؤاد، ((لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه..))[9] إلى آخره، والمعنى الثاني: أنها هي التي تُسأل عن الإنسان ماذا عمل بها، كيف استغلها، كما قال الله -عز وجل-: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ}[سورة يس: من الآية: (٦٥)] فهي تنطق وتتكلم، وكل واحد من هذين المعنيين يدل عليه أدلة؛ ولذلك يمكن أن يقال هنا: إن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذه الآية تحمل على هذين المعنيين، {كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي أنها تُسأل عن الإنسان، والإنسان أيضاً يُسأل عنها.

---

٩ - سنن الترمذي: (٦١٢/٤) باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص: برقم: (٢٤١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء(١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [سورة الإسراء:٣٧ – ٣٨].

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً} أي: متبختراً متمايلاً مشي الجبارين، {إِنّكَ لَن تَخْرِقَ الأرْضَ} أي: لن تقطع الأرض بمشيك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وقاتمِ الأعماقِ خاوي المُخْتَرَقْ

وقوله: {وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازَى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: ((بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة))[1]، وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله: {كُلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبّكَ مَكْرُوهاً} أما من قرأ {سَيِّئَةً} أي: فاحشةً، فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} إلى هنا، فهو سَيِّئةٌ مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ {سَيِّئُهُ} على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله: {وَقَضَىَ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاّ إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٢٣] **إلى هنا فسيِّئه أي فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابن جرير -رحمه الله-.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا}** وفي قراءة أخرى متواترة **{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرِحاً}** على البناء على اسم الفاعل، والمرَح فسر بشدة الفرح، وفسر بالتكبر والتبختر، والخيلاء، وتجاوز الإنسان قدره، وهذه الأقوال متقاربة وليس بينها تنافٍ، فالمشي في الأرض مرحاً بمعنى أنه يمشي مشيةً يتبختر فيها ويتعاظم ويختال.

وليس المقصود من هذا أن الفرح مذموم من كل وجه، فهناك فرح مشروع ومنه قوله – تبارك وتعالى -: **{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}**[سورة يونس:٥٨]، ومنه الفرح بنصر الإسلام، وظهور المسلمين فليس هذا مذموماً، بل هو فرح يحبه الله -عز وجل-.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥ / ٢١٨٢)، برقم (٥٤٥٢)، ومسلم، كتاب اللباس والزينـة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٣ / ١٦٥٣)، برقم (٢٠٨٨)، بنحوه.

وهناك فرح مباح لا يكون مذموماً، ومنه الفرح بالمكاسب الدنيوية، والربح في التجارات، أما الفرح المذموم فهو الذي يحمل على التعاظم والخيلاء، والتكبر، والتجبر والأشَر والبطَر.

فمن فسر قوله –تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} بشدة الفرح فهو محمول على الفرح المذموم، وقد قال بعض أهل العلم: إن {مَرَحًا} حال، وقيل: هو مصدر وقع حالاً، أي: ذا مرح، {تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} أي مارحاً متلبساً بالكبر والخيلاء.

قوله: {إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ} [سورة الإسراء:٣٧] أي: لن تقطع الأرض بمشيك، وهذا قول ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج: وقاتم الأعماق خاوي المخترقن.

وقال بهذا القول الأزهري، والنحاس، وهو قول مشهور في تفسير الآية، وهو معنىً صحيح في لغة العرب.

فالإنسان الذي يتكبر لن يقطع الأرض بمشيته هذه التي يتبختر بها، فإذا نظرت إليه وهو يمشي من بعيد فتراه كأنه ذرة، فماذا تمثل هذه المشية بالنسبة للأرض؟

وقيل في معنى قوله: {إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ} أي: لن تنقب الأرض بمشيتك، فحينما يضرب هذا المختال برجله على الأرض فلن يخرقها، وهذا القول له قرينة ترجحه، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}، والآية تحتمل المعنى الأول والثاني، فالمتبختر لن يقطع الأرض بمشيته، ولن يخرقها حينما يضرب بقدمه، فهو لا يمثل شيئاً.

وإذا أردت أن تعرف هذا جيداً، فانظر إلى الناس وأنت في الطائرة، انظر إلى المدن، لا ترى الناس أصلاً؛ لصغرهم، وانظر إليهم من مكان مرتفع في منىً وهم يذهبون إلى الجمرات، تراهم كالذر، لا تميز هذا من هذا، لا تميز المتعاظم في نفسه، من غيره، لكن الإنسان ينسى نفسه، ويتكبر على الخلق، فالشاهد أن هذا معنى، والمعنى الآخر صحيح، أي نقب الأرض، وهذا الذي اختاره أبو عبد الله القرطبي -رحمه الله-، واختاره أيضاً من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ويمكن أن تحمل الآية على الجميع، والله أعلم.

يقول: وقوله: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}، قال: "**أما من قرأ** {سَيِّئَةً} **أي: فاحشةً**، {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً}" وهي قراءة متواترة، "**فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه من قوله:** {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} **إلى هنا فهو سيئة، مؤاخذ عليها، مكروها عند الله، لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ** {سَيِّئُهُ} **على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله:** {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}، **إلى هنا فسيِّئه أي قبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابن جرير -رحمه الله-**".

فعلى قراءة {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً} الأشياء المذكورة في هذه الوصايا، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [سورة الإسراء:٢٣] إلى آخره، هذه ليست بسيئة، ولهذا حاول العلماء أن يحددوا مرجع اسم الإشارة {كُلُّ ذَلِكَ} فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: من قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}؛ لأنه أول النواهي، وهذا غير صحيح؛ لأن الله -عز وجل- قال قبله: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا}، وقال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}[سورة الإسراء:٢٩]، فإن قيل: إنما ذكر {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ} باعتبار أن تلك يتخللها أوامر، أو جاءت في سياق أوامر، فجاءت تبعاً لها، فيمكن أن يقال: حتى هذه {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى}[سورة الإسراء:٣٢] جاء بعدها أيضاً، {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ

بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [سورة الإسراء:٣٥]، ولهذا فإن بعضهم يقول: هذه تبدأ من قوله: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}[سورة الإسراء:٣٦]؛ لأن هذه الأشياء كلها التي جاءت بعدها نواهٍ، ما جاء بعدها أمر، فيكون {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً}، حينما يمشي الإنسان في الأرض مرحاً، ومن أهل العلم من يقول: ترجع إلى كل ما سبق، باعتبار أن هذه المنهيات سيئة، وأن الأمر بالشيء يتضمن أو يقتضي النهي عن ضده، فهي بهذا الاعتبار {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً} أي: أن أضداد هذه المأمورات وهذه المنهيات أيضاً في نفسها سيئة، وهذا لا يخلو من تكلف، وأما القراءة الأخرى بالإضافة {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} فهذه الوصايا التي تضمنت مأمورات ومنهيات {كَانَ سَيِّئُهُ} يعني: كالزنا والعقوق والإسراف والتكبر والتبختر وما أشبه ذلك كل هذا مكروه عند الله -عز وجل-.

يقول: {وَلاَ تَقْتُلُواْ} إلى آخره، يقول: "**إلى هنا فهو سيئة، مؤاخذ عليها، مكروهاً عند الله -عز وجل**-"، {مَكْرُوهًا} يمكن أن يكون بدلاً من سيئة، كل ذلك كان سيئةً مكروهاً، فيكون بدلاً منه، ويمكن أن يكون خبراً ثانياً لكان، كان سيئةً مكروهاً، وأما على قراءة الإضافة فواضح، {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}، "مكروهاً" مذكر و"السيئة" مؤنث على هذه القراءة {سَيِّئَةً}، {مَكْرُوهًا}، والسيئة بمعنى الذنب فيمكن أن يكون التذكير باعتبار المعنى، ولا إشكال في هذا، ويمكن باعتبار اسم الإشارة.

{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا} [سورة الإسراء:٣٩]، **يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس،** {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً} أي: **تلومك نفسك ويلومك الله والخلق،** {مَدْحُوراً} أي: **مبعداً من كل خير، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- معصوم.**

الخطاب الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن فيه تفصيل وهو على ثلاثة أنواع، منه ما وجد معه قرينة أن المراد الأمة، والأصوليون كثيراً ما يمثلون بقوله: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ} [سورة الطلاق:١]، جاء بصيغة الجمع، {لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} إلى آخره، ومنه أيضاً قول الله -عز وجل-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ} [سورة الإسراء:٢٣] والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن له من أبويه أحد على قيد الحياة حينما نزلت عليه الآيات، وأحياناً يوجد معه قرينة على إرادة الاختصاص كقوله: {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأحزاب:٥٠]، وأحياناً لا توجد قرينة، فمثل هذا هو موضع الاختلاف، وهذا يقال فيه: إن الأمة مخاطبة به؛ لأن الأمة تخاطَب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}: "**هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس**"، والحكمة تقال للإصابة في القول والعمل، وقريب من هذا قول من قال: إنها وضع الشيء في موضعه، وأصل الحكمة المنع في كل الاستعمالات، حكَم تدور على المنع، فالحكمة صفة وخلّة جميلة تمنع صاحبها من الخطل في

الرأي، والخلل، والغلط في القول والعمل؛ ولذلك يقال: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} يعني: من الصفات الكاملة، والأعمال الجميلة، والأخلاق الفاضلة التي لا يتطرق إليها في هذه الوصايا خلل ولا خطل، وإنما هي كمالات أمر الله بها، أو دنايا ورذائل نهى الله -تبارك وتعالى- عنها، فما يقوله الله -عز وجل- ويأمر به كله صواب وحق وصدق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا}[سورة الإسراء:٤٠].

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين -عليهم لعائن الله- أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبّكُم بِالْبَنِينَ} أي: خصصكم بالذكور {وَاتّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً} أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: {إنكم لتقولون قولاً عظيماً} أي: في زعمكم أن لله ولداً، ثم جعْلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنّ لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} [سورة مريم:٨٨-٩٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا}**، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والمقصود أن الله تعالى ينكر عليهم زعمهم وافتراءهم بأنه -تبارك وتعالى- أعطاهم، أو أن الملائكة بنات الله، **{أَفَأَصْفَاكُمْ}** أي: خصكم **{بِالْبَنِينَ}**، ومعلوم أن الملوك إنما يصطفون لأنفسهم أفضل ما يوجد دون الأضعف والأقل، فإذا كنتم تحتقرون البنات وتئدونهن، كما يقول الله عنكم: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ}** [سورة النحل:٥٨-٥٩]، فكيف تنسبون ذلك لله -عز وجل- وهو مالك الملك، كيف خصكم بالأبناء الذين هم أشرف وأعظم، واتخذ الأضعف والأقل؟ هذا لا يكون، فهذا يدل على سوء نظرهم وضعف عقولهم.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا}[سورة الإسراء:٤١].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ} [سورة الإسراء:٨٩] **أي: صرفنا فيه من الوعيد؛ لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، {وَمَا يَزِيدُهُمْ} أي: الظالمين منهم {إِلاّ نُفُوراً} أي: عن الحق وبعداً منه.**

قوله سبحانه وتعالى: **{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ}** التصريف في الأصل هو صرف الشيء من جهة إلى جهة، أو المغايرة، أي غايرَ في هذا القرآن بين المواعظ، وجاء بها على صروف وضروب متنوعة، من أجل

أن يتعظوا ويعتبروا، ولكنّ الكثيرين لم يزدهم هذا إلا إعراضاً ونفوراً وتباعداً، وعلى كل حال الله -تبارك وتعالى- كما قال الحافظ ابن كثير: "**صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات**"، وتارة يأتي بأخبار المكذبين، وما حصل لهم من النقم والمَثُلات، وتارة يأتي بما يدل على عظمته وقوته وجبروته، وتارة يأتي فيه بما يدل على عظم جزائه في الآخرة، في الجنة أو النار.

{قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَة كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا}[سورة الإسراء:٤٢-٤٣].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ} أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى، {عُلُوّاً كَبِيراً} أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

هذه الآية مشهورة عند أهل الكلام في الاعتقاد يذكرونها في دلائل الربوبية، ويسمونها: دليل التمانع في الربوبية، ورد عليهم بعض أهل العلم، تجدون هذا في كلام شيخ الإسلام وفي كلام ابن القيم، وما ضمن من كلامهما في شرح العقيدة الطحاوية، وذلك أن هذه الآية ذكر الله -عز وجل- فيها الآلهة قال: **{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ}** وما قال: "أرباب"، **{إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}**، فيرون أن هذه الآية يمكن أن تكون دليلاً على التمانع في الإلهية وليس الربوبية، وأن الأقرب في التمانع في الربوبية قوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}**[سورة المؤمنون:٩١]، فالمقصود أن هذه الآية **{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}**، وأيضاً **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}**[سورة الأنبياء:٢٢]، وهذه الآية فيها للعلماء قولان مشهوران، ذكر الأول منهما الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يقول: "**لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم**"، يقول: لو كان معه آلهة كما يقولون فإنهم سيكونون دونه في المرتبة وسيكون حالهم التقرب إليه، وطلب الزلفى لديه جل جلاله، فهو العظيم الأعظم -جل شأنه-، فينبغي عليكم أن تعبدوه وتفردوه بالعبادة وتوحدوه، وهذا المعنى هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية وتلميذه ابن القيم، وكذلك أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والمعنى الثاني في الآية وهو أيضاً محتمل، بل لربما يكون أكثر احتمالاً أخذاً من ظاهر القرآن، وهو أن المقصود **{إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}** أي: سبيلاً إلى مغالبته، وليس سبيلاً إلى عبادته، وهذا هو المتبادر، ويدل عليه ظاهر قوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**، ومن أهل العلم من يقول: كل واحد من هذه المعاني يوجد ما يشهد له وهو معنىً صحيح تحتمله الآية فتحمل على المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

يقول: {لّوْ كَانَ مَعَهُ آلهة كَمَا يَقُولُونَ} هذه قراءة ابن كثير وحفص، وقرأ الباقون "كما تقولون"، يعني: أيها المشركون.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: "{قُلْ لّوْ كَانَ مَعَهُ آلهة كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة، والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: {وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} قال شيخنا -رضي الله عنه-: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له؟، قال: ويدل على هذا وجوه: منها قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟. الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: {لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: {اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ}[سورة المائدة:٣٥]، وأما في المغالبة فإنه يستعمل بعلى كقوله: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً}[سورة النساء:٣٤]، الثالث: إنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قال: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟"[1].

وقال -رحمه الله تعالى-: "وكذلك قوله سبحانه مقرراً لبرهان التوحيد أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}، فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه –سبحانه- كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه، فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم من دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [سورة الإسراء:٥٧] أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبيدي، كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، كما ترجون أنتم رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟[2].

{تُسَبِّحُ لَهُ السّمَاوَاتُ السّبْعُ وَالأرْضُ وَمَن فِيهِنّ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}[سورة الإسراء:٤٤].

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيءٍ له آيةٌ * تدل على أنه واحد**

كما قال تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً}[سورة مريم:٩٠-٩١].

هذا البيت:

---

١ - بدائع التفسير (٢/١٣٧-١٣٨)، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، للإمام ابن القيم (١٤٤).

٢ - انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٢/٤٦٢).

ففي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد

هذا البيت يورده من يقول بأن التسبيح بلسان الحال، فهي شاهدة على وحدانيته وربوبيته وإلهيته -سبحانه وتعالى-، والتسبيح على ظاهره، وجاء بلفظة "مَن" التي عادة تستعمل فيما من شأنه أن يُوصف بالعلم، وعموم الظاهر في الآية مع قوله: {وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} يدل على أن كل شيء يسبح، كما في الآيات الأخرى {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة الحديد:١]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ} [سورة الجمعة:١]، فكل ما في هذا الكون يسبح من العقلاء وغير العقلاء، ولا يُخص ذلك بما له نفس وروح، حتى النبات والأحجار لحديث حنين الجذع[٣]، وكذلك ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن))[٤]، وتسبيح الحصى، إلى غير ذلك.

وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، {وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٥].

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: ((اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله منه))[٦].

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قتل الضفدع[٧].

نهى عن قتلها لأن نقيقها تسبيح.

وقوله: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} أي: إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله ويُنظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)) ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٩٠).

٤ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٨٦).

٦ - رواه أحمد في المسند (٣٩٢/٢٤)، برقم (١٥٦٢٩)، وقال محققوه: حديث حسن.

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦/٢٥)، برقم (١٥٧٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والطبراني في المعجم الكبير، (١٠٤/٤) برقم (٣٧١٦)، ورواه أبو داود عن عبد الرحمن بن عثمان -رضي الله عنه-: "أن طبيباً سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتلها"، كتاب الأدب، باب في قتل الضفدع، برقم (٥٢٦٩)، ورواه النسائي بلفظ أبي داود، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع، برقم (٤٣٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٩٧١).

هود:١٠٢] الآية[٨]. وقال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة الحج:٤٨] الآية، وقال: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة الحج:٤٥] الآيتين.

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه، كما قال تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ}[سورة النساء:١١٠] الآية، وقال ههنا: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، كما قال في آخر فاطر: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة فاطر:٤١]، إلى أن قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ...}[سورة فاطر:٤٥] إلى آخر السورة.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ}، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً}[سورة الإسراء:٤٥-٤٦].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِذَا قَرَأْتَ} يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، قال قتادة وابن زيد: هو الأكنّة على قلوبهم، كما قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [سورة فصلت:٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء، وقوله: {حِجَاباً مَّسْتُوراً} بمعنى ساتر، كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم؛ لأنه من يمنهم وشأمهم، وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير -رحمه الله-.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١]، جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فِهر وهي تقول: مذمَّماً أتينا - أو أبينا - قال أبو موسى: الشك مني، ودينَه قلينا، وأمرَه عصينا، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: ((إنها لن تراني))، وقرأ قرآناً اعتصم به منها، {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً} قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، قال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاكِ، قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها[1].

وقوله: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} وهي جمع كنان الذي يغشى القلب، {أَن يَفْقَهُوهُ} أي: لئلا يفهموا القرآن، {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً} وهو الثقل الذي منعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به، وقوله تعالى: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ} أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، {وَلَّوْاْ} أي: أدبروا راجعين، {عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً} ونُفور جمع نافر، كقُعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [سورة الزمر:٤٥] الآية، قال قتادة في قوله: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ} الآية، إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُمضيها ويعليها

١- رواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٣٧٦)، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٥١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه: صحيح بشواهده، وأبو يعلى في مسنده برقم (٥٣).

وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمةٌ من خاصم بها فُلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً}، يقول: "**قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم**"، وفسره بالآية: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} أي: مانع، حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

قال: "**وقوله: {حِجَاباً مَّسْتُوراً} بمعنى ساتر**"، ما كان على وزن مفعول قد يأتي بمعنى اسم الفاعل، فيكون عبّر باسم المفعول وأراد اسم الفاعل، وهذا كثير في القرآن وفي لغة العرب، وقد يقع عكسه، يعبر باسم الفاعل ويراد اسم المفعول كما يقال: عيشة راضية، يعني عيشة مرضية، كقوله: {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ} [سورة الطارق:٦] دافق على وزن فاعل، يعني مدفوق، وإذا فسر الحجاب بأنه الأكنة التي على القلوب {حِجَاباً مَّسْتُوراً} فيمكن أن يكون بمعنى اسم الفاعل، يعني ساتراً يحول بينهم، بين قلوبهم وبين الانتفاع والتأثر بالقرآن، ويصح أيضاً أن يراد به اسم المفعول، بمعنى أن هذا الحاجز الذي يحول بينهم وبين الانتفاع بالقرآن والتأثر به لا يرونه، ولا يشاهدونه، يقول: "**وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى**"، كل هذا يجري على تفسيره بالأكنة، يمكن أن يكون ساتر بمعنى فاعل، ويمكن أن يكون بمعنى مفعول، ومع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير وابن القيم -رحم الله الجميع-.

وهذه الرواية التي ساقها عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وبيدها فِهر، فِهر يعني: حجر، وهي تقل: مذمماً أتينا أو أبينا، قال أبو موسى: الشك مني، وأبو موسى هو إسحاق بن إبراهيم الهروي شيخ أبي يعلى، يقول: الشك مني، يعني هل قالت: أبينا أو أتينا، الشاهد أن هذه الرواية إن صحت فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ من القرآن فلم تره هذه، فيكون قوله: {حِجَاباً مَّسْتُوراً} على هذا المعنى أي: ساتراً بينه وبينهم فلا يرونه، وهذا غير المعنى الأول، فالمعنى الأول: حائل بينهم وبين الهدى، ولا يصل إليهم الموعظة ولا التذكير ولا ينتفعون بالقرآن، فقلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقر، والمعنى الثاني يختلف عن الأول، أي يكون ساتراً لأبدانهم فلا يرونه أصلاً، وهذا المعنى رجحه القرطبي وذكر أمراً وقع له في ذلك، وهو أنه كان في بلاد العدو، فتبعه فارسان، وكان في أرض مكشوفة، أرض فلاة، فتبعوه، فجعل يقرأ بعض الآيات من سورة يس، كقوله: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [سورة يس:٩]، فجاءوا ومروا من عنده وهم يبحثون عنه، ولم يروه، فجعل أحدهم يقول لصاحبه: هذا ديبلة، يعني شيطان، وهذا المعنى -والله تعالى أعلم- لا ينافي المعنى الأول، فالمعنى الأول دلت عليه آيات من القرآن، وهذه الآيات فيها قرينة تدل عليه، قال الله تعالى بعده: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ

وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}، فالشاهد أن هذه الآية وآيات أخرى في معناها في القرآن تدل على أن الله -عز وجل- جعل حائلاً وحاجزاً بين قلوب هؤلاء الكفار المصرِّين على كفرهم، وبين الهدى والقرآن والانتفاع به، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن القيم، وجمع من أهل العلم كثير، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، فهو معنىً دل عليه القرآن، المعنى الثاني: أن يكون الحاجز دون أبصارهم فلا يرون شخصه، وهذه الرواية إن صحت تدل عليه، ولكنها لا تعني أن ذلك هو التفسير لهذا الآية فحسب، وإنما هو أمر عملي فعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفعل ذلك أخذاً من معناها الأعم، كما ذكرنا في مناسبات شتى، لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي وفاطمة وهما نائمان، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى شاء أن يبعثنا بعثنا، أو كما قال، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالمغضَب وهو يلطخ فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[2]، هذه الآية في الكفار، في مجادلتهم بالوحي، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أعلم الناس بالقرآن، ومعاني القرآن، وفيما نزل في القرآن، أوردها في هذا الموضع، وهكذا في {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء:١٠٤] لما قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم-، لما قال: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً))، ثم قرأ الآية[3]، مع أن الآية في الأصل واردة في تقرير البعث، والاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، فأوردها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الموضع، ولما اختصم الخدري والعوفي في أي المسجدين بني على التقوى {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ} [سورة التوبة:١٠٨]، فالخدري يقول: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، والعوفي يقول: مسجد قباء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هو مسجدي هذا))[4]، مع أن سياق الآية في مسجد قباء، ولا ينفي عن مسجد قباء هذه الصفة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلها على الأحق بذلك، ولا شك أن مسجده -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذا من مسجد قباء، فالآية قد تكون وردت في معنى، ويؤخذ من معناها الأعم أو من لفظها العام، معنىً آخر، وذلك أشبه ما يكون بالرُّقية، يعني استعمال الآية في مثل هذا المقام، يشبه العمل بالرقى، ففي آيات الرقية مثلاً لم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها شيء أصلاً، باستعمالها في هذا العلاج، شيخ الإسلام يرى أنه إذا كتب على جبين المرعوف {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ} [سورة هود:٤٤]، تكتب بقلم على جبين المرعوف فيتوقف الرعاف، هذه لم ترد عن النبي

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

٣ - رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خطب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٤]...الخ"، كتاب التفسير، باب {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}، برقم (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠).

٤ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند (٣٥٩/١٨)، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح لغيره في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١١٧٧).

-صلى الله عليه وسلم-، والأصل في الرقى أنها من باب الطب، والأصل في الطب الإباحة ما لم يشتمل على محظور، مع أن الآية لا علاقة لها بالرعاف، ويمكن أن تأتي بالآيات التي فيها الإجراء والإسالة فيمن أصيب بجلطة فتقرأ عنده مثلاً، وكما قال ابن القيم -رحمه الله- في الآيات التي يقرؤها من يشعر بشيء من الخوف والاضطراب والارتباك ونحو هذا يقرأ آيات السكينة، فيجد لهذا أثراً عجيباً، فمثل هذه الآية إذا قرأها الإنسان وقصد بذلك أن لا يراه عدوه فيمكن أن يقع هذا، ويعميهم الله -عز وجل-، يعمي أبصارهم عنه، {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}، ويمر من بين أيديهم ولا يرونه، يمكن أن يقع هذا ولا يَبْعد، ولا يلزم أن يكون هذا هو معنى الآية الأصلي، -والله تعالى أعلم-.

ويقول: وقوله: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ويغطيه، الأكنة بمعنى الأغطية، الشيء الذي يغطي، تقول: أكنّه من المطر، ومن الشمس، بمعنى غطاه وستره.

قال: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}، والوقر هو الثقل والصمم الذي يكون في الآذان، فهم لا يسمعون القرآن سماع انتفاع وتأثر، وإن كان يطرق أسماعهم لكن لا يفقهون ما سمعوا.

{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً}[سورة الإسراء:٤٧-٤٨].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بما يتناجى به رؤساء قريش حين جاءوا يستمعون قراءته -صلى الله عليه وسلم- سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السِّحْر على المشهور، أو من السَّحْر وهو الرئة، أي إن تتبعون -إن اتبعتم محمداً- إلا بشراً يأكل، وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رئِيٌّ يأتيه.

بالكسر والفتح رَئِيٌّ ورِئِيٌّ.

بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر؛ ولهذا قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً} أي: فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد

بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

قوله: {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا} هذه الرواية -وهي سماع هؤلاء الثلاثة- التي أوردها المؤلف -رحمه الله- تفسيراً لهذه الآية {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ}، لا تصح فهي من مراسيل الزهري، وهو من صغار التابعين، وقوله -تبارك وتعالى-: {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ} يمكن أن تكون الباء للملابسة، أي يستمعون إليك متلبسين به، من الاستخفاف بك وبالقرآن، فيستمعون وهم بهذه المثابة، وهم متلبسون بهذه الصفة، استماع مستهزئ ومستخفٍّ، لا استماع معظم ومنتفع، وبعضهم يقول: إن الباء هذه {يَسْتَمِعُونَ بِهِ} زائدة، ويقصدون بذلك من ناحية الإعراب، لا من ناحية المعنى، وإن كان لا يحسن ولا يليق أن يعبر عن شيء مما في القرآن بالزيادة، ولذلك يسمي بعضهم مثل هذا: صلة، تأدباً في العبارة، والمعنى واحد، يقول: {إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا}، يقول: "**من السِّحْر على المشهور**"، وهذا هو الظاهر المتبادر، رجل مسحور، أي أنه قد ابتلي بالسحر، فصار يخلط في نظرهم، وما يصدر عنه إنما هو من جراء هذا السحر، ومعلوم أن المسحور لا يصدر عنه الأفعال المرضية، والتصرفات السوية، وكيف يأتي على يده هذا القرآن المعجز، فهذا السحر على هذا الحال أورثه أعظم الكمالات، يقول: "**أو من السَّحْر وهو الرئة**"، فكل من له سَحر فهو مخلوق، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- يأكل ويشرب ويتنفس، ويقال: انتفخ سحره، يعني رئته، تعبيراً عن الخوف، فمعنى ذلك أنكم تتبعون بشراً وهم في تصورهم أن النبي لا يكون بشراً، فقالوا: {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهذا المعنى بعيد، وهو خلاف الظاهر المتبادر، فهذا يقال على سبيل التورية والتلبيس على السامع والإلغاز، والقرآن لا يكون بهذه المثابة، يعني قد تقول لسبب أو لآخر عن شخص: فلان مسحور لتعتذر له وأنت تقصد أن له سَحر، يعني رئة، يعني قد يتصرف تصرفا خاطئا، فتعتذر عنه، أو تعتذر له، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رَئِيٌّ**"، أو رِئِيٌّ من الجن، المقصود: أن يكون له تابع من الجن، وهذا التابع من الجن لربما يبدي له بعض الأشياء مما لا يراها الناس فيراها هو، أو يُسمعه بعض الأشياء التي لا يسمعها الآخرون، أو يوقع في نفسه أشياء في أمور تحصل فيشعر بها، فيقول: فلان معه كذا، أو فلان مات، أو فلان الآن مسافر، أو فلان الآن مريض، أو نحو هذا، ويكون كما قال، لا يدري كيف جاءت، وقعت في نفسه هذه الأمور، وقد يجري ذلك على لسانه، إما في بعض قضايا العلم فيتكلم بأشياء كأنها عن ظهر قلب، كلام أهل العلم، وهو لم يقرأها، أو يكون هذا أحياناً يجري على لسانه في أمور تلبس على الناس وتضللهم بشبهات أكبر منه، وليس هو بهذا المستوى، هو أصلاً، تجري على لسانه، وقد يحصل له ذلك في باب التعبير، التفسير للرؤى أحياناً، فيجري على لسانه التعبير، وهو لا يعرف كيف فسرها، فيكون هذا بسبب القرين أو بسبب هذا الرَّئِيِّ من

الجن، وكثير من الناس قد لا يشعر بهذا أصلاً، ولربما يحصل له إذا استرسل معه وتابعه وتفطن له واستجاب، يحصل له بسببه فتنة، أو يفتن غيره بذلك، لأنه يخبرهم عن أشياء، ففي باب الرقية مثلاً يقول: فلان مسحور وسَحَره فلان، والسحر في المكان الفلاني، والسحر مؤثر فيه في الشيء الفلاني، يوجد فيه كذا ويوجد فيه كذا، في جسده، وأشياء غريبة أشبه بالخيالات، ثم تتبدى الأمور وتتكشف على أن ما قاله صحيح أحياناً، وهو إما أنه يستعين بالشياطين مباشرة، أو أنه جري ذلك على لسانه ويكون له تابع من الجن، وهذه أمور موجودة وواقعة، وكما قيل في عمرو بن لحي الخزاعي، كان له رَئِيٌّ من الجن، فجاءه فقال له: اذهب إلى ساحل جدة، تجد أصناماً معدة، إلى آخر ما قال، فذهب هناك فاستخرجها من ساحل جدة، وكانت منطمرة مدفونة، من بعد الطوفان، فأخرجها وعبدتها العرب – وهي ود ويغوث وسواع-، وعادت الأصنام التي عبدها قوم نوح بأسمائها وأعيانها إلى العرب، هكذا قيل، فالله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً}، أي: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، فلا يصلون إليه؛ لمَا وُجد على قلوبهم من الأكنة -الأغطية-، وفي آذانهم من الوقر، قالوا: {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} فهذا لا يصلون معه إلى الهدى بحال من الأحوال، ويحتمل أن يكون قوله: {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً}، أي: سبيلاً إلى الطعن فيه، وإنما يقولون هذه المقالات الباطلة التي لا يصدقها عاقل، كيف يكون مسحوراً ويأتي بهذا القرآن؟!، المسحور يخلط، وقريب من هذا أيضاً قول من قال: {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً} لا يستطيعون سبيلاً: أي لا يهتدون إلى شيء يقولونه يقبله السامع، فالأشياء التي يقولونها: شاعر، كاهن، ساحر، أو مسحور، كل هذا مما لا يقبله السامع؛ لأن من عرف أوصافه -صلى الله عليه وسلم- عرف أنه أبعد ما يكون عن هذه الأمور، {فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً}، فلم يهتدوا إلى شيء يقولونه فيه تقبله العقول، أو لا يستطيعون سبيلاً إلى إبطاله والقدح فيه، وقد تناقضت أقوالهم، ولو قيل: {فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً} أي: مخرجاً مما وقعوا فيه من التناقض في أقوالهم عنه، تارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: شاعر، {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً}.

{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٤٩-٥٢].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: تراباً، قاله مجاهد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: غباراً، {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} أي: يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٠-١٢]، وقوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [سورة يس:٧٨] الآيتين، فأمر الله سبحانه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجيبهم فقال: {قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً} إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات {أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك، فقال: هو الموت، وروى عطية عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-

أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقال مجاهد: {أَوْ خَلْقاً مِمّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} يعني: السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا} أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً، {قُلِ الّذِي فَطَرَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ} أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} الآية، وقوله تعالى: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: يحركونها استهزاء، وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم -وهو ولد النعامة- نغضاً؛ لأنه إذا مشى عجّل بمشيته وحرك رأسه، ويقال: نَغضَتْ سنُّه، إذا تحركتْ وارتفعت من منبتها.

وقوله: {وَيَقُولُونَ مَتَىَ هُوَ} إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[سورة يونس:٤٨]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [سورة الشورى:١٨]، وقوله: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً} أي: احذروا ذلك، فإنه قريب سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ} أي: الرب -تبارك وتعالى-، {إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [سورة الروم:٢٥] أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠]، وقوله: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

وقوله تعالى: {وَتَظُنُّونَ} أي: يوم تقومون من قبوركم {إِنْ لَبِثْتُمْ} أي: في الدار الدنيا {إِلَّا قَلِيلاً}، وكقوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات:٤٦]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً} [سورة طه:١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [سورة الروم:٥٥]، وقال تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٤].

قوله: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} "أي: **التراب، قاله مجاهد**"، واختاره ابن جرير، والرفات: هو ما تفتت وتهشم وتكسر وترضض من كل شيء، يقال هذا للشيء المتفتت، يقال: رفات فلان، يعني ما تحلل من جسده ومن جثته بعدما بلي، وتحول إلى تراب أو نحوه، وتفسير من فسره بالغبار ليس بعيداً عن هذا؛ لأن المقصود

هو الشيء المتفتت، {وَرُفَاتًا} فيصدق هذا على التراب، ويصدق هذا على الغبار، والجامع المشترك في هذا كله هو الشيء المتفتت، إذا صارت الأجساد هذه متحللة تحولت إلى تراب، فالذي فسره بالتراب: هذا معنىً له في كلام العرب، وأخذ ذلك لربما من كون الأجساد تتحول إلى تراب، ومن الآيات الأخرى، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، فيكون هذا من قبيل تفسير لفظة بلفظة، ففي الآيات الأخرى ورد ذكر التراب في بعضها، يقول الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا} [سورة المؤمنون:٨٢]، فيمكن تفسير الرفات بالتراب، تفسير لفظة بلفظة، مثل {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الفيل:٤]، أو في غير هذا الموضع في قصة أصحاب الفيل، لكن يصلح أن يفسر به، و{مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ} [سورة هود:٨٢-٨٣]، قصة قوم لوط، في الموضع الآخر {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ} [سورة الذاريات:٣٣]، هنا تفسير لفظة بلفظة، فالسجيل هو الطين، والرفات هو التراب، وأصل هذه المادة -كما سبق- الشيء المتفتت.

وقول الله عن الكفار إنهم قالوا: {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} إلى آخره، ثم رد الله -عز وجل- عليهم فقال: {قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} قال: "**إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات**"، فهم يقولون: إن مَن تحول إلى تراب فلا يمكن إعادته مرة أخرى، فالله يرد عليهم ويقول: {قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} بمعنى: كونوا ما هو أقوى الأشياء في نظركم كالأحجار التي هي في غاية الصلابة والشدة، أو الحديد الذي هو أعظم من ذلك وأصلب، فإن الله قادر على إعادتكم، لا يمتنع عليه شيء -سبحانه وتعالى-، ثم نقلَهم إلى شيء أكبر من هذا وأبهمه، قال: {أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} بعضهم فسر هذا بالموت، وبعضهم فسره بالسماوات والأرض والجبال، والأقرب وهو ما قاله ابن جرير: إن ذلك لا يحد بهذا ولا هذا، وإنما الله -عز وجل- أبهم ذلك ليذهب فيه الذهن كل مذهب، ما هو الذي يكون بهذه المثابة خلقاً؟، ليكن أعظم من ذلك مما يخطر في البال، الله قادر على الإعادة، وإذا كان الإنسان بحال أعظم فيها شدة من الحديد والأحجار، كان جبلاً أو كان أرضاً أو غير ذلك، فإن الله قادر على إعادته مرة أخرى مهما كان، لا يمتنع عليه الشيء، هذا هو المعنى، -والله تعالى أعلم-، هذا من باب الرد عليهم، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم في تفسيرها، وهناك وجه آخر تحتمله الآية، ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، لكن لم يذكره تحديداً على سبيل الترجيح والاختيار، لكن ذكره مع المعنى السابق: أن الآية قد تدل على المعنيين وهو أنه يقول لهم: {قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} إذا كنتم تزعمون أنه ليس هناك مدبر، ولا مصرف، يعيدكم ويبعثكم ويحاسبكم، فلماذا لم تكونوا -إذا كان الأمر كذلك- خلقاً آخر غير هذا الذي يقبل الموت والتحلل والبلى والتحول إلى تراب، لماذا لم تختاروا لأنفسكم حالاً أخرى، وخلقاً أشد وأقوى من الحجارة، أو من الحديد، ما دام الأمر بهذه المثابة؟، لكن هذا المعنى -والله تعالى أعلم- فيه بعد؛ لأن هؤلاء لا ينفون أن الله -عز وجل- هو المدبر والخالق، الذي خلقهم وأوجدهم، هم لم يزعموا أنهم أوجدوا أنفسهم، ولم يكن هؤلاء في يوم من دهرهم من القائلين بالطبيعة مثلاً، وأنه لا خالق، أبداً، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة لقمان:٢٥]، والمعنى المتوجه هو المعنى الأول وهو الذي عليه عامة المفسرين، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} يعني: يحركونها إنكاراً واستبعاداً واستهزاءً، يعني هيهات، يقول: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} يقول: أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته،

يعني تستجيبون بحمده كما قال ابن جرير: أي بقدرته ودعائه إياكم: ولله الحمد، كما تقول: فعلت ذلك بحمد الله، يقول: {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً}، {إِن لَّبِثْتُمْ} قال: أي في دار الدنيا، وهذا هو الأقرب، وهو الذي رجحه أيضاً ابن جرير، ويدل عليه قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٣]، وقال بعض أهل العلم: المقصود مدة المكث في القبور، وبعضهم يقول: بين النفختين وهذا أبعد الأقوال، والأقرب -والله أعلم- {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} أي: في الدنيا، يقول: "**أي في دار الدنيا**، {إِلاَّ قَلِيلاً}، **كقوله**: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}".

{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا} [سورة الإسراء:٥٣].

يأمر -تبارك وتعالى- عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي فربما أصابه بها.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار))[٥] أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

قوله: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} يقول: "**يأمر -تبارك وتعالى- عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم**"، يقال: نزغ ونغز، والنزغ يأتي بمعنى النخس حسّاً، ومن جهة المعنى يأتي بمعنى التحريك والتحريش والإفساد والإغراء، فكل ذلك مما يتضمنه معنى النزغ، تقول: نزغه الشيطان. بمعنى حركه، أو أغراه، أو نزغ بينهم الشيطان إذا أفسد، فالشيطان يغري النفوس ويحركها، ويستثيرها من أجل مواقعة ما لا يليق من الأقوال والفعال، فالله -تبارك وتعالى- يُعلم عباده المؤمنين عداوة عدوهم إبليس، ويبيّن لهم فعله السيئ بالإفساد بينهم، {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ} فإنّ: هنا تشعر بالتعليل؛ أي لأن الشيطان ينزغ بينهم، والسبيل إلى سد هذا الطريق قبل الوقوع، وإلى استدراكه بعد الوقوع: أما قبل الوقوع فالله -عز وجل- بينه في هذا الآية، {يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، ما قال: يقولوا الحسن، وإنما يقول: {الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، فإذا أراد أن يتكلم الإنسان يتخير أحسن العبارات بما لا يؤذي السامع، ولا يجرح مشاعر الآخرين، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، إذا أراد أن ينصح أحداً من الناس فإنه يتخير الكلمة الطيبة، التي هي

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((من حمل علينا السلاح فليس منا))، برقم (٦٦٦١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، برقم (٢٦١٧)، وأحمد في المسند بلفظ: ((لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار)) (٥٢٧/١٣)، برقم (٨٢١٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الأحسن، وإذا تردد بين كلمتين وحركته نوازع الغضب فإنه يتخير الكلمة التي لا غضاضة فيها ولا عيب؛ لأن الشيطان يغري النفوس، ولو كان الإنسان مازحاً، فإنه لا يسترسل فيقع في المحظور، ويتكلم بالكلام الذي لا يليق، فكما قيل: زلة اللسان أعظم من زلة القدم؛ لأن الإنسان إذا زل بقدمه قد تتكسر رجله، ولكنه إذا زل باللسان فقد تذهب دنياه وآخرته، وبعد الوقوع: كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** [سورة فصلت:٣٤]، وقوله: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}** [سورة المؤمنون:٩٦-٩٨]، إلى آخر الآيات التي علمنا الله -عز وجل- فيها كيف نتخلص من شره وإفساده وتزيينه وتسويله، يقول: "**فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم**".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [سورة الإسراء: (٥٤-٥٥)].

يقول تعالى: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} أيها الناس، أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق {إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه، {أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}: يا محمد {عَلَيْهِمْ وَكِيلاً}: أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}: أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} وكما قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [سورة البقرة: (٢٥٣)]**، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))؛ فإن المراد من ذاك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن، في سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}** [سورة الأحزاب: (٧)] **وفي الشورى قوله: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}**[سورة الشورى: (١٣)] **ولا خلاف أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى -عليهم السلام- على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.**

وقوله تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} تنبيه على فضله وشرفه.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ)): يعني القرآن[1]**.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] - صحيح البخاري: (٤/(١٧٤٧) باب {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}: برقم: (٤٤٣٦)

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} يقول: **أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق،** {إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} **بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه،** يمكن أن يكون المعنى -والله تعالى أعلم- أعم من هذا، أي أعلم بمن يستحق الهداية ومن لا يستحق، وهو أيضاً أعلم بهم من جهة أعمالهم وصلاحهم، وجناياتهم، وطاعاتهم، {إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} على هذه الأعمال والجنايات والمقارفات التي لا يرضاها، أو إن يشأ يرحمكم، ويغفر لكم ما بدر منكم من الزلل والنقص والتقصير في حقه -تبارك وتعالى-، فلا يخفى عليه من أحوالكم خافية، فأنتم تحت مشيئته وقدرته، لا تخرجون عن ذلك في قليل ولا كثير، فالمعنى -والله تعالى أعلم- لا يختص بالهداية والغواية، وإنما يشمل هذا وغيره، ويقول: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}، وهذا مما يُشعر بالمعنى الذي ذكرته آنفاً، فالله أعلم بأحوال الخلق من كل وجه، وقد فاضل بينهم، فاختار أهل الإيمان على سائر الناس، واختار من أهل الإيمان الأنبياءَ -عليهم الصلاة والسلام-، واختار من الأنبياء محمداً -صلى الله عليه وسلم-، فهو أفضلهم وأعظمهم قدراً عند الله -تبارك وتعالى-، وهذا عن علم منه -تبارك وتعالى- بخلقه، يقول: **وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين** ((لا تفضلوا بين الأنبياء))، **فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية،** وهذا هو التوجيه المعتبر في مثل هذا الحديث، فإنه لما حلف رجل من اليهود قال: والذي فضل موسى، أو كلمة نحوها، لطمه رجل من المسلمين، وقال: تقول هذا ومحمد -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا؟!، فالرجل جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يشكو إليه، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التفضيل بين الأنبياء، وتوجيه النهي فيما إذا كان على سبيل العصبية، أو أن يكون التفضيل مشعراً بشيء من الانتقاص والحط من مرتبة أحد من أنبياء الله -عز وجل-، وهذا كما يقال أيضاً في توجيه القراءات الثابتة: إنه لا يجوز الترجيح بين القراءات والمفاضلة بينها بحيث يكون ذلك على وجه يشعر بانتقاص القراءة الأخرى، أما أن يكون ذلك على سبيل الاختيار فهذا لا إشكال فيه، كأن يقال: هذه القراءة مثلاً أوسع في المعنى، أو أنها أكثر ملاءمة للسياق، أو أدل على المقصود، أو نحو هذا من العبارات، كأن تقول مثلاً: قراءة {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٤)] فيها من المعنى ما ليس في قراءة {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٤)] لكن لا بأسلوب يشعر بالحط من القراءة الأخرى، الشاهد أنه هكذا التفضيل، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنا سيد ولد آدم))[٢]، وجاء عنه أحاديث صحيحة في هذا المعنى، تدل على أنه أشرف الأنبياء، والجمع هو ما ذكر من أن النهي وارد بخصوص ما إذا كان ذلك على سبيل العصبية أو القدح بأحد من الأنبياء، أو نحو هذا، وتجدون الكلام في مثل هذه المسألة في مثل شرح العقيدة الطحاوية، ويقول هنا: **وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن، في سورة الأحزاب:** {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ}[سورة الأحزاب: (٧)] **وفي الشورى قوله:** {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ} [**سورة الشورى**: (١٣)]، وليس في الآيتين ما هو مصرِّح بأن هؤلاء هم أولو العزم، إطلاقاً، فالآية الأولى في أخذ الميثاق، والآية الثانية فيما شرع من الدين {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} إلى آخره، وإنما جاء ذكر أولي العزم في آية أخرى، وهي قوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف: (٣٥)] ولم يذكرهم، ولهذا

---

[٢] - صحيح مسلم: (٤/١٧٨٢) باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق: برقم: (٢٢٧٨)

اختلف العلماء في أولي العزم، فبعضهم ذكر هؤلاء الخمسة، وبعضهم ذكر أكثر من هذا أو أقل، فليس هذا محل اتفاق، والذي أظنه أقرب -والله تعالى أعلم- أن أولي العزم لا يختصون بهؤلاء الخمسة، وليس عندنا دليل لا من الكتاب ولا من السنة على تحديد أولي العزم بهؤلاء الخمسة، فالله -عز وجل- أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولم يذكرهم، وأولو العزم هم أصحاب العزائم العظيمة، والصبر العظيم على أذى قومهم، وفي تبليغ ما أمرهم الله -عز وجل- ببلاغه، والتخصيص بهؤلاء الخمسة يحتاج إلى دليل، ولا شك أن هؤلاء الخمسة من أجلّ الأنبياء، ومن أفضل الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لكن من أين لنا أن أولي العزم فقط هم هؤلاء، لا يشاركهم في ذلك الوصف أحد من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟، ما عندنا دليل، ففي الآيتين لم يذكر الله -عز وجل- شيئاً يتعلق بأولي العزم، -والله تعالى أعلم-.

قوله: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}، ذكر الحديث ((خُفف على داود القرآن)) والمقصود به الزبور، ((فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ)) يعني القرآن، يعني أنه خفف عنه، يعني من الناس من يقرأ القراءة الكثيرة في الوقت اليسير، ومن الناس من يكون بحال أخرى عكس ذلك، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا مشاهد في قراءة الناس إلى اليوم، من الناس من قد يختم القرآن يوم الجمعة، يبدأ من بعد صلاة الفجر إلى أن يخرج الخطيب، ويختم، ومن الناس من يحتاج في القراءة وفي الختم إلى مدة طويلة، في صلاة التراويح مثلاً، من الناس من يقرأ قراءة لا تشق على الناس إطلاقاً، وفي آخر الشهر يختم، ومن الناس من يطيل أكثر ويقرأ، ولربما يأتي آخر الشهر وهو لم يجاوز المائدة، وهذا شيء مشاهد، فمن الناس من خفف عليه القرآن، ولذلك يوجد من المساجد -وهو أمر يتكرر في كل عام- من يختم في رمضان سبع ختمات وثمانٍ في صلاة الجماعة، ولا يجدون مشقة، ومن الناس من لا يستطيع أن يقرأ نصف القرآن في الشهر، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

طالب: كلامه -رعاك الله- مسلَّم لمّا قال: ولا خلاف أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- ثم إبراهيم ثم موسى؟

ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، -الله تعالى أعلم-، لكن إذا نظرت إلى مراتب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في السماء، إدريس -عليه الصلاة والسلام- في السماء الرابعة، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- في الثانية، فإذا قلنا: إن هذا دليل على المفاضلة، فيمكن أن يفهم منه أن إدريس -عليه الصلاة والسلام- أفضل من عيسى -صلى الله عليه وسلم-، قد يقال، ولكن الله تعالى أعلم، ولا شك أن هؤلاء الأنبياء من أفضل الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والله -عز وجل- يقول: {وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [سورة النساء: (١٦٤)].

{قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}. [سورة الإسراء: (٥٧)].

يقول تعالى: {قُلِ} يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: {ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ} من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم، {لاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ}: أي بالكلية، {وَلاَ تَحْوِيلاً}: أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم} الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون -يعني الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} الآية، روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} قال: ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا، وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وقوله تعالى: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}: أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، يقول: **روى البخاري من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله -يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا، وفي رواية كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم**، يعني الكفار، فهم لا زالوا يعبدونهم، وأولئك الجن يعبدون الله -عز وجل- ويتقربون إليه، فهذا يصدق على هؤلاء الجن الذين أسلموا، ويصدق أيضاً على من عبد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وعبد العزير، والذين عبدوا الملائكة، فتُخص الآية بمثل هذا ولا يقال في كل معبود؛ لأن من الناس من يعبد الشيطان، ومن الناس من يعبد أعداء لله -عز وجل-، ومن الناس من يعبد الأحجار، والآية تدل على معبودين بأعيانهم أو بنوعهم من بين سائر من عُبد من دون الله -تبارك وتعالى-، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ}: يعني المدعوين، {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}، والوسيلة: هي التقرب إلى الله -عز وجل- بالطاعة والعبادة، هذه القربة يقال لها: وسيلة؛ لأنهم يتوسلون بها إلى مرضاة الله -تبارك وتعالى-، ونيل ما عنده من الثواب، {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، {يَبْتَغُونَ}: أي يطلبون، {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}: أي إلى الله -تبارك وتعالى- بعمله الصالح، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}: أي جدير بأن يُتقى؛ لشدته.

{وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}.

[سورة الإسراء: (٥٨)].

هذا إخبار من الله -عز وجل- بأنه قد حتم وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم {عَذَابًا شَدِيدًا} إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود: (١٠١)]، **وقال تعالى: {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا}** [سورة الطلاق: (٩)] **وقال: {وَكَأَيِّن**

مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا} [سورة الطلاق: (٨)] الآيات.

في قوله: {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ}: يعني وما من قرية، فـ"إن" هنا نافية، وقرية هنا نكرة في سياق النفي، وذلك للعموم، ما من قرية إلا وسيحصل لها هذا الإهلاك قبل يوم القيامة، أو العذاب الشديد، ويرِدُ على هذا سؤال إذا كان الأمر كما قد يفهم من ظاهر الآية، فكلام الحافظ ابن كثير هنا فيه شيء من الإجمال، لكن فيما ورد في بعض الآثار في معنى الآية: كل قرية سينزل الله -عز وجل- بها الإهلاك والاستئصال إما بالعذاب أو بأمر آخر، فهذا يرد عليه إشكال بالنسبة للعموم الذي في الآية، ولهذا قال بعضهم: إن هذا من باب حذف الصفة، {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ} ظالمة، قالوا: توجد صفة محذوفة، وإنما يكون ذلك للقرى الظالمة، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص: (٥٩)]، وخصه بعضهم بالقرى الكافرة، وهذا بمعنى الأول، قال: {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ} هذا عام في اللفظ لكنه من العام المراد به الخصوص، ولا يراد به العموم، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يبقى ذلك على عمومه، ولا يُخص بقرى الكفار، ولا بالقرى الظالمة؛ فالله -عز وجل- يخبر أنه ما من أهل قرية -قرية: المقصود بها أهل القرية، فالقرية تطلق تارة على هذا وتارة على ما فيها من البنيان- إلا سيهلكون إما بموت، وإما بعذاب يستأصلهم، وهذه سنة الله -عز وجل- في الخلق {قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، فالناس لا يعمرون في هذه الحياة الدنيا ويخلدون، وإنما الموت حكم لازم واقع بهم لا محالة {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر: (٣٠)]، فلن يبقى أحد من الناس مخلداً في هذه الحياة، فالقرى تخلو من أهلها ويئول أمرها إلى الخراب -والمقصود بالقرى يشمل المدن- وتتلاشى، لكن الموت قد يأخذهم الواحد بعد الواحد، حتى يأتي على الجميع، فلو أن الناس في القرون الماضية ماتوا دفعة واحدة لانقطع نسلهم، ولكن أين الأجيال السابقة؟ مات الواحد بعد الواحد، ثم بعد ذلك لم يبق منهم أحد، فهكذا {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، والله أعلم، وهذا القول هو الذي اختاره الزجَّاج، وهو واضح إن شاء الله، موافق للواقع ولسنة الله -عز وجل- في هذا الخلق.

فائدة في ذكر إيتاء داود الزبور بعد ذكر تفضيل الأنبياء:

المعلوم أن ذكر الخاص بعد العام يدل على شرفه تنويهاً به، فهذا فيه تشريف لداود -عليه الصلاة والسلام-، مثلما قال الله -عز وجل- لما ذكر الأمم المهلكة قال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [سورة الإسراء: (٥٩)] لماذا ذكر ثمود من بين سائر الأمم؟ يمكن أن يقال: لقربها منهم، فهي بلاد العرب وهكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}[سورة الإسراء:٥٩].

عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سُخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإنْ سَرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا فإن شئتَ أن نفعل الذي قالوا فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئتَ أن نستأني بقومك استأنيتُ بهم، قال: ((يا رب استأن بهم))[١]، وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: سأل أهل مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا، كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم، وقال: ((لا، بل استأن بهم))، وأنزل الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} الآية[٢]، ورواه النسائي[٣] من حديث جرير -رضي الله تعالى عنه-.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالت قريش للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: ((وتفعلون؟))، قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: ((بل باب التوبة والرحمة))[٤].

وقوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}، قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات؛ لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد

---

١ - تفسير الطبري (١٧/٤٧٧).

٢ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٣٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في المستدرك برقم (٣٣٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٣ - رواه النسائي في الكبرى برقم (١١٢٩٠).

٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٢١٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في الكبرى برقم (١٨١٨٨)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٦٠١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٨٨).

عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وكذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق عليه: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله -عز وجل- يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))، ثم قال: ((يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً))(٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}**، هذه الآيات المشار إليها هي الآيات المقترحة التي كان يقترحها الكفار على أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما يفعلون ذلك تعنتاً وطلباً لعجزهم، ومن هذه الآيات: **{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}**، وقوله: **{مُبْصِرَةً}** وليس المقصود أن هذه الناقة لها بصر، وإنما المقصود أن هذه الآية –الناقة- ذات إبصار، بمعنى أنه يدركها من شاهدها، فهي آية واضحة لا لبس ولا خفاء فيها، ومع ذلك كذبوا وكفروا، فحينما يقال مثلاً يقول الله -عز وجل-: **{وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}** [سورة الإسراء:١٢]، وآية النهار هي الشمس، ليس المقصود بـ**{مُبْصِرَةً}** أنها ذات بصر تبصر، فالشمس ليس لها بصر، وإنما **{مُبْصِرَةً}** أي: أن الناس يبصرون بها، أو غير ذلك مما قيل، مما أوردت بعضه في الآية.

قال: **{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}**، من أهل العلم من حمل الآيات في آخر هذه الآية على الآيات المذكورة في صدرها، **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ}** قال: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}**، فقالوا: هي الآيات المقترحة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا تكون "ال" في الآيات عهدية، ويكون ذلك من قبيل العهد الذكري؛ لأنه ذكر الآيات قبله ثم قال: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ}** المذكورة **{إِلاَّ تَخْوِيفًا}**، ومن أهل العلم من عممه، فقال: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ}** أي: المعجزات، ومنهم من قال بأن الآيات هي الأمور التي يجريها الله -عز وجل- مما يدل على كمال قدرته، وشدة بطشه، وعظيم انتقامه ممن انتقم منه، ففسروا ذلك بالمَثُلات، العقوبات التي ينزلها ببعض المكذبين، وما يري الناس من دلائل قدرته كما يقع من الزلازل والخسوف، والكسوف، فهذه آيات، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انكسفت الشمس، وقال من قال بأن ذلك كان لموت إبراهيم ابنه -صلى الله عليه وسلم-، فكان مما قال لهم -عليه الصلاة والسلام-: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده))(٦)، فهذا يفسر قوله: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}**، وهذا القول له وجه ظاهر من النظر، ويدل عليه هذا الحديث، ومن حمله على

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، برقم (٩٩٧)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، برقم (٩٠١)، ورُوي بألفاظ متعددة في الصحيحين غير هذا اللفظ.

٦ - رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، برقم (١٠٠٩)، وبرقم (١٠١٠)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، برقم (٩١٢).

المعنى الخاص -الآيات المقترحة- جعل ذلك عائداً إلى ما ذكر قبله، وهذا القول يشمل الأقوال التي كانت قبله، وبعضهم يقول: إن الآيات هي الموت الذريع، وبعضهم يقول: أحوال الإنسان وتقلباته والأطوار التي يمر بها: نطفة، ثم علقة، ثم يكون طفلاً، ثم بعد ذلك يخرج إلى الدنيا صغيراً، ثم بعد ذلك يشب، ثم يهرم، يتغير.

وقوله: {فَظَلَمُواْ بِهَا}، أي: كفْرهم بها، ويدخل فيه أنهم قتلوها، فيفسر ذلك قولُه -تبارك وتعالى-: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} [سورة الأعراف:٧٧]، وقول الله -عز وجل-: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[سورة القمر:٢٩]، {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [سورة الشمس:١٤].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}: "أي: مبينة موجبة للتبصر، وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: أبصرته بمعنى أريته، وأبصرته بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية بمعنى مرئية لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية وتحيروا في معناها فإنه يقال: بصر به وأبصره فيعدى بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه كما يقال: بصرته به وبصر هو به، فههنا بصيرة وتبصرة ومبصرة، فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسمى بها ما يوجب التبصرة فيقال: هذه الآية تبصرة؛ لكونها آلة التبصر وموجبَهُ"[7].ا.هـ

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً} [سورة الإسراء:٦٠].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- محرضاً على إبلاغ رسالته مخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته، وقال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ} أي: عصمك منهم، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} الآية، روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسري به، {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} شجرة الزقوم، وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة ولله الحمد والمنة، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين، ولهذا قال: {إِلاّ فِتْنَةً} أي: اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل -عليه لعائن الله-: هاتوا لنا تمراً

---

٧ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٧٠/٢).

وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا، حكى ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم.

وقوله: {وَنُخَوّفُهُمْ} أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، {فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً} أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ} يعني: أن نواصيهم بيده فهم تحت قبضته، لا يخرجون عن تصرفه -سبحانه وتعالى- في قليل ولا كثير، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} هذه الرؤيا التي أُريها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: هي رؤيا عين ليلة أسري به، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، -رحم الله الجميع-، وهو أظهر الأقوال، مع أن من أهل العلم من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى في المنام، كما في حديث اختصام الملأ الأعلى مثلاً، وقد يحمل ما جاء في بعض الأحاديث على أنه رؤيا منام في الذين مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهم، كالذي يسبح في نهر من دم، ومنهم من يقول: في ليلة الإسراء، فالذي يؤيد أن الرؤيا التي أراه الله هي رؤيا عين ليلة المعراج أن الله -عز وجل- قال: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ}، ولم يكن من ذلك ما وقع به فتنة للناس إلا واقعة الإسراء والمعراج، وهي التي فتن بها من فتن من الكفار واستبعدوا ذلك وهالهم، واستهزءوا به -صلى الله عليه وسلم-، وزادهم تكذيباً، واضطرب من اضطرب ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وكما سمعتم في بعض الروايات أنه رجع بعضهم، أما رؤيا المنام فلا يحصل بها هذا، ولا يُعرف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى رؤيا منام فوقع بسببها فتنة للناس، فالإنسان يرى في المنام أشياء كثيرة، ولا يكون ذلك داعياً إلى الافتتان بما رأى.

قال: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ}، قال: "**هي شجرة الزقوم**"، كما قال الله -عز وجل-: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ} [سورة الصافات:٦٢-٦٣]، فهذه أخبر الله -تبارك وتعالى- أنها فتنة، والفتنة بها: كيف تكون شجرة -والشجر فيه اللين والطراوة والرطوبة- تنبت في أصل الجحيم الذي هو في غاية الحرارة والإحراق؟، فهذه أضداد لا تجتمع، {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [سورة الصافات:٦٣-٦٥]، فهذه هي الشجرة المعلونة في القرآن، قيل لها ملعونة؛ لعدة أسباب من أهل العلم من يقول: إن العرب تقول لكل طعام كريه بغيض: إنه ملعون؛ ومعنى اللعن الطرد والإبعاد، فالطعام الكريه يصفونه بهذا أو يسمونه بذلك، وبعضهم يقول: لأن طلعها كأنه رءوس الشياطين، والشياطين ملعونة، وبعضهم يقول: لأنها تخرج في أصل الجحيم، وأصل الجحيم ملعون، وبعضهم قال: المراد بذلك هو أن اللعنة واقعة على آكليها، فهؤلاء الكفار يأكلون من هذه الشجرة في النار، وهم أهل لعن وإبعاد وطرد من رحمة الله -تبارك وتعالى-، لكن هذا فيه بعد، فالله وصف الشجرة بهذا، ولما كانت هذه الشجرة بهذه الصفة من قبح المنظر والهيئة، والطعم، وصفت بهذا وقيل لها: شجرة ملعونة، نسأل الله العافية.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٦١-٦٢].

يذكر -تبارك وتعالى- عداوة إبليس -لعنه الله- لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له، {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، كما قال في الآية الأخرى: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة الأعراف:١٢]، **وقال أيضاً: أرأيتك، يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحلم وينظر {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يقول لأستولين على ذريته إلا قليلاً، وقال مجاهد: لأحتوينّ وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة، والمعنى: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.**

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، ذكر الله -عز وجل- خبر آدم وإبليس، في مواضع كثيرة من القرآن في سورة البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف والحجر وص، وطه، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، والآيات في المواضع الأخرى تفسر هذا وتبين أن الذي منعه هو الاستكبار، {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} [سورة البقرة:٣٤]، وأنه اعتز بأصله وترفع به، {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص:٧٦]، والعلماء -رحمهم الله- ردوا على هذا القياس الفاسد وقالوا: إن أول من قاس قياساً فاسداً في مقابل النص هو إبليس، وبينوا وجوه تفضيل الطين على النار، قالوا: الطين توضع فيه الحبة فتخرج شجرة مثمرة، والنار لا يوضع فيها شيء إلا هلك واحترق، وقالوا: من طبيعة الطين الرزانة والثبات، ومن طبيعة النار الخفة، وقالوا: الطين يبنى بها الدور ونحو ذلك، وأما النار فهي متلفة، من طبعها الإحراق والإتلاف، إلى غير ذلك من الوجوه التي ردوا بها على إبليس.

فقوله: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً}، وقال: {فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} [سورة الأعراف:١٤-١٥] أمهله الله -عز وجل- وقال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}، هل قال هذا بعلم، أي أن الله أعلمه أن أكثرهم سيتبعونه؟ أو أنه قاله باعتبار أنه عرف من طبيعة آدم لما علم أنه ركب فيه الشهوات والغرائز أن ذلك سيكون سبباً لانحرافه ومعصيته لله -تبارك وتعالى-؟ أو أنه قال ذلك ظناً؟ كما قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [سورة سبأ:٢٠]، وإنما قاله ظاناً يعني بغلبة ظن، وقال: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً}، يقول الحافظ -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**لأستولين على ذريته إلا قليلاً، وقال مجاهد: لأحتوين، قال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة**"، ذكر بعض أهل العلم أن أصل الاحتناك هو الاستئصال، ومنه احتنك الجراد الزرع إذا استأصله وأتلفه، فالجراد إذا نزل بمحل في ليلٍ تُصبح ترى الأشجار بلا ورق، حتى النخيل يصبح وهو مجرد عسب ليس فيه سعف، فإبليس يقول: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً}، ومنه ما يوضع في حنك الدابة، فيسيطر عليها بهذا اللجام أو الحديدة أو نحو ذلك، فتدار كما يريد من يقودها أو يركبها، {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً}، أخذاً من الحنك، بمعنى أنه يضلهم ويتلاعب بهم ويديرهم كما يشاء، ويوجههم ويتصرف بهم،

ويضللهم فيتبعه أكثر الخلق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، وقال: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦] فهؤلاء حزب الشيطان وأتباعه، وهم نصيبه الذين يقودهم إلى النار، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأمْوَالِ وَالأوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشّيْطَانُ إِلاّ غُرُوراً * إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىَ بِرَبّكَ وَكِيلاً} [سورة الإسراء:٦٣-٦٥].

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: {اذْهَبْ} فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، ثم أوعده -ومن اتبعه من ذرية آدم- جهنم فقال: {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ} أي: على أعمالكم، {جَزَاءً مّوْفُوراً} قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وقوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}، قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، أي استخفهم بذلك، وقال ابن عباس في قوله: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: كل داع دعا إلى معصية الله -عز وجل-، وقاله قتادة واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}، يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالتهم ورَجلتهم، فإن الرَّجِل جمع راجل، كما أن الركْب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد في قوله: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} قال: كل راكب وماشٍ في معصية الله، وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه، تقول العرب: أجلبَ فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه نهى في المسابقة عن الجلَب والجنَب، ومنه اشتقاق الجلبة: وهي ارتفاع الأصوات، وقوله تعالى: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأمْوَالِ وَالأوْلادِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى.

وقوله: {وَالأوْلادِ} قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك: يعني أولاد الزنا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال قتادة عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مَجَّسوا وهودوا ونصروا وصبغوا على غير صبغة الإسلام، وجزّءوا أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال قتادة سواء.

ولم يخصص بقوله: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأمْوَالِ وَالأوْلادِ} معنى الشركة فيه بمعنىً دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله -عز وجل- إني خلقت

عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[1]**، وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً))**[2]**، وقوله تعالى: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشّيْطَانُ إِلاّ غُرُوراً} كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} الآية، وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم}**، إلى آخره، هذه الأوامر حملها بعض أهل العلم على أن ذلك للتهديد، كما تقول لمن تهدده وتتوعده: اذهب فافعل ما بدا لك، اذهب فافعل ما استطعت، يعني أنك ستجازيه وتحاسبه على فعله هذا، وله يوم لن يجاوزه، يقول: **{فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}** قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وهذان بمعنىً واحد.

ثم قال: **{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}** قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، وقال ابن عباس: كل داعٍ دعا إلى معصية الله، وقاله قتادة واختاره ابن جرير، ابن جرير -رحمه الله- اختار حمل الآية على الأعم من معانيها، فيرى أن كل صوت يُدعى فيه إلى ضلالة فهو داخل في هذه الآية، والغناء داخل في ذلك؛ لأن الغناء لا يدعو إلى طاعة الله وتقواه، وإنما هو لهو باطل يستفز الإنسان إلى المعصية، ويمرض قلبه ويفسده، وهكذا أيضاً المعازف، فهذه الأصوات المطربة كلها من صوت الشيطان، وكذلك صوت النائحة داخل فيه، وكل داعٍ دعا إلى معصية الله -عز وجل- من قنوات، وإذاعات، وتسجيلات، وغير ذلك مما يدعو إلى معصية الله -عز وجل- ومحادّته فإن هذا كله داخل في قوله: **{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}**، فله جند وأتباع كُثر في كل زمان، والله -عز وجل- يقول: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}**[سورة الأنعام:١١٦]، وقال: **{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}** يعني: بجنودك من الراكبين ومن الماشين، وليس المقصود بقوله: **{وَرَجِلِكَ}** الرجال، وإنما المقصود الرجْل: يعني الراجل، الذي يمشي على رجليه، وليس براكب، والمعنى: **{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ}** بكل مستطاع، تقول: أجلب فلان بخيله ورجله، أي كل ما يستطيع أن يورده وأن يفعله، لم يدخر وسعاً، ويقول: **{وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ}** يقول: "**عن ابن عباس ومجاهد: وهو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى**"، المشاركة في الأموال يدخل

---

١ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

٢ - رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، برقم (١٤١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، برقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

فيها كل إنفاق في سبيل الشيطان، الإنفاق في معصية الله -تبارك وتعالى-، كل ما ينفقه الكفار ليصدوا عن سبيل الله، وكل ما يفعله الكفار مما يملي عليهم الشيطان كما قال الله -عز وجل- عنهم: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا} [سورة الأنعام:١٣٨]، إلى آخره، فما ذبح لغير الله -عز وجل- فهو مشاركة من الشيطان لهم في الأموال، والوصيلة والسائبة والحام، إلى آخره، هذا كله من مشاركته لهم في الأموال، فكل مال ينفق في غير وجه حق فهذا داخل تحت هذا العموم، فلا يخص ذلك بنوع دون نوع، وأما المشاركة في الأولاد فنقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن جماعة من السلف قولهم: يعني أولاد الزنا، وعن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال قتادة والحسن: مجّسوا وهودوا، إلى آخره، وهذه أيضاً محمولة على العموم، فيدخل في المشاركة في الأولاد حينما يأتي الإنسان أهله ولا يقول: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من قال ذلك فإن هذا الولد لا يسلط عليه الشيطان، وكذلك إذا كان الإنسان يئد الولد، فإن هذا من المشاركة في الأولاد، وهكذا إذا عَبَّد الولد لغير الله -عز وجل- فقال: عبد الحارث مثلاً، أو قال: عبد العزى، أو عبد الرسول، أو عبد النبي، أو عبد الحسين، فهذا من المشاركة في الأولاد، وإذا جعل هؤلاء الأولاد وقفاً، أو سدنة للقبور، كما يفعل عباد القبور، فهذا كله داخل فيه، داخل في المشاركة في الأولاد، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}، المقصود بوعد الشيطان كل ما يعد به الكفار، كتمنيته لهم بالتوبة، وهكذا حينما يعد العصاة، ويرجّيهم أنه يفعل ثم يتوب، أو أن الله غفور رحيم، وأن الله سيغفر لهم، وهكذا ما كان يمني به الكفار، أنهم حينما ينتقلون إلى الدار الآخرة سيلقون ما هو أعظم مما كان في الدنيا من العطاء، فيقولون: إن الله -عز وجل- أعطاهم الأموال والأولاد، فإذا بعثوا ورجعوا إلى ربهم فإنهم سيجدون عنده مالاً وولداً، وكذلك ما كان يمنيهم به من أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله -تبارك وتعالى- وأن لها منزلة، كل هذا داخل في هذا المعنى، -والله تعالى أعلم-.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: في قوله تعالى لإبليس: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}، أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلّب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً له في المعصية والعقوبة فحسن أن يُجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به، وانتصب جزاء موفوراً عند ابن مالك على المصدر"[٣].

هذه لطيفة لفظية، الله يقول على سبيل الخطاب لإبليس: {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ} بكاف الخطاب، {مِنْهُمْ} بضمير الغائب بالنسبة للناس، ثم وجه الخطاب إليهم، هذا يسمى التفات من الغائب {مِنْهُمْ}، ثم وجه بالخطاب فقال: {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ} ما قال: فإن جهنم جزاؤهم، قال: {جَزَآؤُكُمْ} تحول من الغيبة فقال: {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}، ما قال: جزاؤهم، وإنما تحول من الغيبة إلى الخطاب، فقال: {جَزَآؤُكُمْ} تغليباً

---

٣ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٤/٩٩١).

للمخاطب، {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ} فهم أتباعه، فجاء اللفظ مراعىً فيه ذلك، كما أنهم في المعنى تبع لإبليس، فأتبع اللفظ اللفظ، إتباع في اللفظ بناءً على إتباع المعنى، فراعى ذلك في اللفظ فقال: {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ} ما قال: فإن جهنم جزاؤهم، بالغائب؛ إتباعاً لضميرهم هم، {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ}، وإنما قال: {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ} جاء بالخطاب إتباعاً لأول الكلام الذي بُدئ بالخطاب، فأتبع اللفظ اللفظ؛ لأن المعنى كذلك.

وقال -رحمه الله تعالى-: وأما تسميته صوت الشيطان، فقد قال تعالى للشيطان وحزبه: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا} الآيات، قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: كل داعٍ إلى معصية.

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية؛ ولهذا فسر صوت الشيطان به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: استزل منهم من استطعت، قال: وصوته الغناء والباطل، وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: صوته هو المزامير.

ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال: صوته هو الدف، وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوت بيَراعٍ أو مزمار أو دف حرام، أو طبل فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في معصية الله على قدميه فهو من رجِله، وكل راكب في معصية الله فهو خيّالته، كذلك قال السلف كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: رجِله كل رجْل مشت في معصية الله، وقال مجاهد: كل رجُل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجِله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس[٤].

وقال -رحمه الله تعالى-: "الصوت الشيطاني يستفز بني آدم، وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به، ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبابات والأوتار وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم، ولهذا قال السلف في هذه الآية: إنه الغناء، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب وتسكن وتخبت إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنها ويوقرها، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها، كما قيل:

حامل الهوى تعِبُ يستفزه الطربُ *** كلما انقضى سبب عاد منك سببُ

تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب *** تعجبين من سقمي صحتي هي العجبُ

فلو لم يكن دليل على أن صوت الغناء والمعازف هو صوت الشيطان لما يستفز به السامع ويقلقه به ويزعجه ويزيل طمأنينته لكفى به دليلاً.

---

٤ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزيه (١/٢٥٥-٢٥٦).

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة وهو النوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله، فينهاها بصوت النوح عما أمر الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه، وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أن يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجِله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم، فكل راكب في معصية الله فهو من خيّالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجّالته، وكل مال أخذ من غير حله، وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه"[٥].

وقال -رحمه الله تعالى-: "قال تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم فكل راكبٍ وماشٍ في معصية الله فهو من جند إبليس[٦].

هذا يحمل على جميع المعاني التي قالها السلف، والكلام في المعازف وآلات اللهو وأنها من صوت الشيطان لا شك فيه، هو يستفز النفوس لا شك بالمعصية، ويمرض القلوب ويفسدها، والعجب أن الصغير الذي لم يبلغ السنتين إذا سمع القصائد الملحنة يصدر منه من التصرفات والرقص والأشياء العجيبة التي قطعاً ما شاهد أحداً يفعل هذا، ولكنه يبدأ يتصرف بتصرفات كأنه يشاهد ذلك، وكأنه يعيش بين هؤلاء الذين يرقصون، وهذا يدل على أن النفوس قد ركب فيها دواعي هذه الأمور التي يستفز الشيطان بها من شاء الله -عز وجل- من خلقه، وللأسف في هذه السنوات بدأ بعض الناس يضطربون ويخرجون كل عجيب وعجيبة، وشذوذات، ومن كان في قلبه شيء أظهره، سواء كان بدعة، أو هوىً، أو ضلالةً، أو معصية، وكل صاحب شواذ تجرأ وأصدر ما عنده من شذوذات، وصار سلعة رائجة في هذه الأيام، حينما يخرج كتاب كبير في إباحة الغناء، فإن نسخ الكتاب تنفذ خلال ساعات قليلة، وكثير من هؤلاء الذين يقتنون هذا الكتاب ويتهافتون عليه يشترونه من باب الفضول؛ لأنه جاء بشيء غريب وشيء شاذ، فأحد هؤلاء الذين ظهر عنهم بعض الشذوذ أنكر هذا غاية الإنكار، وكتب رسالة يتبرأ فيها من هذا، ثم بعد ذلك أصدر كتاباً كبيراً يقرر فيه ما ظهر من شذوذه الأول، وذكر في مقدمته أنه لم يجرؤ على إخراج هذه الأشياء حينما كان بعض العلماء أحياء، فلما ماتوا:

خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصْفِري *** ونقِّري ما شئت أن تنقري

ولا تجد عند الواحد من هؤلاء مجرد قضية كالغناء، بل تجد لها أخوات، قضايا تتعلق بالحجاب، وقضايا تتعلق بالاختلاط، وقضايا أخرى، وهكذا، والله المستعان.

مسألة: "الزواج من الجن".

الفقهاء تكلموا على هذه المسألة وبعضهم منع من هذا، وبعضهم أجازه، لكن لا يوجد شيء يثبت هذا، ويمكن لكل امرأة تحمل وليس لها زوج وتضع الولد بعد الولد، أن تقول: إنها متزوجة من جني، فيفتح هذا باب الشر والزنا، وأولاد الزنا، وبعضهم قال: أصلاً هذا لا يمكن أن يتم؛ لأن طبيعة هؤلاء غير طبيعة الإنس، ولا

---

٥ - انظر: بدائع التفسير، لابن القيم الجوزيه (٢/١٤٣-١٤٤).

٦ - التفسير القيم، لابن القيم (١/١٠٣)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٢٢).

يمكن أن يحصل بينهم ولد، فلا يوجد في هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حالة تثبت مثل هذا الشيء، والمعروف أنهم أجسام، يبدو -والله أعلم- أنها لطيفة، ومن الناس من يقول: إنهم لا يستطيعون أصلاً فض البكارة، -فالله أعلم-، وبعض من به شيء من المس أو التلبس أو السحر أو غيره، يقول: إنه يشعر أن امرأة تجامعه، ونحو هذا، لا تستطيع أن تثبت هذا، والمرأة التي تشعر أن رجلاً يضاجعها أو شيئاً من هذا القبيل، ليس عندنا شيء إطلاقاً يثبت هذه القضايا، وما يقال: من أن آل فلان لهم أم من الجن، أو أب من الجن، أو غير هذا، فهذا كله كذب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء: (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الإسراء: قال تعالى: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [سورة الإسراء: (٦٦)].

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}: أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}، الإزجاء: هو السَّوق، {يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ}: أي: يسوق ويسيّر لكم الفلك وهي السفن، وقوله: {لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}: أي بالتجارة، ويدخل في عمومه ما يحصل لهم من ألوان المنافع كالصيد واستخراج اللؤلؤ وأشباه ذلك مما يكون في البحر، فهذا كله داخل فيه، الله -عز وجل- يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}: يعني الجمعة {فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}، [سورة الجمعة: (١٠)] المشهور من كلام أهل العلم، قول الجمهور يعني بالبيع والشراء؛ لأنه قال قبله: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [سورة الجمعة: (٩)] ثم قال بعده: {فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} فذلك يعود إلى ما منعهم منه، وإن قال بعض السلف: إن المقصود به عيادة المريض واتباع الجنائز وصلة الأرحام، وما أشبه ذلك، على كل حال هنا {لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} يشمل كل ما يدخل تحت هذا العموم، وإن كان المشهور من أقوال أهل العلم أن المقصود بذلك التجارة، فهذا لا ينافي ما ذكرته معه؛ لأنه داخل فيه، والله أعلم.

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء: (٦٧)].

يخبر -تبارك وتعالى- أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ}: أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ}: أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له، {وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}: أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

هذا كقوله تعالى في الآيات الأخرى في خصوص ركوب البحر، وما يحصل لهم فيه من المخاوف، فيخلصون الدعاء لله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة يونس: (٢٢)]، فهذه عادتهم، فإذا نجاهم الله -عز وجل- من هذا رجعوا إلى ما كانوا عليه، وذلك لا يختص بالفلك، وإنما في عموم أحوال الإنسان إذا مسته الشدائد والضراء، {وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [سورة الإسراء: (٨٣)]، وهذا في صفة الإنسان من حيث هو، وأن ذلك يغلب عليه، والله -عز وجل- هنا يقول: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}، الذين كانوا يعبدون غير الله -عز وجل- لا شك أنهم داخلون في هذا دخولاً أولياً، ولكن غيرهم أيضاً يدخل فيه باعتبار أن الإنسان ينسى فضل الله -عز وجل- عليه في الشدائد، إذا أصابه مرض، أصابته علة، أصابه فقر، جعل يتضرع إلى الله -عز وجل-، فإذا كشف الله -عز وجل- عنه الضر نسي ما كان يدعو إليه من قبل، هذه طبيعة الإنسان، وهي غالبة على الناس، وقد لا يصل به الحد إلى الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، ولكن كلٌّ بحسبه، المشرك يرجع إلى شركه، والغافل يرجع إلى غفلته، فإذا وقع في الشدة تقرب إلى الله -عز وجل- بالضراعة والإخبات، وإذا رفعتْ عنه هذه الشدة عاد إلى حاله الأولى، ونسي الإفضال والإنعام، ونسي تلك الشدة، وهذا داخل في معنى الكفران، {وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}، فلا يختص ذلك بالكفر الذي هو جحود الوحدانية، أو الإشراك مع الله -عز وجل-، ليشرك آلهة أخرى، وإنما الإعراض عن النعم ونسيان فضل الله -تبارك وتعالى-.

{أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً} [سورة الإسراء: (٦٨)].

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً؟!. وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا} [سورة القمر: (٣٤-٣٥)] **وقد قال في الآية الأخرى:** {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الحجر: (٧٤)] **وقال:** {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}، [سورة الملك: (١٦-١٧)]

وقوله: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً}: **أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.**

قوله هنا: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ}: جانب البر أي: ناحية البر، بمعنى أنه حينما ينجيهم الله -عز وجل- من مخاوف البحر ليس ذلك هو نهاية المطاف، ولا يظن الواحد منهم أنه بقي على أرض صلبة، وأن الخطر قد تجاوزه فهو في مأمن من عذاب الله -عز وجل-، لا، فهذه اليابسة قد تُخسف، وقد يأتيه العذاب من فوقه، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} يقول هنا: **وهو المطر الذي فيه حجارة**، وليس المقصود أنه يكون المطر المعروف وفيه حجارة، وإنما المقصود أن يمطر عليهم حجارة، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا} [سورة الأعراف: (٨٤)]، فهذا المطر ليس ماء، وإنما من نوع آخر، وهو الحجارة وتفسره الآية الأخرى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}: أي قوم لوط، فما جاءهم مطر من ماء معه حجارة، وإنما جاءهم حجارة فقط، رماهم الله -عز وجل- بها، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} [سورة هود: (٨٢)]، فالعبارة التي ذكرها الحافظ ابن كثير ذكرها بعض السلف قال: **وهو المطر الذي فيه حجارة**، وقد يفهم منها أنه المطر المعروف بالماء مصحوباً بالحجارة، وليس هذا مراده، وإنما هذا مطر حباته

من الحصى، وأصل الحاصب: الريح التي تحمل معها الحجارة، والحصباء: الحجارة الصغيرة، تقول: حصبه، يعني رماه بالحصباء، ومنه قيل: المحصب، المكان المعروف في مكة، فهو مكان يوجد فيه الحجارة الصغيرة، فالريح التي ترمي بالحصباء يقال لها: حاصب، فالريح تارة تكون قوية فتحمل معها حبات الرمل، وإذا كان ذلك شديداً ربما أثر حتى في الصخور، وفي البنيان، فكيف إذا كان بالحجارة؟، ألا ترون كيف تقشر البيوت، وكيف يذهب الصدى من الحديد عن طريق ضغط الهواء المصحوب بالرمل، فيعود الحديد جديداً، وتذهب القشرة التي على البيت، التي ربما احتيج لإزالتها إلى جهود مضنية بالهواء، فكيف إذا كانت الحجارة هي التي يرمى بها؟، فعلى كل حال هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-، يقول: **قاله مجاهد وغير واحد**، ومن السلف من عبر بغير هذا على كل حال، لكن هذا هو المراد -والله أعلم-؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

{أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [سورة الإسراء: (٦٩)].

يقول -تبارك وتعالى-: {أَمْ أَمِنتُمْ} أيها المعرضون عنا -بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر- {أَن يُعِيدَكُمْ} في البحر مرة ثانية {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ}: أي يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: {فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ}: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

هذه الأقوال التي ذكرها ترجع إلى شيء واحد، الله -عز وجل- يقول: **{ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}**، يعني لا تجدوا تابعاً يتبعنا بما فعلنا بكم، بمعنى أنه يطلب الثأر والاقتصاص والانتقام لكم بسبب إهلاكنا إياكم، فالعرب تقول لكل طالب دم يتبع غيره فيه، تقول له: "تَبِيعٌ"، بمعنى تابع، فالله -عز وجل- يقول: **{ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}**، لا تجدون طالباً يطلبنا أو تابعاً يتبعنا؛ يطلب بثأركم والانتقام لكم، وهذا معنى ما ذكره بعض السلف من أنه النصير، أو الذي يطلب حقكم أو يأخذ بثأركم، أو نحو ذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}** [سورة الشمس: (١٤-١٥)]، الإنسان قد يبطش وقد ينتقم، لكنه يبقى متوجساً مترقباً خائفاً من ردود الأفعال ومن الانتقام، أما الله -عز وجل- فإنه يهلك ويدمر من شاء أن يهلكه، ولا يخاف تابعاً يتبعه أو طالباً يطلب الثأر.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [سورة الإسراء: (٧٠)].

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين: (٤)] **أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ}: أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، {وَرَزَقْنَاهُم**

مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}: أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات وقد استُدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} هنا يقول الحافظ -رحمه الله-: **في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه.** إلى آخره، هذا مما يدخل في معنى الآية {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} فتكريمه لبني آدم يدخل فيه هذا، ويدخل فيه غيره مما حصل لهذا المخلوق من ألوان التكريم والتفضيل، من ذلك أن الله -عز وجل- سخر له ما في الأرض جميعاً، ما في باطنها وما على ظاهرها من الجمادات والحيوانات والنباتات، وخلقه بهذه الهيئة التي تميز بها عن سائر المخلوقات، كما أن الله -تبارك وتعالى- فضله ابتداءً حيث أمر بسجود الملائكة لآدم، وآدم هو أبو البشر، والقاعدة "أن النعمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء"، ولهذا يمتن الله -عز وجل- كثيراً في القرآن على الأحفاد والذرية بما حصل من الإفضال والإنعام والتكريم لآبائهم، وهذا كثير {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة: (٤٧)]، يخاطب به الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمور وقعت لأسلافهم، وهكذا في تكريم الله -عز وجل- لبني آدم بأمر الملائكة بالسجود لأبيهم، وعلى كل حال يدخل فيه كل أنواع التكريم، ولا يختص ذلك بأنه يأكل بيده، وإنما ذلك من صور هذا التكريم أن ميزه الله -عز وجل-، فجعله يأخذ الأشياء، ويعطي ويتبادل، وتحصل المعاوضة بينه وبين بني جنسه، وجعل له لساناً ناطقاً مبيناً عما في صدره، بخلاف العجماوات تمرض ولا تشعر بعلتها، وكذلك أيضاً لا تقوم بمصالحها، ولا تتصرف بشئونها تصرف الإنسان، فالإنسان هو الذي يدير ذلك كله، فالله -عز وجل- أخضع له هذه الأمور، وجعله بهذه الصورة من الحسن والجمال والكمال بخلاف الحيوانات، فكل هذا من التكريم، وقوله هنا: {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} هذا كله داخل أيضاً في هذا التكريم، ولكنه ذكر من صوره وأنواعه جُملاً تُبين عن غيرها.

وقوله: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، لا يدل على أن جنس البشر أفضل من جنس الملائكة مثلاً، أو أن الصالحين من بني آدم أفضل من الملائكة؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، وهذه المسألة إذا تطرق إليها العلماء من أهل السنة عادة فإنهم يذكرون عند ذلك أن هذه المسألة لا يترتب عليها عمل، وإنما هي من المسائل التي ينبغي الإعراض عنها، وترك الاشتغال بها، وإنما يدندن حولها ويشتغل بها من أولع بالجدل، والاشتغال الذي لا ينفع، وعلى كل حال توجد مواضع في القرآن يقف عندها بعضهم ويتكلم على هذه المسألة وليس هذا الموضع فحسب، ولكن كما قلت العلماء عادة من أهل السنة ينبهون على هذا المعنى، وأن هذا لم نطالب به، ولا يترتب عليه عمل، وينبغي الإعراض عنه، وليس عليه دليل واضح يمكن أن يوقف عنده فيقال: إن الملائكة أفضل بإطلاق، أو أن الأنبياء أفضل بإطلاق، أو أن

الصالحين من بني آدم عموماً أفضل بإطلاق، والإنسان إنما يشتغل بما هو بصدده، إذا عرف أن الصالحين أفضل من الملائكة ما الذي يترتب على هذا؟ لا شيء.

{يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً}[سورة الإسراء: (٧١-٧٢)].

يخبر -تبارك وتعالى- عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيّهم، وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي -صلى الله عليه وسلم-. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا. وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}: أي بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس: (١٢)]، وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}[سورة الكهف: (٤٩)] الآية، وقال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية: (٢٨-٢٩)] وهذا لا ينافي أن يُجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ}: أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته كقوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ} [سورة الحاقة: (١٩)] إلى قوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ} [سورة الحاقة: (٢٥)] الآيات، وقوله تعالى: {وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة، وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قول الله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} قال: ((يُدعى أحدُهم فيُعطَى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم آتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم، فيقول لهم: أبشروا؛ فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله؛ فإن لكل رجل منكم مثل هذا))[1].

وقوله تعالى: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى} الآية، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة وابن زيد: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ}: أي في الحياة الدنيا، {أَعْمَى}: أي عن حجة الله وآياته وبيناته، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}: أي كذلك يكون {وَأَضَلُّ سَبِيلاً}: أي وأضل منه، كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

---

[1] - سنن الترمذي: (٣٠٢/٥) باب ومن سورة بني إسرائيل: برقم: (٣١٣٦) وضعفه الألباني.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}، الباء في {بِإِمَامِهِمْ} يحتمل أن تكون للإلصاق، كما تقول: دعوتك باسمك، ويحتمل أن يكون المعنى: {نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ} متلبسين بإمامهم، أي أن إمامهم معهم، ندعوهم بإمامهم، فيكون ذلك باعتبار أنه متعلق بمحذوف، والأصل كما هو معلوم عدم التقدير، و"إذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال"، أما معنى الإمام، فيقول هنا: **اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم، قال بعض السلف: هذا أكبر**... إلى آخره، يعني إمام أهل الحديث هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، **وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم**، فيقال: يا أهل التوراة، وقول من قال: إنه بنبيهم، يمكن أن يستدل له بمثل قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء: (٤١)]، فيؤتى بالرسل -عليهم الصلاة والسلام.

يقول: **واختاره ابن جرير**، أي أنه بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع، يقول: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن، لكن ابن جرير قد لا يكون اختار هذا القول، وإنما اختار أنه الذي يأتمون ويقتدون به في الدنيا، أيًّا كان، من يتبعونه في الدنيا، من مقدم ومطاع سواء كانوا يتبعون نبياً أو يتبعون شيطاناً، أو يتبعون فاجراً من الفجار، كل أناس يؤتى بهم يوم القيامة بمقدمهم ومطاعهم ومتبوعهم الذي كانوا يتبعونه، والإمام في اللغة هو كل من يؤتم به ويتبع، سواء كان ذلك نبياً من الأنبياء أو كتاباً يتبعونه، أو مطاعاً يطيعونه ويقتدون به، كل ذلك يقال له: إمام.

يقول ابن جرير: وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا؛ لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام -هذه طريقة الترجيح، سبب الترجيح كعادته رحمه الله- يقول: لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتُمّ واقتُدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها، فكلام ابن جرير بهذا الاعتبار: أنه من يتبعونه ويقتدون به، وليس المقصود الكتاب الذي أنزل عليهم، وعلى كل حال هذه الأقوال: من يقول بكتبهم إلى آخره، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: إن المقصود به كتاب الأعمال، {بِإِمَامِهِمْ}: أي **بكتاب أعمالهم**، واحتج له من القرآن، قال: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس: (١٢)]، وهذا هو كتاب الأعمال، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ} فهذا الإمام هو كتاب الأعمال، وليس الكتاب الذي فيه التشريع.

{وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} ليس إلى كتابها الذي أنزل وإنما إلى كتاب الأعمال؛ لأن ما بعده يفسره، قال: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ينطق عليهم بما عملوا، فليس المقصود به كتاب التشريع، وشواهد هذا من القرآن كثيرة، فهذا القول الذي اختاره ابن كثير، والقرينة التي ترجحه، -مع أن الآية تحتمل أن يكون المقصود به كل متبوع أو كل مطاع، أو أنه النبي، أو أنه الكتاب الذي أنزل عليهم- أن الله قال بعده: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}، فالإمام هو كتاب الأعمال، فمن أوتيه بيمينه فقد فاز وأفلح، فهذه قرينة من الآية، والأمر الآخر الذي يرجح هذا القول هو الآيات الأخرى الواردة في القرآن التي توضح هذا المعنى وتقويه، وهذا الذي اختاره ابن كثير -والله تعالى أعلم- هو أرجح هذه الأقوال، وهذه المعاني المشار إليها، والقول بأنه كل من يأتمون ويقتدون به في الدنيا، هذا الذي اختاره ابن جرير، وقال به طائفة من السلف، وممن اختاره من المعاصرين الشيخ محمد

الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، مع أنه ذكر جملة من هذه الأقوال وأيد بعض هذه الأقوال بأدلة من القـــرآن، واستحسن ما ذكره الحافظ ابن كثير، وأن ما بعده يدل عليه، لكن كأنه يميل إلى ما سبق، مع أنه نقل كلام ابن جرير من كلام ابن كثير هناك، والله أعلم.

أما هذا الحديث الذي ذكره فقد ضعفه الشيخ ناصر الألباني -رحمه الله- في ضعيف الترمذي[٢].

قوله: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى}، **قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد**: {مَن كَانَ فِي هَذِهِ}: **أي في هذه الحياة الدنيا**، والإشارة تكون على مرتبتين، وبعضهم يجعلها على ثلاث مراتب، فللقريب هذا، وهذه للمؤنثة، وذاك للمتوسط، وذلك للبعيد، ومن جعلها على مرتبتين يقول: القريب والبعيد، ولا يقول بالمتوسط، فـــ(هذه)، في الآية بعض أهل العلم قال: إنها إلى القريب، وترجع إلى ما ذكر قبله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * ... وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ} النعم {أَعْمَى}، لكن هذا فيه بعد، والأقرب والذي عليه عامة المفسرين أنه {مَن كَانَ فِي هَذِهِ} أي: الدنيا {أَعْمَى} أعمى عن ماذا؟ قال هنا نقلاً عن جماعة من السلف: أي **عن حجة الله وآياته وبيناته**، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} **كذلك يكون**، فمن أهل العلم من يقول: {مَن كَانَ فِي هَذِهِ}: يعني الدنيا، {أَعْمَى}: عن حجج الله وآياته الدالة على أن الله هو الذي خلقها وأوجدها، وأنه هو الذي دبرها هذا التدبير الدقيق، وصرفها هذا التصريف العجيب، الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأفلاك، وما يحصل من إنزال المطر، وما يحصل من إخراج النبات، إلى غير ذلك مما يدل على قدرته -سبحانه وتعالى-، وأنه الخالق وحده والمدبر وحده، وأنه المعبود وحده لا شريك له، فمن كان أعمى عن هذه الحقائق التي يشاهدها، ودلائل القدرة، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}، فبعضهم يقول: في شأن الآخرة، أي: إذا لم يعرف هذا الذي يشاهد الدلائل الواضحة أن له مدبِّراً وخالقاً عظيماً وهو يرى هذا التصريف الدقيق العجيب، كيف يتكون الإنسان من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، وهو في بطن أمه تتكون له الأذن، وتتكون العين، ويتكون الفم، ويتكون الأنف، مع أنه لا يحتاج إلى الأنف في بطن أمه، ولا إلى الفم، ولا إلى العين، ولا إلى أقدامه في بطن أمه ليمشي على الأرض، ولا إلى أصابعه، ولا إلى يديه، وإنما خُلِق ليخرج إلى مكان آخر يحتاج فيه هذه الأمور جميعاً، فهذا الخلق، وهذا التقدير وهذا التصريف العجيب يدل على خالق قادر مدبر مصرِّف مريد عليم، سميع بصير -سبحانه وتعالى-، فمن كان عن هذه الحجج والبراهين الواضحة أعمى فهو عن الآخرة أعمى، وعن أمرها وشأنها وحقيقتها ووجودها، وأنها أمر كائن لا محالة، لأنه إذا كان يعجز عن استكشاف ومعرفة هذا الشيء الذي يراه كل أحد، فكيف بأمر الآخرة التي هي من أمر الغيب؟، فلا شك أنه سيكون أكثر عماية وجهالة وإعراضاً عنها إن كان معرضاً عن هذه الأمور المشهودة، فمن عمِي عن أمر الشهادة فلم يوفق إلى معرفتها، كيف يكون حاله في أمر الغيب؟، فهو عن الآخرة أعمى فهو لا يعرفها ولا يؤمن بها، ولا يرجو لقاء الله -عز وجل-، والبعث بعد الموت والحساب والنشور وما شابه ذلك، فهذا معنىً ذكره طائفة من أهل العلم في هذه الآية، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والعمى الأول المذكور في قوله: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى} ليس المقصود

---

[٢] - تقدم تخريجه.

عمى البصر وإنما المقصود عمى البصيرة، وعمى القلب؛ لأن هذا هو العمى الحقيقي، {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج: (٤٦)]، كما قال بعضهم:

إذا أبصرَ القلبُ المروءةَ والتقَى *** فإن عمى العينين ليس يضيرُ

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- لما كف نظره في آخر حياته:

إنْ يأخذ الله من عينيّ نورَهما *** ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ

قلبي ذكيّ وعقلي غير ذي دخلٍ *** وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهورُ

فالعمى هو عمى القلب، وليس عمى البصر، فإن الإنسان يعمى بصره ويكون عنده من العلم والمعرفة بالله -عز وجل- ما لا يكون عند ملايين المبصرين، فالعمى الأول هو عمى البصيرة، والعمى الثاني، في قوله: {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} يحتمل معنيين:

يحتمل أن يكون في الآخرة أعمى عمى البصر، فيحشر أعمى، كما قال تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}[سورة الإسراء: (٩٧)] ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى- عن الكافر: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}[سورة طه: (١٢٥)]، ولم يكن عنده مقصوداً بصرُ القلب في الدنيا، وإنما يقصد بصر العين، فيحشر أعمى، {لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: (١٢٥-١٢٦)].

ويحتمل أن يكون كما سبق، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}: أي في شأن الآخرة أعمى لا يبصر ولا يعرف أنها كائنة، وأنها أمر لا بد من وقوعه، وأن الله يجزي النفوس بما قدمت وعملت، وأنه حكَم عدْل، إلى آخره، كما سبق من كلام ابن جرير.

وهل أعمى الثانية بمعنى أفعل التفضيل، أي: أشد عمىً؟ إذا فسرت الآية بمعنى عمى البصر، فليس المقصود به أفعل التفضيل قطعاً، وإنما المقصود به أنه يحشر بهذه الصفة من العمى، تقول: فلان أعمى، وليس المقصود: فلان أعمى من فلان؛ لأن عمى البصر لا يتجزأ، فلا يقال: فلان أعمى من فلان، ولا يصح في اللغة، وإنما يقال ذلك في الأشياء التي تتفاضل، تقول: فلان أعلم من فلان، فلان أصح من فلان، فلان أقوى من فلان، وإذا قصد به عمى القلب والجهالة والغفلة عن حقائق الآخرة ودلائلها فيمكن أن يقع فيه التفاضل، تقول: هذا أعمى من هذا في حقائق الآخرة؛ لأن ذلك يتفاوت؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض، فالمعنى: إذا كان جاهلاً مغيباً عن حقائق القدرة وبراهين الوحدانية في الدنيا، وأن الله مصرف لهذا الخلق، ومدبر له، وأنه هو الذي أوجد هذه الحياة، وأنه هو الذي يقوم بتدبيرها وتصريفها بهذا التصريف العجيب الدقيق، فهو في شأن الآخرة التي هي من أمر الغيب أشد عمىً، والله تعالى أعلم.

سؤال: قوله تعالى: {نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}: هل ترجع كلمة إمام إلى الأم؟

هذا قول لم أذكره؛ لأنه قول في غاية البعد، والحديث الذي ورد في هذا لا يصح بحال، لا يُدعَى الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم وإنما يدعون، وينسبون إلى آبائهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يرفع لكل

غادر يوم القيامة لواء يقال: هذه غدرة فلان بن فلان))[٣] ولم يقل: ابن فلانة، فمن قال: {نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}: إن ذلك يرجع إلى الأم، وإنه يُدعى العبد بأمه: فلان ابن فلانة، فهذا باطل لا يصح.

---

[٣] - صحيح البخاري: (٢٢٨٥/٥) باب ما يدعى الناس بآبائهم: برقم: (٥٨٢٣) ومسلم: (١٣٥٩/٣) باب تحريم الغدر: بـــرقم: (١٧٣٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} [سورة الإسراء:٧٣-٧٥].

يخبر تعالى عن تأييده رسوله -صلوات الله عليه وسلامه-، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، "كاد" تأتي لمقاربة الشيء دون وقوعه؛ ولهذا قال بعده: {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً}، و"لولا" هذه حرف امتناع لوجود، يعني لولا وجود التثبيت من الله -عز وجل- لوقع الركون إليهم، وهذا الركون إليهم مع أنه قليل -كما وصفه الله تعالى- إلا أن الله توعد نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذا الوعيد الشديد {إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، {ضِعْفَ الْحَيَاةِ} أي: عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، هذا معنى {ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، ليس المقصود أن حياته تكون مضاعفة، وإنما أن العذاب الذي يكون في الدنيا يكون مضاعفاً، ضعف الحياة، يعني أن الله يعذبه في الدنيا وفي الآخرة عذاباً مضاعفاً، ذلك أنه كما قيل: على قدر المقام يكون الملام، فإذا علت مرتبة الإنسان كان اللوم المتوجه إليه بسبب المخالفة أكبر؛ ولهذا قال الله تعالى: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٢]، وكان مما ذكر منزلتهن وشرفهن على سائر النساء، فقال ضمن ذلك: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣٠]، وقال أيضاً في الثواب: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣١]، فكان العذاب مضاعفاً لها لمنزلتها ورفعة درجتها، وقربها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن تدنيس شرف رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ليس كتدنيس شرف غيره.

{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنّتِنَا تَحْوِيلاً} [سورة الإسراء:٧٦-٧٧].

نزلت في كفار قريش لما هموا بإخراج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين

أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا} الآية، أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه -صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم- رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [سورة الأنفال:٣٣] الآية.

قوله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}، ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الذي فسر به الآية أن ذلك وقع منهم، وأن العقوبة التي توعدهم الله -عز وجل- بها حلت بهم في يوم بدر، ولكن هذا الكلام لا يخلو من إشكال لوجوه متعددة، فمن هذه الوجوه: أن الله -عز وجل- قال: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}، ومعلوم أن "كاد" تدل على المقاربة دون وقوع الشيء، فذلك لم يقع، ومعنى الاستفزاز: الإزعاج، {كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ} بمعنى أنهم يزعجونه -صلى الله عليه وسلم- إزعاجاً يخرجه من بين أظهرهم، {مِنَ الأَرْضِ} المقصود بالأرض يعني أرض مكة، فـ"ال" عهدية، والأمر الآخر: أن الله -عز وجل- قال: {وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}، في القراءة الأخرى المتواترة قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو {خلفك}، والمعنى واحد.

{سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا} يمكن أن يكون منصوباً على نزع الخافض، أو يمكن أن يكون بمقدر محذوف، يعني: سَنّ بهم مثلاً سنة من قد أرسلنا، وسنة الله -تبارك وتعالى- في الأمم السابقة نزول العذاب المستأصل الذي يقطع دابرهم، وهذا لم يقع لأهل مكة، فهذا هو الأمر الثاني، قال: {وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ}، لا يلبثون، {إِلاَّ قَلِيلاً}، فمعنى ذلك أنه يَنزل عليهم عذابٌ يقطع دابرهم، وهذا لم يقع، وسنته -تبارك وتعالى- في الأمم المكذبة السابقة التي نزلت بها المَثُلات والعقوبات العامة المستأصلة لم تحصل في هذه الأمة، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عرض عليه الملَكُ أن يطبق عليهم الأخشبين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رفض رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله -عز وجل- لا يشرك به شيئاً، فالمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير لا يخلو من إشكال، والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك لم يقع، ولا يفسر بيوم بدر، وقد يقول قائل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من بين أظهرهم، اضطروه للخروج، والله -عز وجل- أضاف ذلك إليهم {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ} [سورة محمد:١٣]، فأضاف الخروج إليهم، {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، وتارة يضيف الخروج إلى المؤمنين، وتارة يورِد ذلك بالبناء للمجهول {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ} [سورة الحج:٤٠] فالشاهد أن خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- كان بأمر الله في وقتٍ وقّته، ولهذا لم يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- لمجرد أنهم أزعجوه أو اضطروه إلى الخروج، أو أنهم قاموا بإخراجه فعلاً، وإنما كان يصبر على الأذى ويتحمل، ويأمر أصحابه بالصبر، ثم أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وبقي النبي -صلى الله عليه وسلم- ينتظر أمر الله، ثم بعد ذلك جاءه الأمر بالخروج فعرض ذلك على أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- كما هو معلوم- أن يصحبه معه في سفر الهجرة، فهذا هو الجواب الذي يذكر على هذا الإيراد أو السؤال أو الإشكال،

فيكون الإخراج المقصود في الآية هو أن يقوم هؤلاء الكفار بإخراجه فعلاً، وأما خروجه -صلى الله عليه وسلم- فكان بأمر الله -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

{أَقِمِ الصّلاَةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ إِلَىَ غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لّكَ عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقَاماً مّحْمُوداً} [سورة الإسراء:٧٨-٧٩].

يقول -تبارك وتعالى- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: {أَقِمِ الصّلاَةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ}.

وقال هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: دلوكها زوالها، ورواه نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر، وقاله أبو برزة الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة، ومما استشهد عليه ما رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: دعوت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس))[1]، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: {لِدُلُوكِ الشّمْسِ إِلَىَ غَسَقِ اللّيْلِ} وهو ظلامه -وقيل غروب الشمس- أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} يعني: صلاة الفجر، وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد.

قوله تعالى: {أَقِمِ الصّلاَةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ} نقل بعض أهل العلم الإجماع على أن هذه الآية في مواقيت الصلاة المكتوبة، وقد مضى بعض الآيات التي تتعلق بهذا المعنى، والدلوك أصله الميل، {أَقِمِ الصّلاَةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ} أي: لميلها، والذي عليه عامة المفسرين كما نقله عن طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- أن الدلوك هو الزوال، وهذا الذي اختاره جمع من أهل اللغة كالأزهري، وكبير المفسرين ابن جرير، وغير هؤلاء كثير، هذا هو المشهور، والقول الآخر: أن الدلوك بمعنى الغروب، وهذا أيضاً قال به بعض أهل اللغة، قال به طائفة من السلف، إلا أن القول الأول أشهر، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- جمع بين القولين فذهب إلى أن الدلوك يصدق على هذا وهذا، وأن ذلك من جهة الدلوك له مبدأ ومنتهى، فمبدؤه ميل الشمس عند الزوال، ومنتهاه الغروب، فيدخل بدلوك الشمس في قوله: {أَقِمِ الصّلاَةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ} -إذا مالت عن كبد السماء بعد الظهر- صلاة الظهر وصلاة العصر.

{إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} أي: ظلامه، إذا أقبل الليل بظلامه فذاك غسقه، فيدخل فيه المغرب والعشاء، {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} صلاة الفجر هذا هو المشهور، -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: إن أصل كلمة "غسق" بمعنى السيلان، غسقتْ أي سالت، والمقصود بإقبال الليل ظلامه، ونحو هذا من العبارات التي يذكرها السلف

---

١ - جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري (١٧/٥١٨).

-رضي الله تعالى عنهم-، **قال: {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} وهو ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر..** إلى آخره"، وقوله: وقيل: غروب الشمس، يحتمل أنه يقصد القول الثاني في المسألة، معنى دلوك الشمس، قيل: الزوال، وقيل: غروب الشمس، فيكون ذكر القولين، ويكون غروب الشمس تفسيراً لغسق الليل، هذا قال به بعضهم، ولا منافاة، فإن غروب الشمس يعني إقبال الليل، كما قال الله -عز وجل-: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق:٣] الغاسق قيل: القمر إذا غاب، وقيل: إذا طلع، وبعضهم فسر الغاسق بالليل، وهذان القولان متلازمان، بمعنى أن القمر آية الليل، فإذا ظهر القمر فمعنى ذلك أن الظلام قد وُجد وأن الليل قد حل، {غَسَقِ اللَّيْلِ} أي: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، فالقولان متلازمان، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، يعني إلى هذا القدر، {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}، أربعة فروض.

{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} قال: يعني صلاة الفجر، وقد ثبت بالسنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-..إلى آخره.

وتسمية صلاة الفجر بقرآن الفجر هو تسمية للشيء بجزئه، وهذا يدل على أن القراءة في الصلاة مطلوبة، وأنها ركن فيها؛ لأن القاعدة أن الشيء لا يسمى بجزئه إلا إذا كان هذا الجزء لا ينفك، كما يقال عن الإنسان: إنه رقبة، ولا يقال عنه: إنه يد، فاليد من الممكن أن تُقطع ويعيش الإنسان، لكن إذا قطعت الرقبة لا يعيش، فإنما يطلق على الشيء بجزء منه إذا كان هذا الجزء غير منفك، ومن هنا أُخذ استنباط أن القراءة في الصلاة ركن، ولا شك أن القدر الذي يصدق عليه هذا هو قراءة سورة الفاتحة، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها، {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}، وليس المقصود به القراءة خارج الصلاة أو في السنّة الراتبة، وإنما قرآن الفجر هو القراءة في صلاة الفجر.

وقول الله -عز وجل-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} فــ{قُرْآنَ} منصوبة؛ لأنها معطوفة على الصلاة، أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر، يكون هذا المعنى: أمر بإقامة الصلاة وإقامة قرآن الفجر، ويكون هذا تأكيداً له؛ لأنه داخل في عموم الصلاة، لكن الله -عز وجل- ذكر في الأول الفروض الأربعة، من قوله: {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} ثم قال: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} وصلاة الفجر، وبعضهم يقول: منصوب على الإغراء: وعليك قرآن الفجر.

{إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} عن ابن مسعود عن أبي هريرة -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} قال: ((تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار))[٢]، وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر)) يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}[٣].

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} قال: ((تشهده ملائكة الليل وملائكة

---

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب وقت صلاة الفجر، برقم (٦٧٠)، والحاكم في المستدرك (١/٣٣٠)، برقم (٧٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح (٦٣٥).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}، برقم (٤٤٤٠).

النهار))[٤]، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم -وهو أعلم بكم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون))[٥]، وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء، وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

قوله: {إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، وهذا تدل عليه الأحاديث، والقول الآخر: أي يشهده الله -تبارك وتعالى- وتشهده ملائكته، هذا القول قد تدل عليه بعض الروايات الواردة في حديث النزول فإن في بعضها: ((حتى يضيء الفجر))، وفي بعضها ((حتى يسطع))، فحتى يضيء الفجر: إذا أضاء الفجر فهذا هو وقت الصلاة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي الصبح بغلس، وحينما ينصرف كان النساء لا يُعرفن من الغلس، من الظلام، وقد جاء في رواية عند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في حديث النزول: ((ينزل الله -عز وجل- إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟)) إلى أن قال: ((حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح))[٦]، وهذا الحديث صححه الشيخ الألباني -رحمه الله- في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم، وقوله: ((أو ينصرف القارئ)) يحتمل أن الذي قال هذه الجملة: ((أو ينصرف)) النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني بهذا السياق، ويحتمل أن يكون ذلك شكًّا من الراوي، فالحاصل أن مثل هذا الحديث يمكن أن يستدل به على هذا القول: يشهده الله -عز وجل- والملائكة، فالله -عز وجل- ينزل إلى سماء الدنيا فيقول: ((من يدعوني)) إلى آخره، ((حتى ينصرف القارئ من صلاة الصبح))،... يكون هذا تفسيراً لقوله: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}، يشهده الله وملائكته، والأمر كما قال بعض أهل العلم: إنه لا منافاة بين القولين، يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهده الله جل جلاله، فأصحاب هذا القول ما نفوا القول الآخر بل أثبتوه وزادوا عليه، وهذا معنىً كبير ليس بالشيء السهل، فالله -عز وجل- جعل هذه الشهود، وإلا فإن الله -عز وجل- على كل شيء شهيد، مطلع على الخلق، سامعٌ لأقوالهم، مبصرٌ لجميع أعمالهم، وحركاتهم وسكناتهم، نافذ البصر فيهم، لكن هذا شهود خاص لصلاة الصبح.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٣٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الصلاة، باب وقت صلاة الفجر، برقم (٦٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٠/١)، برقم (٧٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ومسلم بلفظ قريب منه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، برقم (٦٤٩).

٥ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٣٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، برقم (٦٣٢).

٦ - رواه أحمد في المسند (٣٢٠/١٦)، برقم (١٠٥٤٤)، وقال محققوه: صحيح دون قوله: "أو ينصرف القارئ... إلخ"، وصححه الألباني في تحقيق ظلال الجنة برقم (٤٩٨).

وقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: ((صلاة الليل))[٧]؛ ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، كما هو مبسوط في موضعه، ولله الحمد والمنة.

قوله تعالى: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}**، "مِن" هذه تبعيضية؛ لأنه لا يطالب بقيام كل الليل، ذكر طائفة من أهل العلم أن الضمير عائد إلى القرآن، تهجدْ به، أي بالقرآن، و**{تَهَجَّدْ}** من الهجود، والهجود كما قال ابن الأعرابي -وهو إمام كبير من أئمة اللغة المتقدمين، من أهل السنة-: إن ذلك من الأضداد، أي إنها تدل على المعنى وضده، فتقول: هجد بمعنى نام، ويقال أيضاً: الهجود بمعنى السهر، فهو يقول: إن هذه اللفظة هنا **{فَتَهَجَّدْ بِهِ}** لفظة تهجد أو هجد تدل على معنيين متضادين، والأزهري -رحمه الله- وهو إمام من أئمة اللغة وهو من أهل السنة- يقول: إن أصل ذلك من النوم، تقول: هجد، اهجد، هجدوا يعني ناموا، لكن التفعُّل، تهجّدْ يدل على التباعد، كما تقول: تأثّمْ وتحرّجْ، الحرج معروف، والإثم معروف، فتحرجْ يعني تجافَ عن الحرج، وتأثّمْ تجافَ عن الإثم، فتكون تهجدْ بمعني تجافَ عن الهجود، كما قال الله -عز وجل-: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}** [سورة السجدة:١٦] فهو يتباعد عن الهجود عن النوم ليقوم يصلي، وهذا المعنى الذي ذكره حسن، **{فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}**، وكون هذه اللفظة تدل على قول من قال: إنه يكون بعد النوم لا ينفي عن كون الصلاة التي يصليها الإنسان من بعد العشاء، ولو قبل النوم، أو لم ينم أصلاً طول الليل، فلو قام من وسطه أو آخره أو أوله، لا ينفي أن كل هذا من قيام الليل، وقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا}** [سورة المزمل:٦]، بعض أهل العلم فسر الناشئة بالصلاة التي تكون بعد النوم، والتهجد غالباً ما يعبر به على الصلاة أو القيام الذي يكون بعد نوم، ولا شك أن هذا أفضل من الصلاة التي لا تكون بعد نوم -والله تعالى أعلم-، وذلك من وجهين، الوجه الأول: لما يتطلبه ذلك من المجاهدة، وورد في هذا أحاديث في القيام من النوم ليصلي الإنسان، فيمن يضحك له الله -تبارك وتعالى-، وأن ذلك يكون أدعى للاستحضار، حضور القلب، فإن الإنسان إذا نام واستراح كان ذلك أصفى ما يكون في الذهن، ولهذا العلماء يذكرون فيما يتعلق بالعلم والتعلم والحفظ وما أشبه ذلك، يذكرون السَّحَر، بحيث يكون الإنسان قد استراح، أما بعد العشاء فالإنسان يكون مشوشاً فكره بسبب سائر أعمال اليوم ، ويكون في غاية الإجهاد، يحتاج إلى الراحة، فالذهن يكون في حالٍ من الضعف والكلال، بخلاف ما إذا نام، فإنه يكون قد استعاد نشاطه وقوته، ويكون أدعى لحضور القلب، وهو الذي اختاره ابن جرير، والأزهري -رحمهما الله-، والله المستعان.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، برقم (١١٦٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسيره لقول الله -جل وعلا-: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ} [سورة الإسراء:٧٩] الآية.

قال: وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم.

وقوله تعالى: {نَافِلَةً لَّكَ} إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواتُه النوافلُ الذنوبَ التي عليه، قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه-.

وقوله: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم -تبارك وتعالى-، قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً لا تَكلَّم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: ((لبيك وسعديك، والخير في يديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت))[١] فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله -عز وجل-. وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقاله الحسن البصري.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقَاماً مّحْمُوداً}، قلت: لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- فيقول: ((أنا لها، أنا لها))[٢] كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

---

١ - رواه البزار في مسنده برقم (٢٩٢٦)، والطيالسي برقم (٤١٤)، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه برقم (٢٥٦٦)، وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٧٨٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب -عز وجل- يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم (٧٠٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم.

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، ولله الحمد والمنة، ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}** النافلة الزيادة، فمن نظر إلى أن الزيادة هنا بمعنى الزيادة على الأصل فسر ذلك بأنها زائدة على الفرائض، فالله -عز وجل- ذكر قبل ذلك الصلوات الخمس **{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}** [سورة الإسراء:٧٨] إلى آخره، ثم قال: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}** زيادة على الفرائض، فيكون ذلك زيادة في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه مفروض عليه، والقول بأن قيام الليل كان فرضاً عليه -عليه الصلاة والسلام- قول قوي معتبر -والله تعالى أعلم-، لقوله: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}** [سورة المزمل:٢] فهذا أمر، والأصل أن الأمر للوجوب، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فقال: إن قيام الليل واجب على النبي -عليه الصلاة والسلام-، زائد على الفرائض، أي أنه مفروض عليه مع -أو زيادة- على الفرائض الخمس، وقال الحافظ -رحمه الله-: "**إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفِّر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد**"، وهذا القول عن مجاهد عزاه الواحدي إلى المفسرين، يعني أنه قول المفسرين، باعتبار أن الناس يعملون في محو سيئاتهم، وأما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد غفر له الذنوب والسيئات، فعمله في رفعة الدرجات والشكران لله -جل جلاله-، فليس هناك سيئات تكفر، فالله قد غفر له، وهذا القول الذي عزاه الواحدي إلى المفسرين رده ابن جرير -رحمه الله-، واحتج لذلك بأمور، من ذلك أن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في آخر حياته مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [سورة النصر:٣]، فأمره بالاستغفار مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر في ركوعه وسجوده من قول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي))[٣]، وأن النبي -صلى الله عليه

---

٣ - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع، برقم (٧٦١)، وفي كتاب التفسير، باب تفسير سورة: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ}**، برقم (٤٦٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٤).

وسلم- كانوا يحصون له في المجلس الواحد من الاستغفار ما يزيد عن المائة مرة[٤]، مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، فابن جرير -رحمه الله- لا يوجه المعنى إلى هذا، {نَافِلَةً لَّكَ} بمعنى أنه مجرد فضيلة ورفعة في الدرجات وزيادة في الأجر والحسنات وأن غيره من الأمة ليس ذلك بنافلة في حقه بل هو كما قال الله -عز وجل-: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}[سورة هود:١١٤]، فهم يعملون في سبيل تكفير الذنوب وحط الخطايا والسيئات، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن النافلة أعم من أن تكون زيادة على الفريضة، أو أن تكون بمعنى قول الفقهاء: إنه ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وأن المعنى أوسع من هذا وأعم من ذلك، فهو لا يوافق على تحديد ذلك بمعنىً عرفي جرى عليه الاستعمال في العصور المتأخرة، فعند ابن القيم -رحمه الله- {نَافِلَةً لَّكَ} أي: زيادة لك في رفع الدرجات، بغض النظر عن حكمه، قد يكون هذا الذي يرفع به الدرجات من قبيل الفرض، وقد يكون من قبيل النفل، وظاهر كلامه -رحمه الله- أن قيام الليل في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- واجب، وعبر هنا بالنافلة؛ لأنه رفع في درجاته -عليه الصلاة والسلام-، وهذا في الواقع عند التأمل يشبه قول مجاهد، لكن قول مجاهد لم يتعرض فيه صراحة إلى أنه فرض أو ليس بفرض، وإنما ذكر أن الناس بالنسبة إليهم تكفر الذنوب والسيئات فهم يعملون الصالحات من أجل تكفيرها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعمل ليزداد ثواباً وليس هناك ذنوب تكفر، فهذا خلاصة كلام ابن القيم -رحمه الله-، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢] أمر يفيد الوجوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً}، نُقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره من السلف: أن "عسى" من الله واجبة، وبعضهم يقول: "عسى" من الله موجبة، وهكذا أيضاً يقولون: "لعل" من الله واجبة، يعني أن "عسى" في أصل معناها تفيد الترجي، والله -تبارك وتعالى- لا يترجى، وإنما يكون الترجي ممن لا يعلم العواقب، أما الله –عزوجل- فيعلم كل شيء بيده مقاليد الأمور، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فإذا قال: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} فهذا أمر سيقع، وأن الله سيبعثه، هو وعد خرج بهذه الصيغة على طريقة كلام العرب واستعمالاتهم، فإن العظيم منهم من الملوك والعظماء إذا أخرج الوعد فإنما يخرجه غالباً بهذه الطريقة، يقول: عسى أن نحقق لك ما طلبت، عسى أن يحصل لك مقصودك ونحو ذلك، ويفهم منه أنه وعَدَ بذلك وعداً جازماً، لكنه أخرجه بهذه الطريقة، وقوله تبارك وتعالى: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة الممتحنة:٧]، لابد أن يكون، وقد حصل، وأبو سفيان هو أول من قاتل أهل الردة، فإنه قدم من اليمن، وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق، فلقي ذا الخمار وقد ارتد عن الإسلام، فقاتله قبل قتال الصديق، مع أن أبا سفيان هو الذي كان يقود جيوش الشرك، فتحولت تلك العداوة إلى محبة، وكان يحرض الناس في يوم اليرموك على الجهاد والصبر، ويثبتهم بعد ما كان من الشرك والعداوة التي كان يكنها

---

٤ - رواه أبو داود من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب سجود القرآن، باب في الاستغفار، رقم (١٥١٦)، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول إذا قام من المجلس، برقم (٣٤٣٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٩٢٧)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه ابن حبان والترمذي"، برقم (١٣٥٧).

لهذا الدين، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً}، وأسلم عكرمة، وأسلم خالد بن الوليد الذي كان سبباً في هزيمة المسلمين في يوم أحد، فالشاهد أن "عسى" و"لعل" موجبة، {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [سورة الطلاق:١] وهو الرجعة لمن التزم بما أمر الله -عز وجل- به في شأن الطلاق، {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} وقال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء:١٩]، فإذا طبقت هذه المعاني فلا ينتظر بعد ذلك إلا الرجعة، والمقام المحمود يحتمل أن يكون هذا اللفظ المفرد يقصد به معنىً مفرد، بمعنى الشفاعة العظمى، وهذا الذي ذهب إليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو قول الجمهور، وتدل عليه الأحاديث التي أورد بعضها المصنف في الشفاعة العظمى، وهنا قال: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} جاءت منصوبة، يحتمل أن يكون بتضمين بعث معنى أقام، أي عسى أن يقيمك ربك مقاماً محموداً، ويمكن أن يكون نصب "مقاماً" على الظرفية، ويمكن أن يكون على الحال أي ذا مقام محمود، ويحتمل أن يكون المقام هنا لفظه مفرد ومعناه العموم، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}[سورة البقرة:١٢٥]، فمقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في القولان، قيل: المقام الذي يصلى خلفه، {وَاتَّخِذُواْ} وتكون الآية في هذا المعنى، ويدل عليه سبب النزول، فإن هذا من موافقات عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فإنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، ويقصد به الحجر الذي قد انطبعت عليه أثر القدم، فنزلت {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، وفي القراءة الأخرى: {وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، فيه معنيان الأول: تصلون خلفه، أي خلف المقام، والمعنى الثاني وهو لا ينافي المعنى الأول لكنه أعم منه أي: من مقامات إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في الحج، {مُصَلًّى} أي: متعبداً، وهذا معنىً له وجه، ولا ينافي المعنى الأول، وهو أعم منه، فمن ذلك الصلاة خلف المقام المعروف، والوقوف في عرفة، والمبيت في مزدلفة، والبقاء في منى، ورمي الجمار، وكل ذلك فهو من مقاماته -صلى الله عليه وسلم- في الحج، فيتخذ ذلك متعبَّداً، فهذا المعنى أعم {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ}، والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشعر بأنه يريد بذلك ما هو أعم من الشفاعة، فالشفاعة داخلة فيه ولكن كل مقام محمود للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة فهو داخل في هذا، كونه أول من يدخل الجنة، وأول من يستفتح باب الجنة، وحامل لواء الحمد -عليه الصلاة والسلام-، إلى غير ذلك من الخصائص التي تكون له في الآخرة، والذين يصنفون في الخصائص يذكرون خصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة، وخصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا، ويذكرون خصائص أمته في الدنيا، وخصائص أمته في الآخرة، الشاهد أن الآية تحتمل هذا المعنى، {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} أي: في مقامات شريفة عظيمة، يحمده عليها الخلائق، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً الشفاعة العظمى، مع العلم بأنك لو تأملت الروايات الواردة في الشفاعة وهي كثيرة جداً، لا تجد في الروايات الصحيحة ما يصرح بالفصل بين الخلائق عموماً، حسب ما وقفت عليه، ومن محاولة تتبع الروايات، وإنما الأحاديث في أنه -عليه الصلاة والسلام- يقول: ((أمتي أمتي)) فيدعو، مع أن أهل العلم يكادون يطبقون على أن الشفاعة العظمى هي الفصل بين الخلائق حينما يبلغ العرق من الناس ويشتد الموقف والكرب، فيفصل بين الخلائق، والروايات قد لا تجد فيها ما يصرح بهذا، وحينما يسجد -عليه الصلاة

والسلام- يقال له: ((ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع))[٥]، فيسأل لأمته -عليه الصلاة والسلام-، لكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن ذلك يقتضي ويستلزم الفصل بين الخلائق، فإن أمتهم لا يحصل لهم ذلك إلا بعد أن يفصل الله -عز وجل- بين الناس، ويقضي بينهم، فيذهب من يذهب إلى الجنة، ويذهب من يذهب إلى النار، فتكون أمته أول من يدخل الجنة، فيكون ذلك مضمناً في هذا المعنى، -والله تعالى أعلم-.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- يقول: "إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً"[٦].

المقصود بقوله: "جُثاً" هنا ليس بمعنى جاثين -يعني يجثون على الركب-، وإنما "جثاً" هنا جمع جثوة، وهي الجمع أو الجماعة، يبعثون جماعات كل أمة تتبع نبيها.

روى ابن جرير عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً))[٧]، وهكذا رواه البخاري في الزكاة وزاد: ((فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم))[٨].

وروى أبو داود الطيالسي عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: ثم يأذن الله -عز وجل- في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى -قال أبوالزعراء: لا أدري أيهما- قال: ثم يقوم نبيكم -صلى الله عليه وسلم- رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله -عز وجل-: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}.

روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منه نهشة، ثم قال: ((أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟، فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم -عليه السلام- فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول آدم: إن ربي قد غضب

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}، برقم (٤٤٤١).

٧ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢٩/١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٦٠).

٨ - رواه البخاري، من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرا، برقم (١٤٠٥).

اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى -عليه السلام- فيقولون: يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمت الناس في المهد صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، فيأتون محمداً -صلى الله عليه وسلم- فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي -عز وجل- ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطهْ واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرى))[٩]. أخرجاه في الصحيحين.

صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يقول: ((يأتي عليه يوم وهو كَظيظٌ من الزحام))[١٠]، ثمانية أبواب بهذا المقدار، أسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم منهم.

وحينما يقال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اشفع تشفع يقول: أمتي يا رب أمتي يا رب))، هذا لا يكون إلا بعد فصل القضاء بين الناس، فيزول عنهم الكرب الذي حصل؛ لأنهم حينما كانوا ينتظرون ويشتد عليهم الأمر فيشفع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقضي الله -عز وجل- بين الناس، ثم يكون أول من يدخل الجنة

---

٩ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٧).

هم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، بهذا المعنى، لكن قد لا تجد ما يصرح بذلك في الروايات، -والله أعلم-.

سؤال:

أهل التأويل هل هم أهل التفسير؟ وما الفرق بين لفظة التفسير والتأويل؟

الكلام في هذا كثير جداً، وخلاصة الصحيح منه بعيداً عن التكلف وبعيداً عن كلام أهل البدع: أن التأويل تارة يأتي بمعنى التفسير، تأويل الآية كذا أي تفسيرها، ((وعلِّمه التأويل))[11] يعني التفسير، فتأويل الكلام أي تفسيره، وتارة تأتي لفظة التأويل لمعنىً آخر غير التفسير، فلا تكن متفقة معه، فإذا قلت مثلاً: تأويل الرؤيا بمعنى تفسير الرؤيا، فهذا موافق للتفسير، ويأتي بمعنى فعل الامتثال، فعل ما أمر الله به مثلاً، فتحقيق الأمر يقال له: تأويل، والله حينما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ}** كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- يكثر في ركوعه وسجوده يقول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي))[12] يتأول القرآن، يعني يمتثل، يحقق، ينفذ، ويأتي أيضاً لمعنىً ثالث، وهو فيما يتصل بالأخبار، وذلك بوقوع المخبر به، أي بتحققه، **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ}** [سورة الأعراف:٥٣]، **{يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}** يعني: وقوع وتحقق ما أخبر به من الأهوال والأوجال التي تكون في الآخرة والبعث والنشور والحساب والجنة والنار، فهذا تأويله، وتأويل الخبر وقوع المخبر، وتأويل الرؤيا بالمعنى الآخر وقوعها وتحققها قال: **{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ}** [سورة يوسف:١٠٠]، يعني هذا مصداق تحققها ووقوعها، بينما في الآية الأخرى حينما قال: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [سورة يوسف:٣٦] تأويل الرؤيا، رؤيا الملِك، يعني نبئنا بتسفيره، فتأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسير الرؤيا ويأتي بمعنى تحقق الرؤيا، ووقوعها، فهذه ثلاثة معانٍ على سبيل التفصيل للتأويل، الأول منها هو الذي يوافق التفسير، والمعنيان بعده مغايران له، وهناك معنىً آخر شاع عند المتأخرين ولم يكن معروفاً عند السلف وهو صرف الكلام من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح، فهذا كما سبق -في الأصول وكما سبق في عدد من المناسبات- ثلاثة أنواع، فما كان لدليل فإنه يكون تأويلاً صحيحاً، وقد يكون لدليل لا يصح فيكون تأويلاً بعيداً، أو لشبهة أو نحو ذلك، ويمثل الأصوليون على ذلك بتأويل الأحناف: ((أيما امرأة نكحت نفسها بغير

---

١١ - رواه أحمد في المسند (٤/٢٢٥)، برقم (٢٣٩٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم، فمن رجال مسلم، وهو صدوق، وابن حبان في صحيحه برقم (٧٠٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٨٩).

١٢ - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب الدعاء في الركوع، برقم (٧٦١)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٤).

إذن وليها فنكاحها باطل))[١٣] قالوا: المقصود الصغيرة، أما الكبيرة فلها أن تعقد على نفسها، لأنها تعرف مصلحتها، فقيل لهم: النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((امرأة)) والصغيرة ليست امرأة، فلجئوا إلى القول بأن المقصود المكاتبة، فيقال: المرأة أعم من ذلك، ولا يحمل على معنىً قليل أو نادر، فهذا يسمى تأويل بعيد، والقسم الثالث الذي يسميه الأصوليون باللعب،

"وما خلا فلعباً يفيد"

وذلك مثل تأويلات الرافضة لقوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [سورة البقرة:٦٧] قالوا: عائشة -رضي الله تعالى عنها-، **{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** [سورة النساء:٥١] يقولون: أبوبكر وعمر، وقول بعض الصوفية **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** قالوا: هي النفس تذبح بسكين الطاعة، فهذا لعب، وتحريف للكلم عن مواضعه، ومثل تأويلات الباطنية الفاسدة، يؤولون الصفا والمروة بالإمام، أو بعليّ، أو النبي وعليّ، أو الإمام والولي، وما شابه ذلك من الخزعبلات، وتأويل الفاطمية لقوله تعالى: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [سورة النصر:١] يقولون زوراً وبهتاناً: هم العبيديون، فيقول كبيرهم لاثنين من كُتَّامِه وقد سمى أحدهما بنصْر الله والثاني بالفتح، يقول: أنتما من عنى الله بقوله: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، وهكذا قوله تعالى: **{وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [سورة الجمعة:١١] يقول: كوك: هذا اسمه كوك، وهكذا، -والله أعلم-.

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، برقم (١١٠٢)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، برقم (١٨٨٠)، وأحمد في المسند (٤٠/٤٣٥)، برقم(٢٤٣٧٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٢٧٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك علي نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: حكم التهجد في حقه -صلي الله عليه وسلم:

قد اختلف السلف والخلف في أنه هل كان فرضا عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}[سورة الإسراء: (٧٩)]، قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل: (١-٢)] ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: {نَافِلَةً لَّكَ} فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [سورة الأنبياء: (٧٢)] أي زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي -صلي الله عليه وسلم- زيادة في درجاته وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيرُه يعمل في التكفير، قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة، أي زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه. قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد قال: حدثنا الحجاج عن ابن جريج عن عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة، من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل إنما هي للنبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.

{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}. [سورة الإسراء: (٨٠-٨١)].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال -الله عز وجل-: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} الآية.

وقال قتادة {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: يعني المدينة، {وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}: يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم علي بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم، فلا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} إلى قوله: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد: (٢٥)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}**، المدخل والمخرج مصدران، بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة هنا إلى الصدق **{مُدْخَلَ صِدْقٍ}** و**{مُخْرَجَ صِدْقٍ}** يمكن أن تكون للمبالغة، كالمبالغة في قولهم: حاتم الجود، مدخل صدق ومخرج صدق، وهذا المُدخل اختلفوا فيه كثيراً، والقول الذي نقله عن بعض السلف كعبد الرحمن بن زيد وقتادة قال: المدخل: المدينة، والمخرج: مكة، هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، واحتج له بما قبله، ورأى أن ذلك قرينة دالة على رجحانه وقوته؛ لأن الله قال قبله: **{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}** [سورة الإسراء: (٧٦)] أي: من أرض مكة، **{لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا}**، فقال بعده: **{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}**، أي: أخرجني من مكة، وأدخلني المدينة بهذه الصفة، وبعضهم حمل ذلك على الإماتة والبعث، أي: أدخلني في الموت مدخل صدق، وأخرجني في البعث مخرج صدق، وبعضهم حمله على باب المأمورات والمنهيات، أي: أدخلني فيما أمرتني به من طاعتك مدخل صدق، وأخرجني مما نهيتني عنه من معصيتك مخرج صدق، وبعضهم يقول: أدخلني في الأمن مدخل صدق، وأخرجني من المخاوف مخرج صدق؛ لأنه قال قبله: **{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}**، وبعضهم يقول: أخرجني من بين المشركين مخرج صدق، وأدخلني مدخل صدق، وبعضهم يقول: إن المقصود أدخلني مدخل عز، وأخرجني مخرج نصر، وبعضهم يقول: هذا يتعلق بأمر النبوة، أدخلني فيها لمّا أكرمتني بها مدخل صدق، وأخرجني منها أي: من تبعاتها مخرج صدق، فلا يحصل تقصير في البلاغ، والقيام بأمر الله -تبارك وتعالى-، أخرجني منه إذا توفيتني مخرج صدق، وبعضهم يقول: أدخلني في القبر مدخل صدق، وأخرجني منه بالبعث مخرج صدق، وهذه الأقوال لا يوجد دليل على واحد منها بعينه، غاية ما هنالك أن بعض هذه الأقوال ربما احتُج له بقرينة تشعر عند القائل به برجحان قوله، ولعل الأحسن من هذا كله -والله تعالى أعلم- قول من حمل ذلك على العموم، وقال: الله لم يحدد، وهذا دعاء علّمه الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، **{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}** في الأمور كلها، ومن ذلك المدينة، المهاجر الذي يهاجر إليه، وهكذا في كل شأن يدخل فيه من الأمور الحسية والمعنوية، **{وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}** في كل ما يخرج منه، سواء كان ذلك من الفراغ من الأمور المعنوية، أو الخروج حساً مما يخرج منه، والعلم عند الله -عز وجل-.

قال: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} السلطان هنا -كما في المواضع الأخرى- بعضهم حمله على الحجة القاهرة، {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا} [سورة القصص: (٣٥)]، {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء: (٣٣)]، فبعضهم يقول: أي الحجة القاهرة يغلب بها أعداءه، مَن خالفه وناوأه، ويظهر عليهم بالحجة والبرهان، وبعضهم يقول: المقصود بذلك العز القاهر والقوة الغالبة، ويكون ذلك بالتمكن والملك، وعلى كل حال {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}: يقول الحافظ ابن كثير: **قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له، وقال قتادة: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله**، فيكون هنا بمعنى الملك، وليس بمعنى الحجة، فهذا القول اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو الذي يظهر أنه رجحه ابن كثير، وقد صرح برجحانه -أن المقصود العز القاهر والقوة الغالبة وليس الحجة-، وابن جرير ذكر هذا، ولكن من تأمل قوله من أوله إلى آخره يجد أنه جمع بين القولين؛ لأنه قال آخراً بعدما ذكر هذا المعنى: العز والغلبة والملك والقهر، قال: وذلك لا يكون إلا بحجة قاهرة، فهذه الجملة الأخيرة في كلام ابن جرير -رحمه الله- تدل على أنه قصد الجمع بين القولين، وهذا جيد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حصل له هذا وهذا.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى ذكره: {رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء: (٨٤)]**، وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ}** [سورة يونس: (٢)] **وقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}** [سورة القمر: (٥٤-٥٥)]**، فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.**

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه -صلى الله عليه وسلم- هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله -صلى الله عليه وسلم- المدينة كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار، وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حصن بني قريظة، فإنه لما كان مدخل كذب أصابه معهم ما أصابهم، فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق، وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج

صدق؛ ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه -صلى الله عليه وسلم- من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه -صلى الله عليه وسلم-[1].

هذا الكلام لا تجدونه لأحد، غير ابن القيم، رجل ألين له الكلام كما ألين لداود -عليه السلام- الحديد، والإنسان يدخل مداخل كثيرة ويخرج مخارج، أحياناً يدخل مداخل الريب، أو يدخل مداخل كاذبة لا يريد بها وجه الله -عز وجل-، وإنما يريد دنيا، وعرضا زائلا، أو يريد ما عند الناس، كالمَحمدة في قلوب الخلق، وأحياناً يريد أن يتوصل بهذا إلى أمور فاسدة، فالمنافق لا يدخل مدخل صدق، ولا يخرج مخرج صدق، وهكذا في الأمور التي يدخل فيها الإنسان من الأعمال والمشاريع، قد يدخل فيها بنية غير ثابتة، ولا يقوم بالعمل على الوجه المطلوب.

هذه الدقة عند ابن القيم -رحمه الله- مع أن الذين رجحوه ما قالوا بأنه على سبيل التمثيل، فابن جرير -رحمه الله- احتج لهذا القول -المدينة ومكة-، بما قبله **{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}**، حتى في الحجة، **{وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}** قال: الغلبة والقهر، قال: لأن هذا يُحتاج إليه؛ لأنه قال قبله: **{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}** فدفْعُهم يحتاج إلى قوة وتمكن وغلبة، فهم رجحوا هذا القول بعينه ولم يحملوه على التمثيل، لكن ابن القيم -رحمه الله- وجه ما ورد عن بعض السلف وحمله على هذا فقال: هذا يقصد به التمثيل، وإلا فالمعنى أعم من هذا بكثير.

وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن عليه -صلى الله عليه وسلم- من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم -عليه السلام- وذريته من الأنبياء والرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [سورة مريم: (٥٠)] **والمراد باللسان ههنا الثناء الحسن، فلما كان الصدق باللسان -وهو محله- أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقاً، وعبر به عنه، فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة، كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ}** [سورة إبراهيم: (٤)] **وقوله: {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}** [سورة الروم: (٢٢)] **وقوله: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}** [سورة النحل: (١٠٣)] **ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}** [سورة القيامة: (١٦)]**، وأما قدم الصدق ففسر بالجنة، وفسر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وفسر بالأعمال الصالحة، وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.**

---

[1] - التفسير القيم لابن القيم: (٢/٢٣)، ومدارج السالكين: (٢/٢٧١).

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم، فالثلاثة قدم صدق.

هذا ربط بين المعاني الثلاثة، العمل الذي هو السبب، والجزاء، والواسطة التي يُتوصل بها، أو الوسيلة التي يُعرف بها محابُّ الله -عز وجل-، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب -تبارك وتعالى- ووصْفُ ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق، ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل. انتهى.

المقصود أن هذه الجملة تحمل على أعم المعاني، وذلك لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يدعو به الإنسان في أحواله كلها، في كل ما يأتي ويذر، يعني حينما يدخل مكان العبادة -المسجد الحرام مثلاً-، يدخل لماذا؟ من الناس من يدخل للفرجة، ومن الناس من يدخل للرياء، ومن الناس من يدخل للعبادة، ومنهم من يدخل لينظر إلى النساء، ويزاحمهن في الطواف، أو يتفرج على الناس وهم يطوفون، مثلاً، والآخر حين يدخل السوق، لماذا يدخل؟ بعضهم يدخل مدخل صدق، وبعضهم يدخل مدخل فجور، والذي يفتح متجراً لماذا يدخل فيه؟ من الناس من يفتح متجراً في سوق النساء ويصرح لأصحابه بأنه لم يفتح لحاجة، ولا من أجل التجارة، وإنما فخ يصطاد به النساء فقط، هذا مدخل فجور، وقل مثل ذلك في الدراسة التي يدرسها الإنسان، لماذا يدرس؟ أحد الأشخاص دخل تخصصاً ويصرح لبعض أصحابه أنه دخل هذا من أجل أن يكون له منعة لأمر ما، فجر بامرأة وحصل اتفاق مبدئي على أنه يتزوجها، فدخل في تخصص معين؛ ليكون له منعة فلا يستطيعون إلزامه بهذا، والطب بعض الناس يدخل فيه من أجْلِ مواساة الناس والمسح على آلامهم وهذا من أجلِّ الأشياء، فأصحاب المعاناة لا يشعر أحد بمشاعرهم إلا من جرب وعانى، فالطبيب يمسح على هذه الآلام، وهو من أشرف الأعمال ومن أجلِّها وأعظمها، ومما يقرب إلى الله -عز وجل-، وبعض الناس قد يدخل؛ من أجل أن يرى العورات، ويلمس النساء بطريقة حريرية مقبولة عند الجميع، لا غبار عليها عند كثير من الناس، ولا إشكال، مهذبة، لا سيما إذا تخصص في عورات النساء، الولادة ونحو ذلك، فهذا ساقط المروءة، لا تقبل شهادته، وليس له عدالة، فرجل يدخل في هذا التخصص! ليس بمدخل صدق، وبعض الناس يدخل يقول: أنا أريد مكانة اجتماعية عند الناس، فهذا ليس بمدخل صدق، وهكذا العلوم الشرعية، فأجلُّ العلم هو العلم الشرعي ومع ذلك بعض الناس يدخل فيه ليقال: عالم، أو يقال: طالب علم، فهذا ليس بمدخل صدق، وهكذا الدخول في القنوات، وإلقاء الخطب والمحاضرات، ومصاحبة الأخيار، والعمل في المشاريع الدعوية وغير هذا، قد يكون مدخل صدق وقد لا يكون مدخل صدق، فبعض الناس قد يقيم أعمالا، أو يدخل في مشاريع، ويقصد جمع الأموال لنفسه، فتحصل له ثروة، والواسطة هي العمل الخيري، فليس بمدخل صدق، فهذا يدعو به الإنسان دائماً.

وقوله: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} الآية، تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي

اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}.[سورة الأنبياء: (١٨)].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: دخل النبي -صلي الله عليه وسلم- مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [سورة الإسراء: (٨١)]، {جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سورة سبأ: (٤٩)].

{وَقُلْ جَاء الْحَقُّ} إذا نظرت إلى أقوال السلف -رحمهم الله- فمنهم من يقول: جاء الإسلام، ومنهم من يقول: جاء القرآن، ومنهم من يقول غير هذا، وهذا من قبيل اختلاف التنوع، وليس من قبيل اختلاف التضاد، {جَاء الْحَقُّ}، هذه الكلمة كل ما يدخل تحتها فهو مضمَّن في هذا المعنى، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **هو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع**، فالأقوال التي قالها السلف جميعاً داخلة فيه.

{وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} زهق يعني ذهب واضمحل، تقول: زهقت نفسه.

{إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} هذا من شأنه، أنه زهوق يعني مضمحل، {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ} [سورة الرعد: (١٧)]، فالأباطيل لا بقاء لها، قد تشغل طائفة من الناس مدة من الزمان، ولكنها ما تلبث أن تذهب وتضمحل، ويبقى الحق ثابتاً راسخاً لا يتزعزع، وهذا في كل شيء، فالباطل ضعيف خفيف ليس له جذور، وابن جرير -رحمه الله- أيضاً حمل قوله: {جَاء الْحَقُّ} على العموم، فكل ما قاله السلف فهو داخل فيه، {وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} الكفر والشرك بالله -عز وجل-، ويدخل فيه المعاصي، ومحادّة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكله من الباطل، وكل ما خالف أمر الله فهو باطل، من الكفر وما تفرع من شجرته، فإن ذلك زائل، وكل ما أغرى بالباطل فهو كذلك، من ألوان الدعاية الداخلة تحت قوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} [سورة الإسراء: (٦٤)]، كالقنوات الفاسدة، والمجلات الفاسدة، والكتابات الفاسدة، تذهب وتضمحل، ويبقى الحق، كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

واللهِ لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدمتْ منه قوى الأركان

لكثرة ما أجلب على الإسلام، وكثرة ما جرى من المحاولات بتبديل دين الله -عز وجل-، ولكن ذهبت وتلاشت، وهكذا كل ما يجري في هذا الزمان وفي غيره من محاولات لتبديل دين الله -عز وجل- وإطفاء نوره فإنه سيذهب ويضمحل {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [سورة الأنفال: (٣٦)]، هذه النهاية، وكل هذا يزول ويذهب، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً} [سورة الإسراء:٨٢].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد-: إنه شفاء ورحمة للمؤمنين: أي يُذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاءً في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بُعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}[سورة فصلت:٤٤]**، وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}**[سورة التوبة: ١٢٤-١٢٥]**، والآيات في ذلك كثيرة، قال قتادة في قوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، {وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} "مِن" هنا ليست للتبعيض، وإنما هي لابتداء الغاية، أو لبيان الجنس، وكما لا يخفى فإن المعنى يختلف تماماً، فإذا قلنا: إنها تبعيضية فيكون بعض القرآن شفاء وليس كل القرآن، وإذا قلنا: إنها لابتداء الغاية أو لبيان الجنس فإن جميع القرآن شفاء، وهذا هو الصحيح، وهذا الشفاء يدخل فيه المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو أنه شفاء لأمراض القلوب من الشبهات والشكوك، فيجلي ذلك، ويذهبه، فلا يبقى شيء منها مع أنوار القرآن، فالله بين فيه الحقائق كما بين فيه الحلال والحرام، ولم يعد للتخرُّصات والأوهام محل في صدور أهل الإيمان، بخلاف ما كان الناس عليه في الجاهلية، حيث يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فجاءهم هذا الفرقان الذي يفرق الله فيه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ويدخل فيه النوع الآخر أيضاً من الشفاء وهو شفاء الأبدان، مما ألمّ بها من العلل، والأوصاب، وهذا أمر لا شك فيه، وآثاره ظاهرة، ويتفاوت الناس في هذين الشفاءين، القرآن من حيث هو شفاء، ولم يقل الله -عز وجل-: إنه دواء؛ لأن الدواء قد يتخلف معه البرء وقد لا يناسب

بعض الناس، فيحصل بسببه الداء، وأما الشفاء فهو نتيجة مباشرة ذكرها الله -عز وجل-، وشفاء القلوب، وشفاء الأبدان، يتفاوت الناس فيه؛ بحسب تقبلهم له، وما يكون عند الإنسان من اليقين، فالذي ينظر إلى القرآن باعتبار أنه كتاب يتلى للتقرب والتعبد بحروفه وكلماته ونحو ذلك فحسب، لكنه لا يفهم معانيه كالأعجمي فمثل هذا لا تذهب وساوسه وأوهامه وشبهاته بهذا القرآن؛ ولهذا يتفاوت الناس بحسب ما عندهم من اليقين والمعرفة بمعاني هذا القرآن، وهكذا فيما يتصل بشفاء الأبدان، فإن ذلك يتفاوت أيضاً بحسب المحل القابل، فالذي يرقى بالقرآن مثلاً، وهو يعتقد أن هذه أشياء لا أثر لها، وأن ذلك لا جدوى له، أو أنه يفعل ذلك على سبيل التجربة، فمثل هذا لا شك أن أثر هذه الرقية سيكون ضعيفاً غاية الضعف، وما ذكره الله -عز وجل- من أثر هذا القرآن على الذين لا يؤمنون به، فهو كما قال الله -عز وجل-، كما أنه شفاء للمؤمنين كذلك بالنسبة لغير المؤمنين يكون عليهم عمى، -نسأل الله العافية-، ولهذا فإن ما أنزله الله -عز وجل- من الهدى والحق كما أن النفوس الطيبة تنتفع به غاية الانتفاع، كذلك النفوس الرديئة لا يزيدها إلا رجساً وارتكاساً في ضلالها وعمايتها، {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}، وهكذا ما يتفرع من ذلك من العلم النافع، فإن من الناس من قد يتعلم العلم ولا يزيده ذلك إلا تيهاً وكبراً وتعالياً وتعاظماً على الناس وغروراً مع ما يحصل له من الجفاء وقسوة القلب، -نسأل الله العافية-؛ ولهذا كان من أسباب إعراض الصوفية عن العلوم الشرعية كما ذكر الغزالي في كتابة "بداية الهداية" أن العلم لربما يحمل صاحبه على الغرور والكبر والتعاظم والتعالي على الخلق، ومعلوم أن العلم لا يحمل على هذا، لكن قد يوجد في محل لم يروض بطاعة الله -عز وجل- ظاهراً وباطناً، فمن أخذ العلم بغير الطريق الصحيح فإنه قد يضل ويزل، قد يتعلم الإنسان العلوم الشرعية ويكون ذلك سبباً لمزيد من الحيل والبحث عن المخارج والتبريرات، ويعلل لنفسه ويزين لها أفعالاً يتحرز منها العامة، فهو يخرّج كل هذه التصرفات والانحرافات بتخريجات فقهية، وإذا عرف من خلاف العلماء أشياء فإن ذلك يكون بالنسبة إليه مبرراً للأخذ بما يهوى من الأقوال، وهذا يوجد، فكلما ازداد تعلماً ازداد انحرافاً، ومثل هؤلاء إن لم يصلح حاله وقلبه فلربما الأفضل له أن يبقى على جهله، ولا يعرف من كلام العلماء في المسائل ما يكون سبباً لانحرافه.

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسّهُ الشّرّ كَانَ يَئُوساً * قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ فَرَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىَ سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٨٣].

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتَي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} قال مجاهد: بعُدَ عنا، قلت: وهذا كقوله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} [سورة يونس:١٢]، **وقوله: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ}** [سورة الإسراء:٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر -وهو المصائب والحوادث والنوائب- {كَانَ يَئُوساً} أي: قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة هود:٩-١١].

قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، الإعراض هو أن يولي غيره عرض وجهه، بمعنى الإشاحة، والنأي بالجانب يعني أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، وهذا هو الفرق بين العبارتين، والجملة الثانية أدل على الكبر والتعاظم، فكما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧]، والإنسان هنا يراد به جنس الإنسان، هكذا طبيعته، كما أنه يميل إلى الأمور التي توافق هواه، قد رُكب فيه الهوى، كذلك هو يتأثر بما يلاقيه من الأمور المحبوبة ومن الأمور المكروهة، فإذا لقي الأمور المحبوبة التي يحبها وحصل له الغنى تعاظم وطغى، وإذا حصلت له المكاره انكسر ويئس وأظلمت الدنيا في عينه، ورأى أن هذا هو نهاية المطاف، فحصل له القنوط، هذا من حيث جنس الإنسان، وليس كل أحد؛ لأن النفس قابلة للتهذيب والترويض والتربية فيتغير حاله تماماً، وقد ترى من هذا أشياء في الحياة عجيبة، إنسان يصيبه البلاء فيكون في غاية القنوط، ثم بعد ذلك يُبصَّر ببعض الأمور فيتحول هذا البلاء بالنسبة إليه إلى نعمة يفرح بها ويلتذ، فالإنسان إذا روض وهذب وبُصِّر فإنه تتغير حاله، لا ينكسر أمام الشدائد ولا ييأس ولا يقنط، وإذا أصابه الغنى، وبُصِّر بحقيقة الدنيا، وبعظم المعبود -جل جلاله-، وأنه هو المنعم المتفضل، وبضعف الإنسان، فإنه لا يحصل له الطغيان، فيكون مخبتاً مع الغنى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} أي: يقنط، وهذا لا ينافي قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [سورة فصلت:٥١]، إذا أصابه شدة، فيمكن أن يقال: إن هذا يقع لبعض الناس، وهذا يقع لبعضهم، أو يجمع بين الأمرين فيقال: إنه يدعو بهذا الدعاء العريض مع ما ينتابه من مشاعر اليأس والقنوط، فيعتقد أنه لا يمكن أن يربح بعد خسارته، أو أن يبرأ بعد علته ونحو ذلك، والله المستعان.

وقوله تعالى: {كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية -والله أعلم- تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} الآية، ولهذا قال: {يَئُوساً قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا يخفى عليه خافية.

قوله تعالى: {قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} هذه اللفظة "الشاكلة" مأخوذة من الشكل، تقول: لست على شكلي، لست على شاكلتي، ويقال: وما كان على هذه الشاكلة، يعني على هذا الشكل، نظير ذلك، من الأمور التي تشابهه، فالشكل هو النظير والشبيه والمثيل، والمعنى أن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها، وهذا في كل الأشياء، فالمعاني التي ذكرها السلف هنا: على ناحيته، على طبيعته، على نيته، على دينه، وهكذا قول من قال: على طريقته، كل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وعباراتهم متقاربة، {كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} على طريقته، على ما يشاكل طبعه وهواه، وما تميل إليه نفسه، سواء كان ذلك في باب الأعمال بالجوارح، فهذا يجدّ في معصية الله -عز وجل-، وهذا يشغل سمعه بسماع المعازف، وهذا يشغل سمعه بسماع القرآن، وهذا يشغل لسانه بالغيبة والنميمة، وهذا يشغل لسانه بذكر الله -تبارك وتعالى-، وهذا يشغل بصره بالصور المحرمة، وهذا يشغل نظره بالنظر إلى آيات الله -عز وجل- المتلوة والمشهودة، وكذلك في

باب الخلطة والمصاحبة، هذا يخالط الأشرار ويميل إليهم، وهذا يخالط الأخيار والصالحين، هذا يخالط أهل الدنيا والجِدة والثراء، ويحب مجالستهم ومخالطتهم، والآخر يحب مجالس الذكر والعلم، من الناس من يضيق ذرعاً إذا حضر موعظة أو خطبة جمعة، أو كلمة لمدة سبع دقائق، وآخر لا يشبع من مجالس الذكر، فهي روضة بالنسبة إليه من رياض الجنة **{كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِه}**، والموفق من وفقه الله -تبارك وتعالى-، فقد ترى الرجل أحياناً ينشأ في بيئة طيبة وبيئة صالحة وبيئة علم ودعوة، ولا يميل إلى هذه الأشياء أبداً، وينفر منها غاية النفور، لكن يبحث عن شيء آخر إما مجالس التجار، وإما أصحاب اللهو، وإما يبحث عن الشِّعر النبطي، وإما يبحث عن الأكل والمطاعم، وأنواع الخلطات السرية، وآخر ليس له شغل إلا التجول في الأسواق، **{كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِه}**، في كل جانب من جوانب الحياة، وهكذا فيما يتعلق بالاعتقادات، فتجد أن اليهود يميلون إلى من يشاكلهم، والنصارى يميلون إلى من يشاكلهم، وأن المنافقين يميلون إلى من يشاكلهم، فينبغي للإنسان أن ينظر إلى أي شيء يميل قلبه، وهل يجد قلبه في مجالس الذكر أو أن قلبه يجذبه إلى مجالس الأشرار وأعمال الفجار، فيعرض الإنسان نفسه على كتاب الله -عز وجل-.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: **{قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِه}**.

في تصديره الباب بهذه الآية دلالة على عظم قدره وجلالة محلّه من هذا العلم، فإن معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحب الصور عامل على ما يناسبه ويليق به، فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، فالمريد الصادق المحب لله يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به والأنسب لها"[١].

وقال -رحمه الله- تعالى: "النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: **{قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِه}** أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم، ومحبته، والثناء عليه، والتودد إليه، والحياء منه، والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله"[٢].

وقال -رحمه الله-: "قال تعالى: **{قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِه}** أي: على ما يشاكله ويناسبه ويليق به كما يقول الناس: كل إناء بالذي فيه ينضح، فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين، ولو أن ملِكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقْطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح

---

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم (٣٧١/٢).

٢ - الفوائد، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٧٦-١٧٧).

والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا: لا يصلح للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟"[٣]

هذا المعنى يجده الإنسان في كل شيء، فالذي يفتح القنوات والإنترنت مثلاً أين يذهب؟، قل له: {كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ}، هذا يبحث عن مواضع في العلم الشرعي، وهذا يبحث عن مواعظ، وهذا يبحث عن الخلاعة، وذاك يبحث عن الشبهات -نسأل الله العافية-، مواقع محادة لله -عز وجل- يبحث عنها ويقرأ فيها، ويجد نفسه هناك، فمثل هذه المعاني جديرة بأن الإنسان يقف عندها ويعرض نفسه وقلبه وعمله عليها، وهذا الأمر {قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ}، يراد به ليس الإباحة أو الوجوب، وإنما يفهم منه معنى التهديد، كقوله: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [سورة فصلت:٥].

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُم مّن الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٨٥].

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: بينا أنا أمشي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عَسِيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابُكم إليه؟.

قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} المتبادر إلى الذهن أن المقصود بالروح يعني التي تعمر الجسد، فالإنسان عبارة عن المجموع بين الجسد والروح، فإذا خرجت منه الروح يقال له: جثة، والروح وحدها لا يقال لها: إنسان، فإذا مازجت البدن فإن هذه الممازجة يكون منها ما يسمى بالنفس عند بعضهم، ويكون منها الإنسان، فمجموع الروح والبدن إنسان، والنفس يقال: إنها هي الروح، ومنهم من يقول: هي الروح إذا مازجت البدن حصل لها من هذه الممازجة ما تُكَوِّن به، والشاهد أن السؤال عن الروح يعني التي تعمر البدن، وبعض السلف يقول: السؤال عن جبريل، {قُلْ نَزّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ} [سورة النحل:١٠٢]، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} جبريل -عليه السلام-، وقيل: السؤال عن القرآن؛ لأن الله سماه روحاً أو وصفه بأنه روح، به حياة القلوب، وقيل: الروح ملك عظيم من الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [سورة النبأ:٣٨]، وقيل: الروح جبريل هنا، وقيل: هو ملك من الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ} فذكره من بينهم لعظمه، ويكون ذلك من قبيل عطف العام على الخاص -الروح والملائكة-، وابن القيم -رحمه الله- اختار هذا المعنى: أن الروح ملك من الملائكة، وهذا -والله أعلم- لا يخلو من إشكال وغرابة، والأولى أن تحمل ألفاظ القرآن على المتبادر الظاهر، وابن القيم -رحمه الله- يتساءل: يعني لماذا يسألونه عن الروح التي تعمر البدن وهي شيء لا يعرفونه، بل هو أمر غيبي؟، والناس في الكلام على الروح من الفلاسفة وغيرهم لهم كلام كثير، فبعض أهل العلم ذكر لهم ما يقرب من مائة وثمانية عشر قولاً في بيان حقيقة الروح، هذا الاختلاف الكثير بين هؤلاء؛ لأنها أمر خفي، لا ندركه بشيء، فلا يستطيع أحد أن يتكلم عن الروح ويبين حقيقة هذه الروح،

---

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام ابن القيم (١٧٧-١٧٨).

فالإنسان يتحرك والعين تتحرك، وينظر ويسمع وبمجرد ما تخرج هذه الروح فإذا هو لا فرق بينه وبين الخشبة والجدار، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يتحرك، ولا يمشي ولا يوجد عنده مشاعر، ولو قُطع قطعاً لم يشعر، وحينما كانت هذه الروح فيه لو لامسه أدنى شيء انتبه، فالمراد بالروح أنها التي في الجسد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [سورة الإسراء:٨٥] "مِن" هنا بيانية، وليست تبعيضية بطبيعة الحال، والأمر هنا يأتي لمعنيين، الأمر بمعنى الطلب، ويخصه أكثر الأصوليين بما كان من أعلى إلى أدنى، طلب الفعل، هذا أمر، وما كان من مساوٍ يسمونه التماساً، وما كان من أدنى إلى أعلى يسمونه دعاء، تأدباً، فهذا المعنى الأول للأمر، والمعنى الثاني للأمر هو الشأن، تقول: ما أمر فلان؟، يعني ما شأنه؟، فهنا {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} يعني: المراد به الشأن هنا، شأن ربي، والإضافة للاختصاص، من أمر ربي، أي أن ذلك اختص الله -تبارك وتعالى- بعلمه فلا يعلمه أحد، فهي أمر غيبي، الله -تبارك وتعالى- هو الذي خلقها وهو الذي يعلمها، لذلك من عيوب الطب الحديث أنه يركز على البدن فقط، يعالج الأبدان، مع أن ارتباط الأبدان بالأرواح ارتباط وثيق جداً، والأرواح تتأثر بما يحصل للأبدان كما أن الأبدان تتأثر بما يحصل للنفس والروح، قد يحصل للإنسان هم وغم فيمرض بدنه، وقد يحصل أشياء من السحر أو التلبس فيمرض البدن، وقد يموت، فالنفس يحصل لها إيلام، فلو ضرب إنسان نفسه يحصل لها إيلام، لو قيلت له كلمات جارحة تتألم النفس لكن البدن لا يتألم، لكن أحياناً لشدة ألم النفس يؤثر على البدن، قد يشعر بحرارة، وقد يرتفع الضغط، وقد يرتفع السكر، ولهذا يذكرون أن الطب الحديث أُخذ من بيئة غربية علمانية مادية، فتركز على جانب البدن فقط، فحصل النقص بسبب ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٨٥].

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: بينا أنا أمشي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عَسِيب، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكُم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: (({وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي}))[1] الآية، وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية.

وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الروح، فأنزل الله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً} [سورة البقرة:٢٦٩]، قال: فنزلت: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} [سورة لقمان:٢٧] الآية، قال: ((ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل))[2].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} الآية: وذلك أن اليهود قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟، ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يُحِر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: {قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُم مّن الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً}، فأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: ((جاءني به جبريل من عند الله)) فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [سورة البقرة:٩٧][3].

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [سورة الإسراء:٨٥]، برقم (٤٤٤٤)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح وقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}، برقم (٢٧٩٤).

٢ - رواه الإمام الطبري في تفسيره(٥٤٢/١٧).

٣ - رواه الإمام الطبري في تفسيره(٥٤٣/١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الروايات التي أوردها المصنف -رحمه الله- في سبب نزول هذه الآية كلها تدل على أن هذه الآية نزلت بسبب سؤال اليهود، وإنما كان ذلك بالمدينة، والرواية الأولى في صحيح البخاري، وجاء في بعض روايات هذا الحديث أنه قال: فرفع رأسه فعلمت أنه يوحى إليه، وهذه الرواية سواء بهذا اللفظ أو اللفظ الذي أورده المصنف -رحمه الله- ليست بصريحة في أن ذلك هو سبب النزول، فقد يكون سكت ورفع رأسه ينتظر نزول الوحي فلم ينزل عليه شيء بخصوصه فيما يتعلق بهذا الموضوع، فذكر لهم الآية التي نزلت عليه بمكة، فقال: (({وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي})), فابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: علمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: {وَيَسْأَلُونَكَ}، يحتمل أن الملك نزل إليه وأمره أن يقرأ عليهم آية الإسراء، فالله تعالى أعلم، والروايات الأخرى التي أوردها ابن جرير عن عكرمة: سأل أهل الكتاب، وهي رواية مرسلة، والمرسل من أقسام الضعيف، والرواية الأخرى أيضاً من طريق العوفي عن ابن عباس ضعيفة، وإن كان اليهود هم الذين سألوا، فرواية البخاري تشهد له، وكذلك أيضاً قول اليهود: من صاحبك؟ يسألونه، فلما ذكر جبريل قالوا: ذاك عدونا، هذا صح في غير هذه الرواية، فيكون ذلك شاهداً له، وأيضاً ثبت في أسباب النزول أنها نزلت بسبب سؤال المشركين بمكة، ولكن ذلك ليس في الصحيحين -أن المشركين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح-، وهذا موافق لكون السورة مكية، فمن أهل العلم في مثل هذا من يعمد إلى الترجيح، والترجيح له طرق كثيرة، فيمكن أن يرجح الرواية التي دلت على أن ذلك قد نزل بسبب سؤال المشركين بمكة باعتبار أن السورة مكية، هذا وجه، ويمكن أن ترجح الرواية الدالة على أنها في المدينة، حديث ابن مسعود لكونه أقوى من جهة الثبوت والصحة، وكذلك أيضاً لكون ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- راوي الحديث حاضر القصة، يقول: بينا أنا أمشي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عسيب، فمن شهد هذا مُرجَّحٌ على غيره، وقد يقال وهو الأحسن -والله تعالى أعلم-: إن الآية نزلت بمكة بسبب سؤال المشركين، ولا يمنع ذلك من أن تنزل ثانية بالمدينة، فإن من القرآن ما يتكرر نزوله، ومما يُقطع به في هذا أن الأحرف السبعة نزلت الأحرف الستة منها في المدينة، ولم ينزل شيء منها في مكة، وإنما كان ينزل على حرف قريش، ولما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلت عليه باقي الأحرف، وهذه الأحرف لا تختص بالسور النازلة في المدينة قطعاً، وإنما هي أيضاً في السور المكية، ومعنى ذلك أن تلك الآيات والسور أو الأوجه الأخرى من القراءة نزلت في المدينة، ليس كل السورة ولكن الآيات التي فيها أوجه أخرى من القراءة نزلت في المدينة، يعني سورة الفاتحة مكية، فـ{مَلِك يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤]، و{مالك يَوْمِ الدِّينِ}، أحد القراءتين نازلة في المدينة، فهذا مثال واضح لا ينازع فيه، يبقى الكلام في مثل هذا في أسباب النزول، قال بعض أهل العلم: إن تكرار النزول خلاف الأصل، والفائدة من تكرار النزول كما يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله- بأن الآية قد تنزل ثانية تذكيراً بالحكم وتأكيداً له، وأن حكم هذه الواقعة هو حكم ما سبق، ويوجد لهذا نظائر كثيرة وإن كانت لا تخلو من ضعف بمفردها، لكن مجموعها يحصل به قوة، ويعضد بعضها بعضاً فيما يتعلق بسبب النزول كقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ

مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [سورة النحل:١٢٦]، قيل بأنها نزلت بعد أحد، لما قتل من قتل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ومثل بحمزة -رضي الله تعالى عنه-، وصح أيضاً أنها نزلت عام الفتح، فيمكن أن تكون الآية نزلت مرتين، ولما قال المشركون للنبي -صلى الله عليه وسلم- صف لنا ربك فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص:١]، وسأله اليهود أيضاً فنزلت هذه السورة، وذلك غير ممتنع -والله تعالى أعلم-، فمثل هذا أحسن من الترجيح؛ لأن الترجيح إهدار لبعض هذه الروايات الصحيحة، لكن إذا تعددت هذه المرويات وعلمنا تقارب الزمان فيمكن أن نقول بأن الآية نزلت بعد هذه الأحداث جميعاً، مثل آية اللعان، لما جاء عويمر العجلاني ورمى امرأته وقذفها بالزنا فنزلت آية اللعان وكذلك أيضاً لما جاء هلال بن أمية -رضي الله تعالى عنه- وقذف امرأته بالزنا فيمكن أن يقال: إن هذه الحوادث وقعت متقاربة، وهكذا صدر سورة التحريم {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [سورة التحريم:١]، يمكن أن يقال -والله أعلم-: إن هذه الروايات في الصحيحين وفي غيرهما أن ذلك نزل بسبب شربه -صلى الله عليه وسلم- العسل عند بعض نسائه، وصح أيضاً أنه نزل بسبب الجارية لما وقع عليها، فلابد من القول -إذا أردنا أن نجمع بين القولين- بأن ذلك وقع في زمان متقارب؛ لأن ذلك لا يمكن أن يقال: إنه تكرر فيها النزول؛ لأن ذلك لا يمكن أن يقع، ومثل ذلك قصة هلال بن أمية -"اللعان"-، والسبب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يقول لمن جاءه يقذف امرأته بالزنا وقد نزل عليه فيه اللعان، أن يقول له: ((البينة أو حد في ظهرك))[٤]، وإنما سيرشده إلى الملاعنة، -والله تعالى أعلم-.

ورواية العوفي عن ابن عباس لو صحت فهي صريحة في أنهم سألوا عن الروح التي تعمر الجسد، وليس كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بأنه ملك من الملائكة، مع أن ابن القيم -رحمه الله- عزا ذلك إلى المفسرين من السلف، والسلف لم يتفقوا على هذا المعنى، بل تفرقت أقوالهم فيه كما تقدم -والله أعلم-.

ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها ماءً صار ماءً مُصْطاراً أو خمراً، ولا يقال له "ماء" حينئذ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس "روح" إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح "نفس" إلا باعتبار ما تئول إليه، فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه، لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

الروح أمر غيبي، ويكفي أن نقول بأنها هي التي تعمر الجسد، أما ماهيتها فذلك مما اختص الله -تبارك وتعالى- به، والكلام الذي أورده ابن كثير -رحمه الله- هنا يتعلق بالفرق بين النفس والروح، حاصله أن الروح هي أصل النفس، ولكن ذلك يكون بعد ملابسة الروح للجسد، فإذا اتصلت بالجسد قيل لها: نفس، وأما بمفردها فلا يقال لها: نفس، وهو كلام له حظ من النظر، لكن القطع بهذا لا شك أنه يتوقف على معرفة حقيقة الروح، فمن الناس من يقول: النفس هي الروح، ومنهم من يفرق بينهما، فهذا من الفروق التي لها حظ من النظر، والعلم عند الله -عز وجل-، فروح الإنسان إذا خرجت وهي منفردة عن الجسد يقال لها روح، ولا يقال لها نفس إلا إذا كانت متصلة بالجسد، فإذا انفكت منه قيل لها: روح، ومجموع الروح والجسد يقال له: إنسان، والجسد بلا روح يقال له: جثمان، ولا يقال: نفخ الملَك فيه النفْس، وإنما يقال: نفخ الملك فيه الروح، -والله أعلم-.

{وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاّ رَحْمَةً مّن رّبّكَ إِنّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً * قُل لّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنّ عَلَىَ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً * وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلّ مَثَلٍ فَأَبَىَ أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً} [سورة الإسراء:٨٦-٨٩].

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: يطرق الناسَ ريحٌ حمراء -يعني في آخر الزمان- من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية.

صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يسرى على القرآن في ليلة وذلك في آخر الزمان، فالآية التي ذكرها الله -عز وجل- هنا ليس المقصود بها آخر الزمان، وإنما يقول الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر، فالذي أنزله عليك قادر على رفعه ومحوه ثم لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد أن ذهبنا به، {ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً} يتوكل برده بعد رفعه، فالله -تبارك وتعالى- على كل شيء قدير.

وقوله: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاّ رَحْمَةً مّن رّبّكَ}، يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويحتمل أن يكون الاستثناء منفصلاً منقطعاً، فإذا كان الاستثناء متصلاً فالمعنى إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به، وإذا كان منقطعاً يكون بمعنى لكن، فيكون المعنى لكن لا يشاء ذلك؛ رحمة من ربك، أي لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، والفرق بين المعنيين واضح.

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له؟!.

وقوله: {وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ} الآية، أي بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا {فَأَبَىَ أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً} أي: جحوداً للحق ورداً للصواب.

{وَقَالُواْ لَن نّؤْمِنَ لَكَ حَتّىَ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ مّن نّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الأنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىَ فِي السّمَاءِ وَلَن نّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ حَتّىَ تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبّي هَلْ كُنتُ إَلاّ بَشَراً رّسُولاً} [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

روى ابن جرير عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار.

قوله: عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر، الشيخ من أهل مصر تبيّنه بعض الروايات الأخرى وهو محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول.

وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنَتُهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رَئِيّاً تراه قد غلب عليك- وكانوا يسمون التابع من الجن الرَّئِيَّ- فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإنْ تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم))[٥]، أو كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليماً-، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً

---

٥ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/٥٥٦).

كما تقول، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)) قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم))، قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك))، فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب؟، فيتقدم إليك ويعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يُعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نَهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك، قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فو الله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وانصرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٦].

هذه الرواية ضعيفة، وقد يتساهل بها في السيرة، ولكن عند الكلام على أسباب النزول لابد من تطبيق شروط المحدِّثين.

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأُجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً له، فقيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة؟ فقال: ((بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة))[٧]، وهذا قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}[سورة الإسراء:٥٩]،

---

٦ - رواه ابن جرير في تفسيره (٥٥٦/١٧).

٧ - رواه أحمد في المسند (٦٠/٤)، برقم (٢١٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٧٥١٠)، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٨٨).

وقال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً} [سورة الفرقان:٧-١١].

فائدة:

لا يوجد ما يدل على أن الإنسان إذا جاء في الآخرة أنه ينسى ما علم، والله -عز وجل- يقول: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[سورة المجادلة:١١]، فهذا تفاوت بين مراتب أهل الإيمان، فأعلاهم في المراتب هم أهل العلم، ورأسُهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- يُبعث متقدماً على العلماء بِرَتْوة[٨]، قيل: يعني موضع رمية، وقيل غير ذلك.

والعلم الذي يرتفع به الإنسان في الآخرة هو العلم بالله -عز وجل- ودينه وشرعه، ودار جزائه، هذا هو العلم، وكل ما ورد في فضل العلم فهو محمول على هذا، ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً))[٩] إلى آخره، ولا يزهد الناس بالعلوم النافعة، فإن هذا يؤجر الإنسان عليه إذا كان له فيه نية، والناس أيضاً يتفاضلون فيه، فأشرف هذه العلوم بعد العلم الشرعي هو علم طب الأبدان، فهو علم شريف، ثم بعد ذلك تأتي العلوم الأخرى بحسب الحاجة إليها.

---

٨ - رواه الحاكم في المستدرك برقم (٥١٧٠)، ورقم (٥١٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٨٨٠).

٩ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، برقم (٢٦٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا} [سورة الإسراء: (٩٢)] الآيات.

وقوله تعالى: {حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} [سورة الإسراء: (٩٠)] الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله، ولأجابهم إلى جميع ما سألوه وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} [سورة الأنعام: (١١١)] الآية.

وقوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ} أي: أنك وعدتنا أنّ يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي، وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفاً، أي: قطعاً، كقولهم: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء} [سورة الأنفال: (٣٢)] الآية، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الشعراء: (١٨٧)] فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الشعراء: (١٨٩)]، وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذُكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة: هو الذهب، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أو يكون لك بيت من ذهب، {أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء} أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك، {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه.

وقوله تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}: أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمْركم فيما سألتم إلى الله -عز وجل-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا}، {حَتَّى تَفْجُرَ} قرأه حمزة والكسائي وعاصم هكذا، وقرأه الباقون بالتشديد {حَتَّى تُفَجِّرَ}، وقوله {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً}، تسقط السماء كِسَفاً، هكذا بفتح السين، قرأه جماعة كنافع وابن عامر وعاصم، وهو جمع كِسْفة، والكِسْفة هي القطعة من الشيء، يعني تسقط علينا السماء قطعاً، يعني أنهم يطلبون العذاب، أن يسقط الله ذلك عليهم، وقرأه غير هؤلاء الثلاثة بالإسكان {كِسْفاً}، وبعضهم فسر هذه القراءة {كِسْفاً}: أي قطعة، وكأنهم طلبوا أن يسقط السماء عليهم طبقاً واحداً، يطبق عليهم السماء، أو يسقط عليهم قطعة من السماء، لكن ابن جرير -رحمه الله- فسر قراءة الإسكان بغير ذلك، باعتبار أنها جمع كِسْفة، كِسْفاً جمع كِسْفة، واعتبر ذلك من قبيل جمع الكثرة في العدد، بخلاف كِسَفاً، فالكِسَف عند ابن جرير -رحمه الله- للقليل ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكِسْف جمع الكثير كما تقول: تمر وتمرة، كِسْف وكِسْفة، ولذلك يختار هذه القراءة باعتبار أنها أدل على المعنى الذي قصدوه، وهو أنهم لم يطلبوا قطعاً محدودة من الثلاث إلى العشر تسقط عليهم من السماء، وإنما أرادوا أبلغ ما يكون من ذلك، وهذا يحصل بالكثرة، ومن فسر هذه القراءة {كِسْفاً} باعتبار أن الكِسْفة: هي القطعة من الشيء، بعضهم يقول كالزجّاج: من كسفت الشيء إذا غطيته، فسرها بهذا فكأنهم طلبوا أن السماء تقع عليهم فتغطيهم، يعني تسقط عليهم السماء طبقاً واحداً، وعلى كل حال هما قراءتان متواترتان، والله -عز وجل- يقول في الآية الأخرى: {إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة سبأ: (٩)] وهذا يشهد للقراءة الأولى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً}، قبيلاً: فسره بعضهم بالمعاينة، نعاينهم، يقابلوننا أو نقابلهم معاينةً، فطلبوا رؤية الله والملائكة ليشهدوا بصحة ما جاء به، وأن الله أرسله، وهذا اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم فسر هذا بالكفيل، ونحن لا زلنا نعبر بهذا، يقول الواحد: أنا قبيل فلان، أنا قبيله، فلان قبيل فلان، أي المتكفل أو الكفيل، وبعضهم فسره بالشهيد، أي شهداء يشهدون أنك قد أرسلت من قبل الله -تبارك وتعالى-، وتفسيره بالكفيل قال به طائفة من السلف، واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، هم لشدة مكابرتهم طلبوا أن يشهد على ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- اللهُ -جل جلاله- والملائكةُ، وهؤلاء الذين فسروه بالشهيد قولهم يتضمن القول الأول، طلبوا أن يحضر لهم ربهم -تبارك وتعالى- والملائكة ليروهم من أجل أن يشهدوا له، فلماذا يريدونهم أن يأتوا؟، هل لمجرد رؤيتهم فقط؟ بل من أجل أن يشهدوا، وهذا من شدة مكابرتهم وعنادهم، {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ} يعني: الذهب، {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [سورة الزخرف: (٣٣)] دُرُج، {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا} [سورة الزخرف: (٣٤-٣٥)] أي ذهباً، والقراءة التي ذكرها قراءة شاذة، ولكنها تفسر هذه القراءة المتواترة، فالزخرف يقال للذهب، كما أنه يقال للزينة، وذاك إطلاق عربي صحيح، فهو وإن فسره به

بعض المفسرين هنا، لكن الكفار لم يطلبوا أن يكون له بيت من زينة، وإنما طلبوا أن يكون هذا البيت من الذهب؛ تعجيزاً.

{أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} وقد فسرها بعض أهل العلم بأنهم قصدوا أن ينزّل على كل واحد منهم كتاباً، كما قال الله -عز وجل-: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً}[سورة المدثر: (٥٢)].

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء: (٩٤-٩٥)].

يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ}: أي أكثرهم، {أَن يُؤْمِنُواْ} ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [سورة يونس: (٢)]**، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}** [سورة التغابن: (٦)] **الآية. وقال فرعون وملؤه: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}** [سورة المؤمنون: (٤٧)]**، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}**[سورة إبراهيم: (١٠)] **والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه؛ لتمكّنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ}** [سورة آل عمران: (١٦٤)] **وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ}** [سورة التوبة: (١٢٨)] **وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}**[سورة البقرة: (١٥١-١٥٢)]**؛ ولهذا قال ههنا: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} أي كما أنتم فيها {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} أي من جنسهم، ولمّا كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.**

يقول الله -عز وجل-: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ}: يعني أن الناس قد ألفوهم واعتادوا على رؤيتهم، {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً}، ولكن لمّا كان الناس لا يألفون ذلك ولا يطيقونه؛ فإنهم لا يحتملون رؤية الملك على هيئته، كما أنهم لا يحتملون الأخذ والتلقي عنه مباشرة، فجبريل -عليه الصلاة والسلام- رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- على هيئته له ستمائة جناح على كرسي بين السماء والأرض قد سد ما بين الأفق، فالملائكة خلق هائل عظيم، لا يطيق البشر النظر إليهم ورؤيتهم، فكيف يطلب هؤلاء أن يأتي الملائكة ويأتي الله -جل جلاله- معهم؟!، فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، لمّا تجلى ربنا -جل جلاله- للجبل جعله دكّاء، وخرَّ موسى صعقاً، وهو موسى -عليه الصلاة والسلام-، لم يطق ذلك مع أنه ما رآه، والجبل لم يحتمل مع شدته وضخامته وصلابته فكيف بالبشر؟ والله -عز وجل- ذكر في سورة الأنعام: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}[سورة الأنعام: (٩)] لصار رجلاً من أجل أن يتمكنوا من الأخذ عنه، وإذا صار بهذه الهيئة وهذه المثابة فكيف يعرفون أنه ملك؟ سيجادلون ويكابرون أن هذا بشر

وليس بملك، فيقع عليهم اللبس، والآيات كثيرة في هذا المعنى، والمقصود أنهم كانوا يستبعدون غاية الاستبعاد أن يبعث الله أحداً من البشر؛ ليكون مبلغاً ورسولاً من قبَله، وهذه دعوى قالها قائلون قبلهم من الأمم، فما نفعهم ذلك ولا أجدى عنهم شيئاً، وأخبر الله -عز وجل- أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما هي سنته الجارية- بشرٌ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وجعل الله -عز وجل- لهم أزواجاً وذرية، وهذا هو مقتضى حكمته -تبارك وتعالى-؛ لأن الله -عز وجل- لو أرسل إليهم رسولاً من غير جنسهم وتمكنوا من الأخذ عنه، فإنهم قد يتذرعون بترك العمل والامتثال باعتبار أن هذا الرسول ليس من جنسهم، فهو يخاطبهم بأمور لا يطيقونها، ولا يحتملونها، فهو وإن قام بها وعملها وأطاقها، لكنه ليس من جنس البشر، فالبشر قد ركبت فيهم الشهوات، وفيهم من ألوان الضعف والعجز ما يقعدهم عن كثير من المقامات والأعمال الفاضلة، فسيعتذرون بمثل هذه الأعذار، لكن إذا جاء بشر يرونه ويعرفونه، ويصيبه ما يصيبهم من اللأواء والتعب والعنت والأذى، ويرون صبره وبذله وتحمّله في ذات الله -عز وجل-، ويخاطبهم بما يفهمون، ويرون عبادته وعمله، فهذا يكون محلاً للاقتداء.

{قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[سورة الإسراء: (٩٦)].

يقول تعالى مرشداً نبيه -صلى الله عليه وسلم- إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عليَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [سورة الحاقة: (٤٤-٤٦)]، **وقوله: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}: أي: عليماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة؛ ولهذا قال: {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}** [سورة الإسراء: (٩٧)].

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي: يهدونهم، كما قال: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}[سورة الكهف: (١٧)]، **وقوله: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} روى الإمام أحمد[1] عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: ((الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم)). وأخرجاه في الصحيحين[2].**

وقوله: {عُمْيًا}: أي لا يبصرون، {وَبُكْمًا}: يعني لا ينطقون، {وَصُمًّا}: لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجُوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، {مَّأْوَاهُمْ}: أي منقلبهم ومصيرهم {جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى

---

[1] - مسند أحمد بن حنبل: (١٦٧/٣) برقم: (١٢٧٣١).

[2] - صحيح البخاري: (١٧٨٤/٤) باب قوله: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا}: بـرقم: (٤٤٨٢).

عنهما-: سكنت، وقال مجاهد: طفئت، {زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: {فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [سورة النبأ: (٣٠)].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} هذا على ظاهره: أنهم يحشرون على وجوههم، الله -تبارك وتعالى- قال: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}[سورة القمر: (٤٨)]، فهذا في سحبهم في النار على الوجه؛ ليحصل لهم بذلك غاية الإهانة؛ لأن الله أخبر عن عذاب النار ووصفه بأوصاف: أنه أليم وشديد وعظيم ومهين، والإهانة: عذاب يقع على النفس، والألم يقع على البدن بالدرجة الأولى، كما يقع أيضاً على النفس، فهذا عذاب مهين، وهو عذاب أليم، فمن سوء صنوف الإهانة التي تحصل لهم في النار أن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنهم يسحبون في النار على وجوههم، والوجه هو أشرف ما يكون في الإنسان؛ ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضرب الوجه، وكذلك أيضاً لمّا رأى الدابة قد وُسمت على وجهها قال: ((لعن الله من فعل هذا))[٣]، حتى الدابة، فالمقصود أنهم يسحبون في النار على وجوههم، لكن الآية هنا في الحشر: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} ولهذا تفسيره هنا لا يكون بقوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} ليس هذا هو المقصود -والله أعلم-، وإنما المقصود في الحشر يحشرون على وجوههم، لا أنهم يسحبون على وجوههم، فهذا أمر لا غرابة فيه، وهو ممكن، ولو كان المقصود ذلك لما سأل عنه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- فإنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف يحشر الناس على وجوههم والإنسان يقف على قدميه؟، قال: ((الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم))، فمعنى ذلك أن الناس يقفون على قدمين، ويقف آخرون على الوجه، وفي أسوأ حال، أعمى وأبكم وأصم، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، وهو في غاية الأهوال والأوجال، وصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما عند الترمذي[٤] وغيره[٥] أنه قال: ((إنكم محشورون رجالاً وركباناً)) رجالاً: يعني على الأقدام، وأناس يحشرون في حال الركوب، ((رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم)) يمكن أن يكون هذا بمعنى الآية {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ} لكن ذاك في العذاب في النار وهنا قال: ((وتجرون على وجوهكم)) فيمكن أن يكون المراد به السحب على الوجوه، ولكن السحب على الوجوه أمر لا يستغرب، فقد يحصل لهم كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك هنا في قوله: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا}، لو كان المقصود مجرد السحب على الوجه فإن هذا أمر متصور، لا يحتاج إلى أن يسأل الناس عنه، ولو كان المقصود السحب لبينه لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجواب، ولكن بيَّن أن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم، فدل على أنهم يحشرون على هذه الهيئة والصفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {عُمْيًا}: **أي لا يبصرون**، {وَبُكْمًا}: **يعني لا ينطقون**، {وَصُمًّا}: **لا يسمعون**، إلى آخره، لا يفسر بأنهم عمي عن الحق -مثلاً- وبكم عن النطق به، لا ليس هذا المراد، وإنما عمي لا يبصرون، وهذا يشهد لقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: (١٢٤)]، وقد ذكرت

---

[٣] - مسند أحمد بن حنبل: (٣/٢٩٦) برقم: (١٤١٩٧).

[٤] - سنن الترمذي: (٤/٦١٦) برقم: (٢٤٢٤).

[٥] - مسند أحمد بن حنبل: (٥/٥) برقم: (٢٠٠٦٢).

الوجوه في تفسيرها، وأن من ذلك أنه من كان في هذه أعمى عن الحق فهو في الآخرة أشد عمىً، هذا إذا فسر بأفعل التفضيل، أو من كان أعمى عن الحق، والبراهين الدالة على أن الله خلق هذه الحياة وأجراها بهذه الهيئة، فهو عن أمر الآخرة والأمور الغيبية أشد عمىً، ولا يتوصل إلى معرفتها، والإيمان بها، ونحو ذلك، والمعنى الآخر: أن {أَعْمَى} ليس المقصود به أفعل التفضيل، أي من كان في هذه أعمى عن الحق وبراهينه ودلائله فهو في الآخرة أعمى، جزاءً وفاقاً، يحشر وهو لا يبصر، وهذا هو الراجح، ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} [سورة طه: (١٢٥)]، فهو لا يسأل لماذا حجبت عني براهين الحق، وإنما يقول: لماذا أخذت بصري، {وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} في الدنيا؟، {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: (١٢٦)]، فهنا يقول: {عُمْيًا}: **أي لا يبصرون**، {وَبُكْمًا}: **يعني لا ينطقون**، {وصماً}: **أي لا يسمعون**، وهنا يرد سؤال وهو أن هؤلاء يحشرون بهذه الصفة، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [سورة الفرقان: (١٣)] دعوا، تكلموا، ويقولون: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا} [سورة المؤمنون: (١٠٦)]؟ هذا الكلام الذي ينطقون به وما ذكره الله -عز وجل- بعضه واقع في النار، والكلام هنا في المحشر، ثم إن يوم القيامة يوم طويل، يمكن أن يكون في بعض الأوقات لا يسمعون ولا يبصرون، وفي بعض الأوقات يبصرون كما قال الله -عز وجل-: {يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} [سورة الشورى: (٤٥)]، وقال: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [سورة القلم: (٤٣)]، من شدة الهوان والمذلة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} خبت يعني خفَتَ وهجُها، وضَعُف لهبُها، زادهم الله -عز وجل- سعيراً، وهذا لا يعارض قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ} [سورة الزخرف: (٧٥)]، وإنما المقصود أنه لا يكون لهم نفس فيها، لا يكون هناك انقطاع في العذاب، وإنما يبقى عذابهم على أشد حالته، والنار تبقى مضطرمة مستعرة عليهم، كلما خفتت زيدت.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في كتابه "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب":

قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} الآية، هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم: (٣٨)]، **وكقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}** [سورة الكهف: (٥٣)]، **وكقوله: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا}**[سورة السجدة: (١٢)].

والجواب عن هذا من أوجه:

قوله: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، أي: ما أسمعهم وما أبصرهم.

الوجه الأول: هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ولا يسمعونه، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس

-رضي الله تعالى عنهما-، وروي أيضا عن الحسن كما ذكره الألوسي في تفسيره، فنزَّل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم؛ لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون: (١٠٨)] وقع بهم ذاك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج، قال تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} [سورة النمل: (٨٥)] وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً} [سورة الإسراء:٩٨- ٩٩].

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمي والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا {بِآيَاتِنَا} أي: بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: بالية نخرة، {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} أي: بعد ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧]**، وقال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}** [سورة الأحقاف:٣٣] **الآية، وقال: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [سورة يس:٨١-٨٢] **إلى آخر السورة، وقال ههنا: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم، وقوله: {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ}** [سورة هود:١٠٤]**، وقوله: {فَأَبَى الظَّالِمُونَ} أي: بعد قيام الحجة عليهم، {إَلاَّ كُفُوراً} إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً}**، يستدل على قدرته -تبارك وتعالى- على البعث بخلقه هذه الأجرام، والمخلوقات العظام التي هي أشد من خلق الناس، **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}**، وهذا أحد الطرق التي يستدل بها القرآن على تقرير أمر البعث، فتارة يحتج عليهم بالنشأة الأولى، وتارة بأمثلة مضروبة واقعة في أقوام أحياهم الله -عز وجل- بعدما ماتوا، كأولئك الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، وكالذي مر على قرية، وتارة يحتج عليهم بأن أخرج لهم من الشجر الأخضر ناراً، فصاروا يوقدون منه، إلى غير ذلك من طرق إثبات البعث، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ}** إن فُسر الأجل هنا بأنه الموت -كما قاله بعض السلف- فلا إشكال فيه؛ لأنهم لا يُمارون بالموت، يقرون أن الموت ملاقيهم، فيكون المعنى هكذا **{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**

{وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي: الموت، فتكون الواو عاطفة على ما قبلها، ولكن إذا فسر الأجل بيوم القيامة كما ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهم لا يؤمنون بالبعث، فالقول بأن الواو عاطفة على هذا المعنى فيه إشكال، على هذا المعنى يكون {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} يعني الرؤية هنا علمية وليس بالبصر، أولم يعلموا {أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} فهم لا يؤمنون أصلاً بالبعث، وبعض المفسرين يقول: إن الآية فيها تقديم وتأخير ويقدرها هكذا، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ}، {قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}، لكن الأصل في الكلام الترتيب، ولا حاجة لدعوى التقديم والتأخير إذا كانت الآية يمكن أن تفهم على وجه صحيح من غيره، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الواو استئنافية، وهذا قول لعله أجود هذه الأقوال: إن الواو للاستئناف وليست عاطفة، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} يحتج على قدرته على البعث وإعادتهم ثانية بالنشأة الأولى، ثم يخبر بعد ذلك أنه جعل لهم أجلاً لا ريب فيه، {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ}، وبهذا تنفك هذه الجملة وما تضمنته من المعنى عما قبلها فلا يكون ذلك داخلاً في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أولم يعلموا؛ لأنهم لا يعلمون هذا ولا يؤمنون به، إذا فسرناه بالقيامة، فهم ينكرون البعث أصلاً.

{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً} [سورة الإسراء:١٠٠].

يقول تعالى لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: أي الفقر، خشية أن تُذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: {وَكَانَ الإنسان قَتُوراً} **قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى:** {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً} [سورة النساء:٥٣] **أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى:** {إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [سورة المعارج:١٩-٢٢]**؛ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: ((يد الله ملأى لا يَغيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه))**[1].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} أي: خوف الإنفاق، يقول: قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر، وهذا ليس من قبيل التفسير بالمطابق، فإن قوله: {خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} ليس معناه الفقر، وإنما هذا تفسير له بلازمه أو نتيجته، فإنه خشية الإنفاق، لئلا يفتقر، والسلف يفسرون تارة بالمطابق وتارة بالتضمن، وتارة يفسرون الشيء بلازمه، أو بنتيجته، أو يفسرون على المعنى، يقال: هذا تفسير على المعنى، وليس بتفسير على اللفظ، فهذا من هذا القبيل، وليس بتفسير على اللفظ مباشرة، وإنما قال الله -عز وجل- مثلاً في النار التي في الدنيا إنه جعلها تذكرة، قال: {وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} [سورة الواقعة:٧٣]، فأصل هذه اللفظة أي النازلين في

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣)، واللفظ له.

الأرض القواء يعني القفر، يوقدون ويصطلون وما إلى ذلك، ولهذا فسرها بعضهم بالمسافرين، مع أن لفظة المُقْوين ليس معناها المسافرين، ولكن هؤلاء الذين في الأرض القواء، ويكون ذلك في أسفارهم وتنقلاتهم، فسره من فسره من السلف بهذا، وإلا فأصل المعنى هو النازل في أرض القواء، الأرض القفر التي ليس فيها أحد، الصحراء، فقوله: {لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} قال: أي الفقر، الله ما قال: خشية الفقر، قال: {خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} خشية الإنفاق؛ لئلا يفتقر، ولهذا يقول بعض المفسرين: إن قتل الأولاد كان خشية العار، مع أن الله قال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [سورة الإسراء:31] يعني الفقر، من أملق الرجل: لم يبق له إلا الملقات، وهي الحجارة الملساء، فهم إنما قتلوهم خشية الفقر لئلا يؤدي ذلك إلى أن تضطر البنت لبيع عرضها، فهذا يكون ثانياً، أي مما يترب عليه، وينتج عنه، فهكذا في قوله: {لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} قال: أي الفقر، يعني إذا أنفقوا أدى ذلك إلى الفقر، في تصورهم وزعمهم.

{وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا}، قتور صيغة مبالغة، يعني شديد التقتير، شديد الإمساك، والله يقول: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [سورة النساء:128]، {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن:16]، فأضاف الشح إلى النفوس لشدة تمكنه منها، وهو مختص، وكأنه يختص بها، ملاصق لها، لا تنفك عنه إلا بمجاهدات وترويض وتهذيب لهذه النفوس.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَفِرْعَونُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} [سورة الإسراء:101-104].

يخبر تعالى أنه بعث موسى -عليه السلام- بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي العصا، واليد، والسنين، والبحر والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والطمْسَة، والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

هذه الآيات التسع اختلف العلماء -رحمهم الله- فيها ولم يتفقوا على قول معين، وهذا القول الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال به كثير من المفسرين، العصا، واليد، والسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، إلا أنهم ذكروا بدلاً من البحر: نقص الثمرات، والمقصود بالبحر أن الله أمره أن يضرب بعصاه البحر فانفلق {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [سورة الشعراء:63]، {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [سورة طـه:77]، فقال: العصا واليد والسنين، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ} [سورة الأعراف:130] وهو القحط والجدب، والبحر والطوفان، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ} [سورة الأعراف:133]، ومن السلف كالحسن البصري -رحمه الله- من ذكر هذه الأشياء إلا أنه ذكر مكان السنين ونقص الثمرات: الجبل والبحر، والمقصود بالجبل ما ورد في قوله: {وَإِذْ

نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} [سورة الأعراف:١٧١]، رُفع الجبل فوق هؤلاء وصار كالسحابة لما عتوا عن أمر الله -عز وجل- وأبوا عن قبول ما جاء عنه، فكانوا في غاية المكابرة، يقولون: سمعناه يقول: كذا وكذا، ثم قال: إن شئتم فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا، فرفع فوقهم الجبل، فخروا سجداً من الخوف، ويقال: إنهم رفعوا عيناً إلى السماء وهم في حال السجود من الخوف، خشوا أن يقع الجبل عليهم، ولهذا يقال: إن سجدة اليهود، يسجد على عين ويرفع الأخرى، هذا هو أصل سجودهم حينما سجدوا لمّا رُفع الجبل عليهم، لشدة عتوهم، ويقول محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس التي في الأعراف والطمسة، والمقصود بالطمسة أو الطمس لما دعا موسى -عليه الصلاة والسلام- ربه فقال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [سورة يونس:٨٨]، هذا هو المراد، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

والآيات التي أعطاها الله لموسى كثيرة، ومن أبرز هذه الآيات: التسع التي أشار الله إليها.

{فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ} أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً} قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ}، وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، هذه الآيات في ظاهر السياق تدل على أن الآيات التي أراها الله -عز وجل- فرعون وقومه وكابروا وأبوا من الدخول في الإيمان فكانوا يقولون: { يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [سورة الأعراف:١٣٤-١٣٥]، الذي يظهر أن الآيات التسع هي الآيات التي وجهت إليهم، وأن الجبل حينما رُفع هو آية من الآيات التي أعطاها الله لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا ليس على سبيل المعجزة قصداً وابتداءً من أجل الدخول في الإيمان، ومن أجل أن يثبت لهم أنه نبي، وإنما حصل هذا بعد إهلاك فرعون، رفع الله فوقهم الجبل، فوق الإسرائيليين، والفراعنة ما رأوا هذا، ولم تكن تلك الآية مسوقة لهم؛ ولذلك أكثر المفسرين ما ذكروا الجبل، كذلك أيضاً البحر: جمهور المفسرين ما ذكروا البحر؛ لأنه لم يكن من الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام- لهؤلاء من أجل الدخول في الإيمان، وإنما كان في نهاية المطاف عند الغرق، حين انتهى كل شيء، فالله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، وفرعون حينما قال: إني لأظنك يا موسى، لم يكن له تعلق بالجبل الذي حصل بعد إنجاء موسى ومن معه، ولم يكن له تعلق بالبحر حيث انفلق ثم أغرق الله -عز وجل- الفراعنة، فتكون الآيات بهذا الاعتبار العصا واليد والسنين، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ} [سورة الأعراف:١٣٠]، ونقص الثمرات بدلاً

من البحر، والطوفان فاض عليهم النيل، {وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ} هذه الآيات، والله تعالى أعلم، فالآيات التسع ينبغي أن تحصر بما كان قبل إغراق فرعون مما ساقه لحملهم على الإيمان.

وقوله: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، إذا حُمل "مسحور" بمعنى مفعول على ظاهره يعني أنه قد وقع عليك السحر فأصابك بسبب ذلك شيء في عقلك ونظرك فادعيت هذه الدعوى أنك نبي مرسل من عند الله -عز وجل-، يكون "مسحور" كما قالوا أيضاً لأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}[سورة الشعراء:٢٧]، به جنون، يدعي أنه نبي وأنه رسول، وأن الله أرسله، فهو يقول كما قال الله -تبارك وتعالى- عن قول الأمم عامة حينما يأتيهم الأنبياء فإن قولهم بذلك متحد: {إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [سورة الذاريات:٥٢]، فقول: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} يمكن أن يكون المراد على ظاهره "مسحور" يعني باعتبار مفعول، أي أنه وقع عليك السحر، أصابك سحر فأصابك شيء من التخليط بسببه، ويحتمل أن يكون المراد مفعول بمعنى فاعل، تقول: هذا رجل مشئوم، يعني أنه ذو شؤم، وليس الشؤم وقع عليه، لكنه يكون منه، فمفعول تأتي بمعنى فاعل أحياناً في كلام العرب، فيكون "مسحور" بمعنى ساحر، {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} أي: ساحراً، وهذا تشهد له الآيات الأخرى {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ} [سورة الزخرف:٤٩]، مع أن بعض المفسرين تكلف فيه وقال: إنهم قصدوا بذلك يا أيها العالِم؛ لأن السحر عندهم بمنزلة رفيعة، فإذا أرادوا أن يمدحوا ذلك ونحو ذلك قالوا: يا أيها الساحر، وهذا خلاف الظاهر، ولا يجوز حمل القرآن على غير ظاهره إلا لدليل، لكن هم يعتقدون أنه ساحر، فقالوا ذلك، مثل الذين قالوا: صبأنا صبأنا، عندما أرادوا أن يدخلوا في الإسلام قالوا: صبأنا صبأنا، فهؤلاء يقولون: الساحر، ولما جاءهم موسى -عليه الصلاة والسلام- بالبينات قالوا: إنه ساحر، ولهذا طلبوا السحرة، {ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة يونس:٧٩] بكل سحار من أجل إبطال ما جاء به -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من باب مفعول بمعنى فاعل، وهذا الذي تشهد له الآيات الأخرى التي ذكر الله فيها قول فرعون في موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهكذا قال الملأ: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- كان ساحراً.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ} إلى قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} [سورة النمل:١٠-١٢].

قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} آيات يعني بيّنة، آيات: دلائل وحجج على صحة ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن منها نتوق الجبل ولا انفلاق البحر؛ لأن ذلك لم يكن من أجل الدخول في الإيمان، وإنما كان في نهاية المطاف.

فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبيّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها، وقد أوتي موسى -عليه السلام- آيات أخر كثيرة، منها ضربة الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام.

حينما كانوا يستسقون يحملون حجراً فيضربه موسى -صلى الله عليه وسلم- إذا احتاجوا إلى الماء، فينفجر من هذا الحجر اثنتا عشرة عيناً، على عدد أسباط قبائل بني إسرائيل، {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ} [سورة البقرة:٦٠]، فهذه آية، لكن لم تكن موجهة لفرعون وقومه، وإنما كان ذلك بعد إهلاكهم.

ومنها تظليلهم بالغمام.

هذا كان في التيه لما خرجوا بعد إهلاك فرعون.

وإنزال المن والسلوى.

ومثل هذه لم يكن المقصود بها إثبات النبوة، مثل الآيات التي جرت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، مثل نبع الماء من بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم-، وتكثير الطعام ونحو ذلك، كانت تجري من غير طلب من أحد، وكان ذلك بين أهل الإيمان؛ ولذلك فإن ما يسميه المتأخرون بالمعجزات وهي دلائل النبوة وآيات الأنبياء منها ما يكون قصد به التحدي مثل انشقاق القمر، والقرآن، وعصا موسى -عليه الصلاة والسلام-، وحينما يخرج يده بيضاء من غير سوء، من غير برص، ونحو ذلك، فهذه يقصد بها التحدي، وهناك أشياء تجري على يد هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعلى أتباع الأنبياء مما يسميه المتأخرون بكرامات الأولياء، وكل ذلك في عرف المتقدمين يقال له: آيات الأنبياء، ويقال له: دلائل النبوة، لكنّ المتأخرين قالوا لما يجري على يد الأنبياء معجزات، وقالوا لما يجري على يد أتباعهم كرامات، يعني من الخوارق، فهذه ليس المقصود بها كما يقوله المتكلمون من الأشاعرة ونحوهم بأنها خوارق للعادة، يُعرّفون المعجزة بأنها: أمر خارق للعادة، على سبيل التحدي، مقرون بدعوى النبوة، هذا تعريفهم هم؛ لأنهم لا يفرقون تفريقاً صحيحاً بين المعجزة وبين السحر، فعندهم ذلك يلتبس على الناس، فلهذا جاءوا بهذا التعريف للأسف الذي أصبح مشهوراً ويدرسه كثير من الناس ولا يتفطنون لما تحته، لا تكاد تجد من يتكلم على المعجزة إلا ويذكر هذا التعريف: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، أو على سبيل التحدي، مع دعوى النبوة، مقرون بدعوة النبوة، هذا الكلام غير صحيح فإن المعجزات منها ما لا يكون على سبيل التحدي، كنبع الماء بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم-، وتكثير الطعام، وإنزال المن والسلوى على موسى -عليه الصلاة والسلام-، والتظليل بالغمام، هذا لم يكن على سبيل التحدي، وقولهم: مقرون بدعوى النبوة، ليس بلازم، فهم يريدون أن يفرقوا بينه وبين ما يجري على أيدي السحرة، والفرق الحقيقي بين ما يجري على يد السحرة وبين ما يجري على يد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الخوارق: أن خوارق السحرة لا تكون خارقة للعادة، نعم، قد تكون خارقة لعادة غيرهم من الناس، فحينما يمشي الساحر مثلاً على النار، ويقول: درست هذا في دورة، هذه خارقة لعادة غيرهم، ويمكن لكل من تعلم هذا السحر الباطل أن يفعل مثله، وقل مثل ذلك في جميع أباطيلهم، وللأسف صارت هذه الأشياء اليوم تروج تحت مسمى دورات، فالأحجار الآن يعتقد فيها، هذا حجر فيه الخاصية الفلانية، وهذا الحجر فيه الخاصية الفلانية، هذه وثنية يأتون بها من أمم شرقية لا يعرفون الدين ولا يعرفون الله، وتروج أحياناً تحت مسميات وألقاب ومصطلحات مقبولة، يظن من لا بصر له أنها فعلاً مصطلحات علمية وجيدة، وهذا الحجر له خاصية كذا، وهذا يسحب الغم والهم، وهذا يسحب الروماتيزم، وهذا يسحب المرض الفلاني، وهذا ضد العين، وغير ذلك من الخزعبلات.

وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ملعوناً، وقال أيضاً هو والضحاك: {مَثْبُورًا} أي: مغلوباً، والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله.

وقوله هنا: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ}، {لَقَدْ عَلِمْتَ} هكذا قرأه الجمهور بفتح التاء، وفي قراءة متواترة، قراءة الكسائي بضم التاء، {لَقَدْ عَلِمْتُ} فموسى يتحدث عن نفسه -عليه الصلاة والسلام-، فيقول: أنا أعلم ذلك وأنت لا تعلمه يا فرعون، لكن قراءة الجمهور {لَقَدْ عَلِمْتَ}، يؤيدها قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل:١٤]، وقوله: {بَصَائِرَ} هذا نصبُه على الحال، {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، وذلك قاله موسى -عليه الصلاة والسلام- بعد أن خاطبه بأسلوب ألين من هذا، فالله -عز وجل- قال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}[سورة طه:٤٤] فجاءه بهذه الآيات فلما كابر وكفر كان آخر الدواء الكي، فخاطبه بهذا الخطاب الذي ذكره الله -عز وجل-: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً} [سورة الإسراء:١٠٣] **الآيات.**

وقوله: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ} أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها، {فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ} [سورة الإسراء:١٠٣-١٠٤] **وفي هذا بشارة لمحمد -صلى الله عليه وسلم- بفتح مكة، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا}**[سورة الإسراء:٧٦] **الآيتين؛ ولهذا أورث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة الشعراء:٥٩]**، وقال ههنا: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} أي: جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة والضحاك: {لَفِيفاً} أي: جميعاً.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ} قال: "**أي يخليهم منها ويزيلهم عنها**"، فهو بمعنى الإخراج، هذا هو المشهور من أقوال المفسرين، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} ولكن يرد على هذا التفسير أن فرعون كان يأبى خروج الإسرائيليين من مصر، ولهذا كان موسى -عليه الصلاة والسلام- يطالبه بأن يرسله معهم؛ لأنه كان يستعبدهم ويمتهنهم ويحملهم الأعمال الشاقة، كما قال الله -تبارك وتعالى- عنه: {يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} [سورة الأعراف:١٤١]، يقتّلون أبناءهم لإضعافهم، ويستحيون نساءهم: يُبقون البنت حية من أجل أن تبقى للخدمة، يستذلونها ويستعبدونها، فموسى -عليه الصلاة والسلام- كان يقوله له: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [سورة طه:٤٧]، فكان فرعون يمتنع من هذا ويأبى، فما وجه قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ}؟ هل كان يريد أن يخرجهم منها؟ هم خرجوا كما هو معلوم خفية دون علم فرعون، فلما شعر بهم تبعهم، فمن أهل العلم من نظر إلى هذا المعنى فقال: إن قوله: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ}: أي يخليهم منها -من الأرض- بالقتل؛ لأنه بدأ يحرض عليهم {إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} [سورة الشعراء:٥٤-٥٦]، فكأنه كان يمهد لها وقال: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي

الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [سورة غافر:٢٦]، وكذا فعل مع السحرة **{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ}** [سورة الأعراف:١٢٤]، وتوعدهم بالصلب، فمن أهل العلم من فسره بالقتل من أجل هذا الملحظ، -والله تعالى أعلم-. ولو أنه فسر بالاستفزاز كما فسر بالإخراج، استفزاز موسى -صلى الله عليه وسلم- بالتضييق عليه فيضطر إلى الخروج، أو بإخراجه فعلاً، فهم كانوا يضيقون عليهم غاية التضييق كما هو معلوم، أما أن يخرجوهم فعلاً من الأرض فكان هذا مطلوباً لموسى -صلى الله عليه وسلم-، إلا أن يقول قائل: إن الذي طلبه موسى -صلى الله عليه وسلم- هو أن يرسل معه بني إسرائيل، يعني بترك استعبادهم وتركهم يتبعون موسى -عليه الصلاة والسلام- ويعبدون الله ويتبعون شرائعه بدلاً من هذا الاستعباد والاستذلال، مع ادعائه للربوبية **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}**[سورة النازعات:٢٤]، فطلب منه أن يترك هؤلاء وشأنهم، قد يقول قائل: إن هذا الذي قصده موسى -صلى الله عليه وسلم- لا الإخراج من أرض مصر؛ لأنهم قد استوطنوها منذ أزمان طويلة من بعدما جاءوا إلى مصر حينما كان يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وجاء إخوته كما هو معلوم، والله تعالى أعلم.

وقول الله -تبارك وتعالى-: **{وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ}** [سورة الإسراء:١٠٤] عندما خرج بنو إسرائيل من مصر إلى الشام وحصل لهم ما حصل من التيه، المؤرخون يقولون: إنهم ما رجعوا بعد الإغراق، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، أنهم توجهوا إلى الشام وما رجعوا إلى مصر بعد الإغراق واستوطنوها، لكن الله -عز وجل- قال في موضع آخر: **{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}**[سورة الشعراء:٥٩]، وفي الموضع الآخر **{قَوْمًا آخَرِينَ}** [سورة الدخان:٢٨]، وهم بنو إسرائيل، والمقصود بالأرض أرض مصر بعدما ذكر إهلاك فرعون، وفي الآية الأخرى قال: **{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}** [سورة الأعراف:١٣٧]، فالأرض: من أهل العلم من يقول: مصر والشام، ومنهم من يقول: الشام، ولا يتعارض مع كونهم ذهبوا إلى الشام أن الله -عز وجل- أورثهم أرض مصر بحيث صارت تابعة لهم، ومعلوم أن البلاد المصرية كان الناس قبل الإسلام فيها يدينون بالنصرانية، ويوجد طائفة من اليهود، فالقبط هم الذين كانوا يحكمون مصر، وبنو إسرائيل كما هو معلوم هم اليهود والنصارى، إلا أنهم انقسموا بعد بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم- **{فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ}** [سورة الصف:١٤]، فالذين آمنوا هم الذين عرفوا بعد ذلك بالنصارى، **{الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى}** [سورة المائدة:١٤]، وإلا فكل هؤلاء من بني إسرائيل، الذين كانوا يحكمون مصر كانوا من الإسرائيليين، بمعنى أنهم كانوا نصارى، حتى جاء عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- وفتحها، والمقوقس كان نصرانياً، فالشاهد أنها بقيت تابعة لهم لكن لا يعني هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- ومن معه رجعوا وبقوا في أرض مصر، وإنما توجهوا إلى الشام، ومعروف في التاريخ أن مفتاح البلاد المصرية هو الشام، ولذلك الذين يحكمون مصر عبر التاريخ أول ما يحرصون عليه هو وضع اليد على الشام، من أجل أن يؤمنوا البلاد المصرية من الغزو أو الغزاة، فإذا وقعت الشام في أيديهم فهذا هو المفتاح، وُجدت الوحدة بين الشام ومصر حتى في عصور متأخرة، وقبل ذلك وجد التوسع المصري، واحتلال بلاد الشام من قبل أمراء من المصريين تابعين للبلاد، أو للدولة العثمانية، ووقع ذلك لمحمد علي باشا، وكان يطالب الدولة العثمانية دائماً باحتلال مصر، وما نهضت همته لمحاربة الوهابيين كما يسمونهم وإرسال ابنه طوسون في بداية الأمر، ثم بعد ذلك فشل طوسون،

وانهزموا، ثم أرسل إبراهيم بجيش من البحر وجيش من البر، ولم يذهب إلا بعدما أعطته الدولة العثمانية عهداً، وعقدت معه عقداً أن تعطيه الشام، فلما وافقوا له بهذا سيّر الجيش، وكانت الدولة العثمانية أضعف من أن تغزو هذه البلاد، كانت في حالٍ من الترهل والضعف، فالشاهد أن قوله -تبارك وتعالى-: {اسْكُنُواْ الأَرْضَ} يحتمل أن تكون أرض الشام، ويحتمل أن يكون جنس الأرض، يتبوءون منها حيث شاءوا ممكنين، لا يخافون من عدو يستذلهم، ويقتل أبناءهم، ويصرفهم عن طاعة الله -عز وجل-.

يقول الله -عز وجل-: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي أنتم وعدوكم جميعاً**"، {لَفِيفًا} تقول: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، يعني: أن الله يحشرهم في حال يجمعهم جميعاً، يختلط بعضهم ببعض، المؤمن بالكافر، يُحشر الإسرائيليون والفراعنة وغير هؤلاء من الأمم التي أهلكها الله -عز وجل-، وممن آمن بالرسل وأتباع الرسل، يحشر الجميع مختلطين مؤمنهم وكافرهم، فاللفيف ما اجتمع من أخلاط الناس، وقبائلهم المختلفة، فهم يحشرون مختلطين، لا يتميزون، ولا يكون الحشر لبعضهم دون بعض، لا ينتسب أحد منهم ويأوي إلى قبيلته، أو طائفته، أو أهله أو نحو ذلك أو إلى أهل بلده، فكل إنسان مرتهن بعمله، مطلبه فكاك رقبته، والله المستعان، وإلا فإن المرء يفر من أبيه وأقرب الناس إليه، فلا ينحاز أحد منهم إلى أحد.

{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ مُبَشّراً وَنَذِيراً * وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَىَ مُكْثٍ وَنَزّلْنَاهُ تَنْزِيلاً}[سورة الإسراء:١٠٥-١٠٦].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز -وهو القرآن المجيد- أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ}[سورة النساء:١٦٦] أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله: {وَبِالْحَقّ نَزَلَ} أي: ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ} أي: يا محمد {إِلاّ مُبَشّراً وَنَذِيراً} مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ} أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: {فرّقناه} بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً ومفسراً؛ ولهذا قال: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ} أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، {عَلَىَ مُكْثٍ} أي: مهل {وَنَزّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} أي: شيئاً بعد شيء.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ} أي أنزلناه إنزالاً متلبساً بالحق، {وَبِالْحَقّ نَزَلَ} أي: نزل متضمناً للحق، وفيه من الحقائق والهدايات والأمور التي يحتاج إليها الناس مما يتوقف عليه مساعدتهم ونجاتهم وفلاحهم، فالله -تبارك وتعالى- جعله تبياناً لكل شيء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ}، قرآناً هنا منصوبة بفعل محذوف مقدر يفسره ما بعده، أي فرقناه، يقدرون هكذا: وفرقنا قرآناً، {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ}، فرقنا قرآناً، قال: "**أما قراءة من قرأ بالتخفيف**"، من قرأ بالتخفيف يعني: الراء غير مشددة، {فَرَقْنَاهُ} هذه قراءة

التخفيف وهي القراءة المتواترة، فمعناها فصلناه من اللوح المحفوظ، {فَرَقْنَاهُ} فصلناه، فرَق بين كذا وكذا بمعنى فصل، فرَق بين الخصوم فصل بينهم، فرَق بين الحق والباطل يعني فصل، هذا وجه، والمعنى الثاني {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ} أي: بيناه وأوضحناه، وفرّقنا فيه بين الحق والباطل، وهذا هو المشهور في معنى {فَرَقْنَاهُ} قراءة التخفيف، وهو الذي اختاره أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله- وهو إمام في التفسير واللغة والقراءة، ويمكن أن تفسر بهذا وهذا؛ لأن ذلك جميعاً من معنى هذه اللفظة، فما ذكره مستشهداً بقول ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً منجماً، فالقرآن في اللوح المحفوظ، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}[سورة البروج:٢٢]، وكذلك أيضاً في صحف بأيدي الملائكة كما في قوله: {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٦]، وكذلك أيضاً نزل إلى بيت العزة من سماء الدنيا، فهذا الأثر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- جاء من طرق متعددة، وهو ثابت صحيح، ومثله لا يقال من جهة الرأي، مثل هذا له حكم الرفع، فالقرآن فُصل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١] يعني: أنزلناه إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وكذلك أيضاً أن الله -تبارك وتعالى- أنزله على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فهذه تنزلات أربعة للقرآن، التنزل الأول في اللوح المحفوظ، التنزل الثاني إلى بيت العزة، التنزل الثالث وهو أن الله جعله في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة وهم الملائكة السفراء بين الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، والتنزل الرابع وهو نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعقيدة أهل السنة والجماعة كما هو معلوم أن التنزل الرابع هذا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن من بيت العزة، ولا من اللوح المحفوظ، ولا من الصحف التي بأيدي الملائكة، بل من الله مباشرةً، ويدل على هذا حديث التكلم في الوحي، عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلةً كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق))[1]، وكذلك قول الزهري -رحمه الله-: "أحدث آية بالعرش آية الدين"، فلم يقل ببيت العزة في السماء الدنيا، ولا باللوح المحفوظ، وإنما قال بالعرش، فهذه التنزلات لا تنفي عنه أنه متلقًّى من الله مباشرةً، تلقاه جبريل فنزل به، لكن هذا مما يبين شدة عناية الله -عز وجل- بهذا القرآن، وعظم هذا القرآن، ومنزلته.

قال: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ}، والقراءة الأخرى قرأ بها جماعة من الصحابة فمن بعدهم، عليٌّ وابن مسعود وأبو قتادة، وقرأ بها جماعة من التابعين كالشعبي، لكنها ليست متواترة، {قرآناً فرّقناه} قال: "**أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً**"، يدل على هذا المعنى قوله: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} يعني: في مدة بقائه -صلى الله عليه وسلم-.

---

١ - رواه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣] ولم يقل ماذا خلق ربكم؟، ووصله أبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، برقم (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٧).

{قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوَاْ إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} [سورة الإسراء:١٠٧-١٠٩].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم {آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوَاْ} أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: {إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ} أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه {إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ} هذا القرآن {يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} جمع ذقن وهو أسفل الوجه {سُجّداً} أي: لله -عز وجل- شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: {سُبْحَانَ رَبّنَا} أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا قالوا: {سُبْحَانَ رَبّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً}.

وقوله: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ} أي: خضوعاً لله -عز وجل- وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله {وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} أي: إيماناً وتسليماً، كما قال: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[سورة محمد:١٧]، وقوله: {وَيَخِرّونَ} عطْف صفة على صفة، لا عطف السجود على السجود.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ} الضمير الهاء يرجع إلى القرآن، أي: من قبل أن ينزل القرآن، وبعضهم يقول: {مِن قَبْلِهِ} أي: من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود أهل الكتاب، وعلى الخصوص أهل الإيمان منهم، {إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً}، والذقن هو مجمع اللحيين كما هو معلوم، وخصه بالذكر هنا بالسجود؛ لأنه أول ما يقرب من الأرض إذا سجد الإنسان، فحينما يسجد الإنسان لا يبدأ أول ما يبدأ بالجبهة ثم ينزل، وإنما ينزل ثم يضع جبهته، {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} هذه صورة الساجد، ومن أهل العلم من يقول: إنه ذكر الأذقان على الخصوص والمقصود بذلك شدة الخضوع بتعفير اللحية حيث يقع ذلك من الساجد على الأرض، لأن لحيته تكون ملامسة الأرض، ولكن المعنى الذي ذُكر هو الذي ذكره الله تعالى: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} أي أن هذه هيئة من سجد، {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ}.

في البداية قال: {يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً}، وفي الثانية قال: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ}، يعني الخرور الأول ذكر فيه سجودهم، ثم ذكر بعد ذلك خشوعهم، فالأول ذكر فيه الخضوع وهو السجود والتذلل لله رب العالمين، وذلك بتعفير الوجه في الأرض، وهو أشرف شيء في الإنسان يكون أدنى شيء منه، حيث يستوي مع قدميه، ولهذا كان الكفار يأنفون ويستنكفون من السجود، أشرف شيء يوضع على الأرض –الوجه-، فهيئة السجود أكبر هيئة تذلل، لكن الناس ألفوها؛ لذا فهم لا يستشعرونها، ولا توجد هيئة أعظم من هذه الهيئة، لكنها صارت مألوفة، وكذلك الركوع، فلو رأيت أناساً يقفون أمام مخلوق بهذه الطريقة فإن هذا مشهد ينخلع له القلب، ويقف له شعر الرأس، فكيف إذا سجدوا لمخلوق؟، كل يوم نحن نفعل هذا لله -عز وجل-، ولكن لا نستشعر، وإلا فهو مشهد هائل عظيم، لو استشعرناه وحده دون قول نقوله أو قراءة نسمعها لكان كافياً لخشوع القلب وخضوعه، وصلاح حال العبد، وحيائه من الله -عز وجل-، ومراقبته له، يكفي أن يضع

وجهه على الأرض، فتستقيم جميع أحواله، لكن ما نستشعر هذا، وإلا فهذا الذي قد أذل وجهه على الأرض كيف يستطيع أن يعصيه، وأن يكابره، وأن يستهزئ بشعائره وبأوليائه، ويستنكف مما لا تهواه نفسه؟!.

{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً} [سورة الإسراء:١١٠-١١١].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله -عز وجل-، المانعين من تسميته بالرحمن {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[سورة الحشر:٢٤]، إلى أن قال: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الحشر:٢٤] الآية، وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول في سجوده: ((يا رحمن يا رحيم))[٢] فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين!، فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، رواهما ابن جرير.

قوله: {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءَ الْحُسْنَىَ}، اختلف أهل العلم: هل المقصود بادعوا: التسمية، أو المقصود به الطلب والدعاء، والمعروف المتبادر أن الدعاء يطلق على هذا وهذا، فيقال: فلان هذا يُدعَى بكذا، الرجل الذي يدعى بكذا، يعني يُسمَّى بكذا، تقول: المدعو فلان، يعني الذي يسمى بفلان، وتأتي بمعنى الطلب، يدعو ربه، يعني يسأل ربه، اسألوا الله -تبارك وتعالى- باسمه الله أو باسمه الرحمن، يا الله يا رحمن، فأكثر أهل العلم يقولون: الدعاء هنا بمعنى السؤال والطلب، وبعضهم قال: التسمية، وهذا قاله بعض الناس، ولا أعلم أحداً من السلف سبقه إليه، ولا عبرة بكلامه، وهذا المعنى تحتمله الآية؛ لكن من أهل البدع من يفسرون القرآن بمقتضى اللغة، دون أي اعتبار آخر، فقوله: {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ} أي: اسألوا الله، يعني اسألوه باسمه الله أو باسمه الرحمن، {أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءَ الْحُسْنَىَ}، وحينما يُدعَى بهذه الأسماء فإن هذا الدعاء بمعنى الطلب مقتضٍ للتسمية؛ لأن الله ذكر الاسمين، فلا تفسر الآية بمجرد التسمية {ادْعُواْ} بمعنى سموه بالرحمن أو سموه الله، فإنه واحد لا شريك له، -تبارك وتعالى-، وهذه من أسمائه، له أسماء حسنى، ونحن إذا فسرناه بالدعاء بمعنى السؤال {ادْعُواْ} أي: اسألوه، سواءً سألتموه باسمه الله أو باسمه الرحمن فإنكم تسألون إلهاً واحداً، هذه من أسمائه، لا تسألون آلهة متعددة كما كان يظنه أو يزعمه أهل الإشراك، لمّا سمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو، وهذا الحديث الذي ذكره هنا رواه مكحول وهو مرسل، والمرسل من أقسام الضعيف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، كأن تقدير الكلام هكذا: أياً ما تدعوا فهو حسن، لكنه وضع مكان فهو حسن {فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، كأن ذلك للدلالة أو المبالغة، وإذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان، {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ}، {فَلَهُ الأَسْمَاء

---

٢ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٨٠/١٧).

{الْحُسْنَى} ومن ضمن هذه الأسماء الحسنى: الله والرحمن، فلو قال: **{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ}** فكل ذلك حسن، فالمعنى واضح، لكن لو قال: **{فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}**، فهذا الاسمان "الله والرحمن" اسمان حسنان، ولكنه جاء بما هو أبلغ من هذا فقال: **{فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** كل أسمائه حسنى، وليس فقط الله والرحمن، لكن دل على حسنهما هذا العموم **{فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}**، والمقصود بكونها حُسنى أي: البالغة في الحسن غايته، هذا الحسن يشمل حسن الألفاظ، فليس في شيء من هذه الأسماء ما لفظه مستبشع أو ثقيل على الأسماع أو نحو ذلك، ويدخل فيه حُسن المعاني التي تضمنتها، الصفات.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب" الآية ١إلى قوله تعالى"وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا" الآية ٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

سورة الكهف وهي مكية، روى الإمام أحمد عن البراء -رضي الله عنه- يقول: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة -أو سحابة- قد غشيته، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأْ فلانُ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن))[1]، أخرجاه في الصحيحين، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير -رضي الله تعالى عنه- كما تقدم في تفسير سورة البقرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال)) [2] رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي، ولفظ الترمذي: ((من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف)) [3]، وقال: حسن صحيح، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين))[4]، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم، ثم روى البيهقي بإسناده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نوراً يوم القيامة))[5].

حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه-: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال))، وفي رواية أخرى: ((من قرأ))، وذكر عشر آيات من آخر السورة، وفي الرواية الأخرى: ((عشر آيات من آخرها))، يحتمل أن يكون المراد بقرأ أي: حفظ، ويحتمل أنه مجرد القراءة.

يقال: قرأت هذه السورة، بمعنى حفظتها وعرفتها وضبطتها وأتقنتها وما أشبه ذلك، ولهذا يقال للقراء: الحفاظ سابقاً وأهل العلم، فلان قارئ، فلان عالم، فلان من القراء، وليس المراد الذين يقرءون، فإذا قيل لأهل

---

[1] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (١٩١٤/٤)، برقم: (٤٧٢٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة (٥٤٧/١)، برقم: (٧٩٥)

[2] - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٥/١)، برقم: (٨٠٩).

[3] - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (١٦٢/٥)، برقم: (٢٨٨٦)، ولفظه: (من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال).

[4] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (٣٩٩/٢)، برقم: (٣٣٩٢).

[5] - السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الجمعة، باب ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها، (٢٤٩/٣)، برقم: (٦٢٠٩).

القرآن: القراء فهذا أقل من الحفظ وإلا فالزمن السابق السلف -رضي الله عنهم- إذا قالوا القراء فهم أيضاً أهل العلم وليسوا فقط أهل الحفظ.

والأحاديث الواردة في فضل قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة هنا قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين))، وفي بعض الروايات: ((زيادة ثلاثة أيام))[٦]، وفي بعض الأحاديث ما بينه إلى مكة[٧]، وغير هذا مما صح وقد ذكر.

ويوم الجمعة يبدأ من بعد طلوع الشمس ولذلك قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة))، فلو قرأها ليلة الجمعة فإن ذلك لا يصدق عليه؛ لأن اليوم يبدأ طلوعه من الفجر، من قرأها قبل طلوع الشمس فإنه قرأها يوم الجمعة، أو بعد طلوع الشمس إلى ما قبل الغروب فإذا غربت الشمس انتهى يوم الجمعة، لكن لا يشترط أن تكون القراءة قبل الصلاة، وإنما المقصود أن يقرأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا }[الكهف:١-٥]، قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها فإنه المحمود على كل حال وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً، جلياً نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين ولهذا قال: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا}، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: {قَيِّمًا}، أي: مستقيما {لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ}، أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة، {مِنْ لَدُنْهُ}، أي: من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح، {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}، أي: مثوبة عند الله جميلة، {مَاكِثِينَ فِيهِ} في ثوابهم عند الله -وهو الجنة- خالدين فيه {أَبَدًا} دائماً لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله، {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ}، أي: بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه، {وَلا لِآبَائِهِمْ}، أي: لأسلافهم {كَبُرَتْ كَلِمَةً}، هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام

---

[٦] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجمعة (١/٤١٧)، برقم (١٠٤٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الجمعة (٧/ ١٨)، برقم: (٢٧٧٩).

[٧] - رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣ / ١١٢)، برقم: (٣٠٣٨).

لإفكهم ولهذا قال: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال: {إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا}[الكهف:١]، أي أن الله -تبارك وتعالى- جعل هذا الكتاب مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، فليس فيه اعوجاج ولا زيغ ولا ميل، وفسر {قَيِّمًا} بالمستقيم، {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا} كما قال ابن كثير -رحمه الله-: لم يجعل له اعوجاجاً وزيغاً وميلاً، ليس فيه عوج لا في ألفاظه ولا في معانيه، فألفاظه في غاية الفصاحة والبلاغة والكمال، ومعانيه كذلك أيضاً لا تجد فيها عوجاً فهي في غاية الكمال حيث تضمنت ألوان الهدايات التي يحتاج إليها الناس، فهو مستقيم في لفظه ومعناه.

وبعض أهل اللغة يقول: إن العَوج بفتح العين، هو الأجسام المحسوسة، والعِوج بالكسر في المعاني، ولكن هذا ليس بمطرد.

وبعضهم يقول: إن ما كان له ظل مما ينتصب كالعود والجدار يكون عَوجاً بفتح العين إذا كان فيه ميل، وما عدا ذلك يقال بالكسر العِوج، هذا القول أخص من الذي قبله.

{قَيِّمًا}، أي: مستقيماً، هذا هو المشهور الذي عليه الجماهير من المفسرين سلفاً وخلفا، والذي لا عوج فيه يكون مستقيماً، فهذا تأكيد لما قبله، فقد نفى عنه العوج، {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا} وهذا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فليس فيه عوج بوجه من الوجوه لا في اللفظ ولا في المعنى، ومعلوم أن النفي إذا جاء في صفات الله -عز وجل- أو في صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في القرآن فإنه يتضمن ثبوت كمال ضده، فإذا قال الله -عز وجل- عن نفسه: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [سورة البقرة: (٢٥٥)] فإن هذا يتضمن ثبوت كمال حياته وقيوميته، وجاء من صفات النبي –صلى الله عليه وسلم- {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير: (٢٤)] وفي القراءة الأخرى {بظنين} من الظن والتخرص، على هذه القراءة هذا يدل على ثبوت كمال تيقنه وتثبته وضبطه وصحة ما يبلغه، وقل مثل ذلك أيضاً في القراءة الأخرى "بضنين" يعني ببخيل.

فقوله: {قَيِّمًا} يدل على أنه لا اعوجاج فيه أصلاً لا مما يبدو للناظر فيه ولا مما يخفى عليه، فلو قلت لك: هذه السارية هل هي مستقيمة أو لا ؟ تقول: نعم مستقيمة، لكن لو أردت أن تقيسها قياساً دقيقاً فقد يوجد فيها شيء من العوج لا يبدو لك لأول وهلة، أما القرآن فقال الله -عز وجل- عنه بعد أن نفى عنه العوج {قَيِّمًا} فليس فيه عوج لا ظاهر ولا عوج خفي، وبعض أهل العلم يفسر القيّم فيقول: القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية، وبعضهم يقول: إن القيّم المهيمن، فهو قيم على الكتب التي كانت قبله ومهيمن عليها، ولكن القول الأول هو الذي عليه الجمهور، والله تعالى أعلم.

قوله: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [سورة الكهف: (٢)]

{مِن لَّدُنْهُ}، من عند الله –عز وجل-، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} هذه الآية تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة، فالأول {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، فالإيمان هو الشرط الأول، فلو أن

الإنسان عمل عملاً ما يريد وجه الله -عز وجل- وموافقاً للسنة لكنه غير مؤمن، فعمله غير مقبول منه، لأن الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان(٢٣)].

ولا يكون العمل صالحاً حتى يكون خالصاً صواباً يتبع فيه ما شرعه الله -عز وجل- ويتبع النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذه الآية تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة.

وقوله: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [سورة الكهف: (٤)]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**قال ابن إسحاق: وهم مشركوا العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة بنات الله**"، ليس هذا فحسب بل يشمل اليهود والنصارى؛ فالنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقالت اليهود أيضاً: عزير ابن الله، ومعلوم أن الاسم الموصول من صيغ العموم، {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، كل الذين قالوا اتخذ الله ولدا فهم داخلون في ذلك، وهذا خاص بعد عام، فالعام هو قوله: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ}، ويدخل فيهم بجملتهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ولكن ذكْر الخاص بعد العام إنما يكون لمزية تميز بها إما محمودة أو مذمومة، فالمحمودة مثل: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} [سورة البقرة: (٢٣٨)]، وقوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: (٩٨)] ، جبريل وميكال هم من جملة الملائكة.

والمذمومة مثل هذا: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ} يعني: ينذر الكافرين، حذف المُنذَر للعلم به، وهنا قال: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، فهم من جملة هؤلاء المنذَرين لكنه خصهم لشناعة جرمهم كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} [سورة مريم(٨٨-٩٢)]، فهذا القول في غاية الشناعة، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن المراد قول النصارى؛ لأن النصارى هم الذين اشتهروا بهذا، فقول النصارى إنما هو عار في جبين البشرية.

قوله: {مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} الضمير يمكن أن يرجع إلى الله -عز وجل- وهذا الذي اختاره ابن جرير، أي: بالله من علم، فلم يعرفوه معرفة لائقة بجلاله وعظمته، فنسبوا إليه الصاحبة والولد قبحهم الله، وكثير من المفسرين يقولون: {مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} كما قال ابن كثير -رحمه الله-: أي بهذا القول -الذي افتروه وائتفكوه- من علم، إنما قالوه جهلاً وضلالاً ولا حقيقة له بحال من الأحوال، {وَلَا لِآبَائِهِمْ} أي: لأسلافهم.

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم، تخرج من أفواههم أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: {إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

ومن المعلوم أن الكلمة إنما تخرج من أفواههم ولكن قوله: {تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} فيه تشنيع عليهم وتعظيم لهذا الإفك وتسجيل هذا الجُرم، كما تقول: هذا ما قلتَه بلسانك، فالقول الذي يُرد ويُبطَل ويكذَّب، بحيث إنه لا رصيد له من الواقع، وإنما هو مجرد قول يقوله قائله دون أن يكون له حقيقة يقال فيه مثل هذا.

ولهذا قال الله -عز وجل- في سورة النور في الكلام على الإفك: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة النــــور: (١٥)، فهي كلمة يقولونها بأفواههم ويسجل عليهم هذا الجُرم الشنيع، يتفوه الإنسان بما لا علم له به دون أن يمت ذلك القول إلى الواقع والحقيقة بصلة.

وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في التبني حينما قال الله -عز وجل-: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [سورة الأحزاب: (٤)]، فهذا القول لا يجاوز الأفواه، لا حقيقة له في أرض الواقع، ومثل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة: (٧٩)]، ومعلوم أنهم لا يكتبونه بأرجلهم، وقوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [سورة الأنعام: (٣٨)]، وإن كان بعض أهل العلم في بعض هذه الأمثلة يحملها على بعض المحامل، فيقول: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} إن المقصود بذلك حقيقة الطائر، وإن العرب تعبر عن الإسراع بمثل هذه العبارات، فأراد حقيقة الطائر.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة.

هذا الشيخ هو محمد بن أبي محمد، وهذه رواية ضعيفة.

عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله.

النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كانوا من أسرى بدر فقتلهما النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم بدر، فقد قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- النضر بن الحارث في بدر حينما أسر، وقتل عقبة بن أبي معيط بالصفراء مقفله -صلى الله عليه وسلم- من بدر إلى المدينة، وقد قال: أَأُقتلُ من بين قريش صبراً ؟!.

ويذكر أهل السير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان قد عفا عن النضر بن الحارث، وأراد أن يطلقه، ثم قال له: لا والله لا تمسح عارضيك عند نساء أهل مكة وتقول خدعت محمداً مرتين، وأهل السير يذكرون قصيدة طويلة لأخته تخاطب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وتذكره بالعفو، وهي قصيدة جيدة وجميلة ويذكرون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بلغته بعد قتله، يعني: وذكر أنه لو بلغته قبل قتله لوهبه لها، لكنها من حيث الإسناد لا تصح[٨].

فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقوّل فَرَوا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه

---

٨ - انظر القصيدة في السيرة النبوية، لابن هشام (٣ /٣٠٩).

عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أخبركم غدا عما سألتم عنه))، ولم يستثنِ فانصرفوا عنه ومكث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل -عليه السلام- حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدَنا محمد غدا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل -عليه السلام- من الله -عز وجل- بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله -عز وجل-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ } [سورة الإسراء(٨٥)].

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}[الكهف:٨].

يقول تعالى مسليا لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في حزنه على المشركين؛ لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر: (٨)]، **وقال: {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}** [سورة الحجر: (٨٨)]، **وقال: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء(٣)]، **باخع، أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [سورة الكهف: (٦)] **يعني: القرآن، {أَسَفًا}، يقول: لا تهلك نفسك أسفا، قال قتادة: قاتلٌ نفسك غضبا وحزنا عليهم، وقال مجاهد: جزعا، والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.**

كما ذكر -رحمه الله-: هذه المعاني متقاربة؛ لأن أصل معنى البخع يأتي بمثل هذا، فباخع نفسك: أي: تجهد نفسك، تتعب نفسك، تتعب قلبك، تحزن، تهلك نفسك، على هؤلاء، على آثارهم من أجل إعراضهم وتوليهم وتكذيبهم لك، فتتآكل حزناً وأسفاً على ذلك، إنما أنت مأمور بالبلاغ، والله -تبارك وتعالى- هو الذي يوفق من شاء إلى ما شاء، يهدي من يشاء ويضل من يشاء عن علم وحكمة.

وهذه الآية فيها عزاء كبير للدعاة إلى الله -عز وجل- إذا لم يجدوا استجابة من الناس، إذا سلكوا الطرق الصحيحة وبذلوا الجهد الذي يعذرون فيه أمام الله -تبارك وتعالى.

فلا يتآكل الإنسان من الحزن، فإنّ تتابع الحزن على القلوب يضعفها ويعيقها عما هي بصدده من العمل لله -عز وجل- والدار الآخرة.

أما الحزن والإشفاق من الدار الآخرة فهو نافع للقلب غاية النفع؛ لأنه يدفع الإنسان للعمل الصالح، لكن الحزن على هذه الدنيا، والحزن على الأمور الفائتة، والحزن على الولد هذا الذي يضعف القلب، كما أن الأمور العارضة له تضعفه وتفسد قواه ويؤثر ذلك على البدن، إذا تتابع الحزن انكسر البدن وظهر ذلك فيه، وخارت قوى الإنسان واكتأب، وصار لا يستطيع أن ينهض بشيء ولا يستطيع أن يأكل ولا يشرب، وهكذا ما يعرض له من الأمور المفسدة، كالحب مثلا الذي لا يكون لله -عز وجل- الذي هو بمعنى العشق حقيقة، إذا وُجد في القلب مثل هذا أفسده، فأعرض عن الله وتشوش الفكر، وانشغل القلب بهذا المحبوب وصار الإنسان لا ينهض بشيء -نسأل الله العافية-، لا عمل دنيا ولا عمل آخرة، ويجلس مع الناس بجسده، ولكنه معطل

القوى خائر العزيمة، لا يفكر إلا بهذا المحبوب، مسلوب الفؤاد مأسور بهذا البشر الضعيف، وقل مثل ذلك أيضاً في الأمور الأخرى.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الكهف: (٧)]، **قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))**[٩]**، ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}** [سورة الكهف: (٨)]**، أي: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا لا ينبت ولا ينتفع به، كما قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}** [سورة الكهف: (٨)]**، يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد وقال مجاهد: صعيدا جرزا بلقعا، وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.**

قوله تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** [سورة الكهف: (٧)] "ما" هذه تفيد العموم، ولهذا حمله بعض أهل العلم على أعم معانيه، قال: حتى الحيات هي زينة للأرض، ولكن على كل حال يفهم من السياق **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا }**، يعني: مما يستهوي الناس ويجذبهم وتمتد إليه نفوسهم، ويغرهم وما يشغلهم عن آخرتهم، فهذا كله جعله الله -عز وجل- زينة للأرض، كالنبات وما يوجد أيضاً في الأرض، ما يوجد عليها من الأمور التي يقبل عليها الناس وتهواها نفوسهم، كل ذلك، ويدخل فيه العمران وألوان الصناعات، والتجارات والمكاسب، وغير ذلك، ويدخل فيه الأنهار الجارية، والعيون وألوان الثمار وغير ذلك، فكل هذه الأشياء هي زينة لها، ثم بعد ذلك تكون بلقعا.

قوله: **{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}** [سورة الكهف(٨)] كل ما تعبوا وبذلوا فيها، ثمروها وعمروها، وكل المعاني التي ذكرها السلف في الصعيد الجرز متقاربة، فحينما نقول -مثلاً- بأنها مستوية لا نبات فيها، أو حينما نقول بأنه خراب ودمار، تكون خراباً ودماراً، أو هالكاً، أو لا ينبت، لا ينتفع به، يبيد، الأرض التي لا شجر فيها ولا نبات، كل هذا بمعنى مستوية، يسويها الله -عز وجل-، كل ما عليها مما يتهافت عليه الناس هذا كله يستوي بالأرض، وينتهي ويتلاشى، والله -عز وجل- يرينا الآيات لكننا لا نعتبر، فأين ما بناه الأولون؟ أين ما بناه النمرود؟ وأين ما بنته عاد؟ أين الذي بنته إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد؟ أين ما بنوه أين ما شيدوه ؟ كل هذا ينتهي ويتلاشى، أين بيوتهم؟ أين مراكبهم؟ أين صناعاتهم؟ أين تجاراتهم؟ أين الأمور التي تنافسوا عليها؟ كلها قد انمحت واضمحلت، وهذه الفلوات الصحارى هل تظنونها كانت

---

[٩] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة (٤ / ٢٠٩٨)، برقم: (٢٧٤٢).

صحارى من أول ما خلق الله الدنيا إلى اليوم ؟ قد تكون أمم عمرتها، ثم أفناها الله -عز وجل- وجعلها كما ترون، مستوية لا ترى فيها شيئاً يدل على قوم سكنوها واستوطنوها.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الكهف: (٧)]، بعض أهل العلم يقول: "أيهم" مرفوع على الابتداء، ولفظه لفظ الاستفهام، أي: نختبرهم أيهم أحسن عملاً وأيهم أسوء عملاً كذلك، فأخبر -تبارك وتعالى- أنه جعل ما على الأرض زينة ليختبر الناس أيهم أحسن عملا، فهل يقبلون عليها ويغفلون عن الله وعن الدار الآخرة؟، هل تستهويهم هذه الزينة ؟ أو أنهم يقبلون على ما هم بصدده؟، الآية الآخرة في سورة تبارك: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [سورة الملك: (٢)]، ولاحظ في الآيتين أن الله -تبارك وتعالى- ذكر أمراً متحداً وهو أنه خلق ذلك من أجل الابتلاء من جهة حسن العمل، هذا المقصود الأكبر، والمطلوب الأعظم الذي من أجله يتنافس المتنافسون، فليست العبرة بكثرة العمل وإنما بإحسان العمل، والله المستعان.

(مسألة)

الإشراك بالله من جملة القول بلا علم، والقول بلا علم يتفاوت ليس على مرتبة واحدة، فلو أن أحداً قال في مسألة من المسائل التي لا علاقة لها بالدين -في مسألة في الرياضيات- بلا علم فهذا يعتبر خطأ، ولكنه لا يكون كالذي قال في مسائل الشرع، ومن قال في مسألة تتعلق بالطهارة مثلاً بلا علم، قال مثلاً: إن الماء لا ينجس ولو تغير، فمثل هذا ليس كالذي نسب لله الصاحبة والولد، وجعل له شريكاً فهذا يتفاوت، والله -عز وجل- قال: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣]، فذكره مع هذه الأمور، وكثير من أهل العلم يقولون: ذكره مع الإشراك ليدل على شدة شناعته، وهذا إنما هو مأخوذ بنوع من الدلالة يقال لها دلالة الاقتران، وهي من الناحية الأصولية دلالة ضعيفة ليست قوية وليست بحجة، دلالة الاقتران كما في قوله تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[النحل:٨]، كما سبق في الكلام على سورة النحل، فالخيل والبغال والحمير، الأحناف يقولون: إن الله ذكر الخيل مع البغال والحمير -وما ذكرها مع الأنعام- فدل على أنها لا تؤكل، فيقال لهم: هذه دلالة اقتران، وهي ضعيفة.

فهنا بالنسبة لدلالة الاقتران: الذي أظنه -والله تعالى أعلم- أقرب في الكلام فيها هو التوسط فلا يبنى عليها أحكام لضعفها ولكنه يمكن أن يستنبط ويستأنس بها من جهة المعاني، فمثلاً: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ}[الأعراف:٣٣]، الإثم يشمل كل الذنوب، وذكره الله في هذا السياق مع الإشراك، فهل يقال إنه على مرتبته بإطلاق ؟ الجواب: لا، وهكذا ذكر القول عليه بلا علم من جملة هذه وهو من جملة الإثم، ومثل هذا يمكن أن يستأنس به من جهة المعنى، يقال: ذكره الله في سياق هذه الأمور، وإلا فالله -عز وجل- يقول: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ}[الفرقان:٦٨]، ذكر هذه الثلاثة، هل يقال إن من زنى ومن قتل بمنزلة من أشرك ؟ الجواب: لا، لكن من جهة المعاني نستفيد منها ونستأنس بها، نقول: الله ذكر هذين -الزنا والقتل- في هذا السياق مع الإشراك {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ }[الفرقان:٦٨]، فدل على أن هذه الأمور الثلاثة في غاية الشناعة من جهة المعاني، ولهذا يقال مثلاً: إن الله يقرن بين الصلاة والزكاة دائماً مما يدل على أهمية هذين بين أركان الإسلام مثلاً، أو لمزية، أو يذكر جبريل وميكال، فهذا موكل بما فيه حياة القلوب وهو الوحي، وهذا موكل بما فيه حياة الأبدان، من جهة المعاني، وهكذا حينما يقال: إن الله يقرن بين الصبر والتقوى {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}[آل عمران:١٢٥]، الصبر فيه حبس للنفس عن الجزع والانفلات والترك والتضييع، والتقوى هي الترس الذي إذا تحصن به الإنسان لم يصل إليه الضرر.

(مسألة)

العرب قد تُعبر بالليلة وتقصد يومها معها، وقد تُعبر بالليلة وتقصد بها الانفراد أي الليلة فقط، وقد تُعبر باليوم وتقصد به اليوم والليلة معاً الأربع والعشرين ساعة، ولكن هذا ليس دائماً ولهذا يختلف العلماء في مسائل من هذا القبيل لهذا السبب حينما يقول الله -عز وجل-: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}[الحاقة:٧]، سبع ليالٍ معناها أنها بدأتهم من الصباح، الليلة التي قبلُ لم تأتهم فصارت سبع ليالٍ وثمانية أيام، آخر ليلة مع يومها الذي بعدها ففرق هنا بين الليالي والأيام، لكن تجد هذا الخلاف في الكلام على أقل مدة للاعتكاف -مع أن الحديث لا يثبت فيه أقل مدة الاعتكاف بحال- لما قال عمر -رضي الله عنه-: نذرت أن اعتكف ليلة، هل المقصود ليلة فقط أو المقصود ليلة مع يومها ؟ العرب قد تعبر بهذا عن هذا، وقد تعبر عن غيره، وهذا معروف في إطلاقاتهم، فإذا قال: قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، ولاحِظْ في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر بالصلاة عليه في ليلة الجمعة وفي يوم الجمعة، وفي قراءة الكهف ذكر يوم الجمعة، فتتبُّعُ مثل هذا واستقراؤه قد يحمل الإنسان على أن يرجح أن ذلك إنما يكون في يومه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٢)

من قوله تعالى"أم حسبت أن أصحب الكهف" الآية ٩إلى قوله تعالى"ويهيئ لكم من أمركم مرفقا" الآية ١٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا* فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا* ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(٩-١٢)].

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: {أَمْ حَسِبْتَ} [سورة الكهف(٩)] يعني: يا محمد {أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإنّ خلْق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجبُ من أخبار أصحاب الكهف، كما قال ابن جريج عن مجاهد: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجبُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون.

وأما الرقيم، فقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو وادٍ قريب من أيلة.

وكذا قال عطية العوفي وقتادة.

وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي.

وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم.

ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف(٩)] قال: يزعم كعب أنها القرية.

وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف.

وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقوله: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [سورة الكهف(١٠)] يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم؛ لئلا يفتنوهم عنه، فهَرَبوا منهم، فلَجَئُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا -سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم-: {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} [سورة الكهف(١٠)] أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا، {وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [سورة الكهف(١٠)] أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشدًا، كما جاء في الحديث: ((وما قضيتَ لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا))[١].

وقوله: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفيْن فيهم {أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] قيل: عددًا، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبْقَ الجَوَادِ إِذَا اسْتَولى على الأمَدِ[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف(٩)] (أم) هذه هي التي يفسرونها بالمنقطعة، وقد مر نظائرها، (أم) المنقطعة هذه مقدرة بـــ(بل) والهمزة، أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، وعجباً هذه منصوبة على الحال، أو أنها خبر (كان).

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

أي ليس خبرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، يعني أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة بهذا النوم الطويل إلا أن آياتنا كلها عجيبة، وفي هذا الآيات ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف ومن هذا النوم، وذلك أن خلق هذه السماوات والأرض وما يوجد فيهما من المخلوقات، وما وجدت عليه من الدقة العجيبة، وهذا الخلق الهائل، وهذا النظام الدقيق الذي تسير فيه هذه الأفلاك، وما إلى ذلك، كل ذلك من الأمور العظيمة التي هي أعظم من نومٍ وقع لهؤلاء الفتية في هذه المدة الطويلة.

---

١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٢٢- ٦٣٩) بلفظ: ((وما قضيتَ لي من قضاء فاجعل عاقبتــه رشــداً)) وصـــححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٢) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٤٨).

٢ - البيت للنابغة يخاطب النعمان، وقبله:

فمن عصاك فعاقبْه معاقبةً *** تُنهى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ

إلاّ لمثلكَ أو من أنتَ سابقُه *** سبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمدِ

انظر: المعاني الكبير في أبيات المعاني (٢/ ٨٥٣) والمصون في الأدب (ص: ١١٧) وغيرهما.

بل إن خلقهم -خلق الإنسان- أعجب من هذا، أعجب من هذه النومة التي ضربها الله -عز وجل- عليهم، هذا الإنسان وما فيه من قدرة على عقل الأشياء وفهمها، وما يتصف به من السمع والبصر، وما يختزنه من ألوان المشاعر، وما فيه من الأعضاء والأبعاض التي تعمل بنظام في غاية التعقيد والدقة أعجب من نوم هؤلاء هذه المدة الطويلة، لكن الإنسان لا يدرك كثيراً من هذه الأشياء تارة، وما يتصل بها من وظائف وعمل، أو أنه ربما ألف الشيء حتى صار ذلك لا يحرك شيئاً في كوامنه وفي نفسه، طلوع الشمس من مشرقها، وغروبها من المغرب، وظهور النجوم في الليل، والقمر كذلك، كل هذه أشياء عجيبة، ولكن الإلف هو الذي يجعل الإنسان بهذه المثابة، لو أن أحداً من الناس حُبس منذ أن ولد لم ير شمساً ولا قمراً بمكان، في نفق من الأرض، أو في قبو أو نحو ذلك، وما رأى شيئاً إطلاقاً، ثم بعد ذلك لما أدرك أُخرج فإنه سيبقى مندهشاً مذهولاً حينما يشاهد هذه الشمس وهي تشرق، ثم لم يزل يشاهدها ويرقبها في ارتفاعها إلى أن تغرب، فإذا ظهرت النجوم وأقبل الظلام فإن عجبه لا ينقضي بحال من الأحوال، فينظر إلى هذه السماء وما فيها من العجائب والغرائب، والقمر وما إلى ذلك مما يؤثر فيه غاية التأثير، فإذا رأى الجبال أو رأى البحر فإن ذلك أيضاً يكون محركاً للتفكر والاعتبار، وتعظيم الله -عز وجل- في نفسه، لكن حينما يألف الإنسان الشيء لا يؤثر ذلك فيه.

فالشاهد أن آيات الله كلها عجيبة، وهذا وإن كان من آيات الله إلا أن آياته كلها عجب، وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير هذا القدر من الآية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ} [سورة الكهف(٩)] وهو الذي فسرها به أيضاً ابن جرير -رحمه الله- والشنقيطي من المعاصرين.

وقوله: "**وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية**" هذا تقريب للمعنى وإلا فإن الكهف يقال للغار الواسع، الغار إذا كان متسعاً فإنه يقال له: كهف، وإذا كان ضيقاً يقال له: غار، هذا الفرق بين الكهف والغار.

فعلى كل حال الكهف معروف، فهو غار متسع، ولكن أين يقع هذا الكهف؟ نحن لم نقف على هذا ولا نعلم، ولا يعنينا ذلك، ولا نستفيد منه، وما اشتغل به كثيرون قديماً وحديثاً من محاولة تحديد هذا المكان، وعمل قياسات لأشعة الشمس لبعض الأماكن، وأن ذلك ينطبق على المحل المعين، كل هذا مما لا فائدة فيه، إنما العبرة في ما تضمنه هذا الخبر من بيان قدرة الله -عز وجل-، وكذلك أيضاً ما يتصل بقضية الإيمان من وجوه متعددة، فالعبرة بهذا، وهو الذي ينبغي أن يكون محل العناية لا مكان الكهف، أو عدد هؤلاء الفتية، أو لون الكلب، واسم الكلب، وما أشبه ذلك.

يقول: "**وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو وادٍ قريب من أيلة، وبعضهم يقول: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم**" الذي يظهر أن الذي قال بهذا ربما يقصد العمران أو القرية التي كانوا فيها، وهذا قول لبعض السلف، وربما يقصد بذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} [سورة الكهف(٢١)] وهذا البنيان ما هو وما طبيعته ؟ الله تعالى أعلم، ولكن من السلف من قال: إن المقصود بالرقيم هو شيء كتب فيه كتابة تتعلق بهم، بعضهم يقول: كُتب فيه أسماؤهم، وبعضهم

يقول: كتب فيه خبرهم وقصتهم، وهذا المعنى رجحه ابن جرير وكذلك الشنقيطي، باعتبار الرجوع إلى أصل المادة.

أما الروايات الإسرائيلية فتقول: إن هذا اسم كلب لهؤلاء، أو أنه اسم القرية، أو اسم الوادي أو نحو ذلك، وكل هذا لا دليل عليه، ولا يعتمد عليه، ولم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في ذلك يمكن أن يعول عليه، فيرجع بعد ذلك إلى أصل المعنى اللغوي للرقيم، فالرقم هو الكتابة، ((إلا رقْماً في ثوب))[٣] فهذا أصل الرقم.

يقول: عن ابن عباس في قوله: {الرقيم}: كان يزعم كعب -يعني كعب الأحبار- أنها القرية، ويقصد القرية التي ليس فيها الكهف، وإنما القرية التي خرجوا منها، قرية هؤلاء الفتية، وبعضهم يقول: الجبل الذي فيه الكهف، ومن أهل العلم من يستبعد هذا.

وبعضهم يقول: لوح من حجارة أو رصاص كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف وأسماءهم.

ولاحظوا هذه الأقوال المختلفة، فمن قائل: إنه اسم الكلب، ومن قائل: إنه اسم القرية أو اسم الجبل أو لوح، وكل هذا في غاية الاختلاف والتباين، والسبب أن الاعتماد فيه على الروايات الإسرائيلية، وهذه الروايات الإسرائيلية مليئة بالتحريف والكذب، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [سورة الإسراء(٣٦)] كيف يكون الرقيم؟ قائل يقول: إنه اسم الكلب، وقائل يقول: إنه اسم الوادي أو أنه لوح كتب فيه كذا وكذا، هذه الأقوال لا يمكن أن تتفق، ولا يمكن أن يجمع بينها ويقال: والله الرقيم يصدق على ذلك كله، وأن الكلب اسمه الرقيم، والوادي اسمه الرقيم والجبل كذلك، هذا ما يمكن، وهذا كثير فيما وجد من المرويات الإسرائيلية، والسبب في ذلك أنها محرفة.

يقول: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١٠-١١)].

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ} [سورة الكهف(١١)] التعبير بالضرب يشعر أو يدل على شدة اللصوق والعلوق، ووقوع ذلك عليهم، وعلى تمكنه منهم، كما قال الله -عز وجل-: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ} [سورة آل عمران(١١٢)].

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] قال: أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، ضرب عليهم النوم، وهذا النوم تمكن منهم غاية التمكن، حتى حال بينهم وبين سماع الأصوات {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] ما عادوا يسمعون شيئاً، صاروا مستغرقين في نومهم حتى صاروا لا يسمعون {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] والسنين هنا منصوبة على الظرفية، وذكر العدد {سِنِينَ عَدَدًا} ليدل على الكثرة، وذلك أن القليل لا يحتاج إلى عد، وإنما الذي يحتاج إلى عد وحساب هو الكثير من الأشياء.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة (٧/ ١٦٨-٨٥) ومسلم في كتاب اللبــاس والزينــة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة (٣/ ١٦٦٥- ٢١٠٦).

والله -عز وجل- قد بيّن هذه المدة: أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، وازدادوا تسع سنين، وهذا لا يكون إلا بمعجزة، وأمر خارق للعادة، قال: أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، والمقصود سددنا آذانهم عن سماع الأصوات بالنوم الغالب الذي يحول بينهم وبين السماع.

يقول: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم... إلى آخره، ولهذا قال: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] المختلفيْن فيهم {أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)].

{بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ} [سورة الكهف(١٢)] الله -عز وجل- كما هو معلوم- يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة(٤٧)] ويقول عن المنافقين: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر(١٢)] هذا فيه علم ما لم يكن أنه لا يكون، وأنه لو كان كيف يكون، هم وعدوهم بأنكم إن أخرجتم لنخرجن معكم، وأنكم إن قوتلتم لننصرنكم، فالله -عز وجل- أخبرهم أنهم كذبة في هذا القول، وأنهم إن أخرجوا لا يخرجون معهم، وأنهم إن قوتلوا لا يقاتلون معهم، ولا ينصرونهم، وأنهم إن نصروهم -مع أنهم ما نصروهم- ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون.

فالله عالم بكل الأشياء، ويقول عن الكفار الذين يطلبون الرجعة في الآخرة: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام(٢٨)] فالله لا تخفى عليه خافية، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] ما المقصود بهذا العلم ؟ {بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ} أي: بعثناهم لنعلم علماً يكشف للناس حقيقة هؤلاء، أو المدة التي جلسوها في الكهف {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] هذا علم الظهور والانكشاف وإلا فالله -عز وجل- يعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، لا يخفى عليه من هذا شيء، ولكن المقصود هنا العلم الذي يحصل به الظهور والانكشاف، هذا المقصود: يعني للناس، وإلا فالله يعلم، كما قال الله -عز وجل-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ} [سورة التوبة(١٦)] {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران(١٤٢)] والمقصود بالعلم علم الوقوع، وليس ذلك يعني أن الله -عز وجل- لا يعلم الصابر من غير الصابر، الله يعلم ذلك، ولكن الشيء والأمر الذي يحصل به الجزاء والحساب هو الوقوع والحصول، فهذا المقصود بمثل هذه الآيات، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ} [سورة محمد(٣١)] بمعنى العلم الذي يترتب عليه الجزاء والحساب وهو وقوع ذلك الشيء وحصوله، وتحققه في الواقع، فالله -عز وجل- لا يحاسب الناس بمقتضى العلم بما علمه منهم، وإلا فالله قبل أن يخلقهم عالم بما يكون منهم، ولكنه لا يحاسبهم بذلك، وإنما يحاسبهم بما جرى وحصل ووقع منهم.

فمثل هذه المواضع ينبغي أن يتبين طالب العلم المعنى المراد منها، ولا يلتبس عليه ذلك {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفيْن فيهم، يبقى النظر في هذين الحزبين من المقصود بهم ؟ بعضهم يقول: أهل الإيمان وأهل الكفر، وبعضهم يقول: هما فريقان من أهل الإيمان اختلفوا فيهم، من أهل زمانهم المعاصرين لهم، وبعضهم يقول: إن هذين الحزبين المشار إليهما في الآية هم من أهل الكهف؛ لأن هؤلاء

اختلفوا، فمنهم من قال: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [سورة الكهف(١٩)] وبعضهم قال: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} [سورة الكهف(١٩)] فما اتفقوا على مدة متحدة معينة في بقائهم هذا.

وهذا القول لعله أقرب هذه الأقوال، وعلى كل حال بعضهم يقول: بين أصحاب الكهف وبين من فروا منهم {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية، وإذا نظرت تجد أن أحد هذين القولين مستلزم للآخر، إذا عرفوا الغاية عرفوا المدة، والزمن الذي مكثوا فيه في هذا الكهف.

قوله تعالى: {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] (أحصى) هذه تحتمل أن تكون أفعل تفضيل، يعني أكثر إحصاءً، ومن أهل العلم من يمنع في مثل هذا أن يكون للتفضيل، وبعضهم يقول: أحصى فعل ماضٍ {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى} [سورة الكهف(١٢)] المدة التي بقوا فيها في هذا الكهف.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا} [سورة الكهف(١٣-١٦)].

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- شباباً.

وأما المشايخ من قريش فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا.

وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني: الحلَق، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم. فــ{آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} [سورة الكهف(١٣)] أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

{وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [سورة الكهف(١٣)] استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [سورة الكهف(١٣)] كما قال: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} [سورة محمد(١٧)] وقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة التوبة(١٢٤)] وقال: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ} [سورة الفتح(٤)] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم -عليه السلام-، والله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم؛ لمباينتهم لهم.

وقد تقدم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن قريشًا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء،

وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

سبق أن الرواية لا تصح في هذا.

وقوله: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(١٤) سورة الكهف] **يقول تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: "دقيانوس" وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.**

هذا مأخوذ من الروايات الإسرائيلية أيضاً، فلا يعتمد عليه، وبعضهم يذكر أيضاً أخباراً أخرى مشابهة لهذا.

يقول: إن هؤلاء قاموا فتكلموا بذلك لما اجتمعوا، وعرض بعضهم على بعض ما وقع في نفسه، مما يعاب من دين قومه، فلما اتفقوا في هذا النظر وهذه النتيجة التي توصلوا إليها، وهداهم الله -عز وجل- لها قاموا جميعاً، فقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(١٤)]، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قاموا فقالوا ذلك بين يدي الملك، وأن الملك لما علم بهم دعاهم قبل ذهابهم إلى الكهف، ثم أمهلهم من أجل أن يرجعوا، فيقال: إنهم قاموا بين يديه، وقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(١٤)] لما سألهم عما بلغه عنهم، فأقروا بذلك، وأعلنوه، فأمهلهم مدة من أجل أن يراجعوا أنفسهم في هذا، فلجئوا إلى الكهف، وحصل ما حصل، هكذا قال بعضهم، وكل هذا مما أخذ عن بني إسرائيل.

وتفسير {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] بمثل هذا ليس بلازم، فذكْر القيام لا يشترط فيه الوقوف، وإنما قد يكون المقصود به النهوض بأمر من الأمور {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] فإن التعبير بالقيام لا يستلزم الوقوف، وكذلك التعبير بالقول لربما يعبر بالقول عن الفعل، وبالفعل عن القول، تقول: قال بيده هكذا، يعني حركها، تقول: قال بيده، فهذا فعل، وكذلك {إذ قاموا} فالقيام فعل {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] فليس المقصود القيام على القدمين، وإنما أنهم انبروا لهذا، ونهضوا به، فاعتقادهم لذلك، وإقرارهم بهذه القضية ونحو ذلك هو قيام منهم، تقول: فلان قام بالأمر، وقام بالدعوة، وقام بأمر الله ((القائم على حدود الله))[٤] ليس معناه الواقف حقيقة على قدميه.

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة، والاستهام فيه (٣/ ١٣٩- ٢٤٩٣).

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[٥] وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٦].

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

الجنسية علة الضم المقصود به: أن التجانس والتشاكل هو علة للاجتماع والتآلف، فإذا رأيت اثنين بينهما تآلف فهذا يعني أنه يوجد أمر مشترك، وحتى إنه يذكر في هذا أن حمامة وغراباً وجدا معاً، فنظر فإذا بالحمامة فيها عرج، كما أن الغراب فيه عرج خلقة، الغراب إذا مشى على رجليه فيه عرج، فقيل: هذا هو الجامع المشترك.

وتجد الناس الذين يلتئمون على بعضهم يوجد بينهم شيء مشترك، إما اشتغال بصنعة، أو تجارة، أو نجوى، أو أنه يوجد بينهم قرابة، أو أنهم من أهل بلد معين؛ ولهذا سبق في الاقتضاء -اقتضاء الصراط المستقيم- كلام شيخ الإسلام: أن الواحد إذا خرج من بلده إلى مكان غربة وسافر، فوجد أحداً من أهل بلده أنه يكون بينهم من المؤاخاة وقوة الصلة والمصافاة ما لا يقادر قدره، بينما هو في بلده حينما يراه ويرى أمثاله لربما لا يسلم عليه، فإذا رآه في مكان الغربة حصل له ميل إليه ومؤاخاة، فالجنسية علة الضم والتجانس.

---

٥ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ١٣٣-٣٣٣٦).

٦ - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ٢٠٣١- ١٥٩) (٢٦٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله" الآية ١٦إلى قوله تعالى"ولملئت منهم رعبا" الآية ١٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة قصة أصحاب الكهف:

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يُشرَك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء، السموات والأرض وما بينهما.

وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله -عز وجل-؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا} [سورة الكهف: (١٤)]، ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا؛ ولهذا قال عنهم: {لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [سورة الكهف: (١٤)]، أي: باطلاً وكذبًا وبهتانًا.

{هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ} [سورة الكهف: (١٥)] أي: هَلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحًا صحيحًا؟! {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [سورة الكهف: (١٥)].

يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: ((يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن))[1] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [سورة الكهف: (١٦)]، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته}

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب الفتن، باب ما يرخص فيه من البداوة في الفتنة (٤ / ١٦٦)، برقم: (٤٢٦٩)، وصححه الألباني.

[سورة الكهف: (١٦)] أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم **{وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم}** [سورة الكهف: (١٦)] **الذي أنتم فيه، {مِرفَقًا} أي: أمرًا ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرابًا إلى الكهف، فأَوَوْا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه الصديق -رضي الله تعالى عنه- حين لجأا إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين رأى جَزع الصديق في قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))[٢]، وقد قال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [سورة التوبة: (٤٠)]، **فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالسياق الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في سبب وصفة مخرج هؤلاء الفتية إنما هو متلقى عن الأخبار الإسرائيلية، وكما هو معلوم أن مثل هذه الأخبار لا يعتمد عليها، وإنما تذكر للاستئناس، ولا يفسر بها القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٣]، مع أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يُعرض عن كثير من هذه الأخبار الإسرائيلية.

وقول العلامة ابن كثير –رحمه الله–: "**وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: ((يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن)) ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع**".

هذا إجمال يحتاج إلى شيء من التفصيل أكثر من هذا، فإذا وقعت الفتن فالناس إزاء ذلك على أنواع، منهم من لا يصلح له العزلة وينبغي أن يخالط الناس، وهو من يكون سبباً لإطفاء الفتنة وتعليم الناس وبيان الحق لهم والمخرج من هذه الفتنة، دون الدخول معهم فيها، فهذا قد يتعين عليه الخلطة.

والصنف الثاني: هو من إذا لم يعتزل فإنه يدخل في الفتنة، إما لأنه لا يميز بين الحق والباطل أصلاً، أو لأنه يميز من الناحية النظرية، عنده نوع تمييز ولكنه من الناحية العملية لا ينضبط، فيخوض مع الخائضين في الفتنة، فمثل هذا قد يتعين أو يجب عليه أن يعتزل.

والقسم الثالث: هو من لا يدخل في الفتنة ولكنه لا ينفع الناس، إما لأنه ليس عنده من العلم والعمل ما يصلح معه أن يكون محلاً للاقتداء، فإذا قال لم يُسمع، ولا يقتدي به أحد، أو أن الفتنة صارت غالبة بحيث إن الناس لا يعبئون به، ولا ينتفعون بكلامه ولا فعاله، فمثل هذا قد يكون السلامة له في العزلة، فالإنسان لا يأمن الفتن

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة براءة التوبة (٤ / ١٧١٢)، برقم: (٤٣٨٦)، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (١٨٥٤/٤)، برقم: (٢٣٨١).

[٣] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٢٧٥/٣)، برقم: (٣٢٧٤).

أن يقع فيها، وكما جاء في الحديث ((**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**))[٤].

فينبغي للمؤمن دائماً أن يسأل ربه الثبات على الحق والتسديد والهداية، وهو يقول دائماً في كل ركعة: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [سورة الفاتحة: (٦)]، فالفتن خطافة، وهي شديدة العلوق بالقلب، وما حصل في زمان الصحابة -رضي الله عنهم- وما بعدهم ومن بعدهم من أهل القرون المفضلة لعبرة لكل من يعتبر، فتجد الرجل لربما يكون من أئمة الدين، وتجد زوجته وخادمه وولده كل واحد منهم على مذهب، هذا من الخوارج، وهذا من المرجئة، وهذا من القدرية، وهذا كان موجوداً في ذلك الزمن فما بالك بزماننا!.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}** [سورة الكهف: (١٦)] الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعاً بمعنى لكن، ويحتمل أن يكون متصلاً، والاستثناء المتصل هو ما كان المستثنى فيه من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع، فإذا كان هؤلاء القوم يعبدون الله -عز وجل- ويعبدون آلهة أخرى، فيكون الاستثناء متصلاً، **{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}** من هذه المعبودات، وإذا كان أولئك لا يعبدون الله أصلاً وإنما يعبدون آلهة أخرى فيكون الاستثناء منقطعاً، فتكون "ما" هذه دالة على العموم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته}** [سورة الكهف: (١٦)]، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، وغير ذلك مما يحصل لهم من ألطاف الله -عز وجل-، **{وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم}** [سورة الكهف: (١٦)] الذي أنتم فيه، والأمر هنا بمعنى الشأن؛ لأن الأمر يأتي بمعنى طلب الفعل.

{مِرفَقًا}، أي: أمرًا ترتفقون به، يعني وتنتفعون، يهيئ لكم حالاً يحصل لكم بها الانتفاع والصلاح.

ثم ذكر واقعة الغار في هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكيف أن الله -تبارك وتعالى- عمّى ذلك على المشركين.

والفتية خرجوا من قومهم إلى هذا الغار، وهذا الغار في محل ليس ببعيد عن تلك البلدة التي خرجوا منها، وأياً كانت هذه البلدة، وقد ورد اسمها في بعض هذه الروايات الإسرائيلية، يقال لها: طرسوس، وبلاد الشام كما هو معلوم ليست بلاداً كبيرة واسعة الأرجاء، بحيث إنه يمكن أن يعتزل الإنسان عن الناس في مكان لربما لا يصلون إليه إلا بغاية الصعوبة، فبلاد الشام مليئة بالبشر والقرى، ليست صحراء، فمكان الغار قريب جدا، بدليل أنهم بعثوا واحداً منهم يأتيهم بالطعام من القرية، ومع ذلك بقوا هذه المدة، ثلاثمائة وتسع سنوات، ولم يصل أحد إلى هذا الكهف، فعادةً الناس يعرفون البلد حجراً حجراً، ويعرفون الكهوف والغيران، ويعرفون مواقع الماء في الجبال، وهذا يوجد حتى في البيئات الصحراوية كما عندنا، فكيف ببلد كالشام، فهذا مستغرب، فهو آية من آيات الله -عز وجل-، حيث في هذه المدة الطويلة لم يأتهم أحد، فلو تأملت في حال جبل النور

---

[٤] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين (١/١٢٨)، برقم: (١٤٤).

والغار وموضع الغار، فكيف توصلوا إليه برأس هذا الجبل الذي تعرفون حاله وصفته، كيف وصل الناس إلى ذلك المكان وعرفوا أنه يوجد فيه غار ؟ الناس ما يتركون حجراً إلا ويفتشون عنه.

فهذه آية من آيات الله، فإذا أراد الله شيئاً كان، وقد أتى الكفار إلى فم الغار الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه ولم يستطيعوا أن يروه.

وموسى -صلى الله عليه وسلم- ومن معه لما وقع لهم التيه بقوا في صحراء ليست واسعة الأرجاء إطلاقاً، بقوا فيها نحواً من أربعين سنة -بحسب الوقف والوصل في الآية- حتى قيل إنهم كانوا يمشون سائر النهار، فإذا نزلوا في الليل في مكان، فإذا أصبحوا إذا هم بالمكان الأول، وهذه الصحراء التي تاهوا فيها كان معهم أدلاء بلا شك، وحتى لو لم يوجد معهم أحد، فإن الناس إذا توجهوا من أي جهة سيخرجون من هذه الصحراء خلال أيام، من أي اتجاه بلا استثناء، ومع ذلك يبقون هذه المدة الطويلة، ومعهم نبي من أجلّ أنبياء الله -عز وجل- ويظللون بالغمام وينزل عليهم المن والسلوى، فإذا أراد الله شيئاً لا بد أن يكون، أذكر هذا من أجل أن من الناس من يقول: أين الدجال الذي في الجزيرة الذي ورد في قصة تميم الداري؟ وأين يأجوج ومأجوج إذا ما كانوا هم الصينيين؟ لماذا لا يطلع عليهم الناس، أين الأقمار الصناعية ؟ نقول: إذا أراد الله شيئاً كان، لا يعجزه شيء.

قوله: **{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}** [سورة الكهف: (١٧)] **وهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه {ذَاتَ الْيَمِينِ} أي: يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: {تَزَاوَرُ} أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: {وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، ولله الحمد.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ}**، التزاور هو الميل، ومن فسره بأنه الانقباض تقول: فلان فيه ازورار عن فلان، أي انقباض وإعراض، بمعنى أن الشمس تعرض عنه، فهو راجع إلى معنى الميل، وقد كان باب الكهف من جهة الشمال، فالشمس عن يمينهم وقت الطلوع، وعن يسارهم وقت الغروب، فالشمس لا تأتيهم من ناحية الجنوب بطبيعة الحال، ولا تأتيهم من ناحية الشرق، ولا الغرب، باعتبار أن مدخل الكهف من ناحية الشمال فلو كان مدخل الكهف من ناحية الشرق فهي لن تأتيهم إذا كانت بعد الزوال، ولو كان من جهة الغرب فهي لن تدخل عليهم في أول النهار، لكن هذه في أوله وآخره، فدل على أن باب الكهف إلى جهة الشمال.

والمقصود أن ينظر الإنسان في قدرة الله -عز وجل-، وما هيأ لهم من أمرهم من ألوان الألطاف وما نشر لهم من رحمته -تبارك وتعالى- فجعل الشمس تصيب الكهف في هذين الوقتين، أضف إلى ذلك ما قصه الله -عز وجل- من تقليبهم من أجل أن تبقى أبدانهم على حال من الاعتدال، فمعلوم أن الإنسان إذا بقي على ناحية واحدة فإن جسمه يتضرر.

فالذي يصاب بأمراض مزمنة ولا يستطيع أن يتحرك ويضطر للبقاء على ظهره يحتاج أن يقلّب؛ لأن هذا الإنسان يكون عرضة لأدنى الأشياء، فالمقصود أن تقليب هؤلاء الفتية لتبقى معه أبدانهم محفوظة في حال من الاعتدال، وكل هذا مما نشره الله -عز وجل- لهم من رحمته.

قال: {وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ}، القرض بمعنى القطع، ولهذا يقال: مقراض أو مقرض للآلة التي تقطع، والمعنى {تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي: تعدل عنهم وتتركهم.

قوله: {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ} مكان متسع لا تصيبهم الشمس، والله -عز وجل- يصرف عنهم الشمس فلا تقع عليهم فتضر أجسامهم مع أنهم في مكان متسع من الكهف، وليس المقصود أن حواجز الكهف وجوانب الكهف الطبيعية هي التي منعت الشمس، وإنما امتناع دخولها ووقوعها عليهم آية من آيات الله -عز وجل-، فالله صرف ذلك عنهم مع أنهم في مكان متسع، ليس المقصود أنهم في الناحية الشمالية، وأن جوانب الكهف الأيمن والأيسر والجنوبي تمنع من دخول الشمس وإصابتها لأجسامهم، ولكن الله صرف عنهم الشمس بأمر غير معتاد، وهذا المعنى هو الذي رجحه جماعة من أهل العلم من المتقدمين، ومن المتأخرين، منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، واختاره الإمام الشوكاني، والزجَّاج، وهذا القول له وجه قوي من النظر؛ لقوله -عز وجل-: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ}.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- إليه، فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تركت شيئًا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به))[5]، فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ} قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل {ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} أي: في متسع منه داخلا بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما.

{ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} ثم قال: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} الآية أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [سورة الكهف: (١٨)].

---

[5] - مصنف عبد الرزاق (١١ / ١٢٥)، برقم: (٢٠١٠٠).

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البِلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد.

قوله: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} فسره -رحمه الله- بأن أعينهم مفتوحة، وبعضهم يقول: إن ذلك لكثرة تقلبهم، يتقلبون كثيراً، فالتقليب حاصل، لكن من نظر إلى النائم وهو يتقلب، هل الناظر إليه يظن أنه مستيقظ بهذا التقلب؟ هذا ليس بلازم، فمن عادة النائم أنه يتقلب، وإنما الذي يُظن أنه مستيقظ هو من كانت أعينه مفتوحة؛ لأن هذا خلاف العادة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير: الوصيد: الفِناء. وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب، والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} [سورة الهمزة: (٨)] **أي: مطبقة مغلقة. ويقال: "وَصِيد" و "أصيد".**

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

وصيد وأصيد، هما لغتان للعرب يعبرون بهما، فبعضهم يعبر بهذا، وبعضهم يعبر بهذا، بعضهم يقول: الأصيد وبعضهم يقول: الوصيد، وما جاء في عبارات أهل العلم من قول بعضهم بعتبة الكهف، أو البعض: بأنه بباب الكهف، لا يقصد أن الكهف له عتبة، أو أن الكهف له باب، وإنما يقصد في موضع العتبة عند المدخل، أو في موضع الباب وإن لم يكن للكهف باب، ولهذا بعضهم يعترض بعض الاعتراضات التي لا محل لها، فيقول: الكهف أصلاً ليس له عتبة، والكهف أصلاً ليس له باب، والمقصود هو موضع الباب وموضع العتبة كما جرت العادة أن الكلب يجلس في ذلك المحل للحراسة بالوصيد، فالوصيد هو مدخل الكهف.

قال ابن جريج يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كان كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين فصحبه كلبه، فالله أعلم.

على كل حال هذا لا فائدة منه، والمقصود أن معهم كلباً، وبعضهم يقول: مروا براعٍ معه كلب فتبعهم، وبعضهم تكلم على لون الكلب واسمه، واختلفوا في اسمه، فنقول هذا لا فائدة فيه، وهو اشتغال عن المقصودِ وموضعِ العبرة بمثل هذه الأمور التي لا أثر لها، لكن اللفتة التي ذكرها الحافظ ابن كثير –رحمه الله– لفتة جيدة، فالكلب صحبهم فوقع له مثل هذه النومة الطويلة، فإذا كان الكلب وهو بتلك المنزلة السافلة المنحطة قد

استفاد من صحبة الأخيار فما بالك بغيره؟ فإن الإنسان بصحبته للأخيار ينال من الخير ما لا يخطر له على بال.

وقوله تعالى: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [سورة الكهف: (١٨)]، أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء -تبارك وتعالى- فيهم، لما له في ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

قوله: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} قول الحافظ ابن كثير: "**أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس**".

الله –تبارك وتعالى– عمّى عنهم أبصار الناس فلم يصلوا إليهم أصلاً، وإلا فلو رآهم الناس، ورآهم واحد وذهب وأخبر الناس لتجمعوا ينظرون إليهم، فليست القضية -والله أعلم- من أجل أن لا تمسهم يد لامس، فالناس ما رأوهم حتى نقول: تركوهم فزعاً، ولذلك لما وقفوا على أمرهم فيما بعد اجتمعوا وقالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)].

فقوله: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}، ربما يكون لما كانوا عليه من هذه الآية التي ذكرها الله -عز وجل- فعيونهم مفتوحة وهم في حال من الاستغراق والنوم، أو لما ألقى عليهم من المهابة، أو غير ذلك مما يعلمه الله -عز وجل.

ومن من أهل العلم من قال: إن ذلك بسبب تغير أحوالهم من طول الشعر والأظفار، لما جلسوا هذه المدة ثلاثمائة وتسع سنوات وكيف تكون حال الإنسان إذا ترك شعره فيها، ولم يقص أظفاره، كيف تكون لحيته وكيف يكون شاربه، لكن هل كانت أجسادهم تنمو في هذه المدة أصلاً ؟

فلو أن هؤلاء بعدما استيقظوا بعد ثلاثمائة وتسع سنوات، وقاموا ولحاهم بيض وهم في هيئة من عاش هذه المدة فعلاً، فلماذا لم يفزعوا هم من أنفسهم حينما استيقظوا؟ فظاهر الآية والسياق أن ذلك لم يحصل منهم، بل لم يعرفوا المدة التي بقوها حتى إن بعضهم قال: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}.

فلو رأى الواحد فيهم أن شواربه أمتار، وأن لحيته أمتار، وأن شعره لربما يبلغ عشرات الأمتار، لاستغرب وخاف، فالذي يظهر أنهم قاموا بنفس الهيئة، وظنوا أن المدينة هي المدينة، وأن العملة هي العملة، وأن الناس هم الناس ولا زالوا، {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف: (٢٠)]، فلا يعقل أن يكون حصل لهم التغير -مما يحصل للإنسان عادة حينا ينمو في هذه المدة الطويلة- ولم يحصل لهم استغراب من هذا، ولم يدركوا أنهم جلسوا مدة طويلة إطلاقاً.

ولذلك ذهبوا إلى المدينة باعتبار أنها كما تركوها، ولو كانوا في هيئة أخرى لكانوا بحاجة إلى إصلاح الحال قبل الذهاب إلى الناس ومقابلة الناس، بل قد يفزعون هم من أنفسهم.

والله -عز وجل- على كل شيء قدير، فقد تحمل الأم خمس سنوات وأكثر، ويخرج الجنين مثل الجنين الذي تحمل به أمه تسعة أشهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"وكذلك بعثنهم ليتساءلوا بينهم" الآية ١٩ إلى قوله تعالى"ولا تستفت فيهم منهم أحدا" الآية ٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف: (١٩-٢٠)] **يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: {كَمْ لَبِثْتُمْ}، أي: كم رقدتم ؟ {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: {أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}، أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ} أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد، {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا} أي: أطيب طعاماً، كقوله: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا}**[النور:٢١] **وقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}**[الأعلى:١٤] **ومنه الزكاة التي تُطيب المال وتطهره.**

وقوله: {وَلْيَتَلَطَّفْ} أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتخَفَّ كل ما يقدر عليه، {وَلا يُشْعِرَنَّ} أي: ولا يعلمن، {بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} أي: إن علموا بمكانكم، {يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا}** [سورة الكهف: (١٩)] كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيه إجمال، أي: أطيب طعاماً.

وابن جرير -رحمه الله- يرى أن المعنى أي: ينظر أيَّ أهل المدينة أطيب طعاماً وأحل من جهة المكاسب وأطهر، وهذا القول يختلف عن قول من قال: **{أَزْكَى طَعَامًا}**، أي: ينظر في الأطيب من الطعام من حيث هو.

ولكن لا يخفى أن بين القولين ملازمة، فإذا كانت مكاسب هذا الطعام محرمة فإنه يكون حراماً بهذا الاعتبار، يقال: {أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا} أي: من جهة مكسبه، ومن حيث ذاته حيث هو، فيأتي بالطعام الطيب الذي لا شبهة فيه.

وعلى كل حال بهذا الاعتبار يمكن أن يفهم المعنى، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة**".

{يَرْجُمُوكُمْ} الرجم يحتمل أن يكون المقصود به الرجم بالحجارة كما قاله بعض أهل التفسير، ومنهم من يقول: أي: يرجموكم بالشتم بالقول، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وسبق الكلام على الاستعاذة وأن المراد بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يحتمل أن يكون المرجوم فعيلاً بمعنى مفعول أي مرجوم، والشيطان ليس المراد أنه مرجوم بالحجارة، وإنما يرجم بالسب واللعن والشتم وما إلى ذلك، ويحتمل أن يكون بمعنى راجم، أي: أنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر والأفكار السيئة.

وهكذا في قوله تعالى: {لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [سورة مريم: (٤٦)]، يحتمل أن يكون المعنى: {لَأَرْجُمَنَّكَ} يعني بالقول، ويحتمل أيضاً أن يكون بالحجارة.

قوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)].

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي: أطلعنا عليهم الناس، {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا} ذكر غير واحد من السلف: أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه...

في قوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [سورة الكهف: (٢١)]، {لِيَعْلَمُوا} يحتمل أن يكون ذلك عائداً إلى أصحاب الكهف ليعلموا قدرة الله -عز وجل- من حيث اللفظ، ولكنه في غاية البعد؛ لأن ذلك ربط بقوله: {أَعْثَرْنَا}، ويأباه السياق تماماً، فلو أنه قال: كذلك بعثناهم ليعلموا أن وعد الله حق فهذا واضح.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس.

وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة، ثم قال: إن تعجيل الخروج من

هاهنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً، فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة ؟ لعله وجدها من كنز، ومن أنت ؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله، وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف -ملك البلد وأهلها-، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي، فدخل فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل واسمه يندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله -عز وجل-، فالله أعلم.

هذا كله ملتقى عن بني إسرائيل.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان، {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم.

ويحتمل: {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} يحتمل أن المراد بذلك أصحاب الكهف، أي: في أصحاب الكهف، والله أعلم.

كثير من المفسرين يقولون: إن المراد بذلك البعث والقيامة، فأراد الله أن يبين لهم وأن يقررهم {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ}، وإذا كان المعنى كذلك فلا يصح معه أن يقال بأن الملك الذي أدركهم كان مسلما، وأن الأحوال قد تبدلت بعد أولئك الكفار.

ويحتمل أن يكون المعنى يتنازعون في شأن القيامة في إثباتها ونفيها، ويحتمل: يتنازعون بينهم أمرهم، أي: أصحاب الكهف حينما عثروا عليهم.

قوله: {فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} **أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم،** {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا}.

قوله: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} يحتمل أن يكون المعنى متصلاً لفظاً ومعنى، يعني: أن ذلك من قول هؤلاء القائلين ومن تمامه.

ويحتمل أن يكون ذلك من الموصول لفظاً المفصول معنى، ويكون ذلك من قول الله -عز وجل-: {فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا}، قال الله: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ}، ولكن الأول أقرب، والأصل في الكلام الاتصال، وأنه من مقول متكلم واحد.

قوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)] الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟

الراجح أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، يعني: الملك ومن معه، قالوا: لأن هؤلاء هم أهل الغلبة، وبعضهم يقول: الذين قالوا ذلك هم أهل الإيمان، وهذا يخالف قول من قال بأن الملك كان مسلماً، ولا دليل على هذا، ويزعم هؤلاء الذين قالوا بأن ذلك من قول أهل الإيمان أنهم ذكروا المسجد: **{لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}** والواقع أن مثل هذا لا يصدر من أهل الإيمان بل يكون من القبوريين المشركين والوثنيين الذين يعبدون الأضرحة والمشاهد وما أشبه هذا؛ ولهذا إذا قلنا بأن ذلك لا يكون من أهل الإيمان فإن هذا الفعل يكون من أهل الإشراك ولا عبرة بقولهم ولا فعلهم، وهذا هو الأقرب، والدليل على ذلك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[1]، وقد يقول قائل: لعل هذا كان جائزاً في زمانهم وفي عهدهم، ولكن هذا الفهم أو الاحتمال غير صحيح، بدليل اللعن كيف يكون جائزاً في زمانهم ويلحقهم اللعن بسببه؟ لا يمكن، فعن عائشة -رضي الله عنها-: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[2].

ففعل هؤلاء غير محمود، ثم إن الشريعة جاءت بتحريم الشرك وذرائع الشرك، ولا شك أن بناء المساجد على القبور من أعظم ذرائع الشرك، وعليه يكون المعنى في قوله: **{قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}** أنه من كلام أهل الكلمة والنفوذ وهم غير مسلمين، ولا يفهم من هذا أن الملك كان مسلما، كما ذكرت الروايات الإسرائيلية .

الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، يحذر ما فعلوا))[3]، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يُخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (١ / ٤٤٦)، برقم: (١٢٦٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١ / ٣٧٦)، برقم: (٥٣٠).

٢ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (١/١٦٧)، برقم: (٤٢٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١/٣٧٥)، برقم: (٥٢٨)، واللفظ للبخاري.

٣ - جاء الحديث عند البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣ / ١٢٧٣)، برقم: (٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١/٣٧٧)، برقم: (٥٣١)، بلفظ: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). يحذر ما صنعوا.

الذي وُجد ليس قبر دانيال، وإنما الذي وجد هو دانيال، كان في بيت المال عند الفرس، رجل مسجى لم يتغير فيه شيء، وكانوا إذا أجدبوا خرجوا يستسقون به، يقال: إن هذا هو دانيال وعنده رقعة، يعني: عنده كتاب أو ورق أو جلد مكتوب فيه، ويقال: إنه من أنبياء بني إسرائيل ممن أخذهم بُخْتُنَصَّر في خراب بيت المقدس، أخذ كثيراً من أشرافهم أولادَ الأنبياء وخلقاً لا يحصيهم إلا الله، وقتل من قتل وأخذ هؤلاء معه إلى العراق، يقال: إن من جملة من أخذهم دانيال، ويقال: إنه حبسه في بئر، والله تعالى أعلم.

وقد أمر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- أن يُحفر له بالليل قبور متعددة ويوضع في واحد منها ويعمّى خبره، وهذا الذي قد حصل.

وهناك قاعدة ذكرها أهل العلم، وهي: أن ما يذكره الله -عز وجل- في القرآن من حكاية قول القائلين، فإما أن يعقبه بما يشعر برده أو يسكت عنه، فإذا عقب بما يشعر برده فهذا واضح في بطلانه، إما أن يذكر ذلك قبله أو معه أو بعده، وإما أن يسكت عنه، فدل ذلك على صحته، غالباً، فمثلا قوله –تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [سورة البقرة:(١١٦)]، {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة البقرة: (١١١)]، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة البقرة: (١١٣)]، وتارة يذكر ما هو حق وباطل: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [سورة الأعراف: (٢٨)]، فيُبطل أحد الأمرين ويسكت عن الآخر مما يدل على صحته: {قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: (٢٨)]، وسكت عن الثانية: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا} فدل على صحتها، وسيأتي في قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [سورة الكهف: (٢٢)]. قوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} دل على بطلان هذه الأقوال.

ثم قال: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} [سورة الكهف: (٢٢)]]، ولم يقل: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ}، فاستنبط جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام، ومنهم الحافظ ابن كثير أن ذلك هو الصحيح؛ ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وبعض التابعين إنهم من القليل الذين علموه.

فقوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)]، لم يعقب الله –تبارك وتعالى– على بطلان هذا القول، وقد احتج القبوريون على صحة فعلهم في عبادة القبور بهذه الآية، ويرد عليهم من وجهين:

الأول: أن القواعد أغلبية، فنقول في القاعدة: هي أغلبية، يعني: إن سكت عنه لم يذكر معه أو قبله أو بعده ما يدل على بطلانه، فهذا يدل على صحته غالباً وليس دائماً، فالقواعد لها مستثنيات فيكون هذا واحداً من الصور الخارجة عن القاعدة.

الثاني: لو فرض أن عبادة القبور كان جائزاً في شريعتهم، فإنه لا يجوز في شريعة من الشرائع أن يعبد غير الله -عز وجل-، وهذا قد حرم بهذه الشريعة، وهذه الشريعة أكمل الشرائع، وفيها من سد الذرائع الموصلة إلى الشرك ما ليس في غيرها، فحرمه الله -عز وجل- علينا، وشرع من قبلنا إذا وُجد في شرعنا ما يدل

على تحريمه ومنعه فلا شك قطعاً بالاتفاق أنه ليس بشرع لنا، هذا أمر متفق عليه، وإن اختلف في أصل القاعدة. فلا يترك المنصوص الصريح الواضح لأمر فيه احتمال، لا يجزم به.

قوله: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٢٢)]، **يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعَّف القولين الأولين بقوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.**

وقوله: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقَّفنا.

وقوله: {مَا يَعْلَمُهُمْ إلا قَلِيلٌ} أي: من الناس، قال قتادة: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنا من القليل الذي استثنى الله -عز وجل-، كانوا سبعة.

وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخرساني عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله -عز وجل-، ويقول: عدتهم سبعة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَا يَعْلَمُهُمْ إلا قَلِيلٌ} قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

قال تعالى: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، {وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي: من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا} [سورة الكهف: (٢٢)]، أي: سهلاً هيناً، المقصود أن الإنسان لا يتعمق في هذا ولا يكثر من الجدل والتمحل فيه، وإنما يذكر ما عنده أو ما عرفه في هذا مما أوحى الله -عز وجل- إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- دون الدخول معهم في مراء في هذه القضية التي لا علم لهم بها، ولا يترتب عليها كبير فائدة، وهذا أدبٌ أدَّبَ الله -عز وجل- به نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهو القدوة والمقدم بحيث تكون الأمة بهذه الصفة، وأن يترك الواحد المراء والجدل وإن كان محقا.

فالإنسان الذي يريد أن يقرر الباطل أو يدحض الحق أو يريد الجدال لمجرد الجدال أو لشهوة في نفسه وهوى فمثل هذا لا يجادل في الأصل.

وكذلك إذا كانت القضية التي يجادل فيها مما لا يترتب عليه عمل ولا فائدة؛ ولهذا كره السلف البحث والتنقير والجدل فيما يسمى بالأغاليط وصعاب المسائل وتتبع ذلك والاشتغال به، وهكذا الاشتغال بكل ما لا يترتب

عليه عمل أو لا يكاد يقع أصلاً، وهذا الذي وقع فيه المتكلمون بطوائفهم المختلفة فاشتغلوا بالقيل والقال والجدال العقيم الذي لا ينبني عليه عمل ولا يقرب إلى الله -عز وجل- وإنما صار الأمر كما قال بعضهم:

نهاية إقدام العقول عقال ***وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا***وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا***سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فمثل هذا ما الفائدة منه، وإنما ينتج منه الحيرة والاضطراب والتنقل من دين إلى دين واعتقاد إلى اعتقاد، كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل، والمنقول عن السلف كثير في ذم هذا الصنيع والتحذير منه، وأن ذلك لا يجدي على أهله نفعاً؛ ولهذا كان بعض الذين وقعوا في هذا الأمر يقول: أضع الملحفة على وجهي وأصابح الصبح وأقارن بين أقوال هؤلاء وهؤلاء ولا يتبين لي من ذلك شيء، والآخر يقول: أموت وما عرفت إلا أن الممكن يفتقر إلى الموجد والافتقار أمر سلبي، أموت وما عرفت شيئاً، والجويني رجل قد خبر هذه الأمور وعرفها يقول عند موته: أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

فالاشتغال بالجدل في أمر لا فائدة فيه ولا طائل تحته -سواء كان ذلك في أمور الاعتقاد أو في الأمور العملية- هذا أمر لا يجدي، فيعرض الإنسان عنه ولا يقف عنده، ويمكن أن يذكر ما عنده أو ما عرفه دون التعمق وقطع الزمان بمثل هذه الأمور، والله تعالى أعلم.

{وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٢٢)] لأنهم لا يعرفون، لا علم عندهم بذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد أوحى الله إليه، فهو مؤيد بالوحي، كيف يستفتي من هو دونه والأصل أن يستفتي الإنسان من هو أعلم منه؟!.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٥)

من قوله تعالى"وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا" الآية ٢٣ إلى قوله تعالى:"ولا يشرك في حكمه أحدا" الآية ٢٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا } [سورة الكهف: (٢٣-٢٤)].

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله -عز وجل-، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((قال سليمان بن داود -عليهما السلام-: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة)) -وفي رواية: ((تسعين امرأة)) وفي رواية: مائة امرأة- تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له -وفي رواية: قال له الملك- قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته)) وفي رواية: ((ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون))[١].

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: ((غداً أجيبكم))[٢] فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة فأغنى عن إعادته.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد (٤/ ٢٢ -٢٨١٩) (٦٦٣٩) وفي كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- (٨/ ١٣٠)، (٦٦٣٩)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب الاستثناء (٣/ ١٢٧٦ -١٦٥٤).

٢ - انظر: فتح الباري ٦٠٣/١١، وذكره ابن كثير في تفسيره ١٣٢/٥-١٣٣ قال "وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، قال: حدثني شيخ من أهل مصر، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكر قصة اجتماع اليهود بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وسؤالهم عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. وتأخر الوحي عنه

وقوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف(٢٤)] **قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري.**

وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف(٢٤)] **في ذلك.**

قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى ذهب كسائي هذا.

ومعنى قول ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه يستثني ولو بعد سنة، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله، وذكر: ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنَّة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير -رحمه الله تعالى-، ونص على ذلك، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة.

وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله- هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] **أي: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم.**

وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٣-٢٤)] **أن تقول: إن شاء الله.**

وقوله: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] **أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا}** [سورة الكهف: (٢٣)] ما أشار إليه المؤلف -رحمه الله- مما يتعلق بسبب النزول، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لهم بعد سؤالاتهم: ((غداً أجيبكم)) فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، ذكرنا من قبل أن هذا لا يثبت.

قوله: **{وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ}** [سورة الكهف: (٢٤)] "**قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له**"، وكثير من الأصوليين والفقهاء ينقلون عن ابن عباس -رضي الله عنهما– "**يستثني ولو إلى سنة**" وفي بعض الروايات أكثر من هذا، ونقل عن بعض السلف كذلك بعض الأقوال القريبة، وبعضهم يفهم من هذا أن الاستثناء في اليمين يؤثر في اليمين ولو بعد حين.

وهناك كلام للعلماء على مسائل متعددة للاستثناء:

- مسألة الاستثناء بإلا، هل يصح أن يكون المستثنى أكثر من جنس المستثنى منه أو لا ؟ وهل الاستثناء يعود إلى جميع المذكورات قبله سواء كانت جملاً أو كانت مفردات؟

ثم نزول جبريل -عليه السلام- بسورة أصحاب الكهف. كما أورد السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٧٦-٣٧٧ عن مجاهد هذه القصة، وفيه "فأنزل الله هذه الآية ". وقد عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

كما أنهم يتكلمون أيضاً على الاستثناء، هل يشترط أن يكون من متكلم واحد، أو أنه يصح لو أن الاستثناء كان من آخر؟ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما حرم مكة، وأنه لا يقطع شجرها، أو لا يعضد، فقال العباس: إلا الإذخر[٣].

- مسألة اشتراط الاتصال بين المستثنى والمستثنى منه، وقد تكلم العلماء على قضايا دقيقة فيما لو أنه استثنى وعرض له عارض طبيعي، -سعال أو عطاس- فهل يؤثر هذا أو لا يؤثر؟

- لو أنه استثنى بعد سكتة، فلو قال: لك عليّ مائة، ثم سكت، ثم قال: إلا عشرة، هل ينفع هذا أو لا ؟ ولو أنه نوى ذلك بقلبه هل تنفع هذه النية أم لا ؟

وقد ذكر ابن كثير وابن جرير –رحمهما الله- أن مقصود ابن عباس -رضي الله عنهما- ليس من جهة أنه لا يحنث، بمعنى: لو أنه حلف على شيء ثم قال: إن شاء الله بعد سنة، ولم يفعل هذا الشيء الذي حلف على فعله لا يحنث، فلو قال: إن شاء الله بعد سنة فإنه تجب عليه الكفارة، وإنما المقصود أن يتأدب بما أدبه ربه -تبارك وتعالى- وهو أن يعلق ذلك بمشيئته، فلا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل-، فإذا تذكر بعدُ غفلته عن الاستثناء فإنه يقول: إن شاء الله، وإن كان هذا لا يؤثر من جهة الحكم، فهذا مقصود ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبهذا الاعتبار يكون القول بوجوب الاتصال في الاستثناء بين المستثنى والمستثنى منه متوجهاً لا إشكال فيه إلا للعوارض الطبيعية فإن ذلك لا يؤثر.

وقد تكلم العلامة ابن القيم –رحمه الله- على الأثر الوارد عن ابن عباس –رضي الله عنهما-، فقال رحمه الله: "وتفسير الآية عند جماعة المفسرين أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

فغلط عليه من لم يفهم كلامه، ونقل عنه: أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق ثلاثاً، أو قال: نسائي الأربع طوالق ثم بعد سنة يقول: إلا واحدة، أو إلا زينب أن هذا الاستثناء ينفعه، وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير فضلاً عن البحر حبر الأمة وعالمها الذي فقهه الله في الدين، وعلمه التأويل، وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً، وإن ساعد الله أفردنا له كتاباً، والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً ولم يقل: إن شاء الله، فتلبث الوحي، ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ويجوز الاستثناء إلى سنة، وقال عكرمة -رحمه الله-: واذكر ربك إذا غضبت، وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي: إذا نسيت الصلاة فصلِّها متى ذكرتها"[٤].

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر (٩٢/٢)، برقم (١٣٤٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام (٩٨٦/٢)، برقم: (١٣٥٣)..

٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٠٣/٢).

وقال -رحمه الله-: "وقد قال الله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف(٢٣-٢٤)] وهذا ليس بيمين.

ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد، والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: ((غداً أخبركم)) ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً، ثم نزل عليه: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف(٢٣-٢٤)] الآية، أي: إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس -رضي الله عنهما- بصحة الاستثناء المتراخي، ولم يقل ابن عباس قط ولا من دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق أو لعبده أنت حر، ثم قال بعد سنة: إن شاء الله أنها لا تطلق، ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس، أو عن أحد من أهل العلم ألبته، ولم يفهموا مراد ابن عباس".

لو أن قائلاً قال بأنه يصح الاستثناء المتراخي ويؤثر ذلك حكماً، فمعنى ذلك أنه لا كفارة يمين ولا نذر ولا شيء، وكل من نذر ولو بعد سنة قال: إن شاء الله، ثم بعد ذلك لا يلزمه الكفارة ولا الوفاء بالنذر، فهذا ما يقول به أحد؛ فلماذا شرعت كفارة الأيمان ووجب الوفاء بالنذور؟

فالمقصود: أن الإنسان إذا قال في اليمين أو في النذر: إن شاء الله، فإن ذلك لا يلزم معه الكفارة لو وقع الحنث، لا يلزمه كفارة، لكن إذا قال الإنسان: سأفعل الشيء الفلاني غداً، فمن الأدب المتعين أن يقول: إن شاء الله، فإذا نسي أن يقول: إن شاء الله فتذكر بعد حين فإنه يراجع نفسه ويقول: إن شاء الله؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، هذا من حيث الأدب اللائق في الكلام ورد الأمور إلى مشيئة الله -تبارك وتعالى- لا من حيث ترتب الأحكام الشرعية عليه.

قوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] أي: الاستثناء، وكثير من الناس يفهم من هذه الآية من ظاهرها أنه إذا نسي شيئاً أو نسي كلاماً أراد أن يقوله قال: لا إله إلا الله، وبعض الناس يقول: اللهم صل على محمد.

وليس هذا هو المراد، بل المعنى {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله فقل ذلك تأدباً بأن ترجع الأمور إلى مشيئته -تبارك وتعالى-، هذا هو المعنى.

وقوله: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] "أي: **إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك**"، وهذا التفسير جيد، وهو لا يخالف قول من قال: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] أي: من خبر أصحاب الكهف ونبئهم لأقرب من هذا رشداً، وذكر الله -عز وجل- طرفاً من خبرهم، واختلاف الناس فيهم، وعددهم، والمدة التي بقوا فيها في الكهف، وأحال العلم إليه -سبحانه وتعالى-: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف: (٢٦)] فيعلّم نبيه -صلى الله عليه وسلم- هذا الأدب، وبعضهم يقول: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا} [سورة الكهف (٢٤)] يعني: عسى أن يعطيني من الآيات والبينات والحجج على النبوة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، هكذا قال بعض المفسرين، والآية تحتمل المعنيين.

قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٥-٢٦)].

هذا خبَر من الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف (٢٥)].

يعني الذي يُنقل في كتب أهل الكتاب أنهم بقوا ثلاثمائة سنة، وفي القرآن هنا قال: {ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف(٢٥)] المفسرون يقولون: إن الذي في كتبهم ثلاثمائة سنة بناء على السنة الشمسية، والذي ذكره الله -عز وجل- هو بناء على السنة الهلالية بحسابها، فتزيد كل مائة سنة ثلاث سنوات، فثلاثمائة سنة فيها تسع سنوات، يعني: بالحساب الهلالي -السنة القمرية- وهو الحساب المعتبر في الشريعة.

وسبق الإشارة إلى أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان العمل عندهم على السنة القمرية الهلالية.

ويمكن أن يكون الذي في كتبهم مما أحدثوه إذا قيل: إن المعمول به عندهم هو السنة القمرية، وسبق الكلام على هذا في بعض هذه الدروس، وذكْر كلام ابن القيم -رحمه الله-، وما يحتج به لهذا -وهو اختيار شيخ الإسلام- ما ورد في عاشوراء، يوم نجى الله فيه موسى، فهذا ثابت من جهة السنة الهلالية بالعد، العاشر من محرم، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- واليهود يصومونه، يقولون: هذا يوم نجى الله فيه موسى، فلم يعتبر فيه الحساب الشمسي.

وقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] أي: إذا سُئلت عن لبثهم، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(٢٦)] أي: لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه الله عليه من خَلْقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ} [سورة الكهف(٢٥)] الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] قال: وفي قراءة عبد الله: {وقالوا ولبثوا} يعني: أنه قاله الناس، وهكذا قال مُطَرِّف بن عبد الله.

وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف(٢٥)] والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله- والله أعلم.

بعدما أعلمه الله -عز وجل- بمدة مكثهم، ثلاثمائة وتسع سنوات، قال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)].

وقد ذكر ابن جرير –رحمه الله–: أي: أنك إن سئلت عن عددهم، وليس عندك توقيف، قبل أن تُخبَر بهذا، باعتبار أنهم سألوه قبل ذلك فـــ {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [(٢٦) سورة الكهف].

قوله: "**وقال قتادة في قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ} [سورة الكهف(٢٥)] الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] قال: وفي قراءة عبد الله: {وقالوا ولبثوا} يعني: أنه قاله الناس، وهكذا قال مُطرِّف بن عبد الله**".

هذا خلاف ظاهر القرآن، فظاهر القرآن أن هذا من كلام الله، ومن إخباره لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، فيحتجون بهذه القراءة، وهي بطبيعة الحال ليست من القراءات المتواترة.

تكلموا في مدة مكثهم من غير علم {وقالوا ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة} ثم قال الله له: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ليس كما يقولون.

لكن هذا القول بعيد، والقراءة المتواترة لا تشعر بهذا لا من قريب ولا من بعيد، فالله يخبر عن مدة مكثهم، {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)]، وعليه فكلام ابن كثير أنك إن سئلت عن عددهم قبل أن ينزل عليك في ذلك من العلم بالمدة التي بقوها ففوض العلم إلى الله، فقل: الله أعلم بما لبثوا.

ومن أهل العلم من يقول: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] المدة التي بقوها في الكهف في نومهم كانت هذه المدة ثلاثمائة وتسع سنوات، لكن كم بقوا بعدها ؟

ابن جرير -رحمه الله- يقول: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] هذه ليست في مدة نومتهم، وإنما فيما هو أوسع من هذا، وهو ما كان من مدة بقائهم وحياتهم بعد استيقاظهم.

فهل حينما ذهب هذا يتسوق لهم ورجع وتبعه الناس كما في بعض الروايات الإسرائيلية، واكتشفوا خبره، وجاءوا معه إلى الكهف، فدخل ثم عُمِّي خبرهم على الناس، ولا يدرون أين ذهب، أو أنه الملِك جاء وجلس معهم؟ ثم بعد ذلك ودّعوه، ثم أخلدوا إلى النوم، ثم بعد ذلك قبضوا وماتوا، كم جلسوا بعد استيقاظهم هذا؟ هل رجعوا إلى المدينة مع الناس؟ مع أن هذا خلاف الظاهر؛ لأنهم قالوا: {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} [سورة الكهف(٢١)] فيدل على أنهم ما غادروا هذا الكهف، لكن كم كانت مدة البقاء بعد هذا؟

ابن جرير يقول: هذا هو المراد بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ذكر لهم مدة النومة، ثم قال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] يعني: بعدها.

وبعضهم كابن عطية يقول: المراد: قل الله أعلم بما لبثوا بمدة بقائهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث أعلمه الله بخبرهم، وما وقع لهم من هذه الواقعة العجيبة. وهذا فيه بعد، في مدة لبثهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، كم للواقعة من قرن؟!

قوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ابن جرير يقول: إلى مدة الإعثار عليهم {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [سورة الكهف (٢١)] بعدما استيقظوا كم جلسوا ثم عثر عليهم ساعات أو يوماً؟ كم بقوا ؟ فقال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] والكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا له وجه جيد من النظر، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن المراد بذلك: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] المراد هذه التسع التي ازدادوها على الثلاثمائة: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف (٢٥)] هل هي تسع سنوات أو تسع ليالٍ أو تسع ساعات أو

تسعة أشهر؟ وهذا لا يخلو من بعد -والله أعلم-، فإذا ذُكرت السنوات: ثلاثمائة سنة وذكرت زيادة التسع عليها فالأصل أن ذلك في عداد السنين.

وقوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف (٢٦)] أي: أنه لبصير بهم، سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه! وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع! لا يخفى عليه من ذلك شيء.

ثم روي عن قتادة في قوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف(٢٦)] فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع.

وقوله: {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٦)] أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

في قوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف(٢٦)] يعني: ما أعظم سمعه وما أنفذ بصره -سبحانه وتعالى-! يسمع جميع الأصوات الخفيات والجليات، ويرى جميع المبصرات كذلك؛ ولما قال الله -عز وجل-: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم (٣٨)] يعني: ما أعظم السمع الذي يسمعونه، والبصر الذي يبصرونه، وهذا كما قال الله -عز وجل-: {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [سورة النساء (١٠٨)] معهم يعني: بسمعه وإحاطته: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ} [سورة المجادلة(٧)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٦)

من قوله تعالى"واتل ما أوحي إليك" الآية ٢٧ إلى قوله تعالى"لأجدن خيرا منها منقلبا" الآية ٣٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف(٢٧-٢٨)].

يقول تعالى آمرًا رسوله -عليه الصلاة والسلام- بتلاوة كتابه العزيز، وإبلاغه إلى الناس: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف(٢٧)] أي: لا مغير لها، ولا محرف، ولا مؤوّل.

وقوله: {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف(٢٧)] عن مجاهد: {مُلْتَحَدًا} قال: ملجأ، وعن قتادة: وليًا ولا مولى، قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [سورة المائدة(٦٧)] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} [سورة القصص(٨٥)] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الكهف (٢٨)] أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الأنعام: (٥٢)] الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف (٢٨)] الآية.

وروى مسلم في صحيحه عن سعد -هو ابن أبي وقاص- قال: كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ستة نفر، فقال المشركون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله -عز وجل-: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الأنعام(٥٢)] **انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري**[1].

وقوله: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف (٢٨)] **قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.**

{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف (٢٨)] **أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [سورة الكهف (٢٨)] **أي: أعماله وأفعاله سفه، وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له، ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [سورة طــه (١٣١)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فبقي الكلام على الضمير في قوله –تبارك وتعالى-: **{مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}** [سورة الكهف (٢٦)].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس، ولم يبين مرجع الضمير، فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك يرجع إلى أصحاب الكهف **{أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ}** [سورة الكهف (٢٦)] يعني: أصحاب الكهف الذين أورد خبرهم؛ لأنه قال: **{وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا}** [سورة الكهف (٢٥)] يعني: أصحاب الكهف **{قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا}** [سورة الكهف (٢٦)] فمن قال: إن ذلك يرجع إلى أصحاب الكهف بنى على الأصل والقاعدة، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يرجع إلى الكفار الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: ذلك عائد إلى الخلق عموماً، ولا يختص بالكافرين؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ}** [سورة الكهف (٢٦)] ما أبصره وما أسمعه -سبحانه وتعالى- بأحوال خلقه أجمعين! **{مَا لَهُم}** [سورة الكهف (٢٦)] أي: الخلق، فيكون الضمير هنا عائداً إلى غير مذكور فيما سبق، وهذا يوجد في القرآن وفي كلام العرب إذا فهم من الكلام، والعرب تستعمله من باب الاختصار ثقة بفهم السامع **{مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ}** [سورة الكهف (٢٦)]، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}** [سورة ص (٣٢)] على قول من فسر ذلك -كما هو مشهور- بالشمس، توارت الشمس بالحجاب، مع أن الشمس لم يكن لها ذكر **{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}** [سورة ص (٣٢)] فبعضهم يقول: الخيل انطلقت حتى غابت، أي: أبعدت، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى الشمس، حتى توارت الشمس بالحجاب، ولم يكن للشمس ذكر.

فقوله: **{مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}** [سورة الكهف (٢٦)] وحكمه هنا يشمل الحكم القضائي الكوني، فالله -تبارك وتعالى- هو المنفرد وحده -جل جلاله- في تدبير هذا الكون، كما أنه يشمل

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنــه- (٤/ ١٨٧٨ - ٤٦) (٢٤١٣).

أيضاً الحكم الشرعي {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة يوسف (٤٠)] فالله -تبارك وتعالى- لا يشرك في حكمه أحداً.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف(٢٧)] قوله: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} هذه اللفظة من حيث هي تحتمل أن يكون المراد الكلمات الكونية فلا مبدل لها، فإذا قضى الله أمراً فلابد أن يكون، تقول: ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر))[٢]، وليس بمحظور شرعا أن يراد بالكلمات هنا الكلمات الشرعية؛ لأنه استعاذ بغير مخلوق، فالكلمات الشرعية هي الآيات، وهي كلام الله -عز وجل-، كما تستعيذ بالصفة أيضاً غير الكلام، تقول: ((أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر))[٣] ولكن الأقرب أن المراد بالكلمات في قولك: (أعوذ بكلمات الله التامات) أنها الكلمات الكونية؛ وذلك لأن العبارة بعدها هي: ((التي لا يجاوزها بر ولا فاجر)) الكلمات الشرعية يجاوزها الكافر، وأما الكلمات الكونية فلا يستطيع أحد أن يجاوزها، والأمر: أن من يقول ذلك إنما يريد بهذا الحفظ والوقاية، فالمناسب أن يستعيذ بالكلمات الكونية.

وأما قوله: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف (٢٧)] فالكلمات هنا تحتمل أن يكون المراد بها الكلمات الشرعية، وتحتمل أن يراد الكلمات الكونية، والأقرب والأعلق بالسياق الكلمات الشرعية؛ لقرينة الأمر بالتلاوة فيما قبله {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف (٢٧)] فهذه كلماته {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف (٢٧)]، والتبديل هنا بمعنى التغيير والتحريف.

يقول: {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] قال: ملجأ، هذا عن مجاهد، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، وهذا بمعنى قول مجاهد، لا تجد ملجأً بمعنى لا تجد ولياً يتولاك وينصرك ويحفظك وتلجأ إليه وتعتصم به.

قال: **"قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله"** وهذا بمعنى ما سبق "لا ملجأ لك" والضمير يرجع إلى الله وحده، لا شريك له، فكلام ابن جرير مختصر هنا، وهو أطول من هذا.

ومن أهل العلم من يقول غير هذا، فيقول: كل ما ذكر يرجع إلى معنىً واحد وهو: "لن تجد ملجأً"، ومن أهل العلم من يقول: {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] يعني: لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه.

وقد يتضح وجه هذا القول ببيان معنى الأمر في قوله: {وَاتْلُ} هل المراد به التلاوة بمعني القراءة، أو المقصود به الاتباع، فإذا فسر بالاتباع {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف(٢٧)] يعني: اتبع ما أوحي إليك من كتاب ربك.

ثم قال له: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] أي: معدلاً تعدل به عن أمره ونهيه وطاعته، فإن ذلك لا يسع المكلف، والقول الأول هو قول الجمهور، وابن جرير -رحمه الله- في

---

٢ - أخرجه أحمد (٢٤/ ٢٠٢-١٥٤٦١) والطبراني في الأوسط (٣١/٢ - ٥٥٤٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٨٤٠) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٧٦).

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٤/ ١٧٢٨- ٦٧) (٢٢٠٢).

ظاهر كلامه جمع بين المعنيين، فذكر ما خلاصته وحاصله في قوله: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف (٢٧)] يعني: أن هذا أمر بالتلاوة والقراءة والعمل والامتثال والتطبيق، يتبع ما يأمره الله به ويوجهه إليه هذا القرآن.

ثم قال: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الكهف(٢٧-٢٨)] ذكر الغداة والعشي هنا، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود سائر الأوقات، وإنما ذكر هذين الوقتين لإفادة العموم، وهذا يوجد في القرآن، وهو قول وجيه.

"بالغداة والعشي" يذكر الطرفين ويكون المقصود أحياناً الجميع، كما قال الله -عز وجل-: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [سورة البقرة (١١٥)] فلا يأتي غبي ويقول: فأين الوسط ؟ فهذا ليس من لغة العرب في شيء، أو يقول: لماذا ذكر المشرق؟ وباقي الأشياء في هذا العالم لمن؟ يقال: ذكْر الطرفين يدل في كلام العرب على إرادة الجميع، وإلا كان ذلك عجمة في الفهم، يعني لو أنه غاب هذا المعنى عن أحد فإن ذلك يكون عجمة في فهمه.

وقوله: {بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] فالغداة أول النهار، والعشي: آخر النهار، يعني من بعد الزوال هذا يقال له: عشي، وصلاة الظهر والعصر من صلاة العشي.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ} [سورة الكهف(٢٨)] فهل هذا أمر له أن يصبر نفسه فقط في هذين الوقتين بمعنى أنه في أول النهار وآخر النهار؟ أو أن المقصود أن يكون هؤلاء هم جلساؤه، ولا يلتفت عنهم إلى غيرهم؟ هذا إذا فسر صبر النفس معهم بالغداة والعشي، ولكن الآية تحتمل معنىً آخر، أن يكون قوله: {بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] يتعلق بما قبله: يدعون ربهم بالغداة والعشي {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] فيكون ذلك عائداً إلى دعائهم، ودعاؤهم أيضاً إذا كان ذلك مما يعود إليه هل يختص بالغداة والعشي؟ الجواب: لا، والدعاء هنا يشمل السؤال ويشمل العبادة، فإنهم يدعون الله -عز وجل- في كل آن وحين.

ثم يقول: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع {فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] يحتمل أن يكون من الإفراط، وهو الزيادة ومجاوزة الحد {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] يعني: أنه جاوز الحد الذي حده الشارع، وجاوز حد الاعتدال، ويحتمل أن يكون ذلك من التفريط وهو بمعنى التقصير والتضييع.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى عن الإغفال: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف(٢٨)] سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: {أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف(٢٨)] فقال: جعلناه غافلاً، قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً، ووجدته غافلاً.

قلت: الغفل الشيء الفارغ، والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً،

فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر، فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب؟ فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً، ومعنى الفرط: قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع، قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود أن الله -سبحانه وتعالى- نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى -عز وجل-، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت[٤].

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] **يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}** [سورة الكهف (٢٩)] **هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا}** [سورة الكهف (٢٩)] **أي: أرصدنا {لِلظَّالِمِينَ} وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}** [سورة الكهف (٢٩)] **أي: سورها.**

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: {أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [سورة الكهف (٢٩)] **قال: حائط من نار.**

وقوله: {وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف (٢٩)] **قال ابن عباس: المهل: ماء غليظ مثل دردي الزيت.**

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حَرّه، وقال آخرون: هو كل شيء أُذيبَ.

وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئًا من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل.

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وأهلها سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: {يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف (٢٩)] **أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.**

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها، فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن مارًّا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء

---

٤ - الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤١)

كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود.

ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: {بِئْسَ الشَّرَابُ} [سورة الكهف (٢٩)] أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: {وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} [سورة محمد (١٥)] وقال تعالى: {تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [سورة الغاشية (٥)] أي: حارة، كما قال: {وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن (٤٤)].

{وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعًا وموضعًا للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٦٦)].

قوله: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] ظاهره أن قوله: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] من جملة ما أُمر أن يقوله، أي: قل لهم ذلك، ويحتمل أن يكون هذا مما ظاهره الاتصال وهو مفصول في المعنى، بمعنى أن كل جملة من هذه تختلف من جهة قائلها، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور أن يقول: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ} [سورة الكهف (٢٩)] ويكون ما بعده: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] من كلام الله -عز وجل-، ليس من جملة ما أمر الله -عز وجل- نبيه أن يقوله لهم، والأول -والله تعالى أعلم- أقرب.

والتوجيه الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أقوال السلف في معنى المُهل هو توجيه جيد، يجمع هذه الأقوال باعتبار أن ذلك أشبه ما يكون باختلاف التنوع.

وقوله: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] قال: أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق.

ومعنى المرتفَق عند بعض أهل العلم، أي المتكأ، يقال له: ارتفاق، بمعنى اعتماد واتكاء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا آكل مُتكئاً))[٥] من أهل العلم من فسر ذلك بالتربع، وابن القيم -رحمه الله- أدخل التربع في جملة الاتكاء باعتبار أن المتربع يحتاج إلى نوع من هذا الاعتماد، كما تشاهدون الآن من جلس منكم هكذا فإنه يعتمد بيديه، فأدخله في جملة الاتكاء، وإن كان الاتكاء يشمل صوراً أخرى ذكرها، حتى الاعتماد على الظهر ذكره في جملته، فضلاً عن الاتكاء المعروف المتبادر، وهو حينما يتكئ الإنسان على يده ويعتمد عليها.

قوله: {وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف(٢٩)] أي: منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كل هذا يبين المعنى، والله تعالى أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣٠-٣١)].

---

٥ - أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب الأكل متكئاً (٧/ ٧٢- ٥٣٩٨).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم {جَنَّاتُ عَدْنٍ} [سورة الكهف (٣١)] والعدن: الإقامة.

{تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [سورة الكهف (٣١)] أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال لهم فرعون: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [سورة الزخرف (٥١)] الآية.

{يُحَلَّوْنَ} [سورة الكهف (٣١)] أي: من الحلية {فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} [سورة الكهف (٣١)] وقال في المكان الآخر: {وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [سورة فاطر (٣٣)] وفصله هاهنا فقال: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} [سورة الكهف (٣١)] فالسندس: لباسٌ رِفاعٌ رِقاقٌ كالقمصان، وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق.

وقوله: {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [سورة الكهف (٣١)] الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث الصحيح: ((أما أنا فلا آكل متكئًا))[٦] فيه القولان.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

يقول: الحَجَلة –محركة- كالقُبّة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس، حجل وحجال، يقول: وحجلها تحجيلاً اتخذ لها حجلة، أو أدخلها فيه، لكن هنا يقول: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، بمعنى أن الكبير الذي تجلس فيه العروس، الأريكة يقصد أنها دونه، يجلسون على الأرائك، وهو السرير الصغير، تحت الحجلة ليس المقصود تحتها أسفل منها، وإنما المقصود أصغر منها، تقول: فلان تحت فلان، يعني أصغر منه، هذه السارية تحت هذه السارية بمعنى أصغر منها، تحت الحجلة يعني دون الحجلة.

الباشخاناه هي الكنب، محل الجلوس؛ لأن الحجلة -المكان الذي تجلس عليه العروس- مرتفعة، لكنه يقول: أكبر من هذا، فصار هذا مثل الباشخاناه، يعني ربما يكون الكنب أو نحو هذا مما نسميه اليوم.

وقوله: {نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣١)] أي: نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣١)] أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقامًا، كما قال في النار: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٦٦)] ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٧٥-٧٦)].

الأريكة: سرير في حجلة، أو كل ما يُتكأ عليه من سرير، وليس المقصود السرير الذي نعرفه اليوم -وهو مكان النوم الذي ينام عليه-، وإنما السرير موضع الجلوس، مثل موضع جلوس الملك، يقال: سرير المَلِك وسرير المُلك.

يقول: من سرير ومنصة وفراش أو سرير منجَّد، المنجد: يقول: متخذ مزين في قبة أو ببيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة.

---

٦ - أخرجه الترمذي في أبواب الأطعمة، باب ما جاء في كراهية الأكل متكئاً (٤/ ٢٧٣- ١٨٣٠) وغيره. وصححه الألبـــاني في الإرواء (١٩٦٦/٢٧/٧).

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [سورة الكهف(٣٢-٣٦)].

يقول الله تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بالأموال وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله {لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ} [سورة الكهف(٣٢)].

الذي يذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا هو ما يعرف بالمناسبة، يعني ما المناسبة بين ذكر خبر هذين الرجلين أصحاب الجنتين وبين ما قبلهم؟ فهو يقول: هؤلاء لمّا ترفعوا عن مجالسة الضعفاء والمساكين ذكر الله -عز وجل- لهم مثلاً من حال المترفعين، وما كان إليه مآلهم.

وافتخروا عليهم بالأموال وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله {لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ} [سورة الكهف(٣٢)] **أي: بستانين من أعناب، محفوفتيْن بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ في غاية الجود؛ ولهذا قال: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا}** [سورة الكهف (٣٣)] **أي: خرجت ثمرها {وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا}** [سورة الكهف (٣٣)] **أي: ولم تنقص منه شيئاً {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا}** [سورة الكهف (٣٣)] **أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا.**

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)] **قيل: المراد به: المال، رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: "وكان له ثُمْر" بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشْب، وقرأ آخرون: {ثَمَرٌ} بفتح الثاء والميم.**

الذين قالوا: إن المقصود به المال -بعضهم قال: ذهب وفضة- الذي حملهم على هذا هو أن الله -عز وجل- قال قبله: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} [سورة الكهف: (٣٣)] يعني: ثمرها، فكيف قال بعده {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)]؟

ففهموا منه أن هذا يفيد معنىً جديداً، وهو أن هذا الثمر شيء زائد على ما آتته تلك الجنة {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} يعني: كان له مال، هكذا قال بعض السلف، والأقرب -والله أعلم- هو ما ذكره ابن كثير، وهو ما اختاره ابن جرير أيضاً بأن معنى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)] يعني: من الثمار المعروفة كان له ثمر، فحمله ذلك على شيء من البطر والطغيان والغرور.

فقال -أي صاحب هاتين الجنتين- {لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} [سورة الكهف (٣٤)] **أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}** [سورة الكهف (٣٤)] **أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.**

قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر.

وقوله: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} [سورة الكهف (٣٥)] **أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد {قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}** [سورة الكهف (٣٥)] **وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار.**

قوله: {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [سورة الكهف (٣٤)] قال: أي خدماً وحشماً وولداً، والنفر: يقول أهل اللغة: إن المراد بهم الرهط، وهو ما دون العشرة.

وقوله: {وَأَعَزُّ نَفَرًا} يدل على أن الإنسان يتكثر بما عنده من الأولاد والمماليك والخدم.

قال: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} [سورة الكهف (٣٥)] وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} [سورة الكهف (٣٦)] أي: كائنة {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} [سورة الكهف (٣٦)] أي: ولئن كان معاد ورجعة وَمَرَدٌّ إلى الله ليكونَنّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى} [سورة فصلت (٥٠)] وقال: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [سورة مريم (٧٧)] أي: في الدار الآخرة، تألّى على الله -عز وجل-، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

(مسألة)

الأصل أن الإنسان إذا قال: سأفعل كذا أن يقول: إن شاء الله، ولهذا قال الله معلماً ومؤدباً: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [سورة الفتح: (٢٧)] مع أن ذلك متحقق، وهو وعد من الله -عز وجل-، وما ورد عن بعض السلف أو بعض أهل العلم من الجزم في بعض الأشياء، والقطع بها فإنما قصدوا بذلك -والله تعالى أعلم- بيان شدة وثوقهم بهذا الأمر الذي كانوا يعتقدون تحققه لا محالة، مما قد يتردد فيه ويتشكك ويتخوف آخرون وتتتابهم المخاوف، ويقع في نفوسهم ما يقع، فيريد أن يجزم لهم، ويؤكد لهم أن هذا الأمر لا تردد فيه، فيقول مثل هذا القول بهذا الاعتبار؛ ليورث في نفوسهم ثقة ووثوقاً بهذا الأمر الذي ذكره، هذا هو مقصودهم، وتخريج ما ورد عنهم في هذا.

فسفيان الثوري يقول: إنه كافر برب هذه البنية -يعني الكعبة- إذا دخلها أبو جعفر المنصور، بعدما أرسل أبو جعفر الخشابين لصلب سفيان الثوري في مكة، فكان سفيان الثوري نائماً بين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة، وضع رأسه في حجر هذا، ورجليه في حجر الآخر، ويقولون له: لا تشمت بنا أهل البدع، اخرج منها، اطلب مكاناً، إنه قد أقسم أن يقتلك، فيقول: إنه كذا.

وشيخ الإسلام لما قال: إنكم منصورون هذه المرة، ويقولون له: قل: إن شاء الله، وهو يؤكد ويحلف، لما أصروا عليه قال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، فهذا إنما قصد به القائل بيان شدة وثوقه بهذا الأمر الذي اعتقده اعتقاداً جازماً؛ لأن الكثيرين إذا سمعوا هذا الاستثناء، ظنوا أن المسألة ليست جازمة، ولهذا بيّن لهم شيخ الإسلام قال: تحقيقاً لا تعليقاً، والأصل أن الإنسان إذا ذكر المشيئة لا يذكر معها هذا، فهذا المراد والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٧)

من قوله تعالى"قال له صاحبه وهو يحاوره" الآية ٣٧ إلى قوله تعالى"خير عند ربك ثوابا وخير أملا" الآية٤٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} [سورة الكهف:٣٧-٤١]، يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له، وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ} الآية، وهذا إنكار عظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه؟، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا قال: {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية {وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا} هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلّا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: {مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ}؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: {مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ} وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله))[1].

---

١ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، برقم (٦٢٣٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٤).

وقوله: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ} أي: في الدار الآخرة {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا} أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى {حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي: عذابًا من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا ينبت شيئًا.

وقوله: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا} أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} أي: جارٍ وسائح، وقال هاهنا: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ} الآية، هنا سماه صاحباً له، وهذا كما سبق في بعض المناسبات أن ذلك يكون لملابسة واشتراك في أمر من الأمور، فهنا هذا صاحب له باعتبار أنه نصحه وسمع منه هذا الكلام ودخل معه في الجنة وجرى بينهما هذا الحوار، يقول: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ}، وقد يكون ذلك يقال لملازمة، كما قال الله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، {أَصْحَابُ النَّارِ}، وقد يكون هذا الملازم مذموماً لكنه لما حصلت هذه الملازمة قيل: هذا صاحب، وتجدون في بعض المواضع من الأحاديث ما يشبه هذا، والمقصود من ذلك أن من الناس من يتوهم ويسبق إلى ذهنه من إطلاق هذه اللفظة أنها تدل على نوع من المصافاة والمؤاخاة، وذلك ليس بلازم، هذا هو المقصود، ولهذا جاء في حديث القسامة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للمطالبين بالدم، لما وجههم إلى الحلف -أن يحلفوا خمسين يميناً- قال: ((وتستحقون صاحبكم))[٢]، قال بعض العلماء: تستحقون صاحبكم يعني القتيل، تستحقون دمه، ولكن يعني الدية، بمعنى أنه لا يسلم لهم القاتل ليقتل في القسامة، ومن أهل العلم من يقول: لا يقتل أحد في القسامة؛ لأن ذلك ليس من البينات وإنما وجد قرينة ولوث، إنسان يتشحط بدمه في ناحية والتهمة لحقت أحداً من الناس، فيأتي أولياء الدم ويتهمون هذا ويقسمون خمسين يميناً على تفصيل في ذلك، ثم قال: ((وتستحقون صاحبكم))، تستحقون صاحبكم يعني الدية، صاحبكم القتيل، أو تستحقون صاحبكم يعني الذي قتله، بمعنى يسلم إليهم فيُقتص منه، فالذين قالوا عنه صاحب نظروا إلى ما يتبادر إليه الذهن قالوا: المقصود القتيل هو صاحبهم، وذاك عدوهم، ومن نظر إلى أن ذلك يطلق لملابسةٍ ما قال: ((تستحقون صاحبكم)) يعني: القاتل، وفي حديث معاذ بن عفراء قال عبد الرحمن بن عوف: هذا صاحبكم، وهو عدو، وإنما أرادوا قتله، وهنا {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} هذا مؤمن وهذا كافر، لكن ذلك يوجد لنوع من الملابسة، وهذا لا يشكل، وهكذا ما يقال في الأخوة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، وكان القائلون هم أهل النفاق وليسوا بضعفاء الإيمان، فقالوا ذلك للمنافقين فهم إخوانهم، أو أنهم

---

٢ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة، برقم (١٦٦٩)، والنسائي، كتاب القسامة، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر سهْل فيه، برقم (٤٧١٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٥٦٢٥).

قالوه للمؤمنين، فتكون المؤاخاة هنا إما بالنسب كما قال بعضهم، وإما بالقبيلة بحيث يرجع إلى قبيلة من الأوس أو من الخزرج، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، وإما أن يكون الاشتراك في البلد، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال ذلك للكافر.

قال: {لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} يقول: **أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية**، {لَّكِنَّا} أصلها "لكن أنا"، ويدل على هذا قراءة أُبيّ {لكن أنا هو الله ربي}، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم من أصحاب المعاني وغيرهم من المفسرين، وهذا بمعنى كلام ابن كثير، أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية.

وقوله: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} يقول: **هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلّا إذ أعجبتك حين دخلت ونظرت إليها**، هلا هذه، {وَلَوْلَا} هي للتحضيض، وهي على نوعين: إن كان في أمر يمكن استدراكه كما في هذا الموضع فإنها تكون للتحضيض، كقولك: هلا اجتهدت، هلا حافظت على الصلوات، هلا أقبلت على كتاب الله، فهذا للتحضيض، وأحياناً تكون للتبكيت، كقولك: لولا حافظت على الصلاة، لولا أقبلت على كتاب الله، وأحياناً تكون للتبكيت في الأمر الذي لا يمكن استدراكه، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ...} [سورة هود:١١٦]، هلكت تلك الأمم، فهذا يكون للتبكيت، و{وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} يقول: **ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله**، إلى آخره، وهذا من الأدب في هذا المقام، فالإنسان يخرج من حوله وطوله ومشيئته، بمعنى أنه لا يعجب ولا يغتر إذا رأى شيئاً من ماله أعجبه، أو من قدراته أو من ذكائه أو من قواه البدنية أو نحو ذلك، يخرج من حوله وطوله، ويوقن أن القوة لله -عز وجل-، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا لدفع العين كما يظنه كثير من الناس، وإنما للخروج من الحول والطول والقوة؛ ليندفع عنه الغرور والعجب والتكبر والتعالي والتعاظم، فإن أزمّة الأمور بيد الله -عز وجل-، وليس المقصود بذلك دفع العين؛ لأن هذا الرجل لم يُقل له هذا من أجل أن يدفع العين، وليس الذي أصاب هذه الجنة كان بسبب العين، وإنما تعاظم واغتر بهذه الجنة فعوقب بهذه العقوبة، وأما دفع العين فقد علّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يقال، فقال: ((فليبرّك عليه))[٣]، يعني يدعو له بالبركة، ولهذا كثير من العامة يخطئون إذا رأوا شيئاً، أو رأوا أحداً تخوفوا منه العين قالوا له: قل: ما شاء الله، أو قل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أو هو يبادر ويقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ليس هذا هو المراد، وإنما يدعو له بالبركة، يقول: أسأل الله لك البركة، بارك الله لك، بارك عليك، بارك فيك، أسأل الله أن يبارك لك في هذا، بهذا تندفع العين، فلا يخلط بين هذا وهذا، فهذا المقام ليس المقصود به ما يتعلق بالعين، {مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا}، يعني: يعبر بعبارة لائقة مناسبة، قال: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ} "عسى" هنا على بابها من الترجي، و"عسى" من الله واجبة، وذلك إذا كانت صادرة من الله -عز وجل-، يعني هذا القرآن كلام الله، فحينما يقول الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة

---

٣ - رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا رأى من أخيه ما يعجبه، برقم (٢٠٥)، وصححه الألباني في تحقيق الكلم الطيب، برقم (٢٤٤).

الممتحنة:٧]، فهذه متحققة الوقوع، عسى من الله واجبة، {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} [سورة المائدة:٥٢]، أما التي ذُكرت من أقوال الناس فإنها على بابها من الترجي {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ}، وفي هذا فائدة وهو أنه يجوز الدعاء على الكافر بعينه، المجرم والجاحد للإيمان والتوحيد وما أشبه ذلك، وهذا الرجل يقول: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ} اغتر بماله، تقول: أسأل الله -عز وجل- أن يهلك ماله، أو يهلكه أو نحو ذلك، فدعا عليه بهذا الدعاء.

قال: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء}، يقول هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها**، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا التفسير سواء الأول أو الثاني هو تفسير على المعنى، {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء}، يعني: عذاباً، لكن لو أردت تفسيره على اللفظ، فيمكن أن يقال: إن الحسبان من الحساب، يعني أصل هذه اللفظة من الحساب، وهو مقدار قدره الله، مقدار يعني هذا يرجع إلى الحساب، مقدار قدره الله عليها، ووقع في حسابه سبحانه، {حُسْبَانًا} شيئاً محسوباً، ينزل عليها فتصبح بهذه المثابة {صَعِيدًا زَلَقًا} بلقعاً ليس فيها شيء، فهذا أصل هذه المادة أو تفسيرها على اللفظ، أما ما ذكر من أنه العذاب أو أنه المطر العظيم فهذا تفسير على المعنى، يعني هذا الشيء المقدر عذاب، سواء كان مطراً عظيماً أو غيره، والذي جعل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يذكر خصوص المطر العظيم {حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا}، أن هذا بالعادة هو آفة الزرع، فيهلكها ويقتلع أشجارها ويتلف ثمارها، {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} أي: **تراباً أملس من الانزلاق، تنزلق فيه الأقدام.**

ظاهر قوله: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا} أن هذا ليس في الآخرة، وإن كان اللفظ يحتمله، فالرجل يقول: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} فقال له: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ} يحتمل أن يكون في الآخرة، باعتبار أن ذاك ذكر الآخرة، {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي} قال: {فَعَسَى رَبِّي}، ولكن المتبادر -والله تعالى أعلم- أن ذلك في الدنيا؛ لأنه قال بعده: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء}، فهذا انتقصه واحتقره واستصغره؛ لأنه لا يملك مثل هذه الجنة، فقال ما قال، فهذا يقول: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا}، يبدل الحال من الجهتين، من جهتي ومن جهتك أنت، {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء} هذا في الدنيا، وقد وقع هذا، ومن أهل العلم من السلف وغيرهم من يقول: هذا مثل ضربه الله -عز وجل- للتمثيل فقط، ولا يعني ذلك أنه وقعت هذه القضية، ولا يقصدون هذا في كل الأمثال في القرآن طبعاً، وإنما يقولون في مثل هذا المثال، ومنهم من يقول: إن الله ضربه مثلاً ليبين هذه الحقيقة بمثل رجلين حصل لهم كذا وكذا، وآخرون يقولون: بل هذا شيء واقع حقيقة، وهذا هو الأقرب، هذا هو الظاهر، حوار {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} وتفاصيل، فمثل هذا يدل ظاهره على أن هذا قد وقع، وليس المقصود به مجرد التمثيل، ولولا أن بعض السلف ذكر هذا لم أذكره.

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} [**سورة الكهف:٤٢-٤٤**].

يقول تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} بأمواله، أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن الله -عز وجل-: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} وقال قتادة: يُصفّق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليه {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ} أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز {يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} اختلف القراء هاهنا، فمنهم من يقف على قوله: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ} أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ بقوله: {الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} ومنهم من يقف على: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} ويبتدئ بقوله: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ}.

ثم اختلفوا في قراءة {الْوَلَايَةُ} فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} [سورة غافر:٨٤]، وكقوله إخبارًا عن فرعون: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس:٩٠-٩١].

ومنهم من كسر الواو من {الْوَلَايَةُ} أي: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع {الْحَقِّ} على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [سورة الفرقان:٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله -عز وجل-، كقوله: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} الآية [سورة الأنعام:٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: {هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا} أي: جزاء {وَخَيْرٌ عُقْبًا} أي: الأعمال التي تكون لله -عز وجل-، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

قال: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يعني: قد سقطت الأشياء التي تحتاج إلى أن تكون معروشة مثل الأعناب مثلاً، تكون خاوية ساقطة على عروشها، ويُعبَّر بذلك بشيء من التوسع عن الخراب والهلاك والدمار، فتقول عن البلاد التي قد خربت، أو المحال التي قد اضمحلت: وجدتها خاوية على عروشها، ليس بها ما ينتفع به، ولا تصلح محلاً للإقامة أو السكنى، وإنما صارت خراباً يباباً، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}.

ويقول: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا}، اختلاف القراء في موضع الوقف هو باعتبار المعنى، يعني في كثير من المواضع التي يحدد القراء فيها الوقف هو بناء على ما يلوح من المعنى، ولكن هذا قد يتأتى على معنى وقد تحتمل الآية معنى آخر، ولذلك تجدون بعض المصاحف تختلف في مواضع الوقف، وربما تجد الوقف في موضع قد لا يكون مناسباً، أو يحتمل على الأقل أن يكون في موضع آخر، كقوله تعالى مثلاً: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ} [سورة الأحزاب:٣٢]، موضع الوقف هنا في الطبعة المنتشرة عندنا، ثم قال: {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، ويحتمل أن يكون {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، فالتفضيل باعتبار التقوى، بشرط التقوى ليس لمجرد القرابة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال بعده: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وقل

مثل ذلك في قوله مثلاً: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:١-٢]، ويمكن أن يقال: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} ثم تقف بعد "فيه"، ثم تقول: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وهذا الذي عليه علامة الوقف في المصاحف التي بين أيدينا، وهذا أبلغ؛ لأنه بهذا الاعتبار يكون كل القرآن هدىً للمتقين، وعلى الموضع الثاني في الوقف {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فالمعنى يتغير، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ} هذا الكتاب الذي أنزله الله -عز وجل- واحتوى على ألوان الهدايات بلا مرية ولا ارتياب، ثم قال: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} يتضمن الهدى للمتقين، وإذا وقفت على الموضع الآخر {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}، وجعلت الوقف هنا فيكون نفيت عنه الريب، ثم تقول: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، كله هدى للمتقين، وهذا أبلغ، وقل مثل ذلك مثلاً في قوله: {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} إلى أن قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}، فالوقف هنا يصح، وهو الذي عليه علامة الوقف في المصاحف التي بين أيدينا، ويمكن أن تصل وتقول: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}، ويكون المعنى صحيحاً، وقل مثل ذلك في أول هذه السورة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [سورة الكهف:١]، وهنا كذلك قال: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ} في ذلك المقام، لما نزل العذاب لم يستطع الخلاص لما نزل به، ويمكن أن يكون {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} ثم قال: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} وهذا هو المتبادر، وهو الأصل باعتبار رءوس الآي، ثم قال: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} في ذلك المقام تكون الولاية لله الحق، عند ذلك يلجأ المجرم والمتمرد على الله -عز وجل- إلى الضراعة والإخبات، وأعظم هؤلاء فرعون قال: {آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} [سورة يونس:٩٠].

والمعنى الثاني: {هنالك الوِلايةُ} على القراءة الأخرى الوِلاية السلطان، {للهِ الحقِّ} -سبحانه وتعالى-، أو {هنالك الوِلايةُ لله الحقُّ} يعني: السلطان الحق والثابت الذي لا يزول، ويضمحل دونه كل سلطان.

وقال: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} [سورة الكهف:٤٥-٤٦].

يقول تعالى: {وَاضْرِبْ} يا محمد للناس {مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} في زوالها وفنائها وانقضائها {كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} أي: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسُن، وعلاه الزهر والنَّور والنضرة.

الزهر معروف، والنَّور هو الزهر أيضاً، ظهر نَوره يعني زهره، وبعضهم يقول: يختص بالزهر الأبيض، وأما الأصفر فيقال له: زهر، هذا مما ينبت بسبب المطر، فتخرج هذه النباتات فتخرج أزهارها فيكون ذلك زينة تستهوي الناظرين، {كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ} يحتمل أن النبات اختلط بالماء حيث تغذى به، وصار ذلك نماءً له، ويحتمل {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} أي: اختلط بسبب الماء نبات الأرض، تشابك وظهرت ألوان النباتات مشتبكة متداخلة، {بِهِ} أي: بسببه بسبب هذا المطر، فالمعنى الأول اختلط به نبات الأرض، اختلط النبات بالماء، يعني أنه داخله ونما به وتغذى عليه، والمعنى الثاني هو المشهور، اختلط به أي اختلط النبات، نفس النبات هو الذي اختلط بسبب المطر، تشعب النبات وتشابك، والله أعلم.

ثم بعد هذا كله {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} يابسا {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال.

{فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} قال: **يابساً** وهكذا عبارة من عبر أن الشيء الهشيم هو الضعيف أو المتكسر، كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} أي: يابساً بمعنى أنه تهشم، تفتت هذا النبات بعدما كان في غاية الجمال والطراوة والخضرة، وأصبح متكسراً متفتتاً يطير في الرياح يمنة ويسرة، {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ}.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا} الآية [سورة يونس:٢٤]**، وقال في سورة الزمر: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} الآية** [سورة الزمر:٢١]**، وقال في سورة الحديد: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} الآية** [سورة الحديد:٢٠]**، وفي الحديث الصحيح: ((الدنيا حلوة خضرة))**[٤].

وقوله: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} كقوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ} [سورة آل عمران:١٤]**، وقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** [سورة التغابن:١٥] **أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} الصلوات الخمس.**

وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ}: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. رواه الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: ((بخ بخ، لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده))، وقال: ((بخ بخ، لخمس من لقي الله مستيقنًا بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة وبالنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب))[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، برقم (٢٧٤٢).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٦٦٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٠٤).

وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الكلام الطيب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير -رحمه الله.

قوله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} هذه الأقاويل المنقولة عن السلف -رضي الله عنهم- هي أشبه ما تكون بالتفسير بالمثال، وهذا كله من اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد، والباقيات الصالحات تشمل ذلك جميعاً، فهي كل ما يبقى للإنسان من العمل الصالح من الأقوال والأفعال والمقاصد والنيات، فإنّ عرض الدنيا يزول ويضمحل، وإنما يبقى ما أريد به وجه الله -تبارك وتعالى-، فهذه خير عند الله -عز وجل-، {خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا} أجراً وجزاءً {وَخَيْرٌ أَمَلاً} أي خير أملاً لأهلها، وأفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، خير لأهلها من الأمل، يعني أفضل مما يؤمله أهل الدنيا من دنياهم؛ لأن أهل الإيمان ينالون بهذه الأعمال في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، ماذا يؤملون في الدنيا؟ يقولون: تأمين مستقبلهم والتوسع في المعايش، وملابسة وتعاطي اللذات ونحو ذلك مما يؤمله أربابها ، وأما هذه الأعمال الصالحة فإن أهل الإيمان يؤملون منها ما لا يؤمله غيرهم، يؤملون بالأعمال الطيبة الزاكية، فيؤملون الثواب العظيم من الله -عز وجل- والجنة التي عرضها السماوات والأرض، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٨)

من قوله تعالى"ويوم نسير الجبال" الآية ٤٧ إلى قوله تعالى"وما كنت متخذ المضلين عضدا" الآية ٥١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، [سورة الكهف: (٤٧ - ٤٩)].

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [الطور:٩-١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل:٨٨]، وقال تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}[القارعة:٥]، وقال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه:١٠٥-١٠٧] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض، {قَاعًا صَفْصَفًا} أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه، {وَلا أَمْتًا} أي: لا وادي ولا جبَل؛ ولهذا قال تعالى: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} أي: بادية ظاهرة ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} لا خمر فيها ولا غَيابة، قال قتادة: لا بناءَ ولا شجر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٧)] يحتمل أن يكون قوله: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} متعلقاً بما قبله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً* وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: ٤٦-٤٧]] يعني: خير عند الله في الآخرة في اليوم الذي تُسير فيه الجبال، ولعله أحسن من هذا أن يقال بأن ذلك متعلق بمقدر، والتقدير: واذكر يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وهنا أورد المصنف -رحمه الله- قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل: (٨٨)] يعني: في الآخرة إذا قامت القيامة، وليس المقصود بذلك في الدنيا كما يذكره بعض من يتكلم في الإعجاز ويستدل به على دوران الأرض، وأن

المقصود بذلك دوران الأرض وما عليها يدور ويتحرك بحركتها، فالجبال تدور بدوران الأرض، ليس هذا هو المراد، وإنما الآيات يفسر بعضها بعضاً، فذلك حينما تقوم القيامة.

وقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} يقول: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} ترى الأرض بارزة أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد، ولا بناء ولا عمارات ولا أشجار ولا جبال، يقول: بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، أي: بادون ظاهرون، وكما في الحديث: ((انظروا إلى عبادي شعثا غبرا ضاحين جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي))[1] بمعنى: أنه بادٍ للشمس لا يستتر بشيء.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: (٤٧)] لا خمر فيه ولا غيابة، فلا يوجد ماء يسترهم، فالخمر قيل له خمر؛ لأنه يخامر العقل أي: يسترها، والخمار خمار المرأة لأنه يسترها ويغطيها، فلا يوجد ما يسترهم أو يكنّهم.

والغيابة كل شيء سترك وغطاك من سحاب أو غير ذلك يقال له غيابة، ومنه غيابة الجب؛ لأن من كان بداخله وفي قعره، فإن العيون لا تراه يكون مستتراً بهذا البئر، وهكذا في الحديث: ((كأنهما غيايتان))[2]، فما يستر الإنسان من سحاب ونحو ذلك يقال له غياية وغيابة، قال قتادة: لا بناء ولا شجر.

وأما من قال في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} أنها تُخرج ما فيها من الأجداث والكنوز فلا تدل عليه هذه الآية، وإنما تدل عليه آيات أخرى، كقوله: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [سورة الانشقاق: (٤)]، وقوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:(١-٢)] وإذا أخرجت أثقالها أخرجت ما فيها من الموتى، وأخرجت ما فيها من الكنوز.

وقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} أي: وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: {قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}[الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ}[هود:١٠٣]، وقوله: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا} يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[النبأ:٣٨]، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}[الفجر:٢٢].

وقوله: {لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} هذا تقريع للمنكرين للمعاد وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن.

{لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الكهف: (٤٨)] فسره ابن جرير -رحمه الله-: أي: أحياء بعد أن أماتكم الله -عز وجل- أحياكم ثانية.

---

[1] - رواه ابن حبان في صحيحه (٩/١٦٤)، برقم: (٣٨٥٣)، وابن خزيمة (٤/٢٦٣)، برقم: (٢٨٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٦٩)، برقم: (٢٠٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٤٩٧)، برقم: (٣٧٧٤).

[2] - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/٥٥٣)، برقم: (٨٠٤).

وأشمل من هذا المعنى أن يقال: {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} يعني: على هيئتكم حينما خلقكم الله -عز وجل- أول ما خلقكم حفاة عراة غرلاً لا خدم ولا حشم ولا مال ولا ولد، وإنما يحشر الإنسان بعيداً عن أهله وملكه، ويحشر منفرداً ويتخلى عن ذلك كله، وقد جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال: قام فينا النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب فقال: ((إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)]))[٣]، وهذا القول ينتظم مع ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- إذا جاءوا حفاة عراة غرلاً فإنهم يأتون أحياء؛ لأن الله -عز وجل- يحييهم ثانية ويحشرهم على هذه الهيئة.

ما تناقص من أعضائهم وأجزائهم وأبعاضهم ونحو ذلك يرجع إليهم، وما وجد معهم من متاع وزيادة في هذه الحياة الدنيا فإن ذلك جميعاً يضمحل ويتلاشى، {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} كما خرج من بطن أمه لا مال ولا لباس ولا غير ذلك.

وقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [سورة الكهف(٤٩)] أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا} أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا} أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، {إِلا أَحْصَاهَا} أي: ضبطها وحفظها.

قوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} يحتمل أن يكون جنس الكتاب الذي تكتب فيه الأعمال، أعمال العباد والذنوب والطاعات وسائر الأعمال التي يعملونها، ويحتمل أن يكون المراد كتاب كل إنسان، فكل إنسان يعطى الكتاب الذي يخصه قد كتبت فيه أعماله الصغار والكبار، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة: (٦)]، فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله وآخذٌ كتابه من وراء ظهره، كل بحسب حاله وعمله، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٩)] هذه قرينة تدل على أن المراد بالكتاب هنا كتاب الأعمال الذي يخص كل واحد؛ لأنه حينما يطلع عليه ويرى فيه هذه الأمور الدقاق الصغار والكبار، فكل إنسان يجد أعماله حاضرة حينما يطلع على كتابه الذي دونت فيه سائر الأعمال، حتى قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الملَك يكتب كل شيء، حتى أكلتُ وشربتُ وذهبت وجئت، ثم بعد ذلك يُمحى ما لا يترتب عليه الثواب والعقاب، الله يقول: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)]، وهذا للعموم، وبعضهم يقول: هذا من العام المراد به الخصوص، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)] يعني: مما يتصل به الثواب والعقاب.

وقوله: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} أي: من خير وشر، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا..}[آل عمران:٣٠] الآية، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}[القيامة:١٣]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[الطارق:٩] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٥/٢٣٩١)، برقم: (٦١٦١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/٢١٩٤)، برقم: (٢٨٦٠).

روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل غادر لواء يومَ القيامة يعرف به))[٤]، أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: ((يُرْفَع لكل غادر لواء يومَ القيامة عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان))[٥].

وقوله: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلِّد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}[النساء:٤٠]، وقال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}[الأنبياء:٤٧] إلى قوله: {حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يحشُر الله -عز وجل- الناس يوم القيامة -أو قال: العبادَ- عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً، قلت: وما بُهْماً ؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله -عز وجل- حفاة عُراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات))[٦].

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنا(٦/٢٥٥٥)، برقم:(٦٥٦٥)، ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر(٣/١٣٦١)، برقم: (١٧٣٧).

٥ - جاء عند البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم (٥/٢٢٨٥)، برقم: (٥٨٢٤) بلفظ: (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)، وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير باب تحريم الغدر (٣/١٣٥٩)، برقم: (١٧٣٥)، بلفظ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان). ولهما من حديث ابن عمر.

وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، (٣/١٣٦١)، برقم: (١٧٣٨) من حديث أبي سعيد -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة).

٦ - رواه الإمام أحمد (٢٥/٤٣١)، (١٦٠٤٢)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

وعن شعبة عن العوام بن مُزَاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الجمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة))[٧]، رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أُخر، وقد ذكرناها عند قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء:٤٧]، وعند قوله تعالى: {إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام:٣٨].

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}، يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ} أي: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة.

{اسْجُدُوا لآدَمَ} أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر:٢٨ - ٢٩]، وقوله: {فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها– عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم))[٨]، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى هاهنا على أنه {مِنَ الْجِنِّ} أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[الأعراف:١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الكهف: (٥٠)]

يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "أي: **خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور**".

يشير إلى أن العلة من عدم سجود إبليس لآدم أن أصله قد خانه، فأصله كان من الجن، فحمله أصله على عدم السجود، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فهم مطيعون لله -عز وجل-، ووجه ذلك: أن الوصف الذي يذكر مع الحكم يدل على أنه هو العلة فيه، وهذا الذي يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه، أن يقرن الحكم بوصف، لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء أو عند السامعين، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

٧ - مسند أحمد (٥٤٢/١)، برقم: (٥٢٠)، قال محققو المسند: حسن لغيره، وإسناده ضعيف.

٨ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة(٢٢٩٤/٤)، برقم: (٢٩٩٦).

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} [سورة الكهف: (٥٠)] فعلة السجود هو أمر الله -عز وجل- ومنه قولك سها فسجد، فعلة السجود السهو، وغفل فعصا فسبب المعصية الغفلة.

قوله: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ} [سورة الكهف: (٥٠)] فسق أي: فخرج، والفسق هو الخروج عن الطاعة وأصله مطلق الخروج في كلام العرب كما يقال: فسقت الفأرة من جحرها، يعني: خرجت للإفساد، والفاء هنا تفيد التعليل، فعلة خروجه عن أمر الله -عز وجل– أنه كان من الجن، وهذا توجيه لكلام ابن كثير –رحمه الله.

ولا شك أن الكبْر كان سببا لعدم سجوده، وقد أخبر الله عنه أنه قال: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص: (٧٦)]، وهذا لا ينافي ما ذُكر، فقد استكبر لأن أصله خانه فلو كان من الملائكة فهم {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم: (٦)]، أما غيرهم ففيهم الشهوات والأوصاف التي قد تحملهم على الذنوب والمعاصي.

قال: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [سورة الكهف: (٥٠)]، قال ابن كثير –رحمه الله-: "**قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر**".

والآية مصرحة بهذا، ولربما كان الجمهور من العلماء يقولون: إن أصل إبليس من الملائكة، وإن اختلفوا في توجيه ذلك، ويستدلون على هذا بأن عامة الآيات التي وردت في ذلك الله -تبارك وتعالى- استثناه منهم: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الكهف: (٥٠)]، قالوا: والأصل في الاستثناء أنه متصل، ومعنى الاستثناء المتصل أن المستثنى من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع فإن المستثنى لا يكون من جنس المستثنى منه، فالذين يقولون إنه من الملائكة يقولون: الله يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} فهو داخل معهم في الأمر بالسجود، فهو منهم، والله -عز وجل- استثناه منهم، والأصل في الاستثناء الاتصال.

وقد قال بعض أهل العلم إنه كان خازن الجنان، وقال بعضهم إنه من قبيلة من الملائكة يقال لها الجن، وأن ذلك هو المراد بقوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [سورة الصافات: (١٥٨)] وهم قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وعلى كل حال كل هذا لا دليل عليه، وهو مبني على روايات إسرائيلية، فظاهر القرآن لا يصح العدول عنه إلى معانٍ خفية إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولا يوجد دليل واضح على أن إبليس من الملائكة، والله -عز وجل- أخبر عنه أنه قال: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص: (٧٦)]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من مارج من نار.

فهذا كله يدل على أن إبليس ليس من الملائكة وإنما هو من الجن، وهذا الذي تدل عليه ظواهر النصوص، والله تعالى أعلم، ودخول إبليس في الأمر {اسْجُدُواْ لآدَمَ} لأنه كان مع الملائكة ومن جملتهم، ومخالطا لهم، وليس المراد أنه كان منهم.

وقوله: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي: فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فَسقت الرُّطَبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي..} الآية، أي: بدلاً عني؛ ولهذا قال: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس:٥٩] إلى قوله: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس:٦٢].

يقول -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [سورة يس (٦٠-٦١)].

وفي هذه السورة يقول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} [سورة الكهف: (٥٠) فإذا قلنا بأن إبليس هو أبو الجن فذريته هم الشياطين.

في هذه الآية كأن الله -عز وجل- يقول بأن إبليس عادى ربه -تبارك وتعالى- ووقع ما وقع بسبب أنه امتنع من السجود لأبيكم آدم، فطرده الله -عز وجل- من رحمته، فكيف تتخذونه ولياً توالونه وتطيعونه وتكونون من أتباعه وحزبه وتتركون أمر الله -تبارك وتعالى- الذي خلقكم ورزقكم، وكرمكم هذا التكريم؟ حيث أمر إبليس أن يسجد لأبيكم آدم، والنعمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء كما هو معروف؛ ولهذا امتن الله -عز وجل- على بني إسرائيل كثيراً: {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة الأعراف: (١٤١)] والذين نجوا هم آباؤهم.

ويقول الله –تبارك وتعالى-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [سورة البقرة: (٥٧)]، كل ذلك وقع لآبائهم، فالمنة التي تقع للآباء تلحق الأبناء، كما أن المذمة التي تقع على الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [سورة البقرة: (٧٢)]، وقوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [سورة البقرة: (٥٥)]، فكل ذلك وقع لآبائهم.

فمن أعجب شيء أن يطرد إبليس من رحمة الله، بسبب الامتناع من السجود لآدم ثم بعد ذلك تأتي هذه الذرية، ويعبدونه ويطيعونه ويتخذونه ولياً من دون الله -عز وجل- {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [سورة الكهف:(٥١)].

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..}[سبأ: ٢٢ - ٢٣] الآية؛ ولهذا قال: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، قال مالك: أعواناً.

قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف:(٥١)]، يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "**هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً**". يعني: ما سبق في قوله -تبارك

وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [سورة الكهف: (٥٠)]، وكل من عبد غير الله -عز وجل-، أطاع غير الله وترك أمر الله -جل جلاله- وعبادته فهو داخل في هذا، فكل من عبد غير الله -عز وجل- سواء عبد حجراً أو صنماً أو نحو ذلك، فإن ذلك إنما هو عبادة للشيطان؛ ولهذا قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم: (٤٤)]، وكان يعبد أحجاراً وأصناماً يصنعها، فهذه عبادة الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي أمر بذلك وزينه وحسنه في نفوسهم.

فالمقصود أن قوله -تبارك وتعالى-: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن الضمير يرجع إلى ما سبق. وهذا القول هو أرجح هذه الأقوال، ودليل الرجحان هو القاعدة المعروفة، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فلو فسرنا بهذا المعنى يكون معنى قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ} أي: هؤلاء الذين ذكروا في قوله: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} لو كانوا شركاء لله -عز وجل- لكانوا شاهدين خلق السماوات والأرض، وشاركوا في ذلك، ولشاركوا في الخلق، ولكن ذلك لم يحصل منه شيء، حينما خلق الله السماوات والأرض لم يكن أحد من هؤلاء قد وُجد، فما شهدوا ذلك فضلاً عن المشاركة فيه، فكيف يتخذ هؤلاء شركاء مع الله -جل جلاله؟.

أما قول من قال بأن المراد {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن ذلك يعود إلى المشركين المستكبرين الذين طلبوا طرد الضعفاء والفقراء من المؤمنين، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، يقول: هؤلاء لم يكن لهم حضور لخلق السماوات والأرض ومشاركة في ذلك، فيكون لهم تدبير مع الله -عز وجل-، فكيف يطلبون هذا ويستنكفون من هؤلاء الضعفاء من أهل الإيمان ويطلبون إبعادهم؟!.

فهم جاهلون لم يشهدوا خلق الله للسماوات والأرض في الأزل فيطلعوا على المقادير -مقادير الخلق- فيعرفوا أن هؤلاء لا حظ لهم ولا نصيب، أو أنهم جاءوا لمصلحة أو لشيء يأكلونه ويطعمونه أو نحو ذلك، يقول: ما أدراهم عما قدره الله -عز وجل- لعباده وخلقه في الأزل، هذه المعاني بعيدة؛ والسبب أن هذا خلاف المتبادر.

والأمر الثاني: أنه يؤدي إلى تفريق مرجع الضمائر، إذا قلنا: إن هذه ترجع إلى المشركين وقبله قال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ} يعني: إبليس، {وَذُرِّيَّتَهُ} إبليس، {وَهُمْ} أي: إبليس وذريته، {لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

قوله: {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [سورة الكهف: (٥١)] الآية خصت المضلين -يعني أعواناً-، والله -عز وجل- لم يتخذ أعواناً لا من المضلين ولا من الصالحين أو المصلحين، فالله -تبارك وتعالى- له الغنى المطلق عن خلقه أجمعين، ولكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه خص المضلين هنا مع أنه لم يتخذ أعواناً من أحد من الخلائق باعتبار أن ذلك فيه زيادة تحقير وامتهان لهؤلاء، أو لزيادة التوبيخ، لا سيما إذا اعتبرنا تعلقه بما قبله، {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} ما شهدوا خلق السماوات والأرض، وما حضروا ذلك، وما شاركوا فيه.

العَضُد: فيه لغات متعددة، وهذه اللغة المشهورة لغة قريش عَضُد بفتح العين وضم الضاد وعليها هذه القراءة، والآية فيها قراءات أخرى، وبعضهم يقول: عُضُد.

والعَضُد يستعمل بمعنى: العون؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: **{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ}** [ســورة القــصص: (٣٥)]، بمعنى: نقويك ونعينك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٩)

قوله تعالى"وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ" الآية ٥٢ إلى قوله تعالى"واتخذوا آيَاتِي وما أنذروا هزوا" الآية ٥٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف:٥٢-٥٣].

يقول تعالى مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا: {نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [سورة الأنعام:٩٤].

وقوله: {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} كما قال: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} الآية، وقال:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ} الآيتين، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:٨١-٨٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقتادة وغير واحد: مَهْلَكًا.

والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير في قوله: {بَيْنَهُمْ} عائدًا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم:١٤]، وقال {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [سورة الروم:٤٣]، وقال تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [سورة يس:٥٩]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} إلى قوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [سورة يونس:٢٨-٣٠].

وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، ورأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

وقوله: {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} سماهم هنا شركاء كما قال: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء}، وهم ليسوا بشركاء ولا شفعاء، ولكن هذا يرِد استعماله في القرآن مراعًى فيه حال المخاطَب، وإن كان المخاطِب لا يقر به، ولا يعترف بصحته، وهذا كثير وهو أنواع، وهذا أحد هذه الأنواع.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا}، هذا الموضع يحتاج فيه إلى معرفة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: معنى البين.

الأمر الثاني: مرجع الضمير {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ}.

الأمر الثالث: المراد بالمَوْبِق.

وكل ذلك مما لم يتفق عليه المفسرون، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} قد يفسر على ظاهره المتبادر، إذ قيل بأن الموبق هو العداوة، وجعلنا بينهم العداوة، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء} [سورة المائدة:٦٤]، والعداوة تكون بين الناس، وتكون بين العابدين والمعبودين من دون الله -عز وجل- في الآخرة، فإذا قيل: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} إن الموبق هو العداوة فهذا يكون له وجه في تفسير البين، ولكن تفسير الموبق بالعداوة ليس هو الأرجح والأقرب في هذا الموضع، وإن قال به بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، ويحتمل أن يكون المراد بالبين {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} هو الوصل، {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال:١] أي ذات الوصل، وجعلنا بينهم أي: الصلة والوصل الذي بينهم هلاكاً، بمعنى أن الروابط والعلائق التي كانت بينهم صارت عذاباً وشؤماً عليهم، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: وجعلنا فعلهم ذلك مهلكاً.

وعلى هذا المعنى يكون تواصلهم الذي كان في الدنيا سبباً لهلاكهم، ويكون مهلكاً لهم يوم القيامة، بعضهم يقول: جعلنا الهلاك بينهم، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا}؛ لأن كلاً منهم معين للآخر على إشراكه وباطله ومعصيته وضلاله وانحرافه.

والضمير في قوله: {بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يكون بين العابدين والمعبودين، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

ويقول: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}، تقطع بينكم يعني الصلة الوشيجة التي كانت بينهم، {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [سورة البقرة:١٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى، وهذا القول هو الأقرب، والسياق يدل عليه؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا}، بين العابدين والمعبودين، فالضمير يرجع إلى ما ذكر قبله، ويحتمل أن يكون {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: بين الكافرين في الآخرة جعلنا بينهم موبقاً.

وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا بعض ما يشهد له أيضاً، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم:٤٣]، {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ}[سورة الروم:٤٣]، فيتفرق هؤلاء الكفار.

والاحتمال الثالث: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: بين المؤمنين والكفار، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا}، يفصل بينهم، وهذه ثلاثة معانٍ أرجحها أن ذلك يكون بين العابدين والمعبودين، وهذا الذي يدل عليه ظاهر السياق، والله تعالى أعلم.

والمَوبِق المشهور من أقوال السلف أنه: الهلاك، جعل بينهم هلاكاً، فإذا قلت بين العابدين والمعبودين أي: جعل بينهم هلاكاً، سواء قلت بأنها الصلة التي كانت بينهم، أو قلت بأن المراد جعل بينهم أي بين هؤلاء وهؤلاء هلاكاً، وبعضهم يقول: أي موعداً، وابن الأعرابي -رحمه الله- يقول: كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق، فإذا قلت مثلاً: هذا بين العابدين والمعبودين، بينهم موبق أي لا يستطيعون الوصول إليهم، ويدعونهم ولا يستجيبون لهم، ولا ينفعونهم ولا يغنون عنهم من الله شيئاً، وبينهم هلاكاً، بينهم عذاباً يحيط بهم، وكما قال الله -عز وجل-: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر:١٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، هنا قال: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ} كما أخبر أيضاً أن النار تراهم فقال: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [سورة الفرقان:١٢]، {فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} الظن في كلام العرب بمعنى اليقين وهو المراد هنا، ظنوا أنهم مواقعوها أي: أيقنوا وعلموا؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم يكونون في غاية الإدراك {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، والمعرفة، {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ}، {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، يعني: ما أسمعَهم وما أبصرَهم!، فتذهب عنهم تلك الغشاوة، والحجب التي تحول بينهم وبين السماع والإبصار في الدنيا، فيعاينون الحقائق ويتيقنون المصير، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة:١٢]، فالظن هنا بمعنى اليقين، {فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، علموا أنهم داخلون فيها لا محالة، ويأتي الظن أيضاً في كلام العرب بمعنى طرف الرجحان؛ لأن القسمة ثلاثية: إذا أبعدنا اليقين فيكون الطرف الراجح والمرجوح والمستوي، فالراجح يقال له: ظن والمرجوح يقال له: وهم، والمستوي الذي استوى فيه الطرفان يقال له: شك، فكثيراً ما يطلقون، وهذا الذي يطلقه الأصوليون، والفقهاء تبعاً لهم، يطلقون الظن على طرف الرجحان، والراجح يقال له: ظن، يقولون: حكم العمل بالظن، يعني الظن الراجح، وإذا قالوا: إن الحكم الفلاني حكم ظني يقصدون أنه لا يفيد القطع لكنه هو الطرف الراجح وليس بوهم، بمعنى أنك إذا أخذت الطرف المرجوح وتركت الطرف الراجح تكون متبعاً للوهم، وهو ما يسمى عند الأصوليين أيضاً في الدلالة إذا لجأ إليه يقال له: التأويل، وهو المعنى الضئيل الذي يحتمله اللفظ احتمالاً ضعيفاً، وهذا اللجوء يقال له: التأويل، وذاك يقال له: المؤول، يعني الطرف الضعيف.

{فظنوا أنهم مواقعوها} يعني: أيقنوا وعلموا أنهم مواقعوها، {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف:٥٤].

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طرقه وفاطمةَ بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة، فقال: ((ألا تصليان؟))، فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول: {وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}))[1] أخرجاه في الصحيحين.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ}** يعني: بينا وأوضحنا، ونوعنا وكررنا، **{لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}** المثل يمكن أن يقال: إنه يقصد به المعنى، المثل يطلق بإطلاقات متعددة، لكن يمكن أن يقال: **{صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}** أي: من كل معنىً هو كالمثل في غرابته وحسنه، **{صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}** ومرجع الأمثال أو المثل يكون بالبيان بالنظير، هو الذي يعبرون عنه أحياناً بأنه إبراز المعنى بصورة حسية، كما يقولون، ولكن المثل هنا لا يراد به الأمثال التي تكون عند الأدباء والبيانيين وإنما المقصود أن الله -تبارك وتعالى- جلى لهم المعاني وأوضحها بألوان من التصريف الواضح، وكررها ونوعها بحيث لا تترك في الحق لبساً.

وقوله: **{وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}**، أكثر شيء مما يوصل بالجدل، فالإنسان أكثره جدلاً، وكثير من أهل العلم يقولون: هذا من العام المراد به الخصوص، وأن المراد بالإنسان الإنسان الكافر، قالوا: يدل على ذلك أن الله -عز وجل- ذكره بعد قوله: **{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}**، فالكافر هو الذي يجادل بهذه القضايا، ويكابر ويردها، يجادل في الإيمان والتوحيد، ويجادل في البعث والآخرة، ويجادل في الوحي والنبوة.

ثم من الآيات التي تدل على هذا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}**، ونحو ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى أن هؤلاء الكفار يجادلون مجادلة يقصدون بها إبطال الحق وتوهينه ونصرة الباطل، وإن كان هذا هو المراد وأن الآية في جدال الكافرين، **{وَكَانَ الإنْسَانُ}** أي: الكافر فإن هذا لا يمنع من استعمال العموم الذي في الآية، **{وَكَانَ الإنْسَانُ}** بحيث إن ذلك يصدق على الإنسان من حيث هو في كثرة مجادلاته، سواء كان يجادل في الإيمان أو يجادل في غيره، ويدل على ذلك حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- المتقدم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجع وهو يلطخ فخذه ويقول: **{وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}**، فإذا قيل: إن سياق الآية في الكافر فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قد استعملها في الأعم مما يدل عليه ظاهر اللفظ، فوجَّه ذلك فيما وقع إلى علي -رضي الله تعالى عنه-، وذلك في جوابه ورده أن هذا من الجدال، **{وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}**.

١- رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

وظاهر اللفظ العموم فيمكن أن يؤخذ هذا العموم ويجرى هذا اللفظ على كل ما يصدق عليه من جهة عمومه، كما سبق في أمثلة متنوعة، وكما في قوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء:١٠٤]، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عندها حشر الناس حفاة عراة غرلاً، مع أن السياق في إعادة الخلق، في الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، على البعث، وهي طريقة معروفة ومشهورة في القرآن، فيؤخذ من ظاهر اللفظ، كما في قوله تعالى: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٤٣]، فهي في الرجوع إلى أهل الكتاب الذين يعرفون الكتب والنبوات فاسألوهم عن هذا إن كنتم لا تعلمون به، وتعرفون أن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق، ولكن يؤخذ من ظاهر اللفظ معنىً أعم من هذا وهو الرجوع إلى أهل الاختصاص وسؤالهم والأخذ عنهم في أي فن من الفنون، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، الرجوع إلى العلماء في الفتيا، والرجوع إلى صاحب الصنعة في صنعته، ونحو ذلك.

والجدل في قوله: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}، المراد به الذم، وهذا هو الغالب في القرآن؛ لما يحصل فيه من حضور النفس وطلب الانتصار، وما يقع بسبب ذلك من أمور لا تخفى، وغالب ما ورد في القرآن من ذكر الجدل فإنما هو على سبيل الذم، إلا في مواضع قليلة يسيرة {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]، فهو مقيد بهذا؛ لأن الجدال في الغالب لا يسلم، وأصل معناه يدل على هذا في كلام العرب، حيث قيل: إنه مأخوذ من الجدالة وهي الأرض الصلبة.

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} [سورة الكهف:٥٥-٥٦].

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانًا، كما قال أولئك لنبيهم: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الشعراء:١٨٧]، وآخرون قالوا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، وقالت قريش: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢]، {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الحجر:٦-٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا} أي: يرونه عيانًا مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} أي: قبل العذاب مبشرين مَن صدقهم وآمن بهم، ومنذرين مَن كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل {لِيُدْحِضُوا بِهِ} أي: ليضعفوا به {الْحَقَّ} الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب {هُزُوًا} أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

يقول: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، وفي الموضع الآخر {إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، فهذا في المانع العادي أنهم استغربوا كيف يكون الرسول بشرياً، ولا يكون ملَكاً؟ فهنا في هذه الآية {إلا أن قالوا} هذا في المانع الحقيقي، {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، يقول: {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} يعني: بالعذاب المستأصل، كما ذكر الله -تبارك وتعالى- بعده {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} ثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الأيكة كل هؤلاء دمرهم الله -عز وجل- واستأصلهم عن آخرهم، {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} أي: عادته -تبارك وتعالى- في المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام-، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، هنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، وهذه الآية فيها قراءتان متواترتان، القراءة الأولى هذه: {قُبُلاً}، وبها قرأ الكوفيون الثلاثة: عاصم، وحمزة، والكسائي، وقرأ الأربعة الباقون من السبعة بكسر القاف، يعني {قِبَلاً}، ويمكن أن تفسر -والله تعالى أعلم- قراءة قِبَلاً أي: معاينة ومواجهة ومقابلة، وتفسر القراءة الأخرى {قُبُلاً} أي: متفرقاً، يتبع أو يتلو بعضه بعضاً، ويكون المعنى {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} بالعذاب المستأصل، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا} أي: متتابعاً ليس باستئصال، متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، هذا على قراءة {قُبُلاً}، وقراءة {قِبَلاً} هي التي يمكن أن يربط بها، أو يحمل عليها التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أي معاينة ومواجهة، والله تعالى أعلم.

والقراءتان إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين.

يقول: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [سورة غافر:٥] قال: ليضعفوا به الحق، يدحضوه أي ليبطلوه، ليضعفوه، وأصل الدحض يقال للشيء الزلق، فالذي لا تثبت عليه الأقدام والحوافر وما إلى ذلك يقال له: زلق، تنزلق عليه، ليدحضوا أي ليبطلوا، {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}، وهذا في الكلام على الجدل أن غالبه يكون بهذه المثابة، ولهذا جاء على سبيل الذم في أكثر المواضع.

والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٠)

من قوله تعالى"ومن أظلم ممن ذكر بأيت ربه فأعرض عنها" الآية ٥٧ إلى قوله تعالى"لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" الآية ٦٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف(٥٧-٥٩)].

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها؟! أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً {وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [سورة الكهف(٥٧)] **أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ}** [سورة الكهف(٥٧)] **أي: قلوب هؤلاء {أَكِنَّةً} أي: أغطية وغشاوة {أَن يَفْقَهُوهُ} أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}** [سورة الكهف(٥٧)] **أي: صمماً معنوياً عن الرشاد {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا}** [سورة الكهف(٥٧)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [سورة الكهف (٥٧)] هذا الاستفهام مضمن معنى النفي: **{وَمَنْ أَظْلَمُ}** أي: لا أحد أظلم **{مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [سورة الكهف (٥٧)].

وهنا سؤال ذكرته في عدد من المناسبات وهو أن هذا النفي المقرون بصيغة التفضيل: لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، قد يستشكل طالب العلم ذلك مع ما ورد من نظائره في قضايا أخرى؛ كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [سورة البقرة: (١١٤)] **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}** [سورة الأنعام (٢١)] فأفعل التفضيل كما هو معلوم في الأصل يدل على أن اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها، فالسؤال الذي يرد في هذا هو أنه كيف قال: لا أحد أظلم ممن فعل كذا وكذا في موضع، وفي موضع آخر ذكر قضية أخرى وهكذا ؟ والجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى: لا أحد أظلم من المعرضين، فيكون مختصا بالصلة التي ذكرت معه، وفي المانعين: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي المفترين: لا أحد أظلم ممن افترى الله على الله كذباً، هذا الجواب الأول.

الثاني: أن أفعل التفضيل تمنع من الزيادة ولا تمنع من التساوي وهذه قاعدة أفعل التفضيل، فتمنع من أن يزيد أحد على هذا في هذه الصفة، لكنها لا تمنع التساوي، يمكن أن يوجد من يساويه، لكن كلهم قد بلغ في الظلم غايته.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [الكهف: ٥٧]، أضاف العمل إلى اليدين مع أن عمل الإنسان قد يصدر من عينه ومن فمه أو غير ذلك من جوارحه، وقد يكون من قلبه وهو الإشراك بالله -عز وجل-، والرياء.

والسبب -والله أعلم- أن أكثر ما يلابسه الإنسان إنما هو بيديه؛ ولهذا يقال للإنسان: يداك أَوْكَتا وفُوك نَفَخ، ويقال: هذا ما جنت يداك، وقد يكون وقع له ذلك بغير فعل اليدين، بغير جناية اليدين، مثل الإنسان الذي قد يفرط في أمر من الأمور، ثم بعد ذلك لا يحصل مطلوبه، فيقال: هذا ما جنت يداك، فالعرب تضيف ذلك إلى اليدين؛ لأن غالب ما يلابسه الإنسان إنما يكون باقتراف اليدين في الغالب.

كما يعبر في مال اليتيم بالأكل، مع أن إحراق مال اليتيم، وإغراق مال اليتيم نفس الحكم، لكن لما كان غالب مقصود الناس هو الأكل، عبر بالأكل.

وهكذا في أكل الربا: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} [سورة البقرة (٢٧٥)] وقد لا يأكله الإنسان، لكن لما كان غالب مقصود الناس من تحصيل الربا والأموال عموماً هو الأكل عبر به، والله أعلم.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الكهف (٥٧)] الأكنّة هي الأغطية، والوقْر هو الثقل في السمع، والوِقْر بالكسر هو الثقل في الأحمال، تقول: هذه الدابة عليها وِقْر من الطعام، أي: حمل من الطعام، والوَقْر: الثقل الذي يكون في السمع، يعني هنا الصمم: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الكهف (٥٧)].

{وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف (٥٧)] هذه الأكنة التي جعلها الله على القلوب، وعدم الاهتداء أبداً ليس ذلك ظلماً من الله -عز وجل- لهم، وإنما كان نتيجة لجناياتهم، فالله -عز وجل- يخبر عنهم قبلها: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [سورة الكهف(٥٧)] فأعقبهم ذلك أن طبع الله على قلوبهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة (٧٧)] فالباء سببية، والله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئاً، فكان هذا جزاء وفاقاً، فالله عالم بهم وبعقولهم وإعراضهم عن الحق، ومجافاتهم له، فجازاهم بالطبع على القلوب، والختم على هذه القلوب، وأقفل أسماعهم وأبصارهم عن الاهتداء، أو معرفة الحق وسماعه سماع الانتفاع.

وقوله: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [سورة الكهف (٥٨)] أي: ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة {لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [سورة الكهف (٥٨)] كما قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥] وقال: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا} [سورة الكهف٥٨] أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل.

وقوله: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [سورة الكهف (٥٩)] أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف (٥٩)] أي: جعلناه إلى مدة معلومة، ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذّبتم أشرف رسول، وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

قوله: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف (٥٩)] هذه فيها ثلاث قراءات متواترة، قد ترجع إلى معنى واحد، ومن أهل العلم من يفسر قوله: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم} [سورة الكهف(٥٩)]، أي: لوقت هلاكهم، ومنهم من يفسر ذلك بالمصدر: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم} [سورة الكهف(٥٩)] أي: جعلنا لهلاكهم موعداً، أي: أن هلاكهم في وقت محدد في علم الله -عز وجل- لا يتقدم ولا يتأخر، وهذان المعنيان بينهما ارتباط لا يخفى، إذا قلنا: جعلنا لهلاكهم موعداً، أو جعلنا لوقت هلاكهم، فإن الهلاك يقع في زمان محدد كما أنه يقع في مكان، فإذا ذكر الهلاك فإن هذا يتضمن ذكر الزمان، فإذا قيل: لهلاكهم وقت محدد، أو لزمان هلاكهم موعد محدد، فكأن ذلك يرجع إلى معنى متلازم، ولهذا مثل هذه المعاني التي تحتملها الآية ويكون بين هذه المعاني ملازمة لا يحتاج مثله إلى ترجيح، والله أعلم.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٠-٦٥)].

سبب قول موسى لفتاه -وهو يُوشع بن نُون- هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى -عليه السلام-، فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك: {لَا أَبْرَحُ} [سورة الكهف (٦٠)] أي: لا أزال سائراً {حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [سورة الكهف (٦٠)] أي: هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين.

وقوله: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير -رحمه الله-: ذكّر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس: سنة.

ثم روى عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] قال: دهراً، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك.

يقول: سبب قول موسى لفتاه -وهو يوشع بن نون- هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً.. إلى آخره، والحديث يدل على أنه ذكر له هذا بسبب ما وقع من موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما قام في بني إسرائيل، وسأل: من أعلم؟ ثم قال: أنا أعلم، فالله -تبارك وتعالى- أخبره أن عبداً من عباده قد علمه من العلم ما ليس عند موسى -عليه الصلاة والسلام-، فهذا هو السبب، فذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- يطلبه، وهذا يدل على أن الإنسان مهما علا قدره لا يتوقف من طلب العلم، والرحلة إليه، والسؤال عنه، ولا يستنكف، فإن هذا هو الطريق الذي تحصل به معالي الأمور والكمالات، وموسى وهو نبي الله الكليم يذهب هذه المسافة ويتعب من أجل أن يتزود من العلم، ويحصل منه ما ليس عنده.

وقوله: {حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [سورة الكهف (٦٠)] قال: أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، والله -عز وجل- لم يحدد هذا المكان أين هو، ولو كان فيه فائدة لذكره، والمفسرون يذكرون أشياء كثيرة في غاية التناقض، وكل ذلك مما تُلقي عن بني إسرائيل.

فبعضهم يقول: المقصود بالبحرين بحر فارس، الذي هو معروف بالخليج العربي، وبحر الروم الذي هو البحر الأبيض المتوسط في هذه المنطقة، وبعضهم يقول: هو بحر الأردن، ويقصدون به الناحية التي تلي الأردن من البحر، وبحر الأردن مع بحر القلزم، وهو رأس البحر الأحمر، وبعضهم يقول -وإن تفاوتت عباراتهم-: البحر الذي يكون غرباً يعني: عند مضيق جبل طارق، يقولون: عند طنجة، أو يقولون: بأفريقيا يقصدون هناك، أو المغرب، والمقصود ملتقى البحر هناك، وبعضهم يذهب من ناحية أخرى تماماً عند أرمينية وأذربيجان، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] هذه الأقوال: أنها سنة، أو ثمانون سنة، أو سبعون سنة متباعدة جداً، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: دهراً؛ ولهذا يقول النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أنه زمان من الدهر مبهم غير محدد، أمضي مدة من الدهر حتى أدرك ذلك، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} [سورة الكهف (٦١)] وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّه، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان في مِكتل مع يوشع -عليه السلام.

المِكتل هو الزنبيل، والذي لا يعرف الزنبيل فهو المِكتل، تعرفون الذي يوضع فيه التمر ويخصف من الجريد، هذا يقال له: مِكتل، وكان الناس إلى عهد قريب يضعون فيه الطعام.

فاضطرب وكان في مِكتل مع يوشع -عليه السلام-، وطَفَر من المِكتل إلى البحر، فاستيقظ يُوشع -عليه السلام- وسقط الحوت في البحر، فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال تعالى: {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} [سورة الكهف (٦١)] أي: مثل السَرَب في الأرض.

قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: صار أثره كأنه حَجَر.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهم- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين ذكر حديث ذلك: ((ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكُوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه، فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} [سورة الكهف (٦٤)][1].

قوله: **{فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا}** [سورة الكهف (٦١)] يعني: أن المكان الذي دخل فيه الحوت بقي كأنه جحر، أو نفق، أو سرب لم ينطبق عليه الماء، وإنما بقي ذلك كأنه في اليابسة، بل صار الماء منكفئاً عنه، وبقي مكان دخول الحوت كالجحر في الماء، يراه الإنسان ويشاهده دون أن ينزل عليه الماء ويرجع إلى هيئته التي كان عليها، فهو جحر في الماء والماء يكون دونه، هذا معنى سرباً، السرب هو النفق أو الجحر، وهذا لا يكون عادة في الماء، ولكنها آية جعلها الله -عز وجل- لموسى -عليه الصلاة والسلام- من أجل أن يعرف ويرى هذا المكان الذي دخل منه الحوت.

وقوله: {فَلَمَّا جَاوَزَا} [سورة الكهف(٦٢)] **أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما، وإن كان يُوشَع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}** [سورة الرحمن (٢٢)]**، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين.**

فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة قال موسى -عليه السلام- لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا} [سورة الكهف (٦٢)] **أي: الذي جاوزا فيه المكان {نَصَبًا} أي: تعباً، قال: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}** [سورة الكهف (٦٣)] **ولهذا قال: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ}** [سورة الكهف (٦٣)] **أي: طريقه {فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}** [سورة الكهف (٦٤)] **أي: هذا هو الذي نطلب {فَارْتَدَّا}** [سورة الكهف (٦٤)] **أي: رجعا {عَلَى آثَارِهِمَا}** [سورة الكهف (٦٤)] **أي: طريقهما، {قَصَصًا} أي: يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما.**

{فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] **وهذا هو الخضر -عليه السلام-، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.**

قوله: **{فَلَمَّا جَاوَزَا}** [سورة الكهف(٦٢)] أي: المكان الذي نُسي الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه وهذا كثير تجده في القرآن وفي كلام العرب، وهذا يشبه -وإن لم يكن منه- العام المراد به الخصوص، وإن كان هنا لا عموم، لكن وجه الشبه أنه أضاف شيئاً إلى معنى، أو إلى أكثر مما حصل منه، أو ممن صدر منه، والمقصود أن ذلك وقع من بعضه، وعكسه أيضاً يوجد.

يقول: **{فَلَمَّا جَاوَزَا}** [سورة الكهف(٦٢)] أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، **{قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا}** [سورة الكهف (٦٢)] أي: الذي جاوزنا فيه المكان **{نَصَبًا}** بمعنى: أن النصب حصل لهما بعد مجاوزة السفر الذي أنشأه بعد هذه الاستراحة التي ذهب فيها الحوت.

---

١ - أخرجه الطبري (٢٧٣/١٥) من طريق محمد بن إسحاق عن ابن شهاب الزهري.

قوله: {نَصَبًا} أي: تعباً، وابن القيم -رحمه الله- ذكر هنا لطيفة من اللطائف: قال: هذا السفر إلى المخلوق لقي فيه النصب، وأما السفر إلى الله -عز وجل- فلا نصب فيه، وذكر أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما واعده ربه، وذهب إلى الميقات أنه صام أربعين يوماً، ولم يذكر هذا النصب حينما ذهب إلى الطور.

قال: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] أضاف إلى الشيطان لأن الشيطان هو سبب النسيان، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام (٦٨)].

وقال: ولهذا قال: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] أي: طريقه {فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [سورة الكهف (٦٣)] هذا يحتمل أن يكون من الموصول لفظاً المفصول معنىً، وقد مضى نظائره في القرآن، كقوله في سورة يوسف -عليه السلام- عن قيل امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف (٥٢)] يحتمل أن يكون من كلام امرأة العزيز، ويحتمل أن الله قال: {قَالَت امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [سورة يوسف (٥١)] إلى أن قال: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف (٥٢)] يحتمل أن يكون من جملة كلامها، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام.

وهكذا قبله أيضاً في سورة الأنعام في ذكر الله –تبارك وتعالى- المناظرة بين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبين عبدة الكواكب، قال الله -عز وجل- لما خوفوه من آلهتهم أن يضروه، أو أن يقتلوه أو يمرضوه: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام(٨١)]، ثم قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام(٨٢)] يحتمل أن يكون هذا من كلام الله فصل بين الفريقين، بيّن أن الأمن لأهل الإيمان، ويحتمل أن يكون من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيما خاطب به قومه، وهذا كثير.

فقوله: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] يمكن أن يكون هذا كلام يوشع انتهى إلى هذا الحد.

ثم قال الله -عز وجل-: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [سورة الكهف (٦٣)] ويحتمل أن يكون ذلك جميعاً من كلام يوشع، فهو يقول: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [(٦٣) سورة الكهف] وذلك بهذه الطريقة كيف أحياه الله -عز وجل- وخرج من المكتل، وكيف دخل في البحر فبقي موضع دخول الحوت كالنفق أو السرب في البحر لم يتحول ولم يتغير؟، والله أعلم.

وقوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] يقول: وهذا هو الخضر -عليه السلام-، سمي بالخضر لما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي

تهتز من خلفه خضراء))[٢] هذا هو السبب، فالخضر بهذا الاعتبار لقب، وقد جاءت تسميته باسمه غير الخضر في بعض الأخبار المتلقاة عن بني إسرائيل، والله تعالى أعلم.

قوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٥)] هذا الموضع بالإضافة إلى ما ذكره في آخر ما قال لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف (٨٢)] هذه المواضع الثلاثة، يعني: الجملة الأولى في قوله: {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا} [سورة الكهف (٦٥)]، والجملة الثانية: {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٥)] والموضع الثالث: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] يستدل بها من يقول بأن الخضر نبي من الأنبياء، وهذا قول مشهور، قال به طائفة من أهل العلم سلفاً وخلفاً، قالوا: إن الرحمة قد وردت في القرآن مراداً بها النبوة: {إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة القصص(٨٦)] ولما قالوا: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [سورة الزخرف(٣٢)] يعني النبوة، فقالوا: الرحمة جاءت مراداً بها النبوة، والقرآن أحسن ما يفسر به هو القرآن.

{وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] قالوا: هذا هو الوحي، وإنما يكون الوحي للأنبياء، وقوله: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] يدل على أنه يوحى إليه.

وعلى كل حال القول الآخر: أنه ليس بنبي، وإنما هو رجل صالح، هذان قولان مشهوران، وأما قول من قال بأنه ملك فهذا غلط، ولا دليل عليه.

وعلى كل حال يمكن أن يأتي وحي إلى غير نبي، فالله -عز وجل- قال: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [سورة القصص(٧)] وقد يوحى إلى نبي قبل النبوة، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- وهو في المهد قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [سورة مريم(٣٠)] وكذلك أيضاً يوسف -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير قبل النبوة لما ذهبوا به إلى الجب كما سبق، قال: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)] يعني: سيأتي يوم تقول لهم: تذكرون حينما فعلتم كذا وكذا {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} لا يعرفونك، ولا يعلمون أنك يوسف، وهذا الذي حصل في نهاية الأمر: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)]، فقد يوحي الله -عز وجل- إلى بعض عباده قبل النبوة، ومريم حينما جاءها جبريل -عليه الصلاة والسلام- وخاطبها، قالت له: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا} [سورة مريم(١٨)] فأخبرها أنه رسول من الله -عز وجل-: {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [سورة مريم(١٩)].

على كل حال فالقول بأنه نبي لا يوجد ما يدل عليه دلالة قاطعة، والآية تحتمل هذا، والنبوة لا تثبت بالاحتمال، والعلم عند الله -عز وجل.

وأما ما يذكر من حياته، أو من أنه وجد منذ آدم -صلى الله عليه وسلم-، يعني: من ولد آدم وبقي حتى يكذب الدجال، فهذا لا دليل عليه، وكل ما يذكر من أنه باق، وأنه موجود فكل هذا من الخزعبلات التي لا أساس

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

لها، وهي التي تعلق بها كثير من الصوفية، وبنوا عليها كثيراً من الأوهام والأكاذيب والترّهات، ومما يدل على أنه غير موجود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه لا يبقى على رأس المائة ممن هو على ظهر الأرض أحد، فلو كان الخضر موجوداً لمات على رأس المائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١١)

من قوله تعالى"فلما جاوزا قال لفتاه" الآية ٦٢ إلى قوله تعالى"حتى أحدث لك منه ذكرا" الآية ٧٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: روى البخاري[١] عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر -عليه السلام- ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أُبيّ بن كعب -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم ؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمِكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمه، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون -عليه السلام- حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكتل، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [سورة الكهف: (٦٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية في صحيح البخاري وقد جاءت روايات متعددة في خبر موسى -عليه الصلاة والسلام- مع الخضر تبين السبب الذي من أجله ذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- يطلبه، وكذلك هي تبين أن الذي وقع له ذلك هو موسى -عليه الصلاة والسلام- النبي المعروف الكريم وليس برجل آخر يسمى بهذا الاسم كما يزعم بعض الإسرائيليين.

وقوله: ((فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق))، أي: يعني مثل الكوة التي تكون في الجدار، مثل النفق، أو السرب، فبقي الماء ثابتاً وصار مكان دخول الحوت كالجحر، يُشاهَد ويُعرَف مكان الدخول.

قوله: ((فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا})).

لم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، ولهذا قال بعض أهل التفسير: {لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} يعني: الذي كان بعد الاستراحة، ولم يجد هذا النصَب في أول سفره.

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (١٢٤٦/٣)، برقم: (٣٢٢٠).

((ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} [سورة الكهف (٦٣)]، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [سورة الكهف: (٦٤)])).

قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً))، وهذا يدل على أن قوله: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} يحتمل أن يكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى، يعني قوله: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} من كلام يوشع -عليه السلام.

ويحتمل أن يكون المعنى {وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف: (٦٣)]، وانتهى {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} يكون من كلام الله.

فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [سورة الكهف: (٦٤)] قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضرُ: وأنَّى بأرضك السلام! فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال أتيتك لتعلمني مما عُلمت رشداً، {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} [سورة الكهف: (٦٧)]، يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} [سورة الكهف: (٦٩)].

قوله: ((يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه)) هذا من الأدلة على أن الخضر كان نبيا، وهذا القول نسبه بعضهم للجمهور، وعلى كل حال المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، ولكن النبوة لا تثبت بالاحتمال.

قال له الخضر: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً}، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل.

بغير نول يعني بغير أجرة.

فحملوهم بغير نَول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى.

القدوم يعني الآلة المعروفة، لازلنا نسميها قدوماً.

فقال له موسى: قد حملونا بغير نَوْل فعمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً}، قال: وقال رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)).

قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)) يرد على قول طائفة من المفسرين أن موسى -عليه الصلاة والسلام- قال: {لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} اعتراضاً عليه بمعنى أنه يقول: ما نسيت، يعني: بما تركتُ من موافقتك، فإن النسيان يأتي كما هو معروف لمعنيين:

المعنى الأول: الذهول عن المعلوم.

المعنى الثاني: الذي هو الترك {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر: (١٩)]، {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا} [سورة طــه: (١٢٦)]، يعني: تركتها، فالنسيان يأتي بمعنى الترك، فبعض المفسرين يقول: إنه قال له: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [سورة الكهف: (٧٣)] يعني: بما تركتُ من موافقتك وعارضتك به، فلا تؤاخذني به، مع أن هذا القول يخالف ما حصل الاتفاق عليه في أول الأمر {فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [سورة الكهف: (٧٠)]، وقال له: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [سورة الكهف: (٦٩)]، فكيف يقول له فيما بعد: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ}، يعني: لا تؤاخذني بما تركت من طاعتك وعدم معارضتك؟، فهذا بعيد، بل هو غير صحيح، ويدل على أنه غير صحيح، ما جاء في الحديث هنا: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)).

((قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله)).

قوله: ((إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان))، هذا يرد على قول من قال من المفسرين بأن الغلام المقصود به رجل كبير، ومن المعلوم أن الغلام في لغة العرب قد يطلق على الكبير لسبب من الأسباب: إما لضعف عقله فيكون مثل الغلام، أو لضعف شأنه كأن يكون خادماً، يقال: غلام لبني النجار، غلام لبني فلان، وقد يقال له ذلك تحقيراً لشأنه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هلاك أمتي على يد أُغيلمة من قريش))[٢]، فهم ليسوا أطفالاً، وقد ذهب طائفة من أهل العلم في تفسير هذا الحديث إلى أنهم يزيد بن معاوية وأمثاله.

فالشاهد أن الغلام يطلق على الكبير أحياناً لسبب من الأسباب، والذي حمل من قال إن الغلام الذي قتله الخضر كان كبيرا أنه كيف يقتل هذا الغلام البريء ولم يصدر منه ما يوجب القتل، فقالوا: الغلام هو الكبير، أي أنه رجل فسماه غلاماً، لكن هذا بعيد من وجهين:

الأول: أنه قال في الحديث: ((وجد غلاماً يلعب مع الغلمان)) فهذه قرينة واضحة تدل على أنه صبي.

الثاني: أنه قال له: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا} [سورة الكهف: (٧٤)]، والنفس الزكية أي: الطاهرة من الذنوب.

وقال بعض أهل العلم: إن الغلام يطلق على ما قبل البلوغ، يعني ما لم يبلغ يقال له غلام، فمن كان مميزاً فإنه يكون مكلفاً بالإيمان والتوحيد دون تفاصيل الشريعة، لكن يكون مكلفاً بالتوحيد؛ لأنه يميز، وقالوا: إنه إذا وقع منه ردة –أي من المميز- فإنه يحكم عليه بمقتضى ذلك، ولا يعاقب بالقتل، لكن يزجر فيمكن أن يعزر، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((واضربوهم عليها لعشر))[٣]، فيضرب على ترك الصلاة، فكيف بما هو أعظم من ذلك، فلو أنه صرح بالكفر أو بسب الله -عز وجل-، أو بنحو ذلك، أو قال: إنه يهودي أو

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣ / ١٣١٩)، برقم: (٣٤١٠).

[٣] - رواه أحمد (٣٦٩/١١)، برقم: (٦٧٥٦)، وهو حديث حسن.

نصراني، فبعض أهل العلم يقول: هو مكلف بالتوحيد فوقع عليه ما وقع من الخضر، فلم يبلغ الغلام، ولكنه مكلف بالتوحيد.

وقال بعض أهل العلم: إنه ليس مكلفاً في شريعتنا، ولكن قد يكون التكليف في شرع من قبلنا بالتمييز، وهذه المسألة تتعلق بقضية وهي: هل يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه أو لا؟.

وقد تقدمت هذه المسألة في درس عمدة الأحكام في الكلام على حديث أبي سفيان لما قالت هند –رضي الله عنها– ((إن أبا سفيان رجل شحيح))[٤]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستفصل منه، ولم يسأله، ولم يطالب بالبينة.

وقد جاء عند البخاري من حديث أم سلمة -رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار))[٥].

ولهذا لما جاء نافع بن الأزرق -وهو من كبار الخوارج- وسأل ابن عباس –رضي الله عنهما- عن قتل الغلمان، فقال له ابن عباس: إن كنت كالخضر تعلم المؤمن من الكافر فاقتله.

فقال له موسى: **{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [**سورة الكهف**: (٧٤-٧٥)]، **قال: وهذه أشد من الأولى،** **{قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي}**، [سورة الكهف: (٧٦)].

أشد من الأولى باعتبار الزيادة؛ لأن زيادة المبنى بزيادة المعنى، ففي الأولى قال له: **{أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف: (٧٢)]، وفي الثانية قال له: **{أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف: (٧٥)]، فهذا فيه زيادة في المعاتبة.

{قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ}، [**سورة الكهف**: (٧٦- ٧٧)]، **أي: مائلاً، فقال الخضر بيده** **{فَأَقَامَهُ}**، **فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا،** **{لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً}**.

قوله: فقال الخضر بيده فأقامه، هذه الأشياء يحتاج إليها؛ لأن المفسرين منهم من يقول: هدمه ثم بناه، وبعضهم يقول: قال به بيده فكان ذلك على سبيل الأمر الخارق للعادة، أي: أمر معجز، وكرامة من الله -عز وجل- للخضر بدون هدم الجدار المائل؛ لأنه لا يمكن أن يقام الجدار المائل باليد بدون هدم.

ولا نستشكل كلمة "قال"؛ لأن "قال" لا تأتي بمعنى القول فقط باللسان، وإنما تأتي بحركة طرف من أطراف الإنسان، كأن تقول: قال بيده، وقال بثوبه، وقال برجله، وقال برأسه، وقال بالسيف.

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف (٥/٢٠٥٢)، برقم: (٥٠٤٩)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند (٣/١٣٣٨)، برقم: (١٧١٤).

[٥] - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم (٦ /٢٦٢٢)، برقم (٦٧٤٨).

ولما ذكر ابن جرير -رحمه الله- القولين، قال: وجائز أن يكون كذا وجائز أن يكون كذا، كأنه يقول: ليس عندنا ما يدل على أنه هدمه ثم بناه، أو أنه أقامه بيده، كل هذا احتمال، لكن هذا الحديث يدل على أنه لم يهدمه، والقضية قد لا تكون ذات أهمية كبيرة، لكن فيها فائدتان:

الفائدة الأولى: كيف نتبين ضعف بعض الأقوال ؟ فقد كانت مخالفة للحديث.

الفائدة الثانية: أن هذا أيضاً فيه معجزة، وخوارق عادات من الممكن أن يحتج بها من يقول: إنه نبي، فضلاً عن كونه عرف أصلاً أن هذا تحته كنز، وخوارق العادات لا تختص بالأنبياء كما هو معروف، واصطلاح المتأخرين على تسمية ما وقع من ذلك للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالمعجزات، وما وقع لأتباعهم بكرامات الأولياء، وكل ذلك في لغة الكتاب والسنة يقال له الآيات، والبينات، وآيات الأنبياء، والسلف يقولون: آيات الأنبياء، ويعبر عنه بدلائل النبوة، ثم صار المتأخرون يفرقون ولا مشاحّة في الاصطلاح، فما وقع لنبي فهو معجزة وما وقع لتابع نبي فهو كرامة، وكرامات الأولياء معجزات للأنبياء.

{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف: (٧٨)]، **فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:** **((وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)).**

قال سعيد بن جبير -رضي الله عنه-: كان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقرأ: {وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً}، وكان يقرأ: {وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنيْن}.

هذه القراءات توضح إشكالاً، فمن قرأ لأول وهلة قوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف: (٧٩)]، فقد يقول: وما أثر عيب السفينة فيما ذكر، فالملك سيأخذ السفينة غصبا، سواء كانت صالحة أو معيبة، فهذه القراءة تبين المراد أنه لم يكن يأخذ المعيبة وإنما يأخذ الصالحة فقط، ومن خلال القراءة المتواترة لا يتبين هذا المعنى، فيُرَدّ السؤال والإشكال بقراءة ابن عباس -رضي الله عنهما.

قوله: {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف: (٨٠)]، يعني: أنه طُبع كافراً، وقال بعض أهل العلم: إن الإنسان يكون مكلفا بالتوحيد قبل البلوغ، وهذا الغلام كان كافرا بالتوحيد.

ثم رواه البخاري[٦] نحوه وفيه: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا}، قال: وساق الحديث، ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه.

حرف الشيء أي طرفه، فحرف السفينة طرفها.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الكهف (٤/١٧٥٧)، برقم: (٤٤٥٠).

{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [سورة الكهف: (٦٦-٧٠)]، **يخبر تعالى عن قيل موسى -عليه السلام- لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ}، سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم، وقوله: {أَتّبِعُكَ}، أي: أصحبك وأرافقك، {عَلَىَ أَن تُعَلّمَنِ مِمّا عُلّمْتَ رُشْداً}، أي: مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها {قَالَ} الخضر لموسى: {إِنّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً}، أي: إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي، {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىَ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً}، فأنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعتَ على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعتُ أنا عليها دونك.**

وجه التلطف الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- أنه جاء بأسلوب العرض {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [سورة الكهف: (٦٦)]، فلم يقل علمْني، وهذا من الأدب الكامل، ومن أدب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ونظائره في القرآن موجودة، فلو تتبعت أخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما قصه الله علينا من قصصهم تجد أشياء من الأدب الجم الرفيع، بخلاف أولئك الذين جاءوا إلى داود -عليه الصلاة والسلام- {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [سورة ص: (٢١)] فلم يدخلوا من الباب وإنما تسوروا في وقت خلوته وعبادته، فأفزعوه وأخافوه، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا له: {خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} [سورة ص: (٢٢)] بأسلوب الأمر {فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ}، ولم يكتفوا بهذا -أيضاً- بل قالوا: {وَلَا تُشْطِطْ} فكأنهم يلقنونه ويعلمونه كيف يحكم وهو ملك ونبي، فلا دخول بوجه صحيح، ولا أسلوب صحيح.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [سورة الكهف: (٦٧)]، أي: لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك.

وقد أقامت الصوفية هذه القضية وأقعدتها، وملئوا الدواوين في الكلام على العلم اللدنّي، وأن من وصل إلى العلم اللدني والمعرفة ونحو ذلك فإنه يستغني عن الشريعة، فإن الشرائع لأهل الظواهر وهم الذين لم ينكشف عنهم الحجاب فيخاطبون بهذا، وقد جاءوا بهذا القول من الفلاسفة الذين يقولون: إن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما جاءوا بهذه الأشياء التي جاءوا بها من أجل ضبط الناس؛ لأن العوام مثل البهائم لا يحصل لهم الانضباط إلا بالترغيب والترهيب، فهم لا يعتقدون صدق نبوة الأنبياء، ويعتقدون أن هذا لا حقيقة له، فتأثر من تأثر بذلك من أهل التصوف، ومعروف أن أهل التصوف على فريقين: منهم ما يُعرف بالتصوف الفلسفي أمثال ابن سبعين، والحلاج، والطائفة الذين هم الصوفية أهل السلوك فقط الذي يسمون بأصحاب التفسير الإشاري والتصوف العملي.

فالشاهد أن الصوفية يقولون لنا : تأخذون علمكم عن ميت عن ميت، حدثنا فلان عن فلان عن فلان، أما نحن فنأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت مباشرة، ولهذا كانوا يتقللون من الطعام ويُجوّعون أنفسهم من أجل الصفاء، فإذا حصل له هذا –بزعمهم- خلوة وانقطاع عن الناس مع الجوع والذكر حصل له الكشف، فتكشف له، ولهذا يأتون بأشياء ويصدقون أشياء من العجائب والغرائب، يقول لك: أهل الظاهر يحجبهم الحجاب الكثيف الغليظ لما على قلوبهم من الأدناس والأدران بحيث لا يرون الحقائق كما هي، ولذلك يقوم واحد من كبارهم ومن معظميهم أمثال ابن عربي يوم الجمعة في المسجد ويرفع ثوبه، ويخرج عورته، ويبول أمام الناس في المسجد ثم يخرج، فإذا أنكر ذلك منكر قالوا له: أنت تنكر ماذا ؟ أنت تنكر فيما يظهر لك أنه يبول لكن في باطن الأمر ليس كذلك، وكان بعضهم كما هو معروف يقع على البهيمة في الشارع ويفجر بالحمار، ويقولون: هو في الظاهر يتراءى أمامك الآن أنه يفجر بالحمار، لكنه في الواقع ليس كذلك، فأفسدوا فساداً عظيماً، ودخلت الباطنية وجاءوا بما هو أدهى وأمر، وفسروا الشريعة بأمور من الرموز والأشياء التي ما أنزل الله بها من سلطان هي غاية الكفر والضلال وقالوا: إن الظواهر -ظواهر النصوص- هذه للعامة، والبواطن لأهل الحقيقة، فصار هناك أهل حقيقة، وأهل شريعة.

فالشاهد أن الصوفية قالوا: هذا علم لدنّي لم يتفق مع شريعة موسى فشريعة موسى تحكم بالظواهر، والخضر عنده علم الباطن وعلم الحقيقة، فهم يقولون: نحن عندنا من علم الحقيقة ما ليس عند أهل الشريعة، فالفقهاء هم أهل الشريعة يحكمون على أفعال الناس: صلاة هذا صحت، طهارته، وهذا لم تصح صلاته، أما نحن عندنا علم الحقيقة، هذا زعمهم وقولهم الباطل، ولهذا بعض الغلاة منهم يصل به الأمر إلى ترك الصلاة والتكاليف باعتبار أنه وصل إلى مرحلة تسقط عنه هذه الأحكام الشرعية؛ لأنه إنما جيء بها من أجل هؤلاء العامة لما يحول بينهم وبين المعرفة والحقيقة من الحجب الكثيفة الغليظة، فإذا حصل الصفاء حصل الكشف.

فهذه أشياء تلقيت من النصارى، والنصارى تأثروا بها من فلاسفة، وأشياء أخذوها من أهل بعض الديانات الشرقية في الهند.

يذكر في ترجمة بوذا، ويزعم أتباعه أنه كان يأكل في اليوم حبة واحدة من الأرز فقط من أجل أن يحصل له الصفاء، والكشف والمعرفة، يقولون: كان يمشي وجلس تحت شجرة وبينما هو كذلك إذ كشف له عن الحقيقة، وهذا الكلام مثل كلام الصوفية.

وهذه الأشياء في الواقع قد تحصل له لكن ليست هي الكشف الذي يقولون وإنما لون من الهلوسة والخيالات، ومعروف عند الأطباء أن شدة الجوع، أو الذي يُجوّع نفسه، أو الذين يعملون رجيماً حاداً يحصل لهم من الخيالات الشيء الغريب الهائل، حتى لربما يحصل لهم خوف وقلق وانزعاج، ويتبدى لهم أمور أنهم لربما في خطر، أو يواجهون أموراً لا يدري الواحد منهم ما هي، أو أنه سيموت وأن حياته مهددة، يشعر هكذا بانزعاج وقلق وخوف، وقد رأيت بعض هؤلاء بشكل مذهل مما يعيشه من الخيالات والمخاوف التي لا حقيقة لها، والسبب هو الجوع والرجيم.

{قَالَ}، أي: موسى {سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً} [سورة الكهف: (٦٩)]، **أي: على ما أرى من أمورك، {وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً}، أي: ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر -عليه السلام- {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ**

تَسْأَلْنِي عَن شَيءٍ}، [سورة الكهف: (٧٠)] أي: ابتداءً {حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً}، أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قوله: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [سورة الكهف: (٦٩)] ، يذكّر بالأدب الذي ذكره الله -عز وجل- في أول السورة {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الكهف: (٢٣-٢٤)]، وهذا على جلالة قدر موسى –عليه السلام- وعظم مكانته وقوة شخصيته -عليه الصلاة والسلام-، فقد قال في مقام التعلم: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}.

وقد يقول قائل: هذه الرحلة الطويلة المضنية، ما هي العلوم التي رجع بها موسى -عليه الصلاة والسلام؟ فهل اكتفى موسى بمعرفته سبب خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار؟

نقول قد تعلم الشيء الكثير، ومن المعلوم أن أهل العلم يقولون: لو سافر الإنسان من أجل مسألة إلى الصين كان ذلك.

واستفاد موسى –عليه الصلاة والسلام– الأدب الذي أدبه الله -عز وجل- به وهو أن يضيف العلم إلى الله؛ لأن سبب القضية أنه قال: أنا أعلم، فهذه الواحدة تكفي.

والناظر لأول وهلة لربما يرى بعض الأمور التي ينزعج منها ويقلق، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك عن أمور ما كانت تخطر له على بال، فما يقع لموسى -عليه الصلاة والسلام- مع قومه، وما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- من التكذيب والأذى وما إلى ذلك من هذه الأمور، وما يُمتَّع به هؤلاء الذين يكذبون ويحاربون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما يرى ما هم فيه من التمكين أو نحو ذلك مما تنزعج له القلوب أحياناً ويقلق له الإنسان، لكن ذلك ليس هو نهاية المطاف، هذا أمر يتبدئ الآن، ولكن ليست العبرة به، العبرة مما سيكون بعده.

فهذا التمتيع الذي يحصل لهم هو شيء مؤقت لكن العبرة بما يعقبه، فما يشاهده الإنسان من أمور مقلقة ليس العبرة فيها بما يجري في لحظته وساعته، وإنما العبرة بما ينتج عن ذلك ويحصل بعده، فهذه يحتاج إليها من يدعو إلى الله، ومن يعلّم الناس ومن يربيهم، فلا يحصل له جزع ولا انقطاع ولا يضيق صدره بما يمكرون ونحو ذلك، فقصة موسى –عليه الصلاة والسلام– والخضر فيها من الدروس الكبيرة التي تروض النفس على الصبر والتحمل والنظر إلى العواقب، وأن لا يغتر الإنسان بما يحصل من قِبل أعداء الرسل –عليهم الصلاة والسلام.

وإذا حصل من الإنسان خطأ أو انحراف أو تقصير فليس هو النهاية، فقد يكون هذا الإنسان ولياً من أولياء الله فيما بعد فلا تيأس منه، ولا تبتر هذا الإنسان بتراً، أو تتعامل معه معاملة من يبتره ومن يقطعه، فقد يفتح الله –عز وجل– على قلبه، كما قال الله تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الممتحنة: (٧)] فصار هؤلاء مجاهدين وقادة وأئمة هدى كما هو معلوم، أسلم أبوسفيان، وأسلم الحارث بن هشام أخو أبي جهل، وأسلم معاوية وعكرمة وخالد بن الوليد وأمثال هؤلاء، ومواقفهم مشهودة معلومة، فالله -عز وجل- يغير من حال إلى حال.

(مسألة)

القراءة الصحيحة يشترط فيها: صحة الإسناد، مع وجه عربي، وموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً، ووافقت اللغة العربية ولو بوجه ولو لم يكن هو الأفصح لكنه وجه صحيح، فقد يصح الإسناد ولكن لا توافق الرسم العثماني.

(مسألة)

المعجزات ليست من علم الباطن، والصوفية يقصدون بعلم الباطن خلاف الظاهر، الشريعة تأمر بالصلاة والزكاة والصوم إلى آخره، وعلم الباطن يقولون: هذه الأمور لها باطن آخر يدركه أهل الحقيقة، فالباطنية مثلاً يقولون: الصلاة بمعنى مناجاة الولي، والصيام كتم الأسرار المذهب، وهذا هو عين الكفر، فالشريعة ليس لها باطن وظاهر، ولا يجوز لأحد أن يخرج عنها، ليس لها باطن وظاهر، والقرآن ليس له باطن وظاهر، وأما ما ورد من أن كل آية وكل حرف له بطن وظهر هذا لا يصح، والقرآن خاطبنا بلسان عربي مبين، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يأمرون الناس بالشرائع وهم أعلم الناس بالله، وكانوا أول من يمتثل هذا وهم أتقى الأمة لله، وأما هؤلاء الكذبة من الدجالين الذين يأتون بأمور من المنكرات والفواحش ثم يقولون بأن هذا يتراءى أنه فاحشة ومنكر لأهل الظواهر ويتركون التكاليف ويترك الصلاة، ويقول الواحد منهم: أنا صرت من أهل الحقيقة، وسقطت عني الشريعة، ويسعني ما وسع الخضر، فنقول له:

أولاً: الخضر لم يكن على شريعة موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولم يكن تابعاً له أصلاً، ولهذا سأله: قال موسى بني إسرائيل؟، ولم تكن دعوة موسى -عليه الصلاة والسلام- دعوة للأسود والأحمر مثل دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم-؛ فلا يسع أحداً من الناس أن يخرج عن شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- ويتحلل ويتخفف من التكاليف الشرعية بحجة أنه مثل الخضر مع موسى، فالشريعة يجب العمل بها، وامتثال ذلك، ولا تؤول بمعانٍ باطنة ما أنزل الله بها من سلطان، وآيات الأنبياء ليست من الباطن في شيء هي من الأمور الظاهرة الجلية الواضحة التي يشاهدها كل أحد، والصوفية كلامهم في هذا طويل.

ومن أراد أن يعرف كلاماً أكثر عن الخضر وهل هو حي أم ميت، فليراجع فتح الباري في الجزء السادس في كتاب أحاديث الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– باب حديث موسى مع الخضر – عليهما السلام.

وأيضا ذكر الشنقيطي –رحمه الله- في أضواء البيان في تفسير هذه الآيات، وتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– على هذه المسألة.

بسم الله الرحمن الرحيم.

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٢)

من قوله تعالى"فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة" الآية ٧١ إلى قوله تعالى"ما لم تسطع عليه صبرا" الآية ٨٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [سورة الكهف(٧١-٧٣)] **يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر: أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْل، يعني: بغير أجرة، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي: دخلت اللجّة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى -عليه السلام- نفسه أن قال منكراً عليه: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}** [سورة الكهف(٧١)] **وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل.**

{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] **قال مجاهد: منكَراً، وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف(٧٢)] **يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها؛ لأنك لم تُحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، {قَالَ} أي: موسى -عليه السلام-: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}** [سورة الكهف(٧٣)] **أي: لا تضيق عليّ، ولا تشدد عليّ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((كانت الأولى من موسى نسياناً))**[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}** [سورة الكهف(٧١)] يقول: فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى -عليه السلام- نفسه أن قال منكراً عليه: **{أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}** [سورة الكهف(٧١)] وفي قراءة حمزة والكسائي: **{ليغرق أهلُها}**.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (٨/١٣٦- ٦٦٧٢) ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٤٧- ١٧٠) (٢٣٨٠).

فقوله: {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] اللام هذه للعاقبة وليست للتعليل، بمعنى أنه ما خرقها من أجل أن يغرق أهلها، ما فعل هذا ليغرقهم، وإنما للعاقبة، كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص(٨)] هم ما التقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً، لكن هذا ما حدث في العاقبة ونهاية الأمر، {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] أي: في العاقبة، وفي القراءات الأخرى المتواترة: {ليغرق أهلُها} إذا خلعت لوحاً من ألواحها وخرقتها.

{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] يقول: قال مجاهد: منكَراً، وقال قتادة: عجباً، ويقال: أَمِر أمرُه إذا اشتد وعظم، كما قال أبو سفيان: "لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة أن صار يخافه ملك بني الأصفر" في القصة المعروفة، فالشاهد {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] أي: شيئاً عظيماً شديداً كبيراً، وهو خرق هذه السفينة؛ لأن ذلك هو الذي قابلت به فعلهم من الإحسان؛ حيث حملونا من غير نول، وكذلك أيضاً فعلت فعلاً من شأنه أن يغرق أهل السفينة.

ولهذا فإن بعضهم يقول: إن {إِمْرًا} هنا أشد من الثانية، وهي أنه لما قتل الغلام قال له: {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا} [سورة الكهف(٧٤)] بعضهم يقول: {إِمْرًا} هي أشد من (نكراً) أي: الشيء العظيم، وذلك أنه يغرق أهل السفينة، وأما قتل الغلام فهو هلاك نفس واحدة، ولكن هذا فيه نظر، والله تعالى أعلم.

ويرد هنا سؤال وهو أن يقول قائل: كيف خرق السفينة وهم ينظرون إليه وهم مُلّاكها، وفي نفس الوقت قد ركبوها وما منعوه؟ ثم أيضاً كيف قتل الغلام؟ فأين الناس عنه؟ كيف يقتل الغلام ويمضي؟ فبعضهم يذكر أنه لا يُرى، الناس ما يرونه، لكن هذا لا دليل عليه إطلاقاً، بدليل أنهم عرفوه -أي أصحاب السفينة- فحملوهم من غير نول.

فالحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح في الكلام على حديث موسى والخضر في أحاديث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تكلم على بقاء الخضر، وهل هو موجود؟ وذكر آثاراً ونقولات وأشياء ممن يزعمون أنه موجود، وأن فلاناً قابله، وكل هذه الأشياء لا تثبت، وذكر الحافظ أنها لا تثبت، وذكر أن أجود ما روي في هذا ما جاء من أن رجلاً كان يصحب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يمشي معه قد أخذ بيده، فسأله رجل قال له: من هذا الذي كان يمشي معك؟ قال: أرأيته؟! قال: نعم، قال: إنك -أو لعلك- رجل صالح؛ حيث رأيته، هذا الخضر، وهذا يحتج به من يقول بأن الخضر موجود، ويذكرون حكايات في هذا.

فالحافظ يقول: هذا أصح ما ورد، والله أعلم بهذه الحكاية، وذكر الحافظ أن الجواب عن الاعتراض بأنه على رأس المائة لا يبقى أحد، قال: هذا يكون قبل رأس المائة، يعني: قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، وفي النفس من هذا شيء كثير.

وعلى كل حال الخضر لا وجود له، ولو كان موجوداً للقي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولقي الخلفاء الراشدين، ولقي الصحابة، أما هذه الروايات التي لا يدرى ما هي؟ فهي ضعيفة.

فالشاهد أن بعضهم يقول: ما كان يُرى، ويدل على بطلان هذا أنهم رأوه وعرفوه، بعضهم يقول: لعله كان مطاعاً معروفاً عند الناس، فيذعنون له، ولا يعترضون عليه، وهذا قريب، والله تعالى أعلم.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا* قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا} [سورة الكهف(٧٤-٧٦)] **يقول تعالى: {فَانطَلَقَا} أي: بعد ذلك {حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ} [سورة الكهف(٧٤)] وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فقتله، فلما شاهد موسى -عليه السلام- هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد فقتلته {بِغَيْرِ نَفْسٍ}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: بغير مستند لقتله {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: ظاهر النكارة.**

{قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٥)] **فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا}** [سورة الكهف(٧٦)] **أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة {فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}** [سورة الكهف(٧٦)] **أي: أعذرتَ إليّ مرة بعد مرة، روى ابن جرير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: ((رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}**[سورة الكهف(٧٦)]))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ}** [سورة الكهف(٧٤)] في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو **{زاكية}** بعضهم يفرق بين الزكية وبين الزاكية، فيقول: الزاكية هي التي لم تذنب، النفس الطاهرة التي على الفطرة، والزكية هي التي أذنبت ثم تابت، وبعضهم يقول: القراءتان بمعنى واحد، يقال: زكية وزاكية.

وقد قال بعض أهل العلم في الغلام الذي قتله الخضر -رحمه الله-: إنه كبير وقيل له غلام، والعرب قد تقول ذلك للكبير، وهذا فيه إشكال، فلا فرق عنده بين زكية وزاكية؛ لأن هذا قد أذنب، ومن يقول: إنه غلام صغير فقد يفرق بين الزكية والزاكية، ومرجع ذلك إلى لغة العرب.

وقال له: **{لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا}** [سورة الكهف(٧٤)] يعني: أنه قال له قولاً أشد من الأول، وكما سبق أنّ قوله: **{إِمْرًا}** [سورة الكهف(٧١)] في خرق السفينة أخف من قوله: **{نُّكْرًا}** وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- تعليقاً على قوله: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف(٧٢)] قال: فأكد أيضاً في التذكار، يقصد أنه قال له: **{أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ}** [سورة الكهف(٧٥)] وفي خرق السفينة قال: **{أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ}** [سورة الكهف(٧٢)] وذكرنا بالأمس أن زيادة المبنى لزيادة المعنى.

وقوله: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، يعني: يبدأ بالدعاء لنفسه، إذا قال: رحم الله فلاناً، يقول: رحمنا الله وفلاناً، يبدأ بالدعاء لنفسه **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}** [سورة نوح(٢٨)] هذا هو المراد.

---

٢ - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب التفسير، قوله تعالى: {إن سألتك عن شيء بعدها} [الكهف: ٧٦] ١٠/ ١٦٥- (١١٢٤٨).

قال: فقال ذات اليوم: ((رحمة الله علينا، وعلى موسى)) يعني: القضية الأولى منفصلة عن القضية الثانية.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٧-٧٨)] **يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما {انطلقا} بعد المرتين الأوليين {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ}** [سورة الكهف(٧٧)] **روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيلة، وفي الحديث: ((حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً))**[٣] **أي: بخلاء {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ}** [سورة الكهف(٧٧)] **إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط، وقوله: {فَأَقَامَهُ}** [سورة الكهف(٧٧)] **أي: فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه، ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}** [سورة الكهف(٧٧)] **أي: لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}** [سورة الكهف] **أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ}** [سورة الكهف(٧٨)] **أي: بتفسير {مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا}** [سورة الكهف(٧٨)].

يقول: **{حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ}** [سورة الكهف(٧٧)] روى ابن جرير عن ابن سيرين: أنها الأيلة، وبعضهم يقول: أنطاكية، وبعضهم يقول: برقة، وبعضهم يقول: من قرى أذربيجان، وبعضهم يقول: من قرى الروم، كل هذا بناء على ما ذكر بالأمس في **{حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ}** [سورة الكهف(٦٠)]، بعض أهل العلم يقول: مجمع البحرين في الشرق، وبعضهم يقول في الغرب، وكل ذلك من المنقول عن بني إسرائيل، ومثل ذلك لا يعتمد عليه.

وقوله: **{فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ}** [سورة الكهف(٧٧)] يقول الحافظ -رحمه الله-: إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، بمعنى أنه ليس بحقيقة، بعضهم يدخل الاستعارة في المجاز، وبعضهم يجعلها نوعاً قائماً بذاته، وهذا المثال من أشهر الأمثلة التي يمثل -أو يستدل- بها أصحاب المجاز، يقولون: أسند الإرادة إلى الجدار، والجدار لا إرادة له، هذا مجاز وليس بحقيقة، هذا مع قوله -تبارك وتعالى- فيما مضى في سورة يوسف -عليه الصلاة والسلام-: **{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}** [سورة يوسف(٨٢)] قالوا: والقرية لا تُسأل، وإنما المقصود أهل القرية، وهذا من مجاز الحذف، وهنا **{فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ}** [سورة الكهف(٧٧)]، استعار للجدار إرادة، ولا إرادة للجمادات، والذين يقولون بنفي المجاز بعضهم يقول: إن هذا مما يفهم من السياق، فإذا قيل: اسأل القرية، فإن المقصود بالسؤال سؤال أهل القرية، أو يقال بأن القرية والعير تطلق على هذا وهذا، تطلق على الحال والمحل، تطلق على أهلها، وتطلق على كل ذلك، فعلاقته كما يقول أهل المجاز: الحالية والمحلية، فالذين ينفون المجاز يقولون: هذا يفهم من السياق، وليس بمجاز بل هو حقيقة، وبعضهم يزيد على هذا ويقول: ما المانع من سؤال نفس القرية التي هي البنيان؟ وما

---

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٥٠- ١٧٢) (٢٣٨٠).

المانع من أن يكون للجدار إرادة؟، فالله -عز وجل- قال للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت(١١)] والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث))[٤] ويذكرون حنين الجذع، وما أشبه ذلك، ويقولون: هذه كما أخبر الله -عز وجل- أنه يسجد له ما في السماوات وما في الأرض، وكذلك أيضاً يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض، فهذه الجمادات تسبح وتسجد وتعرف ربها، فما المانع من أن يكون للجدار إرادة ؟ هكذا قالوا.

ومسألة المجاز مسألة معروفة، والخلاف فيها موجود بين أهل السنة، لا يترتب عليه تبديع ولا قدح في عقيدة قائله، إذا لم يسلط ذلك على النصوص التي لا يسوغ تأويلها بحال من الأحوال، فلا دليل فيها على هذا التأويل، كما في نصوص الصفات والمعاد، وما أشبه هذا، والغلط الذي وقع فيه أرباب المجاز أنهم جعلوا ذلك مِعْولاً سلطوه على النصوص فحرفوها عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ أُخر من غير دليل يوجب ذلك، فهذا من التحريف؛ ولهذا سمى الحافظ ابن القيم -رحمه الله- المجاز بحمار التأويل، فإن التأويل يأتي راكباً على المجاز حتى يصل إلى النصوص، ومن شاء فليراجع في هذا مثل كتاب الرسالة المدنية وكتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وكتاب الصواعق المرسلة، وكذا كتاب منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتوجد على كل حال كتابات في هذا، ورسائل جامعية، والله أعلم.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى -عليه السلام-، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر -عليه السلام- على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] صالحة، أي: جيدة {غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام.

قوله: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [سورة الكهف(٧٩)] هذا الموضع يحتج به من يقول بأن الفقير أشد حاجة من المسكين، يقولون: إن الفقير ليس عنده شيء، وأما المسكين فعنده، لكنه لا يكفيه، فأثبت الله -عز وجل- لهؤلاء المساكين هذه السفينة، وسماهم مساكين، وبعضهم يقول بالعكس: إن المسكين هو الذي تمسكن لشدة حاجته، فسكنت جوارحه لشدة فقره وعوزه، وأما الفقير فإنه أحسن حالاً منه، ويحتجون ببيت الشعر المعروف:

أمّا الفقيرُ الذي كانت حلوبتُه*** وفقَ العيال فلم يُتْرك له سَبَدُ [٥][٦]

---

[٤] - أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢/٢٤٤/١٩٠٧) و"الأوسط" (٢٢٠٦) و"الصغير" (رقم ١٨٥ -الروض) ومن طريقه أبو نعيم في "أخبار أصفهان" (١/١٠٨) و"دلائل النبوة" (ص٣٤١). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضـوعة (١٤/ ١٧١).

٥ - السَّبَد: القليل من الشعر، وماله سبد ولا لبد، لا قليل ولا كثير، القاموس (٣٦٦).

قالوا: عنده حلوبة، وعنده دابة، بهيمة تُحلب، فعنده شيء لكنه لا يكفيه، والخلاف في هذا معروف.
وهذه الآية يحتج بها من يقول بأن المسكين أحسن حالاً من الفقير، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر، وذلك أن المسكين إذا أطلق بمفرده من غير ذكر الفقير فإنه يكون بمعنى الفقير، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا في المعنى.
لكنكم تجدون مثل هذه الآية يحتج بها من يقول بأن الفقير أحسن حالاً منه، وتجدون هذا في كتب اللغة، وفي كتب الفقه، وكتب التفسير، وأيضاً في بعض الكتب التي تتحدث عن السلوك، والاحتجاج بهذا ذكرت لكم فيه هذا الملحظ.
أما ظاهر اللفظ فقد يفهم منه أن المسكين أشد حاجة من الفقير، أنه من شدة فقره قد سكنت جوارحه، ولا حراك به، هذا من حيث ظاهر اللفظ، أما الدليل على أن هذا أشد حاجة أو ذاك أشد حاجة فلا أعلم دليلاً عليه، وهذا الدليل يُحتج به عادة، وذكرت لكم ما يرد عليه من الإشكال، والله تعالى أعلم.
قوله: {لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] وفي قراءة شاذة: {لمسّاكين يعملون في البحر} يريد أن يقول: إنهم لا يملكون السفينة أصلاً، هذا من يقول بأن المسكين أشد حاجة من الفقير، {مسّاكين} يعني: يعملون فيها لغيرهم، أو بالأجرة، وليست ملكاً لهم.
وقوله: {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] يرِد عليه ما ذكرته بالأمس: أن ظاهره يرِد عليه سؤال قد يستشكل على القارئ، يقول: يأخذ كل سفينة غصباً فإذا خرقها الخضر فستؤخذ، فما فائدة الخرق والعيب؟ فالجواب: أنه لا يأخذ كل سفينة، وإنما يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، ويدل على هذا قراءة ابن عباس وأُبيّ: {يأخذ كل سفينة صالحة غصباً} وهذه قراءة أحادية، وذكرنا أن القراءة الأحادية تفسر بها القراءة المتواترة، فخرَقَها من أجل أن لا يأخذها الملك.
وقوله: {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} [سورة الكهف(٧٩)] الجمهور من أهل اللغة والمفسرين يقولون: {وَكَانَ وَرَاءهُم} [سورة الكهف(٧٩)] أي: أمامهم، وأن هذه اللفظة -لفظة وراء- من الأضداد، تقال بمعنى خلف، وبمعنى أمام، وأنها أطلقت مراداً بها الأمام في قوله -تبارك وتعالى-: {مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ} [سورة إبراهيم(١٦)] يعني: من أمامه، هذا الذي عليه عامة أهل العلم.
والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يعترض على هذا، ويقول: إن لفظة: وراء ما تأتي في المكان بمعنى أمام، وإنما يكون ذلك في الزمان فقط، كما في قوله: ((من ورائكم أيام الصبر))[7] يعني: فيما تستقبلون، فـ{مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ} [سورة إبراهيم(١٦)] يعني: أنه بعد حياته هذه على الكفر يصير إلى جهنم فهذا في الزمان، يعني:

---

[6] - البيت منسوب للراعي، وهو: حصين بن معاوية، وكان سيداً، وإنما قيل له الراعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره وولده وأهل بيته بالبادية سادة أشراف، وكان أعور، توفي سنة (٩٠ - ٩١هـ ٧٠٩م) الشعر والشعراء (٢٧٠) في الأعلام (١٨٨/٤). وانظر: فقه اللغة وسر العربية (ص: ٥٩).

[7] - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢٣ -٤٣٤١) وابن ماجه في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم} [المائدة: ١٠٥] (٢/ ١٣٣٠- ٤٠١٤). وقال الألباني: "صحيح لغيره" انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨/٣-٣١٧٢).

بعد الدنيا يصير إلى جهنم، وليست للمكان، هكذا يفرق بين الزمان والمكان، ويقول: إن ذلك لا يعرف في كلام العرب، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن أهل اللغة ذكروا هذا، فقالوا: إنها من الأضداد.

وتفسير ابن القيم -رحمه الله- لــ "وراءهم" يعني: خلفهم، هذا التفسير بأن المقصود "وكان خلفهم" قد سبق إليه، فقد قال به بعض السلف، فيقولون -وهو الذي يقرره ابن القيم -رحمه الله-: {وَكَانَ وَرَاءهُم} [سورة الكهف(٧٩)] يعني: في طريق العودة، سيذهبون إلى هذا المكان الذي قصدوه، ثم سيرجعون {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} [سورة الكهف(٧٩)] فإذا رجعوا فسيمرون في طريق عودتهم بهذا الملك الذي يأخذ السفن الصالحة غصباً، هكذا فسرها ابن القيم -رحمه الله-، والتفسير الأول هو المشهور، والله أعلم.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [سورة الكهف(٨٠-٨١)] **عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً))[٨] رواه ابن جرير عن ابن عباس به؛ ولهذا قال: {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** [سورة الكهف(٨٠)] **أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: ((لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له))[٩]، وقال تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}** [سورة البقرة(٢١٦)].

وقوله: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [سورة الكهف(٨١)] **أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.**

في قوله: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] يقول: أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، وقرأ ابن عباس: {وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين} وهي قراءة ليست من القراءات المتواترة على كل حال.

فعلى قول من يقول بأن المميز مكلف بالإيمان، وأنه يحكم عليه بالإيمان أو الكفر، فيقول: هذا غلام مميز، فصدر منه الكفر، وإن كان لا يكلف بتفاصيل وفروع الشريعة والأعمال الأخرى، ومن يقول: لا تكليف إلا بالبلوغ فكما سبق بعضهم يقول: إنه أطلق الغلام وأراد به الرجل البالغ، وهنا في هذا الموضع غير صحيح؛ لأن الحديث دل على أنه وجد غلاماً يلعب مع الغلمان، ثم إن الظاهر المتبادر عند إطلاق الغلام أنه ما كان دون البلوغ، والقرآن إنما يحمل على الظاهر المتبادر، وقوله هنا: أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر

---

٨ - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٥٠- ١٧٢) (٢٣٨٠).

٩ - أخرجه أحمد (٣٣/٤٠٥- ٢٠٢٨٣) وابن حبان (٧٢٨) وأخرجه الضياء في المختارة (١٨١٥) وأخرجه هناد في الزهد (٣٩٩) وأبو يعلى (٤٢١٧) و(٤٢١٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٩٦)، والضياء (١٨١٦) و(١٨١٨)، والذهبي في السير (١٥/٣٤٢) وأخرجه أبو يعلى (٤٠١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٧٣٨- ٣٩٨٥).

في تفسير {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)]، وبعضهم يقول: خشينا أن يرهق الوالدين طغياناً عليهما وكفراً بالعقوق، كفراً بنعمة الوالدين عليه بالعقوق.

وعلى كل حال فمعنى {أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] أي: بكفره وطغيانه وتجبره وتكبره، وعتوّه على الله -عز وجل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي غلاماً لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه، ويحتمل أن يكون مميزاً عاقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله: ((ولو أدرك لأرهق أبويه))[١٠] وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة؛ إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما عُلم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ، ولو لم يكن مكلفاً بشرائعه، فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم صار مرتداً له أحكام المرتدين، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يُضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة، فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة؛ لأنه قتله بأمر الله، كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين، كما قال: {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)]. والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله"[١١].

وقد استدل بعض أهل العلم بقصة قتل الخضر للغلام على جواز حكم القاضي بعلمه، ونحن نعلم أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، والذي في شريعتنا أنه لا يحكم على الإنسان بمجرد العلم بإطلاق، ذكرت لكم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فأقضي له على نحو مما أسمع منه))[١٢] ولم يقل: "بنحو ما أعلم" وهكذا أيضاً في أدلة أخرى يستدل بها على هذا، إلا أن القاضي يمكن أن يستعمل علمه، ويعمل بمقتضاه، ويحكم به في مواضع ثلاثة، منها:

في الكلام على الشهود، أو في قبول شهادتهم وردها، فإن القاضي إذا كان يعلم أن هذا الشاهد غير أهل للشهادة بما يعلم منه، أو ما يعلم فيه من القوادح فله أن يرد شهادته، فيعمل بمقتضى علمه، هو يعرف هذا الإنسان من قبل، فلا يقبل شهادته، فعمل القاضي بعلمه هنا فيما يتعلق بالشهود.

والأمر الثاني: وهو ما يتعلق بمجلس الحكم مما يصدر ويبدر من أحد الخصمين، فإن القاضي يلاحظ كلامه وأفعاله، فقد يرى منه أشياء تدل على كذبه، يستبينها من فلتات لسانه ونحو ذلك فيلزمه بها، ويقول له: أنت

---

١٠ - أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٠٥٠/٤ - ٢٩) (٢٦٦١).

١١ - أحكام أهل الذمة (١٠٤٤/٢).

١٢ - أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٣٣٧/٣ - ١٧١٣).

بحجتك هذه مبطل وكاذب، بناء على استنتاجات وأشياء سمعها القاضي منه، حينما تكلم وخاصم وأدلى بحجته فعرف كذبه من كلامه وتصرفاته، فحكم بمقتضى علمه بهذا الاعتبار لا بمقتضى العلم السابق، قد يكون عنده تصور أن هذا الإنسان كذاب نَفّاج، لا يرعوي ولا يتقي، فلا يحكم عليه بمقتضى العلم بأن دعواه كاذبة، وأن هذا الإنسان الذي يقابله صادق، إذن لا نقبل دعواك، ولا نسمع هذه الدعوى.

الحالة الثالثة: وهي في القضايا المشتهرة التي يعرفها الصغير والكبير، ويستوي في معرفتها الناس، لا تحتاج أن يكون القاضي يعرفها، ثم بعد ذلك يكون هذا أمراً خفياً، كيف حكم القاضي عليه؟ وبناء على ماذا؟ وما هي المستندات؟ لكن في الأمور المعروفة التي يعرفها الناس، فإذا نشأ الناس في بلد مثلاً، وكلهم يعرفون أن هذه الدار موقوفة للأيتام، فجاء إنسان وقال: هذه ملك لي، فإذا جاء عند القاضي يطالب وقدم دعوى، فإن القاضي يقول له هذا الباب مغلق، ولا يسمع منه الدعوى أصلاً، ولا يقبلها منه؛ لأن هذا أمر معروف يستوي بمعرفته الجميع، فلا يكون ظالماً له بهذا الاعتبار حينما لم يسمع منه الدعوى.

كذلك لو أنه جاء مثلاً إلى الطريق المعروف، كل الناس يعرفون أن هذا طريق، وجاء وقال: هذا الطريق ملكي، هذا الشارع ملكي ويريد تعويضاً، يقول له: من أين جاء ملكك؟ من يوم نشأت في البلد وهذا طريق، أو بئر معروفة قديمة الناس يستقون منها وهي وقف مثلاً، وجاء وقال: هذه البئر أنا الذي حفرتها، كيف حفرتَها، أنت عمرك عشرين سنة وهذه البئر لها مئات السنين؟! فهذا لا يسمع منه الدعوى، الأشياء المعروفة كمن جاء إلى وقف معروف، كل الناس يعرفون أن هذا وقف، وادعاه، أو جاء وادعى دار إنسان وكل الناس يعرفون أو أهل الحي يعرفون جميعاً أن هذه دار فلان، وهو الذي بناها، فجاء وقال: لا، هذه داري، أنا الذي بنيتها، وهذا جار القاضي، وجيرانه كلهم يعرفون أن هذا هو الذي بنى هذه الدار، ولا يخفى عليهم ذلك، فجاء إنسان وقال: لا، أنا الذي بنيت هذه الدار، وأنا أطالب بها، مثل هذا للقاضي أن يحكم بعلمه، في القضايا التي يستوي بها الناس، يستوون بمعرفتها، إذاً هذه ثلاث حالات.

"والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل، ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصول على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس -رضي الله عنهما- الفتيا به، فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان: إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا، رواه مسلم في صحيحه[١٣]."

ونجدة -كما سبق- من زعماء الخوارج.

"ولكن يقال: قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه، وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها، ولم يعلم موسى تلك الأسباب مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها أخذها، فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها،

١٣- أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يُرضَخ لهن ولا يُسهَم، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب (٣/ ١٤٤٥- ١٣٨) (١٨١٢).

ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما، وعلى هذا فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل، وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً، ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين وأبوهما كانا صالحاً أمر يعلمه الناس، ولكن خفي على موسى -عليه السلام-، وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه، ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه، ولا يقبل منهما، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتْلٌ لما يتوقع من كفره، ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر، وأطلع الله الخضر على ذلك فقد يقول القائل: قتله بالفعل كقتل نوح -عليه السلام- لأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التي أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل، وقوله: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [سورة نوح(٢٧)] لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله: {فَاجِرًا كَفَّارًا} [سورة نوح(٢٧)] حالان مقدرتان، أي: من سيفجر ويكفر."

من يقول: إن الإنسان يكون مكلفاً بالإيمان إذا كان مميزاً فلا إشكال عنده، ومن يقول: إن الغلام أطلق على الكبير هنا فلا إشكال عنده، ولكن هذا بعيد.

ويمكن أن يقال: الذي يعنينا في هذا الموضوع هو أن الغلام في هذه الشريعة ولو صدر منه الكفر فإنه لا يقتل، حتى لو قلنا بأنه مكلف بالإيمان، فإذا وقع منه ردة فإنه لا يقتل بذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن قتل الصبيان، وما وقع من الخضر إما أن يكون ذلك من الجائز في شريعتهم، أو يكون ذلك فعله بأمر الله -تبارك وتعالى-، وإلا فموسى -عليه الصلاة والسلام-، قد اعترض عليه؛ لأنه قتَلَ نفساً زكية بغير نفس، ولكن قد يقول قائل: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يعترض على الجواب لما قال له: {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] ما قال له موسى -عليه الصلاة والسلام-: إنه غير مكلف أو نحو ذلك.

وأيضاً مسألة الحكم عليه بمقتضى العلم هذا يرد عليه الإشكال السابق، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء (١٥)] والآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها "حتى نعلم كذا" {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} [سورة محمد (٣١)] {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ} [سورة آل عمران (١٤٢)] المقصود به علم وقوع الشيء الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله -عز وجل- لا يؤاخذ الناس بمقتضى ما علمه وإلا فقد استخرج الناس من صلب آدم -عليه الصلاة والسلام-، وخلق خلقاً للجنة، وخلق خلقاً للنار، لكن الله لا يؤاخذهم بمقتضى العلم؛ ولهذا فإن المجنون والذي لم تبلغه الدعوة الراجح أنهم يمتحنون في الآخرة.

فالمقصود حتى أطفال الكفار الذين يموتون فالأحاديث التي وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعضها أنه قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[١٤] وفي بعضها ما يشعر أنهم مع أهلهم، لهم حكمهم، وأنهم

---

١٤ - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢/١٠٠- ١٣٨٤) ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/ ٢٠٤٩- ٢٦) (٢٦٥٩).

منهم، وفي بعضها ما يدل على أنهم في الجنة؛ ولعل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في بعض المواقف بأنهم مع أهلهم وأنهم منهم، وأطلعه الله -عز وجل- بعد ذلك أنهم في الجنة، هذا بالنسبة للصغار.

وإن كان العلماء اختلفوا في المميز إذا اختار الكفر، أما الصبي غير المميز فإن الذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين -وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن القيم، وجماعة- أنه يكون مع الأصلح من أبويه بالنسبة للدين، يتبع أمه في قضية الرق والحرية (في النكاح)، وبالنسبة للدين يكون مع الأصلح، فإذا كانت أمه مسلمة وأبوه غير مسلم، بمعنى أن رجلاً كافراً قد تزوج بامرأة كافرة فأسلمت المرأة فافترقا، فهؤلاء الأطفال يكونون مع من؟ يحكم لهم بمن؟ مع الأم، وإذا كان الأب هو المسلم والأم كافرة أُلحقوا بالأب، فالإسلام يعلو.

على كل حال يمكن أن يقال هنا: إن ذلك وقع من الخضر بأمر الله -عز وجل- له، قال: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] ومثل هذا يحفظ ولا يقاس عليه، وعندنا في هذه الشريعة أنه لا يجوز قتل الغلمان، ولا يؤاخذ الناس بمقتضى ما علم من حالهم كما سبق، هذا الذي يعنينا في الموضوع، أما لماذا قتله الخضر؟ هو يقول: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] الله أمره بذلك، فهي حالة مستثناة؛ ولهذا استغرب منها موسى -عليه الصلاة والسلام.

{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)].

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} [سورة الكهف(٧٧)] وقال هاهنا: {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} [سورة الكهف(٨٢)] كما قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [سورة محمد(١٣)] {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [سورة الزخرف(٣١)] يعني: مكة والطائف، ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة وقتادة وغير واحد: وكان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

يعني: أن إطلاق القرية على المدينة هنا في هذه الآية صريح، ذكر أولاً القرية {أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧٧)] ثم قال: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} [سورة الكهف(٨٢)] يعني: القرية السابقة المذكورة، فهذا الموضع صريح في القرآن على أن القرية تطلق على المدينة والعكس، وما عدا ذلك نحو {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص(٢٠)] أو {وَتِلْكَ الْقُرَى} [سورة الكهف(٥٩)] {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ} [سورة محمد(١٣)] و{لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى} [سورة الشورى(٧)] فإن لغة القرآن، واستعمال هذه الألفاظ في إطلاق لفظة قرية: تطلق على مجمع البنيان، سواء كان صغيراً أو كبيراً، كل ذلك يقال له قرية، وأما تخصيص المدينة بذات البنيان الكبير الواسع، والقرية بالصغير فإن هذا اصطلاح حادث، والقاعدة: لا يجوز حمل ألفاظ القرآن على اصطلاح حادث، وقل مثل هذا في لفظة التأويل {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}

[سورة آل عمران(٧)] وقل مثل هذا أيضاً في كثير مما ورد في القرآن كقوله: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ} [سورة يوسف(١٩)] ما هو المراد بالسيارة؟.

وقوله في الكنز: "**وكان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، واختيار ابن جرير**".

بمعنى كنز مال، وبعضهم يقول: كنز علم، وبعضهم يقول غير ذلك، وظاهر السياق أن لفظة الكنز تدل على المال المدفون، فما كان تحت الأرض يقال له: كنز، وما فوق الأرض يقال له: مال، هذا هو المشهور المتبادر الذي تعرفه العرب عند الإطلاق، وإنما تحمل معاني القرآن أو ألفاظ القرآن على المتبادر الظاهر من كلام العرب دون المعنى الخفي إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فلا داعي للتكلف في تفسيرها بتفسيرات ومعانٍ بعيدة، فالكنز هو المال المدفون "وكان تحته" وهذا يدل عليه اللفظ: {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)].

وقوله: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً.

وقوله: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً} [سورة الكهف(٨١)] وقال في السفينة: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] فالله أعلم.

قوله: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] الظاهر والمتبادر أن المراد به هو الأب المباشر الأقرب، وبعضهم يقول: هو الجد السابع، وبعضهم يقول: هو الجد العاشر، وكل هذا مأخوذ من الإسرائيليات، ولا دليل عليه.

{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] يقول: فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، والقرآن دل على أنهم يرفعون إلى مرتبته في الجنة {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [سورة الطور(٢١)] وسبق الكلام على هذه الآية، وأقوال أهل العلم، والمراد بها، وظاهر الآية هنا يدل على ما ذكر: أن صلاح الآباء قد يؤثر فيما يتعلق بالأبناء من الحفظ ونحو ذلك، لكن هذا ليس بمطرد ولا دائم.

ففي هذه الآية هنا قال: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] فوقعت هذه القضية أن الله -عز وجل- حفظ مالهما بسبب صلاح الأب، {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] والفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهي تشعر بالتعليل، وهذا الذي يقال له: دلالة الإيماء والتنبيه: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان معيباً، {فَأَرَادَ رَبُّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] لماذا؟ لأن الأب كان صالحاً {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا} [سورة الكهف(٨٢)] لكن هل هذا مطرد دائماً؟ الجواب: لا، هذه واقعة وقعت، فيُرجى عند صلاح الآباء أن يطال ذلك الأبناء بالحفظ، ولكنه ليس دائماً، نوح -عليه الصلاة والسلام- ما حال ولده؟ كان كافراً، غرق مع من غرق، وقال الله له: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

{عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [سورة هود(٤٦)] وهذا شيء مشاهد، تجد الأب من الصالحين الأخيار، ومن العلماء، وتجد الولد فاجراً، مجرماً، لا يخاف الله -عز وجل-، ولا يرقبه، وقد يتشتت هذا الولد، ويضيع في أمر دينه

ودنياه معاً، وأبوه في غاية الصلاح، فليست هذه قاعدة، والآية ما تدل على أن هذا وعد من الله -عز وجل-، وأن كل من كان صالحاً يحفظ الله أبناءه، لا، ولكن الله لطف بهؤلاء الأبناء لصلاح الأب، وكثير من الناس يستدل بهذه الآية على أن الأولاد يُحفظون بصلاح الأب، لكن ذلك كما قلت ليس بمطرد، هذه واقعة وقعت، ولكن يوجد ما يخالفها أيضاً في الواقع، والله -عز وجل- يفعل ما يريد، فقد يُكرم الأب بالدنيا وهذا مما يعجل له بأن يحفظ ذريته وأولاده من المخاوف والمكاره ونحو ذلك، وقد لا يحصل.

الحسين بن علي -رضي الله تعالى عنه-، ريحانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعرفون ما حصل له قُتل، وقُتل من أهل بيته كثير، وأي شيء أعظم من القتل فيما يفوت الإنسان من دنياه؟ ذهاب النفس التي تفدى بالمال، وحفظ هذه النفس من هذا القتل الجائر أولى من حفظ المال، ولكن الله يفعل ما يريد، فيقيض لعباده ما شاء، وكل ذلك بمقتضى علمه وحكمته -سبحانه وتعالى-، فيكون رفعة لهم، وفي درجاتهم ومنازلهم عند الله -عز وجل-، وهو رفعة لهم في الدنيا أيضاً، فانظر إلى حال الذين قتلوه وإلى حال الحسين؟! أي الفريقين أعظم وأجل مقاماً في قلوب أهل الإيمان؟! لا شك أنه الحسين -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

فعلى كل حال يقول: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: هنا أسند الإرادة إلى الله لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ} [سورة الكهف(٨١)] وقال في السفينة: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] هذا الفرق الذي ذكره الحافظ ابن كثير ووجه التفريق بين هذه الألفاظ في الاستعمال، حيث أسند الإرادة إلى نفسه في موضع، وأسند الإرادة إلى الله في موضع آخر باعتبار أن ذلك من غير المقدور عليه بالنسبة إليه، فأضافه إلى الله، {فَأَرَادَ رَبُّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] والعلماء عادة يذكرون في مثل هذا لطيفة أخرى، وهي: أن ذلك من باب التأدب في العبارة، فلما ذكر العيب أضافه إلى نفسه فقال: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] ولما ذكر ما فيه استصلاح الحال أو المال أو نحو ذلك قال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] فأضافه إلى الله -تبارك وتعالى.

وهذا يذكرون له نظائر، كقول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [سورة الشعراء(٨٠)] فأضاف المرض إلى نفسه، بينما قال: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} [سورة الشعراء(٧٩)] فأضاف الإطعام والإسقاء إلى الله -عز وجل-، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [سورة الضحى(١-٣)] ما قال: وما قلاك، فلفظة "قلى" ثقيلة على السمع، "قلاك": بمعنى جفاك، فلم يضفها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما قال: {وَمَا قَلَى} [سورة الضحى(١-٣)].

وبعضهم يقول: هذا مراعاة للفواصل، لكن بعضهم يقول: إن هذا من باب التعليم لعباده، ولهذا تعرفون الخليفة -أظن أنه أبو جعفر المنصور أو المأمون- لما جاء بابنيه، وكان يؤثر أحدهما على الآخر، فبعضهم سأله عن

هذا، فأعطى واحداً منهم سُوُكاً -مساويك- فقال له: ما هذه؟ قال: هذه سُوُك، وقال للآخر: ما هذه؟ قال: هذه مساويك، يعني: كأنها مساوئك، سهلت الهمزة.

فالمواجهة بالخطاب في مثل هذه الأشياء التي قد تكون ثقيلة على السمع، مساويك كأنه يقول: مساوئك، قال: مساويك، ومثله: من أكبر أنت أو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ بماذا أجاب؟ قال: أنا أكبر من النبي -صلى الله عليه وسلم-، مع أن السؤال عن السن، فيجيب بجواب يقول: أنا ولدت قبله، أو يقول: هو أكبر مني، هذا من باب التأدب بالألفاظ؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} [سورة البقرة(١٠٤)] لأن كلمة "راعنا" تحتمل معنى باطلاً سيئاً، وهو مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومواجهته ووصفه بالرعونة، كان اليهود يستعملونها لهذا المعنى، فعلّمهم كيف يتأدبون بالألفاظ، وهذا له نظائر كثيرة في الكتاب والسنة، هذه من الآداب التي يحتاج الإنسان أن يراعيها في المخاطبة.

قال: {فَأَرَدْنَا} [سورة الكهف(٨١)] وهكذا من اللطائف في التفسير كما في قوله فيما سبق: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٨)] فلما نبأه قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] والقاعدة: أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فلماذا قال في الأولى: {تستطع} وفي الثانية قال: {تسطع}؟ وما وجه ذلك؟

فيمكن أن يقال: إن الإنسان حينما يستشكل هذا ولا يعرف تأويله كيف يقتل هذه النفس ؟ وكيف يخرق السفينة؟ وكيف يبني الجدار من غير أجرة مع هؤلاء الناس الذين لم يضيفوهما ؟ فثقل ذلك عليه، الإنسان إذا استشكل شيئاً وما فهم المراد ونحو ذلك تضيق نفسه به، وينقبض صدره ويزعجه، فإذا عرفه سُري عنه، فخفّت اللفظة الثانية، قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] كما سيأتي في قوله: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] أيهما أصعب نقب هذا الجدار المبني بهذه الطريقة {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٦)]، أو الصعود إلى أعلاه؟

الأسهل الصعود؛ ولهذا قال: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)]، وقال: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] فالنقب أصعب فزادت حرفاً، هذه من اللطائف التي يذكرها بعض المفسرين الذين يُعنون بالجوانب البلاغية، والله تعالى أعلم، قد يكون هكذا وقد لا يكون، لكن هذه أشياء مستنبطة لا يقطع بها.

وقوله تعالى: {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] أي: لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر -عليه السلام- مع ما تقدم من قوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)].

قال: وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، هذا كما سبق أنه قال: {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] والحديث أيضاً لموسى -عليه الصلاة والسلام-: ((إنك على علم من الله ليس عندي أو لا أعلمه، وإني على علم من الله لا تعلمه))[١٥].

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الخضر قال: ((إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من تحته خضراء))[١٦] ورواه أيضاً عن عبد الرزاق.

وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من تحته خضراء))[١٧].

والمراد بالفروة هاهنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق، وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

في البخاري في أحاديث الأنبياء، في باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام-: ((فإذا هي تهتز من خلفه خضراء))[١٨] وعند أحمد في رواية: ((تهتز تحته خضراء)) وفي رواية قال: ((تهتز خضراء))[١٩] والمقصود بالفروة بعضهم يفسرها بهذا وبعضهم بهذا، بعضهم يفسرها: بالحشيش اليابس، فلما جلس عليها تحولت إلى خضراء، وبعضهم يفسرها بالأرض اليابسة، ليس فيها نبات، فتحولت إلى خضراء، يعني: أنبتت، وهذه كرامة من الله -عز وجل-، هذا سبب تسميته بالخضر.

وقوله: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل، قال: {تَسْطِع} وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٨)] فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] وهو الصعود إلى أعلاه {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)] وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

---

١٥ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: {فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً} [الكهف: ٦٣] (٦/ ٩١- ٤٧٢٧).

١٦ - أخرجه أحمد (١٣/٤٧٤-٨١١٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٦٦/١).

١٧ - اللفظ الذي في البخاري: ((فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

١٨ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

١٩ - أخرجه أحمد (١٣/ ٥٣٤- ٨٢٢٨) ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الترمذي (٣١٥١)، وابن حبان (٦٢٢٢)، والبغوي في تفسيره ١٧٢/٣ وانظر (٨١١٣).

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة، ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى -عليه السلام.

وهم الذين دخلوا الأرض المقدسة معه بعد موسى -عليه الصلاة والسلام-، فالشاهد أن الغلام أو الفتى أو يوشع بن نون -عليه السلام- لم يكن هو المعنيّ بذلك؛ فتُرك ذكره، وأما ما ورد عن بعض السلف من أنه

خلد ووضع في سفينة، وسارت به في البحر، فهي تسير به إلى يوم القيامة هذا الكلام كله لا أساس له من الصحة، ولا يعول عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٣)

من قوله تعالى"ويسألونك عن ذي القرنين" الآية ٨٣ إلى قوله تعالى"وقد أحطنا بما لديه خبرا" الآية ٩١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} [سورة الكهف:٨٣-٨٤].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَسْأَلُونَكَ} يا محمد {عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ} أي: عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقوله {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرْضِ} أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علمًا.

وقال قتادة أيضًا في قوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقد قال الله في حق بلقيس: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣] **أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم**، الرواية الواردة في هذا لا تصح، وذو القرنين: العلماء مختلفون كثيراً في تحديده، فبعضهم يقول: هو الإسكندر الذي بني الإسكندرية، وبعضهم يقول: بل كان رجلاً قبله، كان ذو القرنين رجلاً قبل الإسكندر الذي بني الإسكندرية يقال له: الإسكندر أيضاً، قالوا: هما اثنان، فالإسكندر الذي بني الإسكندرية قالوا: إن هذا ليس بمؤمن، وإنه تلميذ لأحد الفلاسفة الكبار، بل قالوا: إن ذلك الفيلسوف كان وزيراً له، وقالوا: إن المقصود بذي القرنين هو

إسكندر آخر كان زمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وبعض هؤلاء يقول: إن الخضر كان وزيراً له، وإنه مؤمن، وهذا ظاهر في هذه الآيات، ولكن متى كان ومن هو؟، أقوال المفسرين كثيرة في هذا، ولم يرد في تحديده شيء لا في الكتاب ولا في السنة الصحيحة، والذين قالوا: إنه الإسكندر الذي بني الإسكندرية قالوا: لا يشكل على هذا أنه تلميذ للفيلسوف أرسطو، فإنه قد يكون أخذ ما عنده من الصواب فإن علوم الفلاسفة ليست مردودة بعمومها، بل فيها علوم صحيحة مثل الطب والهندسة والرياضيات، والجبر، وما أشبه هذا، وهي من أصح علومهم، وأما علومهم الأخرى في الإلهيات فهم من أضل الناس في هذا الباب، وفي هذا كثير، يمكن أن يراجع فيه المطولات، والله تعالى أعلم.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية ذكر كلاماً كثيراً في أقوال أهل العلم في تحديده يمكن أن يراجع، وكذلك بعض المفسرين مثل الشوكاني في فتح القدير.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.** وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: لأن له ضفيرتين، والضفائر يقال لها: قرون، وبعضهم يقول: لأنه دعا قومه إلى الله ونهاهم عن الإشراك، فشجوه على قرنه الأيمن، ثم دعاهم مرة أخرى فشجوه على قرنه الأيسر، فقيل له ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، فيذكرون أقاويل كثيرة غير متفقة، **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [سورة النساء:٨٢]، كل ذلك مما تُلقي عن بني إسرائيل، وكذبهم كثير، ولا يعتمد على كلامهم، حتى إنهم يذكرون أقوالاً عجيبة غريبة لا يمكن أن تتفق مع غيرها من الأقوال المذكورة فلا يُطوّل في هذا؛ لأنه لا طائل تحته.

وقوله: **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، نقل هنا عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم- قال: **يعني علماً**، يعني علم ما يحتاج إليه، العلم الذي يتوصل به إلى مطلوبه في كل شأن من الشئون التي أعطاه الله -عز وجل- إياها، وهذا يدل على التمكين والقوة، فالله -تبارك وتعالى- أعطاه من أسباب القوة والغلبة والمعرفة بالحرب، وعدتها، والممالك وما يقام به الملك، وما يحصل به قهر الأعداء إلى غير ذلك من الأمور التي يحتاج إليها، **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، مما يقوم به سلطانه وتتحصل له به الغلبة على غيره، وقول من قال هنا: يعني علماً، يرجع إلى هذا، وهكذا قول من قال: أي منازل الأرض وأعلامها، فهذا عائد إليه وهو شيء مما أعطاه الله -عز وجل- إياه، معرفة المحال والمسالك والممالك والطرق التي يتوصل بها إلى ما يريد، كل هذا مما أعطاه الله -عز وجل- إياه ومكنه منه، أعطاه من أسباب القوة الشيء الكثير، فصار سلطانه شاسعاً واسعاً.

يقول: **وهكذا ذو القرنين يسَّر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم، والرساتيق**، المقصود بالرساتيق هي الموضع أو المكان الذي تجتمع فيه الدور والبيوت، أو تجتمع فيه الزروع والحروث، يقال لها: رساتيق، **والبلاد والأراضي وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً**، ما يحتاج إليه مثله، هنا **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، فمِن هنا ممكن أن تكون تبعيضية، **{مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، من كل شيء مما يحتاج إليه مثله، أما ما لا يحتاج إليه مثله فلم يُعطَ له، وأوضح من هذا ما قاله الله -عز وجل- في ملكة سبأ: **{وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ}** يعني: مما يصلح لملكها، ولم

تُؤتَ ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وأوضح من هذا قوله -تبارك وتعالى- في البيت: {**يجبى إليه ثمرات كل شيء**} يعني مما جرت العادة في جلبه للبيت، فكل هذا مما يسميه الشاطبي من العموم الاستعمالي، المعنى أنه لا يحيط بجميع الأفراد، فإذا دخلت "من" فهي للتبعيض فلا يرد السؤال أنه أوتي كل الأسباب مثلاً للقوة، قد يقول قائل: ما أوتي مثلاً الطائرات، والمراكب الحديثة، والأسلحة الحديثة، يقال: مما يصلح لمثله، آتاه الله {مِن كُلِّ شَيْءٍ}، فمِن وإن كانت تبعيضية، لكن أيضاً في نوع من العموم، {مِن كُلِّ شَيْءٍ} فكل من أقوى صيغ العموم، {مِن كُلِّ شَيْءٍ} معناها من كل لون من ألوان القوة والتمكين والمعرفة والعلم آتاه الله -عز وجل- منه، ولم يُؤتَ من كل الأسباب الموجودة اليوم، لكن يقال: مما يصلح لمثله، فهذا هو الذي يقال له: العموم الاستعمالي، لمّا تقول لإنسان تخاطبه: الله -عز وجل- قد أعطاك كل ما تريد فإذا كان هذا الإنسان لا يفهم، فإنه سيقول لك: لا، ما أعطاني كذا، وما أعطاني كذا، ما أعطاني ملكاً مثلاً، نقول: أعطاك كل ما تريد مما يصلح لمثلك، أو مما يُعطَى أمثالك وهكذا، الوالد يقول لولده: أعطيناك كل ما تريد، ما يقول له: ما أعطيتني كذا وكذا وكذا، ما أعطيتني مثل لباس أختي، لا يَفهمُ أن المراد ما يصلح لمثله.

قوله: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [سورة **الكهف**:٨٥-٨٨].

قال ابن عباس: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} يعني: بالسبب المنزل، وقال مجاهد: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا}: منزلا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب.

وفي رواية عن مجاهد: {سَبَبًا} قال: طريقاً في الأرض.

وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعالمها.

أصل السبب هو الحبل، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ} [سورة الحج:١٥]، فالسبب هو الحبل، واستعير ذلك وصار يقال لكل ما يتوصل به إلى غيره، فالحبل يتوصل به مثلاً إلى الماء في البئر، وقيل ذلك لما يتوصل به إلى غيره، {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [سورة غافر:٣٦]، ثم فسرها {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} [سورة غافر:٣٧]، أسباب السماوات يعني الطرق الموصلة إليها، {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}، فأوتي من كل شيء سبباً أي: يتوصل به إلى مطلوبه، ويدخل في هذا إذا كان يريد أن يغزو قوماً يعرف أحسن الطرق الموصلة إلى ذلك، ولا يحتاج أن يسأل، وعنده من القُدَر والإمكانات والسلاح والأعوان ما يستطيع أن يتوصل به إلى المطلوب، ولا يحتاج إلى الاستعانة بآخرين من أجل تحقيق هذا المطلب، وهكذا في كل شأن يريده، أوتي من كل شيء سبباً، فعنده الأموال والجيوش والسلاح وحسن التدبير والإدارة، إلى غير ذلك مما يحصل به الغلبة والظهور، فتقول: هؤلاء أعطاهم الله -عز وجل- من أسباب القوة والتمكين، فالله -تبارك وتعالى- أعطاه من كل شيء سبباً، {فأتبع سبباً}.

وقوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ} أي: فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره

أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه.

العين تطلق على ينبوع الماء في اللغة، والينبوع هو الماء الكثير، ومن ثم قال بعض أهل العلم: يصح إطلاقه على البحر بهذا الاعتبار، أي الماء الكثير، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} وإذا قلنا: بمعنى حارة، أو بمعنى حمئة أي متغيرة كما سيأتي، قالوا: فإن قاع البحر متغير وأسود، فلما وصل إلى أقصى المغرب فإن وراءه البحر المحيط، محيط الأطلسي، فالذي يقف على شاطئ البحر يرى الشمس إذا غابت كأنها تقع في البحر، فمن فسره بالبحر -كما قال ابن كثير هنا- قال: هذا هو المراد، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}، وصل إلى نهاية اليابسة في الغرب فوقف على البحر فرأى الشمس وهي تغرب كأنها تقع في هذا البحر، ومن فسره بما هو أخص من هذا أن العين هي ينبوع الماء المعروف، وليس المقصود أن جرم الشمس يقع في هذا المكان، وإنما ما يراه الناظر في الماء من انعكاس صورة الشمس، لكن هذا قد يرد عليه شيء من الإشكال، إلا إن كان شيئاً كثيراً بحيث يقف الإنسان دونه فيرى الشمس وهي تغرب كأنها تنزل فيه، أما من يقف على عين ليست بكثيرة المياه فإنه قد لا يرى مثل هذا، الشمس تغرب بعد ذلك، لقرب اليابسة بعدها، وبعضهم يقول غير هذا، ولكن ليس المقصود في هذه الأقوال جميعاً أن نفس الشمس تنزل في هذه العين حقيقة؛ لأن الشمس كما هو معروف تجري وتدور، فإذا غابت من جهة الغرب ظهرت على الجهة الأخرى وهكذا، ثم ترجع، وتدور، {والشمس تجري لمستقر لها}، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله-: **انتهى إلى ساحله، كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه، لا تفارقه**، بمعنى أنها في منزلتها في السماء، ما تنزل عنها ثم تنحدر وتقع في العين أو في البحر، وإنما هي في نفس مستوى الارتفاع، لكن يراها الناظر من بعيد كأنها نزلت في الماء، كأنها نزلت في البحر إذا وقف الإنسان على الشاطئ، هذا المقصود مما يتناهى عنده النظر، والأرض كروية فإذا ذهبت الشمس من الناحية الأخرى يراها الإنسان كأنها تنزل في الماء.

والحمِئة مشتقة -على إحدى القراءتين- من "الحَمَأة" وهو الطين، كما قال تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}.

يعني {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}، أي: طين، الطين المتغير، متغير اللون ومتغير الرائحة يقال له ذلك، وهناك قراءة متواترة قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي {حامية}، وقرأ الآخرون بـــ{حَمِئَة}، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} أي: منتنة متغيرة، والقراءة الأخرى {وجدها تغرب في عين حامية} يعني: حارة، وإذا كان للآية قراءتان وكل ذلك يرجع إلى ذات واحدة فإن هذا يكون من باب الزيادة في صفة تلك الذات، هنا ذات واحدة وهي العين، تارة قال: {حَمِئَةٍ}، وفي القراءة الأخرى: {حامية}، وتنوع القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات، فإن كان ذلك يعود إلى ذات واحدة فهو من باب الزيادة في الصفة لها، أو الحكم لهذه الذات، كما قال الله -عز جل- في حكم الأرجل في الطهارة في الوضوء: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ} [سورة المائدة:٦]، وفي القراءة الأخرى {وَأَرْجُلِكُمْ}، فهنا القراءتان تعودان إلى ذات واحدة وهي الرِّجل، فهذا

من باب الزيادة في الحكم أو الصفة لهذه الذات، فالرِّجل تارة تكون ممسوحة، وتارة تكون مغسولة، فقراءة المسح –أي بالجر- إذا كان على الرجل الجورب أو نحو هذا، وقراءة النصب تكون إذا كانت الرجل مجردة من ذلك، يعني تدل على حكم الغسل، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} [سورة البقرة:٢٢٢]، وفي القراءة الأخرى بالتشديد {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يطَّهرن}، يعني يتطهرن، فدلت القراءة الأولى {يَطْهُرْنَ} على انقطاع الدم، ودلت القراءة الثانية على الاغتسال، وكل ذلك يرجع إلى ذات واحدة وهي المرأة، فيكون من باب زيادة الحكم لهذه الذات، فهنا نفس الشيء، {حَمِئَةٍ} و{حامية}، فكل هذه الأوصاف حاصلة فيها، وقراءة {حَمِئَةٍ} هي التي نقرأ بها وهي قراءة أهل المدينة، وبها قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، قراءة حفص عن عاصم وغير هؤلاء السبعة {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} مثل القراءة التي نقرأ بها.

كما قال تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [سورة الحجر:٢٨] أي: طين أملس. وقد تقدم بيانه.

وقوله: {وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا} أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم.

وقوله: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}.

أمة عظيمة: هذا كله مُتلقى عن بني إسرائيل، لكن يمكن أن يؤخذ هذا من جهة اللفظ، لكنه لا يقطع به؛ لأن التنكير أحياناً يكون للتعظيم، أحياناً، كقوله تعالى مثلا: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الصف:١٠]، أي تجارة عظيمة، {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ} [سورة الصف:١٣] أي: نصر عظيم من الله، وتارة يدل على التحقير، التنكير أحياناً يدل على التحقير، وتارة لا يدل على هذا ولا هذا، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص:٢٠] جاء رجل، والبعض قد يتكلف في هذا فيقول: {وَجَاء رَجُلٌ} أي: رجل عظيم، {مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}، ولا حاجة لمثل هذا، إنما هو إخبار أن رجلاً جاء من أقصى المدينة يقول كذا وكذا.

وقوله: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} معنى هذا: أن الله تعالى مكنه منهم وحكّمه فيهم، وأظفره بهم وخيّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه.

في قوله: {أَمَّا مَنْ ظَلَمَ} أي: من استمر على كفره وشركه بربه {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} قال قتادة: بالقتل.

وقوله: {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا} أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا، وفيه إثبات المعاد والجزاء.

كأنه فهم أنه يعذب بالقتل لأنه ذكر بعده: {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ}، ولكن هذا ليس بلازم، ولا يدل على القتل قطعاً، قد يعذبه ثم يرد، فإن"ثم" تدل على التعقيب والتراخي، يعذب بعد ذلك لمّا يموت يرد إلى ربه، لكن لو أنه قال مثلاً: فسوف نعذبه فيرد إلى ربه، كان هذا أقرب وإن كانت أيضاً هذه ليست بقاطعة، فالفاء للتعقيب المباشر، ويمكن أن يقال أيضاً: إن تعقيب كل شيء بحسبه، وسبق الإشارة إلى هذا، {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤]، مع أن بينهما أربعين يوماً، {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [سورة الرعد:١٧]، فلا

تسيل الأودية بمجرد نزول المطر، وإنما حتى يجتمع الكثير منه فتسيل الأودية؛ لأنه يحتاج وقتاً، وهكذا {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج:٦٣] يحتاج إلى وقت أيضاً.

وقوله: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ} أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى} أي: في الدار الآخرة عند الله -عز وجل-، {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} قال مجاهد: معروفًا.

بعضهم يقرأ {فله جزاءُ الحسنى} من غير تنوين وبالرفع، أي: جزاءُ الخصلة الحسنى أو الفعلة الحسنى، وتكون الإضافة هنا مثل دار الآخرة، تكون من باب إضافة الموصوف إلى صفته، {جزاءُ الحسنى}، وتكون الحسنى من باب الصفة، لكن على قراءة التنوين {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}، فهنا قطع عن الإضافة، وتكون {الْحُسْنَى} أي الجنة، {جَزَاءً الْحُسْنَى} أي: في الدار الآخرة عند الله -عز وجل-، والقراءتان متواترتان.

وقوله: {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} **قال مجاهد: معروفاً**، وهذا تقريب للمعنى، {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} أي القول الحسن الطيب الذي يوصف بذلك، {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} [سورة الإسراء:٢٣] يعني: الكلام الذي يحصل به إبهاج النفوس وإسعادها، فيكون محبباً إليها.

قول تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} [سورة الكهف:٨٩-٩١].

يقول تعالى: ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله -عز وجل-، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ} أي: أمة، {لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا} أي: ليس لهم بناءٌ يكنّهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

وقال قتادة: ذكر لنا بأنهم بأرض لا تُنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

وقوله: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} قال مجاهد، والسدي: علمًا، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: {لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}.

وقوله: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} يعني: أنه مطلع على أحواله، وأحوال جيشه وما إلى ذلك، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} يعني بما هنالك مما وصل إليه من مطلع الشمس، من أحول تلك الناحية، أولئك القوم، بما عنده مطلع الشمس، يعني لا يخفى علينا مما هنالك من الخلق وأحوالهم، يعني لمّا وصل إلى مطلع الشمس وجد عندها قوماً لم يجعل الله -عز وجل- ما يكنّهم ويسترهم، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}، يعني أحطنا بما هنالك بما لديه مما وصل إليه من هؤلاء الناس ومحالهم أن الله أحاط بهم، ولا يخفى عليه من خلقه خافية، والآية إذا كانت تحتمل معنيين أو أكثر ولا يوجد ما يمنع من حمل الآية على هذه المعاني فيمكن أن تحمل الآية عليها جميعاً، أحاط بما لديه: بما عنده، بأحواله كلها، وبأحوال الخلق جميعاً، وأولئك الذين وصل إليهم، تلك المحال البعيدة الله -تبارك وتعالى- عالم

بهم، وهو الذي أحاط علمه بكل شيء، وجائز أن يكون لما أعطاه الله من كل شيء سبباً، هذه القُدر والإمكانات أن يكون حينما وصل إلى أقصى الغرب أنه طاف في الأرض من الناحية الثانية حتى وصل إلى المشرق، وجائز أن يكون قد رجع حتى وصل إلى مشرقها، فإن الله أخبر أنه قد أعطاه من كل شيء سبباً، يحتمل هذا، والعلم عند الله -عز وجل-، ولا يوجد ما يمنع من ذلك، إذا كان أعطاه الله من كل شيء سبباً فهو عنده معرفة بالطرق، وعنده من الإمكانات ما يوصله إلى مطلوبه، ونحن لا نقيس الناس على ما نتصور أو نتخيل قبل ثلاثمائة سنة، أو أربعمائة سنة، أو خمسمائة سنة من مراكب الناس البسيطة وإمكاناتهم وعلومهم، وأنهم لم يكتشفوا كذا إلا سنة كذا، هذا الكلام فيه نظر، يعني الأهرام التي تحير فيها العلماء، وكثير منهم يقول: إنها كانت قبل الطوفان؛ لأنها لو كانت بعد الطوفان لكان عندنا من الخبر بمن بناها، تواتر ذلك وعرف، فالشاهد أنها بهذه الطريقة إلى الآن والناس يتحيرون بها، ويعجبون منها، ومما فيها ومن طريقة بنائها، يعني ممكن أن تبنى هذه بدون معرفة وبدون آلات، وإذا نظرت إلى آثار الممالك المشيدة وما وصف من أرض عاد التي قال الله -عز وجل- فيها: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [سورة الفجر:٨]، حتى قال بعض المفسرين: بنوا مدينة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ونحو ذلك، قد لا يكون هذا كذلك، لكن الله -عز وجل- حينما وصفها بهذه الصفة {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}، وبقايا وآثار وأشياء لا زال بعضها إلى اليوم، آبار قريبة من أطراف الجزيرة العربية، آبار منحوتة نحتاً دقيقاً في مناطق صخرية عميقة في غاية العمق، حتى إن بعضهم يقول: إن هذا مما حفرته الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، فالله أعلم، فالشاهد هناك إمكانات وأشياء، ديار ثمود انظر إلى الآن بقية تلك الديار، كيف نقروا الجبال ونحتوها، ولم يكتفوا بهذا بل زينوها غاية التزيين، وجعلوا عليها من الصور والرسوم والملاسة وما أشبه ذلك حتى صارت كأنها مصنوعة إلى اليوم باقية إلى هذا العصر، والناس لا يفعلون هذا في عصرنا هذا، لا يفعلون في بيوت كل واحد منهم، فمعنى هذا أن عندهم إمكانات قوية، يعني قد يفعل هذا في مكان، يفعله واحد ملِك لأمر من الأمور، لكن بيت كل واحد بهذه الطريقة، وبهذا النقش، والناس يطيقون؟ لا يطيقون هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٤)

من قوله تعالى"ثم أتبع سببا" الآية ٩٢ إلى قوله تعالى"وكان وعد ربي حقا" الآية ٩٨

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيما يتعلق بما أشرت إليه في الكلام على تسمية ذي القرنين؛ ولماذا قيل له ذلك؟ يصلح نموذجاً للأقوال التي يذكرونها والتي لا يمكن أن تتفق.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- في كتابه فتح القدير:

واختلفوا في ذي القرنين اختلافاً كثيراً، فقيل: هو الإسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها، اليوناني باني الإسكندرية، وقال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح، وقيل: هو ملك اسمه هرمس، وقيل: ملك اسمه هردبس، وقيل شاب من الروم، وقيل: كان نبياً، وقيل: كان عبداً صالحاً، وقيل: اسمه عبد الله بن الضحاك، وقيل: مصعب بن عبد الله من أولاد كهلان بن سبأ.

وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم -عليه السلام-، والآخر كان قريباً من عيسى -عليه السلام-، وقيل: هو أبو كرب الحميري، وقيل: هو ملك من الملائكة، ورجح الرازي القول الأول، قال: لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني، كما تشهد به كتب التاريخ، قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال؛ لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق؛ وذلك مما لا سبيل إليه.

قال النيسابوري: قلت ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً، فلعله أخذ منهم ما صفا، وترك ما كدر، والله أعلم.

أرسطاطاليس: يعني أرسطو.

ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدمنا ذلك، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم -عليه السلام- أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان وزيره الخضر، وأما الثاني: فهو الإسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره.

ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية.

وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا -يعني: أنهما اثنان-؛ لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير، وفساد كثير، كيف لا؟! والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً، ووزيره الخضر، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني: فقد كان كافراً ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فأين هذا من هذا؟! انتهى.

قلت: لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم، لا كما ذكره الرازي، وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث -إن شاء الله.

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والأزهري: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، وقرن الشمس من مغربها، وقيل: إنه كان له ضفيرتان من شعر، والضفائر تسمى قروناً، ومنه قول الشاعر:

فلثَمتُ فاها آخذاً بقرونها *** شُرْبَ النزيف ببرْد ماءِ الحشرج

والحشرج: ماء من مياه العرب، وقيل: إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك، وقيل: كان له قرنان تحت عمامته، وقيل: إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه، وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً، وقيل: لأنه أُعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه ملك الروم والترك، وقيل: لأنه كان لتاجه قرنان.

وقال الله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء(٣٦)] وقال: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء(٨٢)] هذا كله من كذب بني إسرائيل، وتحريفهم، فيأتون بالأقوال المتناقضة، ولو أن الإنسان وقف عند حد ما يعلم ما كان قال واحد: إنه ملك، والثاني يقول: نبي، والثالث يقول: كافر، وهكذا هذا التناقض في سبب التسمية: أخذ بقرني الشمس، أو برؤيا، أو كان له ظفيرتان، أو من جهة نسبه، أو من جهة كذا، هذه الأقوال لا يمكن أن تتفق، ولا حاجة بنا لها؛ لكن أردت أن أذكرها كنموذج للجرأة والكذب عند هؤلاء الإسرائيليين، وتلفيق الأخبار، واختلاق مثل هذه الأمور.

وقال صاحب المصباح المنير في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُواْ يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكّنّي فِيهِ رَبّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٢-٩٦)] يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} [سورة

الكهف(٩٢)] أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج، على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم -عليه السلام- كما ثبت في الصحيحين: ((إن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}** [سورة الكهف(٩٣)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان". متناوحان: أي متقابلان.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ}** [سورة الكهف(٩٣)] قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالفتح **{بَيْنَ السَّدَّيْنِ}** [سورة الكهف(٩٣)] وقرأه الباقون بالضم {السُّدين} وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول بأن القراءتين بمعنى واحد، وأن السَّدين والسُّدين كليْهما بمعنى واحد، فهما لغتان، وكثير من أهل العلم يفرقون بينهما، فبعضهم يقول: الفرق أن كل ما كان حجزاً بينك وبين غيرك فهو سَد، وما كان متراكماً، أي: أن بعضه على بعض فهو ردم، كما سيأتي في قوله: **{رَدْمًا}** [سورة الكهف(٩٥)]، وبعض أهل العلم يقول: كل ما كان أمامك يحجز ما بعده عما قبله فإنه بالضم، يقال له: سُد، ويثنّى على السُّدين، وبعضهم يقول: ما رأته العيون -بمعنى أنه شيء حسي- فهو بالضم، وما كان معنوياً -كالذي يكون على الأبصار كالغشاوة- فإنه يكون بالفتح أو العكس، وبعضهم يقول بأن الذي يكون بخلق الله خلقة كالحاجز من جبل ونحو ذلك فهو بالضم، سُد أي مسدود، وما كان من فعل الإنسان فهو بالفتح، والله تعالى أعلم.

على كل حال ابن جرير - رحمه الله - يقول: هما لغتان، والذين ذكروا هذه الفروقات هم من أئمة اللغة.

{وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [سورة الكهف(٩٣)] أي: لاستعجام كلامهم، وبعدهم عن الناس.

في قوله: **{وَجَدَ مِن دُونِهِمَا}** [سورة الكهف(٩٣)] بعضهم يفسره أي: من ورائهما، وبعضهم يقول: أي أمامهما، وقوله: **{لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}** [سورة الكهف(٩٣)] قرأه بعض السبعة كحمزة والكسائي: يُفقِهون، أي: يُفهِمون، من أفقهَ إذا أبان عما في نفسه، لا يكاد يُفقِه، يعني: لا يكاد يُبين لعجمته، لا يُفهم قولهم وكلامهم، وقرأه الباقون: **{لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ}** [سورة الكهف(٩٣)] أي: لا يكادون يفهمون.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب {وترى الناس سكارى} [الحج: ٢] (٦/٩٧- ٤٧٤١) وفي غيره من الأبواب، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/ ٢٠١ – ٣٧٩) (٢٢٢).

وكما سبق في القراءات أنها إذا تعددت وعادت إلى ذات واحدة فإن ذلك من تعدد الأوصاف لهذه الذات، فهؤلاء دلت القراءة الأولى (يُفقهون) على أنهم لا يُبينون، ودلت القراءة الثانية (يَفقهون) على أنهم لا يفهمون، وهذا لاستعجام كلامهم، فالسامع لا يكاد يفهم، وهم أيضاً كذلك.

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} [سورة الكهف(٩٤)] **قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}** [سورة الكهف(٩٥)] **أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان -عليه السلام-: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم}** [سورة النمل(٣٦)] **الآية، وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي: بعملكم وآلات البناء {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا* آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ}** [سورة الكهف(٩٥-٩٦)] **والزبر: جمع زبرة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة، وهي كاللبنة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه.**

في قوله: **{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا}** [سورة الكهف(٩٤)] مفسدون في الأرض، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: مفسدون في الأرض: تحمل على أعم معانيها ولا حاجة لتخصيص ذلك بنوع من الإفساد، كما يقول بعضهم: إنه إذا ظهر الربيع مثلاً في أرض هؤلاء عدا عليهم هؤلاء فلم يبقوا لهم خضراء، وغير ذلك من الأقاويل التي تذكر، هم مفسدون في الأرض بالقتل، والتعدي على الناس في أموالهم إلى غير ذلك مما يتصور من ألوان الإفساد.

{مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} [سورة الكهف(٩٤)] وقرأه الكوفيون: خراجاً، وبعض أهل العلم يقول بأن الخرج والخراج بمعنى واحد، وبعضهم يفرق بينهما في المعنى، وبعضهم يقول: إن الخراج هو الاسم، والخَرج هو المصدر، وبعضهم يقول: الخراج ما يجعل على الأرض، والخرج ما يجعل على الرقاب مثل الجزية.

وبعضهم يقول: **{فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا}** [سورة الكهف(٩٤)] يعني: كالأجرة، أو ما يجعل لمن عمل عملاً أو نحو ذلك من العطاء، وأما الخراج فإنه ما يُجعل على الأرض، والله -عز وجل- ذكر هذا وهذا، فهذا يدل على أنهم أرادوا شيئاً واحداً، والله -تبارك وتعالى- أعلم.

فهل نجعل لك خرجاً أو خراجاً؟ المقصود به: أنهم عرضوا عليه أن يعطوه أجرة على هذا العمل، فترفّع عن ذلك وتعفف، وقال: ما آتاني الله خير من هذا الذي تجعلونه لي، كما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام.

وقوله -تبارك وتعالى- عن قول ذي القرنين: **{أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}** [سورة الكهف(٩٥)] هناك قال: سداً وهنا قال: ردماً، والمعنى متقارب، الردم والسد هو كل ما يحجز بين شيئين فإنه يقال له ذلك، وبعضهم يفرق بينهما كما سبق، فيقول: كل ما حجز بين شيئين فهو سد، وما كان بعضه على بعض فهو ردم، إن كان مبنياً من الحجارة أو اللبن أو غير ذلك فهو ردم، والسد يمكن أن يكون بقطعة واحدة بخشبة أو بحديدة، أو نحو ذلك، والعلم عند الله -عز وجل.

قال: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} [سورة الكهف(٩٦)] يقول: جمع زبرة، وهي القطعة منه، وبعضهم قيده بالقطعة العظيمة، وهذا الذي ذهب إليه الخليل بن أحمد -رحمه الله-، زُبر الحديد يعني: القطع العظيمة من الحديد، فيجعل ذلك بمنزلة اللبن، يضع هذه القطع على بعض، ثم بعد ذلك يوقد عليها، وهي كاللبنة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد.

{حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} [سورة الكهف(٩٦)] أي: وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال.

إذا ساوى في الصُّدُفين: في قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي عمرو بالضم، ضم الصاد والدال الصُّدُفين، والصَّدَفين بالفتح يعني: بين رأسي الجبلين، أو بين جانبي الجبلين، وإذا تحاذى الجبلان فكأنهما تصادفا أو تلاقيا، فيقال لذلك: صدفان، يعني: ساوى بين طرفي أو بين ناحيتي أو بين جانبي الجبلين إلى رءوسهما.

{قَالَ انفُخُوا} [سورة الكهف(٩٦)] أي: أجّجَ عليه النار حتى صار كله ناراً {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٦)] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسُّدي: هو النحاس، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [سورة سبأ(١٢)] ولهذا يشبه بالبرد المحبر.

هذا قول جمهور المفسرين وأهل اللغة: إن القطر المقصود به النحاس المذاب، وبعضهم قال: إنه الحديد المذاب، وبعضهم يقول: الرصاص، لكن المشهور هو هذا، وهذا الذي يدل عليه القرآن، والله تعالى أعلم.

ثم قال الله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف(٩٧-٩٩)] يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج: أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله؛ ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: استيقظ النبي -صلى الله عليه وسلم- من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: ((لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)) قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((نعم إذا كثر الخبث))[٢] هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخراجه.

قوله: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] كما سبق أن زيادة المبنى لزيادة المعنى؛ لما كان نقضه أصعب من الظهور عليه قيل: استطاعوا، وهذه من الأشياء التي تلحظ فتكون معينة على الحفظ، يعني مما يذكر في الحفظ أشياء مما يقويه ويثبته منها ملاحظة المعنى، وهذا له أمثلة كثيرة، فمن

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج (٤/ ١٣٨- ٣٣٤٦) وغيره من الأبواب. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/ ٢٢٠٧- ١) (٢٨٨٠) وهو عند أحمد كما أشار المصنف (٤٥/٤٠٣- ٢٧٤١٣).

هذا إذا عرفت أن قوله في الأولى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)] لأن الظهور أسهل، والثانية: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] وهكذا في قول الخضر لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] بعد أن أخبره، وقبل أن يخبره قال: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع} [سورة الكهف(٧٨)] فإذا لاحظت مثل هذه المعاني سهل عليك ضبط الحفظ، وهناك أشياء مفيدة تذكر أيضاً في هذا ، وذكر بعضها ابن المنادي في كتاب (متشابه القرآن).

وفي قوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: لما بناه ذو القرنين قال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: بالناس، ويحتمل أن يكون المعنى: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: هذا التمكين، والإشارة عائدة إلى ما حصل من تمكينه من بناء هذا السد، وإعانته عليه، قال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] فلم ينسب ذلك إلى نفسه، وإنما تواضع لربه -تبارك وتعالى.

وابن جرير -رحمه الله- إذا نظرت في عبارته تجد أنه جمع بين المعنيين: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] حيث أعان عليه ويسره، وأيضاً هو رحمة بالناس الذين كانوا يلاقون ما يلاقون من هؤلاء القوم المفسدين.

وقوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: لما بناه ذو القرنين {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: إذا اقترب الوعد الحق {جَعَلَهُ دَكَّاء} [سورة الكهف(٩٨)] أي: ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [سورة الأعراف(١٤٣)] أي: مساوياً للأرض.

هناك قال: {دَكًّا} وهنا قال: {دَكَّاء} على قراءة الكوفيين الثلاثة: حمزة وعاصم والكسائي، {جَعَلَهُ دَكَّاء} [سورة الكهف(٩٨)] وهذا يقال للناقة التي لا سنام لها: دكاء، فبعضهم يقول: هذا على وجه التشبيه لأن ذلك مذكر {جَعَلَهُ} [سورة الكهف(٩٨)] أي: السد {دَكَّاء} وهذه من صفة المؤنث، قالوا: هذا على وجه التشبيه بالناقة الدكاء، والقراءة الأخرى -قراءة بقية السبعة-: بالتنوين من غير همز {جَعَلَهُ دَكًّا}.

{وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)] أي: كائناً لا محالة، وقوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} [سورة الكهف(٩٩)] أي: الناس يومئذٍ، أي: يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس.

في قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] هل المقصود به القيامة كما قال بعضهم؟ أو المقصود به إذا جاء الوعد الذي يحصل به انهدام هذا السد، فيخرج هؤلاء إلى الناس في آخر الزمان، قرب قيام الساعة؟ {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)] ويكون قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف(٩٩)] يعني: أن يأجوج ومأجوج ينطلقون فيفسدون ويختلطون بالناس بعد أن عُزلوا عنهم هذه المدة الطويلة {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [سورة الكهف(٩٩)] أي: بعد ذلك، ومعلوم أن أشراط الساعة تأتي متتابعة، سريعة الوقوع، ويكون بعدها قيام الساعة -النفخ في الصور-، فهذا هو الأقرب -والله أعلم-، وهو الذي تدل عليه الأحاديث الواردة في صفة خروج يأجوج ومأجوج.

وهؤلاء تكلم عنهم المفسرون، ونقلوا أشياء هي من قبيل الإسرائيليات، لا تصدق ولا تقبل بحال من الأحوال، بعضهم يقول: هم على قدر شبر، إذا كانوا على قدر شبر سيطؤهم الناس.

وبعض الناس في هذا العصر يقول بأنهم أهل الصين، وأن السد هو سد الصين، وهذا الكلام كله غير صحيح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنهم في كل يوم يحفرون، ثم يرجع السد إلى ما كان عليه، يقولون: إنهم سيكملونه في الغد، فإذا رجعوا إليه وجدوه أشد مما كان، حتى إذا أذن الله -عز وجل- بخروجهم قال القائم على عملهم: إن شاء الله، فيكملونه في اليوم الآخر، ويفتحونه ويخرجون، وهؤلاء إذا خرجوا حصل منهم هذا الإفساد العظيم، أما أهل الصين فإن هذا السد لا يحول بينهم وبين الناس، ولا يخرقون فيه كل يوم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا))[٣] فهل هذا ينطبق على سد الصين؟! إطلاقاً لا يمكن أن يقال هذا، وهل أهل الصين بهذه المثابة يفسدون في الأرض، ويفعلون هذه الأشياء كلها، ويشربون حتى البحيرة ولا يتركون شيئاً؟ ويختلطون بالناس، والناس يذهبون إليهم، والذي يسافر إلى الصين ذهب إلى يأجوج ومأجوج؟! فهذه أقوال عجيبة، وأين الآيات والأحاديث التي تدل على أن خروجهم شيء مهول وكارثة؟

على كل حال الذي يحمل هؤلاء على هذا الكلام هو أنهم يقولون: إننا في عصر وجدت فيه الأقمار الصناعية وغير الأقمار الصناعية، وما بقي موضع شبر من الأرض إلا عُرف، هاتان أمتان عظيمتان، فأين هم إذن؟ لابد أن يُعرفوا ويكتشفوا، ما عاد الناس مثل الأول، على جمل، نقول لهم: إذا شاء الله -عز وجل- أن يعمّي أمراً على الناس فلو كان أمام أعينهم ما رأوه، وهذا شيء مشاهد، وهذا أشرت إليه في بعض المناسبات، الإنسان أحياناً يبحث عن قلمه وهو أمامه، ويسأل ويفتش، ويبحث عن كتابه في كل مكان وهو أمامه، ولربما بحث عن نظارته وهو يلبسها ولا يترك محلاً إلا ويسأل عنها وهي على عينه، وهذه الأمة من بني إسرائيل أمة معهم موسى -عليه الصلاة والسلام- وتاهوا في صحراء صغيرة، لو اتجهوا من أي اتجاه في فترة وجيزة في أيام فسيخرجون منها، ومع هذا جلسوا فيها هذه المدة الطويلة.

فالله -تبارك وتعالى- إذا أراد شيئاً قال له: كن، فعمّي خبرهم على الناس، وما المانع من هذا ؟ وبعض من تكلم في هذا يقول: لهم أكثر من خروج، من أجل أن يجمع بين هذا وبين ما يحصل من الإفساد، طيب وأين السد الذي يحفرون فيه كل يوم؟ أين هو الذي يحول بينهم وبين الناس؟ وإذا كان لهم أكثر من خروج فما فائدة هذا السد إذاً؟ وهل أصلاً أهل الصين هم من هاتين القبيلتين من يأجوج ومأجوج؟ فمثل هذا كله لا يقبل، والله أعلم.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج (٤/ ١٣٨- ٣٣٤٦) وغيره من الأبواب. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/ ٢٢٠٧- ١) (٢٨٨٠) وهو عند أحمد كما أشار المصنف (٤٥/٤٠٣- ٢٧٤١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٥)

من قوله تعالى"وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض" الآية ٩٩ إلى قوله تعالى"وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا" الآية ١٠٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] **وقوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} أي: الناس {يَوْمَئِذٍ} أي: يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء، فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}** [سورة الكهف: (٩٩)] **قال: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}** [سورة الأنبياء: (٩٦-٩٧)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف(٩٩)] هذا جاء بعد قوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)].

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] الوعد يحتمل أن يكون المراد به القيامة، وأن الله -عز وجل- يجعل هذا السد دكا، كما يجعل كل ما على الأرض قاعاً صفصفا، فتكون مستوية {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [سورة طـه: (١٠٧)]، فتُنسف الجبال وما عليها من العمران، ومن جملة ذلك أن هذا السد يزول، والقرينة التي قد يحتج بها من يفسر الآية بهذا أن الوعد هو القيامة، وأن الله -تبارك وتعالى- قال بعده: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} [سورة الكهف: (٩٩ - ١٠٠)].

لكن قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} هل هو في القيامة، أو تركنا بعضهم يموج في بعض حيث يخرجون على الناس؟، فهذه قرينة تدل على أن هذا يكون في الآخرة، وقد قال الله -عز وجل-: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الأنبياء: (٩٧)]، ويقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة فاطر: (٥)] فهذا الوعد الحق هو القيامة، ويحتمل أن يكون المراد به القيامة، فيختلط الإنس والجن يوم القيامة ويحشرون، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى.

والقول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ذلك قبل القيامة، {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف: (٩٨)] يعني: بخروجهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ

يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [سورة الأنبياء: (٩٦-٩٧)]، فهذا الوعد الحق المقصود به في الآية الثانية القيامة، فيكون المعنى في قوله: {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}، يعني بخروجهم، وانهدام هذا السد.

من أهل العلم من يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} أي: يأجوج ومأجوج يختلطون بالناس، بعد أن كانوا بمعزل عن الناس.

وبعض أهل العلم يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}، يعني: يأجوج ومأجوج مع غيرهم من الناس، فيختلطون بهم ويحصل منهم ما يحصل من ألوان الإفساد في الأرض، وذلك من علامات القيامة الكبرى، ثم بعد ذلك ينفخ في الصور، والأول أقوى من هذا وأرجح

ومن أهل العلم من يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}، لما وضع السد صار يأجوج ومأجوج بعضهم يموج في بعض خلف هذا السد، وهذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- يقول عن قول ذي القرنين {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف: (٩٨- ٩٩)]، فليس المقصود يومئذ يعني يوم بناء السد، وإنما ذلك يتعلق بما قبله، ذلك الحين الذي يأتي فيه وعده -عز وجل- ويتحقق يختلطون بغيرهم، فيحصل منهم الإفساد، وهذا هو الأقرب في تفسير الآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [سورة الكهف: (٩٩)] والصور كما جاء في الحديث: ((قرن ينفخ فيه))[1]، والذي ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، كما تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة، وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته واستمع متى يؤمر؟))، قالوا: كيف نقول؟ قال: ((قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا))[2].

وقوله: {فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] أي: أحضرنا الجميع للحساب {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة: (٤٩-٥٠)]، {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٧)].

قوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} يحتمل أن تكون هي النفخة الأولى؛ لأنها هي التي تكون بعد هذه الأمارات، بعد خروج يأجوج ومأجوج فينفخ عندئذ في الصور فتموت الخلائق، ويصعقون، ويحتمل أن تكون هذه هي النفخة الثانية، وهناك قرينة تدل على أنها النفخة الثانية وهي قول الله –عز وجل-: {فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}.

النفخة الثانية هي التي يكون بها جمع الخلائق، أما النفخة الأولى ففيها الإماتة، فيصعق من كان حياً ويموتون، ويمكن أن تكون هذه هي النفخة الأولى، وأن الله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك على وجه الاختصار، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} يعني: بعد يأجوج ومأجوج، فطوى الله -تبارك وتعالى- هذه المراحل، واختصر الكلام

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (٣٧٨/٤)، برقم: (٤٧٤٤)، وصححه الألباني.

[2] - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شأن الصور (٦٢٠/٤)، برقم: (٢٤٣١)، وصححه الألباني.

اختصاراً فذكر ما يحصل بعد ذلك مما عليه المعوّل وهو جمع الناس، فإذا نفخ فعند ذلك تقوم القيامة، فذكر الله -عز وجل- مما يحصل فيها جمع الخلائق وحشر الخلائق وهذا بعد نفخة أخرى وهي نفخة البعث، فيكون ذكر نفخة الصعق، ولم يذكر نفخة البعث اختصاراً، وإنما ذكر ما يحصل من جمع الناس وحشرهم.

قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا}

[سورة الكهف: (١٠٠-١٠٢)].

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي يبرزها لهم ويظهرها؛ ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمّ والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك))[٣].

قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا}، بعض أهل العلم يقول: إن اللام في قوله: {لِّلْكَافِرِينَ} بمعنى "على"، وتعرفون أن حروف الجر تتناوب، وأن بعضها ينوب عن بعض، فتأتي اللام بمعنى "على"، {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} [سورة الكهف: (١٠٠)]، أي: على الكافرين، كما يقول الله -تبارك وتعالى- في مواضع من القرآن: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ} [سورة الأحقاف: (٢٠)]، يعرضون على النار، فهم يعرضون على النار، وهي تعرض أيضاً عليهم، وقوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [سورة غافر: (٤٦)]، فمن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} أي: على الكافرين عرضا، ليكون ذلك أعظم وأشد في عذابهم، حيث يرونها قبل مواقعتها فيصيبهم ما يصيبهم من الهول والفزع.

ثم قال مخبراً عنهم {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} [سورة الكهف: (١٠١)] أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [سورة الزخرف: (٣٦)]، وقال ههنا: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} [سورة الكهف: (١٠١)]، أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي}، أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن قوله –تبارك وتعالى-: {فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي} يتضمن معنيين:

المعنى الأول: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده، وعجائب قدرته، فهم لهم أعين كما قال الله -عز وجل- {لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا} [سورة الأعراف: (١٧٩)]، وإنما ينظرون إلى هذه الآيات العظام، ودلائل القدرة بنظر البهيمة التي لا تعقل.

---

[٣] - الحديث جاء عند مسلم، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبُعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢١٨٤/٤)، برقم: (٢٨٤٢)، من حديث عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)).

المعنى الثاني: أن عين القلب في غطاء عن فهم القرآن، فهي محجوبة، ليس لهم بصائر، فالعين وإن كانت مفتوحة تنظر إلا أنه نظر لا ينتفع به صاحبه، ولا يحصل له الاعتبار والاتعاظ بما تضمنه هذا القرآن من الزواجر والمواعظ، والهدايات والأمثال، فأعينهم -يعني أعين القلوب- في غطاء عن فهم هذا القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب على ما يذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يكون أولاً، فإذا حجب القلب فإن ذلك يسري إلى العين فلا تبصر ما ينتفع به، لا ينتفع بها صاحبها، وهذا شيء مشاهد، فأكثر الناس سياحة في الأرض هم الكفار كما نرى، بل إن ذلك من الأمور المعروفة المشتهرة عنهم، ومع ذلك لا ينتفعون ولا يتعظون بما يشاهدون، ولربما جاءوا إلى أماكن المعذبين وبقايا الأمم المهلكة ولم يحرك ذلك فيهم ساكناً، فهؤلاء أعينهم في غطاء عن ذكر الله، ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- لا ينكر، فإن من كانت عينه في غطاء عن ذكر الله -عز وجل-، فإنما ذلك لأن قلبه قد حجب عن الهدى، وصار على البصر غشاوة، فهي أمور متلازمة، كما قال الله -عز وجل-: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} [سورة البقرة: (٧)].

ثم قال: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} [سورة الكهف: (١٠٢)] أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، وينتفعون به؟ {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:(٨٢)] ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}[سورة الكهف: (١٠١)]، الذكر مصدر وهو مضاف، فيحتمل أن تكون الإضافة من باب الإضافة إلى الفاعل، ويحتمل أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول، كما في قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طــه: (١٢٤)]، يحتمل أن يكون أي عن ذكر ربه -تبارك وتعالى-، فمَن لم يذكر الله، فإن قلبه يظلم، وصدره يضيق، ومعيشته تتكدر وتتنغص، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت))[٤]، ويحتمل أن يكون المراد {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} أي مذكوري، فيكون من باب الإضافة إلى الفاعل، والأول من باب الإضافة إلى المفعول.

ومذكور الله -تبارك وتعالى- هو القرآن، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر:(٩)].

وكذلك في الآية الأخرى، في قوله: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [سورة الزخرف: (٣٦)]، فالذكر هنا مضاف إلى الاسم الظاهر، يعني لم يذكر ربه، ويحتمل أن يكون المراد من يعش عن ذكر الرحمن يعني عن مذكوره وهو القرآن، لا يقرؤه ولا يعمل به ولا يتدبره ولا يتحاكم إليه، فهذا تحتمله الآية.

وفي قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي}، أضافه إلى العين بمعنى أنهم في غطاء عن ذكري لا يقرءونه، كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، وابن القيم -رحمه الله- يربط ذلك بالقلب ويقول: عين القلب.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله -عز وجل- (٥ / ٢٣٥٣)، برقم: (٦٠٤٤).

قوله: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}؛ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، والسبب في ذلك هو أن القلوب قد طبع عليها والأسماع كذلك، كما قال الله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [سورة البقرة: (٧)]، فإذا حصل هذا الختم والطبع، فإن الإنسان لا يستطيع أن يسمع السماع الذي ينتفع به، وذلك جزاء وفاقا، لما أعرضوا وكابروا حصل لهم ذلك عقوبة من الله -تبارك وتعالى-، وقوله: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، لا شك أنه أدل وأبلغ في المعنى مما لو قيل: وكانوا لا يسمعون؛ لأن الذي لا يسمع ربما يُرفع ويجهر له بالصوت، فيسمع، لكن الله -عز وجل- قال: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، فمهما صك آذانهم من الحجج، والبينات، والبراهين، وآي القرآن فإنهم لا ينتفعون بذلك، وأقرب مثال على هذا أهل النفاق يسمعون القرآن، ويصلون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرون ما يرون ويشاهدون ما يشاهدون ولا يغير ذلك فيهم قليلاً ولا كثيراً، وإذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم يرون الوحي ينزل {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد: (١٦)]، {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [سورة التوبة: (١٢٤)].

قوله: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} [سورة الكهف: (١٠٢)].

أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به، وليس المقصود به أنهم يتخذون المؤمنين أولياء، والهمزة هنا للإنكار، وليس المقصود أنهم يوالون المؤمنين، وإنما المقصود العبادة من دون الله - تبارك وتعالى- كعبادة الملائكة، والذين عبدوا المسيح -عليه الصلاة والسلام-، أو الذين عبدوا مَن عبدوا من الصالحين، ونحو ذلك. فالكفار كانوا يعبدونهم ويقولون: {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس: (١٨)]، {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [سورة الزمر: (٣)]، والله -عز وجل- ينكر عليهم هذا، {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [سورة الشورى: (٩)].

قوله: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي} [سورة الكهف: (١٠٢)]، العبودية إما أن تكون بمعنى عبودية القهر، ومنه قوله: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [سورة مريم: (٩٣)]، وهذه العبودية عامة يدخل فيها الكفار والطواغيت.

وإما أن تكون إضافة العبودية هنا إضافة تشريف -كما قد يتبادر إلى الذهن- كما في قوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الحجر: (٤٢)]، فإذا قيل إن الإضافة هنا إضافة تشريف فمعنى ذلك: أن ذلك يرجع إلى ما عُبد من دون الله -عز وجل- من الأنبياء والملائكة والصالحين، وكون المعبودين يكفرون بعبادة العابدين، هذا عام فيمن كان من الأنبياء والصالحين وغيرهم.

وفي قوله –تبارك وتعالى-: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} [سورة الكهف: (١٠٢)]، مقدر محذوف، بعضهم يقدره، أي: ولا أعاقبهم العقاب الشديد؟ كلا، بل سأعاقبهم على ذلك، يعني أفحسبوا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء وأتركهم ولا أعاقبهم؟، كلا، سأعاقبهم على ذلك العقاب الشديد، ويحتمل أن يكون {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء}، وأن ذلك ينفعهم، ويجدي عنهم؟، كلا، لا ينفعهم بل يضرهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا}، أي: أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلا، ففسرها بالمنزل، فالنُزل بعضهم يفسره بالمنزل، وبعضهم يقول: النُزل هو ما يعد للضيف من القرى والكرامة، لكن جهنم كيف تكون قرى للضيف، ونُزلاً له ؟ الجواب: ذلك من باب التهكم بهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الانشقاق: (٢٤)]، والبشارة إنما تكون بالإخبار بما يسر خاصة، فيظهر أثر ذلك على بشرة المبشر.

وإعداد جهنم نزلا لهم من باب التهكم، وقد قال الله –تبارك وتعالى– عن شجرة الزقوم: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} [الصافات : ٦٢].

قوله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [سورة الكهف: (١٠٣-١٠٦)].

روى البخاري عن عمرو عن مصعب قال: سألت أبي -يعني سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- عن قول الله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً} أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً -صلى الله عليه وسلم-، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد -رضي الله عنه- يسميهم الفاسقين[٥].

وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية؛ ومعنى هذا عن علي -رضي الله عنه- أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}، وقال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [سورة النــــور: (٣٩)]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم}، أي: نخبركم {بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً}، ثم فسرهم، فقال: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف: (١٠٤)]، أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [سورة الكهف(١٠٤)]، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون.

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله –تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [سورة الكهف: (١٠٤)]، هو الذي عليه المحققون من المفسرين، والذي نُقل عن بعض السلف -رضي الله عنهم- من أن المراد بهم الحرورية، أي: الخوارج، وقال بعضهم: هم الرهبان، وقال بعضهم: هم كفار أهل مكة، فهذا من باب التفسير بالمثال -والله تعالى أعلم-، ولا يقصدون به الحصر،

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (٤/١٧٥٨)، برقم: (٤٤٥١).

فكل من كان بهذه الصفة ضل سعيه وعمله واعتقاده في هذه الحياة الدنيا، وهو يرجو من هذا العمل، وهذه العبادة، وهذا الاعتقاد شيئاً، فأولئك الذين يعبدون المسيح -عليه الصلاة والسلام-، أو يعبدون بوذا أويعبدون الأصنام، أو يعبدون الأبقار، ويقدمون لها ما يستطيعون، وقد يكون الرجل في غاية الفقر، ويجمع الأموال السنين الطويلة، ثم يقدم القرابين لهؤلاء المعبودين من دون الله -عز وجل- يريد التقرب ويظن أنه على شيء، ولربما أحرق نفسه تقرباً، وبعضهم لربما قطع عضواً من أعضائه تقرباً، كما نقرأ ونسمع، فهذا شاب يقطع لسانه للإله في الهند، يشكو فقره وفقر عائلته، إلى غير ذلك من الأشياء العجيبة، فهؤلاء يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، يظن أنه بهذا يحصل له مطلوبه من الزلفى والتقرب، ويؤجر على ذلك ويثاب، وتكون له الآخرة، وهذا يدل على أن الكفار الذين يصيرون إلى النار قد يعتقد الواحد منهم اعتقاداً جازماً أنه على حق في اعتقاده الباطل، وليس كل هؤلاء الكفار يعلمون أنهم على باطل، وأن الحق في الإسلام، فبعض هؤلاء قد يكون تشرب هذا الباطل، وتغلغل فيه، فيقدم نفسه رخيصة في سبيله، ولا يشك فيه قليلاً ولا كثيراً، فهؤلاء إلى النار، طالما أنه بلغتهم الدعوة، وهؤلاء الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويمكن أن يفسر قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بأنه ذهب واضمحل؛ لأن هذا أحد المعاني التي تأتي لها كلمة ضل في لغة العرب، ضل واضمحل، كما يقال ضل السمن في الطعام، يعني: ذهب واضمحل، وهذا كثير في كلام العرب، وتأتي ضل بمعنى الذهاب عن حقيقة الشيء، كما قال إخوة يوسف لأبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ}[سورة يوسف: (٩٥)]، فلم يقصدوا أنه ضال وإلا لكانوا كفارا، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى: (٧)] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن على دين قومه قبل نبوته، فمعنى الضلال هنا: الذهاب عن حقيقة الشيء، والمعنى: الذهاب عن حقيقة الوحي.

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} [سورة الكهف: (١٠٥)] **أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}** **[سورة الكهف (١٠٥)] أي: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير.**

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [سورة الكهف(١٠٥)]))[٦] وقد رواه مسلم.

وقوله: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا} [سورة الكهف: (١٠٦)] **أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزءوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (١٧٥٩/٤)، برقم: (٤٤٥٢) ، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢١٤٧/٤)، برقم: (٢٧٨٥).

إذا تتبعت النصوص تجد أنها تدل على وزن الناس، فإنها تدل على أن صاحب العمل يوزن كما دل عليه هذا الحديث، فهذا الرجل البدين الضخم السمين يوضع في الميزان فلا يزن عند الله جناح بعوضة، ودلت النصوص أيضاً على وزن الصحف التي فيها الأعمال، كما في حديث البطاقة، توضع الدواوين، دواوين السيئات، وتوضع البطاقة في الكفة الأخرى، فتطيش تلك الدواوين، ودلت النصوص على وزن الأعمال، قال سبحانه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [سورة الأعراف: (٨-٩)]، وقال تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة: (٧-٨)]، وكل ذلك واقع، فالناس يوزنون، والصحف توزن، والأعمال توزن.

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، يحتمل ما قاله ابن كثير -رحمه الله-، أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير، يدل عليه الحديث (يؤتى بالرجل فيوزن ...) ويحتمل أن يكون {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، أي: لا نقيم لهم قدراً ولا اعتباراً فلا يُعبأ بهم، فلا شأن لهم، تقول: فلان لا يُقام لكلامه وزن، لا وزن لكلامه، بمعنى لا اعتبار به ولا قدر له، وهذا أسلوب عربي معروف، ويمكن أن يكون بين المعنيين ملازمة.

قال ابن القيم -رحمه الله– في تفسير قوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} [سورة الكهف: (١٠٣)]: "وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله -عز وجل-، أو على غير سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال، وكناسة أفكارهم، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال، والانتصار لهم، وفهم ما قالوه، وبثه في المجالس، والمحاضر، وأعرضوا عما جاء به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- صفحا، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلبا للفضيلة، وأما تجريد اتباعه وتحكيمه، وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه، ورد ما يخالفه منها، وقبول ما وافقه، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم، إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة فهذا أمر لا تكاد ترى أحدا منهم يحدث به نفسه، فضلا عن أن يكون آخيته ومطلوبه، وهذا الذي لا ينجي سواه، فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مسدود، وقلبه عن المرسل -سبحانه وتعالى- وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله إن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها"[٧].

هذا مثل الذين اشتغلوا بعلوم الفلاسفة، وأعرضوا عن الوحي، وأخبارهم في هذا كثيرة، أحدهم يقول:

لقد طفتُ المعاهد كلها*** وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر*** على ذقنٍ أو قارع سن نادم

---

[٧] - التفسير القيم لابن القيم، جمع وترتيب: محمد أويس الندوى (١٩٩/١)

وآخر يقول:
أضع الملحفة على وجهي وأقلب النظر، وأقارن بين أقوال هؤلاء وهؤلاء حتى يستبين الصبح، ولم يتبين لي شيء.
وآخر عند الموت يسأل من دخل عليه يقول له، ما تعتقد؟، يقول ما يعتقده المسلمون، قال: وأنت مطمئن القلب بذلك؟، فقال: نعم، قال: فاحمد الله على هذه النعمة؛ فإني والله لا أدري ما أعتقد، والله لا أدري ما أعتقد، والله لا أدري ما أعتقد، ويبكي، هذا عند موته، عند الاحتضار.
والجويني كلامه في هذا معروف، يقول لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، وها أنا أموت على عقيدة العجائز، أرجع وما حصلت شيئاً.
والثاني الذي يقول -المنقول عن الشهرستاني-:

نهاية إقدام العقول عقال*** وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا*** وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا*** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علا شرفاتها*** رجال فزالوا والجبال جبال

فهذه النتيجة التي خرجوا بها بعد العمر الذي قضوه في قيل وقال، ومجادلات، وكل يوم في عقيدة، وكل يوم في مذهب ورأي، خرجوا بالخسارة والحيرة، والله المستعان، قل مثل ذلك في غيرهم، من يقرأ في أخبار الرهبان مثلاً، راهب يقف أربعين سنة في بئر لا ينام -يعني على الأرض-، ولا يجلس ولا يستريح ولا يأكل من الطيبات، أربعين سنة، لا يغتسل ولا يقص أظفاره ولا شعره، يطلب ما عند الله -عز وجل- بهذا، وبعضهم يهيم على وجهه يأكل من نباتات البرية مع الوحش، كأنه بهيمة، يطلب بهذا ما عند الله -عز وجل- وأشياء عجيبة وأمور يحمد الإنسان ربه -تبارك وتعالى- أن هداه للإسلام، ويسأله التثبيت، وأن يبصره للحق، وأن يدله على ما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله أعلم.

(سؤال)

درسنا أن الشمس ثابتة، وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس.

(الجواب) سبق الكلام على هذا، أن الله –عز وجل– يقول: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}** [سورة يــــس: (٣٨)]، فمن يقول: إن الشمس ثابتة فهو مكذب للقرآن.

(سؤال)

يقول سمعت أحد المشايخ يفسر قوله تعالى: **{لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}** [سورة الكهف: (٩٠)] أنه يمكن أن الشمس ما تغرب عندهم، كما أنه يكون في بعض البلدان النهار أطول من الليل جداً، وفي بعضها يكون قصيراً، أليس هذا التفسير له وجاهته، وهل قال به أحد؟

(الجواب)

لا أعلم أحداً قال بهذا من السلف، وليس هذا التفسير بصحيح؛ لأن الله -عز وجل– قال: **{لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}**، والقرآن عربي ونزل بلغة العرب وينبغي أن يفهم بما يفهمه العربي مِن خطاب مَن خاطبه،

فليس المعنى أنها ما تغيب، فإن من غابت عنه الشمس لا يقال إنه قد جعل له من دونها سترا، وإنما يكون ذلك بالاكتنان عنها، وبوجود ما يستره ويحجبه، ويكنه من هذه الشمس، هذا هو المراد، ولذلك نحن لا نقول في الليل نحن في ستر من الشمس قد جعل لنا، هذه عجمة، ولا حاجة لهذا التكلف في فهم هذه الآية أو غيرها، والله أعلم.

(مسألة)

دورات البرمجة العصبية متفاوتة منها ما هو متلقى من فلسفات تجمع بين حق وباطل، والحق تعرفه العجائز، فمثل هذه البرمجة العصبية شرها أكثر من نفعها، كثير من الذين يدرسونها لا يستبينون ما فيها، وقد تكلمت على هذا في بعض المناسبات، والله المستعان وأظنها منعت الآن، يمنع إقامة دورات البرمجة العصبية، لكن مساكين الذين يتهافتون عليها، وبذلوا الأموال، ويظنون أنهم سيخرجون بطائل، إلى الله المشتكى، ففيها من الشر ما الله به عليم، وحتى كبيرهم الذي علمهم السحر سمعت أنه رجع عنها وتنصل منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٦)

من قوله تعالى"إن الذين آمنوا" الآية ١٠٧ إلى قوله تعالى"ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" الآية ١١٠

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف(١٠٧- ١٠٨)] يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به أن لهم جنات الفردوس.

فقال أبو أمامة -رضي الله تعالى عنه-: الفردوس: سرة الجنة.

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

وقد روي هذا مرفوعاً عن سَمُرَة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الفردوس ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها))[١].

وروي عن قتادة عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً بنحوه.

روى ذلك كله ابن جرير -رحمه الله.

وفي الصحيح: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة))[٢].

وقوله تعالى: {نُزُلًا} [سورة الكهف(١٠٧)] أي: ضيافة، فإن النزل هو الضيافة.

وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا} [سورة الكهف(١٠٨)] أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً.

{لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف(١٠٨)] أي: لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، وفي قوله: {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف(١٠٨)] تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو

---

١ - هو بهذا اللفظ في صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣٨-١١) ورواه ابن جرير في تفسيره (١٦/٣٠) وقال الألباني: "قلت: وهذا إسناد ضعيف، لعنعنة الحسن وهو البصري، وضعف سعيد بن بشير، لكن الحديث صحيح، فإن له شواهد" انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/٩).

٢ - أخرجه البخاري بنحوه، في كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي (٤/ ١٦- ٢٧٩٠) وفي كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} [هود: ٧] {وهو رب العرش العظيم} [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٥-٧٤٢٣).

مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [سورة الكهف(١٠٧)] الفردوس بعض أهل العلم يقول: معناه في كلام العرب: الشجر الكثير الملتف، وغالبه من العنب، وبعضهم يقول: إن هذه الكلمة في أصلها غير عربية، وإنها كلمة رومية، بمعنى البستان.

وعلى كل حال معروف كلام أهل العلم فيما يسمى بالمعرّب، هل يوجد شيء من كلام الله -عز وجل- فيما يتعلق بالأسماء المنكّرة غير الأعلام بغير العربية أو لا ؟ مع أن أهل العلم يتفقون ويجمعون على أنه لا يوجد في القرآن شيء من التراكيب بالأعجمية، وأما الأسماء -أسماء الأعلام- فإنها تقال كما هي، بعض أهل العلم يقول: هي مشتركة بين اللغات، وبعضهم يقول: منها ما هو عربي، ومنها ما هو أعجمي، وأسماء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- التي في القرآن غير عربية، سوى أربعة: محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشعيب وصالح وهود، وتبقى الكلمات المنكّرة مثل كلمة فردوس ومشكاة وإستبرق وما إلى ذلك، وهكذا قال صاحب المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل *** ويونس قد جاء في التنزيل

إن كان منه واختلاف الأكثر *** والشافعي النفي للمنكّر

المنكّر يعني: مثل: فردوس ومشكاة وإستبرق وسندس.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "والفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس البساتين، قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس -فيما سمعت من كلام العرب- الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس؛ قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا *** يا بُعد نيرين من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد *** جنان من الفردوس فيها يخلد"[٣].

قوله: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [سورة الكهف(١٠٩)].

---

[٣] - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ١٠٠).

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، {لَنَفِدَ الْبَحْرُ} [الكهف(١٠٩)] قبل أن يفرغ كتابة ذلك {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ} [الكهف(١٠٩)] أي: بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جراً، بحور تمده، ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} [الكهف(١٠٩)].

يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

قوله -تبارك وتعالى-: **{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي}** [الكهف(١٠٩)] يقول ابن كثير -رحمه الله-: مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله، والمداد معروف، أصل هذه المادة: "المدد" تدل على مجيء الشيء على الزيادة شيئاً فشيئاً، مجيء الشيء متتابعاً، يقال: هذا مدد في الجيش، ومدد من الطعام، ومداد القلم؛ لأنه يمد الكاتب بما يحصل به الكتابة.

وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه. وعبارات كثير من المفسرين قريبة من هذا، يعني: الذي يكتب به الثناء على الله -عز وجل-، ودلائل القدرة، وما أشبه ذلك.

والإضافة هنا في قوله: **{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي}** [سورة الكهف(١٠٩)] فهي كلماته -تبارك وتعالى-، وظاهر هذا أنها الكلمات الصادرة منه، وكلماته -تبارك وتعالى- نوعان، الكلمات الدينية وهي آياته المتلوة، والثاني: هي كلماته الكونية التي يحصل بها تكوين الأشياء وإيجادها، فهذه كلماته -تبارك وتعالى-، فتفسير ذلك بأنه ما يثنى به على الله أو نحو ذلك قد يكون خلاف ظاهر القرآن، فإن ذلك لا يقال عنه إنه كلمات الله، وإنما كلماته ما صدر عنه -تبارك وتعالى.

قوله: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف(١١٠)].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: {قُلْ} لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} [سورة الكهف(١١٠)] فمن زعم أني كاذب فليأتِ بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم: {أَنَّمَا إِلَهُكُمْ} [سورة الكهف(١١٠)] الذي أدعوكم إلى عبادته، {إِلَهٌ وَاحِدٌ} [سورة الكهف(١١٠)] لا شريك له، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ} [سورة الكهف(١١٠)] أي: ثوابه وجزاءه الصالح، {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} [سورة الكهف(١١٠)] أي: ما كان موافقاً لشرع الله، {وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف(١١٠)] وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟))[٤].

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري -وكان من الصحابة رضي الله تعالى عنه وعنهم- أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عملٍ عملَه لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك))[٥] وأخرجه الترمذي وابن ماجه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** [الكهف(١١٠)] هذه الآية -كما مضى في بعض المناسبات- تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة وهي: التوحيد، والله لا يقبل من غير أهل التوحيد، لا يقبل من المشركين، والإخلاص لله -عز وجل-، فإن الرياء خلاف الإخلاص، وهو من الشرك، وفرق بين هذا وهذا، فرق بين الشرط الأول الذي هو التوحيد، وفرق بين الشرط الثاني الذي هو الإخلاص، فالإخلاص من التوحيد إلا أن المقصود بالأول أن يكون الإنسان موحداً، أي: ليس بمشرك، فإذا عمل اليهودي أو النصراني أو الوثني عملاً أراد به وجه الله وحده لا شريك له فإنه لا يقبل منه؛ لأنه ليس على اعتقاد صحيح، وأما الإخلاص فقد يعمل المسلم العمل ولكن يداخله الرياء فلا يقبل، فلابد من الإخلاص.

والشرط الثالث: هو المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ وذلك أن الله قال: **{فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}** [الكهف(١١٠)] وهو الصواب الذي تابع فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهذا كما في أول السورة: **{وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}** [الكهف(٢)] فذكر الإيمان وذكر العمل الصالح.

---

٤ - أخرجه أحمد (٣٩/ ٣٩- ٢٣٦٣٠) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥١) وفي صحيح الترغيب (٢٩) وصحيح الجامع الصغير (٣٢٣/١).

٥ - أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٤/٥-٣١٥٤) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (١٤٠٦/٢- ٤٢٠٣). وأحمد (١٦١/٢٥- ١٥٨٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (١)

من قوله تعالى"كهيعص" الآية ١ إلى قوله تعالى"وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا" الآية ٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة مريم وهي مكية.

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

حين بعث المشركون إلى النجاشي رجلين، فكان مما ذكرا للنجاشي أن يسألهما في المسيح -عليه الصلاة والسلام- فقرأ عليه جعفر -رضي الله عنه- صدر هذه الصورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [سورة مريم:١-٦].

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ} أي هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا، وقرأ يحيى بن يعمر: {ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّا} وزكريا بمد ويقصر، قراءتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة.

الحروف الثلاثة تمد ست حركات.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ}** قال: "**أي هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا**"، هذا المعنى من أوضح ما قيل في تفسير هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، والذي اختاره كثيرٌ من المحققين منهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والمقصود بذلك ما حصل من إجابة الله -عز وجل- له حينما سأله الولد، ودعاء بهذا الدعاء الذي ذكر الله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا}**.

وقوله {إِذْ نَادَىَ رَبّهُ نِدَآءً خَفِيّاً} إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: {إِذْ نَادَىَ رَبّهُ نِدَآءً خَفِيّاً} إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله- في قوله: **{إِذْ نَادَىَ رَبّهُ نِدَآءً خَفِيّاً}**: "**إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله**"، وهذا المعنى الذي ذكره -رحمه الله- الأقرب في سبب إخفاء هذا الدعاء، الله -عز وجل- يقول: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}**[سورة الأعراف:٥٥]، ويقول: **{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}** [سورة الأعراف:٢٠٥]، فرفع الأصوات في الدعاء -الرفع الزائد- من الاعتداء في الدعاء،

وهو مناف للأدب مع الله -تبارك وتعالى-، فإذا وجد من يؤمن على دعائه فإنه يرفعه رفعاً يسمعه، وأما إذا كان يدعوا ربه بمفرده فإن الله -عز وجل- يسمع السر وأخفى، فمن التأدب مع الله -تبارك وتعالى- ما ذكر هنا {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً}، وهذا بخلاف قول من قال: إنه أخفاه؛ لئلا يلام على طلبه الولد في غير وقته، لأنه بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر فكيف يطلب الولد، أو قول من قال: بأنه وقع منه هذا الدعاء أو النداء الخفي؛ لأنه كبير، وضعيف، وكبره وضعفه هذا يعجزه عن رفع الصوت، وما حاجته إلى رفع الصوت، الله -تبارك وتعالى- سامع لدبيب النمل، وما دون ذلك، وما فوقه، والدعاء أو النداء الخفي أبعد عن الرياء، وأقرب في التأدب مع الله جل جلاله.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} أي: ضعفت وخارت القوى {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً}، أي اضطرم المشيب في السواد، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة.

قوله: {إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} يعني رق، وإذا تقادم العمر بالإنسان فإن عظامه تضعف، ويسميه الأطباء اليوم بهشاشة العظام، وتضعف قواه وتخور، {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً} يعني واشتعل شيب الرأس كثر وانتشر وهذا يعبر عنه بمثل هذه العبارة، بالاشتعال وهو أسلوب عربي معروف.

وقوله: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك.

هذا الدعاء {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً}، يحتمل أن يكون الدعاء هنا دعاء مسألة، يعني عودتني الإجابة، ويحتمل أن يكون المراد دعاء العبادة لم أكن بعبادتك شقيا، وعرفنا من قبل في عدد من المناسبات أن الدعاء يقال لهذا وهذا، والأقرب والذي يدل عليه السياق هو أنه دعاء مسألة، {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ} أي بسؤالك؛ لأنه وهذا نوع من التوسل بين يدي السؤال وهو أن يتوسل إلى الله -عز وجل- بما عوده من إجابة سؤله في سالف أيامه، يقول: يا رب عودتني الإجابة فأجب دعائي هذا، وهذا من الأدب الذي يحسن أن يكون بين يدي دعاء الداعين، فالذي يأتي إلى إنسان يطلب منه الإحسان والعطاء وما أشبه ذلك مثلاً يقول: أنا الذي أتيتك وأحسنت إلي، و أوليتني، وأعطيتني وما شابه ذلك، فيكون متوسل إليه بما سلف من إحسانه.

{وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي} قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده؛ ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

يقول تعالى: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أراد بالموالي العصبة**"، أي: من الوارثين وهذا لا يخالف قول من قال هم الورثة، فإن ذلك يرجع إلى شيء واحد، وبعضهم يقول: الموالي هم الأعوان، فكلمة المولى تطلق ويراد بها الناصر، وتطلق ويراد بها السيد، وتطلق ويراد بها المولى الأدنى، وهو الرقيق أو المعتق، والمراد بها هنا من يرثه، خفت الموالي من ورائي عصباته وما ذكره الحافظ بن كثير -رحمه الله- أن المقصود من خوفه أنه خاف ألا يلو الأمر من بعده ولاية حسنة صحيحة، يسوسون الناس فيها بما يرضي الله -تبارك وتعالى-، فيكون ذلك سبباً لتضييع الدين وذهاب كثير من الحق فسأله ربه

وارثاً يرثه النبوة، ويرث من آل يعقوب العلم والنبوة، هذا وجه ذكره الحافظ بن كثير في ترجيح هذا القول على وهم من توهم، بأن المقصود {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ} يعني من وراثتهم المال، وهذا بعيد، والوجه الأول في استبعاده: أن هذا لا يظن بنبي، أنه يدعوا ربه وفي هذا السن أن يرزقه ولداً من أجل أن يحول بين عصباته وبين الميراث، هذا لا يظن بآحاد الناس فضلاً عن نبي كريم من أنبياء الله -تبارك وتعالى-، فالأنبياء لا يعبأون بالدنيا ولا يقع في نفوسهم مثل هذا، من كراهية نفع وخير لقراباتهم، وأن الأنبياء لا يورثون كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نورث ما تركناه فهو صدقة))[1]، ويمكن أن يضاف إلى ذلك وجوه أخرى في الجواب ذكر الحافظ بن كثير -رحمه الله- بعضها، كما أشار إلى أنه كان يعمل نجاراً، ومن كانت هذه مهنته ويأكل من عمل يده لا يظن به أن يملك من الأموال الشيء الكثير الذي حمله على أن يدعوا هذا الدعاء، الغالب أن عنده ما يكفيه، ويحصل به الكفاف من هذه الصنعة أو المهنة.

(الثاني) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

(الثالث) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا نورث، ما تركنا فهو صدقة))، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: ((نحن معشر الأنبياء لا نورث))[2]، وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}، كقوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: ((نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة)).

لفظة: ((نحن معاشر الأنبياء)) بهذا اللفظ تكلم عليها أهل العلم، والحافظ بن حجر ذكر أنها لا تثبت بهذا اللفظ، ويمكن أن يضاف إلى هذا هذه الأوجه الثلاثة الذي ذكرها الحافظ ابن كثير أن زكريا -عليه السلام- وقع في دعائه أنه قال: يرثني ويرث من آل يعقوب، وآل يعقوب في ذلك الأثناء في وقت زكريا -عليه السلام- كانوا قد انقرضوا منذ زمن طويل، ومن جاء من ولد زكريا فإنه لا يرث آل يعقوب وراثة مال، ذهبت أموالهم فبين زكريا -عليه السلام- وبين يعقوب -عليهما الصلاة والسلام- مدة طويلة، فلا يقصد بهذا وارثة المال، وإنما يقصد بذلك وراثة النبوة والدين، وأما قول من قال أنه قصد بيعقوب رجل آخر غير يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فهذا في غاية البعد.

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٣٥٠٨)، ومسلم، كتاب اللقطة، باب حكم الفيء، برقم (١٧٥٨).

٢ - روه الترمذي، كتاب السير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم (١٦١٠)، بلفظ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا نورث ما تركنا من صدقة ...))، وأحمد بلفظ: ((إنا معشر الأنبياء لا نورث...))، برقم (٩٩٧٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٦٣٠٩).

قال مجاهد في قوله: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب، وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}، قال: ويكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء، وقوله: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو المشهور، وهو الذي اختاره ابن جرير وغيره، والآية تحتمل معنى آخر، {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} أي راضياً بقضائك وقدرك.

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا} [سورة مريم:٧]، هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى}، كما قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء * فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [سورة آل عمران:٣٨-٣٩].

في قوله: {يَا زَكَرِيَّا} يحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل- والقرينة الدالة على هذا الضمائر {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}، ثم قال: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} فظاهره أن الذي خاطبه هو الله جل جلاله ولكن آية آل عمران تدل على أن الذي خاطبه بذلك الملائكة مع أن الكثير من المفسرين قالوا: إن هذا من كلام الله، يا زكريا خاطبه بذلك، وآية آل عمران تدل على أن الخطاب من الملائكة فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب، والملائكة جاء هنا بصيغة الجمع، من العام المراد به الخصوص، وأن المراد بالملائكة جبريل -صلى الله عليه وسلم-، ويقول: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [سورة آل عمران:٣٩]، وهنا {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}.

وقوله: {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً} قال قتادة وابن جريج وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير -رحمه الله-.

هذا قول الجمهور من المفسرين بمعنى أنه لم نجعل له سميا، يعني هذا اسم لم يسبق إليه سماه الله تعالى به، والمعنى الثاني الذي يحتمله هذا اللفظ: لم نجعله من قبل سميا، أي لا نظير له يساميه، فالسمي وهو المسامي ونظير الشيء ما كان على شاكلته، وسميّ على وزن فعيل، مثل جليس بمعنى مجالس، ومعنى فاعل وأكيل بمعنى مؤاكل، وقعيد أي مقاعد ونحو ذلك، فيحتمل أن يكون هنا السمي بمعنى المسامي، يعني لا نظير له في العلم والعمل، ولكن هذا يشكل عليه أن بعض الأنبياء أفضل منه كإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فإنه قطعاً أفضل من يحيى، وهكذا موسى الكليم -عليه الصلاة والسلام-، ومما يؤيد ما سبق أن النداء هنا من الملائكة لصار ممن كلمه الله جل جلاله، وإنما الكليم موسى -صلى الله عليه وسلم-، وكلم الله آدم، وكلم محمد -صلى الله عليه وسلم- ليلة المعراج، ولم يذكر من الأنبياء غير هؤلاء فقوله: {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً}، الأقرب الذي عليه الجمهور أنه لم يسبق إلى هذا الاسم، لم يسم به أحدٌ قبله، والقولان مذكوران في قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [سورة مريم:٦٥]، قيل في تفسيره: هل تعلم له سميا أي أنه لم يسم أحدٌ

بأسماء الله -تبارك وتعالى- مثل الله والرحمن، والمعنى الثاني وهو المشهور الذي عليه عامة المفسرين: هل تعلم له سمياً أي نظرياً يماثله، أو يدانيه، أو يشاكله، فإن الله -تبارك وتعالى- له الأوصاف الكاملة لا يساميه في ذلك أحد، فهذه اللفظة جاءت في موضوعين في هذا الموضع {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً} والراجح أن المقصود به التسمية لم يسم أحد بيحيى قبله، وفي الموضع الثاني في صفت الله -عز وجل- لما قال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} المشهور أن المقصود به لا نظير له، ويمكن أن تحمل الآية هناك على المعنيين، -والله تعالى أعلم-.

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً} [سورة مريم:٨-٩].

هذا تعجب من زكريا -عليه السلام- حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي: عسا عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا يعتو عتياً وعتواً، وعسا يعسو عسواً وعسياً.

قول ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} قال: "**هذا تعجب من زكريا -عليه السلام- حينما أجيب إلى ما سأل وبشر ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد**"، فوجه التعجب الصادر من زكريا -عليه الصلاة والسلام- ما قاله بعض العلماء تعجب من قدرة الله -عز وجل-، كيف يأتي هذا الولد وأنا قد بلغت من السن عمراً طويلاً، وهذا وجه قريب، وبعضهم يقول: إن تعجبه من جهة أنه كيف سيحصل له هذا الولد من أي وجه، وهو الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله تعالى- لكنه ما أبان عنه بصورة يفهم القارئ منها حقيقة مراده، وذلك أنه قصد -والله تعالى أعلم- أنه أراد أن يستفسر هذا الولد سيأتيني من زوجتي هذه العاقر أو من غيرها، أنا يكون لي هذا الغلام، وهذا الولد هل هو من هذه الزوجة العاقر؟ أو من غيرها؟ وهل سيكون ذلك بأن يرد إلى سن الشباب فيحصل هذا الولد أو لا؟ وذكر بعضهم معنى آخر فقال: بأنه وسوس له الشيطان، ولبس عليه فلم يستبن هل هذه البشارة هي من وسوسة الشياطين، أو أنها من الوحي، وهذا بعيد؛ وذلك أن نبياً كريماً من أنبياء الله -تبارك وتعالى- مثل زكريا -عليه السلام- لا يلتبس عليه الوحي بوسوسة الشيطان، والذين قالوا بهذا القول قالوا ولأجل ذلك أراد آية ليفرق فيها، ويعرف أهي من الله أو من الشيطان، وهذا بعيد.

وقوله: "**مع أنه قد كبر وعتا أي عسا لحمه وعظمه ولم يبق فيه لقاح ولا جماع العرب تقول للعود إذا يبس عتا يعتوا عتياً وعتواً، وعسا يعسو عسواً وعسياً**"، فكل متناهٍ يعني وصل إلى الغاية سواء في السن أو الفساد والإفساد أو الكفر يقال: له عاتن، يقال: عتا إذا تقدم به العمر جداً، يقال: عتا فهو عاتٍ وعسى فهو عاسٍ وذلك يعبر عنه اليبوسة والتناهي في الكبر أيضاً، فالكبير يحصل له هذا النشاف فيبقى في نهاية الأمر غالباً تذهب نضارته ويبقى جلده على عظامه، تذهب نظراته، وما في هذا الجسم من الأمور التي كانت تحسنه من الامتلاء ونحو ذلك، فينكمش جلده على عظمه.

قَالَ: أي الملك مجيباً لزكريا -عليه السلام- عما استعجب منه {كَذَلِكَ قَالَ رَبّكَ هُوَ عَلَيّ هَيّنٌ} أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، {هَيّنٌ} أي: يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ من قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئاً}، كما قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [سورة الإنسان:١].

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقرر المعنى الذي أورده من وجه تعجب زكريا -عليه الصلاة والسلام- من أي وجه يأتي الولد، فيقول: "**من زوجتك هذه لا من غيرها**".

ومن أهل العلم من قال: أن وجه هذا التعجب هل سيكون من هذه الزوجة أو من زوجة أخرى شابة يتزوجها، أو يرد إلى سن الشباب مع زوجته هذه، وقوله: {كَذَلِكِ قَالَ رَبّكَ} المفسرون يذكرون أوجه كثيرة، وأقرب هذه المعاني ما ذكره جماعة منهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- قال: {كَذَلَكَ} أي: الأمر كذلك أنك قد بلغت من الكبر عتيا، وأن امرأتك عاقر، ثم ابتداء كلاماً مستأنفاً {قَالَ رَبّكَ هُوَ عَلَيّ هَيّنٌ}، فالولد خلقه وإيجاده وهو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا -والله أعلم-.

فائدة:

معنى الفردوس وسط الجنة وأعلاها:

كلمة وسط تأتي للشيء المتوسط الذي يكون بين شيئين، فتارة يكون ذلك في المنزلة والمرتبة، {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} [سورة القلم:٢٨] قيل: في السن، وقيل: أوسطهم يعني أعقلهم وأحصفهم، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [سورة البقرة:١٤٣]، وتأتي للشيء الواقع بين طرفين، ويقال: وسط المسجد، يعني المكان المتوسط بين الطرفين، فالفردوس أعلى الجنة وأوسط الجنة، احتمال يكون المقصود أوسط منازل الجنة، يعني أعدل منازل الجنة وأحسنها، ويحتمل أن يكون المقصود به الوسط يعني الشيء الواقع بين طرفين، وبينهما ملازمة فإن الشيء الواقع بين الطرفين هو أعدل الأماكن، ولا يفهم من هذا أن وسط كما تقول، وسط الكرة يعني ما كان في النواة، أو في داخلها، ليس هذا المقصود، وإنما المقصود الشيء الواقع بين الطرفين، وأيضاً الشيء الذي يكون أعدل الأماكن ونحو ذلك.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر أن الأفلاك كروية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بأن سقفها عرش الرحمن))[٣]، فدل ذلك على أنها أعلاها -والله تعالى أعلم-.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، برقم (٢٦٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (٢)

من قوله تعالى"قال رب اجعل لي آية" الآية ١٠ إلى قوله تعالى"ويوم يبعث حيا" الآية ١٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً}[سورة مريم:١٠-١١]، **يقول تعالى مخبراً عن زكريا -عليه السلام- أنه قال: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً} أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} الآية، {قَالَ آيَتُكَ} أي: علامتك، {أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً} أي: أن تُحبس لسانُك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ووهب، والسدي، وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة، وقال ابن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.**

وقال العوفي عن ابن عباس {ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً} أي متتابعات، {ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً} أي متتابعات، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[سورة آل عمران: ٤١]**، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها، {إِلَّا رَمْزاً} أي: إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ} أي: الذي بشر فيه بالولد {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أي: أشار إشارة خفية سريعة، {أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً} أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه، قال مجاهد: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أي: أشار وبه قال وهب وقتادة.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول زكريا -عليه السلام-: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً} قال: "**علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني**"، هذا بناء على التفسير السابق الذي عليه الجمهور وهو أن زكريا -صلى الله عليه وسلم- لما بشره الله بالولد وتعجب من قدرة الله -تبارك وتعالى- أراد أن يعرف علامة علوق الحمل بالرحم متى تكون امرأته حبلى، والذين قالوا إن سؤاله حينما سأل أن يكون لي غلام أنه التبس ذلك عليه ما وسوسة الشيطان، فأراد أن يميز ويفرق هل هو من الله أو من الشيطان، فطلب العلامة الفارقة، ولكن هذا القول فيه بُعد؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يلتبس

عليهم وحي الله مع وسوسة الشيطان فتكون العلامة التي طلبها اجعل لي آية، أي أعرف وقوع الحمل، فذلك مقتضى هذا البشرى بالغلام أن امرأته تحمل.

يقول: "{قَالَ آيَتُكَ} أي: **علامتك**"؛ لأن الآية تأتي بمعنيين، بمعنى العلامة كما هنا، كما قال الشاعر:

توهمت آيات لها فعرفتها *** لست أعوامٍ وذا العام سابعُ

آيات يعني علامات لدار محبوبته، وهذا هو أحد القولين في تفسير الآيات الكونية والآيات الشرعية، هذه الآيات التي نقرأها من أهل العلم من يقول أنه قيل لها آية؛ لأنها من الدلالة -من العلامة- إما باعتبار أنها تدل على صدق من جاء بها، أو لأنها علامة يميز بها غيرها من الآيات، يعني نهاية هذه وبداية هذه، أو غير ذلك.

والمعنى الثاني أن الآية بمعنى الجماعة، فقيل: إن الآية قيل لها آية في كتاب الله -يعني الآيات الكونية- باعتبار العلامة أنها علامة تدل على الخالق الواحد الأحد -سبحانه وتعالى-، وباعتبار الجماعة، يمكن أن يقال باعتبار اجتماع الحروف والكلمات ونحو ذلك، وهنا لا يرد هذا المعنى لكنه معروف في كلام العرب، منه قول العرب: جاء القوم بآياتهم، أي بجماعتهم.

{أَلاّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً} أي: "**أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، من غير مرض ولا علة**"، فهذه هي العلامة التي تعرف بها وقوع الحمل، فلا تستطيع الكلام.

القول الآخر الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ثلاث ليال سويا يكون من صفة الليالي، ليالي من غير انقطاع، يعني متتابع ولكن المعنى الأول هو الأقرب، وهو الأشهر، وهو الذي عليه عامة المفسرين، وقوله: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا}[سورة آل عمران:٤١]، باعتبار الإشارة، فإذ قيل أن الرمز ليس من الكلام، وأن الكلام ما يكون بحرف وصوت، فإن الاستثناء يكون منقطعاً، وهذا هو المعروف من الكلام أنه ما كان بالفظ؛ ولهذا يقول فيه النحاة: الكلام هو اللفظ المفيد، فائدة يحسن السكوت عليها، يعبرون أحياناً باللفظ المركب المفيد بالوضع، وهو وإن كان في اللغة أوسع من هذا وأعم هي تطلق على ذلك وعلى غيره مما يفيد أو لا يفيد لكنه لا يكون إلا باللفظ.

يقول: {إِلاَّ رَمْزًا} أي إشارة؛ ولهذا قال: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أي أشار إليهم، هذا هو الرمز والوحي، سواء كانت هذه الإشارة باليد أو بالعين أو بغير ذلك مما يشار به ليعرف مقصود المشير فإن ذلك يقال له وحي، ومن إطلاقه على الإشارة هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

فأوحى إليها الطرف أني أحبها *** فأثر ذاك الوحي في وجناتها

يعني أنها فهمت تلك الإشارة بطرفه فأثر في وجناتها حمرة وحياء من أثر الحياء، هذا هو المراد هنا -والله تعالى أعلم-، وإن كان الوحي يأتي لمعان أخر غير هذا يأتي بمعنى الكتابة:

فوحي الصحائف من عهد كسرى

أي ما يكتب فيها، والعرب يقولون وحي في حجر، يعبرون به عن كتمان السر يعني النقش والكتابة في الحجر.

ويأتي بمعنى أوسع من هذا، فكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه فهو وحي بأي طريق كان، ولا يشترط فيما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وإن كان ذلك مشهوراً يقول: أي أشار إشارة خفية سريعة، {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} هذا هو المشهور، وذكره جمع من أهل العلم، وبعض أهل اللغة، إشارة إلى السرعة والخفاء، وهذا -والله أعلم- ليس بلازم في الوحي، فالكتاب يقال له: وحي في كلام العرب، وإن لم يكن ذلك بسرعة ولا خفاء، يكون بسرعة وخفاء، مثل الإشارة التي قد تخفى على غير المشار إليه، فإن ذلك يصدق عليه هذا المعنى.

يقول: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أي: أشار إشارة سريعة خفية، يقول: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ} يعني يمكن أن يقال من مصلاه، وبعضهم يقول: المحراب مشتق من الحرب؛ لأن ملازمه كأنه يحارب الشيطان هكذا قال بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: من الحرب؛ لأن ملازمه يلقى تعباً، وقد يكون هذا وقد لا يكون، ولكن العرب تطلق ذلك يعني المحراب على أرفع المواضع، كقوله -تبارك وتعالى-: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [سورة آل عمران:٣٩]، فأرفع المواضع وأشرف المواضع تقول له العرب ذلك، يقولون: محراب أشرف المجالس، وبعضهم يقول: كانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض، والمحراب عند العرب يطلق على المجالس، وعلى صدور المجالس، وأشرف المجالس، والمقصود به هنا -والله تعالى أعلم- المكان الذي كان يتعبد ويصلي فيه، وهذا لا ينافي كونه أشرف المواضع، ولهذا قيل للمحاريب في المساجد؛ لأنها في صدر المسجد وفي مقدمه، وفي أشرف موضع منه -والله تعالى أعلم-.

يقول: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ} لكن لا تفهم إطلاقاً أن المقصود من المحراب أنه خرج وهو قائم يصلي في المحراب في هذا المكان المقوس فإن هذا محدث، وإذا أطلق ليس المراد به هذا المكان، وإنما سمي هذا بناء على ما ذكرت من أن أشرف المواضع يقال له: المحراب، وإلا فإن الله -عز وجل- يقول عن داود -صلى الله عليه وسلم- والخصم الذين جاءوا إليه قال: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [سورة ص:٢١]، وليس المقصود به ما نشاهده هنا في المسجد، وإنما المقصود به المكان الذي كان يخلوا فيه.

يقول: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أي أشار إشارة خفية سريعة أن سبحوا بكرة وعشيا، يعني هو أمر قال الله -عز وجل- أمره بأن يذكر ربه كثيراً {وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [سورة آل عمران:٤١]، فأمر قومه بذلك زيادة في شكر الله -تبارك وتعالى-، وهذا التسبيح بعضهم يقول: المراد به الصلاة سبحوا بكرة وعشيا، وبعضهم يقول: التسبيح المراد به الذكر المعروف تنزيه الله -تبارك وتعالى- عن العيوب والنقائص، واللفظ يحتمل هذا وهذا؛ ولهذا يقال للصلاة تسبيح، فيقول ابن عمر: "لو كنت مسبحاً لأتممت"[1]، يعني لو كنت مصلياً الراتبة لأتممت الصلاة في السفر، بمعنى لا أقصر.

وقال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}[سورة مريم:١٢-١٥]

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر.

---

١ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

القرآن نزل بلغة العرب، والعرب قد تحذف من الكلام اختصاراً؛ ثقة بفهم السامع، فهو دعا ربه أن يجعل له علامة لوقوع الحمل، فخرج على قومه أمرهم بالتسبيح ثم قال: {يَا يَحْيَى خُذْ}؛ لأنه وجد الغلام، هذا الموعود به في الخارج ومضى عليه مدة بعد ولادته؛ لهذا يقول ابن كثير -رحمه الله- وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى -عليه السلام-، وأن الله علمه الكتاب.

تقديره أنه وُجِد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى -عليه السلام-، وأن الله علمه الكتاب وهو التوارة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار.

قوله: {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} الجمهور يقولون: الكتاب هو التوراة، ونقل بعضهم الإجماع، وهذا الذي اختاره المحققون من المفسرين، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول الكتاب المقصود به الجنس أي جنس الكتاب، الكتب التي أنزلت على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: صحف إبراهيم، وبعضهم يقول: لعل المراد به كتابا آخر يختص به هو، والكتاب الذي كانوا يتعبدون به وأمروا بالعمل به هو التوراة، {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ} فتكون أل هذه عهدية، وليست للجنس، والكتاب المعهود عندهم هو التوراة.

وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: {يَا يَحْيَىَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوّةٍ} أي: تعلم الكتاب بقوة، أي بجد وحرص واجتهاد، {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث.

يقول: "**وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً**"، هذا الخطاب {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ} لا يفهم منه أنه خوطب بذلك وهو صغير، ولكن الله أخبر بأمر، وأخبرنا بخبر أمره، فالآية ليس فيها ما يدل على أنه كان صغيراً، وإنما الذي أخبرنا الله -عز وجل- عنه أنه حصل له منذ الصغر وهو قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} فهذا الذي حصل له وهو صغير، -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من قال في قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} الصبي يقال للرجل الذي قد بلغ لكن هذا استعمال قليل، وغالباً ما يكون ذلك لمن يقصر عقله، ويرمى بالسفه ونحو ذلك، يقال له: صبي، وقد يقال له غلام مع أن غلام أليق في التعبير من صبي، إذا قيل لصبي فإنها قد تقال للمملوك وللخادم، وتقال للرجل البالغ الذي يستهان به أيضاً: ((هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش))[٢]، ولكن الصبي يقال للكبير هذا قليل وعادة يقال هذا لمن يسفه في رأيه، أو يكون لا شأن له، ولهذا يقال للخادم صبي، فلا داعي لحمل القرآن على خلاف الظاهر المتبادر الصبي هو الصغير، بعضهم يقول: كان قد بلغ السنتين وبعضهم يقول: أربع سنوات، وبعضهم يقول: وهذا كله لا دليل عليه، لكنه كان صبياً، فكلمت صبي في اللغة إذا أطلقت متبادر أنها تقال للصغير، -والله أعلم-.

وقال في قوله: {يَا يَحْيَىَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوّةٍ} "أي: **تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد**"، أي وليس فقط تعلم الكتاب بقوة، والمقصود بالكتاب أي التوراة بقوة، وإنما أيضاً العمل به، والجد في ذلك دون تهاون أو

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء)، برقم (٦٦٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تراخي أو تفريط، {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} الجد في العمل بكتاب الله -تبارك وتعالى- والاشتغال به وبتفهمه وبدراسته.

والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير على قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} ضمنه أكثر من قول للمفسرين في تفسير الحكم، يقول: " أي: **الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث**"، يعني من أهل العلم من يقول: إن المقصود بالحكم أي الفهم والعلم بالكتاب هذا قول.

وبعضهم يقول: العمل به، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع بين القولين، وبعضهم يفسر الحكم بالحكم، وبعضهم يفسر الحكم بالنبوة، وبعضهم يفسر بغير هذا من الأقاويل كالعقل، ولكن إذا نظرت إلى هذه اللفظة {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ} فإنها ترجع إلى معنى المنع، فالحكم والحاكم هو الذي يمنع أحد الخصمين من أخذ حق الآخر، والحكمة هي صفة تمنع صاحبها من الخطل في القول، والخلل في الرأي، ولهذا يقولون: الحكم هي الإصابة في القول والعمل، وكذلك أيضاً يقال: المحكم من الكلام هو الذي سلم ومُنع من أن يتطرق خلل في ألفاظه أو معانيه، هذا من حيث الأصل في اللغة، حينما يوصف القرآن جميعاً بأنه محكم، فإذا قال الله -عز وجل-: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ}، بعضهم يقول: العلم، وبعضهم يقول: الحكم هذا يرجع إلى هذا المعنى.

فالعلم والعمل يمنع صاحبه من الشطط والزيغ والانحراف، فيكون على طريقة سوية مستقيمة، لا يقع في خلاف ما تعلمه وعلمه من ترك العمل، ولا يعمل من غير علم، يكون ذلك حاجزاً له من مقارفة ما لا يليق، والمفسرون يذكرون بعض الإسرائيليات لكن لا يعول عليها أن الصبيان كانوا يدعونه للعب معهم فيعرض عن هذا ويأمرهم بالصلاة، وبعض أهل العلم فسر ببعض ما ذكر يعني مثل تفسير ذلك بالفهم والعلم في كتاب، هكذا فسر ابن جرير -رحمه الله- هذه اللفظة آتيناه الحكم أي العلم، والمعنى -والله أعلم- أوسع من هذا، فمن حملها على هذا أرجعها إلى هذا الأصل، والشيخ محمد الشنقيطي -رحمه الله- أعاد هذه الأقوال، أو غالب هذه الأقوال إلى الفهم والعمل.

وقوله: {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا} يقول: ورحمة من عندنا، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا، وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا} وتعطفاً من ربه عليه.

والظاهر من السياق أن قوله: وحناناً معطوف على قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة، أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل.

الحنان معناه: الرحمة والتعطف، وبعضهم يقول: بأنه مأخوذ من حنين الناقة لولدها، حنت لولدها، وهي تفعل ذلك تعطفاً عليه، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر قولين المعنى الأول {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا}، أي أن ذلك من صفة الله -عز وجل-، ومن أسمائه كما ذكره بعض أهل العلم، {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا} أي: أن الله آتاه رحمة منه، رحمه بها، فيكون ذلك صادراً من الله، والمعنى الثاني: أن ذلك معطوفاً على وآتيناه الحكم صبيا، آتيناه الحكم وآتيناه الحنان، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن ذلك يعود إلى الله -تبارك وتعالى- أي أن الحنان صادر من الله إلى يحيى -عليه السلام-، وهو يقول: رحمة منا، ومحبة له، وعليه عامة المفسرين وهو أن قوله: {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا} أنه معطوف على قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً}، آتيناه الحكم وحنانا، يعني أعطيناه

حنانا، أي رحمة يرحم بها والديه وقراباته ويرحم بها الناس، وهذا يكون من الكمالات التي أعطاه الله -عز وجل- إياها يعامل الناس برحمة يجدها في قلبه، وكثير من الناس قد لا يكون كذلك، قد نزعت الرحمة من قلبه، أو هي ضعيفة لا يتعامل مع الناس بتعامل لربما يكون فيه شيء من القسوة، أو لربما يتعامل معهم تعاملاً مادياً صرفاً من غير أن يجد لهم من نفسه تعطفاً وحناناً ورحمة، فلا شك أن النبي حينما يكون موصوفاً بهذا الوصف فإن ذلك هو الكمال، والله -عز وجل- قال عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}**[سورة التوبة:١٢٨]، وتجدون في القرآن كثيراً: **{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ}** [سورة الكهف:٦]، **{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}** [سورة فاطر:٨]، وما شابه ذلك كل ذلك من رحمته -صلى الله عليه وسلم- بهم، وهذا أدعى إلى قبول الناس، فالناس يميزون بين الصادق الذي يشعر بهم ويشعر بآلامهم وهمومهم وبين غير هذا، فالذي يشتغل بالدعوة إلى الله -عز وجل- أو يشتغل بالطب هذان ينبغي أن يكون الواحد منهم أولى الناس بهذه الأوصاف، فالناس يأتون إلى الأطباء بآلامهم فيحتاجون إلى الكلمة الحانية، والداعية الذي يعالج علل الناس، أيضاً يعالج قلوبهم، بحاجة إلى هذه الرحمة والإشفاق على هؤلاء، وأولى الناس بهذا هم الضعفاء في المجتمع ومن له حق كالوالدين، ولهذا قال الله -عز وجل- عن السائل واليتيم: **{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** [سورة الضحى:٨-٩].

وقوله: {وَزَكَاةً} معطوف على وحناناً، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي، وقال العوفي عن ابن عباس: {وَزَكَاةً} قال بركة.

قال: **{وَزَكَاةً}** "**معطوف على حناناً**"، أي: آتيناه الحكم وآتيناه الحنان الذي يرحم به الناس، وآتيناه زكاة، والزكاة تأتي بمعنى الطهارة والنماء فهنا يقول: "**فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي**"، وهذا كله يرجع إلى شيء واحد بمعنى الطهارة **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** [سورة الشمس:٩] أي: طهر نفسه وهذبها بطاعة الله -عز وجل-.

فتزكية النفوس تكون بالإيمان والعمل الصالح، فمن فسره بالعمل الصالح فهذه هي تزكية النفس، ومن فسره بأصل المعنى فقال: **{وَزَكَاةً}** يعني طاهرة، فإنما تكون الطهارة بالعمل الصالح، فهذا كله من قبيل الاختلاف في التنوع، ومن نظر إلى المعنى الثاني في الزكاة وهو النماء، قال: بركة، والبركة هي النماء، والزيادة، فالأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: وزكاة يعني تزكية وطهارة من الأدناس، أدناس الشرك والذنوب والمعاصي.

وقال: {وَكَانَ تَقِيّاً} طاهر فلم يهم بذنب، وقوله: {وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً} لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقيا، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً.

هذه نتائج لما سبق لـــ **{وَكَانَ تَقِيّاً}** هذا بناء على ما أعطاه الله من الزكاة، ويزكيهم أي يطهرهم ويهذب نفوسهم من الأدناس والأرجاس.

يقول: {وَكَانَ تَقِيّاً} "أي **طاهر فلم يهم بذنب**"، قوله هذا جاء في بعض الأقوال المروية عن بعض السلف أنه لم يهم بذنب، وقوله تعالى: {وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً} هذا نتيجة ما أعطاه الله من الحنان، والجبار يأتي لمعاني متعددة، وقوله: {وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً} هذا نتيجة كونه تقياً.

وكلمة جبار في اللغة تأتي بمعنى الطويل، يقال: نخلة جبارة، وتأتي بمعنى الجبر الذي هو جبر الكسير والضعيف، ويأتي بمعنى القهر والعسف، والتسلط من الجبروت، والذي يظلم الناس، وقد يقال للذي يقتلهم بغير حق، ولهذا جاء في ما وقع لموسى -عليه الصلاة والسلام- لما جاء إلى المدينة فوجد إسرائيلي مع قبطي يقتتلان قال: {أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} [سورة القصص:١٩]، فالشاهد {وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً} المقصود أنه إنسان متسلط من غير حق، والظالم الذي يهضم حقوق الناس ويعاملهم بالقهر والعسف.

ولهذا قال: {وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً}، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً} أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

قوله: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ} كلمة السلام هذه يحتمل أن يكون المراد بها التحية، ويحتمل أن يكون المراد بالسلام الأمان، وابن كثير -رحمه الله- يقول: "**أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال**"، وهذا الذي اختاره ابن جرير أيضاً، وفسره بعضهم كابن عطية بالسلام المعروف التحية، وهذه التحية في معناها وما تضمنته هي تضمنت إلقاء هذا الاسم الكريم على الناس، وكلمة السلام متضمنة للدعاء بالسلامة، كما تتضمن الإخبار بذلك فكأن المسلم يؤمن الناس منه، وأنه لا يصل إليهم مكروه من قبله، هذه ثلاثة أشياء.

وعلى قول ابن عطية أنها التحية المتعارفة، يمكن أن يقال أيضاً هذه التحية المتعارفة تتضمن تأمينه وتسليمه من الآفات والشرور، والقول بأن ذلك هو الأمان هو الذي قال به الحافظ بن كثير -رحمه الله-.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصّه بالسلام عليه، فقال: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً} رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

كلام الإمام سفيان الثوري رحمه الله يبين سبب تخصيص هذه المواضع الثلاث بالذكر، والإنسان حينما يفارق بطن أمه يفارق المحل الذي اعتاده وألفه، ويخرج إلى عالم جديد، وحينما يموت يفارق ما ألفه من الوطن والأهل والعشيرة والدار إلى عالم آخر هذا أمر يستوجب الوحشة، وحينما يقوم من قبره ويخرج إلى عالم آخر يحتاج إلى الأمان.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قال الله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}، وقاوله تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} [سورة مريم:٣٣]، قيل: ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فَسِرّه والله أعلم: أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها الهمة؛ فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد

وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص، لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها، موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء؛ فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها، وشدائدها ولأوائها ومحنها، وأفكارها؛ كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه *** إلى هذه الدنيا إذا هو يولد

تجد تحته سراً عجيباً كأنه *** بكل الذي يلقاه منها مهدد

وإلا فما يبكيه منها وإنها *** لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول، وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون، وأما ما أخبر به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فليس في صناعتهم ما يدل عليه، كما ليس فيها ما ينفيه فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر وطلب السلامة أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله؛ فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد.

فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها، وتأمل ما في السلام من الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيداً مجرداً عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل، وعند موافاته القيامة مع الجمع العظيم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها، واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن.

فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه"[٣].

---

٣ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية (٣٩٣/٢-٣٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (٣)

من قوله تعالى"واذكر في الكتاب" الآية ١٦ إلى قوله تعالى"وكنت نسيا منسيا" الآية ٢٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}[سورة مريم:١٦-٢١].

لما ذكر تعالى قصة زكريا -عليه السلام-، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ} وهي مريم بنت عمران من سلالة داود -عليه السلام-.

وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً} [سورة آل عمران:٣٧].

ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها، وقيل خالتها، زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى -عليه السلام- أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام {انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً} أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى: {انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً} واتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} المقصود بالكتاب القرآن، وبعضهم يقول: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ} أي: هذه السورة فهي من القرآن، وقد ذكر الله -عز وجل- خبرها في هذه السورة كما في آل عمران، والكتاب إذا أطلق فالمراد به القران، ومن قال بأن المراد هذه السورة فإن المراد لا يخرج عن هذا، وإنما ذكر خاصاً من المعنى حيث أن الله -تبارك وتعالى- أورد ذكر خبر مريم في هذا السياق الذي بعده.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وكانت في كفالة زوج أختها وقيل خالتها**"، بعضهم يقول: بأن زوجة زكريا هي أخت مريم، وبعضهم يقول: هي أخت لأمها، لأن زوجت زكريا هي خالتها والصحيح أنها أختها، والدليل على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث المعراج لما ذكر ويحيى وعيسى ذكر بأنهما أبناء الخالة، والأصل في مثل هذا أن يحمل على الخؤولة القريبة، وما ذكر عن بعض السلف مما هو متلقى عن بني إسرائيل من أن ذلك أنها أخت لأمها لا دليل عليها -والله تعالى أعلم-.

قول الحافظ ابن كثير رحمه الله-: "**أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى -عليه السلام- أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام**"، وهذا لا يخص أولو العزم بالخمسة، وإنما يستدل من قال هذا بالجمع بين الآيتين قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٣٥]، مع قوله -تبارك وتعالى-: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [سورة الشورى:١٣]، ووجه الجمع بينهما غير ظاهر من جهة هذا المعنى -والله أعلم-، فقوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٣٥] هذا أمر له بالصبر، كما صبر أولوا العزم ولم يذكر هؤلاء، وفي الآية الأخرى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ...} هذا فيما يتعلق بالتشريع فذكر هؤلاء الخمسة، وهم من كبار الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولكن تخصيص هؤلاء الخمسة يحتاج إلى دليل ولا أعلمه، وأولوا العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم أصحاب العزائم العظيمة، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}، قال: "**أي اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس**"، وأصل الانتباذ يقال للطرح والمباعدة، انتبذت منهم مكان شرقيا أي تباعدت، والمكان الشرقي هنا يقول: "**شرقي المسجد المقدس**"، وهذا قال به كثير من المفسرين، وبعضهم يقول غير هذا في أقاويل متعددة لا دليل على شيء منها، وإنما ذلك مما تلقي عن بني إسرائيل.

وسبب هذا الانتباذ غير مذكور هنا، ولا في سورة آل عمران، وبعضهم يقول: بأنها تنحت؛ لأنه جاءها المحيض، وبعضهم يقول غير هذا فالعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله هنا: "**إني لأعلم خلق الله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة**"، ويقول: "**لأنها تنحت وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس**"، وقوله تعالى: {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} هذا قبل أن يأتيها الملك، وقبل أن تحمل بعيسى -عليه الصلاة والسلام-.

يقول الله تعالى: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}، ثم بعد ذلك حصل لها هذا الحمل {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ}[سورة مريم:٢٣]، ثم هل المخاض جاءها في نفس المكان الشرقي الذي اتخذته، أو أنها بعد ما حملت ذهبت إلى مكان آخر، -الله تعالى أعلم-، ذهبت شرقي المسجد، ومدة الحمل الذي حملته عامة المفسرين يقولون: إنها بقيت تسعة أشهر المدة المعهودة، وبعضهم يقول: ثلاثة أيام، وبعضهم يقول: ثلاث ساعات، وبعضهم يقول غير هذا، وكل هذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} إن الفاء للتعقيب المباشر، فدل على أنه لما نفخ فيها الملك حصل لها الحمل ثم الولادة، وأن مدة ذلك لم تَطُل، وأن تعقيب كل شيء بحسبه، مثل قوله: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [سورة الرعد:١٧]، والمكان الشرقي فيه بُعد عن المسجد.

يقول: "**واتخذوا ميلاد عيسى قبلة**" يعني لهذا السبب اتخذوه قبلة، وبعضهم يقول: إنهم اتخذوا المشرق قبلة؛ لأنه مطلع الأنوار، لا من أجل أن المسيح -عليه الصلاة والسلام- ولد هناك، وكثير من تلك المنقولات يقولون أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- ولد في بيت لحم، ولهذا فإن النصارى إلى اليوم يعظمون تلك الناحية، لكن بسبب اتخاذ قبلة النصارى إلى المشرق بعضهم يذكر هذا، وبعضهم يقول: لأنه مطلع الأنوار - فالله تعالى أعلم-.

ولشدة العداوة بين النصارى وبين اليهود تركوا قبلتهم، واليهود كانوا يستقبلون التابوت، وينقلونه معهم من مكان لآخر، التابوت الذي فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة فصاروا يستقبلونه في كل مكان يذهبون إليه، يحملونه في حروبهم فإذا وضعوه استقبلوه وصلوا إليه، فإذا جاءوا وضعوه على الصخرة، ثم بعد ذلك صاروا يصلون إليه، فلما ذهب ذلك عنهم استقبلوا تلك الناحية، صاروا يستقبلون الصخرة، فالنصارى لشدة بغضهم لهم جعلوا هذه الصخرة محلاً للمزابل.

فلما جاء عمر -رضي الله عنه- وفتح بيت المقدس بدأ بنفسه وأمر أن تزال هذه الأشياء التي كان يلقيها النصارى من الأقذار، لا تعظيم لهذه الصخرة، وإنما هو أذى أمر بإزالته مما كان يصنعه النصارى باليهود، -والله تعالى أعلم-، والنصارى لاشك أنهم متعبدون بالتوراة فنبذوا التوراة وتركوها، وصاروا يعملون بشريعة لفقوها، أو بقانون ونظام لفقوه وسموه الأمانة العظمى.

وقوله: {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً} أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل -عليه السلام- {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً} أي: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} يعني جبرائيل -عليه السلام-.

قوله: {رُوحَنَا} الإضافة إضافة تشريف، أضافه إلى نفسه روحنا من باب التشريف كما تقول: بيت الله ونحو هذا، وبعضهم يقول: قيل له الروح لقيام الحياة الحقيقة بسبب ما وكل به من الوحي، فالله سمى الوحي روح، -والله تعالى أعلم-.

{قَالَتْ إِنّيَ أَعُوذُ بِالرّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً} أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: {إِنّيَ أَعُوذُ بِالرّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ

{تَقِيّاً} أي: إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله -عز وجل-.

هذا الظاهر المتبادر إن كنت تقياً يعني إن كنت تتقي الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: {إِن كُنتَ تَقِيّاً} لذلك يعني تتقي ذلك بالاستعاذة، إذا استعذت بالله منك والأول أولى، أما ما قيل من الأقوال البعيدة المتكلفة فهذا لا ينبغي الالتفات إليه، وهي في غاية التناقض كقول من يقول: بأن قولها تقياً إن كنت تقيا هذا رجل يسمى بذلك، اسمه تقي، وكان تقياً، وكان من الصالحين، وبعضهم يقول عكس هذا يقول: إنها أرادت رجلاً فاجراً يسمى بهذا الاسم خافت أن يكون هو، فقالت: إن كنت تقيا يعني إن كنت فلان المسمى بهذا الاسم، وهذه تكلفات لا حاجة إليها، والله المستعان.

روى ابن جرير عن عاصم قال: قال أبو وائل وذكر قصة مريم، فقال: قد علمت أن التقي ذو نهية حين قالت: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ} أي: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين ولكني رسول ربك، أي بعثني الله إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل -عليه السلام- فرقاً وعاد إلى هيئته وقال: {إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِيهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً}.

هذا الكلام لا دليل عليه، والمراد بقوله: عاد إلى هيئته ليس المقصود عاد إلى هيئته الملائكية، وإنما عاد إلى هيئته يعني انتفض ثم بعد ذلك سكن ثم خاطبها مرة أخرى هذا هو المراد.

قال: {إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِيهَبَ لَكِ}، وهذه القراءة متواترة قرأ بها أبو عمر وأيضاً هي عن نافع عن طريق ورش، {لِيهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً}، وهي واضحة في المعنى أن الذي يهب الغلام الزكي هو الله جل جلاله، وأما القراءة الأخرى لأهب لك غلاماً زكيا، لأهب لك لا شك أن جبريل -عليه الصلاة والسلام- لا يهب من عند نفسه، وإنما ذلك إلى الله -تبارك وتعالى-، لكن لما كان الذي أرسله هو الله جل جلاله عبر بذلك؛ لأنه هو السبب وهو الآمر بالنفخ، فأضاف ذلك إلى نفسه بهذا الاعتبار أن الله أرسله فنفخ فيها فكان الحمل والولد، وهو من باب السبب، فما أطلق على عيسى -عليه الصلاة والسلام- بأنه كلمة؛ وذلك أنه كان بالكلمة قال الله له: كن فكان، فصار ذلك من باب إطلاق السبب على المسبب.

{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور.

هذا القول قالته على سبيل التعجب من قدرة الله -سبحانه وتعالى- لا استبعاد ذلك على الله، أو يقال كما قال الحافظ بن كثير ولا منافاة بين هذا وهذا، بأنه سؤال عن الطريق التي يكون بها الولد، هل سيكون لها زوج أو أن الله -عز وجل- سيخلق هذا الولد بطريقة أو بأخرى؛ لأن ذلك غير متصور بالنسبة إليها، كيف يكون ولد من امرأة غير متزوجة، ولم يقربها أحد من البشر.

ولهذا قالت: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} والبغي هي الزانية.

وقوله عنها: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً}، لم يمسسني بشر يعني بوطء ولم أك بغيا، والبغي هي الزانية، وإنما يكون ذلك بالمواقعة، بطريق الفجور والإعلام به، والأصل أن ذلك يقال للمرأة التي تزني بأجرة،

فالشاهد أن قولها: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} المس يعني الجماع وقد يكون بطريق الحلال، وقد يكن بطريق الحرام، فيشمل ما ذكر بعده، وقالت بعده: {وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} بعضهم يقول: لأن قولها: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} أن ذلك قصدت به بطريق الحلال، ثم قالت: {وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} قصدت به طريق الحرام، مع أن قولها: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} أنه يشمل هذا من حيث المعنى، لكن لما ذكر بعده ولم أك بغيا خصه بعضهم قال: أرادت لا بطريق الحلال ولا بطريق الحرام، ولكن يمكن أن يقال أن قوله: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} هذا لا يخص بالحلال بمعنى أنه لم يحصل السبب الذي يوجد معه الولد، {وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً}، قالت ذلك تأكيداً وتقريراً لهذا المعنى لأنها غير ذات زوج، فقالت ذلك زيادة في التعجب -فالله تعالى أعلم-.

ولهذا جاء في الحديث: "نهي عن مهر البغي"[1].

والبغي هي المرأة التي تزني بأجرة، فما تعطى من هذه الأجرة قيل له: مهر، لا أنه يكون زواج مؤقتاً.

{قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ}، أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم -عليه السلام- من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: {وَرَحْمَةً مِّنَّا} أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ}[سورة آل عمران:٤٥-٤٦] **أي: يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.**

ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه رحمة للخلق، حيث بعثه الله إليهم هادياً وداعياً، أضف إلى ذلك ما عرف به المسيح -عليه الصلاة والسلام- من زيادة الاتصاف بالرحمة والشفقة والحنان، لذلك عرف عن النصارى مقارنة بغيرهم من أهل الأديان أنهم يتميزون بهذا، ولذلك تجد عندهم إلى اليوم من الجمعيات التي يسمونها الجمعيات الإنسانية، والأعمال التكافلية في مجتمعاتهم وما شابه ذلك، ويستغلون هذا أبشع استغلال بأخذ الضرائب في تنصير الناس في بقاع الأرض، مع أنه يعني المسيح كما جاء في كتابهم يقولون أنه قال: إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، ولكن هؤلاء يستغلون هذه الأمور أبشع استغلال؛ تمهيداً للاستعمار ويعيثون في الأرض فساداً، لكن مقارنة بغيرهم من الأمم تجد أن عنايتهم بهذه الجوانب ظاهرة والله -عز وجل- أمر بالعدل فقال: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ}[سورة المائدة:٨]، فلو قارنت هؤلاء بالأمم الوثنية مثلاً أو قارنتهم باليهود رأيت الفرق، وبعض أهل العلم يقول: ورحمةً منا أي لأمه، وهذا التخصيص لا وجه

---

١ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، برقم (٢١٢٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، ومسلم بلفظ: ((شر الكسب مهر البغي....))، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه، كتاب المساقات، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن، برقم (١٥٦٧).

له -والله تعالى أعلم- ولكن حينما يقال: رحمة للناس فإن هذه الرحمة تكون لأمه بأن الله -عز وجل- وهبها هذا الولد بهذه المنزلة وبهذه الصفة، فلا شك أن أول ما تصل هذه الرحمة أقرب الناس إليه.

وقوله: {وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً} من تمام كلام جبريل -عليه السلام- لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، قال محمد بن إسحاق: {وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً} أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد.

عبارة: "**إن الله قد عزم على هذا**"، والعزم هو القصد المصمم، في باب الإخبار يتوسعون في العبارة، وحينما يقول: هذا من كلام جبريل تمام كلام جبريل معنى هذا أن ابن كثير هو الذي قال هذا الكلام ورجحه، والواقع أن كلام ابن كثير -رحمه الله- يقول يحتمل أن يكون من كلام جبريل -عليه السلام-، وأن يكون من كلام الله -عز وجل-، فقول الله -عز وجل-: {وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً}، يحتمل الأمرين، وإذا كان من كلام الله -عز وجل- يكون من الموصول لفظاً المفصول معناً.

{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً} [سورة مريم:٢٢-٢٣].

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل -عليه السلام- عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى.

الله -عز وجل- أخبر أيضاً فقال: **{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا}** [سورة الأنبياء:٩١]، وفي موضع أخر قال: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ}**[سورة التحريم:١٢]، ولا منافاة فإن الله -تبارك وتعالى- أمر جبريل بالنفخ فنفخ وكان مآلُ تلك النفخة أن وصلت إلى رحمها، وذكر الله -تبارك وتعالى- هنا أنها انتبذت به مكاناً قصيا، وقد يفهم من هذا -والله تعالى أعلم- أنه غير المكان الأول الشرقي الذي ذهبت إليه، وقد يكون هو أيضاً في ناحية الشرق، لكن ذلك ليس بلازم من هذا اللفظ، -والله تعالى أعلم-.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

الذين قالوا: بأن الحمل كانت مدته يسيره ثلاث ساعات، هذه الروية عن أبي إسحاق ولا مستند لها لا من الكتاب ولا من السنة، والله -عز وجل- يقول: **{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}**، الظاهر أنها لما حملت انتبذت ذهبت إلى مكان قصي واحتجبت عن الناس حتى ولدت، ولهذا هم عرفوا وتكلموا **{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}** [سورة مريم:٢٧]، وهذه الرواية التي نقلها عن ابن إسحاق أنهم عرفوا ذلك من خلال الحمل وما ظهر عليها من علامات.

وجاء في بعض تلك الروايات أن زوجة زكريا أتت إليها وقالت لها: إني رأيت أن الحمل الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فأخبرتها مريم أنها حامل أيضاً، وهذا لا دليل عليه -والله تعالى أعلم-.

فالله -تبارك وتعالى- يقول: {فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ} والفاء تدل على التعقيب المباشر في الأصل وتشعر بالتعليل وأنها بسبب الحمل انتبذت تباعدت، وقصدت ذلك المكان البعيد القصي -والله أعلم-.

وقوله: {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه، وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي.

وقوله: {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ} يقول: إنه منقول من جاء فصار فأجاء، لكن لما نقل تغير المعنى فصار بدلاً من أن يكون جاء الشيء مثلاً بمعنى أقبل أو نحو ذلك، صار بعد النقل فأجاء بمعنى ألجأ، أجاءه كذا، أي ألجأه واضطره إلى كذا، {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} يعني ألجاءها المخاض إلى جذع النخلة، ذكر هذا بعض المفسرين -والله تعالى أعلم-، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يفسره بقريب من هذا فيقول: أصله جاء بها فحذفت الباء فعوض عنها بالهمزة، ويقول: ما كان من هذا القبيل، تقول: مثلاً جاءت الحاجة بزيد، فإذا حذفت الباء، وتقول: أجاءت زيد الحاجة يعني ألجأت زيد الحاجة، هكذا ذكر ابن جرير -رحمه الله-.

والمخاض أصله الحركة الشديدة، ولهذا تكرير اللبن يقال له المخض، فحركت الجنين في البطن عند خروجه قيل لها: المخاض لهذا السبب -والله أعلم-، والمراد بالمخاض هي أعراض الولادة، آلام الولادة وما يعرف بالطلق، فألجأها المخاض إلى جذع النخلة، والجذع يقال لأصل الشجر اليابس، وبعضهم يقول نخلة يابسة ليس فيها ثمر، وبعضهم يقول أشياء أخرى -فالله تعلى أعلم- بهذا، وبعضهم يقول: إن جذع النخلة لما كان جذعاً خشناً فيه الكرب والحامل تحتاج شيء تتمسك به أو شيء من شدة ما تجد من آلام الولادة، كل هذا لا دليل عليه -فالله أعلم-.

{فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَىَ جِذْعِ النّخْلَةِ} فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً}[سورة المؤمنون:١٢-١٤]**. فهذه الفاء للتعقيب بحسبها، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}** [سورة الحج:٦٣] **فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي.**

هذه من الروايات الإسرائيلية.

وقد اختلفوا فيه فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق.

هذا قول وهب ابن منبه وهو أشهر من يروي الإسرائيليات، ولا يكون ذلك شرقي المسجد وإنما إلى ناحية الجنوب، ولو كان هذا القول صحيح، لا اتخذت مكاناً شرقيا ثم بعد ذلك لما جاءها المخاض انتبذت مكاناً قصياً، وهذا المكان القصي الله أعلم به.

وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم، قلت: وفي أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس -رضي الله تعالى عنه-، والبيهقي عن شداد بن أوس -رضي الله تعالى عنه- أن ذلك ببيت لحم، فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح.

وقوله تعالى إخباراً عنها: {قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً}، فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا} أي: قبل هذا الحال، {وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً} أي: لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال قتادة: {وكنت نسياً منسياً} أي: شيئاً لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا.

قول ابن كثير -رحمه الله- هنا بأن هذا يدل على جواز تمني الموت، مبني على مقدمة وهي مسألة شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا، هذه الشريعة جاءت مبينة موضحة لهذا الأمر، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً للموت، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي))[٢]، فقوله: ((لا يتمنين أحد كم الموت بضر نزل به))، ظاهر ذلك العموم، ثم أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر الحديث أن الإنسان إذا كان لابد له من تمني الموت فإنه يقول: ((اللهم أحييني ما كانت الحياة خير لي، وتوفني ما كانت الوفاة خير لي))؛ لأن الإنسان لا يدري ما هو الخير بالنسبة إليه في عاقبة الأمور ونهايتها، وإنما ذلك إلى الله -تبارك وتعالى-، لكن مسألة تمني الموت تكلم عليها أهل العلم، وما جاء عن بعض الآثار المنقولة في هذا المعنى عن بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وكذلك ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال عند موته: ((بالرفيق الأعلى))[٣]، وهذا لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم تمنياً للموت، وإنما خُيِّر فاختار ما عند الله -تبارك وتعالى-، اختار الانتقال من هذه الحياة إلى الحياة الآخرة، ومحصل كلام أهل العلم من المحققين منهم الحافظ ابن حجر وجماعة بأن تمني الموت يجوز إذا خاف الإنسان على دينه من الفتنة، وأن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يتمنين أحدكم الموت بضر نزل به))، يحمل على الجزع فيما يتعلق بما يحصل للإنسان من مرض أو مصيبة تقع في دنياه أو نحو هذا، فهو منهي عن تمني الموت.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة، برقم (٥٩٩٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، برقم (٢٦٨٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، برقم (٤١٧٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أما إذا خاف على نفسه الفتنة فإنه يمكن أن يتمنى الموت، وقد نقل عن عمر -رضي الله تعالى عنه- مثل هذا، وجاء عن جماعة غير هذا حتى بعض من جاء بعده الإمام أحمد كان في آخر حياته، يقبض يده ويبسطه ويقول: "لو كانت نفسي بيدي لأطلقتها"، وذكر أنه يتمنى الموت، وورد جواز تمني الموت عن جماعة إذا خاف الإنسان على دينه من الفتنة -والله تعالى أعلم-.

وأما قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً}** قال: "**أي شيء لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا**"، يذكر أهل العلم في معناه بأنه الشيء الحقير الذي لا قيمة له، فالشيء الذي لا يأبه به، ولا يعتد به يقال له: نسي، يقولون: بأن العرب إذا أرادت أن ترتحل من مكان قالوا: تفقدوا أنسائكم، يعني الأشياء الحقيرة التي لا يتلفت إليها يعني كالعصا والسوط ونحو ذلك من الأمور اليسيرة، التي جرت عادة الناس أنهم لا يلتفتون إليها، ولا يضمونها إلى متاعهم، فإذا ذهبوا لربما تركوها لحقارتها، أو لم يتذكروها وكنت نسياً منسياً، كنت شيء لا يذكر، -والله تعالى أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (٤)

من قوله تعالى"فناداها من تحتها" الآية ٢٤ إلى قوله تعالى"ويوم أبعث حيا" الآية ٣٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}[سورة مريم: ٢٤-٢٦].

قرأ بعضهم: {مَن تَحْتِهَا}، بمعنى الذي تحتها، وقرأ الآخرون: {مِن تَحْتِهَا} على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا} جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقتادة: إنه الملك جبرائيل -عليه الصلاة والسلام-، أي ناداها من أسفل الوادي.

وقال مجاهد: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا} قال: عيسى بن مريم، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ} واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى: {فَنَادَاهَا مَن تَحْتِهَا} هذه القراءة بالفتح قرأ بها بعض السبعة وهم ابن كثير وأبو عمر وابن عامر وشعبة عن عاصم {فَنَادَاهَا مَن تَحْتِهَا} و"مَن" على هذا القراءة اسم موصول نادها الذي تحتها، وعلى القراءة الثانية {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا} يكون "من" حرف جر، وهذا المنادي من تحتها يعني الذي تحتها أو نادها من تحتها هو جبريل، والحافظ ابن كثير –رحمه الله- ذكر القولين ثم نقل من طريق العوفي عن ابن عباس قال: فنادها من تحتها يعني جبريل، وهذا الطريق لا يصح، وإن قال به طائفة من أهل العلم، واختاره القرطبي {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}، {فَنَادَاهَا مَن تَحْتِهَا} فبأي اعتبار يكون جبريل -صلى الله عليه وسلم- حيث يوصف بأنه تحتها، والقائلون بهذا القول قالوا: بأن مريم -رحمها الله- كانت على ربوة - مكان مرتفع- كما قال الله تبارك وتعالى: {وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} [سورة المؤمنون:٥٠] يعني مريم وعيسى -عليه الصلاة والسلام-، والربوة المكان المرتفع، فجبريل -عليه الصلاة والسلام- كان أسفل الربوة حينما ناداها، وكانت مريم على مكان مرتفع، وبعضهم يقول: بأنه كان يلي الولد حينما ولدته كما تفعل القابلة بالوليد حديث الولادة، هذا على قول من قال بأنه جبريل، والذي عليه عامة المفسرين أن الذي نادها هو عيسى -صلى الله عليه وسلم-، حينما ولدته والدليل على ذلك قاعدة توحيد مصدر الضمائر، وأنه أولى من تفريقها، فإذا نظرت

إلى الضمير هنا يقول الله -تبارك وتعالى- قبل ذلك: **{قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا}** [سورة مريم:٢١]، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- آية ورحمة للناس، ثم قال الله تعالى: **{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}**، ثم بعد ذلك قال: **{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ...}**، إلى أن قال: **{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ}** [سورة مريم:٢٧] وهو عيسى -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ}**[سورة مريم: ٢٩-٣٠]، هذا في عيسى -عليه الصلاة والسلام- فتوحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

ومن الحجج على أن المراد به -عيسى عليه السلام- قول سعيد بن جبير قال: "**أو لم تسمع الله يقول**: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}**" والضمير في "إليه" عائد إلى عيسى -عليه السلام- وهذا الذي اختاره كثير من المفسرين من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وأبو حيان صاحب البحر المحيط، والشنقيطي من المعاصرين، -والله تعالى أعلم-.

ومن الممكن بأن يُرجَّح هذا القول بقضية أخرى وهي أنها أشارت بكل ثقة إليه يوم نذرت ألا تكلم أحداً من الإنس، فلما جاءت به إلى قومها وهي تحمله وسألوها عن هذا **{لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}**، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إليه، والعادة أن مثل هذا لا يتكلم؛ ولهذا قالوا: **{كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}**[سورة مريم:٢٩]، فإن إشارتها إليه بكل ثقة تدل -والله تعالى أعلم- على أنها قد علمت ذلك قبل، وحصلت لها الثقة بكلامه، وجوابه لسؤالهم ومقالهم، فتكلم وحصل لها من التطمين **{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}** ألا تخافي، لا تحزني، لا تقلقي **{قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً}**، والحزن يقال للشيء الذي يتخوف منه، وغالباً ما يطلق الحزن على الشيء الذي يتخوف منه في أمر الاغتمام من أمر فائت، والخوف هو الاغتمام من أمر مستقبل، وقد يطلق الحزن على الاغتمام من أمر مستقبل بمعنى الخوف، ولهذا أهل الجنة يقولون: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** [سورة فاطر:٣٤]، وكانوا في الدنيا سموا حزنا وهو إشفاق من المستقبل من الآخرة، -والله تعالى أعلم-.

فإذا كان الذي كلمها هو عيسى -صلى الله عليه وسلم- فإنه يحصل من قرة العين بسبب ذلك؛ لأنها رأت آية فحصل لها الاطمئنان فلما كلموها أشارت إليه -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {أَلاَّ تَحْزَنِي} أي ناداها قائلاً لا تحزني {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} قال: الجدول، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السري النهر، وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه. وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية، وقال سعيد بن جبير: السري النهر الصغير بالنبطية، وقال آخرون: المراد بالسري عيسى -عليه السلام-، وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ} أي وخذي إليك بجذع النخلة، فامتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: {تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً* فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً} أي طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

قوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَك سَرِيّاً}، السري في اللغة يطلق على الجدول أو النهر الصغير، كما أنه يطلق على السيد تقول فلان سري يعني سيد، وقال: {قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَك سَرِيّاً} **"قال سفيان وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: الجدول**"، قول من قال الجدول أو النهر الصغير هذا بمعنى واحد فالجدول هو فرع من النهر أو مجرى من الماء صغير، وقول من قال بأنه هو النهر كأنه تجوز في العبارة، فهو نهر لكنه لم يذكر قيده، لم يقل نهر صغير، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، والقول الثاني: أنه النهر، هذا كله يرجع إلى شيء واحد.

فالسري على القول الأول هو نهر صغير جدول، وعلى القول الثاني هو السيد، وهذا القول بأنه هو السيد يعني المراد به عيسى -صلى الله عليه وسلم-، سواء كان القائل جبريل -عليه الصلاة والسلام- أو كان القائل عيسى -صلى الله عليه وسلم- يعني نفسه.

والذي عليه عامة المفسرين من السلف فمن بعدهم أن المراد به النهر الصغير الجدول، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، والذي يدل على هذا {قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَك سَرِيّاً}، إذا قلنا أنه الجدول أو مجرى الماء هنا قرينة تدل على هذا المعنى في الآية وهي أنه قال لها: {فَكُلِي وَاشْرَبِي}، فهناك ذكر أن المخاض جاءها إلى جذع النخلة، وقلنا معناها أنه ألجأها المخاض إلى جذع النخلة، وهنا قال لها: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}، {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا}، بعض أهل العلم ينقلون هذا من الإسرائيليات، يقولون: لم يكن هناك ممر ماء وإنما أجراه الله -عزوجل- لها فكان ذلك كرامةً لها ولولدها، {قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَك سَرِيّاً}، فذكر الأكل والشرب بعده قال: {فَكُلِي وَاشْرَبِي} لما أواها واضطرت إلى جذع النخلة لجأت إليه حينما أتاه المخاض صار عندها ما تأكله وما تشربه وهو هذا الماء، قال: {فَكُلِي وَاشْرَبِي} كلي من هذه النخلة واشربي من هذا الماء، فيكون هذه قرينة تدل على أن الأرجح من القولين هو أن المراد بالسري يعني الماء، جدول الماء، أو النهر الصغير، أو نحو ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-، ولهذا قال الله تعالى: {وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}[سورة المؤمنون:٥٠]، المعين هو الماء، وهذه الآية الثانية قد يفهم من ظاهرها أن الربوة التي جاءت إليها كان الماء موجوداً فيها؛ لأنه وصفها بـــ "ذات قرار ومعين"، لا أنه نبع أو جرى بعد ما جاءت إليه والعلم عند الله -عزوجل-؛ لكن المقصود أن هذه الآية أيضاً مرجحة للقول بأن السري هو الماء -والله أعلم-

.

وكون هذا بالسريانية أو النبطية لا دليل عليه، والكلام في المعرب من أهل العلم من يقول ليست لغة العجم أولى من لغة العرب به كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، يقول: لماذا تقولون أنه أصله أعجمي لماذا لا نعكس القضية، والقرآن جاء بلسان عربي مبين، ويكون عربي والعجم هم الذين استعملوا هذه اللفظة، فكونه أعجمي هذه دعوى تحتاج إلى دليل، فيقول: لماذا لا نقول أصله عربي والأعاجم هم الذين أخذوه.

وبعض أهل العلم يقول: أصلاً مثل هذه الألفاظ هي مشتركة بين اللغات، فالعجم استعملوها والعرب استعملوها، وليس عندنا ما يدل على أن هؤلاء استعملوها أولاً، وأن العرب أخذوها أو العكس وإنما هي مشتركة بين اللغات، فلا يقال لها: أعجمية، هي من لغة العرب يتكلمون بها، ومن قال بأنها أعجمية يقول: بأن ذلك لا يؤثر، والمقصود المنكر، أما الأعلام فهي أعجمية لا إشكال فيها، كأسماء الأنبياء -عليهم الصلاة

والسلام- غير أربعة منهم، فلا إشكال في وقوع الاسم أعجمي؛ لأنه ينطق كما هو، لكن الكلام في التراكيب، فلا يوجد في القرآن تركيب واحد أعجمي إطلاقاً، وإنما الكلام في المنكر مثل سري، إستبرق، مشكاة ونحو هذا.

وكثير من هذه الألفاظ بعضهم يقول: سريانية، وبعضهم يقول: حبشية، وبعضهم يقول: هل في لغة حبشية فعلاً وسريانية بنفس الوقت وإذا كانت كذلك لماذا لا تكون عربية بعد؟

وسألت كثيراً الطلاب الأعاجم الجامعة الإسلامية عن هذه الأشياء حينما يقال: هذه حبشية، أسأل الأحباش هل تعرفون هذه اللغة؟ يقولون: لا نعرفها، وكذلك أسأل الذين يتكلمون بالفارسية هل عندكم هذه اللغة فيقولون: لا، ربما تكون باللغة القديمة التي ما عاد الناس يتكلمون بها، مثل العبرية، في عبرية قديمة وفي عبرية حديثه فتسأل الذي يعرف هذه اللغات فيقول لك: لا نعرف هذه -فالله تعالى أعلم-.

ولا نطمئن كثيراً إلى ما يذكر من أن هذا سرياني أو نبطي -الله أعلم-، لكن أصل المسألة هل إذا قيل يوجد ألفاظ أعجمية من هذا القبيل هل هذا يقدح في كون القرآن عربي؟ الجواب لا، فالعرب لما نزل القرآن بلغتهم تداولوا بعض الألفاظ واستعملوها كما يستعملون الألفاظ التي في لغتهم فصارت من لغتهم فنزل القرآن بلغة العرب بهذا الاعتبار، فهو بلسان عربي مبين، وجود بعض الألفاظ لا يؤثر في هذا الحكم، كما أن العرب تتصرف في الألفاظ التصرف اللائق بلغاتها، ولهذا لا ينطقون به كما ينطق الأعجمي فالعرب لا يلوون اللسان بالأعجمية، فينطقون بها محاكين للأعاجم تماماً، وإنما يتصرفون به، ولهذا يقولون عن هذه الألفاظ الأعجمية: أعجمي فلعب به، هذا لفظ أعجمي تصرف فيه بما يليق بلغة العرب.

فالشاهد أنه ليس عندنا دليل على هذه الألفاظ فعلاً أن هذه نبطية، وهذه سريانية أو هذه فارسية أو هذه كذا، -فالله تعالى أعلم- لكن أصل المسألة هو هذا.

وقوله: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً} أي مهما رأيت من أحد {فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي؛ لئلا ينافي {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}.

قوله: {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}، نكرة في سياق النفي، وهذا للعموم، فإذا كلمتهم وقالت: هذا جاء بمعجزة أو قالت لهم: كلموه، اسألوه فإنها تكون قد كلمت، لكن لقائل أن يقول: إنها نذرت ألا تلكم اليوم إنسيا، بمعنى الكلام الذي جرت به العادة، ولهذا الله -تبارك وتعالى- يقول في الآخرة عن الكفار أنه لا يكلمهم، ويقول لهم في النار: {قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٨]، وقال لهم: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}[سورة المؤمنون:١٠٥]، فهذا تكليم، والجواب عن هذا معروف، ويمكن أن يقال: إنها نذرت أن لا تكلم الناس بالمعهود من الحوار والكلام والخطاب الذي كانت تكلمهم به قبل ذلك، وإنما اكتفت بقولها: كلموه، لكن هذا ضعيف، فأشارت إليه هذا صريح أنها لم تتكلم.

ويقول الله -تبارك وتعالى-: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} فجذع النخلة جذع غليظ جاف خشن، ولهذا فرعون اختاره من بين سائر الجذوع فقال للسحرة: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [سورة طه:٧١]، عبر بفي التي تدل على الظرفية كأنه لقوة ربطه يدخل الواحد منهم في وسط جذع، فإذا صلب

الإنسان إلى جذع مثل هذا بما فيه من الكرب والخشونة فإن الإيلام سيكون شديدا عليه، فما قال: إنه يصلبهم على جذوع مثلاً الأشجار الفلانية أو نحو ذلك بل على جذوع النخل وهذا زيادة في النكاية، فالشاهد أن هزي إليك ماذا عسى أن تفعل يد المرأة أو ساعد المرأة الضعيف -وهي في حال الولادة غاية ما تكون من الوهن - بجذع نخلة غليظ، ليست شجرة عادية لا تتحرك، فأقوى الرجال لو هز جذع نخل هل يتساقط عليه الربط؟ ما يتساقط فهذه آية أخرى، وتدل أيضاً على تعاطي الأسباب فإن الله -تبارك وتعالى- لو شاء لنزل عليها الرطب إذا أرادت من غير هز، ولو شاء الله -تبارك وتعالى- لأغناها عن الأكل والشرب، بحيث لا تحتاج لا إلى نخلة ولا إلى ماء، ولكن الله -عز وجل- أجرى الأمور على أسباب في هذه الدنيا فكما قال بعضهم:

ألم ترى أن الله قال لمريم *** وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

لو شاء أن تجنيه من غير هزه *** جنته ولكن كل شيء له سبب

هذه حركة بسيطة يحصل منها الرطب الجني، بعضهم يقول: هو حديث الاجتنى حديث الأخذ، فلان يجني الرطب، كأن يقال: طازج، والمعنى الثاني: جني يعني الصالح للقطف للأخذ للأكل، قد تهيأ ونضج، وبين المعنيين مقاربة، فإذا قيل الجني حديث الاجتنى طري، يعني فإن الذي يجتنى هو ما كان صالحاً للأكل، فحينما يجتنى فهو باقٍ على حاله وهيئته إذا كان حديث الاجتنى مهيأ وصالحاً للأكل -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا}، قري عينا القُر هو البرد، ويقال: قرة عينه يعني بردت، فدموع الحزن ساخنة، ويقولون دموع الفرح باردة، فقرة العين بمعنى الرضا والفرح والسرور والبهجة، بخلاف ما إذا قلت: دعوت عليه بأن الله يُسخن عينه، أو تكون عينه ساخنة، فمعناه أنه يحزن، ولذلك يقال: أثلج صدره بكذا، يعني حينما يمتلأ القلب بالحبور والفرح والسرور ونحو ذلك يجد برده، أما المصيبة فيجد حرها.

وفي قوله: **قال عمر بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر الرطب** ثم تلا هذه الآية، يعني استنباط لطيف مع أنها كانت في بلاد الشام، وابن القيم -رحمه الله- لما ذكر الرطب وفوائد الرطب أجرى مقارنة بين التمر وبين التين والزيتون، أيهما أنفع؟ ولماذا أقسم الله بالتين والزيتون؟ هل التين والزيتون أفضل؟ العلماء لهم كلام في هذا ومقارنات وأقوال، بعضهم يفضل هذا وبعضهم يفضل هذا، والقسم لا يكون إلا بمعظم، فابن القيم توسط بين القولين، فقال: إن الرطب والتمر أفضل في البلاد الحارة، وأما البلاد الباردة فلأنفع هو التين والزيتون هكذا ذكر، لكن على هذا الاستنباط فإن هذا يدل على أن الرطب أفضل إلا إذا قال ابن القيم -رحمه الله- هذا في قضية خاصة، وهي للنفساء فقط، وليس على سبيل الإطلاق فهذا مثل الدواء، نعم فيكون للنفساء في أي مكان والعلم عند الله -عز وجل-.

قال أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً} قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى بن مريم: {أَلاّ تَحْزَنِي}، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذري عند الناس؟ {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام {فَإِمّا تَرَيِنّ مِنَ الْبَشَرِ

{أَحَداً فَقُولِيَ إِنّي نَذَرْتُ لِلرّحْمَنِ صَوْماً * فَلَنْ أُكَلّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب.

قوله: **{إِنّي نَذَرْتُ لِلرّحْمَنِ صَوْماً}** المقصود بالصوم هنا الصوم عن الكلام، وأن هذا كان جائز في شريعتهم، وأما في هذا الشريعة فلا يشرع ذلك ولا يتعبد لله -عز وجل- به وتعرفون الخبر الثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، الرجل الذي يقال له: أبو إسرائيل لما رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يخطب وقفاً في الشمس فسأل عنه، فقالوا: "إنه نذر أن يصوم ويقف ولا يجلس ولا يستظل، فأمره أن يجلس وأن يستظل، ..."[1].

فلا يشرع الصمت قصداً على سبيل القربة والتعبد، لهذا الحديث، لأن الله لا يتعبد له بذلك، ومما يفسر ذلك أن المقصود به الصوم هنا الصوم عن الكلام ما جاء في رواية أبي وهي ليست متواترة، **{إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا}**، صوما صمتا، صوما صمتا تفسير، وجاءت هذه القراءة عن أنس، وجاء عن أنس: صوماً وصمتا، فالقراءة الثانية محتملة أن تكون الواو عاطفة عطف تفسير، ويحتمل أن تكون عطف مغايرة، بحيث أن تصوم عن الطعام والشراب وأيضاً عن الكلام، **{إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا}**، ومما يدل على أنها قصدت الكلام أنها أشارت إليه فلم تتكلم، -والله أعلم-.

وقوله: **{فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}**، مفهوم المخالفة أنها تكلم غير الإنسي، فتكلم مثلاً الملك.

لو نذر أحد ألا يتكلم لا يفي بنذره، سواء قلنا بأن النذر كما يقوله كثير من أهل العلم إنما يكون في أمر على سبيل القربة، ولا يكون في مباح فضلاً عن المكروه أو الحرام، فمن نذر في غير قربة فليس بشيء، ومن يقول إن الشيء المباح يدخل في النذر كأن يقول الإنسان: أنا عليّ نذر إذا نجحت أن أعمل حفلة في المدرسة مثلاً، حفلة لأصدقائي ما يقصد التقرب، فبعض أهل العلم يقول: يلزمه هذا، لكن الكلام في النذر يعتبر فيه بدعة ومخالفة، أمر غير مشروع فهذا لا يفي به، لكن الخلاف بين أهل العلم هل يجب عليه الكفارة أو لا يجب؟

فمن أهل العلم كالإمام مالك وطائفة من يقول: أنه لا يجب عليه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يذكر الكفارة، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه؛ لأنه لم يقل: وليكفر عن يمينه، وبعضهم يقول: حال هذا حال سائر النذر، بأن فيه كفارة يمين أخذاً من إطلاق ذلك في الأحاديث الواردة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[سورة مريم:٢٧-٣٣].

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله -عز وجل- واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٣٢٦).

تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: {يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً}، أي أمراً عظيماً، قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد.

وروى ابن أبي حاتم عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها، قال: وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئاً، فلقوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعتها؟ قال: لا ولكني رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن زياد: وأحفظ عن سيّار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤوا حتى قاموا عليها قالوا: {يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً} أمراً عظيماً.

قوله: **{لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً}** قال: "**أمر عظيماً**"، وهكذا العبارات المقاربة لهذا الأمر الشنيع الشديد، وبعضهم يقول: الفري هو الشيء الجديد المخترع المختلق، ولهذا قيل: الفرية؛ لأنها شيء مختلق مخترع، والله -تبارك وتعالى- قال: **{وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن}** [سورة الممتحنة:١٢]، المقصود أنها لا تقارف فاحشة فيحصل لها الحمل فتنسب ذلك إلى غير من حملت منه، تنسبه إلى زوجها مثلاً، ويدخل فيه معانٍ أخر قد يشملها ظاهر الآية، مثل التي تتفق مع القابلة الممرضة أنه إذا صار المولود بنت فزوجها يريد أن يطلقها إذا أنجبت بنتاً، فتطلب منها أن تبدلها ولداً، ففي المستشفيات تلد النساء فيه عدد كثير في اليوم الواحد، فما على القابلة إلا أن تضع هذا السوار بيد هذا بدلاً من هذه وتكتب عليه، ومن يسألها بعد ذلك فتبدل لها ذكراً ببنتها، وهذا داخل في قوله: **{وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ}**.

والفري هو الشيء المختلق المفتعل، الأمر الشنيع غير معهود من أهل الصلاح والتقوى، ولهذا قالوا لها: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء.

{يَأُخْتَ هَارُونَ}، أي يا شبيهة هارون في العبادة، {مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بَغِيّاً} أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها: {يَأُخْتَ هَارُونَ} أي أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة.

المعاني التي ذكرها الحافظ ابن كثير رحمه الله في قوله: **{يَأُخْتَ هَارُونَ}**، بأنها كانت من نسله فنسبت إليه كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، هذا من ناحية اللفظ محتمل، ولكن الحديث دل على أن المراد غير هذا فالمغيرة ابن شعبة -رضي الله عنه- لما ذهب إلى نجران وسألوه عن هذه الآية، والنصارى قالوا: يا أخت هارون وبينها وبين هارون مدة طويلة، بعضهم يقدر المدة بنحو ستمائة سنة، فيكف قال: يا أخت هارون فلم يجبهم فلما رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسأله، أخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، إذاً هارون ليس المراد به هارون النبي -عليه الصلاة والسلام-، وإنما رجل صالح في ذلك الوقت يقال له: هارون، عرف بالصلاح والزهد.

فقوله: {يَأُخْتَ هَارُونَ}، أي: يا شبيهة هارون في الزهد والعبادة والتقى والصلاح، وبعضهم يقول: بأنه أخ لها لأبيها، وهذا يحتمل لكن ليس عندنا دليل يثبت هذا، والحديث دل على أنه معاصر لها، وليس المقصود به النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبعض أهل العلم من يقول: إنهم كانوا يقولون لمن كان من أهل الصلاح: هارون، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-.

وقوله: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً} أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها ضانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً}، قال ميمون بن مهران: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ} قالت كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً.

وقال السدي: لما {أشارت إليه} غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها، {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً} أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ}، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: {آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

عبر بالفعل الماضي في قوله: {آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} فبعض العلماء يقول: ليس كذلك عبر بالفعل الماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، وإنما آتاه الله النبوة والكتاب بعد ذلك، كما قال الله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١]، مثل {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة النمل:٨٧] فهذا عن أمر مستقبل عبر به بالماضي وهذا كثيرة في القرآن.

{آتاني الكتاب} يعني حكم لي بذلك بإيتاء الكتاب والنبوة.

قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}[سورة مريم:٣٠] إلى قوله: {مَا دُمْتُ حَيًّا} [سورة مريم:٣١]، وقوله: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ} قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً.

وروى ابن جرير عن وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً، هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله ما الذي أُعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ} وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان.

قوله: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ} "**قال عن مجاهد وعمرو بن قيس والثوري جعلني معلماً للخير**"، وهذا اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بأن تعليم الخير هو البركة، وأن الله -عز وجل- هكذا أيضاً وصف كتابه بأنه مبارك وهو الذي يستقى منه العلم والهدى وما إلى ذلك.

فالذي يعلم الناس الخير هو ينشر الهدى ويحصل به النفع للناس في العاجل والآجل، وجعلني مباركاً هنا يقول: عن مجاهد: "**نفاعاً**" يعني ينفع حيث وجد، وبعضهم قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا من قبيل اختلاف التنوع، من قبيل التفسير بالمثال، فالمبارك من أهل العلم من يقول: إن أصله من بروك البعير، فهو يدل على الثبات والاستقرار، **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً}** أي ثابتاً على دين الله -عز وجل- لا أتلون ولا أتقلب، كل مرة بجلد جديد، ووجه جديد، ورأي جديد، ومذهب جديد، هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول وهم الأكثر: بأن البركة بمعنى النماء، والزيادة فبعضهم يقول: معناه جعلني عالياً في ازدياد أينما كنت، فحيث ما حل فهو في زيادة، وابن القيم رحمه يقول: من استوي يوماه فهو مغبون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو حتماً إلى نقصان، فيزداد في كل يوم جديداً من العمل الصالح والعلم النافع، والعطاء والخير فهذا المبارك، يعني كثير البركة، فنفعه عام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعليم وما يبذله وما يقدمه للناس فيحصل لهم ألوان المنافع، كل هذا داخل فيه.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: في قوله تعالى: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ}**: "قال سفيان ابن عيينة جعلني مباركاً أينما كنت قال: معلماً للخير، وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء، وتعليمه؛ ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركاً كما قال تعالى: **{وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ}** [سورة الأنبياء:٥٠]، وقال: **{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ}** [سورة ص:٢٩]، ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ}** فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى، والدعوة إلى الله"[٢].

والمعنى -والله أعلم- أوسع من هذا، حتى بركة القرآن أوسع من هذا، بركة القرآن ليس فقط في العلم، وإنما حتى في طب الأبدان وما يحصل من البركة للمشتغلين أيضاً به، ولهذا قال بعض أهل العلم: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات، وهذا شيء مشاهد، وإذا أردت أن تعرف أثر القرآن وبركة القرآن انظر إلى مناشط النساء في التحافيظ وما فيها من البركة، الأعمال التي لا تستطيع أن تفسرها إلا ببركة القرآن، وانظر إلى عمل غيرهم، فهذا كتاب مبارك من اشتغل به ودعاء إليه وتعلمه غمرته البركات.

وقوله: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً} كقوله تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[سورة الحجر:٩٩]**، وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً} قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر.**

هذه حجة على أهل القدر، الذين يقولون الإنسان يخلق فعله، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- يخبر عن حاله **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ}**، **{وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً}**، والزكاة بعضهم يقول: هي زكاة المال، باعتبار أن هذا هو الظاهر المتبادل لاسيما إذا قرنت مع الصلاة فإنها تأتي بمعنى زكاة المال، وبعضهم يقول: هي زكاة النفس؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يدخر شيئاً، فيكف يزكي، إلا إذا

---

٢ - مفتاح دار السعادة، للإمام ابن القيم الجوزية (١/١٧٤).

قصد بذلك الصدقة -فالله تعالى أعلم-، أوصاه الله بالصلاة والزكاة إذا كان عنده ما يزكي به، وكون عيسى -صلى الله عليه وسلم- ما كان يدخر شيء هذا من المنقول عن بني إسرائيل -فالله أعلم-.

وقوله: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي} [سورة مريم:٣٢] **أي وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى:** {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [سورة الإسراء:٢٣]، **وقال:** {أَنِ اشْكُرْ لِي} [سورة لقمان:١٤]، **وقوله:** {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً} **أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.**

وقوله: {وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} **إثبات منه لعبوديته لله -عز وجل-، وأنه مخلوق من خلق الله، يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.**

قوله تعالى: {وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}، المقصود به الأمن والدعاء بالسلامة، وأن هذه المواطن الثلاثة أحوج ما يكون الإنسان فيها إلى الأمن، وبعضهم قال المراد به التحية، -والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (٥)

من قوله تعالى"ذلك عيسى ابن مريم" الآية ٣٤إلى قوله تعالى"فتكون للشيطان وليا" الآية٤٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة مريم: (٣٤-٣٧)].

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى -عليه السلام- {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به، وكفر به، ولهذا قرأ الأكثرون قول الحق، برفع قول، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر قولَ الحق، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: ذلك عيسى بن مريم قال الحق، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ} [سورة آل عمران: (٦٠)] **ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: {مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ} أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} أي إذا أراد شيئاً، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** [سورة آل عمران: (٥٩-٦٠)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **ذلك أي الذي قصصناه عليك من خبر عيسى -عليه الصلاة والسلام- قول الحق الذي فيه يتمرون،** ذلك: أي المتصف بهذه الأوصاف المذكورة، أو ذلك الذي {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ} [سورة مريم: (٣٠)] عيسى ابن مريم، يقول: ولهذا قول الحق الذي فيه يمترون أي **يختلف فيه المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به.**

قال: **ولهذا قرأ الأكثرون: {قولُ الحق} برفع {قولُ}، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر: {قولَ الحق}**، فهما قراءتان متواترتان، ووجه النصب: قيل: إنه على المدح، أو مصدر مؤكِّد لقوله: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} قولَ الحقِّ، فيكون "قولَ" مصدراً لقال مؤكِّداً له، أي: قال قول الحق.

وأما وجه الرفع فيمكن أن يكون نعتاً لعيسى -عليه الصلاة والسلام-، ذلك عيسى، وعيسى مرفوع ونعته يكون مرفوعاً، ذلك عيسى قولُ الحق، وعلى هذه القراءة فالله -عز وجل- قال عن عيسى -عليه الصلاة

والسلام- أنه قولُ الحق، ونعته بذلك، وفي موضع آخر نعته بأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فهذه كلها نعوت لعيسى -عليه الصلاة والسلام- وهذا القول في توجيه قراءة الرفع.

وبعضهم يقول بأن التقدير: ذلك عيسى ابن مريم هو قولُ الحق، وهذا من أسهل الوجوه في توجيه هذه القراءة، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: هذا الكلام المذكور هو قولُ الحق، فتكون الإشارة إلى الكلام المذكور، أي: ذلك الكلام هو قولُ الحق، فهو خبر له، ومن حيث المعنى هو وصف للكلام المذكور قبله.

وقول الحق يكون من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل: الصراط المستقيم، فالمستقيم صفة، ومثل: جناح الذل، هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة أيضاً، وكذا الكلام في قول الحق، وهذا توجيه هذه القراءات، والله تعالى أعلم.

يقول: **وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قرأ: (ذلك عيسى ابن مريم قال الحق) والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** [سورة آل عمران: (٦٠)]، **{فلا تكن من الممترين}** يحتمل أن يكون كما قال الله -عز وجل-، يمترون من المراء، وهو الجدل والاختلاف والخصومة، ويحتمل أن يكون من المرية وهي الشك، **{فلا تكن من الممترين}**: يعني من الشاكين في أمر عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} أي: **ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته، فقال: {فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}** أي: **هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم من اتبعه رشد وهُدي، ومن خالفه ضل وغوى.**

قوله: **{وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}** على هذه القراءة يقول: أي: **ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته، قال: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}** القراءة الأخرى المتواترة قراءة أهل المدينة وابن كثير وأبي عمرو: (وأن الله ربي وربكم) بمعنى: ولأن الله ربي وربكم، فعيسى -عليه الصلاة والسلام- خاطبهم فـ: **{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}** [سورة مريم: (٣٠-٣٣)] **{وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}** [سورة مريم: (٣٦)] من جملة الخطاب الذي خاطبهم به، والقراءة الثانية (وأن الله ربي وربكم فاعبدوه) أي: لأن الله ربي وربكم فاعبدوه، وفرق بين المعنيين ظاهر.

وقوله: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ}. أي **اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى -عليه السلام- بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.**

نعم: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [سورة مريم: (٣٦)]، لما خاطبهم بذلك وقع الاختلاف، فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ، فبعضهم يقول: إن "من" هنا زائدة إعراباً، يعني اختلف الأحزاب بينهم يعني فيما بينهم، اختلفوا في شأن عيسى -عليه الصلاة والسلام-، والمقصود بالأحزاب هم الذين أشار إليهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حيث إن عيسى -صلى الله عليه وسلم- بعث إلى بني إسرائيل، فلما جاء -عليه الصلاة والسلام- وخاطبهم بهذا وهو في المهد انقسموا فيه إلى طوائف، فطائفة قالوا: ابن زنا، وهم الذين بقوا على اليهودية، وطائفة آمنت به، والذين ألَّهوه، وقالوا: إنه الله أو أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة هذا وقع بعد ذلك، فما حصل هذا الغلو إلا بعد هذا، {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ}، الفاء تدل على التعقيب المباشر، وأن المباشرة فيها في كل شيء بحسبه، فوقع الاختلاف بينهم مباشرة بعد ما جاءت مريم به، وسمعوا هذا الصبي يتكلم في المهد، -وهذه آية ومعجزة- ومع ذلك اليهود قالوا فيه ما قالوا، فهذا الاختلاف وقع منذ البداية، لكن بعض هذه الطوائف المختلفة فيه وقع لها مقالة وانحراف بعد ذلك بمدة، يعني الذين ألَّهوه أو غلوا فيه أو نحو ذلك المعروف أنه وقع لهم بعد رفع المسيح -عليه الصلاة والسلام-.

وتفرقت أقوالهم في هذا {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ}، يقول: أي: **اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله** ويقول: **فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى إنما تكلم الله**، وهذه الطائفة يقال لها اليعقوبية، وهي طائفة معروفة عند النصارى، لو قرأتم في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ستجدون هذه الطوائف ومعتقداتها، وقال آخرون وهم النسطورية: بل هو ابن الله، وقال آخرون وهم المَلْكية: ثالث ثلاثة، وقال آخرون وهم أهل التوحيد: بل هو عبد الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام-، وهؤلاء لم يكن قولهم هو الذي انتشر وغلب، ولما حصل الاجتماع بين هذه الطوائف لمناقشة شأن المسيح -عليه الصلاة والسلام- في مجمع يقال له: مجمع نيقيا: الذي اعتمد في ذلك هو أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- ثالث ثلاثة، وهذا هو الذي تبناه ملك الرومان لما دخل في النصرانية بعد المسيح بمدة طويلة، وصارت عقيدة النصارى في الغالب هي هذه العقيدة، وبقي أهل الإيمان والتوحيد، يُستضعفون إلى أن بعث الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- فأظهر الله التوحيد، وأذل الله اليهود والنصارى.

على كل حال هذه أقوال الذين اختلفوا فيه كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} [سورة النساء: (١٥٧)]، وهنا قال الله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}، إذا فسر "يمترون" بأنه يجادلون، أو فُسر بالمعنى الآخر أي: يقع لهم فيه المرية والشك، كلاهما محتمل.

وعلى كل حال الآية الأخرى: {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} الله -عز وجل- يخبر عن مكنونات نفوسهم، وأن النصارى ليس لهم ثقة باعتقادهم، فهم في ريب ومرية وشك، وهذا أمر في غاية الأهمية نحتاج إليه؛ لأن هؤلاء ملؤوا الأرض دعوة إلى باطلهم بكل وسيلة مستطاعة، فيُنَصِّرون المسلمين ويُنَصِّرون غير المسلمين، فمعرفة مثل هذه الأشياء وهذه الأمور الخفية التي يخبر الله -عز وجل- عنها هي في غاية الأهمية لمن أراد أن يرد على النصارى ويبين باطلهم.

وقوله: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجَّلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))[1] ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود: (١٠٢)].

وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم))[2] وقد قال الله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [سورة الحج: (٤٨)]. وقال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [سورة إبراهيم: (٤٢)]. ولهذا قال ههنا: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}. أي يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل))[3].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} قال: أي يوم القيامة، هو لا شك أن اليوم العظيم هو يوم القيامة، وقوله: {مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} بعض أهل العلم يقول: أي من شهود يوم عظيم، مشهد بمعنى شهود، وهذا الذي اختاره ابن جرير وطائفة من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، من شهود يوم القيامة لما يكون فيه من الأهوال والأوجال، وبعضهم يفسره: من مشهد يوم عظيم أي: من مكان الشهود فيه، والأول أقرب من هذا، وبعضهم يفسره بقول أبعد من هذين وهو أن مشهد بمعنى شهادة: من شهادة يوم عظيم، على كل حال الأقرب -والله أعلم- أن المقصود بذلك من مشهد يوم عظيم أي: من شهود يوم عظيم، يعني: حضور، تقول: فلان شهد الوقعة بمعنى حضرها.

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [سورة مريم: (٣٨-٤٠)].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} [سورة السجدة: (١٢)]، الآية.

أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، ولهذا قال: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} أي ما أسمعهم وأبصرهم {يَوْمَ يَأْتُونَنَا} يعني يوم القيامة

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة هود (١٧٢٦/٤) برقم: (٤٤٠٩).

[2] - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى (٢٢٦٢/٥) برقم: (٥٧٤٨) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢١٦٠/٤) برقم: (٢٨٠٤).

[3] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...} (١٢٦٧/٣) برقم: (٣٢٥٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا (٥٧/١) برقم: (٢٨).

{لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ} أي في الدنيا {فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

أسمع بهم: ينكشف عنهم الغطاء كما قال الله -عز وجل-: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق: (٢٢)]، فهم بعد أن كانوا في الدنيا كما أخبر الله -عز وجل-: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [سورة البقرة: (٧)]، فهم لا يسمعون سماع انتفاع، ولا يبصرون إبصار انتفاع، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنفال: (٢٣)]، فهم بهذه الصفة وبهذه المثابة من الإعراض، وقد ختم الله على هذه القلوب والأسماع والأبصار، يوم القيامة ينجلي ذلك عنهم وتذهب تلك الغشاوة التي على الأبصار، والختم الذي على الأسماع فيرون الحقائق ماثلة شاهدة أمامهم، لا مرية في ذلك، وفي هذا الحين لا ينفعهم هذا الإبصار والسمع، ولذلك الله -تبارك وتعالى- يقول: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} يعني ما أسمعهم وما أبصرهم، كما تقول للإنسان أكرم به يعني ما أكرمه، وأعظم به يعني ما أعظمه وهكذا، والله -عز وجل- يقول عن نفسه: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف: (٢٦)] يعني ما أبصره وما أسمعه -تبارك وتعالى-.

ثم قال تعالى: {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} أي أنذر الخلائق يوم الحسرة {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ} أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، {وَهُمْ} أي اليوم {فِي غَفْلَةٍ} عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة {وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} أي: لا يصدقون به.

{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} يقول: **أي أنذر أي للخلائق يوم الحسرة إذ قضي الأمر أي فصل بين أهل الجنة، والنار**، يوم الحسرة هو يوم القيامة، يتحسر فيه الإنسان المسيء على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الإحسان، فالإنسان في ذلك اليوم إن كان من أهل الإحسان يتمنى لو أنه ازداد، وإن كان من أهل الإساءة يتمنى لو أنه تاب وارعوى وأقصر عن الذنوب والمعاصي والخطايا، ولهذا سمى الله -تبارك وتعالى- ذلك اليوم يوم الحسرة، كما أنه أيضاً يقال له: يوم التغابن لما يقع فيه من التغابن الشديد بين الناس، فهذا ضيع عمره فيما يورثه مقعداً من النار، وهذا قضى عمره وأنفقه وما أعطاه الله -عز وجل- في سبيل أن يرث معقداً في الجنة، فإذا دخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار فإنهم يتوارثون المقاعد فيها أيضاً، فأهل الجنة يرثون مقاعد أهل النار في الجنة والعكس كذلك.

{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} قضي الأمر: قال: **يعني فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كلٌ إلى ما صار إليه**، وهنا يحصل التحسر الحقيقي العظيم لأهل التفريط والكفر والمحادة لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام، فحينما يدخل أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ عندئذٍ يذبح الموت بين الجنة والنار، وينادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت[٤]، وهذا يكون شديد الوقع على النفوس، ويقع بسببه من الاغتمام والتحسر ما لا يقادر قدره، والله المستعان.

---

٤ - صحيح البخاري كتاب التفسير، باب وأنذرهم يوم الحسرة (٤/١٧٦٠) برقم: (٤٤٥٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/٢١٨٨) برقم: (٢٨٤٩).

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟، قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت - قال - فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت))[٥].

ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} وأشار بيده ثم قال: ((أهل الدنيا في غفلة الدنيا)) هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ولفظهما قريب من ذلك.

وعن عبد الله ابن مسعود في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة، فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحاً كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة، فتأخذهم الحسرة، قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال لهم: لولا أن الله منَّ عليكم.

وقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

روى ابن أبي حاتم عن حزم بن أبي حزم القطعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حفظه: إنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} [سورة مريم: (٤١-٤٥)].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ} واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن، الذين هم من ذريته ويدَّعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: {يَأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً} أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ}، الواو عاطفة فهذا معطوفٌ، -والله تعالى أعلم- على ما قبله، وهو قوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}، أنذرهم يوم الحسرة، واذكر في الكتاب إبراهيم، يعني واتل على

---

[٥] - مسند أحمد بن حنبل برقم: (١١٠٦٦)، وقال محققوه شعيب الأرناؤوط وآخرون: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

قومك هؤلاء نبأ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ} [سورة الشعراء: (٦٩)] فهو مفسر به، {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا}، هذه صفة لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهي معترضة والتقدير: واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه: يا أبت، هذا هو المتلو، لكن هذا من وصف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا} و"إنَّ" هذه تدل على التوكيد، كما أنها تدل أيضاً على التعليل، كأنه يقول: واتل عليهم نبأ إبراهيم؛ لأنه كان صديقاً نبياً، تتلو عليهم خبره، إذ قال لأبيه، هذا هو خبر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو ما وقع له مع أبيه ومع قومه، وقوله: {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا} هذه صيغة مبالغة، فهي تدل على كمال الصدق والتصديق، فالصدِّيقية منزلة عالية لمن كمل صدقهم وتصديقهم، وأبو بكر -رضي الله عنه- يلقب بالصدِّيق لهذا، والله -عز وجل- قال عن مريم: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [سورة المائدة: (٧٥)]، ويقول: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سورة النساء: (٦٩)]، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان متصفاً بذلك مع ربه -تبارك وتعالى-، فالله ابتلاه {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} [سورة البقرة: (١٢٤)]، فهذا من تصديقه مع ربه جل جلاله، ولما أمره بذبح ولده ووحيده صدَّق ذلك، فكما قص الله خبره أنه سلم لله -تبارك وتعالى- وقال لابنه: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [سورة الصافات: (١٠٢)]، وهذا لا شك أنه كما وصفه الله -عز وجل- بلاء مبين، وهكذا -عليه الصلاة والسلام- حينما نابذ قومه وترك الأهل والوطن والعشيرة، والهجرة في سبيل الله هي من أجلى وأعلى صور الولاء والبراء من المشركين بالهجرة عنهم ومفارقة الأوطان، فترك أهله ووطنه وعشيرته لله وفي الله، هذا من كمال تصديقه مع ربه جل جلاله.

إضافة إلى كماله صدقه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات))[6]، وهذا فسره أهل العلم، وقالوا: بأن ذلك كله على سبيل التعريض والتورية، وعلى كل حال فمن كمل في الصدق مع الله جل جلاله وفي كمال الإيمان ونحو ذلك وكان أيضاً صادق اللهجة كما فسره بعض السلف، صادقاً في القول في كلامه، وخبره وإخباره، فهذا يقال له صديق.

أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- ما ذكر له أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال شيئا إلا قال: صدق، وفي قصة المعراج لما جاؤوا إليه فقال: إن كان قال فقد صدق، فلقب بالصديق؛ لكثرة تصديقه للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالإضافة أيضاً إلى صدقه في القول، وجاء في صفته: أنه ما زاد عليهم بفضل صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلبه، ولهذا أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه وزن بالأمة غير النبي -عليه الصلاة والسلام- فرجح أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-، فهذا معنى الصديق الكامل في التصديق، والكامل في الصدق.

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ} يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد أُطْلِعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا أُطْلِعتَ عليه ولا جاءك {فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ

---

[6] - صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلا}[النساء: ١٢٥] (٣/١٢٢٥) برقم: (٣١٧٩).

الشَّيْطَانَ}. أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [سورة يس: (٦٠)]. **وقال: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا}** [سورة النساء: (١١٧)].

وقوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله، {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ} أي على شركك وعصيانك لما آمرك به {فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النحل: (٦٣)].

في قوله -تبارك وتعالى- عن قيل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: **{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ}** إني أخاف: الخوف يأتي بمعنى العلم، ويأتي بمعنى توقع المكروه من غير جزم، يقول الإنسان: أخاف أن يحصل كذا، أخاف على فلان ونحو هذا، فهو بمعنى توقع المكروه، ومن إطلاقه بمعنى العلم قول أبي محجن الثقفي رضي الله عنه في قصته المعروفة وكان يشرب الخمر وكان مما يقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة -يعني شجرة عنب- ** تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فإنني ** أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

يقول: أخاف إذا ما مت ألا أذوقها، فهو يعلم يقينا أنه إذا مات لن يشرب الخمر، فهذا بمعنى العلم، فهنا من أهل العلم من فسره بهذا، قال: يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن، فهو متيقن، ويعلم أنه إذا مات على الكفر، فإنه سيقع له ذلك لا محالة، فقالوا: إن قوله: أخاف، بمعنى العلم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، إني أخاف أي: أعلم، وبعض أهل العلم فسره بالخوف بمعنى توقع المكروه، وهل كان إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لا يوقن أنه إذا مات أنه سيناله العذاب؟ قالوا بأنه قال ذلك؛ لأنه لا يدري بماذا يختم له، فكان يرجو إيمانه، ولهذا قال له فيما بعد: **{سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}** [سورة مريم: (٤٧)]، وعده بالاستغفار، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}** [سورة التوبة: (١١٤)]، فهذه هي الموعدة **{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ}** أي: يموت على الكفر **{تَبَرَّأَ مِنْهُ}** وقد تحقق دعاؤه لأبيه هذا الذي وعد به حينما قال: **{سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}** فقال: **{وَاغْفِرْ لِأَبِي}** [سورة الشعراء: (٨٦)]، فهذا دعاء متحقق من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بناء على هذا الوعد، وتعليله أنه كان يرجو إيمانه ولكن لما تبين له ذلك تبرأ منه.

فالذين فسروه بهذا التفسير: إني أخاف بمعنى توقع المكروه، قالوا بهذا الاعتبار أنه ما كان يعلم بماذا يختم له، فلما علم ذلك تبرأ منه.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}**، يقول: **يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصر ولا مغيث إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء**، بعض أهل العلم يقول: أي: تابعاً، وبعضهم يقول: بمعنى أنك تكون قريباً منه في المآل والنتيجة والعاقبة وهي دخول النار، وبعضهم يقول: أي: تلقى نفس المصير

حيث تشترك معهم في العذاب واللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله -تبارك وتعالى- ودخول النار، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم رقم (٧)

من قوله تعالى"واذكر في الكتاب" الآية ٥٤ إلى قوله تعالى"من كان تقيا" الآية ٦٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [سورة مريم: (٥٤-٥٥)].

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد.

قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها.

وقال بعضهم: إنما قيل له: {صَادِقَ الْوَعْدِ} لأنه قال لأبيه: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[سورة الصافات: (١٠٢)]. **فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [سورة الصف: (٢-٣)].

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان))[1] ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صادق الوعد –أيضاً- لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب -رضي الله تعالى عنها-، فقال: ((حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي))[2] ولما توفي النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الخليفة أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-: من كان له عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عدة أو دين فليأتني أنجز له، فجاء جابر بن عبد الله فقال إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا))[3] يعني ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها.

بسم الله الرحمن الرحيم

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم: (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق برقم: (٥٩).

[2] - رواه البخاري، كتاب الخمس، باب ما ذكر من درع النبي صلى الله عليه و سلم وعصاه وسيفه وقدحه، برقم: (٢٩٤٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام برقم: (٢٤٤٩).

[3] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}[آل عمران: ٢٨] برقم: (٢١٧٤).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من المرويات عن ابن جريج: **أنه لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، وقال بعضهم: لأنه قال لأبيه:** {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}، وعلى كل حال هذا كله داخل في هذا المعنى، فهو الصادق الوعد مع ربه تبارك وتعالى، وكذلك هو الصادق الوعد مع الخلق.

والله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ} [سورة المائدة: (١)]، سئل الإمام أحمد -رحمه الله- كيف نعرف الكذابين؟ فقال: بمواعيدهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر آية المنافق ذكر من ذلك: ((إذا وعد أخلف))، والواقع أن هذه الأمور التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- في صفة المنافق ترجع إلى الكذب، بل إن النفاق برمته يرجع إلى الكذب، فالكذب كما يكون في الأقوال كذلك يكون في الأفعال وفي الحال بأن يظهر حالاً ليست حقيقية، لا تدل على ما في باطنه فهو كذب في الحال، وعلى كلٍّ هذه الأشياء جمعياً داخلة في هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا} في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق عليهما الصلاة والسلام؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل))[٤] وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه -عز وجل-، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [سورة طه: (١٣٢)] **الآية، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [سورة التحريم: (٦)] **أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)) أخرجه أبو داود[٥] وابن ماجه[٦].**

قوله -تبارك وتعالى-: وكان يأمر أهله بالصلاة: مثل هذا التركيب: الفعل المضارع المسبوق بفعل الكون الماضي: كان يأمر، كان يفعل، يدل على المداومة والتكرار والملازمة للشيء، فكان يفعل ذلك بصورة

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم: (٣٦٠٥) وقال الألباني: تمام الحديث صحيح دون هذا الاصطفاء.

٥ - رواه أبو داود، أبواب الإمامة، باب قيام الليل، برقم: (١٣٠٨) وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (٣٤٩٤).

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، برقم: (١٣٣٦).

مستمرة، يفعله حيناً بعد حين، {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ} [سورة الجن: (٦)]، هذا من عادتهم وديدنهم {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} [سورة الجن: (٤)]، وما شابه ذلك.

وأما قوله: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ} يحتمل أن يكون المراد بالزكاة زكاةَ المال، وأن هذه الأمور كانت مشروعة عندهم، وإن اختلفت تفاصيلها في هذه الشريعة، والقرينة الدالة على ذلك هو الاقتران مع الصلاة، فإن الغالب في القرآن هو اقتران الصلاة مع الزكاة، إذا كانت متعلقة بالمال، ويحتمل أن يكون المراد بذلك تزكية النفس والتطهير لها من أدران الشرك والمعاصي، والله تعالى أعلم.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} [سورة مريم: (٥٦-٥٧)] **ذكر إدريس -عليه السلام- بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.**

قال سفيان عن منصور عن مجاهد: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} قال: السماء الرابعة، قال الحسن وغيره في قوله: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} قال: الجنة.

الحديث الثابت الصحيح في ليلة الإسراء في الرواية المشهورة أنه كان في السماء الرابعة[٧]، خلافاً لما جاء في بعض الروايات كرواية شريك، وما جاء أيضاً من المرويات الأخرى عن بعض السلف، فإن مثل هذا لا يعارض به هذه الرواية الصحيحة الثابتة، فهو في السماء الرابعة.

وبعضهم يذكر غير هذا من المنقول عن بني إسرائيل من رفعه بين جناحي الملَك، وأنه طلب من الملَك لما استأذن الملك ربه أن يأتي إليه، وقال له: سلني حاجة فطلب منه حاجة إلى ملَك الموت، وأنه قال له: أما الأجل فلا يتقدم ولا يتأخر، فالشاهد يقولون: أنه رفعه بين جناحيه وصعد به، وكلام من هذا القبيل لا حاجة إلى سرده، وكل ذلك لا يثبت، وبعضهم يقول: ورفعناه مكاناً عليا أي: في الجنة، وبعضهم يقول: في منزلته وقدره ودرجته وما إلى ذلك.

وتفسيره بأنه في السماء الرابعة قال به كثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، وإدريس -عليه الصلاة والسلام- كثير من المؤرخين يقولون: إنه كان قبل نوح، وليس هذا محل اتفاق، وأن اسمه: "أخنوخ" هكذا زعموا، ويقولون: إن نوح هو ابن لامك ابن متوشلخ ابن أخنوخ، فهو أبو جد نوح، هكذا قالوا، ومثل هذا يذكر في بعض كتب التفسير وبعض كتب التاريخ ولكن لا دليل عليه، ونحن نعلم أن أول نبي هو آدم -صلى الله عليه وسلم-، وأول رسول في المشهور هو نوح -عليه الصلاة والسلام-، وإذا قيل بأن إدريس -عليه الصلاة والسلام- كان قبل نوح والله -تبارك وتعالى- يقول: واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً لم يذكر رسالته فيكون نُبِّئَ بعد آدم -عليه الصلاة والسلام- على خلاف بين المؤرخين بعضهم يقول أنه أدرك من حياة آدم -عليه الصلاة والسلام- ويكون أول رسول هو نوح، والناس كما في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- كانوا على التوحيد عشرة قرون، فيكون إدريس -عليه الصلاة والسلام- في تلك الفترة في ذلك الوقت الذي كانوا فيه على التوحيد فلم يرسل إلى قوم كافرين، وذكرنا في الضابط الذي ذكره شيخ الإسلام

---

[٧] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج برقم (٣٦٧٤).

في الفرق بين النبي والرسول أن الرسول هو الذي أرسل إلى قومٍ كافرين، والنبي يكون مقررا لشريعة نبي قبله يجدد لهم دينهم، والله تعالى أعلم.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [سورة مريم: (٥٨)] **يقول تعالى: هؤلاء النبيون- وليس المراد المذكورين في هذه السورة، فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس- {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ} الآية.**

قال السدي وابن جرير -رحمه الله-. فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

هذا الذي ذكره قال به جماعة من أهل العلم، وهو تقسيم حسن، يعني أن الله -تبارك وتعالى- يقول: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا}**، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا جمعياً من ذرية نوح، فآدم -عليه الصلاة والسلام- نبي، وليس من ذرية نوح قطعاً، وإذا قيل بأن إدريس كان قبل نوح عليهما الصلاة والسلام، فليس من ذرية نوح، وهكذا هود وصالح عليهما الصلاة والسلام ليسا من ذرية إبراهيم، فهذا التقسيم بهذه الطريقة يشمل الأنبياء، فيكون هؤلاء قُسِّموا بهذا الاعتبار، فقوله: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ}** يكون إدريس بهذا الاعتبار مذكوراً، إذا قلنا أنه قبل نوح.

بعد ذلك، قال: **{وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}**، الله جعل ذرية نوح هم الذين تناسل الناس منهم وبقوا، وإلا فإن غيره ممن ركب معه على خلاف في من ركب وعدد من ركب، انقرض نسلهم، فأولاد نوح عليه الصلاة والسلام هم الذين وجد منهم العالم بعد ذلك.

قال أن من نسل نوح إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، **والذي عني به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى** إلى آخره. هذا التقسيم جيد.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام.

وهذا ليس محل اتفاق -كما ذكرت- أن إدريس -عليه الصلاة والسلام- قبل نوح، وكثير من المؤرخين يقولون بأن الأهرام الذي بناها إدريس -عليه الصلاة والسلام-، وأنه كان قبل نوح، وأنها كانت قبل الطوفان، وأنه لو كانت بعد الطوفان لعرف خبرها، وتاريخها، والتفاصيل المتعلقة بها، فلما لم يوقف على ذلك قالوا بأنها كانت قبل الطوفان، وهم لا يعرفون التاريخ قبل الطوفان، هكذا قال كثير منهم، ومن شاء فليراجع في هذا أمثال كتاب السيوطي: حسن المحاضرة، وكذلك في مثل كتاب الخطط المقريزي.

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا

هَدَيْنَا من قَبْلُ وَمن ذُرِّيَّته دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالحينَ * وَإِسْمَاعيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمينَ * وَمنْ آبَائهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ وَإِخْوَانهمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صرَاط مُّسْتَقيم}[سورة الأنعام: (٨٣-٨٧)] إلى قوله: {أُوْلَئكَ الَّذينَ هَدَى اللّهُ فَبهُدَاهُمُ اقْتَدهْ} [سورة الأنعام: (٩٠)] وقال -سبحانه وتعالى-: {منْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [سورة غافر: (٧٨)]. وفي صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: أفي {ص} سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: {أُولَئكَ الَّذينَ هَدَى اللَّهُ فَبهُدَاهُمُ اقْتَدهْ} فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قال: وهو منهم[٨]، يعني داود.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكيّاً} أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {خَرُّوا سُجَّداً وَبُكيّاً} يقول: **البكي جمع باكٍ**، وبعض أهل العلم -كالخليل بن أحمد- فرق بين البكا من غير همز والبكاء مع الهمز، وقال: البكا لا يكون بالصوت، فيكون من قبيل الغم والحزن، وأما البكاء فهو البكاء المعروف، يكون بصوت والله أعلم، وكثير من أهل اللغة والمفسرين يقولون البكا والبكاء واحد.

{فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَملَ صَالحًا فَأُوْلَئكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا}[سورة مريم: (٥٩-٦٠)]

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر أنه {خَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ} أي: قرون أخر {أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ} وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غياً، أي: خساراً يوم القيامة.

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله: {فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ} قال: أي أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً، وعن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن {الَّذينَ هُمْ عَن صَلَاتهمْ سَاهُونَ}[سورة الماعون: (٥)] و{عَلَى صَلَاتهمْ دَائمُونَ} [سورة المعارج: (٢٣)] و{عَلَى صَلَاتهمْ يُحَافظُونَ} [سورة المعارج: (٣٤)] فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال ذلك الكفر، قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن.

---

[٨] - رواه البخاري كتاب التفسير، سورة الأنعام (٤/١٦٩٥) برقم: (٤٣٥٦)

وقال الأوزاعي عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} خلف: بعض أهل العلم يقولون: الخلْف والخلَف بمعنى واحد، وبعضهم يفرق بينهما، واختلفوا في الفرق، فبعضهم يقول: بأن الخلْف هو الخلَف السيئ، والخلَف هو الخلَف الطيب، وبعضهم يفرق بينهما من جهة أن أحد هذين اللفظين يطلق على ما كان من ولد الإنسان وعقبه، والآخر يطلق على من كان تابعاً له، وعلى كل حال خَلَف من بعهدهم خلْف: خلَف سيئ، والمراد بهؤلاء: قيل: اليهود، وقيل: اليهود والنصارى، وقيل غير هذا، والآية: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى} ثم قال: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} خلف من بعد هؤلاء من الذين جاؤوا بعد هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم من تبعهم ممن يزعم أنه من أتباعهم من اليهود والنصارى، فجاءت قرون بعد ذلك وأجيال، كما وصف الله -تبارك وتعالى-، وإذا كان هذا الوصف المذموم وقع أولئك فيه والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[9]، فإن مما شابهت به هذه الأمة اليهود والنصارى تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فهذا وقع في هذه الأمة أيضاً، وإذا كان أولئك قد توعدهم الله -عز وجل- بهذا الوعيد {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}، فإن هذا أيضاً يتوجه إلى من ضيعها من هذه الأمة، وهذا التضييع: كثير من السلف يقولون: ضيعوا أوقاتها، ويؤخرونها عن وقتها، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن ذلك التضييع بمعنى الترك، وأن هذا الوعيد لمن تركها، ويستدل على هذا بقوله بعده، {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ} [سورة مريم: (٦٠)]، قال: تاب وآمن، فهذا كافر، وهو الذي لا يصلي بالكلية، ولو كان يؤخرها عن وقتها لما قال: إلا من تاب وآمن، وعلى كلٍّ الجمهور على أن المقصود تضييع الأوقات، وابن القيم -رحمه الله- يحمل الآية على الجميع؛ فكل هذا تضييع، فمن تركها بالكلية فقد ضعيها، ومن ضيع مواقيتها وفرط فيها حتى خرج الوقت فهو مضيعٌ لها، وهكذا من أخل بواجباتها وأركانها وشروطها فهو مضيع لها، وكل هذا من التضييع.

وقوله: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} أي: خسراناً، وقال قتادة: شراً، وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} قال: وادٍ في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم، وقال الأعمش عن زياد عن أبي عياض في قوله: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} قال: **وادٍ في جهنم بعيد القعر، وقال الأعمش عن زياد بن أبي عياض قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم،** والعرب تطلق الغيّ على الشر، كما تطلق الرشاد على الخير،

---

[9] - رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، بـرقم: (٦٨٨٩).

ويقولون عن الضلال بأنه غي، وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، فإن الذي يكون مآله إلى وادٍ في جهنم لا شك أن يكون قد لقي شراً، {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} يلقون شراً، يصيرون إلى وادٍ في جهنم، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً} وذلك لأن التوبة تجبُّ ما قبلها، وفي الحديث الآخر: ((التائب من الذنب كمن لا ذنب له))[١٠]، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدراً، وترك نسياً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [سورة الفرقان: (٦٨)] **إلى قوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [سورة الفرقان: (٧٠)].

{جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا} [سورة مريم: (٦١-٦٣)].

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن، أي: إقامة، التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ}**، قوله: بالغيب في محل نصب على الحال، وهي إما أن تكون حالاً من **{جنات}**، أو من **{عباده}** فعلى الأول فالمعنى: جنات عدن التي وعد الرحمن عباده متلبسة بالغيب، فهي من أمر الغيب لم يطلعوا عليها، ولم يروها، وعلى الثاني: فالمعنى: جنات عدن التي وعد الله عباده متلبسين بالغيب، والأول هو الأقرب، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، فهذه الجنات هي من أمر الغيب، وعدهم الله -عز وجل- بها ولم يروها ووصفها لهم.

وقوله: {إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً} تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: {كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [سورة المزمل: (١٨)] **أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا: {مَأْتِيّاً} أي: العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال: {مَأْتِيّاً} بمعنى آتياً؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليَّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.**

والمشهور هو الأول أن مأتيا بمعنى: أنهم يأتونه، ويصيرون إليه، وهذا المعنى هو الذي عليه عامة أهل اللغة وأهل التفسير، بل قد صرح بعضهم بضعف المعنى الثاني، كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، يضعف المعنى الثاني أن مأتيا بمعنى آتياً.

وقوله: {لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً} أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا، وقوله: {إِلاَّ سَلاَماً} استثناء منقطع كقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة: (٢٥-٢٦)].

---

[١٠] - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/١٤١٩) برقم: (٤٢٥٠) وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع رقم (٣٠٠٨).

الاستثناء المنقطع عرفناه ومر في مواضع متعددة، كقوله -تبارك وتعالى-: {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [سورة النساء: (١٥٧)]، اتباع الظن ليس من قبيل العمل وسبق في الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} [سورة البقرة: (٣٤)]، وإبليس ليس من جنس الملائكة وهكذا في قوله: {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [سورة الليل: (١٩-٢٠)].

وذلك ليس مما قبله، وهكذا في قوله: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [سورة الدخان: (٥٦)]، فالموتة الأولى ليست من جنس الموت المذكور، فالموتة الأولى ليست في الآخرة، وهكذا أيضاَ في مثل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [سورة النساء: (٢٩)]، التجارة ليست من أكل الأموال بينهم بالباطل إلى غير ذلك، قد مضى مراراً، على كل حال في قوله -تبارك وتعالى-: {إِلاَّ سَلاَماً} أحسن ما يفسر به والله تعالى أعلم هو ما ذكر بعده {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} ومعنى القيل: القول، سلاماً سلاما، وذلك أن الله يسلم عليهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يس: (٥٨)]، وتسلم عليهم الملائكة، {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم} [سورة الرعد: (٢٣-٢٤)]، وهكذا يسلم بعضهم على بعض كما قال الله -تبارك وتعالى-: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب: (٤٤)] {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} [سورة إبراهيم: (٢٣)] يحيي بعضهم بعضاً، وما يُحيَّون به هو هذا السلام، وبعضهم نظر إلى معنى السلام، فقال: السلام هو اسم جامع للخير، فهو متضمن للسلامة، وهذا يعني أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم أو شيئاً يزعجهم، وإنما يسمعون ما يحصل به لهم اللذة والراحة والسرور والحبور والطمأنينة وما أشبه هذا.

والذي تدل عليه الآيات في القرآن أنهم يسمعون السلام الذي هو التحية، وذلك ليس من اللغو في شيء، فهذا من قبيل الاستثناء المنقطع، واللغو كل كلام باطل لا قيمة له، كل كلام لا نفع فيه ولا طائل تحته فهو لغو، فيدخل فيه الكلام المحرم، ويدخل فيه أيضاً الكلام الذي لا ينتفع به، وهذا يدل على أن من النعيم وراحة القلب أن يعرض الإنسان وينزه سمعه وقلبه عن سماع الكلام الباطل وعن سماع ما لا ينفع، لا يشتغل بما لا ينفع ولا يرخي سمعه لكل من تكلم، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء: (٣٦)].

وقوله: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} أي: في مثل وقت البكرات، ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما روى الإمام أحمد[11] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم، الذهب والفضة، ومجامرهم الألوَّة، ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا)). أخرجاه في

---

[11] - مسند أحمد بن حنبل: (١٣/ ٥٢٠) برقم: (٨١٩٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

الصحيحين[12].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)) تفرد به أحمد[13]**، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} قال: مقادير الليل والنهار.**

قوله: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}، **قال الضحاك عن ابن عباس قال مقادير الليل والنهار**، يعني أن ذلك تقديراً باعتبار أنه لا يوجد شمس في الجنة ولا يوجد فيها بكرة ولا عشي، وإنما ذلك مقادير البكرة والعشي يأتيهم فيها رزقهم، وعلى كل حال العرب تعبر بهذا، فيقولون: بكرة وعشيا، يأتيه في الغدو والآصال، في البكور والعشي، وما أشبه ذلك، يعني أن ذلك شيء يتعاقب ويستمر ويدوم ويتكرر، وإن لم يقصدوا بذلك هذا الوقت بالذات، فيقولون: يأتي فلان في الغدو والعشي أو في البكور والعشي، أي: أن مجيئه دائمٌ مستمر متكرر، {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} أي: أن ذلك يحصل تكرره وتتابعه بلا انقطاع.

هكذا العرب تعبر عن هذا المعنى، والقول الآخر الذي ذكره هو مقارب لهذا، أن هذا بهذا التقدير، أي: أوقات الغدو أو البكور، والبكور هو في أول النهار كما هو معلوم، والعشي ما يكون بعد الزوال.

قال الشنقيطي -رحمه الله- تعالى في كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: "وقوله في هذه الآية الكريمة {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: ما وجه ذكر البكرة والعشي، مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها، وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة:

الأول: أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن، كقوله: {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ: ١٢] **أي قدرها شهر. وروي معنى هذا عن ابن عباس –رضي الله عنهما-، وابن جريج وغيرهما.**

الجواب الثاني: أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غداءً وعشاءً فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغبة لهم، وإن كان في الجنة أكثر من ذلك.

هذا معنى آخر أن هذه التعبير عن النعيم على طريقة العرب أن من وجد هذا وهذا فهو في سعة ونعيم ورغد، يقال: فلان يأتيه رزقه غدوة وعشيا يعني: مكفي.

الجواب الثالث: أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل: أنا عند فلان صباحاً ومساءً، وبكرة وعشياً، يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.

الجواب الرابع: أن تكون البكرة هي الوقت الذي قبل اشتغالهم بلذاتهم، والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم، لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال، وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول.

هذا الآن في الجنة، اشتغال باللذات في الجنة، وبعد الاشتغال بها، لكن ما قبله أوضح منه.

---

[12] - رواه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (١١٨٥/٣) برقم: (٣٠٧٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، برقم: (٢٨٣٤).

[13] -مسند أحمد بن حنبل (٢٢٠/٤) برقم: (٢٣٩٠)، وقال محققوه: "إسناده حسن، ابن إسحاق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح".

الجواب الخامس: هو ما رواه الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة، قالا: "قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: "وما يهيجك على هذا "؟ قال: سمعت الله تعالى يذكر: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}، فقلت: الليل بين البكرة والعشي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هناك ليل، إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة" انتهى"[١٤].

هذا لا يثبت.

وقوله: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً} أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله -عز وجل- في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنون: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: (١-٢)] **إلى أن قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [سورة المؤمنون: (١٠-١١)].

في قوله -تبارك وتعالى-: **{تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً}** الإيراث: الذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود أن الله -تبارك وتعالى- يدخلهم الجنة ويسكنهم إياها، فذلك هو الإيراث، وكما نقول نحن بأن الله -عز وجل- أورثنا الأرض، ويأتي الإيراث أيضاً بمعنى أن يحصل للإنسان ما كان لغيره، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا}** [سورة الأحزاب: (٢٧)].

وكذلك يقال المواريث بأن فلان قد ورث مال فلان، وابن جرير رحمه يرى أن المذكور في الآية هو بهذا المعنى، باعتبار أن ما يحصل لأهل الجنة إنما هو نوع من التوارث، مع أن أهل الجنة يسكنون، ويأتون إلى منازلهم في الجنة، لكنه نظر إلى أنهم يتوارثون منازل أهل النار في الجنة كما دل عليه الحديث.

كل واحد له منزل في الجنة ومنزل في النار، فأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنة التي في النار، وأهل الجنة يتوارثون منازل أهل النار التي في الجنة، فحملها على هذا المعنى، ولكن هذا لا يخلو من إشكال، وذلك أنه عبر عن إدخالهم الجنة وسكناهم الجنة بالتوارث وهذا التوارث الذي يحصل إنما هو لون من ألوان السعة التي تكون لأهل الجنة وما يحصل لهم من العطاء والنعيم، إضافة إلى ما يكون لهم ابتداء، يتوارثون أيضاً منازل أهل النار التي في الجنة.

فكيف يحمل عليه معنى هذه الآية، فلا يخلو من الإشكال، ولذلك عامة المفسرين يفسرونه بأنه دخول الجنة هو إيراثهم الجنة، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يناقش هذا القول الذي أشرت ورجحه ابن جرير ويرده، وله كلام جيد في هذا.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً}[١٥].

الإشارة في قوله: {تلك}، إلى ما تقدم من قوله: {فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ...} الآية، وقد بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من

---

١٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/٤٧٠).

١٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/٤٧١-٤١٢).

عباده جنته، وقد بين هذا المعنى أيضاً في مواضع أخر، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: (١-٢)] إلى أن قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة المؤمنون: (١٠-١١)]، وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} الآيات [سورة آل عمران: (١٣٣)]، وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا..} الآية [سورة الزمر: (٧٣)]، وقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف: (٤٣)]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعنى إيراثهم الجنة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور. قال الزمخشري في الكشاف: نورث أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال الموروث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم، وثمرتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى. انتهى.

وقال بعض أهل العلم: معنى إيراثهم الجنة أن الله تعالى خلق لكل نفس منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله ليزداد سرورهم وغبطتهم، وعند ذلك يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [سورة الأعراف: (٤٣)].

وكذلك يرى أهل النار منازلهم في الجنة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[سورة الزمر: (٥٧)].

ثم إنه تعالى يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، فيرثون منازل أهل النار في الجنة، وهذا هو معنى الإيراث المذكور على هذا القول.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

ذكر قول ابن جرير والآن يرد عليه.

قد جاء حديث يدل لما ذُكر من أن لكل أحد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، إلا أن حمل الآية عليه غير صواب؛ لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم لمعدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالى: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف: (٤٣)]، ونحوها من الآيات، ولو فرضنا أنهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار.

والواقع بخلاف ذلك كما ترى، والحديث المذكور هو ما رواه الإمام أحمد في المسند[١٦]، والحاكم في المستدرك[١٧] من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون عليه حسرة)) اهـ.

---

[١٦] - مسند أحمد بن حنبل: (١٦/ ٣٨٢) برقم: (١٠٦٥٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط البخاري".

[١٧] - المستدرك على الصحيحين: (٢/٤٧٣) برقم: (٣٦٢٩).

وعلم في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة، وقال شارحه المناوي: قال الحاكم صحيح على شرطهما وأقره الذهبي، وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح اهـ.

نعم على كل حال الإيراث يأتي بمعنى هذا وهذا، والأقرب والله أعلم أن يفسر هنا بمعنى إدخال الجنة، وسكنى الجنة فهذا هو الأقرب في تفسيرها والعلم عند الله -عز وجل-، وإن كان الإيراث يأتي بمعنى تحصيل الإنسان ما كان لغيره كالمواريث ونحو ذلك، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا} [سورة الأحزاب: (٢٧)].

طالب: تحرير محل النزاع: يعني ابن جرير -رحمه الله- يقول: يرثون بيوت أهل النار، والشنقيطي وغيره رحم الله الجميع يقولون: أنهم لهم بيوت معدة، ما المانع من أن يقال: الآية تشمل ذلك كله؟

لا الكلام في سبب التعبير بالإيراث فابن جرير حملها على أنه أن يحصل الإنسان ما كان لغيره، حملها على هذا المعنى فقال: عبر بهذا نورث بمعنى أنهم يرثون منازل أهل النار، وأهل الجنة يدخلون الجنة كما قال: {أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]، ومن زيادة نعيمهم أنهم يرثون منازل أهل النار.

فتفسير {نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} بأنهم يتوارثون منازل أهل النار، لا يخلو من هذا الإشكال.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم رقم: (٩)

من قوله تعالى"وإذا تتلى عليهم آيتنا" الآية ٧٣ إلى قوله تعالى"ونرثه ما يقول ويأتينا فردا" الآية ٨٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} [سورة مريم: (٧٣-٧٤)].

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم {خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} أي: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث أي: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟.

وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبراً عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [سورة الأحقاف: (١١)]. **وقال قوم نوح: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}** [سورة الشعراء: (١١١)]، **وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}** [سورة الأنعام: (٥٣)].

ولهذا قال تعالى راداً على شبهتهم: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ} أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم {هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ومناظر وأشكالاً وأمتعة.

قال الأعمش وعن أبي ظبيان عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} قال: المقام المنزل، والنَّدِيُّ: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: المقام: المسكن، والنَّديُّ: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [سورة الدخان: (٢٥-٢٦)]. **فالمقام: المسكن والنعيم، والنَّديُّ والمجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ}** [سورة العنكبوت: (٢٩)]. **والعرب تسمي المجلس النادي.**

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً}**، **{خَيْرٌ مَّقَاماً}** هذه الكلمة فيها قراءتان متواترتان، قرأها ابن كثير بضم الميم، **{خَيْرٌ مُّقَاماً}**،

وقراءة الجمهور: {خَيْرٌ مَّقَاماً}، وبعض أهل العلم يقول: إن القراءتين بمعنى واحد، وبعضهم يقول: إن قراءة الضم: {خَيْرٌ مُّقَاماً} أي مكان الإقامة.

وقراءة الفتح: {خَيْرٌ مَّقَاماً} يعني: منزلةً ومسكناً، وقوله: {أَيّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} فسره فقال: **المقام: هو المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه،** {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} [سورة العنكبوت: (٢٩)]، يعني: النادي وهو المكان أو المنتدى، أو المجلس الذي يجتمعون ويجلسون فيه.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا}، والقرن مضى الكلام عليه، ويقول: **أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم** فالمتعاصرون أهل الزمان الواحد يقال لهم: قرن، وإن اختلف العلماء في تحديد القرن من حيث السنين، فتجدون الكلام في هذا في غير كتب اللغة، وتجدونه أيضاً في شرح قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((خير القرون قرني))[1] ما المراد به هل يحد بأربعين سنة أو أكثر، وقوله -تبارك وتعالى-: {هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا}، يقول: أي: **كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ومناظر وأشكالاً وأمتعة،** والأثاث: بعضهم يفسره بالمال بأنواعه من الدواب والأرقاء المماليك، والفرش، والمتاع، وبعضهم يفسره بمتاع البيت خاصة، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهذا هو المستعمل في عرفنا، ولكنا عرفنا -كما هو معلوم- لا يفسر به القرآن؛ لأنه قد يكون من الأعراف الحادثة، والقاعدة: "أن القرآن لا يفسر بعرف حادث"، وبعضهم يفسر ذلك بالجديد من الفرش، وبعضهم يفسره باللباس خاصة، وهذا أبعد هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

يقول: {وَرِئْيًا}، رئياً في قراءة نافع وابن عامر: وريًّا، من غير همز، وقراءة الجمهور: ورئياً، بالهمزة، وبعض أهل العلم يقولون: إن قراءة ابن عامر ونافع من قبيل التسهيل للهمز، بمعنى أن القراءتين ترجعان إلى شيء واحد، أي: ريًّا سهلت فيها الهمزة فقط، وإلا فهي كلمة رئيا، وهذا رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبعضهم فرق بين القراءتين في المعنى، ففسر قراءة رئيا بالهمز بأنه المنظر والهيئة وما تراه العيون، فزادوا على غيرهم فيه وكانوا أحسن من هؤلاء كما زعموا، وقراءة: وريًّا أن ذلك يقال: للارتواء والحسن، تقول: فلان ريان، أو مرتوي من ماء الحياة، أو من الشباب أو من النظارة، أو نحو ذلك، يعني أن العافية والنعمة قد ظهر أثرها على أبدانهم، أما أولئك فيظهر عليهم من الضعف والشحوب كما قال الله -عز وجل- عن فقراء المهاجرين: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} [سورة البقرة: (٢٧٣)]، وأحسن ما فُسِّر به والله أعلم ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}: أي: ما يظهر على وجوههم وعلى هيئتهم ولباسهم من الشحوب والضعف الذي يدل على حاجتهم وفقرهم، فالإنسان يعرف بهيئته إذا كان مريضاً، أو كان خائفاً، أو كان مكتئباً، أو كان مجهداً، فالوجه مرآة يظهر عليه ما بحال الإنسان، وإن كان هذا الظهور يتفاوت، فأهل الفراسة يعرفون ما لا يعرف غيرهم، سواء كان ذلك بطريق الصناعة والمعرفة والخبرة، أو كان ذلك مما

---

[1] - مسند البزار: (١٤٩/٢) برقم: (٤٥٠٨)، بهذا اللفظ، وأصله في البخاري بلفظ: ((خيركم قرني...)) (٩٣٨/٢) برقم: (٢٥٠٨)، و((خير أمتي قرني...))، و(١٣٣٥/٣) برقم: (٣٤٥٠) و((خير الناس قرني...)) (١٣٣٥/٣) برقم: (٣٤٥١)، وفي مسلم: بلفظ: ((خير أمتي القرن الذين يلوني...)) (١٩٦٢/٤) برقم: (٢٥٣٣) ونحو ما في البخاري.

يعطيه الله -عز وجل- لهم هيبةً، لذلك تجد الذين يُطَبِّبون بطب غير الطب الحديث، إنما الطب الذي كان من قرون متطاولة، ولا زال في بعض البلاد في المشرق يعرفون من الوجه ومن الكف علل الإنسان.

فمن العين يعرف هذا الإنسان ما به، ويحدده بدقة، -وليس مثل أصحاب الدورات الذين يقولون: من توقيعك أعرفك، ومن خطك، هذا الكلام لا قيمة له، هؤلاء خرَّاصون- بل هذا علمٌ يدرس، فمثلا: إذا كان البياض من الناحية اليمنى عند دائرة السواد فهذا يعني كذا، وإذا كان في الجهة اليسرى فهذا يعني كذا، وإذا كان أعلى فهذا يعني كذا، وإذا كان أسفل.. وإذا كان دائرة لونها كذا فهذا يعني كذا من العلل... إلخ، فيخبرك بدقة، وهكذا يُعرف ما عند الإنسان من فرح أو حزن من وجهه، وهذا يظهر لكل أحد، فالشاهد: {هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} بعضهم يقول: أبشارهم وأجسادهم مرتوية من الشباب والنظارة، كما قال الله عن المنافقين: {إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [سورة المنافقون: (٤)]، فأجسامهم في غاية النظارة والحسن.

فرئيا: ما تراه العيون من الحسن في اللباس والهيئة، والمنظر، وفي قراءة غير متواترة قرأ بها بعض الصحابة وبعض التابعين كابن عباس وأبي بن كعب وسعيد ابن جبير وزيًّا بالزاي، هم أحسن أثاثاً وزيا، والمقصود بالزي يعني الهيئة الحسنة.

{قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا} [سورة مريم: (٧٥)] **يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: {مَن كَانَ فِي الضّلاَلَةِ}، أي: منا ومنكم {فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرّحْمَنُ مَدّاً}، أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله.**

{حَتّىَ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمّا الْعَذَابَ}، يصيبه {وَإِمّا السّاعَةَ} بغتة تأتيه {فَسَيَعْلَمُونَ}، حينئذ {مَنْ هُوَ شَرّ مّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً}، في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الجمعة: (٦)]**، أي: ادْعُوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدَّعون أنكم على الحق؛ فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، ولله الحمد، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم عليهما السلام، قال تعالى بعد ذلك: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}** [سورة آل عمران: (٦١)]**. فنكلوا أيضاً عن ذلك.**

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} هذه الآية تحتمل معنيين: أن يكون المراد بذلك الدعاء، وهذا ظاهر ما مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-، فظاهر كلامه أنه يختار هذا، ولذلك ذكر المباهلة وإلا فإن كلامه في الأول يحتمل، إلا أن كان في الأصل فرق مؤثر.

هو يقول هنا: **قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم**... إلى أن قال: {فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} أي: **فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله**، هذا الكلام يحتمل أن يكون يقصد به الدعاء أو يقصد به

الإخبار، فالآية تحتمل أن تكون من قبيل الدعاء: فليمدد، واللام لام الأمر، لام الطلب، فيحتمل أن يكون ذلك من قبيل الدعاء، يدعى عليه من كان في الضلالة أن يمدد له الرحمن مدا، ويحتمل أن يكون ذلك من قبيل الإخبار.

وهذه إن كان المراد به الخبر: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا}، والصيغة ليست صيغة خبرية، وإنما هي صيغة إنشائية بلام الأمر، فيكون من قبيل الإنشاء الذي أريد به الخبر، وإن جاء بصيغة الطلب أو الأمر تحقيقاً وتأكيداً لمقتضى الخبر، ولبيان الإمهال، وهذا الإمهال في قوله: {فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} من باب الاستدراج له {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [سورة المؤمنون: (٥٥-٥٦)]، وعلى كل فهذا الخبر الذي بصيغة الأمر مؤكد لمضمون الخبر، هذا عند من فسره بأن المراد به خبر وليس بدعاء، {فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} أكد هذا الإمهال بأن أخرجه مخرج الأمر، استدراجاً له؛ ليزداد في غيه، وبعضهم يقول: تأكيداً لمقتضى هذا الإمهال للعصاة من ما يدل على حلمه -تبارك وتعالى- وأنهم قد يتوبون، لكن الاستدراج أقرب إذا فسر ذلك بأنه خبر.

والمعنى الثاني: أن ذلك من قبيل الدعاء يدعى على من كان في الضلالة بهذا، فليمدد له الرحمن مدا، ولهذا ذكر الحافظ بن كثير -رحمه الله- هنا المباهلة، يعني أن الله يمهله ويملي له؛ ليزداد في غيه وكفره وباطله حتى إذا لقي الله -تبارك وتعالى- عندئذٍ يعلم من المحق، يعلم المحق من المبطل، ومن هو أضعف ناصراً وأقل عدداً.

ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا}.

وفي قراءة لأبي: "قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة"، وهذه القراءة تشهد بتفسيره بالخبر، ونحن عرفنا قبلُ أن القراءة الآحادية تفسر القراءة المتواترة.

قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا، يزيده ضلالة، وإن فسره بالاستدراج وطول العمر فيرجع إلى هذا لأنه يملي له ليزداد، {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا} [سورة آل عمران: (١٧٨)]، وكما قال الله -عز وجل-: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [سورة القلم: (٤٥)].

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا} [سورة مريم: (٧٦)] لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [سورة التوبة: (١٢٤)] الآيتين. وقوله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ} قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف، {خَيْرٌ عِنْدَ رَبّكَ ثَوَاباً} أي: جزاء {وَخَيْرٌ مّرَدّاً} أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

قوله: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} هذا دليل لأهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، وللأسف توجد في بعض كتب التفسير المنتسبة إلى السنة، التي يعد أصحابها من أهل السنة بعض العبارات التي راجت عليهم من أهل البدع، يقول: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى يقول: أي بالأعمال، يفسره بذلك فقط.

وهذا قول المرجئة، والطوائف الذين يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، ويقولون: إنما زيادته بزيادة متعلقاته، فالإيمان يزيد وينقص، والآيات مصرحة بهذا وهي كثيرة، وهذه واحدة منها والله -عز وجل- يقول: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [سورة التوبة: (١٢٤)]، وقال: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا} [سورة الفتح: (٤)]، فالإيمان يزيد وينقص، بل قد يتلاشى من قلب الإنسان، وأبو بكر -رضي الله عنه- إنما فاق غيره، وتقدم على بقية أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بشيء وقر في قلبه، {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا} الباقيات الصالحات: المقصود بها ما يبقى مما يلقى الإنسان ثوابه عند الله -تبارك وتعالى- من الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل، وما أشبه ذلك، وهكذا الأعمال الصالحة التي يعملها الإنسان بجوارحه، كل هذا من الباقيات الصالحات فيفسر بهذا وهذا.

وما ذكره السلف -رضي الله تعالى عنهم- كما ذكرنا هنا إنما هو من قبيل التفسير بالمثال، {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا}، يعني خير مما يتنافس هؤلاء المتنافسون، ويفتخرون به أنهم أحسن أثاثاً ورئيا، أحسن مقاماً وناديا.

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [سورة مريم: (٧٧-٨٠)] **وروى الإمام أحمد[٢] عن خباب بن الأرت -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه،**

العاص بن وائل هذا والد عمر بن العاص -رضي الله عنه-.

فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثمَّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} إلى قوله: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا} أخرجه صاحبا الصحيح[٣] وغيرهما.

وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فذكر الحديث، وقال: {أَمِ اتّخَذَ عِندَ الرّحْمَنِ عَهْداً} قال: موثقاً.

{أَطّلَعَ الْغَيْبَ} إنكار على هذا القائل: {لاُوتَيَنّ مَالاً وَوَلَداً} يعني يوم القيامة، أي: أعلم ما له في الآخرة حتى تألّى وحلف على ذلك {أَمِ اتّخَذَ عِندَ الرّحْمَنِ عَهْداً} أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك، وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق.

وقوله: {كَلاّ} هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها {سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ} أي: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، {وَنَمُدّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً}، أي: في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ}، أي: من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة

---

٢ - مسند أحمد بن حنبل: (٣٤/٥٥٣) برقم: (٢١٠٧٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}: برقم: (٤٤٥٦)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه و سلم عن الروح وقوله تعالى: {يسألونك عن الروح} الآية برقم: (٢٧٩٥).

مالاً وولداً زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب منه الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: {وَيَأْتِينَا فَرْداً}، أي: من المال والولد.

قوله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} بعض المفسرين يقولون: إنه أراد بذلك أنه يؤتى في الدنيا، وهذا بعيد، وسبب النزول يدل على أن المراد الآخرة، فهو يقول له: "لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد" ثم بعد ذلك، قال له كما في بعض الروايات: "فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك" فهو يقصد في الآخرة، قاس الآخرة على الدنيا، فبما أنه أعطي في الدنيا فهو يقول: لئن رددت إلى ربي سأجد مثل ذلك وأفضل منه في الدار الآخرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}؟ الجواب في كل واحدة منهما: أنه لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً، وهو إنما يسوغ أن يقول ما قال بإحدى هاتين: إما أن يكون قد علم ما في الغيب، بعضهم يقول: أي اطلع على اللوح المحفوظ، وعلى كلٍّ: اطلع الغيب: يعني: على ما يكون له في المستقبل في الآخرة، فهو لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الله -عز وجل- عهداً، والعهد هو الوعد المؤكد، وهذا هو الفرق بين العهد والوعد، أن الوعد المؤكد يقال له: عهد، واليهود حينما قالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [سورة البقرة: (٨٠)]، رد الله عليهم بقوله: {أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: (٨٠)].

{كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا}، بعضهم يقول: {نَرِثُهُ مَا يَقُولُ} يعني: نسجل عليه مقالته، ثم نوافيه بها بعد ذلك، وهذا بعيد، وإنما حملهم على ذلك هو قوله -تبارك وتعالى-: {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ}، فظاهر ذلك قد يفهم منه أنه يورث القول، لكن الأقرب الذي عليه عامة المفسرين: {نَرِثُهُ مَا يَقُولُ} يعني: ما يقول بأنه أوتيه ويترفع به من المال والولد، حيث يظن أنه سيعطى ذلك في الآخرة فالذي حصل له من ذلك في الدنيا فإن الله -عز وجل- يسلبه إياه، كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا} [سورة مريم: (٤٠)]، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً، كما قال الله -عز وجل-: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)]، ((يحشر الناس حفاة عراة غرلا))[٤]، فلا يأتي بماله ولا بولده، ولا بعشيرته وحشمه وخدمه وما إلى ذلك، {وَيَأْتِينَا فَرْدًا} أي: ليس معه شيء من ذلك.

---

[٤] - رواه أحمد: (٤١٨/٣) برقم: (١٩٤٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، ومسلم بلفظ: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا" كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة مريم (١٠)

من قوله تعالى"واتخذوا من دون الله آلهة" الآية ٨١ إلى قوله تعالى"أو تسمع لهم ركزا" الآية ٩٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف –رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً * فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً}[سورة مريم:٨١-٨٤].

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلة {عِزّاً} يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، فقال: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} أي: يوم القيامة، {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً}، أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ* وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٥-٦].

وقال السدي: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} أي: بعبادة الأوثان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يعتزون بها ويستنصرونها**"، وقيل: أعوان، وقيل: شفعاء، وقيل: يمتنع بهم من عذاب الله -تبارك وتعالى- وهذه الأقوال متقاربة، فهم اتخذوا هؤلاء من أجل أن يمتنعوا بهم من عذاب الله -عز وجل-، إما بشفاعة أو بنصر أو غير ذلك.

والضمير في قوله -تبارك وتعالى-: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً}، يحتمل أن يكون راجعاً إلى العابدين، حيث أنهم سيكفرون بعبادة من عبدوهم، ويحتمل أن الضمير يرجع إلى المعبودين، حيث أنهم سيكفرون بعبادة من عبدهم، ويتبرؤون منهم، والآية تحتمل هذا وهذا {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ}، ويقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يوم القيامة**، {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً}، **أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى**: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}"، وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا باعتبار أن قوله: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} أنه يرجع إلى المعبودين، يكفرون بعبادة العابدين فهم عبدوهم رجاء الشفاعة والعز والنصر من أجل أن يمنعوهم ولكن ذلك المطلوب لن يتحقق بل إن هؤلاء المعبودين سيتبرؤون ممن عبدهم ويكونون عليهم ضداً، فهذه الآية {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ

كَافِرِينَ}، وهكذا في قوله: {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [سورة القصص:٦٣]، وهكذا في قوله: {فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة النحل:٨٦]، وهذا هو المعنى الأقرب وهو المتبادر وهو الذي اختاره جمع من المحققين كابن جرير وطائفة، ويؤيده قاعدة: "أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها"؛ لأن القول الآخر الذي أشار إليه نقله عن السدي قال: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} "**أي بعبادة الأوثان**" يعني أن العابدين يتبرؤون ويكفرون بهؤلاء المعبودين في يوم القيامة، وهذا يدل عليه قوله -تبارك وتعالى- عنهم أنهم يقولون: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣]، وقول الله -عز وجل-: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ} [سورة الأنعام:٢٤]، فهم يتبرؤون من هؤلاء المعبودين في يوم القيامة حينما لا يجدون عندهم بغيتهم، وهكذا في قوله عنهم: {بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا} [سورة غافر:٧٤]، فهذا القول الذي قاله السدي {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ}: "**أي بعبادة الأوثان**"، فيكفرون يعني العابدين، ويكونون عليهم ضدا على هذا القول، يكونون عليهم ضداً، أي: أن الأوثان تكون عليهم أو أن المعبودين يكونون على العابدين ضدا.

وقوله: {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} أي بخلاف ما رجوا منهم، وقال السدي: {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} قال: الخصماء الأشداء في الخصومة، وقال الضحاك: {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} قال: أعداء.

هذه الأقوال ترجع إلى معناً واحد {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} الأصل أن المضادة تأتي بمعنى المخالفة يكونون عليهم ضدا فحينما يكون خصماً له كما قال هنا: "**خصماء أشداء في الخصومة**"، فالمضادة تعني المخالفة، فإنهم يتحولون بدلاً من أن يكونوا لهم عزا، يتحولون إلى أن يكونوا خصماء وأضداد وأعداء، كل هذا يرجع إلى شيء واحد، بخلاف ما أملوا ورجوا.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تغويهم إغواءاً، وقال العوفي عنه -رضي الله تعالى عنهما-: تحرضهم على محمد وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم-، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}[سورة الزخرف:٣٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} لفظ الإرسال أرسلنا ظاهره أن الله -عز وجل- سلطهم عليهم، وصاروا يحركونهم تحريكاً، ويزعجونهم إزعاجاً إلى الفساد، والشر، ومحادة الله -تبارك وتعالى-، والكفر به، فإن الأز معناه التحريك، ومن ذلك ما يقال في الأزيز، والأزيز صوت القدر إذا استجمعت غلايانا، فله صوت بسبب الحركة التي تكون في حركة الماء، أو ما بداخل هذا القدر بسبب الغليان، وهكذا ما يصدر من النار، أو الوقود يصدر منها صوت يقال له: الأزيز {تَؤُزُّهُمْ أَزّاً}.

وقول من قال تزعجهم إزعاجاً، أو تحركهم أو تغويهم أو نحو ذلك، كل ذلك يرجع إلى معنى واحد {تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} أي: تدفعهم وتحركهم وتهيجهم، وتزعجهم إزعاجاً إلى فعل المعصية، والكفر بالله -تبارك وتعالى-، ومحادة رسله -عليهم الصلاة والسلام- كما في الآيات: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الزخرف:٣٦-٣٧]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٢] يعني الشياطين يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ} [سورة

الأنعام:١٢٨]، والمراد بالاستكثار: الاستكثار من إضلالهم وإغوائهم، وهذا هو المشهور -في تفسير الآية- الذي عليه أهل العلم من أهل السنة والجماعة، فالله -تبارك وتعالى- قال لإبليس: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الحجر:٤٢]، وقال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}[سورة النحل:١٠٠]، وإنما كان ذلك السلطان له عليهم بسبب أنهم انقادوا له، وأطاعوا، وأعرضوا عن طاعة الله -جل جلاله-، فتسلط عليهم وقادهم إلى الضلال والباطل والمنكر.

والقدرية يقولون في تفسير هذه الآية: بأن الإرسال معناه التخلية، خلى بينهم وبين هؤلاء الكفار، {أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ} بمعنى خلينا بينهم وبينهم، بناءً على اعتقاد القدرية، والإرسال ليس معناه مجرد التخلية، وإنما يدل على أمر زائد، فإذا قلت أرسلت فلاناً، أو قلت مثلاً أرسلت الكلب على الصيد، فليس معناه أنك خليت بينه وبين الصيد، وإنما دفعته إليه وأغريته به هذا معناه -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّاً} أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، {إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّاً} أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله.

وقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [سورة إبراهيم:٤٢] الآية، {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} [سورة الطارق:١٧]، {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً} [سورة آل عمران:١٧٨]، {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان:٢٤]، {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [سورة إبراهيم:٣٠]، وقال السدي: {إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّاً} السنين والشهور والأيام والساعات.

قوله: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ} يعني أخذهم ومعاقبتهم وهلاكهم كما هي عادة الإنسان أنه ربما لشدة ما يجد من الحنق على أعداء الله -عز وجل- يتمنى سرعة الأخذ على هؤلاء الظالمين، فالله -عز وجل- يقول: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّاً}، ويحتمل أن يكون المقصود بالعد نعد عليهم الساعات، والأيام، والشهور، حتى تأتي الساعة التي قضى الله -عز وجل- أخذهم فيها سواء كان ذلك بالموت، أو كان ذلك بعقوبة ينزلها بهم، وما يحصل لهم من الإمهال والتأخير إنما ذلك من أجل أن يزدادوا إثما {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [سورة الأعراف:١٨٣]، {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}، وهذا القول رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أن العد عدد الأيام والليالي والشهور والسنوات، ثم بعد ذلك يأتي ما قضى الله -عز وجل- عليه به، والمعنى الثاني {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّاً} أي: نعد الأعمال ونحصيها، وهكذا قول من قال: نعد عليهم الأنفاس، فكل ذلك يكتب، ويحصى، ثم يوافيهم الله -تبارك وتعالى- به، وهذا الذي اختاره ابن جرير، والآية تحتمل المعنيين، ولو قال قائل بأن المعنى الأول أقرب إلى ظاهر اللفظ والسياق لم يكن ذلك بعيداً؛ لأن ذلك لربما هو الأنسب والأقرب فيما يتعلق بالاستعجال يقول: لا تستعجل على أخذهم فنحن نعد عليهم اللحظات، والساعات، والأوقات ثم بعد ذلك سيأتي لا محالة الموعد الذي يأخذون به، مع أن المعنى الثاني أيضاً غير مستبعد فكأنه يقول: لا تستعجل على أخذهم، فنحن نحصي عليهم الأعمال، ونمهلهم من أجل أن يزدادوا في الإثم والغي والفساد -والله أعلم-.

{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} [سورة مريم:٨٥-٨٧].

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار {وِرْداً} عطاشاً، قاله عطاء وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، وهاهنا يقال: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} [سورة مريم:٧٣].

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس المُلائي عن ابن مرزوق {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً}، قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك، فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا، فهلم اركبني فيركبه، ذلك قوله: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً}، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً} قال: ركبانا، وقوله: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً} أي: عطاشا، {لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ} أي: ليس لهم من يشفع لهم.

الوفد هم الجماعة، وكثيرٌ من أهل العلم من المفسرين ومن أهل اللغة يقولون: الركبان، والوفد هم الجماعة الذين ينتدبون أو يقدمون على أمر له شأن من قدوم على ملك، أو مطاع، أو نحو ذلك، يقال لهم: وفد، كثير من أهل العلم يقيدون ذلك بالركبان، جماعة ركبان، ولهذا يفسرون هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-: **{نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً}** يعني أنهم يكونون ركبانا، وهذا يشكل عليه أو قد يشكل عليه في بادئ الأمر ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاء[1]، ولهذا قال بعض المفسرين كالقرطبي -رحمه الله-: بأن ذلك لا يكون في حشرهم من قبورهم إلى محشرهم، وإنهم يخرجون من القبور كما قال الله -عز وجل-: **{كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ}** [سورة القمر:٧]، ولا يكونون بهذه المثابة وإنما ذلك بعد المحشر، فإن أهل الإيمان يذهبون بهذه الصفة إلى الرحمن إلى دار كرامته وجنته، والمجرمون -نسأل الله العافية- يساقون إلى النار في هذه الحالة التي وصفها الله -تبارك وتعالى-، فهنا أهل الإيمان يحشرون وفداً، والكفار -نسأل الله العافية- كما قال: "**يساقون عنفاً إلى النار {وِرْداً}** أي: **عطاشا**"، وأصل هذه المادة الورد يقال: للإتيان إلى الماء، كقوله: **{وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ}** [سورة القصص:٢٣]، الجماعة الذين يأتون إلى الماء يقال لهم ورد، لكن لما كان الذي يرد إلى الماء عادة إنما يرد إليه العطشان قيل: للجماعة من العطشاء، قيل لهم ذلك، قيل لهم: ورد، ونحشر المجرمين إلى جنهم وردا، أي: عطاشا، هذا هو المشهور، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}**، برقم (٣٢٦٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وبعض أهل اللغة كالفراء وابن الأعرابي يقول: مشاة، أهل الإيمان وأهل الجنة يحشرون ركباناً، وهؤلاء يحشرون مشاة، وبعضهم كالأزهري يقول: مشاة وعطشى، والله المستعان.

أما أنهم يحشرون على نجايب من نور، أو ركائب من نور أو نحو ذلك، فلم يرد فيه حديث صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، جاء هذا في بعض الآثار ولكن مثل هذا يتوقف قبوله على النقل عن المعصوم -عليه الصلاة والسلام-.

وبعضهم يقول: يحشرون على النوق، وبعضهم يقول: آثار متعددة وردت عن السلف، ولا يوجد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- دليل صحيح بما أعلم على شيء من ذلك.

وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون له فإنهم يساقون عنفاً إلى النار**"، وأهل الإيمان وهم قادمون على خير موفودٍ إليه، إلى دار كرامته ورضوان، قال القرطبي -رحمه الله-: بأنه ليس المقصود من قبورهم إلى أرض المحشر، وإنما إلى الجنة أو إلى النار.

كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} [سورة الشعراء:١٠٠-١٠١].

وقوله: {إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله -عز وجل-.

قوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ}، {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [سورة مريم:٨٦]، فمن أعاد الضمير في قوله: {لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ} على المجرمين باعتبار أنهم آخر مذكور، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فإنه يعد من قبيل الاستثناء المنقطع، وعرفنا أن الاستثناء المنقطع هو ما كان المستثنى فيه من غير جنس المستثنى منه، فقوله: {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} فإذا فسر العهد بلا إله إلا الله، أو العهد بأن الله -عز وجل- أعطاهم ذلك، وهذا غير موجود فلا يوجد منهم أحد يتحقق هذا الشرط، فإن هذا الاستثناء يكون من قبيل الاستثناء المنقطع بهذا الاعتبار.

وقوله: {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} يحتمل أن يكون الضمير في قوله: {لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ} عائد إلى الجميع، فالله ذكر الطائفتين، ذكر المتقين وذكر والمجرمين، ثم قال: {لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ}؛ لأن الشفاعة إنما يملكها الله {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} [سورة الزمر:٤٤]، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [سورة الأنبياء:٢٨]، وبهذا الاعتبار يكون الاستثناء من قبيل المتصل، لا يملكونا الشفاعة لا أهل الإيمان، ولا هؤلاء من المجرمين إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا، وذلك إذا فسر بلا إله إلا الله يكون يصدق على أهل الإيمان، فيكون: إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا، ويكون بهذا الاعتبار الاستثناء متصل، فهو يخرج بعض الأفراد من المستثنى منه، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، أو الإيمان، أو العهد بذلك، فيكون متصلاً -والله أعلم-، وكل واحد من هذين القولين يوجد من كتاب الله -عز وجل- ما يشهد له.

{وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقّ الأرْضُ وَتَخِرّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَن دَعَوْا لِلرّحْمَنِ وَلَداً وَمَا يَنبَغِي لِلرّحْمَنِ أَن يَتّخِذَ وَلَداً * إِن كُلّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلاّ آتِي الرّحْمَنِ عَبْداً* لّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدّاً * وَكُلّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} [سورة مريم:٨٨-٩٥].

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى -عليه السلام- وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: {وَقَالُواْ اتّخَذَ الرّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ} أي: في قولكم هذا، {شَيْئاً إِدّاً} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة ومالك: أي عظيماً.

ويقال إداً بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى.

الإد معناها الشيء الهائل العظيم، الفضيع الشنيع.

وقوله: {تَكَادُ السّمَاوَاتُ يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقّ الأرْضُ وَتَخِرّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلرّحْمَنِ وَلَداً} أي يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد.

قوله: {تَكَادُ السّمَاوَاتُ يَتَفَطّرْنَ} كما قال الله تعالى: {السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ} [سورة المزمل:١٨]، ويقول: {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} [سورة الانشقاق:١]، والتفطر هو الانشقاق، وقال الله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا}، تخر الجبال هدا بمعنى أنها تتكسر، وتتحطم، وتتهشم، ويسقط بعضها على بعض، يعني أن أجزاء الجبل تتساقط على بعضها فيقال: إنهد.

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {تَكَادُ السّمَاوَاتُ يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقّ الأرْضُ وَتَخِرّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلرّحْمَنِ وَلَداً} قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة))، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: ((تلك أوجب وأوجب))، ثم قال: ((والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن))[٢]

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، -والله أعلم-.

---

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٣٠٢٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥٨/١٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥١٥).

هذا يشهد له الجزء الأخير، وأما قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقنوا موتاكم شهادة لا إله إلا الله))، فلأحاديث التي جاءت ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))[٣]، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً}، أن دعوا يحتمل معنيين، أن يكون الدعاء بمعنى التسمية، يعني سمى له ولدا، كما يقال فلان يدعى بزيد، يعني يسمى، ويحتمل أن يكون الدعاء بمعنى النسبة {دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً} أي: نسبوا إليه ولدا.

وقال الضحاك: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} أي يتشققن فرقاً من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَتَنشَقّ الأرْضُ}، أي: غضباً له -عز وجل-، {وَتَخِرّ الْجِبَالُ هَدّاً}، قال ابن عباس: هدماً، وقال سعيد بن جبير: هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولدا، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم))[٤] أخرجاه في الصحيحين.

وفي لفظ "أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم"، وقوله: {وَمَا يَنبَغِي لِلرّحْمَنِ أَن يَتّخِذَ وَلَداً} أي: لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفء له من خلقه، لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: {إِن كُلّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلاّ آتِي الرّحْمَنِ عَبْداً لّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدّاً} أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، {وَكُلّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

{إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً * فَإِنّمَا يَسّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشّرَ بِهِ الْمُتّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لّدّاً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسّ مِنْهُمْ مّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً} [سورة مريم:٩٦-٩٨]، **يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله -عز وجل- لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة.**

قال: "**لمتابعتها الشريعة المحمدية**"، بعض الناس يقولون: إن قول بأن الشريعة المحمدية لفظ محدث، وما أشبه ذلك، استعمله بعض الناس المعاصرين وهذا ليس صحيحاً، هذا لم يرد في نصوص الكتاب والسنة لكن ليس بممنوع، استعمله العلماء كابن كثير -رحمه الله-، وليس في ذلك مضاهاة للنصارى بتسمية دينهم بالمسيحية، فلا إشكال في القول: المحمدية.

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في التلقين، برقم (٣١١٦)، وأحمد في المسند، (٣٦/٣٦٣)، برقم (٢٢٠٣٤)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، والحاكم في المستدرك برقم (١٢٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كلهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٤٧٩).

٤ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، برقم (٥٧٤٨)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، برقم (٢٨٠٤)، وأحمد في المسند (٣٢/٢٩٢)، برقم (١٩٥٢٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، واللفظ لمسلم وأحمد.

وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غير وجه، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: ((يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض))[٥].

ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله -عز وجل-: {إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً}))[٦]، رواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

المعنى بهذا التفسير النبوي وهو ما يجعله الله -عز وجل- في قلوب العباد من محبة أهل الإيمان والأعمال الصالحة، وهو أحد المعنيين في تفسير قوله -تبارك وتعالى- عن موسى -عليه الصلاة والسلام-، **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}** [سورة طه:٣٩]، فإن من السلف من فسره بأنه إذا رآه أحد أحبه، ما رآه أحد إلا أحبه، فهذا هو المعنى في هذه الآية التي في آخر هذه السورة الكريمة، ويمكن أن يقال: بأن الحكم معلق على وصف يزيد بزيادة وينقص بنقصانه.

وقوله: **{إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً}**، فبقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة يكون لهم من المحبة والقبول في قلوب الخلق، وهذا شيء مشاهد فمن الناس من إذا رأيته أحببته وأنت لا تعرفه، ومن الناس إذا رأيته انقبض قلبك منهم وأنت لا تعرفهم ولا تعرف عملهم، وتنفر منهم قلوب الخلق، ويحصل لهم المقت.

وقوله: {فَإِنّمَا يَسّرْنَاهُ} يعني القرآن، {بِلِسَانِكَ} أي: يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، {لِتُبَشّرَ بِهِ الْمُتّقِينَ} أي: المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لّدّاً} أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل.

اللد جمع الألد، والألد هو الشديد الخصومة، إن الله يبغض الألد الخصم، يعني شديد الخصومة.

---

٥ - رواه أحمد في المسند (٢٠٥/١٥)، برقم (٩٣٥٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبخاري بمعناه، كتاب الأدب، باب المقة من الله تعالى، برقم (٥٦٩٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، برقم(٢٦٣٧).

٦ - رواه البخاري بالفظ: ((إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض))، كتاب الأدب، باب المقت من الله تعالى، برقم (٥٦٩٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، برقم(٢٦٣٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة مريم، برقم (٣١٦١)

وقوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ} أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، {هَلْ تُحِسّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً} أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- **وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.**

الركاز وهو الكنز الذي يكون من دفن الجاهلية؛ سمي بذلك لأنه مستور ومدفون بباطن الأرض، وقوله: {هَلْ تُحِسّ مِنْهُمْ مّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً} يعنى أنهم ذهبوا واضمحلوا، فلا تسمعوا لهم حركة أو صوتاً، ولا ترى منهم أحداً، قال الله: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} [سورة الفجر:٩-١٢]، هل تسمع لهم حركة، أو ترى منهم أحداً، كلهم أفناهم الله -عز وجل-، وأهلكهم، ولم يبق لهم باقية.

فائدة:

قوله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [سورة مريم:٧٨]، ليس فيه استثناء، وإنما ذلك بطريق الرد عليه بما يسميه المنطقيون بالشرطي المنفصل، بمعنى أنه يقول: هل اطلع الغيب أو اتخذ عند الرحمن عهدا، لكنه لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا، فهو مسلوب ذلك، ولم يحصل له ما قال.

فائدة:

الانتساب إلى السلف بأن يقال: فلان سلفي فإن النسبة هذه تارة تقال باعتبار المدة الزمنية، وهي القرون الثلاثة التي ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فضلها، فهذا لا يمكن لأحد جاء بعدهم أن ينتسب إليهم بهذا الاعتبار، فهي مدة زمنية انتهت، والاعتبار الآخر أن يكون الانتساب باعتبار الاتباع فهذا لا إشكال فيه، بشرط ألا يكون ذلك على سبيل التعصب والتحزب، فإن هذا لا يجوز، يعني حتى الألقاب الشرعية إذا قيلت على سبيل التعصب وتفريق الأمة، فإن هذا محرم، ولما قال الرجل: يا معشر المهاجرين وقال الآخر: يا معشر الأنصار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أبدعوا الجاهلية وأنا بين أظهركم))[٧]، فهذا مع أنها ألقاب شرعية أثنى الله -عز وجل- عليها في كتابه، ومع ذلك صارت مذمومة لمَّا استعملت على سبيل التعصب والتحزب، فيفرق بين الناس وبين الأمة، ويولد بينهم الشحناء، والبغضاء، والعداوة، بسبب هذه التعصبات.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، برقم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ولفظه: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون يال المهاجرين، ونادى الأنصاري يال الأنصار، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((ما هذا، دعوى أهل الجاهلية؟))، قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: ((فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره)).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه رقم: (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: سورة طه، وهي مكية، بسم الله الرحمن الرحيم: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة طه: (١-٨)].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} قال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله -صلى الله عليه وسلم- قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))[١].

وقال مجاهد في قوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} هي كقوله: {فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}[سورة المزمل: (٢٠)] **وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة، وقال قتادة: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} لا والله ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة {إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى}.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، فقوله -تبارك وتعالى-: **{طه}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة**، **{طه}** بعضهم يقول: هذا من الحروف المقطعة، وبناء عليه يقال فيه ما قيل في الحروف المقطعة، والأقرب -كما ذكر هناك- أن هذه الحروف ليس لها معنى في نفسها، ولكنها تشير إلى الإعجاز أي أن القرآن مكوَّن ومركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، ولهذا لا تكاد تذكر إلا ويذكر بعدها القرآن، لكن من أهل العلم من يمنعون كونَ هذا من الحروف المقطعة، ويذكرون له معنى، فبعضهم يقول: هذا لفظ عربي جاء على لغة بعض العرب، بعضهم يقول: لغة عكّ، وبعضهم يقول: لغة طي، وبعضهم يقول غير هذا، وهو أن معناه: يا رجل، ويأتي على هذا بشواهد من العربية في شعر العرب، تتضمن هذه اللفظة بمعنى يا رجل، وبعضهم يقول: إنه في لغة بعض العرب بمعنى: يا حبيبي، وبعضهم يقول: هو لفظ غير عربي، فبعضهم يقول

---

[١] - رواه البخاري كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، برقم: (٧١)، ومسلم كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، برقم: (١٠٣٧).

بالسريانية، يعني: يا رجل، وبعضهم يقول: بالحبشية، وبعضهم يقول: بالنبطية، وبعضهم يقول غير ذلك، فهذا قول من قال: إنه ليس من الحروف المقطعة، وليس هذا مثل: {الم}، وإنما هي كلمة أخرى، إما على لغة بعض العرب، وإما أن أصلها أعجمي، وقد مضى الكلام في هل يوجد في القرآن شيء من المعرّب أو لا؟، وهذا الاختلاف في عزوِ ذلك إلى لغة من اللغات العربية أو غير العربية لم يمنع بعض أهل العلم من القول بأن ذلك لربما تواردت عليه هذه اللغات، وصار مستعملاً فيها جميعاً بهذا المعنى، ولذلك تجد في تفسير ابن جرير -رحمه الله- أنه يختار القول بأن {طه} بمعنى: يا رجل، ليس ذلك تفسيراً منه للحروف المقطعة بمثل هذه المعاني، وإنما باعتبار ما ذُكر، ومن عده من الحروف المقطعة قال فيه ما يقال فيها، وهو ظاهر صنيع ابن كثير -رحمه الله-، وأما الآثار التي تذكر في سبب نزول قوله -تبارك وتعالى- {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} -لا سيما أن بعضهم يقول: إن طه اسم من أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- فكل ذلك لا يصح فيه شيء، فالقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم حتى تتورم قدماه، فتكلم بسبب ذلك المشركون ونحو هذا، نعم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه وهذا معروف، لكن هل كان هذا سبب نزول الآية؟ وأن المشركين تكلموا وقالوا: إنه قد نزل عليه القرآن ليشقى؟ لم يصح في ذلك شيء، وهكذا قول من قال: كانوا يربطون أنفسهم بالحبال، أو أنه كان يقف على صدور قدميه، كل هذا لم يصح، أو ما جاء من أنه كان يرفع قدمه من طول القيام، يتعب فيراوح بين القدمين، فنزلت الآية: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}، كل هذا لم يصح، وكثير من المفسرين يذكرون هذه الروايات، وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، باعتبار أن قوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} بمعنى: لتتحمل من العمل والعبادة ما لا تطيق، هذا المعنى على ما ذكره الحافظ ابن كثير، فهو يقصد هذا، وهذا لو صحت هذه الروايات أو بعضها، لكنها لم تصح، ولهذا فإن من أهل العلم من فسره بغير ذلك، قال: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} إنه كقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف: (٦)] قال: فهذا تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن لا تذهب نفسه حسرات على المشركين؛ بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم ومكابرتهم وشدة عداوتهم، فهو يهون عليه من أجل أن لا يحزن ويضيق بسبب هذا التكذيب والإعراض {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [سورة الحجر: (٩٧)] فالله يقول: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}، فإذا قلنا: إن الروايات السابقة غير صحيحة فتفسيرها بهذا -والله أعلم- أقرب من تفسيرها بما سبق، ومن أهل العلم من قال بأن الآية تحمل على هذا وهذا، ولربما كان ذلك لاعتقاده أن بعض هذه الروايات يصح، مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهذا له وجه باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- قال: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} وأطلق ولم يقيد، أي: ليحصل لك الشقاء، كيف يحصل هذا الشقاء؟ بأن يتحمل من العمل ما لا يطيق، وكذلك بأن يتحمل من الضغوط النفسية -كما يقال- ما يوهنه ويثقله ويرهقه وهذا واضح لكن قد يقول قائل: إن القيام بالتكاليف الشرعية والعبادات ليس بشقاء فالنبي

-صلى الله عليه وسلم- قال: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٢]، فيجد فيها لذة، فكيف يحمل على هذا المعنى؟ والجواب عن ذلك: أن المقصود -عند مَن ذكره- ليس هذا القدر من العبادة التي يطيقها الإنسان، وإنما إذا صار ذلك إلى حال يفضي به إلى الكلفة الزائدة، كالذي يربط نفسه بحبل يتعبد به مثلاً، أو يصوم النهار، ويقوم الليل أجمع، ونحو ذلك، لكن كل ذلك يتوقف على مقدمة وهي: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحمل من الأعمال في التعبد ما يرهقه ويثقله، فهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل ذلك؟ كان يصوم ويفطر، ويقوم وينام، وأرشد إلى هذا، ولكن حينما واصل ذلك الوصال في الصيام، وأرادوا أن يقتدوا به أخبرهم أنه ليس كهيئتهم وإنما يبيت يطعمه الله ويسقيه[٣].

فالقول بأنها في تحمل أعباء التكاليف وما أشبه ذلك: بناء على هذه الروايات، ولا يصح من هذه الروايات شيء، يبقى أن هذا المعنى تحتمله الآية، لكنه متوقف على هذه المقدمة وهي: هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعبد تعبداً يفضي إلى كلفة زائدة بحيث إنه يخاطب بمثل هذا الخطاب **{مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}**؟، على كل حال هذه الآية فيها تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسبب ما كان يقاسيه من تكذيب قومه، واستهزائهم.

{إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: {تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}، أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد، هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العُلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

قوله: **{تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}**، تنزيلاً: هذا يمكن أن يعرب مفعولاً مطلقاً، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف،** هكذا نقول: المسلك الأسلم وهو الأعلم والأحكم، وبعض الناس من المتكلمين يقول: إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم، وهذا غير صحيح، فالسلامة كل السلامة هي في مسلك السلف -رضي الله عنهم- كما أن هذا المسلك هو المسلك العلمي الصحيح؛ لأنه متلقى من مشكاة الوحي.

---

[٢] - رواه أحمد بن حنبل برقم: (١٤٠٣٧)، وقال محققوه: " إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سلام أبي المنذر، فهو صدوق حسن الحديث"، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء برقم (٣٩٣٩)، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع رقم (٣١٢٤).

[٣] - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع لقوله تعالى: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}** [سورة النساء: (١٧١)] برقم: (٦٨٦٩)، ومسلم كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، برقم: (١١٠٣).

وقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}، أي: الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه ولا رب غيره.

وقوله: {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة.

{وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}، الثرى: هو الشيء الندي الذي فيه رطوبة، فالتراب الندي يقال له: الثرى، فقوله: {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} يعني: وما تحت التراب الندي، يعني: له ما فوق الأرض وما تحتها، ولا يقيد هذا بالأرض السابعة، {مَا تَحْتَ الثَّرَى} يشمل ذلك جميعاً إلى الأرض السابعة، يعني: له كل شيء، مع أن قوله -تبارك وتعالى-: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} يشمل هذا، فإن هذا الذي تحت الثرى هو من جملة ما في الأرض، ولكن ذلك جاء -والله أعلم- تأكيداً لسعة ملكه وشموله وأنه لا يخرج عنه شيء.

وقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، أي: أنزل هذا القرآنَ الذي خلق الأرض والسموات العلىُّ الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة الفرقان: (٦)] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} قال: السر: ما أسره ابن آدم في نفسه، {وَأَخْفَى} ما أُخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: (٢٨)].**

قوله: {فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، السرَّ وأخفى من السرِّ، هذا المعنى الذي هو عليه الجمهور، يعني: وما هو أخفى من السر، وإن اختلفوا في المراد بما هو أخفى من السر، فبعضهم يقول: إن السرَّ هو ما حدَّث به الإنسان غيره، ولا يريد أن يطلع الناس عليه، وأخفى من السرِّ ما حدث به نفسه، وبعضهم يقول: السرُّ ما حدَّث به الإنسان نفسه، وأخفى من السر ما لم يحدِّث الإنسان به نفسه، وما دار بخلده من الأمور التي لم تقع والله -عز وجل- لم يطلعه عليها، ولم يعملها بعدُ، وسوف يعملها، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [سورة لقمان: (٣٤)] فالأشياء التي تجري من الإنسان الله يعلمها، يعلم أنك اليوم في الساعة العاشرة صباحاً ستفعل كذا، وتقول كذا، مما لم يجر في خلدك الآن فذلك أخفى من السر، والسر هو الشيء الذي حدثت به نفسك، تقول الساعة الفلانية سأفعل كذا، سأقول كذا، سأذهب إلى كذا، هذا في سرك أنت، وأخفى من السر هو الشيء الذي لم تشعر به، ولم تعلم به مما أنت فاعله وقد علمه الله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعض أهل العلم -كالشنقيطي رحم الله الجميع- يحمل الآية على هذا جميعاً، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ} [سورة الملك: (١٤)] يعني: اللطيف الذي يعلم دقائق الأشياء، {الْخَبِيرُ} الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها، وهكذا الآيات المصرحة بعلم الله الشامل المحيط، {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} [سورة البقرة: (٢٨٤)] {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [سورة المجادلة: (٧)] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اطلاع الله -عز وجل- على ما يُسِره الإنسان، كما قال الله تعالى عن اليهود: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [سورة المجادلة: (٨)] على المعنيين: المعنى الأول: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}، أي: أن الواحد يحدث بذلك نفسه، ويقول: لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول له: السام عليك،

والمعنى الثاني: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}، أي: يقول بعضهم لبعض سراً إذا خلوا: لو كان نبياً لعُذبنا، ولاستجيب له فينا؛ لأنه يقول: وعليكم، وهكذا الله تعالى يقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [سورة ق: (١٦)] فكل هذه الآيات تدل على هذه المعاني، وهكذا ما سيكون من الإنسان، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة: (٤٧)] فهم لم يخرجوا، ويقول عن المنافقين لما وعدوا يهود بني النضير بالنصر، يقول: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} [سورة الحشر: (١١)]، فهذا من السر الذي قالوه لهم، إلى أن قال الله -عز وجل-: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}[سورة الحشر: (١٢)] فذكر ما دار بينهم سراً، وذكر أمراً لم يكن، لو كان كيف يكون، وهكذا، على كل حال فقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} المعنى: يعلم السر وما هو أخفى من السر، وبعضهم يفسر أخفى باعتبار أنه فعل ماضٍ، وهذا قول ضعيف، هذا خارج عن ذلك كله، يقول: يعلم السر وأخفى، أخفى ذلك فلم يطلع عليه أحداً، وهذا غير صحيح، بل هو أفعل تفضيل {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، يعني: وما هو أخفى من السر، كما تقدم.

وقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى}، أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

الحسنى تأنيث الأحسن، وأنها البالغة في الحسن غايته، في ألفاظها ومعانيها.

{وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى} [سورة طه: (٩-١٠)] **من هنا شرع -تبارك وتعالى- في ذكر قصة موسى -عليه السلام-، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضلّ الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب.**

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}؟ هذا الاستفهام للتقرير، بمعنى: أليس قد أتاك حديث موسى؟، يقول: **فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية**، من أين أخذ أنه أضل الطريق؟ أخذه من هذه الآية أنه قال: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، يعني: أجد أحداً يهديني ويدلني على الطريق، وفي الروايات الإسرائيلية: أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما ذهب إلى مدين لم يكن يعرف الطريق إلى مدين، وحينما رجع إلى مصر لم يكن يعرف أيضاً الطريق، فالله أعلم، وقوله هنا: **وكانت ليلة شاتية** أخذه من الآية الأخرى، وهي قوله: {لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [سورة النمل: (٧)].

وجعل يقدح بزند معه ليُوريَ ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر، ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ} أي شهاب من نار.

{إِنِّي آنَسْتُ} يعني: أبصرت، قد تقول: آنست صوتاً، أي: سمعت، وآنست شيئاً أو آنست رجلاً أو نحو ذلك بمعنى: أبصرته، وبعضهم يخص "آنس" بالمرئيات دون غيرها، يقول: هو الإبصار البيِّن، {آنَسْتُ نَارًا}، يعني: أبصرت ناراً، وعلى كل حال يقول: {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ} أي: **شهاب من نار**، بعضهم يقول: شعلة من النار، وابن جرير -رحمه الله- يقول: القبس هو: العود أو القصبة التي في طرفها نار.

وفي الآية الأخرى: {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} [سورة القصص: (٢٩)] **وهي الجمر الذي معه لهب {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} دل على وجود البرد.**

وقوله: {بِقَبَسٍ} دل على وجود الظلام، وقوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، أي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثوري عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، قال: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [سورة طه: (١١-١٦)].

يقول تعالى: {فَلَمّا أَتَاهَا} أي النار، واقترب منها {نُودِيَ يَا مُوسَىَ} وفي الآية الأخرى {نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ} [سورة القصص: (٣٠)] **وقال هاهنا: {إِنّيَ أَنَاْ رَبّكَ}، أي: الذي يكلمك ويخاطبك، {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ} قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه؛ تعظيما للبقعة.**

مثل هذا -وإن قال به بعض السلف- أنها من جلد حمار غير ذكي: مما تُلُقي عن بني إسرائيل، بل إن بعضهم يقول: إنها كانت من جلود البقر، ومثل هذا لا يُعَوَّل عليه، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه أُمر بخلع نعليه؛ تعظيماً للبقعة، وبعضهم يقول: إن ذلك أبلغ في التواضع، وبعضهم يقول -وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-: من أجل أن يباشر بقدميه ذلك المحل المبارك، والأرض المباركة، ولهذا قال: {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} فإن هذه تدل على التعليل، لكن تعليل ماذا؟ يمكن أن يكون تعظيماً للبقعة، ويمكن من أجل أنه مبارك، ويمكن أن يكون للتواضع، ويمكن أن يكون غير هذا.

وقوله: {طُوىً} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو اسمٌ للوادي، وكذا قال غير واحد.

وهذا هو الظاهر، أن طوى: هو اسم الوادي، وهو اختيار ابن جرير، وعلى هذا يكون {طُوىً} من قبيل عطف البيان.

فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

{إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}، يعني: كأنه يأمره بأن يطأ عليه بقدمه، حتى في قوله: {طه} بعضهم يفسره بالوطء على القدمين، الذين يقولون: إنه ليس من الحروف المقطعة بعضهم يفسره بهذا، يقول: كان يطول

القيام ويقف على صدور قدميه، وبعضهم يقول: كان يرفع رجلاً ليراوح بين القدمين، وقال: لفظ {طه} يعني: طَأْ بقدمك، هكذا قالوا، لكن كل هذا يحتاج إلى دليل.

وقيل: لأنه قُدس مرتين، وطوي له البركة وكررت.

أي: من الطي، طُوي له البركة وكررت، {طُوى} لكن يتبادر -والله أعلم- ما سبق من أن طوى هو اسم الوادي.

والأول أصح كقوله: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [سورة النازعات: (١٦)]**، وقوله: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ} كقوله: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي}** [سورة الأعراف: (١٤٤)]**، أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه.**

باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل بلا شك، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل من موسى -عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأني لم يتواضع إليّ أحد تواضعَك، وقوله: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا} هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: {فَاعْبُدْنِي}، أي: وحّدني، وقم بعبادتي من غير شريك، {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} قيل: معناه صلِّ لتذكرني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني ما روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}))[٤]، وفي الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك))[٥].

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}، يمكن أن يكون الذكر مصدراً مضافاً إلى المفعول، ويمكن أن يكون مضافاً إلى الفاعل، فالياء هذه قد تكون مفعولاً أو فاعلاً، فإذا أعربت فاعلاً، فالمعنى: لأذكرك في الملأ الأعلى، {لذكري} الياء فاعل، يعني: لأذكرك، والله -عز وجل- يقول: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))[٦]، وإذا أعربت مفعولاً، فالمعنى: لتذكرني بها، باعتبار أن الصلاة مشتملة على الذكر، ويحصل بها من ذكر القلب مع ذكر اللسان إذا تواطأ القلب مع اللسان، والمعنى الثاني الذي ذكره ابن كثير وهو ((من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها)) قد لا ينسجم مع هذين التفسيرين، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يرده، لأنه لو كان كذلك لقال: "وأقم الصلاة لذكرها"، يعني: إذا تذكرتها، لكن اعتراض

---

[٤] - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨٠).

[٥] - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨٤).

[٦] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}[آل عمران: ٢٨] برقم (٦٩٧٠)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، برقم (٢٦٧٥)، وأحمد بن حنبل: (٢/٣٥٤) برقم: (٨٦٣٥).

ابن جرير -رحمه الله- هنا يرده الحديث، والتفسير إذا جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يعارَض برأي ولا اجتهاد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الآية عند قوله: ((من نام عن صلاة أو نسيها)) لكن يبقى النظر وهو أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا هل هو حصر للمعنى فيه، أو هو من جملة ما يدخل في معنى الآية؟ هذا هو الأقرب أنه من جملة ما يدخل في معنى الآية، والآية قد تكون في معنى على سياقها، وتُحمل على معنى آخر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قال عليٌّ : "إن أرواحنا بيد الله"، رجع وهو يضرب فخذه ويقول: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف: (٥٤)][٧]، مع أنها في جدل الكفار وتكذيبهم للقرآن ووحي النبوة والتوحيد، وهكذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً))، ثم قرأ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)][٨]، مع أن سياق الآية في الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، وهكذا: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ} [سورة التوبة: (١٠٨)] فهذا السياق لقباء، ولما اختلف العوفي مع الخدري وجاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هو مسجدي هذا))[٩]، فهذا يحمل باعتبار أن مسجده -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذا الوصف من مسجد قباء، ولا ينفي ذلك كون الآية في مسجد قباء، فهنا: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِيَ} الحديث صريح في الربط بين الآية وبين ((من نام عن صلاة أو نسيها))، فلا يقال: لو كان ذلك صحيحاً لقال: لِذِكْرِها، فهذا المعنى داخل فيه، وكذلك أيضاً ما سبق من تفسير المصدر بأنه هنا مضاف إلى الفاعل أو إلى المفعول، {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِيَ}، أي: لتذكرني بها، أو {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِيَ}، أي: لأذكرك، فكون المصدر هنا مضافاً إلى المفعول أوضح في المعنى وأقرب، وهو المتبادر، لكن القرآن يعبر فيه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيمكن أن يقال -والله أعلم-: إن المصدر هنا محمول على المعنيين، أقم الصلاة لذكري: لتذكرني، وإذا ذكر العبد ربه فإن الله يذكره، فهذه المعاني متلازمة، ((من ذكرني في ملأ ذكرته)) إلى آخره، وهكذا أيضاً فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه: ((من نام عن صلاة أو نسيها))، فعلى هذا التفسير تكون اللام للتوقيت {لِذِكْرِيَ}، يعني: لوقت تذكرك، مثل: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء: (٧٨)] اللام للتوقيت، ويحتمل أن تكون اللام تعليلية على المعنيين الأوليْن، {لِذِكْرِيَ}، أي: لأجل أن أذكرك أو لأجل أن تذكرني، فاللام تحتمل هذا وهذا، وابن القيم -رحمه الله- حمل الآية على الجميع؛ لما بين المعنيين الأوليْن من الملازمة في تفسير المصدر، والمعنى الثالث هو الذي جاء في الحديث.

---

٧ - رواه البخاري، أبواب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب وطرْق النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة وعليا -عليهما السلام- ليلةً للصلاة: برقم: (١٠٧٥)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح: برقم: (٧٧٥).

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا} [سورة الأنبياء: (١٠٤)] برقم: (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم: (٢٨٦٠).

٩ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، (٢٨٠/٥) برقم: (٣٠٩٩)، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب (٢٢/٢)، رقم (١١٧٧).

وقوله: {إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ}، أي: قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها.

وقوله: {أَكَادُ أُخْفِيهَا}، قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي.

وهذا على عادة العرب إذا أرادوا المبالغة في بيان كتمان شيء يقول الواحد منهم: أكاد أخفيه من نفسي؛ لشدة إخفائه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وفي الآية أقوال أخرى، وبعضهم فسر {أُخْفِيهَا} بمعنى أظهرها، وبعضهم فصل في المعنى فقال: إن قوله {أَكَادُ} متعلق بما قبله {إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ}، يعني: أن أقيمها، باعتبار مقدر محذوف، وهذا خلاف الأصل، ثم قال: {أُخْفِيهَا لِتُجْزَىَ كُلُّ نَفْسٍ} وهذا تكلف.

يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {أَكَادُ أُخْفِيهَا} يقول: لا أُطْلع عليها أحداً غيري.

وقال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً} [سورة الأعراف: (١٨٧)]، **أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.**

وقوله -سبحانه وتعالى-: {لِتُجْزَىَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىَ}، أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة: (٨)]، **{إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [سورة الطور: (١٦)]، **وقوله: {فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا} الآية، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فَتَرْدَى}، أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}** [سورة الليل: (١١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى وآله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} [سورة طه:١٧-٢١]**، هذا برهان من الله تعالى لموسى -عليه السلام-، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله -عز وجل-، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل.**

وقوله: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن، {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، استفهام تقرير، {قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا} أي: أعتمد عليها في حال المشي، {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي} أي: أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخبط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له**"، أي: أنه قبل أن يرسله إلى فرعون وأن يخاطبه بما خاطبه به من أمر الرسالة أراد أن يزيل عنه الوحشة فسأله عن أمور ليست هي المقصودة، هذا مقصود قول من قال: إنه على سبيل الإيناس، كمن أردت أن تحدثه أو تحادثه عن أمر وهو في حال من الخوف والارتباك فسألته عن أمور أخرى ليست هي المقصودة من أجل الإيناس، ثم بعد ذلك تتحدث معه عن المقصود، لهذا يوجد في كتاب الحيدة وإن لم يثبت من جهة الإسناد في أول ذلك سؤالات عن بعض الأمور في المكان الذي جلس فيه الخليفة، وسؤاله عن بعض الشقوق في الجدران ونحو ذلك، قبل أن يسأل عن موضوع القرآن، والقول بخلق القرآن، فيما يذكر عن عبد العزيز الكناني لو صحت القصة، يقول: "**وقيل إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن**"، بمعنى: قرره بأنها عصا، وأنها ليست أكثر من ذلك، والعصا لا حياة فيها ولا روح، فقرره بذلك من أجل أن يقول: هي عصاي، ثم بعد ذلك يريه منها حالاً أخرى لا يمكن أن تكون هذه العصا بهذه المثابة إلا بطريق المعجزة، هذا مراد من قال بأنه على سبيل التقرير، أليست هذه هي عصا؟، ولهذا قال بعضهم: وهذا لا يختلف عما قبله بأن المراد التنبيه عليها لتقع المعجزة فيها بعد التثبت فيها والتأمل، أراد أن يلفت نظره إليها، لما سيقع بعد ذلك

من المعجزة بها، وهذا لا شك أنه هو المناسب في تفسير الآية خلاف قول من قال بأن المقصود بذلك الإيناس، لو كان مجرد الإيناس لكن ذلك من غير وقوع المعجزة في العصا، وقوله: {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}، يقول: "**أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي**"، ونقل "**عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن**"، والمحجن هو العصا التي في طرفها انحناء، معطوفة من طرفها، يقول: "**ثم يحركها حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط**"، الخبط الضرب، فيتساقط الورق، هكذا قال الإمام مالك، مع أن هذا ليس محل اتفاق كثير من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير: فسره بالخبط، يخبط الشجر فيتساقط الورق، وقرأه نافع بالسين "أهس"، وفُسر بالمعنى السابق، قال بعضهم: هما لغتان، وبعضهم فسره بزجر الغنم.

وقوله: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}، أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت.

ألف البعض رسالة –مجلداً- في منافع العصا، ومثل هذا لا شك أنه من الترف الفكري كما يقال، والاشتغال بأمور قليلة الفائدة، ما هي فوائد العصا؟! والرجل الذي ذكر فوائد العصا ذكر جملة كثيرة منها في كلامه، فهو يتوكأ عليها، ويهش بها غنمه، ويخبط بها الشجر، وتكون بين يديه في الصلاة، ويدفع عن نفسه بها الكلاب والسباع، ويطاعن بها العدو، ويضع عليها رداءه فتكنه من الشمس، ومن المطر، وهذه العصا يحصل بها أمور أخرى كثيرة ذكرها لا حاجة للتطويل في هذا، يقول: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} حاجات أخرى، ما يحتاج إليه في العصا، ومن الناس من يحمل العصا عادة، وسواء كانت عصا أو دِرة أو نحو ذلك، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لربما توكأ على عسيب، ولربما كانت بيده، فتوضع بين يديه العنزة –رمح صغير– في الصلاة، وعمر -رضي الله عنه- كان يحمل الدرة كثيراً، ولا زال في بيئات من المروءات ومن الكمالات في الزي ونحو ذلك أن يحمل الإنسان العصا، ربما لا زال هذا موجوداً في السودان إلى اليوم، من كمال الزي أن الإنسان يحمل معه عصاً.

وقوله تعالى: {قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى}، أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، قال: {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}، أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركةً ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، {تَسْعَى}، أي: تمشي وتضطرب.

قال تعالى: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى} أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

قوله: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة**"، هذا جمع بين الآيات الواردة {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [سورة الأعراف:١٠٧]، وبين قوله: {كَأَنَّهَا جَانٌّ} [سورة النمل:١٠] والجان صغير الحيات، وهو سريع الحركة جداً، والثعبان الحية العظيمة، ويجمع بين وصف هذه الحية بأنها جان أو كأنها جان، وبين كونها ثعبان مبين بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهي ضخمة جداً فهي ثعبان، وهي سريعة الحركة، فلسرعة حركتها وصفها بهذا الوصف {كَأَنَّهَا جَانٌّ}.

وقوله: {تَسْعَى}، أي: تمشي وتضطرب، وقوله: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى}، يعني: إلى حالتها السابقة، يقال لكل من كان على أمر فتركه: رجع سيرته، وإلى سيرته، ورجع لسيرته، يعني: إذا رجع لما هو عليه، يعني: ترجع عصا.

{وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً} [سورة طه:٢٢-٣٥]، **وهذا برهان ثانٍ لموسى -عليه السلام- وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}، وقال في مكان آخر: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** [سورة القصص:٣٢]، **وقال مجاهد: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى -عليه السلام- كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر، وقوله: {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** أي: **من غير برص ولا أذى، ومن غير شين، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسُدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه -عز وجل-، ولهذا قال تعالى: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}.**

يقول: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}، وقال في مكان آخر: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}، يقول: "**قال مجاهد {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} كفك تحت عضدك**"، الجناح فسره بعضهم -كالفراء والزجاج- بالعضد، وفسره بعضهم –كقطرب- بالجانب، والله -عزوجل- يقول: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [سورة الإسراء:٢٤]، يعني: واخفض لهما جناحك الذليل، فُسر بالجانب، يعني: واخفض لهما جانبك، يعني: تواضع، وهذه الأقوال -والله أعلم- لا منافاة بينها، فالذين يقولون هو الجانب، أو الذين يقولون هو العضد، فإن العضد يكون بجانب الإنسان، فالعضد يكون بجانب الإنسان، حتى إن من أهل العلم في تفسير قوله: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} من قالوا: إن الإنسان إذا أراد أن يبطش فإنه يرفع يديه، وهكذا قالوا بأن العضد أو اليد من الإنسان، وكذلك أيضاً الجانب هو محل الجناح من الطائر، فإذا قال: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ} أو {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} يعني: إلى جانبك، فإذا ضم يده إلى جانبه فإن ذلك هو محل العضد كما هو معروف، ففي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} فهذا يحصل به كمال الطمأنينة، ويذهب عنه الخوف، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ} تخرج بيضاء، يعني: أنها تخرج بهذه الصفة، بعضهم يقول: كأنها قطعة قمر، {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، أي: من غير علة ولا داء أو برص أو نحو ذلك، فهذه آية يراها الناس، وإذا ضم إليه جناحاه حصل له من الطمأنينة وزال عنه وتلاشى الخوف، وهذا يحتاج إليه في دعوة فرعون ومخاطبته، فهذه آية أخرى لموسى -صلى الله عليه وسلم- قد لا يطلع عليها الناس، لكن إخراج اليد بيضاء هذه آية يرونها ويشاهدونها.

وقوله: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجتَ فاراً منه وهاربا فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى.

كل من تجاوز حده فإنه يوصف بأنه طغى، {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء} [سورة الحاقة:١١]، يعني: تجاوز الحد، حصل ما حصل من الغرق والطوفان.

{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي} هذا سؤال من موسى -عليه السلام- لربه -عز وجل- أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً، فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه -عز وجل- إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي}، أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي} وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العيّ، ويحصل لهم فَهْم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ} [سورة الزخرف:٥٢]، أي: يفصح بالكلام.

قوله: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} هذا يحتاج إليه في الدعوة مع مثل هذا المتكبر، العاتي عن الله -تبارك وتعالى-، فإن من يدعي الربوبية وينكر ويكابر يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٨٨]، مثل هذا لا تطيق النفوس رؤيته ولا سماع كلامه، فيحتاج من أراد أن يدعو أمثال هؤلاء إلى انشراح، بل كل من أراد أن يقبل على أمر من الأمور فهو يحتاج إلى ذلك، ولهذا يقال فيمن أراد أن يتصدر للدعوة لاسيما دعوة من يصدر منهم الكلام الفج، والفعال القبيحة التي تُظلِم معها النفوس عند سماعها، فإن مثل هذا يحتاج إلى شرح صدر وما كل أحد يطيق ذلك، ما كل أحد يصلح لهذا، وإذا قرأت لكتابات هؤلاء اللبراليين مثلاً ورأيت الطعن في الدين واللمز والسخرية من الحجاب والدعوة إلى الفساد والاختلاط، والكتابات التي كلها ربما لا تصدر إلا عن نفس متمردة على الله -عز وجل- الإنسان تضيق نفسه حين يقرأ هذا، ويجد من الألم والحسرة الشيء الكثير، ومن أراد أن يدعو هؤلاء فإنه يحتاج إلى شيء من سعة الصدر، والصبر أكثر من غيره ممن يدعو أناساً لهم شيء من الغفلة، فإن رؤية هؤلاء لا تطاق، وقراءة ما يكتبون أمر لا يطاق بحال من الأحوال، وما كل أحد يصبر على مثل هذا، ولا على مطالعة ما يقولون وقراءته، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}، يقول: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}، ما يُذكر مِن أن موسى -عليه الصلاة والسلام- في الصغر لما خافه فرعون، يذكرون في هذا أشياء، يقولون: إنه كان وهو صغير يشد لحية فرعون بقوة، وإن فرعون خاف، فهَمّ بقتله فقالت امرأته: إنه لا يفقه، صغير، واختبروه بوضع تمرة وجمرة، وإن الله -تبارك وتعالى- ألهمه أخذ الجمرة من أجل أن يصرفهم عنه، هذا يذكر كثيراً في كتب التفسير، ولكن لا أعلم له مستنداً صحيحاً، وموسى -عليه الصلاة والسلام- كان فيه هذه العقدة في لسانه وقوله: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي} ما ذكر هنا من المعنى صحيح باعتبار أنه ما سأل رفع ذلك أجمع، وإنما الحدّ الذي يحصل به الإبانة والإفهام للمخاطبين، بدليل أن فرعون قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}، ففرعون مكابر وكذاب، لكن يدل على هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما طلب أن يرسل الله معه هارون علل ذلك ومن جملة ما علل به قال: {هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [سورة القصص:٣٤]، فهذا يدل على أنه بقي شيء من ذلك، والله أعلم.

وقوله: {وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي} وهذا أيضاً سؤال من موسى -عليه السلام- في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: فنُبِّئَ هارون ساعتئذ حين نُبِّئَ موسى -عليهما السلام-، وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال: أنا والله أدري، قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى -عليه السلام-: {وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا} [سورة الأحزاب:٦٩].

وقوله: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} قال مجاهد: ظهري، {وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي}، أي: في مشاورتي، {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً} قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: {إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً}، أي: في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قوله: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} الأزر هو القوة، وقرأه ابن نافع {أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}، والفرق بين القراءتين واضح، قراءة الجمهور: أن هذا من جملة السؤال، {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}، وعلى القراءة الثانية أنه سأل أن يبعث معه هارون -عليه السلام-، وعلل ذلك الطلب بقوله: أَشدد وأُشركه.

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىَ * وَلَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرّةً أُخْرَىَ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىَ أُمّكَ مَا يُوحَىَ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمّ بِالسّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوّ لّي وَعَدُوّ لّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مّنّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىَ عَيْنِيَ * إِذْ تَمْشِيَ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَىَ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىَ أُمّكَ كَيْ تَقَرّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجّيْنَاكَ مِنَ الْغَمّ وَفَتَنّاكَ فُتُوناً} [سورة طه:٣٦-٤٠]، **هذه إجابة من الله لرسوله موسى -عليه السلام- فيما سأل من ربه -عز وجل-، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت**

ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} [سورة القصص:١٠]، **فذهب به البحر إلى دار فرعون {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً}** [سورة القصص:٨]، **أي: قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله -وله السلطان العظيم والقدرة التامة- أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، قال: حببتك إلى عبادي، {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله.**

وحينما طلب من ربه قال: **{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}**، وقال: **{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، وقال: **{وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي}** كل هذه الأشياء، فقال الله: **{قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}**، فهذا كله إنعام من الله -عز وجل- على موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكّره بنعمة أخرى، **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}** وذلك في حال صغره مما جرى له، قال: **{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى}** والتعبير بالاسم الموصول يفيد التعظيم، **{مَا يُوحَى}** كما قال الله -عز وجل-: **{فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}** [سورة طه:٧٨]، يعني: شيء عظيم هائل، وهكذا في قوله: **{فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}** [سورة النجم:١٠]، كل ذلك يفيد تعظيم هذا الأمر، قال: **{أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}**، التابوت: الصندوق، واليم: يقال للبحر، وكذلك النهر الكبير يقال له اليم، **{فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ}** فليلقه: هذا أمر، واللام لام الأمر، **{فَلْيُلْقِهِ}** يحتمل أن يكون هذا من قبيل الأمر على ظاهره، فصيغته صيغة الأمر، والمراد أيضاً الأمر، ويكون هذا الأمر من قبيل الأمر الكوني، أن الله -عز وجل- أمر هذا الماء بأن يتصرف بهذا التابوت بما أراد الله -تبارك وتعالى- فيصل إلى فرعون، ويحتمل أن يكون هذا الأمر **{فَلْيُلْقِهِ}** الصيغة فيه صيغة أمر ولكن المعنى ليس كذلك، يعني: لا يراد به الأمر، وإنما معناه الخبر، وجيء به بصيغة الأمر مبالغةً، وذلك أن الأمر كما يقول بعضهم: هو أقطع الأفعال، **{فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ}** هذا خبرٌ محقق، وجاء به بصيغة الأمر، والساحل قيل له ذلك: لأن الماء سحله، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره الكثير من المفسرين من أن أم موسى كانت تربطه بحبل فإذا خافت عليه عيون فرعون تتركه في الماء، فإذا أمنت سحبت هذا التابوت وأرضعته، هذا لا دليل عليه، وإنما هو مما تُلُقي عن بني إسرائيل، وظاهر القرآن يدل على خلافه، فالله -تبارك وتعالى- أخبرنا أنه أوحى إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، وقال لها: **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة القصص:٧] هذا يدل على أنها تلقيه في اليم، وقال الله -عز وجل- أيضاً: **{يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ}**، فإلقاؤه باليم ليس بهذه الطريق -أنه يربط بحبل تخوفاً عليه-، هذا بأمر الله -عز وجل- وطمأنها وخبّرها -كما سيأتي في تفسير الآية في موضعه إن شاء الله- أنه أمرها بأمرين، كما تضمنت الآية خبرين وبشارتين، تضمنت أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، **{أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ**

{فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}، هذان أمران، {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي} هذان نهيان، {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} هذان خبران وبشارتان، فالذي يظهر أنها أمرت أن تلقيه في اليم، فيحمله اليم إلى فرعون، وليس ما ذكر من أنها تربطه ثم بعد ذلك انفلت منها، فحزنت لذلك، وفي قوله: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، يقول: "**حببتك إلى عبادي**"، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: كان في وجهه صباحة وملاحة، وبعضهم يقول: في عينيه ملاحة، وكل هذا لا حاجة إليه، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، والقول الآخر: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي} أي: أن الله أحبه، محبة صادرة من الله -تبارك وتعالى-، يعني: ألقيت مني عليك محبة، أحببتك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ألقى الله محبته على موسى، والقولان بينهما ملازمة؛ وذلك أن الله -عز وجل- إذا أحب عبداً أمر جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل فينادى في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض[1]، فالله إذا أحب عبداً حببه إلى قلوب الخلق، وإذا أبغض عبداً بغضه إلى قلوب الخلق، فالقولان متلازمان ولا حاجة إلى الترجيح بينهما، يعني: قول من قال كابن جرير {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي} أي: أن الله أحبه لا يخالف قول من قال بأنه وضع له المحبة في قلوب الخلق؛ لأن ذلك ينتج وينشأ عن محبة الله -عز وجل- في العبد.

وقوله: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها}، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال الله تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ} [سورة القصص:١٢]، **فجاءت أخته، وقالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}، تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة؟، فذهبت به -وهم معها- إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة، ورفعة، وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، وقال تعالى هاهنا: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ}، أي: عليك، {وَقَتَلْتَ نَفْساً}**.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ} بين الله -عز وجل- في موضع آخر أن ذلك كان بأمر أمه، حيث قالت لأخته: {قُصِّيهِ}[سورة القصص:١١]، يعني: أنها تقص أثره -تبحث عنه-، ولما رأته وأبصرته لم تُعر ذلك اهتماماً، وإنما كأنها رأته رؤية عارضة، عن جُنب: يعني: أنها لم تلتفت إليه، ولم تقبل عليه إقبال من يعرفه، وإنما كأنه شيء عارض لا يعنيها، فقالت لهم: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}، ويذكر المفسرون: أنهم سألوها -والله تعالى أعلم- عن ذلك، يعني: كيف عرفتِ نصحهم؟ فشكّوا في هذا، وأنها قالت: إنهم ينصحون له من أجل إسعاد الملك، يعني: رغبة في إسعاده، ورجاء –أيضاً- عائدته وعطائه، والله تعالى أعلم بهذا كله، وبعضهم يقول: إنهم سألوها: من أين أتى اللبن لهذه المرأة؟ فقالت: من أخي هارون، وهارون -عليه الصلاة والسلام- أكبر من موسى، فيقولون: إنه

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

كان يرضع أيضاً، لم يكن يعني في نفس العمر لكن فيها لبن، ويمكن أن يقال: إنه يرضع؛ لأنه في سن الرضاعة.

وقال تعالى هاهنا: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ}، أي: عليك.

قال بعض أهل العلم في قوله: {تَقَرَّ عَيْنُها}: هذا من البرودة، القر والحر، فيعبر به عن الفرح والسرور، ويقولون: دموع الفرح باردة، ودموع الحزن حارة ساخنة، وإذا دعوا على إنسان قالوا: أسخن الله عينه، بمعنى: أنه تحصل له من الفجائع ما يحصل له به الحزن والألم، ولهذا تقول العرب في تشبيهها وأمثالها: أسخن من عين المقلاة، يعني: المرأة التي لا يعيش لها ولد، فعينها ساخنة، يعني: من شدة التوجع والحزن على موت أولادها.

{وَقَتَلْتَ نَفْساً} يعني القبطي {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ} وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: {لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

أي نعم، قد يكون من أجل هذا، من أجل أنه خاف على نفسه من قتلهم، وكذلك يدل عليه التنجية {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}، فهذا أحسن من تفسير من فسره بالقتل، بعضهم قال {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}: الغم هو القتل، وبعضهم يقول: إن الغم الذي حصل له بسبب أنه قتل هذا القبطي، ويمكن أن يكون هذا وهذا، يعني: هو حزنَ، يقال: إن هذا وقع على سبيل الخطأ، يعني: أراد أن يضربه -لكن دون القتل-، فكانت هذه الضربة قاتلة، ولم يقصد قتله فحزن لذلك، وكذلك لما جاءه الرجل الذي يقول: {إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} [سورة القصص:٢٠] أصابه بسبب هذا الغم، وكل ما يغم القلب يقال له: غم، فإذا كان على أمر فائت قيل له: الحزَن، فالحزَن هو اغتمام القلب من أمر فائت، وأما إذا كان في أمر المستقبل فهذا الذي يسمى بالخوف، وهذا الفرق بين الحزَن والخوف، وإن كان قد يستعمل أحدهما في محل الآخر قليلاً، كما قال الله -عز وجل- عن أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤] فسر بالخوف والإشفاق من الدار الآخرة؛ لأنهم يقولون: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [سورة الطور:٢٦] والإشفاق هو خوف خاص، يعني: الخوف مع علم بالمخوف منه يقال له خشية، فإذا كان هذا الخوف رقيقاً قيل له: إشفاق، ويأتي بمعنى آخر أيضاً.

فائدة:

قوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- هيأه ودبره هذا التدبير، ورعاه هذه الرعاية، وأنشأه هذه النشأة؛ ليقوم بأعباء الرسالة، والدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-، يقال: فلان صُنع على عين الله، هذه تزكية، ولا نشهد لأحد بمثل هذه الشهادة، لكن من شهد الله -تبارك وتعالى- له نشهد له، فنقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً الله صنعه على عينه، ويمكن أن نقول: الصحابة -رضي الله عنهم- الله صنعهم على عينه، اختارهم لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، أما آحاد الناس فحينما يقال: إن الله صنعه على عينه معنى ذلك أن هذه تزكية كبيرة جداً لهذا الإنسان، ربما تكون أبلغ من الشهادة له بالجنة؛ لأن الشهادة له بالجنة قد لا تقتضي أن يكون نشأ تلك النشأة ولا عمل أعمالاً معتبرة، إنما ختم له بخاتمة السعادة، أسلم فمات

مثل اليهودي الذي قال: أشهد أن لا إله إلا الله عند موته، فحينما يقال: فلان صنعه الله على عينه فهذا يعني أنه نشأ نشأة على عين الله -عز وجل-، وهذا صعب أن يقال لآحاد الناس، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيَ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىَ فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَىَ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لّيّناً لّعَلّهُ يَتَذَكّرُ أَوْ يَخْشَىَ} [سورة طه:٤٠-٤٤]، **يقول تعالى مخاطباً لموسى -عليه السلام-: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله -تبارك وتعالى-، وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال:** {ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ} **قال مجاهد: أي على موعد، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله:** {ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ} **قال: على قدر الرسالة والنبوة.**

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ}، يقول: "**قال مجاهد: أي على موعد**"، و"**عن قتادة قال: على قدر الرسالة والنبوة**"، بمعنى أنه جاء على الوقت الذي قدر الله -عز وجل- إرساله فيه كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أنه جاء بوقت قدر الله -عز وجل- مجيئه فيه لا يتقدم ولا يتأخر، وهذه الأقوال متقاربة إذ أن كل شيء إنما هو بتقدير الله -تبارك وتعالى-، مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام- بهذه الساعة التي جاء فيها لا شك أنه كان بتقدير الله، وجاء في الوقت الذي قدر الله -عز وجل- إرساله فيه، فلا منافاة بين القولين، أو بين هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}**، أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي أي كما أريد وأشاء، وروى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني، قال: نعم، فحج آدم موسى))[1] أخرجاه.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، أي: أن الله -تبارك وتعالى- هيأه وأعده إعداداً خاصاً بعناية من أجل أن يكون متحملاً لأعباء الرسالة، وداعياً إلى الله يدعو هذا الذي طغى، وادعى الربوبية أو الإلهية.

وقوله: {اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي}**، أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي،** {وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي} **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس -رضي الله**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [سورة طه:٤١]، برقم (٤٤٥٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٢).

عنهما-: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَنِيَا} والنيُ هو الضعف والفتور، {وَلاَ تَنِيَا} يقول هنا: "**عن ابن عباس: لا تبطئا**"، وقوله -أيضا-: " **لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما**"، هذا القول هو موافق لقول ابن جرير، والذكر هنا مصدر يشمل ذكر الله -تبارك وتعالى- بلسانه، كما أنه يشمل ذكره في العمل والفعل والقيام بوظائف العبودية، ومن ثم فسره بأن المراد: لا تقصرا، يعني: لا تضعفا، لا تنيا عن ذكري بالإحسان إليكما بالشكر، والشكر كما هو معلوم يشمل القلب واللسان والجوارح، وابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على شكره بامتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا يرجع إلى ما سبق، باعتبار أن الإنسان إذا قام بذلك فإن هذا أدعى وأقوم لثباته، وعون الله -عز وجل-: إعانة الله -تبارك وتعالى- له، وبعضهم يقول: المقصود به تبليغ الرسالة: {وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي} والذي يظهر -والله أعلم- أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- وذكره ابن جرير وأمثال هؤلاء: أقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أي: تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه، {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، فدعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل قريب رفيق؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]**، وقوله: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى: أي يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}** [سورة الفرقان:٦٢] **فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة.**

أمر الله -تبارك وتعالى- بإلانة القول مطلقاً، وإلانة القول تكون في التلطف بالمخاطبة، ولهذا فيما قص الله -تبارك وتعالى- من خبر موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون أن الخطاب جاء ليناً، {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [سورة النازعات:١٨] بأسلوب العرض، ولم يقل: أزكيك، {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}[سورة النازعات:١٩]، وهكذا في مواضع من هذا الخطاب، لو تتبعته في القرآن لرأيت ذلك جلياً، وبعضهم يقول: المراد بذلك القول اللين: هو أن يكنياه، وهذا الخطاب بالكنية فيه إلانة بلا شك، لكن ذلك لا ينحصر به إلانة القول، وقد يكون مخاطبة هذا الذي يدعي الإلهية بالكنية أمراً غير مرغوب بالنسبة إليه، هو يريد أن يخاطب بما هو أكبر وأعظم من هذا، بخلاف آحاد الناس، فإن العرب تحب الدعاء بالكنية، ثم الاسم، وآخر ذلك اللقب، وكانوا يكرهون أن يدعى الواحد منهم باللقب، لكن مثل هؤلاء قد تكون الكنية مفضولة بالنسبة إليه، يعني حينما يخاطب يقال له: أيها الملك، أو نحو هذا، وهذا يبدو أنه يريد أن يخاطب بأن يقال له: أيها الإله؛ لأنه يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨]، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} "لعل" هذه سبق الكلام عليها والجواب عن إشكال يرد في مثل هذا الاستعمال، والأصل في كلام الناس أنها تفيد معانيَ المشهور منها أنها تفيد الترجي، والترجي إنما يكون مما لا يعلم العواقب، فهذا

يكون مترجياً، فإذا قال الإنسان: لعل المطر ينزل، أو لعل زيداً يقدم أو نحو هذا يقوله؛ لأنه لا يعلم العاقبة هل يحصل هذا أو لا؟، أما الله -عز وجل- فهو عالم بكل شيء لا يخفى عليه خافية، والمراد كما يقول بعض أهل العلم: إن معناها التعليل -وهو أحد معانيها-، فيقول: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا في موضع واحد، وهو قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩]، بمعنى: كأنكم تخلدون، فإذا قلنا بهذا انحلت هذه الإشكالات، وبعض أهل العلم يقول: إن المراد بها الترجي ولكن الخطاب في القرآن قد يخرج بحسب نظر المخاطب، يراعى فيه المخاطب وهذا أنواع: تارة لأن المخاطب يعتقد ذلك وإن كان المتكلم لا يعتقده، ولهذا تجد الكلام في القرآن أحياناً على آلهة المشركين أو نحو ذلك يستعمل معها الصيغة التي تستعمل للعقلاء، {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٩٥] يمشون، ما قال تمشي، لأنهم جعلوها آلهة، {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، أي: على رجائكما، ومثل قول الله -عز وجل- عن بعث يونس -عليه الصلاة والسلام- إلى قوم قال: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧] أو يزيدون الله عالم بعدتهم، محيط بهم إحاطة كاملة لكن أحد الأجوبة عن هذا على هذه القاعدة أن الناظر إليهم يقول هذا، يعني: باعتبار حال المخاطب خرج الخطاب بهذه الصيغة، يعني: الناظر إليهم يقول: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، فيكون على هذا الاعتبار: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، أي: على رجائكما.

والتذكر يحصل بهذه المخاطبة والدعوة والتذكير فيتعرف الإنسان ويتفطن ويرجع إلى ما كان غافلاً عنه، أو يخشى كما يحصل من البعض فيخاف من الله -تبارك وتعالى-، فالتذكر قد يورث الخشية، لكن التذكر ليس معناه الخشية، وإنما يحصل بالتذكر طرد الغفلة، والذهول، وما شابه ذلك، فالخشية تكون ناتجة عن ذلك، فالإنسان يتفكر ويحصل له من جراء ذلك التذكر، ويتذكر ويحصل له من جراء ذلك التفكر، وأما الخشية فهي نتيجة للتذكر والتفكر، فإن الإنسان قد يكون غافلاً فإذا حصل له هذا التذكر رجع وخشي الله -تبارك وتعالى-، والخشية هي خوف مع علم بالمخوف منه.

وقوله -عز وجل-: {قَالاَ رَبّنَا إِنّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىَ * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنّا رَسُولاَ رَبّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مّن رّبّكَ وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ * إِنّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنّ الْعَذَابَ عَلَىَ مَن كَذّبَ وَتَوَلّىَ} [سورة طه: ٤٥-٤٨]، **يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون -عليهما السلام-، أنهما قالاً مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه: {إِنّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ} يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أو أن يطغى: يعتدي.**

الطغيان هو مجاوزة الحد، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} جاوز حده، وقوله -تبارك وتعالى- عن قول موسى -عليه الصلاة والسلام- مع هارون: {إِنّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ} قال: "**يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان**"، وقوله: {إِنّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا} يفرط علينا فسره ابن كثير -رحمه الله- بهذا، وبعضهم فسر يفرط بمعنى يعجّل علينا بالعقوبة، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {يَفْرُطَ} يعني: أن يعجل علينا بعقوبة، وهناك قراءة غير متواترة لابن عباس ومجاهد وعكرمة: {يُفْرِطَ} يعني يشتطّ، {يُفْرِطَ عَلَيْنَا} بمعنى: يشتط في العقوبة.

{قَالَ لاَ تَخَافَا إِنّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىَ}، أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

وقوله: {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مّن رّبّكَ}، أي: بدلالة ومعجزة من ربك.

قوله: **{جِئْنَاكَ بِآيَةٍ}** ليس المقصود آية واحدة، وإنما المقصود بالآية: الجنس، فيشمل الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا}**[سورة طه:٥٦]، فجاء بصيغة الجمع، وهنا جاء بصيغة المفرد، فالآية جنس يشمل الواحد والعدد.

والآية يقول: "**أي بدلالة ومعجزة من ربك**"، هذا تفسير للآية، والآية تأتي في كلام العرب بمعنى العلامة، فما يعطيه الله -عز وجل- لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- يدل على صدق ما جاءوا به، فهو علامة بهذا الاعتبار، ولهذا يقولون له: دلائل النبوة؛ لأنه يدل على نبوتهم، والسلف يسمون ما يقع ويجري على أيدي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بنوعيه من الأمور التي فيها الإعجاز، والأمور التي لا إعجاز فيها كل ذلك يسمونه بالآيات، وهو الوارد في نصوص الكتاب والسنة، ويقال لها أيضاً: دلائل النبوة، وبعض ذلك يكون من قبيل المعجز مثل العصا، وبعض ذلك ليس من قبيل المعجز وذلك بما يعرف به صدقه من سيرته، فمثلاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقال له: الصادق الأمين، والآيات التي تكون على أيديهم من الأمور المعجزة تارة يراد بها التحدي، وتارة لا يراد بها التحدي، والأشاعرة والمتكلمون يُعرفون المعجزة: بأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، وهذا ليس بصحيح، وإنما ذكروا هذا القيد: يراد به التحدي؛ لأنهم لم يفرقوا بين السحر والمعجزات إلا بهذا القيد فقط، وهذا غلط، فإن ما يجري على أيدي السحرة من الخوارق هي لا تخرق عادة الناس جميعاً، وإنما تخرق عادة غير السحرة، وأما السحرة فهي بالنسبة إليهم أمر معلوم ومقدور، والله أعلم.

{وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ}، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين".

السلام هنا ليس المقصود به التحية، والدليل على هذا أنه لم يأت في أول الكلام، والتحية إنما تقال في أول اللقاء، فهنا خاطبه ثم قال له في ثنايا هذا الخطاب: **{وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ}**، مما يدل على أن المراد -والله تعالى أعلم- السلام بمعنى السلامة، وهذا الذي عليه المحققون من المفسرين كابن جرير، واختاره ابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع.

ولهذا قال موسى وهارون -عليهما السلام- لفرعون: {وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ * إِنّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنّ الْعَذَابَ عَلَىَ مَن كَذّبَ وَتَوَلّىَ}، أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات:٣٧-٣٩]، **وقال تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ***

{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة الليل:١٤-١٦]، **وقال تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}** [سورة القيامة:٣١-٣٢]، **أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.**

وهذا من اللطف في هذا الخطاب، يقول له: **{وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ}**، بعد أن قال: **{جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مّن رَّبّكَ}**، ويقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "أما قول موسى: **{وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ}**، فليس بسلام تحية، فإنه لم يبتدئ به فرعون بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: **{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}**، أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته؟ وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام والله أعلم، وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوبَ حسنُه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: **{إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ}** وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشاُركك فيه بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهم استدعاء لسمعه وطاعته، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك، وأستاذك، وإن كان أستاذهما معاً، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططا ولم يرهقه من أمره عسراً، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة إخبارات، أحدها قوله تعالى: **{قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ}** فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، **{وَالسّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتّبَعَ الْهُدَىَ}**، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترهيب وترغيب"[٢].

{قَالَ فَمَن رّبّكُمَا يَا مُوسَىَ * قَالَ رَبّنَا الّذِيَ أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَىَ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىَ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبّي فِي كِتَابٍ لاّ يَضِلّ رَبّي وَلاَ يَنسَى} [سورة طه:٤٩-٥٢]، **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه، قال: {فَمَن رّبّكُمَا يَا مُوسَىَ}، أي: الذي بعثك وأرسلك من هو؟! فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري، {قَالَ رَبّنَا الّذِيَ أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَىَ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يقول خلق لكل شيء زوجه، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: سوّى خلق كل دابة، وقال سعيد بن جبير في قوله: {أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَىَ} قال: أعطى كل ذي**

---

٢ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٩٦/٢).

خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح، وقال بعض المفسرين: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كقوله تعالى: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}، أي: قدر قدَراً وهدى الخلائق إليه، أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه.

يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد.

قوله -تبارك وتعالى-: {الّذِيَ أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ} نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله: "**خلق لكل شيء زوجاً**"، بمعنى: لكل ذكر ما يوافقه من الإناث، هذا الذي قصده ابن عباس -رضي الله عنهما- وبه قال بعض المفسرين، واختاره الفراء، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إنه أعطى نظير خلقه في الصورة والهيئة، فالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث مثلاً وهي الزوجات، وهكذا أيضاً سائر أنواع الحيوان جعل لها نظير خلقها من الزوجات، والأقوال التي هنا وردت عن ابن عباس: "**جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة**"، {أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ}، يعني: أن الله خلق هذا الخلق متفاوتاً، وأعطى كل خلق ما يليق به، فنوّع هذه المخلوقات، ولهذا يقول مجاهد: "**أعطى كل شيء صورته**"، وقوله: "**سوّى خلق كل دابة**"، وهكذا قول من قال: "**أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ولا الدابة ... إلى آخره**"، هذه الأقوال كلها -والله تعالى أعلم- تدخل في معنى الآية، {أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَىَ} الخلق يعني: أن الله ركبه وصوره وجعله في حال يصلح لمثله مما أراد الله -تبارك وتعالى- له، وهذا يشمل الصور والهيئات في الظاهر، كما أنه يشمل تنويع هذا الخلق، فإذا نظرت إلى المخلوقات تجد أن الله فاوت بينها غاية التفاوت، فأعطى الله -تبارك وتعالى- الدواب في البحر هيئة غير هيئة الدواب التي في البر، وفاوت بين هذه الدواب التي تكون في البحر، كما فاوت بين الدواب التي تكون في البر، فخلْق هذه الأسماك يختلف عن خلْق الجمل والفيل، كما أن خلق الزرافة يختلف عن خلق الشاة، وهكذا في الزواحف نوّعها وجعل خلقها في الجملة مغايراً لخلق ما يمشي أو يدب على أربع، وجعل من هذه المخلوقات ما يمشي على رجلين، ومنه ما يطير في الهواء، فنوّع هذه الصور والأشكال، وجعل الإنسان في أحسن تقويم، فالآية تشمل -والله تعالى أعلم- هذا كله، حتى في الأجزاء والأبعاض فاليد جعلها بهذه الصورة تصلح للقبض والبسط والأخذ ونحو ذلك، ركبها بهذا التركيب: الكف، والأصابع، وجعل فيها هذه المفاصل؛ لتسهل فيها الحركة، ويحصل المقصود والانتفاع منها، وجعل فيها هذه الأنامل اللطيفة بأطرافها وشدها بالأظفار، ويستطيع صاحبها أن يعقد بها ويربط، ويستطيع أن يتصرف سائر التصرفات، وجعل الرِّجل بهيئة أخرى لا تصلح للربط، والأخذ، والعطاء، وإنما تصلح للمشي فركبها تركيباً خاصاً، كما ركب الله -تبارك وتعالى- سائر بدن الإنسان، وجعل العين غير صورة الأذن، فالأذن للسماع جعل فيها هذه التجاويف، والعين للنظر جعلها بهذه الصورة البديعة، وقل مثل ذلك في سائر الأشياء، فالآية تشمل هذا كله، -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} خلْقه اللائق به، {أَعْطَىَ كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَىَ}، يعني: هداه لما يصلحه، هذه المخلوقات هداها لما تقوم به

معايشها، ويحصل بقاؤها ودوامها، فالسباع تخرج لها أنياب، وتقبل على لون من المطعوم يختلف عما يقبل عليه غيرها، فالطائر جعل الله له منقاراً فهو يلتقط به، ويأكل الحب ونحو ذلك، والشاة جعل الله -عز وجل- لها خلقاً آخر تقبل على لون من الطعام من غير تعليم، خِلقة، والصغير يخرج من بطن أمه ويلتقم الثدي من غير أن يُعلم ويُدرب على ذلك، ومن تأمل ونظر في هذه المخلوقات وجد العجب العجاب، كيف هذه المخلوقات تعرف هذه الأمور وتهتدي إليها؟!، وكيف النحل يبني هذه الخلايا، بهذه الطريقة العجيبة؟!، ولو أُخذ صغار النحل ووضع في مكان معزول فإنه يبني خليته بنفس الطريقة التي يبني بها النحل خلاياه في أي مكان على وجه الأرض، فالله -تبارك وتعالى- علمها هذا، وهداها إليه، فسبحانه من خالق حكيم.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}: "فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها، منها: أن معنى {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} أنه أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من طريق علي بن أبي طلحة، وعن السدي وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أيضاً: {ثُمَّ هَدَى}، أي: هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال بعض أهل العلم: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، أي: أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه، وهذا مروي عن الحسن وقتادة.

وقال بعض أهل العلم: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، أي: أعطى كل شيء صورته المناسبة له. فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له، فقدره تقديراً، كما قال الشاعر:

وله في كل شيء خِلقة *** وكذاك الله ما شاء فعل.

يعني بالخلقة: الصورة، وهذا القول مروي عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير، {ثُمَّ هَدَى} كلَّ صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

وقال بعض أهل العلم: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف والرِّجل واللسان وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير نابٍ عنه، وهذا القول روي عن

الضحاك، وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى: {كُلَّ شَيْءٍ} هو المفعول الأول لـــ {أَعْطَى}، و{خَلْقَهُ} هو المفعول الثاني"[٣].

الإمام ابن القيم -رحمه الله- يرد بقوة على من يقول بأن المقصود بـــ: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} أي: أعطى الذكور ما يناسبها من الإناث، ويوافق خلقها، ويقتصر على هذا المعنى، فيقول -رحمه الله تعالى-: "قال مجاهد: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} لم يعط الإنسان خلق البهائم ولا البهائم خلق الإنسان، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى، قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خُلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: {قَدَّرَ فَهَدَى} [سورة الأعلى:٣] وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه، ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى: مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع، وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء، قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة والثور بقرة ثم ألهم الذكر كيف يأتيها، قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز؛ لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه، قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة، قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها؛ فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه، وقوله: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ} يأبى هذا التفسير؛ فإنّ حمْل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن ممن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له؟ وأين نظير هذا في القرآن؟ وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} [سورة النجم:٤٥]، فحمْلُ قوله: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} على هذا المعنى غير صحيح فتأمله، وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرِّجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع، ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي: أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون"[٤].

{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىَ} أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٩/٤).

٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام ابن القيم الجوزيه (٧٨-٧٩).

قوله: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىَ} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه عامة المفسرين -أنه من المعنى- {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىَ} لم يتعرفوا على هذا المعبود، ويتقربوا إليه ويفردوه بالعبادة؟، يدعوه إلى التوحيد والإيمان ويحتج عليه فرعون بالقرون التي وقع منها الإشراك، وترك عبادة الله -عز وجل-، هذا هو المعنى الذي تدل عليه الآية -والله تعالى أعلم-، وهو الذي اختاره ابن جرير ورجحه ابن القيم، وبعضهم يقول: إنه أراد المغالطة لما خشي أن ينقطع ويظهر عجزه جعل يشغب بهذا فيسأل موسى {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىَ}، يعني: أخبرنا عما جرى لهم، ووقع لهم من الحوادث ونحو ذلك؟، وإنما ما بال القرون الأولى لم يعبدوه؟، والله تعالى أعلم.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىَ}، أي: فمال القرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟، والمعنى لو كان ما تقوله حقاً لم يخفَ على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به، وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل؛ ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة، والملاحدة وأفراخ الفلاسفة، والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم، فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي} [سورة طه:٥٢]، أي: أعمال تلك القرون وكفرهم، وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال، وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} فتأمله"[٥].

{لاّ يَضِلّ رَبّي وَلاَ يَنسَى}، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {لاّ يَضِلّ رَبّي} لا يضل: أقوال المفسرين ترجع -والله تعالى أعلم- إلى معنى هذه اللفظة، فإن كلمة ضل بمعنى ذهب وتلاشى وغاب واضمحل ونحو ذلك، {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [سورة السجدة:١٠] بمعنى: غابوا وتفرقت أبعاضهم وأجزاؤهم فيها، تحللوا فيها، وهكذا الذهاب عن حقيقة الشيء يقال له ضلال، كما قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥]، يعني: الذهاب عن الحق في حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، ولم يقصدوا بهذا أنه ضل بضلاله يعني: الكفر، وإلا لكانوا كفاراً بذلك؛ لأنه نبي -عليه الصلاة والسلام-، وهكذا أيضاً حينما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى:٧] فسر بأنه ذاهب عن حقيقة النبوة، والوحي، فهداه الله -عز وجل- لذلك، فهنا: {لاّ يَضِلّ رَبّي وَلاَ يَنسَى}، يعني: لا يقع منه الخطأ بمعنى الذهاب

---

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٧٩).

عن حقيقة الشيء، ولا يغيب عنه شيء من الأشياء كما هو الحاصل بالنسبة للآدميين، والنسيان هو الذهول عن المعلوم، والفرق بين النسيان وبين السهو أن السهو يكون المعلوم مكتناً في الذهن يحتاج فقط إلى تنبيه، سها عن كذا، بخلاف نسي،

ذهاب ما علم قُل نسيان *** والعلم في السهو له اكتنانُ

فإذا حفظ الإنسان آية ثم نسيها، يقال لهذا: نسيان، وإذا حصل له ذهول عارض عنها يقال: سها عنها، فهي في ذهنه معلومة فلو نُبه لتنبه، فالله -تبارك وتعالى- لا يرد عليه الخطأ، ولا يذهب عنه شيء من الأمور ولا يفوته شيء من الأشياء، ولا ينسى، وعلم الله -تبارك وتعالى- لا يحصل له ما يحصل لعلم البشر من الأمور العارضة حيث إن هذا المعلوم بالنسبة للبشر يحصل له شيء من التغيب عن الذهن، فيعجز الإنسان عن استحضاره واسترجاعه، لكن علمه تعالى محيط لا يخفى عليه خافية، ولا تعرض له العوارض التي يحصل فيها الضعف والخطأ والعجز، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه رقم: (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} [سورة طه: (٥٣-٥٦)] **هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه -عز وجل- حين سأله فرعون عنه، فقال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**[سورة طه: (٥٠)] **ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} وفي قراءة بعضهم: {مِهَاداً}، أي: قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها، {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً}، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}** [سورة الأنبياء: (٣١)] **{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}، أي: من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع، {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ}، أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ}، أي: لدلالات وحججاً وبراهين {لِأُولِي النُّهَى}، أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه، {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، أي: من الأرض مبدؤكم، فإنّ أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ}، أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً}** [سورة الإسراء: (٥٢)] **وهذه الآية كقوله تعالى: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}** [سورة الأعراف: (٢٥)].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}** يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه -عز وجل- حين سأله فرعون عنه فقال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ}** فيما سبق لما سأل فرعونُ موسى -عليه الصلاة والسلام- فقال: **{فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى}** [سورة طه: (٤٩)] قال: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**، بحسب كلام المؤلف: جاء كلام معترض وهو قوله: **{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى}** [سورة طه: (٥١-٥٢)] ثم قال: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}**، وهذا القول: وهو إن هذا من تمام كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يرد عليه إشكال وهو أنه قال: **{فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}**، إذا كان هذا من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- فموسى يقول: إن هذا الرب الذي ندعوك

إلى عبادته هو {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء}، فكان الأصل أن يقول: فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتى، لكنه قال: {فأخرجنا} فكيف جاء بضمير المتكلم: {أخرجنا}؟ فالذين يقولون بأن هذا من تمام كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقولون: هذا التفات من الغائب إلى المتكلم، -ولا إشكال أنه التفات-، بل هو حتى على القول الآخر التفات، ومعنى الالتفات: هو التحول في الكلام من الغائب إلى المخاطب أو العكس أو الغائب إلى المتكلم ونحو ذلك كما هنا، ونحو: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٢-٤)] هذا كله بالغائب، {إياك} هذا للمخاطب، وهذا الالتفات له حِكَم: تنشيط السامع، تجديد في الكلام، وهناك معانٍ أخرى يذكرونها في كل موضع بحسبه، مثلاً في سورة الفاتحة يقول: لما ذكر أوصافه فكأنه حضر بين يديه فخاطبه، والشاهد أن الذين يقولون بأن هذا من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقولون: حصل هذا الالتفات إلى ضمير المتكلم، للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة، ولكن هذا الجواب لا يخرج من الإشكال، فإنه إذا كان موسى -عليه الصلاة والسلام- يحكي ذلك عن الله -عز وجل- ويذكر صفته فكيف يقول: {فَأَخْرَجْنَا}؟ وإنما يكون ذلك من كلام الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال جماعة من أهل العلم بأن هذا من كلام الله، وليس من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا القول هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وعلى هذا يكون هذا الكلام من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، فآخر الكلام كان كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- {قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} وفي القراءة الأخرى: {مِهَادًا} والمهاد: هو ما يوطَّأ للصبي من فراش ونحوه، يقول: {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، وأصل السلك: إدخال الشيء في الشيء، والمراد هنا -والله تعالى أعلم- أنه أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً ومسالك تسلكونها، يقول: كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة الأنبياء: (٣١)]، يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى}، أي: **لذوي العقول السليمة المستقيمة**، والنُّهى: هي العقول الكاملة أو العقول الراجحة، جمع نُهية قيل: سميت بهذا؛ لأنها تنهى صاحبها عما لا يليق، أو لأن أصحابها -وهم أولو النهى- ينهون الناس عما لا يليق ويأمرونهم بما يجمل ويحسن، أو لأنه يُنْتهى إلى رأيهم، يقول: {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، يقول: **وهذه الآية كقوله تعالى**: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}.

وقوله: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} [سورة طه: (٥٦)]، يعني: فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل: (١٤)] الآية.

المراد بهذه الآيات المشار إليها هنا {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا} هي الآيات التسع كما يبينه قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء: (١٠١)] فهذه هي الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام- على اختلاف في المراد بهذه الآيات وتعيينها، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الإسراء.

{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}[سورة طه: (٥٧-٥٩)]، **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه، فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً}، أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين، ووقت معين، فعند ذلك {قَالَ} لهم موسى: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: {وَأَن يُحْشَرَ النّاسُ}، أي: جميعهم {ضُحًى}، أي: ضحوة من النهار؛ ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيِّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضحى، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء، وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم، وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم، ولا منافاة، قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {مَكَانًا سُوًى} مستوٍ بين الناس، وما فيه لا يكون صَوَب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستوٍ حين يُرى.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى}، يقول: أي **يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان ووقت معين، فعند ذلك قال لهم موسى -عليه الصلاة والسلام-:** {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، فرعون يقول: {اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى} الأقرب -والله أعلم- في تفسيره أنه مكان مستوٍ، يعني: في أبعاده وموقعه بحيث يكون مكاناً متوسطاً يسهل مجيء الناس إليه من الأطراف والنواحي المختلفة، ولا يكون مكاناً متطرفاً في محل ناءٍ لا يصل إليه إلا بعض الناس أو يصل الناس إليه بمشقة أو نحو ذلك، هكذا فسره بعض أهل العلم، وبعضهم قال: سوى، أي: مكاناً متوسطاً بيننا وبينك، أي: بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين فرعون، لكن هذا قد لا يكون بالقوي، والسبب أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما أراد أن يُبيّن هذا هل المقصود أن يكون مكاناً متوسطاً بين قصر فرعون وبين المكان الذي يسكن فيه موسى -عليه الصلاة والسلام- من البلدة نفسها، وهل هذا هو المراد؟ هذا فيه بعد، وأحسن من هذا قول من قال: إنه مكان مستوٍ، بمعنى أنه لا يوجد فيه من التضاريس ما يحول دون الرؤية والمشاهدة حيث يكون مكاناً مستوياً تماماً، وكذلك يكون الموعد في وقتٍ الناسُ فيه قد تفرغوا من أشغالهم، {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} بعضهم يقول: يوم الزينة أي: يوم السوق الذي يخرجون فيه إلى سوقهم، وبعضهم يقول: يوم الزينة هو يوم العيد، وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**ولا منافاة**" كأنه أراد: أنهم لعلهم يخرجون إلى سوقهم في يوم عيدهم، والمشهور أنه يوم عيد بالنسبة لهم، فيجتمع هؤلاء الناس ويتيسر حضورهم وقد تخففوا من أشغالهم وتفرغوا من أعمالهم، فيمكنهم الحضور والمجيء بل يُحْضَرون كما قال: {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، ومعنى: {أَن يُحْشَرَ النَّاسُ}

يجمعون، والضحى هو أول النهار فإن الشمس إذا ارتفعت بعد الطلوع كان ذلك هو الضحى، وهذا الضحى له أول وأوسط وآخر، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ظاهر، وهو أن هذا الوقت هو أوضح ما يكون في الرؤية بحيث لا يكون هناك خفاء ولا لبس، فلا أحد يقول: رأيت أو ما رأيت، وذكر بعض أهل العلم أيضاً علة أخرى وهي غير منافية لما ذكر: أن هذا الوقت في أول النهار فقد تطول تلك الجولة مما يستدعي وقتاً أطول فيكون المبتدأ من أول اليوم.

{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [سورة طه: (٦٠-٦٤)] **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى -عليه السلام- إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}** [سورة يونس: (٧٩)] {ثُمَّ أَتَى}: **أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى -عليه الصلاة والسلام- متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** [سورة الشعراء: (٤١-٤٢)] **{قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً}، أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ}، أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له {وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.**

نعم، قوله -تبارك وتعالى-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى}، فتولى هذا كقوله: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [سورة النازعات: (٢٢)]، قال: {فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} هذا الكيد هو ما يعارض به هذه المعجزة وهذه الآية، وإنما عارضها بأفعال السحرة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ} [سورة طه: (٦٩)]، فهو جمع كيده الذي هو السحر، كما فسره قوله: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ}، {ثُمَّ أَتَى} {قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ} وفي القراءة الأخرى بفتح الياء، وهي لغة أهل الحجاز، وأما هذه فيقولون: إنها لغة تميم، {فَيُسْحِتَكُمْ}، يعني الاستئصال والإهلاك، {بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} هذه الكلمة صدرت من موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما رأى هؤلاء قد جدوا واجتهدوا وشمروا عن ساعد الجد، وجمعوا ما استطاعوا جمعه من السحرة، وجاء هؤلاء السحرة بما معهم من حبال وعِصِي، وتضافرت جهودهم وتكالبت من أجل إبطال هذه الآية والمعجزة، ومعارضة ما جاء به نبي الله -عليه الصلاة والسلام- {قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} فهذه الكلمة وصلت إلى الأعماق، وأثرت فيهم غاية التأثير فتنازعوا عند ذلك، والفاء تدل على التعليل كما أنها تدل على التعقيب المباشر، فلما قال هذه الكلمة كانت سبباً للتنازع،

وهذا يفيد في بيان المراد بهذا التنازع؛ لأن من المفسرين من يقول: إن التنازع بينهم هو ما حصل من الكلام فيما بينهم في العائدة التي تعود عليهم، والأجر الذي يحصلون عليه والجائزة، لكن هذا بعيد، فتنازعوا بعدما سمعوا هذه الكلمة من موسى -عليه الصلاة والسلام- {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} بعضهم يقول: إن التنازع الذي حصل بينهم هو الكلام الذي جرى من أنه إن كان نبياً اتبعناه، وإن كان ساحراً غلبناه، وهذا ليس بتنازع، التنازع فيه تدافع وتجاذب فحصل بسبب هذه الكلمة التي قالها موسى -عليه الصلاة والسلام- شيء من الانشقاق في داخلهم، في داخل هذا الصف؛ لأنهم أرادوا أن يتشجعوا كما قال الله -تبارك وتعالى- إنهم حث بعضهم بعضاً أن يأتوا: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا} فأرادوا أن يظهروا بمظهر المتماسك القوي، وهم في الواقع حصل بينهم تفكك واختلاف وتنازع، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن بعضهم كأنه أراد أن يتراجع أو خاف وهاب من هذه المواجهة والمعارضة لِمَا جاء به موسى -عليه الصلاة السلام-، وأما الإسرائيليات فلا يعَوَّل على شيء منها، والمفسرون يذكرون أشياء من هذا، فبعضهم يقول: إنهم طلبوا من فرعون أن يريهم موسى -صلى الله عليه وسلم- وهو نائم، فلما نظروا إليه وجدوا أن العصا تحرسه، فعرفوا أن هذا ليس من السحرة، هكذا قالوا، ولا حاجة لشيء من هذا، هذه الكلمة التي صدرت من موسى -صلى الله عليه وسلم- لا تصدر من السحرة، الساحر ما يقف ويعظ الناس عند المواجهة والتحدي ويقول لهم: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ}، وهو سينكشف بعد قليل، فهذا ليس من السحرة، السحرة لا يفعلون هذا، بل هم من أخبث الناس نفساً، وكلما أوغل الإنسان في هذا بخبث النفس وفساد الطوية، والإمعان في السوء ظاهراً وباطناً كان أمكن في السحر، وهؤلاء الذين جيء بهم ليسوا مجرد سحرة، وإنما هم من عتاة السحرة، ولهذا لما قال الله -عز وجل-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} هذا الكيد هو الذي أخبر الله -عز وجل- عنه في مواضع أخرى، لما قال له الملأ كما في آية الأعراف: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة الأعراف: (١١١-١١٢)]، وفي الموضع الآخر: {سَحَّارٍ} [سورة الشعراء: (٣٧)] فهو لم يطلب مجرد سحرة، وإنما طلب السحرة العلماء بالسحر، كل ساحر عليم، وأيضاً صيغة {سَحَّارٍ} صيغة مبالغة، سحار على وزن فعّال، أي إنسان متمرس تماماً في السحر، وجيء بهم من أطراف مملكته، ولهذا أرسل في المدائن حاشرين، والحاشر هو الذي يحشر الناس، فيأتون بهم قهراً، ويحملونهم على المجيء وترك ما هم فيه من الأشغال من أجل تحقيق مقصوده ومطلوبه، فهذا أمر، فلما قال لهم هذا الكلام عرفوا أن هذا ليس بساحر {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ}، قال: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} النجوى: هو الكلام الذي يكون بين طرفين يقصد به الانفراد والإخفاء عن الآخرين، ولا يكون على سبيل العلانية، قال بعضهم أصله من النجوة، وهي المكان المرتفع، فكأن هذا الكلام ينقل من حال العلانية إلى حال الخفاء، {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} بمعنى أنهم أرادوا ألا يظهر ذلك النزاع والشقاق أمام خصمهم موسى -عليه الصلاة والسلام-؛ لئلا يتقوّى عليهم بذلك، فهم أمام مواجهة، ويريدون أن يحافظوا على معنوياتهم وألا يستفيد موسى -عليه الصلاة والسلام- شيئاً مما جرى ووقع بينهم، {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم} بعدما حصل الاختلاف والتنازع أرادوا أن يأتوا بصفة موحدة وصيغة متفق عليها، بعضهم كان يقول: هذا ما يمكن أن يكون ساحراً، وبعضهم قال: لا، لابد أن نخرج بصيغة موحدة، وكلام متفق عليه يردده الجميع، الجواب

يكون واحداً، والوصف يكون متحداً، {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}.

وقوله: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}، أي: تناجوا فيما بينهم، {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ {إِنْ هذين لساحران} وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون موسى وهارون عليهما السلام- ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- فيه قراءات متعددة، وبعض هذه القراءات فيه إشكال معروف عند العلماء، وقد أطالوا في الجواب عنه، حتى إن بعضهم قد ألف فيه مؤلفات مستقلة، وهناك عدد من الرسائل المخطوطة في الكلام على هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فقد قرأه ابن كثير وعاصم في رواية حفص وهي قراءة الزهري والخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو {إنْ هذان} باعتبار أن إن نافية، وهذه لا إشكال فيها،

إنْ هو مستولياً على أحد *** إلا على أضعفِ المجانين

إن هو، يعني ما هو، {إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [سورة فاطر: (٢٣)] يعني ما أنت إلا نذير، فهذه لا إشكال فيها، وهكذا قراءة ابن كثير من السبعة {إنْ هذانِّ} بتشديد النون فإنْ هذه نافية أيضاً لا إشكال فيها بنفس معنى القراءة السابقة، وقرأه المدنيون والكوفيون وابن عامر {إنّ هذان} ومعلوم أن "إنّ" ناصبة، وأن "هذان" يعرب إعراب المثنى، والمشهور أن المثنى يرفع بالألف، وينصب ويجر بالياء، فعلى المشهور وعلى هذه القراءة يقال: {إنّ هذين لساحران}، فهنا قال: {إنّ هذان} فهذه هي القراءة التي تكلم عليها أهل العلم، يذكرون أجوبة كثيرة في توجيه ذلك، لماذا قال: إنَّ هذان؟ لمَ لمْ يقل: إنّ هذين؟ ومن أحسن هذه الأجوبة -وهو الذي ذكره سيبويه وجماعة من المحققين كالأخفش والكسائي والفراء-: أن ذلك على لغة بعض العرب، فبعضهم يقول: هذه لغة بني الحارث بن كعب، وبعضهم يقول: خثعم، وبعضهم يقول: كنانة، الشاهد أنها لغة عربية فصيحة لبعض العرب وهو إلزام المثنى الألف في الحالات كلها، رفعاً ونصباً وجراً.

إنّ أباها وأبا أباها *** قد بلغا في المجد غايتاها

وهذا من شواهد النحو المعروفة، "قد بلغا في المجد غايتاها"، ولم يقل: "قد بلغا في المجد غايتيها"، وهكذا أيضاً في قول الشاعر:

تزوّدَ منا بين أذناه ضربةً

كان الأصل أن يقول على اللغة المشهورة: بين أذنيه، ولكن قال: بين أذناه، فهذه القراءة تخرج بهذا التخريج، وبعضهم يقول: إن "إنّ" هنا بمعنى "نعم"، {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ}: نعم هذان لساحران، وهذا قال به أئمة من أهل اللغة كالزجاج والأخفش، قالوا بذلك، وهذا أيضاً معروف في كلام العرب ويوجد له من الشواهد في كلامهم ما يدل على ثبوته وصحته، لكن من أسهل الأجوبة هو ما ذكرته أولاً، وتوجد أجوبة أخرى، على كل

حال لا حاجة للإطالة في هذا، يقول: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} **وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ** {إنّ هذين} وهذه القراءة على الوجه الإعرابي المشهور، ولا إشكال فيها من الناحية الإعرابية، ولكنها مخالفة لخط المصحف، وبها قرأ أبوعمرو، وهي منقولة عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وعائشة والحسن وسعيد بن جبير.

وقوله: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}**، أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقال عبد الرحمن بن زيد: بطريقتكم المثلى: بالذي أنتم عليه.**

{بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} يقول: **يستبدا بهذه الطريقة وهي السحر**، يعني أن هذا من كلام السحرة، خافوا أن يتغلب عليهم موسى -عليه الصلاة والسلام- وعندئذ يستأثر بالغنيمة دونهم، ولهذا قال بعضهم كابن جرير -رحمه الله-: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}، أي: يستوليا على سادتكم وأشرافكم، وهذا المعنى إذا تأملته تجد أنه غير مخالف لما سبق، فيستأثرا بطريقتكم المثلى، بمعنى أنهما يستوليان على الأشراف والسادة والكبراء، فيحصل لهما الاستحواذ على المكاسب والعوائد والمغانم، ويمكن أن يفسر هذا بأنهم يرون أنهم على خير حال، على الأقل بحسب زعمهم ودعواهم فإن المبطل لا يقول عن نفسه إنه مبطل، وإنما يقول: أنا على الطريقة الصحيحة والمثلى، وهذا جاء ليغير الدين ويفسد في الأرض، كما قال فرعون: {إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [سورة غافر: (٢٦)]، فهم -سواء فرعون أو السحرة- كلهم يرون أن الحال التي هم عليها -على الأقل زعماً منهم- هي خير حال، وأن موسى -عليه الصلاة والسلام- يفسد، ويريد أن يخرجهم من أرضهم بهذا السحر.

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا}، **أي: اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه.**

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ} يعني: أحكموا كيدكم واعزموا عليه، تقول: أجمع على كذا أي: عزم، وفي قراءة أخرى متواترة -قراءة أبي عمرو- {فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ}، اجمَعوا كيدكم من الجمع الذي هو بمعنى الضم، {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا}، أي: اجتمعوا، إلى آخره.

{وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}**، أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.**

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [سورة طه: (٧٠)] **يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى -عليه السلام-، أنهم قالوا لموسى:** {إِمَّا أَن تُلْقِيَ}**، أي: أنت أولاً** {وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا}**، أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم،** {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} **وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا** {وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [سورة

الشعراء: (٤٤)]، وقال تعالى: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [سورة الأعراف: (١١٦)] وقال هاهنا: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} وكانوا جماً غفيراً، وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً.

قوله: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ} قوله: {بَلْ أَلْقُوا} لا يرد هنا أن يقول قائل: كيف أمرهم بالإلقاء وهذا سحر، فكيف أمرهم بالسحر وهو منكر؟ فهم جاءوا بهذا لإبطال ما عنده، وجاء هو لإظهار المعجزة، فهم لا يقولون له: نلقي أو لا نلقي؟ إنما يقولون: من يبدأ؟، فقال لهم: ابدءوا، وهذا أظهر في المعجزة من جهة أن علوق الأذهان إنما يكون بما يكون آخراً، والأمر الثاني: أنهم إذا جاءوا بهذا فإن كل ما جاءوا به من هذه الأمور والأباطيل هذه الحية ستلتهمه، فقال لهم: {بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} وهذا يدل على أن السحر الذي جاءوا به هو سحر التخييل، ويدل على هذا أيضاً في الآية الأخرى {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} فهذا سحر التخييل، فالسحر أنواع، ولا يقال كما تقول المعتزلة بأن السحر إنما هو من هذا القبيل وما شابهه، مثل معرفة خواص المواد، فهذه أنواع من السحر، وإلا فالسحر أنواع منه ما هو سحر حقيقي ليس تخييلا ولا معرفة خواص المواد، وهذا قد يمرض وقد يقتل بإذن الله، وما شابه ذلك وهذا هو السحر الحقيقي، ومنه ما يكون من قبيل سحر التخييل كما وقع هذا {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ} يصير الناس يخيل إليهم أن هذا الإنسان تخرج من فمه نار، أو أن هذا السيف يدخل في جوفه، ويخرج من الجهة الأخرى، وليس كذلك، لكن يسحر أعين الناس، ومنه نوع يعتمد على خفة اليد، فيظن من لا خبرة له بأن هذا الشيء الذي فعله هذا الإنسان سحرٌ، وهو ليس بسحر، إنما هو يعتمد على خفة اليد والمهارة في بعض الحركات، وهذا لا يجوز، لكنه ليس بكفر مخرج من الملة، -أعني هذا النوع الأخير الذي يعتمد على خفة اليد-، فهي خدع، ولذلك للأسف تجد في بعض محلات الألعاب والعجائب والتسالي ما هو كثير من هذا القبيل، أشياء يتعلمها الطفل ويتحيل بها، ولربما يتعلم الأطفال بعض الحركات، بل ربما بعض الكبار يأتون بذلك فاصلا بين دوراتهم المهارية -للأسف-، ففي دورة في بعض المهارات يأتي المدرب بفاصل فيه حركات تعتمد على خفة اليد، هي من قبيل هذا النوع من السحر الذي يعتمد على خفة اليد، ومثل هذا يختلف فيه العلماء منهم من يرى أنه كفر؛ لعموم ما ورد في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [سورة البقرة: (١٠٢)]، وقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [سورة البقرة: (١٠٢)]، فأطلق على السحر أنه كفر، والأقرب أن هذا النوع الذي يعتمد على خفة اليد حرام ولا يصل إلى درجة الكفر المخرج من الملة، إنما الكفر المخرج من الملة هو ما كان مثل السحر الذي يكون فيه مخاطبة النجوم، والتقرب إلى الشياطين وما أشبه ذلك من النفث في العُقد، والذي لا يكون إلا عن طريق الشياطين، والإشراك بالله -عز وجل- فهذا هو الكفر المخرج من الملة، وهو الذي يُقتل صاحبه حداً، وأما النوع الذي يعتمد على خفة اليد فهذا لا يقتل صاحبه على الأرجح، لكن يعزر بما يردعه، ولهذا مثل هذه الألعاب المفروض أنها تمنع، وأن الهيئة أو غير الهيئة لا يسمحون ببيعها، والنوع الآخر هو ما يعتمد على معرفة خواص المواد، ولهذا بعضهم يقول: إن هذه العصيّ وكذا هي أشياء كانت محشوة بالزئبق، فتحركت بناء على ذلك، لكن الله -عز وجل- يقول: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ} فدل على أن

السحر هو سحر تخييل، أما معرفة خواص المواد فقد ذكرته في درس الأوهام، وإتباع الأوهام مثل الذي يأتي بمادة مخدرة ويأتي للناس بحمامة ويضغط رقبتها فتدوخ ويغمى عليها من المادة المخدرة، ثم يرميها، ويظنونها ماتت، فيأخذها وينفضها فتفيق ثم يلقيها في الهواء وتطير، ويزعم أنه أحياها بمعرفة خواص المواد، وهكذا ذلك الرجل الذي كان يأتي بعصا، ويأتي بمادة تشبه السكر ويقول: إنها سكر، إذا وضع في رأس العصا مادة مقابلة لها يحصل الاشتعال، فيأتي ويقربها منها ويقول: انظروا كيف أشعل السكر، فهذه معرفة خواص المواد، وهكذا الذي جاء وصنع جهازاً ليوضع على قبة رجلٍ يعظمه اليهود، فيصدر صوتاً مثل صوت صغار طائرٍ يقال له: البراصل، فإذا صوّت هذا الصغير جاءت الكبار من الطيور وألقت عليه الزيتون، فجعل الجهاز إذا هبت الريح أصدر صوتاً مثل صوت هذا الطير، فتأتي الطيور من هذا النوع وتلقي الزيتون، فوضعه على فتحة في قبة على قبر معظم عندهم، وأظهر النسك، وسأل: متى مات هذا الحبر؟ فقالوا: في الوقت الفلاني، فصار يفتح هذه في يوم مولده وتلقى الطيور الزيتون ويسقط على القبر، فقالوا هذه كرامة، ففتنوا بذلك، فهذا أيضاً من معرفة خواص المواد، فعلى كل حال السحر أنواع، والسحر الذي جاءوا به هو سحر تخييل، وهنا قال الله تعالى: **{سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}** [سورة الأعراف: (١١٦)]، فكيف كان هذا السحر عظيماً وهو سحر تخييل؟، وصفه الله بأنه عظيم، والواقع أنه عظيم باعتبار أنهم جاءوا بكميات هائلة من العصيّ والحبال فصارت أمام الناس كأنها حيات، فكأن المكان امتلأ بالحيات، فهو عظيم بهذا الاعتبار، وإلا فهو من قبيل سحر التخييل، فهذا الجمع بين هذه الآية والآية الأخرى، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى}، أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة: أن ألقِ ما في يمينك.

قيل: يحتمل أن يكون خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، وقيل: يحتمل أنه خاف أن يلتبس على الناس باعتبار أنهم جاوءا بعصيّ، وآيته كانت العصا، وهذا أبعد، ويمكن أنه لما رأى هذا المشهد من تحول الوادي إلى حيات يركب بعضها بعضاً، وهي كثيرة جداً، وعددها هائل، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}**، والرهبة: الخوف الشديد، فقد يكون موسى -عليه الصلاة والسلام- حصل له الخوف لما رآها فثبته الله -عز وجل-، فموسى -عليه الصلاة والسلام- حينما رأى العصا تنقلب إلى حية في البداية خاف، وقال الله -عز وجل-: **{وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}** [سورة القصص: (٣١)]، حتى قال الله -عز وجل- له: **{أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ}** وقال له: **{إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}** فكان هذا تطميناً له، وكان مشاهدة هذه قبل أن يذهب إلى فرعون أشبه ما يكون بالترويض والتطبيق العملي قبل المواجهة، فيكون قد عرف هذه العصا وكيف يتعامل معها في هذه الحال، فإذا جاء إلى المواجهة مع فرعون يكون قد تهيأ وأعد نفسه، فلا يكون الموقف مفاجئا له، فتنقلب حية قبل أن يشاهدها، فيخاف منها موسى -عليه الصلاة والسلام-، فلو أرسله الله وقال: سنظهر لك آية، فصارت العصا حية عظيمة، لكان موسى -عليه الصلاة والسلام- خاف منها كما خاف فرعون، ومثل هذا لا يكون بذلك التأثير إذا اشترك معه في الخوف منها.

فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألقِ ما في يمينك، يعني عصاك، فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس.

يبقى كونها ذات قوائم وعنق يحتاج إلى دليل، وهذا مأخوذ من الإسرائيليات وهؤلاء أكذب الناس، فالله أخبر أنها حية، أما كون لها قوائم وعنق وأضراس فهذا يحتاج إلى دليل، فإذا قيل: حية فنحن نعرف الحية ما هي.

فجعلت تتبع تلك الحبال والعصيّ حتى لم تُبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء: كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله وقالوا: {آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف: (١٢١-١٢٢)]**، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.**

وهؤلاء السحرة اختُلف في عددهم اختلافاً كثيراً، وسيأتي ذكر هذه المسألة.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء، وروى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، قال: وعن سعيد بن جبير قوله: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً} قال: رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

قوله: "**كانت السحرة سبعين رجلاً**" هذا ليس محل اتفاق وهذا كله مما تُلُقي عن بني إسرائيل، فبعضهم يقول: كانوا اثنين وسبعين، وبعضهم يقول: كانوا ثمانين، وبعضهم يقول: هم أربعمائة، وبعضهم يقول: اثنا عشر ألفا، وبعضهم يقول: أربعة عشر ألفاً، وبعضهم يقول: ثمانون ألفا، وبعضهم يقول: تسعمائة ساحر، انظر إلى هذه الأعداد ما بين سبعين فرداً إلى ثمانين ألفا، فلا يقال: الذين رأوهم قدروهم أنهم سبعون، أو اثنان وسبعون إلى ثمانين شخصاً، فهذا من سبعين فردا إلى ثمانين ألفاً! فهذا رقم لا يمكن أن يلتبس، إلا أن هؤلاء الكذابين النفّاجين يختلقون مثل هذه الأشياء، فالله تعالى أعلم بعدد هؤلاء السحرة، وكُتبُ بني إسرائيل حافلة بهذه الأكاذيب.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً}** سماهم سحرة وهم قد تابوا من السحر وآمنوا، هذا باعتبار ما كان، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}** [سورة النساء: (٢)]، متى يعطى اليتيم؟ كما قال الله -عز وجل-: **{وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}** [سورة النساء: (٦)] فإنما يعطى إذا تحقق فيه شرطان: البلوغ، مع حسن التصرف في المال، فسماهم يتامى، وقد فارقوا حال اليتم، فصاروا رجالاً، فهنا ألقي السحرة: باعتبار ما سبق وإلا فهم لم يبقوا سحرة.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: وقوله: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} يدل على أن الموعد في الآية اسم زمان.

لأن بعضهم يقول: إن الموعد الذي وعدهم مكان، فيوم الزينة يعني: السوق مثلاً هذا مكان، وفي أي وقت؟ وبعضهم يقول: لا، هذا زمان، يوم عيد، وفي أي مكان إذن؟ فبعض أهل العلم يقول: لا منافاة بين هذا وهذا، فيوم الزينة هو يوم العيد، والمكان الذي يجتمعون فيه سوقُهم، فيكون حدد الزمان والمكان بهذه العبارة.

فإن قلنا إن الموعد في الآية مصدر أشكل على ذلك ذكر المكان في قوله: {مَكَاناً سُوَىً}، والزمان في قوله: {يَوْمُ الزِّينَةِ} وإن قلنا: إن الموعد اسم مكان أشكل عليه قوله {لا نُخْلِفُهُ} لأن نفس المكان لا يخلف وإنما يخلف الوعد، وأشكل عليه أيضاً قوله: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ}، وإن قلنا: إن الموعد اسم زمان أشكل عليه أيضاً قوله: {لا نُخْلِفُهُ}، وقوله {مَكَاناً سُوَىً}: هذه هي أوجه الإشكال في هذه الآية الكريمة. وللعلماء عن هذا أجوبة منها ما ذكره الزمخشري في الكشاف قال: لا يخلو الموعد في قوله {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً} ...

هذه الإشكالات التي ذكرها في **{اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى}** إذا قيل: إنه الزمان فكيف قال: مكاناً؟ وإذا قيل: إنه مكان، فكيف قال: لا نخلفه؟ وهذه قد تمر على كثير من الناس، يقرأ هذه الآيات ولا يقف عند هذا، ولا يخطر له في بال، ولا يدور في خيال، فمثل هذه الأشياء تأتي بالتدبر، ولذلك شتان ما بين قراءة وقراءة.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: أظهرُ ما أُجيب به عما ذكرنا من الإشكال عندي في هذه الآية الكريمة: أن فرعون طلب من موسى تعيين مكان الموعد، وأنه يكون مكاناً سُوًى، أي وسطاً بين أطراف البلد كما بيَّنا، وأن موسى وافق على ذلك وعين زمان الوعد وأنه يوم الزينة ضُحى؛ لأن الوعد لابد له من مكان وزمان، فإذا علمت ذلك فاعلم أن الذي يترجح عندي المصير إليه هو قول من قال في قوله: {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً} إنه اسم مكان أي مكان الوعد، وقوله {مَكَاناً} بدل من قوله موعداً؛ لأن الموعد إذا كان اسم مكان صار هو نفس المكان، فاتضح كون {مَكَاناً} بدلا، ولا إشكال في ضمير {نُخْلِفُهُ} على هذا، ووجه إزالة الإشكال عنه أن المعروف في فن الصرف: أن اسم المكان مشتق من المصدر كاشتقاق الفعل منه، فاسم المكان ينحل عن مصدر ومكان، فالمنزل مثلاً مكان النزول، والمجلس مكان الجلوس، والموعد مكان الوعد، فإذا اتضح لك أن المصدر كامنٌ في مفهوم اسم المكان فالضمير في قوله {لا نُخْلِفُهُ} راجع إلى المصدر الكامن في مفهوم اسم المكان، كرجوعه للمصدر الكامن في مفهوم الفعل في قوله: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [سورة المائدة: (٨)] **فقوله {هُوَ} أي: العدل المفهوم من {اعْدِلُوا} وكذلك قوله تعالى: {لا نُخْلِفُهُ}، أي: الوعد الكامن في مفهوم اسم المكان الذي هو الموعد؛ لأنه مكان الوعد، فمعناه مركب إضافي وآخر جزأيه لفظ الوعد، وهو مرجع الضمير في {لا نُخْلِفُهُ}.**

فإذا عرفت معنى هذا الكلام الذي أخبر الله أن فرعون قاله لموسى، فاعلم أن قوله عن موسى: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} يدل على أنه وافق على طلب فرعون ضمناً، وزاد تعيين زمان الوعد بقوله: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} ولا إشكال في ذلك. هذا هو الذي ظهر لنا صوابه، وأقرب الأوجه التي ذكرها العلماء بعد هذا عندي قول من قال: إن الموعد في الآية مصدر وعليه فـ {لا نُخْلِفُهُ} راجع للمصدر، و{مَكَاناً} منصوب

بفعل دل عليه الموعد، أي: عِدْنا مكاناً سوى، ونصْبُ المكان بأنه مفعول المصدر الذي هو {مَوْعِداً} أو أحد مفعولي {اجْعَلْ} غير صواب -فيما يظهر لي- والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مكاناً سوىً}، قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة: {سُوى} بضم السين والباقون بكسرها، ومعنى القراءتين واحد كما تقدم.

{اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا} الموعد باعتبار أنه مكان الوعد، لكن اسم المكان كما قال كامنٌ فيه معنى المصدر، فهو مكان الوعد **{اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ}** ليس بإخلاف المكان، وإنما لا نخلف الوعد، وهو المصدر الكامن في اسم المكان، فالوعد هو المصدر، والموعد اسم مكان، ولهذا قال بعده: **{لَّا نُخْلِفُهُ}** يعني الوعد الكامن في اسم المكان –الموعد-، ويكون بهذا قد جمع بين هذا وهذا.

تنبيه: في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}** [سورة طه: (١٨)]، ذكرت قبل يومين قراءة: **{أهس}**، قلت هذه قراءة ابن كثير أو ابن عامر أو نافع، أخطأت، وليست قراءة متواترة بل منسوبة إلى النخعي، وعكرمة.

فائدة: هل خُير موسى -عليه السلام- في صغره بين تمرة وجمرة؟

حديث الفتون الطويل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- متلقًى عن بني إسرائيل، وإن وجدت بعض الجمل جاءت في بعض الأحاديث الصحيحة، لكن ورد فيه: أنه خير بين جمرتين ولؤلؤتين، وذلك أن فرعون همّ به، فقالت امرأته: ما الذي حملك على ذلك؟ ماذا رأيت من هذا الصغير؟ قال: أما رأيتِه يصرعني ويعلوني؟، فذكرت أن هذا طفل ولا يفهم، وعرضت عليه أن يخيره بين لؤلؤتين وجمرتين، وقالت: إن اختار الجمرتين فهو بريء، وإن اختار اللؤلؤتين فهو يفهم، فأراد أن يأخذ الجمرتين، فمنعه من ذلك؛ لئلا يحترق.

هذا الذي في حديث الفتون، لكن جاء عن بعض التابعين: أنه خير بين تمرة وجمرة، وهذا كأنه متلقًى عن بني إسرائيل، بمعنى أنه لا يثبت في هذا شيء يعتمد عليه، وما عندنا شيء نستطيع أن نستند إليه فنقول: إن هذا هو الذي حصل، وهذه الأخبار لا يعول عليها، والله أعلم.

سؤال: هذه النقلة لهؤلاء السحرة، كانوا سحرة ثم بعد ذلك {فاقض ما أنت قاض} لن نلتفت إليه، وهذا الإيمان...؟

هذا موضع يستوقف الإنسان كثيراً، وهؤلاء عتاة وسحرة، والسحرة هم من أقذر الناس نفساً، وأخبثهم طوية، ويأتون ويتحولون بهذه اللحظة بعدما كانوا يرجون عائدة فرعون ويؤكدون هذا ويسألونه: **{أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين}** مباشرة يسجدون، ثم يهددهم، ويتوعدهم بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم يقفون أمامه بكل ثبات ويقولون له: **{إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [سورة طه: (٧٣)]، ثم عندهم من المفاهيم الصحيحة والمعلومات **{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}** [سورة طه: (٧٤)]، وأما ما ذكر من أنهم سجدوا ورأوا منازلهم في الجنة فهذا يعتمد على الأخبار الإسرائيلية وليس عندنا فيه شيء، فكيف جاءتهم مثل هذه الأشياء؟ أنه يكون في جهنم، ولا

يموت فيها ولا يحيا، وأن المؤمن يكون في حال أخرى، له الدرجات العلى، وذكروا الجنة وما فيها من النعيم، قالوا: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} يعني: منك ومن ثوابك ومن عذابك ووعدك ووعيدك، فمن أين جاءهم هذا الثبات العظيم أمام فرعون وآثروا الموت، والقتل بهذه الطريقة في سبيل طلب مرضات الله -عز وجل-، والرجل منا ينشأ على الإسلام ونحو ذلك ولا يكون عنده من الثبات ما يداني ثبات هؤلاء السحرة، كيف تحولوا إلى هذه الحال؟! هذا أمر عجيب! وهذا يدل على أن الإيمان يفعل في النفوس شيئاً عظيما، ويحولها ويقلبها ولو كان صاحبها من أخبث الناس نفساً، فما بعد السحرة شيء، فقد تربوا على السحر، على أقذر الأشياء، ولك أن تتصور هذه الكلمة إلى أين تبحر معك، أقذر الأشياء من كل وجه، فالساحر يكتب القرآن بدم الحيض، ويضع أوراق المصحف على الأقذار، ويعيش بين الكلاب، وفي الكهوف وفي المقابر، ويعيش بين القذر، ولا يتنزه ولا يتطهر من النجاسات، ويفعل الفواحش بجميع أشكالها، ويتقرب إلى الشياطين ويعبد غير الله -عز وجل-، فهو من أوسخ الناس وأسوئهم ظاهراً وباطناً، ثم يتحول إلى هذا الثبات!، هذا يدل على أن الإيمان يفعل بالنفوس أشياء عجيبة فيحولها إلى شيء آخر وربما في لحظات، فهذا الإيمان الحقيقي المؤثر إذا خالطت بشاشته القلوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين:

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَن لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:٧١-٧٣]، يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغُلب كل الغَلب شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال: {آمَنتُمْ لَهُ}، أي: صدقتموه {قَبْلَ أَنْ آذَن لَكُمْ}، أي: ما أمرتكم بذلك وافْتتُّم عليّ في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، ثم أخذ يتهددهم فقال: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، أي: لأجعلنكم مُثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فكان أول من فعل ذلك، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى}، أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله -عز وجل- و {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ}، أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، {وَالَّذِي فَطَرَنَا} يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ}، أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، أي: إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار، {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا}، أي: ما كان من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يُعلَّموا السحر بالفرماء، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: {آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، وكذا قال عبد الرحمن بن

زيد بن أسلم، وقوله: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، أي: خير لنا منك {وَأَبْقَى}، أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنّيتنا، والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول فرعون: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذن لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} إنه لكبيركم، يقول الكسائي: في الحجاز يقول الصبي إذا جاء من معلمه أتيت من كبيري، وعلى هذا فالكسائي يقصد أن كبيرهم معلمهم، بحيث إن الكبير يطلق على المعلم، وبعضهم يقول: {لَكَبِيرُكُمْ}، أي: لعظيمكم، ولا منافاة، فمعلمهم يقال له ذلك ورئيسهم ومقدمهم وقائدهم يقال له هذا {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وقوله: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ}، يعني: أنه يقطع مثلاً اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولا تخفى النكاية التي تحصل بهذا حيث يضعف كل جانب منه، وقوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، الصلب: هو أن يشد الإنسان إلى خشبة أو جذع أو نحو ذلك، وهو حي فيقتل كما فعل بخبيب بن عدي -رضي الله عنه-، أو يقتل ثم يصلب، ولهذا كثير من أهل العلم يقولون: إن قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ} [سورة المائدة:٣٣] يقولون: يقتل ثم يصلب، وبعضهم يقول: إنه إن قتل ثم صلب فهو لا يشعر بشيء، فالعقوبة لا تردعه ولا تؤلمه؛ لأنه لا يشعر بهذا، ولهذا فإن بعضهم يرى أنه يصلب قبل القتل، وليس هذا محل اتفاق، فالأولون يقولون: إن صلبه بعد القتل يكون من أجل أن يراه الناس فيرتدعوا ويعتبروا، يقول بعض أهل العلم: إن "في" هنا بمعنى "على" في قوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، وهذا لا إشكال فيه، لكن كما قال ابن القيم -رحمه الله-: إنه إذا استعمل حرف مكان حرف وناب عنه فإنه يبقى فيه من رائحة الحرف الأول ومعناه، ولهذا فإن بعضهم يقول: إن التعبير بـــ "في" هنا يدل على شدة الربط، فكأنه يربطهم ربطاً شديداً ويوثقهم بحيث كأنه يدخلهم في وسط الجذع من شدة الربط، قال: لأن "في" تدل على الظرفية، {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، وهو في الواقع يصلبه على الجذع وليس في داخل الجذع، قالوا: لشدة الربط كأنه أدخله في داخل الجذع، وجذوع النخل هي أشد إيلاماً إذا ربط الإنسان إليها، فلا يكون ذلك كربطه إلى جذع شجرة أخرى، ويقول: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}، كأن موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يتوعدهم بأن يعذبهم ولا يملك هذا، فبعضهم يقول: إن فرعون قال ذلك: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} من باب الرد على موسى -عليه الصلاة والسلام- حيث ذكرهم بعذاب الله -عز وجل-، {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [سورة طه:٦١]، {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ} وبعضهم قال: هذا ابتداءً، وإن كان موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يتوعدهم بعذاب، لكن أراد أن يقرر شدة نكاله وأليم عقوبته، وقوله: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا} يحتمل معنيين كما أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، {لَن نُّؤْثِرَكَ} لن نقدمك، ولن نختارك على ما جاءنا من البينات، فالمعنى الأول: لن نؤثرك على هذه الدلائل وعلى الله -عز وجل- {وَالَّذِي فَطَرَنَا}، يعني: لا نؤثرك على هذه الآيات والبينات والبراهين وما يستدعيه هذا من اتباع الحق وعلى الذي فطرنا، فيكونون قصدوا أنهم لا يؤثرونه على الدلائل ولا على الله -جل جلاله.

والمعنى الثاني: أنهم لا يؤثرونه على هذه البينات والدلائل والبراهين، لن نقدمك على هذه الأشياء الدامغة ثم أقسموا {وَالَّذِي فَطَرَنَا}، أي: لا نفعل، فالآية تحتمل المعنيين، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، هل أكرههم فرعون على السحر وقد جاءوا وهم يطمعون في عائدته وجائزته؟، وقالوا له: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}، والأثر الذي ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- يدل على أن الإكراه وقع لبعضهم وهم هؤلاء الصغار الذين أمر بتعليمهم، أخذوا من أهلهم من أجل أن يُعلَّموا، وبه قال ابن زيد، وهذا من حيث كلام العرب، يصح، يعني باعتبار أن السحرة غير هؤلاء أيضاً، ابن عباس لا يقصد أن السحرة هم فقط مجموعة من الصغار أُخذوا وعلموا، وابن عباس لا يقصد أنه جيء بالتلاميذ، وأنهم أكرهوا، فيَرِدُ على هذا القول سؤال أنه كيف نسب إليهم الإكراه إلى المجموع، وإنما أكره هؤلاء فقط، هذه المجموعة التي عُلمت والبقية ما أكرهوا، بقية السحرة؟، فهذا يمكن أن يخرج تخريجاً يصح وجهه في كلام العرب، وهو أنه قد ينسب إلى الطائفة ما قد صدر من بعضها، وهذا له نظائر في كلام الله وفي كلام العرب، فالله -عز وجل- يقول: {فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [سورة البقرة:١٩١] قراءة نقرأ بها، وهناك قراءة: {فإن قتلوكم فاقتلوهم} فالمعنى فإن قتلوا بعضكم فاقتلوهم، يعني: من بقي منهم حياً فيقتلون أولائك، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [سورة التوبة:٣٠]، مع أنه لم يقل بهذا جميع اليهود، وإنما صدر من بعضهم، وهكذا في قول النصارى المسيح ابن الله، النصارى معروف أنهم اختلفوا في المسيح، فبعضهم قالوا: هو الله، وبعضهم قالوا: هو ابن الله، وبعضهم قالوا: هو ثالث ثلاثة، فيصح أن ينسب إلى الطائفة الفعل الذي يصدر من بعضها، فيكون هنا {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} صدر هذا من طائفة أُكرهوا على السحر ولم يُكرَه الجميع عليه، لكن يبقى إشكال من جهة أخرى وهو أنه الآن يريد أن يواجه موسى -عليه الصلاة والسلام-، وموسى وعدهم بيوم الزينة، ويوم الزينة هذا كأقصى حد، أقصى مدة، يعني: يوم الزينة يوم معلوم يأتي، فلو كان هذا الكلام وقع في يوم الزينة وأنه ما يأتي بالعام إلا مرة واحدة مثلاً، فأقصى أمد سنة، مع أن الغالب أن ذلك الموعد لا يكون بعد سنة؛ لأن فرعون محتدم النفس، غاضب ويريد الخلاص منهم والمفاصلة، وقد ضاق بهم ذرعاً، فوعدوه في وقت في الغالب لا يطول، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [سورة طه:٦٠] الفاء تدل على التعقيب المباشر، فالشاهد أن هذه المدة ولو كانت سنة لا يمكن لأناس صغار أن يتعلموا بحيث يكونون مهرة في السحر وحُذّاقاً به، وأرسل في المدائن من أجل {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة الأعراف:١١٢]، {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [سورة الشعراء: ٣٧]، فالله أعلم.

بعض أهل العلم يقول: إن فرعون أكرههم على المجيء؛ لأنه أرسل في المدائن من يحشرهم، ويأتي بهم، لكن حينما جاءوا ما أكرهم على فعل السحر وإنما هم يزاولون صنعتهم، ومهنتهم المحببة إلى نفوسهم، وطمعوا بما عند فرعون وقالوا له ما قالوا: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [سورة الشعراء:٤١]، فالإكراه قالوا حصل أولاً، وقالوا له هذا، {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} خير منك ومن عدتك وجائزتك وأبقى منك ومن عطائك، وكل هذا يدخل فيه، وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء**"؛ لأنه

قتلهم، وبعضهم يقول: إنه لم يقتلهم، وليس عندنا دليل يدل على أنه قتلهم أو لم يقتلهم، لكن الغالب فيمن كان بمثل هذه المنزلة أنه ينفذ هذا الوعيد، لاسيما أن هذا الأمر الذي وقع هو بالنسبة إليه يعتبر كارثة، فخرج أهل البلد يتفرجون فرأوا هذه الآية العظيمة، ورأوا السحرة يسجدون فهو أراد أن يتخلص من هذا بقول وفعل، القول قال لهم: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [سورة الأعراف:١٢٣] القضية كانت مدبرة ومرتبة ومخطط لها من أجل المكابرة، يقول للناس: هذا الذي ترونه تمثيلية لا حقيقة لها، والفعل: هو القضاء على هؤلاء السحرة والنكال بهم، والنكال أيضاً بموسى -عليه الصلاة والسلام- وبني إسرائيل، ولهذا قال له الملأ: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [سورة الأعراف:١٢٧]، هو فرعون بحاجة إلى من يحرضه؟! لكن الملأ قذر مثله، وهم خاصته وحاشيته، {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ}، ولهذا قال موسى -عليه الصلاة والسلام- لقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف:١٢٨-١٢٩] فالشاهد أن أهل العلم اختلفوا في هذا هل قُتل هؤلاء السحرة أو لم يقتلوا؟ فالله تعالى أعلم.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "وفي آية {طه} هذا سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، يدّل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلّت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في طه: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [سورة طه:٦٢-٦٤]، فقولهم: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً} صريح في أنهم غير مكرهين، وكذلك قوله عنهم في الشعراء: {قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [سورة الشعراء:٤١-٤٢]، وقوله في الأعراف: {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [سورة الأعراف:١١٣-١١٤]، فتلك الآيات تدّل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة:

منها: أنهم أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأُمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدّل لهذا قوله: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [سورة الشعراء:٣٦]، وقوله: {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [سورة الأعراف:١١١].

ومنها: أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر، ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين.

ومنها: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه، وألزمهم بذلك، فلما لم يجدوا بُداً من ذلك فعلوه طائعين. وأظهرها عندي الأول، والعلم عند الله تعالى"[1].

وقال رحمه الله في قوله تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}: "ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكراً عليهم: {آمَنْتُمْ لَهُ}، أي: صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، وآمنتم بالله قبل أن آذن لكم، يعني: أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم، لأنه يزعم أنه لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم، وقال لهم أيضاً: إن موسى هو كبيرهم، أي: كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر، ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً؛ لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة؛ لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف، فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم، وأنه يصلبهم في جذوع النخل"[2].

وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "واعلم أن العلماء اختلفوا: هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به، أو لم يفعله بهم؟ فقال قوم: قتلهم وصلبهم، وقوم أنكروا ذلك، وأظهرهما عندي: أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى؛ لأن الله يقول لموسى وهارون: {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص:٣٥] والعلم عند الله تعالى"[3].

والقول بأنه لم يقتلهم باعتبار أن الله -عز وجل- قال: {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} ليس بصريح في أن هؤلاء السحرة لم يقتلوا، فالعبرة بالعواقب والنهايات، فقتل بعضهم وظهور من لم يقتل بعد ذلك في آخر الأمر يكفي أن يكون مصداقاً لهذا الوعد، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- الله وعد بنصرهم، وظهورهم وغلبتهم، ومع ذلك قتل بعض أتباعهم قبل أن يروا هذا النصر كما حصل لبعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل إن الله -تبارك وتعالى- قال في أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام-: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف:١٤]، وكثير من أهل العلم من يقول بأنه لم يكن لأصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- ولأتباعه من أهل التوحيد ظهور، وهذا صحيح، إنما كان ظهورهم ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فحصل ما حصل لليهود من هزيمة، وقتل، وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: الذين ظهروا هم من لهم شائبة في اتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- وإن لم يكونوا على الحق، الذين ظهروا هم أهل الإشراك، أهل التثليث أتباع قسطنطين الملك الذي دخل في النصرانية فأفسدها.

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٦- ٦٧).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٣).

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٥).

وقوله: {إِنّهُ مَن يَأْتِ رَبّهُ مُجْرِماً فَإِنّ لَهُ جَهَنّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىَ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدّرَجَاتُ الْعُلَىَ * جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكّىَ} [سورة طه:٧٤-٧٦].

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا: {إِنّهُ مَن يَأْتِ رَبّهُ مُجْرِماً}، أي: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، {فَإِنّ لَهُ جَهَنّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىَ}، كقوله: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [سورة فاطر:٣٦]، وقال: {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى}[سورة الأعلى:١١-١٣]، وقال تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [سورة الزخرف:٧٧]، وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أُذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل))، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان بالبادية[٤]، وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح.

قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىَ} المقصود بهذا: أنه لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة معتبرة أو حياة ينعم فيها، أو يجد فيها طعم الحياة، والناس تعبر بمثل هذا، تقول فلان ليس بحي ولا ميت، يعني: يقال لمن كان في غيبوبة مثلاً، مع أنه حي لكن ليس بحيٍّ الحياة التي ينتفع بها، ولا بميت، وهكذا من اشتد به المرض وإلا فإن أهل النار كما هو معلوم لا يموتون، وقوله هنا بالحديث: ((فجيء بهم ضبائر ضبائر)) يعني: جمع ضبارة، أي: جماعات في تفرقة، يقول: ((فينبتون فيها نبات الحبة)) الحبة، فسر هذا بزرع البقول، وحب الرياحين، وقيل نبتة صغيرة تكون بين الحشائش، وفي حميل السيل، يعني: ما يحمله السيل من قش وشوائب وما أشبه ذلك، ((ينبتون كما تنبت الحبة))، أحياناً تنبت نبتة خضراء صغيرة منثنية، صغيرة ضعيفة ثم بعد ذلك تبدأ شيئاً فشيئاً تنمو وترتفع، فهذا الصحابي يقول: كأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان بالبادية؛ لأن هذه من الأشياء التي يراها الناس في البادية، يعني: وصفَ ذلك وصفاً دقيقاً.

وقوله تعالى: {وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّالِحَاتِ}، أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله {فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدّرَجَاتُ الْعُلَىَ}، أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات، روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (١٨٥)، وأحمد في المسند برقم (١١٠٧٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

عليه وسلم- قال: ((الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس))[٥] ورواه الترمذي.

وفي الصحيحين: ((إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم)) قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[٦]، وفي السنن: ((وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما))[٧].

وقوله: {جَنّاتُ عَدْنٍ}، أي: إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}، أي: ماكثين أبداً، {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكّىَ}، أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب.

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىَ مُوسَىَ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَىَ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مّنَ الْيَمّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىَ} [سورة طه:٧٧-٧٩]، يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى -عليه السلام- حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَساتيقه، يقول: {إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ}[سورة الشعراء: ٥٤-٥٥]، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فأتبعوهم مشرقين، أي: عند طلوع الشمس {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} [سورة الشعراء:٦١]، أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر، {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً} فضرب البحر بعصاه وقال: انفلقْ عليّ بإذن الله، {فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [سورة الشعراء:٦٣]، أي: الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلهذا قال: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاّ تَخَافُ دَرَكاً}، أي: من فرعون {وَلاَ تَخْشَىَ}، يعني: من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مّنَ الْيَمّ}، أي: البحر {مَا غَشِيَهُمْ}،

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، برقم (٢٥٣٠)، واللفظ له، وأحمد في المسند برقم (٢٢٠٨٧)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩١٣)، وفي تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٥٦١٧).

٦ - رواه البخاري برقم (٣٠٨٣)، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم))، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، برقم (٢٨٣١).

٧ - رواه أبو داود، كتاب الحروف والقراءات، برقم (٣٩٨٧)، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، وأحمد في المسند برقم (١١٤٦٧)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٣٠٠٧).

أي: الذي هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} [سورة النجم:٥٣-٥٤].

بعضهم يقول: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} مما قد علمتم أن الأمر المعلوم يقال فيه ذلك، ولكن يبقى أن مثل هذا له دلالة وهو التعظيم والتهويل، فهذا التعبير بالاسم الموصول المبهم، يعني: ما قال فغشيهم اليم، وإنما قال: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}، فأبهم الاسم الموصول، فهذا أبلغ وأكثر وقعاً في النفوس، وكقوله -تبارك وتعالى- أيضاً في الاستفهام {الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ} [سورة الحاقة:١-٢]، فهذا أبلغ وأشد وقعاً في النفوس في مقامات الوعيد، أو في مقام التعظيم للجزاء ونحو ذلك {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، ديار قوم لوط غشاها ما غشى من الحجارة، لكن إذا قال: {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} يكون هذا أكثر تأثيراً ووقعاً.

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم، فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}[سورة هود:٩٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}، فإنه لم يهدهم، وهذا لا شك أن فيه من التأكيد ما فيه بأنه ضلال محقق لا يحتمل الهدى بوجه من الوجه، يعني –أحياناً- قد يكون الشيء فيه ضلال من ناحية وفي مضامينه هدى من وجه آخر مثلاً، أو خير أو نحو هذا، وقوله -عز وجل-: {وَمَا هَدَى}، قد يعْقبُ هذا الإضلالَ هدايةٌ بعد ذلك، أما فرعون فهو إلى آخر لحظة حيث كانت النهاية الغرق، وهو يلاحق موسى -عليه الصلاة والسلام- ويريد الفتك به ومن معه، {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} -نسأل الله العافية-، فقد تحصل الهداية بعد إضلال الإنسان، ويرجع كما حصل لبعض كبراء المشركين، أضلوا قومهم وقادوهم إلى حرب النبي -صلى الله عليه وسلم- كما فعل أبو سفيان ثم بعد ذلك كانت النهاية الاهتداء، أما هذا فنسأل الله العافية.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مّنْ عَدُوّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطّورِ الأيْمَنَ وَنَزّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنّ وَالسّلْوَىَ * كُلُواْ مِن طَيّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىَ * وَإِنّي لَغَفّارٌ لّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمّ اهْتَدَىَ} [سورة طه:٨٠-٨٢]، **يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ومننه الجسام؛ حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد، كما قال: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** [سورة البقرة:٥٠]، **وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال: ((نحن أولى بموسى فصوموه))[٨] رواه مسلم أيضاً في صحيحه، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط**

---

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قدم المدينة، برقم (٣٧٢٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، برقم (١١٣٠).

عليهم فيأخذون من كلٍّ قدرَ الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}، أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به {فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}، أي: أغضب عليكم، {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي فقد شقي.

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} كما قلنا: الجبل ليس له أيمن ولا أيسر وإنما ذلك بحسب من يحتف به أو يمر بجانبه، يعني على يمينه، والمواعدة هنا {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} من أهل العلم من يقول: المواعدة كانت لموسى -عليه الصلاة والسلام-، ولما كانوا أتباعاً له أضاف ذلك إلى المجموع، {وَوَاعَدْنَاكُمْ}، وبعضهم يقول: إن الله وعد موسى -عليه الصلاة والسلام- وهم معه بحيث يسمعون الله -تبارك وتعالى- يناجيه، ولما كان موسى -عليه الصلاة والسلام- هو مقدمهم وإمامهم ونبيهم واعده الله -تبارك وتعالى- من أجل أن يناجيه فأضاف ذلك إلى المجموع، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} يعني: في التيه الذي حصل لهم كما هو معلوم، كان يظللهم الغمام وأنزل الله عليهم المن والسلوى، وكثير من المفسرين يفسرون المن بالترنجبين، وهو مادة صمغية بيضاء تنزل أشبه بالنداء على الأشجار يكون مثل العسل الأبيض، حلو الطعم ولا زال يعرف إلى اليوم، ويوجد شيء يباع يسمى بالمن في بعض أماكن الحلويات موجود في مكة يأتون به من العراق، وأهل العراق يعرفونه، والأقرب أن المن هو كل ما يحصل للإنسان من غير كده وتعبه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكمأة من المن))[9]، والكمأة تخرج من غير عمل الإنسان، ويدخل فيه الترنجبين إلى غير ذلك، وأما السلوى فكثير من المفسرين يقولون: هو طائر وهذا هو الراجح، وبعضهم يقول: هو السُّمانا، وبعضهم يقول: يشبه السُّمانا.

وقوله: {وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} قراءة الكسائي: {فيَحُلّ عليكم غضبي ومن يحْلُل عليه غضبي فقد هوى} يحُل، يعني: ينزل بكم، حلّ يحُل، أي: نزل، وفي قراءة الجمهور: {فيحِل، ومَن يحلِل}، يعني: فيجب، وقد يقال: إن القراءتين ترجعان إلى معنى واحد؛ لأن بعضهم يقول: هما لغتان، إذا تأملت في المعنى الثاني الذي ذكروه حلّ يحِل، قالوا بمعنى: يجب، فإن الوجوب يأتي بمعنى السقوط، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [سورة الحج:36]، يعني: وقعت على الأمر، فيرجع إلى المعنى الأول، {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}، يعني: صار إلى الهاوية، كما قال -عز وجل-: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [سورة القارعة:9]، ليس المقصود أمه يعني والدته، فالحاصل أن عاقبته إلى الخسران.

وقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً}، أي: كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى: {تَابَ}، أي: رجع عما كان فيه من كفر

---

9 - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب وقوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة البقرة:57]، برقم (4208)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، برقم (2049)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

أو شرك أو معصية أو نفاق، وقوله: {وَآمَنَ}، أي: بقلبه، {وَعَمِلَ صَالِحَاً}، أي: بجوارحه، وقوله: {ثم اهتدى} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-: أي ثم لم يشكك، وقال قتادة {ثُمّ اهْتَدَىَ} أي: لزم الإسلام حتى يموت، وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}** ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تعميم معنى التوبة هو الأحسن والأقرب -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقيد ذلك بقوله: **{لِّمَن تَابَ}**، أي: من الإشراك، **{وَآمَنَ}**، أي: أخلص ووحد الله -تبارك وتعالى-، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، **{وَعَمِلَ صَالِحًا}** فهذا كما يذكر الله -عز وجل- كثيراً الإيمان والعمل الصالح فإنه لابد منه، قال: **{ثُمَّ اهْتَدَى}**، يعني: لزم الصراط المستقيم، كما يقال: حسن إسلامه، فيلزم الجادة، ويراعي حدود الله -تبارك وتعالى-، ولا يكون ذلك في مدة ثم بعد ذلك يرجع ويترك ما هو فيه من العمل أو الإيمان أو نحو ذلك، **{ثُمَّ اهْتَدَى}** استقام سيره وصح سلوكه على الصراط المستقيم، ويقول: "**لترتيب الخبر على الخبر**"، يعني: لا بمعنى أن ذلك يكون بحسب الوقوع، هذا معنى ترتيب الخبر على الخبر، الترتيب: لا ترتيب الحصول والوقوع، بمعنى: ليس المقصود **{ثُمَّ اهْتَدَى}** التعقيب والتراخي، آمن، تاب وآمن، عمل صالحاً ثم اهتدى، إذا قلنا: ثم هنا للترتيب والتعقيب مع التراخي في الوقوع، فيكون الاهتداء يحصل بعد هذا كله، وليس هذا مقصوداً، وإنما المقصود أن هذا الإنسان يتصف ويتحقق بهذه الصفة مع الإيمان، والعمل الصالح، كما قال الله -عز وجل-: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}** [سورة البلد:١٧]، يعني: ومع ذلك يكون بهذه الصفة، هذا معنى ترتيب الخبر على الخبر، يعني لا ترتيب الوقوع.

وصلى الله على محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتّمْ أَن يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رَبّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مّوْعِدِي * قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنّا حُمّلْنَا أَوْزَاراً مّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السّامِرِيّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً} [سورة طه:٨٣-٨٩]، لما سار موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون {فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:١٣٨]، وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها له عشراً، فتمت أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً، فسارع موسى -عليه السلام- مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي}، أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، أي: لتزداد عنى رضا، {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}، أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[سورة الأعراف:١٤٥]، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: {فَرَجَعَ مُوسَىَ إِلَىَ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً}، أي -بعدما أخبره تعالى بذلك- في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعلمُ كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا قال: رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف شدة الغضب، وقال مجاهد: غضبان أسفاً أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: أسفا حزيناً على ما صنع قومه من بعده، {قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبّكُمْ وَعْداً حَسَناً}، أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نُصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله؟، {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}، أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم، {أَمْ أَرَدتّمْ أَن يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رّبّكُمْ} أم هاهنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا: أي بنو إسرائيل في جواب ما أنّبهم موسى وقرعهم {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، أي:

عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، فقذفناها أي ألقيناها عنا، وفي رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى -عليه السلام- رأى فيه ما يشاء، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون -وهو لا يعلم ما يريد- فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار أي صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً، ولهذا قال: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ}.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقالوا: {هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىَ} قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: {فَنَسِيَ}، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً}، أي: العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، {وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً}، أي: في دنياهم ولا في أخراهم، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريحُ في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت، وقد ورد في حديث الفتون عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهموت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعني الحسين- وهم يسألون عن دم البعوضة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [سورة طه:٨٣-٨٤]، لما خرج بنو إسرائيل ونجاهم الله -عز وجل- من فرعون وأهلكه وأغرقه واعدهم الله -تبارك وتعالى- جانب الطور الأيمن، فتقدمهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى الطور، وبقي بنو إسرائيل مع هارون -عليه الصلاة والسلام- فقال الله له: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى}، لماذا سبقتهم وخلفتهم وراءك؟ فقال: {هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، وبعض المفسرين يورد سؤالاً وهو أن جواب موسى -عليه الصلاة والسلام- غير مطابق للسؤال، {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، ثم يذكر أجوبة، والذي يظهر -والله أعلم- أن الجواب مطابق للسؤال، ولكنه قدم بمقدمة وهي أنه قال: {هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي}، وإلا فالجواب: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، هذا الذي أعجله، المبادرة والمسارعة في طلب مرضاة الله -جل جلاله-، وقوله: {هُمْ

{أُولَاء عَلَى أَثَرِي} هذا له تعلق أيضاً بالجواب كأنه يقول: إنهم قريب مني، لم أتقدمهم بشيء كثير معتبر، كمن تقول له: أين أصحابك؟ فيقول: هم أولاء على أثري، هم قريب، تقول له: تقدمت أصحابك تعجلت، تركت أصحابك، يقول: هم أولاء على أثري، كأنه يقول: ما تركتهم هم قريب مني على الطريق، ليس بيني وبينهم شيء كثير، فكأنهم معه، {هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي} يأتون، {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، فقال الله له: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} فتنا: الفتنة تطلق على الاختبار والامتحان، وتطلق على نتيجة حسنة كانت أو سيئة، وقيل لإدخال الذهب والمعدن في النار: فتنة، تقول: فتنته في النار، يقال ذلك للإحراق فيها؛ لأن ذلك يتخلص به صحيحه من شائبه، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [سورة البروج:١٠] يعني أحرقوهم بالنار، وهنا {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} فالله -تبارك وتعالى- ابتلاهم بهذا العجل الذي صار بهذه المثابة، ففتنّا فيه من فُتن منهم حتى عبدوه، وعكفوا على عبادته وادعوا أنه ربهم، بل كذبوا على موسى -عليه الصلاة والسلام- واجترءوا عليه وقالوا: إنه ذهب يطلب ربَّه، وربُّه هاهنا، وهذا السامري قيل: هو رجل من أهل السامرة، وقيل: كان من كبار بني إسرائيل، وقيل: كان جاراً لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وقيل غير هذا، والحاصل أنه رجل ممن كان معهم، {وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}، والله -تبارك وتعالى- أخبر موسى بذلك فرجع موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى قومه غضبان أسِفاً، والأسَف: هو الغضب، والأسِف هو الغاضب، يقال ذلك لشدة الغضب، فلا تكرار، يعني: رجع غضبان شديد الغضب، ولا يقال: إن هذا تكرار، ولذلك لا حاجة لتفسيره بالغم أو الحزن أو نحو هذا من أجل التخيير، فلما جاء إليهم قال: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله؟، وهذا من أجمع ما قيل في تفسير الآية، وبعضهم يقول: وعدهم أن ينزل عليهم كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه، كما يقول الشنقيطي -رحمه الله-، فموسى -عليه الصلاة والسلام- ذهب إلى الميقات من أجل مناجاة الله -عز وجل-، ولأجل أن ينزل الله عليه ذلك الكتاب، وهكذا قول من قال: وعدهم أن يسمعهم كلامه على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- ليعملوا بما فيه، وهو التوراة، وبعضهم يقول: إن الوعد هو ما تقدم من قوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}، وواعدهم جانب الطور، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، و{أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا} قال: أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، فجمع بين المعنيين {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}، قال: في انتظار ما وعدكم الله، يعني بأن ينزل عليكم كتاباً مثلاً، وهذا مستلزم لقول من قال -{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ} أي: العهد بي-: إن الله -عز وجل- واعد موسى -عليه الصلاة والسلام- ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فكأنهم تباطئوه فعبدوا العجل، فيقول: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}، أي: بتنزيل الكتاب، وهكذا قول من يقول: أفطال عليكم العهد بي، أبطأت عليكم، يقول: ونسيان ما سلف من نعمه، {أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [سورة طه:٨٦-٨٧]، وبعضهم يقول: إن الذين قالوا هذا هم الذين لم يعبدوا العجل؛ لأنه لم يعبد العجل كلُّ الذين كانوا مع هارون

-عليه الصلاة والسلام- وإنما عبده بعضهم، ويقال: إن الذين كانوا مع هارون -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم- كانوا اثني عشر ألفاً، الذين لم يعبدوا العجل، وأن البقية عبدت العجل، وهذا من الأخبار الإسرائيلية، ويختلفون في تقدير عدد بني إسرائيل حينما خرجوا من مصر، ومن أهل العلم من يقول: إن الذين أجابوا بهذا الجواب هم الذين لم يعبدوا العجل، {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ} وهذا القول وإن كان له وجاهة في بادئ الأمر لكن ما بعده يدل على خلافه، وجه وجاهة هذا القول: أن قوله -تبارك وتعالى- عنهم: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} إن كان صدر من الذين عبدوا العجل هذا جواب بارد، لأنهم لم يذكروا عذراً معتبراً، لكنه إن صدر من الذين لم يعبدوا العجل فإنهم قالوا: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} بمعنى أننا على الطريق وعلى أثرك، ولكن لما نزلت بنا هذه المصيبة وعبد هؤلاء العجل لم نتمكن من مقاتلتهم حتى ترجع، ولم نتمكن من تركهم ونلحق بك لئلا يتفرق جمع بني إسرائيل فأبطأنا {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، لكن قوله بعده: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} يدل على أن الذين قالوا هذا هم الذين عبدوا العجل، وأنهم اعتذروا بهذا العذر البارد، فقوله عنهم: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} قال: أي عن قدرتنا واختيارنا، {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، وقرأ نافع وعاصم بفتح الميم {بمَلكنا}، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالكسر {بمِلكنا}، والمعنى: أي فأخطأنا، وبعضهم يقول: بمِلكنا أمورنا، يعني: لم نملك أمرنا، وفي قراءة حمزة والكسائي بالضم {بمُلكنا}، أي: بسلطاننا، والذي يظهر -والله أعلم- أن هذه القراءات ترجع إلى معنى واحد، فهم يقولون: ما أخلفنا موعدك بإرادتنا وإنما وقع لنا ما لم نتمكن من الخلاص منه -نسأل الله العافية-، ولم نملك أمورنا ومن ثم لم نتمكن من الثبات على الصواب ولزوم الحق والصراط المستقيم، عرضت لهم فتنة فاستزلهم الشيطان وفتنوا بهذا العجل فزاغت قلوبهم وانحرفوا، ووقعوا في هذا الإشراك العظيم، فكأنهم يقولون: لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، بمجرد أن رأينا هذا العجل له خوار وقع لنا اضطراب فزلت قدم بعد ثبوتها، هكذا يعتذرون، وهذا عذر سخيف، يقول لهم: لماذا عبدتم هذا العجل؟ فيقولون: والله شيء خارج عن مقدورنا، لم نفعل ذلك بقدرتنا على لزوم الحق، وإنما وقع ذلك بشيء من إقبال النفس، أو بشيء من الفتنة التي حصلت في القلوب فأدت إلى زيغها وضلالها وانحرافها، وهذا من أعجب الأشياء، وكلما يقف الإنسان عند هذه الآية ويتأمل يرجع أحياناً بسؤال كبير وهو أنهم نجاهم الله قبل قليل من فرعون، والبحر انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ورأوا عدوهم يهلك أمامهم ثم بعد ذلك يعبدون عجلاً، فقد صحبوا موسى -عليه الصلاة والسلام-، ومعهم هارون وحين أراد هارون -عليه الصلاة والسلام- أن يغير عليهم هموا بقتله، واستخفوا به، واستضعفوه، وقالوا: {لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [سورة طه:٩١]، فلم يفرقوا بين ربهم -تبارك وتعالى- وبين العجل الذي عبدوه، إذ كيف يكون هذا العجل الذي له خوار هو الرب الخالق المعبود؟ فهذا من أعجب الأشياء، ولو وقع هذا للجيل الثالث أو الرابع أو الخامس لكان معقولاً، لكون العلم قد اندرس لكن الذين مع موسى!، والبدايات عادة يكون فيها من الإقبال وهذه بدايات، وهذا عذرهم، يقول: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} حُمِّلنا، هذه قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحفص، وقرأ الباقون بالفتح: {وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ}، والمقصود بـــ"القوم": الفراعنة، فكانوا قد استعاروا منهم حُلياً، وبعض أهل العلم يقول: إن

هذه الاستعارة كانت فيما مضى من الأيام، فكانت المرأة من بني إسرائيل -وهم يعملون في الخدمة عند الفراعنة- تستعير الحلي في المناسبات، وبقي ذلك الحلي معهم حينما خرجوا سراً؛ لئلا يطلع فرعون على خروجهم، فكان ذلك معهم وأرادوا الخلاص منه، وبعضهم يقول: إن ذلك الحلي كان مما كان يلبسه الفراعنة، فلما غرقوا وألقاهم الماء أخذوا ما معهم، فإن كان ذلك من قبيل الاستعارة، مما استعاروه منهم فإنه لا يحل لهم، فهو لم يحصل لهم بشراء ولا هبة، وإن كان ذلك مما كان يلبسه فرعون ومن معه فإن الغنائم كانت محرمة على بني إسرائيل، فكانت تنزل نار من السماء فتحرقها، فالشاهد أنهم يقولون: {حُمِّلْنَا} وفي القراءة الأخرى: {حَمَّلْنَا أَوْزَارًا} والأوزار هي الأثقال، وبعضهم يقول: المقصود بهذه الأوزار: الأشياء المحرمة عليهم؛ إما لأنها استعيرت، أو لأنها كانت من الغنائم، والغنائم محرمة فأرادوا الخلاص منها، {فَقَذَفْنَاهَا}، وبعضهم يقول: قذفناها: يعني أنهم ألقوها من أجل أن تنزل هذه النار المحرقة، فقذف السامري ما معه من القبضة، {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، وبعضهم يقول: إنهم ألقوها في حفرة؛ لأن هارون أمرهم بهذا حتى يأتي موسى -عليه الصلاة والسلام- ثم ينظر فيها، فقذف عليها السامري هذه القبضة فصارت عجلاً، وبعضهم يقول: إن هارون -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يجعلها قطعة واحدة، فأوقد عليها، فجاء السامري وألقى عليها هذه القبضة فصارت عجلاً، فالشاهد أنهم يقولون: {فَقَذَفْنَاهَا} يقول: أي ألقيناها عنا، ألقوها من أجل أن تأتي النار فيتخلصوا منها كما يتخلصون من الغنائم فتحرق، أو ألقوها للسامري لتبقى عنده حتى يرجع موسى -عليه الصلاة والسلام-، يقول: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، كما ألقيناها نحن فكذلك ألقى السامري، أي: فمثل ذلك القذف ومثل ذلك الإلقاء فعله السامري، ألقى ما معه من القبضة، فهم كأنهم يقولون: فقذفنا هذا الحلي في الحفرة أو في غيرها، وكذلك قذف السامري ما معه، وهذه الأخبار الإسرائيلية نحن لا نصدق بها كما هو معروف ولا نكذبها، فبعضهم يقول: إنه لما رأى حافر فرس الملك جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: رآه حينما كان يتبع الفرس التي كان يركبها فرعون، وهذا غريب؛ لأنهم قد نجوا وصاروا إلى الشق الآخر، فالشاهد أنهم يقولون: أخذ قبضة من أثره، وبعضهم يقول: رآه لما جاء لموسى -عليه الصلاة والسلام- فأخذ قبضة من حافره، وبعضهم يقول: إنه رأى حافر الفرس كلما وقعت على شيء نبت واخضر، فأُلقي في روعه -في قلبه- أنه لا يأخذ ذلك الأثر فيلقيه على شيء فيقول له كن كذا إلا يكون، فالشاهد أن هذا الرجل سيئ أخذ ذلك من أجل أن يعده لأمر ما كهذا، رجل متهيئ مستعد فهو يبيت أمراً مكروهاً، ويقول: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}، نسأل الله العافية، عجلاً جسداً، بعضهم يقول: هو من ذهب وفيه ثقوب يدخل معها الهواء كما يقول ابن عباس -رضي الله عنه- ويخرج من الجهة الأخرى فيصدر صوتاً، وإلا فلا حياة فيه، وبعضهم يقول: إن قوله: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا} يدل على أنه تحول إلى عجل من لحم ودم فتنة لهم، كما أن الله خلق الإنسان من طين فصار لحماً ودماً، فالله قادر على أن يحول هذا الذهب إلى هذه الصفة من لحم ودم، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}، ولكن قد يضعف هذا القول ما جاء بعده من قول موسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [سورة طه:٩٧]، فيدل على أنه كان من الذهب وأنه لم يتحول إلى مخلوق من لحم ودم، وقال لهم: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}

[سورة طه:٨٨]، يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري**"، فيكون هذا من كلام الله -عز وجل-، ويكون من الموصول لفظاً المفصول معنى.

والضمير في قوله: {فَنَسِيَ} راجع إلى السامري ويكون هذا من كلام الله -عز وجل-، والنسيان بمعنى الترك، وليس بمعنى الذهول عن المعلوم، فذهاب المعلوم يقال له نسيان، والنسيان يطلق على معنى آخر وهو الترك، {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة:٦٧]، {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، فيكون من كلام الله -عز وجل- الذي يصف فيه السامري، والمعنى الآخر -وقال به كثير من السلف- هو أن ذلك النسيان يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- ويكون هذا من بقية كلام السامري، قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، يعني موسى -عليه الصلاة والسلام- نسي أن يذكركم ويقول لكم: هذا ربكم، لكن العجل لم يكن موجوداً، وكثير منهم يقولون: فنسي أي موسى -عليه الصلاة والسلام- فذهب يطلب ربه في مكان آخر، فالرب الذي أنجاهم من آل فرعون وقال له: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [سورة طه:٧٧]، -وكان العجل وقتئذٍ حلياً معهم- هو العجل، لكن هذا يدل على أنهم بمنتهى البلادة، وقد عبدوا هذا الحيوان الذي يضرب به المثل بالبلادة، فالذي لا يفهم مثلاً يقال له: ثور، فالثور يضرب به المثل في البلادة، والعجل من الثور، فقبل لحظات كان حلياً ثم جعلوه عجلاً ثم يتحول إلى إله ويكذبون على موسى -عليه الصلاة والسلام- ويسيئون الأدب معه ويقولون: هو ذهب يطلب ربه وأخطأه، وهذا هو ربه، يكابرون بهذه المكابرة، وهذا القول قال به كثير من المفسرين، وهو الذي اختاره ابن جرير وابن القيم: أن الذي نسي هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال الله لهم: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}، وهذا يدل على شدة علوق النفوس بهذه الأمور، ولهذا قطعت الشريعة كل أسباب الإشراك، فجاء النهي عن الصلاة في المقابر أو إلى القبور، وكذلك البناء على القبور، وتحريم التصاوير، فالنفوس في هذه الأشياء قد تفتن فتنة عظيمة، ويحصل لها مثل ما حصل لهؤلاء الناس، وهنا قال: {فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}.

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىَ} [سورة طه:٩٠-٩١]، **يخبر تعالى عما كان من نهي هارون -عليه السلام- لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد،** {فَاتّبِعُونِي وَأَطِيعُوَاْ أَمْرِي}، **أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه،** {قَالُواْ لَن نّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىَ}، **أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.**

{قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوَاْ * أَلاّ تَتّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَابْنَ أُمّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرّقْتَ بَيْنَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [سورة طه:٩٢-٩٤]، **يخبر تعالى عن موسى -عليه السلام- حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلأ عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط**

ذلك، وذكرنا هناك حديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))[1]، وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ}، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، أي: فيما كنت قدّمتُ إليك، وهو قوله: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، {قَالَ يَابْنَ أُمَّ}، ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: {يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي} الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: {إِنِّي خَشِيتُ} أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

في قوله: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ}، الاتباع يحتمل أن يكون المراد به الاتباع حساً، ويحتمل أن يكون المراد به الاتباع معنى، أما الاتباع حساً فهو أن يفارقهم ويلحق موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ويكون على هذا الاعتذار الذي تقدم به هارون -عليه الصلاة والسلام- حينما قال: {إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} فرقت بينهم بمعنى أنك أتيت بطائفة وبقيت طائفة في مكان آخر، وأما إذا كان هذا الاتباع المقصود به أن يتبعه معنًى وذلك بأن يتبع سبيله ويكون هذا في الإنكار عليهم أو في مقاتلتهم والتغيير على هؤلاء الذين عبدوا العجل، {أَلاَّ تَتَّبِعَنِ}، قال: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} هو حينما أمره قال له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، فإذا قيل الاتباع المقصود به الاتباع معنًى {وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} فيكون من الإصلاح أن يغيّر على هؤلاء، فكيف تركهم يعبدون العجل؟ وإذا كان الاتباع المقصود به الاتباع حساً بأن يفارقهم ويلحق بموسى -عليه الصلاة والسلام- فهو يقول له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ} فإذا فرقهم وجاء مع طائفة وترك طائفة فإنه يكون بذلك قد خالف أمره في ظاهر الحال، يحتمل هذا ويحتمل هذا، والله تعالى أعلم، والحاصل أن موسى -عليه الصلاة والسلام- هنا يقول: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ}، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، أي: فيما كنت قدّمتُ إليك، فالحاصل أنه قال له: {يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي}، هو شقيقه فقال له: {يَابْنَ أُمَّ}؛ لأن المخاطبة بذلك، وذكْر الوشيجة بالأم أدعى إلى الحنو والرأفة والرقة، {لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي}، هنا فيه كلام محذوف معلوم من السياق وهو أن موسى -عليه الصلاة والسلام- أخذ برأسه ولحيته كما قال الله -عز وجل-: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} [سورة الأعراف:١٥٠]، فهارون -عليه الصلاة والسلام- عندها قال له: {يَابْنَ أُمَّ} يستعطفه، {لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} فإذا جاء ببعضهم وترك البعض، أو إذا جاء وقاتلهم؛ لأنه أنكر عليهم وغيّر فاستضعفوه وكادوا أن يقتلوه، فالشاهد أن هارون -عليه الصلاة والسلام- قال له هذا، وقال له: {فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء} فيتندروا بي ويستهزئوا، وهذا يدل

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٤٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحاكم في المستدرك برقم (٣٢٥٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٥٠٤).

على أن هؤلاء الذين جاءوا ونجاهم الله من الغرق فيهم أعداء لهارون -عليه الصلاة والسلام-، وفيهم أهل إفساد كما قال: {وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، فهؤلاء الجمع الذين نجوا وصحبوا موسى -عليه الصلاة والسلام- وهارون فيهم مثل هؤلاء الأشرار، وهم الجيل الأول والصفوة، والذين شاهدوا هذه الآية العجيبة وباقي الآيات العصا ونزول المن والسلوى عليهم، وحصل لهم الاجتباء والاصطفاء ومع ذلك كانوا بهذه المثابة، فالبقية ماذا يقال عنهم الآن؟ ماذا يقال عن هؤلاء الذين في زماننا هذا؟ قل ما شئت من الشر والفساد والإفساد محادّة لله -تبارك وتعالى-، يقول: {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، يقول: أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له، وبعضهم يقول: {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} يعني لم تنتظر قدومي حتى أقرر، إذا أتيت أقرر شيئاً أو ما أراه، ولكن هذا فيه بعد والأقرب هو ما سبق، {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} يعني فيما أمرتك به؛ لأنه إذا جاء، {إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، فيقول: {إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، يعني: لم تنتظر حتى آتي ثم بعد ذلك أقرر شيئاً، لماذا استعجلت وأتيت مثلاً، انتظر حتى أرجع وعند ذلك أتخذ قراراً، هذا معنى آخر، والمشهور هو الأول {وَلَمْ تَرْقُبْ} يعني حيث أمرتك بالإصلاح وما سبق، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنّ لَكَ مَوْعِداً لّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىَ إِلَـهِكَ الّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لّنُحَرّقَنّهُ ثُمّ لَنَنسِفَنّهُ فِي الْيَمّ نَسْفاً * إِنّمَا إِلَـَهُكُمُ اللّهُ الّذِي لا إِلَـَهَ إِلاّ هُوَ وَسِعَ كُلّ شَيْءٍ عِلْماً} [سورة طه:٩٥-٩٨]، **يقول موسى -عليه السلام- للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟** روى **محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجَرْما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، وقال قتادة: كان من قرية سامراء، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ}، أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ}، أي: من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.**

وقال مجاهد: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ} قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

القبضة ليست بأطراف الأصابع، وإنما تكون بملء الكف، والقبصة -بالصاد- بأطراف الأصابع، وجاء في قراءة غير متواترة "قبصة".

قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خوراه، ولهذا قال {فَنَبَذْتُهَا}، أي: ألقيتها مع من ألقى {وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي}، أي: حسّنَتْه وأعجبها إذا ذاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن السامري: "**كان اسمه موسى بن ظفر، قال قتادة: كان من قرية سامراء**" إلى آخره: كل هذا متلقى عن بني إسرائيل ولا يثبت فيه شيء، وفيه أقوال غير هذا متعددة، ومثل هذا لا يترتب عليه أثر، ولا يبنى عليه عمل، والبحث عنه غير مجدي، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ}، قال: أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، فسرها هنا {بَصُرْتُ} بمعنى رأيت، من الرؤية البصرية بالبصر، وتحتمل معنًى آخر {بَصُرْتُ}، أي: علمت، تقول: فلان له بصر في كذا، فلان أبصر كذا، فيمكن أن يكون بمعنى علم، وتقول: تبصرت في كذا، ولهذا حمله ابن جرير -رحمه الله- على معنى علمت، {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ} بمعنى علمت ما لم يعلموا، بعض أهل العلم يقول: إنه عرف ذلك، أُلقي في نفسه -ألقي في روعه-، بعضهم يقول: إنه لما رأى الأرض تنبت تحت حافر الفرس وقع في نفسه أنه لا يُلقي ذلك على

شيء إلا وجدت فيه الحياة، أو أنه يقول له: كن كذا، فيكون، والشاهد أنه عرف شيئاً لم يعرفه الآخرون، وسواء كانت من الرؤية البصرية، أو من رؤية القلب والعلم فإنه حينما رأى فرس جبريل ببصره عرف من ذلك أنه يستطيع بهذا الفعل أن يحقق أمراً كهذا، يقول: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} قال: "**من تحت حافر فرس جبريل**"، وهذا تدل عليه قراءة ابن مسعود -وهي قراءة غير متواترة-: {فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول}، وفي القراءة الأخرى {**فقبصت**} والقبصة هي الأخذ بأطراف الأصابع، قال: **والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع**، الذي يظهر أنها: والقبصة بأطراف الأصابع، "**قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح**"، وهذا قول ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه لم يكن فيه حياة ولم يكن يصدر منه صوت إلا أن الريح كانت إذا دخلت فيه ظهر هذا الحفيف وهو صوت الرياح فقط، والخوار هو صوت البقر، ويبقى النظر هل صوت دخول الرياح يكون بهذه المثابة خواراً؟ قد يكون فيه ثقوب تؤدي إلى هذا، والله أعلم، وذكر بعضهم أن هذا العجل كان من لحم ودم، عجل حقيقي، يقول: "{فَنَبَذْتُهَا}، أي: **ألقيتها مع من ألقى**، {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}".

{قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ}، أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماسّ الناس ولا يمسونك، {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً}، أي: يوم القيامة، {لَّن تُخْلَفَهُ}، أي: لا محيد لك عنه، وقال قتادة {أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ} قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس.

قوله: {أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ}، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي لا تماس الناس ولا يمسونك**"، يعني: لا يمس الناس ولا يمسونه، فإذا مس أحداً أو مسه أحدٌ حُمَّ، كان يصاب بالحمى، ويتأذى بذلك، فإذا أراد أحد أن يقترب منه قال له: لا مساس، لا تمسني من أجل أن لا أُصاب بالحمى، هكذا قال بعضهم، وبعضهم قال غير هذا، والشاهد أن منهم من يقول: إن ذلك بمعنى أنه لا يختلط بالناس، ولا يجلس معهم، بمعنى أنه يُهجر، فهُجر، فصار لا يجلس معه أحد، لكن المس غير الهجر، فالذي يظهر -والله أعلم- أنها عقوبة حلت به فصار يقول: لا مساس؛ لأنه لا يطيق ذلك لسبب أو لآخر، -والله أعلم-، وبعضهم فسر المساس هنا: بمعنى أنه لا يطيق الجماع، {مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٧] يعني أن تجامعوهن، وهذا بعيد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ} قال الحسن وقتادة وأبو نهيك: لن تغيب عنه، وقوله: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ}، أي: معبودك، {الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً}، أي: أقمت على عبادته، يعني العجل.

يعني: أن عقوبته في الدنيا أن يقول: لا مساس، وله عقوبة أخروية لن تتخلف، يقال كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ}، يعني: أن ذلك واقع بك لا مناص ولا محيد من الوقوع فيه، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، هو ليس بإله، ولكنه سماه إلهاً بحسب نظر المخاطب، فهو قال: إنه إله، فخاطبه بما يعتقد أو بما يزعم، {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، قال: "**أي أقمت على عبادته، يعني: العجل**".

{لَّنُحَرِّقَنَّهُ} قال الضحاك عن ابن عباس والسدي: سَحَله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقى أي: رماده في البحر، ولهذا قال: {ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

{نَسْفاً}، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن عن علي -رضي الله عنه- قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبرّده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، وهكذا قال السدي، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسطُ ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}**، العكوف هو المكث الطويل، ملازمة الشيء، **{لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}**، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}** [سورة طه:١٠٥]، أصل النسف هو نفض الشيء لتذروه الريح، ومنه المنسف.

فالشاهد أن معنى **{لَنَنسِفَنَّهُ}** هكذا فسرها طائفة من أهل العلم، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: بمعنى لنذرينّه في البحر تذريةً، يذرى العجل الذي من الذهب في البحر ببرده بالمبارد، ولهذا يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**سحَلَه بالمبارد وألقاه على النار**" فابتداءً يبرد ثم يحرق، إن صح ذلك عنه، ومهما يكن من أمر فإن قوله: **{لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ}** إذا قلنا بأن النسف هو التذرية في الرياح فإن ذلك لا يكون إلا بعد تبريده، لأنه لا يكون إلا للشيء المفتت، وهذا يدل على أنه من ذهب وليس من لحم ودم، فهذا المعنى على قول من قال بأنه برده بالمبارد، وأما إذا كان من لحم ودم فإنه يكون رماداً إذا أحرق، وحديث البخاري: ((إذا مت فأحرقوني))[1]، الشاهد أن هذه التذرية في الريح لابد أن يسبقها شيء آخر غير الإحراق وهو أن يبرد بالمبارد بحيث يتفتت ثم بعد ذلك يطير في الهواء **{لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}**.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} يقول لهم موسى -عليه السلام-: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبدٌ له، وقوله: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}، و{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}.

هذا تمييز محول عن الفاعل، **{وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً}** يعني: وسع علمه.

فــ {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} [سورة سبأ:٣]، **{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة الأنعام:٥٩]، **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة هود:٦]، **والآيات في هذا كثيرة جداً.**

{كَذَلِكَ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لّدُنّا ذِكْراً * مّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً} [سورة طه:٩٩-١٠١]، **يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعونَ وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لّدُنّا}، أي: من**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}** [سورة الفتح:١٥]، برقم (٧٠٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه.

عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي لم يُعطَ نبيٌّ من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً} القرآن سماه الله بهذا، لأنه متضمن للتذكير والمواعظ وما يحتاجون إليه فيما يكون به صلاحهم في الدنيا وفي الآخرة، كذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: قيل له ذكر؛ لأنه يذكر آلاء الله ونعمه على عباده، فهو متضمن لهذه الأمور، وبعضهم يذهب في المعنى إلى غير هذا: أنه ذكْر: بمعنى شرف للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأمته كما فسر بعضهم قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤] وبعضهم قال: هذا من التذكير، يحصل به التذكر والاتعاظ والاعتبار، وبعضهم يقول: وإنه لذكر لك، أي: شرف لك، وشرف لقومك أن نزل هذا الكتاب الخاتم العظيم بلسان عربي مبين، وقوله: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً}، القرآن قيل له ذكر؛ لما تضمنه من التذكير بنعم الله -عز وجل-، والتذكير بما فيه من المواعظ والعبر، وقص الله فيه أخبار الأمم وما جرى للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم، وذكّر الله -عز وجل- فيه بثوابه وعقابه، وبجنته وناره، إلى غير ذلك مما تضمنه هذا القرآن، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ}، أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: {مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً}، أي: إثماً، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود:١٧] **وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}** [سورة الأنعام:١٩] **فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداعٍ، فمن اتبعه هُدي ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: {مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ}، أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، {وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً}، أي: بأس الحمل حملهم.**

الوزر: هو الحمل، وأصل معناه الحمل الثقيل، ويطلق الوزر على الإثم تقول: فلان يحمل وزر فلان؛ لأنه أضلّه مثلاً، بمعنى أنه يحمل إثماً بسبب ذلك، كما أن الوزر يطلق على نتيجة الإثم وما ينتج عنه، فإن الذي يحمل الأوزار والآثام يعاقب عليها ما لم يحصل مانع يمنع من العقوبة من مغفرة، أو شفاعة، أو ذنوب مكفرة، أو حسنات ماحية، أو غير ذلك من الموانع، فهذه الذنوب والآثام المترتبة على الذنوب تكون أثقالاً يحملونها، كما عبر الله عن ذلك في موضع آخر، {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت:١٣] فهذه الأثقال هي الأوزار، فالوزر لا يكون للحمل الخفيف وإنما يكون للحمل الثقيل فهو يثقل حامله، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهِ} يعني في الوزر، وقيل: في هذا العذاب والعقاب، {وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} يعني: هذا الوزر، وسماه حملاً.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن تلاعبه بهم عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة والأخذة الرابية، ونبيهم حي لم يمت، هذا وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهراً لبطن، ومن عجيب أمرهم أنهم لم

يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى -عليه السلام- إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل، فجعلوه إله كليم الرحمن، ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى -عليه السلام- ضالاً مخطئاً، فقالوا: فنسي، قال ابن عباس: أي ضل وأخطأ الطريق، وفي رواية عنه: أي أن موسى ذهب يطلب ربه فضل ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضاً: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم، وقال السدي: أي ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه، وقال قتادة: أي أن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر، هذا هو القول المشهور، أن قوله: فنسي: من كلام السامري وعباد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري أنه نسي، أي ترك ما كان عليه من الإيمان، والصحيح القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره.

فقال: فنسي موساهم، يقولون: أخطأ الربَّ، فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟، فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: {فَنَسِيَ}، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم، فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب محتاجاً إلى سبك بالنار وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد مقلباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجب ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-ما قال: لما هجم فرعون على البحر -هو وأصحابه- وكان فرعون على فرس أدهم، فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل –عليه السلام- على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامري جبريل، فقبض قبضة من أثر فرسه، قال: فأخذ قبضة من تحت الحافر، قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ}، قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: وأُلقي في رُوع السامري: إنك لا تلقيها على شيء فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه -في يده- حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر وأغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هارون: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ} [سورة الأعراف:١٤٢]، ومضى موسى لموعد ربه، قال: وكان مع بني إسرائيل حلية من حليّ آل فرعون قد استعاروه فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا على العجل يعبدونه فقال هارون: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [سورة طه:٩٠-٩١]، وقال السدي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا

الحليّ من القبط، فلما نجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر وأغرق آل فرعون أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري فأنكره -ويقال: إنه فرس الحياة- فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى -عليه السلام- واستخلف هارون على بني إسرئيل[٢]".

هذه الأشياء متلقاة من بني إسرائيل، فالله تعالى أعلم.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طه:١٠٢-١٠٤]، **ثبت في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الصور فقال: ((قرن ينفخ فيه))، وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، وجاء في الحديث: ((كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنا جبهته، وانتظر أن يؤذن له))، فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا))**[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ}** يحتمل أن يكون ذلك مرتبطاً بما قبله، بمعنى أن الله قال: **{مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ}** ساء لهم يوم القيامة حملاً حين ينفخ في الصور، **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}**، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

والقول بأنه مستأنف قد يكون أولى -والله تعالى أعلم-، وفي مثل قوله: **{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ}**، عادة يكون التقدير: واذكر يوم ينفخ في الصور.

وقوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال، {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ} قال ابن عباس: يتاسرُّون بينهم.

قوله: **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** قال: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال، وبعضهم فسره بالعطاش، كالأزهري والزجَّاج، **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** أي: عطاشاً، وعلاقة هذا بـــ "زرقاً": أن شدة العطش يتسبب عنها تغير في لون العين إلى الزرقة، فقالوا: إن هذا عبر فيه بالنتيجة **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** وسبب هذه الزرقة هو العطش الشديد، فيكون هذا من قبيل التفسير بالمطابق؛ لأنهم يقرون أن العين تتغير إلى لون الزرقة، لكنهم ذكروا سبب زرقة هذه العيون وهو شدة العطش، وتفسير ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال**"، وكثير من أهل العلم يفسرونها بزرقة العيون، سواء كان ذلك بسبب العطش، أو كان من شدة الأهوال، أو غير ذلك، علامة فارقة يُعرفون بها، والعرب تقول لمن كانت عينه خضراء: أزرق، أصحاب العيون الرزق أو الخضر، يقال للرجل: أزرق،

---

٢ - انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزيه (٢/٣٠٠-٣٠٢).

٣ - رواه أحمد في المسند برقم (٣٠٠٨)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقال محققوه: حسن لغيره.

كما في الحديث: ((يطلع عليكم رجل ينظر بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه))[٤]، فجاء رجل أو طلع رجل أزرق، يعني أزرق العينين، ويعتقدون أن زرقة العين تدل على الغدر وهو شيء مكروه عندهم، لكن هذا ليس بلازم، فهذا خلق الله -عز وجل-، ومن هؤلاء من يوجد فيه غدر، ومنهم من لا يوجد فيه غدر، كما أن سواد العين ليس بلازم أن يكون صاحبه سالماً من هذه الأوصاف، فقد توجد وقد لا توجد، وبعضهم فسر الزرقة في قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} قال: أي عمياً، وهؤلاء يستندون إلى بعض ما جاء عن العرب في التعبير، وهذا القول قال به الفراء، فالعرب لربما قالوا للأعمى: أزرق، يعني: أعمى، ولكنه خلاف الظاهر المتبادر، وكأن هذا القائل قال بذلك ليجمع بين الآيات ويخرج من الإشكال، فإن الله -تبارك وتعالى- قال عن المجرمين: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، ولهذا سئل ابن عباس عن: يحشرون عمياً، وهنا قال: يحشرون زرقاً، فعلى قول الفراء لا منافاة "زرقاً" بمعنى "عمياً": فتفسر هذه الأخرى، وعلى قول الجمهور -كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لأن يوم القيامة يوم طويل فيحصل لهم هذا وهذا، والله أعلم.

{يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ} قال ابن عباس: يتسارُّون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض: {إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا} أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال بعض أهل العلم: إنهم قصدوا أن المدة التي بقوا في القبور كانت مدة يسيرة، وبعضهم يقول: إن المقصود ما بين النفختين، وهذا أبعد هذه الأقوال، ولعل الأقرب أن المقصود بذلك الدنيا، أن مدة المكث في الدنيا كانت قصيرة، -والله أعلم-، وقول من قال: إن ذلك كان في القبور مبني على أن المكث في القبور وبقاء الإنسان الميت -كما يقال في النائم- يقصر عليه، يعني هؤلاء الذين ماتوا من ألف سنة أو من ألفي سنة هي بالنسبة إليهم ليست مثل الأحياء طويلة جداً، فمن يريد أن يقصِّر الأوقات ويختصر يومه ينام، فربما ينام يوماً وليلة كاملة ويستيقظ ويظن أنه ما نام إلا خمس دقائق، وهذا يحصل للإنسان وهو شيء مجرب، فلو أن شخصاً ابتلي ببعض أنواع المرض التي تسبب له النوم الكثير، فإذا نام واستيقظ في مثل هذا الوقت من الغد لربما ينظر فيظن أنه نام في الصباح والآن هو في الضحى أو العصر، نام ساعة أو قريباً منها فقط، يتعجب أنه ما نام أصلاً، والمقصود بذلك والأقرب: أنهم قصدوا: في الدنيا، والله أعلم.

قال الله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} أي: في حال تناجيهم بينهم، {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً} أي: العاقل الكامل فيهم {إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها -وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها- كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} إلى قوله: {وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الروم:٥٥-٥٦]**، وقال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ}** [سورة فاطر:٣٧] **الآية، وقال تعالى: {كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ**

---

٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٢١٤٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٣٠٧)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

تَعْلَمُونَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٤] أي: **إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} [سورة طه:١٠٥-١٠٨].

يقول تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ}، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ {فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، {فَيَذَرُهَا}، أي: الأرض، {قَاعاً صَفْصَفاً} أي: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: {لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: ويسألونك على الجبال في ذلك اليوم في يوم القيامة ما شأنها؟ وما مصيرها؟ {فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً}، يقول: {يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرا، والنسف يأتي بمعنى التذرية، قال بهذا كثير من أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، بمعنى أن الجبال تتفتت حتى تصير {هَبَاء مُّنبَثًّا} [سورة الواقعة:٦]، والهباء ما تعرفون مما يشاهد من الكوة أو النافذة إذا دخلت الشمس مما يتطاير في الهواء، فالله تعالى أخبر عن حال الجبال؛ لأنها تكون كالعهن المنفوش، وكالهباء، فهي تتفتت ويذريها الله -عز وجل- تذرية فتقلع من أماكنها وتستأصل من أصولها وتدك وتصير إلى تلك الحال، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} فيذرها الضمير يرجع إلى الأرض، أو يرجع إلى الجبال باعتبار أنها هي المذكورة قبله ولا ذكر للأرض، وبعضهم يقول: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يرجع إلى المذكور قبله وهو الجبال، {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يعني أنه إذا قلعها من أماكنها وسيرت هذه الجبال بقيت منابتها وأصولها وأماكنها قاعاً صفصفا، وبعضهم يقول: {فَيَذَرُهَا}، أي: الأرض، والضمير عائد إلى غير مذكور، يفهم من السياق ولا بأس أن يعود الضمير إلى غير المذكور مما يعرف من السياق ثقة بفهم السامع كقوله -تبارك وتعالى-: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [سورة فاطر:٤٥]، يعني: الأرض، مع أن الأرض لم يرد لها ذكر قبل ذلك، وهكذا في قوله: {مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ}[سورة النحل:٦١]، وكقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١]، يعني: القرآن، ولم يرد للقرآن ذكر قبل هذا؛ لأنها الآية الأولى، وقوله -تبارك وتعالى-:

{فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يقول الحافظ -رحمه الله-: "**أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك**"، ومعلوم أن التأسيس مقدم على التوكيد، ولهذا فإن الكثيرين من أهل العلم يقولون بأن الصفصف ليس معناه القاع، يقول: وقيل الذي لا نبات فيه، يعني: {فَيَذَرُهَا قَاعاً} يعني: مستوية لا نبات فيها، {صَفْصَفاً}، أي: لا نبات فيها، مع أن ابن كثير -رحمه الله- رجح الأول قال: "**وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم**"، لأنها إذا كانت مستوية فمعنى ذلك أنك لا ترى فيها شيئاً مرتفعاً لا نباتاً، ولا جماداً، فيلزم منه القول بأنه لا نبات فيها، فالقولان متلازمان، وقوله: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، يقول هنا: "**لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية**"، بمعنى أن العوج هو الوادي، يعني العوج هو المكان المنخفض، والأمْت هو المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، ولهذا ما قال: جبلاً، يقول: "**ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد إلى آخره**"، وبعضهم يقول كابن الأعرابي: العوج من التعوج، بمعنى أنك في الأرض تجد فيها ما تجد من البحر الذي يحد اليابسة، كما تجد فيها المسالك حينما يمشي الإنسان فيها ما يميل معه في طريقه، لأسباب معروفة، من تضاريس الأرض، أما الأرض التي تكون آنذاك فإنها في غاية الاستواء لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، فالأمت هي التلال الصغار كما يفسرها بذلك ابن الأعرابي -رحمه الله-، وكلام أهل العلم كثير في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {لاّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، لكن ذلك يرجع إلى معنى أنها في غاية الاستواء، فلا ترى فيها تبايناً من ارتفاع أو انخفاض أياً كان سبب ذلك، بعض هذه التفاسير هي من قبيل التفسير باللازم، وبعضهم يشير إلى معنى وهو: أن هذا الاستواء يكون في غاية الدقة {لاّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، بعضهم يفرق بين العِوج بالكسر والعَوج بالفتح، يقولون: العِوج يكون في النظر والرأي والمعاني، وأما العَوج فيكون في الأشياء المحسوسة، وهنا قال: {لاّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً}، وأجابوا عن هذا فقالوا: إن الإنسان حينما يسوي الأرض قد تبدو للنظر أنها مستوية ولكن عند القياس وفي نظر أهل المساحة أو الهندسة يوجد فيها بعض الميل أو الانخفاض أو الارتفاع أو نحو ذلك مما لا يبدو للنظر، فيخطئ النظر حيث يظن أنها مستوية وليست كذلك، فعُبر بالعِوج {لاّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، هكذا قال بعضهم.

والمقصود -والله تعالى أعلم- أن الأرض تكون في غاية الاستواء.

{يَوْمَئِذٍ يَتّبِعُونَ الدّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ}، أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أُمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨]، **وقال: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}**[القمر: ٨].

{يَوْمَئِذٍ يَتّبِعُونَ الدّاعِيَ}، يعني: الذي يدعوهم بعد خروجهم من قبورهم فينفخ في الصور، {يَوْمَئِذٍ يَتّبِعُونَ الدّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ}، يقول هنا: "**أي يوم يرون هذه الأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه**"، بمعنى أنهم يكونون في غاية الإقبال، والاستجابة كما قال الله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}، {لاَ عِوَجَ لَهُ} بمعنى أنهم لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه أو ينحرفوا منه، يتبعون الداعي لا عوج له، وإنما هم في غاية الإقبال عليه والاستجابة.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}: "أي: لا اعوجاج فيها ولا أمت، والأمت: النتوء اليسير، أي: ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية، ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد:

فاجرمَّزت ثم سارت وهي لاهية *** في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة *** في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين: قيل الليل، وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا: العِوج بالكسر في المعاني والعَوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فكيف صحّ فيها المكسور العين؟

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والمَلاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله -عز وجل- ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عِوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه، وقد قدّمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره، والعلم عند الله تعالى"[1].

وقال -رحمه الله-: "قوله: {يَوْمَئِذٍ} أي: يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي، والداعي: هو الملَك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه.

ومعنى {لا عِوَجَ لَهُ}، أي: لا يحيدون عنه، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً، وقيل: لا عوج لدعاء الملَك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعاً، وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بيّنه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}[سورة القمر:٦-٨]، والإهطاع: الإسراع، وقوله تعالى: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} [سورة ق:٤١-٤٢]، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [سورة الإسرء:٥٢]، الآية، إلى غير ذلك من الآيات"[2].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ}، أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون عنه.

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٩٩).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/١٠٠).

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده، فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي فكيف قال: {لَا عِوَجَ لَهُ}؟، قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي: لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر ولما كانت الدعوة تُسمع الجميعَ لا تعوج عنهم وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما، والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له"[٣].

وقوله: {لَا عِوَجَ لَهُ} لا عوج لدعائه فيصل إلى الجميع، ولا عوج لهم عن دعائه فيستجيب له الجميع.

وقوله: {وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السُدي {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} الصوت الخفي، وهو رواية عن عكرمة والضحاك، وقال سعيد بن جبير {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} الحديث وسرّه، ووطء الأقدام.

يقال للصوت الخفيف همس، ولهذا يقال لصوت وطء الأقدام: همس، ويقال: للأسد الهموس؛ لأنه إذا مشى في الليل يمشي مشياً خفيفاً، تصور عند هدئة الأصوات، وسكون الناس حينما لا تسمع إلا صوت أقدام، ولهذا يقولون لصوت الأقدام أو لصوت خفاف الإبل وهي تمشي: همس، وصوت خفاف الإبل أو صوت المشي الخفيف الذي يظهر معه صوت وقع الأقدام لا شك أنه صوت يسير، يصح إطلاق الهمس عليه، كما يطلق أيضاً على الصوت الخفيف، حينما يتكلم الإنسان بصوت يسمعه من يلاصقه، تقول: همس في أذنه، يهمس، {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} بعضهم يقول: وقع الأقدام على الأرض، يمشون، يتبعون الداعي، وقال: "**الحديث وسرّه، ووطء الأقدام**"، قاله سعيد بن جبير -رحمه الله.

{يَوْمَئِذٍ لّاَ تَنفَعُ الشّفَاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيّ الْقَيّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} [سورة طه:١٠٩-١١٢].

يقول تعالى: {يَوْمَئِذٍ}، أي: يوم القيامة، {لاّ تَنفَعُ الشّفَاعَةُ}، أي: عنده، {إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}، كقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وقوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [سورة النجم:٢٦]، وقال: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[سورة الأنبياء:٢٨]، وقال: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، وقال: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً} [سورة النبأ:٣٨]، وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله -عز وجل- أنه قال: ((آتي تحت العرش، وأخر لله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا

---

٣ - التبيان في أقسام القرآن، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٢٤).

أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة ثم أعود، فذكر أربع مرات))[٤]، -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء-، وفي الحديث أيضاً: ((يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان))[٥] الحديث.

وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم {وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً}، كقوله: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[البقرة: ٢٥٥]، وقوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيّومِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، ما بين أيديهم مما يستقبل من أمر الساعة، وما خلفهم ما تركوه ورائهم من أمر الدنيا، والكلام على قوله تعالى: {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} [سورة مريم:٦٤]، وهناك من قال من أهل العلم أقوالاً غير هذا أيضاً، بعضهم يقول: ما بقي من الدنيا، وبعضهم يقول: البرزخ، لكن الفرق بين المقامين أن هذا قاله الله -عز وجل- في الآخرة، وذاك في الدنيا، و{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني من أمر الدنيا والآخرة، أي يحيط علماً بالخلائق كلهم، بعضهم يقول: إن المراد بقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} الضمير يرجع إلى الذين يتبعون الداعي، {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ} ثم قال: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} قال: "أي **يحيط علماً بالخلائق كلهم**"، وبعضهم يقول بأن الضمير يرجع إلى الملائكة، وهذا بعيد، قال: "{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، **كقوله**: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}"، وقال بعضهم قوله: {وَلاَ

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٥)، عن أنس -رضي الله عنه- بلفظ قال فيه: ((فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود))، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

٥ - رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد، برقم (٢٥٩٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند برقم (١٢٧٧٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وبرقم (١٣٩٢٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في المعجم الأوسط واللفظ له برقم (٣٩٧٦)، كلهم من حديث أنس -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦٤٥).

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} مع قوله هنا: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، قيل: الضمير يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ}، أي: بالله، بذاته، وأسمائه وصفاته، والقول الآخر: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ} أن الضمير يرجع إلى ما سبق من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، أي: بعلم ذلك، أو: ولا يحيطون بذلك علماً، فهذان قولان، وبين هذين القولين ملازمة، فإذا كانوا لا يحيطون بعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فإن كونهم لا يحيطون بالله -تبارك وتعالى- وذاته وأسمائه وصفاته وعلمه من باب أولى، وإذا كان الضمير يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- لا يحيطون به ولا بذاته ولا بأسمائه ولا علمه فإن ذلك يتضمن علم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ لأنه بعض من علم الله -جل جلاله-، فمثل هذا لا يحتاج معه إلى ترجيح.

وقوله: {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}، أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، وفي الحديث: ((يقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم))[٦]، وفي الصحيح: ((إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة))[٧]، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان:١٣].

ظاهر كلام ابن كثير هو الذي ذهب إليه كثير من المفسرين، أن المقصود بالظلم هو الظلم الأكبر الذي هو الإشراك {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالشرك بآية لقمان، وبعض أهل العلم رأى أن الخيبة هنا بمعنى الخسارة المحققة وأن هذه الخسارة المحققة إنما تكون للكافرين، فتكون لهم النار، ولذلك حملوها على الإشراك وأنه الظلم الأعظم، وبعض أهل العلم يقول: إن الآية على ظاهرها {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً} فالظلم يقع على الإشراك ويقع على ما دونه، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر ما يكون له من الظلم يقع له من الخيبة.

وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً}، لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يُحمَّل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

الهضم النقص، ولهذا يقال: هضْمُ الطعام بمعنى انتقاصه، وذلك لما يقع لهذا الطعام، فيقال فلان هضم الطعام، يهضم الطعام، بمعنى هضم الطعام فلا يبقى ثقله على المعدة، {فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} هنا ذكر تفسير الظلم بأنه يزاد في سيئاته أو يحمل سيئات الآخرين، وهكذا قول من قال بأن الظلم بمعنى أنه لا يذهب حقه بالكلية، والهضم بمعنى أنه لا ينقص، فمعنى ذلك أنه يأخذ أجره وافياً لا يمنع من حقه، فيكون هذا هو الظلم، ولا ينقص منه فهذا هو الهضم، وكذلك أيضاً لا يُحمَّل سيئات غيره، والحاصل أنه لا يحصل له ظلم بتحمله

---

٦ - انظر: مسند الشاميين، لأبي القاسم الطبراني برقم (١٥٦).

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

تبعة عمل غيره ولا يد له فيه، ولا يمنع من حقه بالكلية كما أنه لا يحصل له نقص في أجره وثوابه عند الله -تبارك وتعالى.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [سورة طه:١١٣-١١٤]، **يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عيّ، {وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، {أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً} وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات.**

يُفسر الذكر بالطاعة والقربات، فالذكر يقال للذكر باللسان، والذكر بالقلب، واستحضار عظمة الله -عز وجل- ومراقبته، ويقال أيضاً للذكر بالجوارح، والقيام بوظائف العبودية، بعض أهل العلم يفسر قوله: **{أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً}**، أي: اتعاظاً واعتباراً، وهذا قال به جمع من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا يكون تفسير من فسره -كالحافظ ابن كثير- بأنه فعل القربات والطاعات من باب الأثر واللازم، فإذا حصل للإنسان الاتعاظ والاعتبار بالقرآن فإن ذلك هو السبيل، أو أن هذا يقتضي العمل والطاعة، والتقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، فإن الغفلة هي التي تحول بين الإنسان وبين الامتثال، وبعضهم فسر الذكر بالشرف كما قال بعضهم في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}** [سورة الزخرف:٤٤]،أي: شرف، والأكثر في استعمال الذكر في القرآن أن المقصود به التذكر؛ وذلك بالاتعاظ والاعتبار، وطرد الغفلة، هذا هو الغالب في القرآن.

{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ}، أي: تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: {وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [سورة القيامة:١٦-١٩]، **وثبت في الصحيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية، يعني أنه -عليه السلام- كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه، فقال: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}، وقال في هذه الآية: {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملَك من قراءته عليك فاقرأه بعده، {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}، أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة -رحمه الله-: ولم يزل -صلى الله عليه وسلم- في زيادة حتى توفاه الله -عز وجل.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حيث فسره بقوله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، والحديث في سبب نزولها هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من فسره بغير هذا، فابن جرير -رحمه الله-: يرى أن المعنى {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ}، أي: في إقرائه لأصحابك، وإملائه عليهم {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أي: قبل أن نفُهمك ونبين لك معانيه حتى تفهمه، فلا تعجل بإقرائهم وإملائه عليهم، وتفسيرها بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أولى للحديث وللآية الأخرى، لأنه تفسير لها بالقرآن، تفسير القرآن بالقرآن أقرب وأولى، وكذلك أيضاً هو تفسير بالسنة، وسبب النزول -كما هو معلوم- من فوائده أنه يبين ويجلي المعنى، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه-: قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَىَ * فَقُلْنَا يَآدَمُ إِنّ هَذَا عَدُوّ لّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ * إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ * وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ وَعَصَىَ ادَمُ رَبّهُ فَغَوَىَ * ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىَ} [سورة طه:١١٥-١٢٢]، **روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهد والحسن: تَرَك.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً}**، ذكر هذا بعدما ذكر تكذيب المكذبين بالقرآن والوحي، ومجادلة أو مكابرة المشركين في ذلك كله، فقال -تبارك وتعالى- بعده: **{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ}**، وقال بعض أهل العلم: إن العصيان الذي يقع من بني آدم قد وقع لأبيهم، وذلك وجه المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، ومنهم من يقول غير ذلك، لكن المراد بقوله: **{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ}** أن الله -تبارك وتعالى- نهاه عن أكل الشجرة، وعهد إليه بذلك فنسي، وهذا النسيان يحتمل معنيين -وهما المعنيان اللذان تأتي لهما هذه المفردة- فيحتمل أن يأتي بمعنى الذهول عن المعلوم، ويحتمل أن يأتي بمعنى الترك، وإذا أضيف ذلك إلى الله فهو دائماً بمعنى الترك، إذا كان ذلك مثبتاً **{نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ}** [سورة الحشر:١٩]، مع قوله -تبارك وتعالى-: **{لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى}** [سورة طه:٥٢]، فالمنفي المراد به الذهول عن المعلوم، ذهاب المعلوم من الذهن، يقال: نسيت المسألة، نسيت الكتاب، ويأتي بمعنى الترك **{نَسُوا اللَّهَ}**، أي: فأعرضوا عنه وتركوا طاعته، **{فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** عاقبهم بأن اشتغلوا بما يضرهم وأقبلوا على ذلك وتركوا ما فيه صلاحهم ونفعهم وفلاحهم ونجاتهم، **{نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ}** [سورة التوبة:٦٧]، نسيهم في النار، تركهم في النار، وهكذا تركهم من رحمته في الدنيا وفي الآخرة، وقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي**"، يُشعر بأنه يريد بذلك الذهول عن المعلوم، وهذا ليس محل اتفاق أن الإنسان قيل له إنسان بهذا السبب، وقيل: هذا من الأنس، ويقول الحافظ -رحمه الله-: "**وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهد والحسن: تَرَك**"، هذا المعنى الثالث، ترك، ترك هذا العهد الذي عهد إليه وهو النهي عن أكل الشجرة، فأكل منها، واختلف السلف في تفسيره فمنهم من يفسره بهذا، ومنهم من فسره بهذا، وتفسيرهم بالترك هو الأقرب ولا إشكال فيه، وأما تفسيره بالنسيان الذي هو بمعنى الذهول

-يعني: المعنى المتبادر للنسيان الشائع الأكثر استعمالاً، وهو خلاف قول الجمهور في هذه الآية، فالجمهور على الأول- تفسيره على الذهول وذهاب المعلوم لا يخلو من إشكال، وذلك أن يقول قائل: كيف يؤاخذ على النسيان؟! موسى -عليه الصلاة والسلام- يقول للخضر، بل قبل ذلك غلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقول له: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف:٦٣]، وموسى -عليه الصلاة والسلام- حينما سأل واعترض على خرق السفينة وأنكر عليه ذلك الخضر، قال له: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [سورة الكهف:٧٣]، والله -عز وجل- يقول في القرآن: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [سورة البقرة:٢٨٦]، وفي الحديث القدسي أن الله -تبارك وتعالى- قال: ((قد فعلت))[1]، والإشكال هو أنه إذا فسر النسيان بهذا الاعتبار وبهذا المعنى كيف يؤاخذ على هذا ويعاقب ويخرج من الجنة؟

وجواب أصحاب هذا القول عن هذا الإشكال والرد عليهم أنهم يقولون: إن وضع النسيان وعدم المؤاخذة عليه إنما هو في شرع هذه الأمة، وهذا من التخفيف عليهم، وأما الأمم السابقة فكانوا يؤاخذون بذلك، ويرد عليهم بأن ظواهر الآيات إذا جُمعت وما حصل من وسوسة الشيطان {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}، مع قول الله -عز وجل- لآدم -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} حذره من هذا كله، وهذا بعيد إذ كيف يحصل له النسيان الذي هو الذهول عن المعلوم مع هذه التحذيرات؟ والأقرب -والله أعلم- أن ذلك يراد به الترك، ترك ما عهد الله به إليه فأكل من هذه الشجرة، قال: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [سورة طه:١١٥]، والعزم بمعنى توطين النفس على الشيء والتصميم عليه، بمعنى أن العزم هو القصد، قصد القلب المصمم يقال له عزم؛ لأن الإرادات التي تحصل من الإنسان انبعاث النفس، وإرادتها على درجات متفاوتة، فتارة يكون الشيء خاطراً، يعرض للإنسان ثم بعد ذلك ما يلبث أن يُدفع أو يضمحل ويتلاشى، وتارة يبقى ويستقر ويتغلغل فيكون فكرة، وإذا ثبت صار عقيدة، فإذا أقبل على الشيء وأراد الفعل أو الترك وليس بمجرد الإرادة الضعيفة التي يحصل فيها شيء من التردد فإن ذلك يكون عزماً، فإن كان ضعيفاً بأول الإرادة فهو الذي يقال له الهَمّ، هَمّ بكذا، هممت أن أسافر، وتقول: عزمت على السفر، بمعنى القصد المصمم، {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، وبعضهم فسره بالصبر، {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} وبين المعنيين نوع ارتباط فإن الذي يعزم على الشيء لابد له من الصبر حتى يحققه، فإن عزم على الترك فلابد له من الصبر حتى يتجنبه، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إن الإنسان قد يعزم على الشيء لكنه إذا وقع ذلك لا يصبر، وقد يعزم على الصبر على المصيبة، فإذا وقعت المصيبة لم يصبر، وهكذا في التكاليف الشاقة، كبني إسرائيل {إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [سورة البقرة:٢٤٦]، فلما قال لهم ما قال، {قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} [سورة البقرة:٢٤٦]، ثم بعد ذلك ما لبثوا حتى تساقط مجموعة أخرى اعترضوا على أن يكون هذا الملك هو طالوت، ثم بعد ذلك ما لبث أن سقط مجموعة منهم حينما ابتلوا وامتحنوا بالنهر، مع أنهم كانوا قد عزموا في البداية، والله -تبارك وتعالى- عاتب المؤمنين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة:٢٨٤]، برقم (١٢٦).

مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف:٢-٣]، وفي الأشهر من أقوال المفسرين فيها والتي تدل عليها رواية سبب النزول: أن الذي قالوه هو أنهم تمنوا أن يعرفوا أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- حتى يفعلوه، فلما أخبروا أنه الجهاد تثاقلوا وتباطئوا، وهكذا أولئك الذين قالوا: {رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} [سورة النساء:٧٧]، وكان يقال لهم: {كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} [سورة الأحزاب:١٥]، قيل: بنو سلمة وبنو حارثة لما حصل لهم التراجع في يوم أحد ندموا على ذلك وعزموا على الصبر وعدم الفرار، والعزم على الشيء قد ينكسر وينثني إذا جاء الجد، فبين المعنيين ارتباط، فلا يمكن أن يتحقق ما عزم عليه إلا إذا وطن نفسه على الصبر، فإن الصبر هو السبيل إلى تحصيل المطلوب، وإلى توقي واجتناب المحظور، ولذلك لا يُحتاج إلى ترجيح بين القولين، وابن قتيبة يقول: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، أي: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه، وهذا لا ينافي ما سبق، فالنهي عن أكل الشجرة ثم أكله منها يدخل فيما ذكر، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة، وفي الأعراف، وفي الحجر، والكهف، وسيأتي في آخر سورة ص، يذكر تعالى فيها خلْق آدم وأمْره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: {فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَى}، أي: امتنع واستكبر، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنّ هَذَا عَدُوّ لّكَ وَلِزَوْجِكَ} يعني حواء -عليهما السلام-، {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ}، أي: إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب وتعنى، وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة، {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ}.

قوله: {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ} من المعلوم أنه إذا ذُكر شيئان فالضمير بعدهما يعود على واحدٍ منهما لمعنى من المعاني، مثل: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا} [سورة الجمعة:١١]، قيل: إن التجارة هي المقصودة وليس اللهو الذي كان معها، وقيل: ضربُ الطبل إذاناً بوصولها، هكذا قال كثير من المفسرين، والشاهد أنه أعاد الضمير إلى واحد، فقال: {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ} ولم يقل: فتشقيا، أو تشقيان، باعتبار أن الكسب والكد وطلب الرزق، والحرث يقوم به الرجل، والمرأة في خدرها، فالعمل موكول بالرجل، {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ} هذا العيش الرغيد الذي لا يحتاج منكم إلى سعي في طلبه وتحصيله، ولا كدٍّ، ولا زرع، ولا طحن، ولا عجن، ولا ذهاب ومجيء وبيع في الأسواق، {فَتَشْقَىَ}، يشقى الرجل في الخروج من بيته في طلب الرزق، والمرأة تبقى في خدرها لا تخرج، فنسب الشقاء إليه، ومن هذه الآية استنبط بعض أهل العلم -كالقرطبي -رحمه الله- أن نفقة المرأة تجب على الرجل كان أباً، أو زوجاً، وهذا استنباط دقيق، وهذه الآية هي من القصص القرآنية، وما سيقت من أجل تقرير حكم ابتداء، يعني: ليست من آيات الأحكام التي هي صريحة في ذلك، وكثير ممن كتبوا في أحكام القرآن يقتصرون على خمسمائة آية، كما فعل مقاتل بن سليمان المتوفي سنة ١٥٠هـ، تفسير الخمسمائة آية، التي هي الآيات الصريحة في تقرير الأحكام، وفي قصص الأنبياء تجد أحكاماً.

وهذا الدرس يُعلَّق فيه على ما يحتاج إلى تعليق، وتوجيه وجمع بين الأقوال، وللمناسبة في هذا العصر وهذه الاستفزازات للمرأة والدعوة إلى الاختلاط، ويقال: هذه هي الفطرة الإنسانية، وما جبل الله -عز وجل- عليه الخليقة، حيث ركب الرجل بهذا التركيب من الصبر، والتحمل للكد والسعي والعمل على طلب الرزق، والمرأة تبقى مصونة محفوظة، وجعل فيه الغيرة عليها، فهي عورة وإذا خرجت استشرفها الشيطان، أي همّ بها أو أغرى بها وزينها للناظرين، فينبغي أن تبقى محفوظة بعيدة عن أنظار الرجال، تربي الصغير، وتقوم على المريض، وتهيئ الدار لزوجها وشريك حياتها، فإذا جاء وجد كل شيء قد هُيئ، فيجد راحة البال في بيته إذا رجع إليه من أعماله الشاقة، وأما إذا استفزت المرأة المسكينة للعمل، وخرجت وصارت أجيرة تكدح وتسعى هي وزوجها، ولربما هي التي تسعى وتكدح والزوج جالس في البيت، فإن ذلك يفسد نظام الحياة، من تحميل المرأة ما لا تحتمل، ومن إفساد الجيل والنشء حيث لا يتلقون التربية، وهؤلاء هم الرصيد الحقيقي للأمة ولمستقبلها، فيربيهم الخدم، لا يربونهم على الدين ولا على القيم، ولا على الفضائل، ويحصل من الاضطرابات في الحياة الأسرية من جهات متعددة، هذه المرأة المسكينة يحصل لها من القلق والضعف والتوتر والانشغال مما يدفع ضريبته هذا الزوج البائس المسكين، وهم إنما يفعلون ذلك من أجل أن لا تبقى حبيسة في الدار، ويؤتى باثنتين على الأقل أو ثلاث واحدة تطبخ وتربي، وواحدة تخدم وتكنس، وسائق يذهب ويجيء، هذا في أقل الحالات، وربما يأتي بمربية، أو بأكثر من سائق، وفي بعض التقارير في بعض المنظمات التابعة للأمم المتحدة أن المرأة العاملة في البلاد التي تعمل فيها المرأة تكون عبئاً على اقتصاد البلد بنسبة أربعين بالمائة، وهؤلاء يعرفون هذا الكلام جيداً، هؤلاء الذين يطالبون ويكتبون ويتبجحون في كل مناسبة وبدون مناسبة، يطالبون بخروج المرأة، ويوجد من يلقنهم أن الحرام الخلوة وليس الاختلاط، ويحتجون بأشياء كالطواف وبالمسجد النبوي، ما شاء الله تبارك الله، وللأسف كل هذا يلقى رواجاً في مثل هذه الأيام، تقحم المرأة إقحاماً؛ من أجل أن تخرج وتشقى، والله -عز وجل- يقول: {فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}، والآن يريدون أن يشقوها معه أيضاً، والمرأة مسكينة تصدق هذا الكلام، وتخرج من أجل أن يكون لها قيمة، وأن يكون لها دور في المجتمع ما يبقى نصف المجتمع معطل، وصار حتى الدعاة يضطرون عند الكلام على هذه القضية أن يقولوا: لا يا امرأة، أنتِ لكِ دور ريادي، ودور مهم، وأنتِ لكِ دور قيادي لا يستهان به، فأنتِ التي تحضنين وتربين وتنشئين، ونصف المجتمع، تخرج القادة على يدك والعلماء والكبراء والملوك.

الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعباً طيب الأعراقِ

وراء كل رجل عظيم امرأة، ويقولون لها كلاماً؛ لأن هذا الكلام يدغدغ مشاعرها، ويصل إلى الأعماق، وهي ضعيفة مسكينة، فإذا قالوا لها: أنتِ نصف المجتمع، محبوسة في البيت، ما تخرجين، أنتِ طاقة معطلة تأثرت، فيضطر الدعاة أن يقولوا: لا، أنتِ مهمة، من قال إنكِ مهضومة أو مكسورة الجناح، ولكِ دور قيادي وريادي، الإنسان الذي هو واثق من نفسه، وعارفٌ نفسه لا يحتاج أن يقال له هذا الكلام، والله المستعان، {فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}.

قال تعالى: {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ} إنما قرن بين الجوع والعُرْي؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعُرْي ذل الظاهر، {وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ} وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

ضحا فلان فهو ضاحٍ إذا خرج وبرز من حر الشمس، لا يكنّه منها شيء، ولهذا يخرج الحجاج يأتون شعثاً غبراً ضاحين، يعني: للشمس، لا يكنهم منها شيء، فهنا: {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ * وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ}، الجوع والعري بينهما ارتباط، فالجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، {وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ} فالظمأ يعني حرارة العطش، {وَلاَ تَضْحَىَ} التعرض لحر الشمس، الخروج إليها، هذا حرارة الظاهر، فجمع بين هذا وهذا، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:١٢]، فالجنة فيها معنى السعة وفيها معنى البرودة، والحرير فيه معنى الليونة والنعومة، {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا} فلما كان الصبر فيه من الحرارة، وفيه خشونة وفيه ضيق وحبس للنفس،

والصبرُ مثل اسمه مُرٌّ مذاقه *** لكن عواقبه أحلى من العسل

قابل ذلك بهذه الأمور {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} السعة مكان الضيق، والبرودة مكان حرارة الصبر، وليونة الحرير مكان خشونة الصبر، وهذا المعنى ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله.

وقوله: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ} قد تقدم أنه دلاهما بغرور، {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [سورة الأعراف:٢١]، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، وروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- يحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد))[٢] ورواه الإمام أحمد.

قوله: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ} أصل هذه المادة الوسوسة تقال للصوت الخفي أو الخفيف أو الضعيف، ولهذا يقال لصوت الحلي الذي تلبسه المرأة: وسوسة، وهو الصوت الصادر عنه إذا تحركت المرأة، وهنا سؤال يمكن أن يُطرح وهو أنه كيف وسوس إليه وآدم في الجنة مع أن إبليس قد طرد وأبعد وأخرج؟ فبعض أهل العلم يقول: دخل في صورة الحية، والملائكة لم تتفطن لهذا، وهذا من الإسرائيليات ولا حاجة إليه، ويمكن أن يقال: إنه وسوس لهما وهو خارج الجنة، خاطبهما وهو خارج الجنة.

وقوله: {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} روى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعرَه شجرةٌ فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء، أرأيت

---

٢ - رواه أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٢٦٧٠)، وأحمد في المسند برقم (٧٤٩٨)، وقال محققوه: حديث صحيح.

إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم))، فذلك قوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[٣]، وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

النخلة السَّحوق يعني النخلة الرفيعة جداً، الطويلة التي لا يوصل إليها، كما في الحديث بأنه كان طوله ستين ذراعاً في السماء.

والكلمات التي تلقاها آدم -عليه الصلاة والسلام- هي قوله -تبارك وتعالى-: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف:٢٣]، هذه هي الكلمات، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} وفي القراءة الأخرى المتواترة: {فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ}، وقوله: {فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} سوءات جمع سوءة وهي العورة، وقيل لها سوءة؛ لأن ظهورها وانكشافها مما يسوء الإنسان، وهو أمر لا يَجْمل ولا يحسن لا من جهة الديانة، ولا من جهة الفطرة، ولا من جهة المروءة، ولهذا لما حصل ذلك لآدم -عليه الصلاة والسلام- مباشرة {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}، هذه فطرة، فطر الله -عز وجل- الخلق عليها، ولهذا فإن خلافها من التعري هو من عمل الشيطان وخلاف الفطرة، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} [سورة الأعراف:٢٧] {يَنْزِعُ} يعني: الشيطان، فهذا التعري الذي يعتبره كثير من الناس تحرراً ومدنية متقدمة متطورة متحضرة هذا خلاف الفطرة، وجهالة، وانتكاس، ورجوع إلى البهيمية، إنما يكون ذلك للحيوانات، وأما الفِطَر فإنها تأبى ذلك، هذا آدم وزوجه في الجنة -عليه الصلاة والسلام- يخصفان عليهما من ورق الجنة، وهنا قال: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} السوءات جمع مع أن المذكور قبله مثنى، ووجه ذلك أن يقال بأن السوءات جُمع هنا باعتبار أن لكل واحد منهما قبلاً ودبراً، فصار ذلك أربعة، فجمعها بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك باعتبار أن أقل الجمع اثنان، وهذا مذهب معروف لبعض أهل العلم، هم مختلفون في أقل الجمع هل هو ثلاثة أو اثنان، فبعضهم يقول: اثنان، والجمهور يقولون ثلاثة، بعضهم يقول: اثنان ويحتج لهذا من القرآن بقوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧] أشهر، قالوا: وأشهر الحج: شوال وذوالقعدة وعشر من ذي الحجة، فهو شهران وعشرة أيام، لكن هذا ليس بصريح؛ لأن الآخرين يقولون: هذا لجبر الكسر، وبعضهم يقول: إلى نهاية ذي الحجة، لكن أصرح من هذا وأوضح قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}[سورة النساء:١١]، هذا الذي يسمونه في الفرائض الحجب بالنقصان وليس بحجب الحرمان، فالأم ينقص نصيبها من الثلث إلى السدس إن كان له إخوة، فالإخوة الذي يحصل حجب النقصان للأم بوجودهم اثنان فعبر عنه بالجمع {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ}، بهذا يقول في مراقي السعود:

أقل معنى الجمع في المشتهر *** اثنان عند الإمام الحِميري

يعني: عند الإمام مالك -رحمه الله-، وهذا قول له وجهه، وهو أحد الأجوبة عن ذكر الجمع بعد المثنى في السوءات، لم يقل: فبدت لهما سوءتاهما، وإنما قال: {سَوْءَاتُهُمَا}، وبعضهم يقول غير هذا.

---

٣ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٤٩١) برقم (٨٣٢٦)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٦٠٣٣).

وقوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي.

قوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}، طفقا بمعنى أقبلا، أو جعلا، وأفعال المقاربة والشروع بمعنى أخذ في كذا، {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} يعني أقبلا أو جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، يخصفان أي يلصقان عليهما من ورق الجنة، يقال: خصف الورق على بدنه، يعني: ألصقها وأطبقها عليه ورقةً ورقةً، كما يقال في خصف النعل: يخصف نعله، بمعنى أنهما يستتران بهذه الأوراق.

وقوله: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحج آدم موسى))[٤]، وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد.

قوله: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} بعضهم يقول: غوى يعني ضل عن الصواب، وبعضهم يقول: غوى أي فسد عليه عيشه، وتلاشى ذلك النعيم وذهب واضمحل، وبعضهم يقول: غوى أي جهل موضع رشده، والمعتزلة فسروا ذلك بتفسير لا يصح من جهة اللغة في هذا الموضع، وهو خلاف الظاهر المتبادر من هذه اللفظة، قالوا: غوى بمعنى بشم، ومعنى ذلك إذا امتلأ بطنه، يعني أكل أكلاً كثيراً، بشم، تقول: بشم الفصيل، أي رضع أكثر من حاجته، فيقولون: إن المقصود {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}، أي: بشم من كثرة الأكل من الشجرة، وهذا بعيد، وهذا إنما فعلوه من أجل أن يقرروا أصلهم في هذا الباب، وهو أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا تقع منهم المعصية، وهم معصومون من المعاصي، والمسألة فيها كلام كثير معروف في كتب العقائد، وعند الأصوليين أيضاً، والخلاف هل تقع المعصية من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أو لا؟، فالذين يقولون تقع منهم يحتجون بأدلة منها هذا الدليل وهو من أوضحها وأصرحها {عَصَى}، فإذا أولوا غوى فلا يستطيعون تأويل عصى، ويحتجون بقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [سورة الفتح:٢]، فالغفر إنما يكون لذنب يقع، وحينما قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك؟! قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً؟))[٥]، والذين يقولون بوقوع المعصية منهم يقولون: لكن لا يقع منهم الإشراك، ولا تقع منهم الكبائر، ولا الصغائر المدنسة التي يسمونها صغائر الخسة، يعني: التي تسقط المروءات، ولا يصرون على الذنب والمخالفات، بل يبادرون بالتوبة، ولا حاجة لتحريف آيات القرآن من أجل عقيدة أو منهج يعتقدها أحد من الناس {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} هذه صريحة، وبعضهم حينما يرى صراحة هذه الآية ممن يقولون إن المعاصي لا تقع من الأنبياء يقولون: هذا قبل أن يكون نبياً، فحينما أكل من الشجرة لم يكن نبياً وقتئذ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [سورة طه:١١٧]، برقم (٤٤٦١).

٥ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى تَرِمَ قدماه، برقم (١٠٧٨)، ومسلم، كتاب في صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم (٢٨١٩).

والمحاجة بين آدم وموسى لا إشكال أن تقع بعدما توفي موسى -عليه الصلاة والسلام- ولقيه في الملأ الأعلى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لقي الأنبياء، لقي آدم وموسى كما هو معلوم في ليلة المعراج فلا إشكال في هذا، وحصلت المراجعة بينه وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- في فرض الصلوات، والمحاجة التي حصلت، وآدم -عليه الصلاة والسلام- حينما اعتذر بقوله: ((أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره عليّ قبل أن يخلقني؟)) هذا ليس من باب الاحتجاج بالقدر على المعايب والمعاصي، وهذا لا يجوز أصلاً أن يحتج الإنسان على المعيبة في الذنب والمعصية بالقدر، وإنما هو من قبيل الاحتجاج بالقدر على المصيبة، والفرق ظاهر أن الإنسان إذا وقع منه الذنب فليس له أن يبرر وقوعه بالذنب فيصر عليه ويبقى محتجاً بالقدر، ولكن من تاب وترك وأقلع، وبقيت آثار هذا الجرم، ثم بعد ذلك عوتب فإن له أن يحتج بالقدر فيقول: هذا أمر قد قضاه الله وكتبه عليّ، فلا داعي لمثل هذه المعاتبة، هو يحتج بالقدر على المصيبة التي حصلت.

قال تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [سورة طه:١٢٣-١٢٦]، **يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة.**

قال الله -تبارك وتعالى-: {اهْبِطُواْ} [سورة البقرة:٣٦]، ثم قال هنا: {اهْبِطَا مِنْهَا}، من أهل العلم من يقول: إن المخاطب هو آدم وحواء، {اهْبِطَا}، ووجه الجمع مع قوله بعده، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} ولم يقل: بعضكما لبعض عدو، الذين قالوا آدم وحواء فقط قالوا: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} بمعنى الذرية فحصل بينهم العداوة والبغضاء والتطاحن والشر كما هو معلوم، وبعضهم يقول: إن قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا} لآدم وحواء، وإن قوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} يعني أن ذلك مع الشيطان، وبعضهم يقول: إن قوله: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، يعني أنتما أعداء للشيطان، والشيطان عدو لكما، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم}، العدو جنس يصدق على الواحد والعدد والكثير، كما قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

بها جيف الحسرى المقصود بها الإبل التي تنقطع في الأسفار من الكلال والتعب يتركها أصحابها تموت، فالشاعر يمدح نفسه أنه يقطع الفيافي والأماكن التي لا يقطعها أحد:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

تسلخت منها جلود، وعظامها جمع، وقال: وأما جلدها ولم يقل: وأما جلودها، فقوله: وأما جلدها، أي: الجلود فهو جنس يسقط على الواحد والكثير، ثم يقال: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [سورة العنكبوت:٤٤] الأرض مفرد، وهو جنس يصدق على العدد أيْ سبع من الأرضين، وهكذا في مواضع كثيرة، {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [سورة النور:٣١] يعني: أو الأطفال، هو بمعنى الجمع.

{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: **{فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّي هُدًى}** قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، **{فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلّ وَلاَ يَشْقَىَ}** قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

الذين قالوا بأن المقصود بقوله: **{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ}** يعني مع إبليس قالوا **{فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّي هُدًى}** الخطاب للجميع، فيدخل فيه إبليس، بمعنى الذرية أيضاً؛ لأن الجن من ذرية إبليس، وإن لم يكن هذا محل اتفاق، فالكفرة منهم يقال لهم: شياطين.

قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، أي: خالف أمري وما أنزلتُه على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}، أي: ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهرُه.

قوله: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}**، ذكري مصدر، ويحتمل أن يكون قد أضيف إلى الفاعل، ويحتمل أنه قد أضيف إلى المفعول، ويحتمل أن يكون المعنى أي: لم يذكرني، لم يذكر ربه، لم يذكره بقلبه إذ صار غافلاً، ولم يذكره بلسانه، ولم يذكره بجوارحه بالعمل في طاعته ومرضاته، **{أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}** لم يذكرني، ويحتمل أن يكون المعنى أعرض عن ذكري، أي: عن مذكوري، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، ومعنى ذلك أن ذكره -تبارك وتعالى- هو القرآن، من أعرض عن القرآن فلم يقرأه، ولم يتدبره، ولم يعمل به ولم يتحاكم إليه **{فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}**، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فمثل هذه الآية تحتمل المعنيين، ويمكن أن تحمل على هذا وهذا، يقال: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}** أي: لم يذكرني، فيحصل له من الوحشة والضيق والحرج في الصدر، وتظلم نفسه بقدر ما فيه من الغفلة والإعراض عن ذكر الله -عز وجل-، وهكذا أيضاً من أعرض عن القرآن فلم يقرأه ولم يتدبره ونحو ذلك فإنه يضيق عيشه، وتضيق نفسه، والعلماء -رحمهم الله- بعضهم يقول: إن هذا في الدنيا، وبعضهم يقول: إن هذا في البرزخ، **{فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}** الضنك الضيق، هذه المعشية الضنك بعضهم يقول: تحصل له في الدنيا بالوحشة، وما يحصل له من ضيق الصدر، فإنه على قدر ما يحبس الإنسان نفسه عن المعاصي والمخالفات ويحملها على النصب في طاعة الله -تبارك وتعالى- على قدر ما يحصل من الاتساع في الصدر، إذا ضيق الإنسان على نفسه فلم يطلقها ويسرحها في أودية الهلاكة والمعصية اتسع الصدر، فاحبس الجوارح عن المعصية، واحملها على الطاعة يتسع الصدر، والعجيب أن الناس يطلقون النظر، أو السمع، أو فعل ومقارفة ما لا يليق من أجل تحصيل اللذات، وما علموا أن اللذة تحصل بالكف عن مثل هذا، وأنه على قدر إقباله على هذه الذنوب والمعاصي على قدر ما يحصل له من الألم والانقباض والحسرة والوحشة التي تكون بقلبه، لهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: إن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقة لا يذهبها إلا صدق اللجأ إليه، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا، وهو مجبول على هذا الفقر إلى ربه وخالقه ومولاه -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: هذا في البرزخ **{فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}**[سورة طه:١٢٤]، والسبب الذي حمل هؤلاء على هذا القول هو أنهم يقولون: إن الدنيا نرى فيها من هو في بحبوحة واسعة من المعرضين عن ذكر الله -عز وجل- وطاعته والإيمان، ولذاتٍ

يتقلب فيها، ونجد من المقبلين على طاعة الله -عز وجل- من يتقلب في ألوان الفقر والمعاناة، والبؤس، والمرض، وما أشبه ذلك، قالوا: إذن هي في البرزخ، وهذه الطريقة التي يقررون بها هذا القول غير دقيقة، والسبب أن الضنك والضيق والحسرة والألم وما أشبه ذلك ليس هو ألم الجوارح، وبؤس الجوارح، إنما هو ألم القلب وضيق النفس، وما يحصل للإنسان من الوحشة وانقباض الصدر، ولهذا مهما كان الذي فيه هؤلاء المعرضون من النعيم واللذات فإن ذلك ليس هو السعادة والراحة، وإنما السعادة الحقيقية هي في طاعة المعبود -جل جلاله-، والإقبال عليه، فهذه السعادة الحقيقية، فهؤلاء نظروا إلى المسألة باعتبار لذات الأبدان لكن هل حياته حياة سعيدة؟، لا، فلا يجد انشراحاً وسروراً ونعيماً حقيقياً، الوحشة تقتلهم، وتلاحقهم بلذاتهم، وهذا شيء مشاهد، ولهذا يقال: إن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالإنسان يحصل له من الحسرة والألم، وحرج الصدر وضيقه بقدر ما عنده من الإعراض عن ذكر الله -تبارك وتعالى- والجزاء من جنس العمل، ولهذا تجد الناس يتفاوتون في هذا السرور والراحة، راحة القلب، وطيب العيش، واتساع الصدر، بحسب ما عندهم من هذا المعنى، الإقبال على الله -عز وجل- وعبادته، الإقبال على كتابه فهذا هو {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}، ولهذا ممكن أن يقال: {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً} أول ما يدخل فيه هو الحياة الدنيا مما ذكرتُ، ولا مانع من أن يدخل في هذا كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: البرزخ، فإن الله قال ذلك وأطلقه، وذكر بعده: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فالذي يكون قبل يوم القيامة البرزخ والدنيا، ففي الدنيا له ضيق الصدر، وفي البرزخ يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، والله المستعان، وابن القيم -رحمه الله- له كلام طويل وجيد في هذا المعنى، فيقول -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فذكْرُه كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به، والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع، وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة فإن النفس كلما وسعتَ عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكا، وكلما ضيقتَ عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثِرْ أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما وأشقِ البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيمَ البدن وشقاءه أقصر وأهون، والله المستعان"[٦].

وقال -رحمه الله تعالى-: قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية، وقوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، يتناول الذكر الذي أنزله وهو الهدى الذي جاءت به الرسل ويدل عليه سياق الكلام وهو قوله: {وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}.

---

٦ - الفوائد، لابن القيم (١٦٨-١٦٩).

فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده، وأحسن الظن به؟، فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا من قبِلَهُ وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به"[٧].

يعني هذا المعرض فكيف بالمعارض، المعترض على أحكام الله -عز وجل-، وشرائعه التي يعارضها بمعقوله وذوقه وهواه؟، والآية الأخرى قوله -تبارك وتعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الحشر:١٩]، فأنساهم أنفسهم، -نسأل الله العافية-، بمعنى أنه صار اشتغالهم وكدهم وسعيهم وعملهم فيما يحصل به العطب والهلاك، والبوار، ويصير فرح هذا الإنسان وإقباله وبذله ونفقاته، وذهابه ومجيئه، -نسأل الله العافية-، فيما يرديه ويهلكه ويحصل له به البوار في الدنيا والآخرة، هذا إذا أنسى الله -عز وجل- العبد نفسه.

وقال -رحمه الله تعالى-: "وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، والصحيح: أنها في الدنيا وفي البرزخ فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف، وشدة الحرص، والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم فبادر إلى إزالته بسكر ثانٍ، فهو هكذا مدة حياته، وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سورة الإنفطار:١٣-١٤]، هذا في دُورهم الثلاث ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك كما قال تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} [سورة الطور:٤٧]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة النمل:٧١-٧٢]، وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه"[٨].

وقال أيضاً: وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كان نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإنْ تنعّم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة، والذل، والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق، وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر فسكرها -هذه الأمور- أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان في عسكر الأموات"[٩].

---

٧ - الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٣/٨٤٥-٨٤٦)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله.

٨ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزيه (١/٤٢٢-٤٢٣).

٩ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) (١٢٠).

يريد أن يقول: إن هذه المعيشة الضنك تشمل الدنيا وتشمل البرزخ، وفي الآخرة في يوم القيامة يحشر بهذه الصفة **{وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}** [سورة طه:١٢٤-١٢٦]، وهذا إذا أردنا الترجيح بين القولين في معنى الذكْر **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}**، فإن القرينة تدل على أن المراد به القرآن، ولهذا قال به كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً؛ لأنه قال: **{كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}**، لكن هذا لا يمنع من حمل الآية على المعنيين، -والله تعالى أعلم-، كما يقال أيضاً في المعيشة الضنك: إنها في الدنيا وفي البرزخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طـه:١٢٤-١٢٦]، قوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} قال مجاهد وأبو صالح والسُدي: لا حجة له، بمعنى أن العمى هنا ليس عمى البصر، وإنما العمى عمى الحجة التي يتخلص بها من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وقال عكرمة: عُمي عليه كل شيء إلا جهنم، فهذا القول بمعنى أنه عمى البصر، لا يرى شيئاً ولا يبصر إلا جهنم، فهذان قولان في تفسير العمى في هذه الآية.

واختلف المفسرون في المراد بالعمي في قول الله تبارك وتعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [سورة الإسراء:٩٧]، فقال بعضهم: إنهم يحشرون في هذه الصفة حقيقة، يعني: لا إبصار، ولا سمع ولا نطق، وبعضهم يقول: إن المراد أنهم لا يرون ما يضرهم، ولا يسمعون ما يضرهم، ولا يتكلمون ولا يعتذرون بعذر يقبل منهم، فالآية الأخرى التي فسر بها ليست محل اتفاق على أن العمى فيها هو عمى البصر، لكن يوجد في الآية قرينة ترجح أحد القولين، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال عن هذا الذي يحشر في هذه الصفة: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} يعني في الدنيا، فلو كان المراد أنه أعمى عن حجته فإنه لم يكن بصيراً في الدنيا بهذا الاعتبار، فلو كان عنده بصر حقيقي في الدنيا بمعنى بصر القلب فإنه يُقبل على الهدى الذي بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه قرينة مرجحة لأحد هذين القولين، وهذا القول ذهب إليه طائفة من أهل العلم ورجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ومن أهل العلم من حملها عليهما وقال: لا مانع من ذلك يحشر يوم القيامة أعمى عن حجته، ويحشر أيضاً أعمى البصر، فلا حجة ولا بصر، والمفروض أنه يورد هذا الكلام ولا يحذف في المختصر.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قد رجح أحد القولين، وذهب إلى ما ذهب إليه ابن جرير، وهذا لم يذكره المُختصِر وهو موجود في الأصل، فيكون قول ابن جرير وابن كثير واحداً، وقد يرد سؤال: الله -عز وجل- قال هنا: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} إذا فسرت بعمى البصر أو عمى البصر والبصيرة معاً وهو أن الله -تبارك وتعالى- قال عن هؤلاء في الآخرة: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ} [سورة الكهف:٥٣] هم رأوها، وفي الآية الأخرى التي فسر بها {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}، وقال الله -تبارك وتعالى- عنهم: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} [سورة مريم:٣٨] يعني ما أسمعهم وما أبصرهم، ما أشد سمعهم، فإما أن يقال بأن يوم القيامة يوم طويل، ففي بعض الأحوال لا يسمعون ولا يبصرون، وبعضهم يقول: إنه حين يقول الله -عز وجل- لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٨] تصيبهم من الحسرة ما يدهشهم ويذهلهم فلا

يسمعون، -نسأل الله العافية-، وبعضهم يقول: إن العمى ليس المقصود به عمى البصر أصلاً، ومن ثَمّ فلا نحتاج إلى الجمع بينه وبين الآيات التي أثبتت لهم السمع والبصر، والله تعالى أعلم.

قال الإمام ابن القيم الجوزيه -رحمه الله-: "وقوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}، اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم:٣٨]، وقوله: {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، وقوله: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} [سورة الفرقان:٢٢]، وقوله: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [سورة التكاثر:٦-٧]، ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ}[سورة الشورى:٤٥]، وقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}[سورة الطور: ١٣-١٥]، وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه؛ لقوله: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}، وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول: {وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}؟ وكيف يجاب بقوله: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقال تعالى: {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}[الإسراء: ٩٧]، وقد قيل في هذه الآية: إنه عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمًى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لا يرون شيئا يسرهم، وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروي عن الحسن، وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب -تبارك وتعالى-: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}، فحينئذ ينقطع الرجاء، وتُبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل"[1].

لكن هذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فليس المقصود بالنار.

---

١ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (١/٤٤-٤٥).

وقال -رحمه الله-: "والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عُميٌ عنها"[٢].

يعني: المقصود أنهم لا حجة لهم، وليس المقصود أن لهم حجة لكنهم عَموا عنها، وفرق بين من له حجة وجاء عند القاضي مثلاً فذهل عن حجته، ما تفطن لها ولو أنه تطفن لها لربما حكم له بذلك القاضي، لكنه عمي عن حجته، فرق بين هذا وبين من ليس له حجة أصلاً، وهنا لا حجة لهم أصلاً.

وقال -رحمه الله- أيضاً: "بل هم عمي عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه، وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب أن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً))[٣]، ولقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [سورة التكوير:٥]، ولقوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٧]، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار، قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [سورة مريم:٨٥]، وقال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٢-٢٣]، فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة الصافات:٢٠-٢١]، ثم قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، وهذا الحشر الثاني، وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضا، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا"[٤].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، أي: لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}[الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

---

٢ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (٤٥/١).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة المائدة:١١٧]، برقم (٤٣٤٩)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، بمعناه.

٤ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (٤٥/١-٤٦).

النسيان في هذه الآية {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}، بمعنى الترك، والإعراض، وليس بمعنى الذهول عن المعلوم، {أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، أي: تُترك، يُنسى من رحمة الله -عز وجل-، ينسى في النار، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "**فأما نسيان القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلاً في هذا الوعيد**"، صحيح، الإنسان إذا نسي الآيات ونسي السور لا يقال له يوم القيام {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} أي: في النار، وإنما المقصود هنا الكافر الذي أعرض عن ذكر الله -عز وجل- وعبادته فلم يرفع لذلك رأساً، أما نسيان القرآن نسيان الآيات يقول: "**وإن كان متوعداً عليه**"، فالأحاديث الواردة في هذا لا تخلو من ضعف، ولكن يقال: الأحاديث الواردة في الأمر بتعاهد القرآن، والعمومات في هذا الباب، وما يضاف إلى هذا مما يكون من التفريط إذا كان النسيان بسبب التفريط والتقصير والهجر لقراءة القرآن فإن هذا يكون مذموماً، ولهذا يقال: إن نسيان الآيات على نوعين: نسيان يعذر فيه الإنسان، ونسيان لا يعذر فيه، أما النسيان الذي يعذر فيه فهو إذا كان يتعاهد القرآن ومع ذلك ينسى، أو يكون هذا الإنسان قد شغل بما سبب له هذا النسيان، فنسي بعض القرآن الذي حفظه، شُغل شغلاً يعذر فيه، كإنسان مثلاً ولي خلافة وانشغل برد المظالم للناس، وبالقيام عليهم بالعدل والإصلاح ونحو ذلك فشغله ذلك عما كان يتوفر له من الأوقات في المراجعة، فصارت مراجعته فيها ضعف، فإذا أردت أن السور تكون حاضرة عندك تقرؤها ولا تكاد تخطئ فتحتاج أن تمر على الحفظ كل عشرة أيام، وهذا يحتاج إلى أوقات طويلة، إلا إذا عود الإنسان نفسه المراجعة في الصلاة وفي خارج الصلاة، صلاة النوافل، والفرائض، وهكذا لو أنه شغل مع مجاهدته وحرصه بأمور يعذر فيها، كأن يمرض الإنسان مرضاً لا يتمكن معه من التعاهد والقراءة كما ينبغي، فقد يعذر، أما النسيان الذي لا يعذر فيه فهو ما كان بسبب التفريط والإهمال والإعراض عن القرآن، لكن نصوص الوعيد لا يصح منها شيء.

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [سورة طه:١٢٧]، **يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة**، {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} [سورة الرعد:٣٤]، **ولهذا قال**: {وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}، **أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمتلاعنين**: ((إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة))[٥].

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [سورة طه:١٢٨-١٣٠]، **يقول تعالى**: {أَفَلَمْ يَهْدِ} **لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها**، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى}.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب اللعان، برقم (١٤٩٣)، من حديث سعيد بن جبير -رضي الله عنه.

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ} بمعنى أفلم يتبين لهم؟ {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}، يعني يمشي هؤلاء الأحياء الذين أرادهم القرآن، يمشون في مساكن المُهلَكين المعذبين ولا يتعظون ولا يعتبرون.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى}، أي: **العقول الصحيحة والألباب المستقيمة.**

قوله: {النُّهَى} جمع نُهية؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق، ينهاه عما يشين لا يجمل ولا يحسن، وأصحاب العقول ينهون غيرهم عن المنكر وعن فعل ما لا يحسن.

كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٦]، **وقال في سورة الم السجدة:** {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} [سورة السجدة:٢٦] **الآية، ثم قال تعالى:** {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}، أي: **لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة.**

يقول ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}: "**لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه**"، يعني: لكان العذاب لازماً، يقول: "**والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة**"، فابن كثير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، ومن أهل العلم من يقول: إن "الكلمة" في قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، هي تأخير العذاب عنهم، أي: أن الله قضى وقدر أن لا يعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم والأقوام الذين قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الأيكة، وقوم لوط، فإن الله -تبارك وتعالى- قضى أن لا يعاجل هؤلاء بالعقوبة {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، في قضائه الذي قضاه أن يؤجل هؤلاء، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة**"، وابن جرير -رحمه الله- يفسر الكلمة التي سبقت من الله بأنها كل من قضى الله له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغ أجله، وهذا القول لا ينافي قول من قال بأن الله -تبارك وتعالى- لا يعذبهم، قضى وقدر أنه لا يعاجلهم بالعقوبة، فالمقصود {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ}، أي: أنه ما حان هلاكهم فهم ينتظرون حتى يأتي قضاء الله -عز وجل- الذي قضاه بإهلاكهم وأخذهم، وإن لم يكن هذا الإهلاك عاماً، فالمقصود أن تكذيبهم هو مقتضٍ لتعذيبهم وأخذهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- جعل لهم أجلاً ولا يأخذ أحداً قبل حلول أجله، فكان هذا سبباً للإمهال فلم يعاجلهم بالعقوبة، {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا}، أي: لكان العذاب والأخذ والإهلاك لزاماً؛ لأنهم جاءوا بما يقتضيه، قد صدر منهم ما يتسبب عنه العذاب، فصار المانع من العذاب أمرين: ما سبق في الكلمة أنه لا يَهلك أحدٌ قبل الأجل الذي حدده الله له، أو على قول ابن كثير -رحمه الله-: "**إنه لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه**"، فبعث إليهم رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ ليقيم الحجة، وهكذا الأجل المسمى الذي أجله الله، فلا يؤخذون قبل بلوغهم إياه، والله أعلم.

ولهذا قال لنبيه مسلياً له: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}، أي: **من تكذيبهم لك،** {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}، **يعني: صلاة الفجر** {وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}، **يعني: صلاة العصر.**

هذا كقوله تعالى -أيضاً-: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [سورة البقرة:٤٥]، وقوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ} [سورة المزمل:٢-٣] ثم قال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥]، فيستعان بها على القيام بأعباء الدعوة، وما يحصل من الأذى والتكذيب وما إلى ذلك، وهكذا على أعباء الدنيا والكبَد الذي يلقاه الإنسان فيها، {قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ} قال: "**صلاة الفجر**"، {وقَبْلَ غُرُوبِهَا} قال: "**يعني صلاة العصر**".

كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه- قال: كنا جلوساً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا))[٦] ثم قرأ هذه الآية.

وروى الإمام أحمد عن عمارة بن رؤيبة قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها))[٧] رواه مسلم.

وقوله: {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ}، أي: من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} في مقابلة آناء الليل، {لَعَلَّكَ تَرْضَى} كما قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [سورة الضحى:٥]، وفي الصحيح: ((يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك))[٨].

قوله: {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ} قال: "**أي: من ساعاته**"، و"آناء" جمع إناء، وهي الساعة يقال لها إناء، {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ}، وهذا الذي عليه عامة السلف: سبَّحَ بمعنى صلي، والصلاة يقال لها تسبيح، وابن عمر -رضي الله عنه- لما رأى أناساً يصلون السنة في السفر، قال: لو كنت مسبحاً لأتممت، ويقال مثلاً: سُبحة الضحى، يعني: صلاة الضحى، قال: {فَسَبِّحْ}، أي: **من ساعاته فتهجد به، وبعضهم حمله على المغرب والعشاء** {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، آناء الليل: صلاة المغرب -باعتبار أنها تعد من الليل؛ لأن الليل يبدأ من غروب الشمس- وصلاة العشاء، {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، قال: في مقابلة الليل، وأطراف النهار بعضهم قال: المقصود بها الظهر والمغرب، باعتبار أن الظهر هو آخر الطرف الأول؛ لأن النهار ينقسم إلى قسمين: إلى الزوال وما بعد الزوال، يعني: الصباح والمساء، والظهر هو منتهى الطرف الأول ومبتدأ الطرف الثاني، والمغرب هو نهاية الطرف الثاني، {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، فسرت بهذا، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن الظهر أشار إليه بقوله: {وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} فإن قوله: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}، قبل الغروب يدخل فيه الظهر والعصر وهما صلاتا العشي، وبعضهم يحمل هذا أصلاً على غير الفرائض يقول: المقصود به التطوع،

---

٦ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، برقم (٦٣٣).

٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٤)، وأحمد في المسند برقم (١٧٢٢٠)، وقال محققوه: حديث صحيح رجاله ثقات.

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

كالصلاة في الليل، وفي أطراف النهار، وقد يرد على هذا أن ما قبل الغروب وقت النهي؛ لأنه وقت العصر، ولكن لقائلي هذا القول أن يقولوا: ما قبل وقت النهي، قال: {لَعَلَّكَ تَرْضَى}، أي: تنال ما تَرضى به نفسُك، وذلك بدخول الجنة، وحصول النعيم المقيم، وفي القراءة الأخرى في قراءة متواترة قرأ بها الكسائي وهي رواية عن عاصم: {لَعَلَّكَ تُرْضَى}، أي: يرتضيك ربك، {لَعَلَّكَ تُرْضَى} تكون مرضياً عند ربك -تبارك وتعالى-، والقراءتان لكل قراءة معنى، فهما بمنزلة الآيتين، فإذا فعل ذلك {لَعَلَّكَ}، أي: من أجل أن تَرضى، يحصل له الرضا، وهو يكون مرضياً عند ربه -تبارك وتعالى-، وهذا يدل على أهمية هذه الصلوات، وأنها تكون سبباً لرضا العبد بما يحصل له من الجزاء والثواب، وتكون سبباً لكونه مرضياً عند الله جل جلاله.

وفي الصحيح: **((يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً))**[9]، **وفي الحديث الآخر:** **((يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة))**[10].

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [سورة طه:١٣١-١٣٢]، **يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: {أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ}، يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ} الآية، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة أمر عظيم لا يُحد ولا يوصف، كما قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}** [سورة الضحى:٥] **ولهذا قال: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}.**

قوله: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}، يعني: هذا نهي عن التطلع إلى ما في أيدي المنعمين والمترفين من أهل الدنيا، {إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً} ليس المقصود الأزواج والزوجات وإنما المقصود الأصناف منهم، {زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وذلك ما فيها من البهرج، والمتاع الزائل الذي تنجذب إليه النفوس ثم ما يلبث أن يضمحل كما هو مشاهد، يعني: يعجب الناس به مدة من الزمان ثم بعد ذلك يتلاشى كالسراب تماماً، نحن نشاهد هذا بأمّ أعيننا ولكن كثيراً من الناس لا يعقلون، تأمل وأنت في الطريق السيارات القديمة تنظر إليها حتى كأنها نازلة، وكأنها صغيرة، لكن حينما كانت جديدة ما كانت هكذا، كانت تستهوي الناظرين وتشدهم، ولها من الرونق

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

١٠ - رواه الطبراني في الأوسط بهذا اللفظ برقم (٧٥٦)، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، برقم (٤٧٢).

والجمال والبهاء، لكن ما كانت هكذا يوم كانت جديدة، فكل ما تحت أيدينا هذا مصيره، وانظر إلى ما نلبسه من اللباس أو نجلس عليه من الأثاث في أيام جدته له رونق ثم بعد ذلك يزهد فيه الإنسان، ويتغير، وهكذا في كل شيء من هذه الحياة.

ولهذا قال: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، وفي الصحيح: "أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رُمال حصير، وليس في البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ، وأُهُب معلقة.

المشربة: مكان غرفة في الدور الثاني، العلية.

وقوله: "**على رُمال**"، بضم الراء، رُمال حصير، والرُّمال ما رُمل يعني نسج، تعرفون الحصير، يعني وليس عليه غطاء، بحيث إنه ليس عليه شيء يقي الجالس أو ما اضطجع عليه من قسوته حتى لا يؤثر في جلده، الحصير لا يعتبر من الفرش الوطيئة، سرير حصير أو نسج من العيدان أو من السعف، ولم يكن عليه غطاء، رُمال حصير، وليس في البيت إلا صُبرة، الصُبرة الشيء المجموع، تقول: صُبرة من طعام، صُبرة من ثياب، قال: إلا صُبرة من قَرَظ هو ما يدبغ به، المادة التي يدبغ بها يقال لها قرظ، هناك شجر يقال له: القرظ، مادة صمغية، وهكذا يدبغ بأشياء مختلفة، يدبغ بقشر الرمان كما هو معروف، ويدلك به الجلد من باطنه فيذهب ما به مما يحصل به العفن، الشاهد أنه ليس فيه إلا صُبرة من قرظ وأُهُب معلقة، والأُهُب جمع إهاب وهو الجلد، وبعضهم يقول: الجلد الذي لم يدبغ.

فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما يبكيك يا عمر؟! فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: أوَ في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا))[11]، فكان -صلى الله عليه وسلم- أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

يعني كسرى وقيصر على أسرّة من ذهب وعلى الأرائك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المكان على الحصير، ليس في هذه الغرفة إلا مجموعة من القرظ، وأُهب: جلود معلقة، ليس فيها شيء آخر.

روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض))[12]، وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني: زينة الحياة الدنيا، وقال قتادة: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} لنبتليهم، وقوله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [سورة طه:132]، أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً} [سورة التحريم:6]، وروى ابن

---

11 - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها، برقم (2336)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [سورة التحريم:4]، برقم (1479).

12 - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (9/308)، وهو عند البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (6063)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (1052).

أبي حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله، وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}.

فإذا استيقظ أقام أهله وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ}، لكن الأثر بهذا السياق الذي أورده به الحافظ ابن كثير غير واضح، ليس من جهة الدلالة لكن من جهة بعض الإجمال والترتيب، ولفظه عند ابن جرير أوضح، فعند ابن جرير: كان يبيت عند عمر بن الخطاب من غلمانه أنا ويَرفأ، لاحظ هذا أوضح مما أورده هنا: كان يبيت عنده أنا ويرَفأ، وهكذا أيضاً إلى قوله: "**وكان له ساعة من الليل يصلي فيها**"، عند ابن جرير: فإذا قلنا لا يقوم من الليل كما كان يقوم، يعني: لسبب أنه سهر أو تعب، فإذا قلنا: لا يقوم من الليل كما كان يقوم يكون أبكر ما كان قياماً، وربما لم يقم فنقول: لا يقوم الليل، فعند ابن جرير: فإذا قلنا لا يقوم من الليل كما كان يقوم يكون أبكر ما كان قياماً، يعني: بالعكس، حيث نتوقع أنه لا يقوم يبكر أكثر من العادة في القيام.

قوله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، قال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ} ما قال: صلِّ، وإنما أمره بأن يأمر أهله، وأمره الله بالصلاة {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء:٧٨]، وهكذا قبله، لما ذكر هذه الأوقات قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وغير ذلك، وهو أيضاً داخل ضمناً، إذا أمره بأمر أهله بالصلاة فكذلك هو أيضاً مأمور بها، قوله: واصطبر –أيضاً- عليها داخل في هذا، الأمر بالصبر على الصلاة، يتضمن الأمر بها، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فهذا فيه مزيد من الصبر.

وقوله: {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ}، يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب.

من هنا أخذ بعض أهل العلم أن إقامة الصلاة سبب لسعة الرزق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [سورة الجمعة:١١]، في وقت حاجة وقحط وجاءت هذه العير عير يحيى الكلبي -رضي الله عنه- من الشام فبدءوا ينسلون من المسجد والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب حتى ما بقي إلا اثنا عشر رجلاً، فالله -عز وجل- يعاتبهم: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ}، ثم قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، فبقاؤكم لسماع الخطبة في المسجد خير من هذا الذي خرجتم إليه، ورزقكم محفوظ عند الله -تبارك وتعالى- فهو خير الرازقين، فالتضييع والترك والإعراض لا يستجلب به الرزق إنما الرزق عند الله -عز وجل-، فتُحفظ حدوده، ويقوم العبد بما فرض الله عليه، وما كتب له من الرزق سيأتيه ويكون ذلك سبباً للرزق، بل إن العبد قد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من المعاني التي يحتاج الإنسان أن يتأملها ويقف عندها لأن الكثيرين قد يظنون أن طلب الدنيا والسعي في طلب الرزق يقتضي التخفف من الدين، فقد تجد الإنسان ينشأ نشأة طيبة وصالحة ثم ينهمك في التجارة ثم ما يلبث أن يتحول إلى حالة أخرى، ممكن أن يكون الإنسان تاجراً ومحافظاً على دينه، فلا يوجد تعارض.

كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [سورة الطلاق:٢-٣]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات:٥٦-٥٨] ولهذا قال: {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ}.

وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك))[١٣]، وروى أيضاً عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة))[١٤].

وقوله: {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}، أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رأيت الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع، وأتّا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب))[١٥].

هذا نوع من الرطب في المدينة منسوب إلى رجل من أهل المدينة يقال له ابن طاب، أخذها من دار عقبة بن رافع، عقبة: أن العاقبة لهم، والرفعة: رافع، رطب ابن طاب: أن الدين قد طاب، واكتمل: يعني: تجاوز الآفة وتجاوز -كما يقال- القنطرة أو سلِم.

{وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [سورة طه:١٣٣-١٣٥]، يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: {لَوْلاَ}، أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}.

لولا هذه للتحضيض، وأحياناً تأتي للتبكيت كما هو معروف، مثل: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [سورة هود:١١٦]، يعني: إذا كان الأمر لا يمكن استدراكه فهي للتبكيت.

قال الله تعالى: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}، يعني: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة.

قوله: {بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}، قال: "**يعني هو القرآن**"، وبعضهم يقول: هو التصريح بنبوته -صلى الله عليه وسلم- في الكتب السابقة، {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ} بما فيها من التصريح بنبوته -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ} هو إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات، فكيف يطلبون الآيات؟ والمقصود هنا بالآيات المعجزات والخوارق التي يقترحونها وإلا فقد جاءهم آية انشقاق القمر، وأشياء منها هذا القرآن، لكن آيات يقترحونها: يحول لهم الصفا ذهباً، ويزيح عنهم

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم (٤١٠٧)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٩٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٥٩)، وفي صحيح الجامع برقم (٢٧١٤).

١٤ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدينا، برقم (٤١٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٠).

١٥ - رواه مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٢٧٠).

جبال مكة، أو مثل الآيات التي جاء بها الأنبياء كناقة صالح -عليه الصلاة والسلام- وعصا موسى، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى}، بعضهم يقول: هو إهلاكنا لأولئك الذين جاءتهم هذه الآيات حيث لم يؤمنوا بها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أن أولائك الذين اقترحوا الآيات ثم لم يؤمنوا بها جاءهم العذاب المستأصل، والحافظ ابن كثير يفسره بالقرآن، وكذلك الشنقيطي -رحمه الله- رجح أنه القرآن، قال: لأنه برهان قاطع على صحة جميع الكتب من هذه الحيثية، وصدّق ما جاءت به باعتبار أنه مهيمن على الكتب كلها، وهو هذا القرآن الذي يقرر أنها من عند الله -عز وجل- وأنها وحي منه -تبارك وتعالى-، فهذا القرآن بينة على صدقها، وصحتها.

ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يُصدّق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت:٥٠-٥١].

حتى الشنقيطي -رحمه الله- يفسر الآية تلك بهذه الآية، {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} {أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [سورة طه:١٣٣]، ما يكفيهم هذا؟! وهو هذا القرآن.

وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[16]، وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها -عليه السلام-، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يُحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً}، **أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا:** {رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً} **قبل أن تُهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال:** {فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} **يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون** {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٧]، **كما قال تعالى:** {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأنعام:١٥٥] **إلى قوله:** {بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} [سورة الأنعام:١٥٧]، **وقال:** {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} [سورة فاطر:٤٢] **الآية، وقال:** {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [سورة الأنعام:١٠٩] **الآيتين، ثم قال تعالى:** {قُلْ}، **أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده** {كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ} [سورة طه:١٣٥]، **أي: منا ومنكم،** {فَتَرَبَّصُوا}، **أي: فانتظروا.**

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٥٢).

{كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ}، أي: منا ومنكم بما يقع ويحصل للآخر من الدوائر، كل واحد ينتظر بالآخر ماذا تكون نهايته ومصيره وعاقبة ما ينزل به؟.

{فَتَرَبَّصُوا}، أي: **فانتظروا**، {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ}، أي: **الطريق المستقيم** {وَمَنِ اهْتَدَى} **إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى:** {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الفرقان:٤٢]، **وقال:** {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} [سورة القمر:٢٦].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنة، ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء، ولله الحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنبياء -عليهم السلام-، وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: "بنو إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي"[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنبياء:١-٦].

هذا تنبيه من الله -عز وجل- على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها.

وروى النسائي عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: {فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ} قال: ((في الدنيا))[٢]، وقال تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١]**، وقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا}** [سورة القمر:١-٢] **الآية.**

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ} أي: جديد إنزاله {إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ}، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرءونه محضاً لم يُشب[٣]. رواه البخاري بنحوه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكلام ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- حينما قال: **"بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول، وهن من تلادي"**، هن من العتاق الأول، العتاق: جمع عتيقة، أو عتيق، والشاهد منه أن هذه من السور المكية، وأنها مما أخذه قديماً وتلقاه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم (٤٩٩٤).

٢ - رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٦٩).

٣ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء))، برقم (٧٣٦٣).

وهذه السورة مكية بالإجماع كما نقله بعض أهل العلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ} قال: "**أي جديد إنزاله**"، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- تكلم به ونزل به جبريل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسمعه هؤلاء الناس، وتلقوه عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وذلك يدل دلالة واضحة على أن الله -تبارك وتعالى- يتكلم متى شاء كيف شاء، كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وليس معنى {مُّحْدَثٍ} أنه مخلوق، فالقرآن كلام الله، وكلامه صفة من صفاته، {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ} [سورة التوبة:٦]، وصفاته غير مخلوقة، فالقول في الصفات كالقول في الذات، وإنما المقصود بالمحدث يعني أنه نزل حديثاً، فالله -تبارك وتعالى- كما هو معلوم- لم ينزل القرآن جملة واحدة، وجبريل -عليه الصلاة والسلام- كما في الحديث الذي يدل على هذا المعنى في تكلم الله بالوحي حينما يصعق أهل السماوات، ويكون أول من يفيق جبريل فيكلمه الله من وحيه بما شاء، فهذا كله يدل على أن جبريل يسمع من الله مباشرة وينزل به، وهذا لا ينافي كون القرآن في اللوح المحفوظ كما قال الله -عز وجل-: {فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [سورة البروج:٢٢]، وأنه في صحف بأيدي الملائكة، {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٥]، وأيضاً هو في بيت العزة في سماء الدنيا، فهذا كله يدل على مزيد عناية الله -عز وجل- بهذا الكتاب، لكن جبريل -عليه الصلاة والسلام- يتلقاه عن الله مباشرة، وهذا الذي عليه أهل السنة، فلا يجوز لأحد أن يحيد عن هذا المعتقد أو يعتقد سواه، فهو عقيدة السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وأما قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فالشاهد فيه هو قوله: "**وكتابكم أحدث الكتب**" هذا هو الشاهد، أورده من أجل هذا "أحدث الكتب"، وجاء عن الزهري -رحمه الله-: أحدث آية بالعرش آية الدين.

وقوله: {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} أي: قائلين فيما بينهم خُفية: {هَلْ هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ} يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟.

النجوى كما هو معلوم لا تكون إلا بالسر؛ لأن النجوى هي الحديث الذي يكون بين اثنين فأكثر مما يقصد به الانفراد عن الناس، هذه النجوى، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَسَرّواْ النّجْوَى} مع أن النجوى لا تكون إلا سراً، فهذا يدل على أنهم بالغوا في إخفائها، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى} أي أخفوا النجوى.

وقد يتناجى أناس ويعلم أنهم يتناجون لكن لا يعرف مضمون النجوى، فكأن هؤلاء لشدة مبالغتهم في الإخفاء أخفوا النجوى نفسها، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى}، مبالغة ولم يكتفوا بالتناجي بينهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الّذِينَ ظَلَمُواْ} فيها أقوال كثيرة للمفسرين من جهة الإعراب، ومعلوم أن الإعراب تحت المعنى، فيتغير الإعراب بحسب اعتبارات المعاني، كما أن لك أن تقول أيضاً: إن المعنى تحت الإعراب، فقوله: {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ}، بعضهم يقول: إن قوله: {وَأَسَرّواْ النّجْوَى} معناها أظهروا النجوى؛ لأن كلمة أسر هذه من الأضداد تأتي بمعنى أخفى، وتأتي بمعنى أظهر، ولكن هذا قد لا يدل عليه السياق، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} بعضهم يقول: هذا محل نصب، أعني {الّذِينَ ظَلَمُواْ}، وبعضهم يقول: هو بدل من الواو في قوله: {وَأَسَرّواْ} فهم أسروا النجوى، فيكون بدل بعض من كل، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ}، فالذين أسروا النجوى هم الذين ظلموا، وبعضهم يقول غير هذا، والشيخ محمد الأمين

الشنقيطي -رحمه الله- يرجح هذا القول بأن {الَّذِينَ ظَلَمُواْ} بدل من الواو في قوله: {وَأَسَرّواْ}، وهذا من أوضح الأوجه، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} أي: قائلين فيما بينهم: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، {هَلْ هَذَا}، هذه الجملة أيضاً يحتمل أن تكون بدلاً من النجوى، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} ومضمون هذه النجوى، قالوا فيها: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} فيكون بدلاً من النجوى، يعني أسروا قولهم: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}. ويحتمل غير هذا، يمكن أن يكون معمولاً لقول محذوف، {وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} قالوا: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، وحذْفُ القول كثير في القرآن، والعرب تحذف من الكلام ما تستغني عنه ثقة بفهم السامع أو المخاطب، من باب الاختصار، وعلى كل حال يحتمل هذا وهذا، والله أعلم.

{وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ} قالوا: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟، وهذا كالآيات التي سبقت في مناسبات شتى {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، وهكذا في قوله: {فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ} [سورة التغابن:٦]، و {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [سورة المؤمنون:٤٧] وغير ذلك من الآيات.

ولهذا قال: {أَفَتَأْتُونَ السّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر؟، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: {قَالَ رَبّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السّمَاءِ وَالأرْضِ} أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: {وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

كذلك في قوله: {قَالَ رَبّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السّمَاءِ وَالأرْضِ}، وفي القراءة الأخرى المتواترة {قل رب يعلم}، ومعنى ذلك -والله تعالى أعلم- أنه قال لهم مجيباً: {رَبّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السّمَاءِ وَالأرْضِ} يعني: هذا الذي قلتوه، وهذا الذي تناجيتم به، وهذا التكذيب الذي صدر منكم، وهكذا ما أنسبه إلى الله وأضيفه إليه من أنه كلامه كل ذلك الله -تبارك وتعالى- يعلمه، ولا يخفى عليه من قيل القائلين قليل ولا كثير.

وقوله: {بَلْ قَالُوَاْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ} هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٤٨، وسورة الفرقان:٩].

قوله: {بَلْ قَالُوَاْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ} وأضغاث الأحلام بمعنى الأخلاط، وبعض السلف يعبر عن هذا بأنها الأحلام التي لا تُعبَّر، هو يقصد بها هذا المعنى، فالتي لا تعبر هي الأخلاط، كما في قوله: {قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ}[سورة يوسف:٤٤]، والتي تفسر هي الرؤى، فالشاهد أنهم قالوا: إن هذا القرآن هو أضغاث أحلام ثم قالوا: {بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [سورة الأنبياء:٥]، فبعض أهل العلم يقول: إن "بل" هذه للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي، يعني لم يقصدوا بها نفي ما قبله حينما انتقلوا إلى غيره، وإنما هم يتخبطون كما قال بعض أهل العلم: إن ذلك صدر من هؤلاء المشركين بمجموعهم، فتارة يقولون:

أضغاث أحلام، وتارة يقولون: شعر، أو شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، فاضطربت أقوالهم فيه، ولم يتفقوا على شيء، كما قال الله -عز وجل-: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٩]، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك قد تفرق فيهم، بمعنى أن هؤلاء المشركين طوائف، منهم من قال: إنه ساحر، ومنهم من قال: إنه شاعر، ومنهم من قال: إنه كاهن، ومنهم من قال: إنه أضغاث أحلام، والله -عز وجل- نفى هذا فقال: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الحاقة:٤١-٤٢].

وقوله: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} يعنون ناقة صالح وآيات موسى وعيسى -عليهم السلام- وقد قال الله: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء:٥٩] الآية؛ ولهذا قال تعالى: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} أي: ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧] هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء، -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

هذا كقوله تعالى: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام:١٠٩-١١٠] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل-، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [سورة الأنعام:١١١]، فهؤلاء لا يؤمنون، وقد رأوا القمر ينشق فقالوا: سحرنا محمد، وهذه آية واضحة.

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوَاْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاّ يَأْكُلُونَ الطّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ * ثُمّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} [سورة الأنبياء:٧-٩].

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِي إِلَيْهِمْ} أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [سورة النحل:٤٣] وقال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم؛ لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: {أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [سورة التغابن:٦]، ولهذا قال تعالى: {فَاسْأَلُوَاْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ}، هذا يحتج به أهل العلم على أن الرسل الذين جاءوا إلى الناس كانوا من الرجال، ولم يوجد فيهم أحد من النساء، لا يوجد امرأة أرسلها الله -عز وجل.

قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً}، والله -عز وجل- ذكر هذا كثيراً في القرآن، تكذيب هؤلاء الكفار بحجة أنه {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، يستبعدون هذا، ويطلبون ملائكة يرسلهم الله -تبارك وتعالى- إليهم بوحيه، والله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة الرعد:٣٨]، فهؤلاء لهم أزواج وذرية، ويمشون في الأسواق، ويأكلون ويشربون، فهؤلاء كانوا يستبعدون غاية الاستبعاد أن يكون البشر رسولاً.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} يقول: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى أو سائر الطوائف، وقوله: {أَهْلَ الذِّكْرِ} العلماء عادة يقولون: يعني أهل الكتاب، اليهود والنصارى باعتبار أنهم الذين نزلت عليهم الكتب ممن يمكن سؤالهم في وقت النبي -صلى الله عليه وسلم-، أما غير اليهود والنصارى فلا وجود لهم، قوم هود وقوم صالح، لكن الذين بقوا هم أهل الكتاب، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} هذا هو المقصود به، وهذه الآية يحتج بها أهل العلم كثيراً على الرجوع لأهل العلم وسؤالهم واستفتائهم، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، السياق كما هو ظاهر المقصود به في هذا المقام أن يسألوا أهل الكتاب عمن أرسل إليهم هل كانوا من الملائكة أو كانوا من البشر، فهي وإن كانت في هذا المعنى إلا أنه يمكن أن يؤخذ من عمومها -عموم اللفظ- أن يرجع إلى أهل المعرفة في كل شأن، ويتلقى ذلك العرفان منهم، يرجع إلى أهل الاختصاص، ففي المسائل الشرعية يرجع إلى أهل العلم ويستفتون، وهكذا يمكن أن يؤخذ بعموم الآية يقال: حتى في الصناعات ونحو ذلك لو قال قائل: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} أنه في الطب نرجع إلى أهل الاختصاص، المتخصص بهذا الفن بهذا الجانب من الطب هو الذي يسأل عن هذا الأمر، وهكذا في الأدوية ونحو هذا يسأل الصيدلي، ويؤخذ ذلك عنه، ولا يسأل الجهال الذين لا معرفة لهم بهذا.

وقوله: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ} أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان:٢٠] أي: قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا} [سورة الفرقان:٧-٨] الآية.

هذا التركيب في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ} النفي هنا معناه ما جعلهم جسداً متصفاً بهذه الصفة، هم أجساد فالنفي هنا بهذا القيد، ليس النفي أن يكونوا من ذوي الأجساد، وإنما النفي نفى {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً} من صفته كذا، هم جسد لكن النفي مسلط على هذا المذكور بالقيد الذي بعده، والجسد هنا مفرد {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً} أي: ذوي أجساد، والله -عز وجل- جعلهم ذوي أجساد، لكن لم يجعلهم جسداً متصفاً بهذه الصفة أنه لا يطعم، لا يأكل الطعام، وإنما جعلهم جسداً يأكلون الطعام، {وَمَا

جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، فهم يريدون أن يكونوا ملائكة، فالله -عز وجل- يقول: أولئك الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يأكلون ويشربون، وقال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- وأمه: {كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ} [سورة المائدة:٧٥]، فهذه طبيعة البشر، ولو أرسل الله -عز وجل- إليهم ملائكة فإنهم لا يتمكنون من الأخذ والتلقي عنهم، وسيعتذرون بذلك، أي بأن هؤلاء الملائكة لا يصلحون للاقتداء؛ لأن الله أعطاهم من الإمكانات والقُدَر إضافة إلى أنه لا توجد فيهم نوازع الشهوات، وما ركبت الأهواء في نفوسهم، فالله أرسل إليهم بشراً يأخذون عنهم ويفهمون عنهم، ويشاكلونهم في أحوالهم، بل أكثر من هذا أن الله -تبارك وتعالى- بعث لهؤلاء الأميين رسولاً منهم، ليكون ذلك أدعى للأخذ عنه، وأقرب إلى أحوالهم، ويفهمون عنه، الأميون لو جاءهم فيلسوف فإنهم لا يتمكنون من فهمه والأخذ عنه، فالفيلسوف إذا تكلم لا تدري ماذا يقول، لا تفهم عنه شيئاً، ولهذا يقال: إذا أردت أن تقتل الفيلسوف فضعه بين العوام، يتكلم بأشياء، العوام يقولون: هذا مجنون، وهو عند نفسه أعلى شيء.

وقوله: {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله -عز وجل-، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ} أي: الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك؛ ولهذا قال: {فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ} أي: أتباعهم من المؤمنين، {وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا} [سورة يوسف:١١٠]، وفي القراءة الأخرى {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ}، وهكذا في الآيات الأخرى الدالة على هذا المعنى وهي كثيرة، {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [سورة إبراهيم:٤٧] والله -عز وجل- كما قال لعيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، قال: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ } [سورة إبراهيم:١٣-١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوَاْ إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُواْ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىَ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} [سورة الأنبياء:١٠-١٥].

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: شرفكم.

{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:٤٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}، يقول: "**قال ابن عباس: أي شرفكم**". والذكر يأتي بمعنى الشرف، تقول: فلان له ذكر بمعنى له شرف، ولا شك أن إنزال هذا القرآن على هذه الأمة على يد هذا النبي الأمي -عليه الصلاة والسلام- شرف عظيم، حيث نزل بلسانهم، وعلى يد رجل منهم، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢]، فهذا رفع من مكانهم ومنزلتهم وجعلهم في مقام الصدارة بين سائر الأمم، وإذا تمسكوا بهذا الكتاب وآمنوا به واتبعوا ما فيه حصلت لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى الذي نقله المؤلف -رحمه الله- عن ابن عباس هو الذي اختاره كبير المفسرين أبوجعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤]، من أهل العلم من فسره بهذا أي: شرف لك ولقومك، وبعضهم يقول: إن قوله: {فِيهِ ذِكْرُكُمْ} أي: حديثكم، وبعضهم يقول: أي ذكر الحلال والحرام، وذكر أمر دينكم وشرعكم، وبعضهم يقول: أي بمعنى الموعظة، أي فيه موعظتكم، والموعظة يقال لها: ذكر، وما يحصل به التذكر يقال له: ذكر، فهذا القرآن ذكر يحصل به التذكر، والاتعاظ، والاعتبار، ويمكن أن تجتمع هذه المعاني -والله تعالى أعلم-، فإن هذا القرآن لا شك أنه شرف لهذه الأمة إن اتبعوه وتمسكوا به، وهو متضمن لما فيه التذكير، وقد حوى ألوان المواعظ، صرف الله -عز وجل- فيه العبر والأمثال، وضمنه ما تحصل به الهداية والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ومثل هذا الاختصار -حينما يقتصر على إيراد هذا القول عن ابن عباس- قد يفهم منه أن المؤلف يختار هذا، والواقع أنه ليس كذلك، فمثل هذا في الاختصار لو كان بطريقة أخرى لكان أحسن، والله أعلم.

وقوله: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} هذه صيغة تكثير، كما قال: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ} [سورة الإسراء:١٧]، وقال تعالى: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة الحج:٤٥] الآية.

صيغة التكثير في قوله: {وَكَمْ} أي: هي كثير تلك القرى التي قصمناها وهي ظالمة، وأصل القصم في كلام العرب يأتي بمعنى كسر الشيء ودقه، تقول: قصم الله ظهره، والفصم يأتي بهذا المعنى ولكنه دونه، يعني إذا كان القصم من غير إبانة فإنه يقال له: فصم، فإذا كان أقوى وأشد وحصل معه الإبانة يقال له: قصم، {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} وهذا للتكثير، ولا حاجة لحمله على قرية بعينها، كما جاء في بعض الأخبار التي تُلقيت عن بني إسرائيل أنها قرية معينة من أرض اليمن، ويذكرون في هذا بعض الأخبار، لا حاجة إلى هذا، وما ذكره الله -تبارك وتعالى- بعده من قوله: {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوَاْ}، لا يعني أن هذا يختص بقرية بعينها؛ لأن "كم" التي للتكثير تدل على أن هذا وقع كثيراً وتكرر، وأن هذا الذي حدث من أنهم يركضون، وقوله: {لاَ تَرْكُضُواْ} إلى آخره، لا يعني أن هذا وقع لأناس معينين، كما ورد أن هؤلاء الناس سمعوا صائحاً يقول: ارجعوا إلى مساكنكم، فرجعوا إلى مساكنهم، فسمعوا منادياً أيضاً يقول: يا لثارات نبي الله، يعني النبي الذي أساءوا إليه، وهذا لا حاجة إليه؛ لأن "كم" تدل على التكثير، فهذا أمر كثر وقوعه فلا يختص بقرية معينة، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم.

وقوله {وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ} أي: أمة أخرى بعدهم، {فَلَمّا أَحَسّواْ بَأْسَنَا} أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، {إِذَا هُمْ مّنْهَا يَرْكُضُونَ} أي: يفرون هاربين، {لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوَاْ إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ}.

وقال في قوله: {فَلَمّا أَحَسّواْ بَأْسَنَا} "**أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم**"، وبعض المفسرين يقول: فلما عاينوا بأسنا، عاينوا العذاب، وهذا لا يتنافى مع هذا القول أنهم أيقنوا، لمّا رأوه، وعاينوه، وإلا قبل ذلك كانوا يقولون: {ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} [سورة الأعراف:٧٧]، فهم لم يصدقوا خبره، ولا منافاة بين القولين، وبعضهم كالأخفش يقول: {فَلَمّا أَحَسّواْ بَأْسَنَا} أي: توقعوا عذابنا، والأمر -والله أعلم- فوق هذا، فهو ليس مجرد توقع وإنما أيقنوا وعرفوا بما عاينوا وشاهدوا، عند ذلك حصل منهم هذا الذي ذكره الله -تبارك وتعالى-، {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} وليس بمجرد التوقع.

طبعاً، يقول: {إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} الركض أصله: ركَضَ الفرسّ، أي أنه -كما هو معلوم- إذا حرك رجليه، فضربه بهما، كما يفعل راكب الدابة، هذا أصله، ثم بعد ذلك قيل للجري، فصارت العرب تعبر تعبيراً أوسع من هذا، ولو لم يفعل ذلك برجله بل لو أطلق الفرس وحده، يقال: ركضَ الفرسَ أي أجراه، وصار يقال لمن يجري ولو لم يكن راكباً يقال: ركض، يركض، ولكن أصله ركضه برجله بمعنى أنه يحرك رجليه كما يفعل راكب الدابة، هذا يقال له: ركضه برجله، ركض الدابة برجله، ما يقال: ركضها برجله، وإن كان يصح التعبير بهذا، لكن يقال: ركض الدابة، بمعنى أنه برجله جعل يحرك رجليه، يضربها برجليه في جنبيها من أجل أن تسرع، هذا الأصل، ثم صار يقال لكل جري، كما يقال في اليمين: أصلها مع الحلف الأخذ باليمين،

تأكيداً للقول بالفعل، ثم صار ذلك يقال لكل حلف، وهكذا في عدد من الأشياء في كلام العرب كان لها أصل معين، ثم بعد ذلك توسعوا في التعبير عنها.

{لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوَاْ إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ} هذا تهكم بهم نزراً، أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم.

طبعاً هذا على أساس أنه استهزاء، لكن على ما ذكرت قبل قليل مما يذكره بعض المفسرين، وفسروا الآية بهذا الاعتبار بناءً على بعض المرويات الإسرائيلية أنهم سمعوا منادياً قال لهم: {ارْجِعُوَاْ إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ} فرجعوا إلى مساكنهم، ثم سمعوا منادياً يقول: يا لثارات نبي الله، فحصل استئصالهم وإهلاكهم، لكن هذا مبناه على ما ذكرت من هذه المرويات التي لا يصح الاعتماد عليها، لكن قصدت من هذا أن من فسره بذلك فإنه لا يكون على سبيل التهكم، أيا كان المراد به، والأقرب أن هذا على سبيل التهكم -والله تعالى أعلم-، كقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة، والمساكن الطيبة**"، وبعضهم يقول: ارجعوا إلى مساكنكم يعني {إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} بعضهم يقول: لعلكم تسألون أن يرجع إليكم في المهم، تسألون كما كنتم تسألون قبل ذلك، ويرجع إليكم في المهمات، ويؤخذ رأيكم فيها، {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} تهكماً بهم، وبعضهم يقول: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} عما رأيتم وعاينتم فتجيبوا بما شاهدتهم وما حل بكم، لكن كل ذلك لا يكون، فإن العذاب يأخذهم ويستأصلهم ولا مجال إلى الرجوع إلى مساكنهم، لكن هؤلاء يقولون: إن ذلك وقع على سبيل التهكم بهم، أين تذهبون، رأيتم العذاب، ارجعوا إلى مساكنكم لعلكم تسألون عما شاهدتم، وتخبرون الناس بما حل بكم، على سبيل التهكم بهم، وبعضهم يقول: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} أي: كما كنتم تسألون قبل ذلك، يعني ارجعوا إلى مساكنكم لعلكم تسألون، أي يطلب منكم الإيمان كما كان يطلب منكم قبل نزول العذاب، على سبيل الاستهزاء.

{لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، {قَالُواْ يَوَيْلَنَا إِنّا كُنّا ظَالِمِينَ} اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، {فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتّىَ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هِجِّيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

قوله: {جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} كما يقال للإنسان إذا مات: خمد، ويقال: برد، بمعنى صار جثة هامدة لا حراك فيها، فارقت أرواحهم أجسادهم فلم يعد بهم حراك.

{وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نّتّخِذَ لَهْواً لاّتّخَذْنَاهُ مِن لّدُنّا إِن كُنّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبّحُونَ اللّيْلَ وَالنّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ} [سورة الأنبياء:١٦-٢٠].

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١]**، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}**[سورة ص:٢٧].

وقوله تعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا} يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} فالله -تبارك وتعالى- خلق ذلك لغاية وحكمة عظيمة، ولم يكن ذلك للتلهي أومن غير حكمة أوجد الخلق من أجلها، فالله إنما خلق هذه الأكوان، والمخلوقات، والجنة والنار، كل ذلك بالحق، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا}، اللهو بعضهم فسره بالولد، قالوا: هذه الآية رد على الذين نسبوا إلى الله -عز وجل- الولد، وبعضهم فسره بالزوجة؛ لأنه يُتلهى بها، يقولون: هذا رد على الذين نسبوا له الصاحبة، وبعضهم يحمل المعنى على ما هو أعم من ذلك، يقول: اللهو كل ما يتلهى به، ويدخل فيه اللعب، والله -عز وجل- وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو، فكل ما يتلهى به فهو لهوٌ، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا}، فاللهو يدخل فيه ما يتلهى به، ويذكر بعض أهل العلم الفروقات بين اللهو واللعب، فكل ما يتلهى به فهو لهو، وكل لعب فهو لهو، واللهو منه ما هو باطل، ومنه ما يكون حقاً، وبعض أهل العلم يقول: إن اللعب هو ما يأنس به الإنسان في أوله ويقبل عليه من أجل أن يأنس به ونحو ذلك، واللهو أوسع من ذلك، قد لا يحصل به الاستئناس كالذي ينشغل في الدنيا، ولو كان يشقى بها ويتعب، ينشغل بدنياه عن الآخرة، فهذا مشتغل باللهو، وهكذا إذا اشتغل بشيء يصرفه ويشغله عن الله -عز وجل-، ولو لم يكن فيه راحة وأنس، أما اللعب فإنه إقبال على شيء يستهويه، لكن دون أن ينتفع بذلك ويخرج منه بما يرفعه، ويحصل له به الأجر والثواب ونحو ذلك، فاللعب من اللهو، واللهو أوسع من هذا.

يقول: {لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا} قال: "**أي من عندنا**"، من عندنا يعني من جهة قدرتنا لا من عندكم، كما يعبر بعض أهل العلم، وابن القيم -رحمه الله- عبر بعبارة أخص من هذا فيقول: أي من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء، لا من جوهر هذا العالم الأرضي الذي ركب هذا التركيب الذي يخالطه ويمازجه الأدناس والفناء، ومثل هذه المواضع قد لا يتجاسر الإنسان فيها على بعض العبارات، وإنما يعبر بعبارة مجملة كما قال مجاهد، وبعضهم قال: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً} أي: من الحور العين، والدخول في مثل هذه التفصيلات قد يكون الأحسن منه ما ذكره مجاهد، وبعضهم قال: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً} إنه لهو الجماع، ففسروا اللهو بالجماع، ومثل هذا لا حاجة إليه، والله أعلم.

وقوله: {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي ما كنا فاعلين، وقال مجاهد: كل شيء في القرآن "إنْ" فهو إنكار.

هذا الذي يسمونه بالكليات، كل شيء في القرآن كذا فهو كذا، مثل كل الريح في القرآن فهو العذاب، وأحياناً يستثنون، يقول لك: إلا في قوله: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [سورة يونس:22].

كل شيء في القرآن القتل فهو اللعن مثلاً إلا كذا، لكن هذا يحتاج إلى استقراء، هل هي في كل المواضع فعلاً كذلك أو لا، وهذا يسمونه بالكليات في التفسير، والكليات تأتي بمعنيين، تأتي بمعنى ما يقابل الجزئيات،

فالقضايا الكلية كالتوحيد، وقضايا الأخلاق، أصول الأخلاق، وما أشبه ذلك يقال لها: الكليات، مثلما يقال: الكليات الخمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل والعرض، وحفظ العقل، وحفظ المال، يقال لها: كليات، ويقال: الكليات لما كان من هذا الشأن، كل كذا فهو كذا، هذا غير هذا، ولذلك تجد أحياناً في بعض الكتب التي تعنى بالكليات، في بعضها المقصود هذا: كل كذا فهو كذا، والقواعد يقال لها: كليات، ولو لم تكن مبدوءة بكل؛ لأنها تنتظم الجزئيات الكثيرة، فالقاعدة قضية كلية وليست جزئية، فالقواعد كليات، وتارة يراد بالكليات المعنى الآخر: أي هي أصول الدين الكبار، ودعائمه العظام، وما أشبه هذا.

وقوله هنا: "**كل شيء في القرآن "إن" فهو إنكار**"، فقوله: {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} أي: ما كنا فاعلين، وتأتي مخففة من الثقيلة أحياناً، وتأتي شرطية، ومن أهل العلم من قال بأنها نافية {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} أي: وما كنا فاعلين، {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، ولم نكن فاعلين ولم نتخذ لهواً، وبعضهم يقول: بل هي شرطية، وبعضهم يُجّوز الأمرين، وقد يحتمل أن تكون شرطية ويحتمل أن تكون نافية، فإذا كانت شرطية يكون {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} يعني إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذنا من لدنا {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، تكون شرطية، إن كنا ممن يتخذ لهواً لاتخذناه من عندنا، وهذا الكلام أيضاً في الآية الأخرى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف:٨١]، فـــ"إن" هنا شرطية، {إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، لكن {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، فأنا أول العابدين لله، على قول جماعة كبيرة من السلف وممن بعدهم، وبعضهم يقول: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} لهذا الولد، لكنه غير موجود، فقال ذلك على سبيل التنزل، وعلى هذا المعنى يمكن أن يكون ذلك داخلاً تحت القاعدة، وهي: أن التعليق بالشرط لا يعني إمكان الوقوع، {إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، والله أعلم.

وقوله: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ} أي: نبيّن الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: {فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} أي: ذاهب مضمحل.

أصل الدمغ في كلام العرب الشجة التي تصل إلى الدماغ، وهي من أنواع الشجاج، فالشجاج أنواع منه ما يقال له: المأمومة: تصل إلى أم الدماغ، ومنه ما يقال له: الموضحة توضح العظم، فالدامغة: هي التي تصل إلى الدماغ، وهذه لا يعيش الإنسان معها عادة، الدامغة تصل الضربة فيها إلى الدماغ، ليس فقط العظم أو الجلد، وإنما تصل إلى الدماغ، فيقال: دمغه أي شجه على دماغه حتى وصل إلى الدماغ، يقال: هذه ضربة دامغة، يعني قاضية، فصار ذلك يستعمل فيما يحصل به إبطال الشيء بالكلية، وقال الله -تبارك وتعالى-: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} فيزهقه: يعني يذهبه، تقول: زهقت نفسه، زهقت روحه يعني ذهبت، {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} أي: ذاهب مضمحل باطل، وذلك بما في هذا القرآن من الحجج والبراهين، وبيان دلائل التوحيد، وبطلان ما يخالفه ويناقضه من الشبهات، والترّهات، وما يتشبث به هؤلاء من المبطلين، ممن نسبوا لله الصاحبة أو الولد، وعبدوا غيره، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}، يقول: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} مما يضيفونه إلى الله -عز وجل- من الشركاء الذين يعبدونهم، فتضمن هذا القرآن من الحجج والبراهين ما يجلي به ويبطل به كل باطل.

{وَلَكُمُ الْوَيْلُ} أي: أيها القائلون: لله ولد، {مِمَّا تَصِفُونَ} أي: تقولون وتفترون.

كل الذين يصفون ويقولون هذه الأباطيل، ويدعون أن لله ولداً أو صاحبة هذه الدعاوى الكاذبة هم داخلون في هذا، كل من جعل لله شريكاً، أو صاحبة أو ولداً، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} **يعني: الملائكة،** {لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} **أي: لا يستنكفون عنها، كما قال:** {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً}[سورة النساء:١٧٢].

هنا قوله: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} يعني: أن الله -تبارك وتعالى- هو رب كل شيء ومليكه، فكل من في السماوات والأرض فهو مخلوق لله -عز وجل- مربوب مملوك، والولد كما هو معلوم ليس كذلك، فهذا رد على هؤلاء الذين ينسبون له الشركاء والصاحبة والولد، فهذا الخلق كله كلهم عبيده وخلقه ومماليكه يتصرف فيهم كما يشاء.

يقول: {وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} هذه جملة أخرى، يعني الوقف هنا تام على قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} يعني ملكاً وخلقاً، ثم جاءت جملة جديدة {وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} وهم الملائكة، فلا يتعاظمون ولا يترفعون أو يأنفون، وأيضاً لا يستحسرون.

وقوله: {وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ} **أي: لا يتعبون ولا يملون.**

"أي: **لا يتعبون ولا يملون**"، بمعنى قول الله -عز وجل-: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٤]، ومعنى حسير: كليل، فهذه الكلمة تأتي بمعنى الإعياء والانقطاع أو الانقطاع بسبب الكلال والإعياء والتعب، كما يقال: حسرت الدابة، يعني انقطعت، انقطعت من طول السير، وهو الذي يعبر عنه يقال: حرنت الدابة، حرنت: يعني البعير مع طول السير في السفر يبرك، فإذا برك لا يمكن أن يقوم ولو أحرق بالنار، فيُترك، وقد يموت في مكانه؛ لأنه ما يأكل ولا يشرب، قد يكون هذا البروك لمدة طويلة، لا يتحرك أبداً من طول التعب، فإن كان صاحبه يهتم به يجلس عنده، فيعلفه، ويجمع له الحشيش، ويسقيه، ويتلطف به غاية التلطف من أجل أن تطيب نفسه وينشط فيقوم، هذا يحصل عند العرب في أسفارهم وتنقلاتهم، فمتى ما نهض هذا البعير ركبه، قد تطول المدة وقد تقصر، ولهذا كانوا غالباً ما يتركون البعير، وأحياناً قد ينحرونه ويأكلون لحمه، وأحياناً لا يتمكن أصلاً صاحبه من ذلك؛ لأن الركب لا ينتظره، فيترك، ولهذا تجدون في قول الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

جيف الحسرى يعني يصف فلاة بعيدة، فتجد الإبل تنقطع فيها ويتركونها ويذهبون، فتموت وتتفسخ فتلوح عظامها.

فإذا طال المكث وماتت البهيمة يبقى الجلد قوياً جافاً يابساً، والزهومة والدهون وكل ذلك قد تحلل وتلاشى.

فقوله: {وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ} بمعنى الانقطاع والإعياء، ما يحصل لهم تعب وانقطاع عن عبادة الله -عز وجل-، فلا يحصل لهم تعاظم، لا يتركون ذلك كبراً وتعاظماً، ولا يتركونه بسبب التعب والإعياء.

{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦].

{أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة الأنبياء:٢١-٢٢].

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: {أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ} أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟، أي لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} أي: في السموات والأرض {لَفَسَدَتَا} كقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة المؤمنون:٩١].

قوله: {أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ} بعضهم يقول: إن "أم" هذه هي المنقطعة، وإن الهمز لإنكار الوقوع، {أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ} أي: هذه الآلهة تبعث الخلق بعد فنائهم وموتهم، وتحييهم؟، ثم قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} "إلا" هذه فسرها جماعة من أهل العلم بأنها بمعنى سوى، ويقولون: إنها ليست استثنائية، هذه ليس المقصود بها أنها ذات استثناء، وإنما هي بمعنى غير، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} غير الله لفسدتا، وهذا الذي يسميه المتكلمون بدليل التمانع، ويقولون بأنه دليل التمانع في الربوبية، يقولون: لو كان لهذا الكون صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، لفسدت السماوات والأرض، وشيخ الإسلام وكذلك ابن القيم ناقشهم في هذا، وأن هذا الدليل إنما هو تمانع في الإلهية؛ لأنه قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} ما قال: أرباباً، قال: إن الأقرب أن يكون دليل التمانع في الربوبية هو قوله: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

ومما ذكره قال: إنه أولاً ذكر آلهة، والشيء الآخر: أنه قال: {لَفَسَدَتَا}، فهذا فساد بعد الوجود، فالربوبية تعني الخلق والإيجاد، بخلاف {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} فهذا الرب هو الخالق، و{لَفَسَدَتَا} هي موجودة، من الذي أوجدها؟ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، فساد بعد الوجود، فقالوا: هذا تمانع في الإلهية، وليس في الربوبية.

وقال ههنا: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} أي: عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً -سبحانه وتعالى- وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [سورة الأنبياء:٢٣] أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه، {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أي: وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الحجر:٩٢-٩٣]، وهذا كقوله تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} [سورة المؤمنون:٨٨].

سؤال:

ما هو الضابط فيما يرسله الله -تبارك وتعالى- على خلقه متى يقال له: عذاب؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن الطاعون بأنه عذاب، كان يرسله الله -عز وجل- على من شاء من خلقه، وأنه رحمة لهذه الأمة، وهذا يدل على أنه ما كل ما يقع من المصائب العامة أو الخاصة يعني أنه عذاب، مع أن الله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [سورة الشورى:٣٠]، فالخلق مستحقون لهذا بسبب تقصيرهم وجناياتهم، وما يرسله الله -عز وجل- لهم قد يكون رحمة بهم؛ لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم، ونحو هذا، فيكون رحمة بهذا الاعتبار، لينيبوا إليه، ليرجعوا إليه، وما أشبه هذا، وقد يكون عقوبة، وقد يكون عذاباً وعقوبة، ويترجح هذا أو هذا بمعرفة حال الناس، فإن كانوا أهل طاعة واستقامة وعبادة وصلاح فيقال: هذا ابتلاء {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [سورة الأنبياء:٣٥]، فالله وعد بالابتلاء، فما يقع من القحط والمجاعة وغلاء الأسعار، فإذا كان الخلق على استقامة، وهذا كما يقال في الحال العامة، عموم الناس، وأنهم يأخذون على يد الظالم، وينهون عن المنكر، ويأمرون بالمعروف، ونحو ذلك، فيرجى أن الذي حل بهم إنما هو تكفير لسيئاتهم ورفع لدرجاتهم وابتلاء لهم، ويقلبهم الله في هذا وهذا، وإذا كان الغالب عليهم هو الفساد والشر والمحادة لله -عز وجل-، فتظهر فيهم الشرور والمنكرات ولا تغير، فهذا غالباً ما يكون عقوبة، كالذي يقع على الكفار والمحاربين لله المحادين له، فمثل هذا ما يقال: والله إن الذي وقع فيهم هو تكفير لسيئاتهم، ورفع لدرجاتهم، إنما هو عذاب نزل بهم، وهو قليل مما ينتظرهم، الأمم المعرضة عن الله، حتى لو كانوا ينتسبون للإسلام، إذا ظهر فيهم المنكر وكان هو الغالب ولم يُغيّر، فالأحاديث والنصوص دلت على هذا، ((إلا عمهم الله بعقاب))[1]، هذا إذا كان ما وقع إنما هو متولد من المنكر وناتج عنه فهذا لا شك أنه عقوبة معجلة، وإذا كان متولداً من الطاعة فهذا رحمة، وابتلاء لرفع الدرجات وتكفير السيئات، والله أعلم.

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (١٩٢٣٠)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٣١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَمِ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقّ فَهُمْ مّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلاّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء:٢٤-٢٥].

يقول تعالى: {أَمِ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ} يا محمد، {هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} أي: دليلكم على ما تقولون {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ} يعني: القرآن، {وَذِكْرُ مَن قَبْلِي} يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلاّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ} كما قال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [سورة الزخرف:٤٥]، **وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [سورة النحل:٣٦]، **فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمِ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً} هذا إضراب انتقالي، وقوله -تبارك وتعالى-: {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}، المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه قال لهم: هذا القرآن وهذه الكتب التي كانت قبله هل يوجد فيها ما يدل على ما ذكرتم، فهي شاهدة بأنه لا إله إلا الله، وأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما جاءوا بذلك ودعوا إليه، {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ} يعني القرآن، {وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}، وهذا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف، وهو اختيار ابن جرير يقول: {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ } أي: ما لهم من الثواب، {ذِكْرُ مَن مّعِيَ} يعني: خبر من معي بما أعد الله -عز وجل- لهم من الثواب والجزاء، {وَذِكْرُ مَن قَبْلِي} يعني: ما فعل الله بهم، يعني الأمم السابقة، ما حصل لهم في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة، بمعنى أن هذا القرآن مشتمل على ذكر هذا وهذا، على خبر من معه من هذه الأمة، ممن اتبعه، ما لهم من الثواب على إيمانهم به -صلى الله عليه وسلم-، وطاعتهم إياه، {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}، خبر من قبلي من الأمم، وما حل بهم، وما ينتظرهم أيضاً في الآخرة من الجزاء، فالقرآن متضمن لذلك جميعاً، فأين ما تزعمون وتقولون من وجود آلهة مع الله -تبارك وتعالى-؟.

{وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٢٦-٢٩].

يقول تعالى رداً على من زعم أن له -تعالى وتقدس- ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: {سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً، {لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}.

قوله: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً} الذين نسبوا لله -عز وجل- الولد، -كما هو معلوم- هم اليهود قالوا: العزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وذكر بعض أهل العلم أيضاً أن اليهود قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قد صاهر الجن فكان الملائكة -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، وهذا أيضاً يُنسب إلى بعض العرب، وقال بعضهم: إن الملائكة بنات الله، وقد رد القرآن عليهم في مواضع كقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [سورة النحل:٦٢]، وقال: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم:٢١-٢٢]، إلى غير ذلك من المواضع، ولم يكن جميع العرب يقولون هذا، وإنما قاله بعضهم، ولهذا بعض أهل العلم يقول: إن المراد بذلك خزاعة، القبيلة المعروفة، وقوله: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}، هذا مع قوله: {لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} يدل على أن المراد بذلك الرد على من قالوا: إن الملائكة بنات الله، وليس المراد بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، فقد رد عليهم في مواضع أخرى، ولا الذين قالوا: إن العزير ابن الله، فهؤلاء جاءوا بقول عظيم، حيث ادعوا أن لله ولداً، وهذا كما قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [سورة مريم:٨٩-٩٣]، لكن السياق يدل على أن الآيات في الرد على الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله؛ لأنه قال: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} إلى آخره، فهذا فيمن زعم أن الملائكة بنات الله.

قال: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} يعني هؤلاء الملائكة، فهم عباد لله -عز وجل-، قال: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ} يعني لا يتقدمون عليه -تبارك وتعالى- بالقول، وإنما هم في غاية الخضوع والأدب والخشية مع الله -جل جلاله-، {وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}، كما قال الله تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦].

وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} بعضهم يقول: {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني الآخرة مما يستقبلون، {وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني الدنيا، وبعضهم يقول: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني يعلم ما بين أيدي الملائكة، مما لم يبلغوه ولم يفعلوه، يعني المستقبل، وما سيكون منهم من قول وعمل، وما خلف هؤلاء الملائكة أيضاً مما مضى وانقضى، يعني يعلم ما مضى وما سيأتي، كل ذلك قد أحاط به -تبارك وتعالى-، والضمير في قوله: {يَعْلَمُ

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يرجع إلى الملائكة؛ لأن ما قبله في الملائكة وما بعده كذلك، قال: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَىَ}، وهذا في الملائكة.

وقوله: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَىَ} كقوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وقوله: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك، {وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ} أي: من خوفه ورهبته {مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّيَ إِلَـٰهٌ مّن دُونِهِ} أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله، {فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ} أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف:٨١]، وقوله: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الزمر:٦٥].

التعليق بالشرط لا يقتضي إمكان الوقوع، كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، وقوله: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨].

{أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لّعَلّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السّمَاءَ سَقْفاً مّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الّذِي خَلَقَ اللّيْلَ وَالنّهَارَ وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة الأنبياء:٣٠-٣٣].

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: {أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ} أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه؟، ألم يروا {أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ} أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

ففي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد**

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} الرؤية هنا رؤية قلبية بمعنى العلم، أوَلم يعلم؛ لأنهم ما شاهدوا هذا بأعينهم وأبصارهم، ويكون المعنى {أَوَلَمْ يَرَ} أي: أوَلم يعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} الرتق: هو السد، وهو ضد الفتق، فيقال: رتقه أي سده، والسلف -رضي الله تعالى عنهم- اختلفوا في هذا الرتق ما المراد به فبعضهم يقول: كانت السماء ملتصقة بالأرض ثم بعد ذلك فصلت، وبعضهم يقول: كانت السماوات السبع متلاصقة، وكانت الأرضون السبع متلاصقة، ففتق الله -عز وجل- هذه وهذه فصارت السماوات طبقات بين كل طبقة وطبقة مسافة، وبعضهم يقول: {كَانَتَا رَتْقاً} يعني: فتقها بالهواء، وقوله: فتقها بالهواء يرجع إلى ما سبق، فإذا كانت متلاصقة فمعنى ذلك أنه لا هواء بينها، وبعضهم يقول: كانت مظلمة ففتقها بالنور والضياء، وهذا يرجع إلى أنه لما وجد هذا الفاصل بين السماء والأرض وجدت الشمس والنجوم والقمر فصارت مضيئة، {فَفَتَقْنَاهُمَا}،

وبعضهم يقول: المراد بالرتق أن السماء كانت لا تمطر، والأرض لا تنبت، وقالوا: إن هذا يفسره قوله -تبارك وتعالى-: {وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [سورة الطارق:١١-١٢]، فالرجع قالوا: هو المطر، والصدع: أي أنها تتصدع عن النبات: تنشق، والله -عز وجل- يقول: {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [سورة عبس:٢٥-٢٦]، فشقها بالنبات، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، وهذا القول قال به جماعة من أهل العلم وهو قول له وجه قوي من النظر، ولا يبعد أن تكون هذه الآية من سورة الأنبياء مفسرة بالآية الأخرى وهي قوله: {وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}، وهناك قرينة أخرى في هذه الآية قد ترجح هذا المعنى وهي قوله بعده: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، فـ{رَتْقاً} أي: لا تمطر، يعني السماء، والأرض لا تنبت، فشق هذه بالمطر وشق هذه بالنبات، ثم قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، وهذا القول رجحه الشنقيطي وانتصر بأدلة متعددة، وزاد بأن قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا} لو كان المراد أنها متلاصقة فإن الكفار لم يروا ذلك، والذين قالوا بأنها كانت متلاصقة، يقولون بأن الرؤية قلبية وليست بصرية، يعني أولَم يعلم، لكنه يقول: إن الغالب في القرآن أنّ "رأى" المقصود بها الرؤية البصرية في الغالب، لكن إذا حمل على الغالب أن الرؤية بصرية فهم لم يروا السماء ملتصقة بالأرض حينما كانت ملتصقة على القول الآخر، ولكنهم يشاهدون كيف أن المطر ينزل فتنشق الأرض عن النبات، ويمكن أن يرد على هذا الاستدلال بأن يقال: إن القول بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر أنه كان ذلك في أول الأمر، بمعنى أن الأرض أصلاً لا تنبت والسماء لا تمطر أصلاً، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات، فالذي يشاهدونه هم هو ما آل إليه أمرها ثانياً، أما حينما ذكر الله هذه الصفة فهم ما شاهدوا هذا، فتبقى الرؤية أيضاً قلبية، حتى على هذا القول، ومهما يكن فهذه الأقوال يبقى أن منها ما يرجع إلى القول بأنها كانت متلاصقة، يعني حينما يقال: فتق هذه بالضياء، أو فتق هذه بالهواء، فهذا يرجع إلى القول بأنها كانت ملتصقة، وابن كثير -رحمه الله- حاول أن يجمع بين الأقوال الأولى، بمعنى أن السماء كانت ملتصق بالأرض، وكل سماء ملتصقة بالثانية، كما أن الأرضين قد التصق بعضها ببعض، كلها، فحاول رحمه الله أن يجمع بين الأقوال بحيث إنه فصل السماء عن الأرض، وفصل كل سماء عن السماء الأخرى، ووجد الضياء بين السماء والأرض، كما وجد الهواء أيضاً، والآية إذا قيل فيها بأن السماوات جميعاً كانت ملتصقة لا يشكل عليه بأن السماء مفرد؛ لأن السماء المقصود بها الجنس، فيصدق على الجمع، ولهذا وصف بالمصدر {كَانَتَا رَتْقاً}، وأما التثنية هنا {كَانَتَا} فباعتبار التقابل بين السماء والأرض، فالسماء جنس واحد كما أن الأرض جنس واحد، فقال: {كَانَتَا رَتْقاً}، أما ما يزعمه أصحاب الإعجاز العلمي والتفسير العلمي من أن قوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا} بأن الأرض كانت ملتصقة بالشمس، وحصلت انفجارات قبل ملايين السنين، فانفصلت الأرض عن الشمس، والحديد الموجود، أو يزعمون أنه موجود في نواة الأرض، وأنه جاء إلى الأرض من الشمس، وإلا فهو ليس من عناصرها أصلاً، وهذا الكلام باطل، ولا صحة له، ولا حصل انفجارات ولا شيء، والله -عز وجل- أخبرنا أنه خلق الأرض في يومين، وخلق السماء في يومين، وأن الله دحاها في يومين، وكل ما يقولونه لا أساس له، ومخالف لظاهر القرآن، فالله -عز وجل- قال: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ} ولم يقل: أن الأرض والشمس، والشمس لا يقال لها سماء لا لغة ولا شرعاً إطلاقاً، فإذا قيل:

السماء فهي ليست الشمس، لكن هؤلاء يأخذون عن هؤلاء الغربيين الذين لا يعرفون الله، ولا يعرفون الوحي، وكل ذلك يبنونه على هذه التخرصات، فلا يجوز تصديقهم في هذا ولا تفسير الآيات بهذا، والله أعلم.

قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} كثير من المفسرين فسروا الماء بأن المراد به النطفة، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق الإنسان من ماء مهين، وقالوا: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: من النطفة، ويكون بهذا الاعتبار من قبيل العام المراد به الخصوص، باعتبار أنه قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء} فالماء هنا يشمل كل ماء، لكنه أريد به النطفة، يعني أريد به معنىً خاص، وهذا الماء هو النطفة، فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى، هذا الذي يسمى العام المراد به الخصوص، وبعض أهل العلم يحمله على ظاهره، يقول: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: الماء الذي أنزله الله -عز وجل- من السماء، وصار مختزناً في الأرض، فيخرج منها باستخراج الناس من الآبار، أو بالينابيع، أو غير ذلك، ويكون ذلك إما مباشرة بالحيوانات التي لا تعيش إلا بالماء، وقوامها وحياتها به مباشرة، وهكذا الشرب، وهكذا أيضاً بطريق الواسطة، يعني باعتبار أن هذا الماء يخرج من النبات، والإنسان والحيوان يتغذى على هذا النبات، فالله -عز وجل- جعل من الماء كل شيء حي بهذا الاعتبار، فإذا لم يوجد هذا الماء سيهلك الإنسان والحيوان والنبات، ويكون النبات داخلاً فيه بهذا الاعتبار، فالنبات فيه حياة، وإن لم تكن مثل حياة الحيوان.

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال: سئل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

على هذا القول المروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، يمكن أن يفسر بأنها كانت ملتصقة، يعني لا يخرج عنه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً.

الآن..، هذا القول من ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قد يفهم منه أن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- كان عنده ما يستند إليه في تفسير هذه الآية بهذا المعنى، فلما رأى أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قاله وعرفه، قال: قد علمت أنه قد أوتي علماً، وإلا لو كان مجرد اجتهاد عند ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- فكيف يجزم أن ابن عباس قد أوتي علماً حين وافقه؟ اجتهاد وافق اجتهاداً، فلو خالفه لا ينفي هذا عن ابن عباس أنه قد أوتي علماً؛ لأنه قد علم أمراً، قال: هكذا كانت، فجزم بهذا، مع أنه شديد التورع، وما كان يقدم على التفسير كإقدام ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ولهذا كان يقول: ما كان يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فكأنه وجد عنده ما يستند إليه في هذا المعنى، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير

واختاره جماعة كثيرة من المفسرين منهم القرطبي، وابن عطية صاحب المحرر الوجيز، أما القول بأنه كانت الأرض ملتصقة بالشمس فهذا ما قال به أحد، وهذا يعود إلى جميع أقوال السلف بالإبطال.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتْقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: أصل كل الأحياء منه، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: ((كل شيء خلق من ماء))، قال: قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: ((أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام))[1]، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سُليم، والترمذي يصحح له.

الحديث هذا ثابت صحيح، وفيه قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل شيء خلق من ماء)) ولفظة "كل" أقوى صيغة من صيغ العموم، ولا يرد على هذا أن الإنسان خلق من طين، وأن الجن خلقوا من مارج من نار، فهذا أصل الخلقة، ولكن بعد ذلك فإن الإنسان خلق من نطفة، وهي من الماء، وقوامه إنما هو بالماء.

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: {أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} أي: لئلا تميد بهم.

يقول أهل العلم من المعاصرين: إن اليابسة تبلغ ما يقرب من الثلث أو أقل من الثلث، يعني يقولون: إن الماء يصل إلى حدود ٧٢ -مع بعض الكسر- في المائة من مساحة الأرض، وإن الباقي هو اليابسة.

يقول: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} يعني الجبال، {أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} أي: لئلا تميد بهم، {أَنْ تَمِيدَ} أي: كراهة أن تميد بهم، أو لئلا تميد بهم، وأصل الميد هو التحرك والدوران، فجعلها أوتاداً، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [سورة النبأ:٧]، فهي مثل المسامير تمسك الأرض من أجل أن لا تضطرب ولا تتحرك، {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [سورة النازعات:٣٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً} أي: ثغراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر.

الضمير في قوله: {وَجَعَلْنَا فِيهَا} يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الرواسي، {وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا}، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي: في الرواسي في الجبال، جعل فيها فجوات بحيث ينتقل الناس من خلالها ويعبرون منها، وبعضهم يقول: الضمير يرجع إلى الأرض، {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي: في الأرض، {فِجَاجاً} سبلاً، جعل فيها طرقاً يسلكها الناس ويسيرون عليها، ينتقلون في مصالحهم وحاجاتهم.

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (٧٩٣٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، والحاكم في المستدرك برقم (٧٢٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الألباني: "إسناده صحيح" كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣/٢٣٨).

يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة –ثغرة- ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا؛ ولهذا قال: {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.

كلام ابن كثير واضح أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الجبال، **{وَجَعَلْنَا فِيهَا}** أي: في الجبال، فيجعل فيها بين هذه الجبال فجوات بحيث ينتقل الناس ويسيرون، وكل مخترق بين جبلين كما يقول بعض أهل معاني القرآن فهو فج، كل مخترق بين جبلين يقال له فج، وبعضهم يفسر الفجاج بالمسالك، فإذا فسر قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً}** أي: في الجبال في الرواسي فيكون بما يوجد من الفجوات التي يمر بها الناس، وإذا قيل بأن ذلك يرجع إلى الأرض باعتبار أن الحديث كان عنها **{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا}**، فجعل في الأرض رواسي، وجعل فيها فجاجاً، فيكون المقصود في الأرض هذه الفجاج الطرق التي يسلكها الناس، لكن إذا قيل: بأن أصل الفج في اللغة هو كل مخترق بين جبلين، فيكون **{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً}** يعني بين هذه الجبال التي أرساها، وهذا القول بينه وبين القول الآخر -إنها الأرض- نوع ملازمة، فإذا جعل بين هذه الجبال فجاجاً فإن هذه الجبال في الأرض، فيكون قد جعل في هذه الأرض فجاجاً سبلاً، قال: **{لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}** يعني إلى مصالحهم وحاجاتهم، ومعايشهم، وما إلى ذلك.

وقوله: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً} أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [سورة الذاريات:٤٧]**، وقال: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}** [سورة الشمس:٥]**، {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** [سورة ق:٦]**، والبناء: هو نصب القبة، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بني الإسلام على خمس))[٢]، أي خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب، {مَحْفُوظاً} أي: عالياً محروساً أن يُنال، وقال مجاهد: مرفوعاً.**

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً}**: "أي: **على الأرض وهي كالقبة**"، فالأرض كما هو معلوم كروية، والسماء محيطة بها من كل ناحية، فهي كالقبة على الأرض، ولذلك نحن حينما ننظر إلى الأفق نجد أن المدى في الأرض ينقطع ولا نرى إلا السماء؛ وذلك لكروية الأرض كما هو معلوم، فيقول: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً}**، محفوظاً: يمكن أن يكون محفوظاً من الشياطين، كما قال الله -عز وجل-: **{وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ}** [سورة الحجر:١٧]، يحتمل هذا، والآية التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}**، و**{أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}** يمكن أن يفسر بأن المقصود بالسقف المحفوظ: المحفوظ من التشقق والتصدع، **{وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}**، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ}**[سورة الملك:٣] بمعنى الشقوق، والسماء في غاية الإحكام في خلقها، ليس فيها تصدع، على مر هذه المُدد والأوقات الطويلة على خلقها مع ذلك ليس فيها تشقق، بخلاف ما يبنيه الناس، فإنه إذا طال عليه العهد تشقق وتصدع، فتكون محفوظة من التشقق والتصدع، وقال في قوله: **{مَحْفُوظاً}** "أي: **عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً**"، وهذا يدل

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بني الإسلام على خمس)، برقم (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام برقم (١٦) من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه.

عليه قوله تعالى: {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} [سورة الطور:٥]، وتفسر الآية الأخرى بهذا الاعتبار، وبعضهم يقول: {سَقْفاً مَحْفُوظاً} يعني من أن تقع على الأرض، فالله -عز وجل- هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يحفظها من الوقوع وكما يقول: {وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة الحج:٦٥]، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [سورة الروم:٢٥]، تقوم بمعنى أنها تثبت فلا يحصل لها وقوع، وبعضهم يقول: إنه محفوظ بالنجوم، {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً}، يعني جعلها الله -عز وجل- رجوماً للشياطين، وهذا يرجع إلى قول من قال: {مَحْفُوظاً} أي: من الشياطين، حفظها بهذه النجوم، جعلها رجوماً للشياطين، وكل ذلك يدل عليه القرآن، فإذا فسر المحفوظ بالمرفوع فهذا قد دل عليه القرآن، والآية تحتمله، وإذا فسر بأنه محفوظ من التصدع والتشقق فهذا دل عليه القرآن، وإذا قلنا: إنه محفوظ من الشياطين وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، فهذا دل عليه القرآن، ولو قال قائل: بأن الآية تفسر بهذا جميعاً لم يكن بعيداً؛ لأن الآية تحتمله، وكل معنى من هذه المعاني يشهد له القرآن.

وقوله: {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}، كقوله: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف:١٠٥] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زُينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي: هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} أي: يدورون، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، كما قال تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام:٩٦].

{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة الأنبياء:٣٤-٣٥].

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ}: أي يا محمد {الْخُلْدَ} أي: في الدنيا بل {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله: {أَفَإِن مِّتَّ} أي: يا محمد {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا بل كل إلى الفناء.

قوله: {أَفَإِن مِّتَّ}: أي يا محمد {فَهُمُ الْخَالِدُونَ}، بعضهم يقول: إن قوله: {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أن المقصود به الاستفهام، لكن حذفت همزة الاستفهام، يعني أفهم الخالدون؟، وهذا موجود له نظائر في القرآن، وله ما يشهد له من كلام العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا: يا خُويلدُ لم تُرَعْ *** وقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

يعني أهمُ همُ؟.

وقول الآخر وهو عمر بن أبي ربيعة:

بَدَا لِي مِنْهَا مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرَتْ *** وَكَفٌّ خَضِيبٌ زُيِّنَتْ بِبَنَانِ

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَحَاسِبٌ *** بِسَبْعٍ رَمَيْتُ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

بسبع: يعني أبسبع رميت الجمر -الجمار-، أم بثمان، بسبع أبسبع؟، فحذف همزة الاستفهام، وشواهد هذا كثيرة، فيحتمل أن يكون {أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أفهم الخالدون؟، ويحتمل أن يكون المراد به؛ لأنه ليس هنا استفهام في الثاني، {أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} بعدك، ليس الأمر كذلك؛ لأن الله ما جعل لبشر من قبلك الخلد، وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن الموت ليس فيه شماتة، فإذا كان بين الإنسان وبين غيره شيء ثم مات فإنه ليس له أن يشمت به لأنه مات؛ لأن هذا أمر يجري على الجميع، لا فرق بين هذا وهذا، وكما قال بعضهم:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا *** سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

فإذا كانت الشماتة بالموت فهم سيموتون، بخلاف ما يقع للإنسان من سوء العاقبة، بسبب سوء فعله، فإن هذا هو الذي قد يشمت به الناس، ولهذا يحتاج إلى أن يتجلد، وقد قال هارون -عليه الصلاة والسلام-: {فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء} [سورة الأعراف:١٥٠]، فحينما يأخذ بلحيته وبرأسه وهم ينظرون، أو يبلغهم هذا، فإن هذا يكون محلاً للشماتة، مع أن الإنسان لا يليق به أن يشمت بالناس.

أي يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء؛ ولهذا قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}.

المعنى الذي فسر به ابن كثير -رحمه الله-: "أي: **يؤملون أن يعيشوا بعدك**"، على أنه ليست هناك همزة استفهام محذوفة {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أي: يؤملون العيش بعدك، لا يكون هذا.

وقد روي عن الشافعي -رحمه الله- أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ * فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ**

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي * مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ**

وقوله: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَنَبْلُوكُم} يقول: نبتليكم، {بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وهذه الآية صريحة في أن الابتلاء الذي يحصل للناس يكون بالمحبوب والمكروه، {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ} يعني الغنى والفقر والصحة والمرض وما أشبه ذلك، ولهذا قال بعض السلف: إن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء، فالله يقلبهم بهذا وهذا، بل يقلبهم في الأوقات بين الحر والقر؛ ليستخرج عبوديتهم في الشدة والرخاء، فالرخاء له عبودية، والشدة أيضاً لها عبودية غير عبودية الرخاء، فهذا بالصبر والرضا، وهذا بالشكر، وإن كان هذا أيضاً لا يخلو من صبر ورضا، والآخر أيضاً لا يخلو من شكر، فالله -تبارك وتعالى- يقلبهم، فمن الناس من قد يصبر على البلاء، ولكنه لا يصبر على النعماء والرخاء، ومن الناس من يصبر في العافية ويثبت، ولكنه لا يصبر ولا يثبت في حال الشدة، ويُقلَّب الناسُ بين هذا وهذا اختباراً لهم.

وقوله: {وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} أي: فنجازيكم بأعمالكم.

سؤال:

هل يقولون بأن الحديد نزل من الشمس أو كذا، ربما يستدلون بما ذكره الله -جل وعلا- في سورة الحديد {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد:٢٥]، كأنه نزل من علو؟

نزل الحديد من علو، لكن لا يلزم أن يكون جاء من الشمس، فإن قوله: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} الإنزال يعني من أعلى إلى أسفل، فبعض أهل العلم قال بأن أجود الحديد ينزل من الجبال، ويستخرج منها، فهي أرفع من الأرض، فهذا معنى الإنزال، وكما قال الله -عز وجل-: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر:٦] إما أن يكون أصول هذه الأنعام قد نزل من السماء، وإما أن يكون المقصود بأن ذكورها تنزو على إناثها فيستقر ذلك منها بالأرحام، أو باعتبار أن الولد ينزل إلى الأرض حينما يولد، فالإنزال متحقق بهذه المعاني، وتحتمل الآية {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} أن يكون أنزله الله -عز وجل- من السماء، لكن من أين لهم أن الأرض كانت ملتصقة بالشمس، وأن هذا الحديد وجد من الشمس، وأن الشمس فيها حديد؟ كيف عرفوا ذلك؟ ويقولون بأن نواة الشمس عبارة عن حديد، ولا يوجد دليل على كل هذه الأشياء، وإنما هي عبارة عن نظريات من الغرب.

ولا يجوز أن يفسر القرآن بالنظريات، فهذه أشياء ليست ثابتة، فرضيات، فلا يفسر بها القرآن، فهذه النظريات جاء بها الغرب، القرآن أجل وأعظم من هذا، وهم لا يحتملون سماع هذا الكلام، يزعجهم جداً، يضيقون به ذرعاً، فلا تضرب أقوال السلف كلها، وتأتي بشيء لا تدل عليه اللغة، {كَانَتَا رَتْقًا} فتقول: مع الشمس لاصقة، السماء هي الشمس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {وَإِذَا رَآكَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ إِن يَتّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً أَهَذَا الّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ} [سورة الأنبياء:٣٦-٣٧].

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه-: يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَإِذَا رَآكَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ} يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه، {إِن يَتّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً} أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: {أَهَذَا الّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم؟، قال تعالى: {وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} أي: وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الفرقان:٤١-٤٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِن يَتّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً}، "إن" هذه هي النافية، بمعنى ما يتخذونك إلا هزواً، يعني مهزوءاً بك، يستهزئون به، وهذا الاستهزاء يقولون: {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ}، {أَهَذَا الّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}، والذكر إذا قالت العرب: فلان يذكر فلاناً فإن ذلك يكون في المدح أو الذم، بحسب المقام، فإن كان يحبه فإنه يفهم من ذلك المدح، يذكر فلاناً، فلان يذكرك، ذكرك في مجلسه، بمعنى أثنى عليك، وإذا كان يبغضه ويعاديه، فإن ذلك يعني الذم، فلان يذكرك بمعنى أي أنه يعيبك ويذمك.

{أَهَذَا الّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} أي: بالعيب والنقص، ويعيبها ويذمها، ويقول: إنها ليست بآلهة، وإنها لا تنفعهم، والله -تبارك وتعالى- يقول عنهم: {وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}، الذكر هنا مصدر يحتمل أن يكون المراد به {وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحْمَنِ} أي: بكتابه، وهو هذا القرآن، فهو ذكره {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ} [سورة الزخرف:٤٤]، فهم كافرون به، ويحتمل أن يكون: {وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحْمَنِ} أي: أنهم كافرون بالله -عز وجل-، بما ينسبون إليه من النقائص، ويجعلون له الشركاء، فعبدوا معه غيره.

وقوله: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} كما قال في الآية الأخرى: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء:١١] **أي: في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلتْ ذلك، فقال الله تعالى: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ}؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، ويُنظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: {سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي} أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني {فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ}.**

قوله: {خَلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسرها بقوله: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} قال: "**أي في الأمور**"، بمعنى أن قوله: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} المراد بالعَجل هنا العجلة، ومعلوم أن الإنسان خلق من نطفة، وأن أصله من طين في خلق أبينا آدم -صلى الله عليه وسلم-، ولكن العرب قد تعبر بمثل هذا في ذكر الأوصاف لبيان شدة رسوخها وتعلقها، وملازمتها لهذا الإنسان، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} لشدة تمكن العجلة فيه كأنه قد خلق منها، وهذا هو الراجح، والمتبادر من معنى الآية، وبعضهم يقول: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} أي: من طين، فالطين يقال له: عجل، وهذا وإن كان صحيحاً في كلام العرب، إلا أنه خلاف الظاهر المتبادر، والقرآن لا يجوز حمله على غير الظاهر المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فالظاهر المتبادر أن المراد بالعجل العجلة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}، وبعض أهل العلم يرجع {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} إلى خلْقه، أن الله خلقه في آخر ساعة من الجمعة، يعني خلق في وقت يسير، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ}، لا أن ذلك يدل على صفته هو، وإنما يدل على صفة خلقه، خَلَقهُ الله في وقت يسير، خلق في آخر ساعة من الجمعة، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} يعني: في عجل، في وقت يسير قصير في آخر النهار، بآخر أيام الخلق، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وأظن -والله أعلم- أن هذا القول هو أضعف هذه الأقوال وأبعدها، والله -تبارك وتعالى- خلق كل شيء بقوله: "كن" فكان، فهذه السماوات والأرض خلقها الله -عز وجل- جميعاً وما فيها في ستة أيام، وهذا وقت يسير، والإنسان إنما هو واحد مما لا يحصيه إلا الله -عز وجل- من المخلوقات المبثوثة في السماوات والأرض، والله -عز وجل- إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فهذا لا يختص بالإنسان، وتفسير {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} بهذا مع أن في الآية قرينة تدل على خلافه، وهو قوله: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} فدل على أن ذلك المراد به العجلة، التي هي صفة راسخة فيه، فينهاه عن مقتضياتها وآثارها، {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، ولهذا فإن قول جمهور المفسرين -كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن المقصود به العجلة التي طبع عليها الإنسان وجبل عليها، وأما المناسبة في ذكر هذا الخلق بهذه الصفة {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} وفي هذا السياق من الآيات في الرد على المشركين، فإن الله -تبارك وتعالى- قال: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، المشركون لما كانوا يطلبون الآيات، والمقصود بالآيات يعني كتلك التي نزلت على الأنبياء، كناقة صالح، الآيات التي يقترحونها، وعصا موسى، وغير ذلك مما أظهره الله -عز وجل- من الخوارق على أيدي الأنبياء السابقين، فهم يطلبونها، ويقولون: أين هذه الآيات، لماذا لا يأتي بآية؟، فالله يرد عليهم يقول: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، وذلك بما يظهره الله -عز وجل- على يد رسوله -صلى الله عليه وسلم- من دلائل صدقه، من الحجج والبراهين الدامغة التي لا تترك في الحق لبساً.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي} "أي: **نقمي**"، يعني على من عصاني، {فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} حمل الآيات على النقم، كما تقول: اللهم أرنا فيه آية، أي: نقمة، قارعة تنزل به، وهذا باعتبار أنهم استعجلوا العقوبة، وقالوا: أرنا ما تعدنا، قال: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي}، والمعنى الثاني هو الذي ذكرته أي ما يدل على صدقه -صلى الله عليه وسلم.

وقال سبحانه: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [سورة الأنبياء:٣٧-٤٠].

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، قال الله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ} أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر:١٦]، {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف:٤١]، وقال في هذه الآية: {حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ}، وقال: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [سورة إبراهيم:٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم.

ذكر الله -تبارك وتعالى- جهتين حين لا يكفون النار عن الوجوه والظهور، فذكر الوجوه والظهور -والله تعالى أعلم- ليدل على الإحاطة، وهذا يكثر ذكره في القرآن، وهو معروف في كلام العرب، الله -عز وجل- يقول: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [سورة البقرة:١١٥] فهذا لبيان أن جميع ما في هذا الكون ملك لله -عز وجل-، يعني والشمال والجنوب، فيذكر الجهتين ليدل على الباقي، ولهذا أورد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذه الآيات التي تدل على إحاطة النار بهم من كل جانب، {أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}[سورة الكهف:٢٩]، ومثل هذه النماذج في تفسير ابن كثير وهي كثيرة لا تكاد تخلو منها صفحة، هذه كلها مفيدة في تفسير القرآن بالقرآن، وهو الجانب الذي يعتني به الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}، المهاد الذي يكون تحتهم، مثل مهاد الصبي، كالفراش، وهنا {وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ}، {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} إلى غير هذا من الآيات.

قوله: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} أي: لا ناصر لهم، كما قال: {وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ} [سورة الرعد:٣٤]، وقوله: {بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً} أي: تأتيهم النار بغتة أي فجأة، {فَتَبْهَتُهُمْ} أي: تذعرهم، فيستسلمون لها حائرين، ولا يدرون ما يصنعون، {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} أي: ليس لهم حيلة في ذلك.

تبهتهم يعني تَفْجؤهم، وبعضهم يقول: تحيرهم، وبين هذه المعاني ملازمة، إذا فجأته فإنه يتحير، لا يدري كيف يصنع، كيف يتصرف للمفاجأة، فهو لم يسبق له استعداد من أجل أن يزوّر في نفسه تصرفاً، يتهيأ لشيء يفعله، فيستسلمون لها حائرين.

قال بعضهم: الضمير في قوله: {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} يرجع إلى النار، أي: لا يستطيعون رد النار التي تحرقهم وتحيط بهم من كل جانب، وبعضهم يقول: راجع إلى الوعد، بتأويله بالعدة، فهم يتساءلون يقولون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، فقال الله: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} يعني: العدة، وإن كان هذا يحتمل، لكن الذي قبله أوضح منه -والله تعالى أعلم- في المعنى، {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} يعني: النار التي ذكرها الله -تبارك وتعالى-، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ

{النَّارَ} إلى آخر ما ذكر، لم يذكر جواب "لو"، وجواب "لو" يحذف في مواضع كثيرة ثقة بفهم السامع، إذا كان ذلك يدرك، وذلك يكون في بعض المقامات أبلغ، في أحوال من التخويف والتهويل، أو الترغيب أيضاً، فأنت قد تقول لآخر: لو تعلم ما ينتظرك، لو تدري، يعني لما قلت كذا، يعني لما فعلت كذا، وأحياناً يذكر، ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً))[1].

{وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

وقال سبحانه: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} [سورة الأنبياء:٤١-٤٣].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأنعام:٣٤]**، ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ} أي: بدل الرحمن، يعني غيره.**

{قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}، يقول هنا: "**أي بدل الرحمن**"، فيكون المراد بــ"من" هنا الدلالة على البدلية، "يكلؤكم من الرحمن" أي: بدلاً منه، وهذا المعنى صحيح في لغة العرب، وقد جاء في القرآن ما يدل على هذا، وله شواهد من العربية، فالله -عز وجل- يقول: {وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} [سورة الزخرف:٦٠]، ومعنى {لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً} أي: نجعلكم ملائكة، أو أن المقصود أي: بدلاً منكم، لا أنهم يتحولون إلى ملائكة، فيكون معنى: {لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً} أي: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون، على أحد القولين في تفسير الآية، يعني بدلكم، ومن هذا أيضاً قول الشاعر:

جاريةٌ لم تأكل المرقّقاً *** ولم تذقْ من البقول الفُستقا

ولم تذق من البقول، يعني بدلاً منها، فالشاهد أن هذا معنى، وهو معنى قريب -والله تعالى أعلم-، ويحتمل أن يكون قوله: {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم} مضمناً معنى يجيركم وينجيكم، {مَن يَكْلَؤُكُم} أي: من يجيركم من الرحمن، يجيركم منه، ومن ينجيكم منه، وسبق الكلام على التضمين، وأن الفعل قد يضمن معنى الفعل فيعدى بتعديته، يعني بتعدية الفعل الذي قد ضمن معناه، فإذا قلت: يجيركم فإن هذا يعدى بمن، يجيركم من الرحمن، إذا قلت: إنه مضمن معنى ينجيكم، يكلؤكم: الكلاءة بمعنى الحفظ، فإذا ضمن معنى ينجيكم، فإن ينجي يعدى بمن، ينجيكم من الرحمن.

وقوله تعالى: {بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ} أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا} استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [سورة المائدة:١٠١]، برقم (٤٣٤٥)، من حديث أنس -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله، برقم (٢٣٠٩).

آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ} أي: أن هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

قوله: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا}، {مِّن دُونِنَا} يحتمل أن يكون متعلقاً بآلهة، فيكون المعنى أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ويحتمل أن يكون متعلقاً بتمنعهم، فيكون المعنى أي: تمنعهم من الله، تمنعهم تعصمهم فلا يصل إليهم بأس الله -عز وجل-، على المعنى الأول: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ} أنه متعلق بآلهة، يعني آلهة من دوننا، وهذا كثير في القرآن {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [سورة مريم:٨١]، ويمكن أن يفسر بهذا فتكون الآلهة من دونه، ويحتمل المعنى الآخر، والمعنى الأول رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- باعتبار أنه كثيراً ما يرد في القرآن، أن يكون متعلقاً بآلهة، {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً}.

وقوله: {وَلاَ هُمْ مِّنّا يُصْحَبُونَ} قال العوفي عن ابن عباس: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} أي: يجارون.

قوله: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} "أي: **يجارون**"، وهذا هو المعنى المشهور، الذي عليه كثير من المفسرين واختيار ابن جرير، ورجحه الشنقيطي من المعاصرين، وابن جرير -رحمه الله-، وبعض الذين رجحوا هذا المعنى مثل الشنقيطي يقولون بأن المعاني الأخرى راجعة إليه، فقول من قال بأن معناه: ينصرون مثلاً فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ}، أي: ينصرون، أو يمنعون، المعنى متقارب، فإذا قيل: يجارون فإن إجارتهم تعني منعهم، ونصرهم، فذلك يرجع إلى معنًى واحد، والله تعالى أعلم.

وقال سبحانه: {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ * قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٤-٤٧].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم مُتّعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم: {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يذكر المناسبة بين قوله: {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ} وما قبلها فيقول: "**إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم مُتعوا في الحياة الدنيا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء**"، فهذا التمتيع الذي حصل لهم والإنعام والإفضال والإمهال بسبب أنهم على جادة؟ وعلى عمل صحيح؟ وعبادة قويمة؟ فالله -عز وجل- يرد عليهم {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}، ولكن هذا لا يعني أنهم على حق، بل وجّه نظرهم إلى ما يحصل حولهم، على أحد الأقوال كما سيأتي، {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} فالواجب أن لا يغتر أحد بالإمهال، ويمكن أن يقال: لما أبطل الله -عز وجل- معبودات المشركين وما هم عليه من عبادة غير الله -عز وجل- أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتيع والإمهال أن ذلك ليس بسبب مانع يمنعهم من الله -تبارك وتعالى-، وإنما الله أمهلهم لعلهم يرجعون ويتوبون، ولكن إذا أراد أخذهم فإنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يغتر أحد بإمهال الله -عز وجل-، كما لا يغتر بما يفيض عليه ويدر عليه من النعم، فإذا كان العبد على غير

طريقة مستقيمة فإن هذا يكون من قبيل الاستدراج، كما قال الله -عز وجل-: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [سورة الأعراف:١٨٣]، فإذا رأيت الله -عز وجل- يوالي نعمه على عبده وهو في حال من الإعراض عنه فإن ذلك استدراج، ليزداد إثماً، وإذا كان العبد على طاعة واستقامة ونحو ذلك رُجي أن يكون ذلك من باب الإفضال والإنعام، وما يعجل للإنسان في هذه الدنيا من جزاء الأعمال الصالحة، والله أعلم.

كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ} [سورة الأحقاف:٢٧]، **وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين؟؛ ولهذا قال:** {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}.

المراد بقوله: {أَفَلا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} كقوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ}، والمقصود بالقرى المُهلَكة التي نزلت بها المثلات والعقوبات، مثل ثمود، وقوم لوط، وقوم هود، وغير ذلك ممن عذبهم الله -عز وجل-، كما يقول الله -عز وجل-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، ولما ذكر قوم لوط قال: {مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[سورة هود: ٨٣] أي: العقوبة، وهذه الآية {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى} يعني القرى المهلكة المعذبة، فيكون هذا التفسير باعتبار {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} بإهلاك المكذبين والظالمين والمجرمين؛ لأن هناك معنى آخر وهو أن المقصود به الذين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- تأخذهم سراياه وجيوشه حول مكة، {نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}، ولهذا يقول: قال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، فقول الحسن المقصود به: أن {نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} يعني: بما يحصل من الانتصارات على الكفار حول مكة، بفتح خيبر، بغزو بني المصطلق، وما حصل من الانتصار عليهم، وما إلى ذلك، والمعنى: أفلا يعتبرون؟.

وبعضهم يقول: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أن المقصود بذلك موت العلماء، لكن هذا خلاف الظاهر المتبادر من القرآن، وبعض من يتكلم في التفسير العلمي والإعجاز العلمي يقول: إن اليابسة تتقلص وتقل، وما أشبه ذلك، وليس هذا هو الذي تفسر به الآية، والله أعلم.

ويقول الشيخ محمد الشنقيطي -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}": في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة، وبُعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس، والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية فهو أن معنى {نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أي: ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام، والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} والاستفهام لإنكار غلبتهم، وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا

غالبون، فقوله: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور، ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ} [سورة الرعد:٣١] على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي -صلى الله عليه وسلم- تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريبا من دارهم، وممن يروى عنه هذا القول: ابن عباس، وأبو سعيد، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم، وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر "سورة الرعد" أيضا في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة الرعد:٤١] وقال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير آية "الأنبياء" هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} هو قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأحقاف:٢٧].

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- صواب، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله والكفر بما جئت به أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أي: بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل والكفر بما جاءوا به، وهذا هو معنى قوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى} كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- لئلا نُنْزِلَ بكم مثل ما أنزلنا بهم، وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} والمعنى أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً، كما قال تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ} [سورة الدخان:٣٧] الآية، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة غافر:٨٢]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} [سورة الروم:٩] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه -صلى الله عليه وسلم- بما وقع لمن كذب مَن قبله من الرسل كثير جدا في القرآن، وبه تعلم اتجاه ما استحسنه ابن كثير -رحمه الله- من تفسير آية "الأنبياء" هذه بآية "الأحقاف" المذكورة كما بينا"[٢].

والفرق بين القولين واضح، {نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} يعني بظهور المسلمين وأخذ القرى، وذلك بما يتحقق من الانتصارات على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فتأخذهم جيوشه وسراياه قرية بعد قرية حتى يتسع نطاق الإسلام، ويمتد حكمه وهيمنته، والمعنى الثاني: أن الأخذ إنما هو بما ينزل من العقوبات، أو ما نزل من العقوبات على الأمم المكذبة، هذا الذي اختاره ابن كثير وهو الذي رجحه الشنقيطي -رحمه الله-،

---

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٥٧/٤-١٥٨).

وما ذكره الشنقيطي -رحمه الله- من أن قوله: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} قد يكون قرينة للمعنى الآخر، وهو أن المقصود الانتصار الذي يحصل للمسلمين ليس بلازم؛ لأن الله -عز وجل- هو الغالب، فالله -تبارك وتعالى- يخبر أنه أخذ القرى المكذبة فيقول: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}، فالله -تبارك وتعالى- غالب على أمره، فيهلك من شاء إهلاكه وينزل به ألوان العقوبات، ولا يستطيع أحد أن يرد ذلك أو يمتنع منه.

ولهذا قال: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} يعني: بل هم المغلوبون، الأسفلون، الأخسرون، والأرذلون.

وقوله: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ}.

قوله تعالى: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يحتمل أن يكون من جملة ما أمره الله أن يقوله لهم، {قُلْ} أي: يا محمد {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يعني: وقل لهم: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ}، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله -عز وجل-، {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} ثم الله يقول: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يقول: وإن أنذرتهم به مع العلم بأن الصم لا يسمعون الدعاء، فالله -تبارك وتعالى- قد أصم أسماعهم، عن السماع الذي ينفعهم، وهذا يحتمل، وفي قراءة ابن عامر، وهي قراءة متواترة {ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ}، فعلى هذه القراءة واضح أن هذا من كلام الله -عز وجل-، يعني يكون ما أُمر أن يقوله لهم: {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} فقط، قل لهم: {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} ثم قال: {ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ} حينما تقول لهم هذا فأنت لا تسمِعهم سماع انتفاع، أو سماعاً أو إسماعاً ينفعهم، فتهتدي قلوبهم وتصلح وتزكو نفوسهم، فهذه القراءة لا احتمال فيها، أما القراءة الثانية فهي تحتمل، ويمكن أن تكون القراءة الأخرى مبينة للقراءة الأولى {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} أنه من كلام الله -عز وجل-، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى فإنهما بمنزلة الآيتين.

وقوله: {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم.

يقول: "**ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء**"، باعتبار أن النفحة هي الشيء القليل اليسير، بعضهم يقول: هذا مأخوذ من نفح المسك، وابن جرير -رحمه الله- يفسر النفحة بالحظ والنصيب، {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ} يعني: تقول: فلان نفح فلاناً من عطائه، يعني أعطاه قسماً وحظاً ونصيباً من المال، {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ} أي: شيء من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وقد يفهم من هذا اللفظ والتركيب أن المقصود به الشيء اليسير، {مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ} أصابهم شيء يسير، فإنهم يقولون: {يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}.

وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، وقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ} يعني العدل، فالقسط هنا يمكن أن يكون صفة للموازين، فهو مصدر "قِسْط" مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط، وموازين قسط، يعني ميزان عدل وموازين عدل، تقول: هم قوم

عدل، يعني عدول، وهم قوم رضا، يعني أنهم مرضيون، فالمصدر يوصف به، ويكون لفظه مفرداً، ويوصف به الجمع كما يوصف به المفرد، يعني {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ} أي: ذوات القسط، {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وبعضهم يقول: فيه تقدير أي: لأهل يوم القيامة، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: لأهل يوم القيامة، وقالوا: هذا محذوف يفهم من السياق، مثلما قال الله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [سورة يوسف:٨٢] أي: واسأل أهل القرية، {وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} أي: واسأل أهل العير، وبعضهم يقول: اللام بمعنى "في" وحروف الجر تتناوب، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: في يوم القيامة، وابن جرير -رحمه الله- يرجح أن يكون المراد: لأهل يوم القيامة، ويحتمل أن تكون اللام هذه للتوقيت، والعلم عند الله -عز وجل-، يقول: "**الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة**"، ويقول العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "وقوله في هذه الآية الكريمة: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ} جمع ميزان، وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص؛ لقوله: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [سورة الأعراف:٨]، وقوله: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} [سورة الأعراف:٩]"[٣].

فالجمع في قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ} باعتبار أن كل واحد له ميزان، يحتمل أن يكون ميزان واحد يوزن به الناس جميعاً، ويحتمل أن يكون هناك موازين، الأشخاص يوزنون، والأعمال توزن، كما في حديث البطاقة، والسجلات توزن، والحديث: ((يؤتى بالرجل السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[٤].

وقال -رحمه الله-: "فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملكٌ تقوم الحادثات لعدله *** فلكل حادثة لها ميزانُ

والقاعدة المقررة في الأصول: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقد قدمنا في آخر سورة "الكهف" كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية: {الْقِسْطَ}: العدل، وهو مصدر وصف به، ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدرٍ كثيراً *** فالتزَموا الإفراد والتذكيراً

كما قدمناه مراراً، ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء: إنه المبالغة، وبعضهم يقول: هو بنيّة المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل، وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط"[٥].

هذا على تقدير محذوف، موازين القسط أي ذوات القسط، لكن للمبالغة أنها موازين القسط يعني كأنه وصفها بأنها قسط، مبالغة في كونها؛ لأنها آلة العدل.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٥٩/٤).

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [سورة الكهف:١٠٥]، برقم (٤٤٥٢)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥).

٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٥٩/٤-١٦٠).

وقال -رحمه الله-: "واللام في قوله: {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} فيها أوجه معروفة عند العلماء:

منها: أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها *** لستة أعوام وذا العام سابع"[٦]

لستة أعوام، اللام للتوقيت، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [سورة الحشر:٢]، فإن اللام هذه بعضهم يقول: هي للتوقيت، فهي تدل على الزمن، باعتبار أنه {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} أي: لأول حشر الجيش لهم، يعني تساقطوا لمجرد حشر الجيش لهم، ويحتمل أن يكون المعنى غير هذا، بل هذا من أبعد المعاني في تفسير هذه الآية: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}.

وقال -رحمه الله-: "ومنها: أنها لام "كي"، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

ومنها: أنها بمعنى "في": أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.

والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: في يوم القيامة.

وقوله تعالى: {لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [سورة الأعراف:١٨٧] أي: في وقتها، ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهدا لذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومِي قد مضوْا لسبيلهم *** كما قد مضى من قبلُ عادٌ وتُبّعُ

يعني مضوا في سبيلهم، وقول الآخر:

وكل أب وابن وإن عمّرا معاً *** مقيميْن مفقودٌ لوقت وفاقدٌ

أي: في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} يجوز أن يكون شيئاً هو المفعول الثاني لــ {تُظْلَمُ}"[٧].

---

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٦٠/٤).

٧ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٦٠/٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء: (٤٧)]، كما قال تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٩)]، وقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء(٤٠)]، وقال لقمان: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان: (١٦)]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم))[1].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رجلاً من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-ورضي عنهم- جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قِبلَك))، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويهتف، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ماله لا يقرأ كتاب الله {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ})) فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء -يعني عبيده- إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[2].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء: (٤٧)]، قراءة الجمهور {مِثْقَالَ} بالنصب، ومثقال الشيء هو ميزانه، وقرأ نافع بالرفع {مِثْقَالُ} باعتبار أن كان تامة، بمعنى وُجِد مثقالُ حبة من خردل.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته (٦ / ٢٤٥٩)، برقم: (٦٣٠٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤ / ٢٠٧٢)، برقم: (٢٦٩٤).

[2] - رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة الأنبياء (٥ / ٣٢٠)، برقم: (٣١٦٥)، وأحمد (٤٣ / ٤٠٦)، برقم: (٢٦٤٠١)، وصححه الألباني.

قوله: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}، الحسب هو العد والإحصاء، يعني: وكفى بنا مُحصين، وفسرها بعض أهل العلم بالعلم، والمعنى: كفى بنا عالمين، فإن هذا من باب الملازمة، فإن من أحصى شيئاً وحسبه فإنه يكون عالماً به كما لا يخفى.

قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} [سورة الأنبياء (٤٨ -٥٠)].

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} قال مجاهد: يعني الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل.

وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: {الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ} أي تذكيراً لهم وعظة.

قوله - تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن الفرقان هو الكتاب الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وبيّن فيه الحلال والحرام.

وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو النصر على الأعداء، وقد سمى الله -تبارك وتعالى- يوم بدر بيوم الفرقان، فقال: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [سورة الأنفال: (٤١)]، وقد فرق الله عز وجل- بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين فرعون، فأهلك فرعون وأغرقه.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالفرقان هو الحق الذي فرق الله –عز وجل– به بين موسى وفرعون يوم أن التقى موسى مع السحرة، {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف (١١٨)] ، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- واحتج له بأن الله -عز وجل- عطف بعد ذكر الكتاب بالضياء فقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}، فهذا العطف يقتضي المغايرة، فالضياء: التوراة، والفرقان هو الحق الذي أظهره الله -عز وجل- على يد موسى -صلى الله عليه وسلم- وبه تبيّن بطلان ما عليه فرعون.

فإذا فسر الفرقان بالكتاب يكون قوله: {وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} من أوصاف التوراة، والعطف يقتضي المغايرة، لكن هذا ليس دائماً، فأحياناً ينزل تغاير الأوصاف منزلة تغاير الذوات، فتأتي الأوصاف لموصوف واحد تارة بالعطف بالواو، وتارة من غير عطف، ومن أقرب الأمثلة قوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى: (١-٢)] من غير عطف، ثم قال: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى: (٣-٤)] بذكر حرف العطف.

وعلى كل حال الآية تحتمل الأقوال كلها، وقد سمى الله –تبارك وتعالى- القرآن بالفرقان كما سمى التوراة فرقاناً، وقد قال الله تعالى: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} [سورة آل عمران: (٢ - ٤)].

ثم وصفهم فقال: {الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ} كقوله: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْب وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [سورة ق: (٣٣)]، **وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}** [سورة الملك: (١٢)]، **{وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ}** [سورة الأنبياء (٤٩)]، أي: **خائفون وجلون.**

قوله: **{الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ}**، قال بعض أهل العلم في معنى الغيب، أي: يخشونه في حال غيبتهم عن الأنظار، فكما أنهم يراعون حقوق الله –عز وجل- وحدوده في حال الشهادة بمرأى من الناس، فكذلك هم يخافونه في حال خلوتهم، وهو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [سورة البقرة: (٣)]، وقال بعض أهل العلم: الله من الغيب والملائكة والجنة والنار، فالمؤمنون يؤمنون بهذا كله.

ثم قال تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٠)] **يعني: القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد {أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} أي: أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟.**

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}

[سورة الأنبياء: (٥١-٥٦)].

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم -عليه السلام- أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [سورة الأنعام: (٨٣)] **والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي من قبل ذلك.**

قال كثير من المفسرين: إن قوله: **{مِن قَبْلُ}** يعني: قبل النبوة، وإن تكسيره للأصنام وقع في صغره، وهو في السادسة عشرة من عمره، وقال بعضهم: في السادسة والعشرين، والقول بأن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– كسر الأصنام قبل النبوة هو قول عامة المفسرين.

وقال بعض أهل العلم إن الله –عز وجل- لما ذكر خبر موسى وهارون ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فقال: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ}** أي: قبل موسى وهارون، فإنه متقدم عليهما كما هو معلوم، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم، ولعله أقرب؛ لأنه لا يوجد دليل يدل على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كسر الأصنام وهو في الصغر.

وقوله: {وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ} أي: وكان أهلا لذلك.

قول ابن كثير في قول الله – تبارك وتعالى -: **{وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ}** "أي: **وكان أهلا لذلك**"، وقال البغوي: أهل للهداية والنبوة، وقول ابن كثير لا يقتضي هذا، ومعناه أن الله عالم به أنه أهل لإيتائه الرشد قبل النبوة.

وقال بعض أهل العلم: **{وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ}** يعني: أهل لإيتائه الرشد، وقال بعضهم: **{وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ}** أي: بأوصافه وأحواله وكمالاته، وما أعطاه الله -عز وجل- فهو أهل لما منحه الله -عز وجل- من النبوة، والخلّة، ولا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أكمل قومهم، وقد اصطفاهم الله من بين سائر الناس، فقال –عز وجل-: **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [سورة الحـج:

(٧٥)] فالنبوة منحة إلهية، وفضل من الله -عز وجل- يوليه من شاء من عباده عن علم وبصر، {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ} [سورة القصص: (٦٨)]، خلافاً لقول الفلاسفة: إن النبوة تحصل بالعلم والعمل، يعني بالتهذيب والتزكية للنفس حتى يصل الإنسان إلى مرتبة عالية يستحق معها النبوة، وهذا لا شك أنه كفر، ولا يجوز، ولما قال الإمام ابن حبان -رحمه الله-: النبوة العلم والعمل، فقد كاد أن يقتل؛ لأنه فُهم منه أنه يقول بقول الفلاسفة وهو لا يقصد هذا.

ثم قال: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٢)] هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله -عز وجل-، فقال: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} أي: معتكفون على عبادتها.

التماثيل معروفة، وهي ما يصنع من المصنوعات بالأحجار والأخشاب والمعادن وغير هذا مما يحاكى به صنع الله -عز وجل-، والوثن أعم من ذلك، سواء كان ممثّلاً أو كان شجرة أو قبراً أو حجراً.

قوله تعالى: {الَّتِيَ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} اللام في "لها"، للاختصاص على قول بعض أهل العلم، والتقدير "عاكفون لها"، وقدم الجار والمجرور للاختصاص.

وقال: {لَهَا عَاكِفُونَ} ولم يقل: عليها عاكفون؛ لأن كلمة عكف تتعدى بعلى، عكف على كذا.

و{عَاكِفُونَ} مضمن معنى عابدون.

قوله: {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٣)]، لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُلّال، ولهذا قال: {قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنبياء: (٥٤)] أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ} [سورة الأنبياء(٥٥)]، يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقاً فيه؟، فإنا لم نسمع به قبلك، {قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٦)] أي: ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء، {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٦)]، أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

مجادلة إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– لقومه ودعوته لهم إلى توحيد الله، وتأييد الله –تبارك وتعالى– له بمعجزة عظيمة حيث ألقي في النار ولم يحترق، كل ذلك يدل أن هذا حصل بعد النبوة، ولم يكن عمره ستة عشر عاما كما قال بعضهم، ويؤيد هذا قوله –تبارك وتعالى-: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة العنكبوت(٢٦)].

قوله: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٧ - ٦٣)].

ثم أقسم الخليل -عليه السلام- قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم.

وكان لهم عيد يخرجون إليه، وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس قال: {وَتَاللّه لأكيدَنّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلّواْ مُدْبِرِينَ} فسمعه ناس منهم.

قوله: {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} الذكر يفهم بحسب السياق، فتارة يكون الذكر بالخير وبالثناء، وتارة يكون بالسوء والعيب، وذكره لأصنامهم هو قوله: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم}.

وقد أجروا على آلهتهم ما يجرى على العقلاء من الضمائر، فقالوا: {يَذْكُرُهُمْ}.

وقوله: {بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}، أي: على العيد، وبعضهم قال: تولوا مدبرين من عبادتها، فيَخلو المكان.

والمجادلة التي حصلت بين إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– وبين قومه كانت قوية، أما من قبل فكان كلام إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– في غاية اللطف والرفق.

فالرفق من الداعية يكون في مواطن، حيث ينفع الرفق ويُرجى القبول، وإلا فلا بأس من استعمال الشدة، ولهذا تلطف موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون، وأمره الله بهذا فقال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طـه(٤٤)]، ثم لما لم ينفع معه اللين ويئس منه، قال له: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} [سورة الإسراء (١٠٢)].

وقوله: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً} أي: حطاماً كسرها كلها.

الجذاذ القطع والكِسَر المحطمة، فقد تحولت الأصنام إلى قطع متناثرة.

{إلا كبيراً لهم} يعني: إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [سورة الصافات: (٩٣)].

وقوله: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

الضمير في قوله –تبارك وتعالى-: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} يرجع إلى كبير الأصنام، وقد وضع إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– القدوم عند كبير الأصنام من أجل أن يبين لقومه أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها، فيرجعون إلى كبير الأصنام فيسألونه عن سبب تكسير الأصنام.

وقال بعضهم: الضمير في قوله: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} يرجع إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

وقال بعضهم: الضمير يرجع إلى الله، وهذا بعيد، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الضمير يرجع إلى الصنم الكبير وهو أقرب مذكور.

قوله: {قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء(٥٩)] أي: **حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها {قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} أي: في صنيعه هذا، {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}** [سورة الأنبياء (٦٠)] أي: **قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: {سَمِعْنَا فَتًى} أي: شاباً، {يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}.**

يستدل القائلون بأن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– ألقي في النار قبل النبوة -وكان صغيراً وقتها- بقوله تعالى: {سَمِعْنَا فَتًى}، وقالوا إن الفتى هو الشاب الصغير، ولكن هذا غير لازم؛ لأن العرب تعبر بالفتى عن الرجل المكتمل القوى، ومنه قول الشاعر:

في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلُهم***ببطن مكةَ لمّا أسلموا زُولوا

وهذا كثير في كلام العرب، في شعرهم ونثرهم، ولهذا يقال أيضاً عن المملوك: إنه فتى، ومنه قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)[٣].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يجري هلاك هذه الأمة على يديْ أغيلمة من قريش))[٤]، وليس المقصود بالأغيلمة أنهم صبيان صغار، بل رجال كبار، ولكن قيل ذلك تحقيراً لهم، وأكثر أهل العلم على أن المقصود بهذا "يزيد" وغيره، ولهذا كان أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- يستعيذ بالله من أن يدرك سنة ستين، فمات سنة ثمان وخمسين وقيل: تسع وخمسين.

وقوله: {قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىَ أَعْيُنِ النّاسِ} أي: على رءوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم -عليه السلام- أن يبيّن في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام. التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يُطلب منها شيء من ذلك؟.

قوله –تبارك وتعالى-: {قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىَ أَعْيُنِ النّاسِ} أي: على مرأى منهم، وعلى رءوس الأشهاد.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ}، قال بعض أهل العلم: لعلهم يشهدون عقوبته، فيكون ذلك رادعاً لكل من تسول له نفسه أن يفعل فعله.

وقال بعضهم: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} أي: يشهدون عليه بأنه الذي كسر الأصنام، وقال بعضهم: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} أي: يشهدون عليه بأنه ذكرها، والآية تحتمل كل المعاني المذكورة.

قوله: {قَالُوَاْ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} **يعني: الذي تركه لم يكسره {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ}، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.**

لما جعل الكفار آلهتهم بمنزلة العقلاء، قال لهم إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ} من باب المجاراة لهم، والمخاطبة للسامع بحسب اعتقاده، ومن المفترض أن يقول لهم: "فاسألوها إن كانت تنطق"، فهذا يقال لغير العقلاء.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن إبراهيم -عليه السلام- لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وقوله: {إِنِّي سَقِيمٌ} [سورة الصافات: (٨٩)]، **قال: ((وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً**

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢ / ٩٠١)، برقم (٢٤١٤)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٤ / ١٧٦٤)، برقم: (٢٢٤٩).

[٤] - رواه أحمد (١٦ / ٤٣١)، برقم (١٠٧٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وحسنه محققو المسند.

فأتى الجبارَ رجلٌ فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له، فأُرسل فأهوى إليها، فتناولها فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأُخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها، انفتل من صلاته، وقال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر))[٥].

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

يا بني ماء السماء، قال بعضهم: يعني العرب؛ لخلوص نسبهم وصفائه، وقال بعضهم: المراد بذلك العرب؛ لأنهم أهل مواشٍ فيتبعون القطر فترعى دوابهم مما تنبته الأرض ، فقيل لهم ذلك، وقال بعضهم: قصد بذلك الأنصار نسبة إلى جدهم عامر بن حارثة، فالأوس والخزرج جميعاً يرجعون إلى عامر بن حارثة، وكان يلقب بماء السماء.

قوله: {فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنبياء: (٦٤-٦٧)].

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم -عليه السلام- حين قال لهم ما قال: {فَرَجَعُواْ إِلَىَ أَنفُسِهِمْ} أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: {إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، {ثُمّ نُكِسُواْ عَلَىَ رُءُوسِهِمْ}.

قول العلامة ابن كثير –رحمه الله– في معنى قوله –تبارك وتعالى-: {فَرَجَعُواْ إِلَىَ أَنفُسِهِمْ} "أي: **بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم**" محتمل، ويحتمل معنى آخر ولعله الأقرب -والله أعلم- أن "الفاء" تدل على التعليل وترتيب ما بعدها على ما قبلها {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ} أي: أدركوا أن هذه لا تنفع ولا تضر ولا تصرف عن نفسها، ولا تدفع، فكيف تصلح للعبادة؟، فأفاقوا، وحصل مقصود إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- لما ترك الكبير، فأدرك الكفار الخطأ الذي وقعوا فيه، من عبادة هذه الأصنام، {فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ} فيكون هذا مرتباً على ما قبله.

قوله: {فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} يعني: مخطئون، وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٣ / ١٢٢٥)، برقم: (٣١٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل -صلى الله عليه وسلم- (٤ / ١٨٤٠)، برقم (٢٣٧١).

قوله: {ثُمّ نُكِسُواْ عَلَىَ رُءُوسِهِمْ} أي: ثم أطرقوا في الأرض، فقالوا: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ}، قال قتادة: أدركت القومَ حيرةُ سوء، فقالوا: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ}، ولهذا قالوا له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ} فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: {أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرّكُمْ} أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ {أُفّ لّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟، فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [سورة الأنعام: (٨٣)] **الآية.**

قوله: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ}، القول بأن معنى هذه الآية: ثم أطرقوا في الأرض، أي نَكّسوا رءوسهم متفكرين فيه بعد والله أعلم؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: ثم نَكَّسوا رءوسهم، أو نَكَسوا رءوسهم، لكنه قال: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ} وهذا يعبر به عمن رجع إلى غيه، وكابر، وعاند، ولم يقف عند دلائل الحق، فرجع إلى جهالته، فشبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، فتحولوا هذا التحول وانقلبوا، رجعوا بعدما حصلت لهم الإفاقة، وكابروا وعاندوا ورجعوا إلى جهلهم، فأرادوا أن ينتصروا لهذه الآلهة، {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ} [سورة الأنبياء:٦٨-٧٠].

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: {حَرِّقُوهُ وَانصُرُوَاْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}، فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبة من الأرض وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم -عليه السلام- في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد -قال شعيب الجبائي اسمه هيزن- فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"، كما رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد -عليهما السلام- حين قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [سورة آل عمران:١٧٣]"[١].

وقال سعيد بن جبير: ويروى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً قال: لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله -عز وجل-: {يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو العالية: لولا أن الله -عز وجل- قال: {وَسَلَامًا} لآذى إبراهيمَ بَرْدُها.

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دآبة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ، وقال الزهري: أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقتله، وسماه فويسقاً.

وقوله: {وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ} أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض"، هذا الكلام متلقى عن بني إسرائيل، تنذر أنها إذا شفيت تحمل الحطب.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [سورة آل عمران:١٧٣]، برقم (٤٢٨٨).

قال: ثم جعلوه في جوبة، الجوبة تقال للحفرة، وتقال للفرجة بين الجبال، وتقال أيضاً للمكان المتسع من الأرض الذي ليس فيه بناء، وللمكان المنخفض من الأرض، كل ذلك يقال له: جوبة، الحفرة المستديرة الواسعة يقال لها جوبة. وأضرموها ناراً، على كل حال، قوله: "**إن الذي أشار عليهم بهذا رجل من أعراب فارس من الأكراد**"، إلى آخره، وإنه خُسف به، لا يوجد ما يدل على ذلك مما يعتمد عليه، وبعضهم يقول غير هذا، وهكذا أيضاً في أنه لم يبق نار إلا انطفأت، وأن كل الدواب كانت تطفئ النار عن إبراهيم –صلى الله عليه وسلم-، كل هذا لا دليل عليه، إلا أنه ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم –عليه الصلاة والسلام[2].

{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ * وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة الأنبياء:71-75].

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها.

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} قال عطاء ومجاهد: أعطية، وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وقتادة والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [سورة هود:71]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة الصافات:100] فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، {وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ} أي: الجميع أهل خير وصلاح، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً} أي: يقتدى بهم، {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}: أي يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ} من باب عطف الخاص على العام، {وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ} أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

قوله –تبارك وتعالى-: **{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}**، هنا الفعل "نجّى" عدي بإلى، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{وَنَجَّيْنَاهُ}** مضمن معنى أخرجناه، وإن فعل أخرج يعدى بـــ"إلى"، ويقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في قوله تعالى: **{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}** "**إلى بلاد الشام**"، وهذا هو المشهور، وهو الذي اختاره ابن جرير، وبعضهم يقول: إلى بيت المقدس، وبعضهم يقول: إلى مكة، وهذا غير صحيح؛ لأن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– حينما هاجر من أرض العراق لم يذهب إلى مكة، وإنما ذهب إلى بلاد الشام، ثم جاء إلى مكة بعد ذلك حينما وضع فيها هاجر وابنه إسماعيل، وقوله –تبارك وتعالى-: **{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}**، يقول الحافظ: فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، وأصل النافلة هي الزيادة على الأصل، فبعض أهل العلم يقول: إذا كان المقصود بها الزيادة على الأصل، وأن الله –تبارك وتعالى– تفضل عليه وأعطاه وزاده، فهذا يمكن أن يكون المقصود به إسحاق

---

2 – رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: **{وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}** [سورة النساء:125]، برقم (3180)، ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، برقم (2238).

ويعقوب، ويمكن أن يكون المراد به يعقوب، ولا دليل على تحديد المراد، فالله -عز وجل- أخبر أنه قال: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}، فيمكن أن يكون {نَافِلَةً} يرجع إلى من ذكر وهو إسحاق ويعقوب -عليهما الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون المراد به يعقوب، فكل واحد من ولديه نافلة، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فيحتمل هذا ويحتمل هذا، فالله وهبه هؤلاء الأولاد، تفضل بهم عليه، وبعض أهل العلم يقول: بما أن النافلة هي الزيادة على الأصل، فولد الولد يقال له نافلة، يعني أعطاه ما سأل، هو سأل ربه أن يهبه ولداً، فوهبه إسحاق وزاده عليه ما لم يسأل وهو يعقوب، قالوا: ولد الولد نافلة، وهذا ذهب إليه طائفة من أهل العلم، وممن رجحه وانتصر له من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

قال: {وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} قال: "**أي الجميع أهل الخير والصلاح**"، الجميع من ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويحتمل أن يكون المراد {وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} يعني: إسحاق ويعقوب.

وقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً} أي: يقتدى بهم، ويحتمل أن يكون {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يدعون إلى الله بإذنه**"، ويحتمل أنهم يدعون بما أنزل الله عليهم وأوحى عليهم من الأمر والنهي وغير ذلك مما أوحاه -تبارك وتعالى.

ثم عطف بذكر لوط -عليه السلام-، وهو لوط بن هاران بن آزر، كان قد آمن بإبراهيم -عليه السلام- واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦] فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: {وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}.

قوله عن لوط -عليه الصلاة والسلام-: {وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً} بعض أهل العلم يقول: المراد بالحكم: هو النبوة، وهنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً**"، وبعضهم يقول: الحكم هو الفصل بين الخصومات، وبعضهم يقول: إن المعنى أعم من ذلك؛ لأن أصل الحكم يأتي بمعنى المنع، فآتاه الله -عز وجل- ما يمنعه من الشطط والخطل في الرأي والحكم، والنظر، وذلك بالنبوة والفهم الصحيح الذي يقع معه الصواب، ويحترز فيه من الخطأ، هكذا ذكر بعض أهل العلم فحملها على معنىً أوسع، استناداً إلى أصل المعنى اللغوي، وممن قال بأن الحكم هو النبوة القرطبي -رحمه الله.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ} إلى أن قال: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} بعضهم يقول: المقصود بذلك أنه أنجاه من هؤلاء الذين أهلكم، وبعضهم يقول: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا} أي: النبوة، وبعضهم يقول: يعني الإسلام، وبعضهم يقول: الجنة، وابن جرير -رحمه الله- ذهب إلى أن المقصود: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا} أي: أنجاه من هؤلاء القوم، والله أعلم.

{وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الأنبياء:٧٦-٧٧].

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح -عليه السلام- حين دعا على قومه لما كذبوه {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} [سورة القمر:١٠]، {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن

تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [سورة نوح:٢٦-٢٧]، ولهذا قال ههنا: {إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ} أي: الذين آمنوا به، كما قال: {وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} [سورة هود:٤٠].

وقوله: {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله -عز وجل- فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه.

وقوله: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ} أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم {الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدٌ، كما دعا عليهم نبيهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ} يعني: من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام-، وقال: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} الكرب يقال لأقصى الغم الذي يأخذ بالنفس، ويقول: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ} "أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم"، {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ}، ما قال: على القوم، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى أن "نصرناه" مضمن معنى نجّيناه، والفعل "نصر" يعدى بعلى، نصره على كذا، فإذا ضمن معنى فعل آخر فإنه يعدى بتعديته، والله أعلم.

{وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} [سورة الأنبياء:٧٨-٨٢].

قال أبو إسحاق عن مرة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: كان ذلك الحرث كرماً قد تدلت عناقيده، وكذا قال شريح، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: النفش الرعي، وقال شريح والزهري وقتادة: النفش لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهمل بالنهار.

طالب: أو بالتحريك رعاك الله.

قوله: "**كان ذلك الحرث كرماً**"، يعني هذا لعله مما تلقي عن بني إسرائيل، وقد قيل غير هذا، ولا فائدة من تحديده، والحرث هو الزرع.

يقول: "**قال ابن عباس: النفش الرعي**"، {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ} النفش يقال: نفشت يعني تفرقت وانتشرت، وذلك إذا كان بالليل كما قال بعضهم: من غير راعٍ، انتشار الغنم بالليل من غير راعٍ يقال له: نفش، وبعض من يتكلم على الإعجاز يمثله بهذا، يقول: إن القدر المعجز من القرآن -كما هو معلوم- أقصر سورة؛ لأن الله تحداهم بسورة، واختلف العلماء هل يحصل الإعجاز بقدرها من الآيات أو لا؟، لكن يبقى أن كل لفظة لا يمكن أن تضع مكانها لفظة أخرى تدل على دلالاتها من كل وجه وتقوم مقامها، وتكون في الحسن والبلاغة

والفصاحة في موقعها، لهذا يقولون: كلمة "نفشت" هنا لو أنك قلبت القواميس العربية لتأتي بكلمة مكانها تؤدي ما أدته هذه اللفظة في الأسماع والأفهام لم تجد لفظة تقوم مقامها.

وروى ابن جرير عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ}، قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} وكذا روى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما.

للعلماء كلام كثير حول هذا الحكم، هل كان من باب الاجتهاد أو كان بوحي، وهل كان كل واحد من الحكمين صواباً؟ فالذين يتكلمون على مسائل الاجتهاد وأن المجتهد يكون محموداً ولو أخطأ إذا استفرغ وسعه واتقى الله -عز وجل-، يحتجون بهذه الآية، إلى غير ذلك مما يحتجون به، والذين يقولون بأن كل مجتهد مصيب، يحتجون بهذه الآية، فيقولون: أصاب داود وأصاب سليمان -عليهما الصلاة والسلام-، والذين يقولون: المصيب واحد، قالوا: الذي أصاب هو سلميان -عليه الصلاة والسلام-، وهذه المسألة معروفة، والصحيح أن المصيب واحد، إلا في ما كان الخلاف فيه من باب التنوع، والذي يسمى بالخلاف الصوري، وكانت الأوجه التي تذكر كل ذلك من الأوجه المشروعة، كالصفات والصيغ والتشهدات، والأذكار التي تقال في الصلوات أو في أوقات أخرى أو نحو هذا مما ورد عن الشارع، فهذه وما شابهها كل قول فيها صواب إذا كان ذلك قد ورد عن الشارع، أما الخلاف الحقيقي الذي يقال له: خلاف التضاد فالمصيب واحد، لكن الذي اجتهد واستفرغ وسعه قد أصاب بالاجتهاد، واستفراغ الوسع لا الوقوع على الحق في المسألة المعينة، ومن أهل العلم من يقول بأن الحكم الذي وقع من داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام- كان بوحي، وأن الحكم الذي حكم به سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان ناسخاً للحكم الذي حكم به داود، قالوا: لأن الله لم يُخطّئ داود وإنما أثنى عليهما فقال: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}**، قالوا: هؤلاء أنبياء، وهؤلاء لعلهم قالوا ذلك بناء على أصل عندهم وهو مسألة معروفة هل يقع الخطأ من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الاجتهاد أو لا؟ فالذين يمنعون من هذا يتأولون بهذه التأويلات، والذين يقولون: إنه يقع منهم الخطأ في الحكم، لا في تبليغ الوحي، فهم معصومون -وهذا هو الأقرب- يقول: الذي أصاب هو سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهذه المسألة يمكن أن يستدل على أن الذي وقع فيها كان باجتهاد من قوله تعالى: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}** فهذا مما يتصل بالفهم والاستنباط، وذلك يرجع إلى الاجتهاد، وبعضهم يقول: كل واحد من الحكمين كان صحيحاً، ويصورون المسألة باعتبار أن الحكم الذي حكم به داود -صلى الله عليه وسلم-، حكم بالغنم لهؤلاء بدلاً مما فاتهم من زروعهم وتلف، قالوا: إن الذي تلف كان بقدر قيمة الغنم، أو يقاربه، وكأنه لربما تعذر بيعها، أو رضي أهل الزرع بأخذ الغنم بدلاً من قيمتها، قيمة المتلف يعوض بالمال، فحكم بها إليهم، بهذا الاعتبار، وأن هذا حكم صحيح، وأما حكم سليمان -عليه الصلاة والسلام- فإنه كان مساوياً لما فاتهم، الغنم هذه بحيث تؤخذ ويستفيدون من ألبانها ويجزون أصوافها، تجز الأصواف، ثم في هذه المدة أولئك

يشتغلون بالزرع ويصلحونه حتى يعود إلى حالته ليلة نفشت فيه هذه الأغنام، ثم يدفعونه إلى أصحابه، فقالوا: إن هذه المدة التي ينتفع هؤلاء فيها بالألبان وجز الأصواف ما يأخذونه فيها يعادل ما فاتهم من زروعهم وتلف عليهم، فقالوا: هذا مساوٍ، والأول حكم لهم بما هو مقارب، فهذا صواب وهذا صواب بهذا الاعتبار، ولا إشكال أن يقال: إن حكم سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان أدق، والله -عز وجل- قال: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}**، فهمناها يعني المسألة أو القضية، **{وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}**.

وقوله: {فَفَهّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً} روى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية لما استقضي أتاه الحسن، فبكى، فقال: ما يبكيك؟

يعني الذي بكى هو إياس.

فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان -عليهما السلام- والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال: -يعني الحسن-: إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة ص:٢٦]**، وقال: {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}، وقال: {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}.**

كلام الحسن -رحمه الله- يدل على أنه يرجح أن داود -عليه الصلاة والسلام- ما أصاب في الحكم في هذه القضية، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}**، "كُلًّا" يحتمل أن يكون يرجع إلى داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام-، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: إن ذلك يرجع إليهما وإلى الأنبياء المذكورين قبلهما، **{وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}**، والحكم بعضهم فسره بالنبوة وهو اختيار ابن جرير.

قلت: أما الأنبياء -عليهم السلام- فكلهم معصومون مؤيدون من الله -عز وجل.

قوله: "**كلهم معصومون**" يعني في أمر البلاغ، أما ما عدا البلاغ فليس عندنا دليل على هذا، والله -عز وجل- عاتب نبيه -صلى الله عليه وسلم- في قضية الأسرى فقال: **{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ}** [سورة الأنفال:٦٧]، وذلك لما شاور النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر وعمر، في غزوة بدر، فكان رأي عمر -رضي الله عنه- هو الصواب، وهكذا في عدد من القضايا، لكن لربما يكون ذلك قبل نزول الوحي عليه فيها، وكذلك فيما يتعلق بمسألة التحريم **{لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** [سورة التحريم:١]، القضايا التي عاتب الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- عليها، كان هذا قبل نزول حكم التحريم، وهكذا في قوله -صلى الله عليه وسلم- لخولة بنت ثعلبة لما ظاهر منها زوجها وهو أوس بن الصامت، فالنبي -صلى الله عليه وسلم-

قال: ((ما أراكِ إلا قد بنتِ منه))[٣]، فكانت تردد عليه كلامها وهو يعيد عليها هذا حتى أنزل الله عليه: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}** [سورة المجادلة:١]، فهذا كان قبل نزول حكم الظهار، وهكذا في سائر القضايا، والله تعالى أعلم.

وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما: فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى))[٤]، وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء: "باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق"[٥].

يستعلم الحق يعني يعرفه، فالأم الحقيقية لا ترضى بقطع الولد، والثانية قد لا يهمها أمره، فترضى بذلك، ويذكر في خبر سليمان -عليه الصلاة والسلام- وفي أحكامه أشياء أخرى، مما يذكر في هذا أنه جاء رجال فشهدوا على امرأة حسناء جميلة راودوها عن نفسها فأبت، فجاء أربعة وشهدوا عليها بالزنا، أو أن كلبها يفجر بها، أو أنها تفجر بكلبها، فحكم عليها داود -عليه الصلاة والسلام- بالرجم، وأن سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان صغيراً، وهو يلعب في مسألة كهذه، ففرقهم وجعل يسأل كل واحد على حدة، ما لون الكلب؟ فواحد قال: أبقع، وواحد قال: أحمر، وواحد قال: أبيض، وواحد قال: أسود، فعرف أنهم ما أصابوا، ففهم سليمان -عليه الصلاة والسلام- ذلك، لكن الحديث المخرج في الصحيح يكفي في بيان فضل سليمان -عليه الصلاة والسلام- وما آتاه الله -تبارك وتعالى- من العلم والحكم، والكلام إنما هو في أهل الكمالات، يعني الذين بلغوا درجة الكمال، الكمال يتفاوت.

وقوله: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ} الآية، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: ((لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود)) قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً[٦].

---

٣ - رواه ابن الجارود في المنتقى، كتاب النكاح، برقم (٦٨٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابنا، برقم (٦٣٨٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، برقم (١٧٢٠).

٥ - والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٥٩٦٠)، وبوب عليه باب نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله أو أجلّ منه، في كتاب القضاء.

٦ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، برقم (٤٧٦١)، من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود))، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣)، وقولة الأشعري -رضي الله عنه- في آخر الحديث: "يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً" ليست في الصحيحين وإنما رواها الإمام البيهقي في السنن الكبرى برقم (٤٤٨٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٧١٩٧)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده على شرط مسلم.

قوله: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوِدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ} هذا يحمل على ظاهره، أنه تسبيح حقيقي، ولا يفسر بغير هذا، فلا يفسر بأنه مجازي، يعني بعضهم يزعم أن الطير كانت تقف فوقه والجبال تسير معه، ففسر ذلك بالسير، وأن من رأى ذلك سبح الله، أي أن التسبيح صادر من الآخرين، وهذا خلاف الظاهر، {الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ}، والله -عز وجل- قد يعطي هذه المخلوقات إدراكات، كقوله تعالى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء:٤٤]، فهو تسبيح حقيقي، {وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))[٧]، وحنين الجذع، وغير هذا من الأدلة.

وقال سبحانه: {يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ}، والله -تبارك وتعالى- قال: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠] فالطير تسبح، والجبال تردد معها هذا التسبيح.

قوله -تبارك وتعالى-، بعد ما ذُكر {وَكُنَّا فَاعِلِينَ}، بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يفسر ذلك {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} أي: قد قضينا ذلك وقدرناه، يعني من تسبيح الجبال والطير، فسخرها هذا التسخير في أم الكتاب، {وَكُنَّا فَاعِلِينَ}، وبعض أهل العلم يقول غير هذا، والعلامة الشنقيطي -رحمه الله- يقول: "وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوِدَ الْجِبَالَ} أي: جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح، والظاهر أن قوله: {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} مؤكد لقوله: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوِدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ}، والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب، خارق للعادة، مظنة لأن يُكذّب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} أي: قادرين على أن نفعل هذا، وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك، وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط؛ لأن تأويل وكنا فاعلين بمعنى قادرين، بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى.

وقال أبو حيان: {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} أي: فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن {وَالطَّيْرَ} لمن نخصه بكرامتنا، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى"[٨].

وقوله: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} يعني: صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً.

قوله: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ} اللبوس بمعنى الملبوس كالركوب بمعنى المركوب، والحلوب بمعنى المحلوب، واللبوس يقال للسلاح بأجمعه، الرماح والسيوف وما إلى ذلك، والمراد هنا الدروع خاصة؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} [سورة سبأ:١١]، قال: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} [سورة سبأ:١٠-١١]، أي: الدروع السابغة الطويلة، {لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ} يعني في الحرب، فتقي الإنسان ضرب السيوف وطعن الرماح، وكذلك أيضاً لا تصيبه، أو لا تصيب منه النبل.

وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة -رضي الله عنه.

٨ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٢٣٢).

السرد نسج الدروع والزرد، ويقال للذي يصنعها: السرّاد والزرّاد، {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} يعني لا توسع الحلقة.

أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة.

هذه الحلق تكون في الدروع، كل واحدة مرتبطة بالثانية بمسمار، فإذا كانت الحلقة واسعة، أو المكان الذي ينفذ منه المسمار واسعاً تقلق تتحرك، وإذا كانت ضيقة يمكن أن تنكسر هذه الحلقة.

ولهذا قال: {لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} يعني في القتال، {فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} أي: نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود، فعلّمه ذلك من أجلكم.

{لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} هذه قراءة حفص وابن عامر، {لِتُحْصِنَكُمْ} يعني: هذه الصنعة أو هذه الدروع تحصنكم من بأسكم، اللبوس بتأويل الدرع، الدرع مؤنثة، {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم} أي: لتحصنكم الصنعة أو اللبوس، باعتبار أنه بمعنى الدرع، واللبوس مذكر والدرع مؤنثة، لتحصنكم هذه الدروع من بأسكم، قراءة الباقين بالياء {لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} ليحصنكم، يعني اللبوس، وبعضهم يقول: يرجع إلى داود -عليه الصلاة والسلام- "ليحصنكم"، أو إلى الله -عز وجل- وفيه بعد، لكن قراءة شعبة عن حفص {لِنُحْصِنَكُم} فهذه راجعة إلى الله -عز وجل- كما هو ظاهر.

وقوله: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تتمة تفسير قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨١] **الآية.**

وقوله: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} أي: وسخرنا لسليمان -عليه السلام- الريح العاصفة، {تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} يعني: أرض الشام، {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجُند، ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ} [سورة ص:٣٦]**، وقال تعالى: {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}** [سورة سبأ: ١٢]**.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً}** العاصفة أي شديدة الحركة والسرعة، وهذا لا يعارض قوله -تبارك وتعالى-: **{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ}** فهي من حيث القوة عاصفة، ومن حيث كونها طيّعة فهي كما قال الله -عز وجل-: **{رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ}**، ومن أهل العلم من يقول: إنها تكون عاصفة في أولها من أجل أن ترفعه ثم بعد ذلك تكون بالصفة الأخرى **{رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ}**، وأما ما ذكر من أن له بساطاً من خشب، ونحو هذا فمثل هذا غالباً يكون مما تلقي عن بني إسرائيل، فالله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ} [سورة الأنبياء:٨٢] **أي: في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، {وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ} أي: غير ذلك.**

قوله: **{دُونَ ذَلِكَ}** يعني غير ذلك، مثل **{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ}** [سورة سبأ:١٣].

كما قال تعالى: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [سورة ص:٣٧-٣٨]**، وقوله: {وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}.**

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **{وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}** يعني: من أن ينالوه بسوء، تحتمله الآية، وتحتمل أن يكون المراد بذلك أن الله قد حفظ أعمالهم وأعدادهم وكل ما يتعلق بهم، ويحتمل أن يكون الله -تبارك وتعالى- أراد بذلك أنه قد حفظ هؤلاء فلا يخرجون عن أمره، ولا يتمردون

عليه، ويحتمل أنهم لا يفسدون ما عملوا، وقد قيل: إنهم كانوا يبنون له في النهار، ثم يخربونه بالليل، وإنما الله -تبارك وتعالى- يمنعهم من هذا، فلا يفسدون ما عملوه، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكرها أهل العلم، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الله قد حفظ أعدادهم وأعمالهم وأحصاها، وكل هذه المعاني محتملة، والله أعلم.

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [سورة الأنبياء:٨٣-٨٤].

يذكر تعالى عن أيوب -عليه السلام- ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية، فابتلى في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل))[1] وفي الحديث الآخر: ((يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه))[2]، وقد كان نبي الله أيوب -عليه السلام- غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب -عليه السلام- بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له أحسنَ الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخلت ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرّغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني، قال: فلقي إبليس من ذلك منكراً، قال: وقال أيوب -عليه السلام-: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي: يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبي حاتم[3].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**، هذا ليس من باب الشكاية وقلة الصبر والتضجر من المرض وإنما يدعو ربه، وهذا من باب إظهار الافتقار إلى الله -جل جلاله-، وإلا فهو كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا}** [سورة ص:٤٤] وهذا الضر: في كتب التفسير أقوال كثيرة جدًّا في هذا المرض الذي أصابه، ومدته، وتفاصيل ذلك، وذلك مما تلقي عن بني إسرائيل، ولا حاجة للتطويل به، والمُدد التي يذكرونها، المدة التي قضاها يذكرون أقوالاً في غاية التباين، وعلى كل حال كما أخبر الله -عز وجل- أنه مسه الضر، وفي الآية الأخرى: **{مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}** [سورة

---

١ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصبر على البلاء، برقم (٢٣٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند برقم (١٤٨١)، وقال محققوه: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٩٦).

٢ - رواه أحمد في المسند برقم (١٤٨١)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في تحقيقه كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٢).

٣ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/٣٣٤)، برقم (١٤٥٥٩).

ص:٤١]، وهذا لا يعارض الآيات والنصوص الدالة على أن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا، فإنه لا يتسلط على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- التسلط الذي يضلهم به، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، أما ما يقع على الأجساد من المرض واللأواء والأذى ونحو ذلك، فهذا يمكن أن يقع وأن يتسبب به الشيطان، ولا إشكال في هذا، فيمكن أن يتسلط عليه شياطين الإنس أو شياطين الجن فيحصل له التأذي والمرض بسبب هذا، ولا حاجة للقول بأن المقصود: مسه الشيطان يعني بالوسوسة والخواطر السيئة، أو نحو ذلك.

قوله: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: قد جُرب أنه من قال هذا سبع مرات كشف الله ضره، لا سيما مع المعرفة بالله -تبارك وتعالى- وأنه الذي يكشف الضر وأنه أرحم الراحمين، لكن لم يرد هذا العدد في الكتاب ولا في السنة، وهل يكون ذلك من باب الرقية أو الدعاء المجرب؟، والدعاء لا يشترط أن يكون وارداً، والرقية هي من باب الطب، والطب الأصل فيه الإباحة، فإذا لم يشتمل على محرم فلا إشكال، إذا دلت التجربة على صحته، وفائدته، أما إذا كان يشتمل على محظور فلا، وفي الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره وقد صححه الشيخ الألباني والشيخ أحمد شاكر الذي يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له))[٤].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك))[٥]، أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} قد تقدم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: رُدوا عليه بأعيانهم، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً، وروي مثله عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة، وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا.

قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} فيه القولان المشار إليهما، هلك ماله وهلك أهله ولم يبق له إلا امرأته، فالله -عز وجل- يقول: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ}، بعض أهل العلم يقول: إن الله أحياهم له، وردهم عليه، وبعضهم يقول: إن من مات منهم فإنه لم يرجع، وإنما ما أبقاه الله -تبارك وتعالى- منهم كامرأته فهي أهله، وأعطاه الله -عز وجل- {وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} زاده، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٠٥)، وأحمد في المسند برقم (١٤٦٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٦٩٥).

٥ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/٣٣٦)، برقم (١٤٥٦٥)، وأحمد في المسند برقم (٨٠٣٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

قوله: {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} أي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به {وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} أي: وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسّوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}**، وقال في سورة ص: **{وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ}**[سورة ص:٤٣]، والعلماء -رحمهم الله- يقولون في هذا: إن التعقيب هنا في سورة الأنبياء بقوله: **{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}**، وفي سورة ص **{وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ}**، إذا جمعت بينهما فإن النتيجة تساوي أن العابدين هم أولو الألباب، أصحاب العقول، وبعضهم يرتب على هذا بعض المسائل يقول: لو أوصى رجل بماله لأعقل أهل البلد فإنه يعطى أعبد أهل البلد؛ لأن العابدين هم أولو الألباب، والمعنى الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: **{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}** أي: "**وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا**"، وهذا معنى عظيم، وهو أن ما وقع لأيوب -صلى الله عليه وسلم- من هذا البلاء الشديد فيه ذكرى للعابدين، ولأولي الألباب، وما يقع لأولياء الله -عز وجل- من الشدائد والمكاره والمصائب ليس ذلك لهوانهم عليه -جل جلاله-، وإنما هو ابتلاء ترفع فيه درجاتهم، ويكفر عن سيئاتهم، ويمحصهم الله -عز وجل- به لا لهوانهم عليه، **{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}**، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}** [سورة الأحزاب:٢٢]، فالمراد بهذا كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو من أحسن ما قيل في تفسيرها-: أنهم قصدوا بذلك **{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}** البلاء الذي يعقبه النصر، وذلك أن الله -عز وجل- قال: **{لَتُبْلَوُنَّ}** [سورة آل عمران:١٨٦]، وقال: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء}** [سورة البقرة:٢١٤] الآية.

{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ} [سورة الأنبياء:٨٥-٨٦]، وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل -عليهما السلام-، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس -عليه السلام-، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

قوله: "**وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء..**"، ذو الكفل قال بعض العلماء: إن ذا الكفل هو إلياس، وبعضهم يقول: هو يوشع بن نون، واختلفوا فيه هل هو نبي أو ليس بنبي، وأكثر المفسرين يقولون: إنه ليس بنبي، وإنه رجل من الصالحين، وبعضهم يقول: إنه كان على حال غير مرضية ثم تاب إلى الله، فقبل الله توبته، وبعضهم يقول: إنه كان رجلاً من الصالحين، قيل له ذلك لأنه تكفل إما لنبي أو لملِك من الملوك الصالحين، كان يعمل عملاً فتكفل به مِن بعده، تكفل بالقيام بهذا العمل فقام به على الوجه المطلوب، فقيل له ذلك، وقول الحافظ -رحمه الله- هنا: "**وتوقف ابن جرير**"، غير صحيح، فكلام ابن جرير -رحمه الله- واضح أنه ليس بنبي، ولا يظهر من كلامه أنه توقف في ذلك، لكن ابن جرير توقف هل قيل له ذلك؛

لأنه تكفل لنبي أو تكفل لملك من الملوك الصالحين بالقيام والنهوض بعمل كان يقوم به ذلك الملك أو ذلك النبي، هذا الذي ابن جرير لم يجزم به، لكنه يقول: ليس بنبي، والأقرب -والله أعلم- أنه نبي وهذا اسمه، أو عرف بهذا؛ لأن الله -عز وجل- ذكره ضمن هؤلاء الأنبياء فالأصل أنه منهم، والقول بأنه يوشع بن نون أو أنه إلياس يحتاج إلى دليل، فإن الله -عز وجل- ذكر إلياس بهذا الاسم، ويوشع بن نون هو الفتى الذي كان مع موسى -صلى الله عليه وسلم- الذي ذكر الله -عز وجل- خبره في سورة الكهف.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا}** بعضهم يقول: هي الجنة، أدخلهم الله -عز وجل- الجنة، وبعضهم يقول: المراد بالرحمة هنا النبوة، وبعضهم يقول: الخير، ولا شك أن الجنة هي رحمة الله -عز وجل- ((أنتِ رحمتي، أرحم بك من أشاء))[6]، والنبوة أيضاً رحمة كما قال الله -عز وجل-: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}** [سورة الزخرف:٣٢].

{وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧-٨٨].

هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة "ن"، وذلك أن يونس بن متى -عليه السلام-، بعثه الله إلى أهل قرية نِيْنَوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله -عز وجل- وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وسخالها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [سورة الأنبياء:٨٩].

وأما يونس -عليه السلام- فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [سورة الصافات:١٤١] أي: وقعت عليه القرعة فقام يونس -عليه السلام- وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر -فيما قاله ابن مسعود- حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً.

الله -عز وجل- أخبرنا أن الحوت التقم يونس -عليه السلام-، والأثر الذي نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه- أن الحوت جاء من البحر الأخضر أو أن الله قال له: لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، يحتمل أن يكون مما أخذ عن بني إسرائيل، ولا حاجة إليه، فهو بقي حياً بأمر الله -عز وجل- في بطن هذا الحوت، والله -عز وجل- ذكر خبره فقال: **{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: **{وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}** [سورة ق:٣٠]، برقم (٤٥٦٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، برقم (٢٨٤٦).

{مِنْ الْمُدْحَضِينَ} [سورة الصافات:١٣٩-١٤١] فقوله: {إِذْ أَبَقَ} يدل على أنه خرج بغير إذن الله -عز وجل-، والله -عز وجل- قال: {وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [سورة القلم:٤٨]، فنهاه أن يكون مثله، والله -تبارك وتعالى- هنا قال: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا} ذهب مغاضباً: قال بعض العلماء: ذهب مغاضباً لربه -تبارك وتعالى-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف كالحسن وسعيد بن جبير، ومن أهل العلم مثل النحاس، ومن المعاصرين الشنقيطي يوجه هذا فيقول: {إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا} الذين قالوا: مغاضباً لربه، قصدوا بذلك أنه مغاضب من أجل ربه، لا أنه غاضب ربه، وإنما ذهب مغاضباً من أجل ربه -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: ذهب مغاضباً لقومه وهذا قال به طائفة، وبعضهم يقول: ذهب مغاضباً لملك في ذلك الزمان، وهذا أضعف هذه الأقوال، وبعضهم يقول: {إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا} بمعنى أنه أصابته الأنفة مما حصل لقومه حينما أبوا أن يستجيبوا له، ثم بعد ذلك تركهم دون أن يأذن الله -عز وجل- له.

والذي يحصل به المقصود في فهم الآية هو كما أخبر الله -تبارك وتعالى- أنه ذهب مغاضباً، واستعجل في هذا الذهاب قبل أن يأمره الله -عز وجل- بمفارقتهم والخروج عنهم؛ لأن الله -عز وجل- قال: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}، والله -عز وجل- يقول: {وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}، ولذلك الله -عز وجل- يقول: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} [سورة الصافات:١٤٢]، يعني قد فعل ما يستحق عليه اللوم، وهذا دليل على أن الأنبياء غير معصومين من الصغائر التي لا تحط من قدرهم، ويمكن أن يمثل بمثل قصة آدم في الأكل من الشجرة، ولكن لا يصرون على ذلك، وإنما يتوبون فيرفعهم الله -عز وجل-، وتكون حالهم بعد الذنب أفضل من حالهم قبله، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {وَذَا النُّونِ} يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة.

قول الله -عز وجل-: {وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} يفسر قوله: {وَذَا النُّونِ} والنسبة عادة تكون لأدنى ملابسة، فقد ينسب الإنسان للبلد التي يقيم فيها وقد ينسب لشيء آخر لأدنى ملابسة، فلما التقمه الحوت قيل له ذلك، فيقال مثلاً: أصحاب الجنة، أصحاب النار، أصحاب الأعراف، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، نسبهم إليهم وأثبت لهم هذه الأخوة، فإن كانوا من المؤمنين وإلا فاشتراكهم في القبيلة أو البلد الواحد.

وقوله: {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً} قال الضحاك: لقومه.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يرجح أنه ذهب مغاضباً لقومه، وهذا هو الأليق والأقرب، إذ كيف يقع من نبي من الأنبياء أنه يذهب مغاضباً لربه -تبارك وتعالى-، ولكن سبق توجيه بعض أهل العلم لهذا أنه ذهب مغاضباً من أجل ربه، وبعضهم يقول: إن قوله: {مُغَاضِباً} هنا بمعنى أنه غاضب؛ لأن أصل المفاعلة تكون بين طرفين فأكثر تقول: المقاتلة، والمحادثة والمحاورة، والمُحاجّة، والمخاصمة، وما أشبه ذلك، لكن هذا ليس دائماً، فبعضهم يقول: هذا من هذا القبيل {ذَهَبَ مُغَاضِباً} حينما يقال: إنه ذهب مغاضباً لربه -تبارك وتعالى-، هذا الغضب واقع من طرف واحد، فيقولون: المقصود به أنه ذهب غاضباً، والأقرب -والله أعلم- أن المقصود به أنه ذهب مغاضباً لقومه، وخرج قبل أن يأذن الله -عز وجل- له.

{فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} أي: نضيق عليه في بطن الحوت، يروى نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} [سورة الطلاق:٧].

هذا قول الجمهور من المفسرين، **{أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}** أي: لن نضيق عليه، **{وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ}** أي: ضيق عليه رزقه، وذهب طائفة من أهل العلم -ومنهم أئمة في اللغة مثل الفراء والزجّاج وثعلب، وقال به بعض السلف أيضاً- إلى أن قوله: **{أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}** من التقدير بمعنى أن لا نقضي عليه بالعقوبة، ويعبر فيه بمثل هذا، والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** [سورة القدر:١]، **{أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}** أي: نقضي عليه بالعقوبة، ومهما يكن لا يجوز أن تفسر الآية بالقدرة، وإن قال به بعضهم فلا يجوز القول بهذا، كيف يكون نبي من الأنبياء يظن أن الله لا يقدر عليه -يعني من القدرة، أن الله لا يتمكن منه-، فهذا إذا وقع من آحاد الناس فهو كفر، فكيف يقع من نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم أعرف الناس بالله -جل جلاله-، والمشهور أن المراد بقوله: **{أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}** أي: أن لن نضيق عليه، وجاء في قراءة للزهري وعمر بن عبد العزيز {نقدِّر} وهذا يؤيد القول الآخر، وأن المقصود **{نقْدِرَ عَلَيْهِ}** أي: نقضي من القضاء عليه بالعقوبة، والقراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، وجاء في قراءة أخرى قرأ بها بعض السلف {أن لن يُقدَّرَ عليه}، وهذا أيضاً يحتمل معنى التقدير، وفي قراءة أخرى {أن لن يُقدَرَ عليه} وهذه لا يفهم منها القدرة، لكن يُقدَرَ تأتي بمعنى يُضيَّق عليه، بالبناء للذي لم يسم فاعله، {يُقدَرَ}، وتحتمل معنىً آخر.

وقوله: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر، قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: {لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس.

وقوله: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ} أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: مررت بعثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت، قال سعد: قلتُ بلى حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى

وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: ((من هذا، أبو إسحاق؟))، قال: قلت نعم يا رسول الله، قال: ((فَمَهْ؟))، قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: ((نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت {لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له))[٧]، ورواه الترمذي، والنسائي في اليوم والليلة.

وروى ابن أبي حاتم عن سعد –رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((من دعا بدعاء يونس استجيب له))، قال أبو سعيد: يريد به {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٨].

---

٧ – رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٠٥)، وأحمد في المسند برقم (١٤٦٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٦٥٦).

٨ – رواه الحاكم في المستدرك برقم (٤١٢٧)، وأبو يعلى في مسنده برقم (٧٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه، وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، رب اغفر لنا، ولشيخنا وللحاضرين، والسامعين يا رب العالمين، أما بعد:

فيقول المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ} [سورة الأنبياء:٨٩-٩٠].

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منهما {إِذْ نَادَى رَبَّهُ} أي: خفية عن قومه {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً} أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال الله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} أي: امرأته، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يبارك لنا ولكم في القرآن العظيم، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يرزقنا وإياكم العلم بالقرآن، والعمل به.

الله -تبارك وتعالى- ذكر جملة من الأنبياء كإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإسحاق ويعقوب ونوح، وإسماعيل وأيوب وذي النون وذي الكفل وجماعة من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، وذكر في جملتهم زكريا فقال: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ} أي: واذكر إذ نادى ربه، وقصة زكريا -عليه السلام- ذكرت في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، والله -عز وجل- حينما يذكر ذلك متكرراً في القرآن فإنما يذكر من كل قصة ما يناسب في ذلك المقام، فليس ذلك من التكرار المحض، إذ لا يوجد في القرآن من أوله إلى آخره تكرار محض، فيذكر من أخبارهم وقصصهم في كل مقام ما يناسب ذلك المقام، فإذا كان المقام يذكر فيه الله -عز وجل- بأسه وشدته وبطشه بالظالمين فإنه يذكر من قصص الأنبياء ما يناسب ذلك، حيث يبين ما فعل بأعدائهم، وإذا كان المقام مقام بيان منزلة هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإنه يذكر من ذلك ما يناسبه، والمقصود أن الله ذكر خبر زكريا -عليه الصلاة والسلام- هنا حيث قال: {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً} يقول الحافظ هنا: "**لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس** {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}"، كما قال الله -عز وجل- عنه في الموضع الآخر: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [سورة مريم:٥]، وذكرنا هناك أن المراد بذلك أنه قصد الوراثة في الدين، خاف أن يضيع أمر الله -عز وجل- من بعده فلا يوجد من يقوم به على الوجه المطلوب، {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ}، هذا الذي عليه المحققون في تفسير هذه الآية، خلافاً لمن

قال: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي} إنه أراد أن يُوجَد له وارث للمال، فهذا لا يكون من نبي من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، بل لا يكون ذلك من آحاد الناس من كرامهم وأشرافهم، كيف يدعو ربه أن يرزق الولد من أجل أن لا يورث من غير أولاده؟، فإن هذا لا يليق بمنزلة نبي كريم من أنبياء الله -عز وجل-، إنما قصد بذلك أن يوجد من عقبه من يقوم بأمر الله -عز وجل-، لما قال الله -عز وجل- لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [سورة البقرة:١٢٤] يعني معلماً للخير إماماً في الخير، يأتم الناس بك، يقتدون بك وبفعالك الجميلة، {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي} أخذته الشفقة على أولاده وذريته، {وَمِن ذُرِّيَّتِي} يعني اجعل أئمة منهم، {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فعهد الله -عز وجل- المقصود به هنا الإمامة بالدين، وليس في الدنيا، {لاَ يَنَالُ عَهْدِي} أي: لا يكونون أئمة في الدين يقتدى بهم، ولذلك تشاهدون أن من ينحرف عن الطريق ممن ينتسب إلى الدين والعلم فإن ضرر ذلك يعود عليه هو، ولا يعود على الآخرين، وإن عاد عليهم عوداً مؤقتاً إلا أنه في الحقيقة هو الذي يهلك نفسه، فإن مثل هذا لا يجعل الله -عز وجل- له القبول، ولا ينتفع الناس بكلامه، ويبقى دين الله -عز وجل- محفوظاً، وانظروا في التاريخ ذكر الله خبر بلعام، وفي هذه الأمة وفي تاريخها في امتدادها الطويل خلقٌ لا يحصيهم إلا الله -عز وجل- ممن غيروا وبدلوا ممن ينتسب إلى العلم، أو وقع في البدع والانحرافات الاعتقادية، أو في الانحرافات السلوكية، وبقي دين الله -عز وجل- محفوظاً، أما هؤلاء فيسقطون ويضمحلون، ولا يبقى لهم ذكر، ومن قلب نظره عرف ذلك بعين بصيرته، فنسأل الله -عز وجل- أن يثبتنا وإياكم على الحق.

والمقصود أنه قال: {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً} لا ولد لي، فطلب الولد؛ لأنه يريد أن يرثه من عقبه من يقوم بدين الله -جل جلاله-، وزكريا -صلى الله عليه وسلم- نبي، وبلغ هذه السن ولم يرزق بالولد فدل ذلك على أن عدم حصول الولد ليس بنقص في الإنسان؛ وذلك أن الله -عز وجل- يختار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من بين قومهم فهم أكملهم من كل وجه، لا يختار من بهم عاهات ونقائص تزري بهم؛ لئلا ينتقصهم أقوامهم بسببها، فـــ {إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} يعني: خير من يبقى بعد كل من يموت، فإن لم ترزقني الولد فإني أعلم أنك لا تضيع دينك، وأنك حافظ الدين، والله -عز وجل- يقول في هذه الأمة وفي كتابها: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر:٩] يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-:

والله لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدّمت منه قوى الأركان

من كثرة ما مر على هذا الدين من المصائب والكيد والتضليل والانحرافات، في أواخر عهد الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ومع ذلك بقي الحق محفوظاً ثابتاً، فالخوف ليس على الدين، وإنما الخوف علينا، والسعيد من سار في ركابه، وكما قال بعض المحبين لما توفي شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كتب وصية جميلة وطبعت، يوصي بها تلاميذ شيخ الإسلام بالعناية، وكان مما قال لهم: والله إنه سيأتي رجال وهم في أصلاب آبائهم يحملون هذا العلم وينتفعون به، وانظروا كيف صدقت هذه الكلمة، فلا زال الناس ينتفعون بكتبه غاية الانتفاع.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} قال: "**أي امرأته**"، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت، هذا هو المشهور، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} بمعنى أنها صارت مهيأة للولد، ولكن ذكر

بعض أهل العلم وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} قال: كان في لسانها بعض الطول، وبعضهم يعبر يقول: كان في خُلقها شيء، يعني كانت صعبة الأخلاق، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، فالله -تبارك وتعالى- هنا لم يذكر شيئاً محدداً في الإصلاح، يعني هذا الذي يسمونه بحذف المتعلق {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، ومن أهل العلم من حمله على الولادة، يعني صارت مهيأة للولد، باعتبار أن المقام مقام ذكر هذه الآية، والمعجزة بأن الله -عز وجل- جعلها تلد بعد أن كانت عاقراً، وقد بلغت أيضاً سناً كبيرة، وهذا وجه حسن في التفسير، وهي قرينة تدل عليه، وأولى من القول بأن المراد بذلك {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} أي: أنه في خُلقها بعض الشيء فأصلحناه، فهذا لا يدل عليه السياق، وقد يقال: إنه يبعد أن تكون زوجة نبي بهذه المثابة -سيئة الخلق-، وهذا لا إشكال فيه، ومن هؤلاء -ككبير المفسرين أبي جعفر بن جرير -رحمه الله- من قال بأن المراد {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} الله لم يحدد شيئاً فيحمل ذلك على الجميع، أصلحها له من كل وجه، فجعلها صالحة للولادة، وجعلها صالحة في أخلاقها مهذبة في سلوكها ولسانها، فهذا جمع بين هذه الأقوال، وهذه طريقة ابن جرير -رحمه الله- في التفسير، إذا وُجدت أقوال تحتملها الآية ولم يوجد دليل يدل على بعضها فإنه يحمل الآية على الجميع.

قال -رحمه الله-: وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} أي: في عمل القربات وفعل الطاعات {وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً} قال الثوري: رغباً فيما عندنا ورهبا مما عندنا.

قوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} يحتمل أن يعود للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين ذُكروا وهم كثير جداً، فأثنى الله -عز وجل- عليهم بقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} أي: يبادرون فيها، وذلك يشمل كل ألوان المسارعة، ففي الصلاة يسارعون في أول وقتها، هم سباقون في ألوان العبادات في الصدقات، وقراءة الكتاب الذي أنزله الله -عز وجل-، ونحو ذلك، داود -عليه الصلاة والسلام- كان قد خفف عليه قراءة الزبور حتى كان يقرأ الزبور في الوقت الذي يسرج له فرسه، في هذا الوقت اليسير، فيحتمل أن الضمير في "إنهم" يرجع إلى جميع الأنبياء الذين ذكروا قبله، ويحتمل أنه يعود إلى زكريا -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته، زكريا وزوجه ويحيى، فالآية تحتمل هذا وهذا، وممن رجح أن المقصود بذلك زكريا وزوجه ويحيى -عليهم الصلاة والسلام- أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-، قال: المراد هم هؤلاء، والآية تحتمل المعنيين، ولا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جميعاً ينطبق عليهم هذا الوصف تمام الانطباق.

والطريقة التي نمشي عليها عادة في هذا التفسير لا نتوسع كثيراً، وإنما يُذكر مأخذ القول، وتوجه الأقوال التي تذكر، وتبين بعض الجوانب التي يحتاج إليها فقط، دون توسع في ذكر الفوائد والمعاني، فلا نخرج عن طريقة ابن كثير -رحمه الله-، وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ} "إنّ" هذه تدل على التعليل، والله -تبارك وتعالى- ذكر أنه استجاب له، قال: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} فيؤخذ منه أن المسارعة في الخيرات، والدعاء في القرآن إذا ذكر فإنه يشمل نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، ولهذا يوجد من أهل العلم من فسر الدعاء هنا بدعاء العبادة، فيكون المقصود يعبدوننا خوفاً وطمعاً، والآية تشمل هذا وهذا، {وَيَدْعُونَنَا} أي: يسألون الله -تبارك وتعالى- خوفاً وطمعاً،

خائفين وراجين، وأيضاً يدعوننا خوفاً وطمعاً، خوفاً ورهباً، فدل ذلك على أن عبادة الله -عز وجل- يدخل فيها دعاء الله -عز وجل- بالمسألة، فلا شك أنه من أجل العبادات وأشرفها، فيدل ذلك على أن المسارعة في الخيرات والعبادة والسؤال والدعاء سبب للولد، وسبب أيضاً لإصلاح الحال، وإقامة الأخلاق، وتزكية النفوس، وما إلى ذلك من المعاني، {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

{وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، وعن مجاهد أيضاً: {خاشِعِينَ} أي: متواضعين، وقال الحسن وقتادة والضحاك: خاشعين أي متذللين لله -عز وجل-، وكل هذه الأقوال متقاربة.

كل هذه الأقوال متقاربة؛ لأن السلف -رضي الله تعالى عنهم- يفسرون اللفظة بما يقرب معناها، فتارة يفسرون ذلك بلازمه، يفسرون اللفظ بلازمه، وتارة يذكرون سبب الشيء، وما يوصل إليه، وتارة يفسرونه بجزء معناه، وتارة يفسرونه بالمثال، وتارة يفسرونه بلفظة قريبة وما إلى ذلك، لا يدققون ولا ينقرون، فهذه الألفاظ المذكورة هي لها نوع تعلق بالخشوع، لكنها لا تفسره على الحقيقة، يعني بتفسير مطابق، فالخشوع في كلام العرب يدل على التطامن والتواضع، الأرض الخاشعة {تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [سورة فصلت:٣٩] ترتفع، يعني الأرض إذا لم يأتها الماء فهي هامدة، فإذا نزل عليها المطر ارتفعت إما ارتفعت نفس الأرض تشقق النبات في داخلها فترتفع تنتفخ بالنبات، أو أن المقصود ارتفعت بالنباتات التي تخرج عليها، بعد أن كانت -كما تشاهدون- جدباء فهي منخفضة خاشعة، فالخشوع يعني التطامن، الإنسان الخاشع هو الإنسان المنكسر المتذلل لعظمة الله -عز وجل-، المتطامن له -تبارك وتعالى-، فهو يدل على هذا المعنى، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الخشوع معنىً يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار، فهو مجموع هذه الأشياء، لا نستطيع أن نفسر لفظة الخشوع بلفظة مكافئة لها تماماً تؤدي معناها، فلا يقال: الخشوع هو التطامن فقط، أو الخشوع هو التواضع فقط، وإنما ذلك من مكملاته، ومن أبعاضه وأجزائه، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- يقول: إن هذا الخشوع يكون فعل القلب كالخشية، ويكون من فعل البدن كالسكون، ومن أهل العلم من يقول: لابد من الأمرين، وهذا صحيح، فالخشوع أصله في القلب، فإذا انكسر القلب ظهر أثر ذلك على الجوارح ولابد، ولا يمكن أن يكون القلب خاشعاً والبدن غير خاشع، لكن يمكن أن يوجد الخشوع في البدن من غير خشوع القلب، وهذا هو الذي يقال له: خشوع النفاق، والحافظ ابن رجب -رحمه الله- يقول: إن أصله هو لين القلب ورقته وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له، وهذا صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله))[1]، ومن أراد الخشوع فعليه بالجوع، وأحياناً بعض القلوب تحتاج إلى مدة طويلة؛ ولهذا بعض الناس قد لا يجد الخشوع إذا جاهد وحاول إلا بعدما يعتكف في أواخر العشر الأواخر، يعني يجد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه.

الخشوع في أواخر العشر الأواخر، فيسمع الخطبة ويبكي، يسمع القرآن ويبكي، يسمع من الإذاعة ويبكي، يمر بالمكان ويسمع القارئ يقرأ ويبكي، هذا موجود، من الناس من يكون هذا ديدناً له، ومن الناس من لا يعرف هذا إلا مرة في السنة أو مرتين، ومن الناس من لا يعرف هذا أبداً، -نسأل الله العافية-، وابن القيم -رحمه الله- يقول: القلب الذي لا يلين بمواعظ القرآن حري به أن يلين في كير جهنم، فجهنم موكولة بإذابة القلوب القاسية الصلبة، فهذه القلوب تحتاج إلى تليين، والذي يقسيها هو كثرة الذنوب مع كثرة الفضول، حتى من المباح {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم} [سورة المطففين:١٤] فلا تدخلها المواعظ، ولا ينتفع بالقرآن، يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، ولا ينتفع به، وكثرة الفضول، فضول النوم، ينام الإنسان نوماً بعد نوم حتى يصدع رأسه، يقوم قاسي القلب هامد الهمة، وفضول المخالطة مع الناس، فلا يخشع وهو جالس طول وقته يسهر مع أصحابه ويذهب ويجيء، من استراحة، إلى خيمة إلى مجلس إلى منتدى، وإذا رجع البيت تولته القنوات، لا يوجد مجال للخشوع، ثم ينام، وهكذا فضول الضحك، فضول الكلام يتكلم كثيراً، فكل هذه الأشياء مع فضول الأكل تفسد قلب الإنسان، الإنسان معنيٌّ بإصلاح قلبه، والله -عز وجل- لا ينجو عنده إلا من جاء بقلب سليم، فنسأل الله -عز وجل- أن يصلح قلوبنا.

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب *** فمن يعظ الناس بعد محمد

وإن كان الإنسان يخاف حينما يسمع قوله -تبارك وتعالى-: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:٤٤]، وفي قوله -تبارك وتعالى- في: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف:٢]، وحديث: ((يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه))[٢]، الشاهد أنه حينما يسأله أهل النار يقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه، نسأل الله -عز وجل- أن يصلح الأحوال والقلوب والأعمال، فهذا معنى الخشوع، إذاً هو انكسار القلب ولينه ورقته وخضوعه، وهو طمأنينة في القلب وفي البدن، بتواضع البدن، واجتماع ذلك يقال له: الخشوع.

{وَالَّتِيَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:٩١].

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى -عليهما السلام- مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى -عليهما السلام-، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: {وَالَّتِيَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} يعني: مريم -عليها السلام-، كما قال في سورة التحريم: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} [سورة التحريم:١٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، وهذا كقوله: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ}.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، برقم (٢٩٨٩)، من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنه.

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رّوحِنَا} ذكر الله -عز وجل- قصة مريم -رحمها الله- في سياق ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهي ليست بنبية، ولكن لما ذكر الله خبر زكريا كيف أن الله رزقه بالولد من امرأة كبيرة عاقر، الأمر الذي يدل على قدرته -تبارك وتعالى- على كل شيء، ذكر خبر مريم بعده، ففيه نوع شبه به، بل هو أعجب حيث إن الله -عز وجل- جاء بالولد منها، رزقها بالولد، وهي ليست بذات زوج، وأيضاً فإن خبر مريم مرتبط بخبر ابنها -صلى الله عليه وسلم- عيسى، فهو من جملة هؤلاء الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، وأضاف النفخ إلى نفسه -تبارك وتعالى-؛ لأنه بأمره كما يقول الملك: بنينا كذا، وفعلنا كذا، وعملنا كذا، من أجل أنه هو الذي أمر بذلك، وإن لم يباشره بنفسه، ونقول مثلاً: عمر -رضي الله تعالى عنه- هو الذي بنى الكوفة وهو الذي بنى البصرة، ولم يباشر ذلك بنفسه لكن كان ذلك عن أمره، فهذا المسجد الذي بناه عمر -رضي الله تعالى عنه-، لم يبنه بيده، وإنما أمر ببنائه، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا} أخبر الله -عز وجل- أنه نفخ فيها، أمر جبريل -عليه الصلاة والسلام-، {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا}، وهذه الروح المخلوقة نفخنا فيها من روحنا، جبريل -صلى الله عليه وسلم- نفخ فيها بأمر الله -عز وجل-، وجبريل هو روح القدس، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ} [سورة النحل:١٠٢]، {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [سورة مريم:١٧]، فأرسل إليها روحه، وهو جبريل -صلى الله عليه وسلم- فنفخ فيها، يعني الروح العظيمة، ويحتمل أن يكون {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا} أي: أن جبريل نفخ فيها من روحٍ مخلوقة، الروح التي خلقها الله -عز وجل-، فإن الله -تبارك وتعالى- سمى عيسى -صلى الله عليه وسلم- روحاً، وذلك أنه روح مخلوقة، وحينما يضيف ذلك إلى نفسه فإن هذه الإضافة إضافة تشريف؛ لأن ما أضافه الله -عز وجل- إلى نفسه إما أن يكون من الأوصاف القائمة به، كعلم الله، وقدرة الله، أو من الأوصاف غير المعنوية كيد الله ووجه الله، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وإما أن يكون ذلك من باب إضافة أمر لا يقوم به -سبحانه وتعالى-، كبيت الله، وناقة الله، فهذا من إضافة المخلوق إلى خالقه، فالإضافة تكون إضافة تشريف، وهكذا ما يقوم بغيره، كالروح، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- هو روح الله بهذا الاعتبار، وهو أيضاً كلمة الله لأنه وجد بالكلمة بـــ: "كن"، من غير أب، هذا هو المعنى، والله -عز وجل- أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} هما آيتان، يعني مريم آية، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- آية، عيسى كان يُحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه، والأبرص، وتكلم في المهد، فهو آية تدل على قدرة الله -عز وجل-، فالآية بمعنى العلامة، وذلك أن مثل هذه الأشياء من خوارق العادات تدل على قدرة الخالق، وأنه المستحق للعبادة وحده، وأن نواصي الخلق بيده، وأن الأمور جميعاً تحت أمره وقدرته وتصرفه -جل جلاله-، فقال: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً} ولم يقل: جعلناها وابنها آيتين، يحتمل أن يكون ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار المجموع، أن وجود عيسى -صلى الله عليه وسلم- من امرأة غير متزوجة تحمل وتلد، فالمقصود أن هذه الآية يمكن أن يعبر عنها بأنها آية واحدة، لا ما عدا ذلك من الآيات، كإحيائه للموتى وإبرائه للأكمه والأبرص، {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا} فيما حصل من الحمل والولادة {آيَةً}، رجل وُلد من امرأة غير متزوجة، ليس له أب، الله -عز وجل- خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، من غير أب ولا

أم، فخلق آدم ابتداءً من تراب وخلق حواء من آدم، وخلق عيسى -صلى الله عليه وسلم- من أم بلا أب، وخلقنا من أم وأب، فهذا يدل على كمال قدرته وعظمته، وأن الأمور بيده -سبحانه وتعالى-، ومن أهل العلم من يقول: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً} أي: جعلنا كل واحد منهما آية، وقد ذكرنا أمثلة لهذا في توحيد الضمير بعد ذكر شيئين، وأنه أنواع، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة:١١] ما قال: إليهما، {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [سورة التوبة:٦٢] ما قال: يرضوهما، فأحياناً يعود الضمير مفرداً على مذكوريْن، ويكون المراد أحياناً الأمرين، وأحياناً يكون المراد أمراً واحداً، الأول أو الثاني بحسب القرائن، والله -عز وجل- جعل مريم وما جرى لها من الحمل وولادة عيسى -صلى الله عليه وسلم- آية تدل على قدرته الباهرة، وعظمته -جل جلاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه، وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، وللمستمعين يا رب العالمين، أما بعد:

فيقول المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}[سورة الأنبياء:٩٢-٩٤].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} يقول: دينكم دين واحد، وقال الحسن البصري في هذه الآية: يبيّن لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: {إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} أي: سنتكم سنة واحدة، فقوله: {إِنّ هَذِهِ} إن واسمها، وأمتكم خبر إن، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: {أُمّةً وَاحِدَةً} نصب على الحال؛ ولهذا قال: {وَأَنَاْ رَبّكُمْ فَاعْبُدُونِ} كما قال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً} [سورة المؤمنون:٥١]، **إلى قوله: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}** [سورة المؤمنون:٥٢]، **وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد))**[1]**، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}** [سورة المائدة:٤٨].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً}** قوله في تفسير هذه الآية: "**دينكم دين واحد**"، وهكذا قول من قال: "**أي سنتكم سنة واحدة**"، والعبارتان بمعنىً واحد، فالسنة والدين والشريعة والملة كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، أي أن دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واحد، كما ذكر في الحديث: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات))، ومعنى أولاد عَلات كما فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- أي: ((ديننا واحد))، وأولاد العلات هم الذين لهم أب واحد وأمهات شتى، فأصل الدين هو الإسلام الذي بعث به ربنا -تبارك وتعالى- جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وشرع لهم الشرائع فاختلفت وتنوعت شرائعهم، ولكن أصل الدين واحد، **{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}**[سورة البقرة:١٣٢]، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا}** [سورة الحج:٧٨] على

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}** [سورة مريم:١٦]، برقم (٣٢٥٩)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعَلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد)).

أحد القولين: أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي سمانا المسلمين، والقول الآخر: أن الله هو الذي سمانا، وقد يكون هذا هو مقتضى القواعد التفسيرية، والأمة تأتي بمعانٍ متعددة، تأتي بمعنى الدين، كما قال النابغة:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسِك ريبةً *** وهل يأثَمَنْ ذو أمّةٍ وهو طائعُ

فهل يأثم يعني هل يتقصد الإثم ذو أمّة، يعني ذو دين، وهو طائع، يعني وهو مختار يتقصد الإساءة والمخالفة والمعصية، يقول: أنا حلفت فلم أترك لنفسك ريبة، ولا يمكن أن أحلف على الكذب.

فهذه بمعنى الدين، وتأتي بمعنى الطائفة المجتمعة على أمر من الأمور، أو أي طائفة مجتمعة، كقوله -تبارك وتعالى- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما ورد ماء مدين قال: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [سورة القصص:٢٣]، أمة يعني جماعة من الناس، وتأتي بمعنى المدة الزمنية، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [سورة يوسف:٤٥]، أي الذي نجا من السجن في قصة يوسف -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا تأتي بمعنى الرجل الذي اجتمعت فيه الأوصاف الكاملة التي تفرقت في غيره، مثل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {كَانَ أُمَّةً} [سورة النحل:١٢٠]، ففي كل موضع بحسبه، والمقصود بها هنا الدين.

والخطاب في قوله: {إِنّ هَذِه أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} ليس لهذه الأمة الإسلامية من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وإنما لما ذكر الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جميعاً قال هذا، فيكون ذلك راجعاً إلى الجميع، فكل الرسل الذين بعثهم الله -عز وجل- بعثهم بدين واحد، وإن تنوعت فيه الشرائع، بعثهم بالإسلام، {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا} [سورة آل عمران:٦٧]، فاليهودية مبتدعة والنصرانية مبتدعة محدثة، وهذه الأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [سورة آل عمران:١٩].

وقوله: {إِنّ هَذِه} "إن واسمها، وأمتكم خبر إن"، فـــ "هذه" اسم "إنّ"، وخبرها "أمتكم"، ونصب قوله: {أُمّةً وَاحِدَةً} على المصدر.

وقوله: {وَتَقَطّعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: {كُلّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} أي: يوم القيامة، فيُجازَى كلٌّ بحسب عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مصدق.

قوله: {وَتَقَطّعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} يعني تفرقوا في الدين، فجعلوه كالقطع، هؤلاء أخذوا قطعة، وهؤلاء أخذوا قطعة، وهو دين واحد، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله -عزوجل- من أحد ديناً سواه، فهؤلاء قالوا: إنهم يهود، وهؤلاء قالوا: إنهم نصارى، وهؤلاء عبدة وثن، إلى غير ذلك من الديانات الموجودة على وجه الأرض، فبعث الله -عز وجل- الرسل فلم ينتفعوا ببعثتهم، فعلى أحد الأقوال المشهورة في التفسير أن هذا في الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك هم أهل الإشراك الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَتَقَطّعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [سورة المؤمنون:٥٣] في الآية الأخرى.

وابن جرير -رحمه الله- يرى أن قوله: {كُلّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} عام في الأمم، وأنه لا يختص بالمشركين، وهذا

أقرب، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَتَقَطَّعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} "أي: **اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب**"، وهذا يوافق قول ابن جرير: إن هذا في سائر الأمم، لكن عبارته أدق من عبارة ابن جرير، وعبارة ابن جرير هي قوله: هذا في كل الأمم، عام في الأمم، فكلامه بهذا المعنى، ولكن الفرق أن ابن كثير هنا عبارته دقيقة يقول: اختلفت الأمم على رسلها، ترى الأصل في العالِم حينما يكتب أنه يزن الحرف، ويقصد كل كلمة قالها، يقول: "**اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب**"، {وَتَقَطَّعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} يعني: كلما جاءهم رسول انقسموا فآمنت به طائفة وكفرت به طائفة، هذا لا يخالف قول ابن جرير، لكن هو أدق من ناحيتين، الناحية الأولى: أن ابن جرير -رحمه الله- أطلقَ وعممَ فقال: هذا في الأمم، يعني صارت الأمم إلى أديان شتى، ابن كثير يقول: كلما جاء أمةً رسولٌ انقسموا فيه، فالنتيجة والنهاية هي أن البشرية تفرقت على أديان، يرجع إلى قول ابن جرير من هذه الناحية، من هذا الوجه، لكنه أدق في العبارة، فكلام ابن جرير وجماعة من السلف أن طائفة صاروا يهوداً وطائفة صاروا نصارى، وطائفة صاروا يعبدون الأوثان، ونحو ذلك، هذا لا يخالف قول ابن كثير، فمثلاً لما جاء عيسى -صلى الله عليه وسلم- إلى بني إسرائيل وهم اليهود انقسموا، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فالتي كفرت صاروا إلى ما يعرف باليهود الآن، والذين آمنوا هم النصارى، وهكذا في سائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- قالت اليهود: نبقى على يهوديتنا، إلا من شاء الله، والنصارى كذلك، وعبدة الأوثان كذلك، وتواصوا وقالوا: {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [سورة ص:٦]، {وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ}، فالشاهد أن هذا القول الذي قاله ابن جرير وما قاله ابن كثير هو موافق له في المآل، وأحسن من قول من خص ذلك بالمشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا دليل عليه، ولا دليل على هذا التخصيص، والعلم عند الله -عز وجل-، {وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} وهذه الآية ذكرها الله في سياق الذم لهؤلاء الذين تقطعوا أمرهم بينهم، كما في الآية الأخرى قوله: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}، وفي المقابل يأمر الله -عز وجل- بالاجتماع والاعتصام بحبله المتين، {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [سورة آل عمران:١٠٣]، وينهى عن مشابهة هؤلاء {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ} [سورة آل عمران:١٠٥]، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر في اقتضاء الصراط المستقيم ما يقرب من ثمانية عشر وجهاً من وجوه موافقة هذه الأمة لمن قبلها، ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[٢]، وذكر منها التفرق في الدين، والتنازع، والتناحر، فهذا مما نهى الله -عز وجل- عنه، والواجب الاعتصام بالكتاب والسنة، وجمع القلوب على هذا، والتآلف والمحبة بين المسلمين، وأما أن يبقى الناس أوزاعاً وأشتاتاً متناحرة فالله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال:٤٦]، وهذا شيء مشاهد، والله المستعان.

---

٢ - رواه البخاري، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، برقم (٧٣٢٠).

ولهذا قال: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مصدق وعملَ صالحاً {فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}، كقوله: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [سورة الكهف:٣٠] **أي: لا يُكفر سعيه وهو عمله بل يُشكر فلا يُظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: {وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} أي: يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} هذه تتضمن شروط قبول العمل الثلاثة، وهي: الإخلاص، والمتابعة، وأن يكون ذلك على قاعدة الإيمان، الدين الصحيح –التوحيد الخالص-، فإنه إذا اختل شرط من هذه الشروط فإن العمل لا يقبل، والله -عز وجل- يقول في أول سورة الكهف: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الكهف:٢]، هذا الشرط الأول، والشرط الثاني في قوله: {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [سورة الإسراء:٩]، العمل الصالح: وهو العمل الخالص الصواب الذي تابع فيه العامل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلو جاء إنسان على غير عقيدة التوحيد، فلو جاء يهودي أو وثني، أو رجل يعبد القبور، ويذبح لها ويدعوها من دون الله، وعمل عملاً يريد به وجه الله، وتابع فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء وصلى صلاة كما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يريد بها وجه الله، أو تصدق بصدقة يريد بها وجه الله، فإن الله -تبارك وتعالى- لا يتقبل ذلك العمل منه؛ لأنه اختل شرط وهو الإيمان الصحيح، وقال سبحانه: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:١١٠].

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}، هذا كما قال الله -عز وجل-: {أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} [سورة آل عمران:١٩٥]، فالأعمال عنده لا تضيع، فهو يجزئ بالحسنات إحساناً ويضاعف ذلك، وهذا من معاني اسمه الشكور، فيشكر العبد بالثواب ويجازيه ويضاعف له ذلك.

{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٩٥-٩٧].

يقول تعالى: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ} قال ابن عباس: وجب، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد.

هذه الآية ربما يقرؤها الإنسان ولا يستشكل المعنى، لكن نقول: إن هذه الطريقة تولد الإشكالات، وأحياناً لابد من بيان المعنى، فانظر مثلاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} ولم يقل: حرام عليهم أنهم يرجعون مثلاً، وإنما قال: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} حرام عليهم الرجوع، فحرام بمعنى ممتنع، فقال: {لاَ يَرْجِعُونَ} ولم يقل: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا، حرام عليهم أن يرجعوا، فالممتنع هو الرجوع، وخلاصة الكلام في هذه الآية أن الأقوال فيها ترجع إلى ثلاثة، من أهل العلم من يقول: لا يرجعون إلى الدنيا بعد الإهلاك، فالموعد القيامة، وهذا هو القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا، و"لا" هذه في قوله: {أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} بعضهم يفسرها بـــ "وَجَبَ"، مثلما يقول الإنسان أحياناً: حرام عليّ أن تفعل كذا، يريد أن يفعل ويؤكد يقول: حرام عليّ، يعني وجبَ عليّ، فيكون {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ} بمعنى وجب أو واجب، فيكون المعنى وجب أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، ومن أهل العلم من يقول بأن الرجوع هنا ليس إلى

الدنيا، وإنما الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى-، فيكون المعنى: ممتنع عدم رجوعهم إلينا للجزاء: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، حرام عليهم أنهم لا يرجعون إلى الله، فسيرجعون إليه ويجازيهم ويحاسبهم على أعمالهم، فحرام بمعنى ممتنع، ويكون المعنى: أي ممتنع عدم رجوعهم إلى الله للجزاء والحساب، بل لابد أن يرجعوا، وعلى هذا تكون "لا" هذه في مكانها، وكثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم يقولون: إن الرجوع المراد به هنا إلى التوبة أو بالتوبة، وتكون "لا" هذه زائدة، أي: زائدة إعراباً، وليست زائدة في المعنى؛ لأنه لا زائد في القرآن؛ ولأن الزيادة حشو، والقرآن منزه عن ذلك، فبعض الذين يقولون: إنها زائدة، يقول: حرام عليهم أن يرجعوا إلى الدنيا، ويقول: "لا" زائدة، وبعضهم يقول: حرام عليهم أن يتوبوا، أن يرجعوا إلى التوبة، فمن قضى الله -عز وجل- بإهلاكهم، وختم على قلوبهم فإنهم لا يرجعون، كما قال الله -عز وجل- عن الكفار في الآخرة حينما يتمنون الرجعة يقول: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام:٢٨]، فمن قضى الله -عز وجل- إهلاكه واستئصاله وعذابه فإنه لا سبيل إلى رجوعه إلى الله -عز وجل- بالتوبة، وهذا معنى ذكره جماعة من أهل العلم، وممن اختار هذا القول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وبعضهم يقول: فيها إضمار، وهذا خلاف الأصل، وبعضهم يقول: حرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها أن يُتقبل منهم عمل؛ لأنهم لا يتوبون، وهذا في نظري أبعد هذه الأقوال؛ لأن الأصل عدم التقدير، وإذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال فيقدم على القول بالإضمار، والآية تحتمل المعاني السابقة، حرام على قرية أنهم لا يرجعون، لا يرجعون إلى الله -عز وجل-، ممتنع عدم رجوعهم إلى الله ليجازيهم، ويحتمل أن يكون المراد {أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} يعني: بالتوبة، ممتنع رجوعهم بالتوبة، ويحتمل أن يكون الامتناع إنما هو برجوعهم إلى الحياة الدنيا من جديد، وأظن أن هذا -والله أعلم- هو أقرب هذه الأقوال.

وقوله: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} قد قدمنا أنهم من سلالة آدم -عليه السلام.

{حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} يحتمل أن تكون "حتى" هذه هي التي يذكر بعدها كلام، تتحدث وتقول: حتى ذهبنا إلى مكان كذا، وحتى قابلت فلاناً، فالله -عز وجل- ذكر الأمم المهلكة ونحو ذلك، ثم قال: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} فذكر كلاماً بعده، ويحتمل أن تكون "حتى" للغاية، تقول: مشيت حتى مكان كذا، حتى نهاية الطريق، فتكون للغاية، فهنا {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ} من أهل العلم من يقول: هذه التي يُذكر بعدها كلام، فذكر بعد ذلك خبر يأجوج ومأجوج، وبعضهم يقول: لا، هذه للغاية وما قبلها مرتبط بما بعدها، والعكس، فيكون الكلام {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}، يعني أنهم يستمرون في غيهم وباطلهم حتى نهاية المطاف، حينما تظهر هذه العلامات الكبرى، ويظهر يأجوج ومأجوج، وعند ذلك تتابع أمارات الساعة هذه كالعقد إذا انفرط، ثم تقوم القيامة، {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}، فخروج يأجوج ومأجوج قريب من القيامة، فيقول: هؤلاء الذين قضينا بإهلاكهم لا يرجعون إلى الله -عز وجل- ولا يتوبون إليه على هذا التفسير، فهم يستمرون في غيهم حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقتربت الساعة، فهم باقون على هذا الحال، ولو قيل بأن المعنى أن "حتى" هذه هي التي يذكر بعدها كلام لربما يكون أقرب، لاسيما إذا فسرنا ما قبله بأنهم لا يرجعون إلى الدنيا، فمن مات فات، لا سبيل إلى

رجوعه، والمقصود بقوله: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ} أهل القرية، ويمكن أن يقال هذا في الأفراد إلا لأمر خارق، خارج عن الأصل، فمثل ما حصل في قصة قتيل بني إسرائيل لما ضُرب ببعض البقرة، فأحياه الله -عز وجل- وأولئك الذين قص الله خبرهم خرجوا فراراً من الموت فقال لهم الله: {مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} [سورة البقرة:٢٤٣]، وهكذا أيضاً {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة:٢٥٩]، فهذه أمور خارقة للعادة خلاف الأصل، فالأصل أن من مات لا سبيل إلى رجوعه، وهذا يُبطل الحكايات التي تسمعونها والقصص: أن شخصاً حفر قبراً ووجد شخصاً وكلمه وقال كذا، وأشياء تذكر في الوعظ أحياناً، لا أساس لها من الصحة، فالذي مات لا يرجع مرة ثانية.

قد قدمنا أنهم من سلالة آدم -عليه السلام-، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث، أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف:٩٨-٩٩] الآية.

يعني أن الترك شرذمة منهم، الترك على كثرتهم يعتبرون شرذمة من يأجوج ومأجوج؛ لأن يأجوج ومأجوج أمة كبيرة جداً، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد))، قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: ((أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبرنا فقال: ((أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، فكبرنا، فقال: ((أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، فكبرنا، فقال: ((ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود))[٣]، فيأجوج ومأجوج ما وجدوا في أمة إلا كثروها، فهم بهذه الدرجة من الكثرة، ولا يفسر هؤلاء بأهل الصين؛ لأن أهل الصين لا يحول بينهم وبين الناس سد، ولا يوجد عندهم ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- من أنهم في كل يوم يخرقون في هذا السد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- استيقظ في يوم مذعوراً يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا))[٤]، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه في كل يوم يحاولون نقبه، ثم يقولون: نرجع في اليوم الثاني، فيجدونه رجع كما كان، حتى يقولوا في النهاية -إذا شاء الله أن يُفتح-: إن شاء الله، فعند ذلك يواصلون العمل ويفتح، وهذه الأشياء لا يمكن أن يقال: إنها في الصين؛ لأن الناس يختلطون معهم والأبواب مفتحة، والطرق، والطائرات، والسيارات، والدنيا كلها، وسد الصين هذا ليس هو سد ذي القرنين، والناس يذهبون ويتنزهون عليه، وصار

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم (٣١٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، برقم (٢٢٢).

٤ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ويل للعرب من شر قد اقترب)، برقم (٦٦٥٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش -رضي الله عنها.

معلماً سياحياً يأتيه الناس من أقاصي الدنيا، وكل الأحاديث إذا نظرت إليها، وما يأتي دليل على أن هؤلاء في آخر الزمان، وأنهم يأتون في زمن عيسى -صلى الله عليه وسلم-، والذي يحمل هؤلاء الناس على القول بأن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين هو -والله أعلم- أنهم يقولون: الآن كل الكرة الأرضية بالأقمار الصناعية ما بقي منها شبر واحد إلا عُرف، فأين هذه الأمة الضخمة التي تقدر بهذا، كما جاء في الأحاديث وسيأتي أنهم يمرون على النهر فيشربونه، وعلى البحيرة فيشربونها، ويأتي من بعدهم ويقول: قد كان ههنا ماء، هؤلاء أكثر من الصينيين، فنقول جواباً عن هذا: إذا أراد الله أمراً كان، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- لما سئل عن الهدهد، يقال: إنه يرى الماء تحت الأرض، فقيل: هذا الصبي يضع له الفخ ويصطاده، فقال: إذا جاء القدر عمي البصر، فبنو إسرائيل بقوا في التيه هذه المدة الطويلة، حسب موضع الوقف والوصل في الآية، {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [سورة المائدة:٢٦] بقوا مدة طويلة، ومعهم موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهم يتحركون ويجولون في أرض سيناء في صحراء ليست ضخمة، ليست واسعة الأطراف بحيث إنهم لو توجهوا من أي اتجاه فإنهم سيقطعونها في أيام يسيرة، ويجلسون نحو أربعين سنة، وقد جاء في الأخبار أنهم يمشون فإذا باتوا في محل وجدوا أنفسهم في المكان الذي مشوا منه، فالله -عز وجل- أراد أن يخفى عليهم هذا، فكان، وتميم الداري -رضي الله تعالى عنه- لما وجد الدجال في جزيرة، سمعت بعض الناس، وكتب أحدهم كتاباً في الدجال، وقال: الآن الأقمار الصناعية، اكتشفوا الجزر، واكتشفوا كل مكان أين الدجال؟ وهذا تكذيب منه للحديث، أراد الله -عز وجل- أن يطلع عليه تميم الداري -رضي الله تعالى عنه-، فكان ما أراد، والإنسان أحياناً يبحث عن نظارته وهو لابس لها، أو يبحث عن قلمه وقد وضعه في أذنه، وأحياناً من يبحث معه لا يتفطن لما يُبحث عنه، فإذا أراد الله -عز وجل- شيئاً كان، والإنسان ضعيف والله يريه ضعفه بأمور كثيرة، والله المستعان.

وقال في هذه الآية الكريمة: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} أي: يسرعون في المشي إلى الفساد.

قوله: {يَنسِلُونَ} هذه صفة للمشية السريعة، وبعض أئمة اللغة يقول: مثل مشية الذئب، وهؤلاء من كل حدب ينسلون، ينزلون من كل مكان مرتفع، والإنسان ينزل من المكان المرتفع بنوع من الإسراع، فهؤلاء من كل حدب لكثرتهم، من كل مكان مرتفع فتراهم ينزلون مثل الجراد، يمشون بهذه الطريقة التي وصفها الله -عز وجل.

والحَدَب هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [سورة فاطر:١٤] هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

وروى ابن جرير عن عبيد الله بن يزيد قال: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

يعني أنهم يخرجون بسرعة في مشيتهم، وكما أخبر الله -عز وجل- أيضاً عن الناس في المحشر، {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [سورة القمر:٧] من كثرتهم، وهذا الجراد المنتشر من كثرته يركب بعضه بعضاً، وإذا انتشر في

مكان يملأه كالفراش، فيأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون لكثرتهم، فهم يسرعون، ينزلون من كل مرتفع، وهي ساعة لطالما انتظروها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (١١)

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين وللمستمعين، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله-:

الحديث الثالث:

روى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: ((إنكم تقولون: لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، صُهب الشّعاف، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة))[1] وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي، عن خالة له، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فذكره، مثله سواء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -صلى الله عليه وسلم-: **((وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً))** يعني من بعد عدو **((حتى يأتي يأجوج ومأجوج))**، قال: **((عراض الوجوه))** وهذا واضح **((صغار العيون، صهب الشعاف))** يعني وصف رءوسهم أو شعورهم بحمرة يعلوها سواد **((صهب الشعاف))** بمعنى أن شعورهم ليست سوداء، وإنما بين بين، حمرة يعلوها سواد، وهذه في الغالب ليست أوصاف العرب كما هو معروف.

((كأن وجوههم المجان المطرقة)) المجان يعني التروس؛ لأنها تجنّ الإنسان، يعني تستره وتقيه من النبال، ومن ضرب السيوف، وطعن الرماح.

((المطرقة)) يعني كأنها طبقات، الترس قد يكون من جلد قوي يابس، يوضع فوقه جلد وهكذا حتى يكون مثل الخشب أو مثل المعادن، ولا زال الناس يستعملون هذه الكلمة إلى اليوم، ما تسمعون الناس يقولون: عنده طراقة من كذا؟ من الثياب؟ طراقة من الأقمشة، يعني قد طبق بعضها فوق بعض لكثرتها مثلاً.

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج))[2] انفرد بإخراجه البخاري[3].

---

[1] - مسند أحمد رقم (٢٢٣٣١)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

[2] - مسند أحمد رقم (١١٢١٩)، وقال محققوه: حديث صحيح.

[3] - صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس...} رقم (١٥١٦).

وقوله: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [(٩٧) سورة الأنبياء] يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: {هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [(٨) سورة القمر] ولهذا قال تعالى: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(٩٧) سورة الأنبياء] أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام {يَا وَيْلَنَا} أي: يقولون: يا ويلنا {قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} أي: في الدنيا {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج))** هذا قد يشكل عليه الحديث السابق في الريح المؤمنة التي تأخذ أهل الإيمان من تحت آباطهم، فلا يبقى بعد ذلك من أهل الإيمان أحد، يبقى أناس هم شرار الخلق، تقوم عليهم الساعة، يتسافدون كما تتسافد الحمر، فهذا بعدما يذهب أهل الإيمان، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه يحج البيت، فقد يكون المراد -والله تعالى أعلم- أن ذلك يكون من هؤلاء قبل أن تأتي هذه الريح الطيبة، يعني بعدما ينتهي يأجوج ومأجوج يحج أهل الإيمان ويعتمرون، وتكون نهايتهم بهذه الريح التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-، بحيث تقوم الساعة على الذين وصفهم بأنهم يتسافدون كما تتسافد الحمر، وأنهم شرار الخلق، هؤلاء قال فيهم: ((عليهم تقوم الساعة)) فهو مشعر بأنه لا بقاء لأهل الإيمان بعد تلك الريح، وإنما يبقى شرار الناس، ولكن لا يعني هذا أن هذه الريح الطيبة تأتي بعد هلاك يأجوج ومأجوج مباشرة، وإنما يبقون مدة، ويحجون البيت بعد هؤلاء ويعتمرون، ثم في النهاية تأتي هذه الريح، ويموت أهل الإيمان؛ لأن أشراط الساعة الكبرى -كما سبق- كالعقد الذي انفرط في سرعتها.

طلوع الشمس من مغربها: لو تنظرون في الأحاديث الواردة في صحيح مسلم وفي غيره في خروج الدابة، العلماء يستشكلون بعض هذه الأحاديث في التوقيت، حينما ينظرون إليها، يحاولون الجمع بينها، لكن هي متقاربة جداً، بحيث إذا خرجت الشمس من مغربها تخرج الدابة على الناس ضحى، يعني إلى هذا الحد في سرعة هذه العلامات وظهورها، تتابع، ثم بعد ذلك تقوم الساعة.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}** [(٩٧) سورة الأنبياء] قال: يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت **{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}** [(٩٧) سورة الأنبياء] بعض أهل العلم يقول: إن الواو هنا زائدة إعراباً، ويكون قوله: **{اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}** [(٩٧) سورة الأنبياء] إذا حذفت الواو هو جواب (إذا) الأولى.

بمعنى يكون الكلام هكذا، قال الله -عز وجل-: **{حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون}** **{اقترب الوعد الحق}** أي **{حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج}** **{اقترب الوعد الحق}** لأن يأجوج ومأجوج من آخر العلامات الكبرى، فتكون جواباً لـــ(إذا) وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن جوابها هو قوله تعالى: **{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** [(٩٧) سورة الأنبياء] وبعضهم يقول: هو مقدر محذوف: "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج قالوا يا ويلنا" يعني الناس يقولون: يا ويلنا، والله تعالى أعلم.

قال -عز وجل-: {إِنّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلآءِ آلِهَةً مّا وَرَدُوهَا وَكُلّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ * إِنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مّنّا الْحُسْنَىَ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [(٩٨-١٠٣) سورة الأنبياء].

قال -رحمه الله-: يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] **قال ابن عباس: أي: وقودها، يعني كقوله:** {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٢٤) سورة البقرة] **وفي رواية عن ابن عباس قال:** {حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] **يعني حطب جهنم بالزنجية، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها، وقال الضحاك: حصب جهنم أي: ما يرمى به فيها، وكذا قال غيره.**

هذه الأقوال متقاربة، وإن كان لا يوجد دليل على أن هذا بالزنجية، والأصل أن هذا بالعربية، لكن قول من قال بأنه حطب جهنم، أو قول البعض بأنه ما يرمى فيها، أو يلقى فيها، كل ذلك متقارب؛ لأن حطب جهنم هو ما توقد به بمعنىً أعم، وهذا الذي مشى عليه بعض أهل اللغة، يقولون: إن معنى الحصب هو ما توقد به النار وتهيج، فالحطب الذي يلقى في النار هو الذي تتقد به، أما نار جهنم -أعاذنا الله وإياكم منها- فإن وقودها الناس والحجارة {حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] فهو ما يلقى فيها؛ لأنه إذا عبر عنه بالحطب فمعنى ذلك أنه الوقود لأنهم ليسوا بحطب، وأنت تقول للإنسان أحياناً تحذره من شيء أو كذا تقول: حتى لا تكون حطباً لهذه الفتنة، يعني ما توقد به هذه الفتنة، وقول من قال: ما يلقى فيها أوسع وأوضح في المعنى، لكن من عبر بالحطب هو لا يقصد أنه حطب جهنم، لكن النار التي توقد في الدنيا يقال للحطب الذي توقد به حصب، فنار جهنم لا توقد بالحطب، ولكن يصح أن يقال لمن يلقى فيها وتتقد به ويكون وقوداً لها أنه حطب لها؛ لأن العرب يتوسعون في الكلام في مثل هذا، وإذا أردت أن توسع العبارة تقول: وما يلقى فيها وتتقد به، ما تتوقد به النار هذا هو حصب جهنم {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] فهم وقودها كما قال الله -عز وجل-: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٢٤) سورة البقرة] دخول هذه الآلهة، إلقاء الآلهة في النار، وهي جمادات لا تشعر، من أي وجه؟ يكون ذلك تبكيتاً لعابديها، هي أحجار، جمادات، هي لا تتعذب بالنار، ولكن هذا فيه زجر وتبكيت لهؤلاء الذين يعبدونها، فيقال: تلقون فيها أنتم وهذه المعبودات.

وقوله: {أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} **أي: داخلون** {لَوْ كَانَ هَؤُلآءِ آلِهَةً مّا وَرَدُوهَا} **يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها.**

نعم، وهذا يدل على المعنى الذي ذكرته آنفاً، وهو أن دخول هذه الآلهة للنار من باب التبكيت؛ لأن الله يقول لهم: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا} [(٩٩) سورة الأنبياء] فانظروا إلى حالها، وما آلت إليه.

{وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٩٩) سورة الأنبياء] **أي: العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون** {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} [(١٠٠) سورة الأنبياء] **كما قال تعالى:** {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [(١٠٦) سورة هود] **والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم** {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [(١٠٠) سورة الأنبياء].

هذا المشهور في الشهيق والزفير، الشهيق: إدخال النفس بصوت وبقوة، الإنسان الذي يبكي بكاءً مراً، أو بكاءً شديداً، أو نحو ذلك، ويحاول أن يكتم هذا، أو أتعبه البكاء يأخذ النفس بقوة وبصوت، يظهر في الحلق والصدر، والزفير: هو إخراج النفس بقوة أيضاً وبصوت، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم من قال -وهذا الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: إن الشهيق مثل أول صوت الحمار، والزفير كآخره، تعرفون صوت الحمار كيف يبدأ؟ وبعد ذلك يتحول، يتغير، وفي آخره يكون بصورة أخرى، فعلى كل حال هكذا قال، ولكن المتبادر أن الشهيق والزفير ما يُعرف، ما يعرفه الناس في البكاء الشديد من جذب النفس بقوة وبصوت، والزفير إخراجه بقوة وبصوت.

على كل حال ما ذكره الشيخ محمد الأمين -رحمه الله- من أن الزفير هو أول صوت الحمار، والشهيق هو آخره يحتمل، لكن هل هذا هو المتبادر؟ المتبادر -والله تعالى أعلم- أن الزفير والشهيق يستعملهما الناس في كلامهم في صوت البكاء ونحو ذلك، أو صوت النفس عموماً، إن كان له صوت يسمع لعلة، فهنا يقول: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} [(١٠٦) سورة هود] كما قال تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هود: ١٠٦] فالزفير خروج الأنفاس، والشهيق ولوج الأنفاس.

قوله: {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: ١٠٠] بعضهم يفسره فيقول: {لَا يَسْمَعُونَ} أي لا يسمع بعضهم بعضاً لشدة الهول الذي هم فيه، وبعضهم يقول: لا يسمع بعضهم زفير وشهيق بعض، وبعضهم يقول: لا يسمعون كلاماً يؤنسهم، لا يسمعون كلاماً طيباً، لا يسمعون إلا الزجر {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}[المؤمنون: ١٠٨] وبعضهم يقول: أهل النار لا يسمعون، وقوله: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} لا يعارض هذا؛ لأن الله قد يفتح أسماعهم، أو أنهم في بعض الأوقات يسمعون وفي بعضها لا يسمعون، كما أراد الله -عز وجل-، متى ما أراد، فبعض أهل العلم يقول: أصلاً أهل النار لا يسمعون؛ لأن الله -عز وجل- يقول عن الكفار: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} [الإسراء: ٩٧] هذا قبل دخولهم النار {مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [الإسراء: ٩٧].

وهكذا في قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طــه: ١٢٤-١٢٦] وقد ذكرت عند الكلام على الآية أن هذا على ظاهره، أنه يحشر يوم القيامة أعمى فعلاً حقيقة، وهكذا أولائك الذين يحشرون على وجوههم، وقد سئل عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبر أن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم، فهذا كله على ظاهره، وليس المراد بأنه أعمى عن حجته، فهو ليس له حجة أصلاً، وهكذا في قوله تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} [النمل: ٨٥] فهم لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يبصرون.

وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى} [الأنبياء: ١٠١] قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة.

على كل حال هذا يبدو -والله أعلم- غير متعارض، الرحمة أو السعادة أو الجنة، فإن الجنة هي رحمة الله -عز وجل- ((أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء)) والسعادة: لا شك أن من سبقت لهم السعادة فهم أهل الجنة، وأما من عبر عنها بأنها الجنة فهذا أوضح، فهو غير محتمل لمعانٍ أُخَر؛ ولهذا الله -عز وجل- يقول: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [(٢٦) سورة يونس] فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

{أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١] **لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}** [يونس: ٢٦]، **وقال: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}** [الرحمن: ٦٠] **فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم، ونجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: {أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا}** [الأنبياء: ١٠١-١٠٢] **أي حريقها في الأجساد.**

هو حريقها في الأجساد، الحسيس هو الصوت، صوت الشيء الذي يمر بك قريباً منك، أو نحو ذلك، وهذا يكون حينما تسمع الأصوات بدقة، يعني يكون هدوء، مثلاً في جوف الليل يمكن أن تسمع من يمشي بجوارك، وهو مأخوذ من الحس في أصله؛ ولهذا لا زال الناس يستعملون هذا في الإحراق في النار ببعض صوره يسمونه حسيساً، الآن حينما توضع رءوس الغنم أو نحو ذلك على النار، هذا ماذا يسمى إلى اليوم؟ يسمى حسحسة، أليس كذلك؟ يقال له هذا، فحينما تقلبها على النار تسمع أصواتاً معينة، أصوات وهي تأكل الشعور، أصوات بعض السوائل فيها تحترق، وما إلى ذلك حتى تصير في حال من اليبوسة، فالنار لها صوت وهي تأكل هذه الأشياء {لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} هذا معنى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قال: أي حريقها في الأجساد، صوت احتراق الأجساد، فهذا صوت مفزع، فلا يكون لأهل الجنة راحة ولذة ونعيم وهم يسمعون هذه الأصوات، فستفزعهم قطعاً.

الإنسان إذا رأى النار في الدنيا يفزع، فكيف بنار جهنم التي يلقى فيها الشمس والقمر، شيء هائل، الإنسان أضعف من هذا، الإنسان قد لا يستطيع أن ينظر إلى منحدر، أو من علو شاهق، لا يستطيع أن ينظر إلى الأرض أحياناً، فكيف بالنار التي يلقى الشيء فيها، ويصل بعد سبعين خريفاً إلى قعرها؟!، لو لم يكن فيها نار لصارت مفزعة لأجل الإلقاء فقط، أو النظر، فكيف إذا كانت تضطرم من النار بصورة دائمة لا تنقطع؟!.

وقوله: {وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠٢] **فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب، يقال: نزلت استثناءً من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}** [الأنبياء: ٩٨] **ثم استثنى فقال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}** [الأنبياء: ١٠١] **فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يُعبد من دون الله -عز وجل-، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج.**

وقال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله- في كتاب السيرة: وجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} إلى قوله: {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: ١٠٠] **ثم قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس معهم، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن**

الزبعرَى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيطان، ومن أمرهم بعبادته)) وأنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠١- ١٠٢] أي: عيسى وعزير ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦] إلى قوله: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩] ونزل فيما ذُكر من أمر عيسى وأنه يُعبد من دون الله، وعجَب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا} [الزخرف: ٥٧-٦١] أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: {فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [الزخرف: ٦١] وهذا الذي قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها؛ ولهذا قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرضَ بعبادة من عبده؟!.

على كل حال هذه الراوية من طريق محمد بن إسحاق، وهي لا تصح من جهة الإسناد، ولكن الروايات التي وردت في سبب النزول بهذا المعنى كثيرة، وهذه الروايات متفاوتة، لكن مجموع هذه الروايات يقوي بعضه بعضاً، فأصل ذلك صحيح، ويصح أن يقال: إن سبب النزول هو هذا الإيراد والاحتجاج الذي حصل، والاعتراض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت الآية بسبب ذلك، وإن كانت آحاد هذه الروايات قد لا تصح، وإنما تعتضد بغيرها، والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في الرد عليهم يتضمن أمرين، أما الرواية فإن فيها الاستثناء الواضح الصريح **{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}** [الأنبياء: ١٠١] لكن ما ذكره بعده، قال: لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، في هذين السطرين جوابان، الجواب الأول:

أن هذا خطاب لأهل مكة فلا يرد عليه مَن عبَد المسيح ومَن عبَدَ العُزير، فلا يقول قائل منهم: إذاً نحن مع المسيح ومع العزير، لكن هذا الجواب يرد عليه إيراد وهو أن من العرب من عبد الملائكة، وجاء هذا في بعض الروايات أنهم قالوا: عبدنا الملائكة، فهل الملائكة معنا؟

والجواب الثاني المضمن في كلام ابن كثير -رحمه الله-: أن (ما) لما لا يعقل {إِنَّكُمْ وَمَا} والملائكة والعزير وعيسى -عليهم الصلاة والسلام- هؤلاء ممن يعقل، فذلك لا يتناولهم، وإنما يتناول هذه المعبودات التي عبدها المشركون من الأوثان ونحو ذلك، وهذا حاصل كلام ابن كثير -رحمه الله-، فصارت هذه هي الأجوبة المضمنة في كلامه، ولم يكن ذلك لابن كثير وحده، بل ذكر جماعة من أهل العلم هذه الردود والأجوبة على المشركين، منهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، لكن يكفي أن يقال: إن المقصود كل ما عبد من دون الله -عز وجل- وهو راضٍ بهذه العبادة، سواء أمر بها أو رضي، فيدخل فيه من عُبد من البشر، البشر الذين يُقدَّسون من المقبورين أو من الأحياء، إذا كانوا يرضون بهذا، فالشاهد أن هذا هو المراد، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [الأنبياء: ١٠٣] **قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء، وقيل: المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور، قاله العوفي عن ابن عباس. وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره.**

على كل حال هذا هو الأقرب وليس الموت، الموت ليس هو الفزع الأكبر، إنما الفزع الأكبر ما يكون بالنفخ في الصور، والعلماء -رحمهم الله- مختلفون في عدد المرات التي ينفخ فيها في الصور، فالمشهور أنهما نفختان، نفخة الصعق {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] ونفخة البعث، بعض العلماء يقول: هما نفختان، وبعض العلماء يقول: هناك نفخة ثالثة هي المشار إليها بقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} فهذه يسمونها نفخة الفزع.

فعلى كل حال هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} الفزع الأكبر: هو النفخ في الصور، وهذا ما يدل عليه القرآن كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [النمل: ٨٧] وكما في قوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} [سبأ: ٥١] وهكذا في قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل: ٨٩] فهذا كله بعد النفخ في الصور.

وقوله: {وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: {هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} أي: فأملوا ما يسركم.

نعم وهذا يدل عليه أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت: ٣٢] وهكذا في قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٣٢] فهذا كله يدل على أن ذلك يكون في الآخرة، مع أن أهل الإيمان لهم نصيب من هذا المعنى في الدنيا؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] فإن المشركين الذين عبدوا الكواكب، وخاصموا إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وخوفوه من آلهتهم، قال لهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١] قال الله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] ثم قال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣] فمن أهل العلم -كما سبق في الكلام على قواعد التفسير- من يقول: إن هذا من كلام الله -عز وجل- فصل بين الفريقين {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} وبعضهم يقول: هذا من تمام كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأياً ما كان فهو قول حق، فهم لما خوفوه من آلهتهم أن تُخبله، أو أن تقتله، أو أن تلحق به ضرراً قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} فهذا الأمن حاصل في الدنيا، وحاصل في الآخرة، فلهم من الأمن والاهتداء على قدر ما عندهم من الإيمان الموصوف بهذه الصفة {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} وسبق الكلام على هذا عند قاعدة: الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، وعند قاعدة أخرى وهي: الكلام على الموصول لفظاً والمفصول معنىً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال -عز وجل-: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٤].

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، كما قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الزمر:٦٧]**، وقد روى البخاري عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه))[١]، انفرد به البخاري -رحمه الله.**

وقوله: {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} المراد بالسجل الكتاب، وقال السدي في هذه الآية: السجل ملَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [سورة الصافات:١٠٣]**: أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** السجل أحسن ما يفسر به هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الكتاب، خلافاً لمن قال بأن السجل ملك من الملائكة، وأنه يطوي صحيفة الإنسان بعد موته، فهذا لا دليل عليه، وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ما يتداوله كثير من الناس في نهاية العام يقولون: طويت صحيفة عام، وفتحت صحيفة جديدة وما أشبه ذلك لا أعلم دليلاً على أنه تطوى صحيفة الإنسان في نهاية العام، وبعضهم يقول: السجل هو كاتب كان يكتب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحي، وهذا لا أصل له، وإنما يقال: السجل هو الكتاب، كطي الكتاب للكتب، وفي القراءة الأخرى "الكتاب"، كله بمعنى واحد يعني المكتوب، فهذه الكتابة التي تكون في الصحيفة، يقال لها: كتاب، ويقال لها: كتب، باعتبار مجموع ما كتب فيها، **{كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** كطي الكاتب لما كتب أو للصحيفة التي كتب فيها، فهذه الكتابة يقال لها: الكتاب، ويقال لها: الكتب، فيكون المعنى هكذا كطي الصحيفة لما كتب فيها، ولهذا قال: المراد بالسجل الكتاب، وقال: **والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، واختاره ابن جرير لأنه**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}** [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٧).

المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}: أي على هذا الكتاب بمعنى المكتوب؛ لأن الكتاب مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل، ويأتي بمعنى المفعول، كتاب بمعنى مكتوب، وقال: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} يعني: على الجبين، {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} أي: على الكتب، فاللام بمعنى "على"، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} على الجبين، هذا بتضمين الحرف معنى الحرف، والله أعلم.

وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بموعظة: فقال: ((إنكم محشورون إلى الله -عز وجل- حفاة عراةً غُرْلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا، إنا كنا فاعلين))[٢]، وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين، وذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه.

من أهل العلم من يقول: إن المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن السماء لما تطوى ويحصل ما يحصل كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [سورة إبراهيم:٨]، قالوا: إن الإعادة {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} معناها إعادة هذا الخلق بعد الطي، والمشهور أن هذه الآية إنما هي في إعادة الخلق من جديد بعد أن تفرقت أبعاضهم وأجسادهم في التراب، وهي القضية التي كان يكابر بها المشركون، وهي من القضايا الكبار التي جاء القرآن لتقريرها، وجادل المنكرين بالعبث، وهذا له طرق كثيرة ففي سورة البقرة وحدها نحو خمسة مواضع فيها طريق واحد فقط، وهو إعادة الموتى الذين أماتهم الله -عز وجل- من جديد، كما في قصة قتيل بني إسرائيل {اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [سورة البقرة:٧٣]، وهكذا الذي مر على قرية، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [سورة البقرة:٢٦٠]، وهذا نوع واحد من الأنواع التي يذكرها القرآن لتقرير الإعادة والبعث من جديد، وأن من مات يحييه الله -تبارك وتعالى- ثانية، وهناك أشياء أخرى من طرق الاستدلال، مثل الشجر الأخضر كيف يخرج الله -عز وجل- منه النار، والخضرة والرطوبة لا تتناسب مع النار والإحراق والحرارة وما أشبه ذلك، وهكذا خلق السماوات والأرض، والأجرام العظيمة، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} [سورة يس:٨١]، فالمشهور في هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن الله يحتج على البعث بابتداء الخلق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، و{أَهْوَنُ} هنا ليست على بابها، وإنما المقصود بها مطلق الاتصاف، يعني وهو هين عليه؛ لأنه سوى بالنسبة لله -عز وجل-، وذكرنا قاعدة أخرى، وذكرت هذا المثال عليها وهي أن الخطاب في القرآن قد يرد مراعياً فيه حال السامع، فهو أهون عليه هذا بالنسبة إليكم، فجرى الخطاب على تصور السامعين، أن الإعادة ثانياً أسهل من الابتداء، والخلق لأول مرة، فهذا هو المشهور، هذه دليل على قدرة الله -عز وجل- على البعث، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذه الآية على المنبر كما في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، وهو حديث

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٩٦).

ثابت صحيح: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً)) يعني: غير مختونين، ثم قرأ هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوردها في هذا السياق، بمعنى أن الإنسان حينما يبعث يبعث كما ولدته أمه، إن كان فقد عضواً في حياته يرجع إليه، ليس عليه ثياب، ولا معه متاع ولا غير ذلك، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} فالآية في ظاهرها وعمومها تشمل هذا المعنى، وإن كان قد يتبادر إلى الذهن أنها سيقت أولاً لتقرير مسألة البعث، ولذلك ذكرت في القواعد قاعدة وهي: أن الآية قد ترد في سياق فتدل على معنى، ولكنها قد تحمل على غيره مراعاةً لعموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى معين، مثل {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة:١٠٨]، سياق هذه الآية في مسجد قباء، لكن لما اختصم الرجل العوفي والآخر الخدري، العوفي يقول: مسجد قباء، والخدري يقول: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((هو مسجدي هذا))[٣]، مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن لا ينفي ذلك عن مسجد قباء، ولكن ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الأحق، وهكذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أيقظ علياً وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما-: ((ألا تصليان؟)) يعني من الليل، فقال علي -رضي الله تعالى عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء أن يبعثها بعثها، فرجع -صلى الله عليه وسلم- كالمغضب يلطخ فخذه ويقول: (({وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف:٥٤]))[٤]، مع أن هذه الآية جاءت في الكافرين والمجادلين في الوحدانية والنبوة، والبعث، والوحي، واستدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام، أخذاً من عموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى، فهنا هذه الآية السياق في قضية تقرير البعث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها في صفة حشرهم، فالعموم يشمل هذا جميعاً، وهذا يفيد في مسألة توسيع المعاني، والعلم عند الله -عز وجل.

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٥-١٠٧].

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الأعراف:١٢٨]، وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر:٥١]، وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} [سورة النور:٥٥]، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فقال الزبور: التوراة والإنجيل،

---

٣ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٤ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليلة أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

والقرآن، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر التوراة، وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ.

وقال مجاهد عن ابن عباس {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري -رحمهم الله تعالى.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ذكر الحافظ هنا جملة من الأقوال، سعيد بن جبير يقول: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن. يعني جعلها جنس الكتاب، التوراة والإنجيل والقرآن، ولو قيل له: وزبور داود -صلى الله عليه وسلم-، فقد لا يقول: لا؛ لأن المقصود جنس الكتب فهذا للتمثيل فقط، التوراة والزبور والقرآن، وقال مجاهد: الزبور: الكتاب، فهذا أعم في العبارة، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، بخصوصه، {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} [سورة الإسراء:٥٥]، يقول: والذكر التوراة، الزبور من بعد الذكر: يعني أعطي داود الزبور بعد التوراة التي أعطيت لموسى، فموسى -صلى الله عليه وسلم- هو كبير أنبياء بني إسرائيل -عليهم الصلاة والسلام-، وكتابه هو أعظم الكتب التي نزلت عليهم، يقول: والذكر أم الكتاب عند الله، يعني اللوح المحفوظ، يقول: **قال مجاهد: الزبور الكتب**، يعني بعد الذكر، يعني والذكر أم الكتاب عند الله -عز وجل-، يعني اللوح المحفوظ، الزبور الكتب يعني جنس الكتب، كما قال الله -عز وجل-: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [سورة آل عمران: ١٨٤]، يعني الكتب، {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ} يعني في الكتاب، فالزبر في الأصل هو الكتب، الزبر الكتب، يقال: زبرت يعني كتبت، ولا يختص هذا بكتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، فيصح أن يطلق على كل كتاب أنه زبور، أي: مزبور، بمعني مكتوب، فالزبر هو الكتابة، أو الكتب، وفي قراءة حمزة وهي قراءة متواترة بضم الزاي {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فهذه قطعاً ليس المراد بها كتاب داود -صلى الله عليه وسلم- بخصوصه وإنما عموم الكتب، والقراءات يفسر بعضها بعضاً إذا كان معناها واحداً، كما أن القراءة الأحادية تفسر المتواترة، لكن هنا متواترة تفسر متواترة، فقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} يحتمل أنه خصوص كتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أنه جنس الكتب، لكن القراءة الثانية {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} فيدخل في الزبر التوراة وصحف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والقرآن والإنجيل والزبور، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ويكون المقصود بالذكر هو اللوح المحفوظ، وهذا هو الأرجح والأقوى في تفسير هذه الآية، -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار المحققين من المفسرين، وقال به كبير المفسرين ابن جرير، واختار هذا القول ابن القيم، ورجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فيكون الزبور مفسراً بالزبر -قراءة حمزة-، والمقصود جنس الكتب، أن الله كتب في الكتب التي أنزلها على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كتب من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، الذكر هو اللوح المحفوظ، يقول: **وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ**، وابن جرير -رحمه الله- قال بأن الذكر هو اللوح المحفوظ، واحتج له بأشياء

منها أن دخول "ال" للدلالة على معهود، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فحينما دخلت "ال" فهي عهدية، ما هو المعهود إذا قيل: الذكر، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}؟ اللوح المحفوظ، فهو شيء معهود، وإلا فكل كتاب أنزله فهو ذكر، ولهذا يقول ابن جرير: إن صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كانت قبل التوراة فلماذا لا يقال بأن الله كتب في الزبور من بعد الذكر؟ ولماذا يقال: التوراة، لماذا لا يقال: صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فإنها قبلها، فهؤلاء العلماء رجحوا أن الذكر هو اللوح المحفوظ.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، قبل أن أدخل في هذه المسألة انظروا إلى عبارة ابن كثير -رحمه الله-، وهي دقيقة جداً، وهذا من مزايا هذا الكتاب، يقول: **يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة**، وكثيراً ما يعبر ابن كثير بهذه العبارات الدقيقة، لكن قد لا يعرف قدرها من لم يطلع على كلام أهل العلم في هذا الموضع، والاختلاف الواقع فيه، فعبارة ابن كثير هذه عبارة جامعة، جمع فيها بين أقوال السلف، وهذا مما يميز هذا الكتاب، ويجعله بهذه المنزلة، فكتاب ابن كثير -رحمه الله- لا يعوض عنه غيره، أبداً، كثير من الكتب الآثار الموجودة فيها موجودة في التي قبلها، إن كانت من كتب المأثور، وكثير من الكتب التي تعنى بالجوانب البلاغية أو بالأحكام أو نحو ذلك فيها كلام مكرر في كتب قبلها، لكن هذا الكتاب لا يعوض عنه غيره، من أجلّ الكتب فعلاً، فانظر إلى عبارته، وانظر إلى عبارات السلف ماذا قال: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، أرض الجنة، وهذا هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير أرض الجنة، باعتبار أن الكافرين قد يكون لهم ظهور، وأن الصالحين إنما يكون جزاؤهم عند الله -عز وجل- في الجنة، وهكذا يحتجون بقوله -تبارك وتعالى- عن أهل الجنة إذا دخلوها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء} [سورة الزمر:٧٤]، قالوا: الأرض هي الجنة، فهذه تفسر هذا، {أَنَّ الْأَرْضَ} هي أرض الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء}، وهذا التفسير يشهد له القرآن كما ترون، ومن حيث النظر قالوا ما ذكرتُ من أن الصالحين جزاؤهم على الله -عز وجل- في الآخرة، أما في الدنيا فقد يحصل لهم الفقر والضيق والأذى، والقتل، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ} [سورة آل عمران:١٤٦]، وفي هذه القراءة المتواترة {قُتل معه ربيون كثير} أي جماعات كثيرة، فابن جرير حملها على هذا المعنى أرض الجنة، وهذا قال به جماعة من السلف، كأبي العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبي صالح، والربيع بن أنس، والثوري، كل هؤلاء قالوا: أرض الجنة، لهذين الاعتبارين؛ دليل من المنقول، ودليل من النظر، ولكن القول الآخر قال به طائفة كثيرة من أهل العلم، بل نسبه ابن القيم -رحمه الله- إلى أكثر المفسرين، وهذا يحتاج إلى تأمل، لكن قال بأن المقصود بالأرض أرض الكافرين، واستدل بآيات من القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا} [سورة الأحزاب:٢٧]، وهكذا {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [سورة النور:٥٥]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِ} [سورة إبراهيم:١٤]، وهكذا في قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وفي قوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [سورة الأعراف:١٣٧]، فقالوا: هذه في الدنيا، وعبارة ابن كثير السابقة حملها على ماذا؟ تأملوها وانظروا فيها، حملها على المعنيين، أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض أرض الدنيا والأرض في الجنة، فليس العبرة بوقت يحصل فيه هزيمة أو ضيق لأهل الإيمان، وإنما العبرة بالعواقب والنهايات، ولهذا لما قال الله -عز وجل- في حق عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، لم يكن للنصارى ظهور، إلا ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فصار الظهور لأهل الإيمان، أهل التوحيد، وإلا فإن الذين اتبعوا عيسى -صلى الله عليه وسلم- من أهل التوحيد كانوا قلة مستضعفة، ودخل قسطنطين في النصرانية كما هو معلوم وجرها إلى الوثنية، وتسلطوا كما حصل في المجمع الذي أقروا فيه التثليث، تسلطوا على أهل التوحيد وصاروا يقتلونهم ويستضعفونهم، وصار لهؤلاء النصارى ظهور على اليهود، {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} فبعض أهل العلم كابن القيم يقول: المقصود بهم النصارى، ظهروا على اليهود فأذلوهم وكانوا ينادون عليهم في ممالك الروم حيناً بعد حين، ويقتلون في تلك الأمصار، يقتلون اليهود، فابن القيم يقول: من كان له شائبة في اتباع المسيح أولى ممن كفر به بالكلية، يعني اليهود، فيرى أنها في النصارى، ولكن هذا يشكل عليه بعض الأمور التي أشرت إليها، والأقرب أن ذلك كان ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فالعبرة بالعواقب، وإلا ففي الآية السابقة {وكأين من نبي قُتل} إذا وقفنا هنا فالنبي قد يقتل، والمقتول قد يقال: إنه مغلوب {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤]؛ لأن الله قابل الغلبة بالقتل، فالمقتول مغلوب، قد يقول قائل هذا، ولكن إذا جمعت النصوص فإن العبرة بالعواقب والنهايات، ليست العبرة بضعف البدايات وإنما بكمال النهايات، فهنا هذه الآيات يحتج بها أمثال ابن القيم -رحمه الله-، على أن الأرض أرض الدنيا، وابن كثير في ظاهر كلامه جمع بين المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الشنقيطي، وهو من أحسن ما يقال -والله أعلم- في تفسير الآية، {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [سورة الأعراف:١٢٨]، فدل القرآن على أنها الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء} [سورة الزمر:٧٤]، وأن الأرض أيضاً في الدنيا {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ} [سورة الأحزاب:٢٧]، {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ}، وما شابه ذلك، فالآية قد تحتمل معنيين يشهد لكل واحد منهما قرآن، فتحمل على هذا وهذا، ما لم يوجد دليل يمنع من ذلك، أي دليل يوجب حملها على أحد هذه المعاني، ما عندنا دليل، هذا يشهد له قرآن وهذا يشهد له قرآن، فنحملها على الجميع، هذا مقتضى القواعد العلمية، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال -عز وجل-: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٤].

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، كما قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الزمر:٦٧]، وقد روى البخاري عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه))[1]، انفرد به البخاري -رحمه الله.

وقوله: {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} المراد بالسجل الكتاب، وقال السدي في هذه الآية: السجل ملَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [سورة الصافات:١٠٣]: أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** السجل أحسن ما يفسر به هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الكتاب، خلافاً لمن قال بأن السجل ملك من الملائكة، وأنه يطوي صحيفة الإنسان بعد موته، فهذا لا دليل عليه، وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ما يتداوله كثير من الناس في نهاية العام يقولون: طويت صحيفة عام، وفتحت صحيفة جديدة وما أشبه ذلك لا أعلم دليلاً على أنه تطوى صحيفة الإنسان في نهاية العام، وبعضهم يقول: السجل هو كاتب كان يكتب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحي، وهذا لا أصل له، وإنما يقال: السجل هو الكتاب، كطي الكتاب للكتب، وفي القراءة الأخرى "الكتاب"، كله بمعنى واحد يعني المكتوب، فهذه الكتابة التي تكون في الصحيفة، يقال لها: كتاب، ويقال لها: كتب، باعتبار مجموع ما كتب فيها، **{كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** كطي الكاتب لما كتب أو للصحيفة التي كتب فيها، فهذه الكتابة يقال لها: الكتاب، ويقال لها: الكتب، فيكون المعنى هكذا كطي الصحيفة لما كتب فيها، ولهذا قال: المراد بالسجل الكتاب، وقال: **والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، واختاره ابن جرير لأنه**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}** [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٧).

المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}: أي على هذا الكتاب بمعنى المكتوب؛ لأن الكتاب مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل، ويأتي بمعنى المفعول، كتاب بمعنى مكتوب، وقال: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} يعني: على الجبين، {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} أي: على الكتب، فاللام بمعنى "على"، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} على الجبين، هذا بتضمين الحرف معنى الحرف، والله أعلم.

وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بموعظة: فقال: ((إنكم محشورون إلى الله -عز وجل- حفاة عراةً غُرْلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا، إنا كنا فاعلين))[٢]، وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين، وذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه.

من أهل العلم من يقول: إن المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن السماء لما تطوى ويحصل ما يحصل كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [سورة إبراهيم:٨]، قالوا: إن الإعادة {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} معناها إعادة هذا الخلق بعد الطي، والمشهور أن هذه الآية إنما هي في إعادة الخلق من جديد بعد أن تفرقت أبعاضهم وأجسادهم في التراب، وهي القضية التي كان يكابر بها المشركون، وهي من القضايا الكبار التي جاء القرآن لتقريرها، وجادل المنكرين بالعبث، وهذا له طرق كثيرة ففي سورة البقرة وحدها نحو خمسة مواضع فيها طريق واحد فقط، وهو إعادة الموتى الذين أماتهم الله -عز وجل- من جديد، كما في قصة قتيل بني إسرائيل {اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [سورة البقرة:٧٣]، وهكذا الذي مر على قرية، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [سورة البقرة:٢٦٠]، وهذا نوع واحد من الأنواع التي يذكرها القرآن لتقرير الإعادة والبعث من جديد، وأن من مات يحييه الله -تبارك وتعالى- ثانية، وهناك أشياء أخرى من طرق الاستدلال، مثل الشجر الأخضر كيف يخرج الله -عز وجل- منه النار، والخضرة والرطوبة لا تتناسب مع النار والإحراق والحرارة وما أشبه ذلك، وهكذا خلق السماوات والأرض، والأجرام العظيمة، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} [سورة يس:٨١]، فالمشهور في هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن الله يحتج على البعث بابتداء الخلق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، و{أَهْوَنُ} هنا ليست على بابها، وإنما المقصود بها مطلق الاتصاف، يعني وهو هين عليه؛ لأنه سوى بالنسبة لله -عز وجل-، وذكرنا قاعدة أخرى، وذكرت هذا المثال عليها وهي أن الخطاب في القرآن قد يرد مراعياً فيه حال السامع، فهو أهون عليه هذا بالنسبة إليكم، فجرى الخطاب على تصور السامعين، أن الإعادة ثانياً أسهل من الابتداء، والخلق لأول مرة، فهذا هو المشهور، هذه دليل على قدرة الله -عز وجل- على البعث، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذه الآية على المنبر كما في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، وهو حديث

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٩٦).

ثابت صحيح: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً)) يعني: غير مختونين، ثم قرأ هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوردها في هذا السياق، بمعنى أن الإنسان حينما يبعث كما ولدته أمه، إن كان فقد عضواً في حياته يرجع إليه، ليس عليه ثياب، ولا معه متاع ولا غير ذلك، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} فالآية في ظاهرها وعمومها تشمل هذا المعنى، وإن كان قد يتبادر إلى الذهن أنها سيقت أولاً لتقرير مسألة البعث، ولذلك ذكرت في القواعد قاعدة وهي: أن الآية قد ترد في سياق فتدل على معنى، ولكنها قد تحمل على غيره مراعاةً لعموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى معين، مثل {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة:١٠٨]، سياق هذه الآية في مسجد قباء، لكن لما اختصم الرجل العوفي والآخر الخدري، العوفي يقول: مسجد قباء، والخدري يقول: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((هو مسجدي هذا))[٣]، مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن لا ينفي ذلك عن مسجد قباء، ولكن ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الأحق، وهكذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أيقظ علياً وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما-: ((ألا تصليان؟)) يعني من الليل، فقال علي -رضي الله تعالى عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء أن يبعثها بعثها، فرجع -صلى الله عليه وسلم- كالمغضب يلطخ فخذه ويقول: (({وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف:٥٤]))[٤]، مع أن هذه الآية جاءت في الكافرين والمجادلين في الوحدانية والنبوة، والبعث، والوحي، واستدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام، أخذاً من عموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى، فهنا هذه الآية السياق في قضية تقرير البعث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها في صفة حشرهم، فالعموم يشمل هذا جميعاً، وهذا يفيد في مسألة توسيع المعاني، والعلم عند الله -عز وجل.

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٥-١٠٧].

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الأعراف:١٢٨]، وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر:٥١]، وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} [سورة النور:٥٥]، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فقال الزبور: التوراة والإنجيل،

---

٣ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٤ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليلة أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

والقرآن، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر التوراة، وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ.

وقال مجاهد عن ابن عباس {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري -رحمهم الله تعالى.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ذكر الحافظ هنا جملة من الأقوال، سعيد بن جبير يقول: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن. يعني جعلها جنس الكتاب، التوراة والإنجيل والقرآن، ولو قيل له: وزبور داود -صلى الله عليه وسلم-، فقد لا يقول: لا؛ لأن المقصود جنس الكتب فهذا للتمثيل فقط، التوراة والزبور والقرآن، وقال مجاهد: الزبور: الكتاب، فهذا أعم في العبارة، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، بخصوصه، {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} [سورة الإسراء:٥٥]، يقول: والذكر التوراة، الزبور من بعد الذكر: يعني أعطي داود الزبور بعد التوراة التي أعطيت لموسى، فموسى -صلى الله عليه وسلم- هو كبير أنبياء بني إسرائيل -عليهم الصلاة والسلام-، وكتابه هو أعظم الكتب التي نزلت عليهم، يقول: والذكر أم الكتاب عند الله، يعني اللوح المحفوظ، يقول: **قال مجاهد: الزبور الكتب**، يعني بعد الذكر، يعني والذكر أم الكتاب عند الله -عز وجل-، يعني اللوح المحفوظ، الزبور الكتب يعني جنس الكتب، كما قال الله -عز وجل-: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [سورة آل عمران: ١٨٤]، يعني الكتب، {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ} يعني في الكتاب، فالزبر في الأصل هو الكتب، الزبر الكتب، يقال: زبرت يعني كتبت، ولا يختص هذا بكتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، فيصح أن يطلق على كل كتاب أنه زبور، أي: مزبور، بمعني مكتوب، فالزبر هو الكتابة، أو الكتب، وفي قراءة حمزة وهي قراءة متواترة بضم الزاي {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فهذه قطعاً ليس المراد بها كتاب داود -صلى الله عليه وسلم- بخصوصه وإنما عموم الكتب، والقراءات يفسر بعضها بعضاً إذا كان معناها واحداً، كما أن القراءة الأحادية تفسر المتواترة، لكن هنا متواترة تفسر متواترة، فقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} يحتمل أنه خصوص كتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أنه جنس الكتب، لكن القراءة الثانية {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} فيدخل في الزبر التوراة وصحف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والقرآن والإنجيل والزبور، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ويكون المقصود بالذكر هو اللوح المحفوظ، وهذا هو الأرجح والأقوى في تفسير هذه الآية، -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار المحققين من المفسرين، وقال به كبير المفسرين ابن جرير، واختار هذا القول ابن القيم، ورجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فيكون الزبور مفسراً بالزبر -قراءة حمزة-، والمقصود جنس الكتب، أن الله كتب في الكتب التي أنزلها على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كتب من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، الذكر هو اللوح المحفوظ، يقول: **وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ**، وابن جرير -رحمه الله- قال بأن الذكر هو اللوح المحفوظ، واحتج له بأشياء

منها أن دخول "ال" للدلالة على معهود، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فحينما دخلت "ال" فهي عهدية، ما هو المعهود إذا قيل: الذكر، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}؟ اللوح المحفوظ، فهو شيء معهود، وإلا فكل كتاب أنزله فهو ذكر، ولهذا يقول ابن جرير: إن صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كانت قبل التوراة فلماذا لا يقال بأن الله كتب في الزبور من بعد الذكر؟ ولماذا يقال: التوراة، لماذا لا يقال: صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فإنها قبلها، فهؤلاء العلماء رجحوا أن الذكر هو اللوح المحفوظ.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، قبل أن أدخل في هذه المسألة انظروا إلى عبارة ابن كثير -رحمه الله-، وهي دقيقة جداً، وهذا من مزايا هذا الكتاب، يقول: **يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة**، وكثيراً ما يعبر ابن كثير بهذه العبارات الدقيقة، لكن قد لا يعرف قدرها من لم يطلع على كلام أهل العلم في هذا الموضع، والاختلاف الواقع فيه، فعبارة ابن كثير هذه عبارة جامعة، جمع فيها بين أقوال السلف، وهذا مما يميز هذا الكتاب، ويجعله بهذه المنزلة، فكتاب ابن كثير -رحمه الله- لا يعوض عنه غيره، أبداً، كثير من الكتب الآثار الموجودة فيها موجودة في التي قبلها، إن كانت من كتب المأثور، وكثير من الكتب التي تعنى بالجوانب البلاغية أو بالأحكام أو نحو ذلك فيها كلام مكرر في كتب قبلها، لكن هذا الكتاب لا يعوض عنه غيره، من أجلّ الكتب فعلاً، فانظر إلى عبارته، وانظر إلى عبارات السلف ماذا قال: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، أرض الجنة، وهذا هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير أرض الجنة، باعتبار أن الكافرين قد يكون لهم ظهور، وأن الصالحين إنما يكون جزاؤهم عند الله -عز وجل- في الجنة، وهكذا يحتجون بقوله -تبارك وتعالى- عن أهل الجنة إذا دخلوها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء} [سورة الزمر:٧٤]، قالوا: الأرض هي الجنة، فهذه تفسر هذا، {أَنَّ الْأَرْضَ} هي أرض الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء}، وهذا التفسير يشهد له القرآن كما ترون، ومن حيث النظر قالوا ما ذكرتُ من أن الصالحين جزاؤهم على الله -عز وجل- في الآخرة، أما في الدنيا فقد يحصل لهم الفقر والضيق والأذى، والقتل، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ} [سورة آل عمران:١٤٦]، وفي هذه القراءة المتواترة {قُتل معه ربيون كثير} أي جماعات كثيرة، فابن جرير حملها على هذا المعنى أرض الجنة، وهذا قال به جماعة من السلف، كأبي العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبي صالح، والربيع بن أنس، والثوري، كل هؤلاء قالوا: أرض الجنة، لهذين الاعتبارين؛ دليل من المنقول، ودليل من النظر، ولكن القول الآخر قال به طائفة كثيرة من أهل العلم، بل نسبه ابن القيم -رحمه الله- إلى أكثر المفسرين، وهذا يحتاج إلى تأمل، لكن قال بأن المقصود بالأرض أرض الكافرين، واستدل بآيات من القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا} [سورة الأحزاب:٢٧]، وهكذا {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [سورة النور:٥٥]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِ} [سورة إبراهيم:١٤]، وهكذا في قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وفي قوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [سورة الأعراف:١٣٧]، فقالوا: هذه في الدنيا، وعبارة ابن كثير السابقة حملها على ماذا؟ تأملوها وانظروا فيها، حملها على المعنيين، أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض أرض الدنيا والأرض في الجنة، فليس العبرة بوقت يحصل فيه هزيمة أو ضيق لأهل الإيمان، وإنما العبرة بالعواقب والنهايات، ولهذا لما قال الله -عز وجل- في حق عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، لم يكن للنصارى ظهور، إلا ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فصار الظهور لأهل الإيمان، أهل التوحيد، وإلا فإن الذين اتبعوا عيسى -صلى الله عليه وسلم- من أهل التوحيد كانوا قلة مستضعفة، ودخل قسطنطين في النصرانية كما هو معلوم وجرها إلى الوثنية، وتسلطوا كما حصل في المجمع الذي أقروا فيه التثليث، تسلطوا على أهل التوحيد وصاروا يقتلونهم ويستضعفونهم، وصار لهؤلاء النصارى ظهور على اليهود، {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} فبعض أهل العلم كابن القيم يقول: المقصود بهم النصارى، ظهروا على اليهود فأذلوهم وكانوا ينادون عليهم في ممالك الروم حيناً بعد حين، ويقتلون في تلك الأمصار، يقتلون اليهود، فابن القيم يقول: من كان له شائبة في اتباع المسيح أولى ممن كفر به بالكلية، يعني اليهود، فيرى أنها في النصارى، ولكن هذا يشكل عليه بعض الأمور التي أشرت إليها، والأقرب أن ذلك كان ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فالعبرة بالعواقب، وإلا ففي الآية السابقة {وكأين من نبي قُتل} إذا وقفنا هنا فالنبي قد يقتل، والمقتول قد يقال: إنه مغلوب {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤]؛ لأن الله قابل الغلبة بالقتل، فالمقتول مغلوب، قد يقول قائل هذا، ولكن إذا جمعت النصوص فإن العبرة بالعواقب والنهايات، ليست العبرة بضعف البدايات وإنما بكمال النهايات، فهنا هذه الآيات يحتج بها أمثال ابن القيم -رحمه الله-، على أن الأرض أرض الدنيا، وابن كثير في ظاهر كلامه جمع بين المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الشنقيطي، وهو من أحسن ما يقال -والله أعلم- في تفسير الآية، {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [سورة الأعراف:١٢٨]، فدل القرآن على أنها الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء} [سورة الزمر:٧٤]، وأن الأرض أيضاً في الدنيا {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ} [سورة الأحزاب:٢٧]، {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ}، وما شابه ذلك، فالآية قد تحتمل معنيين يشهد لكل واحد منهما قرآن، فتحمل على هذا وهذا، ما لم يوجد دليل يمنع من ذلك، أي دليل يوجب حملها على أحد هذه المعاني، ما عندنا دليل، هذا يشهد له قرآن وهذا يشهد له قرآن، فنحملها على الجميع، هذا مقتضى القواعد العلمية، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين، وبعد:

قال المؤلف -رحمه الله-: وقوله: {إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ} [سورة الأنبياء (١٠٦)] أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- {لَبلاغاً} لمنفعة وكفايةً {لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا}** اسم الإشارة راجع إلى القرآن، وهذا هو قول الحافظ ابن كثير وسبقه إلى ذلك ابن جرير الطبري -رحمهما الله- وقال بعض أهل العلم: إن اسم الإشارة يرجع إلى أقرب مذكور، باعتبار أن "هذا" يشار به للقريب، و "ذاك" للمتوسط، و "ذلك" للبعيد. والآية تحتمل المعنيين.

قوله: **{لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ}**، المقصود بالبلاغ الكفاية، وخص العابدين بالذكر؛ لكونهم يحصل لهم البلاغ والكفاية، وإلا فالقرآن فيه بلاغ للعالمين لو أنهم أقبلوا عليه وانتفعوا به، وقد قال الله -تبارك وتعالى- عن القرآن: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** [سورة البقرة: (٢)] مع أنه هدى للجميع، لكن لما كان المتقون هم المنتفعون به خصهم بذلك.

وقوله: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء (١٠٧)] يخبر تعالى أن الله جعل محمداً -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمَن قبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [سورة إبراهيم: (٢٨- ٢٩)]، وقال تعالى في صفة القرآن: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة فصلت: (٤٤)] وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قيل يارسول الله ادع على المشركين. قال: ((إني لم أبعث لعّاناً، وإنما بعثت رحمة))[1] انفرد بإخراجه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطب فقال: ((أيما رجل من أمتي سببتُه سَبّةً في غضبي، أو لعنتُه لعنة -فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما

---

[1] - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٤ / ٢٠٠٦)، برقم (٢٥٩٩).

تغضبون، إنما بعثني الله رحمة للعالمين- فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة))[2]. **ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة، فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }** [سورة الأنبياء: (١٠٧)] **قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }** فعمّ الله -تبارك وتعالى- ببعثه وإرساله العالم بأسره فهو رحمة مهداة -صلى الله عليه وسلم .

وعبارة ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره جيدة وجامعة، وفي ضمنها جواب عن هذا السؤال الذي ذكره بعده، فقد قال: "**يخبر تعالى أن الله جعل محمداً -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة**".

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، فمن الناس من دنا من الرحمة وأقبل عليها فانتفع، ومن الناس من ابتعد فلم ينتفع، فالمطر رحمة، فمن الناس من ينتفع به فيزرع، ومن الناس من لا ينتفع به بل قد يحصل له الضرر، وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، قال: جاءت ملائكة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن أطاع محمدا -صلى الله عليه وسلم- فقد أطاع الله، ومن عصى محمدا -صلى الله عليه وسلم-، فقد عصى الله، ومحمدٌ -صلى الله عليه وسلم- فرق بين الناس[3].

ألا ترى أن من الناس من لا ينتفع بالأطباء ودوائهم، بل لا يذهب إليهم، وإذا أصابه الداء فإنه لا يتطبب، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء علِمه من علِمه وجهِله من جهِله))[4]، فوجود هذا الدواء هو نعمة من الله -عز وجل.

والله تبارك وتعالى يخبر أن العسل **{فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ}** [(٦٩) سورة النحل]، ولكن من الناس من لا ينتفع بالعسل ولا يقبل عليه، ولا يتداوى به ولا يطعمه.

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٤ / ٣٤٧)، برقم (٤٦٦١)، وأحمد (٣٩ / ١١٠)، برقم: (٢٣٧٠٦).

٣ - رواه البخاري (٦/٢٦٥٥)، برقم: (٦٨٥٢).

٤ - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الطب، (٤ / ٢١٨)، برقم (٧٤٢٤).

وكذلك أخبر -عز وجل- عن هذا القرآن أنه شفاء لما في الصدور، وأخبر عن المجرمين والظالمين والمكذبين والكافرين أنه عليهم عمى، وأن الآيات التي تنزل تزيدهم ضلالا، يقول: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [سورة التوبة(١٢٥)]، وذلك لأن الكفار أعرضوا عن القرآن ولم ينتفعوا بها.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- حصل بسببه الانتفاع، فالمنافقون استفادوا حقن الدماء، وأحرزوا أموالهم في الدنيا، وحصل لهم ما يحصل من الأموال والغنائم إذا حضروا القتال، وأما الكفار فإنه لم تنزل بهم العقوبات المستأصلة التي نزلت في الأمم السابقة، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الأنفال(٣٣)]، فبعثه -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، فلم ينزل العذاب المستأصل بهذه الأمة ، كما نزل في الأمم السابقة.

{قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء (١٠٨ -١١٢)].

يقول تعالى آمراً رسوله -صلواته وسلامه عليه- أن يقول للمشركين: {إنما يُوحَى إِلَيّ أنما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مّسْلِمُونَ} أي: متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له {فَإِن تَوَلّوْاْ} أي: تركوا ما دعوتهم إليه {فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىَ سواء} أي: أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم براء مني، كقوله: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة يونس (٤١)] وقال: { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء } [سورة الأنفال: (٥٨)]، أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا {فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىَ سواء} أي: أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء: (١٠٩)]، الإيذان أصله الإعلام، ومنه الأذان، والمعنى: أعلمتكم بأنكم عدو لي وأنا عدو لكم، لا مجال للمقاربة بيني وبينكم، وقد قال الله -عز وجل-: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم: (٩)]، يعني: تتنازل عن بعض الحق فيتنازلون عن بعض ما عندهم، وقال: { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } [سورة الإسراء(٧٣)]، وغير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى، وما يوده هؤلاء الكفار من إزاغة أهل الإيمان عن إيمانهم وعن الحق الذي هم فيه، وأخبر الله -عز وجل- عن شدة حسدهم للمؤمنين كما هو الشأن في اليهود، {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [سورة النساء: (٥٤)].

وقوله: {وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء: (١٠٩)] أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

قوله: {وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} قال بعض أهل العلم في معنى هذه الآية: هذا الذي توعدونه من ظهور الإسلام وغلبة المسلمين على الكفار، ومنهم من يقول: أي هذا الذي توعدونه في الآخرة، وما يحصل فيها من جزاء وحساب؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ

وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [سورة يونس: (٥٣)]، ويقول: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }، ويقول: {قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} [سورة سبأ: (٣٠)] ولعل هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} أي: إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل.

وقوله: {وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى، وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم.

هو هذا الإمهال، فهم يستعجلون ذلك اليوم الذي وُعدوا، فالله -تبارك وتعالى- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: قل لهم: لا أدري لعل هذا الإمهال فتنة لكم ومتاع إلى حين، فيحصل لربما عندهم شيء من الشك والتكذيب ويزداد من يزداد منهم من الكفر كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [سورة آل عمران: (١٧٨)].

{قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ} [سورة الأنبياء: (١١٢)] أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كانت الأنبياء -عليهم السلام- يقولون: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [سورة الأعراف: (٨٩)] وأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول ذلك.

{قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ} هذه قراءة حفص عن عاصم وهي قراءة متواترة تدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال ذلك وامتثل، فحكاه الله -عز وجل- عنه.

وقرأه عامة السبعة {قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ}، وقد ذكرنا أن تنوع القراءات بمنزلة تعدد الآيات، فيكون المعنى أن الله تبارك وتعالى أمر نبيه، ثم استجاب النبي -صلى الله عليه وسلم- للأمر، وهذا من إعجاز القرآن، ومن الحِكَم من نزول القرآن على سبعة أحرف، فتتنوع القراءات وتجد هذه القراءة تدل على الأمر، وهذه تدل على الامتثال.

ومعنى {احْكُم بِالْحَقِّ} أي: افصل بيننا، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف: (٨٩)] فالحكم يقال له فتاحة، والحاكم يقال له: فاتح وفتاح.

وقوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال: (١٩)]، أي: إن تطلبوا الفتح والحكم، فقد جاءكم الحكم والفصل بما حصل في يوم بدر.

وأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول ذلك، وعن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا شهد قتالاً قال: {رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ}[٥].

عن زيد بن أسلم: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-... هذا من قبيل المرسل.

---

٥ - تفسير ابن كثير (٣ / ٢٤٨).

وقوله: {وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

كثيراً ما يأتي التعبير بلفظ "الوصف" في القرآن ويكون المراد به الكذب، ومنه قوله: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء (١٨)] يعني من الكذب، وقوله: **{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ}** [سورة النحل: (٦٢)]، وقوله: **{سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ}** [سورة الأنعام: (١٣٩)] .

سورة الحج

بسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } [سورة الحـج: (١-٢)]

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها، كما قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا } [سورة الزلزلة: (١-٢)]، وقال تعالى: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [سورة الحاقة: (١٤ -١٥)]، وقال تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [سورة الواقعة: (٤-٥)]، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير عن علقمة في قوله: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} قال: قبل الساعة.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العَرَصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث.

هذه السورة قال عنها بعض أهل العلم: إنها من عجائب القرآن، فيها الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وفيها السلمي والحربي، وفيها الليلي والنهاري، والسفري والحضري، وهذه كلها من الأنواع كما ذكرت في الكلام على رسالة السيوطي في أصول التفسير.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحـج: (١)].

وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء: (١)].

فـ "إن" تدل على التعليل، وكأن المعنى: لأن الله عليكم مراقب يراقب الحركات والسكنات، وهكذا في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحـج: (١)]، وهذا الذي يعرف عند الأصوليين بدلالة الإيماء والتنبيه، أي يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً.

والمعنى اتقوه لأن زلزلة الساعة شيء عظيم ففيها من الأهوال والأوجال والأمور العظيمة الهائلة ما يستدعي العمل والتشمير في طاعة الله -تبارك وتعالى-، والانكفاف عن كل ما لا يليق، فإن العباد سيصيرون إلى مقام وأهوال وأحوال وأوجال لا يُقادَر قدرُها، ويفضي ذلك بهم إلى خلود بلا انقطاع في نعيم دائم أو في عذاب وجحيم دائم، ومهما وصف الواصفون فإن ذلك لا يفي بأهوال ذلك اليوم وما يحصل فيه من الأوجال.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} من أهل العلم من يقول: إن هذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة؛ لأنه قريب منها ويكون ذلك من قبيل إضافة الزلزلة إلى الفاعل، واحتجوا على هذا بحديث لا يصح، ولو صح لكان قاطعاً في الدلالة على المراد، والحديث فيه مجاهيل، بل فيه من هو مبهم، فلا يعتمد عليه في تفسير الآية، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أن هذه الزلزلة تكون بعد قيام القيامة، وبعد قيام الناس

من القبور، وهذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: قال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وهذا نُقل عن علقمة، وقال به غيره كالشعبي وإبراهيم النخعي وعبيد بن عمير وابن جريج من التابعين.

والقول الآخر وهو الأرجح: أن هذه الزلزلة كائنة بعد البعث، ويكون المعنى **{إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ}** من إضافة الشيء إلى الظرف الذي يقع فيه، والدليل على هذا الأحاديث التي ذكرها بعده، فإنها توضح المراد.

والآية محتملة كقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}** [سورة الزلزلة: (١-٥)] هل هذا قبيل قيام الساعة، عند حصول التغيرات الهائلة، أو أن ذلك يحصل بعد البعث؟، فبنفخة الصعق يموت كل الأحياء، وبنفخة البعث يقوم كل الأموات، فهذه الزلزلة التي ذكرها الله في سورة الزلزلة، لكن ما ذكره الله -عز وجل- فيها في ثنايا السورة يدل على أن ذلك بعد البعث، فمتى تخرج الأرض أثقالها؟، ومعنى أثقالها ما فيها من الأموات، وما فيها من الكنوز، كل ذلك تخرجه.

قال بعض أهل العلم: إن الزلزلة هي زلزلة حسية، وأكثرهم يقولون: هي زلزلة معنوية وليست حسية، بمعنى الخوف، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأحزاب يصف حال المؤمنين وما بلغ الحال بهم من شدة الخوف قال: **{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}** [سورة الأحزاب: (١١)]، وإلا فأصل الزلزلة الحركة السريعة والاضطراب كما تدل عليه حروفها المتكررة، فإن تكرر الحروف يدل على تكرر المعنى، مثل: الصلصلة، صوت مثل صوت الجرس فيه تردد، صلصلة، وهكذا حينما يقال: زلزلة: حركة سريعة واضطراب، يعني الحركة الواحدة ما تسمى زلزلة، لكن حينما تميد وتتحرك فإن هذا يقال له: الزلزلة، وأصله من زل عن الموضع، زل عن المكان، ولهذا يقال: زلت قدمه، تزلزلت قدمه: معناها أن هذا تكرر أكثر من مرة.

فالزلزلة -والله تبارك وتعالى أعلم- زلزلة معنوية وتحصل بعد البعث، وذلك بما يحصل مما يرون، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}** [سورة الحـــج (٢)] فهذه الزلزلة، الخوف الشديد الذي يصيب الناس، وقد عزا بعض أهل العلم القول بأن الزلزلة تكون قبل الساعة وتكون من أماراتها إلى الجمهور، والآية تحتمل المعنيين.

والذين قالوا: إن الزلزلة قبل يوم القيامة استدلوا بأن القيامة ليس فيها حمل ولا إرضاع، والذين قالوا: إنها في القيامة بعد البعث، قالوا ممكن المرأة التي ماتت وهي حامل تبعث وهي حامل، فتضع حملها من شدة الهول، والمرأة التي ترضع تذهل عن ولدها.

وأحسن من هذا قول من قال: إن ذلك ليس بلازم، فلا يلزم أن يكون هناك حامل وإرضاع، لكن هو لتصوير شدة الخوف والأهوال التي تقع فيها، أي أنها من شدتها تضع الحوامل الحمل، والمرضع تذهل، كما قال الله -عز وجل-: **{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا}** [سورة المزمل: (١٧-١٨)]، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١)

قوله تعالى"يأيها الناس اتقوا ربكم" الآية ١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:١-٢].

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها، كما قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:١-٢]، **وقال تعالى:** {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [سورة الحاقة: ١٤-١٥]، **وقال تعالى:** {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [سورة الواقعة:٤-٥]، **فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وقال ابن جرير عن علقمة في قوله:** {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} **قال: قبل الساعة.**

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العُرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث.

هذه السورة قال عنها بعض أهل العلم: إنها من عجائب القرآن، فيها الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وفيها السلمي والحربي، وفيها الليلي والنهاري، والسفري والحضري، وهذه كلها من الأنواع كما ذكرت في الكلام على رسالة السيوطي في أصول التفسير.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١].

وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء:١].

فـ "إنّ" تدل على التعليل، وكأن المعنى: لأن الله عليكم مراقب، يراقب الحركات والسكنات، وهكذا في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١]، وهذا الذي يعرف عند الأصوليين بدلالة الإيماء والتنبيه، أي يقرن الحكم بوصف، لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً.

والمعنى اتقوه لأن زلزلة الساعة شيء عظيم؛ ففيها من الأهوال والأوجال والأمور العظيمة الهائلة ما يستدعي العمل، والتشمير في طاعة الله -تبارك وتعالى-، والانكفاف عن كل ما لا يليق، فإن العباد سيصيرون إلى مقام وأهوال وأحوال وأوجال لا يقادر قدرها، ويفضي ذلك بهم إلى خلود بلا انقطاع في نعيم دائم، أو في عذاب وجحيم دائم، ومهما وصف الواصفون فإن ذلك لا يفي بأهوال ذلك اليوم، وما يحصل فيه من الأوجال.

قوله - تبارك وتعالى -: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} من أهل العلم من يقول: إن هذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة؛ لأنه قريب منها، ويكون ذلك من قبيل إضافة الزلزلة إلى الفاعل، واحتجوا على هذا بحديث لا يصح، ولو صح لكان قاطعاً في الدلالة على المراد، والحديث فيه مجاهيل، بل فيه من هو مبهم، فلا يعتمد عليه في تفسير الآية، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أن هذه الزلزلة تكون بعد قيام القيامة، وبعد قيام الناس من القبور، وهذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وهذا نقل عن علقمة، وقال به غيره كالشعبي وإبراهيم النخعي وعبيد بن عمير وابن جريج من التابعين.

والقول الآخر -وهو الأرجح- أن هذه الزلزلة كائنة بعد البعث، ويكون المعنى {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} من إضافة الشيء إلى الظرف الذي يقع فيه، والدليل على هذا الأحاديث التي ذكرها بعده، فإنها توضح المراد.

والآية محتملة كقوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [سورة الزلزلة:١-٥] هل هذا قبيل قيام الساعة، عند حصول التغيرات الهائلة، أو أن ذلك يحصل بعد البعث؟، فبنفخة الصعق يموت كل الأحياء، وبنفخة البعث يقوم كل الأموات، فهذه الزلزلة التي ذكرها الله في سورة الزلزلة، لكن ما ذكره الله -عز وجل- فيها في ثنايا السورة يدل على أن ذلك بعد البعث، فمتى تخرج الأرض أثقالها؟، ومعنى أثقالها ما فيها من الأموات، وما فيها من الكنوز، كل ذلك تخرجه.

قال بعض أهل العلم: إن الزلزلة هي زلزلة حسية، وأكثرهم يقولون: هي زلزلة معنوية وليست حسية، بمعنى الخوف، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأحزاب يصف حال المؤمنين وما بلغ الحال بهم من شدة الخوف قال: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١١]، وإلا فأصل الزلزلة كما تدل عليه حروفها المتكررة، فإن تكرر الحروف يدل على تكرر المعنى، مثل: الصلصلة، صوت مثل صوت الجرس فيه تردد، صلصلة، وهكذا حينما يقال: زلزلة حركة واضطراب سريع، يعني الحركة الواحدة ما تسمى زلزلة، لكن حينما تميد وتتحرك فإن هذا يقال له: الزلزلة، وأصله من زل عن الموضع، زل عن المكان، ولهذا يقال: زلت قدمه، تزلزلت قدمه معناها أن هذا تكرر أكثر من مرة.

فالزلزلة -والله تبارك وتعالى أعلم- زلزلة معنوية وتحصل بعد البعث وذلك بما يحصل وبما يرون، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:٢] فهذه الزلزلة، الخوف الشديد الذي يصيب الناس، وبعض أهل العلم عزا القول بأن الزلزلة تكون قبل الساعة وتكون من أمارتها إلى الجمهور، والآية تحتمل المعنيين.

والذين قالوا: إن الزلزلة قبل يوم القيامة استدلوا بأن القيامة ليس فيها حمل ولا إرضاع، والذين قالوا: إنها في القيامة بعد البعث قالوا: من الممكن أن المرأة التي ماتت وهي حامل تبعث وهي حامل، فتضع حملها من شدة الهول، والمرأة التي ترضع تذهل عن ولدها.

وأحسن من هذا قول من قال: إن هذا ليس بلازم، فلا يلزم أن يكون هناك حمل وإرضاع، لكن هو لتصوير شدة الخوف والأهوال التي تقع فيها ، وأنها من شدتها تضع الحوامل الحمل، والمرضع تذهل، كما قال الله -عز وجل-: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [سورة المزمل: ١٧-١٨]، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٢)

من قوله تعالى"يوم ترونها" الآية ٢ إلى قوله تعالى"عذاب السعير" الآية ٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقال المؤلف -رحمه الله-: قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١]، قال بعضهم: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العُرصات، بعد القيامة من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن عمران بن حُصَين، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:١-٢] فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: ((أتدرون أي يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، -عليه السلام-، فيناديه ربه -عز وجل-، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة))، قال: فأُبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: ((أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خَليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس))، قال: فسُرّي عنهم، ثم قال: ((اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة في ذراع الدابة))[1]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث يدل على أن هذه الزلزلة كائنة بعد البعث، وهذا اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ومن قال به أيضاً من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وقوله في هذا الحديث: ((فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي)) يعني: الدواب بمعنى أقبلوا عليه وأسرعوا إليه ليسمعوا ما سيقول، ثم قال: "**فأُبلس أصحابه**" الإبلاس هو أن يسكت الإنسان لغلبه الحزن والغم يعني كأنهم اكتئبوا "**فأبلس أصحابه**"

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الحج، برقم (٣١٦٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٩٠١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن الحسن -وهو البصري- لم يسمع من عمران، لكنه قد توبع.

سكون مع غم يعني أغمهم ذلك وأحزنهم ذلك، "**فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة**" الضواحك في الإنسان أربع، قيل لها ذلك باعتبار أنه إذا ضحك ظهرت وبدت، بمعنى أنهم اكتئبوا ظهر عليهم الحزن لم يضحكوا لم يظهر عليهم سرور حين سمعوا هذا **((من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار))** يعني الذي ينجو واحد، فقال لهم -صلى الله عليه وسلم-: **((إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج))** وهما قبيلتان، وكذلك أن هذا بعث النار من بني آدم أولهم إلى آخرهم، أضف إلى ذلك من هلك من بني آدم ومن بني إبليس من بعد آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام الساعة الله -عز وجل- يقول: **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [سورة يوسف:١٠٣]، **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [سورة الأنعام:١١٦]، **{وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** [سورة الأعراف:١٧]، **{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ}** [سورة سبأ:٢٠]، فأكثر الناس من أتباع إبليس، ثم قال لهم -صلى الله عليه وسلم-: **((فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة في ذراع الدابة))**، الرقمة: هنة ناتئة في ذراع الدابة من الداخل، هنة ناتئة شيء صغير بارز يوجد من الداخل فهي شيء يسير صغير **((أنتم في الناس مثل هذه الرقمة في ذراع الدابة))**.

قال -رحمه الله-: طريق أخرى لهذا الحديث روى الترمذي عن عمران بن حُصَيْن، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما نزلت: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ...} إلى قوله: {وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}، قال: نزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: ((أتدرون أي يوم ذلك؟))، فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة))، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية))، قال: ((فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقْمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير))، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبروا ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، فكبروا، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، فكبروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا."[٢]

وكذا رواه الإمام أحمد، ثم قال الترمذي أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف -أراه قال- تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}))، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من يأجوج ومأجوج

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الحج، برقم (٣١٦٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (٨٦٩٧)، وقال: هذا حديث صحيح بهذه الزيادة و لم يخرجاه، وأحمد في المسند، برقم (١٩٩٠١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، واللفظ للترمذي.

تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبرنا، ثم قال: ((ثلث أهل الجنة))، فكبرنا، ثم قال: ((شطر أهل الجنة)) فكبرنا[٣].

وقد رواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في تفسيره.

هذا من التفسير النبوي الذي لا يجوز العدول عنه بحال من الأحوال؛ لأن تفسير القرآن بالسنة على نوعين:

النوع الأول: يفسر القرآن بالسنة، وذلك بحديث لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ويكون ذلك مما يدخله الاجتهاد، واجتهاد المقصر -بمعنى المفسر-: قد يجتهد في الربط بين الآية مع الحديث ولكن المفسر قد يخطئ باعتبار أن الحديث أصلاً لا تعلق له بالآية، لكن المفسر فهم أن هذا الحديث مفسر لهذه الآية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتعرض للآية في الحديث فهذا يدخله الاجتهاد، يصيب ويخطئ.

النوع الثاني: من تفسير القرآن بالسنة هو ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية، فهذا صح إسناده فلا يجوز العدول عنه بحال من الأحوال، كما في هذه الروايات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وقرأ الآية {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:٢])) فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١] يحتمل أنها الأهوال التي تكون في التغيرات التي تحصل قبل قيام الساعة، ويحتمل أن يكون ذلك بعد البعث من القبور، والآية تحتمل المعنيين، وبكل احتمال قال طائفة من أهل العلم، لكن هذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ذلك يكون بعد البعث {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} يكون هذا بعد القيام من القبور، وليس لأحد أن يعترض على هذا بأن يقول: هناك لا حمل ولا إرضاع، فيقال: قد يوجد حمل، تُبعث حاملاً، وقد يكون ذلك لتصوير الشدة لكن لو قال قائل: إن أهوال الساعة هو ما يحصل عند وقوعها قبل البعث من القبور، وما يحصل بعد البعث وأن هذا الحديث يذكر ما يكون بعد البعث، فهذا القول قد لا يكون معارضاً لهذا التفسير النبوي، وحتى آية الزلزلة {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:١-٢]، لا يكون إلا بعد النفخة الثانية، تخرج الأرض أثقالها بعد النفخة الثانية، تخرج ما في بطونها من الدفائن والكنوز وما أشبه ذلك، وهكذا {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [سورة الزلزلة:٤-٥] يعني أمرها بذلك، وهذا لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

وقال -رحمه الله-: والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

ولهذا عبر عنها بـــ "شيء عظيم"، كأنه أمر تعجز الألفاظ عن التعبير عنه وعن وصفه، شيء عظيم فأبهمه، شيء فظيع فلم يذكر نوعاً من أنواع الفظاعة، وإنما عبر بهذه العبارة التي يدخل تحتها كل ما يمكن أن يتصوره الذهن، والعقول قاصرة عن إدراك كنهه، وتصور أهوالها شيء لا يخطر على البال.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج، برقم (٤٤٦٤).

وقال -رحمه الله-: والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١١].

أصل الزلزلة من الحركة المتكررة، حركة شديدة واهتزاز، وهذه الزلزلة زلزلة معنوية بمعنى ما يحصل من الأهوال والأوجال، فيكون عند ذلك الرعب الشديد والخوف الذي ينقطع منه نياط القلب.

وقال -رحمه الله-: ثم قال تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا}**: هذا من باب ضمير الشأن.**

الرؤية في قوله: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} الظاهر أنها رؤية بصرية، وأن الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} يرجع إلى الزلزلة، وليس معناها ترون الساعة، والساعة وقت تحصل به أهوال وأوجال وتغيرات علوية وسفلية، لكن المقصود {تَرَوْنَهَا} أي ترون الزلزلة، ومعلوم أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} وأقرب مذكور زلزلة، والزلزلة مضاف، والساعة مضاف إليه، والمضاف هو المحدث عنه ولا يصح رجوع الضمير إلى مضاف إليه، وإنما يرجع إلى المحدث عنه {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}، والمحدث عنه الزلزلة {زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} تقول: كتاب زيد جميل، فالكتاب المضاف هو المحدث عنه {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}، {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} أي ترون الزلزلة.

وقال -رحمه الله-: ثم قال تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا}**: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسرًا له:** {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}.

الذهول هو الذهاب عن الشيء مع دهشة، تقول: أذهله الموقف، فذهب عما هو بصدده واشتغل عنه بغيره.

وقال رحمه الله: أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: {كُلُّ مُرْضِعَةٍ}**، ولم يقل: "مرضع" وقال:** {عَمَّا أَرْضَعَتْ} **أي: عن رضيعها قبل فطامه.**

أي فتشتغل بهول ما ترى عن أحب الناس إليها والتي هي أشفق الناس عليه قال {كُلُّ مُرْضِعَةٍ} ولم يقل: مرضع عما أرضعت، وهناك قاعدة من قواعد التفسير تقول: إن الأوصاف المختصة بالإناث مثل المرضع والحائض والطالق ونحو ذلك إذا أريد بها النسبة جردت من التاء، وإذا أريد بها الفعل لحقتها التاء، هي أصلاً وصف مختص بالإناث، يعني ما يلتبس أن يقال الله يريد به مذكر مثلاً، فالرجل لا يكون مرضعاً وإنما هذا وصف يختص بالإناث، الإرضاع {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ} فإذا أريد به النسبة فإنه يتجرد من التاء، تقول: فلانة مرضع، يعني من شأنها الإرضاع، فمرضع يعني عندها ولد ترضعه، لكن إذا قلت: فلانة مرضعة فالمعنى أنها تباشر الإرضاع قد ألقمت ولدها الثدي، وهكذا حينما يقال: طالقة بمعنى إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيل: فلانة طالق يعني قد طلقت من زوجها، امرأة حائض لو صح الحديث: ((لا يقبل الله صلاة الحائض إلا بخمار))[٤]، ومعنى حائض المرأة البالغة، يكون من شأنها الحيض، حائض، لكن إذا كان الحيض قد نزل عليها يقال حائضة، وامرأة طامث يعني يأتيها الحيض، وطامثة يعني الآن ينزل عليها الدم، هي في فترة

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب المرأة تصلي بغير خمار، برقم (٦٤١)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب إذا حاضت الجارية لم تصل إلا بخمار، برقم (٦٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٤٧).

الحيض، فمرضعة يعني تباشر الإرضاع لحقتها التاء، والمرأة وهي ترضع ولدها تكون في أعظم صورة من العطف، والحنان، والإشفاق، والرأفة والحنو، فإذا جلست المرأة قبل أن تلقم ولدها الثدي يبدأ الحليب يسيل، وبمجرد أن تضعه في حجرها تبدأ مشاعر غير عادية تحصل لجميع خلايا الجسم، ويبدأ الحليب يسيل فإذا ألقمته الثدي ضمته إلى صدرها، لا تسأل عما يخالجها وعما يفيض منها لا تستطيع هي أن تعبر عنه، ولربما ودت أن تعطيه قلبها ليرضعه، فهذا يصور لك شدة الهول الذي ليس هناك تصوير أبلغ من هذا، فتترك هذا الصبي وتقوم مندهشة في حالة من الذهول، وتعرض عنه؛ لشدة فظاعة أهوال القيامة، وهذا من بلاغة القرآن ودقة التعبير فيه، فعبر بالمرضعة، والشاعر يقول:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضيّعتْ ** بني بطنِها هذا الضلالُ عن القصدِ

ترضع أولاد الناس وتباشر إرضاعهم، وتضيع أولادها..

امرئ القيس له بيت يقول:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ *** فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

"حبلى قد طرقتُ"، يقول: لستِ أول واحدة، غيرك من هو أشغل منك –الحامل- فجرى بها، والمرضع قال: ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

كانوا يربطون على الصغار التمائم، مرضع: يعني من شأنها الإرضاع، فجلس يجامعها ولا يريدها أن ترضع الآن.

وقال -رحمه الله-: وقوله: {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} أي: قبل تمامه لشدة الهول، {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى}.

قراءة حمزة والكسائي: **{وترى الناس سكرى وما هم بسكرى}**.

وقال -رحمه الله-: وقرئ: "سَكْرَى" أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارى، {وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}.

يعني أن الإنسان أحياناً يصيبه فزع شديد يكون مثل السكران، ولربما تكلم بأشياء وتسأله عنها بعد مدة فيقول: لم أشعر بشيء، وهذا يحصل للناس من الأهوال العظيمة، تحصل أمور مفجعة -نسأل الله العافية-، وإذا حصل أمر هائل كأن يحدث زلزال أو حريق أو غيره يخرج الناس من العمارات بما عليهم من ثياب، أو أحياناً بدون ثياب، لا يشعر بنفسه، يقول: خرجت ولم أشعر بهذا، حتى إن بعض الناس لا يعرف أين يتجه من شدة الهول، وبعض من يصاب بحادث قد تتكسر رجله لكنه يقوم ويقع وينزف ولا يعرف إلا بعد مدة في المستشفى، فهذا في أوقات الأهوال، نسأل الله العافية.

وقال -رحمه الله-: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [سورة الحج:٣-٤].

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع الضُّلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس

الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، أي: علم صحيح، {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ}، قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية {أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ} أي: اتبعه وقلده، {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك قال ابن جريج.

قوله {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} هذا يشمل -كما ذكر الحافظ ابن كثير- الذين يجادلون في الوحدانية، والنبوة، والوحي وما إلى ذلك، ويشمل أيضاً أهل البدع، الذين يجادلون بالباطل، فبدعوتهم وضلالتهم كل هؤلاء يدخلون في هذا المعنى، فكل من جادل بغير علم فهو داخل في هذه الآية، ومفهوم المخالفة أن من جادل بعلم فإنه ليس بمذموم؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة العنكبوت:٤٦]، يقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: علم صحيح، {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} مريد هنا بمعنى المارد، والمريد والمارد يعني العاتي، فكل عاتٍ فهو مارد: {مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [سورة الصافات:٧]، وفي رمضان أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المَردة من الشياطين تصفد[٥]، والمردة يعني الكبار، الرؤساء، العتاة منهم، وقال مجاهد في قوله: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} يعني الشيطان كُتب عليه كتابة، أي قُدر أن من تولاه فالنتيجة هي الإضلال، فالشيطان لا يهديه إلى الخير ولا يدعوه إلى هدى، وأنه من تولاه أي اتبعه وقلده، {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} استعمل الهدى في الدلالة على الضلال، وهذا معنى صحيح وهو مستعمل في القرآن، والله -عز وجل- يقول: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٣]، فهو يستعمل في الخير والشر {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} [سورة القصص:٤١]، فالهداية والدعاء وما أشبه ذلك، استعملوا في هذا وهذا {كُتِبَ عَلَيْهِ}، قال: {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} أي يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، والسعير فعيل بمعنى مفعول، يعني المسعَّر، النار تتوقد وتتسعر وتتلهب وهو الحار المؤلم المقلق المزعج، قال: **عن أبي مالك نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج**، وهذا يحتاج إلى دليلٍ صحيح أنها نزلت فيه، ومثل هذه المراسيل لا يحتج بها ولكن هذه الآية تشمل كل ما كان بهذه الصفة، ولا يختص ذلك بالنضر بن الحارث، والله تعالى أعلم .

---

٥ - رواه النسائي، كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه، برقم (٢١٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (٧٩١٧)، وقال محققوه: إسناده ضعيف جدا، هشام بن أبي هشام -وهو هشام بن زياد القرشي أبو المقدام- متفق على ضعفه، ومحمد بن محمد بن الأسود-وهو ابن بنت سعد بن أبي وقاص- مجهول الحال، لم يرو عنه غير هشام هذا وعبد الله بن عون، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٣)

من قوله تعالى"يأيها الناس" الآية ٥إلى قوله تعالى"من في القبور" الآية ٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله-: لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} [سورة الحج:٥] **أي: في شك {مِنَ الْبَعْثِ} وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} أي: أصل بَرْئِه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم -عليه السلام- {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ} الريب هو الشك، وهذا تفسير له بما يقرب من معناه، وإلا فإن الريب هو شك مع قلق، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة:٢].

والسلف -رضي الله تعالى عنهم- يفسرون الشيء بما يقرب من معناه؛ ولهذا يقولون مثلاً: إن الإشفاق هو الخوف، مع أن الإشفاق هو الخوف مع العلم بالمخوف منه، والرأفة هي الرحمة، مع أن الرأفة هي رحمة رقيقة أحض من مطلق الرحمة، فالريب شك مع قلق يساور النفس.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} هي الماء المهين، قيل لها: نطفة؛ لقلتها، كما أنه يقال للقطرة من الماء: نطفة؛ لقلتها، والله أعلم.

قال -رحمه الله-: {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ} ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله.

{مِنْ عَلَقَةٍ} يعني: قطعة من الدم جامدة؛ ولأنها تعلق بجدار الرحم يقال لها: علقة، فهذا كله يبين الله -عز وجل- فيه كمال قدرته وعظمته، فهو الذي خلق الإنسان من هذا الخلق الضعيف من نطفة، ثم من علقة، وجعله بهذه الهيئة، وهو قادر على إعادته ثانياً، وقادر على البعث والنشور.

قال -رحمه الله-: فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

قيل لها: مضغة؛ لأنها بقدر ما يمضغ، تكون صغيرة، ثم بعد ذلك يبدأ التشكيل فهو أربعون يوماً نطفة، ثم أربعون علقة، فهذه ثمانون ثم بعد ذلك يكون مضغة، ولا يتشكل الجنين ولا يتصور قبل الثمانين، وإنما يكون

ذلك بعد الواحد والثمانين حينما يكون مضغة يبدأ بعد ذلك -على تفاوت- التخطيط والتشكيل، ولهذا إذا أسقطت المرأة قبل الواحد والثمانين فإنه ليس بنفاس، تصوم وتصلي، وإذا أسقطت بعد الواحد والثمانين نظر هل هذا الذي سقط منها بصورة إنسان له يد، ورأس، ورجل ونحو ذلك، فهذه يكون لها حكم النفاس، فإن خرج الدم قبل سقوطه مع آلام الولادة أو الإجهاض فهذا نفاس، وإن خرج الدم من غير آلام فليس بنفاس إذا كان بعد التشكيل وليس بعد نفخ الروح، بعد التشكيل والتخليق، وهذا لا يكون إلا بعد واحد وثمانين يوماً، وهكذا الإسقاط إذا تسببت في إسقاطه كأن تتعمد حمل شيء ثقيل من أجل أن يسقط أو تقفز من مكان مرتفع ونحو هذا، فإن خرج منها ما هو بصورة إنسان فعليها الدية، وهي عُشر دية الأم، ولا ترث منها شيء إنما تكون لأبيه، وإذا كان الذي سقط منها ليس بصورة إنسان فإن كان فيه بداية تخطيط فيكون له حكم النفاس والدية، وإن لم يكن في صورة التخطيط أصلاً لكن القوابل ذوات الخبرة يعرفن أن هذا ابتداء خلق إنسان من خلال الخبرة فهذا فيه خلاف بين أهل العلم: فمنهم من يقول: ليس فيه حكم، ومنهم من يقول: فيه الدية، وفيه أيضاً حكم النفساء، وأما إذا لم يظهر فيه شيء ولم يعرف القوابل ذلك إنما هي مجرد قطعة لحم فلا يتعلق بها حكم.

قال -رحمه الله-: ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} أي: كما تشاهدونها.

كلام ابن كثير -رحمه الله- يفسر المخلّقة بالمصورة في صورة إنسان سواءً سقطت قبل التمام، يعني قبل حين الولادة أو بقيت حتى يولد الإنسان، وقيل: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} هي التي ليس عليها تصوير ولا تشكيل، وهو أيضاً ما اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله.

وقال -رحمه الله-: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق.

السقط مخلوق وغير مخلوق يعني هذا الذي تسقطه المرأة إما أن تكون المضغة هذه عليها صورة إنسان أو ليس عليها صورة إنسان، لكن ليس هذا محل اتفاق في التفسير، فمن أهل العلم من يقول: المخلقة هي المكتملة التي نفخت فيها الروح، وخرج إلى الدنيا، أي وُلد، وغير المخلقة هو ما سقط قبل ذلك، هذا ذهب إليه طائفة من أهل السلف ومن بعدهم، ما ولد بتمامه فهو مخلقة وما ولد قبل تمامه فغير مخلقة، وهذا يختلف عن القول الذي قبله، والقول الذي قبله لا يرتبط بالولادة ولا بنفخ الروح، إنما يكون باعتبار ما في هذه النطفة من تشكيل وتصوير وتخليق، والقول الثاني: أن ما سقط قبل تمامه فهو غير مخلقة، والمقصود بما سقط قبل تمامه يعني ما لا يعيش معه الجنين، كمن سقط لأربعة أشهر ونحو هذا، لكن لو أنها ولدت لسبعة أشهر فعاش الجنين لا إشكال في هذا، فهذه مخلقة، وبعض أهل العلم ذهب إلى غير هذا وقال: هذا كله في من وُلد، لكن هؤلاء على نوعين {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، مخلقة يعني تامة الخلق كاملة الأعضاء، يعني: ليس فيها إعاقات ولا تشوهات ولا نقص، وغير المخلقة قالوا: هي التي فيها عاهة ونقص بمعنى أنه خلق من غير

يد أو بيد واحدة، أو رجل واحدة، أو يد صغيرة أو نحو ذلك، قالوا: هذه غير مخلقة، وهذا الذي اختاره الشيخ محمد أمين الشنقيطي -رحمه الله- وحجته في ذلك هي أن مأخذ هذا القول من هذه المضغة التي وصفها الله -عز وجل- وخاطبنا {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فيقول: هذه المضغة يخاطبنا الله بما أوجدنا منه، فلا يمكن أن يكون بما سقط قبل تمامه فنحن لم نوجد منه ولم نخلق منه، فيقول: هي التي وجد منها الناس، لكن إما أن يكون وجودهم وخلقهم تاماً، وإما أن يكون ناقصاً، فهذا مأخذ القول، لكنه لا يخلو من الإشكال، وذلك لإمكانية أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الله -عز وجل- ذكر الخلق من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، هذه الأشياء هي الأطوار التي يمر بها الإنسان، وأصل خلق الإنسان من تراب، والذي خلق من تراب هو آدم -صلى الله عليه وسلم- ولا حاجة للتكلف كما يقول بعضهم بأن أصل هذه النطفة خلاصة الغذاء، ولهذا إذا خرجت من الإنسان يجد إجهاداً وتعباً، وإذا كثر ذلك منه فإن ذلك يسلب عافيته، ولربما خرجت دماً عبيطاً، ويقولون: الغذاء أصله من النباتات والأشياء، وغير ذلك فلا حاجة إلى هذا التكلف، أصل خلق الإنسان من تراب بل بالماء فصار طيناً، فترك فصار حَمَئاً، ثم بعد ذلك جف فصار صلصالاً كالفخار، فإذا ضربته كان له صوت، {صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن:١٤]، ثم بعد ذلك صار خلق الذرية من نطفة ثم من علقة وليس من تراب وإنما الأصل من التراب، والله -عز وجل- يذكر أطوار الخلق فأصله من نطفة فهذه النطف هي أصل الخلق، منها ما تمجه في الأرحام ويسقط وهو نطفة، ومنها ما يسقط وهو علقة، ومنها ما يسقط وهو مضغة، ومنها ما يسقط بعد أن تنفخ فيه الروح وقبل تمامه، ومنها ما يبقى حتى الولادة {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} فالله -عز وجل- يتحدث عن أصل خلق الإنسان، وليس الحديث عمن وُجدوا ومروا بهذه الأطوار جميعاً، أو أنهم مروا ببعضها فيقال: كيف يخاطبنا الله -عز وجل- بأنه خلقنا {مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فنحن خلقنا من هذه الأطوار، والذي خلق من تراب هو آدم -صلى الله عليه وسلم- فقط، أما نحن فمن نطفة ثم علقة ثم مضغة وهذه المضغة لها حالتان -بخلاف العلقة والنطفة- مخلقة وغير مخلقة، ولهذا فرّق فيها وفصّل لكنها أصل خلق الإنسان، وهذا يمكن أن يستشكل على ما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الله -تبارك وتعالى- يذكر في هذه الآية أطوار الخلق من حيث هي، وما يكون من حال هذه النطفة من تمام وعدمه، فتكون مخلقة بمعنى عليها صورة التخليق، أو غير مخلقة ليس عليها صورة التخليق، هكذا يبدو والعلم عند الله -عز وجل-، لا أن المقصود أنها ناقصة الخلقة، ومعنى التخليق التصوير والتشكيل، {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [سورة المائدة:١١٠]، فتخلق بمعنى تشكل، يعني مشكّلة بغض النظر عن هذا التشكيل هل هو ناقص أو كامل، هذا جانب آخر يجاب به عن كلام الشنقيطي -رحمه الله-، فالذي خرج من بطن أمه وله يد واحدة أو رجل واحدة، أو ليس له أرجل أصلاً هذه مخلقة، وصورة إنسان يصدق عليها هذا الوصف أنها مخلقة، لكن غير المخلقة لم يتحقق فيها هذا الوصف أصلاً، فالوصف بالتخليق، ولم يقل ناقصة وكاملة، وإنما قال: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فما كان عليه تصوير وتخطيط وتشكيل فهذه مخلقة، وما كان قبل ذلك فهي غير مخلقة -والله تعالى أعلم-، وما ذكره ابن جرير وابن كثير أظنه أقرب في تفسير الآية، والخلاف فيها معروف ومشهور.

وقال -رحمه الله-: فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله -عز وجل-، من حسَن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

هذا ما يعرفه الملَك عند تمام الأربعة الأشهر -مائة وعشرين يوماً-، شقي أوسعيد، ذكر أو أنثى رزقه كل هذه الأشياء تكتب، والأطباء لا يعرفون هل هو ذكر أو أنثى حينما يكون نطفة أو علقة، ولو عملوا ما عملوا، ولا يعرفون الجنين وهو في بطن أمه هل هو ذكر أو أنثى إلا بعدما يعرف الملَك، فبعد ذلك لم يكن من الخمس التي اختص الله بعلمها {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [سورة لقمان:٣٤]، فـ"ما" في قوله: {مَا فِي الْأَرْحَامِ} للعموم ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد أجله عمله كل هذه الأشياء يعلمها الله - عز وجل -، والملك يطلعه الله -تبارك وتعالى- عند تمام الأربعة الأشهر على هذه الأشياء التي لا يمكن أن يطلع عليها الطب قبل النفخ في الروح، والطب كذلك لا يمكن أن يعرف هل هذا شقي أو سعيد أو رزق هذا الإنسان ما مقداره ونحو ذلك من الأمور المختصة بالله -جل جلاله.

وقال -رحمه الله-: كما ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق-: ((إن خلْق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح))[1].

وقوله: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} أي: ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً.

قوله: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} أي: أطفالاً، وقوله {طِفْلًا} اسم جنس، واسم الجنس قد يعبر به عن الجمع وهو بصيغة المفرد يعبر به عن الجمع، وذلك كثير في القرآن، والسياق هو الذي يبين المراد {نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} مع التنكير منكراً منفرداً أي: أطفال، {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [سورة الفرقان:٧٤] يعني: أئمة، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} [سورة القمر:٥٤] يعني: أنهاراً كما قال الله -عز وجل-: {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [سورة آل عمران:١٣٦]، هو بمعنى الجمع، وهكذا {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا} [سورة النساء:٤] يعني أنفساً وهكذا، {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سورة النساء:٦٩]، يعني: رفقاء، وهذا كله من قبيل اللفظ المفرد المُنكر الذي أريد به الجمع؛ لأنه اسم جنس، وهذا كثير في كلام العرب ومنه قول الشاعر:

وكان بنو فزارةَ شرَّ عمٍّ *** وكنتُ لهم كشرِّ بني الأخينا

---

١ - روي في الصحيحين بلفظ: "أربعين يوما" البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٣)، وفي رواية لمسلم: "أربعين ليلة" بنفس الرقم.

شر عمٍّ: شر أعمام، عمّ مفرد منكر.

وهكذا في قوله:

ما بالُ قومٍ صديقٍ ثم ليس لهم *** دينٌ وليس لهم عقلٌ إذا ائتُمنوا

صديق يعني أصدقاء، وأيضا:

نَصبنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنا *** بأعيُنِ أعداءٍ وهنّ صديقُ

يعني أصدقاء، وهكذا:

لعمري لئن كنتم على النأي والنَّوى *** بكم مثلُ ما بي إنكم لصديقُ

يعني أصدقاء، وهكذا:

يا عاذلاتي لا تزدنَ ملامتي *** إنّ العواذلَ لسنَ لي بأميرِ

يعني بأمراء.

وهكذا إذا جاء مع المفرد معرفاً بـــ "ال" مثل: **{أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء}** [سورة النور:٣١] يعني الأطفال، **{أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا}** [سورة الفرقان:٧٥]، يعني الغرف في الجنة، كما قال الله -عز وجل-: **{غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ}** [سورة الزمر:٢٠]، غرفة وهي بمعنى الجمع، وهكذا أيضاً بالإضافة إلى الضمير كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَوْ صَدِيقِكُمْ}** [سورة النور:٦١]، أي: أصدقائكم، و**{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ}** [سورة الممتحنة:١]، "عدوي" مفرد مضاف، و"عدوكم" أيضاً مفرد مضاف، يعني: أعدائي وأعداءكم وهكذا، ومنه قوله:

بها جِيفُ الحَسْرى فأما عظامُها *** فبيضٌ وأما جلدُها فصليبُ

جلدها: يعني جلودها.

وقال - رحمه الله-: ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} أي: يتكامل القُوَى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر.

قوله: **{لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}** بلوغ الأشد يعني بلوغ المنتهى، أو بلوغ القوة في الجسم والعقل، والعلماء -رحمهم الله- بعضهم يقول: بلوغ الأشد يكون بعد الثامنة عشرة، وبعضهم يقول: إذا بلغ إحدى وعشرين سنة، وبعضهم يقول خمساً وعشرين سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ الأربعين، لأن الله -عز وجل- يقول: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}** [سورة الأحقاف:١٥]، وبعضهم يقول: إذا بلغ الخمسين، ويذكرون بيتاً من الشعر:

أخو خمسينَ مُجتَمِعٌ أشُدِّي *** ونجّذَني مُداورةُ الشئونِ

والأقرب -والله أعلم- أن كل هذا يصدق عليه بلوغ الأشد، فإذا بلغ الإنسان القوة في البدن وفي العقل والتدبير فهذا بلوغ الأشد، وهذا يتفاوت فيكون منتهاه اكتمال القوة البدنية، وقوة العقل والنظر في الأربعين، ويبقى الإنسان متماسكاً ربما حتى إلى الخمسين، ثم بعد ذلك يبدأ الضعف في البدن، ثم بعد ذلك الضعف حتى في العقل حتى يصير إلى أرذل العمر، فيذهب عنه ما كان يعلمه، وهذا الإنسان مهما بلغ من القوة البدنية أو القوة العقلية وأنه لا يتغير فقوة الحفظ تكون قبل ذلك في الصغر، وقوة الإدراك والفهم تكون عند اكتمال العقل في الأربعين أو نحو ذلك، ولذلك العلماء يحبون ألا يؤلف الإنسان إلا بعد الأربعين، ويبدأ بعد ذلك

بضعف البدن، ثم بضعف العقل، وأحد المشايخ يقول عن أبيه: كان يكاد يحفظ المحلّى عن ظهر قلب، وما نسأله عن شيء إلا ويقول: افتح صفحة كذا وانظر السطر الفلاني، وفي آخر عمره صار إذا أراد أن يقوم من سريره ليذهب إلى مكان ينسى لماذا قام.

وقال -رحمه الله-: {وَمِنكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى}، أي: في حال شبابه وقواه.

وقوله: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} هنا قال: أي: **في حال شبابه وقواه**، فكأن ابن كثير -رحمه الله- أراد {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} يعني: قبل أن يرد إلى أرذل العمر، وهذا يبدو -والله أعلم- هو الأقرب إلى ظاهر القرآن، ولكن أكثر المفسرين يقولون: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} يعني من قبل بلوغ الأشد، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى}، {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة النحل:٧٠].

قال -رحمه الله-: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}، وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر؛ ولهذا قال: {لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم:٥٤].

الله -عز وجل- يذكر كثيراً في القرآن أطوار هذا الخلق {كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ} [سورة المعارج:٣٩]، من النطفة هذا الخلق الضعيف، {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [سورة نوح:١٣-١٤]، فهذه هي الأطوار التي فصلها الله -عز وجل- هنا: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا من بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [سورة الزمر:٦]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً} [سورة المؤمنون:١٢-١٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها هذه الأطوار، وما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهو في الصحيح قال: "إن من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر"[٢]، من قرأ القرآن يعني حفظ القرآن، لم يرد إلى أرذل العمر بمعنى أنه لا يذهب عقله في حال الهرم، وهذا مشاهد، ولا يعرف عن أحدٍ من الصحابة -رضي الله عنهم- أنه وصل إلى هذه المرحلة.

---

٢ - رواه الحاكم في المستدرك، في كتاب التفسير، تفسير سورة التين برقم (٣٩٥٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٢٧٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٤٣٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٤)

من قوله تعالى"ومن الناس" الآية ٨ إلى قوله تعالى"ليس بظلم للعبيد" الآية ١٠

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة، وأتم التسليم، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله-: **وقوله:** {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} [سورة الحـــج (٥)] **هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحْلَة التي لا نبت فيها ولا شيء.**

وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة.

{فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} **[سورة الحـــج(٥)] أي: فـــإذا أنـــزل الله عليها المطر** {اهْتَزَّتْ} **أي: تحركت وحييت بعد موتها،** {وَرَبَتْ} **أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومهـــا وروائحهـــا وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى:** {وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} **[الحج: ٥] أي: حـــسن المنظـــر، طيـــب الريح.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} [سورة الحـــج (٥)] الرؤية هنا بصرية، والأقوال التي ذكرها في معنى (هامدة) أقوال متقاربة ترجع إلى شيء واحد، سواء قيل: إنها قاحلة، أو متهشمة، أو ميتة، فهذا كله معناه يرجع إلى شيء واحد، أي: لا نبات فيها، والتي لا نبات فيها يقال لها: قاحلة ومُمحِلة، وأرض قفر، وما أشبه ذلك.

{فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ} [سورة الحـــج(٥)] اهتزت يعني: تحركت، وهذه الحركة تكون بالنبات، فإذا تحرك النبات في داخلها وفي باطنها، وتوجه مسمار النبات ليخرق ما فوقه ليصعد ويبدو، فهذا يحصل معه انتفاخ وارتفاع في الأرض؛ لما يوجد من جذور النباتات، أو أصول النباتات التي تحركت في داخلها، فترتفع الأرض بهذا الاعتبار.

(وربت) بمعنى ارتفعت، وفي القراءة الآخرى (ربأت) بمعنى: زادت، ومنه الرابية وهي الأرض المرتفعة، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بقوله: (ربت) يعني ارتفعت بالنبات، وليس معناه انتفخت، وإنما المقصود ظهر عليها نبت فصارت الأرض مرتفعة به، يعني بعدما كانت الأرض تربة متساوية، أو طينة يابسة أو نحو ذلك صار فوقها النبات بقدر شبر أو ذراع أو أكثر من ذلك.

فـــ(ربت) يعني زادت بالنبات، فواضح الفرق، ففي القول الأول: أن نفس الأرض تنتفخ بما تحرك في داخلها من أصول النباتات، ويكون ذلك زيادة فيها (اهتزت وربت).

وعلى كل حال هذا زيادة فيها، يعني ما يتحرك في داخلها من مبتدأ النبات قبل أن يظهر وقبل أن يصعد، وبعد أن يصعد كل هذا زيادة على أصلها، فيحصل بذلك هذا المعنى (ربت).

{وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥] والزوج يعني الصنف، يقول: أي: حسن المنظر طيب الريح: هذا معنى بهيج، وهذا كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى} [فصلت: ٣٩].

فالله -تبارك وتعالى- يستدل بذلك، أو يوجه أنظارهم إلى هذا المعنى، أو هذا الأمر الذي يشاهدونه، ويتكرر من إحياء الأرض الميتة، يستدل به على قدرته على إحياء الموتى، فالأرض ليس فيها نباتات، وليس فيها حياة، فإذا نزل المطر تحولت إلى شيء آخر، فيوجد فيها الزروع والثمار والأشجار، فترعى منها الحيوانات، وتسمع أصوات الطير، ويتحول المكان إلى شيء مبهج، ويخرج الناس للنظر إليه، والتمتع برؤيته، فهذا كله دليل على قدرته -سبحانه وتعالى-.

قال -رحمه الله-:

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} [الحج: ٦] أي: **الخالق المدبر، الفعال لما يشاء،** {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى} أي: **كما أحيا الأرض الميتة، وأنبت منها هذه الأنواع** {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [**فصلت:٣٩**] **فـ**{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

على كل حال هذا أحد الأدلة في القرآن على قدرته سبحانه على البعث، والدليل الذي قبله في الأطوار، وهكذا ما ذكره الله -عز وجل- من بدء الخلق في مواضع أخرى، مثل: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧] وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤] {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: ٥١] وهكذا في كثير من الآيات: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [ق: ١٥].

وقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا} [سورة الحـــج (٧)] أي: **كائنة لا شك فيها ولا مرية** {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [سورة الحـــج (٧)] أي: **يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى:** {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} **[يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة.**

كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} [فصلت: ٣٩] الآية التي ذكرتها آنفاً، وقوله كذلك: {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الروم: ١٩] وهكذا في قوله في سورة (ق): {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ١١].

وقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الحج: ٨ - ١٠].

لما ذكر تعالى حال الضُّلال الجهال المقلّدين في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [سورة الحج (٣)] **ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع، فقال:** {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج (٨)].

هذا جواب على سؤال وهو أن الله -عز وجل- قال في أول السورة: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وهنا قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] فهل هذا تكرار؟ هل هذا نفس الأول أو أن الله -عز وجل- ذكر في الموضع الأول صنفاً من الناس؟ وذكر في الموضع الثاني الصنف الآخر؟

كلام ابن كثير -رحمه الله- ومشى عليه جماعة من أهل العلم، وهو اختيار ابن القيم: أن الآية الأولى تتحدث عن الجهال المقلدين؛ ولهذا قال الله -عز وجل- فيها: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقلدهم في الضلال والانحراف والكفر بالله -تبارك وتعالى.

والآية الثانية في المتبوعين في القادة والسادة الكبراء، ومن يتبعهم الناس ويقلدونهم؛ ولهذا لم يذكر هنا: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وإنما قال: {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] وذكر كِبْره فقال: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قالوا: هذا مضل، هذا من الدعاة، فهذا وجه كلام ابن كثير -رحمه الله- في الفرق بين الموضعين.

ففي الأول لم يقل: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وثانياً: ذكر من صفته الكبر والعلو والتعاظم، فقال: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} ثم قال: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قالوا: هؤلاء دعاة الضلال، وهم من يتبعهم الناس.

ومن أهل العلم من يقول: الموضع الأول والموضع الثاني في موصوف واحد، ولكنه ذكر هنا بعض أوصاف هذا الصنف من الناس، وفي الموضع الآخر ذكر أوصافاً أخرى.

{يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣]، فكل من لم يتبع الوحي فهو متبع للهوى والشيطان، والله -عز وجل- يقول: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام:١٢١] فيتبع وحي الشيطان، ويجادل في الله -عز وجل-، يجادل في وحدانيته وفي صفاته وفي أسمائه، وفي دينه، وفي وحيه بغير علم.

وهنا ذكر من أوصافه: {وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] فالعلم هنا يحمل على العلم من حيث هو، ليس عنده علم، وإنما يجادل بالهوى والتخرص والجهل، والهدى يحمل على معناه المعروف، وهو الإرشاد، و(الكتاب المنير) يحمل على الوحي المنزل وهو القرآن، ومعنى (المنير): النيّر بما فيه من الحجج الواضحات، والبراهين الساطعات.

على كل حال بعض أهل العلم يقول: كرر صفته للزيادة هنا، وبعضهم يقول: كررها للتأكيد على ذم هذا الصنف من الناس وعيبهم، والتشنيع عليهم، مبالغة في الذم.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج (٨)] أي: **بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.**

وقوله: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} قال ابن عباس وغيره: مستكبرًا عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} أي: لاوي عنقه، وهي رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقَبَته استكبارًا، كقوله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٣٨ ، ٣٩]، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء: ٦١] وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥] وقال لقمان لابنه: {وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكبارًا عليهم، وقال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا} [لقمان: ٧] الآية.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} تفسير ابن عباس قال: مستكبر، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، وذلك تفسير على المعنى، والقول الآخر: وهو قول من قال -كمجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم-: أي لاوي عنقه وهي رقبته، هذا تفسير على اللفظ، فهذان قولان، فمن أهل العلم من فسره بالاستكبار {ثَانِيَ عِطْفِهِ} أي مستكبر، ومنهم من فسره على اللفظ {ثَانِيَ عِطْفِهِ} يلوي رقبته، والعِطف هو جانب الإنسان من رأسه إلى خاصرته هذا كله عِطف، يقال: فلان ينظر في عِطفيه هذا هو العِطف، لكن الذي عبر به قال: لاوي رقبته مثلاً، عبر عن العطف ببعض معناه، وإلا فالأصل أن العطف هو هذا جميعاً، لكن الذي يُلوي عادةً هو الرقبة، فمن لوى رقبته يكون قد لوى عطفه، واضح؟

ولهذا جاءت الآيات الأخرى كما ذكر هنا: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] فهذا يدل على الاستكبار، لووا رءوسهم هذا في عبد الله بن أبيّ؛ لما رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة المصطلق، لما تكلم عبد الله بن أبيّ وقال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، وقال: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] فلما قيل له وطلب منه أن يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليستغفر له لوى رأسه استكباراً، فهذا يفعله المتكبر، وهكذا المتكبر على الناس، فإنه ينظر إليهم بصفحة عنقه، لا ينظر إليهم بوجهه ويقابلهم فيه، تكبراً {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] أي: لا تلوي أو لا تصرف عنهم وجهك تكبراً عليهم، فهذا كله يرجع إلى هذه الأفعال التي يفعلها الإنسان ببدنه، وهي ناشئة بسبب الكبر والتعاظم والتعالي على الناس؛ ولذلك من فسره بأنه الكبْر فإنه فسره بالمعنى؛ لأن هذا التصرف معناه الكبر؛ لكن لو لوى الإنسان عطفه أو رأسه لأمر آخر فهذا لا يدخل في هذا.

{ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] أي: متكبر عن الحق لا ينقاد له، ولذلك فإن هذين القولين لا نحتاج معهما إلى الترجيح لما بينهما من الملازمة، فليُّ العنق هذا التصرف والفعل ناشئ عن الكبر، فمن فسره بالكبر فقد فسره بمعناه، فلا نحتاج إلى الترجيح، هذا حق وهذا حق، والله تعالى أعلم.

وقوله: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله.

لاحظ الآن الفرق بين المعنيين على هذه القراءة: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قال: إما أن يكون المراد بها المعاندين، بمعنى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] يعني أنه هو يريد الضلال، ويقصد

الضلال هذا المعاند {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] فيكون ذلك منه من أجل الإضلال عن سبيل الله، فتكون اللام واضحة وصريحة أنها للتعليل يفعل ذلك لا يريد الحق، ولا يقبل الحق، ولا ينقاد له، ولا يعترف به ليضل غيره عن سبيل الله.

يعني صياغة العبارة الموجودة هنا ليست العبارة التي صاغها هناك، ليست بعينها موجودة.

على كل حال إما أن يكون هذا الإنسان يفعل ذلك قصداً ويتكبر عن الحق {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج(٩)] يريد الضلال فتكون اللام للتعليل، وإما أن ذلك يقع منه استكباراً على الحق، ولكن هذا الفعل لا يقصد به الإضلال، ولكن الله -عز وجل- قد جعل ذلك سبباً لإضلاله عن سبيل الله، فتكون اللام لام العاقبة بهذا الاعتبار، مثل: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨] يعني هل التقطوه من أجل أن يكون عدواً لهم وحزناً؟ لا، هم التقطوه من أجل أن يكون ولداً بارًّا، لكن التقاطهم هذا له نتج عنه أن يكون سبب شقائهم وهلاكهم الذي حصل على يده، فهذه تسمى لام العاقبة.

تقول: فلان صحب فلاناً ليهلكه، هل صحبه ليهلكه؟ لا، لكن لتكون العاقبة الإهلاك، هذا تسمى لام العاقبة، مع أن من أهل العلم من لا يعتبر هذا، يقول: أيضاً حتى هذه هي لام التعليل، لكن هي تعلل، إما أن ذلك كتبه الله -عز وجل- عليه، وجعل ذلك سبباً في هذا، فهي لام التعليل، يعني بمعنى أنه قد يقصد هذا فهو يلوي عنقه {لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج(٩)] فاللام لام تعليل، وإما أنه لا يقصد هذا الإضلال، ولكن الله -عز وجل- جعل من شأن صنيعه هذا -ما كتب عليه من الكفر، وما شابه ذلك- سبباً وعلة للإضلال {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥] اللام هذه (لكي لا يعلم) لام العاقبة، لكن من لا يقول بهذا يقول: هي لام التعليل؛ لأن الله -عز وجل- أجراه في هذه الأطوار حتى يصل إلى هذا المستوى لأجل ألا يعلم من بعد علم شيئاً.

على كل حال فهنا {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ابن كثير -رحمه الله- أشار إلى قولين: الأول: وهو المستكبر يفعل ذلك ليضل لا يريد أن يؤمن في نفسه، ولا يريد للآخرين أن يؤمنوا، ويريد أن تكون سبيلاً معوجة، والمعنى الثاني: لا، هو يتكبر على قبول الحق لكن كتب الله -عز وجل- عليه ذلك، يعني عدم قبول الحق والاستكبار والكفر؛ ليكون ذلك سبباً ليضل، لتكون العاقبة -عاقبة هذا الصنيع- هي الإضلال عن سبيل الله، اتضح الفرق بين المعنيين؟

في قراءة أخرى: {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يَضِل يعني في نفسه، ويُضل يعني غيره، فهذه واضحة، فاللام للعاقبة {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} بمعنى أنه إذا لوى عنقه، واستكبر عن الحق، وانصرف عنه فالنتيجة ما هي؟ الضلال.

{لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وهذا قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وعلى هذه القراءة {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} من قال: إن هذه في الدعاة، واحتج بهذه الجزئية {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} فعلى هذه القراءة لا يكون له فيها مستمسك.

ثم قال تعالى: {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقّاه الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه.

فالله -عز وجل- جازاه بعكس ما قصده، فهو يترفع عن الحق لا يريد أن يكون تابعاً لغيره في الحق، ويريد أن يكون مقدماً ورأساً وإماماً في الضلال -نسأل الله العافية-، ماذا كانت النتيجة؟ {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] الخزي يعني: العار والفضيحة والمذلة والهوان، هذا الخزي، فحصل له عكس مقصوده، بدلاً من أن يشرف بالحق والاتّباع صار كما نقول: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١] هل هناك خزي أكثر من هذا؟ {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] لكن أين أبو لهب من العباس أو من حمزة -رضي الله تعالى عنهما-؟ أو من عمر أو من أبي بكر -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-؟ هؤلاء رضوا باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- فحصل لهم الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة، وأما هذا الذي تكبر فـ{لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] وما ينتظره في الآخرة فهو أعظم.

وراجعوا كلام المعلمي -رحمه الله- في كتاب التنكيل لما تكلم عن أسباب الإعراض عن الحق، ومداخل الهوى في ذلك، وذكر أن منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، وذكر صنفاً آخر: من يكون له أتباع ويكون من رءوس الباطل، ويأتيه من الأموال والخدمة وما إلى ذلك، فإذا عُرض عليه الحق أبى واستكبر؛ لأن هذه الرئاسة ستذهب، وهذه الأموال ستذهب، وهذا التعظيم وهذه القيادة والريادة ستذهب، ثم بعد ذلك يصير تابعاً لغيره.

ثم بعد ذلك أيضاً يحصل له في نفسه ما يحصل؛ لأن معنى ذلك أن هذا المجد الذي أقامه كله على باطل، وهو وهم زائف، فهو لا يريد هذا، كذلك إنّ ما كان يدعو إليه طول المدة الماضية ويقرره كان باطلاً، وهكذا ما عليه قومه وعشيرته وجماعته كان باطلاً، فيبدأ من الصفر، من جديد، ثم هذا الذي قد جاء بالحق ربما يتعاظم ويرى أنه أعظم منه، وأكبر منه، وأجلّ منه، ثم بعد ذلك يعترف له بالحق وينقاد، فتأبى عليه نفسه ويستكبر.

قوله تعالى: {وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [سورة الحج (٩-١٠)] أي: **يقال له هذا تقريعًا وتوبيخاً**

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج: ١٠] أضاف العمل إلى اليد مع أن أعمال الكفار أعظمها ما هو؟ الكفر وهو متعلق بالقلب، وكذلك ما يحصل منهم باللسان من الكفر والمعاصي، وهكذا في سائر الجوارح، فأضافه إلى اليد على طريقة العرب فإنهم يضيفون مقارفات الإنسان إلى يده، يقال: هذا ما جنته يداك، إنسان خسر في تجارة، إنسان لم ينجح في امتحان، إنسان فشل في جانب من جوانب الحياة، وقع في مصيبة، وقع في مشكلة يقال: هذا ما جنته يداك، قد يكون لم يجنه بيده، وإنما وقع له ذلك بسبب الكسل، أو وقع له ذلك بسبب لسانه، هذا ما جنته يداك (يداكَ أوْكَتا وفُوكَ نَفَخ) فهم يضيفون أعمال الإنسان إلى اليد {كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] (ما قدمت أيديكم) لأن أكثر مزاولات الإنسان إنما تكون بيده.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة الحج (١٠)] **كقوله تعالى**: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} [**الدخان**: ٤٧-٥٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الحج: ١٠] ظلّام: صيغة مبالغة، يعني كثير الظلم، ونفي المبالغة لا ينفي أصل الصفة (فعل) فهل معنى ذلك أنه -سبحانه وتعالى وتقدس- يقع منه شيء من الظلم القليل؟ الجواب: لا، فمثل هذا يجيب عنه العلماء بأجوبة، فبعضهم يقول: المبالغة بناء على كثرة العباد، فالعباد كثير، فلو وقعت مظلمة لكل واحد فقط -لو صار- فهذا كثير، وبعضهم يقول: إن الكامل من كل وجه لو وقع منه أدنى ظلم فهو كبير، كما قيل:

كَفُوفَةِ الظُّفرِ تَخفَى مِن حقارتِها *** ومثلُها في سوادِ العينِ مشهورُ

كفُوفةِ الظُّفرِ لو وجدت في سواد العين ما تَخفى، يتأذى بها الإنسان غاية الأذية.

وخطأُ الجاهلِ المغمورِ مغمورٌ *** وخطأُ العالمِ المشهورِ مشهورٌ

ولذلك تجد الناس يدققون في أخطاء الناس من أهل الفضل والدين والعلم وكذا، يقعون على الزلة، ولربما ما هو بخطأ، ربما يقول: رأيته يصلي ولم يرفع يده حذو منكبه، أو لم يضع مثلاً يده كما ينبغي اليمنى على اليسرى، أو نحو ذلك في أصبعه، وأشياء يسيرة لربما ينظر إليها الناس ويعدونها من العيوب أو من الأخطاء أو من التقصير، لكن ما ينظرون إلى عيوب الجاهل المغمور الذي لربما كله عيوب، فالمرآة النظيفة المرآة الصقيلة يظهر فيها أدنى شيء، والثوب النظيف الأبيض يظهر فيه أدنى شيء، أما الثوب الذي كله زيوت وشحوم وكله ملوث ما يظهر فيه شيء، ما تقول له: نزلت عليك نقطة حبر، ثوب أصحاب الحِرف أو أصحاب الورش كله أسود، لو نزلت عليه نقطة حبر ماذا يسوي؟

فالحاصل أن من أهل العلم من أجاب بهذا الجواب، أدنى ظلم من الكامل يعتبر كثيراً.

وبعضهم يقول: هذا لقبح الظلم وشناعته، قال الله -عز وجل-: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦].

على كل حال الآيات في نفي الظلم عن الله -عز وجل- كثيرة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس: ٤٤] فـــ "شيئاً" نكرة في سياق النفي فتعم كل ظلم صغير وكبير، وتوضح هذا المعنى الذي قد يستشكله بعضهم باعتبار مفهوم المخالفة مع استعمال صيغة المبالغة: {لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [آل عمران: ١٨٢] واضح وجه السؤال والجواب عنه؟ والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٥)

من قوله تعالى"ومن الناس" الآية١١ إلى قوله تعالى"إن الله على كل شئ شهيد" الآية١٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما {عَلَى حَرْفٍ}: على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، وروى البخاري عن ابن عباس قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}: قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء.

قال العوفي عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسناً، وولدت امرأته غلاماً رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ} -والفتنة البلاء- أي: وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال مجاهد في قوله: {انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}: أي ارتد كافراً.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}** قال: يعني على شك، هذا نقله عن مجاهد وقتادة، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي: طرفه. وهذه المعاني التي ذكرها غير متنافية -والله تعالى أعلم-، فمن فسر الحرف بأنه الطرف فقد فسره بالأصل والمعنى في اللغة؛ فإن حرف الشيء هو طرفه، وحرف الجبل يعني طرفه، وحرف البناء، وحرف الخبز، ونحو ذلك أي: طرفه، ومن فسره بالشك فقد رجع إلى هذا المعنى؛ لأن الذي يعبد الله -عز وجل- على شيء من التضعضع والريبة والشك، فإنه غير مستقر كالذي يكون على طرف الجبل مثلاً، فإنه لا يكون مستقراً كالذي يكون على الأرض مثلاً، فهذا وجه الارتباط بين أصل المعنى في كلام العرب، وبين تفسير من فسره بالشك، فإن هذا كله يرجع إلى معنى واحد بهذا الاعتبار، فقولك: إنسان غير مستقر وغير واثق معناه: أنه على شك، فهو بحسب ما يعرض له، متضعضع إن جاءت الأمور على ما يكره حركت عنده دواعي القلق والشك والريبة، فصار متلجلجاً متردداً، وعلى كل حال فهذه المعاني التي ذكرت غير متنافية، **{يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}** يعني هذا بخلاف حال أهل اليقين فإن أهل اليقين إذا جاءتهم الشدائد والمصاعب والمصائب فإن ذلك يزيد من رسوخهم كما قال الله -عز وجل- في قصة الأحزاب لما ذكر الموقفَين -موقفَ المنافقين وموقفَ أهل الإيمان- قال في موقف أهل الإيمان: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا**

{إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب: (٢٢)] المقصود -على أرجح أقوال المفسرين والله تعالى أعلم بقولهم-: بـــ{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} الإشارة إلى البلاء الذي يعقبه النصر والتمكين؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ من قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [سورة البقرة: (٢١٤)] إلى غير ذلك من الآيات، فوعَدَ بالبلاء {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [سورة آل عمران: (١٨٦)] فلما رأوا الأحزابَ قد أحاطوا بالمدينة تذكروا هذا الوعد فقالوا {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} فهو الابتلاء الذي يعقبه التمكين، ولا يكون التمكين إلا بعد الابتلاء {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} بينما تجد أهل النفاق لما رأوا الأحزاب ماذا قالوا؟ قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب: (١٢)] فشتان ما بين هذا وهذا، وعلى كل حال هذه الآية فيها عبرة عظيمة؛ فهي تبين أحوال الناس ومراتبهم، وبها يعرف الإيمان الثابت الراسخ، وبها يعرف الإيمان الضعيف الهش، وهذه الآية تدل المسلم على أمر: وهو أن البلاء لابد أن يحصل كما سبق في الآيات التي أشرت إليها، ولكن ينبغي للمؤمن أن يطلب من الله العافية؛ فإن العافية لا يعدلها شيء، والنصوص دلت على أن الإنسان لا يطلب البلاء، بل يطلب من ربه العافية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا تتمنوا لقاء العدو))[1] وهناك نماذج وأمثلة في هذا المعنى في القرآن وغيره، والله -عز وجل- قال عن أولائك الذين طلبوا أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- فلما أخبروا أنه الجهاد تثاقلت نفوسهم، فأنزل الله -عز وجل- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف: (٢-٣)] وأولائك الذين طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله في سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [سورة البقرة: (٢٤٦)] فهذه فيها عبرة، فتساقطوا ولم يبق إلا القلة، ولذا فالإنسان لا يطلب البلاء بل يسأل ربه العافية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)) قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: ((يتعرض من البلاء لما لا يطيق))[2] فلا يدخل الإنسان في أمور من حسبة ونحوها، ثم بعد ذلك لا يطيق فيبتلى وينكسر، وقد يفتضح، فيطلب من ربه العافية، ولا يدخل إلا في الأمور التي يطيقها {{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [سورة البقرة: (٢٨٦)] فرحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

وقوله: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} [سورة الحج: (١١)] أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الحج: (١١)] أي: هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.

المبين: يعني البيّن الواضح الذي لا خفاء فيه.

---

[1] - رواه البخاري: برقم: (٦٨١٠) كتاب التمني -باب كراهية تمني لقاء العدو، ومسلم برقم: (٤٦٤٠) كتاب الجهـاد والـسير –باب كراهية تمني لقاء العدو.

[2] - رواه الترمذي: (٢٢٥٤) كتاب الفتن –باب: (٦٧) وصححه الألباني.

وقوله تعالى: {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} [سورة الحج: (١٢)] **أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}.**

كما قال الله -عز وجل-: **{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}** [سورة يونس: (١٨)] وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ}** [سورة الشعراء: (٧٢-٧٣)] فهذه من حيث هي لا تملك ضراً ولا نفعاً، والكفار الذين قالوا لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وخوفوه من آلهتهم أن تصيبه بشيء، فرد عليهم وقال: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [سورة الأنعام: (٨١)] فهذه من حيث هي لا تضر ولا تنفع، والآية الأخرى قال: **{لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ}** [سورة الحج: (١٣)] فهي تضر عابديها باعتبارٍ آخر: أنها توردهم المهالك، فيدخلون بسبب ذلك النار، هذا وجه الضرر من حيث هي فهي جمادات لا تنفع ولا تضر.

في الأولى: **{مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ}** باعتبار أن هذا العابد لماذا يعبدها؟ رغبةً ورهبةً ورجاء النفع، ومن أجل دفع الضر عنه يعتقد أن هذه الأصنام لو ما عبدها يمكن أن تهلكه، تخسر تجارته يمكن أن تقع عليه كارثة، يموت أولاده... فهي لا تضر ولا تنفع بل عبادتها تورث الضرر وذلك أن من عبدها دخل معها النار ووكِل إليها وخذل في الوقت الذي يكون أحوج ما يكون فيه إلى ألطاف الله -عز وجل- ورحماته، وفي قصة عكرمة في إسلامه -رضي الله تعالى عنه- لما ركب البحر وماج بهم البحر فقال قائد السفينة: إنه لا ينجيكم من هذه الكروب إلا الله، نهاهم أن يدعوا آلهتهم، فقال: إذا كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا الله فإنه لا ينجي أيضاً... القصة معروفة.

قوله تعالى: {يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} [سورة الحج: (١٣)] **أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.**

وقوله: {لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني وليا وناصراً، ولبئس العشير: وهو المخالط والمعاشر.

على كل حال في هذه الآية قوله **{يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ}** الله -عز وجل- قال **{يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ}** بعض العلماء يقول: هذه في الأصنام؛ من يعبد الأصنام فهي لا تضره ولا تنفعه، والثانية: **{لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ}** هذه في المعبودات مثل فرعون الذي كان يقول **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [سورة النازعات: (٢٤)] فلربما يقدسونه ويتقربون إليه ويعبدونه من أجل تحصيل بعض المنافع ودفع المخاوف، فالله -عز وجل- يخبر أن هؤلاء أقرب في الضر إليه من النفع، هكذا ذكر بعض أهل العلم في الفرق بين الآيتين، ويمكن أن يقال غير هذا، أما قوله -تبارك وتعالى-: **{ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}** فيعني البعيد عن الحق، وبعضهم كابن جرير أو غيره يفسره بالطويل، أي ضلال طويل لا نهاية له.

قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [سورة الحج: (١٤)] **لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى**

الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولائك وهدى هؤلاء قال: {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

مأخذ من قال بأن الآية الأولى: {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} في غير العقلاء -في الأصنام-، قال: إنه جاء بـــ"ما" التي تكون لغير العاقل، كالجمادات.

والثانية: {يَدْعُو لَمَن} و"من" تستعمل للعاقل، فهذا مأخذ هذا القول، ثم قال: { يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} قال مجاهد يعني الوثن، يعني بئس هذا المخالط الذي دعاه من دون الله مولى: يعني ولياً ونصيراً {وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني المخالط، هذا تفسير جيد وقريب لهذه الآية، والله تعالى أعلم، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: {لَبِئْسَ الْمَوْلَى} المولى: ابن العم، ويطلق على الناصر؛ لأن الإنسان يستنصر ببني عمه {وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني المعاشر والمخالط، فابن جرير لا يحمل المولى والعشير على الوثن، فعنده {لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني هذا العابد، لبئس ابن العم والمعاشر من يفعل هذا الفعل؛ يعبد غير الله -عز وجل- من الأصنام والأوثان التي لا تضره ولا تنفعه، فهو ذم للعابدين، هذا قول ابن جرير، والقول الأول: أنها ذم لهذه المعبودات، وأظن أن حملها على المعبودات كأنه أقرب إلى ظاهر القرآن، وهذا الذي قال به مجاهد، وقال به جماعة من المتأخرين، وممن اختار هذا القول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...} الكلام فيها واضح، فهو سبحانه لما ذكر حال الكفار ذكر ما يقابله -على طريقة القرآن: الترغيب والترهيب- فذكر الأبرار ومنازلهم، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا..} تجري من تحت قصورها وأشجارها.

قال سبحانه: {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} [سورة الحج: (١٥-١٦)]

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ} **أي بحبل** {إِلَى السَّمَاء} **أي سماء بيته** {ثُمّ لْيَقْطَعْ} **يقول: ثم ليختنق به، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم، فالمعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى:** {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر: (٥١)]، **ولهذا قال:** {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} **قال السدي: يعني من شأن محمد -صلى الله عليه وسلم-. وقال عطاء الخرساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟.**

قوله -تبارك وتعالى-: {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ} النصر هنا فسره أكثر أهل العلم على ظاهره، وهذا الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن لن ينصر الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء} السبب: كل ما يتوصل به إلى الشيء يقال له سبب، ولهذا يقال: الحبل سبب؛ لأنه يتوصل به إلى الماء في البئر، ولا يصل الإنسان إليها بيده، وإنما يضع الدلاء بالحبال ويصل بها إلى الماء فيقال لها: سبب، والطرق الموصلة إلى السماء يقال لها أسباب، وفرعون حينما أمر

وزيره ببناء الصرح قال: {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} [سورة غافر: (٣٦-٣٧)] فالسبب يطلق على كل ما يتوصل به إلى غيره.

{فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء} والسماء تطلق على مطلق العلو، فكل ما علاك فهو سماء، فهذا السقف يقال له: سماء، والسحاب يقال له: سماء، والارتفاع عموماً يقال له: سماء، والسقف المعروف {وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [سورة الأنبياء: (٣٢)] يقال له: سماء، وقول ابن عباس يعني أنه السقف فيربط حبلا في السقف ويشنق نفسه، من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- فلينتحر، هذا اختصار المعنى: يشنق نفسه، فإن الله ناصر نبيه، وهذا قد لا يجد شفاءً إلا في الخلاص من هذه الحياة.

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافياً *** وحسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

ومن أهل العلم من قال: إن السماء هي السماء المعروفة، وفسر النصر بالنصر المعروف فالمعنى: من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- فليتوصل إلى أسباب السماوات ليقطع النصر من مصدره، من فوقه من السماء.

فكأنه أحاله إلى أمرٍ مستحيل، يعني لا أن يقتل نفسه ويشنق نفسه وينتحر، لا، إنما يصل إلى مصدر النصر ويقطعه.

والمعنى الآخر الذي مشى عليه ابن جرير، وهو أنه فسر النصر بالرزق، وجاء بشواهد من كلام العرب، وهذا معنى صحيح، النصر قد يطلق على الرزق، لكن هل هذا هو المعنى المتبادر؟ الجواب: لا، ولهذا فإن القرآن في الأصل يفسر بالمعنى المتبادر الظاهر دون المعنى قليل الاستعمال، وهذه قضية دائماً يقررها ابن جرير -رحمه الله-، فإذا أجريناها على هذا فُسِّر النصر بالنصر المعروف وليس بالرزق.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: من كان يظن أن الله لا يرزق نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان، وتعجل رزق الله -عز وجل- أو استبطأه فليربط حبلاً في سقف بيته ويشنق نفسه، وينظر هل فعله هذا سيغير من قدر الله شيئا؟.

وأرجح هذه المعاني -والله أعلم- أن النصر يحمل على ظاهره، وأن السماء المقصود بها السقف، والله أعلم.

قوله: {ثُمّ لْيَقْطَعْ} يقطع ماذا؟ يقطع مجاري النفس؛ فإن الإنسان إذا خنق نفسه سُدت مجاري النفس فيموت، إضافة إلى قطع مجاري الدم بعد الدماغ.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ} أي القرآن {آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} أي واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس، {وَأَنّ اللّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة الحج: (١٧)].

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين -وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم- والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله

غيره، فإنه تعالى: {يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ} ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تُكنّ ضمائرهم.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ}** هذه الآية في الفصل بين هذه الطوائف، والصابئون: العلماء اختلفوا فيهم كثيراً فمنهم من قال: هم طائفة من النصارى؛ لأن الله -عز وجل- في بعض المواضع -من غير ذكر المجوس- وعَدَ المؤمن منهم بالجنة، وبعضهم قال: هم ناس على الفطرة، لم يكونوا من أهل الإشراك، ومنهم من قال: هم طائفة معروفة تسمى بالصابئين يعبدون الكواكب وهم الذين حصلت المناظرة بينهم وبين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولا تزال توجد طائفة إلى اليوم في العراق يقال لهم: الصابئة، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن كلمة الصابئين تطلق على أقوام شتى، فتطلق على أناس على الفطرة يقال لهم هذا، وتطلق على من يعبدون الكواكب، ولربما أطلقت على طائفة من النصارى، والعرب كانوا يقولون لمن دخل في الإسلام: صبأ، لماذا يقولون: صبأ؟ ربما يكون ذلك باعتبار أنه عبد الله وحده، وكانوا يعرفون قوماً يقال لهم: الصابئة، يعبدون الله وحده، قد يكون ذكره بعض أهل العلم.

وعلى كل حال هذه الآية في الحكم بين الطوائف، وذكر معهم المجوس، لهذا لم يعِد بالجنة، وهذا الحكم بعض أهل العلم يقول: هو الفصل بينهم؛ ليعرف المحق من المبطل، وبعضهم يرى أن هذا الحكم هو بإدخال هؤلاء الجنة -يعني أهل الإيمان- وإدخال الكفار باختلاف طوائفهم النار، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وفي هذه الآية قدم ذكر الصابئين على النصارى، وفي آية البقرة قدم النصارى على الصابئين، فمن أهل العلم من يقول: إن هؤلاء أهل الكتاب -يعني النصارى- فقدمهم هناك، وهنا قدمهم باعتبار الصابئين أسبق من الناحية التاريخية، -والله تعالى أعلم-، والتقديم والتأخير لا يكون على قاعدة مطردة في القرآن، فأحياناً بحسب تسلسل التاريخ وأحياناً بحسب الأفضل، قال تعالى: **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}** [سورة النساء: (١٦٣)] وقال: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}** [سورة الأحزاب: (٧)] فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٦)

من قوله تعالى"ألم تر أن الله" الآية١٨ إلى قوله تعالى"وذوقوا عذاب الحريق" الآية ٢٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

قال –تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سورة الحـــج: (١٨)].

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} وقال ههنا: {أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأرْضِ} أي من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء: (٤٤)] وقوله: {وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ} إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عُبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} [سورة فصلت: (٣٧)] الآية، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري أين تذهب هذه الشمس؟)) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر، فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت))[1].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتُني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[2]. رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

وقوله: {وَالدّوَآبّ} أي: الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها[3].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٦/٢٧٠٠)، برقم: (٦٩٨٨)، ومسلم، كتاب الإيمــان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/١٣٨)، برقم: (١٥٩).

[2] - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول في سجود القرآن (٥/٤٨٩)، بــرقم: (٣٤٢٤)، وحسنه الألباني.

[3] - رواه الإمام أحمد (٣/٤٤٠)، برقم: (١٥٦٨٤)، وإسناده ضعيف.

وقوله: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ} أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك {وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} أي: ممن امتنع وأبى واستكبر.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الحج: (١٨)] هذا الاستفهام استفهام تقريري ومعناه: ألم تعلم؟، وهذا السجود من أهل العلم من يفسره بمعناه اللغوي، ومعنى السجود في لغة العرب: الخضوع، بمعنى أن كل شيء يخضع لعظمة ربه وخالقه -جل جلاله.

ومن أهل العلم من يفسر ذلك بسجود الظلال وهو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ويمكن لمن قال بهذا القول أن يحتج بقوله –تبارك وتعالى-: {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ} [سورة النحل: (٤٨)].

ومن أهل العلم من يقول وهو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن السجود يفسر بمعناه الشرعي، وأصل السجود في الشرع هو وضع الجبهة على الأرض، وقد يطلق على الانحناء والركوع، كما قال الله -عز وجل- {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [سورة النساء: (١٥٤)] وليس معنى هذه الآية أنهم يدخلون وجباههم على الأرض، وإنما يدخل بهيئة الركوع تقديساً وتعظيماً وشكراً لله -تبارك وتعالى-، وهذا تفسير {يَسْجُدُ}.

والإنسان المؤمن يسجد طوعاً وغير المؤمن يسجد كرهاً بمعنى أنه خاضع لله -عز وجل- يدبره ويصرفه كيف شاء، وبعضهم يفسر ذلك بسجود المنافق، لكن هذا التفسير لا يكفي؛ لأن غير المنافقين من الكفار لا يسجدون، وكذلك أيضاً سجود الظلال فغير الآدميين يسجدون لله -تبارك وتعالى- سجود اختيار لكن هذا السجود كل شيء بحسبه، وقد قال –تبارك وتعالى-: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [سورة الجمعة: (١)].

وتعرفون ما جاء في تسبيح الطعام[٤]، وقد جاء عن جابر بن سمرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))[٥].

وتعرفون حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم تركه إلى المنبر فحن كحنين العشار إلى ولدها[٦].

والله -عز وجل- قال: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} [سورة سبأ: (١٠)] يعني مع داود -صلى الله عليه وسلم– أي: رددي معه ورجعي معه، والطير والهدهد كلّم سليمان وأخبره عمن يعبد الشمس من دون الله، قال: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٤/٤)، برقم: (٣٥٧٩)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (٢١٨٠/٤)، برقم: (٢٨٣٥).

[٥] - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (١٧٨٢/٤)، برقم: (٢٢٧٧).

[٦] - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر (٣١١/١)، برقم: (٨٧٦).

[سورة النمل: (٢٥)] فهذه الأشياء التي تدرك إدراكاً يليق بها فيحمل السجود على معناه الشرعي؛ لأن الأصل أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعاني الشرعية، فإن لم يوجد فالمعنى العرفي، فإن لم فاللغوي، فلا

نبدأ به في التفسير.

فنؤمن بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري أين تذهب الشمس؟))، ثم أخبر أنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر.

وليس لأحد أن يقول بأن الشمس تغيب عن قوم وتطلع على آخرين، أو متى تذهب؟ فلا نعارض الوحي بعقولنا، فالوحي هو المتبوع وهو المقدم.

وما عجز عن إدراكه عقل الإنسان فإنه يقول آمنا به، ويسلم لله -عز وجل-، وهذا الذي جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنه- لما رأى في المنام شجرة تسجد وتقول: "اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود" وهذه رؤيا حق.

وهكذا الدواب تسجد لله -تبارك وتعالى- والحديث الذي ذكره هنا: رب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها، وهذا القدر في الحديث لا يصح، وهو من رواية ابن لهيعة وفيه كلام، والله أعلم.

قوله: **{وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}** [سورة الحج: (١٨)]، وهذه الآية تدل على أن من حُرم السجود والصلاة، فإن الله -تبارك وتعالى- قد أهانه، ولا يمكن أن تحصل له الكرامة، فمن أراد الذل والهوان والمهانة فليترك السجود لله -عز وجل.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار))[٧] رواه مسلم.

هذا الحديث يدل على فضل السجود عند قراءة السجدة، ومن المعلوم أن السجود عند قراءة السجدة ليس بواجب كما هو معروف، ولكن له فضل ومزية فإن استطاع الإنسان ألا يتركه فهو خير له، والشيطان يتحسر حينما يراه يسجد.

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: ((نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما))[٨] ورواه أبو داود والترمذي

---

[٧] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/ ٨٧) برقم: (٨١).

[٨] - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن (٢/ ٥٨)، برقم: (١٤٠٢)، ورواه الترمذي، أبواب السفر، باب ما جاء في السجدة في الحج (٢/ ٤٧٠)، برقم: (٥٧٨)، وأحمد (٤/ ١٥١)، برقم: (١٧٤٠٢)، واللفظ لأحمد، وضعفه الألباني.

على كل حال هذا الحديث لا يصح، فيه ضعف، وقد وردت بعض الروايات عن الصحابة –رضوان الله عليهم– تدل على أن سورة الحج فضلت بسجدتين[٩]، بمعنى أن السجدتين في سورة الحج ثابتة، دون أن يقيد ذلك بأن من لم يسجد فلا يقرأهما، فلا يصح بهذا شيء، بل للإنسان أن يقرأ ولو لم يسجد، والنبي -صلى

الله عليه وسلم- سجد وترك.

وقد قال أبو داود في المراسيل عن خالد بن معدان -رحمه الله- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين)) ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه ولا يصح[١٠].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن أبي الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين.

وروى أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان، فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً[١١].

لا يخلو هذا الحديث من ضعف، وعدد السجدات في القرآن فيه خلاف بين أهل العلم.

قوله: **{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}** [سورة الحـج: (١٩-٢٢)].

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر[١٢]. لفظ البخاري عند تفسيرها.

ثم روى البخاري عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} قال: هم الذين بارزوا يوم بدر عليٌّ، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[١٣]. انفرد به البخاري.

قوله -تبارك وتعالى-: **{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ}**، ذكر الله -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة الذين يجادلون في الله بغير علم، وذكر الطوائف الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئين، والنصارى،

---

[٩] - السنن الكبرى (٢/ ٣١٧)، برقم: (٣٥٤٨).

[١٠] - المراسيل لأبي داود (٧٢/١)، برقم: (٧٨).

[١١] - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن (٢/ ٥٨)، برقم: (١٤٠١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب عدد سجود القرآن (٣٣٥/١)، برقم: (١٠٥٧)، وضعفه الألباني.

[١٢] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج (١٧٦٨/٤)، برقم: (٤٤٦٦).

[١٣] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج (١٧٦٩/٤)، برقم: (٤٤٦٧).

والمجوس، وذكر أهل الإيمان، وأهل الكفر، ثم قال: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} وذكر من يسجد، ومن لا يسجد فقوله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} هذا يمكن أن يرتبط في المعنى مع ما قبله، يعني فريق أهل الإيمان، وأهل الكفر {اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} اختصموا في وحدانيته -سبحانه وتعالى-، وطاعته، وعبادته، فأهل الإيمان عبدوا ربهم -تبارك وتعالى- ووحدوه، وأهل الكفر عبدوا غيره وجعلوا له الأنداد والنظراء.

وما جاء في هذه الآية من الآثار أنها نزلت في حمزة وصاحبيه، وهكذا قول علي -رضي الله عنه- فهذه العبارة ليست من العبارات الصريحة في سبب النزول، ولو كان هذا من قبيل الصريح في سبب النزول فإن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، فالآية تشمل الفريقين عموماً، أهل الإيمان وأهل الكفر في كل زمان ومكان.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون. يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله -عز وجل-، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن.

هذا الأسلوب في الجمع بين الأقوال في الترجيح هي مزية هذا التفسير، ولذلك يتميز تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير وأضواء البيان، وكلام ابن القيم، وكلام شيخ الإسلام في التفسير بالتحقيق وحسن النظر في الروايات، والجمع بين الأقوال والتأصيل والتقعيد.

ولهذا قال {فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ}، أي: فصلت لهم مقطعات من النار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي.

يقول الله –تبارك وتعالى-: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر: (١٦)]، {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأعراف: (٤١)]، والمهاد مثل الفراش، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب))[١٤]، والقطران معروف شديد الاشتعال.

{يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}، أي: إذا صب على رءوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان))[١٥] ورواه الترمذي وقال حسن صحيح.

---

١٤ - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياح (٤٥/٣)، برقم: (٢٢٠٣).

١٥ - رواه الترمذي، صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٧٠٥/٤)، برقم: (٢٥٨٢)، وضعفه الألباني.

هذا الحديث فيه ضعف، والله -تبارك وتعالى- أخبر أن هذا الذي يصب على رءوسهم يصهر به ما في بطونهم والجلود، وصهر ما في البطون واضح، أما الجلود فبعض أهل العلم يقول: يصهر به ما في بطونهم ويقدر للجلود فعلاً آخر، فيقول: ويحرق الجلود، أو ويحرق به الجلود، أو نحو ذلك، فحذف الفعل واكتفي بفعل لأحدهم، والآخر مقدر مثل قولهم:

علفتُها تبنًا وماءً باردًا، يعني: علفتُها تبناً وسقيتُها ماءً باردًا.

فالجلود لا تصهر، بل تحرق، ومن أهل العلم من يقول: لا حاجة لهذا فإن النار تصهر البطون والجلود، ونار جهنم قد زادت على هذه النار بسبعين جزءاً فلماذا لا تصهر الجلود؟، وهذا هو الأولى أن يقال حملاً للقرآن على ظاهره؛ لأن الأصل عدم التقدير، ومهما استطعنا أن نبقي اللفظ على حاله، وأن يحمل على وجه صحيح من غير الحاجة إلى دعوة تقدير فهذا هو الأصل.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، ثم روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرّهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}.

مثل هذه الروايات لا تثبت، ولا تصح، ومثل هذا لا يقال من جهة الراوي، لكنه يحتاج إلى إسناد يعتمد عليه.

قال ابن عباس في قوله: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيَدعُون بالثبور.

يدعون بالثبور: يقولون واثبوراه {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [سورة الفرقان: (١٤)]، وقوله: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} قطعة من الحديد مثل المحجن معكوفة الطرف تضرب بها رءوس أهل النار، والعياذ بالله.

وقوله: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [سورة الحـــج: (٢٢)].

قوله: {مِنْ غَمٍّ} يعني: بسبب غم أو لأجل الغم، {أُعِيدُوا فِيهَا} يضربون بهذه المقامع، يعني: لا يُتركون يحترقون في النار فقط، بل يضربون بالمقامع، ويسحبون على الوجوه في النار، وقد قال –تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر: (٤٨)]، ويصب عليهم من الحميم، ويأكلون الزقوم، -نسأل الله العافية-، وأمور هائلة، لو كان يلقي في النار فقط لكان هذا كافياً.

وإذا تأملت لو انطفأت الكهرباء ساعة، وهم في حر لذابوا، وفي سنة من السنوات قبل خمسين سنة في الحج مات خلائق بسبب الشمس والحر، حتى إن بعض الناس صار يذهب يبحث عن مكان يجلس فيه يأتيه هواء، ويصعدون الجبال فلما نزلوا وجدوا الموتى أعداداً كبيرة جداً على قلة الناس في ذلك الوقت في الحج، فكيف لو احترقوا أو نحو ذلك، ولو نظرت إلى المستشفيات -نسأل الله العافية- ودخلت قسم الحريق فتجد شيئاً هائلاً، الأطباء يقولون: فعلت به النار هذا الفعل، ثوانٍ فقط، فكيف بنار جهنم، يبقى فيها لا يموت فيها ولا يحيا، نسأل الله العافية، أعاذنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [سورة الحـــج: (٢٢)].

وقوله: {وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} كقوله: {وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة السجدة: (٢٠)] **ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.**

يقال لهم: **{وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ}** وهذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: **{وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ}**. والله أعلم، وصلى الله على نبيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٧)

من قوله تعالى"كلما أرادوا" الآية٢٢ إلى قوله تعالى"عذاب أليم" الآية٢٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قال المفسر رحمه الله تعالى: **لما أخبر تعالى عن حال أهل النار -عياذًا بالله من حالهم- وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة -نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة- فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [سورة الحج: (٢٣)] أي: **تتخرَّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا} من الحلية، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا}** أي: **في أيديهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق عليه: ((تبلغ الحِليَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء))**[1].

وقوله: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}: في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [سورة الإنسان: (٢١-٢٢)]، **وفي الصحيح: ((لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة))**[2].

قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}.

وقوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} كقوله: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [سورة إبراهيم: (٢٣)].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فما ذكره الله -عز وجل- هنا من نعيم أهل الجنة هذا على طريقة القرآن بذكر ما يحصل به الخوف والرجاء، فقوله -تبارك وتعالى-: **{يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا}** التقدير: ويحلون لؤلؤاً، وعلى القراءة الثانية، وهي أيضاً قراءة متواترة بالجر **{بأساور من ذهب ولؤلؤٍ}** يكون اللؤلؤ عائداً على المجرور معطوفاً عليه وهو الذهب، فيكون المعنى -والله تعالى أعلم- أن هذا الذهب مرصع باللؤلؤ، وعلى قراءة

---

[1] - رواه مسلم برقم: (٦٠٩) كتاب الطهارة –باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء.

[2] - رواه البخاري برقم: (٥١١٠) كتاب الأطعمة –باب الأكل في إناء مفضض، ومسلم برقم: (٥٥٣١) كتاب اللباس والزينة - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء.

النصب: {ولؤلؤاً} أي: ويحلون لؤلؤاً، فيحتمل أن تكون الحلية من اللؤلؤ، يعني حلية من ذهب وحلية من لؤلؤ، بمعنى أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ، مع أنه جرت العادة في الدنيا فيما هو معروف أن الأساور في الدنيا لا تكون من اللؤلؤ، وإنما اللؤلؤ يرصع بالذهب مثلاً، ولكن نعيم الجنة يختلف عن نعيم الدنيا، فيمكن أن يحلى هؤلاء بأساور من اللؤلؤ الخالص وأساور من الذهب الخالص، مع أن الاحتمال أيضاً قائم بأن المراد {ولؤلؤاً} أي: ويحلون لؤلؤا، فلا يلزم من ذلك أن السوار برمته من اللؤلؤ، وإنما هو من الذهب رصع باللؤلؤ، وعلى كل حال نعيم الجنة لا يقاس بنعيم الدنيا وما فيها من البهرج والزينة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} ما ذكره من قول ابن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)) قال: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، يعني أن ابن الزبير -رضي الله عنهما- فهم من قوله: ((لم يلبسه في الآخرة)) أنه لم يدخل الجنة؛ لأن الحرير لباس أهل الجنة، ولكن هذا أيضاً غير قاطع؛ فالحديث قد يفهم منه هذا المعنى، وقد يفهم منه غير ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من مات وهو يشرب الخمر ولم يتب أنه لن يشرب من خمر الجنة[٣]، فهل معنى ذلك أنه لا يدخل الجنة؟ وأنه يخلد في النار؟ لا، وإنما يُحرم من هذا اللون من النعيم في الجنة، وبعض أهل العلم كابن القيم -وقد يفهم هذا من بعض كلام شيخ الإسلام في بعض المواضع- يرى أن النعيم في الجنة ينقص بحسب حال الإنسان في الدنيا، وابن القيم لا يتقيد بما ورد في الأحاديث من أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، أو من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، يعني إن لم يتب، بل يرى أن من تعاطى شيئاً من هذه المحرمات في الدنيا عموماً فإن ذلك يكون نقصاً في نعيمه في الجنة، فيُحرم من نظيره، ولكن هذا الكلام لا دليل عليه، ومثل هذه القضايا لا يجري فيها القياس، يبقى سؤال إذا وقفنا عند الأشياء التي ورد فيها النص كالخمر، والحرير إذا قلنا بأن الحديث يحتمل معنى آخر وهو أنه يُحرم من حرير الجنة، وليس معنى ذلك أنه لا يدخل الجنة، فمن مات وهو يلبس الحرير ولم يتب هل يخلد في النار؟ لا، فهذا الفهم الذي ذكره ابن الزبير -رضي الله عنه- من أنه لا يدخل الجنة لأن هذا هو لباس أهل الجنة يمكن أن يقال: إنه يُحرم هذا النوع من النعيم، ولقائل أن يقول: إن هذا من نصوص الوعيد فيجرى على ظاهره؛ ليحصل الردع والزجر، ولا يتعرض له بتأويل، ومن أهل العلم من يؤول ذلك بأن هذا إن كان مستحلاً؛ فالمستحل يكفر، ولا حاجة إلى هذا لأن الحديث ليس فيه ذكر هذا القيد، فيبقى -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذا من نصوص الوعيد، ولكن في مجالس العلم يحتاج الناس أن يفهموا هذا؛ من أجل أن لا يبنوا على ذلك لوازم فاسدة، كأن يقال -مثلاً-: الذي يلبس الحرير في الدنيا ويموت على هذا يخلد في النار، فهذا لا يجوز، وكذا أن يقال: الذي يموت وهو يشرب الخمر ولم يتب فإنه يخلد في النار؛ لأنه لا يشرب من خمر الجنة، لا، بل يقال: إن ذلك يكون نقصاً في نعيم الجنة بإزاء هذه المقارفة.

---

[٣] - في مسلم برقم: (٥٣٣٦) عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة)) كتاب الأشربة -باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام.

هنا يرد سؤال هو أن نعيم الجنة نعيم عظيم وكامل فإذا كان لا يشرب من خمر الجنة فإنه يكون ناقص النعيم، والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فكيف هذا؟ فيقال: كما أنه قطعاً أخبرنا الله -عز وجل- عن تفاوت نعيم أهل الجنة ودرجاتهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن هذا وأن الجنة درجات، وأن أصحاب الدرجات العالية يتراآهم أهل الجنة، كما يتراءى الكوكب الغابر في الأفق، ولا يكون ذلك نقصاً في نعيم من كان في مرتبة أدنى؛ لأنه يرى أنه ما أُعطي أحدٌ أفضل مما أعطي، فالجنة ليس فيها تنغيص، فيكون ما عنده من اللذات والنعيم والحبرة وما أشبه ذلك بحيث لا يحصل له شعور بنقص الراحة والسرور والنعيم في الجنة. هذا الجواب، والله تعالى أعلم.

أما مذهب عمر -رضي الله تعالى عنه- فهو يرى أن من توسع في المباحات يدخل في عموم قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا} [سورة الأحقاف: (٢٠)] وأن ذلك يكون على حساب حظه من الآخرة، فينقص نعيمه في الآخرة، ومرتبته بحسب ما حصل له من التوسع في اللذات، حتى الكلام في اللذات المباحة، فهذا مذهب عمر -رضي الله عنه-، ومذهب عامة أهل العلم أن الإنسان إذا شكر النعمة وأدى حق الله -عز وجل- فيها فإن ذلك لا يكون نقصاً في حقه، فالصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كصهيب الرومي، وغيره كما ورد في الآثار حينما يتذكرون من مات من إخوانهم، ولم يحصِّل ما حصَّلوا ولم تفتح عليهم الدنيا كانوا يخافون أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في الدنيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عن المجاهد في سبيل الله أنه إما أن يقتل في سبيل الله فيكون أجره وافيا على الله، وإما أن يرجع بما يرجع من أجر أو غنيمة، فهذا الأجر الذي يرجع به هل هو مثل الأجر الذي يحصل لذاك الذي قتل ولم يرجع، ويكون هؤلاء كما جاء في بعض الأحاديث أنهم قد تعجلوا شطر ثوابهم أو أجرهم أو جزائهم، فأهل العلم يتكلمون عن هذا..

وقوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} [سورة الحج: (٢٤)] كقوله تعالى: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} [سورة إبراهيم: (٢٣)] وقوله: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد (٢٣-٢٤)] وقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة: (٢٥-٢٦)] فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وقوله: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [سورة الفرقان: (٧٥)] لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم: {ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة آل عمران: (١٨١)].

قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} هذه الآيات التي أوردها على نوعين منها ما يدل على أن ذلك السلام يصدر منهم، ومنها ما يدل على أن ذلك يصدر من غيرهم، أو أنهم لا يسمعون إلا التسليم -مثلاً-، ولهذا قال هنا بعد قوله -تبارك وتعالى-: {وَالمَلاَئِكَةُ} قال {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} هذا الذي يسمعونه، قال فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وجه هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} أنه بمعنى هدوا إليه فلا يصدر منهم إلا الطيب من القول، ومن هذا القول الطيب الذي يصدر منهم السلامُ، وفي الآية التي ذكرها هنا {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا} يعني ما يوجب الإثم {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} قيلاً: يعني قولاً، {سَلَامًا سَلَامًا}،

{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}: هدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الطيب من القول فيكون صادراً منهم، وهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه ذلك من غيرهم، هكذا أراد ابن كثير -رحمه الله-، وعلى كل حال الطيب من القول يشمل السلام، ويشمل كل طيب من القول، فالجنة ليس فيها سخط، ولا أذى، ولا شتم، ولا ما يعاب، ولا ما ينكر، فالقول الطيب يدخل فيه شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الذي فسر به ابن جرير -رحمه الله- {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، ويدخل فيه السلام كما دل عليه القرآن، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ويدخل فيه كل قول طيب، فكل أهل الجنة يتكلمون، في الدنيا يصدر من الناس ما يعاب فيشين، ويصدر ما يقبح سواء كان ذلك من قبيل الشرك ودعاء غير الله -عز وجل- أو كان ذلك من الأمور المحرمة -بدع وأهواء مما يتكلم به الناس- أو كان ذلك من قبيل الغيبة، والنميمة، أو كان ذلك من قبيل الشتم والسب أو الفحش أو نحو ذلك، والجنة ليس فيها فحش، وليس فيها معصية، وليس فيها ما يقبح، ولا ما يزعج الأسماع، وإنما لا يسمع الإنسان فيها إلا الكلام الطيب، وهذا من أعظم النعيم لأن الإنسان لاشك أنه يتأثر بما يسمع، فإذا سمع الكلام السيئ وجالس أناساً يتكلمون بما لا يليق ولا يحفظون ألسنتهم، ويصدر منهم من السب والأذى والوقيعة، وألسنتهم حداد فإن القلوب والأسماع تتأثر بهذا، ومن ثَمَّ يتكدر القلب ويتنغص، ولذلك فإن الذين يحضرون المجالس التي يسمعون فيها التثريب، يثرب عليهم مثلاً، والتعنيف أو يسمعون ما يكرهون من شتم وانتقاص وعيب سواء كان هذا ولدك أو غيره إذا كان يسمع هذا التثريب لا يحب هذا المجلس، ولا يحب الحضور فيه، وهكذا أصحاب الفطر السليمة إذا حضروا في المجالس التي يُتكلم فيها في أعراض الناس ويسمعون فيها الكلام المحرم فإنه لا تطيق قلوبهم هذا بحال من الأحوال، وقل مثل ذلك حينما يسمع الإنسان أو يبتلى في مكان عام أو في سوق أو في طائرة أو في مجمع من مجامع الناس ابتلي فسمع الناس يتحدثون تحيتهم شتم، وعباراتهم لا يتحفظون بها، قذف وعبارات سيئة جداً، قوية جارحة تجرح جروحاً عميقة وهم لا يتحفظون بهذا الكلام، بل يرسلونه على عواهنه، والإنسان لا يمكن أن يحتمل هذا فهو كلام مؤذٍ جداً، والجنة ليس فيها هذا، لا يسمع إلا الكلام الطيب، ولذلك جرِّبْ هذا، وانظر إلى أناس لا تسمع منهم إلا طيب الكلام، الكلام اللطيف، الكلام الحسن تجد أن هذا من النعيم، ولا تمل تلك المجالس، وكذلك ما ذكره الله -عز وجل- من نعيم أهل الجنة بأنه {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} [سورة الأعراف: (٤٣)] فوجود الغل في نفس الإنسان يكدر عليه نعيمه ولذته وراحته وسروره، بل لا ينام الإنسان الذي يحمل الغل في قلبه، إذا امتلئ القلب بالغل ذهبت السعادة وتنغصت على الإنسان المعيشة، والإنسان إذا وقع بينه وبين أحد خصومة كيف تكون حاله وحياته، إلا إذا كان إنساناً ملوث العرض ملطخاً، في كل مكان كدمات فهذا أسأل الله العافية (ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ) فهذه من الأمور الخفية التي لا يتفطن لها الكثير من الناس مما ذكر الله -عز وجل- من نعيم أهل الجنة: السماع وذهاب الغل من نفوسهم، أليس النعيم هو في أمور حسية مادية يتعاطاها الإنسان من نكاح وأكل وشرب وقصور يسكنها، لا، فهناك أشياء قد تُذهب هذه اللذة كلها ولذلك يجد الإنسان أعلى لذات الدنيا ربما هي لذة النكاح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول (حبب إلي من الدنيا النساء والطيب)[٤]

٤- رواه النسائي برقم: (٣٩٣٩) وقال الألباني حسن صحيح.

ومعروف في أحوال الناس أن الرجل قد يسمع من هذه المرأة التي يعاشرها كلمة واحدة تتحول بسببها اللذة إلى تنغيص فيزهد فيها ولا يستطيع أن يعاشر، فكلمة تجرح مشاعره، والناس يذكرون مثل هذا، قد يذكره بعضُ مَن أكثرَ من الجواري، ومن الزوجات وهكذا أيضاً لربما كان الإنسان يأكل ولكنه إذا غلبه الغم أو امتَلأ قلبه بالغل لا يجد طعما للطعام.

وقوله: {وَهُدُوَاْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم كما جاء في الحديث الصحيح ((إنهم يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس))[٥] وقد قال بعض المفسرين في قوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} أي: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

القول بأن {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} يعني القرآن أو نحو هذا أو الأذكار المشروعة!! الجنة ليس فيها لا قراءة قرآن ولا أذكار إنما يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفَس، فالجنة ليس فيها تكاليف، ولكن هؤلاء العلماء قصدوا بذلك -والله أعلم- أن هذا في الدنيا {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} كما ذكر الله -عز وجل- هذا النعيم لأهل الجنة أنهم {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} في الدنيا، مع أن ظاهر السياق أن هذا من نعيمهم في الجنة، {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} ولكن كأن من فسره بأن هذا في الدنيا {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} إذا قيل: لا إله إلا الله أو نحو ذلك، أن هذا كان في الدنيا وكان سبباً لهذا النعيم، وهكذا {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أيُّ هدايةٍ تكون في الآخرة؟ مع أن الله -عز وجل- قال عن الشهداء: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [سورة محمد: (٤-٥)] وقد قتلوا فكيف يهديهم؟ ولهذا يقال: الهدايات منها ما هو موجود في الدنيا، ومنها ما يوجد في الآخرة، فالهدايات التي توجد بعد الموت كثيرة، يُهدى الإنسان عند سؤال الملكين في القبر إلى الجواب إذا سئل عن المسائل الثلاث، وكذلك العبد أيضاً يحتاج إلى هداية حينما يقوم من قبره فيتوجه إلى محشره، فالله -عز وجل- وصف خروج الناس من قبورهم {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [سورة المعارج: (٤٣)] ويحتاج أيضاً إلى هداية حينما يحاسبه الله -عز وجل- فيلهم العبد الحجة، ويسدد، لم فعلت كذا؟ أو يقال له: فعلتَ كذا، رأيت شيئاً يجب عليك أن تغيره، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن العبد إذا ألهم الحجة، قال: ربي..، فالشاهد أنه يلهم الجواب الصحيح الذي يحصل له به الخلاص والنجاة، ثم إن الإنسان أيضاً يحتاج إلى هداية أخرى بعد ذلك إلى الصراط، ويحتاج إلى هداية على الصراط، ويحتاج إلى هداية أخرى إلى باب الجنة، ويحتاج إلى هداية إلى منزله في الجنة، ولهذا قال الله -عز وجل- {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} [سورة يونس: (٩)] وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم**، يعني {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} في الدنيا لما يكون سبباً لهذا النعيم، وكذلك أيضاً في الجنة،

---

٥ - رواه مسلم برقم: (٧٣٣١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها –باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا.

وظاهر السياق في الجنة {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} الصراط هو الطريق الواسع {صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: صراط الله -عز وجل- {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي إلى طريق الله -تبارك وتعالى- فقد تكون الآية تشمل هذا الذي ذكره السلف جميعاً، والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }. [سورة الحج: (٢٥)].

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة الأنفال: (٣٤)].

وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ} [سورة البقرة: (٢١٧)]**، وقال: هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام مَن أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [سورة الرعد: (٢٨)] **أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.**

قوله -تبارك وتعالى- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} هذا كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح: (٢٥)] كما وقع عام الحديبية، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} [سورة المائدة: (٢)] فهذا كان معروفاً عنهم صد أهل الإيمان عن المسجد الحرام، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن هذه الآية دليل على أن الآية مدنية باعتبار أن الآيات تدل على هذا، فهذا الصد عن المسجد الحرام إنما كان بعد الهجرة إلى المدينة، وسبق الكلام على أن هذه السورة فيها ما هو مكي، وما هو مدني، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} قبله: كفروا: هذا فعل ماضٍ، ويصدون: فعل مضارع، فعطف المضارع على الماضي، فيحتمل أن يكون المراد بهذا الفعل المضارع {ويصدون} معنى المضي، يعني وصدوا، وتبقى النكتة البلاغية، لم عبر بمضارع في شيء قد مضى؟ وهنا يمكن أن يقال: إنه يعبر بالمضارع عن الماضي لتصوير ما وقع كأنك تشاهده، {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ} [سورة البقرة: (٩١)] وما قال: فلم قتلتم؟ والقتل وقع من زمن، من أجدادهم، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، وإذا نظرت إلى كثير الخطابات التي خاطب الله -تبارك وتعالى- بها اليهود تجدها من هذا القبيل، تارة يكون ذلك للتشنيع، وتارة لبيان العظمة ولمعانٍ بلاغية، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج: (٦٣)] قال: تصبح، ولم يقل: فأصبحت، تصبح، كأنك تشاهد عملية النبات وهي تحصل، والإنبات خروج الزرع من الأرض، وهكذا، ويمكن أن يقال هذا هنا -والله أعلم- {ويصدون} وكما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة النساء: (١٦٧)] فعبر بالماضي {كفروا وصدوا} فعطف الماضي

على الماضي، وهنا في هذه الآية قال: {ويصدون عن سبيل الله} وعلى كل حال هم حينما نزلت هذه الآيات كان الصد مستمرا منهم، ولهذا يمكن أن يقال: إنه عبر بالمضارع لإفادة الاستمرار، فهذا أمرٌ مستمر، والصد متكرر جارٍ غير متوقف فعبر به، وبعض أهل العلم يقول: الواو زائدة، وعليه تكون الجملة الفعلية: {ويصدون} خبر إن، فالتقدير: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} {يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} لكن هذا وإن قال به جماعة من أهل العلم إلا أن الأصل عدم الزيادة، ولاشك أن هذا أولى، ويمكن أن تحمل الآية على معنى واضح بلا تكلف من غير الدعوى بالزيادة، ولكن يبقى السؤال: أين خبر إنّ إذا قلنا: الواو غير زائدة؟ {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} تكون هذه صفة لهم، فأين خبر إنّ؟

بعضهم يقول: إنه مقدر بعد قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} أي: خسروا وخابوا وهلكوا، وبعضهم يقول محذوف تقديره مثلاً: {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} استئناسا بما يليها في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وكذلك أيضاً الكفر والصد عن سبيل الله هو من جملة الإلحاد في الحرم، فيكون الخبر مقدراً {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وبعضهم يقول: إن قوله: {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} في الآية هو الخبر، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن الله قال: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} فهذا جواب لهذا، فكيف يكون جواب الأول؟ والقول بأن الواو زائدة أيضاً لا يخلو من إشكال، وبعضهم يقول إن جملة {يصدون} خبر مبتدأ محذوف، وليست خبراً لإنّ والتقدير: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} وهم {يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} فــ: {الذين كفروا} اسم إنّ، من الأسماء الموصولة، و"هم {يصدون}" هم: مبتدأ، والجملة الفعلية خبر، والمبتدأ والخبر -الجملة برمتها- في محل رفع خبر إنَّ.

نحن لا نشتغل بالإعراب لكن أحيانا حتى يتبين المعنى كما قيل: المعنى تحت الإعراب، والإعراب تحت المعنى، فما يتبين أحياناً المعنى إلا بالإعراب، فكيف تفهم هذه الآية إلا بالإعراب؟.

قوله: {كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يصدون الناس عن الإيمان واتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني: يصدون عن المسجد الحرام، والمسجد الحرام هنا يحتمل ثلاثة أشياء: يحتمل أن يكون المراد به المسجد نفسه، مسجد الكعبة، ويحتمل أن يراد به مكة، ويحتمل أن يكون المراد به منطقة الحرم بكاملها، وهذا الخلاف سببه أن المسجد الحرام يطلق تارة ويراد به المسجد نفسه، وتارة يطلق ويراد به الحرم، ولذلك اختلفوا في الإسراء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الإسراء: (١)] هل أسري به من المسجد؟ أو أسري به من بيته أو من بيت آخر؟ باعتبار أن الحرم يقال له المسجد الحرام، وهكذا ((صلاة في المسجد الحرام))[٦] الاختلاف نفسه لهذا السبب، وأما ذكر مكة هنا فمن أجل أن الله -عز وجل- قال {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} البادي: هو الذي يبدو، أو الذي يطرأ عليه من غير أهله يقال له ذلك، وبعضهم يقول: هو من جاء من البادية، وليس هذا بلازم، لأن المعنى أوسع من هذا، فالطارئ عليه من غير أهله هو المقصود بهذا -والله أعلم-، وهؤلاء الذين يأتون هم إما يأتون إلى

---

[٦] - رواه ابن ماجه برقم: (١٤٠٦) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها -باب ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام ومسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- وصححه الألباني.

المسجد، وإما يأتون إلى مكة، ولا يأتون إلى أرض الحرم في أماكن غير معمورة وغير مأهولة، وإنما يأتون لمكة {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} ولهذا قال بعضهم: المقصود مكة؛ لهذا السبب، ولهذه القرينة التي في الآية، والكلام في هذا كثير جداً، ويترتب عليه مسائل، فـــ {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} سيأتي الكلام على تأجير بيوت مكة، و{سواء} يستوون في ماذا؟ إذا قلنا: إنه المسجد فلا إشكال، لأنه ليس لأحد فيه حق، ولا أحد أولى من أحد، فأهل مكة ليسوا بأولى من غيرهم بالمسجد، لكن هل يشمل ذلك منطقة الحرم بكاملها؟ أو مكة؟ فيستوي الناس فيها بحيث لا يجوز لأحد أن يؤجر ولا يبيع، فلا يستأثر بشيء دون غيره، مما زاد على حاجته، وتفتح البيوت ولا توضع لها أبواب، أو لا تغلق أبوابها، وكل من طرأ على مكة له أن يسكن حيث شاء، فهذا فيه خلاف كثير بين أهل العلم يأتي الكلام عليه إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٨)

تتمة قوله تعالى"إن الذين كفروا" الآية

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [سورة الحج:٢٥] أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام.

وقال مجاهد في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضًا، فذهب الشافعي، -رحمه الله- إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: ((وهل ترك لنا عَقيل من رباع؟))، ثم قال: ((لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر))[1]، وهذا الحديث مُخَرّج في الصحيحين، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة -فجعلها سجناً- بأربعة آلاف درهم، وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلى أنها تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن علقمة بن نَضْلة قال: "تُوُفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر وعمر، وما تُدعى رباع مكة إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن"[2].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم وإذا أسلم قبل أن يقسم الميراث فلا ميراث له، برقم (٦٣٨٣)، ومسلم، كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤)، والإمام أحمد في المسند، رقم (٢١٧٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب أجر بيوت مكة، رقم (٣١٠٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (١٠٩٦٨)، وضعفه الألباني.

وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها"[3].

وقال أيضًا عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهي عن تبويب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري قال: فلك ذلك إذًا[4].

وقال عبد الرزاق، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: "يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء"[5].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}، قال: "ينزلون حيث شاءوا"[6].

وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: "من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً"[7].

وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} **العاكف** يعني: المقيم, يعني أهل مكة أهل البلد، والباد يعني: من طرأ عليه من غير أهله, وهذا الاستواء لم يحدد الله -عز وجل- فيه معنى أو أمراً من الأمور, ولهذا حمله ابن جرير –رحمه الله- على العموم بناء على القاعدة المعروفة وهي عموم المقتضى, يعني: المقدر المحذوف {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} في ماذا يستوون؟ فكثير من السلف يعبرون بأنهم يستوون بسكنى فيه, ونحو ذلك، فابن جرير حمله على أعم معانيه فقال: هم سواء في ذلك حيث إنهم يجب عليهم تعظيمه, وتقديسه, وتطهيره وهم سواء في الأحقية لا فضل لأحد على أحد، ولا مزية لأحد على أحد، فهم مستوون في ذلك كله، يجب على أهله مكة، ويلزمهم من تعظيم البيت وتطهيره التطهير اللائق والتقديس الواجب ما يجب على غيرهم ممن طرأ عليه، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء, كما أنهم يستوون في الأحقية لحرم الله -تبارك وتعالى- والنزول حيث شاء {الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}, لكن يبقى على هذا المعنى –وهو الحمل على العموم- يبقى النظر في المراد بالمسجد الحرام, فإذا خص ذلك بمسجد الكعبة فإنه يقال: يستوون في المسجد –الكعبة-، وإذا قيل: إن المراد به مكة فمعنى ذلك أن الحق للجميع, وليس لأحد أن يتحجر شيئا دون غيره مما يزيد عن حاجته, ومن طرأ عليه سكن حيث شاء، وليس لأحد أن يؤجر, وليس لأحد أن يبيع إذا قيل: إنهم يستوون بهذا كله، وذكر هنا الأقوال ومبنى هذه المسألة على قضية فتح مكة هل فتحت مكة صلحاً أو فتحت بالقوة؟ وإذا

---

٣ - رواه عبد الرزاق في المصنف (١٤٨/٥)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٥٠/٣).

٤ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١٠).

٥ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١١).

٦ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١١).

٧ - رواه الدار قطني في سننه، رقم (٢٨٦)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٢١٨٦).

كانت فتحت بالغلبة بالقوة, هل أقرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بأيدي أهلها يتملكون، يعني: تركها بأيديهم على سبيل التمليك أو على سبيل الانتفاع, فمن قال: إنها فتحت صلحاً قال: إن أهلها يملكون الدور ولهم أن يتصرفوا فيها تصرف المالك من إيجار وبيع وهبة وغير ذلك، وليس لأحد حق فيها, ومن قال: إنها فتحت بالقوة فهؤلاء بحسب نظرهم، ومن قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما غلب عليها وقهر أهلها بقوة الجيش أقرها في أيديهم ينتفعون بها ليس لهم أن يؤجروا ولا أن يتصرفوا تصرف المالك، هذا مأخذ المسألة وأصلها، والذين قالوا: إنها ملك لهم يتصرفون فيها كما شاءوا احتجوا بأدلة ذكر بعضها المؤلف -رحمه الله- هنا، ومنها قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال أسامة: أتنزل غداً في دارك بمكة؟, قال: ((وهل ترك لنا عقيل من رباع؟))، ثم قال: ((لا يرث الكافر المسلم, ولا المسلم الكافر)), فمعنى ذلك أن هذا الحديث يدل على أنهم يتملكون، قال: ((هل ترك لنا عقيل من رباع؟))، ولم يقل: ليس لي بها دار، أو لا أملك فيها شيئاً أو نحو ذلك، وهكذا في قوله: ((لا يرث الكافر المسلم, ولا المسلم الكافر))، فإذا جرى فيها التوارث فمعنى ذلك أنهم يتملكون؛ لأن التوارث إنما يكون فيما يملك, وهكذا ما ذكره من أن عمر -رضي الله عنه- اشترى دار صفوان بن أمية اشتراها منه، وإنما يشترى ذلك المالك، وإلا لما جاز له بيعها وهكذا احتج به ابن خزيمة، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} [سورة الحشر:٨] فنسب الديار إليهم، وهكذا أيضاً احتجوا بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من دخل داره فهو آمن))[٨]، فنسب الدار إليه ((ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)) فنسبها إليه، بالنسبة لهذين الدليلين: فإن الإضافة لا تقتضي التمليك دائماً، وإنما قد يضاف الشيء إلى الشيء أو ينسب إليه لأدنى ملابسة, وهذا معروف؛ ولذلك الله -عز وجل- قال لأمهات المؤمنين: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٣]، مع أن البيوت للنبي -صلى الله عليه وسلم- لكن هن المنتفعات بها في السكنى فأضافها إليهن, وهكذا أيضاً في قوله -تبارك وتعالى- في المطلقة: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١]، مع أن البيت ليس لها، فأضافه إليها لأنها ساكنة فيه, وقوله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ} لا يقتضي أن الديار هي ملك لهم, لكن لما كانوا يسكنون فيها وينتفعون بها أضيف ذلك إليهم، والبخاري -رحمه الله- بوب باباً قال فيه: باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام سواء لقوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ} ثم أورد حديث أسامة, وحديث أسامة يدل على أنها تملك، فكأنه لم يصح عنده شيء؛ لأنها لا تملك، فأراد هذا الحديث الذي يدل على أنها تملك -الحديث الذي ذكره هنا-، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال: "توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-, وأبو بكر وعمر وما تُدعى رباع مكة إلا السوائب"، الشيء السائب أو السائبة هو الذي لا مالك له متروكة لله، "إلا السوائب" يقال لبيوت مكة: السوائب, لا مالك لها, ولكن هذا الحديث لا يصح, ولو صح الحديث لكان نصاً، قال: ((من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن))، والجمهور على أن بيوت مكة ملك لأهلها وأنه يجوز لهم أن يؤجروها ويبيعوها ويتصرفوا بها, ومن الناس من يتبنى القول بأنها لا تؤجر ولا تباع، فيأتي ويسكن في ما شاء من فنادق الحرم ثم يخرج ولا يعطيهم شيئاً, ويحتج عليهم بما جاء

---

٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم (١٨٠٥٣)، والطبقات الكبرى، لابن سعد (١٣٥/٢).

من كلام أهل العلم والآثار المنقولة عن السلف في هذا: أن كل هذا حرام وسحت, ولا يجوز لهم، ومنهم من يستأجر في مكة السنوات فيأتي ويحتج بمثل هذه الأشياء, ولذلك وُجد بعض من يقوم على هذه المساكن بمجرد ما يأتيه الإنسان يطالبه أحياناً بدفع مبلغ من المال يغطي المدة التي يسكن فيها، خوفاً من الاحتجاج بمثل هذه الأمور.

وقوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [سورة المؤمنون:٢٠] **أي: تُنْبِتُ الدهنَ، وكذا قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} تقديره إلحادًا، أي: يَهمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار.**

وقوله: {بِظُلْمٍ} أي: عامدا قاصدا أنه ظلم، ليس بمتأول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {بِظُلْمٍ} بشرك.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: { بِظُلْمٍ } هو أن تَستحلَ من الحرم ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم.

وقال مجاهد: {بِظُلْمٍ}: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

عن عبد الله -يعني ابن مسعود-في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بِعَدَن أبينَ، لأذاقه الله من العذاب الأليم.

ورواه أحمد، قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفُه أشبه من رفعه، والله أعلم.

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال حبيب بن أبي ثابت: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

قال ابن عباس في قول الله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاريّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهَرَب إلى مكة، فنزلت فيه: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} [سورة الفيل:٤-٥]**، أي: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "يغزو هذا البيتَ جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم" الحديث.**

الضمير في {يُرِدْ فِيهِ} يرجع إلى المسجد الحرام الذي وصفه الله -عز وجل- في قوله: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} [سورة الحج:٢٥]، وهذا يشمل الحرم بأجمعه, وهذه خصوصية للمسجد الحرام دون غيره من الأمكنة، قوله: {بِإِلْحَادٍ} الذين قدروا أو قالوا: إن الباء زائدة يبقى

المعنى عندهم هكذا "ومن يرد فيه إلحاداً بظلم نذقه من عذاب أليم"، فصار فعل الإرادة هنا على وجهه دون الحاجة إلى القول بالتضمين؛ لأن فعل الإرادة في الأصل لا يتعدى بالباء, وإنما يتعدى بنفسه، أراد إلحاداً، وهنا قال: "يرد بإلحاد" عداه بالباء, فمن قال: إنها زائدة -يقصدون زائدة إعراباً- أبقي الفعل على ظاهره، والأصل عدم الزيادة, ولذلك فإن من أهل العلم -كشيخ الإسلام، وأضافه ابن القيم -رحمه الله- إلى فقهاء أهل اللغة- من قال بتضمين الفعل معنى فعل آخر يصح أن يعدى بالباء، {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} والفعل الذي يصح أن يعدى بالباء هو "هَمّ" همّ بكذا, وهمّت بكذا, فهذا يصح أن يعدى بالباء, فإذا قيل: إن فعل الإرادة مضمن الفعل "همّ" فعُدي لذلك بالباء فيكون إذاً هنا المعنى أوسع، فيكون المعنى {وَمَن يُرِدْ فِيهِ} دل على فعل الإرادة، ومعنى الإرادة, ودل على درجات تارة تكون إرادة جازمة وهو ما يسمى بالعزم المصمم، وتارة تكون هذه الإرادة لم تصل إلى حد العزم ولكنها همٌّ فقط, هم بكذا لكن لم يعزم عليه، هممت أن أسافر، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "حتى هممتُ بأمر سوء" حين أراد أن يجلس, والنبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي، لكنه لم يجلس، فالهم لم يصل إلى العزم، ثم يأتي دون ذلك الخاطرة التي تخطر بنفس الإنسان، هذه الخواطر تقع في قلب الإنسان لكن قد يدفعها فإذا تركها واستقرت صارت بعد ذلك باعثاً على العمل وهو الهم، ثم بعد ذلك قد تقوى حتى تصل إلى حد العزيمة، فإذا قلنا: إنه مضمن معنى الهم -فعل الهم همّ- فمعنى ذلك أن الإنسان يؤاخذ على مجرد الهم, وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، والدليل على هذا غير مسألة التعدية؛ لأنه كما هي القاعدة أنه تفهم معاني الأفعال على ضوء ما تتعدى به، فنفهم فعل الإرادة هنا {وَمَن يُرِدْ} بالنظر إلى الحرف الذي عُدي به، ففهمنا أن المقصود بالإرادة هنا الهم، والذين فسروه بالعزم يُردّ عليهم في كل مكان؛ لأن الفعل أربعة أنواع:

النوع الأول: الفعل بالجوارح، باليد، بالمباشرة، بالمشي، بالذهاب, بالمجيء، فعل الجوارح.

الثاني: الفعل باللسان.

الثالث: الفعل بالقلب، هو العزم المصمم.

الرابع: وهو الترك؛ لأن الترك فعل كما قال في المراقي: والترك فعل في صحيح المذهب.

فلو أن إنساناً غرق وكاد أن يموت ورآه شخص وعنده حبل يستطيع أن يلقيه إليه فيخرج، أو يسبح فينقذه لكن تركه حتى مات، أوإنسان أصيب بحادث ويحتاج إلى إنعاش, لكن الطبيب جلس يتفرج عليه حتى مات، فهذه كلها من باب الترك، وإذا قالوا: الترك فعل, فالفعل أربعة أنواع: منها العزم المصمم، هذا لا يختص بالحرم، العزم المصمم فعل، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((القاتل والمنقول في النار)), قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[9]، فهذا العزم فعل لا يختص بالحرم فلو فسر هنا فعل الإرادة بالعزم لما صار للحرم مزية على غيره، ولهذا فإن تفسيره بالهم أولى، هذا وجه الترجيح، والأقوال التي ذكرها هنا والآثار عن السلف قال: {بِظُلْمٍ} عامداً قاصداً، إذا قيل: إن تفسير {وَمَن

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [سورة الحجرات:٩]، رقم (٣١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨).

{يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} الإلحاد: هو الميل عن الحق، إذا قلت: إنه لا يوجد إلحاد بحق تكون هذه الصفة كاشفة مثل: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [سورة البقرة:٦١]، ولا يمكن لأحد أن يقتل نبياً بحق, ولذلك إذا قلنا: إن الإلحاد لا يقع أبداً إلا بظلم فتكون هذه من باب الصفة الكاشفة, يعني ليس صفة مقيدة، والله -عز وجل- يقول مثلاً: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [سورة الأحزاب:٥٨]، {بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} لأنه يمكن أن يؤذي المؤمنين والمؤمنات بما اكتسبوا، بسبب ظلمٍ صدرَ منهم، فهذه الصفة مقيدة وليست كاشفة، قال عن ابن عباس: {بِظُلْمٍ} بشرك، ونقل أيضاً عنه: "أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة، أو قتل، فتظلم وتقتل....إلى آخره" قال مجاهد: يعمل فيه عملاً سيئاً، كل هذا يمكن أن يقال: إنه من الصور الداخلة تحت قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ}؛ لأن الإلحاد نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم, وبهذا كلام ابن كثير -رحمه الله- في الآخر, وكلام سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه هذا هو الأقرب في تفسير الآية, فذلك يعم جميع الصور القليل والكثير من المعاصي كله يدخل في قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وهذا الذي اختاره ابن جرير وقال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أن الآية على عمومها، فهذا وعيد لكل من تسول له نفسه الإساءة والمعصية في حرم الله -عز وجل-، ويدخل في هذا ألوان المعاصي بالنظر، والكلام بالغيبة إلى غير ذلك, ولهذا ينقل عن بعض السلف الاحتياط في مثل هذه الأمور فيذكر أن ابن عمر -رضي الله عنه- كان له فسطاطان واحد في الحل، والثاني في الحرم, وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**وهذه خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه**" هذا القيد "عازماً عليه" قد يناقش، وإنما يكفي الهم في ذلك وإلا فالعزم فيه وفي غيره, ولهذا في السبب في تخليد الكفار في النار مع أنه عبد غير الله -عز وجل- قد يكون سنة أو عشر سنوات أو ستين سنة، بحيث يكون عازما هو على الاستمرار على هذا {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام:٢٨] فعزمه هذا المصمم هو بمنزلة الفعل.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٩)

من قوله تعالى"وإذ بوأنا" الآية ٢٦إلى قوله تعالى"من كل فج عميق" الآية٢٧

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، أما بعد:

فقال -رحمه الله تعالى-:

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسستْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوّأ إبراهيم مكانَ البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم -عليه السلام- هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يُبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وُضعَ أول؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس)) قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة))[١].

وقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا} الآيتين [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى هاهنا: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحج (٢٦)] أي: ابْنِه على اسمي وحدي، {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [سورة الحج (٢٦)] قال قتادة ومجاهد: من الشرك {لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [سورة الحج (٢٦)] أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، {وَالْقَائِمِينَ} أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض} (٦/ ١٢٦ – ٤٨١٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/ ٣٧٠ - ١) (٥٢٠).

يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ}** [سورة الحج (٢٦)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه، وسلمه له، وأذن في بنائه، فيكون معنى: (بوأنا لإبراهيم) على هذا التفسير أي: أرشدناه، وهديناه إلى مكان البيت أو إلى موضع البيت، فهذا معناه.

وابن جرير -رحمه الله- عبر عن معنى (بوأنا) فقال: يعني وطأنا لإبراهيم مكان البيت، وقد تُكوّن هذه المعاني أو هذه العبارات معنىً واحداً متقارباً، هيأنا ووطأنا أي: هديناه إلى مكان البيت وأرشدناه إليه، فإذا هيأه له وأرشده إليه ووطأه له فهذا كله بمعنى متقارب.

وبعضهم يقول بأن اللام زائدة (بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وهو قول الفراء، وإذا قلت: زائدة -يعني إعراباً- وحذفتها يكون و(إذ بوأنا إبراهيم مكان البيت) أي: أنزلنا إبراهيم مكان البيت، وإنزاله مكان البيت يعني إنزاله في مكة عند الحرم في المحل المعروف، حيث وضع أهله هناك، لكن الأصل عدم الزيادة، وإلا فإن أصل التبوّء هو النزول والسكنى، مثل: ((فليتبوأ مقعده من النار))[٢] أي: فليأخذ مقعده، أو فليسكن ولينزل وهكذا، يقال: (باءوا بغضب من الله) ويقال: المباءة: المكان الذي ينزل فيه الإنسان ويرجع إليه بعدما يتفرق بأشغاله وحاجاته وشئونه يرجع إليه، وعلى كل حال بعضهم يعبر عن هذا بعبارات مقاربة.

الشنقيطي -رحمه الله- يقول: هيأناه له وعرفناه إياه ليبنيه بأمرنا، لكن تفسير الفراء فسره بما هو أقرب في معنى هذه اللفظة لفظة (بوأنا) لأن هذه اللفظة تدل على النزول والسكنى، الحلول بالمكان تدل عليه (بوأنا) لكن دخول اللام (بوأنا لإبراهيم) هو الذي حمل أكثر أهل العلم على تفسيره بمعانٍ كهيأنا أو وطأنا أو أرشدنا أو نحو ذلك.

على كل حال الله -تبارك وتعالى- دل إبراهيم على هذا المحل، وأرشده إليه، وهيأه له، فنزل به -عليه الصلاة والسلام- بأمر الله -عز وجل- وعرفه مكان البيت فبناه، فهذه بمجموعها داخلة في معنى (بوأنا).

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- (١/ ٣٣- ١٠٧) ومسلم في باب في التحذير من الكذب على رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- (١/ ١٠- ٢) (٢).

وقوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج (٢٦)]... إلى آخره، ما تكلم عليها.

على كل حال {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] بعضهم يقول بأن (أن) هذه مفسرة، مفسرة لماذا؟ مفسرة لما قبلها وهو الفعل الذي هو (بوأنا) (بوأنا له مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً) فيكون قوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] تفسيراً لها، لكن هل قوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] هو تفسير للفظة (بوأنا) بالمعنى المطابق؟ هذا فيه إشكال.

لكن هؤلاء الذين قالوا بهذا القول قالوا: إن (بوأنا) مضمن معنى فعل آخر يصلح أن يفسر بما بعده فتكون (أن) مفسرة {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] قالوا: مضمن معنى فعل (تَعبَّدنا) وكما ذكرنا لكم من قبل أن الفعل قد يضمن معنى الفعل، فقالوا: إن (بوأنا) مضمن معنى تعبدنا إبراهيم أن لا تشرك بي شيئاً، لكن أيضاً هذا لا يخلو من إشكال؛ لأنه قال: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [سورة الحـــج(٢٦)] هل يقال: تعبدنا إبراهيم مكان البيت؟ فهم راعوا (أن) دون ما قبلها، فقالوا بالتضمين.

وبعضهم يقول: إن (أن) هنا مصدرية، وإذا قيل: إنها مصدرية يكون المعنى هكذا: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت لا تشرك بي) وبعضهم يقول: (أن) زائدة، ويرجع إلى المعنى السابق (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت لا تشرك) فيكون فيه مقدر محذوف، يعني قلنا له: لا تشرك، وهذا له نظائر، فيُحذف القول، كما سبق في بعض الآيات: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة الحـــج(٢٢)] يعني: قيل لهم: ذوقوا، وهكذا.

وبعضهم يقول: إن المعنى: (وأوحينا إلى إبراهيم ألا تعبد غيري) وفيه مقدر محذوف، يعني (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وأوحينا إليه لا تشرك بي شيئاً) ويدل على المحذوف: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة البقرة(١٢٥)] فهنا محذوف (وعهدنا إلى) نقول: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وعهدنا إليه ألا تشرك بي شيئاً، وهذا له وجه، الحذف لا شك أنه موجود في القرآن اختصاراً لكلام العرب، وهذا لا شك أنه من مقتضيات البلاغة، وهو حذفُ ما يُفهم من الخطاب، وانظر مثلاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [سورة الحشر(٩)] فقوله: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} هل الإيمان يُسكن؟ لا، الإيمان ما يسكن، فيكون فيه مقدر: والذين تبوءوا الدار، واعتقدوا الإيمان، أو تبوءوا الدار ولزموا الإيمان، فهنا {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] يعني: وأمرنا أن لا تشرك بي شيئاً، وأوحينا إليه أن لا تشرك بي شيئاً، وعهدنا إليه، كما تدل عليه الآية الأخرى، وهذا الأخير هو الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

أما الكلام على هذه المسألة وهو أن الآية قد تدل على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أول من بنى البيت، فإن الآية تحتمل ذلك، لكنها ليست بنص قاطع فيه؛ لأن من يقول بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ليس أول من بنى البيت، وأنه بُني من قبل، طيب كيف الله -عز وجل- أخبر أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي بناه؟! فالذين يقولون: بني من قبل يقولون: طمر أثناء الطوفان، والله -عز وجل- أرشده إلى مكانه، فأقامه إبراهيم على الأسس والقواعد الأصلية.

وبعضهم يقول: الذي بناه آدم -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: بنته الملائكة، لكن ليس عندنا دليل صحيح يدل على هذا، والحديث الذي أورده الحافظ ابن كثير وهو حديث أبي ذر -رضي الله عنه- لما سأل أي مسجد وضع أولاً؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس)) قال: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) فهذا يدل على أن الأولية مطلقة، يعني في بناء إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران(٩٦)] فأبو ذر يسأل عن أول بيت، فقال له: المسجد الحرام، لو بقينا مع هذه فقط فهو محتمل أنه بنته الملائكة، بناه آدم -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، لكن حينما يرد السؤال الآخر وهو: كم بينهما؟ فيقول: ((أربعون سنة))[٣] فهذا يدل على أنه لم يبنه آدم، ولم تبنه الملائكة قبل ذلك، فهذا دليل واضح على أن أول من بنى البيت هو إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لم يكن قبله.

وأما المرويات الإسرائيلية في معنى: (وبوأنا) فبعضهم يقول: جاءت ريح فأخرجت القواعد، على القول بأنه كان قبله، وبعضهم يقول: جاءت سحابة، فأمر بأن يقدر على مقدارها، كل هذا لا دليل عليه، كل هذا من الإسرائيليات، الله -عز وجل- أرشده إلى المكان الذي يبني فيه بيته، فأسسه وبناه، ووضع قواعده، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أول من وضع القواعد، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [سورة البقرة(١٢٧)] ولا زالت قواعد إبراهيم موجودة إلى اليوم، والذين كشفوا عنها وشاهدوها ذكروا هذا، والتوسعة والأعمال الأخيرة التي حصلت قبل سنوات كشفت عن القواعد والنظر فيها وقوتها وثباتها فوجدوها على حالها لم تتغير.

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض} (٦/ ١٢٦ – ٤٨١٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/ ٣٧٠ - ١) (٥٢٠).

وفي عهد ابن الزبير لما احترق البيت، ضُرب بالمنجنيق في أيام الحجاج؛ لما حاصره -أو قبله- بناه ابن الزبير، هدمه تماماً وحفر حتى وجد القواعد كالأسنمة، فأشهد الناس، وبناه على قواعد إبراهيم.

على كل حال الذين يقولون بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما جاء ووضع أهله هناك قال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [سورة إبراهيم(٣٧)] فالبيت كان قبله، وهذا قبل البناء؛ لأن البناء حصل بعدُ، ويحتجون أيضاً ببعض الأدلة التي يمكن أن يستخرج ذلك منها كالآية نفسها: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [سورة الحـــج(٢٦)] فــ(ال) في قوله: (البيت) عهدية، في بيت معهود، لكن هذا ليس بقاطع، لأن الله أوحى إليه أنه سيكون هنا بيت، كما جاء في الحديث: لما جبريل قال لأمه هاجر أخبرْها بذلك، وأن هذا الغلام سيبنيه، فهذا بوحي الله -عز وجل- فــ(عند بيتك المحرم) يعني الذي سيُبنى، المكان الذي اخترتَه لبيتك، وإن لم يوجد بعد.

وهكذا هنا في قوله: {مَكَانَ الْبَيْتِ} مكان البيت المعهود في أذهانكم الذي تعرفونه، تحجون إليه فدخول (ال) هنا لا إشكال فيه، وقد يُستنبط منه بعض اللطائف في مثل قوله: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [سورة البقرة(١٢٦)].. الآية، وقوله: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [سورة إبراهيم(٣٥)] فجاءت (البلد) في الأول نكرة، وفي الثانية معرفة، ومن اللطائف التي تستنبط ما يقوله بعضهم: إن لفظ "بلداً" كان قبل وجوده، حينما جاءوا وإذا الأرض قفر ليس فيها شيء، فقال: اجعله بلداً آمناً، فلما وُجد دعا مرة أخرى: (اجعل هذا البلد).

مثل: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [سورة الفتح(٢)] مع قوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة (٦)] يهديه صراطاً قبل أن يعرِّفه به، قال: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [سورة الفتح(٢)] فلما عرَّفه به وعرَفه دعا فقال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ} [سورة الفاتحة (٦)] يعني الذي عرَّفتنا به، يعني في مثل هذه المواضع يمكن أن تستخرج بعض هذه اللطائف، لكن هنا مكان البيت لا يلزم، والله تعالى أعلم.

{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [سورة الحـــج(٢٦)] قال قتادة ومجاهد: من الشرك للطائفين والقائمين والركع السجود.

على كل حال التطهير للبيت ليس من الشرك فقط، بل يطلب تطهيره من كل دنس حسياً ومعنوياً، فيطهر من الشرك، ومن الآثام ومن الإلحاد فيه، ويطهر من القذر والنجاسات والأذى، كل هذا داخل فيه، وعلى رأس ذلك الشرك.

{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] هل هذا يختص بمكان الصلاة -أي المسجد-؟ أو الحرم بكامله؟ {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] ذكْرُ الطائفين والعاكفين يدل على المسجد، لكن الحرم كله الأدلة الأخرى تدل على دخوله، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة] الحرم كله، فدل ذلك على أنه يمكن أن يفهم من مجموع هذه الأدلة أن ذلك يشمل الحرم كله، وإذا كان ذلك فيصدق بصورة أولية على المسجد، مسجد الكعبة.

وابن القيم -رحمه الله- عمم المعنى، فقال: "يدخل فيه منى ومزدلفة والحرم كله" فيرى أن هذا هو المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحج(٢٦)] أن هذا كله في الحرم، فتدخل فيه المشاعر، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ} [سورة الحج(٢٦)] بالنسبة للقائمين: يعني في الصلاة (والركع السجود) أيضاً هم المصلون، وذكر هنا الطواف والصلاة لأنهما أبرز العبادات التي يتعبد لله -عز وجل- بها في الحرم.

وقوله: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} [سورة الحج(٢٧)] أي: نادِ في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ، فقام على مقامه وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه -من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة- لبيك اللهم لبيك، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم، أوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة.

كثير من المفسرين وأصحاب السير يرددون هذه الحكاية، ولكن لا أعلم أنها تثبت بإسناد صحيح، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٠)

من قوله تعالى"ليشهدوا مَنَافِعَ لهم" الآية٢٨إلى قوله تعالى"وليطوفوا بالبيت العتيق" الآية٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله: {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [سورة الحج:٢٧] قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، وقال وكيع عن أبي العميس عن أبي حلحلة عن محمد بن كعب عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "ما آسَى علي شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيا؛ لأن الله يقول: {يَأْتُوكَ رِجَالا}"، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنه حج راكبا مع كمال قوته -عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَأْتُوكَ رِجَالا} يعني: غير ركبان، يعني مشياً على الأقدام، {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} والضامر هو العير المهزول الذي قد أعياه طول السفر هذا المراد هنا -والله تعالى أعلم-، والمضمر عموماً من الإبل والخيل، يقال: لما حصل له ذلك بسبب التعب وطول السفر، ويقال ذلك: لمن فعل به ذلك؛ لأنهم كانوا يضمرون الخيل مثلاً للحرب، وذلك بأن تعلف وتطعم بصورة جيدة، ثم بعد ذلك توضع في مكان بارد ويوضع عليها من الأغطية ما تعرق معه جداً فيذهب ما بها من شحم فلا يبقى فيها إلا المتماسك بحيث تكون قوية تتحمل الكر والفر والسفر والمشي الطويل ونحو ذلك، لكن المراد هنا {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} هذا المهزول الذي قد أذهب ما به من لحم لطول السفر، والله أعلم .

وقدّم المشاة على الركبان في قوله سبحانه: {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}؛ للاهتمام بهم وقوة هممهم، وشدة عزمهم، لكن هل يدل على أن الحج مشياً على الأقدام أفضل؟ وما المراد بالحج على الأقدام؟ أيخرج الإنسان من بلده على قدميه أو أن المراد به أن الإنسان ينتقل بين المناسك على قدميه؟ فالثاني هو المقصود في كلام أهل العلم في تفضيل الماشي على الراكب عند مَن فضلّه كما جاء في أثر ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، ولمَا ذكر عن الحسن بن علي -رضي الله عنه- أنه حج خمساً وعشرين حجة على قدميه والنجائب تقاد بين يديه، فقد يأتي الإنسان على راحلة من بلده فإذا جاء مكة صار يتجول بين المناسك على قدميه، وهذا الذي يبدو أن الحسن وغيره فعلوه ممن يرون فضل الحج ماشياً لا أنه قَدِم على قدميه من العراق أو من المدينة، والجمهور من أهل العلم على أن الحج راكباً أفضل؛ لأنه فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين قالوا: إن الحج على الأقدام أفضل اعتذروا عن فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه فعلَ

ذلك للحاجة، بحيث يراه الناس فيقتدوا به في مناسك الحج؛ لأنه قال لهم: ((خذوا عني مناسككم))[1]، فركب دابته -صلى الله عليه وسلم- من أجل هذا، وعامة أهل العلم على أن الحج راكباً أفضل؛ لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والذي يحتاج إلى بيان أنّ تقصّد المشقة في العبادة غير مطلوب للشارع، ويدل على هذا أدلة كثيرة، منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسه))[2]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- في الرجل الذي وقف في الشمس والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب، فقالوا: إنه نذر أن لا يستظل ويصوم، فتقصُّدُ المشقة في العبادة غير مطلوب، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعائشة -رضي الله عنها-: ((إن أجرك على قدر نَصَبَك))[3]، لا يفهم منه بحال أن تقصّد التعب مطلوب من أجل كثرة الأجر، وإنما المقصود به المشقات العارضة التي تحصل للإنسان من غير طلب، بمعنى لو كان الإنسان مثلاً يستطيع أن يرمي الجمار في وقت لا يشق عليه بسبب الزحام، وكذلك فيما يتعلق بحر الشمس فلا يتقصد الذهاب في شدة الزحام أو في وقت شدة الحر من أجل المشقة، فهذا غير مقصود للشارع ولا مطلوب، ومثل هذا لا يقال فيه: إن الأجر يطلب بمثل هذه المشقات، فلا يتقصد الإنسان المشي في الحج من أجل الأجر، لكن ينظر فيما هو أصلح لقلبه وأحسن له وأنفع، وكذا فقد يكون ركوبي في السيارة أصعب عليّ من المشي؛ لأني في السيارة أجلس سبع ساعات وأنا أنتظر في مسافة لا تتجاوز لربما سبعة كيلو مترات، أجلس في السيارة حتى الوضوء لا أستطيع أن أتوضأ، ولا أستطيع أن أنزل لأتوضأ، يدخل وقت الصلاة ويخرج وأنا جالس في السيارة، ورائحة السيارات وما أشبه ذلك، فالمشي أرفق بي؛ لأني لا أتوقف، وأنا أنشط للمشي، يقال له هذا هو الذي يصلح لك، وآخر يقول: أنا إذا مشيت تعطلت يحصل لي من آثار المشي ما يجعلني أعجز عن القيام لكثير من الأعمال تنشل الحركة، فيقال في مثل هذا: اركب، فمثل هذه الأمور يراعى فيها حال الإنسان -والله تعالى أعلم-، لكن لا يتقصد المشقة، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} فهنا قال: {يَأْتِينَ} بصيغة الجمع، وذلك باعتبار المعنى، وقوله: {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} فـ"كل" تدل على العموم يعني: ضوامر فهي بمعنى الجمع، {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} أي: هذه الضوامر تأتي، {مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} أي من كل طريق، و{عَمِيقٍ} أي بعيد، وكلمة عميق تستعمل في البعد من الناحية الأفقية، وكذلك البعد من ناحية العمق، وهذا أكثر ما يستعمل به هذا اللفظ، يقال: بئر عميقة، حفرة عميقة، في العمق، ويقال ذلك في البعد، فيقال: ناحية عميقة، يعني بعيدة، وهكذا طريق عميق أي طويل، ويمكن أن يقال: إنه قدم ذكر الرجال هنا، {يَأْتُوكَ رِجَالًا} أي: ليُفهِم معنى، أو قد يُفهَم معني -لا يقال هذا تعليل للتقديم-، من تقديم {يَأْتُوكَ رِجَالًا} أو على الأقل ذكر الرجال هنا من أجل ألا يفهم أن الحج لا يجب إلا على من ملك الراحلة، ولهذا فإن الكثيرين يفسرون

---

١ - رواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله -صلى الله تعالى عليه وسلم- لتأخذوا مناسككم، برقم (١٢٩٧).

٢ - رواه مسلم، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٣٢٣).

٣ - رواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه، برقم (١٢١١).

الاستطاعة في الحج {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [سورة آل عمران:٩٧] فيقولون: من ملك الزاد والراحلة، وليس ذلك بشرط؛ لأن الله -عز وجل- قال: {يَأْتُوكَ رِجَالا} فقد يستطيع الإنسان أن يأتي بدون راحلة كأهل مكة، فالزاد والراحلة ليست من شروطه، لكن إذا كان لا يتوصل إلى الحج إلا بالراحلة، فتكون من باب مالا يتم الواجب إلا به، أما أن يجعل هذا من الشروط على الإطلاق، فهذا يحتاج إلى دليل، ولا دليل على هذا، وبعض أهل العلم يقول: إنه قدم المشاة جبراً لقلوبهم، وخواطرهم؛ فإنه لربما يحصل لهم نوع تنقص من قبل الركبان، يقولون: هؤلاء لا يجب عليهم الحج، فلماذا يفعلون ذلك بأنفسهم؟، يعني حينما تمشي القافلة، يمشي الناس على الإبل كما هو معروف في السباق تجد مقطورة طويلة من الإبل، كل بعير يربط بالآخر، ويمشون بطرق في الصحراء، صحيح أنها غير مرصوفة لكنها معروفة، مسالك في الصحراء يسلك الناس عليها في الأسفار قديماً، ولا زالت بعض آثارها موجودة إلى اليوم، وطرق الحجاج في التنقل في المشاعر بعض آثارها موجودة إلى اليوم، فالشاهد أن الناس كانوا يمشون على طرق -يعني يسلكها السالكون قبلهم-، ومنهم الذين يمشون على أقدامهم مع هذه القافلة، أو هذه الرواحل وربما نظر إليهم الركبان وقالوا: إن هؤلاء قد حملوا أنفسهم أمراً، فالله -عز وجل- ذكر المشاة قبلُ، هذا ذكره بعض أهل العلم، لكن مثل هذه المعاني الملتمسة لا يقطع بها، {يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [سورة الحج:٢٧] وكل هذا يدل على أن الأصل في الحج المشقة، وليس اليسر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعائشة -رضي الله عنها- لما سئل عن الجهاد وهل على النساء؟ فقال: ((عليكن جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة))[٤]، فسماه جهاداً، وبعض أهل العلم أدخله في عموم قوله: {فِي سَبِيلِ اللّهِ} -مصارف الزكاة-، قالوا: سواء هؤلاء يأتون على أقدامهم، أو الذي يأتي على هذا البعير المهزول من طول السفر، يأتي من أماكن بعيدة جداً، ولذلك فإن طلب الراحة في الحج، وأن يكون ذلك مقصوداً للناس وهدفاً كما هو الحاصل لدى الكثيرين هذا خلاف الأصل في السفر، ولهذا يوطن الإنسان نفسه على المشقة ولا يتقصد الترف في حجه، ولا يطلب المشقة في نفس الوقت، لكنه يوطن نفسه على الصبر، يصبر ويتحمل إذا فاته شيء من لذاته ولا يجزع، ولا يشتم الحجاج، ولا يبطل حجه بما يصدر منه من الأقوال، والأفعال بسبب أنه وجد أمورا غير مألوفة، هذا زاحمه، وهذا ضايقه، وهذا نام في فراشه، وهذا جلس في مكانه، فهذا لا يليق.

وقال -رحمه الله-: وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [سورة إبراهيم:٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

هذا المعنى تكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- كلاماً جيداً، وذكر من آثار دعوة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه ما يفرغ الإنسان من المناسك ويرجع إلى بلده إلا وحن إليه مرة أخرى، وهذا من خصائص مكة، وهكذا

---

٤ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، برقم (٢٩٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٣٢٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٣٠٧٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل برقم (٩٨١).

الناس بهذه الصورة المستمرة يشتاقون إليها ويحنون إليها، وهذا الحنين لا يوجد لبلد آخر، وإنما يسافر الإنسان مرة لبلدٍ ما إذا كان له حاجة فيه، فإذا قضاها رجع منه ولا يعاوده الحنين إلى هذا البلد، بخلاف مكة، وهذا لا يوجد في المدينة.

وقوله: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج:٢٨-٢٩].

قال ابن عباس: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} **قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله.**

كلام السلف في هذه المنافع كثير، منهم من حملها على المنافع الأخروية {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} المناسك، الطواف، والسعي وهكذا أيضاً الهدايا والقرابين وما أشبه ذلك، وكذلك ما يحصل من جراء ذلك من الأجور، فهذه منافع لهم ((والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٥]، وغفران الذنوب فهي منافع، ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[٦]، ومن أهل العلم من ألحق بذلك التجارات، والله -عز وجل- يقول: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} يعني: التجارة في الموسم من المنافع، والصحيح أن ذلك يعم هذه الأمور جميعاً، ومن ذلك المنافع الأخروية من غفران الذنوب، والجنة، والثواب، والأجر، وشهادة هذه الأماكن، والاستجابة لدعوة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة، وأضف إلى ذلك منافع أخرى أن يلتقي المسلمون ويحصل بينهم تعارف، وتشاور في مصالحهم، ويتعلمون ما ينفعهم ويؤدون النسك، وهكذا ما يحصل من التجارة والكسب، والناس كانوا يجلبون معهم إذا جاءوا من بلادهم ألوان التجارات، فيحصل لهم انتفاع بالأرباح، ويأتي آخرون يشترون، وهذه منافع لهم، كانت تقام أسواق في منى، وغيرها، هذا كله داخل فيه {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}، وممن حمله على العموم الحافظ ابن كثير، وابن جرير الطبري، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقولهم: ما خص بعض هذه المنافع {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ} فيصدق على ما كان منفعة، وأما منافع الدنيا فيما يصيبون من منافع البُدن؛ لأن ذلك أكثر ما يقدم، وهو أجلُّ ما يقدم من القرابين، وهي الإبل، والعلماء مختلفون هل البقر يلحق بها أو لا؟.

ومن المنافع: البُدن والذبائح والتجارات، ويصلح أن يقال: والربح والتجارات من المنافع، والذبائح، وهذا أقرب في مراد ابن كثير؛ لأنه ذكر البُدن، وهناك أشياء أخرى تقدم قرابين مثل ذبح الغنم، فالذبائح هي الغنم، فهم ينتفعون بها.

وقوله: وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح و التجارات، وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} [سورة البقرة:١٩٨].

---

٥ - رواه البخاري، أبواب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، برقم (١٦٨٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، برقم (١٣٤٩).

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام شهر رمضان، برقم (١٣٢٨)، وبرقم (١٤٠٨)، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، وأحمد في المسند، برقم (١٠٢٧٤)، وقال محققوه: إسناده حسن.

وقوله: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} قال شعبة وهُشَيْم عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به، وروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخرساني، وإبراهيم النَّخعي.

الأيام المعلومات فيها كلام كثير لأهل العلم منها أنها العشر، وهذا ليس محل اتفاق، والذين يقولون هذا يقولون: إن الأيام المعدودات هي أيام التشريق، ومن أهل العلم من يقول: إن الأيام المعلومات هي يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، وبعضهم يقول: يومان بعده، وبعضهم يقول: غير هذا، ويمكن عرض هذه الأقوال للفائدة، حتى يتصور الإنسان كلام أهل العلم في الأيام المعلومات.

واختلف المفسرون في المراد بالأيام المعلومات على أقوال:

القول الأول: أنها عشر ذي الحجة، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ}، أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق، وهذا القول يروى عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخرساني، وإبراهيم النَّخعي، وروي عن أبي حنيفة، وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل، وحكاه البغوي عن أكثر المفسرين، ونسبه ابن رجب إلى جمهور العلماء وهو الأولى بالصواب إن شاء الله.

القول الثاني: أنها تسع ذي الحجة، أي: لا يدخل فيها يوم النحر وهو مروي عن أبي موسى الأشعري، وهذا القول قريب من الأول.

القول الثالث: أنها أيام التشريق الثلاثة، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، والضحاك، وعطاء الخرساني وإبراهيم النخعي.

القول الرابع: أنها يوم النحر ويومان بعده، وهو مروي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر"، وهذا القول مروي عن سعيد بن جبير، وهو مذهب مالك.

القول الخامس: أنها أربعة أيام، يوم النحر وأيام التشريق، وهذا القول مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وعزاه ابن كثير إلى ابن عمر -رضي الله عنهما-، وابراهيم النخعي، وإلى الإمام أحمد في رواية عنه، ورجحه الطحاوي، ومن المعاصرين الشنقيطي صاحب الأضواء.

القول السادس: أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة.

القول السابع: أنها خمسة أيام أولها يوم عرفة، روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وزيد بن أسلم.

القول الثامن: أنها يوم السابع من ذي الحجة، ويوم التروية، ويوم عرفة، روي عن ابن عباس.

وفي سبب تسميتها بالأيام المعلومات قال الثعلبي: إنما قيل لها معلومات للحرص على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها، وبنحوه قال ابن الجوزي في التفسير.

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما العمل في أيام أفضل منها في هذه))، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء))[٧].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد))[٨].

وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[٩].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن صيام يوم عرفة، فقال: ((أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية))[١٠].

ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله.

يوم الحج الأكبر الأرجح أنه يوم النحر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم؛ لأمرين:

الأمر الأول: لأن ذلك ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: لأن عامة أعمال الحج هي في يوم النحر، ففيه الحلق، والرمي، والطواف، والسعي، فهو الحج الأكبر، ومن أهل العلم من يقول: إن الحج الأكبر هو يوم عرفة، ولهم أدلة على ذلك.

يوم الحج الأكبر، وذلك على الصحيح من أقوال أهل العلم، وقد اختلف العلماء في المراد بيوم الحج الأكبر المذكور في قوله تعالى: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} الآية، وذلك على أربعة أقوال:

القول الأول: أن المراد به يوم عرفة، وهو قول عمر وعثمان وابن عباس وعبد الله بن الزبير، وعنترة بن عبدالرحمن الشيباني، وعطاء ومجاهد وطاوس وسعيد بن المسيب، وهو مذهب أبي حنيفة، وروي عن الشافعية، واستدلوا بأدلة منها:

أولاً: حديث محمد بن قيس بن مخرمة: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطب بعرفة فقال: ((أما بعد: فإن هذا يوم الحج الأكبر))[١١]، الحديث.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، برقم (٩٢٦).

٨ - رواه أحمد في المسند برقم (٥٤٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف يزيد بن أبي زياد وهو الهاشمي مولاهم الكوفي، وباقي رجال إسناده ثقات رجال الشيخين.

٩ - صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، (٣٢٩/١).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، برقم (١١٦٢).

١١ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٦٥٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "لا ترجعوا بعدي كفارا"، برقم (٦٦).

قال المحقق معلقاً: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير في تفسيره، وابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في السنن من طرق عن ابن جريج عن محمد بن قيس مرسلاً، قال الحافظ في التقريب: يقال: له رؤية وقد وثقه أبو داود وغيره انتهى.

ولفظ ابن حجر يدل على تضعيف قول من قال: إنه من الصحابة.

وقال في الإصابة: ذكره ابن أبي داود والباوردي في الصحابة وجزم البغوي وابن منده وغيرهما بأن حديثه مرسل. ا هـ.

قلت: جعل العلائي في جامع التحصيل والعراقي في تحفة التحصيل روايته من قبيل المرسل، بل أرسل عن عمر وأبي هريرة كحديث محمد بن قيس مرجوح عند معارضته بما هو أصح منه.

ثانياً: حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي بلفظ: ((الحج يوم عرفة))[١٢] أي: أنه من لم يقف بعرفة فلا حج له، فيصح أن يكون هو الحج الأكبر.

ثالثاً: ومما استدلوا به حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قسم يومئذ في أصحابه غنماً، فأصاب سعد بن أبي وقاص تيساً فذبحه عن نفسه، فلما وقف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعرفة أمر ربيعة بن أمية بن خلف فقام تحت يدي ناقته -وكان رجلاً صيتاً- فقال: ((اصرخ: أيها الناس أتدرون أي شهر هذا؟))، فصرخ، فقال الناس: الشهر الحرام، فقال: ((اصرخ: أتدرون أي بلد هذا؟))، فصرخ، فقال الناس: البلد الحرام، فقال: ((اصرخ: أتدرون أي يوم هذا؟))، قالوا: الحج الأكبر"[١٣] الحديث. هذا الحديث أحسن ما يستدلون به، لكنه معارض أولاً بما هو أصح منه، ثم إن الناس هم الذين قالوا: إن يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر، فإن قيل: قد أقرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، أجيب: بأنه بيَّن أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وسيأتي ذكر مواضع تصريحه -صلى الله عليه وسلم- بذلك قريباً -إن شاء الله-، فيُقدَّم ما صرح به على ما يفهم أنه أقره.

القول الثاني: أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر، وهو قول علي بن أبي طالب، وعبد الله بن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري، وابن عمر، وروي عن ابن عباس أيضاً، ومن التابعين عبد الله بن شداد بن الهاد، وقيس بن عباد، وسعيد بن المسيب، وأبي جحيفة، وسعيد بن جبير، ونافع بن جبير بن مطعم، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ومحمد الباقر، والزهري، وهو مروي عن مجاهد أيضاً، وهو قول مالك والصحيح من قول الشافعي، وبه قال أصحابه، وبعض أصحاب أبي حنيفة، ورجح هذا القول ابن جرير في تفسيره، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والشوكاني، واستدل هذا الفريق بأدلة كثيرة منها:

---

١٢ - رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، برقم (١٩٤٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٧٧٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير بكير بن عطاء: وهو الليثي الكوفي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٠٣).

١٣ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١١٣٩٩).

أولاً: حديث رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ناقة حمراء مخضرمة فقال: هذا يوم الحج الأكبر"[١٤].

ثانياً: حديث ابن عمر: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج، فقال: ((أي يوم هذا؟))، فقالوا: يوم النحر، قال: ((هذا يوم الحج الأكبر))[١٥].

وفي الباب عن عمرو بن الأحوص، وأبي بكرة، وعبد الله بن الزبير.

ثالثاً: حديث أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: "لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر"[١٦]، وإنما قيل: الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- مشركٌ.

قالوا: يوم النحر فيه الحج كله؛ لأن الوقوف يصح في ليلته، وفي يومه الرمي والنحر والحلق والطواف، وقد وقعت المناظرة بين محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن شيبة في يوم الحج الأكبر، فقال محمد: هو يوم النحر، وقال عبد الله: هو يوم عرفة، فأرسلا إلى سعيد بن جبير فقال: هو يوم النحر، ألا ترى أن من فاته يوم عرفة لم يفته الحج، فإذا فاته يوم النحر فقد فاته الحج.

والصواب -والله أعلم- أن المراد بيوم الحج الأكبر هو يوم النحر؛ لتضافر الأدلة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين في تعيينه بيوم النحر.

المقصود بقوله: "**فاته يوم عرفة**" أن اليوم ينتهي بغروب الشمس، لكن ليلة عرفة من أدركها أدرك الحج، فهي ليلة النحر، ومن أهل العلم من يقول: كل ليلة هي تابعة لليوم الذي بعدها؛ لأن الليلة سابقة لليوم إلا يوم عرفة، وليلة النحر فهي تابعة لليوم الذي قبلها.

قال: ولأنه يقع معظم أعمال الحج في يومه وليلته.

قال ابن تيمية: يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأنه يجتمع فيه عيد المكان والزمان.

واختلفوا في سبب التسمية بيوم الحج الأكبر على أقوال:

القول الأول: لأن الحجة التي حج فيها أبو بكر -رضي الله عنه- بالناس اجتمع فيها حج المسلمين والمشركين واليهود والنصارى، وهو قول سمرة بن جندب، وعبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي، وهذا القول ضعفه ابن عطية.

---

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٤٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه المبهم، وجهالة الصحابي لا تضر، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٤٠٩٩).

١٥ - ذكره البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، بعد حديث رقم (١٦٥٥)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب يوم الحج الأكبر، برقم (١٩٤٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٠٠).

١٦ - رواه البخاري، أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يستر العورة، برقم (٣٦٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيتَ مشركٌ ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

القول الثاني: لأن أبا بكر لما حج بالناس نبذ فيه العهود، وهو قول الحسن البصري.

القول الثالث: لأن أهل الجاهلية كانوا يفترقون في يوم عرفة، فالحُمْس كانوا يقفون في مزدلفة ويقف بقية الناس في عرفة.

الحُمْس قريش، أو قريش ومن ولدت.

ثم كانوا يجتمعون في يوم النحر بمنى، ولهذا سمي بيوم الحج الأكبر، وهذا القول قال به المنذر بن سعيد البلوطي.

القول الرابع: سمي بذلك؛ لأن أبا بكر -رضي الله عنه- أصاب الحج في السنة التي بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، ودليله ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان العرب يجعلون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ست وعشرين سنة مرة، وهو النسيء الذي ذكره الله -عز وجل- في كتابه، فلما كان عامُ حجِّ أبي بكر بالناس وافق في ذلك العام الحج، فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[١٧].

القول الخامس: سمي بذلك في مقابل الحج الأصغر، واختلفوا في المراد بهما على أقوال:

القول الأول: أن الحج الأكبر القران والأصغر الإفراد، وهو قول مجاهد وضعفه الجصاص؛ لأن معنى ذلك أن القران له يوم يختلف عن يوم الإفراد، ومعلوم أن يومهما واحد.

الثاني: الحج الأكبر الحج، والأصغر العمرة، وهو قول عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وعطاء، والشعبي، وعبد الله بن شداد، وذكر الزهري أن أهل الجاهلية كانوا يسمون العمرة الحج الأصغر، ورجح هذا ابن جرير وابن الجوزي وابن تيمية، وعزاه الحافظ في الفتح إلى الجمهور، واستدل أصحاب هذا القول بما جاء في كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعمرو بن حزم الطويل، وفيه: ((وإن العمرة الحج الأصغر))[١٨].

لفظ "الأكبر" من نظر إلى أنه صفة ليوم {يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ} قال بأن هناك أياماً أخرى لا توصف بهذا الوصف، ومن نظر إلى أنه وصف للحج -الحج الأكبر- قال: يقابل الحج الأصغر الذي هو العمرة، ويبقى النظر في الأكبر هذه هل المقصود بها التفضيل، أو المقصود مطلق الاتصاف يعني يوم الحج الكبير؟ ولا شك أن يوم النحر لا يقاس بغيره من أيام الحج، فيوم عرفة فيه الوقوف، أما الأيام التي قبله اليوم الثامن ففيه التوجه إلى منى فقط، وليس ذلك على سبيل الوجوب، وهكذا، ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر لأن فيه أعمال الحج جميعاً تقريباً، وذلك في الوقوف بعرفة في ليلته، وما بعده من رمي وحلق وطواف، فهذا يوم الحج

---

١٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة [التوبة]، برقم (٤٣٨٥)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩).

١٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٧٠٤٧)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٤٤٧)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٥٥٩)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٣٣٣).

الأكبر، يوم الحج الكبير، إذا قلنا: إن الأكبر هنا ليس أفعل تفضيل، يوم الحج الكبير؛ لأنه يوجد فيه عامة أعمال الحج، وإذا جعلنا هذا أفعل تفضيل فلا شك أن هذا اليوم بإزاء الأيام الأخرى يعتبر هو الأكبر، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١١)

قوله تعالى"ثم ليقضوا تفثهم" الآية٢٩

للشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

وقوله: {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [سورة الأنعام: (١٤٣)].

وقوله: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} كما ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا}: هي كقوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [سورة المائدة: (٢)]، **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ}** [سورة الجمعة: (١٠)].

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقوله: {الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}، قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده.

وقوله: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظي.

وقوله: {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البُدن.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** [سورة الحج: (٢٧)] عرفنا أن الأيام المعلومات على قول الجمهور أنها العشر من ذي الحجة، وقوله: **{عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** أي: على نحر وذبح **{مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** ويمكن أن يكون المعنى أوسع من هذا: ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، بإطلاق، فيذكرون اسمه -تبارك وتعالى- شكراً عند رؤيتها وعند ذبحها أيضاً باعتبار أن هذا الذكر لا يختص بالذبح، وهذا الجواب أجاب به من قال بأن الأيام المعلومات هي الأيام العشر، أجابوا به على اعتراض من قال: إن الذكر هنا على الذبح، والذبح لا يكون إلا في يوم النحر في الأيام التي بعده، فقالوا: لا يلزم أن يكون على الذبح، وإنما يكون عند رؤيتها يشكرون الله -عز وجل- على تسخيرها والإنعام بها.

و**{بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** الإضافة هنا مثل مسجد الجامع، صلاة الأولى وما أشبه ذلك، فهو من باب إضافة الشيء إلى صفته، وهذا يدل على أن الهَدي لا يكون إلا من بهيمة الأنعام، وهي التي ذكرها الله -عز وجل-

في سورة الأنعام: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الأنعام: (١٤٣)] وذكر المعز، والضأن، والبقر، والإبل.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [سورة الحج: (٢٧)]، هل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟، الجمهور ذهبوا إلى أن الأمر هنا للاستحباب، وأنه لا يجب على الإنسان أن يأكل من هديه أو من أضحيته، وإنما هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)] ويشبه من وجهٍ قولَه -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [سورة الجمعة: (١٠)] ومبني على هذا اختلاف أهل العلم في حكم هذا الانتشار، فابن حزم يرى أنه واجب، واختلفوا في الانتشار لأي شيء يكون؟ بعض السلف قال: يذهب لعيادة المريض، وصلة الرحم وما يكون قربة لله -عز وجل- الشاهد أن مبنى هذه المسألة هو: الأمر بعد الحظر على أي شيء يحمل؟ والأقرب من أقوال أهل العلم فيه -والله أعلم- أنه يرجع إلى حاله قبل الحظر، فإن كان هذا الشيء مباحاً فيرجع إلى الإباحة وإن كان مستحباً يرجع إلى الاستحباب، وهكذا، فالانتشار على قول الجمهور في صلاة الجمعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا} حرم الله عليهم البيع والشراء عند النداء للجمعة، المقصود به النداء الثاني: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [سورة الجمعة: (٩)] حرم عليهم ذلك جميعاً، ثم بعد ذلك قال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا} فحكم البيع قبل النداء مباح، ثم حرم عليهم بعد النداء فلما قال لهم: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} يرجع إلى ما قبل الحظر، فيكون الانتشار مباحاً، فلو أراد الإنسان أن يجلس في المسجد إلى العصر فليس عليه من بأس، وهذا واضح في هذه الآية: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} لكن هنا في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} هل يقال: إن الأمر يرجع إلى ما قبل الحظر؟، وهل كان هناك حظر أصلاً؟.

لو قال قائل: إن الحظر موجود باعتبار أنها تعينت لله -عز وجل- بأن صارت هدياً أو أضحية، وليس له أن ينحر هذا الهدي قبل أن يبلغ محله، وليس له أن يذبح أضحيته قبل يوم العيد، وليس له أن ينتفع بها من غير حاجة، على قول الجمهور، فلما بلغت محلها قال الله –عز وجل-: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا} فيكون الأمر للإباحة بهذا الاعتبار والنظر، ومن نظر إلى أن الأمر للوجوب قال بأنه واجب، وهذه طريقة الظاهرية، ومن المفسرين من اختار هذا من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وأن هذا يجب على الإنسان أن يأكل من أضحيته، واحتج أيضاً بالحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها، وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد قدم مائة من الإبل[1]، وضحى عن نسائه[2]، -والمقصود بـــ"ضحى": الهدي -على قول عامة أهل العلم- بالبقر فلا يستطيع أن يأكل من مائة بدنة، فماذا فعل؟ وضع من كل واحدة بضعة، قطعة وضعت في القدر وطبخت، فشرب من مرقها فيكون هذا المرق متحللاً من المجموع، وهذا امتثال لقوله -تبارك وتعالى-: {فَكُلُوا مِنْهَا} وعامة أهل العلم يرون أن هذا ليس على الوجوب، وأنه كقوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)].

---

[1] - رواه مسلم برقم: (٣٠٠٩) كتاب الحج – باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم.

[2] - رواه البخاري برقم: (١٦٢٣) كتاب الحج - باب ذبح الرجل البقر عن نسائه من غير أمرهن.

لكن قوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)] هذا مثل: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا}؛ لأنه كان الصيد مباحا، ثم صار محرما لما تلبسوا بالإحرام ثم بعد ذلك قال: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} فيرجع إلى حكمه الأول، لكن هنا هل هذا أمر بعد الحظر {فكلوا منها}؟ الحظر غير ظاهر، ولم يسبق بحظر، بمعنى لو أن الإنسان -كما هو حال عامة الناس اليوم- جاء في يوم العيد إلى السوق في منى أو إلى المكان التي تذبح فيه هذه، ويباع فيه الهدي، فجاء مباشرة واشتراها، لم يكن هناك حظر قبلُ -في يوم العيد- فبمجرد ما ملكها فذلك وقت للذبح، وإلى عهد قريب في منى كان الناس يذبحون الهدي في المكان الذي يشترونه منه، فتأتي الحظيرةَ في يوم العيد تجدها مليئة بالأغنام، فإذا أتيت قبل الظهر وجدتها مليئة بالأغنام لكنها مذبوحة في أماكنها، تذبح وتترك، ثم تأتي الجرافات وتأخذها إلى المحرقة في منى، وبعضهم يأتي منها بقطعة، فإذا أتعبه المشي ألقاها، فتجد فجاج منى مليئة باللحوم، هذه يد، وهذه رجل، وهذه كبد، وهذا رأس، فالشاهد أن في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} الأمر ليس دائماً للوجوب، وهنا لا يظهر أنه أمر بعد حظر، لكن هل الأمر دائما للوجوب؟ الجواب لا، هذة قاعدة، والقواعد أغلبية، فيحسن للإنسان ويستحب له ويجمل به أن يأكل، لكنه قد لا يتيسر له هذا، وإلا سيلحق الناس مشقة عظيمة، فالناس القادمون مع الحملات، بعض الحملات تأخذ منهم الأموال ويذبحون، ويأتون بها إليهم، وصاحب الحملة أظن أن لسان حاله يقول: "اللهم سلم، اللهم سلم" لأنهم قد يطالبون بالعوض، فيقولون: أنت تعطينا الوجبات من الهدي، فلا بد أن تقلل من قيمة الاشتراك في الحملة، فهذا لا يبعد، ويكون هؤلاء كأنهم دفعوا الهدي، كأنهم ما دفعوا ثمنه، الشاهد أن الكثيرين لو طلب منهم أن يأكلوا من هديهم لصعب عليهم، حتى الذي يقدم لهم في الحملة، هل هو من هديهم أو لا؟! وعامة الحجيج لا يستطيعون هذا أصلاً، وحينما تطالبهم بأن يأخذوا منها قطعة ويطبخوها لا يجدون أين يطبخونها.

قديماً كان الناس إلى ما قبل حوالي ١٥سنة أو ٢٠ سنة كل إنسان ينصب خيمته حيث أراد، وتجد كل واحد يوقد طعاماً، فينتظرون متى يأتي يوم العيد، ويفرحون بالهدي، فتجد الخيام منشورةً عليها اللحوم مجففة مشرحة مملحة ظاهرة في منى، فلا تكاد تجد خيمة إلا وعليها اللحوم مشرحة، فكان الناس يأكلون، والأمور متيسرة، لكن الآن لا يجد أين يطبخ، ففيه مشقة عظيمة على الناس، ثم إن هذا يؤدي إلى تلف هذه اللحوم، فكل واحد معه هدي، كيف سيصنع به وإلى أين يذهب بها؟ سترمى كما هي الحال في السابق، ترمى وتحرق ويتلوث الهواء في منى، ولا تجد أحداً يرجع من منى إلا وهو مريض، إلا من شاء الله، وهذا شيء كان معروفا، فالآن وجدت هذه الشركات التي تأخذ هذه اللحوم، تذبح في مكة وترسل إلى الفقراء، على خلاف بين أهل العلم، هل يجوز إخراج ذلك من أرض الحرم أو لا؟ هل يوزع على منطقة خارج حدود الحرم أو لا؟ نعم، الذبح يجب أن يكون في الحرم، فصاروا يأخذونها ويعطونها الفقراء في بلاد كثيرة، فهذا أرفق بل إذا ذهبت بعد الحج في يوم ١٥،١٦،١٧،١٨، إلى بعض البلاد مثلاً أفريقيا قد لا تستطيع أن تركب في الدرجة السياحية، بسبب أن الفقراء يحملون معهم اللحوم، وتراهم يأتون إلى المسالخ فما يستحسنونه من الذبائح مباشرة قبل ما تذبحها يحجزونها، أما إذا كان بعيراً فيتقاتلون عليه قبل أن يموت، وكل واحد معه

سكين فيقطع قبل ما يموت، فمجرد ما ينحر يهجمون عليه، فالشاهد أن هؤلاء يأخذونها، وصاحبها لا يستطيع أن يأخذ منها شيئاً في كثير من الأحيان، فالقول بالوجوب فيه عسر ومشقة كبيرة على الناس وفيه تفويت مصالح؛ لأن هذه الشركة التي تأخذ وترسل إذا قال صاحبها: لا، أنا أريد أن تعطوني منها، ما أعطوه، وقالوا: إما أن تأخذها وإما أن تتركها لنا، أما إذا كان الهدي من النوع الرخيص، أو من الأنواع التي تسمى: "بربري"، فلا أحد ينظر إليه ولا يسابق عليه، وهو ربما أكثر الهدي، فتجده يذبح، ويجلس في مكانه لا يستفاد منه، فمن أراد أن ينتفع به فعلاً فليشترِ من النوع الجيد الغالي، ليأتيه الفقراء فيحجزوا قبل ما يذبحها، ويجتمعوا عليه، فهذا الذي كان يحصل.

فالقول بوجوب الأكل منها فيه عسر ومشقة على الناس، والأقرب -والله أعلم- أنه الاستحباب، وهكذا الإطعام لا يجب أن يطعم الإنسان، بل له أن يأكلها جميعاً، والله أعلم.

وقوله: {الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} البائس: بعض أهل العلم يفسره بمن أضر به الفقر، أو أنه بحال ليس مجرد الفقر وقع به، وإنما به زمانة بحيث لا يستطيع الاكتساب ولا التصرف في مصالحة وأحواله وشئونه، والبائس: من البؤس، فشدة الفقر تصيّر إلى البؤس، الحالة البائسة، حال هؤلاء في بؤس، يعني شدة الفقر، أضر بهم الجوع والفقر والزمانة مثلاً ومن أجلى صور هذا ما نشاهده بين حين وآخر في أفريقيا مثلاً والصور التي تعرض في المجاعات، فهؤلاء في بؤس، أما الفقير فهو الذي لا يجد كفايته من حاجاته الضرورية من المأكل والملبس والمشرب، وهنا يدخل فيه المسكين؛ لأن الفقير ذكر وحده، وكما هو معلوم إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فالمسكين والفقير هنا بمعنى واحد، لكن البائس أشد، فالفقير لا يصل به الحد إلى البؤس، ويجد شيئاً، يجد بلغة، لكن لا يجد الكفاية، أما البائس فوصل به الأمر إلى حد الضرر، لهذا كما ذكر بعض الأطباء كـــ"الدكتور شاهر في ندوة الطب والصيام" ذكر المراحل التي يمر بها الإنسان في حال الجوع، وذكر أن الصوم هذا الذي نصومه نحن لا يضر بل ينفع، وأن الإنسان إذا جاع وعطش بدأ الجسم بالتعويض بالدهون، وتوجد مرحلة ثانية، وثالثة، ورابعة، وتوجد مصانع في الكبد تعوض، وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى مراحل متقدمة من الجوع بحيث تبدأ الأنسجة والعظام ونحو ذلك في الجسم تتضرر، فيحصل للإنسان مثل هذا الهزال الشديد في لحمه، وعظمه وفي بدنه عموماً.

والبائس: "**قال عكرمة: المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف**"، هنا قال عنه: إنه الفقير المتعفف، وليس ذلك بالضرورة، وقد لا يكون متعففاً لكنه لا يجد من يعطيه، فالذين حوله قد يكونون من هذا القبيل، لكن لماذا قال: البائس: المتعفف؟، بمعنى أنه يحتاج، ثم يحتاج، ثم يحتاج، ولكنه لا يطلب فيصل به ذلك إلى حد الضرر، هنا قال متعفف، وإلا فليس من لازم البائس التعفف، فقد يسأل ثم يسأل لكنه لا يجد، ويقال: عنه بائس، "**قال مجاهد هو الذي لا يبسط يده**"، وهذا كأنه تفسير الشيء بسببه، لماذا صار إلى حال البؤس؟ لأنه لا يطلب فيصبر على الجوع حتى يحصل له الضرر.

قال: ثم ليقضوا تفثهم، "**قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس، ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك**"، هذه الأشياء التي ذكرها هي قضاء التفث، والتفث: فسره بعض أهل اللغة:

بالأذى، والقذر، والوسخ.

وفسر القضاء بالتأدية؛ لأن كلمة القضاء تأتي بمعانٍ متعددة كالفراغ من الشيء {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة: (٢٠٠)]: أديتم مناسككم، تأدية الشيء أو الفراغ من الشيء، ومثله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}، فقال بعضهم: إن المقصود بـــ {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ} أي: ليؤدوا إزالة ذلك من أجسادهم، ونحن قد لا نتصور هذا، مع أنه نقل عليه الواحدي الإجماع على أن المقصود إزالة الأذى والوسخ، ويدخل في ذلك قص الأظفار والشعر، نحن قد لا نتصور هذا، لكن في السابق كيف كانت حالهم؟ لنتخيل أن إنسانا جاء محرماً من المدينة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- خرج في الخامس والعشرين من ذي القعدة، فكم المدة، وكيف بمن جاء من أبعد من ذلك من كل فج عميق يمشي شهراً وأكثر، ومن حال الإحرام ليس له أن يقص الشعر ولا الأظفار ولا يأخذ من بشرته شيئا، وهذه المدة من الخامس والعشرين إلى يوم النحر خمسة عشر يوما، ونحن الآن في ثيابنا النظيفة، لو ركب أحدنا على البعير الآن إلى نهاية الشارع ربما ذهب ليغتسل، أو على الأقل ينظر إلى ثيابه ما الذي أصابه، فكيف بإنسان على بعير خمسة عشر يوماً في الصحراء في الشمس في الرياح، وشعورهم طويلة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معروف لبَّد شعره وضع عليه صمغة من أجل أن لا يكون الشعر متناثراً، ولا يجتمع في داخله الغبار والتراب فيضع عليه مثل الصمغة بحيث تكون مثل هذه الأشياء في الخارج، هكذا كانت الحياة قديماً، كعب بن عجرة رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- والقمل يتناثر على وجهه، قال: ((ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا!، أما تجد شاة؟)). قال: لا، قال: ((صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك))[٣] فالشاهد أننا لا نتصور ذلك الوضع كثيرا، فالإنسان منا يحرم أحياناً يوم عرفة أو في يوم ثمانية في الظهر، أو العصر، وهو في غاية النظافة وفي حملة، وعنده الصوابين، وعنده الماء، ويغتسل في كل وقت، ومع ذلك ينتظر متى يرجع من يوم النحر لينزع الإحرام، ويغتسل ويشعر أنه دخل على الحياة من جديد، ولا يسأل أين يلقي إحرامه بعد ذلك، حتى إن بعضهم لا يريد أن ينظر إليه، وقد كان من يوم أو نصف يوم ومع ذلك يشعر أنه في حالة يحتاج إلى الاغتسال والنظافة، ليرجع وهو مستريح، وهذا معنى {لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}.

وبعضهم يقول: هو إزالة الوسخ، والإجماع على هذا فيه نظر، وغير صحيح؛ فليس محل اتفاق أن يفسر قضاء التفث بإزالة الوسخ فقط، وإنما الأحسن -والله أعلم- بالنظر إلى السياق: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج: (٢٩)] ما قاله كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: أي ما بقي عليهم من مناسك الحج من حلق وأخذ شارب، ورمي الجمار، وطواف بالبيت وكل هذه الأشياء، فالحاج يذبح هديه أو ينحر بعد أن يرمي جمرة العقبة، ثم بعد ذلك يحلق وعندئذٍ له أن يقص من أظفاره ويأخذ من شاربه، ويلبس الثياب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر.

---

[٣] - رواه البخاري برقم: (٤٢٤٥) كتاب التفسير – سورة البقرة.

{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} يدخل فيه النذر بالنحر، ويدخل فيه سائر النذور، بعضهم يقول: إذا كتب الله لي المجيء إلى بيته الحرام له عليَّ أن أعتكف ليلة، وآخر يقول: أن أطوف فيه مائة مرة، وهكذا، لأنهم يتمنون رؤية البيت، فيكون عليهم من النذور هذه أو غيرها كالصدقة أو الإطعام أو الذبح من غير الهدي أو نحو ذلك...

فالله -عز وجل- أطلق هذا {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}.

اقرءوا ما نشر في رسالتي "إلى قاصدي البيت الحرام" رحلةَ الشيخ عثمان دابو من أفريقيا من مالي، وجاءوا إلى مكة ومكثوا سنتين، وكانوا خمسة، مات اثنان أو ثلاثة، أحدهم مات في البحر، وهو نهشته حية، وكلما مروا بقرية اشتغلوا فيها ليجمعوا المال ثم ينتقلون، وجاء حجٌّ آخر، ثم حج في سنتين، وكتب وصية أوصى فيها أصحابه، وقال لهم: إذا مت فقربوني أكثر عند الحرم، فلما رأوا الكعبة فلا تسأل عن حاله، فمثل هؤلاء تحصل منهم نذور، وانظروا إلى أحوال الناس الذين يأتون من الهند ومن غيرها، واسألوهم، منهم من يجمع المال عشرين سنة وثلاثين سنة من أجل أن يأتي، ولهذا هؤلاء المساكين يعتمرون بعد الحج أكثر الوقت، حتى إن بعضهم يقول: اليوم هذه عاشر عمرة اعتمرتها، وتراهم ذاهبين راجعين من وإلى مسجد عائشة في التنعيم، ونحن نقول عنهم: هؤلاء الجهلة الهمج الذين ضيقوا على الناس!، هذا أجداده يتمنون أنهم يرون الكعبة، وهذا الوحيد من جماعته، ومن قرابته، ومن أسرته الذي حصل له هذا الشرف، وله جد وجدة وعم وخالة ووصايا: هذا يقول: طُفْ لي، وهذا يقول: اعتمر لي، وهذا يقول كذا، وهذه تقول: جدتك ماتت وهي تتمنى أن ترى الحرم، اعتمر لها، وما اعتمرت ولا حجت، فيأتي ويبقى لأجل ذلك مدة، يذهب ويجيء عمرة بعد عمرة، ونحن نتأذى من الزحام خاصة في طواف الإفاضة أو طواف الوداع، وهؤلاء ما عندهم مشكلة في الزحام، ولو مشوا فوق الناس، فهم فقط يريدون أن يروا الكعبة، وكل شيء يهون لأجل ذلك، ولذلك هم يتمنون الموت هناك، وهذا موجود، لهذا قيل: ليس الخليّ كالشجيّ، والله المستعان.

وقوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.

هذا في طواف الوداع، والأول في طواف الإفاضة، طواف الوداع واجب، ويسقط عن الحائض، وطواف الإفاضة ركن، ولا يسقط عن أحد، لكن هنا في هذا السياق قال: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} بعدما قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} كل هذه أوامر جاءت مقترنة، بعضها يقال:إنه واجب وبعضها يقال: إنه ليس بواجب، وهذا له أمثلة ليست قليلة، ولهذا يقولون: ثبوت الاقتران ليس بحجة، على تفصيل في مسائل تتعلق به.

وقوله: {بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: من وراء الحِجْر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من وراء

الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمَّما على قواعد إبراهيم العتيقة.

قال قتادة: عن الحسن البصري في قوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} قال: لأنه أول بيت وضع للناس.

لكن هذا الذي ذكره {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} إذا قلت إن الباء هنا للمجاورة، أو غير ذلك، على كل حال الطواف يكون بالبيت، ولهذا يكون من وراء الحِجْر لأن الحجر أو بعض الحجر من البيت، وإذا دخل فإنه يكون قد طاف في بعض الشوط داخل الكعبة؛ لأن بعض الحجر من الكعبة، وهذا يدل أيضاً على أن الإنسان لا يخرج من الحرم ويطوف، فلو أراد إنسان أن يستريح من الزحام، فقال: أنا سأطوف من الخارج وأدور على الحرم، فهذا ليس من قبيل طواف البيت إلا إذا امتلأ الحرم واضطر الناس إلى الخروج، وأنت بهذا لم تطف بالبيت، ولذلك إذا قلنا بأن المسعى ليس من المسجد فالنزول في بعض النواحي على المسعى يكون في هذا القدر سعيٌ من خارج، فهذا لا بأس أن يفعله الإنسان إذا اضطر إلى ذلك كأن يكون ازدحم المكان فزاد الناس وما وسعهم الممر الضيق، في الدور الثاني أو في السطح، فيخرجون إلى المسعى ثم يرجعون.

أما البيت العتيق فسبب تسميته بهذا قيل: لأنه أول بيت وضع للناس، وهذا من أحسن ما يفسر به؛ لأن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران: (٩٦)] وبهذا الاعتبار يكون العتيق بمعنى القديم، والقدم أحياناً يكون مدحاً ويضفي على هذا الشيء قيمة وقدراً، وأحياناً يكون ذلك نقصاً، فالإنسان حينما يكون ثوبه عتيقا قديماً أو سيارته أو نحو هذا هل هذا يضفي عليه جودةً، ويكون هذا أفضل وأحسن وأعظم وأكمل؟ الجواب: لا، وكذا البيت حين يكون قديماً، فهذا يكون نقصا، لكن متى يكون ذلك أجود؟ في بعض الأشياء العتيقة التي كلما تقادم بها الزمن، زادت قيمتها، مثلا: دهن العود كلما مرت عليه مدة أطول، صار أفضل برائحته، فهذا أجود، كذلك مثلا الرز العتيق فهو أفضل، وهكذا بعض الأشياء القدمُ يضفي عليها جودةً ويزيدها فضلاً، وبعضهم يقول: العتيق: المعتق من الجبابرة، فأبرهة قصمه الله -عز وجل-، وبعضهم يقول غير ذلك، ولا مانع من اجتماع هذه المعاني، وإذا أردنا الترجيح فنفسر الآية بقوله: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} فالآية أو اللفظة في القرآن قد تحتمل معانيَ يوجد في القرآن ما يشهد لأحدها، فيكون هذا سبب الترجيح.

وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} قال: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

بعضهم يقول: لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من النار، فــ ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٤]، ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه))[٥] وهكذا، ومثل هذا قول من قال بأن العتيق بمعنى الكريم، فالقدم يضفي عليه هذا الوصف، فيمكن أن يرجع إلى ما سبق، ولا يخالفه، والله أعلم.

---

[٤] - رواه البخاري برقم: (١٦٨٣) كتاب الحج - باب وجوب العمرة وفضلها ، ومسلم برقم: (٣٣٥٥) كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

[٥] - رواه البخاري برقم: (١٧٢٣) كتاب الحج – باب قول الله تعالى: فلا رفث. ومسلم برقم: (٣٣٥٧) كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، واللفظ للبخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله ونفعنا الله بعلومه وعلوم شيخنا في الدارين آمين-:

يقول الله تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

{وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ} [سورة الحج:٣٠] أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه، {فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ} [سورة الحج:٣٠]، "ذلك" الإشارة هنا للبعيد، وابن كثير -رحمه الله- يقول: **هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها** -يعني المكلف- **من الثواب الجزيل**، هذا المعنى الذي ذكر أن الإشارة ترجع إليه ليس بمستقيم، وهو أعم في المعنى، وما قاله كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-؛ حيث إنه أرجعها إلى ما قبلها؛ لأن الله -عز وجل- قال: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج:٢٩]، ذلك يعني قضاء التفث، فما أمرنا به من قضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ} [سورة الحج:٣٠]، والله -تبارك وتعالى- ذكر في هذه الآيات جملة من الأمور {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا} [سورة الحج:٢٦-٢٧] ثم قال: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [سورة الحج:٢٨-٢٩] ذلك يعني ما ذكر، كل ما ذكر فهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وابن جرير -رحمه الله- جعلها تعود إلى ما قبلها -الجزء الأخير- وهو قضاء التفث, والوفاء بالنذور, والطواف بالبيت العتيق {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}، ويقول هنا: {وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ} أي: من يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، واضح من كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه حمل الحرمات على الممنوعات، على مساخط الله -عز وجل-، وأن من يحترز منها ويخاف من مواقعتها ويكون لذلك رهبة في نفسه, ومعنى الحرمات في قوله: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ}: الحرمة هي كل ما وجب القيام به, وحرم التفريط فيه, ويدخل في ذلك أيضاً ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه فكل هذا يدخل في هذه الآية كما يقوله أصحاب المعاني كالزجاج, ولهذا عممها ابن القيم -رحمه الله- لتشمل ذلك جميعاً {وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ} تعظيم حرمات الله مثل الشرك بالله -تبارك وتعالى- فلا يواقع ذلك، ويحترز منه غاية الاحتراز, وهكذا الفواحش وألوان الجنايات والمظالم،

ويدخل فيها أيضاً تعظيم ما أمر الله -عز وجل- به من إقام الصلوات، وإيتاء الزكوات وغير ذلك من طاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فكما أن المكلف يجب عليه أن يقوم بما أمر به، ويجب عليه أن ينتهي عما نهى عنه، كذلك أيضاً هو بحاجة إلى أن يوجد في قلبه ما يكون من قبيل الرهبة، والتعظيم، والخوف من مقارفة المحرم أو ترك الواجب، كلها لها وقع في نفسه، ولذلك إذا فاتته الصلاة أو نحو ذلك يقع في نفسه من الوجل، والخوف، فإذا أذن المؤذن فإن ذلك يقع في نفسه موقعاً، هذه الصلاة لا يمكن أن يفرط فيها ولو أعطي الدنيا بما فيها، ولو قيل له اترك فرضاً واحداً ما تركه، وهكذا مواقعة الفواحش، والمنكرات يخاف من هذا مهما تزينت له الفتنة، وتزخرفت له هذه الأمور المنهي عنها فالحاصل أن ذلك يشمل هذا جميعاً، فإذا عظّم حرمات الله فهو حري أن يفعل ما أمر به، وأن يترك ما نهى عنه، وإنما تقع المقارفة للمنهي أو ترك المأمور قصداً من غير عذر لما يقع في القلب من الاستخفاف والتهاون.

وقوله: {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: {إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي: من تحريم {الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ} الآية [سورة المائدة:٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

تفسير قوله: {إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} بآية المائدة لا يخلو من إشكال، فسورة الحج من السور المختلف فيها فالبعض يقول هي مكية، والبعض يقول: هي مدنية وبعضهم يقول: هي مكية وفيها آيات مدنية، ومنهم من يقول: هي مدنية وفيها آيات مكية، واختار القرطبي أنها مختلطة فيها المكي، وفيها المدني، ومهما يكن فهي ليست من أواخر ما نزل، حتى لو قلنا إنها مدنية وفيها آيات مكية، فهي ليست من أواخر ما نزل وإنما آخر ما نزل في الأحكام، المائدة كما هو معروف، فقوله -تبارك وتعالى- هنا في هذه الآية {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} إذا قلنا بأنها مكية فلا تفسر بالآية النازلة في المدينة آية الحج هذه فإنها لا تفسر بأمر ما نزل، لكن يمكن أن يقال ذلك على سبيل التوسع، وقوله: {إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي مما نزل ومما سينزل بهذا الاعتبار، وهنا يرتفع الإشكال، لكن يمكن أن يقال: إن قوله: {إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} إذا أريد به ما نزل وتحقق نزوله فإن ذلك يدخل فيه آية الأنعام، وكذلك ما نزل في البقرة إذا قلنا بأن البقرة هي أول ما نزل في المدينة، وإذا كانت هذه الآية من سورة الحج نازلة في المدينة فالله -عز وجل- يقول: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [سورة المائدة:٣]، فهذه من المحرمات والله -عز وجل- يقول في الأنعام: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [سورة الأنعام:١٤٥]، فتفسر بما سبق نزوله، وإذا فسره بما نزل بعدها فاعتبار السابق على سبيل التوسع، أي أن المعنى أوسع من ذلك باعتبار ما نزل، وما سينزل، والأنعام هي الأصناف الثمانية، كما قال الله -عز وجل-: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٣]، ثم قال بعد ذلك: {وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٤].

وقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}: "من" هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٣]، ومنه شهادة الزور، وفي الصحيحين عن أبي بَكْرَة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟))، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين))، وكان متكئا فجلس، فقال: ((ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور))، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت"[1].

وروى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأزدي قال: صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: ((عدلت شهادة الزور الإشراك بالله -عز وجل))، ثم تلا هذه الآية: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}[2] [سورة الحج:٣٠-٣١].

هذه الرواية لا تخلو من ضعف؛ لجهالة في أحد الرواة، لكن في قوله -تبارك وتعالى-: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ} الرجس يأتي بمعانٍ متعددة فهو من قبيل المشترك يأتي بمعنى العذاب، ويأتي بمعنى القذر، ويأتي بمعنى النجاسة، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [سورة المائدة:٩٠] رجس فهذا بمعنى النجس وسواء كانت النجاسة معنوية أو كانت نجاسة حسية، والميتة رجس، وما ذبح لغير الله -عز وجل- رجس، وكذلك الرجس يأتي بمعنى العذاب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً قال عن الروثة: إنها ركس، ورجس، فالدنس والقذر كله يقال له: رجس، فهذه نجاسة وقذر معنوي، ومن في قوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} ليست تبعيضية؛ لأن كل الأوثان، وعبادة الأوثان من قبيل الرجس، وإنما هي لبيان الجنس كما تقول: ثوب من القماش، والأوثان معروفة، والأصنام، والعلماء لم يتفقوا في هذا على شيء لكن منهم من يقول: إن الوثن هو ما لم يكن على صورة، والصنم ما كان مصوراً، وقول الزور يدخل فيه شهادة الزور دخولاً أولياً؛ لأن ذلك هو المتبادر، ويدخل فيه أيضاً كل قول باطل، وأعظم ذلك الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، كما يدخل فيه القول على الله -عز وجل- بلا علم، الكذب على الله والافتراء، ويدخل فيه الكذب على الناس، ولهذا قال الله -عز وجل- على المظاهرين {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [سورة المجادلة:٢]، فحين يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي، هذه جملة خبرية فهي كاذبة، والكذب زور، وحين يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي هو ينشئ حكماً وهو المظاهرة، فهذا الحكم الذي أنشأه حكم منكر باعتبار المعنى، {وَزُورًا} باعتبار أن الجملة كاذبة، فهي ليست بمنزلة الأم؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، فهذا داخل فيه، وهكذا من حرم ما أحل الله كالذي حرم امرأته، أو حرم

---

١ - رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، برقم (٦٥٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧).

٢ - رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، برقم (٣٥٩٩)، والترمذي، كتاب الشهادات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شهادة الزور، برقم (٢٢٩٩)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، برقم (٢٣٧٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٨٩٨)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة والد سفيان العصفري -واسمه زياد- وحبيب بن النعمان الأسدي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٦٣٨٧).

بعض أنواع المطعومات كقوله: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ} [سورة الأنعام:١٣٨]، وهكذا قوله: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء} [سورة الأنعام:١٣٩] فكل هذا من الزور، وأصل ذلك مأخوذ من الازورار وهو الميل، فكل ميل عن الحق فهو داخل في هذا.

وقوله: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ} أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق؛ ولهذا قال: {غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}.

ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ} أي: سقط منها، {فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ}، أي: تقطعه الطيور في الهواء، {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: ((إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك))[٣]، ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة "إبراهيم".

وقد ضرب الله تعالى للمشرك مثلا آخر في سورة "الأنعام"، وهو قوله: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} [سورة الأنعام:٧١].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} من أهل العلم من يقول: هذا تمثيل لحال المشرك في بُعده عن الحق، كبعد ما خر من السماء فتذهب به الطير أو تهوي به الريح، وتقريب لحاله، والأقرب من هذا -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن ذلك من قبيل المثل الذي ضربه الله -عز وجل- لحال المشرك في بيان هلكته، فهذا الذي ذكره الله -جل جلاله- يبين حال هذا الإنسان المشرك بحال الإنسان الذي هوى من السماء، وقبل أن يقع على الأرض تخطفته الطير فمزقت جسده أبعاضاً وأشلاء فتفرق جسده، فلا تسأل عن هلكته وحاله، وهو تتنازعه الطير، وتنتشه وتمزق أوصاله، فكيف إذا وصل شيء منه إلى الأرض؟، {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} أي: في مكان بعيد غاية البعد، فهذا حال المشرك حيث إنه هالك هلاكاً محققاً لا مرية فيه، هذا تصوير لهلكته -والله تعالى أعلم- لا لبُعده عن الحق، وإنما لهلاكه، ولهذا قال هنا: {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} **أي بعيد مهلك لمن هوى فيه**، فهو هالك سواء حصل له هذا التخطف أو هوت به الريح في مكان بعيد سحيق لا ينجو مَن وقع فيه، فالمشرك هالك لا سبيل لنجاته، هو يقارف هذه المقارفة، ولا يمكن أن يحصّل مغفرةً أو رحمة من الله -جل جلاله- أو يدخل جنة، فهذا أعظم شيء يمكن أن يقع من الإنسان، وأعظم جرم يمكن أن يهوي بصاحبه في النار -والله أعلم-، وهذا المعنى الذي ذكرته آنفاً تكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- بكلام جيد يمكن أن يراجع في ما جمع من تفسيره عند هذه الآية.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

قوله: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج:٣٢-٣٣].

يقول تعالى: هذا {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ} أي: أوامره، {فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدن، كما قال الحكم عن مقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال أبو أمامة بن سهل: "كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون"[٤]. رواه البخاري.

بعضهم يقول: إن قوله: {ذَلِكَ} خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، وقوله: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ} يقول هنا: أي: **أوامره**، حملها على أعم ما يمكن أن يُذكر في ذلك، بحيث جعل كل الأوامر من شعائر الله، ومن أهل العلم من يقسم الدين إلى شعائر وأمانات، فيقولون: الشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، مثل الأذان، وصلاة الجماعة، والحج في كثير من أعماله هو من الأمور الظاهرة، وهكذا في أمور كثيرة، فالشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، ولهذا يقال للعلَم أو العلامة التي يعرف بها الناس، أو جماعة أو طائفة من الناس عن غيرهم يقال له: شعار، هذا شعار هؤلاء القوم أو هذه المؤسسة، يعني علامة ظاهرة تعرف بها، فأعلام الدين الظاهرة ما فيه لله -عز وجل- شعار داخل في هذه الأمانات، و الأمور الخفية مثل الطهارة، والصيام، والنيات وما أشبه ذلك كلها أمانات، ويدخل فيه دخولاً أولياً هذه الأمور المذكورة كقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ} [سورة الحج:٣٦]، فالبُدن هي الهدايا التي تساق إلى البيت، وقد تساق الغنم لكن لما كانت البدن هي أعظم ما يساق ذُكرت، فيجعلون عليها أغطية أو أكسية، ويأخذون من لحاء شجر الحرم، ويعلقونه فيها، ولربما علقوا فيها نعلاً، أو علقوا فيها شيئاً ويعلقون فيها قلادة من أجل أن يعرف أن هذه مهداة للبيت، والمشركون كان بعضهم يعظم هذه الأشياء، وفي قصة الحديبية وما جاء من عرضها –أي البُدن- أمام بعض من جاء ليفاوض المسلمين من المشركين، وكان من قوم يعظمون البدن، فلما رأى ذلك رجع إلى المشركين، وقال: رأيت قوماً لا يمكن صدهم عن البيت وذكر ما رأى من البدن، ويدخل فيه شعائر الله -عز وجل- كالتلبية، والحج، والتكبير، والأذان، وصلوات الجماعة، والمساجد ويدخل فيه أعياد المسلمين لأنها من الأمور الظاهرة، كل هذه الأشياء تعظيمها من تقوى القلوب، ويدل على تقوى في قلب الإنسان ويدخل فيه ما ذكر هنا من استسمانها واستحسانها كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- تعظيمها: استسمانها، واستحسانها، فهذا من قبيل التفسير بجزء المعنى أو بالمثال، فهو لا يقصد أن تعظيم شعائر الله -عز وجل- يكون بتسمينها واستحسانها فقط، فحينما يراها الإنسان لا يتعرض لها بسوء، ولا يصدر منه فعل يمكن أن يوقع الأذى أو الضرر بها ككسرها، أو قطع بعض منها، أو ينحرها قبل محلها، فإن كل هذا التعظيم هو من تعظيم شعائر الله -عز وجل-، وهو {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، من تقوى القلوب، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [سورة البقرة:١٥٨]، فتعظيم الصفا والمروة وسائر الأشياء التي تكون بهذه المثابة كله {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}، والذي يفرح بأعياد المسلمين ويحبها ويعظمها ويتهيأ لها ويستعد ويلبس أحسن ما يجد هذا {مِنْ تَقْوَى

---

٤ - ذكره البخاري موقوفا في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أقرنين ويذكر سمينين، (٥/٢١١٠)، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣.

الْقُلُوبِ} والذي يتضايق من أعياد المسلمين، يقول: هذه أعياد النوم ولا يرفع لذلك رأساً، وتجده لا يتهيأ للعيد لا بثوب حسن وينام في ذلك اليوم، لكن قد يعظم أعياد المشركين هذا يدخل في قوله: **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}**، ويدخل فيه الأضاحي واستسمانها، وكون الإنسان يبحث عن الرخيص، ويفرح لمّا يجد أضحية مثلاً بستمائة ريال، ويرى أن هذا مغنم ومكسب، وإن ظفر بأمر مثل هذا يسعد به ويسر فهذا ليس **{مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}**، والذي يبحث عن الدون أو الأنواع التي ليست مرتفعة الثمن، ويحاول أن يُخرج أضحية في بلدٍ الأضاحي فيها بمائتين وخمسين ريالاً مثلاً وهو يستطيع أن يشتري أضحية ويذبحها ويأكل منها في بلدة بما هو أكثر من هذا، لا على سبيل المباحات لكنه من باب تعظيم شعائر الله فيذهب إلى السوق، وهو منشرح الصدر، يرى أن هذا من الغبطة، ويتقرب به من الله، ولا يرى أنه من قبيل المغرم، وأن هذا مال ضائع، وإنما يبحث عن الجيدة التي تكون كثيرة اللحم ويشتريها وكلما كانت أكمل وأعظم كلما كانت أفضل، وهكذا في الحج لربما يبحث عن الشركة أو كذا ليعطيهم أربعمائة وخمسين ريالاً من أجل أن لا يشتري بسبعمائة أو أكثر، يرى أن هذه خسارة وتضييع للمال، لكن هذا غير صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أهدى مائة من الإبل، وهذه المعاني للأسف أكثرنا لا يستشعرها، وحينما تتعلق الأموال بشهواتنا هذه لا يسأل الإنسان عنها، والإنسان يضحي في السنة مرة واحدة ولو نظر إلى ما يقدمه من الموائد إذا أتاه ضيف، ولو نظر الإنسان لنفقاته إذا دخل إلى متجر أو كذا كم يشتري في كل مرة، وهو يدخل في الأسبوع ربما أقل شيء مرة واحدة، في كل مرة بكم يشتري؟ والأضحية مرة واحدة في السنة.

وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين"[5]، قيل: هما الخَصِيَّان، وقيل: اللذان رُضَّ خُصْياهما، ولم يقطعهما، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: "ضحى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أقرنين أملحين موجوءين"[6] و"الموجوءين" قيل: هما الخصيين.

العظيم غير السمين، فقد يكون سميناً وهو صغير، ولكن عظيم أي كبير في الخلق ضخم، و"سمينين أقرنين" والأقرن أكمل من الأجَمّ الذي ليس له قرون، والأملح من أهل العلم من قال: إن هذا اللون هو الأكمل في الألوان والأحسن فيها بالنسبة لهذه البهيمة، وبعضهم يقول: هذا له تعلق أيضاً بطيب لحمه، وأن هذا له أثر فيه، وبعضهم يقول: إن لم يكن له تعلق بطيب لحمه، يعني إن لم يثبت فإن ذلك يمكن أن يقال: إنه وقع اتفاقاً يعني لا يطلب أن يكون من هذا القبيل لكن من فعل ذلك اقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- حتى لو قيل: إن ذلك لا يطلب يعني من جهة اللون استحباباً فهو يؤجر على القصد بالمتابعة في ذلك.

---

٥ - رواه ابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣١٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٠٤٦)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا سند فيه ضعف.

٦ - هذا اللفظ لابن ماجه وأبي داود عن أنس -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضحى بكبشين أقرنين أملحين يذبح ويكبر ويسمي ويضع رجله على صفحتهما"، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، برقم (٢٧٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٩٧٣).

وعن علي -رضي الله عنه-، قال: "أمرنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحي بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء"[٧].

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

حديث جابر عند ابن ماجه فيه ضعف، لكن صح من حديث أنس -رضي الله عنه-: " أمرَنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نستشرف العين والأذن"، نستشرف يعني نتفقد ننظر في العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء، والأشياء التي لا تصح في الأضاحي، وهناك أشياء لا تجزئ في الأضاحي، مثل العوراء البيّن عَوَرها، والعرجاء البين عرجها، والمريضة البين مرضها، والعجفاء التي لا تُنْقِي التي ذهب مخ عظامها من شدة الهزال، والضعف، ويبقي هناك أشياء مثل التي قد قطعت أذنها من الأمام أو من الخلف أو خرقت، كان الناس يضعون هذه علامةً لتعرف بها دوابهم وبهائمهم ويميزونها بذلك، يقولون هنا: **وألا نضحي بمُقابَلة ولا مُدابَرة ولا شرقاء،** المقابلة هي التي قصت أذنها من الأمام، والمدابرة من الخلف، ولا خرقاء، لكن الشرقاء لعلها التي قطعت أذنها طولاً.

قوله: وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها، والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولا قاله الشافعي، وأما الخرقاء فهي التي خَرَقت السِّمَةُ أذنَها خرقا مُدَوّرًا، والله أعلم.

وعن البراء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها، والكسيرة التي لا تُنقِي))[٨]**، رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.**

قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} أي: لكم في البُدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}: قال مِقْسَم، عن ابن عباس في قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال: ما لم تُسَمَّ بُدنا.

البَدَنة هي الناقة أو الإبل يقال لها البُدن، والبقر على خلاف هل يقال ذلك لها أو لا؟ فالبعض قال: لا، ومنهم من قال: يقال لها بدنة، والبقر تجزئ عن سبعة كالإبل، فالسلف يقصدون ما لم تُعيَّن، فأصل البُدن يقال للإبل، ويقال للبقر على خلاف في البقر، فقد يعبر بهذه العبارة ويُقصد بها ما خُص وعُين ليكون هدياً لبيت الله الحرام، ولهذا الرجل لما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: اركَبْها، قال: ((إنها بدنة))[٩]، بمعنى: أن هذه

---

٧ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، برقم (٢٨٠٤)، والنسائي، كتاب الضحايا، باب المدابرة وهي ما قطع من مؤخر أذنها، برقم (٤٣٧٣)، والترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يكره من الأضاحي، برقم (١٤٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٤٨٧).

٨ - رواه النسائي، كتاب الضحايا، باب ما نهى عنه من الأضاحي العوراء، برقم (٤٣٦٩)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، برقم (٣١٤٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٥١٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وابن حبان في صحيحه، برقم (٥٩٢٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (١١٤٨).

٩ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب ركوب البدن، برقم (١٦٠٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، برقم (١٣٢٢).

قد تعينت وارتسمت بهذا بدنة، وهو لا يقصد أنها ناقة، فهذا اللفظ -والله أعلم- يطلق في أصل المعنى على الإبل، وقد يطلق على البقر، لكن في الغالب على الإبل، ويطلق بإطلاق خاص على ما سبق منها يعني ما جعل منها من قبيل الهدي، فهنا يقول: **{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** قال ابن عباس: **ما لم تُسمَّ بدناً** يعني تنتفعون بهذه الإبل تركبونها وتنتفعون من أوبارها وألبانها وما أشبه ذلك، والإنسان إذا كان عنده إبل وقرر أن تكون هذه الناقة من قبيل الهدي وساقها إلى البيت أو اشتراها من السوق على هذا -على هذه النية- وصارت بدنة بإطلاق المخصص، فعلى القول بأنها ما لم تُسمَّ بدناً بهذا القيد يعني إذا صارت كذلك تعين أنه ليس له أن ينتفع بها، وإنما يبعث بها إلى البيت وتُنحر ثم بعد ذلك يأكل منها ويتصدق، على هذا القول، لكن القول الآخر هو الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- ابتداء قال: **{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ}** أي: لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى، **قال مقسم عن ابن عباس في قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال: ما لم تُسمَّ بدناً، وقيل: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك،** ومعنى ذلك أن قوله -تبارك وتعالى-: **{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** على قولين: **{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** قبل أن يعين هذه هدياً، له أن يركب وأن ينتفع بها بأي طريقة شاء، والقول الآخر هو أنه: **{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** يعني إلى وقت نحرها، فينتفع بها قبل ذلك **{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ}** فله أن يركبها إذا احتاج إلى ذلك، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اركَبْها))، قال: إنها بدنة، قال: ((ويحك اركبْها))، فيجوز له ركوبها على خلاف بين أهل العلم، هل ذلك يكون على سبيل الاضطرار؟ وهل له أن يحمل عليها من غير اضطرار أو لا؟ والأقرب -والله أعلم- أن هذا لا يقيد بالضرورة، وإنما يمكن أن يقال: للحاجة إذا احتاج فهذا الرجل الذي كان يمشي لم تبلغ به الحال إلى حد الضرورة، ومع ذلك قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اركَبْها)) لكن إن وُجد غيرها عنده مراكب أخرى فإنه يركب غيرها لكن إن احتاج إليها ركبها كما أنه يحمل متاعه عليها، وهكذا في ألبانها، هل له أن يشرب من ألبانها وهي بدنة؟ يقال: إذا كان ذلك مما يزيد عن حاجة ولدها، فإذا كان معها ولد فله أن يشرب، وقد لا يكون معها ولد وفيها لبن فله أن يشرب ولا مانع من هذا، والله تعالى أعلم.

وقيل: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: ((اركَبها))، قال: إنها بَدنَة، قال: ((اركبْها، ويحك))، في الثانية أو الثالثة.

وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اركبْها بالمعروف إذا أُلجئتَ إليها)).

فهذه الرواية مقيدة: ((إذا أُلجئتَ إليها)) بمعنى أن ذلك يقيد بالحاجة، والناس الآن ما عادوا يركبون هذه الدواب ولا يكاد أحد يسوق الهدي، والناس يشترون الهدي من مكة، ولا يكون سوق الهدي إلا أن يؤتي به من الحل.

وقوله: {ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} أي: مَحِل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: {هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ} [سورة المائدة:٩٥]**، وقال {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}** [سورة الفتح:٢٥].

وذلك ليس من المحل وإنما الإحلال {مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} فعندئذ يحل نحرها، والمقصود بالبيت هنا هو هو الكعبة، والمقصود في هذه الآية الحرم، والعتيق قيل: المعتق من الجبابرة، وقيل: العتيق بمعنى القديم، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران:٩٦] والقِدم على نوعين تارة يكون من قبيل الزيادة في نفاسة الشيء، وهذا موجود فيما يتعاطاه الناس اليوم، ويقال: هذا الطيب، والعود والدهن معتق! فبعض الأشياء القديمة يكون ذلك أعظم في حقها وأنفس، وأكثر في قدرها، وقيمتها، وأحياناً يكون العكس فيقول: هذا الثوب عتيق، وهذا بيت عتيق أي قديم لا نظر لك فيه، وبعضهم يقول في معنى العتيق: إنه تعتق فيه الرقاب من النار من عذاب الله -عز وجل-، ويمكن حمل الآية على هذه المعاني أنه معتق من الجبابرة، وأنه القديم وغير ذلك مما قيل فيه.

وقوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [سورة الحج:٣٤-٣٥].

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} قال: عيدًا.

وقال عكرمة: ذبحا.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}: **يخبر أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل**، ونقل عن **ابن عباس** {مَنْسَكًا} **قال**: **عيداً**، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني مثل الفراء، **يقول عكرمة**: **ذبحاً**، والنسيكة هي الذبيحة، وقال زيد بن أسلم في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، والمنسك يقال: للعبادة، فيقال مثلاً: فلان متنسّك أي متعبد، ويقال لعبادة مخصوصة وهي الحج والعمرة، ويقال: النسك والمناسك، ويقال لجزء من هذه العبادة وهو الذبح والقرابين من الهدي، فيقال: نسيكة ذبيحة، وبعضهم يقول: إن المقصود به المكان الذي نذر الرجل أن ينحر إبلاً ببوانة وسأل النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- عن هذا فسأل -عليه الصلاة والسلام- هل فيها عيد من أعياد المشركينظ، فالشاهد أن في تاريخ العرب في الجاهلية عندهم في أعمال الحج أماكن للنسك يذبحون فيها قريباً من مكة، فمنهم من يذهب إليها قبل الحج، وقبل أن يأتي مكة، وبعضهم يذهب إليها بعده ولهم في هذا أخبار كثيرة، يمكن أن يراجع في هذا كتاب تاريخ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام في نحو عشرة مجلدات، ذكر فيها المناسك عند العرب الأماكن التي يُذبح فيها ذكر ذلك بالتفصيل، والمراد -والله تعالى أعلم- كأنه قال: إنها مكة جعل المكان الذي يذبح فيه! ومن قال: إنه الذبح أي النسيكة هي الذبيحة، وهكذا لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، وحيث إن الله تعالى شرع لهم ذلك وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فدى الله ابنه إسماعيل بذبحٍ عظيم، يعني بذبيحة {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} يعني على ذبحها، وفي وقت الذبح، ولا حاجة لأن يقال: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} أنه عند مشاهدتها مثلاً، و{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} على ذبحها، وقيل: إن هذه الآية تدل على

أن الأيام المعلومات يوم النحر، وأيام التشريق؛ لأن الذبح لا يكون إلا فيها، وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا} أي: على ذبحها، ويمكن أن يشمل ذلك ذكر الله -عز وجل- وشكر المعبود -جل جلاله- على تسخيرها إذا شاهدوها.

وقال زيد بن أسلم في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا}، إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

وقوله: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}، كما ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- قال: "أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما"[١٠].

إذا جعلنا مكة منسكاً معنى ذلك أنه محل الذبح، ولهذا قال الأزهري -وهو إمام كبير في اللغة-: يعني موضع النحر منسكاً أي موضعاً، النحر جعلنا منسكاً يعني محلاً ومكاناً لنحر النسك وهو مكة.

وصِفاحهما يعني: العنق، صفحة العنق الرقبة، ليكون ذلك أثبت وأمكن في الذبح، وهذه هي السنة في ذبح الغنم بهذه الطريقة ويتوجه بها إلى القبلة، وتكون مضطجعة على شقها الأيسر، ولو كان الذابح أعسر يعني يذبح باليسار قد لا يتيسر له هذا فقد يؤذي نفسه وقد يؤذي الذبيحة فيمكن أن يجعلها على شقها الأيمن، ولا مانع من هذا، كما أنه يمكن أن تذبح من خلف الرقبة لكن يتحرى ما هو الأسرع في إزهاق الروح والأيسر على البهيمة، وذلك بمقدم الرقبة.

وقوله: {فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا} أي: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضًا، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء:٢٥]**، ولهذا قال: {فَلَهُ أَسْلِمُوا} أي: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.**

{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجِلين.

وقال عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يَظلِمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثوري: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: خافت منه قلوبُهم، {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} أي: من المصائب.

الإخبات معنى يلتئم التواضعَ والكسرة في القلب، والخضوع والتذلل، فهذا هو المُخبِت، فتارةً يفسر بأثره، وتارةً يفسر ببعض معناه وهو معنى يلتئم هذه الأشياءَ، -والله تعالى أعلم-، والمخبت يظهر أثر ذلك عليه من التواضع والتخشع وهو معنى في القلب يكون بانكساره وتذلله وتخشّعه لربه وخالقه -جل جلاله- {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}.

{وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ} أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقّائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم،

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأضاحي، باب وضع القدم على صفح الذبيحة، برقم (٥٢٤٤)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير، برقم (١٩٦٦).

ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة "براءة".

{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة الحج:٣٦].

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البُدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يُهدى إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: {لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} الآية: [سورة المائدة:٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء في قوله: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} قال: البقرة، والبعير، وكذا رُوي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البُدن من الإبل.

البدانة تعنى السِّمن، يقال: فلان بدين أي سمين، والبُدن هو الضخم، وقيل: للبدن ذلك؛ لعظمها وضخامة خلقها وأجسامها، وقال هنا: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} والشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، ويدخل فيها البدن، وتكون من هنا تبعيضية، فشعائر الله أعم من البدن، **قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}: البقر والبعير**، وهذا خلاف معروف بين أهل العلم، ومن قال به من الفقهاء والأئمة المتبوعين مالك، وأبو حنيفة -رحم الله الجميع-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن البقر تجزئ عن سبعة، فالمتبادر عند الإطلاق والأحق بهذا الوصف إذا قيل البَدَنة فهي الناقة، ولكن يدخل في ذلك البقر، يقال لها: بدنة وتجزئ عن سبعة قال: **وكذا رُوي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري: وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل** يعني خاصة.

وفي قولٍ يطلق على البقرة أيضاً، ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله وغيره، قال: أمرنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نشتركَ في الأضاحي، البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وقوله: {لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ}، أي: ثواب في الدار الآخرة.

وتخصيص الثواب في الدار الآخرة قد يكون غيره أولى منه وأوفى في المعنى، فلو قال قائل: لكم فيها خير في الدنيا والآخرة؛ لأن الله -عز وجل- قال قبله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [سورة الحج:٣٣]، فالمنافع كالركوب، والحمل عليها إلى أن تبلغ محلها، والأكل من لحومها هذا في الدنيا، وفي الآخرة الثواب، ولذا يمكن أن يكون المعنى أعم، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: في الدنيا والآخرة.

وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}.

يعني اذكروا اسم الله على نحرها، و{صَوَافَّ} يعني صافة لقوائمها معقولة اليد اليسرى، معقولة بمعنى تُربط اليد اليسرى بحيث إنها لا تستطيع الانطلاق، والانفلات، ويسهل سقوطها، فبمجرد ما تطعن في لبتها -المكان الذي يكون بين يديها- تسقط على الناحية اليسرى ولا تستطيع الانفلات، وبعضهم ينحر الإبل غير معقولة اليد اليسرى فتفلت لاسيما إذا ضربت ضربة ليست قوية فيخرج منها الدم، ولكنها تؤذي الآخرين، ويحصل منها هيجان فتحطم كل من يقف أمامها.

وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: ((بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يُضَحِّ من أمتي))[١١].

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عياش، عن جابر قال: ضحّى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: ((وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته))[١٢] ثم سمى الله وكبر وذبح.

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمُدية، ثم يقول: ((اللهم هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ))، ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: ((هذا عن محمد وآل محمد)) فيُطعمها جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه.

هذا من أجل أن يبين ماذا يقال عند الذبح، الله -عز وجل- قال: **{فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}**.

وقال الأعمش، عن أبي ظِبْيَان، عن ابن عباس في قوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}، قال: قيام على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: "بسم الله والله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك"[١٣].

وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: "ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم"[١٤].

قوله: **{فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}** يعني وهي في هذه الحالة صافّة لقوائمها معقولة اليد اليسرى فيذكرون اسم الله عليها ويذبحونها، وفي قراءة غير متواترة قرأ بها بعض الصحابة كابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر "صوافن" بالنون، والله -عز وجل- قال في الخيل في قصة سليمان -صلى الله عليه وسلم- أو في خبره قال: **{الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}** [سورة ص:٣١] فالخيل حينما توصف بذلك يقال: صافن بالنون،

---

١١ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في الشاة يضحى بها عن جماعة، برقم (٢٨١٠)، والترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٥٢١)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٨٩٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن إن صح سماع المطلب بن عبد الله من جابر"، وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم (١١٣٨).

١٢ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، برقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣١٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٤٨٤).

١٣ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب نحر الإبل قياما غير معقولة أو معقولة اليسرى، قال الله -تبارك وتعالى-: "فإذا وجبت جنوبها" قال مجاهد: يقول إذا سقطت إلى الأرض، برقم (٩٩٩٧).

١٤ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب نحر الإبل مقيدة، برقم (١٦٢٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب نحر البُدن قياما مقيدة، برقم (١٣٢٠).

ويجمع على صافنات يعني قد رفعت إحدى قوائمها الأربع، وهذه عادة في الخيل معروفة لكنها ليست عادة في الإبل، والمقصود أنها قد عقلت يدها فصارت على ثلاث قوائم، فالتي تقف على ثلاث يقال لها: صافن.

وقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} **قال**: **ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد**: **يعني**: **سقطت إلى الأرض**.

وقال كذلك ابن عمر: "**ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم**"، ولو أنه نحر الإبل وهي باركة حرام، ولو ذبحها ذبحاً أضجعها وتكلف فهذا خلاف السنة، والشاة أو البقرة تذبح {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [سورة البقرة:٦٧]، ولو نحر البقرة أو الشاة يصح لكنه خلاف السنة، وبعض العوام يشدد في هذه الأشياء، بل بعضهم يتوهم أنه لو ذبح الشاة من غير المفصل الذي يكون موضع الحنجرة فإنه لا يأكلها، ولذلك يحرص ويتلمس الموضع الناتئ من أجل أن يذبحها منه، فلو وجدها ذبحت من غيره قال: هذا الذبح لا يجزئ، لا تؤكل، مع أنه يمكن أن تذبح من أي مكان في الرقبة، ولا إشكال في ذلك.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله، وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة، فصور حاله بصورة حال مَن خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى، فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به"[1].

حينما يقول الله -عز وجل-: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ} [سورة الجمعة:٥] يكون التشبيه متطابقاً، فهؤلاء الذين يحملون علما لا يعملون به كمثل الحمار يحمل كتباً لا ينتفع بها فهو مطابق للمَثل بها، لكن الأمثال المركبة من أهل العلم من يرى أنه لا يطلب فيها أن يتطابق كل جزء من المثل مع ما ضرب له، وإنما ينظر إليها باعتبار التركيب ككل، فهذا هو المنحى الأول الذي أشار إليه ابن القيم بكلامه هذا، وهو أنه تصوير لحال من أشرك بالله -عز وجل- فقد هلاك هلاكاً بعيداً مثل الذي خر من السماء فتخطفه الطير فتهوي به الريح في مكان سحيق فلا تسأل عن حاله.

الطريق الثانية التي يسلكها بعضهم في تفسير الأمثال: {فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [سورة الحج:٣١]، أن يحاول أن يطبق كل جملة على شيء مما ضرب له المثل، مثل قوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [سورة البقرة:١٧]، ثم قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ} [سورة البقرة:١٩]، ماذا عنى بالممثل له؟

وقال -رحمه الله-: "والثاني أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه"[2].

يقابل السماء بالإيمان في ارتفاعه وعلوه.

---

١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢١٣/١)، والأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم (٤٤-٤٥).

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢١٣/١)، والأمثال في القرآن الكريم (٤٦).

وقال -رحمه الله-: "قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها يهبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي يخطف أعضاءه ويمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله -سبحانه وتعالى- عليه تؤزه أزاً، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء"[٣].

الأول أقرب -والله تعالى أعلم- وأبعد عن التكلف، الريح تهوي به في مكان سحيق، هل المقصود به ريح الهوى؟ أو تحقيق الهلاك؟ هذا الإنسان قد هلك ولا يرجى له بعد ذلك عافية أو سلامة هذا هو المراد، والله أعلم.

وقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [سورة الحج:٣٦] قال: ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض.

وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} يعني: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنة إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها، وقد جاء في حديث مرفوع: ((ولا تُعجِلُوا النفوسَ أن تَزْهَق))[٤]، وقد رواه الثوري في جامعه، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك، ويؤيده حديث شدّاد بن أوس في صحيح مسلم: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبيحته))[٥].

وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما قُطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة))[٦].

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

٣ - المصدر السابق.

٤ - رواه الدارقطني في سننه برقم (٤٧٥٤)، وفي إسناده سعيد بن سلام العطار تركه الدارقطني وضعفه أبو داود انظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (٣٢٢/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٩١٢٤)، وقال: وقد رُوي هذا من وجه ضعيف مرفوعاً، وليس بشيء.

٥ - رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، برقم (١٩٥٥).

٦ - رواه أبو داود، كتاب الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة، برقم (٢٨٥٨)، والترمذي، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما قطع من الحي فهو ميت، برقم (١٤٨٠)، وابن ماجه، ، باب ما قطع من البهيمة وهي حية، برقم (٣٢١٦)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٩٣٠)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٥٨٩).

فقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} قال مجاهد: **يعني سقطت إلى الأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد**: {فَإِذَا وَجَبَتْ} **يعني ماتت**، هذان القولان لا منافاة بينهما؛ لأن بين القولين شبه ملازمة، بمعنى أنها إذا ماتت سقطت جنوبها، فالذي قال: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} أي: سقطت، فسره بمطابقة اللفظ أو بما هو قريب من المطابقة، يقال: وجبت الشمس بمعنى سقطت فمعنى الوجوب: السقوط والوقوع، ومن فسره بأنه بمعنى ماتت فكأنه فسره بالمعنى أو بلازمه: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} أي سقطت على الأرض بمعنى ماتت، فهو تفسير له باعتبار المعنى، ولا إشكال في هذا، ومن ثم لا حاجة إلى ترجيح بين القولين بأن نقول: وجبت بمعنى سقطت إذا ماتت.

قال: **فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها**، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة)).

قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} أمر إباحة.

قال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطيته.

في قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا} الأصل أن الأمر للوجوب، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أهدى مائة من الإبل في حجته -صلى الله عليه وسلم-، نحر ثلاثاً وستين بيده الشريفة -صلى الله عليه وسلم-، وأكمل الباقي عليٌّ -رضي الله عنه-[٧]، الشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر ببضعة من كل واحدة منها فطبخت فشرب من مرقها، فكأنه قد نال من جميعها، لكن هل يجب على الإنسان أن يأكل؟ عامة أهل العلم على أن ذلك للندب، وهنا قال ابن كثير -رحمه الله-: **أمر أباحة**، وعبارة ابن جرير مشابهة، لكن ينبغي أن يفهم المراد بذلك، حينما يقول ابن كثير: **أمر أباحة** أو ابن جرير فمرادهما بهذا أنه لا يجوز أن يأكل منها قبل خروج روحها، ولهذا قدم قبله: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة))، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} حل أكلها، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا} فهو أمر إباحة بهذا الاعتبار، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} حل لكم، وأبيح لكم الأكل منها {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، ولهذا عبارة ابن جرير أدق من عبارة ابن كثير.

قوله تعالى: (وأطعموا) هذا أمر أيضاً، فهل هذا الأمر للوجوب، فيجب على الإنسان أن يطعم منها؟، بعض أهل العلم يقول: إنه للوجوب، وممن ذهب إلى هذا الشافعي -رحمه الله-، وأنه يجب على الإنسان أن يطعم من هديه، وليس ذلك محل اتفاق، فقد ذهب جماعة من السلف ومن بعدهم إلى أن ذلك للندب، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فيجوز للإنسان أن يأكل هديه أجمع، ويجوز له أن يطعم ذلك جميعاً لا يُبقي منه شيئاً.

والعلماء -رحمهم الله- تكلموا على القدر الذي يؤكل، والقدر الذي يطعم، وإلى كم تقسم، فهنا الله -تبارك وتعالى- قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} على خلاف في معنى القانع والمعتر، فعلى بعض الوجوه في التفسير أن الجامع بينهما هو الحاجة والفقر، سواء قلنا: إن الأول يتعفف من السؤال، والثاني يسأل، أو

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٨٨٠)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فإنه سيىء الحفظ".

العكس، فعلى هذا يكون المذكور قسمين: الأكل وإطعام المحتاجين، وعلى بعض الوجوه في تفسير القانع والمعتر -كقول من قال: إن المعتر هو الضيف والزائر، وليس الفقير- فإنه يكون قد ذكر ثلاثة أقسام: الأكل وإطعام الفقراء وإطعام من ألَمَّ به من ضيف ونحوه ممن يعرض له ويرِد عليه، ويمكن أن يسمى هذا القسم بالإهداء أو القَراء، ولهذا بعضهم يقول: إنها تجعل على أقسام: فيهدي، ويأكل، ويتصدق، وبعض هؤلاء يقول: تقسم على ثلاثة أقسام بهذا الاعتبار، لكن ليس هناك دليل واضح على شيء من هذا؛ فالله -عز وجل- يوجه إلى ما ينبغي فعله فيها من أكل وإطعام، لكن تقييد ذلك بقدر معين كالثلث أو نحوه فهذا يحتاج إلى دليل خاص، لكن حينما تذكر هذه الأقسام مثل لو قلنا: إن الأقسام ثلاثة، فالقسمة العادلة أن يكون على أثلاث، لكن من لم يقسم على أثلاث لا يقال: إنه مقصر أو إنه خالف العمل المشروع؛ لأنه إن أطعم شيئاً للفقراء ولو قليلاً يكون قد حقق الأمر.

قال العوفي: عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطيته.

فسر القانع أنه: **المستغني بما أعطيته وهو في بيته**، يعني غير الطامع، فيكون وهو في بيته، بمعنى أنه لا يخرج للسؤال، ولا يطلب فهو متعفف، وعلى هذا الاعتبار يمكن أن يقال: إنه قدم بالذكر؛ لأنه لا يُشعَر به كما ذكر الله -عز وجل- في أول من يصرف لهم الفيء بعدما ذكر الأقسام المعروفة قال: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ} [سورة البقرة:٢٧٣]، ثم مدحهم فقال: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} فلا يظهر عليهم من علائم الفقر ودلائله كشحوب الوجه ورثاثة الهيئة ونحو ذلك {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}، لا يسألون ملحفين، قال ذلك؛ مبالغة في الثناء عليهم، وإلا فهم لا يسألون بإلحاح ولا بغير إلحاح، فالشاهد أن القانع المستغني بما أعطيته، فإذا فسر بهذا يكون قُدِّم لأنه لا يشعر به بخلاف الذي يخرج ويطلب.

والمعترّ: الذي يتعرض لك، ويُلِمّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ.

يعني ولا يسأل، بمعنى أنه يأتي فيقف في طريقك وأنت تذبح هذه الأضحية أو هذا الهدي، يقف يريد أن تعطيه منها، فبهذا الاعتبار فسر المعتر، **وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرضي، وقال به جماعة آخرون مثل الحسن النخعي.**

وقال علي بن أبي طالب عن ابن عباس القانع: المتعفف.

القانع: المتعفف هذا يوافق الأول -ما روي عن ابن عباس قبله-: الذي يبقى في بيته، وفسر المعتر بالسائل وأطلق في ما روى عنه قبله بأنه الذي يتعرض لك ولكنه لا يسأل، فهو سائل لكن بالحال وليس بالمقال، فهنا أطلق قال: الذي يسأل، المعتر: السائل.

والمعتر: السائل، وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخعي، ومجاهد في رواية عنه.

وهو رواية عن النخعي، ورواية أخرى كما سبق.

وقيل بالعكس، وقد احتج بهذه...

وقيل: بالعكس بمعنى أن القانع هو الذي يسأل، أي الطامع، والمعتر هو المتعفف الذي لا يسأل، ويقال: القَنِع يعني الذي يسأل، ويقال: قنِعَ بالكسر يقنَع إذا سأل، والخليل بن أحمد فسر القانع بأنه المتعفف عن السؤال، المستغني ببلغة، وهذا يوافق ما روي عن ابن عباس قبله إذ قال: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، لا يسأل، متعفف، ولو أُعطي ما أُعطي فإنه يقنع بذلك، ولا تطلب نفسه أكثر منه، وهذا ليس محل اتفاق، فكلام أهل العلم في هذا وخلافهم فيه كثير والإمام مالك -رحمه الله- يقول: أحسن ما سمعت فيه أن القانع الفقير، والمعتر هو الزائر، وابن جرير -رحمه الله- ذكر فيها ثمانية أقوال: ورجح بأن القانع هو السائل باعتبار ما سبق في أصل هذه المادة، يقال: قنِع يقنَعُ إذا سأل، وهذا اختاره أيضاً الشنقيطي -رحمه الله- وأوردوا له شواهد من كلام العرب، أن القانع معناه السائل، وفسر الشنقيطي -رحمه الله- المعتر بالذي يتعرض لك من غير طلب، السائل بالحال، القانع والمعتر، القانع هو الطالب، والمعتر هو الذي يتعرض لك من غير أن يتكلم، {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، فصار المجمل والخلاصة في هذه الأقوال إما أن يكون ذلك في أصناف المحتاجين، فأحدهما يسأل بلسانه، والآخر يسأل بحاله، سواء قلنا: الأول أو الثاني، أو يقال: إن أحدهما هو السائل، والثاني هو الزائر أو الضيف، أو من دخل عليك، أو من ألمّ بك، أو زارك أو نحو هذا.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزَّأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال للناس: ((إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم))[٨].

في رواية أخرى: ((فكلوا وادخروا وتصدقوا))، وفي رواية ((فكلوا وأطعموا وتصدقوا))، فإذا اجتمعت هذه الروايات مع الأقوال في الآية بمعنى أن هذا ما يبقيه لنفسه، وأطعموا، فالإطعام هنا يختص بالفقراء والإهداء ونحو ذلك لهذا جاء ادخروا وتصدقوا، فإذا اجتمعت هذه الروايات تخرج بثلاثة أصناف، وإذا اجتمعت الأقوال في الآية تخرج بثلاثة أصناف فهذا مستند قول من قال: إنهما تجزأ على ثلاثة أقسام، ويحسن بالإنسان أن يأكل من هديه، أو أضحيته وأن يتصدق بشيء منها، وأن يقدم لغيره سواء كان يقدم لهم طعاماً، يأتون إليه فيأكلون منه من ضيوف أو جيران أو أقارب أو غير هذا، أو يقدم لهم لحماً، يعني يقدم لهم طعاماً بمعنى أن يصنع هذا الطعام –الأضحية- فيأكلوا عنده، أو يقدم لهم لحم أضحيته أو هديه.

وفي رواية: ((فكلوا وادخروا وتصدقوا))، وفي رواية: ((فكلوا وأطعموا وتصدقوا)).

وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة ابن النعمان في حديث الأضاحي: ((فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها))[٩].

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، برقم (١٩٧١).

٩ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في حبس لحوم الأضاحي، برقم (٢٨١٢)، والنسائي، كتاب الفرَع والعتيرة، باب تفسير العتيرة، برقم (٤٢٣٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٢١١)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

الرواية لا تخلو من ضعف، وجلود الأضاحي يمكن للإنسان أن ينتفع بها، ويمكن أن يقدم ذلك صدقة أو هدية أو نحو هذا لينتفع به غيره.

مسألة:

عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجّله لأهله، ليس من النسك في شيء))[١٠] أخرجاه.

هذا الحديث يدل على أن الإنسان يبدأ أولاً بالصلاة ثم بعد ذلك ينحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجّله لأهله، لكن يبقى الكلام في بعض المسائل التي تكلم عليها أهل العلم في هذا الحديث، وفي غيره أيضاً مسألة ذبح الأضاحي وكذلك الهدي متى يذبح؟ فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بأضحيته إلى المصلى فيذبحها، فيكون في هذا إظهار لهذه الشعيرة، وتعليم للناس؛ ليقتدوا به، وكان ابن عمر يفعل ذلك، لكن الناس تركوا هذا، فلا يخرج الإمام بأضحيته إلى المصلى، فحينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بها فلا يذبح أحد قبله؛ لأنه يذبح في المصلى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصاب سنتنا))، أما إذا لم يصلِّ مثلاً لسبب كأن يكون مريضاً، أو امرأة تريد أن تضحي وهي في البيت متى تذبح؟ هل يقال: بعد طلوع شمس يوم العيد يجوز له أن يذبح، أو يقدر وقتاً للصلاة، أو يتحقق من انقضاء الصلاة، إذا كنا نقول: إنه لا يذبح قبل الإمام لو كان الإمام يذبح فقدر أيضاً الخطبة، وإذا كان العيد يُصلَّى في أكثر من مكان يقدر على الأقرب بالنسبة إليه، لكن يبقى إشكال وهو أنهم إذا تأخروا -كما يحصل أحياناً- فأهل العلم مختلفون في هذا فبعضهم قيده بقدر وقت الصلاة، وهذا لا شك أنه أكثر إراحة للناس، لا يدرون متى صلوا أو تأخروا، أو ما تأخروا، وبعضهم قيده بالصلاة فعلاً، أما تقييده بذبح الإمام أو الأمير فهذا لا يتأتى الآن؛ لأن الذبح لم يعد في المصلى، والمقصود أن الإنسان لا يصح له أن يستعجل بمجرد شروق شمس يوم العيد يبدأ يذبح، بل ينتظر حتى ينتهي الناس من الصلاة -والله أعلم-؛ لأنه قال: ((ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء))، أما من حضر الصلاة وصلى فهذا يذبح قطعاً، لكن الكلام في من لم يصلِّ، فظاهر الحديث للعموم فينبغي للناس أن يحتاطوا لعبادتهم، وهذا المعنى كثير من الناس لا يتفطنون له.

وفي صحيح مسلم: ((وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام))[١١].

هذا التقييد يقال لو كان الأمر كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بأضحيته ويذبح، لكن ما صار يفعل من أزمان متطاولة، فهل يقال حتى يذبح في بيته، وإذا لم يضحِّ الإمام فالجمهور يقولون: إنها لا تجب،

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد، برقم (٩٢٢)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، برقم (١٩٦١).

١١ - لم أجده في مسلم بهذا اللفظ والذي في مسلم: ((لا يذبحن أحد حتى يصلي))، كتاب الأضاحي، باب وقتها، برقم (١٩٦١).

فالمقصود إذا كان الإمام يذبح في المصلى فإنهم لا يذبحون قبله، فمتى جاء بأضحيته إلى المصلى فينتظر حتى يذبح الإمام.

ويشرع الذبح يوم النحر، وثلاثة أيام التشريق بعده، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيام التشريق كلها ذبح))[١٢] رواه أحمد، وابن حبان.

هذا هو الأرجح، على خلاف كثير من أهل العلم في وقت الذبح متى ينتهي؟ وهل يجوز الذبح بالليل أو لا؟، والعلم عند الله -عز وجل-، ويجوز الذبح ليلاً ونهاراً إلى غروب شمس اليوم الثالث، فإذا غربت انتهى كل شيء.

وقوله: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يقول تعالى من أجل هذا {سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [سورة يس:٧١]، إلى قوله: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [سورة يس:٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيرها {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} التسخير والتذليل، ذللناها وسخرناها لكم تدل عليه الآية التي ذكرها في سورة يس وهي قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [سورة يس:٧١-٧٢]، ثم قال: {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} فهذه الأمور كلها داخلة، وفي قوله: {سَخَّرْنَاهَا} سخرها بالركوب والانقياد والأكل، يشربون من ألبانها، ويأخذون من أوبارها وأصوافها وأشعارها كل هذا من التسخير، {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} هذا هو التسخير فهذه مسخّرة للإنسان ينتفع بها، وتنقاد له ولا تكاد تستعصي عليه، وإلا فهذا المخلوق الكبير الجمل الذي ينقاد للإنسان هو أقوى من الإنسان، لا شك أن هذا من تسخير الله -عز وجل-، وهذا أحسن من كلام بعض أهل العلم كابن القيم -رحمه الله- حيث إنه فسر ذلك بمعنى خاص {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ}، بمعنى إذا ذبحتموها وذكرتم الله عليها حل لكم أكلها، كذلك سخرناها لكم، تكون مسخرة بالأكل إذا فعلتم ما وجب من ذبحٍ أو نحرٍ مع ذكر اسم الله عليها، فخصه بهذا المعنى، والمعنى أوسع من ذلك والقرآن يفسر بالقرآن، وآية يس تفسر هذه الآية، والله أعلم.

ابن جرير -رحمه الله تعالى- يقول: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي قد أحل لكم أكلها، {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي: أحل لكم، والمعنى أعم من ذلك، -والله تعالى أعلم-، يعني نظر إلى ما قبله فذكر اسم الله صواف، بهذه الطريقة صافة لقوامها معقولة اليد اليسرى، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} خرجت نفوسها ماتت فعند ذلك يحل لكم أكلها ثم قال: {كذلك سخرناها لكم} يبقى المعنى أعم من هذا، هذا يدخل فيه والمعنى أوسع منه، والله أعلم.

{لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الحج:٣٧].

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٧٥١)، وقال محققوه: "حديث صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٥٣٧).

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها.

يعني في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يذبحون الهدي ويأخذون من دم الذبيحة ويلطخون به على نصب الأحجار التي كانوا يتقربون إليها، فالله -تبارك وتعالى- يبين لهم ما شرعه: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا} فإن دماءها ولحومها لا تصل إلى الله -عز وجل-، فإن الله غني عن ذلك، وإنما يناله أي الذي يصل إليه هو ما يحصل من تقوى العباد، لا الدماء ولا اللحوم فإن الله غني عن هذا، وإنما تعبَّدَ خلقه وكلفهم وشرع لهم الشرائع من أجل التقوى، {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:١٨٣]، وهكذا حينما شرع لهم المناسك فهي لإقامة ذكر الله -عز وجل- فالذي يصل إليه من العباد هو التقوى، وإلا فإن الله -تبارك وتعالى- غني عن العباد وعن أعمالهم، وعن لحوم هذه الهدايا والأضاحي وعن دمائها.

فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا}، وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}.

هذا سبب النزول لكنه مرسل من ابن جريج من التابعين، ولا تصح هذه الرواية، لكن هو معنى بيّنه الله لعباده، يبين لهم حينما شرع لهم هذه القرابين لا من أجل أن يصل إليه شيء من أجزائها وأبعاضها، وإنما الذي يصل إلى الله -عز وجل- ويرتفع إليه هو التقوى يعني {وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ} يصل إليه تقواكم.

أي يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١٣].

وقوله: {كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ} أي من أجل ذلك سخر لكم البُدن {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

في الآية المتقدمة قال: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} فدلت تلك على التسمية، وهنا قال: {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} فدل ذلك على التكبير، ولهذا يشرع له أن يجمع بينهما فيقول: بسم الله والله أكبر عند الذبح قال: {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} أي: **لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه**، هذا باعتبار المعنى: ما شرعه من أجل تعظيم الله، مثل ما شرع الحج مثلاً لإقامة ذكر الله والسعي بين الصفاء والمروة والطواف وإقامة ذكر الله -عز وجل- هذا باعتبار المعنى، لكن أيضاً باعتبار اللفظ {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ} فيدل باللفظ على مشروعية التكبير عند ذبح الأضاحي والهدي، فيدخل فيه هذا وهذا.

---

١٣ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤).

أصل الحمل في قوله: {عَلَى مَا هَدَاكُمْ} على العموم، إلى أي شيء هداكم؟ للإسلام، هداكم للقرابين، والهدايا، وما شرع لكم في هذا بعد أن كان أهل الجاهلية يتخبطون بجهالة تضيع فيها أموالهم وتزهق فيها نفوسهم ويلقون فيها العنت، والعناء الشديد من غير طائل بل يرجعون بالوزر، فالله -تبارك وتعالى- هداكم لذلك كله، علمكم ما يحبه ويرضاه ويُتقرب به إليه؛ لتعملوا بذلك {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} لهذا الدين بعد أن كنتم في جهالة.

وقوله: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه -عز وجل.

الله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢] فالعبرة هي بإحسان العمل، وجبريل لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإحسان، قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[١٤]، على القولين المعروفين في الحديث هل هي مرتبة واحدة أو مرتبتان الأولى أعلى من الثانية؟، فالشاهد قال: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} وقال: أي **في عملهم القائمين بحدود الله** فليست العبرة بكثرة الأعمال، وإنما بإحسان العمل وهذا له اتصال وتعلق لما يكون بقلب العبد وما يكون في الخارج من العمل الظاهر حيث يتابع به النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون في قلبه من الإخلاص والقصد الصحيح مع تعظيم الله -تبارك وتعالى- دون الالتفات إلى النفس بالعُجب، والزهو أو قصد الفخر أو المضاهاة بكثرة الأضاحي والهدايا ونحو هذا، ويكون متابعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- في مثل ذلك {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} فيتخير من الأضاحي والهدايا ما هو أطيب وأعظم، ولكن لا على سبيل المفاخرة والمباهاة، ولا يعجب بعمله أو يقصد الترفع به في قلوب الخلق أو نحو هذا، لا، {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}، وكذلك يراعى في هذا حدود الله -جل جلاله- فلا يذبح قبل الصلاة مثلاً، ولا في غير أيام الذبح.

مسألة:

الأضحية سنة مستحبة، وتكفي واحدة منها عن جميع أهل بيت واحد، قال ابن عمر: أقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين يضحي[١٥]، رواه الترمذي.

الحديث فيه ضعف، لكن كون الأضحية سنة مستحبة هذا قول عامة أهل العلم، والقول بالوجوب للقادر قول قوي تدل عليه أدلة مثل من وجد سعة ولم يضحِّ..، وقيل: من لم يضح لا يقربنا، فهذا قد يفهم منه الوجوب على القادرين وغير ذلك مما يستدل به القائل بالوجوب، فينبغي على الإنسان إذا كان يجدُ ويتمكن خاصة ونحن في هذه الأيام أيام حج فمن كان قادراً على الأضحية فإنه يضحي، تكون الأضحية سنة واحدة عنه،

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، برقم (٨).

١٥ - رواه الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب الدليل على أن الأضحية سنة، برقم (١٥٠٧)، وأحمد في المسند، برقم (٤٩٥٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف فيه حجاج بن أرطأة"، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٤٧٥).

وعن أهل بيته، والمقصود بأهل بيته يعني من يعولهم وينفق عليهم، عنه وعن أهل بيته من يعولهم وينفق عليهم، فالزوجة داخلة فيه والأولاد والبنات يدخلون فيه، والناس توسعوا في هذا فصارت الزوجة تريد أن تضحي، والبنت تريد أن تضحي، والولد يريد أن يضحي، لكن إن كان هؤلاء خارجين عنه بمعنى أن الولد مستقل متزوج أو عنده نفقته مستقلة فيضحي عن نفسه، وهكذا البنت إن كانت مستقلة في بيت عندها نفقتها فإنها تضحي، لكن أبوها يعولها يضحي بأضحية واحدة هذه هي السنة عنه وعن أهل بيته.

وقال أبو أيوب كان الرجل في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس، فصار كما ترى[١٦]، رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه.

قوله: **عنه وعن أهل بيته** بمعنى أنهم يشتركون في الثواب، ولا يشتركون في عين الأضحية على سبيل التملك لها، وكثير من الناس يسألون في مثل هذه الأيام على الإشراك في الأضحية، يعني أن تكون مشتركةً من جهة التملك بين مجموعة من الناس يعني يقولون: كل واحد يدفع فيها، يشترك في الشاة سبعة، ولا يصح الإشراك في الشاة، وإنما يكون الإشراك في الثواب في بدنة أو بقرة، لكن كيف يكون الإشراك في الثواب والأجر، ويكون قد ضحى عنه ونحو ذلك؟ أن يشملهم بأضحية بمعنى أن يكونوا في الأجر معه والثواب؛ لذلك الذي يمسك ولا يقص شعره هو صاحب الأضحية أما البقية من زوجه وولده فلا يمسكون، ويقال: إنه ضحى لهم أو ضحى عنهم، ولا يقال عنهم: إنهم قد ضحوا.

وقوله: **رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه**، يعني ابن ماجه رواه ولم يصححه.

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله[١٧]، رواه البخاري.

ابن هشام من صغار الصحابة وهو عبد الله بن هشام التيمي.

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن))[١٨].

{إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ} [سورة الحج:٣٨].

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}، وقال: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ} قرأ "يدفع" ابن كثير وأبو عمرو {إِنّ اللّهَ يَدَفَعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ}، وهكذا في الآية الأخرى، قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ} [سورة الحج:٤٠]،

---

١٦ - رواه الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن الشاة الواحدة تجزي عن أهل البيت، برقم (١٥٠٥)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب من ضحى بشاة عن أحد، برقم (٣١٤٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (١١٤٢).

١٧ - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة الصغير، برقم (٦٧٨٤).

١٨ - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، برقم (١٩٦٤).

وفي قراءة نافع {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ}، ثم: {وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ}، وفي القراءة التي تقرأ بها قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ}، وفي الثانية {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ} هذه قراءة، والقراءة التي نقرأ بها يمكن أن تكون مفسرة بقراءة ابن كثير وأبي عمرو، {إِنّ اللّهَ يَدَفِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ} يدفع يمكن أن تكون مفسرة لها، لأن قراءة يدفع قراءة واضحة لا إشكال فيها يدفع عنهم كيد الأشرار الفجار، ويدفع عنهم السوء كما قال ابن جرير -رحمه الله- في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [سورة النور:٢٦] وهكذا في قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}، ابن جرير مما ذكر في معناه: أن الكلمات الطيبات والأوصاف الطيبات للطيبين من الناس، والأوصاف الخبيثة والأقوال الخبيثة للخبيثين من الناس، فإذا صدرت منهم ضرتهم، وإذا صدرت وقيلت في حق أهل الإيمان لا يضرهم؛ لأنه ليس لهم، هكذا فسره ابن جرير وينبغي أن يدخل فيه دخولاً أولياً النساء؛ نظراً للنزول، وما جاء في أسبابه، فهنا هذه القراءة "يدفع" إذا قلنا: إنها مفسرة للقراءة الثانية، والقراءات يفسر بعضها بعضاً؛ لأن هاتين القراءتين تعودان إلى معنى واحد وهو الدفع، والفرق بين القراءتين أن "يدافع" صيغة مفاعلة في الأصل في الاستعمال تكون بين طرفين يدافع، يغالب، يقاتل، يعارك يجاوب، يضارب، لكن المدافعة لا تكون بين الله وبين أحد من خلقه، ولا أحد يستطيع أن يغالب الله، ومن هنا استشكل بعض أهل العلم هذه القراءة يدافع، فبعضهم قال: إن قوله يدافع بمعنى يدفع، وإن القراءة الأخرى مفسرة لها يدافع بمعنى يدفع، وليس المقصود به معنى المفاعلة، فتكون المدافعة –المفاعلة- هنا مستعملة في معنى أصل الكلمة المجرد، يعني من غير ملاحظة للأصل في استعمالها، وهو ما كان بين الطرفين فأكثر، وهذا له نظائر في كلام العرب؛ لأن المعاقبة تكون في تقابل بين الطرفين، أو إيقاع العقاب من طرف فاستعملت القاعدة على شيء يصدر من طرف، لكن المقاتلة والمبارزة والمجابهة والمناوءة كل هذا يكون بين طرفين، لكن المعاقبة من طرف واحد، والمجاوزة من طرف واحد، وهكذا المعنى المجرد للفظة دون نظر أو دون قصد لوقوع ذلك بين طرفين فأكثر؛ ولهذا بعضهم مثل الزمخشري يقول: {يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ} إن هذا سبيل المبالغة، بيان دفعه -تبارك وتعالى- عنهم فعبر بلفظ المدافعة، وبعضهم يقول: لما كان جهاد هؤلاء الكفار في إيصال الأذى بكل سبيل مستطاع إلى أهل الإيمان جهداً كبيراً كما قال -عز وجل-: {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [سورة إبراهيم:٤٦] عبر بمثل هذا {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ}، وكما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحج:٥١] معاجزين على هذه القراءة نفس الشيء، هل يمكن لهؤلاء أن يقوموا بدور مع الله -عز وجل-؟، أي يعجزونه، ويحاولون إعجازه فيفوتونه فلا يعاقبهم؟ ، فبعضهم قال: هذا على سبيل المبالغة، بعضهم قال: هذا لبيان شدة ما يجري على أيديهم وما يفعلونه، وما يسعون فيه من تثبيط، وتهبيط العزائم وما أشبه ذلك فاستعمل لهذا الاعتبار هذا اللفظ، ويأتي إن شاء الله، {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ}، الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوَاْ} الوصف الإيمان، والحكم المرتب عليه المدافعة، فالحكم المرتب على وصف يزيد بزيادة الوصف وينقص بنقصانه، مدافعة الله -عز وجل- عن أهل الإيمان تكون بحسب ما يكون لهم من تحقيق هذه الصفة، فعلى قدر إيمان العبد على قدر ما يحصل من دفاع الله -عز وجل- عنه، يدافع عنه السوء والشر

وما إلى ذلك، على قدر الإيمان على قدر ما يحصل لنا من مدافعة الله -تبارك وتعالى- عنا، وهكذا {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢] يكون لهم الأمن والاهتداء على قدر ما عندهم من الإيمان.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كفُورٍ} أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال، والكفر الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

الكفر أوسع من هذا، لكنه أحد أنوع الكفر، في قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ} خوان على زنة فعّال، وكفور علي زنه فعول وهذه صيغ مبالغة، هنا يرد سؤال وهو أن {لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ}؟ هل ينفي عن الخائن؟ لا، هل ينفي عن الكافر؟ لا ما هو كفور، الكفور كثير الكفران، والخوان كثير الخيانة، والله -عز وجل- لا يحب كل خوان كفور، قد يقال: إن من وقعت منه الخيانة -ليس كثيراً- فإن الله يحبه، الله لا يحب الخائنين، وقال في الكافرين أيضاً {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران:٣٢]، ولا يحب الظالمين، يعني فهذه {لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ} ذكرت صيغة المبالغة لكن ذلك لا ينفي عمن وقع منه شيء من ذلك، فالله لا يحبهم بدليل الآيات الأخرى.

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:٣٩-٤٠].

قال العَوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة: هذه أول آية نزلت في الجهاد.

كثير من أهل العلم يقولون: هذه أول آية نزلت في الجهاد، أول ما نزل فيه الأذان، في البداية منعهم وأمرهم بكف اليد ثم ذلك إذنٌ لهم {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} هذه في الأول ثم بعد ذلك {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ} [سورة البقرة:١٩٠]، ثم بعد ذلك أمرهم بالقتال أمراً عاماً {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} ثم بعد ذلك جاءت الآية الخامسة من سورة براءة وهي آية السيف {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [سورة التوبة:٥]، ثم بعد ذلك الله -تبارك وتعالى- قال لهم: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ} [سورة التوبة:١٢٢] بعد أن كان للجميع أن يخرجوا، رخّص للضعفاء والمرضى.... إلى آخره.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهلكُن، قال ابن عباس: فأنزل الله -عز وجل-: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، قال أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-: فعرفت أنه سيكون قتال.

وزاد الإمام أحمد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال[١٩].

ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حديث حسن.

هذا الحديث الصحيح يدل على سبب نزول هذه الآية {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}، وفي القراءة الأخرى {أذن للذين يُقاتِلون بأنهم ظلموا} فيكون ذلك بسبب ما وقع لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن أخرجوا من ديارهم.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [سورة محمد:٤-٦]، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٤-١٥]، وقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١].

والآيات في هذا كثيرة.

هذا التوجيه الذي وجهه به الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو أن قوله {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} أي أن الله قادر على نصرهم من غير قتال، ولكنه أمرهم بالقتال ليبلو بعضهم ببعض كما دلت عليه الآيات، هذا معنى وليس ذلك محل اتفاق، فإن من السلف من فسرها بغير هذا، قال: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}: هذا وعد منه -تبارك وتعالى- لهؤلاء الذين أذن لهم بالقتال، وعد لهم بالنصر، فالمعنى الأول {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} لكنه كلفهم بالقتال وإلا لو شاء لنصرهم من غير قتال، أهلك عدوهم أو آمن من في الأرض كلهم جميعاً لكن الله يبلو بعض العباد ببعض، فجعل منهم أهل الإيمان، وأهل الكفر وأمر هؤلاء بجهادهم، والصبر، والسفر، والعناء وبذل الأموال للابتلاء، والمعنى الثاني: أذن لهم بالقتال ووعدهم بالنصر {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، ويمكن أن يقول قائل: إن الآية تتضمن هذا وهذا، فيها وعد لمن حقق أمره -سبحانه وتعالى- بالنصر، وأن الله قادر على نصرهم {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فتنهض نفوسهم لتحقيق التوكل على الله -عز وجل- وصدق اللجوء إليه، والقيام بشرعه، فأمرهم بقتال عدوهم، {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فهو قادر على نصرهم، {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ} [سورة آل عمران:١٦٠] فيركنون إليه دون أحد سواه.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}: وقد فعل.

قول ابن عباس: وقد فعل، يكون وجهه بالوعد بالنصر وقد فعل، يعني أن هذا تحقق، ولهذا ربْطُ ابن كثير -رحمه الله- تفسير ابن عباس بما قبله لا يخلو من إشكال؛ لأن هذا على القول الآخر غير الذي ذكره ابن

---

١٩ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، برقم (٣٠٨٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٦٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

كثير، يعني لو أن ابن كثير ذكره على أنه قول آخر في المسألة لما كان فيه إشكال، لكن حينما جاء بهذا السياق "ولهذا قال ابن عباس: وقد فعل" أشعر بأنه قول واحد، وهما قولان، هذا التوجيه والتخريج، لكن هما في الواقع قولان، يتضح ذلك بأن من يقرأ أنهم قولان كثير من الناس، وحينما تذكر الأقوال توجه، ولكن لا تذكر من سياق كأنها قول واحد.

وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمرَ المسلمين وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي -يعنون أهل مِنَى ليالي مِنى- فنقتلهم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لم أومر بهذا))، فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ} قال العَوْفي، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمدًا وأصحابه.

{إلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوه وحده لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر.

يعني ليس لهم ذنب ولا جرم {إلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} فكونهم آمنوا وقالوا: ربنا الله ليس جرماً يستحقون عليه الإخراج، فهذا استثناء منقطع، كقولك: جاء الرجال إلا فرساً هذا الاستثناء منقطع، وهكذا {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} [سورة البقرة:٣٤] على القول الراجح إن إبليس من الجن هذا الاستثناء يعتبر منقطعاً، ومعنى منقطع يعني أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والأصل في الاستثناء الاتصال وليس الانقطاع، فهنا هذا القول الذي ذكر هو اختيار سيبويه {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [سورة الحج:٤٠] فهذا الإخراج ليس بحق، فهم ما فعلوا جرماً يستوجب الإخراج، هذا الذي قالوه حق، وهو قولهم: {رَبُّنَا اللَّهُ} فعلى هذا الاعتبار بالنسبة إلى ما في نفس الأمر يعتبر استثناء منقطعاً، وباعتبار آخر ما هو؟ باعتبار ما في نظر الكفار هذا أكبر جريمة عندهم وهو التوحيد، فهم ما خرجوا بسبب جرم قارفوه إلا أنهم وحدوا الله -عز وجل-، وهذا بالنسبة للمشركين يعتبر جرماً كبيراً، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص:٥] فيكون الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً بالنسبة إلى نظر المشركين، والخطاب أحياناً قد يأتي بحسب النظر من المخاطب، فالقول بأنه متصل قال به جماعة من أهل اللغة وأصحاب المعاني كالزجاج والفراء، قالوا: الاستثناء متصل، لكن أنتت قراءة أن الاستثناء متصل باعتبار ومنفصل باعتبار.

وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، **ثم قال تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم.**

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، قال الله تعالى:

{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [سورة الحج:٤٠] أي: **لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف.**

{لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هي البيوت التي على الطرق.

{وَبِيَعٌ}: وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضًا، قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}** قراءة نافع: ولولا دفاع، **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}**، قال: **أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف** هذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع فيه بين الأقوال، فالآية تحتمل أن يكون المعنى" لولا أن يدفع بقوم عن قوم، **{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}** [سورة البقرة:٢٥١] لولا دفع الله -تبارك وتعالى- بقوم عن قوم لأهلك القوي الضعيف، ويحتمل أن يكون **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}** يعني يدفع أهل الشر والفساد بقوم فيبقي الخير والشر بحال من التدافع، فيبقى للناس دينهم وعبادتهم، وهذا المعنى أيضاً تحتمله الآية بل قد يكون هذا المتبادر منها؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}** وهذا الفساد في الأرض يشمل صور الفساد المتنوعة، هنا ذكر الله في هذه الآية **{لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ}** هذه أماكن العبادة ويحصل الفساد في الأرض بأن يهلك القوي الضعيف، ويحصل ذلك أيضاً بإظهار الفساد بأنواعه الفساد الأخلاقي، والاعتقادي وغير ذلك، ولكن الله -عز وجل- من سنته أن يدفع هذا بهذا، ومثل هذا سنته الجارية **{وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}** [سورة محمد:٤] وشرع الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيبقي الإيمان والكفر والخير والشر يعتلجان، فينكف كثير من الشر بسبب دفع أهل الإيمان، وقد يؤيد الله -عز وجل- هذا الدين بالرجل الفاجر، قد يحصل مصالح بتدافع الكفار وذلك فيما يقع بينهم من تناقضات وتنافس وتضاد فينكف بعض الشر كما لا يخفى، وقد يكون ذلك بدفع المسلمين وأهل الإيمان، **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ**

النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ}، الحاصل أن ابن كثير هنا قال: **لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف** جمع بين القولين، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن هذا نعرف ما يجب علينا من مدافعة الفساد والمفسدين، قال: {لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} الصوامع هنا قال: **هي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم**، الصومعة في اللغة: هي البناء المرتفع، فلان جالس في صومعة، يعني في بناء مرتفع، وهذا البناء المرتفع لا ينافي أن يكون صغيراً؛ لأن هذا يتخذه العابد أو الراهب متعبداً يمكث فيه، وينقطع فيه، لهدمت صوامع، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية صوامع المجوس، والصابئون سبق الكلام عليها وأن الأرجح أن الصابئين طوائف وليسوا طائفة واحدة، فيوجد ممن يقال لهم هذا من يعبدون الكواكب، ولا زالت بقاياهم موجودة إلى اليوم في العراق، الصابئة، ويقال ذلك أيضاً: لقوم هم على الفطرة ليسوا بأهل إشراك؛ ولهذا كان المشركون يقولون لمن دخل في الإسلام: صبأ نسبةً إلى الصابئة لا يعبدون الأوثان، أو ربما يوجد طائفة من النصارى يقال لها أيضاً: الصابئة، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق، والظاهر من السياق أنها أماكن للعبادة، لهدمت صوامع: أماكن للتعبد صومعة الراهب، {وَبِيَعٌ} قال: **وهي للنصارى أيضاً** يعني الصومعة مكان صغير والبيعة مكان كبير كالمساجد، **قاله أبو العالية، وقتادة والضحاك، وابن صخر ومقاتل وخصيف وغيرهم**، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- أن البيعة هي مكان التعبد الكبير أو الأوسع، والصومعة هي مكان للأفراد ينقطعون فيه للعبادة، والبيعة مثل المسجد، بمنزلة المسجد لهؤلاء، والعلم عند الله -عز وجل-، قال وحكى ابن جرير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وهذا لا يعارض قول من قال: إنها أكبر من البيع لكن هي اليهود أو النصارى أو كل هؤلاء يسمونها بيعة هذا قد لا يؤثر كثيراً، والمقصود أن هذه الأماكن جميعاً هي أماكن العبادة.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [سورة الحج:٤٠]، قال الزجاج: تأويل هذا لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدم في كل شريعة نبي المكان الذي يصلى فيه"[١].

قد يقول قائل: وهل المحافظة على هذه الأماكن مطلب بحيث إن الله -عز وجل- قرنها مع المساجد؟ فهذا القول يبين أن المراد بذلك زمن كل نبي من المدافعة، في زمن موسى {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} لو لم توجد لهدمت أماكن التعبد، وأماكن التعبد في ذلك الوقت البِيعة مثلاً، أو الصلوات، وهكذا في زمن عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وفي الإسلام لهدمت المساجد، هذا المراد بهذا القول، كل زمن نبي تُهدم أماكن العبادة، ليس معنى ذلك أن هذه الأماكن شرعية في زماننا بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان المسلمون لا يهدمون في حروبهم أماكن العبادة، ولا يقتلون العابدين، لكن يمنعون من تجديدها، ويمنعون من إحداث الجديد في هذه الأماكن التي يُعبد الله -عز وجل- فيها على الضلال والكفر بعدما حرفت أديان الأنبياء، ونسخت شرائعهم.

---

١ - أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١١٦٨/٣).

وقال -رحمه الله-: " فَلَوْلَا الدَّفْعُ لَهُدِّمَ فِي زَمَنِ مُوسَى الْكَنَائِسُ الَّتِي كَانَ يُصَلَّى فِيهَا فِي شَرِيعَتِهِ، وَفِي زَمَنِ عِيسَى الصَّوَامِعُ وَالْبِيَعُ، وَفِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ الْمَسَاجِدُ.

وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُهُ بَعْضَ النَّاسِ عَنِ الْفَسَادِ بِبَعْضِهِمْ لَهُدِّمَتْ مُتَعَبَّدَاتُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ وَطَاعَتِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ الصَّوَامِعِ وَالْبِيَعِ؛ لِأَنَّ صَلَوَاتِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَصْحَابِهِمْ كَانَتْ فِيهَا قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَأُخِّرَتِ الْمَسَاجِدُ؛ لِأَنَّهَا حَدَثَتْ بَعْدَهُمْ"[٢].

يعني تنقطع الصلوات وهذا خلاف الظاهر؛ لأن الله -عز وجل- قال: {لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ} فالعطف على ما قبله، ولا يحتاج هذا إلى تقدير لهدمت صوامع وبيع وتعطلت صلوات؛ لأن الأصل خلاف التقدير، فالأصل في الكلام الاستقلال وليس الإضمار.

وقال -رحمه الله-: "وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الصَّلَوَاتُ؛ صَلَوَاتُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَنْقَطِعُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ.

قَالَ الْأَخْفَشُ: وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: الصَّلَوَاتُ لَا تُهْدَمُ وَلَكِنْ تَحِلُّ مَحَلَّ فِعْلٍ آخَرَ، كَأَنَّهُ قَالَ: تُرِكَتْ صَلَوَاتٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَعْنِي مَوَاضِعَ الصَّلَوَاتِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: يُدْفَعُ عَنْ مُصَلَّيَاتِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ"[٣].

هذا القول بأن المقصود هدمت صوامع وبيع إلى آخره حيث يكون هؤلاء أهل الذمة فيدفع عنهم المسلمون، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} ولكن هذا بعض ما يدخل في معنى الآية إذا وسعنا مدلولها، وعلى ما قبله يكون المراد بذلك في زمن كل نبي، فرق بين هذا وهذا.

وقال -رحمه الله-: "وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَا يُحْتَاجُ إِلَى التَّقْدِيرِ الَّذِي قَدَّرَهُ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ بِوَجْهٍ، فَإِنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْوَاقِعِ، لَمْ تَدُلَّ عَلَى كَوْنِ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ -غَيْرَ الْمَسَاجِدِ- مَحْبُوبَةً مَرْضِيَّةً لَهُ، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ هَذِهِ الْأَمْكِنَةُ الَّتِي كَانَتْ مَحْبُوبَةً لَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَأَقَرَّ مِنْهَا مَا أَقَرَّ بَعْدَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَسْخُوطَةً لَهُ، كَمَا أَقَرَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهُمْ وَيَمْقُتُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ مَعَ بُغْضِهِ لَهُمْ.

وَهَكَذَا يَدْفَعُ عَنْ مَوَاضِعِ مُتَعَبَّدَاتِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْفَعُ عَنْ مُتَعَبَّدَاتِهِمُ الَّتِي أُقِرُّوا عَلَيْهَا شَرْعًا وَقَدَرًا، فَهُوَ يُحِبُّ الدَّفْعَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا، كَمَا يُحِبُّ الدَّفْعَ عَنْ أَرْبَابِهَا وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهُمْ.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الرَّاجِحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ"[٤].

ابن القيم -رحمه الله- لم يحملها على أن المقصود بذلك في زمن كل نبي، وإنما ذلك جاء بحسب ما هو واقع، فالواقع أن الله -عز وجل- يدفع الناس بعضهم ببعض فتبقى لهم متعبداتهم، ولا شك أن أهل الذمة تسلم لهم متعبداتهم في بلاد المسلمين إذا أقروا بما يجب، والإسلام لم يهدم هذه الأماكن هدماً حسياً كالإغارة عليها، والمسلمون كانوا لا يقصدون هؤلاء ولا تلك الأماكن فإن دفعوا الجزية توفر لهم الحماية من قبل المسلمين فلا يتعدى عليهم أحد، ويبقى لهم تعبدهم وإن كانوا على باطل بحسب الشروط التي جرت بينهم وبين المسلمين،

---

٢ - أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٣/١١٦٨-١١٦٩).

٣ - المرجع السابق (٣/١١٦٩).

٤ - المرجع السابق (٣/١١٦٩-١١٧٠).

فابن القيم -رحمه الله- يبين أن مثل هذا لا يعني أن الله يحب هذه الأماكن، أو أنها أماكن شرعية، ولا يتوهم أحد أن متعبدات اليهود والنصارى حق، وأن الله أقرها، وذكرها في سياق واحد مع المساجد ليس هذا هو المراد، وإنما المراد الإخبار عن الواقع وإلا فقد جاءت النصوص الصريحة في بيان كفر هؤلاء وعداوتهم، فالله -عز وجل- يقول: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [سورة المائدة:٧٣] وقال: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [سورة المائدة:٧٨]، وذكر أشياء كثيرة من كفر اليهود {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [سورة التوبة:٣٠]، وقال: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً} [سورة المائدة:٨٢] كل هذه الأشياء ذكرها الله وذكر غيرها، والحديث عن هؤلاء كثير في القرآن، فلا يجوز لأحد أن يرتاب في كفرهم وظلالهم، وأنهم أعداء لله -عز وجل- ولأهل الإيمان، وأن هذه الأماكن التي يتعبدون بها هي أماكن باطلة، يُعبد الله -عز وجل- فيها على الظلال، ولكن لا يجوز لأحد أن يتعدى عليها، ولا يجوز لهم أن يفتحوا شيئاً منها في بلاد المسلمين على سبيل الاستحداث، ولكن ما وُجد لا يُهدم، ولا يُرعى أو يرمم أو يعاد تشييده من جديد، فتبقى إلى أن تتلاشى.

وقال -رحمه الله-: " قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ -هُوَ ابْنُ مُوسَى- عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنِ السُّدِّيِّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: {لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ} [سورة الحج:٤٠] قَالَ: الصَّوَامِعُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الرُّهْبَانُ، وَالْبِيَعُ مَسَاجِدُ الْيَهُودِ، وَالصَّلَوَاتُ كَنَائِسُ النَّصَارَى، وَالْمَسَاجِدُ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَأَخْبَرَنَا الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: {لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} قَالَ: صَوَامِعُ وَإِنْ كَانَ يُشْرَكُ بِهِ! وَفِي لَفْظٍ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُذْكَرَ وَلَوْ مِنْ كَافِرٍ.

وَفِي تَفْسِيرِ شَيْبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ: الصَّوَامِعُ لِلصَّابِئِينَ، وَالْبِيَعُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ لِلْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ"[٥].

من أهل العلم من يقول بأن ذلك في زمن كل نبي، وهذا القول له وجه، وقاله جماعة من أهل العلم وذكره الزجاج من المفسرين، وقال به ابن عطية في التحرير -المحرر الوجيز-، والقول الآخر بأن هذا بحسب الواقع، ولا يعني ذلك أن الله يحبها.

وقوله: {وَصَلَوَاتٌ}: قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوات.

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين.

هذا يرجع فيه إلى الواقع، وكون هؤلاء يختلفون في زمن كانت هذه الأشياء فيه موجودة في البلاد المفتوحة وفي غيرها فيبدو -والله أعلم- أن هذا يشبه الاختلاف في غيره لقوله -تبارك وتعالى-: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن

---

٥ - أحكام أهل الذمة (١١٧٠/٣).

بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} [سورة المائدة:١٠٣]، وسبق الكلام على هذا، وكثرة الأقوال فيه، وأن المفسرين وأهل اللغة لم يتفقوا فيه على شيء حتى قال ابن جرير -رحمه الله- بأن هذه الأشياء كانت تصرفات لهم في هذه البهائم بغير حجة ولا برهان من الله -تبارك تعالى-، ولم يرَ الدخول في التفصيل لكثرة الاختلاف فيه، وهكذا مثل هذه الأماكن بعضهم يقول: بأن الصلوات كلمة في أصلها معربة، هكذا يقول بعضهم: صارت معربة، ومثل هذا الأصل أن يقال: يرجع فيه إلى ما هو موجود والواقع، ولكن الذي يبدو أن هذا الواقع يصعب أن يحدد من خلاله المعنى لكل واحدة تحديداً دقيقاً قاطعاً وإلا لم يختلف هؤلاء الأئمة في تفسير ذلك.

وقوله: {يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} فقد قيل: الضمير في قوله: {يُذْكَرَ فِيهَا} عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

هنا ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن المستفيض أن الصوامع للرهبان، هذا المستفيض عندنا، لكن المستفيض عندنا لا يحدد المعنى، كما تعرفون تغير كثير من الأشياء، ويقول: إن البِيع للنصارى والصلوات لليهود وهي كنائسهم، والمساجد للمسلمين، وابن جرير يرى بأن المستفيض هو أن الصوامع للرهبان، والبِيع للنصارى، والصلوات لليهود.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبِيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب.

المعنى الأول: يذكر فيها اسم الله كثيراً أن هذا الوصف عائد إلى الجميع، ومن أهل العلم من قال -كما سبق-: إن ذلك في زمن كل نبي فهذا لا إشكال فيه، فهي أماكن لذكر الله -عز وجل- كثيراً، ومن قال: إن ذلك إنما هو بحسب الواقع، فابن جرير -رحمه الله- قال: ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، فيكون الذكر الكثير في المساجد، فإذا قيل بأن ذلك بحسب الواقع فهل معابد اليهود ومعابد النصارى يذكر فيها اسم الله تعالى كثيراً؟ فكنائسهم مكان للرقص والشرك ومحادة الله -عز وجل-، فإذا قلنا: في زمن كل نبي، فهذا يعود إليها جميعا، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عُمَّارا وأكثر عُباداً، وهم ذوو القصد الصحيح.

يعني تبقى الصومعة للراهب يتعبد وينقطع بها، ثم بعد ذلك البيعة، ثم بعد ذلك الصلوات ثم المساجد على هذا القول.

وقوله: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد:٧ -٨].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القويّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ

الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [سورة الصافات:١٧١-١٧٣] وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة المجادلة:٢١].

نعم هذا التعقيب لقوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} بعد أن قال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} في غاية المناسبة وذلك أنه بين -تبارك وتعالى- سنته الجارية في المدافعة بين الناس، وبين الحق والباطل، والخير والشر، ثم بعد ذلك بين أن معونته ونصره وتأييده يكون لمن نصَرَه، ونصْرُه -تبارك وتعالى- إنما يكون بنصر دينه الصحيح، فالصراع قائم وهو مستمر إلى أن يصير الناس في آخر الزمان إلى الحال التي وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر حينما تأتي الريح الطيبة بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بزمان، ثم تأخذ أرواح المؤمنين، وعند ذلك لا يبقى في الأرض من يقول: الله، الله، فما قبل هذا يبقى هذا الصراع والتدافع، فالمؤمن يختار أن يكون في ركاب أهل الإيمان، ويكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصراً لدين الله -عز وجل-، وهؤلاء هم الذين وعدهم الله بالنصر، ويبقى آخرون يجلبونهم من خيل الشيطان ورجِله، فكل راكب في معصية فهو من خيله، وكل ماشٍ إلى ضلاله فهو من رجله، {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} [سورة الإسراء:٦٤]، والإنسان حارث وهمام، فعنده الهم يهم بالشيء، والإرادة، وعنده أيضا العمل: ((أصدق الأسماء حارث وهمام))[٦]، وإن كان فيه ضعف، لكن المقصود أن هذا المعنى يصدق على الإنسان ويصور حاله وواقعه، فإما أن تكون إرادته وعمله وسعيه في نصر دين الله -عز وجل-، وإما أن يصرف هذه الطاقة في معصيته، وهكذا الكاتب يصرف قلمه في الدعوة والذب عن الحق، أو قد يسلط كتابته وقلمه في السخرية من أهل الإيمان، ومن شرائع الله -عز وجل-، وإلى ما يسخط ربه -تبارك وتعالى- فيكون حرباً على الإسلام والمسلمين سواء كان صاحبه من المنافقين أو من غيرهم.

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ} [سورة الحج:٤١].

وروى ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: فينا نزلت: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}، فأُخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: "ربنا الله"، ثم مُكنّا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي.

القول بأن هذه الآية نزلت في كذا، أو نزلت هذه الآية فينا المقصود بذلك غالباً التفسير، وليس سبب النزول، بمعنى أن هذا ما تصدق عليه الآية، وتنطبق عليه، وهذا صحيح، لا إشكال أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى الناس دخولاً في هذه الآية، لكن ذلك لا يختص بهم دون غيرهم، وإنما هو وعد أو وصف لكل من كان بهذه المثابة في أي زمان، وفي أي مكان، فهذا كأنه بيان وتفصيل لما قبله من قوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} مَن هؤلاء الذين ينصرهم وهم ناصروه؟، قال: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ}، فكان من كان بهذه المثابة، فهؤلاء هم أولياء وهو

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، برقم (٤٩٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٠٣٢)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٩٧٧).

ناصرهم ومؤيدهم سواء كان ذلك في ميدان القتال، أو كان ذلك في مقام الحجة والبيان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إن ابن عباس -رضي الله عنه- يقول عن الآية: {إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ} [سورة الأنفال:٦٥] ثم بعد ذلك لما نسخ هذا قال الله -عز وجل-: {فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة الأنفال:٦٦] قال: أرى أن ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني أنه داخل فيه كما أنه في القتال، وكذلك أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيدفع الله بهؤلاء -وإن كانوا قلة- شراً كثيراً.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم.

وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ} الآية، ثم قال: إلا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولَّى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ} [سورة النور:٥٥].

وقوله: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}، كقوله تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة القصص:٨٣].

وقال زيد بن أسلم: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}: وعند الله ثواب ما صنعوا.

هي وصف لهذه الطائفة التي ينصرها الله -عز وجل-: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}، {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} فبالنسبة لمن بسط الله يده يكون ذلك بإقرار ذلك بالناس وبحملهم عليه، وبفعله بنفسه، ويكون ذلك وصفاً للجماعة المؤمنة، تكون بهذه المثابة تقيم الصلاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤتي الزكاة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} ابن جرير -رحمه الله- يربط هذا الجزء أو هذه الآية بقوله -تبارك وتعالى- قبله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [سورة الحج:٣٩]، وهنا قال: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} وقيل: إن ذلك يرتبط بما قبله مباشرة {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ}، وعلى قول ابن جرير -رحمه الله- يمكن أن تتوجه الأقوال التي مضت عن بعض السلف من أن ذلك في أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه قال: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} هذه الأوصاف المحددة لقوم أُذن لهم بالقتال بأنهم ظلموا، وحمل الآية على ما هو أعم من هذا قد يكون أولى، والله أعلم.

{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

{عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٢-٤٦].

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من خالفه من قومه: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} **إلى أن قال:** {وَكُذِّبَ مُوسَى} **أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.**

قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ}، ثم قال: {وَكُذِّبَ مُوسَى} قوم موسى الأصل هم بنو إسرائيل، فهل كذب بنو إسرائيل موسى -صلى الله عليه وسلم-؟ الجواب: لا، فهنا جاء الفعل مبنياً للمجهول، فبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: إن ذلك من أجل أن الذين كذبوه هم القبط، فقومه وهم الإسرائيليون لم يكذبوه، فقال: {وَكُذِّبَ مُوسَى} بني الفعل للمجهول.

{فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ} **أي: أنظرتهم وأخرتهم،** {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} **أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!**

نكير اسم مصدر بمعنى الإنكار، أي فكيف كان إنكاري وأخذي لهم؟!.

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه))، **ثم قرأ:** {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[٧] [سورة هود:١٠٢].

ثم قال تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} **أي: كم من قرية أهلكتها** {وَهِيَ ظَالِمَةٌ} **أي: مكذبة لرسولها،** {فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} **قال الضحاك: سقوفها.**

العرش يعني السقف، خاوية على عروشها، جنات معروشات يعني وضُع لها سقوف خشب مثل الأعناب يوضع لها سقوف، فهي خاوية على عروشها أي على سقوفها.

أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

خاوية على عروشها يعنى أنها صارت متهدمة قد سقطت حيطانها على سقوفها، فالعروش هي السقوف، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يعني متهدمة هذا من حيث ظاهر المعنى أخذاً من ظاهر اللفظ، ومثل هذا يعبر به عما هو أوسع من ذلك، يعبر به عن الخراب بمعناه الأعم، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} بمعنى أنها قد هُجرت وتركت وعطلت فلا ينتفع بها، وليس فيها ساكن، خاوية على عروشها بعد أن كانت عامرة بأهلها مزدهرة، تركت وهجرت ولم يعد ينتفع بها أحد {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} ظاهر اللفظ أنها على سقوفها، والمعنى الأوسع من هذا أن يكون المراد أنها قد هجرت وتركت ليس فيها أحد، أو قد هلك أهلها فصارت خراباً.

{وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} **أي: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها.**

{وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} **قال عكرمة: يعني المُبَيّض بالجص.**

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة هود، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

قوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} **أي لا يستقي منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها** يعني المدينة التي أهلكت أو القرية قد خلت من أهلها وتهدمت تساقط بنيانها وتلك البئر التي كانوا يزدحمون عليها لم يعد يردها أحد، ويحتمل أن يكون المعنى كما قال طائفة من أهل العلم: إن الله -عز وجل- يصور أحوال الأمم المهلَكة، وما حل بهم فذكر القرى التي أنزل بها بأسه فهي خاوية على عروشها قد هلك أهلها وتهدم بنيانها، ثم ذكر حالة أخرى مثل بئر ليست بهذه المدينة على وجه الخصوص، وإنما بئر أخرى قد عذب أهلها فهلكوا فبعد أن كانوا يردون هذه البئر ويستقون منها ويزدحمون عليها صارت معطلة، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} فيكون كأنه يقول: فكأين من بئر، فيكون معطوفاً على قرية، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} يعني يكون معطوفاً على قرية، فكأين من قرية، وكأين من بئر، فتكون حالات منفصلة، قرية نزل بها العذاب فحل بها الدمار وخلت من أهلها، وكم من بئر كان يردها واردون كثيراً، فلما نزل بهم بأس الله -عز وجل- صارت تلك البئر معطلة لا يستقي منها أحد، ويحتمل أن يكون هذا مرتبطاً بالمعنى الذي ذكر قبله، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}.

{وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} **قال عكرمة: يعني المُبَيّض بالجص.**

الجص مثل النُّورة، الأسمنت الأبيض معروف، الأسمنت الأبيض جص، والمنازل كانت تطلى به إلى عهد قريب جداً، ويوجد إلى الآن لكن بصورة أكثر تطوراً، فالبيوت التي تكون من الطين عادة تطلى بالجص، فبحسب حال هذه البيوت وحال أهلها من اليسار، فقد يكون الطلاء بالجص فقط أقل من متر بالأسفل من الداخل، وأعالي البنيان؛ ليكون ذلك أولاً للزينة، وأحفظ له من أجل أن يتماسك إذا نزل عليه المطر، وإذا كان الناس هؤلاء عندهم إمكانية أكثر فإن هؤلاء قد يطلونه على الأقل من الداخل، يطلون جميع الجدران بالجص، وقد يكون هؤلاء بصورة أكثر عناية فيضعون على السقوف من أسفل يعني بدلاً من أن يوضع الآن الجبس أو السقف المستعار كما يقال كانوا يضعون مثل الشراع خرقاً تغطي السقف الذي هو من خشب، وهذا موجود إلى عهد قريب، ولعل بقاياه ما زالت موجودة، فالحاصل أن هذا يكون في البيوت حينما تنمق وتزين، والقصر يقال لِمَا كان مبنياً من الحجارة، فالقصر المشيد كلمة مشيد يقال ذلك لِمَا شيد بالجص، والنهي عن تشييد المساجد اختلف العلماء في المراد به فبعضهم حمله على هذا التشييد على الجدران، ويحتمل أن يكون ذلك برفع البنيان، بناء مشيد أي مرتفع، فيحتمل هذا وهذا، قصر مشيد يعني الذي قد ارتفع، أو الذي قد وضع فيه الجص أو زين به قال: **يعني المبيَّض بالجص.**

وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبي المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المَنِيف المرتفع.

وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهلَه شدةُ بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} **[سورة النساء:٧٨].**

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: " القول في تأويل قوله تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}.

يقول تعالى ذكره: وكم يا محمد من قرية أهلكت أهلها وهم ظالمون؛ يقول: وهم يعبدون غير من ينبغي أن يُعبد، ويعصون من لا ينبغي لهم أن يعصوه، وقوله: {فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يقول: فباد أهلها وخلت، وخوت من سكانها، فخربت وتداعت وتساقطت على عروشها; يعني على بنائها وسقوفها"[٨].

وقال -رحمه الله-: "وقوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}، يقول تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} ومن بئر عطلناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها، فاندفنت وتعطلت، فلا واردة لها ولا شاربة منها، ومن {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} رفيع بالصخور والجص"[٩].

يعني تكون هذه حالة ثالثة.

وقال -رحمه الله-: " قد خلا من سكانه، بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم، فبادوا وبقيت قصورهم المشيدة خالية منهم"[١٠].

قال محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرى في حال كونها ظالمة أي: بسبب ذلك الظلم، وهو الكفر بالله وتكذيب رسله، فصارت بسبب الإهلاك والتدمير ديارها متهدمة وآبارها معطلة، لا يسقي منها شيء لإهلاك أهلها الذين كانوا يستقون منها.

وهذا المعنى الذي ذكره تعالى في هذه الآية جاء موضحا في آيات كثيرة"[١١].

والشنقيطي -رحمه الله- يرى أن قوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} معطوف على قرية كما سبق، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه هكذا.

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "والظاهر أن قوله: وبئر معطلة معطوف على قرية أي: وكأين من قرية أهلكناها، وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه من ساكنيه، وأهلكناهم لما كفروا وكذبوا الرسل، وفي هذه الآية وأمثالها تهديد لكفار قريش الذين كذبوه -صلى الله عليه وسلم"[١٢].

وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كافٍ، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار:

قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفِكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت، وقرِّره بالفناء، وبَصِّره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولةَ الدهر وفحش تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

---

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري (١٨/ ٦٥٢).

٩ - المصدر السابق (١٨/ ٦٥٢).

١٠ - المصدر السابق (١٨/ ٦٥٤).

١١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٥/ ٢٦٩).

١٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ الشنقيطي (٥/٢٧٠).

أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

السير في الأرض يشمل هذا وهذا، ولهذا يقول الله -عز وجل- في سورة السجدة **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}** [سورة السجدة:٢٧]، وقال: **{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ}** [سورة السجدة:٢٦]، فذكر السمع هنا **{أَفَلَا يَسْمَعُونَ}**؛ لأن مثل هذا تُتلقى أخباره فيه بما قص الله -عز وجل-، أو بما يتناقله الناس جيلاً بعد جيل، وأما آثار المطر فهي أشياء مشاهدة بالنسبة إليهم، فالسير في الأرض يكون بالتفكير والاعتبار، سير القلب والنظر بما حل بهؤلاء المكذبين، ويكون بالبدن بحيث يبصر الإنسان بعينه آثارهم كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ}** [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨].

{فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} أي: فيعتبرون بها، {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر، وما أحسن ما قاله أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشَّنْتَرِيني، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

يا مَن يُصيخُ إلى دَاعي الشَقَاء، وقَد * نَادَى به الناعيَان الشيبُ والكِبَرُ**

إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى * في رَأسك الوَاعيان السمعُ والبَصَرُ**

ليسَ الأصمُّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل * لم يَهْدِه الهَاديان العَينُ والأثَرُ**

لا الدّهر يَبْقَى وَلا الدنيا وَلا الفَلَك الـــ * أعلى ولا النَّيِّران الشَّمْسُ وَالقَمَرُ**

لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وَإن كَرِهـــ ــا * فرَاقَها، الثاويان البَدْوُ والحَضَرُ.**

لا شك أن العمى الحقيقي هو عمى البصائر كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

إنْ يأخذِ اللهُ من عينيَّ نورهَما *** ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ

وكما قال الآخر:

إذا أبصرَ المرءُ المروءةَ والتُّقى *** فإنّ عمى العينينِ ليس يضيرُ

فالعمى هو عمى القلب سواء كان ذلك العمى بالعمى عن الحق والهدى، فيكون شغله وعمله وكدحه فيما يرديه، ويضره، أو كان ذلك بأخذ نور القلب فيكون الإنسان مثل البهيمة، يعني إذا ارتفع عنه العقل يكون مثل البهيمة فيقع على الحية ويقع على البئر، ويقع على النار، ولا يميز مع أن له بصراً في عينه لكنه لا ينفعه، وقد تجد الإنسان الذي قد ذهب بصر عينه يرجع ذلك إلى قلبه فيكون ذلك سببا للقوة في الإدراك والفهم والحفظ، فيحصل له من العلم الشيء الكثير ويكون عنده من المعرفة بمصالحه، بل حتى في مشيه وتقبله لربما يكون كالمبصر، وهو يمشي ويجتنب الحفرة، وأشياء عجيبة تقع من هؤلاء مع أن بصره مفقود.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [سورة الحج:٤٧-٤٨].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢]، {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص:١٦].

وقوله: {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} أي: الذي قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

يعني هنا الله -عز وجل- يقول {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} وعده بإقامة الساعة مثلاً، وتعذيب الكفار، والإنعام على أهل الإيمان، ويحتمل أن يكون {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} هو ما وعدهم يعني أن العذاب الذي يستعجلونه هنا {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} يعني الدنيوي {فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [سورة فصلت:١٣]، وهم يقولون: أين هذا العذاب الذي تعدنا؟ {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} يعني الذي وُعدوا به في الدنيا، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} يعني من تعذيبهم مثلاً، ويحتمل أن يكون العذاب الذي استعجلوه هو العذاب الأخروي {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} [سورة ص:١٦] يعني نصيبنا من العذاب، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} بإقامة الساعة، وتعذيبهم، وذلك حاصل لا محالة، وهم استعجلوا العذاب الأخروي، واستعجلوا العذاب الدنيوي {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢] استعجلوا بعذاب الدنيا، واستعجلوا بعذاب الآخرة، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} يعني أن ذلك سيحصل ويقع في الوقت الذي حدده الله -عز وجل.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يرى أن العذاب الذي يستعجلون به هو العذاب الدنيوي.

وقوله: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} أي: هو تعالى لا يَعْجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإنْ أجَّلَ وأنظَرَ وأملى.

يعني هذا يتطاول بالنسبة للمخلوقين يطول ويتناهى صبرهم وينقضي في مدد قصيرة يعني إذا حصل لهم كرب وشدة أو غلبة من قبل أعدائهم لربما ظنوا أن هذا هو نهاية المطاف، وأن هذه الكربة ليس لها من الله كاشفة، وإنما المسألة مسألة وقت هذا يستمر مائة سنة، وقد يستمر أكثر، ولكن كل شيء له نهاية، فالله -عز وجل- يختلف عنده الحساب والمقادير عن الحساب والمقادير عند المخلوقين، ففي زمن فرعون من كان يظن أن فرعون وما كان له من القوة والغلبة والتسلط والجبروت أن هذا سيكون خبراً بعد عين؟، من كان يظن في ذلك الزمان؟، والله -عز وجل- قال: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [سورة يونس:٩٢]، كأن هؤلاء الناس لن يصدقوا، يعني بقي النساء والخدم، وهذا يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤] فهؤلاء سيصدقون أنه فعلاً هلك، تركه لهم من أجل أن يشاهدوه ويتحققوا من أنه كيف كان صاغراً ذليلاً، وأنه مخلوق مربوب لله -عز وجل-، وهذا لا يعني ما يزعمه اليوم من يقول: إن المراد أن هذا المحنط هو فرعون موسى الذي غرق، وهذا معنى {لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلْفَكَ آيَةً} ولكن أين هذه القرون من بعد الإغراق؟ في التابوت في الهرم لماذا لم يره الناس؟ ويكون آية لهم طول هذه القرون الطويلة، وحينما نزلت الآيات أين كان؟ هذا المقصود أن مثل هذه الأشياء لا نصدقها ولا نحمل كلام الله -عز وجل- فيها، فالحاصل أن الإنسان إذا نظر إلى مثل هذه الأمور يعتبر، فالحروب الصليبية لما جاءت استمرت وقتاً، ثم بعد ذلك التتر لما جاءوا بحملاتهم المتتابعة الناس الذين كانوا يعيشون في ذاك الوقت لربما يظنون أن هذا هو نهاية كل شيء، فالخليفة ذبح، وبغداد خربت، ولم يبق أمامهم إلا جند الشام ومصر، اكتسحوا، مذابح من بخارى وتلك البلاد، وسمرقند، يحصرون بين جبلين سبعين ألفاً من الجند ويقتلونهم، ولكن أين التتر الآن؟ وأين هولاكو؟ وأين تيمورلنك؟ وقل مثل ذلك في بريطانيا التي لا تغيب عنها الشمس إلى الهند إلى البلاد الشاسعة الواسعة إلى جزرهم في أوروبا قبضة وتلاشت ورجعت إلى حجمها الحقيقي، وهذا العصر أقول: مَن خلَفَهم من الأمريكان بهذا الانهيار الذي نشاهد أوائله الآن، وروسيا في نحو سبعين سنة إذا كنتم رأيتم بعض الصور للمذابح التي قاموا بها، تحمل الجثث بالجرافات، شحن ضخم ملايين من البشر قتلوهم، وشهد ذلك الجيل نهايتها، وحل بهم ما حل، وهذا {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، ولذلك انظر الآن حتى المقاييس بالنسبة للنائم أو الميت، النائم يمضي عليه ثلاثمائة سنة أو نحو هذا كأصحاب الكهف ثلاثمائة وتسع سنوات، فلما استيقظوا قالوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [سورة المؤمنون:١١٣]، {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة:٢٥٩]، فالشاهد أن الله أماته مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم، والإنسان إذا أراد أن يقضي الوقت بسبب العطش أو الجوع أو الصيام أو الحزن أو غير ذلك ينام، فيمضي اليوم الكامل الذي تتطاول ساعاته كأنه لحظة، وهكذا أهل القبور يكون ذلك بالنسبة إليهم وقتاً يسيراً.

ولهذا قال بعد هذا: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام))[١٣].

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو، به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه عن سعد بن أبي وَقاص، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إني لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم))، قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[١٤].

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، برقم (٢٣٥٣)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، برقم (٤١٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٩٨٢٣)، وقال محققوه:"حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣١٨٩).

١٤ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب قيام الساعة، برقم (٤٣٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٦٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٢٤٦).

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: " بيّن -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن اليوم عنده -جل وعلا- كألف سنة مما يعده خلقه، وما ذكره هنا من كون اليوم عنده كألف سنة، أشار إليه في سورة السجدة بقوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [سورة السجدة:٥]، وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة، وذلك في قوله: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [سورة المعارج:٤]، فآية الحج، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى، وتماثلها في المعنى، وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفا، وقد ذكرنا وجه الجمع بين هذه الآيات في كتابنا: "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب"، وسنذكره إن شاء الله هنا ملخصاً مختصراً، ونزيد عليه بعض ما تدعو الحاجة إليه.

فقد ذكرنا ما ملخصه: أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كُلًّا من ابن عباس، وسعيد بن المسيب، سئل عن هذه الآيات: فلم يدرِ ما يقوله فيها، ويقول: لا أدري، ثم ذكرنا أن للجمع بينهما وجهين: الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك، عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج: هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر; لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر كما قال تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدثر:٩-١٠] اهـ، ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان.

وذكرنا أيضا في كتابنا: "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [سورة الفرقان:٢٤] ما ملخصه: أن آية الفرقان هذه تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار؛ لأن المقيل القيلولة أو مكانها -وهي الاستراحة- نصف النهار في الحر، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة وابن جبير لدلالة هذه الآية على ذلك، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وفي تفسير الجلالين ما نصه: وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار، كما ورد في حديث "انتهى منه"، مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} وهو يوم القيامة بلا خلاف في ذلك.

والظاهر في الجواب: أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى بعد هذا بقليل {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [سورة الفرقان:٢٦]، فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك، وقوله تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [سورة القمر:٨]"[١٥].

---

١٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

لو حُسب من آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا ما تبلغ عُشر ألف سنة، وربما لا تصل إلى ثُمن ألف، ويوم القيامة خمسون ألف سنة.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٥)

من قوله تعالى"قل يأيها الناس" الآية ٤٩إلى قوله تعالى"إن الله لعفو غفور" الآية ٦٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

يقول الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(٤٩) سورة الحـج] **أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم {بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}** [سورة سبأ(٤٦)] **وليس إليّ من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب** [الرعد: ٤١].

{إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة الحـج(٥٠)] **أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم {لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** [سورة الحـج(٥٠)] **أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم.**

قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: "ورزق كريم" فهو الجنة.

{لَهُم مَّغْفِرَةٌ} [سورة الحـج(٥٠)] يعني: للذنوب، وستر للعيوب {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الحـج(٥٠)] يعني: الجنة، وما فيها من الملذات، والرزق الكريم هو الذي لا يكون معه شيء من الكدر والتنغيص، فهو الطيب الحلال الذي لا يسبقه أذى ولا ما يكدره، ولا يكون معه ما ينغصه، ولا يعقبه شيء من ذلك، هذا هو الرزق الكريم.

ثم قال: **{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}** [سورة الحـج(٥١)] **قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.**

وقال ابن عباس: {مُعَاجِزِينَ} مراغمين.

وهكذا قول من قال: "معاجزين" أي: ظانين أن يعجزوا الله فيفوتوه فلا يعذبهم، وهكذا قول من قال: "معاجزين" يعني: معاندين، وحمل ابن جرير -رحمه الله- قول من فسره بمثبطين على قراءة من قرأ: (معجزين)، أي مثبطين، والمقصود أن هؤلاء سعوا في آيات الله معاجزين، السعي يكون في الخير كما يكون أيضاً في الشر، الله -عز وجل- يقول: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة الإسراء (١٩)] فهذا سعي في الخير، وطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم .

{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة الإسراء (١٩)] هذا في الخير، {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحـج (٥١)] هذا في الشر.

السعي: الإسراع في المشي، وأما قوله -تبارك وتعالى- في الجمعة: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة(٩)] المقصود به العمل على حضور الجمعة، والتطهر والانصراف إليها، وترك الاشتغال عنها، والعمل على حضورها.

فالسعي يكون في الخير، ويكون في الشر، ويكون في العمل المباح في الدنيا والكسب والرعاية، وما أشبه ذلك، والساعي على الأرملة واليتيم يعني الذي يقوم على شئونهما.

والمقصود بالسعي في قوله –سبحانه-: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحــج (٥١)] السعي في الشر، فهم بفعلهم هذا وبسعيهم هذا يطلبون العجز، (معاجزين) أي: يطلبون أن يعجزوا الله -عز وجل-، بمعنى أنهم يثبطون عن دينه، ويصدون عن سبيله، ويكذبون رسوله -صلى الله عليه وسلم- بما يلقون من الشبهات، وما يحصل منهم من التعويق والتثبيط والأذى لمن آمن، فهذا كله داخل في "معاجزين"، بهذا قال الزجاج: ظانين أن يعجزوا الله فيفوتوه، ولا يعذبهم، وهذا قد يدخل في عموم المعنى "معاجزين" فهم يثبطون، ويطلبون إبطال هذا الدين، وتكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وقد يدخل فيه ما ذكره الزجاج، أي: أنهم يظنون أنهم يفوتون الله فلا يجازيهم، ولا يحاسبهم.

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة الحــج(٥١)] وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها -أجارنا الله منها-، قال الله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨].

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الحــج (٥٢-٥٤)] قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

الغرانيق المقصود بها طيور بيضاء، وهؤلاء يقولون أو يزعمون بأن أصنامهم -وهذه المعبودات الباطلة من دون الله -عز وجل- تطير إلى السماء على هيئة هذه الطيور البيض، فتشفع لهم عند الله -عز وجل-، على كل حال جاءت قصة الغرانيق هذه بروايات متعددة، ولكن لا يصح منها شيء، بل قال ابن خزيمة: إنها من وضع الزنادقة، وهذه خلاصتها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ سورة النجم على جمع من المسلمين والمشركين بمكة، فيقولون: إنه قرأ فيما قرأ: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، ففرح المشركون بذلك، ورأوا أنه قد ذكر آلهتهم بخير، فلما بلغ السجدة التي في آخر سورة النجم سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- وسجد من حضره من المسلمين والمشركين، فبلغ ذلك أهل الحبشة من المسلمين، وطار في الناس أن قريشاً قد أسلمت، فرجع بعضهم إلى مكة.

الحاصل أن هذه الحكاية قد تكلم عليها العلماء -رحمهم الله- كثيراً، وبينوا ضعفها، وصنف فيها بعضهم كتاباً مستقلاً.

الشيخ الألباني -رحمه الله– كتب كتابا بعنوان: نصب المنجنيق في نسف قصة الغرانيق، وضعفها ابن كثير، والشوكاني وجماعة من أهل العلم، فهي لا تصح، وإن كان الحافظ ابن حجر -رحمه الله- قواها ببعض طرقها، وخالف بذلك عامة أهل العلم، بل قال ابن خزيمة: هي من وضع الزنادقة، وفي الآية ما يبطل ذلك

ويرده، وذلك أن الله -عز وجل- في سورة النجم قال: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم} [سورة النجم(٢٣)] فكيف يذكر قصة الغرانيق ثم بعدها مباشرة يصف تلك الآلهة بهذا الوصف "إنها مجرد أسماء لا حقيقة لها، وليس لها نصيب من الإلهية" فهذا تناقض.

وعلى كل حال يبقى الكلام أيضاً في عصمة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن عصمته تأبى ذلك، والله -عز وجل- يقول: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [سورة الحاقة (٤٤-٤٦)] وقد عصمه الله -عز وجل- في أمر البلاغ، والرسالة، فكيف يُجري ذلك على لسانه -عليه الصلاة والسلام- فيذكر هذه الآلهة التي تعبد من دون الله -عز وجل- بخير؟، وكيف يسلط الشيطان عليه هذا التسليط؟! والله -عز وجل- يقول: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة النحل(٩٩)] كيف يتسلط هذا التسلط في قضية تتعلق بالبلاغ، والوحي؟! فهي قصة لا عبرة بها، ولا يلتفت إليها.

قال البخاري: قال ابن عباس: {فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـج(٥٢)] إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـج(٥٢)] يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه.

وقال مجاهد: {إِذَا تَمَنَّى} يعني: إذا قال.

ويقال: {أُمْنِيَّتِه} قراءته، {إِلا أَمَانِيَّ} [البقرة: ٧٨] يقولون ولا يكتبون.

قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: {تَمَنَّى} أي: تلا وقرأ كتاب الله {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـــهِ} أي: في تلاوته، وقال الضحاك: {إِذَا تَمَنَّى} إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

الآن (إذا تمنى) مجمل المعاني التي ذكرت تمنى: حدث، قال، تلا، ومثل: تلا، قرأ، لا فرق، فهذه متقاربة وإن لم تكن ترجع إلى معنى واحد، فيكون معنى: تمنى أي: قرأ، أو حدث، أو قال، أو تكلم، فألقي الشيطان في تلاوته أو قراءته أو في حديثه، فيكون تفسير (تمنى) قرأ أو حدث، ومن هذا قول حسان -رضي الله عنه- يمدح عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه-:

تمنّى كتابَ الله أوّل ليلِه

وقول الآخر:

تمنّى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ *** تمنِّي داودَ الزبورَ على رِسْلِ

يقول حسان:

تمنى كتابَ الله أولَ ليلِهِ *** وآخرَه لاقى حِمامَ المقادرِ

هذا البيت الأول، فكل واحد من هذين البيتين عبر فيه قائله بهذه اللفظة (تمنى) عن القراءة، تمنى أي: قرأ، وهذا معنى صحيح، معروف في كلام العرب، وهو أحد الوجهين في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ

{يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [سورة البقرة(٧٨)] ولهذا انظروا هنا قال: ويقال: أمنيّته قراءته، إلا أمانيّ: يقولون ولا يكتبون، يقولون يعني: يقرءون، ومنهم أميون يعني: جهلة، لا يعلمون الكتاب، لا يعلمون إلا أماني، ما معنى أماني؟ على أحد الوجهين: إلا قراءة، يعني يقرءون ولا يفهمون، ما يعرفون معاني الكتاب.
والمعنى الثاني: في الآية (إلا أماني) يعني: أماني من الأمْنية، يعني: يتمنون {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [سورة البقرة(٨٠)] {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [سورة البقرة(١١١)] فهذا المعنى الثاني في الآية الأخرى {أُمِّيُّونَ} [سورة البقرة (٧٨)]. في هذه الآية في سورة الحج: {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] توجيه ذلك وتفسيره بالقراءة أقوى من تفسيره بالمعنى الثاني وهو الأمنية، الشيء الذي يتمناه الإنسان ويؤمل حصوله، فهذا هو القول الثاني في الآية، فالألفاظ الأولى متقاربة وإن لم تكن ترجع إلى معنى واحد تماماً، لكنها متقاربة، تمنى بمعنى قرأ وحدّث أو قال، ألقى الشيطان في قراءته أو في حديثه، هذا المعنى الأول بصرف النظر عن العبارات التي عبر عنه بها.
المعنى الثاني: تمنى من الأمنية، بعضهم يقول: تمنى هداية قومه، بمعنى ألقى الشيطان في قلوب الناس من الوساوس والخواطر والشبهات ما يصدهم به عن سلوك طريق الهداية، فلم يقع ما تمناه النبي -عليه الصلاة والسلام- من هدايتهم {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج (٥٢)] ألقى ما يحول أو يمنع من تحققها، وبعضهم يقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} أي: جمحت هذه الأمنية، فالله -عز وجل- قد كتب {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف (١٠٣)] وأن أكثر الناس يتبعون الشيطان، والشيطان قد قال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سورة الأعراف (١٧)] وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام(١١٦)] فتكون أمنية النبي أن يهتدي هؤلاء الناس بهذا الحق والنور المبين، فتكون هذه الأمنية متجاوزة متعدية ما كتبه الله -عز وجل- لهم، فلم تأت على وزان ما كتبه الله لقومه، بل جمحت، لكن هذا التفسير فيه بُعد؛ لأن الله قال: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج (٥٢)] فكونه جمحت أمنيته، وتجاوزت الحد الذي كتبه الله -عز وجل- أمر بعيد.
فالإنسان يتمنى الخير دائماً لنفسه والناس، وليس ذلك من الشيطان، فيبقى الذي قبله أقرب منه، تفسير تمنى من التمني المعروف، وهو رجاء ما يبعد أو يستحيل وقوعه هذا الفرق بينه وبين الرجاء، الرجاء الشيء قريب المنال والطمع كذلك، أما التمني فمثاله: "فيا ليت الشبابَ يعود يوماً" هو الشيء المستحيل أو بعيد المنال، فإذا فسرت بالتمني المعروف فتفسيرها بمعنى {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] يعني: ألقى في نفوس الناس ما يصدهم ويصرفهم عن تحقق ما تمناه لهم نبيهم من الهداية.
فـــ "تمنى" بمعنى حدث، لكن في آية البقرة: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [سورة البقرة (٧٨)] تفسيرها بالأمنية -أي يتمنون على الله -عز وجل- من غير عمل ولا إيمان صحيح- أقرب من تفسيرها بمجرد القراءة، وإن كانت الآية تحتمل المعنيين، فالراجح في هذه الآية هنا في الحج عكس ما هو الراجح في آية البقرة.

وإذا فسرنا هذه الآية هنا بالتمني المعروف فقد ذكرت لكم وجهه، بما هو أرجح منه، وعليه عامة المفسرين من السلف والخلف، بمعنى قرأ أو قال أو حدث، فإذا فسر بقول عامة المفسرين تمنى بمعنى قرأ: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج (٥٢)] فبعضهم يقول: جرى ذلك على لسانه، وذلك من إلقاء الشيطان، فأبطله الله -عز وجل-، ويذكرون في ذلك روايات لا تصح -كقصة الغرانيق- وهذا باطل كيف يجري على لسانه والله قد عصمه؟! هذا مستبعد.

وبعضهم يقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج (٥٢)] يعني في قراءته، لكن ما وجه ذلك؟ كيف؟ فيقال: ألقى ذلك في أسماع المشركين ولم يجر على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يعبر بعبارة أصرح وأوضح فيقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ فسكت، فالشيطان حاكى صوته فقال: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، وهذه القصة باطلة، فلا داعي لحمل التفسير عليها، حتى لو قلنا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- سكت فحاكاه الشيطان، ما عندنا دليل أصلاً، وبعضهم يوجه ذلك فيقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج(٥٢)] يعني في قراءته، يلقي في قلوب السامعين من الشكوك والشبه والوساوس ما يجعلهم يرتابون، ولا تنقاد قلوبهم له، وهذا القول له وجه.

{أَلْقَى الشَّيْطَانُ} [سورة الحــج(٥٢)] ما عندنا دليل على أن الشيطان تكلم، وحاكى قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحاشا أن يكون ذلك قد جرى على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا باطل، ولا يدل عليه إلا قصة الغرانيق وهي باطلة، إذاً إذا أردنا أن نفسر تمنى بمعنى قرأ {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج(٥٢)] في قراءته، فيكون المعني: ألقى في قلوب السامعين من الشبهات والوساوس ما يصدهم به عن الإيمان، وهذا لله فيه حكمة، كما قال الله -عز وجل-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام(١١٢ - ١١٣)] لله حكمة في هذا كله، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فيكون هذا الإلقاء في القلوب هو من إلقاء الوساوس والشبهات والخواطر السيئة، فيكون ذلك صارفاً لهم وصادًّا لهم عن الإيمان.

وبعضهم يقول -مثل الفراء والكسائي-: {إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج(٥٢)] إذا حدث نفسه ألقى الشيطان يعني تكلم به وألقاه على مسامع الناس دون أن يجري ذلك على لسانه، وهذا الكلام ما عليه دليل، يعني: لو أردنا أن نوجه هذا القول للكسائي والفراء، يقولون: يحدث نفسه يعني: لو نزل شيء لا يستفز مشاعر المشركين، ولا يثير ردود أفعال سلبية عندهم، من أجل أن ينقادوا وأن يقبلوا وأن يذعنوا، فكان يحدث نفسه بشيء، أو لو نزل عليه شيء لربما يستميل قلوب الكفار، فهو يحدث نفسه بهذا، فيجريه الشيطان على لسانه، فيلقيه في مسامع هؤلاء الكفار، وهذا كله رجوع إلى قصة الغرانيق، يعني الشيء الذي يحدث به نفسه يجريه الشيطان على لسانه، فقال: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، وهذا كله لا دليل عليه، كما تلاحظون أن جملة من هذه الأقوال هي ترجع إلى قصة الغرانيق، لكنهم يحاولون أن يوجهوا ذلك.

والخلاصة: يقال: تمنى أي قرأ {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـج (٥٢)] أي: في قراءته، فيلقي في قلوب هؤلاء الناس ما قد يكون صارفاً لهم عن الإيمان به، والانقياد والإذعان والتصديق بهذا القرآن، والله المستعان، هذه هي الخلاصة من كلام أهل العلم في هذه الآية.

ويقول هنا: قال الضحاك: (إذ تمنى) إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، يعني ابن جرير يميل إلى أنها بمعنى تلا، وهذا قول أكثر المفسرين، لكن على كل حال الكلام في هذا كثير، ويمكن أن نقرأ في الأضواء تفسير الآية.

وقد تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عليها كلاماً جيداً كثيراً في الأضواء وفي دفع إيهام الاضطراب وفي رحلته إلى الحج، وأبطل قصة الغرانيق سنداً ومتناً.

قال رحمه الله: "معنى قوله تمنى في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان:

الأول: أن تمنى بمعنى: قرأ وتلا، ومنه قول حسان في عثمان بن عفان -رضي الله عنه-:

تمنى كتاب الله أولَ ليلِه *** وآخرَه لاقى حمام المقادر

وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلِه *** تمنِّي داودَ الزبور على رِسلِ

فمعنى تمنى في البيتين: قرأ وتلا.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، وكون تمنى بمعنى: قرأ وتلا هو قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: أن تمنى في الآية من التمني المعروف، وهو تمنيه إسلام أمته وطاعتهم لله ولرسله، ومفعول (ألقى) محذوف، فعلى أن تمنى بمعنى: أحب إيمان أمته، وعلق أمله بذلك، فمفعول (ألقى) يظهر أنه من جنس الوساوس، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو الرسول ما تمنى.

ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه: أن الشيطان يلقي وساوسه وشبهه ليصدّ بها عما تمناه الرسول أو النَّبي، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصد عن تمامها والحيلولة دون ذلك.

وهَبْ أن تمنى بمعنى: قرأ، ففي مفعول (ألقى) تقديران:

أحدهما: من جنس الأول: أي ألقى الشيطان في قراءة الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو النَّبي الشبه والوساوس ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه، ويتلوه الرسول أو النَّبي،

وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

وأما التقدير الثاني: فهو ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته ما ليس منها ليظن الكفار أنه منها.

وقوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحـج (٥٢)] يستأنس به لهذا التقدير.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق، قالوا: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ سورة النجم بمكة..."[1].

---

[1] - أضواء البيان (٥/٢٨٥).

يستأنس بهذا التفسير: يعني ألقى في قراءته شيئاً سمعوه، فينسخ، والنسخ هو الإزالة والإبطال، فهذا شيء سُمع، فهذه قرينة يحتج بها من يقول: إنه ألقى في مسامعه، سواء جرى على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو الشيطان حاكاه أو نحو ذلك فجاء {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] أي: يبطله، ولهذا فسر بالخواطر، وكيف يكون ذلك؟ بإبطال الشبهات، وبيان الحق.

وقال: "فلما بلغ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} [النجم:١٩-٢٠] ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النَّبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم.

وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثلنا لذلك بأمثلة متعددة، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النَّبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الشرك الأكبر، والكفر البواح الذي هو قولهم: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، يعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم:٢٣] وليس من المعقول أن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بالخير المزعوم إلا وغضبوا ولم يسجدوا؛ لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النَّبي -صلى الله عليه وسلم-، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين، كقوله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل:٩٩-١٠٠] وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر:٤٢] وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ} [سبأ:٢١] وقوله: {وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ} [إبراهيم:٢٢] وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه -صلى الله عليه وسلم- ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك؟

ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النَّبي -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤] وقوله: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [الشعراء:٢٢١-٢٢٢] وقوله في القرآن العظيم: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩] وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤١-٤٢] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم.

مسألة:

اعلم: أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعاً، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج.

والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر شرعاً، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان، فتبين أن نطق النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك الكفر، ولو سهواً مستحيل شرعاً، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعاً على كل حال، والغرانيق: الطير البيض المعروفة واحدها: غرنوق كزنبور وفردوس، وفيه لغات غير ذلك، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض، فتشفع عنده لعابديها -قبحهم الله ما أكفرهم-، ونحن وإن ذكرنا أن قوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] يستأنس به لقول من قال: إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره: ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها؛ لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم: نسخت الشمسُ الظل، ونسخت الريح الأثر، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان، ليس مما يقرؤه الرسول أو النَّبي، فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النَّبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده.

والدليل على هذا المعنى: أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق؛ لأنه قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الحج:٥٣] ثم قال: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} [الحج:٥٤] فقوله: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ} [سورة الحج(٥٤)] يدل على أن الشيطان يلقي عليهم أن الذي يقرأه النَّبي ليس بحق، فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة والعلم عند الله تعالى.

وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقى الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم.

ومعنى يحكم آياته: يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقى في قراءة الرسول والنَّبي فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم بذلك الامتحان، جاء موضحاً في آيات كثيرة.

وقوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي فيبطل الله -سبحانه وتعالى- ما ألقى الشيطان[٢].

---

[٢] - أضواء البيان (٥ / ٢٨٦- ٢٨٨).

على كل حال النسخ في اللغة: يأتي بمعنى الإزالة والإبطال، مثلما يقال: نسخت الريح الأثر، ونسخت الشمس الظل بمعنى إزالته.

ويأتي بمعنى النقل، فحينما يقال مثلاً: تناسخ المواريث بمعنى النقل، وما يقال من تناسخ الأرواح وهي عقيدة باطلة، يعني أن الروح تنتقل، وتقول: نسخت الكتاب أي نقلته، وهذا النقل على نوعين:

نقل بحيث لا يبقى في الأصل شيء، وهذا يصلح أن يفسر به: نسخت الشمس الظل، كما أنهم يقولون: أبطلتْه ويمكن أن يقال: نقلته إلى الناحية الثانية.

أما نسخ الكتاب فإن الأصل يبقى أليس كذلك؟ وأما قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية(٢٩)] فالنسخ هنا بمعنى الكتابة، تقول: آلة ناسخة، فالكتابة يقال لها: نسخ.

فالنسخ يأتي في اللغة ليس لمجرد معنى الإبطال، إنما يأتي بمعنى آخر مثل النقل، فإنه يقال له: نسخ، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ} [سورة الجاثية(٢٩)] يمكن أن يكون له ارتباط بهذا المعنى -معنى النقل- وذلك أنها تُنقل إلى ديوان الأعمال، تكتب فيه، ففيه معنى النقل، لكن هنا بمعنى الإبطال {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحـج(٥٢)] أي: يبطله.

وقوله: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، {حَكِيمٌ} أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الحـج(٥٣)] أي: شك وشرك وكفر ونفاق.

قال ابن جريج: {لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} هم: المنافقون {وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} المشركون.

للذين في قلوبهم مرض أي: شك وشرك وكفر ونفاق، المرض في القرآن جاء بمعنيين، ويحتمل أنه جاء بمعنى ثالث أيضاً.

المعنى الأول: بمعنى النفاق {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [سورة البقرة (١٠)] هذا مرض النفاق.

والمعنى الثاني: هو الميل المحرم إلى النساء، رجل صاحب شهوات وقلبه يميل إلى النساء ميلاً محرماً، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب (٣٢)] ليس معناه المنافق، وإنما الذي يميل إلى النساء ميلاً محرماً، قلبه مريض بالشهوات.

ويحتمل معنى ثالث: وهو ضعف الإيمان، فالله -عز وجل- يقول: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الأحزاب (١٢)] الأصل في العطف التغاير بين المتعاطفات -أنها متغايرة- مع أنه يحتمل أن يكون هذا من باب عطف الصفات على بعض، يعني يحتمل أن يكون الذين في قلوبهم فئة أخرى، وهم ضعفاء الإيمان، ويحتمل أن يكون هذا من باب عطف الصفات، فيكون الذين في قلوبهم مرض هذه صفة من صفات المنافقين، والأوصاف قد تذكر تباعاً بالعطف وبالإسقاط، إسقاط العاطف، وقد ذكرت هذا المعنى في بعض المناسبات سابقاً.

ومن أمثلته: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى (١-٢)] هذه صفته من غير ذكر حرف العطف {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} وذكر العاطف فقال: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى (٣-٤)] هذا كله عطف صفات، ويحتمل أن يكون {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة

الأحزاب (١٢)] أن يكون هذا من باب عطف الصفات، فهم طائفة واحدة، منافقون وفي قلوبهم مرض، فهذا من صفاتهم، ويحتمل أن تكون فئة أخرى وهم بعض ضعفاء الإيمان.

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب (١٢)].

فهنا قال: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج (٥٢)] إلى أن قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الحج (٥٣)] أي: شك وشرك وكفر ونفاق، ولا يفسر هنا بالذي عنده ميل محرم إلى النساء؛ لأن تفسيره بمرض الشك والنفاق أقرب؛ لأن هذا من باب الشبهات، ومعلوم أن الضلال له طريقان وبابان، الأول: هو الشبهات، والثاني: الشهوات.

فهنا مسألة إلقاء الشيطان الشبه وما أشبه ذلك هذا باب الشبهات -وليس باب الشهوات- يشككهم فيما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم.

قال: {وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} [سورة الحج (٥٣)] هم المشركون، وعلى كل حال الذين لا تلين قلوبهم بذكر الله -عز وجل-: {وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [سورة الحديد (١٦)] وهذه ليست من صفات أهل الإيمان.

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [سورة الحج (٥٣)] أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب.

يفسر الشقاق بالعناد، وأصل ذلك أن يكون هذا في شق وهذا في شق، يعني هذا في ناحية وهذا في ناحية، يعني أنهم مضادون معاندون لله -عز وجل-، محادون، كأن هذا في حد وهذا في حد، معادون هذا في عدوة وهذا في عدوة، والعدوة جانب الوادي {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [سورة الأنفال (٤٢)] عدوة الوادي الدنيا أقرب إلى المدينة في بدر، وهم بالعدوة القصوى، يعني مما يلي مكة، فيقال: عداوة، هذا كأنه في عدوة وهذا في عدوة، محادة هذا كأنه في حد وهذا في حد، مشاقة: كأن هذا في شق وهذا في شق.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ} [سورة الحج (٥٤)] أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢].

وقوله: {فَيُؤْمِنُوا بِهِ} أي: يصدقوه وينقادوا له {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} أي: تخضع وتذل.

الإخبات يفسر بالخضوع كما سبق، والإخبات كما يقول بعض أهل اللغة مشتق من الخبت وهو المكان المنخفض، فالمتواضع متطامن، والمتكبر مترفع متعالٍ.

وكل مخبت متواضع، فيظهر ذلك بسكون الجوارح على وجه التواضع، والخشوع لله -عز وجل-، {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} أي: تخضع.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

على كل حال يمكن أن يراجع كلام ابن القيم -رحمه الله- في تفسير هذه الآية، فقد تكلم كلاماً جيداً مفيداً على أنواع القلوب التي ذُكرت فيها، فذكر الله -عز وجل- القلوب القاسية، وذكر القلوب المريضة، وذكر القلوب المخبتة والمطمئنة، وهذه أنواع من القلوب من حيث الصحة والمرض، فالقلوب تنقسم إلى هذه الأقسام، وبعضهم يذكر غير ذلك، فيمكن أن يراجع كلامه هناك.

قال تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [سورة الحج(٥٥- ٥٧)] **يقول تعالى مخبرًا عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.**

{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} قال مجاهد: فجأة.

وقال قتادة: {بَغْتَةً} بغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

الآن في قوله - تبارك وتعالى -: **{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ}** [سورة الحج (٥٥)] (منه) الضمير يرجع إلى ماذا؟ إلى ما يلقيه الشيطان، أو إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ أو إلى القرآن؟ الأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا (في مرية منه) يعني من هذا القرآن، وهذا الذي عليه عامة المحققين، أن الضمير يرجع إلى القرآن.

وقوله: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر.

وقال عكرمة ومجاهد -في رواية عنهما-: هو يوم القيامة لا ليلة له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري؛ ولهذا قال: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} كقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] **وقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}** [الفرقان: ٢٦].

الآن هذان قولان في قوله: **{يَوْمٍ عَقِيمٍ}** [سورة الحج (٥٥)] القول الأول: أنه يوم بدر فهو يوم عقيم لأنه لا خير لهم فيه، قتل فيه سراتهم وأشرافهم، وأسر من أسر منهم، قتل سبعون، وأسر سبعون, وولوا مدبرين، لا يلوون على شيء، فهو يوم عقيم بالنسبة إليهم، هذا القول الذي قال به أبيّ بن كعب أنه يوم بدر هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله.

وهذا القول قد يؤيده ما قد يظهر من الأصول التي يبني عليها التفسير والقواعد، أن الأصل حينما يقول الله -عز وجل-: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}** [سورة الحج (٥٥)] فإذا كان عذاب (يوم عقيم) هو نفس يوم القيامة فصار من قبيل التكرار، والأصل خلاف ذلك (تأتيهم الساعة بغتةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يعني عذاب القيامة، فإذاً المعنى تكرر، كرره بصيغتين أو بلفظتين، والأصل أن الجملة الجديدة تؤسس معنى جديداً، فهذا توجيه لقول من قال بأنه يوم بدر.

والقول الثاني: أن المراد به يوم القيامة، وهذا تقويه قرينة في نفس الآية، وهي قوله: **{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا}** [سورة الحج (٥٦ -٥٧)] هل هذا يوم بدر؟ (يومئذٍ) أي: يوم بدر؟ الملك لله في كل وقت، لكن هل في يوم بدر الذين آمنوا وعملوا الصالحات في

جنات النعيم، والذين كفروا في النار؛ لأن هذا تفسير لقوله: {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} الملك يومئذٍ: في ذلك الحين، في ذلك اليوم لله -عز وجل- يحكم بينهم، ما هذا الحكم؟ (الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا) يكونون في النار، هذا هو الحكم، يحكم بينهم، فهذه قرينة في الآية ترجح أن المراد بقوله: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} [سورة الحـــج(٥٥)] أنه عذاب يوم القيامة، فأحياناً المعنى يتنازعه أكثر من أصل، أو أكثر من قاعدة، أو أكثر من مرجح.

فالقول الأول: المرجِّح فيه أن العذاب العقيم هذا إذا فسر بيوم القيامة كأنه تكرار، وكون اللفظ يؤسس معنى جديداً أولى.

والقول الثاني: تؤيده قرينة في الآية، والآية قد يكون فيها قولان، أو تحتمل معنيين، ويوجد فيها قرينة تؤيد أحد القولين، فقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [سورة الحـــج(٥٦)] قد يقول قائل: هذا يوم بدر، الملك لله يحكم بينهم بهزيمة الكفار ونصر المؤمنين، لكنه قال: {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الحـــج(٥٦ -٥٧)] إذاً هذا يوم القيامة وليس يوم بدر.

هنا قال: يوم القيامة لأنه لا ليل له، وهذا قول لبعضهم، يقال: فلان عقيم لا عقب له، ولكن من قال من أهل العلم: إن "يوم عقيم" هو يوم القيامة، يعني: لأنه لا خير لهم فيه، كما قال الله -عز وجل- في الريح التي أرسلها {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [سورة الذاريات (٤١)] يعني التي لا خير فيها، لا تأتي بالمطر، ولا تلقح الزرع، والشنقيطي -رحمه الله- رجح أيضاً هذا القول أن (يوم عقيم) هو يوم القيامة بناءً على القرينة هذه.

ولهذا قال: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} كقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] وقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: ٢٦].

{فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم.

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به، وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم {فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: في مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] أي: صاغرين.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [سورة الحـــج (٥٨-٦٠)] يخبر تعالى عمن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله {ثُمَّ قُتِلُوا} أي: في الجهاد {أَوْ مَاتُوا} أي: حتف أنفهم، أي: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل.

قوله: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج (٥٨)] المعنى المتبادر للهجرة: الانتقال من البلد التي لا يستطيع أن يقيم دينه فيها إلى بلاد يستطيع أن يقيم دينه فيها، هذا معنى الهجرة، ولا يشترط أن تكون الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ لأن المسلمين انتقلوا في البداية من مكة وكانت بلد كفر إلى الحبشة وهي بلد كفر أيضاً، فهو ينتقل من بلد لا يستطيع إقامة الدين فيها إلى بلد يأمن على نفسه، ويستطيع أن يقيم دينه وعبادته وشعائره في تلك البلاد، هذه الهجرة، فهذا هو المعنى المتبادر {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة الحـــج (٥٨)] انتقلوا من بلادهم إلى بلاد أخرى لإقامة دينهم.

والآية تحتمل أيضاً معنى أوسع من هذا، وهو كل من ترك بلده وموطنه في مرضاة الله -عز وجل- وفي سبيله؛ ولهذا جاءت بعض الآثار عن بعض الصحابة في هذا المعنى، في الذين خرجوا غازين فحصل لهم موت أو قتل، فهذا وإن كان لا يتبادر إلى الذهن من معنى قوله: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} [سورة الحـــج (٥٨)] أنه من خرج غازياً، لكن من الصحابة من حمل الآية على هذا؛ ولهذا فإن من أهل العلم من يفسرها بهذا المعنى الواسع، فيقول: إن (هاجروا في سبيل الله) أولى ما يدخل فيها الانتقال، انتقل من موطنه انتقالاً نهائياً، انتقال هجرة.

ويدخل فيها كل من خرج من موطنه ولو خروجاً مؤقتاً لإعزاز الدين، خرج في سبيل الله، ما معنى خرج في سبيل الله؟ خرج لإعزاز الدين، ويمكن أن يقال: للدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- فهي داخلة في هذا، ولا أقصد ما يصطلح عليه بعضهم من تقنين ذلك بمدد معينة يسمونها الخروج، كـــ أربعة أشهر، أو شهر، أو أربعين يوماً أو ثلاثة أيام، أو أربعة أيام، هذا ما أنزل الله به من سلطان، لا أقصد هذا، حتى لا يفهم الكلام على غير وجهه، وإنما خرج في سبيل الله، خرج غازياً أو مهاجراً أو داعياً إلى الله -عز وجل- فمات بهذا الطريق أو قتل، فإن الله -عز وجل- قال: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة الحـــج(٥٨)] إذاً المعنى المتبادر هو الانتقال من موطنه إلى موطن آخر، بمعنى الهجرة المعروفة، هل يدخل فيها ما وراء ذلك؟ كل خروج وانتقال من بلدة ولو مؤقت لإعزاز الدين يحتمل الدخول؟ بعض الصحابة فسروا بمثل هذا، والشوكاني كان يرى الحمل على المعنيين.

كما قال تعالى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَـــى اللَّـــهِ} [النساء: ١٠٠].

وقوله: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} أي: ليُجْرِيَن عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعيـــنهم {وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ}

هنا الرزق الحسن هو الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، وبعضهم يقول: الغنائم التي يحصلون عليها حينما يقاتلون أعداء الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر ذلك بالعلم النافع، والفهم الصحيح، وشعيب -صلى الله عليه وسلم- يقول: "ورزقني منه رزقاً حسناً" {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [سورة هود(٨٨)] ففسر الرزق

الحسن بالعلم والفهم، ولكن الأقرب هنا في تفسيره -والله أعلم- هو الجنة؛ لأنه قال: {لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ} [سورة الحــج(٥٩)] وهذا المدخل هو الجنة.

{لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ} [سورة الحــج (٥٩)] أي: الجنة، كما قال تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِــنَ الْمُقَــرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} [الواقعة: ٨٨ ، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كمــا قــال هاهنا: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} ثم قال: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِــيمٌ} أي: بمــن يهــاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك {حَلِيمٌ} أي: يحلم ويصفح ويغفــر لهــم الــذنوب، ويكفرهــا عــنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه، فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حــي عنــد ربــه يرزق، كما قال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْــدَ رَبِّهِــمْ يُرْزَقُــونَ} [آل عمران: ١٦٩] والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم.

هذا يفسر أيضاً {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} وكذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ} [سورة النساء(١٠٠)] هذا كله تفسره هذه الآية.

وأما من تُوفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآيــة الكريمــة مــع الأحاديــث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

روى ابن أبي حاتم عن شُرَحْبِيل بن السِّمْط، قال: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمــر بــي سلمان -يعني: الفارسي رضي الله عنه-، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: ((من مات مرابطًا أجــرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتّانين, واقرءوا إن شئتم: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [سورة الحــج(٥٨ - ٥٩)][٣].

وروي أيضاً عن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولاني حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنــازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق، والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُــوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} [سورة الحــج(٥٨)] الآيتين، فما تبتغي أيهــا العبــد إذا أدخلــت مــدخلاً ترضاه، ورزقت رزقًا حسناً؟، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت.

وقوله: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} [سورة الحــج(٦٠)] الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج أنهــا نزلت في سرية من الصحابة، لقوا جمعًا من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقــاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم.

---

[٣] - تفسير ابن أبي حاتم (ج٩/ص٣٩١) (١٤٨٤٢).

على كل حال مثل هذا من رواية مقاتل، ومقاتل متوفى سنة مائة وخمسين، فهذا الذي يسميه بعضهم المعضل، وبعضهم يتوسع فيسميه المرسل، ومنهم من يقول بأن المرسل هو ما يرويه غير الصحابي مطلقاً، فلا يقيد ذلك بالتابعي.

على كل حال قوله: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ}** [سورة الحــج(٦٠)] ابن جرير -رحمه الله- يقول: أي هذا النصر الذي أنصره لمن بُغي عليه على الباغي لأني قادر، ثم قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** [(٦١) سورة الحــج].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من آية ٦٠ إلى آية ٧٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة الحج: ٦١-٦٢]**، يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** [سورة آل عمران: ٢٦-٢٧]**، ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما وعد الله –تبارك وتعالى- بالنصر في قوله: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** [سورة الحج:٦٠]، قال بعدها: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** فكأنه يقول: لأني قادر، **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}** فذلك النصر الذي نصرناه لأنني قادر على ذلك، فلهذا قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** ومن كان بهذه المثابة فله القدرة التامة، وإنما ينصر من كان قادراً على النصر، ثم قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}**، فكأنه يقول: هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي لما قال في الآية التي قبلها: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}** ذلك الذي فعلته من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، لأني أنا الحق، فذلك الفعل لأني أنا الحق.

معنى إيلاج الليل في النهار: يعني في المُضِيِّ، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر في الليل**"، بمعنى أن الليل يمتد فيأخذ من النهار، فيتقاصر النهار، وتقل ساعاته، ويكون ذلك منصرفاً إلى الليل، وعكسه، فيكون إدخال هذا في هذا لهذا الاعتبار، ويحتمل معنى آخر من إدخال النور في الظلمة، وهذا عكسه، ويمكن أن ينظر لكلام ابن القيم -رحمه الله- في هذا المعنى، حيث قال -رحمه الله-: قال الله تعالى: **{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

القول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة، وعلى

هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات؛ لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين"[١].

وقال الإمام الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** ذكر غير واحد من المفسرين: أن الإشارة في قوله: "ذلك" راجعة إلى نصرة من ظُلم من عباده المؤمنين المذكور قبله في قوله: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ}** الآية"[٢].

وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

ثم قال -رحمه الله-: "أي: ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرة من شاء نصرته، ومن علامات قدرته الباهرة: أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل أو بسبب أنه خالق الليل والنهار، ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون أي: وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن الله هو الحق أي: الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده، وأن كل ما يُدعى إلهاً غيره باطل وكفر، ووبال على صاحبه، وأنه -جل وعلا- هو العلي الكبير، الذي هو أعلى من كل شيء وأعظم وأكبر، سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا بقوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}** الآية، ولآخره بقوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}**.

والأظهر عندي: أن الإشارة في قوله "ذلك": راجعة إلى ما هو أعم من نصرة المظلوم، وأنها ترجع لقوله: **{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ}** [سورة الحج: ٥٦]، إلى ما ذكره من نصرة المظلوم أي: ذلك المذكور من كون الملك له وحده يوم القيامة، وأنه الحاكم وحده بين خلقه، وأنه المُدخِل الصالحين جنات النعيم، والمعذب الذين كفروا العذاب المهين، والناصر مَن بُغي عليه من عباده المؤمنين، بسبب أنه القادر على كل شيء، ومن أدلة ذلك: أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا...

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث، فقال: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ**

---

١ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢٠٩/١-٢١٠).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (٢٩٣/٥).

مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة لقمان:٢٩-٣٠]، فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، استدل بها على قدرته في "الحج"، وفي "لقمان"، وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان:

الأول -وهو قول الأكثر-: هو أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر، إنما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف; لأنه أُولج فيه شيء من الليل، ويطول الليل في الشتاء; لأنه أُولج فيه شيء من النهار، وهذا من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيبوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج، ويظلم بفقده، ذكر هذا الوجه الزمخشري، وكأنه يميل إليه، والأول أظهر، وأكثر قائلا، والعلم عند الله تعالى"[٣].

وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، كما قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [سورة البقرة:٢٥٥]**، وقال: { الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}** [سورة الرعد:٩] **فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا.**

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج:٦٣-٦٦].

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء قحلة، {فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [سورة الحج:٥].

وقوله: {فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً}، الفاء هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: {خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤].

وقد ثبت في الصحيحين: "أن بين كل شيئين أربعين يوما" ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: {فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً} أي: خضراء بعد يبسها ومُحُولها.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٢٩٣-٢٩٤).

وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً} هذا الاستفهام للتقرير، أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة، والفاء للتعقيب المباشر، فلما لاحظ بعض أهل العلم هذا المعنى في "الفاء" حمله على معنى غير خضرة النبات، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه، وبعضهم خص ذلك بمكة، ولربما يوجد بعض العناصر من المعادن التي تتأثر بالماء، فيميل لون الأرض إلى الخضرة إذا وقع عليها الماء، عنصر النحاس، فإذا نزل الماء اخضر المكان، فجبال مكة مثلاً إذا نزل عليها الماء رأيت فيها اخضراراً ليس من النبات، فبعضهم حملها على هذا، لكن هذا المعنى متجه وهذا الشيء هو الذي أراد الله -عز وجل- أن يدلل به على قدرته وعلى عظمته.

وجانب القدرة والعظمة حينما يتغير لون الجبل ويميل إلى الاخضرار بسبب عنصر من العناصر المعدنية كالنحاس، والذي يتكرر في القرآن ليدلل الله -عز وجل- به على قدرته، لاسيما على إحياء الموتى هو إحياء الأرض بعد موتها باخضرار النبات، فهذا الذي دل عليه القرآن في جميع المواضع "والفاء" للتعقيب المباشر ولكن ذلك في كل شيء بحسبه، وذكر شاهداً على هذا وهو قوله - تبارك وتعالى-: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤] مع أن بين كل طور من هذه الأطوار أربعين يوماً، وعقب بالفاء، وهذا له نظائر في القرآن ولا إشكال فيه، فكل شيء بحسبه.

وقال الإمام الشنقيطي -رحمه الله-: "فإن قيل: كيف قال: فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب: أنه على قول من قال: فتصبح الأرض مخضرة أي: تصير مخضرة فالأمر واضح، والعرب تقول: أصبح فلان غنيا مثلا بمعنى صار، وذكر أبو حيان عن بعض أهل العلم: أن بعض البلاد تصبح فيه الأرض مخضرة في نفس صبيحة المطر.

وذكر عكرمة وابن عطية، وعلى هذا فلا إشكال، وقال بعضهم: إن الفاء للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه كقوله: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤] مع أن بين ذلك أربعين يوما كما في الحديث، قاله ابن كثير"[٤].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحَب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان:١٦]، وقال: {أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [سورة النمل:٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة الأنعام:٥٩]، وقال: {وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة يونس:٦١].

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٢٩٦).

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قد يتضمن المعنيين المذكورين، حيث قال في معنى اللطيف : "**أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر ولا يخفي عليه خافية فيوصل إلى كل منهم قسطه من الماء فينبته به**"، فالمعنى الأول: هو الذي يعلم خفايا الأمور -الأشياء الخفية- هذا الخبير.

والمعنى الثاني: اللطيف من اللطف وهو قد يعبر عنه بأنه قريب من الرفق، أو أخص من الرفق، أو نحو ذلك.

وليس معنى: "اللهم الطف بنا" اعلم بخفايانا وبدقائقها، ومعلوم أن أسماء الله -عز وجل-، قد يدل الاسم على عدة معانٍ، فالرب مثلاً له نحو سبعة معانٍ، وهكذا اللطيف: يعلم دقائق الأشياء، وهو أيضاً له معنى آخر قريب من الرفق إلا أنه أخص منه، وهذا كأنه يشير إليه كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء**، فهذا من اللطف، من معاني اللطيف، فإذا قلنا: اللطيف يعلم دقائق الأشياء، فالخبير يعلم الخفايا، فيرجع ذلك جميعاً إلى العلم.

وقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة الحج:٦٤] أي: **ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.**

أي ملكه، والاستفهام في {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً} تقريري، والرؤية هنا يمكن أن تكون رؤية بصرية؛ لأن هذا شيء يشاهد.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ} [سورة الحج:٦٥] أي: **من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال**: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [سورة الجاثية:١٣] أي: **من إحسانه وفضله وامتنانه.**

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ} "ما" هذه للعموم تعم الحيوانات والجمادات والزروع والثمار، كما قال: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ}؛ لأن ذلك صادر منه، وهذه الآية يرد فيها على النصارى، الذين يلبسون، ويشبهون، حيث يقولون: إن قوله -تبارك وتعالى- عن المسيح -عليه الصلاة والسلام- "وروح منه" أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، فيقولون: إنه روح غير مخلوقة، {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [سورة النساء:١٧١]، ونقول فما تقولون في قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} هل كل شيء هو صادر من الله، بمعنى أنه جزء من الله -عز وجل- أم أن ذلك تبرأ منه، خلقه وأوجده وأنعم به وتفضل؟!.

{وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} أي: **بتسخيره وتسييره أي: في البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه**، {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ} أي: **لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛**

ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الرعد:٦].

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} رد على أهل الفلك من المعاصرين الذين يزعمون أن السماء ليست بسقف ولا لها جرم، وإنما يقولون: هذا الفضاء بما فيه من غازات ونحو ذلك هو السماء، ولا يوجد هناك سقف، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [سورة الأنبياء:٣٢]، ويقول {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ}.

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج:٦٦]، كقوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة:٢٨]، وقوله: {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ} [سورة الجاثية:٢٦]، وقوله: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [سورة غافر:١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟، {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ} أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر، فأوجدكم {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي: يوم القيامة، {إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} أي: جحود.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} حينما يكون الإنسان نطفة فهو ميت، فأحياه الله -عز وجل- ونفخت فيه الروح {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [سورة الروم:١٩]، فيشمل المعنيين، المعنى الذي ذكره في الهدى والضلال، وكذلك المعنى المتبادر وهو الفرخ من البيضة، ويخرج الإنسان من النطفة، ولا يقولن قائل: إن النطفة فيها الحيوان المنوي، وإنه حي، وإنما يقال: نطفة ميتة، إنما الحياة ما كان فيها الروح، هذا هو المقصود، ولا عبرة بالاصطلاحات الحادثة، والذي لم تنفخ فيه الروح هذا يقال له: ميت.

قال تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [سورة الحج:٦٧-٦٩].

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا.

قال ابن جرير: يعني: لكل أمةِ نبيٍّ منسكا، قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لتردد الناس إليها وعكوفهم عليها.

فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمةِ نبيٍّ جعلنا منسكا فيكون المراد بقوله: {فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ} أي: هؤلاء المشركون، وإن كان المراد: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} جعلا قدريا -كما قال: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}- [سورة البقرة:١٤٨] ولهذا قال هاهنا: {هُمْ نَاسِكُوهُ} أي: فاعلوه، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ}، أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

قوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} المنسك فيها لغتان "منسِك" و"منسَك"، وفيها قراءتان متواترتان –أيضاً- فالمنسِك هذه لغة أهل الحجاز، والمنسَك هذه لغة لبعض العرب -لغة أسد-، وبالكسر قرأ بها حمزة والكسائي، وقراءة الجمهور بالفتح، كما نقرأ "منسَك"، وهذه اللفظة تطلق بإطلاق أخص، وتطلق بإطلاق أعم، وتطلق على معانٍ بين بين، فأخص إطلاقات هذه اللفظة أن المنسَك بمعنى الذبيحة، وإذا فسر بالمكان فيكون مكان الذبح خاصة، مكان للقرابين، مكان للذبائح، تقول: هذه نسيكة يعني الأضحية والهدي، ما يذبح للتقرب، وعلى سبيل التعبد يقال له ذلك وهذا المعنى صحيح لا إشكال فيه أنه يطلق على هذا المعنى الخاص، ويطلق على معنى أعم وهو التعبد، فيقال: فلان متنسك، فلان ناسِك، فهذا معنى عام، والنسك يطلق على العبادة بإطلاق لا يختص بنوع منها، كما أنه يطلق على معنى بين بين وهو أعمال الحج أو العمرة بما فيها الهدي، فيقال: أحكام المناسك، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} من أهل العلم من فسره بالمكان فقال: أي متعبَّداً، تفسيراً له بالمعنى الأعم، يعني أنهم يقصدونه ويتعبدون فيه، ومن فسره بالمعنى الأخص بالذبح قال: منسك أي: مكان يتقربون به إلى الله بالذبائح، ومن قال: إنه مصدر لا اسم مكان فسره بالشريعة {لِكُلِّ أُمَّةٍ} أي: لكل قبيلة من الناس، أو جيل، أو طائفة جعلنا منسكاً يعني شريعة، فالذين كانوا في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان ذلك بالنسبة إليهم هو التوراة، ثم بعد ذلك بعث الله عيسى -عليه الصلاة والسلام- فكان الإنجيل مع تعبدهم بالتوراة، ثم بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- فكان منسكهم هو القرآن، فهذا معنى ذكره بعض أهل العلم تفسيراً له بالمصدر لا أنه اسم مكان، واحتجوا بأنه قال: {جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} ولم يقل: ناسكوه فيه، ولو كان اسم مكان لقال: هم ناسكون فيه، وإنما قال: {هُمْ نَاسِكُوهُ} أي: جعلنا لهم شريعة، و{هُمْ نَاسِكُوهُ} أي: متعبدون فيها، وبعضهم فسره بالعيد وهذا لا يعارض بعض ما سبق؛ لأن المكان الذي يعتاده الناس بخصوصه، ويترددون عليه من أجل التقرب فيه بلون من العبادة سواء الذبح أو الحج إليه أو نحو هذا يقال له: عيد، ولهذا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك الرجل الذي نذر أن يذبح إبلاً في بوانة فسأله: ((هل كان فيها عيد من أعيادهم؟))[٥]، ولهذا يقال: إن عرفة عيد مكاني، يجتمع فيه الحجاج في مكان معين، فالأعياد منها ما هو مكاني، ومنها ما هو زماني، مثل عيد الفطر لا يختص بمكان فهو عيد زماني، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- نقل كلام ابن جرير، وابن جرير له كلام قبل هذا، ونقل الحافظ ابن كثير بعض كلامه بمعناه، وليس بحروفه، والأصل أن يكون النقل بالحرف إلا أن ينبه على أن هذا معنى كلام ابن جرير، قال ابن جرير -رحمه الله-: "وقوله: {فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ} يقول -تعالى ذكره-: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء عن النذر، رقم (٣٣١٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٤٥٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، أبو الحويرث حفص من رجال "التعجيل" انفرد بالرواية عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، ولم يؤثر توثيقه عن أحد، لكنه قد توبع، وعبدالله بن عبدالرحمن بن يعلى بن كعب: وهو الطائفي، مختلف فيه، قيل: لم يسمع من ميمونة، بينهما يزيد بن مقسم الثقفي، وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٤/٦) برقم (٢٨٧٢): "و إسناده صحيح رجاله رجال الشيخين".

بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك محق، وهم مبطلون"[٦].

وقال رحمه الله: "وقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} يقول: لكل جماعةِ قومٍ هي خلت من قبلك جعلنا مألفا يألفونه ومكانا يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملا يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر، يقال: إن لفلان منسكا يعتاده: يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وإنما سميت مناسك الحجّ بذلك، لتردّد الناس إلى الأماكن التي تُعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة، وفيه لغتان: "مَنْسِك" بكسر السين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و "مَنْسَك" بفتح الميم والسين جميعا، وذلك من لغة أسد، وقد قرئ باللغتين جميعا.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} أيّ المناسك عَنى به؟ فقال بعضهم: عنى به: عيدهم الذي يعتادونه.

وقال آخرون: عَنى به ذبحا يذبحونه، ودما يُهريقونه.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمِنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك فإنما هي هدايا أو ضحايا، ولذلك قلنا: عَنى بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا"[٧].

وقال: "وقوله: {فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ} يقول -تعالى ذكره-: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحقّ منهم، لأنك محقّ وهم مبطلون"[٨].

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ} الأظهر في معنى قوله: {مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ} أي متعبداً هم متعبدون فيه، لأن أصل النسك التعبد، وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى الله بالذبح، فهو فرد من أفراد النسك، صرح القرآن بدخوله في عمومه، وذلك من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك.

والآية التي بين الله فيها ذلك هي قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا} [سورة الحج:٣٤]، وقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكا} في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين، والباقون بفتحها"[٩].

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن (٦٨٠/١٨).

٧ - جامع البيان في تأويل القرآن (٦٧٩/١٨).

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن (٦٨٠/١٨).

٩ - أضواء البيان (٢٩٨/٥).

فابن جرير حملها على المعنى الأخص، والشنقيطي حملها على المعنى الأعم، وجعل التقرب بالذبح أحد الأنواع الداخلة تحته.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **ولهذا قال**: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ} أي: **طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود.**

وهذه كقوله: {وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ} [سورة القصص:٨٧].

وقوله: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ}، **كقوله**: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة يونس:٤١].

وقوله: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} **تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله**: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [سورة الأحقاف:٨]؛ **ولهذا قال**: {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، **وهذه كقوله**: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} **الآية** [سورة الشورى:١٥].

قوله تعالى: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} هذا فيه تهديد ووعيد، باعتبار أنه فيه تهديد مبطن غير صريح، فلم يقل: فإن جادلوك فموعدهم النار مثلاً، وإنما قال: {فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} فإذا كان أعلم بما تعملون ففي ضمنه التهديد أنه سيجازيكم، ويحاسبكم، ويعاقبكم؛ فهو لا يخفى عليه من أعمالكم ومن تكذيبكم ومن مجادلتكم شيء، فيجزي كل عامل بعمله، فهذا يقال له: تهديد مبطن يعني غير صريح، وهذه الآيات التي ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره قال: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} هذا في الإعراض؛ لأن الآية تضمنت التهديد غير الصريح، وتضمنت الأمر بالإعراض عن مجادلتهم؛ لأنهم لا يريدون الحق بهذه المجادلة، فهذا فيه تعليم من الشارع فيما يتصل بمجادلة من كان مبطلاً ألّا يجادل ولا يخاطب، وإنما يعرض عنه، وأمره بالإعراض فقال: {فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} كما في قوله: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} ما رد عليهم بمعنى أنه أبطل قولهم أو احتج عليهم أو نحو ذلك، وإنما فيه الإعراض عن مجادلتهم إذا كان المجادل لا يريد الحق، والتهديد: يقول: كقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠].

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء))[١٠].

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣).

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة))[١١].

ولهذا قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

قوله {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} "ذلك" الإشارة ترجع إلى شيء، يحتمل أن ترجع إلى ما قبلها مباشرة وهو الأقرب، فيكون المعنى أنّ جعْل ذلك في كتاب أو أن كتابة ذلك -يعني في اللوح المحفوظ- على كثرته يسير على الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو المتبادر، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل معنى آخر وهو أنه -تبارك وتعالى- قال: {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [سورة الحج:٦٩] يعني أن الحكم بينكم يوم القيامة على كثرة الناس، وعلى كثرة اختلافهم وتفرق آرائهم ومذاهبهم وأديانهم واعتقاداتهم يسير على الله -عز وجل- هكذا حمله بعض أهل العلم: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠] يعني الحكم بين الخلائق، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد به ما قبله وهو أن الله قد كتب ذلك جميعاً في كتاب، وهو اللوح المحفوظ.

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة الحج:٧١-٧٢].

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة المؤمنون:١١٧]، **ولهذا قال هاهنا: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ} أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وأتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوّل لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.**

ثم قال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء، {قُلْ} أي: يا محمد لهؤلاء، {أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

---

١١ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم: (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ١٧، برقم (٢١٥٥)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٢٧٠٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠١٧).

وقوله: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} أي: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان:٦٦].

بعض أهل العلم يقول في المراد بقوله: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ}: تعرف في وجوههم ما يُنكر من العبوس، ودلائل الغضب، وأمارات الشر التي تظهر على وجوههم مما يدل على حنقهم، وشدة تغيظهم على هذا الذي يتلو عليهم آيات الله -عز وجل- البينات، فيكون {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} أي: ما يُنكر من هذه الأمارات الظاهرة على هذه الوجوه الغاضبة.

وبعضهم يقول: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} يعني الإنكار عليك، أو أن هذه الوجوه منكرة لهذا الذي سمعتْه أو ما قرأه من التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وما شابه ذلك، وبعضهم يقول: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} يعني الترفع، والتكبر، والتعالي وما أشبه ذلك، وهذا يرجع إلى أصل المعنى وإن كان يختلف عنه في توجيهه، فالمقصود أنك تعرف في وجوه هؤلاء أمراً مستنكراً، فيكون المنكر هو ما يُنكر مما يظهر على هذه الوجوه إما من تكبر، وترفع، أو غضب، وحنق، وعبوس، واشمئزاز وما أشبه ذلك، ويمكن أن يقال: إن الآية تفسر بما هو أقرب من هذا كله {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} أي تعرف في وجوههم ما يدل على التوثب، والحنق، وفسره بما بعده وهو قوله: {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [سورة الحج:٧٢] فأنت تعرف في وجوههم المنكر بالدلائل والأمارات التي تدل على شدة توثب هذه النفوس، وتغيظها، وحنقها، حيث تريد البطش وإيصال السوء بمن تلا عليهم الآيات، ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} يقول: **أي النار وعذابها، ونكالها أشد، وأشق، وأطم، وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا**، بمعنى أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال بأن معنى {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ} يعني أنتم تريدون إيقاع المكروه بهؤلاء الذين يتلون عليكم آيات الله -عز وجل-، وهناك ما هو أعظم من هذا وهو ما ينتظركم من عذاب الله -عز وجل-، فالنار أشد من هذا الذي تريدون إيصاله من الأذى إلى هؤلاء الذين يتلون عليكم آيات الله، فهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: بِشَرٍّ من هذا الذي ظهرت أمارته من الحنق والغضب في نفوسكم النار التي تصيرون إليها، وابن جرير -رحمه الله- ذهب به إلى معنى آخر {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ} يعني: بأكره أو بما هو أشد كراهية من هذا الذي سمعتموه، أو من هذه الكراهية الشديدة حينما سمعتم آيات الله -عز وجل- هناك ما هو أشد إيلاماً لنفوسكم وهو النار التي تنتظركم، هذا أشد وأعظم من هذا التكره الذي حصل لكم حينما سمعتم الآيات تتلى، كرهوا سماع هذه الآيات، فالله يقول: هناك ما هو أشد كراهة في نفوسكم، وأعظم وقعاً وهو ما ينتظركم من العذاب في الآخرة.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:٧٣-٧٤].

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ} **أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به،** {فَاسْتَمِعُوا لَهُ} **أي: أنصتوا وتفهموا،** {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ

{يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك.

قوله تعالى: **{ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ}** الإشكال الذي عند الكثيرين في معنى المثل، وكثرة الاضطراب الذي تجده في كلام كثير من أهل العلم هو الذي جعل الكثيرين منهم في تفسير هذه الآية يقول بأقوال مخالفة تماماً لأقوال بعض السلف في الآية، والمثل له معنى في اللغة، وله معنى عند الأدباء، وله معنى عند البيانيين، والمثل الذي نردده ونقول مثلاً: قال المثل، كما في المثل غير مراد في كتاب الله -عز وجل-، ولا يوجد شيء من هذه الأمثال بالمعنى الذي عند الأدباء مثل: مَن عَزّ بَزّ، من غلب استلب وما شابه ذلك من العبارة المختصرة الوجيزة المعبرة التي قيلت في مناسبة، ثم صارت تذكر فيما شابهها، هذا غير موجود في القرآن؛ لأن الله لا يتمثل بكلام أحد من الناس؛ فالله أعظم وأجل شأناً، فالمراد بالمثل في القرآن بعض أهل العلم يُرجع ذلك في جميع استعمالاته إلى أنه يعود إلى معنى الشبه -متصل بمعنى الشبه-، ولهذا يقولون: قياس التمثيل إلحاق فرع بأصل، وقياس الفقهاء في حكم لعلةٍ جامعةٍ بينهما فيه شبه، ولكن هذا لا يتأتى في كل المواضع التي ذكر فيها لفظ المثل، فالمثل يأتي بمعنى الشبه ويأتي بمعنى الصفة، نقول: **{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}** [سورة محمد:١٥] يعني صفة الجنة، وهذا عبر به كثير من السلف وأئمة التفسير، ولا حاجة للتحمل والتكلف في إرجاع ذلك إلى الشبه، فالمثل أحياناً يطلق على معنى فيه شيء من المقايسة، وهذا له تعلق بموضوع الشبه، وهكذا حينما يقال: تصوير المعنى بصورة محسوسة، وإبراز المعنى المعقول بصورة حسية **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** [سورة البقرة:١٧]، هذا حال المنافق وتردده **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ}** [سورة البقرة:١٩] إبراز المعاني المعقولة بصورة محسوسة يقربها إلى الإفهام هذا يقال له: مثل، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يوسع ذلك جميعاً، والواقع أن هذا من صنيع شيخ الإسلام، وإذا استُبعدت المقدرات الذهنية عندنا في معنى المثل فهو الذي يمكن أن يشمل المواضع المذكورة في القرآن، وشيخ الإسلام يرى أن المثل يطلق على كل ما يحصل به الاتعاظ، والاعتبار من إبراز معنى المعقول، أو ذكر القصص، والأخبار، وكل هذه الأشياء هي أمثال، ولهذا يقول الله -عز وجل-: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}** [سورة العنكبوت:٤٣]، ويكون في الأمور التي يحصل بها التشبه **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** [سورة البقرة:١٧]، **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ}** [سورة الأعراف:١٧٦] وأحياناً لا يذكر لفظ المثل أصلاً **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ}** [سورة الرعد:١٧] ثم قال: **{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ}** [سورة الرعد:١٧]، فشيخ الإسلام يرى أن قصص الأنبياء هذه من قبيل الأمثال، فإذا قيل أمثال القرآن: يدخل فيها كل هذه الأمور، والمعاني التي يحصل بها الاتعاظ، والاعتبار، ويدخل فيها ما يذكر من الأوصاف، كصفة الجنة ونحو هذا، فوسعه جداً، أوسع الإطلاقات، أو التفسيرات للمثل هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وهذا يُحل به إشكالات، والذين استشكلوا لفظة المثل أن تذكر في غير المعاني التي تسبق إلى أذهانهم قالوا: ما فيه مثل هنا **{ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ}** ذكر صفة الآلهة المعبودة من دون الله -عز وجل-، ولهذا فإن بعضهم قال: **{ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}** إن الكفار ضربوا لله - عز وجل- مثلاً بهذه الآلهة المعبودة فجعلوا لها شأناً، وأضفوا عليها من صفات الآلهة -وهي جمادات لا تنفع ولا تضر- فوُجد نوع من

المشابهة بإعطاء هذه المعبودات أوصافاً أكبر مما تستحق، وجعلوا لها أوصاف الإلهية، شبهوها بالخالق، فهم يريدون أن يرجعوه إلى الشبه، هذا الذي حمل بعض المفسرين على أن يقول في {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ}: إن الكفار ضربوا لله مثلاً بجعل آلهة مزعومة تعبد من دونه -تبارك وتعالى- أضفوا عليها أوصاف الإلهية شبهوها بالخالق، الله يقول: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} معناه أن ما سيأتي بعده هو المثل، وهؤلاء قالوا: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} ضُرِب مثل: أن الكفار ضربوا لله المثل، فأبطل الله ذلك بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} لكن هذا تفكيك للكلام ولا يدل عليه السياق، ولهذا فإن المثل المضروب هو الذي ذكر الله -عز وجل-، والتشبيه فيه، إذا قلنا: إن المثل دائماً يرجع إلى معنى التشبيه، ومن وقف عند هذه القضية وقال: المثل لابد فيه من تشبيه حاول أن يوجد نوعاً من الارتباط بين التشبيه، أقول: لا حاجة لمثل هذا التكلف، فالمثل يطلق على الصفة، فهذه حال وصفة هذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى-، والمثل كما يقول ابن قتيبة: من عبد آلهة لم تستطيع أن تخلق ذباباً وإن يسلبها الذباب شيئاً لا تستطيع أن تستنقذه منه، ولهذا يعبر بعضهم كالنحاس فيقول: ضرب الله مثلاً للآلهة المعبودة من دون الله -عز وجل-؛ لأنها بهذه المثابة لا تستطيع أن تخلق أحقر الأشياء، ولا تستطيع أن تستعيد ما أخذه هذا المخلوق الضعيف منها، فهو مثل لهذه الآلهة المُدّعاة.

كما قال الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا قال: ((ومن أظلم ممن خلق خلقا كخلقي؟ فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبَّة))[١٢].

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبي زُرْعةَ، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله -عز وجل-: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة))[١٣].

ثم قال تعالى أيضا: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء،

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٠٨٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف من أجل شريك النخعي.

١٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٩٦]، برقم (٧١٢٠)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتا فيه صورة ولا كلب، برقم (٢١١١).

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [سورة البروج:١٢-١٣]، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات:٥٨].

وقوله: {عَزِيزٌ} أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانَع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

قوله: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} الأقرب -والله تعالى أعلم- عند الترجيح بين الأقوال هو ما ذكر ابن جرير -رحمه الله- بمعنى أن الله -عز وجل- قال: {وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} [سورة الحج:٧٣] فهي تطلب خلاصه واسترجاعه، قال: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} فالصنم يريد أن يسترجع هذا الشيء الذي أُخذ فهو طالب، والذباب مطلوب، والمقصود أن الله -تبارك وتعالى- بيّن حال هذه الآلهة المعبودة من جهة عجزها عن خلق أضعف الأشياء قدراً وهو الذباب، بأنها لا تستطيع أن تخلق ذباباً، لا تستطيع أن تستخلص ما سلبه الذباب منها مما يوضع عليها من طيب ونحو ذلك، ولا حاجة لتفخيم ما حقره الله -عز وجل-، أو ذُكر على سبيل بيان حقارته فيفخم كما يذكر بعض من تكلم في الإعجاز العلمي، فإذا سمعتَهم يتكلمون عن الذباب تجد أنهم يذكرون كيف أنه إذا امتص شيئاً فإنه يتحول إلى شيء آخر لا يمكن للبشر أن يرجعوه إلى طبيعته السابقة. أنتم الآن تضخمون الموضوع، والله -تبارك وتعالى- تكلم عن الأصنام هذه أنها لا تستطيع أن تستخلص هذا الذي أخذه الذباب منها، صاحب التفسير العلمي هذا الذي يتكلم الآن في هذه القضية يقول: إن البشر لا يستطيعون إرجاع هذا الشيء الذي امتصه الذباب؛ لأنه يفرز عليه إفرازات معينة ويتحول إلى مادة أخرى تماماً لا يمكن إرجاعه إلى حالته السابقة، ليس الكلام في تعظيم شأن الذباب، وكيف أن الذباب عنده هذه القدرة القوية التي أودعها الله -عز وجل-، فيحول هذه الأشياء إلى مواد أخرى، لو اجتمع البشر جميعاً على أن يرجعوها إلى حالها السابقة لا يستطيعون، فأنت بهذا الكلام جعلت الذباب شيئاً هائلاً، وليس المقصود هذا، وليس المقصود أن الناس بمختبراتهم ومعاملهم لا يستطيعون استرجاع ما أخذه الذباب، فالكلام في هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر وما تستطيع أن تأخذ هذا الشيء من الذباب بعد أن سلبه منها، فهي جمادات لا نفع فيها ولا ضر، هذا المخلوق الحقير لا تدفعه عن نفسها، ولا تستطيع خلقه، ولا إرجاع ما استلبه منها، ومثلما يقولون في البعوضة أيضاً: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً} [سورة البقرة:٢٦] ذكر الشيء الصغير الحقير يضرب به المثل فيأتون ويتكلمون عن البعوضة أنها مخلوق هائل، ويذكرون فيها من الخراطيم والأشياء والقدرات العجيبة، تفرز مادة وكذا، ويذكرون أشياء إذا قرأتها تخيل لك أن هذه البعوضة طيارة أباتشي، فالله ذكر هذه البعوضة على أنها مخلوق بسيط صغير لا يستحيي –تبارك وتعالى- أن يضرب به المثل للدلالة على معنى من المعاني، وهؤلاء يضخمون موضوع البعوضة جداً وهذا خلاف مقصود القرآن، ولكن هؤلاء كثير منهم يتكلم بلا علم، فيأتون بهذه الأمور المخالفة لمقصود الشارع من سياق هذه الآيات وتقريرها، الله يريد أن يحقرها وهم يأتون ويعظمونها.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...} الآية: "حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود

أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه؟!، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟!، وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهيّة التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يُصعَد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه.

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء الإلهيّة عنهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} قيل الطالب: العابد، والمطلوب: المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب: الإله الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل الطالب: الذباب والمطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستلِب والمستلَب، فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه"[١٤].

وقال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس جُعل لله مثل وذكر، ومعنى ضُرب في هذا الموضع: جُعل من قولهم: ضَرب السلطان على الناس البعث، بمعنى: جَعل عليهم، وضرب الجزية على النصارى، بمعنى جعل ذلك عليهم; والمَثَل: الشَّبَه، يقول جلّ ثناؤه: جُعل لي شبه أيها الناس، يعني بالشَّبَه والمَثَل: الآلهة، يقول: جعل لي المشركون الأصنامَ شبها، فعبدوها معي، وأشركوها في عبادتي. فاستمعوا له: يقول: فاستمعوا حال ما مثلوه وجعلوه لي في عبادتهم إياه شبها، وصفته: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا} يقول: إن جميع ما تعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو جمعت لم يخلقوا ذبابا في صغره وقلته، لأنها لا تقدر على ذلك ولا تطيقه، ولو اجتمع لخلقه جميعها، والذباب واحد، وجمعه في القلة أَذِبّة وفي الكثير ذِبَّان، غُراب، يجمع في القلة أَغْرِبَة، وفي الكثرة غِرْبان.

وقوله: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا} يقول: وإن يسلب الآلهةَ والأوثانَ الذبابُ شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه من شيء لا يستنقذوه منه: يقول: لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه.

---

١٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام ابن القيم (١/٢١٤).

واختلف في معنى قوله: {**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**} فقال بعضهم: عَني بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب"[١٥].

تم بحمد الله وفضله.

---

١٥ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٦٨٥/١٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٧)

من قوله تعالى"الله يصطفي" الآية ٧٥ إلى قوله تعالى"ونعم النصير" إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [سورة الحج: (٧٥- ٧٦)].

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالته، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}، أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام: (١٢٤)]**، وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** [سورة الحج: (٧٦)]**، أي: يعلم ما يفعل رسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} إلى قوله: {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}** [سورة الجن: (٢٦- ٢٨)] **فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}** [سورة المائدة: (٦٧)]**الآية.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}** [سورة الحج: (٧٥)] يصطفى من الملائكة، أي: يختار من يكلفهم برسالاته، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ}** [سورة فاطر: (١)]، وهكذا أيضاً **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}** فهؤلاء يبلغون رسالات الله -تبارك وتعالى- إلى أنبيائه ورسله، كما أنه أيضاً قد يرسل رسلاً ويكلفهم بما شاء، كما قال الله -جل جلاله-: **{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً}** [سورة الأنعام: (٦١)]، والضمير كما هو ظاهر في قوله: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** [سورة الحج(٧٦)] يرجع للمذكور قبله وهم الرسل، والله -عز وجل- يعلم أحوال خلقه لا يخفى عليه خافية **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}** [سورة البقرة: (٢٥٥)]، هذا في عموم الخلق، وهذه الآية في الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين يرسلهم من الملائكة، ومن الآدميين **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** أي: يعلم أحوالهم وما يقولون وما يجيبهم به أقوامهم، وهو يحفظهم ويكلؤهم ويرعاهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [سورة الحج: (٧٧-٧٨)].

عن عقبة بن عامر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما))[1].

وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}، **أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى:** {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}.

حديث عقبة بن عامر مرفوعاً فيه ضعف، والسجود كما هو معلوم لا يجب، ومن ترك سجود التلاوة فلا حرج عليه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} قال: أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)]، بمعنى: أن ذلك مقيد بالاستطاعة {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [سورة التغابن: (١٦)] فقوله -تبارك وتعالى-: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} أو {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} ليست بمنسوخة وإنما هي محكمة، ولكن ذلك مقيد بالاستطاعة، حيث إن الآية الأخرى توضحها {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [سورة التغابن: (١٦)]، ومن أهل العلم من أطلق النسخ وقد يريد به التقييد أو التخصيص، كما هو معلوم أن السلف يطلقون النسخ كثيراً، ويقصدون به ما يعرض للنص العام من تخصيص وللمطلق من تقييد بل وللمجمل من بيان، فكل يقال له نسخ، إضافة إلى ما عرف عند المتأخرين على سبيل التحديد بالنسخ وهو الرفع، فكل ذلك يقال له نسخ في لغتهم، وعلى كل حال بعض المتقدمين أطلق النسخ هنا وقصد به معنى الرفع، وهو معنى لا ينكر، والأقرب أن الآية ليست بمنسوخة، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)] بمعنى بحسب قدرتكم واستطاعتكم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني ويمنِّي الغرور، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعُدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا، واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم، وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته، وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق، وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل، فحق التقوى وحق

---

[1] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين (١/٣٤٣)، برقم: (٨٠٥).

الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحـج: (٧٨)]"[٢].

وقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}.

أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث

هذا ما جاء في عدد من الأحاديث، بعض هذه مخرج في الصحيحين، وسبق الكلام على هذا في التعليق على هذا الكتاب، وكذلك أيضاً في الكلام على الفقه -شرح كتاب المقنع- بصورة أوسع.

وعلى كل حال ظاهر بعض الأحاديث أن صلاة الخوف يمكن أن تقصر إلى ركعة واحدة، بل ذهب بعض الأئمة إلى أكثر من هذا، والمسألة فيها خلاف معروف، والمقصود هنا التمثيل، وليس المقصود به التحقيق والكلام عن الفقه في هذا الموضع، وبيان ما يتعلق بصلاة الخوف، إنما هو مثال سواء قلنا: إنه تقصر الرباعية إلى ركعتين أو يمكن أن تكون ركعة واحدة، والتوسعة والتخفيف قد بنيت عليه هذه الشريعة كما قيل: قد أسس الفقه على رفع الضرر، والمشقة تجلب التيسير، فهذه إحدى القواعد الخمس الكبرى، وأدلة ذلك كثيرة جداً، فالله -تبارك وتعالى- رفع الأغلال والآصار، وهي التكاليف الثقيلة الشاقة التي كانت على الأمم أو على بعض الأمم السابقة، لاسيما على بني إسرائيل {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [سورة الأعراف: (١٥٧)]، وهذا في سائر الأبواب، التوبة المعروفة المشهورة في التاريخ التي كتبها الله -عز وجل- على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، قال: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة: (٥٤)] فأمرهم بأن يقتل بعضهم بعضاً كانت تلك هي توبتهم، أما هذه الأمة فيكفي الإنسان أن يحقق في التوبة الشروط المعروفة، فيتوب الله -عز وجل- عليه.

وكانت اليهود إذا وقعت النجاسة على ثوب أحدهم فإنه يقطع الثوب، والمرأة الحائض لا تؤاكل ولا تجالس، وقل مثل ذلك في أمور كثيرة.

أما في شريعتنا فقد جاءت الرخص الكثيرة للمسلم، فالإنسان إذا كان مسافراً أو مريضا فله أن يفطر في رمضان، والصلاة تقصر للمسافر، ولم يكلف الله -عز وجل- هذه الأمة بما لا طاقة لها به في قوله - تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} [سورة البقرة: (٢٨٦)] الشاهد أن الله قال: قد فعلت، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحـج: (٧٨)] فهذا شامل لسائر الأبواب لا يختص بباب، وما تجدونه في بعض كتب التفسير من أقوال السلف أو بعضهم -رضي الله عنهم- في ذكر بعض هذه الصور أو الاقتصار على واحدة منها إنما ذلك من قبيل التوضيح والتفسير بالمثال لا الحصر، لا يقصدون به الحصر فهو عام.

---

[٢] - زاد المعاد (٣/٥).

وتُصلَّى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال -عليه السلام-: ((بعثت بالحنيفية السمحة))[3].

هذا الحديث بهذا اللفظ فيه ضعف هو حديث مرسل، ولكن الحديث الآخر حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو عند البخاري تعليقاً، وقد رواه الأمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال: ((الحنيفية السمحة))[4] يؤدي هذا المعنى تماماً.

وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن ((بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا))[5]، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} يعني: من ضيق.

أصل الحرج الضيق يقال هذا مكان حرج، وفلان في حرج، ويقال للشجر الكثيف الملتف حرجة، ولذلك يقال للمكان الذي يكمن فيه الأسد حرجة، وتجدون في السير في قصة غزوة بدر، قالوا: إن أبا الحكم -أي أبا جهل- كالحرجة، أي: أن حوله الرجال يحملون الرماح، فلكثرتهم حوله صار كالحرجة -الشجر الملتف- كما يقول كعب بن زهير في القصيدة المشهورة التي يمدح فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

مِنْ خادرٍ مِنْ لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ *** مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ غيلٌ دونَهُ غيلُ

فالغيل هو المكان الذي يكمن فيه الأسد، ويقال له حرجة، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} يعني: من ضيق، هذا تفسير له بالمعنى المباشر الذي تدل عليه اللغة، وما سبق إنما هو بيان للمقصود بالآية وتطبيقات ذلك من الشريعة.

وقوله: {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} قال ابن جرير: نصب على تقدير {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} أي: من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم.

هذا أيضا قال به الفراء، أي: كملّة أبيكم إبراهيم، فيكون نُزِع منه الخافض الذي هو حرف الجر "الكاف".

قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

ويكون منصوباً بفعل مقدر محذوف، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم، ويمكن أن يكون النصب على الإغراء، وبعضهم يقول: إن النصب هنا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله، وسّع عليكم دينكم توْسعة {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} فليس فيها حرج، إنما الأغلال حصلت للإسرائيليين مثلاً بسبب جناياتهم وذنوبهم وعتوّهم على الله -تبارك وتعالى- كما قال الله -عز وجل-: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ

---

[3] - رواه الإمام أحمد (٦٢٣/٣٦)، برقم: (٢٢٢٩١)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف.

[4] - رواه أحمد (١٨/٤)، برقم: (٢١٠٩).

[5] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما- إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٥٧٨/٤)، برقم: (٤٠٨٦)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٤١/٥)، برقم: (٤٦٢٣)، بلفظ: ((يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)).

عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} [سورة النساء: (١٦٠)]، وهكذا قال: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}[سورة الأنعام: (١٤٦)]، فهذا في غاية العسر، فحينما يأتون ويفحصون هذه الأشياء لاشك أن في هذا حرجاً كبيراً عليهم، وتجد هؤلاء لما ضاقوا بهذا الحرج ذهبوا وجملوها وباعوها وأكلوا ثمنها.

وبعضهم يقول: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} أي: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم، إنما يذكر هذا؛ لأن الإعراب هنا متصل تماماً بالمعنى.

قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [سورة الأنعام: (١٦١)] **الآية، وقوله:** {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ} **وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله:** {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ} **قال: الله -عز وجل-، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة.**

هذا الذي عليه أكثر السلف -رضي الله تعالى عنهم- والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فأقرب مذكور هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولكن هناك قاعدة أخرى وهي أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فكون الضمائر ترجع إلى شيء واحد أولى من أن تقول هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، فإذا نظرت من بداية سياق الآيات فقد قال -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ...} [سورة الحج: (٧٣)]، ثم قال تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ...} [سورة الحج: (٧٤-٧٨)]، فكل الضمائر ترجع إلى الله -تبارك وتعالى- وكون الضمائر ترجع إلى واحد أولى من أن يقال هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، ومثلنا على هذا بأمثلة متنوعة كقوله -تبارك وتعالى-: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفتح: (٩)].

فمن أهل العلم من قال: الضمير في قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- المذكور قبله، ومن أهل العلم من قال: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، أي: الله، {وَتُسَبِّحُوهُ} أي: الله، فالضمائر كلها له، والله أعلم.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، {وَفِي هَذَا} **يعني القرآن، وكذا قال غيره.**

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر {وَفِي هَذَا} يعني: القرآن، وهذا أيضاً اختيار كبير المفسرين ابن جرير {هُوَ سَمَّاكُمُ} أي: الله، هذا الذي عليه عامة السلف، فالله هو الذي سمانا وليس إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهذا القول اختاره ابن كثير بناءً على القاعدة.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا}، اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ "هو" من قوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ} فقال بعضهم: الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا، وهذا القول مروى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة، كما نقله عنهم ابن كثير.

وقال بعضهم: هو أي إبراهيم سماكم المسلمين، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} [البقرة:١٢٨] وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير.

وقد قدمنا أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وجئنا بأمثلة كثيرة في الترجمة، وفيما مضى من الكتاب، وفي هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب.

إحداهما: أن الله قال: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا} أي: القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير.

القرينة الثانية: أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم، فقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي: الله، وما جعل عليكم في الدين من حرج: أي الله، هو سماكم المسلمين: أي الله.

فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم.

فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف، لأن قوله وفي هذا -يعني القرآن- دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨]، يناسبه أن يكون هو سماكم -أي الله- المسلمين"[٦].

{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحج: (٧٨)]، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يُتلى على الأحبار والرهبان، فقال: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} [سورة الحج: (٧٨)]، أي: من قبل هذا القرآن {وَفِي هَذَا} روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جِثِيّ جهنم))، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال: ((نعم وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله))[٧].

قوله: {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [سورة الحج: (٧٨)]، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولا خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}

---

[٦] - أضواء البيان (٥ / ٣٠٢- ٣٠٣).

[٧] - سنن النسائي الكبرى (٢٧٢/٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (١٧٢٤).

لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: {فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة.

أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها وأدوا حق الله، فالفاء هنا تدل على التعليل، والأصوليون يسمون هذا بدلالة الإيماء والتنبيه، بمعنى أن الله -عز وجل- يذكر شيئاً ثم يرتب عليه الفاء كهذا، يقول: إعطاؤه فشكره، فما علة الشكر؟ هو العطاء، ابتُلي فصبر، ما علة الصبر؟ البلاء، وضابط هذه الدلالة: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً، سكر فهذى، لماذا هذى؟ لأنه سكر، فهنا {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [سورة الحج: (٧٨)] إلى آخره، ثم قال: {فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} من أهل العلم من يقول خص الصلاة والزكاة بالحكم؛ لأن الصلاة والزكاة أشرف العبادات.

وقوله: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ}، أي: اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به {هُوَ مَوْلاكُمْ} أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم {فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ}، أي: اعتصموا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه، وهذا آخر تفسير سورة الحج، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون من الآية ١ إلى الآية ٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ*فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ*أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ*الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة المؤمنون: (١-١١)].

قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {خَاشِعُونَ}: خائفون ساكنون.

وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهري.

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: الخشوع: خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي.

وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح.

والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((حُبب إلي الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة))[1].

قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}** الخشوع سبق الكلام عليه مفصلاً في الأعمال القلبية، وذكرت هناك أن من السلف من فسر الخشوع بجزء معناه، أن بعضهم فسره ببعض آثاره ومقتضياته كالذي يقول: سكون الجوارح فهذه من آثار الخشوع، وبعضهم يفسر الخشوع بسببه، وعلى كل حال لا شك أن الخشوع منبعه ومصدره ومنشؤه من القلب، تلك الخشية التي تنبعث وتظهر آثارها على الجوارح، فيظهر التواضع والسكون ولهذا فإن بعضهم يفسر الخشوع بالسكون، وبعضهم يقول: هو التواضع، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ...}** [سورة فصلت: (٣٩)]، فالأرض الخاشعة هي الهامدة التي لم تتحرك بالنبات ولم تربُ، فإذا أنزل عليها المطر اهتزت، وتحركت بالنبات وارتفعت سواءً كان هذا الارتفاع في نفس التربة لما يوجد من تحرك النبات في داخلها لتنشق عن مسمار النبات، أو كان ذلك بارتفاع النبات فيكون ذلك ارتفاعاً في الأرض.

---

[1] - رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٧/٦١)، برقم: (٣٩٣٩)، وأحمد (١٩/٣٠٥)، برقم: (١٢٢٩٣).

ومعنى "أفلح" أي: ظفر بالمطلوب ونجا من المرهوب، ويطلق الفلاح على البقاء الأبدي السرمدي، وعليه يكون المعنى في قول الشاعر:

لو أنّ عبداً مُدرِكُ الفلاحِ***لناله مُلاعِبُ الرماحِ

فركوب الأخطار لا يقدم الأجل، ومن دخل الجنة فإنه حصل له الأمران، يكون قد ظفر بالمطلوب ونجا من المرهوب، وحصل له البقاء الأبدي السرمدي.

وأول وصف ذكره الله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: (٢)]، وهذا يقتضي أنهم بالضرورة يحافظون عليها، فالذي لا يصلي لا يكون قد حقق الخشوع، ولا يكون مفلحا.

وقد بدأ بصفات المفلحين فيما يتصل بالصلاة، وختم بذكر الصلاة فقال: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [سورة المؤمنون: (٩)].

وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [سورة المؤمنون: (٣)]، أي: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك -كما قاله بعضهم- والمعاصي -كما قاله آخرون- وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

هذا من تفسير اللغو بأعم معانيه، وهذا أحسن من أن يحصر بمعنى خاص، والسلف قد يذكرون بعض الصور والأمثلة ولا يقصدون بها الحصر، فكل ما لا يحبه الله -عز وجل- ولا يرضاه من العبد، وكل تضييع وتفريط وكل ما أشغل عن ذكر الله -عز وجل- فهو من اللغو، فيدخل في ذلك أمور كثيرة جداً من التضييع والتفريط، منها: سماع المعازف والأغاني، ومجالس الغيبة، والمجالس التي تضيع فيها الأوقات بلا طائل ويخوض فيها الخائضون فيما يعنيهم وما لا يعنيهم، وكل ما لا يحبه الله تعالى داخل في هذا.

وهذا الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- ولا يختص ذلك بلون من الباطل، والله أعلم.

كما قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [سورة الفرقان: (٧٢)]، قال قتادة: أتاهم واللهِ من أمر الله ما وقفهم عن ذلك.

هكذا قالوا أيضاً في قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [سورة الفرقان: (٧٢)]: يدخل فيه شهادة الزور المعروفة، ويدخل فيه حضور مواطن الباطل، فلا يحضر أعياد المشركين ولا يحضر الأماكن التي فيها منكرات.

وقد جعل الله -تبارك وتعالى- الإعراض عن اللغو من أسباب الفلاح مع أن الناس يتهاونون في هذا كثيراً، حتى بعض من ينتسب للعلم أو الخير، وينبغي للإنسان أن يرفع نفسه عن ذلك.

وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [سورة المؤمنون: (٤)] الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام: (١٤١)] .

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: ٩-١٠].

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [سورة المؤمنون: (٤)] هذه السورة مكية بالاتفاق، والعلماء -رحمهم الله- تجد بعضهم إذا مر بموضع كهذا فإنه قد يلجأ إلى تأويل الآية.

والأصل أن الحكم بأن الآية نازلة بمكة أو المدينة مبني على النقل ممن شاهدوا التنزيل وحضروه، لا بناءً على المعنى، فعندما يقول قائل: إن الآية التي يذكر فيها النفاق نازلة في المدينة، والآية التي يذكر فيها اليهود كذلك مدنية.

فنقول: لا حاجة لمثل هذا فالآية قد تنزل قبل تقرير الحكم.

وقد يكون معنى الآية غير ما ذكر أو غير ما توهمه هذا القائل، فهذا في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}، فمن نظر إلى أن السورة مكية ويرى أن الزكاة -كما هو مشهور- لم تفرض إلا في المدينة يقول: المقصود بالزكاة هنا زكاة النفوس، أو يلجأ إلى القول بأن هذه الآية مستثناة وأنها نازلة في المدينة، ولا ضرورة لهذا، فيمكن أن يقال بأن الآية مكية والأصل أن جميع الآيات في السور المكية مكية، إلا بدليل.

فقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} الأقرب أن الزكاة فرض أصلها في مكة، ولكن التفاصيل المتعلقة بها في أنواع الأموال نزلت بالمدينة، فسورة الأنعام نازلة بمكة، وقد جاءت روايات كثيرة على أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، ومع ذلك تجد من يقول في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام: (١٤١)]: إن هذه مدنية باعتبار أن الزكاة فرضت بالمدينة، ولا حاجة لهذا، فهذه الآية مكية كغيرها من آيات السورة.

وقد قرن الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية بين الصلاة الزكاة، وهذا دليل على أن الزكاة هنا المقصود بها زكاة الأموال، قال -عز وجل-: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [سورة المؤمنون: (٢-٤)].

وإذا قلنا بأن الزكاة ليس معناها زكاة المال وإنما تزكية النفوس بالإيمان والعمل الصالح سيكون هذا بالنسبة لما قبله وما بعده من قبيل التكرار، والتأسيس مقدم على التوكيد، فكون المعنى يؤسس أو اللفظة تؤسس معنىً جديداً أولى من أن يكون هذا من قبيل تحصيل الحاصل، فهذه الأشياء المذكورة جميعاً في هذه الأوصاف هي من قبيل تزكية النفوس من الإيمان والعمل الصالح، فكيف يقال: إن قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [سورة المؤمنون: (٤)]، المقصود به تزكية النفوس؟، وعلى كل حال هذه الآية تحتمل المعنيين، وحملُها على زكاة المال هو الأقرب.

وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون: (٥-٧)]، أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومَن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [رواه المؤمنون: (٦- ٧)]، أي: غير الأزواج والإماء {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون: (٧)]، أي: المعتدون.

قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ} [سورة المؤمنون: (٥-٦)]، لم يقل الله -تبارك وتعالى- إلا عن أزواجهم، فعدي بعلى، وأهل الكوفة يقولون: يتضمن الحرفُ معنى الحرف فيقولون: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ} أي: إن على مضمن معنى عن.

ومن يقول بتضمين الفعل وما في معناه يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ}، حافظون مضمن معنى ممسكون عما حرم الله -تبارك وتعالى- أو قاصرون، فقاصرون، وممسكون يصح أن يعدى بعلى.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- "علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك"[٢].

وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالى- "ذكر -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها حِفظَهم لفروجهم أي من اللواط والزنا ونحو ذلك، وبين أن حفظهم فروجهم لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن بعقد الزواج أو بملك اليمن والمراد به التمتع بالسراري، وبين أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه، وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه وراء ذلك غير الأزواج.....

المسألة الثالثة: اعلم أنه لا شك في أن آية {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة المؤمنون: (١)] هذه التي هي {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون: (٧)] تدل بعمومها على منع الاستمناء باليد المعروف بجلد عُميرة، ويقال له الخضخضة، لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منيه بذلك فقد ابتغي وراء ما أحله الله فهو من العادين، بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا وفي سورة {سَأَلَ سَائِلٌ} وقد ذكر ابن كثير أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية على منع الاستمناء باليد، وقال القرطبي: قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز قال: سألت مالكاً عن الرجل يجلد عُميرة، فتلا هذه الآية: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [سورة المؤمنون: (٥)] إلى قوله: {الْعَادُونَ} قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي، وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة، وما روي عن الإمام أحمد -مع علمه وجلالته وورعه- من إباحة جلد عميرة مستدلاً على ذلك بالقياس قائلاً: هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها، فجاز قياساً على الفصد والحجامة".

كلام الإمام أحمد كما هو مشهور فيما ينقله بعض أهل العلم عنه ليس بهذا الإطلاق، فالإمام أحمد يقيد ذلك بحالة الضرورة أنه إذا كان يتضرر يعني وصل إلى حد الضرورة، فالضرورات تباح عندها المحظورات.

"كما قال في ذلك بعض الشعراء

إِذَا حَلَلْتَ بِوَادٍ لَا أَنِيسَ بِهِ***فَاجْلِدْ عُمِيرَةَ لَا عَارٌ وَلَا حَرَجُ

---

[٢] - الجواب الكافي (١٠٥/١).

فهو خلاف الصواب وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها؛ لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار كما أوضحناه في هذا الكتاب المبارك مراراً وذكرنا فيه قول صاحب مراقي السعود:

وَالْخُلْفُ لِلنَّصِّ أَوْ إِجْمَاعٌ دَعَا***فَسَادَ الاعْتِبَارِ كُلُّ مَنْ وَعَى

فالله -جل وعلا- قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [سورة المؤمنون: (٥)] ولم يستثن من ذلك ألبته إلا النوعين المذكورين في قوله تعالى {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [سورة المؤمنون: (٦)]، وصرح برفع الملامة في عدم حفظ الفرج عن الزوجة والمملوكة فقط، ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين دالة على المنع هي قوله: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون: (٧)] وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره ناكح يده، وظاهر عموم القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل من كتاب أو سنة يجب الرجوع إليه، أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى".

يعني لا يقاس هذا على الحجامة -إخراج فضلة من الدم- فليس كالدم الفاسد، والحجامة لا يحصل بها تلذذ، كما أن هذا المني الذي يخرجه الإنسان في الواقع هو ليس بشيء موجود ومجتمع في الإنسان فيحتاج إلى أن يخرجه حيناً بعد حين، وإنما هذا كما هو معلوم عبارة عن إفرازات توجد حينما يوجد مقتضاها، تتحرك الشهوة فتبدأ هذه الأشياء، ليست أشياء تجتمع وموجودة فبعد مدة يحتاج الإنسان إلى أن يستفرغها كما يحصل بالحجامة والفصد أو قطع العرق، يخرج الدم.

"وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية بعد أن ذكر بعض من حرم جلد عُميرة واستدلالهم بالآية ما نصه: وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجذري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين.........))[٣].

ذكر في نوادر المغفلين أن مغفلاً كانت أمه تملك جارية تسمى عُميرة فضربتها مرة، فصاحت الجارية فسمع القوم صياحها فجاءوا وقالوا ما هذا الصياح؟ فقال لهم ذلك المغفل: لا بأس، تلك أمي كانت تجلد عميرة[٤]".

---

[٣] - شعب الإيمان (٣٢٩/٧)، برقم: (٥٠٨٧).

[٤] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥ /٣٠٨-٣١٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون من الآية ٨ إلى الآية ٢٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [سورة المؤمنون: (٨)] **أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))**[1].

الأمانات تشمل كل ما اؤتمنتَ عليه من حقوق الله -عز وجل- وحقوق الخلق، فابتداءً من النفس فهي أمانة لا يجوز للإنسان أن يضيعها، أو أن يعرضها إلى التهلكة، وهو لا يملكها، ومن ثم فليس له أن يتبرع أو يتنازل عن شيء من أبعاضه، كذلك ما يتعلق بحقوق الله -تبارك وتعالى- من الفرائض، وما يتعلق بحقوق الخلق من أموال ائتمنوك عليها أو غير ذلك، فهذا كله من الأمانات، وبعض أهل العلم يفرق بين أحكام هذه الشريعة ويقسمها إلى أمانات وشعائر كما مر في الكلام على قوله تعالى: **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}** [سورة الحـج: (٣٢)]، فذكرت هناك أن من أهل العلم من يجعل الشعائر هي الأمور الظاهرة مثل الأذان وصلاة الجماعة، وما شابه ذلك، والأمانات هي الأمور الخفية مثل الطهارة، لو صلى من غير طهارة وما يعلم به أحد، والصيام وما أشبهه.

وعلى كل حال المعنى في قوله: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ}** يشمل كل حق لله -عز وجل- وكل حق للمخلوق، ومن ذلك النفس فهي ملك لله -جل جلاله-، وإذاً كل ما أمرك الله بحفظه فهو من الأمانات، وكذلك العهود تحمل على المعنى الأعم وهو كل ما أخذ الله - تبارك وتعالى- عليك العهد بحفظه من حقوق الله وحقوق الناس فهو داخل في هذا، وكل ما أخذ عليك العهد به من قبل المخلوقين فالأيمان داخلة في هذا، والوعد داخل فيه، وقد قال- تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً}** [سورة النحل: (٩١)]، ويقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ}**[سورة المائدة: (١)] فالتعاقدات التي تكون مع المخلوقين والمعاهدات، وما يقطعه الإنسان على نفسه كالنذر كل هذه الأشياء داخلة في العهد، **{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}** [سورة المؤمنون: (٨)] والراعي على الشيء أو للشيء هو القائم عليه بالحفظ والرعاية والاحتياط، والصيانة، والإصلاح مثلما يقال: راعي الغنم، وهو الذي يحفظها ويقوم على شئونها بما فيه صلاحها ونفعها وهكذا أيضاً الراعي يقال للأمير وما في معناه باعتبار أنه يقوم على مصالح هؤلاء وشئونهم بما فيه مصلحتهم، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن الولايات إنما المقصود بها إقامة الدين والدنيا.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١/١٦)، برقم: (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١/٧٨)، برقم: (٥٩).

فنصب الأئمة والولاة والحكام إنما من أجل أن يقيموا للناس دينهم ودنياهم بما فيه مصلحتهم، ويدفعون عنهم كل ما يعرض لهذه الضرورات من الآفات التي تبطلها أو تنقصها أو تؤثر عليها بوجه من الوجوه، يرفضونها من جهة الوجود، ومن جهة العدم.

وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [سورة المؤمنون: (٩)]. هكذا قراءة الجمهور، وقراءة حمزة، والكسائي بالإفراد **{صلاتهم}** فهي قراءة متواترة.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [سورة المؤمنون: (٩)]، أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: ((الصلاة على وقتها)). قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)). قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))[1]. أخرجاه في الصحيحين، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها

وهذا أعم بلا شك من الذي قبله، فالمحافظة على الصلاة لا تختص بالوقت، وإنما تشمل الوقت وتشمل غيره مما يجب المحافظة عليه كالطمأنينة، وما يكون في هذه الصلاة من شروط وواجبات وأركان، وما أشبه ذلك، فيأتون بها على الوجه المشروع.

وإن كان الذي يتوجه إلى الذهن أن المحافظة المقصود بها المحافظة على الأوقات، ولكن ذلك لا يختص بالوقت، فيحمل على أعم من ذلك، كما قال قتادة وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وفي مقابل هذا يقول الله -عز وجل-: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [سورة الماعون: (٤-٥)]، فبعض أهل العلم يقول: هو الذي يتركها حتى يخرج الوقت، وبعضهم يقول: حتى إذا قارب الوقت للخروج صلاها يعني يتركها إلى آخر الوقت، وهذا وإن قال به جماعة من السلف إلا أن المعنى أعم **{الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [سورة الماعون: (٥)].

وقد أخرج بعض السلف من هذه الآية معنى السهو في الصلاة؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال: **{عَن صَلَاتِهِمْ}** ولم يقل في صلاتهم، فحروف الجر تتناوب، فيدخل فيه تضييع الأوقات، وتضييع الشروط والأركان والواجبات، ويدخل فيه السهو في الصلاة الذي يكون بسبب الإهمال، والتفريط، والغفلة، والتضييع، فبعض الناس يدخل في صلاته، ويخرج منها ولا يدري ماذا قرأ الإمام، ولا يدري كم صلى من الركعات، فهذا داخل في قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [سورة الماعون: (٥)].

قال: وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن))[2].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها (١/١١٢)، برقم: (٥٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١/٨٩)، برقم: (٨٥).

[2] - رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء (١/١٠١)، برقم: (٢٧٧)، وأحمد (٣٧/٦٠)، برقم: (٢٢٣٧٨)، وصححه الألباني.

هذه من اللطائف، واللفتات الجميلة في هذا الكتاب، وذلك أن الله لما ذكر صفات أهل الإيمان افتتحها بالصلاة {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: (١- ٢)] واختتمها أيضاً بالصلاة، فدل على منزلة الصلاة فمن لم يكن كذلك -يعني من أهل الخشوع فيها والمحافظة عليها- فليس من أهل الفلاح.

ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة المؤمنون: (١٠-١١)]، وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن))[١].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} [سورة المؤمنون: (١٠)]))[٢] وقال ابن جريج عن ليث عن مجاهد {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ}، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولائك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولائك لو كانوا أطاعوا ربهم -عز وجل- بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى))[٣]، وفي لفظ له: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكاكك من النار))[٤] فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك قال: فحلف له، قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا} [سورة مريم: (٦٣)] وكقوله: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الزخرف: (٧٢)] .

ذكر المصنف -رحمه الله- الأحاديث السابقة من باب الاستطراد والزيادة في تقرير المعنى السابق، فلما ذكر أن لكل واحد منزلين، قال: وأبلغ من ذلك لمّا قال: إن أهل الجنة يرثون منازل أهل النار في الجنة والعكس، قال: وأبلغ من هذا أنه يدفع إليهم يقال هذا فكاكك من النار، فلا يكون فقط وارثاً لمنزله، لكن المعنى الذي يختص بنا هو ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- التوارث في المنازل، فهذا الحديث السابق عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما منكم من أحد إلا له منزلان:

---

[١] – رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي (٤/١٦)، برقم: (٢٧٩٠).

[٢] – رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، (٢/١٤٥٣)، برقم: (٤٣٤١)، وصححه الألباني.

[٣] – رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/٢١٢٠)، برقم: (٢٧٦٧).

٤ – رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/٢١١٩)، برقم: (٢٧٦٧).

منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} [المؤمنون: ١٠])).

صحيح ثابت، وهو من قبيل التفسير النبوي الذي نص فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– على الآية بعينها، وهناك نوع من التفسير النبوي لا يتعرض النبي –صلى الله عليه وسلم– للآية لكنه يذكر معنى، فالمفسر يربط بين الآية وبين المعنى، كقوله –تبارك وتعالى–: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [سورة الفجر(٢٣)]، فيأتي المفسر ويفسر الآية بقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها))[١]، فلم يتعرض النبي –صلى الله عليه وسلم– للآية.

وقد يكون الارتباط غير واضح فقد يخطئ المفسر، وقد يصيب، ولهذا يقال: إن تفسير القرآن بالسنة يدخله الاجتهاد، و خير ما يفسر به القرآن هو كلام رسول الله –صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم –رحمه الله–: "والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان والفراديس البساتين، قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم يقال: كرم مفردس أي معرش، وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب وجمعه الفراديس ..."[٢].

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٢ – ١٦].

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم –عليه السلام– خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون.

قال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم –عليه السلام– خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} [سورة الروم: (٢٠)].

قوله –تبارك وتعالى–: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} [سورة المؤمنون: (١٢)] السلالة فُعالة من السَّل، والسل هو استخراج الشيء من الشيء، يقال له السل تقول: سل الشعرة من العجين، استخرج الشيء من الشيء.

---

[١] – رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٤/٢١٨٤)، برقم: (٢٨٤٢).

[٢] – التفسير القيم لابن القيم (٢/٥٠).

وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**وهو آدم -عليه السلام- خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون**" يحتمل أن يكون المحدث عنه في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ}** هو آدم -عليه الصلاة والسلام- بخصوصه فهو أصل الآدميين، وهم خلقوا بعد ذلك من صلبه، من نطفة من ماء مهين.
ويحتمل أن يكون المقصود بالإنسان جنس الإنسان، وأنه في أصل خلقته يرجع إلى الطين.
يقول: "**قال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه**" النقل هنا في عبارة ابن جرير ليس بدقيق، فعبارة ابن جرير -رحمه الله-: "ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم وهي صفة مائه، وآدم هو الطين؛ لأنه خُلق منه"[1].

والكلام هنا يختلف عن كلام ابن جرير، فابن جرير يقول: إن الإنسان ليس هو آدم، إنما المقصود به الذرية خلقوا من سلالة أبيهم الذي هو الطين.
وابن كثير يقول: "**يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم -عليه السلام- خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون**" فكلامه محتمل عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، ابتداء خلق الإنسان، فمعنى ذلك أنه يقصد ابتداء خلق آدم أنه من سلالة من طين، وكلام ابن جرير أن الإنسان هو الذرية وليس آدم، وأن الطين هو آدم والسلالة منه، هي ماؤه
والتنوين في قوله: **{سُلَالَةٍ}** تنوين عوض، عوض عن آدم -صلى الله عليه وسلم.
قال: "**وقال قتادة: استل آدم من الطين**" هذا كلام يفسر كلام ابن كثير -رحمه الله- بمعنى أن آدم خلق من سلالة من طين، استل من الطين.
قال: "**وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق**" يعني: هو رجح قول قتادة، ووجه الترجيح أنه ما عهدت تسمية آدم بالطين، ثم إن الذرية لم تخلق من الطين، وقد جرت العادة في القرآن حينما يذكر الله -عز وجل- خلْق آدم أنه يذكر أنه خلقه من تراب من صلصال من حمإ مسنون، فحينما يقال: خلقنا الإنسان من سلالة من طين، معنى ذلك أنه استل من الطين في هذه الأطوار التي مر بها وهو تراب فلما خلط بالماء صار طيناً فترك فتغير فصار حمأً مسنوناً متغيراً ثم جف هذا الطين، وصار كالفخار، فهذا الجمع بين الألفاظ الواردة في القرآن في خلق آدم من تراب، ومن طين، ومن صلصال، فهي أطوار مر بها خلق آدم -صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك))[2] وقد رواه أبو داود والترمذي نحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح.
{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} [سورة المؤمنون: (١٣)]هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ} [سورة السجدة: (٧-٨)]، أي: ضعيف،

---

[1] - تفسير الطبري (١٩/١٥).
[2] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤/٢٢٢)، برقم: (٤٦٩٣)، وصححه الألباني.

كما قال: {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}[سورة المرسلات: (٢٠-٢١)] يعني: الرحم مُعد لذلك، مهيأ له.

هذا الحديث: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك)) يمكن أن يقال فيه بما يقوله أصحاب التفسير العلمي، أو الإعجاز العلمي –على سبيل الاحتمال– بأن العلم الحديث يقول: إن عناصر التربة جميعاً موجودة في الإنسان.

قوله: **{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً}** [سورة المؤمنون: (١٣)] فهذه قرينة تدل على أن الأول المراد به آدم –صلى الله عليه وسلم– فليس كل الناس خلق من الطين، ثم صار نطفة، إنما خلق آدم –صلى الله عليه وسلم– من الطين ثم كانت الذرية من النطفة، والمقصود بالنطفة الشيء اليسير من السائل أو من الماء أو نحو ذلك.

وقد قال الله –تبارك وتعالى– في وصف النطفة: **{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ}** [سورة السجدة: (٨)]. أي: ضعيف، والمهين ليس فقط الضعيف، بل هو الشيء الذي ليس له شأن ولا قيمة، ونحو ذلك، يقال: المهين غير العزيز، فالنطفة هي من الأشياء المستقذرة، ولهذا فإن الراجح الذي عليه عامة أهل العلم أن المني طاهر، وأما حك النبي –صلى الله عليه وسلم– له من ثوبه إن كان يابسا، فهذا من باب التنزه، ولا يدل على أنه نجس، فمثله مثل البصاق والمخاط، فهو مستقذر وليس بنجس.

وقوله: {إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [سورة المرسلات: (٢٢-٢٣)]، أي: مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً} [سورة المؤمنون: (١٤)]، أي: ثم صيرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة.

قال بعض أهل العلم: إن خروج الماء من بين الصلب والترائب راجع إلى الرجل فحسب، يعني: صلب الرجل وترائب الرجل، وهذا قال به جماعة من أهل العلم من المتقدمين من السلف.

وقوله: **{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}** [سورة المؤمنون: (١٣)] المقصود بالقرار المكين هو الرحم فهو في موضع يحصل به حفظ وصيانة هذا الجنين، ولذلك يمكن أن يذكر هنا ما يذكره أصحاب التفسير العلمي في هذا المقام فهو لا يعارض ظاهر الآية، ولا يعارض أقوال السلف حينما يصفون عظام الحوض بأنها أقوى العظام وموضع الرحم فيها، ثم ما يذكرون من أربطة، وما يذكرون من أن الجنين لا تأتيه أمور تؤثر عليه.

وقوله: **{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}** [سورة المؤمنون: (١٤)] قيل لها علقة؛ لأنها تعلق بجدار الرحم، وقوله: **{فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}** [سورة المؤمنون: (١٤)]، مضى الكلام على هذا في عدد من المناسبات بأن الفاء للتعقيب المباشر، وعبر بها هنا مع أن ما بين كل مرحلة ومرحلة أو طور وطور أربعون يوماً؛ لأن المباشرة في كل شيء بحسبه، وهذا سبق قريباً عند قوله –تبارك وتعالى– **{فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}** [سورة الحـج: (٦٣)].

قال عكرمة: وهي دم {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون: (١٤)]، وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

يعني: بقدر ما يمضغ، لحمة صغيرة، هذه هي المضغة، بقدر ما يمضغ، ولا حاجة للتكلف في هذا أن يقال: إنها بصورة المضغة، وكأنها قد مضغت، وفيها صورة أسنان كما يذكر أصحاب التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي، ليس هذا المراد بكلام العرب حينما يقال: هذا بقدر مضغة أو مضغة من الطعام أو نحو ذلك.

{فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [سورة المؤمنون: (١٤)]، يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

هذه قراءة الجمهور قراءة ابن عامر ورواية عن عاصم، ورواية شعبة عظماً ذات يدين، ورجلين، بعظامها، وعصبها، وعرقها، ويمكن أن يذكر كلامهم في أن البداية أنه يكون العظام على صورة كالغضاريف، ثم بعد ذلك تُكسى اللحم.

{فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [سورة المؤمنون: (١٤)]، أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [سورة المؤمنون: (١٤)]، أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب.

هذا تفسير الخلق الآخر، فكان قبل ذلك لا حياة فيه، ثم بعد ذلك نفخ فيه الروح فصار كائناً حياً، وبعضهم يقول: {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} بعدما كان بهذا الضعف مضغة، ثم صار عظاماً، ثم كُسي لحماً وأنشأناه خلقاً آخر بتكميل قواه، حتى صار بصورة أخرى، وحال أخرى، وعلى كل حال الأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} أنه بنفخ الروح والحركة صار خلقا آخر، إذ سمعَ وبصرَ، وتحرك واضطرب، وقبل ذلك كان جمادا لا حياة فيه، فصار إنسانا سويا.

وقال العوفي عن ابن عباس {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يعني: ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرماً.

هذه الرواية لا تصح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- فالله -تبارك وتعالى- ذكر أنه بعد النطفة، والمضغة والعظام التي كساها لحماً أنه أنشأ خلقاً آخر، وليس معنى ذلك أنه يكون شاباً ثم شيخاً، وإنما تحول إلى شيء آخر، فالذي يحصل بعد أن تُكسى العظام لحما أن يصور هذا بصورة إنسان، ثم تنفخ فيه الروح فيتحول إلى إنسان، ولا يقال له إنسان قبل نفخ الروح، فالإنسان هو مجموع الروح والجسد.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق: ((إن أحدكم ليُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا

ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها))[1] أخرجاه.

وقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [سورة المؤمنون: (١٤)]، يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

هل المراد بالخلق التصوير، ويكون المعنى: أحسن المصورين والمشكلين، أو المقصود به أحسن المقدرين، أو المقصود به أحسن الصانعين؟ فالخلق يأتي أحياناً بمعنى الصنع، ويأتي بمعنى الإيجاد والإنشاء، ويأتي بمعنى التقدير، ويأتي بمعنى التصوير كقوله -تبارك وتعالى- {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [سورة الحشر: (٢٤)] فمن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- وسبقه إلى هذا القول مجاهد، فقال: أحسن الخالقين أي أحسن الصانعين، بينما بعض أهل العلم يقول: {أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} يعني: أحسن المقدرين، ففسر الخلق بمعنى التقدير، وهذا الذي ذهب إليه العلامة الشنقيطي -رحمه الله.

ومن المعلوم أنه لا يمتنع أن يوصف المخلوق بأنه يخلق، فيقال: إن كان المقصود به الإيجاد من العدم هذا لا يكون إلا لله -عز وجل.

وإن كان المقصود بالخلق التقدير، فقد يوصف بهذا، ومنه قول الشاعر:

فلأنتَ تفري ما خلقتَ*** وبعضُ القومِ يخلقُ ثم لا يفري

فقوله: تفري ما خلقتَ، يعني: أنك تقدّر ما خلقت، أي: ما قدرت، فأطلق الخلق على التقدير.

ويطلق الخلق على التصوير والتشكيل، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [سورة آل عمران: (٤٩)]، وقوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [سورة المائدة: (١١٠)]، فوصفه بهذا.

وبعض الناس يستوحش من هذه العبارة إذا استعملها الإنسان، مثلاً إذا قال: دعونا نخلق أفكاراً أو نخلق فكرة، أو نحو ذلك، وهذا لا إشكال فيه شرعا إذا قصد به التقدير أو قصد به التصوير والتشكيل.

فالمعنى في قوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} يحتمل، وكل ذلك يصدق على الله أنه هو المقدر، والصانع الموجد من العدم، لكن الإشكال الذي حمل بعض أهل العلم على تفسيره بالمقدرين لربما يكون هو أن {أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} معناها أن الخالق والمخلوق اشتركا في صفة، فكيف يقال للمخلوق بأنه يخلق ؟ ففسر بالتقدير، لكن لو فسر بالمصور والصانع فلا إشكال.

وقوله: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} [سورة المؤمنون: (١٥)]، يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} يعني النشأة الآخرة {ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ} [سورة العنكبوت: (٢٠)] يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [سورة المؤمنون: (١٧)]، لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات

---

[1] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٤/١١١)، برقم: (٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/٢٠٣٦)، برقم: (٢٦٤٣).

والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر: (٥٧)] وهكذا في أول {الم} السجدة التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: {سَبْعَ طَرَائِقَ} [سورة المؤمنون: (١٧)]، قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} [سورة الإسراء: (٤٤)]، {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [سورة نوح: (١٥)] {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق: (١٢)] وهكذا قال ههنا {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [سورة المؤمنون: (١٧)].

المقصود بالطرائق أي الطباق، وقيل لها طرائق؛ لأنه قد طورق بعضها على بعض، فكانت طبقاً بعد طبقاً، كما نعبر الآن فنقول: طراقة من الثياب، ولهذا العرب تعبر بهذا في أشياء كثيرة فيقال: مطارقة النعل، أي طبقات من الجلد طبقة فوق طبقة.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [سورة المؤمنون: (١٧)]، أي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير.

قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} الخلق هنا مصدر، والمصدر قد يطلق ويراد به المفعول، ويكون المعنى {وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ} أي: عن المخلوق، أي لم نتركه هملا أو نغفل عنه، فلو أن الله ترك المخلوقات هملا لضاعت، وحصل لها الفساد، وهلك الخلق فإن الله لو تخلى عنهم طرفة عين لما كان لهم بقاء، وقد قال -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة فاطر: (٤١)] فهو يحفظ السموات والأرض من الاضطراب والاختلال، ويحفظ من فيهما.

وهو سبحانه لا يَحجب عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره.

العلامة ابن كثير -رحمه الله- يتكلم عن العلم، والإحاطة، والمعنى لا يختص بالعلم، فالله -تبارك وتعالى- يقوم على خلقه أيضا بالحفظ، وهذا من معاني ربوبيته -سبحانه وتعالى.

ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنعام: (٥٩)]. {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [سورة المؤمنون: (١٨-٢٢)]

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها الأرض الجرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويَقِرّ الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

هذا من اللطائف في المعاني، وفي خلق الله -عز وجل- وبديع صنعه الأرض التي تكون من قبيل السباخ أو التي لا تمسك الماء أو نحو ذلك، فيهيئ الله -عز وجل- لها من الأسباب ما يحصل به صلاحها، فأرض مصر يقولون: لا تنتــفع بنزول المطر عليها فيأتيها الماء من أماكن أخرى يسوقه الله -عز وجل- إليها بما يحمله من طين يصلح للزراعة وتستقيم أحوالهم بهذا.

وقوله: {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ} [سورة المؤمنون: (١٨)]، أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه، ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [سورة المؤمنون: (١٨)]، أي: لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته يُنزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيُسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيُفتح العيون والأنهار ويَسقِي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

الماء في باطن الأرض يجري، وفي مجارٍ محددة وعروق يعرفها أهل هذا العلم، وهو على مراتب أيضاً وطبقات، وهو أنواع في مرارته وعذوبته وغير ذلك، فهذا كله من آيات الله -تبارك وتعالى-، أسكن هذا الماء في الأرض فهو يجري فيها كما تجري الجداول والأنهار، بل منها ما يجري في البحر، وجعل في البحار عيوناً عذبة، يعرفها أهل البحار حتى إنهم ينزلون ويتزودون منها، وهم في البحر يملئون منها القِرب يعرفون أماكنها منذ أزمنة متطاولة، فسبحان الله.

وقوله: {فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [سورة المؤمنون: (١٩)] يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق {ذَاتَ بَهْجَةٍ} [سورة النمل: (٦٠)] أي: ذات منظر حسن، وقوله: {مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} أي: فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره.

العلماء مختلفون في تحديدها وضبطها، فبعضهم يقول: ما لا يكون قوتاً فهو من الفواكه، مثل التفاح، والبرتقال، وما أشبه ذلك يقال له فواكه، فهو ليس بقوت، ولا إدام، ومع ذلك تجد أهل العلم يختلفون في ثمرات النخيل، هل يقال لها فاكهة أو لا ؟

فبعضهم يقول: إن ما تنتجه النخيل يقال له فاكهة أيضاً، وبعضهم يخرجه من هذا، وهذا يفيد في حالة لو حلف إنسان ألا يأكل فاكهة، فما الذي يصدق عليه هذا الحلف ؟

وقوله: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [سورة المؤمنون: (١٩)] كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون، وقوله: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء} [سورة المؤمنون: (٢٠)]، يعني: الزيتونة.

قوله: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء} الواو حرف عطف، والشجرة معطوفة على الجنات.

والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران -عليه السلام-، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون.

وبعضهم يقول هو جبل ببيت المقدس، وبعضهم يقول: إن سيناء هذه صفة تعني الحسن، فمعنى ذلك أنه لا يختص بجبل بعينه، فإذا قيل: الجبل الذي عليه الشجرة يقال عليه طور، فيكون وصفاً بذلك مثلاً لحسنه، وقال بعض السلف: سيناء أي المبارك، وعلى كل حال عامة أهل العلم الجمهور يقولون: هو اسم للجبل، وهذا هو المتبادر وهو الأقرب، والله أعلم .

وقوله: {تَنبُتُ بِالدُّهْنِ} [سورة المؤمنون: (٢٠)]، قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تُنبت الدهنَ كما في قول العرب: ألقى فلان بيدِه، أي يدَه، وأما على قول من يضمّن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: {وَصِبْغٍ} أي أُدْم، قاله قتادة.

{لِّلْآكِلِينَ} [سورة المؤمنون: (٢٠)] أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، وروى عبد بن حميد في مسنده وتفسيره عن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ائتدموا بالزيت وادّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة))[1]، ورواه الترمذي وابن ماجه.

قوله: {تَنبُتُ بِالدُّهْنِ} قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تُنبت الدهنَ، وقال ابن جرير -رحمه الله-: {تَنبُتُ بِالدُّهْنِ}، أي: بثمر الدهن.

وقد قرأ الجمهور{تَنبُتُ بِالدّهْنِ}، وهناك قراءة أخرى متواترة، وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو بكسر الباء، وضم التاء {تُنبِت بِالدّهْنِ}، وعلى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون المعنى: تنبت في نفسها متلبسة بالدهن، وعلى القراءة الثانية {تُنبِت بِالدّهْنِ} تكون الباء بمعنى مع، يعني مع الدهن.

وقوله: {وَصِبْغٍ} أي: أُدْم، يعني الناس يأتدمون به ويصبغون به، فمن الممكن أن يؤكل الخبز بهذا الزيت.

وقوله: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [سورة المؤمنون: (٢١-٢٢)] يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها

---

[1] – رواه الترمذي، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت (٤/٢٨٥)، برقم: (١٨٥١)، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الزيت (٢/١١٠٣) برقم: (٣٣١٩)، واللفظ له، وحسنه الألباني.

وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويُحمّلونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل: (٧)]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [سورة يس: (٧١-٧٣)].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون من الآية 23 إلى الآية 55

قوله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ سورة المؤمنون: 23-25، يخبر تعالى عن نوح -عليه السلام- حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ سورة المؤمنون: 23، أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضّلَ عَلَيْكُمْ يعنون يترفع عليكم، ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً سورة المؤمنون: 24، أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا، أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية، وقوله: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ سورة المؤمنون: 25، أي: مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ سورة المؤمنون: 26-30يخبر تعالى عن نوح -عليه السلام- أنه دعا ربه ليستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ سورة القمر: 10، وقال ههنا: رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ سورة المؤمنون: 26فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ سورة المؤمنون: 27،أي: من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ سورة المؤمنون: 27أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا، وقوله:فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سورة المؤمنون:28كما قال: وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ سورة الزخرف: 12-14وقد امتثل نوح -عليه السلام- هذا، كما قال تعالى: وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا سورة هود: 41فذكَرَ الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ سورة المؤمنون: 29، وقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ سورة المؤمنون: 30أي: إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء، وقوله: وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ سورة المؤمنون: 30أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ سورة المؤمنون: 23، قال بعض أهل العلم: أَفَلَا تَتَّقُونَ الشرك والكفر؟، وبعضهم يقول غير هذا، والأقرب أن يفسر بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فتقوى الله -جل جلاله- تشمل ذلك جميعاً، فلا تشركون به ولا تعصونه.

وقوله: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ سورة المؤمنون: 24الملأ هم الأشراف، قيل لهم الملأ لأنهم يتمالئون على الأمر، بمعنى أنهم أهل الحل والعقد، والرأي والنظر في الأمور، أو لأنهم يملئون صدور المجالس باعتبار أنهم هم المقدمون، فهذا يرجع إلى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أنهم الأشراف، والكبراء، وأهل الوجاهة.

وقوله: فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ سورة المؤمنون: 25أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا، ويمكن أن يقال: انتظروا حتى ينكشف أمره ويتبين حاله، أو أنه يرتفع ما به من علة ويذهب ما به من جِنّة ويفيق.

قوله :فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ سورة المؤمنون: 25أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا، ويمكن أن يقال: انتظروا حتى ينكشف أمره ويتبين حاله، أو أنه يرتفع ما به من علة ويذهب ما به من جِنّة ويفيق.

وقوله -تبارك وتعالى-: فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا سورة المؤمنون: 27، هذه الآية تدل على إثبات صفة العين، فإن ذلك لا يضاف لمن كان فاقداً لهذه الصفة، من هذا الوجه، والمعنى: اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا يعني: على مرأى منا، وهذا يدل على رعاية الله -عز وجل- وعنايته، كما قال الله -عز وجل-: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا سورة الطور: 48فهو محل عناية الله -عز وجل- ورعايته، وحفظه، وكلاءته، لكنه كما سبق فيه إثبات صفة العين لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، فمن هذه الآية وغيرها من الآيات التي ورد فيها هذا المعنى تَثبتُ لله هذه الصفة.

وقوله: وَوَحْيِنَا يعني: أنه يفعل ذلك بأمر الله -تبارك وتعالى- لا من عند نفسه، فالله هو الذي أمره بذلك وأوحى إليه هذا، ولهذا يقولون: إن أول من تعاطى النجارة هو نوح -عليه الصلاة والسلام-، وإن معلمه الأول هو جبريل -عليه الصلاة والسلام.

قال: فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ سورة المؤمنون: 27سبق الكلام على التنور، وقلنا: إن الأرجح أنه التنور الذي يخبز به، وأما ما جاء من أنه تنور آدم يعني الذي يخبز به فهذا قد ورد في بعض الإسرائيليات لكنه لا يعول عليه، والمقصود أن يفسر التنور بما يعرف من كلام العرب في معناه الأشهر والأكثر استعمالاً، وهو المتبادر إلى أذهان السامعين: المكان الذي يخبز به، المحل الذي تعرفون، وإن كان بعض السلف فسره بغير هذا كقول بعضهم: إنه وجه الأرض، ولكن لا يفسر القرآن إلا بالأشهر، والأغلب؛ لأنه هو الظاهر المتبادر.

وقوله -تبارك وتعالى-: وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا سورة المؤمنون: 29، هذه الآية فيها قراءتان: القراءة الأولى: وهي قراءة الجمهور مُنزَلًا بالضم، وفي قراءة أخرى هي رواية عن عاصم مَنْزِلاً، والمَنزِل اسم مكان، ومُنزلاً مصدر يعني: أنزلني إنزالاً مباركاً، فهذان معنيان، وكل قراءة لها معنى، وإذا كان في الآية أكثر من قراءة، ولكل قراءة معنى فإن ذلك يكون من باب تنوع القراءات، وينزل بمنزلة تعدد الآيات، إذا كان لكل قراءة معنى، فقراءةٌ تدل على أنه دعا ربه أن ينزله في مكان مبارك، والقراءة الثانية أن الله ينزله إنزالاً مباركاً، لا يختص بالمكان، وإنما يكون ذلك الإنزال المبارك، فهو أعم وأشمل، فيدخل فيه المكان، ويدخل فيه الزمان، والله تعالى أعلم.

وبعض أهل العلم أخذ من هذه الآية أن الإنسان إذا أراد أن ينزل في مكان فعليه أن يقول هذه الآية، وقد علمنا النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا أردنا أن ننزل في مكان أن نقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)([1]).

قوله: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ* قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهِمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سورة المؤمنون: 31–41، يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ سورة المؤمنون: 41وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا: أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ سورة المؤمنون: 35–36، أي: بعيد بعيد ذلك إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا سورة المؤمنون: 38، أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ سورة المؤمنون: 38–39أي: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ سورة المؤمنون: 40، أي: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّسورة المؤمنون: 41، أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ سورة الأحقاف: 25، وقوله: فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء سورة المؤمنون: 41أي: صرعى هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه، فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سورة المؤمنون: 41، كقوله: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ سورة الزخرف: 76، أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

قوله -تبارك وتعالى-: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ سورة المؤمنون: 31يقول الحافظ ابن كثير-رحمه الله-: "يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود" ثم بعد ذلك في ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في عقوبتهم فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ سورة المؤمنون: 41، قال: "والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد"، وهذا يدل على أن المقصود بهم قوم عاد، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يرى أنهم ثمود، وحجته أن الذين أُخذوا بالصيحة هم قوم ثمود، أما قوم عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، والذين يقولون بأن هؤلاء ثمود كما هو ظاهر كلام ابن كثير حينما ذكر عقوبتهم قال: والظاهر أنه جمع، يقولون جرت العادة في القرآن أن الله إذا ذكر هؤلاء الأمم يذكر بعد قوم نوح عاداً بعدهم، ثم يذكر ثمود هذا في جميع المواضع التي تذكر فيها هذه الأمم، فتذكر بهذا الترتيب، وهذا يشكل عليه ما احتج به ابن جرير -رحمه الله- ومن سبقه، ومن جاء بعده أيضاً من أن عاداً أهلكوا بالريح فما هو الجواب؟

يعني هؤلاء عندهم مرجح هو أن العادة في القرآن أن هؤلاء هم عاد، وأولئك عندهم مرجح أن العقوبة التي ذكرت هي الصيحة، والصيحة كانت لثمود، فلابد من الجواب عن هذا الاستدلال الذي يستدل به ابن جرير ومن وافقه، والجواب هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أن الله جمع عليهم هذا وهذا، ولذلك تجدون في بعض العقوبات يذكر الله -عز وجل- الصيحة في موضع، ويذكر الرجفة في موضع، فالعلماء يقولون: صاح بهم الملَك ورجفت بهم الأرض فيذكر الله تارة هذا، وتارة هذا.

وهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، ونحن نعرف أن تفسير القرآن بالقرآن هو أعلى التفسير في الجملة، حيث الجنس، ولكن قد يخطئ المفسر فيربط بين الآية وآية، ولا يوفق في هذا، ولهذا يقال: إن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد فتارة يكون من قبيل الغلط البين، وتارة يكون محتملاً كما في الآية السابقة، وتارة نجزم به، نقطع كما في قوله -تبارك وتعالى-: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ سورة النحل: 118قاله في سورة النحل، والذي قصه من قبل يمكن أن نفسره، ونحن نجزم بهذا وذلك في سورة الأنعام وكلاهما من المكي، وهو قول الله -تبارك وتعالى-: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا سورة الأنعام: 146.

وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ سورة الفاتحة:6-7، والصراط المستقيم هو المفسَّر في قول الله -تبارك وتعالى-: وَمَن يُطِعِ اللّهَ

وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا سورة النساء: 69، فالذين أنعم الله عليهم هم هؤلاء.

فهذه أمثلة مفيدة لطالب العلم الذي يعتني بهذه الأشياء، ولو بحث عنها لربما لا يجدها، ولهذا دائماً أقول لطالب العلم: ينبغي أن يدون هذه الأشياء فيجتمع عنده في النهاية أشياء في غاية الأهمية.

وقوله – تبارك وتعالى–: أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ سورة المؤمنون: 35-36أي: بعيد بعيد ذلك، وهيهات اسم فعل بمعنى بَعُد.

وقوله – تبارك وتعالى–: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَسورة المؤمنون: 37بعض العلماء يقول: هناك تقديم وتأخير، والمعنى نحيا ونموت، والواو لا تقتضي الترتيب، لكن نحن نعرف في القاعدة: أن الأصل في الكلام الترتيب، فلا يُدّعى التقديم والتأخير إلا لضرورة، فمهما أمكن حمل الكلام على تفسير يبقي فيه السياق القرآني على حاله من غير دعوى التقديم والتأخير فهذا هو الأولى في التفسير وهو المرجَّح، وفي قوله –تبارك وتعالى–: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، يمكن أن نفسر الآية بتفسير يتفق مع ظاهرها، ويكون المعنى يموت بعضنا ويحيا آخرون، وهذا معنى جيد وقريب، وهو الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير –رحمه الله–.

ومثال ذلك في القرآن قول الله –تبارك وتعالى–: فَإِن قَتلوكم فَاقْتُلُوهُمْ سورة البقرة: 191وهذه قراءة متواترة، والقراءة التي نقرأ بها: فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، وهذه القراءة لا إشكال فيها، لكن: فَإِن قَتلوكم فَاقْتُلُوهُمْ لاسيما أن التعقيب بالفاء، كيف تقتلونهم إذا متم ولا تستطيعون قتلهم ؟.

والمعنى فإن قتلوا بعضكم فاقتلوهم، فأضاف ذلك إلى الجميع، والمقصود البعض، وهذا موجود في كلام العرب وله شواهد كثيرة.

في قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ سورة المؤمنون: 41يعني: أن ذلك الأخذ وقع متلبساً بالحق بمعنى أن ذلك لم يكن بظلم لهم وإنما هم مستحقون لهذا.

قوله: فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الغثاء هو الشيء الحقير الذي لا شأن له، يطفو على الماء تحمله المياه والسيول فهو خفيف، ليس له وزن ولا شأن له، ويكون من قش ونحوه، وإذا أردت أن تتصور هذا المعنى كيف يكون الإنسان بهذا الحجم الذي يرى نفسه أنه صاحب قامة، كيف يكون غثاء مثل القش؟، انظروا وتذكروا الصور التي عرضت في التوسونامي رأيتم البشر كيف كانوا مثل الغثاء، ومثل الحطام بين الأخشاب وبيوتهم صارت متقطعة متهشمة، والبشر بينها

كأنهم قش على الماء هم وأخشابهم وبقايا البيوت، حطمهم الماء، ولهذا قال الله -عز وجل- عن عاد كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ سورة الحاقة: 7أعجاز النخل: أي أصول النخل.

قوله: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ سورة المؤمنون: 42-44، يقول تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ سورة المؤمنون: 42، أي: أمماً وخلائق.

يعني الذين قص الله خبرهم في القرآن بعدما ذكر عادا، ذكر بعدهم ثمود، وذكر أيضاً قوم إبراهيم، وذكر كذلك قوم لوط، وذكر قوم شعيب كل هؤلاء قص الله -عز وجل- خبرهم، وأهلكهم الله -تبارك وتعالى- أمة بعد أمة، وليس ذلك للحصر، فإن الله -عز وجل- قد أهلك من الأمم وأرسل من المرسلين ما لم يقصص علينا خبره، ولهذا قال الله -عز وجل-: مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ سورة غافر: 78، وقال: وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ سورة إبراهيم: 9، والله -عز وجل- قد ذكر أشهرهم إلى أن بعث موسى -صلى الله عليه وسلم- فأهلك الله فرعون، ثم أنزل عليه التوراة.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ سورة المؤمنون: 43يعني: بل يؤخذون على حسب ما قَدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

بمعنى أن هؤلاء مهما بلغ كفرهم وعتوهم فإن الله -عز وجل- قد قدر لهم أجلاً ووقتاً، لابد أن يبلغوه، إما بعقوبتهم المستأصلة أو لفنائهم بأجلهم، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ فإذا جاء ما قدر الله -عز وجل- لهم أخذهم، لكن الناس قد يستطيلون هذا ويستعجلونه لأن الأعمار قصيرة، والصدور ضيقة، والإنسان إنما يَحسب بأيامه، فالإنسان يحسب السنوات الثلاث والأربع والعشر أنها طويلة، لكنها في ميزان الله -عز وجل- ليست بشيء، وإذا أردت أن تعرف هذا فانظر إلى القرون الماضية، وكيف أن الله -تبارك وتعالى- قص خبرهم، وكيف تتابعت الأمم من قوم نوح ثم بعد ذلك عاد ثم بعد ذلك ثمود، ثم بعد ذلك قوم شعيب، وهكذا تتابع هذه الأمم، وإذا قرأت في كتب التاريخ مثل البداية والنهاية تجد أمماً متتابعة يهلكها الله -تبارك وتعالى- لكن كم كانت مدة الإمهال؟.

والذين كانوا في ذلك الوقت كانوا يعتبرون المدة طويلة، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ سورة يوسف: 110يعني: وصلوا إلى حد انقطع معه

الصبر جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء فالناس يستعجلون هذا ويظنون أن الأمر ينتهي في سنة أو سنتين أو نحو ذلك، وهذا لا يلزم.

وانظر إلى الاستعمار الذي بقي في إندونيسيا أربعمائة سنة، والذي بقي في الجزائر مائتي سنة، وفي مصر مائة سنة، وهؤلاء إخوان القردة والخنازير ما جلسوا مثل ما جلس إخوانهم، لكن الإنسان يستعجل أن هؤلاء مكثوا مدة طويلة، فلا يقيس الإنسان هذه الأمور بسُنيّات من عمره، لكن العاقبة للمتقين، العبرة بهذا، ويبتلي الله -عز وجل- الناس بعضهم ببعض، فيؤخر الكفار؛ ليزدادوا كفراً وإجراما وحتى يستوجبوا مزيدا من العذاب، ويبتلي المؤمنين، فينظر من يصدق في إيمانه ومن لا يصدق وينافق.

قوله: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاسورة المؤمنون: 44، قال: ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ سورة النحل: 36، وقوله: كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ سورة المؤمنون: 44، يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون سورة يس: 30.

وقوله: فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا سورة المؤمنون: 44، أي: أهلكناهم، كقوله: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ سورة الإسراء: 17.

وقوله: وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍسورة سبأ: 19.

أحاديث جمع أحدوثة وهو ما يتحدث به، أي: يتحدث الناس في مجالسهم عن خبرهم وما حل بهم من عذاب الله -عز وجل- ونقمته، وما نزل بساحتهم من النكال، والعذاب المستأصل، فصاروا خبراً بعد عين، وصار الناس يتحدثون بهم للاعتبار أو التسلية، وهذا يقال في الغالب لمن وقع به النكال فصار عبرة.

ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ إنما يكون ذلك لمن حل به المكروه، فيكون عبرة لغيره، ولا يقال لمن حل به النعمة والأمر المحبوب، وهذا ليس محل اتفاق، فبعض أهل العلم من يقول غير هذا، فالإنسان يكون أحدوثة بعدما يفارق ويموت، فكُن أحدوثةً يتحدث الناس فيها بخير.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ سورة المؤمنون: 45-49.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى -عليه السلام- وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ سورة القصص: 43.

قوله -تبارك وتعالى-: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ هذا من باب عطف الصفات، فالسلطان المبين هو الآيات.

والحجة يقال لها سلطان، وهو أحد الأقوال التي فسر بها قوله -تبارك وتعالى-: وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا سورة الإسراء: 33، قال بعض أهل العلم: أي حجة يتسلط بها ولي الدم على القاتل، ويكون له سبيل عليه، ويحتمل أن يكون هذا من باب عطف الأمور المتنوعة المتغايرة، فالآيات غير السلطان المبين، فتكون الآيات هي الآيات التسع التي ذكرها الله -عز وجل- لكن ينبغي أن يخرج منها فلْق البحر؛ لأن هذه الآية التي حصل فيها فلْق البحر لم تكن من الآيات التي قدمت لفرعون من أجل أن يؤمن، وإنما كان فيها هلاكه.

ثم ذكر الله -عز وجل- هنا هلاكه: فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ، أي: هلكوا بفلق البحر، وقد غرق فرعون -كما هو معلوم- فلم يكن فلق البحر من أجل أن يؤمن فرعون، وإنما الطوفان والجراد، وكذلك اليد، والعصا وهي أكبر الآيات، والسلطان المبين يمكن أن يقال: إنها الحجة الواضحة البينة.

ومن أهل العلم من يقول: هذا من باب عطف الخاص على العام، فالآيات المذكورة هنا هي الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- كاليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والسلطان المبين هو أعظم هذه الآيات وهي العصا، ولهذا بعضهم يقول في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىسورة

النازعات: 20بعضهم يفسر الآية الكبرى بما يشبه أفعل التفضيل، يعني الأكبر من الآيات، فتكون هي العصا.

وبعضهم يقول: فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى الآيات الكبار ولا يختص ذلك بالعصا فيدخل فيها اليد مثلاً، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى سورة النجم: 18.

وقوله -تبارك وتعالى- عن قول فرعون وقومه: فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ سورة المؤمنون47لذلك قص الله من خبره واستعلائه وتكبره أنه قال: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ سورة الزخرف: 51، وقال: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ سورة الزخرف: 52، فتعالى واستكبر وتعاظم، وقال: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِيسورة القصص: 38، وقال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى سورة النازعات: 24.

قوله: فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ، من المعلوم أن بني إسرائيل الذين كانوا في مصر كانوا من القبط، وكانوا قد حلوا بمصر لما جاء إخوة يوسف مع أبويه، ثم كان أولئك من نسلهم، تكاثروا، هذا مجيء بني إسرائيل إلى مصر، فكان مجيئاً عارضاً ثم بعد ذلك خرج بهم موسى -صلى الله عليه وسلم-، لم يكونوا يعبدون فرعون، ولذلك لا حاجة لتفسيره بمثل هذا، وإنما يقال: العبادة تطلق على الطاعة والانقياد، فكان يستعبدهم، ولهذا قال له موسى -صلى الله عليه وسلم- فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ سورة طه: 47وقال: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ سورة الأعراف: 104- 105، وقال الله -عز وجل-: يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ سورة القصص: 4، فمعنى قوله -تبارك وتعالى-: وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَسورة المؤمنون: 47، أي: مُذلَّلون مطيعون منقادون مسخرون أشبه ما يكونون بالخدم، ولم يكونوا من أشراف الناس.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ سورة المؤمنون: 50، يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليهما السلام- أنه جعلهما آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى، وقوله: وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ سورة المؤمنون: 50قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ذَاتِ قَرَارٍ يقول ذات خصب وَمَعِينٍ يعني: ماء ظاهراً، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة، وقال مجاهد: ربوة مستوية، وقال سعيد بن جبير ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ استوى الماء فيها، وقال مجاهد وقتادة وَمَعِينٍ الماء الجاري.

الربوة معروفة وهي المكان المرتفع، وهذا يكون أشرف المحال وأطيب المحال التي يحصل فيها النبات، وهي أحسن محل ينزل فيه الإنسان، أحسن من الأماكن المنهبطة كالأودية ونحوها.

وقوله: ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ سورة المؤمنون: 50، يمكن أن يفسر القرار بالمستقَر، أي: يستقر عليها ساكنوها، وبعض أئمة اللغة يقول: المعين هو الماء الجاري من العيون، وبعضهم يقول: إن أصل ذلك من مَعَنَ الماءُ إذا جرى، فالماء الجاري يقال له الماء المعين، مَعَنَ الماء فهو معين، ويقال: ممعون بالماء الجاري، والماء الجاري لا شك أنه أطيب من الماء الراكد من كل وجه، في طعمه، وفي شكله، وفي تركيبه، وفي دفعه للعوارض بأنواعها من النجاسات وما يكدره أو يغيره أو ما يقع فيه حتى من الأمور غير النجسة، فإن الماء الذي يجري يدفع ذلك جميعا، وهذا أمر لا يخفى.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله: وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ سورة المؤمنون: 50، قال: هي دمشق، قال: وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ قال: أنهار دمشق.

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في قول الله تعالى: إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، قال: هي الرملة من فلسطين.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا سورة مريم: 24.

وكذا قال الضحاك وقتادة إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، وهو بيت المقدس، فهذا -والله أعلم- هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار.

تَحْتَكِ سَرِيًّا أي: مثل الجدول يجري فيه الماء، وبعد أن ذكر الله -تبارك وتعالى- الشراب ذكر الطعام فقال: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا سورة مريم: 25، وإن كان بعضهم

يقول: إن قوله: سَرِيًّا أي: السيد، يقال فلان سَرِيّ، وهم سَرَاة، يعني الناس السادة وما شابه ذلك يقال لهم هذا، فيكون ذلك يرجع إلى عيسى -صلى الله عليه وسلم- ولهذا يقولون في قوله -تبارك وتعالى-: فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا سورة مريم: 24يعني عيسى -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: جبريل -عليه السلام- وذلك لما قالت: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا سورة مريم: 23.

فقال لها: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سورة مريم: 25وجذع النخلة معروف من أصلب الجذوع، ومن أقساها ومن أشدها، ولهذا فرعون لما توعد السحرة لما آمنوا لم يقل: لأصلبنكم في جذوع الأشجار، بل قال: وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ سورة طه: 71، وذلك لشدة جذع النخلة، والإنسان القوي لو هز جذع النخلة لا يهتز، ولكن من باب التسبب.

ألم ترَ أن الله قال لمريم *** هُزي إليك الجذعَ يسّاقط الرطبْ

ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّهِ*** جنتهُ ولكنْ كلُّ شيء له سببْ

وعلى كل حال ابن جرير -رحمه الله- يقول: رَبْوَةٍ، أي: أرض منبسطة عليها ماء ظاهر.

قوله: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ سورة المؤمنون: 51-56يأمر تعالى عباده المرسلين -عليهم الصلاة والسلام أجمعين- بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء -عليهم السلام- بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

وقال سعيد بن جبير والضحاك كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ سورة المؤمنون: 51يعني: الحلال.

وفي الصحيح (وما من نبي إلا رعى الغنم)، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: (نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)([2])، وفي الصحيح: (إن داود -عليه السلام- كان يأكل من كسب يده)([3]).

وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ سورة المؤمنون: 51، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ سورة البقرة: 172ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأنّى يستجاب لذلك)([4]).

العمل الصالح مما يعين على أكل الطيبات، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ سورة المؤمنون: 51، ولذلك لا تكاد تجد هذا عند المرابين، وعند الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، لا يُعانون على العمل الصالح، والله -عز وجل- يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ سورة البقرة: 168، ويقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ سورة البقرة: 172فذكر الشكر وهو يشمل ألوان العبادة القولية والفعلية، وهذا من المعاني اللطيفة التي قد تفهم من مثل هذه الآيات، فالعمل الصالح مما يعين على أكل الطيبات، وعامة أهل التفسير يقولون: المراد بالطيبات الحلال، وبعضهم يقول: ما يستطاب ويستلذ، وهذا لا يصح أن يفسر به على سبيل الإفراد والاجتزاء؛ لأن ما يستلذ قد يكون محرماً، ولكن من أهل العلم من يجمع بين القولين ويقول: الطيب هو الحلال المستلذ، فلو أكل الإنسان الخبز المتعفن وثبت أنه لا يضره فليس بحرام، ولكنه غير طيب.

إذا قيل الحلال فدخل فيه كل شيء حلال، لكن لا يعتبر كل الحلال من الطيبات، وقد سبق الكلام على هذه المسألة عند قول الله -تبارك وتعالى-: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا سورة الكهف: 19، فبعض أهل العلم قال: أَزْكَى، أي: الذي أبعد عن الشبهة، وليس فيه ما يخالطه من محرم، وبعضهم يقول: الطيب اللذيذ.

وقوله: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً سورة المؤمنون: 52، أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.

قوله -تبارك وتعالى-: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً هذه القراءة بكسر همزة "إنّ" يمكن أن يكون المعنى على الاستئناف المقرر لما قبله، يعني: ذكر لهم جملة من الأمور فقال لهم: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً سورة المؤمنون: 51-52فيكون ذلك من جملة الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- لهم وخاطبهم بها، فيكون استئنافاً.

والقراءة الأخرى بالفتح والتشديد وأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً والمعنى كما قال بعض أئمة اللغة كالخليل بن أحمد: هذا منصوب بنزع الخافض، يعني: أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به، وتدينوا به.

وبعضهم كسيبويه يقول: إنه متعلق بما بعده وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ والفاء هنا مرتبة ما بعدها لما قبلها، والفاء مشعرة بالتعليل كما هو معلوم، وعلة التقوى لأن هذه أمتكم أمة واحدة، -والله تعالى أعلم-.

ودين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ سورة آل عمران: 19، فلا يجوز لأحد أن يكفر بالله -عز وجل- ويعبد غيره ويتدين بدين غير دين الإسلام الذي شرعه لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- قال تبارك وتعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا سورة آل عمران: 67.

دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ سورة آل عمران: 19، فلا يجوز لأحد أن يكفر بالله -عز وجل- ويعبد غيره ويتدين بدين غير دين الإسلام الذي شرعه لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- قال تبارك وتعالى :مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا سورة آل عمران: 67.

قوله: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا سورة المؤمنون: 53صارت كل طائفة على دين وملة لا يرضاها الله -عز وجل- فتفرقوا في الدين، فصار هؤلاء يهوداً، وصار هؤلاء نصارى، وصار اليهود والنصارى على طوائف وفرق يضلل بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضا، وعندهم كنائس في العالم كثيرة جداً كل كنيسة لها صليب، وشعار، ودين، ومذهب وعندهم من الخزعبلات، والخرافات، والبدع، والضلالات، والخيالات ما لا يُقادَر قدره، أضعاف ما عند جهال ومبتدعة هذه الأمة، واقرأ إن شئت في كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" كيف يصنعون في الأعياد، ولو أن المسلمين استغلوا هذا وعرفوه، لكن الانبهار بظاهر حضارتهم أعمى أبصار كثير من الناس عن هذه الجوانب.

ولو استُغل هذا وثُبتت هذه الأمور بينهم وفُعّلت لوقعت بينهم الحروب الدامية كما حصل في التاريخ، فقد وقعت الحرب بين الصرب والكروات وكلهم نصارى لكن اختلفت مذاهبهم قبل حرب المسلمين في البوسنة، فكان الصرب يأخذون المرأة الكرواتية ويقطعونها تقطيعاً في الشارع، فكان المسلمون يقولون آنذاك: هؤلاء نصارى مع نصارى، فكيف لو أنهم تسلطوا علينا ماذا سيصنعون بنا؟ فلما وقعت الحرب رأينا كيف يصنعون، فيضعون برميلا كبيرا في زيت مغلي ويأتون برافعة ويضعون فيها الشخص ويدخلونه، فيخرجونه فإذا هو عظام تلوح.

أما اليهود وأصحاب الطواقي السوداء فهم فرق شتى، وبينهم عداوات شديدة، ومع المنافقين أيضاً تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى سورة الحشر: 14كما قال الله -عز وجل-: لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ سورة الحشر: 14، على قول كثير المفسرين: يعني اليهود، هم يتفقون على المسلمين فقط، ولكن بينهم خلافات وشرور، ومن المفترض أن يستفيد المسلمون من هذه الأشياء، وعليهم أن يعملوا على كسر شوكتهم في إثارة الاختلاف والافتراق بينهم، وهم جاهزون ومهيئون لهذا تماماً، ولكن الله المستعان.

ولهذا قال وَأَنَاْ رَبّكُمْ فَاتّقُونِ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله أُمّةً وَاحِدَةً منصوب على الحال، وقوله: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا سورة المؤمنون: 53أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء.

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا يعني: فرقاً وقطعاً مختلفة، زبرا والواحدة يقال لها زبور، يعني: الفرقة والطائفة المتناحرة.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ سورة المؤمنون: 53، أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ أي: في غيهم وضلالهم حَتّىَ حِينٍأي: إلى حين حينهم وهلاكهم.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ سورة المؤمنون: 54الأقوال التي يذكروها المفسرون ترجع إلى معنى واحد، يقال: فلان في غمرة كأنه شبههم بمكان يغمره الماء يغطيه، فهؤلاء القوم في غمرة.

فمن قال: إنهم في سكرة، ومن قال: إنهم في غفلة، وكل هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: في غيهم وضلالهم، فكل ما يغمرك ويعلوك يقال له غمرة، والمقصود أنهم في غيهم، ولهوهم، وشهواتهم، وغفلتهم، وإعراضهم، وضلالهم.

والغمرة تحجب الإنسان عن رؤية الحق، فهو سادر في غيه فرِحٌ بما هو فيه ومستمر في باطله يزداد فيه حيناً بعد حين، وقد يستغرب أهل البصيرة والإيمان ممن هو في غمرة، فيقولون: هذا ما يشعر؟ هذا ما يحس؟ هذا ما يشعر أن أجله قريب؟ هذا ما يخاف أن الله يأخذه أن الله يعاقبه؟، متى يتوب؟ هذا الإنسان قد بلغ من الكبر عتيا متى يرجع؟ متى يتوب؟ ما يخاف الموت؟ هذا في حال مرض أو في حال عجز وهو في غاية الضلال، والانحراف والبعد عن الله ومحادّته ما يخاف من العقوبات؟

فنقول: هو لا يفكر بما يفكر فيه أهل البصيرة والإيمان، فهو منغمس منهمك، قد غُطّى على قلبه وبصيرته، فلا يرى هذه الأمور، ولا يفكر فيها، ولا تخطر له ببال، وقد قال الله -تبارك وتعالى- : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ سورة الأنعام: 112- 113.

فهؤلاء القوم خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌسورة البقرة: 7، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ سورة البقرة: 10، والله المستعان.

كما قال تعالى: فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا سورة الطارق: 17، وقال تعالى: ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سورة الحجر: 3.

قوله: حَتَّى حِينٍ، أي: إلى وقت انقضاء آجالهم بالقتل أو الموت فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا يعني: قليلا فالحياة هذه قصيرة، وقليلة وليست بشيء في ميزان الله -تبارك وتعالى- وإن كان الإنسان يستطيلها.

نحن نعايش أحداث فلسطين، ونرى أن الساعات طويلة، وننتظر أخذ الله -عز وجل- مع أن الإنسان أحياناً يتردد ببعض الكلمات في الدعاء ويخشى أن يكون فيها شيء من التعدي والاستعجال، وأحيانا الإنسان يندفع ولا يستطيع أن يضبط مشاعره، فيقول -مثلا-: اللهم اجعلهم وأولادهم، ونساءهم، وأسلحتهم، وأموالهم غنيمة للمسلمين، فهذا من الاعتداء في هذا الوقت في الدعاء لأننا لسنا بأهل لهذا، فنحن في غاية التفرق والانقسام والبعد عن الله -عز وجل- والتعلق بغيره، وللأسف جراح مدمية ومرة، والنفوس تحتاج إلى كثير من التزكية والترفع على حظوظها، وإلى الله المشتكى، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)([5])، فالله المستعان.

وقوله: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ سورة المؤمنون: 55-56 يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ سورة سبأ: 35لقد أخطئوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً

وإملاء، ولهذا قال: بَلْ لا يَشْعُرُونَ، كما قال تعالى: فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سورة التوبة: 55الآية.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ سورة المؤمنون: 55-56،فالكفار يعطون أسباب الراحة ووسائل المتع، إنما هو لعذابهم في الدنيا، وقد قال الله: فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ولو نظرتم إلى الهزة اليسيرة المالية، ماذا فعلت بأهل الكفر، وانظر كيف صنعت بهم هذه الأموال وكيف عُذبوا بها في الحياة الدنيا، الآن في أوروبا، وأمريكا أعداد الذين يراجعون العيادات النفسية أضعاف، لا يتحملون، انهياراتٌ عصبية اكتئابٌ، قلق، المستقبل كذا، وهذا يطالَب بأن يخرج من بيته، وهذا ما عنده مكان، وهذا سرح آلاف أو عشرات الآلاف من المصانع الكبرى التي كنا قبل سنوات قليلة نقول: إن هذه الشركات تحمل ميزانيات دول، وإن شركات المسلمين، وتجارات المسلمين لا شيء، كالقشة بالنسبة إليها، والآن تعلن إفلاسها.

وقال تعالى: إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا سورة آل عمران: 178، وقال تعالى: فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ سورة القلم: 44- 45الآية، وقال: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا إلى قوله: عَنِيدًا سورة المدثر: 11-16، وقال تعالى: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا سورة سبأ: 37الآية، والآيات في هذا كثيرة.

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (4/ 2080)، برقم: (2708).

[2] - رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (88/3)، برقم: (2262).

[3] - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (3/ 57)، برقم: (2073)، بلفظ: (أنّ داود النبي -عليه السلام- كان لا يأكل إلا من عمل يده).

[4] - رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (703/2)، برقم: (1015).

[5] – رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب في النهى عن العِينة (3 / 291)، برقم: (3464)، وصححه الألباني.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون من الآية 57 إلى الآية 75

قوله: إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ سورة المؤمنون: 57-61.

يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ سورة المؤمنون: 57أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجِلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ سورة المؤمنون: 58أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم –عليها السلام–: وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِسورة التحريم: 12، أي: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ سورة المؤمنون: 59، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى–: إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ سورة المؤمنون: 57، هل الخشية والإشفاق من قبيل المترادف، يعني الخشية هي الإشفاق كما يقوله بعض أهل العلم؟ أو أن الإشفاق يختلف عن الخشية في المعنى؟، أو أن إحدى اللفظتين استعملت في لازمها أو أثرها؟، ومعلوم أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالقول بأن الإشفاق هو الخشية لا يعطي معنىً جديداً، ولهذا فإن من أهل العلم من فسر الخشية بسببها، وسببُها هو العذاب، فقالوا: إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ أي: من عذاب ربهم مشفقون، وبعضهم فسر الإشفاق بأثره

لتأسيس مقدم على التوكيد، فالقول بأن الإشفاق هو الخشية لا يعطي معنىً جديداً، ولهذا فإن من أهل العلم من فسر الخشية بسببها، وسببُها هو العذاب، فقالوا :إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ أي: من عذاب ربهم مشفقون، وبعضهم فسر الإشفاق بأثره

، إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ أي: عاملون بطاعته مداومون على ذلك، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يقال بأن معنى الخشية والإشفاق وإن اتفقا في أصل المعنى الذي هو الخوف، إلا أن الخشية هي الخوف مع علم بالمخوف منه، ولكن قد يقول الإنسان أنا خائف، وإن سئل من ماذا تخاف؟ فقد يقول: لا أدري، وأشعر بشيء من الخوف، فمثل هذا لا يمكن أن يقول: أنا مشفق، أو أنا أشعر بشفقة، أو أشعر بخشية، إنما الخشية تكون مع علم، والإشفاق يتفق مع الخشية في أصل المعنى الذي هو الخوف، إلا أنه يفترق في المعنى التكميلي الزائد، وعليه يمكن أن يقال: إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ سورة المؤمنون: 57من خشيته أي: من خوفه الخاص الذي علموا أسبابه، أو مع علم بالمخوف، وقد وقع لهم خوف وخشية رقيقة، والخوف مراتب، كما أن الإيمان مراتب، والعلم مراتب، والرضا مراتب، والمحبة مراتب.

وقوله -تبارك وتعالى-: وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ سورة المؤمنون: 58، انظر إلى عبارة ابن كثير -رحمه الله-: "أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية" من أهل العلم من يقول: إن المراد بالآيات هنا الآيات الكونية، ومنهم من قال: إن المراد الآيات الشرعية، والمقصود بالآيات الشرعية مثل هذا القرآن.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- دقيق، جمع فيه بين القولين، وهذا جمع جيد وحسن؛ لأن الله -عز وجل- ذكر الآيات مطلقة، فالآيات تشمل الآيات الكونية والشرعية، وكلها تحتاج إلى إيمان.

والله -عز وجل- أخبر عن فرعون فقال: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ سورة الأنعام: 4، وقال عن فرعون أيضا: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى سورة طه: 56.

وقد تتابعت الأمم على اتهام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين جاءوهم بالآيات، قال تبارك وتعالى: وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ سورة الحجر: 14-15.

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا سورة الإسراء: 59يعني آية مبصرة، فالآيات الكونية –آيات المشاهدة– لابد فيها من الإيمان، وهذا التفسير أيضاً يصدق على قوله –تبارك وتعالى– عن مريم بنت عمران وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا سورة التحريم: 12، أي: الكلمات الكونية، والكلمات الشرعية.

وقوله: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ سورة المؤمنون: 60أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجِلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: (لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله –عز وجل–)([1]) وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول بنحوه، وقال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ سورة المؤمنون: 61)([2])، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية.

قوله –تبارك وتعالى–: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ سورة المؤمنون60، أي: خائفة من الله –عز وجل– لأنهم يعلمون أنهم راجعون إلى الله –تبارك وتعالى– فمجازيهم على أعمالهم، ومحاسبهم على ما اقترفوا.

وهذا في العمل الصالح، فيخشى المؤمن أن لا يتقبل الله منه، وإذا كان كذلك فهو أبعد عن الأسباب التي تنقص العمل أو تحبطه مثل العُجب، ومن ثَمّ لأنه لا يستكثر العمل على الله –عز وجل– ولا ينظر إلى جهده، وإنما ينظر إلى توفيق ربه فيزداد شكراً على هذا العمل والتوفيق إليه، وإذا كان هذا في الطاعات، فكيف تكون حالهم عند مواقعة المعصية؟!، فهو مشفق عند عمل الطاعة، فهذا من باب أولى ، ويقال: أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ سورة المؤمنون: 61، وهذا التفسير من قبيل الخبر عنهم أنهم سابقون إلى طاعة الله، فوصفهم بهذا على سبيل الثناء عليهم، وبعضهم يقول: إن الحرف مضمن معنى حرف آخر، بمعنى وهم إليها.

وقال ابن جرير –رحمه الله– أي: سبقت لهم من الله –عز وجل– السعادة؛ لأن الله –عز وجل– قد كتبهم في السعداء، فأثّر ذلك ونتج عنه الجد والاجتهاد في طاعة الله –عز وجل–.

وهذا ثناء من الله –عز وجل– على هؤلاء وإخبار بأنهم بهذه المثابة يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَسورة المؤمنون: 61، يعني: إليها سابقون، يبادرون، ويسارعون، ويسبقون غيرهم

ويتقدمون على غيرهم بالعمل الصالح، بمعنى: أن ذلك قد سبق لهم في علم الله -عز وجل-، وقدره فكتب الله لهم السعادة في الأزل، فأثر ذلك ونتج عنه هذه المسارعة في الخيرات، والله أعلم.

قوله: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ* مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ سورة المؤمنون: 62- 67يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ سورة المؤمنون: 62يعني كتاب الأعمال، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ، أي: لا يُبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ أي: في غفلة وضلالة مِنْ هَذَا، أي: القرآن الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم.

قوله -تبارك وتعالى-: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا سورة المؤمنون: 62الوسع بمعنى الطاقة، ولا حاجة للتكلف بتفسيره بغير هذا، والله -عز وجل- يقول في سورة البقرة: لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا سورة البقرة: 286، فالشريعة ما جاءت بتكليف مالا يطاق، فكل التكاليف داخلة تحت قدرة المكلفين، وقد وضع الله الآصار وهي التكاليف الثقال التي كانت على من قبلنا قد وضعها الله -عز وجل- عنا وأخبر عن هذه الشريعة بأنه رفع فيها الحرج، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ سورة الحج: 78والأحاديث الواردة في هذا الباب أيضاً معروفة قال: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا سورة المؤمنون: 62وهذا من حيث الإجمال بالنظر إلى أحكام الشريعة عموماً، فهي داخلة تحت قدرة المكلفين، وبالنظر إلى المعين فإنه إن عجز عن التكليف الذي يطيقه جنس المكلفين فإن ذلك إما أن يسقط عنه بالكلية، أو أن ذلك يصار معه إلى بدل، فالمريض إذا عجز عن الصيام فإنه يقضي، وإذا عجز عن الوضوء أو الاغتسال فإنه يتيمم، وهكذا.

وقوله -تبارك وتعالى-: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ سورة المؤمنون: 62، فسر ابن كثير -رحمه الله- الكتاب بكتاب الأعمال، مسطور لا يضيع منه شيء، وهذا يدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ سورة الجاثية: 29، والله يقول: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا

الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا سورة الكهف: 49.

فهذه الآيات بمعنى هذه الآية ومفسرة لها في الكتاب، وهو كتاب الأعمال، ومن أهل العلم من يقول: هَذَا كِتَابُنَا يعني: القرآن ينطق عليكم بالحق، وبعضهم يقول: هو اللوح المحفوظ، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- هو الأول.

وقوله -تبارك وتعالى-: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ سورة المؤمنون: 63أي: في غفلة وضلالة، فالغمرة: الشيء الذي يغمر الإنسان، كالماء، يقال: غمره الماء، فكل ما غطاك فقد غمرك.

فقوله: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ يعني: أنها في غفلة وإعراض فلا يصل إليها الحق ولا تنفذ إليها الموعظة، وقوله -تبارك وتعالى-: مِنْ هَذَا أي: القرآن، وهذا الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله- مع أن بعض أهل العلم يقول غير ذلك.

وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى ما ذكر في هذه السورة أو في هذه الآيات من الجزاء والحساب، وما عليه أهل الإيمان من المسارعة في الخيرات وما أشبه ذلك، والقول بأن اسم الإشارة هنا يرجع إلى الآيات، وما ذكره الله في هذا، فهذا القول يدخل ضمناً في قول ابن كثير وابن جرير أنه القرآن، ومنه هذه الآيات المذكورة، ومعلوم أن القولين إذا كان أحدهما يتضمن الآخر أو يستلزم القول الآخر أو يلزمه، فيمكن أن تحمل الآية عليهما.

فقلوبهم في غمرة من القرآن وما تضمنه من الإخبار عن أهل الإيمان ومسارعتهم بالخيرات، وكذلك ما ذكره الله -جل جلاله- من خبر ذلك الكتاب الذي دونت فيه أعمالهم، وبهذا يمكن أن نجمع بين هذه الأقوال بهذه الطريقة، وأن القرآن يتضمنها جميعا، والله أعلم .

وقوله: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ سورة المؤمنون: 63قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ، أي: سيئة من دون ذلك يعني الشرك هُمْ لَهَا عَامِلُونَ قال: لابد أن يعملوها، كذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد.

وقال آخرون: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ أي: قد كتبت عليهم، أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهرٌ قويٌ حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: (فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)[3].

قوله: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ القول الأول ظاهر: أن المقصود بقوله: مِّن دُونِ ذَلِكَ يعني: دون الإشراك الذي هو وصفهم، أي: لهم أعمال دون الكفر كما قال الله -عز وجل-: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ سورة المدثر: 42-45.

ومن أهل العلم من يقول: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ أي: من دون أعمال أهل الإيمان التي امتدحها الله -عز وجل- وأخبر أنهم يسارعون إليها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقال آخرون: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ، أي: قد كتبت عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة.

يعني: أنهم زاولوا أعمالاً، قاموا بأعمال، قاموا بجرائم كالكفر، والمعاصي، والذنوب، وما إلى ذلك، ولهم أعمال أخرى من دون ذلك وليس المقصود أنها أقل منها وإنما قبل حلول الأجل لابد لهم من مواقعتها، وهذا الذي قال عنه ابن كثير -رحمه الله-: قبل موتهم لا محالة لتحق كلمة العذاب، وروى هذا عن مقاتل بن حيان والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوي حسن، وهذا نقل عليه الواحدي إجماع المفسرين، وأهل المعاني مع أن هذا الإجماع لا يصح، لكن بعض علماء التفسير يتساهل في نقل الإجماع، ولعله يقصد به قول جمهور العلماء.

وقوله: حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ سورة المؤمنون: 64يعني: حتى إذا جاء مترفيهم -وهم المنعمون في الدنيا- عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ أي: يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا سورة المزمل: 11- 12الآية، وقال تعالى: كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ سورة ص: 3.

قوله: حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لا شك أن العذاب واقع بجميع الكفار، فلماذا خص المترفين منهم ؟

قد يكون هذا التخصيص ليبين الحالة التي صاروا إليها بعد الترف والنعمة والتوسع في ملاذ الحياة الدنيا فإذا أخذهم بالعذاب صاروا على حالة تخالفها تماماً، فهذا أبلغ في الزجر والتخويف من عذاب الله -تبارك وتعالى- فالعذاب لا يختص بالمترفين، وإنما العذاب عام، فتخصيص المترفين إنما ذلك من باب الزجر، والتخويف من عذاب الله -جل جلاله-، ومعنى: يَجْأَرُونَ، أي: يرفعون أصواتهم بالصياح إذا حل بهم العذاب.

وقوله: لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ سورة المؤمنون: 65أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم، لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ سورة المؤمنون: 66أي: إذا دُعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ سورة غافر: 12.

قوله: فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ سورة المؤمنون: 66، العقِب: هو مؤخر القدم، وقوله: تَنكِصُونَ أي: ترجعون القهقرى على أعقابكم، وراءكم، فأصل النكوص هو الرجوع القهقرى، يعني: أنهم لا يُقبلون على الداعي ولا يستجيبون، ولا ينقادون، وإنما حالهم بعكس هذا.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَسورة المؤمنون: 67، أي: بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال النسائي من التفسير في سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كُره السمر حين نزلت هذه الآية: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، سامراً قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ، أي: بالبيت، أو بالحرم، وهذا أوسع من تخصيصه بالبيت، فكانوا يجلسون حول البيت كما هو معلوم، ويسمرون، ومن أهل العلم من يقول: الحرم، كما يقول ابن جرير -رحمه الله .

ومن أهل العلم من يقول: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ أي: بالحرم أو بالبيت، والقول بأنه الحرم أوسع في المعنى.

وقوله: سَامِرًا تَهْجُرُونَ يعني: أنكم تسمرون والسمر هو الجلوس بعد العشاء، الهَجْر هو الهذيان وبضم الهاء، الهُجْر هو القول أو الكلام السيئ القبيح، الفحش، تقول هُجراً يعني فحشاً، قال كلاماً سيئاً، وكل هذا حاصل وهم يتكلمون بكلام في القرآن، وفي النبي -صلى الله عليه وسلم- بل وفي الله -عز وجل- ويقولون: سحر وكهانة، وقوله: سَامِرًا تَهْجُرُونَ مثل قول الله -عز وجل-: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا سورة الفرقان: 30، سواء كان قد ترك القراءة أو ترك التدبر أو ترك العمل به، فكانوا يجلسون في الحرم ويسمرون فلم يهجروه بأبدانهم، ولكنهم هجروه من العمل الصالح، بل ويشركون بالله -تبارك وتعالى- فيه.

هذا قول الجمهور، وبعضهم يقول: المقصود بذلك القرآن، فقالوا: إنه كهانة وسحر، وأساطير الأولين، وإنه مختلق، وما شابه ذلك مما أخبر الله -عز وجل- به عنهم، ومن قال بهذا القول

قال: إن سماع الكفار للقرآن يورثهم الكبر والتعاظم والترفع والأنفة، وهذا القول وإن استحسنه بعض المفسرين كابن عطية إلا أنه لا يخلو من ضعف، فإنّ حمله على القرآن، وأن التكبر به يكون من هذا الوجه المذكور فيه شيء من التكلف، والله أعلم.

والراجح أن المقصود به البيت الحرام.

قوله: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ سورة المؤمنون: 70-75.

"أم" هذه المنقطعة والفرق بينها وبين المتصلة، أن المنقطعة هي التي لا يكون قبلها همزة التسوية، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَاسورة إبراهيم: 21فإذا سبقت بهمزة التسوية فليست المنقطعة، والمنقطعة هي التي تفسر بـ"بل"، والهمزة، وكذلك لا تكون منقطعة إذا كانت تدل على قدر أغنت عنه، تقول: مَن أعلم زيد أم عمرو؟، أي: أم عمرو أعلم؟، فيه مقدر محذوف فهذه ليست بمعنى بل، فهنا يقول الله -تبارك وتعالى-: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ سورة المؤمنون: 68، يعني: بل أجاءهم، فتفسر ببل والهمزة، بل أجاءهم من الكتاب.

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم يُنزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول -صلى الله عليه وسلم-ورضي عنهم.

إذا تدبروا القول فإنهم بذلك يعرفون الله -عز وجل- وأسماءه، وصفاته، ويعرفون أن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر من بشر، ولا يمكن أن يكون سحراً، ولا شعراً، وإنما هو كلام الله -عز وجل- وأن البشر لا يمكن أن يأتوا بمثله، وإذا تدبروا هذا القرآن أيضاً عرفوا دلائل الوحدانية، والحجج، والبراهين التي تتلاشى معها أوهامهم، وشبهاتهم، وما هم عليه من الباطل والكفر إلى غير ذلك مما يتبين لهم بتدبر القول، فيعرفون مصدر هذا القرآن من جهة -إذا تدبروه- وهذا مقصد من

مقاصد التدبر للذين لم يؤمنوا بأن هذا القرآن من عند الله -عز وجل-، فإذا تدبروا عرفوا مصدره، وعرفوا أنه لا يمكن أن يقوله البشر، وكذلك يعرفون ما تضمنه هذا الكتاب وما حواه من دلائل الإيمان، والتوحيد وهذا أيضاً من مقاصد التدبر، وكذلك يعرفون ما تضمنه هذا الكتاب من ألوان الهدايات.

وقال قتادة: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ سورة المؤمنون: 68إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك، ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ سورة المؤمنون: 69.

قول قتادة -رحمه الله- أحد المقاصد التي تستخرج بالتدبر، والإنسان يحصل له خوف من الله -عز وجل- لمّا يرى فيه الوعيد، وجزاء الأعمال، وما أشبه ذلك، لكن ليس هذا فقط زاجراً عن المعصية، أو زاجراً عن الكفر.

وقوله: أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ، "أم" هي المنقطعة، يعني: بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، وهذا يحتمل أنه تقرير لكونه لم يأت آباءهم كتابٌ ولا رسول فهم من أهل الفترة، وهذا فسرت به بعض الآيات لقوله -تبارك وتعالى-: لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ سورة يس: 6ففسرت "ما" بأنها نافية فنفي أن يكون جاءهم نذيرهم -أهل فترة-، وفسرت بأنها موصولة، فالمعنى يتغير تماماً، فمن أهل العلم من يقول: أَمْ جَاءهُم، أي: بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلم يكن لهم عهد بالرسالة، والنبوة، والوحي، فأنكروا, واضح؟، هو تقرير بهذا المعنى.

والمعنى الآخر غير هذا فهو إنكار عليهم، والله -عز وجل- يقول: وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ سورة فاطر: 24، وهو من ولد إسماعيل، ولا زالت بقايا دين إبراهيم، ويعرفون هذا، فهو ينكر عليهم، فهو لم يأتهم بشيء مستنكر والله -عز وجل- يقول: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ سورة الأحقاف: 9، فالرسالة معهودة ومعروفة، والنبوة وهم يفتخرون أنهم على دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ويُمتدحون بهذا، والقول الأول يحتج له ببعض الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- عن المشركين حينما ينكرون أنهم سمعوا هذا في آبائهم أو عرفوه.

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ سورة المؤمنون: 69.

أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم؟، أي: أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟.

قوله: أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ سورة المؤمنون: 68"أم" هي المنقطعة بمعنى بل، وهذا إنكار عليهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس ببدع من الرسل، هذا أقرب وأولى.

وقوله: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ سورة المؤمنون: 69، فـ "أم" هي المنقطعة وتتضمن الإنكار على هؤلاء، فلم يأتهم بأمر لا عهد لهم به، ولم يأتهم نكرة من الناس لا يعرفونه.

وقد عاش الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بين أظهر قومهم قبل أن ينزل إليهم الوحي، وقد قال تعالى: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ سورة يونس: 16، فلم يأتوا من مكان آخر لا يعرفه قومهم، وإنما نشئوا بينهم، وعرفوا أخلاقهم وصدقهم، وقد كان أهل قريش يلقبون النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصادق الأمين.

ولهذا قال جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابَه عن صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعدُ كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك، وقوله: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ سورة المؤمنون: 70، يحكي قول المشركين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه تقوّل القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال: بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ سورة المؤمنون: 70، يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

قوله: بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ فلم يكونوا كلهم كارهين للحق، ولكنه قد يكون في حال من الإعراض والاشتغال، وقد يكون يخشى المذمة إن التحق بدين الإسلام، وقد كان أبو طالب يقول:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمدٍ***من خيرِ أديانِ البريةِ ديناً

قال ابن القيم -رحمه الله-: وقال الله سبحانه في إثبات نبوة رسوله باعتبار التأمل لأحواله وتأمل دعوته، وما جاء به أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ سورة المؤمنون: 69-70فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل

فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه، وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب بادٍ على صفحاته وبادٍ على ظاهر وباطنه.

ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب، والفجور، والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول، والفعل ما يتأتي من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة، وغدر، وكذب، وفجور، بل قلب هذا ،وقصده، وقوله، وعمله يشبه بعضه بعضاً، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق([4]).

ومما يوضح كراهيتهم للحق أنهم يمتنعون من سماع القرآن، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه، كما قال تعالى في قصة أول الرسل الذين أرسلهم بتوحيده، والنهي عن الإشراك به وهو نوح -عليه السلام-: وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا سورة نوح: 7.

وقال تبارك وتعالى في أمر آخر الأنبياء: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ سورة فصلت: 26، فترى بعضهم ينهي بعضاً عن سماع القرآن، ويأمرهم باللغو فيه كالصياح، والتصفيق المانع من السماع، لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلّبوا الحق على الباطل.

وقوله: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ سورة المؤمنون: 71قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو الله -عز وجل-، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ سورة الزخرف: 31.

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ، نقل ابن كثير -رحمه الله- عن مجاهد وأبي صالح، والسدي أن الحق هو الله، وهذا قول أكثر المفسرين، والله -تبارك وتعالى- من أسمائه الحق، قال سبحانه: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ سورة الحج: 6.

ويحتمل أن يكون المراد بالحق هو الصدق، وما يقابل الباطل، وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ سورة المؤمنون: 71، باختلاف أهواء الناس، يعني سواءً كان ذلك في قضايا التشريع، فهذا يريد أن يمنع هذا، وهذا يريد أن يمنع هذا، أو حتى في تدبير أمور العالم أو الحياة لو تركت هذه الأشياء للناس، لحصل الفساد، فهذا يريد أن تكون الحياة ليلا، وهذا

يريد أن تكون نهارا، وهذا يقول: يجب أن يكون الليل طويلا، وهذا يقول: يجب أن يكون النهار طويلا، وهذا يحب البرد، وهذا يحب الحر، فلو بقيت هذه لأهواء الناس فلن يتفقوا على شيء.

قال العلامة الشنقيطي –رحمه الله–: "اختلف العلماء في المراد بالحق في هذه الآية فقال بعضهم الحق هو الله تعالى، ومعلوم أن الحق من أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ سورة النور: 25، وقوله: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وكون المراد بالحق في الآية هو الله عزاه القرطبي للأكثرين، وممن قال به مجاهد وابن جريح، وأبو صالح السدي، وروي عن قتادة وغيرهم، وعلى هذا القول فالمعنى لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه وإرسال من اقترحوا إرساله بأن جعل أمر التشريع وإرسال الرسل ونحو ذلك تابعاً لأهوائهم الفاسدة لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ لأن أهواءهم الفاسدة، وشهواتهم الباطلة لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض، وذلك لفساد أهوائهم واختلافها فالأهواء الفاسدة المختلفة لا يمكن أن يقوم عليها نظام السماء والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع، ومن الآيات الدالة على أن أهواءهم لا تصلح لئن تكون متبعة قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ سورة الزخرف: 31، لأن القرآن لو أنزل على أحد الرجلين المذكورين وهو كافر يعبد الأوثان فلا فساد أعظم من ذلك، وقد رد الله عليهم بقوله: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ سورة الزخرف: 32، وقال تعالى: قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا سورة الإسراء: 100، وقال تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا سورة النساء: 53"[5].

ثم قال: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ سورة الزخرف: 32، وقال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ سورة الإسراء: 100الآية، وقال تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا سورة النساء: 53، ففي هذا كله تبيّن عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه، ولهذا قال: بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ سورة المؤمنون: 71، أي: القرآن فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ سورة المؤمنون: 71.

قوله: بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ أي: القرآن، وهذا هو المتبادر، ويحتمل أن يكون المراد التذكير أو ما يحصل به التذكير، وهذا لا يختص بالقرآن، ويحتمل أن يكون المراد بالذكر الشرف، ومنه قوله: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ سورة الزخرف: 44، ففسر بالتذكير وفسر بالشرف، وكذلك في قوله –تبارك وتعالى–: بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فبعضهم يقول: بشرفهم، وفخرهم، وهذا القرآن فهو شرف لهم،

شرّفهم الله -عز وجل- به، وقيل هو القرآن، أو أن الذكر مصدر المقصود به ما يحصل به التذكير، وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على المعنيين أنه القرآن، وهو أيضاً شرف لهم، نزول هذا القرآن على العرب تشريف لهم، قال تعالى : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ سورة الجمعة: 2فشرّف هؤلاء الأميين بهذا.

وللشيخ الشنقيطي -رحمه الله- كلام مفيد في هذا المعنى في قوله -تبارك وتعالى-: بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَسورة المؤمنون: 71، فقال: اختلف العلماء في الذكر في الآية، فمنهم من قال: ذكرهم فخرهم، وشرفهم، لأن نزول هذا الكتاب على رجل منهم فيه لهم أكبر الفخر والشرف، وقال بعضهم: الذكر في الآية الوعظ، والتوصية وعليه فالآية كقوله: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ سورة آل عمران 58، وقال بعضهم: الذكر هو ما كانوا يتمنونه في قوله: لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنْ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ سورة الصافات: 169- 168، وعليه فالآية كقوله تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ سورة فاطر: 42، وعلى هذا القول فقوله: فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا سورة فاطر: 42كقوله هنا فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ سورة المؤمنون: 71، وكقوله: أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ سورة الأنعام: 157والآيات بمثل هذا على القول الأخيرة كثيرة، والعلم عند الله تعالى([6]).

وعلى كل حال تفسير الذكر هنا بأنه القرآن يتضمن القول بأن المقصود بذلك ما يحصل به التذكير، والقرآن فيه تذكير ووعظ، كذلك في قوله: لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنْ الْأَوَّلِينَ سورة الصافات: 168، الأشياء التي فرعها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- هي راجعة لهذا في الواقع، لكن يبقى القول الآخر أنه شرف، فابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، فقال: إن نزول القرآن عليهم فيه تشريف لهم، وهو هذا الكتاب الذي فيه شرفهم، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والآية إذا احتملت معنيين فأكثر ولم يوجد مانع حملت عليهما من هذا الباب، والله أعلم.

ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، فقال: إن نزول القرآن عليهم فيه تشريف لهم، وهو هذا الكتاب الذي فيه شرفهم، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والآية إذا احتملت معنيين فأكثر ولم يوجد مانع حملت عليهما من هذا الباب، والله أعلم.

وقوله: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا سورة المؤمنون: 72، قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جُعلاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ سورة المؤمنون: 72، أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جُعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ سورة سبأ: 47، وقال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ سورة ص: 86، وقال: قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى سورة الشورى: 23، وقال: وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ سورة يس: 20-21.

قوله: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا سورة المؤمنون: 72"أم" هي متضمنة لمعنى الإنكار، والخَرج يقابل الدخل، ما يدخل على الإنسان، والخَرج ما يخرج منه فيقال ذلك للضريبة، ويقال: ما يُضرب على الأرض فيخرجه الإنسان كل عام، كل ذلك يقال له خَرج وخراج، وإن كان بعضهم فرق وجعل الخراج ما يفرض على الإنسان ويلزمه، والخرج ما يخرجه طواعية، ولكن هذا لا يخلو من إشكال.

وهنا: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا والمقصود هنا الأجرة، قال: فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، أي: فرزق ربك خير، وذلك ما يعطيه الله -عز وجل- لعبده من الثواب والأجر، فما عند الله -عز وجل- خير من هذا العرض الزائل الدنيء الذي يؤخذ مقابل الدعوة إلى الله -عز وجل- والإيمان به.

وقد كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يقولون: يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة إلى الله -عز وجل- فتكون الدعوة من غير مقابل، وقد سبق الكلام على هذا المعنى، وأن الذي يدعو إلى الله ينبغي أن لا يأخذ على هذا أجراً من الناس وإلا فإن الكلمة تولد ميتة، ولا تصل موعظته إلى قلوب الناس ولا يحصل الانتفاع بها، وتنطفئ نور هذه الكلمة، وهذا شيء مشاهد، فينبغي سد هذا الباب وقطع دابر هذه الحيل الشيطانية التي يزينها الشيطان لبعض الناس مهما كان المبرر، ولا يليق بالداعية أن يأخذ في مقابل تعليمه للناس بالحج مثلاً أموالاً قد تصل إلى مائة ألف وأكثر، ولا يليق بالداعية أن يذهب هنا وهناك أو يسافر إلى بلد من أجل أن يحصل على شيء من عرض الدنيا، ولا يليق له أن يبيع هذه الصوتيات التي فيها موعظة أو درس أو نحو هذا لا بمئات الألوف، ولا بأقل من هذا مهما كانت المبررات، ومهما كانت الأعذار التي يعتذر الإنسان بها، خذها وأعطها تحفيظ القرآن أو تأخذها ولا تعطيها تحفيظ القرآن، اقطع دابر هذا تماماً، الآن بتعطيها تحفيظ القرآن، وغداً من بتعطيهم؟ والنفوس لها تعلقاتها، وأطماعها وثقوا تماماً أن من سلك هذا الطريق فإن ذلك يعني أنه قد حكم على نفسه ألا ينتفع الناس

بموعظته، وكلامه فتنطفئ نور هذه الكلمات، ولا تبقى إلا كلمات جوفاء تلامس الأسماع، ولكنها لا تصل إلى القلوب بل إن القلوب -إذا استمر الإنسان هذا- تمجّه وتستثقله ثم يكون له من الذكر السيئ والنفرة في قلوب الخلق، بل لربما اتخذوه للتندر، فالإنسان يقطع هذا الطريق، قد يُقضي على الداعية بأمور متنوعة من أعظمها وأشدها ما يجنيه على نفسه بهذا الفعل، والله المستعان.

وقوله: وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ سورة المؤمنون: 73-74، روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه:(اضرب مثَل هذا ومثَل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلة حِبَرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضا مُعشبة وحياضاً رُواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رُواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه)([7]).

هذا الحديث وإن كان يحمل هذا المعنى الجميل: فنقلَهم من حال إلى حال فحصلت لهم سعة في الدنيا، ونصر وتمكين، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى النعيم المقيم في الآخرة، ولكن الحديث لا يخلو من ضعف، فيه على بن زيد بن جدعان ضعيف، وفيه يوسف بن مهران فيه ضعف.

وقوله: وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ سورة المؤمنون: 74، أي: لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَسورة المؤمنون: 75، يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم

يقول: لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ، بمعنى: تمادوا، فإن هذه اللفظة تدل على معنى التمادي، يعني: يتمادون في العناد ويترددون فيه، وأصل العمه عمى القلب، يعني: يتخبطون، ويترددون، ويتذبذبون يعني: لو حصل لهم إقالة من عذاب الله -عز وجل- ثم رجعوا سواء كُشف عنهم

عذاب قد عاينوا أوائله في الدنيا أو كان ذلك من عذاب الآخرة كما قال الله -عز وجل-: وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ سورة الأنعام: 28، ولهذا خلدهم الله في النار؛ لأنهم مهما بقوا فهم باقون على الكفر مصرون عليه، وإن عاش الواحد منهم في الدنيا ستين سنة أو نحو هذا، فيخلد أبد الآباد في نار جهنم، فهو لو بقي أبد الآباد في الدنيا فهو على الكفر، عزم وإصرار، والعزم المصمم ينزل منزلة الفعل.

كما قال تعالى وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ سورة الأنفال: 23، وقال: وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ سورة الأنعام: 27- 29فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه لو فهو مما لا يكون أبداً.

هذا مما يسمى بالكليات، وهذا مبنى على الاستقراء، فمعرفة صحة هذا أن يُتتبع، وكثير مما يذكر فيه ذلك فيه استثناءات، وحقه أن يقال فيه: كل ما كان كذا فهو كذا إلا كذا، فيذكر الاستثناء.

---

[1] - رواه أحمد (156/42)، برقم: (25263).

[2] - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب سورة المؤمنون (327/5)، برقم: (3175).

[3] - رواه البخاري، كتاب القدر، باب في القدر (122/8)، برقم: (6594)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (2036/4)، برقم: (2643).

[4] - الصواعق المرسلة (469/2-470).

[5] - أضواء البيان (342/5).

[6] - أضواء البيان (343/5).

[7] - رواه أحمد (227/4)، برقم: (2402).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون من الآية 76 إلى الآية 100

يقول المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير هذه الآيات: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سورة المؤمنون: 76-83.

يقول تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم فَمَا اسْتَكَانُواْ أي: ما خشعوا وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، أي: ما دعوا، كما قال تعالى: فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ سورة الأنعام:43الآية.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز -يعني الوبر والدم- فأنزل الله: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُواْ الآية، وكذا رواه النسائي، وأصله في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا على قريش حين استعصوا، فقال: (اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسف)([1]).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ظاهر السياق يدل على أن الضمير يرجع إلى كفار أهل مكة، الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فآذوه وكذبوه، وهذه السورة من السور المكية كما هو معلوم.

فمن أهل العلم من فسر العذاب بما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم حتى أصابتهم مجاعة وقحط، فأكلوا العلهز، وكانوا يطبخون في أوقات المجاعة والقحط الوبرَ مع الدم ثم يأكلونه

من أهل العلم من فسر العذاب بما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم حتى أصابتهم مجاعة وقحط، فأكلوا العلهز، وكانوا يطبخون في أوقات المجاعة والقحط الوبرَ مع الدم ثم يأكلونه

، ومن أهل العلم من يقول: العذاب هو كل ما يصيبهم من شدة كالمرض وغيره، ومن العلماء من حمل ذلك على ما وقع لهم يوم بدر، ولكن كون هذه السورة من السور المكية يُشكل على هذا القول، والأصل أن آيات السورة المكية نزلت كلها في مكة، ولا تُستثنى أي آية إلا بدليل، وقد حمل ابن جرير -رحمه الله- ذلك على كل ما وقع لكفار أهل مكة من قحط وشدة.
وقوله -تبارك وتعالى-: فَمَا اسْتَكَانُواْ فسره هنا بالخشوع، قال: أي ما خشعوا، وهذا تفسير له بمعنى يقاربه، وإلا فلفظة الاستكانة ليست مطابقة للخشوع من كل وجه، والاستكانة تدل على انكسار، أيْ: انكسار في الباطن، كما تدل -أيضاً- على سكون في الظاهر، ولهذا يقال للمسكين، كأنه قد سكن لشدة حاجته وفقره، فهؤلاء لما نزل بهم بأس الله -عز وجل- لا زالت نفوسهم مجترئة على الله -عز وجل- ولا زال الواحد منهم متوثباً في معصية ومحادة رسوله -صلى الله عليه وسلم.
وهكذا أيضا في تفسير التضرع بالدعاء هو تفسير بما يقاربه، وإلا فالضراعة أخص من مطلق الدعاء، وليس كل دعاء يقال له ضراعة.
وقوله: حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ سورة المؤمنون:77أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أُبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.
قوله: حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ، من أهل العلم من يقول: هذا في الدنيا، وكان ذلك قد حصل لهم في يوم بدر.
وقد ذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى تفسير هذه الآية بالقحط الذي دعا به عليهم النبي -صلى الله عليه سلم.
وقوله: مُبْلِسُونَ "وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم"، فالإبلاس هو التحير واليأس من كل خير، تقول فلان أبلس، أي: انقطع رجاؤه في حال لا يستطيع أن يدفع ما نزل به ولا أن يضع شيئاً، ولذلك إذا كان الإنسان قد تقطعت آماله ولم يجد سبيلاً إلى الخلاص فإنه يصير إلى هذه

الحال أبلس، ولهذا يقولون: إن إبليس قيل له ذلك لقنوطه ويأسه وانقطاع رجائه من رحمة ربه - جل جلاله.

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ أي: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ سورة يوسف:103.

يشير إلى قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ سورة المؤمنون:78، فالسمع جنس، وإذا ذكرت الأبصار مجموعة فلا إشكال، ووجه جمع الأبصار وإفراد السمع من ناحية الاتحاد في السمع، بخلاف الأبصار فمن حيث أصل هذه الحاسة، وبعضهم يذكر متعلق هذه الأمور فكثرة المبصرات، وكثرة المرئيات بخلاف السمع، فالأصوات شيء واحد.

ومما يذكره أهل العلم جنس السمع، فيشمل الواحد والكثير فيه بمعنى هذا الجمع وقوله: قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَمن أهل العلم من ينزل القلة هنا منزلة العدم، ويُعبَّر بالقليل ويراد به المعدوم، وهذا معروف في كلام العرب، وهو أيضاً في مواضع في كتاب الله -عز وجل- على هذا التفسير، وقد قال -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب: وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا سورة الأحزاب:18، فمن أهل العلم من قال: إنهم لا يأتون أصلاً، ومَن حمله على ظاهره قال: إنهم يأتون البأس قليلاً لغرض أخذ الغنيمة أو غير ذلك.

وهنا قال تعالى: قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ يعني: أن الشكر الصادر من العباد في مقابل هذه النعم العظام شيء قليل لا يكافئها، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وليس ذلك بمعنى العدم، فلا يختص هذا الخطاب بالمشركين.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ سورة المؤمنون:80، أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أي وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ سورة يس:40الآية.

قوله -تبارك وتعالى-: وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لما كان الله -عز وجل- هو المدبر لهذا الكون والمصرف له فإن ذلك يعبر عنه بمثل هذه العبارة، واللام في "له" تأتي لمعانٍ منها الاختصاص، ومنها الملك، فالله -تبارك وتعالى- له التدبير وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يعني: له تدبير ذلك وتصريفه، فالله هو الذي يجري هذه الأمور ويقلبها.

ومن أهل العلم من يقول: هذا الاختلاف في الألوان فهذا أسود وهذا أبيض، ومنهم من يقول: الاختلاف في الطول والقصر، ومنهم من يقول الاختلاف في التعاقب يأتي الليل والنهار بعده، وهكذا يختلفان كما قال الله -عز وجل-: لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ فهذا الاختلاف يشمل ما ذكر من الطول والقصر، ويشمل التعاقب الذي يحصل ويتكرر كما نشاهد، والله أعلم.

وقوله: أَفَلا تَعْقِلُونَ، أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء وخضع له كل شيء؟، ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبعُوثُونَ سورة المؤمنون:81-82يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البِلى لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سورة المؤمنون:83يعنون: الإعادة محال، إنما يُخبِر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ سورة النازعات:11-14، وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ سورة يس:77- 79الآيات.

قوله -تبارك وتعالى-: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، هذه الآيةكقوله -تبارك وتعالى-: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سورة النمل:67-68.

يقصدون أن هذا لا حقيقة له، وأنه سبق لآبائهم أن وُعدوا بهذا ولم يروا ذلك ولم يقع لهم، إنما هو شيء تلقوه أو من أساطير الأولين ولا حقيقة له، من أخبارهم الباطلة، فهذا معنى الأساطير.

قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ وهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ سورة المؤمنون:84-90.

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى سورة الزمر:3، فقال: قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا سورة المؤمنون:84، أي: مَن مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّهِ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له.

يقول: "أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له" في قراءة الجمهور سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، والمعنى مَن ربُّها ومن مالكها ؟ ولمن هي؟ وفي قراءة أبي عمرو فسَيَقُولُونَ اللّهُ.

فإذا كان ذلك قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره قُلْ مَن رَّبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَرَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات؟!، ومن هو رب العرش العظيم، يعني الذي هو سقف المخلوقات ولهذا قال ههنا: وَرَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أي: الكبير، وقال في آخر السورة: رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ سورة المؤمنون:116، أيالحسن البهي.

العظيم لا يفسر بمجرد الكبير، فليس كل كبير عظيم، وإنما العظيم كبير وزيادة.

فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر، ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ سورة المؤمنون:87أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟! قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، أي: بيده الملك مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا سورة هود:56أي: متصرف فيها، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا والذي نفسي بيده)([2]). وكان إذا اجتهد في اليمين قال: (لا ومقلب القلوب)([3]) فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

قوله: قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أي: بيده الملك، وزيادة التاء –ملكوت– مثلما يقال الجبروت، يقولون للمبالغة، فهي بمعنى الملك، ولكن زيدت التاء للمبالغة، ملكوت.

وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يُخْفَر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه.

لا يُخفَر في جواره أي لا ينتهك ذلك المُجار.

ولهذا قال الله: وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ سورة الأنبياء:23أي: لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وحكمته وعدله، فالخلق كلهم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ سورة الحجر:92-93.

قوله: وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ بمعنى أن الله –تبارك وتعالى– لا يمنع أحد من عذابه، لهذا يقول الله –تبارك وتعالى–: وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ سورة البقرة:48، فالله –تبارك وتعالى– يجير فإذا أجار أحداً لا يستطيع أحد أن ينتهك جواره، ولا يستطيع أحد أن يجير أحداً من الناس من الله –عز وجل–، فالخلق قد يجير بعضهم بعضاً، أما الله –تبارك وتعالى– فلا يجار عليه، ولا يستطيع أحد أن يمنع أحداً من بأس الله –عز وجل– ونقمته وعذابه، وهذا يدل على كمال عظمته –سبحانه وتعالى– وقوته وعزته فإن المخلوقين يجير بعضهم بعضاً، وقد يجير الواحد منهم ولكن هذا الجوار يُنتهك، أما الله –تبارك وتعالى– فلا يحصل معه شيء من هذا.

وقوله: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ، أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!.

عبارة ابن كثير –رحمه الله– في قوله: فَأَنَّى تُسْحَرُونَ، قال: "أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!" فهؤلاء لم يقع لهم سحر حقيقة، ولكنه نزل ذلك منزلة السحر حيث ذهبت العقول وانصرفت عن هذه الحقائق البينة الواضحة الظاهرة فخدعوا بالشبهات والأباطيل، وانصرفوا عن عبادة الله –عز وجل– فذُهب بعقولهم كما ذهب بعقل المسحور، فالمسحور تتصور له الأشياء على غير حقيقتها، وهؤلاء تصوروا أن الحجر هو الرب

الذي ينفع ويعطي وينزل، وانصرفوا عن عبادة المنعم المتفضل -سبحانه وتعالى-، فهذا الفعل كأنه سحر.

فهؤلاء حينما يشاهدون دلائل القدرة، والعظمة والوحدانية كان الواجب أن يذعنوا لله -عز وجل- وأن ينقادوا وأن يؤمنوا، ثم بعد ذلك يقلبون هذه القضايا فإذا جيء لهم بالحق الواضح المبين قالوا: هذا أساطير الأولين، تجيء لهم بالدلائل على الوحدانية فيقولون: كيف نترك ما كان يعبد آباؤنا؟! أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟!، وما شابه ذلك، فمهما تأته بالآيات والبينات والحجج الواضحة لكن دون جدوى.

ثم قال تعالى: بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ سورة المؤمنون:90وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أي: في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ سورة المؤمنون:117فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ سورة الزخرف:23.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ سورة المؤمنون:91-92.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ سورة الملك:3، ثم لَكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد.

وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً.

قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، الولد هو شريك فهو جزء من والده، ولهذا النصارى الذين نسبوا له الولد أشركوا بالله -عز وجل- معه غيره، نفى عن نفسه الولد فقال: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، والكون شاهد بأن شيئاً من ذلك لم يحصل؛ إذ لم يكن ولد، ولم يكن معه إله، إنما هو إله واحد -سبحانه وتعالى.

آيتان من كتاب الله -عز وجل- يتحدث عنها المتكلمون فيما يتصل بدليل التمانع الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- هذه واحدة، والآية الثانية هي قوله -تبارك وتعالى-: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ سورة الأنبياء:22.

وقوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ يعني: لفسد نظام هذا العالم، وتفرق كما يحصل بين الملوك فإما أن يذهب كل خالق أو كل ملك أو مالك بما ملك، ويختص به ويكون له نظامه، وإما أن تحصل بينهم المغالبة فلابد أن يتغلب أحدهما على الآخر، فلو أراد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه فإما أن يحصل المراد، هذا وهذا، وإما أن لا يحصل، وإما أن يحصل مراد واحد، وهذا الواحد هو الذي يصلح أن يكون إلهاً، وكونه ينتفي مراد كل واحد فهذا لا يمكن لا في المتناقضات، ولا في المتضادات، هذه خلاصة الكلام.

ودليل التمانع قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، وأنزله الله تعالى ليبطل قول من أشرك به سبحانه في الربوبية.

وقد نقل الطحاوي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، لربما أن الكثير من أهل الكلام والصوفية لا يقبلون كلام هؤلاء، وشارح الطحاوية حنفي.

قال: وأنزله الله تعالى ليبطل قول من أشرك به سبحانه في الربوبية فلابد في هذا الذي ذكره الله تعالى من ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه، وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون، المقهورون من كل وجه فدليل التمانع دل على أن خالق العالم واحد لا رب غيره، فلا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل، والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة الإلهية.

فالربوبية مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ هذا تمانع في الفعل والإيجاد يعني في الربوبية، وذاك لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا سورة الأنبياء:22في الإلهية، والمتكلمون يذكرون أنه تمانع في الربوبية، فهو تمانع في الإلهية؛ لأنه ذكر الآلهة وذكر أن الفساد بعد الوجود، وهذا تمانع، الذي بين أيدينا مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ فهذا تمانع في الربوبية مع أنه يعني نحن لسنا بملزمين ولا مقيدين بعبارات أهل الكلام أصلاً، والقرآن أوسع من هذا وأشمل وأبلغ دلالة، ولا يمكن أن يوضع القرآن ودلالات القرآن في قوالب المتكلمين لكن ابتلي الناس فهذا في مقام المناقشة، والرد على هؤلاء وإلا فالمعنى أوسع من ذلك يعني في قوله –تبارك وتعالى– : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا هذا يدل على تمانع في الإلهية، وعلى تمانع في الربوبية لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ فذكر الإلهة لَفَسَدَتَا وهذا الفساد بسبب الاختلاف في التدبير، والتصريف فهذا يتعلق بالربوبية، وهكذا في الآية الأخرى مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ فذكر اسم الجلالة الله وذكر الإله، قال: إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وهذا يتصل –أي الجزء الأخير– بالربوبية فحينما يعبر القرآن ويتحدث عن قضايا التوحيد لا نستطيع أن نفصل هذه القضايا عن بعض، هذا منهج القرآن في بيان قضايا الاعتقاد فتجد هذه القضية تتحدث عن الإلهية، والربوبية، والأسماء والصفات في آن واحد كما في هذه الآيات، لكن المتكلمين لما كان غاية ما يدورون عليه هو توحيد الربوبية من جهة الإثبات والاستدلال المنطقي هذا استدلال منطقي يعتبر لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا لكنهما لم تفسدا فانتفى أن يكون فامتنع أن يكون لهما أكثر من إله، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ لكنه لم يذهب كل إله بما خلق، فدل على أنه لا إله إلا الله، عندهم طرق في الاستدلال في قوالب معينة يزعمون أن القرآن جاء بهذه المناهج والأدلة التي يسمونها الأدلة العقلية والبراهين العقلية، والواقع أن دلالة القرآن أبلغ من هذا وأدق وأشمل وأوسع، ولذلك يخطئ طالب العلم إذا أراد أن يحصر نفسه بقوالبهم ويريد أن يناقش الآيات من هذا المنطلق، ولهذا كما ترون في هذا المثال هو من أشهر الأدلة عند المتكلمين يصعب أن تأتي وتقول: هذا في الإلهية، وهذا في الربوبية فحسب، لا يمكن هذا، فهذه الآيات تتحدث عن التوحيد، والتوحيد يشمل هذا وهذا، فقيل له: دليل التمانع؛ لأنه يمتنع حصول مراد هذا وهذا، أو ارتفاع المرادين، يمتنع حصول مراد هذا وهذا أو يمتنع ارتفاع مراد هذا وهذا، فلابد من وقوع واحد منهما.

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ، أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه فَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ، أي: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

في قوله: عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ قراءتان متواترتان: هذه قراءة، وقُرئ: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فقراءة الرفع، هو عالمُ الغيب، وعالمِ الغيب يكون ذلك من صفة الله -تبارك وتعالى- لأنه قال قبله سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فيه قراءتان كان المفترض أنه حينما جاء بها في التفسير في هذا الجزء من الآية أن يأتي بها على القراءة التي تقرأ بها عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ لكن الطالب يأتي ويأخذ الجملة، ولا ينظر إلى ضبطها، لكن لما كانت فيها قراءة متواترة فإن مثل هذا يغتفر وإلا فالأصل جاء بها مرفوعة.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ سورة المؤمنون:93-98.

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ، أي: إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه (وإذا أردتَ بقوم فتنة فتوفّني إليك غير مفتون)([4])، وقوله تعالى: وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ، أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن، ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ، وهذا كما قال في الآية الأخرى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا سورة فصلت:34-35الآية.

أي وما يُلهَم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة، إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ سورة هود:11، أي: على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم القبيح وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، أي: في الدنيا والآخرة.

هذه من الآيات التي يقول بعض أهل العلم: إنها منسوخة، هذه السورة مكية، يقولون: منسوخة بآية السيف كل آية فيها عفو وصفح.... إلى آخره، وهذا الكلام فيه نظر، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يرى أن مثل هذه الآية قد نسخت في حق الكفار بعد نزول الجهاد، وأنه لا مجال للعفو والصفح، وإنما يكون ذلك محكماً في حق المؤمنين، هذا كلام الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- يقول: بعدما نزل الجهاد فلا مجال بـادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لكن هذا الكلام أيضاً ليس على إطلاقه، فهذه الشريعة جاءت بالرخص والعزائم، ففي أوقات الضعف يُعمل بمثل هذه الآيات

النازلة بمكة الصبر والدفع بالتي هي أحسن، والتجاوز والعفو، وفي أوقات القوة والتمكين والغلبة والظهور يعمل بآية السيف فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ سورة التوبة:5إلى آخره، ولهذا يقال للناس في حال الضعف والعجز عن مقاتلة الأعداء أو نحو ذلك يقال لهم: كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ سورة النساء:77حتى يصير حالهم إلى قوة فعند ذلك يقاتلون.

وقوله تعالى: وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ سورة المؤمنون:97أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه"

قوله هنا: هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ بعض أهل العلم يفسر ذلك يعني يقول: إن أصل معنى الهمز هو الدفع باليد أو بغيرها، هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ومنهم من يفسره بما يليق بالسياق، ويصلح في هذا المقام فيفسر هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ يقول: الهمز بمعنى النغز، والنخس أو الوسوسة وهو ما يلقيه الشيطان يدفعه للانتقام والإساءة، ولهذا لما أمره الله -عز وجل- بالدفع بالتي هي أحسن أمره بعده بأن يستعيذ من همزات الشياطين، ولهذا قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ [سورة الأعراف:200، وسورة فصلت:36] فهذا النزغ هو المذكور هنا في قوله: أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ النزغ، والنخس وذلك أن الشيطان يحركه بمقابلة الإساءة بالإساءة أو الظلم والتجاوز هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ فيقول له: لا تترك حقك، انتقم لنفسك تركُ الحق والعفو يكون ضعفاً وعجزاً وما أشبه هذا، فيلقي الشيطان في قلبه هذه الأمور ليفعل ما لا يليق وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، ومن أهل العلم من يفسر ذلك بالخنق كما يقول ابن جرير، وقال: فسر به طائفة من أهل العلم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)([5])، لكن قالوا: الهمز أصله الضغط، يقول: همز هذا بمعنى ضغطه، فإذا ضغط مثلاً على هذا العرق أو على هذين العرقين في جانبي العنق فإن الإنسان يغمى عليه ينقطع الدم عن الاندفاع كما هو معروف، ولذلك بعض الرقاة يفعل هذا فيغمى على المريض، ثم يضرب صدره ويقول: قم اخرج ويقول: خلاص أنت كان فيك مس وخرج، قد ذكر لي أحد الرقاة المشاهير -شيطان ونحو ذلك- يقول: أضغط هذا العرق، ويسقط وأضرب صدره وأقول له: قم اخرج وكذا، فيقوم وأقول: الحمد لله أنت الآن، فالشاهد أن الهمز يطلق على هذا المعنى، ولهذا فسره بعض أهل العلم بالخنق "من همزه ونفخه ونفثه"، فقالوا: (من

همزه) هو الخنق ولهذا فسره بعضهم بالموتة الخنق من الشيطان، والنفخ الكِبر، فُسر بالكِبر، والنفث فسر بالشعر، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ يدخل فيه كل ما يلقيه الشيطان من وساوس وخواطر وما يحصل من تعدي الشيطان على الإنسان فإن الشيطان له ملابسات، أو خنق الشيطان ونحو ذلك.

وقوله تعالى: وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ سورة المؤمنون:98أي: في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور.

هذا أحسن في التفسير وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ لا يخص ذلك كما يقول بعضهم مثلاً عند الموت، وإنما هنا لم يذكر المتعلق فيحمل على العموم وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ في أمر من أموري، لا عند الموت ولا عند الأكل، ولا عند دخول المنزل، ولا عند الجماع.

ولهذا روى أبو داود أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت)([6]).

فهذه إحدى حالات حضور الشيطان، الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في غاية النفاسة يقول: أمره أن يستعيذ من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، وسبق الكلام على هذا يعني أن العدو من الإنس تنفع معه المصانعة والإحسان، ولهذا أمر بأن يدفع بالتي هي أحسن وأما العدو من شياطين الجن فلا تنفع معه المصانعة لا سبيل إلى مصانعته ولا سبيل إلى دفعه بالقوة أيضاً، وإنما الاستعاذة بالله -عز وجل- منه، فإن الله مالكه والمتصرف فيه فهو الذي يقدر على منعه من أن يصل إليك بشيء من الأذى.

ثم قال: وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة عند النزع، والسياق: فأمره أن يستعيذ من نوعي شر: إصابتهم بالهمز، وقربهم ودنوهم منه، فتضمنت الاستعاذة ألا يمسوه ولا يقربوه، وذكرَه الله سبحانه عقيب قوله: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس، يدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ سورة المؤمنون:99- 100.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقِيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته.

حَتَّى هذه هي التي يقال لها: الابتدائية، يعني التي تقال في ابتداء الكلام، هذا الكلام جديد مستأنف، بمعنى أنها ليست للغاية لو قال: إنها متعلقة بما قبلها ومرتبطة بما سبق، وإنما هي ابتداء كلام تتكلم أحياناً وتأتي بحتى، تقول مثلاً: لقيت زيداً حتى سافرت إلى الرياض وزرت عمراً واشتريت كذا حتى اعتمرت لا تقصد الغاية إنما ابتداء الكلام، وأحياناً من معانيها الغاية، وأحياناً تكون لابتداء الكلام، تبتدئ جملة جديدة لا ترتبط بما قبلها، فهنا هذه ابتدائية حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ.

ولهذا قال: رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا سورة المؤمنون:99-100، كما قال تعالى: وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إلى قوله: وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ سورة المنافقون:10-11.

هنا قال: رَبِّ ارْجِعُونِ بصيغة الجمع، وذلك يدل على التعظيم فهو لا يعظم نفسه وإنما يعظم المخاطب وهو الله -تبارك وتعالى- وهذا أحسن ما قيل في توجيهه، أي التعبير بصيغة الجمع.

وفي هذه الآية يتمنى الرجعة عند الموت حينما يرى الملائكة وعندئذ يندم على ما فرط وضيع فيتمنى الرجعة رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا، والآية الأخرى كذلك في سورة المنافقون وهي التي ذكرها هنا وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا سورة المنافقون:10-11ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما من أحد يجب عليه زكاة في المال، أو يعني فلم يزكِّ إلا تمنى الرجعة عند الموت، يعني يكون ترك وضيع واجبات النفقات الواجبة الزكاة ونحو ذلك إلا تمنى الرجعة عند الموت فقيل له: اتق الله يا ابن عباس فإنه لا يتمنى الرجعة من له عند الله حظ ونصيب، فقرأ هذه الآية، احتج بهذا الآية ليست في هذه السورة وإنما في الآية الأخرى وَأَنفِقُوا.

وقال تعالى: وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ إلى قوله: مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ سورة إبراهيم:44.

الآيات: وَأَنذِرِ النَّاسَ هؤلاء يتمنون الرجعة في الآخرة، والآية التي بين أيدينا، والآية التي في سورة المنافقون يتمنى الرجعة عند الموت تدل على أنه يتمنى الرجعة في الآخرة إذا رأى العذاب، وهنا وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ سورة

إبراهيم:44-47إلى آخره، هذا كله في الآخرة، يتمنى الرجعة في الآخرة، لا إشكال، هو يتمنى عند الموت ويتمنى أيضاً الرجعة في الآخرة كما أنه يتمنى إذا دخل النار رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ سورة المؤمنون:107، والآيات كثيرة في هذا المعنى.

وقال تعالى: يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ سورة الأعراف:53.

هذا يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يعني وقوع ما أخبر به: القيامة، فالتأويل هنا بهذا المعنى يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُفهذا تمنٍّ للرجعة في الآخرة وليس عند الموت.

وقال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَسورة السجدة:12.

وهذا في الآخرة.

وقال تعالى: وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا إلى قوله: وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ سورة الأنعام:27-28.

وهذا أيضاً في الآخرة عند الوقوف على النار وقبل دخولها.

وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ سورة الشورى:44، وقال تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ سورة غافر:11، والآية بعدها، وقال تعالى: وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ سورة فاطر:37.

فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم.

الآية المفسَّرة هنا: تمنِّي الرجعة عند الموت، ولكن ابن كثير -رحمه الله- أراد أن يوسع المعنى فذكر أنهم يتمنون عند الموت وفي البعث، وبعد البعث والنشور وإذا وقفوا على النار ورأوها وكذلك إذا دخلوها، كل هذه المقامات يتمنون فيها الرجعة.

تمنِّي الرجعة عند الموت، ولكن ابن كثير -رحمه الله- أراد أن يوسع المعنى فذكر أنهم يتمنون عند الموت وفي البعث، وبعد البعث والنشور وإذا وقفوا على النار ورأوها وكذلك إذا دخلوها، كل هذه المقامات يتمنون فيها الرجعة.

وقوله ههنا: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا كلا حرف ردع وزجر، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه، وقوله تعالى: إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَاأي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رُد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقالته هذه.

قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله -عز وجل-، فرحم الله امرءاً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار.

يعني هذا وجه في تفسير كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا أي أنه لا حقيقة لذلك، وأنه كاذب به، ويحتمل أن يكون المعنى، وهذا قال به كثير من المفسرين كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا يعني أنه سيقول ذلك، ولكن هذا لا ينافي ما ذكره ابن كثير، فهذا الكلام الذي سيقوله لا حقيقة له، لكن من أهل العلم من يقول: إن هذا يرجع إلى الله -عز وجل- كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ الله قائلها، وهي الكلمة التي سيقولها الله -عز وجل- أو هو قائلها حين قال الله -تبارك وتعالى- هنا: حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا يعني لا يمكن هذا الرجوع، وأن الله لا يمكّنه من ذلك، لكن هذا المعنى بعيد، ظاهر السياق يدل على أن ذلك يرجع إلى هذا الإنسان الذي تمنى الرجعة.

وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قال أبو صالح وغيره وَمِنْ وَرَائِهِمْ يعني: أمامهم.

يعني: هي كلمة من الأضداد كما في سورة الكهف أيضاً وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ سورة الكهف:79بمعنى كان أمامهم على قول الجمهور في تفسيرها -كما سبق- وإلا فمن أهل العلم من قال: وَكَانَ وَرَاءهُم أي: خلفهم، وفسر هذا بمعنى أنهم يريدون الذهاب إلى مقصودهم ثم سيرجعون، وسيكون في طريقهم في الرجعة ملِك، لكن هذا بعيد، فإن هذه الكلمة من الأضداد، وتأتي بمعنى أمام مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ سورة الجاثية:10ليس المقصود خلفهم جهنم؟ لا، فتأتي بمعنى الخلف، وتأتي بمعنى الأمام.

وقال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة، وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون.

يعني هذه الأقوال الثلاثة التي ذكرها معناها واحد: أن البرزخ هو المرحلة التي تكون ما بين الحياة الدنيا، والبعث، والنشور وهي مدة البقاء في القبور هذه كلها بمعنى واحد ، لكن من أهل العلم من

يقول: إن البرزخ المذكور هنا هو ما بين النفختين، نفخة الصعق، ونفخة البعث، وهذا وإن قال به بعض السلف إلا أن القول الأول هو الأقرب والأرجح والمتبادر، وهو الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً وإن اختلفت عباراتهم.

يقول: إنها ثلاثة دور: الدنيا والآخرة والبرزخ.

لا إشكال إذا أردت أن تفصل تقول: الدور ثلاثة: فدار الدنيا، هي دار العمل، ودار البرزخ وهي ليست دار جزاء وحساب، ولكنه يصله من الثواب أو العقاب ما يصله، ودار الآخرة هي دار النعيم المقيم أو العذاب الأليم، ولهذا ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الدنيا يجد الإنسان فيها اللذة والألم وأكثر ما يقع على النفس، والروح تبع، وفي البرزخ أكثر ما يقع على الروح والبدن تبع، وفي الدار الآخرة يكون كمال اللذة، والنعيم، والعذاب يقع على الروح والبدن على حد سواء، وهذا أكمل في اللذة، وأكمل في العذاب، فيمكن أن تقول في هذا الاعتبار: الدور ثلاثة، وإذا قلنا: إن الدار تنقسم قسمين: دار الدنيا والآخرة، فالبرزخ هو أول منازل الآخرة، ولا إشكال باعتبار أن الإنسان عاين وعرف مصيره وختم على عمله، ويأتيه من النعيم والعذاب..... إلى آخره، وهذا كله مما يتصل بالآخرة، فالبرزخ ليس من الدنيا وإنما هو أول منازل الآخرة.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة يوسف، برقم (4416)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (11352)، وابن حبان في صحيحه، برقم (967).

[2] - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم: (6632).

[3] - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم: (6628).

[4] - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ص، برقم (3233).

[5] - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، برقم (775)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، برقم (242)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الاستعاذة في

الصلاة، برقم (807)، وأحمد في المسند، برقم (11473)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (748).

[6] – رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة (2/92)، برقم: (1552)، وصححه الألباني.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المؤمنون من الآية 101–117

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا والسامعين، قال المصنف –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ سورة المؤمنون:101-104.

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ أي: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والد لولده، ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ سورة المعارج:10-11أي: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه –كان– في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ سورة عبس:34-37.

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا؛ ومصداق ذلك في كتاب الله: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ رواه ابن أبي حاتم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يقول الحافظ -رحمه الله-: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نفخة النشور، هذا المشهور الذي عليه الجمهور أن هذه النفخة هي نفخة البعث ويدل لذلك أيضاً قراءة ليست متواترة تروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- والحسن: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوَرِ يعني في الأجساد، فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوَرِ عادت الأرواح إلى الأجساد، وعادت الحياة إلى الناس من جديد، وهذه نفخة النشور فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ويستثنى من هذا ما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ببعض الأحاديث من قوله -صلى الله عليه وسلم- وإخباره بأن كل سبب ونسب فهو منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه -عليه الصلاة والسلام-، وقوله: وَلا يَتَسَاءَلُونَ لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ سورة الصافات:27فأثبت التساؤل بينهم في الآية الأخرى فمثل هذا العلماء عادة يجيبون عنه بأجوبة من أشهرها وأقربها أن يوم القيامة يوم طويل، ففي بعض أحيانه لا يتساءلون، وفي بعضها يتساءلون، وهذه طريقة معروفة في الجمع بين الآيات الواردة فيما يتصل بصفة القيامة مثل ما جاء من نفي تكلم الله -عز وجل- لهم وما جاء في إثباته من قوله: قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ وغير ذلك.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "السؤال الثاني: أنه قال: وَلا يَتَسَاءَلُونَ مع أنه ذكر في آيات أخرى أنهم في الآخرة يتساءلون كقوله في سورة الطور: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ سورة الطور:25، وقوله في الصافات: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ إلى غير ذلك من الآيات، وقد ذكرنا الجواب عن هذين السؤالين في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" بما حاصله" إن الجواب عن السؤال الأول هو أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا في التفاخر بالآباء والنفع والعواطف والصلات، فكل ذلك ينقطع يوم القيامة ويكون الإنسان لا يهمه إلا نفسه وليس المراد نفي حقيقة الأنساب من أصلها، بدليل قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ سورة عبس:34-35الآية.

وإن الجواب عن السؤال الثاني من ثلاثة أوجه:

الأول: هو قول من قال إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معاً، وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر.

الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط، وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص وهو سؤال بعضهم العفو من بعض فيما بينهم من الحقوق لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسئول أباً أو ابناً أو أماً أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتقان"([1]).

قيد السؤال هنا بالطلب، ولكن لا دليل على ذلك، والسيوطي في الإتقان يورد في مثل هذه الأشياء بعض الإشكالات، بعض المواضع ويجيب عنها، ينقل الإجابات عنها مثل وجه جمع السموات وإفراد الأرض، يذكر وجوهاً في هذا وما شابهه مما قد يرد على ذهن القارئ، وكتاب "دفع إيهام الاضطراب" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– كتاب نافع يورد فيه الآيات التي قد تستشكل كأنه يقابلها بآيات أخَر قد يفهم منها التعارض، فيورد هذه الآيات ويجيب عنها، ويذكر ذلك في كتاب "أضواء البيان"، ويحيل أيضاً، أحياناً يذكر ذلك يتوسع في الكتاب الآخر "دفع إيهام الاضطراب" وهو مطبوع في آخر "أضواء البيان"، ومطبوع مفرداً في الطبعة الأخيرة في طبعة علم الفوائد في مجلدين.

وقوله تعالى: فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ سورة المؤمنون:102، أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، وقال ابن عباس: أولائك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

يعني كل ذلك يرجع إلى شيء واحد وهو أن الفلاح هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهذا كما قال الله –عز وجل–: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم سورة الأعراف:8-9 فالعبرة بالرجحان، لهذا يقال لمن سأل عن السيئات هل تبطل الحسنات؟ فالجواب: أن السيئات لا تبطل الحسنات من حيث هي، وإن كانت بعض السيئات تبطل بعض الحسنات، ولكن ذلك ليس على سبيل الإطلاق، فالردة، والكفر تبطل كل الحسنات وما عدا ذلك من السيئات فإنه يبطل نوعاً مما اتصل به وتعلق به مثل المن والأذى يبطل الصدقة

فالعبرة بالرجحان، لهذا يقال لمن سأل عن السيئات هل تبطل الحسنات؟ فالجواب: أن السيئات لا تبطل الحسنات من حيث هي، وإن كانت بعض السيئات تبطل بعض الحسنات، ولكن ذلك ليس على سبيل الإطلاق، فالردة، والكفر تبطل كل الحسنات وما عدا ذلك من السيئات فإنه يبطل نوعاً مما اتصل به وتعلق به مثل المن والأذى يبطل الصدقة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى سورة البقرة:264ومثل التسميع بالعمل ونحو ذلك يبطله وما شابه، لكن لو كانت سيئة منفصلة فإنها لا تبطل الحسنة، وإنما العبرة بالوزن، فإذا ثقلت كفة السيئات فهذا يكون خاسراً.

وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ أي: ثقلت سيئاته على حسناته فأُوْلَئِكَ الّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنفُسَهُمْ أي: خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة.

ولهذا قال تعالى: فِي جَهَنّمَ خَالِدُونَ أي: ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون.

في قوله –تبارك وتعالى–: فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ وجه الجمع للموازين العلماء يذكرون في هذا أنه باعتبار الموزونات فجاء الجمع "موازينه" فالأعمال توزن، والسجلات توزن، والأشخاص يوزنون، هذه ثلاثة أشياء دلت عليها الأدلة ولا حاجة للتكلف في دفع بعض ذلك، أو الجواب عنه، كل ما ثبت في الأدلة الصحيحة فإنه يثبت كما جاء؛ لأنه لا تعارض فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أن الرجل السمين يوضع في الميزان يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، إذاً الأشخاص يوزنون، وحديث البطاقة والسجلات التي وضعت في الكفة –كفة السيئات– تدل على أن السجلات –سجلات الأعمال– توزن، وكذلك الحسنات والسيئات، الأعمال توزن كما تدل عليه ظواهر الأدلة، وبهذا جاء الجمع فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، والله أعلم.

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ سورة المؤمنون:104، كما قال تعالى: وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ سورة إبراهيم:50، وقال تعالى: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ سورة الأنبياء:39.

وقوله تعالى: وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ سورة المؤمنون:104قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني عابسون.

قوله: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ فسره هنا بقوله: "وتغشى وجوههم النار" بمعنى أنها تحرقها وتصيبها، وذكر الوجوه مع أنها تصيب سائر الأجساد وخص الوجوه بذلك كما قال: حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ؛ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان والعادة أن الإنسان يتقي بيديه عن وجهه، ولكن حينما لا يجد إلا وجهه ليتقي به لفح النار، ومس النار فإن هذا –نسأل الله العافية– يدل على شدة الحال، وسوء المآل الذي صار إليه هذا الإنسان، "حين لا يكفون عن وجوههم النار"، لا يستطيع أن يتقيها بيديه، يتقيها بوجهه، فمن يتقون بوجوههم سوء العذاب –نسأل الله العافية– تلفح وجوههم النار وتلفح سائر الجسد لكن وجوههم ليست بمنأى عن هذا، وهي أشرف شيء

يتقيه الإنسان ويدفع عنه، قال: وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ قال ابن عباس: عابسون، وهكذا قول من قال بأن الكالح هو الذي تقلصت شفتاه عن فمه فبدت أسنانه، هذا مثل ما يذكر بعض السلف أن رأس البهيمة إذا وضع على النار وقلّب عليها ما الذي يحصل؟ يحصل تقلص، فتتقلص الشفاه فيبدو باسراً، تظهر الأسنان وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ولذلك فسر بأنه -كما سبق- يكون باسراً قد بدت أسنانه من شدة الإحراق.

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْها فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ سورة المؤمنون:105-107.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها، كما قال: لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ سورة النساء:165، وقال: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا سورة الإسراء:15، وقال: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصْحَابِ السَّعِيرِ سورة الملك:8-11، ولهذا قالوا: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلنا عنها ولم نُرْزَقْها.

ثم قالوا: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ أي: رُدَّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ سورة غافر:11-12أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحّده المؤمنون.

قوله -تبارك وتعالى-: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ وذكر الله -تبارك وتعالى- في موضع آخر أنه لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّسورة الرحمن:39، وهنا يسألهم، كذلك يقال لهم: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ سورة المدثر:42، والجواب عن هذا مثل ما سبق من أن يوم القيامة يوم طويل، وفي بعض الأحايين يُسألون وفي بعضها لا يُسألون، أو أنهم لا يُسألون سؤال استعتاب وإنما يسألون سؤال تبكيت وهذا يكون أشد، فإن من وقع بمصيبة وتورط ثم جاءه من يعاتبه ويقول له: ألم أقل لك كذا؟ ألم أنهك عن كذا؟ فإن ذلك يكون في غاية الإيلام للنفس، وقوله -تبارك وتعالى عنهم-: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها، وهذا القول قريب، وله وجه لا

يخفى -والله تعالى أعلم-، وابن جرير -رحمه الله- يفسر ذلك بما سبق في علم الله -عز وجل- لهم من القدر والكتاب على هؤلاء بالشقاوة رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أي: ما سبق في علمك من الشقاوة، وهذا ذكره ابن جرير غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا، ذاك الرجل الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- وكان من المنافقين وتاب، وفي قصة تبوك في قوله: وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ سورة التوبة:65قال: يا رسول الله قعد بي اسمي واسمُ أبي، وكان اسمه مخشن بن حمير، فقال: قعد بي اسمي، واسم أبي، وابن جرير -رحمه الله- هنا يقول: إن القدر هو المراد هنا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وهذا القول وإن كان لا يوجد ما يمنع منه من الأدلة باعتبار أن ما جرى في القدر لابد أن يكون، ولكن هل هؤلاء يعتذرون بالقدر يوم القيامة عند الله -عز وجل-؟، وبعضهم يقول: غلبت علينا لذاتنا، وشهواتنا، وشقاوتنا، فغلبت علينا لذاتنا، وشهواتنا، فسماه شقوة؛ لأنه يئول إلى الشقاء، يعني أنه أطلق عليه ذلك باعتبار ما يلزم منه ويئول إليه غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا، يعني شهواتنا ولذاتنا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا، وهذه القراءة غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا هي قراءة عاصم -نقرأ بها، قراءة أهل المدينة- وأبي عمرو، وقراءة البقية غَلَبَتْ عَلَيْنَا شَقَاوَتُنَا والشِّقوة والشَّقاوة في أصل المعنى واحد، والمقصود أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا لعله هو أقرب هذه الوجوه، وإن كان ما ذكر ليس ببعيد غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا، والله أعلم.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "وقوله هنا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ الظاهر أن معنى قوله: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أن الرسل بلغتهم، وأنذرتهم وتلت عليهم آيات ربهم، ولكن ما سبق في علم الله من شقاوتهم الأزلية غلب عليهم فكذبوا الرسل ليصيروا إلى ما سبق في علمه -جل وعلا- من شقاوتهم ونظير الآية على هذا الوجه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ سورة يونس:96-97، وقوله عن أهل النار: قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ سورة الزمر:71إلى غير ذلك من الآيات، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله -صلى الله عليه وسلم-: (كلٌّ ميسر لما خلق له)([2])، وقوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ سورة التغابن:2، وقوله: وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ سورة هود:118-119على أصح التفسيرين"([3]).

وقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ على هذا الوجه خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ الفاء للتعقيب المباشر، فحينما خلقهم خلق قوماً للجنة، وخلق قوماً للنار، كما في الحديث: (وأما الغلام فقد طُبع كافراً)([4]) الذي قتله الخضر، والمعنى الثاني في الآية: فَمِنكُمْ

كَافِرٌ أن التعقيب بالفاء يكفي كل شيء بحسبه خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ المعنى أن الله خلقهم وهدى كل فريق كما قال الله -عز وجل-: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ سورة البلد: 10، وبين لهم ما يتقون فمنهم من آمن واتبع الرسل، ومنهم من كفر وأعرض، لكن هذا القول الثاني في هذه الآية: فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ يقول به بعض أهل البدع مثل المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان يخلق فعله وينفون القدر فيقولون بهذا القول باعتبار أنه يختار وأن ذلك لم يقدر عليه، وهذا غلط، ولكن يمكن أن يصحِّح هذا الوجه أنه قد قال به بعض السلف -وهم أبرياء من قول القدرية- باعتبار أن الله قدر عليه في الأزل، ولكن المقصود في معنى الآية هذه فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ المقصود بها فمنكم من سلك طريق الإيمان لما وصل إلى حد الإدراك والفهم، والعلم، والمعرفة وكذا منكم من اختار طريق الكفر، فهذا إذا قال به أحد من أهل السنة فإن ذلك إما أن يكون مقبولاً صحيحاً أو غاية ما هنالك أن يكون من قبيل الغلط في التفسير، أقصد أنه لا يقدح في الاعتقاد، ولكن القول أحياناً يقوله صاحب بدعة فيقصد به تأييد المذهب مثل الذي يفسر بعض آيات الصفات بتفسيرات قد تكون وردت عن بعض السلف، لكن السلف يثبتون أصل الصفة مثلاً في قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ سورة القصص:88فمن قال ممن فسرها: إن هذه ليست من آيات الصفات أصلاً كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فمثل هذا لا يعتبر من القدح في الاعتقاد، غاية ما هنالك عند غير الموافق أن هذا خطأ في التفسير كما يرى ابن القيم مثلاً -رحمه الله-، لكن شيخ الإسلام يثبت صفة الوجه بالأدلة الأخرى، وكقوله -تبارك وتعالى-: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ سورة القلم:42، فمن أهل العلم -وهو مروي عن ابن عباس- من قال: إن الساق الكرب، هذا معنى معروف في لغة العرب فمن فسرها بهذا وهو يثبت صفة الساق كما جاء في الحديث: (فيكشف عن ساقه)([5])، قال: لا يمكن أن يؤول، فلا إشكال، فغاية ما هنالك عند المخالف أن هذا من قبيل الخطأ في التفسير فحسب، لكن إذا جاء المبتدع الذي ينفي الصفات وقال: يُكْشَفُ عَن سَاقٍ أي: كرب، واحتج بما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه-، فهذا نقول له: لا، ونرد عليه، فيقع هذا في بعض المواضع، فبعض أهل البدع قد يوافقون عبارة لبعض السلف ولكنهم يُجرون ذلك على مذهبهم الفاسد.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "وهذا الذي فسرنا به الآية هو الأظهر الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبه تعلم أن قول أبي عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية: وأحسن ما قيل في معناه غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا سورة النساء:10؛ لأن ذلك يؤديهم

إلى النار- تكلفٌ مخالف للتحقيق، ثم حكي القرطبي ما ذكرنا أنه الصواب بقيل ثم قال: وقيل حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق، ولا يخفى أن الصواب هو ما ذكرنا إن شاء الله تعالى"([6]).

فهنا ضعّف قول القرطبي باعتبار أن المتبادر من الظاهر والأكثر والأسرع وروداً على الذهن غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أن المقصود به الشقاء وليس سبب الشقاء، هو يريد هذا، ولكن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله-: قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها- قول لا تكلف فيه، -والله أعلم- فهنا الشنقيطي -رحمه الله- ما أورد هذا القول ولا أجاب عنه.

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَسورة المؤمنون:108-111.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: اخْسَئُوا فِيهَا أي: امكثوا فيها صاغرين مُهانين أذلاء وَلا تُكَلِّمُونِ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي.

قال العَوْفِي، عن ابن عباس: اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ قال: والله ما نَبَس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

قوله: قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ أصل هذه الكلمة يقال للبعيد اخسأ بمعنى الإبعاد، ولهذا يقال للكلب ذلك ويراد به معنى الإبعاد، وما ذكره هنا قال: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء هو بهذا المعنى، يرجع إلى هذا المعنى، فإن هذا بمعنى الإبعاد، من بقي في النار صاغراً ذليلاً فهذا غاية الإبعاد، وهذا المعنى أحد المعاني التي ذكرت في الرجيم، قد قيل في معناه: أي مبعَد، وما ذُكر أنه المجرم رجيم بمعنى مرجوم فإنه يرجع إلى هذا المعنى يرجم باللعن والطرد والشتم، يرجع إلى هذا المعنى، إلا على القول بأن رجيم بمعنى راجم يرجم الناس بالوساوس إلى آخره، هكذا عليه عامة أهل العلم، والله أعلم.

قال الشنقيطي رحمه الله-: "قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ،ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن أهل النار يدعون ربهم فيها فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا إلى مالا يرضيك بعد إخراجنا منها فإنا ظالمون، وأن الله يجيبهم بقوله: اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ أي: امكثوا فيها خاسئين أي أذلاء صاغرين حقيرين؛ لأن لفظة "اخسأ" إنما تقال للحقير، والذليل كالكلب ونحوه فقوله: اخْسَئُوا فِيهَا أي: ذلوا فيها ماكثين في الصغار والهوان، وهذا الخروج من النار الذي طلبوه قد بين تعالى أنهم لا ينالونه كقوله تعالى: يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ سورة المائدة:37، وقوله تعالى: كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ سورة البقرة:167، وقوله تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا سورة الحج:22، وقوله: كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا سورة السجدة:20إلى غير ذلك من الآيات، وقد جاء في القرآن أجوبة متعددة لطلب أهل النار فهنا قالوا: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا، فأجيبوا اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ وفي السجدة رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا سورة السجدة:12فأجيبوا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ سورة السجدة:13الآية، وفي سورة المؤمن: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ سورة غافر:11، فأجيبوا ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ سورة غافر:12، وفي الزخرف: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَسورة الزخرف:77فأجيبوا إِنَّكُم مَّاكِثُونَوفي سورة إبراهيم: فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ سورة إبراهيم:44، فيجابون: أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ سورة إبراهيم:44، وفي سورة فاطر وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ سورة فاطر:37، فيجابون: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍسورة فاطر:37إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مثل هذه الأجوبة([7]).

سبق في طلبهم الرجعة أنهم يتمنون ذلك عند الموت حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِسورة المؤمنون:99، وكذلك يتمنون الرجعة حينما يعرضون على النار وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ سورة الأنعام:27، وكذلك يتمنون إذا دخلوا النار أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ.

ثم قال تعالى مذكرًا لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا سورة المؤمنون:109-110أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليّ، حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي، أي: حملكم بغضهم على أن نَسِيتم معاملتي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ المطففين:29-30أي: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِسورة المؤمنون:112-116.

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ أي: الحاسبين قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاأي: مدة يسيرة على كل تقدير لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تَصَرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السّيئ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته -كما فعل المؤمنون- لفزتم كما فازوا

روى ابن أبي حاتم عن صفوان، عن أيفع بن عبد الكَلاعي؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتَّجَرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فيقول: بئس ما اتَّجَرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين)([8]).

هذا يحتاج أن يراجع من حيث الثبوت والصحة، وقوله -تبارك وتعالى-: قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جيد، قال: أي الحاسبين ولم يشتغل بما اشتغل به كثير من المفسرين من أن المقصود بذلك الملائكة، أو أن المقصود من يجيد الحساب والعد من بني آدم أو غير ذلك، فالله -عز وجل- قال عنهم: فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ اسئل الحاسبين أيًّا كان هؤلاء، وقوله: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، بعضهم يقول:

المقصود به مدة البرزخ يعني بعد الموت إلى النفخ في الصور، وأن المقصود أن هذه مدة قصيرة قليلة، والأقرب –والله تعالى أعلم– أن المقصود بذلك مدة البقاء في الدنيا فالحياة أيضاً قصيرة، وحينما يوافي الإنسان يدرك هذا المعنى أن حياته كانت كأنها حلم إذا انقشع، ولهذا يقول الله –عز وجل–: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ سورة الروم:55، مع أن المدة التي يقضيها الإنسان في فترة البرزخ إذا بعث فإنها –والله تعالى أعلم– بالنسبة إليه تكون قصيرة، ولذلك يشبه إلى حد ما حال النائم، فإن النائم ينقضي عليه الوقت بصورة أسرع –كما هو معلوم– من المستيقظ، ولذلك تجد الإنسان أحياناً لربما يريد أن يقضي الوقت –إما لفراغ ممل أو لهمٍّ قد أشغله– بالنوم، لهذا تجد الإنسان من بعض الناس البطالين إذا كان صائماً في رمضان ويريد أن يقضي اليوم ويطوي النهار ماذا يفعل؟ الحل في نظره هو النوم، ينام فما يستيقظ إلا على الإفطار ولا يشعر بشيء ويكون هذا الوقت الطويل كله كأنه عشر دقائق من الانتظار وهو مستيقظ، ولهذا أصحاب الكهف لما بقوا فترة وهي تشبه فترة البرزخ فهذه المدة الطويلة ثلاثمائة وتسع سنوات لما قاموا وتساءلوا فأجاب بعضهم قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ سورة البقرة:259 فترة البقاء في البرزخ ليست كالعد الذي يكون في الدنيا بالنسبة لهؤلاء، ولكن هنا ما المراد؟، هل المراد به البرزخ أو المراد به الحياة الدنيا؟ الأقرب -والله أعلم- أن المراد الحياة الدنيا بمتعها، وإن كان القول بأن المراد البرزخ يعني ليس بقول شاذ أو بعيد أو منكر -والله تعالى أعلم-

فترة البقاء في البرزخ ليست كالعد الذي يكون في الدنيا بالنسبة لهؤلاء، ولكن هنا ما المراد؟، هل المراد به البرزخ أو المراد به الحياة الدنيا؟ الأقرب –والله أعلم– أن المراد الحياة الدنيا بمتعها، وإن كان القول بأن المراد البرزخ يعني ليس بقول شاذ أو بعيد أو منكر –والله تعالى أعلم–

، والشنقيطي –رحمه الله– له كلام في ذكر الآيات الواردة فقال –رحمه الله–: " قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا سُئِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ قَدْرِ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا أَجَابُوا بِأَنَّهُمْ لَبِثُوا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ أُخَرُ عَلَى أَنَّهُمْ أَجَابُوا بِغَيْرِ هَذَا الْجَوَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا سورة طه:103وَالْعَشْرُ أَكْثَرُ مِنْ يَوْمٍ أَوْ بَعْضِهِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ سورة الروم:55.

وَالسَّاعَةُ أَقَلُّ مِنْ يَوْمٍ أَوْ بَعْضِهِ، وَقَوْلِهِ: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا سورة النازعات:46، وَقَوْلِهِ: كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ سورة يونس:45، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ سورة الأحقاف:35.

وَقَدْ بَيَّنَّا الْجَوَابَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فِي كِتَابِنَا: "دَفْعُ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ" فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا حَاصِلُهُ: أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَيَقُولُ بَعْضٌ آخَرُ مِنْهُمْ: لَبِثْنَا سَاعَةً، وَيَقُولُ بَعْضٌ آخَرُ مِنْهُمْ: لَبِثْنَا عَشْرًا .

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ أَقْوَاهُمْ إِدْرَاكًا، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا، وَأَمْثَلَهُمْ طَرِيقَةً هُوَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا سورة طه:103-104فَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي اخْتِلَافِ أَقْوَالِهِمْ، وَعَلَى ذَلِكَ فَلَا إِشْكَالَ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى"([9]).

وقوله: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا سورة المؤمنون:115أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟!.

يعني بهذا الاعتبار قال وقيل، للعبث، على هذا: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا أي: للعبث، فيكون "عبثاً" مفعولاً لأجله خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا أي: لأجل العبث، قال: أي: لتلعبوا، الله -عز وجل- يقول: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ سورة الأنبياء:16.

وقوله: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ سورة المؤمنون:116أي: تقدَّس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ سورة لقمان:10.

هذه قراءة السبعة بل عامة العشرة رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فيكون الكريم هنا صفة للعرش، وفي قراءة أبي جعفر من العشرة بالرفع رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ فيكون الكريم صفة الله -عز وجل- للرب، كما سبق في القاعدة أن تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات، فعلى هذه القراءة يكون الكريم صفة للعرش وصفوه بأنه الكريم، وفي القراءة الثانية يكون ذلك من صفة الله -عز وجل- كما في قوله تعالى: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ سورة البروج:15، وفي القراءة الأخرى الْمَجِيدِ، هنا في كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير الكريم، قال: ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل كما قال تعالى: فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ في الموضعين لا يفسر الكريم بهذا التفسير الحاصر له فيما يتعلق بالشكل والصورة، فإن هذا أحد المعاني الداخلة فيه، فإن الكريم أوسع من هذا لا

يختص ذلك فقط بهيئته وصورته الظاهرة وإنما المعنى أوسع، فالمقام الكريم هو المكان الحسن الواسع أيضاً الذي لا تنغيص فيه، ولا منة فيه ولا أذى إلى غير ذلك من المعاني، والطعام الكريم هو المستلذ أو حسن المنظر الذي لا تنغيص فيه ولا منة فيه، كل هذه المعاني داخلة فيه، قد يكون حسن الصورة لكنه غير جيد الطعم، وقد يكون جيد الطعم لكنه غير مستساغ في صورته وهيئته تنفر منه النفوس وقد يكون فيه منة تنغص ذلك على آكله مثلاً، وحينما يقال: الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فإن ذلك يدخل فيه الصورة، ويدخل فيه أيضاً من جهة المعنى، يعني المادة التي خلق منها والأوصاف التي تختص به مما يصلح لمثله كل هذا داخل فيه، يعني لا يختص فقط بالصورة الظاهرة بالشكل، المعنى أوسع من ذلك -والله أعلم- على سبيل المثال مع الفارق الكبير حينما يقال: الأحجار الكريمة هل هذا يرجع إلى صورتها فقط؟، لمادتها، لاحظتَ في التقريب المعنى مع الفارق، تقريب للمعنى، فإذاً هذه اللفظة لا تختص بالصورة إنما هي أبلغ من ذلك.

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ سورة المؤمنون:117-118.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبرًا أن من أشرك بالله لا بُرْهَانَ لَهُ أي: لا دليل له على قوله فقال: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أي: الله يحاسبه على ذلك.

ثم أخبر: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قوله -تبارك وتعالى-: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ البرهان هو الحجة والدليل، وهذا الموضع قوله: لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ هل هو من قبيل الصفة المقيدة بمعنى أن مفهوم المخالفة معتبر أو أنها مجرد صفة كاشفة تكشف عن حقيقية الأمر على ما هو به؟ هي صفة كاشفة، صفة كاشفة مثل حينما يقول الله -عز وجل-: وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِسورة الأنعام:38هو الطائر يطير بجناحيه ما يطير برجليه، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمسورة آل عمران:167تقول بالأيدي!، طبعاً هناك تكون معانٍ أخرى تذكر لكن هذا المتبادر وإلا فهناك من يقول: يكتبون الكتاب بأيديهم يعني: ما وكل ذلك إلى غيره، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم القول قد يكون بالإشارة، وقد يكون قاله غيره فأقره، ونسب إليه لكن المعنى المتبادر هو ما ذكرت، هذا كله يقال له: صفة كاشفة، لذلك "يطير" يقولون: الطيران يطلق على الإسراع أنا لا أريد أن أدخل في الجزئيات والإجابات التي قد يكون فيها شيء من التكلف، إنما المعنى المتبادر وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ فهذا يذكر يقال له: صفة كاشفة وهي الحقيقة، لا مفهوم له -مفهوم المخالفة-، فحينما يقول الله -عز وجل-: لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ هل هناك أحد يمكن أن يدعو مع الله إلهاً آخر له به برهان؟ الجواب: لا، إذاً لا مفهوم له، يعني ليس

لأحد أن يقول هنا:وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ إن مفهوم المخالفة أن من دعا مع الله إلهاً آخر له به برهان فهو معذور لن يحاسب، ما يقوله أحد لماذا؟ لأنه لا يمكن لأحد أن يدعو مع الله إلهاً آخر له به برهان كقوله –تبارك وتعالى–: وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ سورة آل عمران:21ولا يمكن لأحد أن يقتل نبيا بحق، فيقال: هذه صفة كاشفة كل من قتل نبيا فهو بغير حق، فهي تكشف عن حقيقته، ولهذا هذا أحد المواضع السبعة أو الثمانية التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة التي عبر عنها صاحب المراقي بقوله:

أو امتنان أو وفاق الواقع *** والجهل والتأكيد عند السامع

هذا جاء موافقا للواقع، من حيث هو في أجلى صورة، يعني هناك صور وفاق الواقع، واقعة معينة حصلت لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ سورة آل عمران:28لو جاء أحد وقال: نحن نريد أن نتخذ الكافرين أولياء مع المؤمنين، نقول: لا هذه الآية جاءت وفاق –على وفق– واقع معين، ناس اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فنزلت الآية فيهم وإلا فلا يجوز لأحد أن يتخذ الكافرين أولياء، فهذه الصورة فرق بينها وبين ما نحن فيه لا يخفى.

تم بحمد الله وفضله.

---

[1] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (356/5).

[2] – رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ولقد يسرنا القرآن للذكر، برقم (7112)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (2649)

[3] – أضواء البيان (358/5).

[4] – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف، برقم (4449).

[5] – رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ سورة القيامة:22-23، برقم (7001).

[6] – أضواء البيان (358/5).

[7] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (359/5).

[8] – تفسير ابن أبي حاتم،(2511/8)، برقم (14060).

[9] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (361/5–362).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ١ إلى الآية ٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة النور: ١-٢].

يقول تعالى: هذه {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} فيه تنبيه على الاعتناء بها، ولا ينفي ما عداها.

{وَفَرَضْنَاهَا} قال مجاهد وقتادة: أي بيّنا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود.

وقال البخاري: ومن قرأ "فَرَضْنَاها" يقول: فَرَضْنا عليكم وعلى من بعدكم.

{وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} أي: مفسَّرات واضحَات، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} السورة هي جملة من القرآن، آيات من القرآن أقلها ثلاث باعتبار الاستقراء، لها مطلع، وخاتمة، إلى غير ذلك من المعاني التي قيلت في بيان مراد السورة، والمقصود التقريب، {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} وهنا "سورة" نكرة، ومعروف أنه لا يُبتدأ بالنكرة ما لم تفد، فمن أهل العلم من يقول: إنها أفادت هنا فهي مبتدأ؛ لأنها نكرة موصوفة، والخبر {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا} فوصفها بالإنزال، {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} قالوا: هذا المبتدأ، والمبرر والمسوِّغ للابتداء بالنكرة أنها موصوفة، كما قال ابن مالك -رحمه الله:

*** ورَجُلٌ مِن الكِرامِ عندنا

رجلٌ من الكرام – وصف الرجل هنا بأنه من الكرام، فيجوز في هذا الحال، والذي عليه عامة أهل العلم أنها خبر لمبتدأ محذوف، وابن جرير -رحمه الله- قدره بمثل هذا، وقال به أئمة أهل اللغة: هذه سورة أنزلناها، وعلى القراءة الأخرى أيضا {سُورَةً أَنزَلْنَاهَا} بالنصب، فمن أشهر ما قيل في تعليله، وتفسيره، وإعرابه أنه على النصب بفعل مقدر محذوف: أنزلنا سورة أنزلناها، أو اتلوا سورة أنزلناها، وهذا أقرب -والله تعالى أعلم- و أوضح، وبعضهم يقول غير ذلك، والعلم عند الله.

قال: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} خص هذه السورة بالإنزال مع أنه أنزل كل القرآن فيمكن أن يقال: لمزيد الاعتناء بها، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَفَرَضْنَاهَا} يقول: "**قال مجاهد وقتادة: أي بينا الحلال, والحرام والأمر والنهي والحدود، وقال البخاري: ومن قرأ فرَضناها يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم**"، مع أن ابن جرير رحمه الله ذكر هذا القول احتمالا في المعنى أنه تفسير للقراءة الثانية {فرَّضناها}، وهنا نقل عن البخاري -رحمه الله- قوله: "**ومن قرأ فرَضناها يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم**"، وهذا يحتاج إلى مراجعة، فهذا الذي ذكره ابن جرير {فرَّضناها}، لابد من تعديل هذا، قال البخاري من قرأ فرَضناها، والشاهد أن هذه اللفظة {وَفَرَضْنَاهَا} فيها قراءتان: التخفيف، وعلى هذه القراءة يكون المعنى كما قال بعضهم: فرضناها

بمعنى فرضنا العمل بها، فرضنا ما فيها من الأحكام، فرضناها عليكم: أوحيناها وجعلناها، ألزمناكم العمل بها، قدرنا ما فيها من حدود، هذا القول "قدرنا" يختلف هو باعتبار تفسير الفرض بالتقدير؛ لأن الفرض يأتي بمعنى التقدير، وابن جرير يقول: فرضنا عليكم ما فيها من الأحكام، فالمعاني السابقة غير معنى التقدير كأنها ترجع إلى شيء واحد، فيمكن أن يقال: {وَفَرَضْنَاهَا} فرضنا عليكم الإيمان بها، وما تضمنته وستأتي الحاجة لهذا عند الكلام على قوله تعالى: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} [سورة النور: ٣]، هناك من يقول كابن القيم -رحمه الله-: إن المراد أن {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} باعتبار أنه إما أن يكون مقرا بحكم الزنا أن الله أمر بالعفاف وتزوج العفيفات، فإما أن يسلم ويذعن بهذا، ولكنه لا ينقاد عملياً فهو زانٍ؛ لأن العقد باطل إذا تزوج امرأة معروفة بالزنا ولم تتب، وإما أن لا ينقاد ولا يعترف بالحكم فهو مشرك، وهذا كقول جماعة من أهل العلم مثل ابن جرير وابن كثير وطائفة، وابن عباس -رضي الله عنهما-: إنه إما أن يكون مقرا بحكم الزنا لكنه يواقعه فهو زانٍ، أو أنه ينكر حكم الزنا فهو مشرك، فالشاهد {وَفَرَضْنَاهَا} يدخل فيه فرض الإيمان بها وما تضمنته، ويدخل فيه أيضاً فرض ما فيها من الأحكام، فرضنا عليكم العمل بها والقيام بما تضمنته مما وجه إليه الله -تبارك وتعالى-، فالشاهد أن هذه القراءة هي قراءه الجمهور، وفي القراءة الأخرى {وَفَرَّضْنَاهَا} وهي قراءة ابن كثير وأبي عمر، وبعضهم يقول في المراد بها: إن التشديد هنا للتكثير والمبالغة، فرّضناها لكثرة ما تضمنته من الفرائض والأحكام، وإلا فإنها ترجع إلى معنى القراءة الأولى، وهذا كما يقول ابن جرير -رحمه الله- أنزلنا فيها فرائض مختلفة، وبينا فيها الحلال والحرام، فهذا راجع إلى المعنى السابق في الواقع؛ ولهذا ما نقله عن البخاري -رحمه الله- ذكره ابن جرير احتمالاً قال: "**ومن قرأ {وَفَرَّضْنَاهَا} يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم**"، هذا باعتبار كثرة المكلفين، وهذا يرجع إلى معنى التكثير، فرضنا عليكم الإيمان بها، الجميع، فرض على الأولين والآخرين، ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، يكون للتكثير، فكثير من المعاني التي يذكرونها لها راجعة إلى المعنى المقصود به التكثير، باعتبار كثرة الأحكام أو كثرة المكلفين؛ ولهذا بعضهم يقول: المقصود به التأكيد، فرَّضناها، والمعنى أن الزيادة هنا ليست لها معنى آخر يختلف عن قوله فرَضناها، وإنما للتأكيد أنزلناها وفرَّضناها، ولاشك أن فرَّضناها أبلغ في الدلالة على المعنى، وأقوى من فرَضناها، سوره أنزلناها وفرَّضناها فهي وإن كانت ترجع في أصل المعنى إلى معنى فرَضناها، ولكن ذلك فيه زيادة حرف فهو يدل على زيادة في المعنى، وذلك بكثرة ما فيها من الأحكام والفرائض، وأن الله فرضها على جميع الأمة من أولها إلى آخرها، فهذه السورة الله -تبارك وتعالى- أنزلها وفصلها وأنزل فيها ضروباً من الأحكام، وأمرَ ونهَى وفرضَ على عباده فيها فرائض كما يقول ابن جرير -رحمه الله- حيث جمع هذه المعاني في القراءتين.

قال: {وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} قال: "**أي مفسرات واضحات**"، وقوله: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} يتضمن ما حوته من الآيات لكن الله -عز وجل- قال بعد ذلك: {وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} فهذا يدل على كمال عناية الله -عز وجل- بها حيث كرر هذه اللفظة، {وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} كمال العناية بهذا المنزّل.

ثم قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرًا، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً،

وهو الذي قد وَطِئَ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل. فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج فإن حدَّه مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاما عن بلده كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجُهَنيّ في الأعرابييْن اللذيْن أتيا رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عَسيفا -يعني أجيرا -على هذا فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة وَوَليدَة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريبَ عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رَدٌّ عليك، وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريبُ عام، واغدُ يا أنيس -لرجل من أسلم- إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها))، فغدا عليها فاعترفت، فرجمها[١].

قوله -تبارك وتعالى-: **{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}** هنا ذكر حكم الجلد، فلفظة "الزانية": "ال" هذه للعهد، ولا عموم في الآية، فيكون ذلك راجعاً إلى الزاني غير المحصن، ولا حاجة للقول بأن هناك تخصيصاً، أو يقال: إن "ال" هذه للجنس، وهي تفيد العموم، فالزانية والزاني يشمل جنس الزناة والزواني، وذلك من صيغ العموم كما هو معلوم، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وبهذا الاعتبار يقال: إن هذه الآية مخصصة للعموم، فخُصِّصت الأمَة بنص كتاب الله -عز وجل-: **{فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}** [سورة النساء:٢٥] خُصص بالقرآن حد الأمة، وخُصص بالقياس -على قول عامة أهل العلم- ما يتعلق بحد العبد فإنه ينصف؛ لأنه ورد التخصيص بالقرآن في حد الأمة، ولا فرق بين الأمة والعبد من هذه الحيثية، فالعبد ينصف، والدليل على ذلك هو القياس، وهي مخصصة أيضا بالقياس، وهي مخصصة أيضا بحد الثيب على قول الجمهور الذين لا يرون الجمع بين الجلد والرجم، ويحتجون بأدلة منها: ((اغدُ يا أنيس..)) وفيه فاعترفت فرجمها"، وما ذكر الجلد، وهذه المسألة فيها كلام معروف، وإذا قلنا بالجمع بينهما فإن هذه الآية تكون دلت على أحد الحكمين، والحديث سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- دلت على الآخر يعني هذه تكون دلت على الجلد بالنسبة للثيب، والآية المنسوخة لفظاً "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبته"، وما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رجم ماعزاً و الغامدية، وهذا ثابت في السنة فمن قال: إن الثيب يرجم فقط فيكون ذلك تخصيصاً لهذا العموم في الآية، ومن قال: إنه يجلد مع الرجم يقول: لا تخصيص فهذه دلت على جلده، والسنة كما سيأتي عن علي -رضي الله عنه- دلت على الرجم، وممن قال بالجمع بين الرجم والجلد عليٌّ -رضي الله عنه-، وهو ثابت عنه في صحيح البخاري، وقال به آخرون من التابعين كالحسن، وقال به إسحاق بن راهويه، ويدل عليه حديث عبادة عند مسلم ((خذوا عني, خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا...إلى أن قال: والثيب بالثيب جلد مائة والرجم))[٢] هذا في صحيح مسلم، والعلماء يجيبون عن الحديث الآخر: ((اغدُ يا أنيس))، وما يستدل به هؤلاء فبيان النبي -صلى الله عليه وسلم- في موضع يغني عن تكرار ذلك في سائر المواضع، وعليٌّ -رضي الله عنه- لما جلد شراحة

---

١ - رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب الاعتراف بالزنا، برقم (٦٤٤٠)، ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، برقم (١٦٩٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنا، برقم (١٦٩٠).

الهمدانية يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة كما في الصحيح قال: "جلدتها بكتاب الله" –يعني: يقصد هذه الآية-، ورجمتها بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"[٣]، -والله أعلم-، فهذا الآية عامة، أهل العلم يقولون: إنها ناسخة الآية التي ذكر فيها الحبس والأذى، {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ من نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا} [سورة النساء:١٥-١٦]، إلا عند من يقول: إن هذا من قبيل المُغيّى بغاية، وإنه ينتهي عند انتهاء غايته، وإن ذلك ليس من قبيل النسخ، والذي عليه عامة أهل العلم أن هذا نسخ، فتكون هذه الآية هنا في سوره النور ناسخة للآية الأخرى في سوره النساء، والله أعلم، والزنا حقيقته هو وطء في فرج، وطء امرأة في الفرج من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها، بهذه القيود فهذا هو الزنا فإذا كانت مكرهة لا يقال عنها: زانية، وما كان ما دون الفرج لا يقال له: زنا، وما كان بشبهة نكاح فإنه لا يقال له: زنا، ويحصل به الإلحاق بالنسب مثل لو أنه تزوج امرأة و تبين أنها أخته من الرضاعة مثلاً، فالعقد من أساسه غير صحيح.

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج، فأما إن كان محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم.

هذا ضابط المحصن الذي حصل له وطء في نكاح صحيح، أما إذا كان في نكاح فاسد فإنه لا عبرة به، ولو عقد ولم يحصل وطء فإنه لا يكون محصناً، ولو عقد وحصل دون الوطء مباشرة قُبلة إلى آخره لا يعتبر محصناً، ولو أنه كان قد زنى مثلاً فإنه لا يكون محصناً، فالوطء لابد أن يكون بعقد بنكاح صحيح.

كما روى الإمام مالك أن عمر -رضي الله عنه-، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها وَوَعَيْناها، ورَجمَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وَرَجمْنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو الحَبَل، أو الاعتراف. أخرجاه في الصحيحين[٤] من حديث مالك مطولاً، وهذا قطعة منه، فيها مقصودنا هاهنا.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٤٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن أبا إبراهيم المعقب شيخ عبد الله بن أحمد -واسمه إسماعيل بن محمد بن جبلة السراج- لم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة، وهو ثقة روى عنه جمع، ووثقه الإمام أحمد كما في "تاريخ بغداد" ٢٦٦/٦ وكان يثني عليه ويعظمه جدا، ورواه البخاري عن علي -رضي الله عنه- حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال: "قد رجمتها بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم"، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم المحصن، برقم (٦٤٢٧).

٤ - رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب الاعتراف بالزنا، برقم (٦٤٤١)، وبرقم (٦٤٤٢) في باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنى، برقم (١٦٩١)، ومالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ما جاء فِي الرَّجْمِ، برقم (٣٠٤٢).

إذا قامت البينة مثل الشهود أو الحمل للمتزوجة وزوجها غائب، وكانت الحال تقتضي أنه لا يمكن أن تحمل منه فحملت، والعلماء يختلفون في تقدير هذا، كذلك لو أنه طلقها أو مات عنها ثم وقع الحمل بعد ذلك وادعت أنه منه فهذا أيضا له تقدير، والحمل من أوضح دلائل الزنا، أو الاعتراف، ولذلك يندر في التاريخ إقامة حد الرجم إلى يومنا هذا؛ والسبب أن هذا لا يمكن أن يثبت إلا بالبينة، هؤلاء الشهود الأربعة يشهدون شهادة مفصلة، وهذا في غاية الصعوبة إلا إن كان واحد يقول: تعالوا اشهدوا ويدعوهم، وهذا لا يمكن، كيف يستطيعون الشهادة بمثل هذا؟، أربعة، وليس واحداً، أو الحمل أو الاعتراف، فيصعب مثل هذا، لذلك يندر هذا في التاريخ.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٢ إلى الآية ٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: **وقوله: {وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}** [سورة النور:٢] أي: **في حكم الله، لا ترجموهما وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز له ذلك.**

قال مجاهد: {وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} قال: إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل، وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، وعَطاء بن أبي رَبَاح، وقد جاء في الحديث: ((تعافَوُا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حَدٍّ فقد وَجَب))[1].

وقوله: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: فافعلوا ذلك: أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرِّحا؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: ((والشاة إن رحمتها رحمك الله))[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}** الرأفة المراد بها رحمة رقيقة، فهي ترجع إلى معنى الرحمة في أصل المعنى، ولكنها تفترق عنها بأنها رحمة خاصة، رحمة رقيقة **{وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}** وهذا الموضع في كتاب الله -عز وجل- يرد فيه سؤال معروف وهو أن الرأفة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة ولا تطلّب، فهي تقع في قلب الإنسان من غير قصد، وقد يريد دفعها ولا يستطيع، ومعلوم أن الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا فيما يدخل تحت طاقة المكلف، فالندم والرحمة وما شابهه كل ذلك يقع في القلب، فالإنسان قد يندم ويحاول دفع الندم ولا يستطيع، وقد يرحم فيحاول دفع هذه الرحمة ولا يستطيع، فخطاب الشارع إذا توجه إلى المكلف في أمر غير مقدور فإنه ينصرف إلى سببه أو إلى أثره، فهذا مثال، فهنا نهاهم عن الرحمة لهؤلاء، فمن رأى أحداً يقام عليه الحد ورحِمَهُ، فلا يقال: إنه أثم وإن هذا خلاف الإيمان **{وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}**، وإنما نقول: يتوجه النهي

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان، برقم (٤٣٧٦)، والنسائي، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون، برقم (٤٨٨٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٩٥٤).

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٥٩٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن مخراق: وهو المزني، فقد روى له البخاري في "الأدب المفرد" وأبو داود، وصحابيه أخرج له البخاري في "الأدب المفرد" وأصحاب السنن".

في الخطاب هنا إلى أثر الرحمة -إقامة الحد- فيترك الحد رحمة، يترك الشخص فيقال: لا يقام عليه الحد، أو تخفيف الحد، وعامة أهل العلم يقولون: المراد به إقامة الحد، يعني {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} يعني في حكمه وشرعه، وهذا المعنى صحيح، والمعنى الآخر صحيح –أيضاً-، فيكون المنهي هو الأثر عموماً، فيدخل فيه ترك إقامة الحد، ويدخل فيه أيضاً تخفيف الحد، إما بالصفة وإما بالعدد، بالصفة فيما لو قال: يضرب هذا تحلّة قسم فقط، ضرباً خفيفاً، أو بالعدد فبدلاً من أن يجلد مائة جلدة قالوا: يكفيه عشر، فهذا لا يجوز {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} بعضهم يقول: في طاعته فالدين يأتي بمعنى الطاعة، (دنتُه فدان) يعني أطاع، وهذا يرجع إليه قول من قال: في شرعه الذي شرعه فيترك ذلك رحمة بهذا المحدود، والله -عز وجل- عليم حكيم وهو أرحم بعباده منا، فمن رحمته بالمكلفين أن شرع إقامة هذه الحدود؛ ليصير المجتمع نظيفاً، ومن أجل تطهير هؤلاء الذين قارفوا ما قارفوا، فهذه الحدود كفارات كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا من الرحمة بهم، ولذلك تجد الإنسان يؤدب ولده بالضرب أو الزجر والآلام وما شابه ذلك، وهو في غاية الرحمة به، والطبيب قد يبتر عضواً، يجرح، ويكون ذلك لمصلحة هذا المريض، قال: {إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: {فِي دِينِ اللَّهِ} **أي في حكم الله، أي لا ترحموهما وترأفوا بهما في شرع الله**، فجمع -رحمه الله- بين العبارتين اللتين يعبر بهما أهل العلم عن معنى {فِي دِينِ اللَّهِ} بعضهم يقول: في شرعه، وبعضهم يقول: في حكمه، فجمع بينهما الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا من حُسن تفسيره ودقته في اختيار المعاني، والذي لم يطلع على أقوال أهل العلم وكلام السلف في الآية لربما يقرأ مثل هذه العبارة ولا يتفطن لما حوته من المعنى، قال: **وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية عن إقامة الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز له ذلك**، والإنسان إذا قرأ ينبغي أن تكون قراءته دقيقة، ولهذا طالب العلم تختلف قراءته عن العامي، وكثير من الناس يسأل، قد لا يتفطن لهذا أصلاً، ثم ذكر قول مجاهد قال: **إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل**، وذكر حديث: ((تعافوا بالحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب)) والحديث صحيح، والمقصود وصول ذلك إلى السلطان، يعني إلى الحاكم نفسه الذي هو الأمير أو الخليفة أو الملك، أو إلى نائبه، إلى نائبه مثل القاضي، لكن الهيئة لا تعتبر بهذه المنزلة بحيث إذا وقفت الهيئة على قضية زنا مثلاً أو قذف أو نحو ذلك هل يعتبر هذا قد بلغ السلطان بحيث إنه لا يجوز الشفاعة فيه، ولا يجوز الستر ويجب إقامة الحد؟، فالهيئة ليست جهة مخوّلة بإقامة الحدود، فهي لا تنوب عن السلطان بهذا، إنما هي للتأديب، والمحافظة على أخلاق الناس وما شابه ذلك، لكنها ليست جهة منفذة للحدود، وإنما ذلك منوط بالقضاء، ولذلك يرد السؤال عن هذا: إذا وقفنا على قضية زنا أو نحو هذا، هل لنا أن نستر أو هذه القضية تكون قد بلغت السلطان ويجب إقامة الحد فيها؟، يقال: يجوز لهم الستر بل يكون هو المتعين أحياناً، وكل حالة بحسبها قال: {إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} مثل هذا يرد في القرآن كثيراً، والمقصود به التخصيص والتحريض على الامتثال كما تقول للإنسان أحياناً تريد منه أن يفعل شيئاً: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، والرجل يقول لولده: إن كنت ولدي فافعل كذا، وتقول للرجل: إن كنت رجلاً فافعل كذا، تقصد الحث والتخصيص {إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} أي فافعلوا، فامتثلوا قال: وشدِّدوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً ليرتدع، وقد جاء في المسند عن

قرة المزني -رضي الله عنه- قال: إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والشاة إن رحمتها رحمك الله))[٣]، وهذا يدخل في عموم قوله: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[٤] من في الأرض ليشمل بني آدم وغيرهم، لكن هذه الرحمة ينبغي أن تكون مضبوطة بضوابط الشرع، فلا تؤدي إلى تضييع الدين، ترك إقامة الحدود.

وقوله: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}: هذا فيه تنكيل للزانييْن إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا.

قال الحسن البصري في قوله: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} يعني: علانية.

{وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} قوله: فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، معنى ذلك يكون أبلغ بزجرهما، والحكمة من حضور الطائفة هي أن ذلك أشد في الردع والزجر، هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير وذكره كثير من أهل العلم، ولاشك أن هذا واقع، وأنه صحيح وثابت، ولذلك تجد الكثير من الناس يود أنه لو ضوعف عليه الحد أضعافاً ولا يكون ذلك بحضرة الناس، ولكن فيه أيضاً من الحكمة زيادة على هذا وهو ردع الناس، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن المعصية إذا وقعت علانية -كانت المعصية ظاهرة- كانت العقوبة ظاهرة، فالناس حينما يعرفون ويطلعون على أن هذا قد فعل ما يوجب العقوبة، أو فعل ما يوجب الحد أو نحو ذلك فعندئذ تظهر عقوبته، من أجل أن يرتدع الناس، فهذه الحدود شرعت -والله أعلم- في مثل هذا لأمرين:

الأول: شرعت علانية زيادة في التنكيل وردع المكلف الذي واقعها.

والثاني: فيها زجر لغيره، فلو كانت تقام سراً، فالناس لا يطلعون ولا يرون، فإن مثل هذا يتخلف عنه هذا المعنى، وهو زجر المكلفين عن مواقعة مثل ذلك، فإذا رأوا أن هذا الإنسان يجلد، وهذا يرجم، وهذا تقطع يده، فإنهم بذلك يرتدعون، وكما قيل: العاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فيتعظ الناس بما يرون، ويكون لهم في ذلك عبرة وعظة، قال: ونقل عن الحسن {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ} قال: **يعني علانية،** وهذا من قبيل التفسير باللازم وليس من قبيل التفسير المطابق؛ لأن الطائفة ليس معناها العلانية، لكن يلزم منه أن يكون ذلك علانية، فالسلف -رضي الله تعالى عنهم- أحياناً يفسرون باللازم، وأحياناً بدلالة التضمن، وأحياناً بالمطابق، ولا يخفى المعنى المراد، أما تفسير الطائفة من حيث هي فقد اختلف العلماء في ذلك وفي تحديده لاسيما في هذا الموضع {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} في حضور عقوبة الزنا، لا تكون

---

٣ - رواه أحمد في المسند برقم (١٥٥٩٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن مخراق: وهو المزني، فقد روى له البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، وصحابيه أخرج له البخاري في الأدب المفرد، وأصحاب السنن، وبرقم (٢٠٣٦٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٤٦).

٤ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم(٤٩٤١)، والترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٢٢).

سراً، ولا تكون في مكان خاص، وإنما تكون علانية، والطائفة: عامة أهل العلم يقولون: تصدق على واحد فما فوق، وبعضهم يقول: إن هذه اللفظة فيها معنى الإحاطة، طاف، الطواف بالبيت، ((إنها من الطوّافين))[٥] ففيها هذا المعنى، فإطلاق الطائفة على واحد فما فوقه هو قول الجمهور، وممن قال بهذا الإمام أحمد -رحمه الله-، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير، إلا أن ابن جرير -رحمه الله- راعى في ذلك الخلاف؛ لأن من أهل العلم من قال: إنه هنا في هذا الموضع لو كانت الطائفة تطلق على واحد فما فوق فهنا لابد من اثنين، قال بعض العلماء هذا؛ لأن ذلك أقل الشهادة، طائفة، أقل الشهادة {**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ**} هم لا يشهدون عليه لكن يشهدون عقوبته يعني يحضرون فقالوا: كل ما تقوم به الشهادة اثنان فلابد منهما، وبعضهم قال: لابد من ثلاثة؛ لأن الثلاثة أقل الجمع، ولكن هنا لم يرد لفظ الجمع، على خلاف أصلاً في أقل الجمع هل هو ثلاثة أو اثنان، وبعضهم يقول: لابد من أربعة فما فوق؛ لأن حد الزنا لا يثبت إلا لأربعة فهنا في الحضور حضور هذه العقوبة لابد من أربعة، فهؤلاء فقط يحضرون العقوبة بعدما ثبتت الجريمة بالاعتراف أو بالشهادة شهادة الشهود الأربعة فالكلام هنا في الحضور فقط، فبعضهم يقول: لابد في هذه الطائفة في الزنا من أربعة؛ لأن ذلك أقل الشهادة به فابن جرير يراعي هذا ويقول خروجاً من الخلاف: يحسن أن لا يقل الحضور عن أربعة؛ لأنه أقل الشهادة بالزنا، فهنا ليس موضع شهادة بالزنا، يعني الذين أوجبوا أربعة مع اعترافهم بأن الطائفة من واحد، تصدق على واحد فما فوق قالوا: لابد من أربعة في هذا الموضع؛ لأنه أقل الشهادة بالزنا، لكن هنا ليس موضع شهادة، فهذا قياس مع الفارق، والقياس مع الفارق لا يصح، وإذا أخذنا بظاهر اللفظ مثل كلمة "طائفة" ليس لها معنى شرعي، وإنما يرجع في ذلك إلى اللغة، وليس لها معنى في عرف المخاطبين بالقرآن، -معنى خاص- فإذا رجع فيها إلى اللغة وجد أن معنى الطائفة يصدق على الواحد فما فوق، المهم أن يكون الحد علانية فيوجد من يرتدع من المكلفين قلَّ العدد أو كثر -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: لابد من عشرة، وهذا لا دليل عليه إطلاقاً، مع أنه قال به أئمة، وأما القول بأنه أربعة فهذا هو المنقول عن مالك والشافعي وجماعة، وبعضهم يقول: لابد من خمسة، وهذا لا دليل عليه -والله تعالى أعلم-، لكن يحسن أن يكون إقامة الحد في وقت يتوافد الناس فيه؛ من أجل تحقيق الحكمة الثانية من حِكَم إقامة الحد علانية، وهو أن يرتدع الناس، فيراه أكبر قدر، ويكون ذلك أبلغ في الزجر، والمحدود يتمنى أن يقام عليه الحد ولا يراه أحد إن أمكن، فلو قيل له مثلاً: سنقيم الحد عند مسجد الجامع الكبير مثلاً، فربما يتمنى أن يكون بعد الفجر؛ لقلة الناس، فيكون هذا أفضل بالنسبة إليه من كون الحد بعد صلاة المغرب، والله تعالى أعلم.

{**الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**} [سورة النور:٣].

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، برقم (٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٥٢٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٤٣٧).

هذا خَبَر من الله تعالى بأن الزاني لا يَطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: {الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ} أي: عاصٍ بزناه، {أَوْ مُشْرِكٌ} لا يعتقد تحريمه.

{الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة**، يعني لا يطاوعه، هذا الموضع فيه إشكال كثير وخلاف طويل بين أهل العلم، وخلاصته أن هذه الآية فيها إشكالات متعددة في المعنى؛ ولذلك فإن كلام أهل العلم فيها متردد بين كونها محكمة أو منسوخة، وكونها عامة أو خاصة، خاصة سواء في فرد معين أو في نوع من الناس، هل هي محكمة أو منسوخة؟ هل هي عامة أو خاصة؟ هل المراد بالنكاح الوطء أو المراد به الزواج والعقد؟ وعامة الخلاف بل كل الخلاف يدور حول هذه القضية بالذات هل هو العقد بالزواج أو المراد به الوطء؟ فإذا قلت بأنه الوطء يرد عليه إشكالات أو إشكال، وإذا قلت بأنه العقد يرد عليه إشكالات أكثر، والذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أنه الوطء، واعتبرها من قبيل الخبر، إخبار عن الواقع أن هذا الزنا لا يقع ولا يوافقه إلا إحدى امرأتين إما امرأة مشركة لا تعترف بحكم الزنا أصلاً، تستحل الزنا، أو امرأة مسلمة تقر أن هذا حرام، ولكنها تتبع هواها من الناحية العملية، فتفجر، فهذه زانية، هذا إخبار عن الواقع، فهذا الآن الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- لا يطأ، قال: هذا خبر من الله، العبارة دقيقة جداً، هذا خبر بمعنى أنه ليس بإنشاء، ليس بإنشاء لحكم، يعني أحياناً صيغة الخبر تكون بمعنى الإنشاء مثل {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٣] يعني ليُرضعن، أمر في صيغة خبر، فابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: هذا مجرد خبر لا يتضمن إنشاء حكم، بخلاف الذين قالوا بأن المقصود به العقد قالوا: هذا خبر مضمن معنى حكم فيه نهي، إذا قلنا: إنه خبر أو إنه إنشاء أصلاً بأن "لا" هذه ناهية، وليست نافية {لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} يقول: هذا إنشاء، صيغة إنشاء لا ينكح، نهى له عن النكاح، عن التزوج إلا بزانية أو مشركة، هذه خلاصة مدار كلام أهل العلم على تفرق أقوالهم وكثرتها في هذه الآية، فإذا أخذنا هذا القول الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- ومن وافقه، وممن وافقه على هذا ابن جرير، قالوا: هذا إخبار عن الواقع، وليس بإنشاء حكم، والآية ليست بمنسوخة، وإنما هي إخبار أن الزاني لا يوافقه إلا من كان على شاكلته من الزناة أو من لا يعترف بالحكم أصلاً وهي المشركة، وهنا لا يرد موضوع النسخ ولا يرد موضوع التخصيص، ولكن هذا يرد عليه إشكال وهو أن الآية صارت بمعنى تحصيل الحاصل، أي أنه لا يقع إلا على واحدة تستحل الزنا أو تعرف حكمه وتقر به، ولكنها تغلب هواها فتفجر، قالوا: هذا أمر مدرَك وليس جديداً، والذين قالوا بأن النكاح هنا بمعنى العقد، يرد عليهم أسئلة أكثر وموضع هذه الإشكالات هو في قوله "أو مشركة" يعني لو كانت الآية فقط {لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً} كنا انتهينا، نقول: لا يتزوج إلا زانية، لكن الإشكال في قوله: {أَوْ مُشْرِكَةً} فالزاني الذي يقر بحكم الزنا مسلم، ولا يجوز للمسلم أن يتزوج مشركة، وله أن يتزوج الكتابية، فموضع الإشكال أن الله قال: {أَوْ مُشْرِكَةً} فكيف يجوز للمسلم ولو كان زانياً أن يتزوج المشركة؟ ومن هنا قال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة، كانت ثم نسخت، وصار لا يجوز للمسلم أن يتزوج المشركة، وليس لأحد أن يخصص المشركة هنا بالكتابية؛ لأنه سينعكس أيضا في قوله: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} حتى لو كان

كتابياً لا يجوز أن يتزوج مسلمة، وهذه أوضح، ولو كانت زانية، طيب إذاً ما المراد بقوله: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}؟ فالذين قالوا: المراد هنا الوطء أراحوا أنفسهم، وقالوا: ما يقع عليها إلا من كان مستحلاً وهو مشرك، أو من كان مطاوعاً لهواه وإن أقر بالحكم، لكن الذين قالوا: المراد به العقد وقع عندهم هذا الإشكال فبعضهم قال: منسوخة، ولكن القاعدة أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، هذه دعوى لا دليل عليها، وبعضهم قال: هذه خاصة، واختلفوا في التخصيص، فبعضهم قال: خاصة في المحدود، وقد ورد حديث صحيح بأن الزاني المحدود لا يتزوج إلا زانية أقيم عليها الحد، وبعضهم يقول: هي خاصة برجل استأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت الآية، استأذن أن يتزوج امرأة بغيًّا مشركة في بعض الروايات هذا خاص به، وقالوا: سبب النزول دل على التخصيص، فيقال لهم: العبرة بعموم اللفظ، وهنا اللفظ عام {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ}، فقالوا: لا، "ال" هذه ليست للجنس، وإنما هي عهدية، {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً}، وقوله: {وَالزَّانِيَةُ} التي هي فلانة التي سئلت عنها، {لا يَنْكِحُهَا إلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} فخصوا ذلك، والذين قبلهم خصوه بنوع وهو الزاني المحدود، وهؤلاء خصوه بحالة معينة أو بامرأة وقع الاستئذان بالتزوج منها، فسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت الآية، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولابن القيم -رحمه الله-، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كلام حسن في معنى هذه الآية، وإن لم يكن بمعنى واحد، وخلاصة كلام ابن القيم -رحمه الله- أن الله أمر بالعفاف والتزوج من العفائف فمن أقر بذلك وانقاد بقلبه، ولكنه لم يستجب عملياً فتزوج امرأة زانية، فإن ذلك إخلال بالكفاءة المطلوبة في عقد النكاح بين الزوجين، فالزواج باطل وهو يعاشرها بالزنا، واشتراط العفاف ذكره بعض أهل العلم، وهو منقول عن الإمام أحمد أن التزوج بامرأة تزني ولم تتب وإنسان عفيف لا يصح، فابن القيم حملها على العقد، يقول: إن تزوج إن عقد على امرأة عرفت بالزنا فهو إن كان مسلّماً بالحكم فهو زانٍ؛ لأن هذا العقد لا يصح، وإن كان غير مسلّم قال: أنا لا أعترف بهذا، وهذه حرية شخصية، ولا علاقة للدين بالزواج يقول: فهو مشرك، فهذه المرأة لا يجوز أن يتزوجها إلا من كان على شاكلتها، وهو الزاني، فلا يقدم على الزواج منها إلا من كان منكراً الحكم وهو التزوج من العفائف، وهناك فرق بين هذا، وبين الكلام الذي قبله الكلام السابق في مسألة إن هذا من قبيل الخبر كما ذكره ابن كثير، هنا لا، هنا في التزوج وليس في المواقعة والوطء، معنى كلام ابن كثير أنه لا يقع عليها -يعني يفجر بها- إلا واحد على شاكلتها، وكلام ابن القيم يعني أنه لا يتزوجها بحيث يعقد عليها إلا إنسان ينكر هذا فهو مشرك، ينكر لزوم تزوج العفيفة، أو إنسان يقر بهذا ولكنه يحبها، وغلبه هواه فتزوجها فهو يعاشرها بالحرام فهذا زنا، والعقد باطل، فجملة "لا ينكح" محمولة على العقد، هذا خلاصة كلام ابن القيم، ولفظة النكاح تأتي تارة يراد بها العقد فقط، وهذا ورد في القرآن في قوله: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} [سورة الأحزاب٤٩] فهذا نص صريح في إطلاق النكاح على مجرد العقد، وأكثر المواضع في كتاب الله -عز وجل- هي في هذا المعنى {فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ} [سورة النساء:٢٥] يعني تزوجوهن، وأطلق على أكمل معانيه، وهو مجموع العقد والوطء، وهذا في

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلاَ تَحِلُّ لَهُ} [سورة البقرة:٢٣٠] المطلقة ثلاثاً، {حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} ولا يكفي لو عقد عليها آخر ثم طلقها، كما دل عليه الحديث: ((حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها))[٦]، لابد من الوطء مع العقد الصحيح حتى تحل للزوج السابق، فهنا أطلق النكاح "حتى تنكح زوجاً غيره" على أكمل معانيه، على مجموع الأمرين، ويرد في كلام العرب النكاحُ مراداً به الوطء فقط، والأقرب أن تفسر الآية بنظائرها من القرآن إلا لقرينة، والإشكال الذي قد يرد على القول الآخر يمكن أن يجاب عنه فكلام ابن القيم -رحمه الله- فيه تخليص من هذه الإشكالات، حيث فسر النكاح بالتزوج، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فسرها بمعنى يختلف عن هذا، وله كلام طويل خلاصته يقول: إن الله -تبارك وتعالى- قال على أهل المنكر {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} [سورة النساء:١٤٠]، وقال: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} وجيء لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- بأناس قد شربوا الخمر، وفيهم صائم فأمر بحدهم، فواحد منهم قال: أنا صائم، فقال: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}، فشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: الزوج عشير والعشرة بين الزوجين هي أبلغ العشرة، أعظم من مجالسة الصديق والصاحب، فالمرأة التي تبقى مع زوج وتعاشر زوجاً تعلم أنه يزني، يقول شيخ الإسلام: فلها حكمه -وهذا كلام قوي-، لها حكمه؛ لأن الله قال: {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ}، وقال: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} فلا يجوز لها أن تبقى معه، بل يجب أن تفارقه إذا لم يتب، وكذلك الرجل إذا علم من المرأة أنها تزني فلا يجوز له البقاء معها، بل يجب أن يفارقها فإن بقي معها فله حكمها ولو لم يكن يزني، فأورد -رحمه الله- كلاماً في هذه المسألة يقول: الذي يزني تقل غيرته فلا يحتاط على المرأة، وقد ذُكر أن بعض النساء قالت لزوجها: هل ترضى أن أفعل مثلك؟ فقال: افعلي ما تريدين أنا لا أحجر عليك، فهذا شيء يرجع لكِ أنتِ، فشيخ الإسلام يقول: تقل غيرته فيكون ديوثاً نسأل الله العافية، ويقول: المرأة التي تعلم أن زوجها يزني يكون عندها نزعة انتقامية تجدون أنها تدفع لتنتقم منه، ولذلك تجد بعض النساء تفعل هذا وأحياناً تهم به، وتقول: أنا لولا الخوف من الله لأدبته، قد سمعت هذا كثيراً، هذا إذا كانت تخاف من الله، أما التي لا تخاف من الله فهي مثل زوجها يعاشر بالحرام منها -نسأل الله العافية-، ولذلك تجد في بلاد الكفار في بلاد الغرب حيث هذه الأمور تكون ظاهرة على السطح تجد الرجل يفجر وله صديقة، وصديق الزوجة وهي معه على صورة على الثلاجة، معلقة على الثلاجة، والزوج يراها صباحاً ومساء، يرى هذه الصورة -نسأل الله العافية- من هو هذا؟، هذا صديق الزوجة، فهذا خلاصة لكلام أهل العلم المتفرق في هذه المسألة، أما عباراتهم الكثيرة فهذا مما يطول ويمكن أن يرجع إلى ذلك في مظانه، وهذا نوع من الزجر فكما أن الله -عز وجل- أمر بمعاقبة الزانييْن بإقامة الحد، أمر بالمجانبة فالعفائف لا يتزوجن الزناة، وأهل العفة لا يتزوجون الزواني، فعندنا إذاً سبب النزول صح فيه الروايات، قصة عناق واستئذان النبي -صلى الله عليه وسلم- التزوج منها، رجل استأذنه وهو أبو مرثد الغنوي -رضي الله تعالى عنه- في القصة المعروفة أنه كان يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكان بمكة بغي يقال لها: عناق وكانت صديقة له، وكان وعد رجلا أن يحمله من أسرى مكة، وأن عناقَ رأته فقالت له: أقم الليلة عندي قال: يا عناق قد حرم الله الزنا فقالت: يا أهل الخباء هذا الذي

---

٦ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٤٧٣٠).

يحمل أسراكم، فلما قدمتُ المدينة أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله أتزوج عناقَ؟ فلم يرد حتى نزلت هذه الآية: {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((لا تنكحها))[٧]، وكذلك الذي استأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكي يتزوج أم مهزول وهي امرأة بغي، فهذا صح في سبب النزول لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والقول الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وابن جرير ومن وافقهم قال به جماعة من الصحابة، ومن بعدهم فابن عباس صح عنه التصريح بأن هذا النكاح إنما المراد به الجماع، فيقول: النكاح هنا هو الجماع، وقال به كثير من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير، ودعوى النسخ لا تثبت، فالنسخ لا يثبت بالاحتمال.

وقدم الزاني في قوله: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} على الزانية، وفي الحد قدم الزانية فقال: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}، والسر في تقديم الزاني في الزواج إذا قلنا بأن الآية محمولة عليه كما هو قول ابن القيم -رحمه الله-: هو أن الرجل سيد الموقف، فهو الذي يعقد ويخطب، فقدمه، فقال: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً}، يعني لا يتزوج إلا زانية، وفي الحد، قال: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا} يعني العلماء أجابوا عن ذلك إجابات متعددة، بعضهم قال: قدم الزانية في الحد باعتبار أن الزنا في ذلك الوقت أكثر في النساء، وهذا الكلام غير صحيح، وبعضهم يقول: قُدمت لأن معرّة الزنا في حقها أعظم من الرجل، تفضح نفسها وأهلها وعشيرتها، وتدنس الفراش، واختلاط النسب، وهذا له وجه، وبعضهم يقول -وهذا لا يعارض ما قبله-: لما كانت المرأة هي المبتدئة عادة قدمت، في الصحيح الرجل كيف يجترئ على المرأة أو يطمع فيها؟ كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢] إنما يطمع إن كان في قلبه مرض -المقصود به الميل المحرم إلى النساء- إذا رأى الإشارة منها، وهذه الإشارة قد تكون بالعبارة ترخيم تغنج في الكلام، أو بأمر آخر كالحركات والمشية، أو اللباس والحجاب؛ ولهذا قال: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ} [سورة النور:٣١] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل-، فالمرأة هي التي تجذب الرجل، وتستدعي ذلك منه، وهذا أجود ما ذكر في سبب هذا التقديم -والله أعلم-، وأيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} معنى التأكيد، يعني أنه من أجل ألا يُتوهم أن هذا الحكم موجه للرجل، وأنه مخاطب به، وإنما ذلك إلى المرأة، من الطرفين على حد سواء.

وقوله تعالى: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال.

وقال قتادة، ومقاتل بن حيّان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا -وتَقَدّم ذلك- فقال: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، وهذه الآية كقوله تعالى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [سورة النساء:٢٥]، وقوله: {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} الآية [سورة المائدة:٥].

---

٧ - رواه النسائي، كتاب النكاح، باب تزويج الزانية، برقم (٣٢٢٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٧٠١)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، (٢٩٦/٦)، برقم (١٨٨٦).

عبارات السلف -رضي الله عنهم- {وَحُرِّمَ ذَلِكَ} الإشارة هنا تتوجه إلى أين؟ بعضهم يقول: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ} هو على قولين فمن قال بأن المقصود بالآية: النكاح {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً}، ثم قال: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ} أي التزوج بالبغايا، ومن قال المراد به الزنا، لا ينكح يعني لا يزني لا يطأ قال: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ} أي الزنا، ومن أهل العلم من حمل الآية على المعنيين {وَحُرِّمَ ذَلِكَ} قال: اسم الإشارة يحتمل؛ لأن الله تكلم عن الزنا قبلها {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ} أي الزنا، فعبارة ابن كثير إذا نظرتَ فيها تجد أنه جمع بين القولين حرم ذلك أي الزنا والتزوج بالبغايا، ولهذا قال: أي تعاطيه تعاطي الزنا خاصة أنه حمل الآية أصلاً على أنّ "ينكح" من قبيل الإخبار، وأن المقصود بالنكاح الوطء، واضح؟، ولكنه حرم ذلك أعاد الضمير وهذا من تعميم المعنى وله نظائر، وفي قواعد التفسير من هذا القبيل {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥] هل هو من علم الله أو علم ما بين أيديهم وما خلفهم؟، وأنه يحمل عليه {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر:١٠] يرفع الكلم الطيب؟ أو يرفع العمل الصالح؟ قولان معروفان، قلنا: الآية تحمل على هذا وهذا، وكله صحيح، والمقصود أنه على القول بأن هذه الآية في العقد فإن ذلك يدل على تحريم تزوج العفيف من المرأة التي تزني أو الزانية التي لم تتب، ويحرم أن تتزوج المرأة برجلٍ فاجر يزني، والإمام أحمد يقول: العقد لا يصح، فإن وقع استتيب الرجل فإن تاب صح، وإن لم يتب فإنه لا يصح وأن معاشرتها له بالحرام، ولا شك إذا كان هناك توبة من المرأة، زنت فتابت فيجوز أن تتزوج بل يجب عليها أن تتزوج بالعفيف ما تتزوج زانياً، والرجل إذا زنا وتاب فلا يجوز له أن يتزوج بزانية لم تتب، ويبقى الحديث الذي ورد في المحدود بأنه لا يجوز له أن يتزوج إلا زانية إلى آخره، في المحدود إن أقيم عليه الحد لا يتزوج امرأة عفيفة فهذا يحتمل أن يكون فيمن لم يتب، يعني أقيم عليه الحد لكنه ما تاب، فهذا الحد كفارة ولكن الرجل لم يتب، ولكنه عرف وظهر أمره فلا يتزوج امرأة عفيفة، ولكن من تاب تاب الله عليه، وأعظم ذلك الشرك بالله -عز وجل-، فإذا تاب الإنسان مُحي عنه الذنب، والله أعلم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادعى نسخها بحجة ألبته، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى، فإنهم أشكل عليهم قوله: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} هل هو خبر أو نهي أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجها يصح حملها عليه فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد فإنه لا فائدة فيه ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزنى إلا بزانية فأي فائدة في الإخبار بذلك، ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عامُّ اللفظِ خاصُّ المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة وهي عناق البغي وصاحبها فإنه أسلم واستأذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نكاحها فنزلت هذه الآية، وهذا أيضا فاسد

فإن هذه الصورة المعينة، وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ} [سورة النور:٣٢]، وهذا أفسد من الكل؛ فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى وحرم نكاح الزانية كما حرم نكاح المعتدة، والمحرمة، وذوات المحارم فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟.

فإن قيل: فما وجه الآية؟، قيل: وجهها -والله أعلم- أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه لم يصح النكاح فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً}، وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرنانا ديوثا زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قحبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية والله الموفق"[٨].

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}.

قد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولا، ويكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، ذكرنا هذا في ترجمة الكتاب، وذكرنا فيما مضى من الكتاب أمثلة كثيرة لذلك، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك: أن العلماء اختلفوا في المراد بالنكاح في هذه الآية، فقال جماعة: المراد بالنكاح في هذه الآية: الوطء الذي هو نفس الزنى، وقالت جماعة أخرى من أهل العلم: إن المراد بالنكاح في هذه الآية هو عقد النكاح، قالوا: فلا يجوز لعفيف أن يتزوج زانية كعكسه، وهذا القول الذي هو أن المراد بالنكاح في الآية التزويج لا الوطء في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته، وتلك القرينة هي ذكر المشرك والمشركة في الآية; لأن الزاني المسلم لا يحل له نكاح مشركة، لقوله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [سورة البقرة:٢٢١]، وقوله تعالى: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [سورة الممتحنة:١٠]، وقوله تعالى: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك؛ لقوله تعالى: {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ}، فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال، وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح في الآية التي نحن بصددها الوطء الذي هو الزنى، لا عقد النكاح; لعدم ملائمة عقد النكاح لذكر المشرك

---

٨ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم(١/٦٥-٦٦).

والمشركة، والقول بأن نكاح الزاني للمشركة، والزانية للمشرك منسوخ، ظاهر السقوط؛ لأن سورة النور مدنية، ولا دليل على أن ذلك أُحل بالمدينة ثم نسخ، والنسخ لابد له من دليل يجب الرجوع إليه"[٩].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، -رضي الله عنهما-، أن رجلا من المسلمين استأذنَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في امرأة يقال لها: "أم مهزول" كانت تسافح، وتشترط له أن تنفق عليه، قال: فاستأذن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم -أو ذكر له أمرها- قال: فقرأ عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[١٠].

هذا يذكر في أسباب النزول وليس بصريح؛ لأنه فعلاً هو سبب النزول قرأ عليه -صلى الله عليه وسلم- وقد نزلت قبل ذلك، وهذا الجمع بين هذا وهذا في الرواية الأخرى الصحيحة في قصة مرثد الغنوي -رضي الله عنها- في التزوج من عناق، ذاك فيه التصريح بسبب النزول، قد تكون نزلت في مرثد، ثم جاء هذا يسأل في أم مهزول هذه فقرأ عليه -صلى الله عليه وسلم- الآية.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله))[١١]، وهكذا أخرجه أبو داود في سننه.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة النور:٤-٥]، **هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً.**

يقول الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} بين -تبارك وتعالى- حكم الزاني هذه الجريمة ما هي عقوبتها، وما ينبغي من التباعد لمن يواقع ذلك مِن ترْك التزوج من هؤلاء، وبين هنا حكم من رمى غيره بهذه الفاحشة من أجل أن تبقى الأعراض مصونة محفوظة، لا لهو فيه لا يتكلم فيها من شاء؛ لئلا يخف ذلك على الأسماع، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة النور:١٩]، كما سيأتي، توعدهم فقال: {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، ومن إشاعة الفاحشة التحدث بها في المجالس، بل إن بعض أهل العلم يقول: إن الآية التي نسخ لفظها في حكم الزاني المحصن "والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبته نكالاً من الله": الحكمة في نسخ اللفظ لتُنزَّه الأسماع وتصان عن هذا تزوج ويزني، هكذا قال بعضهم بغض النظر عن صحة هذا الاستنباط، وابن كثير -رحمه

---

٩ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٥/٤١٧-٤١٨).

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (٦٤٨٠)، وقال محققوه: "حسن، وهذا إسناد ضعيف لجهالة الحضرمي شيخ سليمان بن طرخان والد معتمر"، وصحح إسناده الألباني في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل (٦/٢٩٧).

١١ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في قوله تعالى: {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً}، برقم (٢٠٥٢)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٧٠٠)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٤٤).

الله- هنا يقول: **فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة** ثم بين المحصنة فقال: **هي الحرة البالغة العفيفة** **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ}** هناك من أجل إقامة الحد شروط لابد أن توجد، وبعض هذه الشروط متفق عليها، وبعض هذه الشروط مختلف فيها، وهناك شروط في القاذف، وهناك شروط في الكلام الذي يقال، ما ضابطه حتى يكون ذلك قذفاً؟، وهناك شروط في المقذوف، فالقاذف يقول الفقهاء لابد أن يكون عاقلاً بالغاً فالمجنون إذا رمى غيره بالزنى رفع عنه القلم، وكذلك الصغير لا يقام عليه الحد لكنه يؤدب ويُنهى عن هذا، ويؤخذ على يده لكن لا يقام عليه الحد، وهذا لا إشكال فيه، والكلام الذي يعتبر قذفاً العلماء مختلفون في التعريض، بعضهم يرى أنه قذف كالإمام مالك -رحمه الله-، وبعضهم لا يرى أنه قذف، والأقرب أنه يستفصل فإن أراد بها القذف فإن ذلك يكون قذفاً مثل عبارات الطلاق، كنايات الطلاق، تقصد الطلاق إذا كان كناية عن الطلاق، فإن كانت العبارة صريحة القذف فإنه لا يقبل منه إن كان أراد شيئاً آخر، وإن كانت كناية يستفصل، وهذا قد يختلف باختلاف الأعراف في الكلام، قد يقول هذا الكلامَ إنسانٌ في بيئة لا يعد عندهم هذا من القذف، إنما يقصدون أن هذا إنسان قليل الخلق والأدب والدين لا ذمة له، وقد يكون في بيئة أخرى هذا الكلام يعتبر من القذف فتراعى مثل هذه، ولهذا تجد بعض الحالات أحياناً التي يكون فيها دعوى قذف يطلب من هذا الإنسان المدعي أن هذا من قبيل القذف أن يأتي بما يثبت هذا في عرف القاذف؛ لأن القاذف قد ينكر هذا، ويقول: هذا عندنا في كلامنا هذا لا يعتبر من القذف، فيأتي بما يثبت ذلك، هذا قذف أو ليس بقذف؟ وليس بعرف المقذوف؛ لأن كلام كل متكلم يحمل على عرفه هو، وليس على عرف السامع إلا في كلام الله -عز وجل- إن لم يوجد معنى شرعي فإنه يحمل على المعنى العرفي عرف المخاطبين في القرآن في زمن النزول في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد أن الكلام الذي يقذف به هو الزنى صراحة وبعضهم يقول: اللواط، فلو قذفه بكناية يستفصل، أو بنفي نسبه من أبيه أبلغ، أو نفي نسب ولده منه، فلو قال واحد للبعيد لولد إنسان قال: هذا ولد حرام، يعني ولد زنى اتهام بالزنى لأمه، فمثل هذا يعتبر قذفاً، أما الشيء المقذوف: العلماء يذكرون فيه شروطاً، بعض هذه الشروط في إقامة الحد مثل أن يكون هذا المقذوف حراً؛ لأنه ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال))[١٢]، المقصود لا يقام عليه الحد في الدنيا، وهذا نقل فيه بعض أهل العلم الإجماع، فلابد أن يكون حراً، وليس معنى ذلك أنه يجوز له أن يقذف العبد، لا، وإنما لا يقام عليه الحد، واشترط أيضاً الفقهاء أن يكون المقذوف بالغاً، لكنهم اختلفوا لو قذف البنت التي يوطأ مثلها، وإن لم تكن بالغة يعني أن جسمها يمكن أن يوطأ وليست ببالغة، فبعضهم يرى أن هذا من القذف، وممن قال بهذا الإمام أحمد -رحمه الله-، وكذلك أن يكون المقذوف مسلماً، وليس معنى ذلك أنه يجوز له أن يقذف الكافر أو الكتابي وإن اختلفوا في بعض الصور، لو قذف كتابية مثلاً وزوجها مسلم هذا سيرجع إلى عرضه هو متهمٌ امرأتَه، إنسان يأتي ويقذف امرأة مسلم وهي كتابية فهذا يتضرر منه المسلم، فبعض السلف قال: إن هذا يعتبر من القذف، مع أن

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب قذف العبيد، برقم (٦٤٦٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنى، برقم (١٦٦٠).

الجمهور على أنه ليس من القذف، هو قذف لكن هل يقام به الحد الجمهور يقولون: لا، وبعضهم يقول: إن كان لها ولد مسلم؛ لأن هذا سيتضرر منه الولد، والجمهور على خلافه، فالشاهد أنهم يشترطون الحرية، والإسلام، والبلوغ، والعقل، وأن يكون عفيفاً من هذه التهمة التي رُمي بها، يعني لو أنه قذف امرأة معروفة بالزنا أصلاً لا يقام عليه الحد، وليس معنى ذلك أن الإنسان له أن يطلق لسانه ويتكلم في أعراض الناس ويقول هذه ما هي مسلمة، هذه فاجرة، وهذه امرأة رقاصة، وهذه كذا، وهذه كذا، هذا أمر لا يكون من المؤمن، فالمسلم ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء، فمجموع هذه شروط تسعة مقسمة على هذه الأقسام القاذف والمقذوف، والمقذوف به على خلاف في التفاصيل، على خلاف في بعضها، ومسائل أخرى تتعلق في هذا مثل العبد لو قذف الحر الله -عز وجل- يقول: {فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً} في الزنا قال: {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} [سورة النساء:٢٥]، لو أن هذه الأمَة أو العبد قذف حراً هل يقال: عليه نصف ما على الحر من العذاب؟ عامة أهل العلم يقولون: نعم، قياساً على حد الزنا، فلنزول مرتبته خفف عنه الحد مع أن هذا ليس محل اتفاق -والله تعالى أعلم-، وهناك مسائل كثيرة لسنا بصددها، وابن كثير يقول: **هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة**، ذكر ثلاثة شروط: حرة، بالغة، عفيفة، وما ذكر العقل ولا ذكر الإسلام، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد، هذا الآن جواب يعني على سؤال، وهو قوله: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} لو قال قائل: مفهوم المخالفة: الذين يرمون المحصنين إذاً لا ينطبق عليهم هذا، المحصنات صفة، هذا مفهوم صفة، ومفهوم الصفة معتبر، فابن كثير يقول: الرجل مثل المرأة لا فرق، وخص المحصنات بعض أهل العلم يقول: خص المحصنات؛ لأن قذفهن أشنع، قذف المرأة أعظم من قذف الرجل، وبعضهم يقول: إن المراد هنا بالمحصنات أي النفوس المحصنات، وبعضهم يقول: الفروج المحصنات، وهذا لا يخلو من تكلف، وإنما المحصنات: النساء المحصنات كما قال الله -عز وجل-: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} [سورة النساء:٢٥] لكن لما كان ذلك أشد في النساء ذكر النساء، وإلا فالرجال كذلك إذا قذف رجلاً.

فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله، رُدّ عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

{بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ} المجالدة: أصل ذلك يقال جلد وكذا هو ضرب الجلد، أو الضرب بالجلد، ثم صار ذلك يُتوسع في الاستعمال فيه وصار يقال: للضرب بالعصا وبالسيف تقول: مجالدة والسيوف: لجالدونا عليها بالسيوف، فكل ذلك يقال له: جلد لو كان بسوط أو بعصا أو نحو ذلك فلا إشكال، كل ذلك يقال له: جلد.

فأوجب على القاذف إذا لم يُقم بينة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام:

أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة.

الثاني: أنه ترد شهادته دائما.

الثالث: أن يكون فاسقًا ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: {إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟، أما الجلد فقد ذهب وانقضى، سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فإذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب -سيد التابعين- وجماعة من السلف أيضًا.

وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

الاستثناء الذي تعقّب جملاً مثل هذا الموضع ثلاث جمل **{فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [سورة النور:٤] فالجمهور في الاستثناء الذي تعقّب جملاً -وهذا أحد التطبيقات فيه- يقولون: إنه يرجع إلى هذه الجُمل كلها إلا ما دل الدليل على استثنائه، وأبو حنيفة يرى أنه يعود للجملة الأخيرة، هذه مسألة أصولية، يرى أنه يعود إلى الأخيرة **{وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا}** في هذا المثال **{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** إذاً يرتفع عنه حكم الفسق لكن شهادته ولو تاب لا تقبل، ومسألة الحد هذه بلا إشكال، وإذا تاب قبل الحد فإن الحد يرتفع عنه، والتوبة تنفعه فيما بينه وبين الله -عز وجل-، ويقام الحد إذا بلغ السلطان، كذلك إذا كان الحد قد أقيم ثم تاب، فهذه الجملة الأولى **{فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً}** غير داخلة في هذا الاستثناء **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}** بقي عندنا اثنتان، فالجمهور يقولون: كل ذلك داخل فيه لا تقبل شهادته، ويحكم عليه بالفسق إلا إذا تاب، وأبو حنيفة يقول: حكم الفسق يرتفع والشهادة لا تقبل؛ لأن هذا الاستثناء يرجع إلى ما قبله فقط، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك لا يقال: إنه يرجع للجميع، وإنما تارة يرجع إلى الأول، وتارة يرجع إلى الأخير، وتارة يرجع إلى الجميع وهو بحسب القرينة، ولكن هذا الكلام عند التحقيق -والله أعلم- فيه نظر، فإنه ما رجع فيه إلى الأول فقط أو إلى الأخير فقط فإن ذلك بحسب القرائن لكن الكلام فيما يخلو عن قرينة مثل هنا، القرينة دلت على أن الأول لا يسقط يعني الحد، بقي الثاني والثالث ما عندنا قرائن فنقول: يحمل عليها في الأصل، أما ما دلت عليه القرينة فلا إشكال أنه يلجأ إلى ما دلت القرينة عليه، فإن دلت على أنه يرجع للأخير يلتزم بهذا وإن دلت على أنه يرجع للجميع فإنه يعمل بمقتضاه، قال: "ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فإذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق نص عليه سعيد بن المسيب وجماعة من السلف"، هذا الذي عليه الجمهور، والأئمة الثلاثة وجمع من الصحابة فمن بعدهم، عامة أهل العلم والسواد الأعظم يقولون: إذا تاب ارتفع عنه ذلك جميعاً إلا الحد، ولا يختص ذلك بالجملة الأخيرة وهذا منقول عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وجماعة كبيرة.

وقال: يقول الشعبي والضحاك: **لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته إلى آخره**، الله قال: **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}** وشروط التوبة معروفة: الندم، والعزم ألا يعود، والإقلاع، إضافة إلى الشروط التفصيلية بحسب الذنب الذي وقع فيه إن كانت حقوقاً للناس يرد هذه الحقوق، وتفاصيل في مسألة الحقوق المعنوية أو الغيبة، أو هل يعتذر منهم ويتحلل أو يستغفر لهم؟ تفاصيل طويلة، فمن هذه الشروط الزائدة في المسألة -في شروط التوبة- ما ذهب إليه بعض السلف أنه لابد في مسألة القذف من أن يكذب نفسه، وأن توبته لا تصح بمجرد الندم والعزم ألا يعود، والإقلاع على ألا يعود، بل لابد أن

يكذب نفسه، وأنه كذَب عليه، أحياناً يكون شاهدٌ رأى هذا وشاهَده قد يكونون أربعة ويرجع واحد فيبقي ثلاثة مثل الذين قذفوا المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- تلكأ واحد في النهاية فأقيم عليهم الحد فعمر -رضي الله عنه- قال لأبي بكرة -وهو أحد هؤلاء-: إن أكذبت نفسك قبلت شهادتك، فكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إضافة إلى مَن ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- والضحاك والشعبي، وهو منقول عن طاوس- على أنه لابد أن يكذب نفسه، وأن هذا الشرط زائد من شروط التوبة العامة في مسألة القذف، لابد أن يكذب نفسه وإلا ما تصح توبته، ولا يرتفع عنه الحكم والفسق، ولا تقبل شهادته مع أن عامة أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم الجمهور يقولون: إنه يكفي أن يندم ويعزم ألا يعود إليها، ولكن لا يلزم أن يقول: أنا كذبت عليه، وكيف يكذب نفسه بشيء قد شاهده لكنه ما استوفى شروط الشهادة؟، ما استطاع أن يأتي بالأربعة فكيف يقول على نفسه: إنه يكذب؟، على قول عمر -رضي الله عنه- ومن وافقه يرِد عليهم هذا السؤال كيف يكذب نفسه في شيء قد شاهده؟ فيجيبون عن هذا ويقولون: إن هذه الشهادة لما كانت قاصرة عما يجب من الشهود الأربعة في الشهادة المفصلة كانت غير معتبرة شرعاً، شهادة باطلة كاذبة لا يعتد بها، ولا يبنى عليها حكم لا إقامة حد على هذا المتهم، ولا يتدنس عرضه بذلك، ولا يلحق به توبة، فهي باطلة كاذبة يجب أن يكذب نفسه؛ لأنه ما استوفى، لأنه ما استطاع أن يحقق ما أمر الله به، بهذا الاعتبار، وعامة أهل العلم يقولون: لا يشترط ذلك، أما إن كان قد قذفه بباطل وزور، كذَب أو ما تثبت أو نحوه فهذا يجب عليه أن يكذب نفسه بشروط التوبة؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} ويذكر الإصلاح "أصلحوا" فمن الإصلاح في مسألة القذف إذا كان ذلك بشيء لم يتثبت به، أو قال كذباً أنه يجب عليه أن يبين، أن يقول: إن هذا من شروط توبته، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٦ إلى الآية ١١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، **قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:**

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} [سورة النور: ٦-١٠].

هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها، كما أمر الله -عز وجل- وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدّعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، {إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} أي: فيما رماها به من الزنى، {وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنى، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، {وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ولهذا قال: {وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ} يعني: الحد، {أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -تبارك وتعالى- حكم رمي المحصنات أعقبه بما يحصل به التوسعة على الناس، وذلك ما يتصل برمي الأزواج، فلما كان الإنسان له مندوحة فيما يتعلق بالأجنبية فهو ليس بملزم ولا مطالب أن يتكلم فيها بمثل هذا، وإن تكلم عليه أن يأتي بأربعة شهداء بخلاف امرأته فإنه إذا رأى منها ذلك فإنه لا صبر عليه وقد لا يتأتى له المجيء بالشهداء الأربعة، فجعل الله -عز وجل- للناس هذا المخرج: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} حيث لا يطالبون بأربعة شهداء، فجُعلت هذه الشهادات الأربع تقوم مقام الشهود الأربعة توسعة من الله على عباده، حيث إن الرجل حينما يبتلى بمثل هذا فإنه لا يكون ذلك بالنسبة إليه كالأجنبية حينما يرى منها شيئاً من هذا الانحراف، هذه علة اللعان، ولاشك أن الرجل قد لا يكون عليه كبير معرة في قذف الأجنبية ورميها، ولكنه لا يقدم على هذا بالنسبة لامرأته إلا وقد رأى ما لا صبر عليه، ولا يجوز له أن يقذف الأجنبية، وإن رماها لقي جزاءه إن لم يأتِ بالشهداء الأربعة، لكن لا يلحقه من العار مثلما لو رمى امرأته،

فإذا رمى امرأته فمعنى ذلك أنه لطخ عرضه، وأي تلطيخ وتدنيس للعرض أكثر من هذا!، فالرجل لا يقدم على هذا عادة إلا وقد رأى ما لا صبر عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}، هناك في {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} [سورة النور: ٤]، الشيء نفسه يرمون المحصنات يرمون المحصنين ولا حاجه للتقدير الذي ذكره بعضهم: والذين يرمون النفوس المحصنات أو الفروج المحصنات؛ ليدخل الرجل في ذلك هناك، وإنما ذكر النساء؛ لأن ذلك في حقهن أشد، فقذف المرأة بالزنا ليس كقذف الرجل، هو عار على للجميع، ولكنه في حق المرأة أشد فيذهب شرفها وعرضها، وفيه ما فيه من تدنيس الفرش وتقذيرها وتدنيس شرف أهلها وما إلى ذلك، فلما كان رمي النساء أشد قال: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ}، وهنا {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء} هذا في الرجال، وعليه فإن المرأة التي تقذف زوجها لا يقال: إنها تشهد أربع شهادات كالرجل، ولها هذا المخرج، وإنما ذلك للأزواج خاصة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ} يعني الحد، وهذا هو الأرجح من أقوال المفسرين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبه قال جماعة، واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وليس المقصود به عذاب الآخرة مثلاً: {أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} يقول: فخصها بالغضب، وهذا جواب على سؤال مقدر وهو لماذا قال في حق الرجل: {أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ} وفي حق المرأة {أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا}؟ صار الغضب في حقها؛ لأن من عرف الحق ثم حاد عنه فهو من أهل الغضب، ولهذا كان اليهود أهل الغضب، عرفوا الحق، وأما النصارى فأهل جهل فوُصفوا بالضلال، فلما كانت المرأة تعرف حقيقة ما قاله الرجل فإن كان ما قاله عنها حقاً فإنها حينما تنكر ذلك وتكابر وتكذب وتحلف هذه الأيمان كاذبة فإنها تستحق الغضب، هذا وجه الجواب الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يذكر جواباً آخر له وجه جيد من النظر -ولا مانع من الجوابين-: وهو أن المرأة لما كانت تكثر من اللعن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تكثرن اللعن وتكفرن العشير))[1] فإن ذلك يخف عليها فقد تذكر ذلك -أعني اللعن- ولا تبالي فذكر في حقها الغضب، والله تعالى أعلم-.

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أي: لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم، {وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ} أي: على عباده -وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة- {حَكِيمٌ} فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، وفيمن نزلت فيه من الصحابة.

قوله: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أي: للحقكم الحرج والمشقة والعنت، فمن ذلك أن يُطالَب الإنسان حينما يرمي امرأته بأربعة شهداء وهذا أمر شاق، شاق من جهة تطلب الشهداء في هذه الحال، وشاق من جهة الفضيحة فهو يدعو الناس لمشاهدة امرأته تواقع الفاحشة، فكان ذلك توسعة من الله -عز وجل- على

---

١ - رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم (٢٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، برقم (٧٩).

عباده، ورأفة بهم، ثم فتح لهم باب التوبة ليتوب المسيء، والمقصر والمذنب، ومن قارف شيئاً من هذه القاذورات، قال: {وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ} يعني: كثير التوبة، وتوبة الله -عز وجل- على عباده تكون بمعنى أنه يقبل التوبة من التائبين مهما تعاظمت ذنوبهم، وكذلك أن الله تواب بمعنى أنه يوفق من شاء منهم إلى التوبة، {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [سورة النساء: ٢٧]، {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ} [سورة آل عمران:١٢٨] هم من المنافقين فمعنى {يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} يوفقهم للتوبة ثم يقبل ذلك منهم.

روى ابن عباس قال: لما نزلت: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا}، قال سعد بن عبادة -وهو سيد الأنصار-: هكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟))، قالوا: يا رسول الله، لا تَلُمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قَط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، من شدة غيرته[٢]...

يقول هنا: "**هكذا أنزلت يا رسول الله؟**" هذا السؤال سؤال كبير ليس بالشيء السهل، ولكن لما كان الحامل على ذلك ليس هو التكذيب، وإنما شدة الغيرة كان ذلك محتملاً من سعد -رضي الله تعالى عنه-، وهذا أصل صحيح ينبغي التفطن له، فهو نافع، فأحياناً الإنسان يقول في بعض المقامات مقالة يُعذَر فيها مثله، ولهذا ذكر شيخ الإسلام وجماعة مثل ابن القيم أن الكلمة قد تصدر من محب فتحتمل، ولو صدرت الكلمة نفسها من غيره لم تحتمل، فلو قالها إنسان شاكٌّ أو منافق أو مستهزئ مستخف فإنه قد تذهب بدنياه وآخرته، والله -عز وجل- يقول: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} [سورة يوسف:١١٠] أي: أن وعد الله تخلف، على هذه القراءة، وهذا ظن الرسل لما أبطأ عليهم النصر جداً، لكن كان ذلك من قبيل الخواطر في وقت الشدة العصيبة ثم ما يلبث الواحد أن يدفع ذلك، فلا يستقر فيه فيكون شكاً راسخاً في قلبه، فيدفع فلا يضر، مثل الذي أخطأ من شدة الفرح وقال: ((اللهم أنت عبدي وأنا ربك))[٣]، وكذلك الحديث المخرج في الصحيح الرجل الذي قال لأولاده، أوصاهم: ((إذا مت فاحرقوني...))[٤] إلى آخره، فالشك في القدرة كفر مخرج من الملة! فكيف غفر الله له؟ بعض العلماء يقول: هو شاك بسبب جهله، والأقرب -والله تعالى أعلم- ما ذكره شيخ الإسلام من أن هذا الرجل قال ذلك في حال غلبة الخوف عليه فصدر منه هذا، وإلا فهو يعلم قدره الله -عز وجل- على جمع ما تفرق منه، وعلى بعثة فغُفر له بسبب غلبة الخوف، وعائشة -رضي الله عنها- قالت للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ فلطمها أبوها والنبي -صلى الله عليه

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢١٣١)، وقال محققوه: حديث حسن، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب اللعان، باب الزوج يقذف امرأته فيخرج من موجب قذفه بأن يأتي بأربعة شهود يشهدون عليها بالزنا أو يلتعن، برقم (١٥٠٦٩).

٣ - رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم (٢٧٤٧).

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف:٩]، برقم (٣٢٩١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٧).

وسلم- يتبسم"[٥]، لم تقل هذا على سبيل التكذيب وإنكار الرسالة، إنما قالته في لحظة تأججت فيها النفس، وتحركت نوازع الغضب، وصدرت منها هذه الكلمة وهي في غاية الإيمان، وهكذا في أمثلة متنوعة تصدر الكلمة، عمر -رضي الله عنه- حينما قال -لما سمع حديث الفتان في القبر-: لئن سألاني لأقول: بل أنتما من ربكما؟ لو قالها إنسان مستخف أو مستهزئ لتغير الحكم، ولهذا فإن الحال والمقام ومن صدر منه هذا القول كل ذلك يختلف معه الحكم، والمقولة قد تكون واحدة، وهذا يحتاج إلى فقه وبصر وتمييز، ولذلك إذا اشتط من قصر علمه في المسائل الكبار وولج فيها وبدأ يحكم على الناس بالكفر والردة وما أشبه هذا فإن هذا أمر ليس بالهين، ويحتاج إلى فقه دقيق، فإذا حصل مع هذا ما هو أعظم منه من تنزيل هذه الأحكام التي أصدرها ثم صار لم يكتفِ أن يكون قاضياً بل منفذاً فبدأ ينفذ على هؤلاء الناس هذه الأحكام فهذا أخطر وأشد، وهذا من أدق المسائل، الكلمة الواحدة تصدر من شخص فيكْفر بها، وتصدر الكلمة نفسها من آخر ولا يكفر بها.

فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكني قد تعجَبت أني لو وجدت لَكاعاً قد تَفَخَّذها رجل، لم يكن لي أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته.

في قولهم عنه: رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، ومع أن هذا أمر سائغ في الشريعة لا إشكال، لكن من شدة غيرته لا يتزوج إلا بكراً، ولهذا بعض الناس يسأل يقول: هل عليّ حرج لكوني لا أستطيع أن أتزوج ثيباً لأني لا أطيق هذا؟ وهناك امرأة عرفت رجلاً قبل ذلك ثم أتزوجها هل هذا يعتبر اعتراضاً على أحكام الله أو يلحق الإنسان فيه حرج؟ الجواب: لا يلحق الإنسان فيه حرج، فهذا الإنسان لا يستطيع، لا تقوي نفسه، فيعذر بهذا، مثل بعض النساء اللاتي تحتجب من أزواج بناتها وهذا موجود إلى الآن تغطي وجهها وهي تعرف الحكم لكن تفعل ذلك حياءً وتقول: يمنعني الحياء لا أستطيع! هذه ليس عليها حرج، يقول: "**ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً**"، هذه اللفظة في الأصل "لكاع" تطلق على الأمَة، ولكن صارت تطلق على معنى أوسع من هذا على المرأة المستحقرة، مثلاً يقال: لكاع، وقد يطلق هذا اللفظ لُكَع ولا يراد به هذا المعنى، لربما يراد به شيء من المداعبة، والتمليح كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أين لكع؟))[٦] أو كما قال، يقصد الحسن أو الحسين وهو صغير حينما جاء فسأل عنه وطلبه.

---

٥ - رواه أبو يعلى في مسنده، برقم (٤٦٧٠)، وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد العشرة، كتاب الحج، باب ما جاء في تحويل الأمتعة على الجمال، برقم (٢٤٢٦)، وقال: رواه أبو يعلى بسند ضعيف؛ لتدليس ابن إسحاق، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، برقم (٧٦٩٥)، وقال: رواه أبو يعلى وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وسلمة بن الفضل وقد وثقه جماعة ابن معين وابن حبان وأبو حاتم وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح، وقد رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الأمثال وليس فيه غير أسامة بن زيد الليثي وهو من رجال الصحيح وفيه ضعف،وبقية رجاله ثقات، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده لا بأس به، فتح الباري (٩/٣٢٥)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (٤٩٦٧).

٦ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب السخاب للصبيان، برقم (٥٥٤٥).

قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية -وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم- فجاء من أرضه عِشاءً، فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فلم يُهَيّجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء، فوجدتُ عندها رجلا فرأيت بعيني، وسمعت بأذني، فَكَرِهَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ما جاء به، واشتدّ عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- هلالَ بن أمية، ويبْطل شهادته في الناس.

هذه الآية لم تكن نزلت بعد؛ لأن الله -عز وجل- قال في الآية التي قبلها **{ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ}** [سورة النور:٤]، قال: "**ابتلينا بما قاله سعد**" كما جاء في بعض الروايات أنه ابن عم سعد بن عبادة -رضي الله عنه- يعني هلال بن أمية، وليس المقصود به أنه ابن عم قريب، وإنما يرجع معه في النسب إلى أصل واحد، وإن كان بعيداً فبين أم هلال بن أمية وسعد بن عبادة قرابة، فقال هلال: "**قالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة**" يعني كأنهم يقولون: إن كلمة سعد بن عبادة حينما قال: أهكذا أنزلت؟، وما قاله بعدها، قالوا: قد ابتلينا بهذه المقولة، فهو كما يقال: البلاء موكل بالمنطق، فهذا وإن لم يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن هذا له نصيب من الصحة، من جهة المعنى، والإنسان يقول الكلمة أحياناً فيرى ذلك في نفسه، أو فيمن حوله، يقول الكلمة التي ليس له أن يقولها كأن يشمت بأحد أو غير ذلك مما يصدر من الإنسان ولا ينبغي أن يصدر عنه فيحصل بسبب ذلك، هذا الذي يكرهه يراه في نفسه أو في أهله أو نحو ذلك.

واجتمعت الأنصار فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هلالَ بن أمية، ويبْطل شهادته في المسلمين. فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا. وقال هلال: يا رسول الله، إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يأمر بضربه، إذ أنزل الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحي -وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك، في تَرَبُّد وجهه، يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي- فنزلت: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ} الآية، فَسُرّي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ((أبشر يا هلال، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا))، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي -عز وجل-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أرسلوا إليها))، فأرسلوا إليها، فجاءت، فتلاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليهما، وذكّرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صَدَقْتُ عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لاعنوا بينهما"، فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

المشروع في اللعان التذكير أولاً؛ من أجل أن لا يتقحمه الإنسان ابتداءً، ثم البداءة بالرجل، ويكون ذلك بحضرة الإمام أو من ينوب عنه، مثل القاضي، ثم بعد ذلك تكون شهادة المرأة ويشرع قبل الخامسة التذكير لكل واحد منهما، هذه السنة.

ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى ألا بيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق، ولا مُتَوَفى عنها.

هذه بعض الأحكام المترتبة على اللعان فرقة مؤبدة، ولا يثبت عليها ذلك بحيث يقال: إنها زانية؛ لأنها لاعنت فينتفي عنها الحد وتنتفي عنها التهمة، والأمر الآخر أن الولد لا ينسب إليه، وينسب إليها، ولا يجوز رمي الولد وقذفه أو نحو ذلك، لا يقال: ابن زنا؛ لأن هذا الزنا لم يثبت، ولكن حُفظ حق الأب فلم ينسب إليه هذا الولد حين لاعن، ولا يُعلم الكلام في مسائل مثل: هل يسن أن تكون هذه الشهادة في حال القيام يقوم الرجل ويشهد، ثم تقوم المرأة وتشهد، أو لا يطلب ذلك، وجاء في بعض الروايات فقام الرجل فشهد ولا إشكال في هذا، ثم وقع خلاف بين أهل العلم في هل يعد اللعان طلاقاً أو لا؟، لكنها فرقة مؤبدة، وهي بينونة، فلا يقال: إنها تبقى عنده تعتد، إطلاقاً، فهي بينونة مؤبدة أعظم من بينونة الطلاق بالثلاث.

وقال: **((إن جاءت به أُصَيْهِب، أرَيسح، حَمْش الساقين فهو لهلال))**.

الأصيهب الذي تعلو شعره حمرة مع السواد، وقوله: "**أريسح**" يعني: خفيف الأليتين، وحمش الساقين بمعنى فيهما ميلان كل واحدة ناحية الأخرى، والذي كان أحمش الساقين الأحنف بن قيس الذي قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ارفع)) حين أمره أن يرفع إزاره، فقال: إني أحمش الساقين، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل خلق الله حسن))[٧]، وكانت أمه ترقصه وتقول:

والله لولا حنَفٌ في رجله *** ما كان في فتيانكم من مثلِه

وابن مسعود كان دقيق الساقين، ولم يكن أحمش الساقين.

وإن جاءت به أورق جَعدًا جَمَاليًّا خَدلَّج الساقين سابغ الأليتين، فهو الذي رُميت به".

"أورق" يعني أسمر، الورقة سمرة، يقال: جمل أورق، ألك جمل أورق؟ أو قال: ما لونها؟، فالورقة حمام الحرم ورق، هذا اللون ليس بالأبيض وليس بالأسود، و"الجعد" بمعنى أن شعره كشعر العرب جعد الشعر، ليس الذي يكون كشعر الأحابيش ونحو ذلك، وليس بالشعر السبط المسترسل مثل شعور الأوربيين ونحو هذا، فشعور العرب يقال لها في الغالب: جعد الشعر، "جمالياً" يعني ضخم الأعضاء، كأنه جمل ضخم الأعضاء،

---

٧ - المعجم الكبير (٣١٦/٧)، (٧٢٤١).

و"خدلج الساقين" يعني عظيم الساقين، "سابغ الأليتين" يعني عظيم الأليتين عكس الوصف الأول، فهو للذي رميت به.

فجاءت به أورق جعدا جماليًّا خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لولا الأيمان لكان لي ولها شأن))، قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميرًا على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب. ورواه أبو داود[٨]، ونحوه مختصراً.

هذا الحديث سكت عنه الحافظ -رحمه الله-، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وضعفه الألباني بهذا السياق، وحسنه محقق المسند الطبعة المحققة الجديدة، والروايات الواردة في قصة اللعان هي روايات متنوعة، وهي تحتاج إلى تأمل ودراسة، تحتاج أن تجمع وتميز الروايات الصحيحة منها على حدة، ثم بعد ذلك ينظر في ألفاظها بدقة، ففي بعضها أن الذي جاء هو هلال بن أمية، وفي بعضها أنها نزلت بسبب عويمر العجلاني، وفي بعضها أنه عاصم بن عدي، والذي يظهر -والله أعلم- أن عاصم بن عدي هو سيد قومه، فجاء إليه عويمر العجلاني وأخبره بما رأى وما حصل مع امرأته، وطلب منه أن يأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم- فيسأله، فهذا يدل على أن الآية لم تنزل بسبب قصة اللعان، فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- المسائل فرجع عاصم بن عدي، ولما سأله عويمر العجلاني أخبره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كره المسائل، وكأن عاصم أيضاً قد كره ذلك أنه قد جاء بمسألة كرهها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعويمر العجلاني أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسأله، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله قد أنزل فيه وفي صاحبته قرآناً، فنحتاج إلى دراسة هذا، وجمع الروايات، هل يقصد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله قد أنزل فيه في قصة هلال فقرأها عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان سبب النزول هو هلال، ولا يقال: إن النزول قد تعدد، فترجح قصة هلال بن أمية، ومن أهل العلم من يضعف هذا الحديث، وينكر أن يكون ذلك وقع لهلال، وبعضهم يعزو ذلك الغلط لبعض الرواة، ويذكر أن الواقعة واحدة لكن وقع الخطأ في الأسماء عاصم وعويمر وهلال، ومن أهل العلم من يقول: إن الآية نزلت مرتين نزلت في شأن هلال ثم نزلت في قصة عويمر العجلاني، ومنهم من يقول: إنه جاء هلال ثم جاء عويمر العجلاني في وقت متقارب فنزلت الآية بعدهما وهذا ذهب إليه جماعة -بناءً على أن الجمع مطلوب ما أمكن إلى آخره- مثل القرطبي، قالوا: إن الآية نزلت عقب الواقعتين، فمنهم من يقول: في هلال، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأها فقط ((قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك)) فهذا ليس بصريح أنها نزلت بسبب عويمر العجلاني، نحن نمثل على تعدد الأسباب، وكون النازل واحداً بمثل هذا المثال وبأمثلة أخرى، لكن الأمثلة تذكر عادة من أجل التقريب، وإذا جاء الكلام على الرواية سبب النزول الحقيقي فهذا يحتاج إلى تحرير، وهو جدير بالعناية في مثل هذه الأشياء، فحينما تأخذ بعض الروايات لأول وهلة تأخذ رواية فقط قد تحكم بأن هذا من قبيل ما تكرر نزوله،

---

٨ - رواه أبو داود، كتاب الطلاق، باب في اللعان، برقم (٢٢٥٤)، والنسائي، كتاب الطلاق، باب كيف اللعان، برقم (٣٤٦٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢١٣١)، وقال محققوه: حديث حسن، وقال الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٩٥١): "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

أو أنه حصلت واقعتان فنزلت الآية بعدهما، وحينما تتتبع الروايات أو تتتبع الألفاظ بدقة قد لا تجزم بهذا، أو تقول بغيره، والله أعلم.

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

في الأصل ذكر قصة عويمر، وكان المفترض أن المختصر يأتي بها، يعني: كأن المختصر يرى أن سبب النزول هو قصة عويمر فقط أنه جاء فقرأ عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية، وهذا لا يكفي في الاختصار، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- قصة عويمر فوجده أنه قد أنزل عليه فيهما فظاهره هذا يشعر أنها نزلت في هلال، لكن هذا لا يقطع به، ويحتمل أن الله أوحى إليه لما جاء أنه قد أنزل عليه فيهما، لكن حينما نقول: إن هناك يعني ما جاء عويمر فقط وليس هناك قضية أخرى سابقة له، فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أوحى الله إليه أن سيأتيك عويمر، وهذه هو جواب مسألته، لكن حينما يكون هلالٌ قد ذَكر هذا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فجاء عويمر فوجد أنه أنزل عليه، فهذا في الماضي، وقد هذه تفيد التحقيق قد أنزل دخلت على الفعل الماضي، فالقول: إنه قد أنزل عليه بمعنى أن الله أوحى إليه قبل أن يصل عويمر، فقضية هلال سابقة، وهذا الإنزال لم يكن بسبب مجيء عويمر فأطلع الله نبيه على ذلك وأنزل الآيات، لكن الذي يسأل هنا هو هلال بن أمية -رضي الله عنه-، وهذا يدل على التقارب أنها لم تبلغهم، فجاء فوجد أنه قد أنزل عليه، فالمقصود تتبع مثل هذه الألفاظ فإنه يفيد طالب العلم، وكثير من الأمثلة التي قد نمثل بها إذا دُرست ومحصت قد لا يقال فيها، لكن كما هو معروف الأمثلة للتقريب، فالأمثلة للتقريب والإيضاح، وليست للتقرير، فالتقرر يكون بالأدلة في قواعد التفسير، وهكذا في الفقه، والقواعد الفقهية وغير ذلك، فتجد الواحد من العلماء من المالكية مثلاً يأتي بمثال على قول الحنفية وهو لا يقول به من أجل أن يوضح ويقرب، وليس معنى ذلك أن هذا هو نهاية المطاف.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النور:١١].

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام- فقال: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ} **أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدّم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وَجوّزه آخرون منهم.**

يعني: الآن يجمعه ويستوشيه، يستوشي الحديث بمعنى أنه يبحث عنه، ويطلبه ويفتش عنه، وما شابه ذلك يعني كأنه يستخرجه بالبحث والتنقيب أو التفتيش عنه، يستوشيه، يقول هنا: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} أي: جماعة منكم ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، العصبة: كثير من أهل العلم يقولون: ما بين الثلاثة إلى العشرة هذا هو المشهور، ومن أهل العلم من يقول: ما بين العشرة إلى الأربعين، ومنهم من يقول في هذه الواقعة: {جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ} يقول: أربعون وهذا فيه إشكال، والمشهور أن الذين جاءوا بالإفك هم

عبد الله بن أبي وهو الذي اختلقه وأَتَفَكه، وحسان بن ثابت مَن وقع في هذا، ومسطح، وحمنة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين، هؤلاء الأربعة جاءت الروايات الصحيحة بتسميتهم، وجاء في روايات أخرى في بعض كتب السيرة وغيرها أسماء لآخرين وقعوا في مثل هذا، ولا يشكل قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} إذا قلنا: إن العصبة من الثلاثة إلى العشرة مع قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة النور:١٥]، وقال: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} [سورة النور: ١٢]، فكأن هذه القضية تحدث بها كثيرون لكن ليس معنى ذلك أنهم هم الذين قاموا بالقذف فاستوجبوا الحد، يعني: هناك من كانوا يتساءلون هل سمعتم ما قال؟ هل سمعتم ما حصل؟ هل سمعتم ما قيل؟ بهذه الطريقة بحيث إنهم لم يصدر منهم قذف صريح، لكن الذين تكلموا في هذا بالقذف هم هؤلاء الأربعة حيث دلت الروايات الصحيحة على تسميتهم صراحةً، التعبير هنا {الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ} جاءوا بالإفك يعني هذا يشعر بأنه خبر غير صحيح {جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}، فالأخبار الغريبة عادة أو غالباً تأتي مع من يفد، فعبر هنا بالمجيء، والإفك هو الكذب، وأشد الكذب البهتان، وهو الكلام المختلق، قيل له: إفك من الإفك وهو القلب {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم: ٥٣] فالله قلبَ قرى قوم لوط، والذي يرمي الصديقة بنت الصديق زوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرمي أشرف عرض وأطهر عرض هذا الذي جاء به قول كذب مختلق لا أساس له، وقوله: {عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} يعني أن هذا لم يأتِ من الروم أو من الفرس أو من خارج الصف، وإنما جاء من الداخل فعبد الله بن أبي مع أنه منافق، وهو كافر بالباطن لكنه محسوب على المسلمين في الظاهر فتجري عليه أحكام الإسلام في الظاهر، فصحت هذه النسبة {عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}.

وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيَّب، وعُرْوَة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم-، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى، وكلّهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً.

أثبت له اقتصاصاً يعني سياقاً، والزهري بهذا الصنيع لفق هذه الروايات في سياق واحد، وهي روايات متعددة، فلفق منها رواية متحدة فجاءت بهذا السياق.

وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضًا: ذكروا أن عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معه.

وهذه هي السنة أن الرجل الذي عنده زوجات لا يقال: إنه يعاقب بينهن، وهذه المرة السفرة لفلانة، والمرة القادمة السفرة لفلانة، وإنما بالقرعة، ثم لا تستحق المرأة بعد ذلك أن يقسم لها بقدر ما خرج مع التي خرجت القرعة في نصيبها، وإنما يبدأ يدور كما كان يفعل.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي.

هذه الرواية الصحيحة الثابتة، وما جاء في بعض الروايات من أن أم سلمة كانت معه فإنه لا يثبت.

وخرجتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك بعدما أنزل الحجابُ.

الواقعة أو الغزوة هي غزوة المريسيع، بعدما أنزل الحجاب، المقصود بالحجاب حجب أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال عمر -رضي الله عنه-: إن أزواجك يدخل عليهن البر والفاجر في القصة المعروفة. وهذه الغزوة النقل صريح في أنها كانت بعد فرض الحجاب، ولهذا كانت تحمل في الهودج مثل القبة فوق البعير، وتوضع وعليها ستور، فالمرأة لا يراها الرجال، وكان نزول الحجاب هذا الذي جاء في سورة الأحزاب {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ} [سورة الأحزاب:٥٣]، فهذه المسألة الروايات في كتب السير ليست متحدة فيها، كذلك متى كانت غزوة المريسيع؟ لأن هذا يحتاج إلى معرفته، فيما يتصل بما وقع من سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- لما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر فقال: ((من يعذرني في رجل...)) الخ.

فأنا أُحمَل في هَودَجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غَزْوه وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقْد لي من جَزْع ظفار قد انقطع.

من جزع ظفار، جزع ظفار خرز أسود فيه مثل العروق البيضاء، وظفار -وفي بعض الروايات أظفار- مدينة في اليمن، وقيل: جبل يمكن أن يكون نسبت إليه المدينة في اليمن، جزع ظفار، وهذه المدينة هي في أقصى اليمن، يعني: مما يقرب من ناحية الهند، فمادة هذه العقد أو الخرز من جزع ظفار، وبعضهم يقول غير هذا: إنه نوع من مثل القسط الهندي طيب الرائحة.

فرجعت فالتمست عقدي، فحَبَسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب -وهم يحسبون أني فيه- قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يُهَلَبْهُنَّ ولم يغشهن اللحمُ.

لم يُهَلَبْهُنَّ يعني: لم يثقلن باللحم والشحم.

إنما يأكلن العُلقْة من الطعام.

العلقة من الطعام، العلقة هي الأكل، بعضهم يقول: ما يسد الرمق، وبعضهم يقول: ما يكفيه إلى الوجبة الثانية وليست أكلة مشبعة، وإنما الأكل الذي يحصل به قيام البدن فقط، العُلقة من الطعام.

فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن.

كانوا يحملون الهودج ويضعونه وهي بداخله وعليه ستور، ويظنون أنها فيه، فوجودها مع عدمه سواء لا يشعرون بهذا؛ لصغر سنها وخفة وزنها، فكانت جارية حديثة السن، كما يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله: إن أكثر ما قيل في المريسيع أنها كانت في السنة السادسة، يعني: الروايات التي وردت في السير كانت في السادسة في شعبان كما عند ابن إسحاق، فعلى هذا إذا أخذنا بأكثر ما قيل في الروايات يكون عمرها خمس عشرة سنة، وإذا أخذنا بالروايات الأخرى التي تقول: إن المريسيع قبل هذا يكون عمرها أقل من خمس عشرة سنة؛ ولهذا لم تذهب مع أحد، ولما وقع لها مثل هذا صارت تخرج كما في آخر الرواية إلى المناصع

لقضاء الحاجة مع أم مسطح، فهي في هذه الخرجة لم تخرج مع أحد بحيث إنها إن تأخرت تبعث من يخبرهم، أو ينظر هل ساروا أو لا، فبقيت وحدها، وبقيت تجمع في هذا الخرز وتحاول نظمه، تعيد العقد شُغلت به، جارية صغيرة، فلقلة الخبرة في الحياة ونحو ذلك حصل مثل هذا التأخر، واستفادت منه بعد هذا، فذكر حداثة السن يفيد فيما يتعلق بقضية الوزن؛ لأن الإنسان كلما تقدم به السن غالباً فإنه يحمل اللحم، والأمر الآخر قله الممارسة والخبرة، وكذا، فجلست وانشغلت بهذا العقد حتى فاتها القوم أو الجيش.

فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ.

يعني: تيممت منزلي وهذا هو الثابت أنها جلست في مكانها، وما جاء في بعض الروايات من أنها مشت في أثر القوم حتى تعبت ثم جلست هذا لا يصح، بل بقيت في مكانها، وهذا من ذكائها فلو ذهبت يمنة أو يسرة فمن سيجدها؟ فبقيت مكانها وظنت، والظن هنا يمكن أن يحمل على ظاهره، بمعنى أنها ظنت ذلك، ولم يتفطنوا متى حصل ذلك، يعني: أنه جاءت الظهيرة وهم لم يتفطنوا لها؛ لأنها كانت في الهودج، ويحتمل أن يكون المراد به العلم، ظنت يعني علمت أنهم سيرجعون متى ما تفطنوا إلى ذلك.

فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذّكْوَانَي قد عَرّس من وراء الجيش فادّلج فأصبح عند منزلي.

التعريس بعضهم يقول: هو النزل في السفر في أي وقت كان، والمقصود به هنا النزول ليلاً، أو النزول في آخر الليل للراحة في السفر، النزول في آخر الليل، وكان صفوان بن المعطل -رضي الله تعالى عنه- يتبعهم، كان في الساقة يعني في مؤخر الجيش من أجل أنه إذا ترك أو نسي أحد شيئاً كان يأخذه ويأتي به، وكذلك أيضاً يحمي ظهورهم بحيث لا يتبعهم أحد، فجاء في بعض الروايات أنه طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون في الساقة، وجاء في بعض الروايات أنه كان يصلي حتى يرتحلوا، يعني: يتأخر عنهم يتعمد التأخر من أجل هذه المصلحة، عرّس من وراء الجيش فادّلج والادّلاج السير في آخر الليل، سار في آخر الليل؛ من أجل أن يستقبل الصباح فيرى الأشياء التي من أجلها يتأخر.

فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب عليّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فَوطئ على يَدها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة.

يعني: أن صفوان -رضي الله عنه- جاء في بعض الروايات أنه تقدم، وفي بعضها أنه غطى وجهه، فالحاصل أنه تقدم؛ لئلا ينظر إليها لا يكون خلفها فلما ركبت صار يقودها يمشي أمامها لا يراها تقول: "**فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مغيرين في نحر الظهيرة**"، مغيرين يعني نازلين في الوغرة وهي شدة الحر، فشدة الحر يقال لها: وغرة؛ لهذا يقال: فلان أوغرَ قلب فلان، أو صدر فلان، أوغر قلوبهم فكأنها صارت تتحرق، ويجدون فيها حرارة بسبب ما وقع فيها من الغل، أوغر صدره، فالوغرة هي شدة الحر، موغرين في نحر الظهيرة يعني في وسط الظهيرة حينما تكون الشمس في كبد السماء.

فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْره عبد الله بن أبي بن سلول، فَقَدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهراً، والناس يُفيضُون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اللُّطْف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسلم، ثم يقول: " كيف تِيكُم؟" فذلك يَرِيبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نَقِهْت.

بعدما نقهت، والناقه هو الذي قد تعافى من المرض، وخرج منه، لكنه لم ترجع إليه كمال الصحة يعني الإنسان حينما يكون فيه الحمى أو يكون فيه المرض يكون طريح الفراش لا يقوم ولا يذهب، ولا يخرج فإذا بدأت عافيته ترجع ولم تكتمل يبدأ يصل إلى المسجد، ويبدأ يخرج يعني يستطيع الحركة، فلما نقهتُ يعني أنها بدأت تتعافى من المرض لكن لم ترجع إليها كمال العافية.

وخَرَجَت معي أم مِسطْح قِبل المناصع -وهو مُتَبَرَّزُنا -.

مسطح -رضي الله تعالى عنه- هذا لقب له وليس باسمه، والمسطح هو الواحد من أعمدة الخباء في الخيمة، أعمدتها الواحد منه يقال له: مسطح، والمشهور أن اسمه عوف، وبعضهم يقول: عامر، وجاء في شعر ينسب لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يخاطبه ويعاتبه فهو من قرابته، ويسميه بعوف، والمناصع صعيد أفيح خارج المدينة، يذهبون إليه لقضاء حاجتهم وليس عندهم كُنف -وهي الحمامات والأماكن المخصصة لقضاء الحاجة-، فيخرجون إلى أماكن، إلى ساحة، إلى فضاء، إلى خارج المدينة لقضاء الحاجة.

ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخذَ الكُنُف قريبا من بيوتنا، وأمرُنا أمر العرب الأُول في التنزه.

أمْر العرب الأُول يعني قبل أن يختلطوا بالعجم، فالعرب الأول كانوا يتنزهون ولا يضعون الكنف قريباً من بيوتهم؛ لئلا يتأذوا بذلك، وكان ذلك مما عرف عن العجم أو الأعاجم، ثم بعد ذلك انتقلت هذه العادة عند العرب وصارت فيهم وكثر هذا واعتاده الناس.

وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها في بيوتنا.

الكنف إلى عهد ليس بالبعيد يتأذى منها الناس؛ لأنها عبارة عن أماكن يتخلى فيها الناس -أعزكم الله-، وكان يوجد من يقوم بهذه المهنة من وضعاء الناس ونحو هذا، فيستأجر من يأتي لإبعاد ذلك بعيداً عنهم بعد حين ونحو هذا، ولا يقال مثل هذا في الكنف التي عند الناس؛ لأنه لا يحصل بها التأذي.

فانطلقت أنا وأم مسْطَح وهي ابنة أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف.

فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم، ويقال: إن اسمها سلمى، وأبو رهم اسمه أنيس.

وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق.

يعني: هي أم مسطح بنت خالة أبي بكر، ولهذا فإن مسطح قد نشأ يتيماً، فكان أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- هو الذي يتولى النفقة عليه.

وابنها مسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسْطح في مِرْطها.

قوله: "**فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قِبل بيتي حين فرغنا من شأننا**"، ظاهر هذه الرواية أنها ذهبت وقضت حاجتها ثم رجعت فأخبرتها في طريقها في العودة أخبرتها أم مسطح، وفي بعض الروايات أن ذلك وقع في ذهابها حتى إن عائشة -رضي الله عنها- ذكرت أنه لما أخبرتها بهذا الخبر لم تعد تجد شيئاً مما كانت تجد، يعني لم تذهب لقضاء حاجتها، ومعلوم أن الإنسان في حالات يحتاجها المتخصصون في طب النفس، وعلم النفس، ومعلومات تفيدهم أن الإنسان في حالة غلبة الحال عليه بشهوة أو حزن شديد أو نحو ذلك فإن ذلك يذهله عما كان يشغله، ولو كان ذلك من الأمور الحسية يعني يشغله عن وجع فلا يشعر به، يشغله عن حاجته لو كان مثلاً إنسان يريد الخلاء ففي حال مفاجئة الحزن الشديد، أو في حال الشهوة إذا جاشت واضطرمت النفس بها فإن ذلك يذهب جميعاً، فهنا ذهب الجميع إلى أن هذه الروايات بطريق الذهاب وهذا يشعر أنه في طريق العودة، ويحتمل أن يكون لما أخبرتها في طريق الذهاب رجعت ولم تقضِ حاجتها، **فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرتْ أم مسْطح**، يحتمل أنها قضت حاجتها، ويحتمل قولها: **فرغنا من شأننا** أي أنها صرفت النظر عن هذا الذهاب أصلاً، لكن حتى هذا الجواب الذي ذكره بعض أهل العلم مثل الحافظ ابن حجر لا يخلو من إشكال، وقولها: فعثرت، فقالت: من قِبل بعض الرواة...، إلى آخره فدل أنها ما أخبرتها، فيكون هذا التفاوت قد وقع من قبل بعض الرواة، الذي حاول الجمع فيه، وبعض أهل العلم كالحافظ حمل قولها: **فرغنا من شأننا** على أنها ذهبت فلما أخبرتها صرفت النظر، فرجعت، لكن هذه الرواية تدل أنها في طريق عودتها أيضاً هي أخبرتها بهذا، -والله أعلم-، فعثرت أم مسطح في مرطها، والمرط هو كساء من صوف فقالت: تعس مسطح.

فقالت: "تَعس مسْطح"، فقلت لها: بئسما قلت، تسبين رجلاً قد شهد بدرا؟ قالت: أي هَنْتاه.

قوله: **أي هنتاه** يعني يا هذه، نداء للبعيد في الأصل، وقد ينادي به القريب لمعنى، يا هنتاه يقال: للمرأة أو يا هذه، وبعضهم يقول: كأن العبارة **يا هنتاه**: أي يا غافلة أو نحو لك.

ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضًا إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي دخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسلم، ثم قال: ((كيف تِيكُم؟))، قلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ -قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلهما- فأذنَ لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمَّتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: أيْ بُنَية هَوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قَطّ وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

الضرائر يعني الزوجات الأخريات للرجل قيل لهن ضرائر؛ لأنه في الغالب يصل إلى الواحدة الضرر، بطريق مباشر أو غير مباشر من الأخرى يعني لو لم يأتها من ذلك إلا ما يحصل من الغيرة، والكمد، والمرأة مسكينة يعني لا تفكر ولا تقوم إلا بهذه المرأة الثانية، تقوم معها وتقعد، ماذا قال لها؟ وماذا أعطاها؟ وهل عندها الحظوة؟ وأول سؤال إذا تزوج الرجل توجهه الأولى كم عمرها؟ هذا أول سؤال، والسؤال الثاني من أين؟ يعني لا تكون من بلد معروف بالجمال والحسن، وما بعد ذلك فهو هين وسهل، فإن قال: عمرها "١٥" وذكر لها بلداً عرف بالجمال فهذا هو القتل هذا هو الموت، فإن قال: إنها كبيرة عمرها بلغ "٤٠" ونحو هذا، وإنها ثيب مسكينة ضعيفة، وذكر لها أنها من بلد لا يعرف بالحسن والجمال سُري عنها، وبدأت تحاور فيما

بعد في الأمور الأخرى، في التعامل والقسْم وما إلى ذلك، فالقضية قابلة تستقيم معها الحياة، فالشاهد أن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يصدر منهن هذا، كما جاء في آخر الرواية لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب بنت جحش قالت: أحفظ سمعي وبصري، وقالت: إنها لا تعلم عنها إلا خيراً، فمنعها ورعها -رضي الله عنها-، لكن تكلمت أختها، والدافع لكلام أختها حمنة هو المحاماة من أجل زينب، فهي تريد أن تكفأ إناء ضرائرها أو عائشة بالذات؛ لأنها هي التي تساميها يعني تضاهيها في المنزلة عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن جهة الشرف أيضاً.

قالت: فقلتُ: سبحان الله أوَقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عَلِيّا وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدُقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بَريرة، فقال: "أيْ بَرِيرة، هل رأيت من شيء يَريبك من عائشة؟" فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغمصُه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكله.

بريرة أعتقتها عائشة في القصة المعروفة، زوجها مغيث، وتعرفون ما حصل من اشتراط أهلها أن يكون الولاء لهم، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني ما قال في هذا، فأعتقتها عائشة -رضي الله عنها- هذه الواقعة متأخرة عن غزوة المريسيع، وبعضهم يقول: عام الفتح فيحمل هنا أن بريرة كانت تخدمها، ولم تكن قد أعتقتها؛ لأنها لم تكن مملوكة أصلاً لعائشة -رضي الله عنها-، وعائشة -رضي الله عنها- اشترتها من أهلها لتعتقها، فلا يفهم من هذا أن بريرة كانت جارية لعائشة -رضي الله عنها- في ذلك الحين، **فقالت: بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها** يعني أعيبه عليها أكثر **من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجنُ** يعني هذا مدح بما يشبه الذم، يعني هذا مما يؤكد براءة عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-، **تأتي الداجنُ** والداجن هي الشاة التي تألف الدار، تألف أهلها فلا تخرج إلى المرعى يقال لها: داجن فتأتي هذه الشاة وتأكل العجين.

فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلُول.

النبي -صلى الله عليه وسلم- سأل أسامة بن زيد وسأل الجارية وسأل عليا -رضي الله عنه- باعتبار أن هؤلاء من أقرب الناس إليه، فعليٌّ نشأ معه منذ صغره، وهو من أهل بيته، وكذلك أسامة فهو حِبّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبوه زيد كان ينسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهؤلاء ممن يعرفون حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته معرفة تامة، فاستشارهم؛ لأنه يطلب ما عرفوا من حال أهله -رضي الله تعالى عنهم.

قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر: ((يا معشر المسلمين مَنْ يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)).

قوله: ((من يعذرني من رجل)) بعضهم يقول: من يعذرني يعني من ينصفني، وبعضهم يقول: من يعذرني إذا عاقبته، وجازيته جراء هذا القذف والأذى، وبعضهم يفسره بغير هذا.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية- فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أُسَيد بن حُضير -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

غزوة المريسيع إذا أخذنا رواية ابن أبى إسحاق أنها في السنة السادسة فسعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- استشهد بعد قريظة، وقريظة كانت بعد الخندق مباشرة، وغزوة الخندق كانت في السنة الخامسة، فيكون سعد بن معاذ قد توفي، ولهذا استشكل بعض أهل العلم ذكر خبر سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- هنا، وبعضهم قال: هذا وهم، ومن قال بهذا القاضي عياض، ووافقه عليه جماعة مثل ابن العربي المالكي وآخرون قالوا بقوله هذا باعتبار أن المريسيع كانت بعد غزوة الخندق، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فمن أهل العلم من يقول: إن المريسيع كانت قبل غزوة الخندق، وإن هذا اسم سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- مصرح به في الروايات في الصحيحين وفي غيرهما، وهذا ثابت، ولا يقال فيه: إن هذا من قبيل الخطأ من الراوي، وبعض أهل العلم يقول: إن سعداً -رضي الله عنه- حينما أصيب في أكحله في غزوة الخندق بقي مدة فكانت غزوة المريسيع ثم مات -رضي الله تعالى عنه- بعدها، هكذا قال بعض أهل العلم، هذا الموطن فيه هذا الإشكال، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- أجاب عنه، وذكر كلام أهل العلم في الجواب ومن شاء أن يتوسع فليراجع هذا في شرح الحديث بكتاب التفسير من صحيح البخاري، تفسير هذه الآيات، وهنا لما قال سعد -رضي الله عنه-: هذا قام سعد بن عبادة قالت: كان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته يعني العصبية للقبيلة فقال لسعد: **لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله**، ثم قال له أسيد بن حضير: **كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين** فتثاور الحيان يعني كادوا أن يقتتلوا فجاء في بعض الروايات أنه وصل إلى حد الضرب وما شابه، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر في قضية مثل هذه، مصيبة ثم تنشب مشكلة جانبية في هذه الأثناء حينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من يعذرني في رجل بلغ أذاه...)) فمثل هذا يؤخذ منه أن النفوس مهما بلغت في التربية فإن الجانب البشري يبقى له علاته وجواذبه، وله حالة من الصعود والهبوط، طبيعة النفوس البشرية ومثل هذا لا يُسقط الإنسان إذا كانت حسناته كثيرة، وأفضاله في الإسلام، وبذله وجهاده ونصحه ونصرته، فتنغمر مثل هذه الأشياء في بحر حسناته، لكن الذي يهلك بمثل هذا هو إذا كان الإنسان مفلساً من المعالي فلا بذل ولا نصرة ولا دين، وإنما حصيلته وبضاعته هذه العصبيات!! فإنها قد تعطبه وتذهب بشرفه... إلى آخره، فالشاهد أن مثل هذا الموقف لو حصل على مرأى منا اليوم بين

أناس ينتسبون للعلم أو الدين أو الدعوة أو الخير لربما سقط من أعين الناس تماماً وغسلوا أيديهم منه، ورموه بالعظائم، لكن لم يكن هذا يقع عند أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بقي لسعد بن عبادة -رضي الله عنه- مكانته، ومنزلته في الإسلام، وكانت هذه الهنات منغمرة في بحر حسناته -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فينبغي أن تُعطَى مثل هذه الأخطاء والتقصير الذي يحصل من الإنسان والهبوط الذي يقع من البشر أن يعطى الحجم الطبيعي لا يخلو إنسان، لكن الذي يرجع عن التقصير ويستدرك الخطأ، ويستمر على طريقة صحيحة هذا هو الموفق المسدد، ولا ينبغي أن تلاحقه هذه الزلة، وتكون لعنة تطارده حيث حل، هذا خطأ حتى أولائك الذين وقعوا فيما وقعوا فيه من فواحش ونحو هذا، أو رموا بهذا يعني المغيرة بن شعبة شهد عليه أربعة -رضي الله تعالى عنه- وتراجع واحد فجلد أولائك، ولم يكن هذا مسقطاً للمغيرة -رضي الله تعالى عنه-، ولم يكن مسقطاً لهؤلاء الشهود، فالله -عز وجل- فتح لهم باب التوبة فإذا تابوا قبلت شهادتهم ورجعت عدالتهم، وانتفى عنهم الحكم بالفسق كما قال الله -عز وجل-: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} [سورة النور:٥] فمن تاب من ذنبه تاب الله عليه، أما نحن فنتعامل مع هذه القضايا بصورة أخرى تماماً، نحن نتعامل مع من وقع في شيء من هذه الزلات أو من هذا النوع أو ما شاكله معاملة أخرى، فإن هذه يحصل بها المحق التام فلا يقبل منه لا صرف ولا عدل ولا يسأل عن توبته، ولا عن رجوعه، ولا عن صلاح الحال، ولا نزيده إلا إيغالاً في المنكر ونفوراً من أهل الإيمان، فيحصل له من الجفاء، وهذا عندنا في كل شيء للأسف، ولو تأمل الإنسان أحوال الصحابة -رضي الله عنهم- ما يصدر منهم، وتأمل تعامل النبي -صلى الله عليه وسلم- معهم، وتعامل الصحابة فيما بينهم، وتأمل هذا الرجل الذي يشرب الخمر بل ما يكتفي بهذا فيقول:

إذا متُّ فادفني إلى جنب كَرْمــــة *** تُروِّي عظامي في الممات عروقُها

ولا تدفنني في الفلاةِ فإننـــي *** أخافُ إذا ما متُّ ألا أذوقُهـــــا

ما كان هذا نهاية هذا الرجل وإنما هذا البلاء المعروف في القادسية، وكان ذلك سبباً لتوبته، بل الذين ارتدوا عمرو بن معديكرب وطليحة وأمثال هؤلاء لما تابوا تاب الله عليهم، وكانوا من المجاهدين في فتوح العراق، وقل مثل هذا في أشياء أخرى تجد كثيراً من العلماء إذا قرأت في تراجمهم، وما يكتبونه أحياناً من الكتب، ويقدمونه إلى بعض الأمراء ونحو ذلك، ويكتبون كتابات كبيرة يقبّل الأرض، وعبارات يعني عظيمة يكتبها لو كتب عشرَ معشارها أحدُ طلبة العلم اليوم الناس لم يوفروا من عرضه شيئاً، وهذا ليس بتبرير لأحد أن يقع في شيء من هذه الأمور، وليس هذا المقصود، ولكن انظر إلى طريقتنا يعني أقرأ مثلاً ما يكتبه ابن قتيبة في مقدمات بعض كتبه، دعك من الناس مثل الذين عندهم انحرافات العقائد مثل الشهرستاني، وبعض كتاباته وكذا لبعض المعاصرين له، دعنا من هؤلاء لكن أقصد أنك تقرأ أحياناً بعض الكتابات تجد عبارات كبيرة تقبيل الأرض، وكلام لا يقال ولا يصلح أن يقال، ومع ذلك بقي لهؤلاء من المكانة، فالإنسان يكون عنده جوانب أحياناً مشرقة، جوانب أحياناً من الخير والفضل والحسنات، المفروض وهذا هو المقصود أن لا تُهدر هذه كلها وتُمحى بسبب أنه وقع في شيء من الانحرافات في أخلاقه، وفي سلوكه، وقع في أمر مخل، ليس ذلك تبريراً لأحد يقع في ريبة، ويقع في فاحشة أو يتكلم بكلام لا يليق ليس هذا تبريراً، هذا لا تقوله لأهل

المعاصي، لكن كثيراً ما يفكر الإنسان يقارن بين نظرتنا وقياسنا للأمور وبين قياس المتقدمين من السلف -رضي الله عنهم-، كيف يتعاملون مع هذه الأشياء، فرق كبير نحن في آخر الزمان ونريد أن الأمور تكون على الأعلى في كل شيء، وهذا لا يتأتى، لابد من احتمال أخطاء الناس، واحتمال ما عندهم من تقصير، والعبرة بما غلب على الإنسان، وتُعطي الأمور مقدارها الصحيح، -والله أعلم-، وكثير من الناس لا يفهمون هذا الكلام، يخشى أن يكون ما أنت بمحدث قوم....

فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُخَفّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

يعني في حال الهم الإنسان لا ينام، بخلاف الغم فإن الإنسان يُغلب عليه إذا كان مغموماً، مغموم يعني الأمر وقع وانتهى خلاص ما فيه هم وقلق في أمر مستقبل وتخوّف من شيء، المهموم لا ينام، والمغموم يغلب عليه النوم، والأطباء من المعاصرين يقولون: إن النوم مع الحزن أو الغم يضر ولا أظن أن هذا صحيح، بل أظنه يخفف عنه كثيراً، وفي حديث زيد بن أرقم -رضي الله عنه- لما تكلم في قصة **{يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [سورة المنافقون:٨]، في غزوة المصطلق فلما كذبه عبد الله بن أبيّ وحلف عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى آخره، وعاتبه عمه ما حملك على هذا؟ فذهب فنام، يعني من الغم فنزل الوحي يصدقه، فبعث إليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، والعامة عندهم مثل يقولون: إذا كثرت همومك فخذ من الأرض طولك، وإذا أخذت من الأرض طولك معناها أنك نمت.

وترى الفكرة صحيحة، ولكن ليس هذا من شأننا، بمعنى أن الإنسان يغيب، وأصحاب المخدرات يتعاطونها؛ من أجل أن يغيبوا عن واقعهم المظلم والحياة البائسة فيفروا إلى هذا الجحيم، لكن النوم دواء مباح لا يحصل به ضرر، فيغيب عن هذا فتسلو النفس وترتاح، ولهذا سبحان الله تجد الإنسان أحياناً إذا اشتد المرض جداً يغمى عليه، وهذا من لطف الله -عز وجل- بحيث لا يشعر، وهذا من -رحمة الله-؛ لهذا الأطباء يعمدون في الأمراض الصعبة أو الحالات المتقدمة من السرطان -أعاذنا الله وإياكم والمسلمين-، وفي بعض الحالات التي فيها الآم شديدة لا تطاق إلى تنويم المريض وتخديره في الأسابيع لربما، ثم إنه فيه اختصار للوقت إذا نام اليوم الطويل بسبب الغم والحزن، فأصحاب الكهف ينامون "٣٠٠" سنة، وتسعاً كأنها يوم.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذَنَت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألْمَمْت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقالته قَلَص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: والله ما أدري ما أقول للرسول،

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيراً من القرآن-: والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولَئن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم إني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله -عز وجل- يعلم أني منه بريئة تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [سورة يوسف:١٨]، **قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله فِيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في النوم رؤْيا يبرّئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي.**

يتحدر العرق منه مثل الجمان، أخذه ما كان يأخذه البرحاء من الوحي، البرحاء هي الحالة التي كانت تعتريه -صلى الله عليه وسلم- عند نزول الوحي، والجمان مثل الدر من صفاء هذا العرق يتحدر كأنه الدر.

حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق في اليوم الشاتي.

هذا ليس صريحاً أنها نزلت في الشتاء، وإنما هي تذكر من شدة الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك يقع له في اليوم الشاتي، ولا يعني أن ذلك كان في الشتاء.

من ثِقَل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُرّيَ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: "أبشري يا عائشة، أما الله فقد بَرّأك، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله -عز وجل-، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} عشر آيات، فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر -رضي الله عنه- وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله -عز وجل-: {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} إلى قوله: {أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [سورة النور:٢٢] **فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فَرجّع إلى مِسْطَح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.**

لو جلس الإنسان ونظر في تعاملاته مع من يعتقد أنه ظلمه فيما هو دون هذا بكثير، فالنفوس لا تطيق هذه المراتب، يمكن أن يمر الإنسان عليها مروراً، و الوصول إلى هذا يحتاج إلى مجاهدة، يُرمى عرضه بهذه الفاحشة من قبل رجل يحسن إليه، وينفق عليه سنوات ثم يأتي يرميه، ومع ذلك يقول الله -عز وجل-: **{وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ}** [سورة النور:٢٢] يعني لا يحلف، لا يأتل كما سيأتي إن شاء الله، **{أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ}** أصحاب المراتب العالية الفضل والسعة في المال.

قالت عائشة: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سأل زينبَ بنت جحش زوجَ النبي -صلى الله عليه وسلم-، عن أمري: يا زينب، ما علمت، أوما رأيت أوما بلغك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي

وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا، قالت عائشة: وهي التي كانت تُسَاميني من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعصمها الله تعالى بالورع.

تساميني يعني تضاهيني شرفها، ومنزلتها وجمالها.

وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط.

أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري، وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة، وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

فقوله: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ} أي: بالكذب والبهت والافتراء، {عُصْبَةٌ} أي: جماعة منكم، {لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ} أي: يا آل أبي بكر {بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ} الآية [سورة فصلت:٤٢].

قوله: {لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ} ليس ذلك يختص بأبي بكر -رضي الله عنه- فقط بل حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه أعظم من وقع عليه هذا البلاء، وكذلك أهل الإيمان الذين عصمهم الله -عز وجل- من هذا فأصابهم ما أصابهم من الحزن، والهم لقذف عرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت مصيبة في ذلك المجتمع، وقع فيها من وقع، وسقط من سقط، وعصم الله من شاء، فالله -عز وجل- قال: {لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ} فبهذا يحصل رفع الدرجات والتمحيص، وتكفير السيئات وتشريف عائشة المطهرة، ولهذا قال الإمام مالك -رحمه الله-: بأن من رمى عائشة -رضي الله عنها- قُتل؛ لأن الله برأها في القرآن، وشرفها، ومن سب أبا بكر وعمر عزر فذكر الله براءتها في كتابه، وهذا شرف عظيم جداً لم يكن ولم يحصل لو لم تكن تلك الأسباب {وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ} [سورة البقرة:٢١٦]، وكذلك تَمحصَ الناسُ، وتبين أهل الإيمان من المنافقين من ضعفاء الإيمان، وحصل بسبب ذلك تربية الأمة في هذا الموقف بهذه التوجيهات، فإذا أحصيتها تجد تسعة أمور ذكرها الله -عز وجل- في الآيات التي بعدها، كقوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ} [سورة النور:١٢]، علّمهم وأدّبهم، {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} [سورة النور:١٣]، {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [سورة النور:١٤]، {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} [سورة النور:١٥]، {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا} [سورة النور:١٦]، {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} [سورة النور:١٧]، وهكذا {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ} [سورة النور:١٩]، فأدبهم بهذه الآداب وعلمهم كيف يكون موقف المسلم حينما يسمع قالة السوء كيف يحفظ سمعه وبصره، فرباهم هذه التربية العالية؛ ليكون المجتمع نظيفاً لا يتطاول فيه الوضعاء، ومن لا خلاق له، فيتطاول إلى الأعراض الشريفة فيدنس ما شاء منها، وتألف الأسماع سماع قالة السوء، ويكون ذلك سبباً وسبيلاً إلى تهوين ذلك في النفوس، فتقع مثل هذه المقارفات في المجتمع إلى غير ذلك، {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم} والعبرة ليس بنقص البدايات، وإنما بكمال النهايات، فإذا نظرت إلى العاقبة التي حصلت بعد ذلك كانت خيراً، وحصل فيها من هذه المنافع والآثار مما

ذكرت، ومما لم أذكره، فليست العبرة بأن ينظر الإنسان إلى ما وقع من أمر يكرهه في البداية، فإذا نظر وطويت تلك الصفحات، ونظر في العواقب فيما بعد عرف، وأدرك أن هذا كان خيراً له، {لَا تَحْسَبُوهُ} فإذا كان هذا الأمر العظيم وهو قذف عرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الله يقول: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، فكيف بما دونه مما يقع للإنسان؟ {فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [سورة النساء:١٩] الإنسان لا يدري عن العواقب.

ولهذا لما دخل عليها ابن عباس -رضي الله عنه- وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء.

وقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ} أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة، -رضي الله عنها-، بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب.

{وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ} قيل: ابتدأ به، وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، {لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} أي: على ذلك، وهو عبد الله بن أبيّ بن سَلُول -قبحه الله ولعنه.

قوله: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} أي: تولى معظمه وأكبره، وعبد الله بن أبي بن سلول هو الذي كان يروج لمثل هذا وينشره ويذيعه في الناس، {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} هل هذا القول بأنه عبد الله بن أبي بن سلول هو الذي تولى كبره محل اتفاق أو لا؟ جاء عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنه عبد الله بن أبي ولما دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، وسأله عن الذي {تَوَلَّى كِبْرَهُ} من هو؟ فقال له: عبد الله بن أبي بن سلول، وذكر له الرواية، فعائشة -رضي الله تعالى عنها- تصرح وتقول: إنه عبد الله بن أبيّ، ولكن هذا يشكل عليه ما جاء في صحيح البخاري -مع أن قولها: إنه عبد الله بن أبيّ في الصحيح أيضاً- أنه كما جاء عن مسروق بن الأجدع أن حسان دخل على عائشة -رضي الله عنها- وقال لها ما قال:

حصانٌ رَزانٌ لا تُزَنُّ بريبةٍ *** وتُصبْح غَرْثَى من لُحوم الغَوَافل

فقالت له عائشة -رضي الله عنها-: لكنك لست كذلك، فلما خرج، قال لها مسروق: كيف يدخل هذا عليك، وقد نزل فيه: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ}؟ فعائشة لم تنكر، وإنما ذكرت أمراً آخر، فالله -عز وجل- قال: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فقالت: وأي عذاب أعظم من العمى؟ فهذا يشعر أن {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} أنه حسان -رضي الله تعالى عنه-، والجمهور من السلف فمن بعدهم على أنه عبد الله بن أبي، وعائشة -رضي الله عنها- صرحت أنه عبد الله بن أبي، وجاء عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم- من أهل العلم من يقول بأن: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} تولى كبره أن هذا لا ينفرد به واحد يعني من حصلت له هذه الصفات {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} فالذي اسم موصول، وهو من صيغ العموم فيدخل فيه كل من كان متصفاً بذلك، فقالوا: إن ذلك يصدق على عبد الله بن أبي، ويدخل فيه غيره ممن كان يذيعه ويشيعه إلى آخره، ومن أهل العلم من أخذ بما جاء صريحاً عن عائشة -رضي الله عنها-، وأن المراد عبد الله بن أبي بن سلول هو الذي تولى معظم هذا الإفك، وحسان -رضي الله عنه- له أبيات متعددة يثني على عائشة -رضي الله عنها-، ويتنصل مما نسب إليه من قذفها -رضي الله تعالى عن الجميع-، ويَذكر أن ما نسب إليه

أو ما بلغها من ذلك لا يصح، ولم يقله ونحو هذا، وعائشة -رضي الله تعالى عنها- كانت تعتذر لربما بدخوله أو بالإذن أو نحو ذلك؛ لأنه قال في حق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- البيت:

فإنّ أبي ووالدتي وعِرضي *** لعِرض محمدٍ منكم فداءُ

لما قال:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ***

يهجو أبا سفيان بن الحارث، فحينما قال هذا البيت جعل عرضه فداءً لعرض النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكأن ذلك يعني كان يجعل عائشة -رضي الله تعالى عنها- تعتذر، وهذا شأن النفوس الكبيرة التي لا تحمل الغل والحقد على الناس، ولا تنسَ ما سبق من الحسنات والفضائل للمرء، والله يصلح الحال.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ١٢ إلى الآية ٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، **قال المؤلف** -رحمه الله تعالى-:

{لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [سورة النور:١٢-١٣].

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة -رضي الله عنها- حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: {لَوْلا} بمعنى: هلا {إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} أي: ذلك الكلام، أي: الذي رميت به أم المؤمنين {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل: إنها نزلت في التأسي بقول أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته -رضي الله عنهما- كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة -رضي الله عنها-؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنتُ لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، قال: فلما نزل القرآن ذكر الله -عز وجل-، مَنْ قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} [سورة النور:١١] **وذلك حسان وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ} الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}**، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**بمعنى هلا**"، **{لَوْلا}** هذه تأتي للتحضيض، وتأتي ويراد بها التبكيت، والفرق بينهما أنها إن جاءت في أمر يمكن استدراكه فإنها تكون للتحضيض، أو في أمر يستقبل تقول مثلاً لولا تشتغل بطاعة الله -عز وجل- من أجل أن تسعد، لولا بررت والديك لتُأجر، هذا في أمر مستقبل، وفي الأمر الماضي إن كان يمكن استدراكه فهي أيضاً للتحضيض، وإن كان الأمر قد فات، ولا يمكن استدراكه فإنها تكون للتبكيت **{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ}** [سورة هود:١١٦] هذا أمر انتهى، وأهلكت تلك الأمم فهذا للتبكيت، وليس للتحضيض، وهنا **{لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}**، يحتمل أن يكون ذلك للتحضيض، هلا ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، إذا قلنا هذا الأمر يمكن استدراكه ونحو ذلك، وقوله: **{ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان**

لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى"، بمعنى أن الإنسان في مثل هذه المقامات يرجع إلى نفسه، فيقول: لو كنت مكانها، لو كنت مكان صفوان، هل يمكن أن يصدر مني مالا يليق؟ فإذا قال: حاشا وكلا، فإنه ينتقل من نفسه إلى إخوانه، ويقول: وكذلك فلان، وكذلك عائشة فهي خير مني، {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} فيكون المراد بأنفسهم أي بذواتهم، فإذا ظن بنفسه خيراً رجع من ذلك إلى إخوانه فليس بأفضل منهم، لا يزكي نفسه عليهم فيقول: أنا ما أفعل وهم يفعلون! هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} أي: ظنوا بإخوانهم خيراً، وعبر عن هذا بالنفس؛ لأن النفوس المجتمعة على الإيمان تنزل منزلة النفس الواحدة، فالله -عز وجل- يقول عن بني إسرائيل: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة: ٨٥] أي: يقتل بعضكم بعضاً، وهكذا في قوله: {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُم ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ} [سورة البقرة: ٥٤] ليس معناه كل واحد يقتل نفسه، وإنما ليقتل بعضكم بعضاً، وهذا الذي حصل، وهكذا أيضاً في قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [سورة البقرة: ١٨٨] يعني: لا يأكل بعضكم مال بعض، وهنا قال: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ} أي: بإخوانهم فهم بمنزلة النفس الواحدة فهذان معنيان، والآية إذا كانت تحتمل معنيين فأكثر ولا يوجد مانع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل على ذلك جميعاً، ولا يوجد مانع، {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} ظنوا بإخوانهم، ويكون ذلك متوجهاً إلى إخوانهم مباشرة، والإنسان مطالب بأن يحسن الظن بإخوانه، وكذلك لو أنه رجع إلى نفسه وأحسن الظن بها، فينبغي أن يحسن الظن بهم، فما الفرق بينه وبينهم؟ عائشة -رضي الله عنها- أفضل من هؤلاء النساء اللاتي في ذلك المجتمع، فمن تكلم منهن كحمنة أو غيرها فينبغي أن ترجع إلى نفسها قبل أن تتكلم، تقول: عائشة خير مني، إذا كنت أنا لا أفعل هذا فعائشة من باب أولى، والظن هنا {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} ظن بنفسه خيراً بمعنى أنه أحسن الظن بها، ظنوا بإخوانهم خيراً أي: أحسنوا الظن بإخوانهم.

وقوله: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...} إلى آخره أي: هَلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن.

هذا ما يتعلق بالباطن: أي: ما يتصل بالقلب، فالظن الحسن حسن والسيئ سوء، هذا مما يتعلق بالقلوب، وإن لم ينطق به الإنسان، {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا} [سورة الحجرات: ١٢] فالظن يتصل بالقلب، والتجسس يتصل بالجوارح، فإذا أساء الظن فإن هذا الظن السيئ الذي يقع في قلب الإنسان لا يؤخذ عليه؛ لأنه قد يقع من غير قصد لكن عليه أن يعمل على إحسان الظن، لكن إن رتب عليه أحكاماً أو آثاراً، فتكلم بكلام سيئ أو حاول أن يتجسس أو نحو ذلك فهنا لا يعذر، لكن الآن في قوله تعالى: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} على المعنى السابق الذي مفاده أن يرجع إلى نفسه فيقول: أنا لا أفعل ذلك إذاً فلان مثلي، أو أفضل مني، فهو لا يصدر منه مثل هذا، لكن ظن بإخوانه خيراً قد يقول قائل: إن الظن يقع في نفس الإنسان من غير قصد ولا تطلب، والظنون حسنة أو سيئة فكيف يطالب الإنسان به؟! والجواب أن الخطاب إذا توجه إلى المكلف بشيء غير مقدور عليه فإنه ينصرف إلى سببه أو إلى آثاره، فالرأفة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [سورة النور: ٢] رحمة رقيقة تقع في

قلب الإنسان من غير قصد، فلا يأثم إذا رأى أحداً يقام عليه الحد فوقع في قلبه رأفة نحوه؛ لأن ذلك غير مقدور، فالخطاب إذاً يتوجه إلى الأثر بتخفيف الحد أو بالغائه، تخفيفه في العدد أو في الصفة: ضرب خفيف تحلّة قسم، وهنا {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} فيحتمل أن يكون الظن هذا وهذا، بل إنه يدخل فيه هذا وهذا -والله تعالى أعلم- في هذا المثال، فهو مطالب بأن يحسن الظن بإخوانه، ومن وسائل حسن الظن أن يرجع إلى نفسه ماذا قال؟ هذا لا يصدر مني، فإنه يرجع إلى إخوانه ويصحح نظره بالتماس الأعذار، وأما بالنسبة للأثر فلا يتكلم ولا يتحسس ولا يتجسس فإن ذلك يعقب الظنون السيئة، لكن لو قال إنسان أنا واقع في نفسي ظن سيئ لكن من غير قصد ولم أتكلم بشيء من هذا، ساء ظني بفلان، فلا يحاسب عليه، ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم))[1]، فالله يعلمهم كيف يحسنون، يعلمهم كيف ينظرون لإخوانهم، وقالوا بأفواههم: {وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}.

{وَقَالُوا} أي: بألسنتهم {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَةً، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قُدر- خفية مستورا، فتعيَّن أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرُّعُونة الفاحشة الفاجرة والصفقة الخاسرة.

قال الله تعالى: {لَوْلا} أي: هلا {جَاءُوا عَلَيْهِ} أي: على ما قالوه {بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} يشهدون على صحة ما جاءوا به {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

قوله: {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} الإفك هو الكذب المختلق، قيل له إفك، وأصل الإفك من القلب، {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ} فهذا قلب للحقيقة، أشد الكذب والبهتان يقال له: الإفك، وقالوا هذا إفك مبين أي: بيّن ظاهر لا خفاء فيه، فإن عائشة -رضي الله عنها- زوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أطهر بيت، وفي هذا السفر في أفضل موكب، وسفر طاعة في غزوة، وصفوان بن المعطل -رضي الله تعالى عنه- من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن الأخيار، وممن شهد بدراً، ثم بعد ذلك يأتي من يتكلم ويقول ما قال، وقوله: تأديباً لهم وتعليماً وتبكيتاً، {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، وقد يقول قائل الآن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ}، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي، وحسان، ومسطح، وحمنة، وذكر بعض أهل السير آخرين فهؤلاء مجموعة فقد يقول القائل: هؤلاء ما يكفي أن يكون عددهم أربعة أو أكثر خاصة أن بعضهم قال: عشرة، وبعضهم قال: أكثر من هذا؟، فيقال: هؤلاء على نوعين ليس فيهم شاهد واحد، فبعضهم كان قاذفاً، والقَذَفة قد يكونون ألفاً فيحتاجون إلى أربعة شهود، لابد من أن تميز بين المدعي أيًّا كانت دعواه -فقد تكون قذفاً، وقد

١- رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكُره والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان في الطـــلاق والشرك وغيره، برقم (٤٩٦٨).

تكون غير ذلك- وبين الشاهد، فقد يدعي مائة شخص دعوى ولو قيل لهم: هاتوا الشهود -وقد تكون القضية مما يتطلب شاهدين- يقولوا: ما عندنا شهود، فهؤلاء على نوعين نوع هم من القذَفَة مثل عبد الله بن أبي، ومن حدهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واختلفوا في عبد الله بن أبي، والمشهور أنه ما أقيم عليه الحد، وإن كان بعضهم يقول: أقيم عليه، لكن لا يثبت في هذا شيء، تركه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بعضهم قال: إنه لم يتكلم بكلام يصرح ويفصح فيه عما يمكن أن يقام عليه الحد بسببه، إنما كان ينكر هذا، ويستخرجه من الناس وما أشبه ذلك حتى إنه جاء في بعض الروايات -لو صحت- عن مسطح أنه حلف لأبي بكر -رضي الله عنه- أنه ما قال: واعتذر إليه، وحسان -رضي الله تعالى عنه- في بعض أشعاره يعتذر لعائشة -رضي الله عنها-، وأن ما نسب إليه لا يصح، وأنه ما قاله ولا تفوه به، فالشاهد أن الذين حدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حمنة وحسان ومسطح، هؤلاء هم القذفة، وهناك فرق بين من ينقل فيقول: فلان يقول: كذا، وبين من يقذف يقول: فلان فجر، زنى، فهذا قاذف، لكن الذي ينقل الكلام عن غيره فهذا لا يعتبر قاذفاً، فهو يقول: أنا ناقل، وناقل الكفر ليس بكافر، والأصل أنه لا يجوز له أن ينقل؛ لأن الله -عز وجل- يقول: **{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}**، وقوله: **{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ}**، فينبغي أن يمسك لسانه.

وهنا الكلام على مسألة القذف الآن **{لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء}** قد يستشكل البعض فيقول: هؤلاء أربعة أو أكثر فكيف قال الله: **{بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء}**؟ فيقال: هؤلاء أدعياء هؤلاء القذفة، وبعضهم ينقل الحديث ليس عندهم شاهد واحد، ولذلك أحيانا القضية قد تكون حقًّا لكن لا يوجد فيها شهود، فأهل الحسبة مثلاً في القضية التي تحتاج إلى شاهدين قد يكونون ثلاثة في مكان في سوق فيتطاول عليهم إنسان ويسيء إليهم، ويشتمهم ويصدر منه ما لا يليق، هذا الكلام لو ثبت عند القاضي عليه، فيما يتصل بحقهم أو بحق غيرهم فإنه يعاقب، ولو شتم إنساناً فقال لآخر بعيد: كلب، أو كلمه نحو ذلك أو حمار، فالمسألة ليست مسألة قذف فقط، لو قال مثل هذه الكلمات وشهد عليه اثنان فإنه يعزر بما يراه القاضي الجلد أو بغير ذلك، فأعراض الناس مصونة ومحفوظة، فإذا كان الجرم بهذه المثابة في القذف في العرض، فإن هذا ليس بالأمر السهل في ذهاب الشرف، وإذا تُرك الناس يتكلمون فيمن شاءوا ويتطاولون فلن يسلم أحد، لا من هو في أعلى المنازل والرتب في المجتمع، ولا من هو دونه، فلابد من رادع يحفظ الألسن، فكما أن الفاحشة الله -عز وجل- جعل عليها سياجاً كتحريم النظر، والخضوع بالقول إلى آخره، فكذلك حفظ الأعراض، فلا يتكلم بها أحد ولا يتطاول عليها أحد فيبقى المجتمع نظيفاً مصوناً، فالشاهد هنا أن هؤلاء ليس فيهم شاهد، فقد يأتي هؤلاء مثلاً يريدون أن يثبتوا عليه فيكتبوا للمحكمة في المحضر أن فلاناً قد قال كذا وكذا، وكذا، وكذا ووقع عليه الثلاثة، إذا جاءت عند القاضي فسيطلب منهم إحضار الشهود، ولا ينفع كونهم ثلاثة؛ لأن هذه دعوى من هؤلاء الثلاثة، ولذلك فإن الطريق الصحيحة في هذا أن الذي يكتب المحضر واحد يصير هو المدعي، واثنان شهود، هذا المدعي ونحن الشهود، فيُدان هذا الإنسان بهذه الطريقة، هذا الصحيح، ولكنه يُغفل عنه كثيراً فتضيع الحقوق في المقامات التي لا يشهدها ولا يحضرها إلا هؤلاء، ولا يوجد فيها أطراف آخرون حتى يشهدوا، وقد يوجد مجموعة من الفسقة أو المستهزئين هم من أعوان وأصحاب هذا المستخف الذي أساء، فلا يشهد منهم أحد، وقال: **{فَإِذْ لَمْ**

{يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} فأولائك: تعبير باسم الإشارة للبعيد، والفصل بين طرفي الكلام بالضمير المنفصل "هم" ودخول "ال" على قوله: "الكاذبون" كل ذلك يشعر بالحصر كأنه حصر الكذب في هؤلاء، يعني كأنهم هم حصلوا الوصف الكامل من الكذب، فهو ينادي عليهم باسم الإشارة للبعيد، {فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ} ولم يقل: فأولائك عند الله الكاذبون، ولم يقل: فهؤلاء عند الله كاذبون وإنما قال: {فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} فإذا أردت أن تقوي الكلام فأدخل بين طرفيه ضمير الفصل مثل: زيد كاذب، زيد هو الكاذب، فالأخيرة أقوى.

توبة القاذف: الجمهور على أن القاذف يكفي أن يندم، ويتوب؛ لأنه ما كان ينبغي له أن يقدم على هذا إلا وعنده أربعة شهود، وإلا فلم نضطر إلى أن نتكلم في أعراض الناس، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء} يعنى الأربعة {فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} عمر -رضي الله عنه- كان له مذهب معروف وهو أن توبة الكاذب لابد فيها من أن يكذب نفسه، ومن شروط التوبة من القذف عند عمر -رضي الله عنه- أنه لابد من أن يكذب نفسه، يقول: إنه كذب، حتى لو كان هو يعلم أنه صادق، أحياناً في غير هذا المثال يأتي إنسان قذف وشاهد بعينه، قد يوجد شهود أربعة ويرجع واحد فيقام عليهم الحد، فعمر -رضي الله عنه- كان يري أنه يجب أن يكذب نفسه، ولهذا قال لأبي بكرة وكان أحد الشهود الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- وكانوا أربعة وتراجع واحد، فعمر -رضي الله عنه- قال لأبي بكرة وهو أحد هؤلاء الشهود: إن أكذبت نفسك قبلت شهادتك؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ} [سورة النور:٤-٥]، فإذا قلنا: إن هذا شرط في توبته أن يكذب نفسه فمعنى ذلك أنه يثبت عليه الحكم بالفسق ولا تقبل شهادته، فهذا مذهب عمر -رضي الله عنه-، وابن القيم -رحمه الله- أخذ من قوله: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء} يعنى الأربعة {فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} حتى لو كان هذا الإنسان عند نفسه أنه صادق وشاهد بعينه فلا يجوز له أن يتكلم بهذا، فإن فعل فهو عند الله من الكاذبين؛ ولذلك يقول: إن هذا الذي قذف كاذب عند الله -تبارك وتعالى-، وإذا تاب فيجب أن يكذب نفسه؛ لأنه كاذب عند الله، لكن يبقى أن هذا الذي قذف وشاهد بعينه قضية من القضايا هو يحكم عليه بأنه كاذب، لكن الكاذب هل يجب عليه أن يكذب نفسه؟ وهل يقال هذا من توبته أو لا؟ يقال: بحسب القضية، فإذا كان يترتب على هذا تلطيخ الأعراض وتلويث السمعة وما أشبه ذلك فإن من توبته أن يبين؛ ليرفع الآثار السيئة للذنب، وإذا كان لم يترتب على هذا إلحاق ضرر بأحد بسبب هذا الكذب فإنه يكفى أن يندم، ويعزم على ألا يعود، فهذه القضية يُترتب عليها يعني له أن يجيب بهذا الجواب، والجمهور يقولون: لا يجب أن يكذب نفسه إن كان يعلم أنه صادق، لكن أجريت أحكام الدنيا على الظواهر فيطالب بالشهود من أجل إثبات الأحكام، وقد يكذب هؤلاء الشهود، وقد لا يوجد شهود فيضيع الحق إن لم تكن بينة، لكن هذا لابد منه من أجل ضبط حياة الناس، والذي يعلم حقائق الأمور هو الله -تبارك وتعالى- فعلى الإنسان أن يمتثل.

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [سورة النور:١٤-١٥].

يقول تعالى: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، {لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ}، من قضية الإفك، {عَذَابٌ عَظِيمٌ}، وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمِسْطَح، وحسان، وحَمْنَةَ بنت جحش، أخت زينبَ بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولائك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطا بعدم التوبة، أو ما يقابله من عَمَل صالح يوازنُه أو يَرجح عليه.

هذا الخطاب للمجتمع بعمومه في ذلك الوقت يقول الله -عز وجل-: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فالخطاب كما في قوله: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} و{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...} لا يختص بالقَذَفة، وإنما كل من ألقى السمع، أرخى السمع لمثل هذه الأكاذيب والفِراء، وكل من تكلم فيها وأطلق لسانه، وهؤلاء كثر سواء كانوا أصحاب الإفك الذين قذفوا، أو من نقل، أو من سمح لنفسه أن يستمع لمثل هذا الكلام، ويدار في المجالس فكل هؤلاء يدخلون في هذا الخطاب، {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} نزلت عقوبة بهؤلاء، ومن ثَمّ فلا نحتاج إلى أن نستثني عبد الله بن أبي رئيس المنافقين من أجل أن نستشكل تقول: هذا هل هو مستحق لفضل الله ورحمته، ومن ثم فلا يمسه العذاب في الدنيا والآخرة؟ فالله -عز وجل- يؤدب المؤمنين ويبين فضله عليهم، فهذه القضية التي استفاضت في المجتمع وتحدث الناس فيها وتناقلوها كان ينبغي أن توءد في مهدها، ولا يسمح لمثل عبد الله بن أبي أن يتكلم بمثل هذا، لكن عبد الله بن أبي وجد آذاناً أصغت إلى كلامه، وألسناً تُفشي مثل هذا فذاعت مقالة السوء، {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ...} فهذا ليس فقط في القذفة، فالكلام على المجتمع بأكمله من حيث إنه استمع لمثل هذا، أو نقله أو نحو ذلك فإذا عرفنا هذا المعنى فما نحتاج أن نستثني عبد الله بن أبي، فهو تأديب للمجتمع {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} فيقطع دابر الشر، ولا تنتشر مقالة السوء، ولا تجد من يصغي إليها إذا كان المجتمع نظيفاً تلقى تربية صحيحة.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه**"، {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} يعني: إن الذي منع من العقوبة هو فضل الله ورحمته، لكن هذا الكلام الذي يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يحتاج إليه ليس في هذا الموضع، يحتاج إليه عند قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} هذا موضع الإشكال، لعنوا في الدنيا والآخرة فهنا قد يقول قائل: هؤلاء معهم من أهل الإيمان كحسان ومسطح وحمنة، فكيف نوجه هذا؟ فهنا يقال الكلام الذي ذكره ابن كثير: وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه، أو يرجح عليه، وسيأتي الكلام على الآية في

موضعه -إن شاء الله-، وشيخ الإسلام -رحمه الله- له كلام في اللعن الوارد أو الوعيد على عمل معين، وأن هذا لا يتنزل على الأفراد، إما لفقد شرط أو لوجود مانع.

ثم قال تعالى: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا.

قوله: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} "إذ" ظرف متعلق بأفضتم، أي "لمسكم فيما أفضتم فيه إذ تلقونه بألسنتكم" {أَفَضْتُمْ فِيهِ}، هذه الإفاضة التي هنا بمعنى إفشاء ذلك ونشر هذه المقالة، والتوسع في هذا والتكلم به، فهذا معنى أفضتم، وقد يرد هنا سؤال هو أن الله قال: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} التلقي معروف أنه بالسمع وليس باللسان فكيف قال الله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ}؟ فيمكن أن يجاب على هذا بأن هذا يمكن أن يوجه بأحد أمرين:

الأول: أن هذا فيه كناية عن الإسراع في الإفشاء، والنشر فكأنه لا يقع على الأسماع، وإنما مباشرة يقع على اللسان {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ}.

والثاني: أنه عبر عن ذلك بالغاية فهو يسمع لينقل، فصار كأنه يتلقى بلسانه لمّا كان الاستماع يقصد منه النشر ويفضي إليه عبر عن ذلك بما ذكره الله -عز وجل-: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} وهذا من دقة تعبير القرآن، ويدل على سرعة نشر هذه المقالات السيئة، هذا يأتي ذاك، المجتمع مجتمع محدود، والمدينة صغيرة جداً، هذا المجتمع الطيب رباهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكيف بمن بعدهم كعصرنا هذا عصر الفضائيات والإنترنت وغير ذلك من الوسائل كالجوال انشر تؤجر.

فهذه مشكلة، الإنسان لا ينشر ولا ينقل ولا يكتب إلا ما يتثبت به، وتجد المسارعة في نقل الخبر سبق في منتدى الإنترنت أو ساحة أو غير ذلك، ولم يتثبت من هذا أصلاً، أما الفضائيات فحدث ولا حرج {تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} والإنسان يتثبت ويستوثق وكم من الأكاذيب تنشر وتغيير الحقائق، والكذب على الناس، وإذا تتبع الإنسان ونظر وجد أن هذا لا أصل له، وأنه كذب مختلق، فإذا كان هؤلاء ينشرون بالوسائل العادية جداً -ينقل في المجالس-، وهذا العتاب فكيف بالذي يكتب ويقرؤها من في المشرق والمغرب مباشرة بعد كتابتها؟!، الله المستعان.

وقرأ آخرون: {إِذْ تَلِقُونَه بِأَلْسِنَتِكُمْ} وفي صحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرؤها كذلك[٢]، وتقول: هو مِنْ وَلْق القول، يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَق فلان في السير: إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مَرْوِيَّة عن أم المؤمنين عائشة.

هذه القراءة ليست متواترة، {إِذْ تَلِقُونَه بِأَلْسِنَتِكُمْ} أصل التلقي هو التكلف للقاء الغير أما تَلِقُونه فقالوا هو الإسراع في الشيء، يقال ذلك للإسراع في السير، أو الإسراع في الكلام هكذا قال الخليل بن أحمد وأبو عمر وابن جرير، إلا أن ابن جرير -رحمه الله- زاد عليه قيداً: أنه هو الإسراع في الشيء الإسراع في السير

٢- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، برقم (٤٤٧٥).

مثلاً شيئاً بعد شيء، كأنه دفعة بعد دفعة، والكلام كذلك، أيّ أمر من الأمور الإسراع بالشيء بعد الشيء (إذ تَلَقَّونه بألسنتكم) يعني: تسرعون في إفشائه ونشره بين الناس.

وقوله: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} أي: تقولون ما لا تعلمون.

هنا كان بالإمكان أن يقال: وتقولون ما ليس لكم به علم، لكنه قال: {بِأَفْوَاهِكُمْ} فهذه اللفظة أو ذكر الأفواه هنا يمكن أن يستفاد منه فائدة أو أكثر وهو أن هذا القول أولاً لا حقيقة له، فهو لا يجاوز الأفواه إلى الخارج وإلى الواقع باعتبار أنه أمر حصل فعلاً، وله مصداقية، إنما هو شيء كذب مختلق لا يجاوز أفواه من تكلم به، والجانب الآخر وهو تسجيل ذلك عليهم، إدانة، تقولون بأفواهكم تقول: قاله بفيه وكتبه في يده ومشى إليه برجله، {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة: ٧٩] يمكن أن يقال إذا تحقق أن أحداً منهم لم ينعقد قلبه على هذا، ولكن الله -عز وجل- قال: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} وهذا يتصل بالقلب، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرا سهلا، ولو لم تكن زوجة النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كان هَيِّنا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟!، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل، فإن الله -عز وجل- يغار لهذا، وهو -سبحانه وتعالى- لا يُقَدِّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلا، إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله، لا يدري ما تَبْلُغ، يهوي بها في النار أبْعَد ما بين السماء والأرض[٣]، وفي رواية: ((لا يلقي لها بالا))[٤].

{وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة النور: ١٦-١٨].

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بالظن خيرا، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأوْلى ينبغي الظن بهم خيرا، وألا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن عَلِق بنفسه شيء من ذلك -وسوسةً أو خيالاً- فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))[٥] أخرجاه في الصحيحين.

وقال الله تعالى: {وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا} أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله.

٣- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم (٦١١٣)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)).

٤- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم (٦١١٣).

٥- رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، برقم (٦٢٨٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، برقم (١٢٧).

ثم قال تعالى: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} أي: ينهاكم الله متوعِّدًا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا أي: فيما يستقبل، فلهذا قال: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فأما من كان متصفا بالكفر فذاك له حكم آخر.

ثم قال: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ} أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيّة، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شَرْعه وقَدَره.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا} هذا تأديب آخر حينما قال لهم {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} هذا فيما يتعلق بإحسان الظن، وهنا يتصل بكف الألسن عن قالة السوء، وأن الإنسان لا يسوغ له بحال من الأحوال أن يتكلم بمثل هذه القضايا، فهذه مسألة تحتاج إلى شهود أربعة، يشهدون على هذه التهمة أو المقولة، أو القذف وإلا فإن الإنسان يجب عليه أن يكف لسانه، وإذا وجب عليه أن يكف لسانه يجب عليه أن يحفظ سمعه فلا يسمع؛ لأن التكلم بمثل هذا محرم، ومن آثاره السيئة غير تلطيخ الشرف وتدنيس السمعة إلى آخره أنه يهون على الناس فإنْ صار الناس يتكلمون في المجتمع عن قضايا فواحش إلى آخره فهذا يهون على الإسماع، في البداية يثقل عليها ويشق عليها وتنفر منه، ثم بعد ذلك يصبح سهلاً، وهذه مشكلة يُحتاج إلى تفطن لها، فقد يقع بعض الناس بهذا من باب الغفلة والاسترسال مع النفس، أو من باب الغيرة التي لربما تحمل على مثل ذلك، فيتكلم الإنسان في ما لا يحل له أن يتكلم به، يقذف فلاناً من الناس أو فلانة، ولربما يتحدث الناس، وأقبح ما يكون هذا إذا كان ذلك قد صدر من خطيب أو محاضر أو نحو هذا، يذكر قصصاً وتفصيلات في فواحش وأمور حصلت هنا أو هناك، فمثل هذا قد يذكره من باب الغيرة، ولكنه لا يفقه أن مثل هذا الكلام الضرر الحاصل منه أضعاف أضعاف ما يحصل من المنفعة إن حصلت منفعة، فيخرج الناس لربما اشمأزت نفوسهم، وبعضهم قد يجد لذة في سماعه؛ لأنه يلامس غرائز في النفوس، والقلوب التي غلبت عليها الشهوات قد تستلذ الحديث بهذا أو سماع الكلام في مثل هذه القضايا تفاصيل فواحش، وللأسف تجد بعض الصحف تنشر تفاصيلاً، بل يوجد بعض الصحف في بعض البلاد كأنها أسست لنشر مثل هذه: أخبار مفصلة عن الجرائم، ووقائع في الشرف و العرض وما أشبه ذلك، ومن أدمن قراءة هذه الصحف فإنها تُمرض قلبه وتفسده، -نسأل الله العافية-، فهذه الآذان أقماع مثل الأقماع التي يصب فيها المائع ليستقر في القارورة، والأقماع الواسطة، فإذا أرخى الإنسان سمعه لسماع هذه القضايا، وهذه التفصيلات فإن ذلك يصب في القلب فيُفسد قُوى القلب وما فيه من الحيوية، والشفافية والحساسية تجاه المنكر، فينقبض إذا سمع بالمنكر، ويكره ذلك ويستاء فإذا أكثر من سماع هذه القضايا فإنها لا تؤثر فيه، بل بعض أهل العلم يبالغ فيقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {والشيخ والشيخة إذا زنيا} الآية، يقول: إنه نسخ لفظها لما كان ذلك مما يثقل على الأسماع، فأراد الله أن ينزه المجتمع المسلم من أن يسمع مثل هذا الأمر الشنيع كيف يقع من المحصن مثل هذا العمل وهو الزنا، وهذا الكلام فيه نظر، لكن هكذا قال بعض أهل العلم، فالاسترسال في الحديث ولو كان من باب الغيرة -تفاصيل تذكر في المجالس- هذا أمر مذموم، وينبغي للإنسان ألا يتحدث به، ولا ينبغي لأحد أن يسمع مثل هذه الأشياء، وقد يأتي الإنسان من أهل الحسبة وعنده أمثله كثيرة وشواهد وفي الأسواق وفي أماكن وإذا جلس في المجلس بدأ يتحدث يذكر لهم، وكل واحد يأتي

بقضية، وكأنه يريد أن يقول: انتبهوا المجتمع تنتشر فيه أدواء كذا، وقد يكون هؤلاء كل واحد منهم فقيه في هذه القضية يعرفها تماماً، إذاً هي زيادة أمثلة جديدة يخرج الإنسان بقلب منكسر وإحباط، ولربما أظلمت الدنيا في عينيه، وظن أن الشر والفساد هو الذي غلب ونحو ذلك، وهذا أمر يفرح به الشيطان، ولا فائدة منه إطلاقاً لأهل الإيمان، فنحن أحياناً نجني على أنفسنا بمثل هذا الذي لا نتفطن لما فيه من الآفات والمفاسد، دعك مما قد يحصل كما قلت لمن في قلبه مرض من التلذذ بسماع هذه التفصيلات، والله المستعان.

يقول: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} أخذ منها الإمام مالك -رحمه الله- أن من سب عائشة -رضي الله عنها- أو قذفها أنه يقتل، وقال: من سب أبا بكر وعمر فإنه يعزر؛ وذلك أن من سب عائشة -رضي الله عنها- فهو مكذب للقرآن، ومن كذب القرآن قتل.

وقوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} هذا الأسلوب يستعمل للتحضيض والتحريض، تقول: إن كنت من الكرام فافعل كذا، وهذا كثير في القرآن.

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [سورة النور: ١٩].

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ، فقام بذهنه منه شيء، وتكلم به، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا} أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا} أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} أي: فرُدوا الأمور إليه تَرْشُدُوا.

وروى الإمام أحمد عن ثَوْبَان، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تُؤذوا عِبادَ الله ولا تُعيِّروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته))[٦].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ} يحبون لاحظ كلام ابن كثير -رحمه الله- قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ} قال: "**يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح لهم عذاب أليم في الدنيا بالحد**"، يعني: حمل ذلك على القذف، والمعنى أعم من هذا: أن الله -تبارك وتعالى- هنا توعد على محبة إشاعة الفاحشة، والمحبة أمر يتعلق بالقلب فالذي يحب ذلك متوعَّد بالعذاب الأليم في الدنيا ليس بالحد فقط لمن قذف، ولكنه متوعد بالعذاب الأليم في الدنيا بما يشاء الله -عز وجل- أن يعذبه به، يفتضح، تنزل به نازلة من عقوبة ونحو ذلك، {عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} فهذا وعيد لهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فهذا وعيد على مجرد المحبة، فكيف إذا زاد على هذا بأن صار ينشر ذلك، يؤسس له موقعاً في الإنترنت للفواحش والفجور، أو كان ينشر الصور والمقاطع ونحو ذلك عن طريق متجر أو محل لبيع أشياء معينة فيمرر من خلالها هذه الأشياء، أو كان ذلك عن طريق الصور على أغلفة المجلات، وفي الصحف صور النساء الكاسيات العاريات أو كان ذلك بالكتابة، يكتب، ويطالب بالاختلاط وكل عمل من شأنه الاختلاط، وكل برنامج من شأنه الاختلاط والتبرج والسفور، يسخر من الحجاب، ويسخر من العلماء والدعاة الذين يحاربون

٦- رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٢٤٠٢)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.

الاختلاط، ويسخر من الهيئات، وقد يكون هذا ببرنامج أو تمثيلية، أو طاش ما طاش أو غير هذا، كل هذا داخل فيه {يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}، يسخر من الغيرة يجيبون واحد طالع مع نسائه وجايب دربيل، وحاط السيارات علشان ما أحد يشوف النساء، وجايب دربيل لا يكون أحد من بعيد، ما يرى بالعين المجردة؛ لئلا يراهم، سخرية من الغيرة، وتكتب امرأة وتقول: إيش فيها إن عرفت أن بنتي لها علاقة بشاب!! ومن يطالب ويقول: يجب أن يتعرف الناس قبل الزواج، بحيث يكون بينهم علاقة، ومعرفة من أجل الوفاق والوئام، ينجبون أولاداً قبل الزواج!! كما هو الحال في الغرب، وغير ذلك ممن يتبنى هذا بطريقة أو بأخرى، يتبنى برنامجاً، يتبنى مشروعاً، يتبنى عملاً من شأنه أن يشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يقيم -كما يسمى أو يقال مثلاً- حفلاً أو مهرجاناً أو أي شيء يحصل فيه من المفاسد والاختلاط وما إلى ذلك، أو يقيم منتجعاً، كل هذه الأمور التي يحصل فيها مالا يرضي الله -تبارك وتعالى- اختلاط الرجال بالنساء، أو التبرج أو التعري على الشواطئ، وفي أماكن سياحة أو غير ذلك كل هذا من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، حتى لو كان مديراً في شركة أو مؤسسة أو مستشفى ويقرر هذا، ويسمح للطبيبات والممرضات والعاملات أن يخلعن حجابهن، ويفرح بذلك، ويحث عليه، كل هؤلاء يدخلون في هذه الآية، وهم متوعدون بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فالمسألة ليست فقط فيمن قذف ويقام عليه الحد، عذاب أليم في إقامة الحد، وإنما هو أوسع من هذا.

{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور:٢٠-٢١].

يقول تعالى: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رءوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية وطَهَّر من طَهَّر منهم بالحد الذي أقيم عليه.

كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا معناه أن جواب "لولا" محذوف، وهذا الذي عليه كثير من أهل العلم، فيكون هنا: لولا هذا لولا فضل الله عليكم لكان أمر آخر، لولا فضل الله عليكم لما سهل لكم هذا التسهيل، ومن أهل العلم من يقول: إن الجواب غير محذوف، وإن جوابها هو جواب التي بعدها، التي بعدها هي في الآية التي تليها {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} هكذا قال بعض أهل العلم، والقول بأنه محذوف أليق بالمعنى، والله أعلم.

ثم قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به.

{لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} خُطُوات: قراءة الجمهور بالضم، وقرأ عاصم والأعمش خُطْوات بالإسكان، والخُطُوات جمع خُطْوة، يقولون: الخُطْوة هي ما بين القدمين في المشي، والخطوة مصدر وهي واحدة الخَطْو، {لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} أي: مسالكه وطرائقه ومذاهبه، يعني ما يزينه ويملي به فيستدرج الإنسان حتى يقع فيما حرمه الله -عز وجل- عليه، ولهذا قيل: من عرض نفسه للفتنة أولاً لم ينجُ منها آخراً، الإنسان يبدأ في البداية بأمور يسيرة ثم بالتدريج، وبعض الناس قد يلح في المنكر بحكم أو بحجة أنه يريد أن

يتعرف على هذا الشيء، ويرى مصداقية ما يقال، وهل هذا صحيح أو غير صحيح، من باب الاطلاع والنظر والتحقق من الأمور ثم شيئاً فشيئاً، ولذلك تجد الفتاة أحياناً التي صارت العقوبة أن يتلاعب بها الذئاب، وتبتز غاية الابتزاز كل يوم يطلبها لأصحابه، ويلعبون بها، ويهددها بالصور إلى آخره، والبداية محاولات عابثة بريئة، ولربما كما تقول هي من باب تزجية الفراغ، أو من باب أنها تريد أن تستغل هذا الشاب؛ ليشحن لها بطاقة التليفون الجوال ليشحن لها بعشرة أو عشرين، أو بمائة ونحو ذلك، فهو يبدي كرماً حاتمياً ولو بالسرقة؛ لأن بعضهم مفلس ما عنده شيء فيشحن لها ما تشاء، وهو يسجل المكالمات، ثم بعد ذلك يبدأ شيئاً فشيئاً نخرج دورة كذا، نتغدى في مطعم، أو نتعشى في مطعم نفطر في مطعم شيئاً فشيئاً ثم بعد ذلك يقع ما لا يحمد عقباه، ولهم في ذلك طرق شيطانية لا تخطر على بال، تسمع من بعض النساء، بعض من تابوا أشياء تشيب لها المفارق، كيف تملي عليهم الشياطين حتى يتوصلوا إلى هذه الطرق في الإيقاع بهؤلاء المسكينات، هذه البداية كانت كما ذكرت، وهكذا حينما يترك الإنسان لنفسه مجالاً أن ينظر إلى ما حرم الله أو نحو هذا، ويذهب إلى أماكن الريبة، ثم يجد نفسه بعد مدة -الشيطان نفسه طويل- ولو بعد سنوات تغير، والسبب الذي جعل هؤلاء يتساقطون -نسأل الله أن يعافينا وكل مبتلى ويثبتنا وإياكم على الحق- هي خطوات الشيطان، ولم تكن بداية مباشرة في يوم واحد أو في ليلة واحدة بهذا الانحراف كله، لو عرض عليه هذا الانحراف بمجموعه في ليلة لأباه، لكن يبدأ شيئاً يسيراً ثم أكثر منه حتى يجد نفسه في مهواة.

{وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}: هذا تنفير وتحذير من ذلك، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها.

الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الشيطان في قوله: {فَإِنَّهُ}، وبعضهم يقول: الضمير للشأن، وبعضهم أبعَدَ فقال: إنه يعود إلى المتبع لخطوات الشيطان، فإن من يتبع خطوات الشيطان يأمر بالفحشاء يعني يتحول إلى داعية للفحشاء والمنكر وهذا المعنى غير صحيح، ولا يلزم أن يكون الإنسان الذي يتبع خطوات الشيطان في أول أمره أنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وإنما المقصود: فإنه أي الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فحينما يوسوس ويزين ويسول هو لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، والنهاية تصل إلى أي شيء فيما يتعلق هنا بهذه الآداب التي تذكر في هذه السورة سواءً كانت ما يتعلق بالألسن والقذف والفواحش والتأديب عليها وإقامة الحدود أو بعد ذلك ما يذكر من غض الأبصار، وكذلك الاستئذان عند الدخول إلى آخره كل هذا من أجل أن لا يقع الإنسان في الفاحشة، فكل تلك المحاولات التي يجريها الشيطان والتزيين والتلبيس والاستدراج إلى آخره كل هذا ليصل إلى أمر واحد في النهاية البعيدة التي يحتاج دائما الإنسان أن يتذكرها جيداً ويعيها: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٣٢] هذه هي النهاية، فكل الكلام المعسول والكلام الجميل والمكالمات الطويلة، والتزين والطيب والضرب بالأقدام والأرجل؛ ليُعلم ما تخفي من زينتها، وتتعطر وتخرج وتتنمق في الكلام، وتخضع بالقول، والعلاقات والمكالمات تمتد ساعات طويلة إلى آخره، كل هذا في النهاية يصل إلى هذه النتيجة البعيدة، لا داعيَ لتضييع الوقت بأمور هي توصل إلى هذا المنتهى الذي وصفه الله بأنه {فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} سبيلا في الدنيا والآخرة يذهب معه الشرف والعرض، والأمراض المستعصية والفقر الذي يحصل لأصحابه وقله الغيرة، ولربما تنتقم منه امرأته وهو لا يغار عليها، وضياع الدنيا والآخرة

-نسأل الله العافية-، أمر في منتهى المهانة والذل، هذه هي النهاية، ولذلك الإنسان يحتاج أن يتذكر هذا دائماً، قد ينسى نفسه خاصة من ابتلى بالحديث مع النساء بمقتضى العمل، أو مقتضى تجارة، فعليه أن يتذكر دائماً {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}، وإذا جاءت من تخضع بالقول، والزينة والمكياج والتقارب والذي تتبرج به أمام الآخرين يوصل إلى {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} فيبتعد الإنسان ويقطع الطريق على الشيطان، وبعض الناس قد يُركِب معه المرأة، ويقول: أريد أن أشوف.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} عمله، وقال عكرمة: نزغاته، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وقال أبو مِجْلَز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان.

كل هذا داخل في خطوات الشيطان، فهو يملي على الإنسان ويستدرجه فيوقعه في الصغائر، ثم بعد ذلك يصل معه إلى الكبائر، ثم بعد ذلك يوصله إلى الشرك، ويأتي لكل إنسان بحسب حاله كما ذكر أهل العلم، يأتي ويشم قلب هذا الإنسان فإذا كان فيه ميل إلى الغلو في طبعه والشدة جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى التدين جاءه من باب البدع والمحدثات وما إلى ذلك، وإذا كان فيه غيرة زائدة على الدين ونحو ذلك فقد يأتيه من هذا الباب فيقع في شيء من الغلو في أحكامه أو نحو ذلك، وإذا كان هذا الإنسان عنده ميل إلى النساء والشهوات جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى المال ومحبته ونحو ذلك جاءه من هذا الباب، ولذلك تجد الذين ينحرفون تعدد الأسباب والنهاية واحدة، فبعضهم انحرف بسبب المال، كان طالب علم، كان متديناً وانحرف بسبب المال، وبعضهم انحرف بسبب النساء، وبعضهم انحرف بسبب الغلو، وبعضهم انحرف بسبب البدع، وهكذا كل إنسان يأتيه من الطريق الذي يصلح لمثله.

ثم قال تعالى: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً.

ما يقع للإنسان من تزكية فهذا فضل من الله -عز وجل-، والناس يتفاوتون في هذا غاية التفاوت، لكن ما يحصل للإنسان من هذا قليل أو كثير فهو فضل من الله يستوجب مزيداً من الشكر، ومعنى {زَكَا} أي تطهر من أدران الشرك والذنوب والمعاصي، صار صالحاً وفي قراءة لأبي جعفر، وقرأ بها بعض السلف كالحسن والأعمش بالتشديد {ما زكّى منكم من أحد أبداً}، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} [سورة النجم:٣٢]، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء} [سورة النساء:٤٩]، والقراءة المعروفة المشهورة هي {مَا زَكَا مِنْكُمْ} بمعنى الصلاح والتطهر من الذنوب والأرجاس والأدناس، والاستقامة والتقوى كل هذا داخل فيه، والله -عز وجل- يقول: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠] فالإنسان لا يزكي نفسه بمحض قدرته وإرادته ومشيئته، وإنما ذلك متوقف على هداية الله ولطفه بالعبد، ويقول الله -تبارك وتعالى-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [سورة الأعلى:١٤] على أحد المعنيين، وهو المعنى المشهور فإن بعضهم يقول: تزكى يعني أخرج الزكاة، وهذا بعيد، فهذه الآية تتحدث عن تزكية النفوس وهي من السور المكية {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} أي زكى نفسه وطهرها بطاعة الله بالإيمان والعمل الصالح وهذا مناط الفلاح.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي.

وقوله: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ} أي: سميع لأقوال عباده، {عَلِيمٌ} بهم، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال.

{وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة النور:٢٢].

يقول تعالى: {وَلا يَأْتَلِ} من الألِيّة، وهي: الحلف أي: لا يحلف، {أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ} أي: الطَّوْل والصدقة والإحسان {وَالسَّعَةِ} أي: الجِدَة.

{وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ} "يأتل" من الألِيّة وهي الحلف، {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ} [سورة البقرة: ٢٢٦]، يعنى يحلف لا يقرب امرأته، ألا يطأ امرأته، تقول: آلَى يُؤلِي، وأْتَلَى يأتَلِي: حلف يحلف {وَلا يَأْتَلِ} وسبب النزول يبين هذا المعنى {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ} بمعنى لا يحلف، فإن أبا بكر -رضي الله عنه- كما هو معلوم حلف أن لا يصل مسطحاً وهو من قرابته، وكان يصله ويحسن إليه، وينفق عليه لفقره وقرابته، فنزلت هذه الآية: {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} وبعضهم يقول: إن قوله: {يَأْتَلِ} بمعنى يقصر، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} [سورة آل عمران:١١٨]، بمعنى لا يقصرون، ولا يدخرون وسعاً في التثبيط والتخذيل والإيقاع بين المؤمنين، والمعنى الأول هو الصحيح، وهو الذي عليه عامة أهل العلم {وَلا يَأْتَلِ} ويدل عليه سبب النزول، {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} يقول: أي الطَّوْل والصدقة والإحسان، هذه العبارات الثلاث، الآن عندنا الفضل والسعة، وبعض أهل العلم يفسر ذلك بتفسير واحد كما فعل ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: الغنى عموماً الفضل والسعة، ويجعلهما بمعنى واحد، والأحسن -والله أعلم- أن يفرقا يفرق بينهما، وهذا فيه زيادة في المعنى، وتكثير له، فيحمل الفضل على معنى، والسعة تحمل على معنى آخر، فيمكن أن يقال: إن الفضل يطلق على الزيادة، تقول هذا فاضل عن حاجتي، يفضل عن حاجتي، وشاع إطلاقه على الكمال الديني، تقول: فلان فاضل، من أهل الفضل، من أولى الفضل، من أصحاب الكمالات الدينية، من أهل الخير، والسعة يمكن أن تفسر بالطول، يعني الغنى، والجِدَة، فيكون المعنى ولا يحلف أولو الفضل يعني أصحاب الكمالات الدينية، أصحاب الخير أصحاب الإحسان أصحاب المعروف، والغنى، فأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- كان من هؤلاء، فهو من أصحاب الكمال الديني والغنى المالي، وهذان سببان لإيصال المعروف والبر إلى الناس، فإذا كان الإنسان فاضلاً مليئاً فإنه يبذل وينفق، ويصل ويحسن، ويكون إحسانه واصلاً إلى المحتاجين، وإن كان هؤلاء قد بدر منهم أو من بعضهم ما يسيء إليه فإن فضله يحمله على الإحسان، ولا يتعذر إيصال هذا الإحسان بسبب قلة ذات اليد فهو من أهل الجدة والسعة والغنى كما قال الله -عز وجل-: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} [سورة الإسراء:٢٨] قل لهم: إذا جاءنا شيء أعطيناكم إن شاء الله، وإذا وسع الله علينا ساعدناكم وما شابه ذلك {أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ} أي الطَّوْل والصدقة والإحسان، {وَالسَّعَةِ} أي الجِدَة.

{أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين.

أي: لا تحلفوا ألا تصلوا، "أن يؤتوا أولى القربى": أي على أن لا يؤتوا، فحذفت "لا" {وَلا يَأْتَلِ} لا يحلف، {أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا} يعني على أن لا يؤتوا، وحذف "لا" كثير، وله شواهد من كلام العرب،

{أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} هنا ذكر المهاجرين في سبيل الله، وأخذ منه أهل العلم أن القذف مع أنه كبيرة وتوجه ذلك إلى عرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا من أعظم الكبائر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر السبع الموبقات وذكر منها قذف المحصنات[٧]، لكن ذلك لا يحبط الأعمال أخذاً من هذه الآية، {وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فمسطح كان من المهاجرين، فلم تذهب هجرته، ولم تحبط بسبب قذفه لعائشة -رضي الله عنها-، ولهذا قال ابن المبارك -رحمه الله-: إن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله -عز وجل-، يعني أنها الأكثر ترجية لأهل الإيمان، فهي تدل على سعة رحمة الله -تبارك وتعالى- حيث حصل مثل هذا اللطف بهؤلاء القذفة، فهم مع عظم جنايتهم إلا أن الله -عز وجل- يأمر بالإحسان إليهم والصلة لهم، فهذا من عظيم ألطافه ورحماته -تبارك وتعالى-: {أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أثبت له هجرته، والذي يحبط الحسنات من السيئات هو الشرك بالله -عز وجل-: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨]، {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [سورة الزمر:٦٥] وذلك مقيد بالموت على الشرك {فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ} [سورة البقرة:٢١٧] كما قال الشافعي -رحمه الله-، ومن حصلت له ردة ثم رجع إلى الإسلام فإن أعماله لا تحبط، ولا يحتاج إلى حج من جديد وعمرة من جديد على الراجح من أقوال أهل العلم، وليس ذلك محل اتفاق، وقد يُحبط العملَ المعينَ بعضُ ما يحتفّ به، كما قال الله -عز وجل-: {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [سورة البقرة:٢٦٤] فهذا يبطل الصدقة، وهكذا أيضاً الرياء والسمعة، ومقاصد السيئة تحبط العمل، أما القول بإطلاق بأن السيئات تبطل الحسنات فهذا غير صحيح، والله -عز وجل- يقول: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} [سورة الأعراف:٨-٩] الآية فتبقى له حسناته، ولهذا يقال: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، الحسنة عشر والسيئة بواحدة.

وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام؛ ولهذا قال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم.

{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} هنا ما ذكر معنى العفو والصفح، والفرق بينهما {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} العلماء ذكروا معنى العفو، ومعنى الصفح والفرق بينهما وإن لم يتفقوا في ذلك، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن العفو يدل على المحو تقول: عفت الريح الأثر بمعنى محته، فمحو أثر الذنب هذا عفو، والصفح هو الإعراض مأخوذ من صفحة العنق، يصفح بمعنى أنه يعرض عن الإساءة، فالإنسان قد يعفو، قد تقول لفلان: عفوت عنك، ولكن ما كان ينبغي لك أن تفعل هذا الفعل أو تسيء هذه الإساءة أو نحو ذلك وتعاتبه، فالعفو هو محو الأثر ما يبقى في النفس شيء، والصفح أن لا تقف عند إساءته، فلا تعاتب ولا تتوجه إليه بما يحرجه أو بما يؤذيه أنا عفوت عنك ولكن اسمع،، فلكن اسمع هذه تدل على أن الصفح غير متحقق هذا هو الأقرب -والله أعلم-، في الفرق بينهما {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} فالله -عز وجل- ما قال: وليصفحوا فقط، والقلب يبقى منطوياً على

٧- رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، برقم (٦٤٦٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٩).

الضغينة، وبعض الناس يتبجح بهذا يقول: قلبي عليك أسود، يخبره عما في قلبه، يعني هو لا يستطيع أن يدافع هذه المشاعر السيئة، ومع ذلك يزيد ويقول: إن قلبه أسود، وهذا خطأ، فالإنسان يدفع بالتي هي أحسن ولا يبدى للناس ما يجرح مشاعرهم ويؤذي نفوسهم، ويتكلم بما يجمل وما يحسن فإذا وجد في قلبه شيئاً لا يستطيع مدافعته فأقل شيء ألا يبدي ذلك للناس، والله -عز وجل- يقول: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [سورة فصلت:٣٤-٣٥]، فالحاصل أن هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران:١٣٣-١٣٤]، فأعدت لهم هذه الجنة، فهذا يدل على أن العفو عند الناس من أعظم الأوصاف التي تورث مرضاة الله -تبارك وتعالى- وجنته، وهذا ليس بالشيء السهل، العفو والصفح {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [سورة النساء:١٤٩]، وهكذا {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة الشورى:٤٣]، فليست هذه الأمور هي السهلة أو اليسيرة أو الدقيقة أو الثانوية أو المكملة، بل هي من الأمور الكبار، ولو تأمل الإنسان ونظر فإنه لا يخسر من هذا، وإنما يربح غاية الربح عند الله -جل جلاله- فهو لا يخسر عندما يعفو عن أحد، ويطهر قلبه ويكون نقياً لإخوانه المسلمين؛ ولهذا كان الإمام أحمد -رحمه الله- يقول: وما تفعل يعذب الله أحداً من المسلمين بسببك، وما ينفعك أن يعذب الله أحداً من المسلمين بسببك؟!.

وهذه الآية نزلت في الصدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءةَ أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه شَرَع -تبارك وتعالى- وله الفضل والمنة- يعطفُ الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر -رضي الله عنه-، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضُرِب الحد عليها.

قوله: **وَلَق وَلْقة**، الولقة: ولق غير ولغ، الولوغ معروف ولوغ الكلب، وقد يستعار هذا في الاستعمال يقال: ولغ في أعراض الناس، لكن هنا ولق، والولق يأتي بمعنى الإسراع في الشيء، ويقال أيضاً في اختلاف الكلام، واختراع الكذب، ولق ولقة يعني دخل في هذا الأمر من الإفك وأسرع فيه، فهذا المعنى، وزلق زلقة بمعنى زل، زلت قدمه، زل زلة، فهي قريبة، معنى زلق قريب من معنى زل، وإن كان هناك فرق بين هذا وهذا، لكنه من حيث المراد هنا يكون المعنى واضحاً.

وكان الصديق -رضي الله عنه-، معروفا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب -يا ربنا- أن تغفر لنا، ثم رَجّع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق -رضي الله عنه وعن بنته.

وفي الحديث: ((من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتِ الذي هو خير، وليكفر عن يمينه))[8]، وهكذا في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير))[9]، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ} [سورة البقرة:٢٢٤]، يعني أن لا تجعل اليمين حائلة بينك وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس، يقول: أنا حالف أني ما أعطيه، أنا حالف أني لا أصله، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

٨- رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٥٠).

٩- رواه البخاري، في أوائل كتاب الأيمان والنذور، برقم (٦٢٤٧)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٤٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [سورة النور:٢٣-٢٥].

يقول المختصر -رحمه الله-: **هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات.**

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولاسيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق -رضي الله عنهما.

وقد أجمع العلماء -رحمهم الله-، قاطبة على أن مَنْ سَبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكره في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وكذا الحكم في جميع أمهات المؤمنين.

وقوله تعالى: {لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} الآية، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...} الآية [سورة الأحزاب:٥٧].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات، فله ما قال الله -عز وجل-، ولكن عائشة كانت إمامَ ذلك.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات))، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات))[1]، أخرجاه في الصحيحين.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنهم -يعني: المشركين- إذا رَأوا أنه لا يدخلُ الجنةَ إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد، فيجحدون فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فضحك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: ((أتدرون ممَّ أضحك؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول: كفى

---

١ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [سورة النساء:١٠]، برقم (٢٦١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٩).

بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أناضل))[٢]**، وقد رواه مسلم والنسائي.**

وقوله: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} قال ابن عباس: {دِينَهُمُ} أي: حسابهم، وكل ما في القرآن {دِينَهُمُ} أي: حسابهم، وكذا قال غير واحد.

وقوله: {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} أي: وعده ووعيده وحسابه هو العدل، الذي لا جور فيه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}** هنا يرِد سؤالان:

السؤال الأول: أن الله -تبارك وتعالى- ذكر اللعن لهؤلاء في الدنيا والآخرة، ومن لُعن في الدنيا والآخرة فلا خلاق له ولا نصيب عند الله -تبارك وتعالى-، ومعلوم أن قذف المحصنات لا يبلغ مرتبة الشرك، والله قال في مسطح وأمثاله موجهاً لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه-: **{وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}** [سورة النور: ٢٢]، فرغبهم في هذا، وفي الإحسان إليهم، وأثبت لهم هجرتهم، فالشرك بالله -تبارك وتعالى- أعظم من ذلك وهو محبط للأعمال، والنصارى أهل لون قبيح من الشرك وهم الذين نسبوا إلى الله الصاحبة والولد ومع ذلك يقول الله عنهم: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [سورة المائدة: ٧٤].

السؤال الثاني: ما الفرق بين هذه الآية وبين الآية الأولى التي ذكر الله -تبارك وتعالى- فيها الحد؟

أما جواب السؤال الأول: وهو اللعن هنا في الدنيا والآخرة فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك يختص بعائشة -رضي الله عنها- مَن قذفها فلا توبة له، وهو ملعون في الدنيا والآخرة، ومنهم من قال: إن ذلك يختص بأمهات المؤمنين، فمن قذفهن فهذا حكمه، ومن أهل العلم من يقول: إنه لمّا نزلت هذه الآية نزلت بعد ذلك الآية التي في أول هذه السورة **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ}** [سورة النور: ٤-٥]، فيكون ذلك في من لم يتب، وبهذا الاعتبار تكون الآية عامة، وهذا هو ظاهرها، فظاهر اللفظ يدل على هذا فالله -تبارك وتعالى- قال: **{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** فهذا عام في المؤمنات اللاتي بهذه الصفة محصنات غافلات، **{لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}** فإن حصلت التوبة، فإن التوبة تجبّ ما قبلها، ويبقى ما يتعلق بحق المخلوق، وهل يتوقف عن المطالبة فيه أو لا يتوقف، فإذا أقيم الحد فإن المخلوق يكون قد استوفي، لكن لو لم يطالب أو لم يعلم، أو كان ميتاً ونحو ذلك فيبقى حق المخلوق، فمن تاب وكانت توبته صحيحة فالله يتولى أمره، ولهذا قال بعض أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن اللعن، وعموم نصوص الوعيد تكون عامة، ولكن ذلك لا يعني أن تتنزل على المعين، ما ورد فيه اللعن ((لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والنامصات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن

---

٢ - رواه مسلم، في أول كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى، (١١٦٥٣).

المغيرات خلق الله...الحديث))[٣]، و((لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غيّر منار الأرض))[٤]، أو نحو ذلك من النصوص الواردة في اللعن فإن هذا لا يتنزل بالضرورة على المعين؛ لأن المعين قد يوجد ما يمنع من ذلك في حقه، يوجد مانع، أو ينتفي شرط أو يوجد مصائب مكفرة، أو حسنات ماحية ينغمر فيها هذا الذنب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حق حاطب -رضي الله تعالى عنه- لما قال لعمر: ((وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))[٥]، فهذه الحسنة العظيمة والشهود في غزوة بدر انغمرت معها تلك السيئة مع أنها ليست بسيئة يسيرة، وإذا فهمتَ هذا المعنى: أن ما ورد من اللعن والوعيد العام لا يقتضي بالضرورة ولا يتنزل على المعين، ولاشك في كل الحالات أن التائب يخرج من هذا، فإذاً قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} عام، وهو من نصوص الوعيد، ولا حاجة للتكلف في حمله على المحامل البعيدة، أو في تخصيصه من غير دليل، فيقال: هذا خاص بعائشة -رضي الله عنها-، أو خاص بأمهات المؤمنين ولا دليل عليه، فهو نص عام ولا يعلم ما يخصصه، وهذا فيمن لم يتب، ثم إن هذا اللعن حتى في حق من لم يتب قد يوجد مانع أو ينتفي شرط، أو توجد حسنات ماحية فلا يتنزل على المعين، وكثير من نصوص الوعيد إذا عوملت بهذه الطريقة استرحنا من حملها على المحامل المتكلفة، وذلك أوقع في النفوس، ويحصل به مقصود الشارع من الزجر، وإلا فمن أهل العلم من قال: إن هذا خاص بالمشركين؛ حيث كانت المرأة إذا خرجت مهاجرة إلى المدينة قالوا: إنما خرجت للفجور، فيرمون المحصنات، فإذا قالوا: هذا خاص بالمشركين فلا إشكال عندهم، لعنوا في الدنيا والآخرة، وهكذا قال بعضهم: إن هذا يختص بعبد الله بن أبيّ فهو كافر بالباطن؛ لأنه من المنافقين، وبهذا الاعتبار لا إشكال عندهم باللعن في الدنيا والآخرة، ولا دليل على أن هذا يختص بعبد الله بن أبي، أو بالمشركين، وهكذا قول من قال: إن ذلك إن قُصد به أحد من أهل الإيمان أو من وقع بهذا مثل حسان -رضي الله عنه- ومسطح فالمقصود باللعن في الدنيا استيحاش المؤمنين منهم، ويكون الواحد منهم مبعداً بهذا الفعل وما شابه ذلك، وإن كان من المنافقين فاللعن المراد به ما عرف من حقيقته الشرعية، لكن هذا الكلام لا دليل عليه، يعني: إذا وجه هذا في اللعن في الدنيا فيقولون في اللعن في الآخرة {لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}: استيحاش المؤمنين في الآخرة، وعدم الثناء عليهم، فهذه إن ما حمل عليها هو هذا الاستشكال: هذا مؤمن، وقذفَ محصنة فكيف يلحقه اللعن في الدنيا والآخرة؟، نقول: هذه نصوص الوعيد، فان تاب ارتفع ذلك عنه، وقد يوجد له حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو يوجد له ما يمنع هذا أو يُفقد شرطٌ أو نحو ذلك، والله تعالى أعلم.

---

٣ - رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، برقم (٢١٢٥).

٤ - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، برقم (١٩٧٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، برقم (٢٨٤٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤).

والسؤال الآخر: ما الفرق بين هذه الآية والآية السابقة؟ من خص ذلك بعبد الله بن أبي أو بالمشركين أو قال: إن ذلك يختص بأهل الإيمان، فالفرق عنده ظاهر أن تلك عامة، وهذه خاصة إما بمن قذف أمهات المؤمنين أو قذف عائشة -رضي الله عنها- أو كان ذلك يختص بنوع من القاذفين، فقالوا: تلك الآية عامة، وبعض السلف يقول تلك: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء} [سورة النور: ٤] فيمن عسى أن تكون قد قارفت -يرمون المحصنات- يعني: لا يستبعد منها هذا، فيها ريبة، فيها شك فيها أمارات، فيها قرائن، وهذه فيمن لم تقارف، ولم يصدر منها شيء يوجب ارتيابا، أخذوا هذا من الزيادات في الآية زيادة الأوصاف، هناك قال: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء}، وهنا ذكر ثلاثة أوصاف: المحصنات، الغافلات، المؤمنات، فالمحصنات بمعنى العفيفات، والغافلة هي التي لا يخطر ذلك في بالها، ولا تلتفت إلى هذه الأمور، ولا تتفطن لها إطلاقاً مع وصف الإيمان، {لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا} فقذف هذه أشد من قذف تلك التي قد تكون قارفت هكذا قال بعض السلف، وهذا لا يخلو من إشكال، مع أنه لاشك أن من قذف الغافلة ليس كمن قذف غيرها، فقذف الغافلات أشد، وهناك شروط لإقامة الحد في القذف متعلقة بالمقذوف، وأخرى تتعلق بالقاذف، فمن الشروط التي ذكروها في المقذوف أن يكون نزيهاً عُرف بالنزاهة مما قذف به، فلو تكلم في واحدة في مرقص ليليّ -أعزكم الله- وقذفها لا يقام عليه الحد؛ لأنها ليست من المحصنات، والمحصنات بمعنى العفيفات وليس المتزوجات في الآية، فلو قذف هذه التي ترقص وتقارف ألوان المنكرات في ملهى ليليّ أو نحو هذا مثل هذا لا يقام عليه الحد، لكن لا يمكن أن نقول له أن يطلق لسانه أصلاً في هذا، فهنا قال الله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، والذي أظنه أقرب -والله أعلم- في الجمع بين الآيتين أن الآية الأولى فيما يترتب على ذلك من الحكم والحد في الدنيا، {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} [سورة النور: ٤-٥] حكم عليهم بالفسق، وعدم قبول الشهادة، والجلد، كما ذكر الله حد الزنا، ذكر حد القذف، وذلك في بيان الأحكام التي تترتب على القذف في الدنيا ماذا يُفعل بالقاذف، وهذه في الوعيد، والعقاب الذي ينتظر هذا الإنسان جراء ذلك {لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} اللعن: هذا في الوعيد، وذاك في الأحكام، {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} قلنا: العفيفات، الغافلات هي التي تكون بعيدة عن هذا يعني كيف تفرق بين الغافلة وغير الغافلة في هذه الأمور؟ فالغافلة هي التي لا يخطر ذلك في بالها، ولا تلتفت لهذه الأمور ولا تعرف حيل غير الغافلات، ولا يصدر منها شيء يكون سبباً للارتياب، وأما غير الغافلة فهي امرأة تعرف كيف تتصرف تصرفات تحرك فيها نفوس الرجال، سواء كان ذلك باستمالة قلوبهم بغنج، ومحادثات مع الرجال غير لائقة لها، ورجال بالهاتف هذه ليست غافلة، أو كان ذلك بتصرفاتها بنفسها حيث تخالط الرجال، وتزاحمهم، وتعاشرهم، وتذهب معهم لربما وتجيء، وتخرج مع رجل، وإن كانت لا تقارف الفاحشة وإنما تخرج مع رجل ليس من محارمها وتواعده...إلى آخره، فهذا أمر يخرجها عن كونها من الغافلات، وهذا أمر معروف لا يخفى، فالمرأة غير الغافلة غالباً ما تكون صاحبة التواء وحيل، تعرف كيف تتصرف إذا جاء الموقف المحرج مباشرة، تعرف كيف تغطي ذلك وتستره باختلاق أي لون من ألوان المعاذير والأكاذيب، والله المستعان، {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا

{وَالْآخِرَةِ} واللعن معروف، وهو محمول على معناه المعروف شرعاً: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولا داعيَ لحمله على الاستيحاش وما أشبه ذلك، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيرها: **هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة لاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة -رضي الله تعالى عنها-**، وكلامه -رحمه الله- ظاهر في أنه حمل الآية على العموم؛ وكذلك حملها جماعة من أهل العلم والمحققين، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- ويدخل في ذلك دخولاً أولياً من رمى أمهات المؤمنين، ويدخل فيه أيضاً من باب أولى من رمى عائشة؛ لأن الآيات نزلت فيها، ولا يوجد دليل على أنه هل يختص هذا بها أو بهن؟، والإشكال سمعتموه في قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، يرد السؤال هنا كيف تشهد عليهم ألسنتهم، وقد ختم على أفواههم {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} [سورة يــــس:٦٥]، كيف تشهد الألسنة؟ فكثير من أهل العلم، عامة أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: المراد به أنها تشهد ألسنة بعضهم على بعض {تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ}؛ لأنه إذا ختم على الأفواه فمعنى ذلك أن الألسن لا تنطق، هذا قال به عامة أهل العلم، ويمكن أن يقال غير هذا، وقد قيل: إنه يختم على الأفواه وتتكلم الأيدي والأرجل إلى آخره فهو ينكر في البداية، وكما في الحديث أنه يقول: ((لا أجيز عليّ شاهداً إلا من نفسي))، ويجادل، فإذا شهدت عليه جوارحه وجلده فعند ذلك يقر بلسانه، ويقول كما جاء في آخر الحديث، ثم قال: ((يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بعداً لكُنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل)) فيقر بعد ذلك، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى- في الآيات الأخرى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ} [سورة فصلت:٢٠]، فالله -تبارك وتعالى- ينطقها، وهذا على ظاهره ولا حاجة إلى التكلف وحمله على المحامل البعيدة، فهو كما قال الله -عز وجل- عنهن: {أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة فصلت:٢١]، ويقول: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة فصلت:٢٢] فالحاصل أن الإنسان يقر بعد ذلك فينطق حينما يُخلَّى بينه وبين الكلام، وقد يكون هذا التوجيه أقرب لظاهر الآية من القول بأن المراد أنه تشهد ألسنة بعضهم على بعض؛ لأن الله ذكر ذلك في سياق واحد، يقول: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم} فلسانه يشهد عليه، ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم فكل ذلك يختص به يرجع إليه، وليس من شهادة بعضهم على بعض، والله تعالى أعلم، ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}، قال: **قال ابن عباس**: {دِينَهُمُ} **أي: حسابهم، وكل ما في القرآن** {دِينَهُمُ} **أي: حسابهم**، كل ما في القرآن دينهم أي حسابهم: هذا الذي يسمى بالكليات كل ما في القرآن، هذا يوجد كثيراً في كلام السلف لاسيما في كلام التابعين، وهذه هي التي تسمى بالكليات في التفسير، كل كذا فهو كذا، وهي تحتاج إلى شيء من الاستقراء، يعني بعض هذه الأشياء التي تذكر قد لا تكون دقيقة، فإن كان المستثنى قليلاً فيمكن أن يبين، يقول: كل ما كان كذا فهو كذا إلا في الموضع الفلاني، كل ما في القرآن من "لعل" فهو للتعليل إلا في قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩] أي: كأنكم تخلدون، فيبين، لكن أحياناً تكون الأشياء الخارجة عن هذا كثيرة، كل ما في

القرآن من القنوت فهو دوام الطاعة مثلاً وهذا يحتاج إلى استقراء، وقد تجد أهل العلم يفسرونه في المواضع المختلفة بتفسيرات مختلفة غير متفقة أحياناً، وقد يرى بعض أهل العلم أن ذلك يرجع إلى معنى واحد، ولهذا قد يتفاوت الناس في تقدير هذه الأشياء هل هذا الحكم العام صحيح أو غير صحيح، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}، يعني يوفيهم جزاءهم، فالدين يأتي بمعنى الجزاء دنّاهم كما دانوا أي جازيناهم {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤] أي يوم الجزاء والحساب، والله -عز وجل- يقول: {ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى} [سورة النجم:٤١]، وقال: {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ} [سورة آل عمران:١٨٥]، والأجور هي الجزاء، وذكْر التوفية يدل على أن ذلك يكون بكمال لا يحصل به بخس، ونقص، {ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} [سورة البقرة:٢٨١]، وقوله الحق: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ} أي جزاءهم الحق، يعني الذي هو في غاية العدل والإنصاف، يوفيهم الله دينهم قال: الحق، فالحق يرجع إلى الدين يعني جزاءهم الحق فيكون المراد بذلك دينهم الحق أي الذي هو في غاية العدل والإنصاف كما جاء في آيات كثيرة {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة يونس:٤٤]، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [سورة النساء:٤٠]، وهكذا في قوله: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة:٧-٨]، وقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٧] هذا كله راجع إلى هذا المعنى، لكنه جاء في قراءة بعض السلف بالرفع {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ} فبهذا الاعتبار يكون الحق راجعاً إلى الله -تبارك وتعالى-، وفي مصحف أُبيّ (يومئذ يوفيهم اللهُ الحقُّ)، الحق يكون من صفة الله -تبارك وتعالى-، {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} ومن أسمائه -تبارك وتعالى- الحق.

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة النور:٢٦].

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول، للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك.

وهكذا رُوي عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ}.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

وهذا -أيضًا- يرجع إلى ما قاله أولائك باللازم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعا ولا قدرا؛ ولهذا قال: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ} أي: هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان،

{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ...} **قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك**، ثم ذكر من قال بهذا، وأنه اختيار ابن جرير هذا الذي عليه الجمهور من المفسرين سلفاً وخلفاً أن الطيبات المقصود بها من الكلمات والأقوال للطيبين، وأن الطيبين من الناس للطيبات من الأقوال، فيكون المعنى كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا} [سورة الأعراف:٥٨] فالشيء من معدنه يستخرج، فأولائك من الطيبين إنما يصدر الطيب من الأقوال فينتقون من الكلام أحسنه، ولا يطلقون ألسنتهم فيصدر منها مالا يليق، وهكذا أيضاً الخبيثون للخبيثات، الخبيثون من الناس للخبيثات من القول فلا يصدر عنهم إلا السب واللعن والشتم والقذف والقبيح من الأقوال؛ لأنهم معدن لهذه الأشياء، كما أن الخبيثات من الأقوال الكلمات والألفاظ إنما تصدر من الخبيثين، فإذا كان الإنسان طيباً فإن لسانه يكون طيباً ولابد، والله -عز وجل- يبغض الفاحش البذيء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، والمؤمن ليس باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء، هذا القول لا إشكال فيه، وابن جرير -رحمه الله- اختار هذا القول واختاره غيره كثيرون وعزاه النحاس لعامة المفسرين، ولكن ذلك ليس محل اتفاق، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بالخبيثات أي من النساء للخبيثين من الرجال، كما أن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال وبالعكس، وهذا القول يشكل عليه أن من الطيبين من قد يبتلى بامرأة ليست كذلك والعكس أيضاً، لكن جواب أصحاب هذا القول عن هذا الإيراد أن ذلك باعتبار الغالب وإلا فكم من امرأة طيبة ابتليت برجل لا خلاق له والعكس، قالوا: باعتبار الغالب، وأن الطيور على أشكالها تقع، وكما وجه هذا في قوله على بعض المعاني في التفسير التي ذكرت: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} [سورة النور:٣]، وبعض أهل العلم مثل الشنقيطي -رحمه الله- ذكر تفصيلاً أدق من هذا، انظر الآية {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} قال: "الخبيثات يعني من الكلمات والأقوال، {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ} الطيبات من الكلمات والأقوال لكن الطيبون للطيبات، الطيبون للطيبات مثلاً، الطيبون والخبيثون جمع مذكر سالم فهذا من الناس، الخبيثون من الناس، الخبيثات من الأقوال للخبيثين من الناس، والطيبات من الأقوال للطيبين من الناس، يقول: إن هذا يوضح قول عامة أهل العلم، ولكنه في نفس الوقت يمكن حمل الآية على المعنيين، الخبيثات من الأقوال ومن النساء للخبيثين من الناس من الرجال، وقوله -تبارك وتعالى- بعده: {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ} يقول هنا ابن كثير -رحمه الله-: **واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم**، ولهذا قال: {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ} يقول ابن جرير: إن الطيبين إنما يصدر عنهم الطيبات من القول، فإن صدر عنهم خلاف ذلك فإنه لا يضرهم، وإن صدر في حقهم -يعني قال الناس فيهم كلاماً سيئاً- فإن ذلك إنما يضر قائله، ولا يضر هؤلاء الطيبين، وأما الخبيثون فإنه إن صدر عنهم الكلام الخبيث فإنه يضرهم، وإن قيل

فيهم فإن ذلك هو مظنة السوء والخبث من الأوصاف والأحوال والأعمال، إن صدرت في حقهم فإن ذلك يضرهم، أما الطيبون فالله -تبارك وتعالى- قال في حقهم: {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ} قال ابن جرير -رحمه الله-: يعني مما يصدر عنهم، أو مما يقوله أهل الإفك، والذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ} مما يقال فيهم، كما قال أهل الإفك في عائشة -رضي الله عنها-، وظاهر كلام ابن جرير أنه حمله على الاحتمالين {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ} أي إن صدر منهم كلام غير جيد فإنه لا يضرهم، وإن صدر ذلك في حقهم فإن ذلك لا يضرهم، لكن القول إن صدر منهم فإنه لا يضرهم هذا لا يخلو من إشكال وهو مؤاخذ على ما يقول، فإذا قذف أحداً من الناس أو شتمه أو لعنه والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن لعن المؤمن كقتله[٦]، وقال: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[٧]، لكن قد يجيب ابن جرير عن هذا الإيراد فيقول: إنما مَن عُرف بلعن وبقذف وما أشبه ذلك، والمؤمن ليس باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء، والكلام ليس عن هذا وإنما عمن صدر منه ذلك على سبيل الفلتة في حال من الغضب والانفعال أو نحو ذلك، ليس ذلك من عادته ولا صفته ونحو هذا، ويمكن أن نجيب بهذا، وذلك في قصة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- لما نزل به أضياف ثم أمر ابنه أن يقوم بما يجب، فأبوا أن يأكلوا... الشاهد أن أبا بكر -رضي الله عنه- شتم ولده، ثم قال لهم: كلوا لا هنيئاً ولا مريئاً، فمثل هذا إذا صدر في حال من الأحوال النادرة من الإنسان فقد يقول ابن جرير -رحمه الله-: المقصود هذا، والحالات التي ليست من صفة الإنسان، ولا من عادته إنما هو من أهل الإيمان والكمال فيه فإن ذلك لا يضره إن صدر مثل هذا، بخلاف من كانت هذه عادته وديدنه، فهذا تخريج لقول ابن جرير، لكن الأحسن -والله أعلم- أن يقال: إن الخبيثين من الناس للخبيثات من الأقوال والأوصاف والأعمال والأحوال هم مظنة ذلك، وإذا قيل ذلك في حقهم فهو مظنته، وأما الطيبون من الناس فللطيبات من الأقوال والأعمال والأحوال، وإن شئت تقول: النساء أيضاً، كما أن الخبيثين للخبيثات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- طيب، والله -تبارك وتعالى- لا يختار له إلا الطيبات من النساء، باعتبار النزول، النزول في عائشة -رضي الله عنها- قصة الإفك، لكن هذا يكون على سبيل الإلحاق، بمعنى أنه ليس هو المعنى الأساسي الأصلي ونحو ذلك، ويقال -والله أعلم-: إن الأصل هو هذا: الطيبات من الأوصاف والأعمال والأحوال والكلمات والنساء للطيبين من الرجال والعكس، {أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}، يُبرءون مما يقول أهل الإفك، وابن جرير يزيد عليه {مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ} مما يصدر عنهم من الطيبين، إن صدر منهم مالا يليق، والرزق الكريم عرفنا المراد به، والتنكير في المغفرة يدل على التعظيم، والمغفرة عظيمة {لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} الرزق الكريم الطيب الذي لا تنغيص فيه بوجه من الوجوه.

---

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٣٨٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، يحيى بن سعيد: هو القطان، ويزيد: هو ابن هارون، وهشام: هو ابن أبي عبد الله الدستوائي، ويحيى: هو ابن أبي كثير الطائي، وأبو قلابة: هو عبد الله بن زيد الجرمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧١٢).

٧ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، برقم (٤٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي -صلى الله عليه وسلم- سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، برقم (٦٤).

وعبارة ابن جرير التي تقدم ذكرها وهي قوله: "الطيبون من الناس مبرءون من خبيثات القول، إن قالوها فإن الله يصفح لهم عنها، ويغفرها لهم"، هذا إذا كان على سبيل أنها ليست صفته، وليست ديدن هذا الإنسان، وإلا فلا يكون طيباً، وإن قيلت فيهم ضرت قائلها ولم تضرهم، كما لو قال الطيبَ من القول الخبيثُ من الناس لم ينفعه الله به؛ لأن الله لا يتقبله، ولو قيلت له ضرته؛ لأنه يلحقه عارها في الدنيا، وذلها في الآخرة، هذا نص كلام ابن جرير، ولكن قد لا يخلو من إشكال، فالخبيث إذا لم يكن كافراً وقال كلاماً طيباً ونحو ذلك الكلمة الطيبة صدقة، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، والأصل أن الإنسان مؤاخذ على ما يقول من شتم أو سب أو لعن أو نحو ذلك هو مؤاخذ عليه، والله أعلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [سورة النور:٢٧-٢٩].

هذه آداب شرعية، أدّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمرهم ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أذن له، وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا، فلم يؤذن له، انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رَجَعَك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له، فلينصرف))، فقال عمر: لَتَأتِيَنَّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا، فذهب إلى ملأ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخُدْريّ فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصَّفْق بالأسواق[٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} كلام أهل العلم طويل وكثير جداً في المراد بالاستئناس، وذلك أنه وقع له شيء من الاستشكال من جهتين:

الجهة الأولى: معنى الاستئناس، هذه اللفظة.

والجهة الثانية: الاستئناس إذا فسر بالاستئذان فقد دلت السنة على أن الاستئذان يبدأ بالسلام "السلام عليكم أأدخل؟"، إذا قلنا: إن الاستئناس هو الاستئذان، والسنة تدل على أن السلام يقدم، وظاهر الآية إذا فسر بهذا التفسير قد يفهم منه أن الاستئذان يقدم على السلام وهذا محل الاستشكال، ولذلك كلام أهل العلم متفرق وكثير، الذي عليه عامة أهل العلم كثير من أهل العلم يفسرون الاستئناس بالاستئذان، وهذا منقول عن ابن عباس وسعيد بن جبير والإمام مالك، ومن المفسرين اختاره القرطبي، وهو قول ابن كثير، وفي قراءة لابن عباس وأُبيّ بن كعب وسعيد بن جبير {حتى تستأذنوا}، ومعلوم أن القراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحجة على من قال إن أحكام النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت ظاهرة وما كان يغيب بعضهم من مشاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمور الإسلام، برقم (٦٩٢٠)، ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، برقم (٢١٥٣).

وتبينها، وذكر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن الطحاوي أنه قال: الاستئناس في لغة اليمن بمعنى الاستئذان، وفي مصحف ابن مسعود {حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا}، وهذا أيضاً مروي عن ابن عباس، واختار هذا القول ابن جرير -رحمه الله.

القول الثاني: إن المراد به الاستئناس قالوا: حتى تؤنسوا أهل البيت، نؤنسهم بإشعارهم بالتنحنح أو نحو ذلك، إصدار صوت من حركة النعل -أعزكم الله-، أو التنحنح أو ما إلى ذلك حتى يعلموا ويشعروا بمجيئكم وإرادة الدخول عليهم، هذا قال به بعض السلف، وهو منقول عن مجاهد، وعن ابن زيد عبارة ابن جرير يقول في كلامه: إن الاستئناس هو أن يستأذن أهل البيت بالدخول عليهم مخبراً بذلك من فيه، وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فليأنسَ إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم، وقد حُكي عن العرب سماعاً: اذهب فاستأنس هل ترى أحداً في الدار؟ بمعني انظر هل ترى فيها أحداً؟، فكلام ابن جرير لم ينتهِ بعد، لكن إذا تأملت في عبارة ابن جرير وهي دقيقة جداً فكأنه جمع بين المعنيين بين إطلاق الاستئناس على الاستعلام والاستكشاف كما سيأتي، وهذا معنى له في كلام العرب في كلام الاستئناس، ولازم هذا هو يستأنس: يستعلم هل يأذنون أو لا يأذنون، والمعنى الآخر وهو ما يقابل الاستيحاش فيأنس بإذنهم ويأنسون باستئذانه، وهذا بخلاف الذي يأتي ويدخل مباشرة ويفاجئون به وهو في الصالة، فيستوحشون، ينقبضون ويقولون: من أين جاء؟ كيف دخل؟ وآيات الاستئذان جاءت في بعض الكلام على رمي المحصنات والقذف والآداب التي ذكرها الله -عز وجل-، وحكم هذه الفواحش إلى آخره فسد الباب، فذكر لهم آداب الدخول على الناس؛ لئلا تقع عينه على شيء وأمور لا تحمد عواقبها، إما من مقارفات الفواحش يرى عورات الناس، ويرى المرأة متبذلة، أو غير ذلك مما قد يقع من قذف كأن يرى شيئاً يوجب ريبة فيتكلم في أعراض الناس، فيستأنس فلا يدخل على هؤلاء إلا وقد تهيئوا له؛ لأن الناس إنما يستروحون إذا خلوا في بيوتهم فيطمئنون فيها، ويتخففون في لباسهم وتصرفاتهم وجلوسهم وطريقتهم ومأكلهم، فالإنسان إذا كان أمام الآخرين فإنه يكون متحفظاً بطريقته في جلسته وقيامه وقعوده وحركته، وأكله وشربه ولباسه، كل هذه الأمور لربما يكون لك على سبيل أو بشيء من التكلف الذي يرهق النفوس فإذا خلا وانفرد لوحده وضع عنه بعض هذه الثياب، وجلس كما يحلو له واطمأنت نفسه، واستروح أن عيون الآخرين لا ترقبه، وإذا أراد أحد الدخول عليه فإنه يشعره بذلك ويتهيأ له، لكن لو تخلى الناس عن هذه الآداب وصار الواحد يدخل متى شاء على الآخرين فإن الإنسان يبقى مترقباً دائماً، ولذلك تقع مشاكل، فمثل هذا قد لا يتصور: أناس يدخلون في البيت بدون أي استئذان، والقضية لا تتعلق بالأجانب والآخرين بل حتى أهل البيت، وتقع بسببها مشاكل كثيرة وشحناء في الطلاب الذين في الجامعة مثلاً هذا زميله في الغرفة أو بجواره في الغرفة المجاورة، أو أصحابه أو كذا وما يشعر إلا والباب يدفع وإذا به وسط الغرفة، هذا على أساس ما يوجد في البيت نساء، ما يوجد في الغرفة نساء، لكن القضية لا تختص بالنساء، فالشاهد أن ابن جرير جمع المعاني الأصلية، والمعنى اللازم، فكلمة استئناس تطلق على ما يقابل الاستيحاش، وتطلق على معنى الاستكشاف والاستعلام، {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} [سورة طه:١٠] آنس من جانب الطور ناراً؛ ولهذا انظر عبارته، يقول: الصواب أن الاستئناس هو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم مخبراً بذلك من فيه، فإذا استعلم وطلب الأنس بإذنهم، فإن الأنس يحصل لمن أذن له، وهم إنما يأنسون بمن

يستأذن عليهم، يقول: وليؤذنهم أنه داخل عليهم فليأنسَ إلى إذنهم في ذلك ويأنسوا إلى استئذانه إياهم، وذكر كلام العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحداً في الدار؟ بمعنى انظر هل ترى أحداً؟ قال: فتأويل الكلام إذاً "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا" ذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم أأدخل؟ وهو من المقدم الذي معناه التأخير، وإنما هو: حتى تسلموا وتستأنسوا، وهذا الجواب عن الإشكال إذا كان الاستئناس بمعنى الاستئذان، فكيف قدمه والسنة دلت على أن السلام مقدم؟، ومن يقول: الاستئذان هو المقدم على السلام أخذاً بظاهر الآية فهذا فيه نظر فالسنة تفسر القرآن، لكن يمكن أن يقال: إن الواو أصلاً لا تقتضي الترتيب، فالله ذكر الأمرين، والسنة دلت على الترتيب، وأن السلام مقدم على الاستئذان، وأحسن من تكلم عن هذه المسألة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وخلاصة ما قاله ذكر المعنيين الأصليين للاستئناس: الأول هو الاستعلام، والثاني أنه يطلق على الاستيحاش فلان يأنس، وفلان استأنس يعني لم يستوحش، فهو يقول: إن هذا الإنسان الذي يستكشف ويستعلم ويستطلع هل يأذنون له بالدخول؟ وهل في البيت أحد؟، يحصل له هذا بالاستئذان، وإنما يأنس الإنسان بإذنهم إذا أذن له الدخول؛ لأن من يقف بالباب فهو مستوحش ما يدري ماذا يلقى؟ كيف يجاب؟ من يخرج إليه؟ ماذا سيقول له؟ فيبقى مستوحشاً فإذا أذنوا له فإنه يأنس بإذنهم، فقال: إنما هذه هي المعاني الأصلية، وجعلها مرتبطة بالاستئذان، وإنما يستعلم هل يأذنون له أو لا؟ وذلك باستئذانه ولا يأنس إلا بإذنهم فهذا كله يدل على أنه يستأذن، لكن من فسر الاستئناس بالاستئذان فلا يكون قد فسره بمعناه الذي يدل عليه دلالة مباشرة -معناه الأصلي-، وإنما كأنه فسره بلازمه أو نحو ذلك، والسلف قد يفسرون باللازم ولا إشكال، وسواء قيل هذا أو هذا حتى تستأنسوا وتسلموا، والإنسان الذي زال عنه الاستيحاش بالاستئذان أو استعلم بطريق الاستئذان يعرف كيف يأذنون أو ما يأذنون بالاستئذان، فيبقى أن الاستئناس أو الاستئذان مقدم على السلام، فيقال: السنة تبين هذا وتوضحه، والواو لا تقتضي الترتيب فيبدأ الإنسان بالسلام عليكم أأدخل؟ قد يقول قائل: اليوم الناس يطرقون الجرس فهذا هو استئذانهم، فكيف يقدم السلام وبيوت الناس صارت كبيرة وليست مثل السابق أن يتحدث عند الباب، فالبيت عبارة عن حجرة أو حجرتين يسمعونه، فيقال: إنه حينما يطرق عليهم فيجيبونه فإنه يبدأ بالسلام، السلام عليكم أأدخل؟ السلام عليكم أنا فلان أو نحو ذلك، ومن أراد أن يدخل بيته أو بيت أهله فإن هذا ينطبق عليه أيضاً، ولكن ذلك يخفف في حقه، لكن الأجنبي لا يدخل حتى يؤذن له، وهذا ليس على مرتبة واحدة في جميع الحالات، فالإنسان إذا كان مدعوًّا وجاء ووجد الباب مفتوحاً أو جاء مع الرسول الذي بُعث إليه فيدخل مباشرة، وإذا كان الإنسان داخلاً على أهله فإن كانت زوجته فإنه يحسن أن يشعرها بدخوله، إما أن تعرف من عادته أن يطرق الجرس طرقة واحدة ثم يدخل أو بالتنحنح كما ورد عن بعض السلف أو نحو ذلك؛ من أجل أن تتهيأ لمقابلته ولا يراها في حال يكرهها، فيفاجئها، والناس لا يحبون هذا، والمرأة لا تحب أن زوجها يفجؤها في دخوله عليها مع أن ذلك لا يجب عليه؛ لأن الله قال: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ}، لكن هذا من الأدب الحسن الذي يجب للإنسان أن يفعله، وأما إذا كان في البيت أحد من محارمه كالأخت والأم ونحو هذا والبيت له فالله قال: {بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ} فجاء عن جماعة من السلف لما سئل بعضهم عن هذا كان يقول للسائل: أتحب أن تراها عريانة؟ يحتاج أن يُشعرها، لكن اليوم في حالنا هذه يمكن أن يقال: هذا يتفاوت

ويختلف، فإذا أراد أن يدخل البيت الذي فيه أهله من محارمه من أخواته وزوجته، وقد يكون معه زوجة أو قد لا يكون، فإنه يشعرهم بدخوله، بدخول البيت بالتنحنح، أو بما عودهم، لكنه إذا أراد أن يدخل داراً أو غرفة تختص بإحدى هؤلاء النساء والمحارم فإنه يحتاج أن يستأذن من الناس، فقد تكون في حجرتها متبذلة في لباسها، أو تغير ملابسها فيستأذن؛ لأن ذلك المحل يختص بها، فيفرق بين هذا وهذا، ولهذا السلف يختلف فقههم في هذه المسألة من حين إلى حين، فابن عباس -رضي الله عنه- في مسألة الاستئذان كما في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ} [سورة النور:٥٨] الآية، كان يرى أن ذلك قبل أن تكون البيوت من الغرف، أو للبيوت ستور وغرف؛ فقد يدخل هذا الصبي أو يدخل هذا المملوك عليهم والرجل يواقع أهله أو نحو ذلك، فذكر العورات الثلاث، فابن عباس يرى أن الله وسع على الناس وصار للبيوت ستور ونحو هذا فالأمر اختلف، لكن هذا يقال في دخول البيت، أما دخول الغرفة المختصة بهم فلابد من الاستئذان بلاشك، لكن الناس الآن توسعوا وصارت بيوت الناس كبيرة، وصار لكل إنسان غرفة تختص به في الغالب أو اثنتان أو نحو هذا، فلا يدخل حتى يستأذن؛ لئلا يقع بصره على ما يكره، أو ما يكره الناس ما يرى منهم، أما دخول البيت عموماً فإنه لا إشكال فيه، ولهذا كان ابن مسعود -رضي الله عنه- إذا أراد أن يدخل داره استأنس هكذا جاء في الرواية، بمعنى تكلم ورفع صوته، ومجاهد فسر تستأنسوا قال: تتنحنحوا أو تتنخموا، والآن ضغطة في الجرس تشعرهم ويعرفون هذا منه أو ضغطة معينة له خاصة به يعرفون أن هذا فلان مباشرة، حتى الصغار إذا اعتادوا على هذا وسمعوا ذلك يقولون: فلان جاء، وجاءوا لاستقباله، وهذا الأدب متردد بين الوجوب في بعض الحالات وبين الاستحباب، لكن من أهل العلم من يقول في مسألة تقديم الاستئذان وعدمه: من يقع بصره على إنسان يسلم يقول: السلام عليكم أأدخل؟ وإذا لم يقع بصره فإنه يستأذن، وابن كثير يقول: يقدم الاستئذان، لكن عامة أهل العلم يقولون: نقدم السلام لكن قد لا يتأتى هذا في وضعنا الحالي إلا بما ذكرت، ومسألة الترتيب والواو إلى آخره لا تقتضي الترتيب، وهنا مسائل كثيرة تتعلق بهذا مثل العرف وأثره في هذه القضية، هذا أبو عبد الملك مولى أم سكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب يقول: أرسلتني مولاتي إلى أبي هريرة فجاء معي فلما قام بالباب قال: أندر؟، قالت: أندرون، يعني فهذه تستعمل في بعض النواحي، لكن يقصد بها أخرج، أندر، لكن كانوا يستعملونها بمعنى أأدخل؟، وجاء عن أحمد بن صالح قال: كان الدراوردي من أهل أصفهان نزل المدينة فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل: أندرون، فلقبه أهل المدينة بالدراوردي، فهي كأنها كلمه غير عربية فقالوا له الدراوردي، وتبقى بعض المسائل مثلاً الآن استأذن ثلاثاً إذا كان مدعوًّا أو غلب على ظنه أنهم لم يسمعوه -هو يعرف أن الجرس عندهم ضعيف، أو بعيد عن جلوسهم- يزيد أو لا يزيد؟، فمن أهل العلم من قال: لا يزيد، ومن نظر منهم إلى المقصود، وقال: إن ذلك لا يعني أنهم لا يريدون الإذن له، وإنما لم يسمعوه، فله أن يزيد على ذلك، ولهذا قال الإمام مالك -رحمه الله-: لا أحب أن يزيد على الثلاث إلا إذا علم أنه لم يُسمع، وقصة عمر -رضي الله عنه- مع أبي موسى قالوا عن الاستئذان ثلاثاً، كذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- استأذن على سعد بن عبادة -رضي الله عنه- ثلاثاً السلام عليكم فلم يجيبوه، وإنما أجابه سراً ليستكثر من تسليم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليهم، وهكذا من الآداب أنه لا يقول: أنا، وقد جاء ما

يدل على كراهته في الحديث المخرج في الصحيحين عن جابر استأذنت النبي الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((من هذا؟))، قلت: أنا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا، أنا))، كأنه كرهها[٩]، هذا بل من الطريف ما جاء عن بعض أهل العلم شعبة بن الحجاج أو غير شعبة أنه كان إذا دُق بابه قال: من هذا؟، وإذا قال المستأذن: أنا، كان يقول: أنا همٌّ دق، همٌّ دق: يعني هذا أمر غير مستساغ ولا مستحسن؛ لأنه إذا قال: أنا لم يجب، وكذلك إذا أتى بكنية غير معروفة كأن يقول مثلا: أبو محمد فكم من الناس أبو محمد، فعليه أن يذكر ما يعرف به، ويتميز، فلا يلتبس مع غيره، وابن كثير تعرض إلى بعض هذه المسائل التي أشرت إليها، وليس من العادة.

وروى الإمام أحمد عن أنس -أو: غيره- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استأذن على سعد بن عبادة فقال: ((السلام عليك ورحمة الله))، فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى سلم ثلاثًا، ورد عليه سعد ثلاثًا ولم يُسْمِعه، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم-، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمتَ تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أُسْمِعك، وأردتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت، فقرَّب إليه زَبِيبًا، فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: ((أكل طعامَكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون))[١٠].

ثم ليُعْلَمْ أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليَكن البابُ عن يمينه أو يساره؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بُسْر قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: ((السلام عليكم، السلام عليكم))، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور[١١]، تَفرد به أبو داود.

وفي الصحيحين، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فَخَذَفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح))[١٢].

وأخرج الجماعة عن جابر قال: أتيتُ النبي -صلى الله عليه وسلم- في دَين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: ((من ذا؟))، قلت: أنا، قال: ((أنا، أنا))، كأنه كرهه.

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا قال من ذا؟ فقال: أنا، برقم (٥٨٩٦)، ومسلم، كتاب الآداب، باب كراهة قول المستأذن أنا إذا قيل من هذا؟، برقم (٢١٥٥).

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٢٤٠٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصحح إسناده الألباني في آداب الزفاف (٩٨).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان؟، برقم (٥١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٦٣٨).

١٢ - رواه البخاري، كتاب الديات، باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان، برقم (٦٤٩٣)، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، برقم (٢١٥٨).

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يُعبِّر عن نفسه بـــ"أنا"، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان، وكذا قال غيرُ واحد.

وقد روى الإمام أحمد أن كَلَدَةَ بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلِبَأ وجَدَايَة وضَغَابيس، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بأعلى الوادي، قال: فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل؟))، وذلك بعدما أسلم صفوان[١٣].

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

يقول روى الإمام أحمد عن كلدة بن الحنبل، كلدة بن عبد الله، وقيل: كلدة بن قيس هذا أخٌ لصفوان بن أمية لأمه هو الذي شهد معه موقعة حنين، وقال ما قال في القصة المعروفة لما هزم المسلمون في أول الأمر قال: الآن بطل سحر محمد، والله لا يردهم إلا البحر، فقال له صفوان: اسكت ثكلتك أمك، والله لئن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّني رجل من هوازن، هذا أخوه لأمه كلدة بن الحنبل قال: إن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ، واللبأ بالفتح أو الكسر، هو يكون بعد الولادة يكون حتى هذا في المرأة ولذلك يقول الأطباء: الإرضاع في أول الأيام في غاية الضرورة؛ لأن الصبي لا يستغني عن هذا بحال، فيكون في الأيام الأولى من الولادة فهذا الحليب أو اللبن إذا أخذ فإذا عرضته على النار غلي فإنه ينعقد يتخثر حتى إنه لا يشرب شرباً، وإنما يؤكل أكلاً، قال: **بلبأ وجداية**، والجداية يعني ما له حتى ستة أشهر أو ما لم يبلغ ستة أشهر من ولد الظبية ذكراً كان أو أنثى يقال له: جداية، قال: **جداية وضغابيس**، والضغابيس هي صغار القثاء، والقثاء هو القرع، فهو من جنس الخيار، قثاء، كان يأكل القثاء بالرطب، **والنبي -صلى الله عليه وسلم- بأعلى الوادي**، يعني بأعلى مكة بوادٍ غير ذي زرع يعني كان بأعلى مكة عام الفتح.

وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس -رضي الله عنه-، قال: ثلاث آيات جَحَدها الناس: قال الله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [سورة الحجرات:١٣]**، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا، قال: والإذن كله قد جحده الناس، قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت ليرخِّص لي، فأبى، قال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن، قال: فراجعته أيضاً، فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم، قال: فاستأذن.**

قال ابن جُرَيْج: وأخبرني ابن طاوس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عريتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك.

وقال ابن جريج، عن الزهري: سمعت هُزَيل بن شُرَحْبِيل الأوْدِيّ الأعمى، أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم.

---

١٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، (١٥)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان، برقم (٥١٧٧)، والترمذي واللفظ له، كتاب الاستئذان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التسليم قبل الاستئذان، برقم (٢٧١٠).

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا.

وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى أبو جعفر بن جرير عن ابن أخي زينب -امرأة عبد الله بن مسعود-، عن زينب -رضي الله عنها-، قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق؛ كراهية أن يهجُم منا على أمر يكرهه[١٤]. إسناد صحيح.

لهذا الإمام مالك -رحمه الله- يقول: أرى أن يستأذن على أمه وأخته، والإمام أحمد -رحمه الله- يقول: يتنحنح، ويحرك الباب يعني يشعرهم متى إذا دخل بيته، وفيه أمه أو أخته أو نحو ذلك.

وقال مقاتل بن حيَّان في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّيتَ صباحًا وحييت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: "قد دخلتُ"، فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرَن، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}.

وهذا الذي قاله مقاتل حسن؛ ولهذا قال: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ} يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنى: هو خير من الطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

وقوله: {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ}، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} أي: إذا ردُّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم}.

وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كلَّه هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذنَ على بعض إخواني، فيقول لي: "ارجع"، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}.

وقال سعيد بن جبير: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا} أي: لا تقفوا على أبواب الناس.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} يعني الاستئذان وعدم دخول بيوت الناس إلا بإذنهم ذلكم خير لكم لما فيه من المصالح التي ترجع إلى هؤلاء، وترجع أيضاً إلى الداخلين والمستأذنين، فيكون فيه سد الطريق والباب على ما ذكر قبله من الآداب في الآيات فيما يتصل بمقارفة مالا يليق من الفواحش أو إطلاق الألسن في أعراض الناس إذا دخل عليهم من غير إذنهم في بيته، وقد يرى أموراً لربما أغرته بالفاحشة أو تعلق قلبه بما رأى أو

---

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٦١٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

نحو ذلك، ولربما تكلم في حق الناس هؤلاء وقذفهم؛ ولهذا حتى الرجل وحتى الزوج، وكذا النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن يأتي الرجل أهله إذا كان في سفر أن يأتيهم ليلاً؛ لئلا يتخون أهله، وهذا إذا كانوا لا يشعرون بمجيئه، لكن إذا كانوا يعلمون واتصل بهم ولم يكن مجيئه مفاجئاً فلا إشكال، ثم قال: {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ} هذا في البيوت التي فيها أهل وساكنون، وهذا خلاف البيوت غير المسكونة التي ذكر الله بعد ذلك {لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ} [سورة النور:٢٩]، فهذه في البيوت الأولى في بيوت الناس التي لها أهل وساكنون لكنهم قد سافروا أو خرجوا لحاجة أو نحو ذلك فلا يجوز لك أن تدخل ولو كان الباب مفتوحاً، وإذا كانوا غير موجودين فليس لك أن تُدخل صاحبك يسكن في غرفة أو نحو هذا، وإذا طرقت عليه وهو غير موجود والباب غير مغلق فليس لك أن تدخل؛ لأن بيوت الناس المسكونة لها حرمة، قال: {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} من نواحٍ شتى {هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} ففيه تربية للنفوس على الترفع والتنزه، بحيث إن الإنسان يكون مهذباً لا يستثقل الحق، ولا يتبرم به؛ لأن من الناس من يثقل عليه هذا ويعظم عليه، فإذا قالوا له: عفواً لا نستطيع مقابلتك واستقبالك أو نحو هذا فهو يرى أن مجيئه يحتم عليهم أن يدخلوه، ولا خير له في هذا؛ لأن من عُرف عنه أنه يغضب أو يحمل في نفسه أو يتبرم باعتذارهم فإنهم سيضطرون إلى الإذن له، وإدخاله لكنهم كأن الواحد منهم على رماد حار أو على نار يتململ متى يمشي؟، متى سيذهب؟ يستثقلون بقاءه ومجيئه، وهذه قد تكون أحد الأسباب -لاسيما إذا تكرر من الإنسان- التي تُلحقه بالثقلاء، وهذه الصفة أحياناً تكون غير مكتسبة يعني بل يبتلى بها الإنسان، يكون ثقيلاً، بمجرد ما تراه تستثقله هذا مجرد ما تراه، وأحياناً تكون هذه الصفة مكتسبة بسبب أو بآخر إما بأسئلة سخيفة كلما جلس وجهها، يسأل الناس عن شئونهم الخاصة، أين تشتغل؟ وكم مرتبك؟ ومن هو هذا؟ كم عدد أولادك؟ وهكذا، أو يردد كلمات معينة طول المكث، بعض الناس إذا جاء يقول: كيف الحال عساك طيب، الحمد لله، كيف الحال؟ الحمد لله، عساك طيب الحمد لله، وهكذا يعيد لك هذا سبع مرات أو ثماني، فيقال: هات الذي عندك واختصر، وما في داعٍ تعيد هذه الكلمات ونحن فقط الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله فهذا يستثقل، وهكذا إذا كان الإنسان يطيل المكث بلا حاجة إذا دخل عُرف أنه سيضيع عليهم الأوقات، فإن كان جاء في الصباح فمعنى ذلك أن الصباح قد ذهب، وإذا جاءهم في العصر، فالعصر كله ذهب، فالناس يستثقلون هذا ولا يتحملونه، ومن الناس من يتولاهم ولو كان بالهاتف إذا جلس يسأل بعد صلاة العصر مباشرة فإلى أذان المغرب بل إلى الإقامة ما تنتهي أسئلته لا تنتهي هذه الأسئلة بل لربما يريد أن يقرأ عليك رسالة في الهاتف كتبها، رسالة، كتاب! ولا يمهلك، يبدأ يقرأ يا ابن الحلال أنا ما أستطيع أن أسمع، الوقت لا يسمح، ولا يبالي أصلاً جالس يقرأ مستمر تتوسل وتحاول أن تقنعه أنه لا يمكن، هو يقرأ مسترسل، هذه الأشياء موجودة حتى في رمضان في صلاة العصر إلى أذان المغرب، يا أخي ما أنت صائم، أذن المغرب ما تفطر؟ يقرأ مسترسل من بعد صلاة العصر أو يسأل أسئلة ما هو العمل الصالح، الصلاة، والصيام، والصدقة، والزكاة، وبعد....، وبعد.....، الحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الكلمة الطيبة، يريد منك أن تشرح له حتى الصباح من غير مراعاة للمشاعر، فالإنسان الذي يستأذن على الناس ويتبرم بهم إذا اعترضوا منه هذا يجعل الناس يستثقلونه، هذا من

أحد الأسباب المكتسبة التي تجعل الإنسان ثقيلاً، فلا يتحملونه، وما الخير في الإنسان أن الناس لربما راعوه وداروه من أجل أن يكف شره عنهم، يقول: دعه يدخل ويجلسون يتململون، وكلٌ يقول: لا إله إلا الله، اللهم صلِّ على محمد، وهو لا يشعر بأنهم يتململون، وهكذا إذا كان الإنسان {وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} إذا كان الإنسان مستجيباً لأمر الله -عز وجل- فإن هذا هو نوع عبودية وطاعة، وتهذيب للنفوس، فكما أن هذا من القضايا التي تتعلق بالأخلاق فهو يرجع إلى الناس أيضاً فلا يُستثقل الإنسان، وشر الناس من أحسن الناس إليه اتقاء شره، فيزورونه إذا مرض أو يأتون لمناسباته أو نحو ذلك يقولون: فلان يزعل لازم نذهب لزيارته، ويتجشم ويركب الصعب والذلول ويترك ما هو فيه من أشغال من أجل مراعاة خاطره، لئلا يغضب؛ لأنهم يعرفون أنه يتحامل عليهم، لماذا لم يأتِ فلان، ولماذا كذا؟ فقال الله -تبارك وتعالى-: {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}.

وقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} هذه الآية الكريمة أخصُّ من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن له فيه أول مرة كفى.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ}، ثم نسخ واستثنى فقال {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ}: وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري.

قوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} غير مسكونة ما المراد بها؟ بعض أهل العلم يقول: المراد بها بيوت مكة باعتبار أنها حق للجميع على قول بعض أهل العلم، فإذا كان لا يوجد فيها ساكن فمن حقك أن تسكن من غير استئذان، وهذه مسألة معروفة والخلاف فيها معروف، و منشؤها الخلاف، والأقرب أن الآية لا تحمل على هذا، وبعضهم قال: إن ذلك يحمل على البيت المُعد للضيف، فإذا خلّوا بينه وبينه أول مرة أُذن له فلا يحتاج كل مرة أن يستأذن، كلما جاء دخل مباشرة، والله -تبارك وتعالى- قال: {غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} الأقرب -والله أعلم- أن ما قاله السلف يدخل في ذلك، فذكروا من ذلك الأماكن الخربة يدخلها الناس من المسافرين وغيرهم؛ لقضاء الحاجة، فيها متاع، متاع قضاء الحاجة، وقد يكون هذا المتاع الظل يستظلون بها، فهي أماكن متروكة ما فيها أحد، بيوت تبنى في الطريق -السفر-، وتُبنى مقاهٍ ومطاعم مهجورة، فدخلها ليستظل بها مثلاً، وإذا كان في طريقه إلى الحج والعمرة أو نحو ذلك ووجد عمارة تبنى فجلس في ظلها جلس يأكل فيها أو نحو هذا لا حرج عليه، فلا يحتاج أن يستأذن {غَيْرَ مَسْكُونَةٍ}، يعني لا ساكن لها، وقل مثل ذلك في الأماكن التي كان –قديماً- يضع الناس فيها أمتعة لهم من المسافرين كالأقتاب وغيرها، أماكن أشبه بالأماكن الخربة، فيدخلونها فيضعون هذه الأشياء يتخففون بالأسفار فلذلك يرجعون فيها، ويأتون متى شاءوا، وهكذا يدخل فيه الأماكن التي لا ساكن لها مثل الأسواق، والمكاتب العامة، وكذلك يدخل فيه الفنادق غير غرف النزلاء ونحو هذا وما شابهه، فهذه فيها أناس لكنها مأهولة غير مسكونة، والذي يقابل المأهولة المهجورة، كالأماكن الخربة ونحو هذا، وأما المسكونة التي فيها ساكن، فالغرف التي في الفنادق هذه مسكونة، كلها تُدخل باستئذان، لكن حينما يدخل من باب الفندق أو المستشفى فإنه لا يحتاج أن يستأذن، لكن إذا كان مظنة عورات مثل غرفة الطبيب قد يكون عنده مريض فيجب أن

يستأذن، بخلاف الأسواق فهي فتحت لهذا، فهي مأهولة غير مسكونة، وكذلك المطعم، لكن مطاعم عائلية وفيها ناس يحتاج أن يستأذن، فيدخل في قوله: {غَيْرَ مَسْكُونَةٍ} الأماكن المهجورة الخربة ونحو هذا، ويدخل فيه الأماكن المأهولة غير المسكونة كالأسواق المتاجرة والمكاتب العامة، ولو دخل في شركة أو في مؤسسة حكومية ونحو ذلك فهذه مأهولة غير مسكونة، فلا يحتاج أن يستأذن إلا إذا كان المقام يقتضي هذا، كأن يدخل على مكتب خاص هذا المكتب لا يسمحون للدخول هكذا إلا بإذن فيستأذن، قال: {فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} وهذا المتاع يشمل قضاء الحاجة، والظل، والشراء، والنوم، والراحة، والأكل كل هذه الأشياء، والله أعلم.

طالب: بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فهذا بعض ما يسر الله جمعه، والوقوف عليه في سبب نزول قوله -تعالى-: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}، الآية.

فأقول وبالله أستعين:

ذكر أهل العلم أن من لاعن من الصحابة -رضي الله عنهم- ثلاثة، وهم عويمر العجلاني، وهلال بن أمية، وعاصم بن عدي.

أما عاصم بن عدي -رضي الله عنه- فلم أجد في الروايات ما يدل صراحة على أنه لاعن، فضلاً عن أن يكون سبباً في نزول الآية.

ولما قال النووي -رحمه الله-: اختلفوا في الملاعن على ثلاثة أقوال، وذكر منهم عاصم بن عدي -رضي الله عنه- تعقبه الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، فقال: وقوله: "عاصم بن عدي فيه نظر؛ لأنه ليس لعاصم فيه قصة أنه الذي لعن امرأته، وإنما الذي وقع من عاصم نظير الذي وقع من سعد بن عبادة". انتهى.

الشيخ: المقصود به: أن سعد بن عبادة لما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- قال سعد: إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ثم يطلب أربعة، أو قال: هكذا نزلت يا رسول الله؟ فوقع ذلك لرجل من قومه وهو عويمر العجلاني، وعاصم بن عدي هو أيضاً سيد من سادات قومه من الخزرج، من رهط سعد بن عبادة -رضي الله عنه-، فعويمر العجلاني أتى إلى عاصم بن عدي يطلب منه أن يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء عاصم وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- السؤال، فجاء عويمر بعد ذلك يسأل.

طالب: وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: وقع في سيرة ابن حبان في حوادث سنة تسع: ثم لاعن بين عويمر بن الحارث العجلاني، وهو الذي يقال له: عاصم، وبين امرأته، وقد أنكر بعض شيوخنا قوله: "وهو الذي يقال له: عاصم"، والذي يظهر لي أنه تحريف، وكأنه في الأصل: الذي سأل له عاصم، والله أعلم.

وقال الحافظ أيضاً: وأما قول عاصم بن عدي في حديث ابن عباس عند البخاري: "ما ابتليتُ بهذا إلا لقولي.." إنما هو لأن عويمراً كان تحته بنت عاصم أو بنت أخيه، فلذلك أضاف ذلك إلى نفسه بقوله: ما ابتليتُ، وقوله: إلا بقولي، أي بسؤالي عما لم يقع، كأنه قال: فعوقبت بوقوع ذلك في آل بيتي. انتهى.

وأما عويمر العجلاني وهلال بن أمية -رضي الله عنهما- فهما محل الخلاف بين أهل العلم في أيهما نزلت، وبالاستقراء لأقوال أهل العلم في هذه المسألة يتبين أنها منحصرة في أقوال أربعة وهي:

القول الأول: أنها نزلت في عويمر العجلاني -رضي الله عنه-، وحجة أصحاب هذا القول:

أولاً: كثرة ما روي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لاعن بين العجلاني وامرأته، وهذا يصدق على عويمر دون هلال.

ثانياً: توقف النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحكم في قصة عويمر.

ثالثاً: خطأ الرواة في تسمية هلال بن أمية، فقد غلط فيه هشام بن حسان والصواب أنه عويمر وليس هلالاً.

وفي هذا القول نظر، فتضعيف ما ورد في الصحيحين وتوهيم الأئمة الحفاظ أمر ليس بالسهل، وخصوصاً أن أصحاب هذا القول لم يذكروا علة تنهض لهذا، وكذلك احتمال الوهم هنا بعيد فإن سياق قصة عويمر -رضي الله عنه- يختلف عن سياق قصة هلال -رضي الله عنه-، فالمسألة ليست مجرد وهم في اسم بل هذه قصة وتلك أخرى، فتطرقُ الوهم في هذا أبعد، ثم إني لم أر أحداً من الأئمة الحفاظ أعل ذكر هلال بن أمية -رضي الله عنه- في رواية البخاري أو مسلم، بل غاية ما نقل في ذلك كلام أبي عبد الله بن أبي صفرة وابن العربي والقاضي عياض حيث قالوا: إن ذكر هلال وهم من هشام بن حسان، والصحيح أنه عويمر.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: وكلام الجميع متعقب، أما قول ابن أبي صفرة فدعوى مجردة، وكيف يجزم بخطأ حديث ثابت في الصحيحين مع إمكان الجمع؟!.

وأما قول ابن العربي: إن ذكر هلال دار على هشام بن حسان وكذا جزم عياض بأنه لم يقله غيره فمردود؛ لأن هشاماً لم ينفرد به، فقد وافقه عباد بن منصور كما قدمته، وكذا جرير بن حازم عن أيوب، أخرجه الطبري وابن مردويه موصولاً. انتهى.

ثم إن المُعلِّين لذكر هلال في الروايات يعتذرون بأن صاحبي الصحيحين لم يخرجاها في الأصول، وإنما في الشواهد، وهذه دعوى ليس هناك ما يعضدها، بل إن الترمذي في العلل الكبير قال: سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الاختلاف فقال: حديث عكرمة عن ابن عباس في هذا محفوظ، فبهذا يظهر أن البخاري يثبت هذه الرواية، وقد أوردها في الصحيح من طريق هشام بن حسان، وفيها أن هلال بن أمية قذف امرأته. الحديث.

القول الثاني: أن الآية نزلت في هلال بن أمية، ونسبه النووي إلى الجمهور، وحجتهم ما جاء في البخاري عن عكرمة عن ابن عباس وفي مسلم عن هشام عن ابن سيرين عن أنس، من ذكر قصة هلال وفيها: ((فنزل جبريل))، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))، وكذلك قول الراوي: وكان أول رجل لاعن في الإسلام، ولا شك في كون الآية نزلت في هلال بن أمية -رضي الله عنه- كما دلت على ذلك الروايات صراحة، ولكن هل نزلت فيه وحده أو فيه وفي عويمر كما سيأتي في القول الرابع إن شاء الله.

القول الثالث: أن الآية نزلت مرتين: مرة في هلال ومرة في عويمر، وقد ذكر هذا القول أبو العباس القرطبي احتمالاً، وحجة هذا القول عموم ما ورد.

الشيخ: حينما يقال: ذكره احتمالاً فالمعنى أنه ما قاله تقريراً أنه يتبنى هذا القول، وما عزاه لأحد، يعني لا يوجد له قائل، لكن ذكره احتمالاً بمعنى أنه لا يبعد أن يكون، فهذا معنى "احتمالاً"، يعني بحثاً، لكن هذا القول مردود أصلاً، لا يمكن أن تكون نزلت مرتين؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يتوقف فيها وقد نزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} [سورة النور:٦]، فسيُجري عليه الحكم الذي في الآية التي نزلت، وهناك أشياء يمكن أن يقال: نزلت مرتين فيما قد يظن أن الحكم فيها يختلف، لكن في مثل هذه كيف يتوقف أو يقول: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك)) وقد نزلت هذه الآية؟!.

طالب: وحجة هذا القول عموم ما ورد في قصتي عويمر وهلال، وأن الآية نزلت في كل منهما، ولكن هذا القول فيه نظر -والله أعلم-، حيث إن النبي -صلى الله عليه وسلم- توقف في كلتا القصتين، ولو أنهما متباعدتان زمناً لحكم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الثانية بما أنزل الله في الأولى.

القول الرابع: أن تكون القصتان وقعتا في زمن متقارب، فسألا فنزلت الآية فيهما جميعاً، واختار هذا القول ابن حجر وابن عاشور، وذكره القرطبي والنووي احتمالاً، وهذا القول هو الذي تجتمع به الأدلة، والله أعلم.

وأصرح حديثين في هذه المسألة هما:

الحديث الأول: ما رواه البخاري قال: حدثني محمد بن بشار قال: حدثني ابن أبي عدي عن هشام بن حسان قال: حدثنا عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بشريك بن سَحْماء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((البينة وإلا حدٌّ في ظهرك))، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ به ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} الآية. الحديث.

فقولة ابن عباس -رضي الله عنه-: فنزل جبريل، هذا من قبيل سبب النزول الصريح، وسبب النزول الصريح له حكم الرفع.

وكذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))، دليل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينزل عليه شيء بعدُ في اللعان.

الحديث الثاني:

ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- وفيه: إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ؟، والله لأسألن عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما كان من الغد أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسأله فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه أو قتل قتلتموه أو سكت سكت على غيظ؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم افتح، وجعل يدعو))، فنزلت آية اللعان {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن

{لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ}، فابتلي به ذلك الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتلاعنا، الحديث.

فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم افتح))، دليل على أنه لم ينزل عليه بعدُ شيء في اللعان، وقول الراوي: وجعل يدعو فنزلت آية اللعان كذلك هو من قبيل سبب النزول الصريح.

الشيخ: ((اللهم افتح))، معناه احكم، {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٨٩]، يعني: احكم، {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال:١٩] يعني: إن تطلبوا الحكم، فقد جاء الحكم، لكن ظاهر هذه الرواية قد يفهم منه أنه سأل قبل أن يقع هذا، ولكن هذا ليس بصريح أيضاً أنه "فابتلي به" قد يكون "ابتلي به من بين سائر الناس" بمعنى أن ذلك متصل بما قبل، هو سأل لمّا وقع له ذلك وابتلي به من بين سائر الناس، ولم يكن قد نزل الحكم، هذا غير صريح يحتمل معنيين: يحتمل: أنه سأل فابتلي، ويحتمل: أنه سأل بعد الابتلاء، ابتلي، هو يريد أن يخبر: فابتلي، ليس بسبب، الفاء لا تكون للتعليل، ولا تكون مرتبة لما بعدها على ما قبلها، يكون ابتلي، يخبر أنه ابتلي به من بين سائر الناس فهذه أول حادثة تقع.

طالب: والرجل وإن لم يُسمَّ فإن السياق سياق قصة عويمر -رضي الله عنه-، وكذلك الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، ففي الروايات التي جاء فيها ذكر عويمر -رضي الله عنه- صريحاً ورد ضمنها قول عويمر: أرأيتَ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟، وفي حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- عند مسلم قال عويمر: أرأيت إن رأى رجل مع امرأته رجلاً فإن تكلم به تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك، وهذا كله يتفق مع سياق الحديث المتقدم.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: وظهر لي الآن احتمال أن يكون عاصم سأل قبل النزول ثم جاء هلال بعده فنزلت عند سؤاله المرة الثانية التي قال فيها: إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به، فوجدت الآية نزلت في شأن هلال، وكذا يجاب على سياق حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، فيحتمل أنه لما شرع يدعو بعد توجه العجلاني جاء هلال فذكر قصته فنزلت فجاء عويمر فقال: قد أنزل فيك وفي صاحبتك. انتهى.

هذا ما تيسر جمعه والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله.

هذا البحث لا يكفي ونحتاج مزيداً من التتبع في التحديد: الجانب الأول العبارات التي جاءت فيه نزلت في بعض الروايات في قصة عامر لربما لا يكون مصرحاً أن هذا سبب النزول فيحتاج أن تجمع الروايات هذه. وفي الصفة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن جاءت به كذا وكذا، إذا جمعت هذه الروايات تجد أنها تشكل أن بعضها ما قد يكون في ذلك صفة تتصف بواقعة هلال بن أمية، وفي بعضها عويمر العجلاني وهذا هو الذي جعل بعض أهل العلم يقول: إن القصة واحدة أو أنه خطأ من بعض الرواة، وإن كانت الرواية صحيحة فلا يقتصر على ما في الصحيح لكن من تأمل الروايات فإنه سيستشكل ذلك من الجهتين من جهة الصفات المذكورة في الروايتين كأنها قصة واحدة، ومن جهة النزول اللفظة التي جاءت فيه، ولهذا المسألة تحتاج إلى مزيد من التأني والتدقيق، والنظر في العبارات هذا، وهذا، والقول بأن القصة واحدة وكذا: غير بعيد، والقول بأن الآيات تكرر نزولها مردود مرفوض تماماً، وأما القول بأنها نزلت بعد الواقعتين فهذا وارد،

لكن الاحتمال هذا وارد فيه ولا يخلو من إشكال، وهذا مثال من الأمثلة التي تكون في أسباب النزول قد يصعب التحديد فيها بأن الآية نزلت بعد الواقعتين، أردت به لفت الأنظار إلى أن مثل هذه القضايا لا يقتصر فيها على الرواية أو الروايتين، يقول الإنسان: هذه نزلت بعد الواقعتين وانتهينا، وإنما يحتاج إلى جمع الروايات الصحيحة والتدقيق، والنظر فيها، وبعد ذلك يحكم، هذا مثال وإلا فستجد أمثلة أخرى لها نوع تعلق أو قد تستشكل من ناحية لربما من ناحية ألفاظ -لو جمعت الروايات- في بعضها أنه صريح وفي بعضها أنه غير صريح في حروف بعضها، مع أن الصريح يحمل على غير الصريح، يقول هذا يفسره، لكن تقف على الصريح، وتقول هذا من قبيل التفسير، لكن لو تتبعت تجد بعض الروايات الصريحة، وأحيناً في بعض الروايات الطويلة أولها غير صريح: نزلت هذه الآية في فلان، أو في كذا، ثم يذكر في الرواية نفسها عبارة صريحة فكل هذا يحتاج إلى شيء من التأني والنظر والمقارنة، والصبر وجمع الروايات وتدقيق النظر فيها، هذا هو المقصود، وأرجو أن تكون هذه قد وصلت، لكن نحن نحتاج أن نقارن حتى الروايات الصحيحة غير الصريحة، نقارنها مقارنة دقيقة من حيث العبارة واللفظ الصريح وغير الصريح، نأتي بالجمل ونعزوها بالتخريج والراوي ثم نأتي بما يتعلق بالأوصاف وهكذا نجعلها على جزئيات، ونجمع الروايات كلها في الموضع المعين وما نأتي بالرواية كاملة.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٣٠ إلى الآية ٣١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [سورة النور:٣٠].

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعًا، كما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه-، قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم-، عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرفَ بَصَري[١].

وفي الصحيح عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إياكم والجلوس على الطرقات))، قالوا: يا رسول الله، لابد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقَّه))، قالوا: وما حقّ الطريق يا رسول الله؟ قال: ((غَضّ البصر، وكَفُّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر))[٢].

وقال أبو القاسم البغوي عن أبي أمامة يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اكفلوا لي بستٍّ أكفل لكم بالجنة: إذا حدَّث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يَخُن، وإذا وَعَد فلا يخلف، وغُضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم))[٣].

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهام سُمٍّ إلى القلب؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمنعه من الزنى، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [سورة المعارج:٢٩-٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: ((احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك))[٤].

---

١ - رواه مسلم، كتاب الآداب، باب نظر الفجأة، برقم (٢١٥٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصُّعُدات، برقم (٢٣٣٣)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، برقم (٢١٢١).

٣ - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٢٥٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٢٢٥).

٤ - رواه أبو داود، كتاب الحمام، باب ما جاء في التعري، برقم (٤٠١٧)، والترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حفظ العورة، برقم (٢٧٦٩)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب التستر عند الجماع، برقم (١٩٢٠)،

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر المؤمنين بغض الأبصار، وفي هذا وأمثاله كلام للأصوليين فيمن أمر غيرَه، فيمن أمر أحداً أن يأمر غيره بأمرٍ، هل يكون الآمر الأول آمراً للأخير أو لا؟ وهي مسألة جدلية معروفة ومشهورة، والله -تبارك وتعالى- حينما أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر المؤمنين بغض الأبصار، فهو أمر من الله -جل جلاله- لهم بغض الأبصار، وسواء كان ذلك الأمر صادراً من الله أو صادراً من رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والأصل أن الأمر للوجوب، فدل ذلك على وجوب غض الأبصار، وهذه الآية: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}، لما ذكر آداب الاستئذان، ودخول البيوت أعقب ذلك بغض الأبصار؛ لأنه إنما يَمنع من دخول البيوت ويَأمر بالاستئذان على أهلها من أجل ألا يقع بصره على شيء لا يريد الناس أن يراه، فالله -تبارك وتعالى- يقطع دابر الشر، ويؤدب أهل الإيمان بما ينزه المجتمعات عن الفواحش ومقارفتها، ومواقعة ما لا يليق، وذلك لأن الطرْف رائد للقلب، فإذا وقع بصره على شيء لربما يعلق ذلك في قلبه فيتمكن منه فيفسد ذلك القلب، ثم بعد ذلك لما كان القلب مَلِكاً للجوارح فإن القلب يتحرك ويأمر، وتشتغل الجوارح وتعمل على تحصيل مشتهيات النفوس، وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} الخطاب هنا موجه لأهل الإيمان لأنهم الذين يقبلون عن الله -عز وجل-، وهذه السورة في تربية أهل الإيمان، والأصوليون من أهل العلم يتكلمون في مثل هذا، وقد يُحتج بها على أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، توجه الخطاب لأهل الإيمان بأنهم الذين يقبلون عن الله -جل جلاله-، وقوله: {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} من أهل العلم من يقول: إن "مِن" هنا تبعيضية، وهذا الذي عليه أهل العلم وذلك أن من البصر ما لا يجب غضه! ولذلك فرّق بين الأمر بغض الأبصار، والأمر بحفظ الفروج فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} ولم يقل: ويحفظوا من فروجهم، وذلك أن باب غض البصر أوسع من حفظ الفرج، فالإنسان يجوز له أن ينظر إلى ملكوت الله -عز وجل-، وينظر إلى الناس من غير ريبة ولا شهوة، وينظر إلى محارمه فيما يجوز النظر إليه من غير ريبة، ولكن يجب أن يغض بصره عما لا يحل كالنظر إلى المرأة الأجنبية، ثم إن النظر إلى المرأة الأجنبية النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن له الأولى وعليه الثانية[٥]، ومن هنا قال أكثر أهل العلم: إن "مِن" للتبعيض {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}، فمن البصر مالا يجب غضه، وهذا هو الأقرب والله -تبارك وتعالى- أعلم، وبعضهم يقول: جارة -يعني "مِن"- وهذا بعيد، ومنهم من يقول: إنها للجنس، وليست للتبعيض يعني يغضوا أبصارهم، وبعضهم يقول: لابتداء الغاية، وبعضهم يقول غير ذلك، كالذي يقول: إن الغض بمعنى النقصان، فلان يغض من فلان بمعنى يقلل من شأنه، يغضوا من أبصارهم بمعنى النقص فلا يمتد نظرهم إلى ما حرم الله -عز وجل- عليهم، {وَيَحْفَظُوا

وأحمد في المسند، برقم (٢٠٠٣٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن، يحيى بن سعيد: هو القطان، وإسماعيل بن إبراهيم: هو المعروف بابن علية، وبهز: هو ابن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠٣).

٥ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب فيما يؤمر به من غض البصر، برقم (٢١٤٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٧٣)، وقال محققوه: حسن لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٩٥٣).

{فُرُوجَهُمْ} عقّب بالأمر بحفظ الفروج بعد الأمر بغض الأبصار؛ لأن ذلك متسلسل في الطبيعة والعادة، وإنما يعلق القلب بعد نظر البصر غالباً وإلا فالقلب له رسولان "السمع والبصر"، والأعمى يعلق قلبه بالسماع، وقد يعلق قلب غير الأعمى أيضاً بالسماع أولئك الذين يفتنون عن طريق الهاتف، والمحادثات بما يقوم مقام السماع أحياناً بالمسنجر أو نحو هذا، هؤلاء يكون بينهم علاقات وغرام وأشياء ولم يرَ بعينه تلك المرأة، أو هذه المرأة لم ترَ هذا الرجل، فالمقصود أن حفظ الفروج لا يتحقق إلا بحفظ الأبصار وبحفظ فروجهم، والمراد بحفظ الفروج هنا من أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك هو أن تحفظ من مواقعة ما لا يحل: الزنا واللواط -أعزكم الله والسامعين- والسحاق وما شابه ذلك من كل مقارفة محرمة كما قال الله - تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون:٥-٧]، فكل مقارفة محرمة يفرغ فيها الشهوة أو يلتذّ الإنسان بها غير الزوجة، وملك اليمين فإن ذلك يحرم على الإنسان بكل حال، وهذا القول -أنْ تُحفظ الفروج من هذه المقارفات- تدل عليه الآية بعمومها، وقد حمل هذه الآيةَ بعضُ أهل العلم وفسرها بأن المقصود بذلك أن يحفظوا فروجهم عن إبدائها للناظرين وذلك بالستر، وعن نظر الناس إليها، يحفظون فروجهم بسترها وبما يحول بين نظر الناس إليها، وهذا المعنى قال به كثير من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، قال بعض السلف: "كل فرج ذكر حفظه بالقرآن فهو من الزنا، إلا هذه الآية"، وهذا قد لا يكون دقيقاً، والأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير الآية: أن حفظ الفروج المأمور به هنا يدخل فيه هذا وهذا، فتُحفظ بالستر، فيحفظ عورته فلا تتكشف، يحفظ عورته من نظر الناس إليها، ويحفظ عورته عن المقارفات المحرمة كالزنا وغيره كل ذلك داخل في معنى الآية، وهذا هو اختيار ابن كثير -رحمه الله-، وسبقه إليه جمع من أهل العلم كالقرطبي، وبهذا قال أيضاً الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أي حملُ الآية على هذا المعنى الأعم خلافاً لمن خصها بواحد منهما كابن جرير الذي يقول: إنه حفظ لها عن الكشف والإظهار، وعن نظر الناس إليها، والله تعالى أعلم.

{ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} أي: أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: "مَن حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته". ويروى: "في قلبه".

قوله: {ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} أزكى فلا يقع في القلوب ريبة ومرض، ولا ينظر الناس إليهم بريبة, وأيضاً يكون ذلك سبباً لحفظ الفرج، كما أنه يكون سبباً لاشتغال القلب، والجوارح بما هو بصدده من العمل الذي ينفعه ويرفعه في الدنيا والآخرة بخلاف من أطلق بصره؛ لأن قوله: {ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} اسم الإشارة هنا يرجع إلى الأمرين "غض الأبصار، وحفظ الفروج"، قل لهم: {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}، وقل لهم: {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} فإن ذلك أزكى لهم، وذلك أن الإنسان إذا أطلق بصره ينظر إلى الغاديات الرائحات وإلى المواقع السيئة، والصور المحرمة أو نحو هذا كما نسمع ممن يبتلون بهذه الأمور, يذهب إلى الأسواق وينظر إلى النساء أو ينظر في قنوات أو غير ذلك يبقى قلبه يتلهب, ولربما أضناه التعب النفسي والبدني، ذلك الذي يجوب الأسواق هنا وهناك حتى يمضي عليه وقت طويل من الليل، فهو يتعب بدنه ويتعب قلبه، و يتشوش فكره، ويتفرق عليه قلبه، وكل نظرة هي سهم يصيب هذا القلب، فيتألم هذا القلب وقد يجرحه ذلك السهم وقد يصيبه في مقتل،

فيتفرق عليه قلبه فيشتغل بما لا ينفعه فإن حصّل مطلوبه وقع في الفاحشة والعنت، والمقت، فهذه العاقبة والنهاية التي تذهب بشرفه، وتورثه سخط الله -جل جلاله-، وإذا كان الإنسان بعيداً لا ينظر إلى الحرام، ولا تبدو العورات ولا تنكشف فإن القلوب تبقى زكية نظيفة، ويستريح الإنسان، وتهدأ نفسه، وترتفع عنه أرجاس الشيطان، وما يحصل في القلوب من قلق، وما يحصل في النفوس من الاضطرام اضطرام الشهوات، وتهيجها مما يُعطب عليه قُوى البدن وينهكه {ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ}.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}، كما قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [سورة غافر:١٩].

وفي الصحيح، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كُتِبَ على ابن آدم حَظّه من الزنى، أدركَ ذلك لا محالة، فزنى العينين: النظر، وزنى اللسان: النطقُ، وزنى الأذنين: الاستماع، وزنى اليدين: البطش، وزنى الرجلين: الخطى، والنفس تمنّى وتشتهي، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكذبه))[٦].

رواه البخاري تعليقًا، ومسلم مسندًا من وجه آخر بنحو ما تقدم.

وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهَون أن يُحدَّ الرجل بَصَره إلى الأمرد.

روي ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل عين باكية يوم القيامة، إلا عيناً غَضّت عن محارم الله، وعينًا سهِرت في سبيل الله، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب، من خشية الله -عز وجل))[٧].

على كل حال الحديث فيه ضعف، وابن القيم -رحمه الله تعالى- يقول في قوله: **{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}**: "فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج؛ ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذّته التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله -عز وجل- خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائدة القلب فيبعث رائده لِنَظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب، ويتعب رسوله ورائده كما قيل:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائدًا *** لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ

رأيتَ الذي لا كلّه أنت قادرٌ *** عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة, فمن أطلق نظراته دامت حسراته فإن النظر يورد المحبة، فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة ينصب

---

٦ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} [الأنبياء:٩٥]، برقم (٦٢٣٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب قُدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، برقم (٢٦٥٧).

٧ - ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٣/٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٢٤٣).

إليه القلب بكليته، ثم تقوى فتصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً وهو الحب الذي وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى ويصير تَتَيُّما والتَتَيُّم التعبُّد، ومنه تيّمه الحب إذا عبّده، وتيّم الله أي عبد الله، فيصير العبد عبداً لمن لا يصلح أن يكون عبداً له، وهذا كله جناية النظر، فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً يتظلم من الطرْف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني، وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لابد له من التعلق بالمحبوب، فإن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره"[٨].

صحيح.

{وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة النور:٣١].

هذا أمْرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغَيْرَة منه لأزواجهنّ عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات، وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيَّان قال: بلغنا -والله أعلم- أن جابر بن عبد الله الأنصاري حَدَّث: أن "أسماء بنت مُرْشِدَة" كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتّزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا فأنزل الله: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} الآية.

هذا الأثر لا يصح، وليس هذا سبب النزول.

فقوله تعالى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} أي: عما حَرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورجعت.

قوله: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} لو أن الله -تبارك وتعالى- ذكر الجزء الأول {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} لدخل فيه النساء بحكم التبع، ولكن الله -تبارك وتعالى- نص على النساء فهذا تأكيد لحفظ الأبصار لشدة خطره، {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، وقال: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} ولكن هل نظر المرأة مثل نظر الرجل؟ بعض أهل العلم يقول: لا فرق بين الرجل والمرأة في هذا الباب، وأن قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لك الأولى، وليست لك

---

٨ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٤٧/١)، تحقيق: محمد حامد الفقي.

الآخرة))[٩]، يشترك فيه الرجل والمرأة، وأنه لا يجوز لها أن تنظر إلى الرجال لا بشهوة ولا بغير شهوة، وإنما يجب عليها أن تغض البصر، والقول الآخر أن نظر المرأة أوسع من نظر الرجل فيجوز لها أن تنظر من غير تفرس ولا شهوة، ولعل هذا هو الأقرب -والله أعلم-، وذلك لما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من نظر عائشة -رضي الله عنها- إلى الحبشة وقد أطالت النظر، وكذلك من أدلة هذا أنه في يوم الخندق عائشة -رضي الله عنها- نظرت إلى سعد بن معاذ -رضي الله عنه- وهو متوجه إلى الخندق وعليه درع غير سابغة، والشاهد أن نظر المرأة أوسع من نظر الرجل، لكن من غير تفرس ولا يكون ذلك بشهوة، ونظر النساء اليوم إلى الفضائيات حتى للبرامج الدينية التعليمية لا يخلو من خطر، بل هو خطر كبير؛ لأن المرأة ترى هذا الرجل الذي لربما سمعت به أو سمعت كلامه، ودروسه، وخطبه، ومحاضراته، تسمع هذا دائماً ثم تراه، ولا يخرج عادة إلى هذه الشاشة إلا بعد أن تهيأ وصار في غاية الزينة، ولربما الكثير من هؤلاء يصبغون بالسواد -ولحاهم بيضاء- فيبدو الواحد منهم في صورة غير الصورة الحقيقية، ولربما عمد بعضهم إلى شيء من المحسنات الأخرى، فيكون هذا فتنة، فالنساء قد تعجب بنبرته قد تعجب بعلمه، قد تعجب بحركاته قد تعجب بوجهه قد تعجب بعينه بأنفه، فكل واحدة تعجب بشيء، وقد لا يكون جميلاً، ولكنها تعجب، فإدامة هذا النظر للساعات الطويلة المتواصلة لا يخلو من فتنة، دع من أولائك اللائي ينظرن إلى المهرجين والممثلين واللاعبين والمغنيين والساقطين في المجتمع هذه فتنة عظيمة جداً، ولا يجوز للمرأة أن تنظر إلى هؤلاء الذين قد ظهروا بصورة تفتن النساء، حتى إن إحدى هؤلاء النساء قالت في مداخلة في إحدى القنوات: إنها تتمنى أن فلاناً من الممثلين يقضي معها ليلة، وليكن بعد ذلك ما يكون! وانظر إلى تهافت الناس على الأفلام التركية، وإعجاب النساء والرجال على حد سواء، هؤلاء يعجبون بامرأة والنساء تعجب برجل، والتعبير برجل على سبيل المجاز، ويمكن أن يكون المجاز في هذا المقام صحيحاً معتبراً، وإن لم يكن في اللغة مجاز، فالشاهد أن نظر النساء أوسع لكن ليس في أولائك مَن نظر بشهوة وريبة وتفرس وإعجاب، سواء كان هذا الإعجاب بممثل أو كان بداعية فلا فرق، والغيرة تأبى ذلك، غيرة الرجل على أهله.

وقوله: {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} قال سعيد بن جُبير:، عن الفواحش، وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنى، إلا هذه الآية: {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} ألا يراها أحد.

وقال: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} أي: لا يُظهرْنَ شيئا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المِقْنعة التي تُجَلِّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه، وقال بقول ابن مسعود: الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النَّخَعي، وغيرهم.

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب فيما يؤمر به من غض البصر، برقم (٢١٤٩)، والترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في نظرة المفاجأة، برقم (٢٧٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٧٣)، وقال محققوه: حسن لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٣).

كلام أهل العلم في هذا كثير جداً {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} ما المراد بالزينة؟، وما المراد بهذا الاستثناء "إلا ما ظهر منها"؟ ما الذي يظهر من هذه الزينة؟، وكلام أهل العلم بمجموعه يمكن أن يرجع إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن المقصود بالزينة ظاهر الثياب يعني ما لابد من ظهوره إذا لبست العباءة، الثياب زينة والله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [سورة الأعراف:٣١]، والمقصود بالزينة في الآية الثياب، ستر العورات التي نزلت الآية من أجلها، فقد كانوا يطوفون بالبيت عراة، والمرأة تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه *** وما بدا منه فلا أُحِله

فأمر بستر العورات ويدخل فيه اتخاذ الزينة بلبس الثياب فيستر منكبيه، ويلبس عمامة ونحو ذلك {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} يعني المقصود: بالثياب، فهذا قول ابن مسعود -رضي الله عنه.

القول الثاني: أن المراد بالزينة هي أمور زائدة على البدن، وما خلق الله -عز وجل- عليه الإنسان، ويدخل في ذلك الأصباغ كالحناء والكحل والحمرة والمكياج، ويدخل فيه أيضاً الحلي، كالخاتم والقلادة، والسوار، والخلخال وما أشبه هذا، هذا أمر زائد عن الخِلقة، والثياب أمر زائد عن الخلقة، وذكرته أولاً؛ من أجل بيان أن الأقوال ترجع إلى ثلاثة، وكلام أهل العلم في المراد بـــ "إلا ما ظهر منها" بعضهم يقول: ظاهر الثياب كما قال ابن مسعود ومن وافقه، ومنهم من يقول: إنه السوار والخلخال والكحل إلى آخره فيرجعون ذلك إلى هذه الأمور.

والقول الثالث: يرجع إلى الزينة التي خلق الله -عز وجل- الإنسان عليها فقد خلقه في أحسن تقويم، فالحلي يتمم نقص الإنسان الطبيعي فالمرأة تتزين به، ولكنه يكون قبحاً في الرجل إذا لبسه، ولك أن تتخيل شخصاً وهو لابس قلادة، أو خلاخيل، أو لابس أقراطاً فإنه يكون في غاية القبح، ولهذا قيل:

وما الحَلْيُ إلا زينةٌ مِن نقيصةٍ *** تُتمم مِن حُسن إذا الحسنُ قصّرا

أمّا إذا كان الجمالُ موفَّراً *** كحسنك لم يحتج إلى أن يزوَّرا

فالرجل إذا وضع الحناء والحمرة والقلادة والسوار وما أشبه ذلك كان ذلك في غاية القبح، فهنا زينة خِلقية أصل الخلقة، ولهذا فإن بعضهم يقول: {إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} هو الوجه والكفان، ولا شك أن الوجه هو مجمع المحاسن، وأن الكفين معه يظهر بهما حسن الإنسان حتى الخفي منه، ولهذا أباح الشارع للخاطب أن ينظر من المرأة إلى الوجه والكفين، والأرجح أنه ينظر إلى ما يرغبه في نكاحها فينظر إلى شعرها، ونحرها وما يخرج عادة في بيتها من القدمين والساعد ونحو هذا، والمقصود أن الرجل إذا نظر إلى وجه المرأة عرف ألوان المحاسن، وهو مجمع المحاسن، وقد يرى الرجل امرأة ذات قوام حسن لكن إذا نظر إلى وجهها نفر منها بدمامة الوجه، وتعرّف أموراً يطلبها الرجال من المرأة، وبالكفين كذلك بامتلائهما وعدمه، وإذا حصل مع هذا ما يتعاطاه كثير من الناس من مصافحة ونحو هذا فإنه يعرف بالمصافحة والملامسة أموراً لا تعرفها المرأة من نفسها، ولذلك الفقهاء يتحدثون عن هذه الأشياء ويعللون نظر الخاطب إليها، كل ما يطلبه الخاطب بلا استثناء يمكن أن يعرفه من الوجه والكفين، والأقوال ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة، هذا ملخص للكلام الكثير المتفرق في بطون الكتب لابد من إيضاحه لأهمية هذه القضية، وابن كثير -رحمه الله- ذكر القول

الأول وعزاه لابن مسعود وجماعة من أصحابه وغيرهم، والآية تدل على أن للمرأة زينة ظاهرة، وزينة خفية "إلا ما ظهر منها"، فالظاهرة يجوز إبداؤها، والخفية لا يجوز إبداؤها، إلا لمن استثنى الله -تبارك وتعالى-، والخفية ليست على مرتبة واحده، فهناك خفية لا يراها إلا الزوج، وهناك خفية يراها المحارم والنساء، فصارت الزينة ثلاث درجات فبدن الإنسان ما خلق الله -عز وجل- عليه من المحاسن هذا زينة، وما يوضع عليه من تحسين بأصباغ وحلي ونحو ذلك زينة منها ما لا يراه إلا الزوج، ومنها ما يراه المحارم، فالزينة الظاهرة على قول ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وقول ابن كثير، ابن كثير يقول: **أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا مالا يمكن إخفاؤه**، وذكر قول ابن مسعود كالرداء والثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المِقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، وهذا أجود الأقوال وأقواها، بمعنى أن هذه العباءة التي تلبسها مثلاً هي من ثياب، وهي من الزينة التي أنعم الله -عز وجل-: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** [سورة الأعراف:٣١]، **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** [سورة الأعراف:٣٢]، فمثل هذا لا يمكن إخفاؤه حينما تظهر لابسة عباءة، لكن بشرط أن لا تكون هذه العباءة مزينة بنفسها لمّاعة أو شفافة أو مخصرة أو مزركشة أو أنيقة كما يبدو للناظرين، أو ذات أكمام تضعها على كتفها أو نحو ذلك، فالنساء وللأسف صار همُّ الكثيرات منهن أن تبدو أمام الآخرين أنيقة، فصارت تخرج بالعباءة أعظم مما لو خرجت من غير عباءة أناقة في غاية الأناقة، ثم يتلاعب الشيطان بالكثير منهن، فتبدو من هذا السواد قطع من بياض تفتن الرجال، تلاعب بهن الشيطان، تلبس عباءة ذات أكمام بطريقة معينة أدنى حركة يظهر الذراع فكأنه برق يلوح في ظلمة الليل فيسبي القلوب، فصارت المرأة بهذه الطريقة أشد فتنة، ومتبذلة عن التي لا تخرج بعباءة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن المرأة عورة ولم يستثنِ، المرأة عورة، وإذا خرجت استشرفها الشيطان وقال إنها: ((تُقبل بصورة شيطان وتدبر بصورة شيطان))[١٠]، الشيطان يزينها للناظرين، فالمقصود به ما لابد من ظهوره كأسافل الثياب يعني ما يخرج من تحت العباءة مثلاً من غير قصد، ويمكن أن نقول: ما يخرج منها من غير قصد لو كانت هذه المرأة مثلاً في حال الإحرام، وما عليها قفازات وقد غطت يديها بعباءتها، ولكن لحاجة سقط منها شيء أو نحو ذلك فارتبكت أرادت أن تأخذه فظهرت أصابعها فهي غير مؤاخذة، **{إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}** من غير قصد، ولهذا يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار، -لاحظوا الزوج الخاتم والسوار- وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب، وهذا قال به جماعة من أهل العلم منهم ابن عطية، ابن عطية يقول: المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة وتخفي كل شيء من زينتها، يقول: ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم ضرورة كحركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن ونحو ذلك، وهذا صحيح وإن كان من أهل العلم من لا يذكر هذا عادة على قول ابن مسعود: ظاهر الثياب وما يبدو من أسافلها، يقول ابن عطية: فما ظهر على الوجه مما تؤدي له الضرورة من النساء فهو المعفو عنه، وهذا القول -قول ابن

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها، برقم (١٤٠٣).

مسعود- هو الذي مشى عليه ابن عطية، وإن لم تكن عبارة ابن عطية مطابقة لعبارة ابن مسعود، فهو نفس المعنى، وهو اختيار الشيخ الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهو الذي كان عليه العمل في أقطار الدنيا في بلاد المسلمين، هكذا كان النساء لا يظهر منها شيء، والصور القديمة تثبت هذا في المشرق والمغرب في تركيا، وفي مصر، وفي الكويت، وفي بلاد كثيرة رأينا صوراً قديمة للنساء لا يظهر منها شيء عباءة مغطية وجهها لا يظهر منها شيء، والآن بعد أن ظهر مجموعة من الرماديين شيوخ الفضائيات، وظهرت البرمجة العصبية وسعة الأفق، وجاءنا من يتفلسفون، ويقولون: المسألة خلافية، ولا يحجر على الناس في هذا، وكشف المرأة لوجهها وكفيها هذا أمر قال به جماعة من أهل العلم، ويفتي به كثيرون والحمد لله، فإذا أخذت المرأة بهذا فهي غير ملومة، ولا تلزم بتغطية الوجه، يقال هذا في وجه فتنة، وفي وقت حرب على الحجاب، وحرب على المرأة المسلمة، وعلى العفاف ثم يأتي من يقول للناس هذا الكلام، ويقول: لا تكن أحاديَّ النظرة، وتكن ضيق الأفق بإقصاء الوجه الآخر، وما أدري، مِن هذا الكلام الذي نسمع، يقال: ثم هناك فرق في مجتمع تكون المرأة التي تغطي كل شيء إلا الوجه والكفين هذا في غاية الديانة والصلاح والخير في بعض البلاد، ولا عندها ريبة، لكن في مجتمع آخر المرأة تغطي كل شيء، ثم تأتي واحدة وتتمرد على هذا المجتمع وتبدو بكل بجاحة بوجهها وكفيها هذه ما وصلت إلى هذا إلا بعد ضروب من العبث بالحجاب، في البداية عباءة ذات أكمام و عباءة فراشة، وعباءة مُخصرة وكاب، وعباءة كتف، ولعب وزخرفة وبعد ذلك الخمار على الوجه على الفم، كأنه شيء فضلة متضايقة منه كل لحظات يطيح منها وترجعه، وإذا خرجت من الكوفي شوب قامت تمشي حتى تصل إلى السيارة وهي تعدل العباءة شعرها طالع تحاول أن تعدل العباءة على رأسها متملمة متضايقة منه وآخر ما هنا تطلع بوجهها، والذين يلعبون بالناس هم طوائف وأصناف غير الكُتاب -لا خلاق لهم- وغير الرماديين من الشيوخ منهم دعايات البنوك ووكالات السيارات، وما شابه يظهرون المرأة ممسكة لرجل، ومعها طفلان وقاعدون عند سيارة، أو عند بيت، ومظهرة للوجه ولابسة عباءة مخصرة وكذا، هذا يظهرونه للناس كأسراب القطا، ينظرون هذا المشهد وتصير قضية موضة عند النساء، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه انتظِروا إذا ما تخرج بلباس البحر في الدعاية، وما يمنعها؟! نحن نشاهد هذا الآن في البحرين وفي دويلات أخرى قريبة، وفي مصر، وفي بلاد الشام، وفي المشرق والمغرب هذا موجود في مجلة الهلال رأيته بعيني على الغلاف المرأة كما ولدتها أمها، هذا موجود قبل عشرات السنين فالقضية ليست عندهم قضية وجه وكفين، هذا ما جاء إلا يوم جاء الاستعمار، والرجال والنساء في مصر كانوا يتعجبون من الفرنسيات لما جاءت الحملة الفرنسية كيف يضاحكن المُكَارين؟!، يعني الذين يؤجرون البغال والجمال ونحو ذلك، وكيف يظهرن وجوههن، وشعورهن، ونحورهن؟ وعن اللباس في ذلك الوقت ما كان التبذل موجوداً في أوروبا، ولباس الأوربيين في ذلك الوقت أستر إلى حد ما، بل حتى رائدات السفور في العالم الإسلامي اللاتي ذهبن إلى مصر وحضرن مؤتمراً وسافرن بلا محرم لأول مرة، كانت خمس منهن مغطيات وجوههن عباءة وتغطية وجه، وثلاث سافرات فقال المتآمرون: الثلاث السافرات لسن من مصر، واستعارهن المصريون، فلا يمكن للمصرية أن تكشف وجهها، والخمس المغطيات لوجوههن هؤلاء هن المصريات، والآن تحولت القضية، وانقلبت، وبدأت بهؤلاء الثلاث، فالمقصود أن مسألة الشغب

على هذه القضية بأنها مسألة خلافية، والتشدد هنا حيث الجمل والصحراء، والنيل في مصر هناك مرونة في الفتاوى، وكلهم على حق وصواب، الفلسفة مرفوضة، والحق واحد عند الله -عز وجل- لا يتعدد، وهذا ليس من خلاف التنوع، وإنما هو خلاف التضاد، فأما أن يكون هذا عورة أو ليس بعورة فالفقهاء يقررون أنه إن كان زمان فتنة والمرأة فاتنة فيجب عليها أن تغطي، ونحن اليوم النساء في غاية التزين، والزمان زمان فتنة كما لا يخفى، فكيف يرخص بمثل هذا؟ ونحن نعلم أن القضية لن تقف عنده، والقضية ليست الوجه ولا الكفين.

فالزينة الخفية كالخلخال والسوار والأقراط والقلائد وما شابه ذلك وما يراه إلا الزوج، ومن ذلك ما يراه إلا النساء والمحارم، والزينة الظاهرة على قول ابن مسعود: الظاهر من الثياب، وبعضهم يقول: هي الكحل والخاتم والسواران والوجه والكفان هذا مروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء النخعي، والضحاك، وابن الشعثاء، وعكرمة، وابن عمر، وقتادة، وابن مخرمة، ومجاهد، وعامر، وابن زيد، والأوزاعي، وهو اختيار ابن جرير، لكن الشيء المهم في نظري أن نتأمل في النصوص المنقولة عن السلف -رضي الله تعالى عنهم-، يريدون بذلك إلا ما ظهر منها يعني حينما يقول هؤلاء أو طائفة من هؤلاء بأن المقصود الكحل والخاتم والسواران والوجه والكفان......إلى آخره، وبعضهم يقول: الحناء، فهل يجيزون أن تكتحل المرأة وتضع الحناء وتظهر للرجال بهذه الصورة والله -عز وجل- قال: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ} [سورة النور:٦٠]، ثم قال: {غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ}، فنفى عنهن الحرج والجناح، {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} فلا تذهب تتزين وتضع المكياج حتى وإن كانت من القواعد، فالشابة تكون من باب أولى، يعني هل هؤلاء السلف يقولون: إنها تكتحل تتزين وتخرج تضع الأصباغ والحناء، هل يقصدون هذا أمام الرجال الأجانب، أو أنهم يقصدون إلا ما ظهر منها للمحارم، وليس للرجال الأجانب على هذا القول؟، انظر عبارة لابن عباس في أحد الروايات المنقولة يقول: والزينة الظاهرة الوجه وكحل العينين وخضاب الكف والخاتم، يقول: فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها، يعني معناها للرجال الأجانب؟ لا، للمحارم والنساء، ثم قال: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ} قال: والزينة التي تبديها لهؤلاء هي قرطها وقلادتها وسوارها فأما خلخالها -الخلخال هو الذي يوضع في الساق- ومعضدها، ونحرها وشعرها فإنه لا تبديه إلا لزوجها، النحر يعني موضع القلادة والشعر ما تبديه إلا للمحارم، لربما يظن الكثير من الناس أن نقول: ابن عباس متساهل، والواقع أنه ليس كذلك هو يرى أن الشعر لا يراه إلا الزوج، وموضع القلادة لا يراه إلا الزوج، والمعضد والخلخال في أسفل الساق يقول: لا يراه إلا الزوج، وبهذا تعرف أن ما يقوله أهل العلم من أن المرأة لها أن تفصل ثوباً ربع كم يبدو منه نصف العضد بحجة أن المعضد يوضع في العضد، وهذا زينة فإذا كانت تتحلى به وهذا جائز إذاً كيف تخفيه تحت الكم فيقول: هذا يدل على أنه يجوز لها أن تلبس نصف كم، يعني يخرج نصف العضد من أجل أن يخرج هذا المعضد، بعض العلماء يقول: يجوز للمرأة أن تفصل ثوباً نصف كم، ولا دليل على منعه، قالوا: على أساس هذا العضد، وعادة العرب أن يلبسوا ذلك، ويراه الزوج، وهناك أشياء تضعها المرأة تتزين بها للزوج، فالنساء يضعن مثل الحلقة في السرة في البطن هذا موجود فلا يجوز للأجانب أن ينظروا إلى هذه، فهناك زينة للزوج مثل هذا المعضد

وقول ابن عباس: فأما خلخالها ومعضدها ونحرها وشعرها فإنها لا تبديه إلا لزوجها، فصار هذا أشد مما نقوله للناس: نحن نقول: يجوز للمرأة أن تخرج للمرأة موضع القلادة وموضع الساعة والسوار من الساعد، وأسفل الساق، ما يخرج عادة -لا تفصل ثوباً قصيراً- والقدم ونحو ذلك لا بأس أن تخرجه، وما كان لحاجة فهو فوق ذلك بمعنى أنها تتوضأ فخرج ساقها لا بأس عند المحارم وعند النساء، تتوضأ فكشفت عن ذراعها وجزء من عضدها فلا إشكال عند النساء، كذلك لا إشكال في هذا، لكن هناك فرق بين أن تفصل المرأة ثياباً إلى نصف العضد، ونصف الساق أو ما فوق ذلك وبين أن تقول: يجوز للمرأة أن تُخرج ساقها وتُخرج عضدها، وتَخرج، نقول: هناك فرق بين أن تخرج في هذه الحالة تكون في مهنة أو نحو ذلك في بيتها وبين أن تفصل ثياباً بهذه الطريقة، وقد تكلمت عن قضية الثياب في أكثر من مناسبة، ولذلك عائشة -رضي الله تعالى عنها- لما رأت امرأة في ثياب رقيقة ونحو ذلك قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا، ولما دخل عليها نساء قد لبسن ثياباً رقيقة أو نحو ذلك قالت: "إن كنتن مؤمنات فليس هذا من لباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به"، وأسماء لما جاء لها ابنها بثوب وقد كف بصرها فلمسته فأبت أن تقبله -جاء به من خرسان- فقال: إنه لا يشف، فقالت: إن كان لا يشف فهو يصف، بمعنى أنه يلصق على الجسم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المرأة عورة))[11]، ولم يقل: أمام الرجال فقط، وإنما حتى أمام النساء إلا ما دل الدليل على جواز إظهاره، وكما أن الفتنة حاصلة بين الرجال والنساء فاعلموا أن الفتنة واقعة بين النساء، فالنساء اللاتي يتبذلن ويلبسن ألبسة في الأعراس وفي غيرها تبدي المفاتن يُفتن بها النساء، فقد أخبرني عدد من النساء بهذا، بل يقع من التعلق وألوان المواقعات المحرمة، فضلاً عن التقبيل الذي يكون في صور لا يكون فيها إلا بين الرجل وزوجته، والضم ونحو ذلك، كل هذا واقع، الفتنة واقعة والشارع حكيم، ولا يُظن بقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- كما جاء في بعض الروايات أنه يجعل الزينة الظاهرة الكحل والسواك والخضاب في بعض المصادر -بعض الكتب في بعض الروايات- إلى نصف الساق وفي بعضها إلى نصف الذراع، وإنما يجمع كلامه ويفسر بعضه بعضاً يقصد أن هذا يكون للمحارم وللنساء، فالزينة هي اسم يقع على محاسن الخلق التي خلقها الله -تبارك وتعالى- وهذا لا شك فيه، ويقع على سائر ما يتزين به الإنسان مما هو زائد على هذا، وينحصر في الأمور الثلاثة التي ذكرتها الثياب والأصباغ والحلي، هذه الزينة التي يتزين بها النساء أو الناس عادة، والله أعلم.

وقوله: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} يعني: المَقانع يُعمل لها صَنِفات ضاربات على صدور النساء؛ لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكنّ يفعلن ذلك، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها.

---

١١ - رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، برقم (١١٧٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠١١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٩٠).

يعمل لها صنفات مقنعة لما تضعه المرأة مثلاً على ثيابها فيكون ذلك على خمارها على أن تغطي به رأسها أو نحو ذلك، يكون لها صنفات أي زوائد حواشي بحيث إنها تستر النحر والجيب، والجيب هو موضع القطع من الثوب الذي يدخل منه الرأس، فلا تتركُ ذلك مفتوحاً ولا تبدي هذا الموضع الذي قد يبدو منه صدرها، وإنما تستره، وليضربن وعبر بلفظ الضرب لأن فيه مبالغة في التستر وفي الإلقاء، وهذه الباء في وليضربن بخمرهن: للإلصاق على جيبوهن بمعنى أنها هكذا تغطيه تبالغ في إخفائه وتغطيته، والذي أدركنا عليه النساء من الأمهات والجدات، ولا زال من بقي منهن إلى الآن لا تخرج أمام أبناءها ولا محارمها إلا وقد سترت رأسها، أو سترت كل شيء بهذه الطريقة لا يبدو منها إلا الوجه والكفان والقدمان فقط، لا زال النساء عندنا بهذه الطريقة من الأمهات والجدات، وهذا التبذل ما جاء إلا مؤخراً.

ثم إن المرأة كانت في الجاهلية تضع على رأسها شيئاً كالخمار ونحوه وتضعه إلى الخلف فيبدو صدرها ونحرها، وتبدو آذانها وأقراطها، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا نِساء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، وقال: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [سورة الأحزاب:٣٣]، فبعضهم قال: تبرج الجاهلية الأولى: إذا أظهرت الشعر، فكيف إذا أظهرت البطن والظهر وما إلى ذلك؟!، فهذا أشد، وكل ذلك من عمل الجاهلية، وتبرج الجاهلية الأولى خلاف ما يتوهمه كثير من النساء أنها متمدنة إذا كانت متبذلة، وأن التي تحتجب وتستتر هذه قروية وقديمة، وعفا عليها الزمن في العصر الحجري، وللأسف الشديد أن هذا يجد رواجاً ويجد صدى عند الكثيرات، وما علموا أن الجاهلة التي فيها خصلة من خصال الجاهلية هي التي تبدي المفاتن، والله -عز وجل- أخبر عن آدم وحواء في الجنة لما أكلا من الشجرة قال: {بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} [سورة الأعراف:٢٢] فالستر فطرة، وقال: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا} [سورة الأعراف:٢٠]، فنزع الثياب هو من عمل الشيطان، وإغراء الشيطان وتزيينه.

فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ} [سورة الأحزاب:٥٩].

وقال في هذه الآية الكريمة: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} والخُمُر: جمع خِمار، وهو ما يُخَمر به، أي: يغطى به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير: {وَلْيَضْرِبْنَ}: وليشددن {بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} يعني: على النحر والصدر، فلا يُرى منه شيء.

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} شققْنَ مُرُوطهن فاختمرن بها[١٢].

عن صَفيّة بنت شيبة أن عائشة -رضي الله عنها-، كانت تقول: "لما نزلت هذه الآية: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}: أخذن أُزُرهن فَشَقَقنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها"[١٣].

---

١٢ - رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، برقم (٤٤٨٠).

المروط جمع مِرط وهو كساء من الصوف أو القطن، الخز.

وهذا يدل على أن الحجاب الذي يحتجبن به أسود، وهناك من يقول للنساء: ما في ضرورة أن يكون أسود هذه عوائد وتقاليد، ونحن نخلط في مجتمعنا بين التقاليد والدين جعلنا الدين خاضعاً للتقاليد، هكذا يقولون للناس، وعائشة -رضي الله عنها- تقول: "خرجن كأن على رءوسهن الغربان" حجاب أسود وهو أبعد الألوان عن الفتنة، وليست القضية الآن في الأسود أو الرمادي، القضية الآن هذا الحجاب أمر ثابت راسخ في المجتمع يراد زعزعته، لماذا أسود؟ لماذا بني؟ فلو كان بنيًّا، لماذا تضعون أسود؟ ثم الحجاب تضع المرأة العباءة على رأسها وتلبسها، تقول المرأة: هناك حجاب ثانٍ أستر من هذا أضعه من فوق رأسي خمار طويل إلى نصف الجسم، ومن تحته عباءة على الكتف، ويغطي هذا ولا يبين حجمه، نقول: نعم هذا حجاب ساتر يلبس في مصر، وفي بعض البلاد، وهو أستر من العباءة، لكن عندنا ليس معهوداً ولا معروفاً، فلماذا تتسلط النساء؟ ألا تريد أن تغير! المسألة ليست في هذا، القضية أن هذا الحجاب يراد خلخلته وزعزعته؛ ليهون نزعه، وما يجري هنا هو الذي جرى في بلاد الشام وفي غيرها قبل أكثر من مائة سنة حتى نزع الحجاب وانتهى، فيأتي شياطين الإنس والجن {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام:١١٢] يغررون بالناس ويضللونهم شيئاً فشيئاً، البداية مسألة خلافية.

قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ} يعني: أزواجهن.

الزينة الأولى: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} هي الزينة الظاهرة، فهي ما ظهر من الثياب، إظهار العباءة وما ظهر من أسافلها تحت العباءة مما لا تقصد إظهاره وإخراجه فهذا ما ظهر.

الزينة الثانية: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ} هذه الزينة الخفية التي تبديها للزوج، والمحارم، وللنساء، جعل الحديث عنها بعد ذلك، فذكر هؤلاء الذين استثناهم، ذكر اثني عشر صنفاً يجوز إبداء الزينة لهم، الزينة الخفية.

{أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ} كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير اقتصاد وتبرج.

كيف يكون من غير اقتصاد وتبرج؟، يعني لا يكون ذلك من قلة احتشام، تقلل في الحشمة، الله -عز وجل- يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [سورة فاطر:٣٢]، مقتصد أي مقتصر على الواجبات ويترك المحرمات فهو ليس متوسعا في العمل الصالح، هنا من غير اقتصاد وتبرج، تظهر بالزينة لكن من غير اقتصاد وتبرج يعني لا تتقلل من الحشمة.

وقد روى ابن المنذر عن عكرمة في هذه الآية: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ} -حتى فرغ منها قال: لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما يَنعَتان لأبنائهما.

هنا لم يذكر العم والخال، لكن لا يعني ذلك أنه لا يجوز إظهار الزينة الخفية لهم وأنهم يستثنون من المحارم خلافاً لما قاله عكرمة -وهو خلاف قول الجمهور- هو من المحارم لكن لأنه ينعتها، وممن ذكرهم الله -عز

١٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، برقم (٤٤٨١).

وجل- أبناء البعولة مثلاً، وكذلك الرجال الذين يذكرهم الله -عز وجل- في هذه الآية أو في الآيات الأخرى أبناء الإخوان وأبناء الأخوات لا ينعتها، هذا وارد، فالشاهد أن ما ذكره عكرمة -رحمه الله- غير صحيح، ولم ينفرد بهذا القول بل وافقه عليه بعض السلف كالشعبي، ولكنه قول مرجوح لأمرين:

الأمر الأول: أن الله ذكر بني الإخوان وبني الأخوات، فالمرتبة الآن مرتبة بني الإخوان وبني الأخوات، هو في مرتبة البعد، والقرب بمرتبة العم والخال، بينها وبين العم الأب، وبينها وبين الخال الأم، وبينها وبين ابن الأخ الأخ، وبينها وبين ابن الأخت الأخت فذِكرُ بني الإخوان وبني الأخوات يغني عن ذكر العم والخال من هذه الحيثية، وإذا كان الخال والعم يَنعت فابن الأخ وابن الأخت يَنعتان.

الأمر الثاني: أن الله ذكر العم والخال في موضع آخر ذكر بيوت الأعمام وبيوت الأخوال، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والمتكلم به واحد الله -سبحانه وتعالى-، فما لم يُذكر في هذا الموضع، يذكر في الموضع الآخر، والله -تبارك وتعالى- حينما ذكر في سورة الأحزاب {لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ...} [سورة الأحزاب:٥٥] لم يذكر أبناء البعولة، فهل يعني أن أمهات المؤمنين لا يجوز أن ينظر إليهن أبناءُ الزوج الحسن والحسين ((إن ابني هذا سيد))[١٤]، لكونه لم يذكر هناك؟، هو ذكر هنا أبناء البعولة، والبعل هو الزوج، فهذا القول فيه نظر.

قال: ولا تضع خمارها عند العم، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره،

قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ} المقصود به الزينة الخفية هنا التي تبديها للمحارم كالخلخال، والقرط، الدملج، وما أمرت بتغطيته بخمارها من فوق الجيب، هذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من أهل العلم، وسبق كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- أن المقصود هو القرط والقلادة والسوار، وأما الخلخال والمعضد والنحر والشعر فإنه لا تبديه إلا لزوجها، وهذا ليس محل اتفاق، وابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: هما الطوق والقرط، وبعضهم كإبراهيم النخعي يقول: ما فوق الذراع، وقتادة يقول: هو الرأس، وهذا كله من باب ذكر المثال، لكن الذي يقول: إنه القرط، أو السوار أو الخاتم، أو الخلخال فهل المقصود أنه يُنظر إلى هذه القطعة من الحلي فقط أو أنه لازم ذلك أن يُنظر إلى المحل؟، هو هذا؛ فمن ذكر هذه الأمور أي الزينة يعني من فسر الزينة بالخلخال والسوار والقلادة إلى آخره فمقصوده أنه ينظر إلى ذلك وينظر بطريق اللزوم، يجوز له أن ينظر إلى الموضع، موضع القلادة موضع السوار، موضع الساعة موضع القرط ينظر إلى أذنها، إلى نحرها وهكذا، هذا مقصوده، وفي قوله: {أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ} يدخل فيه الآباء وإن علَوْا من الجهتين من جهة الأم ومن جهة الأب، يعني الأجداد من جهة الأم، والأجداد من جهة الأب يجوز لهم أن ينظروا إليها وهكذا آباء الزوج من الجهتين من جهة الأم يعني جده لأمه، وجده لأبيه كل هؤلاء يجوز لهم أن ينظروا إلى امرأته، وليس الأب القريب فقط، وهكذا أبناء البعولة، أبناء الأزواج فيدخل فيه أولادهم من الذكور والإناث وأولاد البنات، وأولاد الأبناء هم داخلون في هذا {أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ} من

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- للحسن بن علي -رضي الله عنهما-، برقم (٢٥٥٧).

الجهتين، وكذلك في قوله: {أَوْ أَبْنَائِهِنَّ} فيدخل فيه الأحفاد وإن نزلوا أبناء البنات، وأبناء الأبناء، وأبناء الإخوة، والأخوات سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، أبناء الإخوة والأخوات وإن نزلوا، يعني قد تكون هذه عمة، وقد تكون قرابة هذا بها أن جدته أختها -أي المرأة التي ينظر إليها-، وقول الجمهور: أن العم والخال من المحارم.

ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: {أَوْ نِسَائِهِنَّ} يعني: تُظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك وإن كان محذورًا في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشدّ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تباشر المرأةُ المرأةَ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها))[١٥] أخرجاه في الصحيحين، عن ابن مسعود.

هنا أضاف النساء إليهن قال: {أَوْ نِسَائِهِنَّ} ولم يقل: أو النساء ففهم منه بعض أهل العلم كابن كثير أن ذلك يدل على نوع الاختصاص، قالوا: إن المراد بـــ{أَوْ نِسَائِهِنَّ} أنها لا تبدي للكافرات، وإنما المقصود المسلمات أخذاً من هذه الإضافة، وابن كثير مسبوق بهذا القول قال به مجاهد ومكحول وابن جريج وهو اختيار القرطبي، والشوكاني يرجح هذا، ولهذا العلماء يختلفون في عورة المسلمة، أما الكافرة فالمالكية يرون أنها كالرجل الأجنبي لا فرق تحتجب احتجاب كاملاً منها، والذين يقولون: يجوز للمرأة أن تظهر للرجل الأجنبي الوجه والكفين، يقولون: تظهر ذلك للمرأة الكافرة، وعند الشافعي وأبي حنيفة بالنسبة للمرأة الكافرة قولان، وابن عباس -رضي الله عنهما- نقل عنه أن المراد بـــ { أَوْ نِسَائِهِنَّ} أي: المسلمات، فلا تبدي ذلك ليهودية ولا نصرانية، وذلك النحر والقرط والوشاح وما يحرم أن يراه إلا المحارم، هذه الزينة الخفية، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المرأة يجوز لها أن تبدو أمام غير المسلمة كما تبدو أمام محارمها، ولم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يأمر نساءه وبناته أن يحتجبن من الكافرات، وفي كثير من الأحاديث تسمع أو تقرأ أن يهودية دخلت على عائشة، يهودية قالت كذا، واليهود كانوا في المدينة ويأتون ويزورون، ويختلطون بالمسلمين، ولم يأتِ بدليل واحد صحيح الأمر بالاحتجاب منهن كما يحتجب من الرجال الأجانب، وإنما جاء الإشكال من الإضافة هنا {أَوْ نِسَائِهِنَّ}.

وقوله: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} قال ابن جُرَيج: يعني: من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيَّب.

إذا فسر قوله: {أَوْ نِسَائِهِنَّ} بالنساء المسلمات فإن بعض القائلين بذلك قال: أو ما ملكت إيمانهن من النساء الكافرات، يعني من الكافرات اللاتي يجوز لهن أن يرين الزينة الخفية للمرأة المسلمة، المشركات بإطلاق أو ما كان بملك اليمين؟ طائفة من الذين قالوا: أو نسائهن المسلمات قالوا: أو ما ملكت أيمانهن من النساء المشركات، والرقيق الرجل إذا ملكته بملكة، قالوا: لا يجوز أن ينظر إليها فهو كالأجنبي إلا إن كان من غير

---

١٥ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، برقم (٤٩٤٢)، ولم أجده عند مسلم.

أولي الإربة هذا أمر آخر لا يختص بها، والأقرب -والله أعلم- أن قوله: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} أن ذلك يشمل المرأة والرجل سواء كان مسلما أو كافراً، فما كان ملك اليمين لا يجوز لها أن تظهر أمامه ما يظهر أمام المحارم إلا إذا أُمنت الفتنة، ويجب على المرأة أن تحتجب من الرجل الأجنبي فإذا عقد ولده عليها ظهرت أمامه، أمام الأب، هو كان سيفتن بها، لكن الآن لما صارت هذه الوشيجة -زوجة الابن- فالأصل في الفِطر والنفوس السوية أن النفوس تنقبض من النظر إليها بريبة، تكون بمنزلة ابنته، وهكذا إذا دخل بأمها، بمجرد العقد على البنت تحرم عليه الأم يجوز له أن يراها، ويجلس معها، وإذا دخل بالأم فإنه تحرم عليه البنت فيراها، وقد تكون أجمل من أمها أضعاف المرات فهذا إذاً أمر يوجد في النفوس، فالفطر السليمة تأبى النظر بريبة إلى مثل هؤلاء فهكذا إذا اشترت المرأة هذا الرجل فإنه ينظر إليها بمنزلة أمه، ولهذا لا زال الناس يقولون لها: عمة، يسميها عمة، والقول المقصود به الإماء المشركات قال به جماعة كثيرة غير ابن جرير -رحمه الله-، كالحسن وابن جرير والمسيب والشافعي والشعبي ومجاهد وعطاء، وابن سيرين، وأبي حنيفة وهو مروي عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، والقول الآخر المقصود به المماليك من الرجال، هو قول عائشة وأم سلمة وابن عباس وهو قول أكثر أهل العلم، ومذهب الإمام مالك -رحمه الله- وهذا هو الأرجح -والله تعالى أعلم- {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}.

وقوله: {أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ} يعني: كالأُجراء والأتباع الذين ليسوا بأكْفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وَلَهٌ وخَوَث، ولا همَّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن.

قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له.

وقال عكرمة: هو المخَنَّث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف.

وفي الصحيح من حديث الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة؛ أن مخنثًا كان يدخل على أهل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا يعدّونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربعٍ، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلَنّ عليكُنَ)) فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم[١٦].

قوله: {أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ} غير أولي الإربة يقول هنا: **يعني كالأُجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوث، ولا هم لهم،** خوث يعني ارتخاء أي فيهم ضعف، يعني ما يعبرون عنه بالمخبل والمغفل الذي لا يتفطن لمفاتن النساء، ليس من أولي الإربة، والإربة هي الحاجة، بمعنى أنه لا يشتهي النساء، ولا يميل إليهن ليس فيه شهوة، فمثل هذا يجوز أن يدخل بشرط ألا يتفطن لمفاتن النساء؛ لحديث الرجل الذي كان يقول: "إذا فتح الله عليكم الطائف فعليك بأم غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان"[١٧]، العرب في ذلك الوقت وإلى عهد قريب ضخامة البدن، وامتلاء البدن هو من أفضل الجمال بالنسبة

---

١٦ - رواه مسلم، كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، برقم (٢١٨١).

١٧ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (٤٠٦٩)، وبرقم (٤٩٣٧)، في كتاب النكاح، باب ما ينهى من دخول المتشبهين بالنساء على المرأة، ومسلم، كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، برقم (٢١٨٠).

إليهم:

وأمّا الألى يسكنّ غورَ تِهامةٍ *** فكل فتاة تترك الحجلَ أفصماَ

يعني من عظم الساق تكسر الحجال هذا عندهم جمال عظيم جداً، فهذا يقول: إذا فتح الله عليكم الطائف فعليك بأم غيلان تُقبل بأربع وتدبر بثمان، وفُسر هذا بعُكَن البطن، فإذا جاءت مقبلة فأربع من الشحم، من الامتلاء، فإذا كانت مدبرة تبين الأطراف من هنا أربع ومن هنا أربع، فأربع من الأمام تبين من الأطراف من هنا أربع ومن هنا أربع فإذا كانت مدبرة صارت ثمانيَ، فمعنى هذا أن هذا الرجل يتفطن لمفاتن النساء، فنهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن دخوله عليهن، فيشترط فيه:

الأمر الأول: ألا يكون له شهوة.

والأمر الثاني: ألا يكون له معرفة بمفاتن النساء، بعضهم قد لا يكون له شهوة لكنه يعرف، فالشيخ الكبير في السن الذي قد ذهبت شهوته وفنيت هذا لا يجوز له أن يدخل على النساء؛ لأن هذا أحياناً أعظم من الشاب في نظراته وأخطر، وهو عارف ونفسه تتلهف على ما مضى من قوته وفني من شهواته، يفهم هذا -في غاية الفهم- ما لا يعرفه الشباب وهذا مشاهد ويتمنى، ولهذا تعرفون وتسمعون وتقرءون، ويوجد في بعض بلاد أوروبا فنادق فقط لكبار السن، يستأجرون -أعزكم الله- شاباً وشابة للفجور ويتفرجون عليهم، فهم لا يستطيعون مواقعة هذه الأمور لكن لا زالت نفوسهم شابة فهو يتلذذ بالنظر ويتذكر ما ذهب من قوته فيستأجر، فنادق خاصة لهذا يستأجر هؤلاء ليتفرج فمثل هذا لا يجوز له، ولذلك يقال: ليست القضية في انعدام الشهوة، فلو ذهبت شهوته لأي سبب أكل دواء فأذهبها أو عملية جراحية أو غير ذلك، أو أصابته حالة نفسية فأصابه ضعف وصار ما يستطيع أن يواقع لكنه يتفطن لمفاتن النساء فهذا لا يجوز له أن ينظر إليهن ولا يدخل عليهن فلا بد من الأمرين.

وقوله: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكّن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إياكم والدخول على النساء))، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْو؟ قال: ((الحَمْو الموت))[١٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا} الطفل يعني الأطفال؛ لأن الطفل جنس، ويدل على ذلك أنّ في مصحف أُبي -رضي الله تعالى عنه-: {أو الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء}، والظهور يأتي بمعنيين:

---

١٨ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، برقم (٤٩٣٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، برقم (٢١٧٢).

المعنى الأول: هو العلم بالشيء {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} [سورة الكهف:٢٠] يعني إن يطلعوا على حالكم، يعلموا بكم، يكتشفوا أمركم، لهذا قال بعض أهل العلم كابن قتيبة: إن المقصود بـــ لم يظهروا على عورات النساء: أي لم يتصوروا ذلك، لا علم لهم بهذا، لا بصر لهم بعورات النساء.

والمعنى الثاني: هو بمعنى الغلبة والصولة فهو يتعلق بالقدرة البدنية، ولهذا عبر بعضهم عن ذلك بأنهم لم يظهروا على عورات النساء بالكشف عنها لجماعهن، يعني لم يطيقوا الجماع؛ لصغرهم، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد بذلك ما قاله ابن كثير -رحمه الله-: {لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} يعني أنه **لا يتفطن لمفاتن المرأة**، ولا يدرك ذلك، فإذا كان الصغير الطفل بهذه المثابة فيجوز أن تُظهر له المرأة ما تظهره لمحارمها، وأما إذا كان يتفطن، فيه نباهة، أو لربما سوء، ويميز ويعرف الجميلة من غيرها، وهذه جميلة وهذه كذا فلا يجوز ولو كان صغيراً، ولو كان سبع سنين، فالله -تبارك وتعالى- علق ذلك بهذا الظهور، {الطِّفْلِ الَّذِينَ} ما قال: الطفل الذين لم يبلغوا كما يظن الكثير من الناس أن البلوغ هو الحد الذي يمكن أو يجب على المرأة أن تحتجب عنده من هذا الطفل، لا، واليوم مع كثرة الفتن والشر أصبح الكثير من الطلاب في المرحلة الابتدائية لربما يشاهدون أشياء عن طريق زملائهم أو نحو هذا تجعلهم يتفطنون لأمور كثيرة، قد لا يعرفها الآباء، إذا كان الولد كذلك فلا يجوز للمرأة أن تبدو أمامه، وتظهر له ما تظهر لمحارمها، وهذا يحتاج إلى المزيد من النظر والتأمل مع آية الاستئذان {لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ} [سورة النور:٥٨] فقيده بالبلوغ، هذا في الاستئذان، وهنا في إبداء الزينة.

وقوله: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت -لا يسمع صوته- ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} ومن ذلك أيضا أنها تُنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليَشْتَمَّ الرجال طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي: عن أبي موسى -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس فهي كذا وكذا))[19] يعني زانية. قال: وفي الباب، عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح.

رواه أبو داود والنسائي[20].

---

١٩ - رواه الترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة، برقم (٢٧٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٥١٣)، وقال محققوه: إسناده جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٥٤٠).

٢٠ - رواه أبو داود، كتاب الترجل، باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج، برقم (٤١٧٣)، والنسائي بلفظ: ((أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية))، كتاب الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب، برقم (٥١٢٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٠١).

ومن ذلك أيضا أنهن يُنهَين عن المشي في وسط الطريق؛ لما فيه من التبرج، روى أبو داود عن أبي أسيد الأنصاري -رضي الله عنه-: أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للنساء: ((استأخرن، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْن الطريق، عليكن بحافات الطريق))، فكانت المرأة تَلصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار، من لصوقها به(٢١).

وهذا إلى عهد قريب، فكانت المرأة ولو صغيرة -بنت تلبس عباءة- إذا رأت رجلاً من بعيد لصقت بالجدار، وكانت عباءة الواحدة متشققة من جنبها؛ لكثرة لصوقها بالجدار، والجدران في السابق من الطين، وفيها -أعزكم الله- من التبن كانت تلصق ويعلق بثيابها، بعباءتها من الحياء، والآن تمشي رافعة رأسها وسط الطريق أمام الرجال بحالة مزرية، وتضحك وتقهقه، وفي المستوصف ولا حياء، وقد فسر بعض السلف -رضي الله عنهم- قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}** [سورة الأحزاب:٣٣] بالمشي وسط الطريق، قال: هذا التبرج وهو نوع منه، والتبرج أوسع من هذا، وأصل التبرج يقال: من الظهور والانكشاف، قال: البرج من الشيء المرتفع الذي يبدو للناظرين، فالمرأة المتبرجة التي تمشي وسط الطريق، والتي تظهر مفاتنها وزينتها وما إلى ذلك كل هذا يقال له تبرج.

وقوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي: افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفَلاح كل الفَلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه، والله تعالى هو المستعان.

هنا قال: **{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ}** يعني لما نهى عن إظهار الزينة من أصباغ وحلي ومفاتن البدن وغير ذلك قد تتحيل المرأة بإظهار زينة خفية لا تراها العيون، ولكن تطرب لها النفوس، ولربما تلتذ أعظم مما تلتذ بالنظر، كأن تضرب المرأة بأرجلها ليسمع صوت الخلخال، وتتحرك وتهتز القلوب لذلك، فإن هذا جميعاً مما يحرك النفوس، ويغري بالفاحشة، وقد يكون ذلك بالشم، وقد يكون بالسماع، وقد يكون بالنظر، فسد الشارع هذه الأبواب جميعاً أبواب الفتنة، فإذا خرجت المرأة خرجت بأطمارها، وإلى عهد قريب في بعض البيئات يعاب الرجل ويلمز إذا اشترى لابنته أو لمن تحت ولايته عباءة قبل الزواج؛ لأنها لا تخرج أصلاً ولا تراها الشمس، وإذا أرادت أن تزور أقاربها تلبس عباءة الأم أو قريبة لها كأختها الكبيرة المتزوجة أو نحو هذا وتخرج قبل طلوع الشمس، يذهب بها أبوها يمشي معها حتى يدخلها على قريباتها ثم يرجع بها بعد المغرب، وهذا كان موجوداً في نجد بهذه الطريقة، وربما لو خرجت المرأة عند الباب ضاعت، ما تعرف ترجع للبيت، ما هي خرِّيتة في المطاعم والأسواق تذهب وتجيء كل يوم تخرج في غاية السآمة من البقاء في البيت، وتطلع بأي طريقة تروح تشتغل بألف ومائتي ريال في آخر الدنيا المهم أنها تطلع، في أي عمل مختلط أو غير مختلط، المهم أنها تخرج، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ**

---

٢١ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق، برقم (٥٢٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٥٩٢٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٢٩).

تُفْلِحُونَ} توبوا إليه: أمر بالتوبة وهذه سورة مدنية، فهو يأمرهم بالتوبة فالإنسان قد يقع منه شيء من الإخلال أو التقصير بما أمره الله -تبارك وتعالى- به فيحتاج إلى أن يتوب، لا يستمر على تقصيره وإخلاله بما أمره الله -تبارك وتعالى- به، و"لعل" تأتي بمعنى الترجي، ولكن ذلك لا يكون من الله -عز وجل-؛ لأن الترجي إنما يكون ممن لا يعلم العواقب، فإذا فسرت بالترجي فإن ذلك يكون باعتبار نظر المخاطب، ومن أهل العلم من يفسر "لعل" في القرآن يقول: هي للتعليل في جميع المواضع إلا في آية واحدة وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩] أي كأنكم تخلدون، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} يدخل في الفلاح معنيان: الأول: هو البقاء الأبدي، والمعنى الثاني هو إدراك المطلوب والنجاة من المرهوب، فمن أفلح فإنه يدرك مطلوبه وينجو من مرهوبه، ويكون له البقاء الأبدي السرمدي في النعيم المقيم، توبوا إلى الله من أجل أن تفلحوا، تحصّلوا الفلاح.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [سورة النور:٣٢-٣٤].

اشتملت هذه الآيات الكريمات المُبينة على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ... الخ}: هذا أمر بالتزويج.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[1] أخرجاه من حديث ابن مسعود.

وجاء في السنن -من غير وجه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تَزَوَّجوا، توالدوا، تناسلوا، فإني مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة))[2]، وفي رواية: ((حتى بالسقط))[3].

الأيامى: جمع أيِّم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيّم وامرأة أيّم أيضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ} أنكحوا بمعنى زوِّجوا، وهذا الخطاب على الأرجح موجه إلى الأولياء، {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ} والزواج إن كان الإنسان يخشى على نفسه العنت وكان قادرا فهو

---

١ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، برقم (٤٧٧٩)، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم (١٤٠٠).

٢ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب من تزوج الولود، برقم (٢٠٥٠)، ولفظه: ((تزوجوا الودود الولود فإني مباهٍ أو مكاثر بكم الأمم يوم القيامة))، والنسائي، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، برقم (٣٢٢٧)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: إسناده حسن صحيح، وصححه الحاكم والذهبي، وصححه الحافظ ابن حبان من حديث أنس، وحسنه الهيثمي، برقم (١٧٨٩).

٣ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠٠٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٩١).

واجب عليه، وإن كان لا يخشى على نفسه العنت فأهل العلم يختلفون في حكمه، فالشافعي -رحمه الله- يرى أنه مباح، يعني مستوي الطرفين، وجمع من أهل العلم كأبي حنيفة ومالك يرون أنه مستحب أو أنه سنة، باعتبار أنه من سنن الأنبياء أو أحدهم -عليهم الصلاة والسلام-، ويحصل فيه العفاف، وهو وإن لم يكن يخشى على نفسه العنت فإن العفاف يتحقق بذلك بصورة أكبر، كما أنه يعف امرأة، إضافة إلى ما يحصل من جرائه من النسل والولد، وقد حث النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، بقوله: ((تزوجوا الودود الولود))، وعلل هذا بكونه -صلى الله عليه وسلم- يباهي و يكاثر الأمم يوم القيامة، فهذا لا يتعلق بخشية الإنسان على نفسه العنت، وهذا الأمر متوجه إلى هذا المعنى، فالشارع طلب النكاح، وهذا الطلب تارة يكون للوجوب، وتارة يكون للندب، وهذا القدر يدل على المشروعية، إذ المشروعية تتحقق بطلب الشارع إما وجوباً، وإما ندباً، يقال: هذا العمل مشروع، بمعنى أن الشارع طلبه من المكلفين، ولا شك أن الشارع طلب هذا المعنى للنكاح، لكنه قد يكون في بعض الحالات مباحاً كما لو كان الإنسان لا أرب له في النساء، وقد علم أنه عقيم لا حاجة إليه في النساء أصلاً، أو أنه يخشى على نفسه العنت أو نحو ذلك، لكنه لا أرب له بالنساء أصلاً، لا حاجة له بالنساء وهو عقيم لا يولد له، فمثل هذا لا يقال له: إنه مستحب، فلا يحصل من فعله هذا إعفاف أو عفاف، ولا يحصل منه ولد، فربما هو يتزوج للخدمة أو نحو ذلك، ومثل هذا لا يقال: إنه المشروع بحقه، وإنه مستحب، وإنما يقال هنا: إن العلة هنا منتفية سواء كانت مكاثرة الأمم، أو كانت العفاف والإعفاف فقد يكون بهذه الصورة مباحاً إذا علمت المرأة بحاله وقبلت، فالمرأة بحاجة إلى رجل تعيش في كنفه مثلاً، أو بحاجة إلى من ينفق عليها، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، و"الأيامى" جمع أيّم وهو من لا زوج له سواء سبق له التزوج، فالرجل المطلّق أو الذي ماتت امرأته، أو المرأة التي مات زوجها أو طلقها يقال لها: أيم، يقال ذلك للرجل وللمرأة، ولم يقيد هنا بالصلاح كما سيأتي في الأرقّاء: "والصالحين من عبادكم وإمائكم"، ربما لكون ذلك هو الغالب على الأحرار؛ لأن هنا المراد الأحرار، "وأنكحوا الأيامى منكم" أي من الأحرار، يقال: إن الغالب من الأحرار الصلاح بخلاف المماليك فقُيد في حقهم بالصلاح {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}، وعلى كل من قدر عليه هذا القدر؛ لأنه ليس بخارج عن المعنى الذي يتكلم عليه المفسر، وذلك أن الأمر هنا {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ} أمر بالتزويج، فهل الزواج واجب أو مستحب أو مباح؟، هذا في أول تفسير الآية، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} بعض أهل العلم أخذ منها أن العبد يزوج نفسه -مع أنه ملك لسيده ولا يتصرف إلا بإذنه- فهذا المعنى قد يكون صحيحاً؛ لأن الأمر هنا في حق الأحرار والمماليك {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} وإذا قيل: إنها تدل على أن العبد لا يزوج نفسه، فيمكن أن يقال: إنها تدل على أن الأحرار أيضاً لا يزوجون أنفسهم، ولا قائل بهذا، أما بالنسبة للمرأة فهذا لا شك فيه، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل))، فالمرأة لا تزوج نفسها، لكن الأيامى لا يختص بالنساء كما سبق، فما يتصل بالمماليك يؤخذ من معنى آخر، لا من هذه الآية، والله تعالى أعلم.

وفيما يتعلق بالحديث هنا: ((تزوجوا توالدوا تناسلوا، فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة))، علق عليه فقال: لم نعثر على هذا اللفظ، وإنما رواه أبو داود والنسائي بلفظ قريب من هذا، اللفظ المعروف ((تزوجوا الودود الولود فإني مباهٍ أو مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)) أو كما قال -عليه الصلاة والسلام.

في قوله: {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} عبر بلفظ العباد والإماء مع أنه جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- النهي عن قول ذلك: ((ولا يقل أحدكم عبدي أمَتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي))[٤]، هذا يدل على أن ذلك للآداب، هو من باب الأدب في الألفاظ، ولكنه ليس بمحرم أن يقول الإنسان: عبدي وأمتي، فالعلماء يستدلون على الجواز يقولون: إن الصارف الذي صرف النهي في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يقل أحدكم عبدي وأمتي)) المواضع الأخرى التي ورد فيها هذا الاستعمال مثل هذه الآية.

وقوله تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}.

وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} رواه ابن جرير، وذكر البغوي عن عمر نحوه.

وعن الليث، عن محمد بن عَجْلان، عن سعيد المقْبُري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة حَقٌّ على الله عَوْنُهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتَب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله))[٥]، رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وقد زوَّج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن.

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه وإياها ما فيه كفاية له ولها.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} هذا أحد المواضع التي ذكر طائفة من أهل العلم أنها من أسباب الغنى، التزوج، أن يتزوج الفقير، وتجدون في تفاريق كلام المفسرين في مواضع في كلامهم على أشياء من كتاب الله -تبارك وتعالى-، كما تجد ذلك عند قوله -تبارك وتعالى- {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [سورة طـه:١٣٢] فيذكر بعضهم هنا أن الصلاة والمحافظة عليها من أسباب الرزق، وكذلك أيضاً الولد فإن الله -تبارك وتعالى-

---

٤ - رواه البخاري، كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، برقم (٢٤١٤)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، برقم (٢٢٤٩).

٥ - رواه النسائي، كتاب النكاح، باب معونة الله الناكح الذي يريد العفاف، برقم (٣٢١٨)، والترمذي، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم، برقم (١٦٥٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وابن ماجه، كتاب العتق، باب المكاتب، برقم (٢٥١٨)، وأحمد في المسند، برقم (٧٤١٦)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن عجلان، فقد روى له البخاري تعليقا، ومسلم في الشواهد وأصحاب السنن، وهو صدوق"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٣٦١).

قال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [سورة الإسراء:٣١] يعني الفقر، {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} وقال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [سورة الأنعام:١٥١]، يعني من فقر واقع {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} وهذه المواضع لا تدل دلالة قاطعة صريحة على أن هذه الأمور من أسباب الغنى حتماً، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} هو إخبار أن الرازق الله -تبارك وتعالى-، فإذا كثر الأولاد فإن ذلك لا يعني أن الإنسان يتحمل رزقهم فهو لا يرزق نفسه حتى يرزق غيره، وإنما الذي يرزق هو الله -تبارك وتعالى- فإذاً لا داعي للتخوف من الفقر بسبب الأولاد؛ لأن الله -تبارك وتعالى- هو الذي يتولى رزق عباده، هذا المعنى، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} ليس ذلك في ظاهره مرتبطاً بإقامة الصلاة، بمعنى أقم الصلاة ونرزقك، وإنما قال: {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ} وهكذا في هذا الموضع "إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله"، هذا أوضحها {يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} ولم يقيد ذلك بالمشيئة، فلم يقل: إن شاء، إنما قال: {يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} العلماء يتكلمون في هذا الموضع باعتبار أنه يوجد من يتزوج ويكون فقيراً، ويبقى على فقره، فمنهم من يقول: هذا باعتبار الغالب، ومنهم من يقول: هذا يعرف بالأدلة الأخرى التي تقيد الرزق بالمشيئة والإنسان قد يحرم الرزق بأسباب، من أعظمها الذنوب، فيحرم العبد الرزق بالذنب يصيبه، ورُوِي عن جمع من السلف كما جاء عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: "التمسوا الغنى في النكاح"، فَهِموا أن التزوج من أسباب الغنى {إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}، والمقصود أن فقر الإنسان لا يكون سبباً في رده للنكاح وعدم تزوجه، فإن الله -تبارك وتعالى- هو الذي تكفل بأرزاق العباد، والفقر ليس بعيب يلحق الإنسان فيرد به، إنما العيب يكون في الأمور الاختيارية كمن كان فقره بسبب قعوده عن العمل وكسله ونحو ذلك، هذا مذموم، وهكذا من كان تاركاً لمعالي الأمور ونحو ذلك، يترك العمل الصالح ونحو هذا، فترك هذا مما يعيب الإنسان، أما الأمور التي لا يد له فيها، قدر الله عليه الفقر هو يعمل ويذهب ويبحث عن أسباب الرزق، ومع ذلك لا يحصل له كبير شيء فمثل هذا لا يعيبه، ولا تنحط مرتبته لا عند الله ولا عند الخلق، فهو ابتلاء ابتلاه الله -تبارك وتعالى- به، ولكن العيب بغير هذا، العيب في معصية الله -عز وجل-، والقعود عن معالي الأمور، وما شابه ذلك.

وقوله تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}، هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغَضُّ للبصر، وأحْصَنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء)).

في قوله: {يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} من أهل العلم من فسر الغنى هنا {يُغْنِيَهُمْ} أي يحصل لهم الكفاية، ليس بمعنى الغنى الذي قد يتبادر إلى الأذهان أنه يصير غنياً، وبعضهم قال: باعتبار الغالب، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف....إلى آخره)) لا يفهم منه أنه يصير غنياً، وإنما يعان، وهذا مشاهد فإن من أراد العفاف بالنكاح فإن أمره يتيسر، ويحصل له مطلوبه من النكاح، وقد يكون ذلك لا يخطر له على بال قبل أن يشرع فيه كما نشاهد.

وقوله: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} هذا أمر من الله -تبارك وتعالى-، ليستعفف والسين والتاء للطلب، يعني ليطلب العفاف، يستعفف بمعنى أنه يُعرض عن الحرام، ويكون عفيفاً لا يدخل مداخل الريب، ولا يقارف ما يدنس الشرف والعرض من ألوان المقارفات المحرمة، {وَلْيَسْتَعْفِفِ} ليطلب العفاف، {الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} أي لا يستطيعون ذلك؛ لتعذر أسبابه، لا يستطيع دفع المهور، أو النفقات أو نحو ذلك، {لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} وهنا ما أمرهم أن يسألوا الناس وأن يستجدوهم، وإنما أمرهم بالعفاف {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}، فإذا سأل سائل وقال: أنا لا أجد قدرة على التزوج هل أسأل الناس؟ هل آخذ من صدقاتهم وزكواتهم ونحو ذلك أو أصبر؟ فالله -تبارك وتعالى- أرشد إلى هذا المعنى، يطلب العفاف بمعنى أنه يفعل ما يحصل به العفاف من الصبر وغض البصر والإعراض عما حرم الله -تبارك وتعالى-، والصيام الذي أرشد إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وما شابه ذلك {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} بمعنى لا يقدرون عليه، لا يجدون المهور والنفقات التي يتطلبها النكاح {حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}.

وحديث: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم)) من يقول: إنه يجب، يحتج بمثل هذا؛ لأن هذا أمر فجعل الناس على فئتين، لكن من يقول: إن هذا الأمر للإرشاد، يعني من لم يستطع النكاح لا يجب عليه أن يصوم، ولا يجب على غير المتزوجين أن يصوموا، ويمكن للإنسان أن يستعفف بغير الصيام، والناس يتفاوتون في هذه الأمور، وطلب النفوس لها، فمن الناس من يضعف ذلك في نفسه، ومنهم من يقوى، وحتى الصوم بل أكثر ما يقع عليه رجال الهيئة -أهل الحسبة- من المقارفات المحرمة أكثر ذلك في رمضان، وهذا مشاهد، وأكثر ذلك في وقت الصيام بعد صلاة الفجر في رمضان، وكثير من السائلين المتزوجين كثير في رمضان يستفتون عما حصل لهم من وقاع الزوجات في نهار رمضان، والسبب في هذا أنهم يسهرون طول الليل كل يوم فهو لا يرى زوجته أو لا يحصل له قرب، أو دنو منها إلا في نومهم وقت الصيام في النهار، ينام بعد الفجر فيبقى على هذه الحال سائر الشهر، فإذا قل الخوف من الله -عز وجل- فإنه يقع فيما حرمه الله -تبارك وتعالى- عليه، فالشاهد أن الصيام حتى الإنسان الذي يصوم الذي لا يراعي المعنى الذي من أجله يحصل العفاف في الصوم كالذي يأكل كثيراً إذا أفطر، أو يأكل سائر الليل، أو نحو هذا فإن هذا الصوم لا ينفعه من هذه الحيثية، ولا يؤثر فيه العفاف بل تتوقد شهواته، وجاء عن ابن عمر -رضي الله عنه-: أنه ذكر أنه لا يعلم أحداً أوتي في هذا الباب بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني في القوة على النكاح- كما أوتي هو، وذكر أنه يصوم -كان صاحب عبادة-، فإذا أفطر، أفطر على النكاح مع أن الغالب أن الإنسان قبيل فطره يكون قد ذبل وضعف، فإذا أفطر عند ذلك يبدأ يتجدد له النشاط والقوة لكن الإنسان الذي لا يأكل كثيراً إذا صام وكان لا يدمن الصيام يعني يصوم فقط الإثنين والخميس، فإن هذا لا يحصل له كسر الشهوة -كما هو مشاهد- فكيف يحدث هذا؟ كما قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- ذكر هذا السؤال والإشكال بأن الصوم يسبب حرارة في الغريزة أحياناً، وهذا الصوم هو الصوم القليل فمن أراد العفاف بالصوم فعليه أن يدمنه، بمعنى يكثر من الصيام يسرد سرداً، أو يقلل من الطعام، يقلل إذا أفطر، يسرده سرداً، وكذلك لو أنه مثلاً يصوم يوماً ويفطر يوماً هذا لا يظهر أثره إلا بعد حين، ويقلل

من الطعام، أمّا أن يصوم الإنسان الأيام البيض أو الإثنين والخميس فقط، وينتظر بعد هذا أن يحصل له العفاف فهذا غير صحيح -والله أعلم-، ومن الأسباب التي ذكرها الله -عز وجل- ما ذكره الحافظ هنا في قوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} [سورة النساء:٢٥] الطَّوْل بمعنى الغنى، وقال: {فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} أبيح له مع أن الأصل أنه لا يجوز للإنسان أن يتزوج الأمة، فرق بين أن يتسرى بها وأن يتزوجها، إذا تسرى الرجل بالأمة اشتراها صارت مملوكةً له فإن الأولاد يكونون أحراراً، وإذا تزوج الأمة عقد على أمة مملوكة فإن الأولاد يكونون أرقّاء، ولهذا لا يجوز التزوج بالإماء إلا في حال الاضطرار، ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات -يعني الحرائر- المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، وقيده فقال: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ} أبعد عن نفسه الزنا، {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} يعني من التزوج بالإماء، فلا يكون التزوج بالأمة إلا في حال الضرورة فقط، فهذه الوسائل التي يحصل بها إعفاف النفوس.

وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ}، إلى أن قال: {وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [سورة النساء:٢٥] أي صبركم عن تزوج الإماء خير؛ لأن الولد يجيء رقيقا، {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

قوله: **وهذه الآية مطلقة**، وجه الإطلاق فيها أنه هنا قال: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} يعني جعل القضية إما نكاحٌ تزوجٌ، {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} أو يطلب العفاف، لكن قد يقال: إن تزوجه من الأمة هو من النكاح، لكن التزوج من الأمة لا يتطلب ذلك المهر الذي لربما فيه من الكلفة كما هو الشأن بالنسبة للحرة، وإلا لم يرخص له أن يتزوج الأمة ولهذا قال: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ}، هنا قال: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} لا يستطيع أن يتزوج الحرائر، مع أن الآية مطلقة يدخل فيها هذا وهذا، يعني يدخل فيها الأمة، ويدخل فيها عدم القدرة على النكاح مطلقاً، هو يقول: إنها مقيدة لقوله: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ...}، ويمكن أن يقال: إن ذلك كله داخل في قوله: {وَلْيَسْتَعْفِفِ} أي يطلب العفاف بأمور منها: التزوج بالأمة، وأن آية النساء غير مقيدة لآية النور، يمكن أن يقال هذا، لا أقول: إنها مبينة لها؛ لأن التقييد أصلاً من البيان، تقييد المطلق من البيان، وتخصيص العام من البيان، ولكن يقال: إن قوله: {وَلْيَسْتَعْفِفِ} يدخل فيه سائر ألوان الاستعفاف، ومنها التزوج بالأمة، المقصود أنه ليس بالضرورة أن يكون ذلك من قبيل التقييد.

قال عكرمة في قوله: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا} قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقضِ حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله.

فلينظر في ملكوت السماوات والأرض، أو غير ذلك من الأسباب التي يحصل بها هذا المعنى، وعكس هذا تماماً هو تحريك الغرائز والشهوات لما يلهبها من النظر في المواقع والقنوات السيئة، وغيرها من الأمور، فالغرائز كامنة في النفوس، وهي بطبيعتها تتحرك وتدفع الإنسان إلى ما يحصل به قضاء الوطر

وليس بحاجة إلى من يزيد على ذلك، فإنّ تحركها في النفوس أمر غريزي، غريزة يعني حتى في البهائم، هذا في الإنسان الذي لا يشتغل بشيء يدفعها ويثيرها، فكيف بالذي يصب البنزين على النار؟!، فإنه يكون في سكرة فهو لا يفيق من شهوة حتى يواقع أخرى، وهكذا يبقى ديدنه يواقع ما حرم الله -تبارك وتعالى-، بل لربما يعمى عن كل شيء حتى يقع على ذات محرم، فإذا عمي الإنسان وغلب عليه ذلك صار كالبهيمة أحياناً، فهؤلاء يشاهدون هذه المشاهد السيئة ونحو ذلك، وتسمع أسئلة ذويهم أحياناً أو من أسئلتهم ما يدل على هذا المعنى، أن يتحول إلى إنسان هائج يريد قضاء الوطر ولا يفيق إلا بعد ذلك، وهكذا يعاود الكرة فيشعل هذه النار في نفسه وليس هناك خير من العافية، أن ينأى الإنسان بنفسه عن كل ما يحرك ذلك فيها فيستريح، تصور من يجلس في مسجد ويشتغل بالعلم تصور حال هذا وقارنها مع إنسان آخر جالس أمام الشاشة ينظر في أمور تدمر كل شيء في نفسه، تسوقه سوقاً، أو من يقف في سوق من الأسواق ينظر في الغادية والرائحة، وفي تلك والأخرى التي تمشي والتي قد تكشفت أو أبدت زينتها أو نحو هذا، فتتعذب نفسه، وتتحرك كوامنه، فالبعد والنأي بالنفس هو عين النظافة، والنزاهة وراحة القلب وطمأنينة النفس وإلا فالله المستعان.

وقوله: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيِّده المال الذي شارطه على أدائه.

وقال البخاري: "وقال روح عن ابن جُرَيْج قلت لعطاء: أواجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا، وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء، أتَأثُرُه عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبةَ -وكان كثير المال-، فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: كاتِبْه، فأبى، فضربه بالدِّرة، ويتلو عمر -رضي الله عنه-: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، فكاتَبَه"[٦]، هكذا ذكره البخاري تعليقا.

ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أواجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً[٧].

وروى ابن جرير -رحمه الله تعالى- عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه، فقال له عمر: لتكاتبَنَّه[٨]. إسناد صحيح.

وقوله: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقاً، وقال بعضهم: مالا وقال بعضهم: حيلة وكسبا.

---

٦ - علقه البخاري -رحمه الله- في صحيحه (٩٠٢/٢)، كتاب العتق، باب إثم من قذف مملوكه، وباب المكاتب ونجومِه في كل سنة نَجمٌ.

٧ - رواه عبد الرزاق في مصنفه، برقم (١٥٥٧٦).

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٦٧/١٩).

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} يبتغون أي يطلبون، يبتغون الكتاب يعني يطلبون الكتاب يعني أن يكون مكاتباً، والكتابة بعضهم يقول: مأخوذة من الكَتْب وهو الضم والجمع، وذلك أنها تكون على أقساط بمعنى نجوم، فمجموع ذلك يقال له: كتابة، يقول: مجموع هذه الأقساط، يقال له: كتابة، وبعضهم يقول: مأخوذة من هذا المعنى، ولا شك أن لفظة الكَتْب تدل على الجمع، تقول: الكتيبة مجموعة من الجند ينظم بعضهم إلى بعض، ويقال: الكتاب؛ لأنه يجمع الفصول والأبواب إلى آخره، ويقال: الكتابة؛ لأنها تجمع الحروف والكلمات والجمل، ولكن هنا الكتابة في هذا الباب هي من الجمع، لكن أيّ جمع؟ هل المقصود جمع الأقساط النجوم التي يدفعها المكاتب؟ هنا يقال: أصل الكتابة بمعنى الجمع، والمقصود بها الكتابة المعروفة؛ لأن ذلك يكون بكتابة عادة أيْ عقد يُكتب، وبعض أهل العلم يقول: لما كانت الديون والمعاملات ذات الآجال تكتب للتوثيق فقيل لهذا: كتابة؛ لأنها تكون على آجال ونجوم وأقساط، فمن شأن ذلك أن يكتب، وحقيقة المكاتبة هي عقد بين المملوك والسيد على أن يعتق بموجب قدر من المال يدفعه لسيده، وعامة أهل العلم –الجمهور- يقولون: على آجال بمعنى أنه لا يكون دفعة واحدة، يقولون: لابد من قسطين وأكثر على دفعات، هذه حقيقة الكتابة، فكاتبوهم {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ} يطلبون الكتاب، {مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- فكاتبوهم، والأصل أن الأمر للوجوب إلا لصارف، ومن هنا اختلف أهل العلم في الكتابة هل هي واجبة أو ليست بواجبة؟؛ بناء على هذا الأمر من الله -تبارك وتعالى-، فالذين قالوا بالوجوب وهم طائفة كثيرة من أهل العلم ومروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لكنه بسند ضعيف لا يصح، لكن روي عن جماعة كثيرة، وهو منقول عن عمر كما في قصة سيرين قال: "لتكاتبنّه"، وهو منقول عن عطاء -رضي الله عنه-، وجاء عن عكرمة ومسروق وعمر بن دينار والضحاك وآخرين وهو القول القديم للشافعي، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري أخذاً من هذا الأمر، وهو في الأصل للوجوب، فقالوا: هي واجبة، {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، والذين قالوا: لا يجب وهو القول الجديد للشافعي، وهو قول مالك، والثوري، والشعبي، ومنقول عن أبي رباح بإسناد ضعيف لا يصح، وبه قال جماعة كثيرة من أهل العلم، وهؤلاء يقولون: إن المكاتبة غير واجبة وإنما هي مباحة، وهذا أمر متروك للسيد، بل هذا هو الذي يقول به الجماهير من أهل العلم، ويجيبون عن هذا الأمر {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} فيقولون: يدل على أن ذلك غير واجب أنه لا يجب عليه بيعه ولا هبته، أي يهب هذا المملوك فهو ملكه إن شاء باعه وإن شاء أعتقه وإن شاء وهبه فكما لا يجب عليه بيع ولا هبة في ماله، ولا يحل كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه))[9]، فتُلزِم هذا الإنسان في المكاتبة -وهي نوع معاوضة- بأن يُعتِق على أنه يدفع له قيمته، فهذا لا يجب عليه، فكما لا تجب عليه المعاوضات الأخرى من بيع ونحو ذلك أو إجارة لهذا المملوك فكذلك لا تجب هذه المعاوضة التي هي المكاتبة، فكيف يلزم بهذا؟، وقالوا –أيضا-: هذا الأمر ليس للوجوب وإنما للإرشاد، وهذا قول الجمهور.

---

٩ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١١٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٦٦٢).

والمقصود بالخير في قوله: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}: حاصل أقوال أهل العلم فيه ترجع إلى قولين: يعني العبارات المتفرقة الموجودة في كلام المفسرين هي في الواقع ترجع إلى اثنين، فبعض أهل العلم يذكر الأمانة والصلاح، والتقوى، والصدق وغير ذلك من المعاني، حتى إن بعضهم ذكر الصلاة قال: أنت بخير، يعني: يصلي، فذكروا معاني الصلاح، وبعضهم يذكر معنى آخر، وهو القدرة على الاكتساب، {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، يقول: فلان فيه خير، وفلان ما فيه خير، أحياناً في مقام يدل على أن المقصود بالخير ليس صلاح الحال والتقوى، وإنما المقصود به أنه يستطيع أن يكتسب ويحصل ويعمل، {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، وبعضهم يقول: مالاً، ولكن هذا بعيد والسبب أن المملوك لا يملك على قول عامة أهل العلم وهو الصحيح، وإلا فإن من أهل العلم من يقول: إنه يملك، ويحتج بهذه الآية بعد أن يفسر الخير بالمال يقول: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} قال: مالاً وهذا يدل على أن المملوك يملك، لكن يقال: هذه النتيجة الآن مركبة على مقدمة غير مسلّمة، ولهذا فإن الأقرب -والله تعالى أعلم- هو اختيار ابن جرير: أن المقصود بالخير هنا هو ما يحصل به المقصود للمكاتِب، يعني المالك فماذا يريد منه المكاتب؟، هو يريد الوفاء مع القدرة على الكسب، بمعنى أنه ليس بمتحيّل يريد الكتابة ثم بعد ذلك يذهب ولا يفعل شيئاً، يتخلص من عمل سيده، يقول له سيده: اذهب اكتسب لك سنة كل شهر تدفع لي كذا، فيقول: طيب يذهب ويجلس مع جماعة من الأرقّاء يأكل ويشرب وينام، ومن ظل إلى ظل ويترك العمل ثم لا يرجع بشيء، والله يا عمي ما عندي شيء، ما حصّلت شيئاً، أو أنه لا يكون عنده قدرة على الكسب فيذهب يشحذ عند المسجد، أو كلما خرج واحد من المسجد تبعه، أنا مكاتَب وعاطل وساعدوني وكذا، فكما جاء عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- ما يدل على التنزه من هذا المعنى، يقول: تطعمني أوساخ الناس مَن يذهب ويأخذ الصدقات والزكوات ولا يكتسب، فالمقصود بقوله: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} الخير أحياناً يطلق على المال، وأحياناً كقوله -تبارك وتعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [سورة العاديات:٨] يعني المال، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [سورة الفجر:٢٠]، وهكذا في قوله: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [سورة البقرة:١٨٠] يعني إن ترك مالاً، لكن ليس في كل المواضع المقصود به المال، {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} والتعدية تدل على هذا، {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ} إنما هو القدرة على الاحتراف والكسب مع الوفاء، فيه وفاء وأمانة، يكتسب، يعمل، ويكون فيه أمانة يؤدي ذلك، وهذا الذي ذهب إليه جماعة من أهل العلم من السلف ومن بعدهم مثل ابن عمر كما سبق، وابن زيد من التابعين، وهو مذهب مالك والشافعي، وبعضهم حملها على بعض المعاني من الصلاح ونحوه، واقتصر على هذا دون ذكر الاحتراف والكسب، وإن تفرقت أقوال هؤلاء، ولعل بعضهم يقصد التفسير بالمثال، يعني حينما يقول: أنت بخير يعني أن يصلي مثلاً، فهذا لا ينفي قول من قال: إن علمتم فيهم صلاحاً، وهو داخل فيه، فيه صلاح، استقامة، خوف من الله -عز وجل- أو نحو ذلك، وهذا إذا جمعته تجد أقوال كثير من المفسرين تندرج تحته من التابعين فمن بعدهم، وأما تفسير ذلك بالمال -وهو لا يصح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وإن قال به بعض السلف غير ابن عباس، قال به بعض التابعين وهو منقول عن علي -رضي الله تعالى عنه-، فالأقرب ما ذكره ابن جرير -وهو مسبوق إليه-: هو أن ذلك يفسر بما ترجع إليه حاجة المكاتِب من المكاتبة، القدرة

على الاحتراف والكسب والعمل مع وفاء وصدق، وتبقى مسألة النجوم هذه هل يجزئ أن يكون بدفعة واحدة؟، يقول له: أكاتبك وأعطيك، أو بعد أسبوع أعطيك كل المبلغ، يكون هذا إما عنده قدرة لاعب أو فنان أو غير ذلك، حفلة واحدة أو مباراة واحدة ويأتي له بمائتين وخمسين ألفاً، ويقول له: تفضل هذه هي القيمة مثلاً التي اتفقنا عليها، أو يكون له علاقات ومعارف ويستطيع أن يوفر، فالجمهور يقولون: لابد من نجمين فأكثر، لكنّ أبا حنيفة يقول: يصح أن تكون بدفعة واحدة فقط، وإلا فالبقية يقولون: لابد من أن تكون على نجوم، ومن أهل العلم من يقول: الأمر مطلق هنا: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} سواء كانت حالّة أو مؤجلة، وإن جرت العادة أن الكتابة تكون على نجوم وأقساط {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، وهذا يعني أن الإنسان إذا لم يعلم فيهم خيراً فإنه لا يكاتبهم، وبناء عليه فإن إعتاق المملوك أحياناً يكون وبالاً على المملوك نفسه، وهذا في كثير من الأحوال كالذي اعتاد على الرق وهو مسلوب الإرادة، يعني غير مستقل بالتصرف واعتاد ونشأ على هذا منذ الصغر فإنه لا يستطيع أن يتصرف بنفسه، يضيع، أنت تُسلمه إذا أعتقته للضياع، يخرج من الرق ثم بعد ذلك لا يستطيع أن يتصرف، هو معتاد أن يُؤمر ويُنهى ويطعم، فإذا تُرك جاع، قد لا يحسن إلا أن يجلس عند باب المسجد فقط، لا يستطيع أن يفكر؛ لأنه قد عطل عقله أصلاً، قد تعود على: افعل لا تفعل!، يأكل شيئا معيناً كل يوم وانتهينا من الطعام، فيضيع وهذا كثير، ولهذا تجب مراعاة مصلحة المملوك في هذا، فلا يعتق ثم بعد ذلك يكون هذا العتق ضرراً عليه، فمن الناس من يكون الرق خيراً له، إذا كان فيه همة ونشاط فلا بأس، حتى إن بعض الذين اعتادوا على مسألة الناس، تسمع أحياناً أن بعض من نشأ على هذا سُرق من أهله وهو صغير، ورُبي على المسألة أنه بعد أن عثر عليه أهله صار ذلك يلازمه، وكلما رأى أحداً أو جاءهم ضيف جاء إليه، ومد يده! معتاد على السؤال، فمن نشأ على شيء واعتاد عليه فإنه يصعب عليه أن يفارقه، وهذا المعنى ينبغي أن يراعى، فليس مقصود الإسلام من العتق وفتح أبواب العتق بالكفارات وغيرها والترغيب فيه أن يكون ذلك في غير مراعاة للمصلحة التي تعود على المعتَق، وعلى المجتمع في نفس الوقت، فقد تخرج للمجتمع مجموعة من المجرمين ليس لهم حيلة إلا في السرقة والاحتيال على الناس ونحو ذلك؛ لأن الذي يعولهم ويكفيهم وينفق عليهم قد تخلى عنهم، أعتَقَهم فتحولوا إلى عصابات أحياناً، فالمقصود أن المكاتبة تكون بهذا القيد، يستطيع أن يكتسب ويستغني عن السؤال، وعن الناس، والله تعالى أعلم.

قوله: {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات، وهذا قول الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيان، واختاره ابن جرير.

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ في قوله: {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} قال: حَثَّ الناسَ عليه مولاه وغيره، وكذلك قال بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمي، وقتادة.

وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب.

هذا الخطاب {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} طائفة من أهل العلم قالوا بأن الخطاب متوجه للسادة، للمالكين، وما هذا المال الذي يعطيهم؟، قالوا: أن يضع له من النجوم -يعني هذه الأقساط- أن يضع

له، يتنازل له عن بعضها من مال الكتابة، وبعضهم يقول: هذا الخطاب لأهل الغنى والسعة والثروة فالله -تبارك وتعالى- يأمرهم ويحثهم على هذا، يعطونه من الصدقة والزكاة، وهذا قال به جماعة من أهل العلم من السلف ومن بعدهم إلا أن ابن جرير -رحمه الله- قيده بالزكاة، باعتبار أن هذا أمر، والأمر للوجوب، ولا يجب على الإنسان أن يدفع من ماله إلا الزكاة، لكن هذا إذا قلنا: إنه للوجوب ولا يلزم أن يكون هذا الأمر للوجوب {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} من الزكاة والصدقة كما هو قول طائفة كابن زيد والحسن وإبراهيم النخعي ومقاتل وابن حيان، وبعضهم يقول: هذا متوجه للولاة أهل الولايات من أين يعطونهم؟ من بيت مال المسلمين، وبعضهم يقول: هذا خطاب للجميع لم يقيد الله فيه فئة دون فئة ما خص ذلك بالمالكين لهؤلاء الأرقاء، ولا بأهل الثروة، ولا بأصحاب الولايات، وإنما هو حث للأمة {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}، فيدخل فيه الجميع، ومن أهل العلم من قال: إنه متوجه إلى من على مال الكتابة، وهذا قال به خلق كثير من أهل العلم، ولا يعني أنه هو الراجح، قال به كثيرون: {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} يعني الكتابة، يضع له قسطاً أو أكثر يخفف عنه، وهذا مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ومقدار هذا الوضع بعضهم قيده بالربع، وهذا قال به جماعة، ومروي عن علي -رضي الله عنه-، وبعضهم قال: ذلك إلى مشيئته وإرادته بحسب ما يريد الربع أو أقل أو أكثر، وهذا منقول عن عمر -رضي الله عنه-، وآخرون كابن عباس، وابن عمر ومالك والشافعي ذهبوا إلى أن ذلك لم يقيد، وهذا هو الصحيح {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} لكن من قال: إنه الربع هل يمكن أن يُلتمس له شيء يعني ما وجه تقيده بالربع؟ يمكن أن يقال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الثلث، والثلث كثير))[١٠]، إذاً الربع، ولهذا كانوا يرون في الوصية -كثير من السلف- أكثر السلف يرون أنه لا يستحب للإنسان في الوصية أن يوصي بالثلث خلافاً لما اعتاد عليه العامة إلى يومنا هذا، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الثلث، والثلث كثير)) فهذا حد الجواز في أعلى صورة، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه كثير، قالوا: إذاً يضع من الثلث، إلى أي حد؟ كثير منهم يقولون: الربع، يقول هذا توجيه لمن قال الربع هنا، لكن الآية ليس فيها هذا التقييد أو التقدير، وإنما بحسب ما يراه، وهنا ملحظ ذكره بعض أهل العلم: إذا كان الآن المكاتب السيد وضع عنه، والكتابة مثلاً لو قلنا: إنها على عشرة أو على اثني عشر قسطاً في سنة، كل شهر يدفع قسطاً، ولكن من أي الأقساط يضع من الأول أو من الوسط أو من الأخير؟ بعض أهل العلم نبه على معنى وهو أنه يضع من الأخير؛ لأنه قد يعجز فإذا عجز ما استفاد شيئاً، هذا المملوك قد يعجز فإذا عجز وقد وضع عنه القسط الأول والثاني، فيكون كأنه قد رجع بصدقته، فهو تصدق عليه الآن بالقسط الأول ومقداره مثلاً عشرة آلاف، يقول: أنا وضعت عنك القسط الأول صدقة، ثم يعجز فترجع إليه صدقته، ويكره للإنسان أن يرجع في صدقته بل قد يحرم عليه أحياناً -لكن في هذه الصورة

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، برقم (٥٠٣٩)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

لا يحرم عليه؛ لأنه معذور- حتى إنه يترك شراء ما تصدق به، إذا باعه المتصدق عليه يتركه فكيف بالرجوع فيه ابتداءً؟!.

وقوله: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الآية: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كلّ وقت، فلما جاء الإسلام، نهى الله المسلمين عن ذلك.

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة -فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف- في شأن عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البِغاء طلبا لخَراجهن، ورغبة في أولادهن، ورئاسة منه فيما يزعم.

روى الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار -رحمه الله- في مسنده عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أبيّ بن سلول، يقال لها: معاذة، يُكرهها على الزنى، فلما جاء الإسلام نزلت: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١].

وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ} قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها: مُسَيْكَة، كان يكرهها على الفجور -وكانت لا بأس بها– فتأبى، فأنزل الله، -عز وجل-، هذه الآية إلى قوله: {وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وروى النسائي نحوه[١٢].

قوله: **{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** البغاء مصدر بغت الجارية بغاءً، فهو بمعنى الطلب، وذلك أنها تتكسب بالفجور والفاحشة، ولهذا يقال: الفرق بين الزنا والبغاء: أن الزنا المعروف، والبغاء ما كان بمقابل بأجرة، يعني الزنا بأجرة، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ}** وردت في سبب نزولها روايات متعددة منها الصحيح ومنها الضعيف، نكتفي بما أخرجه مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- من أن عبد الله بن أبيّ كانت له جاريتان، واحدة يقال لها: مسيكة، والأخرى يقال لها: أميمة، وكان يكرههن على البغاء، ويأبين ذلك فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية: **{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ}**، وذِكْر الفتيات هنا مناسب لذكر البغاء وسبب النزول أيضاً، فإنه لا يقال للرجل: بغيّ، وإنما يقال: امرأة بغيّ، هي التي تفجر بأجرة، وإلا فإنه لا يجوز أيضاً أن يكره مملوكه على الزنا، **{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** التحصن المقصود به العفاف، لكن هنا يرد سؤال وهو أن مفهوم المخالفة في هذه الآية غير معتبر، في الأصل مفهوم المخالفة حجة، ومعروف المفهوم، **{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** مفهوم المخالفة أنها إن لم ترد التحصن فيجوز إكراهها على البغاء، أو لا؟ هذا المفهوم، لا تكرهها على البغاء إن كانت تريد التحصن، مفهوم المخالفة إن لم ترد التحصن فلا بأس بإكراهها، ولكن مفهوم

---

١١ - رواه البزار في مسنده، برقم (٦٣٥٩).

١٢ - رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء}، برقم (٣٠٢٩)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٣٦٥).

المخالفة هنا غير معتبر، فهو أحد المواضع التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، ولا يكون حجة في نحو سبعة مواضع أو ثمانية، لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، منها هذه الحالة وهي التي يسميها الأصوليون وفاق الواقع -موافقة الواقع-، يعني أن تنزل الآية تتحدث عن واقع معين تصفه كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران:٢٨]، هل بمفهوم المخالفة يجوز للمؤمن أن يتخذ الكافرين أولياء مع المؤمنين؟، لا يجوز للإنسان أن يتخذ الكافرين أولياء مطلقاً ولو مع المؤمنين، كما تدل عليه الأدلة الكثيرة، فهنا هل يجوز له أن يرخص لها في البغاء إن كانت لا تريد التحصن؟ الجواب: لا يجوز له، ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[١٣]، {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٣٢]، فيجاب عن مفهوم المخالفة: بأن الآية نزلت على وفاق واقع معين فلا يحتج بها بمفهوم المخالفة، كما قال صاحب المراقي:

*** ودع إذا الساكت عنه خافا

أو جهل الحكم أو النطق انجلب *** للسؤل أو جرى على الذي غلب

.....إلى أن قال: أو وفاق الواقع.

هذا هو وفاق الواقع وهذا له نظائر، ولكن إذا فهمت هذا القدر ينحل عنك هذا الإشكال سواء كانت تطلب البغاء وترغب فيه أو لا ترغب، فلا يجوز له أن يمكنها من ذلك، أرادت التحصن أو لم ترد التحصن، إذاً فائدة هذا القيد -إن أردن تحصناً- هو فقط يصف حال واقعة نزلت الآية بسببها، وما مصلحة هذا الإنسان الذي يكرهها كعبد الله بن أبي على البغاء؟ كانوا يفعلونه لجملة من الأمور منهم من يتكسب، ومعلوم حرمة مهر البغي، وهو من المكاسب الخبيثة، فالرجل لربما يتكسب تجارة يكون عنده إماء للفجور فيتكسب منهن، وقد يفعل ذلك لمعنى آخر، لكن المعنى الأساسي والأصلي أن البغاء الزنا بأجرة، وبعضهم قد يفعل هذا من أجل نجابة الولد أو لتكثير الأولاد، يعني هو يريد كما سبق أن أولاد الأمة هذه سيكونون مماليك له فإذا جاءه رجل وأعجبه ونحو ذلك في ذكاء، وقوة لربما جعله ينكح هذه الأمة يطأ هذه الأمة من أجل أن يأتي أولاد منه، أو ليتاجر بهؤلاء الأولاد أصلاً، يريد أن يكثر فيجعل الإماء يفجرن، وقد يفعل ذلك من باب القَراء لضيفه أو نحو ذلك فيقدم له أمته، كل هذه الأمور، وفي الأصل أن البغاء الزنا بأجرة، {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} تريد العفاف.

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان: بلغنا -والله أعلم- أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يُكرهان أمتين لهما، إحداهما اسمها مُسَيْكَة، وكانت للأنصاريّ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبي، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة، فأتت مسيكة وأمها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فذكرتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ} يعني: الزنى.

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي، برقم (٢٤١٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، برقم (١٨٢٩).

ابن كثير -رحمه الله- خرّج هذا المثال بتخريج بحيث جعله من الأحوال التي لا يعتبر فيها بمفهوم المخالفة، وهو أن ذلك بناء على الغالب، وما كان خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، والأقرب -والله أعلم- هو أن هذا جاء بناء على وفاق واقع معين لا أن ذلك خرج مخرج الغالب، وهل الغالب أن هذه الإماء اللاتي اعتدن على الفجور أنها تأبى ذلك؟، ولهذا الأمة في الحدِّ نصف الحرة؛ لقلة شرفها وفيما سبق قوله -تبارك وتعالى-: {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} أن الغالب في المماليك خلاف الصلاح.

وقوله: {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له، وقوله: {لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: من خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عن كسب الحجَّام، ومهر البَغيّ وحُلْوان الكاهن[١٤]، وفي رواية: ((مهر البغي خبيث، وكسب الحجَّام خبيث، وثمن الكلب خبيث))[١٥].

وقوله: {وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر.

وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن، وكذا قال مجاهد، وعطاء الخرساني، والأعمش، وقتادة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فالله غفور رحيم للمكرهات، ويوجد من يقول: غفور رحيم لمن أكرههن، وأن هذا فتح لباب التوبة، ولكن هذا بعيد، وإنما هو غفورٍ رحيم لهن؛ لأن المُكرَه يكون غير مؤاخذ، والإكراه المعتبر كما جاء هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم"، وفي قراءة لابن مسعود -وهي غير متواترة-: {ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن وإثمهن على من أكرههن}، والقراءة غير المتواترة تفسر القراءة المتواترة، وأصلاً هذا مفهوم ومعلوم أن ذلك يرجع إلى المُكرَه، وليس للمُكرِه هذا السيد مكرِه، ويقول: {وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فهذا جدير بالوعيد وليس بالوعد بالمغفرة.

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبيَّنها قال: {وَلَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ} يعني: القرآن فيه آيات واضحات مفسرات، {وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ} أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامرَ الله تعالى، كما قال تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ} [سورة الزخرف:٥٦].

{وَمَوْعِظَةً} أي: زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم {لِلْمُتَّقِينَ} أي: لمن اتقى الله وخافه.

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ} قال: أي: خبراً عن الأمم الماضية، والكثير من أهل العلم على أن هذه المادة -المثل- تدور على معنى الشبه، والمثيل، والنظير، والشبيه، وأن المقصود الحال المشابهة، وبعضهم يقول: الحال العجيبة أو الصفة العجيبة، وهنا {وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ}،

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، برقم (٢١٢٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي والنهي عن بيع السنور، برقم (١٥٦٧).

١٥ - رواه مسلم من حديث رافع بن خديج -رضي الله عنه-، بلفظ: ((ثمن الكلب خبيث ومهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث))، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي والنهي عن بيع السنور، برقم (١٥٦٨).

ويمكن أن يرجع ذلك إلى ما ذكر في هذه السورة في أولها، وفي غير ذلك من القرآن، وفي هذه السورة ذكرت قصة الإفك وهي نظير لما ذكره الله -تبارك وتعالى- في القرآن مثلاً من خبر يوسف -صلى الله عليه وسلم- حيث اتُّهم بالفاحشة ثم كانت العاقبة بعد ذلك له، وكان ذلك رفعة في حقه، فخرج من السجن إلى الملك، فهذا نظير ما قيل في عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ}، ويمكن أن يكون يراد بالمثل هنا الأمثال؛ لأن المثل جنس يصدق على الواحد، والجمع، كما سبق أن اسم الجنس يصدق على الواحد والجماعة سواء ذكر مفرداً أو مضافاً كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} المقصود به الأطفال، أو كان مضافاً: "أو صديقِكم" أي أو أصدقائكم، {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [سورة الممتحنة:١] بالجمع يعني لا تتخذوا عدوي أي أعدائي، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٣٥ إلى الآية ٣٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة النور قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة النور:٣٥].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ} يقول: هادي أهل السماوات والأرض.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما.

وقال السدي في قوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: فبنوره أضاءت السماوات والأرض.

وفي الصحيحين، عن ابن عباس: كان رسول الله -صلى الله عليه سلم- إذا قام من الليل يقول: ((اللهم لك الحمد، أنت قَيومّ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن))[1] الحديث.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية الكريمة فيها كلام كثير لأهل العلم، فالعلماء -رضي الله تعالى عنهم- من الصحابة فمن بعدهم مختلفون في معناها غاية الاختلاف، وحاصل هذا الاختلاف يرجع إلى جوانب محددة، هل هذا النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} المراد به النور الذي هو صفته؟ أو أن المراد غير ذلك؟ وهل المراد به النور الحسي؟ أو أن المراد به نور معنوي؟ هذا أبرز ما يرجع إليه أو يدور حوله كلامهم، وفيما يتصل بالمثل {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} هل هذا يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- أو أنه يرجع إلى غيره؟ فمن أهل العلم من يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} يؤخذ منه أن ذلك من أسمائه -تبارك وتعالى-، وأن من صفاته النور، ومنهم من يقول: إن هذا يراد به أمر معنوي وهو الهداية مثلاً، أو غير ذلك من العبارات التي يذكرونها مما يحوم حول هذا المعنى، وهذه العبارات التي يذكرها ابن كثير -رحمه الله- ذكرها غيره ويمكن أن توجه كقوله هنا: **قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {اللَّهُ نُورُ**

---

١ - رواه البخاري، أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز و جل: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} [سورة الإسراء:٧٩]، برقم (١٠٦٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٦٩).

{السَّموَاتِ وَالأرْضِ} يقول: **هادي أهل السماوات والأرض**، ففسر النور هنا بأمر معنوي، والتفسير الذي نقله عن ابن عباس هو اختيار جماعة من السلف، وقال به من المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، **وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ} يدبر الأمر فيهما**، وهذا تفسير له أيضاً، وهذا القول لا يمكن أن يرجع إلى المعنى الأول المنقول عن ابن عباس: **هادي أهل السماوات والأرض**، والقول الآخر: **يدبر الأمر فيهما** يعني يدبر نجومهما وشمسهما وقمرهما، بمعنى أن النور **{نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ}** ليس معناه النور الذي هو صفته، من هذه الحيثية يرجع إلى القول الأول، لكن هل هناك فرق بين القولين وإن كان القولان يرجعان إلى الأصل الذي ذكرت أن هذا ليس المراد به النور الذي ليس مخلوقاً في هذه الآية، فيدبر الأمر فيهما فهذه الشمس مخلوقة، والنجوم مخلوقة، والقمر مخلوق فهذه أنواره -تبارك وتعالى- يعني المخلوقة، لكن النور حسي وليس نوراً معنوياً، لكن هذا القول يتفق مع القول الذي قبله باعتبار أن النور المذكور هنا ليس بنوره الذي هو نوره، غير المخلوق؛ لأن النور المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- نوعان:

النوع الأول: الذي من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف: مثل ما جاء من السؤال بنوره، بنور وجهه، أو الاستعاذة بهذا وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}** [سورة الزمر:٦٩] حينما يأتي الفصل والقضاء.

النوع الثاني: الذي يضاف إليه وهو النور المخلوق فهنا **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ}** هل هو صفة أو المقصود به غير ذلك؟

القول الأول والثاني يتفقان في أن ذلك ليس المراد به ما جاء في قوله: **{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}** مثلاً وإن كان هذا يختلف عن الذي قبله، فالذي قبله أن النور معنوي، فهذا القرآن الذي أنزله الله -عز وجل- على رسوله وأنبيائه هدًى، نور، وما يحصل من فتح القلوب ومغاليقها وألوان الهدايات كل هذا من النور، قال السدي في قوله: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ}** قال: **فبنوره أضاءت السماوات والأرض** هذا القول يحتمل، قال: **وفي الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل يقول: ((اللهم لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، و لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن))** وهذا الحديث مثل الآية.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

هذا النور المذكور في الحديث غير النور المذكور في الآية على الأقوال السابقة، نور العرش من نور وجهه، فهذا النور الذي هو صفته، وهذا الذي يستعاذ به ويسأل به.

وقوله: {مَثَلُ نُورِهِ} في هذا الضمير قولان:

أحدهما: أنه عائد إلى الله -عز وجل-، أي: مثل هداه في قلب المؤمن، قاله ابن عباس {كَمِشْكَاةٍ}.

والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام: تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [سورة هود:١٧]، **فشبه قلب المؤمن**

في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

فقوله: {كَمِشْكَاةٍ}: قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل. هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده: {فِيهَا مِصْبَاحٌ}، وهو الذُّبالة التي تضيء.

وقيل: المشكاة: كُوَّة في البيت، قال: وهو مثل ضَرَبه الله لطاعته فسمَّى الله طاعَتَه نُورًا، ثم سَماها أنواعا شَتَّى.

قال أبيّ بن كعب: المصباح: النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره.

وقال السُّدِّي: هو السراج.

{الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية.

وقال أبيّ بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن.

{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ} كان الحامل لمن قالوا: إن هذا النور لا يراد به النور الذي هو صفته -تبارك وتعالى- أن نوره -تبارك وتعالى- أعظم من أن يشبه بمشكاة فيها مصباح إلى آخره، وهذا منقول عن بعض السلف، ولا إشكال لتقريب المعنى أن يبين ما يحصل من اجتماع الأنوار من تضاعفها وقوتها وزيادتها، والمقصود أن من أهل العلم من يقول: إن هذا يعني قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}** إن هذا كما يقال: فلان نور البلد، وفلان قمر الزمان، وما شابه ذلك، وإن هذا معروف في كلام العرب وفي أشعارهم، وبهذا كان يصفون الكبراء والملوك في مدائحهم باعتبار أن هذه الأنوار التي نشاهدها هي أنوار مخلوقة، ولكن كما جاء عن أنس -رضي الله عنه- قال: "لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء"[٢]، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي ينزل الكتب ويرسل الرسل ويهدي خلقه، ويقذف في قلوبهم من نور الهداية ما شاء، وجعل هذا القرآن نوراً يبصّر به من العمى، وكذلك يدبر أمر الخليقة ولا قيام لها إلا بذلك فهو القيوم قائم على خلقه بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وقوله -تبارك وتعالى-: **{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}** هل المراد بالضمير هنا أنه عائد إلى الله -عز وجل-؟ ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قولين:

القول الأول: **:أنه عائد إلى الله -عز وجل-، أي: مثل هداه في قلب المؤمن {كَمِشْكَاةٍ}** فهذا على تفسير النور بما سبق من أن الهدى كمشكاة، وهذا هو الظاهر المتبادر **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ}** الضمير يرجع إلى المذكور قبله، وهو الله -تبارك وتعالى.

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٨)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٣١)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٨٣٠)، وقال محققوه: "إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان-وهو الضبعي- فمن رجال مسلم"، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٩٦٢).

والقول الثاني: **أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام، تقديره مثل نور المؤمن**، وهذا ليس هو الظاهر المتبادر، مثل نور المؤمن، وبعضهم يقول ذلك يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ}** فالضمير لا يرجع إلى الله ولا إلى المؤمن كما قيل هنا إطلاقاً، وإنما إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول غير هذا، وهو خلاف الظاهر، **{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...}** خلاصة هذا التشبيه: المراد به -والله تعالى أعلم- أن ذلك يتضاعف باعتبار جملة أمور تقويه وتزيده، فالمصباح يقوي نوره إذا كان في زجاجة، وهذه الزجاجة يقوي نورها إذا كانت صافية ليس فيها كدر شفافة، ويقوى هذا النور إذا كان في مكان يمكن أن يرد بعضه إلى بعض باعتبار تفسير المشكاة بأنها الكُوَّة التي تكون في الجدار غير نافذة، ويقوى أيضاً باعتبار المادة التي تمده، فإذا كانت مادته من زيت في غاية النقاء والصفاء يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فهذا أقوى في صفائه، وإضاءته وإشراقه فاجتمعت هذه جميعاً، فهكذا حينما يجتمع نور الفطرة ودلائل التوحيد التي نصبها الله -عز وجل- لخلقه العالم العلوي والعالم السفلي، وكذلك ما أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك من هذا القرآن، فيجتمع له هذا وهذا، فيكون ذلك غاية البيان والإيضاح والإشراق، فاجتمع به فطرته وما علم من دلائل التوحيد يضاف إلى ذلك ما نزل من الوحي الذي تضمن البراهين الواضحة على توحيد الله -تبارك وتعالى-، وفيه كل الهدايات التي يحتاج إليها البشر، هذه الخلاصة وإن اختلفت عبارات المفسرين -رحمهم الله- في التفاصيل، والكلام في ذلك يرجع إلى شيئين يحصل عادةً التفاوت والاختلاف بسببهما عند الكلام على الأمثال، وهما طريقتان لتفسير المثل فهل يؤخذ المثل باعتبار التركيب فتفسر جملته، ويبين المراد منه كما ذكرت الآن وهذا أسلم وأدعى لترك التكلف وأبعد عن الإشكالات.

والطريقة الثانية التي تفسر بها الأمثال عادة هي تفسير المثل تفسيراً تحليلياً بكل جزء من أجزائه بمعنى أن كل جملة من المثل لابد أن تعتبر فيما يقابلها ما المراد بها **{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ}** مثلاً: مشكاة ما هي؟ هل هي الحديدة التي يوضع بها الفتيل باعتبار أنها نافذة من جهة أو الكُوَّة التي في الجدار أو غير ذلك؟ مالذي يقابلها؟ قالوا: الصدر، صدر المؤمن، **{فِيهَا مِصْبَاحٌ}** وهذا المصباح ما الذي يقابله؟ قالوا: القلب، أو الذي يقابله هو الإيمان، أو الهدى، أو العلم أو نحو ذلك في قلب المؤمن، المصباح في زجاجة من الصفاء، والرقة، والقوة، والصلابة في آن واحد فـ**{الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}** فهذا الآن محاولة لمقابلة كل جملة في هذا المثل بشيء يقابلها، مثل ما يقولون في تفسير –تعبير- الرؤى مثلاً، فهل نأخذ ذلك بجملته؟ أو ننظر إلى كل جملة في الرؤيا فنحاول أن ننزلها على شيء معين؟، فهذا يبعث على شيء من التكلف، ولا يخلو من إشكالات ثم مثل هذه الأمثال -وكذلك في الرؤى- منهم من ينظر إلى أن هذه ترمز لمعانٍ، ويذكرون أشياء قد لا يدل عليها الظاهر، وبعض المفسرين ينكرها، ويقول: هذا خلاف الظاهر مع أن بعضها منقول عن السلف، والسبب هو أن الأمثال تشير إلى معانٍ والله -عز وجل- قال: **{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [سورة العنكبوت:٤٣]، ولكن الطريقة الأسلم في تفسير الأمثال هي أن تؤخذ بجملتها دون أن نحاول أن نقابل كل جزء منها بأمر محدد، **والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام، تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن، وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو**

مفطور عليه، فأشار إلى الفطرة وأشار إلى ما يزيد هذه الفطرة هدى، وبصراً، وهو الوحي القرآن، **كما قال تعالى**: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [سورة هود:١٧].

{الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ} قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة، من الدُّر، أي: كأنها كوكب من دُرّ.

وقرأ آخرون: "دِرِّيء" و"دُرِّيء" بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدَرْء وهو الدفع؛ وذلك أن النجم إذا رُمي به يكون أشدّ استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراريّ.

قال أبيّ بن كعب -رضي الله عنه-: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم.

بعضهم يقول: إن العرب تسمي بعض هذه الأفلاك أو النجوم فيقولون: مثل الزهرة أو نحو ذلك، أشياء محددة يطلقون عليها هذا، لكن ذلك يدل على شدة الإضاءة كوكب مضيء **وقال قتادة: مضيء مبين ضخم** {الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}.

{يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ} أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة {زَيْتُونَةٍ} بدل أو عطف بيان {لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ} أي: ليست في شرقيّ بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلّص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تَفْرَعه الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلا صافيا مشرقا.

قوله هنا: {لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ} هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- قال به جماعة من السلف -رضي الله عنهم- وهو الأقرب في تفسير الآية، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، بمعنى أنها {لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ} فذلك أن الشمس تصيبها في أول النهار، وفي آخر النهار، وهذا هو السبب لكمال حياتها ونضارتها وجودة ما يخرج منها من الزيت، وذلك أنها إذا كانت شرقية فإن الشمس تأتيها في وقت واحد من النهار، وكذلك إذا كانت غربية، مع أن من أهل العلم من فهم غير هذا، فبعضهم فهم أن الشمس لا تصيبها في أول النهار ولا في آخر النهار؛ لأنها مكتنة بين الأشجار، وهذا بعيد، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أولى، وبعضهم يذكر غير هذا من المعاني مما لا حاجة لذكره.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ} قال: شجرة بالصحراء، لا يُظلها جبل ولا شجر ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها.

وقال مجاهد في قوله: {زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ} قال: ليست بشرقية، لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية، تصيبها إذا طلعت وإذا غربت.

وقال سعيد بن جُبَيْر في قوله: {زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} قال: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعَشيّ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية.

قال تعالى: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراق الزيت.

قوله: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} كلام أهل العلم في "كاد" غير متفق فتارة تأتي منتفية، وتارة تأتي مثبتة، وبعضهم يطلق ويقول: إذا جاءت منتفية فإن ذلك يفيد الوقوع، يقول: ما كاد زيد يصل بمعنى أنه

وصل لكن بمشقة، وإذا جاءت مثبتة كانت بمعنى النفي، كاد المطر أن ينزل بمعنى أنه لم يحصل وإنما قارب، وبعضهم يفرق بين ما إذا جاء الفعل ماضياً أو مضارعاً أو يدل على المستقبل، وللنحاة أقوال في هذا حاصلها يرجع إلى أربعة أقوال، لكن بناء عليه يحصل الاختلاف في المعنى، ولهذا فإن بعضهم هنا يقول: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} بمعنى يقارب لشدة إشراقه، وهي في سياق الإثبات لا تدل على الوقوع، ولكن هذا الاختلاف قد يكون أكثر فيما سيأتي من قوله -تبارك وتعالى-، في المثل الآخر للكافرين: {إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [سورة النور:٤٠] هل المراد به أنه لا يراها؟، لم يكد ودخلت هنا على الفعل المضارع أداة النفي، {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} أو أن المقصود أنه يراها بصعوبة؟ سيأتي الكلام على هذا إن شاء الله، وهنا {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} بمعنى يقارب لشدة إشراقه.

وقوله: {نُورٌ عَلَى نُورٍ} قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله.

وقال السُّدِّي في قوله: {نُورٌ عَلَى نُورٍ} قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

ذلك يرجع إلى أن النور الذي ضرب له هذا المثل هو نور معنوي، بمعنى الهداية -على اختلاف في عبارات أهل العلم-، ويمكن أن يجمع ذلك فإن المعاني التي يذكرونها بينها ملازمة، فابن جرير -رحمه الله- يرى أن هذا النور هو نور القرآن في قلب المؤمن، فهذا مثل ضربه الله -عز وجل- للهداية، هداية الله في قلب المؤمن، فنور القرآن مع دلائل التوحيد التي أقامها الله -عز وجل- اجتمع هذا وهذا، وهذا لا يختلف عن قول من قال بأن ذلك نور الإيمان مع نور القرآن، وهكذا قول من قال: إيمان العبد مع عمله، فهذا كله يرجع إلى معنى واحد، ودلائل التوحيد والعمل كل ذلك من الإيمان فهو يتضاعف ويزداد، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما أنه يزيد بزيادة دلائله التي تورث اليقين، ومما يدل على أن المعنى يراد به ما سبق: التعقيب الذي جاء بعده في قوله: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}، هذه قرينة في الآية تدل على أن هذا النور ليس المراد به النور الحسي، وحتى على القراءة التي لم تتواتر قراءة "نوَّرَ" بالفعل بدلاً من الاسم "نُور السماوات والأرض" فنوَّرَها بهداياته وما شابه ذلك، فقوله هنا: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} يدل على أن المعنى -والعلم عند الله -عز وجل- أن هذا القرآن نور، وكل ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- نور، فالإيمان نور، ودلائل التوحيد نور، والعمل الصالح نور، وما يتولد وينشأ عنه من إشراق القلب وإشراق الوجه كل هذا من النور.

وقوله: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله -عز وجل))[٣].

٣ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في افتراق الأمة، برقم (٢٦٤٢)، وأحمد في المسند، برقم (٦٦٤٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن الديلمي -وهو

هذا يرجع للمعنى السابق، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هُداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

لابن القيم -رحمه الله- كلام كثير في هذه الآية في جملة من كتبه: الصواعق المرسلة، واجتماع الجيوش الإسلامية، ومفتاح دار السعادة، والوابل الصيب، وإعلام الموقعين، يستفاد منه كثيراً، وفيه معانٍ جميلة وجيدة في الهدى يمكن أن نقرأ ويُعلَّق على بعض ما ذكر، وإن كان في بعض الكلام تكرار ولكنه لا يخلو من زيادات مفيدة.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: " قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته، والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس وآخر كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويُطفَأ أخرى إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أُعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

وضرب الله -عز وجل- لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب، وشبهه بالزجاجة؛ لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء والرقة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله –تعالى- ويغلظ عليهم ويشتد في الحق، ويصلب فيه بصلابته، ولا تُبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها، {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ}، وقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} [سورة آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:٧٣، وسورة التحريم:٩]، وفي الأثر القلوب آنية الله –تعالى- في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها، وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض:

أحدهما: قلب حجري قاسٍ لا رحمة فيه ولا إحسان ولا بر، ولا له صفاء يرى به الحق، بل هو جبار جاهل، لا علم له بالحق، ولا رحمة للخلق.

عبد الله بن فيروز-، فقد روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو ثقة"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦١٦٩)، وقال الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٧٦).

وبإزائه قلب ضعيف مائي لا قوة فيه ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس له قوة حفظ تلك الصور ولا قوة التأثير في غيره، وكل ما خالطه أثر فيه من قوي وضعيف، وطيب خبيث.

وفي الزجاجة مصباح، وهو النور الذي في الفتيلة، وهي حاملته.

ولذلك النور مادة، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار، فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها من الانحراف، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية ولا انحراف اليهودية، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته وقويت مادة ضوء النار به، كان ذلك نوراً على نور.

وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثر، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته فيكون نوراً على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة.

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة.

فذكرَ سبحانه وتعالى نوره في السماوات والأرض، ونوره في قلوب عباده المؤمنين، النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي، فهما نوران عظيمان أحدهما أعظم من الآخر، وكما أنه إذا فُقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمي ولا غيره، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون ألبته، فكذلك أمة فُقد فيها نور الوحي والإيمان ميتة وقلب فقد منه هذا النور ميت ولابد، لا حياة له ألبته، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه(٤).

وقال -رحمه الله تعالى-: "وقد فسر قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} بكونه منوّر السماوات والأرض وهادي أهل السماوات والأرض فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله"(٥).

---

٤ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص:٥٢-٥٤).

٥ - اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (١٠).

الثاني إضافة المفعول يعني إضافة الخلق، تقول مثلاً: هذا النور الذي نشاهده هو نور الله يعني أن الله خلقه وأوجده.

وقال -رحمه الله-: "فالأول كقوله -عز وجل-: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [سورة الزمر:٦٩] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدعاء المشهور: ((أعوذ بنور وجهك الكريم أن تُضلني، لا إله إلا أنت))[٦].

هذا الأثر فيه ضعف، هو عند الطبراني وابن جرير في التاريخ، لكن فيه ضعف.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "وفي الأثر الآخر أعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له وكتاب عثمان الدارمي وغيرها عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: ((ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه))[٧].

وهذا الذي قاله ابن مسعود -رضي الله عنه- أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنه منوّر السماوات والأرض فلا تنافِيَ بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[٨].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال سألت رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: ((نور أنَّى أراه))[٩]، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يقول: معناه كان ثَمّ نور وحال دون رؤيته نور فأنى أراه.

قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نوراً، وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صححه بعضهم، فقال: نور إني أراه على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة وهذا خطأ لفظا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله رأى ربه

---

٦ - المصدر السابق، (١٠).

٧ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٨٨٦).

٨ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: "إن الله لا ينام"، وفي قوله: "حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"، برقم (١٧٩)، وابن ماجه واللفظ له، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، برقم (١٩٥).

٩ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: "نور أني أراه"، وفي قوله: "رأيت نورا"، برقم (١٧٨).

وكان قوله أنَّي أراه كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم يرَ ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك"[١٠].

ثم قال -رحمه الله-: "فصل قول الله -تعالى ذكره-: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح" هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن، كما قال أبي بن كعب وغيره، وقد اختلف في مفسر الضمير في نوره فقيل: هو النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أي مثل نور محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، وقيل: مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن، والصحيح أنه يعود على الله -سبحانه وتعالى-، والمعنى مثل نور الله -سبحانه وتعالى- في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور -وهو وجه الكلام- يتضمن التقادير الثلاثة وهو أتم لفظا ومعنى"[١١].

توجيه هذا القول: هنا ذكر هذه الاحتمالات ثم رجع وقال: إن ذلك يمكن أن يجتمع، ثم ذكر توجيه هذا باعتبار أن النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده، {مَثَلُ نُورِهِ} أي مثل نور الله فهو الواهب له ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، ويضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة، وباعتبار أن المراد النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو الذي أنزل الله عليه الوحي، وهو أكمل هذه الأمة إيماناً، هذه الطريقة في الجمع بين الأقوال في احتمال مفسر الضمير إلى أي شيء يرجع، فالضمير يحتمل أن يرجع إلى هذا، أو هذا، أو هذا، ففي بعض المواضع يمكن أن يجمع بينها، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وأحياناً لا يمكن الجمع، وأحياناً يكون بشيء من التكلف، والمعنى المتبادر هنا {مَثَلُ نُورِهِ} أي مثل نور الله في قلب المؤمن، لكن ابن القيم -رحمه الله- يقول: إذا قيل بأنه المؤمن أي مثل نور المؤمن فأضيف إليه باعتبار أنه المحل القابل له، لكن لا يقال ذلك على سبيل الاختيار والترجيح، يعني هذا القول بالتحديد فإن هذا ترك للظاهر المتبادر، وإنما إذا قيل فمع اعتبار ما قبله من أنه نور الله -تبارك وتعالى-، ثم توجه هذه الأقوال بهذه الطريقة، والله أعلم.

وقال -رحمه الله-: "وهذا النور يضاف إلى الله –تعالى- إذ هو معطيه لعبده، وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحال ومادة، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل، فالفاعل هو الله –تعالى- مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء، والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحال همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

---

١٠ - اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (١١-١٢).

١١ - المرجع السابق (١٢).

إحداهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن، فتأمل صفة المشكاة وهي كُوَّة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها المصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ومادتة من أصفى الأدهان، وأتمها وقوداً من زيت شجرة في وسط القراح لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به"[١٢].

لعل قوله في الكوة: "وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء"، ربما يكون خطأ في الطباعة، ربما الأصل "كوة غير نافذة لتكون أجمع للضوء" وتكون فيه "لا" سقطت، ربما والله أعلم، لا تكون الكوة نافذة، الكوة التي تكون في الجدار مثل النافذة لكنها غير نافذة يوضع بها السراج.

وقال -رحمه الله-: " والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، شبه قلبه بالزجاجة؛ لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق، برقته وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق وهي مادة المصباح التي يتّقد منها والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه، ونطق به فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي فيريه عقلُه وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل ألبته، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة، والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره **{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}** [سورة النور:٤٠]، فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول عن الله -سبحانه وتعالى- وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرُها فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به، وهي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده

---

١٢ - اجتماع الجيوش الإسلامية (١٢-١٣).

فوفاه حسابه والله سريع الحساب، {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح الذين صدقوا الرسول في أخباره ولم يعارضوها بالشبهات وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات فلا هم في علمهم من أهل الخوض الخرّاصين الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولائك هم الخاسرون"[١٣].

استرسل -رحمه الله- في الكلام على مثل هذا المعنى، لكن نترك هذا المسطّر، القسم الثاني: هم أهل الجهل والظلم هذا يأتي في الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ}، المثل الثاني يدل على ما سبق، مثل نوره كمصباح وأن المقصود بذلك هو الهدى وما بُعث به محمد -صلى الله عليه وسلم-، وما يحصل من التوفيق لمن شاء الله من عباده أن يهديه، ويشرح صدره للإيمان فهو على نور من ربه، وهذا المعنى هو الذي عليه عامة أهل العلم في الكلام على هذا المثل والذي هو حاصل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وله كلام كثير في قوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ}.

وقال -رحمه الله-: " فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يُحيي به قلبه وروحه كما يحيي بدنه بالروح التي ينفخها فيه فهما حياتان: حياة البدن بالروح وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [سورة النحل:٢]، وقال: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [سورة غافر:١٥]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [سورة الشورى:٥٢] فجعل وحيه روحاً ونوراً فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نوراً منه فهو في الظلمات ما له من نور"[١٤].

وقال -رحمه الله تعالى-: "فأخبر سبحانه عن مَثَل نور الإيمان به وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وصدق رسله في قلوب عباده، وموافقة ذلك لنور عقولهم وفطرهم التي أبصروا بها نور الإيمان بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود، وأنه نور على نور، نور الوحي ونور العقل نور الشرعة ونور الفطرة نور الأدلة السمعية ونور الأدلة العقلية"[١٥].

وقال -رحمه الله تعالى-: "أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب

---

١٣ - المصدر السابق (١٣-١٥).

١٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١ / ١٨٧).

١٥ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٣/٨٥١-٨٥٢).

الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام"[١٦].

كل هذا يرجع إلى معنى واحد باعتبار الأقوال التي تقول بأنه نور العمل والإيمان والقرآن والفطرة وما أشبه ذلك، والله أعلم.

{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة النور:٣٦-٣٨].

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يُعبد فيها ويُوَحّد، فقال: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} أي: أمر الله تعالى برفعها، أي: بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها.

قوله: **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ}** هل هذا متعلق بما بعده من قوله: **{يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}**؟ هذه الآيات فيها كلام كثير هي مثال من أراد أن يُتبع كلام المفسرين للأفهام الكثيرة، والاحتمالات الكثيرة التي ترد على ألفاظ القرآن من المعاني كما جاء عن بعض السلف في أن القرآن حمال لوجوه، فتجد الأقوال المتباينة فهذا يَحمل على معنى، وهذا يحمل على معنى آخر تماماً، وهذا يورد معنى قد لا يخطر على البال، أشياء كثيرة جداً من أراد أن ينظر في تباين الأفهام، وما أعطى الله -عز وجل- خلقه وعباده وفاوت بينهم في الفهم، فيمكن أن ينظر في هذه الآية أعني قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ}** سيجد من هذا أشياء كثيرة، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله وفضله.

---

١٦ -الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (١٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة النور قوله تعالى: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة النور:٣٧-٣٨].

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويُوَحّد، فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} [سورة النور:٣٦] **أي: أمر الله تعالى برفعها، أي: بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها، وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحاك، ونافع بن جبير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمة وسفيان بن حسين، وغيرهم من علماء المفسرين.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ربط بين هذه الآية وما قبلها، فضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية، قال: **وذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته** إلى آخره، بمعنى أن العلاقة والمناسبة: لما ذكر مثل نوره في قلب عبده المؤمن، ذكر بعد ذلك محلها وموضعها، ومن أهل العلم من يقول: إنه مرتبط بما قبله: بحيث المعنى هكذا: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ}، وهذه المشكاة {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} يعني هذا محل المشكاة، كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كذا وكذا في الإضاءة والإشراق والتوقّد، وبعضهم يقول: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} فيها مصباح ذلك المصباح {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ}، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى-، وبعضهم يقول بقول قريب من هذا، وبعضهم يقول: هذه صفة للزجاجة، وبعضهم يقول: هو حال من المصباح، ومن الكوكب {كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}، {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ}، وعلى هذه الأقوال لا يوقف -يعني الأولى- عند قوله "عليم" من جهة المعنى؛ لأن الآية لا زال المعنى فيها لم يكتمل، وإن كان السنة كما هو معلوم أن يقف الإنسان عند رءوس الآيات، ولكن من قال: إنها لا تتعلق بما قبلها وإنما تنشئ معنى جديداً كما يقول بعضهم: إن قوله: {فِي بُيُوتٍ} متعلق بقوله بعده "يسبح" {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ} يعني كأنه يُسبح في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر

فيها اسمه رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ويمكن أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك المثل لنوره في قلب عبده المؤمن، ثم بعد ذلك ذكر حال هؤلاء المهتدين من أهل الإيمان ممن أشرقت نفوسهم بهدى الله -تبارك وتعالى- حيث عمروا بيوته بذكره، وطاعته فأشغلوا جوارحهم بما يقربهم إليه، فيكون ذلك من جملة الثناء عليهم، ذكر ما حصل لهم من إيمان وإشراق للنفوس، وهدى ثم بعد ذلك ذكر ما لهم من الحال والعمل وما يؤثّره ذلك الاهتداء من اشتغال بطاعة الله -عز وجل- والتقرب إليه **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}** [سورة النور:٣٦-٣٧]، الأول في بيان هداه، والثاني في حال من اهتدى بهذا الهدى، وما هو فيه من اشتغال وعمارة للأوقات، وتعمير للمساجد بالذكر باللسان والجوارح، الذكر بنوعيه، قال: **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ}** والمقصود بها المساجد قال: **أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها،** هذا من رفعها **{أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ}** والأذن يأتي بمعنى الأمر، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}** [سورة الحشر:٥]، يعني بأمره بالشرع والقدر، فهنا أذن أن ترفع، **{أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ}** ترفع: الرفع بنوعين: رفع البناء، والثاني: هو العمارة والرفع بالعبادة والذكر، ومن أهل العلم من خص الرفع بالتطهير من الدنس وما شابه ذلك مما يتصل بالرفع المعنوي كقولهم: بذكر الله، بعبادته، بطاعته ونحو ذلك، والذي ألجأهم إلى هذا هو ما جاء من النهي عن تشييد المساجد، والتشييد يأتي لمعنيين:

المعنى الأول: رفع البناء.

والثاني: هو تزويقه وتزيينه، يقول: هذا بناء مشيد يعني أنه قد وضع فيه الشيد –الجص- وما شابه ذلك، هذا فيه نهي، وكذلك المبالغة في بناء المساجد ورفعها فوق الحاجة ونحو ذلك، فلما نظروا إلى النصوص الواردة بهذا المعنى حملوا قوله: **{أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ}** على معنى لا محظور فيه فقالوا: رفعُها تطهيرها من الدنس، وعمارتها بذكر الله -جل جلاله-، هكذا قالوا، ولكن يدخل في رفعها البناء، لا يلزم منه أن يكون البناء مرتفعاً **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}** [سورة البقرة:١٢٧] فإقامة البناء هو الرفع له **{أَن تُرْفَعَ}** أي أن تعمر حسياً، عمارة المساجد وما جاء في فضل ذلك ولا يلزم من هذا أن يرفع البناء فوق الحاجة، ومسألة بناء المساجد والزخرفة أو التزيين أو نحو ذلك هذه مسألة تختلف من عصر لآخر، فالزخرفة هذه منهي عنها، ينبغي أن تجتنب، لكن مسألة طريقة البناء: في السابق كان الناس يبنون باللبِن والحجارة، وبيوت الناس بهذه الطريقة، وما زاد على ذلك ما زاد عليه من تجصيص ونحو ذلك يكون فيه شيء من المبالغة وغالباً يفعله أهل الجِدة والغنى فمثل هذا في ذلك الوقت يكون من التشييد الذي فيه مبالغة وفيه النهي، لكن حينما تصير عادة الناس أنهم يبنون البناء الحديث، ولا يتركونه حجارة هكذا أو لبناً فلا يقال: إن المساجد يوضع فيها طوب هكذا كيفما اتفق ثم بعد ذلك تسقف بجريد من غير طلاء، هذا لا يقول به أحد، فما يعد في ذلك الوقت من قبيل التشييد المنهي عنه قد لا يكون بهذا الوقت من التشييد المنهي عنه؛ لاختلاف طبيعة البناء، أما الزخرفة المعروفة فإنها داخلة في النهي، بمعنى أن طريقة بناء الناس للجدران الآن ونحو ذلك والطلاء في ذلك الوقت يعد هذا من التشييد ومن الزخرفة، ومسألة رفع السقف إذا كان الرفع لحاجة لكثرة

المصلين فهذا يحتاج إليه، ولا إشكال في هذا، وإن كان من غير حاجة كما يفعل الكبراء والعظماء ونحو ذلك في قصورهم حيث يرفعون السقوف رفعاً زائداً من غير حاجة، وإنما من باب تعظيم البناء ونحو هذا فهذا منهي عنه، وفيه تضييع للمال، والمقصود أن نفهم لماذا حمله كثير من أهل العلم على الرفع بالمعنى الآخر؟ هذا مأخذ هذا القول، فإذا فهمت ما سبق انتفى الإشكال، رفْعُ البناء بمعنى إقامته فكل ذلك من رفعها، أذن أن ترفع ببنائها وعمارتها حسياً ومعنوياً، وبينهما ملازمة، فلا توجد بيوت يذكر فيها المعبود -تبارك وتعالى- ويسبح إلا ببنائها وإقامتها.

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطييبها وتبخيرها، وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءًا على حدَة، ولله الحمد والمنة، ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفا من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان:

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة))[1]، أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن ماجه، عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة))[2].

وللنسائي مثله، والأحاديث في هذا كثيرة جدا.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب"[3]، رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي، ولأحمد وأبي داود، عن سَمُرة بن جُنْدب نحوه.

وقال البخاري: قال عمر: ابنِ للناس ما يكنّهم، وإياك أن تُحمِّر أو تُصفِّر فتفتن الناس[4].

في حديث عائشة -رضي الله عنها- "أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب" وهو دال على أن تنظيفها وتطييبها كل ذلك من رفعها وعمارتها مع عبادة الله -عز وجل- فيها.

وروى أبو داود عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أمِرْتُ بتشييد المساجد))، قال ابن عباس: لَتُزَخرفُنّها كما زَخْرَفت اليهود والنصارى"[5].

---

١ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب من بنى مسجدا، برقم (٤٣٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب فضل بناء المساجد، برقم (٥٣٣).

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجدا، برقم (٧٣٥)، وأحمد في المسند، برقم (٣٧٦)، وقال محققوه: "حديث صحيح".

٣ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، برقم (٤٥٥)، والترمذي، أبواب السفر، باب ما ذكر في تطييب المساجد، برقم (٥٩٤)، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١٢٩٤)، وابن حبان في صحيحه، برقم (١٦٣٤)، وقال محققه الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط البخاري"، وقال الألباني: "إسناده صحيح على شرط الشيخين" في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٦/٤٩٦)، في كلامه على حديث رقم (٢٧٢٤).

٤ - علقه البخاري في صحيحه (١/١٧١)، أبواب المساجد، باب بنيان المسجد.

يعني هذا تفسير، وكما سبق التشييد يأتي للمعنيين: مِن طلائها بالشيد كالتجصيص ونحوه، وكذلك الرفع يقال له: تشييد، بيت مشيد، قصر مشيد، يقال لهذا وهذا.

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد))[٦]، رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

وعن بُرَيْدَةَ أن رَجُلا أنشدَ في المسجد، فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا وَجَدْتَ، إنما بُنِيت المساجد لما بنيت له))[٧]، رواه مسلم.

أنشد في المسجد بمعنى سأل قال: من دعا إلى الجمل الأحمر؟ يعني من قال: إنه رآه أو وجده أو عنده خبر منه؟، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا وَجدتَ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له))، جاء عن عكرمة أنه كان يغلظ على السؤّال في المساجد، الذين يقومون ويخطبون بعد الصلاة ويشغلون الناس عن ذكر الله -عز وجل-، كان يغلظ عليهم ويزجرهم ويضيف ذلك إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ولكن الله -عز وجل- يقول: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [سورة الضحى:١٠] لكن يُمنع هؤلاء ولا يمكنون من هذا العمل القبيح، لاسيما إذا كانوا يشكون الخالق إلى المخلوق، فهذا أمر لا يطاق ولا يحتمل، لكن من غير زجر، وبعض أهل العلم كالأحناف يشددون في هذا حتى إنهم يمنعون من التصدق عليهم، بل يرون أن الصدقة عليهم يرجع أثرها على المتصدِّق بحيث إنهم لربما ما قبلوا شهادته أو نحو ذلك، والأمر لا يصل إلى هذا، وحديث أبي بكر -رضي الله عنه-، الحديث المعروف ((من أصبح منكم اليوم صائما؟))، قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، قال: ((فمن تبع منكم اليوم جنازة؟))، قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، قال: ((فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟))، قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، قال: ((فمن عاد منكم اليوم مريضا؟))، قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما اجتمعن في امريء إلا دخل الجنة))[٨]، أبو بكر -رضي الله عنه- وجد سائلاً في المسجد فتصدق عليه، فالسائل إذا جاء وجلس في المسجد فإنه لا يُمنع من هذا، ويُتصدق عليه، لكن لا يمكّن من القيام بهذه الطريقة، والتحدث، فرق بين هذا وهذا، عكرمة كان يقول: الناس يأتون للجمعة لذكر الله -عز وجل- وهؤلاء يأتون للدنيا والسؤال.

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، برقم (٤٤٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (١٦١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٥٥٠).

٦ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، برقم (٤٤٩)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب تشييد المساجد، برقم (٧٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٣٧٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٤٢١).

٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، برقم (٥٦٩).

٨ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، برقم (١٠٢٨).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه سلم-: قال: ((إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من يَنشُد ضالة في المسجد، فقولوا: لا رَدَّ الله عليك))[٩]، رواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

يدخل في هذا ما نشاهده في يوم الجمعة في كثير من الأحيان في فناء المسجد يبيع سواكاً ونحو هذا، هذا يُنكر عليه ويمنع ويُعلم، ويُعلم الناس أنهم لا يشترون منه، وأنه لا يجلس هنا، ولا يجوز البيع في المساجد، وفناء المسجد من المسجد، وهذا للأسف يتكرر كثيراً.

وروى البخاري عن السائب بن يَزيدَ الكنْديِّ قال: كنت قائمًا في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم![١٠].

حصبني بمعنى أنه رماه بالحصبا وهي حجارة صغيرة.

وروى النسائي عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وهذا أيضًا صحيح.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر؛ أن عمر كان يُجَمِّر مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كل جمعة[١١]، إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

في إسناده رجل يقال له: عبد الله بن عمر العمري فيه ضعف، وبعضهم وثّقه، ومسألة تجمير المسجد أمر مشروع، ويوجد من الأدلة غير هذا ما يدل عليه.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخطُ خَطوة إلا رُفع له بها درجة، وحطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصَلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة))[١٢].

وفي السنن: ((بشِّر المشّائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة))[١٣].

---

٩ - رواه الترمذي، كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، برقم (١٣٢١)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٣٣٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٣).

١٠ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب رفع الصوت في المساجد، برقم (٤٥٨).

١١ - رواه أبو يعلى في مسنده، برقم (١٩٠)، وقال محققه حسين سليم أسد: "إسناده ضعيف".

١٢ - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، برقم (٦٢٠).

١٣ - رواه أبو دواد، كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم، برقم (٥٦١)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة، برقم (٧٨١)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عَمرو -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا دخل المسجد قال: ((أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم))، قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم[١٤].

وروى مسلم بسنده عن أبي حميد -أو: أبي أسَيْد- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك))[١٥].

ورواه النسائي عنهما، عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم))[١٦].

ورواه ابن ماجه، وابن خزيمة وابن حِبَّان في صحيحيهما.

مجموع هذه الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تشتمل على ما جاء في الترغيب في بناء المساجد، وكذلك ما يتصل بتطهيرها وتنظيفها وتطييبها بالإضافة إلى عمارة المساجد بالصلاة والذكر، وكان بالإمكان في نظري في هذا المختصر أن يستغنى عن بعض هذه الأحاديث، كالأحاديث الواردة هنا مثلاً، التي ذكرها فيما يقوله عند دخول المسجد، وعند الخروج منه إلى آخره، فإن ذلك لا يتصل بمعنى الآية اتصالاً مباشراً، ومن عادة ابن كثير -رحمه الله- في مواضع كثيرة أنه يستطرد في الكلام على معنى فيورد ما جاء من الأحاديث مما يتصل بهذا المعنى، ولربما زاد عليه، فشأن المختصر قد لا يتناسب مع مثل هذا الاستطراد -والله أعلم-، وهذه المساجد **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ}** ذلك يصدق كل بيت من بيوت الله -تبارك وتعالى- لا يختص بالمساجد الثلاثة مثلاً كما قال بعض السلف، ولا يختص بواحد منها، ولا يختص بمسجد بعينه أيًّا كان، وإنما ذلك في كل بيت من بيوت الله، وهذا الأمر ظاهر في الآية، وليس فيها ما يفيد التخصيص إطلاقاً مع أنك تجد مع أقاويل السلف -رضي الله عنهم- أشياء، ولربما يُستغرب فيها تخصيص مسجد بعينه، كمن يقول مثلاً: المراد بيت المقدس أو من يقول: المساجد الأربعة يعني الثلاثة زائد مسجد قباء، ونحو هذا كله لا دليل عليه.

جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، برقم (٢٢٣)، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٦٨)، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥١٣٤).

١٤ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، برقم (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٧١٥).

١٥ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد، برقم (٧١٣).

١٦ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، برقم (٤٦٥)، ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، برقم (٧٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥١٤).

وقوله: {وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} أي: اسم الله، كقوله: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [سورة الأعراف:٣١]، وقوله: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة الأعراف:٢٩]، وقوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [سورة الجن:١٨].

قوله: {وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} فهذا يصدق على سائر أنواع الذكر لله -تبارك وتعالى-، أي اسم الله كقوله: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}، والذكر يكون عند كل صلاة {خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} يعني عند كل صلاة، هذا صحيح عند كل صلاة، ولكن الآن {وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}، فمن تعظيم الصلاة التي تُبنى المساجد من أجلها أن يتهيأ الإنسان لها، وذلك أيضاً من تعظيم المعبود -سبحانه وتعالى-، وأخذ الزينة: المقصود به هنا في آية الأعراف أنها نازلة في ستر العورات، {خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} بمعنى أن الإنسان يستر عورته، لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وتطوف المرأة عارية وتقول كما في صحيح مسلم:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه *** وما بدا منه فلا أُحله[١٧]

فنهاهم عن هذا، فالزينة المراد بها هذا القدر ستر العورة، ويراد بها ما زاد على ذلك، وكل هذا داخل فيه، أي وإن كانت في ستر العورات إلا أنها تدل على ما هو أوسع من هذا في المعنى، وهو التهيؤ والتزين والتجمل، ومن ذلك تغطية العاتقين ((لا يصلين أحدُكم بالثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء))[١٨]، هذا من كمال الزينة، وكذلك تغطية الرأس إن كان من عادتهم ذلك فلا يصلي حاسراً كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- تَلَقَى الناسَ هكذا! فالله أحق أن يُتجمل له.

قال ابن عباس: {وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} يعني: يتلى فيها كتابه.

وقوله: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} أي: في البُكَرات والعَشيَّات، والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ} الغدو هو أول النهار، والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار، ومن أهل العلم من قال: إن هذا ينتظم الفرائض الخمس، فالغدو صلاة الفجر، والآصال الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فقالوا: المراد بذلك الصلوات الخمس، {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ} يعني يصلي لله -تبارك وتعالى- فيها {بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} وأغلب ما يطلق الأصيل على وقت العصر، وأصدق ما يكون ذلك حينما تتكسر شدة الشمس فتذبل وتميل إلى الاصفرار هذا يقال له الأصيل:

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائلها *** عَيّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ من أحدِ

وهو أحسن وقت الذكر، ويكون الذكر في أول النهار، والآصال بعد العصر، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} فيدخل في ذلك الذكر المعروف، ويمكن أن يدخل فيه صلاة الفجر وصلاة

---

١٧ - رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}، برقم (٣٠٢٨).

١٨ - رواه النسائي، كتاب القبلة، باب صلاة الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء، برقم (٧٦٩)، وأحمد في المسند، برقم (٩٩٨٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٧٢٦).

العصر، وأهل العلم في هذا لم يتفقوا على قول، لكن كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: المقصود أنه أوقات البكور والعشيات في أول النهار وفي آخر النهار، وهذا قول متجه، وأما تخصيص ذلك بالصلوات وأن ذلك في كل موضع ذكر فيه التسبيح المراد به الصلاة، فروي ذلك عن ابن عباس -رضي الله عنه- فإنه لو صح عنه فإن هذا يعني أن ذكر التسبيح مراد به الصلاة في كل موضع، وهذا فيه إشكال سبح لله، يسبح لله، ولا يقال: إن هذا هو الصلاة فقط، فالتسبيح هو التنزيه فهذا ظاهر اللفظ، وإن كانت الصلاة يقال لها: تسبيح، يقال: سَبحة الضحى مثلاً، يقول ابن عمر -رضي الله عنه-: "لو كنت مسبحاً لأتممت"[١٩]، مسبحاً يعني يصلي السنة الراتبة، لما رأى بعضهم يصلي بعض الصلاة في السفر قال: "لو كنت مسبحاً لأتممت" إذا كنتُ مصلياً غير الفريضة لأتممت، وجاء عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة أن الغدو هي صلاة الغداة، والآصال هي صلاة العصر، وهذا قال به جماعة من السلف، وبعضهم جمع الفرائض كما سبق وقالوا: إن هذا هو العلة، هو العلة في توحيد الغدو، قالوا: لأنها صلاة واحدة الفجر، والآصال قالوا: إنها تشمل أربع صلوات، لكن إذا قيل: إن الأصيل يمتد من وقت الظهر من بعد الزوال إلى ما قبل الفجر فإنه يصح أن يقال فيه: الأصيل ويعبر بالإفراد، وبعضهم يحمل ذلك –الغدو- على ما بعد صلاة الضحى، والمعنى أوسع من هذا، والتسبيح يدخل فيه الصلاة، ويدخل فيه التسبيح المعروف، وبعضهم قرأه {يُسبَّحُ له فيها بالغدو والآصال} بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة يكون الوقف على قوله: {يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}، ويكون الوقف تاماً ثم يبتدئ الكلام {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ} فيكون ذلك من قبيل التفسير للفاعل الذي حذف، يُسبَّح، من الذي يُسبِّح؟ رجال {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ} وعلى القراءة هذه التي نقرأ بها {يُسَبِّحُ} فالفاعل هو رجال، ومن ثم يصل القارئ فيقول: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}.

وقوله: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} الآية [سورة المنافقون:٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} الآية[سورة الجمعة:٩].

يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ومَلاذ بَيعها وريحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق؛ ولهذا قال: {لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ} أي: يقدمون طاعته ومُرَاده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

قوله: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ} هؤلاء هم الذين يعمرون هذه المساجد، ويذكرون الله، ويسبحونه بالغدو والآصال، {لا تُلْهِيهِمْ} يعني لا تشغلهم تجارة ولا بيع، والفرق بين التجارة والبيع بعضهم يقول: إن التجارة هي ما يكون مما يجلب فهذه التجارات، والبيع ما يكون بين المقيمين من أهل السوق، فالتجارة هي البضائع التي تجلب من مكان إلى آخر، والبيع هو ما يتعاطاه الناس من بيع وشراء بسوقهم، {تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ}،

---

١٩ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

وبعضهم يقول: البيع المعروف: أن يبيع، والتجارة هي الشراء {تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ}، ويمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن المعنى أوسع من هذا فالتجارة يدخل فيها ما يحصل به التكسب مطلقاً، وهذا التكسب يحصل بنقل السلع أو جلبها من مكان إلى آخر من أجل التكسب، وإن لم تكن صفقة البيع منعقدة في حينه، كما يدخل في التجارة أيضاً ألوان الشركات والمضاربات، ويدخل فيها سائر العقود في المعاوضات التي يقصد بها الكسب، هذا كله من التجارة، فالتجارة داخلة بهذا الاعتبار في عموم التجارات، والبيع هو البيع المعروف {لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ} فالتجارة أوسع من البيع، وعلى هذا الاعتبار كأن ذلك يكون لو قال قائل بأنه من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن البيع أكثر ما يتعاطاه الناس، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [سورة الجمعة:٩]، مع أن المحرم ليس هو البيع فقط بعد نداء الجمعة الثاني، وإنما يدخل في ذلك عقد الإجارة مثلاً، هو داخل في هذا، وكذلك يدخل فيه لو أنه عقد النكاح مثلاً فإن النكاح لا يصح، وعقد البيع لا يصح، وعقد التجارة لا يصح، وهكذا عقود الشركات ونحو هذا، ويكون خصّ البيع {وَذَرُوا الْبَيْعَ}؛ لأنه أكثر معاملة الناس، أكثر ما يتعاملون به.

عن سالم، عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس {لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان.

وقال السُّدِّي: عن الصلاة في جماعة.

وعن مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها، وما استحفظهم الله فيها.

الذكر كما سبق أوسع من هذا، ويدخل فيه دخولاً أولياً ما يدل عليه {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ} إذاً الصلاة داخلة في هذا الذكر دخولاً أولياً، وكذلك سائر الذكر، فالتجارة والبيع ونحو ذلك لا يشغلهم هذا عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، مع أن الاشتغال في التجارة والبيع والشراء كل هذا مظنة للغفلة، ولهذا كانت الأسواق هي شر البقاع، وأفضل البقاع وأحب البقاع إلى الله -تبارك وتعالى- هي المساجد، فهذا جاء في الحديث الذي حسنه بعض أهل العلم أي الذكر الذي يقال في دخول السوق، أو الذكر الذي يقال هناك، وما له من الفضل العظيم، والسبب في هذا أن هذا السوق مظنة للغفلة، ولهذا أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض أصحابه أن لا يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر من يخرج منه، فيحضر الشيطان ويضع فيه رايته ينصبها ويكون لحظوظ النفوس والطمع، وما يحصل من جراء ذلك من أيمان كاذبة، كل هذا بسبب هذه الأمور المجتمعة.

وقوله: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي: من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كما قال تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} [سورة غافر:١٨].

قوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} بمعنى أنْ تُقلّب القلوب والأبصار، والأرجح هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن المقصود بذلك أن تتقلب من شدة الخوف، فالقلوب يحصل لها كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} [سورة غافر:١٨]، والحناجر جمع حنجرة، والله -عز وجل- يقول: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} [سورة الأحزاب:١٠]، ومن أهل العلم من يقول: إن رئة الإنسان إذا خاف واشتد خوفه تنتفخ فيرتفع القلب ويصل إلى أعلى، وإن هذا المراد بقوله: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}، ولهذا العرب يقولون لمن خاف واشتد خوفه كما جاء في غزوة بدر: انتفخ سحره بمعنى الرئة، ومن أهل العلم من يقول: هذا كناية عن شدة الخوف حتى إن القلوب تكاد تنخلع وتخرج من شدة الهول، تنخلع من أماكنها، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ} ويقول: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}، {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [سورة النازعات:٨]، فهذا {تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}، {أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [سورة النازعات:٩]، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا بمعنى أنه لا يستطيع أن يصوب نظره إلى ما يريد أن ينظر إليه من شدة الخوف، فنظره لا يستطيع أن يتحكم فيه، يشخص البصر من شدة الفزع، والله -تبارك وتعالى- ذكر حال الخائف بما ذكر من صفة المنافقين، فمثّلهم بما يغشى عليه مما تدور عيناه لما يحصل له عند الموت، {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [سورة الأحزاب:١٩]، فتحرك يمنة ويسرة بحركة، لا يستطيع أن يحرك رأسه؛ لأنه يخشى أن يؤتى من الناحية الأخرى عند هذه الحركة، فهذه تدل على هذا المعنى، قال هنا: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} يعني لشدة هوله، وأما من فسر هذا بمعانٍ أخرى بعيدة كقول بعضهم: {تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} فبعدما كانت في حال الغفلة ولا تشاهد الحقائق في الدنيا بعد ذلك صارت للآخرة وشاهدت الحقائق، وعاينت وانكشف الغطاء، وتحول الشك إلى يقين، أو التكذيب والكفر إلى يقين، فهذا تقلب وتحول، فهذا كله لا دليل عليه، {تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} بمعنى من شدة الفزع والهول والخوف، وهكذا من قال: إن المراد بها أنها تتحول من حال الإبصار إلى حال العمى، {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه:١٢٤]، على قول من قال بأن المقصود بذلك العمى الحقيقي وهذا هو الصحيح؛ لأنه يقول: {رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} [سورة طه:١٢٥]، وقال: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٧٢] يعني أكثر عمى، وقد سبق الكلام على هذا المعنى وقول من قال: إنه العمى الحقيقي، وذكرنا هناك أنه يشمل هذا، وأيضاً العمى الآخر فهو لا يبصر الصراط ويكون في ظلمة.

وقال تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [سورة إبراهيم:٤٢]، وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:٨-١٢].

وقال هاهنا {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} أي: هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

قوله: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} ليجزيهم اللام هذه فسرها بعض أهل العلم بأنها لام العاقبة، يعني أنهم يذكرون الله ويعمرون بيوته، ولا يشغلهم بيع وتجارة عن ذكره -تبارك وتعالى- كل ذلك من شأنه أن يورثهم الجزاء الحسن عند الله -تبارك وتعالى-، كما قال الله -عز وجل- عن فرعون وموسى -صلى الله عليه وسلم- قال: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨] فهذه لام العاقبة، وهم لم يلتقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً، لكنهم التقطوه لتكون العاقبة أنه يصير بهذه المثابة عدواً لهم وحزناً في المستقبل، ومن أهل العلم من يقول: إن هذه اللام للتعليل، بمعنى أنهم يعمرون بيوته ويذكرونه ويتقربون إليه؛ رجاء ثوابه ليجزيهم، يعني يفعلون ذلك ليجزيهم، يعني من أجل أن يجزيهم، وتفسيرها أنها للعاقبة أقرب -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، بخلاف قول من قال: إنها للتعليل، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- هذا الثاني، ثم قوله -تبارك وتعالى- هنا {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}، وأحسن هذه أفعل تفضيل، ويكون المعنى هنا {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} بعض أهل العلم يقول -وهذا تجدونه في بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يذكر الأقوال في هذا-، وبعضهم يقول: إن المراد بـــ{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ} أن الله كريم وأنه يعاملهم بالأحسن، يكون الجزاء والثواب على الأحسن من الأعمال بالأحسن، بمعنى أن أعمال العبد متفاوتة في إحسان العمل، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [سورة الملك:٢]، فهي متفاوتة فيما يحصل فيها من حضور القلب والاحتساب وإتقان العمل والقيام به على الوجه المشروع مستوفياً للشروط والأركان والواجبات إلى آخره، فيكون الجزاء لهؤلاء باعتبار الأفضل والأكمل، فيجري ما عداه على اعتبار الأكمل من أعمالهم، يعني ما كان دونه فإنه يُلحق، يجازيهم الله بالجزاء والثواب على الأكمل يعني بمقياس الأكمل من كرمه وتفضله، ومن أهل العلم من يقول: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} الأشياء التي تصدر منهم منها ما هو من قبيل المباح وهو مستوي الطرفين، ومنها ما هو من قبيل المشروع يعني ما طلبه الشارع، إما طلباً جازماً وهو الواجب، أو طلباً غير جازم وهو المستحب فيجازيهم الله -عز وجل- على هذه الأعمال بأحسن ما عملوا فالأحسن هو الواجب والمستحب، وهذا يستدل به الأصوليون وبعض من يتكلم بقضايا العمل والقدر والتحسين والتقبيح على أن المباح من قبيل الحسن، ومسألة التحسين والتقبيح التي تذكر في كتب العقائد، فهذا صحيح أن المباح من قبيل الحسن لكن المفارقة بين أهل السنة وبين غيرهم كالمعتزلة والأشاعرة أن المعتزلة يقولون: إن التقبيح والتحسين يرجعان إلى العقل فحسب وهذا خطأ، يقولون: الحسن ما حسنه العقل، والقبيح ما قبحه العقل، والأشاعرة مع أنهم يجعلون العقل قائداً لهم ومعولاً ويردون النصوص التي تخالف العقل في الصفات ونحو ذلك، إلا أن هذه إحدى المسائل التي يتناقضون فيها في مذهبهم، فيقولون: إن التحسين والتقبيح شرعيان لا مدخل للعقل بهما، وإنه ليس للأفعال والذوات حسن ولا قبح ذاتي، بمعنى أن الكذب والظلم والزنا والفواحش والبهتان أو ما أشبه ذلك صار قبيحاً؛ لأن الشارع نهى عنه ولو أمر به لكن حسناً، نقول نحن: أصلاً لا يمكن أن يأمر الله به، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء} [سورة الأعراف:٢٨]؛ لأن هذه أمور مذمومة قبيحة لها قبح ذاتي والعقل يدرك هذا أصلاً، ولهذا سئل الأعرابي بم عرفت أنه رسول الله؟ قال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه! وما نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به! فالعقول والفطر السليمة تدرك هذا، وإن

كان يخفى عليها بعضه، هناك أشياء لا تدركها العقول لكنها لا تناقض ما جاء به النقل، العقول الصحيحة لا يمكن أن تناقض، ولهذا قالوا: إن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بمحارات العقول، ولم يأتوا بمحالات العقول، جاءوا بمحارات العقول بمعنى أشياء تتوقف العقول فيها لا تدركها ولكن ما جاءوا بمحالات العقول، ما جاءوا بأشياء تحيلها العقول، أغلقوا المستحيل، ما يوجد، ولهذا لا يوجد تناقض بين العقل والنقل، ولهذا كان العقل من أدلة الشرع وهي الأدلة التابعة، وليست الأدلة الأصلية، ولهذا الصحيح والعبارة الدقيقة ألا يقال: العقل والشرع أو التعارض بين الشرع والعقل؛ لأن العقل من أدلة الشرع، وإنما نقول مثلاً: بين العقل والنقل، دل عليه العقل والنقل، لا نقول: دل عليه الشرع والعقل، فالعقل من أدلة الشرع، وهذه العبارة دارجة كثيراً لكنها غير دقيقة، يعني لا يقال: هذا دل عليه الشرع ودل عليه العقل، فالعقل من أدلة الشرع، يقال: دل عليه النقل والعقل، ولا تعارض بين العقل والنقل، ولا يقال: لا تعارض بين الشرع والعقل، وهنا {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} بعضهم قال: المقصود به المستحب والواجب؛ لأنهما بخلاف المباح فهو حسن فيجزيهم بأحسن، تفضيل، فالمباح حسن والمستحب والواجب أحسن، قال صاحب المراقي:

ما ربُّنا لم ينهَ عنه حَسَنُ *** وضدُّه القبيحُ والمستهجنُ

لكن المؤلف والناظم من الأشاعرة، ولذلك جاءت عبارته: ما ربنا لم ينه عنه حسن! هذه إذا قالها السني -هذه السنة المحضة- تكون صحيحة، ما ربنا لم ينه عنه حسن، لكن حينما يقولها من يعتقد عقيدة الأشاعرة فإنه يقصد معنى وراء ذلك هو أن مدار ذلك -التحسين والتقبيح- على الشرع فقط، وهذا غير صحيح.

وقوله: {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي: **يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى:** {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٤٠].

الشيخ الأمين محمد الشنقيطي -رحمه الله- فسر قوله: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} يعني الواجب والمستحب وما زاد عن المباح، فالمباح لا ثواب فيه ولا عقاب، فأحسن ما عملوا هي الطاعات؛ قال: لأنه قال بعده: {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ}، {أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}، هذا هو الجزاء على الطاعة والزيادة فوق ذلك هي من الله -تبارك وتعالى- حيث يجزي على الحسنة عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال: من أجل ألا يكون هناك تكرار، لو كان المراد {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} يعني بمضاعفة الثواب مثلاً أو نحو هذا فيكون {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} من قبيل التكرار، والقاعدة أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالجملة الثانية مؤسسة بمعنى جديد فيجازيهم على أعمالهم الطيبة على القُرَب والطاعات ويزيد هؤلاء من فضله بمضاعفة ذلك إلى أضعاف كثيرة.

وقال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [سورة الأنعام:١٦٠]، **وقال:** {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [سورة البقرة:٢٤٥]، **وقال:** {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} [سورة البقرة:٢٦١]، **كما قال هاهنا:** {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

{وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} يعني من غير عد ولا إحصاء.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة النور:٣٩]

.

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول "البقرة" مثلين ناريًا ومائيًا، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيًا وناريًا، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة.

فأما الأول من هذين المثلين: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يُرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحرٌ طامٌّ.

والقِيعة: جمع قاع، كجار وجِيرَةٍ، والقاع أيضًا: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإنما يكون أول النهار، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السرابَ من هو محتاج إلى الماء حسبه ماءً فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه {لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حَصَّل شيئًا، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [سورة الفرقان:٢٣].

وقال هاهنا: {وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، وهكذا رُوي عن أُبيّ بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد.

قوله هنا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ} لما ذكر الله -عز وجل- المثل السابق لنوره -تبارك وتعالى-، وما يكون من جراء ذلك من اهتداء من شاء الله هدايته لهذا النور ذكر حال من لم يهتدِ بهذا النور، فذكر لهؤلاء مثلين: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ}، هذا الأول، {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} [سورة النور:٤٠]، وأهل العلم منهم من يقول: إن "أو" للإباحة، بمعنى إن شئت مثلت لهم بهذا وإن شئت مثلت لهم بهذا، لك أن تختار أحد المثلين، فكل ذلك يصدق عليهم، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يختلف باختلاف أحوالهم، فالمثل الأول لطائفة منهم، والمثل الثاني لطائفة أخرى، كما قالوا في المثلين في سورة البقرة المائي والناري: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [سورة البقرة:١٧-١٨] ثم ذكر المثل الثاني: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٩]، وهناك ذكرنا أن من أهل العلم من يقول: إن كل مثل لطائفة تختلف عن الطائفة الأخرى، وهنا يقولون كذلك، فهذا يُحتاج إلى معرفته قبل الكلام على معنى المثلين، هل المثلان للكفار إن شئت مثلت لهم بهذا أو مثلت لهم بهذا؟ أو أن كل مثل يكون لطائفة أو لحال أو لنوع من الأعمال مثلاً، كمن يقول بأن أعمالهم التي يعملونها كالسراب لا يجدون لها ثواباً وجزاء عند الله -تبارك وتعالى-، وأما أحوالهم في كفرهم فهم في عمايتهم وجهالتهم وضلالهم كظلمات في بحر لجّي، فالأول تصوير لأعمالهم التي عملوها يرجون ثوابها فإذا وافوا فإنهم لا يجدون شيئاً، فمثّلهم بهذا السراب.

وبعضهم يقول: المقصود الإيضاح، فإن مُثلت أعمالهم بما يوجد فهي كالسراب، وإن مُثلت بما يُرى فهي كالظلمات، بما يوجد ثم يتلاشى، يتبعه الإنسان ثم بعد ذلك لا يحصل منه على شيء، وإن مُثلت بما يُرى فهي كالظلمات، هكذا قال بعضهم كالزجّاج، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ}، هذا صريح وواضح بأن المثل هذا قد ضرب لأعمال الكافرين، وهذا لا إشكال فيه، يعمل أعمالاً يُرجِّي ثوابها ثم إذا وافى لم يجد من ذلك شيئاً، ووجد الله له بالمرصاد، هذه خلاصة معنى هذا المثل.

والمثل الثاني: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ}، هذا الأقرب أنه تصوير لحال الكافرين في ضلالهم، {أَوْ كَظُلُمَاتٍ}، ولهذا الله -تبارك وتعالى- يشبه الضلال والكفر بالظلمات، والهدى والإيمان بالنور، فذكر المثل الأول بالنور في هداه، وذكر الضلال هنا بالظلمات، ولهذا قال الله -عز وجل-: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [سورة البقرة:٢٥٧]، فالنور هو الهدى، والظلمات هي الكفر، {أَوْ كَظُلُمَاتٍ} فهذا تصوير لحال هؤلاء الكافرين في كفرهم وضلالهم وعماهم وجهالتهم، فهما مثلان للكفار، الأول في أعمال يرجونها في أعمارهم، والثاني في كفرهم، حالهم مع كفرهم وضلالهم وجهالتهم، والله أعلم.

وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ((ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَيْرَ ابنَ الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: أي رَبَّنَا، عَطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فينطلقون فيتهافتون فيها))[٢٠].

وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط...

ابن كثير -رحمه الله- هنا يجعل المثلين لفئتين، الفئة الأولى { كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ...} إلى آخره، هؤلاء من كان جهلهم من قبيل الجهل المركب، يعمل ويعتقد أنه على حق ويجادل ولربما يدعو إليه ويُرجِّي ثوابه وينتظر، ويعتبر هذا هو الهدى، وهذا هو الحق ومن خالفه فهو ضال، وهؤلاء أئمة الكفر، هؤلاء دعاة إلى الضلال، هؤلاء من {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [سورة الجاثية:٢٣]، فهؤلاء ابن كثير -رحمه الله- يرى أن المثل الأول لهم، هؤلاء يرجون ثواباً، ويرجون كما يقول بعض الضُلال من الرافضة مثلاً: أسأل الله الثبات على هذا، فمثل هذا نسأل الله العافية.

المثل الثاني: هم أولائك الطَّماطم الجُهال الذين لا يفقهون، وإنما هم أتباع لكل ناعق، هؤلاء جهلهم، يقول: جهل بسيط، {كَظُلُمَاتٍ} هذا في جهالة في عماية، لكن الأول يُرجِّي الجزاء، ويظن أنه على بصيرة، وأنه سيلقى الثواب عند الله -تبارك وتعالى-، فابن كثير -رحمه الله- يرى أن كل مثل لفئة من فئات هؤلاء، وهذا قول لبعض أهل العلم في تفسيرها.

قال: **وهم الطَّماطم الأغشام**، الطَّماطم: رجل طماطم يعني أعجم، طمطمانية يعني العجمة، رجل طمطماني، ويقال للعجمة: طمطمة.

---

٢٠ - رواه البخاري، ، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة} [سورة القيامة ٢٢-٢٣]، برقم (٧٠٠١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٣).

وهم الطَّماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ}: قال قتادة: {لُجِّيٍّ} وهو العميق، {يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

قوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ}، ظاهر المثل تصوير للضلال وحال هؤلاء الضُلّال حيث يتمرغون في جهالتهم وضلالتهم وعماهم ظهراً لبطن، لا يبصرون الحق ولا يصلون إليه، فهم في عمى تام عنه، كما قال الله -عز وجل-: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [سورة البقرة:١٨]، لكن من أهل العلم من يحمل ذلك على معانٍ أخرى، بمعنى أنه يريد حمل المثل: {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ}، ما المقصود بهذه الظلمات، والبحر اللجي والموج والموج الآخر والسحاب؟، فيجعلون ذلك من قبيل الكناية عن غيره، وإنما يفسرونه بتفسيرات وإن تفرقت أقوالهم فيها إلا أنها ترجع إلى حمله على غير الظاهر المتبادر، وبعض أهل العلم ينكر هذا، ويجعله من غرائب التفسير، مع أنه منقول عن جماعة من السلف، من الصحابة والتابعين، ويأتي هذا.

وقال أُبيّ بن كعب في قوله تعالى: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}: فهو يتقلب في خمسة من الظُّلَم: فكلامه ظلمة...

قوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} قال قتادة: {لُّجِّيٍّ} هو العميق، يعني قال: اللجي هو العميق، وأيضاً معظم البحر، {فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله، {إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}، هل المقصود به أنه لا يراها؟ فـ "كاد" إذا جاءت منفية، لم أكد أفعل كذا، فهل معنى ذلك أني لم أفعل؟ لم أكد أراك، هل معنى ذلك أني ما رأيتك؟ وإذا دخلت على الفعل المضارع لم يكد فلان يصل، هل هذا نفي لوصوله أو أنه وصل بصعوبة؟ فأهل العلم يختلفون كثيراً من النحاة وأهل اللغة، وهكذا اختلف فيها أيضاً المفسرون، هل المقصود {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} أنه لا يراها؟ أو أن المقصود أنه يراها بعد معاناة ومشقة وصعوبة لشدة الظلام؟ هذا هو الأقرب، والله أعلم.

وقال أُبيّ بن كعب في قوله تعالى: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}: فهو يتقلب في خمسة من الظُّلَم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار.

وقال السُّدِّي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضًا.

وقوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، كقوله تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ} وهذا في مقابلة ما قال...

وقوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} ابن كثير -رحمه الله- جعل هذا المثل لحال طائفة من هؤلاء الكفار وهم المقلدة، الذين على جهالة وعماية بخلاف الدعاة إلى الكفر والضلال.

ومن أهل العلم من قال بغير هذا كما سبق، بعضهم يقول: إن كانت أعمالهم حسنة فهي كالسراب، وإن كانت سيئة فهي كالظلمات، أو هي كالسراب في الدنيا يؤملون عليها وفي الآخرة تكون ظلمات.

{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} يعني: البحر العميق {يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} الآن تراكمُ هذه الأشياء يدل على ظلمة شديدة، هذا القدر متحقق، ولا إشكال فيه في الآية، وحينما يكون الإنسان في لجة البحر يعني في المواضع العميقة منه التي هي معظم مائه، ركوب البحر في هذه الأماكن أمر مخوف، فإذا جاء الموج فإن هذا {مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ} بعضهم يقول: أي: متتابع، يعني من بعده موج، موج وفوقه موج وفوقه موج هذا يتبع هذا، فإذا تتابعت هذه الأمواج خاف من ركب البحر، فهو أصلاً في موضع مخوف في بحر لجي، فإذا جاء الموج تضاعف خوفه، فيتتابع هذا الموج عليه فيزداد الخوف، {مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} فهذا السحاب فإنه يزيد مخاوفه والسبب أنه لا يرى النجوم في السماء فيهتدي فيضيع في البحر، لا يرى فيه جبالاً ولا يرى أشياء يهتدي بها، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [سورة الأنعام:٩٧]، فوجود السحاب يمنع من الاهتداء، هو لا يعرف إلى أين يتجه، أيضاً السحاب مظنة لنزول المطر، فإذا نزل المطر تضاعفت مخاوفهم، والمطر تحصل معه رياح عادة، {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ} [سورة الأعراف:٥٧]، فتأتي الرياح التي تسوق السحاب، فتزداد المخاوف، ووجود المطر كذلك، وما يحصل مع المطر من رعد وبرق، فهذا القدر يصور شدة المخاوف وتَضاعُفَ هذه المخاوف، {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ}، فهو أبعد ما يكون عن الأمن -نسأل الله العافية-، وهذا الكافر الضال بعيد عن الأمن، ولهذا قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢] فالأمن الكامل لأهل الاهتداء الكامل، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، على قدر الإيمان على قدر ما يكون للإنسان من الأمن، {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}، على قدر إيمانكم على قدر ما يكون لكم من الأمن في الدنيا والآخرة.

ومن قال: {مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ} إن هذا يتراكم فهذا فيه زيادة في الظلمة، {كَظُلُمَاتٍ} جمعها هنا {فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} هذا تصوير لحال الكافر وما يتقلب فيه من عمى وجهالة.

من أهل العلم من يفسرون الأمثال بتفسير جزئي لا باعتبار التركيب، يعني كل لفظة يريد أن يجعلها تقابل شيئاً معيناً، فكلام ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: نقل عن أبي بن كعب، قبل ذلك قال: فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب، قال: وقال أبيّ -رضي الله عنه- في قوله: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}: **فهو يتقلب في خمسة من الظُّلَم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار**، فكل هذه ظلمات بعضها فوق بعض، وهذا ممكن أن يكون من جملة ما يدخل في المعنى، فهو يتقلب في أحواله كلها، وفي أقواله وأفعاله وتصرفاته، في جهالة وعماية، {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}، ولذلك إذا رأيت إنساناً قد تجمّع عليه ألوان الضلال فتقول: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}، بعضهم كان يفتخر وهو للأسف يعني أحد الأصوليين وينتسب

إلى الفقه يفتخر بأنه رافضي وأشعري، وذكر جملة من الأشياء، {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [سورة النور:٤٠]، ومنهم من يقول: إن قوله: {مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ} إلى آخره، يقول: المراد به الغشاوة على القلب والسمع والبصر كما قال الله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ}، وبعضهم -وهذا يروى عن ابن عباس -رضي الله عنه- يقول: إن الظلمات هي الأعمال، والبحر اللجي قلب الإنسان يعني الكافر، هذا {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} أعمال الكافر وقلب الكافر، وهذا فيه بعد، والعجيب أن ابن جرير -رحمه الله- اختار هذا القول، عمل الكافر وقلب الكافر، {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ}، فالظلمات هي الأعمال والبحر اللجي هو قلب هذا الكافر، {يَغْشَاهُ مَوْجٌ} هذه الغشاوة التي تكون على القلب والسمع والبصر من الشك والحيرة.

{مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} قالوا: هو الران الذي على القلب، وابن جرير ما قال بهذه التفاصيل كلها، لكن قال: قلب الكافر وعمل الكافر، فهذا لا يخلو من تكلف -والله تعالى أعلم-، وإنما هو تصوير لحال هذا الكافر وما يتقلب فيه من جهالة وعماية وبعد عن الله -تبارك وتعالى-، {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} نسأل الله العافية، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، كقوله تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ} وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [سورة النور:٣٥]، **فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً، وأن يُعظِم لنا نوراً.**

قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عُملت على خطأ وفساد وضلالة وحيرة من عُمّالها فيها، وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر لجي، ونسب البحر إلى اللجة وصفا له بأنه عميق كثير الماء، ولجة البحر معظمه {يَغْشَاهُ مَوْجٌ} يقول: يغشى البحرَ موجٌ {مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ} يقول: من فوق الموج موج آخر يغشاه، {مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} يقول: من فوق الموج الثاني الذي يغشى الموج الأول سحاب، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللجي مثلاً لقلب الكافر، يقول: عمل بنية قلب قد غمره الجهل، وتغشته الضلالة والحيرة، كما يغشى هذا البحرَ اللجي موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله، بأن الله ختم عليه فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر به حجج الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض"[٢١].

ويقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان:أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- عن الله -سبحانه وتعالى- وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قلّ

---

٢١ - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (١٩٧/١٩).

نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئاً له حاصل ينتفع به، وهي: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}، وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح الذين صدقوا الرسول -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- في أخباره ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره، ولم يضيعوها بالشهوات، فلا هم في علمهم من أهل الخوض الخراصين الذين هم في غمرة ساهون ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة التوبة:٦٩]، أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتهوكون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله -صلى الله عليه وسلم- من الحكمة وفصل الخطاب، إن عندهم إلا نخالة الأفكار، وزبالة الأذهان، التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها، وقدموها على السنة والقرآن، إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه، أوجبه لهم اتباع الهوى، ونخوة الشيطان، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الأول من أهل الجهل.

القسم الأول: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به، والظلم باتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالى فيهم: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} [سورة النجم:٢٣].

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل جهل وضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من أمّ السراب فلم يجده ماء بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين -سبحانه وتعالى- فحسب له ما عنده من العلم والعمل ووفاه إياه بمثاقيل الذر، وقدِم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثوراً؛ إذ لم يكن خالصاً لوجهه، ولا على سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباء منثوراً، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

والسراب ما يُرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقِيعة والقاع هو: المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد"[٢٢].

لا نبت فيه، أرض مستوية، وبعضهم يقول: قيعان هي: الأرض المنهبطة التي يجتمع فيها الماء، هذا يقال للأرض التي يجتمع فيها الماء، لكن الأرض التي يكون فيها السراب –القيعة- هي الأرض المستوية.

---

٢٢ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم (١٤-١٦).

وقال -رحمه الله-: "فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه فيخيب ظنه ويجده ناراً تتلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب يحسبونه ماء فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم فسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميما سقاهم إياه كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا، كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [سورة الكهف:١٠٤]، وهم الذين عنى بقوله: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان:٢٣]، وهم الذين عنى بقوله تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [سورة البقرة:١٦٧]"[٢٣].

ابن القيم -رحمه الله- يقول بأن كل مثل لطائفة، يعني كلام ابن القيم موافق لكلام ابن كثير، أن الفئة الأولى هم الذي يحسبون أنهم على شيء من الدعاة والمنظرين للضلال، والفئة الثانية لأتباعهم الجهلة.

وقال -رحمه الله-: "القسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى كظلمات -جمع ظلمة- وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله -صلوات الله وسلامه عليهم-، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور"[٢٤].

هذا التفسير أوضح وأقرب وأليق بالسياق -والله أعلم- في هذه الظلمات، وخلافاً لمن قال كما سبق: إن هذه الظلمات قلب الكافر، وعمل الكافر، والغلاف والران، وكل هذه الأشياء، كفره وجهله وعماه، كل هذه الأمور، أهواؤه المجتمعة، نفسه الأمارة، كل هذه مما يرديه، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وقال: "فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات"[٢٥].

وقال -رحمه الله-: "يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلمة، وإذا قابلتْ بصيرتُه الخفاشية ما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من النور جد في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيشُ أعشاها النهارُ بضوئهِ *** ووافقَها قِطْعٌ من الليلِ مظلمُ

---

٢٣ - اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (١٦-١٧).

٢٤ - المصدر السابق، (١٧).

٢٥ - المصدر السابق، (١٧).

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة، انحجر في حجرة الحشرات.

قوله: {بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} [سورة النور:٤٠]، اللجي: العميق، منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه.

قول الله تعالى ذكره: {يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ} تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: {يَغْشَاهُ} راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قوله: {مِّن فَوْقِهِ} عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب، فهاهنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، {إِذَا أَخْرَجَ} مَن في هذا البحر {يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}، واختلف في معنى ذلك، فقال كثير من النحاة: هو نفي لمقاربة رؤيتها، وهو أبلغ من نفيه الرؤية، فإنه قد يُنفى وقوع الشيء ولا تُنفى مقاربته"[٢٦].

يعني قد يُنفى وقوع الشيء ولا تُنفى مقاربته، الله يقول: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى} [سورة الإسراء:٣٢]، ما قال: ولا تفعلوا الزنا، ولا تزنوا، فإن النهي عن مقاربته أبلغ من النهي عن مواقعته، فالنهي عن مقاربته هو نهي عن كل ما يوصل إليه.

وقال -رحمه الله-: "فكأنه قال: لم يقارب رؤيتها بوجه.

قال هؤلاء: "كاد" من أفعال المقاربة لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات"[٢٧].

يعني كغيرها، تقول: لم يأتِ زيد، لم يذهب، لم يسافر، نفي للسفر، نفي للذهاب، نفي للإتيان، جاء زيد، أتى زيد، سافر زيد، إثبات، فيقولون: "كاد" مثل ذلك، لم يكد، فكاد من أفعال المقاربة، كاد بالإثبات بمعنى أن ذلك لم يحصل لكنه قارب الوقوع، كاد فلان أن يموت، كاد أن يموت عطشاً، يعني لم يمت، وتقول: لم يكد يصل، بمعنى أنه وصل بصعوبة.

وقال -رحمه الله-: "فإذا قيل: كاد يفعل، فهو إثبات مقاربة الفعل، فإذا قيل: لم يكد يفعل فهو نفي لمقاربة الفعل"[٢٨].

وقال -رحمه الله-: "وقالت طائفة أخرى: بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر; لأجل تلك الظلمات، قالوا: لأن كاد لها شأن ليس لغيرها من الأفعال فإنها إذا أثبتت نفت"[٢٩].

إذا أُثبتت نفت، تقول: كاد يصلي بمعنى أنه لم يصل، نفت، وإذا نفيت، {لَمْ يَكَدْ} فمعناه أنه حصل هذا لكن بصعوبة.

---

٢٦ - اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (١٧-١٨).

٢٧ - المصدر السابق (١٨).

٢٨ - المصدر السابق (١٨).

٢٩ - المصدر السابق (١٨).

وقال -رحمه الله-: "فإنها إذا أثبتت نفت وإذا نفت أثبتت، فإذا قلت: ما كدت أصل إليك فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة، فهذا إثبات للوصول، وإذا قلت: كاد زيد يقوم، فهي نفي لقيامه، كما قال تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [سورة الجن:١٩]، ومنه قوله تعالى: {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا} [سورة القلم:٥١] الآية، وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً:

أنحويَّ هذا العصرِ ما هي لفظةٌ *** جرتْ في لسانيْ جرهمٍ وثمودِ

إذا استُعملتْ في صورة النفي أثبتتْ *** وإن أثبتتْ قامت مقامَ جحودِ؟

وقالت فرقة ثالثة منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره: إن استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها كقولك: كاد زيد يقوم، واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى، فهي عنده تنفي الخبر سواء كانت منفية أو مثبتة فـ"لم يكد زيد يقوم" أبلغ عنده في النفي من "لم يقم"، واحتج بأنها إذا نفت -وهي من أفعال المقاربة- فقد نفت مقاربة الفعل وهو أبلغ من نفيه، وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها، وذلك يدل على عدم وقوعه، واعتذر عن مثل قوله تعالى: {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [سورة البقرة:٧١] الآية وعن مثل قوله: وصلت إليك وما كدت أصل، وسلمت وما كدت أسلم، بأن هذا وارد على كلامين متباينين أي: فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له، فالأول: يقتضي وجود الفعل، والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له بل كان آيساً منه، فهما كلامان مقصود بهما أمران متغايران، وذهبت فرقة رابعة: إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها، فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل، وإن كانت في طرف النفي، فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربته نحو قوله تعالى: {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}، وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات نحو قوله تعالى: {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}.

فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة، والصحيح أنها فعل يقتضي المقاربة ولها حكم سائر الأفعال"[٣٠].

يعني لها حكم سائر الأفعال، بمعنى أنها في حال الإثبات تُثبت وفي حال النفي تنفي، لكنه هنا ذكر معنى آخر زيادة على قول من قال بهذا من النحاة، أضاف إليه معنى صحيحاً وهو الواقع الذي يفهمه الناس في كلامهم ويتبادر إلى أذهانهم؛ لأنك حينما تناقش اللفظة من حيث دلالتها التي وضعت لها فدون النظر إلى عرف الاستعمال فإنك قد لا تصيب المعنى، فابن القيم -رحمه الله- ذكر الدلالة في أصل الوضع ثم ذكر ما يدل عليه عرف الاستعمال، فقال: "لها حكم سائر الأفعال ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه، وإنما استفيد من لوازم معناها، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً فيكون منفياً باللزوم، وأما إذا استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة كما إذا قلت: لا يكاد البطال يفلح، ولا يكاد البخيل يسود، ولا يكاد الجبان يفرح ونحوه"، وإن كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً، وهذا التحقيق في أمرها.

وقال -رحمه الله-: "والمقصود أن قوله: {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة وهو الأظهر، فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها؟!.

---

٣٠ - اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (١٨-٢٠).

قال ذو الرُّمة:

إذا غيّر النأيُ المحبين لم يكدْ *** رسيسُ الهوى مِن حبِّ ميّةَ يبرحُ

أي: لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول؟، فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمّله ورجاه، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها -لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان- بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه"[٣١].

هذا الكلام لابن القيم يختلف عن كلامه الأول، الكلام في أحوال العاملين، أنهم من يعمل من دعاة الضلال ومن الأتباع، وهنا شبه أعمالهم أولاً في فوات النفع بالسراب، وشبهها في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة بالظلمات، فهنا جعل المثلين للأعمال وليسا للعاملين، باعتبار أن الله قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ} فشبه أعمالهم {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [سورة النور:٣٩].

وقال -رحمه الله-: "فيا له تشبيها ما أبدعه وأشده مطابقة بحال أهل البدع والضلال وحال مَن عبد الله -سبحانه وتعالى- على خلاف ما بعث به رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأنزل به كتابه"[٣٢].

يعني بمعنى المطابقة أن الله قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} هذا بالمطابقة، باللزوم: يلزم من ذلك أن ما بنيت عليه هذه الأعمال من الأفكار والمعلومات المغلوطة التي هي في الواقع جهالات أنه تشبيه لها كذلك بالسراب، هو يظن أنه على شيء، وأنه يتبع شيئاً، وهو في الواقع يتبع جهلاً وعمى، يظنها أدلة ويظنها براهين ويظنها حقائق، ولكن يبصر عندما تقوم الحقائق ما تحت قدميه.

وقال -رحمه الله-: "وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم، وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا نور فيها، وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد، ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة، ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن بغير موضع لأوليائه وأعدائه"[٣٣].

تشبيه حال الكفار طائفة كذا وطائفة كذا مثلاً أو أنك تختار أحد المثلين للكافرين، إن شئت مثلتهم بهذا، وإن شئت مثلتهم بهذا، للكافرين، والله يقول: {أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ}، وليس هناك انفصال بين العامل والعمل، فإذا كان هذا تصويراً لأعمالهم، فهو تصوير لأحوالهم؛ لأنهم إنما انقسموا لهذه الأحوال بناء على الأعمال، وإنما جاءت هذه الأعمال بناء على معطيات قامت عليها من علوم وفهوم وعقائد فاسدة، والناس أسرى لأفكارهم وعقائدهم، فجرت هذه الأعمال والفعال القبيحة بناء على العقائد الفاسدة والجهالات والأوهام التي يتبعونها، هذه الأمور متلازمة، عقائد وأفكار، وأعمال، والعاملون، فإذا قال قائل: هذا تمثيل لهم، فهذا صحيح، وإذا

---

٣١ - المصدر السابق (٢٠).

٣٢ - المصدر السابق (٢٠).

٣٣ - المصدر السابق (٢٠).

قيل: هذا تمثيل لأعمالهم فهذا صحيح، أعمالهم جهالات، وهذه الأعمال تصدر من عاملين، فيلحقهم معرّتها وضررها، وهذا أمر لا يخفى.

وقال -رحمه الله تعالى-: "ذكر سبحانه للكافرين مثلين، مثلاً بالسراب ومثلاً بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان: أحدهما: من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم"[٣٤].

وقال -رحمه الله-: "وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي: الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى"[٣٥].

هذه من الزيادات على الكلام السابق، يعني من أهل العلم من يحاول أن يطبق كل جزئية من المثل على شيء يتصل بالكافر وصفته، فهنا: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ}، سرِّحْ ذهنك: سراب بقيعة أرض قفر إذاً خالية ما فيها أحد كذا، كذلك قلب هذا الكافر مقفر خالٍ من الخير والهدى والإيمان.

وقال -رحمه الله-: "وتأمل ما تحت قوله: {يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً} والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئاً، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولغير الله جعلت كالسراب فرُفعت لهم أظمأ ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئاً ووجدوا الله سبحانه ثَمّ، فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم"[٣٦].

وقال -رحمه الله-: "وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلاً، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله من بطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه، بل صار معذباً بفوات نفعه وبحصول ضد النفع، فلهذا قال الله تعالى: {وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى"[٣٧].

وقال -رحمه الله-: "النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة: وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور

---

٣٤ - الأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم (١٥)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨١).

٣٥ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨٢)، والأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم (١٥-١٦).

٣٦ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨٢)، والأمثال في القرآن الكريم (١٦).

٣٧ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨٣)، والأمثال في القرآن الكريم (١٦).

الإيمان، وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور نظير المثليْن اللذيْن ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهما المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور، والموت المضاد للحياة، فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد، ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعَموا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين"[٣٨].

يعني جعل هذا لطائفتين، لكن جعل الأول هم أهل الجهل البسيط، مع أن الواقع أنهم ليسوا أهل جهل بسيط، فهم يحسبون أنهم على حق، والثاني: هم أهل الغي الذين عرفوا الحق وأعرضوا عنه، وجعل الطائفة الثانية أشد، وكلامه الأول: الطائفة الأولى هي الأشد، وهكذا كلام ابن كثير.

وقال -رحمه الله-: "وحال الطائفتين مخالف لحال المُنعَم عليهم المذكورين في قوله تعالى: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ}** إلى قوله: **{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعَم عليهم وهم: أهل النور، والضالون وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق؛ ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل"[٣٩].

المثل الأول: يقول: لأصحاب العمل الباطل، والثاني: لأصحاب العلم الذي لا ينفع، لا يلتبس عليك هذا، يعني هذا كلام مغاير للكلام الذي قبله، لكنه ينبغي أن لا يلتبس على طالب العلم، فكما قلت: هذه الأمور أصلاً متلازمة، وإن كان الذي أظنه يعني أكثر تبادراً -والله تعالى أعلم- أن المثل الأول هو يمثل أعمالهم **{كَسَرَابٍ}**، والمثل الثاني يمثل أحوالهم وما هم فيه من الكفر والجهل والضلال، لكن هذه الأمور كما سبق

---

٣٨ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨٤)، والأمثال في القرآن الكريم (١٧-١٨).

٣٩ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٨٤-١٨٥)، والأمثال في القرآن الكريم (١٨).

متلازمة، فأحياناً من أهل العلم من يعبر بالعاملين، وأحياناً بعضهم يذكر العمل، أن ذلك للأعمال وهذه أمور متلازمة، فالعمل ملازم لعامله، والله تعالى أعلم.

يكفي هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٤١ إلى الآية ٥٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة النور قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [سورة النور:٤١-٤٢].

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحه من في السموات والأرض، أي: من الملائكة والأناسي، والجان والحيوان، حتى الجماد، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...} الآية [سورة الإسراء: ٤٤].

وقوله: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله، -عز وجل.

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}.

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا معقب لحكمه، {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء؛ {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا...} الآية [سورة النجم:٣١]**، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والآخرة.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}** بمعنى ألم تعلم، وليس المراد -والله تعالى أعلم- أن الرؤية هنا بصرية؛ لأن ذلك لا يُبصَر، والتسبيح على ظاهره تسبيح حقيقي، ولكن كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** [سورة الإسراء:٤٤]، فهذه الآية نص في بيان المراد: لا نفقه هذا التسبيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح قال: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث))[1]، والله قال في حق داود -عليه الصلاة والسلام-: **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}** [سورة سبأ:١٠]، يعني تردد معه، وكذلك الطير، وسليمان -صلى الله عليه وسلم- قال: **{عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ}** [سورة النمل:١٦]، ولمّا خرج -عليه الصلاة والسلام- **{قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }** [سورة النمل:١٨]، وهكذا ما جاء عن النبي

---

١ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

-صلى الله عليه وسلم-: ((خرج نبي من الأنبياء يستسقي فوجد نملة))[٢] الحديث، كل هذا يدل على أن هذه المخلوقات من الجمادات والحيوان تسبح لله، وأنها تعرف ربها، وأيضاً ما جاء في الحديث من تسبيح الطعام، وتسبيح الحصى، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}، وذكر هنا الفعل المضارع في التسبيح، ومعلوم أن الفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث فهذا يتكرر منها، وفي المواضع التي ذكر فيها الفعل الماضي {سَبَّحَ لِلَّهِ} [سورة الحديد:١]، والأمر في قوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١] كل ذلك يدل على أن الله -جل جلاله- مستحق للتسبيح في الأزمنة الثلاثة الماضي، والحاضر والمستقبل، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ} [سورة الإسراء:٤٤]، وقوله: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} عقب {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مع أنه يشمل الطير، والتعبير بمَن التي تستعمل في من يعلم، أو بعضهم يعبر أو يقول: العاقل، باعتبار أنه الأشرف مثلاً، أو أنه محل التكليف، وهنا خص الطير بعد ذكر العموم وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وإنما يكون هذا -يعني ذكر الخاص بعد العام- بمعنى كقوله -تبارك وتعالى-: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [سورة البقرة:٩٨]، فخصهما لمنزلتهما عند الله -تبارك وتعالى-، وهنا الطير وذكر هذه الصفة لها، هذه الحال {صَافَّاتٍ} بعض أهل العلم يقول: ذكر الطير لحالها العجيبة، فهي تطير في الهواء، وتمشي أيضاً على رجلين، وهكذا قول من قال: إنها ليست في السماوات وليست على الأرض، وإنما في الهواء، والمقصود أن الله -تبارك وتعالى- ذكر الطير وهي داخلة في العموم السابق، يعني على هذا القول الأخير ليست داخلة لا تكون داخلة في العموم قبله، ولكنها داخلة -والله تعالى أعلم-، وهذا هو الأقرب، وأنه خصها لما لها من الأحوال العجيبة من الطيران لاسيما في هذه الصفة التي ذكرها الله -عز وجل- "صافات"، بمعنى أنها تصفّ أجنحتها في الهواء كما قال الله -عز وجل-: {صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} [سورة الملك:١٩] يعني تقبض أجنحتها، وهذا من أدل الدلائل على قدرة الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال الله في الموضع الآخر: {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} وليس معناه أنه ما يقبضها ويأخذها إلا الرحمن، وإنما المعنى ما يقيمها بهذه الحال بحيث لا تسقط ولا تقع، {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا} [سورة فاطر:٤١] فالطير ما يمسكها في الهواء فيقيمها فيه لا تسقط مع وجود الجاذبية إلا الله -جل جلاله-، قال: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} أي: في حال طيرانها تسبح ربها بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} أي كل أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله -تبارك وتعالى-، قوله: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} "علم" الفاعل هنا مستتر، فهو ضمير لكن هل يعود على الله -عز وجل-، أو يعود على هذه الأشياء المسبحة، يُحتمل الاثنان يحتمل أن يكون عائداً إلى الله -تبارك وتعالى- {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}، أي الله، والقرينة الدالة على هذا هي قوله بعد ذلك {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}، ومن أهل العلم من يقول: إنه يعود على المسبحِ، {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ} أي هو صلاة نفسه وتسبيحه، يعني

---

٢ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٢٩٤٨٧)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، برقم (٦٧٠).

أن الله قد علمها وألهمها وأرشدها إلى ما تسبح به ربها {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ} من هذه المخلوقات المسبحة من الطير وغيرها كل قد علم صلاته، صلاة نفسه وتسبيحه، وصاحب هذا القول يحتج بأمرين:

الأمر الأول: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} فأقرب مذكور من في السموات والأرض والطير.

الأمر الثاني: أنّ علم الله -تبارك وتعالى- مذكور بعده {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} والقاعدة أن التأسيس مقدم على التوكيد، وإظهار الكلام بين التأسيس أو التوكيد فالمقدم هو التأسيس؛ لأنه يُنشئ معنى جديداً لا يكون تكراراً، وهذا أولى، وهذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا حيث قال:

وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، هذا تلخيص المعنى يعني {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ} أي صلاة نفسه بما أرشده الله -عز وجل- وعلّمه، ثم ذكر علِمه -تبارك وتعالى- بأحوالها، {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}، والمراد هنا بالصلاة والتسبيح: الصلاة في اللغة: بمعنى الدعاء.

والتسبيح: بمعنى التنزيه.

ومن هنا قال بعض أهل العلم: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ} أي دعاءه فهي تدعو ربها: وتسبيحه: يعني تنزيهه، ومن أهل العلم من يقول: هما بمعنى واحد، كل قد علم صلاته وتسبيحه، فالصلاة يقال لها: تسبيح، لو كنت مسبحاً لأتممت[٣]، ولكن التأسيس مقدم على التوكيد، ومن أهل العلم من يقول: الصلاة هنا على ظاهرها هي تصلي لكن بطريقة تختص بها، وتسبح ربها -تبارك وتعالى- كما علمها، وهذا قال به بعض أهل العلم كالشنقيطي -رحمة الله عليه- إجراءً على ظاهره، وقول من قال: إن المقصود الدعاء هو إجراء له أيضا على الظاهر، لكن غاية ما هنالك أن يقال: إنه حمل -أعني الشنقيطي رحمه الله- عمل الصلاة على المعنى الشرعي، وذاك حمله على المعنى اللغوي، -والله تعالى أعلم-، والأمر يحتمل، {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران:١٨٩]، والآيات التي جاء فيها سجود المخلوقات جميعا لربها وخالقها -جل جلاله- بعضهم يقول: السجود بمعنى الخضوع، ومنهم من يقول: سجود الظلال، ولا مانع من حمله على ظاهره، ولكن سجودها يختص بها، ولا يحتاج أن يقال: إن السجود في كل الحالات هو وضع الجبهة على الأرض، إنما لكل شيء سجود يختص به، فإذا قلنا هناك: إن لها سجوداً يليق بها، فيمكن أن نقول هنا -أيضا-: إن لها صلاة تليق بها فالأمر محتمل، لكن القدر الذي لابد منه هو أن يقال: إن هذه المخلوقات معظمة لربها مقدسة له، لكن يبقى خلاف في التفاصيل التي وراء ذلك، وليس لأحد أن يكذب بما جاء في القرآن، ويقول: هذه لا تفقه ولا تفهم، وليس لها إدراك ومن ثَم فهي لا تعرف التسبيح، ولا تعرف العبادة لله -جل جلاله-، وقد حن الجذع لفراق النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} يعني هذه المذكورات قبلُ عليم بعبادتها بصلاتها وبتسبيحها، لا يخفى عليه من ذلك شيء ثم قال: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}.

وسفيان الثوري يقول: إن الطير لها صلاة لا ركوع فيها ولا سجود، وهذا مرفوع إلى النبي -صلى الله عليه

---

٣ - رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

وسلم-، {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} باعتبار أن الصلاة للبعض والتسبيح للبعض، يعني الأصل أن ذلك يرجع إلى الجميع.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ} [سورة النور:٤٣-٤٤].

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء.

الإزجاء هو السوق شيئا فشيئا، ومعنى يزجي سحابا أي يسوقه شيئا فشيئا، وهذا مشاهد.

{ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ} أي: يجمعه بعد تفرقه، {ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا} أي: متراكمًا، أي: يركب بعضه بعضًا، {فَتَرَى الْوَدْقَ} أي المطر {يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} أي: من خَلَلِه، وكذا قرأها ابن عباس والضحاك.

خلله يعني من فُتوقه فتوق السحاب، والودق هو المطر، فإذا تراكم هذا السحاب وتكثف عند ذلك يخرج من فتوقه هذا المطر.

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فَتَقُمّ الأرض قماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير -رحمهما الله.

وقوله: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ}: قال بعض النحاة: "مِن" الأولى: لابتداء الغاية، والثانية: للتبعيض، والثالثة: لبيان الجنس، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: {مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} معناه: أن في السماء جبالَ بَرَد ينزل الله منها البرد، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب، فإن "من" الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا، لكنها بَدَل من الأولى، والله أعلم.

الرياح المثيرة هي التي تسبق المطر، تثير التراب قبل أن يأتي المطر بلحظات، وأحياناً تأتي رياح وتحمل معها، تقمّ الأرض.

يعني الآن مِن الأولى هي بالاتفاق لابتداء الغاية، ينزل من السماء الذي هو السحاب، فمن لابتداء الغاية {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ}، هذه الثانية {مِنْ جِبَالٍ}، والثالثة {مِنْ بَرَدٍ}، فالخلاف في الثانية والثالثة، خلاف كثير، الأولى لابتداء الغاية الماء ينزل هذا المطر ينزل من السماء، والسماء يقال: لكل ما علا وارتفع، فيقال ذلك للسحاب، ويقال للسقف المعروف، {مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ} فمن هذه الثانية يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **الثانية للتبعيض**، {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ} بمعنى أن السماء ليس السحاب، من جبال في السماء بمعنى أن المطر ينزل من السماء التي هي السماء المعروفة فيها جبال فينزل منها هذه الجبال، فيها من برد؛ لأن الله قال: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ} ما ينزل كل الجبال، وإنما ينزل منها فهي للتبعيض.

فمن الجبال تبعيضية، ينزل منها، ما يقول: يُنزّل جبالاً من السماء، وإنما يُنزل بعض هذه الجبال جزءاً منها، بعضاً منها، هذا احتمال الآن قال: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} قال: والثالثة لبيان الجنس، هذا الذي ينزل من الجبال فيها من برد، لبيان الجنس هذا معنى، ويقول هنا: وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: {مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد وأما

من جعل الجبال هنا كناية عن السحاب فإن من الثانية عند هذا لابتداء الغاية، فتكون من قبيل البدل، {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ} الذي هو السحاب، {مِنْ جِبَالٍ} فالجبال هي السحاب، {فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} تكون الثانية بدلاً من الأولى، {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ} قال: **لابتداء الغاية أيضاً لكنها بدل من الأولى -والله أعلم-**، هذا أحد الأقوال في مِن الثانية.

وهناك من يقول: إنها زائدة ينزل من السماء جبالاً، يعني زائدة إعراباً، وإلا فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ} أي ينزل من السماء جبالاً فيها من برد، ولم يقل ينزلها جميعاً، فقول من قال: إنها تبعيضية أوضح من قول من قال: إنها زائدة.

والأقوال في الثالثة كثيرة {فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} فيها الأقوال الثلاثة الموجودة في الثانية: التبعيض، أو أنها زائدة، أو أنها لبيان الجنس، وزيادةٌ من الأقوال على هذا، ولا أرى حاجة للتوسع في هذه الإعرابات، فليس المقصود هو التوسع في الأعاريب، أو استخراج المعاني التي تخرجنا عن منهج المؤلف يعني الإغراق في استنباط الأحكام الفقهية، أو القضايا التربوية، وإنما المقصود مناقشة النص الذي أمامنا من أجل أن نفهم ونوجه الأقوال وما أشبه ذلك.

وقوله: {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} يحتمل أن يكون المراد بقوله: {فَيُصِيبُ بِهِ} أي: بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرَد فيكون قوله: {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} رحمة لهم، {وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} أي: يؤخر عنهم الغيث.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {فَيُصِيبُ بِهِ} أي: بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم. ويصرفه عمن يشاء أي: رحمة بهم.

قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} المطر، ثم قال: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ} إذا أرجعناه إلى الأخير فهو البرد، {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} فيتلف زروعه، ويحصل له ما يحصل من الضرر {وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ}، أو أن يكون المقصود مجموع ما ذكر مما يحصل من إزجاء السحاب، وما يكون من جراء ذلك من نزول المطر ونزول البرد {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} وهذا أعم في المعنى كما هو ظاهر.

وقوله: {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ} أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته.

وقوله: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي: يتصرف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيرًا، ويقصر الذي كان طويلا.

قوله: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} الحافظ ابن كثير قال: **يتصرف فيهما**، قال: فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدل إلى آخره يعني {يُقَلِّبُ اللَّهُ} بمعني يصرّف الليل والنهار في الطول والقصر، ومن أهل العلم من يقول: بالتعاقب {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} يأتي الليل ويعقبه النهار وهكذا، {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [سورة يس:٤٠]، ومن أهل العلم من يقول: يقلب الله الليل والنهار بما يجري فيهما من الحوادث والأقدار، وهذا أبعد هذه المعاني، ولو قال قائل: إن قوله -تبارك وتعالى-: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} بالطول والقصر، والتعاقب فإن ذلك كله من التقليب، داخل في هذا التقليب، يطول هذا ويقصر

هذا، وهذا يأتي بعد هذا وهكذا، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، واللفظ أو الجملة أو الآية إذا احتملت أكثر من معنى ولم يوجد مانع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها، فكل هذا داخل في التقليب لكن قول من قال: إن المقصود ما يجري فيهما من الحوادث والأقدار ليس هذا هو الظاهر في القرآن، وإنما يحمل الكلام على ظاهره المتبادر إلا لدليل، ولا حاجة هنا إلى الحمل على هذه المعاني.

والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأولِي الأبْصَارِ} أي: **لدليلا على عظمته تعالى، كما قال الله تعالى:** **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الألْبَابِ}** [سورة آل عمران:١٩٠]، **وما بعدها من الآيات الكريمات.**

بمعنى عبرة: آية يعتبرون بها، وأصل ذلك كما سبق في بعض المناسبات أن العبرة فيها معنى الانتقال، فحينما تقول: صار فلان عبرة بغيره فهم ينظرون إلى ما حصل له وحل به ثم يرجعون إلى أنفسهم فيعتبرون ويقولون: العاقل من وُعظ بغيره يعني من اعتبر بغيره، والشقي من وُعظ بنفسه، هذا أصل العبرة من العبور ولهذا يقال: معبر، وعبّارة، فيجتاز من شيء إلى آخر، هذا ينتقل من حال هذا إلى حال نفسه، فيقول: لو كنت أنا لكان، ولهذا قالوا: العِبرة، ويقال لها: عَبرة؛ لأن العبرة مقدمة البكاء استعبر فبكى؛ لأن فيها معنى العبور، والعبرة تنتقل من الخد إلى العين أو العكس إذا استعبر بكى، وقالوا: في العبرة الارتباط بين العين وبين الخد أو الشفة أو نحو ذلك، استعبر، والصغير حينما يقال له شيء يبدأ يستعبر فأحيانا تدركه قبل أن يبكي وتنهي المشكلة، ولا ينزل الدمع ولا يحصل البكاء، يعني قد تأخذ شيئاً منه مثلا فتتغير الملامح، إن تركته قليلا عقّبه بالبكاء، وقد لا تفلح في إسكاته بسهولة لكن العبرة هذه يمكن أن تستدرك فهي مقدمة.

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة النور:٤٥].

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد.

في قوله: **{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ}** "كل" هذه أقوى صيغة من صيغ العموم، **{كُلَّ دَابَّةٍ}** والأصل أن الدابة هي: ما يدب على الأرض، **{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ}** الجمهور من أهل العلم المفسرين يقولون: المقصود في ذلك هو النطفة، وهذا الذي اختاره أيضاً ابن جرير -رحمه الله-: النطفة، لكنه يرِد على هذا أن من هذه الدواب أو المخلوقات ما لم يخلق من النطفة سواء كان من الآدميين مثل: آدم وحواء وعيسى -صلى الله عليه وسلم-، أو كان من غير الآدميين مثل الحية التي صارت لموسى، وناقة صالح، والكبش الذي أنزله الله فداء لإسماعيل -عليه السلام- يؤتى للموت، وهناك أشياء من المخلوقات من الدواب قد لا تخلق من النطفة، والجمهور يقولون: المقصود من ماء أي من النطفة، وقالوا عن الأشياء الخارجة عن هذا: المقصود الغالب أن الله خلق كل دابة من ماء، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك ابتداء خلق الإنسان حيث إن الله خلق آدم -عليه الصلاة والسلام- من الطين الذي بل بالماء فصار طينا إلى آخره، ولكن هنا الله يقول: **{كُلَّ دَابَّةٍ}** فهذا لا يختص بآدم -عليه الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون المراد بذلك ما ذكره الله -عز

وجل- في الآية الأخرى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [سورة الأنبياء:٣٠] خلق كل دابة من ماء، أن لا يكون المراد ابتداء الخلق من الماء، وإنما المقصود أن قوامها على الماء، {خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ}، {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} يشعر بأن أصل الخلق من الماء، و"كل" هذا نص، والأصوليون يقولون: إن العموم قد يخصصه الحس، وقد يخصصه العقل، وقد يخصصه النقل، وأما على طريقة الشاطبي -وهي أحسن- فإنه يعبر عن ذلك بالعموم الاستعمالي، بمعنى أنه يصدق على ما يصلح له، وأن العرب تفهم ذلك عمن خاطبها بحسب المقام والسياق، وطريقة الشاطبي هذه جيدة فقوله -تبارك وتعالى- مثلاً عن المسجد الحرام أو عن الحرم {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧] فــ "كل" نص في العموم، يقول الأصوليون: هنا الذي خصصه هو الحس؛ لأنه بالحس ما نشاهد كل الثمرات في الدنيا تأتي للحرم، ولكن على طريقة الشاطبي يقول: هذا العموم الاستعمالي بمعنى أن العرب تفهم مثل هذا {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} يعني مما جرت العادة يجبى إليه أو إلى مثله، ولهذا لم يعترض المشركون ولم يقولوا: هناك ثمرات في كوريا وفي الأرجنتين وفي إندونيسيا لم يؤت بها إلى الحرم، وهكذا في قوله عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣] يقولون: ما أوتيت ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وإنما المقصود كما يقول الشاطبي: إنها أوتيت من كل شيء مما يقوم به مُلكها ويصلح لمثلها، وأولائك يقولون: خصصها الحس، وهكذا في قوله: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥]، الريح أرسلها الله على عاد، تدمر كل شيء، قالوا: ما دمرت السماوات ولا الأرض بل ولا المساكن، "فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم" قالوا: تدمر كل شيء مما جاءت لتدميره، ولا حاجة أن نقول: خصصها الحس، باعتبار أن السماوات والأرض المشاهَد أنها لم تدمر، وبعضهم يعتبر أن بعض هذه الأمثلة من قبيل تخصيص العقل، ولا حاجة لهذا كله حينما يقال: هذا العموم الاستعمالي، فــ{خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} على قول الجمهور باعتبار الأغلب والعموم، والله أعلم.

{فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ} كالحية وما شاكلها، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ} كالإنسان والطير، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} كالأنعام وسائر الحيوانات.

بدأ بالذي يمشي على بطنه، وهذا أدل على القدرة، ليس له رجلين يمشي عليهما، ثم الذي يمشي على رجلين، ثم الذي يمشي على أربع، ثم إن الله -تبارك وتعالى- هنا ذكر هذه الثلاثة ولم يذكر الزيادة على الأربع كالعناكب وبعض الديدان، وبعض المخلوقات في البحر، فيقال: إن هذه الآية ليس فيها حصر، ولا يمنع من وجود صور أخرى، ثم قال بعده: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء} فيدخل فيه ما زاد على ذلك، ومن أهل العلم من قال: إن التي تمشي على أربع الواقع أن التي تعتمد عليها هي أربع، والباقي زائدة، لكن هذا الكلام غير صحيح؛ لأن بعض الديدان الطويلة كأم أربع وأربعين ولربما أكثر توجد في بلاد شرق أسيا، وفي بعض البلدان بهذا الحجم تقريباً والأرجل المتساوية، فالآية ليس فيها حصر أصلاً، ولا إشكال {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}.

ولهذا قال: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

هنا قوله: {خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ...} ومَن تستعمل لمن يعلم أو يعقل، والذين يعبرون بيعلم يقولون: تستعمل للعالم؛ ليدخل فيها الملائكة، والملائكة يقال: توصف بالعلم، وعبر بمَن وهي تستعمل لمن يعقل ويعلم من أهل العلم من يقول: عبر بالأشرف من هذه وهو من يعقل، فجيء بمن في هذه المخلوقات، منهم من يمشي على كذا {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاء}، وفي القراءة الأخرى: {خالق كل دابة من ماء}، {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} هو تقرير للمعنى -والله أعلم- باعتبار أن "والله خلق" إخبار عن الخلق السابق، خلق كل دابة فمنهم كذا، ومنهم كذا، ومنهم كذا، ثم قال: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} فهو يقرر تفرده بالخلق.

{لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة النور:٤٦].

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًا، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

قوله: {لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ} أي أنها موضحة للحق مجلية له لا تترك فيه لبساً، لكن قد تعمى عنها أعين الخفافيش:

خفافيشُ أعشاها النهار بضوئِهِ *** ووافقها قِطعٌ من الليل مظلمُ

فالنهار لا يخفى على ذي عينين، ولكن يُعشي أعينَ الخفافيش ضوءُ النهار، وهذه الآيات مع وضوحها وبيانها إلا أنها تعمى عنها بعض النفوس، فعُمي البصائر لا ينتفعون بها، ولا يهتدون إلى الحق.

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة النور:٤٧-٥٢].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولا بألسنتهم: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}.

وقوله: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ} أي: إذا طُلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...} إلى قوله: {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [سورة النساء:٦٠-٦١].

وقوله: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}، أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: {مُذْعِنِينَ} وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي -صلى الله عليه وسلم- ليروج باطله ثَمّ، فإذعانه أولا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره؛ ولهذا قال تعالى:

{أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مَرَض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيّا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منطوٍ من هذه الصفات.

{يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} يعني في غاية الانقياد والخضوع والاستجابة.

وقوله: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} الذي هو النفاق، ويكون ذلك سببَ الانصراف والإعراض {أَمِ ارْتَابُوا} أي: عرض لهم ارتياب لأمر ما، {أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} يخافون أن يحصل لهم ظلم بحكم الله -تبارك وتعالى-، الحيف هو الظلم والجور.

{ارْتَابُوا} يعني حصل لهم شك، والريب هو الشك المقلق، أي شك مع قلق، شك خاص حصل لهم ريب، عرض لهم ريب في أنفسهم يعني قد يكون ذلك أمراً متجذراً وهو مرض القلوب بالنفاق، فذلك دعاهم إلى الإعراض أو يكون قد عرض لهم شيء من الريب حينها فأعرضوا.

وقوله: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أي: سمعًا وطاعة؛ ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

وقال قتادة في هذه الآية: {أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} ذُكر لنا أن عُبَادة بن الصامت -وكان عَقَبيًّا بدريا، أحد نقباء الأنصار- أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى، قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومَنْشَطك ومكرهك، وأثرةً عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمرَ أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحا، فما أُمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله.

وقال قتادة: وَذُكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله، وللخليفة وللمؤمنين عامة.

قال: وقد ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، كان يقول: عُروة الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين.

رواه ابن أبي حاتم، والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله كثيرة جدًا، أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

وقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه، {وَيَخْشَ اللَّهَ} فيما مضى من ذنوبه، {وَيَتَّقْهِ} فيما يستقبل.

وقوله: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمِنُوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [سورة النور:٥٣-٥٤].

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول -صلى الله عليه وسلم- لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} يعني جاهدين في أيمانهم، مجتهدين في أيمانهم يعني بذلوا في ذلك غاية الوسع، اجتهدوا في هذه الأيمان واشتطوا بها، وهذا الذي عليه كثير من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول غير هذا، لكن هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ومَن نُقل عنه من السلف أن جهد اليمين هو أن يحلف بالله ولا يزيد، يعني لا يحلف بغيره فهو لا يخالف ما سبق، مجتهدين في أيمانهم بمعنى أن الإنسان إذا اجتهد واشتط في اليمين فإن ذلك لا يسوغ له أن يحلف بغيره، وإنما الحلف بالله هو أعظم شيء يحلف به ولا يسوغ لأحد أن يتجاوز ذلك.

قال الله تعالى: {قُلْ لا تُقْسِمُوا} أي: لا تحلفوا.

وقوله: {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي: قد عُلمت طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه.

قوله: {قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ} يعني طاعتكم طاعة معروفة، أي: أنها غير حقيقية، أنها كاذبة، فطاعتكم معلومة، وهي كاذبة، لا حقيقة لها، وأنها مجرد دعوى فلا يحتاج للحلف، نعرف الطاعة هذه التي يتكلمون عليها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: {طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ} والآيات تحتمل غير هذا، تحتمل أن يكون قوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ} يعني طاعة معروفة أولى بكم، فالمعنى انتقل تماماً، فالأول على سبيل التكذيب، والثاني طاعة معروفة أولى بكم، أو ليكون أمركم طاعة معروفة يعني من غير حلف، كما يطيع أهل الإيمان، فالمنافقون كما حكى الله عنهم: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [سورة المنافقون:١] كلما دخلوا، "إذا جاءك" فهنا يتكرر بتكرر مقام الشرط، كلما دخلوا قالوا هذا، أهل الإيمان لا يحتاجون ذلك، لكن هم كلما دخلوا قالوا: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، وهذا بمنزلة الحلف، ولهذا كذبهم الله -عز وجل-، ورد عليهم بنفس الصيغة التي استعملوها، وبعضهم يقول: التقدير لتكن منكم طاعة، أو لتوجد منكم طاعة معروفة، أو أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة، لكن كل هذه التقديرات غير المعنى الأول تماماً، والآية تحتمل هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي: قد عُلمت طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ} الآية [سورة التوبة:٩٦]، وقال تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} الآية [سورة المنافقون:٢]، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ} [سورة الحشر:١١-١٢].

يعني حتى فيما يختارونه، فهم الذي ابتدءوا هذا، ما فُرض عليهم بخلاف الطاعة فإنها واجبة ومفروضة عليهم، لكن هذه مبادرة منهم في نصرة اليهود ومع ذلك لم يصدقوا.

ثم قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به، {فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ} أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، {وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ} أي: من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه.

يعني عليه ما حمل من البلاغ، وعليكم ما حملتم من العمل، والتنفيذ والاستجابة، كأنه فيه تهديد لهم ووعيد {وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ} الحمل الثقيل وستحاسبون على ذلك.

{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}، وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [سورة الشورى:٥٣].

وقوله: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ}، كقوله: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠]، وقوله {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} [سورة الغاشية:٢١-٢٢].

{وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} الرسول هنا يحتمل أن تكون "ال" للجنس يعني جنس الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون المراد بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أن الآيات تتحدث عن المنافقين، ما على الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا البلاغ المبين، وتكون عهدية، الرسول الذي أرسل إليكم هو محمد -عليه الصلاة والسلام.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النور:٥٥].

هذا وعد من الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّهم بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل -تبارك وتعالى- ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تَملَّك بعد أصْحَمَة -رحمه الله وأكرمه.

قوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} من هذه تحتمل أن تكون بيانية فيكون ذلك شاملاً للجميع، ويحتمل أن تكون تبعيضية، {الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} والأقرب أنها بيانية، وهذا الخلاف أيضاً هو في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} [سورة آل عمران:١٠٤] هذه بيانية، تقول: أريد منكم طلبة علم نجباء، نريد منكم يعني ليست تبعيضية، ويحتمل أن يكون ذلك للتبعيض يعني نريد منكم يعني بعضكم، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ}، اللام هذه يمكن أن تكون للقسم، فهنا قسم محذوف

يدل عليه الوعد {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ} وجاء التأكيد أيضاً بالنون الثقيلة ليستخلفنهم، ويحتمل غير هذا.

ثم لما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته -عليه الصلاة والسلام- وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة، -رضي الله عنه-، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص -رضي الله عنه-، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله -عز وجل-، واختار له ما عنده من الكرامة، ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله -عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

كسره وأهانه، ما قال: قضى على ملكه؛ لأن ذلك تم في عهد عمر -رضي الله عنه-، أراد أن يأتي بعبارة موافقة للاسم كسرى، قال: كسره، وقَصَر قيصر.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقُتل كسرى، وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقَتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.

ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها))[٤] فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ونسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} الآية، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرًا وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أُمروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويصبحون في السلاح،

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩).

فغَيّروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلا من أصحابه قال: يا رسول الله، أبدَ الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا فيه السلاح؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لن تَغْبَروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليست فيهم حديدة))[٥]، وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمِنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله -عز وجل-، قبض نبيه -صلى الله عليه وسلم- فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحَجَزَةَ والشُّرَط وغيّروا، فَغُيِّرَ بهم.

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية، ونحن في خوف شديد.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ...} الآية [سورة الأنفال:٢٦].

وقوله: {كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} كما قال تعالى عن موسى -عليه السلام-، أنه قال لقومه: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [سورة الأعراف:١٢٩]، وقال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ...} الآيتين [سورة القصص:٥-٦].

كثير من المفسرين ومنهم ابن جرير -رحمه الله- على أن المقصود بقوله: {كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} بنو إسرائيل ويحتجون بمثل هذه الآيات {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [سورة الأعراف:١٣٧]، وبقول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [سورة الأعراف:١٢٩] وغير ذلك، والآية ليس فيها ما يدل على التخصيص ببني إسرائيل وإنما كل من مكن الله لهم في الأرض {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ}، يعني يجعلهم مستخلَفين فيها.

وقوله: {وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعديّ بن حاتم، حين وفد عليه: "أتعرف الحيرة؟" قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: "فوالذي نفسي بيده، ليُتِمنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرَة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتُفتحَنّ كنوز كسرى بن هرمز"، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: "نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذَلَنّ المالُ حتى لا يقبله أحد، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قالها.

قوله: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} الأولى دلت على الاستخلاف جاءهم الخلفاء، والثانية التمكين {وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}، هذا الدين يكون قد جاوز القنطرة، وهذا ما حصل، {وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ} [سورة التوبة:٣٢] "إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون" كل هذا دال على التمكين، ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} يدل على أن هذا الاستخلاف الذي وعدوا به لا يكون لهم فقط، وإنما يكون لهم ولمن بعدهم، فهو ليس باستخلاف طارئ ثم يزول، وإنما هو شيء ثابت راسخ، يحصل لهم التمكين مع هذا الاستخلاف،

---

٥ - الدر المنثور، للإمام السيوطي (٦ / ٢١٥).

ولكن ظاهر الآية يدل على أن الاستخلاف يكون قد وعد الله به من كانوا بهذه الصفة، {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ} [سورة النمل:٦٢]، ووعدهم بوعد آخر وهو أن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، فلا يمكن لأحد أن يطمس معالمهم وأن يغيرهم، وكل المحاولات التي جرت في التاريخ لتبديل الدين وتغيير الدين جهود كبيرة جداً إما بطمسه بمحاولة إزالته أصلاً من الوجود كما جاءت الحروب والحملات من التتار والصليبيين وغير ذلك، ثم جاء الاستعمار، أو كان هذا بمحاولة دس أو ما ظهر من الفرق أو المذاهب المنحرفة والجهود التي تبذل اليوم لتغيير معالم الدين، وإفساد حقائقه فكل هذا ينتهي ويبوء بالفشل، وابن القيم -رحمه الله- يقول:

واللهِ لولا اللهُ حافظُ دينِهِ *** لتهدمت منه قُوى الأركانِ

هكذا أراد الجهودَ التي بُذلت، ولكن تتلاشى، وإذا نظرت إلى كثير من عبارات المستعمرين قبل قرن من الزمان وأكثر وعبارات رواد الاستعمار ومن هم طليعة له، أعني المنصرين وما لهم من محاولات من تغطية المرأة بحجاب تضليل الأمة، وما أشبه ذلك، كل هؤلاء ينقشعون ويبقى دين الله ظاهراً.

وقوله: {يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْل، قال: "يا معاذ"، قلت: لبيك يا رسول الله وسَعْديك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: ((يا معاذ بن جبل))، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: ((يا معاذ بن جبل))، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك"، قال: ((هل تدري ما حق الله على العباد؟))، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا))، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: ((يا معاذ بن جبل))، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ((فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟))، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم))[٦]، أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: {وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبًا عظيما، فالصحابة -رضي الله عنهم-، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- بأوامر الله -عز وجل-، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييدًا عظيما، وتحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قَصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة))[٧]، وفي رواية: ((حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك))[٨]، وفي رواية: ((حتى يقاتلوا

---

٦ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل، برقم (٥٦٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، برقم (٣٠).

٧ - لم أجده بهذا اللفظ، وهو عند مسلم بلفظ: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، برقم (١٩٢٠)، وروى بلفظ آخر في نفس الكتاب والباب: ((لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس))، برقم (١٠٣٧).

الدجال))[9]، وفي رواية: ((حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون))[10]، وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

يعني قول ابن كثير -رحمه الله- هنا كان نصرهم بحسبهم بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ} هذا بمعنى القاعدة التي ذكرتها في عدد من المناسبات وهي أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، الوصف: {الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، والحكم المرتب عليه: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ} فالاستخلاف والتمكين هذا الحكم المعلق على وصف هو الإيمان والعمل الصالح، فعلى قدر الإيمان والعمل الصالح يكون الاستخلاف والتمكين، مثل: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} [سورة الحج:٤٠] فعلى قدر نصرنا لله -تبارك وتعالى- يكون النصر، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، فهذا الوصف {آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}، الحكم المرتب عليه {أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}، فعلى قدر ما يتحقق من الوصف على قدر ما ينتج عن ذلك ويحصل من الحكم، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [سورة النور:٥٥] فيه قراءتان متواترتان {وَلَيُبَدِّلَنَّهُم} (وليبدلنهم) من غير تشديد، من أهل العلم من يقول: هما بمعنى واحد، وزيادة المبنى لزيادة المعنى، بمعنى (ليبدلن لهم) أن هذا فيه تجذير وتعميق، وفي معنى التبديل وبعضهم يفرق كثعلب، والنحاس يقول: إن بدّله يبدّلنه غير أبدله، فالله -تبارك وتعالى- يجعل لهم مكان الخوف أمناً هذا بدّل، وأما أبدل فيقولون بمعنى أنه أزال عنهم أسباب الخوف، ولكن الجمهور على خلاف هذا، يقولون: في أصل المعنى واحد.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة النور:٥٦-٥٧].

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول -صلى الله عليه وسلم-، أي: سالكين وراءه فيما به أمرَهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} [سورة التوبة:٧١].

وقوله: {لَا تَحْسَبَنَّ} أي: لا تظن يا محمد {الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: خالفوك وكذبوك، {مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ولهذا قال: {وَمَأْوَاهُمُ} أي: في الدار الآخرة {النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} أي: بئس المآل مآلُ الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، برقم (١٩٢٠).

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٩٨٩٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٤).

١٠ - رواه بنحوه البيهقي -رحمه الله- في السنن الكبرى، برقم (١٩٠٨٣).

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، ابن كثير -رحمه الله- يقول: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ}، ومن أهل العلم من قال: إن أصل الكفر هنا منقول عن بعض السلف: كفر النعمة، يعني {وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}، {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم} كذا، فمن كفر بهذه النعمة {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} هم الخارجون عن طاعة الله -تبارك وتعالى- فإن الفسق هو مطلق الخروج وكأن الذي حمل على هذا هو الوصف بالفسق {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ولا مانع، -والله أعلم- في حمل الآية على الكفر المعروف {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ} لم يؤمن، لم يعمل الصالحات {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} والفسق يصدق على الفسق الأصغر والفسق الأكبر، والخروج عن طاعة الله -عز وجل-، يقال له: فسق أيًّا كان هذا الخروج، وهذا له نظائر في كتاب الله -تبارك وتعالى-، والأصوليون في الكلام على مفهوم الموافقة الأعلى الظني يقولون: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} [سورة الحجرات:٦] فإن جاءكم كافر هذا من باب أولى، ولكن ذلك ليس بقطعي؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه هو لا يكذب، يعني يحرم عليه الكذب هل نتثبت أو لا؟ فكون أنه الكفر من باب أولى نتثبت لأن هذا ليس بقطعي، وإن كان يفهم بدلالة الموافقة، وذكرت هناك في درس الأصول أن هذا الذي يتتابع كثير من الأصوليين على التمثل به ولا يكاد يخلو منه كتاب أنه غير دقيق، وأن الفسق {جَاءكُمْ فَاسِقٌ} يشمل الفسق الأصغر والأكبر، وليس فقط العاصي من المسلمين حتى نقول الكافر من باب أولى فالكافر فاسق، والله يقول: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة المائدة:٤٧]، بعدما قال: هم الكافرون، هم الظالمون، فكون ذلك هنا {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ} يحمل على كفر النعمة باعتبار ذكر الفسق ليس بلازم، وهنا {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} قالوا: إيتاء الزكاة هو الإحسان إلى المخلوقين من ضعفائهم وفقرائهم، يعني هذا لا يبين حقيقة الزكاة لكن كأنها لما كانت معروفة اكتفوا بهذا، وإلا فالإحسان يكون بالصدقة وغير ذلك، وإنما هو القدر الواجب في المال المخرَج منه الأصناف المخصوصة، قال: {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} إذا قلنا: إن لعل للتعليل في كل موضع في كتاب الله -عز وجل- إلا في موضع واحد، وهو قوله: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩]، أي كأنكم تخلدون فيكون هنا لعل أي من أجل أن تفلحوا، من أجل أن ترحموا فتكون طاعة الله وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- علة للفلاح وعلى تفسيرها أنها للترجي {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أي: على رجائكم فإنما يكون الترجي إذا كان ذلك مما يحصل به الرجاء فهو سبب للرحمة، {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} في القراءة الأخرى المتواترة {لَا يَحْسَبَنَّ} ويكون هذا الفعل حسب له مفعولان كما هو معروف تعدى إلى مفعولين يكون التقدير عند جماعة من أهل العلم، المفعول الأول {أنفسهم}، والثاني {مُعْجِزِينَ}، وهذا توجيه لا تكلف فيه، وبعضهم يقول غير هذا، وبعضهم يقول: {لَا تَحْسَبَنَّ} يا محمد، وهنا يقول: {لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} لا يحسبن محمدٌ -صلى الله عليه وسلم-، لا يحسبن المسلمون الذين كفروا معجزين، المفعول الأول {الَّذِينَ كَفَرُوا} وهذا قد لا يكون الظاهر المتبادر، و معجزين بمعنى أنهم يفوتون الله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [سورة العنكبوت:٤]، وقال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ} [سورة الجاثية:٢١]،

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ولَا فِي السَّمَاء} [سورة العنكبوت:٢٢]، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ ولَا فِي الْأَرْضِ} [سورة فاطر:٤٤] بمعنى أنهم لا يفوتون الله ولا يعجزونه أن يأخذهم، ويعاقبهم وينتقم منهم {مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ولَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٥٨ إلى الآية ٦٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور:٥٨-٦٠].

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدَّم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خَدَمُهم مما ملكَت أيمانهم وأطفالُهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ} أي: في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، {وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ} لأنه وقت النوم، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يُخشى من أن يكون الرجل على أهله، ونحو ذلك من الأعمال.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **هذه الآيات اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة**، يعني {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا} [سورة النور:٢٧]، ومضى الكلام على قوله: {تَسْتَأْنِسُوا} وأن الكثيرين من أهل العلم قالوا: إن معناه تستأذنوا، وتدل على الاستئذان قطعاً، فللأجانب استئذان وكذلك الأقارب، حتى الرجل على أهل بيته على امرأته وأمه ومحارمه، قال عطاء بن يسار لما سئل عن الرجل هل يستأذن الرجل على أمه؟ قال: نعم، فلما أعيد عليه السؤال، قال هل تحب أن تراها عريانة؟ إلى غير ذلك من الآثار المنقولة عنه في هذا المعنى، واستئذان الأقارب ينتظم صوراً متعددة، استئذان الرجل، هل يستأذن إذا دخل بيته؟ قلت: إن لم يكن فيه أحد سواه لا يستأذن، وإن كان فيه من غير محارمه فإنه يستأذن عند الدخول على المحال التي يكونون فيها، وإن استئذان المحارم حينما يقال: ليستأذن عليهم من الدخول بمعنى أنه يكفي أن يُشعرهم، كما جاء عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن يشعرهم بدخوله حتى يتهيئوا لذلك، وأنه يفرق بين دخول الدار بأكملها وبين دخول المكان الذي يختص به منه، يعني دخول غرفته الخاصة فهذا يختلف، ويقول: **هذه اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض**، قال:

فأمر الله تعالى أن يستأذنهم خدمُهم مما ملكت أيمانهم وأطفالُهم الذين لم يبلغوا الحلم، {وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ} يعني الأحرار، والمقصود ببلوغ الحلم هو البلوغ هذا في الاستئذان، ولا يعني هذا أن المرأة تكشف للصبي الغلام ما لم يبلغ، فالآية ليست في كشف المرأة لغير المحارم، إنما هذه الآية كما سبق في قول ابن كثير: هي في المحارم، وهي في أمر الاستئذان هنا، وليست في ما يحل كشفه وما لا يحل، أما ما يتعلق بالكشف فإن الآية التي تدل عليه هي الآية السابقة، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١]، يعني الأطفال {الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}، والظهور يحتمل معنيين: المعنى الأول: الظهور بمعنى الغلبة يعني لا يطيق الجماع والمعاشرة لصغره.

والمعنى الثاني: {لَمْ يَظْهَرُوا} أي الذي لا يتفطن لمفاتن النساء وهذا هو الأقرب، وهو الحد الذي عنده تحتجب المرأة من الصبي أو لا تحتجب، وذلك لا يُربط بموضوع البلوغ {الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} هنا في الاستئذان، ولابد من التفريق بين الآيتين فلا يُشكل هذا، قال في ثلاثة أحوال، قال الله -تبارك وتعالى- قال: {ثَلَاثَ مَرَّاتٍ}، عُبر بالمرات ما قال بثلاثة أوقات مثلاً قال: {ثَلَاثَ مَرَّاتٍ} يمكن أن يقال: إنه عبر بالمرات باعتبار أن الأوقات غير مقصودة لذاتها، ولكن لِمَا اقترن بها من مرور هؤلاء عليهم فهم من الطوافين الذين يطوفون عليهم، ويدخلون عليهم في كل حين، الخدم هؤلاء من المماليك، والصغار قال: {ثَلَاثَ مَرَّاتٍ} ولم يقل: ثلاثة أوقات، قال هنا: **الأول من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم**، ويمكن أن يقال غير هذا، يعني يمكن أن يكون الناس نياماً في فرشهم، ويمكن أن يكون هذا الوقت لتغيير اللباس فلا يدخل عليهم فيفاجئهم بهذا الدخول، ويطلع على ما يكرهون أن يطلع عليه الناس، وهو وقت وحال خاص لابد للداخل فيه من أن يستأذن، والاستئذان هنا إذا كان هؤلاء من المماليك والخدم والصغار المقصود به أنه يستأذن حينما يكون للغرف أبواب، لا شك أنه يستأذن عندما يدخل الغرفة، وليس المقصود أنه يستأذن إذا أراد أن يدخل البيت معه المفتاح أو الباب مفتوح فهم يدخلون ويخرجون لكن العلة؛ من أجل الستر وعدم الإطلاع على العورات، قال: {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ} [سورة النور:٥٨] أي في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، وقد يضع ثيابه أيضاً من غير ذلك، المقصود أن الناس يتخففون ويلقون عنهم الكلف في بيوتهم أصلاً، وفيما يخصهم من هذه البيوت من غرف ونحو ذلك، وإذا كان الإنسان يتطلع كل حين وفي كل لحظة إلى هجوم داخل يتوقع من يَفجؤه فإنه يبقى دائماً متحفزاً ما يبقى مستريحاً، فلو أراد شخص أن ينام في مسجد الاعتكاف مثلاً، وهناك آخرون يدخلون ويخرجون يشاركونه في هذا المكان، ولا يختص به، ولا يحتاج الواحد منهم أن يستأذن لكثرتهم، فلا يكون بقاؤه في هذا المكان ونومه فيه وما يتصل باللباس إلى آخره كما يكون الإنسان في بيته، وكذلك المسجد يختلف عن البيت، ومن هنا شرع الاستئذان في الدخول على البيوت، فقال: {وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ} **لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، ونحو ذلك من الأعمال**، في أوقات الراحة التي يخلد فيها الإنسان إلى راحته، ويكون في حال لا يحب أن يطلع الآخرون عليها، سواء كان في حال نوم أو يقظة، هذه الأوقات الثلاثة، وذلك هو الغالب في حياة الناس إلى يومنا هذا، يعني من أزمان لا يمكن أن نحصيها في القدم اعتاد الناس على هذا، والله -عز وجل- جعل

الليل سكنا والنهار هو وقت المعاش، ووقت القيلولة هو وقت الراحة عند الناس، وأما الأوقات الأخرى التي قد يستريح فيها الإنسان أو يخلو مع أهله أو نحو ذلك فهي عارضة، والأمور العارضة لا عبرة بها.

ولهذا قال: {ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ} أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئا في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم {طَوَّافُونَ} عليكم، أي: في الخدمة وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم.

في قوله {ثَلاثُ عَوْرَاتٍ} على هذه القراءة بالرفع {ثَلاثُ عَوْرَاتٍ} على تقدير مبتدأ محذوف أي هن ثلاث عورات، أو هذه الخصال {ثَلاثُ عَوْرَاتٍ} ويحتمل أن يكون مبتدأ، وما بعده خبر {ثَلاثُ عَوْرَاتٍ}، وقال: **لأنه يغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم**، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- سُئل عن الهرة، فقال: ((إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات))[1]، مع أنها قد تكون أكلت نجاسة وتأكل الفأرة، ومع ذلك يغتفر فيها ذلك، وذكر الفقهاء أن لعابها يطهّر فمها، فلا يمكن التحرز من مثل هذا، وهكذا تكلموا عن الكلّابين، والحمّارين، يعني الذي يلابس الكلاب كثيراً بالصيد مثلاً، أو كلاب الحراسة أنه يغتفر في حقه ما لا يغتفر في حق غيره؛ لأنه لابد أن يحصل له شيء من الملابسة وهو علوق النجاسات، وهكذا الذي يركب الحمار أو نحو هذا قد يحصل له من نجاسته، مما يصعب التحرز منه.

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلا جدًا أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

هذه الآية من أهل العلم من قال: إنها منسوخة وهو منقول عن سعيد بن المسيب -رحمه الله-، والذي حمله على ذلك ربما ترك العمل بها كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- أن الناس تركوا العمل بثلاث آيات، يعني تساهلوا فيها، هذا الذي قصده ابن عباس -رضي الله عنه-، وهذا القول بأنها منسوخة فيه نظر؛ لأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك للندب وهو منقول عن سعيد بن جبير -رحمه الله-، وهذا لا نعلم له صارفا إذا قلنا بأن أصل الأمر للوجوب إلا لصارف، وهو قول الجمهور، ولكن يمكن أن يخرج على قول من يقول إن الأصل في الأمر الندب باعتبار أنه القدر المتيقن؛ لأن المأمور به مطلوب للشارع، والأمر به يدل على المشروعية والقدر الذي يتحقق به ذلك: الندب، والوجوب مرتبة أعلى منه فقالوا: نقف على القدر المعلوم، أو القدر المتيقن مع أن الجمهور كما سبق يقولون: إن الأمر للوجوب وهذا هو الراجح والأدلة على هذا كثيرة، فالله لعن إبليس وطرده من رحمته حينما أمره بالسجود فأبى، **{ألا تسجد إذ أمرتك}** [سورة الأعراف:١٢]، وموسى -صلى الله عليه وسلم- حينما قال لأخيه هارون: **{اخلفني في قومي وأصلح}** [سورة الأعراف:١٤٢]، وبعد ذلك **{أفعصيت أمري}**؟ [سورة طه:٩٣]، وأخذ برأسه وبلحيته، فدل على أن

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، برقم (٧٥)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، برقم (٦٨)، والترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في سؤر الهرة، برقم (٩٢)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بسؤر الهرة والرخصة في ذلك، برقم (٣٦٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٥٢٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٤٣٧).

الأمر للوجوب، والآيات التي جاء فيها الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- كثيرة جدا تدل على هذا المعنى، والجمهور يقولون: إن الآية محكمة، ونقل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أن ذلك حينما لم يكن للبيوت ستور، بمعنى ليست هناك أبواب ولا ستور فيحتاج أن يستأذن؛ لئلا يقع بصره على شيء يكرهونه، والله -عز وجل- حينما وسع على الناس وصار للبيوت ستور إلى آخره، فعلى هذا القول ليس هناك نسخ؛ لأنه لا يمكن أن تنسخ الآية بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما محمل هذا القول أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدما، فيكون الأمر على حاله، ولكن حينما انتفت العلة لم يكن للاستئذان محل، ولهذا قال بعض السلف بأنه حينما صار للبيوت أبواب فالبيوت فيها أهلها إذا خرجوا أغلقوها، فعندئذ تكون العلة منتفية كما هو الحال؛ لأن الإنسان إذا كان في خلوته يمكن أن يغلق الباب، يقفل الباب وحتى لو لم يقفل الباب فإنه يُستأذن عليه في مكانه ومحله الخاص، لكن إذا كان المكان مشتركاً ولا يوجد في البيت نساء فهل يجب الاستئذان في هذه الحالة؟ أما إن كان ذلك المكان يخصه فإنه يستأذن عليه؛ لأنه قد يتخفف من الثياب، والناس تتفاوت عاداتهم من هذا، فبعض الناس عندهم عوائد قبيحة ولا زال معمولاً بها إلى اليوم، وبعض هذه العادات انتقلت من الكفار، فالروس مثلاً إلى اليوم يتجردون من اللباس إذا ناموا، وانتقل ذلك إلى من جاورهم كالجمهوريات الإسلامية بل أقبح من هذا أنه قد ينام اثنان على سرير واحد سرير صغير، ويوجد هذا في بلاد أفريقيا بجنوبها، جنوبُها يعني غير بلاد شمال أفريقيا السوداء، كثير من تلك الأمم وأهل تلك البلاد يفعلون هذا لفقرهم؛ لئلا تَبلى الثياب، فإذا نام الواحد منهم تجرد من ملابسه وجمع ثيابه بجواره، فهنا الاستئذان متعين، لكن إذا كان المكان مشتركاً كغرفة يسكن فيها مجموعة فهنا يقال ما يقال في الدخول على المحارم بأنه ينبغي أن يُشعرهم، قد يكون في هيئة أو بحال لا يحب أن يطلع عليه آخرون، ولو كان هذا الذي يسكن معه يشعر بدخوله ولا يحتاج أن يجاب وأن يقول له: ادخل مثلاً، إذا كان يشاركه في هذا المكان الطلاب، الآن في الجامعة الاثنان يسكنان في غرفة واحدة، ولا يحتاج كلما جاء أن يستأذن يطرق الباب حتى يقول: ادخل، وإنما يشعره بدخوله ثم يدخل، أما الآخرون فلا يدخلون إلا باستئذان، والكثير من المشاكل تقع بين طلاب الجامعات والشحناء والخصومات بسبب أن بعض الفضوليين يهجم على الناس هكذا، يدفع الباب ويدخل وهذا خطأ وغير صحيح لا يقر عليه، وهذه الآية هنا يقول: **محكمة ولم تنسخ بشيء**، وقيل: إنها منسوخة، والصحيح أنها محكمة، قال: **وكان عمل الناس بها قليلاً جداً**، وهذا لربما يحمل عليه ما سبق أو يوجه قول من قال: إنها منسوخة أو أن الأمر للندب، فيكون الصارف في نظره غير معلوم بالتحديد ولكن لم يعمل الناس به فما تركوا ذلك إلا لأمر علموه، يعني علمه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أو بعضهم وإن خفي على من بعدهم.

وروى أبو داود عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لم يؤمن بها أكثر الناس -آية الإذن- وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن علي.

قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عباس يأمر به.

هذا ثابت عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ومعنى قوله: **لم يؤمن بها أكثر الناس** يعني أنهم لم يعملوا بمقتضاها، والإيمان قول وعمل، وكما أن الصلاة إيمان، والتصديق إيمان، والإقرار والانقياد فكذلك أيضاً

الاستئذان، فهو إيمان، فحينما تركوا العمل بها كان ذلك تركاً لأمر من الإيمان، ولهذا قالت عائشة -رضي الله عنها- لما دخلت عليها امرأةٌ عروس عليها ثياب رقيقة: "لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا"، ليس معنى ذلك أنها كافرة بسورة النور، ولو كفرت بحرف واحد من القرآن لخرجت من الدين، إنما المقصود ترك العمل بمثل هذا، وهو ترك للإيمان باعتبار أن الإيمان قول وعمل.

وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي: {لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، قال: لم تنسخ، قلت: فإن الناس لا يعملون بها، فقال: الله المستعان.

يعني تساهلوا.

ثم قال تعالى: {وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} يعني: إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

وقوله: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ} قال سعيد بن جُبَيْر، ومُقَاتل بن حَيَّان، وقتادة، والضحاك: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، {اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا} أي: لم يبق لهن تَشوُّف إلى التزوج.

نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن جماعة من السلف في قوله: **{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ}** أنهن: **اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد**، يعني بعضهم يقول: **{وَالْقَوَاعِدُ}** يعني اللاتي قعدن عن الحيض، انقطع حيضهن، لكن المرأة قد ينقطع حيضها ولا زالت النفوس تميل إليها وتتعلق بها، وتكون محلا للاستمتاع، والنساء يتفاوتن في انقطاع الحيض، وغالباً ينقطع إذا بلغت الخمسين، وقد تكون في حال لربما كأنها بنت عشرين أو ثلاثين، وأحياناً هذا يعني في صورتها و هيئتها لاسيما إن كانت لم تلد، فالقضية ليست بانقطاع الحيض، وكذلك أيضاً قال: **ويئسن من الولد** إذا انقطع الحيض يئست من الولد لكن هل هذا هو المعتبر هذا هو الضابط؟، الله -تبارك وتعالى- قال: **{اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا}** هذا هو الضابط، بمعنى أنها لا تتشوف للنكاح ولا رغبة للرجال فيها، الرجال لا يتطلعون فيها، امرأة كبيرة بنت خمسين بلغت الخمسين، وقد انقطع حيضها ويئست من الولد، هذه ليست من القواعد من النساء، وإنما اللاتي لا يرجون نكاحاً، والآن قد تبلغ المرأة الخمسين وهي لم تتزوج بسبب أمور الحياة الجديدة تريد أن تكمل دراستها وتريد أن تتخرج وتريد أن تتوظف و، و، و، إلى أن تصل إلى سبع وعشرين وثمان وعشرين، ويمضي العمر.

{فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} أي: ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء.

المقصود بالثياب التي تضعها جلبابها، فهي تضع العباءة "غير متبرجات بزينة" بمعنى أنها لا تستعمل شيئاً من المكياج أو الحناء أو غير ذلك مما تظهره للناس إذا وضعت العباءة، لا يعني ذلك أن تكشف وجهها، وليس معناها أن تكشف وجهها، وإنما تتخفف فيما يصل للتستر فيرخص لها بترك عباءتها، وأن تبقي عليها ذلك خير لها، وإن لم ترجُ نكاحاً؛ لأن ذلك أستر، ومن جهة أخرى فإنه قد تَعلق بها نفس أحد، قد يوجد، لذلك تسمع عن بعض النساء تزوجت وعمرها سبعون وثمانون، وأعرف بعض الحالات التي حصل فيها التزوج لربما بعد الثمانين مع العشق الشديد، كان رجل يقع في المجالس بأبيه، رجل جاوز السبعين في المجالس،

فقلت له مرة سمعته يتكلم على أبيه بغضب -وأبوه رجل أعمى وكبير-: هذا أبوك ولا يجوز أن تتكلم فيه، فكان يذكر أنه حينما تزوج بتلك المرأة العجوز أنها تحولت إلى مراهقة فكانت تلبس لباس خيوط يعري الكتفين، وليس له أكمام، وحينما تأتي إلينا بهذه الطريقة، وبهذا اللباس نحن نتكلم عليها ولا نصبر، ولا نستطيع أن نتحمل هذا، وهي في هذا السن، امرأة عمياء أنا رأيته يأخذ بيدها ويمشون، استأجر غرفتين مقابل بيت ولده وتراه يخرج هو وإياها، ويخرجون إلى بيت ولده، ويرجعون، عشق زواج بعد الثمانين! {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} [سورة النور:٦٠] كما يقال: لكل ساقطة لاقطة.

روى أبو داود عن ابن عباس: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} الآية [سورة النور:٣١] فنسخ، واستثنى من ذلك {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا} الآية.

يقول عن ابن عباس {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} قال: **فنسخ واستثنى من ذلك** {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ} لا يعني هذا أنها منسوخة، وإنما يعني خصّص، والسلف كانوا يطلقون النسخ على التخصيص وعلى كل ما يعرض للنص من تقييد إطلاق، تخصيص عموم، بيان إجمال، إضافة إلى المعنى الرابع الذي صار في اصطلاح المتأخرين يقال **للنسخ**، وهو الرفع رفع الحكم الشرعي، فهنا حينما قال: **نسخ واستثنى من ذلك** يعني خصّص وهذا موجود في عدد من النصوص المنقولة عنهم كقوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [سورة النساء:٩٥]، وهذا يوجد في بعض عبارات السلف كابن عباس -رضي الله عنه- مثلاً يقول: "هذه ناسخة لما قبلها"، {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [سورة النساء:٩٥] بمعنى أنها مخصصة.

قال ابن مسعود في قوله: {فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ} قال: الجلباب، أو الرداء: وكذا رُوي عن ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء وإبراهيم النَّخَعِيّ، والحسن، وقتادة، والزهري، والأوزاعي، وغيرهم.

يقول: **الجلباب أو الرداء**، ولم يقل: الخمار، فدل على أنها لا تكشف وجهها.

وقال سعيد بن جبير: {غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب؛ ليُرى ما عليهن من الزينة.

وقوله: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ} أي: وترك وضعهن لثيابهن -وإن كان جائزًا- خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

{لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة النور:٦١].

المراد هاهنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسُه، والمريض لا

يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك، وهذا قول سعيد بن جبير، ومِقْسَم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} الآية، قال: **المراد هاهنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه ما يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك**، لكن هذا المعنى -وإن قال به بعض السلف- هل يتجه مع ظاهر الخطاب؟ ظاهر الآية قال: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} ولم يقل: ليس عليكم حرج، فالحرج في الظاهر مرفوع عن الأعمى، وظاهر هذا القول أن الحرج مرتفع عنهم هم؛ لأنهم تحرجوا من الأكل مع الأعمى باعتبار أنه لا يرى الطعام فيكون حظ المبصر أوفر من حظ الأعمى من هذا الطعام، وكذلك المريض لا يأكل كما يأكل المبصر، والأعرج قالوا: لأنه لا يستطيع أن يمشي، ويسبق ويزاحم فيُسبق وقد لا يحصل له شيء يذكر من الطعام، الآن لربما لا نفهم هذا المعنى لكن إلى عهد قريب كان الناس يتسابقون على الطعام بمعنى أنهم إذا سمعوا أحداً من الناس عنده شيء، عنده وليمة أو زواج اجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله يتشوفون إلى هذا الطعام، فيجتمع أعداد أضعاف مضاعفة فلربما أن المدعوين يعني ومن وجه إليهم الدعوة ووضع لهم الطعام إن كان الواحد منهم يستحي لا يستطيع أن يسرع، ولا يستطيع أن يزاحم فإن الناس يدفعون الباب ويدخلون ويبقى هذا لا يأكل شيئاً، هذا كان موجوداً يفعله الكثير من أعراب البادية وغيرهم من شدة سبب الفقر، شدة الفقر فالحرج الآن في ظاهر هذا القول أنه مرفوع عن الأصحاء الأسوياء مع أن ظاهر الآية أنه رفع عن هؤلاء الزَّمْنى، رفع الحرج عنهم، والحرج هو الإثم، وبناء على ذلك هذا القول لا يخلو من إشكال، لكن يمكن أن يوجه فيما إذا كان الطعام مشتركاً بينهما، بمعنى أن هذا يأتي بطعام، وهذا يأتي بطعام فيأكلان فيكون نصيب هذا أوفر من نصيبه أو يكون هذا يدفع بعض الثمن، وهذا يدفع بعض الثمن، يشتركون في الطعام فيؤتى به بمعنى أن طعامهم إنما كان عن شراكة هذا يدفع مائة وهذا يدفع مائة ويشترون ما يحتاجون من الطعام؛ ليصنعوا طعامهم، فيكون نصيب المبصر والصحيح أوفر من نصيب المريض، ولهذا صح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في سبب النزول إذا صحت رواية في سبب النزول فإن ذلك يتضح فيه المعنى ويزول به الإشكال إن وجد، فابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- صح عنه في هذا المعنى سبب النزول بأن الله -تبارك وتعالى- حينما أنزل: {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [سورة النساء:٢٩] فقالوا: إن أطيب أموالنا الطعام، فصاروا يتحرجون من الأكل مع الأعمى والأعرج إلى آخره؛ لئلا يبخس من حقه شيئاً، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ...} لكن كيف يوجه هذا القول إذا كان قِرًى منهم فيكون تفضلا فلا ظلم {لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} يعني لا يأكل بعضكم مال بعض، هذا لا يتوجه لو كان قِرى من الصحيح للأعمى فليس هناك أكل لأموال الباطل، ولو كان قِرى من الأعمى والأعرج للصحيح لم يكن هناك أكل لأنه رخص له الأكل منه، لكن يكون هذا حينما يكون عن شراكة فيمكن أن يوجه القول، هذا القول كيف نوجهه بهذه الطريقة؟ الرواية التي صحت عن ابن عباس هي ما ذكرته آنفاً، وأوضح من هذا هو ما صح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- من أنهم كانوا إذا خرجوا للغزو دفعوا مفاتيح البيوت لهؤلاء الزَّمْنى؛ لأن الله -عز وجل- قد وضع عنهم الجهاد، وأذن لهم بأن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يقولون: إنهم قد أذنوا من غير طيب نفس، فيتحرجون من

الأكل فنزلت الآية وفاقاً للواقع، يعني لو كانوا أصحاء ما خرجوا للجهاد باعتبار أنه ليس بواجب عليهم بعدما قال الله -عز وجل- مثلاً: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً} [سورة التوبة:١٢٢]، أو في السرايا التي لا يؤمر بالنفير العام فيها، فعندئذ لو كان صحيحاً فالحكم هو نفسه أنه ليس عليه حرج أن يأكل من بيت هذا الذي أعطاه المفتاح ورخص له أن يأكل، وذكر الأعمى والأعرج والمريض؛ لأن هذه الآية نزلت على وفاق الواقع أن هؤلاء هم الذين كانوا يتخلفون عن الجهاد؛ لأن الله قد وضع عنهم ذلك، فيضع الغزاة مفاتيح البيوت عند هؤلاء يتعاهدونها ويرخصون لهم بالأكل منها فكانوا يتحرجون، ولو كانوا أصحاء في البيوت فنفس الحكم، ولكنها نزلت على وفاق الواقع، وما نزل على وفاق الواقع لا مفهوم له، وإذا صحت أكثر من رواية في سبب النزول فلا تعارض بين هذه الروايات، فتكون الآية نزلت بسبب تحرج بعضهم أن يأكل مع من لا يكافئه لعلة أو زمانة، أو كان ذلك بسبب تحرج من تحرج من الزمنى أن يأكل من بيت أحد الغزاة الذين جعلوهم أمنا على بيوتهم، فتكون الآية نزلت في هؤلاء، وذكر الأعمى والأعرج والمريض على سبيل الخصوص باعتبار أن الملابسة قد وقعت لهؤلاء، وكثير من أهل العلم استشكل ظاهر الآية {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ}، وسبب النزول المروي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- من أن ذلك في الغزاة والأمناء الزمنى هذا ظاهر وواضح لا إشكال فيه، والقول المنقول عن ابن عباس -رضي الله عنه- في سبب النزول ذكرت توجيهه ومن ثم يتضح المراد، والقول أنها في الزَّمْنى الأمناء على بيوت الغزاة هذا الذي استحسنه أو رجحه كبير المفسرين ابن جرير، واستحسنه النحاس واعتبره أحسن الأقوال في الآية.

وقال الضحاك: كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتَقَزُّزًا، ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

هذا القول للضحاك قد لا يكون وجهه ظاهراً أو واضحاً والمراد به أنهم كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقززاً؛ ولئلا يتفضلوا عليهم، الآية قالت: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} رفع الحرج عن الأعمى ولم يقل: "ليس عليكم حرج"، هذا القول كيف نفهمه والحرج مرفوع عن الزمنى وليس عن الذين يأنفون لما كان هؤلاء يتقذرون أو يأنفون أو يستنكفون من مؤاكلتهم باعتبار أن الأعرج يجلس بجلسة غير مستقيمة، ولربما يحتاج أن يمد رجله، والأعمى يأكل بطريقة لربما لا ترتاح إليها بعض النفوس، فربما طاشت يده هنا وهنا، وربما تناثر الطعام، والمريض لمرضه، فهم يتنزهون عن ذلك فرفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض وليس عنهم هم، باعتبار أن هؤلاء يحصل لهم انقباض، يقول ما دام هؤلاء الناس لربما يتقذرون لربما يأنفون إذاً نحن لا نضايقهم، فهذا ليس بأيديكم ولكم أن تأكلوا مع إخوانكم ولا إشكال في هذا، فهذا توجيه لقول الضحاك، -والله تعالى أعلم-، يعني هؤلاء كانوا يخافون أن يتأذى الآخرون بهم فصاروا يتحرجون فرفع الله الحرج عنهم، وبعضهم ذهب بها إلى مذاهب بعيدة، بعضهم قال: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} في ترك الغزو من أجل أن يخرج من الإشكال، وترك الغزو لا علاقة له في مخالطة الناس، وهذا بعيد، فالآيات ليست في الغزو والجهاد وإنما في الآداب، ما يتعلق بدخول البيوت والأكل، وبعضهم يقول: ليس على الأعمى حرج فيما يعجز عنه من التكاليف التي تختص به، ما يسقط عنه بسبب ذهاب البصر والأعرج كذلك لما يعجز عنه في التكاليف التي تختص به، وهكذا بالنسبة للمريض، فكل واحد ليس عليه

حرج فيما يتعلق بالتكاليف التي يعجز عنها، وهذا أيضاً بعيد، لكن ما الذي حملهم على هذه الأقوال؟ هو ما ذكرت {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} فهذا فيه شيء من الإبهام الذي حصل بسبب الإجمال في الآية، لكن نحن إذا وجدنا أسباب نزول صحيحة في الآية اتضح الإشكال، فعندنا روايتان مع كثرة الروايات الواردة في هذا، وأوضح هذه الأقوال هو قضية الغزو وأن هؤلاء الزمْنى أمناء على البيوت ويتحرجون من الأكل من بيوت الغزاة.

وروى عبد الرزاق عن مجاهد في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ} الآية قال: "كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه، أو بيت أخته، أو بيت عمته، أو بيت خالته، فكان الزَّمنى يتحرجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصةً لهم".

هذا القول لا يصح، قال: **عن مجاهد في قوله** وهذا يكون من قبيل المرسل، وردت مراسيل كثيرة بهذا، بمعنى يذهب به إلى غير بيته إلى بيت قرابته لربما ذهب إلى بيته، ولم يجد شيئاً فيذهب به إلى بيت أبيه أو بيت....، فيتحرج ذاك ويقول: ليس لنا أن نأكل هؤلاء استضافونا وذهبوا بنا إلى بيت آخر، لكن الرواية لا تصح في هذا.

وقال السُّدّي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتُتْحفه المرأة بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن ربَّ البيت ليس ثَمّ، فقال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ...} إلى قوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا}.

إذا دخل في بيت أبيه أو بيت أخيه أو نحو ذلك فهذا لا يختص بالأعرج والأعمى والمريض فإذا أعطته امرأته شيئاً فلا فرق بينه وبين الأصحاء.

وقوله تعالى: {وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ}، إنما ذَكَر هذا -وهو معلوم- ليعطفَ عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء؛ لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أنَّ مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن، من غير وجه، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أنت ومالك لأبيك))[٢].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر هذا الكلام جواباً على سؤال بدهي وهو أن الإنسان يأكل في بيته ولا حرج عليه وأن هذه القضية لا تحتاج إلى بيان هي معلومة لكل أحد {وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ} فابن كثير -رحمه الله- يقول: **إنما ذكر هذا ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساوي به ما بعده في الحكم**، أنه يساويه في الحكم كما تأكل في بيتك يحل لك هذا ويحل لك الأكل في بيت أبيك وأمك، وصديقك... إلى آخره، هذا تعليل لذكر القضية التي لا تخفى على أحد، "أو بيوتكم"، فإذا لم يأكل في بيته فأين سيأكل؟ فابن كثير يقول: **ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساوي به ما بعده في الحكم**، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: إن قوله {مِنْ بُيُوتِكُمْ} جاء بصيغة الخطاب، والعرب إذا جمعت بين المخاطب وغيره غلبت

---

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب مال الرجل من مال ولده، برقم (٢٢٩١)، وأحمد في المسند، برقم (٦٩٠٢)، وقال محققوه: "حسن لغيره، ونصْر بن باب، وحجاج -وهو ابن أرطاة-، وإنا كانا ضعيفين، قد توبعا"، وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم (٢٣٩٥).

المخاطب، قال: {مِنْ بُيُوتِكُمْ}، تأكلون من بيوتكم، ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ} أنه جمع بينهم وبين هؤلاء المذكورين غلب صيغة الخطاب، وقال: {مِنْ بُيُوتِكُمْ} تأكلوا من بيوتكم، لكن ابن كثير قد يكون كلامه أوضح -والله تعالى أعلم-، وهنا يقول: وتضمن هذا بيوت الأبناء، لأنه لم ينص عليه قال الأبناء ولم يقل: البنات؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنت ومالك لأبيك)) بالنسبة للولد، لكن البنت إذا كانت متزوجة فمالها لزوجها، فالأبناء هنا قال: {مِنْ بُيُوتِكُمْ} يقول: هذا يصدق على بيوت الأبناء، وبعض أهل العلم يقول: إن الله ذكر بيوت الآباء، والآباء في القرب من حيث الدرجة مثل الأبناء هؤلاء أصول وهؤلاء فروع فاكتفى بذكر أحد الطرفين ليدل على الآخر، ولما ذكر الآباء دل ذلك على الأبناء، وابن كثير -رحمه الله- يقول: لا، لم يذكر الأبناء على اعتبار أنهم في حكم أنفسهم ((أنت ومالك لأبيك)) إذا أكل في بيت ولده فكأنما أكل في بيته هو، بيت نفسه، وهذا مثل ما ذكر الله -عز وجل- في المحارم وما سبق من قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ} [سورة النور:٣١] ولم يذكر العم والخال فمن أهل العلم من السلف من قال: إن هؤلاء لا تظهر لهم الزينة الباطنة؛ لأنهم يصفونها لأولادهم وهذا غير صحيح، ومن أهل العلم من يقول: إنه لم يذكر العم والخال باعتبار أنه ذكر ابن الأخ وابن الأخت، فالآن العم والخال هم أخوان، الخال أخ للأم، والعم أخ للأب، وابن الأخ وابن الأخت هذا ابن أخ وهذا ابن أخت بنفس المنزلة لكن هؤلاء من أسفل، وهؤلاء من أعلى، فقال: اكتفى بهؤلاء، ذكر ابن الأخ وابن الأخت فدل ذلك على العم والخال.

وقوله: {أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ}، إلى قوله: {أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ}، هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض.

باعتبار أنه لا حرج عليه أن يأكل من ماله، ونزّله منزلة مال نفسه فإذا احتاج أنفق عليه، لكن هذا لا إشكال فيه؛ لأنه قال: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} فهل يجب عليه النفقة على الصديق مع أنه يجوز أن يأكل في بيته من طعامه ولو بغير إذنه؟، بغير إذنه يعني المعين، وإن كان يعلم أنه يأذن كما سيأتي.

وأما قوله: {أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ} فقال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّي: هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف.

القهرمان بمنزلة الوكيل، وهي باللغة الفارسية الوكيل الذي يتصرف بأمواله التي يقوم عليها مثل الخازن والأمين.

وقال الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله: {أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ}.

هذه الرواية التي ذكرت آنفاً سبب النزول.

وقوله: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يَشُقُّ عليهم ولا يكرهون ذلك.

قال: **أي بيوت أصدقائكم**، والصديق هنا مفرد مضاف إلى معرفة وهو الضمير كاف الخطاب، وهذا يكون بمعنى العموم {صَدِيقِكُمْ} يعني أو أصدقائكم، فكلمة صديق هذه بمفردها ولو لم تضف فإنها تصدق على الواحد والجمع؛ لأنها جنس مثل العدو {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [سورة الممتحنة:١]، يعني أعدائي وأعداءكم، فهنا أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك، بمعنى لو أنك دخلت في بيت صاحبك -وخرج لحاجة- فوجدت شيئاً يؤكل فأكلت منه فلا عليك حرج في هذا إلا إذا علمتَ أنه يكره ذلك، وبعض أهل العلم قال: إلا إذا كان قد أحرزه يعني حفظه في مكان خاص لم يكن موضوعاً في المجلس مثلاً أو في المكان الذي أنت فيه فعندئذ لا تأكل منه، لكن لو أنه علم منه أنه لا يأذن فإنه لا يأكل، كذلك لو أنه علم بخصوص هذا الطعام أنه لا يأذن فيه وأنه قد أعده لضيف آخر أو أعده للبيع فإنه لا يأكل منه، والمقام أحياناً يدل على هذا، فلو جئت ليلة العيد مثلاً ووجدته قد جاء بكيكة وضعها ودخل لحاجة فجئت أنت وأخذت الكيكة فأكلتها هل هذا في هذا المقام يسوغ للإنسان؛ لأن الله قال: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} تحتج عليه بالآية؟ الجواب لا، فالحال والمقام أحياناً يدل على الحكم وأنه لا يأذن في هذا، ولو جئت في يوم العيد وهو تأخر أو دخل لحاجة أو نحو ذلك أو انشغل عنك بالهاتف فوجدت في مجلسه أشياء مما تؤكل وجلست تأكل فلا إشكال.

وقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [سورة النساء:٢٩] **قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناسُ عن ذلك، فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى} إلى قوله: {أَوْ صَدِيقِكُمْ}.**

فهاتان الروايتان صحيحتان في سبب النزول.

وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا}.

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا} يعني أن بعضهم في الجاهلية لربما يتحرج أن يأكل وحده حتى يأتي ضيف يشاركه في هذا، و يرى أن هذا من العيب أن يأكل وحده، أو أن يأكل مع أهله، ولابد من ضيف يشاركه في طعامه فنفى عنهم الحرج {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا} كُلوا مجتمعين أو متفرقين.

وقال قتادة: وكان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مَخْزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجلُ لَيَسوقُ الذَّوْدَ الحُفَّل وهو جائع...

الذوْد يعني من الإبل، الحفّل يعني باللبن أي أن هذه الذود مليئة باللبن وبعد ذلك هو جائع ويتحرج من أن يأكل أو يشرب وحده حتى يجد من يشاركه.

حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا}.

فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك، كما رواه الإمام أحمد عن وَحْشيّ بن حَرْب، عن أبيه، عن جده؛ أنّ رجلا قال للنبيّ -صلى الله

عليه وسلم-: إنا نأكلُ ولا نشبَع. قال: ((فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يُبَارِكْ لكم فيه))[٣].

ورواه أبو داود وابن ماجه، وقد رَوَى ابن ماجه أيضًا عن سالم، عن أبيه، عن عمر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((كلوا جميعًا ولا تَفَرّقُوا؛ فإن البركة مع الجماعة))[٤].

هذه الأحاديث ثابتة وأسانيدها حسنة، السند الأول العراقي والألباني، وقوله: ((كلوا جميعاً ولا تفرقوا)) الألباني يقول: إن هذه الجملة ثابتة، ون قوله: ((فإن البركة مع الجماعة)) الحديث ضعيف جداً لكن أوله ثابت[٥]، وفي بعض كتبه حكم عليه بأنه حسن بإطلاق، وأكل الناس مجتمعين أو متفرقين لا حرج عليهم فيه، ((لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه)) ويتحقق هذا بأن يجتمعوا فكانوا لربما وسعهم البساط، لو جلسوا على بساط واحد لوسعهم لتقاربهم، وتفرُّقهم من الشيطان، كانوا يتفرقون بالشعاب والأودية، فتفرق الأبدان يؤثر في تفرق النفوس للملازمة للظاهر والباطن، لكن لو اجتمع الناس على طعام وصار كل واحد يغترف ما يحتاج إليه فيما يخصه من إناء هذا لا يعتبر من تفرق الطعام وإنما اجتماع على الطعام، وليس المقصود بالتفرق أن كل إنسان يأكل من إناء يخصه مع اجتماعهم في مكان، وعلى طعام واحد، وهذا بمنزلة الآنية يصب فيها الماء وشبهه، فكذلك هذا الطعام يأخذ كل إنسان القدر الذي يحتاج إليه وهم يجلسون على طعام واحد يجتمعون فهذا يتحقق فيه ما ذكر ((يبارك لكم فيه)) لا كما يظنه بعض الناس أن ذلك لابد أن تكون الأيدي جميعاً في صحن أو في إناء واحد ليس ذلك بالضرورة، -والله تعالى أعلم-، والذي اشتكى منه الصحابة -رضي الله عنهم- قال: "إنا نأكل ولا نشبع" كانوا يتفرقون يذهب هذا تحت شجرة، وهذا في شعب وهذا في كذا إذا نزلوا في أسفارهم ونحو ذلك، فعلّمهم فصاروا يجتمعون حتى يسعهم البساط الواحد، ولا يلزم للاجتماع أن تكون الأيدي جميعاً على قصعة واحدة وإناء واحد، لكن لو أن كل واحد منهم أخذ قدراً وهو جالس معهم في نفس المكان مجتمعين على الطعام وجعل يأكل منه فلا إشكال لاسيما مع وفرة الطعام، ينتفع بما بقي، وما ورد من النهي عن أن يقرن الإنسان في الأكل بين تمرتين أو نحو ذلك هذا حيث القلة؛ لئلا يكون نصيبه من الطعام أكثر من غيره، فيأكل بين التمرتين في وقت الجوع والحاجة وقلة الطعام، بعضهم يتعمد هذا ليأكل أكبر قدر من الطعام، لا يأكل تمرة واحدة وإنما يأكل على اثنتين أو ثلاث.

وقوله: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة، والزهري: فليسلم بعضكم على بعض.

وقال ابن جُرَيْج: حدثنا أبو الزبير: سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلتَ على أهلك، فسَلِّمْ عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، قال: ما رأيته إلا يوجبه.

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام، برقم (٣٢٨٦)، وقال الألباني: حسن لغيره، برقم (٦٦٤).

٤ - رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام، برقم (٣٢٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٥٠٠).

٥ - في السلسلة الصحيحة، (٦/٤٢٩)، رقم الحديث (٢٦٩١).

قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخلَ أحدكم بيته فليسلم.

وقال مجاهد: إذا دخلتَ المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلِّمْ عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحُدّثنا أن الملائكة ترد عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا} هذه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط للعموم فإذا دخلتم بيوتاً فيصدق هذا على بيوت الله –المساجد- فيسلم الإنسان، وإذا دخل بيته فإنه يسلم على أهله فإن لم يجد أحداً سلم لعموم قوله: {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} وقوله -تبارك وتعالى-: {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} يعني يسلم بعضكم على بعض سلموا على إخوانكم، سلموا على من فيها فإن النفوس المجتمعة على ملة أو دين أو نحو ذلك تنزل منزلة النفس الواحدة ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة النساء:٢٩] يعني لا يقتل بعضكم بعضاً {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة:٨٥]، يعني يقتل بعضكم بعضاً {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} يعني سلموا على من فيها، سلموا على إخوانكم، سلموا على أهلكم فإذا دخل المسجد سلم، وإذا دخل على آخرين سلم، وإذا دخل بيته سلم على أهله وإن كان لا يوجد أحد، لو لم يكن في البيت أحد يسلم لعموم قول الله -عز وجل-: {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} يسلم، هنا قال مجاهد: **إذا دخلتَ المسجد، فقل: السلام على رسول الله**، والأصل أن الأذكار الخاصة يوقف فيها على ما ورد، ولدخول المسجد دعاء خاص.

وقوله: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} لما ذكر تعالى ما في السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نَبَّه تعالى على أنه يُبَيّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا، ليتدبروها ويتعقلوها، لعلهم يعقلون.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النور:٦٢].

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عبادَه المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى ألا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين.

ثم أمر رسولَه -صلوات الله وسلامه عليه- إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: {فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ...} الآية.

وقد روى أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة))[٦].

وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} الأمر الجامع يصدق على الاجتماع للصلاة، وكذلك إذا كان في الغزو، وكذلك إذا كان في أمر مشورة أو نحو ذلك أو أمرَهم بالاجتماع، قال لهم مثلاً: الصلاة جامعة فاجتمعوا فخطبهم، فإذا أراد أحد أن ينصرف يستأذن، فهذا من الأدب وجعله الله -عز وجل- من الإيمان {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ} فهذه الآداب هي من الإيمان لاسيما أن ذلك يكون فيه مخالفة لحال المنافقين -كما سيأتي- الذين كانوا يتسللون لواذاً، ينسل الواحد منهم من المجلس دون أن يشعر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وينسل من مقام الرباط في سبيل الله كما حصل في غزوة الخندق، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يرابط على الخندق وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من المؤمنين الصادقين كان الواحد منهم إذا عرضت له حاجة استأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- وانصرف، وأما أهل النفاق فكانوا يتسللون ويرجعون بحجج واهية، فهذا من الآداب التي أدبهم الله -عز وجل- بها كما سيأتي {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا} [سورة النور:٦٣] يدخل فيه -كما سيأتي- رفع الصوت للمخاطبة، هذا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن إذا تقرر أنه من الأدب فكذلك ينبغي أن يقال فيما كان من هذا القبيل من مجامع الناس، ناس اجتمعوا ليتشاوروا بأمر فإذا أراد الواحد منهم أن ينصرف، ينبغي أن يستأذن من صاحب الشأن في اجتماع، في مجلس، مؤسسة، شركة، مجلس جامعة، مجلس كلية، مجلس قسم، وليس كلما عرضت له حاجة قام وانصرف فليس هذا من الأدب، الأدب أن يستأذن من أراد أن يخرج إذا كان هذا من الآداب فينبغي أن يتحلى به الإنسان، {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} الناس الآن في الأمور الرسمية ربما تضبطهم بعض الأشياء، فالطالب في قاعة الدرس قد يضطر إلى هذا؛ لئلا يُحسب غائباً، ولكن إن لم يكن ذلك فإنه من الأدب أن يستأذن إذا أراد أن يذهب، وكذلك الناس، مثلاً لو كان في كتيبة في جيش قد لا يستطيع أن يذهب من غير استئذان، يعاقب، لكن لو لم يكن هناك عقاب فإن هذا أدب ينبغي أن يتحلى به، لا يذهب حتى يستأذن {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا} [سورة النور:٦٢] إذا كان هذا من الآداب التي ربى الله -عز وجل- عليها أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في تعاملهم معه فكذلك لا يرفع صوته على أبيه أو على أستاذه أو على من هو أكبر منه يعني الشخص المطاع المقدم، أو رئيس القبيلة أو نحو هذا كل ذلك من الأدب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النور:٦٢]، يعني ما مناسبة هذا في استئذانهم وإذن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن شاء؟ من أهل العلم من يقول: لما كان خروجهم هذا قد يكون ملابساً لنوع

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس، برقم (٥٢٠٨)، والترمذي، كتاب الاستئذان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود، برقم (٢٧٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (٩٦٦٤)، وقال محققوه: إسناده قوي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٨٣).

خلل أو تفريط أو نحو ذلك أمره أن يستغفر لهم لما يفوتهم بهذا الخروج مثلاً، ومن أهل العلم من حمل ذلك على أنه مما أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه رحمة لهؤلاء، للأمة جميعاً **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [سورة الأنبياء:١٠٧]، من صور هذه الرحمة أنه يستغفر لهم الله، لمن شاء، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النور من الآية ٦٣ إلى الآية ٦٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النور:٦٣].

قال الضحاك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله -عز وجل- عن ذلك، إعظامًا لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه- قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير.

وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وأن يُبَجَّل وأن يعظَّم وأن يُسوَّد.

وقال مقاتل في قوله: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} يقول: لا تُسَمّوه إذا دَعَوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شَرِّفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

والقول الثاني في ذلك: أن المعنى في: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العَوفي، والله أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** "دعاء" مصدر وهو مضاف إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون ذلك من قبيل إضافة المصدر إلى الفاعل، ويحتمل أن يكون من قبيل إضافة المصدر إلى المفعول، والمعنى على كل تقدير هكذا **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ}** المعنى الأول الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يصير هكذا " لا تجعلوا دعاءكم الرسول " الرسول على هذا المعنى مفعول به، هو المدعو، دعاءكم الرسول **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ}** حينما تدعونه لا ينبغي أن يكون ذلك كدعاء بعضكم لبعض، فلا يقال: يا محمد، يا ابن عبد الله، يا أبا القاسم، عظِّمه وقل: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويدخل في هذا المعنى ما ذكره بعض أهل العلم من أن المراد لا تجعلوا دعاء الرسول يعني حينما تدعونه كدعاء بعضكم لبعض في رفع الصوت وعدم التأدب معه، كما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الحجرات **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ}** [سورة الحجرات:٢] يعني خشية أن تحبط، كراهة أن تحبط أعمالكم **{وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}** [سورة الحجرات:٢-٣] فعلى هذا المعنى هو من قبيل الإضافة إلى المفعول، ويكون المقصود التأدب معه -صلى الله

عليه وسلم- بألا يسمَّى باسمه إذا دعاه أحد، وإنما يقول: يا رسول الله، وأن لا يجهر له بالقول، وقوله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} يعني إذا كنت تتحدث معه فلا ينبغي أن يكون صوتك أعلى من صوته، وإن لم تكن تتحدث معه ليس هناك حوار مع النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يتكلم لكن أنت تناديه {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة الحجرات:٤] يجهر له بالقول يا محمد اخرج لنا، لا يليق هذا، ولو دخل إنسان على مديره في المكتب أو مدير مؤسسة أو مدير مدرسة أو نحو ذلك ومن خارج المكتب يناديه يا فلان! طالب ينادي المدير من خارج المكتب يا فلان فهذا ليس من الأدب في شيء أبداً، وإذا تكلم معه أو تكلم مع أستاذه أو تكلم مع أبيه وصوته أعلى من صوت أستاذه أو أبيه هذا ليس من الأدب في شيء، فعلى هذا المعنى أنه من قبيل إضافة المصدر -المصدر دعاء- إلى المفعول يكون المعنى هكذا {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ} حينما تدعونه فيكون الرسول مدعوا -عليه الصلاة والسلام- فتأدبوا معه في الخطاب فلا ينادَى باسمه وكنيته كما ينادي بعضكم بعضاً، يا زيد، يا أبا فلان، ولا ترفع الصوت فتجهر له بالقول، ولا ترفع صوتك فوق صوته وأنت تتحدث معه {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} المتأدب في الخطاب والذي يخفض صوته مع من خاطبه، وهذا أمر معلوم لا يخفى.

والمعنى الثاني: أن يكون من قبيل الإضافة إلى الفاعل، إضافة المصدر إلى الفاعل، لا تجعلوا دعاء الرسول، إذا دعاكم الرسول فيكون في هذا الاعتبار فاعلاً، لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاك سواء إلى طاعة أو بر أو معروف أو عمل صالح أو نحو ذلك هذا ليس كما لو دعاك غيره، فتجيب، فلو دعاك يا فلان، هذا يقال له دعاء ناداك فإنه يجب عليك أن تجيبه ولا تؤخر ذلك ولا تتساهل؛ ولهذا عبر بعضهم بهذه العبارة قال: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} أي: لا تتساهلوا في إجابته، فيكون هذا داخلاً في المعنى الثاني أنه من قبيل الإضافة إلى الفاعل، إذا دعاك: ناداك أو دعاك إلى بر أو معروف أو طاعة فعليك أن تبادر وتجيب، ولهذا معلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دعا أحداً ناداه يا فلان أنه يجب عليه أن يجيبه ولو كان في الصلاة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أنكر على من لم يجب، لمّا دعا رجلاً ولم يجبه واعتذر أنه يصلي فاحتج عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [سورة الأنفال:٢٤]))[1]، مع أن أصل الآية إذا دعاكم إلى الإيمان، ولكن عموم اللفظ، إذاً دعاء مطلق حتى لو قال: يا زيد، فهذا كله داخل في هذا المعنى الثاني من قبيل الإضافة للفاعل، ويدخل فيه أيضاً قول من قال: إن المراد بـــ {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ} إذا دعا على أحدكم فإن دعاءه يستجاب، فيكون هنا الدعاءُ دعاءَ الرسول، يعني على أحد من الناس، والقول مع ما فيه من بعد فيما يبدو -والله تعالى أعلم- إلا أنه اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، هذا القول الأخير أن المقصود الدعاء عليه، لا تتساهلوا، قال: والقرينة -احتج بما قبله- على صحة هذا القول عنده أن الله -تبارك وتعالى- قال قبله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، برقم (٤٢٠٤)، وبرقم (٤٤٢٦)، باب تفسير سورة الحجر.

{كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} [سورة النور:٦٢]، فهو يقول: المعنى "لا تتعرضوا لدعائه عليكم فيستجاب له فيكم"، لا تتعرضوا لذلك بمخالفة أمره من سوء الأدب معه والخروج من غير استئذان وانصراف، ينصرف من غير أن يستأذن وهم معه على أمر جامع فيدعو على أحدكم فيهلك، لكن هذا القول فيه بعد ويوجد في الآية قرينة تدل على ضعفه: **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** القرينة "بعضكم بعضاً"، لو كان المقصود هذا المعنى الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- لقال: كدعاء بعضكم على بعض، لكن حينما يقول: **{كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** فمعناه كنداء بعضكم بعضاً، أو كما يطلب وينادي ويدعو أحدكم صاحبه فهذا هو الأقرب، والمعنى الأخير هذا إذا استبعدناه، يعني الدعاء عليه أي لا تتعرضوا بسوء صنيعكم إلى دعائه على أحدكم فيهلك، فيكون المعنى الأول هو الأقرب لظاهر القرآن، وأن المراد **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** فتأدبوا معه بترك الجهر له بالقول، هذا يدل عليه القرآن، آيات الحجرات، لا تنادوه باسمه كما فعل الأعراب، يا محمد! اخرج إلينا، فكل هذا خلاف الأدب، فابن كثير رجح الأول الذي أذكره، وهنا لم يصرح بذلك، وهذا قصور في الاختصار يفترض إذا صرح ابن كثير بترجيح قول أن يصرح به هنا ولا يذكر القولين ويسكت.

وابن كثير -رحمه الله- قال على القول الأول: وهذا هو الأرجح.

المعنى الثاني: إذا استبعدنا منه الدعاء على أحدهم أنه قال: **{كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** يبقى بعض المعاني التي قيلت فيه مثل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}** [سورة الأنفال:٢٤] فإذا دعا أحدَكم فلا تجعلوا دعاءه ونداءه كما إذا دعا آحادُ الناس غيرَه، فقد يستجاب له وقد لا يستجاب، سواء دعاكم لأمور تتصل بالإيمان أو دعاكم لأمر آخر كأن يقول مثلاً: يا فلان أقبل، يا فلان اجلس، يا فلان انصرف، يدعوه يا فلان، ويمكن أن يقال: إن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول فتكون هذه الآية محتملة لهذه المعاني جميعاً، وهي معانٍ صحيحة إلا ما دلت القرينة على ضعفه، ويقال: هذه الآية فيها تعليم للأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا خاطبه أحد من الناس أن يتأدب في هذا الخطاب فلا يناديه باسمه ولا بكنيته، وإنما يُعظم ويُجل وإذا حادثه فلا يرفع صوته فوق صوته، وإذا ناداه فلا يجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، وكذلك أيضاً إذا دعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا أحداً من الناس فينبغي أن يبادر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- انتقل إلى ربه فيبقى ما يتصل بذلك اليوم هو أن يتأدب الإنسان مع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والشرع الذي جاء به مع سنته، فإذا ذكر له الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بكذا لا يعترض ولا يرد ذلك متأولاً برأيه، وإنما يبادر إلى القبول والاستجابة، أعود على التي في الحجرات **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** [سورة الحجرات:١]، لا تقدم بين يديه باقتراح ولا برأي أو غير ذلك فهذا أدب معه -صلى الله عليه وسلم- بعد وفاته، وإذا ذكرناه نذكره -صلى الله عليه وسلم- بوصف الرسالة ونصلي عليه -عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا} قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة -ويعني بالحديث الخطبة- فيلوذون ببعض الصحابة أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-

حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبيّ -صلى الله عليه وسلم- في يوم الجمعة، بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب، بطلتْ جُمعته.

قال السُّدِّي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه، فلا يراهم.

قوله تعالى: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** هذا يؤيد بعض ما قيل في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** وذلك في أن إجابته -صلى الله عليه وسلم- متعينة على أهل الإيمان، فإذا دعاهم إلى شيء وجب عليهم أن يمتثلوا وأن يطيعوا وأن يذعنوا، كل ذلك يتعلق بالأدب معه -عليه الصلاة والسلام-، **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ}** هنا "قد" دخلت على الفعل المضارع، وبعض أهل اللغة يقول: إنها إذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، قد قدم زيد، وإذا دخلت على الفعل المضارع يقولون: تفيد التقليل، يقولون: قد يفلح الكسول، وقد يجود البخيل، وقد يخفق المجتهد، هذا للتقليل، ولكن هذا ليس على إطلاقه، وليس محل اتفاق بين أهل اللغة، والمعلوم المتيقن كما هي القاعدة أن قد إذا دخلت على الفعل المضارع المتعلق بفعل من أفعال الله –عز وجل- فإنها للتحقيق، **{قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ}** [سورة النور:٦٤]، **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [سورة الأحزاب:١٨]، يعني **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** قد علم ذلك، وليست للتقليل، وعلْم الله -عز وجل- محيط لا يفوته شيء، والنصوص الدالة على هذا كثيرة كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}** [سورة هود:٥]، **{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}** [سورة غافر:١٩]، والآيات في ذلك معلومة فعلمه -تبارك وتعالى- محيط بكل الأمور الدقيق منها والجليل، فقوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** التسلل هو الخروج بخفية، فإذا كان في المجلس وخرج دون أن يراه أحد يسمى تسللاً، خرج متسللاً يعني بخفاء، و لازالت هذه اللفظة مستعملة إلى اليوم بنفس المعنى، وقد تستعمل -إذا دلت القرينة أو السياق- في الدخول بخفية، لكن هنا لما كانت القضية بالخروج **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ}** قيل: هو الخروج بخفية، لكن إذا دخل بخفية، دخل البلد أو دخل بلداً أو نحو ذلك فإن ذلك يقال له: تسلل **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** اللواذ بمعنى أنه يلوذ بعضهم ببعض، ولهذا يمكن أن يكون من جهة الإعراب حالاً، **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** أي يتسللون متلاوذين، أي يلوذ بعضهم ببعض في حال كونهم متلاوذين، الإنسان لا يراه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، مثلاً ينظر هناك أحد داخل أو واقف أو نحو ذلك أو قريب من الباب هو ينسل يزحف قليلاً قليلاً، فإذا اقترب من الباب ورأى من يدخل فإنه ينصرف من وراء هؤلاء الناس دون أن يراه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يكون منصوباً على المصدرية بفعل محذوف **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** أي يلوذون لواذا.

وقوله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} أي: عن أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من عمل عَمَلا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ))[٢].

أي: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: في الدنيا، بقتل، أو حَدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك.

كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبْنه ويتقحَّمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجزِكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها))[٣]، أخرجاه.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، الذي قبل: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ} من اللطائف التي تذكر لهذا وهي من الأمثلة النادرة أو القليلة جداً المقبولة في التفسير الإشاري وعامة ما يذكر فيه لا يصح، بل بعضه كفر وزندقة، لكن توجد بعض الأمثلة اللطيفة من باب الشيء بالشيء يذكر، أو من باب الاعتبار: فإذا كان التسلل والخروج من مجلسه -صلى الله عليه وسلم- من غير إذنه أمراً مذموماً شرعاً فالخروج عن سنته وشريعته من باب أولى، فإذا نهى الله عن الخروج والتسلل من مجلسه فكذا الخروج من هديه وسنته وطلب الهدى من غيره، نظريات غربية، وحكم أفلاطون، وأرسطو وأمثال هؤلاء من الفلاسفة فضلاً عن المخالفات الصريحة لأمره -عليه الصلاة والسلام-، لهذا قال بعده: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} ولم يقل: يخالفون أمرَه مع أنه يتعدى بنفسه، وإنما قال: عن أمره، فبعض أئمة اللغة كالخليل بن أحمد وسيبويه يقولون: إن عن هنا بمعنى بعد، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} أي بعد أمره، يعني بعدما أمر تقع منهم المخالفة، فهذا أمر مذموم متوعَّد صاحبه بالعقوبة، وبعضهم يقول -كما سبق في مناسبات عدة-: إن الفعل قد ضمُن معنى فعل آخر تصح تعديته بعن، وتكلمت عن مسألة التضمين وأن هذا أبلغ من القول بأن الحرف استعمل بمعنى حرف آخر؛ لأن هذا ليس فيه زيادة في المعنى لكن إذا قيل إن الفعل قد ضمُن معنى فعل آخر فهذا فيه تكثير للمعاني، مثل: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [سورة الإنسان:٦] العين يشرب بها أم يشرب منها؟ الكأس يشرب به، ولكن العين يشرب منها، فبعضهم يقول: إن الباء هنا بمعنى مِن، وانتهى، ما فيه زيادة معنى، لكن حينما نقول: الفعل يشرب مضمن معنى فعل آخر وهو يرتوي أو يلتذ فإن يرتوي يتعدى بالباء يرتوي بها أو يلتذ بها فصار عندنا المعنى زائداً، صار عندنا هذه اللفظة القصيرة يشرب بها تدل على الشرب والارتواء والالتذاذ؛ لأن الإنسان قد يشرب ولا يرتوي، وقد

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

٣ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، برقم (٦١١٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، برقم (٢٢٨٤).

يشرب ولا يلتذ، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا} أي يلتذ مع إثبات الشرب -الفعل الأصلي-، أو يرتوي بها {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} يمكن أن نقول: إن فعل المخالفة "يخالفون" مضمن معنى الصد أو الإعراض يعرضون عن أمره أو يصدون عن أمره، فالفعل صد يمكن أن يتعدى بعن، والفعل أعرض يعدى بعن أعرض عن كذا، فيكون في جوف هذا الفعل الذي هو يخالفون معنى فعل آخر تصح تعديته بعن، وتكون هنا المخالفة "فليحذر الذين يخالفون" مضمنة معنى الإعراض، {يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} يخالفون يصدون عن أمره -عليه الصلاة والسلام-، وهنا أيضاً "أن تصيبهم فتنة" قال: **أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة** {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} يعني في الدنيا أو في الآخرة، والفتنة في الأصل تطلق على الاختبار وعلى نتيجة الاختبار سواء كانت حسنة أو سيئة، {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [سورة البروج:١٠]، يعني هنا بمعنى أحرقوهم بالنار، ولهذا يقال في عرض المعادن في النار من أجل تخليصها من الشوائب ونحو ذلك: إنه فتنٌ لها، ولهذا كانت الفتنة فيها تمحيص، الابتلاء والاختبار، وتطلق على نتيجته أيضاً؛ ولهذا قيل للكفر إنه فتنة، كما أن صد الناس عن الدين يقال له: فتنة سواء كان ذلك بطريق مباشر أو كان بطريق غير مباشر، كما قال الله -عز وجل- معلماً لأهل الإيمان أن يقولوا: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الممتحنة:٥]، فهنا يمكن أن يكون مصدراً بمعنى الفاعل، ويمكن أن يكون بمعنى المفعول، لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا بأن تسلطهم علينا فيُفتنوا ويقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما كانوا ضعفاء مستذلين تحت قهرنا وتصرفنا وسيطرتنا، أو لا تجعلنا فاتنين لهم بسوء فعلنا فنفتن الناس عن دين الله -عز وجل-، ويكون بمعنى المفعول أيضاً {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} يعني مفتونين، أن تسلطهم علينا فيقهرونا ويفتنونا عن ديننا، {أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}، الفتنة قال: **كفر أو بدعة** إلى آخره، بمعنى أن الله -عز وجل- قد يطمس على قلوبهم فلا يحصل لهم استجابة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} [سورة الأنفال:٢٤-٢٥]، فهنا إذا حيل بين القلب والإيمان فهذه فتنة، وهذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-: أن تصيبهم بدعة أو كفر أو نحو ذلك جزاء وفاقا، ولهذا في كثير من المواضع في القرآن تجد أن الله يعلل أحيانا عدم الهداية والتوفيق لبعض الأقوام يقول: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام:١١٠] يعني لما كفروا أول مرة كان ذلك سببا للطبع على القلوب، ولذلك يقال: إن من ترك وأعرض عما هو بصدده وما هو نافع له مما دعاه الله إليه أو رسوله -صلى الله عليه وسلم- من الإيمان والعمل الصالح فتحت له أبوابه ثم أعرض عنه فإنه يبتلى بالاشتغال بغيره، ولهذا قال الله عن اليهود: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:١٠١]، كانت النتيجة {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [سورة البقرة:١٠٢] تركوا ما جاء به الوحي وما جاء به موسى -عليه السلام-، وما جاء به محمد -عليه السلام- العمل بالتوراة وكانت النتيجة هي اتباع أسوأ الأشياء وأقبحها وأرذلها وهو السحر، تركوا الوحي وأقبلوا على السحر، وهكذا من أعرض عن علوم الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح الكلام الذي عليه نور يُبتلى بقراءة الروايات، والأمور التي تعلّم الجريمة، أو يقرأ في كتب الشُّبه، أو يقرأ في

فلسفات فيها الغث والسمين والحق والباطل ولا يميز من ذلك شيئاً، فيبتلى بهذا، ولهذا تجد في بعض من حصل له مثل ذلك إعراضاً بعد أن اشتغل بالعلوم الشرعية ثم صار يشتغل بكلام هؤلاء الفلاسفة القدماء والمعاصرين من الغربيين أصبح يشتغل بقراءة كتبهم، ورسائله التي يرسلها للآخرين كلها قال فلان، وقال فلان من حكماء الغرب، وكان طالب علم أرسلت لأحدهم رسالة لما أرسل لي مثل هذا قلت له: هذا الذي ناقصنا تقول لي: قال فلان وقال فلان، فرد وقال: الحكمة ضالة المؤمن، كلام يرسله موجود في كلام الله وكلام رسوله -عليه السلام- هذا في الصواب الذي يقولونه، لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إنه ما من صواب عند غير المسلمين إلا وهو موجود في الكتاب والسنة بصورة أوفي وأكمل، ولكن مشكلة من لا يعلم ومن لا يعرف هذه الأشياء، يكون كما قيل:

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى *** فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

وقع على هذه الأشياء واستحسنها، وأما من عرف العلوم الشرعية ثم انصرف إلى هذه الأمور واشتغل بها فهذا داخل في هذا المعنى {أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} -نسأل الله العافية-، والمشكلة أن القضية: فلان الذي تعرفه باشتغاله وطلبه للعلم ومحاورته ومناقشاته وما إلى ذلك ما عاد هو فلان الذي تعرفه، النظارة تغيرت، أصبح يلبس نظارة سوداء مثلاً، هو يرى الأشياء على غير ما تراها أنت أصلاً، فحينما تناقش تناقش إنساناً بعيداً تحتاج أن ترجع معه إلى أصول ومبادئ تتفق معه عليها ثم بعد ذلك تنطلق إلى التفاصيل، وهم بين مقل في هذا ومكثر، فإذا أبعد تماماً صار أسود مثل اللبراليين، وإذا كان بين وبين صار رمادياً مثل السمّاعين لهم، تشاهدون هذا، وتجد هؤلاء ينتصرون بهؤلاء، وهؤلاء ينتصرون بهؤلاء، وهؤلاء يزينون عمل هؤلاء، وهؤلاء يزينون عمل هؤلاء، فهؤلاء من هؤلاء المنافقين العكاز الذي يتوكئون عليه، هو كلام هؤلاء الرماديين هم الذين يبررون لهم، هم الذين يعطونهم المستندات والحجج والفتاوى الرخوة، تشاهدون هذا وهي فتنة عارمة هذه الأيام، ولذلك تجد أولائك الذين لا يعرفون أصلاً دين الله -عز وجل- يحتجون بأحاديث، يحتج بأشياء أحياناً تستغرب كيف وقف عليها، ويحتج بقضايا يعرفها أهل العلم في قضايا تتعلق باختلاف الفتوى أو مسائل من هذا القبيل يوردها في كلامه وفي مقالته وفي عموده وهو أغبر أسود منافق مَرَد على النفاق، عرف هذه الأشياء من السماعين لهم، من الرماديين الذين يسميهم أعداء الإسلام بالمعتدلين، وهم يقصدون هؤلاء تارة ويقصدون المنافقين الخلص تارة، هذا مشاهد، والله المستعان.

{أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة النور:٦٤].

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم غيب السموات والأرض، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} و"قد" للتحقيق، كما قال قبلها: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا}، وقال تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} الآية [سورة الأحزاب:١٨]**، وقال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} الآية** [سورة المجادلة:١]**، وقال: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}** [سورة الأنعام:٣٣]**، وقال: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}** [سورة البقرة:١٤٤] **فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـــ"قد"، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا: "قد**

قامت الصلاة، قد قامت الصلاة" فقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} أي: هو عالم به، مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ...} إلى قوله: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقال: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة يونس:٦١]، **وقال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** [سورة الرعد:٣٣] **أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}** [سورة هود:٥]، **وقال تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ} الآية** [سورة الرعد:١٠]، **وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة هود:٦]، **وقال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [سورة الأنعام:٥٩]، **والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.**

وقوله: {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ} أي: ويوم تَرْجِعُ الخلائق إلى الله -وهو يوم القيامة- {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا، مِنْ جليل وحقير، وصغير وكبير، كما قال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة:١٣]، **وقال: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [سورة الكهف:٤٩]، **ولهذا قال هاهنا: {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.**

آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة.

قوله: {فَيُنَبِّئُهُمْ} قال: أي **يخبرهم بما فعلوا** هو النبأ كما سبق في بعض المناسبات أنه ليس بمعنى الخبر من كل وجه، وإنما هو خبر خاص، فالنبأ هو الخبر الذي له شأن، وليس كل خبر يكون نبأ، وإنما الخبر الذي له شأن يقال له: نبأ، يقول: جاءنا نبأ الحرب، جاءنا نبأ الزلزال، ولا تقول: جاءنا نبأ حمار الحجام؛ لأن هذا لا شأن له.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (١) إلى الآية (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [سورة الفرقان:١-٢].

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ..} [سورة الكهف:١-٢]، وقال هاهنا: {تَبَارَكَ} وهو تفاعَل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة، {الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ} قال: نزل: فَعَّل، من التكرر والتكثر، كقوله: {وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ} [سورة النساء:١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [سورة الفرقان:٣٢-٣٣]، ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

قوله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ} قال ابن كثير -رحمه الله-: {تَبَارَكَ} **تفاعَلَ من البركة المستقرة الثابتة الدائمة**، بركة يعني: تعاظمت وتكاثرت بركته، وهذه المادة تدل على معنى الثبوت والدوام، وبرَكَ البعير: يعني ثبت والطائر على الماء، وعبارات السلف فيها متفاوتة، بعضهم يقول: بمعنى تقدس، وبعضهم يقول: تعاظم، وبعضهم يقول غير هذا، ومن أهل العلم من يجمع هذه العبارات ويصوغها جميعاً في تفسير هذه المادة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قول الله -تعالى ذكره-: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} البركة نوعان أيضاً: أحدهما بركة هي فعله -تبارك وتعالى-، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة "على" تارة، وبأداة "في تارة"، والمفعول منها: مبارك، وهو ما جُعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى"[1].

---

١ - بدائع الفوائد، لابن القيم (١٨٥/٢).

يقال: بارك الله له، وبارك فيه، وبارك عليه، فهذا دعاء له بالبركة، والبركة تكون من الله -جل جلاله-، ومن حصل له ذلك يقال له: مبارك، ولا يقال للمخلوق: تبارك؛ فإن ذلك يختص بالله -تبارك وتعالى-، وبهذا نعلم أن ما يقوله بعض الناس إذا جاءهم أحد، نزل بهم ضيف يقول: تباركت علينا، هذا يقال في الله -تبارك وتعالى- ولا يقال في المخلوق، لكن يرجو الإنسان أن يكون مثلاً شراؤه لهذه السلعة سبباً للبركة، أو أن يكون تزوجه من هذه المرأة سبباً للبركة... أو نحو هذا، وأن تكون بركة علينا، فلان مبارك، هذا المتعدي، بارك له وبارك فيه وبارك عليه.

وقال رحمه الله: " والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له -عز وجل-"[٢].

ولهذا نقول: قال بعضهم: تعاظم، عظمت بركته، فإن هذه المادة تدل على الكثرة، التكاثر، النماء، الزيادة في الخير.

وقال رحمه الله: "فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله مبارك، كما قال المسيح: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ} فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [سورة الملك:١]، وقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}، وقوله: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ}، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً}، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ولا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قولة من قال من السلف: "تبارك تعاظم"، وقال آخر: "معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه"، وقال غيره: "كثر خيره وإحسانه إلى خلقه" وقيل: "اتسعت رأفته ورحمته بهم" وقيل: "تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله"، ومن هنا قيل: "معناه تعالى وتعاظم"، وقيل: "تبارك: تقدس والقدس الطهارة"، وقيل: "تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء"، وقيل: "تبارك: ارتفع والمبارك المرتفع"، ذكره البغوي، وقيل: "تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره"، وقال ابن عباس: "جاء بكل بركة"، وقيل: "معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال" ذكره البغوي أيضاً، وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه -تبارك وتعالى-، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟، هذا لازم وهذا متعدٍّ، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم

---

٢ - بدائع الفوائد (٢/١٨٥).

يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قِبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك؛ ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله مباركاً وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة، وتدبر قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: ((اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام))[٣]، فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه"[٤].

وكلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحوم حول هذا المعنى، وأحياناً يفسرون بالمطابق، وأحياناً يفسرون ببعض المعنى -يعني التضمن-، وأحياناً يفسرون باللازم، فمن تأمل في عباراتهم فإنه يستطيع أن يجمع كثيراً منها تحت المعنى، ولا ينبغي لطالب العلم أن يبادر بالرد والإنكار لكلام السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وإنما يتأنى وينظر، فقد يكون التفسير من قبيل التفسير باللازم، يعني مثلاً في تفسير تبارك، هنا تبارك حينما يقول: تعاظم أو تعالى أو جعل البركة في غيره مثلاً... أو نحو ذلك، هذا ليس معنى تبارك، ولكنه قد يكون من لوازمه ومقتضياته، فمن عظمت بركته أو عظم خيره وبره أو عظم إحسانه... أو نحو ذلك، فإن هذا يقتضي العظمة؛ ولهذا قال بعضهم: تعاظم يقتضي علوه؛ ولهذا قال بعضهم: تعالى، ومن عظم بره وعظم خيره ونحو ذلك فإن هذا يستلزم وصول ذلك إلى غيره؛ ولهذا قال بعضهم: عم خيره، أو وضع البركة، جعل البركة في غيره... أو نحو ذلك، يعني أن البركة تكون من الله -تبارك وتعالى-، فهذه لها تعلق بالمعنى، هذه التفسيرات، وإن كان أصل معنى تبارك أنه يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، يعني: عظمت بركته، كثر خيره، هذا المعنى المختص به -جل جلاله-، ويقال: بارك في كذا وبارك على كذا وبارك لفلان، يكون متعدياً إلى الغير، يعني: جعل البركة فيه، فلان مبارك **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ}** [سورة مريم:٣١]، وبعضهم قال: معلماً للخير؛ لأنه إذا كان معلماً للخير فإن كل ما يفعل من طاعة لله وطاعة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- وصلاح وإصلاح فإنما يكون ذلك مبتدأ بمعرفة الخير، حتى يعمل الإنسان به؛ ولهذا قالوا: إن طالب العلم يستغفر له -كما جاء في الحديث: ((كل شيء حتى الحيتان في الماء))[٥]، بأنه يعلم

---

٣ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩١).

٤ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٢/١٨٥-١٨٧).

٥ - رواه الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٢٢٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٧١٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، وقيس بن كثير، وقيل: كثير بن قيس -وهو قول

الناس الخير، فيكفهم ذلك عن العدوان والإفساد: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [سورة الروم:٤١]، فتأمن هذه الحيتان وتسلم من شرورهم وأذاهم المباشر وغير المباشر، غير المباشر بالعصيان، فتهلك الدواب والهوام في جحورها والحيتان في البحار بسبب معاصي الناس، والمباشر بما يحصل من إهلاك وتلوث بالبيئة وغير ذلك، فتهلك هذه الدواب، فبعض أهل العلم ذكر هذا في تعليل كون طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر، فهنا بارك أي: وضع البركة فيه، هناك أشياء أخبرنا الشارع أنها مباركة يمكن للإنسان أن يتبرك بها، من البقاع والمطعومات، أقول: الذوات كذلك والأوقات، فمثلاً: أول النهار بورك لأمتي في بكورها، فيقصد الإنسان هذا الوقت ولا ينام فيه، فهو نوم أهل الغفلة، فإذا استغل الإنسان هذا الوقت بورك له ورُجي أن تكون البركة في كل اليوم، وكذلك أيضاً الأمكنة، مثل بلاد الشام بيت المقدس وما حوله هي أرض مباركة، وكذلك أيضاً في المطعومات مثل ماء زمزم، وهو طعام طعم وشفاء سقم، فهو ماء مبارك، يمكن للإنسان أن يتبرك به ويشربه، وكذلك بعض الأشياء التي أقسم الله بها يدل على عظمتها والتين والزيتون، فهي مباركة، قال الله -عز وجل-: {مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ} [سورة النور:٣٥] الزيتون وزيته مبارك، وهكذا دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- للمدينة في مُدّها وصاعها، ويجد ذلك أهل المدينة، وبالنسبة للذوات يُتبرك بذات النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما كان الصحابة، ولم يكن ذلك عادة لهم قد يتبركون بعرقه، أو ببصاقه -صلى الله عليه وسلم-، أو بفضل وضوئه، وهكذا أيضاً بشعره، ولا يُتبرك بغيره ممن يظن به الصلاح، ولم يبق من آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء اليوم يمكن لأحد أن يثبت أنه من آثاره -عليه الصلاة والسلام- ومن ثَمّ يمكن التبرك بذلك، أما تتبع آثار الأنبياء، والأماكن التي نزلوا بها أو نحو ذلك فهذا لا يتبرك به، والنصوص تدل على هذا المعنى.

ومن أراد البركة يمكن أن يتتبع هذه الأشياء في نصوص الكتاب والسنة، وأعظم ذلك هو الاشتغال بكتاب الله -عز وجل- فهو كتاب مبارك؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: اشتغلنا بالقرآن فعمتنا أو فغمرتنا البركات، من أراد أن يبارك له في علمه وفي عمله في دعوته فعليه بالقرآن.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة كما جزم به ابن جرير الطبري، وعليه فمعنى {تَبَارَكَ}: تكاثرت البركات والخيرات من قِبله، وذلك يستلزم عظمته وتقدّسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله"[٦].

المعنى دقيق جداً، وبعض الكتب لها ميزة، مثل هذا أضواء البيان، ومثل كلام شيخ الإسلام، وكلام ابن القيم الذي جمع، وكذلك أيضاً تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، فهؤلاء من المحررين المحققين، الذي ليس له خلفية يقرأ ويمر عليه هذا الكلام دون أن يعرف كيف جاء، لكن لاحظ عبارات السلف التي ذكرناها في معنى

الأكثرين- ضعيف، ثم إن عاصم بن رجاء لم يسمعه من قيس، فهو منقطع، بينهما داود بن جميل كما في الحديث التالي، وهو ضعيف أيضاً".

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٤).

تبارك والخلاف الذي يذكر في كتب التفسير، انظر إلى عبارة الشنقيطي بعدما ذكر الأقوال قال: "قال مقيده -عفا الله عنه- هو إذن يرجح الآن-:

الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري، وعليه فمعنى {تَبَارَكَ}: تكاثرت البركات والخيرات مِن قِبله، وذلك يستلزم عظمته".

لاحظ يستلزم عظمته، الذي قال: تعاظم نظمها في تفسير هذه المادة، يستلزم عظمته.

ومعنى قول الشنقيطي: "وذلك يستلزم عظمته وتقدّسه عن كل ما لا يليق"، قالوا تقدس؛ لأن بعضهم أنكر هذا قال: كيف يقال تبارك بمعنى تقدس، وتقدس بمعنى تطهر وتنزه، وهنا عظمت بركته وخيره؟، فهذا معنى غير صحيح، أنكره بعضهم، لكن هنا انظر "تقدس"؛ لأنه لا يكون كذلك إلا إذا استجمع الأمرين: تنزه من النقائص، واستجمع الخيرات والكمالات.

وقال -رحمه الله-: "وذلك يستلزم عظمته وتقدّسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله؛ لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدرّ الأرزاق على الناس هو وحده المتفرّد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون اللَّه لا يصحّ أن يعبد، وعبادته كفر مخلّد في نار جهنّم، وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [سورة العنكبوت:١٧]، وقوله تعالى: **{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}** [سورة النحل:٧٣]، وقوله تعالى: **{وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ}** [سورة الأنعام:١٤]، وقوله تعالى: **{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}** [سورة الذاريات:٥٧-٥٨]، وقوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ..}** [سورة غافر:١٣-١٤] الآية"[٧].

هذا الكلام في غاية النفاسة لطالب العلم، ومثال واضح جداً على طريقة الجمع بين الأقوال التي يذكرها السلف حيث يفسرون تارة ببعض المعنى أو بلازمه أو بنحو ذلك، فتُجمع هذه الأقوال ويعبر عنها بعبارة وافية، وحينما يقال: هذا الكتاب أو ذاك له مزية، وهو أنه يعبر عن المعنى بعبارة ضافية وافية، محررة فهذا هو الصحيح، ولو جئنا مثلاً نكتب في مفردات القرآن، كلمة تبارك كيف ستكتبها؟، القضية ليست بهذه السهولة، ترجع إلى كتب المفردات تجد هذا يذكر معنى وهذا يذكر معنى كيف ستعبر عنها؟ تحتاج أن تُرجع الكلام للمفسرين وكلام السلف، ثم تحرر هذه اللفظة، وتصوغ ذلك بصياغة دقيقة جداً، هذا في غاية الصعوبة، مثل هذه الطريقة؛ ولذلك تجد بعض من يؤلف في التفسير أو يختصر كتاباً في التفسير أو يؤلف في المفردات تأتي عباراته فيها نقص، قد لا يكون هذا المعنى الذي ذكره خطأ لكنه قليل من كثير، لم يحرر العبارة في تفسير الآية، يكتبها بطريقة معبرة عن المعنى، استوفي له بقدر الإمكان، وهذه القضية يحصل بها التفاضل بين كتب التفسير التي على الجادة، ويعلم تفاسير أهل البدع وكذا هذا التفسير لأهل السنة،

---

٧ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٤).

لكن التفاسير التي على الجادة تتفاوت غاية التفاوت، ومن أعظم ما يحصل به التفاوت بينها هو هذا، وهذه هي التي تتصل اتصالاً مباشراً بالملكة، والفقه في المعاني وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لكن الكتابة في التفسير أو المفردات أو نحو ذلك ليست بالشيء السهل، اختصار كتب التفسير ليس بالشيء السهل، هو من أصعب الأشياء.

وقضية مثل هذه تحتاج كثيراً من الوقت حتى تحرر فيها العبارة، فتصور مفردات كثيرة جداً في القرآن كم تحتاج؛ ولهذا بعض أئمة اللغة الكبار جلس خمس عشرة سنة وهو يكتب كتابه في المفردات، وهذا ليس بكثير.

وهنا يقول: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ} قال: نزّل فعّل من التكرر والتكثر، كقوله: {وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} [سورة النساء:١٣٦]، لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة... إلى آخره، كلمة نزّل على وزن فعّل، فهي تدل على نزوله شيئاً بعد شيء، أنه نزل منجماً، لكن حينما يقال: أنزل فإنها لا تدل على هذا المعنى، فزيادة المبنى لزيادة المعنى، فإذا زاد حرف فمعناها أن هناك زيادة في المعنى، وفرق بين نزّل وبين أنزل، فأنزل أي جملة، ولهذا قال: {وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} نزّل بالنسبة لكتابنا القرآن نزّل لأنه نزل منجماً، وأما الكتب السابقة فقال: والكتاب ما قال الذي نزّل من قبل، وإنما الذي أنزل من قبل، الكتاب جنس، يعني: الكتب التي أنزلها من قبل، فنزلة جملة واحدة، ويدل على هذا قوله -تبارك وتعالى- مخبراً عن قول المشركين: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} [سورة الفرقان:٣٢] يعني: كالكتب التي قبله، فأقر هذا، لو كان هذا القول غير صحيح لقال لهم: الكتب السابقة كذلك كانت تنزل مفرقة، ولكنه ذكر معنى وتعليلاً فقال: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ} كذلك أنزلناه هذا الإنزال، {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [سورة الفرقان:٣٢-٣٣] وهذه علة التنجيم، هذا الذي يشير إليه ابن كثير -رحمه الله.

قال: ولهذا سماه هاهنا الفرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ} يعني قال: لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، فرقان يفرق بين الهدى والضلال، بين الحق والباطل، وبعضهم يقول: الذي يفرق بين المحق والمبطل، وليس هذا هو أصل المعنى، الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل، ولكنه يلزم منه معرفة المحق من المبطل، إذا فرق بين الحق والباطل عرف من هو على الحق ومن هو على الباطل.

وقوله: "على عبده" هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [سورة الإسراء:١]**، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** [سورة الجن:١٩]**، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: {تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.**

حاصل الكلام السابق أن مقام العبودية مقام جليل من أجلّ المقامات وأعلاها وأعظمها، فقد ذكر الله -عز وجل- في أشرف المقامات وصْف نبيه -صلى الله عليه وسلم- به، وذلك أن شرف العبد بتحقيق العبودية، فكلما ارتقى في سلمها كلما كان ذلك أعظم في مرتبته وأكثر في شرفه، فشرف العبد في تعبيد نفسه وتذليلها

وتطويعها لربها وباريها -جل جلاله-، فإذا ترفع عن هذا وخرج عن طاعته ذل وحصل له الصغار؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وجعل الذل والصغار على من خالف أمري))[8]، وقال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون:٨] فمن ابتغى العزة فإن العزة لله -تبارك وتعالى-، فعلى قدر ما يحصل له من الإيمان والعبودية على قدر ما يحصل له من العزة، يكون عزيزاً، يكون له من الهيبة بقدر خوفه من الله -جل جلاله-، بقدر طاعته له، وليس ذلك يحصل برفيع اللباس أو نفيس الرياش والأثاث أو المراكب أو نحو هذا، فالذل لا يفارق صاحب المعصية والبدعة، مهما تزين ومهما تصنع، والله المستعان.

وقوله: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} أي: إنما خصَّه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢]، الذي جعله فرقاناً عظيماً، إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[9]، وقال: ((إني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي))، فذكر منهن: أنه ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة))[10]، كما قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..} [سورة الأعراف:١٥٨] الآية، أي: الذي أرسلني هو مالك السماوات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}.

المراد {لِلْعَالَمِينَ} يعني: الجن والإنس، {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى} [سورة الأحقاف:٣٠]، {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ} [سورة الأحقاف:٣١]، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} [سورة الجن:١] كل هذا يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بعث للإنس والجن، بعث للأحمر والأسود.

وقوله: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} هل هذا عائد إلى القرآن، {تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} ليكون الفرقان للعالمين نذيراً، أو ليكون الرسول بعثه الله -تبارك وتعالى- ليكون للعالمين نذيراً؟، يحتمل هذا وهذا، من أهل العلم من قال: إن ذلك يرجع إلى القرآن: {تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ} القرآن {لِلْعَالَمِينَ} نزله {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، علة الإنزال هي {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، ويحتمل أن يكون ذلك يعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو الأرجح، وذلك أن الضمير في الأصل يرجع إلى أقرب مذكور، {تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ} هو من العبد -عليه الصلاة والسلام-،

---

٨ - رواه أحمد في المسند، برقم (٥٦٦٧)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥/١٠٩)، في كلامه على حديث رقم (١٢٦٩): "قلت: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا، ففيه خلاف وقال الحافظ في "التقريب": " صدوق، يخطئ، وتغير بأَخَرَة".

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٩٧٣٥)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد اختُلف فيه على إسرائيل في وصله وإرساله، فرواه عنه حسين بن محمد -وهو المرُّوذي- في هذه الرواية موصولاً، ورواه أبو أحمد الزبيري عنه في الرواية التالية مرسلاً، إسرائيل: هو ابن يونس بن أبي إسحاق السبيعي".

١٠ - رواه البخاري، في أول كتاب التيمم، برقم (٣٣٥).

{لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مبعوث بالبشارة والنذارة {إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [سورة الفرقان:٥٦]، فهنا اقتصر على أحدهما ليدل على الآخر: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} أي: ومبشراً كذلك، يبشر من آمن واستجاب: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [سورة الكهف:٢].

وهكذا قال هاهنا: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}، ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} الخلق يأتي بمعنى التقدير:

ولأنتَ تَفري ما خلقتَ وبعـــ *** ـــضُ القوم يخلقُ ثم لا يَفري

تفري ما خلقتَ يعني: تُنفذ ما قدّرت وخططت، يمدح ملكاً من الملوك، تفري ما خلقتَ، فالخلق يأتي بمعنى التقدير، وعلى هذا المعنى قوله -تبارك وتعالى-: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [سورة الحشر:٢٤] فالخالق هو المقدر هناك، والبارئ هو الموجد من العدم، والمصور هو الذي أعطى كل مخلوق هيئته وصورته، فالخلق يأتي بمعنى التقدير ويأتي بمعنى الإيجاد، فهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، ما المعنى هل نقول هنا: خلق بمعنى قدر، يعني: قدر كل شيء فقدره فليكن من قبيل التكرار مثلاً؟ الجواب: لا، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ} خلق بمعنى أوجده فقدره تقديراً، التقدير يكون قبل الإيجاد، وُجد على الهيئة والحال الذي قدره الله -عز وجل- له، كيف يكون المعنى هنا، وابن جرير -رحمه الله- يقول: سوّى كل ما خلق، خلق كل شيء، سوّى كل ما خلق وهيأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، بمعنى أنه جاء بصفة وصورة وحال من طول وقصر وأجل، وكذلك ما فيه من الأوصاف النفسية والجسمانية كما أراد الله -تبارك وتعالى-، لا يخرج عن ذلك في قليل ولا كثير: {فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، قدر له وجوده وأجله وانتهاءه ونهايته، وقدر له رزقه وعمله فضلاً عن هيئته وصورته، لا يخرج عن تقديره شيء -جل جلاله وتقدست أسماؤه.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "وأما الأمر الخامس وهو أنه قدَّر كل شيء خلقه تقديرًا، فقد جاء أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}، وقوله تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}، وقوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، إلى غير ذلك من الآيات، وقال ابن عطيّة: "تقدير الأشياء هو حدّها بالأمكنة، والأزمان، والمقادير، والمصلحة، والإتقان"، انتهى بواسطة نقل أبي حيّان في "البحر".

تنبيه:

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: الخلق في اللغة العربية معناه: التقدير، ومنه قول زهير:

ولأنتَ تَفري ما خلقتَ وبعـــ *** ـــضُ القوم يخلقُ ثم لا يفري

قال بعضهم: ومنه قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}، قال: أي أحسن المقدّرين، وعلى هذا فيكون معنى الآية: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} أي: قدّر كل شيء فقدّره تقديرًا، وهذا تكرار كما ترى، وقد أجاب الزمخشري عن هذا السؤال، وذكر أبو حيان جوابه في "البحر" ولم يتعقّبه.

والجواب المذكور هو قوله: فإن قلت في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}؟ كأنه قال: وقدّر كل شيء فقدّره.

قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثًا مراعًى فيه التقدير والتسوية، فقدّره وهيّأه لما يصلح له.

مثاله: أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدّر المسوى الذي تراه، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الحيلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدّره لأمر ما ومصلحة مطابقًا لما قدّر له غير متجافٍ عنه، أو سمى إحداث اللَّه خلقًا؛ لأنه لا يحدث شيئًا لحكمته إلا على وجه التقدير غير متفاوت، فإذا قيل: خلق اللَّه كذا، فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنّه قيل: وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده، لم يوجده متفاوتًا، وقيل: فجعل له غاية ومنتهى، ومعناه: فقدّره للبقاء إلى أمد معلوم، انتهى كلام صاحب "الكشاف" وبعضه له اتّجاه، والعلم عند اللَّه تعالى"[١١].

قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} [سورة الفرقان:٣].

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأزمّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟

{وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا} أي: **ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله -عز وجل-، الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم،** {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان:٢٨]، **كقوله:** {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، **وقوله:** {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤]، {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [سورة الصافات:١٩]، {إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [سورة يس:٥٣].

فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا بديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٨-٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٤) إلى الآية (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الفرقان:٤-٦].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: {إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ} أي: كذب، {افْتَرَاهُ} يعنون النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: {فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه.

{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} يعنون: كتب الأوائل أي استنسخها، {فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ} أي: تُقرأ عليه، {بُكْرَةً وَأَصِيلا} أي: في أول النهار وآخره.

وهذا الكلام -لسخافته وكذبه وبهْته منهم- كُلّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبره وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة، ورَمَوه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا} [سورة الإسراء:٤٨].

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: {قُلْ أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ..} الآية، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً، {أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ} أي: الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة المائدة:٧٣-٧٤]، **وقال تعالى**: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [سورة البروج:١٠]، **قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ} الإفك هو الكذب المختلق الذي لا شبهة فيه ولا مرية، ومأخوذ من القلب، قال الله تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] وهي قرى قوم لوط -عليه الصلاة والسلام.

{إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ} اختلقه، {وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} يشيرون إلى من نسبوا ذلك إليهم من الموالي كما جاء في بعض الروايات أو بعض الآثار كعباس ويسار وجويبر، هؤلاء كانوا من أهل الكتاب وهم أيضاً من اليهود، وربما كانوا من الأعاجم، {فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} فالظلم حيث تجنوا هذه الجناية وكذبوا بالقرآن والوحي والنبوة، والزور هو الكذب، فإن مقالتهم هذه كاذبة، وحكمهم هذا زور، وجمعوا بين الظلم والزور بحكم باطل وقول مختلق.

وقوله: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} قال: **يعنون كتب الأوائل**، أساطير بعضهم يقول: جمع أسطورة كأحاديث وأحدوثة، وبعضهم يقول: جمع أسطارة، أو جمع أسطار كأقوال وأقاويل، والمقصود بالأساطير يعني: أحاديث الماضين وحكايات الأولين، وما سطروه في كتبهم، فيقولون: إنه اكتتبها أي: استنسخها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، مع أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله.

والله -تبارك وتعالى- يقول: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [سورة النحل:١٠٣] يعني: الذي أضافوا إليه القرآن أو قالوا: إنه تلقاه منه أعجمي، فكيف يأتي بمثل هذا القرآن العظيم؟! وإذا كان هذا من أساطير الأولين اكتتبها فمن أين نقلها؟ ومن الذي سطرها حتى جاءت بهذه المثابة من الإعجاز وما تضمنته من العقائد والأحكام والإخبار عن الأمور الغيبية الماضية والمستقبلة؟ من الذي سطر هذه الأساطير؟ وهل يوجد في الأساطير مثل هذا؟ ولماذا لا يجتمعون جميعاً بكل ما أوتوا من قوة ويأتون بأساطير كهذه؟ ولا زال التحدي قائماً إلى قيام الساعة، ولم يستطع أحد ولن يستطيع أن يأتي بمثله، ولا بقريب منه، والمحاولات التي بُذلت في هذا كانت في غاية الفشل، واقرءوا ما ذكر في مختلقات مسيلمة الكذاب، وأيضاً حاول آخرون بعده كابن المقفع وغيره ومن كان له عقل من هؤلاء لم يُخرج شيئاً، كان إذا كتب شيئاً مزقه، ثم أعلن بعد ذلك عجزه وإفلاسه، حتى إن الفيلسوف الكندي المعروف طلب منه أصحابه أن يكتب لهم مثل القرآن، والفلاسفة يعدون أنفسهم فوق الأنبياء، فقال: أفعل، فاحتبس أياماً كثيرة ثم خرج إليهم وقال: فتحت المصحف فظهرت لي سورة المائدة فنظرت في أول آية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [سورة المائدة:١] يقول: فأمر أمراً مجملاً، ثم أحل، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، واحترز ثم .. الشاهد يقول: هذا لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، لا

أستطيع، هذا الفيلسوف الكندي، والأمثلة على هذا متنوعة، يجمع ذلك جميعاً عجز البشر العرب والأعاجم من باب أولى عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

ومن زعم أنه يستطيع، أو شك فيما ذكره الله -تبارك وتعالى- من التحدي فليجرب، فيكفي هذا في الإعجاز وإثبات الوحي والنبوة، ومن ثَمّ الاستسلام الكامل لما جاء عن الله وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، ولَمَا جاء من يرد النصوص متأولاً بعقله أو محتجاً بجهله، وهذه بلوى قديمة وقد ظهرت قرونها في هذه الأيام، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، لماذا خص السر والله -تبارك وتعالى- يعلم السر والعلانية؟، يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه خص السر بما تضمنه القرآن من الأسرار البعيدة والأمور الغيبية، ما تضمنه من الأسرار العجيبة والأمور الغيبية والمعاني الدقيقة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} هذه لفتة مفيدة نبه عليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكر نظائرها، فهي دليل على سعة الرجاء، يعني: هذه من نصوص الرجاء، والعلماء يتكلمون في أرجى آية في كتاب الله -تبارك وتعالى-، والآية التي تُرجَّي برحمة الله وعفوه ومغفرته للمسيء، فمثل هذه الآية الله -تبارك وتعالى- يقول ويخاطب هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن وقالوا ما قالوا من الزور والبهتان ومع ذلك تُختم الآية بذلك، فهي دعوة ضمنية لهم إلى التوبة، وأن العبد مهما عظم جرمه فإن توبة الله -تبارك وتعالى- تسع الجميع إذا تاب العبد إليه وأناب، وهكذا ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا حينما نسب النصارى إلى الله -تبارك وتعالى- الصاحبة، قال: {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة المائدة:٧٤] بهذا الأسلوب بالعرض اللطيف الرقيق يدعوهم إلى التوبة، وأصحاب الأخدود الذين حرقوا المؤمنين: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا} يعني: أحرقوا، فالفَتْن هو الإحراق بالنار، {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [سورة البروج:١٠]، فهؤلاء الذين أحرقوهم بالنار يقول الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} فتوبة الله -عز وجل- تسع هؤلاء كما تسع غيرهم، إذا عرف العبد هذا فإنه لا يقنط ولا ييأس، وليس معنى هذا أنه يتكئ على سعة العفو من غير توبة، لا، وإنما يتوب.

قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [سورة الفرقان:٧-١٤].

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ} يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، {وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ} أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، {لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهداً على صِدْق ما يدَّعيه! وهذا كما قال فرعون: {فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ

أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} [سورة الزخرف:٥٣]، **وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قال: {أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز}** أي: **علم كنز ينفق منه، {أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا}** أي: **تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة، {وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا}.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ}** يعني: هذه الأشياء التي ذكروها يريدون أن يقولوا: لا فرق بيننا وبينه، فهم افترضوا أن النبي لابد أن يكون من غير جنس البشر، يكون ملَكاً، فإذا ادعى أحد من البشر أنه نبي فلابد أن يأتي بالملائكة، وهذا ذكره الله -تبارك وتعالى- عنهم في مواضع من القرآن، وهو في هذه السورة في أكثر من موضع كما سيأتي، فتارة يريدون أن يقترن به ملَك يسدده ويعينه ويقويه، وكانوا أحياناً يطلبون رؤية الملائكة كما سيأتي؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: **{يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ}** [سورة الفرقان:٢٢]، وأحياناً يطلبون أن ينزل ملَك فيوحي إليهم كما أوحى إليه، كما هو ظاهر بعض الآيات كما سيأتي.

فالشاهد: أن هذه المطالب التي يذكرها الكفار: **{أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ...}** إلى آخره، كل ذلك من قبيل التعنت؛ ولهذا كان الجواب عن هذا: **{سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}** [سورة الإسراء:٩٣]، فجميع هذه المقترحات التي كانوا يقترحونها كانوا يذكرون ذلك على سبيل المكابرة والتكذيب والتعنت؛ ولهذا ما أجابهم الله -تبارك وتعالى- إلى ذلك؛ لأنه لو جاءت هذه الآيات لكذبوا بها، كما أخبر الله -تبارك وتعالى- في مواضع من كتابه، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}** [سورة الإسراء:٥٩]، والمقصود بالآيات: الآيات التي اقترحها الكفار، وإلا فالأنبياء جاءوا بالآيات سواء ما كان منها من قبيل خوارق العادات، وهي التي اقترحوها، أو غير ذلك من الآيات التي هي من دلائل صدقهم، فإن دلائل النبوة التي تسمى في القرآن بالآيات منها ما هو خارق للعادة وهو ما سماه المتأخرون بالمعجزات، مثل هذا القرآن وعصا موسى -عليه الصلاة والسلام- وانفلاق البحر... إلى آخره، ومنها ما لم يكن كذلك أي ليست بخوارق العادات كالصدق في الحديث، والأمانة، وسُموّ ما يدعو إليه، والتاريخ المشرق والوجه المشرق.. إلى غير ذلك مما يعرف به صدق الإنسان؛ ولهذا أسلم من أسلم كعبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- بعد أن تحقق من أمور لم تكن من خوارق العادات، وبمجرد النظر إلى وجهه عرف أنه ليس بوجه كذاب، هرقل ما سأل عن أي معجزة سأل عن أشياء عرف بها أنه نبي.

فالحاصل: أن قوله هنا عنهم: **{مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ}** بمعنى: أنه بشر مفتقر إلى الطعام كما نفتقر إليه، ثم هو بعد ذلك أيضاً يحتاج بعده إلى ما يحتاج إليه البشر، ومنزلة الرسول في نظرهم ودعواهم أنه فوق ذلك، والله -تبارك وتعالى- في رده على النصارى الذين ادعوا إلهية عيسى -عليه الصلاة والسلام- كان في ضمن رده عليهم: أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- وأمه كانا يأكلان الطعام، فهذا لا يصلح للإله، يأكل الطعام مفتقر إليه لا يقوم بذاته كما أنه يحتاج إلى الخلاء، ومثل هذا لا يصلح للألوهية، هذا الكلام في الإله، أما الأنبياء فهم بشر، ولهذا كان الرد يقول: **{قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}** [سورة الإسراء:٩٣] يقول: أنا لم أخرج من وصف البشرية وإنما أنا رسول، فكانت تأتي الردود مقررة لهذا المعنى.

فهذه الآية هنا في الفرقان في هذا الموضع: {لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} هذه صريحة في أن اقتراح نزول الملك من أجل الإنذار معه، ولكن ذلك ليس في كل المواضع، أحياناً لمجرد الرؤية والمشاهدة في الإثبات، نريد أن نرى الملائكة، وفي بعضها قد يفهم منه كما سبق أنه من أجل أن يحصل لهم الوحي كما حصل له: {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [سورة الفرقان:٢١].

في قوله هنا: {أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا} بمعنى أنه يُكفَى، في القراءة الأخرى المتواترة قراءة حمزة والكسائي: {أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ نَأْكُلُ مِنْهَا}، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فهم يريدون أن تكون له جنة يأكل منها فيُكفَى فلا يحتاج إلى البيع والشراء والتكسب، وكذلك يريدون أن يأكلوا من هذه الجنة معه برهاناً على صدقه.

قال الله تعالى: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا} أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم: ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: {فَضَلُّوا} عن طريق الهدى، {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهجه متحد، يُصَدِّق بعضه بعضاً.

وأيضاً يعني الضلال أصله هو الذهاب عن حقيقة الشيء، كما قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥] يعني: ذهابك عن الحق في شأن يوسف، وهو ليس المقصود به الضلال عن الحق مطلقاً وإلا كانوا كفاراً بذلك، {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [سورة السجدة:١٠] يعني إذا ذهبنا فيها وانساحت أجسادنا وتحللت، فالذهاب عن حقيقة الشيء يقال له: ضلال، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {فَضَلُّوا} يعني حينما قالوا هذه الأقوال بأن هذه أساطير الأولين اكتتبها، واتهموه بما اتهموه به، وطالبوه بأمور لم توكل إليه ولم يُبعث من أجل أن يطالب بمثل هذه المطالب: يلقى إليه كنز أو يأتي معه ملك أو يفعل كذا، فضلوا فذهبوا عن حقيقة ما جاء به وأطلقوا هذه الأقاويل والأوصاف والأحكام الكاذبة الجائرة التي لم يصيبوا فيها حقيقة ما جاء به ووصفوه بالسحر وهو أبعد شيء عما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، يعني: النبي في طرف والساحر في طرف، والله المستعان.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ..} الآية، قال مجاهد: يعني: في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً، كبيراً كان أو صغيراً.

يعني في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا} يقولون: القصر البيت المبني من الحجارة، {وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا}، {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا} لكن هل هذا هو المتبادر من السياق؟ يعني على لغة العرب: القصر البيت المبني من الحجارة، يطلق على الكبير والصغير، لكن الذي يفهم من السياق الآن، هل لو كان غرفة كما كانوا يبنون أو ما يشبهها هل هذا هو المراد مع ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وأن الله لو شاء لأعطاه ما لم يعط البشر؟، المقصود ما هو أعظم من ذلك.

والجنات هي الحدائق التي فيها الأشجار التي تغطي من دخلها وتجنه.

وقوله: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ} أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال.

{وَأَعْتَدْنَا} أي: أرصدنا، {وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} أي: عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم.

أعتدنا بمعنى أرصدنا، يعني: هذا تفسير له بما يقرب من معناه، وإلا فالأصل أن هذه اللفظة حينما يقول: أعد، أو أعتدنا أو نحو ذلك، وما يقاربه تدل على زيادة اعتناء بهذا المُعَد.

وقوله: {إِذَا رَأَتْهُم} أي: جهنم، {مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} يعني: في مقام المحشر، {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} أي: حنقاً عليهم، كما قال تعالى: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} [سورة الملك:٧-٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

{إِذَا رَأَتْهُم} أي: جهنم، هذا لا حاجة لتأويله والتكلف في حمله على محامل تخالف ظاهره، {إِذَا رَأَتْهُم} هذا يدل على أنها ترى، {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} فالنار ترى، أثبت الله لها الرؤية، كما أثبت لها الكلام، {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [سورة ق:٣٠] من الذي يقول: {هَلْ مِن مَّزِيدٍ} هل هم الكفار الذين فيها؟ قطعاً لا، هل هم الملائكة؟ أيضاً هذا خلاف ظاهر القرآن، فإذا كانت تتكلم وتجيب ويخرج عُنُق من النار ويقول: وُكلت بثلاثة، وذكر منهم المصورين[1]، فما الذي يمنع أيضاً من كونها تَرى؟، فلا يصح العدول عن هذا الظاهر، والتعسف والتكلف في حمله على معانٍ بعيدة لا دليل عليها، {إِذَا رَأَتْهُم} أي: جهنم، {مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا} وذلك أنه يؤتى بها إليهم كما جاء في الحديث: ((يؤتى بالنار لها سبعون ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك))[2]، يعني يقودونها، يؤتى بها، فإذا جيء بها رأتهم من مكان بعيد فسمعوا لها تغيظاً وزفيراً.

قد يقول طالب العلم: {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا} التغيظ هو الحنق، فالغيظ شيء في النفس، احتراق في الداخل وغليان، والزفير يسمع ولكن التغيظ هل يسمع؟ فابن جرير -رحمه الله- يقول: المعنى سمعوا لها صوت تغيظ، {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا} فهي لتغيظها يُسمع لها صوت يدل على ذلك وهو صوت التلهب والتوقد الشديد، التوقد والتلهب، وأيضا أجاب عنه كثير من أهل العلم منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي يقول: سمعوا صوت غليانها من بعيد، صوت الغليان، وهذا مثل قول ابن جرير: صوت التلهب والتوقد، لكن هذا الغليان الصوت الذي يسمعونه ليس بصوت النار المعتاد إذا كانت شديدة التوقد، وإنما ذلك كائن بسبب التغيظ، بسبب تغيظها، فلما كان سبب هذا الصوت سبب هذا التوقد الشديد أو الغليان سببه التغيظ أطلقه عليه، فأطلق اسم السبب على المسبب، ودل هذا على أن النار ليست كنار الدنيا من هذه الحيثية، أيضاً هي ليست مثلها من جهة شدة

---

١ - رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة النار، برقم (٢٥٧٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٨٤٣٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم (٨٠٥١)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٥١٢).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٢).

الإحراق، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنها فضلت عليها بسبعين جزءاً، بسبعين ضعفاً، حتى لو فضلت بسبعين فهي ليست مجرد نار مشتعلة، يعني مثل الآن النار في الدنيا تختلف تتفاوت نار الحداد أقوى من النار التي يوقدها آحاد الناس ليصطلي عليها مثلاً، نار جهنم مع تفضيلها بسبعين إلا أنها ترى وتتكلم وتتغيظ ويخرج منها عنق، وفيها حنق شديد وغليان وفوران وأصوات وزفير، لها زفير، الصوت الذي يسمع من الإنسان بحال البكاء مثل النَّفَس الذي يكون مع بكاء مثلاً فيحصل منه شهيق وزفير، فهي في غاية الغيظ على هؤلاء الذين يعذبون فيها، ليست ناراً محرقة فقط، إنما نار محرقة ولها إدراك وإحساس، وهي أيضاً في غاية الحنق، وإذا كان الآدمي في غاية الحنق وظفر بعدوه فإنه يفتك به، فما بالك بهذه النار يوم تغيظ عليه بمجرد أن تراه من بعيد، يسمعون صوتاً مفزعاً يدل على شدة هذا الغيظ، عافانا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: ((إن الرجل ليُجَر إلى النار، فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار، فيقول: يا رب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تَسَعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار، فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف))[٣]، وهذا إسناد صحيح.

الحافظ ابن كثير صحح إسناده، والمحقق ما أدخله في هذا التفسير إلا بناء على صحته عنده، وفي إسناده رجل يقال له: أبو يحيى القتات تكلموا فيه؛ ولهذا ضعفه بعض أهل العلم، ومسألة التصحيح والتضعيف هي مسألة اجتهادية لاعتبارات معينة تتصل بقواعد هذا العلم، ومن جهة أخرى في تطبيقات هذه الأصول والقواعد وما يسمى عند الأصوليين بتحقيق المناط، يعني: هل ينطبق ذلك على هذا أو لا؟ فيختلفون تارة في هذا وتارة في هذا، فتأتي أحكامهم مختلفة، وأحياناً يكون ذلك بسبب القصور، يعني يكون للحديث طرق أخرى ففاته أو بسبب وهم وقع له ظن أن هذا الراوي هو فلان فصحح الحديث أو نحو هذا من الأمور المعروفة، فهذه مسألة اجتهادية، وما كان في هذا الكتاب في هذا المختصر من هذا القبيل فهو مسبوق إلى تصحيحه، وتبقى الأحاديث التي يمكن أن يخالف فيها قليلة نسبياً على كثرة الروايات، ومن يخالفه فيها لا يزعم أن ما قاله خطأ بنحو مائة بالمائة في كل الأحوال.

وأرسل لي أحد الإخوان مرة رسالة من بعض هذه الرسائل التي ترسل للناس عن طريق اشتراك، يذكر فيها عن بعض من قال: إن الكتاب فيه كثير من الأحاديث الضعيفة، هكذا بإطلاق القول جزافاً، وهذا الكلام غير صحيح، وقد تتبعت الأحاديث التي فيه، كل الأحاديث تتبعتها على كلام أهل العلم، في كثير من الأحيان أرجع إلى أقوال المتقدمين والمتأخرين، أقول هذا الكلام عن تتبع: هذا الكلام غير صحيح، ولا يصح نشر مثل هذا الكلام، ومن قال مثل هذا أيضاً هو ليس من العلماء الذين يؤخذ عنهم هذا العلم، الإنسان يتحرى في مثل هذه الأشياء ولا يستعجل، فإن كلمة مثل هذه غير صحيحة تصل إلى آلاف مؤلفة، ربما يشترك في هذا الجوال

---

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (١٩/٢٤٤).

سبعون ألفاً أو أكثر ثم ينقلونه إلى غيرهم ويرسلونه إلى مثلهم، ويتصورون بعد ذلك تصورات غير صحيحة، تصدر منهم أحكام غلط، فيبخسون الكتاب حقه، هذا الكتاب من أحسن مختصرات ابن كثير.

وهذا الحديث يدل على تغيظها، وأن الآية تدل على هذا المعنى، وكذلك الحديث الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال يلقى في النار وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه -في الرواية الأخرى: رجله- فينزوي بعضها إلى بعض فتقول: قط قط، كفاني كفاني))[4]، هذا كله يدل على أنها تدرك وتتكلم وتشعر؛ ولذلك اشتكت إلى ربها، اشتكت الجنة والنار فقالت: أكل بعضي بعضاً، وهذا يدل على أنها موجودة الآن، كما أن الجنة موجودة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى الجنة والنار، ورأى عمرو بن لحي بن قمئة الخزاعي أول من غير دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأول من سيب السائبة يجر قصبه في النار، إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على هذا المعنى.

وروى عبد الرزاق عن عبيد بن عمير في قوله: {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} قال: ((إن جهنم تزفر زفرة، لا يبقى ملك ولا نبي مرسل إلا خَرّ لوجهه تَرْتَعَد فرائصه، حتى إن إبراهيم -عليه السلام- ليجثو على ركبتيه ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي))[5].

عبيد بن عمير من التابعين، فهذا من قبيل المرسل، والمعنى له حكم الرفع في الأصل، ولو أن الكتاب جرد من مثل هذا لكان أولى.

وقوله: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا} قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال: مثل الزج في الرمح أي من ضيقه.

الزج يعني الحديدة في أسفل الرمح، يعني هو مع الضيق يكون العذاب أشد، إذا وضع في مكان ضيق أدخل فيه كما يدخل الوتد في الحائط، فهذا أشد في العذاب.

وقوله {مُقَرَّنِينَ} قال أبو صالح: يعني مُكتّفين، {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} أي: بالويل والحسرة والخيبة، {لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا..} الآية.

قوله: {مُقَرَّنِينَ} يقول هنا: يعني مكتفين، يعني: ليس معنى ذلك على قول ابن كثير أنه قرن بغيره، لا، وإنما مكتف، يعني يلقى فيها مربوطاً قد غُلت يداه إلى عنقه، كما قال الله -عز وجل-: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [سورة غافر:٧١-٧٢]، فالأغلال تكون في أعناقهم وتغل أيديهم إلى أعناقهم فهم موثقون بالسلاسل، فهنا قوله: {مُقَرَّنِينَ} يقول: قال أبو صالح: يعني مكتفين، مع أن ظاهر هذه اللفظة يشعر بالاقتران، يعني: أنهم قد سلسلوا وقرنوا ببعضهم، يلقون فيها وقد قرن بعضهم إلى بعض، {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [سورة الملك:٨] فهم يبقون على مجموعات قد غلوا وربطوا وقرن بعضهم ببعض، يعني كل واحد منهم مغلول وموثق بالسلاسل، وقد ربط أيضاً مع غيره

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم:٤]، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات:١٨٠]، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون: ٨]، ومن حلف بعزة الله وصفاته، برقم (٧٣٨٤).

٥ - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (١٩/٢٤٤).

في الأصفاد والسلاسل، وبعضهم يقول: {مُقَرَّنِينَ} أي: قرن كل واحد مع شيطانه، ولهذا يقول: {فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [سورة الزخرف:٣٨]، فحملوه على هذا المعنى، بئس القرين لكن الآية لا تدل على هذا تلاوة واضحة أعني قوله: {فَبِئْسَ الْقَرِينُ} المقصود أنه قارنه في الدنيا، وهو يتمنى فراقه وبُعده: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [سورة الزخرف:٣٨].

وهم يوثقون بالحديد والأغلال والسلاسل، وكذلك يقرن بعضهم إلى بعض، وهذا فيه زيادة في النكال والعذاب، فلا مفر ولا مجال للخلاص والملائكة تحيط بهم من كل جانب، ولكن زيادة في النكال والعذاب يكونون بهذه المثابة، لو أنه حصل له شيء من هذا من غير نار لكان ذلك في غاية الإيلام النفسي والبدني، فكيف مع النار والعذاب والإحراق؟! فتكون هذه السلاسل زيادة في إيلامهم وتعذيبهم.

في قوله هنا: {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} قال: بالويل والحسرة والخيبة، {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا} إلى آخره، يعني يقولون: واثبوراه، يعني كأنهم يقولون: يا حسرتنا احضري واثبوراه، يدعون على أنفسهم بالويل والثبور والحسرة، فيقال لهم ذلك تيئيساً: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا}، دعْوتكم بالثبور لا تغني عنكم ولا تخلصكم، وقد وقعتم في ما اقترفته أيديكم فلا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً، فإن الأمر الذي وقعتم فيه لا خلاص منه ولا نجاة.

الأزواج: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] هذا في الحشر، في النار يلقون مجموعات، هذه المجموعات التي تلقى في النار يقرن بعضهم إلى بعض بالسلاسل، الواحد منهم يصدق عليه هذا وهذا، والأزواج المذكورة في قوله: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} يعني: نظراءهم، فاليهود يحشرون مع بعضهم، والنصارى يحشرون مع بعضهم، وهكذا.

قال تعالى: {قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} [سورة الفرقان:١٥-١٦].

يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه لك من حال أولائك الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويُلقَون في أماكنها الضيقة مقرَّنين، لا يستطيعون حراكاً، ولا استنصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها؟.

{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ} من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاء، لا يبغون عنها حولاً، وهذا من وَعْد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً} أي: لابد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: {وَعْدًا مَسْئُولاً} أي: وعداً واجباً.

يعني بهذا الاعتبار يكون المعنى: {وَعْدًا مَسْئُولاً} أي: وعداً محققاً ثابتاً، يُسأل ويُطلب، هذا المعنى الذي أراده هنا، وبعض أهل العلم يقول: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً} أي: أن أهل الإيمان يسألونه: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:١٩٤] فهم سألوا ذلك في الدنيا، {كَانَ عَلَى رَبِّكَ

{وَعْدًا مَسْئُولاً} سألوه فحقق لهم سؤلهم وأعطاهم ما طلبوا، {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً}، وهذا وإن كان واقعا أن أهل الإيمان يسألون ذلك ربهم، ولكن السياق قد يفهم منه المعنى الأول -والله تعالى أعلم-، {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً} أي: ثابتاً محققاً يُسأل ويُطلب.

فلو قيل: إن هذا السؤال يكون في الآخرة باعتبار الوعد لكان أولى -والله تعالى أعلم-، {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً} يسألونه أن ينجز لهم ما وعدهم، فالمقصود تحقيق الوعد، وأنه ثابت، إذا أردت أن توثق مثل هذا توثق الوعد تقول: هذا على مسئوليتي، تقول: هذا وعد أُسأل عنه، فهذا أوكد وأثبت ما يكون في الوعد.

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نزلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [سورة الصافات:٦٢-٧٠].

يعني هنا في قوله -تبارك وتعالى- وإن لم تكن هذه من السورة: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} شجرة الزقوم، تحتمل المعنيين، يعني جعلها الله فتنة بمعنى عذاب يعذبون بها في النار، فإنهم لآكلون منها.

وأيضاً فُتنوا بذلك حينما سمعوا كيف أن شجرة تخرج في أصل الجحيم، والشجر إنما يخرج حيث الرطوبة والماء فكيف يجتمع مع أضداده كما هو في النار الإحراق، فهذا فتنة بالنسبة لهم، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- كما سيأتي: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً} فهؤلاء فُتنوا ببعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فجعلوا يقولون: لولا أنزل عليه كذا، لولا ألقي عليه كذا، أو حصل له كذا، فتنوا بهذا، وجعلوا يقترحون هذه الاقتراحات ويعترضون بهذه المعارضات.

في قوله: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً} هنا الحافظ ابن كثير قال: **لابد أن يقع وأن يكون كما حكاه ابن جرير عن بعض علماء العربية، أن معنى قوله:** {وَعْدًا مَسْئُولاً} **أي: وعداً واجباً**، هذه حكاية ابن جرير عن بعض علماء العربية، لكن اختار ابن جرير أنه وعد يُسأل ويُطلب، وذلك أنهم سألوا ربهم في الدنيا، هذا قول ابن جرير، {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} أي: أنهم سألوه في الدنيا: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ} [سورة آل عمران:١٩٤] فحقق لهم ذلك وأجابهم وأعطاهم، هذا اختيار ابن جرير، إن ما ذكره في الأصل ما ذكره.

اختيار ابن جرير: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا} أي: أنهم سألوا ذلك في الدنيا، كما قال الله تعالى عنهم: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ} [سورة آل عمران:١٩٤]، يعني كأنه إخبار عن هذا، إخبار عن هذا الذي حصل لهم من دخول الجنة أنه أمرٌ سألوه في الدنيا أن يحقق؛ لأن الله وعد أهل الإيمان بذلك، فسألوه في الدنيا، فحقق لهم وأنجز لهم ذلك في الآخرة فأدخلهم الجنة.

قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ

وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [سورة الفرقان:١٧-١٩].

يقول تعالى مخبراً عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ} ما يعبدون "ما" هذه تفيد العموم، ولهذا تستعمل لغير العاقل، والمعبودون من دون الله -عز وجل- منهم ملائكة وأنبياء وصلحاء، ومنهم أيضاً جمادات من الأصنام والأحجار والأشجار، ومنهم حيوانات كالأبقار، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} ابن كثير -رحمه الله- العبارة التي عبر بها يقول: تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، هكذا هذه العبارة تشعر أن ذلك يشمل الأصنام والأحجار والجمادات، كما يشمل أيضاً الملائكة والأنبياء والصلحاء، على هذا الاعتبار، ويحتج لذلك... في قوله: {وَمَا يَعْبُدُونَ} هذا من جهة، ويحتج له أيضاً بأنه جاء بـــ"ما" التي لغير العاقل من باب التغليب، وقد تستعمل هذه مقام هذه تغليباً، فمن عُبد من دون الله -عز وجل- من غير العقلاء أكثر من العقلاء؛ لأن غالب المعبودات من دون الله -عز وجل- هي من الأحجار والأشجار وما إلى ذلك، ومن أراد أن يرى هذا أو يعرف هذا فليذهب إلى بلاد الهند على سبيل المثال، فيرى كل شيء يعبد، حتى الفئران لها معابد ويأتي الناس يتقربون إليها ويوضع لها الحليب، فهاتان قرينتان على العموم، وكذلك الآيات التي تدل على هذا المعنى في القرآن، كقوله -تبارك وتعالى- في سورة يونس: {وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [سورة يونس:٢٨-٢٩]، فهذه تدل على هذا المعنى، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٥-٦] هذه تصدق على الأصنام، {مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، ففي الآخرة يصدق عليهم مثل هذا: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء}، ومن أهل العلم من حمله على الملائكة والأنبياء والصلحاء وما إلى ذلك كما نَقل هنا عن مجاهد -رحمه الله- قال: **هو عيسى وعزير والملائكة**، على سبيل التمثيل هنا، وإلا لو جاء أحد وقال غير هؤلاء ممن عُبد من دون الله -عز وجل- من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والصالحين فكذلك، وهذا القول اختاره جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، واحتجوا بأن الله -عز وجل- يسألهم يقول: {أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء} فيجيبون: {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} فيُكذّبون هؤلاء الكفار ويتبرءون منهم، فيقولون: الجمادات ليست محلاً لهذا ولا تُسأل فتجيب، وإنما ذلك في من يعقل، ولكن ما ذكرته من الأدلة، سواء كانت قرائن من نفس الآية أو الأدلة الأخرى تدل على أن هؤلاء المعبودين يتبرءون في الآخرة ولو كانوا من الأصنام من هؤلاء العابدين؛ ولذلك لو قيل بأن الأقرب الحمل على العموم وهو ظاهر القرآن لكان هذا -والله تعالى أعلم- أكثر موافقة، وهو الأسعد بالدليل، والله أعلم.

فقال: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال مجاهد: هو عيسى وعُزَير والملائكة، {فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ..} الآية، أي: فيقول الرب -تبارك وتعالى- للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ..} [سورة المائدة:١١٦] الآية، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: {قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله: {نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ..} [سورة سبأ:٤٠-٤١] الآية.

يعني هذا في جواب الملائكة وسؤال الملائكة، والذين قالوا هم الملائكة وعيسى -عليه الصلاة والسلام- قالوا: القرآن يدل على هذا، فالله أخبر عن سؤال الملائكة وأخبر عن سؤال المسيح، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فهذا هو السؤال الذي يتوجه إليهم ذكره الله -عز وجل- في موضع آخر.

وقرأ آخرون: {مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنا عبيد لك، فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى.

يعني الآن على القراءة المشهورة: {مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} الآن السؤال الذي يتوجه إليهم: أأنتم أمرتم هؤلاء؟ قلتم لهؤلاء اعبدونا؟ فكيف جاء الجواب على هذه القراءة التي نقرأ بها؟ {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} على هذه القراءة يرد السؤال: هل أمرتموهم بعبادتكم؟ فالجواب الذي قد يتبادر أنهم يجيبون به أنهم سيقولون: لم نأمرهم بعبادتنا، وهم بماذا أجابوا؟ قالوا: {مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء}، ولم يكن السؤال هل اتخذتم من دوني معبودات؟، أَسَأَلَ المعبودين: هل اتخذتم من دوني معبودات تعبدونها من دون الله حتى يقولوا له: {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء}؟ لا، وإنما السؤال: هل أمرتم هؤلاء بأن يعبدوكم؟.

حاول جماعة من المفسرين أن يجيبوا عنه، كيف توجه إليهم السؤال عن شيء فأجابوا بقولهم: {مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} هو لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني أولياء؟ هم اتُّخذوا أولياء من دون الله يعني معبودات، فبعض أهل العلم قال: إنهم أجابوا بذلك مخبرين عن عموم الخلق، {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا} أي: معاشر المخلوقين، {أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} فيصدق ذلك على العابدين الذين عبدوا هؤلاء، فيكون الجواب عن عموم الخلق، تكلموا مجيبين عن عموم الخلق وما كان ينبغي لهم.

ومن أهل العلم من قال: إنهم قالوا ذلك: {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} يعني: إذا كنا نحن لا نفعل هذا فمن باب أولى أننا لا يمكن أن نرضى وأن نقر أن يُتخذ من دونك أولياء، لا سيما أن نكون نحن الذين نُعبد، إذا كنا نحن لا نفعل هذا ولا نعتقد هذا، فالله هو الولي هو المعبود وحده، فكيف يسوغ

لنا أن نتعبد الناس بذواتنا؟!، نحن لا نفعل هذا، ما نتخذ من دونك أولياء، فكيف نقبل أن يتخذ أحد من الناس ولياً من دون الله معبوداً، بل كيف نرضى أن نُعبد نحن من دونك؟!.

ويمكن أن يجاب بجواب ثالث ما رأيته لأحد من المفسرين لكن الآية تحتمل ذلك، يمكن أن يجاب بأن الولي يقال للولي الأعلى والأدنى، كما يقال هذا بالنسبة في كلام العرب، الآن السيد يقال له: ولي والمملوك يقال له: ولي، السيد يقال له: مولى، والمملوك يقال له: مولى، {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} فيكونون أطلقوا ذلك على هؤلاء الذين عبدوهم، فالمعبود بالنظر إلى العابد تُعتبر العلاقة التي بينهم من الطرفين، يقال للعابد بفعله مع المعبود: إنه اتخذه ولياً، وهؤلاء العابدون بالنسبة للمعبود يعتبرون أولياء أيضاً بهذا الاعتبار، {سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} يصرفون العبادة لنا، هذا من ناحية اللغة صحيح لا إشكال فيه، ويزول به الإشكال من وجه قريب جداً، نحن لم نتعبدهم: {مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء} وإنما التعبد لله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له، فهذا احتمال، ولكن لم أجد ذلك في كلام أحد من المفسرين، وهذا معنى مغاير للمعاني الأخرى -للأجوبة الأخرى-، وهو جواب عن إشكال لكنه من ضمن ذلك يعد تفسيراً، وإذا كان الإنسان لم يجد هذا لأحد من المفسرين فإن الجراءة على أن هذا هو المعنى لا شك أن هذا فيه مجازفة، فرق بين أن يذكر الشيء على سبيل الاحتمال وبين أن يقال: هذا هو المعنى.

{وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ} أي: طال عليهم العمر، {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، {وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا}.

لاحظ الآن يقولون: {وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ} يعني: بطول العمر، وإدرار الأرزاق، فنتج عن ذلك الإعراض والغفلة، {وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} يقول هنا: أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، لاحظ العبارة في غاية الدقة، يعني أقوال المفسرين: {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} نسوا هنا بمعنى تركوا، النسيان هنا بمعنى الترك، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩] يعني: تركوا عبادته، فهنا بعض المفسرين يقول: إن الذكر التوحيد، {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} نسوا الإيمان والتوحيد وعبادة الله -عز وجل-، نسوا توحيده وعبادته، لاحظتَ؟، ابن كثير عبر عن هذا بعبارة دقيقة تتلاءم مع الظاهر ظاهر اللفظ، يعني اللفظ الذكر، هل الذكر هو التوحيد؟ يقول: نسوا ما أنزلته إليهم، هذا الذي أنزله إليهم ذكر، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، إذن هذا يوافق القائل بأن المقصود بذلك نسوا الذكر أي التوحيد، وهذا التفسير صحيح لكن قد يستشكله السامع أو الناظر فيقول: الذكر هل هو التوحيد؟ يعني هل كلمة الذكر تساوي التوحيد؟ معنى كلمة الذكر تعني التوحيد؟ من حيث الأصل اللغوي لهذه المادة فإن الذكر يطلق ويراد به معنى المصدر، ويطلق ويراد به معنى المفعول، يعني: المذكور ما يُذكر، {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} يعني: ما ذُكّروا به، ما الذي ذُكّروا به؟ هو التوحيد والإيمان الذي أوجب تركه لهم الخلود في النار، وإلا فإن الذي تركوه وأعرضوا عنه إذا قيل التوحيد، يعني: وما يتفرع عنه، كل ما أُمروا به من عبادة الله -عز وجل- وطاعته كل ذلك تركوه ونسوه، فإذا قيل التوحيد يعني بمعنى أن ذلك هو الأصل الكبير الذي يتفرع عنه كل معروف وطاعة مما أمر الله به، وهو سبب دخول الجنة، وتركه سبب الخلود في

النار، يعني: بهذه الطريقة نفهم هذا التفسير إذا قيل التوحيد، وإلا فليس معنى كلمة الذكر، لو قيل لك: فسر كلمة الذكر ما تفسرها بالتوحيد، لكن كيف جاء هذا التفسير وهو تفسير صحيح؟ بهذه الطريقة.

{وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} قال ابن عباس: أي هلْكى، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم.

هذه المعاني متقاربة، يعني حينما يقول: هلكى، قال ابن عباس: هلكى، وهذا الذي اختاره ابن جرير، وبه قال كثير من أهل العلم، والشنقيطي -رحمه الله- رجح هذا المعنى، بوراً أي هلكى، لكن حينما يقول بعض السلف: لا خير فيهم، نفس المعنى، الذي لا خير فيه ولا جدوى ولا نفع ولا دفع فهو في عداد الهلكى، وهكذا حينما يقال: إن ذلك بمعنى الكساد تقول: بارت السلعة وبارت المرأة، بمعنى: كسدت لم تتزوج، والسلعة لم يحصل لها نفاق، بارت الأسواق بارت السلع، فكل ذلك يرجع إلى معنى واحد، هذه الأرض أرض بور، يعني: لا نبات فيها، فمعنى الكساد قريب من هذا، وهكذا أيضاً قول بعض السلف: لا خير فيهم، أرض بور لا خير فيها لا نبات فيها، فلا حاجة للترجيح ترجيح أحد هذه المعاني.

وقال الله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} أي: فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٥-٦].

قوله: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} كذبوكم، هذا خطاب من الله -تبارك وتعالى- متوجه إلى الكافرين، يقول: إن هؤلاء المعبودين حينما سئلوا: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فتبرءوا منهم، فقال الله -عز وجل- للعابدين: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} يعني: ما تدعون وتزعمون من أن هؤلاء آلهة وتنفع وتضر، فتقربتم إليها من دون الله -عز وجل- وعبدتموها، {كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} وبعض أهل العلم يقول: إن هذا الخطاب متوجه لأهل الإيمان: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} من وحدانية الله -عز وجل-، وأنه هو المعبود، فلا يعبد أحد سواه، كذبوكم بما تقولون، لكن هذا بعيد، وفي القراءات الأخرى: فقد كذبوكم بما يقولون.

وكما ذكر في ما سبق: {مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} نعم بضم النون فعلى هذه القراءة أنه اتُّخذ من دون الله، لا إشكال في الآية السابقة، هنا: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} على هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير أو هذا المعنى الذي ذكره هو المتبادر، كذبكم أيها الكفار من عبدتم من دون الله -تبارك وتعالى- وتبرءوا منكم.

وقوله: {فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا} أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم.

وفي القراءة الأخرى: {فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا} ما يستطيعون: يعني بعضهم يقول: فما يستطيعون لكم صرفاً للعذاب ولا نصراً فيخلصوكم مما أنتم فيه، فما يستطيعون لكم صرفاً ولا نصراً، من قال بأن ذلك الخطاب يتوجه في قوله: {فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ} لأهل الإيمان، {فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا} يعني: صرفاً عن الإيمان، عن الحق، {فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا} لأنفسهم بما ينزل عليهم من العقوبة بسبب تكذيبهم إياكم، هذا المعنى لا يخلو من إشكال، والله تعالى أعلم.

{وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ} أي: **يشرك بالله،** {نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا}.

قال: {وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ} يعني: يشرك؛ لأن الشرك هو الظلم العظيم، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان:١٣]، وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام:٨٢] يعني: بالشرك كما فسره النبي -صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٢٠) إلى الآية (٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [سورة الفرقان:٢٠].

يقول تعالى مخبراً عن جميع مَنْ بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به، {وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ} للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [سورة يوسف:١٠٩]، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ..} [سورة الأنبياء:٨] الآية.

وقوله: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصي؛ ولهذا قال: {أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} أي: بمن يستحق أن يوحي إليه، كما قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لِمَا أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك.

وقال محمد بن إسحاق في قوله: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يُخالَفون لفعلت، ولكني قد أردتُ أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله: إني مُبْتَلِيك ومُبْتَلٍ بك))[1]، وفي الصحيح: "أنه -عليه أفضل الصلاة والسلام- خُير بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً"[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه مسلم، بلفظ: "إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك"، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٧١٦٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٣٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٠٢).

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} جعلنا بعضكم لبعض، فهذا يصدق على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم، فقد جعلهم الله -عز وجل- فتنة لهم، فيفتن من شاء الله فتنته، فيقول: هلا بعث الله ملَكاً؟ هلا أرسل إلينا ملائكة؟ كيف يكون الرسول بشراً؟

ويفتن من يفتن أيضاً بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- فيقول من يقول: هلا أنزل هذا القرآن هذا الكتاب على رجل عظيم له ملك وسؤدد؟ هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم؟ {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [سورة الزخرف:٣٢] يعني: النبوة.

ويفتن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بأقوامهم وما يحصل منهم ويقع من التكذيب، وما يقولونه في حقهم من الأباطيل والإفك، قولهم: شاعر.. كاهن.. كذاب، وهكذا يكون الناس بعضهم لبعض فتنة، الأغنياء يفتنون بالفقراء، والفقراء يبتلون بالأغنياء، فالفقير حينما يرى الغني لربما ضاق صدره بذلك، بل ربما حسده، والغني يُبتلى بالفقير هل يؤدي إليه حقه ويحسن إليه لا سيما إذا تعرض للسؤال وطلب النوال، أو يعرض عنه؟ وهكذا أيضاً تبتلى المرأة بالرجل والرجل بالمرأة، لربما تتمنى المرأة ما وهب الله -عز وجل- للرجل من الكمالات، أو لربما يعترض من يعترض منهن على قدر الله -عز وجل- في التفضيل، وهكذا الرجل يبتلى بالمرأة حيث جعلها تحت ولايته فهو قيمها وسيدها، هل يقوم بما أمره الله -عز وجل- به، أو أنه يتسلط ويظلم ويضيع؟ إلى غير ذلك مما يبتلي الله -عز وجل- به الناس بعضهم ببعض، المسلم يبتلى بالكافر، والكافر يبتلى بالمسلم، المؤمن يبتلى بالمنافق، والمنافق يبتلى بالمؤمن، فهؤلاء يتخذون أهل الإيمان سخرياً، قال الله تعالى: {حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي} [سورة المؤمنون:١١٠] يعني: عبادتي وما أُمرتم به، انشغلوا في الحياة بالسخرية بهم والوقيعة بهم، والله يبتلي أهل الإيمان أيصبرون على ما يصدر من هؤلاء من الأذى؟، فهذا عام في الخلق، {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} وإن كان ذلك جاء في سياق الرد على المشركين حينما اعترضوا على كون الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من البشر، لكن العبرة بعموم الألفاظ والمعاني، وإذا نظرت تجد أن هذا في كل شيء، لا يخلو منه نوع من الناس: الوالد مع الولد، والولد مع الوالد، فهذا يُبتلى بهذا وهذا يبتلى بهذا، العالم مع الجاهل، وهلم جراً.

قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا} [سورة الفرقان:٢١-٢٤].

يقول تعالى مخبراً عن تَعَنُّت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم: {لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ} كقوله: {لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ} فنراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، فهذا مثل قولهم: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا} [سورة الإسراء:٩٢]، ولهذا قال: {أَوْ نَرَى رَبَّنَا}، قال الله تعالى: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا}، وقد قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى..} [سورة الأنعام:١١١] الآية.

ليس هناك مجال للاجتهاد عندما يترك القول الراجح الذي صرح بترجيحه ويأتي بالقول الذي ضعفه أو ذكره احتمالاً، ويثبت الثاني ويترك الأول، هذا غير مقبول، لكن ليست هذه هي السمة الغالبة على الكتاب، هذه

مواضع قليلة أو نادرة، لكن هذا لربما نقول: من أكثر هذه المواضع يعني خطأ، نحن نقول: إذا ذكر ابن كثير قولين ليس له أن يقتصر على واحد منهما إذا كان ابن كثير لم يرجح فيتوهم القارئ أن ابن كثير ذكر هذا فهو اختياره، هنا ابن كثير ذكر القول الذي رجحه ثم ذكر القول الآخر احتمالاً، فيترك تفسيره ويثبت ما كان.

فقال الحافظ ابن كثير في الأصل: "يقول تعالى مخبرا عن تَعَنُّت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: {لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ} أي: بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ} [سورة الأنعام:١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: {لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ}...".

هؤلاء في طلبهم تارة أرادوا أن ينزل الملائكة من أجل أن يروهم ويشاهدوهم، وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} هذه الجملة تحتمل، {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}، في الموضع الآخر: {أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ} [سورة الفرقان:٧-٨] فهناك {أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} من أجل أن يكون معيناً له على أعباء الرسالة، {أُنزِلَ إِلَيْهِ} ما قالوا إلينا، وهنا {أُنزِلَ عَلَيْنَا} فهذا يحتمل أن يكون كالأول وحروف الجر تتناوب، {لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ} أي: من أجل رؤيتهم بقرينة أنهم قالوا: {أَوْ نَرَى رَبَّنَا} يشاهدون الملائكة، كقوله: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً} [سورة الإسراء:٩٢] فهذه الآية في المشاهدة والرؤية، {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ} فنشاهدهم ونراهم لنعرف صدقك، لولا أنزل إليه ملك فيكون معيناً له، أو تأتي بالله والملائكة من أجل أن نراهم، وهنا هذه الآية تحتمل: {لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ} يعني بمعنى: هلا أنزل علينا الملائكة؟ يحتمل أن يكونوا أرادوا بذلك رؤية الملائكة، أو أن ينزلوا عليهم بالوحي كما نزلوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤] نؤتى يعني: يوحى إلينا كما أوحي إليهم، فهذه الآيات منها ما هو صريح في هذا المعنى أنهم أرادوا أن يوحى إليهم، ومنها ما هو في المعنى الآخر أنهم طلبوا الرؤية، ومنها ما يحتمل هذا وهذا، فهذه الآية تحتمل المعنيين، وإذا كانت تحتمل معنيين هذا دل عليه القرآن في موضع وهذا دل عليه القرآن في موضع فلا يبعد لو قال قائل بأنهم طلبوا ذلك كله وهذه الآية جاءت معبرة عنهما، والعلم عند الله -عز وجل.

{أَوْ نَرَى رَبَّنَا} قال: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا} [سورة الفرقان:٢١] والعتو: هو مجاوزة الحد في الطغيان وبلوغ الغاية في ذلك، عتوا عتواً كبيراً، جاوزوا الحد، طغوا..

وقوله تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سَموم وحَميم، وظلّ من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ..} [سورة الأنفال:٥٠] الآية، وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} أي: بالضرب، {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ

آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [سورة الأنعام:٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ}، وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نزلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [سورة فصلت:٣٠-٣١].

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: ((اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان))[٣]، وقال آخرون: بل المراد بقوله: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ} يعني: يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما.

ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين.

الحافظ -رحمه الله- جمع بين القولين، فإذا رأوا الملائكة فلا بشرى لهم عند ذلك؛ لأن الملائكة إذا رآهم الكفار عند الاحتضار أو يوم القيامة فإنهم يبشرونهم بالنار، لكن لو قال قائل: إن ذلك أيضاً عند نزول العذاب، طلبوا هم رؤية الملائكة، قال: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ} عند نزول العذاب بهم، لو قال قائل هذا لا يستقيم، والسؤال: لو قال قائل: أيضاً من الحالات أنهم يرون الملائكة، أي: عند نزول العذاب بهم في الدنيا، لا يستقيم؛ لأنه إذا نزل العذاب بهم هل يرون الملائكة؟ إذا أهلك الله أمة من الأمم، هؤلاء الذين أهلكهم الله هل يرون الملائكة عند نزول العذاب؟ الناس لا يرون الملائكة، لكنهم يرونهم حينما يفارقون هذه الحياة الدنيا عند الاحتضار إذا خرجت أو عند خروج الروح تأخذها الملائكة، وكذلك أيضاً في الآخرة في القيامة.

{وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المنع، ومنه يقال حَجَرَ القاضي على فلان، إذا منعه التصرف إما لفَلَس، أو لسفَه، أو صغر، أو نحو ذلك، ومنه سمي الحِجْر عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطُوّاف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه، ومنه يقال للعقل حِجْر؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق.

والغرض أن الضمير في قوله: {وَيَقُولُونَ} عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخرساني وخُصَيف، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقد حكى ابن جرير عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين، {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ} أي: يتعوذون من الملائكة؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: {حِجْرًا مَحْجُورًا}.

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، برقم (٤٢٦٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٠٩٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٩٦٨).

وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه.

ابن كثير -رحمه الله- رجح بمقتضى السياق: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، و أقرب مذكور هم المجرمون، هذا أقرب مذكور.

{حِجْرًا مَّحْجُورًا} فهذا بناء على القاعدة، أن الذي يقول ذلك هم أهل الإشراك، إذاً ما هو السياق الذي رجح بمقتضاه ابن كثير القول الآخر؟

وما يفهم ويؤخذ من مقتضى الكلام وقوته يؤخذ هذا المعنى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} تقول الملائكة الذين طلبوا رؤيتهم: {حِجْرًا مَّحْجُورًا} يعني: أن دخول الجنة حرام محرم عليكم، والذين قالوا بأن ذلك من قول المشركين قالوا: هذه كلمة تقولها العرب حال الشدة، يقولونها في الحرب إذا أراد أحد قتل أحد يقول له يعني من أريد قتله يقول: حجراً محجوراً، يعني: كأنه يستعيذ، كلمة تقال للاستعاذة، يعني: حرام محرم عليك قتلي، {حِجْرًا مَّحْجُورًا} يستعيذ ويستجير بهذا، كغيرها من الكلمات التي تقال للاستعاذة من أجل الامتناع أو المنع، والعامة يقولون: أنت في حرج، "حرج" عندهم كلمة عظيمة أعظم من اليمين والحلف، فإذا قال له: أنت في حرج خلاص ما عاد يستطيع صرفاً ولا نصراً، وفي بعض النواحي إذا قيل لمن يبني بناء: مقروع، حجراً محجوراً، لا يستطيع أن يكمل أو يجلس عشر سنوات، ولو أن الولد قال لوالده هذا كذلك، بقي خلاص، هذا رجل قال لي هذا الكلام، ويجلس مدة طويلة وتتلف المواد التي يبني بها من حديد أو غيره؛ لأن هذا يقال له مقروع، وهذه الكلمة لا قيمة لها أبداً، لكن هي عندهم حجراً محجوراً، فبعض العلماء يقول: إن هذا عندهم مثلما عندكم يقال: مقروع، حجراً محجوراً بمعنى: حرام محرم عليك قتلي، يقول له مستجيراً مستعيذاً؛ لهذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- اختار هذا القول، باعتبار أن ذلك متعارف عند العرب، يقولونه، يستعملون هذه الجملة في مقامات الشدة، فتكلموا بها على عادتهم، لتكون على هذا من كلام المشركين، والآية تحتمل، وإن كان قول أكثر أهل العلم أن ذلك من قول الملائكة، وهذا هو الذي قد يتبادر من السياق، وهو المعنى الذي يسبق إلى الذهن، {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} فإنه لا يسبق إلى الذهن أن هذا من قول المشركين، وأن الله يخبر عن المشركين ماذا يقولون حينما يرون الملائكة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...} الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}.

وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي -رضي الله عنه- في قوله: {هَبَاءً مَنْثُورًا} قال: شعاع الشمس إذا دخل الكُوَّة. وكذا روي من غير هذا الوجه عن

علي، ورُوي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبَير والسُّدِّي والضحاك.. وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كُوّة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع.

هم حينما قالوا: الشعاع، لا يقصدون ذات الشعاع، وإنما ما يكشف عنه الشعاع، إذا دخل من الكوة، يعني: من النافذة، يعنون به تلك الأجزاء الصغيرة جداً المتطايرة في الهواء، هذا معروف، فليس ذات الشعاع وإنما ما يبين عنه الشعاع ويظهره ويكشف عنه، وهذا لا يختص بهذه الحال لكننا لا نشاهد، وإلا فالهواء من حولنا تتطاير فيه هذه الأشياء بكثرة، ولو قدر للإنسان وضْع جهاز يكبر له هذه الأمور والأجزاء الصغيرة جداً لربما لم تطب له الحياة برمتها، ولم يطب له الطعام ولم يهنأ بنوم، وكل ما حولك ترى فيه أشياء وأجزاء تتطاير وأشياء تتحرك، ولو نظر الإنسان إلى وسادته لرأى أشياء غريبة وعجيبة ومخلوقات ذوات خراطيم وأشياء ليس لها خراطيم، فإذا كبرت ربما توهم أنها أمثال الفيلة، لكن من لطف الله -عز وجل- بالإنسان أنه لا يشاهدها، حتى التراب مليء بهذه الكائنات والمخلوقات اليسيرة، فالهواء مليء، فإذا جاءت أشعة الشمس كشفت عن شيء من ذلك، ومجموع كلام السلف -رضي الله عنهم- في تفسير الهباء يدل على أنه الشيء المتفرق الذي لا يستحصل منه عناء لا قليلاً ولا كثيراً، **{فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}** فلا يحصل صاحبه منه على شيء، مثل هذا الذي في الكُوّة يظهر من شعاع الشمس في الكوة، ومثل ما يتطاير من حوافر الدواب من الغبار، إلى غير ذلك مما يشبه ذلك، والمعنى يرجع إلى شيء واحد وهو أن الله أبطل أعمالهم وأذهبها، والله المستعان.

وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: {هَبَاءً مَّنثُورًا} قال: الهباء رَهْج الدواب، ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة في قوله: {هَبَاءً مَّنثُورًا} قال: أمَا رأيت يَبِيس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق.

وعن يعلى بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح.

هذا مثال على ما يسمونه باختلاف التنوع، يعني عبارات متقاربة لكنها ترجع إلى شيء واحد، ومثل هذا لا يحتاج إلى ترجيح فليس ذلك من الاختلاف في شيء، وحاصل المعنى هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله.

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على أعمال الكفار تكون كالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ..} [سورة إبراهيم:١٨] الآية، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى..} [سورة البقرة:٢٦٤] إلى قوله: {لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [سورة النور:٣٩].

شبهها بهذه الأمور، صفوان عليه تراب، صفوان حجر أملس، فعليه تراب، فيظن أنه إذا نزل عليه المطر أنبت، ولكنه بمجرد ما ينزل عليه المطر يذهب ذلك التراب عنه فيكون صلداً، قال: **{لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ}** فهي بنفس المعنى.

وعلى هذا تكون كلمة "منثوراً" هو الهباء، فتكون صفة كاشفة، وهذا كما لو قلت: رجل ذكر، تكون "ذكر" صفة كاشفة، ما هي مقيِّدة، لكن لو قلت: رجل طويل، تكون صفة مقيدة.

وقوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا} أي: يوم القيامة، {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر:٢٠]؛ **وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، {خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}** [سورة الفرقان:٧٦]، **وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}** [سورة الفرقان:٦٦] **أي: بئس المنزل منظراً وبئس المقيل مقاماً؛ ولهذا قال تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فَنَبَّه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية.**

وقال سعيد بن جبير: يَفرُغ الله من الحساب نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا}.

وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فيُنطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأُطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم، وذلك قوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا}.

كلمة خير تستعمل بمعنى التفضيل: **{خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا}**، ولكنها هنا ليست بمعنى التفضيل؛ لأن أفعل التفضيل إنما تكون بين شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها، فتقول: زيد أكرم من عمرو، وزيد أعلم من عمرو، اشتركا في صفة وزاد أحدهما، لكن هنا لا مجال للمقارنة:

أَمَا تَرى أنّ السيفَ يَنقصُ قدرُه *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

لا مجال للمقارنة والمفاضلة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، وهذا كثير في القرآن، فذلك يقال فيه: إن "خير" أو أفعل التفضيل ليس على بابه، وإنما المقصود به مطلق الاتصاف.

{خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا} أخذ منه بعض أهل العلم أنهم يدخلون الجنة في منتصف النهار؛ لأنه وقت القيلولة، وذلك في نصف النهار، قد يسأل سائل ويقول: وهل يوجد في الجنة نوم، فالنومة موتة وأهل الجنة لهم الحياة الكاملة، والحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص والنوم هو نوع موتة: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}** [سورة الزمر:٤٢] فهذا مخالف للحياة الكاملة، هو في الحياة يعتبر كمالاً نسبياً باعتبار أن الذي لا ينام مريض يحتاج إلى علاج لكنه ليس من الكمالات المطلقة، لهذا القاعدة المعروفة التي يذكرونها في المثل الأعلى: أن كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى به؛ لأنه واهب الكمال، فهذه القاعدة ينبغي أن تفهم على وجهها، مع أن السلف لم يثبتوا بها شيئاً من الصفات استقلالاً لكن في مقام الرد على المخالفين، لابد أن يفهم هذا، وأن الوصف الذي يذكرونه ويقولون: كل كمال، المقصود به الكمال المطلق؛ لأن من الكمال ما هو نسبي، ومنه ما هو مطلق، فالنسبي مثل الزواج، المتزوج أكمل من غير المتزوج، هذا كمال نسبي، الذي يرزق بأولاد أكمل أو الذي لا يرزق بأولاد؟ الذي يرزق بأولاد، فالولد يكون كمالاً نسبياً، بمعنى: هل هذا يصلح أن ينسب إلى الله -عز وجل-؟ حاشا وكلا، وإنما يحتاج إليه المخلوق

ويكون كمالاً في حقه؛ لأنه مفتقر إليه، مفتقر إلى الزوجة، وهو مفتقر إلى الولد، وهكذا أيضاً فيما يتعلق بالنوم هو مفتقر إلى النوم لم ينم فإنه لا يمكن أن تحمله قواه على القيام بشيء من مصالحه، يكون في غاية الاعتلال والإنهاك والتعب، هذا مرض يحتاج إلى علاج، والله -عز وجل- امتن على الناس بهذا، هذا من الكمالات النسبية، فأهل الجنة ليس عندهم نوم، فالحياة كاملة، لا يحتاجون إلى النوم، ما يتعبون، فإذاً المراد بقوله: {وَأَحْسَنُ مَقِيلا} المقيل لا يعني النوم، وإذا أريد به النوم قُيد، فقيل: نوم القيلولة، لكن الراحة في هذا الوقت، هو وقت راحة وقت توقف عن الأعمال، يقال له مقيل، الآية: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} أنهم لا ينامون، أليس الحديث الذي ذكر فيه: ((أنهم لا يتمخطون ولا...))[٤]، قال فيه: ((ولا ينامون))[٥]، فهذا له حكم الرفع، ولا يقال من جهة الرأي، وراويه لا يُعرف بالأخذ عن بني إسرائيل إطلاقاً، وهذا من المنقول، والحاجة إلى النوم نسبته إليه منتفية، كمال الحياة أيضاً ينفي ذلك؛ ولهذا يقال في الكلام في الاشتراك في الصفة بين الخالق والمخلوق: إن ذلك لا يقتضي المماثلة، فالحياة يوصف بها الخالق ويوصف بها المخلوق، لكن حياة الخالق يقوم بنفسه وحياته غير مسبوقة بعدم، ولا يلحقها عدم، ولا يعتريها نقص من نوم أو مرض، أو ما يعتور حال الآدميين، حياة المخلوق تختلف، فمما يعتريها النوم ونقْصٌ فيها بلا شك.

قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [سورة الفرقان:٢٥-٢٩].

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء.

قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ..} [سورة البقرة:٢١٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} تشقق بالغمام، تشقق فسر بمعنى التفتح، فتفتّح عن الغمام، وأن الباء بمعنى عن، أن حروف الجر تتناوب، {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} يعني: تنفرج عن الغمام، والله -عز وجل- ذكر انشقاق السماء في مواضع: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} [سورة الإنشقاق:١]، تتشقق السماء تتفتح السماء عن الغمام، {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ..} هذا هو الغمام المذكور في هذه الآية، -آية الفرقان-، تتفتح عن الغمام، وتكون الباء بمعنى عن، وهذا الذي اختاره كبير

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، برقم (٢٨٣٤).

٥ - لم أجده.

المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال به جماعة من المحققين كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع.

قول ابن كثير هنا: **منها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام،** ظاهر هذا أنه موافق لكلام هؤلاء، **انفراجها بالغمام.**

هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} يعني: تتشقق السماء بتشقق الغمام، {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} أو يتشقق السحاب بتشقق السماء، لكن هذا بعيد، {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} يعني: أنه يتشقق هذا الغمام الذي هو بيننا وبين السماء، فكل ما علاك فهو سماء، فيتشقق بتشقق السماء، لكن إذا تشققت السماء هل يلزم من ذلك تشقق الغمام السحاب الذي نراه هذا الذي نشاهده، أو أن المقصود هنا بالغمام غمام آخر غير الغمام الذي نشاهده ويجريه الله -عز وجل- بين السماء، إنما تتفتح عن الغمام، لا أنه يتشقق هذا السحاب بتشقق السماء، فلا ملازمة، وبعضهم يقول: إن الباء ليست بمعنى عن، وإنما هي للسببية وهي على وجهها، فتتشقق السماء بسبب أنها تتفتح بسبب الغمام الذي تنفرج عنه ويخرج منها، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: إنها متعلقة بمحذوف تتشقق السماء بالغمام، متلبسة بالغمام.

{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} بعضهم قرأه بالتشديد وهي قراءة متواترة، تشديد الشين: {تَشَّقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ}، والمعنى في الأصل واحد تشقق، تشّقق إلا أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فيدل على التكثير، والله تعالى أعلم.

{وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} هذه قراءة الجمهور، وفي القراءات الأخرى قراءة ابن كثير: {وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ تَنزِيلًا}.

وقوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ...} **الآية، كما قال تعالى:** {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٦]، **وفي الصحيح:** **((إن الله يطوي السماوات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟))**[٦].

يمكن أن يقال فيه بأن ذلك اليوم هو اليوم العظيم الذي تخضع فيه الرقاب وتذل لله رب العالمين، ولا يَدّعي فيه أحد الملك، {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، إذا كان مالكاً لذلك اليوم فإنه مالك لما دونه من باب أولى، وبعض أهل العلم يقول: لما كان يعني الملك يُدّعى في الدنيا ويوصف به بعض المخلوقين، قال الله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤] الذي لا يَدّعي فيه أحد الملك، إنما الملك لله وحده لا شريك له.

وقوله: {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} **أي: شديداً صعباً؛ لأنه يوم عدل وقضاء وفصل، كما قال تعالى:** {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدثر:٨-١٠]، **فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى:** {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ..} [سورة الأنبياء:١٠٣] **الآية.**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، برقم (٤٨١٢)، ولفظه: "يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ"، ومسلم بلفظ البخاري، في أوائل كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨٧).

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٢٧] **يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدِمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفاً.**

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: {يوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} [سورة الأحزاب:٦٦] **الآيتين، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعَضّ على يديه قائلاً: {يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً} يعني مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما.**

{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ} وهو القرآن.

الظالم هنا: جاء في المرويات في أسباب النزول أنها نزلت بسبب أبي بن خلف أو عقبة أو غير ذلك، لكن لا يصح من ذلك شيء في سبب النزول إطلاقاً، فيكون المعنى: **{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}** يصدق على كل من كان كذلك.

يقول: **{يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}** والمقصود بالسبيل يعني: الطريق، **{يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}**، وهكذا بمعنى المآب كما قال الله تعالى: **{فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}** [سورة النبأ:٣٩] بمعنى اتباع الرسول وطاعته والانقياد له، سبيلاً إلى طاعته.

{يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}، {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} [سورة الفرقان:٢٨] كلمة فلان هذه تستعملها العرب إذا كانت تخبر عن قول قائل، يعني: لا تذكرها ابتداء الكلام، ما تقول: جاءني فلان فأكرمته، هذا لا يستقيم، يقول: **{يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا}** ويكنى بذلك عن الرجل المبهم، يعني: أراد أن يبهم اسمه فقال: فلان، والمرأة يقال عنها: فلانة، **{يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا}**.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قال تعالى: **{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}** الآية، فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإنه قائل هذه المقالة لا محالة؛ ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان، إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول، ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة، كما قال الله تعالى: **{الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}** [سورة الزخرف:٦٧]"[٧].

{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ} [سورة الفرقان:٢٩] **وهو القرآن، {بَعْدَ إِذْ جَاءنِي} أي: بعد بلوغه إليّ.**

قوله: **{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ}** يعني القرآن، وبعضهم يقول: الشهادة، وبعضهم يقول: الموعظة، وهذا لا منافاة فيه بين هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

---

٧ - الرسالة التبوكية "زاد المهاجر إلى ربه" (ص: ٤٦).

{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي} فالذكر هو القرآن، والذكر هو الموعظة، فالقرآن الله -عز وجل- جعله موعظة، وكذلك أيضاً قول من قال بأنه الشهادة -توحيد الإيمان- لأن القرآن متضمن لذلك ويدعو إليه، وهو مفتاح الجنة، وشرط دخولها، فأضله عن ذلك كله: {لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي}.

قال الله تعالى: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} أي: يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

هذا يحتمل أن يكون من بقية كلامه، فيكون الاتصال فيه باللفظ والمعنى، {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} يعني هو يقول هذا أي الظالم حينما يندم: {لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} بقية كلامه، ويحتمل أن يكون من الموصول لفظاً المفصول معنى، ويكون من كلام الله -تبارك وتعالى- تعقيباً على ذلك، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} وهو المتبادر من السياق -والله تعالى أعلم- أن هذا من كلام الله.

وكون الشيطان للإنسان خذولاً كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [سورة إبراهيم:٢٢] فهذا من خذلانه.

وكذلك في يوم بدر لما تراءى الجمعان: {نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ} [سورة الأنفال:٤٨] فخذلهم بعد أن قادهم إلى المعركة وقال: {وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} جاءهم على صورة رجل وأجارهم من بني كنانة حيث كانوا يتخوفونهم على أهليهم وذراريهم قال: {وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} ثم بعد ذلك تولى وتركهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ} [سورة الحشر:١٦] وأكثر السلف ذكروا هذه الرواية وإن كانت من قبيل الإسرائيليات، وإنما أذكرها لأن الصحابة -رضي الله عنهم- وعامة من تطرق للآية ذكرها في قصة الشيطان الذي جاء للإخوة الذين أرادوا الخروج إلى الجهاد من بني إسرائيل وذهبوا بأخت لهم إلى راهب...، فهي وإن لم تثبت من طريق معتبر فهي من الإسرائيليات، لكن مثل هذا أيضاً داخل تحت قوله -لو صحت هذه الرواية-: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} ففيها عبرة، ولهذا يذكرها أهل العلم عادة، أغراه بأمور متدرجاً حتى أوقعه بالفاحشة فحملت فقتل الولد ثم كذب عليهم، ثم زعم أنه يخلصه من ذلك بعد أن أخذوه، وأمره بالسجود، فمات على هذه الحال.

قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [سورة الفرقان:٣٠-٣١].

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- دائماً إلى يوم الدين أنه قال: {يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ..} [سورة فصلت:٢٦] **الآية، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به، وترك تصديقه.**

فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به من هجرانه، وترك العمل من هجرانه... وهكذا.

{وَقَالَ الرَّسُولُ} الرسول المقصود به النبي -صلى الله عليه وسلم- محمد -عليه الصلاة والسلام-، يشتكي مما وقع من هؤلاء من الهجر للقرآن، {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} بعض أهل العلم يقول: أي مهجوراً فيه، يعني يقولون فيه هجراً، يقولون: سحر وكهانة وشعر وأساطير الأولين، فهذا من الهجر الذي قالوه فيه، وصفوه بهذه الأوصاف غير اللائقة، فبعضهم يفسره بهذا: {اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} يقول فيه هجراً.

كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، اتخذوه مهجوراً بمعنى أنهم لا ينصتون إليه ولا يريدون سماعه، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، هذا الذي قاله ابن كثير وموافق فيه لابن جرير، {اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} أي: لا يصغون إليه ولا يستمعون إليه، كما قال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [سورة فصلت:٢٦]، يرفعون الأصوات ويشغبون عند سماعه من أجل ألا يسمعوا، وهذه حال أعداء الله -عز وجل- في كل زمان، وابن القيم -رحمه الله- ذكر في النصوص عن أعداء المنقول بأنهم إذا سمعوا كلام الله أو كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- يحتج به عليهم شغبوا وصيحوا ويتواصون بذلك، وإذا رأيت إلى حال بعض من لا خلاق له في هذا العصر إذا خرج في مناظرة أو محاورة وهو يتشدق طيلة عمره بالحوار ويقع في من يسميهم بالإقصائيين والذين يحملون نظرة أحادية في التفكير، وإذا حصل بينه وبين أحد مناقشة أو مناظرة أو كذا ما تسمع إلا الصياح المرتفع طول الوقت، لا يريد أن يُسمع الناس كلمة واحدة من هذا الذي يورد النصوص من الكتاب والسنة في أي مسألة من المسائل الشرعية، وإذا جاء الجد صاروا هم أول من يتنكر لها، والآخَر حرية التعبير وما أشبه هذا، فإذا جاء أحد يورد عليهم النصوص ويريد أن يحتج، يعني مباشرة تذكرت هذه الآية، بصوت مرتفع وصياح مستمر، بصورة في غاية البشاعة، لا يرضاها عاقل لنفسه وهو بين أربعة جدران لا يسمعه أحد، فكيف في قناة فضائية من أشهر القنوات يسمعه كل أحد؟!، هذه صورة، هذا يكفي فقط أن يسجل وأن يعرض لكل من افترى أو كذب وتشدق بهذه العبارات، ورأيتم كلامهم حينما يبين أحد أهل العلم عن رأيه فقط في القضية في ألطف عبارة كيف يفعلون، أين الرأي والرأي الآخر، وحرية التعبير؟ أين الإقصاء؟ من هو صاحب الإقصاء؟، فمثل هذه الآيات تصلح رقية يرقى فيها كل أفاك مفترٍ، -والله المستعان-، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [سورة الأنعام:١١٢]، هذه الأحداث تبين أن هؤلاء هم أبعد ما يكونون عن المبادئ التي يدعون إليها، والله المستعان.

وترْك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

الهجران يدخل فيه هذه المعاني التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله-، ويدخل فيها غير ذلك مما لم يذكر، ترْك الاستدلال به والاحتجاج به، والاحتجاج كما فعل أهل الكلام بالمنطق اليوناني وما أشبه ذلك مما حصل بسببه بلاء كثير، هذا من هجرانه، تقرأ في كتب الاعتقاد لهذه الطوائف لهذه الفرق كأنك تقرأ في كتاب من كتب اليونان، لا تجد فيها حديثاً ولا آية، هذا من هجرانه، ترك تقرير مسائل العلم في الفقه بتقرير ذلك بالنصوص والاشتغال بالآراء، هذا من هجرانه، ترك الاهتداء به والتلقف للنظريات الغربية في التربية أو كلام الفلاسفة، وسائل تأتيك قال بقراط، قال أرسطو، قال أفلاطون، هذا الذي بقي علينا، قال شكسبير، ويأتيك بأسماء هؤلاء الغربيين، فهذا من هجرانه، وقل مثل ذلك في ترك الاستشفاء به، ومَن ترك شيئاً ينفعه ابتلاه الله -عز وجل- بالاشتغال بما يضره، {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [سورة البقرة:١٠٢] تركوا ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- عليهم من التوراة، تركوا العمل بها، اتبعوا السحر اشتغلوا به، وهكذا من ترك الاستشفاء بالقرآن واشتغل بما يسميه العلاجات الروحية وهي نوع شعوذة واستعانة بالشياطين فهذا من هجران القرآن، بترك الاستشفاء به، والله المستعان.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصّل العلم.

والرابع: هجر تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيَطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً} وإن كان بعض الهجر أهون من بعض"[٨].

لا شك أن مَن ترك التحاكم إليه أو ترك قراءته بالكلية ليس كالذي ترك التداوي والاستشفاء به، وأهل الكلام قالوا: إن أدلته -دلائل القرآن- لا تفيد اليقين؛ لأنه يرد عليها الاحتمالات من تخصيص وتقييد وما إلى ذلك، وقالوا: العقائد لا تثبت إلا بالقواطع العقلية، فتركوا القرآن ولم يعولوا عليه، وصار من قواعدهم أن النقل للاعتضاد والحجة بالمقاييس العقلية، هذا من أعظم الهجر؛ ولذلك تجد مثل هؤلاء لا يقيمون وزناً للقرآن ولا يُعنَوْن به، ولا يشتغلون به في التلاوة، ولا يشتغلون بالتدبر والتفهم له، وانظر واعتبر في حال الفرق المنحرفة من هؤلاء وغيرهم كالرافضة، هم أبعد ما يكون عن القرآن، وذكر شيخ الإسلام عن رجل من علماء أهل الكلام يقال له: الأصبهاني، لما جيء له بالمصحف أراد أن يقرأ من سورة الأعراف، يقال له عالم، فأراد أن يقرأ: {المص} فلم يعرف يقرأ، أول مرة يمر على الآية، في الظاهر أول مرة، يذكرني بأحد الطلاب أجريت معه مقابلة أعطيته المصحف قلت له: اقرأ وفتحت له سورة المائدة، ما عرف يقرأ، تخرّج

---

٨ - الفوائد لابن القيم (ص: ٨٢).

من الثانوي معدله فوق الخمسة والثمانين، ما عرف يقرأ، قلت: الظاهر أن الأخ لأول مرة تمر عليك السورة، قال: نعم أول مرة تمر عليّ سورة المائدة، وآخر يقال له: اقرأ من حفظك، قال: ماذا اقرأ؟ قيل له: اقرأ الفاتحة، قال: الفاتحة رب العالمين، هذا حصل معي أنا أو مع واحد آخر، سمعتها بأذني، فاتحة رب العالمين، فهذا في إنجيل متّى أو برنابا، وهذا تجده كثيراً، والسبب أنه ما ذلت ألسن هؤلاء بالقرآن ولا اشتغلوا به، اشتغلوا بالغناء، وبعضهم ربما اشتغل بسماع القصائد الملحّنة التي صارت مطربة بعد ذلك في أغلبها، فشغلهم ذلك عن القرآن، راجعوا كلام الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في القواعد الحسان في قاعدة ذكرها وهي: أن من ترك ما ينفعه أو ما هو بصدده ابتلاه الله -عز وجل- بالاشتغال بما يضره، وذكر أدلة على هذا من القرآن.

وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} [سورة الفرقان:٣١] **أي: كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين؛ لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ}** [سورة الأنعام:١١٢] **الآيتين، ولهذا قال تعالى هاهنا: {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: {هَادِيًا وَنَصِيرًا}؛ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ..} الآية.**

قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} سنة الله -عز وجل- في الخلق، وذلك أيضاً لأتباعه، أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إذا كان لكل نبي عدو من المجرمين فلأتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في كل زمان أعداء من المجرمين ولابد؛ ولهذا تحصل سنة المدافعة: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ} [سورة البقرة:٢٥١]، ومن يعقل عن الله -تبارك وتعالى- فإنه ينبغي أن ينظر في موضع قدمه، هل اشتغاله وحاله وعمله في معاداة أتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟، ولو أردت أن تنظر في حال الناس، في سنة الله -عز وجل- الجارية في الخلق، مَن الذين يدعون إلى ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- ومَن الذين يعادونه لتبينت الحال، وعرف الإنسان مَن يدخل في جملة أتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومَن يدخل في مثل هذه الآية: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ}، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [سورة الأنعام:١٢٣]، الذين ليس لهم شغل إلا التشكيك بثوابت الدين وحقائقه والوقيعة في علماء المسلمين وفي شرائع الإسلام، لا سيما ما يتسبب عنه شيوع الفاحشة فيدعون إلى السفور والتبرج على طريقة الشياطين، متدرجين في النقاب في البداية، ثم بعد ذلك إلى أن تخرج بلباس لا يستر إلا السوءة المغلظة، فهؤلاء الذين يدعون إلى هذا ويشنون حملة شعواء على من خالفهم، وهكذا في الاختلاط وغيره.

اللهم صلِّ على محمد، لا إله إلا الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٣٢) إلى الآية (٥٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٣٢-٣٤].

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم، وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا: {لَوْلا نزل عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كما قال: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ..} [سورة الإسراء:١٠٦] **الآية؛ ولهذا قال: {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، قال قتادة: بيّناه تبييناً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً.**

{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ} أي: بحجة وشبهة، {إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

وروى أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[1]، وقال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنزِيلا} [سورة الإسراء:١٠٦].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول المشركين -قول الكافرين- مطالبين بنزول القرآن جملة: **{لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً}** "لولا" في هذا الموضع للتحضيض، هلا نزّل عليه القرآن جملة واحدة، و"لولا" إذا كانت في موضع يمكن في المستقبل، أو فيما يمكن الاستدراك فيه تكون بمعنى التحضيض، تقول: لولا تجدّ من أجل أن تتعلم، هلا تجدّ، هلا تصلي من أجل أن يرضى ربك عنك مثلاً، هلا تصلي، وإذا كانت في أمر لا يمكن استدراكه فإنها تكون للتبكيت: **{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}** [سورة هود:١١٦]، فهذه للتبكيت لأن تلك القرون قد أهلكها الله -تبارك وتعالى-، المقصود أنها هنا للتحضيض يقول: **{لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً}** أي: كما أنزل على

---

١ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٣٧٢).

الأنبياء قبله، هذه الآية يستدل بها أهل العلم على نزول الكتب السابقة جملة واحدة، ووجه الاستدلال أن الله -تبارك وتعالى- حينما رد عليهم قال: **{كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}** بمعنى: أنه ذكر هذه العلة ولو كانت الكتب السابقة تنزل على الأنبياء كما نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- مفرقة لكان الرد: كذلك أنزلنا على الذين من قبلك، يعني: الكتب كانت تنزل مفرقة، هذه سنة الله -عز وجل- في إنزال الكتب، كما رد عليهم حينما اعترضوا على إرسال الرسول من البشر، فأخبر أنه إنما أرسل الرسل من البشر وأنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهنا ذكر علة لتنزيله على النبي الأمي -عليه الصلاة والسلام-: **{كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ}** هذه الكاف يمكن أن تكون نعتاً لمصدر محذوف: **{كَذَلِكَ}** يعني: مثل ذلك التنزيل نزلناه لنثبت به فؤادك، مثل ذلك التنزيل يعني المفرق الذي قدحوا فيه، **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ}** هل هذا من كلام المشركين، أعني قوله: كذلك؟ من أهل العلم من قال هذا، وهو خلاف الظاهر المتبادر، وأن ذلك من كلام الله -تبارك وتعالى.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}** يقول هنا: **قال قتادة: بيّناه تبييناً، وقال زيد بن أسلم: فسرناه تفسيراً**، عبارات السلف في هذا متقاربة، فإن هذه اللفظة -هذه المادة الترتيل- تدل على معنى الترسل، وذلك بمعنى أنه ينزل شيئاً بعد شيء، وهذا من التبيين، ويفهمه -صلى الله عليه وسلم- ويحفظه فإنه لم يكن -عليه الصلاة والسلام- كاتباً؛ ولهذا فإن قول بعض السلف: أن يكون آية بعد آية قريب من هذا المعنى، هذا بمعنى التمهل والتؤدة، نزل شيئاً بعد شيء، وقول من قال كابن الأعرابي بأن الترتيل هو التحقيق والتبيين وما أشبه ذلك، فالتحقيق والتبيين قريب مما سبق، فإن الهذرمة مثلاً في القراءة هي خارجة عن هذا الحد.

وعبارات السلف قريبة من هذا المعنى، ابن جرير يقول: الترسل والتثبت... شيئاً بعد شيء أو آية بعد آية، فمثل هذا لا يحتاج إلى ترجيح -والله تعالى أعلم-، قال: **{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ}** يعني بحجة وشبهة، وسبق الكلام كثيراً على معنى المثل واستعمال هذه المادة في القرآن، وأن ما يظن في جميع المواضع أن المثل إنما يكون بتصوير المعقول في صورة المحسوس أن ذلك ليس بلازم، وأنه يشكل عليه بعض المواضع في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وأن من أهل العلم من يربط بين المثل والشبه، ويقول: إن أصله يرجع إلى ذلك، وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وقال به بعض أهل اللغة، على هذا الاعتبار: **{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ}** هنا ليس فيه تصوير المعقول بالمحسوس، يعني هذا غير الأمثال التي يضربها الله -عز وجل- وهي مواطن العبر على أوسع ما فسرت به الأمثال، كما قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: وهو أوسع ما وقفت عليه في تفسيرها، تفسير الأمثال، معنى المثل في القرآن كل ما فيه عبرة من قصص الأنبياء وأخبارهم، كل ما يعتبر به، وأن هذا فيه معنى الشبه لأصل المعنى اللغوي، فيه تشابه بين الحالتين، حينما يذكر قصص الأنبياء والأمم المكذبة يعتبر الإنسان، والاعتبار: الانتقال، العبرة فيها انتقال من الخد للعين كما يقولون، والعاقل من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فالعبرة أن يعتبر الإنسان، ينظر في حال ما وقع لغيره ثم يرجع إلى نفسه بعد ذلك، وهكذا العبّارة والمعبر التي يحصل بها الانتقال من ناحية لأخرى، فهنا: **{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ}** هذا ليس من مواطن العبر ولكن هنا يمكن أن يرتبط بأصل المعنى اللغوي الذي فيه معنى الشبه، **{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ}** أي: بشبهة، الشُّبه التي كانوا يعترضون بها على النبي -صلى الله عليه وسلم-،

وإن كان المثل يأتي أحياناً بمعنى الصفة، كما في قوله: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة الرعد:٣٥]، و[سورة محمد:١٥] وإن اعترض على هذا المعنى بعض أهل العلم، فالعلم عند الله -عز وجل-، {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ} أي: بحجة وشبهة، {إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}.

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً}، وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: ((إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة))[٢].

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا} [سورة الفرقان:٣٥-٤٠].

يقول تعالى متوعداً من كذّب رسولَه محمداً -صلى الله عليه وسلم- من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى -عليه السلام-، وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي: نبيًا مُوَازِراً ومؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده، فــ{دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [سورة محمد:١٠]، وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحاً -عليه السلام-، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبون؛ ولهذا قال: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ}، ولم يُبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله -عز وجل-، ويحذرهم نقمَه، وما آمن معه إلا قليل، ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يُبقِ منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط.

{وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً} أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [سورة الحاقة:١١-١٢] **أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصدّق أمره.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} الوزير هو المعين، وبعضهم يقول: قيل له ذلك لأنه يحمل الوزر للملك أو الأمير أومن كان وزيراً له، المقصود بالوزر يعني الحمل الثقيل، يعني الأعباء تسند إليه ليقوم بها، والملك يكون كالمشرف على ذلك والآمر به ونحو ذلك، لكن التنفيذ والأعباء والمتابعة يقوم بها الوزير.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا}، برقم (٤٧٦٠)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب يحشر الكافر على وجهه، برقم (٢٨٠٦).

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} كون هارون -عليه الصلاة والسلام- وزيراً لموسى -صلى الله عليه وسلم- لا ينافي نبوته، فإن الوزارة لا تنافي النبوة، فهو عضد له ومعين له كما أنه نبي، {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [سورة طه:٢٩-٣٢]، فهو طلب هذا فأجاب الله -عز وجل- دعاءه، وهنا سؤال معروف في قوله -تبارك وتعالى- عن فرعون وقومه الذين كذبوا بآياتنا: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الآن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يصل إليهم بعد، ولم يروا شيئاً من الآيات المذكورة التي أعطاها الله -عز وجل- موسى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء:١٠١] فقال الله -تبارك وتعالى-: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} فما المراد بذلك؟ العلماء -رحمهم الله- يجيبون عن هذا بأجوبة: بعضهم يقول: إنما ذكرها الله -تبارك وتعالى- هنا بهذه الصيغة: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} مع أن موسى لم يأت إليهم بعد؛ لأن ذلك مما قصه الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- للعظة والعبرة، فإن ما قصه الله بعدما وقع ذلك، فيكون قوله: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} إنما ذكر هذا بعد انتهاء ذلك كله، ومن أهل العلم من يقول: إن الفعل الماضي هنا: {الَّذِينَ كَذَّبُوا} هو في معنى المستقبل؛ لأن تكذيبهم متحقق الوقوع، ويعبر بالماضي عن المستقبل إذا كان بهذه المثابة، ويمثلون لهذا بأمثلة كقوله: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١] يعني: هو سيأتي، فهذا جواب، {كَذَّبُوا} بمعنى الذين سيكذبون، سيحصل منهم التكذيب، وبعض أهل العلم يقول: الآيات هنا ليست الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام- وإنما هي الآيات الإلهية عموماً الدالة على وحدانية الله -عز وجل- وقدرته وعظمته وربوبيته في العالم العلوي والعالم السفلي، كذبوا بهذه، وقال فرعون: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤].

وبعض أهل العلم يقول: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} المعنى: الذين آل أمرهم وحالهم إلى التكذيب، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ} قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة.

يعني يكون هكذا: يقول الله -عز وجل- عن قوم فرعون: {فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ} أيضاً أهلكناهم، و"عاداً" معطوف على "وقومَ نوح"، يعني هذا وجه النصب، والتدمير معناه الإهلاك والإبادة والاستئصال.

وأما أصحاب الرس فقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود.

وقال الثوري عن أبي بُكَيْر عن عكرمة: الرس بئر رَسُّوا فيها نبيهم، أي: دفنوه بها.

كلام أهل العلم في الرس وأصحاب الرس كثير جداً، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الرس يقال للبئر، ويقال للحفرة في الأرض، يقول: ولا نعلم مما قصه الله -تبارك وتعالى- في القرآن أن نبياً من الأنبياء جاء إلى قوم أو أن قوماً ممن قص الله خبرهم في القرآن كان لهم بئر أو لهم حفرة، يقول: إلا ما ذكره الله -عز وجل- في أصحاب الأخدود، الأخدود هو الشق في الأرض، فابن جرير لا يستبعد في ظاهر كلامه أن يكونوا هم يعني على سبيل الاحتمال، يقول: إن كان هؤلاء وإلا فهم قوم ذكر الله -عز وجل- خبرهم وليس عندنا ما يدل على تفاصيل تتعلق بهم، والذي يذكره المفسرون أشياء كثيرة لا دليل عليها لا من الكتاب ولا من السنة، وبعضهم يقول: قرية من قرى ثمود، وبعضهم يقول: هؤلاء كان لهم نبي، بعضهم يذكر خالد بن

سنان، ولا تثبت نبوته، تجدون في مثل كتاب المعارف لابن قتيبة ذكر خبراً مطولاً في هذا المعنى، وهكذا أيضاً يقول بعضهم: إنها قرية من قرى اليمامة يقال لها: فَلَج أو فَلْج، قرية من قرى اليمامة، لا أدري يقصدون الأفلاج أو يقصدون شيئاً آخر، الشاهد أنه جاءهم نبي رَسُّوه في بئر يعني قبروه بالحجارة، وبعضهم يقول غير هذا، ولا دليل على شيء من ذلك، قال الشوكاني -رحمه الله تعالى-: "وَأَصْحاب الرَّسِّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْبِئْرُ الَّتِي تَكُونُ غَيْرَ مَطْوِيَّةٍ"[3].

والبئر المطوية هي المبنية بالحجارة، بئر يكون على جوانبها بناء بالأحجار، هذا يقال لها: بئر مطوية، والبئر غير المطوية: مجرد حفر.

وقال الشوكاني -رحمه الله- أيضاً: " وَالْجَمْعُ رِسَاسٌ كَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَهُمْ سَائِرُونَ إِلَى أرضهم *** تنابلة يحفرون الرِّسَاسَا

قَالَ السُّدِّيُّ: هِيَ بِئْرٌ بِإِنْطَاكِيَةَ، قَتَلُوا فِيهَا حَبِيبًا النَّجَّارَ، فَنُسِبُوا إِلَيْهَا وَهُوَ صَاحِبُ يس الذي قال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [سورة يس:٢٠]، وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلٌ وَعِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُمَا، وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ بِأَذْرَبِيجَانَ قَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ فَجَفَّتْ أَشْجَارُهُمْ وَزُرُوعُهُمْ، فَمَاتُوا جُوعًا وَعَطَشًا، وَقِيلَ: كَانُوا يَعْبُدُونَ الشَّجَرَ، وقيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شُعَيْبًا فَكَذَّبُوهُ وَآذَوْهُ، وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا فَأَكَلُوهُ، وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. وَقِيلَ: إِنَّ الرَّسَّ: هِيَ الْبِئْرُ الْمُعَطَّلَةُ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا، وَأَصْحَابُهَا أَهْلُهَا، وَقَالَ فِي الصِّحَاحِ: وَالرَّسُّ اسْمُ بِئْرٍ كَانَتْ لِبَقِيَّةِ ثَمُودَ، وَقِيلَ الرَّسُّ: مَاءٌ وَنَخْلٌ لِبَنِي أَسَدٍ، وَقِيلَ: الثَّلْجُ الْمُتَرَاكِمُ فِي الْجِبَالِ. وَالرَّسُّ: اسْمُ وَادٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

بَكَرْنَ بُكُورًا وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ *** فَهُنَّ لِوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

وَالرَّسُّ أَيْضًا: الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْإِفْسَادُ بَيْنَهُمْ، فَهُوَ مِنَ الأضداد، وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صَفْوَانَ، وَهُمُ الَّذِينَ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِالطَّائِرِ الْمَعْرُوفِ بِالْعَنْقَاءِ"[4].

هذا كله لا يصح، كل هذا مأخوذ من الإسرائيليات، والعنقاء لا حقيقة لها أصلاً، أصحاب الرس حينما يقول البئر: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ} [سورة الحج:٤٥] يعني: لا يمكن أنه قال: وأصحاب القصر أيضاً قوم، وإنما يذكر الله -عز وجل- الأمم المكذبة والمهلَكة فتعطلت مصالحهم ومنافعهم وما كانوا لربما يعتزون به ويفتخرون، ولربما يزدحمون عليه، فصار ذلك لا يرد عليه وارد، ولا يسكن فيه ساكن، خلت الديار وصارت بلاقع، إن الله -عز وجل- أهلكهم فتعطلت تلك البئر التي كانوا يستقون منها، وتعطلت قصورٌ من ساكنيها بسبب عذاب الله -تبارك وتعالى- للمكذبين.

وقوله تعالى: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} أي: وأمماً أضعاف مَن ذُكر أهلكناهم كثيرة، ولهذا قال: {وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ} أي: بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: وأزحنا الأعذار عنهم، {وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ} [سورة الإسراء:١٧]، **والقرن:**

---

٣ - فتح القدير للشوكاني (٨٩/٤).

٤ - المصدر السابق.

هو الأمة من الناس، كقوله: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ} [سورة المؤمنون:٣١] وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة، وقيل: بمائة.

قوله: **{وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا}** التتبير بمعنى التدمير والإهلاك، وبعض أهل العلم يقول: إنه بمعنى دمر، هو بمعناه لا شك لكن بعضهم يقول: أُبدِل حرفان من دمر فصارت تبر، دمرنا: تبرنا، وهو بمعنى التدمير، تبرنا أي: دمرنا وأهلكنا.

وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة، وقيل: بمائة، وقيل: بثمانين سنة، وقيل: أربعين، وقيل غير ذلك، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن آخر.

هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، فالمتعاصرون في جيل واحد يقال لهم: قرن، فإذا انقرض ذلك الجيل يقال: انقرض ذلك القرن، وهذا الذي رجحه أيضاً الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

كما ثبت في الصحيحين: ((خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..))[٥] الحديث.

يعني التقديرات التي تذكر، يعني من يقول: إنهم أو إنه يقدر بأربعين سنة، ومن يقول: إنه يقدر مثلاً بمائة وعشرين سنة، والذي قال: مائة وعشرين سنة قدر انقراض الجيل بكامله باعتبار أن الإنسان لا يكاد يصل إلى مائة وعشرين سنة، فيكون هذا الجيل انقرض، يعني الناس الذين من أقرانه قد ماتوا، ومن قدره بأربعين فهؤلاء هم المتعاصرون، والجيل الواحد من المتعاصرين يمكن أن يقدر بمثل هذا؛ ولهذا ذكروا في التابعين ثلاث طبقات: كبار التابعين وأوساط التابعين وصغار التابعين، فإذا كان الفارق بين زيد وعمرو ثلاث أو أربع أو خمس سنوات أو سبع سنوات ونحو ذلك فهو من المقاربين له، من قرنه، لكن حينما يكون كل صفحة تكون بأربعين سنة مثلاً فهذا جيل غير الجيل السابق، يعني بمعنى أن جيل الآباء غير جيل الأبناء وإن تعاصروا، وسبب هذا القول من أين نشأ فتقول: الآباء جيل، تقول: جيل الآباء غير جيل الأبناء؟، الأب يقول لأبنائه: في جيلنا كنا..، هذا جيل جديد، فهذا بماذا يقدر؟، يقدر بنحو أربعين سنة، وليس المقصود هنا التحديد في ما أذكره الآن، لا أقصد تحديد القرن بأربعين، لكن توجيه الأقوال فقط، ولهذا يحسن ألا يحد بسنين فيكون ذلك سبباً للإشكال، وإنما يقال: مَن تعاصروا، المتعاصرون في جيل واحد يمثلون قرناً، والفوارق اليسيرة في السنين بينهم غير مؤثرة، حينما نقول: القرن المنصرم، القرن الماضي، القرون التي كانت قبلنا، والله أعلم.

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ} يعني: قوم لوط، وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة الشعراء: ١٧٣]، وقال: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وقال تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} [سورة الحجر:٧٦]، وقال: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة الحجر:٧٩]؛ ولهذا

---

٥ - رواه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب فضائل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦٥٠)، ومسلم، بلفظ: ((خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...))، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٣).

قال: {أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} أي: فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله.

{بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا} يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون نشوراً، أي: معادًا يوم القيامة.

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ} يعني: أتوا على تلك الناحية التي كان بها قوم لوط أو قرى قوم لوط، فكانوا يأتون إليها في طريقهم من مكة إلى الشام فلا يتعظون ولا يعتبرون، {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ} قرية هنا أفردها الله -تبارك وتعالى- والمقصود بذلك القرى، فهذه سدوم هي القرية الأم أو العاصمة كما يقال، وليس المقصود بالقرية هو مجمع البنيان الصغير كما هو في عرفنا الآن، وإنما المقصود البلد أو المدينة أو نحو ذلك، يعني عواصم أهلكها الله -تبارك وتعالى-، {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ} فسدوم كانت هي الأساس أو العاصمة ولها قرى، ولهذا تأتي بصيغة الجمع، كذلك: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] يعني: منقلبة قلبها الله -عز وجل-، والمؤتفكات باعتبار القرى بمجموعها، قرى قوم لوط، فهم أكثر من قرية، أكثر من بلدة، أكثر من مدينة.

قال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا} [سورة الفرقان:٤١-٤٤].

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول -صلى الله عليه وسلم- إذا رأوه، كما قال تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [سورة الأنبياء:٣٦] يعنونه بالعيب والنقص، وقال هاهنا: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا} أي: على سبيل التنقص والازدراء فقبَّحهم الله، كما قال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ..} [سورة الرعد:٣٢] الآية.

وقوله تعالى: {إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا} يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها، قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ..} الآية.

كما تواصوا أيضاً: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [سورة ص:٦] يتواصون على الصبر على عبادتها وعلى هذا الباطل، وهنا يقولون: {لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا}، والله المستعان.

ثم قال تعالى لنبيه منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله -عز وجل-: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينَه ومذهبَه، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ..} [سورة فاطر:٨] الآية؛ ولهذا قال هاهنا: {أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا}، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

قوله: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} اتخاذ الإله: يعني اتخذ هواه إلهه، بمعنى: أنه صار الهوى متبوعاً، فإذا كان الهوى هو قائده هو تابع له فهو بهذا الاعتبار قد اتخذه إلهاً من دون الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال من قال من السلف -رضي الله تعالى عنهم- بأن الهوى إله يعبد، فهو المحرك للإنسان والدافع له على الفعل أو الترك، إنما يفعل أو يترك اتباعاً لهواه، وهذه هي العبادة، فما يمليه عليه الهوى يبادر إلى فعله، وينكف عما مال عنه هواه، {أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا} تكون عليه وكيلاً يعني تمنعه من ذلك وتحمله على الإيمان، فإن ذلك ليس إليك، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [سورة القصص:٥٦].

ثم قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ..} الآية، أي: هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

إي نعم، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ}؛ لأن الله وصفهم بالصمم والعمى، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها، فهم بهذا الاعتبار لا يسمعون ولا يعقلون ولا يبصرون، صم بكم عمي، فمن كان بهذه المثابة يكون كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء} [سورة البقرة:١٧١]، وكان من جملة ما ذكر: {كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ} يعني: شبه الداعي لهم بالراعي الذي يصيح بالغنم، فهي لا تفقه ما يقول ولكنها تسمع مجرد الصوت دعاء ونداء، لا تدري ما حقيقة ذلك وما ينطوي عليه وما يتضمنه من المعنى، فهؤلاء الكفار بهذه المثابة، الله -تبارك وتعالى- أصمهم وأعمى أبصارهم، وقد يستغرب الإنسان من حال هؤلاء الذين طُبع على قلوبهم حينما يرون الآيات والدلائل الواضحات على وحدانية الله -عز وجل- وصدق رسوله -صلى الله عليه وسلم- كيف لا يستجيبون؟!، يعني: الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأوا الآيات هم فصحاء في غاية الفصاحة ورأوا القرآن وما آمنوا، طلبوا آية فانشق القمر ورأوه وشاهدوه، ومع ذلك لم يؤمنوا، المنافقون الذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلون معه في المسجد ويرون وجهه في غاية الإشراق، ويرون دلائل صدقه ويرون كل ما يمكن أن يدعو إلى الإيمان، ويسافرون معه ويرون دعاءه -صلى الله عليه وسلم- يستجاب حينما يجدبون أو تضمحل أزوادهم أو مياههم فيستغيث -عليه الصلاة والسلام- يستسقي، والماء أو السحاب يتبع يديه، فيقول قائلهم: إنما هو سحاب عارض، تضيع ناقته فيستهزئ من يستهزئ منهم ويقول: يدعي أنه يأتيه الوحي ولا يدري أين ناقته، ثم بعد ذلك يخبرهم عن مكانها، وأنه قد تعلق خطامها بشجرة في المكان الفلاني، فيذهبون ويجدونها كما قال، كل هذه الآيات سفر طويل من المدينة إلى تبوك ذهاباً وعودة، وكل ما يشاهد فيه من الآيات ودلائل الصدق ومع ذلك يرجع أسوأ مما كان، ولهذا قد يستغرب الإنسان كيف يصل الإنسان إلى مثل هذه الحال؟!، هي القضية: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ} البهيمة إذا رأت العلف شمرت، وهذا هو غايتها، فهذا الكافر مثل البهيمة، بل أسوأ من البهيمة من وجوه متعددة، منها أن البهيمة ليس لها عقل، ومن ثَمّ فهي غير مكلفة ولا ملومة، وبعض أهل العلم يقول: البهيمة تعرف ربها وهؤلاء لا يعرفون ربهم، هؤلاء أعطاهم الله عقولاً فلم ينتفعوا بها، كما أن البهيمة لا تنكر وتكذب، وهؤلاء ينكرون ويكذبون، تركوا ما خُلقوا له واشتغلوا بغيره، وهذه البهيمة مسكينة إنما غايتها أن تأكل وتشرب، ولا يطلب منها أكثر من هذا، فيتحول

الإنسان أحياناً إلى حال كأنه لا عقل له ولا سمع ولا بصر، مثلاً لو جئت بإنسان فيه علة فيه مرض انفصام عقلي مثلاً في بعض الصور والحالات، وهذا الإنسان عنده تصورات وعنده اعتقادات وعنده أن فلاناً يكيد له وأن فلاناً يتربص به وأن فلاناً يحاربه... إلى آخره، وجلست تتكلم من اليوم إلى يوم القيامة لتقنعه، وأحياناً الكلام الذي يصدر منه كأنه كلام عاقل في صياغته، والذي لا يعرف حاله يظن أنه فعلاً هناك أناس سحروه وفعلوا به الأفاعيل، قريبه وزوجته وفلانة وفلان هم الذين يتربصون به، وتجلس تشرح له أياماً ولياليَ أن هذا الكلام غير صحيح، وتجلي له هذه الشبه، وتورد له الأدلة، ثم تكتشف فيما بعد أنك كنت تتحدث كما تتحدث إلى الجدار تماماً لا فرق، مثل الكلام مع الجدار، لا يتغير هذا الإنسان، هذه نهاية قدراته العقلية، ما يمكن أن تُغير، هؤلاء الكفار أسوأ حالاً فلا تستغرب حينما ترى أحداً من المنافقين المردة أو من الكافرين تقول: عجباً لهؤلاء ما يتعظون ولا يعتبرون، وقد يصل الواحد منهم إلى سنٍّ رجله في القبر ولا يتوب، ما يحسب حساباته أن غداً سيموت، ويراجع نفسه بعد هذا العمر الطويل وما قضى فيه من الضياع والفساد والإفساد والحرب على الله وعلى رسوله وعلى دينه، ماذا يرجو هذا الإنسان؟ خلاص، لا ينتظر إلا الموت، ما يرعوي ولا يفكر ولا يتوب ولو عمر ألف سنة ما زاده هذا إلا عتواً، ومن نظر في دلائل القرآن عرف هذه القضية التي لربما ترد على المؤمن لماذا لا يتعظ هذا ويعتبر، وهكذا؟، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ}، قد يأتي منافق ويصلي مع الناس في التراويح وهو يسمع الختمة، تقول: ما يسمع هذه الآيات التي تهز الجبال؟ هو كالبهيمة التي تسمع الداعي أو الراعي الذي ينعق بها ولكنها لا تنتفع بشيء فهو في عالم آخر، عند النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية تنزل ويخرج ويقول: ماذا قال آنفاً؟.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [سورة الفرقان:٤٥-٤٧].

من هاهنا شرع -سبحانه وتعالى- في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

هذا القول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} يقول: **هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**، هذا هو الأقرب -والله تبارك وتعالى أعلم- أنه المراد هنا، مد الظل يعني: بسطه، وحقيقة الظل هو ما توسط بين ظلام الليل وضوء الشمس أو ضوء النهار، هذا المتوسط هذا الوقت الآن هذا وقت الظل امتداد الظل، وقول من قال من أهل العلم -وهم كثير من أهل اللغة-: إن الظل ما كان من الفجر إلى ما قبل الزوال، وإن الفيء ما بعده، هذا صحيح، لكن هنا قال: {مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} لا يتحرك، إما أنه بسكون ما يؤثر فيه الطول والقصر والحركة والانتقال للشمس، تبقى ساكنة، أو أن الله يجعل الظل باقياً ملازماً لا يتحرك ولا ينتقل فيكون ملازماً للأشياء الشاخصة مثلاً، الظل يبقى من جهة واحدة لا يتغير ولا يتحرك ولا يمتد، فامتداد الظل -والله تعالى أعلم- يحمل على مثل هذا الوقت في أول النهار وقبل طلوع الشمس، جعله مد الظل فهو

ممتد، ثم بعد ذلك إذا طلعت الشمس يبدأ هذا الظل ينحسر شيئاً فشيئاً، حتى يبلغ ذلك نهايته حينما تكون الشمس في كبد السماء ولا يبقى إلا فيء الزوال كما يقال؛ لأن الشمس فيها ميلان والله -تبارك وتعالى- عليم حكيم بمعنى أن الشمس في الشتاء حينما تخرج من المشرق تميل إلى جهة اليسار بأقصى درجة ثم بعد ذلك تنتقل تدريجياً في كل يوم درجة حتى تصل إلى أقصى اليمين في الصيف، بمعنى: أن حكمة الله -عز وجل- أنه ما جعل الشمس تخرج من نقطة واحدة؛ ولهذا حمل بعض أهل العلم قوله -تبارك وتعالى-: **{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}** [سورة الرحمن:١٧] على أقصى نقطة في الشتاء والصيف باعتبار الطرفين، **{بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}** [سورة المعارج:٤٠] هذه الدرجات التي تنتقل فيها الشمس لتغطي أكبر قدر من المساحة، يعني: الشمس لا تأتي من الشمال للجنوب، ولو كانت تأتي من الشرق للغرب بدرجة واحدة لبقي أثرها محدوداً على الأرض، لكن حينما تأتي وتصل كل هذه المساحات بتحركها صيفاً وشتاء في حال شروقها وغروبها بهذا الشكل فإنها تغطي أكبر قدر من الأرض، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- فيما يتعلق بالفيء والظل، والظل أول النهار ما قبل الزوال، والفيء ما بعده، هذا صحيح، مده في أول النهار قبل طلوع الشمس ثم بعد ذلك يبدأ ينحسر، وهذا من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، فالأماكن التي يكون فيها الظل تكون إلى البرودة أقرب، فإذا جاءت عليها الشمس وحرها صارت إلى الحرارة أقرب، فيقلّبها الله -عز وجل- بين هذا وهذا، فيحصل بذلك انتفاع الإنسان والحيوان والنبات؛ ولهذا قال الله -عز وجل- في الشجرة التي في الزيتونة في سورة النور في المثل المضروب، قال: **{زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ}** [سورة النور:٣٥] وكلام أهل العلم كثير في هذا، وسبق الكلام عليه في سورة النور أو ذكرت بعضه، بعضهم يقول: تصيبها الشمس في حال الشروق وفي حال الغروب، **{لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ}**، وبعضهم يقول غير هذا، فالمقصود أن تنقل الناس أو تقلب الناس أو تقلب الأرض في هذه الأحوال بين الفيء تارة وبين الشمس تارة يحصل به حياة الإنسان والنبات، ويحصل به ألوان المنافع التي ندرك بعضها ويخفى علينا كثير منها.

والرؤية هنا في قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ}** بعضهم يقول: بصرية باعتبار أن هذا أمر يشاهد، وبعضهم يقول: هي رؤية علمية يعقلها الإنسان ويستدل بها على قدرة الله -عز وجل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}** فَأَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّهُ بَسَطَ الظِّلَّ وَمَدَّهُ، وَأَنَّهُ جَعَلَهُ مُتَحَرِّكًا تَبَعًا لِحَرَكَةِ الشَّمْسِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا لَا يَتَحَرَّكُ: إِمَّا بِسُكُونِ الْمُظْهِرِ لَهُ، وَالدَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِسَبَبٍ آخَرَ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَبَضَهُ بَعْدَ بَسْطِهِ قَبْضًا يَسِيرًا، وَهُوَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ، لَمْ يَقْبِضْهُ جُمْلَةً، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، فَنَدَبَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ إِلَى رُؤْيَةِ صَنْعَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ فِي هَذَا الْفَرْدِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ لَاصِقًا بِأَصْلِ مَا هُوَ ظِلٌّ لَهُ مِنْ جَبَلٍ وَبِنَاءٍ وَشَجَرٍ وَغَيْرِهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أَحَدٌ.

فَإِنْ كَانَ الِانْتِفَاعُ بِهِ تَابِعًا لِمَدِّهِ وَبَسْطِهِ، وَتَحَوُّلِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، فَفِي مَدِّهِ وَبَسْطِهِ ثُمَّ قَبْضِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مَا لَا يَخْفَى وَلَا يُحْصَى، فَلَوْ كَانَ سَاكِنًا دَائِمًا، أَوْ قُبِضَ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَتَعَطَّلَتْ مَرَافِقُ الْعَالَمِ وَمَصَالِحُهُ بِهِ وَبِالشَّمْسِ، فَمَدُّ الظِّلِّ وَقَبْضُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا لَازِمٌ لِحَرَكَةِ الشَّمْسِ، عَلَى مَا قُدِّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِ الْعَالَمِ، وَفِي دَلَالَةِ الشَّمْسِ عَلَى الظِّلَالِ مَا تُعْرَفُ بِهِ أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ، وَمَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ، وَمَا بَقِيَ مِنْهُ، وَفِي

تَحَرُّكِهِ وَانْتِقَالِهِ مَا يَبْرُدُ بِهِ مَا أَصَابَهُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، وَيَنْفَعُ الْحَيَوَانَاتِ وَالشَّجَرَ وَالنَّبَاتَ، فَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ.

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَدَّ الظِّلَّ حِينَ بَنَى السَّمَاءَ كَالْقُبَّةِ الْمَضْرُوبَةِ، وَدَحَا الْأَرْضَ تَحْتَهَا، فَأَلْقَتِ الْقُبَّةُ ظِلَّهَا عَلَيْهَا، فَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مُسْتَقِرًّا فِي تِلْكَ الْحَالِ، ثُمَّ خَلَقَ الشَّمْسَ وَنَصَبَهَا دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ الظِّلِّ، فَهُوَ يَتْبَعُهَا فِي حَرَكَتِهَا، يَزِيدُ بِهَا وَيَنْقُصُ، وَيَمْتَدُّ وَيَتَقَلَّصُ، فَهُوَ تَابِعٌ لَهَا تَبَعِيَّةَ الْمَدْلُولِ لِدَلِيلِهِ.

وَفِيهَا وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَبْضَهُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ بِقَبْضِ أَسْبَابِهِ، وَهِيَ الْأَجْرَامُ الَّتِي تُلْقِي الظِّلَالَ. فَيَكُونُ قَدْ ذَكَرَ إِعْدَامَهُ بِإِعْدَامِ أَسْبَابِهِ، كَمَا ذَكَرَ إِنْشَاءَهُ بِإِنْشَاءِ أَسْبَابِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا} [سورة الفرقان:٤٦] كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: {قَبْضًا يَسِيرًا} يُشْبِهُ قَوْلَهُ: {ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} [سورة ق:٤٤] وَقَوْلُهُ: " قَبَضْنَاهُ " بِصِيغَةِ الْمَاضِي لَا يُنَافِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [سورة النحل:١] وَالْوَجْهُ فِي الْآيَةِ هُوَ الْأَوَّلُ"[٦].

أقوال متعددة في هذا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} بعضهم يقول: من غروب الشمس إلى طلوعها، هذا امتداد الظل حيث لا شمس، لكن مثل هذا يعتبر ليلاً وظلاماً، ولا يقال له ظل بهذا الإطلاق، إنما الظل هو الحالة المتوسطة -كما سبق- بين الضياء الخالص وبين الظلام الحالك، فما بينهما هو الظل، {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} وإنْ كان في الاصطلاح -كما سبق- أن ما كان قبل الزوال يقال له: ظل، وما بعده يقال له: فيء، رجوع الظل إلى الناحية الأخرى.

{وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا} [سورة القصص:٧١] الآيات، وقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا} أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عُرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده.

وقال قتادة، والسّدي: دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: {جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا} يعني: أنه لولا الشمس لما عُرف الظل؛ لأن الشيء يعرف بما يقابله، بضده، فهي التي دلت عليه، هذا خلق من خلق الله -عز وجل- إنما يُعرف بالشمس، فيشاهد الناس أضداده أو ضده، ويشاهدون تقلبه وتنقله وزيادته ونقصانه فيعرفونه، إنما عرفوه بالشمس، الشمس تكون عليه دليلاً بهذا الاعتبار، والقول السابق قول ابن كثير هو الذي اختاره ابن جرير أنه إنما عُرف بها، هي التي دلت عليه، وبعض أهل العلم يقول: {جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا} يعني: أنه تابع لها، كاتباع المدلول للدليل حينما يكون مع الناس، كما كان في السابق قديماً في الأسفار القوافل لابد لها من دليل، لابد من دليل يعرف الطرق ونحو ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معروف أنه اتخذ دليلاً عبد الله بن أريقط في هجرته -عليه الصلاة والسلام-، فالمدلول يتبع الدليل، وهكذا يقال في الأدلة الشرعية فهي تُتبع ويُتعرف بها على الأحكام، فهنا الظل يتبع الشمس، ويتنقل معها، وينحسر ويزيد بحسب أحوالها، وبعض أهل العلم يقول: لكونها تابعة له، وهذا فيه بُعد، يعني عكس القول السابق، يقول: **قال قتادة والسدي:**

---

٦ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٢٧٣-٢٧٤).

دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله، فالتابع الشمس، والمتبوع هو الظل، دليل تتبعه؛ لأنه لا يمكن -والله أعلم- أن يقال: إن الشمس تكون تابعة للظل، هي ليست تابعة له، هو الذي يتبعها، والعبارة هي: **دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله**، لكن العبارة حتى مع هذا أليست تشعر بأن المقصود أن الشمس تابعة له؟ دليلاً يتبعه، فذُكِّرت هنا "يتبعه" باعتبار أن الدليل مذكر، جَعل الشمسَ عليه دليلاً يتبعه، يعني: هذا الدليل يتبع الظل، قال: حتى يأتي عليه كله، حتى يأتي على الظل.

والمعنى الآخر الذي ذكرته يقابل هذا هو أن الظل هو الذي يتبعها، {جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا} يتبعها كما يتبع المدلول دليله.

وقوله: {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} أي: الظل، {يَسِيرًا} أي: سهلاً، وقال السدي: قبضاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس ما فوقه.

وقال أيوب بن موسى في الآية: {قَبْضًا يَسِيرًا} قليلاً قليلاً.

ظاهر سياق قوله تعالى: {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} أنه أي ارجعوا إلى الظل فهو المحدث عنه، {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} أي: أنه ينقبض وينحسر شيئاً فشيئاً بعد البسط، وهذه قرينة تدل على ما سبق من تفسير قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} بأنه قبل طلوع الشمس، {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} فإنه يبدأ بالانقباض والانحسار بعد طلوع الشمس، يبدأ بالتقلص ويكون طويلاً في أول النهار، ثم بعد ذلك يبدأ يتقاصر إلى أبعد غاية، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الناحية الأخرى، فهذا كله في الظل، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: هذا عند قيام الساعة، حينما تقوم الساعة، {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} في تحول تلك الأجرام المضيئة فيذهب ضوءها، لكن هل هذا يقال له: إنه قبض يسير، {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} بقبض النيّرات، الأجرام النيّرة؟ هذا لا يخلو من بُعد -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: لغروب الشمس، {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} إذا غربت الشمس جاء الليل بظلامه فيذهب الظل، والذي يظهر -والله أعلم- أن المراد بذلك هو هذا الذي نشاهده من تحول الظل وانحساره شيئاً فشيئاً، فهو ممتد في أول النهار، ثم بعد ذلك تطلع الشمس التي جعلها الله دليلاً عليه، ثم يبدأ بالانحسار شيئاً فشيئاً وهكذا، فهي آية مشاهدة تدل على قدرة الله -عز وجل- وعظمته، ومن أهل العلم من يقول: {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ} يعني ضوء الشمس، {إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} قبضه للفيء بالفيء، وابن جرير -رحمه الله- مشى على قاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور: {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} فيرى أن الضمير {قَبَضْنَاهُ} عاد إلى الشمس.

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١].

{وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} أي: قاطعاً للحركة، لحركة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً.

جعل الليل لباساً كما قال الله -عز وجل-: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} بمعنى أنه يعم بظلامه الكون أو ما كان فيه من الكون، فيحصل بذلك تغطيته للظلام، كاللباس الذي يغطي ويواري ما تحته.

{وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} أي: ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ..} [سورة القصص:٧٣] الآية.

قوله: {وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} يقول هنا: أي قاطعاً للحركة، هذه المادة تأتي بمعنى القطع، السين والباء والتاء تأتي بمعنى القطع، قاطعاً للحركة، بمعنى: أن الناس يسكنون فيه، ويخلدون إلى الراحة، وبعض العبارات التي ذكرها السلف تعود إلى هذا المعنى أو تقاربه، يعني من قال بأن الله جعل النوم سباتاً بمعنى: وقتاً للراحة، يعني: أنهم ينقطعون فيه عن الأعمال والأشغال التي ينتشرون فيها ويزاولونها في النهار؛ ولهذا جعل النهار معاشاً، فالليل قاطع للحركة، وإذا كان قاطعاً للحركة حصل لهم السكون والراحة.

وهناك معانٍ أخرى ذكرها بعضهم، وكون طالب العلم حينما يطالع أحياناً بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل- وينظر في أقوال المفسرين في الكتب التي تذكر الأقوال والخلاف فهذا يوسع الأفق من ناحية، وإن كانت بعض هذه الأقوال مستبعدة، فيزيد في مدارك الإنسان، لربما في كثير من المواضع يظن الإنسان لأول وهلة أنها لا تحتمل إلا قولاً واحداً، ولا يخطر بباله غير ذلك، فلمّا ينظر كثرة ما قيل فيها والاحتمالات وعلماء كبار وأئمة، هذا مُشرِّق وهذا مُغرِّب، فإنه يكون بذلك أدعى إلى سعة الأفق وأيضاً قوة الاستيعاب، ولهذا العلماء يقولون بأن الإنسان كلما ازداد علمه كلما ازداد يعني معرفةً بجهله؛ ولذلك تجد لربما العالم يُسأل عن مسألة يظن بعض الجهال أنها سهلة لا تحتاج إلى توقف، فيتوقف فيها أو يتردد، أو إذا جاء يتكلم يزن الحرف ويزن العبارة وعنده احتياطات كثيرة ومعانٍ كثيرة في ذهنه، فالعبارات فيها محترزات لا يدركها الجاهل ولا تخطر له على بال، لكن لو جاء من يثير حول هذا الجواب إشكالات أو نحو ذلك فتجدها في الجواب، يعني يذكر له المحترزات التي قالها في الجواب لأنه مستحضر لهذه الاحتمالات وهذه الأمور، فتجد عبارات أهل العلم إنما يعقلها وينتفع بها ويدرك الإنسان ما وراءها إذا زاد بصره ومعرفته بالعلم، كلما كان بالعلم أبصر وأعرف كلما كان أقدر على فهم كلام أهل العلم، وهكذا في كلام الله -تبارك وتعالى- ترد له أشياء ومعانٍ واحتمالات كثيرة جداً ولهذا يزداد تحرزه واحتياطه حينما يتكلم في مسائل العلم، ويشعر أن ذلك من قبيل العبء الكبير ويرجو أن يخرج منه كفافاً لا له ولا عليه، وأما الجاهل فيلقي الكلام على عواهنه، ويقرأ كلام أهل العلم ولا يدري ما تحته، ويتعجب ويضيق صدره إذا سمع الخلاف، كيف يختلفون والقرآن واحد؟!.

قال الشوكاني -رحمه الله تعالى-: "{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً} شَبَّهَ سُبْحَانَهُ مَا يُسْتَرُ مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ بِاللِّبَاسِ السَّاتِرِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَصَفَ اللَّيْلَ بِاللِّبَاسِ تَشْبِيهًا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَسْتُرُ الأشياء ويغشاها"[٧].

نريد النوم سباتاً.

وقال -رحمه الله-: "وَجَعَلَ النَّوْمَ سُبَاتًا، أَيْ: رَاحَةً لَكُمْ لِأَنَّكُمْ تَنْقَطِعُونَ عَنِ الِاشْتِغَالِ، وَأَصْلُ السُّبَاتِ: التَّمَدُّدُ، يُقَالُ: سَبَتَتِ الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا، أَيْ نَقَضَتْهُ وَأَرْسَلَتْهُ، وَرَجُلٌ مَسْبُوتٌ: أَيْ مَمْدُودُ الْخِلْقَةِ، وقيل للنوم: سبات، لِأَنَّهُ بِالتَّمَدُّدِ يَكُونُ، وَفِي التَّمَدُّدِ مَعْنَى الرَّاحَةِ. وَقِيلَ: السَّبْتُ: الْقَطْعُ، فَالنَّوْمُ انْقِطَاعٌ عَنِ الِاشْتِغَالِ، وَمِنْهُ سَبْتُ الْيَهُودِ

---

٧ - فتح القدير للشوكاني (٤/ ٩٣).

لِانْقِطَاعِهِمْ عَنِ الِاشْتِغَالِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: السُّبَاتُ النَّوْمُ، وَهُوَ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالرُّوحُ فِي بَدَنِهِ، أَيْ: جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ رَاحَةً لَكُمْ"[٨].

فكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، يعني: سواء قيل التمدد، فهذا متعلق بالراحة، وهكذا إذا قيل بأنه القطع، كل هذا يرجع إلى معنى واحد.

وقال -رحمه الله-: "وَقَالَ الْخَلِيلُ: السُّبَاتُ نَوْمٌ ثَقِيلٌ، أَيْ: جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ثَقِيلًا لِيَكْمُلَ الْإِجْمَامُ وَالرَّاحَةُ"[٩].

لا يقصد بالنوم الثقيل ما يتعارف عليه الناس اليوم من كون هذا الإنسان لا يدرك ولا يشعر بمن يوقظه ولا يتفطن ولا يتنبه لمن نبهه أو نحو ذلك، فلا يسمع شيئاً مما يسمعه الناس في حال نومهم ليوقظهم أو نحو هذا، لا، ليس هذا المقصود، وإنما المقصود أنه ليس النوم الخفيف في أوائله وبداياته التي يدرك الإنسان فيها أو يشعر بنفسه، هذا المقصود، إنما النوم الثقيل الذي يقصده ما يرتفع معه الإدراك، وكما يقال في مسألة النوم الناقض للوضوء من عدمه، انتهى.

{وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ..} [سورة القصص:٧٣] الآية.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا}

[سورة الفرقان:٤٨-٥٠].

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض، ومنها ما يُلقِّح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} أي: آلة يُتطهر بها كالسَّحُور والوَقود وما جرى مجراهما.

يعني بمعنى أنه بالظن الطُّهور يكون بمعنى المصدر، يعني التطهر، نعم الطهارة، والطَّهور هي المادة التي يتطهر بها، فالتربة جعلها الله في هذه الأمة طَهوراً وإلا طُهوراً؟ بالفتح طَهوراً يعني: يتطهر بها، {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} يعني: يتطهر به، السَّحور هو ما يؤكل، والسُّحور هو المصدر، هو التسحر، وهنا: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} قال: أي آلة **يُتطهر بها**، هذا معناه، وَقود ما يوقد به الحطب مثلاً، والوُقود هو نفس التوقد، قال: وما جرى مجراهما.

وعن أبي سعيد قال: قيل يا رسول الله: أنتوضأ من بئر بُضَاعة وهي بئر يُلقَى فيها النَّتَن، ولحوم الكلاب؟ قال: ((إن الماء طَهور لا ينجسه شيء))[١٠]، رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه النسائي.

---

٨ - فتح القدير للشوكاني (٤/ ٩٣).

٩ - المصدر السابق.

هو الماء الطَّهور يعني بمعنى الطاهر، ولا أعني بذلك تقسيم الفقهاء أو بعض الفقهاء -رحمهم الله- من الماء الطاهر والطهور، وإنما المقصود الطاهر أي: ما يقابل النجس، فهو طاهر في نفسه ومطهر لغيره، وسواء في حال نزوله من السماء –المطر- أو بعد ذلك حينما يبقى في الأرض فيحتبس في بعض المواطن فيها، أو حينما يستخرج منها ثانياً من طريق الآبار، أو ما يخرج من العيون، فإن أصل ذلك هو مما استقر في باطنها مما نزل عليها من المطر، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [سورة المؤمنون:١٨]، وهذا المطر الذي ينزل ما يضيع منه شيء، يسكنه الله -عز وجل- في الأرض، يعني مما يشرب منه الناس والدواب ابتداء حينما ينزل، ويجتمع في القيعان ونحو ذلك، ومنه ما يسيخ في الأرض فيجتمع فيها، وهو يجري فيها وينتقل ويكون له عروق من الماء في داخل الأرض بحسب مراتبها، وهذا أمر معروف، ويستخرج ذلك بالآبار بأنواعها، واليوم الناس وصلوا إلى أمور كثيرة في هذا الباب، معرفة هذه الأشياء وتفاصيلها، وكذلك أيضاً حينما يخرجه الله -عز وجل- عن طريق العيون، أو ما يحصل من جريان الأنهار أو نحو ذلك، حتى الذي ينزل منه في البحار ما يضيع، ما يضيع شيء إطلاقاً من هذا الماء الذي ينزل في البحار، بعض العلماء من المعاصرين من أهل الاختصاص في هذه الأمور يقول: إنه يبقى يحافظ على خصائصه ويكون له مجاريه في البحر، ويقولون: هناك مجارٍ عذبة في البحر، تحمل نفس الخصائص، بل كما هو معلوم توجد عيون في البحر، وهذا يعرفه الناس، ولم يكتشفه الناس في العصر الحديث، وإنما كان معروفاً منذ القدم، وأهل البحر الذين يركبونه ويطيلون فيه تنفد ما معهم من المياه ويبقون مدة طويلة شهوراً فينزلون في أعماق البحر ويعرفون مواضع معينة يملئون منها القرب في داخل البحر، هذا يعرفه كبار السن والذين كانوا يغوصون يتزودون من البحر من الماء الحلو، وهذا من آيات الله -تبارك وتعالى-، وكذلك نزول هذه المياه التي تنزل في البحر، أو حتى الأمطار الذي لربما يتوهم الإنسان ويقول: هذه تضيع، تنزل على البحر وعلى المحيطات وكذا، هي تحفظ للبحر خصائصه، بحيث الماء يتبخر عن مياه البحار بعد ذلك يؤثر هذا في زيادة الملوحة بحيث لا يمكن أن تعيش فيه الكائنات، فلما تأتي مياه الأمطار ومياه الأنهار فإن ذلك يُبقي البحر على حد الاعتدال بنسبة الملوحة، هذا غير ما يذكر من أمور أخرى من نبات في البحر وانعقاد اللؤلؤ.

وقوله تعالى: {لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رُباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ..} [سورة الحج:٥] الآية.

---

١٠ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب ما جاء في بئر بضاعة، برقم (٦٦)، والنسائي، كتاب المياه، باب ذكر بئر بضاعة، برقم (٣٢٦)، والترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء، برقم (٦٦)، وأحمد في المسند، برقم (١١٢٥٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح بطرقه وشواهده"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٩٢٥).

{وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا..} [سورة الشورى:٢٨]، الآية، وقال تعالى: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..} [سورة الروم:٥٠] الآية.

قوله: {وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} الأناسي بعضهم كسيبويه يقول: إنه جمع إنسان، وبعضهم كالفراء والزجاج يقول: إنه جمع إنسي، إنسي وأناسي، وهو يقول: إنسان وأناسي، جمع إنسان، يقول: {وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}.

قال الشوكاني -رحمه الله تعالى-: "ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال: {لِنُحْيِيَ بِهِ} أي: بالماء المنزل من السماء، {بَلْدَةً مَّيْتًا} وصف البلدة بميتاً وهي صفة للمذكر؛ لأنه بمعنى البلد، وقال الزجاج: أراد بالبلد المكان، والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه، {وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} أي: نسقي ذلك الماء، قرأ أبو عمرو وعاصم -في رواية عنهما- وأبو حيان وابن أبي عبلة بفتح النون من نسقيه، وقرأ الباقون بضمها، ومِن في "مما خلقنا" للابتداء وهي متعلقة بنسقيه، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال"[١١].

قال -رحمه الله-: "{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا} ضمير صرفناه ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل، أي: كررنا أحوال الإظلال، وذكْر إنشاء السحاب وإنزال المطر في القرآن وفي سائر الكتب السماوية ليتفكروا ويعتبروا"[١٢].

الذي يتبادر إلى الذهن من قوله: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ} أنه المطر، هنا هذا القول الذي ذكره: {صَرَّفْنَاهُ} يعني ما سبق من الدلائل، {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}، فهذه الدلائل صرّفها الله -عز وجل- ذكرها في مواضع من القرآن دليلاً على قدرته ووحدانيته وعظمته، فلم يتعظوا ولم يعتبروا.

وقال -رحمه الله-: "فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحدها، وقال آخرون: إنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر، أي: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، فنزيد منه في بعض البلدان وننقص في بعض آخر منها"[١٣].

وهذا هو الأقرب، {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ} يعني المطر.

وقال -رحمه الله-: "وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقد جرى ذكره في أول السورة حيث قال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [سورة الفرقان:١]"[١٤].

---

١١ - فتح القدير للشوكاني (٤/٩٤).

١٢ - المصدر السابق.

١٣ - المصدر السابق.

١٤ - المصدر السابق.

يعنى صرّفه بمعني: ذكر فيه الأمثال والعبر ودلائل القدرة، وما أشبه ذلك.

وقال -رحمه الله-: "وقوله: {لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي}، وقوله: {اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} والمعنى: ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به ويعتبروا بما فيه فأبى أكثرهم {إِلَّا كُفُورًا} به، وقيل: هو راجع إلى الريح، وعلى رجوع الضمير إلى المطر فقد اختلف في معناه، فقيل ما ذكرناه، وقيل: صرفناه بينهم وابلاً وطشاً وطلاً ورذاذاً، وقيل: تصريفه تنويع..."[١٥].

قوله: {صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ} يعني: المطر يأتي على صور متعددة، والقول الأول: إنّ صرفناه بمعنى ينزل على ناحية دون ناحية، على بلاد دون بلاد، يتنقل.

وقال -رحمه الله-: "وَقِيلَ: تَصْرِيفُهُ تَنْوِيعُ الِانْتِفَاعِ بِهِ فِي الشُّرْبِ وَالسَّقْيِ وَالزِّرَاعَاتِ بِهِ وَالطَّهَارَاتِ. قَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ} إِلَّا كُفُوراً هُوَ قَوْلُهُمْ: فِي الْأَنْوَاءِ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا"[١٦].

صرّفناه يعني في وجوه الانتفاع، صرفناه في صور نزوله، تارة ينزل وابلاً وتارة طشاً وتارة رذاذاً وتارة ديَماً، أو صرفناه بمعنى حولناه من ناحية إلى ناحية، فتجدب أرض وتحيا أخرى، هذه احتمالات، والكلام يحتمل هذا بهذا التصريف، لكن حينما يقرأ الإنسان مثل هذه الآيات قد لا ترد هذه المعاني في ذهنه، وهذه فائدة العلم والاطلاع، فإنه يتسع معه الصدر وينفسح، وكلما ازداد علماً كلما ازداد انشراحاً في الصدر، والجهل يضيق عَطنه، وازدياد العلم يكون فيه زيادة في مدارك الإنسان واتساع الأفق.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا} أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غَدَقاً، والتي وراءها لم يَنزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

والأقرب -والله أعلم- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير، واختاره جماعة من أهل العلم، من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- اختار هذا القول {صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ} يعني: تحول من ناحية إلى أخرى.

قال ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم-: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام والرفات، أو ليذكّر من مُنع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

يتذكرون عظمة الله وقدرته ووحدانيته ليحصل الاعتبار والاتعاظ بمن مُنع، يتذكر فيلجأ إلى الله ويتضرع إليه، ويستغيث، يستسقي؛ لأن ذلك إذا وقع للمؤمن فإن ذلك يحمله على اللجوء إلى الله، بل كان الكفار في حال الشدة يلجئون إلى الله -تبارك وتعالى-، فينزل على أقوام فيشكرون، وينحبس عن أقوام فيتذكرون، يعني ما هم فيه من تقصير وغفلة وينيبون إلى الله -تبارك وتعالى-، هذا من المعاني الداخلة تحته.

---

١٥ - فتح القدير، للشوكاني (٤/٩٤).

١٦ - فتح القدير، للشوكاني (٤/٩٤).

وقوله: {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا} قال عكرمة: يعني الذين يقولون: مُطرنا بنَوء كذا وكذا.

وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب))[١٧].

هذا هو المعنى المتبادر، {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا} يدل عليه هذا الحديث، ومِن كفرهم قولهم: مطرنا بنوء كذا، ونسبة ذلك إلى غير الله -عز وجل-، والشنقيطي -رحمه الله- يقول: قول المعاصرين: مطرنا بالبخار، يعني تبخر الماء من البحار وغيرها، فيرتفع إلى الطبقات العليا ثم يتكثف إلى آخره، وإنما يقول الإنسان: مطرنا بفضل الله وبرحمته، {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا} فهذا داخل فيه، يعني من قال: مطرنا بالكوكب مثلاً، ولكن المعنى أعم من هذا، {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا} أي: أنهم لم يشكروا نعمة الله -عز وجل- عليهم، ولم يعبدوه وإنما صرفوا العبادة إلى غيره، أو أعرضوا عن عبادته، هذا المعنى الأعم، ويدخل فيه من نطق وأضاف ذلك إلى غير الله صراحة، كأن يقول: مطرنا بنوء كذا، لكن المعنى لا يختص بهذا، ما ينحصر بمن قال هذا، {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا} كل كافر، كل معرض، كل غافل عن هذه النعم التي يفيضها الله -عز وجل- على عباده فهو لم يشكرها بل كفر بها، هذا المعنى الذي ذكر يقول النحاس: لا أعلم فيه خلافاً بين المفسرين، مع أنه يوجد في أقوال المفسرين غير هذا، والله تعالى أعلم.

---

١٧ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، برقم (٨٤٦)، وبرقم (٤١٤٧)، في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، برقم (٧١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٥١) إلى الآية (٦٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} [سورة الفرقان:٥١-٥٤].

يقول تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا} يدعوهم إلى الله -عز وجل-، ولكن خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض وأمرناك أن تبلغهم القرآن: {لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود:١٧]، {لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [سورة الأعراف:١٥٨].

وفي الصحيحين: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[(١)]، وفيهما: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"[(٢)]؛ ولهذا قال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ} يعني: القرآن، قاله ابن عباس، {جِهَادًا كَبِيرًا}، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة التوبة:٧٣]، و[سورة التحريم:٩] الآية، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي: خلق الماءين الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزُّلال، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات، والله -سبحانه وتعالى- إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هذا هو هذا السارح بين الناس، فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٤٢٦٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وبرقم (٢١٢٩٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري".

٢ - رواه البخاري، في أوائل كتاب التيمم، برقم (٣٣٥).

وقوله تعالى: {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي: مالح مر زُعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب، البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القُلزم.

يعني: بحر القلزم يعني البحر الأحمر.

وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الريح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منه مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله -سبحانه وتعالى وهو ذو القدرة التامة- العادة بذلك، وكل هذه البحار الساكنة خلقها الله -سبحانه وتعالى- مالحة؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تَجوَى الأرض بما يموت فيها من الحيوان.

ولما كان ماؤها مالحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: ((هو الطهور ماؤه الحل ميتته))[٣]، رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

وقوله تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا} أي: بين العذب والمالح، برزخاً أي: حاجزاً وهو اليبس من الأرض، {وَحِجْرًا مَّحْجُورًا} أي: مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:١٩-٢١]**، وقوله تعالى: {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [سورة النمل:٦١]**، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا...} الآية، أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء.**

{فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}**، قال الحافظ هنا: **يعني القرآن**، جاهدهم بالقرآن، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والله -تبارك وتعالى- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم-

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٨٣)، والترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، برقم (٦٩)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب ماء البحر، برقم (٥٩)، وبرقم (٣٣٢)، في كتاب المياه، باب الوضوء بماء البحر، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٣٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (٨٧٣٥)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١/١٤٦)، برقم (٧٦)، وقال: "قلت: إسناده صحيح، وصححه البخاري والترمذي والحاكم وابن خزيمة وابن حبان وابن المنذر والطحاوي والبغوي والخطابي وابن منده والبيهقي وعبد الحق والنووي والذهبي وآخرون"، وصححه في صحيح الجامع، برقم (٢٨٧٧).

بمجاهدة الكافرين والمنافقين: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}، ومعلوم أن المنافقين لم يؤمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بجهادهم بالقتال، فقول من قال هنا بأنه القرآن يقرب أيضاً من قول من قال من السلف بأن المراد به الإسلام، {وَجَاهِدْهُم بِهِ} أي: بالإسلام، فإن الإسلام كما هو معلوم يرجع إلى القرآن، فهو المصدر الذي أنزله الله -تبارك وتعالى- على هذه الأمة، هو الكتاب المبين، والسنة شارحة لهذا القرآن.

وبعض أهل العلم يقول: {وَجَاهِدْهُم بِهِ} أي: بالسيف، وهذا يكون فيه الضمير الهاء في "به" قد عاد إلى غير مذكور، لابد أن يقال: إنه يفهم من السياق ولكنه في الواقع غير متبادر.

والأحسن هنا -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن الضمير يرجع إلى القرآن.

{فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ} إذا قلنا: القرآن كذلك أيضاً الضمير يرجع إلى غير مذكور، وهكذا إذا قيل: الإسلام، ولكن الذي يتبادر -والله تعالى أعلم- هو أن المقصود بذلك: {وَجَاهِدْهُم بِهِ} أي: بالقرآن وما أنزل الله -عز وجل- عليك، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} جاهدهم به، يعني: بما أنزلنا إليك، والذي أنزله هو القرآن، هو الإسلام، جاهدهم بهذا الدين، وذلك ببيان الحق بدلائله والرد على المبطلين وإبطال ما يتشبثون به من شبهات وتُرّهات يعتقدون أنها حجج، فهذا من مجاهدته؛ ولذلك فإن المنافقين في زماننا ليس هناك أقوى ولا أنفع ولا أجدى فيما يملكه الداعي إلى الله -تبارك وتعالى- والعالم من مجاهدتهم بالقرآن، تبين للناس حقائق الدين، والقرآن قد تضمن كل ما يحتاج إليه الناس، ولا يأتون شيئاً من الأباطيل إلا وفي القرآن ما يرد عليهم، إما صراحة وإما ضمناً، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [سورة الفرقان:٣٣]، لا يحتجون بحجة ولا يوردون شبهة ولا اعتراضاً إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً، فهذا من مجاهدتهم به، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} المرج يأتي بمعنى الخلط؛ ولهذا قال كثير من المفسرين: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} أي: خلط، وهكذا قد يأتي بمعنى الإرسال والتخلية، يقال له مرج، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعبد الله بن عمرو: ((إذا رأيتم الناس قد مَرِجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه..))[٤]، ذلك بمعنى الاختلاط، وكذلك أيضاً يقال: مَرِجت عهودهم يعني: أنها تنقض ولا يوقف عندها ولا يكون لهؤلاء عهد وأمان، فهنا مرج البحرين إذا قلنا: إن المرج يأتي بمعنى الخلط، فعليه يبعد أن يقال بأن قوله: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا} أي: من اليابسة، حاجزاً من اليابسة، كما قال ابن كثير هنا، فهذا ليس من الخلط في شيء، يعني: جعل بينهما فاصلاً من اليابسة، فهذه أنهار وهذه بحار يفصل بينها أرض يابسة فلا يختلط هذا بهذا، فيبقى هذا على عذوبته وهذا على خصائصه من الملوحة وما إلى ذلك، وقول من قال

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم (٤٣٤٣)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، برقم (٣٩٥٧)، وأحمد في المسند، برقم (٦٩٨٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خبّاب، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة، أبو نُعيم: هو الفضل بن دكين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٥)، وفي صحيح الجامع، برقم (٣٢٥٩).

بأن المقصود به الإرسال، في الواقع لا يخرج عما ذكرت، هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا عذب، فهو يرجع إلى معنى الخلط، إذا تأملته فإنه حينما يرسل هذا على هذا فإن ذلك لا يفسد خصائص البحر الملح ولا البحر العذب، {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا} برزخ هذا هو الحاجز، منهم من يقول كما قال ابن كثير -رحمه الله-: يعني من اليابسة، لكن هذا يشكل عليه ما سبق، وإنما -والله تعالى أعلم- المراد أنه أرسل هذا على هذا، إذا قلنا بمعنى الإرسال أو التخلية، وهذا يقتضي الخلط، فهذا القدر من المعنى قال به طائفة من السلف.

تفصيل هذه الجملة، وإن شئت أن تقول: فلسفة هذه القضية، ما يذكره المعاصرون أو بعض المعاصرين اليوم من صور وأمور تتعلق بطبيعة هذا الأمر، يعني تحتمله الآية يمكن أن يكون تفسيراً لقوله: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا} والبرزخ هو الحاجز هو الفاصل بين شيئين، ولهذا كانت الحياة البرزخية هي بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، برزخ، فبعضهم يقول: هذا البرزخ هو ماء يحمل خصائص محددة تختلف عن خصائص الماء الحلو وخصائص الماء الملح، تعيش فيه الكائنات التي تختص به، وله بيئته وله طبيعته، لا يتبدل ولا يتغير، فيقولون: هذا هو الحاجز.

وبعضهم يقول: إن الماء الذي ينزل في البحار، ما يصب من مياه الأنهار يبقى محافظاً على خصائصه، ويقولون: إنهم اكتشفوا أن المياه التي تنحدر في البحر تأخذ مسارات محددة وأنها تبقى محافظة على خصائصها، هكذا يقولون.

{وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا} بمعنى: أنه لا يكون ذلك نهاية المطاف بالنسبة لهذا الماء الحلو حينما ينزل في البحر، وإنما يبقى له خصائصه ومساراته في داخل هذا الماء الملح، فلو كان هذا الكلام ثابتاً فيمكن أن يكون ذلك أو بعض ذلك من تفسير ما سبق من أن البرزخ هو الحاجز، هو حاجز لا نراه بالعين، والقول بأنه من اليابسة بعيد؛ لأنه يخالف المعنى الذي ذكره أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- بأنه يأتي بمعنى التخلية وبمعنى الخلط في أصل هذه المادة، يعني: في كلام العرب.

إذن كيف يكون هذا البرزخ الذي بينهما؟ السلف يقولون: حاجز، تفاصيل هذه الجملة يمكن أن تكون ببعض ما يذكره المعاصرون من علماء البحار، إن ثبت ذلك، فإنه لا يبعد أن يفسر به هذا الحاجز، لا يبعد، فيكون ذلك من قبيل الزيادة في الفهم والتفصيل، يعني: ليس بمعنى جديد يعود إلى أقوال السلف بالإبطال، هذا هو المطلوب، لا يمكن لهؤلاء ولا لغيرهم أن يأتوا بمعنى يقولون: هذا هو معنى الآية، وإن السابقين أخطئوا في فهمه، ما فهموه، هم فهموه بحسب المعطيات العلمية في عصرهم ولكنهم فاتهم المعنى المقصود، ونحن عرفناه بما أعطانا الله -عز وجل- وأتاح من إمكانات العلم إلى آخره، ما يقولونه هذا كلام مرفوض، لا يمكن أن يخطئ السلف -رضي الله عنهم-، مُخطِّئوا الأمة ما يفهمون الآية، يفهمونها بطريقة غير صحيحة، ثم يأتي أحد بعد ذلك، ويقول: هذا هو المعنى الصحيح وما قبله غلط، لكن غاية ما هنالك إذا كانت الآية تحتمل، والمعنى الذي ذُكر ثابت أو القضية أو النظرية، والحقيقة إن كان ذلك من الحقائق العلمية فإنه يكون من قبيل الزيادة في الفهم، يعني: من قبيل التفسير والتوضيح والتفصيل لهذا الكلام المجمل فقط، هذه الحالة التي يمكن أن ينظر فيها في هذه الأشياء التي تذكر.

وبعضهم يقول: إن هذا الحاجز يكون بين البحر والبحر، كالخليج والبحر، عند التقاء البحار يوجد حاجز، وأنهم اكتشفوا هذا، هذا البحر له خصائصه، وهذا البحر له خصائصه، ويقولون: هذا المراد بقوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} هنا مرج البحرين غير محدد حلو أو ملح، لكن هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} يحتمل أن تكون هذه الآية تفسيراً لما أجمل هناك، {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} يعني: أن أحدهما حلو والآخر ملح، يحتمل هذا، ويحتمل أن يكون ذلك ليس من باب العام والخاص، وإنما يكون ذلك واقعاً على لون، وهذا واقع على لون آخر، يعني هذا في الحلو والملح، وذاك في البحرين مطلقاً، والبحر هو الماء الكثير المستبحر في لغة العرب، فالبحيرات يقال لها: بحر، والأنهار بهذا الاعتبار يقال لها: بحر، بنص هذه الآية: {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ} فالنهر يقال له: بحر، والبحر أيضاً يقال له: بحر، وإن كان عرف الناس اليوم إطلاق البحر على الماء الملح الكثير المعروف، ويطلقون على الحلو النهر وما أشبه ذلك، لكن لا يُحمل كلام الله -عز وجل-، لا تحمل نصوص الشرع على اصطلاح حادث، هذا ما يصح.

فالشاهد أن الآية تحتمل من هذه الوجوه، بمعنى أن قوله: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} يحتمل أن يكون ملحاً وحلواً بهذا الشمول، وأن الآية باقية على حالها، ويحتمل أن تكون مبيَّنة مفسَّرة بآية الفرقان، {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا}.

فالحاصل: أن ما يذكرونه من وجود خصائص هذا الحاجز وهو حاجز مائي، وأنه تعيش فيه كائنات معينة.. إلى آخره، لا يبعد أن يكون من جملة التفسير لهذا الحاجز، لا يبعد، وإن كنا لا نقطع بهذا لكنه لا يعود على أقوال السلف بالإبطال، هذا مهم، وكون الماء الحلو ينزل في البحار ويبقى يحمل خصائصه أو نحو ذلك فهم يقولون هذا، والذي يعرفه الناس منذ القدم هو أنه يوجد أيضاً في البحار عيون عذبة نابعة، وأهل البحر ممن يركبونه منذ أزمان متطاولة يعرفون هذا، حتى إنهم يبقون فيه الشهور الطويلة وينفد ما عندهم من مياه وأزواد فيتزودون من البحر في طعامهم مما يستخرجون منه، ويتزودون من الماء من عيون يعرفون مواقعها في داخل البحر يملئون منها القراب، يغوصون ويملئون قربهم من داخل البحر، هذا معروف، ويعرفه أناس قد عاينوا هذا وعرفوه وركبوا البحر، وقد لا يكون الواحد منهم ممن يقرأ أو يكتب من العامة لكن لهم خبرة في هذا الجانب.

هذه المعاني تُحتمل، مما يُحكى في هذا وإن كان قد يخالف في ظاهره بعض ما يذكرون من أن هذا الماء الحلو يبقى يحافظ على خصائصه يعني يبقى على عذوبته في مسارات وأوضاع داخل البحر لا تذهب به، قد يخالف ما يقوله الآخرون منهم من أن نزول المياه مياه الأمطار ومياه الأنهار على البحر أن ذلك يحصل به التعادل والتماسك فيبقي البحر على خصائصه ونسبة الملوحة فيه؛ لأنه يتبخر منه كميات كبيرة بالشمس، فلو بقي على هذه الحال لانعقد ملحاً لا تصلح الحياة به -حياة الكائنات التي تعيش داخل البحر-، فتأتي مياه الأمطار وتأتي مياه الأنهار لتعوض هذا النقص، فيبقى محافظاً على اعتداله وطبيعته التي جعله الله -عز وجل- عليها، والله -عز وجل- حكيم.

وقول ابن كثير -رحمه الله-: **وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات،** فابن كثير -رحمه الله- تكلم بحسب ما يعلم، وإلا فإنه يوجد بحر ساكن وهو عذب فرات، ليست فقط الأنهار هي العذبة وإنما البحيرات، وهذا مشاهد ومعروف لكنه بعيد جداً عن بيئة ابن كثير -رحمه الله- في بلاد الشام، وإلا فالبحيرات المعروفة كبحيرة فكتوريا مثلاً في أفريقيا تمر بنحو سبع دول، بحيرة ضخمة كبيرة جداً كالبحر تماماً، وقفت عليها ورأيتها، بحر تماماً، فالبحر الذي تشاهده لا فرق بينه وبينها إلا أنها عذبة، الأمواج والسفن وهذه الأشياء التي توضع: بيان المواضع العميقة بحيث لا يتعداها أحد، يعني المنطقة عميقة بعد ذلك وموج مضطرب تماماً، هي بحر إلا أنه في غاية العذوبة، هذا بحر ساكن، لا يقصد بالبحر الساكن أنه ليس فيه موج، وإنما يقصد أنه ليس بجار، ليس بمثابة الأنهار، هذه البحيرات ساكنة، وما ذكره هنا يقول ملح مر: {مِلْحٌ أُجَاجٌ} قال: **أي مالح**، والأفصح أن يقال: الماء الملح، ويصح لغة أن يقال: ماء مالح، لكن الأفصح أن يقال: ماء ملح، يعني: مالح، قال: ملح أي مالح مر زُعاق، فابن كثير -رحمه الله- جمع المعنيين، فإن قوله: {مِلْحٌ أُجَاجٌ}، بعضهم يقول: ملح أجاج أي: شديد الملوحة، وبعضهم يقول: مر، كلمة أجاج تأتي لهذا وهذا، بالغ الملوحة وبالغ المرارة.

العذب الفرات يعني: شديد العذوبة، والملح الأجاج: شديد الملوحة ويقال أيضاً: شديد المرارة، بعضهم يقول هذا، وبعضهم يقول هذا، وابن كثير جمع المعنيين، وهذا من محاسن هذا التفسير، شديد الملوحة ملح أجاج، وهذه نسبية، يعني: إذا قارنته بالعذب الفرات فهو ملح أجاج، لكن هذا الملح الأجاج حينما تقارن بعضه ببعض فإنه يتفاوت كثيراً، ولهذا تجد الماء الذي في المحيط لا يقارن بالماء الذي في الخليج مثلاً، يعني هذا الماء الذي عندنا هنا في الخليج مثلاً هو من أكثر المياه ملوحة، أكثر البحار ملوحة في العالم، يعني يتفوق عليه البحر الميت، لكنه من أشد المياه حيث إنه إذا أصاب عين الإنسان مثلاً الإنسان قد يتأذى من ذلك، بينما مياه المحيط لا يتأذى الإنسان منها إطلاقاً؛ لأن ملوحته أدنى من هذا بكثير، يعني: تسبح فيه وأنت فاتح العينين، ويصيب العين، ولا تحتاج أن تغمضها؛ ولذلك ترون أن مياه المحيطات على شواطئها أشجار بأنواعها، بينما هذا لا ينبت على شاطئه.

يقول: **بحر القلزم وبحر اليمن...** يسمونه البحر العربي، بحر القلزم عرفنا أنه الأحمر، وبحر البصرة يعني: رأس الخليج العربي وما يلي البصرة يقال له: بحر قديماً، هذه أسماء قديمة، ما يلي رأس الخليج وهو الآن لا يطل على البصرة، ولكن البصرة قديماً وتوابعها تطل على الخليج العربي، على رأس الخليج العربي، وما يسمى بالكويت الآن كانت تسمى قديماً كاظمة، وهي أول منطقة فتحها خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- في فتوح العراق، تنظرون في أول معركة وقعت مع الفرس كانت كاظمة، فالبصرة بهذا الاعتبار بحر البصرة رأس الخليج العربي.

يقول: **بحر البصرة وبحر فارس،** يقصد به نفس الخليج العربي، في بعض تسمياته القديمة يقال له: بحر فارس، وهذه القضية الآن يعني ليست محل تسليم إطلاقاً.

ومعروف أن أطراف الخليج مما يلي بلاد فارس تسكنه القبائل العربية.

يقول: **وبحر الصين**، يعني: المحيط هناك، وبحر الهند ومما يليها، وبحر الروم، بحر الروم الذي هو البحر الأبيض المتوسط وما شاكل ذلك.

وما ذكره هنا يقول: **ففي أول كل شهر يحصل منه مد وفيض**، وابن كثير لا يخفى عليه أن منتهى المد في وسط الشهر ليلة الخامس عشر مثلاً يكون منتهى المد، هو لم يفته هذا، كلامه وما ذكر هنا صحيح، لكنه يقصد أنه يبدأ بالتدريج من أول الشهر، أول الشهر ثاني يوم يزداد قليلاً ثالث يوم، فإذا وصل إلى منتصف الشهر كان في المنتهى، ثم بعد ذلك من ليلة السادس عشر والسابع عشر يبدأ النقصان شيئاً فشيئاً فيتناهى النقصان في آخر ليلة من الشهر، فإذا بدأ الشهر من جديد بدأت عملية المد، مثل ما يقال في زيادة الليل والنهار.

فما ذكره هنا صحيح، ولا يقصد أن المد يكون في أول الشهر.

وهنا يقول: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا}** يعني: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، نطفة من الماء المهين، لقد خلقنا الإنسان من ماء مهين، وبعض أهل العلم يقول: إن المقصود هنا بالماء ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** [سورة الأنبياء:٣٠]، مع أن الآية الأخرى: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** اختلفوا في المراد بالماء: هل هو النطفة، هل هذا باعتبار المخلوقات التي تخلق من النطف، أو أنه الماء الذي يقوم به قوام الحياة يشرب منه الإنسان والحيوان وما إلى ذلك؟

فالشاهد: أن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا}** الأقرب أن يكون المراد به النطفة؛ لأن المقصود هنا بيان القدرة على الخلق، هذا الماء الذي هو ماء مهين خُلق منه الإنسان يصير بعد ذلك إلى مخلوق آخر ويكون نسباً وصهراً، فهنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، يعني: له نسب، فلان بن فلان، هذه أمه وهذا أبوه ينتسب إلى أجداده، ثم يتزوج فيصير صهراً، يعني باعتبار الإنسان المعين، خلق من الماء بشراً، فهذا البشر جعله جعل هذا البشر نسباً: فلان بن فلان، وصهراً بعد ذلك في الحال الثانية لما يتزوج يكون له أصهار، فهذا أبو زوجته، وهذه أم زوجته، وهذا حمٌ.. وما أشبه هذا، فهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وبعض أهل العلم كالضحاك وابن جرير ذكر بأن النسب هو المذكور في قوله -تبارك وتعالى-: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ}** [سورة النساء:٢٣] هذه السبع محرمات من النسب، وخمس محرمات من جهة المصاهرة، فقال: **{وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ}** إلى آخر ما ذكر، فالعلاقة إما أن تكون بالنسب أو بالمصاهرة، هكذا قال ابن جرير -رحمه الله- وسبقه إلى هذا القول الضحاك، وهذا لا يخالف ما قاله ابن كثير، فابن كثير بيّن أصل المعنى، وهؤلاء ذكروا هذه التفاصيل: المحرمات من النسب، والمحرمات من الرضاع، **{فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا}**.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [سورة الفرقان:٥٥-٦٠].

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ} [سورة يس:٧٤-٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا الآخرة.

قال مجاهد: {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه.

هذا المعنى الذي ذكره مجاهد -رحمه الله- هو الذي قال به عامة السلف -رضي الله تعالى عنهم-، قال: {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} **الظهير هو المعين**، وكيف يكون الكافر على ربه ظهيراً؟ حينما يعبد غير الله -تبارك وتعالى- يكون من حزب الشيطان، وبهذا الاعتبار يكون ظهيراً للشيطان وحزبه على ربه -تبارك وتعالى- ورسله وأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} والناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم كما يقال، فإذا كان الإنسان على عبادة، إذا كان على دين منحرف وعلى ملة منحرفة فإنه يكون بهذا الاعتبار من أولياء الشيطان، ويكون بهذا عدواً ومحاداً ومحارباً لله ولرسله -عليهم الصلاة والسلام-؛ ولهذا قيل للكافرين وعبر عن ما هم فيه بأنه محادّة، "إن الذين يحادون الله ورسوله.."، وأصل المحادة كأن هذا في حد وهذا في حد، وأعداء، وأصل العداوة أن يكون هذا في عُدوة وهي شاطئ الوادي من جهة وهذا في عدوة -هذا في جانبه الآخر-، هذا معنى المحادة والمشاقة، أن يكون هذا في شق وهذا كذلك في الناحية الأخرى، وبهذا الاعتبار يكون الكافر على ربه ظهيراً، هذا المعنى هو الذي عليه عامة السلف، وإن قال بعضهم بغير هذا، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

بعضهم يقول: {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} أي أن الله -تبارك وتعالى- يُعرض عنه، ويكون مَهيناً على الله -جل جلاله-، يعني بمعنى كما يقال: فلان ترك فلاناً وراء ظهره، يعني: لم يعبأ به ولم يكترث به، لكن هذا المعنى فيه بُعد، والأقرب -والله وأعلم- هو كما قال الله -جل جلاله-: {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [سورة التحريم:٤] أي: نصير ومعين.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قول الله -تعالى ذكره-: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه"[٥].

---

٥ - الفوائد، لابن القيم (ص: ٧٩).

فالمؤمن دائماً مع الله على نفسه وشيطانه وهواه، هذا المؤمن مع الله، فالمؤمن على شيطانه ظهير، والكافر على ربه ظهير.

وقال -رحمه الله-: "وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم"[٦].

الداخل فيه هو الهوى، النفس الأمارة بالسوء، والخارج عنه الشيطان من شياطين الإنس والجن، ولابد يعني كلما حقق الإنسان الإيمان كلما كانت هذه المظاهرة على أعداء الله أكثر، وكلما ضعف إيمانه كلما ضعفت هذه المظاهرة، حتى يصير إلى حال لا يرفع لذلك رأساً، فالأمر كأنه لا يعنيه.

وقال -رحمه الله-: " يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملِك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك"[٧].

فالأمر بالنسبة لهم لا يعنيهم، وأهم شيء عنده أن يحصل على مال ويأكل ويشرب، وموضوع قضية هذا كافر وهذا ضال، وهذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني، لا يعنيني الموضوع، فالقضية لا تعنيه، ولذلك ممكن مثل هذا أنه يرشح أحد هؤلاء، في بلاد تسمع أن هؤلاء رشحوا نصرانيا، وهؤلاء رشحوا..، وقد لا يفترق عنده مثلاً في قضية تتعلق بتعيينات مثلاً يعين أستاذاً في الكلية في الجامعة معيداً إلى آخره، تقول: هذا الإنسان لا يصح تمكينه، إنسان يحمل عقيدة ضالة زائغة، تفاجأ أن البعض يقول لك: يا أخي له عقيدته وأنا لا شأن لي بهذا، ونحن لا ننظر بهذا الاعتبار، هو ما يعنيه، فالمؤمن لابد أن يكون مع الله، وهؤلاء إذا كانوا أعداء لله -عز وجل- فلابد أن يكون ظهيراً عليهم.

وقال -رحمه الله-: "والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور:

ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عوناً للشيطان علي ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه عليها.

وقال زيد بن أسلم: {ظَهِيرًا} أي: موالياً، والمعنى: أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه"[٨].

هذا يرجح المعنى الذي ذكره ابن كثير، ظهيراً أي: معيناً موالياً نصيراً.

وقال -رحمه الله-: "فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان، ومع نفسه وهواه وقربانه؛ ولهذا صدّر الآية بقوله: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ}، وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهَروا أعداء الله على معاداته

---

٦ - الفوائد، لابن القيم (ص: ٧٩).

٧ - المصدر السابق.

٨ - المصدر السابق (ص:٨٠).

ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه –سبحانه-، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه، وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق"[٩].

المثل الذي ذكره يقول: فإن خواص الملك يكونون معه على أعدائه فيعادون من يعاديه، الآن تصور لو أن ملكاً من الملوك له خواص يقربون أعداءه ولا يبالون بما هم فيه من عداوتهم للملك، والأمر لا يعنيهم، ولا ينظرون للناس بهذا الاعتبار، فلا يقبلهم الملك ولا يمكن أن يمكن لهم، بل هم يسارعون في عداوة من عاداه ومباعدته والتحرز منه غاية التحرز، وهذا مشاهد في أقطار الدنيا، فلو جاء أحد يدعي التجرد في زعمه، ثم بعد ذلك أراد أن ينظر للناس بعيداً عن هذه الاعتبارات فلا يمكن أن يقره الملك طرفة عين.

والذي يدعي الإسلام، بل لربما يدعي أنه من الدعاة إلى الله، ثم بعد ذلك إذا نظرت إلى المعايير والمقاييس ومنطلقاته في فهمه وأحكامه وآرائه تجدها بعيدة تماماً، يقول لك: نحن لا ننظر للناس بهذه الاعتبارات، هذا عنده إنصاف الآن في زعمه، فتجده لا يفرق بين الرجل من الأخيار من الصالحين من أهل السنة وبين النقيض من أصحاب البدع الغليظة، ويمكن أن يرشح هذا وأمثاله لأعمال، لأن يكون أستاذاً في الجامعة أو نحو ذلك، يقول لك: عقيدته لا تعنيني، كيف عقيدته ما تعنيك؟ إذا كنت تؤمن بالله -عز وجل- فاعلم أن الكافر على ربه ظهير، والمؤمن على الشيطان وحزبه ظهير،، هذا إذا كان الإيمان صحيحاً حياً، ولكن للأسف الكثير من المفاهيم تغيرت واختلط على كثير من الجهال أمور لُبست عليهم، فظنوا أن هذا من الحق والعدل والإنصاف والتجرد، وهذا غير صحيح، وهذا لا يقف عند حد، يعني ممكن لغيره أن يأتي ويقول: هذا اليهودي والنصراني مثلنا، كما أننا نريد أن نذهب ونتعبد في بلادهم ونقيم مساجد و و.. إلى آخره، هم نفس الشيء يريدون أن يتعبدوا، فتجد بعض المنتسبين إلى الدين أو العلم ممن اختلط عليه هذا أساء الفهم أو لهوًى يقول لك: وما المانع أن نفتح لهم الكنائس، والمعابد لليهود وكذا، كما أننا نريد أن نتعبد الله هم يريدون أن يتعبدوا الله أيضاً؟، لاحظتم الشبهة، لكن عندما نعرف أن هؤلاء على باطل ونحن على حق هنا تأتي قضية أخرى وهي أن هذا إقصاء، وهذه مشكلة.

فالقضية نحن على حق وهؤلاء على باطل، إذا كان الأمر كذلك فنحن من هذا المنطلق نقول: لا يمكّن للباطل وأهل الباطل، ومن ثَمّ لا يمكن أن يظهروا شعائرهم ودينهم، لكن لو نظرنا بنظرة دنيوية بحتة فقد يتفلسف الإنسان بمثل هذه الفلسفات، لكن عندنا شرع يحكمنا وأصل كبير وهو الولاء والبراء.

ثم قال تعالى لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله.

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٨]، {إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} أي: طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

---

٩ - الفوائد، لابن القيم (ص:٨٠).

قوله -تبارك وتعالى-: {إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} الاستثناء هنا منقطع على الراجح، وإن وجد من قال بأنه متصل، فيكون المعنى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} لكن {مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} التصدق، التقرب إلى الله -عز وجل- بما يبذل من أموال، فهذا باب في التعبد والتقرب إلى الله -جل جلاله-، لكن لا يرجع إليّ من ذلك شيء، فذلك يعني أنه متجرد من طلب أموالهم، وليس له حظ في ذلك، متنزه عنها، ولا شك أن هذا هو الطريق المفتاح لقلوبهم، وأن سؤال الأموال منهم أن ذلك {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} [سورة محمد:٣٧] فالناس يثقل عليهم من سأل منهم الأموال، وقد يتثاقلون عن إجابته أو يردون دعوته بهذا الاعتبار، ومن ثَمّ كما سبق أنه ينبغي لمن يتصدى للدعوة أن يكون متجرداً لا يطلب بهذه الدعوة شيئاً لنفسه، لا من الحظوظ المادية –الأموال-، ولا يطلب بذلك ولايات ومناصب، كما لا يطلب بذلك أيضاً حظوظاً معنوية من الشهرة، والمنزلة في قلوب الخلق والحظوة عندهم، فإن ذلك يضعف أثر الدعوة ويكون ثقيلاً على القلوب، ولا يحصل لكلامه نفع، وعلى قدر ما يكون عند الإنسان من التجرد على قدر ما يُبارَك في علمه أو كلامه أو في دعوته، ويكون له من القبول والمحبة في قلوب الخلق.

والحاصل: أنه لا يصح بحال من الأحوال أن تكون الدعوة تجارة، ممكن الإنسان يتاجر ببيع وشراء ولكن لا يتاجر بالدعوة، فمن تحولت عنده الدعوة إلى تجارة فإن ذلك مؤذن برد دعوته وعدم القبول، وقد تكلمت على هذا المعنى في بعض المناسبات السابقة لكنه في غاية الأهمية؛ لأن هذا للأسف أصبح الآن مرضاً يتفشى وينتشر، والشيطان يقعد لكل أحد فيأتي لربما من اشتغل بالدعوة إلى الله -عز وجل- فيحصل الأموال الطائلة بسبب دعوته، ممكن ببرنامج من حلقات قصيرة في قناة من القنوات يُكوّن أربعمائة ألف ريال، أنا أتحدث عن أشياء واقعية، ممكن حلقة واحدة بثلاثين ألف ريال، الشريط الواحد بأربعمائة ألف ريال، شريط كاسيت محاضرة، ختمة قرآن، أربعمائة ألف ريال، أربعمائة وخمسون ألف ريال، ممكن هذا، اشتراك في حملة حج مائة ألف ريال، فهذا خطير، فإذا قلنا: إن الداعية قد يسقط بسبب الاشتغال بالدنيا اشتغل بالتجارة أو نحو ذلك بأن يلهو عن دعوته وينشغل وينصرف، وطالب العلم ينصرف بالانشغال بالدنيا والبيع والشراء، فهذا أخطر: أن يبقى في الصورة على دعوته ولكنه اتخذها تجارة يحصل بها الملايين مما لا يحصله في لربما بيع أو شراء.

المقصود: أن الدعوة ليست تجارة، ويُتفطن لهذا، على قدر تجردنا على قدر ما يحصل من النفع والبركة والخير والقبول، ونحن أحوج ما نكون هذه الأيام إلى هذه الأوصاف، وهذا معنى أو أحد المعاني الداخلة تحت قوله: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [سورة آل عمران:٧٩].

ثم قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} أي: في أمورك كلها كُن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو {الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد:٣] الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم، ربّ كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتَوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [سورة المائدة:٦٧].

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} ذكر الحي ما قال: توكل مثلاً على العزيز، في هذا الموضع هنا ذكر الحي، فذكْرُ الحياة له مغزى وهو أن التوكل على المخلوقين لا يجدي على صاحبه شيئاً؛ لأنهم يموتون، فإذا اعتمدت على مخلوق ضعيف ثم مات هذا المخلوق وانتهى ولم يبق له معتمد ولا مستند ولا ناصر، فينقطع ذلك الحبل الذي استوثق به وتمسك به، ولكنه إذا كان توكله على الحي الذي لا يموت فإن الله -تبارك وتعالى- يكون له معيناً ونصيراً ومُخلِّصاً في كل الأحوال.

وقوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} أي: اقرن بين حمده وتسبيحه؛ ولهذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك))[١٠] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [سورة المزمل:٩]، وقوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [سورة هود:١٢٣]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [سورة الملك:٢٩].

يعني هذه المعاني يحتاج إليها الإنسان، ونحن نغفل عنها، يعني الله يأمره بالتوكل قال: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} فيرتبط الإنسان مع هذه الأمور، التوكل يكون قائماً بالقلب، تصدقه أحوال الإنسان ومزاولاته، وأيضاً مع هذا التوكل يكون مشتغلاً بتسبيحه وتحميده، سبحان الله وبحمده، يردد هذا ويكثر منه، وتجد في القرآن أشياء من هذا القبيل كثيرة نغفل عنها مع أننا نقرؤها كثيراً ولكنها ذات أثر بالغ في تحقيق المطلوب في هذه المعاني، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ..} الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} أي: يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين.

قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} بمعنى: علا وارتفع، العلو والارتفاع، كما جاء عن أئمة السلف، وبه قال كبار أهل اللغة، ابن الأعرابي والخليل بن أحمد.

وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} أي: استعلِم عنه مَن هو خبير به عالم به فاتبعه واقتدِ به، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه- سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب ردّ نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، قال الله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ..} [سورة النساء:٥٩] الآية، وقال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، برقم (٧٩٤)، وبرقم (٨١٧) في كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٤).

{إِلَى اللَّهِ} [سورة الشورى:١٠]، وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [سورة الأنعام:١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال تعالى: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}.

الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} ظاهر الخطاب أنه موجه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا شك أن مثل هذا الخطاب متوجه لأمته.

ثم ذكر صفته -تبارك وتعالى- من خلق السماوات والأرض، والاستواء على العرش، واتصافه بالرحمة التي هي أوسع الصفات، لا يخلو منها مسلم ولا كافر ولا إنسان ولا حيوان، استوى على أوسع المخلوقات وهو العرش، بأوسع الصفات وهي الرحمة، "الرحمن".

{فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} اسأل به أي: بالرحمن، والباء هنا يحتمل أن تكون بمعنى عن، أسأل عنه خبيراً، يعني: مَن يعرفه حق المعرفة، وأحق من يوصف بهذا هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهو أعلم الأمة بربه -تبارك وتعالى-، ومن أهل العلم كابن جرير من يقول: إن المعنى: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} أسأل به يعود إلى أقرب مذكور، {الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} أي: بالرحمن، {خَبِيرًا} أسأل به أي: بالرحمن، خبيراً بخلقه، خلق السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه وأعمالهم، فهو خبير بهم.

والفرق بين المعنيين:

المعنى الأول: {فَاسْأَلْ بِهِ} أي: أسأل عنه خبيراً، من عرف صفته وكماله ينبئك عن ذلك.

المعنى الثاني: {فَاسْأَلْ بِهِ} -سبحانه وتعالى-، {خَبِيرًا} يعني: أن الله خبير بخلقه، فهو خالق السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء نحو الخلق، فيكون الخطاب موجهاً، يعني كما يقول ابن جرير: {فَاسْأَلْ بِهِ} أي: أسأل به يا محمد، اسأل يا محمد خبيراً بالرحمن، فهو خبير بخلقه، والقرينة عنده فيما يظهر هي ما ذكر قبله، الذي خلق السماوات والأرض.

بعدما أمره بالتوكل: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} ثم لما أمره بذلك قال: {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}، ثم ذكر صفته: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} بذنوب أو بأحوال أو بأعمال خلقه، فتكون القرينة ما سبق، وهذا قول ابن جرير، والآية تحتمل هذا، وهذا.

{فَاسْأَلْ بِهِ} أي: اسأل عنه، والمعنى الثاني: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} يعني: بأحوال خلقه -سبحانه وتعالى-؛ لأنه كما قال: {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}؛ لأنه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، لا يخفى عليه من أحوالهم شيء.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} أي: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يُسَمَّى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي -صلى الله عليه وسلم- للكاتب: ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا:

لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم))[11]؛ ولهذا أنزل الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [سورة الإسراء:١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن، وقال في هذه الآية: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} أي: لا نعرفه ولا نُقر به، {أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} أي: لمجرد قولك؟، {وَزَادَهُمْ نُفُورًا}، فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له، وقد اتفق العلماء -رحمهم الله تعالى- على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} يدل على إنكارهم لهذا الاسم الكريم، ويدل على ذلك الحديث الذي ذكره في قصة الحديبية، ولكن هل كانوا ينكرونه فعلاً، ويعتقدون ذلك، ولا يعرفون أنه الرحمن، وأن هذا شيء قد استجد عليهم لا عهد لهم به؟، أو أنهم قالوا ذلك على سبيل المكابرة؟.

ذهب جمع من أهل العلم ومنهم ابن جرير -رحمه الله- وقد سبق الكلام على هذا في بعض المناسبات في الأسماء الحسنى وكذلك في أول التفسير- إلى أنهم كانوا يعرفون الرحمن، ووُجد في الجاهلية من تسمى بعبد الرحمن، وكذلك أيضاً جاء في أشعارهم قول بعضهم:

ألا قضَبَ الرحمنُ ربِّي يمينَها ***

ذكرها ابن جرير في أول التفسير.

جاء في كلامهم في شعرهم في الجاهلية؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إنهم قالوا هذا على سبيل المكابرة، فكانوا يعرفون الرحمن، وعلى هذا يكون الإنكار على سبيل المكابرة، وقوله هنا: {أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} يقول: أي: لمجرد قولك نسجد للشيء الذي لا نعرفه؟، وفي القراءة الأخرى المتواترة: {أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا} وهذه القراءة بعضهم وجهها وفسرها بأن المراد: {أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا} يعني: مَن عُرف بأنه الرحمن، يعني: مسيلمة الكذاب وهو يأمرهم بعبادة غير الله -تبارك وتعالى-، {قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} يعني: نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة، {أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا} ولكن هذا لا يخلو من بُعد -والله تعالى أعلم-، والأقرب أن يكون المعنى: {قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} أي: محمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم قال: {أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} أي: الرحمن.

قوله: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} هنا الحافظ ابن كثير يقول: فأما المؤمنون... إلى آخره، {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} بعض أهل العلم يقول: زادهم أي: ذكر الرحمن نفوراً، استنكفوا واعترضوا وأبوا من السجود له.

ألا ضربتْ تلك الفتاةُ هجينَها *** ألا قضَبَ الرحمنُ ربِّي يمينَها

هذا قول بعض الجاهليين، وكذلك قول سلامة بن جندل:

عَجِلتم علينا عَجلتيْنا عليكمُ *** وما يشأ الرحمنُ يَعقدْ ويُطلقِ

---

١١ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، برقم (١٧٨٤).

هذا في تفسير ابن جرير، فالشاهد هنا: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} يعني: ذكْر الرحمن، ذكْر هذا الاسم، أنهم أنكروه وعارضوه، وبعضهم يقول: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} أي: الأمر بالسجود، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} وزادهم الأمر بالسجود نفوراً، وهذا يوافق قول من قال كابن جرير -رحمه الله-: إن قوله: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} أي: عبادة الله -عز وجل-، الأمر بعبادته والإخلاص له وما أشبه ذلك، وهذا داخل ضمن ما سبق من قول من قال بأن الذي زادهم نفوراً هو الأمر بالسجود للرحمن، يعني: لا تسجدوا لغيره، {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} [سورة فصلت:٣٧].

يكون ذلك على سبيل الإطلاق، إن كان موجهاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهو خطاب متوجه لأمته: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} لا يكون المقصود معيناً، وإنما {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} يعني: ممن عرفه معرفة حقة بأسمائه وصفاته، كما قال: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنبياء:٧] يعني: من لهم بصر وعلم بالكتاب، وليس المقصود هنا من مثل هذا السياق أو هذا الخطاب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يسأل أحداً من الناس عن ربه -تبارك وتعالى- ليتعرف على كماله وأوصافه، ليس هذا المقصود، وإنما مثل هذا يرد لبيان الكمال الذي لربما أنكره هؤلاء الكفار أو حصل منهم ما يوجب التنقّص لله -تبارك وتعالى-، يقول: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} يعني: ليس توجيهاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب ويسأل أحداً من المعين، ليس هذا المقصود، باعتبار أن الخطاب هنا ليس للنبي -صلى الله عليه وسلم-، أو إذا قلنا: خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- متوجه إلى الأمة -المقصود خطاب الأمة- وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعرف الخلق يسأل مَن؟، {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} أولى مَن يدخل في ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإنما يُعرف كمال الله -عز وجل- مما جاء على لسانه -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الكتاب والسنة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٦١) إلى الآية (٧١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [سورة الفرقان:٦١-٦٢].

يقول تعالى ممجداً نفسه، ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام في قول مجاهد، وسعيد بن جُبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ..} [سورة الملك:٥] **الآية؛ ولهذا قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا} وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}** [سورة النبأ:١٣].

{وَقَمَرًا مُّنِيرًا} أي: مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا} [سورة يونس:٥]**، وقال مخبراً عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [سورة نوح:١٥-١٦].

ثم قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ..} [سورة إبراهيم:٣٣] **الآية، وقال: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا..}** [سورة الأعراف:٥٤] **الآية، وقال: {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ..}** [سورة يس:٤٠].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} يقول الحافظ ابن كثير: **يقول تعالى ممجداً نفسه**، معنى تبارك يعني تعاظمت بركته، فإن هذه اللفظة تدل على هذا المعنى تكاثرت بركته، والبركة من الله -جل جلاله-، وذلك يختص به، فلا يقال: تبارك فلان، تبارك علينا فلان، وإنما يقال: تبارك الله، وأما غيره فيقال: باركه الله، جعله الله مباركاً.. وما شابه ذلك.

{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} قال: **وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جبير...** إلى آخره، وبعضهم يقول: البروج هي المنازل المعروفة، ما أشار إليه الأخ قبل قليل، ما قرأه من الأصل من قول بعض السلف من أنها القصور، {وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [سورة النساء:٧٨]، البرج أصل هذه المادة تدل على الظهور والانكشاف؛ ولهذا يقال للشيء المرتفع برج لظهوره للناظرين، ومن هنا قيل التبرج بالنسبة للمرأة، ظهرت وبدت محاسنها أو مفاتنها أو مشت في وسط الطريق أو خالطت الرجال يقال: متبرجة، فهو

من الانكشاف والظهور: {جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا}، ولهذا يقال للمباني المرتفعة برج لهذا المعنى، ومن هنا قال من قال بأن المراد بالبروج القصور، لفت الحافظ -رحمه الله- إلى أن ذلك إن قُصد به أن هذه القصور هي المنازل لهذه الكواكب أو النجوم فيجتمع المعنيان، وذلك للملازمة بين الحال والمحل، إذا قيل الكواكب أو منازل الكواكب، أو إذا كانت البروج بمعنى القصور، فهذه القصور منازل لهذه الكواكب مثلاً، هذا الذي يشير إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وَكَذَلِكَ قَالَ عِكْرِمَة: حَدثنَا أَبُو أَحْمد حَدثنَا يعلي حَدثنَا إِسْمَاعِيل عَن أبي صَالح: "تبَارك الَّذِي جعل فِي السَّمَاء بروجا" قَالَ: النُّجُوم الْكِبَار، وَهَذَا مُوَافق لمَعْنى اللَّفْظَة فِي اللُّغَة، فَإِن الْعَرَب تسمي الْبناء الْمُرْتَفع برجا، قَالَ تَعَالَى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [سورة النساء:٧٨]، وَقَالَ الأخطل:

كَأَنَّها برجُ روميٍّ يشيّده *** بانٍ بجصٍّ وآجُرٍّ وأحجارِ

قَالَ الْأَعْمَش: كَانَ أَصْحَاب عبد الله يقرءونها: "تبَارك الَّذِي جعل فِي السَّمَاء قصورا"، وَأما الْمُتَأَخّرُونَ من الْمُفَسّرين فكثير مِنْهُم يذهب إِلَى أَنَّهَا البروج الاثنا عشر الَّتِي تَنْقَسِم عَلَيْهَا الْمنَازل، كل برج منزلتان وَثلث، وَهَذِه الْمنَازل الثَّمَانية وَالْعشْرُونَ يَبْدُو مِنْهَا للنَّاظر أَرْبَعَة عشر منزلا أبدا، وَيخْفى مِنْهَا أَرْبَعَة عشر منزلا، كَمَا أَن البروج يظْهر مِنْهَا أبدا سِتَّة وَيخْفى سِتَّة، وَالْعرب تسمى أَرْبَعَة عشر منزلا مِنْهَا شامية، وَأَرْبَعَة عشر يَمَانية، فَأول الشامية السرطان وَآخرهَا السماك الأعزل، وَأول اليمانية الغفر وَآخرهَا الرشا إِذا طلع مِنْهَا منزل من الْمشرق غَابَ رقيبه من الْمغرب وَهُوَ الْخَامِس عشر، وَبهَا تَنْقَسِم فُصُول السّنة الْأَرْبَع فللربيع مِنْهَا الْحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشَّرْطَيْنِ والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع، وللصيف مِنْهَا السرطان والأسد والسنبلة، ومنازلها النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك، وللخريف مِنْهَا الْمِيزَان وَالْعَقْرَب والقوس، ومنازلها الغفر والزبان والأكليل وَالْقلب والشولة والنعائم والبلدة، وللشتاء مِنْهَا الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذَّابِح وَسعد بلع وَسعد السُّعُود وَسعد الأخبية وَالْفرع الْمُقدم وَيُسمى الأول، وَالْفرع الْمُؤخر وَيُسمى الثَّانِي والرشا، وَلما كَانَ نزُول الْقَمَر فِي هَذِه الْمنَازل مَعْلُوما بالعيان والمشاهدة، ونزول الشَّمْس فِيهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْحِسَابِ لَا بِالرُّؤْيَةِ قَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} [سورة يونس:٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [سورة يس:٣٨-٣٩] فخص الْقَمَر بِذكر تَقْدِير الْمنَازل دون الشَّمْس وَإِن كَانَت مقدرَة الْمنَازل؛ لظُهُور ذَلِك للحس فِي الْقَمَر وَظُهُور تفَاوت نوره بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان فِي كل منزل"[١].

هذا الكلام مهم في الفرق بين الحساب القمري والحساب الشمسي، وكثير من الناس يقولون: الحساب الشمسي أدق.

---

١ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/١٩٥)

وقال -رحمه الله-: "ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم، وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي؛ ولهذا قال تعالى في القمر: {وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [سورة يونس:٥]، ولم يقل ذلك في الشمس؛ ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله، لا على حساب الشمس وسيرها، حكمة من الله ورحمة، وحفظاً لدينه، لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها، وجعْلِ الشمسِ سراجاً وضياء يبصر به الحيوان، ولولا ذلك لم يبصر الحيوان، فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كذبُها أضعاف صدقها"[٢].

هذه فائدة تضبط وتراجع تتأملوا فيها فيما يتعلق بالحساب القمري والحساب الشمسي، عكس ما يدعيه كثير من الناس اليوم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا} قال هنا: وهي الشمس المنيرة كالسراج، هذا لا إشكال فيه، ولكن على قراءة حمزة والكسائي قراءة متواترة: "جعل فيها سُرُجاً -جمع سراج- وقمراً منيراً"، السُّرُج هنا جمع لا يفسر ذلك بالشمس بمفردها؛ ولهذا فسره بعض السلف بالنجوم؛ لأنها وقّادة، فقالوا: السُّرُج هي النجوم العظام؛ لأنها تضيء، وليس كل نجم نراه مضيئاً، وبعضهم يقول: هي الشمس والكواكب، كلها سُرُج، سواء كان ذلك يضيء بذاته فيما جعله الله -عز وجل- خاصية فيه -يعني يتوقد- أو كان يكتسب ذلك من غيره من النجوم أو الشموس الوقادة.

وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: السُّرُج هي النجوم، والله -تبارك وتعالى- فرق بين الشمس والقمر، فجعل الشمس سراجاً، وأما القمر فجعله نوراً: {وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا}، فالسُّرج ما كان بمثابة الشمس من النجوم الوقادة، على هذه القراءة -والله تعالى أعلم-، كما قال: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [سورة النبأ:١٣]، وهذه هي الشمس.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} فسره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بالمعنى المتبادر المشهور، يعني: يتعاقبان يخلف هذا هذا، فإذا انقضى الليل جاء النهار وهكذا، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، فهما يتعاقبان بصورة مستمرة إلى أن يشاء الله -جل جلاله-، يقول: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [سورة الأعراف:٥٤]، وبعض السلف ذكر معاني أخرى لهذه الآية: {جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} يعني: أنهما متخالفان، ومن التخالف: التخالف في الصفة والهيئة، هذا أبيض وهذا أسود، ولكن المعنى المتبادر هو أنهما متعاقبان، يكون هذا خلفاً عن هذا، والله أعلم.

---

٢ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/١٩٦)

قال: {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار والعكس**، وهكذا: ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار..))[٣] الحديث.

{لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ} فهذا من التذكر، التوبة، ومن التوبة العبادة، فلله عبادة في الليل وله عبادة في النهار، وهكذا أيضاً القراءة الأخرى المتواترة قراءة حمزة: {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ} يعني: أن يذْكر ربه، والذكر يشمل ذكر اللسان وذكر القلب، والذكر بالجوارح، {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ} أن يتعبد لله -عز وجل-، فذلك يكون في سائر الأوقات في الليل والنهار: {جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ} يذكر ربه -تبارك وتعالى-، وبعضهم فسر قراءة الجمهور: {يَذَّكَّرَ} بمعنى: يتفكر ويعتبر في هذا التعاقب، وما ينطوي عليه من الحكم العظيمة، حيث يترتب على ذلك مجيء الليل والنهار، هذا بسواده وهذا بضيائه وإشراقه، فيكون الليل محلاً أو وقتاً للنوم الذي جعله الله -عز وجل- سباتاً، وجعل الليل ساتراً، وجعله لباساً، وجعل لهم النهار معاشاً يتفرقون فيه لطلب معايشهم وأرزاقهم.. إلى غير ذلك من الحكم، {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ} يعني: يتفكر ويعتبر، هكذا فسرها بعض أهل العلم.

والتذكر يشمل هذا جميعاً، فإن هذا يدخل فيه ذكر القلب فإنه يكون باستحضار عظمة الله -عز وجل- والنظر في آلائه ودلائل قدرته ووحدانيته وما أشبه هذا، فهذا التذكر يشمل هذه المعاني: أن يذكر ربه بلسانه وأن يتعبد بجوارحه ويكون ذاكراً بقلبه، {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} وبعملٍ يزاوله يتقرب به إلى الله -تبارك وتعالى-، فإن الله المنعم المتفضل، وكل ما أسداه لعبده من توفيق لطاعة أو إعانة على عمل أو ما يهيئ له من الأسباب والنعم، كل ذلك يستوجب الشكر عليها، قال ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}**، فَذكر تَعَالَى خلق اللَّيْل وَالنَّهَار، وأنهما خلفة أي يخلف أحدهما الآخر لَا يجْتَمع مَعَه وَلَو اجْتمع مَعَه لفاتت الْمصلحَة بتعاقبهما واختلافهما، وَهَذَا هُوَ المُرَاد باخْتلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار كَون كل وَاحِد مِنْهُمَا يخلف الآخر لَا يجامعه وَلَا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حَتَّى يُزِيلهُ عَن سُلْطَانه ثمَّ يَجِيء الآخر عَقِيبه فيطلبه حثيثا حَتَّى يهزمه، ويزيله عَن سُلْطَانه فهما دَائِما يتطالبان وَلَا يدْرك أحدهما صَاحبه"[٤].

وقال -رحمه الله-: "فَهُوَ تَعْظِيم وثناء مِنْهُ تَعَالَى على نَفسه بجعْل هَذِه البروج وَالشَّمْس وَالْقَمَر فِي السَّمَاء، وَقد اخْتُلف فِي البروج الْمَذْكُورَة فِي هَذِه الْآيَة، فَأَكْثَر السّلف على أَنَّهَا الْقُصُور أَو الْكَوَاكِب الْعِظَام.

قَالَ ابْن الْمُنْذر فِي تَفْسِيره: حَدثنَا مُوسَى حَدثنَا شُجَاع حَدثنَا ابْن إِدْرِيس عَن أَبِيه عَن عَطِيَّة: **{جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا}** قَالَ: قصوراً فِيهَا حرس"[٥].

---

٣ - سيأتي تخريجه.

٤ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/٢٠٨).

٥ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/١٩٥).

مثل هذه الآية العظيمة تغير حياة الناس اليوم، صار الليل مثل النهار إلى حد ما بما يسر الله -عز وجل- من الأسباب، كان من الأسباب قلة الاعتبار والتفكر بهذه الآية العظيمة، فيدخل الليل ولا يشعر به عامة الناس، وصارت الحياة متشابهة بالنسبة إليهم في الليل والنهار، فلا يكاد الإنسان يتفكر في هذا المعنى ويتذكر ويعتبر، وصاروا يدأبون في ليلهم كما يدأبون في نهارهم إلا قليلاً؛ ولذلك لو حصل لأحدنا أنه كان في محل آخر، قرية ليس فيها شيء من هذا، فإذا جاء وقت غروب الشمس رأيت تغير الأحوال، قبل أيام لما انطفأت الكهرباء المساجد مظلمة، الطرقات مظلمة، تغيرت الحياة تماماً، وتحولت البيوت إلى شيء آخر، حياة الناس في السابق كانت هكذا، بعض المعاني قد لا ندركها جيداً إلا إذا عايشها الإنسان، فحينما كان المنافقون يتخلفون عن صلاة العشاء وصلاة الفجر، نحن نقول: صلاة العشاء مثل صلاة العصر والظهر الآن بالنسبة لنا، لكن في السابق في ذاك اليوم ما تدري من الذي صلى معك، لا يُعرف من صلى ومن لم يصل، الناس لا يرى بعضهم بعضاً، لا يعرف بعضهم بعضاً، فتفوت مثل هذه المعاني، لكن العاقل يتبصر في كل ما يجري ويحصل ويمر به وينتفع بذلك جميعاً.

وقوله تعالى: {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له -عز وجل-، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: ((إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل))[٦].

وقال مجاهد وقتادة: {خِلْفَةً} أي: مختلفين، أي: هذا بسواده وهذا بضيائه.

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [سورة الفرقان:٦٣-٦٧].

هذه صفات عباد الله المؤمنين: {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} أي: بسكينة ووقار من غير جَبرية ولا استكبار.

يعني من غير تجبر.

كقوله تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا..} [سورة الإسراء:٣٧]**، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشَر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم -صلى الله عليه وسلم- إذا مشى كأنما ينحط من صبَب، وكأنما الأرض تطوى له، وإنما المراد بالهَوْن**

---

٦ - رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، برقم (٢٧٥٩).

هاهنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا))[٧].

هنا في صفات عباد الرحمن، عباد الرحمن أضافهم إليه إضافة تشريف، {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا} البدء بهذه القضية يدل على أن هذا الدين شامل لكل مناحي الحياة، المشية، فطريقة المشي ليس لها معنى ولا محل في القوانين الوضعية الأرضية، بينما جاءت هذه الشريعة تنظم حياة الإنسان في كل شئونها حتى في طريقة مشيته، وذلك أن هذه الشريعة تحمل الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات والأعمال، وما يحفظ لهم المروءات ويجملهم بأحسن الأوصاف؛ ولهذا كانت جملة ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- منقسمة إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات، فالتحسينيات هي التي تُحفظ بها المروءات ويصون بها المرء وجهه ونفسه، ويبقى له ماء الحياة، فلا تذهب كرامته، وإنما يبقى المؤمن على أحسن الأوصاف والأحوال والأعمال، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}؛ ولهذا ذكر هذه القضية، ولاحظ أنّ هي البداية، {يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: جمع بين هذا وهذا، المشية وإذا خاطبهم الجاهلون، قال: الزلة زلتان: زلة القدم وزلة اللسان، زلة القدم إذا سقط الإنسان أظن تتكسر رجله أو نحو ذلك، لكن زلة اللسان ربما تذهب بدنياه وبآخرته، فنبه على الأمرين، على هديهم في المشية وعلى هديهم في المخاطبة، على الأدب والسمت الحسن في مشيتهم، وعلى أدبهم في ما يتصل باللسان، يمشون على الأرض هوناً، قال: **أي بسكينة ووقار**، يعني: ليست بهوان، لا يمشون مشية ذليلة، وإنما مشية فيها سكينة ووقار، والسكينة والوقار والسمت الحسن كل ذلك يحصل باجتماع أمور في الإنسان، هي أمور ظاهرة تتصل بأمور باطنة تمدها، كما يمد الماء الحياة في الشجر، يكون بسبب ذلك إشراق الوجه إذا أشرق القلب، وتظهر سيما الصلاح على وجه الإنسان، ويكون على أحسن الأحوال في حركاته وسكناته، وهديه الظاهر في اللباس والمشية، كل هذا يدخل في السمت الحسن، وجاء في حديث حسنه بعض أهل العلم يدل على أن السمت الحسن والتؤدة أنها جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة، هذه القضية من أمور الكمال، وهي من صفات النبوة بلا شك، يقول: الذين يمشون على الأرض هوناً يقول: من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى، وإنما يمشي مشية قوية، ثم أجاب عن سؤال مقدر إذا كانوا يمشون على الأرض هوناً، فكيف كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمشي في مشية قوية كأنما ينحط من صَبَب -من مكان مرتفع- وكان ينزل على قدمه كاملها، يعني: ما يسحب رجله؟، هذا لا يتعارض مع كونه يمشي مشية فيها سكينة ووقار، هذا الوصف ينطبق على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}، فليس معنى ذلك المشي بتماوت، وإنما يمشي مشية معتدلة لا تخرجه عن وصف الوقار والسكينة، والمشية تدل على صاحبها غالباً، المتكبر المتبختر يعرف ذلك من مشيته، والإنسان المخبّل في عقله يعرف ذلك من مشيته، ولو رأيته من بعيد وهو يمشي وقد

---

٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيا، برقم (٦٠٢).

أدار إليك ظهره تعرف أن هذا الذي يمشي غير سوي، يُعرف من مشيته، والإنسان الذي لربما يكون واثقاً من نفسه معتدل الأوصاف والكمالات يعرف ذلك غالباً من مشيته، والإنسان المرتبك يعرف ذلك من مشيته، والخائف يعرف من مشيته، والمستحي يعرف من مشيته، قال: {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء} [سورة القصص:٢٥] المشية تدل على صاحبها، وما يعرض له وما يقوم به من أحوال وأوصاف عارضة أو مستقرة، ولهذا يعرف من المشية غالباً؛ لأن بعض الناس عنده قدرة على التصنع، ومن ثَمّ فقد يُخفي بعض الأشياء، حتى في تعابير الوجه، وهذا علم يدرس، يدرسونه ويتمرنون عليه، حتى في تعبيرات الوجه كيف تستطيع أن تضبط تعبيرات الوجه بحيث لا يبدو أي شيء مما في نفسك، يعني: قد يكون الإنسان في غاية الخوف ويستطيع أن يسيطر ويبدو في غاية الثبات، وهكذا قد يكون هذا الإنسان في غاية الحياء ويبدو أنه في غاية الاعتدال مثلاً، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} أي: إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..} [سورة القصص:٥٥].

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مُقَرّن المُزَني قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وسَبّ رجلٌ رجلاً عنده، قال: فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قلت له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به))[٨] إسناده حسن، ولم يخرجوه.

قوله: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} ويكفي هذا الحديث لكف النفوس عن مجاراة السفهاء، {خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} بعضهم يقول: بمعنى سلمنا عليك سلاماً، وبعضهم قال: هذا من المسالمة، والمقصود بذلك أنهم لا يجارونهم في ألفاظهم وعباراتهم وسبابهم وشتائمهم... وما إلى ذلك، فأنت إذا أردت أن تؤدب كل الناس بمختلف مشاربهم وأخلاقهم وخلفياتهم في التربية، وتوقف هذا عند حده وتزجر هذا، وهذا لابد أن يعرف قدره، فإنك لن تنتهي ولن تصل إلى نتيجة إلا أنك تهبط إلى أحط الدركات؛ لأنك ستجد في المجتمعات عديم التربية، عديم الأخلاق، من لا يبالي بما يقول وما يفعل، وهو على أتم الاستعداد أن يهبط في الإقذاع والشتائم إلى الهاوية، فيخطئ من يظن أنه يستطيع أن يؤدب هؤلاء وأن يحملهم على ما يجمل، فلا يترك شارداً ولا وارداً ولا عارضاً إلا اشتبك معه وتشاجر معه؛ لأن هذا أخطأ، وهذا لم يتجمل، وهذا لم يحسن الرد، وما أشبه ذلك، "قالوا سلاماً" فإذا جاوبته بغير ذلك -بمثل ما صدر منه- فإنك تكون قد تساويت معه في المرتبة، ولو كان ذلك على سبيل المقاصة، وإنما يرفع الإنسان نفسه ويصون عرضه وكرامته، ويكفي هذا الحديث أن الملَك يقول له ما تقدم في الحديث، وابن القيم -رحمه الله تعالى- يقول: " نصَبَ "السلام" من قوله

---

٨ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٧٤٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد منقطع، فإن أبا خالد الوالبي روايته عن النعمان بن مُقَرِّن مرسلة، ومع ذلك فقد حسَّن هذا الإسناد الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٢٩٢٣).

تعالى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}.

فالجواب عنه: أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً} فسلاماً هنا صفة لمصدر محذوف، هو القول نفسه، أي: قالوا قولاً سلاماً، أي: سداداً وصواباً وسليماً من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل، فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم"[٩].

يقصد أنهم يقولون قولاً سالماً من العيب، يقول له: بارك الله فيك، أشكرك على هذا، لا يجاريه فيما يقول، هذا المعنى، وليس المقصود على هذا المعنى أنه يسلم عليه يقول له: سلام عليك.

وقال -رحمه الله-: "وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى، وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن"[١٠].

يعني هو يقول: لا مدح فيه أنهم يقولون: سلام عليكم، لكن لماذا لا مدح فيه؟ الآن هذا إنسان يصدر منه ما لا يليق، فقال له المقابل: سلام عليك، كما قال الله عن أهل الكتاب: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}، {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [سورة القصص:٥٥]، سلام عليكم، هذا واضح وصريح في أنهم يقولون لهم: سلام عليكم، فتكون هذه تفسيراً لهذه، فإذا جاوبوهم بهذه المجاوبة وهو قولهم: سلام عليكم فهذا من الإحسان في الرد، يعني لا يصلني، من المعاني الداخلة تحت هذه اللفظة أو هذه الجملة حينما نقول: السلام عليكم معنى المسالمة، بمعنى أنه لا يصل إليك مني مكروه، ولهذا اختيرت في الجواب في هذا الموضع، وإذا كان كذلك فمعنى ذلك أنهم قالوا قولاً سالماً من العيب، يعني حينما يجيبون بهذا الجواب يكون ذلك سالماً من العيوب، أقصد من هذا أن مثل هذا الجواب غير مستبعد -والله تعالى أعلم-، يعني لا يقال: إن هذا ليس هو المراد، أي يقولون: سلاماً، يحتمل أن يكون المراد هنا قولاً سالماً، ويدخل فيه هذه المجاوبة: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}، إنسان بدأ ينفلت لسانه تقول: سلام عليك، وتمضي، ولا تقف؛ لأنك إذا وقفت هذه الكلمة قد تكون أشد وأعظم مما لو قابلته بالشتم، إذا كان يفهم؛ لأنه سيعرف أنها قيلت: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين، فيستفزه ذلك.

وقال -رحمه الله-: "وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} أي: بسكينة ووقار، والهَون بفتح الهاء من الشيء وهو

---

٩ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٨٦/٢).

١٠ - المصدر السابق (٣٨٦/٢).

مصدر هان هوناً أي سهل، ومنه قولهم: يمشي على هِينته، ولا أحسبها إلا مولدة، ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة فهي فِعْلة من الهَون، وأصلها هِوْنة، فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف، وأما الهُون بالضم فهو الهوان، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون"[11].

فهذا مفيد فيما يتعلق بفقه اللغة العربية، ودلالة الألفاظ في تركيبها في حروفها وشكلها على المعاني، وهذا باب دقيق في العلم، فإن الإنسان قد يفهم أحياناً الكلمة، ولم يمر به معناها، أو يفهم شيئاً من معناها ولم يمر به قبل ذلك أخذاً من حروفها، وهذا كثير.

ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} أي: في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات:١٧-١٨]**، وقوله: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ..}** [سورة السجدة:١٦] **الآية، وقال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ..} الآية** [سورة الزمر:٩]**؛ ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} أي: ملازماً دائماً؛ ولهذا قال الحسن في قوله: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام الملازم ما دامت السماوات والأرض، وكذا قال سليمان التيمي.**

{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} أي: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً.

بمعنى أنها ملازمة الغريم لغريمه، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا يخرجون من النار.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...} الآية، أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة..

قوله: {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} قال: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا} يعني: مكاناً للقرار، المستقر هو القرار، والمُقام يعني الإقامة، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا} يعني: قراراً وإقامة، وهذا الذي فسرها به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا} أي: قراراً وإقامة؛ لأنه قد يتوهم أن هاتين اللفظتين بمعنى واحد، {سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} مستقراً يعني ساءت قراراً، ومقاماً إقامة، إقامة لا تعني قصر المدة.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...} الآية، أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عَدْلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها.

يعني هذا الذي ذكرته قال به بعض المفسرين، الفرق بين المستقر والمقام، يعني قال بعضهم: إن المستقر القرار الدائم، والمقام هو الوقت اليسير؛ ولهذا هنا العبارة قال: وبئس المقيل، ولكن لو فسرت بما سبق -والله

---

١١ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٨٧/٢).

أعلم- مستقراً ومقاماً يعني: إقامة عموماً، -والله تعالى أعلم-، كل كتب التفسير تعرض لعبارة ابن جرير، القرار والإقامة، لكن إن كنت تقصد في الفروق اللغوية ففي كتب في الفروق اللغوية، لكن لا دليل عليه هنا، {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} فحمل الآية على معنى أعم أولى -والله تعالى أعلم- من تخصيصها من غير دليل، كأن يقال مثلاً: ساءت مستقراً للكفار ومقاماً لأهل الإيمان مثلاً، إنما هي بئس القرار وبئس المحل للإقامة، -والله أعلم-، كما يقول الله -عز وجل-: {وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [سورة إبراهيم:٢٩].

أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهْليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عَدْلاً خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}، كَمَا قَالَ: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ..} [سورة الإسراء:٢٩] الآية.

قوله: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} القوام بمعنى العدل والاستقامة، يعني: يعتدلون في نفقتهم {إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...} والعلماء -رحمهم الله- تكلموا على مسألة وهي: هل في الإنفاق في سبيل الله إسراف وتبذير وتجاوز للحد أو لا؟ {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...}، {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [سورة الإسراء:٢٩] ينقطع الإنسان عن مصالحه ويلوم نفسه ويلومه أصحاب الحقوق أنه لا يستطيع أن ينفق عليهم، والمحسور هو المنقطع.

فالحاصل أن من أهل العلم من قال: هذا يدخل فيه الإنفاق في سبيل الله، فحمل الآية على العموم.

ومنهم من يقول: ذلك لا يدخل فيه النفقة في سبيل الله، ويحتج بالأحاديث الواردة في هذا، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما يسرني أن لي مثل جبل أحد ذهباً تأتي عليه ثلاث..))[١٢] الحديث، وكذلك أيضاً ما جاء من أفعال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأبو بكر جاء بجميع ماله وأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا، وعمر جاء بشطر ماله وأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا، ولهذا قال بعضهم كالشاطبي -رحمه الله- بأن ذلك يتفاوت بحسب أحوال الناس، بينما ذلك الرجل الذي جاء بقطعة من الذهب وأعطاها النبي -صلى الله عليه وسلم- فأعرض عنه، ثم عرض عليه فأعرض عنه، فأخذها فرمى بها كالمغضب، وعلل ذلك بأن الرجل يأتي بماله ثم بعد ذلك يتكفف الناس، فيقول: من كان بهذه المثابة من ضعف اليقين، وإذا أنفق ماله يبدأ يتطلع ويتعلق قلبه بالآخرين، ويتعرض لهم، فمثل هذا لا ينفق ماله، ومن كان بمنزلة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- فأنفق ماله لكمال يقينه وتعلقه بالله وحده، فإنه لا يعاب في ذلك، فتكون هذه المسألة على هذا التفصيل، هل النفقة في سبيل الله يقال فيها إسراف أو لا؟ {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} هل هي داخلة في هذا أو غير داخلة؟ {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} نعم، وأما في غير النفقة في سبيل الله فكل ما ينفق في الحرام فهو داخل في الإسراف والتبذير وتضييع المال، وأما في المباحات فذلك يختلف باختلاف الناس، فقد يكون هذا الثوب إسرافاً بالنسبة لزيد ولا يكون إسرافاً بالنسبة لعمرو، وقد يكون هذا الجهاز الجوال إسرافاً بالنسبة لزيد ولا يكون إسرافاً بالنسبة

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب أداء الدين، برقم (٢٣٨٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، برقم (٩٤).

لعمرو، قد تكون هذه السيارة إسرافاً بالنسبة لزيد، وهذا الأثاث إسرافاً بالنسبة إليه، بألف وخمسمائة نعم، مستأجرٌ صالة بأربعين ألفاً، وقبل أيام بثمانين ألفاً، صالة للرجال والنساء، راتب ضئيل مثل هذا، إنسان فقير، وكل ذلك بالديون، وسيارات بالأقساط، وصدقات، وزكوات، صالة بثمانين ألفاً، فهذا يسمى إسراف وتبذير، لكن آخر يملك مليارات وثمانين ألفاً هذه لا تساوي عنده، ولا شيء، مثل هذا قد لا يكون إسرافاً وتبذيراً بالنسبة لغيره، فيختلف باختلاف الناس، -والله المستعان-، كنا نشاهد بعض الأشياء، وبعض الطلاب أعاجم في بعض الجامعات من غير أهل البلد وليس ذلك بزيهم، لابد أن يحاكي في أحسن اللباس، فيشتري من هذه العمائم أو الشمغ أفضل الأنواع، كما يقال: آخر بصمة، وهو لا يجد شيئاً، لا يجد قوتاً لزوجته وأولاده، كل هذا على الصدقات، واللباس لازم تفصيل وأقمشة جيدة، لكن هذه العمامة بعشرة وثوبه بخمسة عشر، ويحصل المقصود أبيض نظيف والحمد لله، فهذا يعتبر إسرافاً، وقل مثل ذلك فيما يأكله الإنسان.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [سورة الفرقان:٦٨-٧١].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أي الذنب أكبر؟ قال: أن تَجعل لله ندًا وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطْعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..} الآية))[١٣]، وهكذا رواه النسائي.

وقد أخرجه البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث: "أن ناساً من أهل الشرك قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..} الآية، ونزلت: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ} [سورة الزمر:٥٣] الآية"[١٤].

هذا الحديث أصله في الصحيحين أنه سبب نزول هذه الآية، وهذا صريح، لكن تأمل في الحديث الذي قبله، قال: وأنزل الله تصديق ذلك: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..}، هذه من العبارات والألفاظ في أسباب النزول وهي قليلة نسبياً، فنحن عرفنا في مناسبات سابقة في أصول التفسير أن أسباب النزول منها ما هو صريح، كأن يقول: سبب نزول هذه الآية كذا، أو يذكر حادثة أو سؤالاً ثم يقول: فأنزل الله كذا، فنزلت الآية، وأن غير الصريح أن يقول: نزلت هذه الآية في كذا.

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان:٦٨] العُقُوبَةَ، برقم (٤٧٦١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم (٨٦).

١٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، برقم (١٢٢).

هذه القسمة الثنائية، وهي ليست قطعية، بمعنى: أن ذلك عند التأمل قد تجد بعض الروايات غير صريحة وبعض الروايات صريحة، يحتاج إلى شيء من التأني، يعني لا نحفظ قاعدة مثلاً ونجريها على الجميع، وإنما القواعد أغلبية، فبمثل هذا الموضع الآن يحصل التردد، فهي إذا تأملت هذه العبارة: وأنزل الله تصديق ذلك، أنزل لا يعني أنه أنزله بعدما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك مباشرة، وأن سبب النزول هو حينما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، فهذه العبارة لا نستطيع أن نقول: إنها صريحة في سبب النزول، ولكنها ليست من جنس قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، فهي بين بين، ولهذا لا نستطيع أن نقول: هذا هو سبب النزول، ولا نقطع بهذا، وإنما نقول يحتمل أن ذلك نزل في القرآن، لكن لم يكن هذا النزول مرتبطاً بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الحديث، فإذا لم يكن مرتبطاً فمعنى ذلك أنه ليس بسبب النزول.

فالرواية الأخرى يقول: ثم قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: "والذين لا يدعون.."، فهذا ليس بسبب نزول، معناه أن الآية نازلة قبلاً، ولهذا أقول: لابد من التتبع للروايات، لابد من التتبع، وإذا نظرت في روايات أحاديث أسباب النزول قد تجد ألفاظاً تدل على غير ذلك، على غير العبارة الموجودة بين يديك.

فالمقصود أن هذه العبارة غير صريحة، فلا تشكل عليكم بكونها ليست مما عهد من غير الصريح حينما يقال: نزلت هذه الآية في كذا، فهذه صورة مترددة بين هذا وهذا، فلا تستعجل، لا تستعجل في الحكم على مثل هذه الأشياء، لكن يحسن أن تكون هذه الأمور حينما تطرح تطرح على سبيل المدارسة والمذاكرة أو التأمل، وأما الاستعجال في القطع والحكم بالشيء والجزم به فهذا يحتاج إلى تروي كثير.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}، روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: {أَثَامًا} واد في جهنم.

وقال عكرمة: {يَلْقَ أَثَامًا} أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ومجاهد.

وقال السدي: {يَلْقَ أَثَامًا}: جزاء.

وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: يكرر عليه ويغلظ، {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}.

قوله: {يَلْقَ أَثَامًا} الأثام فسره من فسره كما سمعتم بالوادي في جهنم، وبعضهم يقول: الأصل الأثام بمعنى العقاب، {يَلْقَ أَثَامًا} أي: عقاباً، وهذا لا يخالف ما ذكره عن السدي من أنه جزاء، فالعقاب جزاء لهذا الذنب والفعل السيئ، وقد يعبر بالسبب عن المسبب كما يعبر بالمسبب عن السبب أحياناً، {يَلْقَ أَثَامًا} يعني: إذا قلنا جزاء، أو قلنا عقاباً فهذا كأنه تفسير لهذا، لا إشكال فيه، فيكون من قبيل اختلاف التنوع؛ ولهذا يقول مثل الفراء: آثمه الله أثاماً يعني: جازاه جزاء، وجزاء الإثم هو العقوبة، نعم العقاب، فبعضهم يقول: عاقبه؛ ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يقول: {يَلْقَ أَثَامًا} أي: عقاباً، وكلامه هذا في الواقع موافق لابن كثير -رحمه الله-، ما ذكره السدي وكذا ما ذكره أيضاً الفراء وغيره حينما يقال: جازاه جزاء الإثم الذي هو العقوبة، {يَلْقَ أَثَامًا}، وبعضهم يقول: الآثام والإثم بمعنى واحد، وذلك ما يكون من نتيجة وجريرة المعصية، الإثم يقال لما يترتب عليه من المؤاخذة، يقال: فلان آثم ويأثم، كما يطلق ذلك على المعصية، لكنه هنا في هذه الآية غير مراد، وإلا يقال: الخمر إثم، والزنا إثم، يعني: معصية؛ لأنها سبب للإثم، سبب.

و{يَلْقَ أَثَامًا} يعني: عقاباً أو جزاء فعله هذا من العقوبة، والله تعالى أعلم.

وهذه العقوبة هي النار وما فيها من ألوان العذاب، يكون الآثام وادياً في جهنم، هذا لا يقال من جهة الرأي في الأصل، لكن ينبغي أن يعلم أن ذلك قد أخذ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلو ثبت ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا إشكال، فيقال: من فسره بالعقاب والجزاء فإن هذا تفسير له بالأعم، والحديث دل على المعنى الأخص وهو نوع منه، هو وادٍ في جهنم، لكن طالما أن ذلك ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فنحن لا نستطيع أن نجزم بأن قوله: {يَلْقَ أَثَامًا} أن ذلك وادٍ في جهنم؛ لأن هذا من قضايا الغيب نحتاج فيه إلى شيء تطمئن إليه النفس، يعني حتى لو قلنا: إن ذلك يستبعد مثلاً، أو لو استبعدنا وهو لا يستبعد، لو استبعدنا أن ذلك مما أخذ عن بني إسرائيل، فيكون هذا من قبيل المرسل كما هنا، يعني: إلا إن كان جاء ذلك عن صحابي، هنا عن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمرو كان يأخذ عن بني إسرائيل، حصّل يوم اليرموك، يعني من كتبهم.

{وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} أي: حقيراً ذليلاً.

وقوله تعالى: {إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا} أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر، {إِلا مَنْ تَابَ} أي: في الدنيا إلى الله -عز وجل- من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه.

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا..} [سورة النساء:٩٣] **الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ..}** [سورة النساء:٤٨] **الآية.**

وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث.

قوله: {إِلا مَنْ تَابَ} بعض أهل العلم يقول: الاستثناء متصل، ولكن قد يشكل على هذا ما أورده بعضهم كأبي حيان صاحب البحر المحيط من أن ذلك لا يحصل به المقصود في المعنى، ما وجه الاعتراض على كونه متصلاً؟ الآن إذا كان متصلاً هناك قبله ذكر تضعيف العذاب، {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} يحصل له: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلا مَنْ تَابَ} فإذا نظرنا إلى تضعيف العذاب كأنه يقال: إلا من تاب فلا يضاعف له العذاب؛ لأن إخراج بعض الصور أو الأفراد من المستثنى منه هذا بمعنى المتصل، الاستثناء المتصل تقول: جاء القوم إلا زيداً، فهنا أخرجنا زيداً وهو من جملة القوم، فيكون من جملة المستثنى منه، الآن: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلا مَنْ تَابَ} يكون المعنى من تاب فلا يضاعف له العذاب، إذا قلنا: المعنى كذا فلا يضاعف له العذاب، وهذا لا ينفي أنه يعذب من غير مضاعفة، فهذا حمل بعضهم على القول بأن الاستثناء منقطع، منقطع يعني: أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فيكون بمعنى لكن، فيكون {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} لكن من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولائك يبدل الله سيئاتهم حسنات، قال: {إِلا مَنْ تَابَ} أي: في الدنيا، وتكلم عن توبة القاتل، هنا هذه الآية دلت على توبته، في آية النساء: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [سورة النساء:٩٣]، كل هذه الأشياء مع العذاب الذي أعده له {خَالِدًا فِيهَا} فحكم عليه

بالخلود، مع قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [سورة النساء:٤٨] والقتل دون ذلك، فهذه الآيات من أهل العلم من قال هذا بنصوص الوعيد، ولا نتعرض له ليحصل به المقصود من الزجر في قتل النفوس، ومنهم من رأى أن القاتل لا توبة له أصلاً، لكن يبقى الإشكال في الخلود في النار، النصوص دلت على أن أهل الإيمان يخرجون من النار مهما عذبوا فيها، فهنا قال: {خَالِدًا فِيهَا} في آية النساء ولم يذكر التوبة، فبعضهم قال: المراد بالخلود هو البقاء المدة الطويلة تسمى خلوداً عند العرب فهي المراد، أو ليس البقاء الأبدي السرمدي الذي يكون للكفار، وبعضهم يقول: هذا جزاؤه لو جازاه، وهذا لا يخلو من بُعد، ويقول: {فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ} حكم له بهذا، {وَلَعَنَهُ}.

فإذا اشتبه موضع فإنه يرجع إلى النصوص المحكمة، لو قلنا: هذا مشتبه الآن، {خَالِدًا فِيهَا} في آية النساء، {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ} اشتبه علينا هذا الخلود لأحد من أهل التوحيد، فماذا نصنع؟ ممكن نجيب ببعض هذه الأجوبة التي سبقت، فإن انحل الإشكال بالنسبة إليك وإلا دائماً -هذا مثال فقط- ترجع إلى الأصل المحكم، وهو قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}، والنصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار، هذه النصوص محكمة، ويبقى الجواب عن آية النساء قد تختلف الأنظار فيه، وقد يتوقف الإنسان في اختيار واحد منها، يقول: أنا لا أستطيع أن أجزم بهذا أو هذا، متردد بينها، نقول: هذا بالنسبة لك يكون من قبيل المتشابه؛ لأن التشابه على الأرجح بالنسبة للمعاني هو من قبيل التشابه النسبي، لا يوجد في المعاني -معاني القرآن- تشابه مطلق لا يعلمه إلا الله؛ لأن الله خاطبنا بما نفهم، فإذا أشكل موضع فهذا متشابه بالنسبة إليك، فترجع إلى الأصول المحكمات من أجل ألا تزل؛ لأن بعض الناس قد يزل بهذا ويخرج بنتيجة وهي الحكم بتخليد أهل المعاصي أو الكبائر في النار، كما فعلت الخوارج، وكما يقول بعض من شابههم في هذا العصر يقول: {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}، من يخرجه من النار؟، يحتج على أن أهل الكبائر يخلدون في النار، عامي، يقول: الله يقول: {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} يقول: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا} فمن يخرجه من النار؟ فنرجع إلى الأصول المحكمة إذا التبس علينا، وهذه الطريقة صحيحة في العلم، وهي من أنفع ما يكون لطالب العلم، وقد تجدون مثل هذا في مثل كتاب كشف الشبهات في أول الكتاب في الجواب المجمل والمفصل، إلا من تاب، فقوله: {إِلَّا مَن تَابَ} يدخل فيه القتل، ولا يشكل على هذا أن المسألة تتعلق بحق المقتول، وقد تكلمت على هذا بالتفصيل في الكلام على التوبة في الأعمال القلبية، ويمكن أن نشير هنا إلى أن الحق المتعلق بالمقتول منقسم إلى أقسام ثلاثة: فيه حق لله فالتوبة تمحوه؛ ولهذا فإن القاتل في القتل الخطأ تجب عليه الكفارة، وأما قتل العمد ففيه خلاف، القاتل عمداً هل تجب فيه الكفارة أو لا؟ باعتبار أنه أعظم من أن يكفر عنه، فإذا تاب الإنسان تاب الله عليه، هذا حق الخالق، فيه حق للمخلوق المقتول، وفيه حق لأولياء الدم، حق أولياء الدم بالتشفي بالقصاص، أو قبول الدية كعوض، أو نوع معاوضة، فهذا حقهم، فإذا تنازلوا سقط حقهم، يبقى حق المقتول، كيف يمكن أن يستوفى وقد قتل؟ فنرجع إلى النصوص، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر: ((أن الله يضحك لرجلين قتل أحدهما الآخر يدخلان

الجنة))[١٥]، فهذا إنسان دخل الجنة، أهل الإيمان يدخلون الجنة في النهاية، هذا رجل مشرك قتل مسلماً فأسلم، والإسلام يجبّ ما قبله، فدخل الجنة، وهكذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من أن نصوص الوعيد العامة المطلقة قد لا تنزّل على المعين بفقد شرط أو لوجود مانع، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً: ((لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات))[١٦]، فلا تستطيع إذا رأيت امرأة نامصة أن تقول قطعاً: إن هذه ملعونة؛ لأن ذلك قد يرتفع عن الشخص لفقد شرط أو لوجود مانع، وقد يكون له حسنات عظيمة تنغمر فيها هذه السيئة، وقد يكون له مصائب مكفرة، أو غير ذلك من الموانع أو الأسباب، وذكر شيخ الإسلام في بعض المواضع من كتبه -تجدون هذا في الفتاوى- عشرة أمور مفيدة في هذا الباب، يحصل فيها مثل هذا المحو والتكفير للذنوب والسيئات، التوبة والإسلام والهجرة، كل هذا من أعظم ما يحصل به تكفير الذنوب، والله هنا ذكر التوبة والإيمان والعمل الصالح.

ولهذا بعض أهل العلم له رأي في هذا الإنسان الذي وقع في القتل وتاب وعُفي له من أولياء الدم، قال: هو متوعد بالخلود بالنار، فلابد من حق صاحب الحق الأساس وهو المقتول، فهذا يقولون: إذا صحت توبة هذا وأقبل على الله بصدق وأكثر من الحسنات فإن الله يُرضي الآخر بما شاء، يعطيه من الحسنات والدرجات ما يحصل به الرضا؛ ولهذا قالوا: ينبغي لمثل هذا أن يحتاط لنفسه فيكثر من الحسنات جداً، ويجدّ ويجتهد؛ لأن ذلك قد يُعطَى من حسناته، والله المستعان.

---

١٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٣٢٦)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

١٦ - رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، برقم (٢١٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٧٠ - ٧١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ..} [النساء: ٤٨] الآية، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث.

وقوله تعالى: {فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان:٧٠] روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة: يؤتى برجل فيقول: نَحُّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها هاهنا، قال: فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه))[1] انفرد بإخراجه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال: ((جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه، لو قُسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أأسلمتَ؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات، فقال: يا رسول الله، وغَدَراتي وفَجَراتي؟ فقال: وغَدراتك وفَجَراتك، فَوَلّى الرجل يهلل ويكبر))[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} هذا الموضع فيه كلام كثير لأهل العلم، وخلاف طويل، فمن أهل العلم من حمله على ظاهره، وقال: إن السيئات تبدل حقيقة إلى حسنات، فيعطى بكل سيئة حسنة، وهذا القول كما أنه الظاهر المتبادر من الآية كذلك أيضاً يدل عليه الحديثان السابقان، فقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الأول عن الله -تبارك وتعالى-: ((فإن لك بكل سيئة حسنة))، فهذا يدل على أن السيئة تتحول إلى حسنة، ويُعطَى حسنة، وليس لقائل أن يقول: إن هذا مثل الآية محتمل في ظاهره؛

---

١ - أخرجه مسلم (١٨٦).

٢ - رواه ابن أبي حاتم (٢٧٣٦/٨)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٣/٧)، رقم (٦٣٦١)، بلفظ: ((جاء شاب ...)).

فإن الرجل يقول: يا رب عملت أشياء لا أراها هاهنا، فهو يذكر سيئات أخرى لما رأى من التبديل في الآخرة، وأيضاً الحديث الآخر: قال له: ((ونبدل سيئاتك حسنات، قال: وغدراتي وفجراتي؟)) وهذا الحديث حسنه الحافظ ابن حجر وغيره، فيدل كذلك أيضاً على أن السيئات تبدل حسنات، لكن الإشكال الذي أورده كثير من أهل العلم يتضح بذكر الأقسام التي عليها الناس:

قسم يعمل بالحسنات منذ نشأ، ومنذ عرف، منذ عقل وهو مجتهد في طاعة الله -عز وجل-، ليس له كبائر وإنما يقع منه ما يقع من اللمم الذي لابد من وقوعه من كل أحد، فهذا قُل من السابقين في الخيرات.

وقسم مقتصد، يفعل الواجبات ويترك المحرمات، فهو لا يزيد على ذلك، يشتغل بباقي الأوقات في المباحات، وما عنده شيء زائد من الخير والتشمير في طاعة الله -تبارك وتعالى-، ومشغول بالمباحات، وأوقاته مقضية في المباحات في غالبه.

القسم الثالث: الظالم لنفسه، وهذا مضيع مفرط يعمل الكبائر والصغائر، فيأتي هؤلاء الثلاثة يوم القيامة، صاحب السيئات الكثيرة قل كزبد البحر مثلاً صارت حسنات.

ظاهره أن هذا الظالم لنفسه سيفوق المقتصد الذي اشتغل بالواجبات وترك المحرمات وصارت أوقاته الباقية في المباحات، فإذا بدلت هذه الذنوب الكثيرة إلى حسنات سترجح كفته، فهذا محل الإشكال، بل هذا قد يتفوق على بعض السابقين بالخيرات أيضاً، إذا كان كلما كانت ذنوبه أكثر كلما كانت مرتبته أرفع إذا تاب؛ ولهذا ذهبت طائفة من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير – رحمه الله - إلى حمل الآية على غير الظاهر المتبادر: {يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} قالوا: لما تاب استغرق وقته بالطاعات بعد أن كان مشتغلاً بالذنوب والجرائم والمعاصي، فأنفاسه صارت مصروفة في الطاعات فاشتغل بها، فتبدلت سيئاته، انتقل من أعمال المقارفات التي كان يقارفها إلى اشتغال بالعمل الصالح، فهذا معنى ذكروه، ومنشؤه -وإن كان على خلاف الظاهر المتبادر- الخروج من ذلك الإشكال، لكن قوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} يشعر بأن التبديل حقيقي لكن يمكن أن يقال: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} لمن تاب، للتائبين، ولكن الأحاديث السابقة تشكل على هذا القول، ولا يعجز هؤلاء عن الجواب عن الأحاديث، يقولون: الله يخبره أنه قد أبدل سيئاته حسنات، فصارت الأعمال الصالحة مكان الأعمال السيئة.

ولكن هذا الجواب فيه ضعف، فالأول صار يذكر أعمالاً سيئة أخرى ليزداد من الحسنات، فلو كانت القضية هي إخبار له بما كان في الدنيا من الاشتغال بالطاعات لما اغتبط وفرح بهذا وصار يذكر أشياء وأعمالاً أخرى لم يرها، يريدها أن تبدل إلى حسنات.

كذلك أيضاً الحديث الآخر: ((وغدراتي وفجراتي؟)) فهو مستعظم للسيئات، ولو كان المراد الاشتغال بالأعمال الصالحة فهو يعرف أنه مشتغل بالأعمال الصالحة وأنه أسلم.

ومن أهل العلم من أجاب بجواب آخر، قالوا: هذا الإنسان الذي عمل أعمالاً سيئة كثيرة قد تاب، وتوبته عامة، فكل ذنب وإساءة قابلها توبة، والتوبة حسنة، فبُدلت سيئات هؤلاء حسنات لأنهم تابوا منها، تاب من السرقة فتوبته حسنة، تاب من الكذب فتوبته حسنة، تاب من الغيبة فتوبته حسنة، تاب من شرب المسكر حسنة، تاب من الكذب حسنة، تاب من النظر الحرام حسنة، فبُدلت سيئاتهم حسنات بهذا الاعتبار، فيوم القيامة

يأتون ويجدون هذه السيئات كل سيئة منها صار له بها حسنة، وهي حسنة التوبة وهي عمل صالح وليست الذنب والجرم والإساءة وما يترتب عليه من الإثم، قد انقلب إلى حسنة.

وعلى القول الأول كلما كانت الأعمال كبائر كلما كان الأجر أكثر، أما على القول الثاني فالحسنات التي يجدها هي التوبة وهي من العمل الصالح الذي يؤجر عليه الإنسان، وهذا القول أرجح من قول ابن جرير -رحمه الله.

ولقائل أن يقول: إن فضل الله أوسع مما يخطر لكم على بال، فهذا الذي عمل السيئات ثم تاب منها كافأه الله -عز وجل- بتبديلها حسنات، وهذا من فضله الواسع.

وأما ما ذكرتم من أن هذا سيكون متقدماً وسابقاً للمقتصد ولربما للسابق بالخيرات فنقول: لا يلزم؛ لأنه إذا كان الله -عز وجل- جازى هذا الذي قضى الأنفاس والأوقات بالسيئات بهذا الجزاء فكيف بمن صبر عن شهوات النفس وفَطَمها عن مشتهياتها وصبر نفسه على طاعة الله -عز وجل-؟!، فهذا يُرفع رفعاً أعظم من هذا الإنسان الذي جنى هذه الجنايات الكثيرة، فإذا كان هذا فضله -تبارك وتعالى- مع من كان مشتغلاً بمحادّته ومعصيته فكيف يكون حاله وجزاؤه مع من كان مشتغلاً بطاعته ؟!، هذا أعظم وأعظم، فلا نقيس المسألة بهذه الطريقة ونقول: الذين قضوا أوقاتهم في الإجرام ثم تابوا سيكونون متقدمين على غيرهم، هذا غير لازم، وفضل الله أعظم وأكبر ولا يُحجر عليه، وهذا يكون متمشياً مع ظاهر الآية، ويندفع به هذا الإشكال الذي ورد، وهو وإن لم يصرح به بعضُ مَن ذكر بعضَ تلك الأقوال إلا أن هذا منشأ هذا التفسير عندهم، وإن شئت أن تقول هذا التأويل الذي أولوا به هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فيحتمل أن يكون الجواب بما ذكرت تُحمل الآية على ظاهرها، وهو كما ترون ليس من التكلف، ووجهه فيما يبدو ظاهر وإن لم أجد من علل بمثل هذا التعليل وأجاب بمثل هذا الجواب عن هذا الإشكال، فأصل القول قال به جماعة من السلف ومن بعدهم أنها تبدل حسنات حقيقة، وهو ظاهر الآية وتدل عليه الأحاديث، لكن الذي يبقى هو الإشكال، كيف نجيب عن الإشكال؟

فما ذكرته يمكن أن يندفع به الإشكال، يقال: إذا كان هذا فضله مع المسيء بعد أن تاب، ففضله مع من صبر نفسه على طاعة الله -عز وجل- أعظم وأكبر وأجل من أن يُقادَر قدره، وفضل الله واسع، ولا يصح بحال من الأحوال أن يتوهم أحد أو أن يحمل ذلك أحداً على الإكثار من الإساءة ثم يقول: أتوب ثم تبدل حسنات وأكون مكثراً.

نقول: لا، المقتصد أعظم درجة منك، والسابق بالخيرات أكمل وأرفع من الجميع؛ ولهذا قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: ٣٢] ورتبهم هذا الترتيب، وقد أجاب أهل العلم عن تقديم الظالم لنفسه على هؤلاء الثلاثة، قالوا: قُدم من أجل ألا يقنط أو ييأس، وهذه الأمة بطوائفها الثلاث في النهاية تدخل الجنة، ولكن دلت النصوص على أن النار يدخلها قوم من الموحدين، ثم بعد ذلك يخرجون منها، وليس الكلام في هذا، الكلام فيمن تاب الآن، في هذه الآية، في التائبين، فلا يقول قائل: أنا أعمل الذنوب والسيئات وأُكثِرُ منها ثم أتوب فتبدل حسنات.

نقول: ما يدريك أنك توفق للتوبة، فقد يفجأ الإنسان الموت وهو على المعصية: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ويسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[٣]، ومعلوم أن الذنوب والإجرام تكون سبباً للطمس على القلب والختم والران: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا عن صرف أقوام عن الهدى بسبب إجرامهم وتكذيبهم الأول وإعراضهم عن الله -عز وجل- وأن أولائك الذين نسوا الله جازاهم بأن أنساهم أنفسهم فصار شغلهم فيما يضرهم، ويكون فيه هلاكهم وبوارهم، والله يقول: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال:٢٤] يحول بينه وبين قلبه فلا يملك الهدى، ولا يستطيع إليه سبيلاً، والقلوب بين أصابع الرحمن، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أكثر الأمة إيماناً واشتغالاً بطاعة الله -عز وجل- وبراً وتقوى يُكثر أن يقول: ((اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[٤]، فماذا يقول غيره ؟ فلا يحمل هذا أحداً من الناس على الإكثار من الإساءة ثم يقول: أتوب وتُبدّل، ولكن المقطوع به هو أن مراتب هذه الأمة على هذا الترتيب: السابق بالخيرات أولى في المراتب العالية، ثم المقتصد، ثم الظالم لنفسه، لكن هذا الإنسان الذي قد تاب من جميع الذنوب لن يكون من الظالمين لأنفسهم بطبيعة الحال؛ لأن الكلام فيمن تاب، هو ليس من الظالمين إذا لم يسود صحيفته بطبيعة الحال بعد التوبة، الكلام فيمن مات على التوبة، هو ليس من الظالمين إنما ينظر إلى حاله وعمله، والله -تبارك وتعالى- يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، يعني: الحسنة بعشر أمثالها، هذا في الحسنات والسيئات، وإذا جاء الكلام على الصبر فهنا التوفية بغير حساب، هو أعظم الصبر، الصبر على طاعة الله -عز وجل-: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]، والصبر عن معصيته، والصبر على الأقدار المؤلمة، هذا الصبر، وهذا الإنسان الذي تاب من الذنوب له حظ من هذا الصبر؛ لأن توبته مبنية عليه، لو لم يصبر لم تصح له توبة، فالتوبة لا تكون إلا بصبر.

وإذا وجد الهوى وتمكن في القلب وأراد العبد أن يتوب من هذا العمل فإنه سيجد في البداية مشقة، فإذا تجاوزها وصبر -يحتاج إلى صبر كبير- رُجي له أن يستقيم سيره مع الله -تبارك وتعالى.

وكلام أهل العلم فيها كثير، ولعل من المفيد أن نقرأ شيئاً مما ذكره الحافظ ابن القيم ففيه تحقيق بديع ومناقشات، وقد أطال فيها.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان: ٧٠].

"قلت: وهاهنا مسألة، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها وهي: أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً، فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة لكن يجعل مكان السيئة

---

٣ - أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب في القدر (١٢٢/٨)، برقم (٦٥٩٤).

٤ - أخرجه الترمذي، أبواب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٤٤٨/٤)، برقم (٢١٤٠)، وأخرجه أحمد (١٢١٠٧)، وصححه الألباني.

التوبة والحسنة مع التوبة، قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد على من قال هو في يوم القيامة قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري، وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية، قال ابن عطية: وهو معنى كرم العفو، هذا آخر كلامه.

قلت: سيأتي -إن شاء الله- ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه.

قال المهدوي: وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما.

وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: **{يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}** [الفرقان:٧٠] يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً، وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟، فمن قال: إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة، والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تقلب حسنة بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها، فأما أن تنقلب حسنة فلا، فإنها لم تكن طاعة وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب، فكيف تنقلب محبوبة مرضية؟ قالوا: وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، كقوله تعالى: **{رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ}** [آل عمران:١٩٣] ، وقوله تعالى: **{وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}** [الشورى: ٢٥]، وقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}** [الزمر: ٥٣]، والقرآن مملوء من ذلك، وفي الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: **((يُدنَى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على الله -عز وجل))**[٥]، فهذا الحديث المتفق عليه الذي تضمن العناية بهذا العبد إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له في يوم القيامة، ولم يقل له: وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة، فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها، وقد قال الله تعالى في حق الصادقين: **{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الزمر: ٣٥]، فهؤلاء خيار الخلق، وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون، وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها، وأما السيئات فإنها تلغى ويبطل أثرها، وقالوا أيضاً: لو انقلبت السيئات أنفسها حسنات

---

٥ - أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين} [هود: ١٨] (١٢٨/٣)، برقم (٢٤٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢١٢٠/٤)، رقم (٢٧٦٨).

في حق التائب لكان أحسن حالاً من الذي لم يرتكب منها شيئاً وأكثر حسنات منه؛ لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه، وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له؟، قالوا: وأيضاً فكما أن العبد إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها بل يبطل أثرها، ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها، فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فإنها لا تنقلب حسنات، فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته لم ننازعكم في هذا، وليس هذا معنى الحسنة، فإن الحسنة تقتضي ثواباً وجودياً"[٦].

خلاصة ما احتجوا به ثلاثة أشياء، نحاول أن نشترك في حصرها:

الأول: أن النصوص من الكتاب والسنة دلت على أن غاية ما هنالك مما يجنيه الإنسان من التوبة هو العفو والمسامحة وإبطال الذنب، وأوردوا النصوص من الكتاب والسنة، وسمعتم طرفاً منها، وهي كثيرة.

قالوا: ولم يذكر فيها تبديل السيئات إلى حسنات، والجواب عن هذا: هذه الآية فيها تبديل السيئات حسنات، والأحاديث التي سمعتم فيها تبديل السيئات، فهناك أيضاً أدلة أخرى فكيف تُترك وترد بالنصوص الأخرى الدالة على العفو والمسامحة فحسب؟، هذه الحجة الأولى والجواب عنها.

الحجة الثانية: وهي موضع الإشكال الأصلي، يقال: هذا سيكون متقدماً على غيره من المشتغلين بالطاعة، أو على الأقل ممن ترك المعصية واشتغل بالمباح، مع أداء الفروض والواجبات.

والجواب عن هذا هو محل الاختلاف، وما ذكرته من الجواب -والله تعالى أعلم- بالنظر إلى سعة لطف الله ورحمته، حيث إن ذلك لا يمكن أن يقادر، ولكن العبد يبقى بين الخوف والرجاء، وإلا فلو نظر الإنسان إلى نصوص الرجاء آيات وأحاديث لرأى من رحمة الله وسعة فضله الشيء الكثير، والحديث عن التائبين لا يلزم من ذلك أن يفوق هذا وإن كان مطيعاً ابتداء، إذا كان هذا فضله مع المسيء إذا تاب فكيف بفضله مع المحسن إذا وفد عليه؟!، لا مقارنة.

الأمر الثالث الذي احتجوا به: هو من باب اللزوم أو الإلزام، قالوا: إذا كان تُبدل سيئاته حسنات على ما قلتم على الظاهر، ونحن لا نسلم بهذا، بدليل أن المحسن إذا أساء لا تبدل حسناته إلى سيئات.

فصاحب الحسنات إذا حصلت منه إساءة لا تبدل إلى سيئات فكذلك صاحب السيئات إذا حصل منه توبة لا تبدل إلى حسنات.

فيقال: هذا ليس إلينا، إنما الذي يعطي ويمنع ويهب هو الله -جل جلاله-، فأخبر أنه يبدل سيئاتهم حسنات، ومن فضله ولطفه أن الإنسان إذا أساء لا تتحول حسناته إلى سيئات، ومن فضله أنه يبدل السيئات إلى حسنات بعد التوبة، ومن فضله أنه إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وأن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بواحدة، كل هذا من فضله -سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم" "واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة، وهذا إنما يكون في السيئة المحققة وهي التي قد فُعلت، فإذا بُدلت

---

٦ - طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٤٥-٢٤٧).

حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة، قالوا: ولهذا قال تعالى: {سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان:٧٠] فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكّر الحسنات ولم يضفها إليهم؛ لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه، قالوا: وأيضاً فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم، فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال الله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [البقرة:٥٩]، وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال الله تعالى: {وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ} [سبأ:١٦] ، فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح، قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة...))[٧] قالوا: وأيضاً فروى أبو حفص عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليتمنينّ أقوامٌ أنهم أكثروا من السيئات، قيل: من هم؟ قال: الذين بدل الله سيئاتهم حسنات))[٨]، قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنما سموا أبدالاً؛ لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات، قالوا: وأيضاً فالجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقاً.

قالت الطائفة الأخرى: كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر على صحة قولكم وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها في النار حتى كان آخر أهلها خروجاً منها، فهذا قد عوقب على سيئاته فزال أثرها بالعقوبة، فبُدل مكان كل سيئة منها حسنة، وهذا حكم غير ما نحن فيه، فإن الكلام في التائب من السيئات لا فيمن مات مصراً عليها غير تائب، فأين أحدهما من الآخر؟.

وأما حديث الإمام أحمد فهو الحديث بعينه إسناداً ومتناً إلا أنه مختصر، وأما حديث أبي هريرة فلا يثبت مثله، ومَن أبو العنبس ومَن أبوه حتى يقبل منهما تفردهما بمثل هذا الأمر الجليل، وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع شدة حرصه على التنفير من السيئات وتقبيح أهلها وذمهم

---

٧ - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٧٧/١)، رقم:(١٩٠).

٨ - المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كِتَابُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، رقم:(٧٦٤٣)، وصححه الألباني.

وعيبهم والإخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها، فكيف يصح عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه يقول: **((ليتمنينّ أقوام أنهم أكثروا منها))**؟.

ثم كيف يتمنى المرء إكثاره منها مع سوء عاقبتها وسوء مغبتها، وإنما يتمنى الإكثار من الطاعات، وفي الترمذي مرفوعاً: **((ليتمنينّ أقوام يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء))**[9] فهذا فيه تمني البلاء يوم القيامة لأجل مزيد ثواب أهله وهو تمني الحسنات، وأما تمني الحسنات فهذا لا ريب فيه، وأما تمني السيئات فكيف يتمنى العبد أنه أكثر من السيئات؟!، هذا ما لا يكون أبداً، وإنما يتمنى المسيء أن لو لم يكن أساء، وأما تمنيه أنه ازداد من إساءته فكلا.

قالوا: وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة فحق، وكذلك نقول: إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة التي لولا الحسنة لحلت محلها"[10].

أصحاب القول الثاني يقولون: نحمل الآية على ظاهرها، ويحصل تبديل حقيقي؛ لأن الله قال: **{يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ}** فأضاف السيئات إليهم، وقال: **{حَسَنَاتٍ}** فالتبديل فعله -سبحانه وتعالى-، والحسنات لم تصدر منهم وإنما هي فعل الله: **{يُبَدِّلُ}** ولذلك لم يضفها إليهم قال: **{حَسَنَاتٍ}**، وأضاف السيئات إليهم، وقالوا: هذا فعله -سبحانه وتعالى.

والذين اعترضوا على هذا القول قالوا: الحديث الأول في آخر أهل النار، فهو في غير التائب أصلاً، والآية في التائبين، والحديث الآخر وهو التمني، قالوا: لا يصح أصلاً من جهة الإسناد ومن جهة المتن، هذا مخالف لما عُلم من النصوص الكثيرة التي تحث على الطاعة وتحذر من المعاصي وسوء مغبتها.

قال ابن القيم: "قالوا: وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة، وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله فهذا حق بلا ريب، ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارناً لكسبهم إياها بفضله؟.

قالوا: وأما قولكم: إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف لا أنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها فهذا لا دليل لكم فيه، فإن الله خالق أفعال العباد فهم المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً، وهم المبدلون لها فعلاً وكسباً"[11].

وكذلك إضافة السيئات إليهم باعتبار أنهم قارفوها فنسبت إليهم، والحسنات باعتبار أنها من الله وهبهم إياها، فلم تضف إليهم.

---

٩ - أخرجه الترمذي (٤/٦٠٣)، رقم:(٢٤٠٢) بلفظ: ((يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)) وحسنه الألباني.

١٠ - طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٤٧-٢٤٩).

١١ - المصدر السابق (ص: ٢٤٩).

قال ابن القيم: "قالوا: وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك في صحف الأعمال فهذا حق وبه نقول، وأنه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة أن تحل في الصحف بحسنات حلت موضعها, فهذا منتهى إقدام الطائفتين ومحط نظر الفريقين.

وإليك أيها المنصف الحكم بينهما، فقد أدلى كل منهما بحجته وأقام بينته، والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما، فأرشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين إلى الله القائمين ببيان حجته ودينه، أو عذر طالباً منفرداً في طريق مطلبه قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق، فغاية أمنيته أن يخلي بينه وبين سيره، وأن لا يقطع عليه طريقه، فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه فقد رضي بالدون، وحصل على صفقة المغبون، ومن شمر إليه ورام أن لا يعارضه معارض ولا يتصدى له ممانع فقد منى نفسه المحال، وإن صبر على لأوائها وشدتها فهو والله الفوز المبين والحظ الجزيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فالصواب -إن شاء الله- في هذه المسألة أن يقال: لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنما هي أمر وجودي يقتضي ثواباً؛ ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكف والحبس أمر وجودي وهو متعلق الثواب، وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً ولم يحدث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه؟، ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى، فإن الترك مستصحب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب على ذلك كله؟ هذا مما لا يتوهم، وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمراً وجودياً فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كل ذنب منها ندماً عليه وكف نفسه عنه وعزم على ترك معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم وهو حسنة، قد بدلت تلك السيئة حسنة، وهذا معنى قول بعض المفسرين: يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة، فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلت مكانها، فهذا معنى التبديل، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة"[١٢].

ابن القيم -رحمه الله- يقول: الحسنة أمر وجودي، والترك بمجرده أمر عدمي، فإذا كان الإنسان لم يخطر بباله الذنب أصلاً فلا يقال: إنه يجازى، يعني: أنتم الآن جالسون هنا هل يقال: الحسنة تنكتب عليكم لأننا مثلاً ما قارفنا كذا ولا قارفنا كذا من السيئات التي هي بالملايين أنواع؟ لا يقال هذا، لكن من هَمّ بالسيئة فتركها خوفاً من الله -عز وجل- كتبت له حسنة، فالحسنة أمر وجودي، وهذا الهم أمر وجودي والكف خوفاً من الله أمر وجودي، فلما تاب وكف نفسه عن المعصية التي كان يعملها صار ذلك حسنة، كَفٌّ النفس، والتوبة، والإقلاع عن الذنب، والعزم ألا يعود إليه، هذه شروط التوبة، فهذه حسنات يجازى عليها، فابن القيم يحمل الآية على غير الظاهر المتبادر ويقول: {يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} أي: مكان كل ذنب توبة والتوبة أمر وجودي فيه كف للنفس وصبر عن المعصية وإقلاع عنها فذلك حسنة، فيجد يوم القيامة كل سيئة تقابلها هذه الحسنة التي حصل بها ما سبق، هذا كلام ابن القيم، وهو كما سبق أوجه من القول الذي يقول: اشتغلوا بالطاعات وصارت أنفاسهم مصروفة فيها؛ لأن الكلام يوم القيامة.

---

١٢ - المصدر السابق.

قال ابن القيم: "وقال بعض المفسرين في هذه الآية: يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة، وعلى هذا فقد زال -بحمد الله- الإشكال واتضح الصواب، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة.

وأما حديث أبي ذر -وإن كان التبديل فيه في حق المصر الذي عُذب على سيئاته- فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته.

فإن الذنوب التي عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة؛ لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لا يقتضي زوال أثرها وتبديلها حسنات"[١٣].

إذن ندمه يوم القيامة أصلاً لا ينفعه، فالله يعطيه حسنات مكانها بعدما عذبه، وهو لم يتب، والآخرة دار جزاء، وتوبته في الآخرة لا تغني عنه، فأعطاه تفضلاً منه حسنات مكانها، ومثل هذا الاحتجاج يمكن أن يحتج به على القول الذي يحمل الآية على ظاهرها، وقال: إذا كان هذا في غير التائب وبدلت سيئاته حسنات فالتائب من باب أولى، غير التائب بعدما عذب.

العلم أحياناً يضر، مثل الطعام والشراب أحياناً يضر، فقد يهلك الإنسان بسبب أكلة أكلها أو شربة شربها، فكذلك العلم، قد يَهلك الإنسان بسبب العلم أحياناً، الذي يأخذه بغير وجهه ويأتي ويقول: لماذا يبدل الله السيئات؟ المسألة فيها كلام كثير.

نقول: هذا في التائب، وما يدري الإنسان أنه يتوب أيضاً لو قال: أنا سأتوب، ثم أيضاً إذا التبس علينا موضع فالطريق الصحيح في النظر والاحتجاج أن نرجع إلى المحكمات، يعني: تبقى هذه الآية بالنسبة لمن وقع عنده إشكال فيها أنها من قبيل المتشابه النسبي، المتشابه يرد إلى الأصول المحكمات، والأصل الكبير المحكم: أن الأمة على هذه المراتب الثلاث: السابق بالخيرات في أعلى الدرجات قطعاً، والمقتصد دونه، والظالم لنفسه دونه، فمن تاب محيت ذنوبه، غاية ما هنالك أنه ينظر في عمله بعد هذا هل هو مقتصد بعد التوبة أو سابق بالخيرات؟ فلا يرِد إطلاقاً أن هذا الإنسان الذي تاب يصير إلى أعلى الدرجات بسبب كثرة الذنوب التي بدلت إلى حسنات.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: **ثم قال الله تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى:** {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: ٧١]، أي: **فإن الله يقبل توبته.**

---

١٣ - المصدر السابق (ص: ٢٥٠).

يتوب إلى الله متاباً يعني: يقول: يقبل توبته، يعني: يمكن أن يقال: يتوب إلى الله متاباً أي: يرجع إلى الله رجوعاً صحيحاً، وهذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو من لازم المعنى، بمعنى: أنه إذا رجع إلى الله رجوعاً صحيحاً قبل الله توبته.

{وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: ٧١]، هذا هو الذي قد رجع رجوعاً صحيحاً؛ لأن الرجوع منه ما هو صحيح ومنه ما هو غير صحيح، والرجوع غير الصحيح هو الذي لم يستوفِ الشروط، فمن كان متراخياً يقول: لو حصّلتُ مرة ثانية سأعمل المعصية، فهذا لم يتب إلى الله متاباً، وما رجع إليه رجوعاً صحيحاً، وقل مثل ذلك في الذي لم يندم، كلما تذكر المعصية سُرّ والتذّ بها، فهذا كيف يقال: إنه تائب؟، هو مغتبط بها في الداخل، فرِحٌ أنه حصلت له هذه وتيسرت، فهذا لم يتب إلى الله متاباً، فلابد من تغير حال هذا الإنسان، وخذ مثالاً من أصحاب المخدرات، فكثير من الأخوات تسأل: تقدم لها شخص يتعاطى وقال: إنه تاب، أقبلُ به أو لا؟

الجواب كالآتي: تاب وعولج في المستشفى، وسحبت هذه من جسمه، جاء تقرير طبي أنه سليم الآن، هذا كله ما يكفي؛ لأن الإحصاءات والدراسات كلها تدل على أن غالب هؤلاء يرجعون من جديد، وقد رأيت عدداً من هؤلاء الناس يقولون: خلاص هذا ترك وتاب، وتراه يدخن، إذا رأيت وجهه تقول: نسأل الله العفو والعافية، ما تستطيع تنظر إلى وجهه، وجهه مظلم أسود، يدل على أنه ما تاب توبة صحيحة، فهي المسألة عنده لربما حسابات مادية معينة، قُبض عليه، أو زواج أو أسرة أو ضغوط أو خوف من العقوبة أو الأمراض الناشئة عن هذا أو التحطيم أو الانقطاع من منافعه ومصالحه في الحياة الدنيا، لا عمل ولا كسب ولا شيء ينهض به، لكن إذا نظرت إلى حاله مع الله بعيد كل البعد، قد يصلي وقد لا يصلي، مثل هذا بلا تردد نقول: ما تقبلينه؛ لأن هذا توبته فيها نظر، ويرجع بعد أيام أو شهور غالباً، غير مأمون، والواقع يدل على هذا، والذي ممكن أن يقبل به: الذي تغير حاله وأقبل على الله سبحانه، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، هذا في قوله: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} فهذا الذي تاب إلى الله حقيقة، ورجع رجوعاً صحيحاً.

لا يلتبس عليكم من كان أصلاً مشتغلاً بالطاعات فعمل معصية، فيكفيه أن يقلع عنها ويندم إلى آخر الشروط المعروفة، وهو أصلاً مقبل على الله، لكن الكلام في من كان معرضاً عن الله تعالى، مثل أصحاب المخدرات، هؤلاء هم أبعد الناس عن الفضيلة، كل رذيلة يمكن أن يقارفها بلا استثناء، إنسان لا ينفع المجتمع ولا ينفع نفسه ولا ينفع أهله، خطر على المجتمع، خطر على أهله، خطر على نفسه، بكل سهولة تجده لو سألت واحداً من هؤلاء -نسأل الله العافية- تجد عنده عدة محاولات للانتحار، يُظهر لك يديه، مشرّطة يداه، ويحكي لك عدة من المحاولات التي حاول فيها أن ينتحر، خطر على نفسه هو، وخطر على من معه، والذين ابتلوا من النساء تسمع منهن ما يحصل لهم، ما يحصل لأولاده من أطفال، خطر، بعض النساء تقول: أتركه يفعل ما يشاء في المعاشرة من أجل أن يذهب كل ما في رأسه، تقول: يقوم يوهمني أنه يغتسل فأشك وأذهب وأجده على البنت، هذا بهيمة، بل البهيمة تترفع عن هذا، البهيمة أكرم منه وأشرف منه، فما يُؤمَن على شيء، يبيع بنته، يبيع ولده، يبيع زوجته، يبيع كل شيء، يسرق من متاع أهله، مرة التلفزيون مسروق،

الفيديو مسروق، الدفاية مسروقة، تختفي الأجهزة من البيت، يبيعها لأجل أن يحصل على حبة، فإذا ما وجد شيئاً يسرقه جاء بالمسدس وعلى رأس أمه مثلاً: هاتي، والله لأقتلنكم كلكم، يهدد بقتل كل الأسرة، مثل هذا لابد أن تتحول توبته إلى إقبال على الله -تبارك وتعالى.

أخبرني أحد الإخوان أن أحد المشايخ جاء العشاء وما كنت موجوداً، هذا الرجل من أهل العلم لم ألقه من قبل، معروف لكن ما التقينا، ما أعرف صورته -هيئته ووجهه-، فلما جاء الفجر وإذا بشخص جالس أمامي في الدرس سمته حسن وهيبة وبهاء وإشراق في الوجه، يعني عمره يقارب الأربعين أو يزيد، فما كنت أشك أن هذا هو الشيخ الذي جاء في الليلة الماضية، ثم انتهى الدرس جاء سلم وعانقني وسلمت عليه على أن هذا فلان، قال: ممكن نجلس، تفضل الله يحييك، أهلاً وسهلاً، جلسنا، ولما جلسنا قال: لا يغرك مظهري هذا الآن، هذا ما صار له إلا أشهر، قلت: خير إن شاء الله، فذكر أنه مروج مخدرات، وأنه تاب وعنده سؤالان يريد أن يسأل عنهما، يقول: كنت على وشك أن أهاجر إلى إحدى الدول، سماها دول إسكندنافيا، حتى أنا استوقفته وسألته ظننت أنه صار عنده غلو، يعني بعض الناس قد يحصل له يعني شيء من الغلو أحياناً، فيقرر أن يهاجر من هذه البلاد ويعتقد أنها هجرة شرعية إلى دولة كافرة، قلت له تهاجر من هنا؟ قال: قبل التوبة كنت سأهاجر هجرة سيئة، هجرة حيث في زعمه الحرية المطلقة، يقول: له صاحب ذهب قبله ليرى الحال هناك والإمكانات، فيقول: اتصل عليّ وقال: تعال، يعني: تجد راحتك، يقول: كنت سأهاجر خلاص سأعيش هناك، من أجل أن يفعل ما يريد، فجاءه بعض الناس ممن يشتغلون بالدعوة مثل هؤلاء ولهم أساليب في جذبهم وما يوردونه عليهم من الرقاق والوعظ وما أشبه ذلك، الشاهد أن الرجل جاء ليسأل سؤالين:

السؤال الأول عن ديون –أموال- يطالب بها، هل أعطي أصحابها هذا المال وهم أصحاب مخدرات أو أتصدق به أو ماذا أفعل به؟

والسؤال الثاني: أن أحد هؤلاء لما سجن يقول: كانت لي وقفات معه من قبل، فعنده سيارة لكزس فأعطاني إياها كهدية، فيقول: هل لي أن آخذ هذه السيارة أو لا؟ وهو أخذها واكتسبها من المخدرات.

إذا رأيتَه لا تصدق أن هذا الإنسان كان على فساد وفسق، كنت أظنه عالماً، ففوجئت لما قال لي: لا تغتر بهذا.

والآخر جاء في المكتب في الكلية ولما دخل رحبت به، وقدمت له الشاي، فاستغرب، فقال: أنا طالب عندكم في الكلية، قلت: أهلاً وسهلاً ومرحباً تشرفنا، حياك الله، شكله وهيئته وكذا ما كأنه طالب، فلما عرّفني باسمه قال: هذه الهيئة التي تراها هذه صار لها فقط ما يقرب من سنة، وذكّرني بأمر كان لما عرضت قضيته كان كلام الجميع ممن عُرض عليهم أمره يدل على أن هذا الإنسان ميئوس منه، هو ذكر هذا، قال: لو عرفتني قبلُ ورأيتني قبلُ كلُّ شيء يخطر في بالك أفعله، وذكر توبته وما حمله على هذه التوبة، ويقول: وتغيرت حالي تماماً.

وهذا الرجل كان مفصولاً، ثم بعد ذلك اقترحت أن يُعطَى هذا فرصة لأننا ندفع الناس للأمام ونبني، ففعلاً أعيد إلى الكلية وطلع الطالب المثالي في الكلية، وتخرج على أحسن حال، وكان من أفضل الطلاب الذين

عرفتهم، وإذا رأيته لا يمكن أن تقول: هذا كان في تلك الحال السابقة، وغير هذا كثير، فيُقبل على الله إقبالاً صحيحاً، والأمثلة على هذا كثيرة.

اتصل قبل أيام شخص كان يبكي، يبكي بكاء لا تكاد تفقه ما يقول، فيقول: كان على حال من البعد عن الله -عز وجل-، يقول: لا تستثنِ شيئاً، كل شيء يخطر في بالك من العظائم قارفه، يقول: فمن الله عليّ بالتوبة، فذكر أشياء تعجبت منها، منها: يقوم الليل كل يوم ويبكي ويتضرع، هو يذهب إلى المسجد قبل أذان الفجر بأربعين دقيقة على الأقدام، يذهب إلى مسجد يؤذن فيه على قدميه، فهو يبكي يقول: أخشى أني لم أصدق مع الله، السبب: أنه اشتغل بشغلة إضافية أثرت على قيام الليل وقراءة القرآن.

فقال تعالى: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: ٧١] أي: **فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى:** {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء: ١١٠] **الآية، وقال تعالى:** {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ..} [التوبة: ١٠٤] **الآية، وقال تعالى:** {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ..} [الزمر: ٥٣] **الآية،** أي: **لمن تاب إليه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفرقان من الآية (٧٢) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [سورة الفرقان:٧٢-٧٤].

وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن أنهم: {لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} وهو الكذب، والفسق، واللغو، والباطل.

وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا.

وقيل: المراد بقوله تعالى: {لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما في الصحيحين عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر؟، ثلاثاً))، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت))[1].

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرُّوا ولم يتدنسوا منه بشيء؛ ولهذا قال: {مَرُّوا كِرَامًا}.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} العبارة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي قوله: **وهو الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل**، عبارة جامعة، جمع فيها بين أقوال المفسرين في هذه الآية، فالكذب يعني: شهادة الزور، وكل كذب أيضاً فهو زور؛ لأنه خلاف الحقيقة، وما كان خلاف الحقيقة فهو زور، وشهادة الزور داخلة فيه بهذا الاعتبار دخولاً أولياً، وأما الفسق والكفر والخنا والباطل وما أشبه ذلك فيشمل كل باطل أياً كانت مرتبته، سواء كان ذلك يتصل بالأقوال أو الأفعال أو الأحوال، فهم لا يقارفون شيئاً من ذلك، ولا يتدنسون بشيء من أواصره؛ ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذه العبارة الجامعة، وقال في آخر كلامه: **والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي: لا يحضرونه**، فكلامه الأول يبين فيه معنى الزور من حيث هو، فهو يشمل هذه الأشياء جميعاً، لكن هنا السياق عند ابن كثير

١- رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، برقم (٢٦٥٤)، وبرقم (٥٩٧٦)، في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧).

-رحمه الله- يحدد أحد هذه المعاني: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}، واللفظة قد تحتمل معاني متعددة من حيث اللغة تدل عليها، ولكن السياق قد يحدد المراد بأحد هذه المواضع، بأحد هذه المعاني، هذا من حيث الأصل لا إشكال فيه، يبقى النظر في كل مثال بحسبه، فابن كثير -رحمه الله- نظر إلى لفظة يشهدون، فهي محتملة لمعنيين: المعنى الأول: بمعنى الحضور، تقول: شهدت جنازة فلان بمعنى: حضرت، والمعنى الثاني: يشهدون من الشهادة القولية، شهادة الزور وما لف لفها مما يخالف الحقيقة بالمعنى الأعم، يعني الكذب مثلاً، لا يصدر منهم ذلك؛ لأن الكذب زور، فلفظة شهد تحتمل المعنيين، وأما لفظة الزور فإنها تصدق على المعاني الأولى التي ذكرها، ومن هنا اختلف السلف أو تنوعت عبارتهم إن قلنا: إنه اختلاف تنوع، لكن صنيع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ظاهر في أنه يدل على أن الاختلاف في نظره اختلاف تضاد يحتاج إلى ترجيح، القرينة التي رجح بها هي {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} هذه قرينة عنده بأن شهادة الزور هنا بمعنى الحضور، {يَشْهَدُونَ الزُّورَ} يحضرونه، فيحضرونه وإذا مروا بالباطل يمرون مترفعين متنزهين لا يتلطخون بشيء من دنائسه وأوباره، هذه القرينة عند ابن كثير -رحمه الله-: {لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ}.

وإذا نظرنا إلى الآية باعتبار أنها تحتمل هذا وهذا من حيث لفظة يشهدون ومن حيث لفظة الزور يمكن أن يقال بأن كلام السلف -رضي الله عنهم- إنما هو من قبيلٍ يمكن أن يجمع بينه، قد نقول: إنه من قبيل التمثيل، وإن كان هذا لا يقطع به في هذا المثال؛ لأنه يمكن لقائل أن يقول: {لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} بمعنى الشهادة المعروفة شهادة الزور، ولا يقصد بذلك في حال من الأحوال الحضور -حضور الباطل-، ويمكن لقائل أن يقول: إن الشهادة بمعنى الحضور ، كما فعل ابن كثير فيكون اختلاف تضاد، والذي أظنه أقرب -والله أعلم- أن الآية تُحمل على هذا جميعاً؛ لأنه لا يوجد دليل في ظني، ولا قرينة واضحة تدل على إرادة أحد المعنيين، والآية تحتمل ذلك جميعاً، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وشهادة الزور لربما تكون متبادرة من قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} سابقة إلى الذهن، فهي إلى الذهن أسرع من حضور مجالس الباطل، وليس ذلك لمعنى طارئ بمعنى أنه عرضٌ لحادث، ولكن شهادة الزور مشهورة ومعروفة بهذا منذ نزول القرآن والحديث في هذا: ((ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور))، فإذا ذكرت شهادة الزور فإن الذي يسبق إلى الأذهان هي الشهادة المعروفة.

وحملُ الآية على هذه المعاني جميعاً -والله تعالى أعلم- أظنه أقرب، مع أن الجمهور قالوا بقول ابن كثير: {لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} يعني: لا يحضرونه، فيدخل في هذا أعياد المشركين، كما استدل به جماعة من أهل العلم، وذكر هذا شيخ الإسلام في الاقتضاء، حضور أعياد المشركين، وحضور المناسبات البدعية كالموالد والمآتم البدعية لمناسبات مقتل الحسين -رضي الله عنه-، أو غير ذلك من المجالس المبتدعة والمناسبات التي لا تقتصر على كونها بدعة من حيث قصد إحيائها، بل أيضاً تشتمل على باطل وربما كان من قبيل الشرك الأكبر، ويدخل في هذا مجالس المعصية عموماً، مجالس الطرب والغناء المحرم، سواء كان ذلك في مناسبة زواج في غير ما يرخص به من الدف للنساء، أو كان غير ذلك، ويدخل فيه كل مجلس من مجالس الباطل أياً كان نوع الباطل الذي تعلق به، قد يكون هذا الباطل بسبب مجالس تشريعية يشرع فيها أحكام

مخالفة لأحكام الله -عز وجل-، هذا داخل فيه، وقد يكون هذا الباطل بغيبة ولغو، ولربما كان هذا الباطل من قبيل المشاهدات، مشاهدة في القنوات السيئة، وبعض الناس يسأل هذه الأيام عن مشاهدة القنوات التي تعرض أو ما يُعرض في بعض القنوات من لطم أو ممارسات يخجل منها العاقل مما يصنعه الرافضة بمثل هذه المناسبات، فهذا لا يجوز للإنسان أن يحضره مباشرة، ولا أن يتشاغل بالنظر إليه قصداً، يفتح هذه القناة ويجلس يتفرج عليهم، فإن إنكار المنكر يقتضي مفارقته، وينكر بقلبه وهذا يسمى بالإنكار القلبي، لا تستطيع أن تغير بيدك ولا بلسانك فلا أقل من المفارقة، فبغضهم وكراهيته تعني التباعد عنه، والإنسان يفتحه وينظر إليه!، ولا فرق بين مثل هذا -إذا قلنا: إنه محادة لله -عز وجل- ومعصية- وبين من ينظر إلى أفلام إباحية -أعزكم الله-، فهذا باطل وزو وهذا زور، فلا ينظر الإنسان إليه ولا يتشاغل به.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قول الله تعالى ذكره: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ...} الآية.

قال محمد بن الحنفية: الزور هاهنا الغناء، وقاله ليث عن مجاهد.

وقال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل.

واللغو في اللغة: كل ما يلغى ويطرح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل، وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه أو يميلوا إليه، ويدخل في هذا أعياد المشركين -كما فسرها به السلف- والغناء وأنواع الباطل كلها.

قال الزجاج: لا يجالسون أهل المعاصي ولا يمالئونهم عليها، ومَرّوا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو؛ لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهله، وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [سورة القصص:٥٥]، وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصاً فمعناها عام متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه وقال بقلبه أو لسانه لأصحابه: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.

وتأمل كيف قال سبحانه: {لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [سورة الفرقان:٧٢]، ولم يقل بالزور؛ لأن يشهدون بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور فكيف بالتكلم به وفعله؟!

والغناء من أعظم الزور، والزور: يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل"[٢].

فكيف بالتكلم به؟ التكلم به يدخل فيه شهادة الزور، وكذا أيضاً الكذب، وكذا الغناء، كل ما يتكلم به الإنسان، فهو يرى أن هذا من باب أولى، أن هذا داخل في المعنى لا من جهة تناول اللفظ مع النظر إلى قرينة السياق ابتداء وإنما من باب دلالة اللزوم، والقرآن تسلط عليه أنواع الدلالة الست؛ لأنه كلام الله -عز وجل- الذي لا تخفى عليه خافية، ومن ثَم فإن المعاني التي تستخرج منه تستخرج بدلالة المطابقة والتضمن والالتزام... إلى غير ذلك من أنواع الدلالة، بمنطوقها ومفهومها.

فكلام ابن القيم -رحمه الله- دقيق أدخل شهادة الزور بهذا باعتبار أنه من باب أولى، اللفظ والقرينة التي ذكرها أقوى مما أشار إليه ابن كثير -رحمه الله-، قال: {لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} الشهود بمعنى الحضور... قال:

---

٢ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٢٤١/١-٢٤٢).

{لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} لا يشهدون بالزور، ولكن الشهود بمعنى الحضور، يشهدون الزور، تقول: فلان شهد زوراً، ويأتي بمعنى الشهادة المعروفة أيضاً، ويتعدى بنفسه ويتعدى بالحرف.

وقال -رحمه الله-: "والغناء من أعظم الزور، والزور يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل وعلى العين نفسها، كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: هذا الزور"(٣).

هذا الزور بمعنى أنه يلبّس بها.

فالزور: القول والفعل والمحل.

وأصل اللفظ من الميل، ومنه الزَّوَر بالفتح، ومنه: زرت فلاناً إذا ملت إليه وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً، فكيف أدخل فيه هذه المعاني جميعاً؟!، وهذا أحسن من ترجيح أحد هذه الأقوال على الآخر، والله أعلم.

وابن جرير -رحمه الله تعالى- يقول: " القول في تأويل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}، اختلف أهل التأويل في معنى الزور الذي وصف الله هؤلاء القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله"(٤).

وقال -رحمه الله-: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مرّوا كراماً، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح، فسبُّ الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو"(٥).

وقال -رحمه الله-: "فإذا كان ذلك كذلك فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل لا شركاً، ولا غناء، ولا كذباً ولا غيره، وكلّ ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عمّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل"(٦).

قوله: "من خبر أو عقل" يعني كالقرائن؛ ولذلك ابن جرير -رحمه الله- يحملها على شهادة الزور وحضور مجالس الباطل، وكذا التفوه بالكذب، كل باطل فهو زور بهذا الاعتبار أخذاً من العموم، وهذا معنى يحتمل هذه الأشياء، والله لم يخص أحد هذه المعاني، ولا دليل عندنا للتخصيص، فنحمله على الجميع، {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}.

وقوله: {مَرُّوا كِرَامًا} مروا باللغو، واللغو أيضاً يشمل الباطل بأنواعه، نعم، بحيث إنهم لا يحضرونه ولا يشاركون فيه ولا يصدر منهم، وإذا مروا به مروا كراماً مترفعين عنه، لا يلابسون شيئاً منه ولا يشاهدونه ولا يقفون عنده، مروا كراماً، فهذه في هذا السياق، هذه الآيات تذكر صفة عباد الرحمن في مشيتهم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [سورة الفرقان:٦٣] فهم لا

---

٣ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٢٤٢/١).

٤ - جامع البيان، للإمام الطبري، تحقيق: شاكر (٣١٣/١٩).

٥ - المصدر السابق (٣١٥/١٩).

٦ - المصدر السابق (١٩/ ٣١٤).

يردون على هؤلاء بمثل قولهم من السباب والشتائم ونحو ذلك، وهم أيضاً لا يحضرون الباطل ولا يصدر عنهم، وكذلك أيضاً إذا مروا به مروا متعففين مترفعين.

ويؤخذ من هذا أن أهل الكمالات لا يقفون عند أفعال أهل السفه، لربما تُصادف في طريقك أناساً من السفهاء لربما يتشابكون بالأيدي ويتشاتمون ويسبون، ويجتمع عليهم كثير من الناس يتفرجون وينظرون، فمثل هؤلاء إذا مروا باللغو مروا كراماً، يمر مترفعاً عن ذلك كله.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} وهذه أيضاً من صفات المؤمنين، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة الأنفال:٢]، **بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}** [سورة التوبة:١٢٤-١٢٥].

فقوله: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى.

قوله: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} الخرور معروف، تقول: خر ساجداً، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {خَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [سورة ص:٢٤] راكعاً بمعنى ساجداً، تقول: خر لليدين وللفم، يعني خر على وجهه، فخر على يديه وفمه سقط قتيلاً في أرض المعركة، خر صريعاً بمعنى وقع وسقط، فهنا {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} السياق يدل على أن المراد أن هذه الآيات تؤثر فيهم ولا يقابلونها بالإعراض والغفلة، وإنما تقع في نفوسهم موقعاً، وقد لا يدل بالضرورة على أن هؤلاء إذا سمعوا أو ذُكروا بالآيات أنهم يخرون إلى الأرض يقعون للسجود مثلاً، {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا}؛ لأن ذلك لا يُطلب بكل حال، من سمع الآيات إذا مر بآية سجد فهذا لا يجب، {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} بمعنى: لا يقع، لا تكون حالهم كذلك، يقابلونها بنوع إعراض وتجاهل أو غفلة، هذا الذي يفهم من السياق، -والله تعالى أعلم-، {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}.

والله -تبارك وتعالى- قال: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [سورة مريم:٥٨]، وهنا قال: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا} لا يسمعون، {وَعُمْيَانًا} لا يبصرون، فهنا {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}، وعمر -رضي الله عنه- لما سجد قال: هذا السجود فأين البكاء؟ فهناك إثبات السجود، والبكاء والتأثر، وهنا: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا} لم يخروا عليها، مفهوم المخالفة، لو أراد أن يتعنت بشق الشعرة والشعيرة في الألفاظ قد يقول: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا} أنهم يخرون لكن بغير هذه الصورة، {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا} مفهوم المخالفة خروا من غير صمم ولا عمى، يعني: هل هؤلاء الذين يخالفون صفة عباد الرحمن مثلاً يخرون لكن صماً وعمياناً، هل هذا هو المراد؟ أن مَن جانبَ صفة عباد الرحمن من الكفار والمنافقين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا صماً وعمياناً، هل هذا المراد؟ لا، ولا يقع منهم خرور أصلاً؛ ولهذا يفهم منه -والله تعالى أعلم- أن المقصود أنهم لا يقابلونها بالغفلة، لا يقابلون ذلك بالغفلة.

بعض الألفاظ تستعمل في مثل هذه المعاني، والعرب يتوسعون في الكلام، يعني مثلاً الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [سورة الإسراء:٢٩] تقعد، القعود خلاف القيام، فهل المقصود القعود حقيقة أو المقصود أنك تبقى في حال لا تستطيع فيها التصرف في شئونك ومصالحك، منقطع، محصور من الانقطاع؟، {لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ} [سورة الإسراء:٢٢]، نعم فتقعد، فالقعود هل المراد به خلاف القيام؟، لا زال الناس يستعملون بعض هذه الألفاظ إلى اليوم، فعندما يتورط الإنسان بشيء فعله يقولون: قعد به، فلان قعد بهذه المشكلة، فليس المراد أنه جلس كذا في القيام، وهنا "تخر" "يخروا" تستعمل فيما هو أوسع من الفعل المعروف، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى ذكره: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ...} الآية، قال مقاتل: إذا وُعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صُماً لم يسمعوه، وعمياناً لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به، وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صماً وعمياناً بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبي: يخرون عليها سمعاً وبصراً، وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه، فذلك الخرور"[٧].

لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوا، المعنى: أنهم تأثروا به.

وقال: "وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني، والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صماً وعمياناً، وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} سامعين مبصرين كما أمروا به"[٨].

فهنا أخذ ظاهر اللفظ خر: السجود.

وقال -رحمه الله-: "وَقَالَ ابْن قُتَيْبَة: أَي: لم يتغافلوا عَنْهَا كَأَنَّهُمْ صم لم يسمعوها، وَعمي لم يروها.

قلت: هَهُنَا أَمْرَانِ ذكر الخرور، وتسليط النَّفْي عَلَيْه، وَهل هُوَ خرور الْقلب أَو خرور الْبدن للسُّجُود؟ وَهل لِمَعْنى لم كن خرورهم عَن صمم وَعَمه فلهم عَلَيْهَا خرورا بِالْقَلْبِ خضوعاً، أَو بِالْبدنِ سجوداً، أَو لَيْسَ هُنَاكَ خرور وَعبر بِهِ عَن الْقعُود؟"[٩]

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} [سورة الفرقان:٧٤] يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة.

يقول: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} أي: من يعمل بطاعته فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة، {هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} من أزواجنا، "مِن" هذه ليست تبعيضية وإنما بيانية، هي بمعنى أنهم لا يريدون أن يكون بعض الزوجات وبعض الأولاد تحصل به قرة العين، وإنما أن

---

٧ - الفوائد لابن القيم (ص:٨٠).

٨ - المصدر السابق.

٩ - المصدر السابق (ص:٨٠-٨١).

يكون أزواجهم وذرياتهم كذلك، {هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} ولا شك أن قرة العين تحصل بصلاحهم، وإذا كان الولد أو الزوجة شقية أو شقيا بعيدا فإن ذلك يكون سبباً لشقاء الوالد؛ ولهذا لا يسأل الإنسان ربه أن يرزقه الولد هكذا سؤالاً مطلقاً، وإنما الأحسن أن يسأله أن يرزقه ولداً صالحاً، أن يرزقه ما تقر به عينه، -والله تعالى أعلم-، وإن كان ظاهر الآية هنا ليس بسؤال الولد وإنما سؤال قرة العين في الأولاد والذرية والأزواج.

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجبُ لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- أقوامٌ أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي -صلى الله عليه وسلم- على أشد حال بَعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة من جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل، وفَرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}(١٠)، وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

بمعنى: أن المقداد -رضي الله عنه- يقول: إن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان الرجل يرى ولده على خلاف دينه وزوجته على خلاف دينه، وهذا لا تحصل به قرة العين: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا} إنما يكون ذلك بالإيمان، أي: يخرج الله من أصلابهم أهل إيمان وصلاح وتقوى تقر بهم العين، ويدخل في هذا ما يحصل به كمال ذلك من البر للضرورة؛ لأن هذا من الصلاح، ولد بار صالح وزوجة مطيعة، فإنها إن كانت صالحة مستقيمة فلابد أن تكون مطيعة لزوجها، بذلك تحصل قرة العين، وأما ما يحصل من خلاف ذلك فهو خلاف التقوى، يعني: قد يُبتلى الإنسان بامرأة تزعم أنها طالبة علم، وتُقَمِّش وتقرأ في الكتب -بعض النساء قد يحصل منها هذا وليس الكل- فإذا تزوجها بقيت تجادل في كل شيء، فإذا قال لها: تذهبين لأهلي، قالت: لست مأمورة ببرهم وليسوا من أرحامي، الله أمرني بصلة الرحم، وهؤلاء ليسوا من الرحم الذي يجب وصلها، وإذا قال لها: تهيئين البيت وتصنعين الطعام وكذا، قالت: هذا لا يجب، وإنما ذلك للخادم، وهكذا في كل قضية تبقى تجادل، هات الدليل، أرضعي الولد، لا يجب عليّ الإرضاع سأحافظ على رشاقتي وأناقتي، أو أعطني أجرة على الرضاع؛ لأن المرأة لا يجب عليها، وتحضر له كلام أهل العلم، فهذه لا تكون قرة عين.

---

١٠ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٨١٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير يعمر بن بِشْر، وهو ثقة"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٥٥٢)، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٨٢٣).

وقوله تعالى: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير.

وقال غيرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية))[11].

قوله: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** إماماً هنا مفرد، نعم والكلام في الجمع، **{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ}** والذين، **{وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}**، جمع **{وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ}**، **{وَاجْعَلْنَا}** ولم يقل: واجعلني **{لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** فقابل الجمع بالمفرد، فبعض أهل العلم ذكر أن ذلك باعتبار التقسيم: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** أي: كل واحد منا إماماً، فأفردها، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: إماماً بمعنى الجنس، وهو يصدق على الواحد والجمع، وهذا كثير، كما في قوله تعالى في سورة النور: **{أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}** [سورة النور:٣١] يعني: الأطفال، **{ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}** [سورة غافر:٦٧] يعني: أطفالاً، وهكذا، سواء كان هذا الجنس بالإضافة أو من غير إضافة، فإنه بمعنى الجمع.

قوله: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** أي: أئمة، ليس المراد بهذه الآية طلب الرئاسة والتقدم على الناس في هذه الأمور، وطلب العلو في الأرض، ليس هذا المراد، وإنما المراد الإمامة في الخير، كما في قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة قال: **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** [سورة البقرة:١٢٤] ليس معناه ملكاً أو حاكماً، وإنما: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}** [سورة النحل:١٢٠] فهو الرجل المقتدى به الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره.

قال: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** [سورة البقرة:١٢٤] يعني: أئمة، اجعل أئمة، قال: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** عهد الله بالإمامة، فقد يفهم بعض الناس أن المراد بهذا: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** يعني: بالولايات، والسلطان والملك، وليس هذا هو المراد؛ لأن هذه الولايات تكون للمؤمن والكافر، فلا يشكل هذا، يعني قد يقول قائل: قال: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** ونجد كثيراً من الظالمين تكون لهم الولاية والسلطان!، ليس هذا هو المراد، وإنما **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** يعني: يقتدى به في الخير، قال: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** قال: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** فهؤلاء لا تكون لهم الإمامة في الدين، ولو كان منتسباً للعلم، فما كل منتسب للعلم يصلح للإمامة في الدين؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [سورة التوبة:٣٤] يعني: خلاف الإمامة الحقيقية، فهنا: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** هذا تعليم من الله -عز وجل- لأهل الإيمان بهذا الدعاء، بمعنى أن يكون صالحاً، وأيضاً أن يكون مصلحاً يقتدى به، فليس هذا من الرئاسات في شيء، وأرجو أن يكون المعنى واضحاً.

---

١١ - رواه الإمام مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (١٦٣١)، ولفظه: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

قال تعالى: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [سورة الفرقان:٧٥-٧٧].

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأفعال والأقوال الجليلة، قال بعد ذلك كله: {أُوْلَئِك} أي: المتصفون بهذه، {يُجْزَوْنَ} يوم القيامة {الْغُرْفَةَ} وهي الجنة.

قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسُّدِّيّ: سميت بذلك لارتفاعها.

الغرفة يعني: الجنة، عبارات السلف -رضي الله عنهم- في تفسيرها متقاربة غير متخالفة، ترجع إلى شيء واحد، فمن يقول: الجنة، ومن يقول: الدرجة الرفيعة، لا شك أن الدرجة الرفيعة الجنة، وابن جرير -رحمه الله- يقول: هي درجة رفيعة في الجنة، {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} وأصل الغرفة في كلام العرب تقال للبناء المرتفع، بخلاف ما تعارف عليه الناس اليوم، يقولون الغرفة للحجرة، وهذا ليس معروفاً في كلام العرب، وإنما تُطلِق العربُ الغرف على الحجر العالية، يقال لها: غرف، ليست كل حجرة يقال لها غرفة، الأسافل من ذلك لا يقال لها: غرف، والمقصود هنا بالغرفة أيضاً: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ} المقصود الجنس الذي يصدق على الغرف الكثيرة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا} [سورة الزمر:٢٠]، فهي غرف كثيرة، {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ} فالغرفة هنا جنس يصدق على كثير، ليست غرفة واحدة.

{بِمَا صَبَرُوا} أي: على القيام بذلك، {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا} أي: في الجنة، {تَحِيَّةً وَسَلامًا}.

وقوله: {بِمَا صَبَرُوا} بسبب صبرهم على الطاعات وعن المعاصي وعلى أقدار الله المؤلمة، وهذا كثير في القرآن، قال الله تعالى: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:١٢].

{تَحِيَّةً وَسَلامًا} أي: يُبْتَدَرُون فيها بالتحية والإكرام، ويَلْقَون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: {سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد:٢٤].

يقول: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} يعني: يبتدرون فيها ويلقون تحية، يلقون في الجنة أن الله يحييهم بذلك، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤]، وهكذا أيضاً الملائكة تسلم عليهم: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [سورة الرعد:٢٣-٢٤] فهنا يلقون فيها من الله، ويلقون فيها أيضاً من الملائكة، وقوله -تبارك وتعالى-: {تَحِيَّتُهُمْ} هناك يدخل فيه أيضاً تحية بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولاً، كما قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ..} [سورة هود:١٠٨] الآية.

وقوله تعالى: {حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} أي: حسنت منظراً وطابت مَقيلاً ومنزلاً.

ثم قال تعالى: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي} أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً.

وقوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} أي: أيها الكافرون.

{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي} يعبا أصل هذه المادة تدل على الثقل، عبء، تقول: فلان يحمل عبأً يعني ثقلاً، أعباء بمعنى أثقال، فهذا أصلها، إذا قال: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي} يعني: لا وزن لكم فالله لا يعبأ بكم بمعنى: لا يكترث بكم، فوجودكم وعدمه سواء، لا تمثلون شيئاً له وزن يذكر، ليس لكم قيمة تعتبر، هذا هو المعنى، والله تعالى أعلم.

{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي} و"ما" هذه تحتمل أن تكون استفهامية، وتحتمل أن تكون نافية، {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} يمكن أن يكون على سبيل الاستفهام، ماذا تزنون عنده لولا دعاؤكم؟، ما وزنكم ما قيمتكم؟، ويحتمل أن تكون نافية، يخبر الله -عز وجل- أنه لا وزن لهم ولا قيمة ولا اعتبار لولا دعاؤهم، {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي} والآية تحتمل هذا وهذا، بعض أهل العلم رجح الأول قال: إنها استفهامية كالفراء، وبعضهم رجح الثاني، وبعضهم يتوقف يقول: الآية تحتمل المعنيين، والشنقيطي -رحمه الله- يقول: كلاهما له وجه من النظر، {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}.

وهنا لم يتكلم على قوله: {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}، أولاً الدعاء يأتي بمعنى السؤال، ويأتي بمعنى العبادة، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [سورة غافر:٦٠] فُسر بمعنى اعبدوني أُثِبْكم، وفسر بمعنى اسألوني أعطكم وأجبكم، والأقرب -والله أعلم- حمل ذلك على المعنيين، للملازمة بينهما؛ لأن الدعاء -دعاء المسألة- هو عبادة، فهذا الذي يدعو ربه: يا رب يا رب، هو في عبادة من أجلّ العبادات، والعابد يفعله، هذا سائل؛ لأنه إنما يقوم ويصلي ويركع ويسجد ويصوم... إلى آخره، يطلب بهذا الفعل ما عند الله -تبارك وتعالى-، فهو سائل بفعله، فالدعاء يأتي بمعنى هذا وهذا: {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} بمعنى: لولا عبادتكم، لكن لفظة دعاء هنا تحتمل أن تكون الإضافة فيها إلى الكاف: {دُعَاؤُكُمْ} من قبيل الإضافة إلى الفاعل، ويحتمل أن تكون من قبيل الإضافة إلى المفعول، والمعنى يتغير تماماً، والآية تحتمل هذا وهذا، فقوله: {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} انظروا المعنى، لولا دعاؤكم إياه، يعني: عبادتكم إياه، لولا الدعاء الصادر منكم، لولا ما يصدر منكم من عبادة أو دعاء، فهذا من قبيل الإضافة إلى الفاعل: {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} لولا ما يصدر منكم من عبادة، والمعنى الثاني: {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} لولا دعاؤه إياكم، لولا دعاؤه لكم، يعني: إلى الإيمان، فيكون من قبيل الإضافة إلى المفعول، يعني: لولا أنه يدعوكم إلى طاعته وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، هذا المعنى، لا شأن لكم ولا وزن، وإنما على المعنى الأول لا يعبأ بكم لولا ما يصدر منكم من طاعة وتوحيد وعبادة تقرب إليه -سبحانه وتعالى-، وهذا المعنى هو الذي رجحه الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، أنه من قبيل الإضافة إلى الفاعل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قول الله -تعالى ذكره-: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أي شيء يعبأه بكم لولا عبادتكم إياه، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل"[١٢].

---

١٢ - جلاء الأفهام، لابن القيم (ص: ١٥٦).

وقال -رحمه الله تعالى-: قول الله تعالى ذكره: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} وَأَصَح الْأَقْوَال فِي الْآيَة أَن مَعْنَاهَا مَا يصنع بكم رَبِّي لَوْلَا عبادتكم إِيَّاه فَهُوَ سُبْحَانَهُ لم يخلقكم إِلَّا لعبادته، فَكيف يُقَال بعد هَذَا: إِن تَكْلِيفه إيَّاهُم عِبَادَته غير حسن فِي الْعقل؛ لِأَنَّهُ قَادر على الْإِنْعَام عَلَيْهِم بالجزاء من غير توَسط الْعِبَادَة "[١٣].

وقوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} أيها الكافرون، {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} يعني: يوم القيامة، ولا منافاة بينهما.

آخر تفسير سورة الفرقان، ولله الحمد والمنة.

بعضهم يقول: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} أي: يكون العذاب لزاماً، يعني: واقعاً لا محالة، منهم من قال: هذا في الدنيا، كما وقع لهم يوم بدر، ومنهم من قال: ذلك يكون في الآخرة، وكما جاء عن ابن مسعود -رضي الله عنه- وجماعة من السلف -كما سبق- أنهم قالوا: إنه يوم بدر، فيكون: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} أي: فيصلاً وأمراً واقعاً لا محالة بينكم وبينه، وبعضهم يقول: هذا التكذيب لزاماً، سوف يكون تكذيبكم ملازماً لكم مقتضياً لوقوع العذاب، والمعنى متقارب -والله تعالى أعلم-، لكن من أهل العلم من يقول: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} أي: أن تكذيبكم ملازم لكم لا ينفك عنكم فلا توفقون إلى التوبة، بمعنى: أن التكذيب هذا عاقبهم الله -عز وجل- به كما جاء في مواضع أخرى أن الله لم يوفق أقواماً بسبب تكذيبهم الأول، وهناك كلام لبعض أهل العلم بأن من أعرض عما هو بصدده ابتلاه الله -تبارك وتعالى- بالاشتغال بما يضره: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} [سورة البقرة:١٠١] كانت النتيجة لما كذبوا، {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} [سورة البقرة:١٠٢] تركوا الرسول وتركوا العمل بالتوراة والنتيجة هي اتباع ما تتلوه الشياطين، وهكذا في الآيات التي يذكر الله -عز وجل- بها أنه لم يوفق أقواماً بما كذبوا، أي: بسبب تكذيبهم الأول، انصرفوا صرف الله قلوبهم، ولهذا يذكر بعد التكذيب -في بعض المواضع- الطبع: {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [سورة المنافقون:٣] كما قال في المنافقين مثلاً، فهنا من أهل العلم من يقول: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} قد كذبتم فسوف يكون التكذيب ملازماً لكم فلا نوفقكم إلى توبة، يكون الكلام يتعلق بالتكذيب، {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} يكون الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والعرب قد تحذف من الكلام اختصاراً ثقة بفهم السامع، فسوف يكون لزاماً، أي: العذاب مثلاً واقعاً لا محالة وأمراً لازماً؛ ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} أي: إن عذابكم يكون واقعاً لا محالة ملازماً، لكن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على ما وقع يوم بدر: {فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}.

---

١٣ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ٨٣).

ولو حملت الآية على معنى أعم من هذا، بمعنى: أن العذاب يكون لازماً، والكفار قد لا يقع عليهم عذاب في الدنيا لكان أولى، وهذه الآية وإن كان ظاهرها الخطاب لمعينين لكن ذلك يتوجه إلى جميع الكافرين، -والله تعالى أعلم-، كل من وقع منه التكذيب فهو داخل في هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١إلى ٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

سورة الشعراء وهي مكية، وَوَقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتُها: سورة الجامعة.

{طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١-٩].

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البيّن الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

قوله {الْمُبِينِ} أي بيّن في نفسه، وهو أيضاً مبين لغيره، فهو مبين لحقائق التوحيد والإيمان، ومبين لأحكام الله -عز وجل- وشرائعه، ومادة "بان" تأتي قاصرة ومتعدية، قصيدة كعب بن زهير المشهورة "بانت سعاد" في أولها المقدمة الغزلية ويصف الناقة التي كان يركبها وفيه:

عِتقٌ مبين وفي الخدين تسهيل ***

مبين أي: بين واضح، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد**، بين وهو أيضاً مبين لما سبق من حقائق الدين وشرائع الإيمان.

وقوله: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ} أي: مهلك {نَفْسَكَ} أي: مما تحرص وتحزن عليهم {أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، وهذه تسلية من الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]**، وقال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [سورة الكهف:٦].

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: قاتل نفسك.

مادة البخع بمعنى الهلاك {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: مهلك نفسك، {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} أي: تتأسف وتقتل نفسك أسفاً وحسرة على عدم إيمانهم، فالله -تبارك وتعالى- قال في سورة الإنعام {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأنعام:٣٥]، والآيات في هذا كثيرة جداً سواء في تسلية النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في الإخبار بأن الله -تبارك وتعالى- أراد ذلك إرادة كونية، يعني وقوع هذا الضلال والإضلال من الكافرين كما قال الله -تبارك وتعالى- لما ذكر وحي الشياطين: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ

{وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٣]، فهذا أمر أراده الله -عز وجل- ومن ثَم النظر في هذه المواضع ينفع كثيراً لمن أراد أن يحمل هماً في الإصلاح والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، فقد يتضاعف همه وتزداد كربته وتكثر حسراته كلما نظر إلى ضلال مَن ضل، وانحراف مَن انحرف، ولكن ذلك وإن كان ناشئاً عن غيرة ومحبة لله -عز وجل- فإن مثل هذا ينبغي أن يوجه وأن يصرف إلى ما بيّنه الله -جل جلاله- بأن يعتبر الإنسان بما ذُكر مِن أن هذا شيئاً أراده الله لحكمة، وأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن الله -جل جلاله- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولم يقع بينهم الاختلاف والتفرق والشر، ولم تقع الطوائف والفرق والضلالات ولم يقع أئمة، ولم يوجد هؤلاء الأئمة الذين يدعون إلى الكفر و محادة الله -عز وجل-، ولكن الله أراد ذلك ليبتلي الناس بعضهم ببعض، فالمؤمن ما عليه إلا أن يكون مستجيباً ومتبعاً لأمر الله -عز وجل-، ملازماً للصراط المستقيم، وما وراء ذلك ليس من شأنه {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة البقرة:٢٧٢]، وبهذا الذي ذكر تحصل المدافعة بين الحق والباطل، والحق محفوظ، وإنما يضر الكافر نفسه ويهلكها و يوبقها، فمن تخلى عن دينه وارتد عنه ولم يستجب ابتداءً فإنه لا يضر إلا نفسه {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ} [سورة يونس:٢٣]، ونحن بحاجة في مثل هذه الأوقات إلى مثل هذا النظر والتأمل في مثل هذه المواضع كثيراً، فلا يبقى الإنسان في غم دائم مستمر وحسرة، والله المستعان.

ثم قال الله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكنَّا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [سورة يونس:٩٩]، وقال: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود:١١٨-١١٩]، فنَفَذ قَدَرُه، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، وقال: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة يس:٣٠]، وقال: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ...} الآية[سورة المؤمنون:٤٤]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: { فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [سورة الشعراء:٢٢٧].

ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذي اجترءوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

قال سفيان الثوري، عن رجل، عن الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره.

وقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} [سورة الشعراء:٩] **أي: الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه، {الرَّحِيمُ} أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل يُنظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.**

قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره.

وقال سعيد بن جبير: الرحيم بِمَنْ تاب إليه وأناب.

قوله -تبارك وتعالى- {أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} الكريم: سبق الكلام عليه في بعض المناسبات فالمقام الكريم، والزوج الكريم -الزوج بمعنى الصنف هنا- بمعنى الشيء الحسن الطيب، يقال له ذلك، يقال: هذا نبات كريم، وهذا حجر كريم، وهذا معدن كريم، وهذا رجل كريم، وهكذا يقال: طعام كريم، ونحو هذا، الشيء الحسن الجيد يقال له: كريم، هذا هو المعنى الذي يمكن أن يفسر به مثل هذا اللفظ، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٠ إلى ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:١٠-٢٢]، يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام- حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ ولهذا قال: {أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي...} إلى قوله: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [سورة طه:٢٥-٣٦].

وقوله: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} أي: بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

{قَالَ كَلا} أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} أي: برهانا، {فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص:٣٥].

{فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} كقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قيل موسى -عليه الصلاة والسلام-: **{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}** جاء مفسَّراً بقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا}** [سورة القصص:٣٣]، والقرآن يفسر بعضه بعضا، وكان قتله للقبطي قبل النبوة، ولم يكن ذلك القتل مقصوداً، وإنما ضربه بيده فوقع ذلك في مقتل، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ}** اذهبا: الخطاب لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-؛ لأنهما مرسلان من الله -تبارك وتعالى- إلى فرعون ثم جمع الضمير في قوله: **{إِنَّا مَعَكُم}**، ولم يقل: "أنا معكما"، فهذا يمكن أن يكون من قبيل التعظيم، وقد جرت العادة أن يقال: خاطبَ المفرد بالجمع للتعظيم، أو تكلم بما يدل على الجمع للتعظيم، وهكذا خطاب الاثنين فإنه إذا خوطب بالجمع فإن ذلك يمكن أن يكون

للتعظيم، فإذا خاطب اثنين يقول: نحن معكم، أنا معكم أنتم، ويمكن أن يكون ذلك باعتبار أن أقل الجمع اثنان، وهذا قول جماعة من أهل العلم من أهل اللغة، ومن الأصوليين، وبهذا يقول صاحب المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهر *** اثنان عند الإمام الحميري

عند الإمام مالك -رحمه الله- و هذا يدل علية أدلة كما قال الله -عز وجل-: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [سورة النساء:١١]، والأم كما هو معلوم تُحجب حجب نقصان من الثلث إلى السدس بوجود أخوين، وهكذا في قوله -تعالى وتبارك-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧] على القول المشهور بأنها شوال وذو الحجة وعشر من ذي الحجة فهما شهران وعشرة أيام، ومع هذا قال: {أَشْهُرٌ} إلى غير ذلك من الأدلة، و هنا قال: {إِنَّا مَعَكُم} فاحتمل أن يكون باعتبار الجميع أو المجموع: الداعي والمدعو موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- بالإضافة إلى فرعون احتمل أن يكون هذا باعتبار المجموع، يعني موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- ومن معهم، وهم بنو إسرائيل وكل ذلك يحتمل، والمقصود بذلك الجواب عن سؤال قد يرد: أنه عبر بالجمع أو بما يدل عليه وهما اثنان.

{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ} [سورة طه:٤٧] أي: كل منا أرسل إليك.

يعني أنا رسول، هنا قال "رسولا" بالتثنية، فالرسول مصدر، أيضاً كذلك معنى الجمع، فرسول: أي رسل، وسبق أمثلة وشواهد على هذا من القرآن وكلام العرب، كقوله: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [سورة النور:٣١]، يعني أو الأطفال {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [سورة غافر:٦٧] أي أطفالاً.

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: أطلقْهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...} الآية، أي: أما أنت الذي ربيناه فينا، وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذيناه، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك؟!.

قوله: {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ} الفَعلة بالفتح للمرة الواحدة من الفعل، فَعلتك التي فعلتها هي قتل القبطي.

ولهذا قال: {وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: الجاحدين، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

المراد بالكفر هنا كفر النعمة؛ لأن الكفر يأتي في القرآن كثيراً في غير هذا المعنى، وهو الكفر بالله -تبارك وتعالى-، وفي بعض المواضع يحتمل هذا وهذا، كقوله: {وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة:١٥٢]، وهنا قطعاً المراد به كفر النعمة؛ لأن فرعون أصلاً يمتن عليه بإنعامه عليه وتربيته قال: {وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} يعني من الكافرين بنعمتي عليك، وليس المقصود الكافرين بالله -تبارك وتعالى-، وليس المقصود به أيضاً الكافرين بالإيمان بربوبية فرعون؛ لأنه لم يتطرق لهذا هنا.

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا} أي: في تلك الحال، {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} أي: قبل أن يوحى إليّ، وينعم الله عليَّ بالرسالة والنبوة.

فقوله: {وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: الجاحدين يعني لنعمتي، كفر النعمة، وهنا يمكن أن يفسر الكفر بمعنى الجحود، وجحود النعمة سترها وتغطيتها، وعدم الإقرار والاعتراف بها، والكثير من المفسرين لاسيما في المختصرات إذا ذكروا الكفر قالوا: إنه بمعنى الجحود في القرآن، عموماً الكفر بمعنى الجحود وهذا تفسير ناقص؛ لأن الكفر قد يكون بسبب الجحود وقد يكون من جهة أخرى للشك أو الإعراض، أو يصدر منه ما يكون مكفراً فيكون ذلك كفراً، ولا يختص بهذا النوع، فكثير من المفسرين تجدهم يعبرون عن الكفر بمعنى الجحود، ويطرد هذا في تفسيرهم، وهذا غير دقيق، وهو كثير في المختصرات، كما أنهم يفسرون الإيمان بالتصديق، بعضهم يذكر في أول التفسير حقيقة الإيمان ثم بعد ذلك يكتفي –اختصاراً- حيث جاء ذكر الإيمان بالتعبير عنه بالتصديق، مع أن العبارة ليست دقيقة؛ لأن الإيمان حتى في اللغة يختلف عن التصديق، والإيمان أخص من التصديق، وهو تصديق خاص على الإقرار، والإذعان، فالتصديق بمجرده لا يكون إيماناً والله -عز وجل- يقول: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل:١٤]، هذا في نفوسهم، وأما على الألسن فقد يصدق أنه لا يذعن كقول أبي طالب:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمدٍ *** من خيرِ أديان البريّة دينا

ومع ذلك لم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يحصل منه الإذعان فهو تصديق انقيادي بهذا القيد، نعرّف الإيمان ونعبر عنه بالتصديق فنضيف على الأقل هذه الإضافة فنقول: تصديق خاص تصديق انقيادي، تصديق بمعنى الإيمان هو بمعنى الإقرار والإذعان، لابد من إذعان القلب وانقياده ولكن هذا يطول في التفاسير المختصرة كلما جاء عند الإيمان مثلاً قال: {أَوَلَمْ تُؤْمِن} [سورة البقرة:٢٦٠] فيأتي بكلام طويل هو يريد أن يفسر بكلمة، بالمختصر لاسيما مع كثرة تكرر هذه اللفظة، على كل حال هذا تنبيه أظنه مفيداً؛ لكثرة ما يرد وما يحتاج إليه خاصة في المختصرات في كتب التفسير فليتنبه لهذا، أظن أن الاختصار لا يكون عذراً لاختزال مثل هذه الحقائق الشرعية العظيمة الإيمان والكفر، لو كانت القضية دون ذلك يمكن أن يتساهل فيها، الأمر يسير، الأمر كذا، العرب تعبر -يعني تتوسع في العبارة-، السلف يفسرون بما يقرب المعنى، لكن الإيمان والكفر لابد من معرفة حقيقته فلا نقتصر على تعريفه بالجحود يعني الكفر، والإيمان بمجرد التصديق وإلا فإن هذا قول المرجئة، ولا أقصد أن من كتب هذا أنه من المرجئة، لا.

{فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} أي: الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعتَه سلِمت، وإن خالفته عَطِبت.

قوله: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا} أي في تلك الحال هو يعترف بهذا يقول: أنا لا أنكر هذا، فعلتها، {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}، قوله: {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} قال: **أي قبل أن يوحى إليّ وينعم الله علي بالرسالة والنبوة**، معنى هذا أن الضلال هنا ليس معناه الضلال المعروف الذي يرد على سبيل الذم في كتاب الله -تبارك وتعالى- كقوله في سورة الفاتحة مثلاً: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة:٧]، فالضلال هنا يختلف عن الضلال هناك، فقوله: {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} يحمل على المعنى اللغوي؛ لأن الضلال يكون بمعنى الذهاب عن حقيقة الشيء يقال له: ضلال، فكل ذاهب يقال له: ضل، تقول: ضل الماء في اللبن، يعني إذا خلط به ومزج للغش، فإنه يخالطه ويمازجه بحيث لا ينفصل ويتبين، والمقبور يقال فيه: ضل أو أضل، كقول القائل:

"فَآبَ مُضلّوه بعينٍ جليّةٍ"، هذا الميت مضلوه أي الذين دفنوه وغطوه بالتراب، ومنه: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [سورة السجدة:١٠]، يعني انمحت آثارنا وأجسامنا تحللت في التراب، {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} وهكذا قول إخوة يوسف لأبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥] لو قالوا في: ضلالك بقصد الذهاب عن الإيمان لكان ذلك كفراً؛ كيف يقولون مثل هذا الكلام لنبي؟!، لكن المقصود به في ضلالك يعني الذهاب عن حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام- هذا المقصود بالضلال، فهنا قال: {فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}، وابن جرير -رحمه الله- يفسرها بالجاهلين هنا، إذاً من الضالين يعني الجاهلين قبل أن يوحى إليّ في تحريم القتل، والله -عز وجل- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى:٧]، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن على دين قومه ولكن "ضالاً" أي ذاهباً عن حقيقة الوحي، ولم ينزل الله -عز وجل- عليه شيئاً -والله تعالى أعلم-، وهذا هو المعنى الذي يمكن أن تحمل عليه الآية، والله أعلم.

وقوله: {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا} تغيرت الحال، وهذا الحكم فسره بعض السلف بالنبوة و الوحي، وبعضهم يفسر ذلك بالتوراة، وهذا لا يختلف عن الذي قبله، فالحكم هو التوراة وذلك مما أرسله الله به، أنزل عليه التوراة، ما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- هو القرآن فهو داخل في ذلك، وبعضهم يقول: هو العلم النافع، هذا الذي يفسر به الحكم هنا {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا} أي: علماً، وهذا أعم يدخل فيه التوراة وما أوحاه الله -عز وجل- إليه مطلقاً، فهذه الأقوال غير متخالفة أو غير متناقضة، وهي متقاربة فلا شك أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما ناداه الله عند الطور، وأوحى إليه، وأرسله تغيرت الحال، وصار نبياً من أنبياء الله -عز وجل.

ثم قال موسى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: وما أحسنتَ إليّ وربّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرتَه شيئا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم.

يحتمل أن يكون كلام موسى اعتراضاً على فرعون وأن هذه ليست بنعمة، ويحتمل أن يكون إقراراً بهذه النعمة، فإذا كان اعتراضاً فموسى -عليه السلام- يعترض عليه ويقول: تمتن عليّ بأن عبدت بني إسرائيل، {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}، فلو كانت الأوضاع عادية لما حصل ما حصل، ولكن لأنه كان يستعبد بني إسرائيل يقتل أبناءهم؛ لإضعافهم وإخضاعهم، ويستحيي نساءهم يبقي البنت حية فيهينها ويذلها، ويعملها في الأعمال الشاقة فتكون أسيرة بيد عدوها فهذا من أعظم الغبن والإهانة والابتذال والتسلط فهو يقول: أنا ما وصلت إليك أصلا، وما صرت إلى قصرك إلا لاستعبادك لبني إسرائيل، حيث ألقته أمه في التابوت بوحي من الله -عز وجل- حتى تقاذفته الأمواج ووصل إلى فرعون، فيقول: هذه نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل فصار الأمر إلى ما صار إليه وجرت الأقدار بأن كان خلاصي ونجاتي من القتل بهذه الطريقة التي لم تكن مأمونة لولا أن الله -عز وجل- أراد ذلك و اختاره، وإلا فإن الإلقاء في اليم يعني الهلاك، ولكن قد تأتي النجاة والحياة والفلاح الكامل بأسباب العطب والهلكة إذا أراد الله ذلك، فعلى كلام ابن كثير يكون هذا المعنى، أي أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ يكون بمعنى الاعتراض، ولكن هذا الاعتراض

كيف يعبر عنه؟ يمكن أن يعبر عنه فيما ذكرته آنفا، وهذا ذكره بعض أهل العلم، فما وصلت إليك إلا بسبب العذاب والاستعباد والامتهان، ويمكن أن يعبر عن هذا بعبارة أخرى كما قال ابن كثير -رحمه الله- {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} **هذه ليست بنعمة إن أحسنت إلى رجل واحد وابتذلت أمة كاملة،** فهذا يمكن أن يعبر به عن هذا الاعتراض.

ويمكن أن يقال: هذا إقرار واعتراف، فكأنه يقول له: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ}، ابن جرير يرى أن هذا اعتراض، أقر بالنعمة {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ}، ثم يقول: {أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} وتركتني فلم تستعبدني، والفرق واضح أن هذا إقرار موسى -صلى الله عليه وسلم- لما قال: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}، قال: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} ونجوت أنا من ذلك فتربيت عندك، ونجوت من القتل وتربيت في قصر الملك، وفرعون لا يرضى بهذا؛ لأنه رب، المقصود أن هذا على قول ابن جرير أنه إقرار واعتراف والآية تحتمل هذا وهذا، ولكن الذي أظنه أقرب للسياق -والله أعلم- أنه اعتراض وليس بإقرار {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} فهذه ليست بنعمة، تستعبد قومي وتمن عليّ أنك ربيتني في الصغر، لم تحصل هذه التربية إلا بسبب القهر والتسلط والإذلال والإهانة وابتذال أُمةٍ كاملة، كان يقدر الذين خرجوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- من مصر بستمائة ألف في أكثر الروايات، وبعضهم يقول: كانوا اثنتي عشرة قبيلة، أسباط وكل سبط عليهم نقيب ولما انفلق البحر انفلق على عددهم، وكل سبط منهم اثناعشر ألفا، فالحاصل أنهم عدد كثير فحصل لهم هذا الامتهان، والآية التي في البقرة سبق الكلام عليها {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة البقرة:٤٩] والاستحياء قد يتبادر إلى الذهن بأنه ترك البنت حية، وهو أخف من قتل الأولاد، لكنهم لا يتركون البنت عند أهلها تبقى حية تعيش كما تعيش كل البنات في كفالة وليها، ويرعاها و يحوطها، وإنما يُبقي البنات من أجل الابتذال والخدمة والامتهان فهذا أشد من قتلها عندما تصير إلى عدوها يهينها ويذلها، وتعمل في الأعمال المهينة في الخدمة، والأشياء التي يتنزه عنها الفراعنة يقوم بها بنو إسرائيل.

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة الشعراء:٢٣-٢٨].

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وذلك أنه كان يقول لقومه: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨]، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [سورة الزخرف:٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع -جل وعلا- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الزخرف:٤٦]، قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [سورة طه:٤٩-٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند

ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: {قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير تجده كثيراً في كتب الاعتقاد عند المتكلمين، ونقله بعض أهل السنة لمناقشته كما في شرح العقيدة الطحاوية تجد ذلك مفرقاً في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره وذلك أنه قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ولم يقل: ومن رب العالمين؟ من هو؟ ومعروف أن "من" تستخدم للعالم أو لمن من شأنه أن يعلم، ويعبرون كثيراً ويقولون: العاقل، ولكن ذلك لا يوصف به الله -تبارك وتعالى- فما كان من شأنه العلم يقال: مَن، وليس السؤال ومن رب العالمين؟ فتقول: هو الله مثلا؛ لأن السؤال عن الماهية. فابن كثير -رحمه الله- يعترض، وهذا الاعتراض صحيح، وهو أنه لم يكن يسأل عن الماهية؛ لأن الذي يسأل عن الماهية إذا كان يقر بالله -عز وجل- فإنه سيسأل عن التفاصيل، هو لا يقر بالله ويقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤]، ولم يكتف بقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ} بمعنى السيد أو المتصرف، بل زاد {الْأَعْلَى} يعني ليس هناك رب سواه فصرح بهذا المفهوم بقوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨]، فما نافية وإله نكرة في سياق النفي وسُبقت بمِن، وهذا من الظهور في العموم والتنصيص الصريح في العموم، فهذا لا يحتمل شيئاً آخر، ما علمت لكم من إله، لا إله صغير، ولا إله كبير غيري، فكأنه يقول: أنا الإله الواحد، بل أقوى من هذا، أقوى صيغة في الحصر هي النفي والاستثناء، وهنا يقول لهم بغير هذه الصيغة، لكنها بصيغة صريحة قوية: ما علمت لكم من إله غيري، نفي للعموم فالشاهد أن فرعون لم يكن يؤمن بالله أصلاً ويقر به حتى يسأل عن حقيقته وإنما كان يقول: وما رب العالمين؟ يعني مَن رب العالمين؟، وأحياناً يعبر بهذا عن هذا يعني يعبر بمثل ما عن مَن شأنُه أن يعلم، والعكس موجود، وإن كان أهل اللغة يذكرون مقامات ثلاثة، وبعضهم يذكر أربعة مقامات يعبر بهذا إذا حصل شيء منها، لكن ذلك ليس بلازم، وهذه القواعد النحوية التي تذكر هي أغلبية، وهم يقرون بهذا، ومبنى ذلك على الاستقراء والتتبع، ولكن يخرج منها أشياء وعند العرب معلوم أنها تلقي الكلام على عواهنه، ولا ينقرون فيه التنقير الذي حصل للمتأخرين، والقرآن نزل بلغة العرب، {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} من هو هذا الإله الذي تدعيه؟ فلم يكن السؤال عن الماهية، والذين يقولون: إن السؤال عن الماهية يقولون: إن موسى ما أجاب على السؤال، وإنما أجاب عن أمر آخر، لاحِظْ قال: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يعني كأنهم يريدون أنه لو أجاب موسى عن السؤال بعينه لبين لهم الماهية، وهذه فلسفة وفتنة يتعجب الإنسان عندما يقرأ كتب هؤلاء أو يقرأ في التاريخ وما جرى من الاختلاف في مثل هذه القضايا وكثرة اللغط فيها، لكن الله أراد ذلك وشاءه لحكمة عظيمة وإلا فستستغرب كيف يُقبل كثير من الناس من المنتسبين للعلم على مثل هذه الأمور؟ هذا أمر عجيب لو شاء ربك ما فعلوه فسبحان الله العظيم!، وفي كل زمان يأتي ما يشغل الناس و ينصرفون به عن علوم الكتاب والسنة، وانظر إلى تهافت الكثيرين اليوم على القراءة في كتب لا تدلهم على الله، ويظنون أنهم على شيء، كتب لأناس كان بعضهم على مذاهب كفرية مثل الاشتراكية وغيرها، ثم أظهروا شيئا من التشاغل بقضايا الحضارة وما أشبه ذلك، فتهافت كثير من

المثقفين -إن صح التعبير- على مثل هذه الكتابات التي يصيب طالب العلم -الذي نور الله بصيرته وقلبه- الغثيان حينما يقرأ فيها، وفي العبارات المولدة الكثيرة التي يلوكونها ويرددونها يمجدون فيها ما لم يعظمه الله ولا رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتنقض عرى الإيمان من الولاء والبراء، وللأسف تختزل حقائق الدين و تطمس معالمه، ويظن أنه بهذا من الوسطيين وأنه يبصر مالا يبصره غيره وأن غيره متشدد ضيق الأفق، وهذه الكتابات كثيرة والله يصلح الحال والله المستعان؛ ولهذا نقول: من أفضل العلاج لمثل هذه القضايا الاشتغال بعلوم الكتاب والسنة، وتلقي ذلك بطريقه صحيحة، هذا هو الطريق، الإقبال على قال الله، قال رسوله، بفهم السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم- لا بفهم هؤلاء المنحرفين اللذين لم يتعلموا العلوم الشرعية أصلاً، ليسوا من العلم في قليل ولا كثير، ويأتي يتكلم عن قضايا الحضارة وقضايا كبيرة تتعلق بالعلاقة بالكفار، وينظر في قضايا الشريعة، ويوهن من السنة، بل ويطعن في القرآن، ومثل هذا سيكون حائلا -كما وقع عند المعتزلة وغيرهم- دون القبول عن الله وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فالشاب إذا تربى على هذه الكتب مثل كتب الجابري وغير الجابري ما الذي يحصل عنده إذا قلت له: قال الله، قال رسوله، فإذا لم يطعن في القرآن أصلاً فإنه يقول نحن نقرأ النص بقراءة أخرى، لسنا ملزمين بقراءة السلف، يقصد بذلك الفهم، فالفهم بحسب المعطيات المتاحة لنا في هذا العصر وكل عصر له قراءته، هكذا يقولون، فلا تحتج لي بفهم وتقول لي: قال أبو جعفر بن جرير وهو مثلي ومثلك، ولا تقل لي: قال مجاهد ولا قال عكرمة ولا تقل لي قال ابن عباس، بل ولا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذه الأحاديث جاءتنا بأسانيد ورواة، والرواة هؤلاء قد يخطئون، وقد يقعون في الوهم، فتتغير العبارة، وصار مثل هذه الأمور حائلا دون القبول لنصوص الوحي، وهذه مصيبة كبيرة وفتنة اليوم، للأسف قد لا يتساقط هؤلاء الشباب في الشهوات كالخمر والزنا، ولكنه يقع فيما هو أعظم من هذا بهذه الانحرافات أنا ما أقول الفكرية، أقول الاعتقادية فيصير إلى حال النفاق و لربما الزندقة إذا توسع في هذا الأمر، والناس بين مقل ومكثر، ووصل الأمر ببعضهم إلى إنكار الحدود الشرعية كإنكار حكم الله -عز وجل- في حياة الناس، وجعلوا الدين يختص بالصلاة والعبادات البدنية، فالأولون اشتغلوا وتهافتوا على العلوم الكلامية، علماء، ولما قال أبو حامد الغزالي: إنه لا يوثق بعلم من لم يدرس المنطق، فتهافتوا على دراسة هذه العلوم ليثبتوا أنهم حققوا شرط الاجتهاد والتحقيق في العلم، فصاروا يدرسون هذا العلم، علماء، وبعضهم وصل بهم الأمر إلى حالٍ رُمي معها بالزندقة، كما قيل عن أبي حامد الغزالي لما درس الفلسفة، وفي آخر عهده تخلى عن هذه الأمور وأقبل على العبادة، وذهب إلى بيت المقدس، واعتزل الناس بعد هذا الطواف، والتطواف الكثير حصل لجماعة، وبعضهم صاروا فلاسفة ملاحدة، ووقع لهم كفريات لقضايا تتعلق بالإلهية والنبوة والوحي وأمور كثيرة، هؤلاء ينتسبون إلى الإسلام -والله المستعان-، أشياء عجيبة، فحينما يوزن الكتاب بالذهب، أي الكتاب الذي يترجم فتهافت الناس على الترجمة، وصارت موضة العصر كل الكتب المترجمة، والمثقف هو الذي يقرأ كتاباً مترجماً، وإلى عهد قريب كان الغرب يقولون: إن المسلمين حفظوا لنا كتب الفلسفة اليونانية، كانت تدرس في جامعاتهم ترجمات المسلمين، وبعض المسلمين يفتخر بهذا، يعتز به، ثم لما وقفوا على بعض كتب اليونان الأصلية اكتشفوا أن تلك الترجمات كانت ممسوخة، وغير دقيقة وهذا طبعي؛ لأن هؤلاء الذين

يترجمون ما هي المعايير والموازين والمقاييس التي يتبعونها من أجل أن تخرج ترجمة أمينة كما يقال، أو مأمونة أو صحيحة ما هي؟ ولا توجد لجان للمراجعة، ولا يوجد شيء كل واحد يترجم كتاباً ويتسارع ليترجم أكبر قدر من الكتب ليقدمها للمأمون من أجل أن توزن له بالذهب فصارت تجارة فمن الذي يأتي مِن بعده ويأخذ الكتاب الأصلي ويقابل حتى يقول: هذه الترجمة جيدة أو غير جيدة؟ تجارة، وكتب اليونان إذا حرفت فيها تأثم، فكيف بنصوص وآيات حرفت!، وما الذي يحمل مثل المأمون، ودوله كاملة مثل دولة المأمون على تبني القول بخلق القرآن، والمعتزلة ما كان لهم جمهور وشعبية كما يقال: إنما هي في فئة المثقفين يعني كما نعبر اليوم، لكن الناس اللذين كانت تخضع لهم الرقاب هم أمثال الإمام أحمد وأئمة السنة، وهؤلاء يُجرجرون ويعذبون، ويقتلون ويموت بعضهم بالأكبال بالحبس من أجل ماذا؟ يعني حتى السياسة بمنأي عن هذا، كَسَبٍّ الناس والجمهور من أجل ألا يفك الأسير حتى يمتحن هل يقول بخلق القرآن أو لا؟ إلى هذا الحد، فهذه أمور تاريخية فيها عبرة عظيمة، وإذا نظرت إلى كثير من الاشتغال اليوم اشتغال بعض المثقفين في موضة العصر بهذه الكتب الضالة المضلة تقول: سبحان الله كل زمان يجد الناس فيه مَن أعرض عن الكتاب والسنة، والله المستعان.

{إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من ملَئه ورؤساء دولته قائلا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: {أَلا تَسْتَمِعُونَ} أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلها غيري؟ فقال لهم موسى: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

{قال} أي: فرعون لقومه: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} أي: ليس له عقل في دعواه أنّ ثَمّ ربًّا غيري.

قال: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} فرعون يدعي أنه الرب الأعلى، ولكن قبل أن يولد فرعون من كان الرب؟ فموسى -عليه الصلاة والسلام- جاء كلامه متضمنا هذه القضية قال: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ}، لهذا يقول الله -عز وجل-: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [سورة الزخرف:٥٤] وإلا أليس لهؤلاء عقول فيفكروا من كان الرب قبل ولادة فرعون؟ هل كان فرعون ينكر أنه وجد بعد أن كان عدماً؟ فهو ولد كما يولد الناس، وكبار السن يعرفون مولده، وأدركوا مَن قبله.

{قال} أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سَخّرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالى عن {الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ..} الآية [سورة البقرة:٢٥٨]**؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى -عليه السلام.**

عندما يقول فرعون: إنه الرب الأعلى، الناس الذين يستعبدهم أو يستخفهم فرعون وقد تعاظم في نفوسهم بما له من السلطان والقوة ونحو ذلك، حتى بلغ به الأمر هذا المبلغ، فموسى -صلى الله عليه وسلم- يقول: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} فهذا إذا كان يتصرف بكم هذا التصرف، وهذا التخويف والاستعباد ويتعاظم في نفوسكم فلربما لا يجترئ أحد أن يمر قريباً من قصره، فضلا عن أن يدخل عليه، ولربما يموت الرجل قبل أن يكلمه من الخوف رجل يدعي الربوبية، فموسى -عليه السلام- يقول: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يعني هذه أمور لا يد لفرعون فيها ولا يتصرف في المشارق والمغارب وإنما يتصرف في أرض محدودة بأرض مصر لا يتجاوز ملكه عريش مصر كما قيل، وإذا أردت أن تعرف هذا تخيل فرعون وهو يدعي الربوبية، وانظر إلى صورة الكرة الأرضية في جوجل ولك أن تتصور فرعون في مصر لا يظهر على الخريطة، ومع هذا يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤] من الذي يدير هذه الأفلاك، ويدير الأرض بكاملها والسماوات، فالذين تعاظم في نفوسهم من الجمهور الذين حوله لربما لشدة فراغ قلوبهم تعاظم الخوف منه فبعضهم ينطلي عليه بعض الكلام و يطأطئ رأسه {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [سورة الزخرف:٥٤]، لكن لو خرج الإنسان من مثل هذا الوهم الكبير والضبابة التي لا زال يمشي في داخلها لأبصر شيئاً وراء ذلك واسعاً كبيراً لا يصل إليه فرعون، ولا يعلم به ولا شأن له بتدبيره وتصريفه، وهنا قال: ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته عاد لاستعمال جاهه وقوته، وهكذا كل من انقطعت حجته من المكابرين، ومن لم يطلب الحق فإنه يلجأ إلى شيء آخر فإن كان له سلطان فبسلطانه، وإن لم يكن له سلطان فبرفع الصوت والجدل، واستعمال العبارات التي لا تبرهن على صحة ما يقول، إنما السباب والشتم والإقذاع، انقطعت عليه الحجج والبراهين، ما عنده حجج يثبت فيها الكلام فيلجأ إلى مستودع آخر من السباب والشتائم، والإقذاع إضافة إلى رفع الصوت، و لربما أدى الأمر ببعض السفهاء إلى استعمال يده، والله المستعان.

لكن على كل حال الصحيح أن الإنسان يتكلم بالحجج، بالبينات، بالبراهين، بالأدلة، كما فعل موسى -عليه الصلاة والسلام- أقول لو أن الناس في ردودهم على المنافقين اليوم استعملوا هذه الطريقة لكان أنفع، هذا أنفع وأجدى؛ فإن استعمال اللغة الأخرى أولاً غير لائق، ويتنزه عنه المؤمن، انظروا إلى عبارات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كموسى -عليه الصلاة والسلام- لما قالوا له: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة البقرة:٦٧]، فدل على أن الذي يستهزئ بالناس هو من الجاهلين، فلغة الاستهزاء والاستخفاف بطريقة غير مناسبة لطالب العلم هذه لا تعالج المشكلة هذه يطرب لها جمهورك الذين حولك، يطرب لها الموافقون لك يُسر لمّا يقرأ هذه الشماتة بالخصوم والمخالفين، لكن المخالف ماذا يحصل له؟ لا يزيده ذلك إلا عتواً وعداوة وضغينة وذلك مما يبعده تماما عن الحق الذي تدعوه إليه، فلا داعي لاستعمال مثل هذه اللغة، بعض الإخوان من الكاتبين محتسبون في الرد على بعض المنافقين اليوم، وما رأيناهم يرجعون بسبب هذه الردود.

لابد من الرد عليهم، نحتسب في الرد عليهم لابد من هذا لكن بالحجج والبينات والبراهين واللغة الرفيعة، ويفرق بأحوالهم، هذا المستودع أقصد به السباب والشتائم، ولغة الإقذاع لا داعي لها، لا داعي لاستعمالها، هذا لا يصلح حجة للقائم لله ، وانظروا إلى كلام أهل العلم، ردود شيخ الإسلام، درء تعارض العقل والنقل،

وغيره لم يكن قاموساً من السباب والشتم والإقذاع، وعبارات أحياناً القارئ الموافق لك يعرق جبينه وهو يقرؤها، أحيانا عبارات اسمحوا لي عبارات سوقية غير لائقة، وثقافة شوارع إن صح التعبير وفي بعض الكتابات يكون صاحبها له ثقافة قديمة، ثقافة شوارع لم تكن تربية نزيهة في السابق، نظيفة بعيدة عن هذه اللغة؛ لأن من تربى تربية نزيهة نظيفة لا يستطيع أن يتكلم بهذا حتى مع عدوه، لا يستطيع هذا، لا يستطيع أن يطاول أعداءه في السباب والشتائم والإقدام، ما يستطيع، تربيته تمنعه من ذلك، وهذا يحتاج إلى أن يُعرف؛ لأن الواحد منا أحياناً قد يظن أن هذه طريقة سليمة صحيحة وأن هؤلاء يستحقون، لابد من تحديد الهدف والمراد، والمراد بيان الحق، الحق يبين بغير هذا، وإذا كان المقصود التشفي والانتقام فهذا لون منه، لكنه غير مراد.

فقال ما أخبر الله تعالى عنه: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٢٩-٣٧].

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، فعند ذلك قال موسى: {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ} أي: ببرهان قاطع واضح.

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج.

هنا قال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي} هذا مقام محاجة فرعون انخلع منه، فلما انقطعت حججه انخلع من ذلك ولجأ إلى لغة أخرى لغة التهديد بالسجن، {لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، فموسى -عليه الصلاة والسلام- استمر في بيان البراهين والحجج على فرعون {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} أي: ببرهان قاطع واضح مبين، وكما سبق لفظة "بان" تأتي قاصرة ومتعدية: بان في نفسه اتضح، ومبين أيضاً للحق، مبين للحقائق التي غفلت عنها مثلاً مبين لغيره، وهذا كله في آيات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهي بينة ظاهرة لا خفاء فيها، ولهذا تواعد معه على أن تكون المحاجة بينه وبين السحرة في وقت جلوة لا خفاء فيه ولا غبش {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [سورة طه:٥٩]، فهو بيّن في نفسه مبين لما سيق من أجله، وسبق الكلام على هذا المعنى لفظة بان وأبان ومبين أي: بيّن واضح في قصيدة كعب -رضي الله عنه-، ويقال: {وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} أي بين في نفسه وهو أيضاً مبين لحقائق الشرع {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}، والثعبان هو الذكر من الحيات والعظيم منها، والله -تبارك وتعالى- ذكر في مواضع أخرى قال: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [سورة طه:٢٠]، وفي الموضع الآخر: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} [سورة النمل:١٠]، فالحية هي الأصل، والثعبان للعظيم والذكر من الحيات، والجان هو الصغير منها، {كَأَنَّهَا جَانٌّ} والحيات أنواع فمنها ما هو صغير في خلقته سريع الحركة، سريع الالتواء، يقال له: جان، كأنها جان، وليس بين هذه الأوصاف تعارض، ثعبان، حية، جان، فأحياناً تكون صغيرة، وأحياناً تكون كبيرة، لكن وجوه الجمع هذه لا تصلح، فذكور الحية عظيمة ثعبان،

ولها سرعة في الحركة على خلاف المعهود في الثعابين {كَأَنَّهَا جَانٌّ} كأنها حية دقيقة صغيرة سريعة الحركة، وليس هذ تعارضاً، هنا ثعبان مبين، وقول الحافظ ابن كثير: **ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم،** هذا يحتاج إلى دليل، هذا ورد في بعض المرويات المأخوذة من بني إسرائيل، فما نعرف أنها ذات قوائم، هذا يحتاج إلى دليل.

تجدون في كلام المفسرين في بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل- لمّا يفسرون مثل هذه يريدون الإسرائيليات، ويذكرون أشياء عجيبة وغريبة في وصفها، أو في ما وقع لفرعون حينما رآها وهو في مجلسه يدعي الربوبية ولما رآها أصابه هلع شديد، يذكرون أشياء لا يصدقها العقل، ارجعوا إليها في غير هذا الموضع، لا تصدق.

{وَنَزَعَ يَدَهُ} أي: من جيبه {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} أي: تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} أي: فاضل بارع في السحر، فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به، فقال: {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

قال هنا: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [سورة النمل:١٢]، هذا الجيب هو مدخل العنق، ومدخل الرأس من الثوب قال له: جيب، فإذا أدخلها صارت بيضاء فكان له هذه الآية، وهذه غير الآية الأخرى، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} [سورة القصص:٣٢] جناح الإنسان هو جانبه يقال: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} [سورة الإسراء:٢٤] أي الجانب أو جناحك الذليل جانبك اللين، ويقال: لليد جناح، من جناح الطائر، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} فإذا خاف يفعل ذلك، وهذا غير اليد، فهما آيتان إحداهما تعود إليه بثبات القلب، رباطة الجأش السكون إذا أصابته رهبة حينما يدخل على فرعون مثلا فيسكن، والآية الثانية لفرعون وهي أن تخرج يده بيضاء من غير سوء يعني من غير برص، فهنا فرعون ماذا قال لهم: التفت على أصحابه وقال لهم: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}؛ من أجل أن يخرجوا بصفة متفقة يطلقونها عليه، لا تختلف كلمتهم، المشركون في مكة حاولوا أن يتفقوا على شيء بشأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كانوا مشتتين ليس لهم رأس تجتمع عليه كلمتهم جاءت عباراتهم ساحر، مجنون، شاعر، كذاب، أساطير الأولين، تناقضوا مع أنهم حاولوا أن يأتوا بشيء متحد، وتشاوروا في هذا لكنهم لم يتفقوا تناقضوا، والرجل الواحد منهم يتناقض عدة مرات، لكن هنا فرعون مباشرة {قَالَ لِلْمَلَإِ} لأهل الرأي والتدبير إن هذا لساحر ولهذا جاء الجواب لما أظهر لهم المشورة وطلبها منهم {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ} أخرْه أمهله وأرسل، {قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} فالقضية أنه ساحر، يأتون بالسحرة، ولهذا لما جاء السحرة ورأوا موسى -عليه الصلاة والسلام- ذكرهم بالله {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [سورة طه:٦١]، حصل بينهم شيء من الاضطراب ثم أسروا النجوى لم يظهروا ذلك، واتفقوا على أن تتحد كلمتهم وقوّوا قلوبهم بقولهم: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

{وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} [سورة طه:٦٣] جاءوا بهذه الجمل التي لها مدلولات تثبت نفوسهم، هذا ساحر يريد شراً يريد أن يذهب بطريقتكم الصحيحة المثلى فتقْوى نفوسهم على مواجهته ولا يختلف قولهم فيه.

{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم} مع أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يظهر لهم شيئاً من هذا، ولم يقل لهم أريد أن تخرجوا من مصر، والمراد بقوله تعالى: {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم**، بمعنى أنه إذا تغلب فهذا يئول إلى ظهوره، وكون السلطان له، ثم أنتم بعد ذلك لا يبقى لكم مكان في هذه الأرض لأنكم لستم على دينه، وما يدعو إليه وسيئول الأمر إلى قتالكم والنكاية بكم، هذا معنى كأنه يشير إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم كابن جرير يقول: هذا الخطاب وإن كان ظاهره موجهاً إلى القبط {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم} إلا أن المقصود بالخروج خروج بني إسرائيل؛ لأنه قال: {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الأعراف:١٠٥]، يريد أن يَخرج بهم، يريد أن يخرجكم من أرضكم أي أن يُخرج عبيدكم وخدمكم وهم هذه الأمة الكبيرة بين أظهركم ممن يشتغلون في الخدمة ويعملون بالأعمال المهينة، فأراد بالإخراج إخراج هؤلاء يعني يمكن أن نعبر بعبارة أخرى فنقول: وجه الخطاب لعموم الأمة المصرية وهؤلاء يتكونون من القبط والإسرائيليين فهم تحت مملكته، وإدارته، فيقول لهم: يريد أن يخرجكم ويكون بهذا أطلق هذه العبارة العامة تشمل الجميع وأراد بعضهم، فيكون من العام المراد به الخصوص، أن يُخرج بعضكم، يخرج الإسرائيليين على هذا المعنى الثاني.

{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} أي: **أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.**

يعني لو بقيت القضية بين الملأ فقط في قصر فرعون ربما لم يطلع عليها الناس وطويت وكتبت أو نقلت مشوهه لكن الله -عز وجل- أراد هذا فجاءت منهم فذهبوا يحشرون الناس يحشرون السحرة في البداية ثم جعلوا يحشرون الناس ليجتمعوا ويشاهدوا جميعاً هذه الآية العظيمة، فإذا أراد الله -عز وجل- شيئاً هيأ أسبابه، وإن كانت في الظاهر قد تكون مكروهة لبعض أهل الإيمان، ولكن عواقبها محمودة فالله عليم حكيم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ٣٨ إلى ٦٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الشعراء:٣٨-٤٨].

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في "سورة الأعراف" وفي "سورة طه" وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء:١٨]، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [سورة الإسراء:٨١]، **ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، والله أعلم بعدتهم.**

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، **ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} المقصود به يوم العيد "موعدكم يوم الزينة"، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا النوع من التفسير يعد من التفسير القطعي؛ لأن تفسير القرآن بالقرآن مما يقطع به، وتفسير القرآن بالقرآن من حيث الجنس هو أعلى درجات التفسير، ولكن هذا ليس باعتبار الأفراد والأمثلة وآحاد تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن ذلك يدخله اجتهاد المفسر فقد يصيب وقد يخطئ وقد يكون وجه الربط بين الآية والآية غير ظاهر، وقد يكون الاحتمال قوياً وقد يقطع بهذا، فمما يقطع به مثل هذا الموضع، جمع السحرة لميقات يوم معلوم: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [سورة طه:٥٩]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في الآيات التي مضت في قول السحرة {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} [سورة الشعراء:٥١]، هذه الخطايا تفسر بقوله -تبارك وتعالى-، إضافة إلى السحر والكفر والشرك بالله -جل جلاله- وقولهم في الآية الأخرى: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:٧٣]، وهنا جمع السحرة

لميقات يوم معلوم هو يوم الزينة، كما يقال في قوله -تبارك وتعالى- في آية مضت في الأسبوع الماضي لما قال فرعون: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} فهذا يفسر قوله تعالى في سورة الفاتحة: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة:٢]، فبعضهم يقول: "العالمين" الإنس والجن، مثلاً هنا هذا التفسير: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} هذا أحسن ما يفسر به، والله تعالى أعلم، وقولهم هنا: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وقال قائلهم: لعلنا نتبع السحرة، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم**، يعني الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل ذلك من قول الناس، {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} وقد يفهم من الآية -والله تعالى أعلم- أن الذين قالوا ذلك هم الذين حشروا الناس وجمعوهم؛ لأن فرعون أرسل في المدائن حاشرين يجمعون الناس، فقالوا لهم مثل هذا القول: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ}، والمقصود باتباع السحرة ليس ذلك باتباعهم بسحرهم، وإنما المقصود أن السحرة يمثلون فرعون في هذه المغالبة، فإذا ظهر السحرة على موسى -عليه الصلاة والسلام- فهذا ظهور لفرعون الذي جاء بهم، فهؤلاء من أعوان فرعون وجنوده، يقولون للناس: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ} وهم متبعون لهم؛ ولذلك يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: لعلنا نتبع السحرة، يعني كأنهم يريدون الإبقاء على دينهم، والثبات على عبادتهم لفرعون والإعراض عما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام-، وظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك جرى من آحاد الناس؛ ولهذا قال: **الناس على دين ملكهم**، ولكن ظاهر الآية قد يفهم منه -والله تعالى أعلم- أن الذين قالوا ذلك ليسوا آحاد الناس، وإنما الذين بعثهم فرعون، ولم يذكر القائل في قوله: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ} وهذا يُفسَّر بما جاء في كتاب الله -عز وجل-، فهم لا يريدون غير هذا أصلاً يعني فرعون وأعوانه لا يريدون إلا اتباع السحرة لأنه يعني اتباع فرعون؛ ولهذا لما ظهرت حجة موسى -عليه الصلاة والسلام- ما تحول الملأ مثلا من القبط أو من قوم فرعون إلى مؤمنين، إنما الذي آمن هم السحرة، لكن هذا لاشك أنه يدل على نية سيئة مبيتة من فرعون، ومن معه أنهم لا يريدون الحق لهذه المغالبة، حتى لو ظهر موسى -عليه الصلاة والسلام- فكانوا على هذا القصد الفاسد ابتداء، ومن كان على هذا القصد فالأصل أنه لا يناظَر، ولا تصلح المحاجة معه لذاته، وإنما لمطلوب آخر من أجل أن يعرف الناس الحق ويتبين وينكشف، وهذا الذي حصل: جمع الناس فإذا كان فرعون ومن معه لم يكونوا على استعداد للإيمان، ولكن الذي حصل هو أن الناس جُمعوا لميقات يوم معلوم، حشر الناس فشاهدوا هذه الآية العظيمة وقامت عليهم الحجة وعرفوا صدق موسى -عليه الصلاة والسلام-، وبطلان ما كان عليه فرعون، فآمن من أراد الله هدايته، ومن كان مبطلاً في هذه المحاجة فإنه لم يؤمن، وكان يقصد إبطال الحق ورد الحق لا يريد اتباعه ابتداء فمثل هذا قد لا يوفق للهدى، والله المستعان.

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} أي: **إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا:** {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} أي: **وأخص مما تطلبون، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة** {قَالُوا

يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [سورة طه:٦٥- ٦٦]، **وقد اختصر هذا هاهنا.**

في سورة طه خيروا موسى -عليه السلام- فقالوا: **{يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}**، لكن هنا جاء ذلك مختصراً، فقال الله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ}** كأن موسى ابتدأهم بذلك، وكان أول هذا أنهم خيروه فاختار موسى -عليه الصلاة والسلام- أن يبدءوا هم بإلقاء سحرهم وهذا لاشك أنه أوقع في النفوس، وذلك أن مشاهدة هذا السحر ثم بعد ذلك يكون العاقب له هذه الآية العظيمة فإن هذا أوقع في القلوب وأعظم تأثيراً، ويمحو كل ما يمكن أن يوجد في نفوس الناس حينما يشاهدون أعمال السحرة، ويبطله تماماً، والناس إنما يعلق في قلوبهم ما يكون آخراً، فألقوا وشاهد الناس كل ما عندهم، ثم جاءت آية موسى بعد ذلك، وأنستهم ما ألقاه السحرة، صارت تلقف ما يأفكون فما بقي لهم شيء.

فقال لهم موسى: {أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا: هذا بثواب فلان.

الباء هذه يحتمل أن تكون للسببية، قالوا: **{بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ}** أي: بسبب عزة فرعون **{إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}**، ويحتمل أن تكون الباء للقسم، ألقوا وقالوا: **{بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ}** أقسموا بعزة فرعون وهذا لا يستغرب؛ لأن فرعون يدعي الإلهية أصلاً، ويقول: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [سورة النازعات:٢٤]، وما ظنكم بهؤلاء السحرة؟، كما سبق الكلام في سورة طه في الكلام على قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وهكذا في الأعراف أن السحرة هم أخبث الناس نفساً، وأنهم أكفر الناس وأن الرجل لا يمعن في السحر، ويكون حاذقاً فيه إلا على قدر ما يحصل له من الإشراك، والدنس بكل معانيه، و"كل" هنا للعموم على وجهها، كل معانيه، كلما استطاع أن ينزل أكثر كلما كان الشياطين يعينونه أكثر، ماذا يفعل؟ يكتب المصاحف بدم الحيض، ويكتبها بأشياء أخرى قذرة يلطخ المصاحف بها، وتجد أوراق المصحف في القذر -أعز الله كتابه وكلامه ومن يسمع- وهذا موجود إلى اليوم، وألوان الفجور، والشياطين تفجر به، لا يتنزه عن شيء إطلاقاً، فكلما كان أوغل في القذر والوحل كلما كان أحذق في السحر، فما ظنكم بمثل هؤلاء الذين جاءوا؟ فإذا قالوا: بعزة فرعون: يقسمون بعزة فرعون أنهم هم الغالبون، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهذا فعلوه -والله أعلم- تقوية لقلوبهم وربطاً لعزائمهم عند المناظرة، لكن الشيء الغريب أن هؤلاء على ما هم فيه من الحال التي وصفت وهؤلاء كبار السحرة مباشرةً لما رأوا هذه الآية سجدوا -وجاء ذلك في كتاب الله -عز وجل- معقباً بالفاء التي تدل على التعقيب المباشر- ومباشرة وأمامهم فرعون وكانوا يطمعون بالقرب منه والأجر، ثم توعدهم بهذا الوعيد الشديد **{لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ}**، وقال: لأصلبنكم في **{وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}** [سورة طه:٧١]، والصلب على جذوع النخل أشد أنواع الصلب؛ لأن الإنسان إذا ربط في جذع أو على سارية أو نحو ذلك فإن هذا تعذيب له وأذى، لكن إن كان على جذع نخلة فإن أذاه أشد من غيره، قالوا ولهذا جاء بـــ"في" التي تدل على الظرفية، ولم يقل: على جذوع النخل، وهذا يدل على شدة الربط كأنه يدخلهم في جذع النخلة، فالشاهد أنه توعدهم بهذا الوعيد وفاتهم ما كانوا يؤملون، ومع ذلك ثبتوا هذا الثبات العظيم، وقالوا هذا الكلام الذي هو عن يقين عظيم جداً: "لا ضير" من أين جاء هذا الثبات؟!، وقالوا: **{إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا**

{خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} تحولٌ من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في الثبات والإيمان، فهذا هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، بينما الناس العامة ما نُقل أنهم آمنوا، وهذا فيه دلالة أخرى وهي أن الحجج والبراهين والآيات إنما تقوى ويقوى أثرها عند أرباب الصنعة، والسحرة هم أعلم الناس بما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام- أن هذا ليس من جنس السحر، وأن هذا لا يتطرق إليه أي احتمال، فخضعوا مباشرة، وهذه الآية أثرها بالنسبة لعامة الناس ليس كأثرها على السحرة؛ لحذق السحرة في هذه الصنعة، ولذلك يقال هذا في أشياء: يعني في المرويات -روايات الحديث- قد يأتي رجل من أهل الكلام ممن لا يعرف الحديث ولا تثبُّت الرواة فيما يروون، ويرد الحديث بحجة أن هذا الحديث ما الذي يثبت أنه صحيح، وهو في صحيح البخاري أو من المتفق عليه لكن تجد العالم بالحديث يحصل له من اليقين مالا يحصل لغيره، ولهذا في الكلام على مسألة الآحاد هل يفيد العلم أو لا يفيد العلم؟، هذا يختلف باعتبارات متعددة منها حال الشخص نفسه، فالعالم بالحديث إذا نظر في الإسناد أو في الطرق فإنه يحصل له بسبب معرفته بهذه الصنعة من اليقين ما لا يحصل لأهل الكلام مثلاً؛ لجهلهم، ولذلك تجد العامي أحياناً عندما تقول له: هذا الحديث رواه البخاري، فيقول: وما يدرينا أن ذلك لم يُدس في البخاري، فتحتاج أن تعطي دورة كاملة، بحيث توجد أرضية للنقاش، وأقصد بالعامي: مَن هو غير أهل العلم بهذا؛ فقد تجد أستاذاً بالجامعة في تخصص بعيد عن التخصصات الشرعية، ويتكلم بهذه الطريقة، وهذا موجود، والسبب هو جهله.

وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [سورة الأعراف:١١٦]**، وقال في سورة طه:** {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى...} **إلى قوله:** {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه:٦٦-٦٩].

وقال هاهنا: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} **أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدعْ منه شيئاً.**

قال تعالى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ...}**، إلى قوله:** {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف:١١٨-١٢٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ}: هذا يدل على أن السحر الذي حصل كان من قبيل سحر التخييل وأنه غير حقيقي، والمفسرون يذكرون في هذا أشياء كثيرة، ولا دليل عليها وبعضهم يقول: وضعوا الزئبق فصارت تتحرك بهذه الطريقة، يعني كانوا يعرفون خواص المواد، وما يعرف عن طريق معرفة الكيمياء، وهذا النوع من أنواع السحر غير الحقيقي، سحر التخييل، وقد يكون تعاطي بعض أنواع الشعبذة والاستعانة بالشياطين من هذا النوع، يعني منه ما يعرف بخواص المواد، ومنه ما يعرف بنوع من الشعبذات أو الاستعانة بالشياطين، فيخيل إليه أشياء لا حقيقة لها، سحر التخييل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- سُحر فكان يخيل إليه فيما يتصل ببعض الجوانب، لا علاقة لذلك بأمر البلاغ والوحي، وهذا قد عصمه الله -عز وجل- فيه، ولازال هذا النوع يستعمل إلى اليوم حتى في الحروب، حتى الآن يستعمل في الحروب، الآن يومك هذا الذي أنت فيه يسحرون يُسحر الجنود فيرون الشجر والحجر رجالاً يتحركون، فيجلسون يطلقون كتائب أمامهم، وما في أحد، فيقتلهم الذين يرصدونهم يقتلونهم بكل سهولة، وهم جالسون

مشتغلون يضرب الأشجار والأحجار ويقولون: انظروا إلى الرجال، انظروا إلى كذا وهو ما في أحد موجود، فبعضه يكون باستعمال هذا، ما هو استعمال خواص المواد ومعرفة الحيل وإنما بالاستعانة بالشياطين، تخيل إليهم الشياطين هذه الأمور، وذكرت في بعض المناسبات في بعض دروس العقيدة في الكلام على السحر شرح كتاب التوحيد قديماً أشياء من هذا القبيل وكذلك في درس الأوهام كيف يضلل الناس عن طريق هذا، معرفة خواص المواد ونوع يكون بهذا التخييل، والله المستعان، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} كما يقال: لو حاولتَ أن تأتي بكلمة مكافئة للفظة في كتاب الله -عز وجل- لا تجد، يعني كلمة تلقف لو قيل: فإذا هي تبتلع، لو قيل: فإذا هي تأكل ما يأفكون أو نحو ذلك لا يعبر عن المطلوب كما تعبر هذه، تلقف هذه الأشياء، كل الذي يلقونه يتطاير في فمها بصورة سريعة مدهشة حتى لم تُبقِ في هذا المكان شيئاً، تلقف: غير لما تأتي وتزحف إليه وتأكل هذا وتأكل هذا وتأكل هذا، لا، تلقف كلما ألقوا شيئاً التقفته.

وكان هذا أمرا عظيما جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غَلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحًا جريئًا -عليه لعنة الله- فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [سورة طه:٧١]، وقال: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ...} [سورة الأعراف:١٢٣].

إذا انقطعت الحجة لجأ الإنسان إلى مثل هذه الأساليب والدعاوى التي يعلم الجميع أنها لا حقيقة لها، فموسى -عليه الصلاة والسلام- متى كان يدبر مع السحرة ويخطط معهم من أجل الانقضاض على فرعون؟، ومتى كان يعلمهم ويدربهم السحر وفرعون هو الذي جمعهم له من مناطق وأماكن مختلفة؟، وآيات موسى -عليه الصلاة والسلام- وآية فرعون لم تكن ملتبسة، وإنما كانت واضحة، ولهذا فإن ما يذكره المعتزلة ومن وافقهم من المتكلمين كالأشاعرة في آيات الأنبياء أو في المعجزات بالأخص بناء على ما يتوهمونه من الالتباس بين فعل الساحر وبين معجزة الرسول غير صحيح؛ لأن آيات الأنبياء تختلف عن معجزات السحرة؛ ولذلك آيات الأنبياء ومعجزات الأنبياء تختلف عما يأتي به السحرة من الأباطيل ولهذا السحرة لم يحصل عندهم أدنى تردد فهم يعرفون؛ لأن آية النبي -وهذا هو الأهم- خارقة لجنس العادة، لا يمكن لأحد من عند نفسه مهما كان حاذقاً أن يأتي بها، ولهذا يقولون: كان الأنبياء يأتون بمعجزات من جنس ما كان يتمهر به الناس في زمانهم، وكان السحر شائعاً في قوم فرعون جاءت آية تبطل ذلك وتبين الحق بأمر خارق لا يمكن أن يأتي السحرة بمثله، فآمن السحرة مباشرة، يقولون: عيسى -عليه الصلاة والسلام- لما كان الطب شائعاً كان يبرئ الأكمه والأبرص إلى آخره، وهكذا النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء لأهل فصاحة بهذا القران، والذي يذكرونه وتجدونه في كتب حتى بعض أهل السنة من المتأخرين: أن المعجزة أمر خارق للعادة يقصد به التحدي، مع دعوى النبوة إلى آخره، كل هذه القيود لا يصح منها شيء إلا القيد الأول أنه خارق للعادة فقط، وأما الباقي فهو من كلام المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة؛ لأنهم لا يفرقون بين جنس آيات الأنبياء، وما يحصل على يد السحرة، يقولون: الآية والمعجزة ينبغي أن تكون غير ملتبسة، كيف تكون غير ملتبسة؟ أمر خارق

للعادة على سبيل التحدي مع دعوى النبوة، قالوا: فالساحر لا يفعل ذلك على سبيل التحدي للناس، ولا يدعي معه النبوة، وهذا الكلام لا حاجة إليه، فآيات الأنبياء غير خوارق السحرة إن صح التعبير فإن معجزات الأنبياء خارقة لجنس العادة، أي: عادة البشر جميعاً لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، وأما خوارق السحرة فهي خارقه لعادة غيرهم يطير في الهواء مثلاً، يمشي على الماء هذه خارقة لعادة غير الساحر، لكن لو جئنا بساحر آخر، وقال: أنا أصنع أفضل منه وأكثر منه، فهي ليست بخارقة لجنس عادة السحرة، عرفتَ الفرق؟ أما معجزة النبي فهي خارقة لجنس العادة مطلقاً، فلا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، إضافة إلى أمور أخرى وهي أنه لا يشترط أن يقصد بها التحدي، فالأنبياء قد تحصل لهم الخوارق من غير تحدٍّ، تحصل بين أصحابه كنبع الماء بين أصابعه -عليه الصلاة والسلام-، وإنزال المطر بدعائه، وكذلك الإخبار عن أمور غيبية مثل مكان ناقته حينما ضاعت في بعض مغازيه، وهكذا أيضاً انقياد الشجر له وتسليم الحجر عليه، قد يحصل له ذلك بمفرده دون أن يراه أو يطلع عليه الآخرون، هذا كله من آيات الأنبياء لا يشترط أن يقصد بها التحدي، إضافة إلى حال الساحر، وحال النبي، شتان، فالساحر أقذر الناس نفساً، والنبي أطهر الناس نفساً، الساحر يدعو إلى كل رذيلة، والنبي يدعو إلى كل فضيلة، ولهذا تجد هرقل في السؤالات المعروفة لم يسأل عن معجزة واحدة، كل الأسئلة التي سألها من دلائل النبوة وآيات الأنبياء ليس فيها خارق واحد، ما سأل عن معجزة، ومع ذلك عرف أنه نبي وأيقن، وكذلك أيضا لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- ورآه عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- فقال: إن وجهه ليس وجه كذاب، وسأله بعض الأسئلة ولم يطلب منه معجزة.

{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:٤٩-٥١].

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما، وذلك أنه قد كُشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهِلَ قومُهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: {لا ضَيْرَ} أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول فرعون {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ} المقصود بذلك: قطع يد من جهة ورِجل من جهة أخرى فتتعطل مصالح الإنسان في الانتقال والمشي والحركة، وفي المعاطاة وتبادل المنافع والتصرف في شئونه وحاجاته، وأما قول السحرة: لا ضير فبمعنى لا ضرر، قال: لا ضرر ولا ضير أي أن هذا لا يضرنا، وقد مضى الكلام على مثل هذه الآيات في مناسبات سابقة.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:٥٢-٥٩].

لما طال مُقام موسى -عليه السلام- ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى -عليه السلام-، أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمَر، ففعل موسى -عليه السلام- ما أمره به ربه -عز وجل-، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حُليا كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكر غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وذكر مجاهد -رحمه الله- أنه كُسِف القمر تلك الليلة، فالله أعلم.

مثل هذا لا يصح ولا يثبت، والمرويات في هذا كثيرة جداً، وكل ذلك يحتاج إلى دليل، ويقولون: إنهم خرجوا في يوم عيد لبني إسرائيل، ولهذا استعار نساؤهم الحلي من نساء الفراعنة، فلما خرجوا بقي معهم هذا الحلي، فقالوا: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} [سورة طه:٨٧]، فلما ذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى الميقات وهؤلاء معهم الحلي المستعار ما عرفوا كيف يصنعون به، كيف يتصرفون فألقوا ذلك الحلي المستعار، فأوقد عليه السامري، وجعله لهم بهيئة العجل وقبض قبضة من أثر حافر فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام- فألقاها، فصار ذلك العجل له خوار، فهذا شأن الحلي الذي كان معهم.

وأن موسى -عليه السلام- سأل عن قبر يوسف -عليه السلام-، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه -عليهما السلام.

الحديث معروف في عجوز بني إسرائيل لما اشترطت على موسى -عليه الصلاة والسلام- أن ترافقه في الجنة، فدلتهم على مكان قبر يوسف -صلى الله عليه وسلم- وكان قد أوصى بذلك –أي أن ينقل-، وإلا فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- يدفنون حيث ماتوا، وما جاء أن موسى -عليه السلام- سأل عن قبر يوسف -عليه السلام- ونقله مع أن أجساد الأنبياء قد حرمت على الأرض فالمقصود أن العظام تطلق ويقصد بها الإنسان، الجسد، وإلا فقد كانت المدة الطويلة بين يوسف -عليه الصلاة والسلام- وبين موسى في مجاري العادات كانت كافية لتحلل العظام، ولكن الله يحفظ أجساد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لِمَا يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين، أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادى فيهم: {إِنَّ هَؤُلاءِ} -يعني: بني إسرائيل- {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} أي: لطائفة قليلة.

{وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا.

يقول: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، الشرذمة الطائفة القليلة الحقيرة، شرذمة، يعني يقال هذا: للشيء المستحقر، وبنو إسرائيل قدروا في ذلك الوقت بأنهم يبلغون ستمائة ألف -والله تعالى أعلم-، لكن بالنظر إلى الفراعنة هم قلة، وكانوا يعملون في الخدمة والأعمال المهينة، إن هؤلاء لشرذمة قليلون.

{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ}.

قراءة المدنيين قراءة متواترة، قراءة أبي عمرو حذرون، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن الحاذر والحذِر معناهما متقارب، بل قال بعضهم كأبي عبيدة معمر بن المثنى: إن المعنى واحد، مع أن بعض أصحاب معاني القرآن مثل الزجاج والفراء فرق بينهما، فقال: الحذِر من كان ذلك طبيعة له، الحذِر دائماً يعني مَن طبيعته الحذَر، صفة له ثابتة، وأما الحاذر فهو الذي يحذر الآن، والحاذر متيقظ في أي وقت، أي مستعد، ويكون الحذِر متيقظاً دائماً على هذا التفريق، فعلى التفريق بينهما: وإنا لجميعٌ حاذرون يعني الآن أعلنت حالة الطوارئ كما يقال وأما إذا قال: حذِرون -على التفريق بينهما- فيعني أن ذلك كان من ديدنهم معهم لما يتخوفونه منهم ويتوقعونه منهم، ولهذا كان يقتل أبناءهم إضعافاً لهم فلا تكون لهم قوة وظهور وشوكة.

وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ}، أي: مستعدون بالسلاح.

لاحظْ ابن كثير -رحمه الله- مشى على التفريق بينهم، في الأولى {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} حاذرون أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ} أي مستعدون بالسلاح، لكن حاذرون الأولى أي نحن كل وقت عكس المعنى الذي ذكره أصحاب معاني القرآن: حذِر من كان ذلك طبيعة له، حاذر يعني الآن متيقظ، ابن كثير -رحمه الله- قال: وإنا لجميعٌ حاذرون أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وذكر أن القراءة الثانية أي مستعدون بالسلاح، فالقراءة الأولى جاء بـــ"أن" الأصل أنه حذرون، والثانية قال: وقرأ بعض السلف: حذِرون؛ لأن الأصل أنه يمشي على قراءة حفص.

فهم دائماً مستعدون لبني إسرائيل بالسلاح، هذه سجيتهم، لا أنهم يحملون السلاح في وقت الاحتدام وتوقع المواجهة وما أشبه ذلك، وهذا يدل على أن الاستعداد هنا في ذلك الوقت بعينه -والله تعالى أعلم-، ولهذا تجد أن بعضهم لربما يعبر بمثل هذا فيقول لك: حاذرون مستعدون بالسلاح، فبعضهم يقول: المعنى واحد أصلاً لكن ابن كثير هنا واضح أنه فرق بينهم، وإلا فسيبويه يقول: المعنى واحد، هذه إذا كان اختلف فيها هؤلاء الأئمة من أهل اللغة سيبويه والفراء والزجاج وأبو عبيدة نعم فأهل اللغة يختلفون فيها، وابن جرير -رحمه الله- لم يقل: إن المعنى متحد، ولا إن المعنى مختلف، وإنما قال: المعنى متقارب، حذِر وحاذر، ولاشك أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فلان حذِر يعني أن ذلك طبيعة له، فلان حاذر فهو حذِر وزيادة، فيه زيادة -والله أعلم-، أما كون المعنى واحداً متفقاً فيمكن أن يقال: في أصل المعنى متفق، لكن الزيادة لابد أن تكون، زيادة في المعنى.

وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

قال الله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا.

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، كما قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [سورة الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ...} الآية [سورة القصص:٥-٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} هذه الآية مفسرة لقوله: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا} لبني إسرائيل، و{وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [سورة الدخان:٢٨] هم بنو إسرائيل، لكن هنا {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} يعني أرض مصر، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} فليس هذا محل اتفاق بين المفسرين أنها أرض مصر؛ لأن بعض السلف يقول: هي أرض الشام، هي التي بارك الله فيها، وهي الأرض المباركة، وبعضهم يقول: أرض مصر، وبعضهم يقول ما هو أعم من ذلك، وذكرت حينها أن المؤرخين يقولون: إنه في التاريخ لا يعرف رجوع لبني إسرائيل بعدما جاوزوا البحر ونجوا من الغرق واتجهوا إلى الشام، لا يعرف أنهم رجعوا إلى مصر مرة أخرى، لكن يقال: كلام الله -تبارك وتعالى- حق وصدق، والله هو العليم الأعلم وأخبر أنه أورثها بني إسرائيل، وحتى لو لم يثبت لهم رجوع فإنها تبقى تحت سلطانهم وتدبيرهم، لأن بلاد مصر خلت من القادة، وخلت من الجيش، ولم يبقَ فيها إلا النساء ومن في حكمهن ممن لا تدبير لهم، وإلا فالذين يديرون البلد ويحمونها ونحو ذلك كلهم قد هلكوا في وسط البحر، فبقيت البلد مكشوفة خالية، فموسى -عليه الصلاة والسلام- أورثه الله، أورث الله الإسرائيليين أرض مصر وبلاد الشام، وبلاد مصر هي بلاد مرتبطة كل الارتباط، وعبر التاريخ عموماً كانت الجيوش التي تغزو مصر أو تحتل مصر أو نحو ذلك كانت تأتي عن طريق الشام عبر التاريخ السلطان الذي يحصل على مصر واليد التي توضع عليها كانت تأتي من قبل الشام؛ ولهذا كان محمد علي باشا حريصاً على أن يُدخل الشام تحت سلطانه، ويطالب العثمانيين بهذا ويلح عليهم ويساومهم في مطالبهم على تحقيق هذا المطلب؛ لأن قبله وقعت أشياء كثيرة كانت تأتي من قبل الشام، فلا غرابة أن تكون مصر تابعة لبلاد الشام مع هذا الأمر العظيم الذي حصل من هلاك فرعون ومن معه، بل يذكر بعضهم أن البلاد المصرية في التاريخ لم يحكمها أهلها غالباً حتى الفراعنة لو قرأتم في تاريخهم لوجدتم أن القبط جاءوا من خارج مصر، وعلى مدى التاريخ عمرو بن العاص لما حكم مصر فتح مصر وحكمها المسلمون لم يحكمها أحد من أهلها، وبعد ذلك جاء من جاء، وفي وقت الدولة العثمانية كانت ترسل من قبلها موفداً لحكم البلاد المصرية، وبعض هؤلاء كان رقيقاً مملوكاً، ومحمد علي ومن معه كانوا من الألبان، ما كانوا من المصريين، ويقول بعضهم: إن وصية النبي -صلى الله عليه وسلم- في أهل مصر يعني ربما كانت تشير إلى هذا، ولكن لا يخلو من بُعد، والله أعلم.

{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ

الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:٦٠-٦٨]، **ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه.**

خرج في محفل يعني في جمع من الناس عظيم؛ لأن المحفل هو مكان الاحتفال، وفي طبعة طيبة **خرج في جحفل عظيم.**

أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ} **أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.**

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} **أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك** {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، **وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سِيف البحر، وهو بحر القُلزم.**

بحر القُلزم هو البحر الأحمر، وبعض أصحاب الإعجاز العلمي يقول: إنه توجد أخاديد داخل البحر فيها نار، فالفراعنة سقطوا فيها ولذلك قال: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [سورة نوح:٢٥]، وهذا كلام غير صحيح.

فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهذا قالوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} **أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.**

وكان هارون -عليه السلام-، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى -عليه السلام- في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى -عليه السلام-: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبقَ إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلقْ بإذن الله.

أمر الله نبيه موسى -عليه السلام- أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلقْ بإذن الله.

والله -تبارك وتعالى- أعلمَ موسى -صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك وأخبره أنكم متبعون، وكذلك -أيضا- واترك البحر رهواً، فأعلمه الله -تبارك وتعالى- قبل هذا.

قال الله تعالى: {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} **أي: كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقتادة، وغيرهم.**

صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، يعني صار فيه طُرق لأسباط بني إسرائيل، صار كل فرق كالطود العظيم، وقف الماء كأنه جبال، وكانوا يمرون بين هذه الطرق كأنهم يمشون على اليابسة.

وقال عطاء الخرساني: هو الفَجّ بين الجبلين.

وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا، لكل سبط طريق، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يَبَسا كوجه الأرض، قال الله تعالى: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى} [سورة طه:٧٧].

وقال في هذه القصة: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} **أي هنالك.**

قوله: **على حَيْله كالحيطان** يعني: على حيله كالحيطان.

وقد يفهم منه أن البحر لاسيما مع قوله فانفلق والانفلاق الانشقاق، فكان كل فرق كالطود العظيم، يعني كأن البحر انفلق عنهم فمشوا على الأرض اليابسة، فصار الماء في نواحيه كالجبال، فصار طريقاً يبساً، وهذا يدل -والله أعلم- على أن البحر انشعب عنهم بالماء، فصاروا يمشون على اليابسة، فصار الماء متوقفاً في نواحيه هذا الذي يفهم من ظاهر الآية -والله تعالى أعلم- وهذا أبلغ وأعظم، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الحروب في العراق مشوا على الماء عبروا دجلة في واقعة مشهودة معلومة مع سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-، ولكن كون البحر ينشعب بهذه الطريقة ويبقى مثل الجبال العظيمة على جوانب هذه الطرق ثم يمشون في وسط البحر على أرض يابسة لا تزوغ فيها الأقدام هذا عجيب، تعرفون أرض البحر كيف ما فيها من أثر أذى الماء وما فيها من الأشياء التي اجتمعت عبر قرون متطاولة فصار بهذه المثابة.

وقال في هذه القصة: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} أي هنالك.

هذا ظرف مكان للبعيد.

قال ابن عباس، وعطاء الخرساني، وقتادة، والسدي: {وَأَزْلَفْنَا} أي: قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه.

{وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

ثم قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} تقدم تفسيره.

يحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} قوم فرعون، مع ما رأوا من هذه الآيات العظيمة انفلاق البحر، وما حصل قبله أيضاً من رؤية العصا، وما حصل من موسى -عليه الصلاة والسلام- مع السحرة، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} ما آمن إلا قلة كآسية امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} يعني من وجه إليهم هذا الخطاب وقص عليهم هذا القصص وهم المشركون في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم ينتفعوا بذلك، ولم يؤثر فيهم، وعلى الأول: وما كان أكثرهم مؤمنين أي جملة قوم فرعون وليس المقصود الجيش الذي معه، لأنه لم يؤمن أحد منهم، وعلى الثاني كما يقول سيبويه: ما كان أكثرهم يعني المشركين الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-. والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} فحينما شاهدوا آية موسى -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية العظيمة لم ينتفعوا بها وبقوا على المكابرة وما تركوا موسى وشأنه، فقد كان يطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فلما رأى هذه الآية لم يذعن ولم يرسلهم ولما خرجوا من عند أنفسهم في وقت غفلة الناس ما غض الطرف عنهم، وإنما أعلن الحذر، وجهز الناس والجيش لملاحقتهم، وكان يمكن أن يقال له: دع هؤلاء يخرجون من مملكتك فتستريح منهم، ولكن أهل الشر والباطل والمنكر لا يمكن أن

يتركوا أهل الإيمان وشأنهم، وفي آخر المطاف حينما جاءوا ووجدوا البحر بهذه الصورة العجيبة التي هي من أعظم الآيات كيف يتحول البحر وينفلق بهذه الطريقة، ويمشون على أرض يابسة، ويرون الماء مثل الجبال على جوانب هذه الطرق، ومع ذلك يمعنون في كفرهم وملاحقة أهل الإيمان مع مشاهدة هذه الآيات فهذا كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا}** [سورة الأعراف:١٤٦]، وقال: **{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ}** [سورة الأنعام:١١١]، وهذا حال من طمس الله -عز وجل- بصيرته، ونحن في زمان نريد ألا يصدر من الكفار أي أذى من قول أو فعل ونستغرب هذا وكأننا لا نعرف سنة الله -عز وجل- في الصراع بين الحق والباطل ونريد من أهل النفاق ألا يصدر منهم إلا كل قول حسن، وفعل حسن، وهذا لا يمكن، كانوا في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتكلمون "سَمِّنْ كلبك يأكلْك"، **{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}** [سورة المنافقون:٧]، **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [سورة المنافقون:٨]، ولكم أن تتصوروا أن كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول كان عنده زاوية في صحيفة، أو عمود صحفي فتروا ما سيكتب عدو الله، ولا نستغرب حينما نجد أعداء الله من هؤلاء المنافقين ليس لهم شغل إلا أهل الإيمان، فهذا فرعون إلى آخر لحظة يرى البحر منفلقاً، ومع ذلك يمعن في كفره ومحاربته إلى آخر لحظة، هذه سنة الله -عز وجل- في خلقه **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [سورة يوسف:١٠٣]، **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [سورة الأنعام:١١٦] موفقٌ من لزم الصراط المستقيم الكتاب والسنة، وكما قال الله -عز وجل-: **{وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ}** [سورة الأنعام:١١٣]، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ٦٩ إلى ١٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:٦٩-٧٧].

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم -عليه السلام- إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمدا -صلى الله عليه وسلم- أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشأ وشبّ أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله -عز وجل-: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} أي: إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن نوح، -عليه السلام-: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} الآية [سورة يونس:٧١]، وقال هود -عليه السلام-: {إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود:٥٤-٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ} الآية [سورة الأنعام:٨١]، وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ...} إلى قوله: {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [سورة الممتحنة:٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الزخرف:٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى عن قيل إبراهيم -عليه السلام-: {أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} الذي عليه الجمهور من المفسرين أن الضمير أعني "الهاء" في قوله: {فَإِنَّهُمْ} يعود إلى آلهة المشركين، إلى معبوداتهم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} يعني أعداء لي، والعدو جنس يصدق على الواحد والجمع، سواء كان بالإضافة أو بدون إضافة كما مضى من نظائره في مواضع من هذا التفسير كما في سورة النور: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١]، أي الأطفال، وهكذا في قوله تعالى في الإضافة: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١] يعني: أو أصدقائكم، وهكذا في قوله: {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [سورة الممتحنة:١]، جمع: يعني أعدائي وأعداءكم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} أي أعداء لي، يعني الآلهة والمعبودات على قول عامة أهل العلم، وإن كان منهم من قال بأن ذلك يرجع إلى آبائهم الأقدمين، قال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} قالوا فالضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهم الآباء فكانوا على عبادة الأصنام فهم أعداء له، ومن جهة أخرى فإنهم قالوا ذلك باعتبار أنهم نظروا إلى أن المعبودات عبارة عن أصنام، لا يصدر منها عداوة أو محبة فهي جمادات، {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} والعدو هو الذي تعاديه ويعاديك، فتقول: هذه السارية عدوي مع أنها لا يصدر منها شيء، فحملهم هذا النظر على القول بأن الضمير يرجع إلى الآباء، وهذا فيه نظر؛ لأن السياق لا يساعد عليه -والعلم عند الله -تبارك وتعالى- بل المقصود تلك المعبودات، وجّه بعض أهل العلم ذلك، الذين قالوا بأنها المعبودات قالوا بأنها تنقلب إلى العداوة في الآخرة، تكون أعداء لهم هذه المعبودات التي عبدوها من دون الله -جل جلاله-، كما يدل عليه القرآن، وبعضهم يقول: هذا من المقلوب {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} أي فإني عدو لهم؛ لأن من عاديته عاداك، هكذا قال الفراء، وهذا خلاف الأصل، فالأصل أن يكون الكلام على وجهه دون دعوى القلب، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا لا إشكال فيه، وهذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى- التي قالوا نعبد أصناماً- هو يعاديها وهي أيضاً تنقلب معادية لأصحابها في الآخرة، وإن لم يكن هذا المراد أعني أنها باعتبار ما يكون بالآخرة؛ لأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} ولم يقل: عدو لهم؛ لأنها تعادي من عبدوها لكن على كل حال هم جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الله -تبارك وتعالى- ولم يكتفوا أن ينزلوها منزلة العقلاء، فهي عدو لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، هي عدو لأهل الإيمان باعتبار أنه يعاديها، فالعداوة تصدر من الطرفين، تقول: هذا عدو لي، وقد تكون العداوة متبادلة بين الطرفين، وقد تكون العداوة صادرة منه هو فقط، وقد تكون هذه العداوة صادرة منك أنت نحوه، فتقول في حقه: هذا عدو لي وإن لم يصدر منه شيء بالنسبة إليك، فعندما كانوا يرجون نفعها ودفعها وشفاعتها ونحو ذلك إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وصفها بالعداوة يعني على خلاف ما كانوا يعتقدون فيها، وقوله: {إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} الاستثناء هنا باعتبار أنهم يعبدون الأصنام فهي عدو لي إلا رب العالمين يكون الاستثناء منقطعاً؛ لأن رب العالمين ليس من جنس المستثنى منه، وهذا يسمونه الاستثناء المنقطع، وهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم، وقال الزجاج بقول عامة العلماء، لكنه قال: ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً باعتبار أن هؤلاء كانوا يعبدون الأصنام، وكانوا يعبدون الله معها يشركون به، فهو يقول في هذه المعبودات: {أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ

وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} يعني من معبوداتكم، فيكون الاستثناء متصلاً بهذا الاعتبار.

{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الشعراء:٧٨-٨٢].

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدّر، وهو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويَسّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالا لــ {نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} [سورة الفرقان:٤٩].

وقوله: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلْقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا، كما قال تعالى آمرًا للمصلي أن يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} إلى آخر السورة [سورة الفاتحة:٦-٧]، فأسند الإنعام إلى الله، -سبحانه وتعالى-، والغضب حُذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: {وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [سورة الجن:١٠]؛ وكذا قال إبراهيم: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

{وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يُبدئ ويعيد.

{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} أي: هو الذي لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

هذا المعنى الذي نبه عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} من جهة التأدب مع الله -تبارك وتعالى- فيما يضاف إليه من الأوصاف أو التعبير يقال عن الله -جل جلاله- وهذا معنى لطيف ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، وبعض المفسرين ينبهون عليه في مواضع كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [سورة الفاتحة:٧]، أضفت الإنعام إلى الله عليهم {غَيرِ المَغضُوبِ} ما قال: الذين غضبت عليهم، لما كان الإنعام محبوباً مطلوباً أضافه إلى الله -تبارك وتعالى-، ولما كان الغضب والانتقام يكون عقوبة حذف الفاعل فأضاف إليه ما يتصل بالإنعام والإفضال، وحذف الفاعل فيما يختص بالعقوبة والانتقام مع أن ذلك جميعاً من الله -جل جلاله-، وهكذا تجد مثل هذا الكلام في مدارج السالكين للحافظ ابن القيم، وفي تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي، وفي القواعد الحسان له ذكر أمثلة على هذا، وكما في سورة الكهف أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف:٧٩]، فأضاف العيب إليه، وفي الجدار {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف:٨٢] فأضاف ذلك إلى الله -جل جلاله-، وهذا له أمثلته في القرآن، ولكنه بطبيعة الحال

ليس بمطرد في القرآن، فمثل هذا يفيد الناظر فيه في التأدب في المخاطبة، ولا شك أنها مطلوبة سواء كان فيما يتصل بالإضافات أو في التعبير بالألفاظ التي لا تحتمل المعاني الباطلة، {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} [سورة البقرة:١٠٤]، ولكن النوع الأول كما سبق ليس بمطرد؛ فإنك قد تجد في القرآن أشياء أضيف الفعل فيها إلى الله -تبارك وتعالى- وإن كان ذلك من جنس أوصاف الانتقام أو الغضب أو نحو ذلك، كقوله: {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [سورة النساء:٩٣] فتجد أمثلة لهذا متنوعة في القرآن، لكن هذا من اللطائف وليس من صلب التفسير، وقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الشعراء:٨٢]، الطمع أصله يدل على معنى الرجاء، وتكلم أهل العلم على هذا الموضع، فإن بعضهم يقول: إنه قصد بقوله: {أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} أن ذلك على ظاهره وهو الرجاء، وبعضهم يقول: قال ذلك تواضعاً، ولا شك أن المؤمن يطمع بمغفرة الله -تبارك وتعالى- له، ولخطيئته يوم الدين، وأما خطيئته التي أشار إليها فبعضهم يقول: قال ذلك تواضعاً لربه، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الراجح أنه تجوز عليهم الخطيئة، وإنما لا تقع منهم الكبائر ولا يصرون على الصغائر، كما لا تقع منهم الصغائر التي يقال لها: صغائر الخسة، كالأشياء المدنسة للعرض، وإن كانت من الصغائر، وخطيئة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- المشار إليها حاول بعض أهل العلم أن يخصصها بنوع أو بفعل معين، فبعضهم يقول: حينما قال: {هَذَا رَبِّي} [سورة الأنعام:٧٦]، وهذا ليس بخطيئة؛ لأنه قال ذلك مُناظراً لا ناظراً، ومن باب التنزل مع الخصم، وبعضهم يقول: هو ما جاء من قوله عن زوجه سارة: هذه أختي، وصفها بأخته مع أنها زوجته، وهذا في الواقع من قبيل المعاريض، وهكذا حينما قال: {إِنِّي سَقِيمٌ} [سورة الصافات:٨٩]، وهكذا حينما قال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ} [سورة الأنبياء:٦٣] لما حطم الأصنام، هذا كله من قبيل المعاريض، ولا حاجة للتكلف في مثل هذه الأمور، وإنما من شأن المؤمن أن يطمع بمغفرة الله -عز وجل- لخطاياه، وقوله هنا: {خَطِيئَتِي} يمكن أن يفسر بخطاياي، ولا داعي لتخصيصه بخطيئة واحدة كما فعله بعض المفسرين، فالخطيئة هنا أضيفت إلى المعرفة، وذلك يكسبها معنى الجمع أو العموم، يعني خطاياي.

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٨٣-٨٩].

وهذا سؤال من إبراهيم -عليه السلام-، أن يؤتيه ربه حُكْماً، قال ابن عباس: وهو العلم.

قال ابن عباس: هو العلم، وبعضهم يقول: هو المعرفة، وهذا داخل في الذي قبله، وبعضهم يقول: هو النبوة والرسالة، {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} وحينما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه ما قال، وحصلت منه هذه المحاورة والمجادلة لهم كان ذلك بعد النبوة، وحصلت له المعجزة العظيمة ألقوه في النار فلم يحترق، ثم مر في طريقه إلى الشام بعبدة الكواكب وحصلت المناظرة منه لهم، فتفسير الحكم بالنبوة والرسالة فيه إشكال؛ لأن ذلك قد حصل له، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- {هَبْ لِي حُكْمًا}: أي علماً، وهذا العلم يشمل العلم بحدود الله -عز وجل- وأحكامه، والحكم يأتي بهذا المعنى، والله -عز وجل- يقول: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [سورة الأنعام:٨٩] الكتاب، والحكم، والنبوة، والقاعدة أن التأسيس مقدم على

التوكيد فلا يقال: إن العلم هو الكتاب، ولا يقال: هو النبوة في الآية التي في سورة الأنعام {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} فيمكن أن يفسر الحكم بهذا العلم، أو الحكم والفصل بين الناس في الخصومات.

وقوله: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عند الاحتضار: ((اللهم الرفيق الأعلى))[1]، قالها ثلاثا.

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} الحكم: ابن جرير -رحمه الله- فسره بالنبوة، وهذا أظنه قريباً -والله أعلم-؛ لأن الله أعطاه نبوة فكيف يطلب شيئاً قد حصل وتحقق له؟، وحمل ابن جرير -رحمه الله- قوله: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} على الرسالة، أي اجعلني في جملتهم يعني الرسل -عليهم الصلاة والسلام- {هَبْ لِي حُكْمًا} يعني النبوة {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} في الرسالة، ولكن مثل هذا -والله أعلم-، كأنه قصرٌ للمعنى على ما هو أخص -والله أعلم-، فمن أخص من مدلول اللفظ في ظاهره، ألحقني في الصالحين يعني في جملتهم، ومن في حكمهم يكون من جملة الصالحين، وفي عدادهم في الدنيا والآخرة، ويدخل على رأس هؤلاء الأنبياءُ والمرسلون -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، هذا أعم من إلحاقه بهم في الرسالة.

وقوله: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} أي: واجعل لي ذكرًا جميلا بعدي أذكر به، ويُقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [سورة الصافات:١٠٨-١١٠].

وهذا الذي حصل، أجاب الله دعاءه؛ ولهذا أجمعت الطوائف وأهل الملل على تعظيم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وكل طائفة تدعيه؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [سورة آل عمران:٦٧]، وقال: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة آل عمران:٦٦]، و {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [سورة البقرة:١٤٠]، فاليهود يدعون أنه منهم، والنصارى يدعون أنه منهم، والمسلمون يقولون هو إمام الحنفاء.

وقوله: {وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

قوله: {وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ} أي: تلك الجنة، {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا} [سورة مريم:٦٣]، وقال: {أُورِثْتُمُوهَا} [سورة الزخرف:٧٢] وكذلك في قوله: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ} [سورة الزمر:٧٤]، بعض أهل العلم يقول: أرض الجنة كما سبق، فالإيراث المراد به إيراث الجنة، وإذا أردت أن تنقر في هذه اللفظة، كلمة الإيراث، وفي مدلولها فهنا قد يكون هذا التنقير سبباً للإشكال أو الاختلاف، ولهذا لما حاول بعض أهل العلم أن يدقق في مدلول هذه اللفظة قال: أورثهم مكان الآخرين؛ لأن كل كافر له منزل في الجنة والنار، فإذا دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة فإن أهل الجنة يرثون مع منازلهم منازل أهل النار في

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤١٩٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها-، برقم (٢٤٤٤).

الجنة هذا معنى الإيراث، لكن في الاستعمال هل يشترط أن يكون الإيراث بعد القوم الآخرين؟ في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ} قال كثير من المفسرين: إن الأرض هذه، وليست أرض الجنة، لابد أن يكون ذلك بعد قوم آخرين {أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ}، لا حاجة لمثل هذا، فإذا صار ذلك إليه فإن ذلك يمكن أن يطلق عليه هذا، والله أعلم.

وقوله: {وَاغْفِرْ لأَبِي...} الآية، كقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} [سورة إبراهيم:٤١]**، وهذا مما رجَعَ عنه إبراهيم، -عليه السلام-، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ...} إلى قوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ}** [سورة التوبة:١١٤]**، وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...}، إلى قوله: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}** [سورة الممتحنة:٤]**.**

إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان يطمع ويرجو إيمان أبيه فوعده بالاستغفار، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ} بمعنى أنه مات على الكفر تبرأ منه، ولما قال بعض المسلمين: استغفر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه، وأرادوا أن يستغفروا لآبائهم أنزل الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ}، {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، والأسوة التي ذكرها هنا {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...}، وذكرت هناك أن الاستثناء {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ} [سورة الممتحنة:٤]، بعضهم يقول فيه: هذا الاستثناء من الأسوة، {لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} [سورة الممتحنة:٤] إلا في قوله: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} فتكون أسوة فيها استثناء، وأخذ بعضهم من هذا -كما سبق- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم، أي من جهة أن الله في سورة الأحزاب ذكر الأسوة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأطلق {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٢١] من غير استثناء، وأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ذُكر أسوة مع الاستثناء {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} فالأسوة المطلقة أكمل من الأسوة التي فيها استثناء، لكن هذا ليس محل اتفاق في المعنى، فمن أهل العلم من يقول: إن الاستثناء هناك منقطع {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ} أي لكن قول إبراهيم، فتكون الأسوة مطلقة، ويكون الائتساء به من غير استثناء.

وقوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

وروى البخاري في قوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ))[2].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزيني يوم يبعثون، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين))[3].

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، برقم (٤٤٩٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب تفسير سورة الشعراء، برقم (٤٤٩١).

هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء ولفظه: ((يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار))[٤]، ورواه أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبرى.

المراد بالخزي هنا الفضيحة، والقترة: هي تغير في الوجه في هيئته وشكله من سواد ونحوه، والذكر من الضباع يقال له: ذِيخ، يعني أنه يقلب بهذه الصورة فلا يُعرف، ما يعرف الناس أن هذا أب لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والله المستعان.

وقوله: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ} أي: لا يقي المرءَ من عذاب الله مالُه، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا: {وَلا بَنُونَ} ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك.

قوله: {لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ} لا ينفع شيء لا المال، ولا البنون، والعشيرة، ولا أحد، ولهذا قال: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة:٤٨]، فنفى عنهم هذه الأمور الثلاثة التي يحصل بها الخلاص إما بواسطة أن يشفع له أحد أو يكون ذلك بالافتداء يفتدي نفسه بغيره، أو يكون ذلك بالقوة والغلبة يأتي من ينصره ويخلصه بالقوة، فنفى عنهم هذه الأشياء الثلاثة، وهنا خص المال والبنون {لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ}؛ لأنهما أقرب ما يلي الإنسان وينصره وهما مما يعتز به المرء؛ لأن ماله وولده من كسبه، ثم يأتي بعد ذلك ابن العم، والأخ والعشيرة ونحو ذلك، {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [سورة عبس:٣٤-٣٦]، كل هؤلاء لا ينفعونه لكن أقرب ذلك إليه من ناحية الانتفاع والنصرة والتخليص من المكاره المال فهو تحت يده يتصرف به، ويفتدي نفسه، وكذلك الأبناء، ولهذا كان الرجل يفتخر بكثرة الأبناء -ولهذا جاء في الآيات {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ} [سورة الكهف:٤٦]، ولم يقل: والأولاد؛ لأن لفظ الأولاد يشمل البنات والبنين- لأنه يعتز بهم ويحتمي بهم، وهكذا من جهة المكاسب والتحصيل كل ذلك يرجع إلى البنين دون البنات.

ولهذا قال: {إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} أي: سالم من الدنس والشرك، قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [سورة البقرة:١٠].

وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة.

كل ما ذكر يرجع إلى شيء واحد، وهذا من قبيل اختلاف التنوع، والقلب السليم: السلامة خلاف المرض، والكافر والمنافق قلبه مريض، والقلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك بالله تعالى، وسلم من مرض

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧٢)

النفاق، ولم يتلطخ بشيء من الأمراض التي يحصل بها انحطاط مرتبة العبد سواء كان ذلك من قبيل الشكوك التي تزلزل إيمانه سواء كان بالله -تبارك وتعالى-، أو بالملائكة، أو الرسل، أو القدر كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، أيًّا كان فإن هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد القلب السليم، وأعظم ما تكون السلامة منه هو الإشراك هذا أصل في النجاة لا يمكن أن تحصل إلا بهذا، ثم بعد ذلك يحصل التفاوت بين الناس في سلامة القلب، فمن الناس من تكون سلامته أكمل من غيره، فلا تزاحم محبة الله تعالى في قلبه محبة أحد من المخلوقين، فالقلوب التي ابتليت بالعشق، فصار ذلك يملؤها ويشغلها عن ذكر الله ومحبته والإقبال عليه ليست كالقلوب الصافية التي مُلئت بمحبة المعبود -جل جلاله- وقل مثل ذلك في القلوب التي تشربت البدع والأهواء والضلالات ليست كالقلوب التي سلمت من هذا وصاحبها على السنة، وهكذا القلوب التي قد تشربت الشبهات ليست كالقلوب المصقولة التي سلمت من ذلك كله، والله المستعان.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله -تعالى ذكره-

: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه"[٥].

هذا الأمر الجامع: أراد أن يجمع المعنى، وعامة المفسرين أنه السالم من الشرك، فالسلامة من الشرك تتحقق منها النجاة، وأنه لا يخلد في النار، ولكن القلب إذا كان متلطخاً بما دون الشرك فإن ذلك لا تحصل له السلامة الكاملة.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده"[٦].

القلب كامل السلامة ولكن النجاة لا تتوقف على هذا، بمعنى الخلود في النار أو النجاة من النار، والأساس في هذا قضية السلامة من الإشراك، ومع ذلك فإن القلوب تتفاوت فيه، ولكن لا تتوقف عليه النجاة بمعنى الخروج من النار، قد يكون الإنسان في قلبه شيء من الأهواء ولكنه لا يخلد في النار، في قلبه شهوات تزاحم محبة الله، والإقبال عليه تشغله وتعوقه، ولكنه لا يخلد في النار، فالسلامة الكاملة ما ذكره الحافظ ابن القيم، فهذا مثل الإيمان يتفاوت، إسلام المرء يتفاوت كما أن الكفر يتفاوت، والنفاق يتفاوت، والإشراك يتفاوت، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [سورة الجاثية:٢٣]، صار الآن هواه يطاع ويتبع فهذا نوع من الإشراك، ولكن هذا الإشراك لا يخلد في النار، وقل مثل ذلك في الكفر، الكفر يتفاوت فمنه ما يخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة، ومنه كفر عملي، وكفر اعتقادي، وهكذا النفاق منه ما هو نفاق أكبر، ومنه ما هو نفاق

---

٥ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم(٧/١).

٦ - المصدر السابق (٧/١).

أصغر، ولهذا تجد في كلام الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- بل في كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((يصبح الرجل مسلما، ويمسي كافرا))[٧]، تدل على أن الناس يتقلبون في أحوال، فهذا الإنسان المصلي لربما ينقلب في موقف إلى حال آخر إلى كفر أو إلى نوع نفاق، ولهذا تجد الصحابة في بعض المواقف بعضهم يقول: نافق فلان، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فالنفاق لا يختص بإظهار الإيمان وإبطان الكفر بالضرورة، هذه صورة تعتبر أجلى صور النفاق وأسوأ صور النفاق، ولكن هناك صور أخرى قد يكون هذا الإنسان مصليا ولكنه في الواقع فيه نوع نفاق يزيد وينقص، ولهذا يستشكل بعض الناس حال بعض هؤلاء الذي يقولون عن أنفسهم إنهم ليبراليين، وأنا أقول: منافقين، فبعضهم يقول: هؤلاء بعضهم يصلي نقول: وإن صلى، والنفاق أنواع فبعضهم يظهر الإسلام ويبطن الكفر حقيقة، زنادقة، يدل على هذا كتاباتهم بأسماء مستعارة في مواقعهم في بيوت الضرار المعروفة، يكتبون كتابات هي عين الكفر، كفر لا شبهة فيه سخرية من الله، ومن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومن دين الإسلام صريحة، إذا كتبوا بأسماء مستعارة، قد حدثتني إحدى النساء من هؤلاء حصل عندها نوع اضطراب في موقف من المواقف، وشكت في حالهم فذكرت أموراً هي كفر صريح تذكر أنهم يتحدثون بها معها، فهذا إظهار للإسلام وإبطان للكفر، والبعض من هؤلاء قد لا يكون بهذه المنزلة من إظهار الإسلام وإبطان الكفر فيصلي ولكن عنده نوع نفاق، فهذه القضية لابد أن تدرك، فليس من شرط النفاق أن يظهر الإنسان الإسلام ويبطن الكفر، فالصحابة عندما يقولون: نافق فلان لا يقصدون أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فالنفاق أنواع، فهؤلاء لا شك في نفاقهم ولكن نفاقهم يتنوع، وإن كان بعضهم يصلي، هذه قضية لابد من تحريرها ومعرفتها، فكثير من القضايا المتعلقة بالنفاق لم تحرر عند كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم، يعني حتى المشهور جداً عند العلماء وطلبة العلم أن النفاق لم يعرف إلا في المدينة، وبالتحديد بعد غزوة بدر، هذا كلام يحتاج إلى تحرير، في غزوة بدر ماذا قال الله -عز وجل-: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}** [سورة الأنفال:٤٩]، ما نوع هذا المرض؟ النفاق وضعف الإيمان أليس كذلك؟، وفي بدر كان هناك منافقون **{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}** [سورة العنكبوت:١١] والسورة مكية، فمن الناس من يحصل له تلون، لا يقال: كون المسلمين في مكة ما عندهم قوه تُرهب حتى يحتاج الإنسان أن يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، فالنفاق أحيانا يظهر في مواطن الضعف يكون عنده إيمان ولكنه ضعيف، فإذا جلس مع الكفار صار كحالهم، وإذا جلس مع أهل الإيمان صار كما قال الله -عز وجل-: **{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ...}** [سورة النساء:٨٨-٨٩]، وقال **{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا}** [سورة النساء:٩١] فهذا نوع نفاق.

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:٩٠-١٠٤].

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ} أي: قربت الجنة وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها في الدنيا.

أصل معنى {أُزْلِفَت} أدنيت وقربت، لكن قوله: **مزخرفة مزينة لناظريها** هذا يفهم من أمور أخرى، وليس معنى أزلفت، وإنما هو قدر زائد عليه.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} أي: أظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عُنقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر.

وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا: {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ} أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} قال مجاهد: يعني: فَدُهْوِرُوا فيها.

وقال غيره: كببوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر، والمراد: أنه ألقي بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك.

اللفظة التي تتكرر فيها الحروف ككبكب وصلصل وزلزل وجلجل وحلحل تدل على تكرر في المعنى، فالزلزلة حركه فيها اضطراب، والحركة الواحدة ليس فيها اضطراب، وهكذا الصلصلة حينما تقول مثلاً صوت له صليل، أو له من صوت الجرس صلصلة، أو السلسلة أو نحو ذلك، إذا كان مرة واحدة فقط ما يقال له صلصلة، وهنا {فَكُبْكِبُوا} يعني ألقي بعضهم على بعض في دفعات تُلقى، كقوله: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [سورة الملك:٨] ويرمى فيهم في الجحيم ويطرح بعضهم على بعض، وبعضهم أيده وعبر عنه، ومعنى زائد وهو أن الكب يكون على الوجه يكب كبا، أي طرح بعضهم على بعض على وجوههم، كبكبوا.

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} أي: ألقوا فيها عن آخرهم.

بعضهم يقول في قوله: {وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} ذرية إبليس من الشياطين هم جنود إبليس، وجنود إبليس أعم من هذا {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} [سورة المجادلة:١٩] فحزب الشيطان هم جنود إبليس، فيدخل فيهم كل من كان بهذه الصفة من الجن والإنس؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [سورة الأنعام:١١٢] كما أن الجن فيهم شياطين فالإنس فيهم شياطين، فجنود إبليس كل من كان داعية إلى عبادة غير الله -عز وجل-، وإلى طاعة الشيطان، ومروجاً لذلك، وساعياً فيه فهو من جنود إبليس، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} [سورة الإسراء:٦٤] وصّى بالغناء، وكل صوت يدعو إلى المنكر والباطل فهو داخل فيه، وقوله: {بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} يعني كل راكب في المنكر والشر والصد عن سبيل

الله -عز وجل- فهو داخل في هذا بخليله، ورجلك كل ماشٍ وكل داعية إلى الإشراك، وإلى الكفر وإلى الفجور فهو من رَجِله، يعني الراجلة على الأرجل، هؤلاء كلهم من حزب الشيطان، ودعاته ومن جنوده.

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّه إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: **يقول الضعفاء الذين استكبروا: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ}** [سورة غافر:٤٧]، **ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** أي: **نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين.**

بعضهم يقول: **{تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**: "إن" مخففة من الثقيلة، وهذا مذهب البصريين **{إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**، وبعضهم يقول بأنها نافية، وقوله: **{إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ}** [سورة فاطر:٢٣] يعني ما أنت إلا نذير، وبعضهم يقول بأنها نافية، وأن اللام لقوله: "لفي" بمعنى إلا، **{إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** وهذا مذهب الكوفيين، وقوله: **{إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** لم يسووهم بالله -عز وجل- من كل وجه، فهم يعرفون أن الله -تبارك وتعالى- هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت يقولون: **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [سورة الزمر:٣]، لكن كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}** [سورة البقرة:١٦٥] سووا بينهم في المحبة والطاعة.

قال ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: **{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}**: "وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: **{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوي من خُلق من التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوي العبيد بمالك الرقاب؟ وكيف يسوي الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغنيّ بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟!"[٨].

{وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ} أي: **ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون.**

{فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} **قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}** [سورة الأعراف:٥٣]، **وكذا قالوا: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ}** أي: **قريب.**

أصل مادة حميم تدل على القرب، وعبارة أهل العلم فيها من اللغويين وغيرهم تتفاوت، ولكنها تدور على هذا المعنى: القرب الشديد، وبعضهم يقول: قيل له ذلك ووصف بهذا لأنه يحمى لصاحبه، يقول الحمية، فإذا أوذي صاحبه أو قيل فيه ما يسوء أو نحو ذلك فإنه يحمى، يعني تأخذه الحمية يغضب له، ولا حاجة لمثل هذا التكلف -والله تعالى أعلم-، فالصديق الحميم أي: القريب جداً، علاقة حميمة يعني تحمى إلى صاحبها، يعني إذاً تغضب؟ لا، وإنما قريبة جداً.

---

٨ - الجواب الكافي، ابن القيم (٩٢).

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وذلك أنهم يتمنون أنهم يردُّون إلى دار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم -فيما يزعمون- وهو -سبحانه وتعالى- يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة "ص"، ثم قال: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [سورة ص:٦٤].

ثم قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآيةً ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

قوله هنا: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} هناك لما ذكر قوم فرعون وما حصل لهم من الغرق قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} وسبق الكلام على هذا المعنى وأن منهم من يقول: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} يعني قوم فرعون، باعتبار أنه وجد فيهم من آمن كآسيا، وليس المقصود أفراد الجيش الذين كانوا معه؛ لأنهم غرقوا، وأن بعضهم كسيبويه قال: إن ذلك يتوجه للمشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن ذلك لا يؤثر فيهم، يعني ما يذكر من القصص والأخبار وهذه المَثُلات، وهنا {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} بعضهم يقول: قوم إبراهيم، وبعضهم يقول: أي المشركون، يعني المشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} يعني في محاجة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه في التوحيد، هذه المحاجة فيها آية، في المحاجة ليس في ما ذكر من مصير الكفار مثلاً، وإنما في المحاجة هذا كلام ابن كثير وهو أيضاً قول ابن جرير -رحمه الله-، والإشارة -قول ذلك- بمحاجة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إقامة الحجج عليهم في التوحيد {لَآيَةً} دلالة واضحة على أنه لا إله إلا الله.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [سورة الشعراء:١٠٥-١١٠].

هذا إخبار من الله -عز وجل- عن عبده ورسوله نوح -عليه السلام-، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وَبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزّل الله تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل؛ ولهذا قال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ}.

يعني أن من كذب رسولاً واحداً فكأنما كذب الجميع؛ لأنه لم يكن رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام-، وأول نبي هو آدم -صلى الله عليه وسلم- ، وأول رسول هو نوح -عليه الصلاة والسلام- فقال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}، وإنما هو رسول واحد، قال الله: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [سورة النساء:١٥٠-١٥١]، وكذلك في قوله بعده: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٢٣] وقد كذبوا هوداً -عليه الصلاة والسلام- فقط.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ} أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وأتمنني عليه.

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [سورة الشعراء:١١١-١١٥].

يقولون: أنؤمن لك ونتبعك، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا؟.

يعني هنا قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} والمقصود بهم الأسافل الوضعاء من الناس، ممن لا شأن لهم، ولا مرتبة، ولا غنى {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [سورة هود:٢٧]، هكذا قالوا له -عليه الصلاة والسلام- وهكذا قال المكذبون لأنبيائهم، وهكذا قال المشركون للرسول -صلى الله عليه وسلم- وطلبوا منه إبعادهم وتنزهوا عن مجالستهم ومخالطتهم، اطْردْ عنا هؤلاء الأنجاس، وهكذا قوله: {وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ} [سورة هود:٣٠]، فكانوا يتهمونهم ويقولون: إنهم إنما جاءوا لمآرب أخرى طلبا للطعام أو المال، وليس هؤلاء بأهل للنظر والتفكير والإيمان، ومعرفة الحجج والبراهين والآيات، إنما يتبعونك من أجل شيء يأكلونه يسدون به جَوعتهم، ولهذا كان الجواب: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ}، {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام:٥٢]، {قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} لست مسئولا عن التنقير في نفوسهم وقلوبهم، وشق الصدور، وإنما نحكم بالظاهر، فهؤلاء آمنوا أذعنوا فيقبل ذلك منهم وحسابهم على الله، أما أن نقول بأن هؤلاء غير صادقين فإن ذلك ليس لنا، هذا هو المعنى والله تعالى أعلم، يتهمونهم لفقرهم، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ} الأخوة هنا المقصود بها أخوة النسب، فإن ذلك يعبر عنه بهذا، فالأخوة تأتي بهذا الاعتبار، وتأتي بمعنى آخر وهو أنه من قومهم، وتأتي بمعنى أنهم يشتركون في بلد واحد، وتأتي بمعنى أعم من ذلك، وتأتي بمعنى الأخوة الإيمانية وهذه لا تكون إلا لأهل الإيمان، وليست مرادة هنا قطعا، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، ويحتمل أن يكون المراد بالأخوة أخوة النسب، كما جاء في بعض الروايات -لو صحت، ولا تخلو من ضعف- أن رجلاً قال لأخيه من النسب: هلمّ إلينا في قصة الخندق، أو يكون ذلك من الأخوة في الدين، وأنهم يقولون للمنافقين: {هَلُمَّ إِلَيْنَا}، فيحتمل أن يكون من جهة أنهم في قبيلة واحدة الأوس مثلاً أو الخزرج، فيحتمل أن يكون ذلك باعتبار أنهم في بلد واحد، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} [سورة الأحزاب:١٣]، لكن الأخوة المنتفية هي الأخوة في الدين بين المؤمنين والكافرين هو من قومهم، منهم، من نسبهم، يرجع إليهم، يرجعون إلى أب واحد، ولهذا استشكل بعض أهل العلم {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ} [سورة الشعراء:١٧٧] قالوا هنا: إنه ليس منهم، هكذا قال بعض أهل العلم والأقرب خلاف ذلك؛ لأن القران يفسر بعضه بعضا: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [سورة الأعراف:٨٥]، {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ

بِالْأَحْقَافِ} [سورة الأحقاف:٢١] فهنا هم يرجعون إلى قبيلة واحدة، وتأتي بمعنى الصاحب، أو نحو ذلك **{أَخَا عَادٍ}** بمعنى صاحب عاد كما يقال: أخو كذا.

{وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأَكِل سرائرهم إلى الله -عز وجل.

{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: **إنما بعثت نذيرًا، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه ، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلا أو حقيرًا.**

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١١٦-١٢٢].

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} أي: **لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}** أي: **لنرجمنَّك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه.**

قوله: **{لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي **لنرجمنك** في الأصل هل زاد على هذا؟ ما فيه زيادة الرجم هنا، ويحتمل أن يكون بالسب والشتم، ويحتمل أن يكون بالحجارة، وهذا المعنى يذكر أيضا في قول آزر لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- **{لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}** [سورة مريم:٤٦]، فيه معنيان: فقيل: الرجم بالحجارة، وقيل: بالسب والشتم، وابن جرير -رحمه الله- هنا يقول: إن المراد هنا السب والشتم، **{لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}**، لكن لماذا نستبعد أن يكون المراد الرجم بالحجارة؟، وهذان المعنيان يذكران في الاستعاذة حينما يقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والرجيم فعيل يأتي بمعنى فاعل، ومفعول، بمعنى أنه راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر السيئة والشُّبه، والمعنى الثاني الذي عليه عامة المفسرين أنه المرجوم، والشيطان الرجيم هو الذي قطعاً مرجوم أي يُرجم باللعن والسب والشتم، والرجم بالجمار: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- رمى الشيطان بالحجارة، فلا يقال: الشيطان الرجيم يعني المرجوم بالحجارة؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- رمى الجمار، لكن في قوله: **{وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ}** [سورة الملك:٥] هي النجوم، يرجمون بالشهب، أي الشيطان الرجيم الذي يرجم بالشهب، عندما تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الأقرب أنه يفسر بالسب، وقد يقول قائل بأن ذلك جميعا حاصل، والشيطان لا يقصد به إبليس بعينه، وإنما جنس الشياطين **{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}** [سورة المؤمنون:٩٧] فلا يختص بإبليس.

فقال: {رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا...} الآية، كما قال في الآية الأخرى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ...} إلى آخر الآية، وقال هاهنا: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

الْبَاقِينَ}، والمشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: نجيناه ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا مَن كذبه وخالف أمره كلهم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

اختلف العلماء في المراد بقوله: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} فقيل: يعني قوم نوح، وقيل: المقصود الذين بعـث فـيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على الثاني، أي ما كـان أكثـرهم مـن المشركين.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٢٣ إلى ١٥٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الشعراء:١٢٣-١٣٥].

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود -عليه السلام- أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [سورة الأعراف:٦٩]**، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارّة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم، رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: **وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت**، المؤرخون يقولون: إن عاداً وثمود من قبائل العرب البائدة، عاد، والقول هنا يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل، ويعرف اليوم بالربع الخالي، وهذا يدل على أنها قديمة جداً، لكن بعض من يتكلم في هذه الأشياء من بعض أهل العلوم المتعلقة بالأرض من أن هذا حصل، نزوح الأتربة والرياح وما أشبه ذلك، هذا قديم، عاد جاءوا بعد قوم نوح فهم من أقدم الأمم، وإذا كانت هذه الرمال بهذه المثابة من ذلك العهد فالجبال من باب أولى، ومن تأمل في ما جاء في الكتاب والسنة وفي الأخبار أيضاً يجد أن كثيراً من المعالم التي على وجه الأرض باقية كما هي في الجملة.

فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جَوادّ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً.

قوله: **الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة**، هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، بمعنى أنهم يبنون أبنية في مداخل المدينة لا حاصل ولا فائدة ولا طائل منها، كما تشاهد اليوم بنايات على أشكال وصور إما على صورة قلعة، وإما على صورة ما يشبه المئذنة أو ما يشبه المجمرة، أو غير ذلك، تبنى بالملايين، ولا فائدة منها، {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} فهي على هذا التفسير

بنايات لا تسكن، ولا ينتفع بها، إنما هي زيادة في الترف وتضييع الأموال من غير فائدة، ولهذا قال: {أَتَبْنُون}.

ولهذا قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً} **أي معْلماً بناء مشهوراً.**

وهذا لا يخالف قول من قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً} أي بكل طريق، وهكذا قول من قال: {بِكُلِّ رِيعٍ} أي بكل جبل، وقول من قال: الفج بين الجبلين يقال له: {رِيعٍ}، وبعضهم يقول: الثنية الصغيرة يقال لها: {رِيعٍ}، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هو المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة**، يعني أن ابن كثير جمع بين هذه الأقوال بهذه الطريقة، قول من قال: طريق بين جبلين، المكان المرتفع هو الطريق، {رِيعٍ} هو الطريق، تبنون بكل ريع أي مكان مرتفع عند جوادّ الطرق، فتكون عبارة ابن كثير هذه على اختصارها جامعة للأقوال التي ذكرها المفسرون هنا، وبهذا تعرف قدر هذا الكتاب.

{تَعْبَثُونَ} **أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة.**

يحتمل أن يكون هذا العبث: مجرد البناء يعني بنايات لا يسكنها هؤلاء ولا غيرهم ممن يكون مثلاً من المسافرين، والمارة ونحو ذلك، وإنما تبنى لمجرد العبث واللهو، وإظهار القوة، وبعضهم يفسر قوله: {تَعْبَثُونَ} يعني تؤذون المارة، تُشرفون منها وتؤذون المارة، وبعضهم يقول: تأخذون العشور يعني المكوس، أن هذه على جوادّ الطرق فيبنون هذه الأبنية التي يحصلون من المارة بها المكوس والضرائب، {آيَةً تَعْبَثُونَ} وليس هذا هو المتبادر من معنى العبث إذا أطلق: أنه أخْذ المكوس -وأخذ المكوس حرام-، هذا والظاهر -والله تعالى أعلم- أن ما ذكر أولاً هو الأقرب في المعنى، هذا البناء إنما هو عبث تبنونه عابثين من غير حاجة، والبناء من غير حاجة هو لون من العبث.

ولهذا أنكر عليهم نبيهم -عليه السلام-، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} **قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد.**

يعني على هذا أن المصانع البروج المشيدة كالقصور العظيمة، يعني أنكم تبنون بناء من لا يخاف الموت ولا يرجوه، كأنه يبقى مخلداً في هذه الحياة الدنيا، على هذا التفسير، قال مجاهد: **المصانع**: **البروج المشيدة**، وبعضهم يقول: الحصون المشيدة، وبعضهم فسرها بما هو معروف فيما يذكر بكتب الفقه، يقول: كمصانع طريق مكة، كما في زاد المستقنع في المياه من كتاب الطهارة، والمقصود بالمصانع في كلام الفقهاء وهي لا زالت موجودة في بعض البلاد التي يعيش أهلها بنفس الطريقة التي كان يعيش الناس فيها قبل ألف سنة، وقد رأيت هذا في بلاد لا يوجد فيها كهرباء ولا سيارات ولا شيء كأن الناس قبل ألف سنة، أو ألفين، أو ثلاثة آلاف سنة تماماً، ينتقلون على الدواب إذا وجدوها، ويصنعون حفرةً كبيرة في الأرض خزانَ ماء ضخماً، يمكن أن يكون عشرين متراً في عشرين مثلاً، وهو عميق نحو عشرة أمتار، ويضعون في جوانبها من الأسمنت ونحو هذا، ثم يضعون ما حوله وفوقه إن كان مسقوفاً، ومداخل للماء في موضع تأتي الأمطار والسيول فيه، فإذا جاء المطر دخل، واجتمع، فيبقى يجتمع فيه سائر العام، ثم بعد ذلك يستخرجون منه الماء،

خزان استخرجوا منه الماء كلما احتاجوا، يعني هو ليس بئراً وإنما خزان مياه من البحر، فهذه يجتمع فيها مياه كثيرة، ويدخلها ما يدخلها مع المطر من أوراق الشجر والحشرات وأشياء كثيرة جداً في داخلها، فهذه يقال لها: مصانع، فهنا بعضهم يقول: إن المصانع المقصود بها مصانع المياه {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}، وهذا قال به الزجاج، لكن هل اتخاذ المصانع -هذه الحياض أو البرك- للمياه وهم بحاجة إليها تقوم عليها حياة الإنسان والحيوان، وهذا لا يكون من الترف، ومن التوسع في أفراد المعيشة وألوانها، وإنما من الضرورات، وليس ذلك من المياه التي لربما نحن لا يمكن أن نشربها؛ لأنها غير نقية، وإنما توضع في الأماكن الجافة التي لا يستطيع أهلها الحصول على الماء، لا تأتيهم الأمطار، وليس فيها أنهار، وليس الماء قريباً منهم حتى يُستخرج من الآبار، فيخزن الماء هذه المدة الطويلة ويتغير ويأسن، وتنظيفها متعذر، فقول الزجاج: إنها مصانع المياه يبدو أنه فيه بعد هنا -والله تعالى أعلم-، والإمام عبد الرزاق الصنعاني يقول: هي عندنا في اليمن القصور العالية، {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} وهذا مثل ما ذكر ابن كثير -رحمه الله- **المصانع: البروج المشيدة والبنيان المخلد**، والبرج هو الشيء المشرف المرتفع من البناء، يقال له: برج بظهوره وانكشافه للناظرين، فبعضهم يقول: هو للحصون المشيدة، وبعضهم يقول: القصور، وهنا قال: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} واتخاذ الحصون أمر معروف في التاريخ منذ القدم، والناس بحاجة إليها من أجل الدفاع عن البلاد والحريم، فهل مثل هذا -يعني وضع الحصون- يعد توسعاً في المعيشة لاسيما في أوقات الخوف وما أشبه ذلك؟، الذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن ذلك ليس بعيب، ولهذا فإنّ حمْله -والله تعالى أعلم- على التوسع في البناء في القصور هذا الذي يعاب قال: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: كأنكم تخلدون، وإنما يكون كما هو هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وكما جاء عنه قولاً، قال: ((مالي وللدنيا، إنما أنا والدنيا كمثل راكب استظل في ظل شجرة))[1]، والأحاديث في هذا الباب معروفة ومشهورة، وكانت بيوته -صلى الله عليه وسلم- كما جاء عن بعض من شاهدها من التابعين، الواقف يمس السقف بيده، من جريد، فهي إنما تكفي الإنسان في حياته هذه القصيرة، مدة يتمتع بها ثم بعد ذلك يفارقها، فإذا بنى الإنسان البناء الفخم المشيد العظيم الذي لا يصلح لمثل هذه الحياة القصيرة، فهذا من التوسع والترف المذموم، وهؤلاء كانوا بهذه المثابة {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} يعني: القصور العالية، فهذا مذموم -والله تعالى أعلم-، وابن جرير -رحمه الله- جوز هذه الاحتمالات، أن يكون المقصود بها الحصون أو أن المقصود بها القصور أو غير ذلك مما ذكر، يعني أن الله لم يخص شيئاً من هذه المعاني، وكله يقال له: مصانع، لكن قطعاً لا يصح أن تحمل نصوص القرآن على معنى أو اصطلاح حادث أو صار مشهوراً في مثل هذا العصر، أو في عصر بعد عصر المخاطبين في القرآن، والمراد بـــ المخاطبين في القرآن: يعني الآن إذا أطلق لفظ مصانع فالمتبادر محل الصناعة، وليس ذلك بالمراد، اتخاذ المصانع وبناء المصانع أمر مطلوب، ولابد منه، ولا ينكره أحد، فليس لأحدٍ أن يقول {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ}: إن هوداً -عليه الصلاة والسلام- عاب على قومه اتخاذ المصانع، وينبغي أن يعيش الناس حياة بدائية بسيطة، وهذا ليس

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١٨٩٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٣٥٢)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٤٣٨).

بمراد إطلاقاً، نصوص القرآن لا تُحمل على اصطلاح حادث، لكن الذي قد يقال معه: إن الأقرب هو ما ذكر أنها القصور، والقرينة قوله: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: كأنكم تخلدون، و"لعل" في القرآن تأتي بمعنى التعليل في جميع المواضع إلا في موضع واحد، وهو هذا الموضع يعني {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي كأنكم تخلدون، هذا الموضع الوحيد، وإن كان من أهل العلم من حمل لعل في القرآن على معنى الترجي، على وجهها، وهذا المحمل غير مستبعد لكنه يحتاج إلى تخريج وتوضيح في بعض المواضع، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤] إذا قلنا: إنها للترجي فهل يقع الترجي من الله؟، إنما يكون الترجي لمن لا يعلم عواقب الأمور، والله يعلم غيب السموات والأرض، وبيده مقاليد الأمور، فلا يقع الترجي منه، لكن تحتاج إلى تخريج وتوجيه فيقال: إنه على رجائكما، وإن الخطاب هنا روعي فيه حال المخاطب فهو يترجى فجاء الخطاب خارجاً على ذلك، -والله أعلم-.

ومعنى قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وهذا كأنه يوضح أن ابن كثير -رحمه الله- يميل إلى أنها القصور التي يقيمون فيها، وفيها قراءة ليست متواترة، وهذا يؤيد ما ذكرت من التفسير من أن "لعل" هنا بمعنى "كأن"؛ لأن لعل لو حملت على الترجي، فإن اتخاذ القصور بناء القصور لا ترجِّيَ معه للخلود، يعني الذي يبني القصر، فهو يعرف أنه سيفارق، وإذا حُملت على التعليل فهذا أوضح وأشد، يعني هل يقال: تتخذون مصانع من أجل أن تخلدوا؟ هل اتخاذ القصور يكون علة للخلود؟ كأن تسابق الناس على ذلك من أجل تحصيل الخلود، فمعنى لعل أي كأنكم تخلدون.

مصانع لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم: العبارة يبدو لي -والله أعلم- أن فيها إشكالاً، فكانوا لا يبنون القصور لكي يقيموا فيها أبدا، فهم يعلمون أنهم سيموتون ويفارقونها، فاعتبار لعل هنا للتعليل بعيد -والله تعالى أعلم- غاية البعد، بل الذي أظنه -والله تعالى أعلم- أن هذا لا يمكن أن يصح؛ لأنهم لا يدّعون هذا، ولا يدّعي أحد أصلاً أنه يبني القصور من أجل البقاء الأبدي السرمدي، ما يعتقدون هذا ولا يقولونه ولا يرجونه.

وقوله: {وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

البطش: يعني هنا يصفهم بالقوة، والبطش هو السطوة في الأخذ، يأخذ بسطوة إذا سطا، إذا أخذ، فإذا أخذ فأخذُه شديد.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم.

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

{قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٣٦-١٤٠].

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، وَرَغَّبَهُم ورهبهم، وبيَّن لهم الحق ووضحه: {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} أي: لا نرجع عما نحن فيه، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة هود:٥٣]، **وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}** [سورة البقرة:٦]، **وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}** [سورة يونس:٩٦-٩٧].

وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}: قرأ بعضهم: "إن هذا إلا خَلْق" بفتح الخاء وتسكين اللام.

وهي قراءة متواترة مشهورة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وقرأ الباقون كما نقرأ **(خُلُق) {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}**.

قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفرقان:٥]، **وقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** [سورة الفرقان:٤-٥]، **وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}** [سورة النحل:٢٤].

هذا تفسير لقوله: **{إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}** العبارة التي نقلها عن جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، قال: إلا أخلاق الأولين، ويقصدون بالأخلاق الفضائل، وما يتحلون به من الأوصاف الكريمة أو غير الكريمة، فيقصدون بقولهم: **{إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}** ما الذي تأتينا به إلا أخلاق الأولين، مع أن الآيات التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- هنا مما يوضح هذا المعنى من قول المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام- **{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}** بمعنى أخلاق الأولين، يعني الأكاذيب، أشياء لا حقيقة لها، **{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}** يعني من مختلقاتهم، والأمور التي لا تثبت ولا أساس لها ولا مستند **{قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}** فهؤلاء الذين نقل عنهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا مرادهم، إنما المقصود الأكاذيب والأخلاق: أي المفتريات والأكاذيب، وليس المقصود الخُلق، وما يتحلى به الإنسان من الفضائل أو الرذائل، هذا معنى القراءة الأولى، **{إِنْ هَذَا إِلا خَلْقُ الأَوَّلِينَ}**، وعلى هذا يكون هذا الكلام موجهاً منهم لنبيهم هود -عليه الصلاة والسلام-، أي هذا الذي جئت به مختلق مفترى في جملة أكاذيب الأولين وأساطيرهم، كأنهم قالوا له: هذا أساطير الأولين كما قيل للرسول -صلى الله عليه وسلم- هذا على قراءة "خَلْق الأولين".

وقرأ آخرون: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ} -بضم الخاء واللام- يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}.

على هذه القراءة الثانية **{إِنْ هَذَا إِلا...}** إن هنا نافية ما هذا إلا خُلُق الأولين أي: عادتهم ومذهبهم ودينهم، وعلى هذا تكون الإشارة بقوله: "هذا" ترجع إلى ما هم عليه، الأول: يكون ذلك يراد به ما جاء به نبيهم -عليه الصلاة والسلام-، يكذبونه ويردونه ويقولون: هذا الذي جئت به هو من مختلقات السابقين وأساطيرهم، والقراءة الأخرى: **{خُلُقُ الأَوَّلِينَ}** يقولون: ما نحن عليه هو دين الآباء والأجداد، وبعض أهل

العلم يقول: إنهم قصدوا بذلك -وهذا لا ينافي ما الذي كانوا عليه-: إن هذا يعني الأشياء التي أنكرتها علينا من اتخاذ القصور، والبناء في كل ريع عبثاً وما شابه ذلك مما ذكره وعابه عليهم، قالوا: هذا الذي أدركنا عليه الناس، وهذا لا ينافي قول من يقول: إن هذا أي ما نحن عليه هو عادة الأولين، ودأب الأولين، خُلُق الأولين دين الأولين، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، ما الذي كانوا عليه؟ هي الأشياء التي عابها عليهم من عبادة غير الله -عز وجل-، والبناء إلى آخره، وكأنهم يقولون له: عبتنا بشيء أدركنا عليه الناس، ما عهدنا غير هذا، وهذه الأشياء التي تأتي بها هي أمور مختلقة، فكل قراءة لها معنى، وإذا كانت القراءتان كل واحدة لها معنى فهي بمنزلة الآيتين، وهذا لكون القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والحكمة من وجود الأحرف التي نزل بها القرآن على الأحرف السبعة التسهيل والتيسير هذا هو الأصل، لكن توجد حِكم تابعة أيضاً فمنها الإعجاز في المعاني، والألفاظ، وهذا القرآن الذي عجزوا عن الإتيان بمثله وتحداهم الله -عز وجل- أن يأتوا بسورة، يصرفه الله -تبارك وتعالى- هذا التصريف بهذه الحروف التي يركبون منها الكلام، ومع ذلك هم في غاية العجز على أن يأتوا بوجه واحد يضاهيه، وهكذا كثرة ما يتضمنه من المعاني من جراء هذا التصريف، فإذا جمعنا معاني القراءات هنا كأنهم قالوا له: هذا الذي جئت به مختلق، وما نحن عليه عادة الأولين، ودين الأولين، ومسلكهم، رأيتم كيف تكون بلاغة القرآن وسعة معانيه وكثرتها.

وفي قوله عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} يعني أنهم كانوا يشركون، ما كانوا ينكرون وجود الله -تبارك وتعالى- بالكلية، وما كانوا ينكرون هذا كله، فهنا قال عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هل معنى ذلك إنكار أن الله يعذب أحداً أصلاً؟، فهنا يمكن أن يفسر ويقال: إنهم قالوا ذلك باعتبار أن ما فعلوه ليس بعيب ولا مذموم، وأن هذه السنة المتبعة عند الآباء والأجداد التي أدركوا عليها الناس، فهم يقولون: عبتنا بشيء لا يُلحق بنا تبعة، ما نحن بمعذبين على هذا! {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} فهم لم يقصدوا إنكار التعذيب أصلاً لأحد من المخلوقين، وما كانوا ملاحدة ينكرون بمعنى الإلحاد المعروف في العصر الحديث، وإنما كانوا يقولون: نحن لم نفعل شيئاً خطأ، هذه الأشياء التي جئت فيها، وهذا أمر عجيب بعد قوم نوح ما زال الناس -وعذاب يأخذ أهل الأرض جميعاً- في التغرير هلكوا عن آخرهم إلا من آمن مع نوح في السفينة، ومع ذلك يقع هذا الشرك والكفر والعناد، ويقولون: هذا الذي أدركنا عليه الآباء، وهذا يعني أنه قد تنوسي الإيمان والتوحيد، ودين نبي الله نوح -عليه الصلاة والسلام-، فكلما سكت أتباع الرسل عن الحق وبيانه وإظهاره للناس كلما كان ذلك سبباً لخفائه واضمحلاله، بقاء الناس في جهالة وعماية، فيظهر الباطل ويعلو، ويبقى الناس مثل حال الجاهلية، وهذه الأمة ليس فيها أنبياء بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فواجب على أتباع الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يقوموا بما يجب، وإلا فإن سنة الله -تبارك وتعالى- جارية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن الإيمان يأرِز إلى ما بين المسجدين كما تأرِز الحية إلى جحرها[٢]، تضيق الدائرة حتى يبقى في مساحة ضيقة ما بين

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، برقم (١٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، برقم (١٤٧).

المسجدين، تأرز، كما تجتمع الحية إلى جحرها فهذه غربة شديدة لابد من رفعها وهجرها، فأهل الباطل يرفعون غربتهم المذمومة بالدعاء إلى باطلهم، ونشره وبالذب عنه والغضب له، وأهل الحق أولى بهذا.

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} اختلفت القرّاء في قراءة ذلك; فقرأته عامة قرّاء المدينة سوى أبي جعفر، وعامة قرّاء الكوفة المتأخرين منهم: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} من قبلنا، وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء: {إِنْ هَذَا إِلا خَلْقُ الأوَّلِينَ} بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأوّلين وأحاديثهم.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القرَّاء في قراءته، فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأوّلين وعادتهم وأخلاقهم"[٣].

يوجد في كتب التفسير قول من يقول: هذا مختلقات الأولين، وآخر يقول: هذا دين الأولين وعادتهم، وهنا تحمل كل قراءة، كل معنى يحمل على قراءة، لكن أحياناً بعض المفسرين قد لا يذكر القراءات، أو يذكر المعاني متتابعة من غير تفصيل، هذا يرجع إلى قراءة، وهذا يرجع إلى قراءة فيُظن أن هذا من قبيل الاختلاف، وليس كذلك، وإنما كل تفسير يرجع إلى قراءة.

وقال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "وأولى القراءتين في ذلك بالصواب: قراءة من قرأ {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} بضم الخاء واللام، بمعنى: إن هذا إلا عادة الأوّلين ودينهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاءً منهم سنةَ من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خُلق الأوّلين، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين، ويزيد ذلك بيانا وتصحيحا لما اخترنا من القراءة والتأويل، قولهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} لأنهم لو كانوا لا يقرُّون بأن لهم ربا يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئتنا به يا هود إلا خلق الأوّلين، وما لنا من معذِّب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون: إنها تقربنا إلى الله زلفى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله معذبنا عليه، كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا أنهم كانوا يقولون لرسلهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}"[٤].

هذا يقوله ابن جرير -رحمه الله- من أجل ما ذكر في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى قراءة {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} يعني دين الأولين وعادة الأولين، قال: لأنهم قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هذا الذي عليه الناس ما جئنا بشيء خطأ، لكن إذا ثبتت القراءة فهذا كله قرآن، وكلام الله -عز جل-، فهذه يكون لها معنى، وهذه يكون لها معنى، تكون كل قراءة بمنزلة آية مستقلة، لكن لا بأس للعالم أو القارئ أو نحو ذلك أن

---

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري(١٩/٣٧٧).

٤ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري(١٩/٣٧٨-٣٧٩).

يختار، كما هي الطريقة المعروفة عند الأئمة، فإنهم رووا القراءات، واختاروا منها، فنسب هذا الاختيار إليهم فقيل: قراءة فلان وقراءة فلان، وهذا الاختيار بناء على اعتبارات معينة منها ما يتصل بالمعنى، مثل هنا هذا الذي اختار هذه القراءة {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ} هو لابد أن يقرأ، ولا يصح أن يجمع بين القراءات، إلا في مقام التلقين أو تعليم القراءات، أما الجمع بين القراءات في التلاوة فلا يذكر في اللفظة الواحدة الوجهين، ويجمع بين القراءات في المتفرق فيما لا يبنى بعضه على بعض، والذي يختار من القراء: اختار "إن هذا إلا خُلُق الأولين" أي دين الأولين، اختار هذه القراءة باعتبار أنه قال بعده عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} فهذا أحد الأسباب التي تحمل القارئ على اختيار أحد الأوجه على غيره، وأحياناً يقرأ مراعياً لحال من يُقرئه، أن هذه قراءة أهل بلده مثلاً، وهناك اعتبارات معينة، لكن هذا واحد منها، هذا مثال تطبيقي.

قال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ} أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [سورة الفجر:٦-٧] **وهم عاد الأولى، كما قال: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى}** [سورة النجم:٥٠]**، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح.**

مع أن الهوى هذا هو أرق شيء وأخفه وألطفه يعني هنا يقول: سلط الله عليهم شيئاً من جنسهم باعتبار أنها عاتية، {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} [سورة الحاقة:٦] لها صوت، تحمل الحجارة تسمع ضرب الحجارة من شدة تحصبهم بها، {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} قوية لا يقف أمامها شيء، وهذا قد لا يتصور أحياناً، لكن الله يرينا بين حين وآخر قوته وبأسه في هذه الأشياء اللطيفة، كيف تتحول إلى أشياء هائلة مدمرة، ترون الأعاصير لما تُنقل الآن، فهناك أعاصير تدمر مدناً كاملة، وتحمل المراكب البرية والبحرية وتلقيها بعيداً، وفيها مساكن الناس، ومقتنياتهم وما أشبه ذلك مثل القش، والمياه تزيل البنيان القوي، بحيث تجعل له قاعاً صفصفاً لا يقف أمامها شيء، تحمل السيارات الكبار والصغار كأنها قش يسبح فوقها، وهنا هذه الريح لطيفة وأهلك الله بها هؤلاء المتجبرين، فقوة الله -عز وجل- تظهر للناس بهذه الأمور وغيرها، والله المستعان.

{ذَاتِ الْعِمَادِ} أي: الذين كانوا يسكنون العُمُد.

قال: **يسكنون العُمُد**، يقال: العُمُد بضمتين، وابن كثير -رحمه الله- يقصد بقوله: **يسكنون العمُد** يعني الخيام، يقال: فلان رفيع العماد كثير الرماد، ويميل إلى أن قوله -تبارك وتعالى-: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} أن إرم ليست مدينة وأنها قبيلة، ذات العماد، كانوا يسكنون الخيام على قول ابن كثير هذا، الخيام هي التي يكون لها عُمُد، هي التي يعبر عنها بهذا وإلا فحتى الدور لها عماد الآن، لكن هي التي يعبر بها عن هذا، يسكنون العمد، بمعنى أنهم لا يسكنون القصور مثلاً، أبنية من الحجارة، أو المدر، وهذا يحتاج إلى تحرير -والله تعالى أعلم-، هل كانوا يسكنون الخيام فعلاً؟، المنطقة التي هم فيها صحراء، لكن هذا لا يمنع أن يوجد فيها مدينة أو مدن لكونهم بهذه القوة، والبطش والجبروت، وما ذكر الله -عز وجل- عنهم مما متعهم الله -تبارك وتعالى- به، قال سبحانه: {أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} فالذين يسكنون الخيام

المعروف عنهم أنهم يكونون أهل رعي وبهائم وأنعام، ولكن "جنات وعيون" هذه تكون لأهل القرى، يعني العمران سواء كانت صغيرة أو كبيره أهل الحواضر، ولهذا لما قال أصحاب موسى -عليه الصلاة والسلام- قوم موسى لما كانوا في التيه وأنزل الله عليهم المن والسلوى، وطلبوا من موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو ربهم ليخرج لهم مما تنبت الأرض من ثومها وعدسها بصلها، قال لهم: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً} [سورة البقرة:٦١] يعني مصراً من الأمصار بلداً من البلدان في قرية من القرى؛ لأن هذه الزروع توجد في القرى، والحواضر، لا توجد في البادية، الثوم والبصل والعدس.... إلى آخره، {اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} ما أردتم المن والسلوى هذا الذي يأتي من غير كلفة، ادخلوا مصراً من الأمصار، اسكنوا قرية من القرى تجدوا فيها هذه البغية الرخيصة، فهنا "جنات وعيون"، والخيام تكون في البوادي؛ ولهذا يقال: أهل الوبر والمدر، فأهل المدر أهل القرى الحواضر والبنيان، وأهل الوبر هم أهل البوادي فهذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو لم ينفرد به، لكن يحتاج هذا المقام إلى تحرير وتأمل، وكثير من المؤرخين والمفسرين -لكنها روايات إسرائيلية- يذكرون مدينة بنيت بناء عجيباً يفوق الوصف، بل ذُكر أنها بنيت من الذهب والفضة وما أشبه ذلك، وقد يكون هذا فيه بعض المبالغات، واليوم يزعم من يتكلمون على الحفريات والآثار، ولربما يأخذون بعض قولهم من أصحاب الإعجاز العلمي، يقولون: إنه وجدت مدينة في الربع الخالي وإن هذه {إِرَمَ} وإنهم وجدوا أن هذه الأماكن كانت جنات وأنهاراً، يقولون: زاحت الرمال، وجاءت الرمال لهذه المنطقة، وهذه الرمال كانت موجودة يعني هي جبال الرمل، أحقاف، فكانت هي منازلهم، والله تعالى أعلم، لكن يقولون: إن هذه المنطقة كانت عبارة عن جنات وأنهار، وإن البعثات التي جاءت ودرست أحوال المنطقة ونحو ذلك وجدوا ما يدل على ذلك فيها، ثم يربطون بين هذا وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً))[٥]، ولفظة العود تارة تطلق على رجوع الشيء إلى ما كان عليه، وتارة تطلق ويراد بها تصير، عاد الطين خزفاً، وعاد الغلام شيخاً.

ومن زعم أن "إرم" مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ} [سورة الفجر:٨]، أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يُبن مثلها في البلاد.

وهذا ليس بضروري أي كونه ما قال: التي لم يُبن مثلها في البلاد، وإنما قال: "لم يخلق"، والخلق بمعنى الإيجاد، يأتي بمعنى الإيجاد، ويأتي بمعنى التقدير يعني سواء كان الإيجاد من العدم، أو كان دون ذلك، يعني الله -عز وجل- يقول: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [سورة المائدة:١١٠]، وهكذا أيضاً فيه شواهد أخرى تدل على هذا المعنى، فلفظة الخلق لا تعني الإيجاد من العدم دائماً، وأضاف الخلق إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وهنا تجد ما يذكر من المنهيات اللفظيات قول: فكرة خلاقة، خلْق الأفكار هذا بمعنى إيجاد الأفكار وكذا، يعني هذه اللفظة ليست محرمة، وأن ذلك يمكن أن

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، برقم (١٠١٣).

ينسب إلى المخلوق لكن بمعنى يصلح له، وذكرت في بعض المناسبات -بعد صلاة العشاء- كثيراً من الألفاظ هذه التي يقال: إنها منهية، مناهٍ ونحو ذلك: أنها تحتاج إلى تحرير، وليست على إطلاقها، إن قصد بها كذا فهي كذا، وإن قصد بها كذا فهي كذا، والأحسن أن الإنسان يبتعد عن الألفاظ الموهمة أو التي قد يستوحش منها السامع، ويسبق إلى ذهنه معنى غير مراد، ولكن كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا لا يلزم: أي ما قال: **لم يُبن مثلها في البلاد**، وقال: "لم يُخلق".

وقال: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [سورة فصلت:١٥].

وقال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ...} إلى قوله: {حُسُومًا} [سورة الحاقة:٦-٧]، **أي: كاملة {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** [سورة الحاقة: ٧]، **أي: بقوا أبدانًا بلا رءوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يُغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا، {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ}** [سورة نوح:٤]**؛ ولهذا قال: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ...} الآية.**

وكونهم تحصنوا وحفروا إلى آخره، هذا مأخوذ من الإسرائيليات، لكن قوله -تبارك وتعالى-: **{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** أجسامهم ضخمة إذا ماتوا، والآن الناس مثلنا إذا رأيت بعض الصور وهم ميتون مثل القش والحطام والبيوت، كأنهم سمك السردين، الناس اليوم ضعفاء، وأحياناً تحتاج أن تنظر الخشبة هذه صغيرة أو رجل، لكن أولائك كانوا في منتهى الضخامة **{أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}**، أصول النخل، ومن عرف النخل تصور ضخامة هذه الأجساد وعظمها.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٤١-١٤٥].

وهذا إخبار من الله -عز وجل-، عن عبده ورسوله صالح -عليه السلام- أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في "سورة الأعراف" الأحاديث المروية في مرور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهم حين أراد غزوَ الشام، فوصل إلى تَبُوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك، وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل -عليه السلام-، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرا منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله -عز وجل-، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [سورة الشعراء:١٤٦-١٥٢]

يقول لهم واعظًا لهم ومحذرًا إياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكرًا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات، وأخرج

لهم من الزروع والثمرات؛ ولهذا قال: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}، قال العوفي، عن ابن عباس: أينَعَ وبلَغ، فهو هضيم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} يقول: مُعشِبة.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو -وقد أدرك الصحابة- عن ابن عباس، في قوله: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} قال: إذا رَطُب واسترخى، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: ورُوي عن أبي صالح نحو هذا.

{وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} بمعنى نضيج لين طري صالح للأكل مهيأ، رخص لطيف، معاني طلعها هضيم إذا طاب جناه واسترخى، وصار مهيأ للأكل قيل له ذلك: {طَلْعُهَا هَضِيمٌ} وقد ذكر فيه الماوردي اثني عشر قولاً.

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "القول في تأويل قوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ...} الآيات، يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيلِ صالح لقومه من ثمود: أيترككم يا قوم ربُّكم في هذه الدنيا آمنين، لا تخافون شيئا؟. {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} يقول: في بساتين وعيون ماء. {وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} يعني بالطلع: الكُفُرَّى.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: {هَضِيمٌ} فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.

وقال آخرون: بل هو المتهشم المتفتت.

وقال آخرون: هو الرطب اللين.

وقال آخرون: هو الراكب بعضه بعضا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتَحيَّفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمسّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضا، وأصله مفعول صرف إلى فعيل"[٦].

هضيم، مهضوم: منقوص، وقد يتبادر إلى أذهان الناس اليوم أنه مهضوم أي سريع الهضم، ويمكن أن يقال: هذا من لازمه إذا كان رخصاً رخواً ليناً فإن ذلك من شأنه أن يسهل أكله، والانتفاع به، من باب اللازم، تفسير باللازم، والله تعالى أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وقوله: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرِهين أشِرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشَرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي: أقبلوا على عَمَل ما يعود نفعُه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا.

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٩/٣٨٠-٣٨١).

هذه يقول: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} فيها قراءتان متواترتان، القراءة الأولى {فَرِهين} وهذه قرأ بها بعض السبعة كنافع وأبي عمرو وابن كثير، والفَرَه بمعنى الفرح الشديد الذي يختل معه سلوك الإنسان، وتوازنه فيحصل له شيء من الخفة من شدة السرور والفرح فتكثر حركته وعبثه وكلامه فيما يصلح وما لا يصلح، والكلام على قراءة "فرهين" فبعضهم يقول: إن هذه القراءة وقراءة "فرهين" بمعنى واحد، وبعضهم يقول: فرهين، الفَرَه بمعنى النشاط الزائد، وبعضهم يفسره بالبطَر والأشَر، وهذا كله على قراءة "فرهين" بطِرين أشِرين، وبعضهم يقول: الشرَه شرِهين، وبعضهم يقول: هذا بمعنى الإعجاب والتنعم معجبين آمنين ناعمين فرحين، هذا الفرَه وفسر الفاره بمعني الحاذق، حاذقين بالنحت، بنحتها، {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} أي: حاذقين بنحتها، وهذا شيء مشاهد فإنك إذا رأيت تلك البيوت -واجهات تلك البيوت- فإنك تستكثر هذا على أهل هذا العصر الذين نظن أنهم وصلوا إلى حال من القوة والتمكين والآلات والصناعة، ومع ذلك يُستكثر ما يشاهد فيها عليهم سواء من جهة الارتفاع أو كيف يكون الجبل في واجة بهذه الملاسة كأنه قطعة رخام وعلى مر الأزمان -هذه القرون المتطاولة- بقيت هذه المعالم والنقوش بدقة، نقوش أحياناً صور طيور على الجبل منحوتة من الجبل، ورسومات أخرى على الواجهات، وزخارف بهذه الدقة، القوة هائلة، قدرة على النحت والتفنن فيه، ليست القضية مجرد أنه يأتي بآلة يخرق الجبل ثم بعد ذلك يكون غاراً أو نفقاً أو نحو ذلك، ثم إن هذه الأشياء التي يستعملها ليست خارجة منه كأن يأتي بأمور تزينه على الواجهات مستعارة، لا من نفس الجبل، النحت والزينة بغاية الدقة والإحكام، والحسن سواء كان في اختيار مواضعها أو في دقة تصميمها، فالإنسان مجرد رسمه على ورقة قد لا يحسنه فكيف إذا جاء لتطبيق ذلك على أصعب الأشياء وأصلب الأشياء التي هي الحجارة الصخور جبل لا ينقله؟ يعني ليست حجراً بين يديه يتصرف فيه ويقلبه، فعلى هذا الارتفاع الشاهق هذا أمر! ولذلك هذه الحالة الموصوفة التي وصفها الله -تبارك وتعالى-، ما وصف من حال عاد وأنهم كانوا في غاية الجبروت والقوة حتى إنهم أعجبوا بأنفسهم غاية الإعجاب، "من أشد منا قوة" ومثل هذا الإعجاب والجبروت الذي وصفهم الله -تبارك وتعالى- به ليس هذا مجرد طول الأجساد وضخامتها، وإنما لما اجتمع لهم من أسباب القوة، فهذه كانت مزيّة {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [سورة الأعراف:٦٩] كانت مزيّة من المزايا، لكن اجتمعت لهم أسباب القوة ما جعلهم بهذا الجبروت والقوة حتى قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [سورة فصلت:١٥]، والله -تبارك وتعالى- وهو العظيم الأعظم القوي يصفهم بهذه الأوصاف من القوة والتمكين وما أشبه ذلك، وهكذا ثمود، وديارهم شاهدة، قيل: الآن يأتي إليها من يأتي يتعجبون من قدرة هؤلاء وما بقي من آثار الأمم في بلاد في أطراف الشام، في مصر وغير ذلك، كل هذا يدل على أمم ممكنة قوية، أشد قوة مما الناس عليه اليوم، انظر إلى آثار الناس اليوم ومبانيهم، وانظر إلى آثار الأولين كيف بقيت على هذه القرون؟! وإذا سئل من له خبرة وممارسة في المقاولات عن العمر الافتراضي للبنيان في زماننا هذا فسيقول: ثلاثون سنة هذا العمر الافتراضي، إلا إذا جيء بمواد من أماكن أخرى ممكن أن تزيد في العمر الافتراضي بينما هؤلاء آلاف السنين، ولازالت هذه الآثار سواء من الجبال أو من غيرها الآثار الموجودة من الأهرام أو في بلاد الأردن لا زالت بعض الآثار، وفي أماكن أخرى كسور الصين، فهذه تدل على قوة هائلة الناس يتضاءلون أمامها، فأولائك الناس لم يكونوا بسطاء من البدائيين، لا

يستطيع الواحد منهم إلا أن يغطي سوءته بأوراق الشجر، كما يصور بعض من يكتب في التاريخ زوراً وكذباً، ويقول: العصر الحجري والعصر البرونزي هذا كله كذب، والله -عز وجل- أخرج آدم وعلمه الأسماء كلها، وأهبطه إلى الأرض منتهى التحضر والعلم، وأسجد له الملائكة، فأين هذا الإنسان البدائي الذي يصورون كأنه في غابة في جزيرة من جزر إندونيسيا النائية، أو مجاهيل أفريقيا، آدم ما كان بهذه المثابة، وهذه الأمم التي يصفها ونرى آثارهم، ثم يصور الإنسان على أنه مر بهذه، وهذا جزء من نظرية التطور الذي لا يفهمه أو لا يدركه أو لا يتفطن له كثير من أبناء المسلمين، ونظرية التطور ما تختص بأن الإنسان قرد ثم بعد ذلك تطور حتى صار إنساناً، بل هي أوسع من هذا، فتمتد إلى جوانب أخرى من حياة الإنسان، والحضارة وما أشبه ذلك يقولون مثلاً: في العبادة والدين كان الناس مثلاً أمام خوف أمام المجهول يخافون من الظلام يخافون من الوحوش، يخافون من كذا ثم بعد ذلك عرفوا السحر والشعوذة؛ من أجل أن يتوصلوا إلى ما عجزوا عنه، ويدفعوا عن أنفسهم بهذه الأمور، فشاع السحر وانتشر وصار هو دين الناس، ثم توصلوا إلى شيء قالوا: هو الله من أجل أن يُشعروا أنفسهم بأنهم يلجئون إلى قوة خفية تمدهم بالعون، ثم يقولون: نحن وصلنا إلى درجة من التمكين والسيطرة على كوكب الأرض، ولسنا بحاجة إلى ذلك، هكذا يزعمون، هذه كلها أطراف لنظرية التطور فما يوجد شيء اسمه عصر برونزي، ولا يوجد شيء اسمه عصر الإنسان البدائي، وعصر الإنسان الحجري، هذا كله كذب، والمشكلة أن هذه أسماء من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يعرف شيئاً من أمور الوحي، ما يعرفون هذا الكلام **{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [سورة الفجر:٧-٨]، وما ذكر الله -عز وجل- عن ثمود وغيرهم، ما يعرفون هذا الكلام إطلاقاً، **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [سورة البقرة:٣١]، فيقولون: خرج الإنسان بدائياً ما يعرف شيئاً، ثم بدأ يأخذ أوراق الشجر ويستر سوءته، ثم بدأ يتخذ من الشجر وكذا أشياء قوساً يرمي به الطريدة ويصليها على حجر، وقوله: **{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}** بعضهم يزعم أن هذه البيوت قبور، ويحاول أن يستدل على ذلك بأن البيت يأتي في كلام العرب بمعنى القبر، وهذا الكلام وإن جاء في لغة العرب لكنه معنى غير مشهور، ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن على معانٍ خفية غير مشهورة من غير موجب، وبعضهم حمل هذا على أنها كانت قبور بناء على كلام بعض الغربيين الذين يقولون: كانت هذه قبوراً، لكن ليس كذلك، الله يقول: "بيوتاً" والبيت معروف، والله -تبارك وتعالى- قال: **{تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}** [سورة الأعراف:٧٤] فالسهول خارج الوادي الحِجر، السهول خارجه كانوا يبنون القصور، وهذا الوادي ينحتون فيه الجبال، بعض أهل العلم يقول: كانوا في الصيف يخرجون إلى السهول والقصور التي يبنونها فيها، وفي الشتاء يسكنون في هذا الوادي، وإن وُجد في بعضها الآن قبور لكن ليست هي قبور لهم، هذه تتابع عليها الناس منذ أزمان متطاولة والأمم حولها، ويُفني الله -عز وجل- أمماً وينشئ آخرين، فإذاً وُجد من دفن البوادي إلى الآن، وبعضهم يدفن أمواتهم في مغارة أو كهف ويضع عليه الحجارة، وإلى الآن جبال الجنوب يوجد فيها من هذا، والبادية عرف عنهم ذلك من قديم؛ لجهلهم أو لقلة إمكاناتهم، أو لصعوبة الأرض عندهم، أو لشحهم فيها، أحياناً أرض صغيرة يزرعها، فيضع الميت في هذا الغار، ويضع عليه أحجاراً، وإذا جاء ميت آخر أُدخل في هذا الغار ووُضع عليه أحجار وهكذا بلا دفن، فكون أن هؤلاء يوجد منهم من يستغل هذه الأماكن المنحوتة

في الجبال ويدفن فيها ميتاً أو نحو ذلك ليس بمستغرب، فلا يعني أن هذه هي، ولذلك فإن بعض من شاهدها، أنا لم أذهب إلى الحِجر، وليس للإنسان أن يقصده إلا إذا كان شاكاً أو متردداً، فالله أمر بالسير في الأرض والضرب فيها لينظر الإنسان كيف كان عاقبة الذين من قبل هذا الأمر، فالنظر إنما كان لمن كان عندهم تردد، ما كان لكل الناس، ما جاء في القرآن من الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين هذا للناس الذين عندهم شيء من التردد، أما الإنسان الموقن فهو لا يؤمر بالذهاب إلى أماكن المعذبين، وإذا مر بها أسرعَ، كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكما فعل علي -رضي الله عنه- حينما مر بأرض الخسف من بابل، بل ذكر بعض أهل العلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أتى وادي مُحسِّر أسرع قالوا: لأنه الموضع الذي أهلك فيه الفيل، وإن كان هذا لا يثبت، أعني أن هذا المكان الذي أهلك فيه الفيل بين مزدلفة ومنى، لكن يكفي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر بالحِجر أسرع حين عاد من تبوك ونهاهم عن دخوله إلا أن يكونوا باكين أو متباكين، فالمقصود أن الذين رأوا هذه القبور يقولون: إنها بحجم قبورنا، لكن أولائك كانوا أطول أجساداً منا فكيف تكون بمقدار قبورنا؟! فهذا يدل على أنها قبور متأخرة، ثم هؤلاء الذين أهلكهم الله عن بكرة أبيهم بهذه الريح الصرصر العاتية من الذي جاء ليحترم تلك الذوات، ويضعها في هذه الأماكن ويقبرها؟! فهذا لا يبنى عليه معنى كهذا وهو أن يقال: هذه البيوت هي عبارة عن قبور، إنما هي بيوت، ويقول بعض من شاهدها: إنه يوجد فيها أماكن أوسع، ومنحوت على أطراف الجدار مثل المقعد ممتد للجلوس، يعني مثل الكنب لكن منحوت من الحجارة، وهذا لا يعني أنهم كانوا يجلسون على الحَجر، فإذا استطاعوا نحت هذه فمعنى ذلك أن عندهم من الأثاث ما يزينون به هذه الأماكن، لكن هذا يدل على أنها ليست قبوراً، ويكفي قول الله -عز وجل-: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} -والله أعلم-، حتى الأهرام القول إنها مقابر وكذا، قد لا يكون دقيقاً، فهي ليست مجرد قبور، بل فيها مقتنيات وأشياء لهم.

وقوله: {وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} **يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.**

يقول: {وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} فسرها هنا بقوله: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} والله -تبارك وتعالى- ذكر في موضع آخر قوله: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [سورة النمل:٤٨]، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- حمله على هذا المعنى {وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} هم الذين قص الله خبرهم، {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ} فيقول: لا تطيعوا هؤلاء، والمفسرون والمؤرخون يذكرون أخباراً كثيرة جداً في هذا، ويذكرون أسماء، وأسماء لبعض النساء، ومن تسبب وباشر قتل الناقة، ودواعِيَ ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أحيمر ثمود الذي عقر الناقة.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٥٣-١٥٩].

يقول تعالى مخبرا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح -عليه السلام-، حين دعاهم إلى عبادة ربهم: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين.

ثم قالوا: {مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا} يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأشِرُ} [سورة القمر:٢٥-٢٦].

الآن {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} نقل هنا عن بعض السلف في قوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني من المسحورين، وهو قول مجاهد وقتادة، لكن المعنى الثاني يعني المخلوق، ووجه ذلك: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي: لك سحر، وهو الرئة، يُقال: انتفخ سحره، الرئة، يقولون: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني ممن له سحر يعني رئة، والذي يكون له رئة معنى ذلك أنه بشر! وهو ما أنكر أنه بشر، وهم يعتقدون أو يزعمون أن النبي لا يكون من البشر، لابد أن يكون ملَكاً، {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، هذا لا يمكن عندهم، فيقولون له: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني لك سحر فأنت إذاً بشر! يعني أنت ممن يتعلل بالطعام والشراب مثلنا، أنت بشر تأكل وتشرب لك سحر مثلنا، فإذاً أنت لست برسول! وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني لك سحر، ونتيجة المآل يعني أنهم يقولون: أنت بشر، ولكن هذا من قبيل اللازم يعني حينما يقال قوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي أنت مخلوق، أو أنت إنسان، أو أنت بشر، فالمعنى المطابق يعني لك سحر، يريدون من هذا ويلزم من ذلك أن تكون بشراً، فمن تفسيره بلازمه، ولا بأس بالتفسير باللازم لكن لابد أن تفهم وجه هذا التفسير، فهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقد يكون المتبادر الأول يعني أنهم رموه بالسحر {إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} [سورة الفرقان:٨].

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم- أن يُخرج لهم الآن من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا. الناقة العُشراء هي التي مضى لها عشرة أشهر في الحمل، فهي قريبة الولادة.

وقوله: **وأشاروا إلى صخرة عندهم ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا** يعني أنهم طلبوا ناقة بمواصفات معينة أن تكون عشراء يعني لها عشرة أشهر حامل كَوْماء وبراء، فخرجت لهم ناقة.

فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنُنّ به، وليصدقنه، وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح -عليه السلام-، فصلى، ثم دعا الله -عز وجل-، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم.

يعني يوجد من قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- من آمن، ويوجد في بعض كتب التاريخ أسماء لبعض أهل الإيمان منهم، والمحاورات التي حصلت بينهم وبين المكذبين الكافرين، وبعض من تردد منهم وكاد يؤمن وما جرى له من صرف عن الإيمان، وما حصل من كيد إلى آخره، وإن كانت تلك الأخبار لا يمكن أن نجزم بصحة التفاصيل الواردة فيها، لكن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا

حرج))[٧]، فيذكرون تفاصيل فيهم، ومجاوبات بينهم وبين قومهم، وأسماء جملة من المؤمنين بصالح -عليه الصلاة والسلام- فما كذّبوا جميعاً.

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} يعني: ترِد ماءكم يوما، ويوما تردونه أنتم.

الشِرب هو الحظ من الماء، فلها حظ ولكم حظ، الماء قسمة بينهم يوم للناقة، ويوم لهم يسقون أنعامهم ودوابهم، وفي كتب التواريخ يذكرون بعض الدوافع لقتل الناقة لو صح ذلك، امرأة لها نَعم كثير من الغنم فكانت تتأذى بالناقة؛ لأن دوابها لا تشرب من الماء في اليوم الآخر، وأن الناقة لما كانت بهذه المثابة من الضخامة إذ كانت تفزع منها الأغنام وتتفرق عليها وتفر وتجفل فتأذت بها فأغرت بعض الأشقياء، وكان عندها بنات في غاية الجمال فوعدت بالتزويج من هؤلاء البنات هكذا يزعمون -والله تعالى أعلم-، لكن الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- هنا أنه جعل الماء قسمة بينهم كل شرب يُحضّر على غير صاحبه، فيوم للناقة ويوم لهم ويوم لدوابهم، وكانت الناقة فيها من اللبن ما يكفي لهم يشربون منها في ذلك اليوم.

{وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًا، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالئوا على قتلها وعقرها، {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ}.

{فَعَقَرُوهَا} والآية الأخرى دلت على أن هناك عملاً قبل العقر قال: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ} [سورة القمر:٢٩] هو أحيمر ثمود، وتأتي تسميته في كتب التواريخ، وكذا يقولون: قدار بن سالف، هم عرب كانوا، {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} قام بأعمال قبل العقر، والمؤرخون يذكرون أن رجلاً كمن لها بأصل صخرة، والآخر رماها، وذاك قطع عرقوبها فسقطت، والثاني نحرها، فالتعاطي يدل على عمل، وقوله: {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} أصبحوا نادمين يذكر المؤرخون أن صالحاً -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله -تبارك وتعالى- وعدهم ثلاثة أيام: {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ} [سورة هود:٦٥]، وأنه وضع لهم علامة في ذلك أن في اليوم الأول تكون ألوانهم كذا، واليوم الثاني تكون وجوههم كذا، واليوم الثالث تكون وجوههم كذا، فلما بدأت هذه العلامات في اليوم الأول ندموا وعرفوا صدق ما وعدهم به، ولكن لات ساعة مندم، والفاء في قوله: {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} تدل على التعقيب المباشر، وتعقيب كل شيء ومباشرته بحسبه، يعني لا يلزم أنه بمجرد العقر حصل الندم مباشرة، لكن {فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} في الصباح فجاءت الدلائل والأمارات في هذه الأيام الثلاثة على حلول نقمة الله -عز وجل- بهم.

وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالا شديدًا، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

الأشياء التي يخبر الله -عز وجل- فيها عن عقوبة أمة من الأمم تارة يذكر أنه أخذتهم الصيحة، وتارة يذكر أنه أخذتهم الرجفة، فالعلماء يجمعون بين هذا فيقولون: صاح بهم الملك صيحة شديدة انخلعت لها القلوب ورجفت بهم الأرض فهلكوا، فتارة يذكر هذا وتارة يذكر هذا، -والله أعلم-.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٦٠ إلى ١٩٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٦٠-١٦٤].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط، -عليه السلام-، وهو: لوط بن هاران بن آزر بن آزار، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم -عليهما السلام-، وكانوا يسكنون "سدوم" وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك، فدعاهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكْران دون الإناث.

قوله -تبارك وتعالى-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} هم كذبوا لوطاً -عليه الصلاة والسلام- فعد ذلك تكذيباً لجميع الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، ومن كذب واحداً فهو مكذب بجميع الرسل، {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، لوط -عليه الصلاة والسلام- هو الوحيد في القرآن حينما ذكرت دعوته لم يذكر معها في جميع المواضع أنه دعاهم إلى التوحيد، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يقولون لأقوامهم -أول ما يدعونهم إليه-: {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف:٥٩] ولوط -صلى الله عليه وسلم- أنكر عليهم إتيان الفاحشة، وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوم لوط -عليه الصلاة والسلام- لم يكن عندهم إشراك، وإنما كانوا بهذا المثابة من العمل القبيح -والله تعالى أعلم-، وكون التوحيد لم يذكر الأمر به لا يعني أنهم لم يكونوا على الإشراك، ولا يعني أنه لم يخاطبهم بذلك، والخطاب في القرآن منقول من لغة أخرى، أعني خطاب هؤلاء الأنبياء من غير العرب -عليهم الصلاة والسلام- فيذكر الله -تبارك وتعالى- في كل موطن ما يناسبه؛ ولذلك تجد ما يذكره الله من خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- في كل مقام ما يناسب ذلك المقام، وهناك أشياء لا يذكرها ببعض المقامات ويذكرها في مقام آخر، وهكذا في كلام شعيب مع قومه، وفي كلام صالح، وفي كلام هود -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم تجد أن الخطاب فيه أشياء تذكر في موضع، وأشياء لا تذكر في موضع، حتى الصيغة المنقولة يعني امرأة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قالت للملائكة: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [سورة الذاريات:٢٩]، وفي الموضع الآخر قالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ

{هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [سورة هود:٧٢]، وهو مقام واحد، موقف واحد ما تكرر حتى نقول: في المرة الأولى قالت كذا، وفي المرة الثانية قالت كذا، والسبب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرتُ من أن الكلام منقول بمعناه، والترجمة -كما هو معروف- ليست حرفية، وإنما تكون بنقل المعنى، فينقل من المعنى لكل مقام ما يناسبه، حتى في اللغة الواحدة لمّا تحكي موقفاً، تنقل موقفاً أو نحو ذلك تذكر من الموقف أشياء تناسب المقام، وكون لوط -صلى الله عليه وسلم- ما ذكر أنه خاطبهم بالتوحيد لا يعني أنه لم يأمرهم به؛ فالتوحيد هو أول ما يدعو إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لكن لما كانت هذه الفعلة القبيحة هي من مبتكراتهم ولم يسبقهم إليها أحد، ربما يكون هذا هو السبب في أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- ذكر الله عنه أنه قال لهم: {أَتَأْتُونَ}، يعني ذُكرتْ هذه في دعوتهم وإلا فهم كفار قبل ذلك وبعده؛ ولهذا أهلكهم الله -عز وجل- بهذا الهلاك المستأصل، وهل هذا الهلاك المستأصل لمجرد أنهم فعلوا هذه الفعلة؟، هم كفرة ووقعوا بهذا الفعل القبيح ومن أين جاءهم الإيمان أصلاً؟ يعني لوط -عليه الصلاة والسلام- كان في تلك الناحية قريباً من الأرض المقدسة، من بيت المقدس، يقولون: ذلك المكان هو ما يعرف الآن بالبحر الميت، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كان في الشام حينما هاجر إليها، ودعا الناس إلى عبادة الله -جل جلاله-، فبقي لوط -عليه الصلاة والسلام- وهو ابن أخيه في ناحية، وإبراهيم في ناحية، هؤلاء جاءهم الإيمان قبل لوط -عليه الصلاة والسلام-، فالمقصود أن كون الدعوة إلى الإيمان والتوحيد لم تذكر لا يعني أنه لم يدعهم إلى ذلك أو أنهم كانوا على الإيمان ولا يظن بقوم أنهم على الإيمان، ويأتيهم نبي رسول ثم يجيبونه بمثل هذا الجواب، ويتوعدونه بالطرد والإخراج، ويعيبونه أنه يتنزه عن فعلتهم، يقول: **بينها وبين بلاد الكَرك والشَّوبك**، هي في تلك الناحية لأن الله -عز وجل- قال: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} [سورة الفرقان:٤٠]، فدل ذلك على أن أهل مكة مروا على تلك الناحية حينما أتوا بلاد الشام، يقول: **بلاد الكرك والشوبك**، وهو يعني بها منطقة البحر الميت، فهو دعاهم إلى الإيمان فكذبوا بلوط -عليه الصلاة والسلام-، ومن كذب بنبي فهو مكذب بجميع الأنبياء، ولو قالوا: إنهم مصدقون ومؤمنون بهم، فتقول مثلاً: اليهود مكذبون الرسل مع أنهم يؤمنون بموسى -صلى الله عليه وسلم- وأنبيائهم، فقد يقول قائل: إن قوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} يعني كذبوا لوطاً، هذا كفر منهم، لكن كان ذلك الكفر واقعاً حينما كذبوه، لكن هل كانوا على الإشراك حينما دعاهم إلى الله؟ هذا هو السؤال وإلا فتكذيب لوط -عليه الصلاة والسلام- هو كفر لا شك.

وقال الحموي -رحمه الله تعالى-: الكَرَك بفتح أوله وثانيه، وكاف أخرى: كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض، قال: والكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك.ا.هـ.

هي الأولى يقصد جبال الأردن فالبحيرة البحر الميت. {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ} [سورة الفرقان:٤٠] قال: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ} [سورة النجم:٥٣] لأنه قلبها ووصل وذكرها بالصفة، قال: {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} [سورة الحاقة:٩] باعتبار أن لها أعمال يعني قرى توابع فكلها قلبت، هي والتوابع والقرى التي معها.

ولهذا قال تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٦٥-١٧٥].

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم -اللاتي خلقهن الله لهم- ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ} يعنون: عما جئتنا به، {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [سورة الأعراف:٨٢]، **فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم فقال: {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} أي: المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ فأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}.**

قال الله تعالى: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} أي: كلهم، {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، وهي امرأته.

هنا يقول: {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} أي المبغضين، {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [سورة الضحى:٣]، قال: **لا أحبه ولا أرضى به، فأنا بريء منكم، ثم دعا الله عليهم فقال: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}** الآن ظاهر الدعاء الذي دعا به أنه دعا ربه طلب النجاة، من ماذا؟ مما يعملون، بمعنى أنه يسلم مما وقعوا فيه من هذا الرجس، وأن الله يسلم أهله من ذلك، هذا ظاهر الدعاء، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **ثم دعا الله عليهم فقال: {رَبِّ نَجِّنِي}**، فنوجه كلام ابن كثير -رحمه الله- بأنه طلب النجاة لنفسه مما يعملون، هذه الإجابة التي حصلت له أن الله -تبارك وتعالى- قال: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} فدل ذلك على أنه دعا عليهم، حينما طلب النجاة دعا عليهم، وطلب الإهلاك لهؤلاء، وأن الله يأخذ هؤلاء المجرمين، قال: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} فالفاء تدل على التعقيب المباشر، وتعقيب كل شيء بحسبه، أي لا يعني أنه وقع بنفس اللحظة التي دعا بها، وإنما وقع لهم ذلك في الصباح، وأيضاً تدل الفاء هذه على التعليل، وأيضاً تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها {فَنَجَّيْنَاهُ}، نجيناه باعتبار إجابة الدعاء الذي تقدم منه {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} يقول هنا: {فِي الْغَابِرِينَ} يقول وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، هذه العبارة التي عبر بها ابن كثير -رحمه الله- دقيقة جداً بقيت فهلكت، ولفظة الغابر كما يقول النحاس من الأضداد، تأتي بمعنى الباقي وتأتي بمعنى الذاهب، الباقي والذاهب {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} إذا فسرتها في الباقين أو فسرتها في الذاهبين فإنها تدل على هذا وهذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال في قوله: {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}: **بقيت فهلكت**، جمعاً للمعنيين، هلكت بمعنى ذهبت في الذاهبين في الهلاك، والأول في الباقين بقيت، وهذا من دقته -رحمه الله- في هذا الكتاب، وكثيراً ما يمر الإنسان على أشياء من هذا القبيل ولا يتفطن لها، ولكن هذا الكتاب هو بمنزلة في كتب التفسير، فالمقصود أن هذه اللفظة يمكن أن تفسر بمعنى أنها {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} أي في الذاهبين في الهلاك، في الهالكين، أو يقال: {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} يعني في الباقين في الهلاك، والنتيجة واحدة ذهبت، والهلاك

يقال فلان هلك، وفلان ذهب، فلان راح بمعنى هلك {فِي الْغَابِرِينَ} في الباقين في الهلاك، ومن أهل العلم من فسر البقاء بطول العيش، والمدة التي عاشها الإنسان؛ فهي كبيرة في السن، في الباقين يعني في المعمرين {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله- ويعبر عنه بعضهم -كأبي عبيدة- بعبارة قريبة {فِي الْغَابِرِينَ} يعني في الباقين في الهرم أنها بقيت ما ماتت في سن مبكرة مثلاً، عمّرت، وذكر أيضاً ابن جرير -رحمه الله- معنى آخر -لكن اختياره الأول- ذكر أن من أهل العلم من قال: {فِي الْغَابِرِينَ} يعني أنها بقيت بعد قومها لم يصبها العذاب الذي أصابهم معهم، وإنما أصابها خارجاً عنهم، بمعنى أنهم يقولون: إنها خرجت مع لوط -عليه الصلاة والسلام- قال: {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} [سورة هود:٨١] ثم استثناها، قالوا فأصابها بعدما خرجت، التفتت فأصابها عذاب قومه في قريتهم، وهي خرجت، بقيت بعدهم ثم وقع لها، ولكن هذا -والله تعالى أعلم- فيه نظر، فمن جهةٍ المفسرون لم يتفقوا على أنها خرجت مع لوط، والاستثناء في قوله: {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} اختلفوا هل هو منقطع أو لا، بمعنى لكن امرأة يصيبها ما أصابهم، أو أنها خرجت معهم والتفتت، والأمر الثاني أنه لو قيل: إنها خرجت والتفتت، فلا يعني هذا أن العذاب وقع لهم ثم التفتت هي بعد ذلك بعدما هلكوا ثم هلكت ليس ذلك باللازم، فقد تكون التفتت فرأت القرى تنسف فماتت في نفس الوقت، والله تعالى أعلم، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} تستطيع أن تقول يعني في الهالكين، وأصل المعنى في الذاهبين وفي الباقين كل ذلك يرجع إلى معنى واحد وهو الهلاك وهذا أقرب -والله تعالى أعلم- من تفسيره أنها بقيت بمعنى أنها عمّرت حتى صارت عجوزاً، فالحديث فيما يبدو ليس عن هذا، والله أعلم.

وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع مَنْ بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في "سورة الأعراف" و"هود"، وكذا في "الحِجْر" حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عمّ جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا...} إلى قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

هنا لم يتكلم عن الآيات الأخرى؛ لأنه مضى الكلام عليها {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} أي في إهلاكهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} يعني هل المقصود قوم لوط وما كان أكثر قوم لوط بمؤمنين أو أن المقصود أهل مكة؟ المقصود أهل مكة، وأنهم حينما يسمعون مثل هذا لا يحصل لهم الاعتبار المطلوب، والاتعاظ، فلا ينفعهم ذلك {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} قلنا: إن هذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} يعني أكثر قومك، وابن كثير في الموضع السابق ذكر أن المقصود الأقوام الذين أهلكهم الله -تبارك وتعالى-، ومثل هذا التكرار في هذه الآية {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}، حينما تتكرر هو ليس بتكرار محض، وإنما كل موضع يختص بما قبله، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} لما جرى في قوم لوط، وهكذا في سائر المواضع، والأوضح من هذا الآيات التي في سورة الرحمن {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كل واحدة تختص بما قبلها، وكذلك أيضاً في غيره، ولكن هذا من أجلاها وأوضحها، والله أعلم.

{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٧٦-١٨٠].

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة -هم أهل مدين على الصحيح.

قوله: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى المتواترة "ليكة" بحذف المعرِّفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير، والمعنى واحد على قول الجمهور، وعامة أهل العلم على أن "ليكة والأيكة" كلاهما واحد، ولكنها جاءت في موضع معرَّفة وفي موضع غير معرَّفة، وإن قال بعض أهل العلم خلاف ذلك، يعني مثلاً أبو عبيد -رحمه الله- يقول: ليكة يعني القرية، والأيكة هي الغيضة شجر ملتف، والظاهر أنهما واحد ليكة والأيكة، وأنه الشجر الملتف، أو كما يقول بعضهم: مُناعم الشجر الكثيف كالأراك والسدر ونحو هذا، فالمقصود أنها غيضة شجر كثير ملتف هذا قاله الخليل بن أحمد وغيره، {كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ} قال: هم أهل مدين على الصحيح، فهذه ثلاثة أقوال ليست عند ابن كثير لكن هي متفرقة في الواقع؛ لأن بعضهم يقول: إن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وإن هؤلاء غير هؤلاء، فصار عندنا أهل مدين أصحاب الأيكة، وأهل القرية يقال لها: أيكة، والصحيح أن هؤلاء جميعاً متحدون، أمة واحدة، فتارة نسبوا إلى بلدتهم وهي مدين، وتارة نسبوا إلى غيضة أيكة ولا إشكال، فهنا يقول أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل هاهنا أخوهم هذا جواب على سؤال مقدر وهو أنه في المواضع السابقة ينسب النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى قومه: {قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ} أخوهم صالح، ولما ذكر مدين قال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [سورة الأعراف:٨٥]، وهنا قال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ} فما نسبه إليهم، فمن أهل العلم من يقول بأن هؤلاء لم يكن منهم باعتبار التفريق بين أصحاب الأيكة وأهل مدين، قال: هم أهل مدين، وأما أصحاب الأيكة فلم يكن منهم؛ ولهذا لم يذكر ذلك جوابُ ابن كثير هنا.

وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا "أخوهم شعيب"؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}.

العلة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في عدم قوله أخوهم شعيب: **وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة**، لكن إذا قيل أهل مدين هو منهم، وإذا ذكر ثمود فصالح -عليه الصلاة والسلام- منهم، وإذا ذكر عاد فهود -عليه الصلاة والسلام- منهم، لكن لما نسبوا هنا إلى الأيكة التي عبدوها من دون الله -عز وجل- لم يضفه إليهم {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}.

فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا -عليه السلام-، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

يعني ثلاث أمم من الممكن أن ينزّل على ما سبق: القرية، والشجر، ومدين.

وقوله: {وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ} [سورة ق:١٤] قوم شعيب، وقاله إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْبِر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد، والله أعلم.

يمكن أن نستدل على هذا من القرآن، يعني في سورة هود لما ذكر الله خبره -عليه الصلاة والسلام- قال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة هود:٨٤]، إلى أن قال لهم: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}، فذكر الأشياء التي ذكرها هنا، وقال لهم: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ}، وهنا قال لهم: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [سورة الأعراف:٨٥]، نفس القضايا فدل على أنهم متحدون، والله تعالى أعلم.

والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة.

{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ} [سورة الشعراء:١٨١-١٨٤].

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} أي: **إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.**

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}: والقسطاس هو: الميزان.

القسطاس يقال: للميزان، ويقال: للعدل وآلته وبينهما ملازمة، وبعضهم يقول: هي كلمة غير عربية، وهذا يحتاج إلى دليل، ووصف القسطاس بأنه مستقيم يعني الميزان المعتدل، وإذا فسر بالعدل فتكون هذه من قبيل الصفات الكاشفة، بمعنى أنها غير مقيدة وإنما كاشفة، مثل قولك: هذا هو الحق الصحيح، ومعلوم أن الحق لا يكون غير صحيح، وإنما يكون ذلك من قبيل الصفات الكاشفة، وهكذا قد يقال: في الصراط المستقيم، إذا فسر الصراط بأن ذلك لا يقال إلا لكل من كان متصفاً بالاستقامة، فلا يقال له: صراط إن كان غير مستقيم، فيكون ما ذكر بعده من قوله: المستقيم من قبيل الصفات الكاشفة.

وقوله: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}: أي: تنقصوهم أموالهم.

بخْسُ الناس أشياءهم قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **لا تنقصوهم أموالهم**، ويدخل في عموم المعنى ما يحصل من نقص لهم في كل حق من حقوقهم، كل شيء أبخسوا فيه الناس أشياءهم كما أنه جاء هذا في بخس الميزان فكذلك بخسُ الناس أشياءهم في حقوقهم، كل إنسان يُعرف له حقه وفضله ولا يهضم، ومن الناس من إذا رضي وصف الناس بأكثر مما يستحقون، وإذا سخط هضمهم وعابهم ورماهم بكل قبيح مما هو صحيح ومما هو كذب مفترى، وهذا من بخس الناس أموالهم، هذا من بخس الناس أشياءهم، فإذا لم يعجبه أحد من أهل العلم مثلاً أو نحو هذا قال: هذا جاهل، هذا ما يفهم في العلم، {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ} [سورة المائدة:٨]، والعداوة لا يجوز أن تحمل الإنسان على ترك العدل، وهذا داخل في عموم قوله: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}.

{وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}: يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: {وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...} [سورة الأعراف:٨٦].

ويدخل في هذا كل ألوان الإفساد، إشاعة الفاحشة، والمنكر، وتغيير دين الله -عز وجل-، وتبديله، وما إلى ذلك.

وقوله: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ}: يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى -عليه السلام-: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ} [سورة الصافات:١٢٦]، **قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَالْجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ} يقول: خلق الأولين، وقرأ ابن زيد: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا}** [سورة يس:٦٢].

قرأ ابن زيد: يعني هو لا يقصد أنه يقرأ قراءة من القراءات، وإنما أراد أن يفسر القرآن بالقرآن، يعني قرأ عندها هذه الآية بمعنى أنه فسر القرآن بالقرآن {وَالْجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ}، {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا} يعني خلقاً كثيراً فالجبلة بمعنى الخليقة، {خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} فإن ذلك يقال له: جبلة

والموتُ أعظمُ حادثٍ *** ما يمرّ على الجِبلّة

يعني على الخليقة.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٨٥-١٩١].

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها -تشابهت قلوبهم- حيث قالوا: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعنون: من المسحورين، كما تقدم.

والقول الآخر الذي مضى بمعنى أنك مخلوق مثلنا، بشر لك سحر يعني رئة، وكونه يفسر -كما سبق- بالبشر فهذا من قبيل التفسير اللازم فمن له رئة يعني أنه مخلوق بشر، أنت من البشر لست بملَك، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، يعني أنك مثلنا تأكل الطعام وتشرب الشراب، لكن المعنى المتبادر هو المعنى الأول الذي ذكره ابن كثير {مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي رموه بالسحر.

{وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}: قال الضحاك: جانبا من السماء، وقال قتادة: قطعا من السماء، وقال السدي: عذابًا من السماء.

الكِسَف، الكِسْفة يعني القطعة، والكسف يعني القطع أي: قطعاً من السماء، عذاباً، فهذه الأقوال التي ذكرها، قال: **جانباً من السماء، عذاباً من السماء، وقال قتادة: قطعاً من السماء** هو اختيار ابن جرير، وهل هذه المعاني المذكورة غير متنافية هذه الكسف التي تنزل من السماء هي عذاب بطبيعة الحال ليست أرزاقاً، ومن قال: جانباً من السماء يقولون على قطعة، فهي من باب اختلاف التنوع، واختلاف العبارة.

وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا}، إلى أن قالوا: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا}

[سورة الإسراء:٩٠-٩٢]، وقوله: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...} الآية [الأنفال:٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ...} الآية.

{قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم جزاءٌ كما سألوا، جزاءً وفاقًا؛ ولهذا قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

قوله: {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} هذا الجواب غير مشكل، يعني حينما قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا} أي: هات العذاب، {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} معناه: الذي يأتي بالعذاب هو الله -تبارك وتعالى- هو عالم بكم وبأحوالكم لا يخفى عليه شيء، ما أنا الذي يأتي بالعذاب، إنما يأتي العذاب من الله -جل جلاله- وهو مطلع على خلقه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

ولهذا قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله -سبحانه وتعالى-، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يَكُنُّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

مثل هذا التفصيل في صفة العذاب هذا متلقى عن بني إسرائيل فيما يظهر -والله تعالى أعلم-؛ فلم يرد ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ثابت صحيح، وإنما جاء مثل هذا عن بعض السلف كابن عباس -رضي الله عنهما- وجاء هذا عن بعض التابعين، قال هنا: {الظُّلَّةِ} يقول هذا جنس ما سألوه إلى آخره {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} فسرها هنا بالسحابة جاءتهم، والظُّلل السحاب، والظلة السحابة، {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} [سورة البقرة:٢١٠] فهم سألوا العذاب {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا} من العذاب طلبوا ذلك فيكون هذا الذي نزل عليهم عذاب يوم الظلة باعتبار أن الله حقق دعاءهم، ظلة يعني السحاب، جاءهم العذاب من السماء، ومن أهل العلم يعني نحن لا نتقيد بهذه الرواية أو بهذا التفصيل في صفة العذاب، فإننا نقول: من أهل العلم من قال: إن العذاب أضيف إلى يوم الظلة، وما أضافه إلى الظلة بمعنى أن العذاب جاءهم من الظلة كما في هذا التفصيل، وإنما جاءهم من السماء مباشرة، نزل عليهم ما طلبوه، فالمقصود أننا لا نرتبط بمثل هذا التفصيل الذي جاء في بعض هذه الروايات التي يظن أنها مأخوذة عن بني إسرائيل فإضافة العذاب إلى الظلة هل يلزم من ذلك أن الظلة هي التي نزل فيها العذاب –الآية-، أولا يلزم منها هذا؟، قد يكون نزل فيها العذاب، ويكون ذلك تحقيقاً لما سألوا وما دعوا؛ لأن ذلك كله يقال له: سماء:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناهُ وإنْ كانوا غضابا[1]

---

١ - انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، (٦٧/٣).

نزل السماء يعني: السحاب، فكل ما علاك يقال له: سماء، ويحتمل ألا يكون هذا العذاب من الظلة، وإنما من السماء نفسها، فالله تعالى أعلم، لكن إضافته إلى يوم الظلة يشعر بأن العذاب جاءهم من نفس الظلة، {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} يشعر أن هناك ارتباطاً، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق.

أي هذا جواب على سؤال مقدر وهو أن الله -تبارك وتعالى- هنا قال: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} وفي موضع آخر ذكر أنه {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ} [سورة الحجر:٧٣]، وفي موضع ثالث {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [سورة الأعراف:٧٨]، فهنا يجيب عن هذا بأن هذا ليس بمتناقض، ما بينه تعارض فكل ذلك حصل لهم، وهذا الكلام وهذه المواطن لطيفة، فيما سبق قال: هم أهل مدين، وكان شعيب من أنفسهم ولكن لم يقل هنا: "أخوهم شعيب"؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، ومثل {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ} قطع نسب الأخوة بين المعنى وبين ما نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لا يفطن إلى هذه اللطائف، ولو أن إنساناً جمعها من هذا الكتاب فقط فإنه سيجمع دفتراً كبيراً من هذه اللطائف، ثم بعد ذلك يصنفها على السور فيجتمع عنده نفائس، ودرر كثيرة جداً.

ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سورة الأعراف:٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة.

يعني قابل إرجافهم بعذاب من جنسه وهو الرجفة.

وفي سورة هود قال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [سورة هود:٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: {أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [سورة هود:٨٧].

يعني هذا الاستهزاء، أسكتهم الملك صاح بهم الملك فأسكتهم بهذه الصيحة، فأسكتهم يعني أهلكهم.

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ} [سورة الحجر:٧٣]، {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}، وهاهنا قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه.

{فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

فيكون ذلك اجتمع عليهم: صيحة، ورجفة، وإذا قيل بأن الظلة كان فيها عذاب أيضاً فيكون ذلك.

وروى محمد بن جرير عن يزيد الباهلي قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ...} الآية قال: بعث الله عليهم وَمَدَةً وحرا شديدا، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة، فنادى بعضهم بعضا، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم نارا، قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}: أي: **العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.**

يعني لقومك يا محمد -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الأثر الغالب أنه مأخوذ من بني إسرائيل.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٩٢ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥].

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِنَّهُ} أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} [سورة الشعراء:٥] **الآية، {لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك.**

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}: وهو جبريل -عليه السلام-، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج، وهذا ما لا نزاع فيه.

قال الزهري: وهذه كقوله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مصدقاً لما بين يديه} الآية [سورة البقرة:٩٧]**، {عَلَى قَلْبِكَ} يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص؛ {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.**

وقوله: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلاً إلى المحجة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية الكريمة: **{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**، الضمير هنا عائد إلى القرآن بلا إشكال، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **{وَإِنَّهُ} أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ}**، بمعنى أن الضمير يعود إلى القرآن المذكور في أول السورة، وبعض أهل العلم يقول: إن الضمير هنا يعود إلى القرآن، ولكنه يعود إلى غير مذكور وإنما يفهم من السياق، وهذا موجودٌ له نظائر في كتاب الله -تبارك وتعالى-، كقوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ}** [سورة ص:٣٢-٣٣]، فعلى القول بأن المقصود بقوله: **{حَتَّى تَوَارَتْ}** يعني: الشمس، الشمس ليس لها ذكر، فالضمير عائد إلى غير مذكور يفهم من السياق، وإن لم يكن محل اتفاق في هذه الآية أن المراد الشمس فإن بعضهم يقول: **{حَتَّى تَوَارَتْ}** أي: الخيل، يعني غابت عن نظره أبعدت في السير، فلا يكون فيه شاهد هنا، وأمثلة هذا كثيرة لا إشكال فيها.

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: أنزله عليك وأوحاه إليك.

قال: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}**، وهو جبريل، وهي قراءة حفص ونافع وابن كثير وأبي عمرو، وقرأ بقية السبعة: **{نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ}**، **{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {نَزَّلَ}** أي: رب العالمين **{بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ}**

نزَّل به جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فيكون جبريل -عليه الصلاة والسلام- الروح الأمين منزّلاً من الله أنزله الله بهذا الوحي، بهذا القرآن، فيكون في محل نصب مفعول به، على هذه القراءة، والقراءة هذه التي نقرأ به {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}، نزل به جبريل من عند الله -تبارك وتعالى-، {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة البقرة:٩٧].

وقوله -تبارك وتعالى-: {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}، أي: واضح، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [سورة فصلت:٤٤]، فهذا القرآن امتن الله -تبارك وتعالى- على هذه الأمة بإنزاله بهذا اللسان العربي البين الواضح الميسر، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر:١٧].

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} **[سورة الشعراء:١٩٦-١٩٩].**

يقول تعالى: وإنَّ ذِكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} **[سورة الصف: ٦].**

والزُّبُر هاهنا هي الكتب وهي جمع زَبُور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} **[سورة القمر:٥٢] أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِنَّهُ} الضمير فيما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يرجع إلى القرآن، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-، {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، {لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- وسبقه إلى ذلك ابن جرير وجماعة من السلف يقولون: {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، أي أن القرآن مذكور في كتب الأولين، يعني جاء التنويه به وجاء ذكره في كتبهم.

ومن أهل العلم من يقول: المراد {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} أي: ما تضمنه من الأحكام والهدايات مضمن في كتب الأولين، وبعضهم يقول: إن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنَّهُ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يخلو من بعد، والأقرب -والله تعالى أعلم-: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} يعني: ذكر القرآن، فالله -تبارك وتعالى- يحتج عليهم بهذا، فهم يعرفون؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فليس المقصود ما تضمنه من الهدايات والأحكام، لاسيما أن هذا القرآن قد حوى من الهدايات والأحكام ما لا يوجد في كتب السابقين؛ لأن هذه الشريعة هي بمنزلة الشرائع المتعددة، وقد جعلها خاتمة الشرائع، فما يوجد في كتاب الله -تبارك وتعالى- من هدايات أعظم وأوسع وأكثر مما يوجد في الكتب السابقة.

ثم قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} **أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول**

منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم، وقال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} الآية [سورة الأعراف:١٥٧].

أي باعتبار أن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- تحول من المجوسية إلى دين أهل الكتاب، وصار له علم ومعرفة وإيمان، وكان يتتبع خيار من بقي منهم، كما هو معلوم في قصته، وخبر إسلامه -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} قال: أي العدول منهم؛ لأن غير العدول لا يعترفون بهذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} [سورة النساء:٥١]، فهذه نازلة في بعض أحبار اليهود لما ذهبوا إلى مكة وحرضوا المشركين على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسألهم المشركون: نحن أهدى أم محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ فقالوا: بل أنتم أهدى من محمد، وسجدوا لآلهة المشركين، فهؤلاء أمثال كعب بن الأشرف وحيي بن الأخطب وأمثال هؤلاء من الكذبة لا يعترفون بذلك.

ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم...

قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} استدل بها من قال: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيحتج بهذه الآية، والحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مذكور في كتب الأولين، كما تدل هذه الآية صراحة، لكن الآية التي في سورة الشعراء {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} هي في القرآن؛ لأن السياق يدل على ذلك، السياق في القرآن {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ} يعني: القرآن، {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، وسبب الترجيح في هذا هو القاعدة التي ذكرتها في مناسبات شتى: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، يعني السياق كله في القرآن، {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ} أي: القرآن {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} كل هذا في القرآن، ثم قال: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، يعني {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، قال: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ} يعني: القرآن، قال: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ} أي: القرآن، {فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم} أي: القرآن، كل الضمائر في القرآن، والقاعدة: أن توحيد مرجع الضمائر يعني كون الضمائر جميعاً ترجع إلى شيء واحد أولى من تفريقها بأن يقال: هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، هذا هو سبب ترجيح هذا القول: أن المقصود به القرآن، {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، وأما الآية الأخرى قال: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ} [سورة الأعراف:١٥٧] فيعني: الرسول النبي الأمي، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مذكور في كتبهم والقرآن أيضاً مذكور في كتبهم، وآية الشعراء دلت على أن القرآن له ذكر في كتب الأولين، ولا تحمل هذه الآية على غير ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم ممَّنْ لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ

عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٤-١٥] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الأنعام:١١١]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ...} الآية، [سورة يونس:٩٦-٩٧].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أن القرآن لو نزل على رجل أعجمي لا يعرف من العربية حرفاً فقرأه عليهم بهذا اللسان العربي المبين الفصيح غاية الفصاحة فإنهم لا يؤمنون، بمعنى: أنه لو نزل بهذه الصفة على رجل أعجمي لا يعرف العربية فانفتق لسانه بالعربية بهذا القرآن، هذه آية عظيمة جداً، كيف يكون هذا القرآن بهذه الفصاحة وينطق به من لا يعرف العربية أصلاً؟!، يقول: ومع ذلك فإنهم لا يؤمنون؛ لأنهم أهل مكابرة، ثم استشهد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بالآيات الأخرى التي تدل على مكابرتهم وعنادهم، {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، يعرجون هم، يصعدون أو يرون الملائكة تصعد، على القول الآخر، {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، وفي القراءة الأخرى: {سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} يعني يقولون: سُحرنا، يخيل إلينا، هذا كله لمكابرتهم، فالله قد ختم على قلوبهم، {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، هذا على المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

وظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ} يعني: أنه لو نزل على بعض البهائم، باعتبار أن الأعجم هو البهيم الذي لا يتكلم ولا ينطق، {عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ} ، كأنه يقول: إن الأعجمي لو كان مراداً هنا لقيل: ولو نزلناه على بعض الأعجميين، يعني الأعاجم، أما الذي لا يعقل فيقال: أعجم وأعجمون، {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ}، هذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله-، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لعله أقرب أنه لو نزل على بعض الأعجمين أي: الأعاجم الذين لا يعرفون العربية.

وكثير من أهل العلم يفرقون بين الأعجمي والعجمي، فيقولون: إن العجمي من كان أصله من العجم، غير العرب، كل من ليس عربياً فهو عجمي باعتبار الأصل، ولو كان يعرف العربية، ولو كان فصيح اللسان، فالعجمي قد يتعلم العربية، وقد ينشأ، قد يكون عجمي الأصل ولكنه عربي النشأة واللسان، وقد يتكلم العجمي بالعربية أفضل مما يتكلم به بعض أهلها، وبعض علماء اللغة كانوا من الأعاجم أو من العجم، فهؤلاء يقولون: إن العجمي من كان أصله من غير العرب، وأما الأعجمي فهي عجمة اللسان، سواء كان أصله من العرب أو كان أصله من العجم، فالعجمي باعتبار الأصل، والأعجمي باعتبار اللسان، وهنا قال: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ} يعني: عجمة اللسان، وهذا هو المقصود لا الأصل، فهو لا يحسن العربية ولو كان أصله من العرب، ومن أهل العلم من لا يفرق بين العجمي والأعجمي ويرى أنهما واحد، فهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-: أنه لو نزل على من لا يعرف العربية -وفي هذا آية عظيمة- لبقوا على مكابرتهم وعنادهم، ولم يؤمنوا.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ} أي: باللغة العجمية، بلغة غير اللغة العربية فإنهم يحتجون عند ذلك ويقولون: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [سورة فصلت:٤٤] يعني: كيف نُخاطَب بما لا نفهم ولا نعرف، لماذا لم نخاطب بلساننا ولغتنا؟، والله -تبارك وتعالى- ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه، وبين علة ذلك قال: {لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [سورة إبراهيم:٤]، فالبيان لا يحصل إلا بهذا، والحجة قائمة عليهم ببعث هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- منهم، من الأميين ليكون مشاكلاً لأحوالهم، ويسهل عليهم التلقي منه، والفهم، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢]، وذكر هذا على سبيل الامتنان، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، فالحاصل أن هذه الأقوال تحتملها الآية، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-، ولو قال قائل: إن هذه الأقوال يمكن أن تجتمع تحت هذه الآية باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- يذكر عنادهم في كل الحالات، وسواء نزل هذا القرآن على العربي الفصيح، أو على من لا يعرف العربية فإنهم لا يؤمنون، أو نطق من ليس من خواصه النطق؛ لأن النطق مختص بالإنسان، أو كان نزل بلغة غير لغة العرب فإنهم يبقون على عنادهم في الحالات كلها فلا يؤمنون، لو قال قائل مثل هذا فقد يكون له وجه من النظر، والله أعلم.

قال تعالى: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} [سورة الشعراء:٢٠٠-٢٠٩].

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

{لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي: بالحق {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

قوله: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، على قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا وهو اختيار ابن جرير، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: أدخلناه، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: سلكنا التكذيب والكفر، أدخلنا التكذيب والكفر في قلوب المجرمين، فيكون الضمير هنا عائداً إلى غير مذكور، هذا مثال آخر على عودة الضمير إلى غير مذكور، على هذا القول، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} لا يؤمنون به، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: التكذيب والكفر.

وبعض أهل العلم يقول: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، لمّا بيّن فصاحته وأنه بلسان عربي مبين، قال: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، فالضمير أيضاً عائد إلى القرآن، فتوحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، يكون المعنى {سَلَكْنَاهُ} أي: أدخلناه، بمعنى لمّا قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} ففهمه هؤلاء وعقلوا معناه، وعرفوا مقاصده؛ لأنهم خوطبوا بلغتهم، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، فبعد أن فهموا حصل منهم التكذيب والكفر، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، بمعنى أنهم فهموه وعقلوا معناه ولكنهم كفروا بعد هذا الفهم والعلم، عرفوا فصاحته وإعجازه ومع ذلك كذبوا، وهذا

المعنى هو الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان، ويساعد عليه قاعدة توحيد مرجع الضمائر، الحديث كله عن القرآن، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ}، لكن القول الآخر ليس بمستبعد أيضاً باعتبار أن المقصود التكذيب والجحود، فإن الآيات التي تدل على أن الله -تبارك وتعالى- يوفق من شاء للهدى، ويضل من يشاء كثيرة جداً، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن:٢] على أحد الأقوال في معنى الآية، خلقكم فـــ، "الفاء" تدل على التعقيب المباشر، فعلى أحد الأقوال في الآية {خَلَقَكُمْ} هكذا، فريق للجنة وفريق للسعير، ويدل على ذلك حديث الملَك، حديث الصادق المصدوق لمّا يبلغ الجنين أربعة أشهر يأتيه الملَك، يُبعث إليه الملك، ويؤمر بأربع كلمات ومنها شقي أو سعيد، والله يقول: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧].

{فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} أي: عذاب الله بغتة، {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ}؟ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أُنظروا قليلا ليعملوا في فزعهم بطاعة الله، كما قال تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} إلى قوله: {مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [سورة إبراهيم:٤٤]**، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندمًا شديدًا، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} إلى قوله: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم، {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}، إلى قوله: {وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}** [سورة يونس:٩٠-٩١]**، وقال: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} الآيات.**

هذا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن هؤلاء لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب فيتمنون الرجعة، وهل هذا في الدنيا أو المقصود به عذاب الآخرة؟ ظاهر هذه الآيات أن ذلك في الدنيا للشواهد التي ذكرها.

وعلى هذا جرى عامة أهل العلم، وإليه ذهب ابن جرير -رحمه الله-، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في قوله: {فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ} قال: أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أُنظروا قليلاً ليعملوا، {هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ} الاستفهام هنا بمعنى التمني، يدل على التمني، {هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ}، ولهذا فسرها ابن كثير -رحمه الله- بهذا، قال: يتمنون، بهذا الاعتبار، "هل" استفهامية، أداة استفهام، فهي هنا يراد بها التمني {هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ}، فهم لا يتساءلون هل يُنظرون أو لا؟، يعني ليس المقصود به مجرد الاستفهام، وإنما يطلبون ذلك ويتمنونه.

وقوله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}: إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} [سورة العنكبوت:٢٩]**، كما قال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} الآيات،** [سورة العنكبوت:٥٣].

هم يقصدون بهذا {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} يعني: الذي تعدنا به، كما حصل للأمم المكذبة.

ثم قال: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} أي: لو أخرناهم وأنظرناهم، وأملينا لهم برهة من الزمان وحينًا من الدهر -وإن طال- ثم جاءهم أمر الله، أيّ شيء يُجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم؟، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة

النازعات:٤٦]، وقال تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ} [سورة البقرة:٩٦]، وقال تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [سورة الليل:١١]؛ ولهذا قال: {مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}.

وفي الحديث الصحيح: ((يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب))[1] أي: ما كأنّ شيئًا كان.

ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه: أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [سورة الإسراء:١٥]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} إلى قوله: {وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص:٥٩].

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}، {ذِكْرَى} بمعنى: تذكرة، وكثير من أهل العلم يقولون: إنها منصوبة على المصدرية، وبعضهم يقول: منصوبة على أنها مفعول لأجله، {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى}، يعني أن حال هؤلاء المُنذِرين أنهم مُذكِّرون، جاءوا للذكرى، ولهذا بعضهم يقول: هو مفعول لأجله، يعني من أجل الذكرى، وبعضهم يقول: إنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هي ذكرى، أو تلك ذكرى، أو هذا ذكرى، -والله تعالى أعلم-، {ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}، وهذه الآية أو هذه الآيات كما في قوله: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} على القول الذي ذكره ابن جرير وابن كثير أن المقصود بذلك هو التكذيب والكفر، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: الكفر والتكذيب، وهذا عند أوضح الآيات وأعظم الحجج والبينات والبراهين والمعجزات، ومع ذلك التكذيب والجحود، وهذا فيه عبرة وإن لم يكن ذلك مقصوداً في مثل هذه المجالس في التفسير فإن المقصود هنا هو توجيه كلام المفسرين، وبيان وجه الترجيح، وما يحتاج إلى بيان فقط، دون الاشتغال بأمور أخرى زائدة عنه، لكن لا بأس من التنبيه أحياناً على بعض المعاني التي في غاية الأهمية، ويحتاج الإنسان أن يقف عندها، فإن دلائل الحق الواضحة كما أن الله -تبارك وتعالى- يهدي بها من يشاء من عباده فإنها قد تكون سبباً لزيادة الغي والكفر والضلال لدى آخرين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [سورة التوبة:١٢٥]، فآيات القرآن كما أنها تحمل الهداية فكذلك أيضاً يضل بها ويزداد كفراً وغياً من شاء الله -تبارك وتعالى- من خلقه، وهذا كثير ومشاهد، فقد تُذكر الهدايات، وينتفع بها أقوام ويتخذها آخرون محلاً للتندر والسخرية، أو تكون سبباً لمزيد من الزيغ والتكذيب والضلال؛ لأن نظرهم لا

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٣١١٢)، وقال محققوه: " إسناده صحيح على شرط مسلم"، ولفظه: ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط))، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٠٠٠).

يقع على وجه هدايتها وإنما يقع على أمور قد تكون سبباً لمزيد من زيغهم وضلالهم وكفرهم، وهذا كما أنه في الآيات المتلوة كذلك أيضاً هو في الآيات المشهودة في الآفاق وفي الأنفس، هي التي تقع للناس من عقوبات عامة أو خاصة، وما يحصل مما يشاهده الناس من دلائل قدرة الله -تبارك وتعالى-، وما يخوف به عباده أيًّا كان ذلك، سواء كان من قبيل الخسوف أو الكسوف أو الزلازل، أو البراكين أو الفيضانات أو غير ذلك، من الناس من يتعظ بهذا ويعتبر ويخاف الله -عز وجل-، ويراجع نفسه ويتوب، ومن الناس من لا يزداد بهذا إلا انتكاسة وكفراً وضلالاً وتكذيباً وإمعاناً في الغي، حتى بلغ الأمر في بعض البلاد أنهم يأتون بالخطباء والوعاظ الذين قالوا: إن هذه آيات وعقوبات، ويؤذونهم، ويحاسبونهم على مثل هذا الكلام، كيف تقول: هذه آيات، وتقول: إن هذه عقوبة؟، هذا الزلزال الذي جعل عالي البلد سافلها، كيف تقول: هذه عقوبة؟، فبعض الناس ما تزيده هذه إلا غياً وتكذيباً وكفراً وضلالاً، وقل مثل ذلك في الآيات المتلوة، يأخذها مأخذ السخرية أو الاستهزاء والتندر أو الاستبعاد، والله المستعان.

قال تعالى: {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٠-٢١٢].

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ}، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طِلْبتهم.

يعني ليس هذا من مطالب الشياطين، هم غير مؤهلين لهذا، وإنما هم محل الأرجاس والأدناس والكفر والضلال، وليسوا محلاً لهذه الهدايات، ولا يدعون إليها ولا يرفعون بها رأساً.

لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}.

إي، ما ينبغي لهم، هذا لا يكون أبداً، يعني الذين كانوا يعرضون على النبي -صلى الله عليه وسلم- الطب والرقية، وأنهم يعرفون ذلك ويحسنونه، يظنون النبي -صلى الله عليه وسلم- به مس، ولهذا قالوا عنه: إنه مجنون، فيعزون ذلك الذي جاء به -عليه الصلاة والسلام- إلى الشياطين، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}، الشياطين ما تأتي بمثل هذا، ولا تشتغل بهذه الهدايات، إنما شغلهم هو الضلال والفساد والغي.

وقوله: {وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} **أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى:** {لَوْ أَنزلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [سورة الحشر:٢١].

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبا في مُدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}، **كما قال تعالى مخبرًا عن الجن:**

{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} إلى قوله: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [سورة الجن:٨-١٠].

قال تعالى: {فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومخبرًا أنّ مَنْ أشرك به عذبه.

ثم قال تعالى آمرًا لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنيْن إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحدًا منهم إلا إيمانُهُ بربه -عز وجل.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، العشيرة: الأقربون، وبعضهم يقول: العشيرة من يجتمع بهم الجد العاشر، وبعضهم يقول غير ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أمره ربه -تبارك وتعالى- بهذا {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ}، إذا جمعت الروايات الصحيحة فيما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- تجد أن بعضها قد ذكر فيه قريشاً، قبيلة، عمَّ ثم خصَّ، يعني تدرج من قريش إلى مَن دونهم حتى وصل إلى فاطمة بنت محمد -رضي الله عنها وأرضاها-، وتخصيص العشيرة، {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، لا يعني أن الإنذار مختص بهم كما هو معلوم، والله يقول: {لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، {لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، وما شابه ذلك من الآيات الكثيرة، {لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، ولكن هؤلاء أولى، وهكذا يكون الشأن في أتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والدعاة من بعده فإنهم يبدءون بالأقرب، فهم أولى بالإنذار والهداية والمعروف.

وأمره أن يُلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائنًا مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}.

هنا قال: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، سواء قلنا هم قريش أو هم بنو عبد مناف أو بنو هاشم، جمع الروايات في هذا يفسره، وقوله هنا: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، اخفض جناحك لمن اتبعك، ما تطرق لها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، {لِمَنِ اتَّبَعَكَ}، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ}، خفض الجناح يعني إلانة الجانب، {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ} [سورة آل عمران:١٥٦]، قال قبله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} فلين الجانب سبب لتأليف القلوب والاستجابة والقبول، والله -تبارك وتعالى- وصف أهل الإيمان ومن مع النبي -صلى الله عليه وسلم- من أصحابه قال: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة:٥٤]، وقال في وصف أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح:٢٩]، وهنا قوله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، هذا القيد، وهو قوله: {لِمَنِ اتَّبَعَكَ} هل يفيد التخصيص؟ بمعنى هل يوجد من المؤمنين من لا يتبع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيحتاج إلى غلظة ولا يشمله ما أُمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- من تليين الجانب لأتباعه؟، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، والذين لا يتبعونه من المؤمنين، بمفهوم المخالفة فإنه لا يلين جانبه إليهم، إن كان هذا هو المراد، يعني هل يتصور من المؤمنين

عدم اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من المؤمنين من يتبع ومنهم من لا يتبع، هؤلاء يلان الجانب لهم وهؤلاء لا يلان الجانب لهم، مع أن مقتضى الإيمان هو الاتباع، {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [سورة النساء:٦٥]، {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة النور:٥١]، وما شابه ذلك من الآيات، بعضهم كصاحب الكشاف يقول: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} بأن من كان مريداً للإيمان فإن حقق ذلك وانقاد فإنه يلان له، فيكون سماهم بالمؤمنين باعتبار ما يصيرون إليه إن وجد الإقبال على الإيمان، لكن هذا فيه بعد، فهذا ذكره احتمالاً، وذكر وجهاً آخر وهو أن المراد {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} قال: الذين يظهرون الإيمان على نوعين، نوع يكون من المؤمنين حقاً، ويكون متبعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- منقاداً مستجيباً مطيعاً، فهؤلاء هم أهل الإيمان حقيقة، والنوع الثاني: هم من الفساق أو من المنافقين، والله يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:٧٣]، فأهل الفسق وأهل النفاق لا يكون لهم من إلانة الجانب كما يكون لأهل الإيمان الكامل، لأهل الطاعة والاستجابة، هكذا ذكر، وأظن أن أحسن من هذا -والله تعالى أعلم- ما ذكره الشنقيطي -رحمه الله- من أن ذلك للتوكيد، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} أن ذلك للتوكيد، وأن المؤمنين متبعون للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فالله يقول: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} توكيداً، كان بالإمكان أن يقال: واخفض جناحك للمؤمنين، فذكر الاتباع من باب التوكيد، فتكون من قبيل الصفة الكاشفة، كقوله -تبارك وتعالى-: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦] إذا قلنا: إن الصراط لا يكون صراطاً في الأصل إلا إذا تحقق فيه الاستقامة، لا يقال له: صراط إلا أن يكون مستقيماً، فإذا قال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}، فهذه صفة كاشفة، يعني لا مقيدة، بخلاف ما إذا قلت: رجل طويل، لكن إذا قلت: رجل ذكر، الرجل لا يكون إلا ذكراً، امرأة أنثى، هذه صفة كاشفة، لكن لما تقول: امرأة طويلة، هذه مقيدة، لما تقول: نار حارة، هذه صفة كاشفة، النار لا تكون إلا حارة في الأصل، وهكذا، فهنا {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} يكون المقصود بذلك التوكيد، لمن اتبعك من المؤمنين، والله تعالى أعلم.

والجناح يقال للجانب، ويد الإنسان جناحه، فإن الإنسان إذا أراد أن يبطش رفع يده، والله يقول: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} [سورة الإسراء:٢٤] يعني: جناحك الذليل، يعني جانبك.

ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} [سورة يس:٦]، وقال تعالى: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، وقال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [سورة الأنعام:٥١]، وقال تعالى: {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [سورة مريم:٩٧]، وقال تعالى: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود: ١٧].

وفي صحيح مسلم: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:

روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن عباس قال: لما أنزل الله -عز وجل-: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا فصعد عليه، ثم نادى: ((يا صباحاه))، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟))، قالوا: نعم. قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١][٣].

ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا فاطمة بنت محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم))[٤]، انفرد بإخراجه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن قَبِيصة بن مُخَارق وزُهَير بن عمرو قالا لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} صَعِد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: ((يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يربأ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صباحاه))[٥].

ورواه مسلم والنسائي.

جمع الروايات يبين المراد -والله تعالى أعلم-، في بعضها النبي -صلى الله عليه وسلم- نادى قريشاً ((يا معشر قريش)).

وقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (١٥٣).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٨٠١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، برقم (٢٠٥)، والنسائي، كتاب الوصايا، باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، برقم (٣٦٤٨)، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في إنذار النبي -صلى الله عليه وسلم- قومه، برقم (٢٣١٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٠٤٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين.

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٦٠٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيّيْه، فقد خرّج لهما مسلم.

وقوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: هو معتن بك، كما قال تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [سورة الطور:٤٨].

قال ابن عباس: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} يعني: إلى الصلاة.

وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده.

وقال الحسن: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}: إذا صليت وحدك.

وقال الضحاك: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: من فراشك أو مجلسك.

وقال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ}: قائما وجالسا وعلى حالاتك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}**، وفي الآية الأخرى **{فَتَوَكَّلْ}** [سورة النمل:٧٩] والفاء تشعر بالتعليل كما أنها تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن هذا الإنذار له تبعه، وسيَلْقى -صلى الله عليه وسلم- بسبب ذلك فأمره بالتوكل وجمع بين هذين الاسمين الكريمين **{الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}** فإن من تتوكل عليه قادر على حفظك وإعزازك ونصرتك وكفايتك، كما أنه لطيف بك رحيم، ويأتيك من ألطافه ما لا يخطر لك على بال.

قال: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}**، كما يقول الله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ}** [سورة يونس:٦١] يعني: يراك في كل حالاتك، هو شاهد عليك ناظر إليك في كل حالاتك، وهنا **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** أي: هو معتنٍ بك، كما قال: **{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** [سورة الطور:٤٨]، قال ابن عباس: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} يعني: إلى الصلاة**، حين تقوم إلى الصلاة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، لكن ما وجه هذا القول، لماذا خصصه بالصلاة، ما وجهه؟ القرينة هي ما بعده، أنه قال: **{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**، فهما حالتان متقابلتان، **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} قال: إلى الصلاة {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}**، فهو سواء كان في صلاته وحده أو كان مع غيره، مع الجماعة، **{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**.

قال: **وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده**، وهذا يرجع إلى الأول حينما تقوم إلى الصلاة يعني يرى هذه الصلاة، يراك في هذه الصلاة، قيامك وسجودك إلى آخره، فهذا ليس بقول آخر، وقال الحسن: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} قال: إذا صليت وحدك**، وهذا لا ينافي ما قبله، ولهذا فإن أكثر المفسرين يقولون: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** يعني: في حال الانفراد، إذا صليت وحدك، إذا قمت إلى الصلاة وحدك، وبعضهم يخصصه بقيام الليل، **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** باعتبار أن القيام ينصرف غالباً إلى صلاة الليل، ولهذا يعبر بعضهم ويقول: **{حِينَ تَقُومُ}** أي: من فراشك، كما يأتي.

وقال الضحاك: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: من فراشك أو مجلسك**، وإلى صلاتك أيضاً، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** من مجلسك أو من فراشك أو إلى صلاتك، باعتبار أن الله عمَّ ولم يخص فيحمل ذلك على العموم، فيقال: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** مطلقاً، سواء كان إلى صلاة أو إلى غيرها.

وقال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ} قائماً وجالساً وعلى حالاتك، وهذا أيضاً حمله على العموم، يعني أنه لا يختص بالصلاة، وممن عمم ذلك أيضاً مجاهد بن جبر.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، بعضهم يقول: وهو مروي عن مجاهد {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} يعني: في التصفح والنظر إلى المصلين، وسواء كان ذلك في داخل الصلاة أو في خارجها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت عنه أنه أخبر أنه يرى من خلفه في حال الصلاة، ويقلب بصره فيهم، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} حمله على النظر إليهم، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، لكن في هذا بعد، والله تعالى أعلم.

فالأقرب هو ما ذكره ابن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: معهم، يعني في صلاتك معهم، وتقلبك مع الساجدين حينما تقوم وتركع وتسجد، وليس المقصود بذلك النظر، ويدل على ذلك ما قبله أنه قال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: ويراك في حال كونك مع المصلين تصلي قائماً وقاعداً وتسجد وتركع، يراك في كل هذه الحالات، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وقال به كثير من أهل العلم، ولهذا قال هنا: قال قتادة: في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع، يعني {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: وحدك، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: مع الجماعة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وقوله: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: قال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع، وهذا قول عكرمة، وعطاء الخرساني، والحسن البصري.

وقوله: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} الآية. [سورة يونس:٦١].

قال تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٧].

يقول تعالى مخاطبًا لِمَنْ زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئِيٌّ من الجن، فنزه الله سبحانه جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قَبِيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال الله: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ} أي: أخبركم، {عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم، أي الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة.

{يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث، كما رواه البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: سأل ناسٌ النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الكهان، فقال: ((إنهم ليسوا بشيء))، قالوا: يا رسول

الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فَيُقَرقِرها في أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة))[٦].

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- يقول: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنها سلسلة على صَفْوان، حتى إذا فُزِع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: لَلذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض))، وصفه سفيان بيده فَحَرّفها، وبَدّدَ بين أصابعه ((فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر -أو الكاهن- فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء))[٧]، تفرد به البخاري.

وروى البخاري عن عائشة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الملائكة تحدّث في العَنَان -والعَنَان: الغَمَام- بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتَقُرُّها في أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة))[٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاك}، والأفاك هو كثير الإفك، وهو الكذب، كثير الكذب، {تَنَزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاك أَثِيم} أي: كثير الآثام، {يُلْقُونَ السَّمْعَ}، قوله هنا: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يقول: أي يسترقون السمع من السماء، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يحتمل أن يكون ذلك حالاً من الشياطين، يعني أن الشياطين يلقون السمع، حال من الشياطين، والسمع مصدر، وتارة يكون المراد به المعنى المصدري، وتارة يراد به معنى اسم المفعول، فقوله هنا: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: الشياطين، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} إذا قلنا: إن المراد به المعنى المصدري يعني {يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: حال كونهم مستمعين، يعني ينصتون، يسترقون السمع، يلقون السمع، الذي هو حاسة السمع، يعني ينصت، يسترق السمع، يصلون إلى السماء هكذا، كما صوَّرهم بأن بعضهم فوق بعض إلى أن يصلوا إلى السماء، سواء قلنا: إن السماء المراد بها السقف المحفوظ أو أن المراد بها السحاب، فإن ذلك يقال له سماء كما تدل عليه الرواية التي مضت آنفاً أن الملائكة ينزلون فيتحدثون في العنان، يعني السحاب، فالشاهد أن الشياطين يصعد بعضهم فوق بعض حتى يستمعوا إلى ما تقول الملائكة، {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [سورة الجن:٨-٩] للسمع يعني: للاستماع، يعني لاستراق السمع، ينصتون إلى ما تقول الملائكة، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يعني: حاسة السمع، وعبر بالإلقاء على سبيل المبالغة لشدة الإنصات، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} [سورة ق:٣٧] من شدة الإنصات كأنه ألقاه لما يستمع إليه، وهذا يكون لمن يريد أن يكون في غاية الحرص على الاستماع فإنه يلقي سمعه بكليته للناحية التي يريد الاستماع لها، فهذا احتمال، وهو حال من الشياطين، ويكون السمع هنا باعتبار المعنى المصدري أي

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، برقم (٥٤٢٩).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، برقم (٤٥٢٢).

٨ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، برقم (٣١١٤).

الاستماع، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، يلقون السمع، هذا الذي يتلقونه ويأخذونه ويخطفونه من الملائكة يقال له أيضاً: سمع، الكلمة التي يتلقفها ويأخذها يقال لها: سمع، باعتبار أنها مسموع، سمعٌ بمعنى مسموع، يلقونه إلى الكهان، يَطرَح لهم يلقي لهم هذه الكلمة التي خطفها فيكذب معها مائة كما جاء في الحديث، سواء قلنا: إن الذي يكذب هو الشيطان، أو الذي يكذب هو الكاهن يكذب مع ما يلقيه له الشيطان، فيكون على هذا وهذا، يكون هذا حالاً من الشياطين، {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ}، تنزل الشياطين على كل أفاك، مثل الكاهن، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} فإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى الشياطين، وليس المقصود الأفاك الأثيم، يعني هو الكاهن مثلاً الذي تنزل عليه الشياطين، يعني من الناس، {يلقون السمع} أي: الشياطين تلقي السمع فتخطف الكلمة فتلقيها للكاهن -ينصتون-، وفي مثل هذا يمكن أن تحمل الآية على المعنيين، {يلقون السمع} بمعنى ينصتون يعني الشياطين، على هذا القول هو حال من الشياطين، وهذا الذي يحصل من جراء ذلك: تلقف الكلمة التي سمعوها من السماء، يلقونها في الواقع، الحال للشياطين، فهذا كله دل عليه الدليل، كما في هذه الأحاديث التي مضت أنهم ينصتون كما في قوله: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ} [سورة الجن:٩]، وكذلك أيضاً في الحديث الذي مضى، ويحتمل أن يكون ذلك {يلقون السمع} يعود إلى الكهان، {يلقون السمع} يعني: ما سمعوه، ما ألقته إليهم الشياطين، هذا الأفاك يلقي ما تلقَّفه من الشياطين ويزيد عليه مائة كذبة.

فهنا {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ} فالشياطين تلقي السمع، تنصت أو تلقي المسموع، أو أن المقصود أن الأفاك كالكاهن يلقي ما سمع ويزيد معه مائة كذبة، {وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} هؤلاء كذبة، وقال: {وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} باعتبار أن غالب ما يقولونه كذب يزيدونه، قلّ من يصدق منهم، فإن الأفاك هو الكثير الكذب، وليس المقصود به الذي لا يصدق أبداً؛ لأنهم يلقون الكلمة التي تلقوها من السماء، وهذا الذي يُضلّ به كثير من الناس، يذكرون الكلمة التي وقعت كما هي، أخبروهم عن أمر غيبي أنه سيحصل، فيذكرها الناس، فيقولون: قالوا لنا في يوم كذا كذا وصدَقُوا، وينسون الكذب كما هو الحال في بعض من يعبر الرؤى، أحياناً قد ينطق القرين على لسانه، فيحصل بسبب ذلك أحياناً إصابةٌ في أشياء محددة ودقيقة فيغتر بها الناس، وأما الأشياء الأخرى التي لا تقع فينسونها، ولا يذكرونها، وإنما يذكرون هذه التي أصاب فيها فيقولون: تذكّرْ حينما قال كذا.

وقوله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن، وكذا قال مجاهد -رحمه الله-، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فئَامٌ من الناس، فأنزل الله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}.

الغاوون في قوله: {يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} بعضهم يقول: رواة الشعر، وبعضهم يقول: الشياطين، وبعضهم يقول: السفهاء، وبعضهم يقول غير ذلك، وابن جرير -رحمه الله- عممه في كل من يوصف بالغواية، والغاوي هو الضال الزائغ عن الحق، والشيطان توعد {وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الحجر:٣٩]، فكل من اتبع الغي والضلال فهو غاوٍ، {يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} يعني: أهل الغواية، وهذا يدل على أن اتباع الشعراء في الواقع اتباع

للشياطين، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [سورة الحجر:٤٢]، وهنا {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}، فاتباع الشعراء هو من اتباع الشياطين، والمقصود بالشعراء هنا الشعراء الذين ليسوا على هدى، سواء كانوا من شعراء الكفار أو المنافقين، أو كانوا من الفسقة الجهلة من المنتسبين للإسلام الذين يتكلمون ويهرفون بما لا يعرفون، ويخوضون في كل شيء، وينسبون إلى أنفسهم أموراً لا حقيقة لها من أفعال تتصل بالشجاعة أو الجود أو البصر في الأمور أو كمال العقل والإدراك، أو كان ذلك من جهة أمور تتعلق بالفحش والغواية، {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}، تارة في الهجاء وتارة في التشبع بما لم يُعطَ، إلى غير ذلك، فهذا يطرب له فئام من الناس، وهذا يطرب له فئام من الناس، وهذا يصفق ويهتف له سفهاء، وهذا يصفق له سفهاء، وتجري على ذلك مهاترات ومنافسات وحماقات وضلالات من هؤلاء -أعني أهل الغواية- في هجْوهم، وضلالهم، وباطلهم الذي يصاغ بهذه الصياغة من المنظوم من الكلام، واليوم لهذا سوق رائجة كما هو معلوم، واستمع إلى ما يقوله كثير هذه الأيام في برامج خاصة، وقنوات خاصة، ومسابقات خاصة، وانظر إلى ملايين الناس الذين يتهافتون على هذه التفاهات والسفاهات، وإذا سمعت إلى كثير من هذا الشعر تارة تقول: هذا على لسان الجن أو كأنه على لسان الشياطين، أو كأن الشياطين تنطق معه، لا تكاد تفهم منه شيئاً، وتارة تقول: هذا مغموس في الضلالة، وتارة تقول: هذا لا يصدر إلا من شانئ مبغض لأهل الإيمان يهجوهم ويهجو علماءهم وأهل الفضل منهم، وتجد في مثل "شاعر المليون" من هذا أشياء وأشياء، فبعض ذلك يدخل في قوله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون.

وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقوله: {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ} قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وأنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه -وهم السفهاء- فقال الله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}.

هذه الرواية لا تصح في سبب النزول.

والمراد من هذا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله منافٍ لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [سورة يس:٦٩] وقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الحاقة:٤٠-٤٣].

وقوله: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}: قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن أبي الحسن سالم البرّاد -مولى تميم الداري- قال: لما نزلت: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال: ((أنتم))، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} قال: ((أنتم))، {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} قال:

((أنتم))[٩]، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر.

هذه الروايات لا يصح منها شيء، سواء هذه الروايات التي ذكرها، أو روايات أخرى لم يذكرها.

ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم.

ذكر في الأصل غير ذلك لكن من قبيل المراسيل.

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه مَنْ كان متلبسًا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحًا، وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بذمه، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم.

المقصود أيها الأحبة أن هذه الأوصاف مقصودة لذاتها، فإن دعاوى التوبة، وما يُزعَم من أن فلاناً الذي كان يقول شعراً فيه إسفاف أو طعن في الإسلام وتشكيك في ثوابته أو إزراء على أهل الفضل والدين والصلاح أو ما أشبه ذلك لا تكفي هذه الدعاوى والشائعات التي تقال عن توبته، سواء كان شاعراً أو غير شاعر، والله -تبارك وتعالى- هنا في الشعراء قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}، سواء قلنا: إن المقصود ذكروا الله كثيراً في شعرهم، ذكروه في شعرهم، بمعنى أن شعرهم متضمن للثناء على الله -تبارك وتعالى- ولتعظيمه، أو ذكروه أيضاً بقلوبهم بمراقبته -تبارك وتعالى- فيما يقولون، فيذكرونه بألسنتهم، وذكروا الله كثيراً بجوارحهم بالعمل الصالح، فهذا كله من ذكر الله -تبارك وتعالى-، أو قيل: إن المقصود بذلك لا يختص بالشعر، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} أي: في سائر أحوالهم، في كلامهم وفي مخاطبتهم، وذكروه بجوارحهم بطاعته -تبارك وتعالى-، هذه الأوصاف مقصودة، الإيمان والعمل الصالح، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}، فهؤلاء هم الذين استثنى الله -تبارك وتعالى- من أولائك الذين وصفهم بتلك الأوصاف التي ينبغي التنزه عنها {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}، هذا حال الشعراء، هذا هو الأصل في الشعراء إلا من استثني، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} فإذا أردت أن تعرف حال الشاعر فانظر إلى ما يقوله وما يرويه، أو ما ينشئه من الشعر، فإن كان فيه هذه الأوصاف، وانظر إلى حاله من الإيمان والعمل الصالح وكثرة الذكر، فهؤلاء هم الذين استثنى الله، ومن عداهم فهم ممن ذكر الله -تبارك وتعالى-، فمثل هؤلاء لا يستحقون الإعجاب والإطراء وأن تحمرّ الوجوه منافحة عن هذا أو ذاك، والحماسة لمثل هؤلاء الذين صغرهم الله -تبارك وتعالى.

كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إنّ لسَانِي* رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ**

إذْ أجَارِي الشَّيْطَانَ في سَنَن الغَيِّ* وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ**

---

٩ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/٤١٨).

يقول: أنا سأصلح ما أفسدتُ، حينما كان على الكفر، يقول شعراً في هجاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، في هجاء الإسلام والمسلمين، يقول: أنا راتق ما فتقتُ، سأصلح ما أفسدت وأرقع ما خرقت حينما كنت في هذه الحال التي وصفها بالبور، ومجاراة الشيطان في سنن الغي.

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجوًا، فلما أسلم لم يكن أحدٌ أحبَّ إليه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان يمدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعدما كان يهجوه، ويتولاه بعدما كان قد عاداه.

وهو أكثر الناس وأقرب الناس شبهاً بالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان من أشد أعداء النبي -عليه الصلاة والسلام-، والأبيات المعروفة التي قالها حسان -رضي الله عنه-:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني *** فأنتَ مجوّفٌ نخبٌ هواءُ

لا يقصد به أبا سفيان بن حرب والد معاوية -رضي الله عنه-، ليس هو المقصود إنما المقصود هذا، ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، الذي كان شاعراً، الذي يقول فيه حسان -رضي الله عنه- أيضا:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ *** فشرُّكما لخيركما الفداءُ

كل هذا في أبي سفيان بن الحارث وليس في أبي سفيان بن صخر قائد المشركين، ليست فيه.

وقوله: {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد، وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لحسان: ((اهجُهم -أو قال: هاجِهم- وجبريل معك))[10].

وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إن الله -عز وجل- قد أنزل في الشعّر ما أنزل، فقال: ((إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نَضْحُ النبْل))[11].

نضح النبل يعني أنه شديد عليهم كالسهام التي ترمونهم بها، شديد الوقع شديد الأثر، ولهذا فإن من أعطاه الله ملكة في الشعر، فينبغي أن يسخر ذلك في نصر الإسلام وهجاء الكفار والمنافقين الذين يطعنون في الإسلام ويشككون في ثوابته بكل سبيل مستطاع، فيهجو هؤلاء من كاتبين وغيرهم، وذلك شديد الأثر عليهم.

وقوله: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، كقوله تعالى: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} الآية، وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة))[12].

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٤١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل حسان بن ثابت -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٨٦).

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧١٧٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٣١).

١٢ - روه مسلم، بلفظ: ((اتقوا الظلم))، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨)، وأحمد في المسند، برقم (٦٨٣٨).

قال قتادة بن دِعَامَة في قوله: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} يعني: من الشعراء وغيرهم.

آخر تفسير سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ١ إلى الآية ١٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة النمل: بسم الله الرحمن الرحيم

{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} [سورة النمل:١-٦].

قد تقدم الكلام في "سورة البقرة" على الحروف المتقطعة في أوائل السُّوَر.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ} أي: هذه آيات {الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ} أي: بيّن واضح.

{هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لِمَنْ آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} الآية [سورة فصلت:٤٤]**، وقال: {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}** [سورة مريم:٩٧].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ} الإشارة هنا يحتمل أن تكون عائدة إلى السورة نفسها، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القرآن، وقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [سورة يونس:١]، و{تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ}، الكتاب يحتمل أن يكون المراد به القرآن، فيكون ذلك من قبيل عطف الصفات فإنه قرآن باعتبار أنه مقروء، وهو كتاب باعتبار أنه مكتوب، وهذا أقرب من قول من قال: إن الكتاب هو اللوح المحفوظ هنا، أو قول من قال: إن الكتاب المقصود به السورة نفسها، فإن هذا لا دليل عليه، ولعل الذي حمل هذا القائل هو محاولة إيجاد معنى جديد؛ ليكون ذلك من قبيل التأسيس، وأن هذا العطف يقتضي المغايرة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكِتَابٍ مُبِينٍ} أي: بين واضح من جهة أنه لا خفاء فيه، ولا ألغاز ولا غموض كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [سورة القمر:١٧]، وهو أيضاً مبين أي يَبِين لغيره لمن نظر فيه أنه حق من عند الله -تبارك وتعالى- كما يقول أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- فهو بيّن في نفسه، وهو مبين لمن نظر فيه أنه حق نزل من عند الله -جل جلاله.

ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي: حَسّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غَيهم فهم يَتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء

على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام:١١٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي أن الله -تبارك وتعالى- حسّن لهم ما هم فيه فأُشربته قلوبهم، وصاروا على هذه الحال إلى أن فارقوا الدنيا، وشواهد هذا من القرآن كثيرة ولا حاجة إلى التكلف في حمل الآية على معانٍ بعيدة متكلفة، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَهُمْ يَعْمَهُونَ} يعني يتحيرون ويترددون ويسيرون على غير اهتداء، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يتيهون في ضلالهم**"، هذا المعنى صحيح، وداخل في معنى العمه: الذي يسير على غير اهتداء، تائه، متحير متردد لا يعرف الطريق التي ينبغي أن يسلكها.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} أي: **في الدنيا والآخرة،** {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} أي: **ليس يخسر أنفسَهم وأموالَهم سواهم من أهل المحشر.**

من أهل العلم من قال في قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}: أي في الدنيا، والذي حمله على هذا هو أن الله قال بعده: {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} فهم في الدنيا {لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}، {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} وهذا لا ضرورة إليه، والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك في الدنيا والآخرة، وليس فيه تكرار مع ما بعده؛ لأنه -تبارك وتعالى- في الأولى بين أن لهم في الآخرة سوء العذاب، وفي الثانية بين أنهم أخسر الناس وأبخسهم للظن في الآخرة، وهذا المعنى لا يؤديه قوله -تبارك وتعالى- قبله {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} في الأولى بين عاقبتهم من حيث العذاب، وفي الثانية بين أنهم أخسر الناس.

وقوله: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} أي: {وَإِنَّكَ} **يا محمد، قال قتادة:** {لَتُلَقَّى} أي: **لتأخذ،** {الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}.

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى} لتأخذ، يؤخذ عليك فتلقّاه وتأخذه، تُلقى القرآن تُحفظ، تُعلم، هذه عبارات أهل العلم بتفسيرها وإنك لتلقى القرآن، ولا يتلقاه من بشر، وإنما يتلقاه من الحكيم العليم الذي يعلم مصالح الخلق، ويضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [سورة الأنعام: ١١٥].

قوله في تفسير العليم والحكيم: أي حكيم في أمره ونهيه، لا شك أن الحكيم أعم من هذا في تدبيره، وتقديره وما إلى ذلك، ولكن أهل العلم كثيراً ما يفسرون الآية -أو بعضها، أو اللفظة- ببعض معناها مما يتصل بالموضع الذي يفسرونه مما يرتبط السياق، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما يخفى عليه أن الحكيم أوسع معنى مما ذكر، لكن هنا في مقام التنزيل تنزيل الوحي، والتشريع تأتي قضية الأمر والنهي، وليس المقام مقام الحديث عن أقدار الله -تبارك وتعالى- وتصريفه لهذا الكون كأمور الخلق وما شابه ذلك، ليس هذا هو المراد، فمثل هذا ينبغي أن يراعى في كلام المفسرين، وكثيراً ما تجد المعنى يُحصر على بعضه مراعاة للسياق، ولذلك تجد هذا كثيراً في تفسير الأسماء الحسنى في أواخر الآيات.

{إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [سورة النمل:٧-١٤].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- مذكرًا له ما كان من أمر موسى -عليه السلام-، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: {إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ} أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارًا، أي: رأى نارًا تأجج وتضطرم، فقال: {لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ} أي: عن الطريق، {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تتدفئون به.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} المراد بالشهاب هنا -والله تعالى أعلم- شعلة من نار، ويقال للعود الذي في طرفه شعلة أو جمرة: شهاب، وإن كان الشهاب يطلق على معانٍ أُخر يقرب بعضها من هذا، لكن المراد به هنا هذا المعنى، والله تعالى أعلم، وفيه قراءتان متواترتان: بشهابٍ قبسٍ، أو بالإضافة: بشهابِ قبسٍ، شعلة مقتبسة من النار.

وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: فلما أتاها رأى منظرًا هائلا عظيمًا، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء.

قال ابن عباس وغيره: لم تكن نارًا، إنما كانت نورًا يَتَوَهَّج.

وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين، فوقف موسى متعجبًا مما رأى، فنودي أن بورك من في النار، قال ابن عباس: أي تقدّس.

{وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: من الملائكة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

قوله -تبارك وتعالى-: {نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا}، قال: أي من الملائكة، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} كما مضى في الأثر المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنها كانت نوراً، وقال بهذا جماعة من السلف وليس محل اتفاق، فإن بعضهم حمله على ظاهره، وليس المقصود النور، وجاء في بعض القراءات غير المتواترة {أن بوركت النار}، وهذه مروية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وهي مروية عن بعض التابعين كمجاهد، وتنسب إلى أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عن الجميع-، {أن بوركت

النار ومن حولها} فهذه يمكن أن يفسر بها قوله -تبارك وتعالى-: {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني بوركت النار، وبعضهم يقول: المراد بـــ بورك من في النار أي بورك على من في النار، وليس المقصود من بداخل النار، وإنما من يقف عليها وهو موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا قول ابن جرير، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني على من في النار، أي من يقف عندها، يقف عليها أو على من في قرب النار، ليس المقصود من في داخلها وفي وسطها على هذا القول، وبعضهم -وهو مروي عن بعض التابعين- يقول: إنه كان في داخلها ملائكة، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني من الملائكة وإنها نور، وليست بنار، وبعضهم يقول: إن هذا نور الله -تبارك وتعالى- فقال فيه ما قال: {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} وليس المقصود أن الله -جل جلاله-، ليس المقصود أنه في هذا المكان أو في داخل هذه النار إنما باعتبار أن هذا نوره -جل جلاله- هكذا فسره بعض السلف {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} أي الله، لكنهم بينوا المراد بأن المقصود بذلك نور الله -جلا جلاله-، هذا مروي عن بعض التابعين كالحسن البصري وغيره، وقول أكثر المفسرين: إن النار هنا يقصد بها النور، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} يقولون: ملائكة، ومن يقول: إن المقصود بذلك نور الله -تبارك وتعالى- يكون الذي حولها موسى -صلى الله عليه وسلم- ومن يصدق عنه ذلك، يعني أنه حول النار.

وقوله: {وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبه شيئا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

يشير هنا إلى أنه لا يُفهم من قول: {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} أي الله مثلاً أن المقصود بذلك أن الله -جل جلاله- في هذا المكان أو في داخل هذه النار فقال: فإن الله لا يحيط به شيء من مصنوعاته، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [سورة البقرة:٢٥٥] المبين لجميع المخلوقات يعني أنه مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه -تبارك وتعالى.

وقوله: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أعلَمَه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليُظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حَيَّةً عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك.

أي أن الكبير قد لا يكون سريع الحركة، لكن هنا جاء أنه في غاية الكبر، ثم وصفها بأنها مثل الجان، والآية الأخرى {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ} [سورة الأعراف:١٠٧] وهنا كأنها جان، والجان نوع من الحيات ليست كبيرة لكنها سريعة الحركة، وهناك ذكر أنها ثعبان، فجمع الحافظ بين المعنيين فهي كبيرة وفي حركتها كأنها جان، والجان نوع من الحيات ليس بالكبير سريع الحركة، فجمعت بين الوصفين الضخامة وسرعة الحركة، فأخذت الضخامة والكبر من قوله: {ثُعْبَانٌ}، وسرعة الحركة من قوله: {كَأَنَّهَا جَانٌّ} وليس المقصود بالجان هنا: كأنها جِني، إنما هو نوع من الحيات يقال له ذلك، يعرف بهذا الاسم.

ولهذا قال: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي: لم يلتفت من شدة فرقه {يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطَفيك رسولا وأجعلك نبيًا وجيهًا.

قوله هنا: {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يلتفت، لم يعقب يعني لم يرجع، التعقيب: الرجوع والكر بعد الفر، يقول: فلان لم يعقب يعني لم يرجع، وموسى -صلى الله عليه وسلم- {وَلَّى مُدْبِرًا} فر هارباً ولم يرجع؛ لشدة خوفه مما رأى.

وقوله: {إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [سورة طه:٨٢]**، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}** [سورة النساء:١١٠] **والآيات في هذا كثيرة جدًا.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} قال: **هذا استثناء منقطع**، ونحن نعرف أن الاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه فهو بمعنى لكن {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} لكن {مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فلا يكون ذلك مما يعود على ما قبله مما يتصل بالمرسلين -عليهم الصلاة والسلام-، والقول بأنه منقطع قال به جماعة من أهل العلم، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} قالوا: هذا يتصور، هذا في المرسلين واضح، قالوا: هل يصدق هذا على المرسلين؟! فإذا قلت: إنه متصل فقد يفهم من ظاهره أن منهم من يحصل له الخوف، والذي يصدر منه ما يوجب الخوف هو من ظلم، من أهل العلم من قدر هذا الإشكال وقال: إن ذلك لا يكون بالنسبة للمرسلين، والله -تبارك وتعالى- يقول: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، وأولى من يدخل بهذا هم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فلهم الأمن التام فلا تكون حالهم كحال غيرهم من أهل الخوف لسوء أعمالهم وظلمهم، فقالوا: الاستثناء منقطع؛ ليكون قوله: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} على إطلاقه، ثم جاء كلام آخر لا يتصل بالمرسلين منقطع عمن قبله يقرر الله -عز وجل- فيه حقيقة وهو أن من ظلم ثم بدل حسناً من بعد سوء فإن الله يغفر له ذنبه ويمحو إساءته.

ومن أهل العلم من قال: إن الاستثناء متصل، لكنهم اختلفوا في توجيهه، والأصل في الاستثناء الاتصال، فقالوا: نحمل الاستثناء على الأصل وهو أنه متصل، لكنهم اختلفوا في توجيهه، فبعضهم يقول: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم صغائر الذنوب لكن بقيدين كما هو معلوم في محله لا تقع منهم الصغائر التي يسمونها صغائر الخسة، يعني التي تسقط المروءة والعدالة، يقولون: كتطفيف الحبات وسرقة الأشياء التافهة إلى آخره، هذه لا تقع من النفوس السوية، يقول: تقع منهم الصغائر، والله قال عن آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو نبي إنه عصى ربه فغوى إلى غير لك مما يذكرون، فقالوا: المقصود بذلك الصغائر، لكنهم لا يصرون عليها {إِلَّا مَن

ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، ولكنه على هذا المعنى -على هذا القول بأنه متصل -والله تعالى أعلم- لا يخلو من إشكال، يعني {لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} يعني أنه يخاف، {إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} كأن المعنى غير منتظم مع السياق، والله تعالى أعلم، وهذا القول قال به بعض أهل العلم من أهل المعاني كالنحاس، وبعضهم يقول: هو متصل لكن فيه مقدر محذوف، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} من غيرهم {ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ}، يعني كأنه يقول: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم {ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ}، لكن الأصل عدم التقدير، ومهما أمكن أن نجعل الكلام مستقلاً فهو أولى من القول بأن فيه مقدراً محذوفاً؛ لأن هذا خلاف الأصل، وهو خلاف الظاهر ولا ضرورة إليه، وابن جرير -رحمه الله- جعله من قبيل المتصل، وحمله على ظاهره تماما، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا} إلا من ظلم بالتبديل، والتغيير أو عمل خلاف ما أمرته، ومثل هذا يعني عمل على خلاف ما أمره الله به، ثم بدل حسناً من بعد سوء فالله يغفر له، هذا كلام ابن جرير، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير من أن الاستثناء منقطع، وأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يتطرق إليهم الخوف، {لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، ولكن ما ذكره بعض من حمل الآية على الاتصال كابن جرير فهو غير مستبعد؛ فإن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم أكثر الناس خوفاً من الله -تبارك وتعالى-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وذكر لهم أنه أشدهم خشية لله -تبارك وتعالى-، وذو النون -عليه الصلاة والسلام- لما ذهب مغاضباً لقومه، وظن أن الله -تبارك وتعالى- لن يضيق عليه، -أن لن نقدر عليه: نضيق عليه- التقمه الحوت {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧]، وآدم -عليه الصلاة والسلام- قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف:٢٣]، والله يقول: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [سورة البقرة:٣٧] هذه هي الكلمات، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدْق من جعل له معجزة، وذلك أن الله -تعالى- أمره أن يُدخل يده في جيب درْعه، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهانا لك {إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} بعضهم يقول: هذا متعلق بمحذوف مقدر، يعني اذهب إلى فرعون في تسع آيات، وهؤلاء يقولون: إن العرب تحذف من الكلام اختصاراً ثقة بفهم السامع، {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} لكن مثل هذا الحذف في هذا المقام ليس ذلك مما يكون ظاهراً من السياق، هناك أشياء محذوفة معلومة من السياق لا إشكال فيها فيصدق عليها ما ذُكر، لكن هذا المحل ليس محل اتفاق أن هناك مقدراً محذوفاً، والأصل خلاف ذلك، إذا دار الكلام بين الإضمار والاستقلال فالأصل فيه الاستقلال، هذا الكلام من غير

حذف إذا أمكن حمله على وجه صحيح فهو أولى، وهنا يمكن، والله تعالى أعلم، وبعضهم يقول: هو متعلق بقوله: {وَأَلْقِ عَصَاكَ}، {وَأَدْخِلْ يَدَكَ} فيكون قوله: "في تسع آيات" متعلقاً بما ذكر قبله، يعني في جملة {تِسْعِ آيَاتٍ}، فهما آيتان في جملة تسع، يعني من تسع آيات، وبعضهم يقول: بتسع آيات يعني مع تسع آيات، والأقرب: أنه في جملة تسع آيات يعني المجموع تسع مع هاتين الآيتين اللتين هما العصا واليد، ومن قال: مع تسع آيات فالآيات عنده إحدى عشرة آية، والله يقول: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء:١٠١] والعلماء اختلفوا في عدها فمن أهل العلم من يقول: هنا مع تسع آيات فيكون المجموع إحدى عشرة آية، ثم عدها بعضهم على هذا فقال: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والجدب في الصحراء، ونقص الأموال والثمرات عندهم في بلادهم، والطمس -طمس على أموالهم-، والفلق، والعصا، واليد، ومن قال: إنها في تسع آيات أي في جملة تسع آيات يعني المجموع تسع فهاتان آيتان منها يعني: اذهب في هاتين الآيتين في جملة تسع آيات، أعطاها الله -عز وجل- لموسى -صلى الله عليه وسلم-، ولعل من أحسن ما قيل فيها -والله تعالى أعلم- في تفسير قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} وما ذكره النحاس، وهو ظاهر كلام كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى- من أن المقصود بذلك أن هذه الآية المذكورة هنا داخلة في الآيات التسع، تنضاف إليها مع العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والحجر الذي يضربه بعصاه فينفلق، والطمس على أموالهم، لكن لا يُعد ضرب البحر وانفلاق كل فرق كالطود العظيم، وما حصل من إغراق فرعون ونجاة موسى داخلاً في هذه الآيات التسع؛ لأن هذه الآيات التي أعطاها الله موسى هي براهين على قوته وحاجه بها فرعون، أما البحر فلم يكن من أجل المحاجة ولا البيان، وإنما كان لإهلاكه بعدما تيقن وعرف أحقية وصدق ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم.

وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء:١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك.

{مُبْصِرَةً} يعني واضحة ظاهرة، وهي تدل من نظر فيها على صحتها وصدق من جاء بها، والله يقول: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:٥٩] يعني آية مبصرة، ليس المقصود أن الناقة تبصر، لها عينان ليس هذا المراد، وإنما آية مبصرة أي آية واضحة لا خفاء فيها تدل من وقف عليها على صدق من جاء بالمعجزة.

وقوله: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً} أي: بينة واضحة ظاهرة، {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} وأرادوا معارضته بسحرهم فغُلبوا، {وانقلبوا صاغرين}.

{وَجَحَدُوا بِهَا} أي: في ظاهر أمرهم، {وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، {ظُلْمًا وَعُلُوًّا} أي: ظلما من أنفسهم، سَجِيَّة ملعونة، {وَعُلُوًّا} أي: استكبارًا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه- أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [سورة النمل:١٥-١٩].

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان -عليهما من الله السلام- من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}.

يؤخذ من هذا شرف العلم، وأنه من أعظم ما يؤتاه الإنسان إذا صحت فيه النية، ووُفق الإنسان إلى العمل بمقتضاه، لأن الله -تبارك وتعالى- ذكر هذا في حق سليمان وداود -عليهما الصلاة والسلام-، ثم ذكر بعده قولهما: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} بعدما ذكر ما خصهم به من العلم، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} التفضيل المذكور في هذه الآية هو العلم، وإن كان يدخل في هذا التفضيل ما أعطاهم الله -عز وجل- من الملك والنبوة، وما يتبع ذلك مما خص الله -تبارك وتعالى- به داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثَةَ المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة، ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة))[1].

قوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} هو كما ذكر: المقصود ميراث العلم والنبوة والملك، وأن الملك صار لسليمان -عليه الصلاة والسلام- من بين ولد داود -صلى الله عليه وسلم-، وصار له الملك وأيضاً مع النبوة والعلم، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه ليس المراد بذلك وراثة المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون من جهة،

١ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، برقم (١٧٥٧)، وأحمد في المسند، برقم (٩٩٧٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ومن جهة أخرى أن ذلك من الأمور المعلومة بالنسبة لغيرهم من الناس، يعني لا فائدة أن يقال: فلان ورث أباه يعني في المال، فإنه يرثه بلا إشكال، وإنما المقصود ورثه في الملك والعلم والنبوة.

وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يُعطَه أحد من البشر -فيما علمناه- مما أخبر الله به ورسوله.

فالله سبحانه كان قد أفهم سليمان -عليه السلام- ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}.

الحافظ ابن كثير هنا ذكر أن الله علم سليمان -عليه الصلاة والسلام- الطير وسائر الحيوان مع أن الآية لم يذكر فيها إلا منطق الطير، وابن كثير -رحمه الله- عممها باعتبار النملة، {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ} ففهم كلامها، قالوا: ذلك لا يختص بالطير، وخصه هنا {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} باعتبار أنه كان من جملة جنود سليمان -عليه الصلاة والسلام-، {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ} قال: كانت الطير تظله، والريح تقله، ومعه العَمَلَة من الجن والأنس، والذين قالوا: إن ذلك يختص بالطير فقط وجهوا ما ذكر آنفاً من أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- فهم كلام النملة فقالوا: يمكن أن الطير تنقل له كلام النملة، أو الجن ينقلون له كلام النمل، لكن الطير والجن هل يفهمون كلام النمل؟ فأجابوا بأن النمل داخل في جملة الطير باعتبار أنه يكون له أجنحة، ويطير بها، وهذا قال به بعض السلف مثل الشعبي وأبي قتادة، قالوا: لأنه قال هنا: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} لكن هذا لا يدل على الاختصاص، وإذا أطلق الطير عرفاً لا يدخل فيه النمل، فظاهره هنا علمنا منطق الطير، هنا خص الطير بالذكر لكن ذلك لا يدل على الحصر، فعندنا ما يدل على أنه فهم كلام النملة، فالحافظ ابن كثير عممه فقال: يعلم لغة الحيوانات كلها، وخصص الطير هنا فقال: باعتبار أنه من جمله الجنود المجندين الذين كانوا يذهبون معه ويجيئون في الغزو، وهنا يقول: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} ولا دليل على غيره.

{وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: مما يحتاج إليه الملك، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} أي: الظاهر البين لله علينا.

قوله: {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: **مما يحتاج إليه الملك**، هذا الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله- بالعموم الاستعمالي، وهو مثل قوله: {يُجْبَى إِلَيْهِ} [سورة القصص:٥٧] يعني مكة أو الحرم {ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}، فهنا قال: {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} يعني لو أراد أحد أن ينظر ويشق الشعرة والشعيرة في الألفاظ، {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} هل أوتي من صنوف الثمار في الدنيا، والمصنوعات، والقُدر، والإمكانات وما إلى ذلك؟ الجواب: لا، وكذا في قوله -تبارك وتعالى- عن ملكة سبأ أنه قال: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣]، أي مما يصلح لمثلها، مما يصلح لملكها، لكن تبقى بعض الأشياء في الدنيا ما أعطيت منها؛ ولهذا قالوا: ما أعطيت عرش سليمان، ولا ملك سليمان، ولا سخر لها الجن، ولا علمت منطق الطير، ولا تحملها الريح، فهذا يسميه الشاطبي بالعموم الاستعمالي، يعني أن العرب تفهم من ذلك المعنى المناسب له دون أن تحمله على العموم بمعنى العموم المطلق مع أن "كل" هي أقوى صيغة من صيغ العموم عند الأصوليين، الله يقول: {يُجْبَى إِلَيْهِ

ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} وقال عن الريح التي أرسلها الله -تبارك وتعالى- عذاباً على ثمود: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥] كل شيء، فالأصوليون كثير منهم يقولون: هذا مما خُص بالحس؛ لأنها لم تدمر السموات والأرض والجبال، والله يقول: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} تدمر كل شيء مما سيقت وجاءت إلى تدميره، وهذا يفهم من الخطاب حسب المقام والمناسبة التي قيل فيها، ولهذا يقال: زرتُ البلاد، وليس لأحد أن يعترض ويقول له: هل زرت كل البلدان؟ ويقول: رأيت الناس ورأيت العباد، ويقول: رأيت الناس واحداً، واحداً، كلهم من أولهم إلى آخرهم، وزعتُ عليهم استبانة حتى عرفت رأيهم في القضية الفلانية، وهكذا، هذه الأشياء تجدونها أحياناً في بعض الدورات التي في البرمجة ونحوها ويعتبرون أن هذا دقة في الكلام، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} ثم قال: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى...} يقول عن مكة: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} ما في أحد من المشركين قال: المانجو في ذلك الوقت ما كان يجبى إليه، والثمار التي في شرق آسيا، وبعض البلاد الغربية ما كان يجبى لمكة في ذلك الوقت، لا، وإنما المقصود مما يجبى عادة لمثله، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعده في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرًّا أظلته منه بأجنحتها.

وقوله: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

صيغة الفعل المضارع تصور كأنك ترى الجيش، وقد اجتمع ويتحرك وقد قُسم وجُعلت كل طائفة منه على منزلتها ومكانها اللائق بها فهم يوزعون، يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدموا، لئلا يحصل انتشار واختلاط وتداخل، والذي يتقدم يعاد فيرجع مكانه {فَهُمْ يُوزَعُونَ}، حشروا فالطيور لا تتفرق يرد أولها على آخرها لا ألا تتقدم مثلاً، وهكذا الجن، وهكذا فإن الأعداد الكبيرة حينما تجتمع فإنهم قد لا يسيرون بالانتظام المطلوب، وإنما يحتاجون إلى من يرد أولهم على آخرهم.

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} أي: حتى إذا مر سليمان -عليه السلام- بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} ففهم ذلك سليمان -عليه السلام- منها.

{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: عملا تحبه وترضاه، {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول النملة للنمل: {ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ} الحطم بمعنى الكسر، وفهم بعضهم: بعض المتكلفين ممن ليسوا من أهل العلم، وبعض من يتكلم على الإعجاز العلمي في القرآن، قال: هذا فيه إعجاز في تركيب النمل، فالنملة فيها مادة الزجاج، فقال: {لا يَحْطِمَنَّكُمْ} والتحطيم يكون للزجاج، طيب وتحطيم الأصنام هل فيها مادة الزجاج؟!، والنار سميت الحطمة على أساس أنها يتحطم فيها الزجاج!، هذه عجمة في الفهم، فعد بعضهم هذا من الاكتشافات العلمية، وأن التعبير هنا جاء في خصوص النمل، إذاً كلمة يحطم أوسع من ذلك، ولا تقال لما يكون من الزجاج خاصة، ولا زال الناس يستعملونها إلى اليوم، فيما كان من الزجاج وغيره، والله المستعان، وهذا الكلام من هذه النملة فيه من اللطف في العبارة والاعتذار لسليمان -عليه الصلاة والسلام- والنصح لقومها، وقد نقل بعض المفسرين فيه أشياء كثيرة هي من قبيل التكلفات المنقولة عن بني إسرائيل، تكلم بعضهم في اسم النملة ومن أي قبيلة، وتكلم في وادي النمل أين يقع؟ كل هذا مما لا يفيد ولا حاجة إليه، ولا دليل يدل على ذلك، وللحافظ ابن القيم رحمه الله كلام جميل بهذا المعنى، حيث قال -رحمه الله تعالى-: "ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم مضرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}، ثم قال: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة، ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: {لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ} فجمعت بين اسمه وعينه، وعرّفته بهما وعرّفت جنوده وقائدهم ثم قالت: وهم لا يشعرون فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم، وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "نهى عن قتل النمل، والنحلة، والهدهد، والصُّرد"[٢]"[٣].

النملة بعضهم يقول: إنها تسبح كما جاء في حديث النبي الذي قتل قرية النمل، فكانت أمة تسبح، وعاتبه الله على ذلك، وبعضهم يقول: لا ضرر فيها فإن أضرته قتل ما يضره منها، وبعضهم يقول: المنهي عن قتله هنا

---

٢ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٩١٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٥٧٢٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد برقم (٦٠٨٧)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل وهو ضعيف.

٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٦٩).

النمل السليماني وهو الأسود طويل القوائم سريع الحركة، فإنه لا يؤذي بخلاف النمل الصغير الذي يؤذي، فبعضهم -كالخطابي والبغوي- يقول: المقصود بالنمل النمل السليماني هو الذي نهي عن قتله لا سائر النمل، والنمل يمكن أن يُبعد عن طريق غير القتل، ويمكن أن يُتعوذ منه ثلاثا فيذهب، وهذا مجرب ومشاهد تقول للنمل هذا ثم يختفي، بعض الصحابة -رضي الله عنهم- كان يجلس بين التنورين ويتوعدها فتذهب، إذا شكا أهله النمل قال لها ذلك، والنهي عن قتل النحلة؛ لمنافعها، والصُّرد طائر أكبر من العصفور رأسه كبير، لونه أسود وأبيض كثير الريش، نهي عن قتله، بعضهم يقول: لأنه لا يؤكل، وقتله عبث فهو لا يضر، وما نهي عن قتله فإنه لا يحل أكله، وبعضهم يقول: لا يحل أكله؛ لأنه يفترس صغار الطير، وبعضهم يقول غير هذا، والعرب كانت تتشاءم به؛ نظراً لاسمه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يرفع ذلك فنهى عن قتله، يعني كانوا يكرهونه فيقتلونه ليتخلصوا منه، فنهى عن قتله ليرفع عنهم هذا التشاؤم به، وهو لا يضر، قتله عبث، بخلاف الغراب، والحِدَأة، والكلب العقور، وأمثال هذا.

وقال -رحمه الله-: "وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة))[٤]، وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل، قال: فذهبن، وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة، ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم، ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره وقال: الإمام أحمد حدثنا قال: خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال: فرفعتُ ذلك من الأرض"[٥].

يعني هذا الذي كان يراقبها رفع الجزء هذا من الجرادة، قطعة من الجرادة عجزت عن حملها فذهبت تستدعي جماعة من النمل؛ ليحملنها معها، فأخفاه عنها، فجاءت فما وجدت الجرادة.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم (٣١٤١)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، برقم (٢٢٤١).

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٦٩).

قال -رحمه الله-: "فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعتُه، فعادت تحاول حمله، فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم، فرفعتُه فطافت، فلم تجده فانصرفوا قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخيرة استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا"[٦].

يعني ظنوا أنها تكذب.

وقال -رحمه الله-: "قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب، والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- لما رأى حرص النملة، وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة، وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه، استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضعٍ أكلَ فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرا فلا، ولها صدق الشم وبُعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها، ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة، ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقى نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك"[٧].

---

٦ - المصدر السابق (٦٩-٧٠).

٧ - المصدر السابق (٧٠).

يعني إذا جاء ووضع مثلاً عسلاً أو نحو ذلك، ما يريد أن يصل النمل إليه، وضعه مثلاً في طَسْتٍ فيه ماء ووضع قارورة العسل بوسطهما مثلاً فما تستطيع تخوض الماء حتى تصل إليه فتصعد الجدار ثم السقف فإذا حاذته ألقت بنفسها على العسل.

وقال -رحمه الله-: "وأحمى صانعٌ مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض؛ ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط"[٨].

يعني الحديدة مدورة حامية عند الحداد ألقاها في الأرض لتبرد فكان في الموقع الذي ألقاها فيه نمل فاجتمع النمل في الوسط تماماً ليبتعد عن الطوق؛ لأن كل طرف حار بهذه الدائرة من الحديد، ما فيه مخرج فجلس أبعد ما يكون عن الأطراف، في الوسط، ابتعد عن الحلقة فجلس في المركز، وهذا كلام الحافظ ابن القيم.

تم بحمد الله وفضله.

---

٨ - المصدر السابق (٧٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٢٠ إلى الآية ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [سورة النمل:٢٠-٢١].

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا، يدل سليمان -عليه السلام-، على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان -عليه السلام-، الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان -عليه السلام- يوما، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، {فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}.

حدَّث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: "نافع بن الأزرق"، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبتَ اليوم، قال: ولِمَ؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته، ثم قال له: ويحك! إنه إذا نزل القَدَر عَمِي البصر، وذهب الحَذَر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: **{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ}** التفقد هو تطلُّب ما غاب عنك والتعرف على أحواله، وهنا جواب سؤال مقدر وهو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما حشر له جنوده من الجن والإنس والطير قال: **{مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}**، فيمكن أن يقال عن كيفية معرفة سليمان غياب الهدهد ببساطة: إنه تفقد الطير **{فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}** ولا يبعد أن يكون عند سليمان -عليه الصلاة والسلام- من صنوف الطير لربما ما يمثلها، يعني أن عنده هدهداً واحداً مثلاً من هذا النوع من الطير؛ لأنه قال: **{مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}** لو كان عنده جمع كبير من هذا النوع لقال: فقدت واحداً من هذا النوع، لكن قال **{مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}** فــ"ال" هنا عهدية، فهو هدهد معهود، والسؤال إذا كان بهذا الاعتبار كيف افتقده، كيف عرف أنه غاب؟ أقول: لما تفقد الطير، ولكن هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو جواب لو صح، لكن ذلك كله مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل، وهذا لا يمكن أن يُتحقق من صحته، بمعنى أنه احتاج إليه؛ لأنه كان إذا نزل منزلاً واحتاج إلى الماء فالهدهد هو الذي يدل على مواقع الماء، وعلى بعده من ظاهر الأرض، وكم يحتاج أن يحفر حتى يصل إلى الماء، فيزعمون أن الهدهد يعرف ذلك، والله تعالى أعلم، ولهذا اعترض نافع بن الأزرق -وهو كثير الاعتراض

على ابن عباس- فقال كيف يرى بهذه القدرة العجيبة يرى الماء تحت الأرض، والصبي يضع له الفخ يعني المصيدة ويضع عليها شيئاً من التراب، ويضع عليها الحبة، فيأتي الهدهد وتصيده هذه المصيدة؟، قال: إذا جاءه القدر عمي البصر، إذا جاء القدر لا ينفعه ما أعطاه الله -عز وجل- من إمكانات، وقُدَر من جهة النظر، هذا الجواب، وبعضهم يقول: إن الطير كانت تظله -عليه الصلاة والسلام- إذا غزا، فالطير من فوقه فغاب الهدهد فظهرت إثر ذلك الشمسُ، مكان الهدهد فارغ، ففقده، فقال: {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}، وكل واحد من هذه الطيور له مقامه ومكانه، {فَهُمْ يُوزَعُونَ} [سورة النمل:١٧]، ويرد أولهم على آخرهم، لا يحصل اضطراب، ولا تداخل فعرف أنه غاب، وربما يكون هذا وهذا، وكل ذلك يرجع إلى أخبار بني إسرائيل، ويكفي أنه تفقد الطير فقال -نفى ويتفقد جنوده- {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} وهذا الذي ذكره من أن الهدهد يرى الماء؛ ولذلك احتاج إليه ففقده لما طلبه، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- فيكون ذلك تعليلاً لطلبه، وتعريفاً لسبب فقده، والله تعالى أعلم.

والإمام ابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا قال: "فصل: وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر، قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المُخبَر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكدا بأدلة التأكيد فقال: {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ} وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المُغوى لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله –سبحانه- إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر، والنبات، والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته، ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض، جلت قدرته،

ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه، ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملا إلا ألقى الله عليه رداء عمله"[١].

خلاصة كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الهدهد لما غاب توعده سليمان -عليه الصلاة والسلام- {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}، وإنه حينما جاء الهدهد تكلم مع سليمان بكلام الواثق، ولم يحقر نفسه، والعلم والمعرفة قد تؤخذ من الأدنى، ولا يستنكف من ذلك، فالهدهد يخاطب سليمان -عليه الصلاة والسلام- ويقول: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} وهذا يدل على كمال اطلاعه، ومعرفته للواقعة، وأنه قد ألم بها وعرفها من جوانبها المختلفة، ولم يأخذ ذلك من طرف عابر ثم قال: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}، فهو مع الإحاطة أيضاً متيقن، وعبر بالنبأ؛ لأن النبأ لا يقال إلا في الأمور التي تكون في غاية الأهمية، أمور مهمة، وهذا يحصل به تشوف وتشوق لمضمون الخبر، فأجملَ له هذا بهذه الطريقة؛ من أجل جذب نفس السامع حتى يستفرغ قلبه لتلقي الخبر، ثم بعد ذلك قال له: {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}، ابتدأ بالمرأة؛ لأنها هي المقصودة هي المطاعة، والخبر بعد ذلك يتعلق بها لما جاءت، واختبار سليمان -عليه الصلاة والسلام- لها، ثم قال: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} وذكر حالهم، وذكر الداعي، وما تسبب عن وقوعهم في مثل هذا الفعل، وهو عبادة غير الله -تبارك وتعالى- إلى آخر ما ذكر، وأن سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاوبه بقوله: {سَنَنظُرُ} وهذا أيضاً يدل على كمال تحريه، وما يطلب من التوثق من الأخبار المنقولة، سننظر، فيتثبت من هذا النقل {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، وقدم الصدق لما يوجبه حسن الظن، ثم قال: {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ} علمه كيف يكون الأدب في مثل هذه الحال، وأنه يتنحى قليلاً؛ حشمة وأدباً كما يُفعل بين يدي الملوك، لكنه يكون بمحل حيث يسمع ما يدور بينهم من المجاوبة والمحاورة، إذا ألقي إليهم هذا الخطاب من أجل أن يرجع بالخبر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكر كلامها.

وقوله: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا}: قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني نَتْف ريشه.

وقال عبد الله بن شداد: نَتْف ريشه وتشميسه، وكذا قال غير واحد من السلف: إنه نتف ريشه، وتركه مُلْقًى يأكله الذر والنمل.

لم ينتف ريشه؛ لأن الخبر صار صحيحاً، وعقوبة نتف ريشه وتركه ملقى يعني هذه العقوبة المقررة في حال كونه كاذباً.

وهذه كلها لا دليل عليها، قال: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} ما هذا العذاب؟ الله أعلم، بعضهم يقول: قص الجناح لئلا يطير الطائر، وإذا قص جناحه فإن ذلك يؤثر فيه، ويؤلمه، يعني: فقد خاصيته وهي الطيران، وبعضهم يقول: نتف ريشه، يبقى بلا ريش، والطائر إذا نتف ريشه صار في حال من الهيئة، أو الصورة التي تنفر

---

١ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٧٠-٧١)، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر.

عنها النفوس، وتستهجنها، ثم بعد ذلك يكون عرضة لكل آفة، وبعضهم يقول: النتف مع الحبس في الشمس إلى غير ذلك مما ذكر، وبعضهم يقول: يُحبس مع غير نظرائه من الطير، يعني يوضع مع أشكال أخرى من الطيور، فلا يجد سلوته بينها، وكل هذا لا دليل عليه، قال: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} لكن الشيء الذي قد يرد وله وجه أيضاً حينما يسأل عنه هو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- نبي وملك، فهو من أئمة الهدى والعدل، فكيف يعذب بهيمة والنبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن تُجعل البهيمة غرضاً[٢]، وقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها[٣]؟ فالجواب عن هذا أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- سلطه على ذلك فهو من جملة جنوده، ادخره له فعامله بمقتضى هذا، فيكون ذلك خاصاً به، ولو جاء أحد وقال: أنا سأعاقب هذه البهيمة؛ لأنها خرجت قبل أن يؤذن للبهائم بالخروج، انفلتت أو فارقت القطيع أو نحو هذا، ما هي هذه العقوبة التي يريد أن يعاقبها بها؟ هي بهيمة لا تفقه ولا تفهم، فإن كان ما يعهد من ضرب -يعني يسوغ مثله للبهائم- ليردها أو نحو ذلك فلا إشكال، لكن التعذيب أو جعلها محبوسة في الشمس أو....، هذا لا يجوز، لا يجوز تعذيب البهائم، لكن سليمان -عليه الصلاة والسلام- سُلط عليه؛ لأنه كان من جنوده، فيتعامل معهم بمقتضى هذا، فيكون خاصاً بسليمان -عليه الصلاة والسلام-، فهذا الطير يفهم ويرد على سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ويأتي بمثل هذا الخبر، ويعتذر إليه فهو واحد من هؤلاء الجنود، وقد أخذ بعض أهل العلم من قوله: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} مع أن الطائر صغير -هذا الهدهد معروف أنه صغير أصغر من الحمامة فوق العصفور-، قال فيه: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا}، مع أنه لا يحتمل و لربما إذا عذب كثيراً يموت، فأخذ منه بعض أهل العلم معنى في التربية، وهو أن العقوبة على قدر الجناية، وليس باعتبار الجاني، وهذا الكلام فيه إجمال، فيقع على صور صحيحة، ويكون له بعض الأحوال، والصور تحتاج إلى نظر وتأمل، ليس على إطلاقه -والله أعلم- لكن ما يقع عليه على قدر الجناية: الرجم للزاني، فإذا كانت امرأة -والمرأة ضعيفة، وهي عورة- فلا يقال: إنها لا ترجم لضعفها، وإنما العقوبة على قدر الجناية إذا كانت العقوبة الرجم، أوهذا الرجل مصاب بمرض أو أمراض فلا يقال: يعفى عنه من أجل المرض، ولكن الجلد يمكن أن يؤخر حتى يبرأ ثم بعد ذلك يجلد؛ لئلا يأتي الحد على نفسه، لكن إذا كان المقصود الإزهاق مثل الرجم فلا يقال: والله إنه مريض ويعاني من أمراض وضغط وسكر إلى آخره، فالعقوبة على قدر الجناية وليس باعتبار الجاني، وأحياناً يكون هذا الإنسان قد بلغ لكن قد يقال: هذا هيئته هيئة صغير، وكأن صورته أو بنيته صورة أو بنية طفل يقال العقوبة على قدر الجناية، لكن كما سبق بعض الصور يراعى فيها حال الإنسان، حال الجاني في غير الحدود باعتبار أن يفرق بين من كان له حسنات ماحية، وقدم صدق في الإسلام، ومن كان ذلك قد وقع

---

٢ - رواه الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بلفظ: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يُتخذ شيء فيه الروح غرضا"، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، برقم (١٤٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٦٣)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٨١٧).

٣ - رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم (٣١٤٠)، ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٦١٩).

منه على سبيل الفلتة، أو ما كان متمرساً بالشر، والفساد والإفساد، فهذا في باب التعزيرات التي يراعى فيها حال الجاني.

وقوله: {أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ} يعني: قتله، {أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي: بعذر واضح بين.

وقال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خلفك؟، فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فقال: نجوت إذًا.

وهذا كله ليس فيه خبر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومثل هذا غالباً يكون تُلقي عن بني إسرائيل.

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة النمل:٢٢-٢٦].

يقول تعالى: {فَمَكَثَ} الهدهد {غَيْرَ بَعِيدٍ} أي: غاب زمانًا يسيرًا، ثم جاء فقال لسليمان: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} أي: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} أي: بخبر صدق حق يقين.

وسبأ: هم: حِمْير، وهم ملوك اليمن.

ثم قال: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ}، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شَراحيل ملكة سبأ.

قوله هنا: **{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ}** يقول: فمكث: يعني الهدهد غاب زماناً يسيراً ثم جاء لسليمان وقال: **{أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}**، وبعضهم يقول: مكث أي سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما قال ما قال لم يمضِ عليه سوى وقت يسير حتى جاء الهدهد وقال له ما قال، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وإذا نظرت إلى السياق الذي جاء فيه هذا فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول عن سليمان -عليه الصلاة والسلام-: **{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}** فمكث: إذا نظرت إلى المخبَر عنه آخراً، فالضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الهدهد، وإذا نظرت إلى السياق واعتبرته فيما مضى فالمتكلم هو سليمان -عليه الصلاة والسلام- فمكث أي سليمان -عليه الصلاة والسلام- ولكن إذا نظرت إلى ما بعده وهو قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ}** فهذا يدل على أن القائل الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، وهذا أقرب -والله تعالى أعلم-، وليس سليمان -عليه الصلاة والسلام-، والمعنى في النهاية قريب سواء قلنا: الذي مكث هو سليمان مدة يسيرة، أو قلنا: الذي مكث مدة يسيرة هو الهدهد، المعنى المقصود: أن ذلك لم يطل كثيراً بعدما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام- ما قال حتى جاء الهدهد واعترض إليه بهذا العذر، ثم قال: **وسبأ هم حمير**، يقول الله تعالى: **{وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}** هذه قراءة الجمهور، و"سبأ" جمهور القراء يقرءونها مصروفة {بسبإٍ بنبإٍ يقين} باعتبار أن سبأ اسم رجل، أو اسم للحيّ، وبعضهم -كابن كثير وابن عمر- يقرؤه غير مصروف **{وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأَ}** والممنوع من الصرف يجر بالفتحة كما هو معلوم، فهو بهذا يكون باعتبار أنه اسم المدينة، وبعضهم يقول: هو اسم امرأة

سميت بها القبيلة، وهذا لا دليل عليه، أما المرأة - -هذه الملكة- فكما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما هو المشهور- أن اسمها بلقيس ملكة سبأ، وقد جاء في حديث عند أبي داود والترمذي بإسناد صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن سبإ هل هو امرأة أو أرض؟ فكان جوابه -صلى الله عليه وسلم- أنه ليس بأرض ولا امرأة ولا مدينة، وإنما هو رجل له عشرة من الولد وهؤلاء العشرة من العرب طبعاً، ستة تيامنوا وأربعة تشاءموا، يعني أربعة ذهبوا ناحية الشام، وستة ناحية اليمن فهو اسم رجل، وبهذا الاعتبار تكون القبيلة نسبت إليه، يقول: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ}، وليس المقصود هنا في هذه الآية {جئتك من سبإ} هذا الرجل، بنبإ يقين، فيمكن أن يراد به القبيلة التي تنتسب إلى هذا الرجل مثلاً، نسبت إليه، وقد يطلق على الناحية، ولهذا من أهل العلم من يؤكد أن سبأ أيضاً اسم مدينة في اليمن، النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه ليس بهذا ولا هذا، لكن سبأ الذي يُنسبون إليه هو رجل فسميت به القبيلة، هل يمنع هذا تسمى الناحية التي كانوا يسكنون فيها بسبإ؟ لا يمنع، لكن في الأصل هو اسم رجل نسبوا إليه له عشرة من الولد كما سبق، هذا الرجل يقال له: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، والله تعالى أعلم، يقول: **هم حمير، وهم ملوك اليمن.**

وقوله: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن.

هذا كما سبق {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} مما يقوم بها ملكها، ويصلح لمثلها، مع أنها لم تؤت مثلاً تسخير الجن والطير، بعضهم يقول: ما أوتيت مثل لحية سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ومثل هذا لا يرد عند من يفقه العربية؛ لأن ذلك محمول على ما كانوا يعهدون من المخاطبة، وهو ما يسميه الشاطبي -رحمه الله- بالعموم الاستعمالي، يعني ليس المقصود به العموم الشامل المحيط بكل الأفراد، ما يبقى شيء في الدنيا إلا أوتيت منه ليس هذا المقصود، فهذا يفهم من السياق أن المقصود به: ما يصلح لهذا وما جرت به العادة.

{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ.

وقال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وُضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} أي: عن طريق الحق، {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ}.

وصف الله عرش هذه الملكة بأنه: {عَرْشٌ عَظِيمٌ}، وهذا القدر هو الذي جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وكتب التفسير مليئة بالروايات في وصف هذا العرش مما هو متلقي عن بني إسرائيل ولا دليل عليه، وفيه من التناقضات والمبالغات ما الله به عليم، يذكرون أشياء عجيبة وأشياء لا يمكن أن تتفق، يعني في مساحته مثلاً في طوله في عرضه أشياء غير متفقة تماماً مما يُعلم أنه من عند غير الله ففيه هذا الاختلاف الكثير.

وقوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} معناه: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [سورة فصلت:٣٧].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} معناه {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده"، فجعل قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} يتعلق بقوله: {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} يعني لا يهتدون ألا يسجدوا لله، ومثل هذه الأشياء تمر أحياناً عابرة على من يقرأ، لكن فرق بين قراءة وقراءة، فابن كثير يقصد هذا المعنى، قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} كيف تفسرها؟ ابن كثير يرى أنها متعلقة بقوله: {لا يَهْتَدُونَ}، فهم ما عرفوا الطريق إليه -سبحانه وتعالى- وإلى توحيده وعبادته، فصاروا يوجهون العبادة للشمس، الحاصل أن في هذه الآية -أعني قوله -تبارك وتعالى- {أَلَّا يَسْجُدُوا}- قراءة الجمهور بالتشديد في {أَلَّا}، والقدر الذي نتيقنه هو أن الوقف على قوله: {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} على هذه القراءة وقف غير تام، يعني الكلام مرتبط بما بعده، لا زال المعنى لم يكتمل، فالوقف غير تام على قراءة الجمهور: {أَلَّا}، والوقوف على رءوس الآي كثير من أهل العلم يقولون: هو السنة، وقد ورد ما يدل عليه، لكن الكلام في اتصال المعنى، فالمعنى لا زال متصلاً على هذه القراءة قطعاً، لكن يبقى النظر في قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا} يتعلق بماذا مما قبله؟ لأن هذا يتبين به المعنى، فالعلماء مختلفون في مثل هذا، وقد تقدم قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إنه مرتبط بقوله: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ} فقوله: {أَلَّا} مرتبط بزين كما يقول ابن الأنباري، فيكون المعنى زين لهم الشيطان ألا يسجدوا، وبعضهم يعبر عن هذا "زين لهم أن يسجدوا لله" بمعنى {أَلَّا يَسْجُدُوا}، صدهم، وبعضهم يقول: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم، يقولون: إنه متعلق بقوله: {فَصَدَّهُمْ} صدهم {أَلَّا يَسْجُدُوا}، يعني لئلا يسجدوا، وبعضهم يقول: هو متعلق بقوله: {أَعْمَالَهُمْ} يعني زين لهم هذا العمل القبيح، وهو ترك السجود لله -تبارك وتعالى-، فيكون ذلك من قبيل البدل، أي بدل من أعمالهم؛ ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، يعني {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} لئلا يسجدوا لله،، وبعضهم كابن كثير -رحمه الله- يقول: متعلق بيهتدون، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله على هذا الاعتبار، ويقولون: إن "لا" زائدة، يعني "ألّا" أصلها "أنْ ولا"، فأدغمتا، بعضهم يقول: إن "لا" هذه زائدة، فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون الزيادة لتأكيد وتقوية المعنى، فالقدر المشترك بين هذا كله أن الوقف غير تام، والكلام لا زال -{أَلَّا يَسْجُدُوا}- مرتبطاً بما قبله.

والقراءة الأخرى للكسائي قراءة متواترة، {أَلَا يَسْجُدُوا} بغير تشديد في{أَلَّا}، وعلى هذا الاعتبار يكون الوقف تاماً أو غير تام؟ {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} {أَلَا يَسْجُدُوا} وتكون {أَلا} هذه حرف تنبيه واستفتاح، والياء حرف نداء، ويكون اسجدوا فعل أمر كأنه يقول مثلاً: إن هناك منادى محذوفاً تقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، يعني لا تكون الياء للمضارعة، ويدل على هذا أن الفعل مجزوم، والجازم لا يوجد، فدل على أن الفعل هنا ليس مضارعاً {يَسْجُدُوا} ليست يسجدوا بمعنى يسجدون، وإنما ألا يا هؤلاء اسجدوا هذا فعل أمر والياء للنداء، على قراءة الكسائي، وفي قراءة غير متواترة تروى عن ابن مسعود -رضي الله عنه- {هلّا يسجدوا} فتكون للتحضيض، وفي قراءة عن أبيّ -رضي الله عنه- {ألا تسجدوا لله}، والله تعالى أعلم.

وقوله: {الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد.

يعلم كل خبيئة: فيدخل فيه ما يذكره السلف -رضي الله عنهم- من النبات إلى الأرض، والقطر من السماء، يخرج الخبء يعني المخبوء في السماوات فيشمل المطر والنبات في الأرض، وما يخرج منها كالمعادن، وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [سورة الرعد:١٠].

وقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

إذا كان يخرج الخبء في السماوات والأرض فهو يعلم ما في النفوس وما تكنّه الصدور، لا يخفى عليه خافية {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} فكل هذا يعلمه -تبارك وتعالى- لا يخفى عليه منه شيء.

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد. وإسناده صحيح.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إن النهي معلل لكونه يدعو إلى الخير، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله، فلا يجوز قتله، ومن ثم فإن أكله يكون محرماً؛ لأنه لا سبيل إلى قتله، فمن قتله فإن ذلك شيء محرم، فلا يستباح به الأكل، وقد يكون نهي عنه لهذا السبب، وقد يكون نهي عنه لغير ذلك، وسبقت الإشارة إلى هذه الأربع: النملة، وما جاء في ذلك، وأن من أهل العلم كالبغوي والخطابي من حمله على النمل السليماني، وليس عموم النمل قالوا: لأنه لا أذى فيه ولا ضرر، والنمل أيًّا كان نوعه مهما أمكن تفادي القتل له فإن ذلك مطلوب، فإنه يمكن أن يستعيذ منه أو نحو ذلك، فإن تضرر به قتله، والنحلة لمنافعها، والصُّرد طائر أكبر من العصفور قليلاً، رأسه كبير، ولونه أسود وأبيض، يأكل صغار الطيور، رائحته غير جيدة، فبعضهم قال: حرم لأنه مفترس يأكل الطيور الصغيرة، وبعضهم يقول: نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله؛ لأن العرب كانت تتشاءم به، وتكره اسمه، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله؛ ليرفع ما في نفوسهم، وبعضهم يقول: لا ضرر فيه ولا أذى فلا يقتل بخلاف الغراب والحدأة والحية ونحو ذلك، وبعضهم يقول: هو أشبه ما يكون بالجلّالة؛ لأنه منتن، والله أعلم.

{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [سورة النمل:٢٧-٣١].

يخبر تعالى عن قيل سليمان -عليه السلام-، للهدهد حين أخبره عن أهل سبإ وملكتهم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: أصدقت في إخبارك هذا، {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟.

{اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}، وذلك أن سليمان، -عليه السلام-، كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحيةً أدبًا ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: {يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدبًا، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم.

{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبَل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها.

وقوله: {أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ}: يقول قتادة: لا تَجبَّروا عليّ {وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليّ.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-: اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}، بعضهم يقول: هذا من المقدم الذي حقه التأخير، يعني يكون هكذا "اذهب بكتابي هذا ألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم"، وهذا باعتبار أن التولي عنهم يعني الرجوع إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- وهو لا يرجع إليه قبل أن يعرف خبرهم ماذا كان مردود هؤلاء على هذا الخطاب، والكلام إذا دار بين الترتيب، أو التقديم أو التأخير فالمقدم هو الترتيب، ويبقى كما ذكر الله -عز وجل-، ولا يقال: هذا من المؤخر الذي حقه التقديم، ويكون المعنى ظاهراً، يعني هكذا "اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم" يعني تأخر قليلاً حتى يحصل بينهم مراجعة، وتكون في موضع تستمع فيه ما يجري من المحاورة، والجواب حتى ترجع بالخبر {ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ} ليس معناه الرجوع إلى سليمان {فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} فإذا حصل منه هذا: سمع كلامهم ثم بعد ذلك جاء بالخبر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- يكون المعنى على هذا الظاهر، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهنا العلماء -رحمهم الله- يختلفون في هذا الذي حصل، يعني هذا الكتاب الذي كتبه سليمان -عليه الصلاة والسلام- هل كان قبل أن يأتيه عرشها أو كان بعد مجيء العرش؟، والسبب الذي أوجب هذا الاختلاف هو أن بعضهم نظر إلى معنى، وهو أنهم قالوا: إن هذا الهدهد جاء بهذا الخبر وسليمان -عليه الصلاة والسلام- قال: {سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} فقالوا: إذا كان الأمر كذلك وهو لم يتحقق من صدق الهدهد، ولا يدري هل توجد أمة بهذه المثابة فعلاً يعبدون الشمس وعندهم ملكة إلى آخره، فكيف يكتب خطاباً ويوجهه إلى قوم لا يدري أنهم موجودون!، كيف يكتب ملك خطاباً، ولا يدري هذا الخطاب يصل فعلاً إلى قوم يعني في هذا الوجود أو لا وجود لهم؟، والخبر أصلاً مختلق وإنما تحقق بطريقته فسأل مَن عنده أو جنوده {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [سورة النمل:٣٨] لما رأى العرش عرف حقيقة ما قاله الهدهد، هكذا

قالوا، فقالوا: إن هذا الكتاب حصل بعد مجيء العرش، أرسل لهم خطاباً بعد ذلك، وقال آخرون: بل هذا كان حينما جاء الهدهد بالخبر، وإلا فإن مثل هذا يرِدُ على قوله: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا} فهو يتكلم على شيء موجود، وهذا خرج مخرج التحقق، واليقين والتيقن بوجود هؤلاء القوم، {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، ولهذا فإن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذا الخطاب أرسل بعدما جاء الهدهد، فأرسل إليهم هذا الخطاب ليتحقق، أرسل إليهم هذا الخطاب ثم قال للهدهد: انظر الجواب وأتني به، ولا حاجة أن يقال: هذا بعد أن جاءوا بعرشها، والله تعالى أعلم.

ثم قولها هنا: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ} والملأ هم أشراف قومها، وأهل الرأي أهل الوجاهة يتمالئون على الأمر، فهم الذين يبرمونه، أهل الرأي والنظر، {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} وصفته أنه كريم باعتبار المصدر، فهو جاءها من سليمان -عليه الصلاة والسلام- ملك ونبي فصار الخطاب بهذا الاعتبار متصفاً بهذه الصفة {أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}، وبعضهم يقول: إنها قالت: إنه كريم؛ لأنه مختوم على عادة الملوك بختم الكتب، وبعضهم يقول: إنه كريم باعتبار مضمونه، نظرت في مضمونه فوجدته ابتدأ بالبسملة في غاية الوجازة والفصاحة، والحافظ ابن كثير هنا يشير إلى معنى وهو الطريقة التي جاء بها الخطاب -هدهد وتنحّى-، فغاية ما يستطيعه الملوك هو أن يرسلوا عن طريق الحمام الزاجل الرسالة إلى المكان المعد لهذا، أي مكان خاص، برج للحمام يوضع في هذا البلد، وبرج يوضع في ذلك البلد، فتطير تلقائياً حتى تدخل في هذا البرج، ثم يأخذون الرسالة منها، لكن يأتي هدهد ويُلقي عليها ثم يتنحى قليلاً وينتظر هذا لا يعهد، وليس فيه قدرة الملوك، هذا الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله.

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [سورة النمل:٣٢-٣٥].

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: {يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} أي: حتى تحضرون وتشيرون.

{حَتَّى تَشْهَدُونِ} يعني بحضرتكم، وسمتْ المشورة فتيا {أَفْتُونِي} باعتبار ما تتضمنه من حل ما أشكل عليها.

{قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ} أي: مَنوا إليها بعَدَدهم وعُددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: {وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} أي: نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمتثله ونطيعه.

قال ابن عباس: قالت بلقيس: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}، قال الرب -عز وجل-: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}.

يقول: "**قال الرب -عز وجل-**: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}" ليست من جملة كلامها، وإنما هذا الذي يسمونه الموصول لفظاً المفصول معنى، يعني أن قوله: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} من كلام الله تصديقاً لقولها وتقريراً له، ليس من بقية كلامها أنها قالت: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، مثلما جاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ}، لما قالوا قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام:٨١]، قال الله:

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ} [سورة الأنعام:٨٢] فهذا يحتمل أن يكون من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تكملة له، ويحتمل أن يكون من كلام الله الفصل بينهم، وذكرنا أمثلة لهذا أيضاً في قصة يوسف -صلى الله عليه وسلم-، **{ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [سورة يوسف:٥٢] هل هو من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- أو من كلام المرأة؟، وأمثلة هذا كثيرة حتى في هذه السورة له أمثلة متعددة، فتارة يكون في نفس الآية جملة منها، وأحياناً يكون في آية بعدها مستقلة، فهذه المرأة استشارت هؤلاء في هذا الأمر الذي يترتب عليه المصير لها ولقومها، وما اغترت أيضاً بقولهم: **{نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ}** وتفويض الأمر لها تفويضاً مطلقاً على ما يكون من طبيعة البشر من النقص لاسيما المرأة، ومع ذلك كانت بهذا العقل والرجاحة، وقد ذكرتُ في بعض المناسبات ما جرى من غزو التتار، وما حصل بسبب ذلك من الفساد العظيم، والدمار للممالك الإسلامية من بخارى وما في تلك النواحي إلى بلاد الشام، كل هذا وذكرتُ حينها أصل ذلك ومنشأه من أن تيمور كان قد أرسل وفداً من أجل أن يشتروا له كسوة أو نحو ذلك بأموال عظيمة جداً من بلاد المسلمين، وأن الأمير في تلك الناحية كتب إلى الملك الذي يتبع له بما رأى، وكتب له بالرأي وهو أن يقتلهم، وأن يأخذ ما معهم من أموال، فحصل هذا وقتلهم وأخذ الأموال فغضب تيمور، وأرسل له يتوعده ويتهدده، فكان التتر يتقاتلون مع قوم آخرين من الكفار في المشرق، فاستشار هذا الملكُ وكان له ولد له رأي، وسأل عن طاعة التتار لملكهم فأُخبر أنهم يطيعونه، فأشار على أبيه أن يُسلّم لهم رجلاً واحداً وهو ذاك الأمير الذي قتل هذا الوفد، ويَسْلم المسلمون بعد ذلك، وأشار عليه آخرون بأن يغزوهم، وأن يرد الصاع صاعين فعزم على هذا وغزاهم، وكانوا قد شغلوا بحرب أولئك فأخذ ذراريهم، ومن أموالهم فرجعوا إليه موتورين لم يجدوا أولادهم، فجاءوا وعاثوا في الأرض فساداً، ابتدءوا ببخارى وفعلوا الأفاعيل في وصفٍ يطول ذكره لأمور جرت هناك، أحرقوا البلد وافتضوا الأبكار، وفجروا بالأولاد والنساء، وقتلوا الرجال في الجوامع في كل مكان، وهكذا فعلوا حتى في بلاد الشام، أفعال شنيعة والسبب هذا التصرف الذي لم يسدد، ولم يوفق، وجر على المسلمين مثل هذه الويلات، والله المستعان.

ثم عدلتْ إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: -رحمها الله ورضي عنها- ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

قد يكون هذا إذا كان لها بصر ومعرفة بهذه الأمور، وأن سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان لا يقبل، لكن كان المعروف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبل الهدية، ويرد الصدقة، فهنا هل هذا كان خاصاً بسليمان وهي عرفت ذلك أو سألت وعرفت؟، ظواهر الآيات تدل على أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- مع ما عنده من الإمكانات والقُدر وما سُخر له من الريح والجن والإنس لم يكن على دراية من وجودها أصلاً،

فضلاً عن حالها، فكيف عرفت عن سليمان -عليه الصلاة والسلام- وأنه لا يقبل الهدية؟، أو إن كان نبياً -إذا كانت تقصد جنس الأنبياء- فالأنبياء يقبلون الهدية، لكن لربما تكون قصدت شيئاً آخر لا يتصل بالحِل والحرمة، هم من قوم يعبدون الشمس، وإنما نظرت لمعنى آخر وهو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- إن قبل الهدية فكف عن جهادهم معنى ذلك أنه طالب دنيا، أنه ملك من الملوك، تنفع معه المصانعة ويرضيه العطاء والمال ويكفه عن أهدافه ومقاصده، وإن كان نبياً فهو لا يرضى غير ما دعاهم إليه {وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، كأنها تقول: أوَ غير ذلك؟ عمدت إلى طريقة كما يقال الآن: دبلوماسية، نعطيه هدية فننظر كيف يكون؟ فإن قبل هذه الهدية وصارت بيننا وبينه علاقة، أي تواصل واحترام فبها ونعمت، هل نستطيع أن نكفه عن إرادته ومطلبه هذا الذي تضمنته هذه الرسالة {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} هذه الجملة هي الرسالة فقط، هذا الهدف الآن، التحول من الدين أصعب ما يكون، أصعب الأشياء، الناس يذبون عن دينهم بنفوسهم يفتدونه بنفوسهم ويموتون دونه، وهو يقول: {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فمعنى ذلك الخضوع له وأن يكونوا تحت طاعته فيكون هذا فيه ذهاب دولتهم، والتحول عن الدين فهي أرادت أمراً دون ذلك، فهي تعطيه بعض الدنيا؛ ليبقى لها ملكها ويبقى لها دينها من هذا الوجه، ربما يكون لأن الأنبياء يقبلون الهدية، يقبلون الهدية لكنها بهذه المثابة أشبه ما تكون بالرشوة، إذا نظرت إليها بهذا الاعتبار كان الكلام لا إشكال فيه، والله أعلم.

{فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} [سورة النمل:٣٦-٣٧].

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك.

هذا يقوله بعضهم ويذكر أوصافاً طويلة في هذا ليس ذلك مما أخذ عن مصدرٍ يوثق به، وإنما هو من أخبار بني إسرائيل، وبعضهم يقول: أهدته مائتي فرس على كل فرس وصيف، أو وصيفة، وأنها ألبستهم لباساً وألبست الوصفاء لباس الوصيفات، والوصيفات لباس الوصفاء، يعني ألبست الذكور لباس الإناث، والإناث لباس الذكور، وأبرزتهم بأحسن حلة وأهدتهم إليه على مائتي فرس، وبعضهم يقول: إنها أرادت أن تختبره بهذا هل يعرف الوصفاء من الوصائف إذا أراد أن يختبرها، ويقول: أهكذا عرشك، بعدما غير فيه؟ لكن كل هذا لا دليل عليه، المقصود أنها أعطته هدية عظيمة تليق بمثله.

والظاهر أن سليمان -عليه السلام-، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: {أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ} أي: أتصانعونني بمال لأتركك على شرككم وملككم؟!

هذا الهدف الذي أرادته: مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون، هل تنفع معه المصانعة أو لابد من تحقيق مطلبه وهو الدخول في دينه والانقياد له؟.

{فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ} أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

{بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} ليس عامة المفسرين على معناه هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، ليس معناه: خذوا هذه الهدية التي جئتم بها، وافرحوا بها، وإنما المقصود {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أي: تفرحون إذا قدمت لكم الهدية، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه المصانعات والهدايا لأنكم أهل دنيا، أما أنا فلست كذلك، إنما أطلب الآخرة وأعطاني الله -عز وجل- من الدنيا ما أغناني عن هديتكم هذه {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ} بل أنتم الذين تفرحون بالهدية إذا أهديت إليكم.

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ} أي: **بهديتهم.**

بعضهم يقول: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ} الخطاب موجه للهدهد، وبعضهم يقول: الخطاب للرسول، وهذا هو الأقرب، لكن لعل الذين قالوا: إن الخطاب موجه للهدهد استشكلوا صيغة المفرد في المخاطبة "ارجع إليهم"، وهم قبل ذلك جمع قال: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ}، وقال: {بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} ثم قال: "ارجع إليهم" بصيغة الواحد، ويقال: لا إشكال فيه، فالعرب تخاطب الجماعة بخطاب الواحد إذا لم تقصد واحداً بعينه منه، يقول: ارجع إليهم، هذه طريقة العرب في الخطاب كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن يكون هذا الخطاب قد وجه لرئيس الوفد، لكبير الوفد ارجع إليهم، ولا إشكال في هذا، والله أعلم.

{فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا} أي: **لا طاقة لهم بقتالهم،** {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا} أي: **من بلدهم.**

لا طاقة لهم بها، يعني إذا كان واحد من الجنود يأتي بعرشها في لحظات كما سيأتي {قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} إذاً ماذا سيصنع بها وبقومها في القتال؟!! وعنده الجن {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} [سورة النمل:٣٩] مقامك في مجلسك هذا، لحظات وهو عندك، العرش من اليمن إلى الشام، فهذا في القتال، هذا العفريت لوحده ماذا سيصنع بهم؟ كيف سيقاتلونه؟ لا قبل لهم بها، يقف دونها السيف والحربة والسهم، كثرة الجنود جن وإنس وطير.

{أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: **مهانون مدحورون.**

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان -عليه السلام-، قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسرّه.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٣٨ إلى الآية ٥٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل:٣٨-٤٠].

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد -والله- عرفتُ، ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئًا، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه -وكان من ذهب مُفصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ- فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خَلَفت على سلطانها: احتفظ بما قِبَلك، وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يَرَيَنَّه أحد حتى آتيك، ثم شَخَصَت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت يدي كل قَيْل منهم ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دَنت جمع مَنْ عنده من الجن والإنس، ممَّنْ تحت يديه، فقال: {يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكر هنا كل ذلك مما أخذ عن بني إسرائيل، وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على صحة هذه التفاصيل، لكن الله -تبارك وتعالى- أخبر أن لها هذا العرش العظيم، وما ذكره الله -تبارك وتعالى- يكفي في بيان حقيقة ملكها، وما أوتيته هذه المرأة من عظمة الملك {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، والمفسرون يذكرون أقوالا في قول سليمان -عليه الصلاة والسلام- هذا هل كان قبل قوله للهدهد: {اذْهَب بِّكِتَابِي} [سورة النمل:٢٨]، أو أن ذلك كان بعده، فمن قال بأن ذلك -أعني قوله: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا}- كان قبل أن يبعث الهدهد بالرسالة قالوا: لأنه لا يمكن أن يكتب لمن لم يتحقق وجوده، فأراد أن يتحقق من ذلك فقال: من يأتيني بعرش هذه المرأة التي ذكر الهدهد؟، فلما رآه بين يديه عرف صدق ما جاء به الهدهد فكتب لها الخطاب، ولكن هذا لا ضرورة له، فظاهر القرآن -والله تعالى أعلم بترتيب الآيات على النسق الذي قصه الله -تبارك وتعالى- يدل على أن ذلك كان بعد إرسال

الخطاب، ولا مانع أن يكتب -عليه الصلاة والسلام- لها تلك الرسالة، ولم يتحقق من قول الهدهد، ثم ينظر بعد ذلك ماذا يكون الرد، وكذلك في قوله: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} بعضهم يذكر أقوالاً بعيدة كالذي يقول مثلاً: إن سليمان -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يستبق إسلامها فيحوز على عرشها ليملكه فيكون غنيمة فإذا أسلمت فلا يحل له شيء من مالها، فأراد أخذه قبل أن تسلم فتحرز ما في يدها أو ما تحت يدها، هذا فيه بعد، ومما يدل على بعده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الخصائص الخمس التي لم يعطهن نبي قبله قال: ((وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي))[1]، فدل على أن الغنيمة ما كانت تحل لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، ولولا كثرة من يذكر هذا القول من المفسرين لأعرضت عنه، ولكن سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان له حكمة في طلب العرش قبل مجيئها، ربما يكون كما يقول بعض أهل العلم: أراد أن يريها عظم ملكه، وما أعطاه الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات فهذا العرش الذي في اليمن يأتي بلحظات قبل أن تصل إليه بمدة ليست بالقصيرة، فهي تحتاج مدة حتى تصل من اليمن إلى الشام فأراد أن يظهر لها عظمة هذا الملك، وأنه أمكن وأقوى منها، وأن تلك الهدايا التي جاءت بها ليست بشيء، فتخضع لسلطان الإسلام، وسلطان سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي حصل، وهكذا ما يذكرون من أنه أراد أن يختبر عقلها لما غير في عرشها {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا}، ثم بعد ذلك رأت فيه ما تعرف وتنكر، فهذا أحسن ما قيل فيه -والله تعالى أعلم- وما يذكر غير هذا لا دليل عليه، وكونها هي التي اختبرت سليمان -عليه السلام- كما يذكر بعضهم أنها أرسلت له الوصائف والوصفاء وألبست الذكور منهم لباس الإناث والعكس؛ لتختبره هل يعرف هؤلاء من هؤلاء ويميز هذا كله لا دليل عليه، ولكنه أراد أن يختبر عقلها -والله تعالى أعلم- ولهذا قال: {نَنظُرْ أَتَهْتَدِي} الآية.

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ} قال مجاهد: أي مارد من الجن، وقال أبو صالح: وكان كأنه جبل.

يبقى أن هذا لا دليل عليه -كأنه جبل-، لكن العفريت هو المارد وقد يقال ذلك أيضا للإنس –عفريت- لمن كان له من القُدر والإمكانات الهائلة غير المعهودة فإنه يقال فيه ذلك {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ} ولهذا ميز هنا قال من الجن، فهو وإن كان في الغالب يقال للجن لكنه أيضا قد يطلق بإطلاق صحيح عند العرب على المردة من الإنس، أو على من كان لديه من القوى والقُدر والإمكانات الهائلة غير المعهودة.

{أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تَزول الشمس، {وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ}: قال ابن عباس: أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر.

فقال سليمان -عليه السلام-: أريد أعجل من ذلك، ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسَخَّر له من الجنود، الذي لم يُعطَه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما

---

[1] - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، برقم (٤٢٧)، ومسلم -واللفظ له- في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١).

هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ} قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقا يعلم الاسم الأعظم.

وقال قتادة: كان مؤمنا من الإنس، واسمه آصف.

هذا الذي عليه أكثر المفسرين أنه من الإنس، وأنه يعلم الاسم الأعظم، وأنه كاتب سليمان، وإن اختلفوا في اسمه فهذا لا يهم هذا الذي يسمونه بالمبهمات في القرآن، ومثل هذا لا فائدة تذكر من تتبعه والاشتغال به، لكن ذاك من الجن، وهذا من الإنس ذاك استطاع أو يستطيع أن يأتي به في تلك المدة؛ لأنه من المردة، وأما هذا فإنه استطاع أو يستطيع أن يأتي به في مدة دونها من جهة العلم {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ}: قيل معرفة الاسم الأعظم هذا ذكره كثير من المفسرين والسلف -رضي الله عنهم- فمن بعدهم والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، لكن ظاهره قد يفهم منه أن هذا من الإنس {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ}، وبعضهم يقول: هو سليمان نفسه -عليه الصلاة والسلام- لكن ظاهر السياق لا يدل على هذا، وكون سليمان -عليه الصلاة والسلام- يقول له المارد: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} فما يرضى بهذا يدل على أنه ما قصد مجرد الإحضار؛ لأن هذا يحصل بقول الأول، وإنما أراد أمراً فوق ذلك وهو ما أشار إليه ابن كثير -رحمه الله-: إظهار عظمة ملكه، وما أعطاه الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات.

وقوله: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} أي: ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك.

هنا قال: **ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه**، إنه لا يكل إلا وهو حاضر عندك، وهذا الذي قاله ابن كثير قاله أيضا ابن جرير، ولعله أقرب الأقوال -والله تعالى أعلم-، والمعنى أنه يمتد بصره ينظر إلى الشيء فقبل أن يغمض، أو قبل أن يرتد إليه طرفه بالحركة الطبيعية؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يديم النظر إلى شيء دون تحريك جفنه من غير إرادة، فالمقصود أنه يمتد طرْفه إلى الشيء ينظر إليه فقبل أن يتحرك جفنه يجد هذا العرش أمامه {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، وبعضهم يقول: قبل أن يصل إلى مداه {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} بمعنى يمتد النظر قبل أن يصل إلى آخر ما يمكن أن يراه الإنسان، فإذا وصل إلى مداه يكون بعد ذلك قد ارتد إلى صاحبه، وليس معناه أنه يحرك جفنه أو نحو ذلك، وإنما المقصود أنه ليس وراء ذلك غاية يصل إليها يعني هذا غايته وانتهى، يعني غاية ما يمكن للبصر العادي أي العين المجردة أن تصل إليه، مدى البصر يعني للإنسان العادي، وبعضهم يحمله على معنى آخر يقول: {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} يعني من أرسلته في حاجة قبل أن يرجع إليك يكون هذا، وهذا غير صحيح، فإن رجوعه قد يكون أطول مما قال الأول {قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} فهو بحسب ما يحصل من هذا الذي أرسله من جهة البطء والسرعة، وكذلك بعد المكان وقرب المكان، فهذا أبعد هذه الأقوال، {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ} تقول: جئت من طرف فلان، {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} من أرسلته قبل أن يرجع إليك، هذا بعيد، والأقرب -والله أعلم- هو قبل أن يحصل للإنسان، قبل أن يغمض عينيه يكون ذلك حاضراً بين يديه، وهذا هو اختيار ابن جرير.

ثم قام فتوضأ، ودعا الله -تبارك وتعالى.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام.

هذا باعتباره الاسم الأعظم، ومعلوم أن في الاسم الأعظم خلافاً مشهوراً، وقوله: قام وتوضأ وقال: يا ذا الجلال والإكرام لا دليل عليه.

فلما عاين سليمان وملَؤه ذلك، ورآه مستقرًا عنده {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي} أي: هذا من نعم الله عليّ {لِيَبْلُوَنِي} أي: ليختبرني، {أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}، كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [سورة فصلت:٤٦]، **وكقوله {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}** [سورة الروم:٤٤].

وقوله: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، {كَرِيمٌ} أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة إبراهيم:٨].

وفي صحيح مسلم: ((يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[٢].

المقصود أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما حصل له هذا الإفضال ما زاده إلا عبودية لله -عز وجل- وشكرا، بخلاف كثير من الناس فإنهم يزدادون بطراً وتعاظماً.

{قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة النمل:٤١-٤٤].

لما جيء سليمان -عليه السلام- بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ}.

قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه.

وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غيَّر كل شيء عن حاله.

وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا.

وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا.

هذه التفاصيل لا دليل عليها، ولكن قال: **{نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا}** يعني: حصل فيه شيء من التغيير، لم يتركه على حاله كما هو، والعلة في ذلك هو ما ذكره من قوله: **{نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ}**،

---

٢ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

قوله: {نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي}: الأقرب أن المقصود تهتدي إلى معرفته، ولهذا سألها: {أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ}، وبعضهم يقول: تهتدي إلى الإيمان، وهذا لا يخلو من بعد؛ لأن المقام مقام اختبار وسؤال عن عرشها لم يتطرق معها إلى شيء مما يتصل بدعوتها أو نحو ذلك، إنما سألها عن العرش {أَهَكَذَا عَرْشُكِ} فـ{نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي} يعني إلى معرفته، هذا هو الأقرب، والله أعلم.

{فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ} أي: عرض عليها عرشها، وقد غُير ونُكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُبٌّ ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو؛ لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غُير وبُدل ونُكر، فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

هذا ذكره بعض المفسرين منهم ابن كثير -رحمه الله-: أن هذا الجواب فيه حصافة، وقد لا يكون ذلك من مقصودها، يعني قد تكون هي شكت أصلا في الأمر يعني بعضهم يقول: إن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما أراد أن يختبرها قالت ذلك من أجل أن تُبين عن عقلها ودهائها بحيث إنها إن قالت -لما قال السؤال {أَهَكَذَا عَرْشُكِ}؟- نعم بما جرى عليه من التبديل والتغيير فالجواب غير دقيق، وإن قالت: لا، فهو في أصله عرشها فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} لكن يمكن أن يقال: لا يبعد أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنها لما رأت ذلك التغيير مع بُعد المسافة وكيفية تأتِّي حضوره قبلها، وهذا أمر غير معهود قالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} كما يُسأل الإنسان عن الشيء الذي قد يلتبس عليه ويشتبه فلا يستطيع أن يجزم بذلك ويوجد عنده من دواعي الإثبات ما يمنعه من الإنكار والنفي فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} فيمكن أن يجري على هذا النسق، ولا يكون ذلك من مقصودها أنها قصدت إظهار الحصافة، وكمال العقل ونحو هذا، كما يقوله بعض المفسرين، قد لا تقصد هذا أصلا، وإنما سليمان -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يظهر لها عظمة ملكه، وما أعطاه الله من الإمكانات، وأراد أن يختبر عقلها في الوقت نفسه، فسألها هذا السؤال بعد تنكير العرش؛ ليعلمها، أو ليزعزع ثقتها في نفسها، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}: قال مجاهد: سليمان يقوله.

يعني هذه العبارة يقولها سليمان: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} قال مجاهد: يقوله سليمان -عليه الصلاة والسلام-، يعني أن الله أعطاه علما، وهذا هو المتبادر -والله تعالى أعلم- أنه من قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-، {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} فالضمير يرجع إليها في قوله: {مِنْ قَبْلِهَا} فالمتبادر أن المراد ملكة سبأ، وبعضهم يقول: هذا من قول ملكة سبأ، هي التي قالت ذلك: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} يعني قبل هذه الآية، وهؤلاء قد يحتجون على هذا القول باعتبار أن الكلام الذي قبله هو من كلامها {قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}، قالوا: إن الأصل أن هذا الكلام من قائل واحد لمتكلم واحد، وهذا وإن كان الأصل لكنه ليس بالضرورة في كل المواضع؛ فإن السياق قد لا يدل أو لا يساعد عليه، فالقول بأن القائل هو سليمان -صلى الله عليه وسلم- هو الأقرب، وهو اختيار ابن جرير، فالحاصل أنه على رأي القائلين بأنه من قولها يكون العلم الذي قصدته هو العلم بصحة نبوته قبل هذه الآية، يعني قبل أن تصل إليه عرفت أنه نبي، وهذا فيه بعد أعني أنه من قولها، والله أعلم.

وقوله: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}: هذا من تمام كلام سليمان -عليه السلام -في قول مجاهد، وسعيد بن جبير رحمهما الله- أي: قال سليمان: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا

مُسْلِمِينَ}، وهي كانت قد صدها، أي: منعها من عبادة الله وحده، {مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}، وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ، وقاله ابن جرير أيضا.

قوله: **قاله مجاهد وسعيد حسن** يعني ابن كثير يستحسن هذا القول، وليس المقصود أنه قاله الحسن.

ويحتمل أن يكون في قوله: {وَصَدَّهَا} ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله -عز وجل-، تقديره: ومنعها {مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: صدَّها عن عبادة غير الله {إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}.

قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي.

يعني هنا بقوله: **ويحتمل أن يكون في قوله: {وَصَدَّهَا} ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله -عز وجل-**، أنه ليس المقصود أن الذي صدها هو سليمان أو الذي صدها هو الله -تبارك وتعالى-، وإنما المقصود أن ذلك من قول سليمان، أو أنه من قول الله -تبارك وتعالى- تعقيباً على ما جرى، يعني الذي قال: **{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ}**، يحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل-، وهذا الذي يسمونه الموصول لفظا المفصول معنى، يعني الكلام كأنه لمتكلم واحد، ولكن الواقع أن هذه الجملة لقائل، والجملة الأخرى لقائل آخر، فإذا قلنا: إن هذا من قول الله -تبارك وتعالى- يكون هكذا **{فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}**، إذا قلنا: إن قوله: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا}** من كلامها فيكون هذا من الموصول لفظا ومعنى، وإذا قلنا -على الأرجح- إنه من كلام سليمان -عليه الصلاة والسلام- فيكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ}**، قال سليمان: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ}** إذا قلنا: إنه من قول سليمان، وإن ما قبله من قول سليمان -عليه السلام- فيكون هذا من الموصول لفظا ومعنى، وإذا قلنا: إن ما قبله من قولها، وهذا من قول سليمان -عليه السلام- فيكون من الموصول لفظا المفصول معنى، وهكذا إذا قلنا: إن ما قبله -أعني قوله: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا}**- من قول سليمان، وإن هذا -أعني وصدها- من قول الله -عز وجل- يبين سبب انحرافها فيكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى، **{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ}** يعني أن عبادتها لغير الله، هذا هو الظاهر المتبادر، وإن قال بعض المفسرين غير ذلك: وهو إن المعنى وصدها ما كانت تعبد من دون الله عن عبادة الله وتوحيده.

وقوله: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا} وذلك أن سليمان -عليه السلام- أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

أصل الصرح في كلام العرب: هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله -سبحانه وتعالى- إخبارًا عن فرعون -لعنه الله- أنه قال لوزيره هامان {ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ...} الآية [سورة غافر:٣٦-٣٧]**، والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبنى بناء محكما أملس {مِنْ قَوَارِيرَ} أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل.**

والغرض أن سليمان -عليه السلام-، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه

وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعَرَفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله -عز وجل-، وقالت: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

حينما نقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}** من قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وإذا كان من قولها يعني قصدت أنها قبل هذه الآية عرفتْ نبوته، والأقرب أنه قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-؛ ولأنها لم تسلم إلا بعد أن دخلت الصرح، وحصل ما حصل، وإذا قلنا: إنه من قول سليمان -صلى الله عليه وسلم- فيمكن أن يقال: إن مراده بقوله: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}**: العلم بالله -عز وجل- وتوحيده وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: العلم بقدرة الله -عز وجل-، وهذا لا ينافي ما سبق، وبعضهم يقول: **{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}** أي من قبل مجيئها، أي العلم بإسلامها قبل أن تأتي، ولكن هذا فيه بعد؛ لأنها لم تسلم إلا بعد ذلك، وهنا قال: قيل لها: **{ادْخُلِي الصَّرْحَ}** يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وذلك أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- أمر الشياطين فبنوا لها قصرا عظيما من قوارير** إلى آخره، هذا معناه أن ابن كثير -رحمه الله- يفسر الصرح بالقصر، وهذا معنى معروف عند العرب، إطلاق الصرح على القصر، قصر عظيم بني من قوارير يعني من زجاج وأجرى تحته الماء فهو لصفائه يشف عما تحته، فلما دخلت فيه ظنت أنها تخوض في ماء كثير، لجة **{حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا}**، وبعضهم كالزجاج يفسر الصرح بالصحن صحن الدار، أو صحن القصر أو نحو ذلك، يعني كأنه وُضع لها بلاط من زجاج، وأجرى تحته الماء، ففسر الصرح بالصحن، **{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ}** يعني صحن القصر مثلا، وهذا مثل قول من قال كابن قتيبة: إن ذلك بلاط من قوارير من زجاج، وظاهر الآية يدل على أن الذي كان موطئا لأقدامها، وموضعا لمشيها، وما أمرت بالدخول فيه أنه كان من الزجاج، وأنها تمشي على أرض من زجاج؛ ولهذا **{حَسِبَتْهُ لُجَّةً}** فأجرى تحته الماء وهذا أمر غير معهود، وإلى يومنا هذا يعتبر هذا من الأمور العجيبة جداً مع ما أعطيه الناس من إمكانات وصناعات وما أشبه ذلك، فيدل على أن ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- وما أعطيه من هذه القُدر أعظم مما توصل إليه الناس اليوم بمراحل كثيرة، يسير في الهواء، وعنده هؤلاء الجن والشياطين يعملون له ما يشاء، تماثيل، ومحاريب إلى آخره، حتى الآبار العجيبة إلى اليوم التي يعجب الناس منها منحوتة في الصخر بطريقة هندسية عجيبة دقيقة، كأنها حفرت بآلات بغاية الدقة، يقولون: هكذا في أطراف الشام موجودة إلى اليوم، وإن ذلك مما حفرته الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم-، ولكن ذلك يدل على قُدر غير عادية قال: **{حَسِبَتْهُ لُجَّةً}** اللجة معظم الماء، رغم أنه لجة البحر، البحر اللجيّ يعني البحر العميق، فظنت أنه لجة يعني أنه ماء كثير تحتاج إلى الخوض فيه فكشفت عن ساقيها؛ لئلا تبتل ثيابها، وهذا أيضا اختبار آخر لها وإظهار لقدرة سليمان -عليه الصلاة والسلام- وفي البداية نكر لها عرشها، وهذا هو الاختبار الثاني ليظهر لها أن ما أوتيته ليس بشيء إزاء ما أعطاه الله -عز وجل- لسليمان، فإذا كانت هذه المرأة جاءت بهذه المثابة نظرت إلى عرشها الذي ينبغي أن تكون أعرف الناس به، ثم بعد ذلك لُبّس عليها، ثم أمام سليمان -عليه الصلاة والسلام- تريد أن تمشي في مكان من اليابس ثم ترفع وتكشف

عن ساقيها كأنها تخوض بالماء فإن هذا الموقف قد لا تحسد عليه، ملكة ثم يتبين جهلها بحقيقة الأمر، ثم يقال لها: هذا ليس فيه ماء، أنت تمشين على محل يابس، فالإنسان يدرك في هذه المقامات قصوره، وجهله، وتخلفه عن بلوغ هذه المراتب من المعرفة، هذه ملكة عظيمة لها عرش عظيم، ومع ذلك منذ أن جاءت حصل لها هذه المواقف فإن ذلك لا شك أنه يزعزع ثقتها بما عندها، ويذهب ما عندها من غرور، وزهو، وتعاظم -كما هو العادة مما يحصل لأهل الملك والسلطان، وأصحاب الثروة العظيمة، فإذا حصل له مثل هذا تلاشى ورجع إلى ما كان ينبغي أن يكون عنده- فيكون ذلك أدعى إلى إسلامها وخضوعها، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

يقول: **أصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع**، وهذا الذي قاله ابن كثير -رحمه الله- قال به أبو عبيد القاسم بن سلام، واحتج بقوله: {ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [سورة غافر:٣٦]، وقال: **الصرح قصر في اليمن** هذا لا علاقة له بالآية، لكن هو يريد أن يبين الشيء بالشيء، يذكر أن الصرح يقال: للقصر، يقال يوجد في اليمن قصر لا علاقة له بملكة سبأ، هو لا يقصد هذا، والمُمرّد هنا قال: المبني بناء محكما أملس، وبعضهم يقول: هو البناء الطويل، يقال له: ممرد، ومنه قيل للحصن المعروف: مارد، "تَمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبْلقُ"، هذا مثل أو صار مثلا، يقول: بناء محكما أملس من قوارير أي من زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ولهذا قيل: الأمرد الذي ليس في وجهه شعر، فأصل هذه المادة يرجع إلى هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} [سورة النمل:٤٥-٤٧].

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح -عليه السلام-، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} قال مجاهد: مؤمن وكافر، كقوله تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سورة الأعراف: ٧٥-٧٦].

{فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ} هذا الأقرب، والقرآن يدل عليه كما في هذه الآية أن بعض قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- أسلم، ومن نظر في خبرهم في التاريخ رأى أشياء كثيرة من هذا القبيل، وما حصل بينهم من المجاوبة والمحاورة، وما جرى من كبراء قوم صالح -عليه الصلاة والسلام-، الشاهد أن بعضهم أسلم كما يدل عليه القرآن، ولا حاجة لأن يقال: إذا هم فريقان: الفريق الأول هو صالح -عليه الصلاة والسلام-، والفريق الآخر هم قومه؛ لأن من قومه مَن أسلم: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ} {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ} وهذه عادة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يأتون إلى قومهم فيدعونهم إلى التوحيد، فيستجيب من شاء الله هدايته، فينقسم هؤلاء القوم إلى مؤمنين وكفار، والله سمي هذا القرآن بالفرقان؛ لأنه يفرق به بين الحق والباطل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فرق بين

الناس، فافترق قومه إلى مؤمنين وكفار، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- تبرأ من أبيه وقومه.

{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}، أي: لِمَ تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال: {لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} أي: ما رأينا على وجهك ووجوه مَنْ اتبعك خيرا، وذلك أنهم -لشقائهم- كان لا يصيب أحدًا منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قِبَل صالح وأصحابه.

قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ...} الآية [سورة الأعراف:١٣١]**، وقال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** [سورة النساء:٧٨] **أي: بقضاء الله وقدره، وقال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}** [سورة يس:١٨-١٩]**، وقال هؤلاء: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ} أي: الله يجازيكم على ذلك {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} قال قتادة: تُبتلون بالطاعة والمعصية.**

والظاهر أن المراد بقوله: {تُفْتَنُونَ} أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

قوله -تبارك وتعالى- عنهم: **{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}** السيئة هنا يقول: **أي لِمَ تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته**، هذا هو الأقرب -والله أعلم-، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ويدل عليه قوله تعالى: **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ}** [سورة الرعد:٦] يعني العقوبات المستأصلة، فهذه هي السيئة **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}** [سورة الحج:٤٧]، فهذا هو استعجالهم، وبعضهم يقول غير هذا، ولكن الذي يدل عليه القرآن هو هذا القول، وهنا قال: **{قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}** يعني معناه أنهم تشاءموا به كما قص الله -تبارك وتعالى- عن الأقوام السابقين، وكذلك عن المكذبين للنبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الكافرين بأنهم كانوا أيضا يتشاءمون به، قال: **{قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ}** يقول: أي الله يجازيكم على ذلك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: أي ما يقع لكم علمه عند الله، يقول: قالوا: نحن تطيرنا بك ما يأتينا من شر أو قحط أو نحو ذلك هو من قبلك، ومن دعوتك ومن دينك، فيقول لهم: ما يقع لكم من خير وشر **{عِندَ اللَّهِ}** أي علمه عند الله -تبارك وتعالى-، ولا شك أن ما يقع للإنسان من خير وشر فهو من الله، ولكن الشر لا ينسب إلى الله -تبارك وتعالى- تأدبا معه، ((والشر ليس إليك))[3]، وإلا فالله هو خالق الخير، وهو خالق الشر بلا شك، فلا يوجد في الخلق شيء إلا والله -تبارك وتعالى- هو الذي خلقه، ليس في الكون خالق غير الله -جل جلاله-، ولكن تأدبا معه لا ينسب إليه الشر استقلالا، ولهذا تأدب النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((والشر ليس إليك))، ولهذا في مقام الرد، في مقام بيان هذا الأصل قال: **{قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}** [سورة النساء:٧٨] حينما رد عليهم لما تطيروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ}**، فجاء الرد **{قُلْ**

---

٣ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).

كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} يعني الحسنة والسيئة، ولما أراد أن يبين منشأ ذلك ومرجعه وسببه قال: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [سورة النساء:٧٩]، فهذا في مقام التقرير والتبيين، قال لهم: إن ما يصيبكم من الشر كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [سورة الشورى:٣٠]، فالباء السببية تعني بسبب ذنوبكم، لكن في مقام الرد {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} أي بتقديره وقضائه -جل جلاله-، فنفرق بين المقامين، فليس ذلك من التعارض، أو التناقض هي كلها من عند الله خلقا وتقديرا وقضاء وقدرا، وتُنسب، وقال: {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} من جهة التسبب.

قال: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}، قال قتادة: **تبتلون بالطاعة والمعصية**، يعني تختبرون، قال: **والظاهر أن المراد بقوله: {تُفْتَنُونَ} أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال**، والفتنة تأتي لمعانٍ في القرآن من أشهرها الابتلاء والاختبار، بل أنتم قوم تمتحنون وتختبرون، ولما كانت تأتي بمعنى نتيجة الاختبار السيئة يعني العذاب، قال بعضهم: بل أنتم قوم تعذبون، يعني إنما يحصل لكم مما يسوءكم ليس من جهتي ليس من عندي {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي: تعذبون بذنوبكم، وبسبب سوء حالكم، وعدم استجابتكم، بسبب شرككم تعذبون بذنوبكم، وبعضهم يقول: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي: يفتنكم الشيطان عن طاعة الله وطاعة رسوله -عليه الصلاة والسلام- يفتنكم بهذه الطيرة، فيحصل لكم مثل هذا الاعتقاد الفاسد يتلاعب بكم الشيطان، وبعضهم كابن جرير يقول: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي تختبرون بي، أن الله أرسلني إليكم وابتلاكم بي، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- يُبتلون بأقوامهم، والأقوام يُبتلون بالرسل، وهذه الحياة هي دار الابتلاء فالغني يُبتلى بالفقير، والفقير يُبتلى بالغني، والعالم يبتلى بالجاهل، والجاهل يبتلى بالعالم، والصحيح يبتلى بالمريض، والمريض يبتلى بالصحيح، وهكذا، وهذا قاله في مقام الرد عليهم لما تطيروا به، قال لهم: {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} فهذه الأقوال يفتنون: يختبرون إذا قيل إنهم يبتلون بالطاعة والمعصية فهذه الحياة دار ابتلاء، {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢]، وإذا قيل: إنهم يبتلون برسولهم هل يستجيبون أو لا، فكذلك هو مبتلى بهم والله -تبارك وتعالى- يقول: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٦] يسأل الرسل عن أقوامهم ماذا أجابوكم؟ ويسأل الأقوام عن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ماذا بلغوكم؟ أو هل بلغوكم البلاغ المبين؟ وهكذا ما يعطاه الناس من الدنيا والمتع هو ابتلاء، وما يحصل لهم من هذا الشؤم هو نوع ابتلاء، وما يقع في قلوبهم، إلى غير ذلك من المعاني، والله تعالى أعلم.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} **[سورة النمل:٤٨-٥٣].**

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورءوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل

بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضًا، بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ} أي: مدينة ثمود، {تِسْعَةُ رَهْطٍ} أي: تسعة نفر، {يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

لهذا بعضهم يقول: يُنظَر إلى معنى الرهط {تِسْعَةُ رَهْطٍ} قالوا: الرهط اسم للجماعة، قالوا: كأن هؤلاء كانوا من العظماء الرؤساء المتبوعين فكانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويصدون الناس عن الاستجابة لنبي الله -عليه الصلاة والسلام- فكل واحد من هؤلاء يتبعه جماعة، ويمكن أن يكون قد خص هؤلاء أي مع كثرة الكافرين من قومه باعتبار أنهم الأعتى والأشد و الأبلغ و الأكثر في الفساد والإفساد كما قال ابن جرير -رحمه الله-: إن هؤلاء تميزوا على غيرهم وزادوا فخصهم؛ لسعيهم في قتل الناقة، إن الذين تآمروا على قتل الناقة واشتركوا في ذلك هم جماعة، ولكن الأحيمر من ثمود {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [سورة القمر:٢٩]، إن الذي باشر ذلك هو واحد منهم، ولكن الذين بيتوا هذا واتفقوا عليه وكذلك تآمروا على قتل صالح -عليه الصلاة والسلام- هم هؤلاء التسعة، فهم مردة، فشياطين الإنس وشياطين الجن كثير، ولكنه قد يتميز بعضهم بمزيد من الفساد والشر والعتو والتجبر على الله -تبارك وتعالى-، وعلى أهل الإيمان، فهؤلاء لهم مزية في ذلك: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} وهذا يكاد يكون لكل زمان ومكان، المردة، العتاة، المفسدون فمن الناس من يكون فساده و شره وضلاله على نفسه، ومنهم من يحمل أو يتحمل ضلال الآخرين ويدأب في صدهم عن الحق، ويحارب الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباع الرسل غاية المحاربة، والله المستعان.

قال العَوْفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم، قبحهم الله ولعنهم.

قال الله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [سورة القمر:٢٩]، **وقال تعالى {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}** [سورة الشمس:١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني، سمعت عطاء -هو ابن أبي رباح- يقول: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} قال: كانوا يقرضون الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا، كما كان العرب يتعاملون.

وقال الإمام مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطْع الذهب والورق من الفساد في الأرض.

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح -عليه السلام-، مَن لقيه ليلا غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم.

قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [سورة هود:٦٥]، **قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحِجْر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلا فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله صخرة من الهضَب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً} أي: فارغة ليس فيها أحد {بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}** ما ذكره هنا من كُمون هؤلاء في الغار لا دليل عليه، وظاهر القرآن يدل على أنهم أرادوا قتله وأهله ليلا **{لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}** يعني يمكن أن يأتوا إليه في الليل في بيته فيقتلوه مع أهله جميعا **{ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ}** يعني ولي الدم من عصباته **{مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}**، بمعنى أنهم كانوا يتهيبون من أوليائه وعصباته، وقد لا يكون هؤلاء على دينه أصلا، ولكن الله -عز وجل- قد ينصر أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- بمثل هذا، كما حمى أبو طالب النبي -صلى الله عليه وسلم- حمية وتسخيراً من الله -تبارك وتعالى- له، وهكذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ}** [سورة هود:٩١-٩٢] فهم راعوا هؤلاء الجماعة، والرهط والقوم، فيدل على أن الأنبياء أو الدعاة إلى الله -عز وجل- قد يحوطهم الله -تبارك وتعالى- ويهيئ لهم من الأسباب ما كان من هذا القبيل حمية وما إلى ذلك، فهؤلاء تقاسموا وحلفوا بالله -تبارك وتعالى- وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفون الله، أقسموا به، والقسم إنما يكون بمعظَّم، أقسموا أن يقتلوا نبيه -عليه الصلاة والسلام- وأن يقتلوا أهله معه، هكذا تعاهدوا، قال: **{وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**، وحقيقة المكر هو الأخذ بطريق خفي من حيث لا يشعر بذلك الممكور به، فقد يكون ذلك بأمر يحبه ويقبل عليه، ويدخل فيه الاستدراج بالنعم والعطاء إلى غير هذا من الوجوه الخفية التي يحصل بها الإهلاك من وجه لا يشعر به المهلَك، وصفة المكر ثابتة لله -تبارك وتعالى- على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، حيث يكون ذلك كمالا، يعني ليس بإطلاق، فالمكر ليس من الصفات الكاملة، وإنما يكون كمالا في محال دون غيرها، فالله -تبارك وتعالى- له من هذا الوصف ما يكون كمالا، ولهذا ليس ذلك من أسمائه -تبارك وتعالى-، ولا يقال: إن هذا من صفاته بإطلاق هكذا، ولكن المكر يمدح ويكون مستحسنا إذا كان في موضع يحسن فيه ذلك، يعني إذا وجد مثلا من يفسد ويتأذى الخلق به، فقام من خلصهم منه بحيلة خفية، أوقعه في سوء عمله فإن الناس يحمدون هذا ويرون أن ذلك من الكمال فهذا لا إشكال فيه، **{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ}** [سورة الأعراف:٩٩] ولا يقال: إن ذلك لا يقال على الله -تبارك وتعالى- إلا بمقابل ذكر المكر من

الكافرين والماكرين، لا، وإنما يقال: هذا ليس بلازم، هنا قال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}، لكن في قوله: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} هل ذكر مكرهم؟ الجواب: لا، وبعض أهل العلم يذكر ذلك في تقريره لهذه الصفة، بعض أهل السنة يقول: ذلك لا يقال إلا في مقابل ذكر مكر الماكرين، ولهذا بعض من يؤول وبعض من لا يشعر بأن ذلك من التأويل يقول: هذا من قبيل المشاكلة، والواقع أن المشاكلة نوع من المجاز، يعني لا حقيقة له، وبعض أهل السنة يعبر بهذا ولا يشعر بما تحته يقول: لا تقال إلا مع ما يقابلها من وصف الكافرين بذلك مثلا، وليس ذلك بلازم؛ فقوله: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} لم يذكر فعلهم ومكرهم، قال: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} وهذا حقيقة المكر من حيث لا يشعر الممكور به، {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}، فالله -تبارك وتعالى- يقول: لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ}؛ ليحصل الاعتبار بذلك كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [سورة فاطر:٤٣]، جاء بها بأقوى صيغة من صيغ الحصر النفي والاستثناء، {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، فالمكر السيئ يرجع إلى أصحابه، وهنا قال: {أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} على قراءة الجمهور، و{إنا دمرناهم} على الاستئناف جملة جديدة، ويكون ذلك من قبيل التفسير على هذه القراءة التي نقرأ بها {أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}، فهذه عاقبة مكر هؤلاء المجرمين، وذلك وعيد لكل من يتصف بصفتهم، ويحارب دين الله -جل جلاله-، وأولياءه فعاقبته إلى خسار، لكن أولئك لا يفقهون؛ لأن الله -تبارك وتعالى- طمس على قلوبهم، وقد لا يقرءون القرآن أصلا ولا ينتفعون به، ولكن العبرة لأهل الإيمان ينبغي أن يعتبروا بمثل هذا، وأن يثقوا بدين الله، وأنه منصور، وأن الله حافظ دينه، وأن مكر هؤلاء المجرمين يرجع إليهم، وأن دين الله محفوظ، وأن الله مظهر دينه، ولكن ليبلو الخلقَ بعضهم ببعض فينظر في عملهم، فمن الخطأ أن الإنسان ينكسر وتنثني قناته ويتخلى عن مبدئه ودعوته، وما عرف من الحق من أجل كثرة ما يرى من الكيد والصد وسخرية الساخرين، ولمز اللامزين من أعدائه من المنافقين والزنادقة وغيرهم، فهذا لا يزيده إلا ثباتا، فهذه أخبار الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وما يعقب الله ذلك مما ترون، كل هذا لا يزيد المؤمن إلا ثباتا على الحق، وصبرا عليه، وحسن ظن بالله -جل جلاله.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة النمل:٥٤-٥٨]، **يخبر تعالى عن عبده لوط -عليه السلام-، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء -فقال: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: يرى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكم المنكر؟**

يعني هنا الفاحشة، ومعلوم أن الفاحشة هي الذنب العظيم، والمراد بها نوع خاص من الفاحشة -قبحهم الله-، قال: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} اختلف المفسرون في الإبصار هنا هل المقصود به الإبصار بالعين، أو المقصود به الإبصار بالقلب يعني العلم؟، وابن كثير -رحمه الله- فسرها بالإبصار بالعين {وَأَنْتُمْ

{تُبْصِرُونَ} يعني أنهم يفعلون ذلك على مرأى من بعضهم، يعني يفعلون ذلك في مجالسهم ونواديهم لا يستترون به، وبعضهم كابن جرير يفسر ذلك ببصر القلب {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} يعني تعلمون قبحها، تعلمون أن هذا فعل قبيح وشنيع وسيئ، وأنه خلاف الفطرة، ولعل هذا هو الأقرب -والله أعلم- لظاهر القرآن، {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} هو يخاطب الجميع، يقول: {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} هذا أقرب من القول بأن المقصود {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي يبصر بعضكم بعضا، وهو يواقع هذه الفاحشة، لكن الذين قالوا: إن المقصود الإبصار بالعين يحتجون بمثل هذا {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، يقولون: يفعلون الفاحشة علانية في مجالسهم -نسأل الله العافية-، والذين لا يقولون بهذا فسروا {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} بتفسيرات، وغير ممتنع -والله تعالى أعلم- أن يدخل في إتيان الفاحشة علانية لكن ليس ذلك يعني بالضرورة أن يكون المراد بقوله: {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي تبصرون ذلك حال المواقعة {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: تعلمون قبحها، وقوله: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} سواء قلنا: إنه فعل الفاحشة أو ما ذكره بعض المفسرين وهو متلقى عن بني إسرائيل مما ذكروا من الأمور التي يقبح ذكرها وروايتها، وتثقل على السمع من القبائح التي كانوا يفعلونها في مجالسهم ولا يستحون، لا يستحي بعضهم من بعض، ليس عندهم شيء من المروءة {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، بعضهم يفسر هذا بأمور قبيحة لا يحسن ذكرها، ويذكرون من جملة هذا التصفيق فهو من فعل السفهاء إلى غير ذلك مما يذكرونه، فالله -تبارك وتعالى- أطلقَ: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} فيأتون في ناديهم المنكرات القولية والفعلية.

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا، كما قال في الآية الأخرى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [سورة الشعراء:١٦٥-١٦٦].

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

قال الله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش؛ تكرمةً لنبي الله -صلى الله عليه وسلم-، لا كرامةً لها.

المقصود بقوله: {فَخَانَتَاهُمَا} [سورة التحريم:١٠] أنها لم تكن على دينه، كانت تدل على ضيفانه، وليس المقصود أنها تقارف الفاحشة؛ لأن ذلك يعود على النبي -عليه الصلاة والسلام- فيكون قدحا في عرضه، ولا يمكن أن يقع ذلك لزوج نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} أنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين أي من الهالكين، مع قومها الهالكين، وبعضهم كابن جرير يقول: من الباقين، فالغابر يقال: للذاهب الهالك، ويقال أيضا: للباقي، فهو من الأضداد، ويمكن أن يجمع بين هذين المعنيين، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني

الكثيرة، فقد تكون هذه المعاني المجتمعة من قبيل المتضادة، وقد تكون من قبيل المتناقضة، وقد تكون من قبيل المتخالفة، ويمكن جمعها أحيانا فهنا **{مِنَ الْغَابِرِينَ}** من الذاهبين أو من الباقين؟ نقول هي من الذاهبين باعتبار أنها هلكت، وهي من الباقين باعتبار أنها بقيت في المحل، في أرضهم في دارهم فأصابها ما أصابهم من العذاب، فذهبت أي هلكت، وبقيت أي لم تفارق قومها مع لوط -عليه الصلاة والسلام- فهذا كله صحيح.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} أي: **حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال: {فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}** أي: **الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وَهمُّوا بإخراجه من بينهم.**

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} تنكيره هنا يدل على التعظيم، أي مطر عظيم شديد، وهو مطر غير معهود؛ لأنه من حجارة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: قال الله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [سورة النمل:٥٩-٦٠].

يقول تعالى آمرًا رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى، وأن يُسلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام -عليهم من الله الصلاة والسلام-، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:١٨٠-١٨٢].

وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-، و-رضي عنهم أجمعين-، وروي نحوه عن ابن عباس.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذا الأمر بحمد الله -تبارك وتعالى- يحتمل أن يكون متوجهاً إلى لوط -عليه الصلاة والسلام-، أمره ربه أن يحمده على هلاك قومه الذين كذبوه، وقارفوا هذه الفواحش، ولم يقبلوا نصحه وتذكيره، ويحتمل أن يكون ذلك الخطاب موجهاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يَحمد اللهَ على هلاك المكذبين عموماً، والذين قالوا: إنه متوجه إلى لوط -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن ذلك جاء عقب خبره -عليه الصلاة والسلام- وما جرى له مع قومه، قال: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} [سورة النمل:٥٨-٥٩]، ولكن ظاهر السياق -والله تعالى أعلم- أن ذلك متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تعليم له من الله -تبارك وتعالى-، -وهو خطاب أيضاً للأمة- أن يحمد الله -تبارك وتعالى- على نعمه وآلائه ومن جملتها إهلاك المكذبين، وذلك أن ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عن خبر لوط -عليه الصلاة والسلام- ذكره بصيغة الإخبار عما وقع له مع قومه بطريق الإخبار عن الغائب {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} [سورة النمل:٥٤] فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [سورة النمل:٥٦]، و{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ *

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} هذا الخطاب إلى لوط -عليه الصلاة والسلام- {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} -والله يحكي خبره-: الظاهر أنه خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين قالوا: إنه متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: هذا الأصل في القرآن أن مثل هذا الخطاب يتوجه إليه -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن القرآن نزل عليه ويكون ذلك شاملاً للأمة؛ لأن الحمد لا يختص به -عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله -تبارك وتعالى- فيما هو أبين وأوضح من هذا {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا} [سورة الإسراء:٢٣] مع أن أبويه -عليه الصلاة والسلام- قد مات منذ زمن بعيد عن نزول تلك الآيات، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} العباد الذين اصطفاهم، يحتمل أن يكون المراد بذلك الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والرسل، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا القول، وعزاه لابن زيد وغيره، وذكر الأدلة على هذا {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:١٨١]، فالله -تبارك وتعالى- قال: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحج:٧٥]، وقال لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي} [سورة الأعراف:١٤٤]، فهؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم الذين اصطفاهم الله واجتباهم، والقول الآخر: أن المراد بذلك الصحابة -رضي الله عنهم-، ومن أهل العلم من ذكر ما هو أعم من ذلك وهم أهل الإيمان، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع بين هذه الأقوال كعادته، إذ لا منافاة بينها، فإن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ} [سورة القصص:٦٨] فهو كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: اختيار بعد الخلق، فاختار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على سائر الناس، واختار من الأنبياء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، واختار من الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- أولي العزم، واختار منهم محمداً -صلى الله عليه وسلم- فهو أفضلهم، وهكذا أيضاً فإن الله اختار أهل الإيمان على سائر الناس، وجعلهم أمة الإجابة، واختار منهم السابقين بالخيرات، وهذا أمر لا يخفى أن هذا الاختيار واقع في هذه الأمة وفي غيرها من الأمم، فقوله: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} يدخل فيه دخولاً أولياً الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وإذا نظرت إلى غيرهم ممن اصطفاهم الله في الجملة من أهل الإيمان فإن ذلك يصدق عليهم، والسلام غير ممتنع على غير الأنبياء؛ لأنه تسليم من الله -تبارك وتعالى- بإلقاء هذا الاسم –السلام- وهو أمنةٌ ودعاءٌ بالسلامة في وقت واحد، بمعنى أنه إخبار، وكذلك هو دعاء للمسلم بالسلامة، وبعضهم يخصص ذلك بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أن الله اصطفاها على سائر الأمم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢] بطوائفهم الثلاث، ولكن لا دليل على التخصيص فيه بهذه الأمة، وإن كانوا من جملة من اصطفاهم الله -تبارك وتعالى-، وكأن هذا القائل نظر إلى ما ذكر الله من خبر تلك الأمم المكذبة كقوم لوط -عليه الصلاة والسلام- ثم جاء هذا الأمر للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذه الأمة التي اجتباها الله، وأورثها الكتاب والنبوة، والله أعلم.

وقوله: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}: استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى.

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى: "قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هل السلام من الله تعالى فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعا؟"[١].

يعني: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} المأمور به أن يحمد الله انتهى، وقف، ثم الله يقول: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} يكون ذلك من كلام الله، وهذا من الموصول لفظاً المفصول معنى، ويحتمل أن يكون ذلك من جملة القول المأمور به {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}.

وقال -رحمه الله-: " فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الأمرين، ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح، فيُرجَّح كونه داخلا في جملة القول بأمور: منها اتصاله به، وعطفه عليه من غير فاصل"[٢].

يعني {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذا من جملة المأمور به كقولك: قل كذا وكذا، وهذا يوجد ما يشهد له:

أولاً: أنه معطوف على الحمد، فيكون من جملة ما أمر به.

وقال -رحمه الله-: "وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد منهما هذا هو الأصل، ما لم يمنع منه مانع"[٣].

يعني أن العامل فيهما واحد، فالأصل في الكلام الاتصال لفظاً ومعنى ما لم يقم دليل أو قرينة على التفريق بينهما.

وقال -رحمه الله-: " ولهذا إذا قلت: الحمد لله، وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل، ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب"[٤].

إذا قلت: قل كذا وكذا، فهو عطف جملة على جملة هي نظيرة لها، لكن إذا قال: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} يكون هذا المأمور به طلباً {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} إذا كان هذا من كلام الله يكون هذا خبراً، عطف الخبر على الطلب، هذا وإن كان صحيحاً في اللغة إلا أنه قليل، وبعضهم أنكره، وقال: لا يصح في اللغة، لكن هو صحيح وإن كان قليلاً في الاستعمال، المقصود: انظر طرق الترجيح والقرائن التي يذكرها.

وقال -رحمه الله-: "ومنها: أن قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ظاهر في أن المُسلِّم هو القائل الحمد لله؛ ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل: سلام على عبادي"[٥].

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ} لو كان من الله قال: {وسلام على عبادي الذين اصطفيت}.

---

١ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٣٩٧/٢)، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط١، سنة النشر: ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٢ - بدائع الفوائد، لابن القيم(٣٩٧/٢).

٣ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

٤ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

٥ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

وقال -رحمه الله-: "ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور: أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى"[6].

هذه مرجحات القول الآخر أنه مفصول، وأن الثاني من كلام الله، يقول يشهد له القرآن.

وقال -رحمه الله-: " كقوله: "سلام على نوح في العالمين"، "سلام على إبراهيم" "سلام على موسى وهارون" "سلام على إل ياسين".

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم، أما الأول: فقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:١٨٠-١٨١] وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضُلّال خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سَلِموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم.

وإذا سلِم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص، وكذب وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل، فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ} [سورة الأنبياء:١١٢]، وقوله: {وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} [سورة المؤمنون:١١٨]، وقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [سورة الأعراف:٨٩]، ونظائره كثيرة جدا.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاما واحدا"[7].

ذكَرَ القرائن التي تشهد للقول الأول أنه من جملة المأمور به {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}، ثم ذكر القول الآخر {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}، ثم الوقف يكون هنا تاماً ثم يكون ذلك من كلام الله -عز وجل- يقول مُسلّماً: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ذكر أدلة هذا وأدلة هذا، والقرائن التي تشهد لكل منهما، ثم جمع بين القولين، والآية إذا احتملت معنيين أو أكثر كل واحد يشهد له القرآن ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب -تبارك وتعالى- فهو الذي حمد نفسه وسلم على صفوة عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك فإذا قال الرسول:

---

٦ - المصدر السابق (٢/٣٩٧).

٧ - بدائع الفوائد، لابن القيم(٢/٣٩٧-٣٩٨).

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا -تبارك وتعالى- الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى"[٨].

هذا الوجه في الجمع بهذه الطريقة: من جهة المعنى أنه مأمور به، وحينما أمر الله به فهو بهذا الاعتبار مُسلِّم على عباده الذين اصطفى؛ لأنه أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بذلك، لكن من الناحية اللفظية هذا كلام الله يسلم حينما يقول: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}، وكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- المأمور به: هذا لا يمكن أن تقوله في آنٍ واحد في هذا الموضع، هذا الكلام لمتكلميْن، إما أن يكون الوقف هنا {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} إذا قلت بأن الوقف تام {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} فيكون من المفصول معنى، هناك يأمره {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} ثم الوقف، ثم الله يقول: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ففي هذا الموضع التسليم ليس من جملة المأمور به، وإما أن يكون غير ذلك، فهنا من الناحية اللفظية لا يمكن الجمع -والله أعلم-، هذا كله صحيح في هذا الموضع من الناحية اللفظية أن هذا من كلام الله المأمور به أعني قوله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}؛ لأنه هو الذي يسلم، وأنه في نفس الوقت مما أمر به نبيه -صلى الله عليه وسلم-، لكن من ناحية المعنى حينما أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذا فهو تسليم منه على نبيه -عليه الصلاة والسلام-، -والله تعالى أعلم-، هذا من جهة المعنى، فهذه طريقة في الجمع بين الأقوال، وطرق الجمع متعددة، ومن تتبع المواضع التي في هذا يستطيع أن يحصّل من ذلك صوراً كثيرة، والله أعلم.

وقال -رحمه الله-: "وكلمة السلام هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول، فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهي الحمد لله، ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا"[٩].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ} أي: تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} أي: جعله رزقا للعباد، {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ} أي: بساتين {ذَاتَ بَهْجَةٍ} أي: منظر حسن وشكل بهي.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} الحدائق قال: **البساتين**، والحديقة تطلق في كلام العرب على البستان الذي له حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو بستان، فما له حائط يقال له: حديقة، والذي ليس له حائط يقال له: بستان، يقول: "**منظر حسن وشكل بهي**" يعني يبتهج من ينظر إليه.

{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون،

---

٨ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٢/٣٩٨).

٩ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (٥١٤)، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة الزخرف:٨٧]، **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}** [سورة العنكبوت:٦٣] **أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: أإله مع الله يُعبد، وقد تبين لكم، ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق؟!.**

ثم قال: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي: يجعلون لله عدلا ونظيرًا.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** يعني: ما صح لكم، ومعنى النفي هنا الحظر، يعني هذا لا يتأتى لكم ولا يمكن، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}** [سورة التوبة:١٢٠] يعني: ما صح لهم، وهذا بمعنى الحظر، أي لا يجوز لهم ذلك، لكن هذا يدل على الامتناع فإن ذلك لا يتأتى للمخلوقين، فالامتناع ليس المقصود به الامتناع الشرعي **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}**، وإنما الامتناع العادي، يعني أن ذلك لا يمكن **{أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** تستطيع أن تقول: هو ممتنع واقعاً ولا يمكن أن يحصل ذلك من المخلوق؛ لأن ذلك إنما يختص به الخالق وهو الخلق، الامتناع: منه ما هو امتناع شرعي، ومنه ما يكون من قبيل الامتناع العادي في مجال العادات، ومنه ما يكون من قبيل الامتناع العقلي يعني المحال عقلاً الذي لا يتصوره العقل أصلاً، وقوله -تبارك وتعالى-: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}** ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي: أإله مع الله يعبد؟،** ومن أهل العلم من يقول: أإله مع الله أوجدها وخلقها؟! فهما قولان مشهوران، وهكذا في قوله: **{بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}** أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، أيضاً يحتمل معنى آخر **{بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}** أي: عن الحق، يعدلون عنه ويختارون طريق الباطل فهم يعدلون عن الحق إلى الباطل، هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، فإذا كانوا يجعلون لله -تبارك وتعالى- نظيراً على المعنى الأول فهم في الواقع قد عدلوا عن الحق إلى الباطل، فهذان المعنيان صحيحان ولا منافاة بينهما، والله تعالى أعلم، فهذا والذي قبله، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}** أإله مع الله يعبد؟، أإله مع الله خلقها وأوجدها: كل ذلك صحيح، فهذا وإن كان من قبيل اختلاف التضاد إلا أنه يرجع إلى اختلاف التنوع باعتبار الجمع بين هذه الأقوال.

قال ابن القيم -رحمه الله-: " يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده فهو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: أإله مع الله فعل هذا؟، حتى يتم الدليل فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى هل مع الله إله آخر؟ من غير أن يكون المعنى فعَلَ هذا فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك

الثاني: أنه لا يتم الدليل ولا يحصل إفحامهم، وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: {أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة الرعد:١٦]، وقوله: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِه} [سورة لقمان:١١]، وقوله: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ} [سورة النحل:١٧]، وقوله: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [سورة النحل:٢٠]، وقوله: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِه آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [سورة الفرقان:٣]، وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين"[١٠].

الحافظ ابن القيم كما ترون يخالف ابن كثير فيما ذهب إليه، فابن كثير يقول: أإله مع الله يعبد؟!، لكنه لم يرجح هذا القول، والكلام الذي حذف في المختصر كان ينبغي ألا يحذف، فابن كثير ذكر القول الآخر أإله مع الله فعل هذا؟! قال: وهو يرجع إلى القول الأول بطريق الجمع بين القولين، والذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- يخالف القول الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- أإله مع الله يعبد؟!، فابن القيم يقول: أإله مع الله خلق هذا؟! فعل هذا؟! واحتج على هذا بأمرين:

الأمر الأول: أنهم يعبدون معه غيره، فهم لا ينكرون عبادة غير الله -عز وجل-، يعبدون معه الأصنام.

والأمر الثاني: أن الحجة لا تقوم عليهم بمثل هذا، إنما تقوم بأن يقولوا: لا، أإله مع الله فعل هذا؟! أإله مع الله خلق؟! فهم ينكرون أنه ما خلق ذلك أحدٌ سوى الله -تبارك وتعالى-، هم يقرون بهذا، إذا كان كذلك ألزمهم بتوحيد الإلهية، وهذا معنى قول أهل العلم: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية ويقتضيه، ويُحتج عليهم بتوحيد الربوبية الذي يقرون به على توحيد الإلهية، فهذا معنى كلام ابن القيم واحتج على هذين الأمرين، يقول: وكيف يقول لهم: أإله مع الله يعبد وهم يعبدون غيره؟ لكن يمكن أن يقال: الذي قال: يعبد لا يخفى عليه ما ذكره ابن القيم، وإنما يقصدون أإله مع الله يعبد أي يستحق العبادة، وهو الذي خلق هذه المخلوقات وأوجدها -تبارك وتعالى- مما يعجز عنه الخلق؟، فيكون القول الأول والثاني بهذا الاعتبار بينهما ملازمة على هذا الوجه، أإله مع الله أوجدها فيستحق العبادة؟، أو أإله مع الله يستحق العبادة، والله هو الذي خلقها وأوجدها؟، والآية تحتمل المعنيين، والواقع أنه ليس مع الله إله يستحق أن يعبد، وليس مع الله إله خلقها وأوجدها، والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة النمل:٦١].

يقول: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة.

قوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} فعل هذا؟ -كما يقول ابن القيم- هو الذي اختاره ابن جرير، وابن كثير -رحمه الله- كما سمعتم أشار إلى الجمع بين القولين.

---

١٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٤١٢/١).

بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [سورة غافر: ٦٤].

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} "أي: **قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم**"، يعني: جعل لها رواسي، صارت قارة ثابتة يتقلب الخلق عليها ويسعون في مصالحهم، ويمشون في مناكبها ولا يحصل لهم فيها اضطراب، وإنما هي ساكنة هذا القدر، ولا إشكال فيه، لكن هل هذا ينفي ما يذكره المعاصرون أو كثير من المعاصرين من أن الأرض تتحرك يعني تدور، الذين منعوا من ذلك تمسكوا بأن الله يقول: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} فهي مستقرة فكيف يقال: إنها تتحرك وتدور؟، وبصرف النظر عمن قال: إنها تتحرك وتدور لا يقال: إنه مكذب ومناقض للقرآن؛ لأن حركة الجرم الكبير جداً في الأرض بهذا اللون من الحركة لا تظهر للناس ولا يشعرون بها، فهي بالنسبة إليهم قارة ثابتة لا يرون هذه الحركة ولا تؤثر فيهم، وهذا وجه الامتنان {جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} بمعنى أنها لا تضطرب ولا تتحرك بهم حركة تؤثر على الخلق، فالزلزلة مثلاً اضطراب وحركة قوية في الأرض تؤثر غاية التأثير، كانت الأرض مضطربة تميد بالناس فهنا وجه الامتنان بجعلها قارة يعني لا تضطرب، ومن قال: إنها تتحرك وتدور، لا يقال: إنه مكذب القرآن ومناقض للقرآن؛ لأن الله قال: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا}، وحركة الجرم الكبير هذه الحركة الرتيبة لا يشعر بها الخلق، فالعامة مثلاً لا يشعرون أن الأرض تدور، لا يخطر في بالهم ذلك أصلاً؛ لأنهم لا يشعرون بهذه الحركة، فمن قال: إنها تتحرك، لا يقال: إنه مكذب بالقرآن فهو كافر؛ لأن الآية ليست صريحة في ذلك، بمعنى أن القرار المقصود أنها لا تميد بالناس لا تضطرب، لكن هي في العين تتحرك، وهذا كما قيل في قوله -تبارك وتعالى- في وصف الأرض بأن الله جعلها بساطا منبسطة، ونحن نعلم أن الأرض كروية، الله قال: {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} [سورة نوح:١٩]، فمن قال: إنها دائرية لا يكون مكذباً للقرآن؛ لأن هذا التكور في الجرم الكبير لا يبدو للناظرين، بل تبدو كأنها مسطحة، والواقع أنها كروية، والذي يكون تكذيباً للقرآن من يقول: إن الشمس ثابتة لا تتحرك، وإن الأرض هي التي تدور حول نفسها، تدور حول الأرض والشمس لا تتحرك، ومن دورة الشمس يحصل الليل والنهار، وليس من دوران الأرض كما يقوله أهل الفلك، والدليل على هذا أن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} [سورة يس:٣٨]، فالذي يقول: لا تتحرك هذا مناقض للقرآن، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في التعاقب والتتابع بين الشمس والقمر: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ} [سورة يس:٤٠]، لا يجوز بحال من الأحوال أن يقال في معناها: إنها تجري وإن القمر أيضاً يجري، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يقال ذلك، يحتاج الناس أن يعلموا بهذا، وأن الحقائق المذكورة في القرآن هي التي يجب الوقوف عندها وعدم الالتفات إلى ما خالفها لكن من القرآن ما يكون صريحاً، وأحياناً لا يحتمل معنى آخر مثل هذه {وَالشَّمْسُ تَجْرِي} فلا يجوز لأحد أن يقول: إنها ثابتة لا تتحرك، لكن في مسألة الانبساط والأرض كروية فهذا لا يناقض القرآن، وكروية الأرض ذكرها العلماء قديماً، وذكرها شيخ الإسلام على أنها قضية مسلمة، قضية معروفة لكن التكور في الجرم الكبير لا يظهر للناظر، والله تعالى أعلم.

{وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا} أي: **جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، سَيَّرَ لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.**

تذكرون الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- في مناسبة سابقة لما تكلم على هذه الآية ذكر جعْل الأنهار في الأرض فقال: الله يسوق المطر إلى الأرض فتنبت، ومن الأرض ما يكون سباخاً إذا جاءه المطر فإن ذلك لا ينفعه، ولا يحصل به الإنبات، وإنما يأتيه الماء من أماكن أخرى فيحصل بذلك نفع الناس، ومثل على هذا بأرض مصر، الأرض التي لا تنتفع بالمطر تأتيها الأنهار.

{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} أي: **جبالا شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم.**

قوله تعالى: {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}، و{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} تثبت لا تضطرب، يعني الذين يقولون: إن الأرض تتحرك يحتمل أن ذلك لا يناقض القرآن مناقضة صريحة، لأن المعنى لا تضطرب بالناس {وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} تثبتها من الاضطراب والزلزلة.

{وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} أي: **جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى:** {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [سورة الفرقان:٥٣].

ابن كثير -رحمه الله- يقول عن الحاجز: **مانع يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا**، فبعضهم يقول: الحاجز من اليابسة، فالأنهار تجري في شقوق الأرض لا تختلط بالبحار إلا في مصباتها، فتبقى في هذه الشقوق عذبة حلوة، وبعض أهل العلم يقول: المقصود بالحاجز أنها لا تختلط، لا يطغى هذا على هذا، فحينما تصب الأنهار في البحار فإن ذلك لا يُحول البحار إلى مياه عذبة على طول الزمان وكثرة ما يصب فيها من الأنهار في العالم، وكذلك البحار لا تطغى على الأنهار فتمازج مياهها فتتحول مياه الأنهار؛ لأنها صغيرة بالنسبة للبحار، لا يطغى عليها البحر فيمزجها فتتحول مياه الأنهار إلى مياه ملح، وجعل بينهما حاجزاً هذا لا إشكال فيه، والمعنى ظاهر، وما يقال زيادة على ذلك من التفصيلات قد لا يناقض ما قاله السلف أعني ما يذكره أصحاب الإعجاز العلمي فهذا من الأمثلة التي يمكن أن يقبل فيها ما يقولون: فحينما يقولون مثلاً: جعل بينهما حاجزاً: جعل مكان الملتقى هذا المكان الذي يُلتقي فيه، يصب فيه النهر للبحر، هذه المنطقة تبقى منطقة لها خصائص معينة، وتعيش فيها كائنات معينة، وذاك بحر، هذا هو الحاجز، أو ما يقولونه من أن المياه الحلوة العذبة حينما تصب في البحار تبقى وتحافظ على خصائصها، وأن العيون التي في البحار لها مساراتها، وأنها لا تمتزج بماء البحر -على أنها تتحول إلى ملح- وإنما تبقى حلوة، فإن صح ذلك فهذا من جملة التفصيل الذي يذكر في الآية، وهكذا ما يذكرونه، وجعل بين البحرين حاجزا: يقولون: بين البحر والبحر وليس البحر والنهر، يقولون: البحر والبحر الملتقى بينهما يكون له خصائصه، هذه المنطقة تعيش فيها

كائنات غير الكائنات التي تعيش هنا وهنا، ونسبة الملوحة فيها تختلف عن هذا البحر، وهذا البحر، فهذا حاجز بين البحرين، ونحن نعرف أن البحار تختلف في خصائصها والكائنات التي تعيش فيها، يعني: في نسب الملوحة، والنباتات التي تكون فيها، والكائنات التي تعيش فيها، يعني انظر إلى الخليج العربي هو من أكثر مياه البحر في العالم ملوحة وهذا معروف شديد الملوحة، وتجد أن لونه كدر إلى حد ما يعني ليس بذلك الصفاء لربما لكثافة ملوحته، لكن إذا ذهبت إلى البحار الكبيرة كالمحيطات تجد أن الملوحة أقل بكثير، وتجد أن الماء في غاية الصفاء، حتى البحر الأحمر فيه ملوحة وترى صفاء الأرض، وما لا تراه في هذا البحر تراه في البحار الأخرى والمحيطات، وحينما تسبح في هذا المحيط تسبح ولا تحتاج أن تغمض عينيك، فإذا أصاب العين شيء من الماء في البحار الصغيرة فإن ذلك يشق على الإنسان، وهناك في المحيطات لا يحدث شيء من ذلك، كأنك تسبح في نهر لا يؤذي العين إطلاقاً، ولا تشعر بشدة الملوحة في مياه المحيطات فهذا له خصائص وهذا له خصائص، هو بحر لكن مع طول هذه المدة من الالتقاء لن تمتزج هذه البحار بحيث تكون وحدة ذات خصائص متحدة، ولذلك حتى الكائنات التي تعيش هنا غير الكائنات التي تعيش هناك، فبعض الأسماك توجد في البحر المتوسط، ولا توجد في الخليج العربي أو البحر الأحمر والعكس، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعَلَ هذا؟ أو يعبد؟ على القول الأول والآخر، وكلاهما متلازم صحيح، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي: في عبادتهم غيره.

قوله تعالى: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعل هذا؟، أو يعبد؟، وعلى القول الأول والآخر كلاهما متلازم صحيح، جمَعَ بين القولين.

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة النمل:٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعُوّ عند الشدائد، المرجُوّ عند النوازل، كما قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [سورة النحل:٥٣]، وهكذا قال هاهنا: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} أي: مَنْ هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟.

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} المضطر هو المجهود المكروب الذي لا حول له ولا قوة، قد انقطعت به الأسباب؛ ولهذا يذكر أهل العلم في سبب إجابة الله -عز وجل- دعوة المضطر يقولون: لما انقطعت به العلائق والأسباب فإنه يخلص في هذه الحال الدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال الله -جل جلاله-: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة العنكبوت:٦٥] فإذا انقطعت علائقه وحّد وجهته إلى ربه وخالقه -جل جلاله-، فعندئذ يجيبه الله حينما لا يبقى في القلب أي التفات إلى المخلوقين، أو ما يعبد من دون الله -تبارك وتعالى-، وقوله: {وَيَكْشِفُ السُّوءَ} كل ما يسوء العبد، وبعضهم يقول: هو الضر، يكشف السوء: يكشف الضر من مرض ونحوه، والمعنى أعم من ذلك، يكشف السوء: كل ما يسوء الناس، ويدخل فيه الضر والمرض.

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجيم قال: "قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: "أدعو إلى الله وحده، الذي إن مَسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضْلَلْت بأرض قَفْر فدعوتَه رَدّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَة فدعوتَه أنبتَ لك"، قال: قلت: أوصني، قال: "لا تَسُبَّنَّ أحدًا، ولا تَزْهَدَنّ في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تُفرغَ من دَلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله -تبارك تعالى- لا يحب المخيلة"[11].

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت: هزم الكفار يوما المسلمين في غزاة، فوقف جَوَاد جَيّد بصاحبه، وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: ما لك؟ ويلك، إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم، فقال له الجواد: وما لي لا أقصّر وأنت تَكلُ علوفتي إلى السُّواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك عليَّ عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حِجْري. فجرى الجواد عند ذلك، ونجَّى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حِجْره، واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمرُه، فقال: ما تُضَام بلدة يكون هذا الرجل فيها.

ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، يقول يعني لا تغلب ولا تقهر بلدة يكون هذا الرجل فيها، يقول: لا سبيل لنا عليهم ما دام مثل هذا فيهم، فأراد أن يأخذه ويأسره ليسلط عليهم.

واحتال ليحصلّه في بلده، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته في الإسلام وقومه.

هذا مأسور وارتد فأرسله ملك الروم، واحتال على هذا الرجل وجعله يأتي ليؤسر، يعني يتلطف به، وأخرجه معه إلى البلد حتى يمكن أسره.

حتى استوثق، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خَدَعني بك فاكفنيهما بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالما.

هذه واقعة {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة البقرة:20] قد يحصل هذا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن تكلم الذئب حينما قال للرجل الذي استنقذ منه الشاة: أتمنعني رزقاً ساقه الله إليّ[12]؟، وقال: ((بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث))[13] فالله -تبارك وتعالى- قادر، لكن مثل هذه الواقعة التي ذكرها ابن عساكر عن هذه المرأة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية يعني نحن ننظر إلى هذا كأنه من أخبار بني إسرائيل، يعني لا نصدق مثل هذا ولا نبادر إلى تكذيبه؛ لأنه غير ممتنع.

---

11 - رواه أحمد في المسند، برقم (20636)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

12 - رواه أحمد في المسند، برقم (11792)، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح، القاسم بن الفضل الحداني، وأبو نضرة: وهو المنذر بن مالك العبدي، يزيد: هو ابن هارون، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (122).

13 - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف:9]، برقم (3284).

وقوله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أي: يُخْلفُ قَرنا لقرن قبلهم، وخَلَفًا لسلف، كما قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام:١٣٣]**، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** [سورة الأنعام:١٦٥]**، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [سورة البقرة:٣٠]**، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضا، كما قدمنا تقريره.**

يعني: يخلف بعضهم بعضاً سواء قيل: إن الأمم يخلف بعضها بعضاً، أو إن الأجيال يخلف بعضها بعضاً، فالأولاد يخلفون الآباء، وهذا المعنى هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوماً يخلف بعضهم بعضاً، ولا يقال: إنهم خلفاء عن الله -عز وجل-، هذا وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه غير صحيح، والله أجل وأعظم من أن يخلفه أحد من خلقه، والكلام في هذه المسألة تجدونه في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠]، ولا يقال: هو خليفة عن الله، و لا يقال: الإنسان خليفة الله بأرضه، كما يقال، الأقرب أن ذلك غير مراد، وأنه لا يسوغ أن يقال: الإنسان خليفة الله في أرضه، وإنما خليفة: أن يخلف بعضه بعضاً، وبعض أهل العلم في آية البقرة خاصة يقول: صاروا خلفاء من الجن، فإن الجن كانوا قبل الإنس في الأرض فأفسدوا فيها؛ ولهذا قالت الملائكة لما أخبرهم الله -عز وجل- عن هذا الاستخلاف: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} قاسوا ذلك على الجن، وليس بلازم، فقد يكون الله -عز وجل- أطلع الملائكة على حال آدم وما ركب فيه من الشهوات مما يقتضي وقوع هذا الفساد من سفك الدماء وما إلى ذلك، لكن ليس المقصود أنهم خلفاء عن الله، فالإنسان ليس بخليفة عن الله -جل جلاله.

وهكذا هذه الآية: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أي: أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وقومًا بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضَهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقَهم من نفس واحدة، ثم يكثرَهم غاية الكثرة، ويذرأَهم في الأرض، ويجعلهم قرونا بعد قرون، وأمما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البَرية، كما قدر ذلك -تبارك وتعالى-، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدًّا، ثم يقيم القيامة، ويُوفي كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: يقدر على ذلك؟، أو أإله مع الله بعد هذا يُعْبدظ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك {قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ} أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

هنا في المعنى الذي ذكره في قوله: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} كلام ابن كثير -رحمه الله- يشرح هذه الآية وهي من دلائل قدرة الله -جل جلاله-: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أجيال وهكذا، يعني بهذه الطريقة لو شاء الله -عز وجل- جعل الناس جميعاً، أوجدهم مرة واحدة كما خلق آدم ويموتون في وقت واحد فتضيق بهم الأرض، فلو كل الناس من أولهم إلى آخرهم وُجدوا وخُلقوا كما خُلق آدم، ويموتون في وقت واحد فإن الأرض تضيق بهم، ولكن من حكمته -تبارك وتعالى- أن جعلهم خلفاء الأرض، فهذا الجيل يُفنى الآباء ويُولد

الأبناء، يَفنى أناس فلا تشعر بفراغ بعد موت الآباء؛ لأنه وجد الأبناء، ثم يتحول هؤلاء الأبناء إلى آباء ثم يكونون كالزرع الذي آن حصاده فيتحولون إلى أجداد، ثم بعد ذلك يبدءون بالفناء، ومن الناس من يتوفى قبل ذلك، ويوجد ويولد في نفس الوقت، يولد أناس ويموت أناس، هكذا الأجيال تتعاقب، فلا يُشعر بموتهم من جهة الكثرة أو القلة ولا يُشعر أيضاً بالمواليد من جهة الكثرة، فإذا قيل: إنه ولد مثلاً مليون إنسان في هذا اليوم لا ترى زحاماً في الطرقات، وإذا قيل: مات مليون إنسان في العالم في هذا اليوم لا ترى فراغاً، لكن ذلك يأتي بالتدريج بهذه الطريقة، يعني لو قدر لنا أن نضع ذلك بألوان ونحو هذا تجد رأس هذا الجيل باللون الأصفر، ووسطه باللون الأحمر، أوله الطرف الأسفل بلون آخر أخضر يعني هؤلاء جيل جديد ثم بعد ذلك يزهو ويكتمل، ثم بعد ذلك يصفر، ثم ينقضي ثم يتلاشى، وهكذا ينبت الجيل الجديد ويتحول إلى آباء، ويأتي جيل بعدهم وجيل بعدهم، ويتعاقب الناس بهذه الطريقة، فالجيل الذين قبلنا ماتوا، ولو أنهم ماتوا جميعاً في يوم واحد لعُد ذلك فناء عاماً للناس، ولكن الناس يفنون، كل جيل يفنى لكن اليوم واحد، وغداً آخر وبعده آخر وهكذا الجيل الجديد ما يوجد دفعة واحدة، وإنما اليوم واحد وغداً آخر وبعده شيئاً فشيئاً ثم يحصل هذا التعاقب وتصرف الأموال فيهم والثروات تنتقل من جيل إلى آخر، ويرثون الأرض، فهذه الأرض التي نحن فيها وجد فيها أجيال قبلنا لكنهم انقضوا، وماتوا وثرواتهم انتقلت إلى الذين بعدهمن هذه آية من آيات الله -تبارك وتعالى- في هذا الخلق.

{أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة النمل:٦٣].

يقول تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل:١٦]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} الآية [سورة الأنعام:٩٧].

{أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، والظلمات هنا تحتمل معنيين: تحتمل أن يكون المقصود بها ظلمات الليل، فيكون المعنى أمن يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتم في البر والبحر؟، {فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} يعني ما الذي يرشدكم في الظلام حال السفر؟، فجعل لهم من الآلات ما يرشدهم كما قال الله -عز وجل-: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل:١٦]، فعلامات {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} يعرفون ذلك بالنهار بعلامات كالجبال ونحو ذلك، ويهتدون ليلاً بالنجوم، ويحتمل أن يكون المقصود بالظلمات ليس الظلام، وإنما المفاوز التي لا أعلام فيها ولجج البحار، فشبهها بالظلمات باعتبار أنهم لا يجدون فيها ما يرشدهم، يعني يمشي في أرض ليس فيها أي علامات يعرفها، ويهتدي بها إلى وجهته، وإذا دخل في لجج البحر فإنه لا يجد علامات تهديه إلى مراده، فذلك ظلمات بهذا الاعتبار، يعني أن الأمر يكون مبهما بالنسبة إليه، لا يظهر له وجه اهتداء، فجعل الله -عز وجل- لهم من العلامات بالنجوم ونحوها ما يهتدون به إذا دخلوا البحر، فالذي جعل لهم علامات يهتدون بها ويصلون بها إلى مطلوبهم الله -تبارك وتعالى-، وإذا نظرت إلى أخبار العرب في مثل هذا وجدت العجب، وبعضهم يستطيع أن يصف كل شيء بالنجوم -وهذا موجود إلى اليوم-، يعرفون أين يقع المكان الفلاني، وأين تسكن القبيلة الفلانية، فالله -تبارك

وتعالى- جعل لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر، فهنا قال: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، كقوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [سورة الأنعام:٩٧]، وإلا فإذا دخل البحر لا توجد فيه أي علامات عدا النجوم، فيهتدي بها.

{وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يُغيث به عباده المجدبين الأذلّين القنطين، {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

الرياح تكون مبشرة بالمطر، مبشرة له، وهي الريح التي تكون قبله مبعثرة فينزل المطر بعدها، وهذا مشاهد، بُشراً: كما أنها أيضاً تكون ناشرة للسحاب فهي نُشر، تنشر السحاب وتلقحه وتسوقه.

{أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة النمل:٦٤].

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [سورة البروج:١٢-١٣]، **وقال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** [سورة الروم: ٢٧].

{وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [سورة الطارق:١١-١٢]، **وقال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}** [سورة الحديد:٤]، **فهو -تبارك وتعالى-، يُنزل من السماء ماء مباركًا فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى}** [سورة طه:٥٤]؛ **ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعَلَ هذا؟، وعلى القول الآخر: بعد هذا يُعبد؟ {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}** [سورة المؤمنون:١١٧].

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٦٥ إلى الآية ٨٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [سورة النمل:٦٥-٦٦].

يقول تعالى آمرًا رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول معلمًا لجميع الخلق: إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب، وقوله: {إِلا اللَّهَ} استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله -عز وجل-، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ} الآية [سورة الأنعام:٥٩]، **وقال: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِلُ الْغَيْثَ...}** [سورة لقمان:٣٤] **إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة.**

وقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً} [سورة الأعراف:١٨٧]، **أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.**

وقوله: {بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها.

وقرأ آخرون: "بل ادَّارَكَ علمُهم"، أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لجبريل -وقد سأله عن وقت الساعة-: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[1]، أي: تساوى في العجز عن دَرْك ذلك علم المسئول والسائل.

وقوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} [سورة الكهف:٤٨] **أي: الكافرون منكم، وهكذا قال هاهنا: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} أي: شاكُّون في وجودها ووقوعها، {بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} أي: في عمَاية وجهل كبير في أمرها وشأنها.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، برقم (٨).

فقوله تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الآية قراءتين وهما قراءتان متواترتان الأولى {بل أدرك}، والثانية {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ}، وحمل الأولى {أدرك} قال: **أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها**، و{أدرك} بمعنى انتهى باعتبار أن الشيء إذا أدرك يكون قد بلغ منتهاه تقول: أدرك الثمر بمعنى أنه بلغ منتهاه فليس له بعد ذلك إلا الزوال والاضمحلال، يعني لا يُنتظر فيه كمال بعد ذلك، بلغ المنتهى، فهنا قال: أدرك أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها هذا وجهه، لما ذكر القراءة الأخرى {ادَّارَكَ} قال: **أي تساوى علمهم في ذلك**، {ادَّارَكَ} يعني تدارك فصاروا متساوين في علمها، بمعنى أنه لا يحيط أحد بعلمها أو لا يعلم متى وقوع الساعة إلا الله -تبارك وتعالى-، هذا معنى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والآية فيها كلام كثير لأهل العلم، بل ذكر فيها بعضهم اثنتي عشرة قراءة، ولكن المتواتر منها قراءتان، وهو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ومن أراد الوقوف على هذه القراءات فلينظر في مثل كتاب "البحر المحيط" لأبي حيان -رحمه الله- قد ذكرها وأطال الكلام عليها، كما تكلم عليها بكلام جيد مفصل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في "أضواء البيان"، وخلاصة ما ذكره أهل العلم في تفسيرها {بَلِ ادَّارَكَ} فالجمهور يقولون: أصله تدارك، وبعضهم يقول: تكامل علمهم في الآخرة، وهذا المعنى من أدرك الثمر، إذا نضج واكتمل وبلغ الغاية، عكس ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- وهؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث ليس عندهم هذا العلم الكامل في الآخرة، لكن هؤلاء حملوه على أن ذلك واقع في الآخرة، {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، فـــ"في" ظرفية يعني في الآخرة يحصل لهم كمال العلم لما عاينوا من الحقائق {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢] فتتكشف عنهم الحجب، ويعرفون حقية ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فتزول عنهم الأوهام والشكوك والتكذيب، والآخرة كما هو معلوم إذا رأوها عندئذ يقرون، ويتمنون أنهم لو اتبعوا الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فهنا يقولون: يعني اكتمل، يعني في الآخرة يكتمل، ويحصل لهم كمال العلم، فهؤلاء جعلوه في الآخرة يعني في اليوم الآخر يحصل لهم الكمال لما يعاينون لكن من جعل ذلك متعلقاً -يعني متعلق العلم- بقضية الآخرة، {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} فبعضهم يقول: {بَلِ ادَّارَكَ} أي ضعف كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي فهذا يكون محمولاً على الدنيا {عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} فيكون متعلق العلم القضية التي يرتبط بها علمهم من حيث الكمال والضعف والقوة إلى آخره هي قضية الآخرة التي يجادلون فيها، ويستبعدون وقوعها، فإذا قلنا: إن هذا في الدنيا على ضعف العلم، وهكذا قول من قال ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمله أيضاً على أن ذلك في الدنيا، {بَلِ ادَّارَكَ} قال تتابع هذا الشيء متدارك أو متدارك فيه، تتابع متتابع علمهم في الآخرة هل هي واقعة أو غير واقعة، {ادَّارَكَ} أي: تتابع علمهم في شأن الآخرة من حيث الوقوع وعدمه، وهكذا القول الذي وجهت به كلام ابن كثير -رحمه الله-، قال في الأول {أدرك علمهم في الآخرة} **انتهى وعجز**، فبعضهم يقول: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} أي: انتهى وتلاشى واضمحل فلا علم لهم بها، فهذا في الدنيا إنما هي ظنون كاذبة، يقولون: تقول: أدرك الثمر يعني صار إلى حال يكون بعدها الاضمحلال، يكون إلى الجذاذ أو القطاف فلا يرجى له بعد ذلك كمال، وابن عاشور -رحمه الله- يذكر أن المفسرين تحيروا في هذا الموضع، وتقابلت فيه أقوالهم ثم حاول أن يستخرج خلاصة ما ذكروه أو ما تحتمله الآية فذكر ثلاثة احتمالات:

الأول: وهو الذي اختاره أن التدارك هو أنّ علم بعضهم لحق علم بعض في أمر الآخرة، وما المراد، يقول: هذا يحتمل يعني علم بعض هؤلاء أدرك علم بعض، يقول: فيحتمل أنها تداركت علوم الحاضرين مع أسلافهم، يعني تلاحقت فتلقى الخلف عن السلف علمهم بالآخرة بلا بصيرة {ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} أدرك المتأخرون علم المتقدمين في الآخرة وعلم المتقدمين منهم إنما هو ظنون وأقوال كاذبة لم تُبنَ على علم ولم تُتلقَّ من الوحي، وإنما هي أوهام وتخرصات يتلقاها الخلف عن السلف بلا بصيرة، {ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، أدرك المتأخرين علم الأولين، وصلهم علم الأولين فتلقفوه من غير تبين، وتبصر هم يتلقفون هذه الجهالات {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، صاروا يقلدون الآباء، ويتلقفون مقالتهم دون تمحيص، وإنما مبنى ذلك كله الجهل، {ادَّارَكَ} وأدرك، ويحتمل معنى آخر ذكره، وهو أن ذلك يرجع إلى معنى الاختلاط والتضارب والتداخل والتناقض، فهم ينكرونها كما جاء في كثير من المواضع في كتاب الله –عز وجل-: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [سورة ق:٣] إلى غير ذلك من الآيات، وفي الوقت نفسه يعبدون الأصنام، ويقولون: {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس:١٨]، إذاً هم ينكرون وقوع الآخرة، ثم في الوقت نفسه يعبدون الأصنام؛ لتكون شافعة لهم عند الله –عز وجل-، وأنتم لا تؤمنون بالآخرة، ولا تحتاجون هذه الشفاعة، يعني فقالوا: {بَلِ ادَّارَكَ} أي: اضطرب وتداخل وتناقض، ويحتمل أن ذلك مبالغة من الإدراك بمعنى النضج والكمال يعني أن يكون ذلك واقعاً في الآخرة، فتكون الفاء للظرفية ادارك في الآخرة، تكامل في الآخرة، هذا على قراءة {ادَّارَكَ}، أما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو {أدرك} فحمله بعض أهل العلم على الكمال، حال المعاينة في اليوم الآخر {أدرك} بمعنى بلغ، كما تقول: أدركته إذا بلغته يعني أنهم وصلوا إلى حقيقة علم الآخرة على أكمل الوجوه وأتمها، لكن لما فات الأوان، ولا ينفعهم الإيمان عند ذلك، وبعضهم يقول: هذا بمعنى الإنكار لأنه قال بعده: {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ}، وهذا قال به: الزجاج، وذكره ابن عطية يعني أنه ينكر عليهم، لا يقرر هذا، لا يخبر عنهم، وإنما يقول: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} على سبيل الإنكار يعني أن علمهم لم يدرك، لم يبلغ، لم يحصل لهم بها معرفة، {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} وابن جرير جعلها أيضاً من الاستفهام على هذه القراءة {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ} أي هل ادارك علمهم في الآخرة؟، وبعضهم يقول: حتى هذه القراءة {بَلِ ادَّارَكَ} أي ضل واضمحل وزال وتلاشى أخذاً من معنى الإدراك الذي ذكرته، وهذا الذي يميل إليه ابن عاشور -رحمه الله- {ادَّارَكَ} بمعنى فني، وزال واضمحل علمهم في الآخرة، أدركت الثمر إذا انتهى نضجها.

والخلاصة: أن القراءتين المتواترتين {ادارك} و{أدرك}، وأن العلماء رحمهم الله مختلفون هل ذلك واقع في الآخرة؟ فهو محمول على الكمال، {ادَّارَكَ} بمعنى اكتمل، وهنا يقال: اضطرب أو ضعف أو تلاشى، وقريب منه قول من قال: أي تتابع ولحق يعني علم الأولين بعلم الآخرين، الأولون يصدرون عن أقوال متكاذبة مبناها على الخرص والتخمين فآل ذلك إلى الآخرين فصاروا يقولون بقولهم: ويتلقفون هذا الاعتقاد الفاسد في الآخرة، ويقولون: أدركنا عليه الآباء والأجداد، يعني هذه خلاصة هذه الأقوال، والكلام فيها كثير جداً لكن حاولت أن أقربها قدر المستطاع، وارجوا أن يكون المعنى قد قرب أو كاد.

في قوله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ} قال: أي في عماية، وجهل كبير في أمرها وشأنها، {عَمِونَ} جمع، عَمِيَ يَعْمَى والوصف منه عَمٍ، والجمع عمون، وتقول: هو أعمى وعمٍ كما يقول زهير:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبلَه *** ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ

يعني: أعمى {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ}.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النمل:٦٧-٧٠].

يقول تعالى مخبرًا عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا، ثم قال: {لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعًا.

وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، {إِلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} أي: أخذه قوم عَمَّن قبلهم، مَنْ قبلهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة.

قال الله تعالى مجيبًا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء: {سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} أي: المكذِّبين بالرسل وما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقَمُ الله وعذابه ونكاله، ونجَّى الله من بينهم رسله الكرام ومَنْ اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

ثم قال تعالى مسليًا لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} أي: في كيدك وردّ ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهرٌ دينك على مَنْ خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

الله -تبارك وتعالى- قال بعدما ذكر علمهم في الآخرة {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} فالذين قالوا: تتابَعَ أي تلاحق علمهم في "ادارك" يقولون: الله -تبارك وتعالى- يصف حالهم أنهم ليس لهم علم في الآخرة، ولا إيمان صحيح، وأنهم تلقوا التكذيب من آبائهم، والذين يقولون: استوى علمهم بمعنى أنه لا علم للخلائق بالآخرة -بمعنى وقت الوقوع- نظروا إلى ما قبلها {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} يعني استوى علمهم بالآخرة، ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) فتجد أن أهل العلم من يرجح بقرينة من الآيات قبلها، وبعضهم قد يرجح بقرينة بعدها، والآية تحتمل هذا وهذا -والله تعالى أعلم- والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة النمل:٧١-٧٥]

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} قال الله مجيبًا لهم: {قُلْ} يا محمد {عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، قال ابن عباس: أن يكون قرب -أو: أن يقرب- لكم بعض الذي تستعجلون، وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخرساني، وقتادة، والسدي.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} [سورة الإسراء:٥١]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٥٤].

وإنما دخلت "اللام" في قوله: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ لأنه ضُمن معنى "عَجِل لكم" كما قال مجاهد في رواية عنه: {عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ}: عجل لكم.

ثم قال الله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} أي: في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك، إلا القليل منهم، {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ} [سورة الرعد:١٠]، {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [سورة طه:٧]، {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [سورة هود:٥].

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة -وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه- فقال: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} قال ابن عباس: يعني: وما من شيء {فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} وهذا كقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، فـ{عَسَى} من الله واجبة، بمعنى أنها تأتي بمعنى الترجي، ولكن ذلك يكون ممن لا يعلم عواقب الأمور، فإذا صدر ذلك عن الله -جل جلاله- فهو يعلم ما كان وما يكون، ولهذا قال من قال من السلف -رضي الله تعالى عنهم-: إنّ "عسى" من الله واجبة، يعني متحققة ليست للترجي، ومعلوم أن الخطاب قد يصدر مراعاة لحال المخاطب، {فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، يعني بحسب رجائكما كما يقول بعض المفسرين، وهذا وجه، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم} [سورة الممتحنة:٧] يقال فيها كما هنا: إن ذلك متحقق الوقوع، وقد كان، فأسلم من أسلم منهم.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **قال ابن عباس: أن يكون قرب**، بمعنى قرب؛ ولهذا في قراءة غير متواترة لابن عباس -رضي الله عنهما- {عسى أن يكون أزف لكم}، وأزف بمعنى قرب، والقراءة الأحادية تفسر المتواترة، يقول: **وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء** إلى آخره، قال: **وهذا هو المراد بقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}**، يقول: **وإنما دخلت "اللام" في قوله: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ لأنه ضُمن معنى "عَجِل لكم"**، وعلى هذا الاعتبار -القول بالتضمين- لا تكون اللام زائدة، تقول: ردفه و أردفه إذا ركب خلفه، والله -تبارك وتعالى- يقول: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال:٩] يعني يردف بعضهم بعضا، أي أنهم يُتبعون على قول جماعة من المفسرين بما ذكر في الوعد الآخر الثلاثة الآلاف والخمسة بشرطه، فالشاهد هنا {ردف}

تقول: ردفه وأردفه إذا ركب خلفه، {رَدِفَ لَكُمْ} قالوا هنا بمعنى تبعكم ولحِقكم، {بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، واللام زائدة للتوكيد، المعنى {رَدِفَ لَكُمْ} أي لحقكم وتبعكم يعني ردفكم بعض الذي تستعجلون، والذين قالوا بالتضمين والمراد به: أن يضمن الفعل معنى فعل آخر يعدى بتعديته فيكون ذلك أبلغ في المعنى، بمعنى أنهم ينظرون إلى الفعل الموجود، فيقولون: إنه عدي بالحرف الفلاني وهذا الفعل إنما يتعدى بنفسه لا يحتاج إلى حرف، فبعضهم يقول: هذا الحرف زائد وأحياناً قد يعدى بحرف آخر ليس بهذا الحرف، فيقولون: هذا الحرف بمعنى الحرف الآخر، وهذه طريقة الكوفيين، وتضمين الفعل معنى الفعل طريقة البصريين فيبحثون عن فعل يصلح أن يعدى بهذا الحرف، فيقولون: إن هذا الفعل مضمن فعلاً آخر يصح أن يعدى، مثل: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [سورة الإنسان:٦] {يَشْرَبُ بِهَا} ويشرب، يقولون: بمن "يشرب منها"؛ لأن العين لا يشرب بها، وإنما يشرب منها، فالكوفيون يقولون: إن الباء مضمنة معنى حرف آخر وهو من، وإن حروف الجر تتناوب، وطريقة البصريين يقولون: الفعل مضمن معنى فعل آخر، فيشرب مضمن معنى فعل آخر يصلح أن يعدى بالباء وهو يرتوي بها، فقالوا: هذا أبلغ في المعنى فدل على الشرب إضافة إلى الارتواء، لكن إذا قلنا: إن ردف كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **قال ابن عباس: أن يكون قرب** إلى آخره، قال: **وإنما دخلت "اللام" في قوله: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ لأنه ضُمِن معنى "عَجِل"**، فعجل يعدى باللام، عجل لكم، فيكون بهذا الاعتبار قد دل على معنى لحق وتبع إضافة إلى عجل، وبعضهم فسر {رَدِفَ لَكُمْ}، قال: أي اقترب لكم، وبهذا الاعتبار لا تكون اللام زائدة، وهكذا قول من قال: {رَدِفَ لَكُمْ} أي دنا لكم، كما يقول الفراء، فدنا تعدى باللام، والمعنى قريب، يعني دنا واقترب وأزف كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ} **قال ابن عباس: يعني: وما من شيء في السماء والأرض إلا في كتاب مبين**، هذا القول يشمل ما قاله السلف -رضي الله عنهم-: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ} يعني ما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا في كتاب مبين، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، وكونه {مُّبِينٍ} يعني مبين لمن نظر فيه وقرأ، مبين، كقوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} [سورة الحج:٧٠]، فهذا من أحسن ما تفسر به الآية، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن الذي لا يشك في صحته، أعني في المفردة المعينة، وتفسير القرآن بالقرآن يتفاوت فأحياناً قد يعمد المفسر إلى شيء من هذا فيخطئ، قد يكون محتملاً، وقد يكون في غاية الظهور كهذا.

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} [سورة النمل:٧٦-٨١].

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: إنه يقص على بني إسرائيل -وهم حملة التوراة والإنجيل- {أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله

وأنبيائه ورسله الكرام -عليه أفضل الصلاة والسلام-، كما قال تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [سورة مريم:٣٤].

وقوله: {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليات.

يعني في العمليات لم يكن عليهم من الآصار التي كانت على بني إسرائيل يعني التكاليف الثقال الشديدة الصعبة، فهو رحمة في هذا كله، رحمة في العمليات، وهو رحمة في غير الأمور العملية حيث بين لهم الحقائق التي تتحير فيها ألباب الذين لم يهتدوا بالوحي، ولم يستنيروا به، فهذا القرآن يجيب على الأسئلة التي تلح على الإنسان من أين جاء؟ لماذا جاء؟ إلى أين ينتهي؟ والحكمة من خلق هذه الحياة الدنيا، وما يجري فيها من الأحوال من ارتفاع وضعة، وتحول من حال إلى حال إلى غير ذلك، كل هذا يأتي مفسراً في القرآن فهو رحمة يبين لهم كل ما يحتاجون إليه من الأمور العلمية و العملية.

ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ} أي: يوم القيامة، {بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ} في انتقامه، {الْعَلِيمُ} بأفعال عباده وأقوالهم.

{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي: في أمورك، وبلّغ رسالة ربك، {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك مَنْ خالفك، ممَّنْ كتبت عليه الشقاوة وحقَّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} أي: لا تسمعهم شيئًا ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وَقْر الكفر؛ ولهذا قال: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} أي: إنما يستجيب لك مَنْ هو سميع بصير، السمع والبصر النافعُ في القلب والبصيرة، الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل -عليهم السلام.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، ذكره بعد قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} هذا فيه عبرة كبيره نحتاج إليها دائماً لاسيما مثل هذه الأوقات التي يستطيل فيها أعداء الله –عز وجل- من الكافرين والمنافقين، وتظهر قرون النفاق ويحصل بسبب ذلك فتنة لمن شاء الله –عز وجل- فتنته، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يتولى الحكم والفصل بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، فيجازي كلًّا بعمله، وليس ذلك إلينا، وإنما علينا أن نبين حقائق الدين، وأن نتمسك به، ونسلك صراط الله المستقيم من غير تردد ولا وجل متوكلين في ذلك كله على الله، وإذا كان السالك يثق بالطريق التي سلكها أنه على الحق المبين حصل له بذلك الثبات، يعرف الطريق ويحصل له التوكل، فإذا لم يحصل له التوكل ضعف، وكثرت مخاوفه، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} [سورة آل عمران:١٧٥] يعني يخوفكم من أوليائه، يعظمهم في نفوسكم فتهابونهم وتخافونهم فمن لم يحصل له التوكل لربما حصل له التراجع والتنازل عن الحق الذي آمن به، وإذا لم يحصل له كمال اليقين فإنه يكون قابلا للتشكيك فيحصل له اضطراب ويحصل له تحير وتساؤلات في نفسه هل هو على حق أو لا؟، وهذا يوجد عند بعض الذين لا بصر لهم، ويسمعون مثل هذه الشبهات، ومثل هذه الفراء والأقاويل الكاذبة والطعون في أهل الإيمان وأئمتهم من الأحياء والأموات، والتشكيك في الثوابت، فيبدأ بعض الناس يتحير

ويتردد {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} الحافظ ابن القيم له كلام قصير في هذا، فقال -رحمه الله تعالى-: " قال تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}، وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به فالدين كله في هذين المقامين"[٢]، وقال -رحمه الله-: " فأمر سبحانه بالتوكل عليه وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدعٍ لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق وهو ولي الحق، وناصره ومؤيده وكافٍ من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه وكيف يخاف وهو على الحق"[٣] انتهى.

وهذا كقوله -تبارك تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:١-٣]، نهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ثم أمره باتباع ما يوحي إليه، وفي هذه الحال سيصوبون إليه سهامهم قال: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: لا تسمعهم شيئا ينفعهم، إذ الموتى حقيقة من فارقت روحهم جسدهم، وهذا الذي قال به شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن الموتى الأموات لا يسمعون، وهذه يحتج بها جمع من أهل العلم على مسألة سماع الأموات، والآية تحتمل هذا المعنى، وتحتمل معنى آخر أن المقصود بالموتى موتى القلوب، بدليل أنه قال بعده {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}، ثم قال: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} فقابل هذا بهذا {لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} يعني موتى القلب، إنما تسمع أصحاب القلوب الحية الذين وصفهم بالإيمان بآياته -تبارك وتعالى-، فالآية تحتمل هذا وهذا، ولهذا تجد ابن كثير -رحمه الله- ربط بين المعنيين يعني إن كنت لا تسمع الموتى حقيقة، فكذلك موتى القلوب فإنهم بمنزلتهم، كما أنك لا تسمع الأموات فإن هؤلاء بمنزلة الأموات؛ لأنهم موتى القلوب فإنك لا تسمعهم سماعا ينفعهم هذا هو المراد، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أشار إلى هذا المعنى، ولا شك أن بين المعنيين ملازمة يعني الذين قالوا: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} حقيقة قالوا: هذا ذكر من أجل التوصل إلى المعنى المشار إليه، فكذلك هؤلاء لأنهم موتى، وإن كانت أرواحهم لم تفارق أجسادهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} [سورة الروم:٥٣] قال: **أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لما جاء** إلى آخره، فهم مسلمون، يعني هذا يحتمل أن يكون ذكر على سبيل الوصف لهؤلاء الذين ينتفعون، ويحتمل أن يكون ذلك مذكوراً للتعليل {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}، ولهذا يحصل لهم الانتفاع، ويسمعون سماع منتفع، يتعظون بما يسمعون، يعني كيف يكون {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}؟ أي:

---

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم(١٢٧/٢).

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم(٣٨٨).

الإسلام هو الخضوع والانقياد فهم خاضعون منقادون، فهؤلاء هم الذين يستمعون لك والفاء في "فهم" تعليلية الذين يسمعون سماع انتفاع هم الذين يؤمنون بآيات الله -تبارك وتعالى- وذلك أنهم خاضعون منقادون فهم مسلمون، هذا إذا حُمل على أن الفاء للتعليل.

{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} [سورة النمل:٨٢].

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يُخرج الله لهم دابة من الأرض -قيل: من مكة، وقيل: من غيرها كما سيأتي تفصيله- فَتُكَلِّم الناس على ذلك.

قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، ويُروى عن علي -رضي الله عنه-: تكلمهم كلاما أي: تخاطبهم مخاطبة.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها -والله المستعان-:

روى الإمام أحمد عن حُذَيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: ((لا تقوم الساعة حتى ترَوا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق -أو: تحشر- الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا))[٤]، وهكذا رواه مسلم، وأهل السنن عن حُذَيفة مرفوعا، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه مسلم أيضاً عنه موقوفاً، فالله أعلم.

روى مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال: حَفظْتُ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثًا لم أنسه بعد: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبًا))[٥].

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة))[٦].

روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان -عليهما السلام-، فتخطم أنف الكافر بالعصا،

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦١٤٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح كسابقه لكن اختلف في رفعه ووقفه، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، برقم (٢٩٠١)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، برقم (٤٣١١)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الخسف، برقم (٢١٨٣).

٥ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان والنفخ في الصور وبعث من في القبور، برقم (٢٩٤١).

٦ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، برقم (٢٩٤٧).

وتُجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر))[٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتعرض لمعني {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} في الأصل وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ} أي حق الغضب عليهم أي: وجب كما يقوله قتادة، وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي حق القول عليهم أنهم لا يؤمنون، {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ}، كما يقول مجاهد: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} حق القول بأنهم لا يؤمنون، وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي حق العذاب، وهذا قريب من القول بأن المراد حق الغضب، وبعضهم يقول: المراد بذلك ما أخبر الله –عز وجل- به عن وقوع القيامة، فإن ذلك يكون من علاماتها الكبرى، وهناك أقوال أخرى كثيرة فيها، كقول من قال: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} يعني موت العلماء، ويبقى الناس في حال من الجهالة، وبعضهم يقول: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيبقى الناس في عماية، {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ}: من أقرب هذه الأقوال أنه حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، ويقرب من هذا قول من قال: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} وجب يعني حق العذاب أو وجب الغضب، هذه أقوال متقاربة، والله تعالى أعلم.

يقول: **يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل من مكة وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله**، وهذا كله لا دليل عليه، لا يوجد دليل صحيح يخبر عن المكان الذي تخرج منه هذه الدابة، توجد روايات لكنها غير صحيحة؛ ولهذا بعضهم يقول: مكة، وجاء في بعض هذه الروايات أنها تخرج من الصفا، وفي بعضها أنها من جبل أبي قبيس ، وبعضهم يقول: بين الركن والمقام، وبعضهم يقول: من تهامة، وبعضهم يقول: من الطائف، وكل هذا الكلام لا دليل عليه، {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ}، الله أعلم من أين، فهذا غير مهم في الواقع أن يعرف من أين تخرج، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ} يقول هنا: فتكلم الناس على ذلك، ونقل عن بعض السلف: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة، وبعضهم يقول: تخاطبهم ببطلان الأديان سوى الإسلام، {وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} يعني متى تخرج؟ إذا طلعت الشمس من مغربها خرجت الدابة ضحى، وإذا طلعت الشمس من مغربها فإنه {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [سورة الأنعام:١٥٨]، فتخبرهم عن حقية دين الإسلام وبطلان ما سواه من الأديان، هذا قال به جماعة من أهل العلم، وبعضهم يقول: تكلمهم بما ذكر بعده تكلمهم: {أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وبعضهم يقول تكلمهم بما يسوءهم، وبعضهم حمل ذلك على الكلْم الذي هو الجرح {تُكَلِّمُهُمْ} وابن عباس -رضي الله عنهما- لما سئل عن هذا حملها على ذلك كله، فهي تتكلم، وتسِم الناس سمة فتضع على الكافر علامة مثلا، سمة تضع عليه وسماً من الكلْم {تُكَلِّمُهُمْ} فحمله على المعنيين، وذلك أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

في قوله تعالى: {تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} الجمهور قرءوه بالكسر {تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} فبعضهم حمل المعنى في هذه القراءة {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ}، وأبهَمَ، أي

---

٧ - رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، برقم (٢٦٨٧).

يحتمل أن يكون المراد العلامة، أو أنها تتكلم كما يتكلم الآدمي بما ذكر أو بغيره -الله أعلم-، وأن ذلك على الاستئناف يعني هذا كلام جديد من الله –عز وجل- يقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} كلام جديد، ليس ذلك من قولها، باعتبار أنه مستأنف، وبعض أهل العلم يقول: على هذه القراءة يمكن أن يكون ذلك على تقدير القول: تكلمهم تقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وهذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- والقراءة الأخرى {أَنَّ النَّاسَ} وهي قراءة الكوفيين تكلمهم أن الناس، هذه توضحها قراءة ابن مسعود وهي غير متواترة، {تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون}، وهذه القراءة واضحة جداً لا إشكال فيها، فيكون ذلك من قولها، ويكون هذا هو التكليم المشار إليه في الآية، فالقراءتان يرجعان إلى معنى واحد، وبعضهم يقول: لا، هي تكلمهم، ثم ما بعده هذا كلام آخر من كلام الله –عز وجل- يقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وهذه الدابة بعضهم يقول: هي الجَسّاسة التي جاءت في الحديث الطويل في صحيح مسلم في قصة تميم الداري -رضي الله عنه- لما استقبلتهم دابة أهْلَبُ كثير الشعر، لا يُدرى قُبله من دبره، وكلمتهم وقالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق[٨]، وبعضهم يقول: هي فصيل ناقة صالح يعني ولد ناقة صالح، وهذا الكلام لا دليل عليه، وإن قال به بعض أهل العلم كالقرطبي -رحمه الله-، فالله أخبر أنها دابة، والبحث فيما وراء ذلك هو اشتغال بما لا يفيد، وليس عندنا فيه علم يمكن الركون إليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر)) الخوان هو الذي يؤكل عليه، الذي يوضع عليه الطعام.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيَّل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نَمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنَبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعًا، تخرج معها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نَكَتَت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نَكَتَت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسودّ لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن؟، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنة، ويا فلان، أنت من أهل النار، فذلك قول الله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النمل:٨٢-٨٦].

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، برقم (٢٩٤٢).

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة، وحشْر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله -عز وجل-، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعًا وتوبيخًا، وتصغيرًا وتحقيرًا فقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا} أي: من كل قوم وقرن فوجًا، أي: جماعة، {مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا}، كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢]، **وقال تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** [سورة التكوير:٧].

وقوله: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يدفعون، وقال قتادة: وَزَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا}** هذا حشر خاص غير الحشر العام، والحشر العام هو حشر الخلائق جميعاً في الآخرة، وهذا حشر خاص قيل هذا حشر لكبراء أهل الضلال، لأئمة الضلال كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا}** [سورة مريم:٦٨] على الرُكب، يعني حول جهنم، ذاك حشر عام **{ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا}** [سورة مريم:٦٩]، فهذا حشر من الحشر العام، يؤخذ هؤلاء الأئمة الكبار العتاة يبدأ بهم، وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا}** يعني من كل قرن، من كل جيل، من كل طائفة، من كل أمة يحشر الله –عز وجل- فئة منهم هذا الحشر الخاص، وقوله -تبارك وتعالى-: **{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}** [سورة الصافات:٢٢] يعني ونظراءهم، وقوله: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** [سورة التكوير:٧] ليس المقصود بالتزويج أن الرجل يزوج بالمرأة، وإنما يكون النظير مع نظيره، **{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}** يعني ونظراءهم **{فَهُمْ يُوزَعُونَ}**، قال ابن عباس: يدفعون، و**{يُوزَعُونَ}** يعني يحبس أولهم على آخرهم، هكذا يحشر الخلائق، ثم يحشر هؤلاء العتاة الحشر العام ثم حشر العذاب الذي يبدأ به بهؤلاء العتاة، فيلقون في جهنم، فجهنم لا يلقى الناس فيها دفعة واحدة، وإنما يلقى القادة وأئمة الضلال قبلُ، ثم بعد ذلك يأتي الأتباع كما ذكر الله –عز وجل- ذلك، وبين خصومتهم في النار، **{هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ}** [سورة ص:٥٩-٦٠] إلى غير ذلك مما قصه الله -تبارك وتعالى-، فيبدأ بالكبراء بعد الحشر العام فيلقون في النار ثم يتبع هؤلاء بأتباعهم -نسأل الله العافية-، ويحصل بينهم: **{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء}** [سورة غافر:٤٧] الآية، وهنا **{فَهُمْ يُوزَعُونَ}** يحبس أولهم على آخرهم، فإذا أردت أن تتصور **{يُوزَعُونَ}** كما في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما ذكر الله حشر جنوده **{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}** [سورة النمل:١٧]، تصور قطيعاً ضخماً من الغنم مثلا معهم رعاة هذا يسوقها من خلفها، وهذا عن يمينها وهذا عن شمالها، وهذا يرد من يسرع منها ويتقدم إلى آخرها فيضيف بعضها إلى بعض، ويجمع إليها ما تفرق عنها وشذ، ويحبس أولها على آخرها بحيث لا تصل أفواجاً متقطعة، فهذا يصور طريقة الحشر، وكيف يساقون إلى النار -نسأل الله العافية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون.

{حَتَّى إِذَا جَاءُوا} أي: أُوقفوا بين يدي الله -عز وجل-، في مقام المساءلة، {قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: ويُسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة،

وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة:٣١-٣٢]، **فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال تعالى: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** [سورة المرسلات:٣٥-٣٧]، **وهكذا قال هاهنا: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ} أي: بُهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظَلَمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا}** فسره جمع من أهل العلم بأن المراد **{أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي}** ابتداءً من غير علم ولا إحاطة ولا بصر ولا نظر في دلائل ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ودلائل الحق والتوحيد والإيمان، يعني أنكم بادرتم بالكفر دون تبصر ولا نظر، ولا تأمل ولا معرفة، وإنما ابتدرتم ذلك عن جهل وعمى على سبيل العناد والمكابرة، ولم يصدر ذلك عن تمحيص وتفكير وتأمل، ودراسة للحجج والآيات التي جاءت بها الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا فيه عظة وعبرة لكل من بادر إلى تكذيب شيء دون نظر ولا تبصر، من غير دراسة ولا تمحيص، وإنما أنكره مباشرة ولم يقبله، تجد هذا في بعض المنتسبين للإسلام، ولربما يسمع الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسرع إلى إنكاره وتكذيبه؛ لأن ذلك لم يتفق مع عقله القاصر وفهمه المعوج، يقول: هذا ما يكون، هذا كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: الحديث في الصحيحين! يقول: وإذا كان في الصحيحين! تجد هذه اللوثة كثيراً لدى بعض أبناء المسلمين، لربما الذين ذهب كثير منهم وتلقوا عن الغرب وتأثروا بمناهجهم في التفكير، وغلبت عليهم النزعة المادية، فصار الواحد منهم يبادر ويكذب بالنصوص ويجترئ على الله –عز وجل- من غير نظر ولا تمحيص ولا دراسة، ولا علم له بقليل ولا كثير، **{أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** فـــ"أم" هذه هي المنقطعة، يعني أم أيُّ شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر في دلائل الحق وبراهين الإيمان، فما الذي جعلكم تتحولون عما يجب النظر فيه، والتعرف على حقيته بحيث أشغلكم ذلك عن هذا النظر والفكر والاستدلال؟، وقوله تعالى هنا: **{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ}** بعضهم يقول: كلمة العذاب فهم لا ينطقون، وبعضهم يقول: **{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم}** يعني أنه يختم على أفواههم فهم لا ينطقون، فتشهد عليهم جوارحهم، فيكون قوله: **{فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ}** تفسيراً لوقوع القول عليهم، ولعل الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- **{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم}** أي حق العذاب **{وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [سورة السجدة:١٣]، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ}** يعني من أهل العلم من حمله على معنى وهو النطق الذي ينفعهم والذي يحصل لهم به تخفيف، أو قبول عذر، أو تخلص من العذاب أو نحو ذلك، هم لا ينطقون نطقاً يحصل به النفع، لكنهم يتكلمون بدليل قوله تعالى عنهم: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}** [سورة الزخرف:٧٧]، و**{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا}** [سورة المؤمنون:١٠٧] وما شابه ذلك مما أخبر الله -عز وجل- به عن قول أهل النار، وعلى كل حال من أهل العلم من حمله على هذا **{فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ}** جمعاً بين الآيات، ومن أهل العلم من قال: إن اليوم الآخر يوم طويل ففيه مقامات لا ينطقون، يختم على أفواههم،

فإذا شهدت عليهم الجوارح ثم بعد ذلك تنطق الألسن وتشهد عليهم ففي حين لا ينطقون، وفي حين ينطقون، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا مَحيد عنه، فقال: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ} أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَب التعب في نهارهم، {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} أي: منيرًا مشرقًا، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

هنا وصف النهار بكونه مبصراً، وهذا محمول على أن المراد -والله تعالى أعلم- أن الناس يبصرون به {مُبْصِرًا} أي: يبصر الناس به، فهو وصف للناس، مبالغة في إضاءته، وبعضهم يقول: هذا الكلام فيه مقدر: أن الله جعل الليل مظلماً {لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} لينتفعوا في معايشهم ويتقلبوا في الأرض طلباً للمكاسب، ولتحقيق مصالحهم، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٨٧ إلى الآية ٩٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النمل:٨٧-٩٠].

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع في الصُّور، وهو كما جاء في الحديث: "قرن ينفخ فيه"، وفي حديث الصُّور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض {إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تُحدِّث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله -أو: لا إله إلا الله، أو كلمة نحوهما- لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرب البيت، ويكون ويكون.

ثم قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين -لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا- فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه. ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخَلَتْه عليه حتى تقبضه". قال: سمعتها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: "فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقُهم، حسنٌ عيشُهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا ورفع لِيتا قال: "وأول مَنْ يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله"، قال: "فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس، ثم يرسل الله -أو قال: ينزل الله- مطرًا كأنه الطَّل -أو قال: الظل- نُعمان الشاك- فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها

الناس، هلموا إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيبا، وذلك يوم يكشف عن ساق))[1].

وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتا ورفع لِيتا" الليت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا.

فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} قُرِئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكلٌ بمعنى واحد، و{دَاخِرِينَ} أي: صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [سورة الإسراء:٥٢]**، وقال: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}** [سورة الروم:٢٥]**، وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح، فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، تتوهج أرواح المؤمنين نورًا، وأرواح الكافرين ظُلمة، فيقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يَدب السم في اللديغ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}** [سورة المعارج:٤٣].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}**، قوله -تبارك وتعالى- هنا **{إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}** قال الحافظ: **وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون**، وبعضهم يقول: الأنبياء، وبعضهم يقول: الملائكة، وبعضهم يقول: جبريل وميكال وإسرافيل، وبعضهم يقول: الحور العين، وبعضهم يقول: عموم المؤمنين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}**، وهذه الأقوال في الواقع لا ترجع إلى تفسير واحد، بمعنى أن هذه الأقوال منها ما مبناه على أن هذه النفخة هي نفخة الصعق يفزع الناس ويصعقون وأن نفخة الفزع هذه هي نفخة الصعق، وأنهما نفختان لا ثالث لهما نفخة الصعق، والنفخة الأخرى هي نفخة البعث، وهذه الأقوال التي تذكر في التفسير هي لا ترجع إلى شيء واحد، أو إلى قول واحد، يعني لا ترجع إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مثلاً، أو أنه يكون ثلاث مرات، فحينما يقال: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}** [سورة الزمر:٦٨]، فالذي يقول مثلا: الحور العين يرجع إلى الصعق بمعنى أن الحور العين لا يمتنَ، ولا يرجع إلى الفزع، يعني أن هؤلاء العلماء الذين فسروا هذا الاستثناء منهم من يرى أنهما نفختان، فحينما يقول ففزع من في السموات والأرض يعني وصُعق **{إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}** من الذي لا يحصل له هذا

---

١ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان والنفخ في الصور وبعث من في القبور، برقم (٢٩٤٠).

الصعق يقول: الحور العين، ويمكن أن يكون من هذا أيضا قول من قال بأنه جبرائيل وإسرافيل و ميكائيل، أو أنهم الملائكة، لكن من قال بأنها نفخة الفزع، وأن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات، فهذه نفخة الفزع، فقول من قال: إنهم عموم أهل الإيمان واضح أنه يعنى أنها نفخة الفزع؛ لأنه يحتج بقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} وهكذا قول من قال: إنهم الأنبياء؛ لأن الأنبياء لا يوجدون في وقت النفخ إذا قلنا: إن هذه نفخة الصعق فيخرجون من حكمها فلا يموتون أو لا يصعقون، فهذا لا يتأتى على هذا القول، المقصود أن نعلم أن هذه الأقوال في الاستثناء لا ترجع إلى قول واحد في النفخ في الصور، والمشهور أن النفخ في الصور يكون مرتين، نفخة يصعق الناس فيها، وهذه تكون للأحياء الذين تقوم عليهم الساعة، والنفخة الثانية هي نفخة البعث والنشور، وهذه لكل الخلائق الذين ماتوا سواء حتف أنفهم أو ماتوا بسبب الصعق، وهذه الآية: {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}، هنا ذكر الفزع فقط ولم يذكر الصعق، ومن هنا ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن نفخ الصور يكون ثلاث مرات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث، وهذا قول لجماعة من أهل العلم، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى على هذا القول ثم الحديث الذي ذكره حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنه- هنا قال: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، وقال: أول من يسمعه رجلاً يلوط حوض إبله، فيصعق، إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، يكون هذا الرجل أول من يسمع فيحصل له الصعق فذكر الصعق هنا، فالذين قالوا هما نفختان قالوا: إذا سمعوه فزعوا ومن شدة الفزع يصعقون، وقد عذب الله -عز وجل- بعض الأمم بالصيحة -صوت هائل-، إذا سمعوه طارت قلوبهم من شدة الفزع فماتوا فهلكوا، فذكر هنا أنهم يصعقون قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل أو قال: الظل، والمرجح عند أهل العلم هو الأول كأنه الطل، كما جاء في الحديث: ((ينزل مطر من السماء كأنه مني الرجال، فينبتون كما تنبت الأجساد))[٢]، كأنه الطل ويقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} قرئ بالمد وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحد، قراءة الجمهور {وكل آتُوه داخرين} بالمد، وقراءة حمزة وحفص والكسائي {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، وفي قراءة غير متواترة لبعض السلف قرأ بها قتادة {وكل أتاه داخرين}، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور إلى آخره هذا عند الطبراني، قال في الطوال لكنه من غير إسناد عند الطبراني -والله تعالى أعلم-، فابن كثير -رحمه الله- والشوكاني وجماعة قالوا: إن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات على ما وصف، ومن أهل العلم كالقرطبي وجماعة يقولون: هما نفختان، وإن نفخة الفزع لا تخرج عنهما فهي عائدة إليهما، بمعنى أنهم يفزعون فيحصل لهم الصعق.

---

٢ - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٨٥١٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٧٦١)، وضعفه الألباني في تحقيق شرح الطحاوية (٤٦٣).

وقوله: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} **أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى:** {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [سورة الطور:٩-١٠]، **وقال** {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، **وقال تعالى:** {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} قال: **أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه** {وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} يعني: تزول من أماكنها، هذه الرؤية {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً} هي رؤية عين وليست برؤية علمية، وهذه الرؤية هل هي في الدنيا أو أنها في الآخرة كما ذكر الله -عز وجل- أن الجبال يحصل لها ما وصف من أنها تُدك، وتبس، وتكون كالهباء المنثور، وأنها تسير، فيكون لها ذلك في أهوال القيامة في أول ما يجري لها، ثم بعد ذلك تسير، وبعضهم يقول: في المحشر إذا حشر الناس، والمقصود أن ذلك في اليوم الآخر هذا الذي دل عليه القرآن في هذا الموضع، وفي غيره من المواضع، فالله -تبارك وتعالى- ذكر النفخ في الصور فقال: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، ثم ذكر حال الجبال {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، ثم ذكر الجزاء: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} فهذا كله في اليوم الآخر، وقد جاءت هذه الآية في ثنايا الخبر عن ذلك اليوم، وهذا الذي عليه السلف -رضي الله تعالى عنهم- قاطبة، وعليه أهل العلم من المفسرين عبر القرون المتطاولة، والآيات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا تدل على هذا المعنى {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [سورة الطور:٩-١٠]، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧]، كل هذا وغيره يدل على أن ذلك في اليوم الآخر، وبعض المعاصرين يقول: إن ذلك يكون في الدنيا وهو وصف لحالها الآن، ومرادهم بذلك أن الجبال تمر مر السحاب، تمر تمضي تتحرك لكن لا بمفردها على سبيل الاستقلال، وإنما تتحرك بحركة الأرض، قالوا: فهذا دليل على دوران الأرض، الأرض تدور والجبال تدور معها، والناظر والمشاهد لها لا يدرك ذلك، مع أن الله قال: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} كيف خاطبهم بما لا يدركون ولا يعرفون ولا يشاهدون؟ ولم يقل أحد: كيف تتحرك ؟ كيف تجري ونحن نجدها في أماكنها؟ فبعضهم يقول: إن الله -تبارك وتعالى- أطلع على ذلك نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا وجه الخطاب له على سبيل الخصوص قال: {وَتَرَى الْجِبَالَ} وترى يا محمد مع أن أكثر المفسرين يقولون: إن الخطاب جاء هنا بصيغة المفرد، والمراد به العموم، وإن ذلك لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود أن بعض هؤلاء يقول: إن الله أطلع عليه نبيه -صلى الله عليه وسلم- وخصه به، ولكن لم يكشف ذلك إلا في القرون المتأخرة، وقبل ذلك ما كانوا يعرفون.

وأنا أقول في مثل هذه المناسبة: إن الإنسان قد يقرأ في بعض التفصيلات، أو بعض ما يسمى بالدراسات والبحوث، ولربما لبّست عليه بعض ما يعرف، قد يحصل هذا، فما المخرج؟ بمعنى هذه طريقة في التفكير والفهم و الوصول إلى النتائج السليمة من أجل ألا يقع الإنسان ضحية لمفاهيم غير صحيحة، قد تقرأ بعض الدراسات و بعض البحوث، وبعض الأرقام، وفي أي موضوع من الموضوعات في قضية غير صحيحة، غير دقيقة، ولكن الإنسان قد يحصل له بسبب ذلك شيء من اللبس، فإما أن يبقى متحيراً، وإما أن يصدق ذلك، ويقبل، ويتلقف بعض المفاهيم غير الصحيحة، والمخرج أنه يرجع إلى الأصول الكلية، فإذا خرج إلى الأصول الكلية لم يبقَ في أسر هذا البحث أو هذه الكتابة أو هذه المحاولة أو هذه الدراسة، تجد بعض البحوث و الكتابات التي تنشر أحياناً في النت أو في بعض الكتب، أو بعض الكاتبين لربما يَعمل لك دراسات و أرقاماً وإحصاءات وأشياء على أن الساعة ستقوم عام (٢٠١٢م)، وإذا قرأت المعطيات التي ذكرها لربما يلتبس هذا على بعض الناس، ويصدق، ولكنك إذا رجعت إلى الأصول الكلية - أعني الأشياء التي ستكون قبل الساعة- والذين تقوم عليهم الساعة فهناك عندنا المهدي، والمسيح سيمكث في الناس سبع سنين، والحال التي يأتي فيها، الناس يقاتلون بالسيوف، هذا يعنى أن معطيات الحضارة هذه غير موجودة، يعلقون سيوفهم بأغصان الزيتون فيصيح فيهم الشيطان ويقول: إن الدجال خلَفَكم في أهليكم، فيرجعون في فتح القسطنطينية، وهو فتح غير الفتح الأول على يد محمد الفاتح، وأنهم يكبّرون، مدينة شطرها في البر وشطرها في البحر، وهذا قد لا يصدق على القسطنطينية، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فتح مدينة هرقل عموماً، و لم تفتح بالتكبير، وذاك الفتح يبدأ بالتكبير، فبعضهم يصف مدينة أخرى، الشاهد أنها ستفتح بالطريقة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- والناس يقاتلون بالسيوف، وإذا خرج يأجوج ومأجوج فقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الناس يوقدون -بعد هلاكهم- على نشابهم سبع سنين من أهل الأيمان، و النشاب هي السهام فهذه الأعواد التي يكون في رأسها الحديدة يوقد الناس على هذه من كثرتها سبع سنين، ودل على أنهم يوقدون بالحطب، ويقاتلون بالسهام فهذا البحث الذي يقول عام ٢٠١٢م، وقرأه بعض الناس والتبس عليه الأمر وخاف، هذا كلام غير صحيح، لا يمكن أن يكون عام ٢٠١٢م ما يمكن أن تقوم فيه، وذكر أشياء و دراسات و أموراً فيه ومثل هذه الدراسات يسجّر بها التنور، فعندنا أشياء ثابتة، عندنا أشياء حق لا مرية فيها بعيداً عن التكهنات والتخرصات والتحليلات، والقسمة و الطرح، وهنا حينما يقال: إن هذا في الدنيا وإن الكرة الأرضية تدور، وهذا معنى **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}**، نرجع إلى أصل كلي وهو أنه لا يمكن أن تُجمع الأمة على ضلالة، لا يمكن أن هؤلاء السلف من الصحابة عبر القرون المتطاولة كلهم يفهمون الآية خطأ، ويقولون: هذا في اليوم الآخر ثم يأتي أحد في آخر الزمان و يقول: هذا خطأ، والصحيح أنها في الدنيا، وأنها تدور بدوران الأرض، فيُشترط في التفسير العلمي ألا يعود على أقوال السلف بالإبطال، يعنى ينبغي أن يكون من باب الزيادة، وقد يكون فهماً يؤتيه الله رجلاً في كتابه لكن يعود على أقوال السلف كلها بالبطلان!، كلهم فهموا خطأ، ما أحد منهم فهم الآية على وجه صحيح! هذا كلام لا يمكن، فهذا أصل كلي، فإذا التبس

على الإنسان، اختلف عليه الأمر بسبب ما يقرأ دائما ينبغي أن يرجع إلى الأصول الكلية، وإلا فسيبقى أسيراً لهذا الكاتب، هذا منجاة بإذن الله -عز و جل- و يبقى الإنسان على الجادة، والله تعالى أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} إذا قلنا: إن ذلك في اليوم الآخر كما دل عليه القرآن والسياق، هنا يدل أيضا على أنه في الآخرة {تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} ما المعنى على هذا؟ كما قال ابن جرير وابن قتيبة وجماعة من الأئمة بأن ذلك يكون في الأجرام الكبيرة، فإن حركتها قد لا تدرك بالعين لأول وهلة، يعني: الناظر إلى الجيش كما هو معروف، وكما جاء في أشعار العرب جيش كبير يتحرك -لماذا سمي بالزحف- جيش يتحرك إذا نظرت إليه كأنه واقف، لكن لو نظرت بمكبر من بعيد نظرت إلى أرجل الدواب وأرجل الناس تجد أنها تتحرك لا تتوقف، لكن ترى الجيش كأنه في مكان واحد، وهو يمشي، ويقطع المسافات فهذه الجبال تجمع وتسير فتكون في رؤية العين كأنها قائمة، كأنها واقفة، وهي تسير فهي لكثرتها وضخامتها إذا نظر إليها الناظر لا يدرك أو لا يشعر بحركتها في اليوم الآخر كأنها واقفة وهي تُسير، والعلماء يذكرون على هذا شواهد من كلام العرب في وصف الجيوش مما يوافق هذا المعنى.

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضا أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على المعنى، بكونه هو الغالب في القرآن; لأن غلبته فيه، تدل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معا آية "النمل" هذه.

وإيضاح ذلك أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة، أي: واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مر السحاب، ونحوه قول النابغة يصف جيشا:

بأرْعنَ مثلِ الطَّودِ تحسبُ أنهم *** وقوفٌ لِحاجٍّ والركابُ تُهملجُ"[٣].

"والركاب تهملج" يقول: كأنهم أي الحجاج وقوف بعرفة مثلاً والركاب في الواقع أنهم يمشون، فالركاب تهملج فهي سائرة لا تتوقف، لكن شكلهم كأنهم في حال من الوقوف.

وقال -رحمه الله-: "والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبينان عدم صحة هذا القول.

أما الأول منهما وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته: فهو أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ} معطوف على قوله: {فَفَزِعَ}، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (١٤٤/٦).

{فِي السَّمَاوَاتِ}، أي: ويوم ينفخ في الصور، فيفزع من في السماوات وترى الجبال، فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور، لا الآن.

وأما الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح; لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة ; كقوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}، وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧]، وقوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [سورة النبأ:٢٠]، وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [سورة التكوير:٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}: جاء نحوه في آيات كثيرة; كقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [سورة المؤمنون: (١٤)]"[٤].

فالذين قالوا: هذا في الدنيا الواو تكون للاستئناف وليست عاطفة.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وقوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} **أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة.**

وقوله: {صُنْعَ اللَّهِ} منصوب على المصدر، و بعضهم يقول: على الإغراء، صنع الله.

الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} **أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه.**

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} **قال قتادة: بالإخلاص.**

وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها.

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} الحسنة إذا قلنا: إن "ال" هذه للجنس، وليست للعهد -جنس الحسنة- فله خير منها، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الحسنة بعشر أمثالها))[٥]، والله -عز وجل- ذكر هذا {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [سورة الأنعام:١٦٠]، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، هذه قرينة حملت كثيراً من أهل العلم على القول بأن الحسنة هنا يراد بها حسنة خاصة، وهي حسنة الإيمان، حسنة لا إله إلا الله، حسنة التوحيد، فإنه لا يحصل الأمن إلا لأهلها {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢] فهؤلاء هم الذين يحصل لهم الأمن بقدر إيمانهم، فهم يتفاوتون في هذا الأمر في اليوم الآخر بحسب ما يتحقق لهم من هذا الوصف الذي هو الإيمان، فقال هنا: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} ولهذا فسر ابن جرير -رحمه الله- و غيره هذه الحسنة بما ذكر، و لا فرق بين من عبر عنها بـــ لا إله إلا الله، أو قال: التوحيد أو قال: الإيمان فكل ذلك صحيح، والسيئة هي الشرك؛ لأنه قال: {فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} وهذا لا يكون إلا لأهل الإشراك، و ليس لجنس السيئات، ثم إن المقابلة بين هذه الحسنة وبين هذه السيئة، وذكْر جزاء هذا وهذا دل على أن الآية يراد بها الإيمان والكفر، حسنة الإيمان

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (١٤٥/٦).

٥ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، برقم (٤١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوّت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يومٍ وإفطار يوم، برقم (١١٥٩).

وسيئة الكفر، كما قال الله -تبارك وتعالى- أيضا: {بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [سورة البقرة:٨١] ما هي السيئة والخطيئة التي تحيط بصاحبها؟ هي الشرك.

{وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، كما قال في الآية الأخرى: {لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأكْبَرُ} [سورة الأنبياء:١٠٣]، وقال: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة فصلت:٤٠]، وقال: {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سورة سبأ: ٣٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} على قراءة أبي عمرو وابن عامر وابن كثير -القراءة متواترة- {من فزعِ يومِئذٍ} على الإضافة، يعنى فزع ذلك اليوم، هذا في هذه القراءة، وعلى القراءة الأخرى {وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ} هذا الفزع بعضهم فهم منه فزع النفخة التي في قوله: {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ}، فقال: هذا فزع معين فلا يفزعون بسببه، ولذلك من أهل العلم من قال: إنهم أهل الإيمان، هم الذين استثناهم الله {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ} قالوا: هم من ذكر الله -تبارك وتعالى-: {مِنْ فَزَعٍ} فزع معين فزع خاص، ولو قيل: إن القراءتين ترجعان إلى معنى واحد يعني أيّ فزع فهذا من قبيل المطلق، والمطلق فيه شمول لكنه على سبيل البدل فيصدق على الإفراد على سبيل البدل، فأي فزع في ذلك اليوم هم آمنون منه، كما يدل عليه القرآن {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} [سورة الأنعام:٨٢]، وهكذا {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [سورة الأنبياء:١٠٣]، {أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة فصلت:٤٠]، والله تعالى أعلم، الفزع الذي يصيب الناس في اليوم الآخر، ولا يلزم من ذلك أن يدخل فيه نفخة الفزع، فيقال: إنهم لا يفزعون منها؛ لأن هذه النفخة تكون قبل اليوم الآخر، يعنى تكون بين يديه فيحصل هذا الفزع فقيل: هي نفخة الصعق، فيحصل بعد ذلك نفخة البعث فيكون الناس في المحشر، ويكون أهل الإيمان في حال من الأمن، والكفار في حال من الخوف -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من جعل ذلك مستثنى مما ذكره الله -عز وجل- في هذه النفخة، نفخة الفزع.

وقوله: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} أي: مَنْ لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته، كل بحسبه؛ ولهذا قال: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

وبعض أهل العلم نقل الإجماع على أن المراد بالسيئة هنا هي الشرك، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم، {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ} هو أولى من أن يقال: رجحت سيئاته على حسناته، فهنا قابل حسنة بسيئة، و ذكر جزاء الحسنة و جزاء السيئة، مما ظاهره -والله تعالى أعلم- أن الحسنة هي الإيمان، والسيئة هي الشرك وهذا -كما سبق- نقل عليه بعضهم الإجماع، و قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} بعضهم يقول: القائل هم خزنة جهنم، والله -عز وجل- أعلم بذلك، لكنه يقال لهم: هذا تقوله لهم الملائكة، أو غير ذلك، والعلم عند الله -عز و جل.

{إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة النمل:٩١-٩٣].

يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ}، **كما قال:** {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [سورة يونس:١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [سورة قريش:٣-٤].

ولهذا قال: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} يعني لئلا يتوهم أن ربوبيته -تبارك وتعالى- تختص بالبلدة، تختص بمكة، هذه إضافة تشريف، ولا يدل ذلك على الاختصاص، والمحترزات تأتي في القرآن في كل موضع بحسبه، بحسب الحاجة إما لدفع توهم الحصر، كما في هذا الموضع مثلا: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ}.

وقوله: {الَّذِي حَرَّمَهَا} **أي: الذي إنما صارت حرامًا قدَرًا وشرعًا، بتحريمه لها.**

قدَرًا وشرعًا بمعنى أن الله -عز وجل- حينما خلق الخلق {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [سورة القصص:٦٨]، اختار هذه البقعة لتكون حرما، فهذا معنى أن الله -تبارك وتعالى- جعلها حرما قدرا واختارها هذا الاختيار، **وشرعا** أن الله أمر بمراعاة ذلك فيها، فلا يقتل صيدها ولا يعبد شجرها.

كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة: **((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة)).**

حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهذا تحريم قدري، وحين خلق السموات والأرض ما كان فيه ناس.

((لا يُعضَد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لمَنْ عرفها، ولا يختلى خلاها))[٦]**، الحديث بتمامه.**

هذا التحريم الشرعي.

وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد.

وقوله: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ}**: من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه،** {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} **أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له.**

وقوله: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} **أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله:** {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [سورة آل عمران:٥٨]، **وكقوله:** {نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة القصص:٣] **أي: أنا مبلغ ومنذر.**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحرم، برقم (١٥١٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، برقم (١٣٥٣).

قوله: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} هنا حمله على تلاوة البلاغ، أن أتلوَ القران على الناس تبليغا له، ويدخل فيه التلاوة تعبداً، فيؤخذ من عموم الآية هذا المعنى {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} [سورة العنكبوت:٤٥] فيدخل في ذلك قراءة القرآن على سبيل التعبد، وللتدبر والعمل، والامتثال، فيحتج بمثل هذه الآيات على أن تلاوة القرآن مطلوبة من المكلفين.

{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ} أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله، كقوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠]، وقال: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [سورة هود: ١٢].

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا}، أي: لله الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [سورة فصلت:٥٣].

{سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} فسره بقوله: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فتعرفونها: يعني أنها حق، وإن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق، فهي آيات دالة على صدقه، وصدق ما جاء به أنه رسول من عند الله -تبارك وتعالى- يؤيد بالآيات الكونية، والآيات الشرعية، ويؤيد بالآيات التي تكون في الآفاق والأنفس.

وقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} أي: بل هو شهيد على كل شيء.

وقد ذكر عن الإمام أحمد -رحمه الله-، أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَومًا فَلا تَقُل * خَلَوتُ وَلَكنْ قُل عَلَيّ رَقيبُ**

وَلا تَحْسَبَنّ الله يَغْفُل ساعةً * وَلا أنّ مَا يَخْفى عَلَيْه يَغيبُ**

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ١ إلى الآية ٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله-: روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن معد يكرب قال: "أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا {طسم} المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: خَبَّاب بن الأرَت، قال: فأتينا خَبَّاب بن الأرت، فقرأها علينا -رضي الله عنه"[1].

هذه الرواية فيها ضعف في الإسناد، وهنا فيه إشكال قد يرد في المراد بـ{طسم} المائتين، فإذا كان المراد الآيات فعدد آياتها ٨٧ آية، وربما يكون المراد سورة الشعراء، لأنها ٢٢٧ آية، وهي مبدوءة بهذا {طسم}، كما يقال: {الم} السجدة مثلاً، فقد جاء هذا موضحاً في رواية لهذا الأثر عند أبي نعيم في الحلية قال: {طسم} الشعراء، بدون ذكر المائتين، وعليه فهل ذكر الحديث أو الأثر هنا في هذا الموضع في سورة القصص ليس في محله، وإنما كان الأولى أن يوضع في سورة الشعراء؟، مع أن ابن كثير -رحمه الله- وجماعة من المفسرين ذكروا هذا الأثر ووضعوه في هذه السورة، ولم يضعوه في سورة الشعراء، وكأنهم تتابعوا على هذا، يعني: كتب التفسير تستفيد من بعضها فتقع بعض الأشياء أحياناً ينقلها بعضهم عن بعض فتجد هذا مع أن الذين ذكروه ليسوا بكثير، لكن ذكروه في هذا الموضع، كما في مثل كتاب "الدر المنثور"، وفي "فتح القدير" للشوكاني، وعامة المفسرين ما ذكروا هذا الأثر أصلاً، ثم لو صح هذا الأثر فإنه يدل على أن ابن مسعود -رضي الله عنه- ما كان يحفظ كل القرآن، وإن قال بعض أهل العلم: لعله قصد أنه ما تلقاها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مباشرة فأرشدهم إلى خبّاب مع أن ظاهره لايدل على هذا.

{طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [سورة القصص:١-٦].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: {تِلْكَ} أي: هذه {آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن.

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم(٣٩٨٠)، وقال محققوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك، وهو ابن عبد الله النخعي، وهو متابع، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. أبو الأحوص: هو عوف بن مالك بن نضلة الجشمي.

وقوله: {نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ} الآية، كما قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [سورة يوسف:٣]، أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك تشاهد وكأنك حاضر.

{نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ} فـــ"مِن" هذه تحتمل أن تكون تبعيضية، يعني: ذكر له طرفاً من خبره، ويحتمل أن تكون بيانية.

ثم قال: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ}، أي: تكبر وتجبر وطغى، {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} أي: أصنافا، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

جعل الإسرائيليين مثلاً للخدمة والأعمال المهينة الوضيعة التي كان يترفع عنها الفراعنة.

وقوله: {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ} يعني: بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم.

كأن هذا تفسير لقوله: {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} فهذا مما يوضحه ويفسره فيدخل فيه ماذكر هنا {يَسْتَضْعِفُ} يعني: جعلهم شيعاً يستضعف، يعني: فئة هي التي لها الريادة وهم الفراعنة، وفئة تكون للأمور المهينة الوضيعة، ويحصل لهم من التنكيل والتقتيل ما ذكره الله -تبارك وتعالى- هنا، وقصه {يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} يذبح الأبناء إما لإضعافهم من أجل أنّ هؤلاء يبقون ويستمرون فئة ضعيفة يكثر فيهم الأرامل والأيتام، الرجال قليل والنساء كثير، فيقتل الرجال؛ ليبقى هؤلاء ضعفاء، {وَيَسْتَحْيِي} يعني: يبقي البنت حية من أجل أن تقوم بأعمال الخدمة، يعني: هؤلاء هم فئة الخدم في المجتمع الفرعوني أو أنه يقتل الأولاد من أجل ما ذكر من أنه قال له بعض الكهنة: إن غلاماً يولد لبني إسرائيل وإن ذهاب ملكك يكون على يده، فلو صح ذلك فإنه يقتل الأولاد، لكن قد يرد سؤال لماذا لم يقتل جميع الأولاد؛ فهارون -عليه الصلاة والسلام- ما قتل؟ فيجيبون عن هذا بناءً على ماسبق يقولون: إنه قيل له: إن قتلتهم فإن ذلك سيفضي بآل فرعون أو بالفراعنة إلى القيام بما يقوم به الإسرائيليون، فيلون من الأعمال ماكان يقوم به هؤلاء من الأعمال المهينة الوضيعة التي يترفعون عنها، فصار يقتل سنة ويترك سنة، لكن هذا لا يغني عنه شيئاً مما أراد، فلو صح أنه قتلهم من أجل أن لا يخرج منهم من يَذهب ملكُه على يده فإذا أبقى سنة فقد يكون هؤلاء الذين أبقاهم فيهم هذا الذي يتخوف منه، ويقولون: إن هارون -عليه الصلاة والسلام- كان في السنة التي لا يقتل فيها الأولاد، هكذا قالوا، والعلم عند الله -عز وجل-، لكن يحتمل هذا ويحتمل هذا، وليس عندنا شيء فيما أعلم يوجب القطع بأحدهما، قد يكون فعلَه استضعافاً، وقد يكون فعلَه؛ لأنه قيل له ذلك، فإن كان قيل له ذلك فعلاً فحتى لو قتل جميع الأولاد فإنهم أخبروه عن أمر متحقق إن كان يصدّقهم، فما يغني عنه قتل الأولاد، فإذا أخبروه بأن ملكه سيزول على يد واحد من هؤلاء، مولود يولد لهؤلاء فمعنى ذلك أن هذا تقتيل ما ينفع، بمعنى أنه لم يسلط عليه وإن كان ما قالوه له غير صحيح فلا حاجة له بتقتيل الأولاد على هذا، يعني: أنه لم يفكر بطريقة صحيحة؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر لما أراد أن يقتل ابن صياد كان يظن أنه الدجال فقال: ((إنْ يكنْه فلن تُسلَّط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله))[٢].

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، برقم (١٢٨٩)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٣٠).

هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدُّهم ليلا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقارا، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه.

احترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب؛ ولهذا قال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ...} إلى قوله: {يَحْذَرُونَ}، وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ} إلى قوله: {يَعْرِشُونَ} [سورة الأعراف:١٣٧]، وقال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:٥٩]، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالَف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}** هذا كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}** [سورة الأعراف:١٣٧]، وهكذا بين السبب الذي نال به بنو إسرائيل هذا التمكين، قال: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** [سورة السجدة:٢٤]، الصبر واليقين، وهنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}** يعني: قادة في الخير، هكذا فسره جماعة من السلف فمن بعدهم، وبعضهم كابن جرير يقول: **{وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}** أي: ملوكاً وولاة فصار الملك في بني إسرائيل مع النبوة، وذلك في عهد يوسف -عليه الصلاة والسلام- ثم صار ذلك فيهم بعده قال: **{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}** بعض أهل العلم كابن جرير يقول: الأرض هذه هي الشام ومصر كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة الشعراء:٥٩]، وهم القوم الآخَرون الذين ذكرهم الله -عز وجل-: **{قَوْمًا آخَرِينَ}** [سورة الأنبياء:١١]، **{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}**، وقال: **{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}** [سورة الأعراف:١٣٧]، وما ذكره المؤرخون من أن بني اسرائيل لم يحفظ لهم في التاريخ رجوع إلى مصر بعد أن خرجوا منها وذكرت هناك أن كلام الله -عز وجل- لا ينبغي أن يعارض بكلام المؤرخين ولا بكلام غيرهم، فالله أخبر أنه أورثها بني إسرائيل، إذاً أورثها بني إسرائيل، ولا يلزم من ذلك أنهم رجعوا إليها مرة ثانية هم ذهبوا إلى الشام، لكن هل هذا يمنع أن تكون تابعة لهم؟ أن تكون ولاية مصر تابعة للشام؟ وهذا كان كثيراً عبر التاريخ، ولذلك يذكر المؤرخون أن الجيوش الغازية التي كانت تغزو مصر وتستولي عليها كانت تأتي عبر التاريخ من الشام؛ ولهذا فإن محمد علي باشا -سيئ الذكر- كان يحاول في الدولة العثمانية أن تجعل السلطة في مصر في يده، وكان المطلب الآخر أن تكون الشام تابعة له، وهذا باعتبار أنه أراد الأمان يعني لا حرصاً على الشام، وإنما أراد أن يؤمن مصر من أن يغزوها أحد، وأن ذلك كان عادة عن طريق الشام فأراد أن تكون الشام تحت يده لئلا يأتي أحد ليغزو مصر، يعني: كأنه يريد أن تكون الشام خط دفاع فقط أو حاجزاً أو حائلاً يحول دون غزو بلده، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}**،

{وَنُرِي فِرْعَوْنَ} في القراءة الأخرى قراءة حمزة والكسائي {ويَرى فرعونُ وقومه منهم ما كانوا يحذرون} ما الذي كانوا يحذرونه منهم؟ كانوا يحذرون -كما سبق- على قول من قال: إنه قيل لهم: سيخرج منهم غلام إلى آخره، فالله -تبارك وتعالى- إذا أراد أمراً قال له: كن فيكون، فمهما فعلوا من الاحترازات فإن ذلك لن يغير من قدر الله -عز وجل- شيئاً، فالله -عز وجل- أراد أن يُري فرعون وجنوده من هؤلاء الإسرائيليين ماكان يحذره الفراعنة منهم {ويَرى فرعونُ وقومه} من هؤلاء الإسرائيليين ماكانوا يحاذرون من ذهاب ملكهم والقضاء عليهم؛ لأن هذا قدره النافذ، وهذ من أعجب الأشياء وإذا أيقن العبد بمثل هذا فإنه يحسن الظن بالله –عز وجل- ويثق به وبوعده، وأنه مهما حاول أعداؤه وفعلوا ومكروا فإن الله -تبارك وتعالى- ناصر دينه، وقد يكون النصر منفتقاً من ذلك المكر الكبّار الذي يعملونه، فيخرج من بين ذلك من الأعمال التي يعملونها، من جملة المكر، يكون النصر متسبباً عن أعمالهم هذه، فهذا فرعون لما صار يقتل الأولاد اضطرت أم موسى لمّا أوحي إليها أن تلقي بهذا الولد من أجل أن يسلم من القتل؛ لأنه إن عثر عليه معها قتل، فكان تقتيل فرعون للأولاد هو السبب في أن ينشأ موسى -صلى الله عليه وسلم- في قلب مكان الخوف، هذا الذي يخافه الإسرائيليون وامتلأت قلوبهم من رهبته، قتلوا الأولاد فهذا الصبي الصغير هذا المولود هذا الغلام يلقى في الماء ولا حول له ولا طول ولا قوة تتقاذفه الأمواج بقدر الله –عز وجل- حتى يأخذه آل فرعون، بعض المفسرين يقول: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ} [سورة القصص:٨]، يقول هو فرعون نفسه الذي التقطه، وبعضهم يقول: زوجته، وبعضهم يقول: الخادمات والوصيفات اللاتي معها، المهم أنهم التقطوه، هم أهل القصر سواءً الخدم أو التقطه فرعون بنفسه فأخذه ورباه عنده، هذه حضانة للموت، يكون حاضناً للموت حاضناً للهلاك الذي سيهلكه، فهو الذي يقوم بتربيته هو يقتل الآن ولا زال يقتل وهلاكه وسبب الهلاك يتربى عنده على يده وتحت نظره وينشأ يأكل ويشرب في بيته، يتقلب بين يديه، وهو يقتل الأولاد خوفاً مما ذكر، هذه آية عظيمة جداً، فإذا أراد الله شيئاً قال له: كن، فمهما حاول الأعداء ومهما فعلوا من المكر الكبّار حينما يقرأ الإنسان مما يكاد به لهذا الدين في زماننا هذا يظن أنه لن تبقى للإسلام قائمة، لكن من تأمل في ثنايا مايجري رأى بوارق انتصار الإسلام ظاهرة، ولا حاجة للاستطراد تأملوا فيما يجري عبر هذه السنين، فيجري قدر الله –عز وجل- والأعداء وصل بهم الحال إلى أن باعوا كل القيم والمُثل والشعارات التي كانوا يتبجحون بها أمام العالم ملأوا العالم بها: الحرية، حقوق الإنسان، الديمقراطية، تحولوا الى أشرس الخلق وأكثر الناس عدواناً على الإنسانية، وحقوق الإنسان والحريات وخربوا ومزقوا شعار الديمقراطية، وصاروا يفعلون كل قبيح من أجل القضاء على هذا الاسلام المتنامي، حاولوا وبذلوا كل الجهود أيام الاستعمار من أجل أن تبقى هذه الأمة من المحيط الى حدودها في الشرق مع الصين والاتحاد أو روسيا أن تبقى هذه الأمة ضعيفة في الأغلال لا تنهض لحضارة، ولا يقوم لها نهضة، ولا يمكن أن يوجد فيها مشروع حضاري من شأنه أن يغير ويحول حالها من ضعف إلى قوة، لا يمكن، واقرأ وانظر ما يفعلونه من أجل الحيلولة بين المسلمين، ويتعاملون مع النابغين والنابهين في التخصصات النادرة مساومة على الشراء على أن يبقى عندهم أو التصفية والقتل، كم قتلوا من عالم نووي في العراق، كم قتلوا في التخصصات العلمية المختلفة، وفي أرض الله الواسعة كم قُتل بطريقة غامضة، وغير غامضة من نابغين ونابهين رفضوا أن يعملوا عندهم، فتوجد في هذا بحوث وأشياء

وكتابات لا تخفى، وتجهيل للأمة، وجعلها أمة مستهلكة لكل شيء لطعامها وشرابها، وكل ما تحتاج إليه هي عالة عليهم، ومع ذلك كله إذا نظرت في أوربا تجد نواقيس الخطر الآن تدق، الإسلام ينتشر بين أهل البلاد الأصليين، وأعداد وأرقام ثم يحسبون إلى عام ٢٠٥٠م كيف ستتحول أوربا إلى شيء آخر، ونحن نطمئنهم أنها لن تتحول الى بلد إسلامي، وستبقى -والله أعلم- على نصرانيتها، والنصارى هم الأكثر، وتقوم الساعة والروم أكثر الناس، لكن هم على حساباتهم قلة المواليد بجانب انتشار الإسلام، وكثرة التوالد والجاليات التي جاءت من تركيا ومن غيرها من المسلمين في بلادهم، كل هذا في حساباتهم أن الخريطة ستتغير في عام ٢٠٢٥م وليس ٢٠٥٠م، أما ٢٠٥٠م فستكون كارثة بالنسبة إليهم، وهم الآن يحاولون أن يتداركوا الوضع كمنع المآذن، منع الحجاب، التضييق على المراكز الإسلامية، منع إقامتها إلى آخر ذلك، يحاولون، كل الشعارات السابقة والحرية، وأنها دول علمانية لا تتعرض للدين ولا تعارض، ولا تؤيد ومع ذلك بلاد الله الواسعة المهمشة التي هي العالم الثالث، العالم المتخلف، العالم الجاهل الذي لا يراد له أن ينهض، حال أهله في إقبالهم على دين الله –عز وجل- وانتشار الوعي، وبدأ الناس يراجعون أنفسهم ويقبلون على المساجد، ويتمسكون بالدين وينتشر في الشمال فحيثما تقرأ في احصائيات في جمهوريات الاتحاد السوفيتي تجد تقارير أن الشباب هم الذين يقبلون، وأولئك يدرسون ويحصون ويرصدون، ولكنهم فعلوا كل ما يستطيعون، وما استطاعوا؛ لأن هذا دين الله –عز وجل-، وقل مثل ذلك في بقية البلاد الإسلامية طولاً وعرضاً حيث بدأ الناس يعودون إلى دين الله –عز وجل- فهو كشجرة كانت الحياة كامنة فيها قد جفت أوراقها، وظنوا أنها قد ماتت إلى الأبد ثم فوجئوا أن الأوراق الخضراء تبدأ ترجع، فهم يحاولون أن يقطعوا هذه الورقة، وأن يقطعوا تلك، ولكن هيهات هيهات، وأقرب ما هنالك فلسطين هذه التي بقيت الأمة تُضلَّل فيها عقوداً متطاولة، ويعيشون في وهم كبير، والآن بدأ الصراع يأخذ منحىً آخر، فإنهم لا يتحملون مجرد التفكير فيه، فضلاً أن يكون واقعاً يفرض نفسه عليهم، فهذا أمر الله –عز وجل-، قصة فرعون هنا مع موسى هذه عبرة عظيمة جداً لأهل الإيمان، وهي عبرة لغيرهم يقال لهم: افعلوا ماشئتم، كل ما في وسعكم افعلوه سيبقى دين الله –عز وجل- هو الذي ينتصر في النهاية، وسيذهب هؤلاء، وسيذهب أشباههم من المردة والشياطين ممن يريدون تغريب المجتمعات الإسلامية وإشغالها باللهو والغفلة، وإفسادهم بإخراج المرأة وما إلى ذلك، نسأل الله -عز وجل- أن يكبتهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٧ إلى الآية ٢٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [سورة القصص:٧-٩].

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يُفْني بني إسرائيل فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك -إن استمر هذا الحال- أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون -عليه السلام- في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى -عليه السلام- في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرْنَ على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا، قَبَّحَهُم الله تعالى.

فلما حملت أم موسى به -عليه السلام- لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى -عليه السلام- لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعًا، قال الله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} [سورة طه:٣٩].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن المعلوم أن الله -تبارك وتعالى- إذا أراد أمراً هيأ أسبابه، ومهما بذل الخلق وعملوا وأفنوا الأموال والأوقات في الحيلولة دون وقوعه فإن تدبيرهم وسعيهم وبذلهم وإنفاقهم يكون على خلاف مطلوبهم، وهذا فيه عبرة عظيمة، والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كلام نفيس، جاء في تضامينه هذا المعنى الذي أشرت إليه آنفاً، فمثل هذا ينبغي أن يعتبرَه أهل الإيمان، ويعلموا أن الله عليم حكيم وأن الله ناصر دينه، وكتابه، ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وعباده المؤمنين، ويعتبرَ به أهل النفاق والكفر، فيعلموا أن تدبيرهم كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [سورة الأنفال:٣٦-٣٧]، والواقع يشهد

بهذا في مشارق الأرض ومغاربها، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **فلما حملت أم موسى به -عليه السلام- لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات**، الدايات جمع داية وهي الحاضنة أو المرضعة الأجنبية غير الأم، ويقال للقابلة التي تلي توليد المرأة، يقال لها: داية، وقوله: **وكان موسى -عليه السلام- لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}**، قد مضى الكلام على هذا المعنى، وأن هذا أحد القولين في الآية: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}، المعنى الأول أن الله أحبه، والمعنى الثاني: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} يعني أن لا يراه أحد إلا أحبه، وهذا كما في الحديث: ((فيقول الله -عز وجل- لجبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض))[1]، فهذا هو المعنى الذي يشير إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً، "طبعاً" باعتبار أنه لا يراه أحد إلا أحبه، يعني من الناس من يكون له القبول، والمحبة، فالقلوب تحبه وتنجذب إليه، ومن الناس من تنفر منه القلوب بمجرد رؤيته، وتنقبض منه ولا تطيقه، وإن كانوا لا يعرفون عمله، وهذا شيء مشاهد، فالقبول والمحبة من الله -تبارك وتعالى-، فهذا من أحبه "طبعاً"، قال: و"شرعاً" المحبة الشرعية هي المحبة التي تكون لله وفي الله، فيحبه؛ لأنه من أعظم أولياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، فقد تحب أحداً من الناس محبة طبع كما يحب الرجل ولده أو والده أو من يجانسه في طبع وخلق، أو يحب امرأته أو نحو ذلك هذه محبة طبع، ومحبة الشرع هي المحبة التي تكون لله، وفي الله.

فلما ضاقت ذرعًا به أُلهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال الله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر الوحي إلى أم موسى -عليه الصلاة والسلام- بالإلقاء في الروع، ألقى الله في روعها أو نفث في روعها أو ألهمها، ومن أهل العلم من يفرق بين النفث في الروع والإلهام -والروع هو القلب، والروع الخوف- نفث في روعها من أهل العلم من يفسر النفث في الروع بأنه يكون بإلقاء الملَك، بواسطة الملك يلقي المعنى في القلب، وأن الإلهام يكون بإلقاء المعنى بالقلب من غير واسطة الملك، هكذا فرق بعض أهل العلم بين الإلهام والنفث في الروع، ومن أهل العلم من قال: هما بمعنى واحد، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- ظاهرُ صنيعه أنه لم يفرق بينهما؛ لأنه قال: "**ألهمت في سرها وألقي في خلدها ونفث في روعها**"، أتى بهذه الجمل الثلاث مما يدل على أنها عنده بمعنى واحد، وهذا قال به بعض أهل العلم: أعني أن ما حصل لأم موسى إنما هو من قبيل الإلهام، هذا احتمال، وهناك احتمال آخر وهو أن الله بعث اليها ملكا وبعْثُ الملك ما يعني بالضرورة أن يكون الإنسان نبياً؛ فمريم -رحمها الله- جاءها الملك، وتمثل لها بشراً سوياً وكلمها، وكذلك أيضاً في قصة الثلاثة الأقرع والأبرص والأعمى جاءهم ملك على صورة رجل، فالملك قد يأتي إلى أحد من الناس ولا يكون نبياً، فقد يكون بعث الله لها ملكاً، وقد يكون نفث في روعها، وقد يكون

---

١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧).

ألهمها، المهم أن الله أوحى إليها، وهذا غير الوحي التسخيري للجمادات، أو لبعض الجمادات كالوحي لما قال الله -عز وجل- للسموات: **{ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}** [سورة فصلت:١١-١٢]، وغير الوحي الغريزي في بعض الكائنات مثل **{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}** [سورة النحل:٦٨] فهذا غيرهما، -والله أعلم-، وهذا يحتمل بالنسبة لأم موسى.

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدَت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد مِمَّنْ تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها.

يعني: مثل هذه الأشياء لم يرد فيها حديث ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما مثل هذا غالباً يكون مما تُلقي عن بني إسرائيل، وأخبار بني إسرائيل كما تعلمون.

فلما كان ذات يوم دخل عليها مَنْ تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** يدل على أنها تلقيه فيجري به الماء بهذا التابوت لا أنه مربوط فهي تتناوله متى شاءت، **{فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ}**، وهذا ظاهره، فالكلام على أنه مربوط ونحو ذلك لا دليل عليه، ثم إن ظاهر القرآن يخالف ذلك، لو كانت المسأله أنه مربوط هي ستطمئن إلى حد ما ولا تحتاج الى هذا الوعد **{إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}**، وهذه الوعود من الله -تبارك وتعالى- لتطمينها، فهو شيء يخرج من يدها، فجاءها هذا التطمين من الله -عز وجل-؛ ولهذا يقولون: إن هذه الآية تضمنت أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ}**، أمر **{فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}** هذا أمر -أيضاً- **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي}**، هذان نهيان، **{إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}**، فهذا خبران تضمنا بشارتين، فهذه ثمانية أشياء في هذه الآية، وهذا من بلاغة القرآن يجمع المعاني الكثيرة في العبارات القصيرة.

فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتئتنَ عليها في فتحه دونها.

قوله: "**يفتئتن عليها**" يعني: من الافتئات، فلم يكشفن الصندوق من أجل ألا يكون هناك افتئات عليها، فجعلوها هي التي تفتح الصندوق مع أن هذا فيه غرابة وبُعد، صندوق مغلق تأخذه الجواري ويذهبن به إلى زوجة الملك من أجل أن تفتحه قد يكون هذا الصندوق فيه شيء مما ينفر منه الإنسان، ويتأذى به إلى غير ذلك، يعني الأصل أنهم ينظرون ما في هذا الصندوق فإن كان شيئاً له أهمية وقيمة وشأن ذهبوا به إليها، أما ما وجدوا في هذا النيل، والنيل كما هو معلوم يحمل كل شيء، فكلما وجدوا في هذا النيل شيئاً ذهبوا به إلى زوجة الملك من أجل أن تفتحه هي!! مثل هذا لا يعقل في مجاري العادات، إنما يلي ذلك أدنى الناس.

فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها؛ ولهذا قال: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}.

{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} في قراءة حمزة والكسائي {ليكون لهم عدواً وحُزْنا} وهما لغتان بمعنى واحد: حَزَنٌ وحُزْنٌ.

قال محمد بن إسحاق وغيره: "اللام" هنا لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى، قيضهم لالتقاطه؛ ليجعله لهم عدوًا وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أشار إلى القول المشهور، وكثيراً ما يمثل به أهل اللغة على لام العاقبة {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}، يقولون: اللام للعاقبة، بمعنى أنها ليست للتعليل، فهم التقطوه من أجل أن ينتفعوا به، رجاء الانتفاع به {عَسَى أَن يَنفَعَنَا}، ولم يلتقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً وحزنا، ولو علموا بهذا لقتلوه إن صح أنهم كانوا يقتلون الصبيان خوف ظهور الغلام الذي قيل لهم: إن مُلكهم سيذهب على يده، فهو الآن عندهم بين أيديهم، فالتقطوه رجاء الانتفاع به ولم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزنا {عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}؛ ولهذا كثيراً ما يعبرون عن هذه اللام بأنها لام العاقبة، تقول: فلان اشترى السيارة الفلانية ليكون بها حتفه، فهو اشتراها لينتفع بها، لكن القول بأنها للعاقبة الحافظ ابن كثير لما أشار إلى هذا القول رده وهذا من دقته -رحمه الله- فهو يقول: "**إن اللام هذه لام التعليل وليست لام العاقبة**"، كيف تكون لام التعليل وهم ما فعلوا ذلك من أجل أن يكون لهم عدواً؟ هي لام التعليل باعتبار فعل الله –عز وجل- بهم وتدبيره {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ}، الله يقول: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا} ليجعله الله –عز وجل- لهم {عَدُوًّا}، يعني من أجل أن يصير في النهاية هكذا، من أجل أن يجعله الله لهم {عَدُوًّا وَحَزَنًا} يعني سبباً لكثير من الحزن الذي يصل إليهم بل يكون سبباً للهلاك الذي وقع لفرعون ولملئه وجنوده حتى لم يبقَ في البلد إلا النساء والأطفال، وأما الخدم فهم بنو إسرائيل، فالشاهد أن هذه اللام بهذا الاعتبار هي لام التعليل عند الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنها تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه؛ ليجعله لهم عدواً وحزنا**" فهي لام التعليل باعتبار النظر إلى فعل الله بهم، وهذا الذي اختاره –أيضاً- الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وقال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-: أن اللام ليست للعاقبة وإنما هي للتعليل، وهذا ملحظ جيد فهم التقطوا: بالنسبة إليهم اللام لام العاقبة، وإذا نظرنا إلى فعل الله فاللام لام التعليل، وكثير من المفسرين نظروا إلى فعلهم فقالوا: هي لام العاقبة.

وقوله تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} يعني: أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية

بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتَذب دونه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: {قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ} فقال: أما لكِ فَنَعَم، وأما لي فلا.

مثل هذا لم يرد فيه دليل ثابت يوقف عنده.

فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه، وقوله: {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا}، وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، أي: أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى: {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة.

{وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} يقول: "**ما يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة**" وهكذا قول من قال: {لا يَشْعُرُونَ} بما هو كائن من أمره وأمرهم، أو قول من قال أيضاً: {لا يَشْعُرُونَ} بأن هلاكهم على يده، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن جرير -رحمه الله-، وهذا كله يرجع إلى شيء واحد، {لا يَشْعُرُونَ} بما يكون من أمر هذا الغلام، ومن أمرهم معه إذ كان هلاكهم على يده، وما وقع لهم قبل ذلك من السنين القحط والجراد والقمل والطوفان والدم إلى غير ذلك مما نزل بهم كل ذلك كان بسبب معصيتهم لموسى -عليه الصلاة والسلام- وتكذيبهم له، وقوله: {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} ظاهره أن ذلك من كلام الله –عز وجل-، {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} لا يشعرون ما سيكون من حالهم وحاله، لا يشعرون ما يصيرون إليه في نهاية المطاف، من الهلاك، والشقاء هذا ظاهره أنه من كلام الله –عز وجل-، ويحتمل أن يكون ذلك من تمام كلامها، {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} باعتبار أنها تقصد بني إسرائيل، وهذا يتوقف على مقدمة، وهي أنهم عرفوا أنه لبني إسرائيل، فهي تقول: هم لا يدرون أنه صار إلينا فينشأ في قصر فرعون، ولا يعرفون خبره ومآله فلا يتوقعون أن هذا الناشئ في القصر أنه ذلك الإسرائيلي الذي ألقي بهذه الطريقة، لكن هذا بعيد، وهم لا يعرفون أن هذا من بني إسرائيل في الغالب، ومن أراد أن يجادل فإنه لا يعجز أن يقول: إن قولها: {لَا تَقْتُلُوهُ} دل على أنهم أرادوا قتله لكونهم عرفوا أنه من بني إسرائيل، يعني لو أنه من القبط عندهم فلماذا يقتلون هذا الرضيع الصغير حديث الولادة؟، على خلاف بين المفسرين في وقت إلقائه، والظاهر أنه حديث الولادة ولا داعي للتكلف في هذا، وقوله: {لَا تَقْتُلُوهُ} دل على أنهم أرادوا قتله، فكأنها تقول لهم: {عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} يعني: وأن قومه وأهله من الإسرائيليين لا يشعرون، فالذين قالوا بهذا القول ما رأيت أحداً منهم علل بهذا التعليل وهو قولها: {لَا تَقْتُلُوهُ} وأنه يشعر بأنهم عرفوا أنه من بني إسرائيل، والعلم عند الله –عز وجل-، ولكن عامة المفسرين أن ذلك من كلام الله فيكون من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، فالكلام متصل في ظاهره ولكنه لمتكلميْن، لقائليْن فالأول من كلامها، والثاني من كلام الله –عز وجل-، أكثر أهل العلم يقولون بهذا، والله أعلم.

قال الله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ

فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة القصص:١٠-١٣].

يقول تعالى مخبرًا عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغًا، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو عبيدة، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، وغيرهم.

الذي عليه الجمهور من السلف فمن بعدهم وهو الظاهر -والله أعلم- أن **{فَارِغًا}** أي: من كل شيء إلا ذكر موسى -عليه الصلاة والسلام-، يعني سيطر على اهتمامها، وشغل قلبها عن كل شيء، أذهلها، وبعض أهل العلم يقول: **{فَارِغًا}** يعني: فارغا من الهم والحزن؛ لأن الله وعدها أنه سيرجع، فهي مطمئنة عكس المعنى السابق، المعنى الأول أنها لم تتمالك كادت أن تُعلم وتبدي وتخبر أن هذا الذي ألقي في اليم هو ولدها، المعنى الآخر عكس هذا، وبعضهم يقول: **{فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}** أصبح فارغا بمعنى أنها كادت أن تخبر بالبشارة، والإيحاء الذي حصل أو الوحي الذي وقع لها، كادت أن تتحدث أنه أُوحي إليها أن تفعل كذا وكذا والأقرب -والله تعالى أعلم- هو الأول الذي عليه عامة المفسرين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وطبيعة الأم تقتضي هذا فمع الإيحاء إليها والتطمين ومع ذلك صار قلبها بهذه المثابة، وهذا يدلنا على خطأ ما يذكره بعض من يكتب في علوم القرآن إذ يمثل على الوحي فيجعل هذا مثالا على الوحي الفطري، والوحي الفطري هو الوحي الغريزي، يعني: مثل الوحي إلى النحل، وليس مقتضى الفطرة أن المرأة تلقي ولدها في اليم، فهو عكس الفطرة في مجاري العادات، ولكن لما كان بوحي من الله – عز وجل- أُمرت بهذا ففعلت، حيث قصدت الخوف ليحصل له الأمن.

{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ} أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثَبَّتها وصبَّرها، قال الله تعالى: {لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

وبعضهم يقول: **{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}** أي: بالوحي الذي أوحي إليها، تقول أوحي إلى كذا وكذا، والأول أقرب **{لَتُبْدِي بِهِ}** أي: بموسى -عليه الصلاة والسلام.

{وَقَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ} أي: أمرت ابنتها -وكانت كبيرة تعي ما يقال لها- فقالت لها: {قُصِّيهِ} أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتَطَلَّبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك.

قد يحتمل من هذا -والله أعلم- أنها بمجرد الإلقاء قالت لأختها: **{قُصِّيهِ}** يعني: تتبع هذا التابوت من بُعد وتنظر إلى أين يصير، من سيلتقف هذا التابوت؛ لتعرف موقعه مع أن الله وعدها بأنه يرجع إليها، وقد يكون ذلك بعد الإلقاء، يعني بعد الإلقاء ذهب به الماء فقالت: **{لأخْتِهِ قُصِّيهِ}** تتبعي أثره وابحثي عنه، **{فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ}** يعني بعد ذلك أبصرت موسى -عليه الصلاة والسلام- مع القوابل.

{فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ}، قال ابن عباس: عن جانب.

وقال مجاهد: {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ}: عن بُعد.

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده.

هذه المعاني متقاربة فقوله هنا: "**عن جانب**" بمعنى أنها لم تأتِ إليه مباشرة وتقف عليه، وكأنها تقصده، وإنما عن جانب وكأنها تريد أمراً آخر، وكأن ذلك وقع لها عرضاً من غير أن تلقي له اهتماماً؛ لئلا تلفت أنظارهم، وهكذا قول من قال: "**عن بعد**"، يعني هذا مثل قول من قال: عن جانب وإن كان المعنى يختلف قليلاً لكنه يرجع إليه، وهكذا قول من قال: "**جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده**"، والمقصود أنهم لا يشعرون بها، وباهتمامها، وابن جرير -رحمه الله- عبر بالثاني قال: عن بعد.

وذلك أنه لما استقر موسى -عليه السلام-، بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثديًا، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك، فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تُظهر ذلك ولم يشعروا بها.

قال الله تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} أي: تحريمًا قَدَريا، وذلك لكرامة الله له صيانة عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله -سبحانه- جعل ذلك سببًا إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة.

التحريم القدري هنا معروف يعني غير التحريم الشرعي، يعني أن الله -عز وجل- صرفه عن ذلك فلم يقبل أن يرتضع من غير أمه وهذا تدبير الله –عز وجل- يعني الإنسان يطمئن إلى هذا التدبير، ويعلم أن الله عليم حكيم وأنه على كل شيء قدير، لربما يتبادر إلى الذهن أن الله -تبارك وتعالى- سيخلصه منهم فيأتي من ينتشله ثم يعيده إلى أمه، أو أن الغلام سيشب ثم بعد ذلك يفر منهم إلى أهله، أو أنه سيأتيه -إذا صار يعقل- من يقول له: إن أهلك هم بنو إسرائيل مثلا قد يتبادر إلى الذهن هذا {رَادُّوهُ إِلَيْكِ} بطريقة من هذه الطرق، لكن أن يمنع من الرضاعة وهو صغير لا يعقل، ثم بعد ذلك يضطرون للبحث عن مرضع ولا يقبل إلا ثدي أمه، فهذا قد لا يخطر على بال أحد، المقصود أن يثق الإنسان بتدبير الله –عز وجل-، والله ناصر دينه وكتابه، فالمؤمن لا يبتئس ولا ييأس حينما يرى المنافقين ينقضون عرى الإسلام عروة عروة، ويتطاولون على ثوابته وشعائره، وأعلام المسلمين الأحياء والأموات، فالله مظهر دينه وناصره، نعلم هذا يقيناً لكن هذا يتطلب المدافعة والصبر على الحق من غير تقديم تنازلات، والداعية الذي ينساق وراء أهل الباطل، ويقدم لهم التنازلات تلو التنازلات هذا يسير في ركابهم، وقد يحشره الله معهم، فالمؤمن يثبت والعاقبة للتقوى.

فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذوها، وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُؤُورة الملك ورجاء منفعته، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلا وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلا وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوي والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى

بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنا، في عز وجاه ورزقٍ دَارٍّ، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل: يوم وليلة، أو نحوه، والله سبحانه أعلم.

المرأة من الفئة المستضعفة يعني في المجتمع هناك فئة عليا، وهم القبط، وفيه فئة دونية منسفلة يستعملون في الخدمة، يقتل أولادهم يذبح الأولاد، ويستحيي النساء للخدمة والأعمال المهينة خدم للفراعنة، فيؤتى بهذه المرأة من هذه الفئة الفقيرة المستضعفة، وتُعطَى الأموال والهدايا، والعطايا الجزيلة من أجل أن ترضع ولدها الذي كانت تتخوف عليه القتل، وألقته في اليم ثم بعد ذلك يرجع إليها في وضح النهار أمام مرأى من الجميع، ويحصل لها بسبب ذلك من ثبات القلب والمكانة الاجتماعية بين قومها وعشيرتها، وأهلها وتُدفع إليها الأموال هي لا تحتاج إلى إخفائه بل تبدي هذا وتفتخر، هذا أمر في غاية العجب، والله المستعان.

فسبحان من بيديه الأمر! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا، وبعد كل ضيق مخرجًا، ولهذا قال تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا} أي: به، {وَلا تَحْزَنْ} أي: عليه: {وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: فيما وعدها من رده إليها، وجعْله من المرسلين، فحينئذ تحققت بردّه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا.

قوله: **فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً**، فهي تربي الآن رسولاً لم يعط الرسالة بعد، **شرعاً** بحمله على ما يجمل، على ما يحبه الله ويرضاه، وبكفه عما يسخطه، "**وطبعاً**" يعني بحمله على ما يحسن من المروءة، ومكارم الأخلاق ولا يصلح لمثل هذا ما قد يسوغ من غيره من سائر الناس، هذا سيكون رسولاً، وهذا معنى في غاية الأهمية في التربية، من أراد أن يربي أولاده ليكون هؤلاء الأولاد أئمة هدى أئمة في الخير، يربيهم وهمته تكون عالية، فإنه حتى في غير الحلال والحرام وقضايا الشرع -في أمور العادات- يحملهم على ما يجمل وما يكون من قبيل الكمالات، ويحفظ المروءة منذ نشأتهم، ونعومة أظفارهم، تربية الكبار، تربية الأشراف فإنه لا يصلح لهم ما يصلح، أو ما قد يسوء لغيرهم.

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي: حُكْمَ الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [سورة البقرة:٢١٦]، **وقال تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}** [سورة النساء:١٩].

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}

[سورة القصص:١٤-١٧].

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى -عليه السلام- ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، قال مجاهد: يعني النبوة {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ} قال: "**ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً**"، لم يتفق أهل العلم على قول في معنى بلوغ الأشد، فالإمام مالك -رحمه الله- يرى أن بلوغ الأشد هو بلوغ الحلم، إذا وصل يعني إلى سن البلوغ ويستدل لذلك بقوله -تبارك وتعالى-: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ} [سورة النساء:٦] البلوغ يعني {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} فهناك بالنسبة لليتيم يطلب فيه البلوغ بجانب حسن التصرف في المال، {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا}؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن بلوغ الأشد ليس مجرد البلوغ المعروف، وإنما يطلب معه ما هو فوق ذلك مما يحصل به النضج، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن بلوغ الأشد أن يبلغ الرابعة والثلاثين كما يقول مجاهد وسفيان الثوري يبلغ الرابعة والثلاثين، قالوا هذا يكون حالاً من الاستواء والاكتمال، وبعضهم يقول: يكون من الثامنة عشرة إلى الثلاثين، هذا بلوغ الأشد عندهم، والاستواء فوقه، يعني باعتبار أنه بلغ أشده واستوى؛ لأن الواو تقتضي المغايرة، فالاستواء غير بلوغ الأشد فقد يبلغ الأشد لكنه ما استوى بعد، فبلوغ الأشد عندهم من الثامنة عشرة إلى الثلاثين، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين هكذا يقول بعض أهل العلم، وبعضهم يحدد الاستواء بالأربعين، والله –عز وجل- يقول: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [سورة الأحقاف:١٥]، فيحتمل أن يكون بلوغ الأشد يحصل قبل ذلك لكنه إذا بلغ الأربعين كانت النهاية، ولا شك أن من بلغ الأربعين يكون قد بلغ الأشد من جهة اكتمال العقل، فالكمال على مراتب، النضج العقلي ليس على مرتبة، ولهذا يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن بلوغ الأشد يكون بمعنى اكتمال العقل، والنضج العقلي يكون على قوته وشدته، وهذا يتفاوت الناس فيه بحسب نمو مداركهم العقلية، وما يحصل لهم من التجارب في الحياة، فإن العقل منه ما هو فطري، ومنه ما هو مكتسب، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتاً كبيراً، كما يتفاوتون في عافية أبدانهم، وفي صور أجسامهم، كذلك يتفاوتون في عقولهم، والعقل غير الذكاء، وقد يكون الإنسان في غاية الذكاء ولكنه لا عقل له، كما أن العقل ليس هو العلم، فقد يكون الإنسان من أوعية العلم، ولكنه لا عقل له، ولا يُحسن التدبير، وليس عنده حكمة، ولا حسن نظر في الأمور، وإنما فيه شيء من الطيش والعجلة، لا يقدر الأمور بصورة صحيحة لربما يفسد أكثر مما يصلح إذا كان ليس له حكمة ولا رزانة ولا عقل، ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: إن بلوغ الأشد يعني حينما يكون في حال من الاشتداد، واكتمال الخلق، والنمو يعني شدة البدن واكتمال النمو عند هذا الإنسان، شدة البدن، وانتهاء القوى وإن الاستواء يكون بلوغ النهاية في ذلك، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} ولا يبعد -والله تعالى أعلم- أن بلوغ الأشد يشمل هذا وهذا، فإن الاكتمال الذي يحصل للإنسان يعني النمو البدني، فالحد الذي يقرره الأطباء مثلا بالنسبة للعظام، البنت يقولون: إنها إذا وصلت للسابعة عشرة العظام لا تنمو، وهذا يحتاج إليه فيما يتطلبه تنمية العظام من أغذية ونحو ذلك، وكذلك في العلاجات التي لربما تحتاج إلى معالجة وتتطور مع الوقت فإذا وصلت إلى هذا يعلم أنه لا يحصل نمو أكثر، والحال ستبقى على هذا، وبالنسبة للذكر يقولون: إلى الحادية والعشرين يتوقف نمو العظام هذا بالنسبة لنمو العظام، لكن بقية نمو الجسم لا شك أنه يحصل للإنسان نمو، فالذي يبلغ الحادية والعشرين لا يكون كذلك إذا بلغ الأربعين من ناحية النمو، فاكتماله يكون ببلوغ النهاية في النمو البدني إلى الأربعين، وكذلك بالنسبة للنمو العقلي الناس يتفاوتون في سرعة هذا النمو فقد تجلس مع ابن في الثامنة عشرة وهو في عقله مثل ابن

الأربعين، قد يوجد لكنها حالات نادرة أو قليلة، وقد ترى ابن العشرين أو الثلاثين كذلك لكن غاية النمو العقلي إلى الأربعين يعني لا يرجى له بعد الأربعين عقل زائد إلا ما كان من قبيل التجربة، والخبرة العقل المكتسب لكن من كان به سفه ونقص في العقل وضعف في التفكير وما إلى ذلك لا يرجى له بعد الأربعين أن يحصل له نمو عقلي، إنما تكون التجارب التي هي جزء العقل الآخر، يعني تحنكه التجارب وينتفع بذلك، فبلوغ الأشد من أهل العلم من يقول: هو المقصود بقوله: {وَاسْتَوَى} بلغ الأشد، الاكتمال العقلي وهو الاستواء، وأكثر أهل العلم يفرقون بين بلوغ الأشد والاستواء يقولون: الاستواء أمر زائد على ذلك، ونحن نعلم أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما يبعثون إذا بلغوا الأربعين، فهذا حد الكمال -والله تعالى أعلم- ولهذا ذكره الله –عز وجل- في قوله: {إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي}، يعني ذهب عنه الطيش، والله أعلم.

{آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} فالحكم فسر بالنبوة، وفسر بالحكمة، وفسر بالفقه في الدين، وابن جرير -رحمه الله- يفسر هذا بالفقه بالدين، وهذه المعاني إذا نظرت إلى أصل المادة الحاء والكاف والميم تجد أنها ترجع إلى ذلك جميعاً، فكمال العلم والحكمة إنما هو في النبوة التي يعطيها الله -عز وجل- من شاء من عباده، فهذا منتهى الفهم والعلم والعقل والكمال، والحكمة هي موهبة ربانية من الله –عز وجل- لمن شاء من عباده لا يصل إليها الإنسان بتهذيب ومجاهدات وتزكيات وما إلى ذلك كما يقول الفلاسفة، إنما هي موهبة ربانية، وهي النبوة فمن قال: إنها النبوة فذلك منتهى الحكم، وأما العلم المشار إليه -والله تعالى أعلم- فبعضهم يقول: هو الفهم، وبعضهم يقول: هو الفقه، فمن يقول: إن ذلك كان قبل النبوة فيقول: أعطاه الله حكما، يعني حكمة وفهماً وفقهاً في الدين، وعلماً يقول: أعطاه الله -عز وجل- العلم بدينه ودين آبائه، فعلّمه الله –عز وجل- ذلك أعطاه الله حكماً وعلما، فإن قيل: هذا قبل النبوة فهذا كما سبق، وإن قيل: بعد النبوة فيمكن أن يحمل ذلك على منتهاه، وهو النبوة، على أكمل صوره وحالاته، علمه الله –عز وجل- بوحيه فالآيات هنا تحتمل أن يكون ذلك على ما قصه الله –عز وجل- بهذا السياق والترتيب حتى حصل ما حصل من قتل القبطي باعتبار أن ذلك كان قبل النبوة وأن النبوة لم تحصل له إلا بعدما رجع من مدين ففي الطريق أوحى الله –عز وجل- إليه في الوادي المقدس طوى عند جبل الطور فحصلت له النبوة حينما أوحى الله إليه هناك، وما قبل ذلك كان قبل النبوة، فبهذا الاعتبار يحمل العلم والحكم هنا على الفقه في الدين والفهم والحكمة وما شابه ذلك، وإذا قيل: إن النبوة حصلت له قبل أن يذهب إلى مدين، فيمكن أن يحمل هنا الحكم على النبوة -والله تعالى أعلم-، والعلماء -رحمهم الله- منهم من يقول: إن النبوة حصلت له بعدما رجع في الطريق حين ناداه الله -عز وجل-: {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [سورة طه:١٢-١٣]، ومنهم من يقول: كانت له النبوة قبل ذلك، -والله تعالى أعلم- ولا يبعد -والعلم عند الله –عز وجل- أنه قبل أن يذهب إلى مدين كان في شبابه قبل أن يبلغ الأربعين، وكان لا يزال في حال من التمكن لكونه تربى في قصر فرعون، يحتمل هذا -والله تعالى أعلم- ثم بعد ذلك ذهب وتزوج في مدين.

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدَّر له من النبوة والتكليم: قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا}

قال ابن جُرَيج، عن عطاء الخرساني، عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء.

وقال ابن المنْكَدر، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار، وكذلك قال سعيد بن جبير، وعِكْرمة، والسدِّي، وقتادة.

بعض العلماء يقول في قوله: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا}: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- كان يعيب دين الفراعنة وآلهتهم، وإن ذلك تنامي إلى فرعون فخوفوه وخافهم فكان لا يدخل إلا في حال من التخفي والترقب والتوجس، فيدخل كما يقال في الأوقات الميتة: {عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا}، إذا خَفّت الرِّجلُ يعني: لا يكون في الطرقات أناس في وقت راحة الناس إما في ليل وإما في وسط النهار في وقت القيلولة مثلاً وليس هناك دليل على تحديد هذا الوقت، لكن {عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ}، ومنهم من قال: إن ذلك وقع اتفاقاً ليس لأنه يقصد الدخول في هذا الوقت؛ فدخل في وقت كان الناس فيه قد لجئوا في بيوتهم وأخلدوا إلى راحتهم فوجد مثل هذا المشهد رجل من الإسرائيليين يتقاتل مع رجل من الفراعنة، وهؤلاء الفراعنة كانوا يستضعفون الإسرائيليين، ويحملونهم على الأعمال الشاقة المهينة التي يترفع عنها الفراعنة فكانوا يتعاملون معهم تعاملاً فيه استضعاف وابتذال وامتهان، فيحصل منهم عدوان على هؤلاء الإسرائيليين، فمنهم من يطأطئ رأسه، ويقْبل ما يحصل له من الذل والمهانة، ومنهم من ينتصر لنفسه إن استطاع، أو يحاول ذلك، فحصل هذا الشجار بين الفرعوني والإسرائيلي.

{فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ} أي: يتضاربان ويتنازعان، {هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ} أي: إسرائيلي، {وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ} أي: قبطي، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق. فاستغاث الإسرائيلي بموسى -عليه السلام- ووجد موسى فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}.

قال مجاهد: وكزه، أي: طعنه بجُمْع كفه.

{فَوَكَزَهُ} يعني: طعنه بجمع كفه، فمن أهل العلم من يقول: الوكز والهز والنكز وما شابه كل ذلك يرجع إلى معنى واحد الضرب باليد مجتمعة، ومن أهل العلم ممن يُعنون بذكر الفروق، من يفرقون بين هذه الألفاظ يقولون: اللكز هو الضرب على اللَّحْي، وفيه قراءة لابن مسعود لكنها ليست متواترة بطبيعة الحال وهي {فلكزه} لكزه فعلى هذا: التفريق، وبعضهم كالأصمعي يقول: اللكز هو الضرب على الصدر ضربه على صدره، وبعضهم يقول: هو الضرب على أي موضع من الجسم كل ذلك يقال له: لكز، وأما الوكز فهو الضرب على القلب، وكزه ضربه على قلبه كما تقول: رأيته أي: ضربته على رئته، وذكروا أنه في بعض المصاحف وليس في المصحف الذي أمر عثمان بجمعه وأمر بالتزامه وقراءته: فنكزه، يعني فسر بالضرب والدفع، وبعضهم قال: اللهز هو الضرب باليدين معاً على الصدر، لهزه، وبهذا يقول أبو عبيدة ومن وافقه.

وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه.

{فَقَضَى عَلَيْهِ} أي: كان فيها حتفه فمات، قال موسى: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} أي: **بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة.**

بعض أهل العلم يقول في قوله: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} يعني: كفر هذا الفرعوني هذا القبطي، وبعضهم يقول: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} يعني: نفس القبطي أنه من جنود الشيطان، وهذا كله بعيد، والأقرب أن المقصود أن هذا الذي وقع {مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} حيث استفزه، استفز موسى -عليه الصلاة والسلام- فضرب هذا القبطي هذه الضربة التي أتت على نفسه، مما يدل على أنه ندم على هذا، وطلب المغفرة من الله –عز وجل-، وفي حديث الشفاعة الطويل أنهم لما يأتون إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- يعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، ولهذا قال بعض أهل العلم: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} أي: باعتبار أنه لم يؤمر بقتله، ومن أهل العلم من يقول: إن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يقصد قتله، وإن هذه الضربة عادة لا تقتل وإنما ضربه فكان في ذلك حتفه من غير قصد للقتل، وإنه قصد بهذا: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} كما يقول ابن جرير: إن الشيطان هو الذي استفزه لهذا وأثار مكامن الغضب في نفسه فضرب هذا الفرعوني أو القبطي.

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} أي: **بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة** {فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا} أي: **معينا** {لِلْمُجْرِمِينَ} أي: **الكافرين بك، المخالفين لأمرك.**

سواء كانت المنعة أو النعمة كل ذلك حصل له إلا على قول من يقول: إنهم -كما سبق- تنامى إليهم أنه يعيب آلهتهم ودينهم فخوفوه، فخافهم فكان لا يدخل إلا على حين غفلة من أهل المدينة، بحيث إنه لم يكن له منعة بعد ذلك، لكن هذا يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله –عز وجل-، وقوله هنا: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}، بعضهم يقول: الباء هذه باء القسم أنه حلف بهذا، وهذا فيه نظر، {بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} يعني: يحتمل أن تكون "ما" بمعنى الذي إن كانت موصولة، أي بالذي أنعمت عليّ، فيكون من قبيل الحلف بغير الله، وهذا لا يكون من موسى -عليه الصلاة والسلام-، ويحتمل أن تكون "ما" هذه مصدرية، يعني بإنعامك عليّ، وكثير من أهل العلم يقولون: إن هذه الباء هي باء السببية، وهذا أقرب -والله أعلم- {بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} أي: بسبب إنعامك عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين، فلا يستعمل النعمة في مساخط الله -تبارك وتعالى-، مع أن بعض أهل العلم يقول: إن الكلام هنا هو من قبيل الدعاء، وليس من قبيل الخبر المجرد، يعني فلا تجعلني ظهيراً للمجرمين، وجاء في قراءة لابن مسعود -رضي الله عنه-: {فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين} احتجوا بهذه القراءة؛ ولهذا بعضهم كالفراء يقول: "اللهم فلا تجعلني"، يقول: فيه مقدر محذوف بما أنعمت عليّ يا رب فلا تجعلني، أو اللهم لا تجعلني ظهيراً للمجرمين، وأكثر أهل العلم على أن ذلك من قبيل الخبر وأنه ليس بدعاء، والله أعلم.

{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ} [سورة القصص:١٨-١٩].

يقول تعالى مخبرًا عن موسى -عليه السلام-، لما قتل ذلك القبطي: إنه أصبح {فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا} أي: من مَعَرّة ما فعل، {يَتَرَقَّبُ} أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر موسى استصرخه على الآخر.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} يحتمل أن يكون المقصود: دخل في الصباح، ويحتمل أن يكون {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ} يعني صار بهذه الحال، {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} ومعنى يترقب: قيل: يترقب الأخبار، ويتتبع ما يقال عنه، وما يراد به، وهذا داخل في الترقب، وهو يترقب ما يأتي من أخبار، وما يقوله القبط أو الفراعنة عنه، وما يراد به، ويترقب المخاوف، يترقب في حال من الحذر أن يصل إليه شيء من المكروه، فهو متوجس خائف، يقول: فلما مر عليه موسى استصرخه الإسرائيلي مرة أخرى هو الإسرائيلي نفسه السابق، والاستصراخ من الصراخ وهو طلب الغوث، فلان يستصرخ يعني يطلب الغوث والنجدة والإغاثة فهذا يستصرخه يطلب منه أن يغيثه وأن ينصره، وهذا يشعر أنه كان في حال من القهر والضعف، والذي يستصرخ عادة هو المجهود والمنهك، والضعيف الذي يقع عليه البطش، فهو يريد الخلاص، فجاء موسى -عليه الصلاة والسلام- ورأى هذا القبطي يبطش بهذا الإسرائيلي، والإسرائيلي يحاول أن يدفع عن نفسه، فجاء إليه موسى -عليه الصلاة والسلام-؛ ليبطش به، فهذه مشاهد لا تُحتمل، يعني أمة مستضعفة بغاية الابتذال يعاملون مثل هذه المعاملة، وموسى -عليه الصلاة والسلام- أراد أن ينتصر لهذا الإسرائيلي.

فقال له موسى: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ} أي: ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوَرِه وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لمّا سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: {يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ} وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى -عليه السلام-، فلما سمعها ذلك القبطي لقَفَها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

هذا هو قول الجمهور: إن الذي قال: {أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ} هو الإسرائيلي، وحجتهم في ذلك أنه لم يعلم بذلك أحد سوى هذا الإسرائيلي، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وعامة أهل العلم أن القائل هو الإسرائيلي، ومن أهل العلم من قال: إن القائل هو القبطي، واحتجوا على ذلك بأنه ظاهر القرآن وأن السياق يدل عليه، وقالوا: هنا الآيات: {فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا} فالقائل هو المخبَر عنه المحدَّث عنه الذي {هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا} لكن قالوا: الإسرائيلي محتمل، لكن ظاهر القرآن أن القبطي هو القائل وهذا وجيه من جهة السياق، والآية تحتمل هذا وهذا، فذاك مبناه على النظر، وهذا مبناه على السياق وظاهر القرآن، فهذه طرق في الترجيح، ومن أهل العلم من اعتمد ظاهر القرآن، والسياق وقال: إن القائل هو القبطي علم بطريقة ما، وقد يكون هذا الإسرائيلي هو الذي قال له، وقد يكون القائل هو الإسرائيلي غلب عليه الخوف فظن أن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما قال: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} أنه يريد أن يبطش به، وأن يؤدبه فقال: {يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} والجبار هو الذي يفتك ولا ينظر في العواقب، ولا يكترث ولا يهتم، صاحب فتك يقتل، وبعض السلف كالشعبي أخذ من هذا أن

من قتل نفسين فهو جبار أي: نفسان قتلهما بغير حق، قالوا: لأنه قال: {كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} قالوا: إذا أضاف إلى واحد آخر في القتل فهو جبار، وهذا ليس بلازم أنه لا يقال للإنسان جبار إلا إذا قتل نفسين فأكثر، فقد يكون جباراً من غير قتل، قد يحصل هذا؛ ولهذا قال الزجاج: إن الجبار هو الذي لا يتواضع لأمر الله –عز وجل-، وكذلك أيضاً القاتل بغير حق {إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}، والذين قالوا: إن القائل هو الفرعوني قالوا: هل يعقل أن الإسرائيلي باعتبار أن موسى -عليه الصلاة والسلام- نبي إذا قيل: إن هذا وقع في نبوته هل يعقل أن الإسرائيلي يقول لموسى: {إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا} فـــ"إنْ" هنا نافية يعني ماتريد إلا أن تكون جباراً، ولا يعقل أن يخاطبه رجل من بني إسرائيل مؤمن بنبوته -عليه الصلاة والسلام- ويقول له: {إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}، وإن القتل هنا الذي حصل لم يكن مقصوداً أصلاً وإن موسى -عليه الصلاة والسلام- تاب، والذين يقولون: إن القائل هو الإسرائيلي، يمكن أن يقولوا: هذا كان أصلاً قبل النبوة ثم هذا الإسرائيلي الذي حصل منه هذا، كل يوم هو في مشكلة مع آخر كما قال له موسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}،أي بيّن ظاهر الغواية، فمثل هذا ما يبعد أن يصدر منه مثل هذا الكلام في حال الخوف، والآية تحتمل هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [سورة القصص:٢٠].

قال تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ} وصفه بالرُّجُولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى {إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ} أي: يتشاورون فيك {لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ} أي: من البلد {إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}.

{يَأْتَمِرُونَ بِكَ} يتشاورون بأمرك هكذا فسره بعضهم كأبي عبيد القاسم بن سلام، وبعضهم يقول: {يَأْتَمِرُونَ بِكَ} أي يأمر بعضهم بعضاً فإن الائتمار يكون بهذا الاعتبار، يعني يأمر بعضهم بعضاً بقتلك كما يقول الأزهري والزجاج، {يَأْتَمِرُونَ بِكَ} والواقع أنه يرجع إلى المشاورة كما قال الله –عز وجل-: {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ} [سورة الطلاق:٦]، فيما يتعلق بالولد، وما يكون من مصلحته من الرضاع ونحوه {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ}، تشاوروا كل واحد يأمر الآخر بمعروف بما فيه مصلحة هذا الولد، فلا إشكال، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٢١ إلى الآية ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة القصص:٢١-٢٥]، **لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قلبُه، بل كان في رفاهية ونعمة ورئاسة، {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} أي: يتلفَّت {قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: من فرعون وملئه، فذكروا أن الله -سبحانه وتعالى- بعث له ملكًا على فرس، فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم.**

{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} أي: أخذ طريقًا سالكًا مَهْيَعاً فرح بذلك، {قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} أي: إلى الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجُعل هاديًا مهديًّا.

{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ} أي: ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء، {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ} أي: جماعة، {يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} أي: تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا، فلما رآهما موسى -عليه السلام- رق لهما ورحمهما، {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا} أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ {قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ} أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: {فَسَقَى لَهُمَا}.

وقوله: {ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}، وقوله: {إِلَى الظِّلِّ} قال ابن عباس، وابن مسعود، والسدي: جلس تحت شجرة.

وقال عطاء بن السائب: لما قال موسى {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} أسمعَ المرأة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} قال الحافظ -رحمه الله-: "**أي يتلفت**"، وليس المقصود أن من يتلفت أنه يترقب، فإن الالتفات الكثير ناتج عن تخوف، وقلق وتوجس فهو يترقب لما يتخوفه، ويتوقعه

من المكروه، وقوله: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} أصله من اللقاء، تقول: داره تلقاء داري، يعني أنها مقابل داري، و{مَدْيَنَ} بعضهم يقول: اسم للقبيلة، وبعضهم يقول: اسم للقرية وهو محتمل، وقوله: {قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ} من إضافة الصفة إلى الموصوف، {سَوَاء السَّبِيلِ} يعني السبيل المستوية، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ}، قال: "**أي تكفكفان غنمهما**" أن ترد مع غنم أولئك الرعاء، وعبر هنا بالمضارع {تَذُودَانِ} ليصور الحال فالغنم تتفلت عليهما تريد الماء، وهما تكفكفان هذه الغنم، فترد هذه من هنا، وترد تلك من هناك، وهو أمر كأنك تشاهده، قال: {مَا خَطْبُكُمَا} يعني ما خبركما؟ ولماذا هذا التوقف والانعزال عن هؤلاء الناس؟ فقالتا: {لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء} مضارع "أصدر" المتعدي، "أصدر" يعني المفعول مقدر محذوف، أي يُصدِر الرعاء أغنامهم ومواشيهم، وفي القراءة الأخرى قراءة ابن عامر وأبي عمرو {حَتَّى يَصْدُرَ الرِّعَاءُ} يعني عن الماء قالوا: {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}، هذه الآيات واضحة المعنى، والعادة أن ما يذكر هنا بهذا المجلس إنما هو توجيه الأقوال أو بيان ما يحتاج إلى بيان، ولكن بعض هداية القرآن أحياناً لا نستطيع أن نتجاوزها لمقتضى الحال، فهذه الآيات فيها أبلغ العبرة فيما يتصل بأدب المرأة المسلمة مع الرجال، والعجيب أن دعاة الاختلاط يحتجون بمثل هذه الآية على عادة أهل الأهواء في الاحتجاج والتعلق بنصوص القرآن حيث يؤولونها، ويحملونها على غير ما دلت عليه، وكان من عادة أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن أهل الباطل لا يحتجون بشيء أو بحجة إلا قلبها عليهم، وهذه الآية أوضح ما تكون في الاحتجاج على هؤلاء المفسدين، فهؤلاء يحتجون بهذه الآية على أن هاتين المرأتين خرجتا للعمل وتخالطان الرجال، وتعملان بجانب الرجال، فيقولون: هذا دليل على جواز الاختلاط، والواقع أن الآية لا تدل على ذلك لا من قريب ولا من بعيد، فموسى -عليه الصلاة والسلام- تعجب من حالهما {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ}، ما قال وجد معهم {مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ} تكفكفان الغنم، والغنم تتفلت تريد الماء وهما بمعزل، {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا}، فلم تجترئ هاتان المرأتان على السقي لغنمهما -مع الحاجة- مع الرجال، وهذا دليل على أدب المرأة المسلمة في مباعدة مجامع الرجال، وأن الاختلاط تأباه الفطرة، كما تأباه الشريعة، وكذا تأباه العقول الراجحة كما تدل عليه الشواهد الكثيرة من كلام الغربيين من الرجال والنساء من عقلائهم أو ممن ذاقوا مرارة التجربة حتى صارت حكوماتهم -أو بعضها- تدعم المدارس والكليات غير المختلطة، وتعطيها مزايا وتسهيلات وأموالاً، وهذا كله موجود بتقارير منشورة ومعروفة، فالشاهد أن هاتين المرأتين لم تختلطا بالرجال كما يقولون: {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء}، أي نحن لا نختلط مع الرجال مع وجود الحاجة ثم بيّنتا سبب الخروج، وأنه ليس ذلك ناتجاً عن رغبة فيه، أو رغبة في العمل، أو عن طلب للترويح، وبسبب الملل من البقاء في البيوت، وإن محل المرأة بيتها والله يقول: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [سورة الأحزاب:٣٣]، ومعلوم أن كثرة الخروج بحد ذاته يعد من التبرج، فالمرأة الخرّاجة الولّاجة امرأة متبرجة؛ لأن التبرج من البروج وهو الظهور والانكشاف، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، يعني همّ بها، وأغرى بها، فهاتان المرأتان إنما خرجتا

من أجل الحاجة التي لا تُسد إلا بهما، {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} ليس هناك بديل، ليس هناك من يقوم بهذا العمل سواهما، ثم إن موسى -صلى الله عليه وسلم- سأل بكلمة واحدة: {مَا خَطْبُكُمَا}؟، فذكرتا له الجواب عما سأل مع بيان العلة من غير استطراد {مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}، وهذا فيه أدب المرأة المسلمة في مخاطبة الرجال، وأدب الرجل في مخاطبة النساء، بحيث لا يسترسل في الحديث ويطيل، ويأخذه الكلام حتى يأنس بمحادثتها ويستروح لذلك، فإن هذا يدعو إلى ما بعده، ثم بعد أن سقى لهما لم يتحول الأمر إلى علاقة أو أسئلة فضولية، بل {تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ}، ثم بعد ذلك جاءته إحداهما تمشي على استحياء، خرجتا للرعي؛ لأن الرعي يتطلب ذلك، ولكن حينما كان الخروج في المرة الأخرى للدعوة جاءت واحدة، فليس هناك غنم تُذاد، ولا تسقى، ولا مرعى، {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا} فالخروج على قدر الحاجة، وقوله: {تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء} يدل على أنها لا تخالط الرجال؛ لأن المرأة التي تخالط الرجال يذهب حياؤها، ويذهب ماء وجهها شاءت أم أبت، ومهما حاولت أن تظهر غير هذا فإنه ينكشف في الحقيقة، وهذا أمر مشاهد ولو كانت متدينة، فتكون في حال من الجرأة بل حتى إذا كلمت لتستفتي كأنها تتكلم مع أصغر أولادها أو إخوانها بغاية الجرأة، وإذا سألت فغالباً لا تعرف الحياء في السؤال، ولا تتحرز، ولا تتحرج وهي تتكلم مع رجل أجنبي، هذه المرأة التي تخالط الرجال تعتاد، تكون جريئة، أما المرأة التي لا تخالط الرجال فإنها تستحي منهم، ولا تجرؤ على مخاطبتهم أو مقابلتهم، {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء}، ولم تقل: تفضّلْ عندنا نحن ندعوك اليوم تقديراً لجهودك، وإنما قالت: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ}، ثم بيّنت سبب هذه المسألة، ليس فيها ريبة {لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}، فأين هذا من حال أهل الاختلاط؟، وقبل مدة شاهد العالم تلك المسخرة منتدى خديجة بنت خويلد أو مركز خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها-، سموه باسم أم المؤمنين يجرءون هذه الجرأة على الله وعلى أمهات المؤمنين، وعلينا، ونظرت في تلك المواقع وطلبت المزيد من بعض الإخوان فوجدت مركز خديجة بنت خويلد ونساء في غاية السفور حتى إنك ترى بعضهن تجلس بجانب رجل والله كأنها مغتنمة ألبسة لا تعرف الحياء ولا الحشمة، وجوه سافرة هذا كله وينسب إلى خديجة بنت خويلد، ورأيت بعض كلام هؤلاء النسوة اللاتي فارقن الحياء يتحدثن بحديث غريب أن قدوتهن خديجة بنت خويلد، فالمسألة صارت استحلالاً للمنكر والتبرج والاختلاط وهذا خطير، وهناك فرق بين أن تقع المرأة في مثل هذا وهي ترجو التوبة وتأمل بحال أفضل من هذه وتخاف من الله -عز وجل- ومن عاقبة هذا الذنب ومغبته لكن أن يصل الأمر إلى هذا الاستحلال وينسب إلى أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها- باعتبار أنه كان عندها تجارة، خديجة كانت تجتمع مع الرجال وتخالط الرجال، وألبسة وعباءات لو كانت الواحدة من غير تلك العباءة لكانت حالها أخف وأسلم في الفتنة، ومصافحة للرجال، بل رأيت أن بعض هؤلاء حينما تصافح بعض الرؤساء الأمريكيين السابقين أو غير هؤلاء من الرجال أن الواحدة تكاد تلتصق به، والنساء في العالم إذا صافحت رجلا تمد يدها من بعد لكن هذه تكاد تضع جسمها ملتصقاً بجسمه بل لربما حاولت أن تظهر وجهها إلى ناحية صدره، فهذا من أعظم المنكرات، فهؤلاء هم رواد التبرج في هذا المجتمع، كما كان

لكل مجتمع رائدات في التبرج والاختلاط والفساد والإفساد، فهؤلاء هم السابقون في ذلك الذين يحملون وزرهم، ولهم أيضا من أوزار من يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، لا ينقص من أوزارهم شيء، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [سورة القصص:٢٥-٢٨].

لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى -عليه السلام-، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- أنه قال: كانت مستترة بكم درْعها.

وروى ابن أبي حاتم عن عمر بن ميمون قال: قال عمر -رضي الله عنه-: "جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خرَّاجة ولاجة"[1]، هذا إسناد صحيح.

السلفع هي المرأة الجريئة، وهذا ملازم لما بعده **خرَّاجة ولاجة** كثيرة الخروج داخلة طالعة، فهذا ملازم لهذا؛ لأن المرأة التي تكثر الخروج تكون مجترئة، ثم نقول لهؤلاء الناس: افترضوا أن القضية كانت مخالطة للرجال، افترضوا مع أنها ليست كذلك، افترض أن هذا شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟ شرع من قبلنا إذا كان يخالف شرعنا فهو ليس من شرعنا بالإجماع، وهذا أمر معلوم عند أهل العلم، ففي شرعنا عشرات النصوص التي تدل على تحريم الاختلاط، فنترك كل هذه النصوص بناءً على حادثة واقعة ذكرها الله لمن قبلنا مع أنه ليس فيها ما يدل على هذا.

وقوله: "**قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع**" من النساء، يعني قضية تغطية الوجه أمر معروف حتى عند الشرائع السابقة، تغطية الوجه وما عرف كشف الوجه عند المسلمين إلا بعدما جاء الاستعمار في مصر، وفي الشام، وفي مشارق الأرض ومغاربها، فكشف الوجه ما كان يعرف أبداً، فالنساء كن يغطين وجوههن، وابن العربي المالكي، وبعض أهل العلم لما طافوا في بعض البلاد وزاروها وجاءوا بلاد الأندلس ذكروا بعض ما شاهدوا وما رأوا في بعض بلاد الشام، يصفون ما شاهدوا، يقولون: لا ترى النساء أبداً إلا يوم الجمعة يخرجن بغاية الحشمة لا يرى منها شيء، وفي سائر الأسبوع يقولون: تظن أنك في بلد لا يوجد فيه نساء ولما جاء الاستعمار وبدأت النساء الفرنسيات اللاتي جئن مع الجيش الفرنسي وقائده نابليون، وصرن يضاحكن أصحاب الدواب: الجمال، والبغال، وما أشبه ذلك، وفي حال من التبرج، وكان المصريون يتعجبون

---

١ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٣١٨٤٢).

من جرأة هؤلاء ووقاحتهن، ثم بعد ذلك حصل ما حصل في بولاق، وأحرق جزء كبير منها، وعاث الفرنسيون فيها فساداً، وأخذوا من الأموال، والنساء الشيء الكثير ثم ربوهن على أيديهم، فطفق أولئك النسوة فيما بعد يتشبهن بهؤلاء من الفرنسيين، فبدأ التبرج شيئاً فشيئاً حتى صار إلى هذه الحالة، ولما صارت الثورة وجاء سعد زغلول -سيئ الذكر- أول ما بدأ به والنساء قد احتشدن، بدأ بكشف غطاء وجوه النساء اللاتي احتشدن بعد أن كن مستترات، فجاء وبدأ بكشف هذا الخمار، ولا أدري ما علاقة الثورة والنصر المزعوم بكشف غطاء المرأة! وكانت زوجته المسماة بصفية زغلول رائدة في هذا المجال، وشيخه وأستاذه فضيلة الشيخ المفتي محمد عبده كان صديقَ اللورد كرومر، ويجلس مع زوجته، صديقاً لزعيم الاستعمار ومندوب الإنجليز في مصر، وكان يتردد على بعض الصوالين التي يديرها بعض النساء، وبعضهن نصرانيات، فإذا كان هذا حال هذا الشيخ فما بالك بغيره إلا ما رحم الله –عز وجل-، فكانت تلك قصة الاختلاط، والله المستعان.

قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجَسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة، {قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة، بل قالت: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} يعني: ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا، {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ} أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده، {قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، يقول: طب نفسا وقرّ عينا، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكْم لهم في بلادنا، ولهذا قال: {نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

وقوله: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل: هي التي ذهبت وراء موسى -عليه السلام-، قالت لأبيها: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ} أي: لرعية هذه الغنم.

بعض العلماء يقول: إن الذي قص عليه القصص هو أبو البنات وأنه جلس يتحدث مع موسى ويسليه، ويذكر له خبره، وأن هؤلاء البنات يقمن بهذا العمل؛ لأنه لا يجد غنية، والأقرب كما هو ظاهر السياق أن الذي قص القصص هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، ذكر له خبره بدليل أنه قال له بعد ذلك: {لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ} فذكر له خبره مع فرعون، وما حصل من قتل القبطي، وما تآمروا به على قتله، ثم قال: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا} يقول قالت: أي إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل: هي التي ذهبت وراء موسى -عليه السلام- هذا يُذكر وأصل ذلك يرجع إلى أخبار بني إسرائيل -والله تعالى أعلم-: أنه قال لها: امشي خلفي، وإذا أردتِ أن أتجه يمينا أو شمالاً فألقِ حجراً من الناحية التي تريدين؛ من أجل ألا ينظر إليها، فعرفت أمانته، ورأت قوته حينما استطاع أن يسقي لهما، وبعضهم يقول: إن البئر كان عليه حجر لا يرفعه إلا جماعة من الرجال، وهذا الكلام كله لا دليل عليه، يعني يقولون: إنها استنتجت قوته من هذا، وهي رأت كيف يستخرج الماء ويسقي الغنم فهو وافر القوة.

وهي ليست مستشرفة للخروج؛ هي لا تقول بأن الخروج أصلاً يمثل بالنسبة إليها نوعاً من الفسحة، والراحة

ومفارقة الملل الذي يتمثل في البيت كما يقول كثير من النساء في بيت غنِيّ وتخرج تعمل بألف وخمسمائة ريال، أو بألف ومائتين ريال وهم أغنياء، وتذهب كل يوم وتعمل وتُحاسَب على هذا العمل حساباً عسيراً إذا تأخرت عشر دقائق أو نحو ذلك، يحاسبونها محاسبة دقيقة وهي تقول: أنا ليس لي هدف إلا الخروج من البيت، ولو قيل لها: تعملين بأجرة في بيتك كطباعة مثلاً؟ لقالت: لا، أنا هدفي مفارقة البيت وليس المال، وأعرف بعض النساء قال لها أهلها: نحن نعطيك ما تشائين، خمسة آلاف في الشهر فلا تخرجي، فتصر على الخروج للعمل بألف ومائتين ريال؛ من أجل أنها تخرج، فالخروج هدف، بينما هذه تقول لأبيها: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ} من أجل أن يكفيهما عن الخروج، فالمرأة لا تخرج إلا إذا اضطرت وبضوابط بعيداً عن الاختلاط والتبرج، والأصل أن المرأة تُكفى من بيت المال إن كانت فقيرة أو أرملة أو نحو ذلك، تُكفى من بيت المال تُعطَى ما يكفيها.

قال عمر، وابن عباس، وشُريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمينُ} قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا أخطأتُ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدّى إليه.

عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عُمَر، وصاحب يوسف حين قال: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} [سورة يوسف:٢١]**، وصاحبة موسى حين قالت: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمينُ}.**

قال: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ} أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين.

وقوله: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ} أي: على أن ترعى عليّ ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمانٍ كفاية.

قوله: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي} يعني على أن تثيبني من تزويجها، تقول: أجرَك الله يعني أثابك، فجعل المهر هنا الرعي، فدل على أنه يمكن أن يكون المهر من المنافع ولا يكون مالاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- زوج رجلاً على ما معه من القرآن، لكن لو قلنا لهؤلاء داعيات السفور والتبرج والاختلاط: هذا الرجل قال لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ} المصلحة بالدرجة الأولى تعود إلى الأب، فهل يجوز عندهن أن الرجل يزوج ابنته ويأخذ مهرها مثلا؟ أو يزوجها لرجل يعمل عنده بدون مقابل إلا التزويج؟ لو قيل لهن هذا لأصدرنَ الصحف سبابا وشناعة {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}؟ [سورة البقرة:٨٥]، هو انتقاء، يأخذ ما يوافق هواه ويترك ما يخالفه، عملَ ثماني سنوات أو عشر سنوات راعياً للأب، هو أجير عند الأب وهذا مهر البنت نحن نقول: إن هذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم، هل للأب أن يأخذ المهر أو ليس له ذلك؟ ومن يقول: إنه ليس له أن

يأخذ المهر فإنه يجيب عن هذا بأحد جوابين: الأول: أن يقول: إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء في شرعنا ما يخالفه، أو يقول: إن المصلحة هنا تعود للبنت في الواقع؛ لأنها تعمل وتذهب وتكدح فكفاها هذا، بأن يقوم هو بالرعي، فذهبت عنها تلك المشقات والأعمال التي تصلح للرجال.

ويحتج به في مسألة قدر المهر فالعمل ثماني سنوات أو عشر سنوات في مقابل تزويج يعتبر كثيراً جداً فلا يقال: إن المهر الكثير يحرم، ولكن قلة المهر مظنة البركة، تكون أعظم بركة كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} أي: لا أشاقك، ولا أؤاذيك، ولا أماريك.

يعني الذي يظهر -والله أعلم- أنه لا يقصد هنا المعنى المتبادر من لا أريد أن أشق عليك كما يقول بعض الناس: كيف تكون الأجرة ثماني سنوات أو المهر عمل ثماني سنوات ويقول: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ}؟ هذه مدة طويلة، فالذي يظهر -والله أعلم- أن المعنى لا أريد أن أشق عليك بأن أحملك من العمل ما يحصل به المشقة، يعني ستجدني أتلطف بك وأراعي حالك هذا المقصود، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى إخبارا عن موسى، -عليه السلام-: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلتَ من أنك استأجرتني على ثماني سنين، فإن أتممت عشرًا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط؛ ولهذا قال: {أَيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ} أي: فلا حرج عليّ مع أن الكامل وإن كان مباحًا لكنه فاضل من جهة أخرى، بدليل من خارج، كما قال الله تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [سورة البقرة:٢٠٣].

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحمزة بن عمرو الأسلمي -رضي الله عنه- وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر -فقال: ((إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر))[٢]، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر.

هذا وقد دل الدليل على أن موسى -عليه السلام-، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما.

فموسى -صلى الله عليه وسلم- بقي عشراً، يعني أتم الأجلين على الأرجح من قولي أهل العلم، وقوله: {فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ} يعني إنني لا أُطالَب ولا أُلام بأي مدة بقيت، لا يلحقه بذلك ملامة ولا معرّة ولا يطالب بالزيادة.

وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسألَه، فقدمت فسألت ابن عباس -رضي الله عنه-، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. هكذا رواه البخاري.

هذا فيه عبرة، نبي من الأنبياء، إن قيل: إنه حينما خرج إلى مدين قد نبئ، أو حتى قبل النبوة لا شك أنه أفضل أهل زمانه، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أفضل وأكمل الناس في زمانهم، يبقى هذه المدة

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم في السفر والإفطار، برقم (١٨٤١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر، برقم (١١٢١).

الطويلة يرعي الغنم عشر سنوات في بلد هو غريب فيها، لا يعرفه أهلها، ولا يعرفون قدره، يرعى غنماً، لو عرفوا قدره ما تركوه يرعى الغنم، ولتهافت الناس عليه، ولما تركوه عشر سنوات يرعى الغنم، فهذا في مقاييسنا المادية قد يقال: إنها خسارة للعالم أن تعطل مثل هذه القامات العالية، والنفوس الشريفة، ويشتغل برعي غنم عشر سنوات والناس بحاجة إليه، ويوسف -عليه الصلاة والسلام- بقي تلك المدة في السجن لربما تقرب من المدة التي بقيها موسى -عليه الصلاة والسلام- في رعي الغنم؛ لأنه بقي بضع سنين بعدما أول الرؤية، بعضهم يقول: سبع سنين، وبعضهم يقول: غير هذا، نبي يبقى في سجن مع مجرمين تعتبر في مقاييسنا المادية هذه خسارة للناس كبيرة، ولكن الله –عز وجل- عليم حكيم، فهو يهيئ هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ويربيهم بما هو به أعلم مما يحصل لهم به الكمالات المتنوعة، فمثل هذه الأشياء لا تقاس بمقاييسنا المادية، وهذا دين الله –عز وجل- والله ناصر دينه وكتابه، وإنما علينا أن نبذل وننشر دين الله –عز وجل- ونصلح قدر المستطاع، والله -تبارك وتعالى- أعظم غيرة منا، وهو العليم الحكيم، فمثل هذا إذا جعله الإنسان منه على بال فإنه يركن إلى تدبير الله –عز وجل- ويرضى، ويسلم ويثق بوعده بنصر دينه وعباده المؤمنين.

{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}
[سورة القصص:٢٩-٣٢].

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى -عليه السلام-، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرَّهما وأكملهما وأنقاهما، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ} أي: الأكمل منهما، والله أعلم.

قوله: **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ}** قال: "**أي الأكمل منهما**" لمح الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا المعنى بأن دخول "ال" هنا كأنه يفيد الكمال، الأكمل في الوصف، تقول: هذا هو الرجل، هذا هو العمل الذي يقرب إلى الله، هذا هو الرأي، يعني الرأي الكامل **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ}** هنا دخلت عليه "ال" فأفادت أن ذلك هو الوصف الكامل، هكذا أراد ابن كثير -رحمه الله.

وقوله: {وَسَارَ بِأَهْلِهِ} قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يُضيء شيئًا، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} أي: رأى نارا تضيء له على بعد

قوله: **{وَسَارَ بِأَهْلِهِ}**: أخذ منه بعض أهل العلم أن الرجل إذا تزوج تكون امرأته تبعاً له، يسافر بها وليس لها

أن تمتنع من هذا إلا إذا كان هناك شرط اشترطته عليه ألا يسافر بها، والعلماء تكلموا على الشروط في النكاح، وتحدثوا عن مثل هذا الشرط، فالشاهد أنه إن لم يوجد شرط فإنها تكون تبعاً له تسافر معه، فهذا أخذوه من هذه الجملة، وعامة الكتب التي ألفت في أحكام القرآن هي في الآيات التي سيقت قصداً لتقرير الحكم، لهذا يقولون: تفسير خمسمائة آية مثلا كما في تفسير مقاتل بن سليمان، فهذا غالب الكتب ولكن من أهل العلم كالقرطبي مثلا من يستنبط من القصص -قصص الأولين التي قصها الله في القرآن- الأحكام وهذا صحيح، ومبناه على مسألة: شرع من قبلنا مع أن موسى -صلى الله عليه وسلم- هنا ليس لدينا ما يقطع بأنه ذهب وانتقل انتقالا كلياً إلى مصر، أو أنه ذهب للزيارة فقط، ولو أراد أحد أن يقف عند هذا -وهو مسألة السفر- ويستخرج من هذه الآية أنه حتى للزيارة لما سافر يزور أهله أخذها معه، وهذا لا إشكال فيه: أن المرأة تكون تبعاً لزوجها، فنحن لهذا وسط بين فريقين بين التغريبيين الذين يهدرون كرامتها اقتداءً بسادتهم من اليهود والنصارى فينسبونها إلى زوجها: صفية زغلول، صفية سعد زغلول هذا زوجها فينسبونها إليه، وبين أن تبقى المرأة تتحكم وتمتنع من طاعة الزوج وتأبى الاستجابة له، فهي تطيعه في المعروف، والله اعلم.

{قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} أي: حتى أذهب إليها، {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ}، وذلك لأنه قد أضل الطريق، {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} أي: قطعة منها، {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تَتَدفئون بها من البرد.

قوله: {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} "أي: **قطعة منها**" هذا الذي يقوله عامة أهل العلم: إن الجذوة جمرة، وابن جرير وأبو عبيدة معمر بن المثنى يقولان: إن "الجذوة" هي قطعة من الخشب الغليظ في طرفه، يعني النار كامنة ليست مشتعلة، يعني في طرفه شيء من الجمر {جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} جذوة قطعة غليظة من الحطب فيها نار عند ابن جرير وأبي عبيدة أو جمر، ويقال: جَذوة وجُذوة وجِذوة

قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ} أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب.

قوله: **مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب**، الضمير في قوله: عن يمينه قال ابن جرير -رحمه الله-: عن يمين موسى -عليه السلام-، وكثير من المفسرين يقولون: عن يمين الجبل، وهو قول عامة المفسرين، وإذا تأملت في الآيات الأخرى عموماً التي ذكر الله –عز وجل- فيها ما جرى لموسى في هذا المقام تجد أن الأوصاف للجبل، وما حوله، والله تعالى أعلم.

كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ}، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحْف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتًا في أمرها، فناداه ربه: {مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}.

قوله: "**لحف الجبل**" يعني: في أصل الجبل.

وقوله: **من شاطئ الوادي الأيمن**، والشاطئ هو الطرف، وأصل شاطئ الوادي: الوادي له عدوتان: {إِذْ أَنتُم

{بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [سورة الأنفال:٤٢]، جانب الوادي يقال له: شاطئ الوادي، طرف الوادي، **{الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}**، **{شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ}** يعني جهة اليمين، وبعضهم يقول: الأيمن من اليمن وهو البركة، يعني أنه بتلك الناحية المباركة شاطئ الوادي المبارك، والأول هو الأشهر وعليه عامة المفسرين.

وليس للإنسان أن يقصد تلك الأماكن من أجل البركة، سواء كان يقصدها للصلاة أو الدعاء أو نحو ذلك، فهذا غير مشروع وإن كانت مباركةً بنص القرآن، والأماكن التي تقصد لذلك هي المساجد الثلاثة، تقصد للصلاة لشد الرحال، لكن من غير شد رحل لو أن الإنسان مر فهل له أن يصلي فيها طلباً للبركة هل له هذا؟ ليس عندنا في هذا دليل إطلاقاً، وكون الشيء يذكر أنه مبارك لا يعني هذا الارتباط بالتعبد بإطلاق، فالبركة شيء والتعبد قضية أخرى، يعني عندنا مثلا أشياء مباركة الزيتون والتين وماء زمزم إلى آخره، وهناك أشياء أعيان، وهناك أماكن، وهناك ذوات فقضية البركة ليست مرتبطة بالتعبد من كل وجه، الجهة منفكة، الأماكن التي تقصد للعبادة هي التي جاء في الشرع ما يدل على ذلك في شد الرحل للمساجد الثلاثة، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر على وادي ذي الحليفة أخبر أن جبريل أتاه وقال: إن هذا وادٍ مبارك، فصلَّي فيه ركعتين، فمن جاء إلى وادي العقيق يريد الحج أو العمرة وصلى لهذا فهذا جائز لكن لا يقصد وادي العقيق للصلاة، فلا يذهب أهل المدينة إلى وادي العقيق للصلاة فيه لأنه وادٍ مبارك؛ لأن ذلك لم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا عن أحد من أصحابه أنه كان يقصد الوادي من أجل الصلاة فيه، فالذهاب إلى الطور مثلا من أجل الصلاة فيه أو الدعاء أو نحو ذلك غير مشروع، وقد أنكر جماعة من السلف على من فعل ذلك.

وقوله تعالى: {أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!

وقوله: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} أي: التي في يدك، كما قرره على ذلك في قوله: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} [سورة طه:١٧ -١٨]، **والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون، كما تقدم بيان ذلك في سورة "طه".**

وقال هاهنا: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ} أي: تضطرب {كَأَنَّهَا جَانٌّ} أي: في حركتها السريعة مع عظم خَلْق قوائمها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر في فيها تتقعقع، كأنها حادرة في واد.

قوله: **{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ}** قال: أي **في حركتها السريعة** والجان بعض أهل العلم كابن جرير يقول: هي نوع من الحيات عظام وضخمة، وقوله: **{كَأَنَّهَا جَانٌّ}** يعني في خفتها وحركتها كأنها جان نوع من الحيات صغير سريع الحركة، لكن جاء وصفها في آيات أخر بغير ذلك، يعني **{حَيَّةٌ تَسْعَى}** مثلا حية **{ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}** العظيم من الحيات فالجمع بين هذا وهذا أنها ضخمة، وهي خفيفة الحركة كأنها جان، كأنها من الحيات

الدقيقة الصغيرة التي تتحرك بسرعة، أي نوع من الحيات لا تستطيع أن تدركها أو أن تسبقها، سريعة الحركة جداً، فهذه سريعة، وأيضاً ضخمة كونها لها قوائم، والأنياب معروفة، لكن الأضراس، لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها هذا لا دليل عليه، وإنما هو متلقى من الاسرائيليات والأصل أن الحية ليس لها قوائم، وليس لها أيضاً أضراس، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا أنها {تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [سورة الشعراء:٤٥] يعني من تلك الأشياء التي صنعوها يموّهون بها على الناس، لكن ليس عندنا دليل أنها كانت تلتقم الصخور، والله تعالى أعلم.

فعند ذلك {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي: ولم يكن يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}، رجع فوقف في مقامه الأول.

ثم قال الله له: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق؛ ولهذا قال: {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي: من غير برص.

وقوله: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}: قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب.

قوله: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} يعني إذا أدخل يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء، بيضاء يخالف لونها لون الجلد بحيث تكون شديدة البياض ناصعة إلى آخره من غير برص، وهذه آية والآية الأخرى مغايرة لهذه، بعض أهل العلم جعلها كأنها آية واحدة، وهذه آية وهذه آية، هذه في اللون، وهذه لها أثر عليه هو قد لا يشاهده الآخرون وهو قوله: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} الجناح هو اليد، وبعضهم يقول: اضمم إليك عضدك، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} يعني أنه يضم إليه عضده، وبعضهم يقول: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ} أي: يدك المبسوطة من الرهب فإذا ضمها إليه كالخائف ووضعها على صدره أو على قلبه مثلا فإن ذلك يبعث الطمأنينة والأمن في نفسه، وترتفع عنه المخاوف، وهذه معجزة وآية لموسى -عليه الصلاة والسلام- يرجع أثرها إليه؛ ليثبت أمام فرعون الذي كان يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤] فالوقوف بين يديه ليس بالأمر السهل فقد تأخذ الإنسان المخاوف ويتفرق قلبه ولا يستطيع أن يتكلم بشيء، وإذا قرأتم في التاريخ تجدون في تراجم بعض العلماء وبعض القراء وبعض الكبار حينما يؤخذ ويوضع بين يدي الخليفة مثلا أو نحو ذلك تجد أن بعضهم يقول: انعقدت ألسنتنا فلم نستطع أن نتكلم بشيء، فكيف إذا كان الوقوف بين يدي فرعون، وبعضهم كالفراء يقول: إن المراد بجناحه يعني العصا وهذا بعيد، وبعضهم يقول: إن الرهب هو الكم، وإن هذا في بعض لغة العرب {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} يعني من الكم، وهذا فيه بُعد -والله تعالى أعلم-، والمقصود {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} الجناح هو اليد فيضمها إليه ويحصل له بذلك الطمأنينة، وتزول عنه المخاوف، هذا ظاهره، والله تعالى أعلم، وقوله: {مِنَ الرَّهْبِ} فيه ثلاث قراءات متواترة: الرَّهب والرُّهب والرِّهب، والمعنى واحد، معنى هذه القراءات واحد، والله أعلم.

وقوله: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ} يعني: إلقاءه العصا وجعْلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة مَنْ جرى هذا الخارق على يديه؛ ولهذا قال: {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}.

قوله: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ} إلى فرعون يعني ضم الجناح إليه، وهذه آية لفرعون ليست ظاهرة، إنما التي تكون ظاهرة ومعجزة يشاهدها فرعون وغير فرعون هي ما ذكر من العصا، وإدخال اليد في الجيب فتخرج بيضاء من غير سوء.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية.

والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أُمر -عليه السلام- إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخف، إن شاء الله، وبه الثقة.

هذه آية لموسى -عليه الصلاة والسلام- وأمر خارق للعادة، فالاقتداء بمثل هذه الخوارق لا يتأتى، ولكن جرت عادة الناس أنهم إذا خافوا وضعوا أيديهم وضموها، يضم يده إلى قلبه مثلا أو نحو ذلك، فيحصل له بذلك نوع تسكين للخوف، وهذا أمر لا ينكر، فهناك أشياء ومزاولات وتصرفات لها آثار في النفس، الغضبان مثلا قد لا يستطيع أن يتمالك، وهو قائم على قدميه فقد تغلبه نفسه فيتحرك ويذهب ويقتل، فأُمر بأنه إن كان قائماً يجلس، وإن كان جالساً يضطجع، فهذا يحصل له به نوع سكون فيهدأ، ولهذا الإنسان المرتبك أو الخائف أو المضطرب أو نحو ذلك يقال له: اجلس من أجل أن يهدأ قليلا، وكذلك الوضوء مع الغضب، فهو مناسب له لأنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم فإذا توضأ كان ذلك أدعى للسكون وزوال الغضب عنه، وقل مثل ذلك فيما يتعلق بالخوف حينما يضطرب الإنسان، فبعض الناس يقول: إذا قمتُ ألقي كلمة أو خطبة أو نحو ذلك لا تحملني قدماي من الاضطراب، وبعضهم لربما سقط من المنبر، فمثل هذا في خطبة الجمعة يتمسك بالمنبر، وفي غير خطبة الجمعة يمكن أن يلقي كلمة أو درساً وهو جالس، فإن القيام والوقوف أثناء الكلام قد لا يتيسر إلا لمن اعتاده، والذي يتعلم يقال له: تكلم وأنت جالس حتى لا تنشغل بغير ما تتكلم به، وقد رأيت رجلاً يلقي كلمة ثم قطعها في أولها، وقال: يا جماعة أنا كنت أسمع أن الإنسان تضطرب ركبه وما كنت أتصور حتى كان هذا اليوم، فأمسك بركبتيه واعتذر من الناس، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} فهذا يفعله الناس، لكن لا يقال اقتداءً بموسى -صلى الله عليه وسلم- وإن كان له أثر في سكون النفس إلى حد ما، والله أعلم، كما يقال: إن قراءة آيات السكينة لها أثر بالنسبة للخائف.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص:٣٣-٣٥].

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فرارًا منه وخوفًا من سطوته، {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا} يعني: ذلك القبطي، {فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} أي: إذا رأوني.

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا}، وذلك أن موسى -عليه السلام-، كان في لسانه لثغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرّة.

مثل هذا يذكر وهو من أخبار بني إسرائيل يقال: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما كان صغيراً كان يجلب لحية فرعون بقوة، ففرعون هم به خاف منه، فهم بقتله فعرضت عليه امرأته لما اعتذرت أن هذا

صغير لا يفهم قالت: اعرض عليه تمرة وجمرة أو درة وجمرة فإن أخذ التمرة أو الدرة فهو يفهم، وإن أخذ الجمرة فلا يفهم، فأخذ الجمرة ووضعها في فيه، هكذا يقولون، ولا دليل على هذا، والعلم عند الله –عز وجل-، وقد يقول قائل: لأن هذا نحن لا نعلم صدقه من كذبه، وقد يقول قائل: بمجرد أخذها فإنها تحرق يده ولا يستطيع إيصالها إلى فمه، يعني يكفي مس الجمر، لكن إن كان ذلك صحيحاً فيقال: إن الله -تبارك وتعالى- أراد أن تصل، ولا يرد على هذا مسألة أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مبرءون من العاهات، يعني لا يكون النبي أعمى، ولا فيه عاهة ينفر منها الناس مثلاً، وما حصل ليعقوب -عليه الصلاة والسلام- كان عارضاً مدة لم يكن من الأصل العمى، ثم بعد ذلك ارتفع بإلقاء القميص على وجهه، وموسى -عليه الصلاة والسلام- لم يكن كذلك فكان ذلك عارضاً ثم دعا ربه فحل عقدة من لسانه، فلما أرسله إليهم لم يكن به بأس، والله تعالى أعلم.

فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير؛ ولهذا قال: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [سورة طه:٢٧-٣٢] **أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا}، أي: وزيرًا ومعينًا ومقويًّا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله -عز وجل-؛ لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}.**

"الردء" في الأصل يقال: للمعين في اللغة.

وقال محمد بن إسحاق: {رِدْءًا يُصَدِّقُنِي} أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون.

فلما سأل ذلك قال الله تعالى: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبيا معك، كما قال في الآية الأخرى: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [سورة طه:٣٦]**، وقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}** [سورة مريم:٥٣]**، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون -عليهما السلام-، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولا معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: {وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** [سورة الأحزاب:٦٩].

وقوله تعالى: {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} أي: حجة قاهرة.

وبعضهم يقول: سلطانا أي تسلطا على فرعون وملئه، والأقرب -والله أعلم- أنه الحجة.

قوله: {فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا} أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال الله تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...} إلى قوله: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [سورة المائدة:٦٧]**، وقال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ...} إلى قوله: {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}** [سورة الأحزاب:٣٩]**، أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا.**

ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولِمَنْ اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}.

قال بعض العلماء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا}: فيه مقدر محذوف أي فلا يصلون إليكما اذهبا بآياتنا، أو فلا يصلون إليكما تمتنعان بآياتنا، وبعضهم يقول: الباء للقسم،

أقسم الله بآياته على ذلك، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: فيه تقديم وتأخير، بحيث يكون ترتيب الكلام: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، يعني بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون، يعني الغلبة حصلت لهم بآيات الله -عز وجل-، والذين يقولون بهذا يقولون: سيحتجون بأن الأصل عدم التقدير، وأن الاستقلال أولى، والذين يقولون فيه مقدر محذوف يقولون: الأصل في الكلام الترتيب، ولا يدعى فيه التقديم والتأخير من غير ضرورة، لكن ذلك قد يكون متبادراً من غير تكلف {بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} أي: بمعنى قول ابن جرير: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، لكن لما كانت الغلبة بالآيات قدمها، والله أعلم.

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [سورة القصص:٣٦-٣٧].

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة على صدقهما فيما أخبر عن الله -عز وجل- من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: {مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى} أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك.

وقوله: {وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ} يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى -عليه السلام-، مجيبا لهم: {رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ} يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: {وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} أي: النصرة والظفر والتأييد، {إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} أي: المشركون بالله.

فهنا قال -عليه الصلاة والسلام- من أجل ألا يجابههم بما يكرهون مما قد يصدهم عن القبول {رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ} فهو يقول: ربي أعلم بمن جاء سواء كان أنا أو أنتم، وهو لا يشك أنه هو الذي جاء بالهدى، لكن هذا له نظائر في القرآن، وأيضاً قوله: {إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} فهذا أصل عام كبير في القرآن لا يحصل لهم فلاح ولا نجاح، وإن حصل لهم ظهور مؤقت وغلبة مؤقتة، ولكن العاقبة للمتقين، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه:٦٩]، وهذا إذا تأملته في أحوال العالم رأيته ظاهراً رأيت حال الشرك والظلم منذ بدء الخليقة، وكيف أن هذه الأمم المكذبة التي كذبت الرسل لم تكن العاقبة لهم قط التاريخ كله، ولكن الإنسان يعمى عن هذا إذا نظر إلى سنة أو عشر سنوات أو عشرين سنة يعيشها، لكن في النهاية -نهاية المطاف- كل هذا يزول، كل الظلم، والفساد، والشرك بالله -تبارك وتعالى- يزول، يزول أولائك ولا يفلحون، وقوله: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} كما أن الساحر لو نظرتم إلى ما يفعل من أعمال السحر لظننتم أنه لا يسلم منه أحد، فقد اكتُشف على الحدود من بلد واحد فقط أكياس مليئة بأنواع السحر بأسماء الناس الذين يراد سحرهم، هذا الذي يُكتشف فما بالك بالذي لم يعرف؟! ومع ذلك إذا نظرت إلى أثر السحر في هذا العالم تجد أنه لم يغير حياة الناس، فالحياة جارية على سنن الله –عز وجل-، وكيد هؤلاء السحرة إلى بوار {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}.

وقوله: {إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} فهم وإن حصل لهم شيء من الاقتدار المؤقت لكنه بعد ذلك يزول، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٣٨ إلى الآية ٥١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

يقول الله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} [سورة القصص:٣٨-٤٢].

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة -لعنه الله- كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [سورة الزخرف:٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، وقال تعالى إخبارا عنه: {فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات:٢٣-٢٦] يعني: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصَرِّحا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [سورة الشعراء:٢٩].

وقوله: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} أي: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له آجُرًّا لبناء الصرح -وهو القصر المنيف الرفيع- كما قال في الآية الأخرى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ} [سورة غافر:٣٦-٣٧]، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم يُرَ في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون؛ ولهذا قال: {وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: في قوله إن ثَمَّ ربًّا غيري، لا أنه كذبه في أن الله أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:٢٣]، وقال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، وقال: {يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} وهذا قول ابن جرير.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **يعني أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد على الطين**، يعني أن يتخذ له الآجُر وهو الطين المطبوخ بالنار، قال: لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي هذا هو المشهور من أقوال المفسرين: أن الصرح هو القصر المرتفع، وابن جرير -رحمه الله- يفسر الصرح بكل بناء مسطح فهو صرح، والقصر من ذلك، فالقصر داخل في هذا المعنى، وتفسير ابن جرير -رحمه الله- أوسع مما ذكره كثير من أهل اللغة، والمفسرين، إلا أنه لا يخالف ما ذكر، الصرح القصر وكل بناء مسطح فهو قصر، وقوله: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، {لَعَلِّي أَطَّلِعُ} الاطلاع هنا يحتمل أن يكون بمعنى الطلوع يعني أصعد تقول: اطلَعَ بمعنى طلعَ وارتفع وصعد، تقول: اطلع إلى السطح، يعني صعد، ويأتي الإطلاع بمعنى النظر والمشاهدة، {لَعَلِّي أَطَّلِعُ}، تقول: طالع كذا، واطلع على كذا، اطلعت على الكتاب يعني طالعته ونظرت فيه، وتقول: اطلعت على دار فلان، يعني نظرت وما شابه فهي تأتي لهذا المعنى، ولهذا المعنى، ولذلك فإن بعض أهل العلم فسرها بالصعود {لَعَلِّي أَطَّلِعُ} يعني أصعد إلى إله موسى، وفسرها بعضهم كابن جرير بالنظر إلى معبود موسى -عليه الصلاة والسلام-، وبين القولين ملازمة -والله تعالى أعلم-؛ وذلك أن اطلاعه إذا فسر بمعنى الصعود فهو يريد أن يرتفع من أجل أن يرى الله -تبارك وتعالى-، فلو فسرت هذه بالمعنيين لم يكن ذلك بعيداً -والله تعالى أعلم-، فإنها تأتي لهذا وهذا بمعناها، فهو وضع هذا البناء، أو أراد أن يقام هذا البناء الرفيع من أجل أن يصعد أن يرتفع عليه هذا هو المقصود وهذا الصعود وهذا الارتفاع من أجل النظر أن ينظر إلى رب موسى -عليه الصلاة والسلام-، والعلم عند الله –عز وجل-.

وقوله: {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ} أي: طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [سورة الفجر:١٣-١٤]، ولهذا قال هاهنا: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ} أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ} أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: {أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ} [سورة محمد:١٣].

وقوله: {وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً} أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}، قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [سورة هود:٩٩].

قوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} قال: "أي: **لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل**"، ويمكن أن يكون المراد -والله تعالى أعلم-: لمن اتبعهم من أهل زمانهم، فكانوا بهذه المثابة، فكما أن موسى -عليه الصلاة والسلام- كان يدعو إلى توحيد الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء يدعون إلى النار، وما ذكره

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قول يدل عليه ظاهر السياق -والله تعالى أعلم-، وإن كان للمفسرين في هذا أقوال أخرى، لكن لعل هذا هو الأقرب إلى السياق، ويشبه ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في معناها، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً} قال: "أي: **وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسلهم كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء**" كذلك يوم القيامة... إلى آخره، يعني هذا يحتمل، والمقصود بإتباعهم باللعنة في الدنيا أن الله شرع لأهل الإيمان أن يلعنوهم، أو أن الله لعنهم في الدنيا والآخرة، لعنوا في الدنيا والآخرة، مثل هذا الاستعمال وارد في كتاب الله وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يكون ذلك من لعن الله -جل جلاله-، وحينما يقال: إن الله شرع لأهل الإيمان لعْنهم فإن المشروعية قدر زائد على الإباحة، فالمشروع ما طلبه الشارع إما وجوباً أو ندباً، بخلاف المباح فإنه لا يقال له: مشروع ولكن يقال: إنه جائز مثلا أو نحو ذلك، وإن كان الجواز أوسع من الإباحة، فقد يدخل فيه استعماله الأوسع الواجب والمندوب، باعتبار أنه سائغ شرعاً، فهل الله -عز وجل- شرع لعنة فرعون لأهل الإيمان؟ وهل اللعن مشروع لنا أصلاً ؟ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((المؤمن ليس باللعان، ولا الطعان، ولا الفاحش، ولا البذيء))[1]، وأخبر أن اللعانين لا يكونون شفعاء يوم القيامة، ولا شهداء -يعني على الناس-، وغاية ما يقال في اللعن: إنه أمر جائز في من يستحق ذلك على خلاف في لعن المعين، والجمهور يرون أن ذلك لا يجوز في المعين، لكن في من يسوغ لعنه على وجه العموم: الجنس، والصنف، والنوع، وما أشبه ذلك، من فعل كذا {لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة الأعراف:٤٤]، فلو قيل: إن ذلك كان من الله، أي أن الله لعنهم في الدنيا وفي الآخرة، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [سورة هود:٩٩]، ولا يلزم من قوله: {وَأُتْبِعُواْ}، {وَأَتْبَعْنَاهُمْ} أن تكون لعنة بعد لعنة، ما يلزم هذا -والله أعلم-، إنما يكون ذلك بمعنى مطلق الإلحاق -والله تعالى أعلم-، يعني أُلحقت بهم اللعنة، أتبعهم لعنة فلا يكون ذلك بالضرورة -والله تعالى أعلم- أنه حصل لهم لعن من الله -تبارك وتعالى- في الدنيا، وأُتبعوا بلعنة أخرى من قبل أهل الإيمان -والله أعلم-، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} هنا من المقبوح يعني المطرود المبعد، هذا هو المقبوح، وهذا قريب من معنى اللعن، وقد فسره بعضهم بالمهلكين الممقوتين، وأصل القبح معروف {مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} يعني من الموصوفين بذلك، موصوفين بالقبح، والقبح هو الكراهة إن كان في الأمور المنظورة المشهودة فهو كراهة في المنظر، وإن كان في المعاني فهو ما يسوء منها، وإن كان في الكلام فهو ما يكون فاحشاً أو نحو ذلك، ما يحمل المعاني السيئة، وعلى كل حال فهؤلاء يوم القيامة من المقبوحين يعني من المبعدين من المطرودين، ولا يبعد من هذا المعنى قول من قال: إنهم من المهلكين الممقوتين فإن ذلك إما أن يكون من أسباب القبح أو من توابعه ولوازمه، فقد يفسر الشيء ببعض لوازمه، والأمر في ذلك قريب، والله تعالى أعلم.

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (٣٩٤٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [سورة القصص:٤٣]، **يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم -عليه من ربه الصلاة والتسليم- من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه.**

وقوله: {مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى} يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً} [سورة الحاقة:٩-١٠].

ولهذا فإن بعض المفسرين يفسر قوله -تبارك وتعالى- هنا: {مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى} بأن القرون الأولى هي الأمم التي أهلكها الله –عز وجل- كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وبعضهم يلحق بهم فرعون، يقول: وفرعون ويقصد بذلك ما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- واستشهد له بهذه الآية: {وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً} [سورة الحاقة:٩-١٠]، هذا {مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى} فكان آخر الإهلاك المستأصل هو إهلاك فرعون، ثم بعد ذلك شُرع لهم الجهاد، فكانوا يجاهدون أعداء الله –عز وجل-، وكانت العقوبات حينما تنزل تنزل بصورة جزئية في الغالب، بحيث لا يكون عذاباً مستأصلاً، هذا في الغالب، وهذا لا ينافي أن يوجد في بعض الأمة مسخ، أو خسف، ولكن لا يأخذهم بعذاب مستأصل عام، كما كان يحصل للأمم السابقة، أغرق الله الأرض ومن عليها، وهؤلاء أخذتهم الصيحة {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} [سورة الحاقة:٦]، وما أشبه ذلك كالرجفة، هذا مقصود من قال بهذا من أهل العلم، وبعضهم لا يذكر فرعون معهم، وكأنه فهم من قوله: {مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى} يعني القرون المتقدمة قبل قرن موسى -صلى الله عليه وسلم-، وفرعون من قرن موسى -عليه الصلاة والسلام- {بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى}، فمن نظر إلى أن المعنى هو الهلاك المستأصل أدخل بهم فرعون، ومن لاحظ القرون الأولى يعني المتقدمة السالفة، المتقدمة على موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يُدخل فرعون معهم، وعلى كل حال فرعون وقومه كانوا ممن أهلكهم الله –عز وجل- بالهلاك المستأصل، وهذا يدل عليه القرآن في مواضع أخرى، أنه ما نزلت عليه التوراة حينما خاطب فرعون ودعاه إلى الإيمان وهذا معروف، وموسى -صلى الله عليه وسلم- حصل له ذلك بعدُ، حينما جاء إلى الميعاد وكلمه الله –عز وجل- في القصة المعروفة، وأن قومه عبدوا العجل، وقد مضى ذلك في سورة الأعراف.

وقوله: {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} أي: من العمى والغي، {وَهُدًى} إلى الحق، {وَرَحْمَةً} أي: إرشادا إلى الأعمال الصالحة، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي: لعل الناس يتذكرون به، ويهتدون بسببه.

بعض أهل العلم يقول في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ}: آتيناه الكتاب لأجل أن يتبصر به الناس، فيكون قوله: {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} مفعولاً لأجله، آتيناه الكتاب ليتبصر به الناس، وبعضهم يفسره بأن الله آتاه الكتاب حال كون الكتاب بصائر للناس، حال كونه بصائر، فيكون بصائر حال يبصرون به الحق.

{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ

نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة القصص:٤٤-٤٧]، **يقول تعالى منبهًا على برهان نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا كأن سامعه شاهدٌ ورَاءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى:** {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [سورة آل عمران:٤٤]، **أي: ما كنت حاضرًا لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له، وإغراق قومه.**

ثم قال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة هود:٤٩]، **وقال في آخر السورة:** {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ} [سورة هود:١٠٠]، **وقال هاهنا -بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له-:** {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} **يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} إلى آخره يعني كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن الله قص على نبيه -صلى الله عليه وسلم- خبرهم كأنك تشاهده، وهذا أمر مشاهد أنك حينما تمر على قصص الأنبياء، والأمم في القرآن كأنك تشاهدها، يأتي المشهد: نبي وما جرى له مع قومه، ثم بعد ذلك ينتقل بك إلى نبي آخر، وما جرى له مع قومه، ثم مع نبي آخر بأخبار فصْلٍ، وحقائق لا يعتريها تشكيك، وإذا قرأت في الكتب المتقدمة وجدت أقوالاً وأموراً متناقضة، وأشياء لا يمكن أن تصل معها إلى ما تطمئن إليه النفس من خبرهم؛ لكثرة المنقولات المتناقضة والمتخالفة في الشيء الواحد التي لا يمكن أن تجتمع بحال من الأحوال، فالله -تبارك وتعالى- أنعم وتفضل فجاء بهذا القرآن وتكلم به -سبحانه وتعالى- وأوحاه إلى نبيه -عليه الصلاة والسلام-، فجاء بهذه الحقائق الناصعة التي لا ترى فيها اختلافاً ولا تناقضاً، وإنما هي في غاية الاتساق.

هنا قال: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} قال: **يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي**، وبعضهم يقول: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ} يعني الوادي الغربي، وبعضهم يقول: المقصود ما كنت بجانب الجبل الغربي كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ} يعني بجانب الجبل الغربي بناحيته الغربية، بهذا المكان الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- يعني عند الشجرة بشاطئ الوادي الأيمن، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتعرض لتفسير قوله: {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} ومعناه أي عهدنا إليه، وحكمنا بالرسالة، وما أمره الله -تبارك وتعالى- به أمر قومه وأرشدهم إليه، والقضاء يأتي لمعان متعددة منها: الحكم والإلزام {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٢٣]، حكم وأمر ووصى، ويأتي بمعنى الفراغ من الشيء، {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة:٢٠٠] يعني: فرغتم من أدائها إلى غير ذلك من المعاني، فالمقصود {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} فمن نظر إلى معنى الحكم قال: أي حكمنا، {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى} حكمنا وألزمنا بما شرعنا

وأرسلنا، وما أمرنا به موسى -صلى الله عليه وسلم- وقومه يعني حكمنا له بالرسالة، أمرناه، كلفناه، أرسلناه هذه عبارة المفسرين، فرضنا إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- الأمر فيما ألزمناه وقومه، وعباراتهم متقاربة تدور حول هذا المعنى، وتحوم حوله، وذلك يرجع إلى شيء واحد، والله تعالى أعلم.

{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} يعني: يا محمد، ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} لذلك، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أوحى إليك ذلك، ليجعله حجة وبرهانًا على قرون قد تطاول عهدها، ونَسُوا حُجَجَ الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} يعني كأن الله أطلعك على ذلك وأعلمك به، فهذا نفي لكونه كان حاضراً، ثم قوله: {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} هذا قدر زائد على مجرد الحضور والاطِّلاع؛ لأن الإنسان قد يحضر قد يكون موجوداً، ولكنه قد لا يكون شاهداً، فنفى عنه هنا هذا وهذا، {وَمَا كُنْتَ} هناك، {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} الذين يشهدون على هذا، فنفى حضوره ونفى الشهادة، يعني يقول: أنت لم تكن هناك، ولم تكن من الشاهدين على هذا الأمر، وهذا أبلغ في النفي، فالذي أطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذه الأمور التي لم يدركها ولم يعاصرها، ولم يكن موجوداً هناك، ولم يكن ممن شهدوا -أو شاهدوا- على هذه الأمور الواقعة هو الله -تبارك وتعالى- فقال: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أُخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه، وما ردوا عليه، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لا يقصد -والله أعلم- من قوله: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} مدين التي جاء إليها موسى -عليه الصلاة والسلام-، وإنما يقصد قوم شعيب {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [سورة الأعراف:٨٥]، مع أنه قد يقول قائل: إن الأقرب إلى ظاهر السياق في قصة موسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} يعني: مدين التي ذهب إليها موسى وليس قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، فقص الله خبره في مدين، ثم قص خبره حينما كان في طريقه إلى مصر، وما حصل له من الوحي فبعدما ذكر ذلك قال: من أطلعك على هذه الغيوب؟ ولم تكن في مدين حينما جرى ما جرى لموسى -عليه الصلاة والسلام- من الخبر الذي قصه الله -جل جلاله-، وما كنت أيضاً شاهداً حينما كلمه الله وأوحى إليه، هذا لعله أقرب، والله تعالى أعلم، وقوله -تبارك وتعالى-: {تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} يحتمل أن يكون حالاً، أو خبراً بعد خبر، {تَتْلُو عَلَيْهِمْ} يعني حال كونك {تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}، ويمكن أن يكون من قبيل الاستئناف، وإن كان الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، يعني {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} حينما جرى لموسى -عليه الصلاة والسلام- ما جرى، وحينما جاء ووجد أُمة من الناس يسقون، ثم جاءته إحداهما، وما حصل له من التزويج، {تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} حال كونك تتلو عليهم آياتنا، وإذا كانت مستأنفة يكون {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} حينما وقع ما وقع، انتهى الكلام، ثم قال: {تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} يعني تتلو على قومك الآيات التي تخبر عن هذه التفاصيل والوقائع كأنهم يشاهدونها، هذا قال به الفراء، ولكن عامة أهل العلم على الأول، وكأنه هو الأقرب إلى السياق -والله تعالى أعلم-، {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ} أي: حال كونك تتلو عليهم آياتنا، أو يكون خبراً {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} وتكون التاء هذه هي

اسم كان، و{ثَاوِياً} هو الخبر الأول، و{تَتْلُو} هو الخبر الثاني، فتكون التلاوة على أهل مدين، تتلو على أهل مدين، ما كنت هناك وتتلو عليهم آياتنا، وعلى قول الفراء: إنها مستأنفة تكون التلاوة على قومه: ها أنت تتلو عليهم آياتنا، مع أنك لم تحضر ولم تشهد ذلك كله، والأول -والله تعالى أعلم- أقرب إلى السياق.

وقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه {وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً، {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} يعني: بعد هذه الأمم التي أرسل الله إليها الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فتطاول الزمان على أمم لم يكن لهم عهد بالرسالة، فتنوسي ذلك العهد، فبعث الله –عز وجل- محمداً -صلى الله عليه وسلم-؛ ليجدد عهد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وعهد الرسالات، والوحي، فجاء بهذه الحقائق الناصعة التي يقص الله -عز وجل- بها خبر الأولين، وما جرى للمكذبين وغيرهم فكان ذلك رحمة من الله -تبارك وتعالى- بهم، يقول الحافظ ابن كثير: ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، يعني تطاول عليهم العمر، وبعضهم يقول: إن ذلك يدل على أن الله -تبارك وتعالى- قد عهد إلى موسى في محمد -عليهما الصلاة والسلام- يعني عهوداً في الإيمان به، ومع طول العهد تنوسي ذلك، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- هو الأول {وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} بمعنى تُوسيت الرسالات واندرست، لاسيما العرب الذين بعُد عهدهم بالرسالة، فكانت الفترة التي بعث الله –عز وجل- بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- على فترة من الرسل.

وقال مقاتل بن حيان {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بُعثت. وقال قتادة {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} أي: موسى، وهذا -والله أعلم- أشبه بقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى} وقال تعالى: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً} وقال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}.

هناك {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} يعني بالرسالة، هذا حينما جاء من مدين، وهنا قال: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} والنداء معروف، بعضهم فسره بأن ذلك كان في المقام الآخر لما واعده ربه -تبارك وتعالى- وناداه وكلمه مع السبعين {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [سورة الأعراف:١٥٥]، فقالوا: المقصود بالنداء هنا عند الطور مع السبعين الذين اختارهم موسى -عليه الصلاة والسلام- من خيار قومه، وهذا يمكن أن يُتعرف على المراد به من خلال النظر في الآيات التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يعني مما يتصل بهذا -والله تعالى أعلم-، يقول هنا: كما قال تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى} [سورة الشعراء:١٠]، يعني {أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} فهذا نداء، وعبر بالنداء، وهذا حينما أرسله إلى فرعون حينما كان في طريقه من مدين، فإن التوراة إنما نزلت بعد إهلاك فرعون، وبعدما جاوزوا البحر وغرق فرعون وحصل ما حصل، وحين {فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [سورة الأعراف:١٣٨] إلى آخره، ثم بعد ذلك تركهم، فعبدوا

العجل، فهنا {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ}، وقال تعالى: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [سورة النازعات:١٦]، قال له: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [سورة النازعات:١٧]، فكان هذا في المرة الأولى حينما جاء من مدين، فكل ذلك عبر عنه بالنداء، {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [سورة مريم:٥٢] فهذا يحتمل، فلو نظر في الأغلب في القرآن، والاستعمال مما صرح به من نداء، فيمكن أن يفسر به قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}، يعني: حينما قال الله –عز وجل- له: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [سورة طه:١٢-١٤] إلى آخر ما ذكر الله -جل جلاله- فهذا هو النداء المقصود -والله أعلم- بهذه الآية، فهناك ذكر الرسالة، {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} أي: حكمنا له بالإرسال، وكلفناه وألزمناه، وهنا ذكر النداء، ولا إشكال في هذا فهناك بالإرسال، وهنا في ذكر النداء.

وقوله تعالى: {وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد وبإرسالك إليهم {لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله -عز وجل.

قوله: {وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} يعني: أرسلك وأوحاه إليك وأعلمك به رحمة من ربك، هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه المحققون كابن جرير -رحمه الله- ونحوه.

{وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً} الآية، أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ} [سورة الأنعام:١٥٦-١٥٧]، وقال تعالى: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ} [سورة المائدة:١٩] الآية، والآيات في هذا كثيرة.

قوله: {وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً} قال: **أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتيهم رسول ولا نذير**، وبعضهم يقول: إن جواب لولا: لعاجلناهم بالعقوبة، يعني {وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} لعاجلناهم بالعقوبة لولا أنهم سيحتجون ويعتذرون بهذه المعاذير: هلا أرسلت؛ لأن لولا الأولى تدل على الامتناع، والثانية تدل على التحضيض، {لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا} يعني هلا أرسلت إلينا رسولا، والله تعالى أعلم.

{فَلَمّا جَآءَهُمُ الْحَقّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىَ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىَ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُواْ إِنّا بِكُلّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مّنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَىَ مِنْهُمَا أَتّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلّ مِمّنْ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مّنَ اللّهِ

{إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ} [سورة القصص:٤٨-٥١]، **يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: إنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد -صلى الله عليه وسلم-، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد {لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} الآية، يعنون -والله أعلم- من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى -عليه السلام- حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى: {فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}.**

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {فَلَمّا جَآءَهُمُ الْحَقّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ} **يقول مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم**، حملها على هذا المعنى العام، وأهل العلم في ذلك منهم من يقول: إن المقصود {فَلَمّا جَآءَهُمُ الْحَقّ مِنْ عِندِنَا} يعني كفار قريش لما جاءهم محمد -صلى الله عليه وسلم- قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن ذلك من قول اليهود، وكما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} فمن نظر إلى أن اليهود لم يكفروا بما أوتي موسى مثلا، أو من اعتقد ذلك قال: إن اليهود ما قالوا عن موسى -عليه الصلاة والسلام-: إنه ساحر أو إن التوراة سحر، وقال: هذا في كفار قريش، في كفار العرب من المشركين هم الذين كفروا بما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام-، ومن نظر إلى أن ذلك وقع من اليهود، وأنهم حصل منهم من الكفر والعنت مع موسى -عليه الصلاة والسلام- قال: إن هذا من قول اليهود، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**يقول الله تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: إنهم لما جاءهم الحق**"، لكن مثل هذا الكلام الذي يقوله ابن كثير -رحمه الله- يصدق على أهل الفترة، يصدق على المشركين، لكن لا يقطع لهم بذلك؛ لأنه لو عُذب قوم من الأقوام قبل أن يأتيهم إنذار فيما عذبوا به لقالوا: {رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} فقطع معاذيرهم، ولكن هذا يتوجه إلى أهل الفترة بصورة أخص، فهو بهم أعلق ويدل على أن ذلك -والله تعالى أعلم- في المشركين، {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} هذا يحتمل -والله تعالى أعلم- أنهم قالوا ذلك على سبيل التعنت، وبعضهم يقول: إن اليهود هم الذين قالوا لهم هذا الكلام، قالوا لهم: طالبوه أن يأتي بمثل ما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام- من الآيات والخوارق كالعصا ونحوها، و{لَوْلَا} بمعنى هلا أوتي مثل ما أوتي موسى.

"**ولهذا قال ههنا: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} أي: أوَ لم يكفر البشر بما أوتي موسى -عليه السلام- من تلك الآيات العظيمة"؟!.**

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هناك قال: مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة، فجاءت العبارة عامة، ثم هنا قال: "**ولهذا قال: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا} أي أوَ لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة**"؟!، وهو لا يقصد كل البشر؛ لأنه ما كل البشر كفروا بما جاء به، لكن وجد من البشر من كفر مع مشاهدة تلك الآيات كالعصا ونحوها {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا} ما حصل الكفر من البشر مع مشاهدتهم لهذه الأشياء فهم شاهدوا الآيات من قبل سواءً ما أعطي موسى -عليه الصلاة والسلام-، أو الأقوام الذين كانوا في زمن الرسل الذين جاءوا بالآيات كقوم صالح -عليه الصلاة والسلام- مثلاً، ومع ذلك حصل منهم الكفران، فهذا كلام ابن كثير -رحمه الله- عممه في الناس، في البشر، في المكذبين {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ} فهنا الذين كفروا على كلام ابن كثير ليس هم الذين طالبوا، {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} يعني هل كان الكفار من المشركين مثلا في مكة قد كفروا بما جاء به موسى؟ أو أن تلك الرسالة أصلاً لم توجه إليهم؟ فإن موسى -عليه الصلاة والسلام- ما أرسل إلى العرب، وإنما أرسل إلى بني إسرائيل، ولذلك اليهود هم من أقل أهل الديانات اليوم في الأرض؛ لأنهم لا يدْعون غيرهم، لا يتوجهون بدعوتهم إلى الناس بخلاف النصارى الذين ملئوا الأرض جنداً من جند إبليس يدعونهم إلى هذا الباطل والضلال والدين المحرف، فاليهود لا يدْعون بل هم في خصومة وجدال اليوم في هذه العصابات التي جاءت من كل مكان: من هو اليهودي؟ جدل عندهم فيعتبرون اليهودي من كانت أمه يهودية بغض النظر عن أبيه، فيوجد أناس آباؤهم من اليهود ولكن الأمهات لسن من اليهود، فهم يجادلون هل هؤلاء يستحقون أن يوصفوا بأنهم يهود أو لا؟؛ لأنه تجمّع لهم من الأحابيش وأهل البلاد الشرقية والبلاد العربية والبلاد الغربية شراذم، فهم في جدل ولغط مَن الذي يستحق أن يكون يهودياً؟ فهم يرون أن هذا لا يستحقه العرب مثلا أو الأمم الأخرى؛ لأنهم يقولون عنهم: "جُنيم" يعني حمير اليهود، وأن الله خلقهم من أجل أن يركبهم اليهود فقط، فهم حمير في مِسلاخ إنسان؛ ليركبهم اليهود هذه عقيدة اليهود، والنصارى جاء في كتابهم المحرف أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- قال: إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، فلو صح هذا أو على الأقل يحتج عليهم بهذا أنه مادام جاء لهداية هذه الخراف الضالة فلماذا تصدرون دعوتكم إلى الأفارقة وغيرهم من الأمم في شرق الأرض وغربها؟ وإنما جاء عيسى -عليه الصلاة والسلام- إلى بني إسرائيل كما قال الله -عز وجل-: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة آل عمران:٤٩] فهو أُرسل إليهم إذاً، ومع ذلك هناك جمعيات تنصيرية ميزانيتها بالمليارات، وهناك جيوش من المنصرين من المتفرغين وغيرهم من الأطباء وغيرهم وطائرات وأشياء هائلة تغزو العالم، فكلام ابن كثير -رحمه الله- عام، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن ذلك في اليهود {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى}، وقد فهم بعض المعلقين على تفسير ابن جرير أو بعض مختصراته أن هذا فيه اضطراباً يعني كلام ابن جرير -رحمه الله-، فهم نظروا إلى أنه قال في الأولى: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ} يعني كفار قريش، وهنا قال: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} قال: يعني: اليهود كيف هنا قال: قريش وهنا قال: اليهود؟ نعم هو يقول هناك {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا} يعني جاء المشركين، {قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ}، {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا} يعني الذين بعث فيهم موسى -صلى الله عليه وسلم- يعني اليهود، فكلام ابن جرير -رحمه الله- غير متناقض، ولا إشكال فيه، لكن يبقى: هل هذا هو المعنى الراجح، أو أن ما ذكره

بعض أهل العلم من أن المراد المشركون، الآن من الذي كفر بما جاء به موسى وقال: {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} هل هم اليهود، هل اليهود كفروا بما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-؟ وإذا قلت: إنهم الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- هل كانوا يكفرون بما جاء به موسى؟ كانوا يذهبون إلى اليهود ويسألونهم ويقولون: أنتم أهل كتاب، نحن أهدى أم محمد -صلى الله عليه وسلم-؟، فعلى كلام ابن جرير -رحمه الله- تكون الضمائر هنا متفرقة، بعض الضمائر يرجع إلى المشركين، وبعض الضمائر يرجع إلى اليهود، وكلام ابن كثير -رحمه الله- الضمائر تكون فيه متسقة، والأصل توحيد مرجع الضمائر إذا أمكن، فقوله: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ} إذا قيل: إنهم المشركون، {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا} أي: المشركون، {لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا} أي المشركون، {بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا} أي المشركون، {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} {قَالُوا} أي المشركون، {قُلْ فَأْتُوا} يخاطبهم بهذا، وهكذا إذا قلت: إن الجميع في اليهود {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا} يعني اليهود، {بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا} يعني اليهود، {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} فعلى هذين القولين تكون الضمائر متسقة متحدة في مرجعها، وكذلك ما ذكره ابن كثير أن ذلك في مَن قاله من الناس، مَن كذّب، وعلى كلام ابن جرير -رحمه الله- تكون الضمائر متفرقة، فهذه طريقة في الترجيح أنه يمكن أن يُرجَّح قول على قول بأن ذلك يجري على قاعدة اتحاد مرجع الضمائر، لكن يبقى هل هي في اليهود أو في المشركين؟، هذا يحتمل {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} ولكن انظر إلى الآيات التي قبلها ما الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- فيها؟ الله –عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ...} إلى أن قال: {وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ} فهؤلاء لجهالتهم وبعدهم وانقطاع زمانهم عن بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أرسل إليهم الله –عز وجل- هذا الرسول رحمة منه؛ لئلا يحتجوا بأنه ما أرسل إليهم رسولا إذا وقع بهم العذاب، ثم قال هنا: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ} فهو يتحدث عن هؤلاء الذين كانوا بهذه الأوصاف، {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ} الذين كانوا في فترة، {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}، وهذا يمكن أن يصدر من المشركين، وإن لم تكن دعوة موسى -عليه الصلاة والسلام- متوجهة إليهم، يمكن أن يقولوا عن موسى -صلى الله عليه وسلم- مثل هذا، والله تعالى أعلم، فالسياق والسباق كله يدل على أن ذلك في من بُعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- {لِتُنذِرَ قَوْمًا}، {فَلَمَّا جَاءهُمُ} يعني هذه الغيوب التي أخبرناك عنها وكأنك تشاهد -ومع ذلك لم تكن حاضراً- وأتيت بها لتنذر هؤلاء القوم الذين كانوا في هذه الفترة، انقطاع عن زمن الرسالات، أو انقطاع من الرسالات {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا} هذه كانت النتيجة {قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى}، والله أعلم.

{قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} أي: تعاونا، {وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} أي: بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- دل ذكر أحدهما على الآخر.

هذا يسمونه بالاكتفاء يعني {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ} ذكر موسى -عليه الصلاة والسلام- ولم يذكر هارون -عليه السلام-؛ لأن موسى -عليه السلام- كبير أنبياء بني إسرائيل، وهارون -عليه الصلاة والسلام- كان بمثابة الوزير له مع كونه نبيا -عليه الصلاة والسلام.

قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ذلك، فقال الله: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}.

قرأ الجمهور بـــ (قالوا ساحران تظاهرا).

قال: يعني موسى وهارون -صلى الله عليهما وسلم- {تَظَاهَرَا} أي: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر.

على كلام ابن جرير ما سيرة اليهود، ما علاقة اليهود والله –عز وجل- يقول: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا} يقول: في قريش، في المشركين، {قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى} قال: اليهود، ابن جرير يمشي على هذا أن اليهود قالوا للمشركين: قولوا له هذا، فقال الله: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ} يعني اليهود، (قالوا ساحران تظاهرا) يعني موسى وهارون.

وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله: {ساحران} يعنون موسى وهارون، وهذا قول جيد قوي، والله أعلم.

وبعضهم يقول: موسى ومحمد -صلى الله عليهما وسلم-، وبعضهم يقول: إن اليهود قالوا ذلك في عيسى ومحمد -صلى الله عليهما وسلم-، وإنهم لم يكفروا بموسى، وإنما قالوا: (سحران تظاهرا)، وهذا فيه بعد؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام- لم يرد له ذكر هنا {قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} (ساحران تظاهرا) فهذا إذا قلنا: إنه يرجع إلى اليهود {قَالُوا سِحْرَانِ}.

وأما من قرأ {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}.

هذه قراءة متواترة وهي التي نقرأ بها، وهي قراءة الكوفيين {قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}.

فقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: يعنون التوارة والقرآن؛ لأنه قال بعده: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ}.

قوله: {هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ} يعني: التوراة والقرآن، وبعضهم يقول: الإنجيل والقرآن باعتبار أن اليهود قالوا ذلك، وإذا قلنا بأن السياق كله في المشركين {قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} (قالوا ساحران تظاهرا) يحتمل أن يكون موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون موسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-، والأول أقرب، وأقرب ممن قال: موسى وعيسى -عليهما الصلاة والسلام-، {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} يعني موسى وهارون؛ لأنه كان وزيراً لموسى -صلى الله عليه وسلم-، {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [سورة طه:٢٩-٣٢]، و{تَظَاهَرَا} يعني تعاونا، وهنا {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ} يمكن أن يكون القرآن والإنجيل، أو التوراة والقرآن كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وابن جرير -رحمه الله- يرى أنهما التوراة والإنجيل.

وكثيراً ما يقرن الله بين التوارة والقرآن، كما في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ...} إلى أن قال: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [سورة الأنعام:٩١-٩٢]، وقال في آخر السورة: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ} الآية [سورة الأنعام:١٥٤]، وقال: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأنعام:١٥٥]، وقالت الجن: {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [سورة الأحقاف:٣٠]، وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى -عليه السلام-، وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران -عليه السلام-، وهذا الكتاب الذي قال الله فيه: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [سورة المائدة:٤٤]، والإنجيل إنما أُنزل متمماً للتوراة، ومُحلاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل، ولهذا قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرجح أن المراد بـــ {قَالُوا سِحْرَانِ} يعني القرآن والتوراة، وهو في الوقت نفسه يصلح أن يكون جواباً لسؤال يرِد وهو لماذا يُذكر موسى -صلى الله عليه وسلم- من بين الأنبياء كثيراً في القرآن وتذكر التوراة كذلك؟ يقال: إن رسالته -عليه الصلاة والسلام- كانت من أعظم الرسالات، وكان له من الأتباع كثير، ولما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- سواداً سأل عنهم ظن أنهم هذه الأمة فأخبر أن هؤلاء قوم موسى[2]، وموسى -عليه الصلاة والسلام- في قصة المعراج بكى وعلل هذا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- من بعده يأتي ويكون له من الأتباع أكثر منه[3]، فالحاصل أنهما أمتان عظيمتان، بنو إسرائيل اصطفاهم الله -عز وجل على العالمين-، وآتاهم من الآيات والبينات وأنواع الإفضال والإنعام ما قصه الله علينا في القرآن، فلما حصل منهم الكفر والتعنت ومحادة الله –عز وجل- لعنهم، ومزقهم، إذا ذكر الخبث والخبائث توجه ذلك إلى اليهود توجهاً أولياً -نسأل الله العافية-، الخبث والخبائث في البشر، والكتاب الذي أعطاه الله -عز وجل- لموسى -عليه الصلاة والسلام- وهو التوراة شريعة موسى -عليه الصلاة والسلام- كانت من أوسع الشرائع، وكتابه كان من أشرف الكتب، فيُذكر كثيراً بالإضافة إلى أن الله -تبارك وتعالى- جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- هو خاتم الأنبياء والمرسلين لا نبي من بعده، وقد جرى لموسى -صلى الله عليه وسلم- مع قومه أشياء كثيرة جداً، فالله -تبارك وتعالى- قص هذه الأخبار على هذه الأمة؛ لتتعظ وتعتبر في أحوالها المختلفة، في حال الطمع، وفي حال الشدة، وفي حال الركون

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، برقم (٣٢٢٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، برقم (٢٢٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٤).

والدعة، وفي حال التكاليف الشاقة، وما أشبه ذلك، ذكر الله كل هذه التفاصيل من أجل أن يكون ذلك عبرة لهذه الأمة.

قال الله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ} أي بلا دليل ولا حجة.

عبارة ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} "أي: **فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق**"، دقيقة جداً، جمع فيها بين قولين مشهورين للمفسرين، وهذا من محاسن هذا التفسير، لكن الذي يقرأ هكذا من غير أن يكون عنده خلفية بما قاله المفسرون لا يتفطن لمثل هذه المواضع، والقول الأول {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} أي يأتوا بكتاب أهدى منهما، إذا ما فعلوا فاعلم أنهم لا يستطيعون هذا، فهم متبعون لأهوائهم، والمعنى الثاني {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} أي يؤمنوا بك ويتبعوك بعد هذه الحجج، والبينات والدلائل الواضحات فاعلم أنما يتبعون أهواءهم {يَسْتَجِيبُوا} يعني الاتباع والإيمان، والأول بالإتيان بكتاب أهدى كما طولبوا بذلك {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ}، {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ}، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} أي: **فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق**، فذكر القولين، وابن جرير -رحمه الله- اقتصر على أحدهما فقال: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} أي: لم يأتوا بكتاب أهدى {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أحسن وأشمل في المعنى، والله أعلم.

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ} [سورة القصص:٥٠] **أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.**

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بيّنا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبَرَهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} قال مجاهد وغيره: {وَصَّلْنَا لَهُمُ} يعني: قريشاً.

قوله: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ} هنا كما قال مجاهد: {وَصَّلْنَا لَهُمُ} يعني لقريش، وبعضهم يقول: اليهود، وبعضهم يقول: للجميع، جميع البشر من اليهود والمشركين، وسائر الطوائف، فإن بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت عامة للأحمر والأسود، {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} "**يقول مجاهد: فصلنا، وقال السدي بيّنا وقال قتادة أخبَرَهم كيف صنع بمن مضى**" هذا كله بمعنى واحد {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} بيناه، فصلناه، وضحناه، إلى آخره، وهذا كله يرجع إلى شيء واحد، لكن الذي قد يكون أوضح من هذا -وهو لا يخالفه لكنه أدق في التعبير- ما ذكره بعض المفسرين: {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} أي: أتبعنا بعضه بعضا، وبعثنا رسولا بعد رسول، فيكون هذا لكل البشر، أتبعنا بعضه بعضا بعثنا رسولا بعد رسول، تقول: وصلتُ الحبل فربطت بعضه ببعض {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ}، وهناك تتابع في الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والوحي الذي ينزل عليهم لهداية الناس، وبعضهم يقول: {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} أي: أتممنا لهم القول، وبعضهم كابن زيد يقول: وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة، كأنهم يشاهدونها {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} والقول الذي تقدم أولاً، وقلت بأن هذا تفسير أدق ولا يخالف ما سبق، وكلها أقوال للسلف {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} أي: أتبعنا بعضه بعضاً، وهذا راجع للبيان، لكن ما

وجد تعبير بوصلنا، هناك ارتباط {وَصَّلْنَا} يعني: أتبعنا بعضه بعضاً، وعلى القول الأخير هو من هذا القبيل (أتبعنا) لكن هناك قال: "**بالرسالات والوحي بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، تتابعوا**"، {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} [سورة المؤمنون:٤٤]، وهنا {وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} "أي: **خبر الدنيا والآخرة كأنك تشاهد الآخرة**" وأنت في الدنيا، ذكر لهم في الدنيا خبر الآخرة كأنهم يشاهدونها وهم في الدنيا {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ}، ويحتمل أن يكون ذلك -والله تعالى أعلم-: أن الله أبلغَ في البيان والإيضاح كل ما يحتاجون إليه، فذكر لهم أخبار الأولين وما جرى لهم في الدنيا، كما ذكر لهم خبر الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب، ومشاهد القيامة، وما إلى ذلك، كل هذا بينه في القرآن بمعنى أنه لم يترك شيئاً مما يحتاج إليه الناس إلا بينه، والله -تبارك وتعالى- أعلم، وابن جرير -رحمه الله- يقول: وصلنا لقومك ولليهود القول بأخبار الماضين، وما أحللنا بهم لمّا كذبوا، وما سنفعل بمن كان على شاكلتهم، وصلناهم بأخبار الأولين، وما سنفعل باللاحقين ممن كان على هذه الشاكلة، وهذه الأقوال لا تتنافى فكلها تدور حول معنى البيان والإيضاح والتفصيل، فوصلنا، فصلنا، بينا، بين لهم ما يحتاجون إليه فقص خبر الأولين، وما حل بهم، وقص فيه الغيوب المستقبلة مما يجري من أهوال القيامة والبعث والنشور، والجنة والنار، وأخبرهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} يعني من أجل أن يتذكروا.

وفي قوله: "**خبر الدنيا بخبر الآخرة**"، يوجد في بعض كتب التفسير خير الدنيا بخير الآخرة، وهو تصحيف متكرر في بعض الكتب، وفي قوله تعالى: {إِذْ نَادَيْنَا} بعض المفسرين يرجح أن النداء المقصود به {إِذْ نَادَيْنَا} يعني نادينا هذه الأمة هناك، وأخبرهم بما لهم من رحمة وما أشبه ذلك، ويحتج ببعض الأحاديث والآثار المنقولة، ولكنه لا يصح شيء منها، وبعض المفسرين رجح هذا: أن النداء حصل هناك {إِذْ نَادَيْنَا} يعني نادينا هذه الأمة، ويذكر أشياء في هذا النداء جاءت في بعض تلك الآثار ولكنها لا تصح، فمبنى هذا الترجيح لدى بعض المفسرين هو تلك الآثار، فإذا كانت لا تصح فيبقى الكلام كله في ما حصل لموسى -صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٥٢ إلى الآية ٦١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المصنف -رحمنا الله وإياه-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [سورة القصص:٥٢-٥٥].

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} **وقال تعالى:** {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} [سورة آل عمران:١٩٩]، **وقال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [سورة الإسراء:١٠٧]، **وقال تعالى:** {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...} **إلى قوله:** {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [سورة المائدة:٨٢-٨٣]، **قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ عليهم** {يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} [سورة يس:١-٢] **حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى** {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} **يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ} الآية، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر أن ذلك يرجع إلى القرآن {هُم بِهِ} أي بالقرآن يؤمنون، والآيات التي أوردها في هذا تشهد لما قال، وكذلك القرينة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ} فالضمائر هنا ترجع إلى شيء واحد وهو القرآن، وقوله: {إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} يعني من قبل القرآن، ومن أهل العلم من يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ} أي محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولا شك أن بين القولين ملازمة، فالقرآن إنما أوحي به إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- و لكن إذا أردنا التحديد فإن في الآية ما يدل على أن المراد القرآن، فذلك قرينة مرجحة إضافة إلى قاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، هذا أولى من أن يقال: إن الضمير الأول يرجع إلى النبي

-صلى الله عليه وسلم-، وبقية الضمائر ترجع إلى القرآن، بالإضافة إلى الآيات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني، ولهذا قال: {بِمَا صَبَرُوا} أي: على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها))[1].

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: ((من أسلم من أهل الكتابيْن فله أجره مرتين، وله ما لنا، وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا))[2].

هذه الآيات جاء في أسباب النزول أنها نازلة في عشرة من اليهود أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا به، فعيرهم قومهم، وعابوهم، واستهزءوا بهم، فنزلت هذه الآيات، وأما ما ذكره هنا عن سعيد بن جبير -رحمه الله- من أنها نزلت في سبعين من القسيسين فهذا من قبيل المرسل، وهو نوع من الضعيف، وقوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} يعني: يضاعف لهم الأجر فإيمانهم بكتابهم الأول، وإيمانهم بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، وما يحتف بذلك من الصبر العظيم الذي يتطلبه هذا المقام، فكان ذلك سبباً لمضاعفة الأجر، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {بِمَا صَبَرُوا} "أي: **علي اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد علي النفوس**"؛ وذلك من جهة أن مفارقة المألوفات وما نشأ عليه الإنسان وتلقفه وتلقاه أمر يشق عليه، ومفارقة الدين أعظم من مفارقة الأهل والوطن والعشيرة، بالإضافة إلى أن مخالفة الناس لاشك أنها شاقة وتتطلب صبراً عظيماً إضافة إلى أمور أخرى لا تخفى على متأمل، والشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله- في كتابه "التنكيل" في القسم المتعلق بالعقائد -الذي أفرد بعنوان: "القائد إلى تصحيح العقائد"- ذكر كلاماً نفيساً في هذا الموضوع خلاصته: يعني فيما يتعلق بالأهواء التي تكون في النفوس، ومفارقة الإنسان ما كان عليه، أبو طالب أبى أن يؤمن، خشي المسبّة والعيب، وأن يقال: ترك دين الآباء والأجداد، فيقول: إن مثل هذا له تعلق بهوى النفوس، وذلك أنه من جهةٍ يرى أن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- تغيير للدين، وذلك يعني ضمناً الاعتراف بأنه كان على باطل، وهذا أمر شاق، أضف إلى ذلك أن هذا يلزم منه أن يكون ما مضى من أيامه و حياته و سنيّ عمره على باطل، وأن ما كان يدعو إليه و

١- رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، برقم (٢٨٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (١٥٤).

٢- رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٢٣٤)، وقال محققوه: صحيح وهذا إسناد ضعيف.

يشتغل بنصرته، ويبذل من أجله كل مستطاع أن ذلك كان في نصرة الباطل، وأن ذلك يلزم منه أن قومه وأهله وعشيرته أنهم على باطل، فهذه لوازم فإذا وجد مع هذا هوًى آخر كأن يحسد هذا الذي بيَّن له الحق فإن ذلك يمنعه أيضاً كما قال الله -عز وجل-: {حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} اليهود، فهو حينما يذعن له، ويقر بما جاء به، فهذا إقرار له بالفضل، وهذا لا يحصل لكل النفوس، ولا تقوى عليه النفوس التي لم تروض فيصعب عليها غاية الصعوبة؛ لأنه يعتقد أن هذا أفضل منه، بل إن ذلك سيرجعه إلى الوراء كما يقال إلى المربع الأول؛ لأن الهوى من جهةٍ قد يحركه باعتبار أن له منزلة ومكانة عند قومه، أو أتباعاً فإذا أذعن وآمن بالحق طار ذلك وصار كالهباء، فيرجع إلى مقوماته الحقيقية مبتدئ مسلم جديد، كل الأوهام السابقة كاهن، قسيس، راهب إلى آخره كل ذلك ذهب، أتباع أموال تعطى له ولايات كل هذه ذهبت، رجع إلى حجمه الطبيعي، لا أتباع، ولا مناصب، ولا أموال، وإنما منزلته بقدر إيمانه، وبقدر ما يحسنه، فيحتاج أن يتفقه في الدين الجديد ويتعلم، وأن يروض نفسه على طاعة الله، وطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذه أمور شاقة، وسيبدأ طريقاً جديداً الآن وطويلاً، فهو يقول: بعضهم أومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة فتذهب هذه الشهرة، وتذهب هذه المعيشة التي كانت في الباطل، فالحاصل أن هذه من ألوان المشقات التي تحصل لمن أراد أن يتبع الحق ويترك ما كان عليه من الباطل، وكلامه جيد حري بالمراجعة والنظر والتأمل، و كان مما قال: يكون الإنسان أحياناً يقرر مسألة ويحررها تقريراً يعجبه ويظن أنه قد أحسن سبكها و حبكها والاحتجاج لها ثم بعد ذلك يبدو له أمر يقدح في بعض ما قال، فيشق ذلك عليه، فكيف لو كان هذا الوارد أو القادح جاء من غيره؟ كيف لو كان قد أعلن هذا القول ثم بعد ذلك جاء الاعتراض من غيره؟ كيف لو كان المعترض ممن يكرهه؟ فهذا صعب علي نفس الإنسان، فهؤلاء من أهل الكتاب مثلاً الأمر بالنسبة إليهم أصعب مما كان عليه أهل الإشراك؛ لأن أهل الكتاب قد تشبعوا من كونهم أهل كتاب، وأهل علم، وأهل معرفة في الدين، والمشركون إنما كانوا يتطفلون عليهم بتلمس الأسئلة، والمعارضات والمطالبات التي يطالبون بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ودائما المقدمة: أنتم أهل كتاب أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، ثم بعد ذلك يذهب هذا جميعاً و يقرون لرجل من غيرهم رجل من العرب، وهم يحتقرون العرب، و يرون أنهم لا شيء أُمة جاهلة أمية أهل إشراك عبدة أوثان، ويذهب كل هذا التراث الضخم كل ذلك، فيتبعون هذا الرجل الأمي، وهم يعتقدون أنهم صفوة الله -عز وجل- من خلقه، هذا أمر شاق على النفوس، وكلما كانت المشقة في اتباع الحق أكثر من غير أن تتطلب لها قصداً كان الأجر أعظم، ومن هنا كان لهؤلاء الأجر مرتين، ولكن ذلك لا يختص بهم فهنا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين))، وذكر الرجل من أهل الكتاب وقال: ((وعبد مملوك أدى حق الله، و حق مواليه، و رجل كان له أمة فأدبها)) إلى آخره، بقي غير هؤلاء، فإن ذكر الثلاثة لا يدل على الحصر، وقد دلت الأدلة على أن غيرهم يؤتون أجرهم مرتين مثل أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا**

مَرَّتَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣١]، وكما أنه ذكر في المقابل: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣٠]، والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق فله أجران[٣]، وهناك أعمال أخرى.

وقوله تعالى: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي لا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون.

قوله: {وَيَدْرَءُونَ} يعني يدفعون، {بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} الحافظ -رحمه الله- فسرها بأن ذلك يتصل بالأخلاق فلا يقابلون الإساءة بمثلها، وهذا يشهد له ما جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى- كقوله: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ} [سورة المؤمنون:٩٦]، وكذلك {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة فصلت:٣٤]، وما جاء من الحث على العفو والصبر والصفح وما إلى ذلك، ومن أهل العلم من يقول: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أن المقصود {بِالْحَسَنَةِ} هنا الطاعة، و{السَّيِّئَةَ} المعصية، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[٤]، فهم يدفعون السيئة بالحسنة كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [سورة هود:١١٤]، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن المقصود بـــ{السَّيِّئَةَ} المعصية و{بِالْحَسَنَةِ} الطاعة، وهذا تحتمله الآية، وبعضهم يقول: {السَّيِّئَةَ} المعصية، و{بِالْحَسَنَةِ} التوبة، وهذا أخص مما قاله ابن جرير، ومن سبقه من السلف -رضي الله عنهم-، أخص يعني أولائك يقولون: "الحسنة" الطاعة، فيدخل فيه التوبة بلا شك، وهؤلاء يخصون ذلك بالتوبة والاستغفار من المعصية، وبعضهم: يخصص السيئة والحسنة بنوع من الطاعة، والمعصية، فيقول: إن السيئة هي الشرك، والحسنة هي التوحيد والإيمان، {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} الإشراك، وهذا إذا قلنا بأن الحسنة هي الطاعة والسيئة هي المعصية فيصلح أن يكون هذا وما قبله أعني أن {السَّيِّئَةَ} المعصية، والتوبة هي الحسنة التوبة والاستغفار أن يكون ذلك من قبيل التفسير بالمثال، وإذا قررنا هذا المعنى في الأصل وقلنا الحسنة هي الطاعة، والسيئة هي المعصية فيكون ما بعده من قبيل التفسير بالمثال كقول من يقول: إن الحسنة هي التوبة والاستغفار والسيئة هي المعصية، أو الحسنة هي التوحيد و السيئة هي الشرك، هذا لون مما يدخل تحت الحسنة، والسيئة فذكر أعظمها، فتصير الأقوال بعد ذلك منحصرة في قولين:

الأول: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} يعني السيئة هي المعاملة السيئة والإساءة التي تصدر تجاههم من قبل الآخرين، والحسنة هي الإحسان إلى هؤلاء الناس، والعفو عنهم في مقابل إساءتهم {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

٣- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، برقم (٧٩٨).

٤- رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في معاشرة الناس، برقم (١٩٨٧)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم (٢١٣٥٤)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب، فقد روى له مسلم في المقدمة، وهو صدوق حسن الحديث، لكنه لم يسمع من أبي ذر كما قال أبو حاتم وغيره، ثم قد اختلف على سفيان -وهو الثوري- في إسناده كما يأتي"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٧).

والقول الثاني: أن المقصود الطاعة والمعصية، ولعل الأول أقرب -والله تعالى أعلم-؛ لأن شواهد القرآن تدل على الغالب في هذا الباب المتكرر وهو ما ذكرت من الحث على مقابلة السيئة بالحسنة، والمسيء بالإحسان، فالآيات التي ذكرها الله –عز وجل- في هذا السياق **{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}**، هذه تشبه الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- في الأخلاق مثل ما جاء في سورة الفرقان: **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}** [سورة الفرقان:٦٣]، وكذلك **{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}** [سورة الفرقان:٧٢] فهنا ذكر مثل هذه الأوصاف، والله تعالى أعلم.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات.

إذا كانت "من" تبعيضية فيعني أنهم لا ينفقون كل ما رزقهم الله -عز وجل-، وإنما ينفقون منه، ويحتمل أن تكون بيانية، فإذا قيل: إنها تبعيضية كما في سورة البقرة وفي غيرها مواضع كثيرة في كتاب الله -عز وجل-: **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}** فأهل العلم يتكلمون في هذه المسألة عند هذه الآيات في مسألة الإنفاق هل يشرع للإنسان أن ينفق ماله كله أو أنه ينفق بعضه؟ وهنا قال: **{وَمِمَّا}** فمدحم بهذا أنهم ينفقون "مما" إذا قلنا إنها تبعيضية، لم يمدحهم بإنفاق جميع المال، والرجل الذي جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- بماله، قطعة من الذهب يريد أن يتصدق بها فأعرض عنه، ثم تعرض للنبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه، ثم أعرض عنه إلى أن أخذها كالمغضب أو نحو ذلك، وعلل ذلك بأن الرجل يأتي بماله كله ثم يتكفف الناس، وفي المقابل قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- من أبي بكر أن يتصدق بماله ثم قال: ((ما تركتَ لأهلك؟))، قال: تركت لهم الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-[٥]، وقبل من عمر -رضي الله عنه- أن يأتي بنصف ماله[٦]، ولما سأله سعد -رضي الله عنه- في مرضه الذي كان يظن أن يموت فيه قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير))[٧]، وأحسن ما قيل في هذا -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الشاطبي -رحمه الله- في "الموافقات" من أن ذلك يختلف باختلاف الناس فمن كان عنده من اليقين كما عند أبي بكر -رضي الله عنه- ونحوه ذلك بحيث إنه إذا أنفق ماله ثقته بالله عظيمة و لا ينظر إلى الناس، و لا يتطلع إلى ما في أيديهم و لا

٥- رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، برقم (١٦٧٨)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كليهما، برقم (٣٦٧٥)، وقال الألباني: حسن، وهو على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في صحيح أبي داود برقم (١٤٧٢).

٦- هو الحديث السابق.

٧- رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، برقم (٢٥٩١)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

يلتفت قلبه لهم فهذا لا إشكال أن ينفق ماله، ومن كان دون ذلك فلا يحسن منه، و إنما ينفق بعضه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً}، {وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} بعدما قال: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} فإذا فُسرت السيئة بإساءة الناس إليهم كما قال: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ} يعني بالسفه، ما هو إذا خاطبوهم وقالوا: يا فلان أين المكان الفلاني؟ أو سألوهم عن شيء أو نحو ذلك قالوا لهم: {سَلامًا}، ليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود إذا خاطبوهم بالسفه بما لا يليق من الكلام قالوا لهم: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} يعني اللغو الباطل، ويدخل فيه دخولاً أولياً ما فسرت الآية قبله به، وهو قوله: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} يعني يقابلون إساءة المسيء بالإحسان {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} سمعوا كلاماً لا يليق وُجه إليهم أعرضوا عنه كأنهم لم يسمعوه:

ولقد أمرُّ على السفيه يسبُّني *** فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني

وبعضهم لما سبه سفيه و شتمه لم يرد عليه فقال: إياك أعني، أي بهذا الشتم و السب فقال: وعنك أعرض، أو جاء ذلك بأسلوب الحصر يعني ما أعني غيرك بهذا الكلام، قال: وأنا ما أعرض عن غيرك، فهذه أخلاق عالية لأنك لا تستطيع أن تؤدب الناس وأن تربي كل أحد، فهؤلاء السفهاء الذين قد يحتف الإنسان ببعضهم حينما تعرض عنه يمر، وحينما تريد أن تقف معه لترد عليه أو تؤدبه أو لتعلمه أو نحو ذلك فإنك قد لا تسلم منه و لا من شره، هؤلاء مثل السباع تجوب فإذا تركته سلمت منه، و لكن إذا أرت أن تؤدب كل أحد من هؤلاء الذين تراهم في الطريق، وتراهم في كل مكان، وفي الأسواق و قد تلقوا تربية مختلفة، و يعيشون في بيئة أخرى لا يتورع من كلام، ولا من سباب، و لا من فعال قبيحة هي تربيته هكذا، ويرى أن هذا من الرجولة والشجاعة والمروءة، و أن هذه هي المكارم فمثل هذا لا تستطيع أن تقف معه، و إنما تُعرض لأنك لن تستطيع إذا دخلت الوحل أن تسلم من لوثته، لا تستطيع أبداً، فهنا قال: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} **أي لا يخالطون أهله و لا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً}** لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم يعنى هم {أَعْرَضُوا عَنْهُ} بمعنى لا يقف عند هذا اللغو و يبتعد و ينأى بنفسه و لا يجلس في أماكن يقال فيها الباطل ويُستهزأ فيها بآيات الله -عز وجل-، ويزعم بعد ذلك أنه ينكرها بقلبه، هذا لا يجوز، وإنما يعرض عن هذا كله، فهذا اللغو يدخل فيه إساءة المسيء، وما يصدر منه من باطل وكلام قبيح، ويدخل فيه ما يصدق عليه أنه لغو من ألوان الباطل فإنه لا يعاشر أهله، و لا يجالسهم، ولا يخالطهم حال لغوهم، يتنزه عن هذا، فهو من جهةٍ يبتعد عن إقرار المنكر بالجلوس مع أهله هذا من جهة، و من جهة

أخرى هو تنزه و ترفع عن الباطل، وكما قيل الطبع لص، الطبع سراق، ولا يستطيع أحد أن يقول: أنا لا أتأثر، فإن الإنسان قد يكون فيه شيء من الأخلاق والدماثة أو الحياء، ثم ما يلبث بعد معاشرة بعض أهل الفجور أن يكون مجترئاً لا يتورع، ولا يتنزه من شيء، تتغير طريقته في الكلام وأسلوبه في الخطاب باعتبار من يعاشرهم، و قد يحصل هذا أيضا بلون آخر من الجراءة، قد تصدر من بعض الخيرين -بعض الأخيار- فإن الناس يتفاوتون في هذا، يتفاوتون في ما هم عليه من ضبط اللسان، فمن الناس من يتوسع في الكلام لربما يخوض في أمور يستحى من ذكرها في المجالس ونحو هذا، فيحصل توسع فما يلبث بعد مخالطتهم أن يهون عليه ذلك حتى يصير ذلك ديدناً له، وقد يكون ذلك بلون من الصلف و الشدة في الكلام، وتجد هذا أيضاً للأسف الشديد حتى في القراءة، فقد يقرأ لعالم أو لبعض طلاب العلم في أسلوبه شيء من الصلف والشدة على المخالفين فتجد بعض العبارات غير لائقة، بل حتى العناوين، عالم يكتب رداً على عالم آخر بكتاب يستحي الإنسان من ذكر اسمه، "العروج بالفروج" هذا عنوان كتاب لعالم، عالم!! في البداية أراد أن يتقرب إليه لعله يحصل على بعض الصلات؛ لأن ذاك عنده مال وثراء، متزوج من امرأة ثرية جداً، فلعله يحصل منه على بعض الصلات، وهذا الراغب صاحب بدعة على عقيدة ماتريدية، وذاك عقيدته عقيدة سلفية، فهو يريد أن يتقرب إليه، لعله يحصل له بعض الصلات، ذاك ما كان يردُّ عليه أصلا ولا علي خطاباته أبدا فغاظه فتسلط عليه بالردود، وكان أحد الكتب التي رد بها عليه بهذا العنوان "العروج بالفروج"، وهذا الكتاب أستحى أن يكون معروضاً في مكتبتي، فكيف استطاع أن يكتب هذا العنوان؟، و كتاب آخر بعنوان "الكلب العاوي" الرد على فلان كذا، الرد على عالم معاصر لا نتفق معه، و نختلف معه في أشياء كثيرة لكن ما وصلت الأمور إلى هذا الحد، والذي يقرأ مثل هذا يتأثر لابد، فالأسلوب مؤثر، والذي يقرأ مثلا للشاطبي كثيراً يظهر هذا في أسلوبه، قد يكون يصعب على المبتدئين فهم ما يقول، فأسلوب الشاطبي رفيع، لا يفهمه كل أحد، والذي يقرأ ويكثر من القراءة لشيخ الإسلام يظهر في أسلوبه أيضاً لا يفهمه كل أحد، والذي يقرأ في كتب الأدب يوجد في كلامه بعض العذوبة، والذي يقرأ في كتب الجفاء يظهر هذا في أسلوبه؛ لأنه قد يدخل عليه ذلك من باب الاقتداء، ما دام قالها فلان ما المانع أن نقولها ولا إشكال؟، فهذه مشكلة في القراءة، وعلى الإنسان أن ينتبه، ولهذا قد يقرأ كثيراً لبعض العلماء مثل ابن حزم -رحمه الله- بطريقة مناقشة للأقوال والمخالفين فيتأثر بهذا، فإذا تكلم عن مالك وأحمد و الشافعي -رحمهم الله- وأمثال هؤلاء تكلم بأسلوب لا يليق أبداً، ولهذا لا يحسن بطالب العلم في بداياته أن يقرأ مثل هذه الكتب؛ لأنه سيتأثر ولابد بمثل هذه الأشياء، فإذا ظهر له ريش وبدأ يحقق أو يؤلف تجد هذا في التعليقات وفي العبارات العنيفة التي توجه للعلماء، ونحن في غنى عن هذا كله، كلمة بدل كلمة، وكلام حسن، وكلام طيب يصل به المقصود يفهم به المراد ولا حاجة إلى الكلمة الصعبة، والكلمة الثقيلة مع الناس جميعا، وقال هنا: **{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}** [سورة الفرقان:٧٢]، وقال: **{وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}**، والسلام هنا ليس المقصود به سلام التحية، فربما كان يجلس معه في المجلس نفسه ويقول له: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}** وإنما المقصود به سلام المتاركة، فكأنه يقول: سلام عليك لا أجاريك فيما أنت فيه، وأمنة لك منى لن تسمع منى

شيئاً تكرهه، كما قال أحد السلف لما قال له رجل: "والله لئن قلتَ كلمة لأردن عليك بعشر، فقال له: ولئن قلتَ كلمة -أو قال: إن قلتَ كلمة- فلن تسمع منى نصف كلمة"، أو نحو ذلك، يعني تقول: أرد عليك بعشرة؟، اطمئن أنا لن أرد عليك بنصف كلمة، والله المستعان.

ثم إنه قد يرد سؤال فهنا قال: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} بالرفع، وهناك قال: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [سورة الفرقان:٦٣]، بالنصب، ما وجه ذلك في موضع بالرفع وموضع بالنصب؟ وأدق من هذا أن يقال: إن هنا ما ذكره الله –عز وجل- على سبيل الحكاية، يعني الله -تبارك وتعالى- ذكر أوصافهم فقال: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}، يحكي أخلاقهم، وأوصافهم حكاية، يصفهم بهذه الأوصاف، وهناك {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} وهو تعليم منه لأهل الإيمان كيف تكون أخلاقهم وحالهم، فهذا في مقام التعليم، يعلمهم كيف يقولون وكيف يجيبون من أساء إليهم، وهنا في مقام الخبر {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}، فهذا الفرق بين المقامين.

{إِنّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوَاْ إِن نّتّبِعِ الْهُدَىَ مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكّن لّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلّ شَيْءٍ رّزْقاً مّن لّدُنّا وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة القصص:٥٦-٥٧]، **يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- إنك يا محمد {لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وقال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: {إِنّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة، قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه، وهو المسيب بن حزن المخزومي -رضي الله عنه- قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك))، فأنزل الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ**

آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى}، **وأنزل في أبي طالب**: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} **أخرجاه من حديث الزهري**[٨].

وهذا نقل عليه الإجماعَ بعضُ أهل العلم كالزجاج وغيره أنها نازلة في أبي طالب، ولاشك أن المعنى والعبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، فهذه الهداية المقصود بها الهداية التوفيقية، {إِنَّكَ لا تَهْدِي} لا توفق لا تدخل الهداية في القلوب وأما هداية الإرشاد فهي المثبتة للنبي -صلى الله عليه وسلم- {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة الشورى:٥٢]، والمراد بقوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} يعني: من أحببته، وقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} يعني أنك لا تهدي من أحببت هدايته، فقد يحب هداية فلان ولكنه لا يحبه، قد يحب هدايته لما فيه من البلاء والقوة والعزم والجد والعقل وما إلى ذلك، وهو لا يحبه، قد يكون بينهما خصومة وعداوة فهذا غير المعنى الأول {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}، وإذا نظرنا إلى سبب النزول فإنه قد اجتمع فيه الأمران النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحب أبا طالب، وكان يحب هدايته أيضاً، وهذه المحبة إذا قلنا: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} يعني أحببته فلا يشكل عليها ما يتعلق به من الولاء والبراء ومحبة الكافر، فهذه المحبة الطبيعية التي تكون بين الناس كمحبة الرجل لولده، الوالد لولده، ومحبة الولد لوالده، ومحبة الرجل لزوجته، وما إلى ذلك، ويتضح هذا بأن الله أباح التزوج من الكتابية مثلا وهي كافرة، وإذا تزوجها فغالباً أنه سيحبها فهذه المحبة غير الموالاة، فالموالاة قدر زائد على المحبة، فالكفار بجميع أصنافهم لا تجوز موالاتهم ولا مودتهم {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ...} [سورة المجادلة:٢٢] فذاك في الموادة وهي من الموالاة، وهناك فرق بين هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}: **يقول تعالى مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-**: {إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} **أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا مَنْ حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، فقال الله تعالى مجيبا لهم**: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا} **يعني: هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل؛ لأن الله جعلهم في بلد أمين، وحَرَمٍ معظّم آمن منذ وُضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟**.

وقوله: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} **أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة** {رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا} **أي: من عندنا** {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} **فلهذا قالوا ما قالوا**.

٨- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القصص، برقم (٤٤٩٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، برقم (٢٤).

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} التخطف هو الانتزاع بسرعة، يعني أن الناس سيرمون معاً قوساً واحدة ويعادوننا ويحاربوننا، ونكون هدفاً لهم {نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} فالله -تبارك وتعالى- رد عليهم بهذا الرد البليغ {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا}، وهذا لا يختص بهؤلاء الذين خاطبهم الله –عز وجل- بذلك، وإنما هو في كل زمان أن الله -تبارك وتعالى- جعل حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله؟!، فاتباع الحق لا يزيد أهله إلا أمناً وقوة وثباتاً، والله -تبارك وتعالى- يدفع عنهم كيد عدوهم لا كما قد يتوهمه من قل يقينه وضعفت بصيرته أن اتباع الحق سيؤلب عليهم الأعداء فيتخطفون من أرضهم، فهذه القضية رد عليها القرآن، والأمور بيد الله -تبارك وتعالى-، ونواصي الخلق بيده، وهم تحت قبضته فاتباع شرعه وطاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- هي سبب للتمكين، وليست سبباً للتخطف والهزيمة، فالله لا يخذل أولياءه، وعدهم بالنصر والظفر، والتمكين في الأرض، ووعْده حق لا يتخلف، ولكن ذلك قد يتخلف لوجود مانع أو لفقد شرط، والله المستعان، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}، ثم قال: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} هذا يقال له: العموم الاستعمالي كما يسميه الشاطبي -رحمه الله-، {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ}، وهذا كقوله: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣]، و "كل" تعد من أقوى صيغ العموم، بل هي أقوى صيغ العموم مع أن ملكة سبأ ما كان عندها كل ما في الدنيا، وأقرب ذلك أنها لم تؤتَ ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ولكن العرب تفهم من مثل هذا أنه إنما يتوجه لما يصلح لمثله، فأُوتيت من كل شيء مما يصلح لمثلها، ما يكون به إقامة ملكها، وهنا {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} مما جرت العادة به، مما حول مكة من الطائف ونحوها، فالحرم جعله الله –عز وجل- في أرض ليست محلا للزرع وإنما في وادٍ غير ذي زرع، وفي هذا حكمة ربما يتصل ذلك أو بعضه بالتجرد لله –عز وجل- بالنية حيث يقصد الناس بلداً لا زرع فيه وليس محلا من المحال التي يطلبها الناس أو يقصدها الناس للبهجة وحسن منظرها أو نحو ذلك، وإنما هي جبال سوداء، {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} مما جرت به العادة وإلا فكثير من الثمار في الدنيا لم تكن تجبى إليه في ذلك الوقت في مشارق الأرض ومغاربها، فهذا يفهم بهذا الاعتبار، وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [سورة الأحقاف:٢٥] مع أنها لم تدمر الجبال ولا السماوات ولا الأرض، إنما تدمر كل شيء مما سيقت لتدميره، والعرب تفهم هذا، فيسمونه العموم الاستعمالي ولا حاجة لأن يقال: إنه مخصوص بالعقل أو بالحس أو نحو ذلك، ما في حاجة فتبقى العمومات على حالها، وذلك أقوى لأدلة الكتاب والسنة؛ لأنهم يقولون: إن المخصصات تضعف الدليل، تضعف العام إذا ورد عليه التخصيص، ومن ثَمّ فإن أهل الكلام يوهنون نصوص الوحي بجملة من الأمور هذا واحد منها، فلجئوا إلى العقل وقالوا: إنه المعتمد المعول عليه في الاعتقاد؛ لأن ذلك يعد من الدلائل القطعية، وإن العقائد لا يصح الاستدلال عليها بدليل ظني، والذي جعل نصوص الكتاب والسنة ظنية جملة من الأمور التي طعنوا بها في الأدلة هذا واحد منها، وتجد ذلك في كتب أصول الفقه كثيراً.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص:٥٨-٥٩]، **يقول تعالى مُعَرّضًا بأهل مكة في قوله:** {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} **أي: طغت وأشرَت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى:** {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} **[سورة النحل: ١١٢-١١٣].**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} البطر أصله الطغيان عند النعمة، وقوله: {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} بعضهم كالزجاج يقول: أي بطرت في معيشتها، {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} فلما حذفت "في" تعدى الفعل بنفسه {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً} [سورة الأعراف:١٥٥]، يعنى اختار من قومه سبعين رجلاً، اختار موسى قومه، وبعضهم يقول: إن ذلك منصوب على التفسير، أي أنه تفسير لما قبله {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} [سورة البقرة:١٣٠]، فيكون ذلك تفسيراً لما قبله، هذا يقوله الفراء.

ولهذا قال: {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا} **أي: دَثَرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم.**

المراد بالقليل في قوله: {لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا} بعض المفسرين يقول: أي أنها صارت خرابا خالية من السكان، فلم يُسكن منها إلا القليل بعدهم، يعني أن ذلك يرجع إلى المساكن التي لم تسكن إلا قليلاً من المساكن، هذا المعنى، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: المقصود بالقليل هو ما قد يحصل من سكنى بعض المارة المجتازين بها، فعابر السبيل –المسافر- ربما يستريح فيها بعض الوقت، {لَمْ تُسْكَنْ} يعني إلا مثل هذه الأوقات القليلة، وبعضهم يقول: لشؤمها أو لشؤم أهلها فإن من سكنها بعدهم لم يبقَ فيها إلا القليل، يعنى يهلك، وهذا بعيد، والعرب قد تعبر بالقليل و تقصد به العدم، ولهذا تجد في كتاب الله -عز وجل- في مواضع يذكر فيها مثل هذا الاستعمال، كقوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الأحزاب:١٦]، على خلاف في المراد بذلك التمتيع القليل فبعضهم يقول: لا يمتعون، {لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} فإذا جاء القدَر انتهى، فلا تمتيع لهم، ولكن العرب قد تستعمل القليل وتريد به العدم، وتجد هذا في ذكر الله -عز وجل- حينما يذكر الكافرين وأوصافهم و نحو ذلك في عقلهم أو في إيمانهم {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء:١٥٥]، فبعضهم يحمله على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} **أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد.**

ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله، وأنه لا يهلك أحدًا ظالمًا له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا} **وهي مكة** {رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}.

قال هنا: مكة {حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا} والرسول على قول ابن كثير -رحمه الله- هو النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه خص ذلك بمكة، {حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا} يعنى مكة، وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله- مع أن الآية أعم من ذلك في ظاهرها، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا} [سورة القصص:٥٩] فهذا عام في كل القرى، وهو يصدق على مكة، فيصلح أن يكون ذكر مكة من قبيل التفسير بالمثال؛ لأن الآية عامة، والمقصود بـــ {أُمِّهَا} هي القرية الكبرى، يعني القرية في القرآن تطلق على مجمع السكان سواء كان كبيراً أو صغيراً، ليس كالاصطلاح اليوم القرية هي مجمع السكان الصغير مع العمران المحدود، والمدينة هي ما يكون أوسع من ذلك، وأم القرى هي القرية الأكبر أو المدينة الأكبر كما يقال الآن مثلاً: العاصمة.

{رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}، فيه دلالة على أن النبي الأمي، وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-، المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى، من عرب وأعجام، كما قال تعالى: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧].

وقد يؤخذ من هذا فائدة في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- أن الجهود الدعوية وكبار العلماء وكبار المصلحين الأولى أن يكونوا في العواصم التي تكون مرجعا لغيرها فتبلغ دعوتهم الآفاق، وتبلغ ما لا تبلغه دعوة من غيرهم، وهذا أمر مشاهد إلى يومنا هذا، وهذا أمر له تعلق بأشياء أخرى نفسية، فإن أهل النواحي الأخرى والقرى والأرياف و ما إلى ذلك ينظرون إلى أهل العواصم أهل العاصمة على أنهم أكثر تطورا وتمدنا، و تحضرا، ينظرون إليهم بشيء من الإكبار، كل شيء جاء من العاصمة فهو له بريق، ولهذا تجد حتى في المحاكاة غالباً حينما تنظر إلى قضية التبرج مثلا عند النساء، واللباس، والتبذل فيه وما إلى ذلك، تجد أن النساء في زماننا هذا في الأرياف لربما يتبجحن بالسفور والتبرج بطريقة ممجوجة مخالفة للذوق كل ذلك لربما لمحاكاة أهل المدنية، وأهل المدن الكبار ونحو ذلك بطريقة لربما أولائك لا يجرءون عليها، فتجد هؤلاء أكثر سفوراً وتبرجاً فيما نسمع، وقد سمعت هذا كثيراً في نواحٍ أن ما يعانونه من التبذل في اللباس في الأعراس والمناسبات من النساء خلاعة، وتكشف أعظم مما يوجد في المدن الكبيرة، وذلك كأنه شعور بالنقص يحاولون تعويضه بهذه الطريقة، يظهرون بصورة ملفتة، وقل مثل ذلك في نظرة هؤلاء الناس من أهل النواحي و الأرياف و القرى إلى من يأتي من العاصمة ينظرون إليه بأنه أكثر منهم تحضراً ومدنية، ولو كان في الواقع أقل منهم، ولو كان في الواقع في حال من الفقر والمسكنة والضعف، لكن هؤلاء أهل العاصمة! هذا موجود، ومثل هذه الأشياء والدراسات يُحتاج إليها في الدعوة إلى الله والتعليم وما إلى ذلك، وإن كان هذا خارجاً عما نحن فيه ولكن بعض الأشياء لا بأس أن يُلفت النظر إليها تسأل أحياناً في بعض البلاد ما هي المعاهد والكليات و الجامعات القوية التي يكون لمن تخرج منها أثر في بلادكم؟ لكن الملفت للنظر أن أول شيء عندهم هو العاصمة، الجامعات التي في العاصمة الناس الذين جاءوا من العاصمة، هؤلاء ينظر إليهم نظرة أخرى وهذا يعتز بالشهادة التي حصل عليها من العاصمة، بخلاف الشهادة التي أخذها من فرع، أو كلية في ناحية أخرى، لربما يكون ينظر إليها بشيء من الإغماض، فهو لا يراها ترقى إلى مستوى

يفتخر ويعتز به، وهكذا الذين يأتونهم من العاصمة من الدعاة وأهل العلم ونحو ذلك ينظرون إليهم بإكبار، فكيف بأم القرى مكة ومن يأتي منها، وهكذا؟، والناس ينظرون إلى من جاء من مكة أو المدينة على أنه ملك تنزل عليهم من فوق، من السماوات، وقد تسمع من يقول: أنتم ملائكة، كبار السن والشباب، وأنتم ملائكة جئتم إلينا، وتوجد معاهد كبيرة قد تضم ثلاثين ألف طالب، فيقولون: أرسلوا إلينا طالباً في الثانوية في الأجازة؛ ليرفع من معنوياتنا كثيراً، ونشعر أن واحداً من أحفاد الصحابة موجود بيننا، لا يدرس ولا يقدم شيئاً إطلاقاً أهم شيء يجلس معنا، ولا يقصدون بهذا التبرك وإنما لرفع المعنويات، ولو أقيمت دورة علمية لأحد العرب يأتيه الطلاب من كل ناحية، وقد يشترط فيقول: أريد من كل معهد مثلاً الأول والثاني أو الثلاثة الأوائل، أو أريد أبرز الدعاة، يقولون: لكن إذا كان أهل البلد لا يجتمع عليه الناس، ولو فعّلنا برامج وأقمنا دورات.

أما الذين يذهبون للفجور فهؤلاء يهدمون كثيرا ويسيئون إلى أنفسهم وإلى غيرهم، وإلى دينهم، لكن الناس يتصورون هذا: أننا أولاد الصحابة، والله المستعان، فقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا} هذا مهم في تقديم الدعوة، و تقديم العلم، و تعليم الناس، وإقامة الجامعات والبرامج العلمية القوية التي تستهدف النخبة مثلاً الأولى بها أن تكون في العاصمة، قد تكون المصلحة في غير هذا، ولا يترك أهل النواحي، لا يقام لهم، لا جامعات، فحينما نريد أن نقيم برامج نوعية، أو كبار العلماء كبار الدعاة إلى الله الأولى أن يكونوا في العواصم يقصدهم الناس، ولكثرة من يرد إليها مع تنقلهم في غيرها، و الله أعلم.

هذا مثل قضية بعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أهل القرى لم يبعث من البوادي، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- كلهم لم يكن فيهم أحد من أهل البادية، وإنما كانوا من أهل القرى، وهذا له تعلق بطبيعة الإنسان، وطبيعة التعامل، وما يحصل في البوادي من أثر البيئة ونحو ذلك ما قد يكون سبباً لتنفير الناس، والدعوة تحتاج إلى تألف وشيء من اللباقة، والله أعلم.

وقال تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** [سورة الأعراف:١٥٨]، **وقال**: **{لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}** [سورة الأنعام:١٩]، **وقال**: **{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}** [سورة هود:١٧]، **وتمام الدليل قوله تعالى**: **{وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...}** **الآية** [سورة الإسراء:٥٨]، **فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال**: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء:١٥].

فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى؛ لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه -صلوات الله وسلامه عليه- أنه قال: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[٩]، ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعُه باقٍ بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة.

٩- رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٢٦٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [سورة القصص:٦٠-٦١]، يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [سورة النحل:٩٦]، وقال: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ} [سورة آل عمران:١٩٨]، وقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ} [سورة الرعد:٢٦]، وقال: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة الأعلى:١٦-١٧]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه في اليم، فَلْينظُر ماذا يرجع إليه))[١٠].

وقوله تعالى: {أَفَلا يَعْقِلُونَ} أي: أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة؟.

وقوله: {أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}: يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمَنْ هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل، {ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} قال مجاهد، وقتادة: من المعذبين.

ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي أبي جهل، وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد، والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدركات: {وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [سورة الصافات:٥٧]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [سورة الصافات:١٥٨].

فقوله: {وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} ليس المقصود للحساب أو للنشور أو نحو ذلك، و إنما للعذاب ولهذا فسرها ابن جرير -رحمه الله- بهذا: يعني المُشهَدين عذاب الله وأليم عقابه، {لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} والقرآن يفسر بعضه بعضا، وهذه الآية -وكثير في كتاب الله -عز وجل- تؤخذ منها أصول ثابتة كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا} اتباع الحق لا يمكن أن يحصل معه التخطف، وكذلك هنا أيضا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} هذا أصل عام، وهذا قد يقال فيه: القواعد القرآنية أمور ثابتة مقررة من الله -تبارك وتعالى- لا تتخلف أحكامها، كل ما آتيناهم من هذا العرَض الزائل {فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، والمتاع –كاسمه- يزول، يتمتع به الإنسان مدة ثم يزول، والعبرة في هذا ظاهرة، ولا يحتاج إلى تطويل مهما يسكن الإنسان، وخذوا هذه قاعدة في الحياة الدنيا: مهما يلبس من اللباس، ومهما يركب من المراكب، ومهما يسكن من القصور والدور الجميلة الأنيقة وما أشبه ذلك عما قليل تتحول بهجته، ويذهب رونقه، فلا يُلفت نظره، ولا يُشبع نهمته، وتتطلع نفسه إلى غيره، هذا في اللباس والمراكب، و في المحال التي يألفها حتى أماكن العمل، أو قد يعمل

١٠- رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٨).

في بناء فخم مَن قصده لربما يتصاغر نفسه، ويحصل في قلبه من المهابة لمَن بداخله ونحو ذلك، ولكن إذا اعتاده الإنسان وألفه لا يسترعي انتباهه، وقد تنظر إلى لوحة جميلة تعجبك أو حزمة من الزهور أو نحو ذلك في حوض من الأحواض تعجبك و تأسرك حتى تشتريها وما هي إلا أيام ثم بعد ذلك لا تنظر إليها، ولربما علق الإنسان في بيته قصيدة أو أشياء تتعلق بالسيرة أو نحو ذلك في برواز تعب في إعدادها أو في جلبها أو في تزيينها أو نحو ذلك ثم بعد ذلك لا تُقرأ، ولا تلفت النظر وكأنها غير موجودة، و لكن أول ما وضعها هو يرمقها وينظر إليها وتشده، فهذه الأشياء لربما تمتد إليها النفس وينظر إليها الإنسان من قصور ونحو ذلك، ويظن أن أهلها يعيشون في حال من الغبطة، لا، ليس كذلك، وقد يغتبط الإنسان في أول الأيام لكن بعد هذا يألف ما يشاهده وتزهد فيه نفسه -وهذه قاعدة- ثم يزول ويذهب ويتلاشى، و كل ما تجده من متاع بالٍ أو من مركبٍ لربما يترفع عنه الإنسان أو يأنف من ركوبه كان في يوم من الأيام يتطلع إليه كثير من الناس ولا يحصله إلا الواحد بعد الواحد حتى صار إلى حال يزهد فيه أقل الناس مالاً، وهذا أمر مشاهد، فلا يغتر الإنسان بما فيها ولا تشغله، ولهذا هذا المعنى الذي ذكره الله -عز وجل- في قوله: **{أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** هذا أصل كبير في قياس الأمور فكثيراً ما يقول الناس: هؤلاء الكفار عندهم بلاد خضراء، وأجواء جميلة، وأمطار ونحن كل مره نستسقي، وأجواء صحراوية، وغبار، وجفاف وأرض قاحلة، حر شديد، و برد شديد، وأولائك عندهم كل شيء والحياة عندهم مرتبة بكل شيء، قطارات بلا سائقين تمشي بدقة، وقطارات تحت الأرض، وقطارات تسير بسرعة عالية جداً كأنها طائرات، وكل شيء في الحياة مرتب ومنظم، وكل الخدمات بكل بساطة تصلك إلى بيتك، وعن طريق البريد تستطيع أن توصل في يوم واحد ما تريد، لا تحتاج أن تراجع دوائر حكومية، ولا تقف في طوابير، ولا تأخذ رقماً ولا تحتاج شيئاً من هذا إطلاقاً، حياة مرفهة، وكل شيء موفر لكن **{أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، أهل الإيمان الله وعدهم بالآخرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر له عمر فارس والروم وما هم فيه من النعيم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ينام على حصير فيؤثر في جنبه: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟))[١١] **{أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، فقد يتمتع الإنسان في هذه الحياة سبعين سنة بما فيها من المنغصات وظلمة القلب والصدر التي تعصف بهم فيلجئون إلى الموت والانتحار والقلق و الكآبة على هذا الترفيه، والذين يعيشون في رفاهية لو وضعوا في بيئة صحراوية فإنه سيموت ربعهم من الحر، وثلاثة أرباعهم الباقية من الاكتئاب، فتستريح منهم البلاد والعباد **{أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، ثم تقابل الخمسين سنة أو السبعين سنة مع ما فيها من الأكدار والتنغيص وظلمة الصدر بنعيم بلا عد ولا انتهاء، وهناك شجرة في الجنة يسير الراكب تحت ظلها مائة عام لا يقطعها، فالكرة الأرضية بهذا المقياس ما تأتي

١١- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، برقم (٤٦٢٩)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: **{وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}** [سورة التحريم:٤]، برقم (١٤٧٩).

ثمرة صغيرة معلقة في هذه الشجرة، والأمطار التي تنزل عليهم والبيوت التي يسكنونها، والطرق النظيفة الجميلة والقطارات إلى آخره بمقابل ما أعده الله لأهل الإيمان، وأصحابُ البصيرة ما ينخدعون بهذا إطلاقاً، وإنما ادخر الله -عز وجل- لهم الآخرة، نعيم الجنة، وأولائك ينتظرهم شيء لا يمكن للعقل أن يتصوره، هذا التمتيع مثل العلف الذي يعطى للبهيمة وما تدري ماذا ينتظرها بعد أيام، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٦٢ إلى الآية ٨٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} [سورة القصص:٦٢-٦٧].

يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [سورة الأنعام:٩٤].

وقوله: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} يعني: من الشياطين والمَرَدَة والدعاة إلى الكفر، {رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرءوا من عبادتهم، كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:٨١-٨٢]، **وقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}** [سورة الأحقاف:٥-٦]، **وقال الخليل لقومه: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** [سورة العنكبوت:٢٥]، **وقال الله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ...} إلى قوله: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}** [سورة البقرة:١٦٦-١٦٧]، **ولهذا قال: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ} أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}: **يعني من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر**، فهذا جمعٌ من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين أقوال السلف في هذه الآية، فبعض أهل العلم يقول: هم الشياطين الذين أضلوهم، و بعضهم يقول: هم الدعاة إلى الكفر الذين قادوهم

و أغروهم وأغووهم بالكفر بالله -جل جلاله- فهذان قولان، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع بينهما، وابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك بالشياطين، فهؤلاء جميعا شاركوا في إغوائهم يعني شياطين الإنس وشياطين الجن، فهم الذين زينوا لهم الكفر بالله -عز وجل- والضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، فيتبرءون منهم يوم القيامة ولهذا يقولون: {رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ} [سورة فصلت:٢٩]، وهم يتمنون الانتقام من هؤلاء، فهذا الجمع من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جيد، وأولى -والله تعالى أعلم- من ترجيح أحد القولين، وقوله: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} يقول: "**شهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم**"، وأتى بشواهد كعادته -رحمه الله- ففسر القرآن بالقرآن، وقوله ثم تبرءوا من عبادتهم {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} يعني أنهم كانوا يعبدون أهواءهم، فلقد اتخذوا الأهواء آلهة، اتخذوا هواهم إلها يُعبد من دون الله -تبارك وتعالى- وهذا باعتبار أن "ما" نافية {مَا كَانُوا إِيَّانَا}، فهم ينفون ذلك أصلا يقولون: ما كانوا يعبدوننا، إذاً عبدوا أهواءهم، اتبعوا أهواءهم، هذا معنى، وتحتمل الآية أن تكون "ما" مصدرية، يعني تبرأنا إليك من عبادتهم، فتحتمل هذا وهذا، والمتبادر -والله تعالى أعلم- والأقرب إلى السياق أنها نافية، والشواهد التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله- في هذا المعنى قد لا تكون قاطعة في حمل الآية على أحد المعنيين، {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:٨٢] سيكفرون بعبادتهم فهذه في العبادة، يكفرون بالعبادة، فإذا قالوا: {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} فهذا كفر منهم بعبادتهم، {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} تبرأنا إليك من عبادتهم، وإذا قلنا: إن "ما" مصدرية فأيضاً كل ذلك تبرؤٌ من عبادتهم، وهكذا في قوله: {وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٥-٦]، فإذا قالوا: إنهم ما عبدونا فهذا كفر منهم بعبادتهم، وإذا قالوا: تبرأنا إليك من عبادتهم فهذا أيضا كفر منهم بعبادتهم، وهكذا في سائر الآيات، والله تعالى أعلم.

وقوله: {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف:٥٢-٥٣].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله -تعالى-: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}: **فَوَدُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا**، يتمنون الهداية في الدنيا، يقول كقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} هذا المعنى هو الذي اختاره أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- تمنوا لو أنهم حققوا الهداية في الدار الدنيا، وبعض أهل العلم يقول: إن المعنى {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب، {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} وأن هناك مقدراً محذوفاً، {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لنفعهم ولأنجاهم، لما حصل لهم هذا الذي رأوه من العذاب، هكذا قال بعض أهل العلم كالزجاج -رحمه الله-، وبعضهم يقول: هناك تقدير وهو: {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لما عبدوهم، أو لما دعوهم، وبعضهم يقول: إن التقدير {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لعلموا أن العذاب حق، وبعضهم

يقول: {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لوجهٍ من الوجوه التي يدفعون بها عن أنفسهم العذاب لفعلوا، ولو يجدون مخرجا وطريقا يتخلصون فيه من عذاب الله -تبارك وتعالى- لفعلوا، لكن هذا لا يخلو من بُعد -والله تعالى أعلم-، وقيل غير هذا كما يقول بعضهم: قد آن لهم أن يهتدوا {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}، فانظر في هذا كله وفي قول ابن كثير -رحمه الله-: **"فوَدُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا"**، وهذا لا يبعد -والله تعالى أعلم-، ويحتمل أن يكون المعنى غير هذا وهو {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} لعرفوا أن ما جاءت به الرسل حق ومن ذلك عبادة الله -عز وجل- وتوحيده الذي دُعوا إليه، وما أخبروا به من الحساب والعقاب والجزاء والجنة والنار، لو أنهم كانوا يهتدون، لكنهم أدركوا هذا وعاينوا الحقائق بعد فوات الأوان، والله المستعان.

وقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}: النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: مَنْ ربك؟ ومَنْ نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه..هاه، لا أدري[1]؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن مَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ولهذا قال تعالى: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ}.

وقال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب.

وقوله: {فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: في الدنيا، {فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} أي: يوم القيامة، و"عسى" من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه لا محالة.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ}، قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، أصله فعموا عن الأنباء، الناس هم الذين يعمون، ولكن يعبر بذلك مبالغة {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ} تقول: عميت عليه الأخبار، عمي عليه الخبر، عمّى النبي -صلى الله عليه وسلم- على قريش الخبر، يعني عام الفتح، عمِي عليه الخبر يعني لم يظهر له ولم يهتدِ إليه، والذي عمِي هو في الواقع الإنسان، وهذا استعمال عربي معروف والقرآن نزل بلغة العرب {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ}، فعموا عن الأنباء، العمى أصابهم ولكنه عكس ذلك مبالغة وقال: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ} ما قال عميت عليهم الحجج مثلا والبراهين؛ لأن هذه الأشياء التي يتشبثون بها، ويتمسكون بها هي ليست من قبيل الحجج ولا البراهين، إنما سماها أنباء، والأنباء هي الأخبار وإن كانت تطلق على الخبر الذي له خطب وشأن، يعني أخص من مطلق الخبر {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ} يعني غابت عنهم الحجج، وذهبت واضمحلت فهم لا يتساءلون، وقوله: {فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، أي في الدنيا {فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} أي: يوم القيامة، و"عسى" من الله موجبة، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره، أي متحققة الوقوع؛ لأن أصل معنى عسى أنها تفيد الترجي تقول: عسى أن ينزل المطر، عسى أن يقدم زيد، عسى أن أُفلح في هذا الاختبار وما شابه ذلك، يكون ذلك

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب المسألة في القبر وعذاب القبر، برقم (٤٧٥٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

للترجي، وإنما يحصل الترجي من الذي لا يعلم عواقب الأمور فيكون منه الترجي، أما الله -تبارك وتعالى- فهو عالم بما كان وما يكون، لا يخفى عليه خافية -سبحانه وتعالى-، فإذا جاءت هذه اللفظة في كلام الله -تبارك وتعالى- من قوله وخبره فإن ذلك لا يُحمل على الترجي، فالترجي لا يكون من الله -جل جلاله- فأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن، فإذا صدرت من الله في كلامه لا على سبيل الحكاية عن قول أحد من الناس فإن ذلك يكون بمعنى الشيء المتحقق، معنى واجبة، يعني واجبة التحقق والوقوع، لكن حينما يذكر الله ذلك عن أحد كقوله مثلا: {عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي} يعني سواء السبيل فهو يترجى، لكن إذا قال الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة الممتحنة:٧] فهذا للوجوب بمعنى أنه سيتحقق، وحصل هذا، فقد كان أبو سفيان من أشد أعداء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحاربه ثم بعد ذلك تحول إلى الإيمان، وهكذا كبار المشركين عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو العامري، والحارث بن هشام، و صفوان بن أمية، والبقية التي بقيت بعد بدر، ونجوا من القتل، كبار المشركين كثير من هؤلاء آمن فتغيرت حاله، وصار يجاهد في سبيل الله، وأبو سفيان هو أول من قاتل المرتدين في مقدمه من اليمن لما مات النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق فارتد من ارتد من العرب فلقي ذا الخمار في طريقه وكان قد ارتد عن الإسلام فقاتله، وسهيل بن عمرو هو الذي ثبّت أهل مكة وذكرهم بتأخر إسلامهم وحذرهم من التراجع والردة.

{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}

[سورة القصص:٦٨-٧٠].

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب فقال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} نفي -على أصح القولين-، كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [سورة الأحزاب:٣٦].

يعني {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}، يخلق ما يشاء ويختار مما خلق ما يشاء، يختار لولايته كما يقول ابن جرير، يختار للإيمان، للهداية، يختار من البشر كما يقول ابن القيم -رحمه الله- ما شاء، اختار الرسل، اختار كنانة من ولد إسماعيل مثلاً، واختار قريشا من كنانة، واختار من قريش بني هاشم، واختار النبي -صلى الله عليه وسلم- من بني هاشم {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} خلق هؤلاء جميعا، واختار هذا الاختيار، وهكذا أيضا اختار من الملائكة رسلا، واختار أيضا من الناس أهل الإيمان، واختار الرسل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من بين سائر الناس، واختار الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من الأنبياء، واختار أولي العزم من الرسل، واختار محمدا -صلى الله عليه وسلم- وفضله على سائر الأنبياء والمرسلين، وهكذا يختار من البقاع: اختار مكة، واختار مِنى، وعرفة ومزدلفة، وكل ذلك قد اختاره الله -تبارك وتعالى- من بين سائر

البقاع بأعمال ومقامات وعبادات شريفة، وهكذا أيضا اختار المدينة مهاجَراً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- واختار بيت المقدس على غيره من البقاع وما إلى ذلك، فله الخلق وحده، وله الاختيار وحده، ليس لأحد أن يعقب على حكمه {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القرآن عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [سورة الزخرف:٣١-٣٢]، يعني النبوة {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة الزخرف:٣٢] فهذا كله لله -جل جلاله- ليس لأحد مع الله اختيار، هذا المعنى فهو اختيار بعد الخلق، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول في: {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} إن "ما" نافية، وهذا هو الصحيح، يعني أنه لما أثبت الاختيار وحده دون ما سواه نفى أن يكون لهم الخيرة، {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}، ما كان لهم الاختيار، وبعضهم يقول: إن "ما" هذه موصولة {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} الذي فيه الخيرة، ويختار الذي فيه الخيرة هذا القول فيه ضعف -والله تعالى أعلم-، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا المعنى في أكثر من كتاب نقتصر على واحد منها، حيث قال -رحمه الله-: "وليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق فهو أعم وأسبق وهذا أخص وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق، وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: {وَيَخْتَارُ} ويكون {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} نفيا أي: ليس هذا الاختيار إليهم بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالِّ رضاه وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه، وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن ما في قوله تعالى: {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} موصولة وهي مفعول "ويختار" أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أن الصلة حينئذ تخلو من العائد؛ لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم كان والخبر "لهم"، فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم، وهذا التركيب محال من القول، فإن قيل: يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ويكون التقدير: ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه، أي: ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره، قيل: هذا يفسد من وجه آخر وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف مجرورا إذا جر بحرفٍ جُر الموصولُ بمثله مع اتحاد المعنى، نحو قوله تعالى: {يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} [سورة المؤمنون:٣٣]، ونظائره، ولا يجوز أن يقال: جاءني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت ونحوه.

الثاني: أنه لو أريد هذا المعنى لنصب الخيرة، وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكأنه يقول: ويختار ما كان لهم الخيرة أي: الذي كان هو عين الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد ألبته، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثالث: أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القرآن عَلَى رَجُلٍ مِّنَ

الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة الزخرف:٣١-٣٢]، فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومُدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم، ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره"[٢] ا.هـ.

فهذا كلام ابن القيم -رحمه الله- يراجَع، فيرى أن "ما" نافية، وأن الوقف يكون تاماً على قوله: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} يعني مما يخلق، ثم نفى وقال: {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}.

ثم قال: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي: يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [سورة الرعد:١٠].

وقوله: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه {لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ} أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعدله وحكمته {وَلَهُ الْحُكْمُ} أي: الذي لا معقب له، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: جميعكم يوم القيامة فيجزي كل عامل بعمله، من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

قوله -تبارك وتعالى-: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ} يعني: أنه محمود في الدنيا وهو محمود في الآخرة، له الحكم، قدم المعمول على عامله في إفادة الحصر والاختصاص، يعني: له الحكم وحده دون ما سواه، وهذا الحكم يشمل الحكم القدري الكوني، وهذا المناسب هنا للسياق لقوله: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}، ويدخل فيه أيضا الحكم الشرعي لأن الله -تبارك وتعالى- هو الذي يحكم ويشرع، وليس ذلك لأحد من المخلوقين. {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّــهُ} [سورة الشورى:٢١]، وقال: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:٢٦] في أوائل الكهف، فهذا في الإشراك في حكمه -سبحانه وتعالى- على سبيل النفي والخبر، وعلى سبيل النهي في آخرها {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:١١٠].

قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة القصص:٧١-٧٣].

يقول تعالى ممتنًا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذيْن لا قوَامَ لهم بدونهما، وبيّن أنه لو جعلَ الليلَ دائمًا عليهم سرمدًا إلى يوم القيامة لأضرّ ذلك بهم، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ} أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، {أَفَلا تَسْمَعُونَ}.

---

٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم الجوزيه (٣٥/١).

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمدًا دائمًا مستمرًّا إلى يوم القيامة لأضرَّ ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلَّت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ} **أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم،** {أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ} **أي: بكم** {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} **أي: خلق هذا وهذا** {لِتَسْكُنُوا فِيهِ} **أي: في الليل،** {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} **أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا {سَرْمَدًا} السرمد في كلام العرب هو الشيء الدائم المستمر، {سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي دائما متصلا لا يزول ولا يتحول، وقوله هنا -وتأمل الآية-: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ} في الأولى قال: {أَفَلا تَسْمَعُونَ} وفي الثانية قال: {أَفَلا تُبْصِرُونَ} ووجه التفريق بينهما أنه قال هنا: {أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّـهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّـهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ} وفي النهار ذكر الإبصار، فسلطان البصر في النهار، وسلطان السمع في الليل، يعني في الليل لا يكون سلطان البصر، وإنما السمع، وفي النهار قال: {أَفَلا تُبْصِرُونَ}، كما قال في آخر السجدة: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ} [سورة السجدة:٢٦]، فهم ما أدركوا تلك القرون، وإنما يسمعون أخبارهم {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا} وفيما يتعلق بالبصر قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [سورة السجدة:٢٧] هذه أشياء يشاهدونها في حروثهم وأرضهم وما أشبه ذلك، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عند قوله: {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} "**جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**"، الحافظ -رحمه الله- يقول: وهذا من باب اللف والنشر، واللف والنشر أن يأتي بالكلام مجملا ثم بعد ذلك يكون مفصلا، وهو على نوعين: لف ونشر مرتب كهذا المثال، ولف ونشر مشوش يعني يكون فيه تقديم وتأخير فهنا جعل الله -عز وجل- الليل والنهار قال: {لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} فقوله: {لِتَسْكُنُوا فِيهِ} عائد إلى الليل، {وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} عائد إلى النهار، فجاء حكم كل واحد منهما مرتباً بحسب ذكره قبلُ، هذا اسمه لف ونشر مرتب، ذكر الليل والنهار ثم ذكر حكم كل واحد منهما، فجاء بهذه الأحكام مرتبة كترتيب ما قبلها، وقد يكون مشوشا، وقوله: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [سورة آل عمران:١٠٦]، جاء بالأحكام بعدهما على غير الترتيب الأول {تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} لو كان مرتبا لكان ذكر أولاً حكم وحال الذين ابيضت وجوههم ثم ذكر الذين اسودت وجوههم، وهكذا تجد في القرآن هذا وهذا.

وقوله: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} **أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى:** {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [سورة الفرقان:٦٢]، **والآيات في هذا كثيرة.**

وأيضا {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} من أجل أن تشكروا الله -عز وجل- على هذا الإفضال والإنعام حيث {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} [سورة يونس:٦٧]، فيه يكون السكون والظلام فيكون محلا للراحة، {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} ليكون محلا للحركة والانتقال وطلب الرزق وما أشبه ذلك، لتقلّب الخلق تقلب العباد في مصالحهم ومعايشهم وأرزاقهم، فهذا كله من نعمه على عباده التي تستوجب شكر المنعم -سبحانه وتعالى.

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [سورة القصص:٧٤-٧٥].

وهذا أيضا نداء ثانٍ على سبيل التقريع والتوبيخ لِمَنْ عبد مع الله إلهًا آخر، يناديهم الرب -تبارك وتعالى- على رءوس الأشهاد فيقول: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} أي: في الدار الدنيا.

يعني هو نداء ثانٍ باعتبار المعنى، فالنداء الأول كان عن الشركاء، والنداء الثاني {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} وهنا قال: **وهذا نداء ثانٍ**، أيضا عن الشركاء.

{وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا}: قال مجاهد: يعني رسولا.

قوله: "**يعني رسولا**" كما قال الله -عز وجل-: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء:٤١] فهذا مما يفسر بالقرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فهم هذا وبكى -عليه الصلاة والسلام- لما قرأها عليه ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-[٣]، فالشهيد هنا يفسر بالرسول، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: الشهيد يعني المقصود به العُدول من كل أمة يشهدون، وهنا في هذا المقام -والله تعالى أعلم- {مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ} فهو واحد يشهد عليهم وهو رسولهم، وإن كانت هذه الأمة شاهدة على سائر الأمم، وأيضا: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [سورة البقرة:١٤٣]، فالرسل يشهدون على أقوامهم

{فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء، {فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ} أي: لا إله غيره، أي: فلم ينطقوا ولم يحيروا جوابا، {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [سورة القصص:٧٦-٧٧].

عن ابن عباس قال: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى}، قال: كان ابن عمه، وهكذا قال إبراهيم النَّخعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جُرَيْج، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى -عليه السلام.

---

٣ - إشارة إلى حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((اقرأ عليّ القرآن))، قلت: -أي ابن مسعود- آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: ((إني أحب أن أسمعه من غيري))، رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره، برقم (٤٧٦٢)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، برقم (٨٠٠).

قال ابن جُرَيْج: هو قارون بن يصهر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

يعني ابن عمه، وهذا الذي قال به كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، ومبنى ذلك كله على أخبار بني إسرائيل، وبعضهم يقول: ابن خالته، وبعضهم يقول: كان عمَّه لأنه أخ لعمران، وهذا كله لا دليل عليه، وقول الله -تبارك وتعالى-: {كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى} يعني من بني إسرائيل ولم يكن من الفراعنة، {كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ} وبغيه عليهم: بعضهم يقول: بكفره ونفاقه تحول وتغيرت حاله لما أعطي من هذه الأموال والكنوز فحصل له الطغيان والبغي، فتجاوز حده وحصل منه عدوان، فبعضهم يقول: بكفره، وبعضهم يقول: {فَبَغَى عَلَيْهِمْ} كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل فظلمهم وآذاهم، وبعضهم يقول: {فَبَغَى عَلَيْهِمْ} كما يقول ابن جرير -رحمه الله- وهو ظاهر القرآن -والله تعالى أعلم-: إن المقصود {فَبَغَى عَلَيْهِمْ} يعني حصل منه ظلم وتعدٍّ وطغيان فحصل منه أذية، فتجبر وتكبر عليهم، تغير عليهم صار إلى حال من السوء والترفع والطغيان على قومه، {فَبَغَى عَلَيْهِمْ} فكلمة البغي لا تدل على مجرد الكبر وحده، وإنما فيها معنى زائد، فالبغي فيه عدوان واصلٌ إلى الآخرين، {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} [سورة النحل:٩٠] فالبغي من جملة المنكر لكن هو منكر واصل إلى الآخرين فيه أذية للناس، وهنا قال: {فَبَغَى عَلَيْهِمْ} لكن لا يقال: إن بغيه عليهم هو بمجرد قوله: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} كما يقول بعض المفسرين، وبغى على بني إسرائيل، بغى على قومه إذاً حصل منه عدوان على قومه.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ} أي: من الأموال.

الكنوز ليست مجرد الأموال، أو الأموال مطلقا يقال لها: كنوز، والأصل أن ذلك يقال: للأموال المدخرة، ويطلق كثيرا على الأموال المدفونة تحت الأرض، فالأموال المدخرة يقال لها: كنوز فمعنى ذلك أن الأموال الظاهرة كالإبل والغنم والزروع والحروث وما أشبه ذلك لا يقال لها: كنوز إلا على سبيل التوسع في الكلام.

وقوله: {مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} أي: لَيُثْقِلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها.

أي ليُثقِلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها {لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ} تنوء: يعني إذا قام متثاقلا للشيء يقال: ناء به، وبعضهم يقول: يدل على ميلان، قام مائلا متثاقلا في الشيء، فتنوء بالعصبة: يثقل على العصبة، والعصبة الجماعة من الناس يتعصب بعضهم لبعض، بعضهم يقول: من الثلاثة إلى العشرة، وبعضهم يقول: من الخمسة إلى العشرة، وبعضهم يقول: من العشرة إلى الخمسة عشر، وبعضهم يقول: إلى العشرين، وبعضهم يوصل ذلك إلى الأربعين، وبعضهم يقول غير ذلك، ما اتفقوا فيه على معنى، -والله تعالى أعلم-، فالمقصود أن الجماعة من الناس ينوءون بها، يُثقلُهم حملُ هذه المفاتيح.

قال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حُملت على ستين بغلا أغر محجلا، وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

"أغر محجّلا ستين بغلا" هكذا عند ابن جرير وابن أبي حاتم، وأكثر الكتب التي خرجت هذا الأثر على ستين بغلا، وفي الدر المنثور، وبعض من ينقل عنه مثل الشوكاني في فتح القدير سبعين بغلا نقلته من أخبار بني إسرائيل، بل وقيل غير ذلك -والله أعلم-، {مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} المفاتح: بعضهم يقول: هو جمع مِفتح بالكسر، جمع مِفتح يعني: مفتاح، فيكون ذلك بمعنى أن المفاتيح لكثرتها وهذا يدل على كثرة

الخزائن، وما فيها من الكنوز، المفاتيح لكثرتها تنوء بالعصبة أولي القوة، يعني يثقل حملها على الجماعة من الناس، فإذا كان كذلك فما جاء هنا من أن المفاتيح تحمل على ستين بغلاً فهذا فيه مبالغة -والله تعالى أعلم-، يعني إذا كان يحملها الجماعة من الناس كم من الجماعة من الثلاثة إلى العشرة أو من الخمسة إلى العشرة أو من العشرة إلى الخمسة عشر أو من العشرة إلى العشرين أو يقال: إنهم أربعون أو خمسون، فحينما يثقل عليهم حمل المفاتيح تحمل على ستين بغلاً لا يخلو هذا من مبالغة -والله تعالى أعلم-، كما هو حاصل في كثير من الأخبار الإسرائيلية، لكن بعضهم يقول: هو جمع مِفتح، والمقصود به الخزانة، ولهذا قال طائفة من أهل العلم وعزاه الواحدي لأكثر المفسرين واختاره الزجاج أن المقصود بذلك الخزائن، {مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ} جمع مِفتح يعني خزائنه {لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}، أنها الكنوز هذه {لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}، فخزائنه تنوء بالعصبة أولي القوة، ولعل الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وهو أن ذلك يرجع إلى المفاتيح جمع مفتح، وبذلك يكون ذكر المفاتح هنا يشعر بضخامة هذه الكنوز، {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} لكن لو كانت الخزائن تنوء بالعصبة أولي القوة فهذا قد يكون حاصلاً لكثير من الناس أن خزائن الأموال تنوء بالعصبة أولي القوة، عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- يذكر في ترجمته أنه لما توفي قُطع الذهب بالفئوس بين الورثة، فهذه أشياء كثيرة من الأموال فكون الخزائن تنوء بالعصبة هذا أمر يحصل، يعني في كل عصر لأناس من أهل الثراء، لكن بهذه الصورة أن المفاتيح تنوء بالعصبة تثقل بالعصبة فكيف بالخزائن والكنوز، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} أي: وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من الأموال {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشِرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

كثير من عبارات المفسرين التي يُفسَّر بها هذا، واختلفت أقوال العلماء في المقصود بالفرِح في قوله: {لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} هل المقصود به ذلك السرور الذي يكون في النفس؟ هل هذا مذموم {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} سرور النفس وبهجتها؟ أو أن المقصود به البطر مثلا ؟ فالذين فسروه بالبطر أو الكبر أو الخيلاء أو نحو ذلك من العبارات هو من قبيل التفسير باللازم، وليس ذلك هو معنى الفرِح في كلام العرب، ولكن ذلك لا يراد به على سبيل الذم كل فرِح {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}؛ لأن الفرَح ثلاثة أنواع: نوع يحبه الله -عز وجل- وهو الفرح بالهداية، والفرح بانتصار الإسلام، والفرح بفضل الله -عز وجل- ورحمته {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس:٥٨]، وقال الله -تبارك وتعالى-: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ...} إلى قوله: {يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّـهِ} [سورة الروم:١-٥]، فهذا أمر يؤجر عليه الإنسان، والله يحبه، فالفرح بهذه الرحمة من هداية ونصر للدين ونحو ذلك، والنوع الثاني: وهو الفرح المباح كأن يكسب الإنسان في تجارة أو يتخرج من دراسة أو يحصل له شيء من الأمور السارة يتزوج، يرزق بولد فيفرح بهذا، فهذا لا إشكال فيه، وهذا فرح مباح، والنوع الثالث: وهو الفرح المحرم الذي جاء ذكره هنا على سبيل الذم {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} وهو الفرح الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر والتعاظم والخيلاء

وما أشبه ذلك فهذا فرح مذموم {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧]، فلربما حمل الثراء الإنسان على شيء من الترفع، والزهو، والتكبر على عباد الله -تبارك وتعالى- فهذا لا زال الناس يقولون عن مثله: فلان فرِحٌ بنفسه، أي مغتر، متعاظم، فيه زهو، فيه كبر فهذا فرَح مذموم، {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}؛ لأنه خرج بهذه الصفة {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} خرج متعاظما في حال من الزهو والخيلاء والكبر، أعجبته نفسه وماله فقيل له ذلك، قال له الصالحون من قومه من بني إسرائيل: {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}، وأكثر ما يقوله السلف هو من قبيل التفسير باللازم لا تبطر وما أشبه ذلك.

وقوله: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة، {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزوْرِك عليك حقا، فآتِ كل ذي حق حقه.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} فتأخذ من ذلك مما أحل الله –عز وجل- لك من التمتع بالطيبات من المآكل والمشارب والمناكح وما أشبه ذلك، وبهذا قال الحسن وقتادة، وأكثر المفسرين يقولون: ولا تنس نصيبك من الدنيا فتتزود به لآخرتك، بخلاف قول ابن كثير -رحمه الله-، يعني أن تعمل في دنياك لآخرتك، فإن نصيب الإنسان من الدنيا قالوا: هو العمل الصالح هذا العمر الذي هو الأنفاس التي تخرج ولا تعود، والدقائق والثواني والساعات والأيام والشهور والسنوات هذا هو رأس مال الإنسان، وهذا هو نصيبه فيستغل ذلك ويعمل فيه بطاعة الله -تبارك وتعالى-، ويتجر حتى لا يقدم على الله -جل جلاله- إقدام المفاليس، أكثر المفسرين يقولون هذا، وبهذا يقول ابن جرير -رحمه الله- والزجاج وجماعة كثيرة، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ} سخِّرْ هذا المال والعطاء لطلب ما عند الله {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} فتصرف الأوقات والجهود والأعمال بطلب مرضاة الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة، هذا قول أكثر المفسرين، والناس كثيراً ما يذكرون هذه الآية محتجين بها على من يرونه يجتهد في طاعة الله -عز وجل- بعض الاجتهاد فيثبطونه ويقعدونه عن ذلك بقولهم: {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} فجعلوا ذلك أصلا حتى على المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وقال: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ} هذا هو الأصل {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} جعلوا القضية معكوسة، فجعلوا الدنيا وإحراز ما جمعه الإنسان فيها والتوسع في طلبها والتهافت عليها والاشتغال بحطامها وتعلق القلب بها إلى الممات وتحول ذلك إلى غاية جعلوه أصلا وجعلوا عبادة الله -عز وجل- فرعاً تُعطى فضول الأوقات مع حالة من تفرق القلب وتشوه الذهن مع ما قد يخالط تلك العبادات من نيات فاسدة تشوبها، مع التقصير في القيام بها كما ينبغي، كما أمر الله -تبارك وتعالى- كل ذلك ويحتج بهذه الآية {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} فعلى القولين الآية لا حجة فيها على ما يذكرون، والله تعالى أعلم.

{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك.

{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} يعني: أحسن إلى خلقه مطلقا مثلا أو أحسِن بهذا المال الذي أعطاك الله -عز وجل- كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أوسع من هذا كله، ولعله أقرب -والله تعالى أعلم-، {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} أحسن مطلقا، أحسن مع الله، والإحسان مع الله أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأحسِن إلى خلق الله -عز وجل- بمالك وغير ذلك مما يحصل به الإحسان، وأول ذلك بالنسبة للمخلوقين هما الوالدان، كما قال الله -عز وجل-: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [سورة النساء:٣٦] فيدخل فيه الصلات المالية، ويدخل فيه الإحسان بالمعاشرة والمخالطة، ويدخل فيه الإحسان بالقول والمخاطبة والكلام.

{وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ} أي: لا تكنْ همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض، وتسيء إلى خلق الله {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}.

{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [سورة القصص:٧٨].

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أُعطيته لعلم الله فيّ أني أهل له.

يعني: {عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} على علم من الله باستحقاقي لهذا المال لفضل عندي.

وهذا كقوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} [سورة الزمر:٤٩] أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} [سورة فصلت:٥٠] أي: هذا أستحقه.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو المعنى الذي قال به كثير من المفسرين، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-: على علم من الله بي أني استحق ذلك، على فضل علم عندي، علمَه الله مني فرضي بذلك عني وفضلني بهذا المال على سائر الناس، وهذا الذي قال به الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ورد على قول من قال: {عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أي أن الله أعطاني هذا المال على علم مني بوجوه المكاسب وطرق تحصيل المال، يعني بذكائي ومهارتي وحذقي، فجحد نعمة الله -عز وجل- عليه، فهذا كله كفر بالنعمة، وعلى التفسيرين يكون كفره أشد الذي يقول: أنا أوتيته لمعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي وخبرتي ودرايتي بالاقتصاد، وهذا قال به جماعة من المفسرين {عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أي المعرفة بوجوه الكسب.

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا}.

يعني الآن يقول: إن هذه قرينة تدل على هذا التفسير، ويقول: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أي أن الله علم استحقاقي لهذا ففضلني به، فهذا لمنزلتي عنده -تبارك وتعالى-، فيقول: إن الله رد عليه بأنه قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه، فلو كان العطاء يدل على الرضا وأن هذا الإنسان يستحق هذا العطاء، وأن ذلك

يدل على التفضيل لمَا أهلك الله قبله مِن القرون مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، فهذه تكون قرينة على هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، وذكره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا يقول مَنْ قل علمه إذا رأى مَنْ وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطي.

يعني يدل على أن هذا التفضيل بالمال دليل على محبة الله -عز وجل- للإنسان، ولهذا يقولون: كيف يكون الكفار كفاراً ومع ذلك تنزل عليهم أمطار، وبلادهم ما شاء الله خضراء جميلة، وجوهم جميل، ونحن في جدب، وفي كل شهر أو أقل نصلي استسقاء، والأرض حتى لو نزل المطر لا تكاد تنبت، فهذا الذي يقول هذا الكلام ما عرف الله -عز وجل- معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته، ولو عرف ذلك لما حصل له مثل هذا التعجب، فهذا قارون من قوم موسى أعطي من الكنوز **{مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}** هذه الكنوز ما أعطيها موسى -عليه الصلاة والسلام- ولا هارون -صلى الله عليهما وسلم-، فلا يأتي أناس من الأغبياء في زمانهم ويقولون: كيف يكون هذا منافقاً وكافراً وقد أعطي من هذه الكنوز؛ لأن العبرة ليست بهذا، ولهذا انظر ما فعل الله -عز وجل- به، فهو عدو لله مُحادٌّ له، فهذا العطاء هو استدراج **{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ}** [سورة المؤمنون:٥٥-٥٦] فهذا لا يدل على رضا الله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء، قال: **{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}** أي: لا يُسألون لكثرة ذنوبهم فيلقوا في النار مباشرة لكثرة ذنوبهم وظهورها كما يقول قتادة، فلكثرتها لا يحتاج إلى سؤال، وإنما مباشرة يلقون في النار وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: لا يسألون يعني سؤال استعتاب وإلا فقد ورد السؤال في مواضع أخرى من القرآن مثل **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}** [سورة الصافات:٢٤]، فهذا سؤال تبكيت لا ينتظر منه الجواب الذي يحصل فيه العذر للإنسان فيُسمع ويقبل ذلك منه، ليس هذا المراد، وهناك فرق بين سؤال الاستعتاب وسؤال التبكيت، فسؤال الاستعتاب تنتظر منه الجواب من أجل أن تعذره لعل له عذراً، وأما سؤال التبكيت فهو لمزيد الألم، ولا ينتظر فيه سماع المعاذير، ولا ينتظر فيه الجواب أصلا وإنما يراد إسماعه فقط هذا السؤال لتبكيته، وبعضهم يقول كما يقول مجاهد -رحمه الله-: لا تسألهم الملائكة؛ لأنها تعرفهم بسيماهم، **{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ}** [سورة الرحمن:٤١]، فهم سود الوجوه، زرق العيون، لكن هذا لا يخلو من بعد -والله أعلم-، فهذه الآية **{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ}** فلم يقل: ولا يُسأل عنهم، ولا قال: لا يَسأل عنهم، وإنما قال: **{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ}**، وبعضهم يقول: **{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ}** يعني ذنوب أولائك الذين غبروا وأهلكهم الله -عز وجل- من الأمم الخالية لا يُسأل عنهم أهلُ الإجرام من هذه الأمة، لا يُسألون عن ذنوب أولائك الذين أهلكهم الله -عز وجل- لأنهم أشد من قارون، لا يُسأل عنهم وعن ذنوبهم أهلُ الإجرام من هذه الأمة، يعني لو كان الفعل غير مبني للمجهول -حتى تتضح- يكون هكذا: ولا يسأل اللهُ عن ذنوب أولائك المجرمين، لا يَسأل المجرمين من هذه الأمة عن ذنوب أولائك الغابرين، فالمعنى يحتاج إلى شرح حتى يفهم، ومثل هذا العسر في فهمه يدل على بعده، وأنه ليس هو المتبادر من ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم.

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ} [سورة القصص:٧٩-٨٠].

يقول تعالى مخبرًا عن قارون: إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه مَنْ يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي، قالوا: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقالتهم أهلُ العلم النافع قالوا لهم: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون.

كما في الحديث الصحيح: يقول الله تعالى: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة السجدة:١٧]))[٤].

وقوله: {وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ}: قال السدي: وما يلقى الجنة إلا الصابرون. كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم.

هم يقولون: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} يعني الجنة التي يثيب الله بها عباده المؤمنين، {وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ} الصابرون على طاعته وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، و يكون هذا من بقية كلامهم.

فالمعنى الأول {وَلا يُلَقَّاهَا} أن هذا من كلامهم، وهم يقولون: ولا يُلقَّى هذا الثواب -هذه الجنة- إلا الصابرون، عاتبوهم وقالوا لهم هذا الكلام.

قال ابن جرير: وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة، وكأنه جعل ذلك مقطوعًا من كلام أولائك، وجعله من كلام الله -عز وجل- وإخباره بذلك.

كلام ابن جرير جاء به بالمعنى، وهذه ليست عبارة ابن جرير تماما، ولكن جاء بما حاصله ما ذكر هنا: ولا يلقَّى هذه الكلمة إلا الصابرون، يعني عن طلب زينة الحياة الدنيا، فيكون هذا من كلام الله -عز وجل- يعني هم قالوا لهم: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} انتهى، قالوا لهم هذا الكلام، والله -تبارك وتعالى- عقب ذلك بقوله: {وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ} ما يلقى هذه الكلمة وهذا الفهم وهذا النظر والإدراك الصحيح في الأمور ومعرفة حقائق الأشياء إلا الصابرون، فالذين يغترون بظاهر الحياة الدنيا وتستميلهم بهجتها ونضارتها هؤلاء يندفعون في مثل هذه المقامات، ويتمنون لو حصل لهم مثل هذا الذي حصل لقارون وأشباه قارون، فهؤلاء يقولون لهم: لا تغتروا فما عند الله خير، قال الله: {وَلا يُلَقَّاهَا} هذه الكلمة يعني التي تحوي هذا الفهم {إِلا الصَّابِرُونَ}، عن زينة الحياة الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة ناس عرفوا حقيقة الدنيا

٤- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٧٢)، ومسلم، في بداية كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٤).

فأعطوها قدرها وحجمها ولم يغتروا بها فهي متاع الغرور، هذه البغال كلها تموت والثياب كلها تبلى وتفنى، والكنوز عما قريب لا يبقى منها شيء، فلا يستطيع أحد أن يأتي بشيء من أموال قارون ولو شعرة، ذهبت وانتهت، وأين الذي جمعه أهل الثراء والمال في القرون السابقة؟ وأين قصورهم؟ يجتهدون وينفقون الأموال الطائلة من أجل حفر كثبان ضخمة أحيانا حتى يحصلوا على بعض الأعمدة يرونها أو جَرّة مكسورة يجدونها أو شيء من هذا القبيل، يقولون: إنها بقايا لبعض الغابرين، أين العرَض الكثير الذي كانوا يتمتعون به، ويغتر به من يغتر، وتمتد نفوسهم قبل أنظارهم إليه؟؛ لهذا كان بعض السلف إذا رأى أُبهة ورأى أهل الدنيا والعرِض صرف نظره، ولربما أنكر على من يقف ويتفرج وينظر يقول: إنما صنعوا ذلك من أجل أن تنظروا إليه، فلا تلتفت إليه، لا تنظر إليه، فهذا عرض زائل ينبغي أن يعطى الحجم الذي يليق به، عما قليل كل هذا يتلاشى، والمراكب والسيارات الفارهة بعد مدة تجدها تعرض بأقل الأثمان، ولا يلتفت إليها أحد، يسومها المفاليس، كما قال بعضهم عن ناقته:

وقد هُزِلتْ حتى بدا من هُزالها *** كُلاها وحتى سامها كلُّ مفلس

يوم كانت نفيسة ما أحد يتجرأ أن يسومها، أما حين صارت ضعيفة هزيلة ظهرت كُلاها صار كل مفلس يقول: بكم الناقة، فهكذا هذه السيارة الفخمة الضخمة التي إذا مرت وقفت لربما كثير من السيارات حتى تمر، والذي يركب مركبا ضعيفا لربما هذا يلجئه إلى الرصيف وهذا يزجره، وكل هذا من ضعف العقول، وإلا فعما قريب يتلاشى ذلك كله، هذا الجسد المترف المنعم الذي يأكل أحسن المآكل يكون طعاما للدود، وتذهب نضارته وبشاشته، وهذه الأموال وهذا العرَض، البيت يصير قديماً خرباً، والمراكب كذلك، والفرش كذلك وكل شيء يبلى، كل شيء هالك إلا وجه الله -عز وجل.

وقوله: "**وجعلَه من كلام الله -عز وجل- وإخباره بذلك**" {وَلا يُلَقَّاهَا} تلك الكلمة، وبعضهم يقول: المقصود الأعمال الصالحة، {ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا} يعني الأعمال الصالحة.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة القصص:٨١-٨٢].

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح -عند البخاري- عن سالم أن أباه حدثه: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة))[٥].

ثم رواه عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، نحوه.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بينا رجل فيمَنْ كان قبلكم، خرج في بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها

٥- رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف:٩]، برقم (٣٢٩٧).

إلى يوم القيامة))[٦]، تفرد به أحمد، وإسناده حسن.

وقوله: {فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} أي: ما أغنى عنه مالُه، وما جَمَعه، ولا خدمه و لا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه، فلا ناصر له لا من نفسه، ولا من غيره.

يعني ما نفعه أعوانه ولا دفعوا عنه، وما استطاع هو أن يدفع عن نفسه بأس الله، فإذا جاء بأس الله -تبارك وتعالى- بأي طريق كان فإن ذلك لا مرد له، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** [سورة الحشر:٢] أي بنو النضير في حصونهم المنيعة التي ما كانوا يتوقعون أن يخرجوا منها، بل ما كان أهل الإيمان يتوقعون أن يُقدَر عليهم بسبب هذه المنعة، **{مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** فذلك يكون إما بتسليط جنده عليهم بأمور لا تخطر على البال من الرياح، أو إلقاء الرعب في القلوب، أو بتسليط الناس أو غير هذا، فالله -تبارك وتعالى- له جنود السماوات والأرض، فإذا جاء بأسه فإنه لا يرد عن القوم المجرمين، الظالمين، والله يُرِي الناس العبر والآيات في كل زمان، والناس في هذه الأوقات يشاهدون من آيات الله -عز وجل- في هذا أموراً باهرة، شاهدَ الناسُ ما جرى في العراق، وما حصل لرجل كان من أكثر الناس ظلماً وطغيانا وجبروتاً وتعاظماً، ولا تسأل عن فساده وإفساده ومحاربته لدين الله -تبارك وتعالى- فرأى الناس فيه آية، كيف تحولت تلك العظمة والجبروت والبطش إلى صغار وذل وهوان، والناس في هذه الأيام يشاهدون فصولا مذهلة مما جرى في تونس من قبَل رجل لربما لا يتجاسر الناس على مجرد السلام عليه هيبة وتعظيما؛ لما له من وقع في نفوسهم ومهابة وتعاظم وما إلى ذلك، لم يُبقِ لهم -نسأل الله العافية- لا ديناً ولا دنيا، عاث في الأرض فساداً ثم بعد ذلك لما جاء بأس الله -عز وجل- انظروا كيف تحول إلى مهانة وصغار وذل، والعالم كله يشاهد ذلك -نسأل الله العافية- هذا خزي في الدنيا، يشاهده الصغير والكبير، والعدو والصديق إن وُجد صديق، فالعالم كله يشاهد ذلك لحظة بلحظة بتفاصيله، وهو حديث الناس لا يمكن أن يُغطى ويستر أبداً، فإذا كان الإنسان بهذه المثابة، خزيٌ لا يندر أن يوجد مثله في القرون السابقة، ولربما يعرف خبرَ الإنسان مَن حوله، يعرفه أهل بلده، لكن اليوم بهذا الإعلام الكل يتفرج، ولربما من كان بعيدا يرى ما لا يرى القريب عن طريق الإعلام، يرون أكثر مما كان يشاهده الناس في البلد الذي وجد فيها ذلك الأمر، ويستوي من كان في أقصى المشرق مع غيره في معرفة تفاصيل ذلك كله، فهذا خزي في الدنيا -نسأل الله العافية-، فلا أحد يتمنى مثل هذه الحالة، لكن قبل ذلك لربما يغتبط الواحد لو أنه من هؤلاء البسطاء من مجرد نظرة أُتيحت له، فضلا عن أن يحصل له سلام أو ابتسامة أو كلمة لربما يفخر بها ويعتز، ويصيبه ما يصيبه من الزهو والفرح المذموم، ثم من يتمنى هذه الحال، وهذا خزي -نسأل الله العافية-، وهكذا قارون في البداية خرج بهذه الأُبهة ثم صار حاله إلى ما قص الله -تبارك وتعالى-، وأهل الإيمان يدركون حقائق الأمور ولا يخفى عليهم ذلك قبل أن تقع تلك العواقب

٦- رواه أحمد في المسند، برقم (١١٣٥٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، لضعف النضر بن إسماعيل، وعطية: وهو ابن سعد الكوفي، وقال الألباني: صحيح لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٩١٤).

السيئة لهؤلاء؛ لأنهم ينظرون ويقيسون، ويعتبرون بالمقاييس الشرعية، فيزنون الأشياء بميزانها الصحيح، فلا يحصل لهم بسبب هذه المظاهر التي لربما تستهوي كثيراً من الناس فيحصل لهم اغترار فيغيّب ذلك عنهم حقائق الأمور، لكن كثير من الناس الذين ينظرون بنظر سطحي لا يدركون كثيرا من ذلك إلا بعد مدة، بعدما يولي الشيء ويدبر، عندها يعرفون ويتبينون، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ} أي: الذين لما رأوه في زينته قالوا: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، فلما خسف به أصبحوا يقولون: {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ} أي: ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه؛ فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: "إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب"[٧].

وهذا ثبت موقوفا عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ورفْعُه لا يخلو من ضعف لكن له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يقال من جهة الرأي، والله تعالى أعلم.

{لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا} أي: لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وَدِدْنا أن نكون مثله.

{وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} يعنون: أنه كان كافرًا، ولا يفلح الكافر عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى هاهنا: {وَيْكَأَنَّ}، فقال بعضهم: معناها: "ويلك اعلم أن"، ولكن خُفّفت فقيل: "ويك"، ودلَّ فتح "أن" على حذف "اعلم".

وقيل: معناها: ويكأن، أي: ألم تر أن. قاله قتادة، وقيل: معناها "وي كأن"، ففصلها وجعل حرف "وي" للتعجب أو للتنبيه، و"كأن" بمعنى "أظن وأحسب".

هذه فيها كلام كثير للنحاة والمفسرين، فالنحاس يقول: أحسن ما قيل في معنى {وَيْكَأَنَّ} ما قاله الخليل الفراهيدي وسيبويه ويونس والكسائي وهم من كبار الأئمة في النحو واللغة: إن القوم تنبهوا لما رأوا خسفاً به، تنبهوا فقالوا: ويك كما يقول المتندم: وي، ثم قال: كأن يعني أنها مفصولة، فبعضهم يقول: إنها مفصولة وي، كما يقوله المتندم، يقولون تقول: وي، ثم تبتدئ تقول: كأن على اختلاف بين النحاة في الكاف هذه، وبعضهم يقول: إن الكاف هذه للتعليل دخلت على أن، وبعضهم يقول: هي كلمة تقرير، ويكأن، كلمة كما يقوله الفراء، كما تقول: أما ترى صنع الله هذا؟، مثل من يقول: ألم ترَ؟ بمعنى ألم تعلم؟، وبعضهم يقول: هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ} ألا إن الله يبسط الرزق، وبعضهم يقول: أصلها ويلك فأسقطت اللام ويكأن، وبعضهم يقول: معناها أعلمُ أن الله، وبعضهم يقول: هي بلغة حمير بمعنى رحمة وهذا بعيد، وإن قال

٧- رواه أحمد في المسند، برقم (٣٦٧٢)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف الصباح بن محمد، وهو ابن أبي حازم البجلي، قال العقيلي: في حديثه وهم، ويرفع الموقوف، وضعفه الحافظ في "التقريب"، وقال الذهبي في الميزان (٢/٣٠٦) رفع حديثين هما من قول عبد الله. قلنا: هما هذا والذي قبله، فالصحيح أنه موقوف، كما ذكر الدارقطني، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبان بن إسحاق، فقد أخرج له الترمذي، وهو ثقة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧١٤).

به إمام كابن قتيبة، وبعضهم يقول: هي كلمة تفجع، كما يقول الكسائي: تدل على التفجع، وابن جرير يقول: هي بمعنى ألم تعلم؟، والجوهري يقول: هي كلمة تعجب وي كأن، كأنها -والله أعلم- إلى التعجب أقرب، وي كأن، تدخل على كأن الخفيفة والثقيلة، كأنْ وكأنّ، ولا زال الناس يقولون: وي في حالة التعجب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القصص من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة القصص:٨٣-٨٤]، يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علواً في الأرض، أي: ترفعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبرًا بهم، ولا فسادًا فيهم، كما قال عكرمة: العلو: التجبر.

وقال ابن جُرَيْج: {لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ} تعظمًا وتجبرًا، {وَلا فَسَادًا}: عملا بالمعاصي.

وروى ابن جرير عن عليٍّ قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إنه أُوحي إليّ أنْ تواضَعُوا، حتى لا يفخَرَ أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد))[1]، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسنًا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: ((لا، إن الله جميل يحبّ الجمال))[2].

وقال: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ} أي: يوم القيامة {فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} أي: ثواب الله خير من حَسَنَة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافًا كثيرة؟ فهذا مقام الفضل.

ثم قال: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما قال في الآية الأخرى: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النمل:٩٠] وهذا مقام الفصل والعدل.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، أشار إليها بذلك لرفعة وعلو مقامها ومنزلتها، و{الدَّارُ الْآخِرَةُ} تعني اليوم الآخر بما فيه من الجنة والنار، ولكنها في هذا الموضع يراد بها الجنة، والذي يحدد ذلك هو السياق؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال:

---

١ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

{لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} فدل ذلك على أن المراد بالآخرة معنى خاص، وهو الجنة، وهذا الذي عبر عنه بقوله: نعيم الآخرة، أي أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، {لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} والعلو في الأرض بمعنى الرفعة والتعاظم، ويدخل في ذلك الكبر وما إلى ذلك من المعاني، فكل من أراد أن يترفع في هذه الحياة الدنيا فإن فعله مذموم، وليس ذلك من أوصاف أهل الجنة سواءً كانت هذه الرفعة التي يطلبها -بعمل الآخرة، أو كانت بعمل الدنيا- من المباح، أو كانت من الأفعال المحرمة، فهذه ثلاثة أنواع وأقبحها وأسوؤها الأول، وهو من يريد الفخر والعلو والرفعة والحظوة في قلوب الخلق، والتعاظم بما يراد به ما عند الله -تبارك وتعالى- من العلم الشرعي، أو الدعوة إلى الله، أو الزهد؛ ليترفع به، يُظهر الزهد ليحصّل حظوة في قلوب الخلق، فكل من طلب الرفعة والعلو في الدنيا بما يراد به وجه الله -تبارك وتعالى- فإن فعله مذموم، فإن هذه الأعمال الصالحة إنما تحمل العبد على مزيد من التذلل، والتواضع الذي هو معنى العبودية، فإن طلب ما هو من أضداد ذلك فإن فعله بلاشك قبيح، ويلي ذلك في القبح من طلب العلو بالظلم والتجبر على الخلق وألوان المعاصي التي يعصى الله -تبارك وتعالى- بها، فإن ذلك ليس من أوصاف أهل الجنة، وليس من أوصاف المؤمنين، ثم يلي ذلك من فعل الأفعال المباحة من جمع المال، وألوان الأعمال، والصنائع التي يقصد بها الرفعة في الدنيا والتعاظم على الخلق، والتطاول بذلك فإن فعله أيضاً مذموم، فهذه ثلاثة أصناف، والمؤمن يكون مُخبِتاً لربه -تبارك وتعالى-، لا يريد أن يتعاظم على أحد، ولا يطلب العلم للفخر ولا للمماراة، ولا لتحصيل مراتب دنيوية مادية، ولا لأمور معنوية تتسلل إليها النفس، وتطلبها من تحصيل الجاه والمحمدة، وما أشبه ذلك، {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ} يتذكر الإنسان هذا المعنى دائماً، {نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} فهي معانٍ حريّة بالتأمل في وقت غلبت فيه النزعة المادية لدى الكثيرين، وصارت هذه المطالب لربما مما يربى عليه الصغير، ويعلق به قلب الكبير، والله المستعان.

قال: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} هذا يكون في الأولى والآخرة، فالعاقبة لهم دائماً في الدنيا بالنصر، والظهور، والتمكين، والغلبة، ومثل هذا لا يعتبر ولا ينظر إليه باعتبار سنة أو عشر سنوات، وإنما إذا أردت أن تعرف أن العاقبة للمتقين انظر إلى صفحات التاريخ منذ نوح -عليه الصلاة والسلام- فقد كانت العاقبة للمتقين، فأظهر الله نوحاً -صلى الله عليه وسلم- ونصره نصراً مؤزراً لما قال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} [سورة القمر:١٠]، وقال: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ} [سورة القمر:١١-١٤]، وهكذا جاء الأنبياء بعده -عليهم الصلاة والسلام- هود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط ثم جاء أنبياء بني إسرائيل وكبيرهم موسى -صلى الله عليه وسلم- فكانت العاقبة لهم جميعاً، حتى عيسى -صلى الله عليه وسلم- مع أن الله رفعه، وتآمروا على قتله، وقصدوا ذلك، إلا أن الله –تبارك وتعالى- أخبر أنه سيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وفُسر هذا بظهور ما دعا إليه على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي دعوة التوحيد، وما حصل من النصر والتمكين، والظهور على اليهود الذين أرادوا قتل عيسى -عليه الصلاة

والسلام-، فالتاريخ يُنظر إليه بهذا الاعتبار، ما يُنظر إليه في أيام يعايشها الإنسان، ونحن في هذه الأيام نرى عبراً كباراً تستدعي الوقوف طويلاً فيعتبر بها كل عاقل، كم من الناس ممن يعيشون في هذا العصر لربما عاش في بيئة ظن أن هذا هو نهاية المطاف، وأن أهل الصلاح والتقوى لا عاقبة لهم إلا في الآخرة، ثم أرى الله -عز وجل- الناس الآيات بأولائك الذين حاربوا كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، هذه آيات نشاهدها، ولا كان أحد يتصور أن يرى ذلك بهذه السرعة، وبهذه الطريقة التي تحطم أعتى المناوئين للدعوة والصلاح والإصلاح، فالعاقبة للمتقين، بقيت الدعوة، وذهب الذين حاربوها في تلك البلاد، بقي المصلحون وذهب كبار المفسدين، ولم يبقَ لهم شيء من الذكر الجميل، وتقشّع النفاق الذي كان يغشاهم صباح مساء، وتحول حامدهم إلى ذامٍّ، هذه عبر وآيات، يدرك المؤمن حقيقة ما أخبر الله عنه من أن **{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، فكم من الناس مما في قلبه مرض وضعف، ممن إذا أصابه خيراً اطمأن به، وإذا أصابته فتنة انقلب على وجهه، وكم من إنسان قد ترك دينه ومبادئه من أجل مخلوق ضعيف تعاظم في عينه حتى ملأ عليه كل شيء، ثم يرى هذا المخلوقَ يتهافت، فيدرك المؤمن أن العاقبة للتقوى، وهذا في الدنيا وفي الآخرة، **{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** ثم قال: **{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا}**، قال: **بأن جزاء الله خير من حسنة العبد** وهذا صحيح، فإن جزاء الله على الحسنة بمجرده من غير مضاعفة هو خير من حسنة العبد من كل وجه، يكفيك أن حسنة العبد التي عملها إنما هي توفيق من الله، وهذا يحتاج إلى حسنة يشكر عليها، والحسنة الجديدة التي يشكر عليها هي من توفيق الله -تبارك وتعالى-، ويكفيك أن هذه الحسنة التي يعملها لا تكافئ نعمة من نعم الله عليه، فهو لم يوفِّ بحق الله -جل جلاله-، بإنعامه وإفضاله عليه بهذه النعم الظاهرة والباطنة، فهذه الأعمال التي يعملها هي تفضل من الله عليه، وهي لا تكافئ نعمة واحدة، ومع ذلك الله يجزيه عليها، بل يضاعف له الجزاء، وهذا من معاني اسمه الشكور، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ}** [سورة البقرة:٢٧٢]، كاملاً غيرَ منقوص، **{وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}**، لا بتضييعه ولا ببخسه، ولا بمطل في الجزاء، وقال هنا: **{وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** يعني بواحدة، وهذا من لطف الله -تبارك وتعالى-: **{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}** [سورة الأنعام:١٦٠] وأما السيئة فواحدة، وفي الآية الأخرى قال: **{وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [سورة النمل:٩٠]، والسيئة هنا في هذه الآية فسرت بالشرك، السيئة العظيمة التي تستحق الوصف الكامل بالسوء، **{فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ}** فهذا إنما يكون لأهل الإشراك، ولهذا فسرها كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- بهذا المعنى، وإلا فإن سائر السيئات قد تُكفر بأمور متنوعة كما هو معلوم.

{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة القصص:٨٥-٨٨].

يقول تعالى آمرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه-، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبرًا له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة؛ ولهذا قال: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي: افترض عليك أداءه إلى الناس.

قوله هنا: **{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ}** قال: **أي افترض عليك أداءه إلى الناس** يعني افترض عليك البلاغ، تبليغ الوحي، وبعضهم كالزجاج فسره بفرض العمل به عليه -صلى الله عليه وسلم-، فرض عليك ما يوجبه القرآن، وعامة المفسرين فسروا ذلك بالإنزال، قالوا: **{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ}** يعني أنزله عليك، وهذا الإنزال له متطلبات، وله لوازم، من هذه اللوازم البلاغ، ومن هذه اللوازم العمل بمقتضاه، فكأن الذين فسروه بالعمل أو بالبلاغ نظروا إلى لفظ "فرض" ففهموا منه معنى الإيجاب على ظاهره، ومن قال: إن المقصود الإنزال يكون ما قاله الآخرون من فرض البلاغ أو فرض العمل من قبيل التفسير باللازم، يعني إذا فسرنا **{فَرَضَ}** بمعنى أنزل فيكون قول من قال: فرض العمل أو فرض البلاغ من قبيل التفسير باللازم؛ لأن إنزاله له مقتضيات ولوازم من العمل والبلاغ، **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}** [سورة المائدة:٦٧]، **{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}** [سورة الزخرف:٤٣].

{لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٦]، **وقال: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ}** [سورة المائدة:١٠٩]، **وقال: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ}** [سورة الزمر:٦٩].

قوله: **{لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}** قال: **إلى يوم القيامة**، هذا قال به كثير من المفسرين من السلف -رضي الله تعالى عنهم- مثل مجاهد وعكرمة والزهري والحسن، واختاره الزجاج من أهل المعاني.

روى البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} قال: إلى مكة.

وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه، وابن جرير وهكذا روى العَوْفيّ، عن ابن عباس: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها.

وقال محمد بن إسحاق، عن مجاهد في قوله: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}: إلى مولدك بمكة.

هذا كالذي قبله إلى مولدك بمكة، وإلى مكة لا فرق، وهذا القول نُسب إلى جمهور المفسرين، يعني أن ذلك وعد للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يرجعه الله -تبارك وتعالى- إلى أرضه التي هاجر منها, ومعلوم أن سورة القصص من السور المكية، ويذكرون استثناءات لكن هذه الاستثناءات تحتاج إلى دليل، وعامة ما يذكر إنما هو بالنظر إلى المعنى، يعني مثل هذه الآية إذا فُسرت بهذا التفسير **{لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}**، فإن بعضهم بالنظر إلى هذا المعنى سيقول: إن هذه الآية مدنية فهي وعد له بعد الهجرة بأن يرجعه الله إلى مكة، فخروجه -عليه الصلاة والسلام- من مكة ليس هو آخر العهد بها، وهذا كما قال الله ليوسف -عليه الصلاة والسلام- لما ذهب به إخوته ليلقوه في البئر قال: **{وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}** [سورة يوسف:١٥] أي إلقاؤك في البئر ليس هو النهاية، ستدور الأيام وسيأتي اليوم الذي ستقول لهم: ألم تذكروا حينما

فعلتم ما فعلتم؟ معنى ذلك أنه سيقول لهم هذا في موقف المنتصر، ولهذا قال لهم فيما بعد: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} [سورة يوسف:٨٩]، فذكّرهم، فهذا تطمين له، فيوسف -صلى الله عليه وسلم- كان عنده وعد من الله، علم أن إلقاءه في البئر ليس هو النهاية، وأن الأمور سترجع حتى يكون له الظهور على إخوته ويخبرهم بما فعلوا {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا}، فالمقصود هنا {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي إلى مكة على هذا التفسير، فيقول هؤلاء: إن هذه الآية مدنية يخبر الله بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه سيرجع في النهاية إلى مكة، ورجوعه إلى مكة يعني انتصاره وظهوره على المشركين؛ لأنه لا يمكن أن تفضي القضية إلى مصالحة بين النبي -صلى الله عليه وسلم- والمشركين يحصل معها ترك أو فعل ما طلبوه {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم:٩]، المتاركة أن يترك آلهتهم، ويترك دينه فيرجع ويعيش معهم في مكة لا يتعرض لهم، ولا يتعرضون له، تعايُش كما يقال، لكن هذا لا يمكن، فلابد من الدعوة إلى التوحيد وهم لن يتقبلوا ذلك، ومن ثم فإن رجوعه مرة أخرى إلى مكة يعني انتصاره، فالشاهد أن هؤلاء غالباً يقولون: الآية مدنية باعتبار المعنى، وهذا غير صحيح, وإذا فسرت بهذا المعنى -مع أن هذا المعنى هو أحد الأقوال- يمكن أن يقال: إنها أيضاً مكية؛ لأن الأصل في السورة المكية أن جميع الآيات مكية إلا ما دل الدليل عليه، لو فسرت بأن المقصود بالرد يعني إلى مكة {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي: مكة فيقال: هذا مما نزل قبل وقوع حكمه، والمقصود بالحكم ليس الحلال والحرام، وإنما حكمه يعني مقتضاه، وهناك آيات نزلت قبل وقوع مقتضاها مثل: {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ} [سورة ص:١١].

وكلام عمر -رضي الله عنه- في مثل هذا: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [سورة القمر:٤٥] ما كان في مكة جمع، وكان المسلمون في حال من الاستضعاف، فلما كان يوم بدر كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يثب في الدرع ويردد هذه الآية، وهكذا في عدد من الآيات التي قيل: إنها مدنية باعتبار المعنى، فهذا فيه نظر، وسيأتي في سورة العنكبوت ما هو أوضح من هذا في الكلام على المنافقين في سورة مكية مع أن المشهور أنه لا وجود للنفاق في مكة قبل الهجرة، وهذه المقولة المشهورة جداً التي لا تكاد تجد ما يخالفها فيها نظر، فحمل الآيات على أنها نازلة بمكة أو بالمدينة باعتبار المعنى فيه نظر، -والله تعالى أعلم- فهذان معنيان في قوله: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} القيامة أو إلى مكة، وهذا منسوب إلى الجمهور.

ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق.

القول بأن ذلك يعني الجنة هو يرجع إلى القيامة {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} يعني الآخرة فهو ميعاد، {قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ} [سورة سبأ:٣٠]، قال: **وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره** -عليه الصلاة والسلام- قال به جماعة من السلف من الصحابة فمن بعدهم، كأبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- وأرضاه وأبي مالك، وقال جماعة من السلف، ومنقول عن مجاهد وأبي صالح هذا القول: إن المقصود مكة، وبعضهم فسره بغير هذا جميعاً، بغير هذه الأقوال كلها، ففسَّر المعاد بالعادة، وليس الموعد، {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}: يعني إلى عادتك

لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث ولدت، يعني بمكة، قال: إن المعاد هنا ليس من العود وإنما من العادة، معاد يعني متعود، تقول: هذا معاد فلان يعني عادته، والشيء الذي اعتاده، إلا إذا فسر الرد هنا بالتصيير {لَرَادُّكَ} أي مُصيِّرك، فحتى لا يكون هناك تكرار: مصيرك إلى معاد، فيفسر المعاد بالعود {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي مكة مثلاً، فالمعاد فسر بالعادة، وفسر بالعود، وعلى كل واحد من هذين التفسيرين اختلف في ما يراد به: إلى عادتك من الموت، إلى عادتك إلى المنزل والمكان الذي ولدت فيه ونشأت فيه، أو إلى الموت، وفي الثاني {إِلَى مَعَادٍ} أي موعد وهو الموت أو الآخرة الجنة, مكة, والذي يميل إليه ابن جرير -رحمه الله- أن المعاد هنا بمعنى العادة، مع أن هذا خلاف قول عامة المفسرين سلفاً وخلفاً.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو من أحسن من يتكلم على طريقة توجيه الآيات فهو في غاية الأهمية، فروي أن المقصود بيت القدس، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من مكة ولم يخرج من بيت المقدس، فابن كثير يوجه القول بأنه {مَعَادٍ} يعني بيت المقدس، هذه الأقوال المروية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لا تخالف تفسيره المعاد بيوم القيامة باعتبار أن بيت المقدس وبلاد الشام عموما هي أرض المحشر؛ لأنه حينما تسمع مثل هذا القول لأول وهلة {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي بيت المقدس تقول: لا علاقة لبيت المقدس بما نحن فيه، فيقال: هذا مرتبط بالتفسير الآخر وهو أنه يوم القيامة، فذاك بلاد الشام أرض المحشر، فهذا مفيد في توجيه الأقوال، فبعض الأقوال ربما الإنسان يستبعدها لأول وهلة.

وقوله: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} أي: قل لِمَنْ خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومَنْ تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولِمَنْ تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى مذكِّرًا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ} أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، {إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة {فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا} أي: معيناً {لِلْكَافِرِينَ} أي: ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم.

في قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} مثل هذا يذكر على سبيل التنزل، هو يعلم -عليه الصلاة والسلام- أنه على هدى، ولكنهم لا يسلّمون له ظاهراً بذلك، فيقول: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ}، فهذا يقال: للمجادلين بالباطل الذين لا ينقادون للحق، كما في قوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة سبأ:٢٤]، فأحدنا على حق والآخر على باطل، ولم يقل: إني على الحق، وأنتم على الباطل، فالذي لا يقبل الحق ولا ينقاد إليه ولا يثمر معه الجدال لربما لا يوقف معه في مثل هذه الأمور، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أداة الاستثناء هنا "إلا"، والاستثناء منقطع بمعنى لكن، {إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ} أي معيناً للكافرين، والفاء هذه مشعرة بالتعليل، وتدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فبهذا الإنعام عليك بإنزال الكتاب {فَلَا تَكُونَنَّ

ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ} لا تكونن معيناً لهم، وهكذا ينبغي أن يكون العالم، ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

{وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ} أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، لا تلوي على ذلك ولا تباله؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك، ومؤيدٌ دينك، ومظهر ما أرسلت به على سائر الأديان؛ ولهذا قال: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ} أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له، {وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

وقوله: {وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ}: إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإكْرَامِ} [سورة الرحمن:٢٦-٢٧]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هاهنا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} أي: إلا إياه.

وقد ثبت في الصحيح، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لَبيد:

ألا كلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلٌ))[٣]

وقوله: {لَهُ الْحُكْمُ} أي: الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم، إن كان خيرا فخير، وإن شرا فشر.

آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أصلٌ ينبغي أن يسير عليه كل من دعا إلى الله -تبارك وتعالى-: أنه بما فتح الله عليه ووفقه إليه ألا يكون معيناً وظهيراً لأعداء الله -تبارك وتعالى-، وألا يصده ما يواجَه به من الأذى فيدفعه إلى أن يتحول عن مبادئه وما أمره الله -تبارك وتعالى- به رجاء أو خوفاً من المخلوقين، فإنما يدعو إلى ربه {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ}، لا تكون دعوته إلا إلى الله -جل جلاله-، ولا يتحول إلى داعٍ إلى غيره، وتأمل في هذه المعاني تجد عجباً، ومن ينحرف من الدعاة إلى الله هنا وهنا إنما هو بإغفالهم لهذه المعاني، وتحتها من الهدايات مالا يقادر قدره لو تأملها الإنسان ووقف عندها.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} فينبغي أن يكون التوجه إليه -سبحانه وتعالى- وحده لا شريك له، وأما التعلق بمخلوق فالمخلوق يذهب، فيبقى هؤلاء قد تعلقوا بلا شيء ثم يأتي مخلوق آخر فيتعلقون به ثم يذهب، وهكذا فإنما يكون التوجه إلى الله والتعلق به وحده دون سواه.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} يعني إلا إياه، يعني بالوجه الذات {إِلا وَجْهَهُ} فهذا إذا قاله من يثبت صفة الوجه لله -تبارك وتعالى- فإن ذلك قد يحتمل، فالله -تبارك وتعالى- ذكر الوجه هنا

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، برقم (٥٧٩٥)، ومسلم، في بداية كتاب الشعر، برقم (٢٢٥٦).

في هذه الآية وذكره في آيات أخرى {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [سورة الرحمن:٢٧]، وكذلك جاء في نصوص متنوعة كما في الحديث: ((لأحرقتْ سُبُحات وجهه))[٤]، وصفة الوجه ثابتة بأدلة كثيرة، فإذا كان القائل يثبت صفة الوجه كما هو الشأن بالنسبة لابن كثير -رحمه الله- فعندئذٍ قد يخطئ العالم أو يصيب في تفسير موضع من المواضع، فيكون ذلك من قبيل الخطأ في التفسير فحسب، يعني مثل هذه الآية شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لا يرى أنها من آيات الصفات أصلاً، ولا تعلق لها بصفة الوجه مع أنه يثبت صفة الوجه بأدلة أخرى، ويفسر هذه بشيء آخر، وابن القيم -رحمه الله- خالفه في هذا وأثبت -كما في كتابه القيم "الصواعق المرسلة" وغيره- هذه الآية بأنها من آيات الصفات، والذين ناظروا شيخ الإسلام ابن تيمية من المتكلمين من الأشاعرة المناظرة المعروفة في الواسطية احتجوا عليه بتأويل السلف لما قال لهم: أمهلكم ثلاث سنوات، أعطاهم الواسطية وقال لهم: هاتوا شيئاً يخالف قول السلف فيها، وتحداهم أن يأتوا بتأويل عن السلف، فجاءوا في المجلس الآخر قالوا: وجدنا، فذكر لهم الآية قبل أن يذكروها، وبين المراد بها عنده.

فهذا قال به بعض السلف، وليس ذلك بتأويل، وإنما هم ما عدوها أصلا من آيات الصفات ومن فسره بالذات فيكون ذلك من قبيل التفسير باللازم، وهذا لا إشكال فيه إذا كان يثبت الصفة.

فابن تيمية لا يرى أنها من آيات الصفات وإنما المقصود به التوجه، لكنه يثبت صفة الوجه بأدلة أخرى، لكن هذا الذي فهمه من هذه الآية أن المقصود التوجه واضح؟ ما كان في هذه الوجهة، فغاية ما هنالك أن الذي يقول: إنها من آيات الصفات يقول: هذا من قبيل الخطأ في التفسير فقط، وهذا لا يسلم منه أحد، بخلاف من وضع قواعد منحرفة وحاكَمَ النصوص إليها كأن يؤول آيات الصفات مثلا، كلما جاءت آيات الصفات أوّلها، فرق بين هذا وبين ما نحن فيه.

كلام ابن كثير يعني أنه يرى أن القول الآخر: الوجهة من لوازم القول الأول، إذا كان كل شيء هالك إلا وجهه، فينبغي أن يكون التوجه إليه وحده، هذا كثير في تفسير الحافظ -رحمه الله- يوجه الأقوال، ويجمع بينها، وهذا هو الذي يفيد ويؤصل طالب العلم.

قال أحمد بن عيسى في شرح قصيدة ابن القيم -رحمه الله-: "قوله: والعرش والكرسي الخ: المستثنى من الهلاك في قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ}.."[٥]، يتكلم هنا على مسألة وهي {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ}، يرِد على هذا مثلا أن الحور في الجنة، والجنة أنهما مخلوقتان مثلا، وابن القيم -رحمه الله- في النونية يقول:

والعرش والكرسي لا يفنيهما *** أيضا وإنهما لمخلوقان

والحور لا تفنى كذلك جنة ال *** مأوى وما فيها من الولدان

ولأجل هذا قال جهم إنها *** عدم ولم تخلق إلى ذا الآن

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام- ((إن الله لا ينام))، وفي قوله: ((حجابه النور لو كشفه لأحرق سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))، برقم (١٧٩).

٥ - شرح القصيدة النونية (٩٦/١).

والأنبياء فإنهم تحت الثرى *** أجسامهم حفظت من الديدان

ما للبلى بلحومهم وجسومهم *** أبدا وهم تحت التراب يدان

وكذاك عَجْب الظهر لا يبلى بلى *** منه تركب خِلقة الإنسان

هذه الأشياء التي لا تفنى.

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: "قوله: والعرش والكرسي الخ: المستثنى من الهلاك في قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ} ثمانية أشياء نظمها الجلال السيوطي فقال:

ثمانية حكْمُ البقاء يعمها *** من الخلق والباقون في حيز العدم

هي العرش والكرسي ونار وجنة *** وعَجْب وأرواح كذا اللوح والقلم"[٦].

يعني أن قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ}، وقوله: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [سورة الرحمن:٢٦] عام مراد به الخصوص، وابن القيم -رحمه الله تعالى- قال: "وأما احتجاجكم بقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ} فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما"[٧].

هو يتكلم عن التي سبقت {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ} فقالوا: إن الجنة إذاً غير موجودة؛ لأن فيها الحور العين، وفيها كذا، فلو كانت موجودة فإنها تفنى فيرد عليهم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية، قال البخاري في صحيحه: "يقال: كل شيء هالك إلا وجهه إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجهه".

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله:" فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب لأنه سقف الجنة والله -سبحانه وتعالى- عليه فلا يهلك ولا يبيد".

وأما قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَه} فذلك أن الله -سبحانه وتعالى- أنزل: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِك}، يعني ميت إلا وجهه؛ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ذكره أبو الحسين في كتاب الطبقات قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: "هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، والمقتدَى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق".

---

٦ - شرح القصيدة النونية (٩٦/١).

٧ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم (٤٧).

وساق أقوالهم إلى أن قال: "وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، وخلقهما الله -عز وجل-، وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا".

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله -عز وجل-: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ}** وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كلُّ شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالكٌ"[٨].

فهذا الجواب المختصر، هذا خلاصته كل شيء هالك مما كتب الله عليه الفناء، يعني هو عام مراد به الخصوص، مثل قوله: **{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}** [سورة الأحقاف:٢٥] يعني مما سيقت لتدميره، فهي لم تدمر السماوات والأرض والجبل.

وقال -رحمه الله-: "والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتْنَ عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدا؛ لأن الله -عز وجل- خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل"[٩].

ويقول الشيخ عبد الرحمن المحمود -بعد هذه المقدمة-: نعود إلى ما ذكره من أمثلة من الكتاب، وأمثلة من السنة.

أولاً: أمثلة من الكتاب:

قال تعالى: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [سورة البقرة:١١٥] يقول شيخ الإسلام عن صفة الوجه: لما كان إثبات هذه الصفة مذهب أهل الحديث والمتكلمة الصفاتية من الكلابية والأشعرية والكرامية..."[١٠] انتهي.

المتكلمة الصفاتية يعني الذين أثبتوا جملة من الصفات، يعني هناك متكلمة لا يثبتون الصفات أصلاً وهم المعتزلة أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات، المتكلمة الصفاتية هم الذين أثبتوا ما أثبتوه من الصفات على تفاوت بينهم هل هي سبع أو أكثر.

وقال: "وكان نفيها مذهب الجهمية من المعتزلة، وغيرهم ومذهب بعض الصفاتية من الأشعرية وغيرهم"[١١] انتهى.

فكل من وقع في شيء من التجهم يقال له: جهميّ، وهؤلاء جهمية، مذاهبٌ الجهميةُ، فيدخل فيه الأشاعرة والمعتزلة والجهمية المحضة بالإطلاق الواسع، وتجد كثيراً في كلام أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين لكنه قد يراد به طائفة الجهمية المحضة الذين أنكروا الأسماء والصفات أتباع الجهم بن صفوان, والأشاعرة هم أفراخ المعتزلة, والمعتزلة أفراخ الجهمية كما يقال، ويقال للأشاعرة: أهل السنة بالإطلاق الواسع في أبواب الإمامة، وفي مقابل الشيعة فيدخل في ذلك الطوائف المنسوبة إلى أهل السنة بهذا الإطلاق، فيدخل فيهم الأشاعرة وطوائف من المتكلمين في مقابل الشيعة، لكن إذا قيل: السنة المحضة فهم من كان على طريقة

---

٨ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، للعلامة ابن القيم الجوزيه (٤٧-٤٨).

٩ - المصدر السابق (٤٨).

١٠ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود (١١٥٠).

١١ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود (١١٥٠).

السلف -رضي الله تعالى عنهم.

وقال: "وكان نفيها مذهب الجهمية من المعتزلة وغيرهم، ومذهب بعض الصفاتية من الأشعرية وغيرهم، صار بعض الناس من الطائفتين كلما قرأ آية فيها ذكر الوجه جعلها من موارد النزاع، فالمثبت يجعلها من الصفات التي لا تُتأول بالصرف، والنافي يرى أنه إذا قام الدليل على أنها ليست صفة فكذلك غيرها، مثال ذلك قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [سورة البقرة:١١٥] أدخلها في آيات الصفات طوائف من المثبتة والنفاة، حتى عدها أولائك -كابن خزيمة- مما يقرر إثبات الصفة، وجعل النفاة تفسيرها بغير الصفة حجة لهم في موارد النزاع"[١٢] انتهى.

النفاة ينفون الصفة، لكن يقولون: بما أن هذه الآية فسرها بعض السلف بغير الصفة فكذلك باقي الصفات الواضحة الصريحة تفسر بمثل هذا، يحتجون بالمتشابه.

وقال: "ثم ذكر قصته في المناظرة التي عقدت له فقال: ولهذا لما اجتمعنا في المجلس المعقود..."[١٣] انتهى.

هذه المناظرة في الواسطية قالوا له: اكتب عقيدتك، فقال: هذه كتبتها منذ سنين، يقصد الواسطية كتبها في جلسة بين العصر والمغرب، وقال: خذوها ثلاث سنوات وأخرجوا لي شيئاً واحداً يخالف قول السلف؛ لأنهم قالوا له: قل هذه عقيدة الإمام أحمد ونخليك، قال: لا، هذا لا اتصال له بالإمام أحمد، هذا مذهب السلف، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، فهذا لا يختص بالإمام أحمد فقط، وإن كان الإمام أحمد من أئمة أهل السنة.

ثم قال الشيخ المحمود: "ثم ذكر قصته في المناظرة التي عقدت له فقال: ولهذا لما اجتمعنا في المجلس المعقود وكنت قد قلت: أمهلت كل من خالفني ثلاث سنين إذا جاء بحرف واحد عن السلف يخالف شيئاً مما ذكرته كانت له الحجة، وفعلت وفعلت، وجعل المعارضون يفتشون الكتب فظفروا بما ذكره البيهقي في كتاب الأسماء والصفات في قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}، فإنه ذكر عن مجاهد والشافعي أن المراد: قِبلة الله، فقال أحد كبرائهم في المجلس الثاني: قد أحضرت نقلا عن السلف بالتأويل، فوقع في قلبي ما أعدَّ، فقلت: لعلك قد ذكرت ما روي في قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} قال: نعم، قلت: والمراد بها قبلة الله، فقال: قد تأولها مجاهد والشافعي وهما من السلف، ولم يكن هذا السؤال يردُ عليّ، فإنه لم يكن شيء مما ناظروني فيه صفةَ الوجه، ولا أُثبتها، لكن طلبوها من حيث الجملة، وكلامي كان مقيداً كما في الأجوبة، فلم أرَ إحقاقهم في هذا المقام، بل قلت: هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلاً."[١٤] انتهى.

فشيخ الإسلام يقول لهم: هذه الآية {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} ليست من آيات الصفات حتى تقولوا: إننا أولناها.

---

١٢ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود (١١٥٠).

١٣ - المصدر السابق (١١٥٠).

١٤ - المصدر السابق (١١٥٠-١١٥١).

وقال: "بل قلت هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلاً، ولا تندرج في عموم قول من يقول لا تُؤول آيات الصفات، قال: أليس فيها ذكر الوجه؟ فلما قلت: المراد بها قبلة الله قال: أليست هذه من آيات الصفات؟ قلت: لا، ليست من موارد النزاع، فإني إنما أُسلم أن المراد بالوجه هنا القبلة، فإن الوجه هو الجهة في لغة العرب، يقال: قصدت هذا الوجه وسافرت إلى هذا الوجه أي إلى هذه الجهة، وبعد أن زاد هذا شرحا قال في كلام مهم جداً: ولكن من الناس من يسلم أن المراد بذلك جهة الله، أي قبلة الله، ولكن يقول: هذه الآية تدل على الصفة، وعلى أن العبد يستقبل ربه ويقول: إن الآية دلت على المعنيين، فهذا شيء آخر ليس هذا موضعه، والغرض أنه إذا قيل: فثَمَّ قبلة الله لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه الذي ينكره منكرو تأويل آيات الصفات، ولا هو مما يستدل به عليهم المثبتة، فإن هذا المعنى صحيح في نفسه والآية دالة عليه، وإن كانت دالة على ثبوت صفة فذاك شيء آخر"[١٥] انتهى.

يعني من قال: إنها من آيات الصفات يعتقد أن المقصود بها الجهة أو الوجهة، فهو خطأ في التفسير فقط، لكن حينما يأتي للنصوص الواضحة الصريحة ويؤولها فهذا انحراف، مثل صفة الساق **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}** [سورة القلم:٤٢]، قال ابن عباس: عن كرب، والعرب تقول: كشفت الحرب عن ساق يعني عن شدة، يعني فهذا بعض السلف كما ترون فسر الساق بالكرب، لكنهم يثبتون أصل الصفة، يعني ما يقولون في قوله -صلى الله عليه وسلم- في ذكر المحشر: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}** يعني: عن شدة وحرب، فهذا لا يمكن تأويله، وفي مثل ذلك في الوجه ((لأحرقتْ سُبُحات وجهه ما انتهي إليه بصره من خلقه))[١٦]، لا يمكن تأويله.

ثم قال الشيخ المحمود: "ويبقى دلالة قوله: **{فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** على فثم قبلة الله، هل هو من باب تسمية القبلة وجهاً باعتبار أن الوجه والجهة واحد؟ أو باعتبار أن من استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله، فهذا فيه بحوث أخرى ليس هذا موضعها، وفي نقض التأسيس أشار إلى ما ذكره هنا مع زيادة في الشرح و التوضيح، وقال: في أثناء ذلك: فهذا القول ليس عندنا من باب التأويل الذي هو مخالفة الظاهر أصلا، وليس المقصود نصر هذا القول بل بيان توجيهه، وأن قائليه من السلف لم يكونوا من نفاة الصفة، ولا ممن يقول: ظاهر الآية ممتنع، ثم ذكر ثلاثة احتمالات في هذه الآية"[١٧] انتهى.

فغاية ما هنالك أن يقال لهذا المجادل الذي يجد بعض الأقوال للسلف في مثل هذه الآية ونحوها: أنت تثبت الصفة أو لا تثبتها؟ فالسلف كانوا يثبتون الصفات، ولكن قد يختلف تفسيرهم عند آية ليست صريحة، فإذا كنت تثبت أصل الصفة فلا إشكال، أما أن يكون التعلق بالمتشابهات لضرب المحكمات فهذا هو طريق أهل الزيغ، **{وَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ}** [سورة آل عمران:٧]،

---

١٥ - المصدر السابق (١١٥١).

١٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام- ((إن الله لا ينام))، وفي قوله: ((حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))، برقم (١٧٩).

١٧ - المصدر السابق (١١٥١-١١٥٢).

وهذا لا يختص بباب الصفات وإنما هو في كل الأبواب، فقد يؤتى إلى بعض الأحاديث في الصحابة مثلا في قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((أصحابي أصحابي))، فيمن يردون عليه الحوض فيقال: ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))[١٨] حينما يذادون عن الحوض فيحتج الرافضي ويقول: الصحابة ارتدوا، ويترك الآيات التي تدل على فضلهم كقوله: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ} [سورة الفتح:٢٩]، و {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ...} الآية [سورة التوبة:١٠٠]، و{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [سورة الفتح:١٨] وما إلى ذلك من النصوص المحكمة، ويأتي إلى متشابه ليلغي هذه المحكمات، فهذا طريق أهل الزيغ, وفي مسألة غض البصر {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [سورة النور:٣٠]، وقال: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [سورة النور:٣١]، وقد يأتي من يريد أن ينسف النصوص الواضحة في تحريم الكذب ويستدل على جوازه بحديث عبد الله بن عمرو في الرجل الذي قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يطلع عليكم رجل من أهل الجنة))، فقال، لاحيت أبي فآليت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني هذه الثلاث[١٩]، يريد أن ينظر في عمله، ثم أخبره فيما بعد أنه لم يكن هناك ملاحاة ولا شيء مما ذُكر، وإنما أراد أن ينظر في عمله، فيأتي من يريد أن يستبيح الكذب, فيترك النصوص المحكمة الآن ويلجأ إلى مثل هذا، فهذا طريق أهل الزيغ، فتلغى الشريعة بكاملها بهذه الطريقة في كل الأبواب, وفي الغيبة مثلاً حديث: ((ائذنوا له فبئس أخو العشيرة))[٢٠]، يَستدل به على جواز الغيبة ويترك الأحاديث الواضحة، كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدرون ما الغيبة؟))[٢١]، ويترك قول الله: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [سورة الحجرات:١٢]، نصوص واضحة ومحكمة ويأتي بنص متشابه، وفيما يتعلق بالخلوة بالمرأة الأجنبية، والاختلاط بالنساء يترك ((إياكم والدخول على بالنساء))[٢٢]، و((ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))[٢٣] يترك مثل هذه النصوص ويتشبث ببعض النصوص من المتشابه، ولربما جمع ذلك بعض مَن في قلبه مرض من طلاب العلم لبعض الزنادقة، فيتعلقون بها ويلبّسون بها على الناس، بما يكتبون في تلك الأعمدة من الضلال، والنفاق

---

١٨ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا -صلى الله عليه وسلم- وصفاته، برقم (٢٢٩٧).

١٩ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٩١٨٠)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٢٠ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، برقم (٥٧٠٧)، وفي باب المداراة مع الناس، برقم (٥٧٨٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقي فحشه، برقم (٢٥٩١).

٢١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، برقم (٢٥٨٩).

٢٢ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلونّ رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المُغِيبة، برقم (٤٩٣٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، برقم (٢١٧٢).

٢٣ - رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في لزوم الجماعة، برقم (٢١٦٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند، برقم (١٧٧)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٦).

والمحادة لله، ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- فهذه طريقة أهل الزيغ: اتباع المتشابه وترك المحكم، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (١) إلى الآية (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [سورة العنكبوت:١-٤]، **أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة "البقرة".**

وقوله: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} استفهام إنكار، ومعناه: أن الله -سبحانه وتعالى- لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء"، وهذه الآية كقوله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٢]**، ومثلها في سورة "براءة"، وقال في البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}** [سورة البقرة:٢١٤]**؛ ولهذا قال هاهنا: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله -سبحانه وتعالى- يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: {إِلا لِنَعْلَمَ}** [سورة البقرة: ١٤٣] **إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا} يعني: أظن الناس أن يتركوا؟، والحسبان هنا بمعنى الظن، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} يعني: يمتحنون ويبتلون، وأصل الفتْن بمعنى الاختبار والامتحان؛ ولذا يقال لإدخال المعادن في النار من أجل أن تتخلص من شائبها فتصفوا معادنها، هذا أصل الفتْن، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [سورة البروج:١٠]، فتنوهم: فُسر بهذا وهذا، قيل: أحرقوهم بالنار في قصة الأخدود، وقيل: فتنوهم يعني في دينهم، والمعنيان متلازمان، فهم فتنوهم في دينهم، أرادوهم على الكفر، وأدخلوهم في النار من أجل ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}، يعني: أن هذه هي سنته الجارية في عباده، والعلم هنا {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} الله يعلم ما كان، وما يكون، وما

لم يكن لو كان كيف يكون، فعلم مالم يكن لو كان كيف يكون كقوله مثلا: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [سورة التوبة:٤٧]، والله -تبارك وتعالى- لما رد على المنافقين حينما وعدوا اليهود بأن ينصروهم وأن يخرجوا معهم قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر:١٢]، هذا علم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فأخبر عما لم يكن، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، فلم يخرجوا معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، وكذلك كان، {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} وهم ما نصروهم، فهذا من قبيل علم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} يعني في دعوى الإيمان، {وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، و المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **"والله -سبحانه وتعالى- يعلم ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: {إلا لِنَعْلَمَ}، إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود"** يعني: أن الله -تبارك وتعالى- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، ما كان هذا الموجود وما يكون هذا المعدوم، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو الذي مشي عليه ابن كثير، حيث فسر العلم هنا بمعنى خاص وهو الرؤية، وهذا معنى قول من قال من أهل العلم: إن العلم المراد به هنا علم تحقق الوقوع، فإن تحقق الوقوع هو المقصود هنا، وكلام ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أي لنرى، وهو الذي فسره به ابن كثير -رحمه الله-، وهذا معنى قول من قال: أي العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فهذه عبارات متقاربة صحيحة لا إشكال فيها، والعلم الذي يترتب عليه الجزاء ليس هو ما كان في علم الله -تبارك وتعالى-، وإنما هو صدور ذلك ووقوعه من المكلف، هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وعلى هذا تحمل النصوص الواردة في هذا المعنى، والأشياء التي يذكر الله –عز وجل- علمه عنها بصيغة: حتى نعلم كذا، كقوله مثلاً: {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١] يعني حتى نعلم المجاهدين، المقصود بالعلم هنا علم الوقوع وهو الذي قال ابن كثير إن ابن عباس فسره بأخص من مطلق العلم وهو الرؤية، رؤية ذلك حصوله من المكلف، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} أن يقع ذلك ويحصل ويتحقق، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وأيضاً مثل: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} [سورة البقرة:١٤٣]، الله يعلم من سيتبع الرسول ومن يرتد لكن المقصود العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهكذا إذا رأيت شيئاً من ذلك فهو محمول على ذلك المعنى؛ لأن الله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه خافية، لا يخفى عليه من سيتبع الرسول ومن سينكص على عقبيه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن مِن ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم؛ ولهذا قال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} أي: يفوتونا، {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي: بئس ما يظنون.

قوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} أن يسبقونا: يعني أن يفتتونا فلا نجازيهم، ولا نحاسبهم، ولا نعاقبهم على سيئاتهم فإن الله -تبارك وتعالى- قادر عليهم، ونواصي الخلق بيده لا يفوته منهم أحد {إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا} [سورة الرحمن:٣٣].

{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت٥-٧].

يقول تعالى: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} معنى الرجاء: الحافظ ابن كثيرهنا لم يبين المراد به على وجه الخصوص، والرجاء يأتي بمعنى الطمع فلو فُسر به هنا لقيل: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} يعني: من كان يطمع بلقائه -تبارك وتعالى-، والقرطبي -رحمه الله- فسر الرجاء هنا بمعنى الخوف، ونقل عليه الإجماع، {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} أي من كان يخاف لقاء الله {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} [سورة يونس:٧] يعني: لا يخافون لقاءنا، بهذا الاعتبار وعلى هذا المعنى لا يخافون لقاءنا، فيكون المعنى {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} يعني: يخاف لقاء الله، لكن لو قال قائل: يرجو لقاء الله أي يأمل ذلك ويطمع بلقائه، من كان يطمع بلقاء الله -تبارك وتعالى- فلا شك أنه يحسب له حسابه فيكون الخوف والرجاء يحدوانه ويسوقانه فيطيب له المسير إذا كان قد استجمع هذه الأمور مع محبة الله - تبارك وتعالى-، ولهذا في كثير من المواضع تجد حينما يذكر الله -تبارك وتعالى- بعض الأعمال أو الإجرام أو ما يصدر من بعض الناس يربط ذلك بالإيمان باليوم الآخر، أو حينما يحثهم على عمل من الأعمال {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [سورة التوبة:٢٩]، {مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة الطلاق:٢]، كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- كثير، وكذلك جاء في القرآن مثل هذا، أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يدعو الإنسان ويحفزه إلى الامتثال والعمل، لو علم أنه سيحاسب ويجازى في يوم يقف فيه بين يدي الله -تبارك وتعالى-، {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} ولقاء الله: مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات السابقة، فبعض أهل العلم يفسر ذلك باليوم الآخر أنه يبعث وهذا معنى عام، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا أن الناس يقفون بين يديه {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [سورة الأنعام:٣٠]، فهذا من لقاء الله -جل جلاله-، وكذلك أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحساب، وأن الله -تبارك وتعالى- يحاسب كل واحد بمفرده حساباً خاصاً، فهذا من لقاء الله -جل جلاله-، وقد يطلق على ما بعد الموت عموماً فيقال: فلان لقي ربه بمعنى أنه ارتحل إلى الدار الآخرة قال: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يفسر هنا {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} ولو قيل: إن لقاء الله هو اليوم الآخر فإن ذلك له أجل معلوم، ولو فسر بالوقوف بين يديه في الحساب فذلك له أجل معلوم عند الله -جل جلاله.

وقوله: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}، كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [سورة فصلت:٤٦] **أي: من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا؛ ولهذا قال: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.**

قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله ليس تفسيراً لـــ {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}، ولكنه من قبيل ذكر بعض لوازمه، فإذا جاء أجله -الأجل الوقت المعلوم- فإن الله سيجازي كل عامل بعمله، فيوفيه حسابه .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٤٠]**، وقال هاهنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.**

فيما ذكره من الشواهد قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ذكر الآية ولم يفسرها وكأنه ذكر ذلك من قبيل الشواهد، وأول الآية تكفير السيئات لا يخفى معناه لكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} فـــ"أحسن" أفعل تفضيل، وبعض أهل العلم يفهم من مثل هذا أن الله تفضلاً منه وتكرماً على عباده يجازي أهل الإيمان بأحسن أعمالهم، يعني أن أعمالهم تنقسم الى أحسن وحسن، فهو لفضله -تبارك وتعالى- يعطيهم ويعاملهم أحسن الأعمال ويجازيهم بأحسن العمل الذي عملوه هذا معنى، وبعض أهل العلم يقول: إن أحسن هنا ليس المراد بها معنى أفضل التفضيل وإن كانت على صيغة أفعل التفضيل، ولكن المراد بها مطلق الوصف بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- يجازيهم بالحسن من أعمالهم، ويتجاوز عن السيء، ولا شك أن أفعل التفضيل قد تأتي ويراد بها مطلق الاتصاف، ومنه على أحد القولين -وهو الأقرب والله تعالى أعلم- {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧]، ومعلوم أن من السلف من فسره بأفعل التفضيل، وقال: المراد: أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- فسر بهذا: الأتقى -أفعل التفضيل-، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد مطلق الاتصاف، يعني سيجنبها التقي من الناس، وذكرت شاهداً عليه وهو قول الشاعر:

تمنى رجالٌ أن أموت وإن أمت *** فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد

يعني: لست فيها بواحد، فمن أهل العلم من فسر قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني: ولنجزينهم بالحسن، أحسن بمعنى الحسن، فيكون قد جمع لهم بين تكفير السيئات والجزاء على الأعمال الحسنة، ومن أهل العلم من فسره -وهو قول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- بأن المراد: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني أحسن الذي كانوا يعملون في حال شركهم، فأعمالهم في

حال الشرك منقسمة فيجزيهم بأحسنها قال هنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني: في حال دخولهم في الإسلام تكفر عنهم السيئات ويجزون بالأحسن من أعمالهم، لكن يبقى السؤال في هذا أن أعمالهم منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن، ومنها ما هو سيء لكن يمكن أن يقول: إن القسمة بهذا الاعتبار هذا أحسن وهذا أسوء، فيكون الجزاء بالأحسن أو على الأحسن، فالأحسن يدخل فيه الحسن إذا جعلت القسمة ثنائية، وابن جرير -رحمه الله- من أين أخذ هذا؟ ذلك باعتبار ما كان في حال الشرك أنه قال هنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ} دخلوا في الإيمان، وهذه السورة مكية {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} التي مضت {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} لكن بالنسبة لأهل الإيمان الذين يعملون السيئات، هل يقال بأن من كان مؤمناً فإن الله يجزيه بالأحسن من أعماله أو بالحسن بإطلاق ؟ كل من كان مؤمناً وعمل الصالحات فإن الله يجزيه بهذا.

ابن جرير لاحظ هذا المعنى فقال: هذا لمن دخل في الإيمان فهو وعد من الله أن يكفر عنه؛ لأن الإيمان يجبّ ما قبله، ولكنه أسلم على ما أسلف فيجزيه على أعماله الصالحة الطيبة، لكن بالنسبة لعموم المؤمنين إذا وقع منهم بعد الإيمان السيئة فهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ومعلوم أن من أهل الإيمان من يدخل النار، وهذا يعني أنه لم تكفر عنه سيئاته، وليس لعموم أهل الإيمان وعد بهذا، ولهذا كان منقبة لأهل بدر أن الله قال: ((اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم))[1]، وفي مثل هذا المقام يحسن أن تُجمع نظائر ذلك من القرآن في الآيات التي فيها تكفير السيئات، ثم بعد ذلك ينظر إلى اعتبار المجموع أن الآيات يفسر بعضها بعضاً، لكن هنا الكلام على توجيه كلام ابن جرير -رحمه الله-، يعني: من الناس قد يستبعد هذا من أول وهلة، فلماذا حمله على هذا المعنى الخاص -في حال شركهم- فقال هذا التوجيه؟، الذي حمله هو ما ذكرت وإلا فالمقام يحتاج الى تتبع، ونظر في النصوص الواردة في هذا الباب، والله تعالى أعلم.

{وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٨-٩].

يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء:٢٣-٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة، والرحمة، والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا}، أي: وإن حَرَصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما،

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا، برقم (٣٧٦٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤).

وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع مَنْ أحب، أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.

وروى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فاها، فأنزل الله: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} الآية.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما تعرض لتفسير ذلك على الخصوص، إنما ذكر المعنى العام للآية.

مضى الكلام على معنى الوصية في سورة الإسراء، وقلنا إن قوله –تبارك وتعالى-: **{وَقَضَى رَبُّكَ}** [سورة الإسراء:٢٣] أي: وصى، وإن الوصية هي طلب الفعل أو الترك مع التأكيد على ذلك، هذه هي الوصية، أوصيك بكذا.

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}** يعني: وصيناه بالإحسان، قال -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}** ولم يقل: وصيناه بوالديه، فـ "حسنا" هنا نعت لمصدر محذوف، يعني وصيناه إيصاءً، وصى إيصاءً، هذا الإيصاء نعته "حسناً"، يعني: أنه إيصاء بالإحسان، وصيناه إيصاءً حسناً قال: حسناً على المبالغة، وصينا الإنسان حسنا، وصاه إيصاءً فعبر بالنعت بهذا المصدر على سبيل المبالغة، وبعضهم يقول: هذا على حذف المضاف، يعني وصينا الإنسان حسنا يعني ذا حسنى، وعلى كل حال وصيناالإنسان حسناً أن يفعل، أو وصينا الإنسان أن يفعل الحسنى هذه طريقة الكوفيين، وهي طرقة سهلة النحو والإعراب ليس فيها تكلفات البصرين، وإن كان مذهب البصريين أدق وأعمق، ولكن من يصعب عليه النحو فإن مذهب الكوفيين أسهل وأوسع، وبعضهم يقول: **{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}** يعني: أن يفعل بوالديه ما يَحسُن، هذا قال به الزجاج، أن يفعل بوالديه ما يحسن، وبعضهم يقول: "حسناً" هي صفة لموصوف محذوف يعني ووصيناه أمراً ذا حسن، وصيناه حسنه، حسنا: يعني أمراً ذا حسن، وبعضهم يقول: هذا الفعل "وصى" مضمن معنى فعل آخر، والتضمين أن يُضمَّن فعل معنى فعل آخر يتناسب مع ما بعده في التعدية والإعراب، والمعنى هنا: وصينا قالوا مضمن معنى فعل آخر يعني في آخره فعل آخر دل عليه، يعني ألزمناه حسنا بحيث إن وصيناه حسناً قد لا يتضح فيها المعني، وصينا مضمن معنى فعل آخر يتناسب مع ما بعده، وصيناه أي ألزمناه حسناً، وهذه على كل حال طريقة معروفة سبق الكلام عليها، وبعضهم يقول: هو منصوب بنزع الخافض، وصيناه بحسن يعني بإحسان، فلما حذف حرف الجر انتصب، قال: وصيناه حسنا، والأصل وصيناه بحسن، وبعضهم يقول: أصل "حسنا" مصدر

لفعل محذوف، {وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} يحسن حسنا مصدر لفعل محذوف، لاحظ القول الأول الذي ذكرناه أنه نعت لمصدر، وصينا الإنسان بوالديه حسنا.

ولاحظ هنا أنه قال: فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان إلى أن قال: الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، هذا من باب ذكر بعض وجوه الإحسان من قبل الوالدين للولد، وذلك من موجبات البر، ومعلوم أن ذلك لا يختص بما ذكر يعني الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، فلو كان الوالد لا ينفق -ترك الولد وترك أمه وما أنفق عليه، أو كان معهما ولكن الأم هي التي تتولى الإنفاق بسبب فقره والأم غنية، أو نحو ذلك- فلا يقال: ضاع حق الأب، فالوالد هو سبب وجوده قبل كل شيء بصرف النظر عن قضية الإنفاق وجدت أو لم توجد فإن ذلك يضاعف الحق ويعظم به، كلما كان الأب الوالد أكثر قياماً بحقوق الولد كالتسمية، أو اختيار الأم أو الإنفاق والتربية والرعاية إلى آخره كلما كان البر آكد وأعظم، فهناك قدر واجب من البر، وهناك قدر مستحب، فالبر معنى كلي يتفاوت في أفراده وأبعاضه على مراتب، كما يقال في الإيمان والعلم والصبر ونحو ذلك، فهناك قدر واجب ولو كان الأب لا يحسن تربيته ولم يحسن إليه ولم ينفق عليه، فهو سبب جوده، والأم بالإشفاق، فلو كانت الأم لا تشفق فهو مأمور ببرها، يكفي أنها سبب أيضاً لوجوده بالحمل، ولو ماتت أمه أثناء الولادة فهو مأمور ببرها بعد موتها بالدعاء لها إن كانت مسلمة، وصلة أهل ودها والرحم وما أشبه ذلك، هذا ما يتعلق بالحافظ ابن كثير -رحمه الله.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} [سورة لقمان:١٥] لاحظ هنا ذكر المجاهدة ومع ذلك يأمره بالإحسان إليهما، فإن مجاهدتهما له بالإشراك تدل على أنهما على الإشراك، وليس ذلك فحسب، بل يأمرانه بالإشراك، بل هناك مجاهدة مطالبة بحثٍّ وقوة ومراجعة بهذا الشأن، ومع ذلك يأمره بالإحسان إليهما بهذه الصيغة "حُسنا"، فكيف إذا كان الوالد مشركاً وكان عاصياً في شركه؟، كيف لو كان مشركاً ولم يأمره بشيء من الشرك؟ كيف لو كان الوالد من أهل الصلاح والخير والدين؟ فهذا أولى وآكد، ولكن كثيراً من الناس يغفلون عن هذا كله، ربما رأى من أبيه شيئاً من التقصير فضيع حقه وبره، قد يكون الولد فيه دين وإقبال على الله -تبارك وتعالى- ولكنه يضيّع في هذه القضية التي يذكرها الله بعد حقه، والعقوق من أكبر الكبائر، فإذا قيل له ذلك: ذكر بعض الذنوب والسيئات التي يقارفها أبوه، وهذا لاشك خطأ، ويكفي هنا ذكر المجاهدة على الشرك ومع ذلك {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} ما ليس لك به علم: لاشك أن كل ما يكون من صور الإشراك فذلك لا حقيقة له؛ لأن الله لا شريك له، فمن اتبع شيئاً من هذا فهو متبع ما ليس له به علم، وهذه قضية محققة، كل من ادعى مع الله شريكاً أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله -عز وجل- فهو متبع ما ليس له به علم؛ ولهذا في قوله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [سورة الإسراء:٣٦]، يعني لا تتبع ما ليس لك به علم، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً الإشراك بالله -عز وجل- عبادة غير الله -تبارك وتعالى- {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [سورة المؤمنون:١١٧] ما يوجد أحد به برهان، فذلك لبيان الحال والواقع على ما هو عليه.

وهنا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع مَن أحب، أي حباً دينياً**" هذا القيد الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا يقصد أن الحب الذي لا يكون دينياً لا يؤاخذ عليه الإنسان، ولا يقال فيه: فإن الإنسان يحشر مع من أحب لو كان ذلك المحبوب كافراً، ولهذا كثير من الناس يستشكل في باب الولاء والبراء مسألة المحبة للكافر، هل محبة الكافر بمجردها تكون من موالاته أو لا؟ هذا يلتبس، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}**[سورة المجادلة:٢٢] ولم يقل: يحبون وإنما قال: **{يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** فالمودة أخص من المحبة، فالمودة لا تصلح للكافر، وهي نوع من موالاته.

وأصل مادة الولاء تدل على القرب، يقول هذا يلي هذا، فالموالاة فيها هذا المعنى: تقريب الكافر، تقديم الكافر على المسلمين، وإيثاره عليهم فهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: المحبة الدينية، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن محبة الكافر لا لدينه أن ذلك ليس من الموالاة، وأن ذلك لا يقال: إنه حرام؛ لأن المحبة أنواع: منها ما يكون من قبيل المحبة الطبيعية بين الناس العادية، مثل محبة الوالد لولده، ومحبة الولد لوالده، ومحبة الرجل لزوجته، والإنسان يجوز له التزوج بالكتابية، ولا يقال له: يتزوج من الكتابية لكن لا يحبها، فهو ما تزوجها إلا لأنه يحبها، و لا يقال: تزوجْها وأبغضْها لأنها كافرة، وإنما يقال له: لا تحبها لدينها، ولا يجوز أن تتولاها ولو كانت أقرب قريب، كما في قوله تعالى: **{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}** [سورة التوبة:٢٤]، فهنا لا تكون محبة الكافر بحيث إنها تزاحم محبة الله، لا يجوز أن يحب أحداً سوى الله -تبارك وتعالى- محبة تزاحم محبة الله، إن كانت محبة الأموال، أو غير ذلك، لكن الموالاة هي التي تحرم، ولا يجوز للمسلم أن يوادّ أعداء الله -تبارك وتعالى-، والمودة أخص من المحبة، ولذلك كان بعض السلف يقول: " اللهم لا تجعل لصاحب بدعة عليّ يداً"؛ لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها، فإذا وُجد كافر أحسن إليه، أو صاحب بدعة مغلظة، أو نحو ذلك أحسن إليه فإن قلبه قد يحبه، وبعض الناس يسأل ويقول: لي صديق كافر فيه صفات جميلة، وفيه صفات طيبة، كالوفاء، والصدق، والكرم، وحسن الخلق، صاحب معروف، وإحسان، وقلبي يحبه كصديق يجوز أو لا؟ وهل هذا موالاة للكافرين؟ فالجواب: هذا ليس بمحرم بمجرده، لكن قد ترتقي هذه المحبة إلى مراتب تصير إلى حال من الموالاة، فهذا لا يجوز، والمقصود أن هذا هو المراد بقول ابن كثير -رحمه الله-: أي حباً دينياً، يريد أن يقول: إن المحبة التي لا تجوز هي حب الكافر لدينه، و كثيراً ما يلتبس هذا المعنى، وأظن أن هذا هو الوسط بين من يقول: يجوز موالاة الكفار غير المحاربين، من الناس من يقول هذا وللأسف، يقوله بعض المنسبين للعلم وهذا غير صحيح، ولا يوجد في الكتاب والسنة ما يدل على هذا التقييد، فالكافر لا يجوز موالاته، وإنما ذكر الله -تبارك وتعالى- البر والاقساط **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}** [سورة الممتحنة:٨]، يعني الإحسان والمصانعة

والتعامل معهم بشتى المصالح، ولهذا قال: {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} عداه بإلى لأنه مضمن معنى الإفضاء "تفضوا إليهم"، يعني يكون بينك وبينهم اشتراك في مصالح تجارية، وغير ذلك، فالبر والإقساط غير الموالاة، والموالاة لا تجوز بحال من الأحوال، لا للمحاربين ولا لغير المحاربين، ولهذا أهل السنة يقولون: الولاء والبراء يتجزأ وينقسم والكافر ليس له شيء من هذا، والمؤمن كامل الإيمان له الولاء كله، والفاسق صاحب البدعة يعطى من الولاء بحسب حاله، حسب إيمانه، ويكون له من البراء بحسب ما عنده من الانحراف والمعصية أو البدعة ونحو ذلك، وهذا هو الصحيح، خلافاً لمن إذا كره أحداً أو رأى عليه مخالفة فإنه يتبرأ منه براءة كاملة، ويتعامل معه أحياناً أعظم مما يتعامل مع اليهود والنصارى كما يقول، هذا لا يجوز، هذا خلل في العقل، وخلل في العلم، وخلل في الدين هذه الثلاث معاً غالباً ما تكون مجتمعة، فتصدر مثل هذه الأشياء التي أحياناً لا تصح أن تصدر من إنسان يعرف ما يخرج من رأسه.

وقوله: {لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٩] يعني في جملة الصالحين.

وللحافظ ابن القيم -رحمه الله- على هذه الآيات كلام جيد قال -رحمه الله-: " فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه، ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره، ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه"[٢].

ذكر في الآيات خبر نوح -صلى الله عليه وسلم-، وذكر خبر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء أئمة الممتحنين ذكرهم كأمثلة يأتسى بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل الإيمان، فنوح -عليه الصلاة والسلام- قضى مدة طويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الإيمان ومع ذلك هم كانوا في غاية الإصرار على الكفر، فهذه المدة التي قضيتها مع قومك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- لا تساوي شيئاً بالنسبة للمدة التي قضاها نوح -عليه الصلاة والسلام- فيكون ذلك حافزاً على الصبر.

وقال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد، وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته، وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه، ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به، ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة، والمحنة، والعذاب، أعظم وأشق مما فرّعنه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنت امتحنه الرب تعالى وابتلاه؛ لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس

---

٢ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٢٤٥).

بإيمان عافية، ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسَب أنه يُعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال: آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلي من أعداء رسله بما يؤلمه، ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه، فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد، ثم ينقطع، ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة، والسرور ابتداء ثم ينقطع، ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات، فيلتذون بها ابتداء، ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون الألم بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه، وتركوه منها، فالألم، واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير، والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه ألبته فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة، والألم، والسرور، والحزن، والفرح، والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم، ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذّات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم"[٣].

يعني: هو يريد أن يقول: هناك ألم لابد أن يحصل في هذه الحياة الدنيا في جهة من جهات متعددة، فهذا ألم واقع في الدنيا، وحاصل ولابد، وهناك ألم آخر في الآخرة، فيقول: إن الآم في الحياة الدنيا كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد:٤]، فهو يترقب ما لم يكن، فيحصل له بذلك ألم، وكذلك يحصل له الألم من جهتين: الألم الواقع والذي هو المترقب، هناك ألم مترقب، وهناك ألم حاصل، الحاصل من جهتين: الأولى ما كان في نفسه، بمعنى أن الإنسان مركب من أخلاط، فإذا طغى الواحد منها على الآخر حصل الألم، إما الألم الحسي، أو الألم المعنوي، والألم الحسي مثل لو أنه اختل مزاج البدن يعني عافية البدن المادية المحسوسة فيحصل له ألم يؤلمه، هذا يؤلمه، وهذا الجزء يؤلمه، وبطنه، إلى آخره، وهناك ألم معنوي الذي يسمونه النفسي هو متصل بهذه الأخلاط، الذي يسميه القدماء بغلبة السوداء مثلاً، فإذا اختلت هذه الأشياء التي هي في الإنسان -هذه الاخلاط- أصبح عنده كآبة، أصبح عنده حزن، وغيره، وهذا الألم النفسي، وهناك ألم من الخارج، بمعنى أن هذا الإنسان بطبعه لابد أن يخالط الناس، وسيأتيه بسبب هذه المخالطة صداع كثير، فهو يحتاج أن يراعي هذا، ويحتاج أن يرضي هذا، وهذا يسيء إليه بكلمة، وهذا

---

٣ - المصدر السابق (٢٤٥-٢٤٦).

يسيء إليه، وهذا لم يسلم، ولهذا لابد من وقوع الألم في هذه الحياة الدنيا، فمن أراد أن يتوقى ما قد يلحقه بسبب تدينه، واستقامته على الصراط المستقيم، فيرضي الناس بسخط الله -تبارك وتعالى- فإنه يكون قد دفع الأذى والألم العاجل، مع أنه لابد له من ألم في الدنيا، وعلى الآجل الدائم المستمر الذي يلحقه في الآخرة بعذاب النار، والخلود فيها مع ما يحصل له في الدنيا من أنواع الآلام من الجهات التي ذكرتها، وغيرها باعتبار أن الإنسان حينما يعرض عن ذكر الله -عز وجل- فإن له معيشة ضنكا إلى آخره، فالحل هو التمسك بالوحي.

قال الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب:١]، {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [سورة الأحزاب:٢]، {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:٣] هذه الوصايا الثلاث في أول الاحزاب، ما يوجد حل ولا طريق غير هذا الألم، فليكن في الله، وفي ذات الله، والله المستعان، يعني أسوء ما يكون أن الإنسان يؤذَى، ولربما يقتل وهو على غير الصراط المستقيم هذا أصعب شيء، تجد بعض الناس يلحقه الأذى والابتلاء ولربما فقد حياته على باطل.

وقال -رحمه الله-: "فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك، فهو في ألم، ومشقة، وعناء، وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة، وإرادات فاسدة، وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم، فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين؛ تخلصاً من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما؛ لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلا أضعاف أضعاف ما فرّ منه"[٤].

وجه ذلك أن بعض الناس يكون في بيئة فيها بدع وانحرافات وهو يعلم أن هذه بدعاً ومخالفات وانحرفات وشركيات أحياناً، ويقول: هذا مجتمعي هذه بيئتي هذا قومي لا أستطيع أن أخالفهم يعادونني ونحو ذلك فهو في الواقع قد ضل الطريق، وبعض الناس قد لا يكون من هذا القبيل -بدع وشركيات أونحو ذلك- لكن كثير من الشباب لربما يقول: إن أبناء عمي وأقاربي ونحو ذلك غير متدينين، وإني أخالطهم كثيراً فيحصل لي بسبب ذلك النقد واللمز وما أشبه ذلك بسبب استقامتي، وبسبب هيئتي ومظهري ونحو ذلك يحصل لي بسبب هذا إحراج وألم ومضايقات، فيقال: إن وافقتهم حصل لك أضعاف ذلك، وعندما يؤثر الإنسان ما عند الله -عز وجل- ويرجو مرضات ربه -جل جلاله- يعوضه الله -تبارك وتعالى-، كما سيأتي في ثنايا هذه السورة، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مما قال -على أحد القولين-: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦]، فالله - تبارك وتعالى- وهب له الأولاد إسحاق ويعقوب كما وهب له إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ

٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٢٤٦).

{وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [سورة مريم:٤٩]، عوضه الله -عز وجل- بهؤلاء الأولاد والذرية الذين تقر بهم عينه وينسونه الأهل والوطن والعشيرة.

وقال -رحمه الله-: "وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم، وظاهرهم وإن صبر على ألم مخالفتهم وجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم به بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه"[٥].

هذه جملة مهمة جداً، وسنة الله -الأمر الذي يحصل ويتكرر- أن الله -تبارك وتعالى- يذلهم له بحسب صبره وتقواه ونصره، هذا الذي يتملل بسبب مخالفتهم وانتقاصهم له وتعييرهم أحياناً، كثير من الناس قد ينحرف فترى بعض الشباب يشتكي من مثل هذا، وانحرف بسبب البيئة والأقارب، فهذا المعنى مهم جداً.

وقال -رحمه الله-: "وإذا كان لابد من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته، ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم، ولما كان زمن التألم والعذاب طويلاً فصبره طويل، فأنفاسه ساعات، وساعاته أيام، وأيامه شهور وأعوام سلّى سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلا ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلا للقائه يسليهم به، ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: **{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [سورة العنكبوت:٥]، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله"[٦].

فلما كانت ساعات الابتلاء طويلة الساعة كيوم واليوم كشهر والشهر كسنة، سلّاهم تبارك وتعالى فقال: **{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** فيكون ذلك تسلية لهم، تخفيفاً وتهويناً عليهم؛ ولذلك تجد الإنسان الذي يعاني و يكتئب يلجأ إلى النوم مع أن بعض الأطباء يقول: إن هذا لا يصح ولا يحسن وإنه يضره، والواقع أنه ليس كذلك -والله أعلم-، يلجأ إلى النوم ليغيب عن عالمه مثل الرجال الكبار يذهبون إلى المخدرات -نسأل الله العافية- فهذا يلجأ إلى النوم ويغيب ويقصر المدة.

ثم قال - رحمه الله -: "ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس، وللشيطان، ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله، وتعبه يعود عليه وحده لا يشكره فيه غيره كان أتم اجتهاداً، وأوفر سعياً، فقال تعالى: **{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** [سورة العنكبوت:٦]، وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة، والصبر، والاحتمال يعود على الله سبحانه؛ فإنه غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه، ومصلحته، عليهم في معاشهم، ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته، وعتبه عليهم في معاشهم، ومعادهم، فكانت ثمرة هذا الابتلاء، والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أنْ نصب ذلك سبباً مفضياً إلى أن يميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي، ومن يصلح له ممن لا يصلح، قال تعالى: **{مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ**

---

٥ - المصدر السابق (٢٤٦).

٦ - المصدر السابق (٢٤٦).

أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [سورة آل عمران:١٧٩]، فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره، ونواهيه، واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم، وجيدهم من رديئهم فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان، ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله"[٧].

وقال -رحمه الله-: " ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جداً بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به، وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم وما حصلوا عليه من العذاب الأليم، وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه، وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه وآثروا النعيم العاجل عليه، فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر فإنها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر، والله المستعان"[٨].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [سورة العنكبوت:١٠-١١].

يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}.

قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...} **إلى قوله:** {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [سورة الحج:١١-١٢].

ثم قال: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} **أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك -يا محمد- وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى:** {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة النساء:١٤١]، **وقال تعالى:** {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا

---

٧ - المصدر السابق (٢٤٦).

٨ - المصدر السابق (٢٤٧).

أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [سورة المائدة:٥٢].

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}، ثم قال تعالى: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟

وقوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} أي: وليختبرنّ الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} الآية [سورة آل عمران:١٧٩].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} [سورة الحج:١١] هذا يصدق على ضعفاء الإيمان، وعلى من في قلبه مرض، كما إن ذلك –أيضاً- يصدق على المنافقين، وقوله -تبارك وتعالى- في هذه السورة -والسورة مكية-: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}، ذكر المنافقين في هذه السورة، والمشهور جداً الذي لم أقف إلى ساعتي هذه على من ينبه على هذا المعنى وهو أن المشهور أن النفاق إنما وجد في المدينة، ويذكر أهل العلم عادة أن ذلك وقع بعد غزوة بدر، فقوي الإسلام، وظهر المسلمون، ويذكرون ما وقع من كلام عبد الله بن أُبي رئيس المنافقين أنه قال: إني أرى أمراً قد توجه، فأمر أصحابه أن يدخلوا فيه ظاهراً، وأخبرنا الله -تبارك وتعالى- عندما قال اليهود: {آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة آل عمران:٧٢] يعني إيمان نفاق، فهذا هو المشهور جداً، لكن هذه الآية تبين أن النفاق له وجود في مكة، ومما يدل على وجودة مبكراً ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عند الكلام على غزوة بدر في سورة الأنفال: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [سورة الأنفال:٤٩]، فالذين في قلوبهم مرض: من أهل العلم من يقول: هم المنافقون، وأن هذا من قبيل تتابع الأوصاف {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤]، أن هذا لموصوف واحد، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم شيء واحد، ولاشك أن المنافقين في قلوبهم مرض، ومن أهل العلم من يقول: إن ذكرهم على سبيل العطف على المنافقين، إن الذين في قلوبهم مرض يعني هم ضعفاء الإيمان، وأما في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، فالمرض هناك الميل المحرم إلى النساء، فهذه المسألة -أعني النفاق- تحتاج إلى تحرير، ومزيد من التأمل، وتتبع النصوص الواردة فيها، والدراسة، فنحن نعلم أن النفاق منه ما هو نفاق اعتقادي، وهناك نفاق عملي، نفاق اعتقادي، ونفاق عملي، النفاق الاعتقادي: أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والنفاق العملي: ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((ثلاث من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من

النفاق حتى يدعها))، وذكر هذه الأوصاف: ((إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[٩]، فهذا نفاق عملي، إذا تأملت هذا، ونظرت فيما جاء من النصوص في الباب من الآيات، والأحاديث، والآثار المنقولة عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- تجد أنهم يقولون لمن صدر منه شيء أحياناً مع الأفعال التي لا تتفق مع الإيمان: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، بناءً على موقف، نافقَ يا رسول الله، نافقَ فلان، وحنظلة قال عن نفسه: نافق حنظله[١٠]، لما رأى تغير حاله حينما يكون بحضرة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وحينما يرجع يعافس أهله رأى الفرق، فقال: نافق حنظلة، وقصة حاطب لما كتب للمشركين حكم عليه عمر -رضي الله تعالى عنه- بالنفاق[١١]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الفتن في آخر الزمان قال: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))[١٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - لما ذكر الفتن، وما يعقبها، أو ما يحصل من جراء ذلك ذكر أنه يظهر النفاق، والعلماء من المؤرخين حينما يذكرون بعض الحوادث، والوقائع العظام، والأمور التي حصلت من حروب، وأشياء، وإغارة العدو على المسلمين تجد أنهم يذكرون أحياناً النفاق بعدها، يقولون: فنجم النفاق، هؤلاء ناس من المسلمين، وبعض هؤلاء أحياناً من أهل العلم، لكن يقول: فنجم النفاق، ظهر النفاق، بدأت تطلع أشياء ما كانت ظاهرة من قبل، هذا يتكلم بكلام ما يتفق مع الإمام، لا يقوله إنسان مسلم أبداً، هذا يصرح بتصريحات غريبة ما كان يسمعونها، ويظهر على فضائية، ويذكر فيها أشياء تدل على تحولات، نجم النفاق، ظهر النفاق، وبعضهم بدأ يصانع العدو، ويدل على عورات المسلمين؛ ليتخذ عندهم يداً، هذا معنى نجم النفاق، هذا بدأ يتخلى عن مبادئه وعقيدته، هذا بدأ ينتقد أهل الإيمان، ويقع فيهم، فهذا كله من النفاق، وهذا يحصل في أوقات الشدائد، في أوقات الابتلاء، هذا معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} الابتلاءات التي تحصل تظهر فيها معادن الناس، وتظهر فيها المخبآت، ويظهر فيها الثبات على الحق، وعلى الدين، تظهر هذه الأشياء في أوقات الشدائد، في أوقات الابتلاء، فهذا الموضوع -موضوع النفاق- يحتاج إلى مزيد من التحرير، والدراسة، مع أن المتوهم أن القضية واضحة، وأن النفاق هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وأن هذا وجد، لماذا وجد في مكة؟ لا، يوجد في مكة، يوجد أناس دخلوا في الإيمان دخولاً سطحيا، ولكن في قلوبهم لربما من الواردات والشكوك ما يمكن أن يحصل معه التحول إلى الكفر لأدنى ابتلاء، فهو إن رأى الحال على ما يسر استقام سيره، واستمر، وإن

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

١٠ - رواه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، برقم (٢٧٥٠).

١١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، برقم (٤٠٢٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤).

١٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

رأى ما يكره انقلب على وجهه، يعبد الله على حرف، الحرف: هو الطرف، كما نقول: فلان على حافة، العوام يقولون: فلان على جُريف -تصغير جرف- يعني مع أدنى شيء يسقط، فذكْرُ النفاق هنا مع ذكره في آية الانفال: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [سورة الأنفال:٤٩]، يدل على أن النفاق ما ظهر بعد غزوة بدر، كثر ودخل أناس يريدون بذلك حقن الدماء وإحراز الأموال، الآن المسلمون صار لهم قوة، لكن في مكة لم يكن هناك إحراز أموال، وحقن دماء يعني: يدخل من أجل أن يحرز ماذا؟ لا، لربما يدخل لأنه يميل إلى ذلك، لأنه يعتقد صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن ذلك ضعيف جداً مع أشياء تساوره من قلق، ومن شكوك، فبمجرد وقوع الابتلاء اليسير يحصل له الانتكاسة، فالنفاق كان موجوداً بمكة، ولكنه لم يكن ظاهراً، والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أنه كان بصورة إيمان هشٍّ، هذه الهشاشة لسبب أو لآخر، كأن يكون تابعَ فلاناً، وافق غيره في ذلك، لم يكن لديه من اليقين ما يكفي، الخوف غالب على قلبه، يخاف الناس كما يخاف الله، أو أكثر، فيبقى في حال من التردد، والاضطراب، والحيرة، ولذلك خرج جماعة مع المشركين ممن آمنوا ولم يهاجروا من أهل مكة، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [سورة النساء:٩٧]، فهؤلاء الناس أظهروا الإيمان في مكة، ولم يهاجروا -مع القدرة على الهجرة-، فهؤلاء خرجوا مع المشركين في غزوة بدر، فقُتل من قُتل منهم، فتوعدهم الله -عز وجل- بجهنم، بالنار، ادّعوا الإيمان، وخرجوا مع المشركين يقاتلون المسلمين، وإذا نظرتم إلى السيرة وجدتم مجموعة من الأسماء ممن كانوا بهذه المثابة ذكرهم ابن هشام وغيره، مثل هذا نستفيد منه هذا المعنى، وهو معنى كبير يستحق العناية، وموضوع النفاق يستحق دراسات وتأملاً، فكثير من الناس قد يخفى عليه حقيقته، وقد يقع فيه وهو لا يشعر، ولهذا كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما منهم أحد إلا يخاف على نفسه النفاق، وعمر -رضي الله عنه- يسأل حذيفة بن اليمان: أَسَمّاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم؟، وكان ينظر إلى من يصلي عليه حذيفة -رضي الله تعالى عنه-، ومن لا يصلي عليه، حتى يعرف هل هذا منافق أو لا، وموضوع النفاق موضوع دقيق قد يخفى، ولهذا جاء في الصحيحين مسلم وغيره لما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيت أحد أصحابه -وهو عتبان- تكلموا على الرجل وأنه منافق، وكانت حجتهم في ذلك أن وجهه للمنافقين، ويرون إقباله على المنافقين، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن لهم أمراً آخر وهو أنه ((يبتغي بذلك وجه الله))[١٣]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بين لهم هذا المعنى، وليست مجرد دعوى، لكن يبتغي بذلك وجه الله، فقد يحصل منه تصرفات هي من قبيل تصرفات المنافقين، وقد يحكم عليه بعضهم بالظاهر أن هذا من المنافقين، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أنكر عليهم، ولم يقل: هذه غيبة، ولا كيف حكمتم عليه؟ لكن بين لهم أمراً آخر خفي عليهم، وإلا فالفعل الظاهر منه أنه مع المنافقين، والإنسان -مع ضعف الإيمان- قد يتحول إلى منافق خالص، وقد يحصل له نوع نفاق،

---

١٣ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب المساجد في البيوت، برقم (٤١٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم (٦٥٧).

-نسأل الله العافية-، والعجيب أن هذا في آية من كتاب الله -عز وجل- في آية الأنفال، ومع ذلك لا تكاد تجد من يذكر مثل هذا، وأن الموضوع أعمق مما لربما يسبق إلى أذهاننا ويتصور في الكثير من الأحيان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (١٢) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على عبده ورسوله نبيناً محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله وإياه- في تفسير قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [سورة العنكبوت:١٢-١٣].

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لِمَنْ آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، {وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} أي: وآثامكم -إن كانت لكم آثام في ذلك- علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: "افعل هذا وخطيئتك في رقبتي"، قال الله تكذيبا لهم: {وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما قالوه إنهم يحملون عن أولائك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [سورة فاطر:١٨]، وقال تعالى: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ} [سورة المعارج:١٠-١١].

وقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}: إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزارًا أُخَر بسبب مَنْ أضلوا مِنَ الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولائك شيئاً، كما قال تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الآية [النحل: ٢٥].

وفي الصحيح: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه مِنَ الإثم مثل آثام مَن اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً))[١]، وفي الصحيح: ((ما قُتلت نفسٌ ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سَنّ القتل))[٢].

وقوله: {وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: يكذبون ويختلقون من البهتان.

---

١ - رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، برقم (٣٣٣٥)، ومسلم، كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، برقم (١٦٧٧).

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً عن أبي أمامة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلغ ما أرسل به، ثم قال: ((إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم، ثم ينادي منادٍ فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيُشخِص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن -عز وجل-، ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تِبَاعة -أو ظُلامة- عند فلان ابن فلان فهلمّ، فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه))[3]، ثم نزع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآية الكريمة: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه ((إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبقَ له حسنة أُخِذ من سيئاتهم فطرح عليه))[4].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}**، هذا أمر، وهو في معنى الشرط والجزاء، بمعنى إذا اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** إلى أن قال: **{يَغْفِرْ لَكُمْ}** [سورة الصف:١٠-١٢]، يعني: إن آمنتم، فذاك خبر مضمن معنى الشرط، وهذا أمر في معنى الشرط والجزاء، والمعنى ما ذُكر: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، والأصل أنه لا أحد يحمل وزر أحد **{وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ}** [سورة فاطر:١٨]، **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [سورة المدثر:٣٨]، والآيات في هذا كثيرة ومعروفة، وهنا ذكر الله أنهم يحملون أثقالهم وأحمالاً مع أثقالهم، وهذه الأثقال المقصود بها الأوزار فإنها تثقل كواهلهم، وذلك من عملهم؛ لأنهم الذين دعوا إلى هذا، وضللوا الناس، وصرفوهم عن الحق، وأغووهم فكان ذلك من جملة عملهم، ومن ثم فإنهم يحملون هذه الأوزار، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في المظالم وأنه يطرح عليه، يؤخذ من حسناته ثم بعد ذلك..، هذا هو الشاهد، إذا فنيت هذه الحسنات طرح عليه من سيئاتهم، وهنا حمل أوزاراً لغيره في هذه الحالة، فهذا ليس من تأويل الآية، وإنما هو من جملة ما يذكر في هذا الباب مما هو خارج عن الأصل، يعني الأصل أنه لا يحمل أحد وزر أحد، لكن من تسبب في إضلال غيره فإنه يحمل وزراً كوزره؛ لأن ذلك من عمله، ومما يحصُل به حملُ الأوزار ما جاء في الحديث من حال أولائك الذين يظلمون الناس فتؤخذ حسناتهم، فإذا فنيت وبقي من المظالم فإنه يؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليهم، فيكون بهذا يحمل من أوزارهم أيضاً، لكن هذا ليس المقصود،

---

٣ - رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٩/٣٠٣٩)، برقم (١٧١٨٦).

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨١).

يعني الحافظ ما أورده على أنه تفسير للآية؛ لأن هذه الآية قالوا لهم: {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} [سورة العنكبوت:١٢]، فهي في نوع خاص مما يحصل به حمل الأوزار، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [سورة العنكبوت:١٤-١٥].

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، يخبره عن نوح -عليه السلام- أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، وسرا، وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارا عن الحق، وإعراضا عنه وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت -يا محمد- لا تأسف على مَنْ كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} الآية [سورة يونس:٩٦-٩٧]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوّك، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين.

وعن ابن عباس قال: بُعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاما، حتى كثر الناس وفشوا.

وقوله: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} أي: الذين آمنوا بنوح -عليه السلام-، وقد تقدَّم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود، وتقدَّم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله: {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} أي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف نجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} إلى قوله: {وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [سورة يس:٤١-٤٤]، **وقال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}** [سورة الحاقة:١١-١٢]، **وقال هاهنا: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** [سورة الملك:٥].

أي: وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي التي زينة للسماء، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [سورة المؤمنون:١٢-١٣]، **ولهذا نظائر كثيرة.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} لما ذكر الله -تبارك وتعالى- في أول هذه السورة أمر الامتحان والابتلاء والفتنة {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [سورة العنكبوت:٢-٣] ذكر مصداق ذلك ما وقع لهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما جرى لأقوامهم، فهذا نوح -صلى الله عليه وسلم- أول الرسل بقي في قومه هذه المدة الطويلة مع إصرارهم على التكذيب، بقي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وذلك تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يلقى من قومه أذىً كثيراً، وكانت المدة التي بقيها النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تذكر بالنسبة لتلك المدة الطويلة

التي بقيها نوح -عليه الصلاة والسلام-، فهذه سنته -تبارك وتعالى- الجارية في خلقه تجري على أشرف الخلق وأفضلهم وأكرمهم على الله -تبارك وتعالى-، وتجري على غيرهم، فيُفتن الناس بالرسل ويُبتلى الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بالناس وبتكذيبهم وأذاهم وما إلى ذلك، وهكذا يفتن ويبتلى الغني بالفقير، والفقير بالغني، والصحيح بالمريض، والمريض بالصحيح، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم، وما إلى ذلك، فهذه سنة الله -تبارك وتعالى- في هذا الخلق.

فهنا قال: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}** ما قال: لبث فيهم مثلاً تسعمائة وخمسين عاماً، وذلك -والله تعالى أعلم- أنّ ذِكرَ ذلك بطريق الاستثناء كما في هذا الموضع **{أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}** أقوى في تحقيق العدد من غير زيادة ولا نقصان، يعني لربما يُذكر العدد ويكون فيه شيء من جبر الكسر ونحو ذلك كما هو معروف، لكن إذا جاء بطريق الاستثناء فإن ذلك يعني تحقيق العدد كما ذكر من غير زيادة ولا نقص **{أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}**، وهذا جواب عن سؤال لربما يرد على ذهن طالب العلم، لماذا لم يقل الله -عز وجل-: فلبث فيهم تسعمائة وخمسين سنة؟، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}** هذا يدل على النتيجة بعد هذه المدة الطويلة أنهم كذبوا وكفروا فكان ذلك العقاب، والطوفان يقال لكل شيء يطوف بالناس من مطر أو خروج البحر -أو النهر- الذي يسمونه بالفيضان، أو اليوم ما يسمى بتسونامي أو نحو ذلك، فهذا كله مما يطيف بالناس هذه الإطافة فيحصل به الغرق والهلاك بالماء فإنه يقال له: طوفان، وبعضهم وسع المعنى فيه وقال: ذلك يشمل ما كان بموت، يعني الأوبئة والأمراض السارية التي تنتقل فيها العدوى بإذن الله -تبارك وتعالى- بين الناس فيموتون بسبب ذلك، فمثل هذا بعض أهل العلم يدخله في جملة الطوفان، وهكذا أيضاً ما يحصل من الموت العام بالقتل، يعني أنهم اعتبروا كل موت عام إما بمباشرة القتل، أو الوباء، أو كان ذلك بالماء النازل من السماء، أو كان ذلك بالماء الخارج من الأرض، ونحوه، فهذا كله يقال له: الطوفان، مع أنه في عرف الاستعمال يطلق على ما كان بالغرق إما بكثرة المطر أو بما كان من غيره، كما يحصل في فيضان الأنهار حينما تذوب الثلوج في وقت معين ثم بعد ذلك يكثر الماء في هذه الأنهار فتخرج على الناس، وهكذا حينما يحصل ذلك من البحر كما نشاهد في هذه الأيام، فهذا يقال له: طوفان، وهكذا حينما يخرج ذلك من باطن الأرض كالعيون التي تتفجر مثلاً، وهذا يحصل أيضاً بسبب الزلازل أحياناً، يحصل زلزال فتخرج عيون جديدة تتفجر وتجري أشياء وأنهار لم تكن موجودة من قبل، وقد يجتمع عليهم ذلك، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن قوم نوح هؤلاء أن السماء أمطرت مطراً منهمراً، وأن الله -تبارك وتعالى- فجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر، اجتمع هذا الماء، وهذا الماء فحصل بسبب ذلك الغرق، والله المستعان.

ولهذا بعضهم فسر الطوفان بالغرق، وهو تفسير له بما يشبه النتيجة والأثر، وبعضهم قال: هو المطر، أخذه من الطوفان، وكأنه تفسير له ببعض صوره، يعني بالمثال، ببعض صوره، ويكون ذلك بالماء الذي يغمرهم سواء كان بالمطر أو بغيره، الماء الكثير الذي يغمر يقال له: طوفان، أخذهم الطوفان والله -تبارك وتعالى- أخبر عن فرعون وقومه أنه أرسل عليهم الطوفان أيضاً، والمقصود به فيضان النيل، -والله أعلم-، فيهلك زروعهم وأراضيهم، ويحصل لهم بسبب ذلك ما لا يخفى، وإن لم يحصل لجميعهم بذلك الغرق كما هو

مشاهد في الطوفان الذي يحصل في أي وقت من الأوقات، لكن ذلك يكون عذاباً مرسلاً على هؤلاء المكذبين، ولهذا تجد الذين يقع لهم هذا سواء بفيضان الأنهار أو كان بغيره أنه يقع لهم بسببه من الأذى والعذاب ما لا يُقادَر قدره، تهلك بسبب ذلك زروعهم ومواشيهم، بل إن ما يعانونه بعده أشد مما يلاقونه منه حال المباشرة، يعني هم حينما يبدأ الطوفان يزول ويتقشع عنهم الماء تبقى الآثار المدمرة بعد ذلك، تخرج أشياء من الحشرات ومن الأمور المؤذية، والروائح المنتنة، ويحصل أيضاً بسبب ذلك آثار في دورهم وأثاثهم، ونحو ذلك إذا دخل بيوتهم بحيث إنها لا تصلح للاستعمال، بل تبقى عبئاً كبيراً يثقل كواهلهم، يحتارون كيف يتخلصون منه ويعيدون الأشياء، بل حتى في السيول التي تقع كما حصل في جدة والذي حدث فيها فهذا نوع طوفان، وانظروا إلى حال بيوتهم كيف أصبح الوحل يغمرها ويلوث أثاثهم، وما لديهم من ممتلكات ونحو ذلك، وانظروا حال السيارات وكيف تبقى كأنها أكداس لا تصلح للانتفاع، ثم بعد ذلك ما يحصل عادة في الطوفان من اختلاط المياه الصالحة للشرب بالمجاري ويفيض ذلك جميعاً، وتنتشر الأوبئة، تنتشر الأمراض، وهذا معروف في البلاد التي يكثر فيها مثل هذا، ويغمرهم بحيث إنه يرتفع جداً في البلد، وإن لم يغرق كل الناس، لكن معاناة الناس بعده أكثر مما يعانون أثناء الطوفان، -والله المستعان-، وما عادت هذه الأمور تؤثر اليوم في الناس من جهة وقعها والنظر في أسبابها وما ينبغي أن يكون التصرف إزاءها، وصارت تفسر بتفسيرات كتغيرات مناخية ونحو هذا من الأمور، ويُغفل مع ذلك السبب الحقيقي وهو الذنوب والمعاصي، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي وجعلنا تلك السفينة باقية، {وَجَعَلْنَاهَا}، الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، {أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا} يعني جعلنا السفينة، وبعض أهل العلم قال: {وَجَعَلْنَاهَا} أي: الواقعة، والحادثة، جعلنا تلك الواقعة آية للعالمين، كيف فعل الله -عز وجل- بهؤلاء المكذبين!، وبعضهم يقول: {وَجَعَلْنَاهَا} يعني: التنجية، النجاة لنوح -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المؤمنين، وكانوا قلة، حتى قيل: إنه لم يؤمن به إلا بعض ولده وبعض أزواج بناته، قلة قليلة، والبقية كفروا بالله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: {وَجَعَلْنَاهَا} أي: الغرق -هذه العقوبة-، وهذا قريب من قول من قال: أي تلك الواقعة، وهو أيضاً قريب من قول قال: النجاة، {جَعَلْنَاهَا} أي: النجاة؛ لأن بين ذلك ملازمة، فهذا الذي وقع من هذا الطوفان حصل فيه تنجية نوح -صلى الله عليه وسلم- وحصل فيه إغراق هؤلاء المكذبين، فكانت نجاة نوح -صلى الله عليه وسلم- آية دالة على صدقه، وغرق هؤلاء آية أيضاً تدل على صدق ما جاء به، وكذلك أيضاً تلك الحادثة والواقعة أو العقوبة كل ذلك آية، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يحمل على السفينة، {وَجَعَلْنَاهَا}؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، ولكن هل يعني هذا تخطئة قول من قال: إن ذلك يعود إلى الواقعة أو الحادثة أو التنجية لنوح -صلى الله عليه وسلم؟ أو العقوبة التي وقعت لهم؟، -هكذا عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم-، أقول: ذلك ليس بلازم، يعني حينما يقال: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو السفينة، فهذه السفينة هل هي مجرد سفينة، أم لها حال وملابسة خاصة؟ وذلك أن الله حمل عليها نوحاً -صلى الله عليه وسلم- وأنجاه من الغرق وأغرق هؤلاء، فكانت تجري بنوح -عليه الصلاة والسلام- ومن فيها في موج كالجبال، ولم يكن للناس عهد قبل ذلك

بالسفن، ويقال: إن جبريل -عليه الصلاة والسلام- هو الذي علم نوحاً -صلى الله عليه وسلم- ذلك، ولهذا يقول بعض أهل العلم: إن هذه الصنائع صنائع شريفة زاولها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فنوح -صلى الله عليه وسلم- اشتغل بالنجارة، وعمل السفينة، وكان معلمه في ذلك جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وداود -صلى الله عليه وسلم- اشتغل بالحدادة فكان يصنع الدروع ويأكل من عمل يده، وبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك أفضل الكسب، فصار الناس أو صار بعضهم بعد ذلك مَن ينتسب إلى شيء من الشرف في نسبه أو نحو ذلك لربما يتنزهون عن هذه الصنائع، ويرون أنها من المدنسات، ولذلك ملابسات عندهم لا حاجة لذكرها الآن، ولكن ذلك في الواقع غير صحيح، بمعنى أن الناس كانوا يزاولون التجارة والزراعة وما أشبه ذلك، وكان الذين يرِدون عليهم، أو المماليك أو نحو ذلك هم الذين يقومون بهذه الصنائع والمهن دونهم فعُرفوا بها، فصار الناس بعد ذلك يتنزهون عنها، وهذه أعراف فاسدة لا قيمة لها، ويكفي أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قاموا بذلك.

وحينما يقال: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو السفينة فهذا مرجح لهذا الأصل وهذه القاعدة، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، واختاره جماعة من المحققين، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ولكن هذا لا ينفي ما ذُكر؛ لأن هذه السفينة كان لها ملابسة، فحينما يقال: الغرق والنجاة والواقعة والحادثة إلى آخره كل هذا مرتبط بهذه السفينة، لكن الذين قالوا: إنها الحادثة أو الواقعة كأن الذي حملهم على ذلك هو أن السفينة لا وجود لها، فكيف قال الله: إنه جعلها آية، جعل السفينة آية؟، أين هي؟ فقالوا: الواقعة، الحادثة، العقوبة، ولهذا الذين قالوا: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور افترقوا إلى فريقين، طائفة قالوا: هي السفينة بعينها، ولهذا ذكر هنا قول قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام وإنها على جبل يقال له: الجودي، فهذا الكلام لا يعرف له أصل، أعني أنها بقيت إلى أول الإسلام، ولو أنها بقيت من تلك المدة من نوح -صلى الله عليه وسلم- إلى أول الإسلام فإنه يمكن أن تبقى إلى الآن؛ لأن المدة ما بيننا أو ما بين قتادة وأول الإسلام هي مدة يسيرة جداً، فكيف بقيت تلك المدة آية ثم بعد ذلك ذهبت بمدة يسيرة أقل من قرن من الزمان؟!، يعني انتهت في القرن الأول الهجري، كيف يكون هذا؟! فإذا كان المقصود السفينة بعينها، سفينة نوح -صلى الله عليه وسلم- وأنها هي المقصودة بالآية فمعنى ذلك أنها آية عبر الزمن، وأنها باقية على مدى القرون وإن تطاول العهد، فكيف يقال: بقيت إلى أول الإسلام؟، كيف يحال الناس إلى شيء كهذا؟، فهذا الكلام غير صحيح، أنها بقيت، أنتم تقرءون هنا وهناك وتسمعون عن بعثات يذهبون ويبحثون في جبل يقولون ويزعمون في تركيا وأنهم يبحثون عن آثار هذه السفينة، وهذه السفينة لا أثر لها، وكل ما يذكر حول هذا فهو غير صحيح، ولا حاجة لمثل ذلك، وكان الحري بهم أن يتعظوا بما وقع لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام- وأن ينيبوا إلى الله -تبارك وتعالى-، وأن يعملوا بطاعته بدلاً من أن يبحثوا عن آثار لهذه السفينة، وهذا هو الذي جعل الفريق الآخر يقول: المقصود الجنس، ليست هي السفينة نفسها، وإنما السفن التي نشاهدها تذكرنا بتلك السفينة التي حصلت بها النجاة.

ولهذا الله -تبارك وتعالى- قال: **{وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}**، وكما في الآية الأخرى **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** [سورة يس:41]، المخاطب بهذا الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا**

حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [سورة يس:٤١-٤٢]، والذرية تطلق إطلاقين متقابلين، تطلق على الآباء وتطلق على الأبناء أو الأولاد، هذا أقرب جواب ذكر في هذا، العلماء ذكروا فيه أجوبة، لكن هذا أقرب الأجوبة -والله تعالى أعلم-، فقوله: {حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} يعني: الأجداد، الآباء في زمن نوح -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن نوحاً -صلى الله عليه وسلم- يقال له: آدم الثاني، آدم الصغير؛ لأن جميع الناس الذين جاءوا من بعده كانوا من ذريته، كما قال الله -عز وجل-: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [سورة الإسراء:٣]، فهو آدم الصغير كما يقول بعض أهل العلم، فهنا {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أي: حملنا الآباء، {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}، فهذه آية أيضاً، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٦٤]، فجعل ذلك من جملة الآية، {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [سورة الشورى:٣٢]، كالجبال، لاحظْ: في ذلك الزمان، يعني ما حجم السفن؟، بينما السفن اليوم شيء هائل لا يقادر قدره، تعرفون السفن اليوم الضخمة تدخل فيها التريلات كأنها جراد، التريلة كأنها جرادة تدخل داخل السفينة وتُحمل وتصعد، وتحمل الناس وسيارات الناس، والبضائع وغير ذلك.

وهنا {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً} يقال فيه ما سبق -والله تعالى أعلم-، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}، **وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس**، فقوله: {فَأَنجَيْنَاهُ} أي: نوح -صلى الله عليه وسلم-، {وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} التي كانت معه، {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}، لاحظ ابن كثير دقيق، {وَجَعَلْنَاهَا} أي: السفينة، طيب أين هي؟ ابن كثير يريد أن يقول: السفن هذه التي نراها تذكرنا بتلك السفينة، فهذا تدريج من النوع إلى الجنس، ما هو النوع؟ السفينة التي حُملوا عليها {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} التي عملها نوح -صلى الله عليه وسلم-، {وَجَعَلْنَاهَا}، ابن كثير يقول: ليست تلك السفينة كما احتاج قتادة إلى أن يقول: كانت موجودة، إذا جعلناها فقط إلى أول الإسلام، يعني كأن قتادة يريد أن يقول -رحمه الله- وهذا توجيه للأقوال-: إنه لما بقيت إلى أول الإسلام بلغت آخر الأمم، فإذا شاهدها بعض الأمة تكون قد بقيت حتى وقف عليها أول هذه الأمة التي هي آخر الأمم وبعدها تقوم الساعة، {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}، ولا يلزم من ذلك أن يشاهدها كل أحد في كل زمان حتى في القرون الماضية، إنما يشاهدها خاصةٌ مع انعدام تقريباً في وسائل الإعلام في الأزمنة الغابرة، كم عدد الذين يشاهدونها لو فرض أنها موجودة؟، مع أننا نقول: إن الضمير لا يرجع إلى تلك السفينة بعينها أي أنها يلزم أن تكون موجودة، وإنما قلنا: إنه يرجع إلى تلك السفينة بعينها {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً} يعني ما وقع من التنجية فيها وغرق أولائك إلى آخره، وابن كثير يقول: **تدريج من الشخص** -سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام- **إلى الجنس** وهو السفن عموماً، فهذه آية، كما جعل الله -عز وجل- النار هذه تذكرنا بنار الآخرة، وجعلها تذكرة.

وهنا قال: **هذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى**: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [سورة الملك:٥]، يقصد أن السماء زينت بمصابيح وليست هذه المصابيح هي التي

تنزل على الشياطين ولكن نوعها كما يقول ابن كثير -رحمه الله-، وهي التي تخرج شهب منها، قطع منها، والله تعالى أعلم.

يعني كأن ابن كثير يرى أن النجوم تسقط لكن ليست هي التي وضعت زينة؛ لأن تلك لذلك الغرض وهو الزينة، أي منها ما يكون زينة، ومنها ما يكون رجوماً للشياطين، ولكن الظاهر -والله أعلم- أن الذي يسقط هو أجزاء من هذه النجوم فجُعلت هذه النجوم لهذه الأغراض: زينة، ويهتدي بها الناس، يعرفون بها الجهات في أسفارهم ونحو ذلك، وجعلها رجوماً للشياطين فتخرج منها تلك الشهب ويُرجموا بها، لا أن المقصود -والله أعلم- أن النجم يسقط على الشيطان، النجم ضخم كبير، والله أعلم.

وظاهر كلام ابن جرير الذي ذكره اختياراً أنها السفينة، {وَجَعَلْنَاهَا} باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، هذه الإضافة مفيدة، لكن قد يفهم منها أن هذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ففرق بين أن يكون الشيء له وجه من النظر، وبين أن يكون اختاره، وابن جرير كثيراً ما يذكر هذا، يقول: لو قيل كذا فهذا وجه، فهذا حسن، هذا قريب، هذا احتمال وجيه، إلى آخره، لكن لا يعني أنه اختاره في قوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وابتلاء قومه بطاعته، فكذبوه، فابتلاهم بالغرق ثم بعده بالحرق"[5].

إي يعني بالنار، يعني أن الله ابتلاهم بالغرق ثم بعد ذلك بالنار، {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [سورة نوح:٢٥] الفاء للتعقيب المباشر، واستدل بها على عذاب القبر، البرزخ.

وقال -رحمه الله-: "ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته، ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم، ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله، ثم ذكر ما ابتلى به عاداً وثموداً وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات، ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض وأخبرهم أن مرجعهم إليه فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه، ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوئهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله وكانت مَبَاء لهم بأن بوأهم داراً أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم، ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق، فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها، ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلى دار الحيوان

---

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، لابن القيم (٢٤٧).

والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتُّع وسوف يعلمون عند النقلة منها"[٦].

هذا جيد، هذا مفيد جداً فيما يتعلق بربط أجزاء السورة بأولها، يعني كأن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: هذه السورة هي سورة الابتلاء، الموضوع الرئيس فيها هو موضوع الابتلاء، {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، ثم بعد ذلك ذكر نماذج لهذا الابتلاء مما وقع لنوح -صلى الله عليه وسلم- ومَن بعده من الأنبياء إلى نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وما وقع لأولائك المكذبين وهكذا، بهذه الطريقة في الربط، فهذا له وجه جيد من النظر واضح ظاهر كما ترون في ربط أجزاء السورة بموضوع متحد، فهو حسن جيد ما لم يكن تكلفاً، وأحياناً يحصل تكلف في جمع أجزاء السورة ذات الموضوعات التي قد لا يكون هناك ترابط بينها إلا في موضوع كبير لا يخرج منه شيء في القرآن كأن تقول مثلاً: موضوع هذه السورة التقوى، كل موضوع سور القرآن التقوى، وإذا أعياك شيء قل التقوى، فالمأمورات والمنهيات كل ذلك داخل تحت التقوى، فمثل هذا فيه تكلف، ولا حاجة إليه، وموضوعات سور القرآن منها ما يرجع إلى موضوع واحد، ومنها ما يرجع إلى موضوعين، ومنها ما يرجع إلى ثلاثة، نزلت في أوقات مختلفة في قضايا متنوعة، فلا حاجة إلى التكلف، يعني الله -عز وجل- علمنا، علم نبيه -صلى الله عليه وسلم-، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص:٨٦]، التكلف في كل شيء غير جيد لا يصلح، لا في العلم، ولا في العمل، فإن كان الربط بهذه الطريقة فهذا مقبول، وإن كان على وجه من التكلف فهذا مذموم، ويُخشى أن يكون من القول على الله بلا علم؛ لأن ذلك داخل في جملة التفسير، والله تعالى أعلم.

{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [سورة العنكبوت:١٦-١٨].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْدٍ لها غيره، فقال لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} أي: أخلصوا له العبادة والخوف، {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة.

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم، هكذا روى العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والسدي.

وروى الوالبي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: وتصنعون إفكا أي: تنحتونها أصناما.

---

٦ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، لابن القيم (٢٤٧).

يعني الآن في قوله: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} من أهل العلم من فرق بين الوثن، والصنم باعتبار المادة التي يصنع منها هذا وهذا، وبعضهم يقول: الصنم ما كان من المعادن من الذهب أو الفضة أو نحو ذلك، كالنحاس، والوثن ما كان من الآجر أو الخشب أو الطين والجص ونحو ذلك، هذا الوثن، وبعضهم يقول: إن الصنم ما كان على هيئة مصور بصورة إنسان أو صورة حيوان كأبي الهول ونحوه، والوثن ما كان من غيره كأن يكون شجرة العزى مثلاً، وقد يكون بيتاً يعبد ويطاف به كما يطاف بالكعبة، وقد يكون قبراً، وقد يكون خِرَقاً يتبرك الناس بها أو حجراً يتبركون به، أو نحو ذلك، فهذا الوثن، {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا}.

وروى الوالبي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: وتصنعون إفكا، أي: تنحتونها أصناماً وهي لا تملك لكم رزقاً.

يعني الآن {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، هنا قال: **وتصنعون إفكاً** أي: **تنحتونها أصناماً**، {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ}، الخلق هنا بمعنى التصوير والتشكيل، فهم الذين يعملونها بأيديهم فيجعلونها على صورة إنسان أو صورة طائر، أو صورة أسد أو نحو ذلك، {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، فهذه التي ينحتونها ويجعلونها بهذه الصفة ويقولون: هذه آلهة، هم يخلقون إفكاً، يعني حينما يصورونها ويصنعونها ويدّعون لها هذه الدعوى، {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، فهو يريد أن يقول: تنحتونها أصناماً، يعني تصنعون إفكاً، تنحتونها أصناماً، فهذه المصنوعات هي إفك، تصنعها أيديكم وتعبدونها من دون الله، فهذه إفك مصنوع تعملونه بأيديكم، أنتم تعبدون أصناماً، يقول لهم: وتخلقون إفكاً، تصنعونها بأيديكم، وهذه المصنوعات هي إفك حيث جُعل لها من الخصائص والأوصاف ما لا يصلح إلا لله -تبارك وتعالى-، يعني تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها، وقريب من هذا قول من قال: إنكم تصنعونها وتعملونها للإفك، يعني: لهذه الدعوى الكبيرة العريضة أنها تقربكم إلى الله زلفى، أو أن لها تدبيراً وتأثيراً، ويتقربون إليها بألوان العبادات وهذا أمر في غاية العجب، ولكنها القلوب إذا زاغت عن الحق، والبصائر إذا عميت، والضلالة إذا حلت حصلت مثل هذه الأمور التي لا يكاد يصدقها الإنسان بعقله، وإذا سافرت إلى بلاد شاسعة واسعة رأيت العجب العجاب، وصارت هذه الآيات كأنها تنزل الآن، كيف وصلت العقول إلى هذا المستوى؟!، اذهب إلى بلاد الهند مثلاً، شيء هائل، أنواع المعبودات التي تعد بالملايين تعبد من دون الله -عز وجل-، وينحتونها، وتوجد أسواق ومحال وجهات مخصوصة، هذه لآلهة الفقراء تصنع من الخشب والأشياء الرخيصة من المعادن التي يقال لها: المعادن الخسيسة كالحديد ونحوه، وهناك آلهة تصنع للطبقة والفئة العليا للأغنياء والأثرياء والكبراء فهذه تصنع صناعة خاصة، وبمواصفات خاصة وبمعادن نفيسة وتباع بغالي الأثمان، ويأتون يشترون هذه الآلهة ويعبدونها، وإذا نظرت إلى تلك الآلهة تجد عجائب، هذا من خشب ومنحوت وبطريقة معينة وكأنه شايب، وهذا كأنه شاب، وهذا إله للتناسل، وهذا إله لكذا، وهذه كبار جداً، وهذه صغار، شيء صغير ينقله بالأسفار معه، يخف حمله...، وبيوت للفئران تبعد من دون الله -عز وجل-، ويوضع لها الحليب وكذا، ويأتي الناس ويعبدونها، وبيوت لكل ما هب ودب ودرج، كل ذلك يعبد من دون الله -تبارك وتعالى-، ويكفيك العرب كيف كانوا! الواحد يصنع صنماً من تمر أو لربما حلب الشاة على التراب وجعل منه صنماً ثم عبده حينما

ينزل في محل لا يجد فيه ما يعبده، -نسأل الله العافية-، فهذا كله واقع، فهذا إفك، -والله المستعان-، والدعاء لهذه الآلهة التي يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها، ولا عجب أن ترى هؤلاء في غاية الفقر ويأتي الواحد ببقرته التي لا يملك غيرها، وقد نذرها لهذا الحجر أو الصنم أو القبر الذي يعبد من دون الله -تبارك وتعالى- فهذا وثن، وأحياناً هذا القبر لا حقيقة له، أصلاً لا يوجد فيه ميت، وأحياناً يوجد فيه نصراني كما وُجد وعرف هذا كثيراً، ووجد في الجزائر، حُفرت بعض هذه القبور فوجدت فيها الصلبان، واكتُشف أنها قبور نصارى كان يدعى أنها قبور أولياء، وكم يدعى من قبور للحسين -عليه الصلاة والسلام- في القاهرة وبلاد الشام وغير ذلك، وقبور يقولون: إنها عبارة عن مقامات أو مشاهد للرؤيا، بمعنى أنه رأى واحد أنه يوضع هنا مشهد، فجاء وبنى مشهداً والمكان لا يوجد فيه قبر، وبعض هؤلاء كذاب دجال ادُّعيت له الولاية، كان قاطع طريق وسارقاً ثم تظاهر لما اكتُشف بشيء من الجنون، وقيد بالسلاسل، ثم بعد ذلك ادعيت له الولاية وظهرت يعني بعض الدعايات ونحو ذلك فصدق من صدق، وهكذا أيضاً هناك أحجار حتى إنه جاءهم بعض أهل العلم وجلسوا عندهم ما يقرب من أربعة أشهر، وبعض الذين جاءوا علماء وجلسوا عندهم، فكان الرد أن قالوا له: يا مطوع جلستم أو ما جلستم ما نحن بتاركين دينَنا، حجر يضعون عليه السمن والعسل ويذبحون عنده، حجر -صخرة- في بعض النواحي في البادية قبل سنين، وذهب لهم علماء معروفون لو سميت لكم أسماءهم الآن، جلسوا أربعة أشهر تقريباً يعلمونهم، في الأخير قالوا لهم هذا الرد: يا مطوع ما نحن بتاركي دينِنا، "روحوا وراكم" يعني اذهبوا انصرفوا وهذا هنا في جزيرة العرب، فإذا ابتعد الناس عن دين الله -عز وجل- وانكمشت الدعوة ظهر السحر وظهرت مثل هذه الضلالات وكثرت، وانظر في مصر وفي غيرها من البلاد، أمام الأزهر، فمشهد الحسين قدام الأزهر يعبد من دون الله -عز وجل-، مثل هذا كيف يقع؟! أنا ما رأيته لكن لا أتصور هذا، لا أتخيل المشهد، يعبد من دون الله كيف؟! ولا أتصور هؤلاء الذين يدخلون صباح مساء عبر القرون المتطاولة، أكثر من ألف سنة، علماء كل يوم يدخلون ويخرجون وهم يرونه أمامهم، فهو ما له هذه المدة لكن عبر القرون على الأقل، وانظروا إلى الضجة التي اليوم تُثار في تلك البلاد حول هذه الأوثان، وكلام ذلك المفتي البائس أن هذا من صحيح الإسلام، لاحظ تقديم كلمة صحيح على الإسلام، صحيح الإسلام، على سبيل المبالغة، أنه من صحيح الإسلام، الوثنية هذه من صحيح الإسلام، ويهدد ويتوعد الموحدين الذين يبينون للناس هذه الضلالات، -نسأل الله العافية-، الذي يقول هذا: المفتي.

{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة:٥]، {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [سورة التحريم:١١].

يعني ابتغوا، ما قال: ابتغوا الرزق عند الله، لو قال هذا يمكن أن يفهم ابتغوا الرزق عند الله وعند غيره، لكن {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} تقديم الجار والمجرور يفيد هذا الحصر، ابتغوا عنده لا عند غيره، وهؤلاء الذين يعبدون هذه الأوثان والأصنام يُضلَّلون، تضللهم الشياطين، ولهذا لما تقرءون في أخبار الأصنام عند العرب مثلاً في كتاب "أصنام" لابن الكلبي، وكذلك بعض الكتب مثل "تاريخ جزيرة العرب"، أو "الجزيرة العربية" لعلي جواد، وأمثال هذه الكتب تجدون أن بعض هذه الأصنام -بعض هذه المعبودات- كان ينطق فيها شيطان، يسمعون من يرد عليهم، ويكلمهم، فيُفتنون بسبب هذا، وتعرفون في قصة العزى لما أرسل لها النبي

-صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد فقطع السَّمُرات ورجع للنبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه ما فعل شيئاً، ثم رجع ثانية فوجد امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول وتدعو بالويل فعلاها بالسيف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك العزى))[7]، يعني هذه شيطانة تضلل الناس، فيفتن الناس حينما يسمعون مثل هذا، والشياطين لا تفتأ بهذا التضليل، ولا تترك سبيلاً تضلل به الناس إلا فعلته.

ولهذا قال: {فَابْتَغُوا} أي: فاطلبوا {عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئا، {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ} قال: يُعزي نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ}، وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً.

يعني بهذا الاعتبار {وَإِنْ تُكَذِّبُوا} أن هذا موجه لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ} فيكون هذا من الموصول لفظاً المفصول معنى، يعني الكلام السابق في الكلام على ما جرى من إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مع قومه حينما قال لهم: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}، {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ} يعني: أن ذلك موجه لهذه الأمة، فصل الكلام عما قبله، ليس أنه من كلام إبراهيم، وإنما هو من كلام الله -عز وجل- يخاطب الناس بهذا، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} يعني عفواً: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: اعبدوا الله واشكروه وابتغوا عنده الرزق، وقوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والسياق في ذكر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فيكون من جملة خطابه لهم، ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل- وجّهه للمشركين، فهنا يقول: وقال قتادة: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا} قال: يعزي نبيه -صلى الله عليه وسلم-، يعني أنه انقطع الكلام، قال: **وهكذا نص على ذلك ابن جرير -رحمه الله.**

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل -عليه السلام- يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} إلى آخره، فهذا ظاهر السياق، أنه من بقية كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والأصل في الكلام الاتصال أو الانفصال؟ الاتصال، ولا يوجد مانع يمنع من ذلك، وهذا له نظائر ذكرتها في مناسبات متعددة، مثل قول امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف:٥٢] باعتبار أنه من كلامها، ويحتمل أنه من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم-، وفي ملكة اليمن بلقيس لما

---

٧ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٩٠٢).

قالت: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} [سورة النمل:٣٤] قال: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، يحتمل أنه من كلامها، أو أنه من كلام الله يصدق كلامها، إلى غير ذلك من الأمثلة، هذا الذي يقال له: الموصول لفظاً المفصول معنى، والأصل في الكلام الاتصال، أنه من كلام متكلم واحد، وهكذا في قوله تعالى لما ذكر المناظرة بين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقومه، ماذا قال لهم؟ قال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ} [سورة الأنعام:٨١]، ثم قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، هل هذا من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- من بقيته أو هو من كلام الله حكَمَ بين الطائفتين بين الفريقين؟ يحتمل، وقد يكون هذا في آية مستقلة، وقد يكون بجزء من آية كخاتمتها وقد يكون هذا بأكثر من ذلك، بمقطع أحياناً، ومضى الكلام على شيء من هذا في سورة البقرة، وما ذكره ابن جرير -رحمه الله- حيث يرى بأن ذلك موجه إلى بني إسرائيل، حتى قصة آدم مع إبليس وإخراجه من الجنة...إلخ، وقصة خلق آدم وما إلى ذلك، أن هذا كله خطاب لبني إسرائيل.

{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة العنكبوت:١٩-٢٣].

يقول تعالى مخبرًا عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكوراً، ثم وُجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبَرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧].

ثم قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ} أي: يوم القيامة، {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **يقول تعالى مخبراً عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد**، هذا بناءً على ما سبق، يعني الآية التي مضت في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، يعني هل هذا من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو هو من كلام الله -تبارك وتعالى- يُوجَّه إلى الذين خوطبوا بهذا القرآن؟، وإذا كان الأول يعني هذه الآية من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أيضاً يحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل-، أو من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-،

فيكون الكلام لا زال متصلاً لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فهنا من أهل العلم من يقول: هو من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يظهر جلياً على القراءة الأخرى المتواترة {أَوَلَمْ تَرَوْا} فيكون هذا واضحاً أنه من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع أنه ليس بقاطع، يعني إذا قلنا: إن قوله مثلاً: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ} موجه لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، فكذلك يكون {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، وإذا قلنا: الأصل في الكلام الاتصال وأنه من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأن خبره لم ينقضِ بعد؛ لأن الله قال بعد ذلك: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} [سورة العنكبوت:٢٤]، يعني: بعدما قال لهم ووعظهم وذكّرهم وأمرهم ونهاهم، وذكر لهم دلائل التوحيد، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا} كذا وكذا، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله-: يقول تعالى مخبراً عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم...إلى آخره، وعلى قراءة {أَوَلَمْ يَرَوْا} لا إشكال أن يكون من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك من قبيل الالتفات فهو تنويع في الخطاب، وهذا معروف وله نظائر، يعني يلتفت من المخاطب إلى الغائب، {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة:١-٥] فهنا التفت من الغائب إلى المخاطب، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} [سورة يونس:٢٢] هذا التفات من المخاطب إلى الغائب، {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ}.

ثم إن قوله هنا: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أن المقصود بقوله: {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ} أي: يبتدئ ذلك وينشئه أول مرة، ثم يعيده بعد ذلك بالبعث، فالنشأة الأولى دليل على البعث، وهذا يحتج الله -عز وجل- به في القرآن كثيراً على المشركين، وهو أحد دلائل البعث، الاحتجاج عليهم بالنشأة الأولى، وذلك أهون عليه أي: هيّن عليه، كما قال -تبارك وتعالى-، أو باعتبار المخاطبين: أن ما كان مبتدأً أصعب مما كان مُعاداً، فهنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، يعني الإيجاد، فهنا {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} يوجده ثم الذي أوجد قادر على الإعادة، أوجدهم من العدم، فهذا النبات أرض قاحلة ما فيها شيء، يوجد فيها نبات أخضر من أين جاء؟ هذا الإنسان لم يكن موجوداً ثم ولد ووجد، وهو سميع بصير حي، ومن أهل العلم من يحمل هذا على معنى آخر، كابن جرير -رحمه الله- فهو يرى أن قوله: {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} يعني: يستأنف الله خلق الأشياء، فيبدأ الإنسان طفلاً صغيراً، ثم بعد ذلك ينمو، ويشب، يصير غلاماً يافعاً ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً، يُبدئ الله الخلق، يبدأ صغيراً حتى يكتمل، ثم يرجع ثم يعيده، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [سورة التين:٥] على بعض الوجوه في تفسيره، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة الحج:٥] يرد إلى أرذل العمر، يبدأ صغيراً حتى يكتمل ثم بعد ذلك يبدأ بالتلاشي والضعف حتى يصير إلى تلك الحال، إلى ضعف وشيبة، هكذا قال ابن جرير -رحمه الله-، يُبدئ الله الخلق ثم يعيده، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره ابن كثير، أن المقصود الإيجاد فهو دليل وبرهان على البعث، والإعادة ثانية بعدما تفرقت أجزاؤهم في التراب واضمحلت، وهذا

كثير في القرآن، {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا} [سورة الإسراء:٥١]، المقصود البعث والنشور، وتارة يحتج عليهم بخلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلقهم، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [سورة الإسراء:٩٩]، فهذا كله من دلائل البعث، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}، هذا أيضاً يؤكد المعنى السابق لمّا قال لهم: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، قال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} بحيث ينظرون كيف بدأ الله الخلق، كيف أوجد الأشياء وخلقها ونحو ذلك، وهذا السير إنما هو لمن يحتاج إليه، هذا يحتج به بعض الناس على زيارة الآثار وأماكن المعذبين ونحو ذلك، والجواب: أن هذا إنما يُؤمر به في القرآن حيث ورد عند من يحتاج إلى ذلك، يعني عنده شك فيقال له: اذهب انظر إلى أماكن بقايا هؤلاء، يعني سِرْ في الأرض فترى خلق الله، ودلائل قدرته، ونحو ذلك، وإلا فما كان الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يذهبون ويزورون هذه الأماكن، ويتعنّون لها، ما كانوا يفعلون هذا، ولا أرشدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هذا، ولما ورد النبي -صلى الله عليه وسلم- على أرض المعذبين في الحِجر أسرع -صلى الله عليه وسلم-، ونهى عن دخولها -الدخول عليهم-، مع أنهم جاءوا من تبوك يعني ما قصدوهم، قال: ((إلا أن تكونوا باكين أو متباكين))[8]، يعني: خشية أن يصيبكم ما أصابهم، لكن من يحتاج إلى ذلك يرى، وأما من وقع له ذلك عرضاً فإنه يرى من دلائل القدرة ما ينشّط بذلك مثل هذه المعاني في قلبه ويحييها من جديد؛ لأن الإلف يذهب معه الأثر، يعني الآن رؤية الشمس وهي تطلع كل صباح وتغيب، والليل حينما يغشى بظلامه، والنهار حينما تسطع أنواره كل هذا يذهب ويتلاشى أثره مع الإلف، ولهذا بعضهم يقول: لو أن أحداً منذ ولد وهو في قبو ما رأى السماء ولا الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا البحار ولا رأى شيئاً، ثم بعد ذلك بعدما صار يدرك ويميز ويعرف ويفهم -وصل إلى سن يربط فيها بين الأشياء- ويفقه ويعرف المعاني والحقائق أُخرج ووضع، فبدأ في الصباح ورأى الشمس تبدأ تطلع فإنه يراقبها إلى أن تغيب، فإذا رأى الشفق لم ينقضِ عجبه فهاله ذلك المشهد وخاف، كأن ناراً مضطرمة تملأ الأفق، فإذا رأى النجوم تظهر في الليل فإن رأسه لا ينزل وهو يتأملها ويرقبها وينظر إليها فيتعجب من هذا المشهد في السماء، وهكذا حينما ينظر إلى الجبال، ينظر إلى البحر لا ينقضي عجبه منه، لكن الذي ألف هذه الأشياء لا يهتم، ولهذا حينما تسافر وتذهب إلى بعض الأماكن غير المألوفة بالنسبة إليك تشاهدها أول مرة وترى بعض الجبال في بعض المناطق بصور غريبة عجيبة، في طريقة قيامها وصخورها وتكورها في بعض المواضع واستطالتها في بعض المواضع بصور غير عادية، فحينما يشاهدها الإنسان ينبهر ويُحيي ذلك بقلبه من معاني القدرة ودلائلها الشيء الكثير، لكن الإلف هو الذي يُذهب هذا، فتجد من نشأ في تلك الناحية لا يحرك ذلك فيه ساكناً، ولهذا فإن الآيات المتلوة أيضاً قد يحصل ذلك معها أحياناً، فما يتدبر الإنسان ولا يقف عندها، فإذا وقعت الواقعة صارت هذه المعاني كأنما يسمعها أول مرة، ومصداق ذلك ما حصل لعمر -رضي الله عنه-

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، برقم (٤٣٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، برقم (٢٩٨٠).

ولأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرأ أبو بكر عليهم قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر:٣٠]، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [سورة آل عمران:١٤٤]، فعمر -رضي الله عنه- كأنها تنزل الآن، كأنه لم يقرأها من قبل، فالحاصل أن مثل هذا {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} هذا يحتمل أيضاً أنه من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} ويحتمل أنه لهذه الأمة، أو أمرٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أمر لأمته، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وذلك بناءً على ما سبق من قوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ} فيكون الكلام الذي بعده موجهاً لهذه الأمة، وعلى طريقة ابن كثير التي مشى عليها أن هذا كله من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فَعَدْلٌ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: ((إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم))[٩]، ولهذا قال تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه.

{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ} أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، {أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي} أي: لا نصيب لهم فيها، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: موجع في الدنيا والآخرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} ابن كثير -رحمه الله- قال: **أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه**، وهذا تفسير جيد، فالخطاب لمجموع الخلق، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}، لا يعجزه شيء -تبارك وتعالى- لا أهل السماوات ولا أهل الأرض، يعني: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} يعني: في الأرض، ولا أهل السماء بمعجزين فيها، كما يقول الفرَّاء.

وبعضهم يقول: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} لو كنتم فيها، يعني أنتم لا تعجزون الله -تبارك وتعالى- في أي مكان كنتم، في الأرض أو في السماء -لو كنتم في السماء-، والأول هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ}، ولا أهل السماء بمعجزين فيها، وهذا مثل كلام ابن كثير -رحمه الله-: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، إلا أن عبارة ابن كثير أبسط وأقصر.

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في القدر، برقم (٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٥٨٩)، وقال محققوه: "إسناده قوي، سعيد بن سنان صدوق لا بأس به، وباقي رجاله ثقات، وهو موقوف من حديث أُبيّ بن كعب وابن مسعود وحذيفة بن اليمان، ومرفوع من حديث زيد بن ثابت، سفيان: هو الثوري، وابن الديلمي: هو عبد الله بن فيروز"، وصححه الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٥٠٩).

قال: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ}، الآيات هذه تحتمل أن تكون الآيات التنزيلية، وتحتمل أن تكون الآيات التكوينية، يعني الآيات التنزيلية هذا القرآن، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، كفروا بهذا القرآن، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ} [سورة فصلت:٤١]، ويحتمل أن تكون هذه الآيات التكوينية -الآيات الكونية-، مثل كفرهم بآيات الله التي تأتي على يد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مثل ناقة صالح -صلى الله عليه وسلم-، والآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام-، إلى غير ذلك، وما يشاهد أيضاً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وما أشبه ذلك، فهذا كله داخل فيه {كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، ويحتمل أن يكون المقصود مجموع الأمرين، يكون مجموع الأمرين، كفروا بهذا أو هذا فهم متوعَّدون، ووصفهم الله بما وصفهم به {أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي} أي: لا نصيب لهم فيها، تحتمل الرحمة هنا أن يراد بها الجنة، يعني أنهم يئسوا منها مثلاً في الدنيا، وتحتمل أنهم يئسوا منها في الآخرة لمّا عاينوا وشاهدوا وعرفوا مصيرهم، عاينوا العذاب، يئسوا منها في الآخرة كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فالحاصل أن الرحمة يحتمل أن يكون المراد بها الجنة ((أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء))[١٠]، ويحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من ذلك -والله المستعان-، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [سورة الممتحنة:١٣]، {يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ} المعنى: يعني يئسوا إما من رحمة الله وثوابه في الآخرة لمّا عاينوا الحقائق كما يئس الكفار من رحمة الله، عفواً: يئسوا من الآخرة: من رحمة الله فيها، يعني هؤلاء اليهود {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}، يئس الكفار الموتى لما عاينوا الحقائق يئسوا من ثواب الله في الآخرة، يعني اليأس هنا متحد، هؤلاء اليهود يئسوا وهم أحياء من ثواب الله في الآخرة وجزائه الجنة كيأس الموتى من الكفار من ثواب الله في الآخرة لما عاينوا الحقائق، وإن كان هناك يحتمل معنى آخر أيضاً، {يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ} الأحياء من موتاهم أن يرجعوا إليهم، {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} يئسوا من إخوانهم من موتاهم أن يرجعوا إليهم ثانية، قالوا: الذي يموت خلاص ما يرجع ولا يبعث، ولا تُجمع أجزاؤه وما تفرق منها في الأرض، -والله أعلم-.

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق:٣٠]، برقم (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (٢٤) إلى الآية (٣٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

قال الله -سبحانه وتعالى-: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٢٤-٢٥].

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان {إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ}، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ} [سورة الصافات:٩٧-٩٨]**، وذلك أنهم حَشَدوا في جمعِ أحطابٍ عظيمة مدة طويلة، وحَوّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفَّة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالما بعدما مكث فيها أياما، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسَخَا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.**

وقوله: {فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ} أي: سلَّمه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخا على سوء صنيعهم في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقةً وألفةً منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا، فــ {يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ} أي: تتجاحدون ما كان بينكم، {وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [سورة الأعراف:٣٨]**، وقال تعالى: {الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ}** [سورة الزخرف:٦٧]**، وقال هاهنا {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ} الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عَرَصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، قوله: {مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} فيه ثلاث قراءات متواترة، فقد قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي {مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ}، وهذه القراءة ذكر بعضهم لها وجهين، يعني وجّهها بتوجيهين، التوجيه الأول: باعتبار أن "ما" موصولة، {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ} "إنما" يعني: إن الذي {اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ}، فتكون مرفوعة باعتبار أنها خبر "إنّ"، أو يكون ذلك -أعني قراءة الرفع- باعتبار أنها خبر لمبتدأ مضمر، خبر لمبتدأ مقدر، والقراءة الثانية: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ}، فهذه قرأ بها أيضاً جماعة، فمن السبعة نافع، وبها قرأ أبو عمرو، وهي رواية أبي بكر {مَوَدَّةً}، وهذه باعتبار أنها مفعول لأجله، يعني اتخذتم من دون الله أوثاناً، ماذا يريدون بهذه الأوثان؟ لأجل المودة، {مَوَدَّةً}، أو باعتبار أنها مفعول لاتخذتم، {اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ}، والقراءة التي نقرأ بها قراءة حفص وحمزة {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ}، فهذه ثلاث قراءات، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه القراءة بما تقدم.

يقول: **إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا**، فيكون هذا معنى اتخاذ هذه المعبودات من دون الله -عز وجل- مودة، والمعاني والتوجيهات التي ذكرت في القراءات الثلاث كلها لا ينافي هذا المعنى، سواء قيل: اتخذوها مودة أو لأجل المودة، فهم يدورون حول هذا المعنى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي تتجاحدون ما كان بينكم، هذا التجاحد يحصل بين الأتباع والمتبوعين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [سورة البقرة:١٦٦-١٦٧]، فهذا من التجاحد، وبعض أهل العلم يقول: هذا الكفر الذي ذكره الله هنا {يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} يعني: أنه واقع بين المعبودات والعابدين، {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [سورة القصص:٦٣]؛ لأنه هنا ذكر أنهم اتخذوا هذه الأوثان معبودات من دون الله -عز وجل-، فيحصل هذا التجاحد، ومن نظر إلى أنهم فعلوا ذلك من أجل التوادّ فيما بينهم فسرها بما سبق من أن ذلك يتحول إلى عداوة يوم القيامة، فهم اجتمعوا على عبادتها في الدنيا ثم في الآخرة يكفر بعضهم ببعض، كل واحد -نسأل الله العافية- يتبرأ من الآخر إذا وقع في مغبّة عمله السيئ، وعند ذلك يريد الخلاص ويتبرأ من أولائك الذين دعوه أو شاركوه في عمله القبيح، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا عما يحصل من كفر المعبودين بالعابدين، والعكس، وكذلك أيضاً كفر الأتباع بالمتبوعين، والعكس، فكل ذلك واقع، وقول من قال: إن ذلك يقع بينهم، يعني أنه ليس المراد المعبودات مع عابديها قد يؤيده ظاهر قوله -تبارك وتعالى- على سبيل الخطاب لهم؛ لأن هذا من قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، يقول لهم: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} يعني: يتبرأ بعضكم من بعض، مع أن ذلك لا يبعد معه ما ذكر من تبرؤ المعبودين من عابديهم، ولو قيل: إن ذلك جميعاً يدخل في الآية -لأن الله لم يحدد شيئاً من هذا وقد دل القرآن على ذلك جميعاً- لم يكن ذلك بعيداً، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ}، وأيضاً مأوى الأوثان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء:٨٩]، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم:٦]، بعضهم قال: المراد بالحجارة هي المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى.

{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٢٦-٢٧].

قال المؤلف -رحمه الله-: يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون: هو لوط بن هاران بن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح: ((أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: إنك أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين))[1]، وكأن المراد من هذا -والله أعلم- أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً -عليه السلام- آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسِل في حياة الخليل إلى أهل "سَدَوم" وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله: {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} يحتمل عود الضمير في قوله: {وَقَالَ} على لوط، لأنه أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قاله ابن عباس، والضحاك، وهو المُكنَّى عنه بقوله: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} أي: من قومه.

وهذا الذي اختاره ابن جرير وبه قال قتادة وإبراهيم النخعي قبله، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولكن الحديث أصلاً عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فهو المخبر عنه، قال: {فَآمَنَ لَهُ} أي: لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقال إبراهيم: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ}، أي لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ} يعني: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ}، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ} أيضاً كذلك، وهكذا ما قبله أيضاً، {وَقَالَ} أي: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} إلى آخره، فهذا كله في إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والقاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فاجتمع عندنا هذا وهذا، يعني اجتمع عندنا قاعدة الضمير يرجع إلى أقرب مذكور فيكون المراد لوطاً -عليه الصلاة والسلام- لهذا الاعتبار، واجتمع أيضاً القاعدة الأخرى وهي أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فيرجح باعتبار السياق، فالسياق كله في إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبهذا الاعتبار يقال: إن ترجيح قاعدة توحيد مرجع الضمائر أولى من حمل المعنى على لوط -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

---

١ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، برقم (٢٢١٧).

قال -رحمه الله-: ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ} أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية.

وقال قتادة: هاجرا جميعا من "كوثى" وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}، كقوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [سورة مريم:٤٩] **أي: إنه لما فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولدٍ صالحٍ نبيٍّ، ووُلد له ولدٌ صالح في حياة جده، وكذلك قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}** [سورة الأنبياء:٧٢] **أي: زيادة، كما قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} أي: ويولَد لهذا الولد ولدٌ في حياتكما، تقر به أعينكما.**

الله يقول: **{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}** [سورة مريم:٤٩]، وهنا لما قال لهم: **{إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}**، ونابذهم وتركهم، ترك الأهل والوطن والعشيرة وهبه الله -تبارك وتعالى- من الولد ما تقر به عينه، وينسيه الأهل والوطن والعشيرة، ((إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ))[2]، وهذا المعنى أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مناسبات سابقة -مضى الكلام على هذا-، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في كتابه "القواعد الحسان" عقد لها قاعدة أو عنواناً بما ذكرتُ أو قريباً منه "من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً" وذكر أمثله على ذلك من القرآن، والله المستعان.

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، هذه خِلْعَة سَنِية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلا وجعله للناس إماما، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم -عليه السلام- إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم -عليهم السلام-، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، -عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}**، هذا كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}** [سورة الحديد:٢٦]، وقد سبق الكلام على كون البشر جميعاً من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك يقول عنه -صلى الله عليه وسلم- إنه آدم الصغير، فجعل الله ذريته هم الباقين، ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم-، فكل من بقي بعد الطوفان ممن تناسل ووجد من البشر هو من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، وبعض أهل العلم يقول: إن الذين ركبوا معه في السفينة هذا النفر القليل هم أولاده وليس كل الأولاد، أحد هؤلاء الأولاد قص الله خبره وما حصل له من الغرق، قالوا: هم من آمن من أولاده، وأيضاً ركب معه أزواج بناته، فيكون الذين وجدوا بعد ذلك هم من نسل هؤلاء، وحتى لو ركب معه غيرهم أو وُجد من أهل الإيمان ممن لم يكونوا من نسله فإن نسله هو الذي بقي، فنوح -عليه

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٠٧٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وقال الإمام الألباني -رحمه الله- في السلسلة الضعيفة في آخر تعليقه على الحديث رقم (٥): "... نعم صح الحديث بدون قوله في آخره: "في دينه ودنياه"".

الصلاة والسلام- كلُّ نبي جاء بعده، بل كل بشر تناسل من بعده فهو من ذريته، فكل الأنبياء بعد نوح -صلى الله عليه وسلم- فهم من ذريته، وأما إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فكل الأنبياء الذين جاءوا من بعده فهم من ذريته لا كل البشر.

قال -رحمه الله-: وقوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٢٧] أي: **جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيء والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}** [سورة النجم:٣٧]، أي: **قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}، كما قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} إلى قوله: {وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** [سورة النحل:١٢٠-١٢١].

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}** حيث ذكر الحافظ -رحمه الله- أن الله جمع له بين سعادة الدنيا ثم عدد صوراً لهذه السعادة من الرزق الواسع الهنيء والمنزل الرحب والمورد العذب والزوجة الحسناء الصالحة، والثناء الجميل والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كل هذه أقوال للسلف في تفسير قوله: **{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}**، فتجدونها مفرقة في المروي عنهم، ولهذا كان من محاسن هذا التفسير أنه يجمع هذه الأقوال التي هي من قبيل اختلاف التنوع، فما ذكره كل واحد من هؤلاء يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، **{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}** ما المراد به؟، جعل له لسان صدق في العالمين، في الآخرين، آتاه زوجة ذات حسن، كل أحد يتولاه، كل هذه المعاني صحيحة، فهذا مما أعطيه في الدنيا وعُجل له، مع موفور الجزاء والثواب في الآخرة، واضح هذا؟، فإذا طالعت في كتب التفسير ونظرت في هذا الموضع عرفت قيمة هذا الكتاب، وهذا له نظائر كثيرة، قد أنبه على هذا في كثير من المواضع وقد لا أشير إليه ولكنه كثير، وهذه هي الطريقة الصحيحة في التفسير التي لا يحصل فيها تشتيت للقارئ، وإنما تجمع له الأقوال التي يمكن أن تجتمع في معنى الآية، والله أعلم.

قال سبحانه: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [سورة العنكبوت:٢٨-٣٠].

قال -رحمه الله-: يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط -عليه السلام- إنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذّبون رسوله ويخالفونه، ويقطعون السبيل أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} أي: **يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون.**

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، الواو يمكن أن تكون عاطفة على ما سبق، فأول الكلام: الله -تبارك وتعالى- يقول فيه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [سورة العنكبوت:١٤] ثم قال بعد ذلك: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [سورة العنكبوت:١٦] يعني: أرسلنا نوحاً وأرسلنا إبراهيم ثم قال: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، يعني: أرسلنا لوطاً، ويحتمل أن يكون المعنى واذكر لوطاً، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، واذكر لوطاً إذ قال لقومه، فيكون متعلقاً بفعل مقدر محذوف.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، هنا قال: **ويقطعون السبيل** أي: **يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم**، يعني فسره بقطع الطريق المعروف، يعني فعل المحاربين، فعل المحاربين الذين يقفون في سبل الناس ويأخذون المال ويقتلون، يعني قطاع طرق، هذا الذي فسره به ابن كثير -رحمه الله-، وهو المتبادر إذا قيل: قطع السبيل، السبيل هو الطريق، {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}، وبعض أهل العلم حمله على معنى آخر، وذلك أنه ربطه بفعلهم القبيح، وهؤلاء تفرقت أقوالهم، فمنهم من قال: إنهم بفعلهم القبيح تسببوا في قطع النسل، بمعنى أنهم يأتون هذه الفاحشة ومن ثَمّ فإنهم يستغنون بذلك عن النكاح، فيكون ذلك قطعاً للنسل، وهذا بعيد وإن قال به بعض أهل العلم، فإن ذلك لا يقال له قطع السبيل، وإن فسر قوله -تبارك تعالى-: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [سورة عبس:٢٠] باعتبار أن معنى السبيل هناك يسر له الخروج من بطن أمه، سبيل الخروج، لكن الأقرب هناك أيضاً أن يفسر بسبيل الخير والشر، {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [سورة البلد:١٠]، طريق الخير وطريق الشر، ومن أهل العلم يعني من هؤلاء الذين ربطوه بهذه الفاحشة من قال: إن قطعهم السبيل أنهم كانوا يفجرون بمن يجتاز تلك الناحية، يقفون في طريق الناس وفي سبيلهم فمن مر بهم فجروا به، وبعض أهل العلم فسره بمثل هذا ولكنه قصد لازمه، قالوا: إنهم كانوا يقفون في طريق الناس ممن يمر بأرضهم ويفجرون بهم، فترك الناس المرور بها، فكان ذلك منهم قطعاً للسبيل، {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}، لكن لا يوجد ما يدل على هذا، أما تفسيره بقطع النسل فهذا بعيد، وأما كون هؤلاء أنهم يقطعون السبيل بفعل الفاحشة، قطاع طرق من أجل الفاحشة لا من أجل المال؛ لأن العادة أن قطع الطريق يكون من أجل المال ويحصل معه القتل من أجل المال، لا لأجل القتل وحده، وهذا الذي يذكرونه في قتل الغيلة، تعرفون أن كثيراً من الفقهاء مَن يفسره بهذا، الذي يقطع على الناس طريقهم فيقتلهم ليأخذ أموالهم، هذا الذي قال بعض أهل العلم: إنه لا تقبل فيه الدية إذا تنازل أولياء الدم، وليس المقصود هذا، والصحيح أن الدية تقبل، لكنه قد يقتل تعزيراً.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ} الأولى أن يفسر -والله أعلم- بما ذكره الحافظ ابن كثير أنهم يقطعون على الناس طريقهم، قطع الطريق معروف من أجل سلبهم، وهذا يدل على فسادهم المتناهي، فإن تلك الخصلة لا تكون إلا من أهل الإجرام، بلد ينتشر فيها الإجرام، لا يأمن فيها أحد، ويكفي أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- لما أتاه هؤلاء الضّيفان جاء إليه هؤلاء يهرعون يريدون أن يفعلوا بهم الفاحشة، فمعنى ذلك أنهم كانوا يفعلون ذلك من غير مواربة بمن يعرفون ومن لا يعرفون، ومن يوافقهم ومن لا يوافقهم، فهذا لا يُعرف لأمة بهذا الوصف من الأمم إطلاقاً إلى يومنا هذا، أمة هكذا يستغني الرجال بهذا الشذوذ ويفعلونه

علانية مجاهرة من غير استتار ولا حياء مع من يوافقهم ومن لا يوافقهم، مع من يرِد ذلك البلد بنص القرآن، هذا لا يعرف في أمة من الأمم، فكانوا أول من اخترع هذه الفاحشة، وهم أيضاً أول من جسدها بهذه الصورة الشنيعة التي لا تعرف لغيرهم إلى يومنا هذا، على كثرة ما يوجد من الفساد والانحراف في بني البشر إلا أنه بهذه الصورة لا يُعرف لأحد على مستوى أمة يتحول إلى هذه الحال، يوجد مجموعات يوجد أفراد، لكن أمة بهذا الشكل تتحول كلها!، فهذا معنى قطع السبيل، والله تعالى أعلم.

فقطع السبيل بمعنى اعتراض الناس في الطرق بهذا الفعل القبيح هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فصار قول ابن كثير أنه قطع الطريق المعروف، وأخذ المال، والقتل، وقول ابن جرير أنهم يقطعون الطريق بفعل الفاحشة.

{وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة -رضي الله عنها-، والقاسم، ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك.

هذا جمع جيد بين هذه الأقوال، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} النادي والنَّدِيّ والمنتدى كل ذلك بمعنى المجلس، يعني أنهم يأتون في مجالسهم بالمنكر، والله لم يحدد شيئاً من ذلك، فهذه الأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- لا حاجة لترجيح واحد منها فيقال: هذا هو المراد، فليس عندنا على ذلك دليل، وإنما ذكر الله أنهم يأتون في مجالسهم –يفعلون- المنكر، فيدخل في ذلك فعل الفاحشة وغيره من المنكر والقبائح التي ما كانوا يستحون من فعلها، فهذه بعض الأمثلة التي ذكرت، وبعضهم يذكر غير هذا أيضاً كالتصفير والتصفيق ونحو ذلك من أفعال السفهاء، فكل هذه الأشياء المذكورة هي من أفعال السفهاء، والمنكر -كما هو معروف- هو ما خالف المعروف، فما أنكره الله -تبارك وتعالى- وأنكره أهل الإيمان، وأنكرته الفطر السليمة والعقول الصحيحة كل هذا يقال له: منكر، ولهذا يمكن أن يقال: إن المنكر هو ما أنكره الشرع، إذ الشرع ينتظم النقل والعقل الصحيح، فذلك منكر، والمعروف يقابله ويشمل ذلك محابّ الله -تبارك وتعالى-، ولهذا يقولون: ما استحسنه الشرع، فإذا قيل: ما استحسنه الشرع فهذا يدخل فيه ما يحسن في مجاري العقول الصحيحة؛ لأن الدليل العقلي والنظر العقلي الصحيح هو من جملة أدلة الشرع، ولهذا قيل لأعرابي: بمَ عرفت أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، وما نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به.

وقوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: {رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [سورة العنكبوت:٣٠].

هنا الحافظ ابن كثير قبل ذلك قال: ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وهكذا بعضهم يقول: إنهم كانوا يحذفون بالحصباء يحذفون المارة، يعني يجلسون في مجالسهم فإذا مر بهم أحد حذفوه، من الاستخفاف بالناس، وبعضهم يقول: كانوا يستخفون بالغريب إذا جاء، يستهزئون به، وليس له

حرمة ولا حشمة، وبعضهم يقول: كانوا يلبسون المصبغات أو يصبغون أصابعهم بالحناء، وكل هذا مما يذكر، بعضهم يقول: يلعبون الشطرنج والنرد، فالمقصود أن هؤلاء في مجالسهم لا يتنزهون ولا يتورعون ولا يحتشمون، فيأتي منهم كل قبيح، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، مجالسهم مجالس منكرات، شأن السفهاء وسخفاء العقول، بخلاف أهل الإيمان وأهل المروءة فإن مجالسهم تُحفظ من هذا كله.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} هنا استعجلوا العذاب، في سورة النمل قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ} [سورة النمل:٥٦]، هذا جوابهم، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ}، لاحظ، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، وهناك {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ}، وهكذا في الأعراف {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ} [سورة الأعراف:٨٢]، ووجه الجمع بين هذا وهذا أن ذلك وقع منهم جميعاً، فكانت دعوته لهم -عليه الصلاة والسلام- مستمرة يدعوهم في كل مناسبة وفي كل حين، فقالوا له مستعجلين العذاب حينما خوفهم به: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، ثم بعد ذلك لما استثقلوا بقاءه بينهم قالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ}، فوقع منهم الاستعجال، هات العذاب الذي تعدنا به، وقالوا أيضاً: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، ويحتمل أن يكونوا بادروه بذلك {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ} ثم لما خوفهم بالعذاب قالوا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، المقصود أن هذا وقع منهم جميعاً، وهذا كما يروى عن عثمان -رضي الله تعالى عنه-: أن المرأة الزانية تحب أن النساء جميعاً يزنين، فأهل المنكر وأهل الباطل لا يحتملون وجود أهل الصلاح والفضل والطهر بينهم، وذلك أن وجود هؤلاء يوجه إليهم التهمة، ويجلي حالهم وما هم فيه من الفساد والظلمة، وبضدها تتميز الأشياء وتتبين، ولهذا فالمرأة المحجبة في بيئة متبرجة لا تطاق، والإنسان الذي يتنزه من شرب المسكر في بيئة يشربون المسكرات لا يطاق ويعير بهذا، والإنسان الذي يتنزه عن الفواحش في بيئة تفعل الفواحش أو مع صحبة يفعلون الفواحش ابتلي بهم في دراسة أو بعثة أو نحو ذلك فإنهم لا يحتملونه، وقد وُجد وحصل، وفي نهار رمضان يجتمعون عليه فيفتحون فمه ويصبون المسكر فيه، وحصل أيضاً أنهم يتفقون مع ملكة جمال الكلية، الكليات هناك يعمل لها مسابقات ملكات الجمال، يتفقون مع ملكة جمال الكلية ويقولون: عندنا حالة تحتاج إلى مساعدة إنسانية، عندنا زميل معقد، فنحتاج إلى مساعدة، ما هي المساعدة؟ أنها تحاول أن تغري هذا الشاب الذي يتنزه؛ لأنه معقد، يتنزه من الفواحش ولا يتعاطى شيئاً من ذلك، فيتفقون على أنها تأتي في وقت لا يكون أحد منهم فيه فتنفرد به، ثم بعد ذلك تتجرد من ملابسها أمامه وتغريه بالفاحشة، وحصل هذا، وفي بعض الحالات كان ذلك سبباً لإسلامها، تعجبت كيف الكل يتمناها، الشباب خلفها كيعاسيب النحل، كل واحد يطلب ودها، ويخطبه، وهذا يأبى وهي عنده وتعرض نفسها عليه، وتحاول به، ومع ذلك يعرض ويغض بصره ويأمرها بالخروج ويغضب، هذا غير طبيعي!، فتطلب منه شرح ذلك، ثم بعد ذلك بعدما تلبس يخبرها بأن دينه يمنعه من هذا، فيكون ذلك أول شيء يطرق سمعها عن العفاف، فيكون سبباً لإسلامها فيتزوجها هذا، هذا وُجد وحصل، حدثني بهذا بعض من كان آنذاك يدرس في بلاد الغرب، فمثل هذا لا يستغرب، أن أهل الباطل وأهل المنكر يكرهون ويستثقلون وجود أهل المعروف والصلاح بينهم، فإن ذلك يكون سبباً لضيق نفوسهم، وهو -كما مضى- إشارة إليهم بأصابع الاتهام، فهنا مباشرة قالوا:

{أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ}، {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ} والجريمة التي رموهم بها {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، الجريمة هي التطهر، هذه هي الجريمة التي فعلوها، -والله المستعان-، وتسمع اليوم في بعض البلاد بعض التهم الموجهة إلى بعض الناس أنهم رفعوا في الانتخابات الحل في الإسلام، أو الإسلام هو الحل، يسجنون بتهمة قلتَ هذا؟، قال: لا ما قلتُ هذا، رفعتَ هذا الشعار؟ ما رفعتُ هذا الشعار، هذا غير صحيح، هذه التهمة، الإسلام هو الحل، لكن إذا قال: الشيوعية هي الحل، أو قال: الديمقراطية هي الحل، أو نحوه، أو الحرية المطلقة هي الحل فهذه ليست جريمة، ولهذا لا يكاد يجرؤ أحد اليوم في ظل هذا السَّخب أن يقول: لا حكم إلا للشرع، والشرع هو المرجع وليس الشعب، والشرع هو مصدر السلطات وليس الشعب، من يجرؤ على هذا اليوم؟ أظنه سيضرب بالنعال -أعزكم الله- حتى يموت تعزيراً من تلك الجموع الغاضبة إلا من رحم الله -تبارك وتعالى-، والله المستعان.

قال سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة العنكبوت:٣١-٣٥].

قال المؤلف -رحمه الله-: لما استنصر لوط -عليه السلام- الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم -عليه السلام- في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نَكِرَهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة- فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة "هود" و"الحجر". فلما جاءت إبراهيمَ بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ}، {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودَبْرهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك {سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} أي: اهتمّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} قال: أي من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم، أي من الهالكين، كلمة الغابر تدل على معنيين متقابلين، {مِنَ الْغَابِرِينَ} يعني: من الذاهبين في الهلاك، وتدل على معنى آخر يقابل الذاهبين أي: إلا امرأته كانت من الباقين في الهلاك، ولكن المعنى في النهاية -في المآل- يرجع إلى شيء واحد وهو أنها بقيت في أرضهم فكان ذلك هلاكاً لها، فمن فسره بالذاهبين فهذا معنى صحيح، ومن قال: أي من الباقين في الهلاك فهذا معنى صحيح، وهذا مثال على حمل الآية على المعاني التي تحتملها وهي من قبيل المشترك الذي يحمل معاني متناقضة أو متضادة، فإن ذلك قد لا يجتمع كقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ} [سورة البقرة:٢٢٨]، وهنا لابد القروء الطهر أو الحيض، فلابد من تفسيره بواحد من هذين، ولا يمكن أن يجتمعا خلافاً لما قاله الشوكاني -رحمه الله-، وهذا

غريب جداً في غاية الغرابة أن ذلك مما يمكن أن يجتمع، هذا لا يمكن، لكن من الصور التي يمكن أن تجتمع: {مِنَ الْغَابِرِينَ} من الذاهبين أو من الباقين، فذهابها هلاكها، وبقاؤها أيضاً هلاك لها، بقيت مع من هلك، بقيت مع قومها فنزل بهم العذاب فكان ذلك ذهاباً لها، وابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك أنها كانت من الغابرين أي ممن تطاولت عليهم الدهور، ولهذا وصفها الله -عز وجل- بأنها عجوز، {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [سورة الصافات:١٣٥]، تطاولت عليها الدهور، تقادم عليها الدهر، تقدمت بها السن، وذهبت مع من هلك، فابن جرير -رحمه الله- فسره بهذا وهذا، أنها هالكة من بين أهل لوط -عليه الصلاة والسلام- وكذلك أيضاً أنها من الغابرين يعني بلغت من الكبر عتياً، مضى عليها زمان طويل في هذه الحياة، وأن الله أهلكها.

قال: فلما رآهم كذلك: {سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا}، معنى ضاق بهم ذرعاً أي قلت حيلته بهم، هذا معنى ضاق ذرعاً بالشيء، من قلت حيلته بشيء فقد ضاق ذرعه به، ضاق صدره، فضيق الذراع والذرع يقال: لقلة الحيلة والعجز عن التدبير، ليس عنده مساحة يتصرف فيها، ليس عنده خيارات من أجل أن يتصرف، فهذا يكنى به عن هذا المعنى، كما يكنى عن الفقر بضيق ذات اليد، فهنا ضيق الذراع، ضاق بهم ذرعاً، لم يكن هناك مجال للتحرك لإنقاذهم وتخليصهم من هؤلاء المجرمين، والله تعالى أعلم.

{وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ}، الخوف معروف، يكون مما يتصل بأمر مستقبل، قلق يساوره في أمر المستقبل، والحزن الأصل أنه يقال في أمر مضى، وقد يقال في غيره، وأهل الجنة يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤]، فإذا فسر الحزن الذي ذكروه في الجنة بمعنى الإشفاق من الآخرة، {قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [سورة الطور:٢٦] فيكون الحزن بهذا الاعتبار من أمر مستقبل، على هذا المعنى، على هذا التفسير، وهذا قليل، وإلا فالأصل أن يكون الحزن على أمر فائت، ولهذا يقال: إن الحزن لا يحمد إلا إذا كان ذلك مما يتصل بالآخرة إما ندماً على معصية مضت فذلك ركن التوبة، وإما من قبيل الإشفاق والخوف من الآخرة، الخوف من سوء الخاتمة وما شابه ذلك، فقد يقال لهذا بهذا الاعتبار عند بعض أهل العلم: حزن، لهذا فسر بعضهم بهذا المعنى الذي ذكرت قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، وقد لا يفسر بهذا، فالدنيا دار الكبد والأكدار والحزن، وليس هذا محل الكلام في الآية، لكن على كل حال قالوا له: {لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ} ابن جرير -رحمه الله- حمله على الحزن من هذا الخبر بهلاكهم، لا تخف فلن يصلوا إليك، ولا تحزن مما بشرناك به أو أخبرناك عنه من هلاك هؤلاء المجرمين، ولهذا يأمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [سورة النمل:٧٠]، فكان الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أكمل الناس شفقة على أقوامهم، فينهاه عن الحزن عليهم، لا تخف ولا تحزن على هؤلاء، ويمكن أن يكون ذلك بنفي الحزن عنه مطلقاً كما نفاه الله -عز وجل- عن أهل السعادة في الجنة عن أهل الإيمان، {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة يونس:٦٢]، وقالوا له: لا تخف فلن يصل إليك مكروه من هؤلاء ولا من غيرهم حتى هذا العذاب الذي سينزل ستنجو منه، ولا تحزن على ما كان من أمر مضى من ممارسات هؤلاء المنحرفة، وغير ذلك مما يستوجب الحزن، فإن الإنسان إذا رأى مثل هذه الأشياء انقبض قلبه وضاق صدره، ومما يدخل في هذا -والله تعالى أعلم- أنه ضاق بهم ذرعاً، وقال كلامه المحزن {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:٨٠]، فهذا يدل على ما كان فيه من الحال والأسف على هؤلاء والخوف على ضيوفه، فقالوا

له: {لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ}، ومثل هذا يحتاج إليه الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى-، نفي الخوف الذي يساور النفوس فيعرقل هؤلاء ويثبطهم عن دعوتهم وتبليغها للعالمين، الأوهام، والحزن كذلك أيضاً على ما يقع من الناس من انحرفات ونحو ذلك فيتآكل المصلح والداعية من داخله، فإذا كثر عليه الحزن وتتابع ضعفت قوى النفس وتلاشت، وكان ذلك سبباً لليأس إذا تعاظم، إذا تعاظم مثل هذا الأسف تظلم الدنيا في عين الإنسان ولا يرى فسحة الأمل، ومن ثم يصير هذا الإنسان في حال من اليأس من صلاح الناس، ويبقى في حال من الكآبة، وهذا غير صحيح، ولهذا تجد كثيراً في القرآن ينهى ربنا -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن مثل هذا، {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، {وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النحل:١٢٧]، إلى غير ذلك، فالإنسان يقدم ما يستطيع ويكِل الخلق إلى خالقهم، ويبقى متفائلاً مستبشراً، وأجره موفور عند الله -تبارك وتعالى-، ويتذكر أنه يأتي النبيُّ وليس معه أحد، ويأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، فكل ذلك مع اكتمال ما يطلب في الداعي إلى الله -تبارك وتعالى- من أسباب القبول الموجود في الأنبياء، العلم بما يدعو إليه والحرص والجد والاجتهاد في تبليغه والنصح للمدعو ومحبة الخير له، هذه الثلاثة الأركان كلها موجودة في هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع غاية البيان، فلا يحصل منهم أي تقصير،

فإذا فعل الإنسان ما ينبغي فعند ذلك تبقى النتائج إلى الله -تبارك وتعالى-، هذا الذي يقال فيه: النتائج إلى الله وليست إلينا، ولا يقال ذلك في التقصير أو في حال التقصير في النظر الشرعي، وفي مآلات الأمور التي قد تتحول إلى مفاسد، فهذا لا يجوز أن يقال فيه: نحن نعمل والنتائج على الله، يجب التحري وضبط التصرفات بالضوابط الشرعية، ومراعاة المآلات ثم بعد ذلك يقول الإنسان: النتائج على الله، {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [سورة الأنعام:١٠٨]

{قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة العنكبوت:٣٣-٣٤]، **وذلك أن جبريل -عليه السلام- اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً}** [سورة العنكبوت:٣٥] **أي: واضحة، {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، كما قال تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}** [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن الله جعل مكانهم بحيرة منتنة يقصد بذلك البحر الميت، يعني مكان قرى قوم لوط -عليه الصلاة والسلام-، وسبق الكلام على هذا، وأن الكثيرين يذكرونه، وقد لا يوجد ما يُقطع معه بأن هذا المكان هو مكان قوم لوط، ولكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} يدل على أنهم كانوا يعرفونهم، ولكن قد يقول قائل: إنهم يمرون عليهم ولا يعرفونهم، فالله يخبرهم أنهم يمرون عليه مصبحين وبالليل، يخبرهم عن أمر لم يتفطنوا له، لو قال قائل مثل هذا لم يكن ذلك بعيداً في المعنى، ولو قيل: إنهم كانوا يعرفون المكان، فإن كانوا يعرفونه فذلك مما يتناقله الناس جيلاً عن جيل،

فالمشهور أنها هي هذا البحر الذي يسمونه البحر الميت، وهكذا قال قبله بعض السلف مثل مجاهد، قال: وهذا البحر الأسود، ويقصد بالبحر الأسود البحر الميت، والله تعالى أعلم.

قال: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً}، هذه الآية البينة ابن كثير يقول: بحيرة -البحر الميت-، وهكذا قول مجاهد كما سبق: البحر الأسود، وبعضهم يقول: هذه الآية البينة هي أنه اندرست معالمهم واختفت آثارهم كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، بعدما كانت قرى عامرة، والقرية لا يفهم منها ما نطلقه على القرية اليوم أنها مجمع البنيان الصغير، وإنما القرية تطلق على البلد، فالعواصم يقال لها قرى، {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى} [سورة هود:١٠٠]، {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [سورة محمد:١٣]، فذلك يقال له: القرى، المدن الكبار والصغار، فقرى قوم لوط مجموعة من القرى، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله-: إنه بُعث إلى سدوم وإقليمها، إقليمها كان مجموعة من القرى، ولهذا قال الله: {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} [سورة الحاقة:٩] باعتبار المجموع، وقال: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] باعتبار أنها ترجع إلى إقليم واحد، فهي مجموعة من النواحي أو مجموعة من القرى التابعة لإقليم واحد، -والله تعالى أعلم-، فهنا ما هذه الآية البينة؟، هل هي البحيرة -البحر الميت-؟، أو هذه الآية البينة هي أنه عفت آثارهم؟ {آيَةً بَيِّنَةً}، لكن إذا عفت آثارهم هل هذه تكون آية بينة مع قوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ}؟ [سورة الصافات:١٣٧]، فهذا الذي حدا بكثير من أهل العلم أن يقولوا: إن المقصود بهذا هو هذا البحر الميت، فإذا قيل ذلك في معناها هنا سيأتي السؤال وهو: هل يجوز الانتفاع بالمستخرجات من البحر الميت ومعلوم أن كثيراً من صناعات الأدوية ومواد التجميل، وأشياء كثيرة جداً اليوم تستخرج من البحر الميت، بل هكذا توجد "منتجات البحر الميت"، وتوجد فيما نسمع منتجعات وأنواع من العلاج هناك، فهل للإنسان إذا كان هذا مكاناً للمعذبين، هل للناس أن ينتفعوا بشيء من هذا؟ منتجات البحر الميت، ويضعون منتجعات ويسبحون فيها، إلى آخره، أو أن مثل هذه الأشياء يفعل معها كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما جاء على أرض الحِجر -أرض ثمود- فأسرع -عليه الصلاة والسلام- ونهاهم عن دخولها إلا أن يكونوا باكين، هذا حينما كان مجتازاً فكيف بقصدها والذهاب إليها للمتعة والسياحة، أو نحو ذلك؟، وهكذا فعل عليٌّ -رضي الله عنه- حينما مر على أرض الخسف من بابل، أسرع، وبعضهم يذكر أن وادي محسِّر الذي بين مزدلفة ومنى النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرع فيه يقولون: لأنه المكان الذي أُهلك فيه الفيل، لكن هذا لا يثبت، والله أعلم.

قال سبحانه: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة العنكبوت:٣٦-٣٧].

قال المؤلف -رحمه الله-: يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب -عليه السلام- أنه أنذر قومه أهل مَدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ}.

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [سورة الممتحنة:٦].

وقوله: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذابَ يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف، وهود، والشعراء.

وقوله: {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ} يقول: قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، يعني هنا فسر الرجاء بالخوف، ومن معانيه التي ذكرها بعض أهل اللغة: الخوف، وبذلك فسر بعضهم قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} [سورة يونس:١٠٠] يعني: لا يخافون لقاءنا، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ} [سورة الكهف:١١٠] بعضهم يقول: يعني يخاف لقاء الله، وهذا معنى ذكره بعض أهل العلم من المفسرين وأهل اللغة، أن الرجاء يفسر بالخوف، بعضهم خصه بموضع في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم ذكر غير ذلك، وابن جرير -رحمه الله- نقل هذا القول، معناه واخشوا اليوم الآخر، لكنه فسره، فسر قوله: {وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ}، يعني وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، يعني فسر الرجاء بالمعنى المتبادر المشهور، وهو ما يؤمله الإنسان من أمر يقرب حصولُه فيُرتجى، بخلاف الشيء البعيد فإنه يقال عنه: تمنٍّ، فالشيء الذي يبعد وقوعه أو يستحيل

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ***

هذا يقال له: تمنٍّ، وأما الشيء القريب فإنه يقال له: ترجٍّ، ورجاء، فهنا {وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ} ارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، هذا الذي فسرها به ابن جرير -رحمه الله-، ونقل القولَ الذي ذكره ابنُ كثير، فيكون ابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمعنى المشهور من الرجاء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} هنا قال: هو السعي فيها والبغي على أهلها، السعي فيها بالفساد، وبعضهم يقول: إن العيث أشد الفساد، {وَلَا تَعْثَوْا}، تقول: عاث فساداً، يعني أكثر من الفساد والإفساد، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة هود:٦٧]، قال قتادة: ميتين، هذا تفسير له بالمعنى، يعني: بمعنى أنهم فارقوا الحياة، لكن بأي صفة وأي صورة؟ هذا ليس بتفسير مطابق، فإن الجاثم ليس معناه الميت، لكن لما كانوا بصفة معينة موتى فسره بالمعنى فقال: ميتين، يقول: وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض، هذا قاله ابن جرير -رحمه الله-، بمعني أكوام من الموتى -نسأل الله العافية- جاثمين، ترى أحياناً بعض الصور في كارثة تقع في زلزال أو في حرب مدمرة أو نحو ذلك تجد الناس أحياناً قد وقع بعضهم على بعض موتى، فابن جرير -رحمه الله- يفسر الجاثمين بمعني قد وقع بعضهم على بعض، وكثير من أهل العلم يفسرون ذلك بصفة معينة، فالجاثم هو الجاثي على الركب، يعني صفة الموت ليس مستلقياً أو على جنب أو نحو ذلك، وإنما على ركبه ووجهه إلى الأرض، وهذه الصفة قد تدل على حال عند الموت من حسرة أو محاولة أو طلب للمخرج والنجاة فسقط على وجهه، فهذه كانت صفتهم، {جَاثِمِينَ}، وكما ذكر الله -عز وجل- عن بعض من أهلكهم {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [سورة الحاقة:٧] فهؤلاء عاد، {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أعجاز

النخل معروفة، فهم أجسامهم عظيمة جداً كأنها أعجاز نخل، وإذا رأيت النخيل قد تهاوت بعدما خوت، مَن قُدر له أن يرى هذا المشهد في أرض مشهورة فإنه يذكر هذا المعنى {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، وقد رأينا في الطوفان الذي وقع قبل هذا الذي وقع في شرق آسيا في إندونيسيا تسونامي السابق رأينا الموتى وهم جثوم على وجوههم، الناس على الوجوه، يذكرك بقول الله -تبارك وتعالى-، وهم بين هذا الحصيد من بقايا البيوت والأثاث يطفو على الماء وهذه الجثث ساقطة على الوجوه جاثمة على الركب، يذكرك بقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، هؤلاء حيث يعاجلهم الموت فلا يستطيعون التصرف ولا الخلاص، فيقع على وجهه، على ركبتيه، ينزل على الأرض ويتهاوى، يخر صريعاً، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (٣٨) إلى الآية (٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة العنكبوت:٣٨-٤٠].

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحِجر قريبًا من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا، وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله -صلى الله عليه وسلم.

{فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} أي: كانت عقوبته بما يناسبه، {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر.

{وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحا ومَنْ آمن معه، وتوعَّدوهُم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات.

{وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ}، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، {وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنودهما عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مُخبر، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} أي: فيما فعل بهم، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ} يحتمل أن يكون منصوباً بمقدر محذوف أي: واذكر عاداً، ومن أهل العلم من يقول: إنه عائد إلى أول السورة، كما سبق في الذي قبله؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال في أولها: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة العنكبوت:٣] أي: وفتنّا عاداً، كما سبق من كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- من أنه ربط أجزاء هذه السورة بأولها، يعني كأنه يقول: إن هذه أمثلة ونماذج على ما ذكره الله -تبارك وتعالى- في أولها من فتْن الخلق وابتلائهم وامتحانهم، {فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} من هؤلاء؟ فذكر هؤلاء الأمم، قال: {وَعَادًا} أي: وفتنا عاداً، وبعضهم يقول: إنه عائد إلى ما قبله حيث ذكر الله -تبارك وتعالى- قوم شعيب، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا} أي: وأخذتْ عاداً الرجفةُ، وهذا قال به بعض الأئمة كالكسائي -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى مقدر وهو: وأهلكنا عاداً، {وَعَادًا وَثَمُودَ} يعني: وأهلكنا عاداً وثمود، هذا الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهذه الأقوال محتملة، وقريبة، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}، بعض أهل العلم يقول: كانوا مستبصرين: أي أن الله -عز وجل- قد أعطاهم من العقول بحيث إنهم أصحاب بصائر يتمكنون معها من التمييز بين الحق والباطل ومعرفة حقيّة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} ما كانوا يجهلون صدق الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين أرسلوا إليهم، ولا صدق ما جاءوا به من الله -تبارك وتعالى-، فكانوا أصحاب بصائر، فعذبهم الله -عز وجل- وعاقبهم لمّا حصل منهم الكفر مع استبصارهم، وبعض أهل العلم يقول: كانوا عقلاء لهم بصائر فلم تنفعهم، يعني لم يربط هذا بمعرفتهم الحق، فرقٌ بين هذا والذي قبله، {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} أي: يعرفون حقيّة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، كانوا يدركون ويعلمون أنهم جاءوا بالحق، وأن هذا ليس افتراء على الله ولا كذباً، والآخرون يقولون: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} أي: كانوا أصحاب بصائر وعقول لكنها لم تغنِ عنهم ولم تنفعهم، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٧٩]، فكما لم تنفعهم أسماعهم ولا أبصارهم كذلك أيضاً لم تنفعهم عقولهم، فقد يكون الإنسان كثير العقل، حاد الذكاء ولكنه لا ينفعه ذلك عند الله -تبارك وتعالى-، ولا يقربه إليه، بل لا يزيده من الله إلا بعداً، فالعقل ليس كل شيء، وإنما الهداية من الله -جل جلاله- يوفق إليها من شاء من عباده، وبعضهم يقيد ذلك بكفرهم {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} في ضلالهم وكفرهم، يعني أنهم معجبون بذلك ويحسبون أنهم على هدى، وهذا القول -يعني أنهم على معرفة ودراية بما هم عليه ظناً منهم أنهم على هدى- هو الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، مع أنه لا يخلو من إشكال -والله تعالى أعلم-، الله -تبارك وتعالى- يذكر هؤلاء الأقوام والأمم أو يذكر قوم عاد، يقول: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} فهل معناه أنهم كانوا على معرفة بكفرهم لا على أنه كفر، وإنما كان لهم معرفة المعتقد المعجب بما هو عليه، هل هذا هو المراد؟ هل أراد الله -عز وجل- أن يبين هذا المعنى؟ هذا لا يخلو من إشكال، وأظنه -والله تعالى أعلم- أبعد من سابقيه، وأن الله -تبارك وتعالى- إنما

أراد أن يبين أن هؤلاء حينما وقعوا في الضلالة لم يكن ينقصهم العقل والبصر سواء قلنا: إنهم عرفوا حقية ما جاءت به الرسل، أو أن العقول لم تنفعهم، فإن ذلك مقارب؛ لأن هؤلاء إن كانوا يعرفون حقية ما جاءت به الرسل فهم في الواقع لم ينفعهم ذلك العقل، فلم يهتدوا بما جاءوا به، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن الكافرين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم كانوا يعرفون الحق، أخبر عن اليهود بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، واليهود كانوا مستبصرين، كانوا يعرفون، لهم معرفة وعلم وعقل، ومع ذلك ما نفعهم هذا العلم والعقل، أو قلنا بإطلاق: إن هؤلاء كانوا مستبصرين، كانوا أصحاب بصائر وعقول فلم تنفعهم تلك العقول، فذلك غير منافٍ لما قبله، ومن أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك كانوا مستبصرين أي أصحاب علوم ومعارف ويرجع ذلك إلى ما ذكره الله -تبارك وتعالى- من قوله: "فرحوا بما عندهم من العلم"، كان عندهم علوم، لكن هذه العلوم لم تزدهم من الله إلا بعداً، ما نفعتهم علومهم، فهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وهذا أيضاً لا ينافي القول الأول والثاني، ولكن الإشكال فيما أظن -والله تعالى أعلم- فيما ذكره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، فيمكن أن نؤلف من القول الأول والثاني والرابع معنى وهو: أن هؤلاء الذين كذبوا الرسل وأخذتهم هذه العقوبات لم يكن ينقصهم عقل ومعرفة وبصر ولكن ذلك العقل والمعرفة والبصر لم ينفعهم ولم يهتدوا به إلى الإيمان، فبقوا على كفرهم وعنادهم، هكذا يبدو المعنى، والله تعالى أعلم-.

ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَارُونَ} كذلك أيضاً يحتمل أن يعود على ما قبله من قوله: {وَعَادًا} إذا قلنا: إن هنا يعني أهلكنا عاداً مثلاً، أو فتنا عاداً، يعني وقارون، ويمكن أن يكون عائداً إلى ما ذكر أيضاً من قوله -تبارك وتعالى-: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} وصد قارون، {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ} يعني: وصد قارون وفرعون، ويحتمل أن يكون ذلك يتعلق بمقدر محذوف يعني: واذكر قارون وفرعون وهامان، وبعضهم يقول: إنه عائد إلى ما سبق من ذكر عقوبة قوم شعيب {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} يعني: وأخذت هؤلاء أيضاً، لكن هل هؤلاء أخذتهم الرجفة فعلاً؟ هذا غير صحيح، والله تعالى أعلم.

يقول: وقارون صاحب الأموال الجزيلة، وفرعون ملك مصر ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}، أي: ما كانوا فائتين، يعني أنهم لا يفوتون، لا يسبقون، لا يحصل لهم نجاة وفوت من عذاب الله -تبارك وتعالى-، فإن الله قادر عليهم، ومجازيهم على كفرهم وضلالهم، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} أي: وما كانوا سابقين في الكفر، فقد سُبقوا إلى ذلك، يعني ليسوا أول من كفر، والأول أرجح، وليس المراد -والله تعالى أعلم- أن الله يذكر أن هؤلاء ليسوا أول من كفر، {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} لما ذكر أخذه -تبارك وتعالى- لهؤلاء المكذبين واقتداره، قال: {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} أي: أنهم لا يفوتون الله -تبارك وتعالى-، فيتخلصون من العذاب.

قال: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} قال: أي كانت عقوبته بما يناسبه، {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}، {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ}، لاحظ الآن أول من ذُكر عاد، {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} أو لوط، فابن كثير -رحمه الله-

يقول: وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}، فجاءتهم ريح صرصر باردة عاتية إلى آخر ما ذكر، وهؤلاء الذين أرسل الله عليهم حاصباً، هل هم فقط قوم عاد؟ قوم لوط ألم ينزل عليهم الله -تبارك وتعالى- حجارة من السماء؟ ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن الذين أرادهم الله -تبارك وتعالى- بقوله: {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} قالوا: يعني قوم عاد وقوم لوط، فهنا ذكر الله -تبارك وتعالى- قوم لوط أولاً، وذكر بعده قوم عاد، وقوم عاد وقوم لوط يصدق عليهم أن الله أرسل عليهم حاصباً، والحاصب: هي الريح، يقال للريح التي تحمل الحصباء، تحمل الحجارة أو نحو ذلك، ومن رمي بالحجارة يقال أيضاً: إنه حصب، فقوم لوط لم يُرسَل عليهم ريح فيها حجارة ولكن نزلت عليهم حجارة من السماء، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن قوم لوط داخلون في هذه الآية، أن الله أرسل عليهم حاصباً، فيصدق على هؤلاء وهؤلاء، قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} قال: وهم ثمود، وكذلك أيضاً أصحاب مدين قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا جمع بين هؤلاء بعض المحققين من المفسرين، قالوا: إن هذا يصدق على هؤلاء وهؤلاء، كابن جرير -رحمه الله-، وهنا قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} قال: وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهر لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثلما سألوا سواء بسواء، هو يريد أن يبين أن كل عقوبة كانت تتناسب مع القوم الذين نزلت بهم، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، والله -تبارك وتعالى- أيضاً قال: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [سورة هود:٦٧].

قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا} قال: هو فرعون ووزيره هامان، أغرقوا في اليم، وممن أغرق أيضاً من الأمم المكذبة من يصدق عليهم هذا قوم نوح -عليه السلام-، وعلى هذا الترتيب إذا صرفنا النظر عمن لم يذكر يكون في الآية لف ونشر مرتب، الله -تبارك وتعالى- ذكر هذه الأمم ثم ذكر هذه العقوبات مرتبة بحسب ما ذكر قبله، ذكرها بترتيب معين ثم بعد ذلك جاءت هذه العقوبات مرتبة حسب ما ذكر قبله، والله تعالى أعلم.

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤١-٤٣].

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمَنْ يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئا، فلو عَلموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

قوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، {كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ} بعض أهل العلم يقول: إن هذا المثل بمعنى مثل هؤلاء في اتخاذهم الآلهة كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ليكنّها، فهو تمثيل لحال هؤلاء الكفار، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ}، مثل هؤلاء الكافرين في اللجأ إلى هذه الأوثان والمعبودات من دون الله، وعبادة هذه الأصنام كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ليكنّها من الحر والقر، وهو بتلك المثابة لا يكنّ من هذا ولا هذا، وبعض

أهل العلم يقول: إن المراد بذلك بيان ضعف هؤلاء، هم ضعفاء فأرادوا أن يستقووا وأن يلجئوا إلى ركن منيع، فكانوا بهذه المثابة اتخذوا أولياء أضعف منهم، كالعنكبوت اتخذت بيتاً بهذه الصفة من الوهن، فهؤلاء على ضعفهم اتخذوا معبودات أضعف منهم، أحجاراً وأشجاراً وقبوراً وما أشبه ذلك، فهذا تمثيل لحال العابدين والمعبودين، فهذا المعنى ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن ذلك في بيان ضعفهم وضعف معبوداتهم، وأنها أضعف منهم، والأول الذي ذكرت: أن هذا يمثل حالهم في اتخاذهم الآلهة فهم كالعنكبوت اتخذت بيتاً ليكنها لكنه بهذه المثابة كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، والمعنى يرجع إلى شيء واحد، وإن اختلفت عباراتهم فيه، فهو تمثيل لحال العابدين والمعبودين بالضعف والعجز واللجوء إلى ما لا غناء فيه ولا نفع، والعجيب أن بعض من يتكلمون في التفسير العلمي يهولون بيت العنكبوت ويتحدثون عن تلك الأسلاك التي يتكون منها هذا البيت كأنها قضبان من الفولاذ، ويذكرون أشياء لربما من يقرأ ما يكتبون يتوهم أن ما ذكروا له حقيقة وأن الله -تبارك وتعالى- قد ذكر ذلك لمعنى غير ما فهمه السلف -رضي الله تعالى عنهم-، الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ} ثم هؤلاء يذكرون أشياء عجيبة في هذا النسيج، وبعضهم يتكلم على هذا بطريقة أخرى أيضاً عجيبة وغريبة، يتكلم عن وهاء معنوي وليس بحسي، وهو يتكلم عما يجري داخل هذا البيت بيت العنكبوت، وكيف يحصل فيه من تنافر وفتك وأنه غير ملتئم، يعني أن الذكر من العنكبوت الأنثى على غير وئام، وأن الحياة تقوم بينهما على الفتك، وما أشبه ذلك، فيجعلون الوهاء وهاء معنويًّا، أنه بيت يتكون من هذا النوع من العلاقة المتنافرة، وهذا في غاية البعد، فالعرب الذين خوطبوا بالقرآن وذكر لهم هذا المثل والأمثال الحسية إنما تضرب ليقرب بها المعاني التي قد تغيب عن الأفهام، فيجعلونها بهذا المستوى والحال من الغموض والصعوبة التي قد لا يدركها إلا بعض المختصين في علم الحشرات، كيف العرب تفهم هذا المثل الذي ضرب مع أن العرب تفهم وتضرب المثل بهذا أن بيت العنكبوت هو أضعف البيوت من حيث البناء في مادته ووهائه وضعفه؟!، فكيف يذهب إلى هذه المعاني البعيدة التي هي خلاف مقصود الشارع تماماً؟!، ومثل هذا للأسف أيضاً تجده في كلام بعضهم على قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [سورة البقرة:٢٦]، فإذا قرأت كلامهم على البعوضة يخيل إليك أنك تقرأ عن طائرة أباتشي مقاتلة ما هي بعوضة، يجعلون لهذه البعوضة من الخصائص والإمكانات، وكيف هذا الخرطوم، وكيف يدخل في جسم الإنسان دون أن يشعر، وكيف يمتص الدم، وكيف تتكون البعوضة، وكم لها من عين، والرؤية، والأشعة تحت الحمراء، وأشياء، أبداً طائرة أباتشي هذه، ما هي ببعوضة، حتى إنك يصيبك الخوف من البعوضة التي تملك هذه الخصائص والإمكانات الرهيبة، مع أن الله ذكر هذا على أن البعوضة ضعيفة صغيرة حقيرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة))[1]، فالعرب تذكر البعوضة باعتبار أنها لا شيء، صغيرة ضعيفة في غاية

---

١ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز وجل-، برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٨٤٧)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٢٩٢).

الضعف، فمن الخطأ قلب هذه المعاني والأمثال بعكس ما قصده الشارع تماماً، فهذا إفساد للمثل، وقلب للمعنى، والله تعالى أعلم.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لو كانوا يعلمون ماذا؟ من أهل العلم من يقول: لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأولياء من دونه كاتخاذ العنكبوت بيتاً، لو كانوا يعلمون هذه الحقيقة، ضعيف يلجأ إلى من هو أضعف منه، كالعنكبوت التي لجأت أو صنعت هذا البيت، فهو لا يغني عنها، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم يَعْلم بهذا، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، يمكن أن يكون لو كانوا يعلمون ما عبدوا هؤلاء من دون الله، أو لو كانوا يعلمون أن حالهم كحال هذه العنكبوت مع بيتها حينما عبدوا غيره -تبارك وتعالى-، عبدوا ما لا يضر ولا ينفع.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} [سورة مريم:٨١-٨٢]، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [سورة يس:٧٤-٧٥] وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [سورة هود:١٠١] فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكثر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده، فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}؟.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقوة فكان الأمر بخلاف ما ظنوا"[٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، "ما" هذه تحتمل أن تكون موصولة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} إن الله يعلم الذي يدعون من دونه من شيء، يعني أنه باطل، ويحتمل أن تكون استفهامية {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، ويحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون نافية {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} يعني: أن ما دونه لا حقيقة له، وليس بإله كما يزعمون، وقوله: {مَا يَدْعُونَ} يدعون هذه قرأها الجمهور "تدعون"، {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ}، فيكون الخطاب موجهاً لمن كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعدهم، وقراءتنا التي نقرأ بها

---

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١/١١٩-١٢٠).

قراءة عاصم، وكذا في قراءة أبي عمرو {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ}، هذه قراءة الجمهور "تدعون" لمن خوطبوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعده، وقراءتنا التي نقرأ بها: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ} بالياء فيمكن أن يكون هذا يرجع إلى من ذكر، فيشمل السابقين، الأمم السابقة، لكن الله -تبارك وتعالى- قبله قال: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، فهو كلام عن الكافرين عموماً، فعلى قراءة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ} وجه الخطاب إليهم مباشرة، أي الذين كانوا في وقت نزول القرآن، {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُون} يعني هؤلاء المشركين في أي وقت كانوا، فكان الكلام -سواء على الغيبة أو على الخطاب- متوجهاً للمشركين الذين وصف حالهم {كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى متوعدا لِمَنْ عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

ثم قال تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ} بالتاء أو {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ} بالياء لو قيل: إنه متعلق بمن ذكر من الأمم السابقة التي أهلكها الله -عز وجل- لربطنا المعنى بما سبق، يعني أن الله يعلم ما يدعون يعني هؤلاء الأمم الذين أهلكوا، {يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} هذا على الياء، لكن كما سبق أن هذا كلام يقرر الله -تبارك وتعالى- فيه حقيقة وهي أن هؤلاء ليسوا على شيء ممن وصفهم الله وضرب لهم المثل، لكن على طريقة ابن جرير -رحمه الله- في ربط أجزاء الكلام ببعضه، وإلحاق الكلام بما يليه فإن ذلك أولى أن يربط، مثل هذا على هذه القراءة يربطه بمن ذكر من الأمم، فهو يرى أن الكلام لا زال مترابطاً، وأن الله عنى به أولائك الذين ذكر خبرهم ومآلهم وما صاروا إليه -ما نزل بهم من العقوبات-، على هذه القراءة.

وقوله: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}، المثل إذا أردت أن تحقق معناه فإنه قد يكون في حال من الغموض بحيث قد يعسر على كثير من طلبة العلم أن يتوصلوا إلى معنى يصدق عليه ما ذكر في القرآن من المثل في جميع المواضع، ولذلك تجد عبارات العلماء -رحمهم الله- مختلفة اختلافاً كثيراً، وتجد أن ما يذكر مما يُظن أنه من أقرب هذه المعاني أنه تقريب المعقول بصورة المحسوس لتجليته للأذهان، هذا تصوير، وهذا الكلام مشهور، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا هو معنى المثل في القرآن، ولكن عند التأمل والتتبع للمواضع التي ذكر فيها المثل في القرآن تجد أن ذلك يصدق على بعضها، الأمثال التي يبين الله -عز وجل- فيها القضايا المعقولة بصورة محسوسة فقط، لكن المواضع الأخرى ما يصدق عليها هذا، وذكرت حينها أن أقرب ما يصدق على تفسير المثل -مع أنه غير متداول عند طلاب العلم- هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وهو أن ذلك يرجع إلى الشبه، أصل المعنى اللغوي يعني، فوسع معناه حيث أطلق في القرآن ليشمل كل ما يحصل به الاعتبار، فأدخل فيه قصص الأنبياء، قصص الأمم المكذبة، وغير

المكذبة، وكل ما قصه الله -عز وجل- في القرآن فهو داخل في الأمثال؛ لأن الله يذكر ذلك في بعض المواضع أن هذا من قبيل الأمثال، وأيضاً يقول: إن هؤلاء ذُكروا فإذا نُظر في حالهم -نظر الإنسان في حال هؤلاء- رجع إلى نفسه، فإن كانوا مكذبين قد نزلت بهم العقوبات فإنه يرجع إلى نفسه من أجل أن لا يعمل عملهم، يتعظ فلا يعمل ما عملوا، لا يقع فيما وقعوا فيه، فينزل به ما نزل بهم، فيقول: هذا على وجه الاشتباه، على وجه الشبه أو الارتباط فيرجع ذلك إلى أصل المعنى اللغوي وهو الشبه، فعند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الأمثال في القرآن تشمل القصص بجميع أنواعها، وهذا معنى واسع، وإذا أردت أن تجمع تطبيقات هذا في القرآن تحتاج إلى جمع القصص، بالإضافة إلى المعاني المعقولة التي تصور بصورة محسوسة، فهذا نوع من الأمثال، هذا بالإضافة إلى قضية أخرى العلماء متنازعون فيها كثيراً، من أهل اللغة وغيرهم، وهي أن المثل هل يأتي بمعنى الصفة أو لا؟، {مَّثَلُ الْجَنَّةِ} [سورة الرعد:٣٥]، فهل هذا يدخل في قضية الاعتبار، هل له تعلق بها أو أنه جاء هنا لمعنى آخر، وهو الصفة؟، وبعضهم ينكر هذا، مع إن إنكاره -والله أعلم- لا يخلو من تكلف، مع رجوعه إلى أصل المعنى الذي هو الشبه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، هذه الأمثال الآن هل المقصود بها ما ذكر من حال هؤلاء مع معبوداتهم أنهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً؟، أو أن ذلك يصدق أيضاً على ما قبله من ذكر خبر المكذبين من هؤلاء الأمم والأقوام، فكل ذلك من الأمثال، {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، هل المقصود {وَمَا يَعْقِلُهَا} يعني ما يفهمها فقط؟ هل المراد الفهم؟ الفهم داخل فيه، ولكن الفهم وحده قد يتقاصر عن مرتبة العقل، عقل الشيء، فإن عقله يتضمن معنى زائداً وهو أنه يدرك مغزى المثل وما ضرب له، وموطن العبرة والعظة فيه، تقول: عقلت عنه، بهذا المعنى، فلان يعقل عن الله، فلان يعقل أو عقل ما أخبر الله عنه من حال المكذبين مثلاً أو نحو ذلك، ما هو مجرد فهم المعاني، أو هناك أمر وراء هذه المعاني، الذي يقولون أو يعبرون عنه اليوم بالقراءة لما بين السطور، يعني هذا المثل يرمي إلى ما وراء هذه الألفاظ، وهذه حقيقة التدبر؛ لأن ذلك يرجع إلى أدبار، دُبُر الشيء آخر الشيء، فماذا وراء هذه الألفاظ؟ ماذا وراء هذه الأمثال والقصص التي ذكرها الله -تبارك وتعالى-؟ أن يرجع الإنسان إلى نفسه وينظر في حاله، سواء فيما قصه الله -تبارك وتعالى- أو ما صوره في هذه الأمور المحسوسة، يعني الآن قد يقول الإنسان: إنه لا يعبد غير الله -تبارك وتعالى-، ولكن حينما يتعلق قلبه بمخلوق مع أنه يعبد الله -عز وجل- لكن قلبه يتعلق بمخلوق بحيث إنه لربما يتوهم أو تصير حاله حال من يظن أن النفع والضر بيد هذا المخلوق، وهو إن رضي عنه فهو في حال من الأمن وطيب العيش والسعادة، وأنه إن سخط عليه حرم وقطع وحيل بينه وبين رزق الله -تبارك وتعالى- وفضله، هكذا أحياناً يتصور الإنسان وهو يعبد الله -عز وجل-، لا يعبد إلهاً آخر، فالذي يعلق قلبه بالمخلوقين ويلجأ إليهم في طلب النفع والضر ويعلق قلبه بهم {كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ}، فهذا له تعلق بهذا المثل، فهذا لا يذهب الذهن فيه فقط إلى حال من يعبد الصنم مثلاً، فهذا مِن عقْل هذه الأمثال، يقرأ ما وراء السطور، يتوصل إلى المعاني التي لا يتوصل إليها كثير من الناس الذين يقرءون قراءة سطحية، يعقل الكلام ويدرك مراميه ومغزاه فينتفع به، {وَمَا يَعْقِلُهَا}، كثير من الناس قد يفهم المعنى، ولكنه لا يصل إلى تلك المراتب، والله تعالى أعلم.

{خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [سورة العنكبوت:٤٤-٤٥].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، {لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [سورة طه:١٥]، **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}** [سورة النجم:٣١].

وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

قوله -تبارك وتعالى-: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، قال: يعني لا على وجه العبث واللعب، خلقها بالحق يعني خلقاً متلبساً بالحق {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} [سورة ص:٢٧].

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: ((إنه سينهاه ما تقول))[٣].

وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي: أعظم من الأول، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم.

وقال أبو العالية في قوله: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه.

وقال ابن عَوْن الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

في هذا الموضوع شيئان: الأول: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ما المراد به؟

والأمر الثاني: وهو قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، أكبر من ماذا؟

أكبر مما ذكر قبله من الصلاة، أو أن ذلك بإطلاق، ذكر الله أكبر من كل شيء، فهنا ما يتصل بالصلاة الله -تبارك وتعالى- قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}، {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ}، هذا أمر بقراءة القرآن، نحن مأمورون بهذا، قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ}، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ظاهر وهو في المعنى المشهور المتداول، أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بمعنى أنها تحمل صاحبها على الامتثال ولزوم حدود الله -عز وجل- والخوف منه والحياء فيرعوي ويرتدع وينزجر عما لا يليق، أن الصلاة تحمله على مجانبة الفحشاء والمنكر، وهذا المعنى المشهور المتداول، وهو الذي قرره ابن

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٧٧٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٢٣٧).

كثير -رحمه الله- هنا، وعليه يقال -وهو معنى صحيح-: إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، {وَأَقِمِ} أمر بالإقامة، وحيث ذكر الأمر بالصلاة فإن ذلك يأتي معبراً عنه بهذا {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} ما يقول: أدوا الصلاة، وإنما يقول: {وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣]، فالصلاة المطلوب فيها الإقامة لا مجرد الأداء، انتبهوا لهذا، وإقامة الصلاة يعني أن يأتي بها مستوفية لشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فهذه الصلاة التي تأتي مشتملة على هذا تكون قد تحقق فيها هذا المعنى، الإقامة، وهو معنى متفاوت في حقيقته يزيد وينقص، والناس يتفاوتون فيه كثيراً، والشخص الواحد يحصل هذا التفاوت فيه من صلاة لأخرى، فهنا قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء} فـ"إنّ" هنا تدل على التعليل، وكما هو معروف أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فهنا عندنا الحكم: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والوصف الإقامة، الحكم المعلق على وصف الإقامة يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فنقول: هذا الأثر للصلاة الذي هو الحكم يزيد، يعني كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر الناس يتفاوتون في هذا، يزيد بزيادة الوصف الذي علق عليه، فعلى قدر إقامتنا للصلاة على قدر ما يكون من الأثر لكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، هذا المعنى -والله تعالى أعلم-، فإذا فُهم هذا عرف الجواب عما يرد كثيراً من السؤال وهو لماذا نجد كثيراً من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر؟

السبب: أنهم أدوا هذه الصلاة وما أقاموها، أو أن إقامتهم لها كانت ضعيفة ومن ثَمّ ضعف الأثر، فهذا الإنسان الذي يأتي بالصلاة بهذه الطريقة لابد أن هذه الصلاة تؤثر فيه، في عمله وفي سلوكه وفي حاله مع الله -تبارك وتعالى-، وهذا لا يتأتى لمن يأتي دائماً والناس قد شرعوا في الصلاة أو بعد الإقامة، ويأتي مسرعاً مشوش الفكر والقلب ثم يدخل في الصلاة لا يدري ماذا قرأ الإمام، ولا يدري ما صلى!، ولربما كان الإمام سها أو نحو ذلك في ركعة أو زاد أو نقص وهو يمشي مع تكبيرات الإمام فإذا جلس في التشهد الأول وغير صوته بالتكبير عرف أنه التشهد، فإن كان الإمام لا يغير صوته قام إلى الثالثة مباشرة، أو ينظر إلى من بجانبه هل يقوم أو يجلس، ولهذا فإن بعضهم يقول: إنه إن كان مسبوقاً فإنه لا يدري كيف يصلي، لا يدري كم فاته ومتى يجلس، كم بقي عليه من صلاته، وبعض الناس يقول: إنه إذا جاء إلى المسجد ووجد الناس قد صلوا، أو يصلي السنة الراتبة فهو لا يعرف أنه في الركعة الثانية إلا أن عقاله قد سقط على الأرض، يعرف أنه حصل له سجود وركوع، فحينما يرى أن العقال على الأرض يعرف أن هذه هي الركعة الثانية، يقول: هذا فقط، لكن إذا كان يصلي صلاة رباعية فاتته مثلاً صلاة العشاء، فإن عقاله يكون من الركعة الأولى على الأرض، فبعد ذلك لا يعرف، يقول: أنا أصلي السنة الراتبة ما أخطئ فيها؛ لأني أرى هذه العلامة الفارقة بين الركعة الأولى والثانية، لكن إذا كانت ثلاث ركعات أو أربع فلا أعرف ما صليت، ويشتكي من هذا، هذا تاجر، رجل أعمال مشغول قلبه ومشتت بالتجارات، فهذه لا تعد إقامة، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، لكن ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر قولاً آخر وهو ما ذكره آخراً، **قال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر**، ومعنى هذا الكلام: هذا القول الآخر في معنى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، يقول:

وأنت تصلي فإن اشتغالك بهذه الصلاة إشغال لك عما هو منكر وباطل ومعصية لله -عز وجل-، يقول: هذا الوقت المستغرق فيها قد اشتغلت فيه بطاعة، وهذا الاشتغال بالطاعة صرفك في هذا الوقت نفسه عن المعصية، والفرق كبير بين القولين، يعني على هذا يكون الجواب عن الإشكال الذي يرد لماذا لا تنهى كثيراً من الناس صلاتُهم عن الفحشاء والمنكر، يقول لك: هي تنهاه أثناء الصلاة، انشغل بها عن المنكر والفحشاء، لكن إذا خرج ما عاد هو في صلاة، هذا معنى هذا القول، وهذا قال به أئمة كبار كما سترون، مع أن القول الذي قبله أولى -والله أعلم-، ويمكن الجمع بين القولين فيقال: إن الصلاة أثناء إقامتها والاشتغال لا شك أن الإنسان منشغل بها عما هو منكر وفحشاء في هذا الوقت، والنفس إن لم تُشغل بالطاعة شغلت صاحبها بالمعصية، وفي الوقت نفسه أيضاً فإن هذه الصلاة تؤثر بحيث إنها تجعل صاحبها مجانباً لمساخط الله -تبارك وتعالى- فيستحي منه، لكن كما قلت: يحتاج إلى أن يأتي بها على الوجه المطلوب، لو جرب الواحد منا مثلاً من اليوم أن يصلي صلاة أخرى بحيث إنه يحرص أن يكون عند الأذان في المسجد، وهو يقرأ القرآن ويذكر الله -عز وجل- فإذا أقيمت الصلاة يكون متهيئاً، لو استمر على هذا مدة ولهذا جاء في الحديث: ((من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق))[٤]، فهذا -والله -تبارك وتعالى- أعلم- لو أن الإنسان طبقه وجربه ومضى على هذا هذه المدة فإنه سيجد أن الصلاة لها معنى آخر، وأنه إن طال ذلك عليه فإن الصلاة ستتحول إلى قرة عين يجد فيها أنسه وراحته ولذته وانشراح الصدر، أما هذه الطريقة التي نحن عليها دائماً في صراع وتآكل ونأتي على الإقامة أو بعد الإقامة دائماً، بهذه الطريقة فهذه الصلاة تكون قليلة التأثير، لكن لو جربنا من اليوم أن نحرص إذا أذن المؤذن نكون في المسجد، ونستمر على هذا، نخرج قبل الأذان، ستجد أن الصلاة لها معنى آخر تماماً، وتتذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٥]، لكن هذا يحتاج إلى شيء من الصبر والمكابدة، كما قال بعض السلف: كابدت الصلاة عشرين سنة، واستمتعت بها عشرين سنة.

قال ابن جرير -رحمه الله-: " اختلف أهل التأويل في معنى الصلاة التي ذُكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضع الصلاة، أو في الصلاة.

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

والصواب من القول في ذلك أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنياً بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛

---

٤ - رواه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى، برقم (٢٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٥٢)، وحسنه في صحيح الجامع برقم (٦٣٦٥).

٥ - رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩)، وأحمد في المسند برقم (١٢٢٩٣)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٩١)، وفي صحيح الجامع برقم (٣١٢٤).

لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولهذا قال ابن مسعود: من لم يُطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعداً. وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر"[٦].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو من ذكْره، ولذكره تعالى إياكم أكبر"[٧].

لا، هذا: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ}، لكن {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} ما تكلم عليها؟

فبهذا تبين وجه المعنى الأول والمعنى الثاني وأنه يمكن أن نجمع بينهما، فالاشتغال بها اشتغال عن الفحشاء والمنكر وهي أيضاً تحمل صاحبها على الامتثال، وهل يخص هذا بالصلاة المكتوبة؟، قاله بعض أهل العلم، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ}، ولكن هذا لا يختص بها، فالصلاة حينما يناجي العبد ربه ويقرأ كلامه فيها فإن ذلك يؤثر فيه هذا التأثير، ولا يقال: إن "ال" هذه عهدية، يعني الصلوات المكتوبة مثلاً، وإنما عموم الصلاة يحصل منها هذا الأثر، سواء قلنا: الاشتغال بها هو اشتغال عن الفحشاء والمنكر، فهذا ظاهر، أيّ صلاة يصليها نافلة أو فريضة، اشتغال بقيام الليل عن الاشتغال بالفحشاء والمنكر، ومن الفحشاء والمنكر هذه الأيام مطاولة الليل أوقات التنزل الإلهي على مواقع إباحية ونحو ذلك، وقد كثرت الشكوى من هذا، زوجات يشكين أزواجهن، وما إلى ذلك، إلى أن يصابح الإنسان الصبح، ولو أنه اشتغل بصلاة الليل لكان ذلك اشتغالاً عن الفحشاء والمنكر، ثم إن هذه الصلاة أيضاً تجعل هذا الإنسان يخاف ويستحي من الله -جل جلاله-، والفحشاء: يعني الذنب العظيم الشنيع الكبير، يقال له: فحشاء، وفاحشة، فكل ما فحش وعظم من الذنوب والجرائم فهو فحشاء، والمنكر خلاف المعروف، فكل معصية لله -تبارك وتعالى- فهي منكر، فيكون ذلك من قبيل عطف العام على الخاص؛ لأن المنكر يشمل المعاصي الصغار والكبار، والفحشاء تكون لما عظم، وتصدق في عرف الاستعمال غالباً على لون من المنكرات الكبار وهو ما يتصل بالزنا وما في معناه، الفحشاء، والفاحشة، فالصلاة تنهى عن هذا كله.

قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي أعظم من الأول**، فالأول الصلاة، يعني أنّ ذكر الله -تبارك وتعالى- أعظم في هذا الأثر، أبلغ من أثر الصلاة، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله أبلغ أثراً في ذلك، هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله.

قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "وقوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم"[٨].

فالمعنى الأول: أن ذكر الله إياكم أبلغ من ذكركم له -سبحانه وتعالى-، ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه))[٩]، {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، ذكره إياكم أكبر من ذكركم

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (٢٠/٤٠-٤٢)، منقول بتصرف.

٧ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص: ٧٤-٧٥).

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٠/٤٢).

إياه، وعلى هذا المعنى ليس فيه نهي عن الفحشاء والمنكر، لكن المعنى الذي ذكره ابن كثير هو يرجع إلى ما سبق: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وذكر الله أبلغ في ذلك، في النهي عن الفحشاء والمنكر، المعنى الذي هنا: ذكر الله أكبر من ذكركم إياه.

وقال -رحمه الله-: "وقال آخرون: بل معنى ذلك ولذكركم الله أفضل من كل شيء"[١٠].

يعني هنا أكبر من كل شيء حمله على العموم والإطلاق بحيث لم يقيده بذكر العبد ربه، وإنما قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، أكبر من كل شيء، فالاشتغال بهذا الذكر خير من الاشتغال بغيره، وهذا مقتضى حذف المتعلق؛ لأنه يفيد العموم النسبي، ما قال: أكبر من كذا، فيحمل على العموم، أكبر من كل شيء.

وقال ابن جرير -رحمه الله-: "وقال آخرون: هو محتمل للوجهين جميعاً، يعنون القول الأول الذي ذكرناه والثاني.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولَلصلاة التي أتيت أنت بها وذكرك الله فيها أكبر مما نهتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

وأشبه هذه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه"[١١].

هذا اختيار ابن جرير، أن ذكره إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو من ذكره، ولذكره تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود -رضي الله عنهم-، وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} قال: وهو قوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة:١٥٢] فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء، وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ قال: أمَا تقرأ القرآن {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق..))[١٢]، الحديث.

وقال شيخ الإسلام أبو العباس -قدس الله روحه-: الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولَمَا فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

---

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٨٦٥٠)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وله إسنادان: أما الإسناد الأول فحسن، حماد بن سلمة سمع من عطاء بن السائب قبل الاختلاط في رأي بعض أهل العلم، وأما الإسناد الثاني -وهو حماد بن سلمة عن حميد وثابت وصالح- ففيه انقطاع، لأن الحسن -وهو البصري- لم يسمع من أبي هريرة".

١٠ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٠/٤٤).

١١ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٠/٤٥-٤٦)، بتصرف.

١٢ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب منه، برقم (٣٣٧٧)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٢٢٦٩).

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى))[13]"[14].

وقال -رحمه الله-: "فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهي أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى أنكم إذا ذكرتموه ذكَرَكم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية.

وهذا ما ذكره المفسرون، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: معنى الآية أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

أحدهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولَمَا تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر"[15].

مع أن هذه الأقوال لا يوجد منها قول بعيد، وإنما هي مقاربة -والله تعالى أعلم-، فإذا قيل: إن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهذا مقتضى القاعدة، أن حذف المتعلق يحمل على أعم معانيه، وإذا قيل بما ذكره شيخ الإسلام أنها مشتملة على هذا وهذا فذكر الله فيها أكبر، وهذا قريب من قول من قال أيضاً: إن المقصود من العبادات هو ذكر الله -تبارك وتعالى-، فهو أكبر من كل شيء، وهكذا قول من قال: إن ذكره لكم أبلغ من ذكركم وأعظم من ذكركم إياه، لكن هذا كأنه يحتاج إلى تقدير، والأصل عدم التقدير.

هنا الشوكاني -رحمه الله- ذكر هذه الأقوال وغيرها يقول: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي: أكبر من كل شيء، أي أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر، ويقول: قال ابن عطية: وعندي أن المعنى {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} على الإطلاق -نفس كلام الشوكاني- أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله -عز وجل- أكبر من كل شيء، وله هذا الأثر في الصلاة وخارج الصلاة، قال: لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له، وقيل: ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه.

قال الفراء وابن قتيبة: المراد بالذكر في الآية التسبيح والتهليل، يقول: هو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر، وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة، أي: وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبر هنا عنها بالذكر كما

---

١٣ - رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب في الرمل، برقم (١٨٨٨)، وأحمد في المسند برقم (٢٤٣٥١)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف، وقد روي مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح وقفُه"، ورواه برقم (٢٤٤٦٨)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وضعف إسناده الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٣٢٨).

١٤ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص: ٧٤-٧٥).

١٥ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٢/ ٣٩٨).

في قوله: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:٩]، للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات، يعني يقول هؤلاء: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ} يعني: في الصلاة، وقيل: المعنى ولذكر الله لكم في الثواب، ما هو ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي))[١٦]، لا بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلاتكم، قال: واختار هذا ابن جرير، مع أن ابن جرير عبارته كأنها فيها بعض المغايرة، فإنه لم يقيد ذلك بالثواب ((ذكرته في ملأ))، هل معناه ذكرته بالثواب؟! وذكر الحديث قال: ويؤيده حديث: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي))، هل هذا بالثواب؟ ((ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)).

هذه الأقوال كما في قوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، فهو أكبر من كل شيء، إذا قلنا بهذا فيكون أكبر من الصلاة وأكبر من ذكركم إياه، فإنه لا يوجد فيما نعلم دليل على تحديد واحد من هذه المعاني، والله -تبارك وتعالى- قد أطلق ذلك، {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} من ذكر العبد له، وهو أكبر من كل الأعمال التي يزاولها العباد، وهو أكبر وأعظم تأثيراً في النهي عن الفحشاء والمنكر، وهو أكبر في بلوغ العبد المراتب العالية ((سَبَق المُفرِّدون))[١٧]، وفسره بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فإذا حمل على هذا المعنى انتظم ما سبق، والله -تبارك وتعالى- قد أطلق ذلك، فلا يقيد بمعنى منها -والله أعلم- من غير دليل، أكبر من كل شيء، من ذكرنا له، من عبادتنا، وهذا أمر لا يخفى، وإذا نظرت في مثل كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في الوابل الصيب مثلاً في فوائد الذكر ذكر له نحو مائة فائدة، فإذا نظرت في هذه الفوائد التي ذكرها للذكر تجد منها هذا الأثر، والإنسان الذي لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله -تبارك وتعالى- يحصل له من الإخبات والانكسار والانقياد والدوام على الطاعة، وما يزجره عن المعصية، ومقارفة ما لا يليق شيء كثير، ولذلك تجد كثيراً ما يأتي حث الشارع على الذكر والأمر به مقيداً بالكثرة، بل لا يكاد يذكر إلا مع هذا القيد، {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الأحزاب:٤١-٤٢]، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [سورة الأحزاب:٣٥]، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الشعراء:٢٢٧]، فإذا أكثر الإنسان من هذا الذكر بلسانه وقام ذلك بقلبه فكان قلبه ذاكراً مع ذكر اللسان فإنه يكون في حال من القرب وصلاح الظاهر والباطن وتحقيق العبودية، فإن ذكر الله يقربه ويقوده ويسوقه حتى يلزم الصراط المستقيم في أقواله وأفعاله، في أحواله كلها، هذا أمر مشاهد، وهو بالغ التأثير، ولا يخفى أن ذكر الله -تبارك وتعالى- حاصل في الصلاة كما إن ذكره -تبارك وتعالى- حاصل في قراءة كلامه، لكن لابد من مواطأة القلب مع هذا كله، فإذا حصلت هذه المواطأة بين القلب واللسان صار ذاكراً في الحال، صارت له حال الذاكرين، واستقام ظاهره وباطنه، ونسأل الله -عز وجل- أن يجعل ما نتعلمه قائداً لنا إلى العمل والامتثال، ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن من أفضل الدعاء هذا "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، واقرءوا ما ذكر في هذا المعنى، فإذا أعين الإنسان على هذه الأمور الثلاثة حصل له خير الدنيا والآخرة، فيكثر الإنسان من هذا، والله أعلم.

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:٢٨]، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٥).

١٧ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٦).

{وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزلَ إِلَيْنَا وَأُنزلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤٦].

المعنى: مَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادَل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} الآية [سورة النحل:١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: {فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، ولهذا قال: {إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحديد:٢٥].

قال جابر: أُمِرْنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

وقوله: {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزلَ إِلَيْنَا وَأُنزلَ إِلَيْكُمْ} يعني: إذا أَخبروا بما لا يُعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزّلا لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: {آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} [سورة المائدة:٥٩]))[١٨]، وهذا الحديث تفرّد به البخاري.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله -صلى الله عليه وسلم- أحدث تقرءونه محضا لم يُشَب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

وروى البخاري عن حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكرَ كعبَ الأحبار فقال: إنْ كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب.

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يُحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة.

في المقصود بالكذب يقول: يقع منه الكذب لغةً، الكذب في اللغة يقال للخطأ، فمن لم يقع على الصواب يقال: كذَبَ، والكذب في إحدى إطلاقاته في لغة العرب يقال على الخطأ، فبعضهم يطلقه على كل تخالف بين الواقع والقول، فما خالف الواقع سواءً قصد به القائل ذلك أو لم يقصد فإنه يقال له: كذب، فمن أخطأ يقال: كَذَبَ،

---

١٨ - رواه البخاري في مواضع منها في كتاب تفسير القرآن، باب {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة:١٣٦]، برقم (٤٤٨٥).

ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق الله)) في قصة العسل، لما قال رجل: إن أخي قد استطلق بطنه، يشكو، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اسقه عسلاً))، فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال: ((اسقه عسلاً))، إلى أن قال: ((صدق الله وكذب بطن أخيك))، فالكذب يقال للمخالفة التي تكون بين القول والواقع في لغة العرب، ولهذا إذا وجدت بعض الآثار عن الصحابة -رضي الله عنهم- يقول عن صحابي آخر: إنه كَذَبَ فيقصد به أخطأ، ويقال أيضاً -وهو المذموم- لما يحصل به التخالف بين ما في القلب وما في اللسان، وإن وافق الواقع، **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** [سورة المنافقون:١]، مع أن هذا القول الذي قالوه هو موافق للواقع، النبي -صلى الله عليه وسلم- هو رسول الله، لكن لمّا خالف ما في نفوسهم كان كذباً، ولهذا فإن الإنسان إذا قصد الكذب فسُئل عن زيد فقال: إنه مسافر وهو يعتقد أنه موجود، فتبين أنه مسافر فعلاً فإنه يكون كاذباً، مع أنه وافق الواقع، فهذا هو الكذب الذي ذمه الشرع.

وقوله تعالى: **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** من السلف من قال: إنها منسوخة بآية السيف، والمقصود بآية السيف هي الآية الخامسة من سورة براءة **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** [سورة التوبة:٥]، وقالوا: هذه الآية ناسخة لمائة وأربع وعشرين آية، فهذه الآية هكذا قيل فيها: إنها منسوخة بآية السيف، **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** قالوا: ما في بالتي هي أحسن، كل شيء فيه إعراض وعفو وصفح وتسامح منسوخ بآية السيف، حتى قالوا: إن قوله تعالى: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** [سورة التين:٨] قالوا: منسوخ بآية السيف، هو أحكم الحاكمين هذا لم ينسخ؛ لأن الأخبار لا يدخلها نسخ، لكن قالوا: إن ذلك قيل في المتاركة، دعهُم لله -عز وجل-، فقالوا: ما في بعد آية السيف ترك لهؤلاء وإنما أن يعمل السيف فيهم، فلا عفو ولا صفح ولا إغضاء ولا إعراض، كل الآيات التي فيها الإعراض، **{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}** [سورة السجدة:٣٠]، **{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ}** [سورة الزخرف:٨٩]، قالوا: لا سلام ولا مسامحة، كل هذا منسوخ، وهذا فيه نظر، والأقرب أن هذه الآيات لا يقال: إنها منسوخة بآية السيف بهذا الإطلاق، والتوسط في مثل هذه الأمور هو الصحيح -والله تعالى أعلم-، فهذه الآيات لم تنسخ، والأمة تمر بأحوال من القوة والضعف وما إلى ذلك، فهناك أحوال تُنزَّل عليها الآيات المكية من الصفح والإعراض والصبر والمداراة والدفع بالتي هي أحسن، وفي أوقات القوة والتمكن تُعمَل آية السيف لأعداء الله -عز وجل-، فهذا بالنسبة للقول: إنها منسوخة، **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}**، فأهل الكتاب: من أهل العلم من أطلق ذلك، وقال: أهل الكتاب يجادَلون بالتي هي أحسن **{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** قال بعضهم: يعني كابر وعاند، فهذا ليس له إلا السيف، فكما في الآية السابقة من أن الله -تبارك وتعالى- قال: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}** [سورة الحديد:٢٥]، فذكر إنزال الكتاب الذي تحصل به الهداية، وذكر الأمر الآخر وهو إنزال الحديد **{فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}**، فمن لم ينفع معه الكتاب فإن الكتائب والحديد هي التي قد تفل عناده وحربه لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: من لم يُجدِ معه الكتاب أجدى معه الحديد.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} بعضهم حمله على هذا الإطلاق، {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} من عاند بعد بيان الحق، وبعضهم يقول: من أساء الأدب في المناظرة والمجادلة، فيعامل بما يستحق، وبعضهم حمل ذلك على من أسلم من أهل الكتاب، قالوا: كل من بقي على كفره منهم فهو من هؤلاء الذين ظلموا، وقالوا: إن المراد بقوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ} كعبد الله بن سلام ومن آمن منهم، {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، ومن عاند وكابر ولَجّ في الخصومة بعد بيان الحق له فهو من جملة الذين ظلموا، ففي البداية يجادَلون بالتي هي أحسن، المسلم منهم والكافر، ومن أسلم منهم لا يقال: إنه من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، فالذي يظهر -والله أعلم- أن المراد أهل الكتاب بإطلاق، أنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن عندهم من العلم والمعرفة، ونزلت عليهم الكتب، فإن مجادلتهم بالحسنى وذكر الحجج لهم أجدى في جذبهم وهدايتهم وإصلاح قلوبهم وكشف الشبهات العالقة في نفوسهم، وما وُضع الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وإذا كان هذا في أهل الكتاب في مجادلتهم فإن من نزل عليهم القرآن أولى بذلك حينما يجادلون فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن، إلا من كان معانداً يقصد إبطال الحق، ونصر الباطل، وما أشبه ذلك، فإنه يعامل بما يستحق، أمّا أن تكون المجادلة بين الناس من طلبة العلم أو نحو ذلك بالتي هي أخشن دائماً فإن مثل هذا لا يليق بحال من الأحوال، ويكون ذلك سبباً لصد الناس عن الحق ونفرتهم منه، وهذا باب واسع يطول الكلام فيه أدى ببعضهم إلى ارتكاب أمور عظيمة جداً من تحريف القرآن خطًّا ليوافق ما قاله أولاً -نسأل الله العافية-، ولربما وصل ببعضهم الحال كما ذكر بعض أهل العلم إلى أن يقذف مناظره فيرميه بالزنا أو أنه ابن كذا لمّا يحتمي ويحتدّ، ولما كانت المجادلة فيها من حضور النفوس ما لا يخفى كان التلطفُ وجعْلُ هذه المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن هو الطريق إلى تخفيف غلواء النفوس فيها، حتى إن بعضهم يقول: إن أصلها -هذه المجادلة- مأخوذ من الجَدَالة وهي الأرض الصلبة، ولهذا غالباً ما تذكر في القرآن في مقام الذم، غالباً، فلابد فيها من مراعاة ما ذكر، والله تعالى أعلم.

هنا في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} الشوكاني يقول: بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين، بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية {وَلَا تُجَادِلُوا}، يقصد فسرها أكثر المفسرين بهذا: إن أساء وكابر ولَجّ في الخصومة، وقيل: معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بـــ {الَّذِينَ ظَلَمُوا} على هذا القول هم الباقين على كفرهم، وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل.

قال النحَّاس: من قال: هي منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية، ولا غير ذلك، قال سعيد بن جبير ومجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، يعني من حاربوكم وقاتلوكم فهنا لا يقال: والله الحوار هو القوة الحقيقية، يقاتلون ويحتلون بلاد المسلمين ويأتي من يتفلسف ويقول: القوة الحقيقية في الحوار، أي حوار مع هؤلاء وهم بهذه المثابة؟ الجهاد هو حماية المشروع الإسلامي، هذا الجهاد صار حماية المشروع

الإسلامي، هذا الجهاد في سبيل الله، والقوة الحقيقية هي الحوار، يهدمون البلاد على أهلها ويقال: القوة الحقيقية الحوار!، والجهاد هو حماية المشروع الإسلامي، يستحي أن يقول: القتال في سبيل الله -عز وجل-، -نسأل الله العافية- نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [سورة آل عمران:٨]، -نسأل الله العافية-، فتن يتقلب الناس ظهراً لبطن، ما تدري إلى أين يتجه، يريد أن يقود الناس بهذه الأطروحات وبهذه الضلالات والانحرافات، يريد أن يقودهم لماذا؟ الله يصلح الحال.

قال: لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة. ومع ذلك وقُربِ العهد وُضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك، كلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية ٤٧ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال تبارك وتعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٧-٤٩)].

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكتاب على مَن قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذي قاله حسن ومناسبته وارتباطه جيد.

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يؤيد ما قاله ابن جرير، والمقصود أن قوله: **{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}** يعني: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك، كذلك أنزلنا الكتاب، هذا كلام ابن جرير وابن كثير، أو: **{أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}** مثل ذلك الإنزال البديع، وبهذا الاعتبار لا يكون ذلك مرتبطا بإنزال الكتب على من قبله، فالفرق بين المعنيين واضح، وابن كثير -رحمه الله- اختار الأول من أجل حسن المناسبة والارتباط؛ لأن الله -تبارك وتعالى- ذكر من خبر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قبله، وإلحاق هذا بما مضى أولى، وهذه طريقة ابن جرير -رحمه الله- في التفسير اعتبارا بقاعدة أن إلحاق الكلام بما يليه أولى من قطعه عنه أو تفريقه، وكما سبق من أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ربط أجزاء هذه السورة في أولها، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: **{فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [سورة العنكبوت: (٤٧)] أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما **{يُؤْمِنُونَ بِهِ}** يعني: أن المقصود من هؤلاء هم من أسلم من أهل الكتاب ولابد؛ لأن الكافرين ليسوا كذلك فلا يؤمنون به، والمقصود بالإيمان الإيمان الصحيح الذي هو بمعنى الإقرار والإذعان والتصديق الانقيادي، أما مجرد التصديق فإنه كما قال الله -تبارك وتعالى- **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [سورة البقرة: (١٤٦)]، لكن ذلك لا ينفعهم، فهذا توجيه بهذا الاعتبار؛ ومن أهل العلم كابن جرير من يحمل ذلك على من قبله من بني إسرائيل **{فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** وأن قوله: **{وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ}** يعني: من كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن آمن به منهم كعبد الله بن سلام، لكن ابن كثير -رحمه الله- حينما فسر قوله تعالى: **{وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ}**، قال: يعني العرب من قريش وغيرهم، وهذا الفرق بين القولين.

ولكن يمكن أن يحمل قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [سورة العنكبوت: (٤٧)] على أن خبره كان عندهم مثلاً، أو يؤمنون بجنسه مما نزل عليهم من الكتب ومن هؤلاء من

يؤمن به لكن كأن الكلام فيه إشكال؛ لأن مثل هذه الضمائر كلها عائدة إلى الكتاب الذي أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم.

أو أن الضمير يرجع إلى الكتاب المذكور أخيراً {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} فيمكن أن يوجه كلام ابن جرير بهذا الاعتبار، ولكن إذا أردنا أن نوحد مرجع الضمائر سنقول: {وَمِنْ هَؤُلَاء} إذا قلنا أيضاً إنه من أهل الكتاب المعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- {مَن يُؤْمِنُ بِهِ} المذكور أخيراً وهو الكتاب المنزل عليه، وهذا لا يخلو من إشكال من جهة المعنى، وحتى من ناحية اللغة فإن الأصل في عود الضمير أنه يعود للمضاف ولا يعود للمضاف إليه؛ لأن المضاف هو المحدث عنه -أهل الكتاب-، والذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك جميعاً يرجع إلى الكتاب الذي أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم.

وابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله: {وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ} يعني: العرب من قريش وغيرهم، وهذا يُحمل على من دخل في الإسلام، وهذا قول حسن.

ثم قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [سورة العنكبوت: (٤٨)] أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة الأعراف: (١٥٧)] الآية، وهكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

هذه قضية تشبه أن تكون محل إجماع بين العلماء، فالنبي -صلي الله عليه وسلم- لم يكن يحسن الكتابة ولا القراءة، ولهذا وصفه الله -تبارك وتعالى- بالأمي {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة: (٢)] وذلك معجزة من معجزاته -صلى الله عليه وسلم- رجل لا يقرأ ولا يكتب ينزل عليه هذا الكتاب المعجز بألفاظه وما تضمنه من التشريع والهدايات، مما لا يمكن أن يصدر عن رجل أمي وذلك رد بليغ على الذين قالوا: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} [سورة الفرقان: (٥)] أو قالوا: إنما يعلمه بشر، وإن كان قال من شذ بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تحققت معجزته بذلك، ثم عرف القراءة بعدها فهذا خرق للإجماع، وقد قال بذلك أحد المغاربة وشنع عليه أهل العلم في زمانه تشنيعاً عظيماً، بل كفره بعضهم وعدّ ذلك تكذيباً للقرآن، وقالوا في ذمه الشعر والنثر، وهذا معروف في محله، فهذا القول لا يلتفت إليه، ولعله التبس على قائله، باعتبار ما ورد أو روي في بعض الروايات الضعيفة التي لا تصح بقصة الحديبية، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الحديبية لم يكن يقرأ، ولذلك لما طلب المشركون أن يمحو -صلى الله عليه وسلم- وصفهم بالرسالة، وقالوا نحن لا نقر لك بهذا، فلما أبى علي -رضي الله عنه- أن يمحو ذلك، طلب منه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يريه ذلك الموضع، فمحاه النبي -صلى الله عليه وسلم- بيده، والحاصل أنه جاء في بعض الروايات الضعيفة أن النبي -صلي الله عليه وسلم- عرف ذلك من عند نفسه، وهذا لا يصح فيه شيء،

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن توفاه الله -تبارك وتعالى- لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة، والأدلة على هذا معروفة.

{إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٨)] أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول إنما تعلم هذا من كتاب قبله مأثور عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم أنه أمي لا يحسن الكتابة {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة الفرقان: (٥-٦)]، وقال هاهنا: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)]، أي: هذا القرآن آية بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبرا، يحفظه العلماء، يسّره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً كما قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر: (١٧)]، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة))[1] .

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)] ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم، والضمير في قوله –تبارك وتعالى-: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} يرجع إلى القرآن، وهذا ظاهر كلام ابن كثير –رحمه الله-، وبعض أهل العلم يقول: إن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، واختار هذا القول ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من السلف، وعلله بأنه واقع بين خبرين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، وعلى كلام ابن جرير {بَلْ هُوَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه لا يقرأ ولا يكتب، لكن هذا -والله أعلم- كأن ظاهر السياق لا يساعد عليه، وإنما ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أليق بالسياق، وهو أن الضمير يرجع إلى الكتاب الذي أنزل عليه -عليه الصلاة والسلام.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)] أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)].

والمقصود بالآيات هنا الآيات المطلقة، سواء ما تتعلق بإثبات نبوته –صلى الله عليه وسلم-، أو كانت الآيات المتلوة، أو دلائل قدرة الله –تبارك وتعالى- على الخلق، والدلائل على إلهيته وربوبيته وعظمته وأسمائه وصفاته، ولما كانت الآيات تتحدث عما أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- حملها ابن جرير -رحمه الله- على جدد نوع من الآيات، وهو ما يختص بالآيات الدالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، والله تعالى أعلم.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤/١٩٠٥)، برقم: (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١/١٣٤)، برقم: (١٥٢).

قال ابن القيم -رحمه الله- "إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}** [سورة العنكبوت: (٤٧-٤٩)] وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين أحدهما أنه آيات بينات الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله...

وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال: **{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [سورة العنكبوت: (٥١)].

ذكر هذا جوابا لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلا على صدقه فضلا عن أن يكون كافيا، وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقل يبطل كون القرآن آية وبرهانا على صحة النبوة[٢].

فابن القيم –رحمه الله– ذكر في قوله –تبارك وتعالى- **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}** [سورة العنكبوت: (٤٩)] الوجهين وما بينهما من الملازمة:

الوجه الأول: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}** وصفه بهذا الوصف أنه آيات بينات وأنه محفوظ في صدورهم، بمعنى أنه لم ينزل عليه كتاب يُقرأ كما نزل على الأنبياء قبله، وإنما نزلت هذه الآيات التي أودعها الله -عز وجل- في قلب نبيه -صلى الله عليه وسلم- وحفظها أصحابه.

الوجه الثاني: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}** يعني هذا موقعه في صدورهم، وأنه آيات بينات واضحة الدلالة على الحق لا تترك فيه لبسا، فليس المقصود أن ألفاظه محفوظة في صدورهم، ولكن المقصود أن ذلك موقعه في نفوسهم، فأهل العلم يحفظونه في صدورهم، وأثره ووقعه كبير في نفوسهم، وهذا مراد ابن القيم -رحمه الله- من أن بين القولين ملازمة، وقد يكون في العبارة شيء من التوسع؛ إذ إن الملازمة بين القولين قد تكون ظاهرة باعتبار ما يعرف من معنى التلازم عند الأصوليين، كما في قوله -تبارك وتعالى- **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}** [سورة البقرة: (٢٥٥)] فإذا قيل: الضمير يرجع إلى علم الله، والقول الآخر أنه يرجع إلى ما ذكر قبله **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** [سورة البقرة: (٢٥٥)] فبين القولين ملازمة؛ إذ إن علم ما بين أيديهم وما خلفهم هو بعض علم الله -عز وجل- فإذا كانوا لا يعلمون ما عندهم علم ما بين أيديهم وما خلفهم، فيلزم من ذلك أنهم لا يحيطون بشيء من علم الله -تبارك وتعالى- هذه ملازمة ظاهرة، وكما في قوله -تبارك وتعالي-: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ**

---

٢ - مفتاح دار السعادة (١/٥٠)، والصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٦- ٨٢٧).

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [سورة غافر: (٦٠)] يعني: اسألوني أعطكم، أو اعبدوني أستجب لكم، يعني: القبول والثواب والأجر، فالدعاء يمكن أن يفسر بدعاء المسألة، ويمكن أن يفسر بدعاء العبادة، وبين القولين ملازمة؛ إذ إن دعاء المسألة هو من أجلّ أنواع العبادة، وإن السائل بلسانه عابد لله -عز وجل- كما إن العابد بجوارحه سائل بفعله؛ إذ إنه يطلب ما عند الله -تبارك وتعالى- بهذه العبادة.

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٠-٥٢)].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، -يعنون- ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: {قُلْ} يا محمد...

الآيات التي طلبوها هنا ليست الآيات المتلوة، وإنما قصدوا بذلك الآيات المعاينة المشهودة وهي المعجزات، فما يدل على صدق الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– يقال له آيات في لغة الكتاب والسنة، سواء كان ذلك من خوارق العادات التي سميت أخيراً عند المتأخرين بالمعجزات، أو كان من غير خوارق العادات، مما يدل على صدقه كما في سؤالات هرقل لأبي سفيان، فإنه ما سأله عن شيء من خوارق العادات، وإنما سأله عن قضايا تتصل بما يدعو إليه، وعن صدقه -صلى الله عليه وسلم-، وما يتصل بآبائه هل كان فيهم من ملك؟ كل هذا ليس من المعجزات، وهكذا يعرف ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأمور كثيرة لا تكون معجزة ولا تكون خارقة، ولكن المتأخرين قالوا عن هذه الخوارق: إنها معجزات، وما كان على يد أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من هذه الخوارق قالوا عنها: كرامات الأولياء، ولا مشاحة في الاصطلاح، وكل ذلك في لغة القرآن.

فالكفار كانوا يطالبون النبي –صلى الله عليه وسلم– بألوان من الآيات على سبيل التعنت، فتارة يطلبون تنزيل الملائكة، وتارة يطلبون تحول الصفا إلى ذهب، مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان له آيات وخوارق، كانشقاق القمر {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [سورة القمر: (١)]، وغيرها من الآيات.

ومع ذلك كابروا وأعرضوا وقالوا بأن ذلك سحر، والله يقول: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء: (٥٩)]، المقصود هذا النوع من الآيات التي يقترحها الكفار، وليس معنى ذلك أنه لم يكن للنبي -صلى الله عليه وسلم- معجزات.

قال الله تعالى: {قُلْ} يا محمد {إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ} أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [سورة الإسراء: (٥٩)].

وقوله: {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: إنما بعثت نذيراً لكم بيّن النذارة، فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [سورة الكهف: (١٧)]، وقال تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ

{هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة البقرة: (٢٧٢)]، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥١)] أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء: (١٩٧)]، وقال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [سورة طه: (١٣٣)].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[٣].

وقد قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت: (٥١)]، أي: إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون.

قوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً}** [سورة العنكبوت: (٥١)] أي: بياناً للحق وإزاحة للباطل، ومن أوجه كونه رحمة أن الله –تعالى- بعث هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- وأنزل عليه هذا الكتاب على حين فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، بعد اندراس آثار النبوة، واضمحلال كثير من أعلامها، ومعالمها، واختلف الذين أنزل عليهم الكتاب في كتبهم، وفي ربهم -تبارك وتعالى- وفي أنبيائهم اختلافاً كثيراً، وكان آخر ما وقع في ذلك بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وما حصل من التحريف والتبديل والتغيير في الكتاب الذي أنزل عليه، وللدين الذي جاء به في أصوله، وفروعه، بل إنهم أعرضوا عن ذلك كليا، فبدلوا الاعتقاد بما أسموه بالأمانة العظمى، وبدلوا التشريعات التي كانوا متعبدين بها، بدلوا ما جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- من نسخ ما فرض على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، فما عادوا على اعتقاد صحيح، ولا على تشريع منزل، فهم أهل ضلال، من شدة بغضهم لليهود لم يعملوا بالتوراة، وتركوها، فلم يكن عندهم قانون يضبط حياتهم ويحكم بينهم ويرجعون إليه، وفي الاعتقاد اختلفوا كثيراً -كما هو معلوم- حتى دخل قسطنطين بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بنحو ثلاثمائة سنة حينما كان ملكا للرومان، وبعد ملكه بنحو سبع سنين، وبعد بداية ملكه كانت أمه قد تنصرت، فدعته، فتأثر بها، وأظهر ذلك –أي أنه دخل في النصرانية-، وبعضهم يقول: إنه

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤/١٩٠٥)، برقم: (٤٦٩٦).

لم يعتقد ذلك فعلاً، وإنما جرّ النصرانية وأدخلها في وثنيته، وحصل ما حصل، وأُقرت عقيدة الشرك رسمياً -عقيدة التثليث- واشتغلت أمه في نشر ذلك الباطل، وعقيدة الصليب، وبذلت في ذلك جهوداً لا يقادر قدرها حتى إنه قيل: ما من كنيسة في بلاد مصر والشام وما والاها إلا كان ذلك من بنائها وبناء ابنها، حتى قيل: إنه بنى اثنتي عشرة ألف كنيسة، فبنت أمه الكنائس في مصر، وعذبت اليهود، واضطهدوا في عهده، بعدما كانوا يتسلطون على النصارى، وامتحنتهم تبحث عن الصليب الذي صلب عليه عيسى -صلى الله عليه وسلم-، والمكان الذي صلب فيه -تعتقد أنه صلب- فدلها بعضهم -بعد امتحان وعذاب- أنه كان ذلك في مكان كناسة ومحل للقمامة -أعزكم الله- فأمرت بإزاحة ذلك، وأخرجت صليباً، وأزاحت ما فيه من أذى، وألبسته الذهب واعتنت به غاية العناية، وبنت في مكان القمامة كنيسة يقال لها كنيسة القمامة، وأقامت كنيسة في بلاد الشام أيضاً على أربعة أصول يقال إنها من عجائب الدنيا في بنائها إلى غير ذلك مما نشروا من الضلال والباطل والكفر بالله -تبارك وتعالى-، وفعلوا أموراً كثيرة عظيمة، وصار أهل التوحيد يستضعفون ويستذلون لأنهم قلة قليلة، وأخفيت الأناجيل التي تذكر التوحيد وتدل عليه صراحة، فالشاهد أنه حدثت كل هذه الأمور، فالله -تبارك وتعالى- أنزل هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه من الحق، ويرشدهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه مختلفين، وأنزله على قوم أميين لا يقرءون ولا يكتبون، كانوا على حال من الجهالة والعماية أبعد ما يكونون عن شمس النبوة، ولا عهد لهم بذلك، فكل ذلك كان رحمة لهم منه -تبارك وتعالى- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت: (٥١)] فلولا أن الله -تبارك وتعالى- لطف وجاء بهذا القرآن، وبعث هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا فكيف يُعرف الحق إذا كان آخر ما بعث من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هذا ما فُعل بدينه وهذا ما وقع فيه من التحريف، فكيف بمن قبله؟

وكيف يتوصل الناس إلى الحق ويعرفون عبادة الله على الوجه الصحيح ووحدانيته؟ فكان القرآن من أعظم الرحمة التي تفضل الله -عز وجل- بها على عباده.

ثم قال تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا} [سورة العنكبوت: (٥٢)]، أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [سورة الحاقة: (٤٤-٤٧)] وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: لا تخفى عليه خافية {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٢)]، أي: يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٣-٥٥)].

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: (٣٢)] وقال ههنا: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ} [سورة العنكبوت: (٥٣)] أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه.

ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن العذاب الذي استعجلوه هو عذاب القيامة، هم طلبوا ذلك، لكن ذلك يحتمل أن يكون عذاب يوم القيامة، أو أن يكون المقصود العذاب الذي وُعدوا به في الدنيا، أنزل علينا عذاباً في الدنيا.

{وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ} إذا قلنا إن المقصود عذاب يوم القيامة فمن أهل العلم من يقول: الأجل المسمى هو الموت، فإن الإنسان إذا مات صار إلى ما وعد، وعاين الحقائق وأبصر ما كان عليه، فيعذب أو ينعم في البرزخ، ثم يصير إلى عذاب النار أو إلى الجنة بعد ذلك، ويكون الأجل هنا هو مدة أعمارهم فإذا جاء أجلهم وماتوا انتقلوا إلى ما وعدوا. ويحتمل أن يكون الأجل هو القيامة، وأن الله حدد لها وقتاً فلا تتقدم عليه.

ومن أهل العلم من يقول -باعتبار أن العذاب المقصود به الذي طلبوه-: إن ذلك في الدنيا، أي: وقت محدد يقع به كما في يوم بدر، فكل شيء عند الله -تبارك وتعالى- بأجل ووقت لا يتقدم عليه ولا يتأخر.

وقد قال -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: (٣٢)] يقصدون في الدنيا فهذا من استعجالهم بالعذاب.

وقوله -سبحانه-: {وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٣)] مع قوله: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٥٤)] يشعر أن العذاب الذي استعجلوا به هو عذاب الآخرة، فالساعة تأتي بغتة، أما ما وقع يوم بدر فلم يكن بغتة، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥٥)] قرينة تدل على أن المقصود بالعذاب الذي استعجلوه هو عذاب الآخرة.

ثم قال: {وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً} [سورة العنكبوت: (٥٣)] أي: فجأة {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٥٣-٥٤)] أي: يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال -عز وجل-: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥٥)]، كقوله تعالى: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف: (٤١)]، وقال تعالى: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر: (١٦)]، وقال تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ} [سورة الأنبياء: (٣٩)] الآية، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: {وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٥)] تهديد، وتقريع، وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [سورة القمر: (٤٨-٤٩)]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا *

{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور: (١٣-١٦)].

يعني: أن العذاب الحسي يغشاهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ويأتيهم من كل ناحية، ومع العذاب المعنوي وما يكون من التبكيت لهم كما في هذه الآيات، وهكذا أيضاً ما ذكره الله -عز وجل- من كونهم يسحبون في النار على وجوههم، أو يدفعون فيها دفعاً وما إلى ذلك مما يكون فيه إهانة لهم إضافة إلى العذاب الحسي فيجتمع لهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي؛ ولهذا وصف الله -تبارك وتعالى- عذاب الكافرين في النار تارة بأنه عذاب أليم، وتارة أنه عذاب مهين، فيحصل فيه إهانة وإذلال، والإهانة والإذلال تقع على النفوس، أما ما يحصل للأبدان فكالسحب على الوجوه، أو بما تسمعه الآذان مما يقال لهم من التبكيت ونحو ذلك مما قصه الله -تبارك وتعالى- قال لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور: (١٤-١٦)]، فالذي يقع في ورطة يكون في حال من الأسى والألم، ثم يأتي من يبكته عندها، فيجمع عليه عذاباً آخر، هذا في الدنيا.

{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٥٦-٦٠)].

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة -رحمه الله تعالى-، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيوماً ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

فسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قوله -تبارك وتعالى-: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [سورة العنكبوت: (٥٦)]، بالهجرة، أنه إذا ضاق موضع على الإنسان فلم يستطع أن يعبد ربه فيه فإنه ينتقل إلى غيره، فأرض الله واسعة، وهذا هو الظاهر، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من قال: إن ذلك في ابتغاء الرزق والسعي في طلبه والضرب في الأرض من أجل تحصيله بألوان التجارات والاكتساب، ولكن الأول أولى، والله تعالى أعلم.

وسياق هذه الآيات يدل -والله تعالى أعلم- على أن المقصود بذلك الهجرة، وابن جرير -رحمه الله- يحمل المعنى على هذا، بل أكثر من هذا حيث إنه يربط الآيات التي بعده به كما سبق من طريقة ابن جرير -رحمه الله- بإلحاق الكلام بما يليه فهو حتى في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة

العنكبوت: (٥٧)] يربط هذا بموضوع الهجرة والجهاد: بأن مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء ومراغمة الكافرين كل ذلك لا ينقص من عمر الإنسان، فإذا جاء الأجل مات سواء كان في أرضه أو كان خارجاً عنها، سواء كان مخلداً إلى الأرض أو مجاهداً لأعداء الله -تبارك وتعالى- فإن ما ينزل بالإنسان من الغربة أو الكربة من الأوجاع والآلام أو الجراح أو نحو ذلك لا يغير من الأجل قليلاً أو كثيراً، فإذا جاء الأجل مات الإنسان، فالمرض لا علاقة له بالأجل، والجراح لا علاقة لها بالأجل وكما قيل:

لو أن عبداً مدرِكُ الفلاحِ*** لناله ملاعبُ الرماح

قوله: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٦٠)]، ابن جرير يربط هذا بموضوع الهجرة والجهاد، ويقول إن رزق الله آت لا يرده أحد، فإذا ضاق عليكم مكان انتقلوا إلى مكان آخر، والآجال محسومة مكتوبة ومؤجلة ومؤقتة بوقت لا تتقدم عليه ولا تتأخر، فانطلقوا واعبدوا الله -تبارك وتعالى- وتقربوا إليه بألوان القربات، وراغموا أعداءه، فإن ذلك لن يغير من آجالكم، ولن يكون نقصا في أرزاقكم.

ثم قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٧)] أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لابد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب؛ ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة العنكبوت: (٥٨)]، أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا.

{لَنُبَوِّئَنَّهُمْ} أي لنسكننهم، ومنه قوله -سبحانه-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة الحشر: (٩)] يعني: سكنوا المدينة.

وقد قرأ حمزة والكسائي {لَنثوِّينَّهم من الجنة غرفا} يعني: لنعطينهم غرفاً عالية في الجنة يثوون فيها، والغرف هنا جاءت منصوبة على تضمين نبوئنهم معنى ننزلنهم، فهو يتعدى إلى مفعولين، لكن لنبوئنّهم لا يتعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول الضمير الهاء، كما تقول مثلاً لأنزلن زيداً، هذا المفعول الأول، لأنزلن المؤمن غرفاً، فيكون هذا المفعول الثاني، وقد يكون "غرفا" منصوباً على نزع الخافض، أو الظرفية، والله أعلم.

{خَالِدِينَ فِيهَا}، أي: ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا {نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين {الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعده.

لاحظ ابن كثير هنا يربطها بموضوع الهجرة والجهاد {الَّذِينَ صَبَرُوا} ما قال إنهم صبروا على طاعة الله وعلى معصيته وعلى أقداره المؤلمة، وإنما ربط ذلك بما قبله.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حدثه أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم

الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم، ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع.

لا يزال ابن كثير -رحمه الله- يربط هذا المعنى بما قبله وهو موضوع الهجرة، وهذا يتصل بموضوع المناسبة بين الآية والآية الأخرى، فوجه الارتباط أن الآيات مترابطة بينها معنى متحد، ويقول لهم إن أرضي واسعة، ويعدهم بالأجر ويثني عليهم بالصبر، ويخبرهم بأن الرزق من عنده -سبحانه وتعالى- فلا داعي للقلق؛ لأن الناس يقلقون على شيئين اثنين فقط هما رأس المخاوف -أقصد من أمور الدنيا-:

الأول: ما يتصل بالأجل، ويرتبط بذلك ألوان من المخاطر المتعلقة بالنفس، الخوف من الناس، الخوف من السلطان، الخوف من المرض، الخوف من السبع، الخوف من الهوام، كل هذه الأشياء تتصل بالأجل، يخشى أن يقتله هذا، أو أن ينهشه هذا، أو يحصل له مكروه.

الثاني: ما يتصل بالرزق، هذا القلق الدائم المرتبط بالتفكير في المستقبل، كيف ستكون الأوضاع؟ هل سيعمل؟ هل سيجد عملا ؟

فهاتان قضيتان حسمهما الله -تبارك وتعالى- فالملَك يرسل إليه وهو في بطن أمه، ويؤمر بأربع كلمات، منها الرزق والأجل، وقدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فلو أن الناس استيقنوا ذلك ووقر في قلوبهم وثبت لارتفعت عنهم كثير من الهموم والعلل والأنصاب التي يعاني منها أكثر الخلق.

قوله: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٦٠)] الدواب لا تحمل رزقها، أي: لا تدخر رزق يومها الآخر، ولا تدخر شيئاً من الرزق، إنما تأكل ما لقيته، وما حصل في ساعته، ورزق الغد يأتي به الله الذي قدر رزق اليوم.

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع، وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد.

{وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ} بعضهم يقول: إن الكاف هذه كاف التشبيه، وإن أصل كأين "أي" دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى "كم" التي تكون للتكثير، هذا الذي يذهب إليه الخليل بن أحمد، وسيبويه، وبعضهم يسهل ذلك ويختصر ويقول في معنى قوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ} أي: وكم من دابة، والمقصود بذلك التكثير، أي: لا تطيق جمعه وتحصيله، لاحظْ: لا تحمل رزقها: لا تطيق جمعه وتحصيله لضعفها.

وقد قال أهل التفسير في قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تقدر على جمعه وتحصيله لضعفها، وبعضهم يقول: {لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تدخر لغدها كما يقول ابن جرير، ولا يوجد بين هذه المعاني منافاة، وقد جمع ابن كثير -رحمه الله- بين هذين المعنيين بعبارة واحدة، فقال: أي لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد.

{اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦].

مضى الكلام على هذا طويلاً، وليس المقصود من هذا الدرس في التفسير ذكر الهدايات والمعاني الزائدة ونحو ذلك، وإنما هو توجيه أقوال المفسرين؛ وبيان مأخذ القول، والجمع بين الأقوال أو الترجيح.

لكن هذا المعنى الكبير الذي ذكره الله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} مضى الكلام عليه مطولاً في الأعمال القلبية في الكلام على التوكل، كما مضى الكلام على ذلك في الأسماء الحسنى في مناسبات، والكلام عليه مع شيء من البسط في الكلام على اسمه -تبارك وتعالى- الرزاق، والله المستعان.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة العنكبوت: (٦١-٦٣)]، **يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلمَ يُعبد غيره؟ ولمَ يُتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.**

إذا كان الله -تبارك وتعالى- هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وهو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع، فكيف تُوجَّه العبادة إلى غيره ؟ كيف تكون الرغبة إلى غيره ؟ فإن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، فإذا كنتم تقرون بتوحيد الربوبية فاعبدوه وحده لا شريك له.

كما أن توحيد الإلهية متضمن توحيد الربوبية، فإنه حينما تُوجَّه العبادة إلى الله -تبارك وتعالى- حينما يقال: هو الله: هو المعبود: هو الإله فإن هذا يتضمن أنه الكامل من كل وجه، فهو الرب المدبر، المتصرف، السيد، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، الذي اتصف بجميع صفات الكمال، ولهذا كان أجمع الأوصاف على الإطلاق صفة الإلهية؛ لأنها تدل على جميع صفات الكمال، فهي مضمنة فيها، فإنه المألوه المعبود الذي اتصف بكل كمال، ولهذا قال الله تعالى: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[سورة الفاتحة: (٢)] فـ "ال" للاستغراق، فجميع المحامد مستحقة لله -تبارك وتعالى- ولا يكون ذلك -أي كل المحامد مستحقة- إلا لمن كان كاملا من كل وجه، وليس فيه نقص بوجه من الوجوه فاستحق الحمد الكامل المطلق، والله تعالى أعلم.

{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٤-٦٦)]، **يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام**

لها، وغاية ما فيها لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان: أي الحياة الدائمة: الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

{وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} [سورة العنكبوت: (٦٤)] الحيوان يقال للحياة، لكن ما كان على هذه الزنة فإنه أبلغ في الوصف؛ لأنه عدل به عن نظائره، والمقصود بذلك الحياة التي لا يعتورها نقص بوجه من الوجوه، فهي حياة كاملة، وهي الحياة الحقيقية؛ لأن الحياة الدنيا منغصة بألوان المكدرات، ثم بعد ذلك يعقبها الموت، وأما الآخرة فهي حياة كاملة، لا نقص فيها ولا موت فهم خالدون، هذه الحياة التي يصح أن يقال عنها: إنها حياة حقيقة لكمالها.

قال ابن القيم –رحمه الله-: "{وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} والمراد الجنة عند أهل التفسير قالوا: وإن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان لهي دار الحياة التي لا موت فيها، فقال الكلبي هي حياة لا موت فيها قال: وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة، وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة، وقال أبو عبيدة وابن قتيبة الحياة الحيوان قال أبو عبيدة الحياة والحيوان والحِيّ بكسر الحاء واحد"[٤].

من العلماء من يقول: الحياة والحيوان هما بمعنى واحد، يقال حِيّ وحيوان بمعنى واحد، وبعضهم يقول ذلك لما كان فيه حياة واضحة، يعني ما يقابل ما لا حياة فيه من الحياة والجماد، والمقصود بالحياة عند الفقهاء وعند أهل العلم ليس ما اصطلح عليه الناس اليوم من أن النبات والنطفة فيها حيوانات منوية، فهم يعتبرون هذا كله من قبيل مالا حياة فيه.

وإنما ما كان فيه روح سارية فإنه يقال له حيوان، ولهذا فإن أهل المنطق يقولون: إن الإنسان حيوان ناطق بهذا الاعتبار.

يقول ابن القيم: "قال أبو علي: يعني أنها مصادر فالحياة فَعَلَة كالحَلَبة، والحيوان كالنزَوان والغلَيان، والحِي كالعِي، قال العجاج:

كنا بها إذا الحياة حِي.

أي: إذا الحياة حياة، وأما أبو زيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح والموتان والموات ما لا روح فيه. والصواب أن الحيوان يقع على ضربين أحدهما مصدر كما حكاه أبو عبيدة، والثاني وصف كما حكاه أبو زيد وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفَعَلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فَعْلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فَعَلان قد جاء في الصفات أيضا قالوا رجل ضَمَيان للسريع الخفيف، وزَفَيان قال في الصحاح ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: {وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} معنيين:

أحدهما: أن الحياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدرا على هذا.

---

٤ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٩٨).

والثاني: أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت"[٥].

فالمعنى الأول: الدار الآخرة هي الحيوان يعني الحياة الحقيقية، وهي التي تستحق أن يقال عنها حياة لا فيها منغصات ولا مكدرات، والمعنى الثاني: أنها أحق بهذا الوصف يعني: الحياة التي يقابلها الموت، الحياة الآخرة هي التي تستحق أن يقال لها ذلك فهي أكمل، والنعيم فيها يقع على الروح والجسد على حد سواء، وما يحصل فيها من اللذات والمتع وما إلى ذلك أكمل بكثير مما يقع في الدنيا، أما الحياة في الدنيا فهي قصيرة يعقبها الموت.

وقوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٤)] **أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائما، {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} كقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ}** [سورة الإسراء: (٦٧)] **الآية، وقوله تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك، ولاشك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}** [سورة القصص: (٨)].

العلماء -رحمهم الله- يقولون في مثل هذا: إنها لام عاقبة يعني: أنهم ما قصدوا الوصول إلى هذا، وما فعلوا هذا من أجل هذا، يعني ليست لام التعليل، وإنما لام العاقبة.

مثال ذلك قوله -عز وجل-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص: (٨)] فهل التقطوه من أجل أن يكون لهم عدوا ؟ الجواب: لا، فاللام هنا للعاقبة.

ابن كثير يفصل هذا التفصيل -كما ذكره في ذلك الموضع أيضاً- فيقول هي بالنسبة لله -تبارك وتعالى- لام التعليل، وليست لام العاقبة، وبالنسبة لفعلهم هم هي لام العاقبة؛ لأنهم لم يقصدوا الوصول إلى ذلك.

وفي قوله تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} [سورة العنكبوت: (٦٦)] يقول ابن كثير: بالنسبة إليهم هي لام العاقبة، وبالنسبة لله -عز وجل- وتدبيره هي لام التعليل.

وهذه الآية فيها قراءتان متواترتان، فعلى قراءة أبي عمرو وعاصم وابن عامر وورش بكسر اللام، فاللام للتعليل، وبعضهم يقول: هي بالكسر لام الأمر على سبيل التهديد كما قال: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [سورة الزمر: (٨)].

وعلى قراءة الجمهور بسكون اللام فهذه لا خلاف أنها لام أمر، ومن ثم يقال في هذه اللام: إنها لام الأمر أو لام التعليل، والله تعالى أعلم.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

٥- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٩٨-٩٩).

{فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة العنكبوت: (٦٧-٦٩)]، يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمنا فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش: (١-٤)]، وقوله تعالى: {أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٧)]، أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد وبدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله؟!، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وأن لا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه، وأخرجوه من بين ظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ} [سورة العنكبوت: (٦٨)]، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مكذب.

{وَمَنْ أَظْلَمُ} أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ} [سورة البقرة: (١١٤)] لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، فهذا على أحد وجهين، الأول: أن يقال ذلك على سبيل الإطلاق بمعنى أن أفعل التفضيل لا تمنع التساوي، وإنما تمنع أن يزيد أحد على هذا المذكور، يعني أنه بلغ الغاية، فلا أحد يزيد على ظلم من منع مساجد الله، ولا أحد يزيد على ظلم من افترى على الله كذبا، أو من ذُكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، فكل هؤلاء بلغوا في الظلم غايته، فأفعل التفضيل لا تمنع التساوي ولكنها تمنع الزيادة، فلا يشكل بعد ذلك، وليس هناك تعارض، فكل هؤلاء بلغوا الغاية في الظلم.

والوجه الثاني: أن يكون كل واحد يختص بموضعه، ففي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وفي المعرضين لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، وفي المفترين لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا.

ولهذا قال تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٦٨)]، ثم قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)]، يعني: الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين لنهدينهم سبلنا أي لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة.

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)] هل المقصود به الجهاد بالمعنى الخاص وقتال الأعداء، أو المقصود بالمجاهدة المعنى العام؟ لأن هذه السورة مكية ونزلت قبل فرض الجهاد.

ولهذا يقول بعض المفسرين -كابن عطية-: إن هذه الآية في الجهاد العام، كجهاد النفس والهوى والشيطان، والدعوة إلى الله وبيان الحق والرد علي المبطلين؛ لأن الآية نازلة في مكة ولم يفرض الجهاد الذي هو القتال بعد، فالذي يجاهد نفسه ليردها عن الباطل ويجاهد هواه ويبذل وسعه في طلب الحق فإن الله -عز وجل- يسدده ويوفقه ويبصره ويهديه.

وحمل بعض أهل العلم -كابن أدهم- هذه الآية على المعنى القريب من هذا، لكنه في العمل يجاهد نفسه بالعمل بما علم، لكن لا حاجة لهذا التقييد.

وبعضهم يحمل الآية -كما هو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- على الجهاد عموماً، وبعض أهل العلم قال: إن ذلك في الجهاد الذي هو قتال الكفار، وإن الناس إذا اختلفوا في شيء، فإنه ينظر ما كان عليه أهل الجهاد فإن الله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، ولكن إذا قيل بأن الآية مكية، وأن المقصود بالجهاد هو المعنى العام، فمن جاهد في طلب الحق، وبذل وسعه في تلمسه، وجاهد نفسه، وهواه فإن الله يسدده، ويوفقه.

روى ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد -من أهل عكا- في قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}، قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فأعجبه وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} قال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم -عليه السلام-: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

نقل عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أن الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والإحسان هنا أعم من هذا المعنى، فالإحسان مع الله -تبارك وتعالى- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فهذه المرتبة العالية من مراتب الدين، ثم بعد ذلك الإحسان مع الخلق بإسداء المعروف وبذل النفع وألوان البر للخلق، فهذا كله من الإحسان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)]، علق سُبْحَانَهُ الْهِدَايَة بِالْجِهَاد فأكمل النَّاس هدايَة أعظمهم جهادا وأفرض الْجِهَاد جِهَاد النَّفس وَجِهَاد الْهوى وَجِهَاد الشَّيْطَان وَجِهَاد الدُّنْيَا فَمن جَاهد هَذِه الْأَرْبَعَة فِي الله هداه الله سبل رضَاهُ الموصلة إِلَى جنته وَمن ترك الْجِهَاد فَاتَهُ من الْهدى بِحَسب مَا عطل من الْجِهَاد، قَالَ الْجُنَيْد: وَالَّذين جاهدوا أهواءهم فِينَا بِالتَّوْبَةِ لنهدينهم سبل الْإِخْلَاص وَلَا يتَمَكَّن من جِهَاد عدوه فِي الظَّاهِر إِلَّا من جَاهد هَذِه الْأَعْدَاء بَاطِنا فَمن نُصر عَلَيْهَا نصر على عدوه وَمن نصرت عَلَيْهِ نصر عَلَيْهِ عدوه"[٦].

---

[٦] الفوائد لابن القيم (ص: ٥٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الروم من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير سورة الروم: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم:١-٧].

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل مَلِك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، كما سيأتي.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، في قوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ} قال: غُلبت وغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إنهم سيَغلبون)) فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ألا جعلتها إلى دُون))، أراه قال: ((العشر))، "قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعدُ، قال: فذلك قوله: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[(١)].

هكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى أبو عيسى الترمذي عن نيَار بن مُكرَم الأسلمي قال: لما نزلت، {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٣١٩٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٤٩٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينك، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان- فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضَعُوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل -البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين- فَسمِّ بيننا وبينك وَسَطًا ننتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: {فِي بِضْعِ سِنِينَ}، قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير[٢].

هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن كثير -رحمه الله-: **نزلت هذه الآية حينما غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الرم،** المقصود بالجزيرة هنا أي الواقعة بين العراق والشام، وليس المقصود بذلك جزيرة العرب، وقوله -تبارك وتعالى-: {غُلِبَتِ الرُّومُ} هذه قراءة الجمهور ببناء الفعل للمجهول وذلك حينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة وحصلت قصة الرهان المعروفة بعد ذلك، القراءة الأخرى قراءة أهل الشام {الم * غَلَبَتِ الرُّومُ} فهذه نزلت حينما انتصر الروم على الفرس، ويقولون: إن ذلك كان في يوم بدر كما سيأتي عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ} حيث إن هذا النصر الذي يفرحون به يحتمل أن يكون الانتصار على المشركين أنه يشير إليه أو أن ذلك يكون بانتصار الروم على الفرس؛ لأن الروم ينتسبون إلى كتاب فلهم نوع اتصال ووشيجة بدين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإن كانوا على باطل وشرك، ولكن مهما يكن فهؤلاء أقرب إلى المسلمين من الوثنيين الخلّص، وعلى هذا تكون الآية نازلة مرتين مرة في مكة {غُلِبَتِ الرُّومُ}، ومرة في المدينة، ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين فهذه تخبر عما حصل للروم من الغلبة والهزيمة، والأخرى تخبر عن تغلبهم وانتصارهم ولا إشكال في هذا، والانتصار الذي حصل للروم على الفرس لم يكن انتصاراً في أرض المعركة بالمعنى المعروف أنهم تقابلوا مع الروم وجهاً لوجه في ميدان المعركة، وانتصروا عليهم، وإنما كان ذلك بحيلة احتالوا بها، احتال بها هرقل على الفرس وعلى ملكهم سابور، ومعلوم أن الفرس كانوا أشد بأساً في القتال وأكثر ضراوة فيه، ولهذا فإن الفتوح التي كانت في بلاد فارس والروم حيث كانت بداية ذلك في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- ثم إن عمر -رضي الله عنه- هو الذي نقض عروشهم فالفرس على شدتهم وقوتهم في القتال كانت العرب تعلم ذلك، ولهذا كان ينادى في الناس كثيراً حيث يندبون للخروج إلى الجهاد في العراق وبلاد الشام بعد حروب الردة فكان الناس يذهبون إلى الشام وذلك لسببين:

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٣١٩٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الضعيفة، تحت حديث رقم (٣٣٥٤).

الأول: هو ما جاء في فضائل الشام.

والثاني: هو ما استقر في قلوب العرب من شدة الفرس وشراستهم في القتال مع أن ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- عن فارس نطحة أو نطحتان، ثم بعد ذلك ينتهي الأمر، وهذا الذي حصل، أما الروم فقال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات القرون كلما ذهب قرن طلع وجاء قرن آخر، وهكذا كما هو مشاهد، فالشاهد أنهم ما انتصروا عليهم في أرض المعركة، لكنهم انتصروا بحيلة، مع أن المسلمين بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة اجتمع عليهم في بعض المعارك في الفتوحات لبلاد الشام والعراق لما كانت متزامنة اجتمع في بعض المعارك الفرس والروم لربما لأول مرة يجتمعون في التاريخ اجتمعوا لقتال المسلمين وانهزموا.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ} قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محاريب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة.

يعني كان الروم على دينهم وهو الوثنية حتى مبعث المسيح -عليه الصلاة والسلام- بثلاثمائة سنة يعني بعده، لما دخل قسطنطين في النصرانية أو أدخل النصرانية في وثنيته وجنى عليها الجناية المعروفة في التاريخ وأفسدها إفساداً عظيماً.

وكان مَن مَلكَ الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران.

يعني هي تسمّت مريم و لم يكن ذلك اسماً لها.

كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفا، فتابعها -يقال: تَقِيَّة.

يقال:إنه تابعها تقيّة منذ دخل في النصرانية، يعني المقصود من غير إيمان حقيقي، وليس المقصود بالتقية أنه كان يخاف أو نحو ذلك، وإنما كانت تدعوه حيناً بعد حين، فحصل له موقف وكان ذلك سبباً لتنصره، وقد كان يؤذي النصارى ويضطهدهم، وقد فر بعض رجال دينهم كما يقال، فروا منه، يفرون ويختفون، فرأى رؤيا، وكان قد مرض وأُخبر في هذه الرؤيا أنه يبرأ على يدي فلان أو نحو ذلك، فطلبه وكان قد استخفى منه وجاء هذا الرجل وعالجه كما يزعمون وأرشده إلى بعض الأمور فَسُر به، وكان ذلك سبباً لدخوله في النصرانية، ولم يكن خائفاً فيها، عكس ذلك كان يتخوف من قومه بأنه كان في روما قبل بناء القسطنطينية، وكانوا على الوثنية، وكان يتخوف من هؤلاء ويتخوف من الفرس فبنى القسطنطينية ثم انتقل إليها، فلما علم قومه في روما أنه قد دخل في النصرانية غضبوا وملّكوا رجلاً آخر، ثم بعد ذلك سار إليهم، وقبل أن يصل إلى روما رجعوا إلى طاعته فدخلها، جاءت أمه بعد ذلك إلى الشام وهي التي بنت فيها الكنائس وفي أرض مصر، واستخرجت الكنوز كنوز الملوك، وأنفقت خزائن الملوك في بناء الكنائس والمعابد وتشييد النصرانية في بلاد الشام ومصر وبلاد الروم حتى قيل: إنه لا يوجد كنيسة في الشام ومصر وبلاد الروم إلا كان ذلك

من بنائها هي، حتى قيل: إنها بنت مع ولدها اثنتي عشرة كنيسة.

واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافا كثيرًا منتشرا متشتتا لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين -يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه-، وغَيَّروا دين المسيح -عليه السلام-، وزادوا فيه ونقصوا منه.

هذا الاجتماع الذي حصل هو الاجتماع المعروف باجتماع نيقيا، وهو الذي أقرت به عقيدة التثليث، وأقرت به الأناجيل الأربعة من بين أناجيل كثيرة جداً ومختلفة، يقول: **فوضعوا لقسطنطين العقيدة التي يسمونها الأمانة الكبرى، وإنما هي الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانيين**، يعني من كتب الأحكام فهذا في كتاب سموه القانون، وذلك أن هؤلاء لشدة بغضهم لليهود هم متعبدون أصلاً في دينهم بالتوراة؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ناسخاً للتوراة، فهو متعبد فيها، فهؤلاء لشدة كراهيتهم لليهود والعداوة التي بينهم تركوا العمل بالتوراة، فبقوا بلا قانون فاخترعوا هذا القانون؛ من أجل أن يتحاكموا إليه وتنضبط حياتهم بمرجع يصدرون عنه، ويرجعون إليه إذا اختلفوا ويحتكمون إليه.

فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير.

واتخذوا أعيادًا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم.

يعني البابا كبير النصارى.

وكان اليهود يصلون إلى الصخرة، والسبب في ذلك يزعمون أنهم كانوا يصلون إلى التابوت يحملونه معهم في مغازيهم وإذا رجعوا إلى البلد وضعوه على الصخرة فيصلون إليها، فلما ظهر النصارى وتمكنوا اضطهدوا اليهود يعني من عهد قسطنطين فما بعده فصار هذا المكان الذي يتجه إليه اليهود صار موضعاً -أعزكم الله- للزبائل والقاذورات حتى جاء الفتح الإسلامي فأميط ما هنالك، ولكن ذلك لا يعني أن يقدس المسلمون الصخرة إطلاقاً، ولا يعني هذا أن تبرز القبة التي عليها وُضعت، وحقها أن تزال فلا معنى لها أصلاً، فهي معظمة عند اليهود -هذه الصخرة- وليس لها عند المسلمين معنى، لكن عبد الملك بن مروان لما قيل له: إن ابن الزبير في مكة والناس يأتون إلى الحج والعمرة فيلقونه وأنت في الشام عمد إلى هذه الصخرة وبنى عليها هذا البناء، وضع عليها هذه القبة وزوقها وزينها غاية التزيين، يريد أن يأتي الناس إلى بلاد الشام يكون هناك شيء يأتون إليه ولو أنه أصلح المسجد الأقصى لكان أولى، وأفعل التفضيل ليس على بابه هنا، وأحد الأشياء التي لا أفهمها إلى اليوم هو ما يحصل من عرض قبة الصخرة إذا جاء الحديث عن المسجد الأقصى مع أني كنت أتوهم أن اليهود قصدوا هذا من أجل أن الناس لا يعرفون عن المسجد، فإذا هدم فإن الناس ينظرون إلى قبة الصخرة أهم شيء أنها لم تمس، لكن حينما يأتي الدعاة وحين يتحدثون عن الأقصى أو يقيمون المؤتمرات ويضعون القبة خلفية لملتقياتهم ومؤتمراتهم، الشيء الذي لم أستطع فهمه إلى الآن! حتى صارت صورة المسجد الأقصى الحقيقية كثير من المسلمون لا يعرفها ولا يعرف من المسجد الأقصى إلا قبة الصخرة، فكان اليهود يصلون إليها؛ لأنهم يزعمون أنهم كانوا يضعون التابوت، والنصارى لشدة

كراهيتهم لهم خالفوهم في القبلة فصاروا يستقبلون المشرق، وخالفوهم في عيدهم الذي هو يوم السبت وهؤلاء النصارى في الأصل هم بنو إسرائيل حتى دخل الرومان كما قال الله -عز وجل-: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ} [سورة الصف:١٤]، لما جاءهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- ودعاهم وأخبرهم بما أخبرهم به، وأنه مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فانقسموا هذا الانقسام، فصار بينهم من العداوة ما هو معلوم، فخالفوهم بعيدهم وصار يوم الأحد، وخالفوهم بالقبلة واخترعوا لهم هذه العقيدة سموها الأمانة الكبرى اخترعوا لهم شريعة أو قانوناً يتحاكمون إليه، ثم كثرت عندهم هذه الأعياد.

ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بَنى في أيامه اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف.

هؤلاء الملكانيون يعني على دين الملك على دين قسطنطين، والفرق الأخرى إلى هي اليعقوبية والنسطورية، ثم ظهرت بعد ذلك البروتستنتية فهي متأخرة كان ذلك على يد "مارتن لوثر" كما هو معلوم، وتخلصوا من كثير من الطقوس والخزعبلات عند النصارى ورفضوها، هم فرقة متأخرة تعتبر جديدة، ولذلك العلماء في الملل والنحل الذين كتبوا قديماً لا يذكرونها، وإنما يذكرون هذه الطوائف الثلاث.

ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة))[٣].

والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل.

هذه الأشياء التي ذكرها الحافظ ابن كثير يُعرّف بها تعريفاً موجزاً فيما يتعلق بالشعانين، والشعانيين عيد، ويقال له: عيد الزيتونة، ويقول بعضهم: عيد التسبيح، ويزعمون -كما هي العادة في فِراهم ومختلقاتهم وما عندهم من الأكاذيب والخرافات- أنه قيل له: عيد التسبيح؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام- لما دخل إلى بيت المقدس وكان الناس حوله يسبحون فقيل له: عيد التسبيح، هكذا زعموا، وهذا يوافق أول أحد في صومهم، أول أحد في صومهم يُخرجون ورق الزيتون والذين ليس عندهم زيتون يَخرجون بسعف النخيل، المهم يخرجون معهم بشيء في أيديهم من الشجر والأغصان، فيخرجون بأغصان الزيتون ونحو ذلك ويزعمون أن ذلك مشابهة لما جرى للمسيح -عليه الصلاة والسلام-، فهم يزعمون أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لما دخل بيت المقدس في حال من التواضع، ويقولون: إنه كان يركب أتاناً ومعها جحش، وأن اليهود لما رأوه دخل وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أغروا به السفهاء فثار عليه غوغاء الناس، وكانوا قد وكلوا به بعض الغوغاء الذين يقال لهم: البلطجية معهم عصيّ يضربونه بها، يقولون: فهذه العصيّ

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في افتراق الأمة، برقم (٢٦٤٠)، وأحمد في المسند، برقم (٨٣٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٣).

أورقت فآمن هؤلاءِ فسجدوا للمسيح -عليه الصلاة والسلام- هكذا يزعمون، فيقولون: عيد الشعانين إحياء لهذه المناسبة، وعندهم مناسبات كثيرة لا تنتهي، لكن هذا نموذج من المناسبات والأعياد التي تأتي للمسلمين باسم –أحياناً- جميل؛ لأنه اسم يأتي إنجليزيا فتجد أن المحتسبين يتعبون في مدافعتها، وإقناع الناس ببطلانها، فهذا أول أحد وهو سابع يوم في صومهم، البداية تكون بعد يوم الأحد، هو عيدهم، فسابع يوم وأول أحد في عيدهم هو موضع ذلك، سابع يوم في صومهم موعد ذلك عيد يقول: يوافق اليوم الثاني والأربعين من الخمسين التي يصومونها هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: إنه يوافق ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "اقتضاء الصراط المستقيم"، ونحن نتحدث عن خرافة لكن هذا الذي يذكرونه فيه: أنه أول أحد، أو اليوم الثاني والأربعون يعني الأسبوع السابع، وبعضهم يقول: إنه عيد لهم يقيمونه يوم الأحد السابق لعيد الفصح، ويحتفلون به لحمل السعف ويزعمون أن ذلك ذكرى لدخول المسيح بيت المقدس، بعد هذا العيد بأربعة أيام يأتي عيد الفصح الذي خرج فيه موسى وقومه من مصر، فهذا العيد يحتفل فيه اليهود بهذه المناسبة، ويحتفل به النصارى لمعنى آخر عندهم، وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة، يزعمون أنه اليوم الذي خرج فيه عيسى -صلى الله عليه وسلم- من القبر؛ لأنهم يقولون: إن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لما صلب ودفنه اليهود قام من قبره بعد ثلاثة أيام، فقتْلُه عندهم -بزعمهم أنه قتل وصلب- يوافق عيد الفصح، وبعد ثلاثة أيام خرج من القبر فسموه عيد القيامة قام من قبره حياً بعد قتله بزعمهم، وبعده بثمانية أيام عندهم عيد اسمه عيد السعيد، ويقولون: هذا اليوم الذي بعدما ظهر من القبر اليوم الذي قابل فيه أصحابه زارهم وأوصاهم هكذا يزعمون، وبعد ثمانية وثلاثين يوماً عندهم عيد يسمونه عيد السِلاق يزعمون أن هذا هو اليوم الذي صعد فيه إلى السماء، وعندهم عيد الصليب اخترعته أم قسطنطين يوافق اليوم الذي وجدوا فيه الصليب الذي يزعمون أنه صُلب عليه عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فيزعمون أن أم قسطنطين لما جاءت إلى الشام بدأت تتحرى وتسأل على الموضع الذي صلب فيه المسيح -عليه الصلاة والسلام-، وعن الخشبة التي صلب عليها بعد نحو ثلاثمائة سنة، فكانت تسأل اليهود وتمتحنهم في ذلك وهم يقولون: لا نعلم، يزعمون أنها تتحرى وتسأل وتعذب اليهود حتى توصلت إلى ثلاثة فحبستهم في بئر وبقوا فيها أياماً لا يأكلون ولا يشربون فبلغ ذلك بهم إلى حال أشرفوا فيها على الهلكة فذكر أحدهم أن أباه سمع من أبيه أن المسيح -عليه الصلاة والسلام- صلب في المكان الفلاني وأن الخشبة التي صلب عليها هناك، فهؤلاء صاحوا بالناس خارج البئر فقالوا لهم: أخرجونا، فهذا الرجل يزعم أنه سمع من أبيه، وأن أباه سمع من جده، والشاهد أنهم أخرجوهم فأرشدهم إلى هذا المكان، مكان -أعزكم الله ومن يسمع- كله مزابل قمامة فأمرت أم قسطنطين بإزاحتها ثم بعد ذلك يزعمون أنها استخرجت الصليب يعني من حفرة هناك، ويزعمون أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- دفن فيها ثم بعد ثلاثة أيام خرج فأخرجت الصليب، وأماطت عنه الأذى، وحلته بالذهب والفضة، وأقامت في هذا المكان الذي هو مزبلة قمامة أقامت فيه كنيسة القمامة، واتخذوا ذلك يوم عيد سموه عيد الصليب، هذا بالنسبة لعيد الصليب، وأما عيد الغِطاس بكسر الغين، ويقال له: أيضاً عيد الحميم، ويقال: الدنح فيوافق يوم ١٩ يناير، ويزعمون أن يحيى بن زكريا -عليه السلام- المعروف عندهم بيوحنا المعمدان يقولون: إنه عمد المسيح نهر الأردن، فالنصارى يعمدون الأولاد الصغار عندهم يأخذونهم ويغمسونهم فيما

يزعمون أنه مقدس، هذه عقيدة عند النصارى، فالشاهد يقولون: إن يحيى -عليه السلام- عمد المسيح -عليه السلام- في نهر الأردن وإنه عندما غسله عمده يعني اتصلت به روح القدس فصار النصارى بعد ذلك يغمسون أولادهم بالماء في هذا اليوم، وينزلون فيه بأجمعهم، ويقولون: إن أصل كلمة الغِطاس ليست عربية وإن أصلها أغريغية وهي تعني الظهور، يعني ليس الغطس بالماء وإنما الظهور، وهي عندهم كلمة دينية تعني ظهور شيء غير مرئي، يعني ما اتصلت بعيسى -صلى الله عليه وسلم- روح القدس فهذا عيد الغطاس، وانظروا هذه الأباطيل والخرافات كيف تنطلي ثم يقدم ذلك للعالم على أنها ديانة عالمية، وتبذل الجهود الضخمة في نشرها في مشارق الأرض ومغاربها، هيلانة الحرّانية هذه التي سمت نفسها بمريم أم قسطنطين هي التي اخترعت العيد السابق عيد الصليب، وكان ذلك بعد مجيء قسطنطين بسبع سنين حينما جاءت إلى الشام وحصل ما حصل، ويقولون: إن هذا يوافق ١٤ أيلول بعد ولادة المسيح -عليه الصلاة والسلام- بثلاثمائة سنة، وهذا قول بعض المتقدمين، لكن بعض المعاصرين يقول: إن عيد الصليب هذا هو ما يسمى اليوم بعيد الكريسماس، عيد الصليب يعني غير عيد الميلاد في رأس السنة، وعيد الكريسماس هو عيد الصليب في ١٤ أيلول، وأما الباعوث فهو أيضاً عيد للنصارى، يقال بأن أصله من الانبعاث، فهم منبعثون إليه من كل ناحية ويجتمعون كما يجتمع المسلمون يوم الأضحى والفطر، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يذكر أنهم يسمون هذا العيد يعني يسمونه الشعانين، يقول: "وكل مخرج يخرجونه إلى الصحراء يقولون له: باعوث"، فالباعوث عندهم اسم جنس بما يظهر به الدين كعيد الفطر والنحر باعوث من الانبعاث كأنه يخرج، ولهذا بعضهم -بعض المتقدمين- يفسر الباعوث بأنه خروج إلى الصحراء للاستسقاء، لكن شيخ الإسلام يوسع المعنى فيقول: هو العيد الذي يظهرونه ويخرجون إليه منبعثين يأتون إليه من كل ناحية يتجمعون كالفطر والأضحى هو يمثل الفطر والأضحى عند المسلمين، فحينما يخرجون إلى الاستسقاء أو غير ذلك يسمونه عيد الباعوث، ولهذا في الفائق للزمخشري يفسره باستسقائهم، يقولون: يخرجون بصلبانهم إلى الصحراء فيستسقون فهو كالاستسقاء للمسلمين وهكذا ذكر هذا جماعة مثل صاحب النهاية في الأثر، وصاحب اللسان، وتاج العروس، وبعضهم يقول: إن أصله الباغوت وليس الباعوث، يقولون: أصله سرياني، والمشهور أنه الباعوث، وبعضهم عد ذلك من الغلط المشهور فذكره في جملة الأخطاء كما في غلط الفقهاء لابن بري، فهذا بالنسبة لهذه الأعياد، وأما ما ذكر من المراتب الدينية عندهم مثل البطريك، المطران، الأسقف، القسيس، الشماس فهذه كلها مراتب لما يسمى برجال الدين عندهم، وأعلاها البابا ثم يتفاوتون، وهذا ليس محل اتفاق عند النصارى فهم على اختلاف كبير كما هو معلوم، فالبروتستنت ليس عندهم هذا التدرج بهذه الطريقة، حينما تجد هذا في بعض الكنائس الشرقية فهو يختلف من طائفة لأخرى، ومن شاء أن ينظر إلى معاني هذه جميعاً يمكن أن يراجع من المصادر اليسيرة التي يستطيع أن يصل إلى ذلك بسهولة "الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والفرق" في المجلد الثاني، وهكذا بالنسبة للمذاهب المشار إليها النسطورية هي موجودة في "الملل والنحل" للشهرستاني، وهكذا اليعقوبية، وبعضهم يقول: إن اليعقوبية هم الأرثوذوكس، وإن الملكانية هم الكاثوليك لكن البروتستنتية وُجدت بعد ذلك.

وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا، فتمَلَّكَ عليهم في رياسَة

عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، ومَلكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار.

قوله: **ذو الأكتاف** يقال لمن حصلت له غضبة فجاء إلى هذا الساحل الذي هو غرب الخليج العربي، فجاء فكان ينتقم بخلع أكتاف الرجال وهم أحياء، فصار على طول هذا الساحل يفعل بهم ذلك ولا يقف في وجهه أحد، كانت قبائل ضعيفة حتى وصل إلى قريب من الأحساء، وأن امرأة قالت له كلاماً استحى بعد ذلك منه، يعني كلمته وقالت له: إن كنت تريد أن تنتقم وتحصل ثأراً فقد حصلته أو كلاماً نحو هذا، الشاهد أنه بعد ذلك ذهب فلقب بذي الأكتاف، -والله المستعان-، وهذه من حماقات الفرس وله حماقات معروفة في التاريخ، ومن قرأ في الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس رأى من ذلك أشياء، وما يدلك على حماقاتهم ما سيذكره مما جرى لهم من ملك الروم.

فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء، فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقلّ عقلَه لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط، هذا وكسرى مُخَيّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله.

يعني هي العاصمة، هذا مُرابط على القسطنطينية، وهذا يعيث في أرضه فساداً ويأخذ أولاده وبناته ويسوقهم وينهب خزائنه و يبطش ويفتك، وهذا مرابط عند القسطنطينية ينتظر متى يأتي بحواصله ودفائنه.

وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وأركبه على حماره.

أركبه على حماره يعني إهانة وإذلالاً، يركب ولد ملك الفرس على حمار.

وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذه،

فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله -عز وجل-، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة.

يعني يتجه باتجاه معين يجري في هذا النهر، هو يريد أن يرصد المدخل إلى القسطنطينية الطريق الذي سيمر به قيصر، فلذلك أرسل ملك الروم مجموعة عند فم المخاضة -جبهة بعيدة- وصاروا يُلقُون، كان جاء معه بأشياء للدواب من -أكرمكم الله- التبن ونحو ذلك، فصار مَن هناك يلقون التبن -أعزكم الله- والبعر ونحو ذلك في فم المخاضة، هو لما رآه ظن أنهم يعبرون من تلك الجهة وأن هذه آثار الدواب فانطلق إلى تلك الناحية فمر هرقل من المكان الذي كان يتوقع أن يمر به ابتداءً فخدعه بهذه الطريقة فدخل في القسطنطينية وأغلق الأبواب، وذلك بقي يتحسر أيرجع إلى بلده التي فُعل بها كل ما سمعتم أو يبقى مرابطاً وهرقل قد دخل في القسطنطينية وتحصن بها ولا سبيل له إليها.

وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مُصعدا، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، وكان ذلك يوما مشهودًا عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون،لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادُهم قد خرَّبتها الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، فكان هذا من غَلَب الروم فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم.

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غُلبت الروم بين أذرعات وبُصرى، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز.

وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

هو يريد أن يتحدث عن أطراف الشام فقال: **وكانت الواقعة بين أذرعات وبصرى**، فأطراف الشام أذرعات وبصرى، فبصرى هي التي يقولون لها: حوران وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز، ومجاهد يقول: **كان ذلك في الجزيرة**، وقوله -تبارك وتعالى-: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} كثير من المفسرين يقولون: {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني إلى بلاد العرب، وقالوا: إن ذلك إذا أطلق في مخاطبته -مخاطبة العرب- فالمقصود أرض العرب، {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني أقرب بلاد الشام إلى بلاد العرب، وبعضهم يقول: العكس {أَدْنَى الْأَرْضِ} أدنى أرض العرب إلى بلاد الشام، ويقولون: هذا هو المعهود حينما يخاطبون بمثل هذا، بعضهم كما يقول: هي الجزيرة أو أذرعات، وبعضهم يقول: الأردن، وبعضهم يقول: فلسطين، وبعضهم يقول غير ذلك، وبعضهم يقول: الألف واللام في قوله: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} عوض عن المضاف إليه ويكون المعنى على هذا: في أدنى أرضهم، {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} فيعود الضمير إلى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم، وبعضهم يفصل كابن عطية في كتابه المعروف "المحرر الوجيز" يقول: إن كانت الواقعة –المعركة- في

أذرعات فهي في أدنى الأرض قياساً إلى مكة هي أقرب إلى جزيرة العرب، فهي أدنى بالقياس على كسرى، يعني لما تخرج من العراق تأتيك الجزيرة فهي بين الشام والعراق، وكسرى في طريقه إلى الشام يمر بالجزيرة، وإن كانت في الأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، و ابن جرير -رحمه الله- يقول: هي أدنى أرض الشام إلى أرض فارس، أدنى أرض الشام إلى أرض فارس هذا هو المتوقع الطبعي؛ لأنه سيأتي من فارس إلى بلاد الروم فأدنى ذلك سيكون في الجزيرة فهذا هو الغالب، لكن الجزم بمثل هذا يصعب ولا تترتب على تحديده فائدة، وإنما المقصود فقط معرفة المعنى {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} والذين قالوا في أدنى الأرض بالنسبة لأرض العرب اعتمدوا على ما سبق من أن المخاطبين العرب حينما يقال لهم: {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني إلى بلادهم مع أنه لا يبعد أن يكون المراد {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني أدنى أرض الروم إلى بلاد فارس، أما تفسير أدنى الأرض بأنه يعنى أكثر الأماكن هبوطاً ونزولاً، ويقولون: إن هذا كان في الأردن أو غور الأردن أو نحو ذلك، وإن هذه المنطقة تعتبر أكثر منطقة في العالم منخفضة وما أشبه ذلك، فهذا كما يقوله بعض من يتكلم بالإعجاز العلمي، وهذا فيه بُعد، والدنو بمعنى القرب، وليس المقصود بأدنى الأرض أنه من حيث السفل، -والله أعلم-.

هنا قال: {وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ} هنا لم يتكلم على هذا، ما تطرق لها؟ {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ} من بعد غلبهم، الآن هذا بعد غلبهم على قراءة أهل الشام يكون مضافاً إلى الفاعل {الم * غَلَبَتِ الرُّومُ} ومضافاً إلى المفعول على قراءة الجمهور.

وقوله: {لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ} [سورة الروم:٤]، **أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبني على الضم لما قُطع المضاف، وهو قوله: {قَبْلُ} عن الإضافة، ونُويت.**

نويت بمعنى الإضافة من قبلُ وبعدُ، ويقول: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ} بنصر الله أي بالروم أصحاب قيصر، يفرحون بانتصارهم، وبعضهم يقول: يفرحون بنصر الله من جهة تحقق الوعد وظهور النبوة، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرهم عن هذا وصار هناك تحدٍّ والمشركون فرحوا بانتصار الفرس وافتخروا به وتيمنوا بذلك أنهم سينتصرون على المسلمين، فجاءت العاقبة بعد ذلك بانتصار الروم ففرح المسلمون بتحقق هذا الوعد، وبعض أهل العلم يقول: إن هذا الفرح المشار إليه إنما كان من انتصارهم في يوم بدر وإنه يوافق اليوم الذي حصل فيه انتصار الروم على الفرس، والمسلمون فرحوا بهذا وهذا، وكأن الانتصار الذي حصل كان في مكة فكسب أبو بكر -رضي الله عنه- الرهان ولا يبدو -والله أعلم- أن ذلك حينما كانوا في المدينة فلم يكن هناك اتصال مع المشركين، وإنما كانت الحرب قائمة بينهم، فظاهره أن ذلك كان وهم في مكة، والله أعلم.

{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ} أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدِّي، وغيرهم.

ففرحوا به، وأنزل الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين في الفرح، قال يفرحون بانتصار الروم على الفرس، ويفرحون

بانتصارهم هم على المشركين، وهذا لا إشكال فيه، مع أن الظاهر أنه بتحقق الوعد وانتصار الروم، أو انتصار الفرس على الروم؛ لأنه قال: {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} يومئذ يعني يفرحون بهذا الانتصار للروم على الفرس، وهذا لا يمنع من أن يكون في ضمن ذلك فرح آخر أعظم منه، وهو انتصار المسلمين على المشركين، فابن جرير جمع بين هذا وهذا، جمع بين الفرحين وأن هذا الوعد فيهما.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[٤].

هذه الرواية عن أبي سعيد -رضي الله عنه- تتأتي على قراءة الفتح {غَلَبَتِ الرُّومُ}.

وروى ابن أبي حاتم عن العلاء بن الزبير الكلابي قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة.

وقوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، {الرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين.

وقوله: {وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ} أي: هذا الذي أخبرناك به -يا محمد- من أنا سننصر الروم على فارس وعدٌ من الله حق، وخَبَر صدق لا يخلف، ولابد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغَفّل لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لَبَلَغَ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يصلي.

وقال ابن عباس في قوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "وَأَمَّا الثَّانِي مِنْهَا: وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وَهُمُ الْكُفَّارُ لَا يَعْلَمُونَ، فَقَدْ جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ هُمُ الْكَافِرُونَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة هود:١٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الصافات:٧١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ} [سورة الأنعام:١١٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٢٩٣٥).

وَقَدْ بيَّنَ -جل وعلا- أَيْضًا فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَعْلَمُونَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [سورة البقرة:١٧٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٧١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:١٠]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ مِنْهَا: وَهُوَ كَوْنُهُمْ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ جَاءَ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٨]، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} الْآيَةَ [سورة النجم:٢٩-٣٠].

وَأَمَّا الرَّابِعُ مِنْهَا: وَهُوَ كَوْنُهُمْ غَافِلِينَ عَنِ الْآخِرَةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ; كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} الْآيَةَ [سورة المؤمنون:٣٦-٣٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: {وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ} [سورة الدخان:٣٥]، {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [سورة الأنعام:٢٩]، {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [سورة يس:٧٨]، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ"[٥].

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الروم:٨-١٠].

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}.

قوله هنا: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها لم تخلق سدى... إلى آخره**، بهذا تكون الأنفس ظرفاً للتفكر يعني يتفكر في قلبه في داخل نفسه، ويجيل النظر فحينما ينظر في خلق الله -تبارك وتعالى- السماوات والأرض وما إلى ذلك يعلم

---

٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(١٦٥/٦).

أنها ما خلقت عبثا ولا باطلاً، ويتوصل بذلك إلى المطالب العظيمة التي تحصل من جراء هذا التفكر من توحيد الله -عز وجل- ومعرفة أوصافه الكاملة، وكذلك ما يصير الناس إليه من البعث والنشور والعدل الذي يقيمه الله -عز وجل- بين الخلائق فيحكم بينهم فيكون هنا قوله: {فِي أَنْفُسِهِمْ} -هذا على كلام ابن كثير- "في" للظرفية {فِي أَنْفُسِهِمْ} يتفكروا في أنفسهم فمحل التفكر وظرفه يكون في النفوس يعني في القلب يتفكروا في قلوبهم مثلاً، لا أعني بالضرورة أو بدقة أن النفس هي القلب، لا أعني هذا الآن، لكن لتقريب المعنى {يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} يجيل النظر في قلبه ويتبصر وينظر ويتدبر في هذه المخلوقات {يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} والله -تبارك وتعالى- جعل للناس السمع والأبصار والأفئدة من أجل أن يتفكروا ويتدبروا ويكتسبوا بذلك العلوم الغائبة عنهم أو التي لا تحصل إلا بالتطلب والنظر والتفكر، فيحصل لهم الاعتبار وما إلى ذلك من نتائج التفكر فتكون النفس ظرفاً له، ويحتمل أن يكون ذلك -أعني النفس- مفعولاً للتفكر، يتفكر في نفسه ينظر في خلق الله -تبارك وتعالى- لهذا الإنسان، تفكر في نفسك وما أعطاك الله وحباك فتكون النفس مفعولاً للتفكر يعني يكون التفكر واقعاً عليها {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الذاريات:٢١] فهذا الإنسان في خلقه والأطوار التي يمر بها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ثم بعد ذلك يتحول إلى شيء آخر ثم يكون على أطوار، وبعدما يخرج إلى هذه الحياة، كل ذلك يدل على قدرة الله، ويدل على أن هذه الحياة لها منتهى وأن هذا ليس بنهاية المطاف، فهذا التفكر يدل على أشياء، لو نظر في نفسه وهو في بطن أمه له أرجل، ولكن لا يحتاج إليها، له يد لا يحتاج إليها، له أعين لا يحتاج إليها، له سمع لا يحتاج إليه، فهو معد لمرحلة أخرى فيخرج إلى هذه الحياة الدنيا، ثم بعد ذلك لو نظر في حاله في هذه الحياة الدنيا لعلم أن هناك أشياء لا يمكن أن تتحقق في هذه الحياة وهي في نفس الإنسان، وإنما تتحقق في مرحلة أخرى بعد ذلك فيكون المعنى: أفلم يتفكروا في خلق الله إياهم في أنفسهم لم يكونوا شيئاً، ثم صرفهم على أحوال وأطوار حتى صاروا رجالاً فيستدلون بذلك على ما ذكر، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وظاهر كلام ابن كثير على المعنى الأول، والآية تحتمل هذا وهذا، ولو قال قائل: إنها تحمل على هذا، وإن القرآن دل على معنيين لم يكن ذلك بعيداً -والله أعلم-، فالقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالتفكر يجول في النفس، في القلب، ينبعث منه، وأيضاً نظرُ الإنسان إلى خلق الله -عز جل- فيه وما صرفه فيه من الأطوار والأحوال وما إلى ذلك دال على كمال قدرته وحكمته، ويستدل به إلى ما وراء ذلك أي ما يصير إليه الإنسان، ولابد من الموت والفناء ثم البعث والنشور، يبدو هلالاً ثم يكمل بدراً، ثم إذا أراد الله -عز وجل- له صار إلى الذبول فيتحول إلى هلال حق حتى ينطفئ ثم يفارق هذه الحياة الدنيا، -والله تعالى أعلم-، ولو قيل: إنها تحمل على المعنيين لم يكن ذلك بعيداً، ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، ففكروا في أنفسهم {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} فما هذه بعضهم يقول: نافية، وبعضهم يقول: هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض يعني أولم يتفكروا بما خلق الله، وأن العامل فيها العلم الذي يؤدي إليه التفكر يعني سيعلموا، أي يحصل لهم من جراء هذا التفكر العلم، يتفكروا بما خلق الله، لكن كأن الأول أقرب نظراً للسياق {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

{بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} إذا كانت نافية هذا أقرب -والله تعالى أعلم-، يتفكروا فيحصل لهم العلم بذلك وأن الله ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، وبعضهم -كالزجاج- يقول: في الكلام حذف "أولم يتفكروا فيعلموا" فـ "ما" تكون على هذا معمولة للفعل المقدر لا العلم المدلول عليه، "أولم يتفكروا فيعلموا ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق"، ونتيجة هذا التفكر العلم بأن ذلك حق، فإذا حصل لهم إجالة الفكر والفكر كما يقول أهل المنطق هو نظر العقل، حركة العقل في المعقولات هذا هو الفكر، وحركته في المحسوسات يقولون هي التخيل، فهذا التفكر قريب من التدبر، فإذا أجال فكره في المعقولات وربط بين المعاني توصل إلى نتيجة من جراء هذا التفكر، فالتفكر يكون معه حكم ربط أمر بآخر وتخرج بحكم، بخلاف القضايا التي يسمونها التصورية -التصورات كلها عند أهل المنطق- فالتصورات مثل التعاريف، تعرف أن الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها التفصيلية مثلاً هذا تصور، لكن هل عرفتَ مسألةً الآن من هذا فقهية؟ هل صرتَ فقيها؟ لا، فهذا يسمونه تصوراً، فالحكم يكون مع التفكر، والتفكير يكون في المعاني، يقولون: أما إجالة الذهن في المحسوسات فهي التخيل {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، يتفكروا يحصل لهم العلم بأن ذلك حق وأنه ليس للعبث، أن الله ما خلق السماوات والأرض للهو والعبث والباطل، {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} بينهما: بين السماوات والأرض السحاب مثلاً، كل ما بين السماء والأرض وكذلك الهواء والطيور فهو يشمل ذلك جميعاً، ولهذا قال الله -عز وجل-: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} [سورة الملك:١٩] فهذا مما يرونه بين السماء والأرض ففي صفّ أجنحتها وقبضها آية من آيات الله -عز وجل-، من الذي يمسكها في الهواء فلا تسقط؟ الله -تبارك وتعالى- هو الذي سخر لها ذلك، وهكذا ما يحصل من التسخير مما يشبهه مما توصل الناس إليه اليوم عن طريق الطيران في الهواء، من الذي يمسكها كما أمسك الفلك -المراكب البحرية- على الماء ولفت الأنظار إلى هذا وأنه {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [سورة الشورى:٣٢]، كأن الواحد على جبل، تمشي على الماء كأنها على يابسة {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} ابن كثير ما تكلم على هذا المعنى {وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}، لم يتطرق إليها، ما فيه شيء، قوله هنا: {إِلَّا بِالْحَقِّ} يحتمل أن تكون الباء للسببية يعني إلا لسبب الحق، ما خلقها إلا لسبب الحق، ويحتمل أن تكون الباء مع مجرورها في محل نصب على الحال فتكون حالية، بالحق حال، ويحتمل أن تكون بمعنى {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} يعني إلا متلبسة، إلا خلقاً متلبساً بالحق، ما خلق ذلك إلا بالحق، خلقها خلقاً متلبساً بالحق، وهذا من أوضح المعاني في تفسيرها، وهو الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبعضهم كالفراء يقول: {إِلَّا بِالْحَقِّ} يعني الثواب والعقاب، أنه خلقها لغاية وهي ليست للعبث، وبعضهم كابن جرير يقول: {إِلَّا بِالْحَقِّ} بأمر العدل، وبه قامت السماوات والأرض، وبعضهم يقول: بالحكمة، وبعضهم يقول: الله هو الحق وللحق خلقها يعني {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، قال: هو الحق، وللحق خلقها، ما هو هذا الحق الذي خلقها له؟ يدخل بهذا ما ذكره ابن جرير: العدل، ويدخل فيه ما ذكره الفراء: الثواب والعقاب، فهذا من العدل فهو بمعناه، وإن كان العدل أوسع من هذا وأعم -والله تعالى أعلم-، والمعنى العام أن الله ما خلقها عبثا وإنما لغاية، وهذه الغاية خلقها خلقاً متلبساً بالحق، وهو ظاهر، لكن حينما يقول: والله خلقها لغاية،

تقول: الثواب والعقاب {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [سورة الجاثية:٢٢]، للعدل، هذه المعاني متقاربة يعني في تفسير الغاية التي خلق الله من أجلها السماوات والأرض، "إلا بالحق وأجل مسمى" في الأصل ما ذكره في تفسير الأجل المسمى هو القيامة، هكذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **بعضهم يقول هو معطوف على** بالحق، خلقها بالحق وبأجل مسمى تنتهي إليه وهو يوم القيامة، ولهذا يقول بعض المفسرين بأن خلق الخلق ينتهي إلى أجل حدده هو يوم القيامة، وبعضهم يقول: إن المقصود بذلك أن الله خلقها بأجلٍ قدره، يعني في وقتٍ قدره هو أن توجد فيه هذه المخلوقات السماوات والأرض وما بينهما، فكل كائن فيهما ومخلوق فإن الله قد قدر له وقتاً يوجد ويخلق فيه لا يتعداه لا يتقدم على ذلك ولا يتأخر عنه، وهذا المعنى الثاني، المعنى الأول: وأجل مسمى يعني تنتهي إليه، والمعنى الآخر: خلقها بالحق وأجل مسمى توجد فيه، إذا قلنا: إنه ما خلقها إلا بالحق يعني لغاية عظمى، وإن ذلك ليس للعبث فكأن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يكون المعنى وأجل مسمى تنتهي إليه، فذلك أعلق لهذا المعنى وهو أنه خلقها لغاية وسيكون لها نهاية حددها الله -تبارك وتعالى- وهو يوم القيامة، وهذا الذي رجحه ابن جرير وبعض المحققين المعاصرين كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

قالوا: ولهذا قال الله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} يناسب -أي المعني- ما تنتهي إليه {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} لغاية عظمى وحكمة كبرى وأجل مسمى تنتهي إليه قال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} فلو تفكروا لعرفوا ذلك وتوصلوا بهذا التفكر إلى هذه النتيجة، ولم يحصل منهم كفر.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك مَنْ كفر بهم، ونجاة مَنْ صدقهم، فقال: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرْضِ} أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين؛ ولهذا قال: {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومُكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارًا طوالا فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله مِنْ واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزءوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم.

أي: وإنما أوتوا من أنفسهم، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء الأمم: {كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} المتبادر لدى الكثيرين من المفسرين في عصرنا هذا -عامة الخلق عامة الناس من المسلمين وغيرهم- أنه ما أعطيه الناس اليوم من أسباب التقدم المادي والمعرفة والحذق بهذه الأمور أن ذلك لم يحصل لأحد من الأمم قبلنا، لم يحصل لجيل من الأجيال، وهذا الكلام غير صحيح، نحن لا نعرف التفاصيل، لكن ما يقوله أصحاب نظرية التطور وما أفرزت به هذه النظرية من أن الخلق مر بأطوار، أن البشر مروا بأطوار، ويذكرون العصور

العصر الحجري، والعصر البرونزي هذا كله كذب ولا حقيقة له، هذا لا حقيقة له، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق آدم وكرمه وعلمه الأسماء كلها ما فيه حالة من الجهالة والعماية، أنزله من الجنة، كان الناس على التوحيد كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عشرة قرون ثم بعد ذلك وقع الشرك، ولا زال الأنبياء يأتون إلى أقوامهم والآثار الباقية من تلك الأقوام تدل على حذق لم يتوصل الناس إلى أسبابه إلى اليوم، وانظروا على سبيل المثال في هذا الحذق فيما بقي من أمثال هؤلاء: الأهرام على سبيل المثال كيف استطاعوا بناء هذه الأهرام بهذه الضخامة، ونقل هذه الأحجار الضخمة، وعامة المؤرخين يقولون: إن ذلك لا يعرف له تاريخ، وبما أنه لا يعرف له تاريخ فيرجحون أنه كان قبل الطوفان مع أنهم دخلوها ووصفوا ما في داخل هذه الأهرام، ذكروا التوابيت وذكروا الأشياء هذا كله ذكروه أقرءوا في خطط المقريزي، وفي حسن المحاضرة للسيوطي لما ذكر أخبار مصر والقاهرة، ذكروا هذه الأشياء كلها، كيف بنيت؟ بقايا أرض ثمود الجبال المنحوتة بنحت أملس وعجيب مع زخارف ما زالت موجودة، وصور طيور، وصور أشياء على مداخلها، كيف توصلوا إلى هذا النحت؟ هذه الجبال الوادي ميلان، طويل لا تستطيع أن تمشي فيه طولاً وعرضاً على قدميك إلا بشق الأنفس، وهي دور منحوتة بهذه الطريقة الدقيقة في النحت تشاهدون صورها كيف توصلوا إلى هذا؟ وهل كان ذلك بأشياء بسيطة وآلات متخلفة كما يوضع في بعض المتاحف يصور الناس ويقال: في العصر الحجري؟ يأتون بقطعة حجر مستطيلة تجدها في أي مكان في كسر من الحصى، ويقولون: هذه تستعمل عندهم لكذا، وهذه تستعمل عندهم لكذا، وهذه قبل مليون وقبل كم سنة، كله كذب ورجم بالغيب، مكان بعيد، فمثل هذه الأشياء كيف توصلوا إليها مع أن الأرض تحوي في داخلها ما الله به عليم مما طُمر، وعلى سبيل المثال أبو الهول هذا الصنم رأسه رأس إنسان وجسمه جسم أسد، هذا ضخم، وهذا كان مدفوناً ولا يعرف، وإنما لما جاءت الحملة الفرنسية ومعهم مائة وستة وأربعون عالماً في الآثار بدءوا ينبشون ويحفرون فاستخرجوا هذه الأشياء، وقبل مدة قريبة في الطريق رأيت مكان قلعة ضخمة جداً كبيرة أهل البلد هذه: نحن نسكن هنا، هذه بيوتنا مدفونة، مع أنه لا يتبادر أنها مدفونة؛ لأنها أرض صخرية جبال دُفنت، فلما حُفرت بدت جدرانها ضخمة وبركة ماء ضخمة في داخلها مسبح وأشياء عجيبة في غاية الإحكام في البناء، فهؤلاء الذين عمروا هذه الأشياء وشيدوها، وكل عجائب الدنيا السبع التي يقولون عنها عجائب الدنيا السبع كانت للسابقين ليس للمعاصرين منها شيء، ظنَّ الناس غرورُ الناس في هذا العصر أنهم توصلوا إلى أشياء ما توصل إليها السابقون، هذا غير صحيح لكن نحن لا نعرف تفاصيل، لكن نرى من الآثار ما يدل على هذا، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون}، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام:١١٠]، **وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}** [سورة الصف:٥]، **وقال: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ}** [سورة المائدة:٤٩].

وقيل: بل المعنى في ذلك: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى} أي: كانت السوءى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون، فعلى هذا تكون السوءى منصوبة خبر كان، هذا توجيه ابن جرير، ونقله

عن ابن عباس وقتادة، ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، لقوله: {وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}.

هنا يقول: **كانت السوءى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله** يعني صار أمرهم إلى السوء، وآل أمرهم إلى البوار والهلاك في الدنيا والآخرة، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- يقول: ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء الذين أثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات وكذبوا رسلهم فأساءوا بذلك من فعلهم، يقول: السوءى يعني الخلة التي هي أسوأ من فعلهم، أساءوا فلحق بهم وأصابهم وآل أمرهم إلى السوء أو إلى عاقبة سيئة جراء فعلهم يعني الكفر والتكذيب، يقول: أما في الدنيا فالبوار والهلاك، أهلكهم الله -عز وجل- بالعذاب المستأصل -الأمم المكذبة-، وأما في الآخرة فالنار، {أَن كَذَّبُوا} يعني لأن كذبوا، لأنهم كذبوا.

توجيه ابن جرير هو الذي سبق منذ قليل وهو الذي ذكره ابن كثير هنا، كانت السوءى عاقبتهم، والمختصر حذف قولاً آخر وهو أنها مفعول لأساءوا، أساءوا السوءى يعني فعلوا الفعلة السيئة، ماذا كانت عاقبتهم؟ التكذيب {أَن كَذَّبُوا} فآل أمرهم إلى التكذيب بسوء فعلهم، والمعنى الآخر الذي اختاره ابن كثير وابن جرير أنها خبر لكان، آل أمرهم إلى السوءى، وذلك عدل من الله -تبارك وتعالى- وما ظلمهم، ذلك لأنهم كذبوا بآيات الله -تبارك وتعالى-، هذه العاقبة السيئة بتكذيبهم، فعل السوءى الكفر؟، لا، الآن لما حاربوا الرسل وقالوا عنهم ما قالوا كانت نتيجة فعلهم هذا: التكذيب بما جاءوا به، رد ما جاءوا به، من توحيد الله -عز وجل- وتصديق رسله -عليهم الصلاة والسلام- ورد شرائع الله، فآل أمرهم إلى التكذيب، فالسوءى الذي فعلوه رأسه الكفر ويتفرع عنه كل أمر قبيح صدر عنهم، فآل بهم ذلك إلى التكذيب.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الروم من الآية (١٠) إلى الآية (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً، وبعد.

قال تعالى: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى} [سورة الروم:١٠]، أي عملوا السيئات من الشرك والمعاصي، والسُّوأى هي فُعلى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وقيل: هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدراً كالبشرى والذكرى وصفت به العقوبة مبالغة، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو {عَاقِبَةُ} بالرفع على أنها اسم كان، وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازياً، والخبر السوأى أي الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى، أو الخبر {أَن كَذَّبُوا} أي كان آخر أمرهم التكذيب، وقرأ الباقون {عَاقِبَةَ} بالنصب على خبر كان، والاسم السوأى، أو {أَن كَذَّبُوا} ويكون التقدير ثم كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساءوا، والسُّوأى مصدر أساءوا أو صفة لمحذوف، وقال الكسائي: إن قوله: {أَن كَذَّبُوا} في محل نصب على العلة، أي لأن كذبوا بآيات الله التي أنزلها على رسله أو بأن كذبوا، ومن القائلين بأن السوأى جهنم الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين، وسميت السوأى لكونها تسوء صاحبها، قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله واستهزائهم، وجملة: {وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون} عطف على "كذّبوا" داخلة معه في حكم العلية على أحد القولين، أو في حكم الإسمية لكان أو الخبرية لها على القول الآخر.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: " قرأ هذا الحرفَ نافع وابن كثير وأبو عمرو: كان عاقبةُ، بضم التاء اسم كان، وخبرها السوأى، وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ثم كان عاقبةَ الذين، بفتح التاء خبر كان، قدم على اسمها، على حد قوله في الخلاصة:

وفي جميعِها توسُّطَ الخبرِ أجزْ ***

وعلى هذه القراءة فـــ السوأى اسم كان، وإنما جرد الفعل من التاء مع أن السوأى مؤنثة لأمرين:

الأول: أن تأنيثها غير حقيقي.

والثاني: الفصل بينها وبين الفعل، كما هو معلوم، وأما على قراءة ضم التاء فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية عندي أن المعنى على قراءة ضم التاء: كانت عاقبةُ المسيئين السوأى، وهي تأنيث الأسوأ، بمعنى: الذي هو أكثر سوءاً، أي: كانت عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، أي: أكثرها

سوءاً وهي النار، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها"[1].

{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [سورة الروم:١١-١٦].

يقول تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته، {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

ثم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} قال ابن عباس: ييأس المجرمون.

وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية: يكتئب المجرمون.

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ} أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

ثم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ}: قال قتادة: هي -والله- الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني: إذا رفع هذا إلى عليين، وخفض هذا إلى أسفل السافلين، فذاك آخر العهد بينهما؛ ولهذا قال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} قال مجاهد وقتادة: ينعمون.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} **قال ابن عباس: ييأس المجرمون، قال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية يكتئب**، فهذه ثلاث عبارات يفتضح ييأس يكتئب، وأصل الإبلاس قال: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته، ولم يهتدِ إليها يعني سكت فقطعت حجته، ولم يهتدِ إليها يقال: أبلس، هذا السكوت مع انقطاع الحجة قال له: إبلاس، ومن فسره بأنه ييأس فإن ذلك لا ينافي ما ذكر فإنه حينما يسكت وتنقطع حجته ولا يهتدي إليها فذلك يعني يأسٌ هو، وهكذا قول من قال: إنه يكتئب فإن مقتضى هذه الحال التي صار إليها تئول به إلى الكآبة، حينما يصير الإنسان إلى حال تنقطع فيها حجته عند الحساب ولا يجد عذراً ولا جواباً ولا حجة يحتج بها على إجرامه فإنه عند ذلك يكتئب فيكون سكوته سكوت يأس وانقطاع تحصل معه الكآبة، فكأن الكآبة من لازمه أو أنها أثر من آثاره، ونحن نعلم أن السلف -رضي الله عنهم- تارة يفسرون باللازم، وتارة يفسرون ببعض المعنى، وهذا أصل الإبلاس ولهذا فسره ابن جرير -رحمه الله- باليأس والكآبة والندم فجمع بعض هذه المعاني، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ}، يعني فريق إلى الجنة وفريق إلى النار هذا المراد وإلا فإن الله -تبارك وتعالى- قال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] ونظراءهم وأشباههم ومن شاكلهم، لكن التفرق المذكور هنا ما ذَكر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، قال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} أمّا هذه كما يقول سيبويه بمعنى دع ما كنا فيه وخذ في غيره، يعني بمعنى مهما يكن من أمر -من

---

[1] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٧٠/٦).

شيء- فخذ في غير ما كنا فيه، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} يقول قال مجاهد وقتادة: ينعمون، الروضة تقال في كلام العرب لكل أرض ذات نبات، وكثير منهم يقيد ذلك بقيد وهي الأرض المنخفضة ذات النبات، ولا شك أن هذه الروضة أنها تكون معشبة تتميز عن غيرها فيكثر فيها النبات، وليس كل أرض وجد فيها نبات يقال لها: روضة، وهذا أمر معلوم، فيقولون: الأرض التي تكون منهبطة منسفلة منخفضة روضة، وإذا كانت مرتفعة يقال لها تُرعة، هذا هو المشهور الذي قال به أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله-، مع أن بعضهم قال: إن الروضة تكون مرتفعة، وليس المقصود هنا أنها منهبطة لكن هذا في الدنيا في رياضها، فالعرب تقول ذلك في روضات الدنيا، وأما ما يتصل بالجنة فلا شك أنها ليست منهبطة وليست منخفضة وإنما عالية مرتفعة، {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} ولكن القرآن خاطب الناس خاطب العرب بما عهدوا من ألوان النعيم واللذات والسرور، ولما كانوا يعيشون في أرض مجدبة قاحلة كما نشاهد فإن الروضات عندهم هي محل الأنس واللذة والسرور والحبور فيبتهجون بها ويسرون لندرة ذلك في بلادهم بخلاف البلاد التي هي جنات وأنهار فإن الروضة بالنسبة إليهم لا تعني شيئاً كثيراً فبلادهم لربما تكون روضة وأن ذلك مما يكون قليلاً في وصفها وفي حقها، وأما الحبور فهنا قال: يحبرون أي ينعمون، الحبور يقال: للسرور، والحبرة هي السرور، وبعضهم يقول: أي يكرمون، ولا شك أن ذلك حاصل لهم ولازم دخولهم الجنة فإنهم يسرون ويكرمون، فإن دخولها يستلزم النعيم والإكرام، وبعضهم يقول: إن الحبور المقصود به السماع، أن الحور العين تغنيهم فيسمعون الأصوات الحسنة الجميلة المطربة، فالحبور هو السرور والغبطة، ومن لازمه الإكرام، لازم دخول الجنة الإكرام فهم يكرمون فيها، ومن قال: إن المعنى يكرمون فهذا لا يحتاج معه إلى ترجيح، وإنما يقال: هذا من لازم دخول الجنة، فإذا حصل لهم هذا الإكرام فإنهم يسرون لذلك، والحبور أعم من هذا كله، صحيح هم يسرون وينعمون فيدخل فيه هذه المعاني سواء كان ذلك بسبب مما يشاهدون في هذه الجنة في روضة يحبرون، أو كان ذلك مما يسمعون أو كان ذلك مما يحصل لهم من الإكرام فكل ما في الجنة يدعو إلى الحبور والسرور؛ لأنهم يجدون فيها أنواع اللذات الكاملة.

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [سورة الروم:١٧-١٩].

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه.

ثم اعترض بحمده، مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض.

ثم قال: {وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا، كما قال: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [سورة الشمس:٣-٤]**، وقال {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}** [سورة الليل:١-٢]**، وقال: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا**

سَجَى} [سورة الضحى:١-٢]، **والآيات في هذا كثيرة.**

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} حين تمسون يعني تدخلون في المساء، وحين تصبحون يعني تدخلون في وقت الصباح قال: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} عامة أهل العلم يقولون: إن هذه الآية تضمنت الصلوات الخمس، وفسروها بذلك، وعباراتهم في هذا متقاربة، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} حين تمسون، المساء يبدأ من بعد الزوال، حين تمسون وحين تصبحون، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار، فقوله -تبارك وتعالى-: {حِينَ تُمْسُونَ} يصدق على أي الصلوات؟ إذا قلنا من بعد الزوال فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، حين تمسون {وَحِينَ تُصْبِحُونَ} يعني الفجر، ولكن الله -تبارك وتعالى- قال هنا: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا} العشيّ فسره بعضهم بأنه وقت المغرب إلى العتمة، هكذا قال بعضهم، وبعضهم فسره بما فسر به المساء، قالوا من بعد الزوال إلى الفجر "عشياً" فيدخل فيه على هذا الصلوات جميعاً الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَحِينَ تُظْهِرُونَ} هذا الظهر، فيبقى عندنا إذا أخرجنا الظهر بهذا {وَحِينَ تُصْبِحُونَ} يعني الفجر، وصار عندنا {حِينَ تُمْسُونَ} أيضاً والعشي حين تمسون فبقي من الصلوات صلاة العصر والمغرب والعشاء، فإذا فُسر العشي بما بعد الزوال فيكون المقصود العصر مثلاً، و{حِينَ تُمْسُونَ} يكون المغرب والعشاء، وإذا فُسر المساء بأنه ما بعد الزوال فلأن الظهر ذكرت فيكون في المساء حين تمسون صلاة العصر، وإذا قلنا: العشي ما بعد المغرب، أو المغرب بعد غروب الشمس وليس المقصود بعد الصلاة إلى العتمة فتكون صلاة المغرب والعشاء، عبارات المفسرين متقاربة في هذا، وقالوا: إن هذه الآية تنتظم الصلوات الخمس، {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} فهي ليست صريحة في ذلك إنما ذكر فيها التسبيح والتحميد ولكن الصلوات متضمَّنة في هذا ففهم منها الإشارة إلى الصلوات الخمس، ويبقى أصل المعنى أن الذكر يتجدد في هذه الأوقات في أول النهار وفي آخره في الصباح والمساء فهذا كله وقت للذكر؛ ولذلك فإن أذكار الصباح تقال بعد صلاة الفجر، وله في ذلك متسع إلى ما قبل الزوال كل هذا يقال له: صباح، ثم بعد ذلك يأتي المساء من بعد الزوال فلو أن أحداً قال الأذكار بعد الظهر أجزأه، يكون قال ذلك في المساء، ولو قاله بعد العصر فهذا أيضاً يقال في وقت المساء، وكأن أحسن الوقت -والله تعالى أعلم- بعد العصر حينما تنكسر الشمس، حيث تصفر فهو وقت الأصيل فيكون الذكر بالغدو والآصال في أول النهار، وفي آخر النهار، قبل الصبح قبل أن تشتد الشمس ويقوى ضياء النهار، وفي المساء تذبل الشمس وتضعف وتصفر، لكن لو أن أحداً قال الأذكار بعد صلاة المغرب فإنه يكون قد جاء بها في وقتها في المساء، وفي العشي لو قالها بعد العشاء يعتبر تأخر لكنه لا زال في الوقت، والله تعالى أعلم.

فالصلوات الخمس داخلة في ذلك، والذكر أيضاً التسبيح والتحميد كل ذلك داخل فيه، وابن جرير -رحمه الله- وكثير من المفسرين قبله وبعده حملوها على الصلوات الخمس.

وقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء

المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع فيه عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فإنهم فسروا قوله -تبارك وتعالى-: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}، وهذا كله من قبيل التفسير بالمثال، حينما يقولون: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة، وما يظهر على هذا ما يذكره علماء الحيوان مثلاً في هذا العصر من أن الفرخ أو النطفة الحيوان المنوي حي إلى آخره، إذا ذكرت الحياة والموت في القرآن وفي لغة المتقدمين من الفقهاء وغيرهم فإنهم يطلقون ذلك على ما فيه روح، ومن ثم فإنهم يقولون عن النطفة: إنها ميتة فلا يشكل على هذا أن الحيوان المنوي حي وأنه يسبح إلى آخره حتى يصل إلى البويضة فيلقحها، هذا لا يقصدونه ولا يلتفتون إليه، وإنما يعتبرون النطفة ميتة فيخرج منها الإنسان فهذا مثال يصدق على قوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} فيدخل هذا به كله، ويدخل فيه من جهة المعنى والاتساع فيه: إخراج المؤمن من الكافر، ولهذا بعض المفسرين في هذا {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} يقول: البيضة تخرج من الدجاجة، والنطفة تخرج من الإنسان وما أشبه هذا، فكل هذه العبارات ابن كثير -رحمه الله- جمعها فهذا من قبيل اختلاف التنوع لا يحتاج إلى ترجيح.

وقوله: {وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ...} إلى قوله: {وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ} [سورة يس:٣٣-٣٤]، وقال: {وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ...} إلى قوله: {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [سورة الحج:٥-٧]، وقال: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة الأعراف:٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الروم:٢٠-٢١].

يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، {ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تَصَوّر فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاما، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحما، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان مَنْ أقدرهم وسَيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك))[٢].

ورواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أنه خلق أباكم آدم من تراب وهذا بناء على ما هو معلوم من أن العرب تخاطب الأبناء لِمَا وقع من الآباء؛ وذلك أن المنة على الآباء تلحق الأبناء، كما أن المعرّة والمذمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، أما النعمة فالحاصل بها على الأبناء، والله -تبارك وتعالى- يذكر مننه ونعمه ويخاطب بها من لم يدركها وهذا كثير في القرآن، الله -تبارك وتعالى- يقول لبني إسرائيل الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [سورة البقرة:٤٩]، وقال: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [سورة طه:٨٠]، وذكر مِنناً كثيرة ونعماً أعطاها لأجدادهم فخاطبهم بها مع أنهم لم يدركوها، وهكذا ما يتعلق بالمذمة وما أشبه ذلك، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٥] مع أن هذا وقع مع أجدادهم، وهكذا {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة:٤٧]، {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} [سورة البقرة:٦٣-٦٤] فكل هذا الخطاب وفيه أشياء وقعت لآبائهم وأجدادهم فكل ذلك يجري على هذا الأصل، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يَكُنَّ لكم أزواجا، {لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [سورة الأعراف:١٨٩] يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضِلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} وعدّ ذلك من آياته ثم قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول في تفسير المودة: **هي المحبة**، وأن الرحمة: **هي الرأفة**، فإن الرجل يمسك المرأة لمحبته لها أو لرحمته بها بأن

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٦٩٣)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة البقرة، برقم (٢٩٥٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٥٨٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٣٠).

يكون له منها الولد أو محتاجة إليه بالإنفاق أو للألفة بينهما أو غير ذلك، هذا كله باعتبار أن المودة والرحمة حاصلة بين الزوجين {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}، وبعضهم كمجاهد يقول: إن المودة الجماع، وإن الرحمة هي الولد {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}، وهذا التفسير -تفسير المودة بالجماع فقط- هو تفسير ببعض ما يتصل بالمعنى وإن لم يكن هذا معنى المودة، فإن المودة محبة خاصة يحصل معها، فالمحبة على مراتب قد ذكرها الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في "روضة المحبين" وعدّ منها عشراً، فهي مراتب أعلاها الخُلّة، ويأتي دون ذلك مراتب أخرى ومن هذه المراتب المودة، فيحصل معها ميل القلب وعطفه على المحبوب وإيثاره له وتقديمه على غيره، وما أشبه ذلك ولهذا كانت مودة أعداء الله -عز وجل- لا تجوز، ولكن قد يتزوج امرأةً يحبها من أهل الكتاب فلا يكون ذلك من الموالاة، والله -تبارك وتعالى- يقول: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [سورة المجادلة:٢٢] فمودة الكفار لا تجوز فهذه مرتبة أعلى من مرتبة المحبة، فتفسير المودة هنا على قول مجاهد الجماع ليس ذلك من قبيل التفسير، تفسير اللفظة بما عرف من معناها عند العرب، ولكن لا يقال بأن التفسير مردود وأنه خطأ؛ لأنه تفسير لها ببعض ما يتصل بها وذلك -والله أعلم- باعتبار أن ما يحصل من الجماع بين الزوجين أن ذلك يكون سبباً لجلاء النفس ويحصل معه من المودة مالا يقدر قدره، قد ذكر هذا جماعة من أهل العلم، وما ذكره الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- في كتابه "التحرير والتنوير"، فقد لا توجد صورة من صور المودة أعلى منها في حال المعاشرة، ولهذا فإن العلاقة إذا كانت بين الزوجين فاترة والمعاشرة منعدمة فإن ذلك قد يؤدي إلى شيء من الجفاء، وتفاقم المشكلات وما إلى ذلك، وهذا أمر معلوم، والذي يظهر -والله أعلم- أن المودة والرحمة أن ذلك حاصل بين الزوجين فالمودة هي محبة خاصة، والرحمة غير المحبة فهو يحبها هذه المحبة كما أنه يرحمها، جعل بينهم رحمة وبعضهم فسر الرحمة هنا بالشفقة يشفق عليها، والواقع أن الشفقة رحمة خاصة، الشفقة تقال للرحمة مع شيء من الحنوّ، والخوف على المحبوب تتخوف عليه من المكروه والألفة ونحو ذلك، وبعضهم يقول: إن المودة هي محبتها وإن الرحمة هي رحمته لها من أن يصل إليها منه سوء، والمعنى أعم من هذا، يرحمها من أن يصل منه سوء أو يرحمها من غير ذلك، يعني أن يصل إليها المكروه مطلقاً منه أو من غيره كما أنه يود لها ويحب لها الخير والمعروف والبر وما أشبه ذلك، وهذا كله من آثار المودة مع أن بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على العلاقة التي تكون بسبب هذا الزواج لكن ليس المقصود عنده بذلك الزوج والزوجة جعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمصاهرة فصار هؤلاء أختاناً وأصهاراً، يعني صارت هناك علاقات اجتماعية تَقارَبَ الناسُ بها، وصار بينهم وشائج بسبب الزواج -والله تعالى أعلم-، يعني حينما نقول: إن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنه جعل بينهم مودة ورحمة فالعلاقة بين الزوجين يحصل بها ذلك، فهو يحبها، هذه المودة الخاصة، ويرحمها، قد توجد حالات قد لا توجد فيها محبة ولا يوجد فيها رحمة هذا موجود لكن خلاف الأصل، فهذا الرجل لا يعرف هذه المرأة وما رآها قط، فإذا تزوجها حصلت بينهم هذه المودة والرحمة التي يلقيها الله -عز وجل- في قلوبهم فهذه آية من آياته، وتخلُّفُ ذلك في بعض الأفراد لا يقدح في هذا الأصل فلكل قاعدة شواذ، ومن هنا يؤخذ منه أصل في ما يتعلق في العلاقات بين الزوجين بخلاف ما قد يُقررَّ كثيراً من أن العلاقة بين الزوجين لا تبنى على المحبة والمودة ويتوصل من ذلك إلى معنى وهو أنه

ينبغي أن يكون هناك احترام متبادل وتعاون في بناء الحياة الأسرية وما أشبه ذلك، ولا يلزم منه وجود المحبة، لكن الأصل في ذلك هو وجود المودة والرحمة هذا هو الأصل وما خرج عنه فهو شاذ، فإن الشيء قد يتخلف لوجود المانع أو لتخلف الشرط، والله المستعان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ونوّع سبحانه الآيات في هذه السور فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته، وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال، وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته، وجعل المنام بالليل، والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه، وجعل رؤيتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون فإن هذه أمور مرئية بالأبصار، مشاهدة بالحس فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته إمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب، وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الروم:٢٤]، فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور"[٣].

وقال -رحمه الله-: "وَأَمَّا مَحَبَّةُ الزَّوْجَاتِ: فَلَا لَوْمَ عَلَى الْمُحِبِّ فِيهَا بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِهِ، وَقَدِ امْتَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ فَقَالَ: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سُورة الروم:٢١].

فَجَعَلَ الْمَرْأَةَ سَكَنًا لِلرَّجُلِ، يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا خَالِصَ الْحُبِّ، وَهُوَ الْمَوَدَّةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالرَّحْمَةِ"[٤].

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة الروم:٢٢-٢٣].

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة {خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار.

---

٣ - مفتاح دار السعادة، (١٨٦).

٤ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:٢٣٦).

وقوله: {وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ} يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرْبر، وهؤلاء تكْرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلاهم، فجميع أهل الأرض -بل أهل الدنيا- منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهرا كان أو خفيا، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، {إِنَّ فِي ذَلِك لآيَات للعَالَمين وَمِنْ آيَاتِه مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِه} أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي: يعون.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} اختلاف الألسن والألوان دال على قدرته -تبارك وتعالى-، فالله -تبارك وتعالى- خلق هؤلاء البشر خلقاً كما نشاهد من لحم ودم ومع ذلك كل أحد من هؤلاء له ما يميزه عن غيره مع أن خلق هؤلاء متحد من حيث إن الله -تبارك وتعالى- جعل العينين في محلهما، والأنف في محله، والفم في محله، وإذا رأيت هؤلاء الناس مجتمعين كما تراهم مثلاً عند جمرة العقبة ترى هذه الوجوه كأنها صبة واحدة، ولكن حينما تنظر إلى كل واحد منهم بعينه فإنك تجد فيه ما يميزه عن غيره على كثرة هؤلاء الخلق كما أنهم يتمايزون أيضاً في خصائصهم النفسية، وكل واحد له ما ينفرد به عن غيره، وله ما يميزه من جهة اللسان، فأهل اللسان الواحد يتميزون فيعرف صوت هذا من هذا، كما أن اللغات مختلفة وهي كثيرة جداً، ولو نظر الإنسان إلى ناحية من النواحي في اللغات إلى بلاد كبلاد الهند مثلاً، أو اللغات الموجودة في أفريقيا لوجد من ذلك ما لا يحصيه إلا الله -تبارك وتعالى-، فهذا كله دال على كمال قدرته؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} قرأ الجمهور بفتح اللام، {لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} للناس جميعاً وهذه القراءة التي قرأ بها حفص عن عاصم {لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} هي موافقة لله -تبارك وتعالى- بهذه الآيات وفي غيرها لآيات لأولي الألباب، لقوم يعقلون وما شابه ذلك قال: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤٣] فالعالِمون هم الذين يعقلون هذه الأمور عقلاً يتوصلون به، ويعرفون قدرة الله -تبارك وتعالى- ويوحدونه وأنه الخالق وحده الذي يستحق العبادة دون ما سواه، قال: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ} منامكم بالليل والنهار، بعضهم يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} فالنوم يكون بالليل، وبالنهار يكون الابتغاء من فضل الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم قال: إنه محمول على ظاهره مع أن النوم يكون بالليل والنهار فهم ينامون بالليل وينامون في النهار في مثل القيلولة ونحوها، هذا كله من آياته -تبارك وتعالى- وهكذا ابتغاؤهم من فضله وهو طلب الرزق {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} يعني: سماع التعقب.

{وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

{لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [سورة الروم:٢٤-٢٥].

يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته أنه {يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وَميضَه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه.

العبارات التي يذكرها المفسرون في هذا هي داخلة فيه -والله أعلم-، كقول بعضهم مثلاً: خوفاً أي بالنسبة للمسافرين فإنهم يتخوفون ذلك، أو قول من قال: خوفاً يعني من الصواعق، وطمعاً يعني طمعاً في المطر الذي يكون بعده الخصب بإذن الله -تبارك وتعالى-، فهذا كله داخل فيه، فالناس حينما يرون البرق فإنهم يتخوفون الصواعق كما أنهم قد يتخوفون المطر إذا كانوا في حال توجب ذلك، وأيضاً إذا رأوه طمعوا بنزول المطر.

ولهذا قال: {وَيُنَزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [سورة الحج:٥]، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

ثم قال: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ}، كقوله: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} [سورة الحج:٦٥]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} [سورة فاطر:٤١]، وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا} [سورة الإسراء:٥٢].

وقال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤]، وقال: {إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [سورة يس:٥٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ} دعوة من الأرض بعضهم يقول: إن قوله من الأرض متعلق بدعا، دعاكم يعني دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، دعاكم دعوة من الأرض التي أنتم فيها، وبعضهم يقول: إنه متعلق بمحذوف صفة لدعوة أو بمحذوف يدل عليه قوله: {تَخْرُجُونَ} أي خرجتم من الأرض، إذا دعاكم دعوة يعني خرجتم من الأرض، وهذه الدعوة المقصود بها النفخة الثانية التي يخرج الناس فيها من القبور، فيكون قوله هنا: {إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} إذا دعاكم دعوة تخرجون من الأرض {إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}، أو يكون متعلقاً بالدعوة، دعاكم دعوة من الأرض التي أنتم فيها، أو دعاكم دعوة كائنة من الأرض.

{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الروم:٢٦-٢٧].

يقول تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: ملكه وعبيده، {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} أي: خاضعون خاشعون

طوعًا وكرهًا.

قوله {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} بعضهم فسرها بالإقرار بالعبادة كلٌ له مقرون بالعبادة يعني وإن لم يعبده بعضهم، وبعضهم يقول: إن المراد الصلاة {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} أي مصلون، وبعضهم فسرها بالقيام يوم القيامة {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة المطففين:٦] ذلك باعتبار أن القنوت يقال لطول القيام، ولشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- رسالة في قنوت الأشياء لله -تبارك وتعالى-، وقد جمع هذه اللفظة واستعمالاتها المختلفة في كتاب الله -تبارك وتعالى- وأرجع ذلك إلى أمر واحد وهو طول العبادة، وكل ما في السماوات والأرض قانت لله -عز وجل- إما اختياراً أو اضطراراً ولهذا فسره بعضهم بالشهادة أنهم عباده، وفسره بعضهم بالإخلاص {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن ذلك فيما لا يكون للإنسان اختياراً يعني الأمور الاضطرارية مثل الخلق والإحياء والإماتة والبعث والنشور لا يتخلف منهم أحد وليس لهم اختيار في ذلك فكل له مطيع مستجيب لا قدرة له على الإيذاء والامتناع هكذا فسره -رضي الله عنه وأرضاه-، وإن عصوه فيما سوى ذلك.

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "يقول تعالى ذكره: مَن في السماوات والأرض من ملَك وجنّ وإنس عبيد وملِك {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} يقول: كلّ له مطيعون، فيقول قائل: وكيف قيل: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، وقد علم أن أكثر الإنس والجنّ له عاصون؟ فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فنذكر اختلافهم، ثم نبين الصواب عندنا في ذلك من القول، فقال بعضهم: ذلك كلام مخرجه مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ومعناه: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} في الحياة والبقاء والموت، والفناء والبعث والنشور، لا يمتنع عليه شيء من ذلك، وإن عصاه بعضهم في غير ذلك.

وقال آخرون: هو على الخصوص، والمعنى: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} من ملك وعبد مؤمن لله مطيع دون غيرهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أن كلّ من في السماوات والأرض من خلق لله مطيع في تصرّفه فيما أراد تعالى ذكره من حياة وموت، وما أشبه ذلك، وإن عصاه فيما يكسبه بقوله، وفيما له السبيل إلى اختياره وإيثاره على خلافه.

وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك؛ لأن العصاة من خلقه فيما لهم السبيل إلى اكتسابه كثير عددهم، وقد أخبر تعالى ذكره عن جميعهم أنهم له قانتون، فغير جائز أن يخبر عمن هو عاص أنه له قانت فيما هو له عاص، وإذا كان ذلك كذلك فالذي فيه عاص هو ما وصفت، والذي هو له قانت ما بينت"[٥].

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أيسر عليه.

وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البَدَاءة، والبداءة عليه هَيْنٌ، وكذا قال عكرمة وغيره.

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله:

---

٥ - تفسير الطبري، لابن جرير الطبري (٢٠/ ٩٠) وما بعدها بتصرف يسير.

كَذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهونَ عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد))[٦]**، انفرد بإخراجه البخاري.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** أهون هذه أفعل تفضيل على وزن أفعل التفضيل، ومن ثَم فإن المعلوم أن ما كان على هذه الزنة -الذي على أفعل التفضيل- أنه يدل على اثنين في صفة زاد أحدهما على الآخر فيها، هذا في الأصل إذا كان بهذا الاعتبار فيشكل ذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** فالله -تبارك وتعالى- تستوي عنده من حيث القدرة تستوي هذه الأمور جميعاً تتفاوت كل هذا يسير، ولهذا قال بعضهم: إن أفعل التفضيل هنا ليس على بابه، وقد مضى على هذا في مناسبات سابقة أن أفعل التفضيل قد تستعمل هذا الاستعمال فيكون المقصود بها مطلق الاتصاف دون معنى التفضيل كما قال الشاعر:

*** بيتاً دعائمُهُ أعزٌّ وأطولُ.

يعني عزيزة وطويلة، وكقوله -تبارك وتعالى- أيضاً على أحد التفسيرين **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}** [سورة الليل:١٧] يعني وسيجنبها التقي، وقول الشاعر:

تمنَّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ *** فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

هذا معروف في كلام العرب، فإذا فسر بهذا الاعتبار فلا إشكال، فيكون هنا **{وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** يعني وهو هونٌ عليه، صيغة التفضيل يقصد بها مطلق الاتصاف فلا إشكال فلا يوجد شيء أسهل من شيء بالنسبة لله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى المخلوقين، يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، يعني على الخلق على المخلوق يعني؛ وذلك أن ابتداء الخلق خلق الناس مثلاً كان بأطوار من نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة وهكذا يتدرج في هذه الأطوار، وأما الإعادة فمجرد نفخة في الصور ثم بعد ذلك يقومون من قبورهم فهذا أسهل على الخلق من تلك الأطوار، هكذا قال بعض أهل العلم، ولا يخلو من بُعد، والظاهر أن الضمير يعود إلى الله -تبارك وتعالى- ولو أنه فسر بما ذكر أنه هين على الله -جل جلاله- سهل وليس المقصود أفعل التفضيل، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى ما عرف من أن العرب قد تراعي في خطابها حال المخاطب، ومن ذلك أنه يراعي حال السامعين **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طه:٤٤] فإنه من المعاني التي ذكرت فيه: لعله يعني على رجائكما، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- **{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [سورة الصافات:١٤٧] فليس ذلك على سبيل الشك، لكن هذا باعتبار نظر المخاطب أنه إذا نظر إليهم، قال: **{مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** مع أن الله -عز وجل- أعلم بعددهم بالتمام، بعضهم يقول: إن هذا من هذا القبيل **{وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** يعني أنه راعى حال المخاطبين باعتبار أن ذلك بالنسبة إليهم أن الابتداء أصعب من الإعادة، أما بالنسبة لله -تبارك وتعالى- فإن ذلك يسير عليه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ

---

٦ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: "وامرأته حمالة الحطب"، برقم (٤٩٧٤).

{شَيْءٌ} [سورة الشورى: ١١].

وقال قتادة: مَثَلُه أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره.

{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ابن جرير -رحمه الله- جمع بين قول ابن عباس وقول قتادة، ابن عباس يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقتادة يقول: **إنه لا إله إلا هو ولا رب غيره له المثل الأعلى في السماوات والأرض،** والمثل يقال للصفة، وأصل ذلك يقال للشبه، وما يرجع إلى هذا المعنى إلا في بعض المواضع فإنه قد لا يقال فيه ذلك إلا على سبيل التكلف كقوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُ الْجَنَّةِ} [سورة الرعد:٣٥]، يعني صفة الجنة على الأرجح وإن أنكره بعضهم، وبعضهم يقول: إن المقصود هنا {وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَى} أي ما ذكر من قوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} يعني أنه قد ضربه لكم فيما يصعب ويسهل، وبعضهم يقول: إن ما أراد فإنه يكون بكن، فيكون، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، له المثل الأعلى في كل شيء فهو الواحد الذي لا شريك له، ولا ند له، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء -سبحانه وتعالى.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الروم من الآية (٢٨) إلى الآية (٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [سورة الروم:٢٨-٢٩].

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، {هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله، فهو وهو فيه على السواء {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال.

قال أبو مِجْلَز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له.

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟!.

روى الطبراني عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، فأنزل الله: {هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ}.

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلا {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} أي: المشركون {أَهْوَاءَهُمْ} أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، {فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أصل المثل يأتي بمعنى الشبه أو أنه مأخوذ من الشبه، وذلك أن الاستعمال له تعلق ظاهر بالشبه والشبيه، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ}

هؤلاء يجعلون لله -عز وجل- الشركاء والأنداد، وهؤلاء الشركاء الذين جُعلوا معه هم عبيده ومماليكه، وليس لهم من هذه الشراكة المزعومة قليل ولا كثير، فالله يضرب لهم المثل الذي يوضح به المعاني الغائبة بأمور محسوسة، فضرب لهم هذا المثل بشيء قريب يجدونه في أنفسهم، ويحسونه ويشاهدونه وهم هؤلاء المماليك الذين يخالطونهم ويعافسونهم صباح مساء، فيقول لهم: هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم وهم يعلمون أن هؤلاء المماليك لا يقاسمونهم أموالهم لا في الحياة ولا بعد الممات فهم آمنون مطمئنون كل الاطمئنان إلى أن هؤلاء المماليك وما في أيديهم هم ملك لأسيادهم ليس لهم تملّك لا في قليل ولا في كثير، فالمملوك وما في يده ملك لسيده فهو لا يتخوف بالمملوك أن يكون قسيماً في ماله؛ لأن هذا الأمر لا يتأتى أصلاً، لا يملك، فكيف إذا كان هذا المملوك ملكاً لك؟!، ومن هنا فسره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي قوله تعالى: {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}- قال: **أي لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء، {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} أي تخافون أن يقاسموكم الأموال**، أي: أنك لا تخاف هذا المملوك أن يقاسمك مالك وليس له ذلك، كذلك الله -عز وجل- لا شريك لا في هؤلاء الذين تدعون، هم مماليكه هذا هو المعنى الظاهر، -والله تعالي أعلم-، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم حمل ذلك على الوراثة أنهم يرثونكم الأموال، {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} المقصود أنفسكم يعني الأحرار يعني كما تخافون وتتخوفون الأحرار، فإن الأحرار يملكون الحر يمكن أن يشترك معك في مالك أن يكون له سهم فيه لشراكة أو نحو ذلك، فحمله بعضهم على الوراثة، {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} يعني كما تخافون الأحرار، لكن لا يظهر فيه -والله تعالى أعلم- ما يدل على هذا المعنى بخصوصه أن يقيد بالوراثة، و{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} أي كخيفتكم الأحرار، كخيفتكم نظراءكم أن يقاسموكم ويشاركوكم، هؤلاء الذين أشبهوكم الحرية، -والله تعالى أعلم-، {فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ} يعني في الأموال، فأنتم فيه سواء {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} ثم بين أن هؤلاء إنما فعلوا ذلك اتباعاً للهوى.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [سورة الروم:٣٠-٣٢].

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [سورة الأعراف:١٧٢]، **وفي الحديث: ((إني خلقت عبادي حُنَفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم))[١]، وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.**

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٨٧)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦٣٧).

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} الحافظ ابن كثير فسر قوله هنا: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ} قال فسدد وجهك {لِلدِّينِ حَنِيفًا} والحنيف: الحَنَف أصله الميل كما هو معروف ومشهور، ولهذا بعضهم يربط هذا المعنى الأصل بتفسير هذا الموضع، وتفسير الحنيفية التي هي ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يقول: **أي مائلاً عن سائر الأديان إلى دين الإسلام**، تلاحظون هنا أن قوله -تبارك وتعالى- فطرة الله جاءت منصوبة، وبعضهم يقول: إنها مصدر مؤكِّد للجملة التي قبلها {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- أي فطرة الله الناس على الدين، وبعضهم يقول: إنه منصوب على الإغراء وبعضهم يقول: بمقدر محذوف أي الزموا فطرة الله التي فطر الناس عليها، وقوله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه: ((إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم))، هذه الفطرة هي الخلقة في أصلها التي لم تتغير، قال: فطره قبل أن يحصل تدنيس وتبديل وتغيير فالله -تبارك وتعالى- خلق العباد حنفاء: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ} هذا الذي فطر الله الناس عليه ((كل مولود يولد على الفطرة))[٢]، وهو بمعنى قوله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث الذي يرويه عن ربه: ((إني خلقت عبادي حنفاء)) يعني كل مولود يولد على الفطرة هذه الفطرة على الحنيفية.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد..."[٣].

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ} قال: إقامة الوجه إخلاص القصد، يعني اجعل وجهتك واحدة

فلواحدٍ كن واحداً في واحد *** أعني سبيلَ الحقِّ والإيمانِ

وحد الوجهة إلى الله -عز وجل-: لا تعبد الله -عز وجل- وتعبد غيره.

وقال -رحمه الله-: ".. وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده"[٤].

تفسير الحنيفية هنا –حنيفاً- بالإعراض يعني الميل عن كل معبود، عن كل دين سوى دين الإسلام.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "هو فطرته التي فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعي فِطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غُيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها))، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٥]"[٦].

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣٨٥).

٣ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٨٧).

٤ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/٨٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم (١٣٥٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٨).

٦ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٨٧).

هذه فطرة ظاهرة وهذه فطرة باطنة، الفطرة الظاهرة في الخلق هي كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- هل تحسون فيها يعني من جدعاء؟، تولد البهيمة كاملة في الخلق فيحصل العبث بعد ذلك، والفطرة الباطنة هي على التوحيد على الحنيفية.

وقال -رحمه الله-: "{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} وهذا يعم جميع الناس، فعُلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضا فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته"[٧].

يعني يقصد أن الإضافة هنا تفيد التشريف ليست مجرد إضافة خلق، تقول: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ} [سورة لقمان:١١]، هذه إضافة، تقول: هذه السارية خلق الله -عز وجل-، الشيطان خلق الله، هذه إضافة خلق لا تعني التشريف، لكن هنا فطرة الله يريد أن يقول: إن هذا يفيد التشريف؛ لأنها ليس فيها عوج ولا انحراف.

وقال -رحمه الله-: "وأيضا فإنه قال: فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأيضا فإن هذا تفسير السلف قال ابن جرير: "يقول: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يا محمد بطاعته، وهي الدين، "حنيفا" يقول: مستقيما لدينه وطاعته"[٨].

هنا فسر الحنيف بالمستقيم مع أن أصله الميل فذلك تفسير باللازم، ولذلك تجد عبارات أهل العلم: الحنيف هو المستقيم مع أن أصله الميل ويكون الحَنَف ميل في الساق، كما كانت تقول أم الأحنف بن قيس وهو صغير وهي ترقصه تقول:

والله لولا حنَفٌ في رجلِه *** ما كان في فتيانكم من مثلِه

وقال -رحمه الله-: "{فِطْرَةَ اللَّه} يقول: صنعة الله خلق الناس عليها، ونصب فطرة على المصدر معنى قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}"[٩].

هناك ذكره مجملاً لكنه صرح بعبارة ابن جرير.

وقال -رحمه الله-: "لأن المعنى فطر الله الناس على ذلك فطرة، قال وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ثم روى عن ابن زيد قال: "فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال: الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعا يقرون بذلك"، وعن مجاهد: "فطرة الله قال: الدين الإسلام" ثم روى عن يزيد بن أبي مريم قال عمر لمعاذ بن جبل: ما قوام هذه الأمة؟، قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهو الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال: عمر صدقت"[١٠].

الله -تبارك وتعالى- يأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهو أمر لهذه الأمة {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} أقم وجهك: هذه فطرة الله، هذا هو التوحيد، هذه هي الحنيفية.

---

٧ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:٢٨٦).

٨ - المصدر السابق.

٩ - المصدر السابق.

١٠ - المصدر السابق (ص:٢٨٦-٢٨٧).

وقوله: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبرا بمعنى الطلب، كقوله تعالى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [سورة آل عمران:٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح.

وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وعِكْرِمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} أي: لدين الله.

وقال البخاري: قوله: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}: لدين الله، خَلْقُ الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام.

ثم روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه، كما تُنْتَج البهيمة بهيمةً جَمْعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟))، ثم يقول: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}.

ورواه مسلم أيضاً.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- هنا ذكر الآية مع الحديث فصار ذلك من قبيل التفسير الصريح بالسنة، وإذا كان مثل هذا فلا محيد عنه، فيكون تفسير هذه الآية بهذا الحديث: ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة، {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} وقوله: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} ذكر المعنيين أنه خبر بمعنى النهي، خبر بمعنى الإنشاء، أو أنه خبر على بابه، الذين قالوا: إنه خبر بمعنى الإنشاء يعني بمعنى النهي مثل: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} ربما حملهم على ذلك ما يرونه وما يشاهدونه كما هو الواقع من التبديل للفطرة، فكيف قال: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}؟ فكأنهم فهموا من ذلك أن الخبر حصل فيه خلف هذا هو المعنى المراد، وكلام الله -عز وجل- وحكمه وخبره لا يمكن أن يتخلف هنا قال: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} فيحصل التبديل ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه ..)) إلى آخره، كأن هذا هو الذي حمل هؤلاء على تفسيره بأنه الإنشاء لا تبدلوا خلق الله، "ومن دخله كان آمناً" يعني يكون بمعنى الأمر أن يؤمَّنوا، وإلا فيدخل بعض الناس الحرم ويكون في حال من الخوف هذا يحصل، فهو خبر مع أن الآية "ومن دخله كان آمناً" فيها كلام لبعض أهل العلم من المفسرين وغيرهم غير ما هو مشهور، وهنا {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} هل هو كذلك أي خبر بمعنى النهي، أو يقولون: خبر على بابه بمعنى أصل الخلقة {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} هكذا يخلق الله -عز وجل- الناس، لا تجد غير ذلك يعني في أصل الفطرة أي لا يولد بعض الناس مثلاً على غير الفطرة، وبعض الناس على الفطرة {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} فكلهم يولدون على ذلك، كلهم يفطرون على هذا مثلاً، فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وحملهُ على هذا المعنى أيضاً لا إشكال فيه، ولو قيل: إنه خبر على بابه على ظاهره، بمعنى أن ذلك هو أصل الخلق لا يحصل فيه تخلف عن بعض الأفراد ولا يمكن لأحد أن يؤثر فيه كون الأب أو الأم على الشرك، لا يكون ذلك مؤثراً في المولود حينما يولد من هذه الحيثية، فلا فرق بين من يولد لمسلمين أو يولد لمشركين، هذا من حيث الفطرة ولا أعني بذلك الإلحاق، فإن الولد يكون تابعاً لهم كما هو معلوم، يعني يحكم له بالديانة، يحكم على تفصيل يذكره أهل العلم فيما إذا كان أحد الأبوين مسلماً والآخر كافراً فيلحق بمن؟، والأقرب أنه يلحق

بالأشرف، إن كانت الأم مسلمة والأب مشركاً يلحق بالأم، يحكم بإسلامه.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وقوله: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} يقول: لا تغيير لدين الله، أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} "أي لدين الله" ثم ذكر أن مجاهداً أرسل إلى عكرمة يسأله عن قوله: "لا تبديل لخلق الله" قال: "هو الخصا" فقال مجاهد: "أخطأ، لا تبديل لخلق الله إنما هو الدين" ثم قال: "{لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}" وروى عن عكرمة: "{لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} قال لدين الله" هو قول سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وابن زيد"[١١].

أي نعم، ذاك نظر إلى الفطرة من جهة الخلق الظاهر كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، فذكر على سبيل المثال، فهو تفسير بالمثال في أحد نوعي الفطرة، الفطرة التي تكون في الخلق ظاهراً، لكن ما أقره –أي مجاهد- على هذا التفسير وحمل ذلك على الدين بقرينة -هذا في الآية طبعاً- {لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}، هذه القرينة، لكن الحديث الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- تفسيراً لهذه الآية ذكر نظير ذلك فيه قال: ((كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟))، هذا ذكرٌ لقسيم الفطرة التي هي التوحيد –الحنيفية- في الخلق الظاهر، فهذا المعنى المذكور آنفاً هو بهذا النظر، بهذا الاعتبار وهو من قبيل تفسير المثال؛ لأنه لا يقصد تخصيصه بهذا المثال الذي ذكره، لكن في الآية إذا جئنا نفسرها مباشرة لا نفسرها بالفطرة في الخلق الظاهر؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} هي أمر بالإخلاص والتوحيد {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}.

وقال -رحمه الله-: "وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد: "هو الخصا"، ولا منافاة بين القولين كما قال تعالى: {وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ} [سورة النساء:١١٩]"[١٢].

كل هذا من تغيير الفطرة بالشرك، هذا تغيير الفطرة الباطنة وما يستتبعه ذلك من عبادات وأعمال وجوارح على خلاف ما شرعه الله -عز وجل- وبهذه المزاولات من قطع الآذان ونحوها هذا كله تبديل للخلق الظاهر بالفطرة الظاهرة.

وقال -رحمه الله-: "فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضا، ولهذا شبه النبي -صلى الله عليه وسلم- أحدهما بالآخر: فأولائك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة، فذلك يغير ما خُلقت عليه نفسه وروحه وهذا يغير ما خُلق عليه بدنه"[١٣].

فطريقة ابن القيم هذه الطريقة نفيسة بالتفسير وهي التي تنمي الملكة وتجعل النظر أعمق ويكون الإنسان لديه القدرة على توجيه أقوال السلف والجمع بينها ولا يحتاج رد بعض الأقوال أحيانا.

وقوله تعالى: {ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، {وَلَكِنَّ

---

١١ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص:٢٨٧).

١٢ - المصدر السابق.

١٣ - المصدر السابق.

{أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} الآية [سورة الأنعام:١١٦].

وقوله: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} قال ابن زيد، وابن جُرَيْج: أي راجعين إليه.

{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} يعني {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} [سورة الروم:٣٠-٣١]، {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}، {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} فيكون منصوباً على الحال على قول بعض أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} حال كونكم {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، وبعضهم يقول: إنه خبر كان المحذوفة، كونوا {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} والإنابة معروفة هي الرجوع والتوبة إليه من الشرك والمعاصي.

{وَاتَّقُوهُ} أي: خافوه وراقبوه، {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} وهي الطاعة العظيمة، {وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

روى ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر -رضي الله عنه-، بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن من المنجيات: الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت.

وقوله: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: "فارقوا دينهم" أي: تركوه وراء ظهورهم.

يعني هذه قراءة متواترة قراءة حمزة والكسائي أي: من الذين فارقوا دينهم، والمعنى واحد أو مختلف فيه فرقوا دينهم، فارقوا دينهم؟ المعنى جديد، معنى آخر لكن بين المعنيين الارتباط، بينهم ارتباط بلا شك فالذين فرقوا دينهم معناها أنهم انحرفوا وضلوا، ومن فارق دينه فقد وقع أيضاً في مثل هذا، الناس إذا تركوا الدين الصحيح -فارقوا دينهم- فهم في الواقع فرقوه صار هؤلاء على النصرانية، وهؤلاء على اليهودية وتركوا دين الإسلام.

وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعَبَدَة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ} الآية [سورة الأنعام:١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل -عليه السلام- عن الفرقة الناجية منهم، فقال: ((ما أنا عليه اليوم وأصحابي))[١٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [سورة الروم:٣١-

١٤ - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٤٨٨٦).

٣٢]، هذا تفسير لما قبله يعني كأنه يذكر أوصاف هؤلاء المشركين الذي نهى عن مشابهتهم فذكر صفة من أبرز صفاتهم أنهم فارقوا دينهم الحق وصاروا شيعاً، فإذا فارق الناس الحق تفرقوا واختلفوا، {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}، -نسأل الله العافية-، يحسبون أنهم على شيء على هدى، كل يدعي أنه على الدين الصحيح، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:١١٣] يعني المشركين، مثل قولهم: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فكل طائفة تدعي أنها على الحق، فكان من أبرز صفات المشركين أنهم فرقوا دينهم، وأيضاً فارقوا دينهم، فالله ينهى هذه الأمة عن مشابهتهم، والعلماء كثيراً ما يذكرون مثل هذه الآية، والآية الأخرى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [سورة الأنعام:١٥٩]، والمقصود بها اليهود والنصارى ومن شاكلهم، لكن كثير من أهل العلم يذكرون هذا الكلام على أهل البدع والضلالات وهذا الاستدلال استدلال صحيح في محله، يعني حينما يذكرون هذه الآية هناك فإن الاختلاف في الدين -وهو الاختلاف بسبب الأهواء- هو الذي يورث التفرق، وهو الخلاف المذموم التي جاءت النصوص بذمه والتحذير منه؛ ولهذا فإن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما اختلفوا في قضايا من الأمور العملية، اختلفوا في اجتهاداتهم، بل حصل بينهم قتال، ومع ذلك لم يتحولوا إلى فرق ولم تقع فيهم الأهواء التي حصلت لمن بعدهم، مرجئة وخوارج وشيعة وقدرية، ما حصل هذا لأحد من أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يعرف لأحد من الصحابة قط أنه نبز بشيء من هذه الأهواء فكان اختلافهم بسببها، اختلاف أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- غير مذموم، فيتوجه الذم إلى كل خلاف أورث في الدين فرقة وتناحر، فمثل هذه الآيات يستدل بها في مثل هذا المقام حينما يقع الاختلاف بين الناس في الدين فيتفرقون، أما اختلافات الفقهاء فليست موجبة للتفرق، لكن يكون هؤلاء طائفة على هوى وهؤلاء على هوى، ولهم اسم ينتسبون إليه غير الأسماء الشرعية ونحو ذلك فهذا هو المذموم، وهذا الذي جاء التحذير منه، وعندئذ يمكن أن يستدل بمثل هذه الآيات على هذا؛ لأن الله إنما نهى نبيه -صلى الله عليه وسلم- نهى هذه الأمة- حتى لا نقع بمشابهتهم في قليل أو كثير، فالغاية -نسأل الله العافية- مفارقة الدين بالكلية وهي عبادة غير الله -عز وجل- وأن يكون الإنسان على ضلالة كاملة كاليهود والنصارى وطوائف المشركين، وقد يكون له شعبة من هذا بضلالة وبدعة كما حصل لهذه الفرق التي أشرت إليها المرجئة والمعتزلة والقدرية وما شابه ذلك، والله المستعان.

{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الروم:٣٣-٣٧].

يقول تعالى مخبرًا عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره.

وقوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض

الله لهم ذلك.

مضى نظائر لذلك قريباً، وهذا من كلام ابن كثير -رحمه الله-، وعامة أهل العلم في مثل هذا يقولون: إنها لام العاقبة مثل: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨]، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مثل هذه المواضع يذكر المعنيين يقول: هي بالنسبة لهم لام العاقبة وبالنسبة لفعل الله -عز وجل- وتقديره هي لام التعليل، يعني أن الله -عز وجل- أغراهم بذلك يعني أن يلتقطوه في حكمته وتقديره أي من أجل أن يكون لهم عدواً وحزناً، لكن بالنسبة لهم هم ما أخذوه بهذا هي بالنسبة لهم لام العاقبة فهو يذكر المعنيين يقر المعنيين هذا باعتبار، وهذا باعتبار، وهذه طريقة حسنة جيدة وجهها ظاهر كما ترون فهنا {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} قال: هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، لام العاقبة أن الله -تبارك وتعالى- يذيق هؤلاء من رحمته فيقع فيهم الإشراك فيكون ذلك سائراً بهم ومنتهياً بهم إلى الكفر بما أتاهم من هذه، يعني جحد هذه النعم، وتكون لام التعليل يعني أن الله يعطيهم وينعم عليهم ليكفروا، ليجحدوا نعمه التي أعطاهم إياها إلى الكفر بما أتاهم من هذه يعني جحد هذه النعم، ولهذا يفسرها ابن جرير -رحمه الله- هنا بكي، كي يكفروا، يذيقهم النعم فيحصل منهم الإشراك كي يكفروا ويجحدوا بنعمه -تبارك وتعالى.

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} قالوا: إنها لام العاقبة هل يقصدون في فعلهم أنها لام العاقبة؟ أو في فعل الله -عز وجل-؟ في تقدير الله عليهم أو في فعلهم هم؟ لام العاقبة في فعلهم هم، ويكون المعنى هم قصدوا الإشراك يعني ما وقع، إنما تكون العاقبة حيث يصير ذلك بالإنسان دون قصده وتطلبه، واضح؟، لكن هم الذين أقبلوا على الشرك وهم الذين أداروا ظهورهم عن التوحيد والعبادة فذلك الآن تزمُّل، الآية: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} قلنا: لام العاقبة، تكون العاقبة الكفر، يكون ذلك في فعلهم أو في فعل الله؟ إذا قلنا: إن ذلك في فعل الله -عز وجل- يعني أن الله أعطاهم وأنعم عليهم بعد الشدة والضر؛ لتصير عاقبتهم ومآلهم إلى ما ذكر من الشرك، ويمكن أن تكون للتعليل بالنسبة لفعل الله -عز وجل- هل يمتنع أن تكون العاقبة بالنظر إلى فعلهم هم؟! قال الله -عز وجل-: {ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}، خذ صورة من الصور بالإشراك لما يحصل للناس بسبب القحط فإنهم يصلون إلى حال من اليأس والقنوط ثم ينزل عليهم المطر، فيقول قائلهم: "مطرنا بنوء كذا"، هذا يسمى إشراكاً، هذا الإشراك بالنظر إلى نعمة الله -عز وجل- آل بهم إلى جحد نعمة الله -تبارك وتعالى- عليهم فنسبوها إلى غيره فصار -بهذا الاعتبار- هذا الشرك الذي وقع منهم حيث وضعوا الشكر أو العبادة في غير من خلق صار ذلك في العاقبة كفراً وجحداً بنعمة الله -عز وجل- عليهم، فعلى هذا تكون اللام للتعليل بالنسبة لفعل الله -عز وجل- أعطاهم ليكفروا، وبالنسبة لفعلهم هم أن هذا الإشراك عاقبته الجحد والكفر فنسبوا النعمة إلى غير المنعم ولهذا كان الشرك عظيماً؛ لأنه توجه بالعبادة والشكر إلى غير من خلق.

ثم توعدهم بقوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دَرْب لخفت منه، فكيف والمتوعِّد هاهنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون؟!.

ثم قال منكرًا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان، {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا} أي: حجة {فَهُوَ يَتَكَلَّمُ} أي: ينطق {بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

قوله: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ} [سورة الجاثية:٢٩] ألزمنا عليهم حجة، "سلطاناً" يعني حجة، كتاباً وهو ينطق بما عندهم أثارة بالعلم، كتاباً أنزله الله -عز وجل-، عندهم برهان ناطق بما هم عليه يحتجون به، يركنون إليه.

ثم قال: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا مَنْ عَصَمَه الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بَطِر وقال: {ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [سورة هود:١٠]، **أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قَنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية، قال الله: {إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات}** [سورة هود:١١]، **أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: "عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له".**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً} الناس: ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله**، يعني هذه طبيعة الإنسان إلا من ترقّت نفسه وتهذبت بطاعة الله -عز وجل- وعبادته والإيمان به وتوحيده، وكلما ترقت النفس بهذا كلما تخلت من مثل هذه الأوصاف كما قال الله تعالى: {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [سورة العصر:٢] هذا من حيث هو {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر:٣]، فالنفس هكذا حالها من الضعف والعجز، وما ذكر من هذه الأوصاف المذمومة إذا حصلت له النعمة {إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} [سورة العلق:٦]، هذه طبيعة الإنسان من حيث هو {أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٧]، وإذا حصل له الضر فيظن أن هذا هو نهاية المطاف، يقنط وييئس وتظلم الدنيا في عينيه، فإذا كشف عنه هذا الضر نسي وغفل عن نعمة الله -عز وجل- عليه بل لربما نسي الضر الذي نزل به ولربما أضاف رفعه إلى غير الله -جل جلاله- وقوله هنا: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات} [سورة هود:١١] قالوا: أي صبروا بالضراء {وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات} بالرخاء، فهنا تفسير ذلك "إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات" هنا في هذا الموضع في الاستشهاد أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء هل يختص هذا بما ذكر؟ يعني هذا بعض المعنى وإلا فإن الصبر أوسع من ذلك، فالصبر يكون على ذلك، والصبر يكون على طاعة الله -عز وجل- في الرخاء، والأعمال الصالحة تكون أيضاً في الضراء، فالصبر والعمل الصالح كلاهما في السراء والضراء، فالصبر يكون على طاعة الله -عز وجل-، والصبر يكون على المصائب والمكاره وعلى أقدار الله المؤلمة، والصبر على المعاصي كل هذا، {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات}، والصبر حبس للنفس عن المعصية أو عن التسخط على أقدار الله -عز وجل-، وذكر العمل الصالح وهو يحتاج إلى صبر في فعله، وصبر في تصحيح القصد فيه، وصبر على

إقامته على ما شرع الله -عز وجل-، وصبر على الاستمرار فيه، وصبر على مجانبة ما يُبطله بَعده مِن مَنّ وأذى، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، أو الرياء، وقد يعمل الإنسان العمل ولا يزال به شيطان، والنفس الأمارة بالسوء فيذكر ذلك للناس وتتزين به فيكون ذلك مبطلاً لهذا العمل الذي يحتاج أيضاً إلى صبر، -والله المستعان-، لكن يدخل في هذا دخولاً أولياً الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأن الله يذكر كما في الآية التي نحن بصدد الكلام عليها {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} فمن صبر لا يحصل له القنوط ولا يحصل له الفرح الذي يورث الأشَر والبَطر، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [سورة الحديد:٢٣] أيّ فرح؟ المقصود الفرح المذموم.

وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

{فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الروم:٣٨-٤٠].

يقول تعالى آمرًا بإعطاء ذي {الْقُرْبَى حَقَّهُ} أي: من البر والصلة، {وَالْمِسْكِينَ} وهو: الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، {وَابْنَ السَّبِيلِ} وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره.

قوله تعالى هنا: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} حقه بالنسبة للقريب الصلة، وهذه الصلة تكون بالمال وغيره بحسب حاله، وذكر الحق هنا فهم منه بعض أهل العلم الوجوب، فالقريب له حق في مالك، وابن السبيل له حق فيه، وهو الذي انقطع في سفره؛ ولهذا تجد بعضهم أيضاً يفسره بالضيف، وكذلك المسكين، ومن أهل العلم -كما هو معلوم- من يقول: في المال حق الزكاة، فيجعلون هذا من هذا الحق، غير الزكاة، والمسألة فيها كلام معروف، وكثير من أهل العلم من عامة أهل العلم يقولون: لا حق في المال غير الزكاة، لا يجب فيه شيء أن يخرج سوى الزكاة، لكن لا يختلفون أن من وجبت نفقتهم وأوجبه الشارع أن هذا ثابت فمن ذلك النفقة على العيال، على الزوجات هذه واجبة وليست من الزكاة، ولا يجوز أن تصرف لهم الزكاة في هذه النفقات الواجبة، هذا أمر، والأمر والوجوب إن كان قرى الضيف الذي نزل بهم ولم يجد من يقوم به ما يحصل به الكفاية مما يصلح لمثله أن هذا واجب وهذا غير الزكاة، ولا يكون قرى هذا الضيف من الزكاة بل إن النبي -صلى الله عليه وسلم- في نفس الحديث أجاز له إن لم يقروه أن يأخذ منهم مثل قراه، فهذا يدل على أنه حق ثابت، فالشاهد أن مثل هذا لا شك مثل الزكاة، ولكن قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١] مبيَّن بما ذكر الله -عز وجل- وبما ذكر رسوله -صلى الله عليه وسلم- من أمور أخرى بعد ذلك في تفاصيل تتصل بالأنصبة أو الأموال الزكوية أو نحو ذلك كما جاء في نصوص أخرى، فكان يخرج ذلك في مكة من غير تقدير يوم الحصاد لمن حضر من الفقراء، وهناك أشياء تكون مستحبة كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ

{فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا} [سورة النساء:٨] هنا الميراث يقسم، فحضر فقراء ومساكين فيعطون من هذا المال شيئاً جبراً لخاطرهم، فالذين نظروا إلى أن قوله -تبارك وتعالى-: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [سورة الإسراء:٢٦]، القربات لهم حق في المال هكذا بإطلاق، قالوا: هذه الآية منسوخة بآية المواريث، فصار القرابات إنما يأخذون من الميراث {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} لكن هذه الآية تتحدث عن الحياة عما يكون بعد الموت فما هو حق القرابات؟ حق القرابات من الصلة فإن كانوا محتاجين وهو ذو يسار فإنه يصلهم بالمال، وإن كانوا غير محتاجين فبالتعاهد بالسؤال والزيارة وما إلى ذلك، تختلف الصلة من مكان إلى مكان، بحسب العرف تتفاوت، لكن القول بأنها منسوخة هذا غير صحيح، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ومعنى الآية لا إشكال فيه من غير دعوى النسخ، لا حاجة لهذه الدعوى، فالقرابات لهم حق بالصلة كلٌّ بحسبه، والمسكين له حق، ومن حقه أن يعطى من الزكاة، وابن السبيل كذلك فهذا من مصارف الزكاة، وبعض أهل العلم يقول: إن الآية محكمة، وبعضهم يحمل قوله: {ذَا الْقُرْبَى} على قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- فما هو حقهم؟ لهم حق في المحبة مثلاً والموالاة أعني أهل الإيمان منهم فنحبهم لقرابتهم، ونحبهم لإيمانهم فلهم محبتان، لكن من أهل العلم من رد هذا التفسير وقالوا: إن القرابة أعطاهم الله -عز وجل- قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- الحق بالفيء والغنيمة، فلهم من الغنيمة خمس الخمس {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...} [سورة الأنفال:٤١] هذا في الخمس، مخمس إلى خمسة أخماس، فسهم لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولذي القربى سهم، وكذلك في الفيء فإن الفيء مخمس بكامله، ومن هذه الأخماس في الفيء خمس قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنهم يعطون من هذا فهذا حقهم، ولا تحل لهم الصدقة، والأظهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك لا يختص بقرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا توجد قرينة تدل على هذا في الآية، وبعضهم كالحسن البصري -رحمه الله- حمل ذلك على الندب {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ} فحينما يقال: حق واجب لازم ثابت فهل يجب على الإنسان للقرابات حق في مالك مثلاً؟ فهذا موضع الإشكال، ولكن إذا فهم المعنى الذي ذكر أولاً انحل الإشكال، والله تعالى أعلم.

في قوله: {ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} يعني هل يختص هذا بالنظر إلى وجهه يريدون النظر إلى وجهه؟ لا يختص بهذا يريدون وجه الله، يريدون ما عنده، تقول للإنسان يريد بعمله وجه الله يعني الإخلاص، يريد وجه الله، الذين يريدون وجه الله.

{ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: في الدنيا وفي الآخرة.

{ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ} خير أفعل تفضيل يعني خير من كنز المال وجمعه وتثميره، فصرف المال في هذه الوجوه بالإحسان إلى القرابات والمحتاجين أفضل من جمع المال وخزنه وتكثيره وحبسه عن هذه الوجوه، لكن هذا لمن {لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ}.

ثم قال: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ} أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسره ابن عباس، ومجاهد، والضحاك،

وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي.

لاحظ قبل الدخول في هذا التفصيل قوله هنا: **{وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}** وما آتيتم قراءة الجمهور هكذا يعني وما أعطيتم، وفيه قراءة أخرى متواترة قرأ بها ابن كثير **{وَمَا أَتَيْتُم مِنْ رِبًا}** يعني وما فعلتم، والمعنى مختلف لكن ذلك يرجع إلى المعنى الأول **{وَمَا آتَيْتُم}** أعطيتم **{لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}** وهنا أتيتم يعني فعلتم هذا الفعل الذي هو الإعطاء، فالمعنى يختلف لكن يرجع في النهاية إلى شيء واحد **{مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}** ليَربُوَ هذه قراءة الجمهور، وقراءة نافع {لِتُربُوا في أموال الناس} تُربُوا يعني لتكونوا ذوي زيادات.

وهذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير ونسبه لجمع من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، مع أنه قد يكون غائباً عن ذهن كثير ممن يقرأ هذه الآية، وهو قول عامة أهل العلم.

وقوله: **من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم** هذا المعنى يكون هكذا تقريره: يعطي عطية ينتظر أفضل منها، يعطي الإنسان هدية وينتظر أكثر من ذلك، يعطي مثلاً هدية لأمير ينتظر أن هذا الأمير يعطيه أضعاف ذلك، قد يعطي ناساً من الأغنياء يعطيه شيء وهو أحوج ما يكون إليه هو فقير ومع ذلك يجدّ ويجتهد ثم يقترض حتى يشتري مثلاً نوعاً من البخور ثميناً جداً ونحو ذلك، وأنا قلت: تفضل هذه الهدية، ماذا يقصد؟ يقصد وجه الله -عز وجل-!، لا يعطيها فقيراً آخر وإنما يقصد أن يرجع إليه أضعاف هذا، وهكذا قد يفعل ذلك القرى والضيافة ونحو ذلك لربما يدعو أميراً كبيراً من الكبراء أغنياء ونحو ذلك من أجل أن يعطيه شيئاً أكثر من هذا، بعض هذا يدخل في أشياء أخرى تتعلق بالنفاق، إذا قال أو كان فعله ذلك من هذا القبيل بعضه ليس من النفاق العملي، فمثل هذا التصرف يعطيه هدية ويرجو غيرها وأحياناً يرجو مثلها لكن هنا قال: **{لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}** فهذا إنسان تزوج فذهب وأعطاه هدية، أعطاه شاة ينتظر منه إذا تزوج هو أو أحد أولاده أن يعطيه أكثر من ذلك، وبعضهم يفعل هذا لحرج اجتماعي ليرد عليه مثل ذلك فيصل الأمر إلى حالات مما يمكن أن يقال: إنه نوع من المهانة، يكتب كل من يأتي بشي يسجل، جاء بكذا، جاء بكذا، جاء بكذا، فإذا حصل لهذا مناسبات -فيه حسابات- فيعطى المثل، وهذا فيه إشكال كبير، فيه إشكال من حيث الناس، هؤلاء الناس يخرجون أموالهم من غير طيب نفس، يخرجها على أنها مغرم، لا تطيب نفوسهم بهذا -إلا من رحم الله-، لكن ما ذكر هنا في الآية **{لِّيَرْبُوَ}** ليزيد يعني فيعطي العطية ليأخذ أكثر فمثل هذا الذي سماه ابن عباس وجماعة من السلف كعكرمة بالربا الحلال، قالوا: الربا نوعان: ربا حلال وربا حرام، فالربا الحرام هو المعروف من غير عوض، قرض ثم يأخذ أكثر بعد ذلك غير البيع والشراء يعني غير المعاملات التجارية المعروفة المباحة ذاك هو الربا الحرام، وهذا هو الربا الحلال ربا حلال، ولا يفهم من هذا أنه محمود، لكنه لا يحرم يعني كون الإنسان أعطى أحداً من الكبراء والأثرياء ونحو ذلك عطية ويرجو أن يرد عليه أفضل منها، قال: تفضلْ خذ هذه ساعة هدية وهو يرجو أن يعطيه ساعة أفضل منها أو يغمره بهدايا أفضل منها، فهذا الإنسان رآه في الطريق وصدمت سيارته ونحو هذا وقال: تفضل هذه سيارتي هدية لك، وهو ينتظر أن يعطيه سيارة أضعاف قيمتها فمثل هذا ليس بمحرم، ولكنه لا يؤجر عند الله -عز وجل- على هذا العمل مما أراد به شيئاً من الدنيا، ما قصد التقرب إلى الله أصلاً، فهذا الذي قالوا عنه: الربا

الحلال، والحلال ليس معناه أنه سائغ، جيد، لا بأس به، حسن، لا يفهم هذا، المقصود أنه ما هو محرم، مع أن بعض أهل العلم حمل ذلك على الربا المحرم، {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ} يعني لا يحكم به، فلا يكون حقاً لآكله بل هو لمن دفعه؛ ولهذا إذا وصلت القضية إلى الحكم الشرعي إلى المحكمة بنك أقرض رجلاً مليوناً ويطالبه بمليون وثلاثمائة وجاءوا عند القاضي يحكم فإن القاضي يحكم برأس المال فقط، والثلاثمائة ليست لصاحب المليون المقرض، بعض أهل العلم فسره بهذه قال: {فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ} لأن الله لا يقره ولا يحكم به فتلك زيادة باطلة، لكن الذي عليه عامة أهل العلم هو ما ذكر من أن ذلك في العطية ونحوها مما لا يراد به التقرب إلى الله -عز وجل-، وإنما المراد عرَض عاجل: ((إنما لكل امرئ ما نوى))[15] ليس ذلك من الإشراك، هذا ليس من قبيل الشرك، فرق بين هذا وإنسان يتصدق رياءً وسمعة يقال المحسن فلان فهذا شرك هو نوع من أنواع الشرك، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: "وما تصدق أحد بِعَدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فَيُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد".

وقوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ} أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَة، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب.

وقوله: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، أي: بعد هذه الحياة {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي: يوم القيامة.

وقوله: {هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ} أي: الذين تعبدونهم من دون الله، {مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ} أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله -سبحانه وتعالى- هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعَزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} [سورة الروم:٤١-٤٢].

قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسُّدِّي، وغيرهم: المراد بالبر هاهنا: الفَيَافي، وبالبحر: الأمصار والقرى، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر.

وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر: البحر المعروف.

تأملوا في أقوال كثير من السلف ممن ذكر، وغير هؤلاء قالوا: البر الفيافي يعني الصحراء، وليس المقصود اليابسة، والبحر الأمصار والقرى بإطلاق، المدن يعني والقرى سواء كانت على بحر أو نهر أو لم تكن، والقول الآخر بقيد يعني ما ذكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعكرمة البحر والأمصار ما كان منها على جانب نهر، وبعضهم يقول: ما كان على جانب نهر وبحر يعني المدن الساحلية أو التي تكون على

---

١٥ - رواه ابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٩٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣١٩).

مجاري الأنهار على جوانب الأنهار، هل نقول القول الأول مطلق والثاني مقيد؟ يعني من قال: إن البر هو الفيافي، والبحر هو الأمصار، القول الآخر الأمصار التي تكون على البحر سواء كان هذا البحر عذباً -يعني الأنهار-، أو ملحاً -البحر المعروف-، هل نقول الأول مطلق والثاني مقيد فهو يوضحه فنحمل المطلق على المقيد؟ إذا كان لقائل واحد يحمل مطلق كلامه على مقيده، أما إذا كانت هذه أقوالاً فهذه معانٍ وتفسيرات متنوعة مختلفة، فإذا كانت لقائلين فلا نحمل المطلق على المقيد، يعني حينما تقول: التي على البحر هي المدن الساحلية، ويقول آخر: إنها المدن والقرى مطلقاً، هل نقول: هذا مطلق، وهذا مقيد فنحمل المطلق على المقيد؟ ما يرضى إذا كان لقائلين، أنا أقول: إن كان القائل واحداً كلامه المطلق يفسر بالمقيد، فننظر إلى هذه الأقوال فإذا وجدناها لقائل واحد يمكن أن نفسر هذا بهذا، فنقول المطلق محمول على المقيد مع العلم بأن من أهل العلم من يقول: إن العرب تسمي الأمصار بحراً، هكذا ما قيدوه بكونه على بحر أو نهر، يقولون: العرب تسمي الأمصار بحراً، وهذا المعنى أشار إليه بعض المفسرين كابن جرير -رحمه الله- لا أعني أنه اختاره بالتحديد، ولكن أشار إلى هذا المعنى: أن العرب تقول للأمصار هكذا بحر، ومن ثَمّ لا يقول قائل مثلاً على هذا الاعتبار، لا يحتج عليهم على من فسر البحر بالأمصار والبر بالفيافي ما يقول هذا، الظاهر المتبادر -والله أعلم- أن البر هو الصحراء والبحر هو اليابسة والبحر هو البحر المعروف سواء كان الحلو أو الملح هذا هو البحر، فكونه يفسر بالأمصار هذا خلاف الظاهر المتبادر، والأصل ألا يفسر القرآن إلا بما كان ظاهراً متبادراً ولا يحمل على معنى خفي أو قليل إلا بدليل، فهؤلاء سيقولون: هذا عند العرب معروف إذا قالوا: البحر يقصدون الأمصار؛ ولهذا تجد كثيراً من أهل العلم يفسرونه بالأمصار والقرى ونحو ذلك، والبر بالفيافي أي التي ليس فيها عمران، الأرض غير المعمورة فهذا معنى قال به الكثير من أهل العلم، وبعضهم يقول: البر هو البر المعروف يعني اليابسة، والبحر هو البحر المعروف، وابن جرير -رحمه الله- يقول: بنوعيه، ما عندنا دليل على تخصيص الملح مثلاً أو الأنهار! يقول: البحر يحمل على هذا وهذا، لكن المقصود بذكر البحر ما جاوره يعني المدن التي على شواطئ البحار فيكون {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} في البر في المدن غير الساحلية مثلاً والفيافي، والبحر المدن الساحلية أو التى على الأنهار باعتبار ذكر المجاور، هذا احتمال لكن لا تدعو إليه ضرورة؛ ولهذا يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن قوله -تبارك وتعالى-: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} على إطلاقه، فظهر الفساد في البر في اليابسة بما فيها من عمران وخلاء، -والفساد بنوعيه- وظهر أيضاً في البحر بنوعيه سواء كان عذباً أو ملحاً، وهذا الفساد الذي ظهر أيضاً بنوعيه الأول: ما كان من فعل ابن آدم، من جنايات ابن آدم، جنايات ابن آدم مثل المعاصي وأعظم من ذلك الشرك بالله -عز وجل- {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} كأن الذين قالوا: إن البحر المقصود به المدن التي على البحار أو نحو ذلك كأنهم استشكلوا أن يظهر ذلك في نفس البحر، والواقع لا إشكال فيه، فالبحر تظهر فيه مثل هذه الأشياء الفساد والعري والتفسخ ومحاربة الله -عز وجل- ورسوله وأكثر الفساد اليوم يقع في البحر مدن وجزر تُشترى أو تستأجر أو نحو ذلك ،ويقام فيها ما الله به عليم! ويأتيها الناس من أصقاع الأرض ويوجد أماكن فجور وفساد عائمة فيها كل الفساد من الزنا والمراقص والخمور والمعازف وما إلى ذلك هذا موجود فـــ{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} هذا نوع من الفساد الذي هو جنايات ابن آدم الشرك وما دونه.

والنوع الثاني: ما كان من فعل الله -عز وجل- {جَزَاء وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦] فالذي ظهر من هذا النوع الثاني في البر والبحر: الجفاف في البر، القحط، تموت الزروع، تموت الدواب والبهائم، تقل المياه تغور تتغير تتحول لا تصلح للشرب، تحصل فيضانات في الأنهار، ويحصل مثل ذلك في البحار، ويحصل من جنايات ابن آدم ما يحصل للناس من عقوبات بسبب ذلك، أعاصير، براكين، زلازل وغير ذلك من الآفات، فهذه جنايات ابن آدم بأنواعها يحصل من جرائها كوارث، فهي أمور متلازمة، وإذا نظرت اليوم حينما يتحدثون عن التلوث فمِن فعل الناس، انظر الآن إلى الكلام الكثير الذي يدور عن مثل هذه الإصابات في ألمانيا وأسبانيا في الخضراوات أو بعض أنواعها، بكتيريا قاتلة أصابتهم بالهلع والفزع إن لم تكن مصطنعة أعني هذه الهالة، يأتون بأنفلونزا الخنازير جديدة بعدُ، فالشاهد أن مثل هذه الأشياء من أين تأتي؟ من جنايات، {جَزَاء وِفَاقًا} على جنايات الناس، {لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} التسرب الآن في اليابان بهذه المفاعلات وكون ذلك يحصل بالجو وتنقله السحب والهواء، ويحصل في البحر أيضاً حينما تفرق المياه في البحر ثم ينتقل ولو بعد سنين إلى الأماكن البعيدة، ويؤثر هذا من النفايات الضارة وما إلى ذلك تلقى هنا وهناك في البلاد التي تحصل فيها الحروب ويستضعف أهلها ثم يبقى على أجيال، تشويه في الأجنّة وسرطانات وأمراض وعلل لا يعلم بها إلا الله -عز وجل-، وجفاف في الأرض، وفساد بالمحاصيل، والأراضي الزراعية وأشياء كثيرة هذا كله داخل في هذا المعنى -والله أعلم-، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} فالفساد بنوعيه ما كان من فعلهم، وما كان من فعل الله بهم {جَزَاء وِفَاقًا} والبر والبحر يشمل هذا وهذا أعني اليابسة والبحار الحلوة والمالحة، -والله تعالى أعلم-، فيحصل بسبب ذلك نقص الثمرات والأموال كل هذه المعاني التي ذكرها أهل العلم داخلة فيه، -والله تعالي أعلم-، وإن كان حمله بعض أهل العلم على هذا وهذا، يعني بعض أهل العلم حمله على المعنيين وهذا هو الأقرب -والله أعلم-، وبعضهم يحمله على أحد المعنيين، وابن جرير مثلاً يحمله على الأول الذي قال عنه ابن كثير هنا على القول الأول معنى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} بأن النقص بالزروع والثمار بسبب المعاصي، يعني الفساد الذي هو المعاصي ورأس ذلك الشرك بالله -عز وجل-، لكن يبقى المعنى الثاني ما كان جزاءً على هذه المعاصي، وما شكوه الناس من قلة ذات اليد الكوارث الاقتصادية، والمحن المتتابعة عليهم إنما هي بما كسبت أيديهم.

وقال زيد بن رُفَيْع: {ظَهَرَ الْفَسَادُ} يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، عن سفيان، عن حميد بن قيس الأعرج، عن مجاهد: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا.

هذا القول عن مجاهد وهو إمام في التفسير، وبعض المفسرين يستهجن هذا القول ويرده بقوة، ويستبعده غاية الاستبعاد، لكن لو تأملت هذا القول هل يحتاج إلى مثل هذا الاستهجان والرد بهذه الطريقة؟! تأمل في كلام مجاهد -رحمه الله- يقول: **فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا**. هنا يفسر الفساد بجنايات ابن آدم فيكون من قبيل التفسير بالمثال، فقتل ابن آدم هذا فساد {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [سورة المائدة:٣٢] فهو

يمثل لهذا يقول: في البر مثل قتل ابن آدم، وفي البحر {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف:٧٩] الآن هذه من القرصنة التي تكون في البحر هذا من الفساد في البحر، ولذلك لا نحتاج أن نقول: ليس هناك ما يلزمنا أو يحوجنا إلى تفسير البحر -كما قلت- بالمدن والقرى الساحلية.

وعلى القول الأول معنى قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} أي: بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: مَنْ عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: ((لَحَدٌّ يقام في الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحا))[١٦]، والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس -أو أكثرهم، أو كثير منهم- عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببا في محاق البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم -عليه السلام-، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية -وهو تركها- فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئَامُ من الناس، ويستظلون بقَحْفها، ويكفي لبن اللّقحة الجماعةَ من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ ولهذا ثبت في الصحيح: ((إنَّ الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب))[١٧].

هذا الحديث المرفوع في صحيح البخاري وهو المشهور: المستريح والمستراح منه، ثم بين النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك بهذا تستريح الناس منه والدواب والشجر والبلاد والعباد كلهم يستريحون من الفاجر؛ لأنه يفسد ويؤذي.

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي قحذم قال: وجد رجل في زمان زياد -أو ابن زياد- صرة فيها حَبّ، يعني من بر أمثال النوى، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل"[١٨].

هذا الأثر في مسند الإمام أحمد ذكره بعد حديث، ولكنه لا يصح من جهة الإسناد، لا يثبت، في بعض رواياته: ووجد في خزائن بني أمية صرة مكتوب فيها أو مكتوب عليها "هذا يخرج أيام العدل"، وكان بعض أهل العلم كأنه يقول: إن ذلك لعله كان في عهد عمر بن عبد العزيز، فالله تعالى أعلم، ولكنه جاء في بعض ألفاظه كما عند أبي شيبة لكن من نفس هذا الطريق عن أبي قحذم أنه وجد في خزائن كسرى لما دخلوا المدائن وأخذوا كنوز كسرى، وفتحوا خزائنه وجدوا مثل هذه الصرة، ولكن الكتابة التي ذُكرت: أن هذا ما

---

١٦ - رواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود، برقم (٢٥٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٣١)، وحسنه في صحيح الجامع، برقم (٣١٣٠).

١٧ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب سكرات الموت، برقم (٦٥١٢)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، برقم (٩٥٠).

١٨ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٩٤٩)، وقال محققوه: "هذا خبر إسناده ضعيف لا يثبت، وليس هو بحديث، ولا ندري وجه وقوعه في مسند أبي هريرة".

قال: يخرج أيام العدل، وإنما يخرج حينما كان يطاع الله -عز وجل- أو عبارة نحو هذه، لم يذكر العدل، وليس معنى ذلك أن الفرس كانوا أهل عدل، أو أنهم كانوا يطيعون الله -عز وجل- لكن لو صح هذا فإنه يكون مما وجدوه يعني في مكان يطاع الله -عز وجل- فيه، قد يقول: ومعروف أنه كان عندهم في بيت المال عند الفرس وجد الصحابة -رضي الله عنهم- رجلاً ميتاً يقال: إنه دانيال وإنه أُخذ من أيام بُخْتُنَصّر عندما خرّب بيت المقدس وأخذ من أشراف بني إسرائيل وخيارهم وذهب بهم إلى بلاد فارس، ويزعمون أنه دانيال ونحن لا نعلم في الكتاب ولا في السنة ما يُثبت نبيًّا بهذا الاسم، يذكرونه في أنبيائهم ويقولون: إنهم رأوا منه ما يدل على كرامته على الله -عز وجل-، فلما مات كان الفرس بعد ذلك إلى أن دخل الصحابة -رضي الله عنهم- بلاد فارس وفتحوها كانوا إذا أجدبوا خرجوا بجنازته من يأت المال فيستمطرون بذلك، يستسقون به، وأن الصحابة لم يجدوه قد تغير منه شيء، كما هو، كأنه نائم إلا شعرات ونحو ذلك في قفاه، وأنهم سألوا عمر -رضي الله عنه- وأمرهم أن يحفروا قبوراً وأن يدفنوه في واحد منها ليلاً، ويغيروا قبره، لئلا يعظم، فالشاهد أن هذا لو صح يعني هذه الصرة التي فيها الحب، وأنها وجدت عند الفرس، -وما ذكر هنا عند وقت ابن زياد إلى آخره ليس المقصود أنه حب ظهر في وقت زياد، وإنما وُجد مثل هذا وأنه لِمَا كان قبله-، فلو صح مثل هذا وأنه كان عند الفرس يعني في بيت المال فلا يعني هذا أنهم كانوا بهذه المثابة من العدل وطاعة الله -عز وجل-، ولكن الحكاية من أصلها لا تثبت مع أنها لا تخلو من غرابة، يعني في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في منتهى العدل! وكان الحب عندهم البر بقدر النوى، وهناك الحب مثل الحب الذي عندنا اليوم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن ظهور البركة وأن الفئة من الناس يستظلون بقحف الرمانة يعني القشرة، ولبن اللقحة يكفي جماعة من الناس، هذا في آخر الزمان لما يقال للأرض: أخرجي بركتكِ فتخرج بركتها، -فالله تعالى أعلم-، لكن أيام العدل لا شك أنه تحصل بركات، لكن يصير الأمر إلى هذا الحال حب البر يصير مثل النوى في عهد عمر بن عبد العزيز! هذا مثله ينقل بالتواتر، ولو حصل مثل هذا لخضع الناس للعدل خضوعاً كاملاً، ولحملوا عليه الحكام والخلفاء والملوك بكل ما يستطيعون، لو رأى الناس الأمور بهذه الطريقة البر مثل النوى، والرمانة تكون بحجم غير ما نشاهده هنا، لا ننكر أثر العدل، وأثر تقوى الله -عز وجل- في خروج البركات، هذا عمر لا ينكر لكن بهذه الصورة فقد يكون هذا فيه من المبالغة ما فيه، والإمام أحمد -رحمه الله- ذكره بعد حديث، وليس هذا من طريقته في المسند أصلاً يسند إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وَقَوْلُهُ: {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أَيْ: يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، اخْتِبَارًا مِنْهُ، وَمُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمْ، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أَيْ: عَنِ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأعراف: ١٦٨].

قوله هنا: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ} هذا التعليل هو الذي حمل عامة أهل العلم على حمل الفساد في البر والبحر بنقص الأموال والأنفس والثمرات، أن المقصود بالفساد هذا التحول والتغير في هذه الأشياء جزاء على أعمالهم، هذا السبب الذي حمل هؤلاء العلماء كثير من السلف فمن بعدهم على تفسير الفساد بهذا الذي هو النتيجة، المعنى الثاني الذي ذكرناه ولكن بين المعنيين ملازمة كما سمعتم،

يعني لماذا لم يفسروه بالمعاصي {ظَهَرَ الْفَسَادُ} يعني المعاصي، {لِيُذِيقَهُمْ} مع أن هذا ممكن أن يفسر بهذا المعنى ولا إشكال، وتكون اللام أيضاً صالحة أن تكون للتعليل.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ} أَيْ: مِنْ قَبْلِكُمْ، {كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} أَيْ: فَانْظُرُوا مَاذَا حلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَكُفْرِ النِّعَمِ.

الأمر بالسير بالأرض لمّا جاء في كتاب الله -عز وجل- المقصود به لمن كان عنده شيء من الشك والتردد، وأن الناس لا يؤمرون بذلك أمراً مطلقاً، يعني حتى أهل الإيمان فيقال: اذهبوا للنظر والسياحة في الأرض لتعتبروا وتتعظوا، لم يطلب الشارع هذا منهم بإطلاق، وإنما من كان عنده نوع تردد، وكان يقول: وليس يصح في الأذهان شيء ما احتاج النهار إلى دليل، هذا ما يحتاج إلى النظر، ولهذا الصحابة -رضي الله عنهم- ما كان يذهبون وينظرون في آثار من قبلهم من الأمم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قَوْلِهِ تَعَالَى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}، وَنَزِّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَطَابِقْ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا، وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلَّ وَقْتٍ فِي الثِّمَارِ وَالزَّرْعِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلَّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا..."[١٩].

يذكر المعنيين: الفساد في المعاصي والشرك، ونتيجة ذلك مما يفعله الله بهم، فكأنه يتكلم في عصرنا، يظهر هذا في جملة لو تعيدها ثانية، الجملة القريبة.

وقال -رحمه الله-: "...أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ -تبارك وتعالى- مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَفَوَاكِهِهِمْ، وَأَهْوِيَتِهِمْ وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ وَخَلْقِهِمْ، وَصُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجَبُ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ"[٢٠].

الأبدان مثل الأجنّة، ويولد كما يقولون: ناقص الخلق، ومشوه ونحو ذلك.

وقال -رحمه الله-: "وَلَقَدْ كَانَتِ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتِ الْبَرَكَةُ فِيهَا أَعْظَمَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ صُرَّةً فِيهَا حِنْطَةٌ أَمْثَالُ نَوَى التَّمْرِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ، ذَكَرَهَا فِي " مُسْنَدِهِ " عَلَى أَثَرِ حَدِيثٍ رَوَاهُ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، حَكَمًا قِسْطًا، وَقَضَاءً عَدْلًا، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونِ: ((إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ، أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ))"[٢١]

يقول: هذه بقايا عقوبات بقي جزء منها سواء كان الرياح أو كان من الأوبئة والأمراض والطواعين هي بقايا عقوبات سابقة نزلت على أمم.

---

١٩ - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣٣٢/٤).

٢٠ - المصدر السابق.

٢١ - المصدر السابق (٣٣٣/٤).

وقال -رحمه الله-: "وَكَذَلِكَ سَلَّطَ اللَّهُ -سبحانه وتعالى- الرِّيحَ عَلَى قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَفِي نَظِيرِهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ مُقْتَضِيَاتٍ لِآثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَابُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنْعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ، وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسَ فِي الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ سَبَبًا لِجَوْرِ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنِ اسْتُرْحِمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِنِ اسْتُعْطِفُوا، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَعْمَالَهُمْ فِي قَوَالِبَ وَصُوَرٍ تُنَاسِبُهَا، فَتَارَةً بِقَحْطٍ وَجَدْبٍ، وَتَارَةً بِعَدُوٍّ، وَتَارَةً بِوُلَاةٍ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهُمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تُحْضِرُهَا نُفُوسُهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنْعِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَؤُزُّهُمْ إِلَى أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزًّا لِتَحِقَّ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَلِيَصِيرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْعَاقِلُ يُسَيِّرُ بَصِيرَتَهُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَسَائِرُ الْخَلْقِ عَلَى سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَى دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللَّهُ بَالِغٌ أَمْرَهُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ"[٢٢].

وقال -رحمه الله-: "قَالَ تَعَالَى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا وَلِيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فَيَحْبِسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، ثُمَّ قَرَأَ: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

ثُمَّ قَالَ: "أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ فَهُوَ بَحْرٌ"، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعَمُودِ، وَأَمَّا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقُرَى وَالرِّيفِ، قُلْتُ: وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا، فَقَالَ: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [سورة فاطر:١٢].

وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلْوٌ وَاقِفٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ، وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ، فَسَمَّى الْقُرَى الَّتِي عَلَيْهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمِيَاهِ"[٢٣].

هذا على حد معرفته هو لا يوجد بحر واقف حلو، البحيرات الموجودة في العالم بعض هذه البحيرات تشترك فيها خمس دول أو أكثر بحر مثل هذا البحر الذي نشاهده لكنه حلو، أمواج وسفن تجري تجد مدناً أحياناً على ضفاف هذه البحيرة وهو شيء مشاهد وهو في غاية العذوبة هذا موجود في أفريقيا وفي غيرها، كأنك تشاهد هذا البحر عندنا تجري فيه السفن الكبار والأمواج، تمام لا فرق إلا من حيث هذا حلو وذاك ملح.

وقال -رحمه الله-: "وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} قَالَ: الذُّنُوبُ.

---

٢٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/٣٣٣-٣٣٤).

٢٣ - الجواب الكافي (ص:٦٤-٦٥).

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الذُّنوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذي ظَهَرَ هُوَ الذُّنُوبُ نَفْسُهَا"[٢٤].

هذه الملازمة، وإلا كما سبق فكثيرون فسروه بالأثر للذنوب؛ لأنه قال: {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ}.

وقال -رحمه الله-: "فَتَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالتَّعْلِيلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْآلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ، فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلَّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً"[٢٥].

الكلمة التي قالها ابن القيم -رحمه الله-: تكون اللام للعاقبة وللتعليل، هنا يشير إلى ما يذكره ابن كثير -رحمه الله- فهي بالنسبة لفعل الله -عز وجل- بهم للتعليل {لِيُذِيقَهُمْ}، وبالنسبة لفعلهم هل فعلوا هذا من أجل أن يذيقهم الله؟ لا، فتكون للعاقبة بهذا الاعتبار، هذا عند تفسير الفساد بالمعاصي والشرك.

وقال -رحمه الله-: "وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} فَهَذَا حَالُنَا، وَإِنَّمَا أَذَاقَنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَاقَنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ"[٢٦].

تم بحمد الله وفضله.

---

٢٤ - الجواب الكافي (ص:٦٥).

٢٥ - المصدر السابق.

٢٦ - المصدر السابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الروم من الآية (٤٣) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله وإياه- في تفسير قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [سورة الروم:٤٣-٤٥].

يقول تعالى آمرًا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} أي: يوم القيامة إذا أراد كونه فلا رادَّ له، {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ} أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}، ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ} المقصود أن الإنسان يتوجه إلى الله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له بالعبادة فيوحده ويفرده دون ما سواه، {فَأَقِمْ وَجْهَكَ} فتكون وجهته واحدة، والدين القيم يعني المستقيم، فالله -تبارك وتعالى- وصفه بذلك في مواضع من كتابه، وهو الإسلام، وهو الصراط المستقيم، فوحِّد وجهتك واجعل توجهك لاتباع صراط الله المستقيم موحداً المعبود -جل جلاله-، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ}، قال: **أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له** يعني لا يقدر أحد على رده وقوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ}، "من الله" بعضهم يقول: هو متعلق بـــ"يأتي" يعني من قبل أن يأتي من الله يوم لا مرد له، فهذا اليوم يأتي من الله على هذا المعنى، وبعضهم يقول: إنه متعلق بمحذوف {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ} هذا المحذوف يدل عليه المصدر، وهو قوله مرد: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} هذا يرجع -والله أعلم- من حيث المعنى إلى ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- يعني لا يرده من الله أحد، متعلق بمحذوف يدل عليه المصدر فيكون التقدير هكذا، أي لا يرده من الله أحد، عبارة ابن كثير كما ترون فلا راد له، لا مرد له من الله، لا يقدر أحد على رده ودفعه أو تأخيره {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} قال: **أي يتفرقون**، هذا تصدُّع كما قال: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [سورة الشورى:٧]، وهو ما ذكره الله -عز وجل- من قبل ذلك في لفظ التفرق، يتفرقون قال: ولهذا قال: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} يمهدون يعني يوطِّئون لأنفسهم

المنازل بالجنة بالأعمال الصالحة، فتقول: هذا طريق ممهد، وكذا يقال: المهاد {فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} فهؤلاء الذين يعملون الصالحات إنما يعملون ذلك لأنفسهم ويرجع جزاء ذلك عليهم، فهم المنتفعون بذلك، والله -تبارك وتعالى- غني عنهم وعن طاعتهم وعبادتهم، {فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [سورة فصلت:٤٦] ثم قال: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ}، هذه اللام يحتمل أن تكون متعلقة بقوله: {يَصَّدَّعُونَ} يتفرقون، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} يعذبهم، يصدعون ليجزي، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إنه متعلق بقوله: {يَمْهَدُونَ} يعني من عمل صالحاً {فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ} يمهدون ليجزيهم الله -تبارك وتعالى- الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، وبعضهم يقول: إنه متعلق بمقدر محذوف أي ذلك ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الروم:٤٦-٤٧].

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقيبها؛ ولهذا قال: {وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} أي: المطر الذي ينزله فيُحيي به العباد والبلاد، {وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ} أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

ذكر هنا خمس قضايا تتصل بإرسال الرياح، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} هنا قال: **مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقيبها**، وهي الريح التي تكون بين يدي المطر تحمل التراب وهي معروفة وينزل المطر بعدها، فهذه الرياح إذا رآها الناس عرفوا أن المطر قريب، وأنها مبشرة بين يديه، فهذه الأولى، والثانية {وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} قال: **أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد** فالمطر رحمة من الله -تبارك وتعالى- والله يسوقه بهذه الرياح التي يرسلها تنزل حيث أمر الله -تبارك وتعالى- وأراد، هذه الثانية، والثالثة: {وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ}، وإنما جريها بالرياح، قال: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} ابن كثير -رحمه الله- اعتبر ذلك مما يرجع إلى الفلك، يعني أن الريح تسيرها، وتتنقلون بها من قطر إلى قطر ابتغاء فضل الله -عز وجل- بالتجارة وطلب المكاسب والمعايش، ومن أهل العلم من أطلق ذلك من غير تقييد بما قبله {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- حينما ينزل الغيث، يرسل هذه الرياح وينزل المطر، فتنبت الأرض ويحصل للناس بذلك نفع، فتنمو دوابهم ويتكاثر ما يحصل منها من الألبان وما إلى ذلك، وكذلك يحصل لهم ألوان الزروع والثمار وهكذا يتنقلون بالسفن في طلب المكاسب والمعايش والتجارات وغير ذلك مما يبتغون فيه فضل الله -تبارك وتعالى-، فتكون على هذا الاعتبار: الرابعة، وعلى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك يرجع إلى الفلك، قال: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: **تشكرون الله على ما أنعم عليكم** وعرفنا من قبل أن لعل في القرآن تأتي بمعنى التعليل في كل موضع إلا في

موضع واحد وهو قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩]، أي كأنكم تخلدون، فهنا هي تعليلية أي من أجل أن تشكروا الله -عز وجل- على هذه النعم.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الروم:٤٦-٤٧].

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها؛ ولهذا قال: {وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} أي: المطر الذي ينزله فيُحيي به العباد والبلاد، {وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ} أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

ثم قال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا} هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كُذّبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، هو حقّ أوجبه على نفسه الكريمة، تكرما وتفضلا كقوله تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [سورة الأنعام:٥٤].

معلوم أن الله -تبارك وتعالى- جعل ذلك حقاً عليه فيما أوجبه على نفسه -تبارك وتعالى- كما قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} الآية، لكن ليس للخلق أن يوجبوا على الله -عز وجل- شيئاً قياساً على خلقه، وإنما يكون ذلك من قبيل الحكم بعقولهم كما تفعل طوائف من أهل البدع كالمعتزلة أوجبوا عليه أشياء ومنعوا عنه أشياء، كل ذلك تحكم بعقولهم قاسوه على خلقه، فقالوا: يجب عليه كذا ويمتنع عليه كذا، وهذا غير صحيح، فعندما أوجب -تبارك وتعالى- على نفسه أمراً، إذا أوجب على نفسه أمراً فإن ذلك يوقف عنده، فالله -تبارك وتعالى- يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} [سورة الروم:٤٨-٥١].

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا}، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله -عز وجل-، {فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ} أي: يَمُدّه فيكثّرهُ ويُنَمّيه، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة فتُرى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة الأعراف:٥٧]، وكذلك قال هاهنا: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ

{فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا}، **قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الورّاق، وقتادة: يعني قطعا.**

وقال غيره: متراكما، قاله الضحاك.

وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض.

قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} هذه فائدة أخرى للرياح غير ما ذكر، {فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {فَتُثِيرُ سَحَابًا} **إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله -عز وجل-،** هنا أجملَ في مصدر الرياح غير البحر إما من البحر فهو للتبخر كما هو معلوم، والمُنكَر في ذلك أن يقال: إنها طبيعة بمعنى أن ذلك ليس من تدبير الله -تبارك وتعالى- فهذا هو الذي شدد فيه أهل العلم وقالوا: إن هذا من الكفران، وإنه من جحود نعمة الله -تبارك وتعالى- وإلا فكان الجاهليون يعرفون أن السحاب يتكون من الأبخرة التي تتبخر من البحار ونحوها؛ ولهذا يقول الهذلي:

شَربنَ بماءِ البحرِ ثُم ترفّعتْ *** متى لُجَجٍ خُضرٍ لهنّ نئيجُ

يقصد السحاب، والعلماء تكلموا على هذا كثيراً، ومنهم من يقول: إن السحاب لا يكون من تبخر المياه من البحار وإنما يخلقه الله -تبارك وتعالى- وينشئه، وبعضهم يقول: إنه من مصادر أخرى كما يقول بعضهم من الجنة أو نحو ذلك، ومن أهل العلم من يقول: لا مانع أن يكون ذلك بالتبخر، وقد يكون له مصدر آخر، المقصود هنا الإشارة إلى ما أراده ابن كثير -رحمه الله- بقوله: أو مما يشاء الله -عز وجل- فأبهمَ في ذلك وأجملَ وهو يشير إلى هذه الأقوال التي يذكرها أهل العلم في مصدر السحاب، لكن ما تجدونه في بعض الكتب وتشديد بعض أهل العلم فيمن يقول: إنه تبخر البحر إنما يقصدون به من قال: إنه طبيعة، من يقول: إنه طبيعة يعني أنه قضية طبيعية لا تتعلق بإرادة الله -تبارك وتعالى- مع أن الله ذكره من آياته.

وقوله {فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} **أي: فترى المطر -وهو القطر- يخرج من بين ذلك السحاب،** {فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} **أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم.**

وقوله: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ}، **معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قَانطين أزِلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعا عظيما.**

ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله -أيضا- قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت، فترقبوه في إبّانه فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ} **يعني: المطر** {كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}.

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال: {إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} من قبله هذه الثانية {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} ابن كثير -رحمه الله- لم يعتبر ذلك من قبيل التوكيد يعني أنها ليست

مؤكدة لما قبلها، فهو يقول هنا: **معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة وقع منهم موقعاً عظيماً، ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله،** يعني كلام ابن كثير -رحمه الله- هذا مهمٌّ ذكره -وهو محذوف من المختصر- فابن كثير -رحمه الله- يرى أن ذلك يحمل على معنى جديد من باب أولى، التأسيس مقدم على التوكيد؛ لأنه يأتي بمعنى جديد، على هذا فهو يقول: معنى الكلام أنهم محتاجون إليه قبل نزوله، لاحظ هذه الأولى {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ} ومن قبله قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقتاً، {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} يعني كانوا محتاجين إليه قبل النزول وهم قبله قد فات وقته ومظنته فأورثهم ذلك حزناً وكآبة وسكوناً، هذا معنى مبلسين، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} لكن أكثر أهل العلم يقولون: إن ذلك للتوكيد، وهو اختيار ابن جرير، وكأن هذا -والله تعالى أعلم- أقرب وأبعد عن التكلف في المعنى في تفسير الآية، فيكون المعنى -والله تعالى أعلم- {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ} يعني المطر –الغيث- من قبله يعني من قبل أن ينزل عليهم هذا الغيث، هذه عبارة ابن جرير، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ} هذا الغيث {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} فيكون توكيداً -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي عليه أكثر النحاة، وإلا فالأقوال كثيرة في تفسيره، وبعضهم يقول: من قبل الإنزال، وبعضهم يقول غير ذلك، وبعض هذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وبعضها لا يخلو من تكلف، -والله أعلم-، يقول: **كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال:** {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ}، {فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ} هذا على قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي، في الجمع: إلى آثار رحمة الله، وقرأ الباقون بالإفراد: {فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ} وذلك يرجع إلى معنى واحد، أثر رحمة الله، فإن المفرد هنا بمعنى الجمع، وأثر رحمة الله هو المشار إليه بعده بقوله: {كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} ورحمته هي المطر.

ثم قال تعالى: {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}، **يقول:** {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا} **يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفرا، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده أي: بعد هذا الحال يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال:** {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ....} **إلى قوله:** {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [الواقعة:٦٣-٦٧].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا} بعضهم يقول: رأوا السحاب مصفراً، وأن السحاب إذا كان مصفراً فمعنى ذلك أنه ليس فيه المطر، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الريح، والذي عليه عامة أهل العلم -وهو الأقرب- أن ذلك يرجع إلى الزرع، {فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا} يعني تأتيه الريح باردة فيصفر، ويذبل وتتغير حاله، فبعدما ظهر وخرج تأتي هذه الريح ثم بعد ذلك يتحول إلى شيء من الذبول والضعف، ويكون بعد ذلك يابساً هشيماً، -والله المستعان-، فهو يرجع إلى الزرع والنبات، فهنا يقول: {فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا} أي **قد اصفر وشرع في الفساد** ابن كثير هنا يفسر ذلك أنه يرجع إلى الزرع، وهذا اختيار ابن جرير أيضاً.

{فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ

تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} [سورة الروم:٥٢-٥٣].

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تُسمع الأموات في أجداثها، ولا تُبلغ كلامَك الصمَّ الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدبِرُون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يُسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي مَنْ يشاء، ويضل مَنْ يشاء، وليس ذلك لأحد سواه.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} ضربه الله -عز وجل- لمن طبع على قلوبهم فأصمهم الله -عز وجل- وأعمى أبصارهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [سورة البقرة:٧]، فهؤلاء لا يسمعون الحق ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وهنا قال: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [سورة الروم:٥٢]، هو كما سبق: الموتى هو مثل ضربه للكفار، فكما أنك لا تسمع الأموات فهؤلاء بمنزلة الأموات، ولهذا أخذ بعض أهل العلم من ظاهره أن الأموات لا يسمعون، مع أنه مثل مضروب للكفار، قال الله تعالى: {وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} [سورة فاطر:٢٢]، وعائشة -رضي الله تعالى عنها- استدلت بهذه الآية على أن القتلى -قتلى المشركين- الذين ألقوا في القليب يوم بدر أنهم لم يسمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- احتجت بهذه الآية، هذه الآية عامة، والحديث خاص لما سأله عمر عن تكليمه لهم بعد ثلاث وقد جيفوا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وما أنتم بأسمع لما أقول منهم))[1]، يعني بأنتم: أصحابه -صلى الله عليه وسلم-، فهؤلاء فتح الله -عز وجل- أسماعهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن يسمعوا خطابه وتبكيته لهم، وبعضهم يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بذلك ولكن لا يعني أنهم سمعوه، وهذا خلاف ظاهر الحديث، فهذه حالة مستثناة فتح الله أسماع هؤلاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا فإن الأصل أن الموتى لا يسمعون ولا يشعرون بمن جاء إليهم وزارهم ونحو ذلك أو كلمهم، وإنما يوقف في ذلك عند ما ورد به النص كسماعه بعد الدفن، يسمع صوت نعالهم لما يولون عنه مدبرين، وهو يسمع في هذه الحال فقط، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يسمعون، مع أن هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، لكن هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم، قال: {فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} إذا ناديتهم فالأصم لا يسمع أصلاً ومع ذلك ذكر معنى آخر إذا ولوا مدبرين، فإن الأصم قد يشار إليه فيفهم الإشارة لكن إذا كان مولياً مدبراً فكيف يرى الإشارة؟! فهو لا يسمع وقد ولى مدبراً فلا يرى إشارة يفهم عن مخاطبه ومراده، ولهذا قال: {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولائك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مَثَلُ الكافرين، كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [سورة الأنعام:٣٦].

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بهذه الآية: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} على توهيم

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، برقم (٣٩٧٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٣).

عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- القتلى الذين ألقوا في قَلِيب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال: ((والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون))، وتأولته عائشة على أنه قال: إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمة.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم:٥٤].

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاما ثم تُكسَى لحما، ويُنفَخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفًا واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيرًا، ثم حَدَثًا، ثم مراهقًا، ثم شابا، وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللّمَّة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ}** هكذا بفتح الضاد قراءة عاصم وحمزة وهي لغة لتميم، وقراءة الجمهور بضم الضاد، وهي لغة قريش، هما لغتان، والمعنى واحد على المشهور عند أهل العلم وإن كان بعضهم يفرق بينهما الضَّعف والضُّعف، فيجعل ذلك من قبيل ضعف العقل والأخرى من قبيل ضعف البدن، لكن هذا وإن قاله بعضهم إلا أن المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أنهما بمعنى واحد، وهذا الضعف بعضهم يقول: وهو نطفة، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ}** [سورة الطارق:٥-٦]، وقال: **{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ}** [سورة المرسلات:٢٠]، وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك في نشأته وحينما يكون صغيراً ضعيفاً حينما يولد، والأحسن -والله تعالى أعلم- أن يفسر ذلك بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقد جمع ذلك كله، فعبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر فيها حالة الضعف هذه أن الإنسان **أصله من تراب ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير عظاماً ثم تكسى العظام لحماً ثم ينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ثم يشب قليلاً قليلاً حت يصير صغيراً حدثاً ثم مراهقاً ثم شاباً**، وهو القوة فما قبل ذلك كله ضعف قبل الولادة وبعدها ثم بعد ذلك تكون القوة، أما من جعل بعد الضعف قوة وهو الشباب واكتمال الخلق **{ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً}** [سورة الروم:٥٤]، هذه المرحلة التي يصير إليها الإنسان بعد ذلك من الوهن **{وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}** [سورة مريم:٤]، وإذا طال به العمر يصير إلى أرذل العمر "ثم لتكونوا شيوخاً"، وهذه سنة الله -عز وجل- في هذا الخلق، ولذلك تجد كثيراً من الناس حينما يتقدم به العمر يشكو من ضعف عظامه، والأطباء يقولون لهؤلاء الكبار: إنهم يعانون من هشاشة في العظام ونحو ذلك، وهذا أمر طبيعي، يعني هذا هو الأصل وخلافه قليل أو نادر، كما قال الله -عز وجل- عن قيل زكريا -عليه السلام-: **{وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي}**، هذا الوهن هو ضعف العظام الذي يسميه المعاصرون الآن من الأطباء بهشاشة العظام فهو ماذا ينتظر إلا الضعف والهشاشة وآلام

الركب وآلام المفاصل وما إلى ذلك؟، ويكون ذلك تكفيراً لذنوبه ورفعة لدرجاته على الأرجح، لذلك إذا وطن الإنسان نفسه على مثل هذا استراح كثيراً من التشكي والمعاناة هذا هو الطبيعي، هذا هو الأصل وخلافه قليل أو نادر، والله المستعان.

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [سورة الروم:٥٥-٥٧].

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ} يعني الساعة التي تقوم بها القيامة، قيل لها: الساعة هي الساعة الأخيرة من الدنيا، آخر ساعة من الدنيا، الساعة التي يكون فيها النفخ في الصور {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} هذا القسم الذي أقسموه أولاً هل هم صادقون فيه؟، يعني قالوا ما يعتقدون وإن أخطئوا {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طه:١٠٤]، من أهل العلم من يقول: هم يعتقدون هذا، هم يعتقدون ذلك فتكلموا عن اعتقادهم لكنهم أخطئوا في هذا الاعتقاد، بعضهم يقول: كأنهم تقالّوا مدة بقائهم ومكثهم في الدنيا، واعتقدوا ذلك بغاية القلة فأقسموا بناء على هذا الذي استقر في أذهانهم وظنوا أن ذلك يطابق الواقع، هذا باعتبار ما لبثوا يعني في الدنيا، وبعض أهل العلم كابن قتيبة يقول: إنهم كذبوا في ذلك، يعني من أجل ألا يحاسبوا ويعذبوا يقولون: ما بقينا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} يعني في الدنيا حيث كانوا يحلفون على الكذب وهم يعلمون، وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك في البرزخ، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا} يعني في البرزخ في القبر وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، أن المقصود المكث في القبور، وبعضهم فهم من ذلك أنهم ينامون نومة في القبور فيفيقون منها عندئذٍ يحلفون أنهم ما لبثوا غير ساعة، لكن الله -عز وجل- حينما يسألهم كم لبثوا في الأرض عدد سنين فإنهم يقولون: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} [سورة المؤمنون:١١٣] فهذا يدل على أن المقصود المكث في الدنيا، وذلك -والله تعالى أعلم- أن الإنسان إذا فارق هذه الحياة تكون بمجموعها بالنسبة إليه وإن طال مكثه فيها كأنها ساعة، ويمكن أن يعتبر الإنسان هذا بما مضى من أيامه، أيام العمر فيجد أنها قصيرة، ولو نظرت إلى الليلة الماضية والليلة التي قبلها كأنها السنوات التي مضت، أيام الشباب، أيام الطفولة كأنها أحلام؛ لهذا الإمام أحمد لما سئل عن الشباب قال: كأنه شيء وضعته في كمي فسقط، فهذا يجده الإنسان في نفسه، فما مضى من العمر يكون أحلاماً، كأنه مدة قصيرة، ومن قال: ذلك يراد به القبر فهذا كذلك وإذا أردت أن تعتبر هذا فإن أصحاب الكهف لما قاموا من نومتهم هذه الطويلة ماذا قالوا لمّا تساءلوا؟ {{لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ}، وهؤلاء الذين يمكثون هذه المدة الطويلة مثل أصحاب الكهف أو نحو ذلك لا يشعرون بذلك حينما يستيقظون، ولا يبعد -والله تعالى أعلم- أن تكون مدة البرزخ حينما يقوم منها الإنسان يرى أنها قصيرة على قول ابن جرير، من قال: إن ذلك البرزخ فهذا ظاهر،

والإنسان حينما ينام ويستيقظ فهو وإن طال نومه إلا أنه لا يشعر بالمدة التي قضاها، ولذلك المغموم المهموم ومن به حزن أو نحو ذلك عادة يلجأ إلى النوم من أجل أن يطوي الأيام، أن يطوي الساعات، لأن الساعات في أوقات الحزن تكون طويلة جداً، وفي أوقات الفرح تكون قصيرة، فيوم العيد ونحو ذلك يمضي سريعاً، يشعر الناس أنه مضى ولم يُشبع نهمتهم، بينما أيام الألم والمصيبة ونحو ذلك تكون طويلة، فالمقصود على قول ابن جرير -رحمه الله- أن ذلك يرجع إلى القبر إلى البرزخ {مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}، وعلى قول ابن كثير أن ذلك يرجع إلى الدنيا، وسواء قلنا: إنهم قالوه كذباً وهم يعلمون، أو إنهم أخطئوا حيث إنهم حينما جاء البعث وتصرمت الدنيا نظروا إلى بقائهم كأنهم تقالّوه، وأنهم بقوا هذه المدة اليسيرة، {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}، وبعضهم يقول: {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} أي كانوا يكذبون ويحلفون على الكذب في الدنيا، لكن يمكن أن يقال غير هذا، فإن أصل هذه المادة تأتي بمعنى القلب، أي كذلك كانوا يؤفكون أي يصرفون عن الحق في الدنيا، والله تعالى أعلم.

قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ} أي: في كتاب الأعمال.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ} بعضهم يقول: الملائكة، وبعضهم يقول: الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: المراد بذلك الذين أوتوا العلم والإيمان من الناس من أهل الإيمان وأهل العلم يردون عليهم يردون على هؤلاء الكافرين الجاهلين، والأحسن -والله أعلم- هو أن يحمل على هذا كله، فإن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- والأنبياء أئمة أهل العلم والإيمان؛ ولذلك حمله ابن جرير -رحمه الله- على الجميع، وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **فيرد عليهم المؤمنون العلماء** فجعل ذلك صفتين لموصوف واحد، وابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك –أي هذه الأوصاف- على موصوفين متعددين، لقد لبثتم في كتاب الله قال: يعني في كتاب الله الأعمال، وعبارات أهل العلم في هذا متقاربة، بعضهم يقول: في كتاب الله في علمه وقضائه، وبعضهم يقول: في كتاب الله يعني اللوح المحفوظ يعني في علم الله الذي كتبه وأثبته في اللوح المحفوظ، وهكذا قول من يقول كقول ابن جرير -رحمه الله-: أي فيما أثبته في علمه السابق الأزلي، يعني ما سبق في علمه، كتبه في علمه السابق، الكل يرجع إلى شيء واحد، {لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ} وليس المقصود بكتاب الله القرآن، وإنما اللوح المحفوظ، فمن قال: إنه في علم الله فإن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، ومن قال: إن ذلك في حكمه وقضائه فذلك في اللوح المحفوظ أيضاً، ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء))[2]، و((إن أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} [هود:٧]، {وهو رب العرش العظيم} [التوبة:١٢٩]، برقم (٧٤١٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣).

تقوم الساعة))[٣]، الحديث.

{إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، {وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}.

قال الله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ} أي: يوم القيامة، {لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ} أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، {وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: {وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [سورة فصلت:٢٤].

{وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} يستعتبون يقول: أعتبتُ يعني أرضيتُ، أعتبته يعني أرضيته، استعتبتَه كأنك طلبت منه هو أن يعتذر لك عذراً تقبله منه فيعذر بذلك، قال: استعتبتُه فأعتبني يعني استرضيته فأرضاني، فهم لا يُدعون إلى إزالة عتبهم من الطاعة والتوبة، الإنسان أحياناً يبكت ويسأل سؤال تبكيت لا سؤال استعتاب {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [سورة المدثر:٤٢] فهذا ليس بسؤال استعتاب، وهذا زيادة في عذابهم، أما سؤال الاستعتاب مثل حساب الله -عز وجل- كما جاء في بعض الأحاديث أن المؤمن حينما يسأله الله -تبارك وتعالى- مثلاً حينما يقع منه بعض التقصير في إنكار المنكر فإذا ألهم الله عبداً حجته قال: ((يا رب رجوتك وخفت الناس))[٤]، كما جاء في الحديث، الشاهد أن السؤال هو ما يكون سؤال استعتاب من أجل أن يعتذر فيقبل منه هذا العذر، وأحياناً لا يكون كذلك.

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ} [سورة الروم:٥٨-٦٠].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه.

وهذا يكون من قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقصص الأمم، وكل ما يحصل فيه عبرة، ويدخل في ذلك على المشهور في الأمثال بأنها ما يكون فيه تقريب المعنى بصورة محسوسة، هذا كله داخل في الأمثال، فضرب الله -عز وجل- ونوَّع وجعل هذا القرآن مثاني تثنى فيه العبر والعظات والقصص والأمثال والأخبار، كل ذلك من أجل أن يحصل الاتعاظ والاعتبار، فكل ما يحصل به العظة والعبرة على هذا الاعتبار يكون من قبيل المثل، والله تعالى أعلم.

{وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ} أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ن، برقم (٣٣١٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٧٠٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠١٧).

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١١٢١٤)، وقال محققوه: "حسن"، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم"، برقم (٤٠١٧)، بلفظ: "وفرقت من الناس"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٨١٨).

[سورة يونس:٩٦-٩٧]؛ **ولهذا قال هاهنا: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعلْه العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، {وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ} أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.**

هذا أصل كبير وهو أن من طبع الله -عز وجل- على قلبه فإن اتباعه للحق وإذعانه له لا يتوقف على وجود آية، والقرآن قد كثر فيه ورود هذا المعنى **{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}**، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}** [سورة الإسراء:٥٩] آية بينة مبصرة **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** ولم تنفعهم هذه الآيات، ومن أراد الله -عز وجل- شقاوته فإنه لا يملك له أحد من الله -تبارك وتعالى- شيئا، ولا يستطيع هدايته، ومن ثَمّ فإن المؤمن عندها لا تذهب نفسه على هؤلاء حسرات، وكذلك فإنّ كفر هؤلاء ودعواهم الباطلة ورميهم أهل الإيمان والحق بالأوصاف القبيحة المذمومة فإن ذلك لا ينبغي أن يزحزح أهل الإيمان عن حقهم، أو أن يتنازلوا عن شيء منه، أو يميلوا إلى هؤلاء الذين طبع الله -عز وجل- على قلوبهم وأعمى أبصارهم، وأصمهم، فلا يكون منهم أدنى التفات إليهم ولا يحفلوا بهم، ولا يكون ذلك سبباً لمداهنتهم وطلب رضاهم والسعي إلى التقارب معهم أو نحو ذلك،

فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{فَاصْبِرْ}** يعني على الحق الذي أنزله الله -عز وجل- إليك، اثبت عليه، **{إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}** وعد الله حق بجزاء أهل الإيمان، وأخذ هؤلاء المجرمين في الدنيا والآخرة، فالغاية بالنسبة لأهل الإيمان هي الجنة مع حسن العاقبة في الدنيا، **{وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}**، لا تغير موقفك ولا تدهن مع هؤلاء، فهؤلاء لا يقين لهم، أما أهل الإيمان فهم أهل اليقين، ومن كان من أهل اليقين فإنه يكون واثقاً بمبدئه، وما هو عليه من الدين، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحصل له اضطراب في سيره إلى الله -تبارك وتعالى- ودعوته، ومثل هذا لو أن الناس اعتبروا به في مثل هذه الأيام -وهم أحوج ما يكونون إليه- لسلموا من شر كثير، ولما حصل مثل ما نشاهده من تراجع أهل الصلاح والدعاة إلى الله -عز وجل- والتلون والتقلب كل ذلك لربما من أجل جذب الذين لا يوقنون إلى دعوتهم، وكل ذلك من أجل تقريبهم أو مقاربتهم والتوصل معهم إلى حال يلتقون فيها معهم في وسط الطريق فيبقى الإنسان على دين وحال لربما يكون بين الإيمان والنفاق، فمثل هذا ينبغي للإنسان أن يحذره، والقرآن مليء بمثل هذه الأصول الكبار، ولهذا فإن الله -تبارك وتعالى- ضرب فيه للناس من كل مثل، حينما يقرأ المرء أو يسمع كلام الله -عز وجل- لا يجد شيئا أبلغ مما قال الله -عز وجل- في وصف هذا الكتاب بأنه **{تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}** [سورة النحل:٨٩]، وأنه **{يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}** [سورة الإسراء:٩]، وأنه **{مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}** [سورة الزمر:٢٣]، وأنه هدًى كامل في كل ما يحتاج الناس إليه، والله المستعان.

روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى بهم الصبح، فقرأ فيها الرّوم فأوهم، فقال: ((إنه يَلبِس علينا القرآن، فإن أقواما منكم يصلون

معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء))[٥].

وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سر عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه -عليه السلام- تأثر بنقصان وضوء من ائتم به، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام

هذا صحيح ظاهر ومشاهد، إمام يتأثر بحال المأمومين خلفه، والله المستعان.

تم بحمد الله وفضله.

---

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٥٨٧٤)، وقال محققوه: "حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لإرساله".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة لقمان من الآية (١) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة لقمان:١-٥].

تقدم في أول سورة "البقرة" عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراءوا به، ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكوراً، فَمَنْ فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ} أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: في الدنيا والآخرة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الم} مضى كما سبق الكلام على ذلك في أول سورة البقرة، وحاصل ما ذكر أن هذه الحروف المقطعة لا معنى لها في نفسها، ولكنها تشير إلى معنى وهو أن هذا القرآن المعجز الذي تحداكم الله -عز وجل- به مركب من هذه الحروف التي تركبون منها كلامكم، ولهذا يأتي غالباً بعد هذه الحروف المقطعة يأتي ذكر القرآن؛ إشارة إلى هذا المعنى -والله تعالى أعلم-، والكلام فيها كثير، ولا حاجة لإعادة ذلك.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} أيضاً مضى نحوه، وأن الإشارة إما إلى الآيات التي تضمنتها هذه السورة، أو إلى آيات القرآن بعامة، وأن الله -تبارك وتعالى- سماه كتاباً، وحينما نزلت هذه السورة لم يكتب، وأن نزول بعض القرآن يكفي في هذا الإطلاق، كما قال الله -عز وجل- في أول سورة البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة:٢]، ومعلوم أن سورة البقرة هي من أوائل ما نزل في المدينة، يعني: لم يكتمل نزول القرآن، وهذه السورة من السور المكية، وأن الله -تبارك وتعالى- سماه كتاباً، إشارة إلى ما حصل بعد ذلك من كتابة القرآن؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: إن ذلك لا يعد من المصالح المرسلة، بل ورد ذلك منصوصاً في كتاب الله -عز وجل-، لأن المشهور أن العلماء يمثلون على المصالح المرسلة بكتابة المصاحف، فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك في كتاب الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}، فسماه

كتاباً، وكما في هذه الآية، وأما الحكيم فإن هذه الزنة فعيل تأتي بمعنى فاعل، وتأتي بمعنى مُفعَل، يعني: أنه محكم، ولا شك أن القرآن محكم، وأنه حكيم، فهو غاية في الصواب في أحكامه وأخباره، والحكمة كما هو معلوم: الإصابة في القول والحكم والعمل، قال: {هُدًى وَرَحْمَةً} على هذه القراءة قراءة الجمهور هما حالان، يعني: حال كونها هدىً ورحمة، هذه الآيات هدىً ورحمة لمن أراد الله -عز وجل- هدايته ورحمته بها، فذكر هنا أن المحسنين هم الذين تكون لهم هدى ورحمة، كما قال في سورة البقرة: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وفسر المحسنين هنا بقوله: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} إلى آخره، وهذه أيضاً صفات المتقين، ولهذا فإن من أهل العلم من يقول: إن المحسنين هنا هم العاملون بطاعة الله -عز وجل- التاركون لمعصيته، يعني: فسر بالتقوى، وإن ذكر بعضهم احتمالاً أن المراد بذلك الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه، ولا شك أن من كان بهذه المثابة في أعلى درجات المتقين، ولكن القرآن هدى لعموم المتقين ولو لم يصل إلى مرتبة الإحسان عند ذكر المراتب الثلاث، وإنما ينعدم ذلك لدى أولائك الذين طبع الله -عز وجل- على قلوبهم، ختم عليها، جعل على أبصارهم غشاوة، وفي آذانهم وقراً، فمثل هؤلاء لا ينتفعون به، ولهذا كان الواحد منهم يخرج من مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم يقول: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد:١٦] فلا ينتفعون، فالقرآن هو هدى بمعنى هداية لجميع الخلق، ولكنه خص المحسنين أو خص المتقين كما في سورة البقرة؛ لأنهم المنتفعون به، وعلى قراءة حمزة: {هدىً ورحمةٌ}، وهي قراءة متواترة كما هو معلوم، {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةٌ}، يعني يمكن أن يكون خبراً لتلك، أو خبراً لمبتدأ محذوف أي هو هدىً ورحمة للمحسنين، ثم فسر المحسنين هنا بذكر أصول العبادات الكبار، {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، فهم يفعلون ذلك رجاء ما عند الله -تبارك وتعالى-، ومضى مراراً أن الله -تبارك وتعالى- يقرن بين الصلاة والزكاة، قيل: لأنهما أصول العبادات، فالعبادات إما مالية وإما بدنية، فالزكاة هي رأس العبادات المالية، والصلاة رأس العبادات البدنية، فينتظم ذلك سائر العبادات، بعضهم كالشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- يقول: إن سعادة العبد دائرة بين أمرين: الإحسان مع الله -الصلة بالله- والإحسان إلى الخلق، فذكر هذا وهذا.

{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، يقول: فمن فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ} أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} في الدنيا والآخرة، وأصل الفلاح هو إدراك المطلوب والنجاة من المرهوب.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة لقمان:٦-٧].

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الزمر:٢٣] الآية، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا

على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} قال: هو والله الغناء.

وقال قتادة: قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}: والله لعله لا ينفق فيه مالا ولكنْ شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع.

وقيل: أراد بقوله: {يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} اشتراء المغنيات من الجواري.

واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}، جاء في أسباب النزول روايات كثيرة في تسمية بعض الأفراد، وأن ذلك في النضر بن الحارث، ويذكرون في ذلك أشياء، تذكر هذه الروايات أشياء متنوعة، من كونه ذهب إلى بلاد فارس، وكان يذهب إلى بلاد الروم، وأنه يشتري كتبهم ويأتي بأخبار وقصص إسفنديار وكسرى وأمثال هؤلاء، ويقول للناس: إن محمداً -صلى الله عليه وسلم- يذكر خبر عاد وثمود وأنا أحدثكم بأخبار كسرى وإسفنديار، هكذا جاء في بعض الروايات ولكنه لا يصح منها شيء، لا يصح من ذلك شيء، وجاء أنه أيضاً كانت له قينة -مغنية يعني- وأنه إذا سمع بأن أحداً استمع القرآن، أو تأثر بالقرآن أو نحو ذلك، بعث إليه هذه القينة تسقيه وتغنيه؛ ليصده عن الإيمان، وكل ذلك لا يصح، والآية عامة في كل من ينطبق عليه هذا الوصف، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ}، والشراء هنا يمكن أن يكون بمعنى الاختيار والاستحسان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [سورة البقرة:١٦]، يعني ليس المقصود بذلك أن يكون هناك ثمن يدفعه، وإنما اختاروا الضلالة على الهدى، وقد مضى الكلام على ذلك، وهل كانوا مهتدين حتى يبذلوا الهداية، ويستعيضوا عنها بالضلالة، وأن ذلك ليس بلازم.

المعنى: الاختيار والاستحسان، فهنا هذا يمكن أن يفسر به {يَشْتَرِي}، فلا يكون هناك شراء بالمعنى المعروف في المعاملة أو المعاطاة أو نحو ذلك، وإنما المقصود أنه يختار ذلك على سماع القرآن والاشتغال بالقرآن، -نسأل الله العافية-، فيقبل على هذه الأمور التي تصده وتلهية وتشغله عن ذكر الله -تبارك وتعالى- وكلامه، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ}، كما قال الشاعر:

بدّلتُ بالجُمّة رأساً أزعرا *** وبالثنايا الواضحاتِ الدّردرا

*** كما اشترى المسلم إذ تنصرا

يعني: كما اختار، إذ تنصر.

فهو ما بذل ثمناً، فمَن مال إلى هذه الأشياء وأقبل عليها واشتغل بها يكون قد اشترى لهو الحديث، ولهو الحديث هنا يصدق على الغناء، وبهذا فسره عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم، بل عزاه القرطبي -رحمه الله- إلى الصحابة والتابعين، أنهم بهذا فسروا لهو الحديث، ولا شك أن الغناء داخل فيه، وأنه من أعظم ما يشغل عن ذكر الله -عز وجل-، وأنه يزاحم ذلك في قلب العبد مزاحمة لا خفاء فيها، ولكن ذلك لا يختص بالغناء، فإن لهو الحديث يصدق على هذا، ويصدق على الاشتغال بقصص هؤلاء من الفرس والأعاجم،

ويصدق على كل اشتغال مما يقرؤه الإنسان أو يسمعه من الحكايات ونحوها من كلام بعض أصحاب الحكايات الذين اشتغلوا بذلك وصار صنعة لهم، يتكسبون به المال ونحو ذلك، فأقبل كثيرون على سماع حكاياتهم وأعرضوا عن كلام الله -عز وجل-، فالواحد منهم لا يسمع القرآن ولا يقرؤه ولكنه يقبل إقبالاً عظيماً على مثل هؤلاء من أصحاب هذه الحكايات التي لربما كثير منها ملفق، وقد راجت سوقها في هذه السنوات وعُرف بها من عرف، فهذا قد يدخل فيه، أعني الإكثار والاشتغال والإعراض عن القرآن، وقل مثل ذلك في سائر أنواع الاشتغال بأصناف الكلام والحديث والكتب وما إلى ذلك من قراءة الكتب غير النافعة، والاشتغال مثلاً بالكتب المترجمة وما إلى ذلك، وهو لا يقرأ القرآن، ولا يرفع بذلك رأساً، فهذا يدخل في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}.

قال: **واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله**، ابن جرير قيده بالكلام دون الاشتغال بالألعاب مثلاً أو نحو ذلك؛ لأن الله قال: {لَهْوَ الْحَدِيثِ}، فهو مقيد بالحديث، ولكن من اشتغل باللهو من الفعل ونحو ذلك فهذا يمكن أن يدخل بهذا، لا أخذاً من ظاهر اللفظ وإنما بنفي الفارق، لا فرق من هذه الحيثية بين أنواع الاشتغال الذي يصرف عن كلام الله -عز وجل- وعن ذكره.

وهذه اللفتة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مهمة ومفيدة في أول الكلام، لما ذكر حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء، ويدخل في هذا أولائك الذين يستمعون الأصوات المطربة، ويسمون ذلك بالأناشيد، فإن كثيراً من هذه الأناشيد لا شك قطعاً أنها من قبيل الغناء، ومن سمعها فإنه لا يتردد في الحكم بتحريمها، أعني بعض هذه المسموعات، بل هو الغالب الكثير هذه الأيام، وصار أصحابها يتعلمون أنواع الأداء التي يؤدي بها أهل الفسق لحونهم، وصاروا على حال لا أقول مشابهة، بل مطابقة لأولائك، وأما ما يدخل في هذا من ألوان المؤثرات التي تؤدي أصوات المعازف فهذا أمر معلوم لكل أحد، فالذي يكثر من سماع هذا ويشتغل به، حتى يصير ديدناً له فإن ذلك يزاحم القرآن في قلبه، ولا يشترط في هذا وجود الصورة المركبة كاملة؛ لأنه قال هنا: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أعني أن يلحقه الذم، ليس بلازم أن يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، ولكنه ذكر الصورة الكاملة، هذه أسوأ الأحوال، ولكن من اشتغل بذلك ولم يقصد الإضلال عن سبيل الله فهو ممن اشترى لهو الحديث، ولكن هؤلاء على درجات، ليسوا على مرتبة واحدة، ولكن الذم يلحق الجميع، وإن تفاوتوا فيه، فمن أراد أن يهتدي بالقرآن وأن ينتفع به فليكن من المحسنين، وليقبل عليه بكليته وليعطيه ما يستحق من أفضل أوقاته لا من فضول أوقاته، وبهذا يُفتح عليه في القرآن.

والإنسان لا يعرف مثل هذا السماع مما يسمونه بالأناشيد، فضلاً عن الغناء الواضح الصحيح، ومع ذلك يجد من المعاناة والمكابدة في تفهم كلام الله وتدبره، وإحضار قلبه، وإن الإنسان ليعجب ما حال أولائك المشتغلين بهذه المنكرات، كيف تكون حالهم مع القرآن؟ فهذا من أعجب الأشياء، والله المستعان.

وقوله هنا: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، ذكر قول قتادة: والله لعله لا ينفق فيه مالاً ولكنْ شراؤه -إذا كانت ساكنة- استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل

على حديث الحق، كلام قتادة هذا بمعنى الاستحسان، هذه القول الآخر الذي أشرت إليه، يعني من قال: إنه يشتري كتب فارس والروم، أو يشتري قينة مغنية، يدفع ثمناً، فهذا بمعنى الشراء الذي بالمعنى الأول، وأما الثاني فهو بمعنى الاستحسان كما يدل عليه قول قتادة -رحمه الله.

وابن مسعود -رضي الله عنه- قال: هو والله الغناء، وجاء في بعض الروايات أنه أقسم ثلاثاً أنه الغناء، وابن مسعود من أعلم الناس بكتاب الله -عز وجل- ومعاني كلامه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، "ليضل" هذا فيه قراءتان، قراءة الجمهور {لِيُضِلَّ}، كما نقرأ، والقراءة الأخرى متواترة لأبي عمرو وابن كثير {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} بفتح الياء، {لِيَضِلَّ}، {لِيُضِلَّ} يعني ليُضل غيره، ويَضل يعني: هو في نفسه، يَضل في نفسه.

قال: {يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} قال: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} فهذان منصوبان على الحال، يعني حال كونه هكذا، يعني غير عالم بحال ما يشتريه، لو كان يعرف ما ينفع ويضر لما فعل ذلك، أو غير عالم بحال ما ينفعه أو يضره، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

{وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}، الجمهور قرءوا هذا بالرفع {وَيَتَّخِذُهَا هُزُوًا}، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، {يَشْتَرِي} مرفوع، {وَيَتَّخِذُهَا} فيكون "يتخذها" معطوفاً على "يشتري"، يشتري لهو الحديث {وَيَتَّخِذُهَا هُزُوًا}، يعني: يشتري ويتخذُها، فيكون مرفوعاً بهذا الاعتبار، معطوف على يشتري، أو على الاستئناف، {وَيَتَّخِذُهَا هُزُوًا}، يتخذها يعني يتخذ آيات الله -عز وجل-، فيكون الضمير يرجع إلى غير مذكور مما يفهم من السياق مثلاً، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} يعني: القرآن، وإن لم يَرِد له ذكر قبل ذلك.

وفي القراءة الأخرى قراءة حمزة والكسائي بالنصب، يعني: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، {وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}، فيكون معطوفاً على قوله: {لِيُضِلَّ}، ويرجع الضمير {وَيَتَّخِذَهَا} إلى السبيل، {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، {وَيَتَّخِذَهَا} أي: السبيل يتخذها هزواً، فيكون ذلك من جملة التعليل للتحريم.

وعلى قراءة الفتح {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} فتح الياء، {لِيَضِلَّ} يمكن أن تكون اللام للتعليل، يعني: يفعل ذلك ليضل، ويمكن أن تكون بمعنى العاقبة، يمكن أن تكون للعاقبة، يعني كما قال الله -عز وجل-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨]، أن هذه اللام في ليكون بالنسبة لله -عز وجل- هي لام التعليل، وبالنسبة لهم هي لام العاقبة، وأن هذا تحرير جيد ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في غير ما موضع من هذا الكتاب.

فمن أراد أن يتوسع في هذا ويعرف كلام أهل العلم والآثار المنقولة عن السلف في الغناء فليراجع كتاب السماع، مسألة السماع للحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وكذلك ما ذكره في كتابه الآخر "إغاثة اللهفان" فقد أطال في إيراد الآثار والنصوص الواردة في الباب مما يدل على تحريم الغناء، ولا تكترث بقول من يبيحه فإن ذلك قول ساقط لا عبرة به، -والله المستعان-، ولكن الشيطان ما يترك أحداً، لمّا أعرض الأخيار عن سماع هذا الغناء الذي هو رقية الزنا دخل عليهم الشيطان من باب آخر سموه بالأناشيد، سماه لهم بالأناشيد، فأشغل كثيرين به، وعند نفسه أنه من الأتقياء الصالحين الحافظين لحدود الله -عز وجل-، وهو من أهل

الطرب والاشتغال بهذه -والله المستعان- الأصوات المطربة، ولا أعمم، لا أقول: كل الأناشيد، وإنما أقول: ما كان بهذه المثابة.

قال -رحمه الله-: وقوله: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله.

وقوله تعالى: {وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً، يستهزئ بها.

وقوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

ثم قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصامم -وما به من صمَم- كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أربَ له فيها، {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: يوم القيامة، يؤلمه كما تألّم بسماع كتاب الله وآياته.

{وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} أصل ذلك بمعنى الثقل، ولهذا يعبر به عن الصمم، كأن في أذنيه الصمم.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة لقمان:٨-٩].

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصَدّقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله {لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ} أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون، ولا يبغون عنها حولاً.

هذا التفسير، كما قلت لكم مراراً: إننا نمر أحياناً على عبارات للحافظ ابن كثير لا نتفطن لدقتها، يعني بعض أهل العلم حينما يفسر قوله: {لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ}، يقول: المقصود نعيم الجنات، باعتبار أن الجنة في الأصل تقال للبستان، الشجر الكثير وما إلى ذلك، نعيم الجنات، لكن حينما يقال: {جَنَّاتُ النَّعِيمِ}، فالحافظ ابن كثير هنا لا يقصر ذلك على الثمار ونحو ذلك من المأكولات، وإنما المساكن واللباس والحور العين، وما إلى ذلك.

وقوله: **لا يظعنون**، يعني: لا ينتقلون، ما ينتقل مثل الناس، ينتقل من مكان الجدب إلى مكان الخصب في الدنيا، أو ينتقل من بلد إلى بلد، أو يسكن في دار عشر سنوات، أو أقل أو أكثر ثم يمل هذه الدار، ثم يطلب غيرها، فيسكن في العمر دوراً متعددة، هناك نعيم متجدد لا يحول ولا يزول ولا يتحولون عن هذا.

قال: وقوله تعالى: {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، {وَهُوَ الْعَزِيزُ}، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، {الْحَكِيمُ}، في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين، {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} الآية [سورة فصلت:٤٤]، **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا}** [سورة الإسراء:٨٢].

{خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سورة لقمان:١٠-١١].

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} قال الحسن وقتادة: ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية.

يعني بهذا الاعتبار **{خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}**، فيكون منصوباً على الحال، يعني: لا عمد لها لا مرئية ولا غير مرئية، ويمكن أن يكون ذلك استئنافاً **{خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ}**، **{تَرَوْنَهَا}** يعني: ترونها كذلك، فلا عمد لها، فهذا معنى، ويمكن أن يكون قوله: **{تَرَوْنَهَا}** في محل جر صفة لعمد، **{خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ}** يعني: بغير عمد مرئية لكم، يعني لها عمد لكنها لا تُرى، **{بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}** بغير أعمدة مرئية، وهذا قول آخر، والأرجح هو الأول: أنها بغير عمد أصلاً، وهذا أدل في القدرة، ومضى الكلام على هذا في أول سورة الرعد، فالأقرب بغير عمد لا مرئية ولا غير مرئية، **{بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}**، والله أعلم.

قال: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ} يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: {أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} أي: لئلا تميد بكم.

لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، باعتبار أن تحت الأرض ماء.

وقوله تعالى: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي: وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر.

وقال الشعبي: والناس أيضاً من نبات الأرض، فَمَنْ دخل الجنة فهو كريم، ومَنْ دخل النار فهو لئيم.

قوله: **{وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}** لا يخص هنا بذوات الأربع، فإن الدابة تطلق بإطلاقات متعددة، وهنا: كل ما دبَّ على الأرض، من ذوات الأربع وغير ذوات الأربع، ولا يقال: إن ذلك يختص بنوع منها، أخص من ذلك أو أعم، ولكن كل ما دب على الأرض.

قال: **{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}**، يعني هنا قال: **أي حسن المنظر**، الزوج هنا بمعنى الصنف، يعني ليس المراد بالزوج هنا أنه يوجد من كلٍّ من هذا النبات مثلاً ذكر وأنثى، وإنما **{مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}** يعني: من كل صنف كريم، وبعضهم كابن جرير يعبر بقوله مثلاً: حسن النبت، والمعنى واحد، يرجع إلى شيء واحد، حسن النبت، حسن المنظر، **{مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}**، وقول الشعبي هنا الذي نقله، قال: والناس أيضاً من نبات الأرض، هذا بعضهم يذكره على أنه قول برأسه، يعني: مستقل، القول الآخر: أنه **{مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}**: الناس، وكلام ابن كثير -رحمه الله- جعله داخلاً في العموم، وأن الناس من الأرض، فالله أنبتنا من الأرض وإليها يعيدنا، لكن الوصف هنا بأنه كريم، قال: **فمن دخل الجنة فهو كريم**، ومن لم يدخل الجنة فهو لئيم، ويمكن أن يقال باعتبار إدخال الناس، مع أن هذا خلاف المتبادر؛ لأنه ذكر إنزال المطر من السماء وما يؤثّره بإذن الله -عز وجل- من خروج النبات، فلا يدخل فيه الإنسان بهذا الاعتبار،

وإن كان أصل الإنسان من الأرض، لكنه لا يكون بنزول المطر، ولا علاقة له بنزول المطر من حيث الوجود، أصل وجود الإنسان، لكن على قول الشعبي، يمكن أن يقال: إن ذلك لا يلزم منه -والله تعالى أعلم-، أن يقيد بأن من دخل الجنة فهو كريم ومن لم يدخلها فإنه لئيم، وإنما أصل خلق الإنسان، إذا قلنا: إن النبات الكريم هو حسن المنظر، فالله -عز وجل- يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، قال: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [سورة الإسراء:٧٠]، وكما هو أيضاً في قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [سورة طه:١١٦]، فهذا كله من التكريم للإنسان، جنس الإنسان، والذي يظهر -والله أعلم- أن الإنسان غير داخل في ذلك؛ لأنه ذكر القرينة هنا: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}، من كل صنف.

قال: وقوله تعالى: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ} أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، {بَلِ الظَّالِمُونَ} يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره، {فِي ضَلَالٍ} أي: جهل وعمى، {مُبِينٍ} أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

وهذا من أحسن الاحتجاج، لمّا ذكر قدرته -تبارك وتعالى- وخلقه احتج عليهم، قال: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ}، هاتوا، تقولون: هؤلاء آلهة، أروني خلقهم، لا شيء، فكيف تعبدونهم من دون الله -عز وجل-، وتصرفون العبادة لهم؟!.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة لقمان:١٢].

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عِكرمَة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً.

وعن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النوبة.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة.

وقال الأوزاعي: حدثني عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود نوبياً ذا مشافر.

لقمان اختلفوا فيه كما ذكر الحافظ ابن كثير هل كان نبياً أو لا؟ والذي عليه عامة أهل العلم من السلف والخلف أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً أعطاه الله -عز وجل- الحكمة، ونقل عن جماعة قليلة من السلف -رضي الله عنهم-، أنه كان نبياً، ولا يصح عن بعضهم نقل ذلك عن عكرمة في غير الرواية السابقة، فالرواية السابقة هنا لم يذكر فيها أنه نبي، وجاء ذلك عن السدي والشعبي، والذي عليه السواد الأعظم من أهل العلم أنه لم يكن من أهل العلم، واختلفوا فيه هل هو عربي أو عجمي، ومن ثم فإن المنع من الصرف هل هو للعلمية والعجمة "لقمان"، وإذا قيل: إنه عربي هل ذلك مثلاً للعلمية وأنه مختوم بالألف

والنون مثل عثمان، والذي عليه عامة الروايات أنه كان من النوبة، أو من السودان، أو من الحبشة، المقصود أنه من تلك الناحية، والنوبة معروف أنها جنوب مصر وشمال السودان، وكان السودان إلى عهد قريب يعني إلى وقت الاستعمار، أو قبيل الاستعمار، كانت تلك الناحية يقال لها: السودان، يعني لا تختص بدولة السودان الموجودة اليوم، وإنما يقال ذلك للسودان وما جاورها، كل ذلك يقال له: السودان، بإطلاق أوسع مما هو عليه اليوم.

وإذا نظرت إلى الروايات التي تذكر في كتب التفسير فذلك يرجع في عامته إلى ما نقل عن بني إسرائيل؛ ولهذا ترى فيه اختلافاً كثيراً، فمثلاً اسم لقمان مع أن هذا أثر لا أثر له ولا فائدة فيه، يختلفون في نسبه، كما سيأتي، ويختلفون في اسمه هو كما سيأتي، ويختلفون أيضاً في أمور وتفاصيل، بعضهم يقول: عاش ألف سنة، يختلفون في الوقت الذي عاش فيه، بعضهم يجعل لقمان من قرابة أيوب -عليه الصلاة والسلام- ابن أخيه، فيقولون: عاش ألف سنة، وأنه كان قاضياً في بني إسرائيل، وبعضهم يذكر ما يدل على أنه كان قبل بني إسرائيل كما سيأتي، ويختلفون في تفاصيل مما يدل على أن ذلك مما أخذ عن تلك الكتب المحرفة التي لا يمكن أن يتوصل إلى حقيقة ما جاء في كثير منها، ولا فائدة من الاشتغال في ذلك، فمثل هذه الأشياء التي يذكرونها مثلاً: كان قصيراً أفطس الأنف من النوبة، هذا ليس عندنا ما يثبته، ما عندنا شيء يدل على صحته، -فالله تعالى أعلم-، فهذا لا سبيل إلى الوصول إلى معرفة الحق فيه، كما قال شيخ الإسلام في مقدمته في أصول التفسير، ليس عليه دليل معلوم، وليس من المنقول الذي يمكن أن يعرف الصحيح من زائفه، وإنما كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[1]، مما لا يعارض ما عندنا، وإن كان ترك الاشتغال بذلك أولى، والله أعلم.

قال: وروى ابن جرير عن خالد الرَّبَعِيّ قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخْرِجْ أطيب مُضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما، فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثَا.

وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً.

وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} أي: الفهم والعلم والتعبير.

الفهم والعلم والتعبير، يعني: العبارة، عبارات حكيمة، عبارات بليغة، عبارات تدل على معانٍ كثيرة، وكما سبق أن الحكمة: هي الإصابة في القول والعمل، فهنا الفهم والعلم والتعبير، يعني الإصابة والقول والعمل، والحكمة تارة تفسر بالعلم أو بالفقه في الدين، أو نحو ذلك، وكل هذا لا منافاة فيه، فالحكمة تنتظم هذا جميعاً؛ ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله- هنا: {آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} قال: أي الفقه في الدين والعقل والإصابة في القول.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

قال: {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} أي: أمرناه أن يشكر الله -عز وجل-، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه.

يعني يمكن أن تكون "أن" هذه تفسيرية، {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}، فتكون تفسيراً، ترجمة للحكمة كما قال ابن جرير -رحمه الله-، فإن مقتضى الحكمة أن يعمل بطاعة الله -عز وجل-، أن يشكره على نعمه؛ ولهذا قيل: الإصابة في القول والعمل، {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}، فهذا من الحكمة، يكون تفسيراً لها.

ويحتمل أن يكون هناك مقدر، {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} قلنا له ذلك، قلنا له: اشكر، {أَنِ اشْكُرْ}، أو قلنا له: لأن اشكر لي، بأن اشكر لي، {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} قلنا له، لكن على كلام ابن جرير يكون ذلك تفسيراً للحكمة.

قال: ثم قال تعالى: {وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين؛ لقوله تعالى: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [سورة الروم:٤٤].

وقوله: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عمن سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة لقمان:١٣-١٥].

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون.

بعضهم يقول: هذا ابن عنقاء بن سدون، وبعضهم يقول: ابن باعوراء بن ناحور بن تارخ، ويزعمون أن تارخ هو والد إبراهيم -آزر-، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ} [سورة الأنعام:٧٤]، وأن اسم آزر: تارخ، وأن آزر هذا لقب، وبعضهم يزعم أنه عم إبراهيم أعني آزر، وهذا كله لا دليل عليه، فظاهر القرآن أن آزر هو والد إبراهيم، ولا حاجة لمثل هذه الأقوال التي تعارض ظاهر القرآن، ولكن المقصود هنا الاختلاف في اسمه مما يدل على أن ذلك مما دخله التحريف، ما أخذ عن بني إسرائيل، وأهل التاريخ ينقلون مثل هذه الأشياء في كتبهم ومُعوَّلهم في ذلك على ما ينقلونه من أخبار بني إسرائيل، وقيل غير هذا في اسمه، وكذلك اسم الولد، هنا يقول: اسم الابن ثاران، قال: في قول حكاه السهيلي، وهذا قال به ابن جرير وابن قتيبة، لكن ليس عندنا دليل على أن الولد اسمه ثاران، ولا فائدة من معرفة اسم الولد، وغيرهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: اسم الولد مشكم، وبعضهم يقول: اسم الولد أنعم، وبعضهم يقول: اسم الولد ماتان، وهلم جراً، هذا في الاسم، فالحمد لله الذي أنزل علينا هذا القرآن وهدانا للإسلام وبين لنا ما نحتاج إليه مما تتوقف عليه النجاة، والهداية، وإلا بقينا في عماية وحيرة مما نجد من التناقضات في أدنى الأشياء في كتب هؤلاء التي حرفوها، وعبثوا بها وضيعوها، والله المستعان.

قال: وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف.

يعني بمعنى أن النصيحة والدعوة إذا استكملت أوصافاً أربعة فإنها تكون تامة، ما يبقى إلا توفيق الله -عز وجل-؛ ولهذا كانت دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أكمل ما تكون، نوح -عليه الصلاة والسلام- مع ولده، النبي -صلى الله عليه وسلم- مع عمه، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أكمل الناس علماً، ومعرفة بالله -عز وجل-، وما شرعه، والطريق الموصل إليه، وما يصل إليه السالكون، الدار الآخرة، وكذلك أيضاً لا ينقصهم البيان، فكلامهم في غاية البيان، أحياناً قد يتخلف المطلوب لنقص العلم، وقد يتخلف؛ لأنه يقدم في قالب غير مناسب، يعني في كلام لا يُفهم، البيان قاصر، والأمر الثالث: وهو الإشفاق والحرص والنصح، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة:١٢٨]، فهم أكثر الناس شفقة وحرصاً، فإذا كان الإنسان مشفقاً فإنه حريص على هداية الناس، فهذا من تمام دعوته وكمال بيانه ودعوته ونصحه ورسالته، والأمر الآخر هو الإخلاص، وهو الإكسير الذي تصل به الكلمات إلى القلوب، والناس تميز بين الصادق والكاذب، فالمخلص يصل كلامه إلى قلوب الناس، فإذا وجدت هذه الأمور الأربعة كانت الدعوة تامة تصل إلى القلوب ما لم يحل دون ذلك عدم توفيق، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- استكملوا هذه الأمور جميعاً، وينبغي لمن كان خطيباً أو معلماً للناس، واعظاً أن يحرص على استيفاء هذه الأمور الأربعة، ومن ثَمّ تصل كلماته، وكثير من الناس يفوته هذا أو هذا، فمقل أو مكثر، فتجد الخطيب قد يقول كلاماً واضحاً فصيحاً صحيحاً، ولكنه لا يصل إلى القلوب، الناس بين نعسان ومنشغل بأمر آخر سرح فيه ذهنه، فيخرجون كما دخلوا، ولا يتأثرون، -والله المستعان-، فهذه أربعة أمور في البيان والنصح، فهذا ابن كثير -رحمه الله- يقول: هذا يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه، ولذلك نصائح العلماء لأولادهم شعراً ونثراً تجد فيها من صدق النصح والحرص والشفقة.

قال: وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

بعضهم يفهم من هذا أنه كان مشركاً، وهذا ليس بلازم؛ لأنه انظر ماذا قال بعده في وصايا، مثلاً قال له: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة لقمان:١٧]، لو كان مشركاً هل سيقول له: أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر؟ حينما ذكر له هذه الأمور جميعاً، يعني ما توقف ذلك على القبول والاستجابة للتوحيد، فلا يلزم أنه كان مشركاً، هو يحذره من الشرك؛ لأنه أعظم ما عُصي الله -تبارك وتعالى- به، والوصايا التي تذكر بعده لا قيمة لها إذا كان الإنسان قد تورط في وحل الشرك، كما يقال: إن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل، وإن الناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم، فإذا استقامت عقيدة الإنسان رُجي بعد ذلك أن يستقيم السلوك، تصلح الحال والأعمال والأخلاق، وأما إذا فسد الاعتقاد فلا طب فيه، -نسأل الله العافية-، ماذا ترجو منه؟، أحيانا الإنسان لما يجلس يتأمل هذا المعنى ويتخيل أنه يعيش في بلد لا يعرفون الله -عز وجل- يشعر أنه عايش في مسبعة، وحوش ما يعرفون الله، الذي لا يعرف الله -عز وجل- ولا يخافه توقع منه كل شيء، يقع على محارمه، ويقتل من أجل أن يحصل شهوته أو حفنة من المال، أو بأدنى خصومة، تعيش في مسبعة، ناس لا يعرفون الله، المجتمعات البعيدة عن الله -عز وجل-، بلاد الكفار،

من يستطيع أن يقيم فيها، ناس لا يعرفونه ولا يخافونه، كيف تستطيع أن تتعامل معهم وأن تعيش بين أظهرهم؟!.

قال: ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} أي: هو أعظم الظلم.

قوله: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} بعضهم يقول: هذا من الموصول لفظاً المفصول معنى، يعني ظاهر الكلام موصول على أنه من كلام لقمان -رحمه الله-، وبعضهم يقول: وإن كان ظاهره كذلك –أنه موصول لفظاً– لكنه مفصول معنى، فهنا: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ}، نقطة، ثم ابتدأ بكلام لله -عز وجل-، الله يقول: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، يعلل ما قاله لقمان، {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وهذا الكلام لأول وهلة قد يكون بعيداً؛ لأن ظاهر السياق أنه من كلام لقمان -رحمه الله-، ولكن القائل بذلك يستدل، أو يمكن أن يستدل بما جاء في سبب النزول، الحديث في الصحيحين أنه لما نزلت: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام:٨٢]، وأن ذلك شق عليهم، فأنزل الله: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، فدل على أنها مستقلة، إلا أن يقال: إنها جاءت من كلام لقمان هنا في هذا السياق، وإنها نزلت -هذه الجملة- حينما شق عليهم {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}، فنزل ذلك {إِنَّ الشِّرْكَ}، يعني يكون مما تكرر نزوله، وما تكرر نزوله حاصل وواقع، فهذا يحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل-، يعلل فيه ما قاله لقمان لولده في نهيه عن الشرك، فيكون من الموصول لفظاً، المفصول معنى، يعني تكون الآية هذه بعضها من كلام لقمان فيما حكاه الله -عز وجل- عنه، وبعضها مما قاله الله -عز وجل-، وليس من قيل لقمان.

قال: روى البخاري عن عبد الله قال: لما نزلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام:٨٢]**، شق ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا: أينا لم يَلْبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}))[٢]، رواه مسلم.**

هذه الرواية لا يحتج بها على أنه من كلام الله -عز وجل-، {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، لكن الرواية الأخرى هل يقال: إن ذلك ربما يكون من تصرف الرواة -بعض الرواة-؟ هذا بعيد؛ لأن الرواية بالمعنى عند من جوزها اشترطوا لها شروطاً، منها أن يكون عالماً بما يحيل المعاني، ففرق بين أن يقول: ألم تسمع قول لقمان لولده؟، وبين أن يقول: فأنزل الله، يكون سبب نزول، فهذا مغاير تماماً لهذه الرواية، فلا يقال: إن هذا من قبيل تصرف بعض الرواة، والله أعلم.

قال: ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [سورة الإسراء:٢٣]**، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن.**

وقال هاهنا: {وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ}، قال مجاهد: مشقة وَهْن الولد.

وقال قتادة: جهداً على جهد.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم، برقم (٤٤٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٢٤).

وقال عطاء الخرساني: ضعفاً على ضعف.

ضعفاً على ضعف: يعني في مراحل الحمل، أطوار الحمل، فإن المرأة لا تزداد به إلا وهناً وضعفاً.

وبعضهم يقول: {وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ}: المرأة ضعيفة، فإذا جاء الحمل فهذا وهن آخر، {وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ}، فهو وهن على وهنها، لكن المشهور أن المقصود بذلك {وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} أي: الحمل، حينما يتعاظم وينمو الجنين في بطنها، فإن ذلك يوهنها أكثر.

وقوله: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} هذا اعتراض في ثنايا كلام لقمان ووصيته لولده من كلام الله -عز وجل-، لما ذكر وصية لقمان لولده: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، قال الله -عز وجل-: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} إلى آخره، فيكون ذلك من كلام الله -تبارك وتعالى- في تمام الآيتين، إلى قوله: {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، وهذا ظاهرٌ أن الله هو الذي يقول ذلك، وأن ذلك ليس من كلام لقمان، ولا أعلم أحداً يقول: إن ذلك من كلام لقمان؛ فإن ظاهر القرآن يردّه، ولكن من أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: إن ذلك وإن كان من كلام الله -عز وجل-: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} ابن جرير يقول: فإن ذلك أيضاً هو من مضامين كلام لقمان، يعني: ما هو لقمان قال: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ}، ولكن في مضامين؛ لأن الله جاء بها في ثنايا، يعني: أن لقمان يوصي ولده بالتوحيد وترك الإشراك بالله -عز وجل-، والإحسان إلى الوالدين، باعتبار أن الله وصى بذلك، وكيف يتصرف وكيف يصنع في حالاته معهم، فمضمون هذا مما وصى به لقمان ولده، هذا يقوله ابن جرير، أي أن هذا من كلام الله عند الجميع، {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ}، لكن ابن جرير -رحمه الله- يقول: لما ذكره في مضامين الوصية دل على أن مضمون ذلك قاله لقمان لولده، والله أعلم.

قال: وقوله: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} الآية [سورة البقرة:٢٣٣].

ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا} [سورة الأحقاف:١٥].

هذا الذي ذكره ابن عباس وغيره من هذا اللون من الاستنباط هو الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإشارة، وهي إشارة اللفظ لِمَا لم يكن القصدُ له قد عُلم، يعني: أنه إذا نظرت إلى الآيتين، ما سيقت واحدة منهما من أجل تقرير أقل مدة الحمل، أنه {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}، فهو لا يتكلم عن أقل مدة الحمل {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا}، لكن بعملية حسابية ضم فيها هذا إلى هذا، فإذا طرحت العامين، يعني أربعة وعشرين شهراً من الثلاثين، فإنه يبقى ستة للحمل، فالفصال في عامين، هذه أربعة وعشرون شهراً، فيبقى أقل مدة للحمل ستة أشهر، فمن ولدت لستة أشهر حكم بأن ذلك الحمل لأبيه، ولا ترجم بهذا، لا يقال: إنها زنت، وهذا استنباط لدلالة الإشارة، وهي من أنواع دلالة المنطوق، وليست من المفهوم، وليس المقصود التفسير بالإشارة عند الصوفية، ذاك لون آخر، هذا نوع من الدلالة صحيح لا إشكال فيه، مثل ما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [سورة البقرة:١٨٧]، فيستنبط منه بدلالة الإشارة صحة صيام من أصبح وهو جنب؛ لأنه إذا جاز له أن يأكل ويشرب ويجامع إلى آخر جزء

من الليل، فيكون وقت الاغتسال بعد طلوع الفجر، فهذه تسمى دلالة الإشارة، لكن الآية لم تُسق لتقرير هذا المعنى: صحة جواز الاغتسال من الجنابة بعد الفجر، فهي إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد عُلم، يعني الشارع ما قصد تقرير هذا المعنى في سياق الآية ابتداء، ما سيقت لهذا ابتداء، لكنه لون من الاستنباط، فهذه الأنواع الستة في الدلالة التي منها الإشارة أو آخرها الإشارة كلها تسلط على النص، فتأتي ألوان المعاني والأحكام والاستنباطات التي يستخرجها العلماء.

قال: وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهاراً، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}؛ ولهذا قال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

يعني ذلك حينما يُستحضر فإنه يدفع المنة ورؤية العمل، رؤية الإحسان، رؤية البر، فهذا قليل من كثير مما يكافئ به الولد والده، فهو حينما يفعل هذا ويحسن إليهما -والإحسان هنا مطلق يشمل جميع أنواع الإحسان- فإن ذلك يكون مستحضراً معه الإحسان المتقدم، مع الفارق، فرق بين من يحسن إلى والديه ولربما يعزي نفسه إذا كان الإحسان مستثقلاً حينما تكثر حاجات الوالد، ويحتاج لربما أن يقوم منه بكل شيء، فإنه لربما يعزي نفسه بأن ذلك إلى وقت قد لا يطول، ثم بعد ذلك يموت هذا الوالد أو الوالدة، أما وهو صغير فإنهم يؤملون فيه التمام والكمال وأن يطول به العمل، ويستملحون منه كل تصرف، كل قول وفعل، فرق بين هذا وهذا، شتان، فحتى لا يرى نفسه في ذلك ويستكثر عمله أو يكون بذلك لربما ممتناً أو يستشعر أنه قد جاء ببر وإحسان يتفضل فيه على أبيه أو أمه، قال له: {كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}، حملته أمه بهذه المثابة.

قال: وقوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} أي: إن حَرَصَا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما.

يعني معروفاً، {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} يمكن أن يكون النصب هنا على أنه صفة لمصدر محذوف، {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} أي: صحاباً معروفاً، صاحبهما صحاباً، هذا مصدر، فيكون هنا صفة له، هذا الصحاب صفته أنه معروف، أو بنزع الخافض، صاحبهما في الدنيا بمعروف، فحذف الخافض -حرف الجر-، قال: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} أي: محسناً إليهما، هذا في حال إن جاهداك مجاهدة، يعني ليس فقط أمْر، أمراك بالإشراك، {جَاهَدَاكَ}، فكيف إذا كان الوالد مسلماً ولكن عنده معاصٍ مثلاً؟، فكيف إذا كان الوالد صالحاً، فيصدر من الولد ألوان من التأبي والعقوق والتبرم بهذا الوالد، أو بما يدعوه إليه ويأمره به، يتأفف فهذا أعظم وأشد، وتسمع من هذا غرائب وعجائب، يأتيك الولد أحياناً ظاهره الصلاح، وأحياناً يأتون في هذا المسجد مع آبائهم يختصمون، الولد مع الوالد، وبعض الناس لا يوفق، ولا يَخفى أن الإنسان يمر بمراحل في العمر، ويدرك بعد مدة إذا نبت له عقل أن تلك التصرفات كانت في غير محلها، لكنه لم يوفق أو لم يجد الناصح، يتصرف تصرفات يظن أنها من الغيرة على الدين، أو أنها من القيام لله -عز وجل-، أو أن ذلك من قبيل ألا تأخذه في الله لومة لائم، أو نحو هذا فيتصرف بلون من الصلف، وهو عقوق محض مع والده أو والدته، ويأتون يختصمون من منا على حق، انظر هذا الولد المتدين ماذا يقول؟ كيف يتصرف معي؟

كيف يتعامل معي؟ تجد الولد يرفع رأسه، ويبدأ يتكلم عن هذا الأب، كأنه يتكلم عن خصم ألد، بكل جرأة وصفاقة، وعند نفسه أنه قائم لله -عز وجل-، لا يلوي على شيء ولا تأخذه فيه لومة لائم، -نسأل الله العافية-، وهذا جهل، -نسأل الله العافية-، فتجد هذا يحصل من بعض من ظاهره الصلاح والخير للأسف، فمهما استطعت أن تكون قرة عين لمن بقي من أبويك فافعل، مهما استطعت أن تكون قرة عين فافعل قبل أن تندم ويفوت الأوان، فهذا الباب: الجنة، وهذا من أعظم التدين ومن أجلّ ما أمر الله -عز وجل- به، وهو الحق الثاني، وهما سبب وجودك في هذه الحياة الدنيا، الله يأمر بهذا، ولكنّ الكثيرين لا يفهمون معنى الصلاح والتدين والاستقامة، فيأخذ بأمور ويترك ما هو أعظم من ذلك، والله المستعان.

يعني تسمع أسئلة أحياناً تعتبر فيها من الجهتين، أنا أعتبر من الجهتين، أشياء غريبة وعجيبة تدل على حرص شديد، لكني في الوقت نفسه أفكر أقول: هل هؤلاء قاموا بتحقيق العبودية بهذه الطريقة، في الأمور الكبار والصغار؟، يعني: تجد من الأسئلة التي ترد إزالة شعر الإبط بالليزر، جائز، ولكن هل يترك ذلك –يعني لا يفعل– لأجل أن لا يفوت سنة من سنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسنن الفطرة وهي النتف، إذا أزال بالليزر وما نبت بعد ذلك معنى ذلك أنه فوت على نفسه عمل سنة، فأنا أجلس أعتبر من الجهتين، أفكر فيها من الناحيتين، أقول: سبحان الله هذه الدقة في تحقيق العبودية واستحضار هذه المعاني هذا شيء جيد، ثم إذا نظرت إلى الجانب الآخر، هل هذا حقق العبودية فعلاً في الأبواب الكبار حتى ما بقي عليه إلا هذه فنجد مثل هذا السؤال؟، لكن الغيبة في المجالس، هذه من يتورع منها ومن يسلم منها، قضية من الكبائر، ولكن انظر إلى هذا السؤال الدقيق، وأسئلة دقيقة مثل هذه تجعل الإنسان يقف مدة طويلة ويتأمل ويفكر، وتكفيه عن ألف موعظة، هذا السؤال كيف خطر على بال هذا الإنسان، كيف يوجد ناس بهذه المثابة من الدقة والورع والحس المرهف بهذه الأشياء التي لا يتفطن لها أكثر الخلق؟!، لكن هل فعلاً التعامل مع الأبوين بهذا الحس المرهف، وهذه الدقة؟، وهكذا في أمور أخرى كثيرة، -والله المستعان-، لكن مهما استطعت أن تكون قرة عين فافعل، وإن لم يكن ثمة إلا ابتسامة واحدة فاجعلها للأم، فإن وجدت ثانية فللأب، فالله المستعان.

قال: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} يعني: المؤمنين.

أخذ منها ابن القيم -رحمه الله- {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} قال: أولى ما يدخل في هذا الوصف الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وأولاهم بذلك أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-، فاتباع سبيل الصحابة هو اتباع لسبيل من أناب إليه، ثم يأتي بعد ذلك الأخيار والصلحاء وأئمة الهدى على مر العصور، {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}، اقتدِ بالأخيار الصلحاء، لا تقتدِ بالأشرار، لا يكن قدوتك أهل التضييع والتفريط، {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف:٢٨].

{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، روى الطبراني في كتاب العشرة: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا} الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لَتَدَعَنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بي، فيقال: "يا قاتل أمه"، فقلت: لا تفعلي يا أمّهْ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يوماً

وليلة لم تأكل فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمّهْ، تعلمين والله لو كانت لكِ مائة نفس فخَرجت نَفْساً نَفْساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلتْ[٣].

أصل الحديث في صحيح مسلم، وأنها نزلت في سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- في خبرٍ مع أمه، وإن كان بغير هذا السياق.

---

٣ - لم أجده بهذا اللفظ، ولكن رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، برقم (١٧٤٨)، بلفظ غير هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة لقمان من الآية (١٦) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يقول الله -سبحانه وتعالى-: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [سورة لقمان:١٦-١٩].

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ} أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: {إِنَّهَا} ضمير الشأن والقصة، وجوز على هذا رفع {مِثْقَالَ} والأول أولى.

وقوله -عز وجل-: {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال الله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} الآية، وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صَمَّاء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات أو الأرض فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دَقت ولطفت وتضاءلت {خَبِيرٌ} بدبيب النمل في الليل البهيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ}، لقمان -رحمه الله- يوصي ولده، وقد مضى الكلام على النصيحة وما تقتضيه من أجل أن يحصل المطلوب، وأن ذلك يتطلب صدقاً وإخلاصاً ونصحاً وحرصاً مع البيان والمعرفة والعلم، وأنه إذا اجتمعت هذه الأمور فذلك هو الكمال المطلوب في الموعظة، وأنه لا أنصح من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأقوامهم، كما أن نصيحة الوالد لولده تكون أيضاً بمنزلة من ذلك، فهو يرشده إلى مراقبة الله -تبارك وتعالى-، وذكر مثقال الحبة من الخردل؛ لأن ذلك يضرب به المثل في الصغر، هو شيء صغير، ومع ذلك فإن الله -تبارك وتعالى- يطلع عليه ويجازي صاحبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: {إِنَّهَا} قال: **المظلمة أو الخطيئة**، ثم ذكر القول الآخر: إن الضمير هو ضمير الشأن والقصة، وبعضهم يقول: {إِنَّهَا} أي: الإساءة، الخصلة يعني من الإساءة والإحسان، والواقع أن هذا يرجع إلى الأول، فالله -تبارك وتعالى- يأتي بها، فهو اللطيف الخبير.

واللطيف: هو الذي يعلم دقائق الأشياء، هذا من المعاني الداخلة تحته، يعلم دقائق الأشياء، الخبير: هو الذي يعلم الخفايا والبواطن، الأمور غير الظاهرة يعلمها الله -تبارك وتعالى-، فهو يعلم ما دق وخفي، لا يفوته شيء -تبارك وتعالى-، ولا تخفى عليه خافية، وإذا كان الأمر كذلك فدقائق الأشياء يحصيها، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة:٧-٨]، والذرة تذكر في مثل هذا، والعرب تعبر بها عن الشيء الصغير، أقل الأشياء، أصغر الأشياء، فإذا كان مثل هذا يؤتى به ويحاسب عليه فكيف بما فوقه مما يقارفه الإنسان من الأمور الكبار والعظائم، وقد مضى في الأعمال القلبية ما قاله أبو العباس الخطاب، أو ما جاء عنه من أنه أخذ حبة خردل ووضع إزاءها بالكفة الأخرى عشرين ذرة، فوزنها فلم تزن شيئاً إزاء حبة الخردل، وما جاء عن معاوية بن قرة أنه لما أكل طعاماً في ليلة ثم ترك بعضه فلما أصبح وجده قد اسود من الذر، فلما أخذه وزنه بالذر، ثم أزاح عنه الذر فوزنه فلم يتغير، مع كثرة الذر، والله -عز وجل- يقول: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، فإذا كانت هذه الذرة كما يقول أهل العلم: لا تؤثر في موازين أهل الدنيا، يعني ليس عندهم ميزان تؤثر فيه وتحركه، ولكنها عند الله -تبارك وتعالى- ذات أثر ويحاسب عليها، فإذا كان الحساب على مثاقيل الذر فلابد إذاً من أن يراعي الإنسان ما يصدر منه من الأقوال والأفعال، ولا يستصغر شيئاً، والله المستعان.

ثم قال: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ} أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ} أي: بحسب طاقتك وجهدك، {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ}، علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ} أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

{أَقِمِ الصَّلَاةَ} قال: **أي بحدودها وفروضها وأوقاتها**؛ لأن هذه هي حقيقة الإقامة، فما زاد شيئاً على ما جاء به النص، فإن إقامتها تقتضي ذلك، هذه حقيقة إقامة الصلاة، قال: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، والمعروف: هو كل ما أمر الله -عز وجل- به وأمر به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، هو ما عرف عند أهل الفضل والصلاح والفطر السوية أنه خير وبر عرفه أهل الإيمان، والمنكر بخلافه.

يقول: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، قال: **أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور**، ومعنى {مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} بعضهم يقول: أي مما جعله الله -عز وجل- عزيمة، جعله عزيمة وأوجبه على عباده، يعني هناك عندنا رخص وعزائم، فالصبر صبر الإنسان على ما أصابه، الصبر واجب، والرضا فوقه مستحب، وأعلى من ذلك الشكر على هذا في حال المصيبة، الأمور التي تحصل للإنسان المؤلمة تكرهها نفسه، فهو مأمور بالصبر عليها، فذلك واجب، فهو من العزائم ولهذا يقول بعضهم: إن ذلك مما أمر الله -عز وجل- به عباده عزماً منه عليهم، إن ذلك لمن عزم الأمور، عزماً من الله على العباد أن يصبروا، وابن جرير -رحمه الله- يقول: يحتمل أن يكون المعنى أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحزم،

السالكين طريق النجاة، وبهذا أيضاً فسرها به القرطبي -رحمه الله-، {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، مما يعزم عليه، أو بمعنى أن ذلك مما أوجبه الله على عباده، أو أن ذلك من الأمور التي يعزم عليها.

وقوله: {وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}، يقول: لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: ((ولو أنْ تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المَخيلَة، والمَخيلة لا يحبها الله))[1].

{وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} قال: **لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم**، وأصل الصعر هو الميل، وهذا جاء في كلام العرب وأشعارها، ولهذا يقولون للداء المعروف الذي يصيب الإبل فيحصل لها التواء في أعناقها: صعر، وبعضهم يقول: لا تمل شدقك إذا ذُكر عندك أحد احتقاراً له، يعني يعمل بشفته أو بشدقه، يُميل ذلك ليفهم الناظر أنه يقصد احتقار هذا المذكور، ولكن هذا وإن كان فيه ميل إلا أن الله -عز وجل- قال: {وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ}، لكن كأن هؤلاء نظروا إلى الارتباط بين الخد والشدق، فإذا أمال شدقه أثر ذلك في خده، نظروا إلى هذه الحيثية، فقالوا: لا تمل شدقك، وكأنهم نظروا إلى الارتباط بين الشدق والخد، وبعضهم كابن خويز منداد حمله على أن لا يُذل الإنسان نفسه، كيف يذل الإنسان نفسه من غير حاجة؟، إما بسؤال الناس، أو بأن يقف موقف مذلة، أو يفعل فعلاً يودي به إلى المذلة، وقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ليس للمؤمن أن يذل نفسه، وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا بأن يتعرض من البلاء لما لا يطيق.

وهذا ليس هو ظاهر المعنى في الآية، وإنما الظاهر المتبادر، {وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} بمعنى أنه يعرض عنهم إذا كلمهم، وهو لا يلقاهم بوجهه، لا يستقبلهم بوجهه إذا كلمهم، وإنما يكلمهم هكذا، يتكلم مع الناس بهذه الطريقة كالإبل التي أصيبت بالصعر، أعناقها مائلة، فهو كأنه لكبره وتعاليه وتعاظمه يأنف من أن ينظر إلى الناس فتكلم معهم بهذه الطريقة، ولا تصعر خدك للناس، ولاحظ هذه الأشياء -يعني الآداب- لا ترفع صوتك رفعاً زائداً، لا تصعر خدك، لا تمش في الأرض مرحاً، هذه لربما يرى بعض الناس أنها أمور من الآداب يسيرة، ليست قضايا تتصل اتصالاً مباشراً بالنجاة، يعني الإيمان مثلاً، ولكن إذا نظرت إلى هذا مع ما جاء في صفات أهل الإيمان في سورة الفرقان، فأول ما بدأ به {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان:٦٣]، وإذا نظرت إلى ما جاء أيضاً في الوصايا في سورة الإسراء {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} [سورة الإسراء:٣٧]، فدل ذلك على كمال الشريعة، وأن قضاياها قضايا مترابطة متلازمة، وأن هذا الإيمان يظهر في سلوك الإنسان في مشيته، وفي تصرفاته وكلامه مع الناس، وتعامله معهم، وأن هذه القضايا لا تستصغر ولا تستسهل، وأن هذه التربية لازمة حيث جاء القرآن مقرراً لها في مثل هذه المقامات، فينبغي أن يعتنى بها كما يعتنى بالقلب وصلاحه، فإنه يعتنى أيضاً بمثل هذه الأمور من السمت الحسن وكمال المروءات والأخلاق الفاضلة.

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٦٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٩٦٩٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٣٥٢).

وقوله: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} أي: خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا} [سورة الإسراء:٣٧]**، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه.**

الفرح غير مذموم بإطلاق، وإنما المقصود به فرح خاص، وهو الفرح الذي يحمل صاحبه على الأَشَر والبطر، والتعالي والتعاظم، والتكبر، والاختيال على الناس، والفرح ينقسم إلى ثلاثة أنواع: فرح بأمور يحبها الله -عز وجل-، **{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}** [سورة يونس:٥٨]، فيفرح الإنسان حينما يُحصّل الكمالات الدينية، ويفرح حينما يَحصل شيء من ذلك لأهل الإيمان أو للأمة، كانتصار المسلمين ونحو ذلك، وكذلك النوع الثاني: وهو الفرح المباح، وهو فرحه بما يحصل له من اللذات والكمالات الدنيوية، فرح لأنه نجح مثلاً، هذا جائز لا إشكال فيه، والنوع الثالث: هو النوع المحرم، إما أن يفرح بتحصيل مطلوبات نفسه المحرمة، فهذا لا يجوز، أو يفرح بما يسوء غيره من إخوانه المسلمين، أو يفرح بما يحصل لعموم الأمة من غلبة الأعداء ونحو ذلك، أو كان فرحه من النوع المذكور في الآية: **{وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا}**، وهو فرح خاص، الفرح الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر والكبرياء والخيلاء والتعاظم، وما أشبه ذلك، ولا زال الناس يستعملون هذا إلى يومنا الذي نعيشه، يقال: فلان فرِحٌ بنفسه، يقصدون بذلك أنه مغرور متعاظم يرى نفسه، فرحٌ بنفسه، آل فلان فرحون بأنفسهم، بنفس المعنى، **{وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا}** قال: أي خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، ثم بين ذلك بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}** فهذا مما يفسره، يعني تمشي بخيلاء وتعاظم، ومن هذا التعاظم الفخر، الفخر بالمآثر، الفخر بمكاسبه، بمكاسب آبائه وأجداده، وما حصلوه من الأمور الحسية أو المعنوية.

وقوله: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} أي: امش مشيًا مقتصداً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين.

هذه القضايا ربما قد يقال: إنها يسيرة، لكنها عند الله ليست كذلك، فالله كرر ذكرها، **{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}** والقصد هو الاعتدال، أن يكون مشياً باعتدال، وأهل العلم في مثل هذا في سورة الفرقان والإسراء يقولون: إن المشية تدل على صاحبها، فيعرف حاله من الأخلاق كالكبر والغرور أو الحياء، أو تعرف حاله من جهة العقل من الخفة أو الطيش والسفه، يعرف ذلك من مشية الإنسان، وقد تعرف أيضاً من ركوبه في سيارته وقيادته لها، يعرف السفيه أحياناً من مشيته، ويعرف أصحاب النفوس الضيقة أيضاً في مزاولاتهم في مشيتهم، وهذا شيء مشاهد، **{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}**، تمشي مشياً معتدلاً، وهذا لا ينافي ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا مشى أسرع[٢]، وأبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: "وإنا لنجهد وهو غير مكترث"[٣]، نحاول أن نلحق به، فليس المقصود به أنه كان يسرع إسراعاً زائداً كالذي يهرول مثلاً، وإنما

---

٢ - رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٤٢١٣).

٣ - رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٣٨٠)، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية، برقم (١٠٠).

جاء في مشيته: "كأنما ينحط من صبب"[٤]، فكان يضع -صلى الله عليه وسلم- قدماً ويرفع أخرى، لا يسحب رجله على الأرض، ولا يمشي مشياً متماوتاً أو متكاسلاً، وإنما يمشي مشية ثابتة قوية لا تباطؤ فيها ولا تماوت وإنما فيها إسراع مع تؤدة، فالمشية تدل على صاحبها غالباً، مع أن الإنسان قد يتصنع شيئاً كما قيل: "كم من متئد وهو ذئب أطلس"، لكن لا يظن أن الوقار في التباطؤ في المشي، وابن عاشور -رحمه الله- ذكر هذا المعنى في بعض كتبه غير التفسير، وتحدث عن عادة غالب من رآهم في بلده ممن ينتسب إلى العلم، وعاب طريقتهم في مشيتهم، ومزاولاتهم وحركاتهم، وما هم فيه من التباطؤ، وأنهم يظنون أن ذلك من كمال الوقار، فالمقصود أن يمشي الإنسان مشية ثابتة معتدلة بين الإسراع المفرط والتباطؤ والتماوت في المشية.

ومثل هذه الأمور الظاهرة تؤثر في نفس الإنسان، في نفس صاحبها، -والله المستعان-، فلباسه يؤثر، ومشيته تؤثر، وكلامه يؤثر، كل ذلك يؤثر فيه، ولذلك بعض الناس قد تكون حاله أقرب إلى العلة والمرض ولربما كان ذلك أو كثير منه بسبب مزاولاته هذه، ومن الناس من يكون في حال من الانطلاقة وإشراق النفس والتفاؤل والحزم وما إلى ذلك، وهذا مما يؤثر فيه هذه الأمور.

وقوله: {وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ} أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: {إِنَّ أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه))[٥].

يعني التشبه بالحيوانات لا يجوز، وكذا التشبه بالشياطين، وبالكفار والفساق؛ ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن بروكٍ كبروك الجمل أو البعير، وغير ذلك مما جاء النهي عنه كانبساط الكلب في الصلاة، فهنا في الصوت، وقد ذكر بعضهم أن صوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق، بدايته زفير وآخر الصوت شهيق، ويكفي قول الله -عز وجل-: {إِنَّ أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}، فمن تكلموا على الأصوات ذكروا قبح صوت الحمار، وأنه أقبح الأصوات على الإطلاق، لكن قول الله -عز وجل- لا يُحتاج معه إلى غيره.

فهذا الذي يرفع صوته رفعاً زائداً من غير حاجة مشبه بالحمار؛ لأن ذلك من الأمور المنكرة، فهو وإن لم يكن يتشبه بالحمار بصوته بعينه من زفير وشهيق كما يصدر ذلك من هذه البهيمة تماماً، لكن الرفع في الجملة مشبه بذلك، {إِنَّ أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}، صوت مرتفع تنفر منه النفوس السوية وتكرهه، ولذلك جاء في وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- "أنه ليس سَخّاباً في الأسواق"[٦]، ورفع الأصوات رفعاً

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٤٦)، وقال محققوه: حسن لغيره، والحاكم في المستدرك، برقم (٤١٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه بهذه الألفاظ، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، (١١٩/٥)، في كلامه على حديث رقم (٢٠٨٣).

٥ - رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها، برقم (٢٤٤٩)، ومسلم، كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض إلا ما وهبه لولده وإن سفل، برقم (١٦٢٢).

٦ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، برقم (٢٠١٨).

زائداً من غير حاجة أمر يخل بمروءة صاحبه، أمر ينقصها، بل قد يذهبها بالكلية، وهذا لربما يقع في الأسواق، ولربما يقع في المجالس، فالناس لربما اعتاد بعضهم أن يرفع صوته من غير حاجة في المجالس وهو يتحدث، ولربما يقع بالأبواب، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة الحجرات:٤]، فبعض الناس يرفع صوته رفعاً زائداً من غير حاجة، ينادي أهل الدار، ينادي صاحبه، وكان يمكن أن يكتفي بغير ذلك، فإذا رأيت الرجل يتصرف هكذا، فإن ذلك يكون حطًّا من مرتبة، ولربما ترى الرجل وتظن أنه من أهل الكمالات في المروءات ونحو ذلك، فإذا سمعته تكلم لربما لم يكن كما سبق إلى الظن والنفس من حاله، والمرء بأصغريه.

فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه))[٧].

هذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قوله، من غير إضافة له إلى لقمان، يعني جاء هذا من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بإسناد صحيح، أمّا بهذا السياق أن لقمان قال ذلك فإنه لا يصح عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فيكون هذا النص من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- ثابتاً من غير نسبة إلى لقمان.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع فإنه مَخْوَفَة بالليل، مذمة بالنهار))[٨].

التقنع بمعنى أنه يغطي وجهه، إياك والتقنع، فإنه أمر مخيف في الليل، يعني كأنه يريد أن يعمل عملاً، أن يجني جناية، ومذمة في النهار، الناس إذا رأوا إنساناً يفعل هذا من غير حاجة، أنت الآن في المسجد، وإنسان جالس في الدرس، أو في الكلية، في المدرسة، ومثل هذا، أنتم تبتسمون الآن؛ لأنه مذمة بالنهار، فإذا رأيت من يفعل هذا فإن ذلك يكون نقيصة في حقه، فهو كما قلت بأن مثل هذه التصرفات التي يظن بعض الناس أنها يسيرة إلا أنها تؤثر في مروءة صاحبها، ويرجع ذلك إلى نفسه، كما قال شيخ الإسلام في الاقتضاء بأن لباس الإنسان وما أشبه ذلك يؤثر فيه، ولهذا نهي عن التشبه بالكفار؛ لأن المتشبه بهم يجد في نفسه ميلاً إليهم، انجذاباً إلى هؤلاء، -والله المستعان-، لذلك ذكرنا أن الذي يلبس لباس الجند يجد في نفسه توثباً للقتال، والذي يلبس زي العلماء -في وقتهم كانوا يلبسون لباساً معيناً- يجد في نفسه ميلاً إلى الوقار، وقل مثل هذا في الذي يلبس ملابس رياضية يجد في نفسه خفة.

---

٧ - ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قوله لا نسبة إلى لقمان -عليه السلام- رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٨٣٥٨)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩١٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٥٤٧)، وفي صحيح الجامع، برقم (١٧٠٨)، ورواه النسائي في السنن الكبرى منسوباً للقمان -عليه السلام-، برقم (١٠٣٥٠)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٣١٩١)، وفي ضعيف الجامع، برقم (١٩٢١).

٨ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٢٦٢١٣).

وروى عن الثري بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

وروى أيضاً عن عَوْن بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام -يعني السلام- ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فَأَجِلْ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم.

هذا كأنه يعني مما أخذ وتلقي من بني إسرائيل، ومثل هذا يحدث به، ونقل عنه أشياء كثيرة هي من قبيل الحكمة الله أعلم بصحتها، فمن ذلك مثلاً، هم يقولون: إنه مملوك، وكثيرون يقولون: إنه من بلاد النوبة، يعني: جنوب مصر، وشمال السودان، ويقولون: إن سيده طلب منه قال له: اذبح هذه الشاه، وأعطني أطيب شيئين فيها، فأعطاه القلب واللسان، وفي مرة أخرى قال له: اذبح هذه الشاه وأعطني أسوأ شيئين فيها، فأعطاه القلب واللسان، فسأله متعجباً، فقال: لا أطيب منهما إذا صلحا، ولا أسوأ منهما إذا فسدا، هذه حكمة، والمعنى صحيح، والله أعلم.

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [سورة لقمان:٢٠-٢١].

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعْله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرسال الرسل، ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}**، التسخير المقصود به جعل الشيء المسخر بحيث ينتفع به من سُخر له، سواء كان ذلك بطوعه أو كان خارجاً عن قدرته وإرادته، يعني: عن قدرة المسخر له، فالشمس والقمر والنجوم، وما إلى ذلك هذه مسخرة للإنسان، لكن ليس هي تحت طوعه وإرادته، لكن الله سخرها من أجل أن ينتفع الناس بها، **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}** [سورة يونس:٥]، إلى غير ذلك من ألوان المنافع، والنوع الثاني هو ما سُخر للإنسان وجعل تحت قدرته وتصرفه، مثل تسخير الأنعام، ذللها جعلها منقادة للإنسان، يتصرف فيها، يصرفها كيف شاء، فهذا النوع الثاني من التسخير، وإذا عرفت هذا التنوع ينحل الإشكال الذي قد يرد على بعض الناس: أن الله سخر لنا الشمس والقمر والنجوم إلى آخره مع أننا لا نستطيع أن نتصرف فيها؟ فالجواب: أن التسخير نوعان، قال: **{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ}** الظاهرة والباطنة **{ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}**، الإسباغ معناه: الإتمام والإكمال، إسباغ الوضوء على الراجح من قول الجمهور كما هو معروف: هو إتمامه، فيبلغ إلى المواضع التي أمر الله -عز وجل- أن يبلغها، من غير زيادة، أن لا يقصد الزيادة، إلا على ما جاء عن

بعض السلف كأبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، فقد فهم ذلك من الحديث، لكن الجمهور على أن الإسباغ معناه: الإتمام والإكمال للمواضع التي أمر بغسلها في الوضوء أو مسحها.

فهنا {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ}: أتم وأكمل عليكم {نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}، بعضهم يفسر الظاهرة بما ظهر للحس، مما يراه ويحسه بحواسه، فهذه نعم ظاهرة، الحواس معروفة، والباطنة ما يدركه بوجدانه كالعلم والإيمان والخشية وما إلى ذلك من الأمور. قالوا: هذه هي الباطنة، وبعضهم يقول: إن الباطنة: هي ما لا يدركه الناس، يعني: الأشياء الظاهرة التي يدركونها بحواسهم، هذه الأمور التي يعرفونها، والباطنة هي التي لا يعرفونها، نعم الله -عز وجل- على عباده لا تحصى، فلو نظر الإنسان في بدنه، والأشياء التي تعمل فيه فإن عامة ذلك مما يخفى عليه، وقد يتعطل شيء يسير من هذا فيتعرف الإنسان على أسماء هذه الأبعاض، والأجزاء التي لم يسمع بها من قبل، ويتعرف على ألوان الوظائف التي لم تخطر له على بال، وأنها إذا تعطلت حصل له من الآثار والأضرار ما قد يكدر عليه عيشه، هذه أمور ما يعلم بها أكثر الناس، وما خفي فهو أعظم، ولذلك تجد بعض العلل تخفى على الأطباء، لا يعرفونها ولم يتوصلوا إليها، الإنسان لا يدرك ما في بدنه من النعم الباطنة، فكيف بغير ذلك مما خلقه الله -عز وجل- وأوجده، فنعمه على عباده كثيرة.

وبعضهم يفسر النعم الظاهرة بصحة الأبدان، وما إلى ذلك مما ظهر من كمال الخلق، وأن الباطنة العقل، فالله خلق الإنسان في أحسن تقويم من الجهتين، من الجهة الظاهرة، ومن الجهة الباطنة، والواقع أن هذا يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، ولا يراد به الحصر؛ لأن نعم الله -عز وجل- هنا أعم من ذلك، ما تختص بالقلب أو بالعقل أو بصحة البدن وكمال البدن، أسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة في الأبدان والعقول وغير ذلك مما هو أوسع وأعم من ذلك.

وبعضهم يقول: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة ما كان في الغيب من أمور الآخرة، وهذا أن تفسر الآية به وأن يقال: هذا هو المعنى: فيه بعد، ولكن الله أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة مما يشمل أمور الدنيا المحسوسة، والأمور الأخرى المعنوية كبعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والهداية بنوعيها هداية الإرشاد والتوفيق، فهذه من نعم الله، بل هي من أجل النعم، وما خفي من ألوان النعم وبطن ولم يظهر، ونعم الله -عز وجل- لا تختص في الدنيا، بل في الدنيا والآخرة.

وبعضهم يقول: إن النعم الظاهرة مثل الإسلام، والجمال، وإن النعم الباطنة هي ما ستره الله -عز وجل- على عباده فلم يظهر للناس، فالله أسبغ عليهم نعمه بالإسلام وجمّلهم بما جملهم به وستر القبيح.

قال الإمام أحمد -رحمه الله- ليس المقصود تفسير الآية لكن الشيء بالشيء يذكر-: لولا ستر الله لافتضحنا، فما يسبغه الله -عز وجل- على العبد حيث ستره وإلا لافتضح، ولو تأمل الإنسان هذا المعنى وما يدخل تحته من ألوان العيب والنقص الذي يكون بالإنسان فإنه يعرف بعض نعمة الله -عز وجل- عليه بالستر، سواء كان ذلك مما يتصل بطاعته الله ومعصيته، يعني من تقصير في طاعة أو فعل المعصية، أو كان ذلك مما يتصل بغيره، يعني غير موضوع الطاعة والمعصية، وإنما أشياء أخرى من ضعف الإنسان وأمور ترجع إلى ما جبل عليه في خلقته وضعفه وما إلى ذلك، فلولا ستر الله -عز وجل- عليه لافتضح، فنعم الله -عز وجل- على عباده كثيرة، فيخرج الإنسان متجملاً إلى الناس بعد راحة، فيلقاهم وهو في حال لا بأس بها، حسنة،

ولكن لو بقي مع نفسه وضعفه وعجزه لرأى الناس منه أشياء وأشياء، -والله المستعان-، والقراءة الأخرى {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} يعني بالإفراد، وهي قراءة متواترة، وهي قراءة عامة الكوفيين، وقرأ بها بعض المكيين، {نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}، والنعمة هذه لما نظر بعضهم إلى الإفراد فيها قال: هي الإسلام، أو شهادة أن لا إله إلا الله، ولا حاجة لهذا؛ لأن النعمة هنا مفرد ولكنه اسم جنس، فيصدق على الواحد والكثير، {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً} أي: نِعَماً، فيرجع إلى الأول في المعنى، فهي ليست نعمة واحدة.

ولهذا قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ} أي: مبين مضيء.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ} أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}.

هذا ذكره الله -عز وجل- بعد وصايا لقمان وهو من الأمور المذمومة بلا شك، ولا ينبغي للإنسان أن يقع في مثل هذا، أن يجادل في الله، في وحدانيته، في ذاته، في أسمائه، في صفاته، {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ}، ليس له علم بما يجادل به، ولم يكن جداله عن بينة وهدى، ولم يكن مما تلقاه وأخذه من الكتاب المنزل، وإنما يجادل بجهل مما يمليه عليه هواه أو عقله الفاسد، أو نحو ذلك، فكل من جادل بغير علم، كل من جادل في الله أو في شرعه، في دينه بغير علم فله نصيب من هذه الآية، واليوم اجترأ كثير من الناس فصار كثيرون يظنون أن من حق كل أحد أن يتكلم، وأن يكتب، وأن يرد وأن يجادل بحجة أنه لا يوجد عندنا كهنوت، بزعمهم، فأبقوا جميع الاختصاصات إلا الاختصاص بعلوم الشريعة، فعندهم بلسان المقال والحال أن هذا يشترك فيه كل أحد، ومن حق كل أحد أن يتكلم، في القضايا الكبار وغيرها، فاجترءوا جرأة عظيمة على الله -تبارك وتعالى-، وكتابه، ودينه وشرعه، وعلى عباده المؤمنين، فصاروا يتكلمون ويكتبون، والواحد منهم لربما لو سرح مع اثنتين من البقر لم يحسن رعايتها، -نسأل الله العافية-، -أعوذ بالله-، يجمع الإنسان بين الجهل والضلالة مع جرأة يجترئ بها على ما لا يحسنه، فيعلن جهله أمام الناس، فهذا -نسأل الله العافية- قد هتك ستره وعرض عقله على الناس، كشف حاله، فهو يظن أنه يحسن، والواقع أن أول ما يرجع إليه من هذا هو أنه يسيء إلى نفسه قبل كل شيء، وأن هذا الكلام إنما يضره هو، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: إن الكلمات الخبيثة للخبيثين من الناس، فهم معدن لها، فإن صدرت منهم فهم أهلها، وإن صدرت في حقهم فهم أهلها، ويرجع ضررها عليهم لا على غيرهم، وإن صدرت منهم في حق أهل الإيمان ما ضرتهم، -والله المستعان-، ولذلك لا يستغرب أن يصدر مثل هذا من مأفون القلب والفؤاد، لكنه يستغرب لربما لو أنه كتب غير ذلك، يعني: لو كتب كتابة جيدة، يستغرب يقال: ما شاء الله فلان ما الذي حصل؟! لأن ذلك خرج من غير مظنته، فنسأل الله العافية.

{وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان:٢٢-٢٤].

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} أي: في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر.

{وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ}، هنا فسره بالإخلاص، وهذا صحيح.

فلواحدٍ كن واحداً في واحد *** أعني سبيلَ الحق والإيمانِ

فالإنسان يسلم وجهه لله فلا يكون في قلبه منازعة، أدنى منازعة، فلا يلتفت في عمله إلى غير الله -تبارك وتعالى-، وإسلام الوجه لله -تبارك وتعالى- بمعنى إسلام النفس في تحقيق العبودية لله وحده دون ما سواه، يعني: أنه يُعبِّدُ وجهه، يُعبِّدُ نفسه، فالوجه هنا مراد به أن يُعبِّد الإنسان نفسه لله -تبارك وتعالى-، وذكر الوجه له معنىً ودلالة أخص هنا بلا شك، أن يتوجه بعبادته وقلبه وكليته إلى ربه وخالقه فلا يلتفت إلى أحد سواه، {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}، وهو محسن في عمله بقلبه ولسانه وجوارحه، وهذا الإحسان على مراتب أعلاها أن يعبد الله كأنه يراه، فتكون هذه الآية قد اشتملت على ما يذكر من شروط العمل في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، الإخلاص والمتابعة؛ لأن العمل لا يمكن أن يتحقق فيه وصف الإحسان إلا إذا كان قد تابع فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، على وفق ما شرَّعه الله -تبارك وتعالى-، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [سورة الكهف:٢]، وذكر الإيمان، وهو الشرط الثالث في قبول الأعمال، فيكون عمل الصالحات منتظماً للإخلاص والمتابعة في أول سورة الكهف، في آخرها: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:١١٠]، فالعمل الصالح هو الصواب، {وَلَا يُشْرِكْ} ينتظم: الإيمان والإخلاص، فصارت شروط قبول العمل ثلاثة؛ لأن الإنسان إذا كان مخلصاً وعمله على شرع الله -عز وجل-، ولكنه لم يكن من المؤمنين لا يقبل العمل أبداً، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان:٢٣]، {أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ} [سورة إبراهيم:١٨]، {أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ} [سورة النور:٣٩]، وإذا كان العمل قد صدر من المؤمن ولكن من غير إخلاص فلا يقبل، فإذا كان بإخلاص ولكنه مبتدع فإنه لا يقبل.

{فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} أي: فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه.

العروة الوثقى أي اعتصم بالعهد الأوثق، {اسْتَمْسَكَ}، ولاحظْ {اسْتَمْسَكَ}، زيادة المبنى لزيادة المعنى، ما قال: تمسكْ، {اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، والأحرف الثلاثة في أوله تدل على الطلب، {اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، يعني: كأنه تمسك بالحبل والسبب الأوثق في النجاة، فكثير من الناس يتمسك بأوهام وأمور ما أنزل الله -عز وجل- بها من سلطان فيضل، فيعبد حجراً، أو شجراً، أو قبراً، أو يعبد غير ذلك مما يُعبِّدُ الضالون نفوسهم له من دون الله -تبارك وتعالى-، فهؤلاء إنما يتبعون وهماً، وليس لهؤلاء من حقيقة، فالله -تبارك وتعالى- هو الإله الحق وحده دون ما سواه، فالذي يعبد الله -تبارك وتعالى- موحداً له، يُعبِّدُ نفسه له مع استقامة في العمل ومتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- يكون قد استمسك بالعروة الوثقى، أخذ بالسبب

المتين، السبب الوثيق في النجاة، من أراد أن يحصل النجاة فعليه أن يسلك هذا المسلك، وأن يسير على هذا الطريق من الإخلاص، تحقيق العبودية لله -تبارك وتعالى-، مع إصلاح العمل بالقلب واللسان والجوارح، هذا طريق النجاة، {اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، يقولون: مثل من أراد أن يصعد جبلاً فتمسك بحبل، تعلق به، فهذا الذي يريد أن يصل إلى الله -تبارك وتعالى-، فإذا حقق هذه الأمور فهذا هو طريق سلامة محققة، هذا هو الطريق الوحيد للنجاة، هذا هو سلوك المحجة الواضحة لا الأوهام التي لا توصله إلى مطلوبه، فهذا من فضل الله -عز وجل- على العباد، وهذا من نعمه عليهم، أن بيّن لهم ما يحتاجون إليه، فلم يحوجهم إلى اجتهادات وتخرصات، واتباع أمور مظنونة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن كل ما تتوقف عليه النجاة قد جاء بيانه في هذه الشريعة بياناً لا يدع في الحق لبساً، وإنما الاختلاف في أمور لا تتوقف عليها النجاة، في قضايا أخرى تفصيلية لا تتوقف عليها نجاة الإنسان.

{وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ} أي: **لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا**، أي: **فيجزيهم عليه**، {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، **فلا تخفى عليه خافية.**

{وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ}، هذا كقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [سورة الأنعام:٣٥-٣٦]، سماع يعني: إجابة، {وَالْمَوْتَى} الكفار، {يَبْعَثُهُمُ اللّهُ}، وقد مضى الكلام على هذا في الأمثال في القرآن، فهذا كله تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن لا تذهب نفسه عليهم حسرات، {فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ} ينهاه عن الحزن على هؤلاء، ومثل هذا نحتاج إليه في عصرنا هذا، فإن الكثيرين لربما يحصل لهم شيء من اليأس، ويتعاظم الحزن في نفوسهم والأسى لما يرى من أمور يكرهها، حينما يرى جرأة على الله -عز وجل-، وعلى دينه، وكذباً على الله، وعلى شرعه، فكثير من أهل الإيمان لربما يحصل له شيء من اليأس والحزن والضيق، ولربما يتوارد ذلك على النفس ويتعاظم حتى يضعف الإنسان وتتلاشى قواه، فلا ينتفع به في شيء من أمر الدنيا أو الآخرة، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن الحزن إذا تتابع على القلب أضعفه، فهذا غير مطلوب شرعاً، ولا يحسن، ولا يجمل، فهذا دين الله -عز وجل-، {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، ولما ذكر ما يحصل من وحي الشياطين، شياطين الجن والإنس، قال: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٢-١١٣]، فهذه أمور الله -تبارك وتعالى- أرادها، وقلوب الخلق بين أصبعين من أصابعه، {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى}، ولكنه شاء لبعضهم الردى والضلالة فبقوا في ضلالهم يعمهون، -نسأل الله العافية-، فالمؤمن حينما يرى مثل هذه الأشياء هو يفعل ما بجهده، وما في طاقته واستطاعته، والله -تبارك وتعالى- أكملُ بل الله -تبارك وتعالى- أعظم غيرة على دينه وشرعه وحرماته، ولكنه يمهلهم ويملي لهم، قال الله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [سورة الأعراف:١٨٣]، وانظر ما فعله الله -تبارك وتعالى-

في كبار العتاة عليه في هذا العصر، ثلاثة أو أربعة من أعتى الخلق على الله، انظر كيف فعل بهم الآن؟، وقد خذلهم من يظنون أنه ناصرهم من دون الله -تبارك وتعالى-، كلمة أوباما التي ألقاها في مجلس هيئة الأمم، ماذا قال؟ ذكر أن هذا العام سيكون جميلاً في غياب فلان وفلان وفلان، هؤلاء الذين كانوا يظنون أنه إن نصرهم فلا غالب لهم، وإن خذلهم فمن ذا الذي ينصرهم من بعده، يدير ظهره لهم ويقول: عام جميل هذا الذي يغيب فيه فلان وفلان وفلان، هذه عبرة عظيمة، فانظر إلى العواقب، ثم انظر إلى حال هؤلاء، لا يرعوون ولا يتوبون مع ما هم فيه من البؤس، فلا يزدادون إلا غيا، -نسأل الله العافية-، فهنا تظهر معاني أسمائه وصفاته -تبارك وتعالى-، هذا دين الله -عز وجل-، هو الذي يدبر أمر الخليقة، فالإنسان يحمد ربه على أنه هداه، ولا يضره ضلال من ضل بعد ذلك، فالله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فنحن الضعفاء المساكين لسنا أغير على دين الله -عز وجل- من الله، فالإحباط لا محل له في نفس المؤمن، وهذا الحزن الذي يتعاظم لدى بعض الخيرين لا معنى له، وإنما ينبغي على الإنسان أن ينطلق يبلغ دين الله -عز وجل- قدر جهده واستطاعته، والله ناصر دينه وكتابه، ورسوله وعباده المؤمنين، وهذا أمر قد حكم الله به، ولا يستطيع أحد أن يبدله أو يغيره مهما بذل، فالله متم نوره ولو كره من كره من أهل الضلالات كلها، والله المستعان.

ثم قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا} أي: في الدنيا، {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ} أي: نلجئهم {إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} أي: فظيع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [سورة يونس:٦٩-٧٠].

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة لقمان:٢٥-٢٦].

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالقُ السماوات والأرض، وحدَه لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له؛ ولهذا قال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي: إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.
ثم قال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: هو خلقه وملكه، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

يعني سواء حمده الناس أو لم يحمدوه فهو مستحق للحمد؛ لأنه الكامل من كل وجه -تبارك وتعالى-، وهو غني وحميد، فهو محمود في غناه، فكان له من اجتماع هذين الوصفين كمال ثالث، بمعنى أن الغنى قد يحمل الناس أو كثيراً من الناس على الطغيان، {إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧]، وأما الله -تبارك وتعالى- فهو الغني الحميد، فمحمود في غناه، وله الحمد المطلق من كل وجه؛ لأنه الكامل من كل وجه.

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة لقمان:٢٧-٢٨].

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: ((لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك))[9]، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونَفِدَ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مَدَداً.

وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** [سورة الكهف:١٠٩]، **فليس المراد بقوله: {بِمِثْلِهِ} آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.**

يعني فهمَ ذلك أن المراد به التكثير، **{بِمِثْلِهِ}** أو **{سَبْعَةُ أَبْحُرٍ}** باعتبار أن العدد سبعة يقال للتكثير، مثل السبعين، **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ}**، بهذا الاعتبار، وقوله: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ}** شجرة، الشجرة مفرد أو جمع؟ **{مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ}** الأقلام جمع، **{مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ}**، وحد الشجرة؛ لأن استغراق المفرد أشمل، كما يقوله أهل البلاغة، يعني شجرة، شجرة، **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ}**، كأنه قال: كل شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر شيء، لا تبقى واحدة إلا بُريت قلماً، بريت أقلاماً، ما تنفد كلمات الله، المداد: الحبر، ولو كان يمده أبحر كثيرة فإن كلمات الله لا تنفد، فالكلمات هنا ابن كثير -رحمه الله- لم يوضح المراد بها على سبيل التحديد، قال هنا: وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولهذا بعضهم يقول: إن الكلمات هنا كلماته أي معلوماته، النحاس يقول: العلم وحقائق الأشياء، يعني قبل أن توجد؛ لأن الله عَلِم قبل أن يخلق كما هو معروف في مراتب القدر، المرتبة الأولى مرتبة العلم؛ ولهذا يقيده بعضهم بأنه ما كان في المقدور قبل أن يوجد، والظاهر -والله تعالى أعلم- أن المراد هنا بالكلمات ما هو أشمل من ذلك، فكلمات الله -تبارك وتعالى- نوعان: الكلمات الكونية التي يحصل بها الإيجاد والإعدام والخلق وما إلى ذلك، وهذه التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[10]، هذه التي يستعيذ بها الإنسان، لا يجاوزها بر ولا فاجر، مع أنه لو استعاذ بالكلمات الشرعية فهو كلام الله، استعاذة صحيحة، لكن المناسب الكلمات الكونية التي لا تُجاوَز؛ لأن الإنسان يريد الحفظ، ومقاليد الأمور بيد الله -عز وجل-، ونواصي الخلق في قبضته، فيستعيذ بكلماته الكونية، حينما تقول: أعوذ بكلمات الله التامات، فهذه الكلمات هي التي يحصل بها الخلق، والإيجاد والإعدام والرزق، وما إلى ذلك، **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}** [سورة الطلاق:١٢]، والنوع الثاني من الكلمات هي الكلمات الشرعية، كلامه -تبارك وتعالى- في الكتب

---

٩ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٦).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، برقم (٢٧٠٨).

المنزلة وما إلى ذلك، هذه كلماته الشرعية، فالمقصود أن البحار لو كانت مداداً حبراً، وكل ما في الأرض من شجرة بُريت وصارت أقلاماً ما نفدت كلمات الله -عز وجل-، فيدخل في هذا كلماته الكونية التي بها يخلق، ويدخل في هذه الكلمات الشرعية، ولهذا ابن القيم -رحمه الله- يحتج في بعض كتبه على الذين يقولون: إن الكلام معنى واحد في النفس وإنه لا تعاقب فيه ولا انقضاء إلى آخره، يحتج عليهم ويرد عليهم بهذه الآية، فالله -تبارك وتعالى- يتكلم كيف شاء متى شاء، وكلامه يتعلق بمشيئته وإرادته، تكلم في الماضي، ويتكلم متى شاء، وأخبرنا أنه يتكلم في الآخرة، ويقول: {أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ}، وما إلى ذلك مما يتكلم الله -عز وجل- به، فكلماته شرعية وكونية، {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}، فهذا أمر يخرج عن تصور العقول وعن إحاطتها، فالله أعظم وأجل من ذلك، {مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}، وهذا يدل على عظمة المعبود جل جلاله وتقدست أسماؤه، سبحانه ما عبدناه حق عبادته، فهذا هو الله الذي نصلي له ونسجد ونتعبد، ونذكره، ونلجأ إليه فيما أهمنا وفي حال الرغبة، فالمؤمن الذي يعتصم به يكون قد هدي إلى صراط مستقيم، ويكون قد لجأ إلى ركن عظيم، فلا يضعف المؤمن وينقبض قلبه ويشعر بالهزيمة حينما يرى أهل الباطل ينتشون ويتطاولون ويترفعون، فإن أمرهم إلى بوار، وما يضرون بذلك إلى أنفسهم ولا يضرون الله شيئاً، {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} [سورة آل عمران:١٧٦]، فهذا هو شأن المؤمن.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: عزيز قد عَز كلَّ شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، {حَكِيمٌ} في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شئونه.

وقوله تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة يس:٨٢]، **{وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** [سورة القمر:٥٠] **أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده، {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}** [سورة النازعات:١٣-١٤].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة لقمان من الآية (٢٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة لقمان:٢٩-٣٠].

يخبر تعالى أنه {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} بمعنى: يأخذ منه في النهار، فيطولُ ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في زمن الشتاء، {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر -رضي الله عنه- الذي في الصحيحين: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟))، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربَّها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت))[1].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر، إسناده صحيح.

وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، كقوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [سورة الحج:٧٠]، ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [سورة الطلاق:١٢] الآية.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، قوله: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}، قال: **بمعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا**، يعني ما يحصل من التفاوت على مدار العام، فيزداد الليل طولاً والنهار قصراً إلى حد الاعتدال، ثم بعد ذلك ينعكس، وأن هذا آية من آيات الله تعالى حيث يجريها هذا الإجراء، ويوجد بينها هذا التفاوت، فهذا دليل على قدرته -سبحانه وتعالى-، وذلك أنه سيرها وسخرها وفق نظام دقيق، وإذا نظرت

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٥٩).

إلى مثل هذا التفاوت تجد أنه يسير على أجزاء لربما دقيقة في اليوم الواحد أو أقل من ذلك، ومن أهل العلم من فسر إيلاج الليل في النهار -كما سبق في مناسبات سابقة- بأن المراد: أن الله -تبارك وتعالى- يدخل الليل على النهار، ويدخل النهار على الليل، فالليل يغشى النهار بظلامه، والنهار ينفلق من الليل فينشق عمود الصبح حتى ينفجر ثم بعد ذلك يتسع حتى يبلغ مداه، ثم بعد ذلك يبدأ بالانكماش والانقباض والضعف والذبول، حتى يتلاشى فيغشاه الليل بظلامه، إلى غير ذلك من الأقاويل التي سبقت في معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وكل ذلك دليل على قدرته -تبارك وتعالى.

وهذا القول الذي اختاره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه كثير من أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحم الله الجميع.

وقوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} حقيقة التسخير هي جعل المسخَّر بحيث يُنتفع به سواء كان مذللاً تحت تصرف من سُخر له أو لم يكن كذلك، فالشمس والقمر غير منقادتين لنا، لا نستطيع أن نتصرف بهما، لكن الله سخرهما لنا، وذلك أنه ذللهما وصرفهما بحيث ينتفع بذلك الناس، وأما النوع الثاني من التسخير فهو بحيث يكون المسخَّر تحت تصرف الإنسان، كما في بهيمة الأنعام، فكل ذلك مسخر سخره الله -تبارك وتعالى- لينتفع به الناس، {كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، هنا ذكر معنيين: الغاية المحدودة، هذا الأول، يعني إلى وقت الطلوع والأفول، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، وهذا المعنى إذا نظرت إليه تجد أنه واقع، فالنهار يبتدئ من طلوع الشمس إلى غروبها، والليل يبدأ من الغروب إلى الطلوع، واليوم يبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والليل يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فالشاهد أن الله جعل لذلك غاية، الشمس والقمر سخرهما كل يجري إلى أجل مسمى، إلى وقت الطلوع والأفول –الغروب-، وهكذا النجوم جعلها الله -عز وجل- كذلك أيضاً لها مطالع ومغارب، وبعضهم يقول: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} يعني: إلى يوم القيامة، فيخسف بالشمس والقمر، وتتحول هذه الأجرام العلوية إلى شيء آخر، وتتبدل وتتغير ويطرأ عليها ما يحولها بقدرة الله -عز وجل- وإرادته.

وهذا المعنى الثاني: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} يعني: إلى يوم القيامة، يعني أنها تسير وفق نظام دقيق لا يتبدل ولا يتغير إلى أن يأذن الله -تبارك وتعالى-، إلى الوقت الذي حدده ليكون ذلك نهاية هذه الحياة الدنيا، إلى يوم القيامة، هذا المعنى الثاني، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير -رحمه الله-، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا من محاسن هذا التفسير أنه جمع بين المعنيين، وهذا هو اللائق بالمفسر ألا يترك القارئ مع الأقوال يسردها له، ثم بعد ذلك يحيره، فمن الأقوال ما يكون من قبيل اختلاف التضاد، كهذا، ولكنه يمكن أن يجتمع؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فهنا {كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، والله -عز وجل- لم يحدد هذا أو هذا، فمن وقت الطلوع إلى وقت الأفول، هذا إلى أجل مسمى حدده الله -عز وجل-، وكون ذلك يسير على نظام دقيق لا يتبدل ولا يتحول إلا يوم القيامة إذا خسف الشمس والقمر فإن هذا أيضاً أجل مسمى، أجل لتحولها، والأول أجل إلى مدى الليل والنهار، وذكر شاهد القول الأول الذي هو الطلوع والأفول، والأصل أن الآية إذا احتملت معنيين، ووجد ما يدل على كل واحد -يعني على صحته- فإنها تحمل على ذلك جميعاً، وابن جرير -رحمه الله- كثيراً ما ينبه على هذا المعنى وأنه ليس أحد المعنيين بأولى من

الآخر؛ لأن الله -عز وجل- لم يقيد ذلك ولم يحدد واحداً منهما، يعني بمعنى أن القول: إن هذا هو المعنى، فيه نوع تحكم، والله تعالى أعلم.

قال: {وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فالخبير هو العالم بالخفيات، الذي يعلم خفايا الأمور وبواطن ذلك، لا يخفى عليه خافية، وأن اللطيف هو الذي يعلم دقائق الأشياء.

قال: ومعنى هذا أن الله تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [سورة الطلاق:١٢].

قال: وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ} أي: إنما يُظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه.

هذا المعنى، لتعلموا بأن الله هو الحق، يعني هو الإله الحق، وأن ما يُدعى من دونه هو الباطل، فالذي يصرف هذه المخلوقات هذا التصريف ويدبرها وحده دونما سواه هو الذي يستحق العبادة وحده، وهذا كما هو معلوم من الاستدلال بالربوبية على الإلهية؛ لأنها تستلزمها، وإذا كان هو الخالق وحده والمتصرف وحده إلى آخره فينبغي أن تكون الألوهية والعبادة له وحده دونما سواه -سبحانه وتعالى-، فهذا هو المراد، وهو الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله-، أن الله هو الإله الحق، هو المعبود الحق الذي يستحق العبادة وحده.

قال: أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [سورة لقمان:٣١-٣٢].

يخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لمَا جرت؛ ولهذا قال: {لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ} أي: من قدرته، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، هذا الذي ينتفع بهذه الآيات -من إجراء الله -عز وجل- الفلك في البحر، وما يحصل في هذه الأفلاك من جريها كما سبق على هذا النظام الدقيق وما أشبه ذلك- الذي يتفكر، قال: {لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، صبار: هو كثير الصبر، والشكور: هو كثير الشكران، ما قال: لكل صابر شاكر، لكن ما علاقة الصبر والشكر فيما يتصل بالانتفاع بآيات الله -تبارك وتعالى-؟ يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- بأن الصبر والشكر من أفعال أهل الحجا -أهل العقول- وأن من قل عقله وضعف فإنه لا يصبر؛ لأنه لا ينظر إلى الغايات البعيدة، ولا يرجو عائدة تعود عليه بعد هذا الذي وقع له مما يستوجب الصبر، فحاله

متعلق بساعته التي يعيشها، لا ينظر إلى ما وراء ذلك، وهكذا غير الشكور يتمتع باللذات ولا ينظر إلى مُسديها، يتمتع بالنعم، ولا ينظر إلى معطيها، وإنما ينظر إلى هذه اللذة التي حصلت له، ويتمتع كما تتمتع البهيمة، فقالوا: إن الصبار الشكور إنما يكون من أهل العقول الراجحة، من أهل الحجا، من أولي الألباب؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٦٤]، وقال في آية آل عمران: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} [سورة آل عمران:١٩٠]، ثم ذكر أوصافهم، هنا ذكر الصبار الشكور، وهناك قال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [سورة آل عمران:١٩١]، وذكر دعاءهم هذا، ولاحظوا هذه المعاني التي قلما نتفطن لها ونتفكر فيها؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر))[٢]، انظر إلى حال هؤلاء الآن، في آية آل عمران: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا} هؤلاء من؟ هم أولو الألباب الذين ينتفعون بهذه الآيات، وأولو الألباب هم أصحاب العقول {لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} في آية البقرة، فـ{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ} هؤلاء هم من ذكر هنا {لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، ومن لا يكون بهذه المثابة فإنه يأكل من نعم الله، ويتقلب فيها، ولا يرفع لهذه الأمور، لا يرفع بها رأساً، والله المستعان.

كأن المعنى في النهاية: لآياتٍ لكل ذي عقل، {لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}؛ لأن الذي يصبر ويشكر هو صاحب العقل، وهذا المعنى ذكره ابن جرير -رحمه الله-، وهذا معنى شريف يحتاج أن الإنسان مع نفسه يقف معه وينظر في هذه الآيات الثلاث وما شاكلها ثم يعرض حاله عليها، ومن ثم يحصل له الانتفاع، ويكون له قلب حي يقظ وقّاد، ينتفع بالآيات التي يشاهدها والعبر التي تمر به، ولا يكون سادراً في غفلته، والله المستعان.

قال -رحمه الله-: ثم قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ} أي: كالجبال والغمام.

الظلل: كل شيء أظلك فهو ظله، {مَوْجٌ كَالظُّلَلِ} بعضهم يقول: في ظلامه الذي يغطي لشدته وعظمه وتتابعه، {مَوْجٌ كَالظُّلَلِ}، وبعضهم يقول: يكون بمنزلة السحاب كأنه جبال، {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة لقمان:٣٢].

قال: {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ...} الآية [سورة العنكبوت:٦٥].

هو قوله: {ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} مع قوله هنا: {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} إذا ضل من يدعون من دونه يكون هؤلاء في حال من الإخلاص والتجرد مع الانقطاع عن الالتفات إلى المخلوقين بالكلية، ومن هنا

---

٢ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (٦٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٨).

يستجاب الدعاء، دعوة المضطر ولو كان كافراً؛ لأنه ينخلع من جميع علائقه فيكون مخلصاً لله -عز وجل-، يكون بغاية التجرد.

ثم قال تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} قال مجاهد: أي كافر، كأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد.

فقط اقتصر عليه، {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}، قال كما قال تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}، يعني: كأنه فسر هذا بهذا، فالمقتصد صار بمعنى الجاحد لنعمة الله -عز وجل- الكافر به، يعني رجع إلى حاله الأول من الكفر والإعراض، و{نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ} [سورة الزمر:٨]، هذه حال هؤلاء الكفار، في وقت الشدة يخلصون، وفي وقت الرخاء يشركون، {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} لكن هذا التفسير ليس محل اتفاق، بعضهم يقول: مقتصد {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}، أي: مقتصد في القول مضمر للكفر، فالقرينة هنا {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [سورة لقمان:٣٢]، فقول مجاهد: إنه الكافر، أو قول من قال: إنه مقتصد بالقول مضمر للكفر، يعني لا يزال يتكلم بكلام لكنه يضمر الكفر فهو جاحد، يعني لماذا قال مجاهد: إنه جاحد؟ باعتبار أن الله قال: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا} فهذا تعقيب عليه، وبالإضافة إلى الآيات الأخرى كقوله: {إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}.

وبعضهم يقول: إن المقتصد {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} أي: مؤمن، طيب ومنهم كافر، قالوا: فذكر أشرف الحالين، أشرف النوعين، هذا الذي يسمونه الاكتفاء، يذكر أشرف النوعين مثلاً، {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] أي: والبرد، {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩] على قول من قال: إن نفعت وإن لم تنفع، لكن ذكر أشرف الاحتمالين، أشرف الحالين، {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} يعني: وغير مقتصد، فالمقتصد يكون المؤمن الموحد، ومنهم من لا يكون كذلك، هذا إذا نجاهم يكونون على حالين، فيكون فيه حذف.

هذا كله من تفسير القرآن بالقرآن، لكن كما ترون {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} إذا فسر بـــ{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ} [سورة فاطر:٣٢] يعني: في العمل، مقتصد في العمل، مقتصر على الواجبات ويترك المحرمات، فهذا احتمال.

حاصل ما قال: {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} يعني: في العمل، يعني الذي يقتصر على الواجبات ويترك المحرمات، كما في الآية السابقة {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ}، فيكون ذلك على سبيل الذم باعتبار أنه بعدما شاهد هذا كله كان ينبغي بعد أن أنجاه الله -عز وجل- أن يشمر في الطاعة، والتقرب إلى الله -عز وجل-، فكونه يرجع إلى هذه الحال من الفتور، يقتصر على الواجبات ويترك المحرمات فقط، بعدما رأى هذه الأهوال، وما أنعم الله عليه من النجاة أن هذا يستحق الذم بهذا الاعتبار، فالحاصل أن هذا احتمال، ولكن من يقول: إن المقصود الجاحد، كقول مجاهد -وهو مَن هو في التفسير- فإن الآيات التي وردت في مثل هذا يذكر الله -عز وجل- حالهم فيها من رجوعهم إلى الإشراك، وفي الآية قرينة تدل على هذا المعنى، وهي قوله: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا}، ولكن هذا أيضاً لا يقطع بأنه هو المراد، هو أيضاً احتمال؛ لأنه يمكن أن يكون كونه مقتصداً يعني مؤمناً، أو متوسطاً في العمل، ومنهم من لا يكون كذلك، {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}.

قال: وقوله تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} فالختار: هو الغدَّار، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَتْر: أتَم الغدر وأبلغه.

يعني بعضهم يفسر الختر بالغدر، وبعضهم يفسره بأسوأ الغدر، هكذا يقول بعض أهل اللغة وبعض المفسرين ومنهم ابن جرير: إنه غدر خاص، أسوأ الغدر يقال له: ختر، {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا}؛ لأنهم كانوا يقولون: {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [سورة يونس:٢٢-٢٣]، فرجعوا إلى حالهم الأول، فهذا يعتبر غدراً، نكثوا ما وعدوا به من التوبة والاستقامة والتوحيد والإيمان، والله المستعان.

قال: وقوله: {كَفُورٍ} أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

هذا عام في نعم الله -عز وجل- وما يحصل للإنسان من الشدائد، ثم ينجيه الله -عز وجل-، فيحصل له المرض، فيدعو الله -عز وجل-، إذا أصابه الضر دعا ربه -تبارك وتعالى- بضراعة، ثم إذا رفع علته رجع وغفل ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، فالمؤمن لا يكون بهذه المثابة، والغفلة غالبة، ولو نظر الإنسان في حاله وما مر به لربما ينسى كثيراً من الشدائد التي دعا الله -عز جل- فرفعها عنه ولربما لا يتذكر كثيراً من هذا، يغفل عنه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة لقمان:٣٣].

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث قال: {لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ} أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، {وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} يعني: الشيطان،قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا}.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ} هنا يقول: أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد أن يفديه لا يجزي، كما قال الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [سورة البقرة:٤٧]، فنفى هذه الأمور جميعاً، {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} يعني: لا يوجد من يخلصه بالقوة، ولا يقبل منه فداء –عدل-، لا يقبل منه فداء، ولا يقبل فيه وساطة وشفاعة؛ لأن الإنسان إنما يتخلص إما بشفاعة، وإما بمقابل، وإما أن يخلص بالقوة، فكل هذه الأمور الثلاثة منتفية، فهنا {لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ} هذا في الفداء، {لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ}، هو كما قال الله -تبارك وتعالى- هنا فيحتمل ما ذكره الحافظ ابن كثير، وكل هذا -والله أعلم- داخل فيه، لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، والواقع أيضاً أنه لا يُقدم على ذلك، {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [سورة عبس:٣٤-٣٦]، {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}، والإنسان في الدنيا إن كان له أولاد فإنهم إذا اعتلوا فإنه يتمنى لو كان ذلك فيه، وأنه لم يحصل لهم هذا الألم، هذا أمر مشاهد، أما في الآخرة

فيتمنى لو أنه يقدم هؤلاء الأولاد فداء له لينجو، فهو لا ينفع غيره بقليل ولا كثير، يريد الخلاص لنفسه في ذلك اليوم.

ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} قال: يعني الشيطان، هذا بالفتح (الغَرور)؛ لأنه يغر كثيراً، والغُرور مصدر من غر، فكل ما غر الإنسان فهو داخل في هذا، {وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}، والشيطان غَرور يغر الإنسان، وما ألهاك عن عبادة الله -عز وجل- وصرفك عنها وأشغلك عن طاعته فهو من الغَرور، داخل في هذا، ولكن كما قال الله -عز وجل- عن الشيطان: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [سورة النساء:١٢٠]، يعدهم أماني ووعوداً كاذبة تغرهم، ولا حقيقة لها.

قال: قال وهب بن منبه: قال عزير -عليه السلام-: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي، وأرق نومي، فضرعت إلى ربي وصليت وصمت، فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر، ليس فيه رخصة، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد بغيره ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهم همه ويبكي عَوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره، رواه ابن أبي حاتم.

قوله: ويبكي عوله: يعني يرفع صوته بالبكاء، يعني يبكي أشد ما يستطيع، وهذا من الأخبار الإسرائيلية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٣]، والله المستعان.

{إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان:٣٤].

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلمُ وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، {لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ}، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومَنْ يشاء الله من خلقه.

هنا قوله: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} قال: **هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها**، هذه الصيغة {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} فيها ما يدل على الحصر، وهو تقديم ما حقه التأخير "عنده"، ما قال: إن علم الساعة عند الله، لو قال: إن علم الساعة عند الله، يحتمل أن يكون عند الله وعند غيره، لكن حينما يقول: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، معناها ليس عند غيره، فتقديم ما حقه التأخير يشعر بهذا، فيفيد هذا، مثل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [سورة الفاتحة:٥] هذا يفيد الحصر؛ لأنا لا نعبد غيرك، لو قال: نعبدك، فهنا يحتمل، {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، {عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا} [سورة يونس:٨٥] يعني: لا على غيره، فهذا يشعر بالحصر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ذكر الخمس، فالله مختص بها، فعلم الساعة يعني علم الوقوع،

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

متى تقع، وقت الوقوع، قال: {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ} هنا يقول: وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، يعني متى ينزل، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، من يشاء من خلقه: من يُطلعهم عليه، يعني إذا أطلع الله نبياً مثلاً على هذا أنهم سيمطرون وأنهم سيغاثون، ونحو ذلك، كما أطلع الله يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [سورة يوسف:٤٩]، هذا تقدير بالعام، يعني بعد السبع الخصبة ثم بعد ذلك العجاف ثم بعد ذلك عام يغاث الناس فيه، وكذلك يعصرون، وهذا نتيجة لما يحصل لهم من أثر الغيث، فالشاهد أن المراد متى ينزل المطر، وبعض أهل العلم يقول: {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ} يعني: أنه هو وحده القادر على ذلك، دون ما سواه، وهل يشكل على هذا أن ما يسمى بالإمطار أو بالاستمطار الذي يكون الناس سبباً فيه بإرادة الله -عز وجل-؟ ما يشكل على هذا؛ لأنهم نظروا إلى السنة الكونية، السنة الكونية كيف يحصل من الأطوار، فعملوا بمقتضى هذا، ولكنه قد لا ينزل، ولا يعلمون متى ينزل بدقة، ولا يعلمون أين ينزل، والمشاهد أنهم يفعلون ذلك في بلد وينزل في بلد آخر أحياناً، وكل ذلك بإرادة الله -تبارك وتعالى-، فلو قيل للناس: هذا السحاب الذي ترونه يطوف في السماء، متى ينزل عليكم المطر، متى يحصل لكم الغيث؟ فإنهم لا يعلمون، لا يعلم ذلك إلا الله، هذا العام هل سينزل فيه أمطار، هل هي كثيرة أو قليلة؟، لا أحد يعلم متى ستنزل، {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ}، ولا يكون غيثاً إلا ما يكون فيه الإنبات والنفع، لكن مجرد نزول المطر من السماء الذي لا ينبت شيئاً ولا يحصل به انتفاع، أو لربما يحصل به غرق هذا لا يقال له غيث.

قال: وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك، ومَنْ شاء الله من خلقه.

من شاء من خلقه كما حصل التبشير لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولامرأته أيضاً بالولد، وكذلك زكرياً، لكن هنا يزول الاختصاص، فهذا الملك يأتي إلى النطفة، وفي بعض الروايات: "إذا بلغت أربعين"، وفي بعضها: "إذا بلغ أربعة أشهر، فيؤمر بأربع كلمات"، وإذا كانت النطفة بهذه المثابة في الأربعين هل الأطباء يعرفون تحديد الجنين من ذكر أو أنثى مثلاً؟ هم لا يعرفون ذلك، ولكن الملك عرفه، فزال الاختصاص هنا، مع أن قوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} تفيد العموم، لا يختص هذا بكونه ذكراً أو أنثى، ولاحظ عبارة ابن كثير، قال: **وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه**، فما الذي في الأرحام؟ {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}، مما يكون في الأرحام ما يكون من الأجنة، ومن أحوالها وآجالها وأرزاقها وأعمالها، كل ذلك داخل في علمه، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} فهو يأمر الملك بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، شقي أم سعيد، هذا من الذي يعلمه، من الذي يعلم رزق هذا الإنسان، وكيف سيكون هل هو غني أو فقير، وعمل هذا الإنسان، وأجل هذا الإنسان متى سيكون؟ هذا بعض علم الله -تبارك وتعالى-، هذا فضلاً عن الأمور الأخرى عن شكل هذا الإنسان، وطوله وقصره، ووزنه، وكيف سيكون في كل طور من أطواره، وما يعتريه وما يحصل له وما فيه من الآفات، هذا لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى-، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}، فلا يشكل على هذا كونهم يصورون الجنين ويعرفون هل هو ذكر أو أنثى في مرحلة من مراحل الحمل.

قال: وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها.

يعني: ماذا تكسب غداً من مال، من رزق، وفي أخراها من الأعمال الصالحة، وماذا تكسب غداً في الحياة الدنيا، وماذا تكسب في الآخرة؛ لأنه كما قال الله -عز وجل-: {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [سورة الحشر:١٨] يعني: الآخرة، {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا}، في الدنيا من الأعمال والأرزاق وغير ذلك، وماذا تكسب غداً في الآخرة، فكل ذلك يقال له: غد، فالغد يقال لليوم الذي يعقب ليلتك، ويقال أيضاً للمستقبل، لكل ما هو آت يقال له: الغد، لا يدري الإنسان في مستقبله القريب والبعيد ماذا يكسب، فالله -عز وجل- هو الذي يعلم ذلك.

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ} الآية [سورة الأنعام:٥٩]، وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب.

ومما يدل على هذا الاختصاص أو الحصر في الآية الأخرى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}.

روى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((خمس لا يعلمهن إلا الله -عز وجل-: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}))[٤]، هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجوه.

حديث ابن عمر: وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}))[٥]، انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في "كتاب الاستسقاء" من صحيحه، ورواه في التفسير من وجه آخر أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مفاتيح الغيب خمس))، ثم قرأ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ}[٦] انفرد به أيضاً.

حديث أبي هريرة: روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: ((أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يوما بارزا للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن

---

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٢٩٨٦)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد قوي من أجل حسين بن واقد المروزي، فهو صدوق لا بأس به، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، عبد الله: هو ابن بريدة بن الحُصَيب الأسْلَمي"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٩١٤).

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٥١٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرعد، برقم (٤٤٢٠).

أشراطها: إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتَهَا، فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العُرَاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله، {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ} الآية))، ثم انصرف الرجل فقال: ((ردُّوه عليَّ))، فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: ((هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم))[٧]، ورواه البخاري أيضا في "كتاب الإيمان"، ومسلم من طرق، وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري، وذكرنا ثَمّ حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم.

وقوله تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلع عليهن مَلَكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، {وَيُنزلُ الْغَيْثَ}، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ}، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو، {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت، لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً، {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} أي: ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟

وقد جاء في الحديث: ((إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة))[٨].

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير في مسند أسامة بن زيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له إليها حاجة))[٩].

آخر تفسير سورة "لقمان" والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [سورة آل عمران:١٥٤]، الإنسان إنما يموت حيث كتب الله -عز وجل- أن يموت، ومن ثَمّ فإن الإنسان لا تذهب نفسه حسرات، ويقول: لو كان كذا، لو لم يسافر، لو لم يذهب، هذه أمور قدرها الله -عز وجل-، نحن نرى الناس يخرجون إلى مضاجعهم، يموتون حيث شاء الله -عز وجل- أن يموتوا، في مستشفى، أو يموت في بلد غير البلد الذي كان يرغب أن يموت فيه، وكم من إنسان سكن المدينة ليموت فيها، وكانت منيته خارجها، والناس رجالاً ونساءً لربما يموت الواحد منهم وهو في سفر أو في طريق، كما هو مشاهد، الإنسان لا يدري أين كتب الله -عز وجل- موته، فإذا علم الإنسان بمثل هذا فليس ثمة إلا التسليم المطلق لله -عز وجل-، والرضا عنه، وصدق اللجأ إليه، وطلب العون منه، والله المستعان.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ورواه في كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم، برقم (٤٤٩٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى-، برقم (٩).

٨ - رواه البخاري في الأدب المفرد، باب إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له بها حاجة، برقم (١٢٨٢)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٢٧)، وقال: "هذا حديث صحيح ورواته عن آخرهم ثقات"، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٢٢١).

٩ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٤٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (١) إلى الآية (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة "الم" السجدة، وهي مكية:

فضل سورة "الم" السجدة:

قوله: **هي مكية،** بعضهم يستثني بعض الآيات بناء على معنىً يلوح له، والأصل في السورة النازلة بمكة أن جميع الآيات مكية، وأن النازلة في المدينة كل الآيات مدنية، وأن مرجع ذلك إلى النقل، يعني لا يُستثنى من هذا شيء فيقال: إلا هذه الآية، إلا بالنقل، وأما باعتبار المعنى: كون هذا المعنى يتحدث عن اليهود، أو يتحدث عن المنافقين فمثل هذا لا يكفي وحده؛ لأن من القرآن ما ينزل قبل وقوعه -قبل وقوع حكمه-، وليس المقصود بالحكم الحلال والحرام، وإنما المقصود ما تضمنه مما أخبر عنه، وتحدث عنه، فلا إشكال، والعلماء يجيبون عن هذا بأجوبة معروفة، فهذه الدعاوى الكثيرة التي تجدونها في كتب التفسير إلا آية كذا، إلا آية كذا، لمجرد معنى لاح للمفسر فإن هذا لا عبرة به، والله تعالى أعلم.

قال: روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في الفجر يوم الجمعة: {الم * تَنزِيلُ} السجدة، و{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ} [سورة الإنسان:١]. **ورواه مسلم أيضاً.**

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينام حتى يقرأ {الم * تَنزِيلُ} السجدة و{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [سورة الملك:١] **تفرد به أحمد.**

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة السجدة:١-٣].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة "البقرة" بما أغنى عن إعادته هاهنا.

هذه الحروف المقطعة لا معنى لها في نفسها، على الأرجح، وأنها تشير إلى الإعجاز، أن هذا القرآن مركب من الحروف التي تركبون منها الكلام، ومع ذلك أنتم عاجزون عن الإتيان بمثله.

وقوله: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ} أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

قوله: **{تَنزِيلُ الْكِتَابِ}** يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أو أن يكون المبتدأ هو قوله: **{الم}**، وما بعده خبر، إلى غير ذلك من الاحتمالات.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ}، قال هنا: **لا شك فيه ولا مرية**، والريب أخص من الشك، هو شك خاص، ليس كل شك يكون ريباً، فالريب كما في قوله تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [سورة البقرة:٢] شك مع قلق، الشك

الذي يحصل معه قلق يكون ارتياباً، تقول: أنا مرتاب من كذا، في قلبي ريب من الأمر الفلاني، في قلبي ريب من فلان، شك مع قلق، بخلاف ما لو قلت: أنا عندي شك في الأمر الفلاني، شك مقلق، فالقرآن ليس فيه شيء من هذا، و{تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يحتمل أن يكون المراد: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}، بمعنى أنه لا يتضمن ما يوجب الريب، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء:٨٢]، فإذا قرأه التالي له فإنه لا يجد فيه ما يثير الريب، ما يثير الشكوك والريب من التناقض أو الضعف في التراكيب والعبارات وما أشبه ذلك، وإنما قد أحكمه الله -عز وجل- في ألفاظه ومعانيه، ليس فيه ما يوجب الريب، وأن النفي إذا جاء في صفات الله -عز وجل- فإنه يقتضي ثبوت كمال ضده، وذلك يكون في الله -عز وجل-، وأوصافه، وكذلك في النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقوله مثلاً: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} [سورة النجم:٣]، {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤]، وكذلك القرآن وأوصاف القرآن، فهذه الثلاث إذا جاء النفي فيها فإنه يقتضي ثبوت كمال ضده، فإذا قال الله عن القرآن: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} فإن هذا يقتضي أنه متضمن لكمال اليقين، وأن من أراد اليقين فعليه أن يقبل على هذا القرآن، وذكرت في الكلام على مقاصد المتدبرين في العام الماضي في رمضان -ليس رمضان هذا القريب، الذي قبله- أن من هذه المقاصد أن يقرأه من أجل أن يتحقق من مصدر هذا القرآن المتكلم به، أنه من عند الله -عز وجل-، وهذا إنما يكون لمن احتاج إلى ذلك، كان عنده تردد، فتجد من الناس من يقرأ القرآن ليصل إلى هذه النتيجة، فيعلم أن هذا ليس من كلام البشر ولا يمكن أن يصدر عن البشر؛ لأمور كثيرة، فهنا "لا ريب فيه" متضمن لكمال اليقين، فهذا معنى أنه نفى عنه الريب، يعني: ليس فيه ما يوجب الريب.

المعنى الثاني: {لا رَيْبَ فِيهِ} أنه من الله، لا شك أنه من الله، فيكون الكلام يرتبط بعضه ببعض هنا، أعني أوله وآخره مع هذه الجملة، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، لا شك أنه من الله، ولكن على المعنى الذي قبله، تنزيل الكتاب من رب العالمين، فتكون هذه الجملة معترضة، فيها ذكر صفة هذا الكتاب، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ} لا شك فيه، لا يتضمن ما يوجب الريب، وأنه منزل من الله -تبارك وتعالى-، وفي سورة البقرة إذا وقفت عند قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}، {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ} يعني: هذا الكتاب دخول "ال" عليه تدل على الوصف الكامل، تقول: هذا الرجل، هذه الشجاعة، هذا العلم، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}، لا شك، {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وذكرت حينها أن الوقف على قوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أبلغ في المعنى؛ لأن الأول يفهم منه: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فيه هدى، لكن الثاني جعله كله هدى، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، هو هدى، وهذا أبلغ، {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فهذا أبلغ، كون القرآن بهذه المثابة ويقال عنه هذا: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، بل يقولون: {افْتَرَاهُ} أي: اختلقه من تلقاء نفسه.

باعتبار أن "أم" هذه هي المنقطعة، بمعنى "بل".

{بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} أي يتبعون الحق.

قوله هنا: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، بعضهم يقول: إن "ما" هذه موصولة، ويكون المعنى: لتنذر قوماً الذي أنذر، لكنه بعيد كل البعد في هذه الآية، لكن لو قيل هذا في قوله: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ

{فَهُمْ غَافِلُونَ} [سورة يس:٦] يعني: لتنذرهم الذي أُنذر آباؤهم، لكن هنا: **{مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}**، الذي أتاهم نذير من قبلك، لا يكون ذلك، ولهذا فإن "ما" هنا نافية، **{مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}**، قيل: هم العرب، وبعضهم يعبر يقول: أهل الفترة، باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث لجميع الأمم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث على فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، فالذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من أهل الفترة بعدما اضمحلت آثار الرسالة فهؤلاء ما أتاهم من نذير من قبلك، من قال: العرب، فهذا باعتبار أنه ما جاءهم نبي بعد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله عنهم في مواضع من كتابه ما يدل على هذا المعنى، **{أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ}** [سورة الأنعام:١٥٦] يعني: لئلا تقولوا، فلم ينزل عليهم كتاب، ليسوا بأهل كتاب، ولهذا امتنّ عليهم بقوله: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** [سورة الجمعة:٢]، وقال: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}** [سورة فاطر:٣٢]، وهم هذه الأمة، بعدما كان ينزل على بني إسرائيل، فـــ**{مَّا أَتَاهُم}**، هذه "ما" نافية، **{مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ}** أيّ نذير، بمعني: رسول، و"مِن" هذه إذا دخلت على النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام -وهي المقامات التي تدل فيها النكرة على العموم- فإنها تنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، يعني أقوى الدلالة على العموم، **{مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ}** أيّ نذير، ولهذا ما يوجد في بعض كتب التواريخ يذكرون أسماء رجال من العرب، يقولون: هذا نبي كان للعرب، وحصل له كذا، وحصل له كذا هذا لا صحة له، وتجدونه في بعض كتب التفسير، وقد مضى بعض ذلك عند قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَصْحَابُ الرَّسِّ}** [سورة ق:١٢]، فكل هذا لا يصح، -والله أعلم-، **{لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}** مضى الكلام على مثل هذا، أن "لعل" تكون بمعنى التعليل، أي: من أجل أن يهتدوا، وأنها تأتي بمعنى الترجي، ويرد السؤال على هذا كيف يحصل الترجي في القرآن من كلام الله -عز وجل-، والله يعلم عواقب الأمور، وإنما يكون الترجي مما لا يعلم العواقب؟، والجواب عن هذا أن الخطاب قد يتوجه إلى المخاطب باعتبار نظره، باعتبار حاله هو كقوله تعالى لموسى وهارون -عليهما السلام-: **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}** [سورة طه:٤٤] يعني: على رجائكما **{يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}**.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة السجدة:٤-٦].

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش.

هذه الأيام الستة، من أهل العلم من السلف فمن بعدهم من يقول: إنها ستة أيام من أيام الدنيا، من أيامنا هذه، وبعضهم يقول: إنها ستة أيام من أيام الله -عز وجل-، **{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [سورة الحج:٤٧]، وهذا قال به الضحاك، **{فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}**، والله -عز وجل- قادر على خلقها بـــ"كن"، وما يذكره بعضهم من أن ذلك يفهم منه ويتعلم منه الأناة غير مدفوع، سواء قيل: إن تلك ستة أيام من أيام الله -عز وجل-، أو ستة أيام من أيام الدنيا، مع كون الله -عز وجل- قادر على خلقها بـــ"كن".

قال: وقد تقدم الكلام على ذلك.

{مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ} أي: بل هو المالك لأزمّة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه.

الولي يأتي بمعنى الناصر، والشفيع معروف من يشفع غيره، فيتقوى به؛ ليحصّل حاجته وطلبته، فمثل هذا كما سبق أنه لا يتأتى لأحد، {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [سورة البقرة:١٢٣]، فليس له ناصر من دون الله -عز وجل- ينصره ويخلصه، ولا شفيع يشفع له ويتوسط فيُترك، فليس ثمة إلا الصدق مع الله -عز وجل- والإقبال عليه والتوبة، والعمل بطاعته ومرضاته.

{أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

مثل هذه الآيات {أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} جاء بها بعد هذه المعاني من كمال ملكه -سبحانه وتعالى-، وقدرته وخلقه وربوبيته، وكما في الآيات السابقة قبل ذلك، كل هذا يوجب للإنسان أن يتذكر، وأن يعتبر، وأن يتفكر، وأن يدرك أنه لا سبيل له إلا بأن يعبد الله -عز وجل- وحده لا شريك له، لا يلتفت للمخلوقين، ولا يتصنع لهم بعمله، ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، فبيده مقاليد الأمور، وأن المخلوقين لا يملكون له قليلاً ولا كثيراً لا في الدنيا ولا في الآخرة، فيغسل يده منهم، هذه الخلاصة، هذه الآيات لمّا يذكر الله خلقه وتدبيره، وتصريفه للأمور، ثم يقول: {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} يورث هذا المعنى في نفس المؤمن، لا يتعلق قلبه بالمخلوق ولا يكون له أدنى التفات إليه مهما كان هذا المخلوق، ولو أن الناس توصلوا إلى هذا، وتجردت قلوبهم هذا التجرد لبلغوا مرتبة الإحسان، أن يعبد الله كأنه يراه، ولكن القلوب عليها ما عليها من الغفلة، فينسى الإنسان هذا فيضعف، فإذا ضعف بدأ يلتفت هنا وهناك، ويتعلق بالقشة.

وقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} الآية.

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسُمْك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين.

هنا في آية السجدة، {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، فيكون على هذا القول -قول مجاهد وقتادة والضحاك-: أن الألف سنة هو نزول الملك من السماء إلى الأرض ثم الصعود، هو ينزل في هذا الوقت اليسير، المرأة تكلم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتجادله في زوجها، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [سورة المجادلة:١] وهي عنده، وينزل الملك من السماء، فهذا النزول يقطع مسيرة خمسمائة عام نزولاً وخمسمائة عام صعوداً بالنسبة لحساباتنا نحن، والعادة أن مثل هذا إذا قيل: مسيرة كذا، أنه يقدر بسير الإبل القاصد، يعني المعتدل، والإبل تقطع في يومها وليلتها

في سيرها القاصد يعني مع الناس والأحمال، وتنزل ويستريحون بعد كل مرحلة من المراحل، تقطع ما يقرب من أربعين كيلومتراً في اليوم والليلة، فإذا حسبت لتتصور تقريب ذلك يعني خمسمائة سنة كم يقرب ذلك من الكيلومترات، فقط من أجل أن يتصور الإنسان أن الذهن يتوقف عند هذه الأمور، ولا يتصور عظمة هذا فقط مما قيل بأنه المسافة بين السماء والأرض، وأن أهل الفلك لم يدركوا شيئاً يذكر، يعني من عظمة خلق الله -عز وجل-، فكيف بالله -جل جلاله-؟!، فالمقصود أن هذا قول، مع أني لا أعلم حديثاً صحيحاً ثابتاً في المسافة بين السماء والأرض وما بين كل سماء وسماء، ورد فيها حديث لكن فيه ضعف، فهذا قال به جماعة من أهل العلم، أن المقصود هنا الصعود والنزول، وهذا اختاره ابن جرير، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ويكون اليوم الآخر في سورة المعارج **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}** [سورة المعارج:٤-١١] هذا يوم القيامة، فهما يومان، هذا الذي في سورة السجدة، هذا الذي يصعد وقت الصعود والنزول، والآخر في سورة المعارج هو يوم القيامة.

والذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في سورة الحج **{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [سورة الحج:٤٧]، أن هذه الأيام عند الله -عز وجل-، وبهذا يزول الإشكال، وأهل العلم لهم أقاويل في هذا غير ما ذكر، كقول بعضهم: إن ذلك جميعاً يرجع إلى يوم القيامة، **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}**، يوم القيامة، بعضهم يقول: باعتبار تفاوت أحوال الناس، المؤمن والكافر، فالكفار يطول عليهم جداً، فيكون بقدر خمسين ألف سنة، ويخفف على المؤمن، وبعضهم يقول: إن يوم القيامة أيام، ويقولون: إن اليوم لا يقصد به ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها مثلاً، وإنما العرب تعبر باليوم عن الوقت، يقولون: فلان له يوم، يعني له وقت يجد فيه غِبّ ما يفعل، فبعضهم يقول: يوم القيامة طويل جداً، وفيه أحوال وأوقات، بعضهم يقول: المقصود أحوال ليوم القيامة، فيحصل النزول والعروج في حال تكون بهذه المثابة، ألف سنة مثلاً، ومن يقول: أوقات يقول: من ذلك ألف سنة، ومن ذلك خمسون ألف سنة، فيحصل النزول والعروج يوافق الألف وقد يوافق أيضاً الخمسين ألفاً، هكذا يقول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول غير ذلك.

وابن عباس -رضي الله تعالى عنه- لما سأله ابن أبي مليكة، توقف فيها قال: هما يومان الله أعلم بهما.

وتوقف سعيد بن المسيب -رحمه الله-، فقال له ابن أبي مليكة: سألت ابن عباس عنها، قال: فماذا أجاب؟

قال: توقف فيها، فقال ابن المسيب: إذا كان هذا حبر الأمة قد توقف فيها!.

قال: هما يومان، مع أنه جاء في بعض الروايات عن ابن عباس -رضي الله عنهما- تفسير ذلك بما سمعتم، أن الألف هو وقت النزول والعروج، وأن الخمسين ألف سنة هو يوم القيامة.

هذا القول من أقوال أهل العلم لعله من أوضحها وأبعدها عن الإشكال، والعلماء -رحمهم الله- ذكروا عن هذا أجوبه أخرى، لكن قد لا تخلو من بعد، فالله أعلم.

وقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [سورة الطلاق:١٢] **الآية.**

ولهذا قال تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو {الْعَزِيزُ} الذي قد عَزَّ كلَّ شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، {الرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

هذا الوصف الثالث الذي يتكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- من اجتماع الوصفين، أو من اجتماع الاسمين، فالعزة قد تكون سبباً لشيء من الصلف، لكن عزة الله مع رحمة، كما أن الرحمة وحدها قد يكون فيها شيء من التذلل، ولكن رحمة الله -عز وجل- مع عزة، ومن فتح الله قلبه ونظر في القرآن بعين بصيرته، ورأى تصريف هذه الآيات، وذكر هذه الأسماء الحسنى عقب ما يذكره الله -عز وجل- من هذه المعاني العظام فإن ذلك يورث تعظيم المعبود -جل جلاله- في قلبه، ومراقبته، ويوحده العبد، ولا يلتفت إلى غيره، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٧) إلى الآية (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} [سورة السجدة:٧-٩]: **يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.**

وقال مالك عن زيد بن أسلم: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} قال: أحسن خلْق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} يعني: أحسن خلق الأشياء، والمراد بإحسان هذا الخلق هنا بعضهم يقول: باعتبار أنه موافق لحكمته، أنه لم يخرج عن الحكمة، خلق الله -عز وجل- الأشياء لحكمة، فجاءت متفاوتة في هذا الخلق بأحوالها وأطوارها وأشكالها وصورها، فلا يخرج شيء عن حكمته -سبحانه وتعالى-، وهذا جواب لسؤال يرد، وهو أننا نرى بعض الأشياء من المخلوقات ليست جميلة في صورتها وأشكالها، والله -عز وجل- يقول: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، والجواب بعضهم يقول: معنى {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} يعني: أنه موافق لحكمته، أيًّا كانت صورته، فلا يعني جمال الصورة، وحسن المنظر، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى الإحكام والإتقان، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} أي: خلقه خلقاً محكماً، متقناً، دقيقاً، تقول: فلان يحسن الصنعة، فلان حسن الصنعة، يعني: أن ما يصنعه يكون في حال من الإحكام والإتقان، وبعضهم يقول: هذا من العام المراد به الخصوص، هذا يقوله من حمل ذلك على جمال الصور وحسنها، أن المقصود بالحسن هو الحسن الظاهر، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، قالوا: هذا من العام المراد به الخصوص، ونحن نعرف أن العام على ثلاثة أنواع: عام باقٍ على عمومه، مثل: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الزمر:٦٢]، فلا يخرج شيء عن هذا، {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الحشر:٦]، ونوع عام مخصوص، يعني جاء دليل يخصصه، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ} [سورة البقرة:٢٢٨] مخصوص مثلاً بقوله: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [سورة الطلاق:٤]. ونوع يقال له: العام المراد به الخصوص، يعني: أنه خرج في اللفظ مخرج العموم، ولكنه أريد به معنى خاصاً، وإن كان لفظه عاماً، فهذا

لا يحتاج إلى دليل خارج يخصصه -دليل آخر-، فهذا مثل قوله -تبارك وتعالى-: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧] يعني: مما يصلح لذلك، ومعلوم أنه ليس كل ثمرات الدنيا تجبى إلى مكة، لاسيما وقت نزول الآية، وهكذا في قوله تعالى: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥]، وما دمرت الجبال، وما دمرت بيوت هؤلاء، وإنما هو عام مراد به الخصوص، أي: مما سيقت لتدميره، فهي جاءت لتدميرهم هم، وهذا الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله- العموم الاستعمالي، فهنا {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} مَن حمله على حسن الظاهر، حسن الصورة، قال: هذا من العام المراد به الخصوص، المقصود الأشياء التي كانت بهذه الصفة، وليس جميع ما خلقه الله يكون بهذه المثابة من جمال الصورة، وهذا فيه بُعد، هذا أبعد هذه الأقوال -والله تعالى أعلم-، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن قوله: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} أنه يدخل فيه الإحكام والإتقان، ويدخل فيه أيضاً الحسن الظاهر، فالرجل الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أسبل إزاره، ونهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا فاعتذر أنه أحمش الساقين، والحمش في الساقين معروف، أحمش يعني: فيهما دقة وميل، فهو يقول: إن في ساقيه عيباً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل خلق الله حسن))[1]، فهذا محمول على حسن الصورة، فيرِد على هذا بعض المخلوقات، فالشاهد أن القرد مثلاً في صورته غير حسن، والله أحسن كل شيء خلقه، والجواب عن هذا: أن الله -عز وجل- قد أحسن خلقه من حيث هو كذلك يعني باعتبار أنه قرد، أما ترى أن الناس يستملحونه ويقفون لمشاهدته ونحو ذلك، فهو بهذا الاعتبار الله أحسن خلقه، وانظر إلى أجمل الأشياء التي يتمثل بها الناس ويذكرونها في الجمال، ويشبهون أجمل النساء بها، من الظباء ونحو ذلك، لو قيل لأقبح نساء العالمين صورة: ما رأيك لو استُبدل رأسك برأس أجمل غزال، من يرضى بهذا؟ أليس ذلك يكون قبحاً لها؟ هو كذلك، فهذا الحيوان هو جميل من حيث كونه كذلك، أي حيوان، الطاوس يذكر في الجمال والحسن ونحو هذا، لو قيل لأقبح الناس وجهاً: يوضع لك رأس طاوس، يقبل هذا؟ ما يقبل، فهو جميل من حيث إنه كذلك، أي أنه طائر، لكن الإنسان أجمل خلقاً وأحسن ولو لم يكن له تلك الصورة مقارنة بغيره من بني جنسه، ولهذا قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، فهذا يشمل صورته الظاهرة كما يشمل صورته الباطنة، فرأسه إلى أعلى، وجعله الله -عز وجل- بهذه المثابة من الخلق، لا يضاهيه شيء من المخلوقات، هذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم-، و{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، قال: **أحسن خلْق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر**، هذا ينقله عن زيد بن أسلم، المقدم والمؤخر، يعني فيه تقديم وتأخير، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، أحسن خلْق كل شيء، "كل شيء" هذه تكون مؤخرة، و"خلقه" هذه تقدم، أحسن خلْق كل شيء، و{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، يعني أحسن خلْق الأشياء، الخلْق مصدر، أحسن خلْق الأشياء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، ويمكن أن يكون من قبيل البدل، ويكون بدل اشتمال، يعني أنه ليس بدل كل من كل، ولا بدل بعض من بعض، إنما بدل اشتمال، هو بدل يعني صفة تحلى بها، مثل هذا تقول: أعجبني زيدٌ علمُه، فهذا: خلقه، أدبه، حياؤه، ونحو هذا من الأوصاف، فيكون من قبيل بدل الاشتمال،

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٢٤١).

فيكون عائداً إلى الشيء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، أحسنه في الخلق، وبعضهم يقول: إنه بدل كل من كل، والضمير الهاء يرجع إلى الله إذا قلنا: إنه بدل كل من كل، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، وإما إذا قيل: إنه بدل اشتمال، فإنه يرجع إلى الشيء.

قال: أحسن خلق كل شيء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، يعني: أعطاه الخلق اللائق به، الضمير يرجع إلى الشيء، أو {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} خلَقَه الله.

قال: ثم لما ذكر خلق السماوات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

{ثُمَّ سَوَّاهُ} يعني: آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، {وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ} يعني: العقول، {قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله -عز وجل-، فالسعيد مَنْ استعملها في طاعة ربه -عز وجل.

هنا قوله: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}، نسل هذا الإنسان الذي خلقه من طين، وهو آدم -صلى الله عليه وسلم- {مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} يعني: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، يعني: تُسل من هذا وهذا، من صلب الرجل ومن ترائب المرأة.

وسميت سلالة بهذا الاعتبار، باعتبار أنها تُسل، والسَّل معروف، تُسل من الأصل وتفصل عنه، تقول: سَل كذا من كذا، سل الشعرة من العجين، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- قريبة من هذا: انسل من الأصل فخرج عنه، أو الماء الذي انسل فخرج عن الأصل، عن الإنسان، وهي هذه النطفة، فهي تسل من الإنسان، وكما قال الله -عز وجل-: {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [سورة الطارق:٦-٧]، فبعضهم يقول: صلب الرجل وترائب المرأة، وبعضهم يقول: {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} أن ذلك بالنسبة للرجل، والترائب هي: عظام الصدر، وهذا يدل على أن ذلك يخرج ويُسل من الإنسان بهذه الطريقة، وكأن ذلك يكون -والله أعلم- يسل من دمه؛ ولهذا فإن هذا الماء كما يقول الأطباء: فيه خلاصة الغذاء؛ ولذلك يضر بالإنسان كثرة خروجه، وإذا كثر خرج مختلطاً بالدم، وإذا تحرك في الإنسان فإنه يؤثر ذلك في أجزاء الجسد، فإذا خرج حصل الفتور في جميعه، وإذا تعسر أو امتنع وجد أثر ذلك في صلبه، وجد أثره في صلبه يعني: الألم، و{يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}، وهذا معنى السلالة، وأصحاب الإعجاز العلمي يقولون كلاماً آخر غير هذا، يصورون الحيوانات المنوية -كما ترون- لها مثل الرءوس يتبعها مثل الذيل، فيقولون: إن الرأس هذا هو الذي يلحق البويضة، ثم بعد ذلك يتلاشى ويذهب هذا الذيل، فهي بهذه الصورة صورة سلالة، هكذا يقولون، وهذا الكلام فيه نظر، وإنما السلالة ما يُسل من الشيء، ويستخلص منه أو يخرج منه، والله تعالى أعلم.

{ثُمَّ سَوَّاهُ} قال: **يعني آدم لما خلقه من تراب**، لماذا لم نقل: إنه الإنسان الذي خلق من النطفة؟ لا شك أن التسوية حاصلة له، لكن قوله: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ}، هذا كان لآدم -صلى الله عليه وسلم-، فهذه

قرينة تحدد أحد الاحتمالين في المعنى، يعني لو لم يكن هذا لقلنا: الله -عز وجل- سوى وخلق الأشياء جميعاً، فسواء الإنسان الأول الذي هو آدم -صلى الله عليه وسلم- خلقه في أحسن صورة، وأكمل صورة، طوله ستون ذراعاً في السماء، وعرضه سبعة أذرع، خلافاً لما يذكره أولائك الذين يتخرصون، ويقولون: الإنسان كان بصورة كذا، وكان بصورة كذا، ويذكرون حالة من التخلف في خلق الإنسان، ثم بعد ذلك بدأ يتطور، وهكذا يذكرون القرون والعصور، العصر الحجري، والعصر البرونزي، والعصر كذا، وما يذكره أيضاً بعض هؤلاء من أن الإنسان كان يعني يتبع الخرافة والسحر، ثم بعد ذلك بدأ يتعرف على الله وما إلى ذلك، فهذا كله كذب، الإنسان كان على الفطرة، وفي أحسن خلقة، وقد مضت أمم ممكنة وقوية وعندها حضارات لا زال بعض آثارها باقياً، وقد ذكر الله هذا في القرآن، فلا وجود لهذه العصور التي يتكلمون عنها.

قال: {وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ} يعني الروح هنا المقصود بها المخلوقة، فأضافها إليه تشريفاً، كبيت الله، وناقة الله، قال: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} يعني: العقول، {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}.

{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [سورة السجدة:١٠-١١].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ} أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، {أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}؟ أي: أئنا لنعودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدْرَتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون؛ ولهذا قال: {بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}.

قوله: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ} يعني: ذهبت أجسادنا وتحللت وتلاشت، والدفن يقال له: إضلال، ومنه قول الشاعر: فآبَ مُضلوه بعينٍ جليّةٍ. يعني: من دفنوه، يتحدث عن ميت، وغُودر بالجولان حزمٌ ونائلُ، فالدفن يقال له: إضلال، وكذلك أيضاً الاضمحلال يقال له: إضلال، أو ضلال، أي ذهاب، تقول: ضل الماء في اللبن، إذا صب الماء على اللبن واختلط معه، فإنه لا يتميز هذا من هذا، ضل الماء في اللبن، {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ} تحللت الأجساد وتلاشت، هم يستبعدون الإعادة ثانية.

قال: ثم قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في "سورة إبراهيم"، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان.

لم يثبت ذلك في الكتاب والسنة أن ملك الموت اسمه عزرائيل، ولكن الله قال: {مَلَكُ الْمَوْتِ}.

قوله: **وله أعوان**، هذا جواب عن سؤال وهو أن الله -عز جل- هنا قال: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}، فدلَّ على أن الذي يتوفاهم واحد، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} [سورة الأعراف:٣٧]، {رُسُلُنَا} جمع، فذكر جماعة من الملائكة، فهل الذي يتوفى هو ملك الموت -ملك واحد- أو أن ذلك قد وكل به جماعة من الملائكة؟ فالجواب: أنه ملك واحد له أعوان، فبعض أهل العلم يقول: إنهم ينتزعون روح الميت حتى إذا بلغت الحلقوم أخذها ملك الموت، وفي حديث البراء: ((لم يدعوها في يده

طرفة عين))[٢]، فالحاصل أن ملك الموت له أعوان من الملائكة، ولا يرد على هذا أن الذين يموتون في اللحظة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها كثير، فإن قدرة الله -عز وجل- لا تقاس بما نشاهده، فعالم الغيب غير عالم الشهادة، وجاء في بعض الآثار التي لا يمكن أن يبنى عليها أن الله -تبارك وتعالى- يزوي له الأرض، ولا حاجة لمثل هذا، فالله -تبارك وتعالى- على كل شيء قدير.

قال: وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت.

قال مجاهد: حُويت له الأرض.

حويت له الأرض، يعني: كأنها جمعت له، الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [سورة الأنعام:٩٣]، هؤلاء الذي يظهر أنهم ملائكة العذاب، وليسوا أعوان ملك الموت.

قال مجاهد: حُويَت له الأرض فجعلت له مثل الطَست، يتناول منها متى يشاء.

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة السجدة:١٢-١٤].

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وقالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله -عز وجل.

إي وقالهم يعني: ومقالهم، يعني: وقولهم، يقال: وقالهم وقيلهم وقولهم.

وقاموا بين يدي الله -عز وجل- حقيرين ذليلين، ناكسي رءوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم:٣٨]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:١٠]، وهكذا هؤلاء يقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا} أي: إلى الدار الدنيا، {نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق.

هنا قوله: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر ذلك بالاستجابة، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}، هكذا فسره كما ترون، وكثير من المفسرين -ومنهم أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- فسروه بمعنى آخر {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} أي: أبصرنا ما كنا نكذب به، ما كنا ننكره، وما كنا نجحده من عقابك لأهل معصيتك، وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا، كما قال الله -عز وجل-: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، بمعنى أنه تتلاشى عنه الحجب، ويبصر الحقائق، ويسمع فيعاين الحقيقة التي كان ينكرها ويكابر فيها، فيقول: أبصرنا وسمعنا، كأنهم يقولون: الآن عرفنا حقيقة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنه كشف لهم عن الغيب، فصار الغيب في حقهم

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦٧٦).

شهادة، {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يس:٥٢]، لمّا يقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا من مَّرْقَدِنَا} فيقال: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}، فيرون هذه الأشياء ويعاينونها، {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}، ولازم ذلك الاستجابة، فكأن تفسير ابن كثير -رحمه الله- هو من قبيل التفسير باللازم، وأن المعنى الظاهر هو ما سبق -والله تعالى أعلم-، وعليه عامة المفسرين.

{نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [سورة الأنعام:٢٧] **الآية.**

وقال هاهنا {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} [سورة يونس:٩٩].

{وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

يعني أن قوله: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} المقصود في الدنيا، يعني: إذا جعل الناس على الإيمان جميعاً، هداهم إلى الإيمان، ولكن سبقت كلمته -تبارك وتعالى- وحق القول منه.

حقت كلمته وسبقت أن يملأ النار من الجن والإنس، وبهذا تظهر معاني أسماء الله -تبارك وتعالى- وصفاته.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} يعني: في ذلك الحين، في ذلك الوقت، في الآخرة يعني، حينما يعاينوه، وهذا غير صحيح.

قال: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له، {إِنَّا نَسِينَاكُمْ} أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: {الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [سورة الجاثية:٣٤].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كأنه جعل النسيان بمعنى الذهول عن المعلوم هو الأصل، وأن المعنى الآخر الذي هو الترك متفرع عنه؛ لأنه قال: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} يعني: تعاملتم معه تعامل الناسي له الذي لا يذكره، هذا معنى النسيان الذي هو بمعنى الذهول؛ لأن النسيان يأتي لمعنيين:

المعنى الأول: هو الذهول عن المعلوم، تقول: نسيت الكتاب، نسيت الموعد.

المعنى الثاني: يأتي بمعنى الترك والإعراض عن الشيء، تقول: فلان نسي أهله، فلان نسي قومه، فلان نسي أصحابه، فلان نسي نفسه حينما قال كذا، فالمقصود هنا الترك، فابن كثير -رحمه الله- لما فسره بمعنى الذهول قال عن نسيان الله -عز وجل- لهم في النار بأن ذلك من قبيل المقابلة، يعني أنه يعني ما يسمونه بالمشاكلة، أنه عبر بهذه اللفظة؛ لأنها جاءت في حقهم، فالشيء يذكر مع ما يقابله.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه ليس من باب المقابلة، قال: **لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة**، فلا حاجة لهذا، المقابلة يقصد المشاكلة التي هي نوع من المجاز عند الكثيرين، ويزعم بعضهم أن قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [سورة الأنفال:٣٠] أنه من باب المشاكلة،

ويذكره بعض أهل السنة، ولكنهم يبدو قالوه متابعة لغيرهم ولم يتفطنوا إلى أنهم يقصدون بذلك المجاز، فصفة المكر ثابتة لله -عز وجل-، لكن حيث يليق ذلك ويحسن، فليست من الصفات التي تثبت لله -عز وجل- بإطلاق.

فهنا إذا فسر النسيان بمعنى الترك لا حاجة إلى أن يقال هذا -يعني أنه من قبيل المقابلة- إلا إذا أريد معنى آخر للمقابلة غير الذي ذكره ابن كثير، أن الجزاء من جنس العمل، فلما تركوا أمر الله -عز وجل- وتوحيده وراءهم ظهرياً تركهم الله -عز وجل- في النار وأعرض عنهم، فهذا يمكن أن يقال عنه: إنه قابلهم بذلك، وليست المقابلة المذكورة هنا التي هي من قبيل المشاكلة، {الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ} [سورة الجاثية:٣٤] بمعنى الترك، {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة:٦٧]، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، {نَسُوا اللَّهَ} يعني: بمعنى تركوا طاعته وتوحيده، {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} يعني: بمعنى أنهم أعرضوا عما يصلحها وينفعها واشتغلوا بما يضرها.

قال: وقوله تعالى: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا} إلى قوله: {فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [سورة النبأ:٢٤-٣٠].

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة السجدة:١٥-١٧].

يقول تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا} أي: إنما يصدق بها {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً} أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً.

قال: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا} يعني: استمعوا لها، {إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً} استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، يعني كأنه فسر السجود هنا بمعنى السجود الحقيقي وضع الجبهة على الأرض، أو الخضوع والانقياد قولاً وفعلاً؟ الخضوع والانقياد قولاً وفعلاً.

قال: أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، فالسجود بعضهم يفسره بهذا في بعض المواضع، تجدون ذلك عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [سورة النحل:٤٩]، والسجود في تلك المواضع سجود حقيقي ولكن سجود كل شيء بحسبه، لكن قوله -تبارك وتعالى- هنا: {خَرُّوا سُجَّداً}، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المقصود به وضع الجبهة على الأرض، ويدل عليه قوله: {خَرُّوا سُجَّداً}، يعني: سجداً لوجوههم، {وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} يعني: وسبحوا الله في سجودهم بحمده؛ ولهذا نقول في السجود: سبحان ربي الأعلى، يعني {وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} نقول: سبحان ربي الأعلى وبحمده، يعني حامدين الله -عز وجل- ومنزهين له، فالتسبيح هو التنزيه، ويقرنون معه التحميد، سبَّحوا الله وحمدوه، فيكون هذا هو المعنى، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، {خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} يعني: في السجود.

{وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} قال: أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠].

يعني الآن الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير يعني ما حاصله الانقياد والاستجابة، هكذا فسر السجود، ولا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، إذا رجح القول الآخر، وإنما ذلك من لوازم المعنى، وأهل العلم يفسرون تارة بهذا، وتارة بهذا، وتارة ببعض ما يتضمنه اللفظ، وتارة بما يشير إليه، يعني الإشارة عند الأصوليين، دلالة الإشارة، وليست الإشارة الأخرى التي في تفاسير الصوفية.

ثم قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ} يعني بذلك: قيام الليل.

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

الآن {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، {تَتَجَافَى} يعني: ترتفع وتنبو، فإن هذا هو أصل هذه اللفظة، جفا بمعنى نبا، وتنبو عن الفرش يعني ترتفع عن الفرش، فهذا يدل على النهوض، بمعنى أنه لا يبقى في فراشه يذكر الله -عز وجل-، فيقال: إن ذلك يصدق عليه، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} يعني لا يفسر أن هؤلاء يذكرون الله في مضاجعهم، ذكر الله في المضجع لا شك أنه محمود، ولكن ليس ذلك بمقصود في الآية، وإنما المقصود أنهم يرتفعون عن الفرش، يقومون.

قال هنا: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}، فذلك يصدق على الصلاة، يصلون، ويصدق أيضاً على أحوال أخرى كالدعاء، المقصود أنهم يقومون من الفرش للصلاة والدعاء، ويدخل في ذلك الذكر؛ لأن الذاكر هو أيضاً داعٍ لله -عز وجل-؛ لأن الدعاء يكون دعاء عبادة ودعاء مسألة، المقصود أنهم يقومون من فرشهم، فيفعلون ذلك، بين صلاة وذكر ودعاء.

وهنا قال: يعني بذلك قيام الليل، هذا المعنى -قيام الليل- هو الذي فسره به الجمهور، جمهور المفسرين سلفاً وخلفاً، وكما سبق أن ذلك يصدق على قيام الليل، ويدخل فيه دخولاً أولياً وكذلك من دعا الله -عز وجل- خارج الصلاة، أو ذكره فإنه يصدق عليه ما وصف في الآية.

أما الأقوال الأخرى التي أشار إلى بعضها كقول **الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة**، وهكذا بعضهم قال: صلاة العشاء هي التي يسمونها العتمة، فوجه ذلك أن هذا وقت نوم لغيرهم، صلاة العشاء في السابق كان الإنسان يحتاج معها إلى شيء من المجاهدة والانتظار؛ لأن من طبيعة الناس أنهم يستيقظون من الفجر ولا ينامون إلا في وسط النهار نومة القيلولة، فإذا جاء المغرب يكون الناس في حالة من التعب والإعياء، وطبيعة الحياة آنذاك لا تعين على السهر، فالظلام يعم كل مكان، والهدوء يعم كل مكان، ومن ذهب إلى القرى أو رأى القرى قديماً شاهد فيها هذا، كل مظاهر الحياة تتشلّ، فحينما يصلي الإنسان المغرب يبدأ الظلام يبدأ يتلمس الجدران في داخل البيت، فيحتاج إلى إيقاد السرج، ويعم الهدوء، فالناس يغالبهم النوم؛ لأنهم في أعمالهم، فيحتاجون إلى مجاهدة من أجل انتظار العشاء، كما أن الإنسان يحتاج إلى مجاهدة من أجل الاستيقاظ لصلاة الفجر، ففسر بهذا، وبعضهم فسره بصلاة العشاء {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

{الْمَضَاجِعِ}، وتعرفون الحديث ((نام النساء والصبيان))[٣]، فكانوا حينما ينتظرون الصلاة أو إذا تأخر النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة العشاء ناموا، يغالبهم النوم، فهذا وجه هذا التفسير، وقد جاء بإسناد صحيح عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عند الترمذي وغيره قال: نزلتْ في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. وقول الصحابي: نزلت في كذا من قبيل التفسير غالباً، نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}**، ولا نستطيع أن نتجاوز هذا التفسير من أنس -رضي الله تعالى عنه- الذي يقال: إن أقل أحواله أنه من قبيل التفسير، يعني إذا ما قلنا: إن هذا سبب نزول، مع أنه لا يستبعد أن يكون هذا سبب النزول، لكنه غير صريح، فنحن نبقى على ما يمكن أن يكون معلوماً وهو أنه من قبيل التفسير، وما وراء ذلك من أنه من قبيل سبب النزول أمر مشكوك، فإذا قلنا: إنه من قبيل التفسير، فتفسير الصحابي بتلك المثابة التي تعرفون، فإن لم يوجد له مخالف فإنه يكون حجة، وبصرف النظر هنا عن كونه يوجد مخالف أو لا يوجد مخالف فابن جرير -رحمه الله- يقول: لا مانع من حملها على هذه المعاني؛ لأن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فيدخل في ذلك صلاة العشاء، ويدخل فيه صلاة الفجر، ويدخل فيه قيام الليل، فيرى أن هذا جميعاً مما يدخل في هذه الآية، وأنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع قياماً بهذه الفرائض وأيضاً والنوافل التي هي صلاة الليل، ويذكر مع هذا أن المتبادر أن المراد بذلك قيام الليل، **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}**، ولكن من قال: إن المراد بذلك صلاة الفجر والعشاء، أو صلاة العشاء مثلاً، لا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير مثلاً، وإنما هذا مما يدخل فيه، -والله تعالى أعلم-، وهذه الآية في وصف الذين يؤمنون بآيات الله -عز وجل- **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ}**، جاء بأسلوب الحصر، **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}**، ثم ذكر صفة أخرى لهم **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}**، هذه وحدها تكفي لإيقاظ قلوبنا الغافلة، فيما يتصل بقيام الليل، لا يحتاج المسلم معها إلى غيرها من المواعظ في قيام الله، إذا أراد أن يتذكر شرف هذه العبادة، وأن ينظر في حاله من التقصير فإنه ينظر إلى هذا، **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}**، نحن نقف عند هذا فنسجد ونظن أن هذا هو نهاية المطاف، لكن الله قال: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}** هذه صفتهم، **{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}**، وكأن هذه قرينة حملت الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على تفسير ذلك بالاستجابة.

{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً} أي: **خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه.**

وهذا كثير في القرآن **{يَدْعُونَ}** الدعاء هنا يفسر بدعاء المسألة ودعاء العبادة، وهم يقومون الليل رجاء ما عند الله، فهذا سائل بفعله، وكذلك يسألونه أيضاً بقولهم في دعائهم ومسألتهم، يجمعون بين الخوف والرجاء طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه، وبهذا نعرف أن الذين يقولون مثلاً: ما عبدنا الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، أن هذا خلاف من أثنى الله عليهم في القرآن، واليوم أيضاً يسأل الناس عن بعض الرسائل التي

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب وضوء الصبيان، ومتى يجب عليهم الغسل والطهور، وحضورهم الجماعة والعيدين والجنائز، وصفوفهم، برقم (٨٦٢)، وفي كتاب التمني، باب ذهاب النساء والصبيان إلى العرس، برقم (٧٢٣٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، برقم (٦٣٨).

تتداول في الجوال، أو بعض الوسائل الأخرى، يقولون مثلاً: لا تعبده حتى يعطي... أو اعبده حتى يرضى فإنه إذا رضي أعطى، كذا يقولون، رسالة متداولة، لا تعبده ليعطي وإنما ليرضى فإذا رضي أعطى، هذه فلسفة لا حاجة إليها، إنما يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، بعض الناس يطرب لمثل هذه العبارات، ويظن أن تحتها شيئاً، والواقع أن هذا مخالف لما ذكر الله -عز وجل- من صفة أهل الإيمان، فالمؤمن يعبد الله -عز وجل-، ويدعوه رجاء الثواب وخوفاً من العقاب، وطلباً لمرضاته.

قال: {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

يقول: **فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية**، هناك قيام الليل وهنا **{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**، أو الصلاة إذا فسر بصلاة العشاء والفجر وقيام الليل فهذه عبادات لازمة، ومن العبادة المتعدية الإنفاق، واقتران الصلاة بالزكاة كثيراً في القرآن فذكرت عن هذا جوابين، الأول: أن سعادة العبد دائرة بين أمرين:

الأول: حسن الصلة بالله.

والثاني: الإحسان إلى الخلق، فحسن الصلة بالله يكون رأسه بالصلاة، صلة بين العبد وربه، والإحسان إلى الخلق رأسه الزكاة، والآخر: أن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، والعبادات إما مالية وإما بدنية، وهناك نوع تكلم فيه أهل العلم ولم يتفقوا وهو ما كان مركباً من هذا وهذا، يقولون: مثل الحج.

فهنا **{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ}**، "من" هذه يمكن أن يقال:إنها تبعيضية -والله أعلم-، فإذا فسرت بأنها تبعيضية فيؤخذ منه كما يقول بعض أهل العلم أنه لا يطلب إنفاق جميع المال، وإنما يمدح بإنفاق بعضه، والشارع لا يطلب إنفاق جميع المال، كما في أول سورة البقرة، **{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**، وذكرت هناك كلام الشاطبي -رحمه الله- في إنفاق جميع المال، وهل في النفقة في سبيل الله إسراف، وجاء الكلام على هذا عند قوله -تبارك وتعالى- في سورة الإسراء: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}** [سورة الإسراء:٢٩]، وكذلك أيضاً في قوله: **{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}** [سورة الإسراء:٢٦]، هل في النفقة في سبيل الله تبذير أو لا؟

فمن أهل العلم من يقول: إنه لا يطلب شرعاً أن ينفق جميع المال، ولا يمدح بذلك، ويحتجون بمثل: ((إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم فقراء عالة يتكففون الناس))[٤]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وقال أيضاً: ((الثلث والثلث كثير))[٥]، هذا في الوصية، ولكن في النفقة أحسن ما رأيت في ذلك -والله تعالى أعلم- أن يقال: فيه تفصيل، لا يقال: إن ذلك لا يكون ممدوحاً محموداً شرعاً بإطلاق، وإنما يختلف باختلاف الناس، فأبو بكر -رضي الله عنه- تصدق بكل ماله فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، وعمر تصدق

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، برقم (٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، برقم (٢٧٤٣)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

بشطر ماله فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، والرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- معه قطعة من ذهب، فأعرض عنه، ثم تعرض له فأعرض عنه، ثم أخذها كالمغضب ورماه بها، وقال: ((يأتي أحدكم بماله ثم بعد ذلك..))، يعني يتكفف الناس، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فالشاطبي -رحمه الله- يقول: إن ذلك يدل على أنه يكون الحكم فيه باعتبار اختلاف أحوال الناس، فمن كان بمرتبة من اليقين كأبي بكر -رضي الله عنه- لا يلتفت قلبه ولا يتشعب فينتظر عادة من المخلوقين أن يصلوه أو يعطوه، فهذا لا بأس أن ينفق جميع ماله ولا يكون في ذلك إسراف ولا تبذير، ومن كان دون ذلك فإنه لا يحمد بإنفاق جميع المال في سبيل الله.

قال: وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: ((لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت))، ثم قال: ((ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل))، ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، حتى بلغ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ثم قال: ((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سَنامه؟))، فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد في سبيل الله))، ثم قال: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)) فقلت: بلى، يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: ((كُفّ عليك هذا))، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم))[٦]، رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، الترمذي: حسن صحيح.

قوله هنا في هذا الحديث: **((الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل))، ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}**، هذا من قبيل التفسير النبوي الذي جاء النص فيه على الآية المفسَّرة، فهذا يقال: إن قيام الليل داخل في هذا قطعاً، لكن هل المعنى أوسع من ذلك، فتدخل فيه صلاة العشاء وصلاة الفجر مثلاً؟ لكن لا يهون من قيام الليل، ولا يمكن أن يوقف عند مثل هذه الآثار المروية عن بعض السلف من أن ذلك المقصود به صلاة العشاء والفجر، ويكون الإنسان ممن يتجافى جنبه عن المضاجع، فإن هذا وحده لا يكفي ليتحقق فيه هذا الوصف، بالإضافة إلى أن قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى وهي قوله: **{كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}** [سورة الذاريات:١٧]، إذا نظرتم إلى أقوال المفسرين فيها تجدون أن بعضهم يفسر ذلك بمعنى -والله تعالى أعلم- غير مراد لله -عز وجل- في الآية، ولا يدل عليه السياق، **{كَانُوا قَلِيلًا**

---

٦ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٠١٦)، وقال محققوه: "صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، أبو وائل -وهو شقيق بن سلمة- لم يسمع من معاذ، وعاصم بن أبي النجود صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين"، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٣٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥١٣٦).

مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، فبعضهم يفسرها أن المعنى: أن "ما" نافية، يعني أن الوقت الذي لا يهجعون فيه قليل، يعني ما فسرها بأنها موصولة، قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه يعني: لا يهجعون إلا وقتاً يسيراً، وأكثر الوقت يصلون، ويقومون الليل ويدعون الله -عز وجل-، ففسرها بعضهم بأن "ما" نافية، قليلاً من الليل ما يهجعون، باعتبار أن المراد بذلك أن الوقت الذي يصلون فيه أو يستيقظون فيه هو وقت قليل، وهل يُمدحون بهذا، هل الآية سيقت هذا المساق لمدح أقوام لا يقومون إلا قليلاً، لا يصلون من الليل إلا قليلاً ما يتركون الهجوع إلا قليلاً؟، ليس هذا المراد، وليس هذا ما يدل عليه السياق، وهنا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}.

قال: وقوله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآية، أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لَمّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاءً وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر، رواه ابن أبي حاتم.

هذه لفتة جميلة من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- والحسن البصري، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، قال: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، لمّا أخفوا عملهم -فإن قيام الليل أبعد ما يكون عن الرياء عادة؛ لأن الناس لا يطلعون عليه- أخفى الله جزاءهم، {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، وفي قراءة حمزة، {فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم من قرة أعين}، يعني يقول الله: ما أخفيه لهم، وفي قراءة غير متواترة: {من قُرّات أعين}، يعني ما تقر به العين من ألوان النعيم، والله المستعان.

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

ذكر أمرين: أخفوا العمل فأخفى الجزاء، {قُرَّةِ أَعْيُنٍ} لما كانوا في حال من القلق على الفراش {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} عوضهم بقرة الأعين.

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: قال البخاري: قوله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآية، ثم روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: فاقرءوا إن شئتم: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[٧]، رواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي رواية للبخاري: ((ولا خطر على قلب بشر، ذُخْراً مِنْ بَلْهَ ما أُطْلِعْتم عليه))[٨].

قوله: ((ذخراً)) هنا متعلق بأعددت، ((أعددت لعبادي))، يعني: جعلت ذلك مذخوراً لهم، أعددت لعبادي الصالحين أعددت لهم ذخراً، الذخر هو الشيء المذخور، قال: ((من بَلهَ))، هذه ليست في رواية البخاري،

---

٧ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم، في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٤).

٨ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، برقم (٤٧٨٠).

و"مِن" هذه زائدة، قال الخطابي وجماعة من أهل العلم: إنها مقحمة، وإنما: ذخراً بلهَ ما أُطلِعتم عليه، يعني: في القرآن والسنة، أي أمور لم تسمعوا بها، بَلْهَ يعني: سوى، يعني: عداء، تقول مثلاً: لك في الجنة كذا وكذا وكذا بله ما نطلع عليه، تقول: فلان موصوف بكذا وكذا وكذا بلْهَ، يعني: فضلاً عن، سوى أمور مثلاً، وأخرى لم نطلع عليها، أو لا تعرفها.

تقول: فلان مقصر في كذا وكذا وكذا بله حقوق الوالدين والأولاد مثلاً، يعني: سوى حقوق الوالدين، يعني: إضافة إلى حقوق، عدا حقوق، يعني هذا الذي ذكرناه ينضاف إليه حقوق الوالدين والأولاد، وهكذا، يعني هذا فضلاً عما أُطْلِعتم عليه.

قال: وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))[9]، رواه مسلم.

هذا وصف جامع في الجنة، ينعم ولا يبأس، ولك أن تسرح بالذهن في قوله: ((ينعم))، هكذا بإطلاق، وتأكيد ذلك أيضاً بقوله: ((لا يبأس))، يعني: لا يحصل له أمر لا معنوي ولا حسي مما يكره، لا حزن ولا غم ولا هم ولا غل ولا حسد ولا ضيق صدر، لا يحصل له ملل، ولا يحصل له ضيق من شيء من الأشياء، ولا يسأم من نعيم -الإنسان يسأم ما يلابسه كثيراً-، وأيضاً لا يحصل له مرض ولا صداع، ولا ألم ضرس، ولا إزعاج، ولا يرى أشياء يكرهها، ولا يسمع عن أشياء يكرهها، إلى غير ذلك من الأمور التي كل أحد يمكن أن يسرح ذهنه فيما يمكن أن يصل إليه هذا الذهن مما يعرفه من مفردات البؤس والنكد الموجود في الحياة الدنيا، إذا سمع المؤمن مثل هذا عرف الدار الحقيقية التي ينبغي أن يشمر في العمل لها، وهان ما يلقاه من نعيم أو بؤس في هذه الحياة الدنيا، فهذا مَعْبر، ليس هذا المعوَّل، سواء حصّل فيه أو لم يحصّل من حطام هذه الدنيا، هناك حيث لا يحصل له بؤس ولا أمر يكرهه، لا يفنى الشباب ولا تبلى الثياب، والله المستعان.

{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نزلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [سورة السجدة:١٨-٢٢].

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حُكمه يوم القيامة مَنْ كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذِّباً لرُسُله إليه، كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الجاثية:٢١]، وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}

---

٩ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: {وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:٤٣]، برقم (٢٨٣٦)، ولفظه: ((من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه))، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (٨٨٢٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، يحيى بن إسحاق: هو السَّيْلحيني، وأبو رافع: نفيع الصائغ المدني نزيل البصرة، وثابت: هو ابن أسلم البُنَاني".

[سورة ص:٢٨]، وقال تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} الآية، ولهذا قال تعالى هاهنا: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ} أي: عند الله يوم القيامة.

هنا الذي حمل ابن كثير -رحمه الله- على تفسير ذلك بكونه يوم القيامة، أن الله -تبارك وتعالى- قال: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نزلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ}، فهذا تفصيل لما سبق، وتبيين له، فهذه القرينة، فهذا لا إشكال فيه، لا يستوون يوم القيامة، ولكن نفي الاستواء يحمل على أعم معانيه، فهم لا يستوون في حياتهم وصفاتهم، ولا يستوون عند مماتهم، ولا يستوون في البرزخ، ولا يستوون في القيامة، ولا يستوون في منازلهم التي يصيرون إليها، الجنة أو النار، لا يستوون من كل وجه؛ ولهذا في الآية الأخرى التي ذكرها {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ} [سورة الجاثية:٢١]، فهم لا يستوون في الحياة ولا يستوون في الممات أو بعد الممات؛ ولهذا فإن الله -تبارك وتعالى- يعد أولياءه في الدنيا بالسعادة والانشراح، أمور ذكرها الله -تبارك وتعالى- في مواضع من كتابه، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل:٩٧]، فوعدهم بالحياة الطيبة، المقصود بالحياة الطيبة يعني: ما يحصل للمؤمن من الانشراح والسعادة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والمقصود بها هذا، وهذا يتفاوت الناس فيه تفاوتاً كثيراً، ولكن الإنسان قد يخفى عليه بعضه، وإذا أردت أن تنظر قد لا يصل الإنسان إلى مراحل من اللذة والسعادة لضعف إيمانه وكمالاته، فلربما يسمع هذا الكلام ويستشكل، لكن دعنا مما يحصل لعامة الناس، وأعطيكم مثلين لمن ينظر من الخارج، بعض من أسلم من رجال الاستخبارات الغربية أيام الاستعمار، رجل كان يعيش في الصحراء الكبرى، مع البادية والرعاة، ولا تسأل عن حال أولائك في ذلك الوقت من الجهل والبدع والخرافة، أليس كذلك؟، ومع ذلك الرجل كان يتعجب من حياتهم، جاء من أوروبا ويتعجب من حياة هؤلاء، ولفت نظره ما هم فيه من السكينة، واليقين، وهدوء البال، وراحة النفس، والطمأنينة، والبعد عن القلق وما إلى ذلك، يقول: تأتي رياح فتهلك ما عندهم، تأتي أوبئة فتهلك مواشيهم، ونجد أن هؤلاء يقولون: الحمد لله هذا قضاء الله وقدره، يقول بكل بساطة، ولا ينجم عن هذا اكتئاب، وانهيار وما أشبه ذلك، كان يتعجب من حال هؤلاء الناس، فلفت نظره ذلك، وعرف أن هذا يرجع إلى دينهم وإسلامهم.

المثال الثاني: ذكره محمد أسد، وهو رجل معروف، جاء من أوروبا ثم أسلم، أظنه جاء من النمسا وكتب "الطريق إلى مكة" وكتب كتاباً آخر، فذكر في رحلته لما جاء مع زوجته، جاء إلى مصر وذهب مروراً ببلاد الشام، ثم ذهب إلى تركيا وركب القطار، وهو ذاهب إلى أوروبا في القطار من تركيا إلى أوروبا فكان يرى الناس الذين ركب معهم القطار في مصر مثلاً والذين رآهم في بلاد الشام وكذا غير الوجوه التي رآها وهو متجه إلى أوروبا، فكان يقول لزوجته: أما ترين الفرق؟ الذين كنا نراهم في مصر والشام وجوه غير هذه الوجوه، يعني غير الأوروبيين، فكان ينظر إلى وجوه الأوروبيين ينتابها القلق، وجوه قلقة، هو يقول هذا، هو رجل منهم، فكان يذكر هذا لامرأته، وتوافقه على هذا، تقول: نعم، صحيح، الوجوه تلك غير هذه الوجوه، حياة قلقة، ولذلك إذا ذهبت إلى أوروبا تجد حياة أخرى تماماً، الناس في الصباح مثلاً عندما تنظر إليهم على

الأرصفة مملوءة بالبشر يمشون، تجد المشي بطريقة مسرعة، والحياة سريعة وقلقة، وتشعر أنك مشدود متوتر، كل الناس، يعني طريقة الحياة طريقة غير عادية، وإذا ذهبت إلى بلاد المسلمين تجد سكينة وهدوءاً، وإذا أردت أن تنظر إلى هذا في بلد واحد اذهب إلى كينيا مثلاً، إذ أنا ذهبت إلى نيروبي هي كأنها بلد غربية، لكن ألوان الناس سوداء، فتجد أنماط الحياة الغربية من اللباس، والكفر بالله -عز وجل-، وما أشبه ذلك، لأنها كانت مستعمرة بريطانية، فتجد الناس نفس الطريقة في الحياة الغربية، فإذا ذهبت إلى الشرق في مُمْبَسّا مثلاً وهي تعتبر ساحلاً إسلامياً تجد الحياة تختلف تماماً، هي حياة المسلمين التي تعرف من الهدوء والسكينة والسكون، ليس فيها ذاك القلق والتوتر الذي تراه في نيروبي، فهذه أمور أنا ذكرتها من أجل أن الإنسان قد يقف مع بعض المعاني التي يسمعها ويقول لضعف إيمانه: أنا لا أجد هذه الجنة التي يتكلم عنها شيخ الإسلام، لا أجد هذه اللذة التي تذكرون، نقول: الذين ينظرون من الخارج يرون الفرق بين هذا المسلم وبين ذاك الكافر، وأنا أتعجب كيف يعيشون، أعني الكفار، كيف يستطيعون أن يعيشوا؟!، إنسان بعيد عن الله لا يعبد ولا يعرف الله، كيف يعيش، تتنابه المخاوف من كل جهة، الإنسان لو فاتته صلاة الفجر في يوم من الأيام ما يقدر يعيش ذاك اليوم، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ليس في النوم تفريط))[١٠]، لا يستطيع أن يعيش ذلك اليوم، يشعر أن الدنيا كلها مقفلة، ولا يريد أن يرى شيئاً، ولا يرى أحداً، ولا يكلم أحداً، هؤلاء الذين لا يعرفون الله ولا يصلون ولا يسجدون له كيف يعيشون؟!

فالمقصود أن قوله: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ}، لا يستوون من كل وجه، ويدخل في هذا دخولاً أولياً أنهم لا يستوون في جزائهم في الآخرة، بقرينة أن الله قال: **{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**.

قال: وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّيّ وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي مُعَيط.

هذه جاءت في عدد من الآثار وهي من قبيل المراسيل، ولا يصح من ذلك شيء في سبب النزول، أنها نزلت في علي وفي عقبة بن أبي معيط، يعني أن عقبة بن أبي معيط افتخر على عليٍّ -رضي الله تعالى عنه-، وتطاول عليه، فنزلت الآية {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا} يعني: عقبة، ولكن ذلك لا يصح، فالآية عامة.

قال: ولهذا فَصَّل حكمهم فقال: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات.

تفسير الإيمان بالتصديق هذا تجدونه في عبارات بعض أهل العلم، وهو كثير في كلام ابن جرير، ولكن إذا عرف أن قائل ذلك ليس من الإرجاء في شيء، وليس من المرجئة في شيء فإن ذلك غاية ما هنالك أن يقال: إن العبارة لو كانت أدق لكان أولى، نعرف أن الإيمان إذا ذكر مع الأعمال الصالحة فيكون الإيمان باعتبار ما يكون في القلب، وهذا الذي في القلب، فهل الإيمان هو التصديق في اللغة؟

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم (٦٨١).

الإيمان في اللغة تصديق خاص، أي تصديق انقيادي بمعنى الإقرار، أقرب ما له الإقرار، أقرب ما يفسر به الإقرار والإذعان القلبي، وليس مجرد التصديق، وشيخ الإسلام في كتابه الإيمان الكبير ذكر نحو سبعة فروقات في اللغة بين الإيمان والتصديق، ابن جرير كثيراً ما يقول: آمنوا صدقوا، مع الفرق بين هذا وهذا.

قال: {فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى} أي: **التي فيها المساكن والدور والغرف العالية.**

يعني التي يأوون إليها، {جَنَّاتُ} الجنات هي البساتين، {جَنَّاتُ الْمَأْوَى} هذه البساتين فيها القصور والمساكن التي يأوون إليها.

قال: {نزلاً} أي: **ضيافة وكرامة.**

باعتبار أن النُّزل هو ما يعد للضيف.

{بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا}.

الباء هنا تكون سببية، يعني بسبب ما كانوا يعملون، فالعمل سبب لدخول الجنة، ولكنه غير مستقل، يعني ليس بسبب تام، وإنما لابد من وجود السبب والشرط، تحقُّق الشرط وانتفاء المانع، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك هو الذي يعبر عنه أحياناً بالسبب التام، يعني الذي يحصل بعده المسبَّب، فالعمل سبب لكنه لا يستقل ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))[11]، فالباء هنا لا تدل على المقابلة.

قال: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا} أي: **خرجوا عن الطاعة،** {فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا} **كقوله:** {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} **الآية.**

قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

{وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} أي: **يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.**

كما قال الله -عز وجل-: {وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}، المقمعة: حديدة لها مثل الرأس فيضربون بها، نسأل الله العافية.

قال: وقوله تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ} **قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه.**

وروي مثله عن أبيّ بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النَّخَعِي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزَرِي، وخصيف.

العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، بعضهم يقول: المقصود بالعذاب الأدنى ما ذكر، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم فسره بالقتل، ما وقع لهم من القتل يوم بدر، العذاب الأدنى، وبعضهم فسره بعذاب القبر، {مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ}، وأن العذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة، وبعضهم يقول: المقصود بذلك سنين الجوع التي حصلت لهم بمكة، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ}، وابن جرير -رحمه الله- عممه فيما يقع لهم في الدنيا، يعني دون عذاب القبر، ليس عذاب القبر، لماذا، ما القرينة؟

---

[11] - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦)، ولفظه: ((لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة))، وأحمد في المسند، واللفظ له، برقم (٧٤٧٩)، وقال محققوه: "صحيح، وهذا إسناد ضعيف، زياد المخزومي متابعٌ".

القرينة أن الله قال: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، في عذاب القبر لا يمكن أن يرجعوا ويتوبوا وينيبوا إلى الله -جل جلاله-، هذه قرينة، وبعض أهل العلم فسر ذلك بعذاب القبر، {الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأكْبَرِ}، قال: هذه الآية يستدل بها على إثبات عذاب القبر، وأنكره آخرون.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا ما يخفي على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: {مِنَ الْعَذَابِ الأدْنَى} ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله"[١٢].

هذا لا تكاد تجد مثله في كتب التفسير، تجد الرد مباشرة أن هذا غير صحيح، وبعيد، وبعضهم قد يقول: أبعد النجعة من قال: إنه عذاب القبر؛ لأن الله قال: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فلا رجوع في عذاب القبر، فابن عباس هنا يوجه ابن القيم -رحمه الله- كلامه يقول: الله قال: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى}، فمِن هذه تبعيضية، فمن العذاب الأدنى ما يقع لهم في الدنيا من الآلام والأحزان والهموم، والمصائب، والحدود كما يقول بعض السلف التي تقام على المنافقين مثلاً، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}، فهناك عذاب أدنى وعذاب أكبر، دلت عليه هذا الآية، العذاب الأدنى ما يقع من هذه الأمور في الدنيا، لكن ليس هذا كل العذاب الأدنى، هذا منه، إذاً منه بقية أخرى وهو ما يقع في القبر، فهذا الذي يقع لهم في الدنيا هو جزء، هو من بعض العذاب الأدنى، إذاً فيه عذاب أدنى وعذاب أكبر، فعذاب القبر من الأدنى، لكنه غير مراد بهذه الآية هنا بقرينة {مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى}، لكنه أيضاً واقع لهم؛ لأنه قال هنا: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} من العذاب والمصائب إلى آخره، لكنه واقع لهم بالفعل أنهم يعذبون في قبورهم؛ لأنه بقي لهم بقية من العذاب الأدنى، هذه الطريقة تتكرر في كلام ابن القيم -رحمه الله-، وهي من أنفع ما يكون لطالب العلم.

قال: وقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} أي: لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة، -رحمه الله-: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن مَنْ أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرَّة، وأعوز أشد العوَز، وعظم من أعظم الذنوب؛ ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} معنى هنا {وَمَنْ أَظْلَمُ} أن هذا الاستفهام مضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، وذكرنا هناك أنه يرد على هذا سؤال معروف، وهو أن الله قال في موضع آخر: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [سورة البقرة:١١٤]، وفي موضع آخر قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

---

١٢ - كتاب الروح، لابن القيم (٧٦).

افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [سورة الأنعام:٢١]، وما شابه ذلك، السؤال هو: إذا كان المعنى: لا أحد أظلم من هذا، فتارة قال: لا أحد أظلم {ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} ، وتارة قال: {مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}، وتارة قال: {ممَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، وللجمع بين هذه الآيات للعلماء جوابان:

الجواب الأول: أن أفعل التفضيل، {وَمَنْ أَظْلَمُ} -لا أحد أظلم- لا تمنع التساوي، وإنما تمنع أن يزيد أحد هؤلاء على الآخر، فحينما تقول مثلاً: فلان أكرم أهل البلد، وفي مناسبة أخرى تذكر شخصاً آخر وتقول: فلان أكرم أهل البلد، لا تعارض بحيث إن أفعل التفضيل "أكرم" لا تمنع التساوي، ولكن تمنع أن يزيد أحدهما على الآخر، فيكون كل واحد بلغ في الكرم غايته مما يصلح لمثله، يعني لكن لا تمنع التساوي، فهؤلاء كلهم قد بلغوا المرتبة العالية في الظلم، سواء كانوا من المانعين لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أو ممن ذُكّروا بآياته فأعرضوا عنها، أو ممن افتروا على الله كذباً، كلٌّ بلغ في الظلم غايته ولا إشكال أن يقال عن هذا أو هذا أو هذا.

الجواب الثاني: أن كل واحد منها يختص ببابه، ففي باب المنع لا أظلم {ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}، وفي المفترين لا أحد أظلم {مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}، وفي المعرضين لا أظلم {ممَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، فيحمل كل واحد على باب يخصه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٢٣) إلى الآية (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة السجدة:٢٣-٢٥]: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى -عليه السلام- أنه آتاه الكتاب وهو التوراة.

وقوله: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}: قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء، ثم روى عن أبي العالية الرّياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم -يعني ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أُريتُ ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلا آدم طُوَالاً جَعْداً، كأنه من رجال شَنُوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه))[1]، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، أي: أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- نقل هذه الأقوال التي رأيتم أن المراد موسى -عليه الصلاة والسلام-، يعني ليلة المعراج، أو ليلة الإسراء، سواء قيل: إن هذه السورة نازلة قبل الإسراء، فيكون ذلك في المستقبل، أنك ستلقاه، أو كانت السورة نازلة بعد الإسراء والمعراج، بمعنى أنك لقيته، وعبارات أهل العلم منها ما تجد فيه أنه يقول: سيلقاه. يعني: في ليلة المعراج، لكن هذا بناء على وقت نزول السورة، هل كان قبل المعراج أو كان بعده؛ ولهذا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جاءت عباراته غير مقيدة، بمعنى أن ذلك المقصود به ما كان من لقاء موسى ليلة المعراج، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، وبعضهم يقول: إن ذلك في القيامة، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: في الآخرة، وبعضهم يقول: إن المقصود بقوله: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: من لقاء موسى الكتاب، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، من لقاء موسى الكتاب الذي هو التوراة، الذي أنزله الله -عز وجل- على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا اختيار الزجَّاج، ولا يخلو -والله أعلم- من بعد؛ لأن هذه القضية لا يمتري فيها أحد، وما كان أهل الكتاب ولا أهل الإشراك يجادلون فيها، لم تكن محل جدال، كانت قضية معلومة مسلمة، لا إشكال فيها.

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٣٩).

وبعضهم كالحسن يقول: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: لقاء ما لقي موسى -صلى الله عليه وسلم- من التكذيب والأذى، فيكون الضمير يرجع إلى غير مذكور، لكن الأصل أن الضمير حينما يرجع إلى غير مذكور أن يكون ذلك مما يفهم من السياق، وهنا لا يوجد ما يدل عليه من السياق، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، يعني من لقاء موسى، والله تعالى أعلم.

قال: وقوله: {وَجَعَلْنَاهُ} أي: الكتاب الذي آتيناه {هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، كما قال تعالى في سورة الإسراء: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلا} [سورة الإسراء:٢].

يعني الآن هذا تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُ} يحتمل أن يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، باعتبار أنه المحدّث عنه، وأنه أوتي الكتاب، ومن ثَمّ قيل: إن قوله: {فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} يرجع إلى موسى، ولم نقل: إنه يرجع إلى أقرب مذكور وهو الكتاب؛ لأن الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فلماذا لم نقل مثلاً: إنه هنا يرجع إلى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه؛ لأن المحدث عنه موسى -صلى الله عليه وسلم-، والمعنى أوضح حينما يقال: فلا تكن في مرية من لقاء موسى، بخلاف ما لو قلنا: فلا تكن في مرية من لقاء الكتاب، ثم أيضاً هنا: {وَجَعَلْنَاهُ}، جعلنا الكتاب الذي هو آخر مذكور، أو جعلنا موسى -عليه الصلاة والسلام-، ابن كثير -رحمه الله- حمله على الكتاب، وفسره بقوله: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، {وَجَعَلْنَاهُ}، وبعضهم يقول: إن الضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، جعلنا موسى هدىً لبني إسرائيل، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو يتوافق مع القاعدة التي ذكرناها مراراً أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فيكون ذلك يرجع إلى موسى، جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل، وهذا قال به قتادة من التابعين، ولو أن بين القولين ملازمة فالقول: إن ذلك يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، فجعله الله هدىً لبني إسرائيل وذلك بما أنزل عليه من التوراة، فكتابه الذي أنزل عليه كان هدى، -والله تعالى أعلم-، ومن ثم لا نحتاج إلى الترجيح، وفيما يتعلق بالحديث الذي ذكره هنا: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصف موسى قال: ((رجلاً آدم)) يعني: فيه سمرة ((طوالاً)) يعني: طويل القامة، ((جعداً)) يعني: مثل شعر العرب يقال له: جعد، بخلاف عيسى -عليه الصلاة والسلام-، ((سبط الرأس)) مثل: شعور الأوربيين، وهنا قال: ((كأنه من رجال شنوءة)) يعني: القبيلة المعروفة الأزد -أزد شنوءة-، التي منها غامد وزهران، فإنهم يرجعون إلى الأزد -أزد شنوءة-، ((كأنه من رجال شنوءة))، يعني: فيه ضخامة وطول وقامة ممتدة -عليه الصلاة والسلام.

قال: وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحَرَّفوا وأوَّلوا، سُلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا، وكذلك قال الحسن بن صالح.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا.

ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ} **الآية، كما قال هنا:** {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} **أي: من الاعتقادات والأعمال.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}، في قراءة حمزة والكسائي: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا}، يعني تكون اللام للتعليل، {لِمَا صَبَرُوا} يعني: بسبب صبرهم، والإمام المقصود به من يقتدى به في الخير، المقدم في ذلك، وليس المقصود به الملك، والإمارة ونحو ذلك؛ ولهذا في قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة:١٢٤]، فإن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما وعده الله -عز وجل- {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} يعني: بالملك، وما طلب ذلك لبنيه قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِي}، ومن ثَم فلا يشكل قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، أنه يوجد من الظالمين كثير من أصحاب الولايات والملك، مع هذه الآية، {لاَ يَنَالُ عَهْدِي} بالإمامة، وإنما المقصود الإمامة في الدين.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}، فـ"مِن" هذه تحتمل أن تكون تبعيضية، يعني جعل بعضهم أئمة يهدون بأمرهم، فيكون المراد بذلك العلماء وقبلهم الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بني إسرائيل كثير، فصاروا أئمة للناس، ولا يختص ذلك بالأنبياء -والله تعالى أعلم-؛ لأن جميع الأنبياء وليس فقط أنبياء بني إسرائيل يهدون بأمر الله، وهم أئمة في الدين والصبر والدعوة والخير، ولكن المقصود هنا غير الأنبياء، ولذلك قدمته في الذكر على الأنبياء، يعني من العلماء من بني إسرائيل؛ بسبب صبرهم ويقينهم، ولهذا قالوا: تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين، الصبر على طاعة الله -عز وجل- وترك معصيته، والصبر على أقداره بأنواعها، الأقدار المؤلمة، وكذلك أيضاً الصبر على الأمور المحبوبة من الغنى ونحو ذلك من النعم، فإنها تحتاج إلى صبر، من أجل أن لا يفضي ذلك بصاحبها إلى الخروج عن طاعة الله -عز وجل-، والطغيان، فهناك صبر في حال النعمة، وصبر في حال المصيبة، فتنة السراء والضراء، يحتاج الإنسان أن يصبر، فإذا صبر وكان عنده يقين فإنه بذلك تحصل له الإمامة في الدين، فلابد من الابتلاء، فإذا صبر الإنسان اجتاز، وصار إماماً يقتدى به، ولا يزيده البلاء إذا صبر عليه، وأيقن بما هو عليه من الحق لا يزيده ذلك إلا رفعة، وهذا أمر مشاهد.

قال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}، عبارة سفيان هذه، وقتادة قال: **لما صبروا عن الدنيا**، فهذا مما يدخل في الصبر، صبروا عنها بمعنى أن أطماعهم لم تتعلق بها، وإنما كانوا يريدون الآخرة، فالمعنى لا يختص بهذا -والله أعلم-، ولكنهم ذكروه للحاجة إلى التنبيه عليه، وإلا فلا يخفى عليهم أن الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقداره، عن هذا جميعاً، لكن هنا نوع من الصبر يغفل عنه كثير من الناس وهو الصبر عن الدنيا، قال سفيان: **هكذا كان هؤلاء**، هذه العبارة في غاية الأهمية، وهي قوله: **ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا**، ليس المقصود بذلك أنه يترك الكسب المباح، وطلب الرزق، فإن الله -عز وجل- وصف الأنبياء بأنهم يمشون في الأسواق، فهذا لا إشكال

فيه، ولا يكون الإنسان عالة على الناس، وإنما المقصود بذلك أن يتعلق الطمع بها، فيكون مزاحماً لأهلها منافساً لهم في دنياهم، فمثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، إذا كان الإنسان يتهافت على الدنيا ولو بالمباح، عالم ولكنه حريص على الدنيا، ينافس أهلها، تجده في ألوان التجارات، ويبيع المخططات العقارية، ومن أغنى الناس ليس عن مال ورثه مثلاً، وإنما بسبب تجارته ومزاحمته لأهل الدنيا، فمثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، ولو كان عنده علم، هذا المقصود، فيحتاج إلى شيء من الزهد بهذا الحطام، وأن يأخذ منه ما يكفيه ويغنيه عن الناس، أما التوسع في هذا والاشتغال به، وتتبع هذه الأمور بحيث لا يكون بينه وبين أهل الدنيا والمشتغلين بجمع حطامها لا يكون هناك فرق، مثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، حتى يتحامى من الدنيا، والله المستعان.

وهذه الآية لا تختص ببني إسرائيل، فإن العلة المذكورة {لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}، مَن تحقق ذلك فيه حصلت له الإمامة في الدين، فإن الله أخبر أنه جعلهم كذلك لهاتين العلتين، والمقصود باليقين هنا يقين المرء بما هو عليه من الحق، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يتزعزع، وكذلك اليقين بوعد الله، فلا يحصل له شك واضطراب، فيثبت على ما هو عليه، أما الذي يحصل له تردد وشك حينما يرى إعراض الناس، أو يبتلى، أو يبدأ يراجع ما هو عليه من الحق، ويبحث عن مخرج وطريق آخر يقبله الناس، ولو كانوا على انحراف وضلال، كأن يتماشى معهم في أهوائهم ورغباتهم فلا يسخطون عليه، فمثل هذا لا يكون إماماً في الدين، وليست العبرة بكثرة المشاهدين، فهذا لا يعني الإمامة في الدين، فنحن نشاهد من أهل الضلال من لهم جمهور كبير، سواء كانوا يتكلمون باسم الدين، أو كانوا من أهل الشهوات، وإذا أردت اقرأ في أخبار القساوسة في هذا العصر، ورجال الدين عند النصارى مثلاً، تجد أن الواحد منهم في برامجه التي يقدمها في قنوات فضائية تجد أرقاماً هائلة، هذا يتابع برنامجه مائتا مليون، وهذا يتابع برنامجه مائة مليون، فيتحدثون بهذه الأرقام، ومن الدعاة إلى الله -عز وجل- والعلماء من يتابع برنامجه مائة مليون، فهل هذا يعني أن أولائك على حق، يتابع برنامجه مائة مليون من حطب جهنم، ثم ماذا؟ {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦]، فليست هذه هي الإمامة في الدين، ولا يكون لهؤلاء لسان صدق، والله المستعان.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} قال: **أي من الاعتقادات والأعمال**، يعني: كأن ابن كثير -رحمه الله- أجراه على ما قبله، وإن لم يكن كلامه صريحاً، إلا أن يكون في الأصل شيء آخر، يعني أن ذلك في بني إسرائيل أن ربك هو يفصل بينهم، والسياق هو في بني إسرائيل، {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ} فالضمير يرجع إلى بني إسرائيل، مع أن ابن جرير -رحمه الله- حمله على جميع الخلق، ولا شك أن الله -عز وجل- يفصل بين جميع الخلائق يوم القيامة، وهذا يدل عليه آيات كثيرة في القرآن، ولكن السياق هنا في بني إسرائيل.

قوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} ما معنى بأمرنا، ماذا قال ابن كثير فيها؟ قال: **يهدون إلى الحق بأمر الله**، عبارة ابن كثير محتملة، {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}، يحتمل أن يكون المراد بأمرنا أي: بأمرنا لهم، يعني

أمرناهم بذلك، بسبب أمرنا لهم أن يهدوا الناس ويرشدوهم، والمعنى الثاني: {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} أن هدايتهم تكون بما أمر الله به، والله -عز وجل- أمر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأهل العلم أن يبينوا للناس، وأخذ عليهم العهد في ذلك والميثاق {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [سورة آل عمران:١٨٧]، فهذا أمره -تبارك وتعالى- لهم، وكذلك أيضاً إنما يرشدون الناس بما أمر الله به، ويعظونهم بذلك، فيعلمونهم شرعه، فهذا كله حق، والله أعلم.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ} [سورة السجدة:٢٦-٢٧].

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر، {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [سورة مريم:٩٨]؛ ولهذا قال: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولائك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [سورة الأعراف:٩٢]، كما قال: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} [سورة النمل:٥٢]، وقال: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} إلى قوله: {وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٥-٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ} أي: إن في ذهاب أولائك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة، {أَفَلا يَسْمَعُونَ} أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}، يهد لهم يعني: يبين لهم، {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ}، فكم هذه تدل على التكثير، قرون كثيرة أهلكها الله -عز وجل-، وقوله: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} هذا المشهور وهو ما ذكره ابن كثير، الذي عليه عامة المفسرين، يعني أن المشركين يمشون في مساكنهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وبعض أهل العلم قال: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} إن ذلك يرجع إلى المهلَكين، كانوا يمشون في مساكنهم ثم صارت خاوية خالية، ليس فيها أحد، لكن الأول هو الظاهر المتبادر، يعني أن المشركين يمشون في مساكنهم، ومع ذلك لا يتعظون ولا يعتبرون، هذا في ذلك الزمان، وأما في زماننا هذا فالأمر أشد، حيث صارت أماكن المعذبين أماكن للفرجة والنزهة، وهؤلاء الذين يأتونها أبعد ما يكونون عن الاعتبار، وإنما يعتبرون هذا نوعاً من السياحة والترويح والتسلية، والتقاط الصور، وما إلى ذلك، ولذلك تجد أن الكثيرين لربما يمرون على أماكن المعذبين قديماً أو يرون، يرى العالم بأسره ما يقع من العذاب المدمر المهلك لبلاد طويلة عريضة، ومع ذلك لا تكاد تجد من يعتبر، آخر ما حصل في اليابان، ومن الذي يعتبر؟، تتحول بيوتهم إلى هشيم، إلى حطام، ومع ذلك تجد هذه القوى التي يحتكرونها، أعني القوى النووية ويهددون بها العالم، ولا يملكها إلا هؤلاء الذين يعدون أنفسهم من العالم الأول، أصحاب القوى العظمى، تجد أنها تتحول إلى عبء، وخطر وشبح يهدد حياتهم بعدما كانوا يهددون به الناس، فهم يترقبون في أي لحظة أن يقع لهم زلزال، ثم بعد ذلك يكون هؤلاء هم ضحايا ما

شيدوه وبنوه وأنفقوا فيه الأموال، ولطالما خوفوا به الضعفاء، ومن تسلطوا عليهم عدواناً وظلماً، واليابان ليست بمنأى عن هذا، فإن أمريكا على لسان رئيسها السابق بوش صاحب الحرب الثانية في العراق، ذكر لما أعلن النصر أنهم انتصروا بالتكنولوجيا اليابانية، فاليابان داخلة معهم في حروبهم، وتقدم لهم، وهي تابعة لهم كما هو معلوم.

فالاعتبار اليوم صار أقل، بل لو قال قائل -كما حصل في تركيا وغيرها، عندما حصل الزلزال وكذا، لما تكلم بعض الخطباء-: إن هذه عقوبة من الله ينبغي أن نعتبر بها، استُدعوا وحُقق معهم، ووجهت إليهم تهمة، كيف تقولون: عقوبة؟ ورأيتم ما حصل في إندونيسيا وفي غيرها، ورأيتم بالصور الأعاصير المحرقة التي تحولهم في لحظات إلى شيء آخر، ومع ذلك لا تجد من يعتبر، يعني: هؤلاء إذا نزل بهم بأس الله -عز وجل- هل يتوبون، يراجعون أنفسهم؟ أبداً لا يزدادون إلا كفراً وغياً وضلالاً وبعداً عن الله -جل جلاله.

قال: وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ} يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته.

قال: وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السَيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال تعالى: {إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ}، وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [سورة الكهف:٨]، **أي: يَبَسًا لا تنبت شيئاً؛ ولهذا قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ}، كما قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}** [سورة عبس:٢٤-٢٥] **الآية؛ ولهذا قال هاهنا: {أَفَلا يُبْصِرُونَ}.**

قوله: {إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ} قال: **هي التي لا نبات فيها**، الجرز: أصل ذلك من الجَرز وهو القطع، فالأرض الجرز يعني: كأنها التي قطع نباتها، وليس ذلك معنياً بالضرورة، ولكن المقصود يعني كما عبر عنه: **لا نبات فيها**، كأنه قطع نباتها؛ لعدم الماء، بمعني أرض جرداء لا حياة فيها لا نبات فيها، ولا يفهم من هذا أنها الأرض التي لا تُنبت، الأرض الجرز، كما هو ظاهر عبارة بعض المفسرين، وإنما المقصود الأرض الميتة؛ لعدم نزول الماء، أو لعدم وجود الماء فيها، لعدم الماء، الأرض الجرز، وإلا لو كانت لا تنبت فإنها لا تستفيد من الماء وهي سباخ، ولكن الله -عز وجل- قال هنا: {فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا}، فدل على أنها تنبت، فالله -تبارك وتعالى- ينزل الماء على الأرض الصالحة لذلك القابلة له، وتارة تكون الأرض لا تنتفع بالماء الذي ينزل عليها من المطر؛ لطبيعة أرضها ولكنه يسوق إليها الأنهار من أماكن أخرى كأرض مصر، ومضى هذا، فهنا هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-: {أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ}، لكن ليس ذلك بقاطع أيضاً، يعني سَوْق الماء هنا، {أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ}، وذكر ابن كثير -رحمه الله- المعنيين، يعني لا يفهم بالضرورة هنا أنه يسوق الماء من الأماكن الأخرى عبر الأنهار، وإنما يسوق إليها الماء، ماء المطر، ويسوق إليها الماء عبر الأنهار، فهذا وهذا.

يقول: ليس المقصود بذلك أرض مصر على سبيل الحصر، وإن كانت مقصودة قطعاً، هذا كلام ابن كثير؛ لأن بعض المفسرين يمثل، والذي يظهر -والله أعلم- من {الْأَرْضِ الْجُرُزِ}، أنهم حينما يذكرون مصر يقصدون على سبيل التمثيل، وإلا فذلك لا يختص بها، يقول: لأن أرضها رخوة، فإذا كثر نزول المطر عليها تهدمت أبنيتها، فيكون ذلك ضرراً، فيسوق إليها الماء من أماكن أخرى، ويحمل هذا الماء معه من الطين ما يكون صلاحاً لأرضها، لكن سوْق الماء لا يعني بالضبط، أو لا يعني بالضرورة، أو لا يعني بالتحديد سوق الماء عبر الأنهار، ولكنه يكون بهذا وهذا، مما يتصل بهذه الآية -والله تعالى أعلم-، باعتبار ما يفسر به الجرز، الأرض الجرز، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٢٨) إلى نهاية السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} [سورة السجدة:٢٨-٣٠].

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ}؟ أي: متى تُنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتًا تُدَال علينا، ويُنْتَقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

قال الله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ} أي: إذا حَلَّ بكم بأس الله وسخُطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة، {لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}، كما قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} الآيتين، ومَنْ زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله: {فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا} [سورة الشعراء:١١٨] الآية، وكقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} الآية، وقال تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة إبراهيم:١٥]، وقال: {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، وقال: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال:١٩].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}، الفتح مضى في بعض المناسبات أنه يأتي بمعنى الحُكم والفصل، ولهذا يقال للحاكم: فاتح، وفتاح، ويقال للحُكم: فُتاحة، ومنه قول الشاعر:

*** فإني عن فُتاحتكم غَنِيّ

يعني: عن حكمكم، وهؤلاء طلبوا الفصل بين الفريقين، وقالوا: اللهم من كان منا أقطع للرحم... إلى آخر ما ذكروا، قالوا: فأحنه الغداة، لما خرجوا إلى بدر، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- أيضاً طلبوا الفتح بينهم وبين أقوامهم من المكذبين، {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٨٩] يعني: احكم بيننا وبين قومنا بالحق، فهذا الفتح هنا في هذه السورة أو في هذه الآية ما المراد به؟ {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، هنا يقول: أي متى تُنصر علينا يا محمد كما تزعم، ويُنتقم لك منا؟، فهذا النصر الذي يكون عليهم يقال له: فتح؛ لأن الله فصل فيه بين الفريقين، ولهذا قال هنا: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ} أي: إذا حل بكم بأس الله

وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة، فجمع المعنيين: في الدنيا والآخرة؛ لأن من أهل العلم من يقول: إن هذا الفتح المقصود به الذي يتساءلون عنه ويستبعدونه وهو القيامة، ما يكون في الآخرة، فهذا قال به بعض السلف كمجاهد، وبعضهم يقول: ما حل بهم يوم بدر، {مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، فحصل النصر على هؤلاء وقتلوا ورموا بالقليب، فكان ذلك فصلاً من الله -تبارك وتعالى- بين الفريقين، وفسره ابن جرير -رحمه الله- بالعذاب الذي ينزل بهم، هكذا من غير تحديد، والذي حمله على ذلك -أن يقول العذاب- هي القرينة التي بعده، أن الله -تبارك وتعالى- قال: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}؛ ولهذا فإن ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن المراد بالفتح يعني: القضاء والفصل، وأنه ليس المراد به فتح مكة؛ لأن فتح مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- أطلق فيه المشركين، والله -عز وجل- يقول: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} قال: أي: **إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة**، إذاً هذا الفتح المقصود هنا في هذه الآية لا ينفع بعده إيمان، فمن قال: إن المراد بذلك ما يكون في الآخرة فهذا واضح لا إشكال فيه، وعبارة ابن كثير كما رأيتم: إذا حل بهم بأس الله في الدنيا والآخرة، كيف يكون هذا في الدنيا، كيف نوجه كلام ابن كثير؟، أو ما الذي قصده ابن كثير؟ الذي عناه بذلك هو أن هذا إن حمل على ما يقع لهم في الدنيا فالمقصود به ما لا ينفع بعده إيمان، وهو عند معاينة الموت كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يعني عند قتلهم، أو إذا قتلوا، الفتح: كان ذلك بقتلهم يوم بدر مثلاً، إذا قيل ذلك أو أن ذلك مما يدخل فيه فكيف نوجه هذا القول؟ نقول: {لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} يعني: حينما عاينوا الموت، ولقوا حتفهم، فعندئذٍ لا ينفعهم الإيمان ولا تقبل منهم توبة ولا يستطيعون الرجوع، فهذا أيضاً يمكن أن يحمل عليه كلام ابن جرير -رحمه الله- الذي فسره بالعذاب وأطلقه، ما قال: في الدنيا ولا في الآخرة، لكنه احتج بالذي بعده {لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}، إذن هو عذاب لا يمكن معه الخلاص، ولا ينفع معه الإيمان، فصار عندنا كلام ابن كثير وقبله ابن جرير، وبعده الشنقيطي يدور حول هذا المعنى، أنه فصل من الله -تبارك وتعالى- لا ينفع معه ولا ينفع بعده إيمان، ولا يستطيعون الرجوع.

يمكن في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} **أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله:** {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} [سورة الأنعام:١٠٦] **الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.**

وقوله: {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} **أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر،** {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [سورة الطور:٣٠]**، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غبّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} أمره بالإعراض، {وَانْتَظِرْ} بعضهم يقول: إن هذه الآية نسختها آية السيف، كما هو معلوم، يقولون: إن آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، يعني كل آية فيها إعراض عن المشركين أو صفح وغفر فيقولون: منسوخة بآية السيف، والمقصود بها الآية الخامسة من سورة

براءة، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة:٥]، وهذا فيه نظر، وإنما المقصود بذلك كما قال الله -عز وجل-: {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [سورة النجم:٢٩]، بمعنى لا تشغل نفسك بهم ولا تحزن لعدم إيمانهم، هذا هو المراد، وآية السيف لم تنسخ هذا القدر الذي يذكرونه، والله تعالى أعلم.

{وَانْتَظِرْ} قال: **انتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وينصرك على من خالفك**، {وَانْتَظِرْ}، انتظر نصر الله، وانتظر أيضاً ما ينزل بهؤلاء من العذاب بسبب تكذيبهم، قال: {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}، وهم منتظرون لماذا؟ الحافظ ابن كثير هنا حمله في أول كلامه على تربصهم به -عليه الصلاة والسلام-، يعني: أنت تنتظر نصر الله، ويمكن أن نزيد: تنتظر ما يقع بهم بسبب التكذيب، وهم منتظرون ما ينزل بك، يتربصون بك الدوائر، هذا المعنى صحيح، ولكن {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} يمكن أن يحمل على معنى آخر ذكره ابن جرير -رحمه الله- ورجحه، وهو أنهم منتظرون ما تعدهم من العذاب، ومجيء الساعة، {وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- الأخيرة: **وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم**، فهذه العبارة تشير إلى المعنى الثاني الذي ذكره ابن جرير، {وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} منتظرون ما يقع لك من المكروه، أو منتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله -عز وجل- في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:١-٣].

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر مَن دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى، وقد قال طَلْق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}** ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى**، بمعنى أنه خطاب وجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أتقى الأمة لله -عز وجل-، والمراد مخاطبة الأمة بالتقوى، فإن الأمة تخاطب في شخصه -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه قدوتها ومتبوعها، هذا المراد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بتقوى الله -تبارك وتعالى-، وهذا يدل على عظم شأن التقوى وهي مراتب، مراتبها كثيرة لا تنتهي، ثم إن هذا أيضاً جاء توطئة لما ذكر هنا من قوله: **{وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}**، ولقوله: **{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}**، فهذا يفيد قصر تقواه -صلى الله عليه وسلم- وحصر هذه التقوى على التعلق بالله -عز وجل- دون أحد سواه، **{وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}**، وكأن هذا مقدمة لما ذكره بعده **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ}**.

وفيما يتصل أيضاً بمخاطبته -صلى الله عليه وسلم- بـــ **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}** هنا فرق بين باب المخاطبة والإخبار، فالمخاطبة حينما تقول: يا فلان، طبعاً معروف أن العرب تفضل وتحب الكنية فإن لم يكن فالاسم، فآخر ذلك اللقب، تكره النداء باللقب، فهنا في باب المخاطبة يحسن أن تذكر الكنية أو ما يكون به التكريم، تقول: يا أبا فلان، وتقول: يا أستاذ ونحو ذلك، في باب المخاطبة، فهنا قال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}** تكريماً وتعظيماً لشأنه -صلى الله عليه وسلم-، وفي باب الإخبار يذكر الاسم؛ ليحصل المقصود، **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ}** [سورة الفتح:٢٩] ليعرف الناس أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا تعليم من الله، فليس ذلك المقام -أعني الإخبار- كالمخاطبة، فحينما يخاطب يطلب من التعظيم ما لا يطلب بمجرد الإخبار، تقول: جاء زيد وذهب عمرو، ونحو ذلك، فإذا خاطبت واحداً منهما خاطبته بما يحب أو بما يكون فيه التعظيم أو التكريم أو نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال

تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} أي: من قرآن وسنة، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} أي: فلا تخفى عليه خافية.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي: في جميع أمورك وأحوالك، {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه.

هنا لما نهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين أمره باتباع ما يوحى إليه من ربه؛ لأن النهي ليس مقصوداً لذاته فهو من باب التخلية، فأمره باتباع ما يوحى إليه من ربه، وبالتوكل عليه؛ لأنه قد يتخوف غوائلهم، فهنا في قوله: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} قال: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، يعني: لا تسمع ما يشيرون به ابتداء، ولا تستشرهم: تطلب رأيهم، فإنهم لا يدلونك على خير، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}، في قراءة أبي عمرو {بِمَا يَعْمَلُونَ}، فيشمل ذلك المسلمين وغير المسلمين، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}.

{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:٤-٥].

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً حسياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عَلَيَّ كظهر أمي أمًّا له، كذلك لا يصير الدَّعيّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابناً له، فقال: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}، كقوله: {مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ} الآية.

قوله: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن هذا توطئة بذكر أمر محسوس معلوم لدى الجميع، يعني كأنه يقول: كما أنه لا يكون لرجل قلبان في جوفه فكذلك لا يكون له أبوان، ولا تكون زوجته التي هي محل الاستمتاع لا تكون أماً، فالأم يحرم الاستمتاع بها مطلقاً والزوجة هي محل الاستمتاع، ولا تكون أماً وزوجة كما لا يكون الدَّعيّ ولداً، يعني لا يكون له أبوان، فذكر أمراً محسوساً ليتوصل بذلك إلى ما بعده، حيث أبطل الله -عز وجل- به أمرين كان الناس عليهما منذ الجاهلية، وهكذا أيضاً يزيد بعض أهل العلم على هذا فيقول: هو توطئة أو هو إيضاح وليس مجرد توطئة، إيضاح لما قبله أيضاً، يعني: لا تجتمع طاعة الله -عز وجل- وطاعة أعدائه من الكافرين والمنافقين {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، وسواء على هذا أو هذا يكون ذلك من قبيل البيان والإيضاح بأمر محسوس يدركه الجميع ويقر به، {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وما عدا ذلك من الأقوال، وغالبه يذكر في أسباب النزول، كما جاء من أن المراد بذلك أن المنافقين قالوا هذا في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- أن له قلبين، فكذبهم الله -عز وجل-، أو أن رجلاً يُدعى بذي القلبين، رجل عنده قدَر وإمكانات عقلية وفطنة فكانوا يقولون له ذلك، هكذا يزعمون، حتى زعموا أنه فر يوم بدر وانهزم ورآه أبو سفيان حينما -كما تعرفون- ساحَلَ أبو سفيان بالعير، فلقيه وإذا هو يحمل نعلاً بيد ويلبس أخرى، فسأله عن هذا، فلم يتفطن، فعرفوا أنه لا يكون كذلك، يعني أنه كغيره من الناس، يصيبه ما يصيبهم من

الذهول، لكن لا يصح من ذلك شيء، فهذه روايات غالبها من المراسيل، وما لم يكن كذلك فهو ضعيف الإسناد، {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} سواء أن ذلك من قبيل الرد على المنافقين أو الرد على من زعم أن أحداً من الناس له قلبان، كل هذا لا يصح منه شيء، لكن لو أن أحداً توهم ذلك في نفسه أو في أحد فهذا هو الرد، {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، هذه خلاصة لما ذكر على كثرة الأقوال فيها، وذِكْر الرجل هنا لا يختص به، فكذلك المرأة من باب أولى، وما ذكر أولاً كأنه الأقرب -والله أعلم-، مع أن ظاهرها يُردّ به على من زعم أن أحداً من الناس له قلبان.

هنا قال: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}، فهنا هذا تحريم الظهار ورد على هؤلاء المظاهرين، فكذبهم الله -عز وجل- بقولهم هذا، {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ}؛ لأنه هو يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي، وهناك قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم} [سورة المجادلة:٢] ماذا قال عنهم؟ {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}، هذا رد، الرد الأول، ثم قال: {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ} يعني: ما أمهاتهم {إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}، ثم أيضاً قال ثالثاً: {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، ثم قال: {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}، فهذه الوجوه جميعاً تدل على تحريم الظهار، كذبهم بذلك، وقال: {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، لما كان قوله: أنتِ عليّ كظهر أمي صيغة خبرية، وهي مضمنة معنى الإنشاء، يعني هو يريد أن يصدر حكماً بتحريم هذه الزوجة عليه، أن يظاهر منها، فهو بهذا ينشئ حكماً، فهو خبر مضمن معنى الإنشاء، الصيغة خبرية، وهي مضمنة حكماً، فقال: {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ} فالحكم منكر، وهذا الخبر أو هذه الصيغة كاذبة، {وَزُورًا}، والزور أشد الكذب، ثم ذِكْر العفو والمغفرة يدل على أنه ذنب، وكذلك ذكر الكفارة بعده، وكل هذه الأوجه يؤخذ منها تحريم الظهار، فهنا قال: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}، ويرد هنا سؤال وهو أن هؤلاء هل قالوا: إن هذه الزوجة أمٌّ، هل قالوا: إن هذه الزوجة أمٌّ لهم؟، هم ما قالوا هذا فكيف قال الله -عز وجل-: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}، وقال: {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ} ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم؟، لأنه حينما ظاهر منها نزّلها منزلة الأم، فأكذبه الله -عز وجل- بهذا، وإن كانت الصيغة التي قالها: أنتِ عليّ كظهر أمي، {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ}، ما أمهاتهم {إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ} وهنا أيضاً يرد سؤال؛ لأنه سيأتي بعده {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، كيف نجمع بينه وبين قوله هنا: {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ}، ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، كيف نجمع بين الآيتين؟

هناك المقصود به التعظيم والتوقير وتحريم النكاح، ولكن تحتجب منه، ولا يجوز أن يخلو بها، أما هنا {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ} ففي بيان تقرير حكم يتصل بالاستمتاع والظهار.

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: "زيد بن محمد" فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} كما قال في أثناء السورة: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} وقال هاهنا: {ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ} يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان.

قال ابن كثير: **هذا هو المقصود بالنفي**، المقصود بالنفي **{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}** أنها مقدمة وتوطئة، وقوله هنا: **{ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ}** هذا فيه أيضاً تكذيب لهم، ومعلوم أن الإنسان إنما يقول بفيه، وهذا فيه نوع من الإدانة لهم، كما تقول: قال بفيه، قلت ذلك بفيك، كتبته بيدك، ومعلوم أن الإنسان يكتب بيده ويقول بفيه، وفيه أيضاً تكذيب لهم من جهة أن هذا القول لا حقيقة له في الواقع، إنما هو لا يجاوز الأفواه.

{وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}: قال سعيد بن جبير {يَقُولُ الْحَقَّ} أي: العدل، وقال قتادة: {وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} أي: الصراط المستقيم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس -يعني ابن أبي ظِبْيَان- قال: إن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: أرأيت قول الله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، ما عنى بذلك؟ قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما يصلي، فخطَر خَطْرَةَ...

خطرة يعني مثل الخاطرة الوسوسة أو الخواطر.

فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فأنزل الله -عز وجل-: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}.

وهكذا رواه الترمذي ثم قال: وهذا حديث حسن، وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث زهير، به.

هذه الرواية باعتبار أن المنافقين قالوا ذلك فرد الله عليهم، لكن هذه الرواية لا تصح.

وقوله -عز وجل-: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}: هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تبارك تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط.

فيكون على هذا الاعتبار **{أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}** المقصود به مطلق الاتصاف لا معنى أفعل التفضيل، و**{ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ}** يعني قل: فلان ابن فلان، **{أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}**.

قول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام**، هل يقال لهذا نسخ، ما كان الناس عليه ثم بعد ذلك جاء فيه تحريم أو نحو ذلك هل يقال له نسخ؟، رفع ما كان عليه الناس في ابتداء الإسلام، يعني مما كانوا عليه قبل الإسلام، فجاء الإسلام ثم بعد نزل الحكم، هل يقال له نسخ؟ هل يدخل في النسخ، معنى النسخ الاصطلاحي؟

إن هذا سُكت عنه تُرك، لم يتعرض له إلى هذا الوقت، فيمكن أن يقال: إنّ هذا ليس من قبيل النسخ، يعني مثل رفع البراءة الأصلية لا يقال له نسخ، وإنما النسخ بالمعنى المعروف هو رفع حكم شرعي متقدم بخطاب شرعي متأخر، متأخر عنه يعني.

روى البخاري -رحمه الله- عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة -رضي الله عنه- مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}، وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي[1].

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة -رضي الله عنهما-: يا رسول الله إنا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَلَيّ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((أرضعيه تحرمي عليه))[2] الحديث.

أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولاه، قال: ((أرضعيه)) وهو كبير ((تحرمي عليه))، وفي هذا كلام معروف لأهل العلم، هل يحرم رضاع الكبير أو لا؟ فالذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم: أن رضاع الكبير لا يؤثر، أن هذا خاص بهذه الحالة، هذا الذي عليه الجماهير، السواد الأعظم سلفاً وخلفاً، ويقابل ذلك قول من قال: إنه يؤثر مطلقاً، وهو قول عائشة -رضي الله عنها-، فكانت إذا أرادت أن يدخل عليها أحد أمرت بإرضاعه يعني أن ترضعه أختها أو نحو ذلك فتكون عائشة خالته من الرضاع، وليس المقصود إطلاقاً في مثل هذا أن تباشر إرضاعه، فهذا لا يقول به أحد، وإنما المقصود أن يكون ذلك بواسطة، وكثير من الناس لما يسمعون مثل هذا يصيبهم الذهول والدهشة ويظنون أنها تباشر إرضاعه فمِن متهكم ومِن فَزِعٍ، وليس المقصود هذا إطلاقاً وإنما أن تعطيه قدر خمس رضعات مشبعات، وشيخ الإسلام -رحمه الله- توسط في هذه المسألة، فرأى أن ذلك لا يختص بأبي حذيفة ولا يكون أيضاً بإطلاق وإنما في حالات خاصة كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة مع سهلة، نشأ عندهم وكان يصعب فصله، فوجدوا حرجاً، فجاءت هذه الرخصة، فعند شيخ الإسلام يكون ذلك فيمن نشأ مع أناس، تربى معهم كأنه أحد الأولاد، ويصعب عليهم عزله، فإن الإرضاع عند شيخ الإسلام في مثل هذه الحالة يصح.

ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك تعالى زوجة الدعيّ، وتزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة، وقال: {لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}، وقال في آية التحريم: {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ} احترازاً عن زوجة الدعيّ، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة فمنزّل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: ((حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب))[3].

---

١ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما-، برقم (٢٤٢٥)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢٠٩)، والنسائي، كتاب النكاح، باب تزوج المولي العربية، برقم (٣٢٢٣).

٢ - رواه مسلم، كتاب إرضاع الكبير، باب رضاعة الكبير، برقم (١٤٥٣).

٣ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، برقم (٤٨٢١)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، برقم (١٤٤٧).

هذا جواب على سؤال مقدر وهو: {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ} طيب وكذلك من الرضاعة؟، فأجاب عنه بهذا الجواب، ثم تحدث عما يقال على سبيل التكريم...، نقف عند هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (٦) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله-: فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نهى عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدَّمَنَا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أغيلمةَ بني عبد المطلب على جمرات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول...

بعضهم ضبطه حُمُرات، يعني حُمر، وبعضهم ضبطه بالجيم، واللطخ ضرب لين.

قال: فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول: ((أُبَيْنِيّ)).

أي تصغير ابني، أو تصغير أبنائي، أُبَينيّ.

((أُبَيْنِيّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس))[1]، قال أبو عبيد وغيره: "أُبَيْنِيّ" تصغير ابني، وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر.

وقوله: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} في شأن زيد بن حارثة، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا بُنَي))[2]، ورواه أبو داود والترمذي.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

هنا يريد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن يقول: إن ما جاء من النهي عن التبني لا ينافي أن يقال على سبيل التحبب والتلطف لغير الابن، يقال له: بُنيّ أو نحو ذلك، وأن ذلك لا إشكال فيه وساق الحديث، وهذا واضح وليس من التبني في شيء.

---

١ - رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب التعجيل من جمع، برقم (١٩٤٠)، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب النهي عن رمي جمرة العقبة قبل طلوع الشمس، برقم (٣٠٦٥)، والترمذي، كتاب الصوم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في تقديم الضعف من جمع بليل، برقم (٨٩٣)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب من تقدم من سمع إلي منى لرمي الجمار، برقم (٣٠٢٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٦٩٦).

٢ - رواه مسلم، كتاب الآداب، باب جواز قوله لغير ابنه يا بني واستحبابه للملاطفة، برقم (٢١٥١)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الرجل يقول لابن غيره يا بني، برقم (٤٩٦٤)، والترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في يا بني، برقم (٢٨٣١).

وقوله: {ادعوهم لآبائهم} يعني يقال: فلان ابن فلان، وكذلك ما سبق من قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ} [سورة الأحزاب:٤]، هل له أن يقول بعد هذا لزوجته: أنت أمي، أو يا أمي، والله -عز وجل- قال في سورة المجادلة: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [سورة المجادلة:٢]، فهل له أن يقول هذا؟، فيما يتعلق بالتلطف بالغير يمكن أن يقول: يا بنيّ، لكن هل له تلطف بزوجته أن يقول: يا أمي، أو أنت أمي، أو أنت كأمي، أو أنت مثل أمي، أو نحو هذا، أو يقول: يا ماما من أجل أن يعلّم الأولاد كيف يدعونها، فإن دعاها باسمها دعوها باسمها، فبعض الناس يعمد إلى هذا ويقول: يا ماما، من أجل أن يسمعوه ويحاكوه، ليس له أن يقول هذا، وإن لم يكن ذلك ظهاراً، لو قال إنسان لزوجته: أنت أمي، أو أنت كأمي، أو أنت مثل أمي، أو نحو ذلك فهذا يحتمل، فإن قصد به الظهار فهو ظهار، وإن لم يقصد به الظهار، وقال: أنا قصدت التعظيم والتقدير والمنزلة وما أشبه ذلك فليس له أن يقول مثل هذا، ليس له أن يقول: أنت أمي، ويا أمي، أو يا ماما أو نحو هذا؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}، ولقد نبه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- على هذا المعنى في تفسير سورة المجادلة، أنه ليس للرجل أن يقول لزوجته هذا على سبيل التلطف أو نحو ذلك، لكن لا يكون ظهاراً إلا إذا قصد به الظهار، إذا نوى الظهار؛ لأنه من العبارات المحتملة، فيستفصل عن قصده.

وقوله -عز وجل-: {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عُرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم.

إذا كان لا يعرف أباه فإنه يقول: يا أخي، أو يقول: يا مولاي، إن كان مولى له.

قال: أي عوضاً لما فاتهم من النسب؛ ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة -رضي الله عنها- تنادي: يا عم، يا عم، فأخذها علي -رضي الله عنه- وقال لفاطمة -رضي الله عنها-: دونَكِ ابنة عَمّك فاحتمليها فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيّهم يكفلها، فكل أدلى بحجة، فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتي -يعني أسماء بنت عميس-، فقضى النبي -صلى الله عليه وسلم- لخالتها، وقال: ((الخالة بمنزلة الأم))، وقال لعلي: ((أنت مني، وأنا منك))، وقال لجعفر: ((أشبهت خَلْقي وخُلُقي))، وقال لزيد: ((أنت أخونا ومولانا))[٣].

ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه -صلى الله عليه وسلم- حكم بالحق، وأرضى كلا من المتنازعين، وقال لزيد -رضي الله عنه-: ((أنت أخونا ومولانا))، كما قال تعالى: {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}.

يعني يؤخذ من هذا أشياء منها أدب القاضي، فيخرج الخصوم من عنده إن أمكن في حال من الرضا والقناعة بحكمه، وما هو مشهور عند الفقهاء من أن المرأة إذا تزوجت فإن حقها يسقط في الحضانة، وأن هذا ليس

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الصلح، باب كيف يُكتب هذا ما صالح فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، برقم (٢٥٥٢).

على إطلاقه، وسبب الكلام على العلة في ذلك هل من أجل الزوج وأنه يكون له منة على أولادها، الزوج الجديد يعني، أو لاشتغالها؟، فالمقصود أن الزوج إذا كان راضياً فذلك لا يسقط حقها إذا تزوجت، وأن ما ورد في الحديث من إسقاط الحق يجمع مع هذا الحديث، وهي مسألة خارجة عما نحن فيه، لكن الحافظ أشار إلى كثرة ما تضمنه هذا الحديث من الأحكام، فهنا جعفر كان معه خالة ابنة حمزة، وجعلها بمنزلة الأم، وكانت متزوجة، فجعلها أحق بالحضانة، فكيف بالأم؟

قال: ثم قال تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأً، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [سورة البقرة:٢٨٦]**، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله: قد فعلت))[٤]، وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر))[٥]، وفي الحديث الآخر: ((إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون عليه))[٦].**

وقال -تبارك وتعالى- هاهنا: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} أي: وإنما الإثم على مَنْ تعمد الباطل كما قال -عز وجل-: {لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} الآية.

يعني فيما يسبق إليه اللسان، فالناس اعتادوا دهراً طويلاً أن يقولوا: فلان ابن فلان، زيد بن محمد، فلما جاء المنع من ذلك فإن الخطأ أمر وارد والألسن قد تسبق إلى ما عهدت واعتادت، فرفع الله -عز وجل- هذا الحرج عن الناس، وهذا من رحمته بالمكلفين، لا يؤاخذهم بمثل هذا.

قال: روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر -رضي الله عنهم- أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ: ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم -أو: إنّ كفرًا بكم- أن ترغبوا عن آبائكم، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تطروني كما أُطري

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، برقم (١٢٦).

٥ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم (٦٩١٩)، ولفظه: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر))، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم (١٧١٦).

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، برقم (٢٠٤٥)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٧٢١٩)، ولفظهما: ((إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))، وصححه الألباني في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (٢٥٦٦).

عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبده ورسوله))، وربما قال مَعْمَر: ((كما أطرت النصارى ابن مريم))[7].

هو الشاهد هنا: "لا ترغبوا عن آبائكم" هذا من القرآن الذي نسخ لفظه وبقي حكمه، والمقصود "لا ترغبوا عن آبائكم" يعني فتنتسبوا إلى غيرهم رغبة عنهم.

قال: ورواه في الحديث الآخر: ((ثلاث في الناس كفر: الطَّعْن في النَّسبَ، والنيِّاحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم))[8].

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [سورة الأحزاب:٦].

قد علم الله تعالى شفقة رسوله -صلى الله عليه وسلم- على أمته، ونصحَه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مُقَدّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة النساء:٦٥]، **وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين))**[9]**، وفي الصحيح أيضا أن عمر -رضي الله عنه-، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: ((لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك))، فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((الآن يا عمر))**[10]**؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}.**

وروى البخاري عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا، فإن ترك دَيْنًا أو ضَيَاعًا، فليأتني فأنا مولاه))[11]**، تفرد به البخاري ورواه أيضا في "الاستقراض".**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**، حاصل ما ذكره الحافظ ابن كثير من كلامه والأحاديث التي أوردها يمكن أن نستخلص: أولاً: قال: أولى بهم من أنفسهم وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، هذا الأول، أن حكمه -صلى الله عليه وسلم- فيهم أولى ومقدم على اختيارهم، والحديث

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}** [سورة مريم:١٦]، برقم (٣٢٦١).

٨ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، برقم (٦٧)، بلفظ: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت))، ورواه بلفظ: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة...))، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، برقم (٩٣٦).

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الإيمان، برقم (١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، برقم (٤٤).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٢٥٧).

١١ - رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا، برقم (٢٢٦٩).

الثاني الذي ذكره ((لا يؤمن أحدكم))، وحديث عمر، يؤخذ منه أنه أولى -صلى الله عليه وسلم- بالمحبة، أن يكون أحب إليه من نفسه والناس أجمعين، هذا الثاني، والثالث: ما تضمنه حديث أبي هريرة وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة))، يعني مضمون هذا الحديث ما قاله -عليه الصلاة والسلام- في آخره: أن من مات وعليه دين فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقضيه عنه، وعلى هذا المعنى حمل القرطبي -رحمه الله- هذه الآية، يعني فسرها بمقتضى هذا الحديث، فصار الآن ثلاثة معانٍ، وهذه المعاني الثلاثة كلها صحيحة، ولهذا عممه بعض أهل العلم، يعني حمله على هذه المعاني جميعاً، وهذا ظاهر صنيع الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وعلى هذا مشى ابن القيم، ومن المتأخرين من قال بهذا -أعني حمل الآية على العموم-: القاسميّ، وهذا ظاهر -والله تعالى أعلم-، ولهذا قالوا: إذا أمر النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بشيء ودعت النفس إلى شيء كان المقدم ما أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن حكمه -صلى الله عليه وسلم- أنفذ من حكم المرء على نفسه، وأنه أولى بالمحبة، أي يحب النبي -صلى الله عليه وسلم- أعظم من محبته لنفسه وأهله والناس أجمعين.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر أنها تتضمن أموراً وذكر بعض ما سبق، أن يكون ذلك في المحبة، وذكر لازمه أنه يلزم من هذا الانقياد وسائر لوازم المحبة، أولى بالمؤمنين بالمحبة، إذاً هذه المحبة تترجم باتباعه والاقتداء به وطاعته وما إلى ذلك، والأمر الثاني أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهي تعمم، {أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} بالمحبة والطاعة، وأن حكمه أنفذ، وفيما يتصل بموضوع الميراث يقضي عمن مات ولم يترك شيئاً، وكذلك بالنصرة، كل هذه المعاني.

قال وقوله تعالى: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

بمعنى ما تكون بنت أم المؤمنين محرمة، عثمان -رضي الله عنه- تزوج اثنتين من بنات النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعليٌّ تزوج فاطمة، فهذا لا إشكال فيه، وأبو العاص بن الربيع أيضاً تزوج ابنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلا ينتشر هذا التحريم، بينما الأم أختها خالة، وبنتها أخت، وأمها جدة، فالتحريم ينتشر، أما هنا ففي التوقير والتعظيم وتحريم التزوج منهن، لكن لا يخلو بها ولا يراها، {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ} [سورة الأحزاب:٥٣].

وقوله: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، بعضهم فهم من ظاهره {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، فهم أن هذا يختص بالرجال، أنهن أمهات الرجال، ليس للواحد منهم أن يتزوجها بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا يخلو بها، وما إلى ذلك، وهذا الذي ذهب إليه ابن العربي المالكي، وكثير من أهل العلم قال: إن ذلك لا يختص بالرجال بل هو عام للرجال والنساء، والآية ليس فيها ما يدل على التخصيص؛ ولهذا عممه كثيرون، وإلى هذا ذهب القرطبي -رحمه الله-، والأولون يستدلون بأن امرأة قالت لعائشة -رضي الله عنها-: يا أُمَّهْ، فقالت: أنا أم رجالكم لست بأمك[١٢]، وهذا يحتاج إلى أن يتحقق ويراجع من جهة الثبوت، لكن

---

١٢ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٣٢).

إذا فهم أن هذا المقصود به التعظيم والتوقير فإنه يدخل فيه النساء والرجال، وهل يقال: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} هل يقال: هو أب لهم؟ من أهل العلم من منع ذلك، وبعضهم قال: لا إشكال فيه؛ لأن ذلك جاء في قراءة غير متواترة، والقراءة غير المتواترة إذا صح سندها فإنه يحتج بها في الأحكام على الراجح، تتنزّل منزلة الحديث النبوي، في مصحف أبيّ: وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم، وفي قراءة ابن عباس: وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم، فأثبت له ذلك، وهو أصح الوجهين عن الشافعي -رحمه الله-، والأنبياء هم بمنزلة الآباء لقومهم، وعليه حمل جماعات من أهل العلم قول لوط -صلى الله عليه وسلم-: {هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [سورة هود:٧٨] قالوا: يعني بنات القبيلة، بنات قومه، بنات قبيلته، فهو بمنزلة الأب لهم، فقال: {هَؤُلاء بَنَاتِي}، وهذا أحد الأقوال التي ذكرت في تفسير الآية، والأبوّة كما يقال: أبوتان، أبوة نسب، تكون سبباً لوجود الإنسان، والثانية أبوة تربية، وهي سبب لترقيه في الكمال، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا شك أنهم أئمة هذا الشأن، وإذا كان يقال: هو أب لهم، وهن أمهات المؤمنين، فهل يتوسع في هذا فيقال: إن أخوات أمهات المؤمنين خالات المؤمنين، وإن إخوانهن أخوال المؤمنين، فيقال: معاوية -رضي الله عنه- خال المؤمنين وما أشبه ذلك، هذه مسألة أيضاً مختلف فيها، وعامة أهل العلم أن ذلك لا يقال، مع أن الشافعي -رحمه الله- نص على هذا أنه يقال: خال المؤمنين أو خالات المؤمنين، ولا أعلم دليلاً على هذا، إنما يوقف عند ما ورد، المقصود التعظيم والتوقير لهن، وما وراء ذلك من قراباتهن وما أشبه هذا فلا يقال ذلك -والله تعالى أعلم- فيوصف بهذا الوصف، إنما يكون ذلك من جهة النسب والرضاع فحسب، وهل يقال لمن طلقها: إنها أم المؤمنين؟ منهم من أجازه، ومنهم من منعه، وبعضهم فصل في ذلك، فقال: إن كان بعد الدخول قيل لها هذا، وإن كان قبله لا يقال.

قال: وقوله تعالى: {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} أي: في حكم الله {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى بينهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

قوله: {أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} قال هنا: أي في حكمه، وبعضهم يقول: {فِي كِتَابِ اللَّهِ} يعني القرآن، والقرآن متضمن لأحكامه وهذا قد جاء في القرآن كما ترون، والله تعالى أعلم.

قال وقوله تعالى: {إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا} أي: ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية.

لما نسخ الحكم الذي كان في أول الإسلام من التوارث بالمؤاخاة قال الله -عز وجل-: {إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إنه بقي لهؤلاء من الذين حصل لهم المؤاخاة **النصر والبر والصلة والإحسان والوصية** كأن يوصي له، {إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}، وبعضهم فسره بالوصية للقرابات من غير الوارثين، {إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا} إلا أن توصوا لقراباتكم، يعني: من غير الوارثين، بل من غير أهل الإيمان والهجرة، لا يتوارث أهل ملتين، أصحاب ملتين شتى، المؤمن لا

يرث الكافر، والكافر لا يرث المؤمن، لكن هل له أن يوصي له؟ الجواب: نعم، فإذا قام به مانع من موانع الميراث وهو في الأصل من الورثة فله أن يوصي له، وعلى هذا حمل قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [سورة البقرة:١٨٠]، بعضهم يقول: منسوخة، إما بآيات المواريث، أو بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث))[١٣]، وأقوال أهل العلم في هذا معروفة في ناسخها إن كانت منسوخة، وبعضهم يقول: هذه ليست منسوخة، وإنما المقصود مَن كان مِن هؤلاء ممن قام به مانع من موانع الإرث، ففي هذه الحالة له أن يوصي له، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً، لمّا منع الله -عز وجل- من التوارث بين هؤلاء من غير القرابات استثنى سائر وجوه الإحسان، والمعروف هنا يشمل الوصية وغير الوصية من الهبة والهدية، وكذلك تبقى النصرة وما إلى ذلك فهذا لا إشكال فيه.

قال: وقوله تعالى: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً} أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد.

وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقتٍ لمَا له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي.

قوله تعالى: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً} يعني: في اللوح المحفوظ، فكل ذلك مثبت فيه، فالتشريع يأتي متدرجاً بحسب أحوال الناس لقيام مصالحهم، وينسخ منه ما ينسخ وفق حكمة الله -عز وجل-، وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في قوله: {إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}، يعني لما يتعلق بالبر والإحسان والوصية والنصرة والعقل وما إلى ذلك، هو الذي اختاره أيضاً ابن جرير، وهو الذي عليه عامة أهل العلم.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٧-٨].

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة آل عمران:٨١]، **فهذا العهد والميثاق أُخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرَّح بذكرهم أيضاً في هذه الآية.**

قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ} هذا عام، ثم قال: {وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ} إلى آخره، هذا العهد أو الميثاق، الميثاق: هو العقد المؤكد، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **في إقامة دين الله وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق**، ومن ذلك أنه إذا بُعث نبي كما قال الله -عز وجل-: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ}، وبعض

---

١٣ - رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، برقم (٢٨٧٠)، والنسائي، كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية للوارث، برقم (٣٦٤١)، وابن ماجه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، برقم (٢٧١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٧٨٨).

أهل العلم يقول: الميثاق حينما استخرجهم من صلب أبيهم آدم كأمثال الذر، وأن الله -عز وجل- أيضاً أخذ عليهم ميثاقاً آخر من الرسالة والنبوة، والظاهر -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير، ويدل عليه ما أورده من قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ} فهذا هو الميثاق، فالقرآن يفسر بالقرآن.

قال: وفي قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [سورة الشورى:١٣]، **فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومَن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}.**

يقول: **فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم**، و**{مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}** نوح هو الفاتح، هو أول رسول إلى أهل الأرض، **{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}** هذا الخاتم، فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم، **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}** هذا الفاتح، **{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}** هذا الخاتم، فهذان طرفان، ذكر هذا مرتباً، يعني الفاتح والخاتم، والذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا في أول كلامه وفي آخره من أن هذه الآية جاءت بالإخبار عن أولي العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنهم هؤلاء الخمسة، يعني في هاتين الآيتين هنا في أخذ الميثاق فذكر هؤلاء الخمسة، وفي الآية الأخرى آية الشورى **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ}** هذا في ما شرَّعه -تبارك وتعالى-، وما وصى به هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وليس فيهما ذكر لأولي العزم، وفي الآية الأخرى آية الأحقاف **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [سورة الأحقاف:٣٥]، ولم يذكر أحداً منهم، فمن أهل العلم من ربط بين هذه الآيات الثلاث، وفسر أولي العز بهؤلاء الخمسة، وهذا قول مشهور عند بعض أهل العلم ولكنه ليس محل اتفاق، فبعض أهل العلم يذكر ويسمي عدداً من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويزيد على هذا العدد، وبعضهم يقول: إن الأنبياء جميعاً والرسل -عليهم الصلاة والسلام- كلهم موصوف بذلك، ولكنه هنا لم يذكر ولم يخص هؤلاء، لم يرد ما يدل على أن هؤلاء هم فقط الموصوفون بذلك، وإنما هنا ذكرهم في مقام، وفي الآية الأخرى ذكرهم في مقام، وأما ذكر أولي العزم فإنه جاء مطلقاً: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}**، فهم أصحاب العزائم العظام والصبر الكبير في تحمل الأذى وتبليغ رسالات الله إلى أقوامهم، بعض أهل العلم يقول: جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- موصوفون بذلك، فكل الرسل يصدق عليهم هذا، أنهم أولو العزم، وبعض أهل العلم يخص بعض الرسل فيقيد ذلك، هل يقيد بخمسة أو يقيد بأكثر؟ هذا محل اختلاف وليس محل اتفاق بهؤلاء الخمسة، -والله تعالى أعلم-، فالآية ليس فيها ما يدل على التخصيص، والله أعلم.

قال: كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه -صلوات الله عليه- ثم رتبهم بحسب وجودهم -صلوات الله عليهم.

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد.

وقوله تعالى: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ} قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل.

قال الحافظ في قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ} **المبلغين المؤدين عن الرسل** -عليهم الصلاة والسلام-؛ يعني الدعاة من أتباعهم، وبعضهم يقول: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} ليسأل الأنبياء عن التبليغ، ماذا بلغوا، هل بلغوا أقوامهم؟، وقيل: يُسألون عما أجابهم أقوامهم، ماذا كان مردودهم عليهم؟، وبعضهم يقول: يُسألون عن الوفاء بهذا العهد، {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ}، وحمله ابن القيم على العموم {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ}، فالأنبياء يُسألون، والأتباع والأمم تُسأل {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص:٦٥]، وكذلك أيضاً يُسألون عن الميثاق {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إذا كان الصادقون يُسألون عن صدقهم فما بالك بالكاذبين؟!، والله المستعان.

قال: وقوله تعالى: {وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ} أي: من أممهم {عَذَابًا أَلِيماً} أي: موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلَّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإنْ كذبهم مَنْ كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومَنْ خالفهم فهو على الضلال، كما قال أهل الجنة: {لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٤٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (٩) إلى الآية (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [سورة الأحزاب:٩-١٠].

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور، وقال موسى بن عُقْبة وغيره: كانت في سنة أربع.

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي -رضي الله عنه-، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التراب وحفَرَ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات.

وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}، وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة -وهم طائفة من اليهود- لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي -صلى الله عليه وسلم- وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالئوا الأحزاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١١].

ومكثوا محاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري -وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية- ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيل المسلمين إليه، فيقال: إنه لم يبرز إليه أحد، فأمر علياً -رضي الله عنه- فخرج إليه، فتجاولاً ساعة، ثم قتله علي -رضي الله عنه-، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله -عز وجل- على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبقَ لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا} قال مجاهد: وهي الصّبا، ويؤيده الحديث الآخر: ((نُصرتُ بالصّبا، وأهلكتْ عاد بالدبور))[1].

وقوله: {وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}**، قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في تاريخ الخندق: وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور، هذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والقول الآخر قول موسى بن عقبة هو المنقول عن الإمام مالك، وبه قال ابن حزم، والمشهور هو الأول، وهؤلاء الجنود الذين ذكرهم الله -عز وجل- هم قريش ومن معها ممن تابعها كأشجع وفزارة وبني مرة وغطفان وبني أسد وبني سليم، كل هؤلاء خرجوا معهم، وكانوا قريباً من عشرة آلاف.

وقوله هنا: **وجعل النساء والذراري في آطام المدينة** يعني: الحصون، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نُصرتُ بالصبا وأهلكتْ عاد بالدبور)) الصبا: التي تأتي من قبل المشرق، والدبور هي التي تأتي من قبل المغرب.

قال: وقوله: {وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} هم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليَّ، فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء، لِمَا ألقى الله -عز وجل- في قلوبهم من الرعب.

روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما-، فقال له رجل: لو أدركتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قاتلتُ معه وأبليتُ، فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا رجل يأتي بخبر القوم، يكون معي يوم القيامة؟))، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: ((يا حذيفة، قم فأتنا بخبر من القوم))، فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: ((ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهم عَلَيّ))...

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نصرت بالصبا)، برقم (٩٨٨)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

((لا تذْعَرهم عليّ)) يعني: الذعر هو الخوف والفزع، ((لا تذعرهم علي)) يعني: لا تتصرف وتعمل ما من شأنه أن ينفروا منك ويقبلوا عليّ، يعني بعبارة أوضح: لا تستفز القوم، لا يصدر منك ما يستفزهم، ويحرك نفوسهم فيقبلوا عليّ.

قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كَبِد قوسي، وأردت أن أرميَه، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ))، ولو رَمَيْته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حَمّام، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أصابني البرد حين فَرَغتُ وقررْتُ...

يعني بردت.

قال: فأخبرتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وألبسني من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قم يا نومان))[٢].

وقوله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} أي: الأحزاب {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} تقدم عن حذيفة -رضي الله عنه- أنهم بنو قريظة.

قوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} قال: يعني الأحزاب {مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} فسره مجاهد بأن المقصود {مِنْ فَوْقِكُمْ} يعني: من أعلى الوادي، وأن غطفان جاءوا من تلك الناحية من أعلى الوادي، يعني بينهم وبين المدينة الوادي من الناحية الشرقية نزلوا بمكان يقال له: ذنب نقماء، وهو وادٍ هناك، جاءوا من الناحية الشرقية، وجبل أحد من الناحية الشمالية، بينهم وبين المدينة الوادي، وهناك أودية تجتمع فيما يسمى مجمع الأسيال، فتجد من ناحية الشرق اليوم يعرف بوادي العاقول، يأتي قريباً من حرة النار، وإذا نظرت إلى جبل الرماة تجد الوادي الذي كان عنده أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين يحمون ظهورهم ونحو ذلك يحمونهم من جهة الوادي قريباً من جبل الرماة يمر به، فهذا من فروع تلك الأودية في تلك الناحية، ثم تتجه وتجتمع في مجمع الأسيال، فالحاصل أن مجاهد -رحمه الله- فسر قوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} يعني: من أعلى الوادي من جهة الشرق إلى جانب أحد، {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: تقدم عن حذيفة -رضي الله عنه- أنهم بنو قريظة، وبنو قريظة كانوا في ناحية في شرقي المدينة، يعني جهة ما يسمى اليوم بالحرة الشرقية، ولا زال العامة يقولون لها: قريظة، وهذا قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قال: **تقدم عن حذيفة**، هو حديث حذيفة، لم يكن تفسيراً لقوله: {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} ولكنه ساق الحديث في نقض قريظة للعهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإلا فإن مجاهد وابن جرير -رحمه الله- فسروا قوله: {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} أنها قريش، الذين نزلوا بمجمع الأسيال، لم يكن بينهم وبين المدينة حاجز من الحواجز الطبيعية، يعني لم يكن هناك وادٍ مثلاً بينهم وبين المدينة، فحفر النبي -صلى الله عليه وسلم- الخندق كما سبق، وهذا المكان الذي نزلوا فيه بمجمع الأسيال تجدون في كتب السيرة وفي غيرها يقولون: بين الجر والغابة، وفي بعضها الجرف ورغابة، وفي بعضها الجوب وزغابة، بعضهم يقول: المراد..، يعني

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، برقم (١٧٨٨).

يرجح واحداً منها، وبعضهم يقول: هذه أماكن متعددة ليست مكاناً واحداً، والمسألة تحتاج إلى تحرير، وهي قضية يسيرة لا يترتب عليها شيء، فهؤلاء قريش نزلوا بمجمع الأسيال، {مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}.

قال: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} أي: من شدة الخوف والفزع، {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}.

{وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ} الزيغ: هو الميل عن حد الاعتدال والاستواء، بحيث إن البصر لا يستطيع صاحبه أن يصوبه وأن يوجهه إلى ما يريد، فيميل عن مقصوده، ينحرف عن مراده من شدة الخوف كما قال الله -عز وجل- في أحوال الآخرة وأهوال القيامة بأن البصر أيضاً يحصل له شيء من هذا، يشخص، فهنا {زَاغَتِ الأَبْصَارُ} بحيث لا يستطيع الإنسان أن يصوبه فينظر ويرى ما يريد، يعني لا يستطيع أن يتحكم ببصره من شدة الخوف والفزع، {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} وهي جمع حنجرة كما هو معروف، منتهى الحلقوم.

قال: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، قال ابن جرير: ظن بعض مَنْ كان مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك.

وقال محمد بن إسحاق في قوله: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال مُعَتّب بن قشير -أخو بني عمرو بن عوف-: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط.

وقال الحسن في قوله -عز وجل-: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن رَوْعاتنا))، قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح[3]، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي.

هذا الحديث فيه ضعف، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} لعل من أحسن ما يفسر به -والله أعلم- ما قاله الحسن -رحمه الله-: والمراد أن ظنونهم تفرقت، فأهل الإيمان ظنوا بالله خيراً وأنه ناصرهم، كما قال الله -عز وجل- عنهم فيما سيأتي: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب:22]، كان هذا قول أهل الإيمان، وأهل النفاق ظنوا الظنون السيئة، {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا}، فهذه ظنون متفرقة بالله -تبارك وتعالى-، هذا المراد، والله أعلم.

{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا} [سورة الأحزاب:11-13].

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرهم: أنهم ابتُلوا واختُبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً،

---

3 - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (10996)، وضعف إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (2018).

فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم. {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا}، أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حَسَكَة ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

الحَسَكَة يعني: الضغينة، تقول: فلان في نفسه حسكة يعني ضغينة، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}، بعضهم يقول: الذي قال هذا طعمة بن أبيرق ومعتّب بن قشير، وهذا يتصل بموضوع المبهمات، وقد مضى الكلام عنه في بعض المناسبات، وأن ذلك في الغالب لا يترتب عليه شيء.

قال: وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} يعني: المدينة، كما جاء في الصحيح: ((أُرِيتُ في المنام دارَ هجرتكُم، أرض بين حَرّتين فذهب وَهلي أنها هَجَر، فإذا هي يثرب))[٤]، وفي لفظ: ((المدينة))[٥].

هنا في قوله: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} يعني: طائفة من المنافقين، وكثيرون يقولون: إن قائل ذلك هو أوس بن قيظيّ من بني حارثة، وبعضهم يقول: إن القائل هو عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، وجماعة من المنافقين قالوا هذا، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} وجاءوا بالاسم الجاهلي، لمّا جد الجد ظهر نفاقهم ونسوا ما هنالك، نسأل الله العافية.

قال: ويقال: إنما كان أصل تسميتها "يثرب" برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، قاله السهيلي.

يعني بينه وبين إرم بن سام بن نوح خمسة، عبيد ومهلاييل وعوص وعملاق ولاوذ.

قال: وروي عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكينة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة.

هذا ذكره السهيلي وغيره، ولكن هل يقال: إنها تسمى بهذا وليس عندنا ما يثبت ذلك؟، إنما تسمى بالأسماء المعروفة التي سماها بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو ما جاء في القرآن باعتبار أنه أسماء، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} [سورة الحشر:٩] جعله بعضهم من أسماء المدينة، يعني الدار، أما باقي هذه الأسماء كالمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة، هل نقول: الآن نسمي المدينة بهذه الأسماء؟ الجواب: لا، فهذا من بني إسرائيل التي لا نصدقها ولا نكذبها.

قال: وقوله: {لا مُقَامَ لَكُمْ} أي: هاهنا، يعنون عند النبي -صلى الله عليه وسلم- في مقام المرابطة.

هذا يثرب، تقرءون في التواريخ مجيئه إلى المدينة، ويذكرون أشياء الله أعلم بها من أنه آمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما أخبره أحبار اليهود أن هذا مهاجر الرسول الذي سيبعث، وأنه كتب في ذلك كتاباً، إلى غير ذلك مما يذكرون، وإذا قرأتم في بعض الأماكن المجاورة للمدينة أحياناً تجدون ذلك يرجع إلى هذا الرجل في سبب تسميتها.

---

٤ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٢٩٦)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٢٧٤٩)، وفي ضعيف الجامع، برقم (٧٩٠).

٥ - رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعقده، برقم (٢١٧٥).

قال: {فَارْجِعُوا} أي: إلى بيوتكم ومنازلكم، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ} قال العوفي، عن ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السُّراقَ، وكذا قال غير واحد.

وذكر ابن إسحاق: أن القائل لذلك هو أوس بن قَيظيّ، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ} أي: ليست كما يزعمون، {إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا} أي: هَرَبًا من الزحف.

قوله: {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}، بعضهم يقول: إن هؤلاء من بني حارثة من الأنصار، بنو حارثة وبنو سلمة باعتبار أن منازلهم كانت خارج الخندق، يعني لم يكن الخندق يحيط بها، وإنما كانت خارجه، فيقولون: إنها عورة، والعورة هو الشيء الذي يحترز له ويتخوف عليه، أو من ناحيته كالثغور المتاخمة للعدو يقال لها: عورات، فيقولون: إن بيوتنا عرضة للنهب والسُّراق، فنريد أن نحرسها وأن ندافع عنها، وهم يريدون بذلك الفرار، {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} قال: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ}، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ} التعبير بالمضارع هنا يدل على التكرار، وأن هذا يتكرر منهم، كأنهم يكثرون منه ويلحون عليه.

وقال: **ذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظي**، وهذا من بني حارثة، فهم يخشون عليها منهم، يعني من السُّراق، يعني أن بيوتنا سائبة ضائعة ليس هناك ما يدفع عنها أو يحميها أو يحفظها.

{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [سورة الأحزاب:١٤-١٧].

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين {يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا}: أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقُطْر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع.

هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير.

وبعضهم يقول كالضحاك: إن المقصود بالفتنة {سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} يعني القتال للعصبية، وبعضهم يقول: يعني الوقيعة بين المسلمين، ونشر قالة السوء كما هي عادتهم، والإرجاف، والإيقاع بين أهل الإيمان يبغونهم الفتنة، فهم لا يترددون ولا يتأخرون، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا}، ما فسره به ابن جرير -رحمه الله- ومن قال بقوله: أن المراد بذلك الكفر هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ويكون المراد أن الأحزاب لو دخلوا المدينة لتحول هؤلاء عن دينهم الذي أظهروه وهو الإسلام إلى الكفر وارتدوا على أدبارهم، موافقين لهؤلاء الغزاة الذين دخلوا المدينة، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا} يعني: المدينة، {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا}، في قراءة نافع وابن كثير {لأتوها} من الإتيان، والأول من الإيتاء بمعنى الإعطاء يعني أنهم يكفرون، وهنا يأتون الفتنة يعني راغبين، وهذا ظاهر في النفاق؛ لأنهم غير مؤمنين في الباطن فهم مع من غلب من أجل أن يحرزوا أموالهم ودماءهم، وليس من شأنهم حفظ الدين أو

الدفاع عنه، وليسوا من أهل الثبات على الحق، ولهذا قال: {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا}، بعضهم يقول: أي المدينة، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا} الضمير يرجع إليها، يعني بعد إعطاء الكفر فإن الله يهلكهم، وهذا قال به جماعة من السلف كالحسن واختاره بعض أهل المعاني كالفراء، {وَمَا تَلَبَّثُوا} أي: المدينة، أن الله لا يقرهم ولا يبقيهم بل يهلكهم بعد كفرهم وردتهم، وعامة المفسرين يقولون: {وَمَا تَلَبَّثُوا} يعني: في إعطاء الكفر، بمعنى أنهم لا يتأخرون بل يبادرون ويسارعون بمجرد ما يطلب منهم ذلك، أو بمجرد دخول الأعداء المدينة، واقتحامهم لها، فلا يحتبسون عن ذلك ولا يحصل منهم تردد ولا تأخر وإنما يبادرون، بعضهم قال: إن المقصود بذلك الإيقاع بين المؤمنين، من فسر الفتنة بهذا قال: {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا} يعني: أنهم يسارعون في الفتنة، في إذكاء العداوة بين أهل الإيمان والإيقاع بهم، وإلقاء الأراجيف وما أشبه ذلك، لو طُلب منهم ذلك، ولا يعتذرون بأن بيوتهم عورة، يعني ينشطون في مثل هذه المقامات فيجدون أنفسهم فيها؛ لأن ذلك من شأنهم وعادتهم وأخلاقهم، -نسأل الله العافية-، وقوله: {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا} يحتمل أن المقصود أن الله يهلكهم ولا يبقون، وذكْر القليل يعني {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا}، هذا اليسير هل المقصود فعلاً أنهم يبقون مدة قليلة، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا}؟، إذا قلنا الإهلاك يعني ما يكون بقاؤهم إلا مدة قليلة، وبعضهم يقول: {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا} يعني إعطاء الفتنة أنهم لا يتأخرون ولا يترددون وإنما يبادرون، فذكر اليسير هنا والقليل من قبيل التهكم كما يعبر ابن عاشور، وكثيراً ما يذكر القليل واليسير ونحو ذلك ويكون كالعدم، والعرب تعبر بذلك أحياناً عما يكون كالعدم أو ما يشبه العدم.

قال: وهذا ذم لهم في غاية الذم.

ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأدبار ولا يفرون من الزحف، {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا} أي: وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد، لابد من ذلك.

متى كان هذا {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ}؟ يعني قبل الخندق وبعد بدر، فبعضهم يقول: لما غابوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله -عز وجل- لأهل بدر من الكرامة عاهدوا الله -عز وجل-، أنهم لا يولون الأدبار إن لقوا العدو، وأنهم يقاتلون، هكذا قال بعض السلف كقتادة -رحمه الله-، وبعضهم يقول: كان هذا من بني حارثة لما حصل لهم هزيمة وتراجعٌ أو هموا بذلك في يوم أحد فعاهدوا الله -عز وجل- أنهم إذا لقوا العدو أنهم لا ينهزمون ولا يفرون ولا يقع منهم شيء من ذلك، و{كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ} يعني: قبل الأحزاب، سواء قيل: بعد بدر أو كان ذلك بعد أحد، والعهد هو العقد المؤكد، يقال له: عهد، كل عقد، مثلاً العهد مع الله، كل عقد يوثقه الإنسان مع ربه -تبارك وتعالى- فهو عهد.

قال: ثم أخبرهم أن فرَارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطوّل أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرّة؛ ولهذا قال: {وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا} أي: بعد هَرَبكم وفراركم، {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} [سورة النساء:77].

ثم قال تعالى: {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ} أي: يمنعكم، {إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ}، كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [سورة الجمعة:٨]، وقال: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [سورة آل عمران:١٥٤]، وما شابه ذلك من الآيات، وقوله: {قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً}، كقوله: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [سورة الأنعام:١٧]، ونحو ذلك من الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (١٨) إلى الآية (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [سورة الأحزاب:١٨-١٩].

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ} أي: أصحابهم وعُشَرائهِم وخلطائهم {هَلُمَّ إِلَيْنَا} أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك {لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إلا قَلِيلاً أشحةً عليكم} أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم.

وقال السُّدي: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} أي: في الغنائم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ}، {قَدْ} هنا دخلت على الفعل المضارع، وبعضهم يقول: إن دخولها في هذا الموضع إذا دخلت على المضارع تفيد التقليل، ويمثلون كثيراً لهذا بقولهم: قد يجود البخيل وقد يكبو الجواد، وما إلى ذلك، يقولون: للتقليل، والقاعدة: أن دخولها في مثل هذا الموضع، يعني: فيما ينسب إلى الله -عز وجل- كقوله: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} [سورة النور:٦٤]، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} لا يراد به التقليل قطعاً، فإذا دخلت على المضارع فإنها تفيد التحقيق، يعني قد علم ذلك لا محالة.

وذكر ابن عاشور -رحمه الله- أن دخولها على المضارع عند المحققين لا يخرجها عن معنى التحقيق أصلاً، يعني حتى في كلام الناس، فهي باقية فيه، ودالة عليه، وأضاف هذا إلى المحققين، وذكر أن كونها تفيد التقليل إنما توهمه قائله بسبب أن المقام يقتضيها في بعض المواضع فقط، وإلا فالأصل أنها تفيد التحقيق، لكن إذا دل المقام على أنها تفيد التقليل مثل: قد يجود البخيل، فإنها تكون كذلك، وهذا أوسع مما ذكرته آنفاً من أن ذلك فيما يضاف إلى الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} يعلم المعوقين، مَن هؤلاء؟ {يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ}، بعضهم يقول: إن المخاطب بذلك هم المنافقون الذين خاطبهم بقوله قبله: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [سورة الأحزاب:١٦-١٨]، هذا قال به صاحب التحرير والتنوير، والذي عليه عامة أهل العلم أن المراد بذلك والمخاطب به المسلمون الذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه

وسلم-، فالله يذكر مواقف الناس فيقول: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، فهنا في قوله: {وَالْقَائِلِينَ} يحتمل أن يكون ذلك يرجع إلى طائفة واحدة فيكون من قبيل عطف الصفات، أي أوصاف متتابعة لموصوف واحد، أن المعوقين هم القائلون لإخوانهم هلم إلينا، فذكر صفتين من أوصافهم، هذا يحتمل، ويحتمل أن يكون الذين قالوا هذا فئة، يعني أن الذين صدر منهم هذا القول ليس الكل، ولا يقصد به جميع المعوقين مثلاً، أو أن المعوقين طائفة وأن هذا صدر -أعني القول {هَلُمَّ إِلَيْنَا}- من فئة معينة، ولا شك أنه من جملة التعويق، فالتعويق يكون بهذا وبغيره، لكن هذا من أوضح صوره حينما يقولون: هلم إلينا، يعني: واتركوا رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-، والمقامَ معه على الخندق، فالحاصل أن قوله: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} بعضهم قال: هذا في المنافقين حينما كانوا يخذلون المسلمين عن المرابطة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- على الخندق، وبعضهم يقول: إن هذا صدر من يهود بني قريظة لما نقضوا العهد قالوا ذلك للمنافقين: {هَلُمَّ إِلَيْنَا}، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، لكن هذا لا يخلو من بُعد، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، كأنه يفهم من السياق -والله أعلم- والقائلين منكم لإخوانهم هلم إلينا، ويحتمل أن يكون ذلك كان في رجل كما يذكرون في كتب التفسير والسير لو صح ذلك، يعني أن رجلاً جاء من الخندق، استأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- من المؤمنين، أن يرجع إلى أهله لحاجة، فوجد أخاً له يتعشى فقال: أنت هاهنا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الخندق؟ فقال: هلم إلينا فإنما محمد وأصحابه أَكَلَة رأس، يعني هم قلة، وأن العدو سيجتاحهم، تعالَ عندنا، دع عنك النبي -صلى الله عليه وسلم- والمرابطة معه، فيحتمل هذا ويحتمل هذا {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} فهذا هو من جملة التعويق والتثبيط عن الجهاد مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقوله في سورة براءة عن قِيل المنافقين: {لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [سورة التوبة:٨١]، وقولهم كما في قصة المصطلق: {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [سورة المنافقون:٧] يعني: يتفرقوا عنه ويطلبوا بلداً آخر غير المدينة، فهذا كله من التعويق، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ} قال: **أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم**، جعل هنا الأخوة بهذا الاعتبار، والأخوة قد تقال في الإخوة في النسب، فإذا نظرنا مثلاً إلى قول من قال: إنها نزلت في هذا الرجل الذي قال لأخيه هذه الكلمة فهي أخوة في النسب، وإذا نظرنا إلى أن ذلك صدر من المنافقين، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ}، وأنهم قالوه لبعض المسلمين، فيحتمل أن يكون ذلك أخوة مثلاً في القبيلة، يقولون لعشيرتهم، هنا الحافظ ابن كثير يقول: **أي لأصحابهم وعشرائهم وخلطائهم**، فهذا نوع أيضاً من الأخوة والمؤاخاة، والأخوة تارة تكون في الاشتراك في بلد، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ}، لو قيل: إن ذلك مثلاً صدر من اليهود للمنافقين، ليس بينهم نسب، ولا يشتركون في قبيلة، ولا يشتركون في دين، فيكون ذلك بسبب اشتراكم في البلد، من بلد واحد، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، وكما سبق يبعد أن يكون من قول اليهود وأن المراد به اليهود، وإنما ذلك أقرب إلى أنه من قول المنافقين وأنهم قالوا لإخوانهم أي نظرائهم وعشرائهم كما يقول الحافظ ابن كثير، {لِإِخْوَانِهِمْ} فالأخوة هنا بالمشاكلة، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء:٢٧]، يعني: أنهم شابهوهم وشاكلوهم، واتبعوا خطاهم وآثارهم، {هَلُمَّ إِلَيْنَا} أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال، {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}، وهذا -كما سبق- أن ذكر القلة أحياناً يكون بمنزلة العدم، ولكن لا يبعد

أن يكون مراداً على ظاهره، يعني أنهم يأتون البأس قليلا فقط للتعويق والتثبيط، أو للاطلاع، أو لإثبات الحضور ونفي التهمة، أو كما قال الله -عز وجل-: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} [سورة التوبة:٤٢]، فهم يأتون للأماكن أو يحضرون المشاهد التي تكون فيها الغنيمة قريبة وسهلة المنال، فيشاركون في حضورهم من أجل تحصيل الغنائم، فيكون هذا هو القليل الذي أشار الله إليه، والله تعالى أعلم.

قوله هنا: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} قال: **أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم**؛ لأن الكلمة هذه قد تقال بمعنى أنه شحيح عليك أي: مشفق عليك، خائف عليك، من المحبة، فهنا ابن كثير -رحمه الله- يقول: **بخلاء بالمودة والشفقة عليكم**، ونقل قول السدي، وقاله أيضاً غيره كقتادة: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} يعني في الغنائم، يعني: يطالبون بها ولا يتنازلون ولا يتخلون عنها.

وبعضهم يقول كمجاهد: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} يعني: بالخير، وهذا أحسن مما قبله، -والله أعلم-، يعني أشحة عليكم بالخير، وبعضهم يقول: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} بالنفقة، ما يخرج من يده شيء لنصر الإسلام والمسلمين إطلاقاً، شحيح، ولا ينفق على الضعفاء من المسلمين، {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ}، وهذه المعاني تُحتمل كما ترون، ولذلك ابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على العموم، عموم هذه المعاني، هم أشحة عليكم بكل خير، بكل شيء، بكل معروف، لا ينفقون ولا مشاعر جيدة تجاهكم، ولا يشاركون ولا يتنازلون عن غنيمة، ولا يصدر منهم نفع ولا دفع إطلاقاً، إنما هم عبء وعالة على المسلمين، يتطفلون عليهم، والله المستعان.

قال: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال.

من شدة الخوف، {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} يعني: شبههم بنظر المغشي عليه من الموت؛ لأن عينيه تضطربان، تتحركان حركة بطيئة، فهو ينظر بطريقة معينة ويحرك عينيه، فهؤلاء من شدة الخوف لربما وصل بهم الحال إلى أن الواحد منهم لا يستطيع الالتفات؛ لأنه يخشى أن يؤتى من أي جهة في أي لحظة، فيبقى كالجثة الهامدة لا حراك فيه، فتتحرك عيناه يمنة ويسرة، {كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، وبعضهم يقول: هذا في نظرهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حال الخوف كالمتفرس ماذا عسى أن يصنع؟، فينظرون إليه بهذا النظر، والله -عز وجل- يقول: {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، فالعين تتحرك باتجاهات، ولا يكاد الرأس يتحرك؛ لأنه لم يعد في الجسد حراك من شدة الخوف، هذه حالهم في الخوف.

قال: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكْذبون في ذلك.

وقال ابن عباس: {سَلَقُوكُمْ} أي: استقبلوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشحُّ قومٍ، وأسوؤه مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق.

وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير؛ ولهذا قال تعالى: {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} أي: سهلاً هيناً عنده.

الأقوال أو المعاني التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله-، كل ذلك متقارب، فقوله هنا: **تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون**، تقول: فلان يسلق الناس بلسانه، أصل السلق يقال للبسط، ولهذا تجدون في بعض العبارات ما يدل على هذا المعنى في أمور شتى، وتجدون هذا في بعض كلام مسيلمة -قبحه الله- فيما يزعم أنه يوحى إليه، يقول لسجاح المتنبِّئة لما تزوجها ذكر في قرآنه كلاماً فاحشاً ومما قال فيه يخاطبها وأن ذلك مما أوحي إليه، فهو يخيرها في طريقة المعاشرة إن شاءت سلقاً وإن شاءت كذا، مما لا يحسن أن يذكر ولا يقال، يقصد سلقاً مستلقية، فأصله البسط.

فهنا {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، إذا قلت: بسطوا ألسنتهم، فذلك السلق، يبسطون الألسن، {إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء} [سورة الممتحنة:٢] هذا في الكفار، {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} هذا في الكفار، فبسط اللسان هناك السب والشتم والكلام الذي يسيء إليكم وما شابه ذلك، و الحافظ ابن كثير قال: **تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً وادعوا لأنفسهم المقامات والشجاعة والنجدة**، فهذا سلق، كما تقول: فلان يسلق الناس، يأخذ الناس بلسانه، يتكلم كلاماً الذي يسمعه يُخدع به كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}، هم يحسنون الكلام -نسأل الله العافية-، ولكن الفعال ليست كذلك، وكما قال الله -عز وجل- هناك بأنهم يدّعون لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة وما إلى هذا في قوله -تبارك وتعالى-: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، هذه في المنافقين، خلافاً لما هو مشهور عند العامة أنها في اليهود، يعني {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [سورة الحشر:١٤]، هذه في المنافقين؛ لأن السياق كله في المنافقين، وبعضهم يقول: في المنافقين واليهود حال اجتماعهم، وهذا أيضاً قريب، قال: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}، المعاني التي فسر بها هذا الموضوع هناك {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أنهم يدعون لأنفسهم إذا جلسوا يدعون لأنفسهم المقامات والفعال والشجاعة، وينسبون إلى أنفسهم كذباً وزوراً أشياء ما فعلوها ولا صدرت منهم من أمور الشجاعة والبأس في الحرب، وبعضهم يقول: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} بينهم عداوة، وهذا هو الأقرب، لكن الشيء بالشيء يذكر.

فهنا السلق هذا يدل على البسط، وبعضهم يفسر السلق برفع الصوت بالصياح، كما سبق: أعطونا، أعطونا، أو {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يعني: رفعوا أصواتهم وبسطوها، بسطوا ألسنتهم في الملامة أنكم تسببتم بما جرى من مجيء الأحزاب وتألّب الناس علينا، وحصار هؤلاء للمدينة، أن ما وقع كان بسببكم فبدءوا يلومون وأن المسلمين كانوا هم السبب في التعرض لهذا الخطر، أنهم ما قبلوا إشارتهم ونصحهم يعني في ممالأة الكفار ومصانعة هؤلاء الأعداء، فهم عند أنفسهم -أعني هؤلاء المنافقين- يقولون في ممالأتهم: {نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ} [سورة المائدة:٥٢]، وكذلك يقولون: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [سورة النساء:٦٢]، نحن نحاول أن نوفق ونحاول أن نسدد ونقارب ونكون في وضع لا يستهدفنا هذا العدو، والمشهور أن هذا عند الغنيمة، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وأن ذلك الكلام اعتبره ابن جرير من لازمه، يعني هم عند الغنيمة يسلقونكم بالكلام أعطونا، أعطونا، فهم لا يتنازلون إطلاقاً عن هذا الحطام، وبعضهم حمل السلق

على الملق، أي بسطوا ألسنتهم بالثناء الكاذب والتزلف للمسلمين، {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} لكن هذا فيه بُعد وإن قال به بعض السلف كيزيد بن رومان، فيه بعد؛ لأن ذكر الألسن الحداد يدل على شدة، وأن ذلك في كلام يكرهه السامع، إما في معاتبة عنيفة أو في مطالبة عنيفة، أو في نقد جارح، وما أشبه ذلك، ولا يكون ذلك في المدح، وأنهم يسلقونكم بالملق أو كذا، قال هنا: {سَلَقُوكُم} أي استقبلوكم، وهذا يرجع إلى ما سبق، قال قتادة: **عند الغنمة أعطونا أعطونا** إلى آخره، فهذا كله راجع إلى معنى واحد استقبلوكم أعطونا أعطونا، وفي قوله: **يتكلمون، يدّعون لأنفسهم المقامات،** إلى آخره وهم يكذبون في هذا، مع أن ما بعده أقرب إذا أردنا أن نرجح، وحينما يقول: {بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يُشعر بأنهم يوجهون كلاماً لا يحسن أن يقال وأن يخاطب به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه {بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يعني ليست القضية أنهم يمدحون أنفسهم ويثنون عليها وعلى بأسهم ومقاماتهم في القتال، وإنما يوجهون ذلك للمسلمين مطالبين أو منتقدين، {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} تسمع منهم ما تكره.

وقوله: **وهم مع ذلك أشحة**، {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} يعني: ليس فيهم خير، هنا قال: ليس فيهم خير، قد جمعوا وقلة..إلى آخره ، {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}، الذي يظهر -والله أعلم- أن المعنى {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} يعني لا يفهم بحال من الأحوال أن المقصود {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} الذي هو؛ لأن الخير يطلق على المال، {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [سورة العاديات:٨]، ويطلق على المعروف والبر فذلك من الخير، لا يفهم منه أنهم أهل حرص على البر والمعروف إطلاقاً، فهم أبعد الناس عن هذا، وإنما أشحة على الخير يعني المال، أشحة على المال، حرصاء كل الحرص على ذلك، وأيضاً هم ممسكون عن كل خير لكم، كما سبق في قوله: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ}، يعني {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} حال كونهم أشحة على نفعكم والإحسان إليكم والبذل من أجل الإسلام وأهله، فخصامهم هذا لا يكون بحال من الأحوال خوفاً عليكم وشفقة عليكم.

والذي يظهر -والله أعلم- أن {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} يعني: هم حرصاء على المال، حرصاء في جمعه يعني وتحصيله حينما يطالبون بالغنيمة، وكذلك لا يخرج من أيديهم شيء، والشح أشد من البخل، فإذا قيل مثلاً: إن الشح الصفة النفسانية والبخل ما يترتب عليه من الناحية العملية –الأثر- يعني فالشح متمكن في نفوسهم، أو من يقول: إن الشح أن يمنع ما في يده وأن يتطلع إلى ما في أيدي الآخرين، أو من قال: إن الشحيح هو الذي يمنع الحقوق الواجبة فيكون شحه على النفقات الواجبة، نفقة أهله وما أشبه ذلك، والبخيل يعني دون ذلك، لكن لا شك أن الشح أعظم من البخل، ولهذا قال الله: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن:١٦]، {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} أي: سهلاً هيناً، هذا فيه تهكم بهم، أنّ إخراجهم من دائرة الإيمان وإحباط أعمالهم أمر ليس بشيء عند الله -عز وجل.

{يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلا} [سورة الأحزاب:٢٠].

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخَوَر والخوف، {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} **بل هم قريب منهم، وأن لهم عودة إليهم** {وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ} أي:

ويوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم.

قوله: {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} هذا يحتمل أنه يتصل بما قبله، يعني: {فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} يعني باعتبار أن جراءتهم هذه وسلقهم على اعتقاد أن الأحزاب لم يذهبوا، لأنهم يمالئون الكفار ويعتزون بهم، حتى إن قوله: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} فُسر باعتبار أنهم يقولون لهم: {هَلُمَّ إِلَيْنَا} من أجل إذا دخل الأحزاب نحميكم، نقول: فلان ما شارك، فلان لم يكن معهم، فلان معنا، {هَلُمَّ إِلَيْنَا}، فكانوا يقطعون بدخول الأحزاب إلى المدينة، فيخذِّلون يقولون: انظموا إلينا من أجل إذا دخل الأحزاب نحميكم، فلا يحصل لكم مكروه، استبقوا على دمائكم، ابقوا على دمائكم وأموالكم.

فهنا {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ} بعضهم يقول: يحتمل هذا المعنى، أنهم سلقوكم بألسنة حداد، لا زالوا يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، لكن هذا لا يخلو من بعد؛ لأن الله قال: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، متى يذهب الخوف؟ حينما يذهب العدو، فهم يستقبلونكم بهذا إذا ذهب، وعليه يكون قوله: {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} جملة استئنافية جديدة غير متصلة بما سبق، يعني يذكر صفة جديدة لهؤلاء، وحالاً من أحوالهم، لكنها غير مرتبطة بما سبق، يعني: أن من أوصافهم أنهم يسلقونكم بألسنة حداد، أنهم أشحة على الخير، وذكر من أحوالهم أنهم مع ذهاب الأحزاب لا زالوا غير مصدقين ولا متصورين أن الأحزاب سيرجعون هكذا، فهم حتى مع رحيل هذه الجيوش إلا أنهم {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه غير مرتبط بقوله: {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}؛ لأن هذا إذا ذهب الخوف، فإذا كانوا يحسبون الأحزاب لم يذهبوا فالخوف موجود.

{وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ}، يعني: مرة أخرى، فهم يتمنون لو كانوا بعيدين، {أَنَّهُم بَادُونَ} يعني في البادية {يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ} يعني: من بعيد لا يطالهم سوء ولا يحصل لهم مكروه.

قال: {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلاً} أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم، والله -سبحانه وتعالى- العالم بهم.

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}

[سورة الأحزاب:٢١-٢٢].

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر -تبارك وتعالى- الناس بالتأسي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه -عز وجل-، -صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين-؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا.

تقلقوا من القلق.

وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله -صلى الله عليه وسلم-؟ ولهذا قال: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}.

هنا {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} في عمله -صلى الله عليه وسلم- وجهاده في الخندق وما إلى ذلك، بالإضافة إلى أحواله كلها -عليه الصلاة والسلام-، فهو قدوة كاملة من كل وجه، ولما ذكر الله الأسوة بإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال: {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} [سورة الممتحنة:٤]، فالاستثناء هناك يحتمل أن يكون من الأسوة، لكم فيه أسوة إلا في هذا، فيحتمل أن يكون من قبيل الاستثناء المنقطع هناك، بمعنى لكن قول إبراهيم لأبيه، فعلى القول بأن الاستثناء من الأسوة أخذ منه بعض أهل العلم أن ذلك من جملة الأدلة الدالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وأكمل، لمّا ذكر الأسوة به لم يستثنِ، وفي إبراهيم -عليه السلام- استثنى {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ}، أسوة إلا في كذا، وقد سُئلت عن الأخذ من اللحية، ويحتج السائل بأنه يوجد كثير من الفضلاء يأخذون من لحاهم دون القبضة، وفوق القبضة، فقلت له: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} تقول لي: فضلاء، وأقول لك: رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكمل وأشرف، والأسوة فيه، ولم يقل النبي -صلى الله عليه وسلم-: لقد كان لكم في فلان أسوة، وإنما الأسوة به -صلى الله عليه وسلم-، فعجباً لقوم يقتدون بفلان وفلان ويتركون هدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل وما أمر به، وتعرفون ذلك.

فهنا قال: {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، مقيدة بالحسنة؛ لأن الأسوة تكون في الخير وفي الشر، {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، وهذا يدل على أن الائتساء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يحتاج إلى شيء من تحقيق العبودية بذكر الله كثيراً باللسان والقلب والجوارح، وأن هؤلاء أولى الناس بالاقتداء به؛ لأن ذلك يتطلب مجاهدة وترويضاً للنفوس؛ لأن النفوس تتنازعها الأهواء، {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}.

ثم قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}.

قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [سورة البقرة:٢١٤] **أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال تعالى: {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}.**

هذا أحسن ما فسرت به الآية، يعني بعضهم يقول: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} يعني: النصر، والواقع أن تفسيره بالنصر هو تفسير له ببعض لوازمه، يعني: الابتلاء الذي يعقبه النصر، فهذا من أحسن ما يكون في التفسير، {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} وعدهم بالنصر لكن بعد الابتلاء، فيكون ذلك محمولاً على مثل هذه الآيات {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ}، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ} [سورة

التوبة:١٦] وما شابه ذلك، {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [سورة آل عمران:١٨٦]، فالذي وَعد اللهُ ورسوله هو الابتلاء الذي يعقبه التمكين والنصر، {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ} رأوا الشدة -ما رأوا طلائع النصر إطلاقاً- تذكروا هذا الوعد فقالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، فلذلك يحسن بالمؤمن دائماً إذا رأى الابتلاء في نفسه أو أهله أو ماله أو نحو ذلك أن يتذكر هذا المعنى دائماً {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} فيعقُب ذلك التسليم والانقياد والرضا والاطمئنان والثقة بما عند الله -عز وجل-، وأن العاقبة لأهل الإيمان، {وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}، إيماناً بوعد الله -عز وجل-، إيماناً به، لم يتزعزعوا، لم يتزلزلوا ما قالوا: كيف حصل لنا هذا، وكيف وقع لنا هذا؟، ما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لأمر الله وقدره.

وقوله تعالى: {وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ومعنى قوله -جلت عظمته-: {وَمَا زَادَهُمْ} أي: ذلك الحال والضيق والشدة {إِلا إِيمَانًا} بالله، {وَتَسْلِيمًا} أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله -صلى الله عليه وسلم.

وهكذا قول من قال {وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} يعني: تسليم أنفسهم أيضاً لملاقاة العدو، فهذا كله من التسليم لأمر الله -تبارك وتعالى- وطاعته.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (٢٣) إلى الآية (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:٢٣-٢٤].

لمَّا ذكر -عز وجل- عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و{صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ}**، قال بعضهم: أجله، وقال البخاري: عهده، وهو يرجع إلى الأول.**

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} **أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق**، هذا تفسير لقضاء النحب، يقول: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} **قال بعضهم: أجله، وقال البخاري: عهده، وهو يرجع إلى الأول**، فقضى أجله أو قضى نحبه بمعنى، يعني قال: أجله، الثاني: عهده، كيف يرجع إلى الأول، هل الأجل هو العهد؟

النحب: الأجل، والنحب يعني: العهد، لما كان محتوماً لابد من وقوعه صار كالأجل بهذا الاعتبار؛ ولهذا فإن بعضهم يقول: إن أصل النحب هو النذر، ثم صار يطلق على الموت باعتبار أن الموت أمر واقع لابد منه كما أن النذر أمر لابد من الوفاء به، يعني هذا الآن الجامع المشترك، عبارة ابن كثير حينما يقول هذا الكلام: إنه يرجع إلى الأول، كيف يرجع إلى الأول؟ بهذا الاعتبار أن كل واحد منهما أمر لازم، ولهذا صار النحب يطلق على معانٍ متعددة، منها النذر ومنها العهد، ومنها الموت، كما يطلق على معانٍ أخرى مثل السير الحثيث، فهنا يقول: **إنهم استمروا على العهد والميثاق**، ربما يكون أدق من هذا -استمروا على العهد والميثاق- عبارة من قال من السلف: مات على الصدق والوفاء، فالذي قال: مات على الصدق والوفاء جمع بين معنيين: الموت والوفاء بالعهد، ذكر الموت وذكر الوفاء بالعهد، وهذا قال به جماعة من السلف من التابعين فمن بعدهم، بل هو منقول عن ابن عباس أيضاً بالإضافة إلى الحسن وقتادة ويزيد بن رومان، مات على الصدق والوفاء، وحديث أنس -رضي الله عنه- في قصة أنس بن النضر -رضي الله عنه- في يوم أحد مُشعر بل إن ظاهره يدل على أنه يرى أن ذلك فيمن صدق على عهده الذي عاهد الله -تبارك وتعالى- به، وذلك في قوم لم يشهدوا بدراً منهم أنس بن النضر، فقال: لئن أشهدني الله لقاء المشركين ليرين الله ما

أصنع، أو كما قال -رضي الله عنه-، فكان ما كان، لكنه لا يقصد أن ذلك ينحصر فيه، أنها في قوم كذا وكذا، والواقع أن هذا يرجع إلى ما قبله أنه مات على الصدق والوفاء، ولكن قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} يعني: إذا فسر النحب هنا بالموت معناه أن منهم من مات على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر يعني لم يمت، وهذا قال به بعض أهل العلم، {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ مِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}، وبعض أهل العلم يقول: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} يعني: وفى بما عاهد عليه وكمَّل هذا العهد، {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} يعني: أنه وفى ببعضٍ ولم يزل يوفي بعهده {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} فيكون الأمر المشترك بين الفريقين على الأول: أن منهم من مات على الصدق والوفاء، ومنهم من لا يزال على العهد لكنه لم يزل حياً، وعلى الثاني الذي ذكرته آخراً وهو أن من هؤلاء من وفى بغض النظر عن كونه مات، وفى بما عاهد الله عليه وصدق، ومنهم من لا يزال يوفي ذلك، حقق بعضاً وينتظر ليحقق بقية ما عاهد الله عليه، وهذا قاله بعض أهل العلم، {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}، ما الذي جعل هؤلاء يقولون بذلك، الأخير يعني؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في حق طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-: إنه ممن قضى نحبه، قال ذلك وهو حي، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((طلحة ممن قضى نحبه))[1]، والحديث مخرج عند الترمذي وابن ماجه وإسناده حسن، قاله وهو في حياته، {وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}، فإذا كان ممن قضى نحبه وهو حي وفى ما عاهد الله عليه، {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فوفوا بذلك، ومنهم من صدق ولم يزل يوفي، فالجانب المشترك هو الصدق {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فمنهم من مات على الصدق والوفاء، ومنهم من وفى ولم يزل حياً، ومنهم من لم يزل يوفي وهو على الطريق، فكل ذلك يرجع إلى معنى هو ما ذكر في أول الآية {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}.

فالتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، هنا في هذا الموضع قد يكون فيه بعد، يشهد له النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قضى نحبه وهو حي، فظاهره أنه فعل ما يجب، أو فعل ما تحصل له به السعادة والنجاة، كقول الله -عز وجل- لأهل بدر: ((اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم))[2]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في عثمان -رضي الله عنه-: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم))[3]، كما تقول: فلان أدى ما عليه، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}، فهل يُربط ذلك بالضرورة بالموت؟ قد لا يلزم عند التأمل، وإنك إذا نظرت فيها لأول وهلة في الأقوال قد تقول: منهم من

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢٠٢)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، فضل طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-، برقم (١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣٦٣).

٢ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن، برقم (٢٩١٥)، ولفظه: ((ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم))، وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يرَ إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا، (٥/٢٢٦٤)، والحاكم في المستدرك، برقم (٦٩٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٩٣٧١).

٣ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، برقم (٣٧٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٦٣٠)، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٦٠٦٤).

مات على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر وهو على الطريق، فهذا له وجه قريب، لكن إذا نظرت إلى مثل الحديث فقد يكون هذا يشهد للقول الآخر أن ذلك لا يربط بالموت، ولكن من هؤلاء من مات على الصدق والوفاء، ومنهم من وفى ولم يزل حياً، ومنهم من لم يزل يوفي وهو على طريقهم، -والله أعلم-، والمقصود أن هؤلاء جميعاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يحصل منهم تبديل ولا تغيير، {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، وذلك أن العوارض التي تعرض للإنسان في السراء والضراء داعية إلى التبديل والتغيير، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- تقلبوا بين السراء والضراء، وفتح الله عليهم الفتوح، وصار كثير منهم بحال من النعمة، وصار كثير منهم أميراً على مصر من الأمصار، ولم يحصل منهم تغيير، لم تغيرهم الدنيا، ولا الشدائد والجوع، كان الواحد منهم لربما على تمرة سائر اليوم في الغزو، بخلاف الكثيرين ممن جاء بعدهم، فيتغير إما بالشدة وإما بالنعمة حينما يفتح الله -عز وجل- عليه أيًّا كانت هذه الفتوح فيحصل منه تبديل وتغيير، فيعرف ما كان يُنكِر، ويُنكِر بعض ما كان يعرف، فيكون مفتوناً، والله المستعان.

قال: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه.

روى البخاري عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- قال: لما نسخنا الصُّحُف فَقَدْتُ آيةً من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري -الذي جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شهادته بشهادة رجلين- قال: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[٤] تفرد به البخاري دون مسلم، وأخرجه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي -في التفسير من سننيهما- وقال الترمذي: "حسن صحيح".

هذا الكلام ما معناه: لم أجدها عند أحد غيره يعني مكتوبة، وهذا لا يعارض التواتر، كون القرآن نقل بالتواتر، لم أجدها عند أحد غيره يعني مكتوبة، كما ذكر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- وغيره كأبي شامة أنهم كانوا يشترطون في الجمع الحفظ والكتابة، أن يكون مما كتب على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بعضهم فسر الشاهديْن، من شهد عليه شاهدان فسره بذلك: الحفظ والكتابة، يشهد له الحفظ والكتابة، وبعضهم فسر الشاهديْن برجلين يشهدان على أن ذلك مما كتب على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني بين يديه، فالشاهد أنه ما شهد شاهدان، فهنا لم يجدوا هذه الآية عند أحد يعني: مكتوبة، لكنهم كانوا يحفظونها، وأبيّ -رضي الله عنه- كيف فقدها؟ كان يحفظها، فجاء بها خزيمة الذي جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- شهادته بشهادة رجلين، جاء بها.

وروى البخاري أيضاً عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر -رضي الله عنه-: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[٥]، انفرد به البخاري، ولكن له شواهد من طرق أخر.

نرى هذه الآية نزلت في أنس -رضي الله عنه-، هذا الذي أشرت إليه آنفاً، نزلت في أنس، وهذا الأسلوب محمول على أنه من قبيل التفسير، وليس من أسباب النزول؛ لأنه ليس بصريح، فيكون هذا مما يدخل في

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥٠٦)، وأحمد في مسنده، برقم (٢١٦٤٠).

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥٠٥).

معنى الآية، نزلت في أنس، فيكون ذلك كأنه من قبيل التفسير بالمثال، وهذا لا ينافي المعنى الذي ذُكر سابقاً، فمثل أنس بن النضر -رضي الله عنه- من هؤلاء الذين ماتوا على الصدق والوفاء أو الذين وفوا بما عاهدوا الله -عز وجل- عليه وهو من النوع الأول: الذين ماتوا على الصدق والوفاء، قضى نحبه.

قال: روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال: عمِّي أنس بن النضر -سُميتُ به- لم يشهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غُيِّبْتُ عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لَيَرَيَن الله ما أصنع، فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس -رضي الله عنه- يا أبا عمرو، أين واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل -رضي الله عنه- قال: فوُجِد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته -عمتي الرُّبَيِّع ابنة النضر-: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية: {من المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه -رضي الله عنه-[٦]، ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

كانوا يرون أنها نزلت فيه، هذا ممكن أن يحمل على التفسير كما في الحديث -الرواية السابقة-، لكن قوله هنا: **فنزلت هذه الآية: {من المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}**، فالروايات الواردة في سبب النزول: لمّا تحدثتُ عن مقدمة شيخ الإسلام في الصريح وغير الصريح، وتتبع الروايات أمر مهم في هذا الباب؛ لأنك تجد في بعضها ما هو صريح، وتجد في بعضها ما هو غير صريح، وتجد أحياناً في الرواية نفسها في أولها غير صريح وفي آخرها صريح، ولربما تجد ذلك جميعاً في آخرها مثل الرواية الثانية، "فكانوا يرون أنها نزلت فيه" هذا غير صريح، وقبله: "فنزلت هذه الآية" هذا صريح، في نفس الرواية في آخرها، وهذا يدل على أن ما ذكر مراراً من قولهم: نزلت في كذا يحتمل أن يكون سبب نزول.

قال: وروى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- فقال: إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((طلحة ممن قضى نحبه))[٧].

ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} قال: عهده، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} قال: يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء.

مجاهد من أعلم التابعين بالتفسير وعبارته دقيقة، وكلام ابن كثير يدل على دقة الحافظ ابن كثير، وأنه ينزل أقوال السلف على المعاني التي أرادوها، قال: ولهذا قال مجاهد، يعني الآن هو يوجه كلام مجاهد، مجاهد لم يقيده بالموت، ولم يفسره به، قال: {قَضَى نَحْبَهُ} عهده، والنحب كما سبق أن أصله يقال: النذر، والنذر من

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، برقم (١٩٠٣)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢٠٠)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٨٢٩١).

٧ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢٠٢)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، فضل طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-، برقم (١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣٦٣).

العهد، {قَضَى نَحْبَهُ} قال: عهده، باعتبار أن طلحة -رضي الله عنه- حينما قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، قال: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} يعني: أنه لم يوف بعد، ينتظر الوفاء.

قال: وقال الحسن: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} يعني: موته على الصدق والوفاء، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} الموت على مثل ذلك، ومنهم مَنْ لم يبدل تبديلاً، وكذا قال قتادة، وابن زيد، وقال بعضهم: {نَحْبَهُ} نذره.

هنا قوله: **ومنهم مَنْ لم يبدل تبديلاً**، لا يقصد هنا القسمة أن بعضهم مات على الصدق والوفاء، وبعضهم ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم طائفة ثالثة لم يبدلوا تبديلاً، لكن كل هؤلاء لم يبدلوا تبديلاً كما قال الله -عز وجل- في وصفهم آخراً: {مِن المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}، فهذا وصف للجميع، وإلا فالتبديل مذموم، وحديث الذود عن الحوض معروف فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أصيحابي أصيحابي)) فيقال: ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))[٨]، فهذا تبديل، فهنا ماذا يعني في قوله: ومنهم من لم يبدل تبديلاً؟ أنها تكون {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} ومنهم من لم يبدل تبديلاً، فممكن أن تكون "من" بيانية، إذا رجع ذلك إلى المذكورين تكون بيانية، إن منهم يعني: من صفات هؤلاء أنهم لم يبدلوا تبديلاً، قال بعضهم: {نَحْبَهُ} يعني: نذره، وهذا فسره بأصل المعنى، ولا يلزم أن يكون هناك نذر، وحينما بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- على نصره وأن يدفعوا عنه ما يدفعون عن أنفسهم وأسرهم وما أشبه ذلك مما تعرفون في بيعتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهؤلاء أثنى الله عليهم بالوفاء والصدق والبقاء على هذا العهد من غير تبديل.

قال وقوله تعالى: {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا} أي: وما غيَّروا عهدهم وبدَّلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا} [سورة الأحزاب:١٣]، **{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأدْبَارَ}** [سورة الأحزاب:١٥].

هذا العهد الذي لم يبدلوه، سواء كان عهداً كلياً أو عهداً جزئياً، فهنا مَن عاهد أن لا يفر مثلاً، ومن الناس من يعاهد ربه على أن ينفق، إن أعطاه الله مالاً أنفقه، {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ} [سورة التوبة:٧٥] فقد يعاهد الإنسان ربه على الإنفاق، ومنهم من يحصل منه نذر أنه إن حصل له كذا فإنه يكون كذا وكذا، إذا نجاه الله -عز وجل- من كذا فإنه سيكون في حال من العبادة أو صلة بالله -عز وجل- يصفها ويحددها، فكل ذلك مما يدخل في العهد مع الله، ما يجب الوفاء به سواء كان من قبيل النذر أو لم يكن، تقول: عهد عليّ أن أفعل كذا، مثلاً، أو أعاهد الله أن أتوب من هذا الذنب، ثم بعد ذلك ينكث ويرجع في هذا العهد فلا يفي فيه، فالإنسان يخاف، {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا}، فيثبت على عهده مع ربه، ويستقيم على ذلك من غير تبديل، وذلك أدق من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في القصة المعروفة لما كان في حال من العبادة يقوم الليل ويصوم النهار، ويقرأ القرآن كل ليلة، الشاهد أنه لما ترك النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- على حال وهي أن يقرأ القرآن كل سبع ليالٍ وأن يصوم صيام داود -عليه السلام-، فلما تقدمت به السن، وضعف كان يقرأ ورده بالنهار، يستعين بذلك على قراءته بالليل، فضعف وشق عليه ولكنه كره أن يترك شيئاً فارق عليه

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب في الحوض، برقم (٦٢١١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا -صلى الله عليه وسلم- وصفاته، برقم (٢٣٠٤) واللفظ له.

النبي -صلى الله عليه وسلم- وتمنى لو أنه أخذ برخصة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، حتى في حال الضعف والشيخوخة، مع أن هذا لم يكن من قبيل العهد، ولكنه فارق النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا فكره أن يغير، فكيف بالعهد؟!، والأمثلة على هذا كثيرة، بل بعضهم كره أن يترك عادته من العبادة ولم يفارق على ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أصلاً، في زمن التابعين الحسن بن صالح مع أخيه مع أمه كانوا يقتسمون الليل أثلاثاً فلما ماتت الأم صار يقتسمه مع أخيه، كرهوا أن يَخلو شيء من الليل فتتغير العادة فيه في دارهم، فلما مات أخوه صار يصلي الليل كله، بصرف النظر عن أن هذا مشروع أو غير مشروع، نحن ما نتحدث عن هذا، نتحدث عن جزئية، وهي أن هؤلاء كانوا يلاحظون معنى، فكيف بالعهد؟

قال: **وقوله تعالى**: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} **أي**: **إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى**: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١]، **فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى**: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [سورة آل عمران:١٧٩]، **ولهذا قال تعالى هاهنا**: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} **أي**: **بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه**، {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ}: **وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته -تبارك وتعالى- بخلقه هي الغالبة لغضبه قال**: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه يعني المنافقين ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق، هذا جواب لسؤال مقدر وهو: أن المنافقين لا يدخلون الجنة؛ لأن المنافق كافر في الباطن، فكيف قال الله -عز وجل- هنا: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء}، فعلقه بالمشيئة، مع أن المنافقين يستحقون الدخول في النار، وأن الله جعلهم في الدرك الأسفل منها وأن الله حرم الجنة على الكافرين، فما وجه التعليق بالمشيئة؟، هذا الجواب عنه، كلام ابن كثير هو جواب عن هذا السؤال، يكون هنا إذاً: إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع، فيكون المعنى {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء} أي: لا يوفقهم للتوبة، فتحصل لهم الوفاة على هذه الحال من النفاق، وإن شاء وفقهم للتوبة وقبلها منهم، فهذا الجواب على هذا السؤال، وجه دخول الشرط هنا إن شاء، مع أنهم لا يدخلون الجنة، مثل قوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ} [سورة آل عمران:١٢٨]، {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} يعني يوفّقَهم للتوبة فيتوبوا فيقبلَ ذلك منهم، وفي قصة المنافقين في غزوة تبوك لما ذكر الله -عز وجل- حالهم واستهزاءهم وسخريتهم، {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً} [سورة التوبة:٦٥-٦٦]،

بعضهم يقول: إن بعض هؤلاء الذين نزلت فيهم الآيات لم يكن منافقاً، إنما كان معهم ولربما تبسم أو ضحك، ويذكرون أن بعضهم قد تاب من نفاقه، ذكروا هذا في مخشي بن حُميِّر وقال: قعد بي اسمي واسم أبي يا رسول الله[9]، وأنه تاب ويكون ذلك ممن أراد الله -عز وجل- بقوله: {إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ} [سورة التوبة:66]، فلا يشكل هذا.

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [سورة الأحزاب:25].

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، ولكن قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}، فسلط عليهم هواءً فرّق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهَوَى.

يعني جمعهم الهوى وهم أشتات، الأحزاب هؤلاء: يهود ومالأهم المنافقون وأشتات من العرب وأوزاع من الوثنيين، لم يجمعهم إلا الهوى، يقول: ففرقهم الله بعقوبة تناسب الحال والجناية والجنيّة التي اجتمعوا عليها، أو جمْعهم وهو اتباع الهوى، ومن العقوبات ما تكون مناسبة للأعمال، قطع يد السارق؛ لأن جنايته بيده، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- على هذا المَهْيَع أن هؤلاء جمعهم الهوى ففرقهم الله بالهوى، بصرف النظر عن كون هذا الملحظ يعني نجزم به أو لا، لكن هو يشير إلى هذه الجزئية، يعني في المثال المعين لا يكون شأنك المثال إنما أصل المعنى، تنتفع وتستفيد، طالب العلم يستفيد من الملحظ الذي يراعيه العالم، هذا الذي تستفيد منه، أو من الأصل الذي يذكره والقاعدة، أما الصورة المعينة والمثال المعين الذي يتحدث عنه فقد توافق وقد لا توافق، قد تقتنع فيه وقد لا تقتنع فيه أنه يدخل فيه هذا أو لا يدخل، لكن في الأصل هذا الكلام هو ملحظ حسن، وكثير من الناس يغفل عن هذا ويشتغل بالمثال، فتضيع عليه الفائدة.

قال: وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومَنْ هَمّ بشيء وصَدّق هَمَّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده؛ ولهذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده))[10]، أخرجاه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

---

9 - انظر: السيرة النبوية لابن هشام (2/524).

10 - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، برقم (3890)، ومسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، برقم (1344)، وأحمد في المسند، برقم (8490)، واللفظ له.

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}، {بِغَيْظِهِمْ}، الغيظ: هو يقال للحنق والغضب، فالحنق والغضب هو الغيظ، فيحصل بالنصر التشفي كما قال الله -عز وجل-: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:١٤]، هذه أربعة أشياء منها التشفي؛ لأن شفاء النفس قهر عدوها، ولهذا في سورة البقرة في قوله: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٠] قيده بهذا {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، فإن هلاك العدو في حال كون عدوه يشاهده أبلغ في التشفي، يعني قد يبلغه الخبر أن عدوه هلك، لكن هل هذا كهلاكه وهو يشاهده؟ {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، هذا أبلغ في التشفي، وأبلغ من ذلك أن يكون هذا الهلاك على يده، وهذه أعلى الصور، ولهذا قال: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:١٤]، فالعذاب يقع بالقتل والجرح والأسر، والخزي بما يقع للنفوس من الانكسار والذل والمهانة، ولكم النصر، والتشفي، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} فالقلوب تحمل من الحنق والغيظ على أعداء الله -عز وجل- الشيء الكثير، فهذا أمر لابد منه، وهو موجود لدى الكفار ولدى المسلمين، ولا يمكن أن ينخلع الإنسان من هذا حتى ينخلع من إنسانيته، فهنا الله -تبارك وتعالى- قال: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ} يعني: بحنقهم وغضبهم، ما حصل لهم التشفي جاءوا واجتمعوا وأنفقوا الأموال وبذلوا ورابطوا شهراً حول المدينة، وما حصل لهم مطلوب، ما حصل لهم مقصد، جاءوا للاستئصال، ما جاءوا مثل المجيء الأول في بدر ولا المجيء الثاني في أحد، تلك كانت جولات تحقق أهدافاً معينة محددة، ولم يكن الهدف منها الاستئصال، هذه المرة الهدف الاستئصال، فلم يحصل لهم لا هذا ولا هذا، يعني لم يحصل لهم انتصار ولو محدوداً، ولم يحصل لهم استئصال أهل الإيمان، لم يحصل مطلوبهم، فرجعوا بحنقهم، إنسان جاء يقاتل، جاء مشحون النفس، ثم بعد ذلك لما لقي عدوه لم يتمكن من مواجهته لسبب أو لآخر، فرجع بحنقه، فهنا {لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} ما المقصود بالخير؟ الخير بالنسبة إليهم وإلا فهو شر، يعني لم يحصل مطلوبهم، إنما كان لهم من مجيئهم هذا التعب والخيبة.

قال: وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم.

كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صُرَد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب: ((الآن نغزوهم ولا يغزونا))[11]، وهكذا رواه البخاري في صحيحه.

وفي قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} أي: بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [سورة الأحزاب:٢٦-٢٧].

---

١١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، برقم (٣٨٨٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٣٠٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، يحيى: هو ابن سعيد القطان، وعبد الرحمن: هو ابن مهدي، وسفيان: هو الثوري، وأبو إسحاق: هو السبيعي، وقد صرح بالسماع".

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضري -لعنه الله- دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذُلِّ الدهر، ويحك يا حيي، إنك مشئوم، فدعنا منك، فلم يزل يفتل في الذُّروة والغَارب حتى أجابه.

هذا مثل، يقال: يفتل في الذروة والغارب، والذروة هي السنام، والغارب هو ما تحت الكتفين مما يلي السنام، يعني أول السنام، مقدم السنام، هو يريد أن يقترب من عنق البعير، والبعير شرس، ويريد أن يضع الخطام لهذا البعير، أو الزمام من أجل أن يقوده وأن يتحكم فيه، فالبعير صعب لا يستطيع أن يقترب منه، فيمسح على رأسه، لا يستطيع هذا، وإنما يبدأ يلاطفه ويسهله على السنام وما يلي الكتفين، مقدم السنام، ما تحت الكتفين يعني من جهة السنام، فيزيل عنه القراد، والبعير يأنس إذا أزيل عنه القراد، ويفتل في الوبر ويمسح عليه ويتلطف به حتى يسكن ويأنس، ثم بعد ذلك يتوصل بهذا إلى أن يزم هذا البعير ويضع له الخطام ثم بعد ذلك يقوده، فهذا يقال فيمن يحاور غيره لفتله عن رأيه، لصرفه عن رأيه، تارة يكون ذلك بالمخادعة، وتارة يكون بصرف الكلام بوجوه يفتله بها عن رأيه، يحاوره بطرق شتى، فهذا لم يزل به.

قال: فلم يزل يفتل في الذُّروة والغَارب حتى أجابه، واشترط له حُيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم.

يعني يلقى المصير الذي يلقونه، يعني لا يتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، فهذا شرط اشترطه عليه، مع أن حيي بن أخطب ما كان في المدينة، كان ممن أُجلي من بني النضير، كانت وقعة بني النضير قبل قريظة.

قال: فلما نَقَضت قريظةُ، وبلغ ذلك رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-، ساءه، وَشَقَّ عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله ونَصَره، وكبت الأعداء وردَّهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة -رضي الله عنها- إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة من ديباج.

معتجراً بالعمامة يعني أنه لفها على رأسه من غير أن يتحنك بها، معتجراً بالعمامة، يعني ترك طرفها مما يلي وجهه، ولكنه لم يلتحِ بها، يعني عمائم العرب في الأصل تكون محنكة، يعني من تحت الحنك، وعمائم أهل الكتاب تكون على الرأس من غير تحنيك، هذا في الغالب بالنسبة لعمائم العرب، فجاء معتجراً بالعمامة: يعني قد لفها على رأسه من غير أن يتحنك بها، من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، قطيفة من ديباج، كساء مخمل من ديباج، هذا جبريل -صلى الله عليه وسلم-، ولا يقول أحد من الناس: إن هذا يدل على جواز افتراش الديباج والإستبرق -وذلك من الحرير-؛ لأن الجلوس عليه من جملة اللباس، ويدل عليه حديث أنس "من طول ما لبس الحصير الذي قد اسود"، فاعتبر ما يجلس عليه، يقال له: إنه يلبس، أو لبس، فلا يأتي أحد ويقول: هذا دليل على جواز وضع الفرش من الحرير باعتبار أن جبريل -صلى الله عليه

وسلم- جاء على بغلة عليها كساء من ديباج، هذا فهم غير صحيح؛ لأن جبريل -عليه الصلاة والسلام- لا يرد عليه مثل هذه الخطابات الشرعية التي وجهت للمكلفين من الإنس والجن.

قال: فقال: أوضَعتَ السلاح يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة[١٢]، وفي رواية فقال له: عَذِيرك مِن مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: ((نعم))، قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أين؟))، قال: بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة.

قوله: **عذيرك من مقاتل**، يعني هات من يعذرك في هذا الفعل، يعني ما كان لك أن تفعل هذا، ما عذرك فيه، والملائكة لم تضع أسلحتها؟، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم دخل يغتسل بعد الظهر، وفي بيت أم سلمة، وأمر بالمسير إلى قريظة وأن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، فمشوا بعد الظهر.

وقريظة تقع في الجنوب الشرقي من المدينة، جانب الحرّة، الحرّة الشرقية، الجنوب الشرقي.

وذلك بعد صلاة الظهر، وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة))[١٣]، فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يُرِد منا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يُعَنِّف واحدا من الفريقين، وتبعهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، ثم نازلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس -رضي الله عنه.

يعني هم لما طال عليهم الحال طلبوا حكماً، قالوا: نريد حكماً، وأرسلوا شاس بن قيس للمفاوضة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا يطلبون أن يحكم عليهم، أو أن يجرى عليهم ما أجري على بني النضير، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج، وعبد الله بن أبيّ شخصية مرموقة جاهزة لمثل هذه المواقف يشفع لليهود ويتبناهم ويدافع عنهم، ففي هذه القضايا يقوم فيها على وجه يرضي أعداء الله -عز وجل-، وهو الذي شفع في بني قينقاع فلم يقتلوا، وأُجلوا عن المدينة، فهم طلبوا أن يجرى عليهم ما أجري على مَن قبلهم من الإجلاء، فما أقرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا ولا وافقهم فكان آخر الأمر أنهم أرادوا النزول على حكم سعد بن معاذ باعتبار أن هذا أفضل وأقرب الحلول من أجل النجاة، باعتبار أن سعد بن معاذ هو سيد الأوس وقريظة حلفاء الأوس في الجاهلية، كما أن النضير حلفاء الخزرج في الجاهلية، وكان بينهم منافسة، فالخزرج: عبد الله بن أبيّ كانت مواقفه معروفة مع بني قينقاع، فهم أرادوا أن يحصلوا النجاة

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٥٠٩٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٧).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، برقم (٩٠٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، برقم (١٧٧٠).

لأنفسهم فقالوا: أقرب شخص حلفاؤنا من الأوس فنزلوا على حكم سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه-، بعد هذا الحصار الذي دام خمساً وعشرين ليلة، بخلاف النضير، قال الله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [سورة الحشر:٢]، فالأولية في قوله: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} تحتمل أن تكون زمانية، وتحتمل أن تكون مكانية، وإذا كانت مكانية فأول أرض المحشر الذي هو أطراف الشام أذرعات التي أجلوا إليها، أو أن تكون زمانية وهذا هو الشاهد فبعضهم يقول: لأول حشر الجيش لهم، يعني بمجرد ما حشر لهم الجيش سقطوا، وهذا فيه نظر؛ لأن حصار النضير بعضهم قال: إنه استمر إلى إحدى وعشرين ليلة، وبعضهم ذكر غير هذا، بعضهم يذكر نحو قريب من أسبوع، وبعضهم يذكر قريباً من أسبوعين، الشاهد أنهم ما سقطوا من مجرد الحصار، لكن هؤلاء أطول، هؤلاء جلسوا خمساً وعشرين ليلة، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه-، وكانوا كما مر بالأمس كانوا قريباً من ثمانمائة، وبعضهم يقول: بين السبعمائة والثمانمائة، هؤلاء المقاتلون، من يقدر على حمل السلاح، وبعضهم يقول: ستمائة، وبعضهم يقول: أربعمائة وخمسون، وبعضهم يقول: الأسرى الذين أسروا وجيء بهم سبعمائة وخمسون رجلاً، وعبد الله بن أبيّ لما اعترض على حكم النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما نقل عنه في هذا أنه قال: يقتل أربعمائة دارع في صبيحة واحدة في غداة واحدة؟، يعني مقاتلين يلبسون الدروع، كيف يقتل أربعمائة واحد في صبيحة واحدة؟! الشاهد أن هذه أعداد مختلف فيها، ومثل هذا الإحصاء الناس يقدرون تقديرات، واليوم لما تسأل الناس عن أي شيء، لو قلت له: كم تقدر عدد الذين يصلون معك في المسجد؟، فهذا يقول: أربعمائة وهذا يقول: ألف، وهذا يقول: ثلاثمائة، وهذا يقول: خمسمائة، كما هو مشاهد، فالناس في تقديراتهم يتفاوتون ويختلفون، فإذا كان هؤلاء يمثلون قبيلة فكون الأسرى سبعمائة، وبعضهم يقول: سبعمائة وخمسون، الأسرى من الرجال، والله أعلم.

قال: فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس -رضي الله عنه-؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبيّ بن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولائك، ولم يعلموا أن سعداً -رضي الله عنه-، كان قد أصابه سهم في أكحَله أيام الخندق، فكواه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد -رضي الله عنه- فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجُرها ولا تُمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة.

فافجرها يعني الجراحة التي كانت في أكحله وهي عرق يقال له: الأكحل، فيقول: افجرها يعني: دماً، فكان جرحه قد تماثل للشفاء، وجف فلما حكم فيهم ورجع مرة أخرى انفجر جرحه وهو في خيمته في المسجد حتى سال الدم من الخيمة، فقالت امرأة لها خيمة بجواره: ما هذا الدم الذي يأتي من قِبلكم؟ وتوفي -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

قال: فاستجاب الله دعاءه، وقُدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّئوا له عليه.

يعني وضعوا له مثل الوطاء: ما يوضع على الحمار من أجل أن يركب.

قال: أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّئوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه.

يعني من أجل المنافسة كانوا يتبارون مع الخزرج في النجدة والأمور التي يحصلون فيها المجد.

قال: وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال -رضي الله عنه-: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قوموا إلى سيدكم))، فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته؛ ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هؤلاء -وأشار إليهم- قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت))، فقال -رضي الله عنه-: وحكمي نافذ عليهم؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، قال: وعلى مَنْ في هذه الخيمة؟ قال: ((نعم))، قال: وعلى مَنْ هاهنا -وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو معرض بوجهه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إجلالاً وإكراماً وإعظاماً- فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، فقال -رضي الله عنه-: إني أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم، وتُسبْى ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة))[١٤]، وفي رواية: ((لقد حكمتَ بحكم المَلك))[١٥]، ثم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالأخاديد فَخُدّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضَرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسَبى مَنْ لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه، وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً.

كتاب السيرة الذي أفردناه، هذه الجملة تدل على أن ابن كثير -رحمه الله- هو الذي أفرده، وبعض الناس يقول: هذا مستل من كتاب البداية والنهاية، فابن كثير -رحمه الله- هو الذي فعل ذلك.

قال: وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه، وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، ولله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ} أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد

---

١٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد (٧٥/٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل، (٢٧٤/٥)، برقم (١٤٥٣).

١٥ - رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قوموا إلى سيدكم)، برقم (٥٩٠٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، برقم (١٧٦٨).

نزل آباؤهم الحجاز قديماً طَمَعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} فعليهم لعنة الله.

وقوله تعالى: {مِنْ صَيَاصِيهِمْ} يعني: حصونهم، كذا قال مجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم من السلف.

الصياصي: جمع صيصة بالكسر، والصيصة هي الحصن، ويقال: إن أصل ذلك يقال لقرن الوعل، ونحوه يدفع به عن نفسه، فقيل ذلك للحصون؛ لأنه يُدفع بها يعني عمن فيها، أو من في البلد.

قال: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}: وهو الخوف.

القذف هو الإلقاء السريع، {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ}، والرعب أخص من الخوف، فهو خوف يملأ القلب، الخوف على درجات، كما أن الحب على درجات، والرحمة على درجات كما هو معلوم، فالخوف أيضاً على درجات، هناك خوف، هناك خشية، هناك رهبة، وهناك هلع ورعب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((نصرت بالرعب))[16]، ما قال: نصرت بالخوف، فالرعب هو خوف يملأ القلب، قد يكون الخوف يساور القلب، ولكنه لا يصل إلى هذه المرتبة، فإذا وصل إلى حد الامتلاء صار القلب فارغاً من كل شيء إلا طلب الخلاص والنجاة والفرار، فأحسن أحواله أن يفر، وقد لا تسعفه قواه فيقسط، ينهار يعني، من شدة الخوف يضطرب وقلبه يضرب بقوة، ولم يعد محلاً صالحاً للتفكير والنظر في الأمور، فضلاً عن مواجهة العدو، فأحسن الأحوال أن يفر، وإلا فقد يقعده ذلك فيرتمي بين يدي عدوه لا يستطيع الحراك، يعني أن أطراف الإنسان وأعصاب الإنسان وعضلات الإنسان كلها تخور فتخونه فيسقط، لا يستطيع أن يقوم؛ من شدة الخوف، هذا الرعب يملأ القلب، ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))، وانظر إلى خوف أعداء الله اليوم من الإسلام، مع أن المسلمين ضعفاء جداً، ومع ذلك الخوف يكاد أن يقتلهم، وليس لهم حديث ولا شأن إلا في الحديث عن هذا الخطر الداهم الذي يشعرون أنه لا حيلة لهم فيه، فكيف لو كان المسلمون أقوياء؟!، كان أولائك جميعاً في المصحات النفسية، والله المستعان.

قال: لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وليس مَنْ يعلم كمن لا يعلم، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعِزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلّوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستُؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً}، فالذين قُتلوا هم المقاتلة، والأُسراء هم الأصاغر والنساء.

كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا مثل كلامه الأول؛ لأن العقوبة من جنس الجناية، والمتكبرون يحشرون أمثال الذر.

---

١٦ - رواه البخاري، في أول كتاب التيمم، برقم (٣٢٨)، ومسلم، في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٣).

قال: وروى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال: عُرِضتُ على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم قريظة فشكوا فيَّ، فأمر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينظروا: هل أنبتّ بعد؟ فنظروا فلم يجدوني أنبتّ، فخلي عني وألحقني بالسبي(١٧).

وكذا رواه أهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه النسائي أيضاً عن عطية بنحوه.

وقوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} أي: جعلها لكم من قتلكم لهم {وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا} قيل: خيبر، وقيل: مكة، رواه مالك عن زيد بن أسلم، وقيل: فارس والروم، وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}.

قوله: {وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا} قيل: خيبر، خيبر فتحت بعد وقعة قريظة بسنة وشهر، والقول بأنها خيبر قال به جماعة من السلف كابن زيد ومقاتل بن حيان، ويزيد بن رومان.

قال ابن كثير: **وقيل: مكة، رواه مالك عن زيد بن أسلم،** وبه قال أيضاً قتادة، وقيل: فارس والروم، وهذا قال به الحسن البصري، قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، هذا -يعني قول ابن جرير- هو الأقرب -والله أعلم-، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا}، ما هذه الأرض التي لم نطأها؟ تَصدُق على ما حصل للمسلمين من الفتوح بعد ذلك، فمن ذلك خيبر، وبعضهم كابن عاشور حمل ذلك على الأرض التي لم تفتح بالقوة، يعني: ما فتحت عنوة، فقال: هذا المراد به أرض النضير، باعتبار أن أرض النضير فتحت بعد ذلك، بهذا الاعتبار، {وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا}، يعني لم يحصل لكم بعدُ الاستيلاء عليها، ليس معناها أنكم ما مشيتم فيها، وإنما المقصود الاستيلاء والغلبة، {تَطَؤُوهَا}، وإلا فكانوا يذهبون إلى النضير ويذهبون إلى فارس والروم وخيبر تجارة وغير ذلك، قال: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}، الأرض أعم من الديار، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ} كل الأرض بما فيها الفضاء الذي يتبع هؤلاء، وأما الديار فيمكن أن يكون ذلك باعتبار ما كان عامراً منها، وما يحتفّ بها من المزارع ونحو ذلك.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب:٢٨-٢٩].

هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل.

كلام ابن كثير -رحمه الله-: أمر من الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن، هنا الفراق يعني الطلاق، فيكون التخيير هنا بين الطلاق والبقاء معه، والقول الآخر: أن التخيير أن يخترن، خيرهن بين الدنيا والآخرة، وتأمل الآيات، مع أن القول الثاني: أنه خيرهن بين الدنيا والآخرة قال به جماعة من السلف، ويستدلون على هذا بما جاء عن علي -رضي الله تعالى عنه- عند الإمام أحمد في المسند

---

١٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٩٤٢١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير صحابيه، فقد روى له أصحاب السنن، هشيم: هو ابن بشير السلمي".

من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيرهن بين الدنيا والآخرة ولم يخيرهن بالطلاق، أنه ما خيرهن بالطلاق، لكن هذا الأثر ضعفه ابن كثير ورد هذا القول، واختار أن التخيير إنما هو بين الطلاق والبقاء معه، والمختصر أبقى على هذا، يعني اختيار ابن كثير: بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره.

والقول أنه خيرهن بين الدنيا والآخرة قال به الحسن البصري -رحمه الله- وقتادة وغيرهما، والذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين أن التخيير كان بين الطلاق وغيره، وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير، فقوله: {أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ} خيرهن بين الدنيا والآخرة، {أُمَتِّعْكُنَّ} يعني: أن يعطيهن من متاع الدنيا وأن يوسع عليهن في العطاء، والواقع الذي يظهر -والله أعلم- أن قوله: {أُمَتِّعْكُنَّ} أن المقصود به ما يعطى للمطلقة من المتعة التي أمر الله -عز وجل- بها، {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ} [سورة البقرة:٢٣٦]، وذلك ما يعطى للمطلقة جبراً لخاطرها، وهو أمر تناساه الناس اليوم إلا من رحم الله -عز وجل-، جبراً لخاطرها بحسب الغنى والفقر، {مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ}، والتسريح بمعنى التخلية، بصرف النظر هل التسريح يدل على الطلاق دلالة صريحة، أو أنه يحتمل؟، بصرف النظر، لكن لا شك أنه يُعبَّر عن الطلاق بالتسريح، يقال: سرّح امرأة يعني طلقها، ولكن ذلك لا يعني هذا المعنى بالضرورة في كل الأحوال، لكنه يقال فيه ويطلق عليه، فهنا {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ} فيحتمل أن يكون التسريح بمعنى التطليق، ويحتمل أن يكون كما يقال: يعني بمثابة رفع اليد، يعني التخلية، وذلك أن المرأة إذا طلقت وشارفت على انتهاء العدة فكما قال الله -عز وجل-: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [سورة البقرة:٢٢٩]، ليس المقصود {تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}؛ لأن هنا معنى التسريح قطعاً {تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} ليس الطلاق؛ لأنه ليس معناه أن المرأة إذا شارفت انتهاء العدة أنها تطلق مرة ثانية، فهذا غير مراد، وإنما المقصود التخلية، يعني أنها حينما كانت في حباله وعصمته قبل الطلاق وبعد الطلاق الرجعي يعني في فترة العدة فهي لازالت في عصمته وحباله وتحت يده ويستطيع أن يراجعها ولا خيار لها في هذا، فإذا شارفت انتهاء العدة فإما أن يمسك بأن يراجع بمعروف، وإما أن يرفع يده، يعني يخلي، لا يكون له بعد ذلك سلطان عليها، فيكون ذلك تسريحاً، فالتسريح يأتي بهذا المعنى –التخلية-، فهنا في هذه الآية: {أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ} يمكن أن يكون بهذا المعنى، لكن ذلك يكون من توابع الطلاق فيكون الطلاق قد وقع، فهذا يقتضي أنه خيرهن بين الطلاق والبقاء معه، وهذا ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وإن لم يجزم فيما يتصل بمعنى التسريح هنا؛ لأنه يحتمل ويمكن أن يقال: إنه من توابع وآثار الطلاق، لكن ليس المقصود أنه خيرهن بين الدنيا والآخرة، فإن البقاء معه يقتضي أن يكنّ على حال من البعد عن التوسع في الملاذ والمباحات فلا يصلح له ما يصلح لغيره، فكان أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما فتح الله عليه هذه الفتوح في قريظة والنضير، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعيش في ضيق من العيش، فاجتمع نساؤه عليه يطالبنه بالتوسيع عليهن في النفقة، ما العلاقة في ذكر هذا بعد غزوة الأحزاب وقريظة؟، لما فتحت قريظة الآن صار هناك أموال هناك توسعة، فاجتمع أزواجه مطالبات بتحسين الأوضاع والأحوال المعيشية، ظناً منهن أن تلك حالة عارضة اقتضاها الحال وأنه لمّا وسع الله عليه، فكان ذلك يقتضي التوسع في الملاذ والمباحات، فخيرهن الله -تبارك وتعالى- بين البقاء معه على التقلل من الدنيا أو التطليق، لاحظ هنا {أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا}، والسراح

الجميل يقال فيه ما يدخل تحت هذا المعنى، السراح الجميل الذي لا يكون معه جرح للمشاعر، لا يكون معه إساءة، لا يكون معه منع للحقوق، لا يكون معه مضايقات بأولاد أو بغيرهم، لا يُسمعها ما تكره، لا يأخذ من متاعها، لا يأخذ من مالها، لا يلجئها إلى أن تطلب الطلاق منه بحال تضرر فيها، فتفتدي وهو لا يريدها، يعني كل هذا من السراح الجميل، تسريح الكرام يعني تذهب المرأة في حال من الكرامة، فابن كثير -رحمه الله- يقول: **بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها** ظاهر كلام ابن كثير أنه إذا طلقها يجوز لغيره أن يتزوجها، وهذا قال به طائفة من أهل العلم، لكن الله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا}** [سورة الأحزاب:٥٣]، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في موضعه.

قال: فاخترن -رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

روى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت: فبدأ بي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((إني ذاكر لك أمرا، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك))، وقد عَلمَ أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: ((وإن الله تعالى قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ} إلى تمام الآيتين))، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[١٨].

وكذا رواه معلقاً، وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل ما فعلت.

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: خيرنَا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فاخترناه، فلم يعدَّها علينا شيئاً[١٩]. أخرجاه من حديث الأعمش.

هو هذا، يعني الآن هذا الحديث عند الإمام أحمد وأصله في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيرهن ولم يعد ذلك طلاقاً، هذا لفظ مسلم، فدل ذلك على أن التخيير كان بين الدنيا والآخرة، أو بين الطلاق والبقاء معه؛ لأن الفقهاء اختلفوا في التخيير هل يعد طلاقاً أو لا، فجاء هذا بألفاظ متعددة في الصحيحين وغيرهما، لكن من أصرح ذلك ما جاء في مسلم "ولم يَعدّ ذلك طلاقاً" هنا لم يَعدّ ذلك شيئاً، يعني: طلاقاً.

قال: وروى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- قال: أقبل أبو بكر -رضي الله عنه- يستأذن على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والناس ببابه جلوس، والنبي -صلى الله عليه وسلم- جالس: فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر -رضي الله عنه- فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- فدخلا والنبي -صلى الله عليه وسلم- جالس وحوله نساؤه، وهو -صلى الله عليه وسلم- ساكت، فقال

---

١٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥٠٧)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، برقم (١٤٧٥).

١٩ - رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب من خير أزواجه، برقم (٤٩٦٢)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، برقم (١٤٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢٤١٨١).

عمر -رضي الله عنه-: لأكلمن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد -امرأة عمر- سألتني النفقة آنفاً، فوَجَأتُ عنقها.

فوجأت عنقها يعني: إذا طعن فيه بيده، وجَأتُ عنقها: طعن فيه بيده يعني دفع فيه بيده.

قال: فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه وقال: ((هن حولي يسألنني النفقة))، فقام أبو بكر -رضي الله عنه- إلى عائشة ليضربها، وقام عمر -رضي الله عنه- إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلن: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله -عز وجل- الخيار، فبدأ بعائشة -رضي الله عنها- فقال: ((إني أذكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك))، قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ} الآية، قالت عائشة -رضي الله عنها-: أفيك أستأمر أبويّ؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتُها))[٢٠]، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه هو والنسائي.

هنا في هذا الموضع في نزول هذه الآيات في سورة الأحزاب هذا التخيير بسبب المطالبة بالتوسعة في النفقة، والروايات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مع قوله -تبارك وتعالى-: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ}** [سورة التحريم:٥]، والروايات التي نزل بسببها قوله: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ}**، وذلك في قصة التحريم لما حرم النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم وأكثر الروايات أنه حرم العسل، وصح في بعضها أن ذلك بسبب تحريم الجارية، فالروايات متشابهة هنا، والمقام يحتاج إلى شيء من التحرير والتأمل، في القصة المعروفة لما دخل عمر، استأذن، كان غلام أسود على الباب فلم يأذن له النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم استأذن ثانية لما وجد الناس يبكون، فقال: أجاءت الروم؟ فقالوا: طلق النبي -صلى الله عليه وسلم- نساءه، ثم بعد ذلك أذن له فدخل، فأراد أن يُضحك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فذكر له خبره مع امرأته، وفي قصة سورة التحريم، **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ}**، وأن عمر -رضي الله عنه- قال لهن ذلك، فنزلت الآية موافقة لقوله -رضي الله عنه-، فهنا في مطالبتهن بالتوسعة بالنفقة، وهناك في قصة التحريم وتظاهر أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- "وإن تظاهرا عليه" وما حصل في ذلك، فالمقام يحتاج إلى تأمل وتحرير ونظر في الروايات، فهو لا يخلو من إشكال، وما وقفتُ على من حرر هذا المقام، يحتاج إلى شيء من الوقت.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** هنا الإرادة معدّاة للحياة الدنيا، هناك مقدر، يعني يحمل على أعم المعاني، يعني متاع الحياة الدنيا، لذّات الحياة الدنيا وما شابه ذلك، يعني يحمل على معنىً عام، يعني المقدر يكون ما يدل على العموم، **{فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}**، تعالين، الأصل في هذا أن يقوله من كان في مكان مرتفع لمن كان في مكان دونه ليرتفع إليه، ثم صار ذلك يستعمل في الطلب

---

٢٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٥١٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٩٢٠٨).

والنداء مطلقاً، {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}، {وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ}، يعني تؤثرن رضاه، تردن ما عنده، {وَرَسُولَهُ} يعني: البقاء معه وطلب مرضاته -عليه الصلاة والسلام-، تؤثرن ذلك على متاع الحياة الدنيا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب من الآية (٣٠) إلى الآية (٣٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} [سورة الأحزاب:٣٠-٣١].

يقول تعالى واعظاً نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة، قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [سورة الزمر:٦٥]، **وكقوله -عز وجل-: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [سورة الأنعام:٨٨]، **{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [سورة الزخرف:٨١]، **{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}** [سورة الزمر:٤]، **فلما كانت محلَّتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال تعالى: {مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}.**

قال مالك عن زيد بن أسلم: {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} قال: في الدنيا والآخرة.

وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله.

{وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً} أي: سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدله وفضله في قوله: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: يطع الله ورسوله ويستجب {نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيماً} أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

الحمد لله، والصلاة السلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}**، قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأتي..** إلى آخره.

هذا أمر يختص بهن أن من يأت منهن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، أما هذه الآداب التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه الآيات فلا يقال: إن ذلك يختص بهن، كقوله -تبارك وتعالى- مثلاً: **{فَلَا تَخْضَعْنَ**

بِالْقَوْلِ}، {وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا}، {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}، {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}، {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [سورة الأحزاب:٣٤] إلى غير ذلك، فهذه أمور مشتركة بين المؤمنات، وإنما الاختصاص في هذا.

وقوله -تبارك وتعالى-: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **قال ابن عباس: هي النشوز وسوء الخلق**، ثم قال ابن كثير: **وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع**، على كل تقدير سواء قيل بأن الفاحشة المبينة هي الزنا أو عقوق الزوج، أو الذنب العظيم فهذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع.

الفاحشة المبينة فُسرت بهذه التفسيرات التي سمعتم، وبعض أهل العلم يقول: الفاحشة إذا قيدت بالبيان أي قيل: فاحشة مبينة فهي عقوق الزوج، النشوز يعني، وإذا أطلقت معرّفة بـــ"ال" فهي الزنا وما في معناه، وإذا ذكرت منكّرة "فاحشة" فإنها تكون بمعنى الذنب العظيم، وليس ذلك بلازم، والسياق يفهم منه المراد، فهنا {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، كما قال الله -عز وجل- في المطلقات: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، فالفاحشة المبينة هناك فسرت بعقوق الزوج والإساءة إلى الأحماء، تتطاول عليهم وتسيء إليهم، فلا يستطيع الخلاص من أذاها إلا بإرجاعها إلى بيت أهلها مثلاً، لأن المطلقة يجب أن تبقى في مدة العدة -أعني المطلقة الرجعية- في بيت الزوج، ولا يجوز أن تذهب إلى أهلها ولا أن تخرج من بيتها مدة العدة إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، وبعضهم يقول: الزنا، وبعضهم يقول غير هذا، فالمقصود أن السياق يبين المراد، فهناك في المطلقات اللائي يقع منهن هذه الإساءة البالغة إلى الزوج وأذاه أو أذى الأحماء، كأن تكون هذه المرأة هوجاء لا يسلمون من لسانها وشرها، وقد يكون ذلك بفعلها في بيتها كأن تفسد متاعه أو تحرق الدار أو تحرق نفسها، أو تقتل أولادها أو تقتل نفسها، فهو لا يستطيع أن يجلس معها الوقت كله، فما المخرج؟ يرجعها إلى أهلها، وكذلك لو كانت المرأة غير مأمونة تخرج مع الرجال الأجانب أو غير ذلك، أو تدخل الرجال الأجانب إلى بيته أو نحو هذا فيمكن أن يذهب بها إلى أهلها ويحفظها عندهم، وما عدا ذلك تبقى، فهنا: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} فالحافظ ابن كثير يقول: على كل تقدير يعني: مهما فسر، سواء قيل التطاول على الزوج وهذا لا يقع منهن -رضي الله عنهن-، أو ما كان من قبيل ما ذكر من المعاني الأخرى، فإن هذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، يعني {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ} لا يعني أن ذلك يقتضي وقوعه، فالزنا لا يمكن أن يقع من امرأة نبي، ولو كانت كافرة؛ لأن الله -عز وجل- اختار لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام-، ووقوع ذلك قدح في أعراضهم فلا يمكن أن تكون أعراض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بهذه المثابة، فذلك يعود عليهم، فهذا شرط والشرط لا يقتضي الوقوع، وقد ذكر له أمثلة، وهذه قاعدة معروفة: "الشرط لا يقتضي الوقوع"، فإذا رأيت مثل هذا فإن ذلك لا يعني أنه يقع في الخارج، {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨] وحاشا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الشرك، {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} [سورة الزخرف:٨١] هذا لا يمكن أن يكون، وهو من الأمور المحالة، لكنه شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، وهكذا.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، يقول ابن كثير -رحمه الله- عن زيد بن أسلم: **في الدنيا والآخرة**، باعتبار الإطلاق، أن الله أطلقه، "يضاعف"، ولم يقل: في الدنيا، وما قيد ذلك في الآخرة، فهذا الذي جعله يقول بأن ذلك في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا دليل على التخصيص أو التقييد.

ثم قال: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ} قال: **أي يطع الله ورسوله ويستجب**، القنوت بمعنى دوام الطاعة لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- يعني ليست الطاعة بمجردها يقال لها: قنوت، وإنما دوام الطاعة، المداومة على الطاعة، وقد مضى الكلام على هذا المعنى، شيخ الإسلام له رسالة في القنوت، استقرأ فيها المواضع التي جاء فيها القنوت في كتاب الله -عز وجل- وخرج بهذا المعنى.

قال: {نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}، مسألة الذي يؤتى الأجر مضاعفاً: الأول كما جاء في الحديث: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين))[1]، وذكر منهم الكتابي الذي آمن برسوله أو بكتابه وآمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذه في أهل الكتاب، {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ...} إلى أن قال: {أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [سورة القصص:٥١-٥٤].

الثاني في الحديث: ((العبد الذي أدى حق الله وحق سيده)).

والثالث الذي في الحديث: ((عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها))، هؤلاء في الحديث، أما في القرآن فأمهات المؤمنين في هذه الآية، والكتابي تقدم في قوله: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ... أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ}، والثالث في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ} [سورة الحديد:٢٨]، هذه التي سألتكم عنها {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}، فالآن صار عندنا في القرآن: الكتابي، وأمهات المؤمنين، وجاء ذلك في أهل الإيمان إذا اتقوا وآمنوا.

{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [سورة الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

قوله: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} يعني: نفي المشابهة {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} يراد به نفي المساواة، فكنّى به عن الأفضلية، أنهن أفضل من غيرهن {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} نفي المشابهة يراد به نفي المساواة، يعني: لا تستوين مع غيركن، وذلك يراد ويكنى به يعني أنتن أفضل من غيركن.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، برقم (٢٨٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (٢٤١).

{لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، هنا فعل الشرط {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، مستعمل في الدلالة على الدوام، يعني: داومتن على التقوى، وموضع الوقف في الآية، {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، والمعنى يختلف، هنا في هذا المصحف تعانق الوقف، فإذا وقفت هنا لا تقف في الآخر، لكن في بعض المصاحف وضعوا علامة جيم أي موضع وقف جائز عند قوله: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ}، وفي بعضها {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، وأيهما أولى؟، المعنى يتغير، يعني: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} كذا، {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ}، لو قلنا كما قال الشيخ الآن: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} هذا نفي للمساواة وهو يقتضي التفضيل مطلقاً، {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} ثم قال: {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، فيكون متعلقاً بما بعده، {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ}، إن كنتن متقيات فالتقوى تمنع من الخضوع بالقول، وإذا قلنا: الوقف على قوله: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، فالأفضلية ليست مطلقة وإنما بشرط التقوى، إن كنتن متقيات وإلا فليس بين الله وبين أحد نسب، وكما قال الله -عز وجل- عن امرأة نوح وامرأة لوط {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [سورة التحريم:١٠]، فهذا المعنى، ثم يكون قوله: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} هنا الفاء تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وتفيد التعليل يعني: بما أنكن بهذه المثابة {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، فإن هذا الفعل والتصرف لا يتأتى من أهل المنازل الشريفة والرفيعة، البيوت الشريفة، المرأة الشريفة ما يتأتى منها أن تخضع بالقول، فالذي يظهر -والله أعلم-، أن الأقرب أن يكون {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، الأفضلية بشرط التقوى، ثم قال: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} نقول: في مقام الشرط والتأديب والتربية، وليس في مقام بيان فضل النبي -صلى الله عليه وسلم- وشرفه، إنما هذا مقام تعليم وتأديب وتربية، هو يقول: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} إن كنتن متقيات، إن تحليتن بالتقوى، ثم قال: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} بدأ يؤدبهن بعدما ذكر منزلتهن، إن كنتن متقيات، {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}.

قال: ثم قال تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}.

قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال تعالى: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} أي: دَغَل.

قال: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} قال: **ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال**، هذا صحيح، هو المقصود، لكن أصل الخضوع التذلل، فلان خضع لفلان أي: ذل له وانقاد، هذا أصله، التذلل، فأطلق هنا على الرقة في الكلام لمشابهتها التذلل، لاحظ هنا قال: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} هذه الباء يمكن أن تكون للتعدية، فلا تخضعن بالقول، فإذا كانت للتعدية كيف أضاف الخضوع إليهن، {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، تخضع بالقول؟، إذا كانت للتعدية فيكون المعنى هكذا: فلا تُخضعن القولَ، لا يكون خاضعاً، فهنا يكون عدي بنفسه، فيكون الخضوع واقعاً على القول، فهنا أضاف الخضوع إليهن، {فَلَا تَخْضَعْنَ} باعتبار الملازمة بين الأحوال الظاهرة وأثر ذلك على من صدرت منه، فخضوعهن بالكلام مع الرجال الأجانب يورث خضوعاً في النفس، وأموراً لا تخفى، يعود أثرٌ على المتكلم، إنسان يتكلم بطريقة يظهر هذا عليه حتى على شكله وعلى حركاته وعلى عينيه وعلى قسمات وجهه، الإنسان يتكلم بخضوع، فيعود أثر ذلك عليه، فعبر هنا قال: {فَلَا تَخْضَعْنَ}، فخضوعها بالقول،

إخضاعها القول، يعود أثره عليها، فتكون خاضعة، ويحتمل أن تكون الباء هنا بمعنى "في"، فلا تخضعن في القول.

قال: **ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال**، يحصل بهذا وغيره، الخضوع بالقول أحياناً قد لا يكون بترقيق الكلام، قد يكون في الأسلوب العبارة جزلة لكن الأسلوب رخيم رقيق فيه نوع من التعطف، يعني كأن تقول مثلاً: جزاك الله خيراً، مثلاً، لكن بأسلوب يأخذ مجامع القلب، والمرأة تعرف هذا وتحسنه إذا أرادت، وأحياناً يكون الكلام تؤديه بطريقة لا تعاب يعني من حيث أسلوب اللفظ والعبارة حينما تتكلم بها، لكن العبارة لا تليق لا تصلح للرجال الأجانب، الكلمات التي تختارها لا تصلح، وخضوع بالقول، كأن تقول للرجل الأجنبي مثلاً: "علشاني"، فيقول: لعينيك، هي قد تؤديها بأسلوب لا يعاب، تقول: "علشاني"، فلا يليق بالمرأة أن تقول للرجل الأجنبي: "علشاني".

وكأن تقول له: أحبك في الله، ولربما على الأشهاد في الفضائية من الفضائيات ونحو ذلك، أحبك في الله، لا يصلح هذا ولا يليق، {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، فإذا قالت مثل هذا القلبُ يتحرك، {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، وتحتج بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه))[٢]، تقول: أنا ممتثلة للأمر النبوي، هذا مثال على أن الخضوع قد يكون أحياناً بأسلوب الكلام –التلفظ-، وأحياناً يكون بنفس العبارة.

هذا الخضوع، قال: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} هنا قال: **أي دغل**، يعني الفاء هنا تدل على التعليل وترتيب ما بعدها على ما قبلها، يعني أن الخضوع بالقول يورث الطمع، {فَيَطْمَعَ}، تقول: سها فسجد، هذا الذي يسميه الأصوليون: دلالة الإيماء والتنبيه، {فَلا تَخْضَعْنَ}، {فَيَطْمَعَ}، فيكون ذلك دالاً على التعليل: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، والطمع إنما يعبر به عن الشيء قريب المنال، يعني كون الإنسان يتمنى شيئاً:

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً ***

لكن الطمع يكون في الشيء القريب، تقول: أطمعته فطمع، {فَيَطْمَعَ}، فلما يراها تخضع بالقول يميل قلبه ويطمع ويرى أنها سهلة قريبة المنال، {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، وهنا حذف المتعلق، ما قال: فيطمع بكن، وإنما حذفه تنزيهاً وتشريفاً لهن، يعني: من باب التعظيم لشأنهن، ما قال: فيطمع بكن، {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، يطمع، وهنا قال: المرض يعني الدَّغَل، نحن في هذه السورة في قوله: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، فهناك المرض قيل: إنه النفاق وإن ذلك من عطف الأوصاف، تعود إلى موصوف واحد، المنافقون هم الذين في قلوبهم مرض، فهذه أوصاف متعاقبة لهم، وذكرنا مراراً أن الأوصاف المتعاقبة تارة تذكر مع حرف العطف وتارة بحذفه، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى:١-٢] لاحظ مع حذف الحرف، ثم قال: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:٣-٤] فذكر "و"، كلها أوصاف لموصوف واحد، اعبد ربك الذي خلقك والذي أعطاك وأولاك ورزقك وهكذا، فهنا {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، فالمرض هناك قيل: إنه النفاق، وإنه من عطف

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب مكرر ما جاء في إعلام الحب، برقم (٢٣٩٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٧١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، يحيى بن سعيد: هو القطان"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٩).

الصفات العائدة إلى موصوف واحد، فهم المنافقون، وبعضهم يقول هناك: ضعفاء الإيمان، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} فئة أخرى غير المنافقين وهم ضعفاء الإيمان، وهذا يحتمل، وهنا ما المراد به في هذا الموضع؟ يراد به الميل المحرم إلى النساء، فإذا رأيت الرجل يحوم حول النساء مما حرم الله -عز وجل- عليه فمباشرة تعرف أن هذا في قلبه مرض، إنسان له علاقات غير نظيفة بنساء أيًّا كان نوع هذه العلاقات، سواءً كان بالكلام أو بما وراءه، معناه في قلبه مرض، إذا رأيته يحوم حول مدارس البنات، مجامع النساء كالأسواق ونحو ذلك، فاعرف أن في قلبه مرضاً، هذا مرض يحتاج إلى علاج، يحتاج أن يذهب به إلى عيادة ويعالج، عنده مرض في قلبه، {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} قال: أي دَغَل.

قال: {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} قال ابن زيد: قولاً حسنا جميلاً معروفًا في الخير.

ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأةُ الأجانبَ كما تخاطب زوجها.

يعني {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} هي لما نهيت عن الخضوع بالقول فقد يفهم أنها تسكت ولا تتكلم، وقد يفهم أنها تتكلم لكن بطريقة فظة، فيها فظاظة وغلظة، فقال: {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا}، القول المعروف الذي لا يعاب بألفاظه التي تختارها ولا بالأسلوب الذي تؤدي به هذه الألفاظ، القول المعروف، ويؤخذ من هذا أن المرأة يجوز أن تخاطب الرجال الأجانب، وهذا لا إشكال فيه، وأن صوت المرأة ليس بعورة، لكن هذا حينما تسأل أو تتكلم في حاجة أو نحو ذلك، لكن هل معنى هذا أنها تسترسل في الحديث استرسالاً قد لا تكون إليه حاجة معتبرة، مثلاً بعض النساء أو الرجال قد يحتج بهذه الآية، ويقول: النساء ممكن أن يلقين محاضرات على الرجال. تلقي محاضرة على الرجال، ويدعو إلى أن النساء يلقين محاضرات في الفضائيات وفي بعض الإذاعات ويسجلن أشرطة، ومواقع في النت، تلقي طالبة علم، داعية، تلقي، نقول: الحمد لله ما وقفت عليها، ولم يكن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وعائشة من علماء الصحابة ما كانوا يتصدون للخطابة والإلقاء بين يدي الرجال، إطلاقاً، فيقول: صوت المرأة ليس بعورة، نقول: ليس بهذا الإطلاق، صوت المرأة ليس بعورة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المرأة عورة))[٣]، والعورة بهذا الإطلاق الواسع كل شيء يتخوف من ناحيته ويحترز له ويتحفظ عليه، كالثغور كما سبق، فهذه هي العورة بهذا الإطلاق الواسع، فالمرأة يحترز لها، فكيف تلقي محاضرات والرجال يسمعون ويتأملون نبرة الحرف، والكلمات، ورقة الصوت وما إلى ذلك؟!، يقال: لا، وتمنع من هذا، فالمرأة عورة، صحيح أن صوتها ليس بعورة، ولكن بهذه الصورة نقول: إن المرأة عورة، والرجال يمكن أن يقوموا بهذه المهمة، لكنها تلقي هي في أوساط النساء فقط، ولا داعي أن تضع لها موقعاً في النت وتبدأ تسجل محاضرات وتضعها يسمعها القريب والبعيد، أو تسجل أشرطة وتوضع في التسجيلات أو تظهر في قناة أو نحو هذا، فإن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، وأحياناً الرجل يسمع المرأة ويتخيل صورتها وهيأتها وشكلها ويميل قلبه إليها.

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، برقم (١١٧٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٤٨١)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٥٥٩٨)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٦٨٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٨٨)، وفي صحيح الجامع برقم (٦٦٩٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب تكملة الآية (٣٣).

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: وقوله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٣] أي: الْزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات))[1]، وفي رواية: ((وبيوتهن خير لهن))[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}، هذه قراءة نافع وعاصم، قَرن: من القرار وهو البقاء والمكث في بيتها، وقراءة الجمهور بالكسر، {وقِرن في بيوتكن}، وبعضهم يقول: إن القراءتين بمعنى واحد، وبعضهم فرق بينهما فقال: إن الأولى: {وَقَرْنَ} من القرار، تقول: قر الماء في الحوض إذا استقر وسكن، بمعنى أنها لا تخرج إلا إلى حاجة معتبرة، والثاني على القراءة الثانية {قِرن} يكون من الوقار، والوقار معروف، ووجه الارتباط بينهما على هذا المعنى أن الوقار ملازم للقرار، وكأنه أثرٌ عنه ونتيجة له، وذلك أن المرأة إذا قرت في بيتها فإن ذلك مظنة لوقارها، ومعلوم أن كثرة الخروج المرأة الخرّاجة الولاجة لا شك أن ذلك يذهب وقارها، فإذا كانت تخالط الرجال فإن ذلك أعظم، ويكون لها من الجرأة ما لا يكون للمرأة القارّة في بيتها التي لا تخرج، وهذا أدبٌ أدَّب الله -عز وجل- به أمهات المؤمنين، وهن قدوة لغيرهن من النساء، فلو كان في الخروج وكثرته خير للمرأة لما كان هذا التأديب لأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما أدبهن بالأدب الكامل، ومن ثَمّ يقال: إن مكان المرأة هو بيتها، وليس الخروج منه، ولا يصح بحال من الأحوال أن تُسمَّى المرأة التي لا تعمل أجيرة هنا أو هناك أن يقال: إنها امرأة عاطلة، تعاني من بطالة، هذا الكلام غير صحيح، هي ليست عاطلة، وإنما هي قائمة بوظيفتها الطبيعية من القيام على شئون المنزل، القيام على شئون

---

١ - رواه أبو داود بهذا اللفظ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، برقم (٥٦٥)، والبخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، برقم (٨٥٨)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة، برقم (٤٤٢)، ولفظهما: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)).

٢ - رواه أبو داود بهذا اللفظ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، برقم (٥٦٧)، وأحمد في المسند، برقم (٥٤٦٨)، وبرقم (٥٤٧١)، وقال الألباني: "قلت: وإسناده حسن"، في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (٥١٥)، وصححه في صحيح أبي داود، برقم (٥٧٦).

الزوج والأولاد وما شابه ذلك، وأما المرأة التي تخرج فهي أجيرة، كانت مكفية بشرع الله -عز وجل- إذ إن وليها من أب أو زوج أو غيره ملزم بالنفقة عليها والقيام بمصالحها دون أن تحتاج إلى خروج وعمل وكد فهذه قد كُفيت في الإسلام، وإن كانت محتاجة فإنها تعطى من بيت المال، ولا تحتاج إلى الخروج، تعطى من بيت مال المسلمين ما يكفيها، ويصلح لمثلها، وهذا من كمال الشريعة وعنايتها بالمرأة وإكرامها لها، لا أن يستعملها أجيرة تشقى وتعمل، لربما في أعمال لا تصلح إلا للرجال، أو تخالط الرجال، والله -عز وجل- يقول: {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [سورة طه:١١٧]، فأعاد الشقاء إلى الرجل، وذلك أنه الذي يخرج ويكدح ويطلب الرزق، ويتعرض للحر والبرد والشمس في هذا السبيل، -والله المستعان-، هذا أمر معلوم في الشرع، وأما دعوى أن المجتمع لا يمكن أن يتقدم والأمة لا تتقدم إلا بخروج المرأة فهذا كذب، والجميع يعلمون أنه كذب، ولا نحتاج أن ندلل على هذا، فانظر إلى العالم من حولك في البلاد التي خرجت منها المرأة قبل نحو مائة سنة هل تحولوا إلى مجتمعات متقدمة ودول متقدمة صناعية عظمى؟ أبداً هم يعانون من بطالة ومشكلات مزمنة، وفقر، وما إلى ذلك، بل زاد ذلك عبئاً على المجتمع وإرهاقاً لميزانيات تلك الدول كما هو معلوم، وبقي الشباب لا يجدون شيئاً يكتفون به أو يسدون رمقهم أو رمق من يعولون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وبيوتهن خير لهن)) في المسجد، الذاهبة للمسجد، والمرأة التي سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن خروجها إلى الصلاة معه: إني أحب أن أصلي معك، فقال: ((قد علمتُ))، ثم بين لها بياناً واضحاً شافياً من مجموع الروايات أنها كلما كانت أبعد في بيتها في أبعد نقطة في البيت كلما كان أفضل من النقطة التي بعدها، حتى إن صلاتها في مسجد الحي أفضل من الصلاة في المسجد الجامع، وفي الجامع أفضل من خير صلاتها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- خلفه وفي مسجده، فكيف بالخروج؟، وهذه ليست من أمهات المؤمنين، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((وبيوتهن خير لهن)) ليس المخاطب أمهات المؤمنين، فهذا لجميع النساء، وأن المرأة لا تكون أقرب إلى الله تعالى من كونها في أبعد شيء في بيتها وأظلمه، أبعد مكان في البيت وأظلم مكان في البيت، هذا هو الإسلام وشرع الله -عز وجل-، حيث يصون المرأة بعيداً عن الرجال، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة النور:١٨]، وإذا خرجت المرأة فالمرأة ضعيفة، المرأة ضعيفة وهي محل شهوة الرجل شاء أم أبى، شاءت أم أبت، فإذا بقيت حيث يراها الرجال تخالطهم فإنهم يتطلعون إليها، وينظرون إليها غالباً، ولا تكاد تسلم من نظرات وغير ذلك مما يشكوه النساء في العالم، وأما دعواهم أن هذا يكون بسبب الكبت وفصل الجنسين فنقول هذا المرض شكوى مرة من هذا الاختلاط والبلاء الذي أصابهم، فإذا خرجن للمسجد فليخرجن وهن تفلات، والتفلة كما فسره أبو عبيد وغيره في غريب الحديث بالمرأة غير المتطيبة المنتنة الريح، يعني رائحتها غير جيدة، واليوم لا يوجد امرأة تخرج بهذه الصفة إذا خرجت من بيتها إذا اضطرت للخروج أو خرجت إلى المسجد، وإنما تخرج بأحسن حلة حتى لو كانت غير جميلة بالنقاب وما يحتف بالنقاب مع الطيب وأناقة العباءة -والله المستعان-، فيخرجن وهن تفلات، تخرج في أطمارها، في ثياب ليست بتلك، وعباءة ليست بتلك؛ من أجل أن لا تلفت الأنظار، ولكن الشيطان ما يترك أحداً، جاء إلى المجتمعات التي ينتشر فيها الحجاب فعبث بالحجاب عبثاً، صيّره إلى فتنة، وجاء إلى

الصالحين الذين لا يسمعون الأغاني والمعازف فدخل عليهم باسم الأناشيد التي كثير منها هي في الواقع أغانٍ وصاروا يسمعونها تحت مسمى آخر.

قال: وقوله تعالى: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

فالعبارات التي عبروا بها عن تبرج الجاهلية: تخرج تمشي بين يدي الرجال، هذا تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} يقول: إذا خرجتن من بيوتكن -وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج- فنهى الله عن ذلك.

وهذه صورة ثانية.

وقال مقاتل بن حيان: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

فالتبرج من البروج وهو الظهور والانكشاف، هذه حقيقته، ومنه قيل للبرج ذلك لظهوره وانكشافه، فهنا هذه المعاني التي ذكرها السلف كقول مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، هذه الجاهلية الأولى الآن، وهو في الواقع تبرج؛ لأنها صارت في حال من الانكشاف أمامهم، ولو كانت متحجبة حجاباً كاملاً لا يُرى منها شيء، فهو تبرج، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس للنساء وسط الطريق))[٣].

والمعنى الآخر: لهن مشية وتكسر وتغنج فهذا أيضاً من التبرج، وكذلك قول من قال: **أن تلقي الخمار على رأسها**، بمعنى أن تظهر الزينة والمفاتن، كل ذلك يرجع إلى التبرج، فالتبرج يكون بالتكشف ونبذ الحجاب أو الإخلال به، ويكون بالمشي بين يدي الرجال، ويكون التبرج بكثرة الخروج، لا تقرّ المرأة في بيتها، خرّاجة ولاجة، فهذا من التبرج.

وهذه الصورة التي ذكرها مقاتل **أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده**، فهي تلبس خماراً لكنها لا تشده، هذه الجاهلية الأولى، فكيف باليوم حيث تُظهر المرأة لربما كل شيء إلا العورة المغلظة في أماكن كثيرة في هذا العالم؟!، هذا ما كان يتصور في الجاهلية الأولى، والجاهلية تطلق يراد بها الحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام، وهي حالة واقعية نفسية وبعيدة عن الله -تبارك وتعالى- والاهتداء بهديه، هذه هي الجاهلية، لكنه قال هنا: {الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى}، أين الجاهلية الأولى؟ بعضهم قال: ما بين آدم ونوح، وحديث ابن عباس: ((ما بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام))[٤]، يعني يقصد القائل ما بعد ذلك، حينما وقع الشرك، يعني بعد العشرة القرون، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: إنها زمن ولادة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: ما بين داود وسليمان، وهذا غير صحيح، هؤلاء كان لهم مُلك وهم أنبياء، ومثل هذا لا يتصور أن توجد فيه حالة كهذه، وبعضهم يقول: ما بين عيسى ومحمد -صلى الله عليه وسلم-،

---

٣ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٧٨٢٣)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٥٦٠١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٥٦)، وفي صحيح الجامع برقم (٥٤٢٥).

٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد (٥٣/١)، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، (١٩/٧)، برقم (٣٣٩٢٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٢٨٩).

فالجاهلية الأولى هي التي كان الناس عليها قبل الإسلام، ولا يلزم من ذكر الأولى أن يوجد أخرى، ومن نظروا إلى هذه الملازمة أنه يلزم قالوا: ابحثوا عن الجاهلية الثانية، فجعل بعضهم الجاهلية الأولى ما بين نوح وآدم أو ما بين إدريس ونوح باعتبار أن إدريس قبل نوح -عليهما السلام-، أو زمن ولادة إبراهيم أو غير ذلك من أجل أن يقولوا: إن الجاهلية الثانية هي التي كان عليها الناس قبل الإسلام، وبعضهم قال: إن الجاهلية الأولى التي كان عليها الناس قبل الإسلام، والجاهلية الثانية هي ما يقع من الذنوب والمعاصي وكذا بعد الإسلام، ولا حاجة إلى هذا -والله تعالى أعلم-؛ إذ إنه لا يلزم من ذكر الأولى أن يوجد ثانية، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} [سورة النجم:٥٠]، لا يلزم أنه يوجد عاد ثانية، وإنما يكون المراد بقوله: {الْأُولَى} يعني: المتقدمة، {الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى}، وموضوع المرأة وخروج المرأة، والمنع من خروجها أحياناً يقال: هذا تخلف القرون الوسطى، وما علموا أن التخلف هو في تبرجها وخروجها عن الفضيلة وعن القرار في البيت، وكلمة الفضيلة تغيظ أعداء الله -عز وجل-، تغيظهم كثيراً، فصاروا يرددون هذه الكلمة على سبيل السخرية، دعاة الفضيلة، ويقولون: أنتِ جوهرة مكنونة، يسخرون سخِرَ الله منهم، -والله المستعان-، {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} [سورة الأعراف:٢٧]، نزع اللباس هذا كله مما يدعو إليه الشيطان وشياطين الإنس من تلامذته الذين تشيّخ بعضهم حتى صار إبليس من تلامذته، والله المستعان.

قال وقوله تعالى: {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة -وهي: عبادة الله وحده لا شريك له- وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، {وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

بمعنى أنها تبقى في البيت، لكن أحياناً يكون بقاؤها في البيت أسوأ وأفسد لها من خروجها، يعني قد تخرج إلى دراسة أو إلى التحفيظ أو نحو ذلك، وتنتفع وتستفيد، أو تنفع فلا إشكال في هذا، وبصرف النظر فإن بقاء المرأة في البيت لا يعني بالضرورة أنها تكون على حال من الصلاح والإصلاح كما هو المعلوم اليوم في هذا الاشتغال الذي اشتغل به كثير من الناس من الرجال والنساء وهم في بيوتهم، هذه الأجهزة والوسائط التي صارت تقرب البعيد، ويصل منها الإنسان إلى كل ما يريد، وصارت المرأة لربما تجلس في بيتها في حال من الفساد والإفساد عبر هذه الشبكة أو عبر الهاتف أو غير ذلك، فإذا بقيت في البيت {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فهي في حالة من الذكر، {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}، لا تبقى في البيت فارغة تشتغل بما يضرها.

وقوله: {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ}، الآيات هنا في موضوع اجتماع أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- على المطالبة بالتوسعة في النفقة، لِمَا كان عليه الحال من الضيق والشدة، فهن لا يملكن ما يُخرجن معه الزكاة، ففيه بشارة أو إشارة إلى ما سيكون من الفتوح، وصار أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بتلك المثابة، يعني من بعده -عليه الصلاة والسلام.

قال: وقوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} نص في دخول أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح.

يعني العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، فصورة السبب داخلة في عموم اللفظ أو المعنى قطعاً، وإخراجها منه بالاجتهاد ممنوع، هذه قاعدة، لا يجوز إخراج صورة السبب بالاجتهاد من العموم، عموم اللفظ أو المعنى، فهذه نازلة في أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هن ممن قصد، وعني بهذه الآية، هن من أهل بيته، لكن أهل البيت يطلق بإطلاقات متعددة، بحسب المقام وقد يفهم ذلك من السياق أو من قرائن أخرى، فيطلق بإطلاق واسع فيدخل فيه أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في هذا الموضع؛ لأن ذلك سبب النزول، ويدخل فيه عليٌّ والحسن والحسين وفاطمة -رضي الله عنهم-، وأهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويطلق بإطلاق دونه، يعني أضيق منه، ويراد به من حُرم الصدقة وهم أهل أربعة أبيات: آل علي، وآل عباس، وآل عقيل، وآل جعفر، هؤلاء أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعة أبيات، ويطلق بإطلاق أضيق من هذا، وهو ما دل عليه حديث الكساء، لما دخل فيه علي والحسن والحسين وفاطمة -رضي الله تعالى عنهم-، وقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيراً))[٥]، ولم يدخل فيه أم المؤمنين، فهذا إطلاق أضيق، فهنا في هذه الآيات لا شك أن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- داخلات في ذلك، ولا يقال: إنه عبر هنا بالضمير الدال على الذكور، {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ} أو كاف الخطاب، أو الصيغ الدالة على الذكور {أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، فهذا يجاب عنه بأحد جوابين، يعني قد يقول قائل: هذه صيغة للمذكر، فلماذا لم يقل: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت؟ الجواب: يقال: إما من باب التغليب، تغليب المذكر على المؤنث كما هو الغالب في الاستعمال، وذلك أن من أهل البيت علي والحسن والحسين -رضي الله تعالى عنهم-، وإما أن يقال: إن لفظة "الأهل" مذكرة وهي تطلق على الزوج، {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ} [سورة هود:٨١] وزوجته قال: {إِلاَّ امْرَأَتَكَ}، دل على أنها داخلة فاستثناها، قال الله -عز وجل-: {رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} [سورة هود:٧٣]، إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- يعني زوجته داخلة في هذا، {وَسَارَ بِأَهْلِهِ} [سورة القصص:٢٩] موسى -صلى الله عليه وسلم- يعني زوجته، فالزوجة يقال لها: أهل، ولفظة أهل مذكرة، فروعي بذلك اللفظ، فجاءت الصيغة بخطاب المذكر {لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ} ما قال: عنكن، {وَيُطَهِّرَكُمْ}.

قال: وروى ابن جرير عن عِكْرِمة أنه كان ينادي في السوق: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، نزلت في نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} قال: نزلت في نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة.

وقال عكرمة: من شاء باهلتُه أنها نزلت في شأن نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فهن سبب النزول دون غيرهن يدخل فيه غيرهن على سبيل التوسع والعموم.

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢٠٥)، وأحمد في المسند، برقم (٢٦٥٩٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين، زبيد: هو ابن الحارث اليامي".

وروى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة -رضي الله عنها-: خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن -رضي الله عنه- فأدخله معه، ثم جاء الحسين -رضي الله عنه- فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة -رضي الله عنها- فأدخلها معه، ثم جاء علي -رضي الله عنه- فأدخله معه، ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[٦]، رواه مسلم.

هذا بالإطلاق الضيق، وخروجه -صلى الله عليه وسلم- قال هنا: **في مرط مرحل**، المرط: كساء من صوف، وقد يكون من خز، تخرج به المرأة تجلبب به، جلباب، ومرحل يعني عليه صور الرحال، منقوشة عليه يعني، مرط مرحل، منقوش عليه، منسوج عليه صور الرحل.

وفي هذا الإطلاق الضيق لا يدخل فيه أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-، والله أعلم.

ولا يقال: إنهن سبب النزول بمعنى أن ذلك يختص بهن، وإن أهل البيت إنما يراد به أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا لا يقول به أحد، والقول بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لا يقتضي أن يقال بإطلاق، وإنما يقال في هذه الآيات: العبرة بخصوص السبب، أنها نزلت في أمهات المؤمنين، لكن الأدلة الأخرى دلت على أن أهل البيت أوسع من ذلك، وأنه يدخل فيه غيرهن.

قال: وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم -رضي الله عنه-، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً رأيتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً؛ حَدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: يا ابن أخي، والله لقد كَبِرَت سنِّي، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فما حَدّثتكُم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلّفونيه، قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما خطيبا بماء يدعى خُمًّا -بين مكة والمدينة- فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذَكّر، ثم قال: ((أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به))، فَحَثّ على كتاب الله -عز وجل- ورَغَّب فيه، ثم قال: ((وأهل بيتي، أذَكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي)) ثلاثاً، فقال له حصين: ومَن أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدَقَة بعده، قال: ومَنْ هم؟ قال هم آل علي، وآل عَقيل، وآل جعفر، وآل عباس -رضي الله عنهم-، قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة بعده؟ قال: نعم[٧]، وهذا تفسير من زيد بن أرقم وليس بمرفوع.

---

٦ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٢٤).

٧ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٨).

قوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ} الإرادة هنا شرعية، ومعلوم أن الإرادة الشرعية يمكن أن تتخلف، وهذا قول أهل السنة قاطبة، فأدَّبهم بهذه الآداب من أجل أن يحصل لهم هذا التطهير أن يجتنبوا المدنسات، والرافضة يقولون: إن هذه الإرادة كونية، وإذا كانت كونية معناها لابد من تحقق المراد، ومن ثم زعموا العصمة للأئمة، ويمكن أن يجاب عنهم بأجوبة من أدناها أن يقال: إذا كانت إرادة كونية فإن ذلك لا يلزم إذا أذهب عنهم الرجس، لا يلزم منها العصمة، فالخطأ يرد، وإنما الرجس هو كل شيء مستقذر حساً أو معنى مما تعافه النفوس والفِطر، فإنه يقال له: رجس، ولما كان الإثم والذنب والمعصية والشرك والكفر كل ذلك من الأمور التي هي من أعظم المستقذرات الحسية، كانت من قبيل الرجس؛ ولهذا أطلق الرجس على هذا وهذا، {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [سورة المائدة:٩٠]، وقال عما أهل به لغير الله قال: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا} [سورة الأنعام:١٤٥]، فسماه بذلك، وهكذا، فهذه الأمور وكذلك ما يحصل به تدنيس الأعراض هو من قبيل الرجس، والله أذهب عنهم كل هذه الأمور من الخبائث والمقذرات المدنسات حساً ومعنى، فإذا قلنا: إن الإرادة كونية، لكن لا يلزم من هذا ما يتصل بالخطأ أنه قد رُفع، فتكون العصمة، هذا غير صحيح؛ لأن ذلك ليس من الرجس، فالخطأ ليس من الرجس، إنما الرجس إثم وكل مستقذر حساً ومعنى، ثم يقال له: إذا كانت هذه إرادة كونية فأهل البيت أوسع من الأئمة الاثني عشر مثلاً، الذين تنسبون لهم العصمة، هناك غير هؤلاء، فهل كل هؤلاء من المعصومين؟ والإرادة شرعية دينية لا يلزم منها العصمة، ولو قيل: إنها كونية لا يلزم منها العصمة، لكن أهل السنة يقولون: هي شرعية، وهذا هو الصحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب تكملة الآية (٣٣) إلى الآية (٣٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله-: ثم الذي لا يشك فيه من تَدَبَّر القرآن أن نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- داخلات في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [سورة الأحزاب:٣٣]**، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}** [سورة الأحزاب:٣٤] **أي: اعملن بما ينزل الله -تبارك وتعالى- على رسوله -صلى الله عليه وسلم- في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خُصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنهما- أَوْلاهُنَّ بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحيُ في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك -صلوات الله قال بعض العلماء -رحمه الله-: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنها-، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العليا، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله: **فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}**، الذكر هنا يحتمل أن يكون المراد به الذكر بالقلب بمعنى التذكر، ويحتمل أن يكون المقصود الذكر باللسان بمعنى التلاوة والحفظ ولزوم ذلك، يعني الاشتغال به، بكتاب الله -تبارك وتعالى-، أن تتلوه وأن تلازمه، فالأول يكون بمعنى التذكر والتفكر خلاف الغفلة، وكل ذلك مطلوب، وقراءة القرآن إنما المقصود بها ما يوصل إلى هذا، وليست مجرد قراءة للسان.

وقوله: **{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}**، الحكمة هنا السنة، وأضاف البيوت إليهن باعتبار أنهن ساكنات فيها، كما قال الله -عز وجل-: **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ}** [سورة الطلاق:١] أي المطلقة، يعني وهو بيت الزوج، وكذلك أيضاً هنا في قوله: **{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ}**، يُتلى ما قال: ما ينزل، فإن التعبير بالتلاوة أشمل وأعم، **{مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ}**، وبناه للمجهول، فإن الآيات قد تنزل بيوتهن وقد تنزل في مواضع أخرى، ولكن التلاوة **{مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ}** يشمل ذلك القرآن جميعاً من كل تالٍ، وهن ممن يتلو، **{مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}**، هذا ما ينبغي أن تشتغل به المرأة وهي في بيتها.

قال: وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي جميلة قال: إن الحسن بن علي استُخلفَ حين قُتِل علي -رضي الله عنهما- قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهراً، ثم بَرَأَ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل البيت الذي قال الله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء[1].

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} أي: بلطفه بكنّ بلغتنّ هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاكن ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير -رحمه الله-: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة، وهي السنة، خبيرًا بكنَّ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

وقال قتادة: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} قال: يمتنُّ عليهن بذلك، رواه ابن جرير.

وقال عطية العَوْفي في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} يعني: لطيفاً باستخراجها، خبيراً بموضعها، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى الربيع بن أنس، عن قتادة.

وأيضاً يحتمل أن يكون {إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} باعتبار أن اللطيف من معانيه: العليم بدقائق الأشياء، والخبير: هو العليم بخفاياها وبواطنها، فكان لطفه بهن لعلمه بدقائق الأشياء وخفاياها، وكذلك حينما يذكر هذا بعد ما أمر الله -عز وجل- به من التلاوة أو ذكر ما يتلى في بيوتهن فإن ذلك قد يحمل على معنى وهو أن الله عالم بهذه الأعمال التي تصدر منكن، {لَطِيفًا خَبِيرًا} يعلم دقائق الأشياء وخفاياها، فكل هذا داخل في معناه، والله تعالى أعلم.

وقوله هنا: عن عطية: {لَطِيفًا خَبِيرًا}: **يعني لطيفاً باستخراجها خبيراً بموضعها**، "استخراجها" الضمير يرجع إلى "موضعها".

فالنعمة مثلاً التي ينعم الله -عز وجل- بها على العبد لطيف باستخراجها خبير بموضعها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب:٣٥].

روى الإمام أحمد عن أم سلمة -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: قلت للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما لنا لا نُذْكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يَرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر...

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٢٧٦١).

لم يرعني يعني: لم يفجأني من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا ونداؤه.

قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسَرّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حُجْرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: ((يا أيها الناس، إن الله تعالى يقول: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} إلى آخر الآية))[٢]، وهكذا رواه النسائي وابن جرير.

فقوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص.

إذاً ما سبق يدل على أن سبب النزول هو سؤال أم سلمة -رضي الله عنها- وقد جاء هذا عنها بروايات متعددة، وكذلك في الآيات النازلة بسبب سؤالها، وقد جاءت روايات أخرى حسنها بعض أهل العلم كالحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن ذلك جاء لسبب آخر، يعني من سؤال غيرها، ولكن المؤدَّى واحد أن هذه نزلت بسبب سؤال وُجه من امرأة، سواء كانت من نساء المؤمنات، أو من أم سلمة، أو من غيرها، -رضي الله عن الجميع-، سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل هذا السؤال فنزلت، وهذا الذي ذكره هنا هو أصح هذه الروايات وإن كان بعض هذه الروايات -كما سبق- حسنه بعض أهل العلم، وبعضهم ضعفه.

وقوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} هذا يحتمل أن يكون من قبيل الاستئناف، يعني أنه متصل بما سبق، لمّا ذكر أوصاف أمهات المؤمنين، وما أدبهن به وما ينبغي لهن وما يكون من مضاعفة الثواب والعقاب وما أشبه ذلك، فبقية نساء المؤمنين ما حالهن؟ فقال على سبيل الاستئناف البياني: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} إلى آخر ما سبق، فيكون بياناً لما قد يرد على الذهن: ما حال بقية النساء، وما يكون لهن؟ ويمكن أن يكون من قبيل الاستئناف الابتدائي، يعني بدأ بموضوع آخر، لكن له نوع تعلق من جهة المناسبة أن الله لما ذكر ما لأمهات المؤمنين استأنف الله -تبارك وتعالى- فجاء الحديث عن عامة النساء.

قال: فقوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه لقوله تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [سورة الحجرات:١٤]، وفي الصحيحين: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))[٣]، فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه في أول شرح البخاري.

وقوله تعالى: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} القنوت: هو الطاعة في سكون.

وشيخ الإسلام يرى أنه دوام الطاعة.

قال: القنوت: هو الطاعة في سكون، {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [سورة الزمر:٩]، وقال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [سورة الروم:٢٦]، {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [سورة آل عمران:٤٣]، {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [سورة البقرة:٢٣٨]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان، ثم القنوت ناشئ عنهما.

---

٢ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٤٠٥).

٣ - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه، برقم (٢٣٤٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، برقم (٥٧).

يعني يكون هذا على سبيل الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ}: هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة -رضي الله عنهم- لم تُجَرّب عليه كِذْبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومَنْ صدق نجا، ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتَحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً))[4]. لماذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} قال: **هذا في الأقوال**، مع أن الصدق يكون في الأحوال والأفعال، وما إلى ذلك، لماذا خصه بالأقوال؟ لذكر الإيمان قبله، {وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، فهؤلاء صادقون في إيمانهم، وهذا مرتبة أعلى من مجرد الإسلام، يعني لم يذكر الإسلام وحده حتى يقال: إسلام الظاهر، فقد يكون صادقاً وقد لا يكون صادقاً، لكن لما ذكر الإيمان مع الإسلام، فالإيمان: هو تصديق القلب وانقياده وإقراره وإذعانه، فصار هنا الصدق في هذه {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} يعني: الصدق في الأقوال، هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وإلا فالصدق يكون في القول والفعل والحال كأن يُظهر حالاً ليست هي الحال التي هو عليها، كمن يُظهر الخشوع مثلاً، وليس بخاشع، يظهر العبادة والنسك وليس كذلك.

قال: والأحاديث فيه كثيرة جداً.

{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}: هذه سَجِيّة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقّي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

المقصود أن الصبر لا يُخص بالصبر على المصائب وإنما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته، كل هذا داخل في الصبر.

قال: {وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث: ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[5].

الخشوع من الأعمال القلبية، ويريد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن يقول: إنه مجموع أوصاف، والذي يظهر -والله أعلم- أنه يمكن أن يقرب المعنى بعبارة يفهم منها حقيقته بأن يقال: هو انكسار القلب من خشية الله -عز وجل-، فأصحاب القلوب المنكسرة من خشيته هؤلاء هم أهل الخشوع، ويظهر أثره على الجوارح بحسب ما يقوم بالقلب، فتكون هذه الأشياء التي تذكر من السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع كل هذه من آثار الخشوع ومظاهره، فهذا منكسر القلب لا يتكبر، وإنما يكون في حال من التواضع

---

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، وبرقم (٤٤٩٩)، في كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى-، برقم (٨).

والسكون والتؤدة والخضوع وما أشبه هذا، فهم يفسرونه ببعض لوازمه أو ببعض آثاره، لكن حقيقته هو هذا الانكسار الذي يقع في القلب، فتظهر هذه الآثار.

قال: {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ}: الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه.

الصدقة أوسع من هذا، كما في الحديث: ((تُصدق الليلة على غني))[6]، فالصدقة تكون على النفس وعلى الأهل وتكون على الناس من المحتاجين وغيرهم، وكل معروف صدقة، لكن السياق يدل على المراد أحياناً، يعني مثلاً هنا {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} الصدقات بالأموال، أن يعطي من ماله، لكن هل يشترط أن يكون ذلك على المحاويج والفقراء؟ ليس بشرط، لكن هؤلاء أولى الناس به، فإذا ذُكرت الصدقة اتجهت الأذهان إلى هؤلاء.

قال: وقد ثبت في الصحيحين: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)) فذكر منهم: ((ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه))[7]، وفي الحديث الآخر: ((والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار))[8].

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً، له موضع بذاته.

{وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}: في الحديث الذي رواه ابن ماجه: ((والصوم زكاة البدن))[9] أي: يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.

قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}.

هنا قوله: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}، والحديث: ((لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم))، هذا الحديث فيه ضعف، لا يصح، قال: **أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً**، مثل زكاة الجسد من الأخلاط الرديئة، يعني: أنه يصح بالصوم، وشرعاً: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:183].

وقول سعيد بن جبير -رحمه الله-: **من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}**، فلا يصدق على من صام الفرض -رمضان- أن يقال: إنه داخل في هذا الوصف، {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}، وإنما يقال ذلك لمن أكثر من الصوم، هذا الذي يظهر، وسُمي أو وصف بهذا لكونه قد عرف

---

6 - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، برقم (1355)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد غير أهلها، برقم (1022).

7 - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم (629)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (1031).

8 - رواه الترمذي، أبواب السفر، باب ما ذكر في فضل الصلاة، برقم (614)، وأحمد في المسند، برقم (15284)، وقال محققوه: "إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات غير ابن خثيم، فصدوق لا بأس به"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5136).

9 - لم أجده بهذا اللفظ، وإنما رواه ابن ماجه، كتاب الصيام، باب في الصوم زكاة الجسد، برقم (1745)، ولفظه: ((لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم))، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (5973)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (1329).

بهذا وأكثر منه، لملازمته له، يقول سعيد بن جبير في القدر الذي يحصل به هذا الأمر: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، باعتبار أن الحسنة بعشر أمثالها، فذلك كصيام الشهر، لكن هذا يحتمل، وقد يقول قائل: يصوم رمضان وستاً من شوال، فهذا كصيام الشهر بهذا الاعتبار، ويمكن أن يقال: إن الإكثار يعني مثل ما جاء من أن باب الريان لا يدخله إلا الصائمون، ليس المقصود به من صام رمضان فقط، وإنما من أكثر من الصوم، من عُرف به، فلو قيل: إن ذلك يحصل بأن يكون الإنسان يصوم الفرض ويصوم من التطوع، بحيث يكثر من صيام التطوع، كصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم الإثنين والخميس ونحو هذا، ثم هذا الإكثار والكمال يتفاوت، وأعلاه أن يصوم يوماً وأن يفطر يوماً، لكن الشارع لم يرد عنه تحديدٌ في ضابط الكثرة ومَن يوصف بذلك، مثل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٤١]، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ}، فيكون الإنسان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات بعض أهل العلم يقول: إن من حافظ على الأذكار الواردة في مواقيتها في سائر الأحوال يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، في سائر الأحوال، الدخول والخروج والخلاء والمسجد وما إلى ذلك مما يقال في الصباح والمساء وبعد الصلوات، هذا كله داخل فيه، وبعضهم يرى أن من فعل ذلك فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فمن حافظ على هذه الأشياء ففوقه مرتبة أيضاً وهي أن يكثر من الذكر فيما بين ذلك، ((لا يزال لسانك رطباً بذكر الله))[١٠]، فيكثر الإنسان من الذكر واللهج به، ومن الذكر قراءة القرآن، فيكثر من هذا، لو كان الإنسان يقول الأذكار في هذه الأوقات كلها، لكنه لا يقرأ القرآن مثلاً، هل يكون من الذاكرين الله والذاكرات، ولا يذكر فيما بين ذلك؟ ليس عندنا دليل يحدد ذلك بدقة، ولكن يقال: إن الإكثار يتفاوت، ولكن ينبغي أن يعتبر في ذلك ما يقال له إكثار عرفاً، أن يكثر، أنه لا يزال لسانه رطباً بذكر الله، ما تحصل له غفلة عن الذكر، وهكذا بالنسبة للصوم، وباب الريان يدخله الصائمون، هم من أكثروا من هذا، من عُرفوا به، كذلك الباب الذي لأهل الصلاة، وأهل الصدقة، هل هو الذي يخرج الزكاة المفروضة يقال: هذا من أهل الصدقة، يُدعى من باب الصدقة؟ الجواب: لا، وإنما الذي يكثر من هذا، والذي يتصدق في السنة مرة مع الزكاة، لا يكون من أهل الصدقة، إنما من أكثر من هذا، عُرف به، يفتح عليه في هذا الباب.

قال الإمام الحافظ ابن كثير: ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا معشر الشباب، مَنْ استطاع منكم الباء فليتزوج، فإنه أغَضُّ للبصر، وأحْصَن للفرج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء))[١١]، ناسب أن يذكر بعده: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال -عز وجل-: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى

---

١٠ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الذكر، برقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، برقم (٣٧٩٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٦٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٧٠٠).

١١ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا)، برقم (١٨٠٦)، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم (١٤٠٠).

{أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون:٥-٧].

يدخل فيه أيضاً حفظ ذلك من أن ينظر إليه الناس، حفظ العورات من الانكشاف، ولكن المعنى الأول هو حفظها من مقارفة ما حرم الله -عز وجل-، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [سورة النور:٣٠]، قال بعض السلف -وهو اختيار ابن جرير-: إن المقصود: أن يحفظها من الانكشاف، فلا تقع أنظار الناس عليها، فهذا المعنى صحيح، ولكن المعنى الآخر أيضاً وهو: حفظها من مقارفة ما حرم الله -عز وجل- {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، هو داخل في هذا أيضاً، فالآية تشمل المعنيين، لكن هناك في آية النور القرينة التي حملت مثل ابن جرير على القول بأن المقصود أن يحفظها من الانكشاف أن تقع عليها العيون، أن الله قال: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} ثم قال بعده: {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، لكن يمكن أن يقال أيضاً في وجه الارتباط: لما كان البصر هو رسول القلب وإنما يكون ما بعده من مقارفات أثراً من آثاره في الغالب أمر بحفظ الفروج بعد الأمر بغض الأبصار، فكذلك هنا ذكر الصوم ثم ذكر بعده حفظ الفرج فيكون عن المقارفات المحرمة، لكن يدخل في العموم يحفظوا فروجهم من أن يرى ذلك أحد، يعني من التهتك والتبذل وعدم المبالاة سواء كان ذلك تحت دعوى الحرية، أو اعتقاد أن ذلك من قبيل الزينة كما هو في بلاد لا تعرف ربها، أو كان ذلك بقلة المبالاة أو تحت مفاهيم أخرى خاطئة، فبعض الناس يقول: أنا رجل، ولا يبالي أن تنكشف عورته، فإذا دخل الخلاء -أعزكم الله- لا يغلق الباب، ويقول: ما فيها شيء أنا رجل، فالرجل عنده لا يستحي، هذه الرجولة أحياناً تعني نزع الحياء.

وقوله تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} **روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كُتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات))**[12].

قوله: ((فصليا ركعتين)) جميعاً، يعني يقيد بهذا القيد الذي جاء في روايات الحديث صليا جميعا، ((كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات))، وهذا من فضل الله -عز وجل-، ((صليا ركعتين)) كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فهذا من فضل الله -عز وجل- أن يبلغ بالعمل القليل المراتب العالية، مثل: ((عمرة في رمضان كحجة معي))[13]، وهكذا أيضاً في من جلس في مصلاه بعد الفجر عند من صحح

---

١٢ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب الحث على قيام الليل، برقم (١٤٥١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، برقم (١٣٣٥)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٢٥٦٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (١١٨٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٣٣).

١٣ - رواه البخاري، أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب حج النساء، برقم (١٧٦٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، برقم (١٢٥٦).

الحديث: ((يذكر الله -عز وجل- حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كتب له أجر حجة وعمرة))[١٤]، فبناء على ذلك يكون هذا داخلاً في هذا المعنى، بلّغه الله بعمل قليل، إلى غير هذا، ((من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء))[١٥]، ((قراءة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص:١] تعدل ثلث القرآن))[١٦]، فهنا إذا صليا ركعتين ((كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات))، فهذا من فضل الله.

قال: وقد رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث عن أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، بمثله.

هذا العمل في ذاته قليل، يعني لا يعتبر كثيراً، لكن الله جعله بتلك المنزلة، يبلغ به صاحبه تلك المرتبة.

قال: وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يسير في طريق مكة، فأتى على جُمْدان فقال: ((هذا جُمْدان، سيروا فقد سبق المُفَرّدون)). قالوا: وما المُفَرّدون؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((الذاكرون الله كثيراً والذاكرات))، ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اغفر للمحلقين))، قالوا: والمقصرين؟ قال: ((اللهم اغفر للمحلقين))، قالوا: والمقصرين؟ قال: ((والمقصرين))[١٧] تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره.

جمدان: هذا جبل على طريق مكة، بعضهم يقول: على ليلة من المدينة، وبعضهم يقول -وهذا هو الأقرب-: أنه أقرب إلى مكة، يعني يبعد نحو مائة كيلو متراً عن مكة، يعني في أرض بني سُليم، ويمكن أن يقال الآن: تحديداً ناحية الخليص، في الطريق بين مكة والمدينة على بعد ما يقرب من مائة كيلو متراً من مكة.

وقوله تعالى: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي أن الله قد أعد لهم: أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة.

والإعداد يدل على عناية بالمُعَد.

---

١٤ - رواه الترمذي، أبواب السفر، باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، برقم (٥٨٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٤٠٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (٦٣٤٦).

١٥ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٩٠٩).

١٦ - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في إذا زلزلت، برقم (٢٨٩٤)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، برقم (٣٧٨٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٨٥٤).

١٧ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، برقم (١٦٤١)، ومسلم، كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير، برقم (١٣٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب تكملة الآية (٣٦) إلى الآية (٣٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام أبو الفداء ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا} [سورة الأحزاب:٣٦].

روى الإمام أحمد عن أبي برزة الأسلمي قال: إن جليبيباً كان امرأ يدخل على النساء يَمُرّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا تدخلن عليكن جُليبيباً، فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن، قالت: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم: هل للنبي الله -صلى الله عليه وسلم- فيها حاجة أم لا؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لرجل من الأنصار: ((زوجني ابنتك))، قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونُعْمَةَ عين، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لست أريدها لنفسي))، قال: فلمن يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لجليبيب)). فقال: يا رسول الله، أشاور أمها، فأتى أمها فقال: رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونُعمة عين، فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، قال: إنما يخطبها لجليبيب، فقالت: أَجُلَيبيب إنيه؟.

مختلف في ضبطها، وفي صورتها، صورة الكلمة، لكن على ما هاهنا يعني يقال ذلك: للاستبعاد والإنكار، جليبيب، يعني كانت تقول: كيف؟، ما يمكن.

قال: فقالت: أجليبيب إنيه؟ أجليبيب إنِيه؟ لا لعمر الله لا نزَوّجُه.

يعني هي تتساءل، تقول: جليبيب، كأنها تقول: جليبيب؟، لا يمكن.

قال: فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: مَنْ خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها، قالت: أتردون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني، فانطلق أبوها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: شأنَك بها، فَزَوّجها جليبيباً، قال: فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه -رضي الله عنهم-: ((هل تفقدون من أحد؟)) قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((انظروا هل تفقدون من أحد؟)) قالوا: لا، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لكني أفقد جليبيباً))، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((فاطلبوه في القتلى))، فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فأتاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقام عليه، فقال: ((قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه)) مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على

ساعديه وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله -رضي الله عنه-، قال ثابت: فما كان في الأنصار أيّم أنفق منها، وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: قال: ((اللهم صب عليها الخير صباً، ولا تجعل عيشها كداً)) كذا كان، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها، هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله[1]، وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في "الاستيعاب": أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره؟ نزلت هذه الآية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، هذا ابتداء حديث عن أمر يتصل بما جاءت الإشارة إليه في أول السورة على أن سبب النزول أو أن هذه الآيات تتحدث عن تزويج زيد بن حارثة -رضي الله تعالى عنه- بزينب بنت جحش، لما خطبها النبي -صلى الله عليه وسلم- له، وانظر ما قال الله -عز وجل- بعد: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ} [سورة الأحزاب:37]، وفي أول السورة {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ} [سورة الأحزاب:4]، فأبطل هذا الأمر من الناحية النظرية، أي أن الله -عز وجل- قد حكم ببطلانه، ومن الناحية العملية لما كان ذلك شاقاً على النفوس، وكانوا يرون أن الرجل لا يجوز بحال أن يتزوج امرأة مَن تبناه، وأن هذا عندهم من العظائم، أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج امرأة زيد بعدما فارقها؛ ليكون ذلك رافعاً لما في النفوس من الحرج، فقد يحصل الإيمان والتسليم ولكن يبقى التنفيذ لربما صعباً، فأراد -سبحانه وتعالى- أن يجعل ذلك على يد نبيه -صلى الله عليه وسلم- من الناحية العملية، وهذا له نظائر في الشرع.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ}، أورد المصنف -رحمه الله- هنا حديث أبي برزة في أن سبب النزول: هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب امرأة من الأنصار لجليبيب، وأن الآية نزلت فيه، فهذه يمكن أن تكون نزلت في جليبيب، وفي قصة زيد -رضي الله تعالى عنه-، والسياق في خبر زيد، ولا منافاة، والله تعالى أعلم.

وقوله هنا: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}، هذا النفي بمعنى الحظر، بمعنى: أن ذلك لا يكون، إما عقلاً، يعني هذه تستعمل في نفي الإمكان إما عقلاً وإما عادة، وإما أن يكون ذلك لأن الله -عز وجل- أخبرنا أنه لا يكون، أو لأنه حرمه شرعاً من جهة الخطاب التكليفي، وتأمل الآيات التي جاء فيها مثل هذا النفي، {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا} [سورة النمل:60]، هذا غير، {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ} [سورة التوبة:120] الآية، وهذا أيضاً مغاير لما هنا: {وَمَا كَانَ

---

[1] - رواه أحمد في المسند، برقم (19784)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم. ثابت: هو ابن أسلم البناني"، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل جليبيب -رضي الله عنه-، برقم (2472)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب المناقب، باب جليبيب -رضي الله عنه-، برقم (8246).

لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، وهو مغاير أيضاً لقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ} [سورة الشورى:٥١]، وهذه الآية {مَا كَانَ لِبَشَرٍ} ليست كقوله أيضاً: {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا} [سورة النمل:٦٠]، فهذه المقامات يختلف فيها المراد بهذا النفي، فمنه ما كان ممتنعاً؛ لأن الله -عز وجل- حكم بامتناعه، وذلك كقوله: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا}، أو لأنه حرمه في الخطاب التكليفي {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، أو لأن ذلك ممتنع في العقل أو العادة {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}، وهكذا {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [سورة التوبة:١٧]، ليس هذا من قبيل الامتناع العقلي، ولكنه امتناع آخر من جهة الشرع، والله تعالى أعلم.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} الأمر هنا يمكن أن يكون من قبيل الأمر الطلبي أو الأمر الخبري، يعني ليس المقصود بالأمر هنا افعل أو لا تفعل.

{إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، إذا أخبرنا أن المرأة لها نصف الميراث مثلاً، أو أخبر الشارع مثلاً أن المرأة ناقصة عقل ودين مثلاً، هذا خبر، وليس بتكليف، فهنا لا يكون للإنسان مع الله اختيار، {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة الحجرات:١] برأي أو اقتراح أو اعتراض، بل حتى الأمر الكوني، {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}، إذا كتب للإنسان أن يولد له بنت ليس له أن يعترض، ويصدر منه ما لا يليق مما ينافي الأدب مع الله -تبارك وتعالى-، وقد يكون هذا الأمر من قبيل الطلب، فإذا شرع الله -عز وجل- أو أمر نبيَّه -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج هذه المرأة، أو النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب هذه المرأة لجليبيب أو تلك لزيد بن حارثة، فينبغي أن يقابل ذلك بالرضا والتسليم، {أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، "لهم"، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ} أعاد الضمير بالجمع وما قبله مفرد {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ}، لأن النكرة في سياق النفي للعموم، فأعاده باعتبار المعنى، {أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، فالضمير في قوله: {مِنْ أَمْرِهِمْ} بعضهم يقول: يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: يعني من أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم، وبعضهم يقول: يرجع إلى الله وإلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: يرجع إلى أهل الإيمان، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، {مِنْ أَمْرِهِمْ} لا يكون له اختيار، لا يكون له من أمره شيء، بل عليه أن يسلم لله -عز وجل- ويرضى.

وهنا قال: **روى الإمام أحمد عن أبي برزة قال: إن جليبيباً كان امرأً يدخل على النساء، يمر بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا تدخلن عليكن جليبيباً... إلى آخره**، فقوله: "يدخل على النساء"، قد يأتي مَن في قلبه مرض، ويقول: يجوز مخالطة النساء ومضاحكة النساء وملاعبة النساء، {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [سورة آل عمران:٧]، اتباع المتشابه يكون في اتباع المتشابه من القرآن واتباع المتشابه من السنة، وبعض المنتكسين لربما يجمع لبعض الزائغين أشياء من هذا القبيل، يتتبعها ويجمعها ويعطيه مادة بعد ذلك يقتات عليها، ويضلل بها عباد الله، فهنا: "**كان يدخل على النساء يمر بهن**

ويلاعبهن"، هذا إما أن يكون قبل الحجاب والأمر به، وإما أن يكون هذا الرجل كان يُنظر إليه باعتبار أنه من التابعين غير أولي الإربة من الرجال، يعني أنها نظرة المجتمع إليه كما قال الله -عز وجل-: **{لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ}** [سورة الأحزاب:٥٥] إلى أن قال: **{أَوِ التَّابِعِينَ}**، الذي يتبع الناس ليطعم معهم، يكون تابعاً من غير المحارم **{غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ}** والإربة هي الحاجة، يعني أنه لا شهوة له، وإنما يدخل على الناس يأكل معهم، **{غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ}**، فهذا استثناه الله -عز وجل-، فكان من الرجال مَن يدخلون، وتعرفون في الحديث الذي كان عند أم سلمة -رضي الله عنها- وكان يقول لأخيها: إذا فتح الله عليكم الطائف فعليك بأم غيلان فإنها تُقبل بأربع وتدبر بثمان، فلما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله هذا نهى أن يدخل عليهن، لكونه يتفطن إلى هذه الأمور، فيشترط في هذا من غير أولي الإربة: أن لا يكون له نظر وتطلع وشهوة، الأمر الثاني: أن لا يكون هذا الإنسان ممن يتفطن لمفاتن النساء، إذا كان الطفل ليس له شهوة ومع ذلك قال الله -عز وجل-: **{أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}** [سورة النور:٣٠] على قولين معروفين مضى الكلام عليهما، **{لَمْ يَظْهَرُوا}** من الظهور بمعنى الغلبة أو الانكشاف، لم يقووا على الجماع أو لم يكشفوا عن عورات النساء لجماعهن، والأقرب من هذا هو المعنى الآخر، وهو أن المراد: **{لَمْ يَظْهَرُوا}** يعني: أنهم لا يتفطنون، ليس فيه فطنة في مفاتن المرأة، طفل بريء غافل عن هذه الأمور لا تخطر له على بال، فهذا لا بأس، وإما إذا كان الطفل يتفطن فلا يدخل، فهنا هذا جليبيب كان من هذا النوع الذي هو من غير أولي الإربة يدخل على النساء ولا يرونه ممن له همة في النساء ورغبة فيهن، لعله كان كذلك، وإلا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم والدخول على النساء))[٢]، فيترك هذا المحكم الواضح ويحتج بحالات يلابسها ما يلابسها، ويحتف بها أمور قد نطلع على جملتها وقد نطلع على تفاصيلها، فهذا غير صحيح، ولما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحمو قال: ((الحمو الموت))[٣].

وهنا في كون النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للرجل: ((هذا مني وأنا منه))، هذا كما سبق لا يقال: إن ذلك مثلاً يدخله في كونه من أهل البيت، ولا يشكل هذا وحديث: ((سلمان منا آل البيت))، هذا لا يجعله يلحق بهم، وإنما كما يقال: فلان مني، أنا من فلان، أو فلان منا، وإلى آخره، والحديث لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكنه صح عن علي -رضي الله تعالى عنه.

قال: **{أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** هنا يرد سؤال: يعني لما نزلت في خطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذا الرجل أو خطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب لزيد بن حارثة، هل كانت الخطبة هذه يجب قبولها على هذه المرأة؟ هل المرأة ملزمة حينما يخطبها النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجل من المسلمين لزيد أو لغيره هل يجب عليها شرعاً أن تجيب، أو لا يجب عليها؟ بعضهم يقول: إن ظاهر الآية يدل عليه، هذه خطبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واختار لها ذلك، فما كان لها أن تتردد أو تمتنع، وبعضهم يقول: هذا لا يجب، وتوسط بعضهم فقال: إن ذلك في أصله لا يلزم، ولكن لما كان يحتف بهذا الموضوع،

---

٢ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، برقم (٤٩٣٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، برقم (٢١٧٢).

٣ - هو الحديث السابق.

بهذه القصة، بناء على أن الآيات في زيد كما هو ظاهر، لما كان يحتف بها تشريع، وما رتبه الله على هذا التزويج، يعني تزويج زينب لزيد من أنه سيطلقها في علم الله -عز وجل-، ثم يتزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- ليكون ذلك رافعاً لما في النفوس من الحرج، فجاء ذلك بهذه الصيغة، "ما كان" وأنه كان يجب عليها أن تمتثل، هذا في قصة زيد، وخطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لزينب، لكن في قصة جليبيب ليس فيه هذا المعنى، وذلك أقوى في الاستدلال بأن خطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت واجبة؛ لأن مثل هذا التركيب أو مثل هذه الصيغة، ما كان لك أن تفعل كذا إلى آخره إذا حملناها على أن ذلك يحرم على الإنسان، فيكون ذلك للوجوب، ولكن كون هذه الصيغة مما يدل على التحريم ليس محل اتفاق، بعضهم قال: إن ذلك يكون للاستحباب، كأن تقول له مثلاً: ما كان لك أن تتخلف عن الصف الأول، ما كان لك أن تتخلف عن مجالس العلم.

قال: وعن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة النساء:٦٥].

هو كما ذكر الحافظ ابن كثير بناء على أن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، فهذا فيما نزلت فيه وفي غيره من الأمور {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} سواء كان من قبيل الأمر الطلبي أو كان من قبيل الخبري، والخيرة بمعنى الاختيار، لا يكون اختيار مع اختيار الله -عز وجل-، والرضا أن يكون الإنسان راضياً بما حكم الله -عز وجل- به كوناً وشرعاً، أحكام الله -عز وجل- الشرعية يسلم لها ويرضى ولا يعترض، ولا يتردد في قبولها، ولا يكون في قلبه حرج، وكذلك في أحكامه الكونية القدرية، يرضى ولا يكون له اعتراض على شيء من ذلك، ولا تشهٍّ ولا اختيار؛ لهذا نقول للناس الذين يحاولون أحياناً بعض الأمور، يعني امرأة حملت ولا تريد أن ترهق نفسها من غير علة، لا تريد أن ترهق نفسها بالحمل، فرأت أن هذه مصيبة نزلت بها وتريد أن تسقط هذا الولد وليس بها علة، فمثل هؤلاء يقال: الله اختار لكِ هذا، فينبغي أن ترضى باختيار الله -عز وجل-، وقل مثل ذلك في اختيار نوع الجنين كما يقولون وما إلى هذا، الإنسان يسلم ويرضى، ولا يكون له اختيار مع الله، هذا كمال الرضا.

قال: ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا}، كقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النور:٦٣].

هذا قد يستدل به على أن الخطبة كانت واجبة القبول، {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أن ذلك لا يحمل على الاستحباب، وإن جاء ذلك في كلام العرب، أي استعمال كلمة "ما كان" للاستحباب، لكن هنا {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} يدل على أنها كانت واجبة القبول، هذا بالنسبة إلينا لا يترتب عليه حكم عملي من هذه الحيثية، موضوع الخطبة، بالنسبة لنا أن ذلك قد انقضى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس بين أظهرنا فيخطب

امرأة فيقال: هي يجب عليها القبول أو لا يجب، إنما ذلك توصيف لأمور وقعت في زمنه -عليه الصلاة والسلام.

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} [سورة الأحزاب:٣٧].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- إنه قال لمولاه زيد بن حارثة -رضي الله عنه- وهو الذي أنعم الله عليه، أي: بالإسلام، ومتابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} أي: بالعتق من الرق.

هنا عبر بالاسم الموصول {لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}، لاحظْ ما عبر بالاسم، باسمه العلم، ما قال: وإذ تقول لزيد، لما يشعر به من العلة، يعني: {لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}، ما عطف على الصلة، {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}، من فضل النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه، وأن ذلك ينفي ما يظنه الظانون من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتطلع إلى زينب أن يتزوجها، ويريد أن يطلقها زيد ليتزوجها، تجدون هذا للأسف في بعض كتب التفسير، في روايات لا يعول عليها بحال من الأحوال، وسيأتي الكلام على هذا عند قوله تعالى: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، ما الذي أخفاه النبي -عليه الصلاة والسلام-؟، فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- متفضل عليه، وهو الذي خطبها له، هو الذي أعتقه، فكيف يظن مثل هذه الظنون السيئة؟

قال: أي بالعتق من الرق وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقال له: الحِبّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبّ ابن الحِبّ، قالت عائشة -رضي الله عنها-: ما بعثه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سرية إلا أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه[٤]، رواه أحمد

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد زَوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية -رضي الله عنها- وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهما، وخمارا، ومِلْحَفة، ودرْعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرة أمداد من تمر، قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول له: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}، قال الله تعالى: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}.

وروى ابن جرير عن عائشة -رضي الله عنها-، أنها قالت: لو كتم محمد -صلى الله عليه وسلم- شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}.

{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، ما الذي أخفاه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ خلاصة ما هنالك أن الله أعلمه أن زيداً سيطلقها، وأن الله سيزوجه بها بعد زيد، فشق ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن

---

٤ - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٤٩٦٢)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه".

المنافقين سيجدون متنفساً، فيتحدثون عن هذا ويخوضون فيه، ويلوكون عرض نبي الله -صلى الله عليه وسلم-، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول له: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}، مع أن الله أعلمه أنه سيطلقها، وأن الله سيزوجه إياها، هذا معنى {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، وما عدا ذلك فهو باطل، من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتطلع إليها، وأن قلبه كان يميل إليها، وما إلى ذلك مما يُذكر، هذا كله غير صحيح، ولو كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- فيها حاجة، لو كان له بها حاجة لتزوجها قبل أن يتزوجها زيد.

{وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}، كان يتخوف النبي -صلى الله عليه وسلم- من ألسن المنافقين.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا}.

هنا أظهره في موضع الإضمار، ما قال: فلما قضى منها وطراً يعني: فيه تنويه بشأن زيد -رضي الله عنه-، زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وهم يرجعون إلى قبيلة تغلب، كان حراً فخطف وهو صغير، لما ذهبت به أمه إلى أخواله من طيئ، فأغارت خيل فأُخذ، وبيع بسوق حباشة قريباً من مكة، وعمره ثماني سنوات، واشتراه حكيم بن حزام، ووهبه لخديجة -رضي الله تعالى عنها-، وهي عمته، ثم خديجة -رضي الله تعالى عنها- وهبته للنبي -صلى الله عليه وسلم.

قال: الوَطَر: هو الحاجة والأرَب، أي: لما فَرَغ منها، وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي وَلي تزويجها منه هو الله -عز وجل-، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

روى الإمام أحمد عن ثابت، عن أنس -رضي الله عنه-، قال: لما انقضت عدة زينب -رضي الله عنها- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لزيد بن حارثة: ((اذهب فاذكرها عليّ))، فانطلق حتى أتاها وهي تُخَمِّر عَجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي -عز وجل-، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دَخَلَتْ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واتبعته، فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أُخبر، فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقي الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} [سورة الأحزاب:٥٣] الآية كلها[٥]، ورواه مسلم والنسائي.

---

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٠٢٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، بهز: هو ابن أسد العمي، وهاشم: هو ابن القاسم"، ومسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، برقم (١٤٢٨).

وقد روى البخاري -رحمه الله-، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: إن زينب بنت جحش -رضي الله عنها- كانت تفخر على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- فتقول: "زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات"[٦].

وقد قدمنا في سورة النور عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة -رضي الله عنهما- فقالت زينب -رضي الله عنها-: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة -رضي الله عنها-: "أنا التي نزل عُذْري من السماء، فاعترفت لها زينب -رضي الله عنها"[٧].

هذه الواقعة كانت في السنة الخامسة بعد وقعة الأحزاب، وبهذا تدرك الارتباط بين هذه الواقعة وموضوع هذه السورة في صدرها، الموضوع الأساس الذي هو الأحزاب، وهذه الغزوة تحدثت عن غزوة الأحزاب وما تبعها من قريظة، والآن الحديث عن تزويج النبي -صلى الله عليه وسلم- بزينب -رضي الله تعالى عنه-، وكان ذلك بعد وقعة الأحزاب، وهكذا ما يذكر بعده مما يتصل بالحجاب، فإن ذلك كان في هذا الحين، فجاءت السورة متحدثة عن هذه القضايا التي كانت متقاربة مع غزوة الأحزاب، وحصلت بعدها.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} [سورة هود:٧]، {وهو رب العرش العظيم} [سورة التوبة:١٢٩]، برقم (٦٩٨٤).

٧ - رواه نحوه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٢٢)، والحاكم في المستدرك، برقم (٦٧٧٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب تكملة الآية (٣٧) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: وقوله: {لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [سورة الأحزاب:٣٧]، أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة -رضي الله عنه-، فكان يقال له: "زيد بن محمد"، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُم} إلى قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بزينب بنت جحش -رضي الله عنها- لما طلقها زيد بن حارثة -رضي الله عنه-؛ ولهذا قال تعالى في آية التحريم: {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم} [سورة النساء:٢٣]، ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى-: {لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ} هذا دليل واضح على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يشترك مع الأمة في الخطاب -خطاب التشريع- إلا لدليل يخصه، يعني الأصل عدم الاختصاص، فإن خطاب الشارع متوجه إليه -عليه الصلاة والسلام-، فمن قال غير ذلك فعليه الدليل، قال: {لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}، الوطر بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، والمقصود هنا أنه حصل له نكاحها والدخول بها، فلم يبق له بها حاجة، قضى منها وطراً، وبعضهم يفسر ذلك بالطلاق، والأول -والله تعالى أعلم- أقرب.

قال: وقوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدّره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب -رضي الله عنها- في علم الله ستصير من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم.

وهذا قد يكون قرينة لقول من قال: إن أمْر الله فيما قبله {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} [سورة الأحزاب:٣٦]، أن المقصود بذلك الأمر الكوني، ولكن ظاهره يشمل الشرعي والكوني، ما كان من الشرعي من قبيل الخبر، وما كان من قبيل الطلب، لكن الأمر الكوني لا يستبعد من تفسيره، لا يستبعد من معناه، وإنما هو داخل فيه، وقول الله -عز وجل-: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} هذا في الأمر القدري.

{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [سورة الأحزاب:٣٨].

يقول تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ} أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب -رضي الله عنها- التي طلقها دَعِيُّه زيد بن حارثة -رضي الله عنه.

والفرض يأتي أيضاً لمعانٍ منها التقدير، التقدير فيما قدر الله، فيما أباح له.

وقوله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حَرَج، وهذا رَدٌّ على مَنْ تَوَهَّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعيه، الذي كان قد تبناه.

{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، هذا متعلق بما قبله {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}، فسنته -تبارك وتعالى- في الأنبياء قبله أنه لم يكن ليؤثمهم فيما أمرهم به أو فيما شرعه لهم، وقوله: {سُنَّةَ اللَّهِ} يمكن أن يكون بمعنى حقاً من الله، ويمكن أن يكون النصب على نزع الخافض يعني: كسنة الله، ويمكن أن يكون ذلك على الإغراء: الزموا سنة الله.

إذا قيل بأنه بمعنى حقاً على الله، يعني يكون المعنى كأنه قال: فعلنا ذلك سنة منا، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، {سُنَّةَ اللَّهِ} فعلنا ذلك سنة منا.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} أي: وكان أمره الذي يقدِّره كائناً لا محالة لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

القدَر بعضهم يفسره بإيجاد الشيء على صفة وكمية ووقت محدد، هذا القدَر، {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}، فيقولون: إنه مشتق من القدْر وهو الكمية المضبوطة المحددة، فالله -تبارك وتعالى- أعلم بما كان وما يكون، وشاء وأراد ذلك وكتبه وخلقه، فهذه مراتب القدر الأربع، يعني لابد من وقوعه.

فهو إيجاد الشيء بصفة وكمية ووقت محدد، وبعضهم يقول: إنه مأخوذ من القدْر وهو الكمية المضبوطة المحددة، ولما كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطاً محكماً كثرت الكناية بذلك، يعني بالقدر وإتقان.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٣٩-٤٠].

يمدح -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ} أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها.

يعني الآن هذا المدح {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ}، هذا يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله: {الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، يتعلق به {الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ}، ويحتمل أن يكون في محل نصب على المدح، {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ}، يعني: الله -تبارك وتعالى- كأنه يقول: أعني الذين يبلغون رسالات الله، فيكون مفعولاً به، في محل نصب مفعول به، سيق للمدح، لمدحهم والثناء عليهم، ويحتمل أن يكون في محل رفع، هم الذين يبلغون رسالات الله.

{وَيَخْشَوْنَهُ} أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله.

الخشية أخص من الخوف، والخشية: هي خوف مع علم من المخوف منه.

{وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام -بل وفي كل مقام- محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

يعني قوله: {حَسِيبًا} يمكن أن يكون من الحسْب الذي هو الكفاية، {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ} [سورة الأنفال:٦٤] أي: كافيك، ويمكن أن يكون قوله: {حَسِيبًا} أي: محاسباً على الأعمال، {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}، وأيهما أقرب إلى السياق وأليق به؟ أن يكون ذلك بمعنى الكفاية، {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}؛ وذلك لكمال توكلهم {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} أي: كافياً يكفي من اتقاه وخافه ولم يخشَ أحداً سواه.

قال: فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو -صلى الله عليه وسلم- فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [سورة الأعراف:١٥٨]**، فكان أعلى مَنْ قام بها بعده أصحابُه -رضي الله عنهم-، بلّغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحَضَره وسفره، وسره وعلانيته -فرضي الله عنهم وأرضاهم-، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خَلَفهم.**

يعني {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ} إذا قلنا: إنه يتعلق بما سبق من قوله: {فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} يعني: الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فمَدَحهم بأنهم يبلغون رسالات الله، فهذا المدح هنا وإن كان للرسل -عليهم الصلاة والسلام- فكذلك ينبغي أن يكون أتباعهم، فيكون لأتباعهم من المدح بحسب ما يكون لهم من تحقيق هذا الوصف، وقد ذكر الشاطبي -رحمه الله- أن كل ما كان للأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- من المزايا وما اختصهم الله -عز وجل- به وأعطاهم وحباهم فإن للنبي -صلى الله عليه وسلم- من ذلك نصيب، وأن ما أعطى الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- فلأمته منه نصيب، ومثل هذه الصفة هي مطلوبة فيمن يبلغون رسالات الله، أن يكونوا من أهل خشيته، يخشونه، ويبلّغون الحق المبين، ولا يخشون أحداً إلا الله.

وقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}، نَهى أن يقال بعد هذا: "زيد بن محمد" أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه -صلى الله عليه وسلم- لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة -رضي الله عنها- فماتوا صغارا، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة -رضي الله عنهن أجمعين-، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به -صلى الله عليه وسلم-، ثم ماتت بعده لستة أشهر.

يعني قد يرد سؤال: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له أولاد؟ فالجواب -مما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ضمناً-: أن هؤلاء ماتوا جميعاً وهم صغار لم يبلغوا مبلغ

الرجال.

وقد يقول قائل: والحسن والحسين، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن ابني هذا سيد))[1]، والعلماء تكلموا في ابن البنت هل يكون ابناً؟ والله -عز وجل- قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ} [سورة الأنعام:٨٤] إلى أن قال: {وَعِيسَى} [سورة الأنعام:٨٥]، وهو ابن بنت، وأما الذين يمنعون ويحتجون بقول الشاعر:

بنُونا بنُو أبنائِنا وبناتُنا *** بنوهنّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

فهذا لا عبرة به، فابن البنت ابن، فهل يقال هنا: إن الحسن والحسين يرد على هذا في قوله: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}؟ فيمكن أن يقال في الجواب: إنه أضاف ذلك إليهم {مِنْ رِجَالِكُمْ} والمقصود هو إبطال التبني.

وقوله تعالى: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} كقوله -عز وجل-: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤].

الخاتَم بالفتح هو الطابع، وبالكسر الخاتِم هو فاعل الختم.

فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من حديث جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم.

روى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبِنة لم يَضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تمَّ موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة))[2]، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي))، قال: فشَقّ ذلك على الناس فقال: ((ولكن المبشرات))، قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: ((رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة))[3]، وهكذا رواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

---

١ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٤٣٠)، وبرقم (٣٥٣٦)، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين -رضي الله عنهما.

٢ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٢٤٤)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٨٥٧).

٣ - رواه الترمذي، كتاب الرؤيا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، برقم (٢٢٧٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٨٢٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير المختار بن فُلفُل، فمن رجال مسلم"، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، (١٢٨/٨)، تحت حديث رقم (٢٤٧٣).

حديث آخر: روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان مَنْ دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، خُتم بي الأنبياء -عليهم السلام))[٤].

ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لَبنَة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة))[٥]، انفرد به مسلم.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لَبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وَضَعْتَ هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟!))، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فكنت أنا اللبنة))[٦] أخرجاه.

حديث آخر: رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون))[٧]، ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة))[٨]، ورواه مسلم.

حديث آخر: عن جبير بن مطعم -رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٨٨٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وأبو داود الطيالسي في مسنده، برقم (١٧٨٥).

٥ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٧)، وأحمد في المسند، برقم (١١٠٦٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٦ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (٨١١٦)، وقال محققوه: " إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٧ - رواه مسلم، في بداية كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٣)، والترمذي، كتاب السير عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الغنيمة، برقم (١٥٥٣)، وأحمد في المسند، برقم (٩٣٣٧).

٨ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٨٥٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٧)، وأحمد في المسند، برقم (١١٠٦٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي))[٩] أخرجاه في الصحيحين، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسولُه -صلى الله عليه وسلم- في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل مَن ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تحرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَّيرنجيَّات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله -سبحانه وتعالى- على يد الأسود العَنْسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما عَلِم كل ذي لب وفهم وحِجًا أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يُختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب ما جاء به، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الآية [سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٢]، وهذا بخلاف الأنبياء -عليهم الصلاة السلام-، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيَّدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسماوات.

لا يشكل على هذا أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- ينزل في آخر الزمان، فإن المقصود أن الله -تبارك وتعالى- قد ختم النبوة ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فلا يكون لأحد نبوة، لا يُنبأ أحد بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأما عيسى -عليه الصلاة والسلام- فهو سابق للرسول -عليه الصلاة والسلام-، ولم يمت، ومن ثَم فإنه لم تكن نبوة بعد النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك -أيضاً- فإنه يحكم بشرعه، فمن ادعى تنبؤاً بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو كذاب، أو مصاب بعقله، يعني قد يعتقد الناس هذا؛ لأنه مصاب بعقله، فيه مرض، كما يحصل كثيراً لبعض أصحاب الأمراض العقلية، ويتكرر هذا سواء كانت هذه الأمراض بآفة لا يدرى سببها، أو كان ذلك بسبب تلف في خلايا المخ بسبب تعاطي أمور محرمة، فتجد هذا الرجل يتكلم، وأنه يوحى إليه، ويدعو الناس إلى هذا، وأن يؤمنوا به، وأنه سيفعل، وسيفعل، ويتكلم معتقداً لما يقول، لكنه غير مؤاخذ، مرفوع عنه القلم، والله المستعان.

هذا يتصل بإبطال التبني، والموضوعات كما سبق مترابطة، كل ذلك كان بعد وقعة الأحزاب، حتى ما سيأتي من قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٤١]، له نوع ارتباط بما قبله، وموضوع التبني: أشير إلى أمر يتصل بزيد بن حارثة -رضي الله عنه-، وهو الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن، {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا}، فزيد بن حارثة -رضي الله عنه-

---

٩ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٣٣٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٥٤)، واللفظ له.

تزوج خمس نسوة، أربع منهن من أشراف العرب، أربع من أشراف العرب، ثلاث من أشراف قريش، وهو مولى من الموالي، فأول امرأة تزوجها هي أم أيمن، زوجه النبي -صلى الله عليه وسلم- بها، وهي مولاته، وهي أم أسامة، كان زيد بن حارثة -رضي الله عنه- أبيض وأسامة أسود كالليل، فهذه أول امرأة، ثم خطب له النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب وتزوجها، وهي ابنة عمته، وهو مولى، ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب له أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهؤلاء من أشراف قريش، وهي التي هاجرت في قصة الحديبية لما نزلت آية الامتحان، كانت أول مهاجرة بعد الصلح هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب، فزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- لزيد بن حارثة، ثم طلقها بعد ذلك، ثم خطب له النبي -صلى الله عليه وسلم- أو هو تزوج- درة بنت أبي لهب، بنت عمه، ثم طلقها، ثم تزوج أخت الزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنه-، يقال لها: هند بنت العوام، لاحظ هذه الأسماء يزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- مولى، يزوجهن مولى، وبعضهن من قريباته مثل زينب وبنت عقبة، فهذا فيه معنى، وهو إبطال التفاخر بالأنساب والعصبيات وما إلى ذلك، وفيه عبرة كبيرة، وكثير من الناس يتشبث بمثل هذه الأمور وإذا رأيت بعض ما يصدر منه من التصرفات رأيت أن ذلك لا يمكن أن يجري على ميزان صحيح، وقد تكون المرأة من أصلح الناس، ولكن لهذا المعنى لا يمكن أن يتزوجها أو أن يزوجها لأولاده أو نحو ذلك، أو أن يزوج هذا الإنسان الذي هو من حملة كتاب الله، ومن أهل الصلاح والخير، ولكنه قد يذهب إلى بلد آخر، ويتزوج امرأة لا يدري عنها شيئاً، لا يدري عن نسبها ولا عن أصلها ولا عن تربيتها، ولا عن شيء إطلاقاً، فإذا احتُج عليه في هذا قال: المرأة ماعون، يعني إناء، لا يضر التزوج، والتي عُرفت تربيتها في البلد وأخلاقها ودينها وصلاحها، هذه ينفر منها كل النفور، هذا لا يجري على ميزان ولا على مقياس، لماذا لا يقال: المرأة ماعون هنا؟ ثم يبقى ذلك علة وعاراً يلاحقه ويلاحق لربما مَن بعده من أولاده ونحو ذلك، فلا يُتزوج منهم، فهذا غير صحيح في الشرع، والعلماء تكلموا في مسألة الكفاءة في النسب، وليس هذا موضع الحديث عنها، لكن منهم من اشترط هذا، إذا كان هذا يؤدي إلى مفاسد من قطيعة الأرحام أو أضرار، كأن تطلق بناته أو أخواته أو قريباته، أو يتعطلون لا يتزوج أحد منهم، أو نحو هذا، أو يحصل بسبب ذلك أمور لربما تصل إلى القتل، فالإنسان يكون بعيداً عن هذا كله، وينأى بنفسه، والله المستعان، لكن هذا ما ينبغي أن يعتقده على أقل تقدير، والله المستعان.

يعني هل النسب الشريف نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- تأثر بهذا؟ أبداً، والله المستعان، وهذه العصبيات في كل مكان، تذهب إلى الأعاجم، أعاجم لا ترى فرقاً في الصورة ولا في الأخلاق ولا في الطبائع ولا شيء، أعاجم في بلاد متقاربة أو في البلد الواحد أحياناً، هؤلاء من أصول كذا، وهؤلاء من أصول كذا، هؤلاء يحتقرون هؤلاء، وهؤلاء يحتقرون هؤلاء، هؤلاء لا يزوجون هؤلاء، وهؤلاء لا يزوجون هؤلاء، على ماذا، هذا النسب القرشي؟! أعاجم، هذا الفخر على أي شيء، على العجمة؟! ولا ترى فرقاً لا في الصورة ولا في طبائع الناس، الشعوب هذه متقاربة، أحياناً في بلد واحدة، لكن هؤلاء من أصول

كذا، وهؤلاء من أصول كذا، ويحتقرونهم ولا يرونهم شيئاً، فهذا كله خطأ، وهذا كثير في الأعاجم، وليس عند العرب فقط.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب تكملة الآية (٤١) إلى الآية (٤٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ أبو الفداء ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [سورة الأحزاب:٤١-٤٤].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم -تبارك وتعالى- المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بُسْر -رضي الله عنه- قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ طال عمره وحسن عمله))[1]، وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمرني بأمر أتشبث به، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال لسانك رَطْبًا بذكر الله تعالى))[2]، وروى الترمذي وابن ماجه الفصل الثاني، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة))[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}: إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العُذْر، غير الذكر فإن الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه، فقال: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء:١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وفي كل حال، وقال -عز وجل-: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، برقم (٢٣٢٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٦٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢٩٦).

٢ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الذكر، برقم (٣٣٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٦٨٠)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٨٢٢)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٧٠٠).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٠٩٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٨٠).

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك.

وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}، هذه الآية وجه تعلقها بما قبلها أن السورة تحدثت في صدرها عن الأحزاب وما جاء بعد ذلك من وقعة قريظة، ثم بعد ذلك جاء الحديث عن التبني، الذي جاء إبطاله في أولها، وأن الله -تبارك وتعالى- أبطل ذلك من الناحية العملية، بتزويج النبي -صلى الله عليه وسلم- لامرأة مُتبنّاه زيد -رضي الله تعالى عنه-، فهنا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا}، لما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخشى من قالة المنافقين ومن خوضهم في عرضه -صلى الله عليه وسلم- حينما يتزوج امرأة مولاه، أمر الله -تبارك وتعالى- بالاشتغال بذكره، هذا وجه لا بأس به فيما يقال من وجه الارتباط، أعني المناسبة بين هذه الآية وما قبلها، وذلك أن إشغال الناس عن قالة السوء لاسيما حيث يتوقع ذلك منهم مطلب من مطالب الشرع، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما رميت عائشة -رضي الله عنها- بما برأها الله منه حث السير، ولم يكن على عادته -صلى الله عليه وسلم-، كان يرفق بالناس وينزل بهم فسار بهم سيراً متواصلاً، حتى إذا نزل كان المسير قد أضناهم وأنهكهم فما أن مست جنوبهم الأرض حتى ناموا، وكانت حالهم من التعب والإعياء ومواصلة السير لا تمكن أحداً من الحديث أو الاستماع، وهنا هذه قضية كان يتخوفها النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [سورة الأحزاب:٣٧]، فأمر بالاشتغال بذكره والإكثار منه، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}، وقد مضى الكلام على ضابط الإكثار من الذكر، متى يكون ذلك كثيراً عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [سورة الأحزاب:٣٥]، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون لسانه رطباً من ذكر الله -عز وجل-، فلا يكون غافلاً، وأن من أهل العلم من قال: من حافظ على الأذكار والأوراد في أوقاتها التي شرعها الله -عز وجل- فيها فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وقوله تعالى: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} **أي: عند الصباح والمساء، كقوله -عز وجل-:** {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [سورة الروم:١٧- ١٨].

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ}**: هذا تهييج إلى الذكر، أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله -عز وجل-:** {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة:١٥١-١٥٢]**، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:** ((يقول الله تعالى: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذكرني في

مَلأ ذكرته في ملأ خير منهم))[٤]، **الصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه.**

وقال غيره: الصلاة من الله -عز وجل-: الرحمة، وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} لما أمر بذكره والإكثار منه أمر أيضاً بالتسبيح الذي هو بمعنى التنزيه، وذلك أن ينزه المعبود -جل جلاله- عما يصفه الواصفون وعن إشراك أهل الإشراك، وأن العبد مهما عبَدَ ربه وذكره فإنه لا يفي بحقه، ولا يكون مؤدياً ما عليه، ولا قائماً بما يليق بالله -عز وجل- مما يتفق مع عظمته وجلاله وكبريائه، فالعبد بحاجة مع الذكر إلى التنزيه والتسبيح، كأنه يقول: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} قال: **أي عند الصباح والمساء**، والبكرة أول النهار، والأصيل آخر النهار، والمعنى: اشغلوا ألسنتكم معظم أوقاتكم بذكره وتسبيحه وحمده وتنزيهه، والتسبيح والتحميد في البكور والآصال، {بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [سورة النور:٣٦]، وقد مضى في بعض المناسبات أن من أهل العلم من يحمل ذلك على العموم في الأوقات، باعتبار أن العرب تذكر طرفي الشيء وتريد العموم، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [سورة البقرة:١١٥]، مع أن جميع الجهات لله -جل جلاله-، وهنا ذكر هذه الأوقات الغدو والآصال، وكذلك البكرة والأصيل، باعتبار أن ذلك أطراف الليل والنهار، {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا}، وحمل بعضهم ذلك التسبيح على الدعاء، وبعضهم حمله على الصلاة لله بكرة وأصيلاً، وبعضهم يقول: المقصود صلاة الفجر والمغرب والعشاء، وأنه ذكر هذه؛ لأنها أطراف الليل والنهار.

وبعض السلف يقول: إن هذا يشير إلى صلاتين: صلاة العصر وصلاة الفجر، وهذا اختيار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وهو مسبوق إلى هذا، قاله قبله قتادة، {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا}، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المعنى أعم من ذلك، فالله -تبارك وتعالى- يُسبَّح في كل الأوقات، ويُذكَر في جميعها، وهذه الأوقات تتأكد أكثر من غيرها لكونها أطراف الليل والنهار، ولهذا تقال أذكار الصباح في البكور، بالغدو، مع أنه لو قالها قبل الزوال صح ذلك في أذكار أول النهار، ولو قال بعد صلاة الظهر أذكار المساء فإن ذلك يصدق على كونه قالها في المساء، ولو قالها في الليل بعد العشاء فإنه قالها في المساء، ولكن الأفضل أن يكون ذلك في أول النهار، {بِالْغُدُوِّ} يعني: بعد صلاة الفجر، وفي آخر النهار يعني بعد العصر، والله تعالى أعلم.

قال: وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} الآية [سورة غافر: ٧-٩].

---

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٦٥٠)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وله إسنادان: أما الإسناد الأول فحسن، حماد بن سلمة سمع من عطاء بن السائب قبل الاختلاط في رأي بعض أهل العلم، وأما الإسناد الثاني -وهو حماد بن سلمة عن حميد وثابت وصالح- ففيه انقطاع، لأن الحسن -وهو البصري- لم يسمع من أبي هريرة".

بعده قال: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} لما أمر بذكره وتسبيحه قال: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ}، فمن كان مصلياً عليك من غير حاجة إلى عبادتك وذكرك فإن ذلك ينبغي أن يكون حافزاً ودافعاً ومحركاً للنفوس أن تذكره وأن تسبحه وأن تنزهه وأن تكثر وأن تلهج من ذكره في الأوقات كلها، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم...}، وهو ليس بحاجة وأنت محتاج إليه، فأكثِر من ذكره وأقبل عليه، وصلاته -تبارك وتعالى- الأرجح فيها ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو اختيار ابن القيم -رحمه الله-: أن صلاته على عبده أن يذكره في الملأ الأعلى، {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة:١٥٢]، وأن صلاة الملائكة بمعنى الاستغفار، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الشورى:٥]، وهذا الاستغفار في واقعه هو من قبيل الدعاء؛ ولهذا من عبر عن صلاة الملائكة بأنها الدعاء فإن هذا لا منافاة بينه وبين من قال: إنه الاستغفار، ولهذا في قوله -تبارك وتعالى- في الآية التي ساقها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من قِيل الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [سورة غافر:٧] إلى آخر ما ذكر، هذا كله من قبيل الدعاء، وهو من جملة صلاة الملائكة على المؤمنين، وصلاة الناس بمعنى الدعاء، وصلاة المخلوقين بمعنى الدعاء، وبعضهم يقول: صلاتنا على النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى سؤال الرحمة، والمعنى أعم من ذلك، والله تعالى أعلم، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ}، فصلاته هذه التي بمعنى: أن يذكر عبده في الملأ الأعلى تقتضي الهداية والتوفيق والصلاح، أن يسوق إليه الألطاف؛ ولهذا قال بعده: {لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، فاللام هذه تدل على التعليل، فكانت صلاته مفضية إلى ذلك، فإذا كان الله -عز وجل- يصلي على عبده ويذكره في الملأ الأعلى فإن هذا يقتضي أن يسوق إليه ألطافه وأن يوفقه وأن ينقله من هداية إلى هداية، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}.

قال: وقوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبَصّرهم الطريق الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه مَن سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطَّغام، وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال: مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نفر من أصحابه وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال: فَخَفَّضهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((ولا الله، لا يلقي حبيبه في النار))[٥]، إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً

---

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٢٠١٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٧١٣٣).

لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟))** قالوا: لا، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها))**[٦].

الحديث الأول بهذا السياق ضعفه بعض أهل العلم، وإن كان يشهد له الحديث الآخر.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}، هذه يستدل بها من يقول: إن الرحيم أي ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وذلك أنه قدم الجار والمجرور، وذلك يفيد الاختصاص أو الحصر، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، ما قال: وكان رحيماً بالمؤمنين، فيكون ذلك لهم ولغيرهم، ويقولون: الرحمن يعني: أنه ذو الرحمة العامة، هكذا فرق بعضهم بين الرحمن والرحيم، وهذه الآية -والله تعالى أعلم- لا تدل على ما ذُكر إذا نُظر إلى الآيات الأخرى في الباب، فإن رحمة الله -عز وجل- وسعت كل شيء، والآيات جاءت عامة في هذا المعنى، {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة البقرة:١٤٣]، والرأفة: رحمة رقيقة، فرحمته -تبارك وتعالى- عامة، هو رحيم بالعباد، رحيم بخلقه، ولكن المؤمنين لهم من رحمته النصيب الأوفر، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإن رحمته تختص بهم، ولعل من أحسن ما قيل في الفرق بين الرحمن والرحيم ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- من أن الرحمن يدل على صفة الرحمة وكذا الرحيم، إلا أن الرحمن يدل على القدر الذي يعود إلى الله -عز وجل- منها، وأما الرحيم فإنه يدل على ما يتعدى من هذه الصفة، القدر المتعدي من الصفة، المتعدي إلى المخلوقين، والله أعلم.

وقوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ} الظاهر أن المراد -والله أعلم - {تَحِيَّتُهُمْ} أي: من الله تعالى {يوم يلقونه سَلامٌ} أي: يوم يسلم عليهم كما قال -عز وجل-: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [سورة يس:٥٨].

وزعم قتادة أن المراد أنهم يُحيّي بعضهم بعضا بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة، كما قال سبحانه: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة **يونس**:١٠].

قوله: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ} الحافظ ابن كثير قال: **أي يوم يسلم عليهم**، أي أنه أعاد الضمير إلى الله -عز وجل- {يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ} أي: الله، وبعضهم قال: إن الضمير يرجع إلى يوم القيامة، وبعضهم يقول: إن الضمير يرجع إلى ملك الموت، وهذا بعيد، والأقرب أنه يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ}، التحية هنا مصدر، تحيتهم، والإضافة فيه إلى الضمير الهاء {تَحِيَّتُهُمْ}، يحتمل أن يكون من قبيل الإضافة إلى الفاعل، إضافة المصدر إلى الفاعل، ويحتمل أن يكون من قبيل إضافة المصدر إلى المفعول، {تَحِيَّتُهُمْ}، الآن هذا القول الذي ذكره عن قتادة، أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقونه في الدار الآخرة، فيكون هذا من قبيل إضافة المصدر إلى الفاعل، ومثل هذا لابد منه في فهم المعنى، إضافة المصدر إلى الفاعل، {تَحِيَّتُهُمْ} التحية الصادرة منهم، {يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ}، التحية الصادرة منهم، يحيي

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٦٥٣)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٤).

بعضهم بعضاً، وإن كان الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أشار إلى ضعفه بقوله: **وزعم قتادة**، مع أن هذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وهو وجه.

فيكون ذلك صادراً منهم، كان ينبغي أن يشار إلى هذا، يعني ترجيحات ابن جرير -رحمه الله- بتلك المنزلة، فلا يحسن حذفها من هذا المختصر، فـ {تَحِيَّتُهُمْ}، التحية مصدر، فإذا كان من الإضافة إلى الفاعل، التحية الصادرة منهم، يعني: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وعلى الأول الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- يكون من قبيل إضافة المصدر إلى المفعول، {تَحِيَّتُهُمْ} يعني: ما يحييهم الله -عز وجل- به، تحية الله لهم، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك يُحمل على المعنيين، بل يحمل على المعاني كلها؛ لأن هناك معنًى ثالثاً، {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يُحيَّون به، تحييهم به الملائكة، فيحمل على هذه المعاني جميعاً، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، تحيتهم، أي ما يحييهم الله -عز وجل- به، {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} فهذا المعنى دل عليه القرآن، وما تحييهم به الملائكة، وهذا دل عليه القرآن، {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [سورة الرعد:٢٣-٢٤]، وكذلك يحيي بعضهم بعضاً بهذه التحية، فكل هذه المعاني صحيحة، فهذه تحية أهل الإيمان في الجنة، يُحيَّون بها ويحيي بعضهم بعضاً بها، وإذا كانت الآية تحتمل وجوهاً من التفسير، وكل وجه دل عليه دليل من القرآن أو من السنة، ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني، فلا إشكال في أن تحمل عليها، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذّ والمناظر مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإعداد يدل على عناية بالمُعَد وأما الأجر الكريم فهو الذي يكون طيباً في ذاته، في نفسه، فيخرج من ذلك كل ما لم يكن كذلك من الأمور التي تستقذر أو تستخبث أو نحو ذلك، فتقول: هذا رجل كريم في أصله، كريم في نسبه، هذا كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [سورة الشعراء:٧]، فالكريم يقال للشيء الطيب بخلاف ما كان مستخبثاً أو مستقذراً أو نحو هذا، وكذلك الأجر الكريم هو الذي لا يكون معه تنغيص ولا تكدير، ولا يحصل معه لون من التأذي.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا * وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا}

[سورة الأحزاب:٤٥-٤٨].

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن

يعفو ويغفر، ولن يقبضَه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غلفاً"[٧]. وقد رواه البخاري في البيوع والتفسير.

هو سأل عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- باعتبار أن ابن عمرو حصّل زاملتين -كما هو معلوم- في يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب، فكان يقرأ منها.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل -يقال له: شعياء- أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كُمْهًا.

كُمْهاً يعني: أعيناً عمياً، كما في الذي قبله.

وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، أسَدّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلال، وأُعلِم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأعرّف به بعد النُّكْرَة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزُحوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليُوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، وأُعِز مَنْ نصرهم، وأؤيد مَنْ دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على مَنْ خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٨]، وهذا من هذا، وبعض المفسرين يذكر أشياء مما ورد في كتبهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- والبشارة به عند قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [سورة الصف:٦]، يوجد في تفسير الرازي مثلاً،

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح، برقم (٤٥٥٨)، وأحمد في المسند، برقم (٦٦٢٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير موسى بن داود، فمن رجال مسلم، إلا أن فليح بن سليمان -وإن كان ينحط عن رتبة الصحيح- متابع".

٨ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

وكذلك في فتح البيان لصديق حسن خان، وهو في الواقع إعادة نسْخ وبعض الإضافات لكتاب فتح القدير للشوكاني إلا أنه زاد بعض الزيادات، وهذا من الزيادات، نقل من بعض الكتب أشياء من هذا القبيل، وتجد في المقابل من يشنع وينكر هذه الأشياء وأنه لم يجدها في كتبهم، تجد هذا لدى بعض المتأخرين مثل الشيخ محمد رشيد رضا، وفي غير كتب التفسير يوجد من هذا أشياء في مثل كتاب "إظهار الحق" وهو كتاب جيد في مناظرة النصارى والرد عليهم، للعالم الهندي الكيرانوي، مطبوع في مجلدين، فيه أشياء من هذا القبيل.

قال: فقوله تعالى: {شَاهِدًا} أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة.

جمع بين معنيين، {أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا}، شاهداً بماذا؟ بالتوحيد لله -عز وجل-، والمعنى الثاني: أنه شاهد على الناس، {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء:٤١]، هو شاهد عليهم، فجمع بين المعنيين، وكل ذلك يصدق على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا كثير في هذا التفسير، يذكره ابن كثير -رحمه الله- كثيراً بهذه الطريقة التي قد لا يقف عندها القارئ، ولكن إذا نظر في أقوال المفسرين عرف قدر عبارته.

قال: وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا}، كقوله: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

وقوله -عز وجل-: {وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله -جلت عظمته-: {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ} أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس...

الإذن {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ} يعني: بأمره، والإذن يصدق على الأمر الكوني والأمر الشرعي، وعلى كل حال ذلك يجتمع في المؤمن كما هو معلوم، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة الحشر:٥]، محمول على المعنيين على الأرجح، يعني: أن الله قدر ذلك وقضاه، ومن جهة أخرى أن الله أذن لهم به شرعاً، الإذن الشرعي، معهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكونهم يقطعون بعض النخيل لما يتطلبه الحصار، فهذا أمر مأذون به في قصة النضير.

قال: {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

هذا معنى أنه لوضوح أمره -صلى الله عليه وسلم- بمنزلة السراج المنير، وكذلك في هدايته -صلى الله عليه وسلم- للخلق، يهديهم ويبدد الله -عز وجل- به ظلمات الكفر والشرك والجهالة، فهو سراج منير -عليه الصلاة والسلام-، {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} يستضيئون به، فهذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} قال أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه-: هذه أرجى آية في كتاب الله، يعني أنها أكثر الآيات في القرآن ترجية لأهل الإيمان، يعني يرجيهم بما عند الله -عز وجل- من الجزاء والثواب وما أعد لهم، والمشهور أن أرجى آية في كتاب الله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} [سورة الزمر:٥٣]، لكن من أهل العلم من يلحظ في بعض الآيات أمراً

فيحكم بأن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، وقد مر من هذا أشياء، ومن أعجبه ما مضى في سورة البقرة في آية الديْن، فإن بعض السلف قال: إنها أرجى آية في كتاب الله، قالوا: باعتبار لما احتاط الله لمال المسلم هذه الاحتياطات الكثيرة جداً {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا...} [سورة البقرة:٢٨٢] إلى آخر الآية، أطول آية في قضية مال المسلم ولو كان قليلاً، فإذا كان الله احتاط لمال المؤمن هذا الاحتياط من الضياع، فإن الله -تبارك وتعالى- لا يضيع عبده المؤمن، وبعض الناس في المعاملات المالية ونحو ذلك في رمضان أحياناً تسمع من يقول: لو أن الإمام يتجاوز سورة البقرة وآل عمران والمائدة وهذه السور ويقرأ في سور مثل الأنبياء وطه وما بعد ذلك، هذا أمر لا ينقضي منه العجب، هذه السور ((اقرءوا الزهراويْن))[٩]، وما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سورة البقرة وما إلى ذلك، فهذه إذا كان قيل هذا في آية الدين فماذا يمكن أن يقال في الآيات التي ظاهرها ترجية أهل الإيمان كقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [سورة فاطر:٣٢]، قالوا: بدأ بالظالم لنفسه من أجل أن لا يقنط، والجميع قال لهم: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} [سورة فاطر:٣٣]، فأضاف ذلك إليهم جميعاً بطبقاتهم ومراتبهم ودرجاتهم الثلاث، ولهذا قالوا عن هذه الواو في قوله: {يَدْخُلُونَهَا} التي جمعت هذه الطوائف الثلاث: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين.

وأبي بن كعب -رضي الله عنه- يقول: إن قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} أرجى آية في كتاب الله -تبارك وتعالى-، والفضل الكبير جاء مبيَّناً في قوله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [سورة الشورى:٢٢]، فهذا هو الفضل الكبير.

وقوله -جل وعلا-: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ}، أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه {وَدَعْ أَذَاهُمْ} أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا}.

هذا كما في أول السورة في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب:١]، فيما يشيرون به وما يدعونك إليه، {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [سورة الأحزاب:١-٣]؛ لأنه إذا اتبعت ما أوحي إليك لن يتركوك، وسيصل إليك ألوان الأذى منهم، فقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} فوِّضْ أمرك إلى الله -عز وجل-، فالله كافيك، فهنا قال: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} لا تجعل من هؤلاء مستشارين، ولا تسمع ما يقولون، وما يشيرون به، وما يدعونك إليه، قال: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} قال: أي لا تطعهم وتسمع منهم، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِل أمرهم إلى الله فإن فيه كفاية لهم، {وَدَعْ أَذَاهُمْ}

---

٩ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم (٨٠٤).

يمكن أن يكون الأذى مصدراً مضافاً إلى الفاعل، ويمكن أن يكون مضافاً إلى المفعول، والمعنى يتغير تماماً، فإذا كان من قبيل الإضافة إلى الفاعل، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} أي: دع، يعني لا توصل الأذى لهم، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} يعني: دع أن تؤذيهم مجازاة على أذيتهم لك، لا تؤذهم، أعرِض عنهم، لا تنتقم منهم {وَدَعْ أَذَاهُمْ}، والمعنى الثاني: أن يكون من قبيل الإضافة إلى المفعول {وَدَعْ أَذَاهُمْ} دع الأذى الصادر منهم إليك، فإنهم سيؤذونك فلا تلتفت إلى ذلك ولا تعبأ به، ووُجِّه إلى أن يتوكل على الله {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا} فالله سيكفيك ذلك جميعاً، {وَدَعْ أَذَاهُمْ}، المعنى الأول لا توصل إليهم أذى، لا يصل إليهم منك أذى، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} لا تؤذهم أعرض عنهم، المعنى الثاني: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} لا تكترث ولا تعبأ بما يؤذونك به، أعرض عن أذاهم فإنه لا يضرك، كما قال الله -عز وجل-: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [سورة آل عمران:١١١] والأذى غير الضرر -والاستثناء منقطع هنا-، كما في قوله -تبارك وتعالى- في الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر))[١٠]، فهذا أذى، وفي الحديث الآخر: ((لن تبلغوا ضري فتضروني))[١١]، فالضر لا يصل، المخلوق أضعف من أن يوصل الضر إلى الله -عز وجل-، لكن يمكن أن يوصل الأذى، فالأذى يصل، لكن الضر لا يصل، المخلوق أضعف من أن يضر الله -عز وجل-، ولهذا قال: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} فالاستثناء منقطع، يعني: لكن أذى، فالأذى لا يضر، فهؤلاء من المنافقين حينما يرجفون بأهل الإيمان من أهل الصلاح أو العلم، ويتكلمون في أعراضهم ويخوضون، هذا لا يضرهم، وإنما يضر من صدر منه، وقد مضى الكلام على قوله -تبارك وتعالى- في سورة النور: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} [سورة النور:٢٦]، وأن ابن جرير -رحمه الله- قال -بل هذا قول الجمهور-: الخبيثات من الأقوال للخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأقوال، والطيبون من الناس للطيبات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الناس، فإذا صدرت من الطيبين -أعني الطيبات- نفعتهم، وإذا قيلت فيهم فهم أهلها وأحق بها، والخبيثات من الأقوال إذا صدرت من أهل الشر والفساد فهم معدنها وأهلها، وإذا قيلت فيهم فهم أليق بذلك، فهذا وصفهم، هذا قول الجمهور، وهو اختيار ابن جرير، مع أن الآية تحتمل معنى آخر كما سبق في الكلام على سورة النور من أن الخبيثات يشمل هذا والأفعال، وكذلك النساء، ولكن القائل: إن الخبيثات من النساء للخبيثين من الناس، هذا لم ينقل إلا عن واحد من السلف هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والبقية كلهم يقولون: الخبيثات من القول، فلا ينبغي للإنسان أن يكترث ويعبأ بهذه الهجمات المنظمة التي يتولى كبرها بعض المنافقين؛ للوقيعة في أهل الإيمان والصلاح والخير والدعاة إلى الله -عز وجل-، فإن ذلك لا يزيدهم إلا رفعة، والواقع يشهد بهذا، فإن مقاصدهم ومطالبهم من إسقاط هؤلاء وتشويه سمعتهم وما إلى ذلك، كل ذلك لم يحصل، بل ازدادوا رفعة ومحبة في قلوب أهل الإيمان، وهذا هو الفرق بين أهل الإيمان وبين أهل النفاق، فإن أولائك إذا هُتكوا وفُضحوا سَقطوا، وأما أهل الصلاح والخير فإنهم كالعود الطيب إذا أوقد عليه فإنه يزكو برائحته.

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم الجاثية، برقم (٤٥٤٩)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، برقم (٢٢٤٦).

١١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

وقوله: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} على المعنى الأول: لا تؤذهم، فإن الذين يقولون: إن آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، فعندهم أن هذه منسوخة، مع أن آية السيف وهي الخامسة من سورة براءة {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ} [سورة التوبة:٥] إلى آخره، في الواقع أنها لم تنسخ هذه الآيات كما سبق في مناسبات شتى، وأن هذا في مراحل، وأنه في وقت الضعف في أول الإسلام يؤمر المسلمون بالعفو والصفح والإعراض واحتمال الأذى، لكن هذا كله كان بعد وقعة الأحزاب، ولم يكن وقت ضعف بل وقت قوة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد انتصر على قريظة كما انتصر على النضير، وعلى بني قينقاع، فهل يقال: إن هذا كان في وقت الضعف وأنه أُمر -صلى الله عليه وسلم- بأن لا يوصل إليهم الأذى، لو قيل ذلك في المنافقين، وأنه أُمر بالإعراض عنهم فهذا قد يحتمل، لكنّ الكافرين هو مأمور بمجاهدتهم؛ ولهذا فإن الأقرب، -والله تعالى أعلم- أن يحمل هذا على المعنى الآخر، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} يعني: لا تكترث بما يوصلونه إليك من الأذى، ووجه الارتباط بما قبله أن المنافقين آذوا النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيراً في هذه الواقعة وقول عبد الله بن أبي: يقتل مائة دارع في غداة واحدة، يعترض على الحكم الذي قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه إنه: ((حكم الله من فوق سبعة أرقعة))[١٢]، سبع سماوات، ويعترض عليه يقول: كيف يقتل مائة دارع؟، أي مقاتل، أربعمائة دارع، وسبق أن هؤلاء بعضهم قدرهم بسبعمائة وبعضهم قدرهم بسبعمائة وخمسين، قتلهم في غداة في صبيحة يوم، فهو يعترض على هذا، فهذا من أذاهم، كذلك فيما يتصل بهذه الآيات إبطال التبني بتزويج النبي -صلى الله عليه وسلم- من زينب، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخوف ألسن المنافقين، قال الله: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [سورة الأحزاب:٣٧]، فهنا قال: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} لا تكترث بهم، فليتكلموا كما شاءوا.

وإذا تكاثرت الخصومُ وصَيَّحوا *** فاثبُتْ فصيحتُهم كمثلِ دخانِ

يرقَى إلى الأوجِ الرفيعِ وبعدَه *** يهوِي إلى قعرِ الحضيضِ الداني

هذا قدرهم، وهذه حالهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا} [سورة الأحزاب:٤٩].

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها.

يعني النكاح يطلق ثلاثة إطلاقات: إطلاق كامل، يعني أكمل إطلاقات النكاح، وهو مجموع العقد والجماع، هذا أكمل إطلاقاته، وذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تَحِلُّ لَهُ} المطلقة بالثلاث {حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [سورة البقرة:٢٣٠]، فلابد من عقد صحيح وأيضاً الجماع، فلو تزوجها، عقد عليها وما جامعها فلا تحل للزوج الأول إذا طلقها هذا، لابد من الأمرين، فهذا إطلاق له على أكمل معانيه، الإطلاق الثاني على العقد فقط، وهو

---

١٢ - رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، (٢/٧٥)، بهذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لـه بعد أن حكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم: ((حكمت بحكم الله أو بحكم الملِك))، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، برقم (٣٥٩٣).

في هذه الآية {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} عقد عليها ثم طلقها قبل أن يمسها، الإطلاق الثالث: وهو إطلاقه على الجماع، هل ورد في القرآن؟

في سورة النور على أحد القولين، فإن الاختلاف كثير في قوله -تبارك وتعالى-: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} [سورة النور:٣]، فإن المعاني المذكورة فيه كثيرة، وقد مضى الكلام على هذا، وبعض أهل العلم حمل قوله: {لَا يَنكِحُ} يعني: لا يطأ، لا يقع إلا على إما واحدة تستحل الزنا فهي مشركة، تقول: هذه حرية شخصية، ومال الدين والحريات الشخصية، فهذه مشركة تستحل ما حرم الله -عز وجل-، أو أنها تعتقد تحريم الزنا ولكنها لا تنضبط من الناحية العملية السلوكية، فهذه زانية، فهو لا توافقه على الزنا إلا امرأة مشركة تستحل الزنا، أو امرأة زانية تعتقد تحريمه ولكنها تقارفه، لا تمتثل، هذا معنى، المعنى الثاني: أن يكون النكاح بمعنى الزواج، وهذا الذي فيه الإشكال الكثير؛ لأن الله قال: {أَوْ مُشْرِكَةً}، {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}، هل الزانية المسلمة يجوز أن يتزوجها مشرك؟، وهل يجوز للمسلم أن يتزوج مشركة ولو كان زانياً؟! هذا محل الإشكال الكثير والأقوال الواردة في هذا المعنى، فالمقصود أنه على القول الأول: أن معنى {لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} يعني: لا يزني لا يواقع لا يجامع، فيكون بهذا المعنى -على هذا التفسير- أطلق على الجماع فقط، وقد مضى قول شيخ الإسلام وابن القيم في معناها وهو من أحسن ما قيل، حيث حملوه على العقد هناك، وبينوا وجه ذلك من حيث اشتراط الكفاءة في العفاف، وعلى مذهب الإمام أحمد لا يجوز أن يتزوج امرأة زانية لم تتب، فالعقد باطل، فإذا كان يعتقد حله فهو مشرك، وإن كانت تعتقد حله فهي مشركة، فإذا كان يعلم تحريمه فعقد باطل يواقعها بالحرام فهي زانية، إما زانية أو مشركة، هذا الذي يتزوج امرأة زانية، هذا كلام ابن القيم، وشيخ الإسلام يزيد على هذا المعنى أمراً يتصل بحال الرجل الذي يكون زانياً وما يكون عنده من ذهاب الغيرة، وفي المقابل عند امرأته من نزعة للانتقام، ثم إن المعاشرة بين الزوجين هي أعظم العشرة، ويقال للزوج عشير، والله قال: {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [سورة النساء:١٤٠]، فلها حكمه إذا كان يزني ولم يتب، أنها لا تبقى معه.

هنا قال: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ} قال: قوله: {الْمُؤْمِنَاتِ} خرج مخرج الغالب، إذا لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية، وذلك بالاتفاق، إذا تزوج كتابية وطلقها قبل الدخول فالحكم متحد ليس عليها عدة.

قال: وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله تعالى: {الْمُؤْمِنَاتِ} خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس -رضي الله عنهما-، وسعيد بن المسَيّب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، فعقَّب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله.

هذا الذي عليه الجمهور من أهل العلم، وهذه الآية {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا} هي مخصصة لقوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ} [سورة البقرة:٢٢٨]، يعني: إلا أن تكون مطلقة قبل الدخول فلا تتربص ثلاثة

قروء، بمجرد ما يتلفظ بالطلاق فإنها تبين منه البينونة الصغرى، يعني لو أرادها فإنه يحتاج إلى عقد جديد ومهر وولي، والآية الثانية التي خصصتها هذه الآية هي قوله: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} [سورة الطلاق:٤] يعني كذلك، فالآيسة: الكبيرة التي لا تحيض، والصغيرة: التي لا تحيض لصغرها عدتها ثلاثة أشهر، إلا أن تكون مطلقة قبل الدخول، فليس عليها عدة.

و قوله: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}، طلقها قبل الدخول، فليس عليها عدة، يبقى النظر في مسألة أخرى وهي ما إذا طلقها قبل أن يجامعها ولكنه خلا بها، أغلق باباً أو أرخى ستراً، فما الحكم عليها عدة أو ليس عليها عدة؟ وهل تستحق المهر أو لا تستحق المهر، هذه مسألة مختلف فيها بين الصحابة -رضي الله عنهم- فمن بعدهم، فكثير من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعدهم يقولون: إنه إذا أغلق باباً -خلا بها- فإنها تستحق المهر، وليس نصف المهر، وعليها العدة، تنزيلاً للمظنة منزلة المَئِنَّة، المسألة فيها خلاف، فمن أهل العلم من يقول: لا؛ لأن الله قال: {مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} والمسيس هو النكاح، ذكرت هذا من أجل أن لا يشكل.

ومثل هذا مفيد، لو أنه لم يحذف كان أفضل.

قال: وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ} الآية.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أيضاً قال: إنما قال الله تعالى: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!.

ينبغي أن يلاحظ كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- الأول: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، يقول: ليس بشيء من أجل أن الله قال: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، فالطلاق إذا وقع على محل غير قابل، يعني امرأة ليست في حباله، ليست في عصمته فإنه ليس بشيء، يقول: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فهذا لا يقع، كما لو أنه أوقعه منجزاً من غير تعليق على امرأة ليست في حباله، قال عن امرأة أجنبية: فلانة طالق، ليس بشيء، لكن هذا قول الجمهور: إن قوله: كل امرأة أتزوجها...، خلافاً لأبي حنيفة؛ لأنه يرى وقوع الطلاق، لكن لو عيّن امرأة وقال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فهذا غير الأول، غير ما ذكره ابن عباس، فمن أهل العلم وهو مذهب المالكية والأحناف أيضاً أن ذلك يقع، خلافاً لغيرهم حيث قالوا: هذا مثل الأول، إنه قال هذا في امرأة ليست في عصمته، إن تزوجتُ فلانة فهي طالق، فهذا ليس بشيء، والله أعلم.

قال: وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك))[١٣]، رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه.

هذا نص صريح ((لا طلاق))، فإذا قال: فلانة إذا تزوجتها فهي طالق، فهذا لا يقع، يعني: المعين أو المطلق، كل ذلك لا يقع.

---

١٣ - رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب كفارة النذر، برقم (٣٨٤٩)، والترمذي، كتاب الطلاق، باب ما جاء لا طلاق قبل النكاح، برقم (١١٨١)، ولفظ النسائي: ((لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم))، وأحمد في المسند، برقم (٦٧٨٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢١٨٤)، وصحيح الجامع برقم (٧٥٤٨).

قال: وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمِسْوَر بن مَخْرَمَة -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا طلاق قبل نكاح))[١٤].

وهذا مطلق، فيشمل المعين وغير المعين.

قال: وقوله -عز وجل-: {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا}: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها مَنْ شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

لحرمة الزوج، لو مات عنها قبل الدخول فإنها ترث، وعليها العدة، لكن لو طلقها قبل الدخول فإنها لا تعتد، وإن كان سمى لها مهراً فلها نصف المهر، مع المتعة عند بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إن لم يسم لها مهراً متعها، وإلا أعطاها نصف المهر، وأما بقية المطلقات بعد الدخول فإنها تعطى متعة؛ جبراً لخاطرها، بحسب حاله من الغنى والفقر.

قال: وقوله تعالى: {فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا}: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها.

يقول: **المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة**؛ لأن من أهل العلم من يقول: إن ذلك يراد به إحدى حالين: إن كان سمى لها صداقاً فلها النصف، سواءً كان دفعه لها أو لم يدفعه، وإن لم يسمِّ صداقاً أي تزوجها ولم يتفقوا على قدر في المهر معين، تركت الأمر له فإنه يعطيها متعة.

ابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: ليس في الآيات تقييد، وإنما أمر بتمتيعها **{فَمَتِّعُوهُنَّ}** هذا أعم من أن يكون نصف الصداق، أو المتعة الخاصة التي تعطى لمن لم يسم لها، أو المتعة العامة التي تعطى للمطلقات، أما السراح الجميل فهو يتضمن أن يمتعها بحسب عسره ويسره، بحسب حاله، هذه واحدة، الأمر الثاني: السراح الجميل لا يحصل معه أذى لها أو لأهلها، كثير من الناس لما يحصل طلاق يحصل إساءة، أقل ذلك جرح المشاعر، إن لم يصل إليها منه ضرب أو يصادر مالها أو يصادر متاعها، بعضهم قد يغلق على ثيابها، ما عندها ثياب تلبسها، ليس عليها إلا الثوب الذي جاءت به، وأشهر وهي تتردد وقد غير أقفال الأبواب، -نسأل الله العافية-، فهذا إجرام، وقد يصدر للأسف من بعض الناس الذي ظاهره الصلاح والخير، ولكن الله قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق، هذا إجرام، والمرأة مسكينة ما عندها شيء، ويغلق، أو يأخذ من متاعها الذي جاءت به، فيصطفي ما شاء، ويغلق عليه الغرفة، ويغير القفل، بأي حق تأخذ مالها؟ فهذا خلاف السراح الجميل الذي أمر الله -عز وجل- به، ومن السراح الجميل أن يطلقها، المرأة عموماً، ليست هذه التي قبل الدخول، السراح الجميل للمطلقات، **{فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}** [سورة البقرة:٢٢٩] من غير أذى، وكذلك ما جاء في قوله في أول سورة الطلاق: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}** [سورة الطلاق:١]، أن تطلق في طهر لم تجامع فيه، ولا يكون هذا الطلاق في طهر سبقه طلاق في حيض، إذا طلقها

---

١٤ - رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب لا طلاق قبل النكاح، برقم (٢٠٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، بـرقم (١٥٠٢٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (٢٠٧٠).

في حيض فإنه لا يجوز له ذلك، وعليه أن يرجعها على خلاف هل وقع الأول أو لا، ثم بعد ذلك ينتظر حتى تتطهر ثم تحيض ثم تتطهر، يعني لا يطلق في الطهر الذي بعده مباشرة، هذا معنى قوله في أول سورة الطلاق: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، هذا طلاق السنة، فالسراح الجميل أن يراعي ما أمر الله -عز وجل- به في الطلاق وأن يطلق واحدة ولا يطلق أكثر من ذلك، والله المستعان.

قال: قال الله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [سورة البقرة:٢٣٧]، وقال -عز وجل-: {لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [سورة البقرة:٢٣٦].

وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أسيد -رضي الله عنهما- قالا: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تزوج أميمة بنت شَرَاحيل، فلما أن أُدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيَّين[١٥].

رازقيَّين: أي ثياب من الكتان الأبيض، "ثوبين رازقيَّين"، هذا متعة الآن، يمتعها يعطيها شيئاً، إما يعطيها متاعاً –نقوداً-، أو يعطيها عقاراً، بحسب غناه وفقره إذا كان يملك مليارات وأعطاها شقة تكون ملكاً لها، فهذا ليس بكثير، وإذا كان هذا الإنسان لا يملك إلا عشرة آلاف فإنه لو أعطاها ألف ريال فهذا بالمعروف، بحسب زمانه والمكان الذي هو فيه –البلد-، وبحسب الغنى والفقر، هذا المتاع بالمعروف.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

هذا مما يدخل في السراح الجميل، وبعض السلف كقتادة وابن المسيب يرى أن المتعة هنا منسوخة بقوله: {فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [سورة البقرة:٢٣٧]، وهذا لا دليل عليه، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، وموضوع المتعة في الطلاق هذه من الأشياء التي تركها الناس إلا من رحم الله -عز وجل-، هل تسمعون بأن أحداً يطلق امرأة ويعطيها، مع أنه يجب عليه هذا؛ لأن الله جعله حقاً على المتقين، ولكن من الذي يفعل هذا اليوم، هذا مما ضُيِّع، السراح الجميل، يندر أن تجد أحداً يسرح امرأته سراحاً جميلاً إذا طلقها: البقاء في البيت، التطليق للعدة وفي طهر لم يجامعها فيه، ولو أن الناس راعوا هذا في الطلاق ستذهب تسعة أعشار حالات الطلاق الموجودة، الآن يقولون: إنها تصل إلى٤٠% عندنا في المجتمع، ستنخفض إلى تسعة أعشار؛ فهو يطلق في طهر جامعها فيه أو وهي حائض إذا غضب، وأكثر الطلاق في خصومة، فإذا غضب يقال له: ما تطلق إلا في طهر لم تجامع فيه، وهذا نادر؛ لأن الرجل بمجرد ما تطهر من الحيض فهو ينتظر اللحظة التي تطهر فيها، فغالباً يكون جامعها فيه أو تكون حائضاً، فنقول له: لا يجوز، انتظر حتى تطهر، كانت طاهراً ثلاثة أسابيع، نقول: انتظر حتى تحيض ثم تطهر والغضب قد ذهب، نقول: الآن طلق، فإذا طلق، افترِضْ أنه طلق أو كانت فعلاً في طهر لم يجامعها فيه فطلقها فنقول: يجب أن تبقى عندك في البيت، {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا

---

١٥ - رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق؟، برقم (٤٩٥٧).

تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١] أضاف البيوت لهن، **{وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}**، لا يجوز أن يخرجها ويذهب بها إلى بيت أهلها، ولا يجوز لها أن تذهب من عند نفسها، فتبقى عنده في البيت وتتزين له، ومعلوم أن الرجل لا يصبر عن امرأته هذه المدة، طلق في طهر لم يجامع فيه، فصبَّرناه حينما كان غاضباً ثم طلق، فنقول له: انتظر هذا الطهر الذي طلقتها فيه، ثم تحيض ثم تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، فيجلس هذه المدة التي هي قريبة من ثلاثة أشهر، الرجل المتزوج لا يستطيع أن يجلس هذه المدة، وهي عنده في البيت، لا يستطيع، إلا حالات نادرة، أن يكون لديه قناعة كاملة أن هذه المرأة لا تصلح، أما إذا كانت غضبة، أو سوء تفاهم على قضية أو نحو ذلك، لا يستطيع الرجل يصبر أسبوعاً، الأسبوع الثاني تبدأ المعاناة، أمّا أن يجلس هذه المدة كلها!، فلو أن الناس طبقوها تتلاشى حالات الطلاق، فسيراجع؛ لأنها عنده في البيت، لكن إذا ذهبت إلى بيت أهلها لا يراها، ويتحول أهلها إلى فريق يناصرونها، وأهله يتحولون في الغالب إلى فريق يناصرونه، وتتسع دائرة النزاع ويتباعد الطرفان، فالناس لو راعوا هذه الأمور التي ضيعوها، حتى صاروا يعبرون عن الطلاق بأنه ذهب بها إلى أهلها، هذا لا يجوز -والله المستعان-، وعامة سؤال الناس إنما هو على الطلاق الذي قد وقع، ويندر أن يسأل أحد عن طلاق سيوقعه، يقول: كيف أطلق؟ ما هو المشروع في الطلاق؟ أنا لا أذكر أن أحداً على كثرة ما سمعت من مسائل الطلاق، وما أجيبهم فيها في المسائل الواقعة لا يكاد يمر يوم إلا تمر مسائل ما أذكر أن أحداً سأل على الطلاق الشرعي إلا شخصاً واحداً، قبل نحو خمس عشرة سنة، قال: أنا أريد أن أطلق، فما هو المشروع في الطلاق؟، وفي اليوم الواحد عدد يسألون عن طلاق وقع، طلاق وتحريم وظهار، وأحياناً يجمع الثلاث، تسأله تقول: ماذا تقصد بكذا؟ هو لا يعرف ماذا يقصد، طالق وحرام ومثل أمه، نسأل الله العافية.

يكفي هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب الآية (٥٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ أبو الفداء ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة الأحزاب:٥٠].

يقول تعالى مخاطباً نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مُهورهُنَّ، وهي الأجور هاهنا، كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا -وهو نصف أوقية-، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي -رحمه الله- أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها -رضي الله عنهن جميعاً.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا حمله على أنه أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وهذا قول الجمهور، على ظاهر الآية: {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} فأضاف ذلك إليه، ومن أهل العلم -كابن زيد والضحاك واختاره القرطبي- من قال: إن المقصود بذلك {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} كل امرأة يتزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- ويعطيها مهراً، فيبقى النساء اللاتي يتزوجهن -صلى الله عليه وسلم- من غير مهر، وهن الواهبات كما سيأتي، وكذلك أيضاً أحل الله -عز وجل- له أن يتسرى بملك اليمين، {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}، فجعلوا هذا قسيماً لهذا، {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}، فهؤلاء كالقرطبي ومن قبله أصحاب القول الثاني يقولون: إن المقصود أن الله أحل للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج من النساء بمهر، وأنه يدل على ذلك هذا الموضع من الآية، والأولون يقولون: ظاهر الآية أن ذلك في أزواجه خاصة، أحل له أزواجه، ولأصحاب القول الثاني أن يقولوا: كأن هذا من قبيل تحصيل الحاصل، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ} أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم -عليهما السلام-، وكانتا من السراري -رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ} الآية، هذا عدل ووسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع.

وإنما قال: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ} فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [سورة النحل:٤٨]، **{يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** [سورة البقرة: ٢٥٧]، **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [سورة الأنعام:١]، **وله نظائر كثيرة.**

هذا جواب لهذا السؤال الذي قد يرد، لماذا أفرد العم وجمع العمات، وأفرد الخال وجمع الخالات؟، قال: **لشرف الذكر**، هذا قول ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن العم والخال كل منهما اسم جنس وهو يصدق على الواحد والكثير، فحينما يقول: بنات عمك، أفرد العم، يعني: بنات أعمامك، اسم جنس، عم: مفرد مضاف إلى معرفة وهي كاف الخطاب، {عَمِّكَ} يعني أعمامك، كما قال الله -عز وجل-: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١]، يعني أو أصدقائكم، فاسم الجنس يعم، سواء كان ذلك بالإضافة أو كان من غير إضافة كقوله تعالى: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١] يعني: أو الأطفال.

بها جِيَفُ الحسرى فأمّا عظامُها *** فبيضٌ وأما جلدُها فصليبُ

عظامها: جمع، وجلدها: مفرد، أضافه إلى ضمير الهاء، جلدها أي: جلودها، فصليب يعني: صليبة، هو يصف إبلاً في فلاة منقطعة، ميتة، متفسخة، عظامها تلوح.

فهذا جواب لبعض أهل العلم، وهو جواب -أيضاً- يبدو أن السؤال لا يزال معه قائماً، فهو وإن كان اسم جنس إذاً لماذا عبر به -بالمفرد-؟، لماذا لم يقل: أعمامكم ليكون مثل: الخالات؟ فهم يقولون: إن الخالات والعمات ليست اسم جنس، فلا يفي عنها التعبير بالمفرد، هكذا قالوا، ولعل من أحسن ما قيل في ذلك ما ذكره القاسمي: من أن ذلك يناسب المقام هنا، فالقرآن أفصح وأبلغ الكلام، فالمناسب هنا هو ما عبر به، {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ}، ولكل مقام مقال، بينما في آية أخرى، في سورة أخرى {أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ} [سورة النور:٦١]، يعني مما يباح للإنسان أن يأكل منه بغير إذن، فهناك ذكر الجمع، وهنا أفرده، فهناك مناسب للسياق، وهذا يناسب السياق، والله أعلم.

لكن لو قال: أو بيوت عمكم باعتبار أن العم اسم جنس، فاسم الجنس يعم الواحد والكثير، لكن هناك أنسب للمقام باعتبار أنه جمع البيوت، يعني في كل موضع بحسب السياق، فلما جمع البيوت هناك ناسب أن يجمع الأعمام.

قال: وقوله تعالى: {اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: "واللاتي هَاجَرْنَ مَعَك".

يعني يترتب على هذا أن العطف يقتضي المغايرة، فهنا {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} يعني: من لم تهاجر معه فلا تحل، وعلى القراءة الأخرى قراءة ابن مسعود: "واللاتي هاجرن معك" يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الأوصاف المتنوعة لموصوف واحد، {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ} "واللاتي هاجرن معك"، يعني: أن ذلك يرجع جميعاً إلى هؤلاء اللاتي هاجرن معه، لكن هذا فيه بعد، والأقرب: أنه نوع آخر، أن المهاجرات أباحهن الله له من عموم المؤمنات، {اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} بعضهم فسره بالمسلمات، يعني اللاتي أسلمن معك، وأن غير المسلمة لا تباح للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن ذلك من خصائصه، يعني: لا يجوز له أن يتزوج الكتابية مثلاً، ولكن هذا خلاف الظاهر، أعني تفسير المهاجرات بالمسلمات، وإن قال به بعض السلف.

وبعضهم يقولك: {اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} الهجرة المعروفة، هاجرن معه إلى المدينة -عليه الصلاة والسلام-، وأن غير المهاجرة لا تحل للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا اختيار ابن جرير، {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} فغير المهاجرة لا تحل، وهذا ظاهر القرآن، هذا ظاهر الآية.

وبعضهم أطلقه، وبعضهم خصه بهؤلاء القرابات، يعني بعضهم قال: لا تحل له مطلقاً أيُّ امرأة ما لم تكن مهاجرة، وأم هانئ بنت أبي طالب فهي من بنات عمه، فبعضهم يخصص هذا بهؤلاء القرابات فقط، وليس في كل امرأة، {اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}، طيب هل يجوز للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج امرأة من الأنصار مثلاً ليست مهاجرة؟ الجواب: نعم، وبعض أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- لم تكن من المهاجرات، فقول من قال: إن ذلك مقيد بقرابته التي ذكرت قبله {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ} هذا هو الأقرب لظاهر الآية، -والله تعالى أعلم-، أما ابن جرير فأطلقه، قال: ما يحل له إلا من هاجر معه إلى المدينة.

فإذا ذكر قولين ولم يرجح فلا يصح أن يقتصر على أحد القولين فيفهم منه أن هذا اختيار ابن كثير، إلا أن يشار إلى ذلك في الهامش.

قال: وقوله تعالى: {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ} الآية، أي: ويحل لك -يأيها النبي- المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك.

يعني الآن أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك، هذا معنى {خَالِصَةً لَّكَ} يعني: أن تتزوجها من غير مهر، هذا اختيار ابن كثير، وهو قول عكرمة، وهو اختيار ابن جرير، {خَالِصَةً لَّكَ} يعني: أن تتزوج من غير مهر، ولا يجوز لغير النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج من غير مهر.

ومن أهل العلم من حمل الآية: {خَالِصَةً لَّكَ} على أن المقصود بذلك التزوج بلفظ الهبة، أن يتزوج بلفظ الهبة، يعني: ما هو بلفظ أنكحتك، زوجتك، لا، بلفظ: وهبت، لو الآن أحد يعقد لآخر على ابنته أو مُوَلِّيته ويقول له: وهبت لك ابنتي، لا يصح العقد، فهنا قال: {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، فالشافعي -رحمه الله- حمل هذا على هذا المعنى: أنه يجوز له أن يتزوج بلفظ الهبة، والأولون قالوا: إن المقصود {خَالِصَةً لَّكَ} أن تتزوج من غير مهر.

قال: وهذه الآية توالى فيها شرطان.

توالى فيها، {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً} الشرط الأول: إن وهبت نفسها للنبي، الشرط الثاني: {إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا}؛ لأنها بمجرد الهبة لا تكون زوجة له، لو قالت له: وهبت لك نفسي، لا تكون زوجة له بهذا الاعتبار، ومعلوم أن الهبة في غير النكاح تتوقف على قبول الموهوب، بخلاف الميراث فهو تملك جبري، ما يتوقف على قبوله، بمجرد ما يموت المورث ينتقل المال إلى الورثة، أما الهبة فتتوقف على قبول الموهوب، ولا يخفى التعليل الذي ذكره أهل العلم في هذا: أنه قد يلحقه بذلك معرّة، فذلك يتوقف على قبوله، قد لا يقبل هذا، ولا يريده، يرى أن هذا لا يصلح لمثله أو لأي سبب آخر، فهذان شرطان، وهذه الآية أكثر الآيات في القرآن من جهة الضمائر.

قال: وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وَهَبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زَوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل عندك من شيء تُصدقها إياه؟))، فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك، فالتمس شيئاً))، فقال: لا أجد شيئاً، فقال: ((التمس ولو خاتماً من حديد))، فالتمس فلم يجد شيئا، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هل معك من القرآن شيء؟)) قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا -لسور يسميها- فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((زوجتكها بما معك من القرآن))[1]، أخرجاه من حديث مالك.

لابد من المهر في غير النبي -صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: التي وهبت نفسها للنبي -صلى الله عليه وسلم- خولة بنت حكيم[2].

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ} قلت: ما أرى ربك إلا يُسَارع في هواك[3].

المقصود: في هواك، ليس الهوى المذموم، وإنما يعني ما تميل إليه النفس من مطلوباتها، إن لم يكن ذلك محرماً، وإلا فالهوى لا يكاد يطلق في القرآن إلا على سبيل الذم، لكنه قد يأتي في الاستعمال معبراً به عن

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٤٧٤١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليمَ قرآنٍ وخاتمَ حديدٍ وغير ذلك من قليل وكثير واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يُجحِف به، برقم (١٤٢٥)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٨٥٠).

٢ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٤٣)، برقم (١٧٧٢٤)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٣١٣١).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٠).

ميل النفس، يقال له: هوى، تقول: هذا الأمر لك فيه هوى، لك فيه ميل، نفسك تميل إليه، نقول: لأن هذا الأمر لك فيه هوى فعلتَه، وهذا لم يكن لك فيه هوى -في أمور ليست محرمة- لم تفعله، وقول العامة: إكرام النفس هواها، الأحسن من هذا أن يقال: إكرام النفس هداها، وليس إكرام النفس هواها، باعتبار أن الهوى لا يكاد يذكر إلا على سبيل الذم، وليس إكرام النفس هو أن تتبع الهوى، وتُترك مع الهوى، وإنما باتباع الوحي والهدى، فهذا إكرامها، لكنهم يقصدون معنى صحيحاً، وهو أن الإنسان لا يُحمل على شيء يكرهه من باب الإكرام، فيكون هذا الإكرام، كما قيل:

رامَ نفعاً فضَرّ من غيرِ قصدٍ *** ومن البرِّ ما يكون عقوقاً

أراد أن يكرمه فشق عليه، فيقولون: إكرام النفس هواها؛ بهذا الاعتبار، لكن هذا الكلام لا يقال: إنه حرام وباطل بإطلاق، وإنما فيه التفصيل المتقدم، وكثير من الكتيبات التي تظهر، والمطويات في المنهيات تحتاج إلى تفصيل، إن قصد كذا فهو كذا، وإن قصد كذا يحتمل كذا، ويحتمل كذا، أو هم يقصدون كذا، لا يقصدون هذا المعنى الفاسد البعيد الذي لا يخطر لهم على بال، وبعض الناس يتحمس ويسارع في نشر هذه الأشياء، وقد لا يكون في بعضها الأمر يصل إلى ما ذكر، والله أعلم.

قال: وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لم يكن عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- امرأة وهبت نفسها له.

ورواه ابن جرير عن يونس بن بُكَيْر، أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: {إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا} أي: إن اختار ذلك.

هذا قول ابن عباس واختاره مجاهد، وقال آخرون: بل يوجد في نسائه من وهبت نفسها له، وسمى بعضهم مجموعة من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- على خلاف في التفاصيل، لكن ممن سُمي من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: ميمونة بنت الحارث، وهذا مروي عن ابن عباس وقتادة، وكذلك زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وهذا قال به الشعبي، وأم شريك بنت جابر وهي أسدية، منقول عن علي بن الحسين وعروة والضحاك ومقاتل، وخولة بنت حكيم من بني سليم، وهذا منقول عن عروة بن الزبير، ومضى كلام عائشة -رضي الله عنها- بأن خولة بنت حكيم من الواهبات، وبعضهم يقول غير هذا، الذين يقولون: يوجد من أزواجه -صلى الله عليه وسلم- من وهبت نفسها له، مما يحتجون به قول عائشة -رضي الله عنها- السابق أنها كانت تغار من المرأة تهب نفسها للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والواقع أن هذا الدليل ليس بصريح في هذا، هي تغار ممن تهب نفسها للنبي -صلى الله عليه وسلم- بصرف النظر عن كونه قبِل أو لم يقبل، لكن ذلك يحرك مشاعر الغيرة في نفسها، ولا يعني أنها تقصد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبلها، وأنها تغار ممن قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوجها، فليس فيه دليل في الواقع، والمعول عليه هو الواقع، وكون الواهبة هي خولة بنت حكيم ليس محل اتفاق، هذا ذكرته عائشة -رضي الله تعالى عنها-، ولكن من أهل العلم من يقول غير هذا، بعضهم يقول: هي أم شريك الأنصارية، واسمها غزية، وقيل غزيلة، وبعضهم يقول: ليلى بنت حكيم، وبعضهم يقول: هي ميمونة بنت الحارث، حيث جاءها يعني: الخاطب

يخطبها للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهي على بعير فقالت: البعير وما عليه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه هبة، وبعضهم يقول: الواهبة هي أم شريك العامرية، وبعضهم يقول: زينب بنت خزيمة، والواهبة اختلفوا فيها، واختلفوا هل يوجد في أزواجه -صلى الله عليه وسلم- من كانت من الواهبات أو لا، على خلاف في التفاصيل، يعني: أيّ هؤلاء الزوجات.

قال: وقوله تعالى: {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما.

أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بَرْوَع بنت واشق لما فوّضتْ، فحكم لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر، وثبوت مهر المثل في المُفوِّضة لغير النبي -صلى الله عليه وسلم- فأما هو -عليه الصلاة السلام- فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش -رضي الله عنها-؛ ولهذا قال قتادة في قوله: {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي -صلى الله عليه وسلم.

لأنه الآن لما ذكر ما يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك توجه الكلام والخطاب في بيان ما يتصل بعموم المؤمنين، هذا ما يختص بك أما غيرك من المؤمنين فـــ {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}، باعتبار أنه يجب الولي والمهر، وأن لا يتزوج أكثر من أربع نسوة، {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ} [سورة النساء:٣]، وما إلى ذلك، يعني هي لعموم المؤمنين، أما ما سبق فهو خاص برسول الله -عليه الصلاة والسلام-، يعني ليس لهم به أسوة -عليه الصلاة والسلام- في هذه الخصائص.

قال: وقوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}.

قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير في قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ} أي: من حَصْرِهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمّة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ {لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

قوله هنا: **من حصرهم في أربع نسوة حرائر**، بمعنى أنه لا يجوز للحر أن يتزوج الأمة؛ لأن أولاده سيكونون أرقاء، ولكن ذلك يكون من قبيل الاستثناء حال الضرورة إذا خشي على نفسه العنت، والصبر خير له كما دلت عليه آية النساء، {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} [سورة النساء:٢٥]، فيكون رخصة في هذه الحالة، الضرورة، وإلا فالأصل أنه لا يجوز له أن يتزوج الأمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب الآية (٥١) إلى الآية (٥٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ أبو الفداء ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٥١].

روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها-؛ أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله، -عز وجل-: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} الآية، قالت: إني أرَى ربَّك يُسَارع لك في هواك[1].

وقد تقدم أن البخاري رواه أيضاً، فدل هذا على أن المراد بقوله: {تُرْجِي} أي: تؤخر {مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} أي: من الواهبات {وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} أي: مَنْ شئت قبلتها، ومَنْ شئت رددتها، ومَنْ رددتها فأنت فيها أيضا بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ}.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} الآية أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت.

هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رَزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسْم واجبا عليه -صلى الله عليه وسلم- واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وروى البخاري عن عائشة: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ}، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً[2].

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسْم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٠).

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١١)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، برقم (١٤٧٦).

قال تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسْم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أيّ ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب فرحْنَ بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسْمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}** بعد قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}** [سورة الأحزاب:٥٠] الآية، فهنا في هذه الآية ذكر ثلاثة أصناف من النساء، **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** وقد مضى الكلام على المراد بذلك، هل المقصود بذلك عموم نساء الأمة اللاتي يتزوجهن ويعطيهن أجورهن يعني غير الواهبات اللاتي من غير مهر؟، وذكر الصنف الثاني وهو القرابات اللاتي هاجرن معه، والصنف الثالث الواهبات، ثم قال: **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}**، والأقوال في هذه الآية **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ}** ثلاثة، وهي الأقوال السابقة بناءً على الأصناف الثلاثة، **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}** بعضهم يقول: من أزواجك اللاتي في عصمتك، ويكون المعنى بهذا الاعتبار إسقاط القسْم عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، بحيث إنه -عليه الصلاة والسلام- له أن يعزل بلا طلاق من شاء من نسائه فهو في حل، وله أن يأتي من يشاء بغير قسْم، وإن أراد أن يقرب مَن عزلها فعل، وإذا أراد أن يُبعد من قربها، يعني من لم يعزلها فإن له ذلك جميعاً، وجاء في بعض الروايات التي لا تخلو من ضعف أن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- خشين أن يطلقهن، تخوفن أن يطلقهن -عليه الصلاة والسلام-، فقلن له: اجعل لنا من نفسك ومالك ما شئت، يقولون: فكان ممن أرجى سودة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة، وأدنى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، لكن الروايات الواردة في هذا لا تخلو من ضعف، أن ذلك كان بمبادرة من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما ذكر في بعض هذه الروايات من هذه الأسماء، فهي روايات ضعيفة، وبعضها مراسيل، وكذلك جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بسند ضعيف في قوله: **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}** قال: تطلق أو تمسك من تشاء، هذا الآن معنى آخر، وهذا كله في أزواجه -صلى الله عليه وسلم-، تُدني وتبعد، يعني إسقاط القسْم، هذا المعنى الأول، لا يجب عليه أن يقسم، لكن كان يقسم -صلى الله عليه وسلم- تفضلاً منه، ولكمال تحريه؛ ولهذا في مرض وفاته -صلى الله عليه وسلم- كان يسأل: أين سيكون؟ حتى نزل أزواجه -رضي الله عنهن- عند رغبته وما عرفن من محبته أن يبقى عند عائشة -رضي الله تعالى عنها-، فبقي عندها، فهذا معنى إسقاط القسم، والمعنى الثاني مما يتعلق بأزواجه: تطلق من شئت وتمسك من شئت، **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}**، هذا جاء عن ابن عباس لكن بإسناد لا يصح، ومن قال: إن قوله: **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** [سورة الأحزاب:٥٠]، يعني: عموم نساء الأمة، من يتزوجها بمهر، فإن بعض هؤلاء قال: إن قوله: **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}** يعني: تتزوج من شئت وتترك من شئت، وبعضهم

جعل ذلك في خصوص الواهبات، هؤلاء الواهبات تترك من شئت وتتزوج من شئت منهن، فلا يلزمك بذلك شيء، هذا القول الثالث، ويدل عليه الحديث عن عائشة -رضي الله عنها-، لما قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها؟، فأنزل {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}، فهذا واضح في أنها في الواهبات، وحديثها الآخر وهو: "كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}"، قالت: "كنت أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله.." الحديث، "يستأذن المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}" يكون هذا في القسم، قال: فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم، كيف كان يستأذن وابن كثير يقول: يدل على عدم وجود القسم؟

كان يستأذن من باب التفضل، وإلا لو كان حقاً واجباً عليه لأعطى كل واحدة حقها ولم يؤثر غيرها عليها من هذا الباب؛ لأنها ذكرت الآية: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} يستأذن بعدها، فهل كان القسم حقاً واجباً عليه؟ فذكر عائشة -رضي الله عنها- الآية لو كان الحديث بمجرده، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستأذن الواحدة منا كان يقال: استأذنها في إسقاط حقها، لكن بعد الآية فظاهرها أنه مخير، ومع ذلك لكمال أدبه -صلى الله عليه وسلم- وتحريه كان يستأذن الواحدة منهن تطييباً لقلبها، من هذا الباب، فصارت هذه هي الأقوال في الآية، وابن جرير -رحمه الله- جمع بينها، قال: ومن هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، بقي على هذه العبارة التي ذكرها ابن كثير بقي صنف وهو النساء اللاتي لسن في حباله، أن يتزوج من شاء ويترك من شاء، وبقي قول آخر في أزواجه إن شاء طلق وإن شاء أمسك، فصارت الأقوال أربعة، فهنا العبارة التي ذكرها ابن كثير ونقل ذلك عن ابن جرير في صنفين، ومقتضى الجمع بين الأقوال جميعاً أن تكون الآية عامة في ذلك كله؛ لأن الله لم يحدد شيئاً، وابن جرير -رحمه الله- في كلامه -في أوله- ما ظاهره أنه اقتصر على هذين الصنفين اللذيْن ذكرهما ابن كثير، وفي آخره ما ظاهره العموم، ما هو أعم من ذلك، بمعنى عموم النساء اللاتي لسن في حباله واللاتي في حباله، فاللاتي لسن في حباله يتزوج ويترك، والواهبات يتزوج ويترك، واللاتي في حباله يقسم ويترك، أو يطلق ويمسك، {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ}، وعلى هذا القول بأن المقصود القسْم هذا قال به جماعة من السلف كالزهري والشعبي واختاره ابن العربي المالكي، والقرطبي، يقولون: المقصود القسم، أن هذه الآية خيرت النبي -صلى الله عليه وسلم- في أن يقسم بين أزواجه وأن يترك فكان ذلك لا يجب عليه، والله تعالى أعلم.

وأشهر الأقوال فيها: أن المقصود في الواهبات أو في القسم بين نسائه.

وابن جرير حملها على العموم، وظاهر كلامه في آخره من كن في حباله ومن لسن في حباله، إلا أن يحمل من لسن في حباله على الواهبات، لكن هي تعود إلى ما ذكر قبلُ وهن المذكورات في قوله: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ} إلى آخره، {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ}، وما المقصود بأزواجه كما سبق على القولين، {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ}، {وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ}، {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}، فبحسب مرجع الضمير يكون تفسير هذه الآية، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: ((اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))[٣].

ورواه أهل السنن الأربعة، وزاد أبو داود بعد قوله: ((فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)) يعني: القلب[٤]، وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات، ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا} أي: بضمائر السرائر، {حَلِيمًا} أي: يحلم ويغفر.

قوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} قال: من الميل، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))، باعتبار أن ما يقع في القلوب من الميل والمحبة أو النفور أو ما أشبه ذلك، أن هذه أمور لا يؤاخذ الإنسان عليها، والهوى لا يؤاخذ عليه الإنسان إلا فيما يتبعه من العمل، فالمذموم هو اتباع الهوى، لكن قد يكون في قلب الإنسان ميل؛ لأن الهوى هو ميل النفس، فهذا الميل لا يؤاخذ عليه الإنسان، وهو بحاجة إلى مجاهدة الهوى، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [سورة النازعات:٤٠]، وقال: {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [سورة يوسف:٥٣]، فأمْرُها بالسوء هذا من الهوى، تدعو إلى مبتغياتها ومطلوباتها ومشتهياتها ومحبوباتها، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والنفس تمنى وتشتهي))[٥]، عندما ذكر زنا العين إلى آخره، فتمني النفس وتوقانها إلى تحصيل هذه اللذات والشهوات هذا هوى، فلا يؤاخذ عليه الإنسان، لكن الذي يؤاخذ عليه هو ما يتبعه من العمل، فهنا كون الرجل يحب إحدى النساء أكثر، أو يحب أحد الأولاد أكثر، لا يقال: إن ذلك مخالف للعدل الذي أمر الله به، هذه أمور لا يؤاخذ عليها الإنسان، لكن في تصرفاته يجب عليه أن يعدل.

{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [سورة الأحزاب:٥٢].

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم: أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضاً عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان جزاؤهن أن الله تعالى قَصَره عليهن، وحرم عليه أن

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، برقم (٢١٣٤)، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، برقم (٣٩٤٣)، والترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، برقم (١١٤٠)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، برقم (١٩٧١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥١١١)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٣٧٠).

٤ - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، برقم (٢١٣٤)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٣٧٠).

٥ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} [سورة الأنبياء:٩٥]، برقم (٦٢٣٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٧).

يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوُّجٌ لتكون المنة للرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهن.

روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: ما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أحل الله له النساء[٦]، ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما.

وقال آخرون: بل معنى الآية: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك، هذا مرويّ عن أبي بن كعب، ومجاهد -في رواية عنه-، وعن غيرهما.

وروى الترمذي عن ابن عباس قال: نهي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}، فأحل الله فتياتكم المؤمنات {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}.

واختار ابن جرير -رحمه الله- أن الآية عامة فيمن ذُكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير من السلف؛ فإن كثيراً منهم رُوي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم.

قوله: **{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}** ذكر قولين ثم ذكر الترجيح بينهما، يعني كأن الترجيح هو قول ثالث، أي اختيار ابن جرير وقواه ابن كثير، فحاصل ذلك أن قوله: **{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}** من بعد ماذا؟ فالقول الأول: يحرم عليه التزوج على نسائه اللاتي اخترنه، لا يتزوج عليهن مكافأة لهن، وهذا مروي عن ابن عباس لكن بإسناد ضعيف، وقال به كثيرون كقتادة وعلي بن الحسين زين العابدين، والضحاك واختاره القرطبي، وقال: إنه منسوخ لقوله: **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ}** [سورة الأحزاب:٥٠]، الآية منسوخة، يعني: حرم عليه التزوج ثم أبيح له ذلك بالآية **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ}**، وبعضهم يقول: منسوخ والناسخ حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: **ما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أحل الله له النساء**، وكلام أهل العلم في نسخ السنة للقرآن معروف، وهذا على القول بالنسخ، والقول الآخر: أنها ليست منسوخة، وأن المقصود في قوله: **{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}** يعني: من بعد ما ذكر، ما الذي أحل الله له؟، أحل أزواجه وبنات عمه وبنات عماته.. إلى آخر اللاتي هاجرن معه، والواهبات، وما ملكت يمينه، فهؤلاء أحلهن الله له، وما وراء ذلك لا يحل له، **{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}** يعني: غير الموصوفات في هذه الآية، وهذا قال به أكثر السلف، قال به كثيرون، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **{لا يَحِلُّ}** أي من بعد ما

---

٦ - رواه النسائي، كتاب النكاح، باب ما افترض الله -عز و جل- على رسوله -عليه السلام- وحرمه على خلقه ليزيده -إن شاء الله- قربة إليه، برقم (٣٢٠٤)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الأحزاب، برقم (٣٢١٦)، وقال أبو عيسى: "هذا حديث حسن"، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٤٦٧)، وضعفه محققو المسند.

ذكرنا لك من صفة النساء، وما سَمّى القائلين بهذا، لكنهم كثير جداً، كالسدي وقتادة والحسن ومجاهد وهو منقول عن أبيّ بن كعب، وأبي صالح وعكرمة والضحاك، والذي يصلح أن يكون قولاً ثالثاً وهو لا يخرج عن القولين: أن الآية تشمل هذا وهذا، {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}، ولا أن تبدل بهن من أزواج، انظر ماذا قال ابن كثير -رحمه الله- قال: اختار ابن جرير: أن الآية عامة فيمن ذُكر من أصناف النساء، وفي النساء اللاتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير من السلف، لكن قد لا يخلو من إشكال هذا الجمع بين القولين، {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ} يعني: غير الموصوفات، إذا قلنا هذا فظاهره أنه إن كانت من الموصوفات فيحل له أن يتزوجها من واهبة أو من بنات عمه... إلى آخره اللاتي هاجرن معه؛ لأنه يحل له، والقول الآخر: أنه لا يحل له أن يتزوج على أزواجه، لا من الموصوفات، ولا من غير الموصوفات، فكيف يقال: إن الآية تشمل النوعين، وإنه يحمل على ذلك جميعاً {لا يَحِلُّ لَكَ} مع أن هذا ظاهره أنه من قبيل اختلاف التضاد الذي لا يمكن الجمع فيه بين القولين؟، خلاف التضاد أحياناً يمكن الجمع بين القولين، وأحياناً لا يمكن، فإذا قلنا: لا يحل له غير الموصوفات، فمعنى ذلك أنه إن كانت من الموصوفات فهي حلال، كالواهبة وبنات العم إلى آخره اللاتي هاجرن معه، فيتزوج على نسائه من هؤلاء.

القول الثاني: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} يعني: أن تتزوج على هؤلاء النسوة اللاتي في حبالك، في عصمتك، اللاتي اخترنك، وهو اختيار القرطبي، لا من الموصوفات ولا من غير الموصوفات، لا من الواهبات ولا من غير الواهبات، وعلى هذا فإن هذا يقتضي الترجيح، {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} تبقى الآية محتملة للمعنيين، إما أن نقول هي مكافأة لأزواجه فلا يتزوج عليهن أبداً، لا واهبة ولا غير واهبة، أو يقال: لا يحل له أن يتزوج من غير ما وصف الله -عز وجل-، ومن ثَمّ فإن غير المسلمة لا تحل له، كما حمل الآية على ذلك مجاهد بن جبر -رحمه الله-، {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}، فتبقى الآية محتملة للمعنيين، ولا يقال بأنها تحمل عليه، وقد تكون القرينة مرجحة للمعنى الأول: أنه لا يحل له أن يتزوج عليهن وهو ما اختاره القرطبي وغيره، والقرينة هي قوله: {وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} يعني: لا تتزوج عليهن فتزيد، ولا أن تستبدل، هذا أقرب للمكافأة لهن، فيكون نهاه عن هذا وهذا، لكن لو قيل: غير الموصوفات، لا يحل لك غير الموصوفات، فيحل له أن يتزوج من الموصوفات {وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، لكن لو قيل: إنه لا يزيد على من عنده فقد يفهم منه أنه لو طلق واحدة وتزوج مكانها أخرى فلم يزد على العدد لكان ذلك سائغاً، فقال: {وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، كأن هذا أقرب -والله تعالى أعلم-، وأن قوله: {وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ} قرينة ترجح القول الأول، وهو: أنه نهي عن التزوج، ويبقى النظر بعد ذلك: هل نسخ ذلك أو لم ينسخ؟، وهذه الآيات نازلة في السنة الخامسة من الهجرة، بعد وقعة الأحزاب، فكافأهن حينما اخترنه -عليه الصلاة والسلام.

فالآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته، فيحمل على القولين، لا يأخذ من غير ما وصف، ولا يتزوج على نسائه.

وقوله تعالى: {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}، فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه.

هذا الآن {تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ} حمله ابن كثير على الزيادة، إن طلق واحدة، بما أنه لا يحل له النساء من بعد، إذا قلنا: لا يزيد على من عنده، فليس له أن يطلق ويستبدل، وهذه حاصل أقوال المفسرين فيها ثلاثة، {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، بعضهم يقول: لا يحل لك النساء بعد المسلمات، ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من الكافرات، هذا منقول عن مجاهد.

القول الثاني: أنه لا يحل له أن يتبدل بأزواجه غيرهن، فيطلق أزواجه أو بعض أزواجه ويتزوج غيرهن، وهذا قال به الضحاك وهو ظاهر اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وهو ما مشى عليه ابن كثير في ظاهر عبارة المختصر، وأنت تقول الآن: إنه في الأصل: أن يزيد أو طلاق واحدة، {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، لكنه يشير فيما يظهر إلى أن قوله: {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ} يعني: بالزيادة، {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ} بأن يطلق واحدة ويتزوج مكانها، فيكون هذا ليس هو تفسيراً لقوله: {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، وإنما ذكر مجموع المعنى من أول الآية وآخرها، فهنا هذا المعنى الثاني الذي مشى عليه ابن كثير وابن جرير، وبعضهم -وهو منقول عن ابن زيد، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم- قال: إنه منهي أن يستبدل بأحد من أزواجه كما كان عليه أهل الجاهلية، الرجل يأتي للرجل، ويقول: بادلني امرأتك، فيتبادلان، {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، وهذا بعيد؛ لأن هذا يحرم عليه وعلى غيره -عليه الصلاة والسلام-، فليس هذا هو المراد من الآية، فيبقى أن قوله: {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ} يعني: أن يطلق ويتزوج مكانها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب الآية (٥٣) إلى الآية (٥٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} [سورة الأحزاب:٥١]، قال: **أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسْم فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحْنَ بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك..** إلى آخره.

فمن فسره بأنه بمعنى ترك القسْم فما قبله {تُرْجِي مَن تَشَاء}، قال: {ذَلِكَ أَدْنَى} يعني: أقرب وأحرى {أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ} يعني: ما أعطيتهن فهو فضل، وما تركته فهو عدل، هذا المقصود، ومن حمله على معنى آخر، {تُرْجِي مَن تَشَاء} بمعنى: تتزوج من الواهبات أو تترك فإنه أيضاً ربط هذا المعنى بذلك التفسير، {ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ} والأقرب -والله تعالى أعلم- أن يحمل على ما ذكره ابن كثير -رحمه الله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٥٣-٥٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله ومن اهتدى بهداه، وبعد.

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي -عز وجل- في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [سورة البقرة:١٢٥]**، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البَر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- لما تمالأن عليه في الغيرة: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}** [سورة التحريم:٥]**، فنزلت كذلك**[1].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة، برقم (٣٩٣).

وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة.

وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب[٢].

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: لما تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زينب بنت جحش، دعا القوم فَطَعِموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام مَنْ قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} الآية[٣].

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}** الآية، يقول: **هذه آية الحجاب**، بمعنى التي فرض الله -عز وجل- فيها الحجاب، **{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}**، خلافاً لما يتوهمه كثيرون من أن آية الحجاب هي ما سيأتي من قوله -تبارك وتعالى- بعد ذلك في هذه السورة **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}** [سورة الأحزاب:٥٩]، تلك ليست هي آية الحجاب، وإنما آية الحجاب هذه، وحجب الله فيها أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا سألهن أحد متاعاً أو حاجة فإن ذلك يكون من وراء حجاب، وحاصل ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في سبب نزول الآية يرجع إلى سببين، الأول: هو ما جاء عن عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين: وافقت ربي -عز وجل- في ثلاث، وذكر منها أنه قال: إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، فيكون ذلك بسبب قول عمر -رضي الله عنه-، والسبب الآخر هو الذي رواه البخاري عن أنس -رضي الله عنه- قال: لما تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، فكان ما كان من حديثهم وتطويلهم المكث في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما حصل بسبب ذلك من الحرج له -عليه الصلاة والسلام-، حتى خرجوا، فيقول أنس: فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...}**، هذه روايات صحيحة، وهي صريحة في سبب النزول، وجاءت أيضاً روايات أخرى كثيرة في هذا، وأكتفي بالصحيح منها:

فمن ذلك ما صح عن عائشة -رضي الله عنها-: أن سبب النزول أنها كانت تأكل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- حيساً، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا عمر فأكل معهم، فأصابت أصبعه أصبعها، فقال عمر

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٢).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٣)، وبرقم (٥٨٨٥)، كتاب الاستئذان، باب آية الحجاب، ومسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، برقم (١٤٢٨).

-رضي الله تعالى عنه-: حَسٍّ، ثم قال عمر: لو كان الأمر لي أو بيدي لما رأتكنّ عينٌ أو نحو ذلك، فنزلت الآية[٤]، وفي حديث أنس لما تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب، كان هذا في السنة الخامسة، في شهر ذي القعدة، صبيحة زواجه -صلى الله عليه وسلم- بزينب، وهذه الأمور مترابطة، نحن قلنا في البداية: غزوة الأحزاب كانت في السنة الخامسة، وقريظة كذلك، ثم ما حصل بعد هذا من تزوجه -صلى الله عليه وسلم- بزينب، كل ذلك كان في السنة الخامسة، وفيها نزل الحجاب.

وسبب رابع: عن عائشة -رضي الله عنها-: أنها نزلت حين قال عمر -رضي الله عنه-: قد عرفناك يا سودة[٥]، كان أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرجن ليلاً إلى المناصع لقضاء الحاجة، فخرجت سودة -رضي الله تعالى عنها- وكانت امرأة طويلة تُعرف، لا تخفى، فقال عمر -رضي الله عنه-: قد عرفناك يا سودة، لما رآها، رجاء أن ينزل في ذلك شيء في الحجاب، كان عمر -رضي الله عنه- يرجو أن ينزل الحجاب، فرجعتْ، وكان ذلك سبب نزول الآية.

وسبب خامس أيضاً: ما جاء عن أنس -رضي الله عنه- بإسناد حسن: كانوا إذا طعموا جلسوا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- رجاء أن يجيء شيء، فنزلت، ولم يقيده بقصة زينب.

فصارت هذه خمسة أسباب صحيحة وصريحة، في قصة سودة في بعض رواياته أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لها: ((إن الله قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن))، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وليس فيها ذكر سبب النزول.

ولكن الرواية التي ذكرتها آنفاً جاء سبب النزول صريحاً فيها، فهل نزلت بسبب ما وقع من أكل عمر -رضي الله تعالى عنه- مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو من قول عمر: لو حجبت نساءك، أو لقوله لسودة، أو لجلوسهم أو تحريّهم، يجلسون عند النبي -صلى الله عليه وسلم- رجاء أن يجيء شيء، كما جاء عن أنس، أو لجلوسهم صبيحة يوم زواجه بزينب؟

فنحن أمام ثلاثة خيارات أو احتمالات، إذا أردنا أن نجري على هذا طريقة السبر والتقسيم:

إما أن نقول: بتكرار النزول، نزلت بعد هذه الوقائع أكثر من مرة، في كل مرة تنزل.

وإما أن نقول: إن الآية نزلت بعد هذه الوقائع وهي في وقت متقارب.

وإما أن نقول: بالترجيح.

فالقول: بأن الآية تكرر نزولها فيه إشكال، إذا كان نزل الحجاب فكيف يأكل عمر مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وعائشة؟ وإذا كان نزل الحجاب فكيف يأتون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتحرون الطعام ويجلسون حتى نزلت الآية؟ وكيف يحصل ذلك صبيحة زواجه -صلى الله عليه وسلم- بزينب؟ وكيف يقول

---

٤ - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٢٩٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٤١٩)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، برقم (١١٥٨١)، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة".

٥ - رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب خروج النساء للبراز، برقم (١٤٦)، وبأرقام متعددة منها رقم (٥٨٨٦)، كتاب الاستئذان، باب آية الحجاب، ومسلم، كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان، برقم (٢١٧٠).

عمر -رضي الله عنه- لسودة ما قال؟ وكيف يطالب النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يحجب نساءه وقد نزلت آية الحجاب؟ فهذا لا يخلو من إشكال، ولا يقولنّ قائل: إن جلوسهم صبيحة ذلك اليوم في بيته -صلى الله عليه وسلم- حينما تزوج من زينب أنه لا ينافي كونها قد حجبت، بل ينافيه؛ لأن أنس -رضي الله عنه- قال: فألقى الحجاب بيني وبينه، فدل على أن الحجاب إنما وُجد، إنما فرض، وشرع في ذلك الحين، ثم كيف ينزل الحجاب أيضاً وعمر يأكل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وعائشة؟ فهذا القول: إن النزول تكرر أكثر من مرة هذا غير صحيح، ولا يمكن أن يقال.

والقول: إنها نزلت بعد هذه الوقائع جميعاً، لا يخلو من بعض إشكال، إذا أخذنا بظاهر بعض هذه الروايات، يعني حينما كان يأكل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- حيساً فنزلت الآية، لما قال ما قال عمر، وكذلك أيضاً حينما قال: قد عرفناك يا سودة، فنزلت الآية، هذه غير هذه، والمكان الذي كان فيه عمر يختلف، وأما مطالبته: لو حجبت نساءك فيحتمل أن تكون قبل ذلك؛ ولهذا قال لسودة ما قال، رجاء أن ينزل شيء، وكذلك في جلوسهم يبدو أن هذا كان يحصل ويتكرر فنزلت، وكذلك حينما تزوج بزينب في صبيحة ذلك اليوم جلسوا وأطالوا المكث فنزلت الآية، فكل واحد منها يدل على أنها نزلت بعده، وهي أوقات متفرقة، هذا يتعشى وهذا في الصبح، فلا يخلو هذا من إشكال، إلا أن يقال: إن ذكر هذه الوقائع ثم التعبير عن ذلك بقوله: فنزلت، لا يدل على أنها نزلت بعد ذلك مباشرة، فالفاء تدل على التعقيب المباشر، بخلاف "ثم" فتدل على التراخي، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، وقد ذكرت هذا المعنى -تعقيب كل شيء بحسبه- في بعض المناسبات، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج:٦٣]، وإنما يكون هذا بعد مدة من نزول الماء، وهكذا لما ذكر أطوار خلق الإنسان، قال: {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤]، وهكذا ما ذكر بعده، مع أنه يكون بين الواحدة والثانية أربعون يوماً كما في حديث الصادق المصدوق، فهذا ليس مباشرة، فالتعقيب فيها يكون في كل شيء بحسبه، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [سورة الرعد:١٧] ما تسيل الأودية بمجرد نزول المطر، وإنما إذا تتابع وكثر يجتمع فتسيل منه الأودية، فيكون هنا التعقيب "فنزلت" أنها لم تنزل مباشرة في لحظتها، في ساعتها، فحصل من عمر هذا وهذا وهذا، وحصل أيضاً منهم الجلوس والتحري والإطالة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وحصل في صبيحة ذلك اليوم ما أحرجه -صلى الله عليه وسلم- صبيحة زواجه بزينب فخرج ودخل ورجع حياءً منهم، فهنا شرع الحجاب، قال: فألقى الستر بيني وبينه، ولا يستبعد أن يكون ما ذكرت: أنها نزلت بعد ذلك جميعاً، لكن لا يقال: إن أنس -رضي الله عنه- لم يطلع على نزولها قبل؛ لأنه لو كان كذلك لم يجلسوا، وأنس خادم النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعتاد الدخول، وكون النبي -صلى الله عليه وسلم- ألقى الستر بينه وبينه في تلك اللحظة، فقبلها كان يدخل، لربما كان يدخل حينما كان الناس عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، هم جلوس عنده، فهذا -والله تعالى أعلم- لا يقال، ولكن يمكن أن تجتمع هذه الأمور جميعاً فتكون الفاء ليست للتعقيب المباشر، فهذا مثال يمكن أن يقال فيه بالجمع بين هذه الروايات وأنها نزلت بعدها جميعاً، مع كونه لا يخلو من إشكال، لاحظ في بعض الأمثلة والصور ليس هناك إشكال، هذا مثال لا يخلو الحال فيه من إشكال.

وإذا أردنا أن نرجح فمن طرق الترجيح: النظر إلى الأصح، ما كان في الصحيحين أو في أحدها فيرجح على غيره، أن يكون فيه مثلاً حاضر القصة الراوي، مثل حديث أنس -رضي الله عنه-، لكن هذا فيه هذا وهذا، يعني هنا الحديث الأول في الصحيحين حديث عائشة، والحديث الآخر حديث أنس -رضي الله عنه أيضاً في الصحيحين، وكذلك أيضاً في قضية حضور القصة، أنس حاضر القصة -رضي الله عنه-، وعائشة -رضي الله عنها- كانت حاضرة القصة حينما كانت تأكل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، وقول عمر -رضي الله عنه-: وافقت ربي في ثلاث، هو يتحدث عن نفسه وما حصل معه، فالترجيح في مثل هذه الأشياء قد يصعب، والله أعلم.

ويمكن أن يقال -والناس يتحدثون كما نشاهد-: سبب هذا حصل كذا فحصل كذا، والآخر يذكر سبباً آخر وكلهم صادق في ذلك، لكن كل واحد يظن أن ذلك نزل بسببه خاصة، مع أنه وقعت ملابسات أخرى، وكان اجتماع ذلك جميعاً هو سبب النزول -والله تعالى أعلم-، ونحن إذا نظرنا إلى ما يتحدث عنه الناس اليوم من الأحداث والوقائع فهذا يضيف هذا إلى نفسه، وهذا يضيفه إلى نفسه، وهذا يضيفه إلى نفسه، أو هذا يضيفه إلى فلان، وهذا يضيفه إلى حادثة أخرى، وهذا يضيفه إلى حادثة أخرى، والحدث واحد، فيمكن أن يكون حصل هذا وهذا وهذا، ولكن كل واحد يظن أنه هو السبب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب الآية (٥٣) إلى الآية (٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال ابن كثير -رحمنا الله وإياه-:

ثم روى البخاري عن أنس بن مالك قال: بنى النبي -صلى الله عليه وسلم- بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسِلْتُ على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا رسول الله، ما أجد أحداً أدعوه، قال: ((ارفعوا طعامكم))، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فانطلق إلى حجرة عائشة -رضي الله عنها-، فقال: ((السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته))، قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك يا رسول الله، بارك الله لك؟ فَتَقَرّى حُجر نسائه كلّهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة، فما أدري آخبرتُه أم أُخبر أن القوم خَرَجُوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّة.

يعني: عتبة الباب.

حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّةِ الباب داخلةً والأخرى خارجة، أَرْخَى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[1]، انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، سوى النسائي في اليوم والليلة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية ترجع إلى أن هذه الآية آية الحجاب، **{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ}** [سورة الأحزاب:٥٣]، أن سبب النزول كان في صبيحة بنائه -صلى الله عليه وسلم- بزينب بنت جحش في السنة الخامسة من الهجرة في شهر ذي القعدة منها، في هذه القصة، وقد مضت أيضاً رواية البخاري عن أنس -رضي الله عنه- قبله، والأسباب الأخرى التي بلغ ما صح منها خمسة، وذكرتُ وجه الجمع بين هذه الروايات، وأن ذلك لا يتأتى فيه القول بأن الآية نزلت أكثر من مرة، وكذا الترجيح أيضاً في هذا المقام قد يكون كذلك، ولكن الجمع يمكن في هذه الصورة، لكن ليس كما في بعض الصور التي يكون الجمع فيها بين الروايات في أسباب النزول له وجه ظاهر لا إشكال فيه، قد ذكرت وجه الإشكال ولا حاجة لإعادته.

فقوله تعالى: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ}: حَظْرٌ على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٥).

الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إياكم والدخول على النساء))[٢] الحديث.

قوله هنا: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} أضاف البيوت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه المالك لها، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٤] أضاف البيوت إليهن، وكذلك في قوله في سورة الطلاق: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١]، فأضاف البيوت إليهن، وذلك أن الإضافة إليهن باعتبار أنهن الساكنات المنتفعات بها، وأما هنا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو صاحبها ومالكها فأضافها إليه.

ثم استثنى من ذلك فقال: {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحينين نضجه واستواءه.

{إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ}، إلى طعام، يؤذن إلى، فعدي فعل الإذن "يؤذن" بإلى، بتضمين معنى الدعاء، يعني فعل الإذن هنا "يؤذن" مضمن معنى فعل آخر، مضمن معنى الدعاء، {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} يعني: تُدعون إلى، فإن فعل الدعاء يعدى بإلى، وأما الإذن يقال: أذن بكذا، بالباء، أذن في كذا، وذكرت في مناسبات سابقة أن من النحاة -كما هي طريقة الكوفيين- من يقول بتضمين الحرف -يعني حرف الجر- معنى الحرف، فيقول: إن مثلاً هنا: "إلى" مضمن معنى "في" أو الباء، مع أن تضمين الفعل معنى الفعل أولى وأكمل، وفيه تكثير المعاني، {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ}، ففعل الإذن هنا مضمن معنى الدعاء، والله تعالى أعلم.

قال: {إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}، فذكر شرطين، {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ} بإذن، {إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ} تُدعون إلى طعام {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} يعني: غير ناظرين نضجه، فكان من الناس من يبكر في المجيء قبل نضج الطعام، فيطيل المكث، حتى يكون نضج الطعام، ثم بعض الناس مَن يجلس بعده يتحدث، {وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}، فكان ذلك يشق على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخفف الله عنه، فأدبهم بهذا الأدب، أن يأتوا وقت نضج الطعام، ولا يبكروا قبل ذلك فيطول المجلس على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإذا طعموا انتشروا، ذهبوا، **قال مجاهد وقتادة وغيرهما: غير متحينين نضجه واستواءه**، أي: لا ترقُبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء.

أي: لا ترقُبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه، وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضَّيْفَن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

قوله: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}، إناه: مصدر، أنى الشيء، إناه، {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} فمعنى ذلك تقول: أنى الشيء إذا أدرك وصار إلى حال النضج، {غَيْرَ نَاظِرِينَ} يعني: غير منتظرين نضجه، وقال هنا: وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضَّيْفَن، الضَّيفَن غير الضيف، الضَّيفن: هو الذي يأتي مع الضيف من غير دعوة، والمشروع في حق هذا أن يستأذن، فإذا جاء أحد من الضيوف بآخر معه، فإنه يستأذن

---

٢ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، برقم (٤٩٣٤)، ومسلم، كتاب السلام باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، برقم (٢١٧٢).

صاحب الوليمة، فيقول: هذا صحبني، أتأذن له؟، فكان من الناس عند العرب من يأتي من غير دعوة ويتطفل، وذكر هنا أن الخطيب البغدادي له كتاب، وهو مطبوع في التطفل والتطفيل، وذكْر أخبار الطفيليين، وهم الذين يأتون من غير دعوة، وهذا أمر لا يليق ولا يحسن ولا يجمل، وهو من أسباب الاستثقال، استثقال هذا القادم؛ لأنه ما دُعي، فلا يحسن أن يكون مثل هذا، حتى في المناسبات الكبيرة العامة، يأتي أحد من غير دعوة، ما دُعي ويأتي، ولا زال هذا الأمر إلى اليوم، يعني يوجد من الناس من يذهب وهو لا يعرف هؤلاء، في نهاية الأسبوع يذهب إلى صالات الأفراح، وبعض النساء تفعل هذا، لأغراض شتى، بعضهم من أجل الطعام، يقول: في كل أسبوع أعتبر هذا بالنسبة لي أجازة وتغييراً، هذا واقع موجود، من الناس من يفعل هذا، ويتهيأ ويلبس، وكأنه أحد المدعوين، فهذا لا يجوز، وبعضهم قد يذهب للأنس والترويح والفرجة، يحب مجامع الناس والمناسبات، وقد يجد أحداً يعرفه، ومن النساء من تذهب -كما تعبر- من أجل أن تُوفق، تقصد بذلك أن يراها أحد فتُخطب، وبعض النساء تأخذ البنات إلى هذه المناسبات من غير دعوة، تأمر بناتها بأن يلبسن ويتهيأن فتذهب بهن هنا وهنا، لعل أحداً يراهن فيتزوجن، فهذا لا يليق، والناس في هذا على مراتب، وبعض الشر أهون من بعض، وإلا فيوجد صور أسوأ من هذا، مثل: من الناس من يذهب إلى بعض الأماكن التي يأتيها الأثرياء والكبراء في بعض البلاد في المنتجعات، في بلاد أوروبية وغير أوروبية، يأتون الأماكن التي يغشاها هؤلاء الكبراء، فيأتون بالبنت في أبهى زينة تأكل في هذا المطعم، تشتري بمالها، قد يكون قيمة هذا الطعام الذي تأكل منه، لربما جمعوه لمدة عام؛ لارتفاع الأسعار، لعل وعسى أن يراها فلان فيتزوجها ولو لأيام، ولو لليلة، فتحظى بزعمهم بسعادة الدهر، يغمرها بالأموال فيغتنون، ولو طلقها من ليلته، هذا موجود، فيوجد بعض البشر أو من هم في مسلاخ البشر يفعلون هذا، -نسأل الله العافية-، والهبوط ليس له حد، لكن يقول هنا: **هذا دليل على تحريم التطفيل،** {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}، والتطفل والتطفيل وأخبار هؤلاء والتأديب الذي أدب الله -عز وجل- به، كما قال بعض السلف مثل حماد بن زيد أن هذه الآية في الثقلاء، وبعضهم كإسماعيل بن أبي حكيم يقول: هذا أدبٌ أدّب الله به الثقلاء، وكذلك جاء عن ابن أبي عائشة: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم، والحديث عن الثقلاء ذو شجون، ولولا أن الوقت لا يسعف لتحدثت عن هذا الموضوع الذي تشير إليه الآية، وذكرت أشياء من كلام أهل العلم في الثقلاء، كما قيل: إن الثقلاء حُمّى الروح، وهذا صحيح، وبعض السلف يقول: إنها حُمى بين الجلدين، وبعضهم يقول: إنها سخونة العين، يعني: حينما تنظر إلى الثقلاء، ولا شك أنه عذاب.

وجاء أحدهم إلى الأعمش فقال: بلغَنا أن من أصيب في عينيه عوضه الله -عز وجل-، فقال: فماذا عوضك؟ قال: عوضني ألا أرى الثقلاء وأنت منهم.

فهذا البلاء على نوعين، ولعله يأتي حديث مفصل عنه -إن شاء الله-؛ حتى لا يذهب الوقت، لكن هذا البلاء على نوعين، يبدو أنه جِبلّي، خِلقة، فيكون الإنسان ثقيلاً على النفوس من غير كسب منه، هكذا خِلقته وطبيعته، ونوع آخر كسبي، وحاصل ذلك يرجع إلى أن يكون الإنسان يزاول أموراً وتصدر منه تصرفات ينفر منها الناس، فيُعرف بهذا، وتكثر منه هذه المزاولات إما بكثرة التردد على الناس في بيوتهم وإطالة المكث عندهم من غير حاجة، فإذا جاء عرف أنه ما يقوم، فلربما يعني خرجوا من طورهم، فإذا جاء

استثقلوه، وأحياناً يكون الاستثقال بسبب ما يصدر منه من أمور يكرهونها أيًّا كانت، مثل الذي لا يُرى ولا تقابله إلا وينتقد أو يطالب، إما أن ينتقد وإما يطلب أو يعاتب، لا تلقاه إلا بإحدى ثلاث فيُستثقل، ومنهم من يستثقل لسبب آخر وهو أنه يكون كَلًّا على الآخرين، أو أنك لا تراه إلا وتعلم أنه جاءك بخبر يسوءك، حمّال للأخبار السيئة، فلان يقول كذا، فلان يقول عنك كذا، وما إلى ذلك من الأمور، حصل من فلان كذا، فإذا رأيته عرفت أنه يحمل خبراً لا يسر، فيُستثقل، ولشيخ الإسلام وغير شيخ الإسلام كلام في الثقلاء كثير، وتوجد كتب خاصة في الثقلاء، والله المستعان.

ثم قال تعالى: {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا}، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرساً كان أو غيره))[٣]؛ ولهذا قال: {وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} أي: كما وقع لأولائك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قوله هنا: {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا}، لكن إذا علم أن صاحب الدار يرغب بجلوس هؤلاء الضيوف فلا إشكال، فيكون ذلك مستثنى.

كما قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ}.

وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه -عليه السلام-، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

يعني إذا كان هذا في أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمخاطب بذلك الصحابة، وهن أمهات المؤمنين، ولا يجوز لأحد أن يتزوجهن بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك الله -عز وجل- يقول: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، ويعلل ذلك بقوله: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} للطرفين، فكيف بمن بعدهم؟ فكيف بزماننا هذا، مع كثير من التبذل والتبرج والتغنج والخضوع بالقول، وإظهار الزينة، حتى تحول الحجاب إلى نوع فتنة في الغالب لدى كثير من النساء، ثم يقال: الاختلاط لا بأس به! هذا في أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، والعجيب أن بعضهم يحتج بهذه الآية أن هذا خاص بأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإذا كانت العلة مذكورة منصوصة هنا: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} إذاً غير أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- من باب أولى، ومن جاء بعد الصحابة من باب أولى، خاصة إذا كثر في الناس الشر والانحراف، ففي تلك البيئات المختلطة لا تكاد المرأة تسلم، -والله المستعان-، والذين يزعمون أن ذلك بسبب الكبت لفصل الرجال عن النساء، نقول: هؤلاء كذبوا؛ لأن المجتمعات الغربية لا يوجد فيها هذا

---

٣ - رواه مسلم، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، برقم (١٤٢٩).

الكبت بل الانفلات، ومع ذلك جرائم الاغتصاب عندهم لا تعد بالشهور والأيام، بل تعد بالثواني في الإحصاءات التي تصدر منهم، والآن بدءوا يفصلون المدارس منذ الروضة والابتدائي، والحكومة الأمريكية تدعم مدارس البنات التي تنفصل عن مدارس البنين، ورأوا أثر ذلك في النتائج والتحصيل، ودراسات هؤلاء تثبت هذا الكلام، وأظن أنه لا يخفى على أحد، فمعلوم أن المرأة هي محل الاستمتاع بالنسبة للرجل شاء أم أبى، هكذا ركبها الله -عز وجل- وخلقها، وجعل فيه هذا الميل الغريزي إليها، فإذا وضع معها في مكان واحد فإن ذلك يؤذن بشر مستطير، ولا يمكن أن تضع الذئاب مع الغنم وتقول: الكبت هو الذي سبب هذا الافتراس.

وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} [سورة الأحزاب:٥٣].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} **قال: نزلت في رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك.**

هذا لا يصح، والروايات التي جاءت في أن طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- نزلت فيه، وأنه قال ذلك، كل هذا لا يصح، قال: **وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.** هذه كلها مراسيل، قال: **وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك،** وهذا أيضاً لا يصح، لا يصح من هذا شيء، لكن الله -عز وجل- يشرع للأمة، ويبين أنه يحرم تزوج نسائه -صلى الله عليه وسلم- من بعده، وأهل العلم اختلفوا في من طلقها النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل الدخول، هل يجوز التزوج بها أو لا، مضى الكلام عند قوله: {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [سورة الأحزاب:٢٨] باعتبار أن المراد هنا الطلاق.

وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، -رضي الله عنه- حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم.

وقد عظم الله -تبارك وتعالى- ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}**، ثم قال:** {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٥٤] **أي: مهما تكنّه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية،** {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} **[سورة غافر:١٩].**

{لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} [سورة الأحزاب:٥٥].

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ

أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [سورة النور:٣١]، **وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادتها هاهنا.**

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم**، فيكون رفع الجناح هنا عن الاحتجاب، لما قال: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} بيّن أنه لا يجب الاحتجاب ممن ذكر الله -عز وجل- هنا، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وجاء عن مجاهد: أن المراد وضع الجلابيب، {لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ} يعني: في إبداء الزينة الباطنة، يعني التي يراها الأقارب والمحارم، وهي التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة النور في قوله: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ} الآية، فهنا يقول: **بيّن أن هؤلاء الأجانب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور**، هنا في هذه الآية ذكر بعضاً لم يذكرهم هناك، وهناك ذكر من لم يذكره هنا، وقد مضى الكلام على آية النور، وأن ما ذكر في آية الأحزاب يغني عن أن يكرر وأن يذكر ثانية في سورة النور، وهكذا، فإن الله -تبارك وتعالى- إذا ذكر الحكم في موضع واحد فإن ذلك يكفي، وقد مضى كلام الشعبي -رحمه الله- ومن وافقه بأن الله لم يذكر العم والخال؛ لأنهم يصفونها لأبنائهم، كانوا يرون أن تحتجب منهم، وأن هذا غير صحيح، والصواب قول الجمهور، وأن الله لم يذكر العم والخال؛ لأنه ذكر -تبارك وتعالى- أبناء الإخوة والأخوات وهم بنفس الدرجة في البعد أو القرب منها، فالعم والخال من أعلى وأبناء الإخوة والأخوات من أسفل، بنفس الدرجة، فأغنى هذا عن هذا، والله تعالى أعلم.

روى ابن جرير عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: {لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ} الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قالا: لأنهما ينعتانها لأبنائهما، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

وقوله تعالى: {وَلا نِسَائِهِنَّ}: يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات.

من أهل العلم من أخذ من الإضافة {أَوْ نِسَائِهِنَّ} [سورة النور:٣١] أن المقصود النساء المسلمات، وهذا أخذ به جماعة من السلف، وهذا اختيار القرطبي، وابن كثير، بمعنى أن المرأة الكافرة كالرجل الأجنبي؛ لأنها لا تؤمن عليها من أن تصفها للرجال، هكذا قالوا، والمسألة فيها خلاف معروف، والمقصود أنهم أخذوا ذلك من الإضافة، ما قال: أو النساء، وإنما قال: {أَوْ نِسَائِهِنَّ}، قالوا: المسلمات، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المرأة الكافرة يجوز أن ترى من المرأة المسلمة ما يرى المحارم، وكونها لا تؤمن فكذلك من النساء المسلمات من لا تؤمن بأن تصفها لغيرها، لكن إذا عُلم من أحد ريبة فإنه يُحتجب منه ولو كان من المحارم، وقد يكون هذا من أقرب القرابات، يعني لو أن امرأة ينظر إليها أخوها بنظر ريبة، ويتصرف معها تصرفات لا تليق، فنقول لها: احتجبي منه، وبعض النساء لربما تشكو من أبيها، أو امرأة تشكو زوجها من أنه يتحرش ببناته، فمثل هذا لا يؤمن عليه وهو أبوها، -نسأل الله العافية-، وهكذا العم والخال وبقية المحارم إذا كان لا يؤمن على النساء، والإضافة هنا الأرجح -والله تعالى أعلم- أنها لا تدل على هذا الاختصاص بالمسلمات، وهكذا في قوله: {وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}، قال هنا: يعني به أرقّاءهن، وقال ابن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، وهذا قال به جماعة من السلف، قال: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} بمعنى أن المملوك الرجل يكون كالأجانب

بالنسبة إليها، أن مملوكها يكون كالأجنبي، وأن قوله: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} أن المراد به النساء، والأقرب -والله أعلم- أن ذلك يعم الرجل والمرأة، فالمملوك يجوز له أن يراها إذا كانت تملكه هي، وبعضهم يقول: إن قوله: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} المذكور هنا وفي سورة النور المقصود به الكتابيات، أو المشركات من النساء المملوكات لهن، فهؤلاء تبدي لهم ما تبديه للمحارم، يعني {أَوْ نِسَائِهِنَّ} يعني: المسلمات، {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} من غير المسلمات، فغير المسلمة لا تبدي لها زينتها الباطنة إلا أن تكون مملوكة لها، والأقرب -والله أعلم- أن ذلك لا إشكال فيه سواء كان رجلاً أو امرأة، المقصود أن هؤلاء الأئمة من السلف -رضي الله عنهم- فمن بعدهم، لو قيل للناس اليوم هذا القول الذي اختاره ابن كثير والقرطبي وجماعة من أهل العلم، لو قيل للناس: لا يجوز للمرأة المسلمة أن ترى منها غيرُ المسلمة إلا ما يراه الرجل الأجنبي، لعدوا ذلك غاية التشدد، ولو نظروا في كلام كثير من الأئمة في مثل هذه القضايا لعرفوا أن ما يقوله بعض الناس من أن الفتاوى التي يسمعونها من علمائهم الثقات الكبار في هذه البلاد أن هذا فيه كثير من التيسير، وإذا نظرت إلى كلام أهل العلم كالشافعي ومالك وأمثال هؤلاء الكبار في مسائل تتعلق بالخلوة بالنساء، وبما تزول الخلوة، بما ترتفع وما إلى ذلك لربما لو سمع الناس هذا اليوم لقالوا: هذا لا يمكن، فالعامة لا يصح أن يحكموا على أهل العلم بأن فلاناً متشدد، أو أن فلاناً متساهل، أو أن فلاناً معتدل، وهم لا يملكون الآلة التي يقيّمون فيها ويحكمون على الفتاوى؛ لأنهم ليس عندهم أصلاً من آلة الاستنباط والفهم ما يؤهلهم لئن يكونوا حاكمين على كلام أهل العلم.

وقوله تعالى: {وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} يعني به: أرقّاءَهن.

قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به: الإماء فقط، رواه ابن أبي حاتم.

يعني به الإماء فقط، يعني قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لا يحتاج أن يذكر، فيقولون: الإماء غير المسلمات، باعتبار أنه ذكر قبله، قال: {وَلا نِسَائِهِنَّ} فخصوه بالمسلمات، قال: {وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} يعني: من غير المسلمات، على قول هؤلاء.

وقوله تعالى: {وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبْنَ الرقيب.

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب:٥٦].

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون: يبرّكون. هكذا علقه البخاري عنهما[٤].

وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار.

مضى الكلام على هذا **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** [سورة الأحزاب:٤٣]، والكلام على معنى الصلاة من الله أن يذكر عبده في الملأ الأعلى، وأن صلاة الملائكة بمعنى

---

٤ - صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب (١٨٠١/٤).

الاستغفار، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الشورى:٥]، وأن صلاة المؤمنين بمعنى الدعاء، وعبارات السلف في هذا متقاربة، وهذا الذي ذكرته آنفاً هو الذي نصره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وأطال في تقريره.

وقوله هنا: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}، الضمير في {يُصَلُّونَ} إذا قلنا: إنه يعود على الله وعلى ملائكته {يُصَلُّونَ} فيرد هنا سؤال وهو: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الخطيب الذي قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما، فأعاد الضمير عليهما، على الله وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بئس خطيب القوم أنت))[٥]، وكثير من أهل العلم يقولون: لأنه وحد الضمير، وكان اللائق أن يقول: ومن يعص الله ورسوله.

فيرد السؤال هنا: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ}؟ فبعض أهل العلم يقول: إنه على تقدير محذوف، إن الله يصلي وملائكته يصلون، هذا إذا قلنا: إنه يعود إلى الله والملائكة، يصلون.

وبعضهم يقول في الجواب: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنكره -أي توحيد الخطيب للضمير- وذلك أنه يكون منكراً إذا صدر من المخلوق؛ لأنه لا يكون متأدباً مع الله -تبارك وتعالى- الأدب اللائق، وأما إذا صدر من الله فهذا لا إشكال فيه، وبعضهم يقول: إنما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال: لأنه وقف في موضع لا يحسن فيه الوقف، قال: ومن يعصهما، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما، يعني كأنه متعلق بما قبله: ومن يعصهما أيضاً فقد رشد، قالوا: من أجل الوقف، وإلا فلا إشكال في عود الضمير على ما قبله إذا ذكر الله وذكر الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، أو ذكر الله وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا أيضاً مثال {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ}، لما كانت صلاة الله -عز وجل- تختلف في المعنى عن صلاة الملائكة، كما سبق، وقد استعمل الفعل فيهما، في المعنيين، فدل على ما قاله الإمام الشافعي -رحمه الله- وغيره، من صحة استعمال المشترك، اللفظ المشترك، في معنييه أو معانيه، وهذا لا إشكال فيه، {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ}، فهذا الفعل بالنسبة لله -عز وجل- له معنى، وبالنسبة للملائكة له معنى، فيكون استُعمل في المعنيين، استعمل بمعنى يعود إلى الله -عز وجل-، وهو أن يذكر عبده في الملأ الأعلى، وفيما يعود إلى الملائكة بالاستغفار.

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها -إن شاء الله تعالى- ما تيسر، والله المستعان.

الحافظ ابن كثير ذكر هنا طائفة من هذه الأحاديث، وابن القيم -رحمه الله- له كتاب في هذا، ولغيره أيضاً، كَتبَ فيه كثيرون، وضمنه بعضهم في بعض مصنفاته، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح، في المجلد الحادي عشر، تطرق لهذا، وذكر جملة من الأحاديث الصحيحة، وفي الباب أحاديث أخرى غير صحيحة، وإسماعيل القاضي له كتاب مطبوع جيد في هذا الموضوع، في فضل الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٧٠).

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أمّا السلام عليك فَقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: ((قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد))[٦].

وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا -أو عرفنا- كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: ((قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد))[٧].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق متعددة.

حديث آخر: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام فكيف نصلي عليك؟: قال: ((قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم))[٨]، قال أبو صالح، عن الليث: "على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم".

حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والدّرَاوَرْدي...

الدراوردي سكن المدينة فكان إذا استأذن عليه أحد أجابه بكلمة في أصلها أعجمية، أندرون، والناس الآن يقولون: اندر، لكن يستعلمونها عكس المعنى، هو يقول: أدخل؟، تقول له: أندرون، فبعض الناس اليوم يستعملها بمعنى اخرج، اندر، فقيل له: الدراوردي لهذا.

حدثنا ابن أبي حازم والدّراوردي عن يزيد بن الهاد قال: ((كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم))[٩]، وأخرجه النسائي وابن ماجه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: ((قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد))[١٠]، وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذي.

حديث آخر: روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونحن في مجلس سعد بن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى تمنينا أنه لم يسأله.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٥٩٩٦)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، برقم (٤٠٦).

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨١٠٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥٢٠).

٩ - رواه النسائي، كتاب السهو، برقم (١٢٨٨)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٩٠٣).

١٠ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٦٠٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

يعني ظنوا أنه كره السؤال.

ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد عَلِمْتُم))[11].

يعني: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، التشهد.

وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي وابن جرير، وقال الترمذي: حسن صحيح.

يعني هذه الصفات الآن الواردة وهي كلها صحيحة ينوعها المصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كذا فيما يقوله بعد التشهد، فإنه يأتي بهذا تارة وبهذا تارة، على سبيل الاستقلال، دون تكرار، ومن غير تلفيق، يعني لا يذكر هذا ثم يذكر بعده الآخر، والآخر، ويقول: أنا سأطيل في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، ويأتي بهذه الصيغ في صلاة واحدة، فهذا غير مشروع، وما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعله، وكذلك من غير تلفيق، لو أراد أحد أن يأتي بصيغة يكملها من مجموع الروايات، صيغة واحدة، يأخذ هذه الجملة التي ما وجدت في هذا الحديث، ويأخذ الجملة الأخرى من حديث آخر، حتى يأتي بصيغة مطولة، فيقال: هذا غير صحيح، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يوردها هذا الإيراد، وإنما المشروع أن يأتي بهذا تارة وهذا تارة، مثل هذه الصيغ الواردة من أنواع الاستفتاح في الصلاة، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، صيغ التشهدات، صيغ الأذان، صيغ الإقامة، كل ذلك الأفضل أن ينوع، يأتي بهذا تارة وهذا تارة، وأنه قد يكون أفضل في بعض الأحوال أو لبعض الأشخاص، يعني العمل المفضول، أو بعض هذه الأنواع قد تكون أفضل من غيرها لبعض المكلفين، هذا من حيث أصل المسألة الذي هو التنوع، لا هذا المثال المعين في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله أعلم، هذا حتى في الأمور العملية الأخرى غير القولية، مثل صيغ الوتر، كونه يوتر بثلاث أو بخمس مثلاً، أو يوتر بركعة منفردة، ويصلي قبلها مثنى مثنى، وهكذا فعل القنوت أحياناً، وترك القنوت أحياناً في الوتر، وهكذا فيما يتصل بقضايا عملية متنوعة، النبي -صلى الله عليه وسلم- فعل هذا تارة وفعل هذا تارة، فالتنويع هو اتباع السنة، ولكنه قد يكون أفضل في بعض الأحوال أو لبعض الأشخاص إحدى هذه الصور، صلاة الخوف مثلاً لها أكثر من صورة، فقد تكون في بعض الحالات بعض الصور أفضل؛ لأن ذلك آمن لهؤلاء المقاتلين، وقد يكون المكلف إنما يحسن هذا النوع من العبادات، أو أن ذلك هو أصلح لقلبه مثلاً، فيلازمه أكثر من غيره، يجد أن قلبه يكون حاضراً معه، وهكذا في الأعمال الصالحة المتنوعة، يعني مثل القراءة في المصحف والقراءة عن ظهر قلب، أيهما أفضل؟ فهذا مما ينظر فيه إلى حال المكلف، فمن الناس من يجد قلبه عند القراءة نظراً، فيجتمع له نظر العين مع حضور القلب، ومن الناس من يكون حضور القلب بالنسبة إليه في الصلاة، فتكون القراءة في الصلاة أفضل وأكمل، ومن الناس من يكون حضور قلبه خارج الصلاة، فيكون

---

١١ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، برقم (٤٠٥).

ذلك أفضل من الاشتغال بكثرة التطوع في الصلاة من غير حضور قلب، فكونه يقرأ القرآن مع خشوع وحضور قلب خارج الصلاة أفضل، وهكذا.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن فضالة بن عبيد -رضي الله عنه- قال: سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجد الله ولم يصل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عَجِل هذا))، ثم دعاه فقال له ولغيره: ((إذا صلى أحدكم...))

((إذا صلى)) يعني: إذا دعا.

((.. فليبدأ بتحميد الله -عز وجل-، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليدعُ بعدُ بما شاء))[١٢].

حديث آخر: روى الترمذي عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: ((يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه))، قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ((ما شئت))، قلت: الربع؟**

يعني: كم أجعل لك من صلاتي، يعني: من دعائي، يعني هل أجعل لك نصف دعائي أو أجعل لك ربع دعائي، وليس المقصود الصلاة ذات الركوع والسجود، أصلي عليك: أدعو لك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقول المصلي: اللهم صل على محمد هذا دعاء.

قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ((ما شئت)) قلت: الربع؟ قال: ((ما شئت، فإن زدت فهو خير لك))، قلت: فالنصف؟ قال: ((ما شئت، فإن زدت فهو خير لك)). قلت: فالثلثين؟ قال: ((ما شئت، فإن زدت فهو خير لك))، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: ((إذن تُكفى همّك، ويغفر لك ذنبك))[١٣].

قوله: **((تُكفى همك ويغفر له ذنبك))**، يكفي في بيان شرف وفضل الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن ليس المقصود به الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود، فإن الإنسان يصلي لله -عز وجل-، وليس المقصود إهداء الثواب -ثواب الصلاة- للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُشرع أن يهدى له ثواب الأعمال التي نعملها؛ لأن كل ما نعمله فله من الأجر مثل أجور العاملين؛ لأنه هو الذي دلنا على هذا وهدانا وأرشدنا إليه.

ثم قال: هذا حديث حسن.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي طلحة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء ذات يوم، والسرور يُرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: ((إنه أتاني الملك فقال:**

---

١٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٩٣٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٢٧٠٣)، وابن حبان في صحيحه، برقم (١٩٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٤٨).

١٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٥٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٤).

يا محمد، أما يرضيك أن ربك -عز وجل-، يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صلَّيت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً؟ قال: بلى))[١٤]، رواه النسائي.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما طيب النفس، يُرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يُرى في وجهك البشر، قال: ((أجل، أتاني آتٍ من ربي، -عز وجل-، فقال: مَنْ صلى عليك من أمتك صلاة، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها))[١٥]، وهذا أيضا إسناد جيد، ولم يخرجوه.

حديث آخر: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً))[١٦]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن الحسين بن علي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((البخيل من ذُكرت عنده، ثم لم يصل عليّ))، وقال أبو سعيد: ((فلم يصل علي))[١٧].

ورواه الترمذي ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

حديث آخر: روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رغِم أَنف رجل ذُكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة))[١٨]، ثم قال: حسن غريب.

---

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٣٦٣)، وقال محققوه: "حسن لغيره"، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١٢١٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٢٩).

١٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٣٥٢)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٤٧٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧).

١٦ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم (٣٨٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن، برقم (٥٢٣)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٤).

١٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٧٣٦)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الصحيح غيرَ عبد الله بن علي بن حسين، فمن رجال الترمذي والنسائي، روى عنه جمع، ووثقه ابنُ حبان وابن خلفون والذهبي، وقول الحافظ عنه في"التقريب": مقبول: غيرُ مقبول. أبو سعيد: هو عبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم"، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٠١٥)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٩٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٨٧٨).

١٨ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رغم أنف رجل، برقم (٣٥٤٥)، وأحمد في المسند، برقم (٧٤٥١)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٩٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٥١٠).

قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة فمنه: بعد النداء للصلاة؛ للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة))[19]. وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه، للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: ((اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك))، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: ((اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك))[20].

ومن ذلك الصلاة عليه -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية أن يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

على خلاف في الرابعة ماذا يقول، هل يقال شيء أو يسكت؟

روى الشافعي -رحمه الله- عن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات، لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه.

قال: **السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-**، يعني في التكبيرة الثانية، **ويخلص الدعاء للجنازة** يعني في التكبيرة الثالثة، لاحظْ هنا، قال: **وفي التكبيرات، لا يقرأ في شيء،** الواو هذه زائدة، وهي تشكل في المعنى، الواو زائدة، وإنما هو: **في التكبيرات، لا يقرأ في شيء منها،** يعني: ويخلص الدعاء للجنازة في التكبيرات، لا يقرأ في شيء منها، **ثم يسلم سراً،** يعني في التكبيرات الأخرى، بعد التكبيرة الأولى، يقرأ الفاتحة، ثم في الثانية يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي الثالثة يدعو للميت، لا يقرأ في شيء

---

١٩ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم (٣٨٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن، برقم (٥٢٣)، والنسائي، كتاب الأذان، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الأذان، برقم (٦٧٨)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٤)، وأحمد في المسند، برقم (٦٥٦٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦١٣).

٢٠ - رواه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد، برقم (٣١٤)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، برقم (٧٧١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٦٤١٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، برقم (٧٧١).

منها، يعني في التكبيرة الثانية ما يقرأ سورة بعد الفاتحة مثلاً، إنما هو الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- والدعاء للميت.

ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح.

ومن ذلك: أنه يُستحبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه -صلى الله عليه وسلم-، روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد حتى تصلي على نبيك[٢١].

ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً.

الحديث فيه ضعف، والشيخ الألباني -رحمه الله- ضعف الموقوف، ثم حسنه في بعض كتبه المتأخرة، في إسناده المرفوع والموقوف أبو قرة وهو مجهول.

ومن آكد ذلك: دعاء القنوت، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وابن خزيمة، وابن حبَّان، والحاكم عن الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، قال: علَّمَني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كلمات أقولهن في الوتر: ((اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يَذِلّ من واليت، تباركت ربنا وتعاليت))[٢٢].

وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على محمد[٢٣].

هذه الزيادة لا تصح، وأما ما قبلها فثابت يقال في الوتر، ومن أهل العلم من يرى أنه يقتصر عليه.

ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة، روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مِن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ))، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرمْتَ؟ يعني: وقد بليتَ، قال: ((إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء))[٢٤].

---

٢١ - رواه الترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٨٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣٥).

٢٢ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب القنوت في الوتر، برقم (١٤٢٥)، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الأمر بالوتر قبل الصبح، برقم (١٧٤٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٨)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٩٤٥)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٠٩٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٢٨١).

٢٣ - رواه النسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الأمر بالوتر قبل الصبح، برقم (١٧٤٦)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (٤٣١)، وقال الألباني في تمام المنة (٢٤٣): "هذه الزيادة في آخره ضعيفة لا تثبت كما قال الحافظ ابن حجر والقسطلاني والزرقاني، وفي سندها جهالة وانقطاع".

٢٤ - رواه النسائي، كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة، برقم (١٣٧٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، برقم (١٠٨٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٦١٦٢)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٠٢٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٧٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٥٢٧)، وفي صحيح الجامع، برقم (٢٢١٢).

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في الأذكار.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحزاب الآية (٥٧) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله ومن اهتدى بهداه، وبعد.

يقول ابن كثير -رحمنا الله وإياه- في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [سورة الأحزاب:٥٧-٥٨].

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً مَنْ آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو تنقص، عياذاً بالله من ذلك.

قال عِكْرِمة في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}: نزلت في المصوّرين.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله -عز وجل-: يؤذيني ابن آدم، يَسُبّ الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره))[١].

ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله -عز وجل-، فنهى عن ذلك.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: {يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}: نزلت في الذين طعنوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في تزويجه صفية بنت حُيَيّ بن أخطب.

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله: قال عكرمة: إن الآية نزلت في المصورين {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} بمعنى: أنهم يضاهئون بخلق الله -عز وجل-، فهذا تعدٍّ عليه، وعلى شيء من خصائصه، وذلك أن من أسمائه -تبارك وتعالى- المصور، فليس لأحد أن يتعدى ذلك ليجترئ عليه، وهذا التفسير هو من قبيل التفسير بالمثال، يعني أن أذيّة الله -عز وجل- يدخل فيها كل ما يصدق عليه أنه أذى، فقوله -تبارك وتعالى- في الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر))، فهذا من أذيته -جل جلاله-، وهكذا من تعدى على شيء من خصائصه فهو كذلك، ومعلوم أن الأذى غير الضرر، ((إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني))[٢]، فالخلق أضعف من أن يوصلوا الضرر إلى الله -عز وجل-، وأما الأذى فإنه غير الضرر، الأذى دون

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم (الجاثية)، برقم (٤٥٤٩)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، برقم (٢٢٤٦).

٢ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

الضرر، يمكن للمخلوق أن يوصل الأذى إلى الله -عز وجل- كأن يسب الدهر ونحو ذلك؛ ولهذا قال: ((يؤذني ابن آدم))، والله -عز وجل- يقول: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [سورة آل عمران:١١١].

وقول من قال: إن سب الدهر هو الأذى، إلى آخره، هذا كله مما يدخل فيه، من سماه بغير أسمائه، أو وصفه بما لا يليق، أو أشرك معه غيره، أو حرف أسماءه -معاني الأسماء والصفات- فهو داخل في هذا.

وبالنسبة لأذية الله، وأذية النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي ذكره بعده عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، فيدخل فيه جميع أنواع الأذى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله -عز وجل-: {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [سورة التوبة:٥٨]، وكذلك مَن قال: {هُوَ أُذُنٌ} [سورة التوبة:٦١]، يسمع من جاءه ويقبل قوله، وكذلك في أذية المنافقين فيما يتعلق بقصة زيد وهي متصلة بهذا الموضوع، في تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- من زينب، وجاءت هذه الأمور متتابعة، وكذلك أيضاً لما لمزه من لمزه من قسْم الغنائم، قال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله أخي موسى -عليه الصلاة والسلام- فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر))[٣]، فكل هذا من الأذى، {يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، {فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} وهذا هو البهت الكبير، أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومِن أكثر مَنْ يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله -عز وجل-، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدا، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين.

في قوله: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}، قيده بهذا القيد {بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}، وفي أذية الله ورسوله لم يذكر هذا القيد، والسبب في هذا ظاهر، وهو أن أذية الله -عز وجل-، وأذية النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن تكون بوجه من الحق، وأما أذية المؤمنين فقد تكون على سبيل المقابلة والمقاصة والانتصار ممن ظلمه وآذاه، فقيدها بهذا القيد، {بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} يعني: بيناً ظاهراً، وهذه الأذية أيضاً -كما يقال فيما قبله- عامة، يصدق فيها الأذى بالقول والأذى بالفعل.

وروى أبو داود عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: ((ذكرُكَ أخاك بما يكره))، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه))[٤]، وهكذا رواه الترمذي ثم قال: حسن صحيح.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الخمس، باب ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، برقم (٢٩٨١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦٢).

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، برقم (٢٥٨٩).

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} [سورة الأحزاب:٥٩-٦٢].

لما نهى الله -عز وجل- وحذر من أذيته وأذية رسوله وأذية المؤمنين أمر الله -تبارك وتعالى- بعض من يلحقهم الأذى بترك أسبابه الموصلة إليه، يعني في المرأة لربما يطالها أذى كثير من بهت، وقذف، وأذى بألوان مختلفة، فأمر الله -عز وجل- بالحجاب والحشمة والتستر لهذا.

يقول تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم تسليماً- أن يأمر النساء المؤمنات -خاصة أزواجه وبناته لشرفهن- بأن يدنين عليهن من جلابيبهن؛ ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب هو: الرداء فوق الخمار، قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخرساني، وغير واحد، وهو بمنزلة الإزار اليوم.

قال الجوهري: الجلباب: الملحفة.

الملحفة: الرداء فوق الخمار، يعني بمنزلة العباءة التي تلبسها المرأة، فالخمار وحده لا يكفي، هذا الذي يسميه بعضهم: الحجاب، تضع شيئاً على رأسها ثم تظهر بعد ذلك بملابس لربما لا تستر، تلبس بنطالاً ونحو ذلك وتذهب إلى الجامعة، وعلى رأسها شيء تغطيه به، فهذا لا يكفي، وليس بحجاب شرعي، فهو الرداء فوق الخمار، وهذا شيء معروف حتى عند أهل الجاهلية، أن المرأة لا تخرج هكذا، كما تخرج كثير من النساء اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، فهذا لا يعرف حتى عند الجاهليين، وإنما غاية ما ذكر أنها قد تبدي شيئاً من نحرها، يعني: تضع ذلك على رأسها، ثم بعد ذلك لا تشده فيبدو موضع القلادة ونحو ذلك، فهذا تبرج الجاهلية الذي فسر به ذلك الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فالشاهد أن الجلباب كان يعرفه أهل الجاهلية، ولما جاء الإسلام زاد ذلك تقريراً وتأكيداً إذ هو من الستر والحشمة، ومما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا يعرفونه قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثيه، في مرثيتها التي قالت في ضمن ما قالت فيها:

تمشي النُّسورُ إليه وهي لاهيةٌ *** مشْيَ العذارى عليهنّ الجلابيبُ

فتمشي العذراء عليها الجلباب، مثل النسر إذا كان يمشي بأجنحته، فهي تصف أخاها وهو طريح قتيل وتأتيه النسور تمشي إليه مشي العذارى عليهن الجلابيب، فكانوا يعرفون مثل هذا، خلافاً لمن يقول: إن هذه بدعة وإن هذا لا يعرف، أو إن هذه عادات وتقاليد، فالله -عز وجل- يقول: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، الجلباب: هو الرداء فوق الخمار، وهو بمعنى قول الجوهري: الجلباب: الملحفة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة.

وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السّلماني عن قول الله -عز وجل-: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى.

هذا قال به ابن عون، فهذا من ابن عباس -رضي الله عنهما- وابن سيرين وابن عون، كله محمول على تغطية الوجه، وهذا فيه رد على من يقول: إن تغطية الوجه لا تعرف، وإنها محدثة، وإنه لا أصل لها، فهذا

الكلام غير صحيح، بل ذلك معلوم مشهور، والدلائل عليه كثيرة جداً، ولا يُعرف أن امرأة مسلمة كانت تكشف وجهها في مشارق الأرض ومغاربها قبل مجيء الاستعمار، هذا لا يعرف، والعلماء -رحمهم الله- في مضامين كلامهم وفي رحلاتهم حينما يأتون بلداً أو يصفون الحال في البلد التي يمرون عليها يذكرون أشياء من هذا القبيل، فمنهم من يقول: ما رأيت امرأة قط أصلاً، يقول: ما رأيت النساء، كأن البلد ليس فيه نساء، ولما جاء الاستعمار الفرنسي إلى مصر كان الناس يتعجبون من النساء الفرنسيات، ومن جرأتهن، ولما جاءت الدعوة إلى ما يسمى بتحرير المرأة ذهب ثماني نسوة إلى أوروبا بلا محرم لأول مرة، كان خمس يغطين وجوههن، من دعاة تحرير المرأة، وثلاث كاشفات، فكان الغربيون يقولون: إن الثلاث مستعارات، استعارتهن مصر ولسن من المصريات، لا يصدقون أن امرأة مسلمة تكشف وجهها، وتجدون في كتاب جيد اسمه "هل يكذب التاريخ"، ذكر فيه صوراً قديمة لنساء من البوسنة إلى المغرب، صور لا توجد امرأة تكشف وجهها، وحجاب لا يمكن أن يقارن بالحجاب الذي عندنا اليوم في هيئته وصورته، والمرأة أبعد ما تكون عن الفتنة، لكن لما جاء الاستعمار حصل العبث، والذين أبقوا الحجاب كثير منهم حولوه إلى فتنة، لربما تفوق فتنة من نزعوا الحجاب، وهو لون من التبرج، وللأسف الشيطان لا يترك أحداً، فيأتي إلى من يتحجبن فيحول حجابهن إلى فتنة إلا من رحم الله -عز وجل-، ويأتي لأهل الصلاح ويُسمعهم السماع المحرم ويسميه نشيداً، وهكذا، فالمقصود أن هذا الكتاب هو في غاية الفائدة، فهو يرد رداً بليغاً على الذين يكابرون في هذه القضية، يقال لهم: هذه الصور، لا تقرأ، تصفح فقط، حتى تعرف الحالة التي كان عليها الناس قبل الاستعمار، وتعرفون ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- في بلاد الشام، لما خرجت وكيلة مدرسة قد أبدت وجهها فقط، فأقفل الناس الأسواق وأضربوا حتى فصلت من عملها، -والله المستعان-، واليوم يأتيك من يقول لك: أصلاً هذه المسألة خلافية، قول الجمهور، أو يقول لك: إن هذا الأمر عادات وتقاليد، مزجنا العادات والتقاليد بالدين، وهذا كله تكذبه الأدلة، ويكذبه واقع الأمة قبل مجيء الاستعمار.

قال: **وأبرز عينه اليسرى**، بمعنى أنها تُخرج العين من أجل أن تنظر، لا أن تخرج ما حولها مع الزينة كالكحل، فإن هذا لون من التبرج، وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، لكن بسند صحيح: أن تشد جلبابها على جبهتها وتتقنع، تشد الجلباب، {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} تشده على جبهتها وتتقنع، والقناع: ما يغطي الوجه.

وجاء عن عمر -رضي الله تعالى عنه-: ما يمنع المرأة المسلمة إذا أرادت أن تخرج أن تلبس من أطمارها أو أطمار جارتها، الأطمار هي الثياب الخلقة البالية، يعني لا تلبس عباءة مزينة أنيقة، والله المستعان.

وقوله: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، "مِن" هذه {مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} يمكن أن تكون تبعيضية، والتبعيض هنا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب، يعني أن الحرة لا تكون متبذلة في درع وخمار كالأمَة، إنما يكون لها جلبابان فأكثر في بيتها، بحيث يكون لها عناية بهذا الأمر، والأمة تخرج بدرع وخمار، الدرع المقصود به الثوب، يعني: تخرج بثوب، ما يسميه العامة اليوم: دراعة، وخمار؛ لأن شرفها ليس كالحرة، فتخرج بهذه الصفة، أما الحرة فلا، الحرة يحتاط لها ويحترز لها، وتكون في حال من الصيانة

والحشمة أعظم من حال الأمة، لا أن تعكس القضية، ويكون التبذل والتهتك سمة للتحضر والتحرر والتقدم، فهو تحرر من قيود الشريعة، ومن قيود الحشمة والعفاف إلى الابتذال، {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا}، فهذا مما يدعو إليه الشيطان، والله المستعان.

المعنى الثاني: أن ترخي المرأة بعض جلبابها الذي عليها على وجهها لتتقنع به؛ حتى تتميز عن الأمة، {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}: تغطي، فتتميز عن الإماء، ولهذا قال بعده: {ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}، قال: أي إذا فعلن ذلك عُرفن أنهن حرائر لسن بإماء ولا عواهر، فإذا كانت لا تحتشم تتبذل فذلك صنيع الإماء أو العاهرات، أما الحرة فلا تكون بهذه المثابة، وبعد هذا لا يحتاج أن يجادل أحد، ويقول: مسألة كشف الوجه لا إشكال فيها، وليست من الدين، وكذلك لون هذا الحجاب، حينما يقال: لماذا السواد؟ نقول: إن عائشة -رضي الله عنها- لما ذكرت نساء الأنصار لما نزل الحجاب قالت: شققن مروطهن، الشاهد أنها قالت: فخرجن كأن على رءوسهن الغربان[٥]، ولا يوجد غراب أبيض أبداً، فالغراب أسود، والسواد في اللباس أبعد عن الألوان المزينة، فتلبس هذا، والمسألة ليست مجرد مناقشة علمية، إنما هو إرجاف بالحجاب وأهله، وأصبحت القضية تضرب من جهات عدة لزعزعته والتشكيك فيه، تارة بتغيير اللون، وتارة بتغيير الهيئة، وتارة بتحويله إلى فتنة، عباءة فرنسية! وما شأن الفرنسيين بالعباءة؟ وهذا من أعجب الأشياء، والنساء لا يتوقفن من السؤال، هؤلاء اللاتي يسألن ما يتوقفن من السؤال، عباءة فراشة، عباءة على الكتف واسعة، عباءة على الرأس إذا وضعتها على الكتف تتكمش، أنا أتأذى من عباءة الرأس، تسقط وتوطأ بالأقدام، وليست سهلة في الحركة ولا عملية، الآن صارت ليست عملية ولا سهلة! مثل كشف الوجه في البداية النقاب، أنا ما أشوف، صاروا ما يشوفون الآن، وصار تحول النقاب إلى هذا العبث الذي نشاهد، ثم صار كشف الوجه، والآن المثقفة هي التي تجلس في الخلف مع السائق لوحدها لربما، ومعها كتاب تقرأ وكاشفة لوجهها، كأنها تقرأ ما شاء الله تفسير ابن جرير أو تفسير ابن كثير، تقرأ مجلة سيئة، أو رواية سيئة، وتبدو أنها امرأة في غاية التحضر والأناقة، وما علموا أن هذا من طاعة الشيطان واتباع ما يمليه من خطواته، وتلاعبه بالنساء، والعتب على الأولياء الذين تساهلوا وفرطوا، فالواحد يرى عرضه بهذه الطريقة ولا يتحرك فيه شيء، والله المستعان.

وقوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ} أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر.

ابن كثير في الشام وليس بحنبلي ولا نجدي ولا فقيه بدوي، كما يحلو لبعضهم أن يعبر، بل هو شافعي في القرن الثامن الهجري.

وقوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك.

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} يعني: الذين يقولون: "جاء الأعداء" و"جاءت الحروب"، وهو كذب وافتراء.

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب في قول الله تعالى: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، برقم (٤١٠١)، وصححه الألباني في كتاب جلباب المرأة المسلمة، (ص٨٣).

والارتباط بين هذه الآية والتي قبلها ظاهر، لما ذكر الله -عز وجل- أمْر بالحجاب قال: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ}، قبله نهى عن الأذية، {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}، ثم ذكر الحساب، ثم بعد ذلك، قال: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ}، فوجه الارتباط ظاهر وهو ما يعرف بالمناسبة، فالذين يطعنون في الحجاب، ويقعون في المحجبات، تارة بالسخرية، وتارة برميهن بأقبح الأوصاف، كالذين يقولون: هذه التي تتحجب امرأة غير نزيهة، فهي لأنها تقوم بأعمال مشينة تريد أن لا تعرف، وهذا مما يلقيه الشيطان على ألسن أوليائه، فلربما يستفز بعض النساء في بعض البلاد حينما يسمعن ذلك، ولربما يقال لبعضهن: إن المرأة إذا كانت قبيحة فإنها تغطي وجهها؛ لتستفز الضعيفة، فتبدي زينتها ومفاتنها؛ لتثبت لهم خلاف ما يقولون.

وهنا {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ}، فمن الأنواع الداخلة تحت العموم، {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}، الأشياء الداخلة تحت العموم على ثلاث مراتب من حيث القوة -قوة الدخول-:

المرتبة الأولى: وهي أقوى ذلك ما يسمى بصورة سبب النزول، فهذه لا يجوز إخراجها منه بالاجتهاد، ما نزلت فيه الآية أو الآيات.

المرتبة الثانية: ما دخل بسبب المجاورة، يعني المناسبة، فهذا يليه بالقوة.

الدرجة الثالثة: عموم الأفراد الداخلين تحت العموم، عموم الأفراد.

هذا ذكره بعض الأصوليين، وهذا مثال يصلح له، فالوعيد لعموم المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وأهل الإرجاف، أولى ما يدخلون به هو ما يتصل بما جاوره، بموضوع المناسبة، أولائك الذين يطعنون ويشككون ويحاربون الحجاب والمحجبات، ويسنون القوانين لمنعه، والتضييق عليه، وما شابه ذلك، فهم متوعَّدون بهذا، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}، الجمهور على أن هذه الأوصاف لموصوف واحد، أن هؤلاء يتصفون بهذه الأوصاف جميعاً، هي فئة واحدة، وفي قوله -تبارك وتعالى- في الآية التي سبقت: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، قلنا هنا: إن المقصود به الميل المحرم إلى النساء، هنا فسره بعض أهل العلم بهذا المعنى، {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} يعني: الميل المحرم إلى النساء، بلمز النساء وأذيتهن وما إلى ذلك، والجمهور على أنها أوصاف لموصوف واحد، وأهل النفاق في قلوبهم مرض، وأصحاب أراجيف، {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} وأصل الإرجاف من الاضطراب الشديد، رجفت الأرض، أرجف الناس، أصاب الناسَ رجفةٌ، فيكون ذلك بإشاعة الكذب والباطل والأمور التي تسبب للناس الاضطراب والاغتمام، يعني لا يكون ذلك بنشر الأخبار السارة، وإنما ما يسوء الناس ويبعث المخاوف في نفوسهم، فهؤلاء هم المرجفون، وكان ذلك من عمل المنافقين.

{لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لنسلطنَّك عليهم، وقال قتادة: لنحرّشَنَّك بهم، وقال السدي: لنُعْلمنّك بهم.

{ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا} أي: في المدينة {إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ} حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين.

{لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} يوضح المراد به {ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}، {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} يعني: بعقوبتهم والتسلط عليهم، وبأخذهم بجرمهم، وما شابه ذلك، {ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ} يعني: حال كونهم ملعونين.

{أَيْنَمَا ثُقِفُوا} أي: وُجدوا، {أُخِذُوا} لذلتهم وقلتهم، {وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا}.

ثم قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدل ولا تغير.

وهذا الأمر لا يقيسه الإنسان بيوم ولا بسنة ولا بسنتين أو سنوات، ولكن سنّته -تبارك وتعالى- ماضية، وإذا أردت أن ترى هذه السنة فهي ظاهرة في هذه الأيام التي أدركنا فيها شيئاً لربما كان الإنسان يقوله من قبل، بأن سنة الله -عز وجل- جارية، وأن ذلك لا يقاس بسنة أو سنتين أو ثلاث، ولكن العاقبة للمتقين، وأن نهاية المنافقين والظالمين والمجرمين تكون وخيمة وتعيسة، وقد رأى الناس من ذلك ما لم يخطر لهم على بال، ولا يدور في خيال، من كان يتصور أن هؤلاء، أكبر من يحارب الحجاب في هذا العصر لا نعلم أحداً يحارب الحجاب كهذا الهالك الذي فر طريداً شريداً من تونس، حاربه غاية المحاربة، ومنع الحجاب واعتبره جريمة، ثم بعد ذلك كانت عاقبته ما رأى الناس أجمعون، وانتشر الحجاب وصار الناس يتهافتون عليه، وهذا شيء نعلمه، والحمد لله هو حاصل بكثرة، وخيب الله -عز وجل- مساعيه، وتبرأ منه أولياؤه، وتركوه يلاقي مصيره الذي رآه العالم، ورأيتم حال غيره وما حل بهم وما أنزل الله -عز وجل- بهم من بأسه، وما كان يظن أحد أن هؤلاء العتاة يصيرون إلى ما صاروا إليه، ولكن مقتضى معاني أسمائه الحسنى -تبارك وتعالى- أن يقع ذلك ولو بعد حين، فإن الله يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ الظالم لم يفلته، فأخذه شديد، فالحمد لله على آلائه ونعمائه.

{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [سورة الأحزاب:٦٣-٦٨].

يقول تعالى مخبراً لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أن يرد علمها إلى الله -عز وجل-، كما قال له في سورة الأعراف، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رَدّ علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}، كما قال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [سورة القمر:١]**، وقال: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}** [سورة الأنبياء:١]**، وقال {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}** [سورة النحل:١].

هذا السؤال تكرر من الناس، وذكره الله -عز وجل- في مواضع من كتابه، والسائلون هؤلاء منهم من يسأل ليعرف الوقت، ومنهم من يسأل للاستبعاد، مستبعداً وقوعها، وحديث جبريل لما سأل النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[٦].

ثم قال: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ} أي: أبعدهم عن رحمته {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} أي: في الدار الآخرة.

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، {لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ثم قال: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا} أي: يُسحبون في النار على وجوههم، وتُلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا} [سورة الفرقان:٢٧-٢٩].

وقال تعالى: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [سورة الحجر:٢]**، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا.**

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا}، وقال طاوس: سادتنا: يعني الأشراف، وكبراءنا: يعني العلماء.

{رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا.

وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي رافع في تسمية مَنْ شهد مع عليٍّ -رضي الله عنه-: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}؟.

ويحتمل أن يكون قوله: **{أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا}** من الأوصاف لموصوف واحد، يعني أنهم أطاعوا المقدمين منهم من الكبراء والسادة والأشراف والعظماء والقادة، فإن أهل النار على صنفين: المتبوعين والأتباع، كما قال الله -عز وجل- واصفاً حالهم بعد دخولهم فيها، **{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا}** [سورة البقرة:١٦٧]، بعد أن قال: **{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}** [سورة البقرة:١٦٦]، فهؤلاء الكبراء والعظماء والقادة هم الصنف الأول، والصنف الثاني من الأتباع، وبهذا يعرف بطلان قول من يقول: إن الأتباع لا شأن لهم، وإنهم مغرر بهم، وإنما الذين يعذبون ويؤاخذون هم القادة والعلماء من رءوس الضلال، وهذا غير صحيح، فهؤلاء يعذبون وهؤلاء يعذبون، وأهل النار من هؤلاء، وهؤلاء.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى-، برقم (٨).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [سورة الأحزاب:٦٩].

روى البخاري في أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن موسى -عليه السلام- كان رجلا حَيِيًّا سِتِّيرا، لا يُرَى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده، إما برص وإما أُدْرَة وإما آفة، وإن الله -عز وجل- أراد أن يُبرئَه مما قالوا لموسى -عليه السلام-، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حَجَر، ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله -عز وجل-، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً))، قال: ((فذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}))[٧]، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.

هذا الحديث نص واضح صريح في تفسير الآية، {لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى} آذوه فقالوا: آدَر أو أبرص؛ لأنه ما كان يغتسل معهم فظنوا به سوءاً، فرموه بذلك وعابوه به، فبرأه الله -عز وجل- من هذا بما أظهر، كما دلت عليه هذه الواقعة.

ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك مروي عن علي -رضي الله عنه-، أنهم ادعوا أنه قتل هارون -عليه السلام-، يقولون: إنه غار منه؛ لأن هارون -عليه السلام- كان ليناً مع بني إسرائيل، وادعوا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- قتله، ويقولون: إن الله -عز وجل- أحياه، وكذبهم في ذلك، وهذا لا دليل عليه، فالله تعالى أعلم.

وابن جرير -رحمه الله- يجوز أيًّا من هذه الاحتمالات أن يكون هو المراد، ولكن الحديث: {كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى} لما قالوا: آدر أو أبرص، ويدخل في هذا الأذى ألوان ما لقيه موسى -صلى الله عليه وسلم-، كما سبق في الحديث لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد أوذي أخي موسى بأكثر من هذا فصبر))، فمن أذيتهم له أنهم قالوا: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [سورة المائدة:٢٤]، إلى غير ذلك مما قصه الله -عز وجل- من خبرهم مع موسى -عليه الصلاة والسلام.

روى الإمام أحمد عن عبد الله -أي ابن مسعود- قال: قسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم قسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما قلت، فذكرت ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فاحمرَّ وجهه، ثم قال: ((رحمة الله على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر))، أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: {وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} أي: له وجاهة وجاه عند ربه -عز وجل.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام-، برقم (٣٢٢٣)، ومسلم، كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، برقم (٣٣٩).

قال الحسن البصري: كان مستجابَ الدعوة عند الله.

وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} [سورة مريم:٥٣].

هذا كله -يعني قول الحسن وما ذكر بعده- مما يمثل به على هذا المعنى، أنه وجيه عند الله -عز وجل-، له منزلة، أجاب الله دعاءه، وقبل شفاعته في أخيه، وكان مستجاب الدعوة، فهذا كله من قبيل المثال.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة مَنْ كأنه يراه، وأن يقولوا {قَوْلا سَدِيدًا} أي: مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها.

ثم قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}: وذلك أنه يجار من النار، ويصير إلى النعيم المقيم.

{وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا} ابن كثير يقول هنا: أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، بعضهم يقول: القول السديد {وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا} أي: لا إله إلا الله، فإذا قالوا ذلك أصلح الله لهم أعمالهم، وغفر لهم ذنوبهم، وبعضهم يقول: {وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا} أي: صدقاً، فالصدق تحصل به النجاة، وبعضهم يقول: {وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا} أي: صواباً، وهذه الأقوال متقاربة، فأصدق ما يقال هو كلمة التوحيد، وإذا حصل ذلك من الإنسان وآمن بالله -عز وجل-، أصلح الله حاله وعمله، {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، فـــ لا إله إلا الله من القول السديد، والتزام الصدق من القول السديد، وكل ذلك حق، ولهذا فإن ابن كثير في الأصل حمله على جميع هذه المعاني، يقول: والكل حق، وكان اللائق أن ينقل مثل هذا في المختصر، لكن العبارة التي نقلت "مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف" فيدخل فيه قول لا إله إلا الله والصدق والصواب، ولكن كثيراً من القراء قد لا يميز هذا، يعني: لا يدرك ما تحته، والله تعالى أعلم.

{إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:٧٢-٧٣].

قال العوفي عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يُطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحمَّلها، فذلك قوله تعالى: {وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا}.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا

يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: {وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا} يعني: غِرًّا بأمر الله.

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن البصري، وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض.

وقال آخرون: هي الطاعة.

وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبيّ بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها،

وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافِيَ بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إذا قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا مَنْ وفق اللَّهُ، وبالله المستعان.

حاصل الأقوال في الأمانة: الطاعة والفرائض، وأن المرأة مؤتمنة على فرجها، الدين والفرائض والحدود، الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم والاغتسال من الجنابة، يقول: **كل هذه الأقوال لا تنافيَ بينها**، وهذا صحيح، فتفسر الأمانة بالفرائض ووظائف الدين والتكاليف، فهذه هي الأمانة، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم ممن ذكرهم وممن لم يذكروا هنا، ونسبه القرطبي إلى جمهور المفسرين: أن الأمانة هي ما ذكر من التكاليف الشرعية، هي الفرائض، كل هذه العبارات متقاربة، وظائف الدين المتنوعة، وبعضهم يقول: أمانات الناس مع بعضهم، وبعضهم يقول: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ} أن آدم ائتمن ابنه قابيل على أهله وولده، فقتل هابيل، وهذا من تضييع الأمانة، كون الإنسان يقتل بغير حق، ولكن الأمانة أوسع من هذا، فيدخل في الأمانة التكاليف الشرعية بجميع أنواعها، والوظائف الدينية، ومما يدخل في ذلك أن الإنسان إذا اؤتمن على شيء فإنه يؤديه، فهناك أمانة مع الله -عز وجل-، ونفسه أمانة، وكذلك الأمانات فيما بين الناس، الوعد أمانة، والشهادة أمانة، كلمة الحق، الكلمة أمانة، إلى غير هذا، وبعضهم يفصل في الأمانات تفصيلاً آخر، لا تفسر به هذه الآية، يقول: إن التكاليف على نوعين: شعائر وأمانات، هذا لا تعلق له بما نحن فيه، يقولون: الشعائر هي الأمور الظاهرة، مثل التلبية والتكبير في الأعياد وأيام العشر، والأذان، وما إلى ذلك، والأمانات: هي التي لا يطلع عليها الناس مثل الصيام أمانة، فلو أكل أو شرب أو غيَّر نيته، نوى الفطر وهو لم يأكل ويشرب هو مفطر، وكذلك الطهارة، الغسل من الجنابة هذه أمانة؛ لأن الناس لا يعلمون هل يصلي هذا بطهارة أو لا؟ هل أحدث أو لا؟ فهذه أمانات، فيقولون: الدين أمانات وشعائر، لكن فيما يتصل بالآية: الجميع أمانة تحمّلها الإنسان، العمل الذي يؤديه أمانة، الأسرة ((كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته))[8] أمانة، وكذلك ما يزاوله من أعمال الوظائف التي يقوم بها ويكلف بها، الأعمال التي تناط به هذه أمانة، يمكن أن

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، برقم (٢٢٧٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم (١٨٢٩).

يخل بها، حتى المهن والصنائع وما إلى ذلك فقد يكون غاشاً في بيعه وشرائه، أو في صنعته، فكل هذا داخل في الأمانة، ولهذا حملها ابن جرير -رحمه الله- على العموم، على أعم معانيها.

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا ((أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال...))

يعني: في أصلها.

((ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة))، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: ((ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل...)).

هو ذكر قبله: ((مثل أثر الوكْت)) والوكْت: هو أثر يكون في الشيء، كالسواد الذي يكون في بياض العين، أو لون داكن أحياناً كأنه دم متجمع قديم، ويكون أيضاً بآثار، جروح تكون أحياناً في الجلد قديمة، ((مثل أثر الوكْت)) لون متغير، ((ثم ينام النومة)) وذكر ما بعده هنا ((فتقبض الأمانة من قبله، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل)) وفسره، قال: ((كجمر إن دحرجته على رجلك تراه مُنتبراً وليس فيه شيء))، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، ((مثل أثر المَجْل))، أثر المجل: هو ما يكون من أثر في يد الإنسان بسبب العمل، أو بسبب حروق سطحية فيحصل له تنفطٌ في الجلد، يعني إذا كان الإنسان يعمل بآلة أو نحو ذلك فأثر ذلك في يده، فينتفخ الجلد ويكون فيه ماء، فهذا أثر المجل، ((كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبراً)) يعني: منتفخاً، "وليس فيه شيء" يعني: فيه ماء فقط.

((...فيظل أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُنتبراً وليس فيه شيء))، قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، قال: ((فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله، وما في قلبه حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى عَلَيَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، إن كان مسلماً ليردَّنه عليّ دينُه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردَّنه عليّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا))[9]، وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به.

يقصد هنا بالمبايعة البيع والشراء في التعامل مع الناس، وليس البيعة على الولاية والإمارة؛ لأنه لا يبايع يهودياً ولا نصرانياً، يقول: **((إن كان مسلماً ليردَّنه عليّ دينُه))**، يعني: هذا في السابق يوم كانت الأمانة متوفرة في الناس، فدينه يمنعه ويردعه، ((وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردَّنه عليّ ساعيه)) يعني: صاحب الولاية، يقال له: ساعٍ، سُعاة، ويقال ذلك على السعاة على الصدقة، ((ليردَّنه عليّ ساعيه)) يعني: الوالي أو الأمير، أو الحاكم أو السلطان في ناحيته، هذا في زمن حذيفة -رضي الله تعالى عنه-، ((فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً))، ما يثق بأحد؛ لترحُّل الأمانة من نفوس الكثيرين في زمنه، فكيف باليوم؟!، اليوم

---

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٢٥٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وأصله في الصحيحين، البخاري، كتاب الرقائق، باب رفع الأمانة، برقم (٦١٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، برقم (١٤٣).

صار الأصل عند الناس التهمة، يدخل السوق، إذا جاء يشتري شيئاً من مطعوم أو ملبوس أو مركوب أو أثاث أو غير ذلك، فإن الأصل التهمة، فيحتاج أن يتفقد وأن ينظر، وأن يتحرى، ولربما يسأل؛ لأنه يعتقد أن الأصل الغش والاحتيال والتدليس، فهذا مما ذكر حذيفة -رضي الله تعالى عنه-، لاسيما مع كثرة الصنائع اليوم وتنوعها فأصبح المرء يدخل إلى السوق ويتحير في الأسماء الكثيرة، والأصناف الكثيرة التي لا يدري ما الجيد من الرديء.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظ أمانة، وصِدْق حديث، وحُسْن خليقة، وعِفَّة طُعمة))**[١٠].

وقوله تعالى: **{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}** **أي: إنما حُمِّل ابن آدم الأمانة ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله،** **{وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}**، **وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله،** **{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** **أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته** **{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}**.

آخر تفسير سورة "الأحزاب" ولله الحمد والمنة.

---

١٠ - رواه الإمام أحمد، برقم (٦٦٥٢)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لانقطاعه، الحارث بن يزيد الحضرمي لا يعرف له سماع من عبد الله بن عمرو، إنما يروي عنه بواسطة، وقد روى هذا الحديث عن عبد الرحمن بن حُجيْرة، عنه، لكن في الإسناد ابن لهيعة -كما سيرد- وهو سيئ الحفظ، وروي الحديث موقوفاً، وهو أصح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٧٣)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٧٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الأحزاب (١)

من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ}

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسيكون الحديث عن صدر سورة الأحزاب، وذلك من خلال الآيات التسع في أولها، وهذه الآيات التسع وإن لم تكن تتصل اتصالاً مباشراً بما بعدها وهو مما يتعلق بموضوعنا الذي من أجله تحدثنا عن هذه السورة، وذلك في قوله -جل جلاله-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة الأحزاب:٩]، لكن رأيت أن الحديث عن أولها يُحتاج إليه في موضوعنا هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:١-٥].

هذه السورة من السور النازلة في المدينة باتفاق أهل العلم، وكان نزولها بعد سورة الأنفال وقبل سورة المائدة، رقمها في النزول بما ذكره بعض أهل العلم يبلغ التسعين، وهذه الآيات التي صدّرها الله -عز وجل- في أولها تأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وتخاطبه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}، وقد تنوع ذلك وتعدد هذا الخطاب في هذه السورة في مواضع مختلفة، فهذه السورة تتحدث عن جملة من القضايا والموضوعات، ومن هذه الموضوعات ما أشارت إليه هذه الآية وغيرها من الآيات من الأمر بطاعة الله -عز وجل- وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والنهي عن طاعة غيره.

والأمر الثاني: تضمنت إبطال ما كان عليه الناس في الجاهلية، وفي أول الإسلام مما يتصل بالتبني والظهار، والثالث: وهو ما يتعلق بوقعة الأحزاب وما يتصل بها مما وقع مع بني قريظة، ثم بعد ذلك ما نتج عن ذلك مما حصل للمسلمين من الغنائم التي أفاءها الله -جل جلاله- عليهم من اليهود، فطلب أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- من رسول الله -عليه الصلاة والسلام- التوسعة في النفقة، وجاء الخطاب إلى أمهات المؤمنين، كما تضمنت هذه السورة أيضاً بيان جملة من حقوق النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما يختص به من الأحكام، وفي السورة أيضاً حديث عن المنافقين ومخازيهم ومواقفهم، وما توعدهم الله -تبارك وتعالى- به، وهكذا أيضاً تضمنت هذه السورة ما توعد الله به الكافرين، وما ينتظرهم من العذاب الأليم، وهذا ظاهر في آخرها.

وفيها حث لأهل الإيمان على طاعة الله -عز وجل-، وطاعة رسوله -عليه الصلاة والسلام-، يقول الله -جل جلاله- مخاطباً لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}، والخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- خطاب لأمته، إلا إذا دل دليل على اختصاصه بذلك، ولاشك أن هذا الموضع يشمل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويشمل أمته، فالأمة قد تُخاطَب في شخص قائدها وقدوتها ومقدَّمها -عليه الصلاة والسلام-، فهو الأسوة والقدوة، ومما يدل على أن الأمة مرادة هنا أن الله -تبارك وتعالى- قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، فوجه الخطاب إليهم في الآية التي بعدها، وفي القراءة الأخرى كما سيأتي {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، كما يقول الله -جل جلاله- في أول سورة الطلاق: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١]، جاء بصيغة الجمع، مما يدل على أن هذا الخطاب يتوجه إلى أمته كذلك، وقد يكون المقام أصعب من هذا ومع ذلك يحمل على الأمة، يعني: قد يكون الخطاب صريحاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- على سبيل الانفراد ومع ذلك يحمل على الأمة لقرينة أخرى، كقوله -تبارك وتعالى- في الوصايا التي ذكرها في سورة الإسراء: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا} [سورة الإسراء:٢٣]، "عندك" فالخطاب في ظاهره موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولاشك أنه حينما نزلت هذه الآيات لم يكن له أب ولا أم.

ونودي النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا بوصفه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، ما قال: يا محمد، وذلك فيه من التشريف والتكريم والتعظيم ورفع المنزلة ما فيه، ولاشك أن النداء بمثل هذا اللقب في باب المخاطبة يدل على هذا التكريم، بخلاف الإخبار فإن الله -عز وجل- قد يخبر عنه باسمه {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} [سورة الفتح:٢٩]، و{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ} [سورة الأحزاب:٤٠]، فهنا لا بأس في مقام الإخبار أن يذكر الاسم، لاسيما أنه أضاف بعده الرسالة ليكون ذلك متعلقاً بهذا الاسم، فهذا المسمى بهذا الاسم هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو كذا وكذا وكذا، مما عرّفهم الله -جل جلاله- به، فهو يعلمهم بذلك.

وهنا يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}، النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أتقى الأمة لله، فإذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يؤمر بالتقوى فغيره من باب أولى، لا يستنكف من هذا أحد، ولا يترفع عليه أحد، ولا يرى أحد من الناس أنه فوق هذا التوجيه والخطاب لاسيما أن الأمر بالتقوى يعني الأمر بلزومها والدوام عليها، كما أن التقوى هي حاصلة بمجموع أمور، وذلك أن يفعل الإنسان كل ما أمره الله -جل جلاله- به، وأن يترك كل ما نهاه عنه، فهذا الأمر بالتقوى هو توطئة لما بعده {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} فإن طاعة الكافرين والمنافقين مخالفة لتقوى الله -عز وجل-، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} حينما يترك الإنسان طاعة الكافرين والمنافقين أو يُنهى عن طاعتهم فإن هذا بمنزلة -أو بمعنى-: ولا تتقِ الكافرين والمنافقين؛ لأن الإنسان إنما يطيعهم من أجل أن يتقيهم فإذا أطاعهم فقد اتقاهم، ومن أطاع الله -عز وجل- فقد اتقاه، فكأنه يقول: اتق الله ولا تتقِ الكافرين والمنافقين.

وإنما تكون التقوى لله -عز وجل-، ولا تجتمع طاعة الله -جل جلاله- مع طاعة الكافرين والمنافقين، فإن هؤلاء يصرفونه عن طاعة ربه ومليكه ومعبوده -جل جلاله-؛ لأنهم محادون لله -عز وجل-، فلا ينتظر

منهم أن يأمروه بمعروف أو أن يشيروا عليه بخير، ومن ثَمّ فقد علمه الله -عز وجل- طاعته ونهاه عن طاعة هؤلاء بما يشيرون به، وما يأمرونه به؛ لأنهم لا يجرونه إلى خير بحال من الأحوال.

والمقصود: أن مراتب التقوى لا تنتهي، وأن شأنها عظيم، ولهذا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- رسوله -صلى الله عليه وسلم- بها، ثم قال له: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}، حينما أمره بطاعته ونهاه عن طاعة المنافقين والكافرين قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}، {إِنَّ} هذه تدل على التوكيد وهي تشعر بالتعليل، لماذا أنت مأمور بطاعة الله ومنهي عن طاعة الكافرين والمنافقينظ؛ لأن الله كان عليماً حكيماً، إنما يرِدُ الخلل في التصور أو التدبير أو المشورة أو نحو ذلك بسبب نقص العلم، أو بسبب نقص الحكمة، قد يكون الإنسان عنده اطلاع وعلم وبصر في الأمور، ولكنه لا يضع الأمور في مواضعها ولا يوقعها في مواقعها، ومن ثَمّ يكون ما يأمر به أو ما يشير به ناقصاً، فيورده ذلك العطب والمهالك، وقد يكون الخلل الواقع بسبب نقص العلم، وقد يجتمع الأمران، فالله -تبارك وتعالى- عليم بما يأمر به، عليم بخلقه، عليم بما يُصلحهم، عليم بأحوالهم، وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها، فإذا أمرك بشيء أو نهاك عن شيء فإن ذلك قد صدر عن علم محيط، وحكمة تامة فينبغي أن تثق به، وتركن إليه، وتسلم له، ولا تتشكك ولا تتردد ولا تظن بحال من الأحوال أن هذا الأمر الذي أمرنا الله -عز وجل- يمكن أن يورثك ضرراً أو مفسدة أو مهلكة أو عطباً، أو نحو ذلك.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، كما هي العادة، كما يقال: التخلية قبل التحلية، نهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ثم بين له ما يجب عليه أن يفعله؛ لأن النفوس خلقت للفعل ولم تخلق للترك، وإنما الترك مقصود لغيره، من باب التخلي والتنزه، فإذا نهى الله -عز وجل- عن شيء أمر بما يصلح، فقال: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، لا يكفي أن نقول: لا تفعل كذا، لا تصحب فلاناً، لا تأتِ الأمر الفلاني، وإنما يجب أن نبين له ما ينبغي أن يفعله، فقال: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، هناك عمّم، قال: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}، فنهاه عن طاعتهم في أي شيء من الأشياء، وهنا قال: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، فـــ"ما" هذه تدل على العموم، اتبع كل ما يوحى إليك من ربك، في كل شأن من الشئون، في قضايا السلم والحرب، والمعاهدات والعلاقات، وما يتلق بالعبادات، وما يتعلق بالآداب والأخلاق، إلى غير ذلك {اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، لا تتشبه بهؤلاء، ولا تأخذ عنهم، وإنما تتلقى عن الله -عز وجل-، ويكون الإنسان متبعاً لوحي الله -جل جلاله-، اتبع ما يوحى إليك، قال: واتبع ما أمرك الله به، فربطه بالوحي، والوحي معصوم لا يمكن أن يأتيه خلل ولا يتطرق إليه خطأ، فيُقبل الإنسان على أمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- بكل طمأنينة، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، فيعلم أحوالكم، فالخبير هو الذي يعلم بواطن الأشياء وخفايا الأمور، فكل ما تعملون فهو خبير، يعلم ما تسره النفوس، وما يخفيه الإنسان مما يوافق أمر الله -عز وجل- وما يخالفه، ومن ثم إذا استشعر الإنسان هذا المعنى حصلت له التقوى في الظاهر وفي الباطن؛ لأن الله -عز وجل- يعلم سره وما يختلج في نفسه، وما يحدث به المرء نفسه، فلا يخفى عليه خافية، وفي قراءة أبي عمرو قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا} وهذا في ظاهره يعم المنافقين والكافرين الذين نهاه عن طاعتهم، كما يشمل غيرهم من أهل الإيمان، {وَلَا

تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}، ثم قال: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، فالله -جل جلاله- محيط بهم، وقد أخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، {وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنعام:٥٩]، ولهذا قال بعده: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} لما طمأنه أنه عليم حكيم، نهاه عن طاعتهم، وأمره بتقواه، وباتباع وحيه، فإنه يرِدُ على ذلك أن هؤلاء لن يسلموا له بهذا، بل سيسعون إلى إلحاق الأذى والضرر به، فقال له: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، والإنسان إذا التزم طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فسيناله الأذى من الكافرين، وسيتربصون به، ويعملون على إيصال الأذى إليه بكل طريق، سيحاصرونه حصاراً اقتصادياً، وحصاراً عسكرياً، وسيرمونه بكل قبيح من إرهاب وغير ذلك، كما يقول الرئيس الأمريكي قبل يوم أو يومين: إن هجمات حماس على إسرائيل يقول: هذه هجمات إرهابية، وتقول وزيرة خارجيته: إن ما تفعله إسرائيل هو دفاع مشروع، فماذا بقي؟!

قرروا أن لا تكون هناك مواجهة حتى مع الدخول البري، دمروا كل شيء بالمدفعيات؛ من أجل أن لا تكون مواجهة مع المجاهدين؛ لأنهم لا يطيقون هذا، ما يستطيعون، يحطمون كل شيء، ثم بعد ذلك يأتون إلى أرض محروقة على مراحل، هذا الذي يريدونه من بعد القصف بالمدافع، وهذا ليس بإرهاب، هذه قفازات حريرية لمعالجة خلل، هكذا يصورون هذه الأمور، وكل إناء بما فيه ينضح، ولا يُنتظر منهم إلا هذا، وعلينا أن نحقق ما أمرنا الله -عز وجل- به، قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، فوض أمرك إلى الله العليم الحكيم الذي هو خبير بما يعمله الخلق، وبيده أزمّة الأمور، هو الذي أمرك بهذا، وهو الذي رسم لك هذا الطريق، وهو الذي أمرك بسلوكه، فأنت يجب عليك أن تنفذ أمر الله -جل جلاله-، وأن تسلك الصراط المستقيم، ثم بعد ذلك يكفيك الله شر الأشرار وكيد الفجار، فالله حافظك، وتوكل على الله، فوض أمورك إليه ولا تفوض أمورك إلى المخلوقين، لا تنتظر من المخلوقين أن يعينوك أو أن ينصروك، إنما النصر من الله وحده لا شريك له، {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، كفى به حافظاً وناصراً لمن توكل عليه، وأسند ظهره وألجأه إليه -جل جلاله.

ثم بعد ذلك قال: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}، فقوله: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} -على ظاهره- أن الله ما جعل لرجل والمرأة داخلة في هذا؛ لأن العرب يعبرون بالرجل ويدخل في ذلك المرأة في مثل هذا الخطاب أو الخبر، {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ} ورجل هنا نكرة في سياق النفي فيعم كل رجل، فهذا فيه إبطال لدعوى كل من يدعي أن أحداً يملك قلبين، مع أن الروايات الواردة في هذا لا يصح منها شيء، يعني قول من قال من المنافقين: إن النبي - صلى الله عليه وسلم- له قلبان، أو أن رجلاً يقال له ذلك، يلقب بذي القلبين لشدة دهائه وفطنته وحذقه ومعرفته وبصره، أو أن أحداً من المنافقين ادعى ذلك لنفسه، وقال: إن قلباً يأمره بطاعة الله، والقلب الآخر يأمره بطاعة النفس والهوى والشيطان، كل ذلك لا يصح منه شيء، ومن أهل العلم من يرى أن هذه الآية هي توطئة للآية التي بعدها، وذلك أنه قال بعده: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ} يقول له: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، كما أن الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه فكذا لم يجعل الدَّعِيّ ابناً، لم يجعل لأحد أبوين، ولم يجعل

الزوجة زوجة وأمًّا في آن واحد، فيكون قد دل على ذلك بأمر معلوم يسلم به السامع، كما أن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، فكذلك ما جعل شيئاً من هذه الأمور التي تتردد على ألسنتهم: زيد بن محمد، والرجل يقول لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، فنزلها منزلة الأم، والزوجة ليست كالأم.
وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على العموم، {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ} أيًّا كان {مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، وابن كثير جعلها توطئة لما بعدها، ولا شك أن الآية تحتمل هذا كله، وقوله: {ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ} أضافه إلى الأفواه مع أن الإنسان إنما يقول بفيه؛ ليبين أن هذا القول لا يتجاوز الأفواه، هو قول لا رصيد له من الحقيقة والواقع، هو قول يرددونه بأفواهم لكن لا حقيقة له.
ثم قال الله -تبارك وتعالى- لما نهاهم عن نسبة هؤلاء الذين يتبنونهم ويدّعونهم وينسبونهم إليهم، لما نهاهم عن نسبتهم إليهم قال: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ}، على الطريقة التي ذكرت آنفاً في منهج القرآن في تربية النفوس، {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ}، تقول: زيد بن حارثة، يُدعى وينسب لأبيه، {أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ} أعدل عند الله، {فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}، إن لم تعلم أباه فتقول: أخي، ويقول الرجل لمن تبناه: مولاي، ولا يقول: ابني، أو فلان ابن فلان، -يُنسب إليه- إلا إن كان يقال: ابني على سبيل التحبب إليه والتلطف به.
{فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ} لأنهم قد اعتادوا على ذلك ردحاً من الزمان فيسبق اللسان إلى هذا فرفع عنهم الحرج، {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [سورة البقرة:٢٨٦] قال الله: قد فعلت، {وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}، غفوراً لما سلف ولما وقع وبدر من غير قصد.
وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٦-٨].
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فقوله -تبارك وتعالى-: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، لما بين الله -تبارك وتعالى- فيما سبق ما يكون به إبطال التبني، وكان زيد بن حارثة ينسب للنبي -صلى الله عليه وسلم- فيقال: زيد بن محمد، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [سورة الأحزاب:٤٠]، فهنا يبين منزلته منهم، فقال: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، أولى بماذا؟ من أهل العلم من يقول: {أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} يفسره الحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-:

((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته))[1]، وهو مخرج في الصحيحين، وظاهر هذا أنه لا يدل على الحصر في قضاء الديون عمن مات ولم يترك وفاءً، وإنما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم))، ثم ذكر هذه القضية بعدها، فهذا مما يدخل في معناه، ويحتمل أن تكون هذه الأولوية: أن يكون أولى بالمحبة، أن تكون محبته -صلى الله عليه وسلم- مقدمة على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين، ويدل على هذا الحديث المخرج في الصحيح: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين))[2]، وحديث عمر -رضي الله تعالى عنه- لما قال: ((يا رسول الله، والله إنك لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك))[3]، فهو أولى بالمحبة، أن تكون محبته مقدمة على محبة النفس ومحبة الولد والوالد، ومحبة كل محبوب، وهذا ذهب إليه بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: المراد {أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} أنه -صلى الله عليه وسلم- إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى، {أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} أي: يقدمون مطلوبه على مطلوبات النفس ومشتهياتها ومحبوباتها، وبعضهم يقول: هو أولى في أن يحكم على الإنسان من حكمه على نفسه، النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بك في نفاذ حكمه عليك من حكمك على نفسك، وبعضهم يقول -على كل حال- غير هذا، وجاء في الصحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: ((ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، فأيُّما مؤمنٍ ترك مالاً فليرثه عصبته مَن كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه))[4]، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- جمع بين ذلك أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أحب إليه من كل أحد حتى من نفسه، {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} في المحبة، وكذلك يلزم من كمال محبته إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أحب إليك من نفسك أن يكون حكمه أنفذ من حكمك على نفسك، فهو أولى بالاتباع من مطلوبات النفس ومشتهياتها وأهوائها، إذا أمرت النفسُ بشيء وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بشيء كان أمره مقدماً، وهكذا سائر لوازم المحبة، فبهذا لا يكون للعبد حكم على نفسه يقدم على حكم رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، المقصود أن ذلك يحمل على العموم، {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، في النصرة والمحبة والولاء والطاعة والاتباع والتقديم، كل هذه المعاني كما أنه -صلى الله عليه وسلم- ينفذ حكمه فيهم أعظم من نفاذ أحكامهم على أنفسهم، هذه منزلته -عليه الصلاة والسلام-، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن مع

---

١ - رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب الدين، برقم (٢١٧٦)، ومسلم، كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، برقم (١٦١٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الإيمان، برقم (١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر من الأهل والولد والوالد، برقم (٤٤).

٣ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٢٥٧).

٤ - رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا، برقم (٢٢٦٩).

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمْرِه ونهيِه، لا أن يدير ظهره، أو أن يستخف بكلامه وسنته وحديثه -عليه الصلاة والسلام-، وهذا كله يبين منزلته -صلى الله عليه وسلم-، وما له من رفيع الدرجات.

قال: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، لما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه المنزلة كان لأزواجه من الحرمة والتعظيم والإجلال والإكرام ما جعلهن بهذه المثابة: أمهات المؤمنين، وليس المقصود هنا أنها تكون أمًّا بمعنى أنهم يرثونها ولا يحل لهم أن يتزوجوا بنتها مثلاً، وإنما المقصود في الحرمة والتعظيم والإجلال، يحرم عليه أن يتزوجها، ويجب أن يوقرها وأن يعظمها فهي أم له، هذه منزلة أمهات المؤمنين، وإنما حصلت لهن تلك المنزلة لمكانهن من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن تعظيمهن تعظيم له -بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام-، وهل هذا يختص بالرجال {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}، أو يكون ذلك للرجال والنساء؟ قالت امرأة لعائشة: "يا أُمَّهْ، فقالت: لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم"، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنها أم للجميع، للرجال والنساء، أمهات المؤمنين؛ لأن مثل هذا اللفظ يدخل فيه النساء بحكم التبع، فهو وإن كان الخطاب للذكور كما هو الغالب في القرآن أن الله يخاطبهم، لكن النساء يلحقن بهم على سبيل التبع، وهذا الذي اختاره أبو عبد الله القرطبي -رحمه الله.

وهل يقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أب للمؤمنين؟ معلوم أن الأبوة نوعان:

الأولى: أبوة نسب، وهذه التي تكون سبباً للوجود في الحياة.

والثانية: وهي أبوة تربية وتعليم، وهذه التي تكون سبباً للفلاح؛ ولهذا تكلم العلماء -رحمهم الله- على الأبوتين وأيهما أشرف، هل هي الأبوة التي كانت سبباً لخروج الإنسان إلى الدنيا أم الأبوة التي تكون سبباً لفلاحه وفوزه، ونيله للمطالب العالية؟، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أب للمؤمنين ويدل على ذلك ما جاء في مصحف أُبيّ وهي قراءة غير متواترة، لكنه يحتج بالقراءة الأحادية إذا صح سندها، وتفسر القراءة المتواترة، قال: "وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم"، وقرأ ابن عباس: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم"، فهذه الأبوة ثابتة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلى هذا المعنى حمل طوائف من المفسرين قوله -تبارك وتعالى- في خبر لوط -صلى الله عليه وسلم- حينما قال لقومه عندما جاءوا يهرعون إليه قال: {هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [سورة هود:٧٨] فكثير من أهل العلم قال: المقصود بنات القبيلة، فالنبي بمنزلة الوالد لهن، بمنزلة الأب {هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}، وعلى هذا تحمل بعض العبارات التي يلبس بها النصارى مما يذكر في أناجيلهم المحرفة، عن قِيل عيسى -صلى الله عليه وسلم- في بعض العبارات أنه قال: "أبي" يقصد ربه -تبارك وتعالى-، فلو صح ذلك فإنه يحمل على أبوة التربية، وإن كنا لا نستسيغ هذا في شرعنا؛ لأن الله -عز وجل- لا يوصف ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتلك كتب محرفة لا نستطيع أن نثبت ما جاء فيها مما لم يرد في شرعنا، ثم اختلف العلماء في من طلقها النبي صلى الله عليه وسلم- هل تثبت لها هذه المنزلة أو الصفة: أم المؤمنين؟ فمن أهل العلم من يقول: نعم، ومنهم من يقول: لا، ومن يقول يفرق بين من دخل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين من لم يدخل بها، وهذا هو الأقرب، وأخبار الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- دالة على هذا، وهل يقال: بنات النبي -صلى الله عليه وسلم- أخوات للمؤمنين، هو أب لهم وأزواجه أمهاتهم فهل بناته أخواتهم؟،

وهل يقال لإخوان أمهات المؤمنين: أخوال المؤمنين كما يقوله بعضهم: إن معاوية -رضي الله تعالى عنه- خال المؤمنين، كما في بعض المنظومات في العقيدة؟، فمن أهل العلم من قال بهذا، وقد نص عليه الشافعي ولا دليل عليه، ومثل هذا لا يطرد وإنما يوقف عند ما ورد به النص، والعلم عند الله -عز وجل-، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}، فهذه الآية تقرر حكماً جديداً ينسخ حكماً كان في أول الإسلام، كان الناس يتوارثون بالولاء والهجرة، كان الرجل إذا جاء من مكة أو مهاجراً من محل مهاجرته فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤاخي بينه وبين أحد من الأنصار، ثم يحصل التوارث بينهم على هذا الولاء والمؤاخاة، فنسخ ذلك، فقال الله -تبارك وتعالى-: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} يعني: في الميراث، ومعنى {فِي كِتَابِ اللَّهِ} الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد به القرآن، ومن أهل العلم من حمله على اللوح المحفوظ، {أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} الذين حصل بينهم المؤاخاة والحلف والولاء ثم قال: {إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}، هؤلاء الأولياء ممن حصلت المؤاخاة بينكم وبينهم فإذا أردت أن تحسن إليه -وحسن العهد من الإيمان- فأن توصي له بما لا يزيد عن الثلث؛ لأنه لن يرث بهذه المؤاخاة وهذا النوع من الولاء، وبعض أهل العلم يقول: إلا أن توصوا لذوي قراباتكم من غير أهل الإيمان والهجرة، وهذا قال به طائفة من السلف، والأقرب -والله تعالى أعلم- وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أن المراد به تلك المؤاخاة التي حصلت في أول الإسلام فكانوا يتوارثون بها، في أول الهجرة، ثم نسخ هذا فصار الميراث بين القرابات، ومن أراد أن يحسن إلى أحد من هؤلاء أوصى له.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} الكتاب هنا المراد به اللوح المحفوظ، ومعنى {مَسْطُورًا} أي: مكتوباً، لكن ذلك الحكم كان مؤقتاً للحاجة، الناس يأتون في حال من الفقر والشدة ويترك كل شيء خلف ظهره، فيأتي إلى بلد ليس عليه إلا إزار أو رداء ثم بعد ذلك يكون بحاجة إلى رعاية وإلى من يحسن إليه، أو من يقوم على بعض شئونه، فوجد هذا الحلف أو الولاء أو المؤاخاة بين أهل الإيمان من المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

ثم قال الله -جل جلاله-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}، واذكر إذ أخذنا {مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ...} هذه الآية تبين أخذ الميثاق على الأنبياء كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة آل عمران:٨١]، فدل القرآن على أنه أخذ عليهم الميثاق أن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصر بعضهم بعضاً، فهذا أظهر ما قيل في هذه الآية، وكتاب الله -عز وجل- يفسر بعضه بعضاً، إضافة إلى بعض المعاني التي قد لا تنافي هذا المعنى أن الله أخذ عليهم الميثاق ببلاغ الرسالة وألا يخشوا أحداً إلا الله -تبارك وتعالى-، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا

الله، وهكذا بإقامة الدين وعدم التفرق فيه، {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [سورة الشورى:١٣]، فهذا مما أخذ به الميثاق، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ} ثم قال: {وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ} هذا من باب عطف الخاص على العام، فإن لفظ النبيين يشمل النبي -صلى الله عليه وسلم- ونوحاً ومن ذكر، لكن الله ذكر هؤلاء، فذكْرُ الخاص بعد العام مؤذن بشرفه أو منزلته أو تكريمه أو نحو ذلك، فذكَرَ هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الخمسة، {وَمِنكَ} فقدمه -صلى الله عليه وسلم- عليهم فهو أشرفهم -صلى الله عليه وسلم-، {وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}، هذه الآية يذكر كثير من أهل العلم أن هؤلاء هم أولو العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ويربطون بين هذه الآية وآية الشورى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} وقدم نوحاً -صلى الله عليه وسلم- في سورة الشورى، {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى}، فقالوا: إن هؤلاء هم أولو العزم الذين ذكرهم الله بقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، والأقرب -والله تعالى أعلم-: أن أولي العزم لا يحصرون بخمسة، وآية الأحزاب والآية الأخرى ليس فيهما ما يدل على الحصر، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٣٥] يأمره بأن يصبر كما صبر أصحاب العزائم العظيمة من الرسل الكبار -عليهم الصلاة والسلام- حيث صبروا صبراً عظيماً في ذات الله -جل جلاله-، ولا يوجد دليل على حصر هؤلاء بخمسة، ولاشك أن هؤلاء الخمسة من أجلّهم وأشرفهم وأعظمهم، وهذا الوصف ليس نفياً له عن غيرهم، ولهذا فإن بعض أهل العلم يقول: كل الرسل من أولي العزم، والله -تبارك وتعالى- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يصبر صبراً كصبر أولي العزم من الرسل وهم أصحاب العزائم العظيمة، ولعل هذا أقرب ما تفسر به هذه الآية، وبعضهم يقول: إن الميثاق هو حينما كانوا على صورة الذرّ استخرجهم الله -عز وجل- من صلب أبيهم آدم -عليه الصلاة والسلام.

ثم قال الله -تبارك وتعالى- بعد ذلك: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}، ليسأل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ، وعما أجابهم به أقوامُهم، وعن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم، {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ}، قال: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ}، ليسأل المبلغين عن الله من أتباع الرسل، المبلغين عن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هل قاموا بما يجب عليهم {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}، فالآية تحتمل هذا كله، فالمقصود بها أن الصادقين يُسألون عن صدقهم، والشأن كما قال ابن القيم -رحمه الله-: إذا سئل الصادقون عن صدقهم وحوسبوا عليه، فما الظن بالكاذبين؟!، فالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يحمل الآية على هذه المعاني جميعاً، وكل هؤلاء ممن ينطبق عليهم هذا الوصف -وصف الصدق- يسألون عن صدقهم، يحاسبون على هذا الصدق، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأتباع الرسل من الدعاة إلى الله -عز وجل- والمبلغين عن الرسل إلى غير ذلك، والله تعالى أعلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} [سورة الأحزاب:٩-١٥].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي هذه الآية يذكر الله -تبارك وتعالى- خبر هذه الوقعة وهي وقعة الخندق –الأحزاب-، وذلك أن نفراً من اليهود وهم من أشراف بني النضير الذين أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر، وكان جلاؤهم وخروجهم قبل قريظة، ومعلوم أن اليهود الذين كانوا في المدينة كانوا يهود النضير وقريظة وقينقاع، فقينقاع أُجلوا في الواقعة المعروفة، وذلك أن امرأة من المسلمين جاءت إلى سوقهم، فجلست إلى أحد هؤلاء الباعة فطلب منها أن تكشف وجهها، والمؤمنة تغطي وجهها؛ لأن الله أمرها بذلك، فاحتال عليها وتحين غفلتها، فربط طرف ثوبها من أسفله في أعلاه دون أن تشعر فلما قامت انكشفت عورتها، فصاحت: يا للمسلمين، فلا يُدرى أيهما أسرع هو صوتها الذي قالته أو تدحرُجُ رأس اليهودي، مباشرة سبق السيف إلى رأسه فتدحرج رأسه، فهذا نقض للعهد الذي عاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قدم إلى المدينة، وإذا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتهيأ لحربهم، فكان آخر ذلك أنهم سلموا أمرهم إليه، وشفع فيهم: من الذي يتحرك في هذه الأجواء عادة ويغار على اليهود، ويدافع عن اليهود، ويحامي لليهود؟، هم أهل النفاق، فتحركت نخوة عبد الله بن أبيّ بن سلول فشفع لهم، فاكتفى النبي -صلى الله عليه وسلم- بطردهم من المدينة، بسبب امرأة واحدة عُقد ثوبها، عُقد أسفله بأعلاه، فكانت سبباً لإخراجهم من المدينة، والثكالى كما ترون الآن والحرائر والعجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبكين بملء أفواههن، والحال ما ترون، وتأتي رسائل في الجوال: أنتم نساء، أنتم جبناء، ماذا فعلتم؟!! ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً، وليس بأيدينا شيء إلا أن نبين للناس الأحكام والواقع، وما يتصل بكل مكلف، وأما الطائفة الثانية فهم النضير وقد نقضوا العهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد ذكر لذلك أسباب في كتب السيرة، من أشهرها خبر الرحى التي أرادوا إلقاءها على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد تتابعت المصائب على المسلمين بعد وقعة أحد، كالغدر الذي حصل في بئر معونة، ووقعة الرجيع، ومَن قتل من خيار أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إضافة إلى الهزيمة التي كانت في أحد وما وقع فيها من القتل والجراح، ثم بعد ذلك ذهب هؤلاء اليهود الذين لم يرضهم رجوع قريش بعد وقعة أحد قبل أن يستأصلوا المسلمين، فذهب هؤلاء من أشراف بني النضير، وبنو النضير يرون أنهم أشرف من بني قريظة، وهم فئة يقال: إن نسبهم يتصل بهارون -عليه الصلاة والسلام- ولم يقع لهم جلاء في التاريخ قبل هذا -أي بني النضير-، فأخرج طائفة من أشرافهم إلى خيبر وهم حيي بن أخطب ومن معه، وكثير منهم ذهبوا إلى الحيرة وأطراف الشام في أذرعات قريباً من أطراف جزيرة العرب، في أول الشام، وجاء هؤلاء من الموتورين الحانقين فذهبوا يؤلبون قريشاً ويخبرونهم أنهم سيؤلبون غيرهم من قبائل العرب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا فرق بين يهودي وغيره من أعداء الإسلام، فأعداء الإسلام يجتمعون -وإن اختلفت أعراقهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم- في سبيل حرب هذا الدين، وقد قال الله -عز

وجل- في من تولى غير المؤمنين:، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ} [سورة المجادلة:١٤]، يعني: هؤلاء تولوا قوماً ليسوا من المسلمين، فأهل النفاق في الظاهر من المسلمين، فيكون لهذا التولي مبرر، {وَلَا مِنْهُمْ}، وليسوا من المنافقين، هم يهود، جاء طائفة من هؤلاء منهم سلَّام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلَّام بن مشكم وهوذة بن قيس، وأبو عمار الوائلي في طائفة من بني النضير وبني وائلة، قدموا مكة ودعوا إلى حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويروى -وإن كان في هذه الروايات ضعف- أن قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [سورة النساء:٥١-٥٥]، كان بسبب ذهاب كعب بن الأشرف أو حيي بن أخطب يحرض على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنهم سألوه قالوا: أنتم أهل كتاب، نحن أهدى أم محمد؟ قال: أنتم أهدى من محمد وسجدوا لأصنامهم، ثم انطلقوا إلى غطفان، فجاءت غطفان مع قائدهم عيينة بن حصن بن بدر، وجاءت قريش ومن معها من الأحزاب، فخرج حيي بن أخطب متسللاً إلى قريظة وطرق على كعب بن أسد وهو سيد قريظة الذي كانت تتراءى عذارى الحي بالنظر في وجهه من جماله، كأن وجهه مرآة صينية، وهذا في نظر هؤلاء اليهود، وإلا فهو وجه كالح أسود؛ فإن العقائد تظهر على الوجوه كما تظهر السيئات على وجوه أصحابها، فالشاهد أن حيي بن أخطب طرق عليه الباب -باب الحصن- فأبى أن يفتح له، فاستفزه بكلمة قال له: إنما خشيتَ أن أطعم معك، يعني أغلقت عليّ الباب من أجل ألا آكل معك، ففتح له الباب، فقال: جئتك بعز الدهر، جاءت قريش ومن معها من الأحابيش وغطفان، يريد منه أن ينقض العهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: جئتني والله بذل الدهر، وتكلَّم عليه وقال: إنك رجل مشئوم، وقال له: جئتني بجهام يبرق ويرعد، وليس فيه شيء، ليس فيه مطر، بجهام، والجهام هو السحاب الذي لا مطر فيه، فما زال به حتى نقض العهد، واستجاب له، وكانت قريظة في بعض الإحصاءات التي ذكرت: تقرب من ثمانمائة مقاتل، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فسيأتي في الكلام عليهم حينما قتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لربما يبلغون الأربعمائة مقاتل، يعني من يقدر على حمل السلاح، وفي هذا يقول عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين ينتقد حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- وحكم سعد بن معاذ الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة))[٥]، سبع سماوات، فيقول: يقتل أربعمائة دارع في غداة واحدة! ينتقد النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-، ولما أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- والناس على الخندق- ليستطلع الخبر، لما بلغه أن قريظة قد نقضت، كانوا في شدة، في شتاء وجوع وخوف شديد، يحاربهم مَن في الأرض، فخرجوا، وضعوا

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، برقم (٢٨٧٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكمِ حاكمٍ عدلٍ أهلٍ للحكم، برقم (١٧٦٨)، ولفظهما: ((لقد حكمت فيهم بحكم الملك))، وهذا اللفظ رواه ابن سعد في الطبقات (٢/٧٥).

النساء في بعض آطام المدينة -أي الحصون- وخرجوا إليهم، وولى النبي -صلى الله عليه وسلم- على المدينة عبد الله بن أم مكتوم -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وأرسل إلى قريظة خوَّات بن جبير وعبد الله بن رواحة والسعدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، فوجدوهم قد أدخلوا مواشيهم ويصلحون الطرق ويهيئون حصونهم، ووجدوهم بشر حال وقد نالوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- وشتموه، فجعل سعد بن عبادة -رضي الله عنه- يشتمهم ويرد عليهم بالمثل، فالشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طلب منهم إن كان ذلك الخبر غير صحيح أن يعلنوا ذلك في الناس، وإن كان صحيحاً أن يلحنوا له لحناً يعرفه، فقالوا: عضل والقارة، وهؤلاء هم القبائل الذين غدروا بالقراء، ودعا عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في القنوت، فكان ذلك -على الأشهر والأرجح الذي عليه عامة أهل العلم- في السنة الخامسة في شهر شوال، وهذا هو الذي اختاره الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن القيم -رحمهما الله تعالى-، وبعضهم يقول كموسى بن عقبة ورجحه ابن حزم وهو المروي عن الإمام مالك: إن ذلك كان في السنة الرابعة، معلوم أن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة في شوال، فيقولون: إن هؤلاء اليهود أرادوا منهم أن يرجعوا ثانية ليستأصلوا المسلمين فجاءوا في السنة الرابعة، والذين يقولون في السنة الخامسة يحتجون أيضاً ببعض الحجج، واستمر الحصار أكثر من عشرين ليلة، وبعضهم يقول: قريباً من شهر، وسلمان -رضي الله عنه- هو الذي أشار على النبي -صلى الله عليه وسلم- بحفر الخندق، ولسنا بصدد ذكر التفاصيل في الوقعة، لكن حفر الخندق من ابتداء الحرة الغربية إلى أطراف الحرة الشرقية تقريباً، واختلف في المدة التي حفر فيها هذا الخندق، لكنها في المقاييس المعتادة المعهودة تعتبر مدة وجيزة جداً؛ لأن الحفر بالمعاول في وقت شدة وجوع، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحفر مع أصحابه، وتعرفون خبره -عليه الصلاة والسلام- حينما خرج عليهم وهم يحفرون في غداة باردة، فقال:

((اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة *** فاغفر اللهمّ للأنصار والمهاجرة)).

وكانوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً *** على الجهاد ما بقينا أبداً

الشاهد: الذين جاءوا، جاءت قريش وما معها من الأحابيش، وليس المقصود بالأحابيش أنهم من الحبشة، أفارقة، لا، هم عرب من بني المصطلق ونحوهم نسبوا إلى جبل قريب من مكة، فهم قبائل عربية يقال لهم: الأحابيش، جاء بنو سليم وديارهم معروفة إلى اليوم، بين مكة والمدينة مما يلي مكة، وجاء بنو أسد وبنو فزارة وأشجع وبنو مرة وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بنحو ألف مقاتل، وهذه الآيات **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}**، جرى التعليق على أول هذه السورة لارتباطه بالوقعة من جهة المعنى، فآيات القرآن الترتيب فيها توقيفي، بمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي أرشدهم إلى هذا الترتيب، فالمناسبات في هذا الترتيب معتبرة، خلافاً للمناسبات بين السور على القول بأن ترتيب السور غير توقيفي، فلما أمر الله -عز وجل- في أولها رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالتقوى ومخالفة الكافرين والمنافقين وأمره باتباع ما أوحاه الله -عز وجل- إليه، وأمره بالتوكل عليه، كل ذلك ذكره قبل ذكر هذه الواقعة، وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ**

عَلَيْكُمْ} فيه إشارة إلى أن ذلك التأييد الذي حصل، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}، هذا التأييد حيث رد عنهم الأحزاب بما ردهم به، فرجعوا بغيظهم، وهكذا أيضاً بقي الحنق والغيظ في نفوس المنافقين فلم يحصل لهم التشفي، وإنما ذلك أثر من آثار الميثاق، كإقامة الدين، والبلاغ المبين، والقيام بما أمر الله -عز وجل- به، وترك طاعة الكافرين والمنافقين، كل ذلك نتيجته هذا النصر المؤزر، فلما كان المسلمون لا يملكون العدة التي يستطيعون بها مقارعة هؤلاء، المسلمون يبلغون نحو ثلاثة آلاف، والكفار جاءوا بنحو عشرة آلاف، فلا يملكون مواجهة هذه الجيوش الجرارة بهذه المساحة الصغيرة من الأرض، فأنزل الله -عز وجل- جنوداً من السماء، فزلزلهم وأرسل هذه الرياح فتحركت بقوة عاصفة وصارت تحمل الأتربة وتملأ عيونهم وأفواههم ووجوههم وقدورهم فتشردت أنعامهم، وجالت خيلهم، وانقلعت خيامهم، وألقى الله -عز وجل- في قلوبهم الرعب، فالشاهد أن الله بدأ بالتذكير بهذه النعمة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، فإن ذكر النعم مؤذن ببقائها وثباتها ودوامها، وهذا الذكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، استحضار النعمة بالقلب، والقيام بألوان العبوديات القلبية من التوكل والصبر والتقوى ومحبة الله -عز وجل- والخوف منه وحده لا شريك له، أضف إلى ذلك العبادات التي تكون باللسان باللهج بذكره، لا بذكر غيره، وقيام الجوارح بالعبودية لله -عز وجل- دون أحد سواه، فهذا التذكير أيضاً يزيدهم يقيناً ويبصرهم بقوة ربهم -جل جلاله-، وأن حاجتهم إليه وفقرهم إليه فوق كل فقر وحاجة، ووجَّه الخطاب إليهم، يا أيها الذين آمنوا؛ لأنه يعنيهم، وهم المتهيئون للقبول، والواقعة كانت تتصل بهم، وفي هذا تخليد لهذه الوقعة، وتخليد لكرامتهم، وما حصل لهم من ألطاف الله -جل جلاله-، وفيه تحقير لعدوهم بشقيه المنافق والمشرك الكافر، وما يعقب ذلك من ذكر اليهود، فالله يأمرهم بذكر هذه النعم؛ ليتجدد لهم الاعتزاز بالدين، والثقة به، وبالصراط المستقيم الذي يسيرون عليه، والثقة بالله ربهم ومليكهم وخالقهم فهو الذي يملك القوى والقُدر، فكل شيء إنما هو بيده -سبحانه وتعالى- له مقاليد السماوات والأرض، فهو القاهر فوق عباده، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}، لمّا قال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام:١١٢]، قال: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٢-١١٣]، {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام:١٠٦-١٠٧]، كل هذه التعليمات من الله -عز وجل-، ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة يونس:٩٩-١٠٠]، وهكذا الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة في أوائلها حيث يذكر بهذه النعمة يبتدئها بالنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأنهم لا يورثونهم إلا الذل والمهانة والاستخفاف، فهو يحذرهم منهم ومن كيدهم وأراجيفهم، وقضية التبني وتزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- من زوجة المتبنَّى زينب بنت جحش بنت عمته -صلى الله عليه وسلم-، كل هذا مجال لإرجاف المنافقين، هم يبحثون عن أدنى فرصة من أجل أن يقوموا بهالة إعلامية يرجفون بها بأهل الإيمان، ولو كان أكبر رأس كرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال الله -عز وجل- في

هذه السورة: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، ما الذي أخفاه؟، ما تجدونه في بعض كتب التفسير لا أساس له من الصحة، الذي أخفاه النبي -صلى الله عليه وسلم- هو ما وقع في نفسه من التخوف من ألسنة المنافقين، فكان يقول لزيد لما تعثرت العشرة وتعذرت بينه وبين زوجه زينب بنت جحش، لما تعذرت العشرة كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ} [سورة الأحزاب:٣٧]، مع أن الله أخبره أنه سيطلقها، وسيتزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك كان يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، يقول: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}، فالشاهد: أن الله -تبارك وتعالى- أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يصغي لهؤلاء ولا يكترث بهم، ولهذا يقول في ثنايا هذه السورة: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} [سورة الأحزاب:٤٨] فُسر بالوجهين، دع أذاهم: بعضهم يقول: معنى ذلك لا توصل الأذى لهم أعرض عنهم، وهذا لا يخلو من إشكال في السور المدنية، والمعنى الثاني: {وَدَعْ أَذَاهُمْ}: لا تلتفت إلى ما يوصلونه إليك من الأذى أعرض عنه، فلا يؤثر في قلبك ونفسك، ولا تضعف من أجله، فالله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}، وقدم الريح هنا باعتبار أن الريح هي التي أطارت بهم، والملائكة لم تقاتل في وقعة الأحزاب، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا}، وهذه الريح هي الصبِّا، وهي الريح التي تهب من جهة الشرق، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((نصرت بالصبِّا وأهلكتْ عاد بالدبور))[6]، والدبور هي الريح التي تأتي من جهة الغرب، {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} [سورة الحاقة:٦]، هذه هي الدبور التي أُهلكت بها عاد، وهذه هي الصبا التي نُصر بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، {بِرِيحٍ} والتنكير هنا يمكن أن يفيد التعظيم، أي ريح عظيمة، قلعت الخيام وأفسدت معسكر المشركين وفرقت جمعهم، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [سورة المدثر:٣١]، بريح، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}، وهم الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، فزلزلوا بهم وألقوا الرعب في قلوبهم، وحصل ما حصل مما تعرفون، ثم يقول الله -عز وجل- عن هؤلاء الجموع الذين تحزبوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى أهل الإيمان معه: {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١٠-١١].

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نصرت بالصبا)، برقم (٩٨٨)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الأحزاب (٢)

من قوله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

القرآن يصور الحال التي كان عليها المؤمنون، كما في قوله سبحانه: **{إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}** [سورة الأحزاب:١٠]، فالمشركون نزلوا، قريش نزلوا في مجمع الأسيال هناك، وجاءت غطفان ومن معهم ونزلوا قريباً من أُحد، فالله -عز وجل- يقول: **{إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}** من فوقكم يعني غطفان وهوازن ومن معهم من أعلى الوادي من الجهة الشرقية كما قاله بعض السلف، **{مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}** وليس معناه: أن هؤلاء جاءوا من الجنوب وهؤلاء جاءوا من الشمال، وإنما **{مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}** يعني: غرب الوادي وشرق الوادي، فبعضهم بينه وبين المدينة الوادي، وبعضهم ليس بينه وبين المدينة شيء، فغطفان ومن معهم نزلوا بذنب نَقمى إلى جانب أحد، والذين جاءوا من أسفل هم قريش نزلوا بمجمع الأسيال بين الجرف والغابة -هكذا ضبطه بعضهم، والمشهور زغابة بالزاي- بعشرة آلاف، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وهو قول مجاهد، أعني: أن قريش نزلت من أسفل المسلمين.

قال: **{وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}** ومعنى الزيغ هو الميل، زاغ فلان: **{رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا}** [سورة آل عمران:٨] الزيغ هو الميل، فإذا زاغ البصر بمعنى أنه انحرف عن الاستواء، بمعنى: أنه لا يرى ما يتوجه إليه البصر، يعني: حينما تُوجه البصر ليرى شيئاً هو لشدة الدهشة ما يراه، البصر مائل من شدة الخوف، لا يستطيع أن يصوب بصره إلى ما يريد أن ينظر إليه من شدة الخوف، يطيش البصر، **{زَاغَتْ الْأَبْصَارُ}** يعني: مالت، فلا يستطيع صاحبها أن يتحكم بها من شدة الهلع والدهشة، **{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}** والحناجر جمع حنجرة بالفتح، وهي منتهى الحلقوم.

بعض العلماء يقول: هذا حقيقة، قالوا: إن العرب يقولون ذلك لمن اشتد خوفه، كما تجدون في قصة بدر، ماذا قال أبو جهل؟ قال: "انتفخ سحر فلان" يعني الرئة، فيقولون: إنها من شدة الخوف تنتفخ، فيرتفع القلب، تحمل القلب معها، وقال بعض أهل العلم: إن الارتفاع حقيقي وإن الرئة رفعته حينما انتفخت، وأكثرهم يقولون: هذا تعبر به العرب كناية عن شدة الخوف، فمن شدة الخوف يكاد القلب ينخلع من محله ليخرج، بلغت الحناجر كأنها تريد الخروج من أماكنها من شدة الخوف، وإذا الإنسان خاف ازداد النبض عنده، فإذا وصل الخوف غايته فإن القلب يكاد أن ينخلع.

{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، تفرقت ظنونهم بالله، فأهل الإيمان قالوا: **{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}** [سورة الأحزاب:٢٢]، وهذا منتهى الثبات، وسيأتي إيضاح المراد بذلك.

والمنافقون قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢] فتفرقت ظنونهم بالله -عز وجل- وساءت هذه الظنون، ونجم نفاق المنافقين، وتكلموا بما لا يليق، وقالوا: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} [سورة الأحزاب:١٣] وبدءوا يتسللون من الموقع.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فلا زال الحديث متصلاً بهذه الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها وقعة الأحزاب، وهنا يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} لما ذكر الله -جل جلاله- الحال الواقعة في تلك الغزوة من شدة الخوف، وما وقع لأهل الإيمان من الزلزلة الشديدة، كما قال الله -عز وجل-: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} وبهذه الزلزلة وما حصل معها من الخوف الذي بلغت معه القلوب الحناجر لشدته يتمحص الصف، ويتميز الناس، وتذهب تلك المجاملات والتصنع وما قد يظهره الإنسان لغيره مما لا يبطنه في قلبه، ففي الشدائد يحصل التمايز بين الناس؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى- في السورة المُقَشْقِشة وهي سورة براءة سورة التوبة التي محصت الناس وميزت بين أصنافهم وفضحت المنافقين يقول: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} [سورة التوبة:١٦] فلابد من هذا الابتلاء ومن هذا التمحيص، فهو وعد ثابت من الله -جل جلاله- لابد أن يقع وأن يتحقق، ولا يختص ذلك بوقعة الأحزاب بل في كل شدة واقعة يحصل هذا التمحيص، وتُعرف حقائق الأشياء وتتكشف المخبآت فتظهر لكل ذي عينين، ويراها الناس ويبصرونها وتتميز المواقف، ويظهر المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب.

فلما وقعت الأحزاب وقع التباين بين الناس آنذاك، فذكر الله مواقفهم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، أي: واذكر: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} سواء كان القائل لذلك هو شخص بعينه كطعمة بن أبيرق أو معتب بن قشير، المقصود أن تلك المقالة صدرت من المنافقين، كما نسبها الله -عز وجل- إليهم، والأسماء المبهمات لا حاجة إليها في مثل هذا المقام، وإنما المقصود الاعتبار، فيكفي أن يبين هنا موقف أهل النفاق في هذه الشدة، فأهل النفاق ظهر منهم التكذيب والشك بل التهكم والسخرية والاستهزاء مع التخذيل والتعويق لأهل الإيمان، والانسحاب من أرض المعركة، فهنا يشكّون في وعد الله -عز وجل-: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، وأما الذين في قلوبهم مرض فمن أهل العلم من يقول: هو وصف آخر لأهل النفاق، فهذا من باب عطف الأوصاف، صفة تعطف على صفة، فهم منافقون ومن صفتهم أنهم في قلوبهم مرض، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * والذي قدر فهدى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤] كل هذا في موصوف واحد، تارة بحذف حرف العطف وتارة مع ذكره، والأصل أن العطف يقتضي المغايرة ولكن ينزل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، فهنا يحتمل أن يكون المقصود طائفة واحدة وصفوا بالنفاق ووصفوا بمرض القلب، ومرض القلب هنا يكون بمعنى النفاق، ويحتمل أن يكون ذلك صدر من طائفتين وهم أهل النفاق ومرضى القلوب، ويكون المقصود بمرضى القلوب هم أولائك الذين قد ضعف إيمانهم إلى حد يمكن

أن يتزعزع أو يحصل لهم التشكيك إذا عرضت الشبهات أو الشدائد أو لاحت لهم الشهوات، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن كثيراً من المسلمين من ضعفاء الإيمان لو عرضت لهم شبهة أو تشكيك أو شدة فإن هؤلاء لربما حصل لهم نوع نفاق، وتحول الإنسان أحياناً من مؤمن إلى منافق؛ ولهذا لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الفتن التي تكون في آخر الزمان قال: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))[1]؛ وذلك لأن دينه لا يساوي شيئاً عنده فهو ضعيف الإيمان، فهؤلاء الذين في قلوبهم مرض يمكن أن يراد بهم ضعفاء الإيمان، وقد جاء هذا في مواضع من كتاب الله -عز وجل-، وجاء أيضاً بمعنى الميل المحرم إلى النساء وهو عائد إلى ضعف الإيمان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} فهنا ليس المراد به النفاق وإنما الميل المحرم إلى النساء، وهذا الميل المحرم إلى النساء إنما يكون مع ضعف الإيمان.

فالمقصود: أن هؤلاء سواء كانوا من ضعفاء الإيمان أو كانوا من المنافقين، ظهر منهم هذا القول: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} ويحتمل أنهم أظهروا ذلك للناس؛ ولهذا لا زالوا يحاولون الإبقاء على خط رجعة فقالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} وإلا فهم لا يؤمنون بالرسول -صلى الله عليه وسلم-، لكن قالوه من باب أنهم لا زالوا يُحسبون على أهل الإيمان، فأرادوا أن يعبروا لهم بعبارة يظهرون فيها نوع موافقة، وإن كانوا قالوا ذلك فيما بينهم أو في أنفسهم فإن ذلك يمكن أن يكون على سبيل التهكم وإلا فهم لا يؤمنون بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}، ولعل من أحسن ما يفسر بالشيء الذي وعدهم الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- والله تعالى أعلم- هو ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما كان يحفر الخندق مع أصحابه، وكان قد قسّم ذلك عليهم، فكل جماعة من أصحابه يحفرون ناحية من الخندق، فعرضت كُدْية -صخرة- لم تعمل فيها المعاول، فدعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فضربها -صلى الله عليه وسلم- بالمعول فانقدحت شرارة، فكبر النبي -صلى الله عليه وسلم- فكبر أهل الخندق، ثم ضرب الثانية واندق ثلثها، وانقدحت شرارة فكبر، فكبر أهل الخندق فانقدح الثلث الآخر، ثم ضربها الثالثة بالمعول فعادت كثيباً أهيلَ، يعني: تفتت، فكبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وكبر أهل الخندق، والشاهد: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلمهم أنه رأى قصور الشام ورأى قصور فارس ورأى قصور اليمن، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وعدهم أن يفتح الله عليهم ذلك، فكان المنافقون يتهكمون يقولون: الواحد منا لا يستطيع أن ينصرف ليقضي حاجته من شدة الخوف ثم يعدنا بأن نفتح قصور الشام وقصور فارس وقصور اليمن، وهذه الممالك الثلاث هي الممكّنة آنذاك، والعرب لا يخطر في بالهم أن يصاولوهم أو أن يطاولوهم أو أن يقتربوا منهم أو أن يحدثوا أنفسهم بغزوهم، بل غاية ما هنالك لربما يتشرف الواحد منهم إذا استطاع أن يزور تلك البلاد ويرى ما فيها فكيف بفتحها؟، فبلاد الشام هي مملكة الرومان وفيها هرقل، وبلاد فارس هي مملكة الفرس، المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي،

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

وقصور اليمن كانت تابعة لفارس، والباقي يعيشون في صحراء أو في جبال ليس فيها ما يُطمع فيه ولا تلتفت إليه أنظار الناس من هذه المطامع الدنيوية، أشتات وقبائل يأكلون الحشرات ولربما الفئران في الصحراء، لا يُعبأ بهم، وكان الفرس يسمون العرب بذباب الصحراء، فتحركت نفوس المنافقين هنا وتنفسوا بهذا النفَس فقالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}.

والغرور هو كل شيء لا حقيقة له، حينما تصور الأمور الصعبة أو السيئة أو الشديدة بصورة الأمور المرغوبة يقال هذا غرور: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة فاطر:٥] وهو الشيطان؛ لأنه يغر الناس كثيراً ويصرفهم عن طاعة الله -عز وجل.

يقولون: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} أي: وعود لا حقيقة لها، فهي غير صادقة لأن هذا غير ممكن، فنحن في حال من الكرب والشدة لا نستطيع أن نذهب ولا نتحرك من المعسكر حتى لقضاء الحاجة فكيف تُفتح هذه البلاد؟ كيف يبشرنا في هذا المقام بهذه الفتوحات العظيمة؟ فلم تقبل نفوسهم هذه البشرى، ولم يرتقِ بهم الإيمان لتصديق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكانوا يستبعدون ذلك كما يستبعده المنافقون في زماننا، فيقول بعضهم: أهل فلسطين لا يستطيعون أن يصاولوا وأن يقاوموا هذه الجيوش التي لا تقهر، فاليهود جعلوا من جيشهم أسطورة الجيش الذي لا يقهر، ونحن نعلم أنه لو حصلت مواجهة حقيقة وجهاً لوجه مع أهل الإيمان لفروا كما تفر الفئران، ولهلكوا ولهلك كثير منهم من الخوف، فاليهود هم أجبن الناس، وطبيعي أنهم يكونون جبناء؛ لأنهم لا يرجون لله وقاراً، ولا يعرفونه، ولا يرجون الدار الآخرة، فإذا فاتته الحياة الدنيا فاته كل شيء، أما الآخرة فكما قال سبحانه: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [سورة الممتحنة:١٣]؛ ولذلك فهم في الحرب يدكون بالمدافع ولا يريدون المواجهة، يدكون كل شيء أمامهم ثم يتقدمون من أجل أن يتقدموا في أماكن لا يوجد فيها أحياء، ولا ما يستر الناس عنهم، ولو حصلت مواجهة لانكسرت هذه الأسطورة، ولسُحبوا في الشوارع وانتهت تلك الهالة التي صنعوها عبر أكثر من خمسين سنة أنها القوة التي لا تقهر.

ويقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا} [سورة الأحزاب:١٣-١٤] وفي القراءة الأخرى: (لأتوها) {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}، {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ} سواء كان هذا القائل هو أوس بن قيضي من بني حارثة من الأنصار -وقال به كثير من السلف-، أو كان عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن معه، وهذا قال به السدي، فالمقصود أنه قالت طائفة من المنافقين، ولا حاجة للتحديد والتعيين لهذا المبهم في تسميته؛ لأن المقصود بيان المواقف، وهذه المواقف تتكرر في كل زمان.

{يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} ففي وقت الشدة تظهر مخبآت النفوس، حتى نسي الاسم الإسلامي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد سماها بعد هجرته بطيبة وطابة والمدينة، فقال: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} رجع للاسم الجاهلي، ويثرب اسم للمدينة جاهلي نسبة إلى رجل يقال له: يثرب من العمالقة يقال: إنه الحفيد الخامس لإرم بن سام بن نوح، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} بمعنى: أن هذا المكان الذي ترابطون فيه ليس

بمحل إقامة، أو لا مكان لكم هنا، وإنما يريدون منهم أن يرجعوا إلى بيوتهم -قبحهم الله-، وإذا رجعوا إلى بيوتهم ستدخل جيوش الأحزاب إلى المدينة، فهذا يخذل أهل الإيمان والمقاتلين الذين يرابطون أمام الخندق، يقول لهم: {لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} فهذه مواقف المنافقين منذ ذلك الحين، وهم يعلمون أن الله يطلع رسوله -صلى الله عليه وسلم- على خباياهم والوحي ينزل فيفضحهم، وأما عمر وأمثال عمر فحضور بين أظهرهم ومع ذلك ما استطاعوا أن يخفوا تلك الأمور التي كانت راسخة في نفوسهم، ما استطاعوا، فكيف في زماننا هذا؟، فمن المتوقع أن يفعلوا كل شيء، بل بعضهم يقول: أنا أتبرع بالدم لليهود ولا أتبرع به للفلسطينيين، كأنه يقول: ما لكم مكان هنا، ما لكم قعود، هنا برد وجوع، ارجعوا إلى بيوتكم، وهذا لا يقوله إنسان عنده نخوة أو شرف فضلاً عن الدين، بحيث يخذل الناس عن الدفاع عن بلدهم، وهذا يدل على أن الشر قديم لا جديد، وإنما فقط تتغير الأسماء والوجوه، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ} أي: يعتذرون، فيقولون: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} فهنا فئة تقول: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}، وفئة تخذّل: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}، وفئة تنسحب من أرض المعركة.

والتعبير في قوله: {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ} بالفعل المضارع يدل على التجدد أن هذا الأمر يتكرر منهم، {لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ} يلحّون بالاستئذان من أجل أن يتخلصوا من هذا الموقف، من الشدة؛ لأنه قد طارت عقولهم وأصابهم من الهلع والفزع ما لا يُقادَر قدره، فأرادوا أن يفروا من ساحة المعركة، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} سواء كان هؤلاء من بني حارثة أو هو أوس بن قيظي من بني حارثة، أو هم بنو حارثة وبنو سلمة، أو كان رجلاً يقال له: أبو عرابة بن أوس مع أوس بن قيظي، المقصود أن طائفة منهم كانوا يستأذنون النبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن ينسحبوا ويرجعوا، ويعتذرون بـــ{إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} جاء بالتأكيد بـــ"إنّ"، والتأكيد بإن يقوم مقام إعادة الجملة مرتين: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} والإنسان يحتاج إلى التأكيد عادة إذا كان يشعر أن السامع لا يثق بكلامه، {يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} والمقصود بالعورة أي: أنها سائبة ضائعة ليست حصينة، يعني: هي عرضة لدخول السُّرّاق وكل من أراد أن يدخلها من الجيش أو غيره، فالعورة في الأصل هي كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب أو غير ذلك؛ ولهذا يطلقونها على الممر بين الجبلين؛ لأن العدو يتسلل منها، يدخل منها إلى البلد، يقولون: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} عرضة مكشوفة، يصل إليها من شاء، فيريدون الذهاب لحمايتها بزعمهم، والله -عز وجل- قد كذبهم بهذا قال: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} هم يريدون الخلاص والنجاة بأنفسهم حيث توهموا أن هذا الفرار ينجيهم من الموت أو القتل؛ لأنهم قد جزموا أن الأحزاب سينتصرون، وسيقضون على النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه، فأرادوا أن ينأوا بأنفسهم عنهم ويكون الواحد منهم مع النساء والصبيان ويقول: أنا لم أقاتل، ولم أعترض طريقكم، بل بالعكس نحن معكم ونؤيدكم ونحبكم وننصركم؛ ولذلك لم نشهد أرض المعركة ولم نشارك في المدافعة.

يقول الله -عز وجل-: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [سورة الأحزاب:١٣-١٤] "دُخلت" ترجع إلى المدينة، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا} والأقطار هي النواحي، بمعنى: لو دخل الأعداء المدينة من نواحيها، ولفظ الدخول غالباً ما

يطلق ويراد به دخول الجيش، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا}، و{قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا} [سورة المائدة:٢٤] فالدخول يطلق ويراد به هذا المعنى، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا} وليس المقصود دخل عليهم بصفته من الضيوف أو بصفته من السياح أو نحو ذلك، وإنما دُخلت عليهم من أقطارها، دخلت الجيوش من أقطار المدينة، {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا} وقرأه ابن كثير ونافع: (لأتوها) وقرأه الباقون: {لَآتَوْهَا}، {سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} بعضهم يقول: القتال للعصبية، يعني: أنهم يفرون من القتال في سبيل الله؛ لأنه لا إيمان لهم، لكن لو طلب منهم، لو جاءهم جيش وغزا المدينة وطلب منهم القتال للعصبية لما ترددوا، فهم جاهليون، والمعنى الثاني أو القول الآخر: {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} أن المقصود بالفتنة الشرك والكفر، بمعنى: لو دخلت هذه الجيوش ثم طلب منهم الكفر بالله -عز وجل- والردة، لقالوا: سمعاً وطاعة، فهم مع من غلب يتلونون، وبعض أهل العلم يقول: المقصود بقوله: {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} أي: أنهم يفتنون المسلمين، أي: الكيد لهم وإلقاء الأراجيف، يقولون: بمعنى لو أنه دخل الأعداء المدينة ثم طُلب منهم أن يقوموا بدور العملاء لما ترددوا، {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} الفتنة بين أهل الإيمان، لو قيل لهم: أنتم تنفذون دوراً محدداً: التخذيل والفتّ في أعضاد الناس والتشكيك بهم وبمشروعية عملهم وجهادهم لقاموا بهذا على الوجه المطلوب، {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا} على قراءة الجمهور {لَآتَوْهَا} لأعطوها لبذلوا لهم ما أرادوا، وعلى القراءة الأخرى: (لأتوها) كأن أهل الإيمان خارج المدينة وهذه الجيوش دخلت (لأتوها) لجاءوا إليهم من أجل التشكيك -على القول الأخير- والتخذيل والإفساد بينهم، كما قال الله -عز وجل-: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة:٤٧] ويحتمل أن يكون المراد (لأتوها) على هذه القراءة، أتوها كأن الفتنة نزلت منزلة المكان الذي يقصد، والمقصود أنهم يقبلون على ذلك، وتتشربه نفوسهم طواعية، فهم ليسوا بأصحاب مبدإ؛ ولهذا لما ظهرت قوة المسلمين بعد غزوة بدر قال عبد الله بن أبيّ لأصحابه هذا، فدخلوا، فلم يكن هؤلاء يملكون من الشجاعة ما يجعلهم يثبتون على مبادئهم ولو كانت باطلة كما حصل للقبائل العربية والذين ماتوا دون عقائدهم وأديانهم، وهؤلاء لا، ليس لهم هدف إلا البقاء، أن يعيش وأن يحرز ماله وولده ونفسه، أما الاعتقاد والدين فإنه مع الغالب.

يحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا} أي: بالمدينة، أي أنهم بعد أن يستجيبوا فيكفر الواحد منهم بالله -تبارك وتعالى- يهلكهم الله ، وهذا قال به طائفة من السلف، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}.

وبعض أهل العلم يقول: أي ما احتسبوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}.

وقوله: {إِلَّا يَسِيرًا} يمكن أن يكون المراد أن مثل هذا الاستثناء كما قال الله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الأحزاب:١٨] يراد به تأكيد المثيل، فالعرب تعبر بمثل هذا تستثني القليل واليسير تأكيداً للنفي من أصله، بمعنى: أنهم لا يترددون ولا يتلبثون ولا يتمهلون ولا يبطئون، لا تريث، مباشرة يبادرون، ويحتمل أنه على ظاهره أنهم لا يطيلون التأمل، يتأملون قليلاً ثم بعد ذلك يسارعون، مع أن المسألة تغيير دين واعتقاد، ولكن هؤلاء أنجاس لا عهد لهم، ولا دين ولا أمانة، ولا اعتقاد يحجزهم عن ذلك.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الأحزاب:١٦-٢٠].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فلا زال الحديث في هذه الآيات عن المنافقين، والأحزاب الذين تجمعوا وتحزبوا وكانوا من طوائف المشركين من أهل مكة والأحابيش وغطفان وسليم وهوازن وغيرهم، والآيات التي تتحدث عن الأحزاب هي ثلاث آيات بما فيها من خطاب للمؤمنين، ثلاث: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:٩-١١] انتهى، وباقي الحديث كله عن المنافقين، والسر هو كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ} [سورة المنافقون:٤] وهذا يشبه الحصر، يعني كأنه لا عدو إلا هم، يعني: هم الكاملون في العداوة، والعدو حينما يأتي من وراء البحار لا يستطيع أن يضرب في العمق إلا عن طريق المنافقين، ويستطيع العدو أن يتوصل إلى أهدافه ومقاصده عن طريق المنافقين، وعن طريقهم يستطيع العدو أن يضرب الأهداف الدقيقة في أحياء مكتظة، فالمنافقون هم الذين يدلون العدو على عورات المؤمنين؛ ولهذا كان خطرهم أشد وأعظم؛ لأنهم يطلعون على خفايا الأمور وبواطن الأشياء فيعرفون ما لا يعرفه العدو الذي لم تطأ قدمه هذه المحالّ قط، ما يعرفها ولا دخلها، وهنا يقول الله -عز وجل- عن هؤلاء: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} هذا العهد كان بعد بدر -لأن النفاق لم يظهر قبل ذلك على المشهور- وقبل وقعة الأحزاب، ويحتمل أن يكون هؤلاء ممن تحركت نفوسهم حينما طار ذكر أهل بدر وصار لهم من المكانة والمنزلة عند الله وعند أهل الإيمان فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولنفعلن ولنفعلن، كما قال بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، ويحتمل ولعله الأقرب أن يكون هؤلاء ممن حصل لهم تضعضع في غزوة أحد، عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، بمعنى: لا ينهزمون، {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} فبنو حارثة وبنو سلمة، كما قال الله -عز وجل-: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} [سورة آل عمران: ١٢٢] بمعنى: يحصل لهم تراجع في يوم أحد؛ لأن عبد الله بن أبي رئيس المنافقين رجع بثلث الجيش بحجة سخيفة: أنه لم يكن هناك قتال، هذا من جهة، والمبرر الثاني: أنه كيف يطيع النبي -صلى الله عليه وسلم- هؤلاء الشباب من أهل الحماسة ونحو ذلك، ويخرج خارج المدينة ويعصينا، وهذا لا يبرر أن يرجع بثلث الجيش ويحصل هذا

الخذلان العظيم لأهل الإيمان، ويوجد من يغتر به ويحسن الظن به، فكاد بنو سلمة وبنو حارثة أن يتضعضعوا في تلك الوقعة في يوم أحد، {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} والفشل معناه: النكوص على الأعقاب والهزيمة، {وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا} فهذا يدل على أنهم من أهل الإيمان، لكن كان فيهم شيء من التضعضع والضعف، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها، فلما كانت وقعة الأحزاب بدأ مسلسل الهزيمة في النفوس الضعيفة، فبدأ طوائف من هؤلاء يعتذرون، سواء كانوا منافقين أو من ضعفاء الإيمان كما سبق، ويحتجون بأن بيوتهم عورة وهم يريدون الخلاص والفرار، التخلص من الموقف؛ لأنهم لا يستطيعون المواجهة، فلابد أن يبرروا هذا بتبرير، لا يستطيعون أن يعلنوا هذا صراحة، ويقولوا: نحن لا نستطيع أن نواجه الأعداء، لكن يقولون: بيوتنا عورة، ويمكن للعدو أن يتسلل منها فيصل إلى بيوتنا، فنحن بحاجة إلى حفظها ورعايتها والمحافظة على مصالحها، فلا نستطيع أن نقدم شيئاً، والعهد -عهد الله-: {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} وكل عهد يوثقه الإنسان مع ربه، ويدخل في هذا النذر واليمين، {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} [سورة التوبة: ٧٥] فهذا عهد مع الله -عز وجل- وعهده مسئول، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} فيه تهديد مغلف، تهديد مبطن، فالمساءلة تعني المحاسبة، أن الله سيسألهم عن هذا العهد، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف: ٦]، ثم قال الله رداً عليهم لما كشف حقيقتهم وخبيئتهم قال: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} [سورة الأحزاب:١٦]، لمّا قال: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} تولية الدبر بمعنى الهزيمة، يكنى به عن المنهزم؛ لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه، وهؤلاء عهدهم ألا يفروا: {لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} فالذي يُقبل بوجهه؛ ولهذا عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- عندما أصيب بحجر، حينما كان الحجاج يرمي الكعبة والحرم بمدافع المنجنيق فأصابه حجر في وجهه فوجد حرارة الدم ونزل على قدميه في مقدمها، فقال:

ولسنا على الأعقابِ تَدْمى كُلومُنا *** ولكنْ على أقدامِنا تَقطُرُ الدِّما

والمنهزم يسيل الدم -إذا ضُرب- على عقبيه، العقب هو مؤخر القدم، يسيل على ظهره أو يصل إلى قدمه، فارّ: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة الأنفال:١٦]، وهنا قال الله -عز وجل-: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} قد يعزم الإنسان على الصبر كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ولكنه ينفرط صبره عند المواجهة فيضعف؛ ولهذا يذكر شيخ الإسلام في بعض المواضع من كتبه أنه في مثل هذه الأحوال يظهر نفاق وتختل المواقف وتضطرب النفوس، فهنا الله -تبارك وتعالى- يبين لكم حقيقة ثابتة، وهو أن الفرار لا ينجي من المقدور، ما قدره الله -عز وجل- لهم كائن لا محالة، لابد أن يقع؛ ولهذا يقول الشاعر:

لو أنّ عبداً مُدرِكُ الفلاحِ ***أدركَه مُلاعِبُ الرماحِ

والمقصود بالفلاح البقاء.

يعني: عكس ما يظنه الجبناء، لو أن أحداً يُكتب له الخلود والبقاء لحصل ذلك للذي يلاعب الرماح، الذي يرقص للموت؛ لأنه ((لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))[٢]، أكبر قضيتين يقلق الإنسان لأجلهما قضية الأجل وقضية الرزق، فجاء بهذا النص المحكم بيانُ حالهما، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} [سورة آل عمران:١٥٦]، فهؤلاء لا يؤمنون بالقدر، {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}؛ لأن الإنسان يتآكل، إذا كان يظن أنه يمكن أن يدفع القدر بمثل هذه الاحترازات، يقول: لو ما فعل، لو أطاعوني، لماذا يروح؟، لو أطاعونا {مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [سورة آل عمران:١٥٦-١٥٨] فهذه أمور، ويقول: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٥]، ويقول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [سورة البقرة:٢٤٣]، فهؤلاء فروا من الموت فأصابهم الموت، ويقول: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة آل عمران:١٦٥-١٦٨] يا حكماء: باحترازكم هذا وباحتياطكم وبتخوفكم هذا ادفعوا عن أنفسكم الموت، مات الجيل وانتهى، طويت تلك الصفحة وذلك الجيل وبقيت المواقف المشرفة، المواقف البيضاء الناصعة، وظهر نفاق المنافقين، فهذه الشدائد كما قال الشاعر:

جزى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ *** عرفتُ بها عدوّي مِن صديقي

فيتبين بجلاء أحوال الناس ومواقف الناس، وما يختلج في نفوسهم، وتظهر مخبآت النفوس في حال الشدة، يعرف الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والعدو من الصديق، والله يقول: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ} [سورة النساء:٧٨] أنت السبب، أنت الذي جررت علينا هذه الويلة، أنت الذي أوقعتنا في هذه الحرب، {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [سورة الجمعة: ٨] يواجههم، يذهبون إلى آجالهم وحتوفهم فيتساقطون إذا حان الأجل، وبالطريقة التي كتبها الله -عز وجل- لهم، فكم من أناس فروا من حروب أرادوا السلامة والنجاة فوقع لهم ما حصل به موافاتهم وهلاكهم؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {قُل لَّن

---

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، برقم (٢١٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٤٢).

{يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} والقلة هنا بمنزلة العدم، التمتع القليل يعني إلى حيث قدر الله لكم الآجال فقط وإلا فلن تستطيع أن تزيد على الأجل لحظة، فهؤلاء الذين يلقون الموت من إخواننا في غزة يموتون بآجالهم ولكن كما قال الله -عز وجل-: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة آل عمران:١٤٠-١٤٣]، ثم يربيهم التربية العالية ألا يتعلقوا بالقيادات ولا بالأشخاص: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٤] فالتعلق بالله وحده، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس مخلداً، {أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} فكيف بمن دونه إذا قتل رموز وقيادات وقدوات وما أشبه ذلك؟! فليس معنى ذلك أن يتراجع البقية، بل يسيرون على الطريق نفسه؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ} [سورة آل عمران:١٤٦] كثير من الأنبياء قتلوا، ثم قال: {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} ربيون يعني جماعات، كثير: أتباع، لما قتل النبي ما أظهروا للعدو تمسكناً وضعفاً وذلة، لم يظهر عليهم الضعف في الظاهر ولم يفتّ ذلك في أعضادهم فيقع لهم الضعف في الباطن فتنكسر قلوبهم، ولهذا جمع هذه الأشياء ونفاها قال: {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ} فلم يوجد ذلك في دواخل نفوسهم ولم يظهر على جوارحهم، {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ} يثبت على الموقف ويصبر حتى يلقى الله -عز وجل-، ولن يموت إلا بالأجل، الله يحب الصبر، {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [سورة آل عمران:١٤٧] هذا هو المطلوب الأكبر، ثم قال: {وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ} [سورة آل عمران:١٤٧-١٤٨] فثواب الدنيا كثير: النصر، الذكر الجميل، يطير ذكرهم في أهل الإيمان، وغير ذلك.

والأمة من جاكرتا إلى المغرب كيف تهتف لأهل غزة؟ قد انقلب السحر على الساحر، السحرة خنقوهم وصرح بعض كبارهم: لا يمكن أن نسمح لإمارة إسلامية تقوم بجوارنا، هي هذه القضية، ليست إطلاق صواريخ، فقبل أن يطلقوا صاروخاً واحداً، ومنذ أن رشحوا بالطريقة التي يريدونها –الانتخاب- مباشرة أعلنت أمريكا: هؤلاء لا نتعامل معهم، فهم مجموعة إرهابية، فخنقوهم وحاصروهم، وهم في حال حرب مع هذا العدو، هم في جوع وحال لا يعلمها إلا الله، واستهداف للقيادات وقنص منهم، فالقضية ليست هي إطلاق صواريخ؛ ولذلك يعرض عليهم باختصار يمكن أن يقال له: "تأكل عيش وتمشي في ظل الحيط"، فالقضية يريد لها الأعداء أن تموت وأن تتطبع العلاقات، ولكن يظهر من الوسط ويقول: لا إله إلا الله، أول مرة نسمع رفع شعار لا إله إلا الله في أرض المعركة، وسمعنا في الإذاعة مقابلات مع الصغار والكبار والجرحى والمصابين لا إله إلا الله، توكل وثبات وصبر ورضا بالله -عز وجل- وتكبير، جاءهم شيء لا قِبل لهم به، لا يمكن أن يصبروا عليه.

فالشاهد: أن الله -تبارك وتعالى- يقول: {قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}، فإذا أراد الله بكم شيئاً لابد أن يكون، {مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ} فهي كأنها تعليل للجملة التي قبلها، {قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [سورة الأنعام:١٧]، وقال: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [سورة يونس:١٠٧]، فهنا: {وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} إذا أراد الله بهم أمراً أوقعه، {وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} فالولي هو الناصر، فلا يجدون ولياً يواليهم ويحفظهم ويكلؤهم ويمنعهم من الله -عز وجل-، ولا يجدون من ينصرهم من بأس الله -جل جلاله- فيتخلصوا، إذا أراد الله بهم شيئاً لابد أن يكون، فالمفر إلى الله وحده لا شريك له، ليس هناك أحد يلجأ إليه إلا إلى الله، ولهذا هذه الآيات تؤصل معانيَ كبيرة جداً تربطها مع أولها: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:١-٣]، هذه الآيات الثلاث إذا عمل بها أهل غزة انتصروا بإذن الله، {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة البقرة:٢٤٩-٢٥١]، فكل شيء بيده، فهذه الآيات الثلاث هي الأصول الكبار التي ينطلق منها أهل الإيمان، {اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} عن علم نافذ، ووضْع الأمور في مواضعها، وليس هناك مخرج إلا بالعمل بما أمر الله -عز وجل- به، والكفار لا يمكن أن ينصروا المسلمين فنستجديهم وننتظر منهم أن ينصفونا وأن يعطونا وأن يوقفوا عدونا عند حده، فهم معه، ما ننتظر منهم قليلاً ولا كثيراً، ليس لنا إلا الله وحده لا شريك له فقط، لا ننتظر منهم شيئاً، هم كلهم أعداء.

في وقعة الأحزاب اجتمع المشركون واليهود والمنافقون، وفي هذه الوقعة اجتمع اليهود والنصارى والمنافقون، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الأحزاب:١٨-٢٠].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} اشتهر أن "قد" إذا دخلت على الفعل المضارع فإن ذلك يكون للتقليل، ويمثلون لهذا بأمثلة معروفة، يقولون يقال: قد يجود البخيل وقد يكبو الجواد، ويراد بذلك التقليل، وهذا قد ذكرتُ فيه قاعدة في درس قواعد التفسير، وهي أن "قد" إذا دخلت على الفعل المضارع المضاف إلى الله -عز وجل- فإن ذلك يكون للتحقيق، {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} [سورة النور:٦٤]، يعني: قد علم، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ}، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٤٤] يعني: قد رأينا تقلب وجهك في السماء.

ومن أهل العلم كابن عاشور صاحب التحرير والتنوير من يعترض على هذا من أصله ويقول: إن "قد" إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها لا تدل على التقليل، وإنما فُهم التقليل في بعض المواضع لدلالة الحال على ذلك، يقول: لا يصح أن يعمم هذا في حكمها، ويقال: إن الأصل فيها أنها للتقليل.

وهذا الخطاب: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} فالضمير في قوله: {مِنكُمْ} بعض أهل العلم يقول: موجه إلى إلى المنافقين؛ لأن الله -تبارك وتعالى- خاطبهم بقوله: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} يعني: معاشر المنافقين، وهذا له وجه من النظر، ولكن المستبعد أن يكون ذلك الخطاب موجهاً لليهود، أنّ يهود قريظة قالوا للمنافقين: هلم إلينا من أجل أن تحرزوا دماءكم وأموالكم فلا يقع عليكم قتل أو سبي، فهذا الخطاب: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} يبعد أن يراد به اليهود، فهو خطاب للأمة في ظاهره، والمنافقون مندسون في الصف ويتظاهرون بالإسلام، فصح أن تخاطب الأمة بهذا الخطاب ويتوجه إلى هؤلاء المنافقين، ولهذا فإن بعضهم يقول: إن المنافقين قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، يعني: قلة حفنة، يقولون: لو كانوا لحماً لأكلهم أبو سفيان ومن معه، فهم عدد قليل، قالوا: وهو هالك ومن معه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يستغرب من المنافقين؛ لأن التثبيط هو عادتهم، والله -عز وجل- يقول عنهم في سورة براءة: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [سورة التوبة: ٤٧] فلا خير في المنافقين ولا يُنتظر منهم شيء، فينبغي أن تفطم النفوس من أن تتطلع إلى شيء يكون منهم، ليس عندهم إلا التخذيل والتثبيط والإفساد والإيقاع بين أهل الإيمان، وقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} لم يرد في نزول ذلك سبب صحيح، وبعضهم يقول: إنها نزلت في رجل قال لأخيه هذه المقالة؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، ويحتمل أن يكون الذين قالوا لإخوانهم هؤلاء: هم المذكورون قبلهم وهم المعوقون، فيكون ذلك من باب عطف الصفات، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} فهي أوصاف لموصوف واحد لطائفة واحدة، يحتمل، وقد ذكرت في مجلس سابق ما يشهد لهذا، ويحتمل أن يكون المعوقون فئة، وأن الذين قالوا لإخوانهم هلم إلينا هم فئة أخرى وكلهم من المنافقين، جاء رجل -لو صحت الرواية، وهذه الروايات في سبب النزول لا تصح- رجع من الخندق استأذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوجد أخاه يأكل لحماً، فقال: أنت في هذا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الخندق، فقال: هلم إلى الطعام كُلْ، وقال ما قال، يعني: يقول هؤلاء: ما محمد ومن معه إلا أكلة

رأس، أي: أن المشركين سيقضون عليهم، فهذا ظنهم بالله -عز وجل-، وهذا ظنهم برسوله وبأهل الإيمان، خيب الله تلك الظنون، وسيأتي ما يدل على أنهم كانوا يجزمون بهذه الظنون الكاذبة، وقد ملئوا أيديهم من هذه الأوهام وظنوا أن ذلك لابد أن يتحقق ويقع، كما سيأتي عند قوله -تبارك وتعالى-: {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} [سورة الأحزاب:٢٠].

المقصود: أن من شأن المنافقين التخذيل والتثبيط والتعويق؛ ولهذا ذكر الله -عز وجل- صدهم عن سبيل الله، وهم في هذا الصد {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [سورة المجادلة:١٦] كالترس وقاية، تصدر منهم الأفعال والأقوال الشنيعة فإذا وُجهوا حلفوا أنهم ما فعلوا وما قالوا: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ} [سورة التوبة:٧٤]، فهؤلاء {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦]، الفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وتدل على التعليل، فالذي جعلهم يصدون عن سبيل الله هو الأيمان، لما رأوا ذلك يروج إذا حلفوا استمرءوا القضية فصدوا، وفعل الصد يأتي متعدياً ولازماً، بمعنى: صدوا في أنفسهم إذا فسر بأنه لازم، صدوا بقوا على الكفر والرجس، والمعنى الثاني: {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي: صدوا أهلَ الإيمان صدوا غيرهم، صدوهم عن اتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، صدوهم عن الإنفاق، صدوا غير المؤمنين عن الدخول في الإسلام، كل هذا داخل في هذا المعنى.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} يقولون لإخوانهم: هذه الأخوّة إذا قيل بأن المتكلم القائل هو المنافق فإن كان وجّه ذلك إلى المنافقين ومن هم على شاكلته فلا إشكال، فهذه أخوة في الدين والاعتقاد، وإن كانوا قد وجهوا ذلك لأهل الإيمان فإن هذه الأخوّة بحسب الظاهر، هم يتظاهرون بالإسلام فقالوا لهم ذلك، أو بحسب الأخوة أو الرابطة أو الاجتماع في البلد الواحد أو القبيلة الواحدة، يعني: قالوا لقومهم لقراباتهم لعشيرتهم لجماعتهم أو لأهل بلدهم، كل ذلك يصح أن يقال فيه: إنه أخ: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً} [سورة الأعراف:٦٥] وهكذا، فخاطبوهم بهذا: هلمّ إلينا من أجل أن تَسْلموا، ومن أجل أن نتخذ لكم عهداً وعقداً ووعداً من المشركين، فإذا دخلوا المدينة قلنا لا، هؤلاء تبعنا، هؤلاء معنا، لا يمسهم السوء، كما جاء أحد المنافقين في حرب غزة القائمة -معلوم النفاق- إلى جماعة الجهاد التي في غزة وقال لهم: هذه الحرب يقصد بها حماس ولا شأن لكم بها، وأنا سأتفق لكم مع إسرائيل ألا يمسوا مواقعكم ومقراتكم ورجالكم، فقالوا له: لسنا مع حماس بل نحن حماس، ثبتهم الله في هذا الموقف.

قال: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} -قبحهم الله-، والقلة هنا يمكن أن تكون بمعنى العدم، يعني: لا يأتون، كما ذكرت في بعض الأمثلة سابقاً، لا يأتون أصلاً، ويمكن أن يكون هؤلاء يأتون من أجل الدسائس، ومن أجل إثبات حضور ليحصلوا على غنيمة إن وجدت، وثالثاً لربما يأتي الواحد ويمر لدفع التهمة، يمر، ويجيء من أمام عمر: يا أبا حفص سلام الله عليك ويمشي، كأنه يقول: أنا حضرت، ثم ينطلق إلى امرأته.

{وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ} والبأس هي الحرب، {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} ثم قال: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} أشحة بالغنيمة إذا وُجدت، طالبوا بها بقوة، لم يتركوا شيئاً، أو أشحة بالخير، أو أشحة بالنفقة في سبيل الله، أو أشحة بأنفسهم لا يقاتلون معكم، كل ذلك واقع، {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} فهي عامة، كما اختار ذلك كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير

-رحمه الله-، عامة في كل شيء، كل هذه المعاني التي ذكرها السلف، أشحة في كل ما يُشح به: أشحة عليكم بالرأي السديد، أشحة عليكم بالمشورة، أشحة عليكم بالنفقة، أشحة عليكم بأنفسهم، لا يُنتظر منهم شيء، لا تنتظر من منافق شيئاً، هو لو يكف شره فهذا مكسب كبير جداً، ولكن هيهات؛ ولهذا ينبغي أن يتفطن لهذا الدرس، وأن يدرك إخواننا في غزة هذا المعنى، لا ينتظروا من أعدائهم من اليهود والنصارى أن ينصفوهم، ولا من المنافقين أن يعينوهم أو ينصروهم إطلاقاً.

{أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} هذا يصف بدقةٍ الحالَ التي عليها أهل النفاق، والذي أوقعهم في هذا النفاق والتلون أنهم أرادوا أن يحرزوا أموالهم ودماءهم، أما المبدأ والدين فهذا غير وارد، وهي ليست قضية بالنسبة إليهم، فهم في غاية الهلع، وغاية الواحد منهم أن يبقى حياً وأن يحفظ متاعه وماله.

{فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ} والمقصود بالخوف الحرب، إذا قامت الحرب، {رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} الخطاب موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، {يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} الذي يُغشى عليه من الموت تتحرك رأسه، لا يكاد هو يتحرك، العيون هي التي تذهب هنا وهنا، فعيونه تتحرك بجفنيه، فهو من شدة الخوف لا يستطيع أن يلتفت؛ لأنه يخشى في هذه الالتفاتة أن يؤتى من هنا، جامد في مكانه، والإنسان إذا كان في غاية الخوف فإنه يترقب ويحرك العينين بطريقة بطيئة، والقرآن يصور بدقة حتى حركة العين للمنافق {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} وهذا يدل على أن القضية كأنهم سُلبوا الأرواح.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الأحزاب (٣)

من قوله تعالى: {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

فهو من شدة الخوف لا يستطيع أن يلتفت؛ لأنه يخشى في هذه الالتفاتة أن يؤتى من الجهة الأخرى، فهو جامد في مكانه، والإنسان إذا كان في غاية الخوف ويترقب من أي جهة يؤتى فإنه يحرك العينين بطريقة بطيئة، والقرآن يصور بدقة حتى حركة العين للمنافق، {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [سورة الأحزاب:١٩]، وهذا يدل على أن القضية كأنهم سُلبوا الأرواح، يعني: أن قواهم قد انتهت وخارت، في غاية الهوان والضعف، {كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، ينظرون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا سيصدر منه؟ وكيف سيتصرف في هذا الموقف؟، وما هي القرارات التي ستصدر الآن؟ فلعله يسالم هؤلاء، ولعله يستسلم، ولعله يفعل شيئاً من شأنه أن يسكن هذه الحرب، وتنتهي، {يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} [سورة محمد:٢٠]، {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} تتقلب أعينهم من شدة الهلع، {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، سلقوكم: السلق هو الصوت القوي والصياح، يرفع صوته ويخاصم، ولا يتكلم بهدوء فيسمع، يقول ابن عاشور: رفعوا أصواتهم بالملامة على التعرض لخطر العدو الشديد، وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسالمة المشركين، يعني: إذا بدأ الخوف بدءوا بالملامة والسلق، ألسنة حداد، أنتم الذين تسببتم بهذه الكارثة، أنتم اللذين فعلتم كذا، أنتم الذين تحرشتم بهذا العدو حتى جاء بساحتنا، أنتم الذين فعلتم وتركتم، بدأت الألسن الحداد، ويمكن أن يكون هذا المراد، فهم يسلقونهم، ولم يحدد الله -عز وجل- سلقوهم في ماذا، {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، إن طالبوا بالغنيمة سلقوكم بألسنة حداد، فهم يسلقونكم بالأذى في الكلام، وهذا من لازم ما سبق، يسلقونكم بالأذى، ويتكلمون بصوت مرتفع، وبقول يجرح، لا يراعون لأحد حرمة، ولا يتأدبون في خطاب إذا ذهب الخوف، سواء كانوا يطالبون بالغنيمة، أو يلومون المسلمين حيث يرون أنهم تسببوا لهم بهذه المعركة، كل ذلك واقع، وخلافاً لمن قال: {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يعني: نفاقاً يعطونكم من الكلام المعسول؛ من أجل أن يمحوا الصورة السابقة ومواقف الرعب والهلع، والمواقف المشينة.

أفي السلم أعْياراً جفاءً وغلظةً *** وفي الحرب أمثالَ النساءِ العَوارك

ثم قال: {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}، يعني: خاصموكم ولاموكم، وسلقوكم بهذه الألسن الحداد في حال كونهم أشحة على ما فيه الخير للمسلمين، فخصامهم حينما يخاصمونكم ويعاتبونكم ليس من باب الشفقة عليكم؛ لئلا تتعرضوا للأخطار، وإنما هو نوع تنفيس من نفوسهم المليئة بالضغائن والأحقاد، فيصدر منهم هذا القول الذي يسلقونكم به، ويحتمل أن يكون المراد {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} أي: المال، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [سورة العاديات:٨]، في غاية الحرص إن كان هناك غنيمة.

قال: {أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا}، فبين حقيقتهم، ثم رتب على هذا حكماً {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} بمعنى: أبطلها، فكل من لم يكن مؤمناً أو كان مؤمناً فحصل له نفاق أكبر فإن ذلك يكون سبباً لحبوط الأعمال، والله -عز وجل-

يقول: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨]، وقال: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [سورة الزمر:٦٥]، فالشرك محبط للأعمال، ثم قال: {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [سورة الأحزاب:٣٠]، هذا خبر من الله -جل جلاله- يراد به تحقيرهم، وهو أنه لما أخرجهم من حظيرة الإسلام فأحبط أعمالهم لم يعبأ بهم، ولا عد ذلك ثُلْمَة في جماعة المسلمين، فلا شأن لهم، كالأوباش، فئة تتربص بأهل الإيمان {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، لا شأن لهم ولا قدر لهم، ولا منزلة لهم عند الله -جل جلاله.

ثم ذكر صورة أخرى تبين الحالة التي يعيشها هؤلاء المنافقون من الخوف والهلع والرعب، كما جاء وصفهم في سورة "المنافقون" في قول الله -تبارك وتعالى-: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [سورة المنافقون:٤]، وهنا قال: {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} [سورة الأحزاب:٢٠]، وقد يفهم من هذا أن الأحزاب ذهبوا على حين غفلة من المنافقين؛ لأن المنافقين انسحبوا من الصف، فهم في بيوتهم، فالأحزاب ذهبوا وولوا وجاءت الريح وزلزلت وشاهد ذلك أهل الإيمان، {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}، وهؤلاء لا زالوا على ظنهم أن الأحزاب مرابطون ومحاصرون للمدينة، فلا زالوا يتوهمون ويعتقدون هذا، وأن القضية لم تنته بعد وسيدخلون المدينة ويقتلون النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه، ولذلك {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، لا زالت الألسن على أشدها، يظنون الأحزاب لا زالوا، وسيدخلون المدينة ولن يكون هناك انتقام من هؤلاء المنافقين، فهم لا زالوا يلومون المسلمين أن تعرضوا لعدو كثير العدد، ويحتمل أن يكون هذا -ولعله أقرب- استئنافاً، فيه ذكر صفات أخرى لهؤلاء المنافقين، فهو يعدد أوصافهم، وعلى كل حال بعضهم يقول: إنهم كانوا {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}، ولذلك كانوا يعتزون على المسلمين ويتطاولون عليهم؛ لأن هؤلاء يعتزون بالأحزاب، وذلك أن الأحزاب حلفاء لقريظة، وكان المنافقون أخلاء لليهود، فهم منتفشون متطاولون من أجل أن هناك ذراعاً ستحميهم، وما علموا أن الأحزاب قد ذهبوا، فلا زالوا في غاية التوجس والخوف والهلع، ولا زالوا يظنون أن الأحزاب باقون في حصار المدينة.

ثم قال الله -عز وجل-: {وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ} يعني: في مرة أخرى في غزو آخر، {يَوَدُّوا} يعني: المنافقين {يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}، يعني: لا تحصل لهم هذه الورطة ولا تتكرر داخل المدينة، فيتوجسوا أي لحظة أن يدخلها الأحزاب، وإنما يكونون بعيداً {أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}، بادون أي في البادية: أنهم مقيمون في البادية، {يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}، يسألون عن أنبائكم من بعيد، ما فعل محمد وأصحابه؟، وهم في مأمن وفي منأى عن هذه الأخطار، هذه حال المنافقين، وختم الآية بقوله: {وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}، كما ذكر الله -عز وجل- حالهم الواقعة حينما جاء الأحزاب، هذه جملة من أحوال المنافقين يصفها الله بدقة حتى حركة العيون.

نسأل الله -عز وجل- أن يبارك لنا ولكم في القرآن العظيم، ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وأن ينصر إخواننا المجاهدين في غزة، وأن يثبت أقدامهم وأن يربط على قلوبهم، وأن يجمع كلمتهم على الحق، وأن يتقبل قتلاهم، ويشفي مرضاهم ويداوي جرحاهم، وأن يغنيهم من فضله العظيم، ولا يحوجهم لأحد من خلقه، اللهم أغنهم عن خلقك أجمعين، اللهم عليك باليهود، اللهم شتت شملهم، وفرق جمعهم، واجعل الدائرة عليهم، اللهم

عليك بهم فإنهم لا يعجزونك، اللهم حول عافيتهم إلى بلاء، وقوتهم إلى ضعف، وجمعهم إلى شتات، اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:٢١-٢٤].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- بعدما ذكر أحوال المنافقين ووبخهم وجه الخطاب إلى أهل الإيمان فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، يحتمل أن يكون هذا من قبيل الخبر، يخبر الله -عز وجل- عن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصادقين حيث كان لهم أسوة برسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون ذلك من باب الحث، يحثهم فيه -تبارك وتعالى- على الاقتداء برسولهم -صلى الله عليه وسلم-، وهذه الآية كما قال الله -جل جلاله- في سورة المُقَشْقِشة المبعثرة الفاضحة سورة براءة التي فضحت المنافقين وبعثرت ما في نفوسهم وأحرجتهم وهتكتهم وفضحتهم، يقول الله -تبارك وتعالى- فيها عن المنافقين، وقد تحدث فيها طويلاً عنهم: {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة:٨٧]، والقلب إذا طُبع عليه فهو يعيش في غيّه وضلاله وباطله لا يتجاوب مع ما تدعوه إليه، ولا يشعر بما تشعر به، وتوجه له الآيات والنصوص وكأنك تنفخ في رماد أو تصوت في وادٍ، فهو في عالمه لا يشعر بشعور أهل الإيمان، {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ * لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [سورة التوبة:٨٧-٨٨]، وهنا يقول: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، الإسوة لغة وبها قرأ الجمهور، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، وفي قراءتنا التي نقرأ بها وهي قراءة عاصم {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، أُسوة، والأسوة اسم لما يؤتسى به، أي يقتدى به، ويعمل مثل عمله، تقول: فلان قدوة، يعني: أن الناس يقتدون به، ينظرون إليه في مقاله وفعاله، فيحتذون حذوه، وإنما تكون الأسوة والقدوة والاتباع بالكامل من الناس، والشخصيات الكاملة، الكاملة في إيمانها في شخصيتها في شجاعتها في صبرها، في ثباتها، في جهادها، في دعوتها، في إخلاصها لمبادئها، كل هذه الأمور، وهذا الذي يؤتسى به ويقتدى به، وينظر إلى فعاله، ويحتذى حذوه، هنا جعل متعلق الائتساء، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ}، فجعل ذات النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يذكر وصفاً خاصاً؛ وذلك من أجل تحقيق العموم فيؤتسى به -صلى الله عليه وسلم- في كل شيء في أقواله، وأفعاله، وشجاعته، وصبره، وثباته، وشخصيته، وسمته، وهديه، وكل هذه الأمور، فهو الشخصية الكاملة، فمن أراد الكمال فليقرّب أكثر من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والشباب الذين يقتدون أحياناً بفلان وفلان من المهرجين، أو من شياطين الإنس والجن في مشرق الأرض أو

في مغربها أخطئوا الطريق؛ لأن هؤلاء الذين يقتدى بهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يحملون قيماً، ولا كمالات، فلا يستحقون أن يكون الواحد منهم قدوة، فهو مجرد مهرج أو مغنٍّ أو راقص، والفتاة لربما تقتدي بعارضة أزياء أو ممثلة، أو مغنية أو غير ذلك، فتلبس لبسها، وتظهر بمظهرها، وتسرح شعرها على طريقتها، وما يزيدهم ذلك إلا نقصاً، وهم يتوهمون أنهم يحصّلون الكمالات، والاقتداء إنما يكون بالكامل من الناس، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكمل شخصية، ولكن هذا الائتساء به -عليه الصلاة والسلام- منه ما يكون واجباً، ومنه ما يكون مستحباً، ومنه ما لا يطلب من المكلفين أن يحاكوه به؛ لأنه من الأمور التي يسميها الأصوليون بالعادية، يعني: أمور العادات المحضة، لكن من فعل ذلك فإنه يؤجر على قصد الاقتداء والائتساء والمحبة، مع ملاحظة أن لا يكون ذلك من قبيل مظاهر الشهرة إذا تغير الزمان، فلا يطلب من الإنسان الآن أن يلبس الإزار أو العمامة أو الخاتم على خلاف في بعض هذه الأمثلة، فهذه من أمور العادات، وهي من أفعاله - صلى الله عليه وسلم - الجبلية، وابن عمر كان يقضي حاجته في المكان الذي قضى به النبي - صلى الله عليه وسلم - حاجته في الطريق نفسه، فهذا اتباع دقيق، لكن الشارع لم يطلب ذلك، فمن فعله فإنه يؤجر على هذا، لكن ذلك لا يطلب، ولهذا لم يفعله عامة الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وهناك أشياء عُلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحبها، كالقميص من الثياب، والدباء من الطعام مثلاً ويتتبعه، وكان يحب -صلى الله عليه وسلم- الحلوى -الحلو البارد-، وكان يحب الطيب -صلى الله عليه وسلم-، فمن أحب هذه الأشياء وتتبعها فهذا ليس كالأول، وأما الأمور التي فعلها -صلى الله عليه وسلم- على سبيل القربة فهذا هو المشروع الذي طولب المكلفون به إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الاستحباب، وهذه خلاصة لتفاصيل طويلة في كلام أهل العلم من الأصوليين، فعلق الإئتساء بشخصه -صلى الله عليه وسلم- ليكون عاماً، ولم يقل: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} في ثباته مثلاً، وإنما أطلق، فيشمل ذلك الائتساء بأقواله وأفعاله، بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بشخصيته -صلى الله عليه وسلم- وصبره وثباته وشجاعته وجوعه كما نقل ذلك عن بعض السلف، فكان -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الخندق يربط على بطنه الحجر، وحديث جابر -رضي الله تعالى عنه- لما رأى ذلك فرجع إلى امرأته وأخبرها أنه رأى أمراً لا صبر له عليه، من شدة الجوع كان يربط الحجر، ويحفر مع أصحابه الخندق، ويرابط معهم على الخندق، فهو -صلى الله عليه وسلم- أسوة كاملة في هذا كله، وفي خوفه من الله، ورجائه وحسن ظنه بربه، وتوكله عليه، كل هذه الأمور، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم الأحزاب لم يهتز ولم يتضعضع، ولم يحصل له تردد، حاشاه من ذلك، بل كان في غاية الثقة والثبات بخلاف الذين اضطربت مواقفهم وزلت أقدامهم من المنافقين، وقد أعلنوها صريحة {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:12]، لم يتمالكوا فظهرت مخبآت نفوسهم.

قال: {وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:21]، وهذا فيه تعريض بالمنافقين، فالمنافقون كما قال الله -عز وجل-: {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء:142]، أثقل شيء على المنافق أن يخرج ذكر الله من لسانه، بل إن أعداء الله من الكافرين والمنافقين يثقل عليهم جداً في ميدان المعركة أن يسمعوا ذكر الله والتكبير، هذا أشد عليهم من رمي القاذفات، التكبير، وقد سمعت من هذا أشياء واقعية يقولها بعض من تاب: كيف كان وقع

التكبير عليهم، حتى إنهم يقولون: إنهم اصطفوا واجتمعوا من أجل أن يقابلوا التكبير بتكبير ليقووا قلوبهم وما استطاعوا، فكثرة ذكر الله -عز وجل-: لم يرد في شيء من هذه المطالب الشرعية من العبادات والأوراد ما قيد بالكثرة إلا الذكر لاسيما في مواطن الشدة، ولما تكلم المنافقون مقفلَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بغزوة المصطلق -على خلاف- حينما اتهموا عائشة -رضي الله تعالى عنها-، أنزل الله -عز وجل- تلك الآيات في سورة الأحزاب، فحين تكلم المنافقون في عرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقفل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غزوته حصل أنه واصل بهم السير على غير عادته -وكان رءوفاً رحيماً- من أجل أن يشغلهم، وفي سورة الأحزاب في قصة التبني كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخوف من ألسنة المنافقين، فسيتكلمون في عرضه ويقولون: تزوج امرأة ولده، وهو المتبنَّى يعني زيد بن حارثة، وكان يقال له: زيد بن محمد، فلما أبطل الله التبني أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يتزوج زينب بنت جحش -رضي الله تعالى عنها-، وكان زيد بن حارثة -رضي الله عنه- يشكو للنبي -صلى الله عليه وسلم- ما آل إليه الحال من سوء العشرة، ويريد أن يطلقها، وقد أوحى الله إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بذلك وأنها ستطلق منه، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سيتزوج منها، فكان يقول له: ((اتق الله وأمسك عليك زوجك))[1]، قال الله تعالى: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}** [سورة الأحزاب:٣٧] يعني: بالعتق، **{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ}**، وفي هذه الآيات في هذا السياق أمر الله بكثرة الذكر، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [سورة الأحزاب:٤١-٤٢]، ليشغلهم هذا الذكر عن الخوض وعن الاشتغال بما يشتغل به المنافقون، فالمقصود أن كثرة الذكر لاسيما في أوقات الشدة مطلب من المطالب الشرعية، وهو من أعظم أسباب الثبات، والشدة لا تقتصر على الحرب، بل أولائك الذين يعانون من الضيق ويجدون وحشة في صدورهم وألماً أقول: جرِّبوا هذا، أكثروا من ذكر الله على ألسنتكم، وليكن ذلك بصوت تسمعه أذنك فستجد للحياة طعماً آخر، سيتغير كل شيء، جرب هذا، أكثر من ذكر الله، واسأل نفسك كم مرة تذكر الله -عز وجل- في اليوم والليلة، أحياناً تكون الإجابة محرجة، فينبغي على المؤمن أن يكثر من ذكر الله، فهنا الذين لهم في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة هم أولائك الذين يرجون الله ويرجون ثوابه، **{وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}**، فيرجون جزاءه في الآخرة، يقتدون به لا يمكن أن يقتدوا بالشياطين فيقودوهم إلى النار، **{وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** هم أهل الذكر الكثير، وهذا الذكر لا يقتصر على ذكر اللسان بل يشمل ذكر اللسان باللهج بالتهليل والتكبير وغير ذلك من الأذكار وقراءة القرآن، ويشمل ذكر القلب، فيعمر هذا القلب بمحبة الله وخشيته والإنابة إليه، وتعظيمه والتوكل عليه، فيكون القلب ذاكراً شاكراً مقبلاً على الله -عز وجل- معظماً له، فيتعاظم المعبود -جل جلاله- في قلبه فيرى الخلق لا شيء، مثل الذر، ولا يخافهم، ولا يرهبهم، وكذلك يشمل ذكره باللسان، وبالجوارح، فذكره -تبارك وتعالى- بالجوارح بالصلاة بالركوع والسجود، وحركة الجوارح في طاعة المعبود -جل جلاله-، كل هذا

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}** [سورة هود:٧]، **{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [سورة التوبة:١٢٩]، برقم (٦٩٨٤).

من الذكر، {وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، كثرة التعبد لله -عز وجل- سبب لارتياض النفس وطمأنينة القلب والثبات في مواطن الشدة، إذا كان للناس صلة بالله -عز وجل- فلا بأس عليهم، ولذلك نحن نجد شيئاً كثيراً من الطمأنينة والراحة فيما يجري لإخواننا الآن في غزة من جهة ما نسمع منهم في المقابلات التي تجرى مع الصغار والكبار، يذكرون الله ويثنون عليه ويحمدونه، وهم في غاية الرضا عن الله -عز وجل-، فهذا خير عظيم جداً، لما غزا الصرب بلاد البوسنة كان حالهم أنهم في أغلبهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه فقط، ينتسبون للإسلام فقط ولا يعرفون شيئاً، فاستحرّ فيهم القتل والتشريد وتسلط عليهم الصرب بما لا يمكن وصفه، فكانوا يُجمعون بالآلاف تنقلهم الحافلات في مكان واحد ثم يذبحون، ومن ادعى منهم أنه نصراني كُشف عن عورته، وكل من كشف عن عورته ووجد أنه مختون قتل، مجازر جماعية، فتنحسر أن هؤلاء يذبحون ويقتلون ولا يدرون لماذا يقتلون، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولما غزا الروس الشيشان كانت كذلك في أول الأمر، كانت كذلك، كانوا أجهل تلك الجمهوريات بالإسلام فدمرت بلادهم وتحولت تلك البلاد العاصمة "جروزني" إلى مدينة للأشباح، وهم مساكين لا يعرفون لماذا يذبحون، ثم تغير الحال بعد ذلك، فالذي يجري الآن في غزة يختلف تماماً عن هذا، فالناس يعرفون، ورايتهم واضحة لا غبش فيها، الشعار المرفوع "لا إله إلا الله، الله أكبر"، فقوم يرفعون هذا الشعار ويثبتون ويصبرون وينتظرون ما عند الله، إن صبروا وثبتوا وصدقوا مع الله -عز وجل- لابد أن ينتصروا، لكن النصر صبر ساعة، سئل عنتر بن شداد وهو من الفرسان الأبطال كيف تنتصر على خصومك في أرض المعركة؟ فقال: أصبر، يعني: أقدّر أن الخصم سينهزم الآن، يقول: أنا أصبر قليلاً حتى أتمكن منه، وفي قصة بني إسرائيل التي قصها الله -عز وجل- في سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ} [سورة البقرة:٢٤٦]، فإنهم تساقطوا مرة بعد مرة، أول مرة حينما كتب الله عليهم القتال، والمرة الثانية حينما أخبروا أن الملك هو طالوت، والمرة الثالثة في الشرب من النهر، والمرة الرابعة عند المواجهة {لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ} [سورة البقرة:٢٤٩]، وكل مرة يتساقط عدد، وهذا العدد الذي يتساقط غير مأسوف عليه، قد ينظر الإنسان في ظاهر الأمر -لأول وهلة- إلى الخسارة، ما يبقى إلا حفنة قليلة، لكن هؤلاء القلة هم الأصفياء والخلاصة، هم الذين ينتصرون في نهاية الطريق، فقال الله -عز وجل-: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ} [سورة البقرة:٢٥١]، في غزوة بدر خرج للقتال ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وانظر هذا الانتصار التاريخي الذي حصل، قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [سورة الأنفال:٤٢]، وقال: {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [سورة الأنفال:٤٢]، فالله يدبر عباده المؤمنين الذين يتمسكون بحبله المتين، ويخلصون له، والأمثلة على هذا كثيرة، {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة القصص:٨٣]، {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [سورة يوسف:١١٠]، {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأنعام:٣٤]، فهؤلاء ينصرهم الله -عز وجل- في نهاية المطاف، فيحتاج المؤمن أن يعرف هذه الحقائق والمعاني.

ثم بعد أن ذكر المنافقين عندما قالوا: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢]، ذكر موقف أهل الإيمان وهو كما قال الله: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب:٢٢]، فالأحزاب يحاصرونهم، جيوش كثيرة لا قبل لهم بها، أكثر من عشرة آلاف، والمسلمون يقربون من ثلاثة آلاف، لا يوجد تناسب في العدد، فقالوا {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، وفي سورة البقرة التي نزلت بعدما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة يقول الله فيها: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} [سورة البقرة:٢١٤]، ويقول في آل عمران في ثنايا الحديث عن غزوة أحد: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة آل عمران:١٤٢-١٤٣]، ثم يبين لهم ألا يتعلقوا بالذوات والأشخاص، ولو كان أعظم الذوات من المخلوقين، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [سورة آل عمران:١٤٤]، فإذا أصيب الرموز والقيادات الكبار فليس معنى ذلك أن يفت هذا في أعضاد الأتباع، وفي سورة براءة وقد نزلت بعد ذلك، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} [سورة التوبة:١٦]، فهذه الآيات فيها وعد من الله -عز وجل- بالابتلاء، {أَمْ حَسِبْتُمْ}، فحينما رأوا الأحزاب مباشرة، {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [سورة الأحزاب:٢٢]، وأرجح ما قاله المفسرون في هذا هو ما اختاره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ومن وافقه قال: هو الابتلاء الذي يعقبه النصر، فبمجرد ما رأوا الابتلاء ورأوا الأحزاب قالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، فهذا الابتلاء وهذا الحصار ما زادهم إلا إيماناً بالله -عز وجل-؛ لأنه وعدهم بهذا، فهم يرون ما وعدهم الله به يتحقق، ووعدهم بالنصر والتمكين الذي يكون بعد الابتلاء، فقالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}، والتسليم هو الانقياد والطاعة، يقول ابن عاشور -رحمه الله- صاحب التحرير والتنوير: ومن التسليم هنا تسليم أنفسهم لملاقاة عدو شديد دون أن يتطلبوا الإلقاء بأيديهم إلى العدو، وأن يصالحوه بأموالهم، هذا من التسليم، اصبروا حتى يحكم الله -عز وجل- بينكم وبين عدوكم، وأصحاب السير يذكرون الواقعة المشهورة لما اشتد البلاء على المسلمين استشار النبي -صلى الله عليه وسلم- السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله عنهما- في أن يعطي ثلث ثمار المدينة تلك السنة عيينة بن حصن والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، على أن يرجعا عن المدينة، فقالا: "يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا ؟ فقال: ((بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما))، فقال سعد بن معاذ -رضي الله عنه-: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك -على الشرك بالله- لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرًى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا

بك وبه نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فأنت وذاك))[٢]، وقال هنا: {فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} [سورة آل عمران:١٧٣].

ومن التسليم الرضا بما يأمر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال الله -عز وجل-: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [سورة النساء:٦٥]، فأهل الإيمان يسلمون وينقادون لأمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن أقول: هذه الآية ينبغي أن يستحضرها الإنسان دائماً، كلما مرت عليه شدة تذكر قول الله -عز وجل-: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، فإذا وقع به مرض مخوف أو ابتلي بماله، أو ابتلي بولده، أو غير ذلك دائماً يتذكر هذا المعنى، أن الله وعد بالابتلاء الذي يعقبه التمكين، فلا ينكسر إذا ابتلي ولا يتضعضع ولا يتزلزل ولا يسوء ظنه بربه -جل جلاله-، فالله لطيف بعباده، وهو ولي المؤمنين، وما ساق إليه الابتلاء ليكسره، وإنما ساق إليه الابتلاء ليرفعه وليمحّصه، ويخرج من هذا الابتلاء خالصاً نظيفاً زكياً، والجنة دار زكية طيبة لا تصلح إلا للطيبين، فيسلط عليهم هذا الكير في الدنيا -كير الابتلاء- فيمحصهم وينقيهم وينظف قلوبهم ونفوسهم، فإذا جاءوا إلى الجنة إذا هم في حال من الزكاء والصفاء والطيب ليدخلوا دار الطيبين.

نسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم منها، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [سورة الأحزاب:٢٣-٢٧].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، هذا تعقيب يذكر الله -عز وجل- به أهل الإيمان من الصادقين الثابتين الذين يفون بعهد الله -جل جلاله-، فهؤلاء هم أهل الصدق والإخلاص الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يتلونوا ولم يتقلبوا بهذه الشدائد كما تلون أهل النفاق الذين لم يصدقوا الله -عز وجل- في عهدهم، فأهل الإيمان منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر: بعضٌ لا زال على قيد الحياة إما أنه لم يقدر لهم لقاء العدو كأولائك الذين عاهدوا الله -عز وجل- قبل وقعة الأحزاب ولم يكن لقاء، أو يكونون ممن لم تكتب لهم الشهادة ولكنهم على الصدق والوفاء، وطائفة اختارهم الله -عز وجل- واصطفاهم واتخذهم شهداء فماتوا على الصدق والوفاء، والتعبير

---

٢ - انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٤٢٥/٣).

في قوله -تبارك وتعالى-: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ} هذه اللفظة فيها زيادة ثناء في هذا المقام، يقال: إن الرجل مشتق من الرِّجل وهي قوة اعتماد الإنسان، فهم أهل قوة وثبات وعزيمة وليسوا من أهل الخور والضعف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} النحب يطلق في كلام العرب على معانٍ متعددة، يطلق على النذر والموت، {قَضَى نَحْبَهُ} أي: مات، ويطلق أيضاً على الخطر العظيم، ويطلق على مواصلة السير، وكثير من السلف يقولون في المراد بقوله: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} أي: عهده الذي عاهد الله -عز وجل- به فمات على الصدق والوفاء، يعني: أدى ما التزمه ووفى به فقاتل حتى قتل؛ لأنه قابل هؤلاء بقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ}، فدل على أن من ينتظر: لا زال حياً، وأن من قضى نحبه أنه مات، وليس الموت بحد ذاته مدحة يمدح بها الإنسان، وإنما من مات على الجادة فإن ذلك يكون مما يذكر به ويثنى عليه، {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} أي: مات على الصدق والوفاء بالعهد الذي عاهد الله -عز وجل- به، وبعض السلف يقول: هذه في قوم لم يشهدوا بدراً فعاهدوا الله أن يفوا في قتال للمشركين مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمنهم من وفَى ومنهم من بدل، فذكر الله أهل الوفاء وأثنى عليهم فيه، ويذكرون في هذا قصة أنس بن النضر -رضي الله تعالى عنه-، وأنه لما فاتته غزوة بدر، ورأى ما جعل الله -عز وجل- لأهل بدر من الأجر والمثوبة والمنزلة قال: لئن أشهدني الله لقاء المشركين ليرين الله ما أصنع، فكانت وقعة أحد، فجاء ونظر إلى المسلمين وقد انهزموا، ونظر إلى المشركين فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء، ونظر إلى المسلمين وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، ثم أقبل عليهم بسيفه فقاتلهم حتى قتل، فوُجد فيه من الجراحات من ضرب السيوف وطعن الرماح وضرب النبال ما قد شوه صورته فلم يُعرف، تغيرت معالمه تماماً، جثة مليئة بالجراح، وما عرفته إلا أخته ببنانه، ففي مثله نزلت هذه الآية: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، ولا شك أنه داخل في هذا، ولكن المعنى لا يختص به، وإنما هذا مثال على من تصدُق عليهم هذه الآية، والمقصود أن أصل النحب يمكن أن يقال هنا: إنه استعمل بمعنى الموت على الصدق والوفاء، وأن أصل ذلك يرتبط بمعنى النذر، فالشيء الذي لابد للإنسان منه كالنذر لابد من الوفاء به وكذلك الموت لابد من ملاقاته، فهو كالنذر الذي لابد من أن يوفي به الإنسان، واستعمل في هذا المعنى كما يقوله بعض أهل العلم، قال: {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، هذا فيه تعريض بالمنافقين الذين بدلوا وغيروا وتضعضعوا وقالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢] في وقعة الأحزاب، وقبل ذلك في وقعة أحد انسل عبد الله بن أبي بثلث الجيش، ثم قال الله -عز وجل-: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}، ليجزي الصادقين بإيمانهم وبإخلاصهم، ليجزي الصادقين بنصحهم للمسلمين ولله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، ليجزي الصادقين في عملهم وجهادهم، فهؤلاء يجازيهم الله -تبارك وتعالى- بصدقهم، أي: بسبب صدقهم، وهذا الجزاء يكون لهم في الدنيا، ويكون لهم في الآخرة حيث إن الله -عز وجل- لم يقيد هذا الجزاء بدار من الدارين، ليجزيهم بصدقهم في الدنيا فتكون لهم الرفعة والمحبة في قلوب الخلق والعزة، والإنسان إنما يعتز ويعلو ويرتفع بحسب ما يكون له من البذل والجهاد والتجرد عن حظوظ النفس، والترفع عن الدنايا، والنفع العام للأمة، وهؤلاء الذين في غزة الآن صاروا شامة بيضاء في هذه الأمة، وأصبح المسلمون في مشارق

الأرض ومغاربها يهتفون لهم، ويدعون لهم، ويثنون عليهم، فارتفعوا لمّا بذلوا أنفسهم وأرواحهم في سبيل الله، واعتبر بهذا غيرُهم ممن كانوا كذلك فطار ذكرهم ثم بدلوا تبديلاً فنسيهم الناس وتجاوزوهم، بل إذا ذُكروا ذُكر معهم الذم؛ لأنهم قد غيروا وانحرفوا وقد شهدنا أحداثاً في التاريخ وتقلبات لأناس كانوا لربما في وقت من الأوقات يبذلون ولهم من النفع المتعدي والخير، الجهاد وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك حصل لهم ما حصل فصاروا في حال تعرفونها، ويأتي سؤال وهو في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}**، المنافقون كفرهم أكبر مخرج من الملة، والحديث في هذه الآيات عن النفاق الأكبر، فهل هؤلاء تحت المشيئة؟ وهل هؤلاء ممكن أن يتوب الله -عز وجل- عليهم؟ من أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: إن المقصود **{أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** بمعنى: أنه يوفقهم للتوبة ويقبل ذلك منهم، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، ومن أهل العلم من يقول: هذا فيه تنبيه لهم بسعة رحمة الله -عز وجل- ليجعل لهم خط الرجعة، لعلهم أن ينيبوا، ولا تنغلق الأبواب في وجوههم، فإن الله -عز وجل- رحمته واسعة، وسعت كل شيء، كما قال الله -عز وجل- في أولائك الذين نسبوا له الصاحبة والولد: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [سورة المائدة:٧٤]، وقال في أولائك الذين أحرقوا المؤمنين بالنار في قصة الأخدود: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}** [سورة البروج:١٠] يعني: أحرقوهم بالنار، والفتْن يأتي بمعنى الإحراق بالنار، **{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}**، فقيده بالتوبة، فمع كبير جرمهم إلا أن الله -عز وجل- قد فتح لهم هذا الباب فلا يتعاظمه شيء -سبحانه وتعالى-، **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}** أي: بمن تاب وأناب ورجع إليه وإن كان قد أساء قبل ذلك.

وقد تاب على بعض المنافقين كما هو معلوم في أخبارهم وفي تراجم الصحابة - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ويذكر من هؤلاء معتب بن قشير.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}** وهذه الآية في هذه الليلة في غاية المناسبة، **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}**، سمعتم عن هؤلاء اليهود في آخر الليلة الماضية أنهم قد أعلنوا وقف إطلاق النار، وهم بذلك يريدون أن يظهروا أمام العالم أنهم قد انتصروا، مع أنهم يعلمون أن الوقت ليس في صالحهم، وأن سمعتهم قد مُرغت بالتراب، وأن الأمة قد طارت بهؤلاء، فما عاد هؤلاء فصيلاً من هذه الفصائل في فلسطين، وإنما صارت الأمة كلها حماس، وصار الناس يهتفون لهم في كل مكان، وأيقظوا روح العزة في الأمة، وأحيوا فيها معاني الجهاد في سبيل الله -عز وجل- بعد أن عمل الأعداء سنوات وبذلوا الأموال الطائلة من أجل قتل هذه المعاني في الأمة، وإظهار هذه الأمة على أنها أمة ضعيفة، أمة ذات خوَر تستجدي أعداءها، وتتملق إليهم، وتغير حقائق الدين، ويبدل كلام الله -عز وجل-، ويلبس كثير من معانيه، جاءت هذه القضية لتنسف هذه الجهود، وهذا يدل على أن هذا الدين يتجدد، وأن هذا الدين قد شب عن الطوق منذ عهد بعيد، وأنه لا يمكن لأحد أن يطمس معالمه وأن الخاسر هو الذي يتخلف عن ركابه فقط، أما هذا الدين فهو يتجدد حيناً بعد حين، كلما بذل أعداؤه ما في وسعهم وأنفقوا أموالهم من أجل تشويه صورته، وتغيير حقائقه جاءت ريح عاصف كهذه فأطارت ذلك جميعاً ونسفته، **{كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ}** [سورة آل

عمران:١١٧] فصارت أعمالهم {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ} [سورة إبراهيم:١٨]، كصفوانٍ عليه تراب {فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا} [سورة البقرة:٢٦٤]، فهذه أفسدت على الأعداء مخططاتهم، ورأوا أن الوقت ليس في صالحهم فتوقفوا دون أن يحققوا شيئاً مما بذلوا الكثير من أجله، وتبينت حقيقة تلك الأسطورة الكاذبة من قوتهم التي زعموا أنها لا تقهر ولا تغلب، لم يستطيعوا أن يتقدموا ولم يستطيعوا المواجهة، لم يبق عليهم إلا أن يدخلوا في حروب عصابات في داخل الأحياء، وهم لا يستطيعون المواجهة؛ لأن الله يقول: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} [سورة الحشر:١٤]، ولم يحصل في التاريخ حرب قط بين المسلمين واليهود أبداً، ولذلك سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [سورة الأحزاب:٢٦]، وفي وقعة بني قينقاع من غير قتال، والنضير من غير قتال، وقريظة من غير قتال، وخيبر دخلها النبي -صلى الله عليه وسلم- في غلس الصبح، وخرج الفلاحون ومعهم المَسَاحِي فلما رأوه -صلى الله عليه وسلم- قالوا: الخميس الخميس، يعني: الجيش الجيش، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بأرض قوم فساء صباح المنذرين))[٣]، فما احتاجوا إلى قتال، ولم تحصل مواجهة في خيبر، وأموال هؤلاء في فدك وفي النضير وفي قريظة وقينقاع من قبيل الفيء، والمواجهات كانت مع المشركين، وكانت مع النصارى، أما اليهود فما حصل قط مواجهة رجل بوجه رجل في معركة إطلاقاً، ممكن أن يرمي بالقاذفات، ممكن بطائرة من بعيد جداً، لا تصل إليها المضادات، فهم مثل الفأر يجيد الإفساد فقط لكن لا يستطيع المواجهة، ولذلك افتضحوا، يقولون: إنهم استعملوا الجيش وجاءوا بالقوة الاحتياطية واستعملوا نصف القوة الجوية على ناس عزل جاءوا بهذا كله، فهم في غاية الهلع، والحمد لله الذي فضحهم وهتك وكشف أستارهم وعوارهم وبين ضعفهم وهزيمتهم.

فالله -عز وجل- يقول: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}، لم يتحقق شيء من هذه الأهداف التي جاءوا من أجلها، جاءوا من أجل استئصال النبي -صلى الله عليه وسلم-، استئصال المسلمين، احتلال المدينة، ولم يحصل شيء من هذا، بقي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وقد يقتل بعض الرموز كسعد بن معاذ -رضي الله عنه- أصابه سهم غَرْب في أكحله، فنزف وداواه النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك انفجر جرحه، فالشاهد {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} [سورة آل عمران:١٤٠]، مع أنه اهتز له عرش الرحمن، وحزن المسلمون لفقده، لكن الله -تبارك وتعالى- أراد أن يكرمه بهذا وأن يرفعه، فلا إشكال في هذا، ولا تتكسر القلوب بسببه، فهنا لاحظْ في هذه الآية أنه عبر عن الأحزاب بالذين كفروا، {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ}، ما قال: ورد الله الأحزاب بغيظهم؛ للإيماء إلى أن كفرهم هو سبب خيبتهم التي وقعت لهم، وهذا هو الوصف المؤثر في الحكم، فالذي خيب آمالهم وأوقعهم في هذه الحال هو ذلك الكفر الذي أركسهم الله -عز وجل- به، والغيظ هو الحنق والغضب، {لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} لم يحصل لهم مطلوب، ولم يحصل لهم تشفٍّ من أهل الإيمان، ولم يقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يقتل أصحابه، ولم يحتلوا المدينة، {وَكَفَى

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التكبير عند الحرب، برقم (٢٨٢٩)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، برقم (١٣٦٥).

{اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}، فلم يحصل قتال، قد كان هناك بعض المواجهة أو المبارزة اليسيرة مع أفراد استطاعوا أن يتخطوا الخندق، ولكن البقية كانوا بعيداً، فكفى الله المؤمنين القتال، وجنود الله -عز وجل- لا يعلمها إلا هو، سلط عليهم الريح وهي ريح الصِّبا وهي التي تهب من المشرق، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالصِّبا، وأهلكتْ عاد بالدبور))[٤]، فحيث كان المسلمون بهذه المثابة من الضعف والفقر، والحاجة، والقلة، سلط الله -عز وجل- على الكفار من جنوده التي لا يعلمها إلا هو، فهبت الريح، والملائكة زلزلت هؤلاء، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فانكفأت قدورهم، وجالت خيلهم، وتفلتت دوابهم، وانقلعت خيامهم، وانطأفت نيرانهم، وحملت الرياح التراب فألقته في وجوههم وعيونهم، فهزمهم الله -عز وجل-، **{وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}**، وهذا التعقيب والتذييل بهذين الاسمين هو في غاية المناسبة؛ لأن هزيمة الأحزاب ورد الذين كفروا بغيظهم إنما يكون للقوي العزيز، فالقوي هو الذي يقهرهم ويدحرهم ويهزمهم ويكسرهم ولا يتعاظمه شيء، والعزة لابد منها مع القوة، فقد يكون الإنسان قوياً يملك ما يملك من السلاح وغير ذلك لكنه ذليل، فالذليل لا ينصر نفسه، ولا ينصر قومه، ولا يُنتفع به ولا بقوته، والله -جل جلاله- هو القوي العزيز، ومن أراد العزة فقد أخبر الله -عز وجل- أن العزة بكاملها لله -تبارك وتعالى-، ويكون لأهل الإيمان من العزة بقدر ما يكون لهم من التعلق والارتباط بالله -جل جلاله.

ثم قال: **{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}**، في هذه الآيات تحول الحديث إلى قريظة وهم تمالئوا مع الأحزاب حيث جاءهم حيي بن أخطب وكلم كعب بن أسد، وما زال به حتى نقض العهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فحاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- خمساً وعشرين ليلة أو ما يقرب من هذا، فهم أهل الكتاب الذين ذكرهم الله -عز وجل-، وعناهم بهذه الآية، **{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم}** أي: عاونوهم وناصروهم **{مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** وهم يهود قريظة، وكانت مواقعهم في الجنوب الشرقي من المدينة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد رجع من الخندق ظهراً، ووضع السلاح، وأراد -صلى الله عليه وسلم- أن يغتسل، ثم جاءه جبريل وقال: ((وضعتم السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها))[٥]، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتوجه بأصحابه إلى قريظة، فنادى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه: ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة))[٦]، فذهبوا، فاجتهدوا في صلاة العصر، فمنهم من صلاها بعد غروب الشمس أخذاً بالظاهر، لقوة الاستجابة عند هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم-، وبعضهم فهم أن المراد المبادرة فصلى في الطريق، والشاهد: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حاصرهم هذه المدة، وطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينزلوا على حُكْم حَكَم، أي صلح على

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نصرت بالصبا)، برقم (٩٨٨)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٩٩٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، حماد بن سلمة من رجاله، وبقيتهم ثقات من رجال الشيخين.

٦ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماءً، برقم (٩٠٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، برقم (١٧٧٠)، وفي رواية مسلم: ((لا يصلين الظهر)).

طريقة النزول على حُكْم حَكَم، بحيث يختار حكماً، ويختارون حكماً من المسلمين يحكم فيهم؛ لأن قريظة قد رأوا ما حصل لبني النضير، وذلك أن بني النضير أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وشفع لهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو من الخزرج، وكان النضير حلفاء الخزرج، وقريظة حلفاء الأوس في الجاهلية، فأبى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك فما زالوا به، وبعد مداولات قبلوا النزول على حكم سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، وهو سيد الأوس، حلفاؤهم في الجاهلية، وظنوا أنه سيحسن إليهم وكان جريحاً في خيمة في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان قد قال: "اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة"[٧]، وقال: "اللهم إن كان قد بقي من قتال المشركين شيء فأبقني له، وإلا فاجعلها شهادة"[٨]، أو كما قال -رضي الله تعالى عنه-، ومعلوم أنه بعد غزوة خيبر قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اليوم نغزوهم ولا يغزوننا))[٩]، وكان فتح مكة بعد صلح الحديبية الذي وقع، حصل الفتح بعد ذلك، الشاهد أنهم نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فجيء به -رضي الله تعالى عنه- على حمار، وهو جريح، أصحابه من الأوس يطوفون بحماره، ويقولون: الله الله في حلفائك، كان بينهم منافسات في المكارم والبذل، والمروءات وما أشبه ذلك، فيرون أن الخزرج قد أحسنوا إلى حلفائهم، فالأوس يريدون أن يفعلوا كفعل الخزرج، فجعلوا يطوفون به وهو لا يتكلم، فلما أكثروا عليه قال -رضي الله تعالى عنه-: "لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم"[١٠]، فعرفوا أنه يريد قتلهم، فأقبل على المكان الذي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- للأوس: ((قوموا إلى سيدكم))[١١]، تقوية لحكمه -رضي الله تعالى عنه-، فطلب منه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحكم فيهم، فنظر إلى الناحية التي فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يلتفت؛ إجلالاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: حكمي نافذ على من هاهنا؟ فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، ثم التفت إلى الناحية الثانية التي فيها هؤلاء، وقال: حكمي نافذ على من هاهنا؟ فقالوا: نعم، فقال: حكمي فيهم أن تقتل المقاتلة، يعني: كل من يستطيع حمل السلاح، يعني كل بالغ، وأن تسبى النساء والذرية والأموال، فقال

---

٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٥٠٩٧)، وقال محققوه: بعضه صحيح، وجزء منه حسن، وهذا إسناد فيه ضعف، وحسن إسناده الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (٦٧).

٨ - أصله في البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، برقم (٣٨٩٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكمِ حاكمٍ عدلٍ أهلٍ للحكم، برقم (١٧٦٩).

٩ - رواه أحمد في المسند بلفظ: ((الآن نغزوهم، ولا يغزونا))، برقم (١٨٣٠٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهذا اللفظ رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٤٨٥).

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٥٠٩٧)، وقال محققوه: بعضه صحيح، وجزء منه حسن، وهذا إسناد فيه ضعف، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٧).

١١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، برقم (٢٨٧٨)، ومسلم، باب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، برقم (١٧٦٨).

النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة))[١٢] يعني: من فوق سبع سماوات، فجُمعوا في مكان واحد، في بيت، والروايات اختلفت في عددهم، قيل: كانوا بين سبعمائة إلى ثمانمائة، وقيل: أربعمائة وخمسين، وقيل: ستمائة، وقيل: إن الأسرى كانوا سبعمائة وخمسين، وقيل غير ذلك، والشاهد أنهم جمعوا في مكان واحد وكان يؤتى بهم فتضرب أعناقهم، يقتلون، وقد تجلّد بعضهم وحاول ألا يشمت به أحداً من الناس، والشاهد: أنهم قتلوا، ومن شُك فيه هل بلغ أو لا، كُشف عن عورته ونظروا فإن كان قد أنبت ضربت عنقه، فكل بالغ يقتل، والنساء والذرية سبي، وكذلك الأموال، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ}، والصياصي هي الحصون، واحدها صيصة، والصيصة أصلها يقال: إنها قرن الثور، لما كان الثور يدافع بقرنه، ويحتمي به قيل ذلك: للقلاع والحصون، {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، القذف هو الإلقاء السريع، {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}، الذين يؤسرون هم النساء والأطفال، ثم قال: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا}، يعني: أورثكم النواحي التي تخصهم، ما كان منها معموراً يعني القرية نفسها، وما كان منها مما يحيط بها من الزروع أو المساحات الخلاء، التابعة لهم، فكل ذلك صار للمسلمين، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}، وكانت لهم أموال طائلة، فاليهود يعبدون الذهب كما هو معلوم، ولهم سلاح كثير، ثم قال: {وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، هذه الأرض التي ذكرها الله -عز وجل- بعضهم يقول: هي أرض النضير نفسها لم يطأها المسلمون قبل ذلك، والمقصود بالوطء ليس معناه مشي الأقدام، وإنما المقصود {لَّمْ تَطَئُوهَا} قال: وطأهم الجيش، بمعنى: الغلبة والأخذ، فهنا {وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا} بعضهم يقول: هي أرض قريظة، مكنهم الله -عز وجل- منها، وبعضهم يقول: هي أرض فارس والروم، وغير ذلك مما فتح الله -عز وجل- على المسلمين، وبعضهم يقول: مكة، {وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا} يعني: بالقوة، وبعضهم يقول: هي خيبر قد فتحت بعد هذه الغزوة، بعد قريظة بسنة وشهر، والأقرب: أن حمل ذلك على العموم أولى، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، فالفتوحات التي حصلت للمسلمين بعد ذلك هي داخلة في قوله: {وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، لا يتعاظمه شيء -سبحانه وتعالى-، فهو قادر على نصر أهل الإيمان وكسر أهل الكفر مهما تعاظمت قوتهم ولكن الله -عز وجل- يبتلي الناس بعضهم ببعض، وإلا لو شاء لجعل الناس على الإيمان، لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة هود:١١٨]، وهكذا لو شاء -تبارك وتعالى- لانتقم منهم، لكن كما قال الله -عز وجل-: {وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}، ولو شاء الله -تبارك وتعالى- ألا يوجد الكفار أصلاً لما وُجدوا، فالله -جل جلاله- شاء ذلك جميعاً من أجل أن يحصل التمحيص والابتلاء، وتتميز الصفوف، ويسلك طريق السعادة من شاء الله -عز وجل- واجتبى، ويسلك طريق الشقاوة من أذله الله -عز وجل- وأخزاه وأركسه.

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، برقم (٢٨٧٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، برقم (١٧٦٨)، ولفظهما: ((لقد حكمت فيهم بحكم الملك))، وهذا اللفظ رواه ابن سعد في الطبقات (٢/٧٥).

هذا نهاية الكلام على هذه الآيات من سورة الأحزاب، اللهم انصر إخواننا المجاهدين والمستضعفين في فلسطين، اللهم انصرهم نصراً مؤزراً، اللهم ثبت أقدامهم واربط على قلوبهم، اللهم اجمع شملهم، ووحد كلمتهم على الحق، اللهم ثبتهم، اللهم أنزل عليهم نصرك وألطافك وفضلك، اللهم أغنهم عن خلقك أجمعين، اللهم لا تكلهم إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم الطف بهم، اللهم الطف بهم، اللهم عليك باليهود، اللهم اهزمهم واكسرهم، اللهم شتت شملهم، وفرق جمعهم، واجعل الدائرة عليهم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة سبأ من الآية (١) إلى الآية (١١).

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد: اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سورة سبأ:١-٢].

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمدَ المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة القصص:٧٠]**؛ ولهذا قال هاهنا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ} أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأولَى}** [سورة الليل:١٣].

ثم قال -عز وجل-: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ}، فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}**، الحمد يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **له الحمد المطلق**؛ لأن الحمد هنا دخلت عليه "ال" و "ال" هذه للجنس، فيكون له الحمد المطلق من كل وجه؛ لأنه الكامل من كل وجه، فإنه لا يستحق الحمد المطلق إلا من كان له الكمال المطلق، وقال بعده: **{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** ثم قال: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}**، فالحمد الأول حمد مطلق، والحمد المطلق يشمل الدنيا والآخرة، فبعد أن ذكر سعة ملكه -تبارك وتعالى- بأن له ما في السماوات وما في الأرض أعاد الحمد ثانية، وذلك أن ملكه -تبارك وتعالى- واقع بين حمدين، وهذا يفيد وصفاً ثالثاً، إذ إن الملك غالباً ما يحمل على الظلم أو القهر والتسلط بغير حق فيصدر بسبب ذلك بعض ما لا يليق، وأما ملك الله -عز وجل- فهو مسبوق ذكر قبله الحمد وبعده الحمد فأوقعه بين حمدين فهو محمود في ملكه.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}** أي: أنه محمود فيها، الحافظ ابن كثير يقول: **فهو المعبود أبداً المحمود على طول المدى**، **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}**، كما يقول أهل الجنة إذا دخلوها **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}** [سورة الأعراف:٤٣]، وهكذا: **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}** [سورة الزمر:٧٤]، فهذا واقع في الآخرة، وهكذا في غيره من المواضع كقوله -تبارك وتعالى- عنهم

عن أهل الجنة {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤]، وهكذا في قوله: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة يونس:١٠]، فالله -تبارك وتعالى- محمود في الأولى والآخرة.

قال: وقوله: {وَهُوَ الْحَكِيمُ} أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، {الْخَبِيرُ} الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء.

وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه حكيم بأمره؛ ولهذا قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته، {وَمَا يَنزلُ مِنَ السَّمَاءِ} أي: من قطر ورزق، {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} قال: **لا تخفى عليه خافية**، ثم نقل عن الزهر **خبير بخلقه حكيم بأمره**، وحكمته -تبارك وتعالى- لا تختص بهذا، وخبرته أيضاً لا تختص بما ذكر، ولكن المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الأعم والأليق، -والله أعلم-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} عبارة ابن كثير هنا جمع فيها الأقوال المنقولة عن السلف، والظاهر أنهم يفسرون ذلك على المثال، يعني أن هذه التفاسير هي من قبيل التفسير بالمثال، {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ} كأن يقول قائل: يعني المطر، الماء، {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ} [سورة المؤمنون:١٨]، {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الزمر:٢١]، ومن قائل: بأنه البذور التي توضع التراب، إلى غير ذلك من الأقاويل، وما ذكر هنا ما يلج في الأرض، ما ذكره الحافظ ابن كثير، قال: **يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحب المبذور الكامن فيها، ويعلم**.... إلى آخره.

فالذي يدخل في الأرض هو كل ما يلج في الأرض من الموتى، ومن الدواب التي تدخل فيها وهي حية، وكذلك ما يدخل فيها من المعادن والكنوز، وكل ما يصدق عليه أنه يلج في الأرض من مطر ونبات وما إلى ذلك، وكذلك ما يخرج منها، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته**، فكل ما يخرج من الأرض من النبات ومن الماء ومن المعادن ومن الدواب، وغير ذلك مما يمكن أن يتصور أو لا يتصور مما لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، ما عرفنا وما لم نعرف، كل ذلك داخل فيه؛ لأن "ما" تفيد العموم، فالله لا تخفى عليه خافية، وهكذا في قوله: {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} قال: **أي من قطر ورزق**، وكلما ينزل من السماء من الملائكة وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله جل جلاله.

وهكذا في قوله: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} من الأعمال الصالحة وغير ذلك الأعمال الصالحة، أرواح المؤمنين تعرج إلى السماء، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر:١٠]، فذلك محمول على العموم.

وقوله: {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} في القرآن يقدم الغفور على الرحيم، {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة يونس:١٠٧]، وفي هذا الموضع {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}، أما ما كان على الغالب {الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} فوجه ذلك أن الغفر من باب المحو والتخلية، وأن الرحمة من باب التحلية، فحينما يغفر للإنسان تمحى عنه ذنوبه وتستر عيوبه فلا يؤاخذ بجرائره وجرائمه فهذا هو الغفر، والرحمة قدر زائد على ذلك، مع أنك إذا نظرت إلى المعنى الأعم

في رحمة الله -عز وجل- فإن من رحمته بعبده أن يستر عيوبه وأن يغفر ذنوبه، لكن لما ذكر هذا وهذا فسر بما سمعتم، وهنا في هذا الموضع قدم الرحيم على الغفور ووجه ذلك -والله تعالى أعلم- أنه باعتبار ما ذكر قبله في هذا الموضع، فإن الله -تبارك وتعالى- حمد نفسه على ما له من أوصاف الكمال، فله الملك المطلق ويدبر أمر الخليقة، ويعلم أحوالهم، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فيحصل لهم من ألطافه ورزقه وتربيته وتدبير شؤونهم ما لا قوام لهم إلا به، قال: {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}، -والله تعالى أعلم-.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سورة سبأ:٣-٦].

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسولَه -صلى الله عليه وسلم- أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره مَنْ أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس -عليه السلام- وهي قوله تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [سورة يونس:٥٣]**، والثانية هذه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، والثالثة في التغابن وهي قوله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** [سورة التغابن:٧]**، فقال تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: {عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.**

هذه الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقسم بها على البعث، هذا الموضع الذي ذكر فيه الحافظ ابن كثير هذا المعنى ذكره أيضاً في سورة التغابن.

وقوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} هذه القراءة، {عَالِمِ الْغَيْبِ} وهي قراءة عاصم وابن كثير وأبو عمرو، {عَالِمِ الْغَيْبِ} يعني بالجر مكسورة، فيكون ذلك عائداً إلى قوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي} فالرب مقسم به مجرور، {وَرَبِّي}، وربي عالم الغيب، فيكون ذلك نعتاً له، نعتاً للرب أنه عالم الغيب، فلما كان الرب مجروراً اسم الرب هنا مجروراً جاء ذلك نعتاً له، وأما القراءة الأخرى وهي قراءة نافع وابن عامر بالرفع {عَالِمُ الْغَيْبِ} فهذا باعتبار أنه مبتدأ، {عَالِمُ الْغَيْبِ}، وفي قراءة ثالثة أيضاً متواترة وهي قراءة حمزة والكسائي {علامِ الغيب} و(علام) صيغة مبالغة، وأيضاً بالجر نعتاً لـــ"ربي"، {قل بلى وربي علام الغيب}، هذه ثلاث قراءات متواترة.

قال: قال مجاهد وقتادة: {لا يَعْزُبُ عَنْهُ} لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم.

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله.

الآن في قوله -تبارك وتعالى-، تأمل الآية: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} يعني: مبين لما فيه، أو بيّن لمن قرأه، قال: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقوله هنا: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، هل متعلق بقوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يعني من أجل الجزاء، أيضاً ويعاقب المجرمين والكافرين، فيكون ذكر أشرف النوعين، أشرف الصنفين، فيكون قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} متعلق بقوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هذا احتمال، وذهب كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- إلى أنه متعلق بآخر الآية، {وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: أن الله -تبارك وتعالى- أثبت ذلك في كتاب من أجل الجزاء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا} أثبته في الكتاب المبين كي يثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم ذكر من كانوا بخلاف هذه الصفة وهم الكفار، قال: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} يعني: وليجزي الذين سعوا في آياتنا معاجزين، يجازي هؤلاء الذين عملوا في إبطال الحق، وهكذا في قوله: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} يعني: وليرى الذين أوتوا العلم، عطفاً على يجزي، فابن جرير جعل هذه الثلاث مرتبطة ببعضها، وأنها عائدة إلى بعض، {كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة هود:٦]، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} وأيضاً ويجازي الذين عاندوا وكابروا وسعوا في آياته معاجزين، وليرى الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم، هذا على قول ابن جرير -رحمه الله-.

الآن {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، بعضهم يقول: أي مسابقين، يحسبون أنهم يفوتوننا، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا} [سورة العنكبوت:٤]، {سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي: مسابقين، يحسبون أنهم يفوتوننا ولا يدركون، يعني الله لا يقدر على إعادتهم أو لا يقدر على أخذتهم ومجازاتهم ومعاقبتهم ومحاسبتهم، فهم لكونهم يعتقدون أنهم لا يبعثون ظنوا هذا الظن السيئ أنهم يفوتون الله -تبارك وتعالى-، والمعاجزة تأتي بمعنى المغالبة، عاجزة بمعنى غالبه وسبقه، هذه قراءة الجمهور {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}} وفي قراءة أخرى متواترة لابن كثير وأبي عمرو {معجزين}، وكل ذلك بعضهم يفسره بمعنى متحد، وبعضهم يقول: إن قوله: {معجزين} أي: مثبطين للناس عن اتباع الحق والعمل به، أو عن الإيمان، والمعنى المتبادر -والله تعالى أعلم-، {سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} يعني: يحسبون أنهم يفوتون الله ويسبقونه فلا يقدر على أخذهم ومجازاتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم فلا يبعثهم بعد أن تفرقت أبعاضهم وأجزاءهم في الأرض، وذلك لا ينفي أيضاً قول من فسره بأنهم مسابقين في طلب إبطال الحق، {سَعَوْا فِي آيَاتِنَا} فإن ذلك يدل عليه هذا القدر، سعوا فيها معاجزين، فهذا السعي منهم بأي شيء يكون؟ من أجل إبطال الحق، وتثبيط الناس عن اتباعه والأخذ به ولزومه.

قال: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين.

قال: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}، الرجز هو العذاب و"من" بيانية، عذاب من رجز، وبعضهم يقول: إن الرجز أشد العذاب، يعني هو عذاب خاص، فالعذاب على درجات، فالشديد منه يقال له: الرجز، وهذا العذاب بماذا يفسر

{أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} وفي آية الحج: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة الحج:٥١]، إذاً هذا العذاب {مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} ليس في الدنيا وإنما في الآخرة، توعدهم الله -عز وجل- بالنار، {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} والقرآن يفسر بعضه بعضاً، {لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ} باعتبار أنه صفة للرجز.

في القراءة الأخرى وهي قراءة ابن كثير وحفص عن عاصم بالرفع {لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}، صفة لعذاب، لهم عذاب أليم.

قال: كما قال: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر:٢٠]، **وقال تعالى:** {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [سورة ص:٢٨].

وقوله تعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} **هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضًا:** {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٤٣]، **ويقال أيضًا:** {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يس:٥٢]، {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} [سورة الروم:٥٦]، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} عُرف من كلام ابن جرير -رحمه الله- أن ذلك عائد إلى قوله: {لِيَجْزِيَ}، وأن قوله: {لِيَجْزِيَ} يعود إلى ما قبله من ذكر الكتاب المبين، وأن الله -عز وجل- أثبت فيه كل شيء، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا} ويجزي أيضاً الكافرين، وليرى الذين أوتوا العلم أنه الحق، فأعاد ذلك جميعاً إلى قوله: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، والمعنى الذي قبله وهو أن ذلك عائد إلى قوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وأن قوله: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} عائد إلى قوله: {لِيَجْزِيَ} بهذا الاعتبار، وهذا المعنى، هذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وبه قال جماعة آخرون كالزجّاج والفراء، وبعضهم يرى أن قوله: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} أنه كلام مستأنف، يعني كلام مبتدأ جديد لا تعلق له بما قبله، يعني غير مرتبط به، كما قيل من كلام ابن جرير وابن كثير وغير هؤلاء، يكون هكذا {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} إلى أن قال: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا} ليجزيهم وليحاسبهم، ثم قال بكلام جديد مستأنف يخبر فيه عن الذين أوتوا العلم، فلما كان أولئك من المعاجزين الذين طلبوا إبطال الحق وتشويهه، وتثبيط الناس عن اتباعه، وذلك فعل الجاهلين، ذكر موقف الذين أوتوا العلم منه، فقال: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، فذاك موقف الكافرين سعوا معاجزين، وهذا موقع الذين أوتوا العلم، فهو كلام مستأنف في بيان حال هؤلاء في نظرهم للموحى به إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه حق وأنه يهدي، يعني أنه لا يتعلق بما سبق من قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ} يعني: وليرى الذين أوتوا العلم، وإنما هو كلام مستأنف، وهذا لعله الأقرب -والله تعالى أعلم-، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ}، فابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، بصرف النظر في مرجع ذلك في الفرق بين ابن جرير وابن كثير عرفتموه في هذا، لكن كل واحد منهما يرى أنه يرجع إلى ما سبق، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ}، وابن القيم -رحمه الله- هنا أشار إلى معنى لطيف في هذه الآية، فالذين أوتوا العلم يرون أنه الحق، هذا موقفهم وهذا نظرهم، فمن رأى أن المعارضين له بألوان المعارضات العقلية أنهم على الحق، أو أن ما عارضه من العقل حق، أن هؤلاء ليسوا من العلم في قليل ولا كثير، فالذين أوتوا العلم يرون أنه الحق، وأنه يهدي، فمن رأى أن الحق في غيره من المعارضات، أومن الأمور التي يتبعها من يتبعها سواء كان ذلك من العقول أو المواجيد والأذواق أو غير ذلك مما يتبعه من ضل عن الاهتداء بالقرآن فإنه ليس من هذا الوصف في قليل ولا كثير، فالذين شهد الله -عز وجل- لهم بأنهم أوتوا العلم هم الذين ينظرون إلى ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه الحق وأنه الذي يهدي، فمن اعتقد الحق في غيره أو أن الهداية في غيره فهو غير داخل بهذا الوصف.

قال: العزيز هو: المنيع الجناب، الذي لا يُغالب ولا يُمَانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله -جل وعلا-.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سورة سبأ:٧-٩].

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول -صلى الله عليه وسلم- في إخباره بذلك: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق.

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ} قالوا لبعضهم، قالوا مخاطبين لبعضهم، موجهين الخطاب لهم، {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ}، قالوا هذا على سبيل الاستنكار والسخرية والاستبعاد، {يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}، يعني تفسخت أجسادكم في الأرض وتحللت أنكم ترجعون ثانية.

قال: {إِنَّكُمْ} أي: بعد هذا الحال {لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك.

يعني هذا من قولهم، {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}، يعني هذا الذي صدر منه حينما قال: بأنكم تبعثون من جديد، إما أن يكون مفتري على الله، وإما أن يكون قد أصيب في عقله.

قال: أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون؛ ولهذا قالوا: {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}؟ قال الله تعالى رادًا عليهم: {بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد -صلى الله عليه وسلم- هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، {فِي الْعَذَابِ} أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، {وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} من الحق في الدنيا.

ثم قال منبهًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض.

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} يعني: أن الكافرين في العذاب والضلال، فابن كثير -رحمه الله- فسر العذاب هنا قال: **أي الكفر المفضي بهم إلى العذاب**، فيكون قد أطلق على العذاب، لما كان الكفر سبباً للعذاب، سماه عذاباً؛ لأنه يتسبب به العذاب، ينتج عن الكفر العذاب، فأطلق المسبب على السبب، وبين السبب والمسبب ملازمة لا تخفى، وهذا معروف في كلام العرب يتوسعون في الكلام ولا إشكال فيه، ويمكن أن يذكر أيضاً مع هذا مع ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من تفسير ذلك بأنه يفضي، لما كان يفضي إلى العذاب سماه عذاباً، وما هم فيه من الشقاء بالكفر والضيق والحرج والريب وما إلى ذلك، فإن هذا عذاب في الدنيا قبل الآخرة، {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} [سورة طه:١٢٤]، فالكافرين وإن تنعمت أجسامهم في الدنيا وحصلوا ألوان الملاذ إلا أنهم في شقاء يعصف بنفوسهم، فإذا كان أهل الإيمان إذا حصل من الواحد منهم بعض المعاصي والذنوب والتقصير أو الغفلة وجد من الوحشة والضيق ما قد يضيق به ذرعاً، فكيف بمن لا يعرف الله -عز وجل-، ولا يتقيه ولا يراقبه، ويفعل كل ما أملت عليه نفسه الأمارة بالسوء، وتقوده الشياطين إلى كل فعل قبيح، فمثل هذا كيف تكون حاله، ولهذا وعد الله -عز وجل- أهل الإيمان بالحياة الطيبة، وهذه الحياة الطيبة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل:٩٧]، هذه تكون في الدنيا كما تكون لهم الحياة الطيبة في الآخرة، لكن في الدنيا تكون لهم حياة طيبة، وليس المقصود بها نعيم الأجساد فإن ذلك غير مراد، ونعيم الأجساد لا يعني تنعم الأرواح، وإنما الروح لها نعيم آخر، ولهذا نقول للذين يعنون بأجسادهم كثيراً بالتمتع بالملاذ والطيبات، والتوسع في هذا والإكثار طلباً للسعادة والسرور والانشراح، وهكذا كثرة الترويح بأنواعه طلباً لهذا المعنى أنهم أخطؤوا، وأنهم ينقلون معهم هذه النفوس بما فيها من كدر وضيق ووحشة ينقلونها معهم حيث حلوا ثم يرجعون بها كما هي إن لم يكن الحال أسوأ من ذلك، فالطريق ليس هذا، الأرواح لا تنعم بما يحصل لأجساد، وإنما تنعم بأن تتوجه لربها وخالقها -تبارك وتعالى- فتعبده وتتقرب إليه فإذا اتصلت بالمعبود جل جلاله حصل لها من السرور واللذة والانشراح ما لا يقادر قدره، هذا هو الطريق.

قال: ثم قال منبهًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ} أي: **حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مظلة مُظلّلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال:** {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} **[سورة الذاريات:٤٧-٤٨].**

يعني {بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} يعني بنيناها بقوة، فابن كثير -رحمه الله- هنا يشير إلى معنى {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ} يقول: **قال: منبهاً لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض**، والمعنى الآخر الذي ذكره طائفة من السلف وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-: أن ذلك محيط بهم، يعني: إلى أين المفر، أن الله قادر عليهم، فالأرض محيطة بهم من كل جانب، والسماء محيطة بهم كذلك، إذا نظروا إلى ما خلفهم وما أمامهم فإنهم يرون السماء والأرض، فهي محيطة بهم، {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا}، هذه القرينة التي جعلت هؤلاء يقولون: بأن المقصود بذلك أن الله قادر على أخذهم وأن سماءه وأرضه محيطتان بهم تمام الإحاطة

فلا يستطيعون الفرار والخلاص، فهذا معنى تحتمله الآية، والمعنى الآخر الذي أشار إليه ابن كثير تحتمله الآية، والله -عز وجل- أرشد إلى النظر إلى خلق السماء وما فيها، وأن ذلك دال على كمال قدرته وقوته حيث يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، يمسك السماوات والأرض، فهو يقيمها، ورفعها من غير عمد، إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات الكريمة في القرآن في مواضع مختلفة، وأن ذلك دليل على كمال القدرة، فهذا المعنى دل عليه القرآن، والأصل أن القرآن يفسر بالقرآن، كما أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإذا احتملت الآية معنيين فأكثر ودل على كل واحد منهما دليل من القرآن أو قرينة فإن هذه المعاني ما لم يوجد مانع تكون داخلة في الآية، فذلك دليل على كمال قدرته، وهو أيضاً فيه إشارة إلى إحاطته إلى قدرته على خلقه، وأنه قادر على أخذتهم وإهلاكهم وتعذيبهم، وفيه إشارة إلى قدرته على البعث، فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق هؤلاء الناس الضعفاء، فهم يرون هذه الآيات العظام، الأجرام الكبيرة التي هي أعظم من خلق البشر {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافر:٥٧]، فإذا خلق هذه المخلوقات العظام فهو على البعث قادر، فذلك لا يعجزه جل جلاله وتقدست أسماؤه.

قال: وقوله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا.

والكسف يعني العذاب، ومعنى الكِسف يعني القطع، {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا} [سورة الإسراء:٩٢] يعني: قطعاً.

قال: ثم قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} قال مَعْمَر عن قتادة: {مُنِيبٍ}: تائب.

وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله -عز وجل-.

يعني المعنى الواحد، تائب، منيب، أناب، رجع إلى الله جل جلاله.

أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن مَنْ قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى}، وقال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.

قول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي إن في النظر إلى خلق السماء الأرض لدلالة على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد**، قريب منه قول ابن جرير بأن في إحاطة الله -عز وجل- الناس بالسماء والأرض، يعني جعلها محيطة بهم من كل جانب حيث نظروا فإنهم يجدونها من كل ناحية، فهذا فيه آية، وذلك أن الله قال: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ} إلى أن قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} يعني: بإحاطتها بهم من كل جانب، كلام ابن كثير في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة، فهذا غير معارض لما ذكره ابن جرير، ففي خلقها بهذه الصفة العظيمة وإحاطتها بهم من كل جانب آية.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة سبأ:١٠-١١].

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود -عليه الصلاة والسلام-، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

هذا تفسير للفضل الذي أعطاه الله -عز وجل- لداود -عليه الصلاة والسلام-، فابن كثير -رحمه الله- جمع الأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله عنهم- ودل عليها القرآن في مواضع متفرقة، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا} ففي هذا الموضع قال بعده: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} إلى آخر ما ذكر، فهذا تفسير لهذا الفضل الذي أعطاه الله -عز وجل- لداود -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا اقتصر بعضهم على هذا القدر، قال: إن ما بعده من قبيل التفسير له، وبعضهم يقول: هو النبوة، أعطاه النبوة، وبعضهم يقول: أعطاه الزبور، وبعضهم يقول: بأنه أعطاه العلم، وبعضهم يقول: أعطاه القوة {ذَا الْأَيْدِ} [سورة ص:١٧]، يعني: القوة، وبعضهم يقول: أعطاه التوبة {إِنَّهُ أَوَّابٌ}، وبعضهم يقول: أعطاه الحكم وشد ملكه، يعني ثبته وقوى دعائمه وأركانه فصار ثابتاً، وهكذا قول من قال: بأنه تسخير الجبال، وإلانة الحديد، أو حسن الصوت، وبعضهم قال: إنه المذكور بعده، الشوكاني قول: هو ما ذكر بعده فهو تفسير له، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا}، لكن الأشياء الأخرى التي ذكرها الله -عز وجل- في مواضع متفرقة هي أيضاً فضل من الله على عبده داود -صلى الله عليه وسلم-، قد ذكرها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في الأضواء، جمع الآيات في هذا مما أعطاه الله -عز وجل- وتفضل به على داود مما تفرق في القرآن، وفسرها بذلك جميعاً، فهي الأقوال المتنوعة التي أشرت إليها آنفاً عن السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وعلى هذا مشى الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما ترون، فعبارته قد لا تستبين إلا بالمقارنة مع غيره، يعني يتبين فضلها إذا قورن ذلك بغيره، بكلام غيره، فهو جمع هذه الأقاويل، ما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن والجنود ذوي العدد والعُدد وما أعطاه إلى آخره، فهذا كله من فضل الله -عز وجل- عليه.

قال: وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سمع صوت أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: ((لقد أوتي هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود))[1].

وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنَج.

صنج: الصنج آلة نحاسية من طبقين تضرب، معازف يعني، نوع من المعازف، عبارة عن، كالصفيحتين من النحاس، إذا ضربت ببعضها أصدرت أصواتاً مطربة، الصنج.

قال: ما سمعت صوت صَنْج، ولا بَرْبَط.

البربط: آلة مثل العود يقال: إنها فارسية، بربط مثل العود.

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، برقم (٤٧٦١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣).

قال: ما سمعت صوت صَنج ولا بَربط ولا وَتَر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-.

ومعنى قوله: {أَوِّبِي} أي: سبحي، قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد.

والتأويب في اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها.

هنا تفسير التأويب بالتسبيح يدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ}** [سورة ص:١٨]، **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ}** يعني سبحي معه، وإن كان أصل معنى التأويب بمعنى الترجيع، آب بمعنى رجع فهي تردد معه التسبيح، وهذا الترديد هل هو صدى رجع الصدى لقوة صوته؟ هذا يشعر به كلام بعضهم، وقول من قال: بأن الله أعطاه قوة الصوت، ولكن هذا -والله تعالى أعلم- بعيد عن تفسير الآية، وذلك أن الله -عز وجل- قرنه بالطير، **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}**، فالطير لم تكن تردد معه كرجع الصدى، ولهذا قال بعض أهل العلم: بأن الله أعطاها إدراكاً يليق بها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث))[٢]، وحديث: حنين الجذع[٣]، وتسبيح الطعام[٤]، فكل هذه جمادات والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث جابر عند مسلم لما لم يجد شيئاً يستتر به لقضاء حاجته قال للشجرتين "انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما -يعني جمعهما- فقال: التئما علي بإذن الله فالتأمتا..."[٥]، ولذلك في الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها أنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض على ظاهره، وقال: **{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** [سورة الإسراء:٤٤]، فهو تسبيح حقيقي يليق بها، وإن كنا لا نفقه ذلك، فهذه الجبال كانت تسبح مع داود -عليه الصلاة والسلام-، ولم يكن ذلك من قبيل الصدى الذي يرجع معه الصوت ولا يختص ذلك بداود -عليه الصلاة والسلام-، بل يكون له ولغيره في التسبيح وفي غير التسبيح، ولكن الله قال: **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}**، فكانت الجبال تسبح والطير أيضاً تسبح، وهذا من الفضل الذي أعطاه الله -عز وجل- إياه، وإلا لو كان مجرد صدى فإن ذلك لا يختص به وليس فيه آية.

وقوله هنا: **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}** هنا بالنصب، **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}** وسخرنا له الطير، ويحتمل أن يكون، **{وَالطَّيْرَ}** منصوب عطفاً على محل: **{يَا جِبَالُ}** فإنه من حيث المحل منصوب، نادينا الجبال **{يَا جِبَالُ}**، هذا منادى، والمعنى: نادينا الجبال والطير أن أوِّبي معه، ومثل سيبويه يقول: بأن ذلك منصوب بفعل مقدر محذوف: يا جبالُ أوبي معه وسخر له الطير، وبعضهم كالفراء يقول: يمكن أن يكون ذلك؛ لأنه مفعول معه، مثل: استوى الماءُ والخشبةَ، وبعضهم يقول: إنه معطوف على قوله: **{فَضْلًا}** لكن باعتبار آخر غير ما ذكر من قبل: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا}** يعني: آتيناه فضلاً وتسبيح

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٣ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٩٠).

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٨٦).

٥ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، برقم (٣٠١٢).

الطير، هذا يقوله الكسائي، هذا ليُعرف لماذا جاءت منصوبة، {وَلَقَدْ آتَيْنَا} لأن المعنى يتوقف على هذا، وإنما نذكر في مثل هذا المجلس ما يتوقف المعنى عليه من الإعراب، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} فهذا يتوقف على ما سبق: وسخرنا له الطير أو غير ذلك.

قال: وقوله تعالى: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}: قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط.

يقال: ألين له فصار مثل الطين، وبعضهم يقول: مثل الشمع يثنيه ويشكله على الأشكال المتنوعة من غير عناء أُلين له الحديد، صار الحديد مثل الحبال.

ولهذا قال: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} وهي: الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

يعني قال: **وهي الدروع**، {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} فيكون صفة لموصوف محذوف، اعمل دروعاً سابغات، والسابغ، تقول: ثوب سابغ إذا كان ضافياً ساتراً للابسه، أو قد يفضل عنه، يعني: بحيث لا يكون فيه انكماش أو قصر على لابسه فتخرج بعض أعضائه، {اعْمَلْ} أمره بأن يعمل دروعاً، {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ} [سورة الأنبياء:٨٠]، فتكون سابغة مغطية لجميع الجسد، وفي قصة الخندق لما خرج سعد بن معاذ -رضي الله عنه- وعائشة كانت معه أمه، فكانت عليه درع حسرت منها يداه، فعائشة -رضي الله عنها- قالت لأمه: لو كانت درعه سابغة، فأصيب -رضي الله عنه- بأكحله، العرق المعروف، فالدروع السابغة هي التي تكون مغطية لجميع الجسد بحيث يكون ذلك حرزاً للابسها من سلاح العدو، والدروع ما يلبسه المقاتل من الحديد الذي يغطي الجسد، مثل الحلق تربط ببعضها فتكون مثل الثوب، منه ما يكون سابغاً، ومنه ما لا يكون سابغاً، منه ما يكون غليظاً ومنه ما يكون خفيفاً، فإذا نظر الصانع إلى جانب التحصين صارت الحلق متينة، وصار ذلك مثقلاً لهذا الدرع يكون ثقيلاً تصعب معه الحركة، وإذا راعى جانب الخفة جعل الحلق دقيقة مما يمكن معه نفوذ السلاح في جسد المقاتل، ولذلك تجد بعض الدروع أشبه ما تكون بما نسميه اليوم بالشبك لا تكاد تمنع لابسها، ضعيفة، ولهذا فسر بعضهم قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} بهذا المعنى، اجعل ذلك في الصنعة متوسطاً بين مراعاة الحفظ والصيانة للمقاتل المنعة، وبين جانب الخفة تراعي أن يكون خفيفاً على لابسه فيكون وسطاً، روعي فيه هذا وهذا فيكون قصداً بين بين.

والصفائح: أن يضع المقاتل صفيحة يحترز بها من الإصابة، لكن الصفيحة صعب التحرك معها، فجاء داود -صلى الله عليه وسلم- بهذه التي علمه الله -عز وجل- إياها فصارت مثل الثوب له أكمام يلبسها ويتحرك ويقوم مثل الثوب، لكنه عبارة عن حلق من حديد، فالحلق الحديد يستطيع يقوم ويقعد ويركب الفرس ويتحرك، أما الصفائح فهي عبئ يرهقه ويثقله ويعيقه عن الحركة.

{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}: هذا إرشاد من الله لنبيه داود، -عليه السلام- في تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد في قوله تعالى: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}: لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق في الحلقة، ولا تُغَلِّظه فيفصمها، واجعله بقدر.

الحلَقة جمع حالق، حالق وحلقة، تقول: هؤلاء حلَقة يعني: حلقوا رؤوسهم، حلَقة الرؤوس، وحلْقه، حلقة الذكر، حلقة التلاوة، يوجد في المسجد حلقة للإقراء، حلَقة جمع حالق، هذا هو المشهور، وإن كان بعضهم قال: يصح أن يقال: حلقة لهذا المعنى يعني للحلْقة يعني، فهذا الشيء المستدير يقال له: حلقه.

وقوله: **لا تُدِقّ المسمار** تدُق يعني: تطرق وتضرب، وليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود الدقة، يكون المسمار ضعيفاً دقيقاً، فإذا كان ضعيفاً دقيقاً فإنه يقلق في الحلقة، يعني يكون غير متناسب معها، تكون الحلقة أكبر من المسمار فيتحرك، لكن إذا كان المسمار على قدر الحلقة **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}**، والسرد والزرد مثل الخياطة، وتجمع أطراف الثوب بالخياطة، فالدروع لا يوجد فيها إبرة وخيط يخاط بها الدرع، وإنما تخاط أبعاضه بالمسامير، **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** السرد والزرد مثل الخياطة فيجتمع، فيكون الرابط بينها مسامير، وهذه المسامير إن كانت في الدائرة التي وضعت لها من أجل الربط بين أجزاء هذه الحلق إن كان الموضع أكبر من المسمار، والمسمار دقيق يضطرب، وإذا كان المسمار أكبر من الحلقة فإنه يفصمها، فعلمه كيف يصنع هذه الدروع، **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** بحيث يكون المسمار متلائماً مع الحلقة فيكون ذلك محكماً في الصنعة، يعلمه كيف يصنعه، وكيف يكن هذا الصنع جيداً محكماً متقناً.

وقوله: **لا تُدِقّ المسمار فَيَقلَق في الحلقة، ولا تُغَلّظه فيفصمها، واجعله بقدر** هذا هو المشهور وهو الذي اختاره ابن جرير في قوله: **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}**، والمعنى الآخر الذي ذكرته لكم آنفاً، وهو أن يكون في الصنعة متوسطاً، لا يراعي جانب المنعة والحصانة للابس المقاتل فيجعل ذلك غليظاً فيثقله، ولا يراعي جانب الخفة فيكون ذلك دقيقاً فلا يحصل به المطلوب ووغنما يتوسط وهذا قاله قتادة، يعني كانت في السابق ثقالاً فعلمه الله -عز وجل- هذا، أمره أن يتوسط في صناعتها فتأتي بهذا الصفة، هكذا فسر **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** يعني: اجعله متوسطاً، هذا غير المعنى الذي ذكره ابن كثير وابن جرير.

وبعضهم يقول كابن زيد: يعني قدر في الحلقة، يعني في حجمها ومقدارها، فلا تكون صغيرة فتضعف، ولا كبيرة فتثقل اللابس، وهذا يرجع إلى قول قتادة، يعني اجعله وسطاً، ولكن المشهور الذي عليه عامة المفسرين هو أن معنى قوله: **{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** يعني ما ذكر من الملاءمة بين المسمار والموضع الذي يوضع فيكون متناسباً متلائماً معه.

قال: **وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حلَق الحديد، وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:**

وَعَليهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما * دَاودُ أو صنعَ السَّوابغ تُبّعُ**

وقوله تعالى: {وَاعْمَلُوا صَالِحًا} أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة سبأ من الآية (١٢) إلى الآية (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد. اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سورة سبأ:١٢-١٣].

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر.

قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى بها، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وقوله: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخرساني، وقتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس، قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان -عليه السلام.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} الريح على قراءة الجمهور منصوب يعني سخرنا الريح، وفي قراءة لعاصم من طريق شعبة بالرفع {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ} يعني الريح ثابتة أو مسخرة لسليمان، على أنه مبتدأ، فهما قراءتان متواترتان، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ} لعلكم تسمعون قول من يقول: إن الريح إذا ذكرت فهي للعذاب، وإن الرياح إذا ذكرت فهي للرحمة، {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [سورة الأعراف:٥٧، وسورة الفرقان:٤٨] وهذا الذي يسمونه بكليات القرآن، يقولون: كل ريح في القرآن فهي عذاب، وكل رياح فهي رحمة، ولكن كثير من هذه الكليات ليست على إطلاقها، فمنها ما يستثنى منه المثال والمثالان، ومنها ما يستثنى منه كثير، والأصل في الكلي كهذا -فحينما يقال: كل كذا فهو كذا بصيغة هي أقوى صيغ العموم وهي كل- أن يكون ذلك مراداً به معنى الكلية حقيقة بخلاف القاعدة فإنها أغلبية، وحينما تفسر بأنها قضية كلية فإن ذلك يقال على سبيل التجوز، لكن حينما نقول كل كذا فهو كذا الأصل أن ذلك يكون مشتملاً على جميع الصور والأمثلة إلا أن يستثنى منه صراحة، فيقال: إلا كذا، فهنا {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ} فهذا ليس مقام العذاب، وهذا مما يخالف الأصل، وقوله: {غُدُوُّهَا شَهْرٌ

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} الغدو يكون في أول النهار هذا الوقت بمعنى أنها تسير به تقطع به مسيرة شهر في أول النهار في مثل هذا الوقت إلى الظهر، إلى الزوال، {وَرَوَاحُهَا} يكون بعد الزوال بعد الظهر {وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} فتقطع به من بعد الظهر إلى المساء، إلى غروب الشمس، تقطع به مسيرة شهر فكان حاصل ما تقطع في النهار مسيرة شهرين؛ ولهذا قال: إنه يسير بها من الشام إلى إصطخر، وإصطخر هذه في بلاد فارس، وهي مسيرة شهر من الشام فيتغدى بها، ثم بعد ذلك يذهب فيبيت بكابل، وبعض السلف يقول: "من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه"، فسليمان -عليه الصلاة والسلام- لما ذبح الخيل في القصة المعروفة، {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [سورة ص:٣٣]، على أحد المعنيين المشهورين في الآية: {مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} يعني أضربُها بسيفي، فجعلها في سبيل الله لأنها شغلته وألهته ذلك اليوم حينما كان يستعرضها، هذا قال به جمع من السلف فمن بعدهم، فيكون قد تركها لله وفي الله فعوضه الله -عز وجل-، هكذا قال بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إن قوله: {تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} توارت بالحجاب، بعضهم يقول: الخيل يعني ذهبت مبعدة، وبعضهم يقول: المراد بذلك الشمس غابت حتى توارت بالحجاب، {رُدُّوهَا عَلَيَّ} أي الخيل، {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} يعني كما يفعل أهل الخيل حينما يمسحون عليها إذا رجعت إليهم، وليس المقصود أنه يضربها بالسيف، الكلام المعروف في الآية -والله تعالى أعلم-، قال: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} القطر هنا كما قال بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-: النحاس، وأنها كانت باليمن إلى آخره، مبنى ذلك على المرويات الإسرائيلية، ولا يوجد شيء يثبت، لكن القطر –النحاس- واضح من ظاهر الآية أن الله أسال له عيناً من النحاس، وكثير منهم يقولون: إن النحاس الموجود مما بقي مما أساله الله -عز وجل- لسليمان، فلا زال الناس يتعاطونه، وهذا فيه نظر؛ لأن النحاس من المعادن التي تستخرج من الأرض، فالله -عز وجل- جعل في هذه الأرض ما يحتاج إليه الناس من ألوان المعادن، لكن الله -عز وجل- قد أكرم سليمان -عليه الصلاة والسلام- بهذا وميزه وأعطاه.

وقوله: {وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ} أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك.

الإذن يعني يأتي بمعنى الإذن الشرعي، والإذن الكوني، وسليمان -عليه الصلاة والسلام- قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} [سورة ص:٣٥]، فأعطاه الله -عز وجل- هذا وسخر له هؤلاء الجن يعملون بين يديه، فالإذن يأتي بمعنى الإذن الشرعي، ويأتي بمعنى الإذن الكوني القدري، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى هنا على أنه الإذن الكوني، وهذا لا شك فيه، وهو أمر حصل ووقع، وكل ما وقع فقد أذن الله فيه كوناً، ولكن الله -عز وجل- لما أكرم سليمان بهذا وأعطاه وحباه فإننا نعلم من هذا أن الله -عز وجل- قد أذن له بذلك شرعاً، فإنه قد يحصل لأحد من الناس شيء من الأمور التي يفعلها وقد لا تحل له ابتلاء من الله -عز وجل-، وقد يملى له في هذا، فيفعل أشياء ولكنها محرمة، فهنا سليمان -عليه الصلاة والسلام- الجن يعملون بين يديه {بِإِذْنِ رَبِّهِ} بإذنه الشرعي وإذنه الكوني، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في القصة المعروفة لما أخذ بشيطانٍ حتى وجد برد لسانه على يده، لما أراد أن يلقي في يده -صلى الله عليه

وسلم- شهاباً من نار وهو يصلي، فهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يربطه في سارية من سواري المسجد يطوف به صبيان المدينة، ولكن الذي منعه من هذا أنه تذكر دعوة سليمان -عليه الصلاة والسلام- **{هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}** ولهذا فإن الذين يزعمون أنهم قد قهروا الجن والشياطين، ويسجلون معهم أشرطة، ويقولون: إنهم يسخرونهم وإنهم يستعملونهم في الأمور المباحة، ويعالجون بهم المرضى، وإنهم يرافقونهم ولربما زعموا أنهم يبعثون مع المريض بعض هؤلاء لحراسته من الشياطين والكفار والجن وما أشبه ذلك، هذا كله لا يصح، ولا يسوغ بحال من الأحوال، وأن هذا التسخير ربما كان لسليمان -عليه الصلاة والسلام- أما هؤلاء فإنهم لا يأتون لمثل هذا إلا على سبيل المقايضة، إما ابتداء وإما في العاقبة -نسأل الله العافية- فيضل، فلابد أن يدفع الثمن، ويحصل بهؤلاء من التلاعب والعبث –الشياطين- وما يجري من كذبهم فيُصدِّق ويبنى عليه أموراً كثيرة، ثم تتكشف الحال فيما بعد عن أوهام مركبة لا حقيقة لها، ولا يزيدونه إلا وهناً وضعفاً وعجزاً، **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** [سورة الجن:٦] وما رأيت أحداً اتبع هؤلاء وتعلق قلبه بهم وإن زعموا أنهم من الجن مسلمون وإن جاءه هؤلاء عن طريق راق أو نحو ذلك ما رأيت أحداً تعاطى هذا فأفلح وبرئ من علته، وإنما بقي بعضهم سنين طويلة وما رأيت أحداً منهم شفي من علة، وتغيرت حاله، وإنما هو في زيادة مستمرة وقد رأيت في بعض هؤلاء من يأتي هنا ويقول: إن شئت تكلموا، وسمعتهم، معي سبعة يقول الآن من الجن المسلمين، وهم الآن يستمعون ما تقول، فكنت آمر هؤلاء أن يتوكلوا على الله -عز وجل-، وأن يعلقوا قلوبهم به، وأن لا يلتفتوا إلى شيء سواه، وأنه كلما تعلق القلب بهؤلاء أو بالمخلوقين عموماً كلما ازداد ضعفه وعجزه وتعاظمت عليه علته ولربما قال بعضهم: إنهم يكلمونه ويصلحون ما بينه وبين أهله، وإذا أرادوا الدخول في حال يكون مع أهله في المعاشرة ونحو هذا ينبهونه، ولكن لم تتغير الحال بعد خمس عشرة سنة، ثم بعد ذلك يدخل في عالم من المتاهات والأوهام لا يدري ما هي! أنه في صراع وفي قتال مستمر، وأن بيده سيفاً ضارباً يقتل به الكفار من هؤلاء المردة والشياطين، ويخوض المعارك وأشياء لا تدري هي من الخيال أو الكذب، لكن إذا كنت تعلم أن الإنسان الذى أمامك لا يكذب إطلاقاً تعرف أن هؤلاء قد أدخلوه في أمور لا يدري حقها من باطلها، -والله المستعان-، فالله -عز وجل- سخر هذا لسليمان وما سخره لأحد سواه، وهذا الأصل ينبغي أن يُدرَك ويعرف ويعلم أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يسخرون هؤلاء أنهم قد تجاوزوا الحد، وبعضهم يقيم مستشفى متكامل التشخيص والعلاج بلا مبالغة، وحدثني من ذهب مستشفى لعلاج الأمراض المتنوعة وإجراء العمليات أنهم يعطونه التقرير بالذي يعاني منه، وكذا يعدلون له خرز الظهر ويبينون له الخرز التي يعاني منها ما هي، وبنفس تقرير المستشفى المعروف ثم بعد ذلك لا تتغير حاله ولا يبرأ من علته.

{وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا} **أي: ومَنْ يعدل ويخرج منهم عن الطاعة** **{نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ}** **وهو الحريق.**

هذا العذاب الذي توعدهم الله -عز وجل- به، بعضهم يقول: في الدنيا، وبعضهم يقول: في الآخرة باعتبار أن عذاب السعير إذا ذكر فالأصل أن ذلك يعني عذاب جهنم، ولا يرِد على هذا أن الجن والشياطين خلقوا من

النار فكيف يعذبون بالنار؟! فنحن خلقنا من الطين ولو ضرب أحد بلبنة من طين فإن ذلك يأتي عليه.

وقوله: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ}: أما المحاريب فهي البناء الحَسَن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره.

وقال ابن زيد: هي المساكن.

بالنسبة للمحاريب {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ} المحاريب جمع محراب، هذا الذي ترونه في المسجد يقال له: محراب، لكن هل هذا هو المقصود بقوله: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ}؟ الجواب لا، ولا أعلم أحداً قال بهذا، وإنما سمي هذا بالمحراب؛ لأنه في أشرف موضع في المسجد وأرفعه، فالمكان الذي يصلي فيه الإمام هو أشرف موضع في المسجد، وما يليه خلف الإمام هذا أشرف مكان في المسجد، فقيل له: المحراب، فصدر المسجد المحراب، واضح؟ فصدور المجالس وأشرفها يقال لها المحاريب كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: هي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، **قال ابن زيد: هي المساكن**، ليست هي المساكن بإطلاق وإنما الأماكن الشريفة المنيفة، وبعضهم يقول: يقيد ذلك بالارتفاع في أصل معناه، أصل معنى المحراب يقول: هو كل موضع مرتفع، الأبنية الرفيعة يقال لها: محاريب، لكن مثل هذا يمكن أن يقال: ما يكون مرتفعاً حساً أو معنى إذا كان الارتفاع يزيده شرفاً، وليس كل ارتفاع يكون كذلك، ولهذا قالوا: المقصود بالمساكن القصور العالية، وليست أي مساكن، القصور العالية يقال لها: محاريب، وبعضهم كما سبق يقيده بالارتفاع حسًّا كما جاء عن المبرد أن ذلك لا يكون إلا بما يرتقى إليه بالدرج، يعني المواضع المرتفعة من القصور الرفيعة أو المواضع المرتفعة من المساكن كل ذلك يقال له: محاريب، ويقال هذا أيضاً لأشرف المواضع في المساكن، كأشرف الغرف، وبعضهم قال: المقصود بذلك المساجد، ولكن لا وجه له، ليس عليه دليل يخص ذلك بالمساجد، لكن كأنهم نظروا إلى أن أشرف البقاع المساجد فقالوا: محاريب، والمساجد قد تسمى بالمحاريب لكن المقصود أن ذلك لا يختص بها، فلا يقال: المحاريب هي فقط المساجد؛ لأنه لا دليل عليه وإن قال به بعض السلف، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن المقصود بالمحراب مقدم كل مسجد ومصلى وبيت، يعني أشرف المواضع في البيوت والمساجد.

وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل: الصور.

التماثيل: الصور، هنا أطلقوا، ففهم البعض من ظاهر كلامهم أنها ذوات أرواح، فيرِد على هذا سؤال وهو أن الصور ذوات الأرواح محرمة وإذا كانت مجسمة هذا أعظم في التحريم، فجوابهم على هذا أن ذلك كان جائزاً في شرعهم ثم جاء تحريمه في شرعنا، ومسألة شرع مَن قبلنا الكلام فيها معروف، ولكن بالاتفاق أنه إذا جاء في شرعنا ما يدل على أنه محرم فذلك ليس بشرع لنا، فشرع من قبلنا إذا جاء في شرعنا ما يدل علي تحريمه مثل السجود على سبيل التكريم كإخوة يوسف -عليه الصلاة والسلام- سجدوا له، سجد له أبوه وأمه وأخوته، {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا} [سورة يوسف:١٠٠] فهذا على سبيل التكريم كان جائزاً في شرعهم، أما في شرعنا فلا يجوز، فهنا لا يقال: إن شرع من قبلنا شرع لنا في هذه الحال، فهنا على قول هؤلاء يجيبون على هذا الجواب أنه ليس بشرع لنا؛ لأنه في شرعنا حرُم بالاتفاق، ومسألة التصاوير عموماً فيها طرفان ووسط،

طرفان الطرف الأول من يقول كل التصاوير محرمة حتى غير ذوات الأرواح الشجر والجبل إلى آخره باعتبار أنه مضاهاة لخلق الله، فخلق الله يشمل ذوات الأرواح وغير ذوات الأرواح، وهذا قال به بعض السلف، يحرم تصوير الشجر والجبل وما إلى ذلك يضاهئون بخلق الله، فهو داخل في هذا، والطرف الآخر في مسألة التصوير هو ما نراه من هذا التساهل ولم يقف عند الآلات المعروفة بل حتى صار ذلك بالرسم وما إلى ذلك، وقالوا: إن الشرك في هذا قد ترحل وما إلى ذلك مما يقال من جهة الرأي المخالف للنص، فهذا غلط، والوسط في هذا هو ما دلت عليه الأدلة أن تصاوير ذوات الأرواح هي المقصودة؛ لأنه كما جاء في بعض الأحاديث قال: ((أحيوا ما خلقتم))[1]، أحيوا، فالذي فيه الحياة هو ما كان فيه روح، فدل على أن المقصود بأن أصحاب هذه الصور يعذبون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم يعني ما كان له روح، وإلا فالجبل ما يقال: أحيوا الجبل، ولا الشجر، -والله أعلم-، التماثيل: هنا قال: الصور، على سبيل الإطلاق في صورة ذات روح أو ليست صورة ذات روح، وحقيقة التمثال -وقد تطرقت لهذا عند الكلام على أمثال القرآن- كل شيء مثلتَه بشيء وصورتَه بصورته أيًّا كانت مادته فهو تمثال، يعني سواء كان من نحاس أو خشب أو زجاج أو طين أو غير ذلك، فهذا يقال له: تمثال؛ لأنه وضع على مثال غيره، هذا يقال له: تمثال سواء كان على مثال ما له روح، أو كان على مثال لا روح له، يعني بمعنى أنه لو عمل تمثالاً على صورة مالا روح له، وضع تماثيل لجبل معين صور هذا الجبل لقلعة معينة، لبناية معينة موجودة لبرج موجود مثلاً صوره وشكله بشيء من المعادن أو المواد أو نحته وما أشبه هذا فهذا يقال له: تمثال؛ لأنه على مثاله، هذا هو المقصود لو أنه وضع على وزان الكعبة على مثالها صورها بحديد أو رخام أو غير ذلك هذا يقال له: تمثال، كل ما وضعته على مثال لغيره فهو كذلك، وعليه فمن أهل العلم من يقول: إن قوله: تماثيل يراد به مالا روح له مما يصدق عليه أنه تماثيل، لماذا قالوا بذلك؟ قالوا: لا يقال: إن الصور ذوات الأرواح كانت جائزة في شرعه، والدليل على أنها ما كانت جائزة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث في مرض موته -عليه الصلاة والسلام- لما ذكرت له الكنيسة التي فيها التصاوير إلى آخره، ذمهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وعابهم وقال: ((إن أولائك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولائك شرار الخلق عند الله يوم القيامة))[2]، كيف يكونون شرار الخلق وهو مباح عندهم؟ هذا يدل على أنه من الكبائر، وهل تكون هذه التصاوير مباحة وقد وقع ما وقع بسببها في أول شرك في العالم، وجاء أول رسول -عليه الصلاة والسلام- نوح وبقي هذه المدة الطويلة وهو يدعوهم إلى الله ويأبون بسبب هذه

---

١ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، برقم (٥٦٠٧)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتا فيه صورة ولا كلب، برقم (٢١٠٨).

٢ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب الصلاة في البيعة، برقم (٤٢٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٢٨).

التصاوير، فهل يقال: إنها كانت مباحة في شريعة سليمان -عليه الصلاة والسلام- التي كانت التوراة يعني من حيث الشريعة التوراة، والزبور ليس بخارج عنها ففيه أوراد وأذكار وما أشبه ذلك، لكن العمل بالشريعة والقانون هو التوراة وهو من أنبياء بني إسرائيل، فهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، والمسألة دائرة بينهما، يعني قول من يقول: إنه جائز في شرعهم، وهذا لا يخلو من بعد، أو من يقول: إن المراد بذلك أن ما يكون على هيئة غيره وشكله وصورته، يقال له: تمثال، فدلت الأدلة على أن الصور محرمة –تماثيل-، فإذاً بناءً عليه يحمل ذلك على مالا روح له، وبهذا تعرفون ما حصل من التلبيس في مسألة تكسير الأصنام في الواقعة المشهورة المعروفة قبل سنين، وبدأ يتكلم بعض من ينتسب للعلم، وسمعتم من يحتج بهذه الآية على جواز التماثيل يقولون: هذا نبي ويعملون له تماثيل، نبي ويُعمل له تماثيل، إذاً التماثيل جائزة! فلماذا هؤلاء يتشددون ويصرون على تكسيرها؟، والأحاديث الكثيرة كيف تأخذون بمثل هذا الذي يدور بين كونه من قبيل شرع من قبلنا ثم جاء شرعنا بما فيه نسخه أو باعتبار أنه لا يقصد به ذوات الأرواح، وهذا هو الأقرب، فيلبس على الناس، وكثير من العامة لا يفقه مثل هذه القضايا، وإذا سمع: قول مَن قبلنا إلى آخره لا يعرف ما تحت هذا من تفصيل، فيقع بسبب هذا تلبيس على الناس كثير -والله المستعان-، بل إن بعضهم ذهب وسافر ليتوسط من أجل ألا تكسر تلك الأصنام.

وقوله: {وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} **الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء.**

الجفان يعني القصعة الكبيرة يقال لها ذلك، جمع جفنة، القصعة الكبيرة، كالجواب الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، يعني أن هذه القصاع الواحدة منها كحوض الماء، الحوض كبير لربما يكون أمتاراً، فيعملون له مثل هذه الجفان التي يوضع فيها الطعام لآكليه، فيجتمع عليها جمع كبير من الناس، والناس إنما يعرفون القصاع المعروفة التي قد لا تتجاوز المتر إذا كانت كبيرة.

والقدور الراسيات: أي الثابتات في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها، كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما.

بعضهم يقول: تنقر وتنحت من الجبال، وليس بالضرورة أن المقصود أنها لضخامتها لا تتحول ولا تنقل من مكانها، وبعض هؤلاء الذين كانوا يتكلمون عن هذه المعاني التي ذكرت آنفاً المعاني الباطلة بعض من يتكلم بالإعجاز العلمي وألّف بذلك كتاباً يقول: سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان عنده مفاعلات نووية وعنده تلفاز وسينما وهذه الأمور، وأن العصر الحديث لم يتفرد باكتشاف ما فيها ومعرفتها، ولكم أن تضحكوا من هذه الحماقات هذا كتاب في أكثر من مائتي صفحة يهذي فيه صاحبه هذا الهذيان، يقول: هل كان سليمان -عليه الصلاة والسلام- بحاجة إلى قدور ضخمة للطعام؟ وهل هذا مدح يمدح به ومظهر من مظاهر القوة والعزة القدور الكبار؟، هذه المقصود بها -القدور الراسيات- مفاعلات نووية، ما شاء الله!، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل يقول: انظروا قال: تماثيل جمع وليست مفرداً اسمع الفقه والأصول واللغة تماثيل، ثم يبدأ يشرح العرض السينمائي والتلفزيوني كيف يكون؟ صور كثيرة جداً خلف بعض فتحصل الحركة فيها، ويشرح كيف يتم العرض هذا التلفزيون السينيمائي المتحرك صور خلف بعض كثيرة جداً، ثم يحصل فيها

حركة بعد ذلك، يقول: تماثيل يعني معناها أنه كان عندهم سينما وتلفزيون، وأنهم اكتشفوا هذا قبلُ، وأن القرآن دل على هذه المكتشفات قبل أن يعرفها الناس اليوم، يعني القرآن خاطب الناس بهذه الأشياء وما فهمها إلا هذا! لم يفهمها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا الصحابة ولا الأجيال جميعاً، وجاء هذا وفهم هذا الفهم السقيم، وقل ما شئت من هذه الخزعبلات التي يطرب لها بعض الناس ويصدقونها، هذه جرأة على الله، وعلى كتابه.

وقوله: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} أي: وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين.

وشكرًا: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاءُ منِّي ثَلاثَةً * يدِي، ولِسَاني، وَالضَّميرَ المُحَجَّبَا**

قال أبو عبد الرحمن الحُبلي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر، وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير.

وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يَفرّ إذا لاقى))[٣].

وروى ابن أبي حاتم عن فضيل قال في قوله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}، فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: "الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني".

وقوله: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} إخبار عن الواقع.

قوله: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} يعني قلنا لهم اعملوا شكراً، يقول ابن كثير: **اعملوا شكراً على ما أنعم الله عليكم في الدين والدنيا** هذا كلام مجمل، وذكر وجهاً في إعرابه، قالوا: "شكراً" مصدر من غير الفعل أو أنه مفعول أو أنه مفعول له، مصدر من غير الفعل يعني اعملوا عملاً شكراً، شكر شكراً، "شكراً" مصدر، المصدر هو ما يأتي ثالثاً بتصريف الفعل، معروف، تقول: أكل يأكل أكلاً، الثالث هذا هو المصدر، وتقول مثلاً: كتب يكتب كتابةً، قرأ يقرأ قراءة، هذا الثالث هو المصدر، وهو أحد مدلولي الفعل، أكل فيه شيئان: فيه الزمن ماضٍ، يأكل مضارع، كُلْ في المستقبل، هذا الفعل في الأزمنة الثلاثة وفيه المعنى الذي فيه الأكل أو الكتابة أو القراءة، فالمصدر هو ما كان فيه أحد المدلولين لفعل من غير الزمان فالآن أكل وقرأ ونام هذه إذا رفعنا لها الزمن، قرأ تكون قراءة هذا المصدر، تقول: كتب كتابة هذا هو المصدر أحد مدلولي الفعل غير الزمن، فهنا يقول: **وشكرًا: مصدر من غير الفعل**، اعملوا عملاً شكراً، فيكون من اعملوا عملاً شكراً، هذا

---

٣ - في الصحيحين بمعناه، البخاري، كتاب الصوم، باب صوم داود -عليه السلام-، برقم (١٨٧٨)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، برقم (١١٥٩).

من غير الفعل إذا قيل: إنه مفعول له أي اعملوا للشكر، مفعول له اعملوا للشكر، وبعضهم يقول: مصدر من فعله "اعملوا شكراً" اشكروا شكراً، وبعضهم يقول: منصوب على الحال، "اعملوا شكراً" أي حال كونكم شاكرين، إلى غير ذلك مما يقال فيه ككونه منصوباً على المصدرية، أو مفعولاً به، يعني تقول: افعل طاعة، يمكن أن يكون مفعولاً به، أليس كذلك؟ اعمل قربة، اعمل شكراً، العمل هو الشكر، والعبادة شكر لله -عز وجل- فهنا اعملوا شكراً كأن يقول: اعملوا عبادة، اعملوا قربة، يكون مفعولاً به، تلاحظون أنه يتغير المعنى على كل واحد من هذه الأعاريب، قوله هنا: وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، فالشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من الحمد متعلقاً وأخص مورداً؛ لأن مورده النعمة، وأما الحمد فإنه أخص متعلقاً؛ لأنه يتعلق باللسان، وأعم مورداً؛ لأن مورد الحمد يكون على النعمة وغير النعمة فالله يحمد، أليس كذلك؟، الله يحمد، هذا من الفروق المشهورة بين الحمد والشكر قال هنا: **فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية كما قال الشاعر:**

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاءُ منِّي ثَلاثةً ***

يعني أن نعماءكم تفضلكم علي يدي، ونتج وأفاد ثلاثة أشياء:

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاءُ منِّي ثَلاثةً * يدِي، ولِسَاني، وَالضَّميرَ المُحَجَّبَا**

يعني أن يدي تعمل في خدمتكم في مقابل أفضالكم، ولساني يلهج بشكركم، والضمير المحجب لا يطلع عليه الناس يقوم به، هذا المعنى من استحضار نعمة المنعم، هذا يتكلم مع مخلوق يقول: إن عطاياك ما ذهبت سُدى فصارت يدي تعمل في الخدمة جوارحي تعمل في الخدمة، ولساني يلهج بالذكر وقلبي من وراء ذلك، هو لابد من مواطأة القلب، وإلا كان ذلك تملقاً، يعني الشكر من غير مواطئة القلب أو الحمد مثلاً من غير مواطئة القلب يكون من نوع التملق، فالحمد الحقيقي ما واطأ القلب، أما المدح فقد يكون بهذا وبغيره، ولهذا كان المدح بالغالب ليس كما ينبغي، فإنه قد لا يخلو من مبالغة وذكر أمور غير حقيقية، وأفضل الشكر الحمد، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- حال داود عبادته وصلاته وصيامه، وأما ما ذكره من طريق ابن أبي حاتم **عن فضيل قال داود: يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟** فهذا من أخبار بني إسرائيل، ولكن مثل هذا يستأنس به {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} كما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧].

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} [سورة سبأ:١٤].

يذكر تعالى كيفية موت سليمان -عليه السلام-، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه -وهي مِنْسأته كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد- مدة طويلة نحوا من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض -وهي الأَرَضَة- ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعُلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك، وذلك قول الله -عز وجل-: {مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأرْضِ

{تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يَكْذِبونهم.

يقول: **{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ}** يعني حكمنا عليه به وألزمناه بمقتضاه، هذا معنى **{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ}** قال: **{مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ}** دابة الأرض معروفة يقال لها: الأَرَضَة تأكل الخشب، والمِنسأة تقال: للعصا، كما يقول بعضهم كالزجاج؛ لأنه ينسأ بها يعني يطرد بها، **{وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}** [سورة طه:١٨] فقيل لها: منسأة، تقول مثلاً: نسأتُ الغنمَ طردتُها، وما ينسأ به الغنم هو المنسأة العصا **{فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}**، كون سليمان -عليه الصلاة والسلام- ميتا هذه المدة -سنة- قد يرد سؤال وهو أنهم ما يرونه يقوم ويأكل ويذهب لحاجات الإنسان وما أشبه ذلك، وهذا لا شك أنه يدل على كمال هيبته، يدل على كمال هيبته أن له من الهيبة مالا يجرؤ أحد لربما أن يتعرف على شيء من هذا من أحواله، فكانوا يعملون بين يديه دون نظر إلى شيء آخر، وإذا أراد الله -عز وجل- شيئاً كان، إذا أراد الله شيئاً كان، والله أعلم بملابسات الحال كيف كانوا ينظرون وأين كان يجلس منهم ونحو ذلك بحيث إنه خفي عليهم؟، وما يخفى عليهم أنه لم يتحرك من مكانه هذه المدة الطويلة أو يظنون أنه يذهب ويجيء، إذا أراد الله شيئاً وقع، وقوم موسى معهم موسى وهارون -عليهم الصلاة والسلام- بقوا هذه المدة الطويلة في التيه في صحراء محدودة لا يخرجون منها ولا يهتدون إلى سبيل؛ لأن الله أراد ذلك، أمة كبيرة وتضيع في أرض كهذه! هذه آية من آيات الله -عز وجل-، وقل مثل ذلك في مثل يأجوج ومأجوج عم خبرهم والإنسان قد يعمى عنه خبر الشيء وهو بين يديه، فقد يبحث عن نظارته فترة طويلة وهو يلبسها، ويبحث عن قلمه وهو في يده، ويبحث عن الشيء ويجهد بالبحث عنه وهو بين يديه، قال هنا: **{فَلَمَّا خَرَّ}** يعني وقع **{تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}** هنا يحتمل المعنى كما قال ابن كثير -رحمه الله-: **تبينت الجن والإنس أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك،** ذلك أن الجن كان عندهم هذا الاعتقاد والوهم أنهم يعلمون الغيب على هذا المعنى، فضلاً عن الإنس الذين أوهمهم الجن بهذا، فتبين للجن أو للإنس؟ تبينت الجن يعني عرفت **{لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}** **{تَبَيَّنَتِ}** يعني اكتشفتْ وعرفتْ، تقول: تبينتُ الأمر، تبينتُ أمر فلان يعني عرفتُه فهذا معنى من تبينت الشيء علمته، لكنه يحتمل معنى آخر، على المعنى الأول قلنا علم الناس أو علم الجن، لكنه يحتمل معنى آخر بمعنى أن الجن تبين حالها كُشفت يعني **{تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ}** تقول: تبينت الأمور، تبين حال فلان، تبينت الحال عن كذا وكذا يعني اكتُشفت تبينت الحرب عن ضعف المسلمين مثلاً بمعنى أنها كَشفت ذلك، **{تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ}** يعني ظهر أمرها وانكشف حالها فعُرف أنهم لا يعرفون الغيب، **{تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ}** كُشف حالها وأمرها للناس فعرفوا حقيقتها وأنه لا يعلم الغيب إلا الله -عز وجل- وأنهم كغيرهم في هذا الباب، فالأول تبينت الجن من بان المتعدية، تبينت هذا الأمر، تقول: تبينت كذا يعني عرفته، علمت كذا، فالجن عرفت والأنس عرفت على القول الأول، والثاني من بان اللازمة، بان بمعنى ظهر وانكشف، تبينت الجن يعني ظهر حالها وضعف أمرها للناس، **{لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}** فانكشف

أمرها وبان ذلك أيضاً للناس، فهما معنيان متلازمان، لكن هل كان الجن يتوهمون؟ هذا قدر زائد على هذا المعنى الذي ذكرته يجمع القولين -فالله تعالى أعلم-، هل كان الجن يتوهمون حقيقة أنهم يعلمون الغيب؟ ما يعرفون عن أنفسهم هذا؟ أو أن المقصود أن بعضهم يعلم الغيب مثل ما يأتون به من الأخبار أو شيء، كيف كانوا يتوهمون هذا عن أنفسهم، وهم يعرفون حالهم وما ينوبهم، ليلهم ونهارهم وتخفى عليهم عواقب الأمور، فهل كانوا يتوهمون أنهم فعلاً يعلمون الغيب؟ تبينت الجن، هل كانوا يحتاجون هذه الواقعة حتى يعرفوا أنهم لا يعلمون الغيب أو المقصود تبينت الجن أي تبين ذلك للناس أي تبين أمرهم واتضح وعرف؟ هما معنيان متلازمان ولا إشكال في هذا، لكن يبقى القدر الزائد الذي هو -والله أعلم بذلك- أنهم كانوا يكذبون، وإلى الآن هم يكذبون.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ} [سورة سبأ:١٥-١٧].

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس -صاحبة سليمان- منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شَذَر مَذرَ، كما يأتي تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

لما ذكر الله -عز وجل- خبر الأصفياء والأولياء ما ذكر من خبر داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام- ذكر حال هؤلاء المكذبين الكافرين الجاحدين لنعمه -تبارك وتعالى.

روى ابن جرير عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفي قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ ما هو؟ أرض أم امرأة؟ قال: ((ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل وُلد له عشرة من الولد، فتيامن ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا: فكندة، والأشعريون، والأزد، ومذحج، وحمير، وأنمار"، فقال رجل: ما أنمار؟ قال: "الذين منهم خثعم وبجيلة))[٤].

قوله: **تيامنوا** يعني ذهبوا جهة اليمن، وكل ما على يمين الكعبة فهو يمن، وماعلى شمالها يقال له: شام، ولذلك هذيل التي في مكة أو قريب منها يقال: هذيل الشامي، وهذيل اليماني قبيلة واحدة، فما كان من ناحية اليمن يقال له: اليماني ومن كان من قبيل ناحية الشام، يقال له: شامي.

---

٤ - رواه أبو داود، الباب الأول من كتاب الحروف والقراءات، برقم (٣٩٨٨)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة سبأ، برقم (٣٢٢٢)، وأحمد في المسند (ملحق مسند الأنصار)، برقم (٨٧)، وقال محققوه: "إسناده حسن، عبد الله بن عابس -وهو أبو سبرة النخعي- روى عنه ثلاثة وذكره ابن حبان في "الثقات"، وباقي رجاله موثوقون، حسين: هو ابن محمد بن بهرام، وشيبان: هو ابن عبد الرحمن النحوي".

وقوله: **خثعم وبجيلة** قبائل موجودة في الجنوب معروفة إلى اليوم، ويقال: إن بني مالك التي بين الطائف والباحة يقال: إنهم يرجعون إلى بجيلة رهط جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه.

ورواه الترمذي في جامعه، بأبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

هذا الحديث سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبأ، وسيأتي كلام لأهل العلم في ذلك، سبأ ما هو؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- أجاب بهذا الجواب بأنه رجل ولد له عشرة فجاء منهم هذه القبائل وصارت قبائل شامية وقبائل يمنية بعدما تفرقوا حينما انهدم هذا السد سد مأرب، وكتب التاريخ مليئة من الكلام في هذا في القبائل وانتقال القبائل من الشام، ومَن القبائل التي انتقلت وأين استقرت وما تفرع منها، كل هذا تجدونه في كتب التاريخ، وتجدونه في بعض كتب الأنساب، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه رجل هذا تفسير لسبأ، والله -عز وجل- يقول: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} هذا الرجل سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا السؤال، سأله عن سبأ سأله عن تفسير الآية، بمعنى أن قوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} هل يقصد {كَانَ لِسَبَإٍ} للرجل المعروف الذي اسمه سبأ الذى أراده النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ أو المقصود بذلك ولد سبأ الذين كانوا في ذلك المحل –الناحية- هل المقصود به القبيلة، ولد سبأ وليس الرجل المسمى بسبأ؟ {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن تفسيراً للآية، وإنما سئل عن سبأ ما هو؟ هل هو اسم مكان نُسبوا إليه أو أنه اسم لقبيلة أو أنه اسم لامرأة، أو أنه اسم لرجل، يقال بلقيس ملكة سبأ، ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه اسم رجل لكن هل نفسر به الآية الآن ونقول: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ} أي للرجل المسمى بـــ"سبأ" في مسكنهم آية؟ والقبيلة أو القبائل أو من كانوا تناسلوا منه {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ} هذه قراءة الجمهور باعتبار أنه اسم حي، كما نقول اليوم يعني حارة؟ لا، هذا الحي من الناس يعني كالقبيلة ونحوها حي من أحياء العرب، يعني قبيلة من قبائل العرب {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ} يعني هذا الحي الذي يقال لهم ذلك أولاد سبأ، {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ} بهذا الحي من ذريته من نسله من ولده، والقراءة الأخرى لابن كثير وأبي عمرو {لَقَدْ كَانَ لِسَبَأَ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} ففسر بالقبيلة كان لسبأ فهم جمع، قبيلة سبأ وممنوع من الصرف لتأويل القبيلة، وقرأ الجمهور بالجمع {فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ}، وعلى هذه القراءة التي نقرأ بها وهي قراءة حفص وحمزة "في مسكَنهم" يمكن أن يكون أيضاً بأن مسكن مفرد مضاف إلى المعرفة فيكون ذلك بمعنى الجمع، في مسكَنهم ومساكنهم ترجع القراءتان إلى معنى واحد بهذا الاعتبار، وهنا القراءة الثالثة بكسر الكاف {في مسكِنهم آية} بالإفراد وهي قراءة الكسائي، لكن معنى القراءة يرجع إلى شيء واحد -والله تعالى أعلم-، مسكن والمساكن كل ذلك يرجع إلى معنى واحد والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الأصل علق على هذا الحديث حديث فروة بن مسيك الغطيفي -رضي الله عنه- استغربه وقال: إن السورة مكية -سورة سبأ- وإن هذا السؤال كان في المدينة، لكن هل هذا كان إشكالاً حقيقياً يرِد على الحديث؟ هو ليس بسبب نزول فنقول: كيف وقع في المدينة؟ السورة نازلة في مكة، هذا ما هو سبب نزول، واحد يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبأ فلا إشكال أن يرد السؤال في المدينة وأن تكون السورة نازلة في مكة، والله تعالى أعلم، وهذا

الحديث حسنه الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله.

قال علماء النسب -منهم محمد بن إسحاق-: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش.

سبأ يعني من السبي، والسبي يكون للعدو في الحرب، وأول من سبأ من السبي، أول من سبأ في العرب وكان يقال له: الرائش.

وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشا ورياشا.

على هذا القول بأن سبأ لقب له لفعله هذا يزعمون أن اسمه عبد شمس، وهذه القضايا يصعب إثباتها، إذا رجعت إلى كتب التواريخ أو كتب الأنساب كلام كثير في مثل هذه الأنساب كلام كثير في الأسماء، وتجد كلاماً كثيراً في التفاصيل، وفي أصل هؤلاء، والله تعالى أعلم.

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق.

والثاني: أنه من سلالة عَابَر، وهو هود -عليه الصلاة والسلام-، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا.

والثالث: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليهما السلام-، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا.

يقصد في الثاني والثالث هو اختصر القول الأول، اختصر القولين ذكر الأهم الذي يريد أن يذكره بدلاً من أن يذكر القولين اللذين يرى أنهما بعيدان اقتصر على ما يريد أن ينقله، ما أراد أن يقتصر على قول واحد وأن هذا هو القول الوحيد، قال: اختلفوا على ثلاثة أقوال: الثالث منها هو كذا، هو الذي يريد أن يورده، وأحياناً العلماء يوردون هذا في المختصرات على وجه يتضح، ليس كهذا، بهذه الطريقة ما نعرف القول الأول والثاني، لكن ابن كثير قصد وأراد قولاً منها يرى أنه هو الأقرب أو له وجه ونحو ذلك في المختصرات جداً يوردون هذه الطريقة بوجه يعرف ما تحته فيقولون مثلاً في هذه المسألة الخلاف على قولين والثالث التفصيل، إذاً الأول المنع، والثاني الجواز بإطلاق، والثالث التفصيل هذا تجدونه في المختصرات، يقول: اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال، اختلفوا في ذلك على أقوال: الثالث منها التفصيل، إذاً نعرف القول الأول والثاني، إذا رأيت هذا في المختصرات فافهم هذه القضية تعرف مرادهم، لكن فيما ذكر ابن كثير ما نعرف الأول والثاني فنفهم أنه أراد ما يرى أنه الأقرب وأوجه هذه الأقوال.

وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمري -رحمه الله- في كتابه المسمى: "الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة".

وهذا مطبوع بعنوان: "الإنباه على قبائل الرواة".

ومعنى قوله -عليه السلام-: "كان رجلا من العرب" يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل -عليه

السلام- من سلالة سام بن نوح، وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل -عليه السلام-، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم.

إذا كان من سلالة الخليل -عليه الصلاة والسلام- أي أنه من ولد إسماعيل، أن العرب من ولد إسماعيل فالعرب العاربة: يقولون: كان من قبل ذلك الذين مثل قوم هود وصالح يقولون: إنهم كانوا من العرب وإنهم بادوا و انقرضوا، يقولون: العرب العاربة ثم جاءت العرب المستعربة من ولد إسماعيل، وهذا ليس محل اتفاق بين أهل العلم وإن كان مشهوراً، فإن من أهل العلم من يعترض على هذا ويقول: لا يمكن أن يكون الذين جاءوا من ولد إسماعيل يقال عرب مستعربة يعني ليست أصلية، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان من صلب العرب، وأنه أشرف العرب -عليه الصلاة والسلام- فكيف يقال عنه: إنه من العرب المستعربة؟!، فبعض أهل العلم يعترض على هذا التقسيم أصلاً ويرى أنه لا يوجد عرب عاربة وعرب مستعربة، وإنما كلهم عرب، والمسألة مبسوطة في كلام أهل العلم، معروف في مظانه ليس هذا موضعه، لكن لأن ابن كثير تطرق إليها.

ولكن في صحيح البخاري: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرَّ بنفر من "أسلَمَ" ينتضلون، فقال: "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا"[٥].

قوله: "**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم**" نسبهم إلى إسماعيل وهم من "أسلم"، وأسلم ترجع إلى قحطان فجعلهم من ولد إسماعيل.

فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسّان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غَسَّان بماء نزلوا عليه قيل: باليمن، وقيل: إنه قريب من المُشَلَّل.

المشلل في الحجاز عند قديد بين مكة والمدينة كما في غزوة المصطلق لما اختصموا عند ماء بالمشلل القصة المعروفة، الجهجاه وهو مولى لعمر لطم الجهني على الماء فقال: يا للأنصار، وقال هذا: يا للمهاجرين، جهني مولى لعبد الله بن أُبيّ فقال: أو قد فعلوها؟! ما مثلنا ومثل هذا إلا كما قال الأول -قبحه الله-: سَمِّن كلبَك يأكلْك، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة هذا كان في المصطلق عند ماء بالمشلل، أو عند ماء يقال له: المشلل الآن عند قديد.

كما قال حسان بن ثابت:

إمَّا سَألتَ فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ * الأزْدُ نِسبَتُنَا والماءُ غَسَّانُ**

ننتسب إلى الأزد القبيلة المعروفة اليمانية التي يرجع إليها الكثير من مسميات القبائل والناس مثل الغمد، والزهارين كل هؤلاء يرجعون إلى الأزد.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: **{واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد}** [سورة مريم:٥٤]، برقم (٣١٩٣).

ومعنى قوله: "وُلد له عشرة من العرب" أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم مَن بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب.

يعني أن هؤلاء الواحد منهم صار أباً للقبيلة، وإن لم يكن الابن مباشراً له –لسبأ- هذا مقصوده وكل ذلك يقال له: ولد، إذا رأيتم في أشجار النسب تجدون بإرادة الله -عز وجل- أن يكون أحد هؤلاء الآباء تتفرع قبيلة منه، وبعضهم لا يولد له أحد، وبعضهم يولد له أولاد ثم يضمحلون، وبعض الناس يريد الله -عز وجل- أن يكون هو وهكذا، تجد القبيلة تنتسب إلى رجل، الآن غامد وزهران ينتسبون إلى رجلين، إلى أخوين أو أنهما ابنا عم، لهذا المقصود أنهم ينتسبون إلى رجلين، ومَن قبل هؤلاء الرجلين إلى آخره هل تفرع منه القبائل؟ ليس بالضرورة.

ومعنى قوله: "فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة" أي: بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم مَنْ أقام ببلادهم، ومنهم مَنْ نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة.

يعني هذا ذكره قتادة في سياق بيان الآية، قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} قال قتادة: كانت المرأة تمشي وعلى رأسها المكتل، والمكتل مثل الزنبيل، تعرفون الزنبيل؟ الذي يكون منسوجاً من الخوص مثل القدر لكن من الخوص تضعه على رأسها فيمتلئ بالثمار دون أن تقطف، هذا قد يكون فيه مبالغة، يعني لكثرة الثمار لا تحتاج إلى قطف، لو كان الأمر كذلك كانت الأرض امتلأت بالثمار وفسد عليهم ثمارهم، مهما كان كثيراً إذا كان يتساقط بهذه الطريقة، تمشي المرأة وعلى رأسها المكتل وهو ممتلئ، قتادة يقصد تفسير الآية {فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} ما هي الآية؟ تمشي المرأة.. يعني كثرة الثمار.

أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب.

مأرب المعروفة اليوم، مع أن بعض السلف قال: المقصود صنعاء، لكن هذا لا يظهر -والله تعالى أعلم-، والذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود مأرب المعروفة.

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، ثم فسرها بقوله: {جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك.

هذا القول الآخر، هنا ذكر آخرين يفسرون الآية {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} ما هي الآية؟ الأول أن المرأة تحمل المكتل ويمتلئ، الثاني قالوا: إن المقصود أن أرضهم لا سباخ فيها، وبعضهم يقول: كثيرة الثمر

وهذا يرجع إلى قول من قال: إن المرأة تحمل المكتل إلى آخره، وبعضهم يقول: ليس فيها ذباب ولا حشرات ولا عقارب ولا براغيث حتى قال بعضهم: إن الوفد يأتون بثيابهم القمل فإذا رأوا بيوتهم ماتت، والله -عز وجل- ذكر هذه البلدة أو الأرض "في مسكنهم آية جنتان عن يمين..."، إلى آخره، من قال: إنها سباخ لا شك أن أرضها طيبة ظهر فيها الأشجار والثمار والبساتين وما إلى ذلك، والبلدة الطيبة يقال ذلك لطيب هوائها، وإذا طاب هواؤها فإن ذلك مؤذن بطيب كثير من الأمور فيها، وإذا لم يطب الهواء اعتلت الأجسام وكثرت الهوام والعلل والأسقام وصارت موبوءة تكثر فيها البعوض والحشرات وما إلى ذلك، فهذه بلدة طيبة لكن هل معنى ذلك أنه لا يوجد فيه حشرات مطلقاً لا يوجد فيها حيات لا يوجد فيها عقارب؟، والله أعلم هذا مما تلقي عن بني إسرائيل، لكن حينما يقول الله -عز وجل- "بلدة طيبة" فهذا يدل على طيب أرضها وهوائها وأشجارها وثمارها وما إلى ذلك، ولا شك أن كثرة الحشرات والذباب والبعوض إلى آخره من المنغصات، وشدة البرودة من المنغصات، وشدة الحر من المنغصات، وشدة الرياح والغبار من المنغصات، هذه بلدة معتدلة الهواء، طيبة التربة كثيرة الثمار والأشجار، وكلما طاب الهوى وحصل الاعتدال حصل أثر ذلك، ولذلك تجدون المناطق الاستوائية في العالم إذا ذهبت إلى إندونيسيا وما حولها على الخط تجد ما تراه كما ترى في المناطق المحاذية في أفريقيا، يعني اذهب إلى كينيا مثلاً وما حولها، واذهب إلى إندونيسيا تجد الأرض متشابهة تماماً، لا ترى التراب كل شيء أخضر أشجار على المحيط على البحر، وفي غاية الخصوبة باعتدال الهواء لكن ليست كمأرب، يعني هناك الحشرات كثيرة لكن كثرة نسبية.

وهم يقولون: عن يمين واديهم وشماله، وأن مساكنهم كانت في الوادي، وبعضهم كابن جرير يقول: بستانان بين الجبلين عن يمين من أتاهما وشماله، المقصود بالبستانين مزرعتان، وإنما بساتين عن يمين الوادي وشماله، عن يمين وشمال.

{كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

من الذي قال لهم: إن استمررتم {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ}؟ يمكن أن يكون من الله -عز وجل-، وليس المقصود أنه خاطبهم بهذا مباشرة فسمعوه، وإنما هذا يدل على تمكينهم من تلك النعم {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} وبعضهم يقول: قال لهم نبيهم، يقولون يزعمون بأن الله بعث لهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وليس عندنا دليل على هذا -فالله أعلم-، والله أخبر أنه ما من أمة إلا بُعث فيها نذير ينذرهم، فالعلم عند الله -عز وجل-، وبعضهم قال: قالت لهم ذلك الملائكة، ولا دليل على هذا، {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ} هذه جملة مستأنفة جديدة لبيان موجب الشكر {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ} وعرفنا لماذا كانت طيبة، وابن جرير -رحمه الله- جمع بعض هذه المعاني يعني كثرة الأشجار وطيب الثمار وأنها ليست بسباخ، وهذا لا إشكال فيه، والله تعالى أعلم، {وَرَبٌّ غَفُورٌ} يعني أن ربكم إن شكرتم فيما رزقكم ربٌ غفور للذنوب، هذا قال به بعض السلف، وابن كثير يقول: ربٌ غفور إن استمررتم على التوحيد، وهذا لا يعارضه، وجه الجمع بين ما سبق يعني أن الله قال: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} بعض أهل العلم يقول: لما كان التمتع بالطيبات قد لا يخلو من شائبة ذكر مغفرته -تبارك وتعالى-، يعني أن

الإنسان إذا كان على الصراط وموحداً الله -تبارك وتعالى- فإنه وإن وقع منه شيءً من الزلل إلا أن الله غفور يغفر له ما قد يبدر له من تقصير في شكره، ولهذا يمكن أن يقال بطريق أوضح في قوله: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}: إن الله أفاض عليهم من هذه النعم وحباهم بهذه العطايا والمنن ثم لا يستطيعون أن يوفوا شكرها فقال: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، أعطاهم فهذا يحتاج إلى شكر أعظم وهم لا يستطيعون القيام بهذا على الوجه الأكمل فقال: {وَرَبٌّ غَفُورٌ}، والله أعلم.

وقوله: {فَأَعْرَضُوا} أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} [سورة النمل: ٢٢-٢٤].

لاحظْ هو يتكلم عن أمّة، عن قبيلة، فالحديث السابق لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبأ وقال: رجل لا يمكن أن يفسر به هذا {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ} أي الرجل الذي يقال له: سبأ، يعني تفطنوا لهذا، ولهذا قال: "امرأة تملكهم" تملك هؤلاء القوم.

وقوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ}: قيل: المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجُرَذ، وقيل: الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: "مسجد الجامع"، و"سعيد كُرْز"، حكى ذلك السهيلي.

وسعيد كرز يعني أضيف إلى صفته، مسجد الجامع، سيل العرم، أنه عرم أي سيل شديد، سيل عارم بهذا الاعتبار، على هذا.

وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك أن الله -عز وجل- لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: "الجُرَذ" نقبته.

الجرذ فصيلة من الفأر أكبر حجماً منه يقال لها: الجرذان، ومنه قول القذافي -قبحه الله- لمعارضيه ذلك، فعاقبه الله -عز وجل- بما يستحق، نقبته يعني تكاثرت عنده الجرذان، أرضهم كانت طيبة ما فيها شيء من هذا فتكاثرت عندهم فصارت تنقب عنهم هذا السد، وإذا تكاثرت وبدأت تنقب لا تسأل عن حال المكان بعدها، فلما جاء السيل كان هذا البناء مخرقاً، وإذا كان البناء مخرقاً يبدأ الماء قليلاً شيئاً فشيئاً ثم يتعاظم ويتكاثر ثم بعد ذلك يأتي على كل ما أمامه، ونحن قد لا نتصور هذه الأشياء من قبل سنين ولكن لما رأينا الماء وما يفعل في الطوفان الذي حصل في إندونيسيا، وفي غيرها يجتاح القرى بكاملها في لحظات ويجعلها كالقش لا يقف في وجهه شيء، بل رأينا المطر كيف يصنع في جدة يحمل السيارات كأنها قش وينقلها من أماكنها من المظلات، ويحمل بعضها على بعض، يحمل بعضها على بعض بطريقة عجيبة جداً تتعجب كيف تصبح هذه السيارات الضخمة -حتى الشاحنات- كأنها قش يطفو على الماء ثم يحطم بعضها بعضاً فتتحول إلى سكراب كأنك في تشليح رميت السيارات فيه على بعض، فهذه آية من آيات الله -عز وجل-، والذين شاهدوا السيول التي تجتاح السدود في وقت من الأوقات يدركون مثل هذه المعاني تمام الإدراك، فجاء هذا السيل العارم الشديد واجتاح هذا السد، ثم اجتاح ما بعده، يقلع الأشجار

والبيوت لا يبقي ولا يذر.

قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان

في كتبهم يعني الإسرائيليات.

يقابلون بالسِّنَّوْر –القط- من أجل أن يطرد أو يأكل هذه الجرذان، وإذا كانت هذه أحياناً قوية فإنه قد يخاف منها ويفر كما هو مشاهد، وإذا جاء أمر الله -عز وجل- بطلت الحيل، والله المستعان.

فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السَّدّ فنقبته، فانهار عليهم.

الآن بعدما تغير كل شيء عند الناس والأحوال رأينا الجرذان تطارد السنانير، وهي تفر منها غاية الفرار هذا شيء مشاهد، الآن كل شيء تغير حتى السنانير تغيرت، والجرذان استأسدت، والله المستعان.

وقال قتادة وغيره: الجُرَذ: هو الخَلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ}.

سيل العرم: ابن كثير يقول: مثل هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، السيل الموصوف بهذه القوة والشدة، وبعضهم يقول: إنه الفأر أو هذا الفصيل من الفئران هو المقصود بسيل العرم أضيف إليه للملابسة لأنه هو الذي خرقه، والأول أوضح من هذا وأوجه، الوادي يقال له العرم يقال له: جمع عرمة، بعضهم يفسره بالسدادة مثلاً، كما يقول بعضهم: كان له أبواب على درجات كما هو في السدود، يعني إذا كان ممتلئا يفتح المنفذ الأعلى فيخرج الماء ينساب منه، وإذا نزل مستوى الماء ومنسوبه يفتح الأوسط، وإذا نزل يفتح الأسفل ففيه أشياء تُسَكّر هذا، فهذا السكر، السكر نحن نقول سدادة مثلاً، أو مثل الآن الحنفية، يقال له: سكر الماء محبس يعني، يقال له: سكر، حنفية ضخمة مثلاً، أنا لا أقول عندهم حنفيات...إلى آخره، لكن هذا يسمى سكر الماء، أظن أنه يكتب إلى الآن سكر ماء كذا في اللوحات عند أماكن محابس المياه أو الأنابيب أو نحو ذلك، فبعضهم يقول: العرم المقصود المحابس هذه، وهذا لا يخلو من بُعد وإن قال به بعض السلف كقتادة، وبعضهم يقول: اسم السد سيل العرم، العرم هو السد، اسمه العرم، والله أعلم لا يخلو من بعد، سيل السد العرم يعني السد المسمى بالعرم، وبعضهم يقول: هذا اسم الوادي يقال له: العرم، سيل العرم فنسب إلى الوادي الذي حصل فيه ذلك، وهذه كلها أقوال للسلف، ومن قال هذا الفأر فنسب إلى سببه، سبب السيل الذي حصل والمصيبة التي حلت بهم هذا الفأر الذي هو العرم، ولهذا يقول بعض أئمة اللغة كابن الأعرابي: إن العرم اسم للفأر في اللغة، هذا قاله ابن الأعرابي، من أسماء الفأر، وبعضهم يقول: هو غير ذلك ماء أحمر أرسله الله إلى هذا السد فدمره وهدمه وشققه، وبعضهم يقول: العرم هو المطر الشديد، سيل العرم، وبعضهم يقول: السيل الشديد، الفرق بين المطر والسيل: المطر هو الذي ينزل من السماء، والسيل يكون قد جاء من أماكن، من جبال بعيدة فسال في الأرض، وبعضهم يقول: العرم كل حاجز بين شيئين ولهذا قيل: للسد،

والعرامة تدل على الشدة، تدل على شدة وشراسة وقوة، ومن ثَمّ فإن أقرب هذه الأقوال -والله تعالى أعلم- أن السيل العرم يعني القوي الشديد الذي لا يقف في وجهه شيء وهذا سيلٌ عرم، وعارم، وفلان رجلٌ عارم وعرم أي شرس شديد صعب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء الخُرَساني، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي: وهو الأراك، وأكُله البَرِير.

وأكُله البرير، البرير هو ثمر الأراك، الذي يظهر من ثمره، وشجر الأراك معروف الذي يستخرج منه السواك، أعواد السواك من شجر الأراك، لعلكم رأيتم شجر الأراك ويكون في الأرض الرملية، وفي الأودية ونحو ذلك، وهو شجر كثيف متفرع يحتل مساحة إذا كان كبيراً مساحة واسعة لا يكاد ينتفع منه بغيره، فهذا يخرج في مناطق وأماكن صحراوية أو شبه صحراوية، وهذا يدل على أن هذه الناحية بعدما كانت جنات تصحرت، فصار عامة ما فيها هو شجر الأراك بعد تلك الجنان، والأثل هو نبت صحراوي لا يكاد ينتفع منه إلا بالخشب الذي كان يوضع في السقوف، وترون الأثل يوضع في هذه البلاد في أطراف المزارع، ولا يزال موجوداً في بعض النواحي، قبل استعمال الناس هذا النوع من الأشجار التي تكون للزينة ونحو ذلك يضعونها الآن في أطراف المزارع وأطراف الاستراحات والشوارع والأرصفة، وقبل ذلك المزارع كانت تحاط بالأثل الذي يوضع منه خشب السقف، واضح؟ تعرفونه لونه أشهب إلى حدٍّ ما طويل جداً جداً، رأيتم هذا في أطراف المزارع، أثل الواحدة أثلة، فأُكل خمط، إذا قيل أكل خمط: الخمط هو الأراك فيكون الخمط بدلاً من الأُكل إذا قيل الخمط هو الأراك كما يقوله أكثر المفسرين، وبه فسره الخليل بن أحمد -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن الخمط هو كل شجر له شوك مر المذاق هذا خمط، وبعضهم يقول: كل ما لا يمكن أكله من الشجر لمرارته، وهذا قريب من الذي قبله، هكذا يفسره بعض أهل اللغة، هذه أقوال مثل أبي عبيدة والزجاج وغيرهم، وبعضهم يقول: كل شيء قد تغير لا تطلبه النفوس ولا يُشتهى للأكل فهو خمط، فاللبن إذا تغير إلى حموضة لا يستساغ فهو خمط، وهذا الذي بدلهم الله -عز وجل- بهذه الأشجار التي لا ينتفع بها أو لا يكاد ينتفع بها أو بثمرها فهو أيضاً خمط، وبعضهم يقول: نوع من الأراك له حمل يؤكل -والله تعالى أعلم-، والمقصود أنهم بُدلوا بهذه الجنات وهذا النعيم تصحرت بلادهم وصارت تظهر بها هذه الأشجار الصحراوية الأثل والأراك والسدر؛ لأن السدر شجر النبق يؤكل ثمره كما هو معروف لكنه صغير، وماذا عسى يسمن أو يغني من جوع؟، وإنما يُتفكه به تفكهاً ضعيفاً يسيراً لا يقارن بالثمار الأخرى، وغالب ما يَتفكه به الصغارُ الأطفال، ومع ذلك قليل، هذا إذا كان هذا السدر من قبيل السدر الذي يكون له النبق المعروف الذي يؤكل وإلا فالسدر نوعان: نوع صحراوي لا يكاد ينتفع به حتى إن ورقه لا يصلح أن يكون غسولاً، يعني أول ما كانوا يغتسلون بالسدر، مقام المنظفات اليوم الشامبو، فورق السدر غير الصحراوي كان يستعمل لهذا، فيكون هذا الذي أبدلهم الله -عز وجل- هو السدر الصحراوي الذي لا ينتفع لا بثمره ولا بورقه.

{وَأَثْلٍ}: **قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء.**

وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السَّمُر، فالله أعلم.

شجر، تعرفون النبي -صلى الله عليه وسلم- عمل له المنبر من شجر الطرفاء، طرفاء الغابة في المدينة قيل هو الطرفاء وقيل السمر الشجر المعروف، وهذا موجود في أرض الحجاز، وبعضهم يقول: أعظم من الطرفاء طولاً، وبعضهم فسر الأثل بالخشب، والأثل هو الذي يؤخذ منه الخشب، واليوم الناس يعرفون الأثل ويسمونه بهذا وهو الشجر الذي يسمونه آنفاً، شجر صحراوي طويل جداً ليس بتلك الخضرة وإنما يميل إلى اللون الأشهب لا يكاد ينتفع منه بالخشب إلا في الأسقف، ورقه صغير جداً يتحاتّ، وضئيل ليس له ورق منبسط.

وقوله: {وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}: لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: {وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}، فهذا الذي صار أمرُ تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ} أي: عاقبناهم بكفرهم.

قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور.

وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم، لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

الجزاء هنا حمل على معنى المكافئة أن الله كافأهم بذلك فالسيئة بمثلها، وأما الثواب لأهل الإيمان والجزاء الحسن فالحسنة بعشر أمثالها، فالمقصود هنا وهل نجازي أي نكافئ إلا الكفور يعني على إجرامه وكفره بالله -تبارك وتعالى-؟ فهنا **قال مجاهد: لا يعاقب إلا الكفور**، وتأمل هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير وذكره بعض السلف أن الله أبدلهم -بسبب أعمالهم- بجنتيهم جنتين من نوع آخر، تحول ذلك النعيم إلى بؤس وقلة وشقاء وحال لا تطاق، فتفرقوا شذر مذر انتقلوا؛ لأن أرضهم لم تعد محلاً صالحاً للعيش، وهكذا من حادّ الله -جل جلاله-، ونحن نرى في هذه السنين آياتٍ ما كنا نظن أننا نعيش حتى نراها وإن كنا نعلم أنها ستقع وتتحقق سواء كان ذلك في أشخاص كما حصل لبعض هؤلاء العتاة على الله -عز وجل-، وكيف أُبدلوا من حال إلى حال، من الترف والنعيم واللذات والانغماس بالشهوات وظلم الخلق إلى حال كما ترون، ويشاهده العالم جميعاً وكان الرجل في السابق لربما يفتضح في طائفة من الناس أو بين قومه وأصبحت الفضيحة اليوم -نسأل الله العافية- يراها مَن على وجه الأرض، وهذا الخزي إذا استعاذ الإنسان من خزي الدنيا فهذا من أعظم خزي الدنيا، وانظر إلى ذلك على مستوى الأمم كيف يبدلها الله -تبارك وتعالى-، وخذ مثالاً على ذلك اليوم اليونان وما صارت إليه من الإفلاس بعدما كان قبل سنوات الناس في بعض البلاد الشرقية يذهبون إليها طلباً للكسب والمعيشة، وقد زرت بعض البلاد تكاد تخلو من الشباب، والشباب يذهبون هناك إلى اليونان طلباً للعمل والكسب ويضيّق عليهم في هذا كثيراً بسبب أنهم من المسلمين فيضطرون إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء نصرانية ويقفون طوابير طويلة لمدد طويلة؛ علّه يحصل لهم مثل هذه الأمنية التي يتمناها الشباب هناك، فيذهبون ينتقلون إلى حال من الرغد في زعمهم والغنى، هذا قبل سنوات قريبة يذهبون إلى اليونان يذهبون من كوسوفا من مقدونيا من ألبانيا من البوسنة إلى اليونان للعمل، والآن اليونان إفلاس، ولما حاولت

الدول في أوروبا أن تعطيهم بعض الجرعات المنشطة والمهدئات ليتأخر سقوطهم -أعلن الإفلاس شيئاً فشيئاً- وجدوا أن الأمر أكبر من ذلك ثم بعد ذلك رفعوا أيديهم، هذه من آيات الله -عز وجل- وبقية العقد في الطريق، الآن هم في الإعصار، وعما قريب سترون بإذن الله -عز وجل- كيف يعصف بهم فيتهافتون، وتتحول تلك القوى والمفاعلات وما إلى ذلك إلى عبء يرهق كواهلهم ويهدد حياتهم صباح مساء، {وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران:١٨٩] ولكن الناس يستعجلون.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة سبأ من الآية (١٨) إلى الآية (٢٧).

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سورة سبأ:١٨-١٩].

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}، قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وكذا قال أبو مالك.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسُّدِّي، وابن زيد وغيرهم: يعني: قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها: بيت المقدس.

{قُرًى ظَاهِرَةً} أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء الكافرين الجاحدين نعمه: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} هذه القرى التي بارك الله عز رجل فيها قول الجمهور كما ترون ممن ذكره الحافظ ابن كثير ومن لم يذكره أنها بلاد الشام، فبلاد الشام بلاد مباركة، ولا شك أن أخص بلاد الشام بهذا الوصف هو بيت المقدس وأكنافه، ولكن هذا الإطلاق القرى التي بارك الله -عز وجل- فيها الشام كله داخل في ذلك، فكانوا يتجرون من الشام فجعل الله -تبارك وتعالى- طريقهم إلى الصفة إلى بلاد الشام على قول الجمهور وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أعني أنها من بلاد الشام، وقوله -تبارك وتعالى-: {قُرًى ظَاهِرَةً} الظهور بمعنى ما يقابل الخفاء فهذه القرى الظاهرة بمعنى أنها قرى بينة معروفة إذا خرجت من قرية لاحت لك القرية التي بعدها وقدر الله -عز وجل- فيها السير بحيث كما يقول جماعة من المسلمين السير من قرية إلى قرية مسيرة نصف يوم إذا مشوا في أول اليوم فإن منتصف النهار يكون محل

لنزولهم في قرية أخرى هو وقت لنزولهم في القرية التي تليها ثم بعد ذلك إذا ساروا فإنهم يبيتون في قرية بعدها فلا يحتاجون إلى سيرٍ طويل متواصل لقطع المفاوز والمهامه ولا يحتاج ذلك منهم إلى حث للدواب والركاب من أجل الإسراع وشدة السير لسبب المخاوف التي يجدها المسافرين عادة في ذلك في تلك الأحوال وإنما هو سيراً أمن لا يحتاجون معه إلى نقلاً كثير من الزاد لأنهم يتزودون من القرية التي بعدها ولا يحتاجون إلى نقل كثير من الماء بخلاف من سار سيراً طويلاً بعيداً من غير أن يقف أو يصل في سيره هذا إلى قرى يستريح فيها، ويجد فيها حاجته وطالبته فالمقصود أن هؤلاء وجدت هذه القرى يخرج من القرية وتلوح له الأخرى فهي قرى ظاهرة لظهورها حتى قال بعضهم: بأنها بلغت أربعة الأف وسبع مئة قرية لكن هذا لا دليل عليه، لكن لو حسبت القضية من بلاد الشام إلى اليمن هذا المسير كم يحتاج فإذا كان الراكب إذا سار سيراً قصداً يقطع في يومه وليلته على الإبل نحو أربعين كيلاً في اليوم والليلة فنصف يوم يقطع عشرين كيلاً، يعني هذا السير مثل القوافل ليس سير الراكب المسرع خفيف نحو عشرين كيلاً هذا مسيرة نصف يوم والذين كانوا يسافرون على الإبل لهم أوقات معروفة ينزلون فيها إذا مشوا في أول النهار ينزلون في الضحى بعد مسافة قريبة لربما ما تصل إلى عشرة كيلوا مترات، وفي بعض البلاد عندنا الآن المكان الذي كانوا ينزلون فيه في الضحى هو حي من أحياء المدينة زرت ناحية من النواحي في أحد المدن ليست المدن الكبيرة مثل الرياض، فأخبرني من يسكن هناك بأن هذا كان محطة نزول للبلد بوقت الضحى يمشون من الفجر فينزلون الضحى فيه ثم بعد ذلك يسيرون وينزلون منزلاً آخر وهكذا من الضحى إلى الظهر هذا منزل آخر، فيكون مجموع ذلك نحو عشرين كيلوا متر تقريباً فلو حسبت المسافة بين الشام إلى اليمن وقسمتها بهذه الطريقة تقريباً كل عشرين كيلوا متر قرية تقريباً على الأقل تصل إلى رقم تقريبي يقرب لك الحال وإن لم يكن ذلك هو الشيء المتيقن؛ لتعرف كثرة هذه القرى التي في سيرهم، -والله المستعان-.

وقوله: {قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} قلنا لهم: سيروا فيها ليالي وأياماً للتمكين كما في قوله -تبارك وتعالى-: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سورة سبأ:١٥]، يعني قيل لهم: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} كما سبق أن ذلك للتمكين، يعني أنهم مكنوا لهذا فهنا {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} أن الله مكنهم من ذلك وهيأه لهم فهذه نعمة عظيمة جداً الناس في ذلك الوقت أحوج ما يكون إليها أسباب من أعظمها الأمن، ومن أعظمها أيضاً قلة ما يتحملون من الطعام والشراب؛ لأن ذلك لربما أعظم ما يثقلهم بل لو قلت أنهم ليسوا بحاجة إلى حمل شيئاً من الفرش معهم لأنهم ينزلون من قرية إلى قرية ولا الأخبية، يعني ما يحتاجون إلى حمل في السبق يحملون أخبية خيام يعني إذا نزلوا ضربوا هذه الأخبية مثلاً أما هؤلاء ما يحتاجون إلى شيء من ذلك ينزلون قرى ومعنى ذلك أنهم يتخففون غاية التخفف من المتاع هذه حالة ومظهر من المظاهر النعيم والترف، الذي كان يتمناه الأولون لكن بماذا قابلوا هذا؟.

{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، وقرأ آخرون: "بعد بين أسفارنا "، وذلك أنهم بَطِروا هذه النعمة -كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد-وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف.

قالوا: {رَبَّنَا} على هذه القراءة التي نقرأ بها {رَبَّنَا بَاعِدْ} هذا طلب {بَاعِدْ} يا ربنا {بَاعِدْ} هذا التقدير، وكذلك القراءة الأخرى {ربنا بّعد} وهي في المعنى ترجع إلى الأولى طلب، ولكن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى يعني أن المشدد للتكثير يريدون بعداً كثيراً من أجل أن يشعرون بالسفر والتعب، وما يجده المسافرون من غيرهم، فهاتان قراءتان ترجعان إلى معنى واحد، وهناك قراءة أخرى متواترة وهي رواية عن ابن عامر وبها قرأ أيضاً ابن كثير وأبو عمر، {رَبُنَا بَاعَدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} باعد هذا فعل ماضي على سبيل الخبر، ذاك دعاء ربنا يا ربنا باعد، وهذا ربنا خبر عن الله -عز وجل-، {رَبُنَا بَاعَدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} يعني أخبروا عن غير الحقيقة لم يقروا بالنعمة ولم يعترفوا بها، وهذه القراءة التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله- قال: **وقرأ آخرون {بّعِد بين أسفارنا}** هذه قراءة ابن كثير وأبو عمر، وهي رواية عن ابن عامر أن ذلك على سبيل الطلب والدعاء، وقراءة أخرى متواترة رواية يعقوب {رَبُنَا بَاعَدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، وهناك قراءة رابعة أيضاً وهي: {رَبُنَا بّعَد بَيْنَ أَسْفَارِنَا} وهي ترجع إلى القراءة التي قبلها قراءة يعقوب القراءة الثالثة ويقال فيها كما قيل في التي قبلها: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وهذه قرأ بها يحيى ابن يعمر {رَبُنَا بّعَد بَيْنَ أَسْفَارِنَا} فصار جماع ذلك يرجع إلى معنيين:

المعنى الأول: أن ذلك على سبيل الطلب طلبوا البعد وزهدوا في هذه النعمة.

المعنى الثاني: أنهم جحدوا نعمة الله عليهم بطريق آخر وهو أنهم لم يعترفوا بها أصلاً واعتبروا أن ذلك بعيد، ولم يعترفوا بما أنعم الله عليهم من قرب هذه المسافات، وإنما يعتبر هذا بعيداً أيضاً فقالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، -نسأل الله العافية-، ومعلوم أن القراءات الصحيحة إذا كان لكل قراءة معنى فإنها بمنزلة تعدد الآيات، الآن كان عندنا أكثر من آية أنهم طلبوا وأنهم أخبروا فهل كان ذلك من قبيل الإخبار أو من قبيل الطلب، أو أن بعضهم طلب أن يحصل البعد، وأن آخرين أخبروا عن غير الحقيقة كل ذلك صدر منهم، أو أن ذلك صدر منهم في حين والأخر صدر منهم في حين آخر كما يقوله النحاس يعني أنهم طلبوا ذلك وزالت تلك القرى، وصاروا يقطعون المفاوز لم يصبروا على هذا وقالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} فهم لم يطيقوا نعمة الرخاء ولم يصبروا على الشدة والبلاء هذا قاله النحاس، يعني أن ذلك في حالين لهم، وهذا كله هو يحصل لابن آدم في أحواله، فتارة يجحد نعمة الله -عز وجل- عليه يكون في سعة وغنى وعافية فلا يقر بذلك، ويرى أنه محروم، ولا يلتفت إلى هذه النعمة ولا يعدها أصلاً نعمة، هذا موجود ولو فتش الإنسان في أحواله ونظر فيمن حوله لوجد من هذا شيئاً غير قليل، الحالة الثانية للإنسان وهو نوع من بطر النعمة وكفرها والزهد فيها؛ وذلك أنه يمل هذه النعمة ويسئم فيبحث ويطلب غيرها، فهذا الإنسان الذي يسافر المسافات الطويلة والمسافات القصيرة بهذه الطريقة لربما يزهد في هذه النعمة ويمل ويقول: نريد نحس بالسفر نريد أن نمشي لها، فالمفاوز التي نسمع عنها والمخاوف حتى نتذوق السفر نشعر بالتعب فعلاً بعض الناس هكذا يقول!، ولذلك بعض الناس يسلكون الطريق المسلوك المرصوف الذي يجد في كل بغيته خدمات ويذهب إلى وسط الصحراء يمشي فيها يسمونه قطوع على أساس يشعر بالتعب لربما يهلك من العطش في الصحراء ويموت وهذا موجود، وهذا نوع من الحذق والاحتراف والمهارة يستشعر فعلاً السفر هكذا يزعم بعضهم، ولو نظرت في أحوال الناس لوجدت من هذا أشياء كثيرة لما كثرت النعمة في أيدي الناس الآن

سواء كان في صنوف المطعومات المشروبات الأثاث المساكن وما إلى ذلك ما الذي حصل بدأوا يبحثون عن أشياء أخرى فتجد في اللباس لاسيماء النساء بدأوا يبحثون عن لبس الأولين فلو رأيت بعض اللباس قلت: هذه مسكينة فقيرة، والحلي تحول إلى أشياء من قطع البلاستيك التي كان يلبسها الفقراء، ولربما تجد الرجل الذي يكون له العرض الكثير والمال الذي لربما لا يملكه قارون إذا رأيت صورته في بعض الأماكن متبذلاً في لباس يستحي الإنسان أن يلبسه لتبذله تتعجب، ولربما رأيته حافي القدمين أو يلبس أشياء على قدميه تقي حراً ويرى أن مثل هذا تغيير مثل القصة المعروفة المرأة التي لأحد ملوك الطوائف في الأندلس لما رأت بايعات الحليب اللبن يمشين في الطين في يوم مطير أطلت من الشرفة مترفة فتمنت أن تمشي في الطين أمر بطحن العود أو نوع من الطيب وعجن بالأيدي حتى صار كالطين ثم وضع في صحفة فوضع بين يديها من أجل أن تخوض في الطين تذوق الخوض بالطين، وجاءت إليه وهو في السجن وقد جرد من أمواله، فكأنه غاضبها فقالت: ما وجدت منك خيراً، قال: ولا يوم الطين! فتجد هذا في الناس، تجده في اللباس ألبسة أحياناً تظنه فقراء يحتاجون الصدقة يكتشف هذا النوع من اللباس أن هذا جيد ويشترونه بغالي الأثمان، مرقعة أحياناً عليها رِقع وأحياناً ممزقة من غير رقع مساكين هؤلاء لا يجدون شيء تجد في المطار أحياناً ناس يلبسون لباس متبذلاً من هؤلاء الشباب يقولون: هؤلاء فقراء عمال النظافة، كنت في بعض البلاد الشرقية مثل أندونيسيا إذا رأيت كثير من الناس كان بالكاد يجد هذه الدراجة النارية من أجل أن يركبها ويركبها الأسرة كاملة تقول مساكين ما عندهم من المراكب هكذا كما هو الحال عندنا ثم بعد ذلك رأيت بعض الشباب عندنا يسافرون على دراجات نارية فتعجبت فعلمت بعد ذلك أن هذا نوع وأن هذا قيمة هذه تساوي أغلى من السيارات يسافر على دراجة نارية لرأيته أشفقت عليه ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به، فهذا داخل في قوله: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} يسافر على دراجة نارية، وهكذا بعض الناس الحمقات التي تسمع بها أنه مسافر على دراجة هوائية أو على قدميه وتلتقط له الصور، وقل مثل ذلك في أكل الناس وما صاروا يبحثون عنه من أكل الماضي الذي كان حينما كان الناس لا يجدون شيئاً، وأصبح الناس الآن يستطرفونه ويستلطفونه بل حتى وجد بعض المحلات خاصة فيما كان يباع قبل خمسين وستين سنة من المعلبات ونحو ذلك، و يقصدها فئام من الناس ويشترونه بغالي الأثمان، وأما المباني والزينة ونحو ذلك أصبح الناس يميلون في هذا كما هو معلوم أما في بيوتهم يخصصون أماكن لذلك أو في خارجها من استراحات أو نحو هذا على طريقة الأولين من خشب من أثل وجريد ومطين الجدار، والسرج وما إلى ذلك وينفق فيها الأموال الطائلة هذا كله قد يدخل في قوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} ويدخل في ذلك أيضاً الذين يزهدون في النعم كالأمن مثلاً الذي أعطاهم الله -عز وجل- إياه، فلربما يبحثون القلق والخوف وأسباب ذلك ويتقحمونها، ولو جربوا ما جرب آباءهم أو أجدادهم بحيث الواحد منهم لا يستطيع أن يذهب من مكان إلى مكان إلا وهو في حال من الخوف، لأدركوا النعمة التي هم فيها فبعض البلاد تتعجب ماذا يطلبون وماذا يريدون؟ هم لم ينتقلوا إلى حال أسوء من ما هم عليه، ولا يمكن أن يجتمعوا على شيء وكانوا أمنين، ثم بعد ذلك تنكروا لهذه النعمة، -والله أعلم- إلى أي شيء ستصير الأحوال، وانظر ما حولك في بعض البلاد التي لا تستطيع أن تتصور الحال بها إلى أي شيء ستكون لشدة التنازع أهل تلك البلاد سواء كان تنازع قبلياً أو كان تنازع مذهبياً أو كان تنازع

فكرياً لا يمكن أن يجتمعوا على شيء، أعني مثل بلاد اليمن أشهر طويلة في الساحات وفي هذه الشوارع لا أدري كيف سيجتمع هؤلاء وعلى أي شيء سيجتمعون في غاية الافتراق والتنازع والتناقض هل سيصلون إلى قتال وإلا سيقسمون البلد؟ -الله أعلم- ما يعرف، نعرف أن الواقع الذي يعيشونه من قبل ليس كما ينبغي وليس هو الواقع المأمول ولا المرضي لكن إلى أي شيء سيصيرون يعني هذا مثال، -والله المستعان-.

{فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} أي: جعلناهم حديثا للناس، وَسمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: "تفرقوا أيدي سبأ" "وأيادي سبأ" و "تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ".

عبارة ابن كثير -رحمه الله- دقيقة: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} بعض المفسرين قال: معنى {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} يعني سمراً، حديث الناس أحدوثه يتحدثون عنها وعن خبرهم ويعتبرون ويتعظون كما يتحدث الناس اليوم أمن جعلهم الله -عز وجل- أحاديث، -نسأل الله العافية- وغزاهم أمام القريب والبعيد، وهنا معنى آخر أيضاً ذكره بعض أهل العلم وهو {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} يعني مثلاً جعلناهم مثلاً كما يقال تفرقوا أيدي سبأ، فصار يضرب بهم المثل فذلك داخل تحت قوله: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} فابن كثير -رحمه الله- جمع المعنيين بعبارة يشعر القارئ الذي لم يعرف كلام المفسرين فيها أنه فعل ذلك لكن الواقع هو هذا {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} أحدوثه يتحدث الناس فيها ويسمعون، وكذلك يضربون به المثل.

وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةَ على ما ارتكبوه من الكفر والآثام -لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن، إن أصابه خير حَمدَ رَبَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته))[١].

وقد رواه النسائي في "اليوم والليلة، وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: ((عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن))[٢].

وعن قتادة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} قال: كان مطرّف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

هذا هو المتبادر الصبار الشكور، صيغة مبالغة من الشكر والصبر، فالشكر يكون على النعماء، والصبر يكون على البلاء، هذا هو المتبادر ولكن لا يخفى أن النعمة تحتاج إلى صبر، وأن البلاء قد يرتقى الحال معه قد يرتقى في الحال إلى مرتبة الشكر يعني أمام البلاء الصبر واجب وفوقه الرضى وفوقه الشكر على البلاء

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٨٧)، وقال محققوه: "إسناده حسن".

٢ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩).

وفي هذه الدروس الأعمال القلبية كان كلام على هذه المعاني، وأن الثالث والثاني غير واجب وذكرت نماذج لهذا منها: أن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- لما أصيب بالطاعون في يده ظهر فكان يقبلها على المنبر، وذكرت أشياء من هذا فكانوا يشكرون على البلاء يرون أنها نعمة ساقها الله -عز وجل- إليهم يحمدونه عليها ويفرحون بها وأنها رفعة لدرجاتهم تكفير لسيئاتهم، وذكرت هناك أن البلاء يحصل فيه رفعة الدرجات على الأرجح مع تكفير السيئات، فالمقصود أن النعمة تحتاج إلى صبر لأن الإنسان إن لم يصبر على النعمة فإن ذلك سيؤدي إلى البطر والطغيان {إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧] فيحتاج إلى صبر، ولهذا قد يكون صبره حال النعمة أعظم من صبره حال الحرمان والفقر ولهذا الاختلاف في المفاضلة المعروف بين الغنى والفقر أيهما أفضل؟ وحال الشاكر والصابر أيهما أفضل؟ المقصود أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الفقير ليس أمامه أصلاً إلا الصبر أو الجدار أليس كذلك! وين يذهب؟ ما بيده حيلة أصلاً لكن الغني كل ما كان الداعي إلى المعصية والطغيان أكثر فحجز العبد نفسه عن ذلك فإن ذلك يكون أرفع في مرتبته ولذلك شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال، رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله هذا مع السبعة التي يضلهم الله، لكن لو واحد دعته عجوز فقيرة ولا منصب ولا جمال فقال: إني أخاف الله، فهذا ليس كالأول، فكل ما كان الداعي أكبر كان الأجر المرتب أعظم، وكان ذلك أرفع في مرتبة العبد، وإذا ضعف الداعي إلى المعصية فواقعها العبد كان ذلك أعظم في حقه ولذلك من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ذكر منهم أشيمط زان، ملك كذاب، عائل مستكبر[٣]، فالداعي معدوم ومع ذلك يفجر ويفعل أو يكذب أو يتكبر على أي شيء بخلاف من قويت فيه الدواعي إلى هذا فوقع على المعصية، وهذا أمر معروف مقصود أن قوله: {لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} فهؤلاء لم يصبروا على النعمة، ولم يشكروا الله -عز وجل- عليها وكذلك على القراءتين وكما قال النحاس في الجمع بينهما ذلك في حالين هم لم يشكروا على النعمة حين كانت قائمة موجودة ولم يصبروا حينما صارت مفقودة تسخطوا {رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، وفي النعمة قالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} يعني لا حيلة فيهم لا صبر ولا شكر -نسأل الله العافية-.

{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سورة سبأ:٢٠-٢١].

لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ}.

قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا} [سورة الإسراء:٦٢]، ثم قال: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سورة الأعراف:١٧] والآيات في هذا كثيرة.

---

٣ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٤٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٦٩).

يعني أن إبليس حينما قال هذا الكلام قاله عن ظن ظنه {وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}، {لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا} يأخذ هؤلاء الذرية من الحنك وما أخذ من الحنك فإنه لا يستطيع الانفلات أليس كذلك؟ غير لما يؤخذ من اليد مثلاً {لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا}، وبناء على هذا على أي شيء حكم بناء على ظن ظنه، هل هذا الظن حينما قال: {وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} تحقق أو خاب ظنه في هؤلاء الذرية فلم يطيعوه أن يستجيبوا له، الواقع أن هذا الظن تحقق وصار أكثر الناس من جنوده وحزبه وأتباعه {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦] فهذا بناء على ظن ظنه، طيب {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} هذه القراءة صدق هي قراءة حمزة والكسائي وعاصم، فالظن هنا مفعول به صدق ظنه في هؤلاء، يعني صدق الظن الذي ظنه كما يقول الشنقيطي -رحمه الله- في دروسه يردد هذا المعنى يقول: إنه ليعرق الجبين من ما وقع لذرية آدم -عليه الصلاة والسلام- حيث قال الله: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} ظن فيهم ظناً، كانوا عند ظنه أنه سيستطيع أن يظلهم وأن يجتالهم ويصدهم عن سبيل الله -تبارك وتعالى- فتحقق ذلك في أكثر الخلق -نسأل الله العافية- والهداية والثبات على الحق، أما قراءة الجمهور {وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} وهي ترجع إلى المعنى الأول يعني صدق عليهم ظنٌ ظنه أو صدق في ظنه أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك، كما يقول ابن جرير -رحمه الله- وغيره، {صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} {صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} بنصب ظنه المعنى يرجع إلى شيء واحد، لكن في قراءة أبي جعفر {وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ} بالرفع بمعنى صدق ظن، ظن إبليس، الظن فاعل صدق إبليس ظنه، من الذي صدق إبليس من الذي فعل به هذا ظنه مثل ما تقول: ضرب زيداً عمه، فالذي ضرب زيد عمه فيكون الظن هنا فاعل وإبليس مفعول به، يعني أن إبليس سول له ظنه شيئاً فيه فصدق ظنه الذي ظنه، صدق عليهم ظن إبليس فكانوا حائدين عن الصراط المستقيم، وفي رواية عن أبي عمر من السبعة برفع إبليس وظنه {صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ} مع تخفيف صدق، فيكون صدق إبليس ظنه، يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس، بدل اشتمال تقول مثلاً أعجبني زيداً خُلقه، يعني الذي أعجبني خلق زيد، أعجبني زيد كرمه وما أشبه ذلك، فهؤلاء الذين صدق عليهم ظن إبليس، بعض أهل العلم يقول: هذه المقصود بها أهل سبأ، الحديث عنهم فالذين صدق عنهم ظن إبليس هم هؤلاء ممن قص الله خبرهم بهذه الآيات، وبعضهم يقول هذه في الخلق في بني آدم كما تدل عليه الآيات الأخرى فهي عامة فصدق ظن إبليس لهؤلاء {وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} فكانوا كما ظن، ويدخل فيها قوم سبأ دخولاً أولياً، فتكون الآية عامة {فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} إلا فريقاً استثنى الفريق من المؤمنين وهذا يحتمل معنيين {فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} باعتبار أن تكون من تبعيضية يعني أيضاً ليس كل المؤمنين بل بعض المؤمنين باعتبار أن البعض الآخر يقعون في الكبائر واتباع الهوى فيطيعون الشيطان مع بقاءه على حال الإيمان، فيطيعون الشيطان في أمور من أهواءهم وإن لم يكونوا من حزبه، ويطيعونه طاعة مطلقة هذا معنى ذكره بعض أهل العلم، المعنى الثاني أن تكون من بيانيه وليست تبعيضية إلا فريقاً، فالفريق هذا من المؤمنين، تقول: إلا ثوباً من خز، باعتبار أن من بيانية إلا فريقاً هذا الفريق هم أهل الإيمان، فيكون المقصود بذلك أن المثيرين صاروا من حزب إبليس، {وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} يعني من أتباعه وأولياءه الكفار إلا القليل وهم أهل الإيمان بطوائفهم الثلاث {ثُمَّ أَوْرَثْنَا

{الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة فاطر:٣٢]، فهؤلاء أهل الإيمان أهل النجاة، فهؤلاء ليسوا حزب إبليس وأن كان فيهم العصاة وأهل الكبائر وما شابه ذلك، المعنى الثاني {إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ويكون هؤلاء بمعنى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الإسراء:٦٥] يعني أهل الإيمان أهل العبودية الخاصة وإلا كل من في السموات والأرض فهو عبداً لله {إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [سورة مريم:٩٣] فلا يخرج أحد عن هذه الصفة وهي عبودية القهر، أما عبودية الاختيار فهي لأهل الإيمان، لأهل الإيمان على تفاوت مراتبهم في تحقيق هذه العبودية، فهذان معنيان والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك الاستثناء لأهل الإيمان عموماً، كما تدل عليه ظواهر الآيات الأخرى {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا}، فهؤلاء أهل الإيمان وإن كانوا عصاة هل هم داخلون في هذا؟ الجواب لا، فالقليل هم أهل الإيمان الذين لم يأسرهم الشيطان أسراً مطلقاً، وأن كان لهم بعض الأسر بحسب أتباعهم وطاعتهم لإبلي.

وقوله: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي من حجة.

الحجة يقال لها: سلطان ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، وذكرنا هناك الأقوال في السلطان وأن الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه يكون له حجة يتسلط بها، {فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} يعني صار له حجه يتسلط بها على القاتل فيقتص منه طيب فهنا هذا السلطان ما كان عليه سلطان الحجة، وهكذا قول من قال: قوة أو تسلط كل هذه المعاني صحيحة، يعني ما أخذهم بالقوة ما أجبرهم ما أكرههم، وهذا الإلجاء والإكراه، تارة يكون بالحجة، وتارة يكون بالقهر والتسلط مباشرة على ذواتهم وأجسامهم كما يأخذ الأسير فما كان له عليه من سلطان لا هذا ولا هذا ما كان عليه قوة وتسلط أو حجة إنما غاية ما هنالك التسويل والتزيين والوسوسة، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى- عنه: {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ} [سورة النساء:١١٩]، هذا الأمر ليس أمر إكراه لكن يلقي لهم ذلك ويزينه في قلوبهم، ولهذا نهى الله -عز وجل- عن اتباع خطوات الشيطان، ولهذا يقول لهم خطيب في النار -نسأل الله العافية-، يقول: {فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم} [سورة إبراهيم:٢٢]، قبله يقول: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ} أي: بمنقذكم، {وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} ويتبرأ منهم ما كان لي عليكم من سلطان ما قهرتكم ولا غصبتكم ولا ألزمتكم حتى أتبعتموني دعوتكم فاستجبتم لي فهذا كان باختياركم من غير إكراه وإلجاء {فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم} أنتم الذين فعلتم في أنفسكم هذا وجهت إليكم دعوة فاستجبتم، -نسأل الله العافية-.

وقوله: {إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} أي: إنما سلطناه عليهم ليظهرَ أمر مَنْ هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسنَ عبادة ربه -عز وجل- في الدنيا، ممن هو منها في شك.

الاستثناء هنا {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ} هذا الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعاً يعني ما عليهم سلطان أصلاً لكن لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ} أصلاً لكن لنعلم من يطيعه في وسوسته ويستجيب لتزيينه وتسويله فيكون الاستثناء منقطع بمعنى لكن، لكن لنعلم،

ويحتمل أن يكون مفرقاً أعم الأحوال {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ} ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن؟ -والله أعلم-.

وقوله: {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} أي: ومع حفظه ضَلّ من ضَلّ من اتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم مَنْ سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

الله -تبارك وتعالى- حفيظ، بمعنى من المعاني الداخلة تحته أنه يحفظ أعمال العباد فالله -تبارك وتعالى- لا يفوته شيئاً من ذلك، فالحفيظ فيه معنى زائد على الشهيد، والرقيب فضلاً عن العليم، والخبير، واللطيف يعني هذا من المعاني التي أو من الأسماء التي تطلب معرفتها فيما يتصل بمراقبة الله -عز وجل- في الخطرات والسكنات والأحوال والأعمال وما إلى ذلك فالله -تبارك وتعالى- يطلع على العبد عليم به علمه محيط ويعلم الخفايا خبير ويعلم الدقائق لطيف أحد المعاني الداخلة تحته، وهو شهيد شاهداً عليه بأعمالهم ومع ذلك هو حفيظ، فيحفظ عليهم هذه الأعمال فيجدونها مرصودة ما يذهب منها شيء {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} [سورة الكهف:٤٩]، كل واحد يخرج له سجل منشور مفتوح يقراءه يوم القيامة كل ما صدر عنه من الأقوال والأفعال، ومن تاب تاب الله عليه ومحي ذلك عنه.

{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٢-٢٣].

بَيَّن تعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: من الآلهة التي عبدت من دونه {لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ}، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [سورة فاطر:١٣].

وقوله: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ} أي: لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة، {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} هذا الخطاب موجه لمن للمشركين من أهل مكة، والسورة كانت مكية فوجه الخطاب إليهم بعد ما ذكر الله -عز وجل- له قبلهم، وأحوال الشاكرين والكافرين، قص عليهم خبر داود -عليه الصلاة والسلام- وسليمان -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك ذكر حال هؤلاء هذا النموذج من الكافرين فوجه الخطاب إلى المشركين، {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فبعض أهل العلم وابن جرير يقول: إن ذلك موجه للمشركين من أهل مكة، ولا شك أنه يعم الكفار جميعاً، ولكن هؤلاء المشركين لما كانوا في مكة في أول الأمر قبل الهجرة كان الخطاب يتوجه إلى إليهم في مواضع من القرآن، {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} الذر معروف هو صغار النمل، والعرب تذكر ذلك لبيان القلة، ولا يفسر بغير هذا قال: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا من شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ} يعني نفى هذه الأمور الثلاثة ثم أعقبها بقوله: {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} فهؤلاء الذين يرجون، يرجى

نفعهم إما أن يكون مالكاً فيعطي من ملكه وإما أن يكون شريكاً فله حصة من هذا الكون مثلاً، أو أن يكون معيناً وظهيراً فلا يقوم ذلك إلا به ومن ثمَ فإنه يستطيع أن يحقق أمالهم لمكانته ومنزلته وإن قيام ذلك إنما بإعانته ومظاهرته {وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}، أو أن يكون مالكاً للشفاعة له وجاهة ويستطيع أن يشفع فيحصل النفع لهؤلاء المعبودين إذا كان هذا المعبود متصفاً بواحدة من هذه الأوصاف الأربع يا مالك يا شريف، يا وزير ومعين وظهير أو شفيع، فالله نفى هذا جميعاً فقطع عليهم الطريق كما قال -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [سورة البقرة:٤٨] ما فيه فداء، ما فيه تخليص، {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} ما يمكن يفتدي نفسه بشيء آخر، ولا يمكن أن يخلصه أحد أو أن ينفعه {وَلَا تَنفعُ الشَّفَاعَةُ} كل هذه الأمور لا بالقوة يخلص ولا بالشفاعة ولا بفدية يدفعها، فالإنسان إذا أخذ أسر مثلاً، أسره العدو أما بشفاعة يطلق أو بالقوة أو بالفدية، فهنا {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} من أخذ أخذ، فعمله يطلقه إلا لمن أذن الله -عز وجل- له في الشفاعة والله لا يأذن إلا لأهل الإيمان، وأيضاً في أهل الإيمان كما هو معلوم في شروط الشفاعة، الرضى عن الشافع والإذن له بالشفاعة، والرضا عن المشفوع له، فنفى هذه القضايا الأربع، والحافظ ابن القيم تكلم على هذا المعنى كلام جيد هذا مضمونه.

ثم قال: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وقال: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [سورة النجم:٢٦]، وقال: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [سورة الأنبياء:٢٨].

ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- -وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله-: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلّهم أن يأتي ربّهم لفصل القضاء، قال: ((فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تُسمع، وسل تُعطَه واشفع تشفع))[٤]، الحديث بتمامه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} هذه قراءة الجمهور التي نقرأ بها {إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} يعني أذن له الله؛ لأن الضمير أذن هو!، وفي قراءة أخرى متواترة لحمزة والكسائي وأبي عمرو {إِلا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ} بالبناء للمجهول، وذلك أيضاً يرجع إلى الله! لأنه هو الذي يأذن، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} يحتمل أن يكون المعنى لا تنفع الشفاعة عند الله -عز وجل- إلا لمن أذن له فيها يعني أن يشفع، أن يكون شافعاً لابد من الإذن للشافع فتكون الآية دليل على هذا، وعليه تكون قوله -تبارك وتعالى-: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} يعني بخلاف العظماء من أهل الدنيا والناس الذين يشفع عندهم فإنه يشفع عنده من غير إذنهم أليس كذلك!، وحينما تريد الشفاعة لأحد تذهب إلى المشفوع عنده

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب -عز و جل- يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم (٧٠٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

وتطلب منه أن يشفعك هل تحتاج إلى استئذان؟ أو أن الناس مباشرة يأتون بشفاعتهم يقولون النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اشفعوا تؤجروا))[٥]، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء؟ وفلان له حاجة في كذا أو طلب مني أن أشفع بكذا أو نحو ذلك، يعني هم مباشرة يشفعون بغير توقف على إذن؛ وهذا لنقص ملك أهل الدنيا وعظمتهم أما الله -تبارك وتعالى- لا يحق لأحد وأن يجترئ فيتقدم بالشفاعة إلا بعد إذن الله للشافع؛ ولهذا يسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا السجود ويفتح عليه من المحامد ثم يأذن له الرب -تبارك وتعالى- فيقول: ((أرفع رأسك وسل تعطى وأشفع تشفع))، هذا أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام-، فهذا لكمال ملكه وغناه -سبحانه وتعالى- أما المخلوق فلنقصه فإن الشفاعة عنده عند المخلوق شيء آخر؛ لأنه قد يقبل ذلك لحاجته إلى الشافع؛ لأنه لا قيام مثلاً لملكه إلا به وأمثاله يحتاجه في يوم من الأيام، أو يحتاجه في الحال، أو لخوف تقلبه عليه أن يتخلى عنه أو أن يضمر العداوة أو نحو هذا فيضطر إلى قبول الشفاعة، ويقول: من باب ارتكاب خف الضررين، أما الله -عز وجل- لا يجري عليه شيء من هذا جل جلاله وتقدست أسماءه فيكون هذا المعنى الأول، يعني لا يحصل شيء من شفاعة الشفعاء المتأهلين للشفاعة يعني من الملائكة والأنبياء وأهل الإيمان إلا بإذن الله -عز وجل- لهم بها هذا المعنى الأول، والمعنى الثاني الذي تحتمله الآية: {إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} يعني في أن يشفع فيه {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} يعني أن يشفع له، أو أن يشفع فيه، وهذا المعنى أيضاً صحيح فهو من شروط الشفاعة، وقال به جمع من أهل العلم، والحافظ ابن كثير هنا -رحمه الله- ذكر في أول الكلام ما يدل على أن المقصود الشافع، كقوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥] لكن الآية الأخيرة التي ذكرها وهي قوله: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى} فهذا في المشفوع فيه، إلا لمن أرتضى يعني أن يشفع له، فالشفاعة لا تكون إلا لأهل الإيمان، والكفار لا تنفع لهم شفاعة الشافعين، فهذان معنيان كل واحد منهم دل عليه القرآن، والأصل أن الآية إذا احتملت معنيين وكل معنى منها صحيح دل عليه القرآن فإنها تحمل على ذلك جميعاً، ما لم يقم مانع يمنع من هذا ولا يوجد مانع، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة فيكون قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} أن ذلك يرجع إلى الشافع ويرجع إلى المشفوع فيه، ولعل هذا يعني يكفي في تقرير هذا المعنى، وقوله: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} يحتمل أن يكون المقصود أنها لا توجد أصلاً ما هو فقط لا تنفع؛ لأنه لا يتقدم أحد بالشفاعة، إذا قلنا مثلاً هي في المشفوع له أو على الأقل هي تدل على هذا المعنى المشفوع له إلا لمن أذن له!، وإذا كان لا يرضى عن المشفوع له؟ هل توجد الشفاعة لكنها لا تنفع؟ هي لا توجد، ولهذا قال بعض أهل العلم: يحتمل أن يكون المراد ولا تنفع الشفاعة أن نفي النفع نفي لأصلها؟ ولكنه عبر بالنفع لأنه المرجوا، هم يرجون النفع فنفى النفع وإلا هي غير موجودة أصلاً، ليست موجودة لكنها لا تنفع؟ تُرد، هي لا أحد يشفع أصلاً فيمن لا يرضى الله -عز وجل- الشفاعة فيه، فيكون نفي النفع نفياً لأصل الشفاعة بالاعتبار الذي ذكرت، -والله أعلم-.

وقوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ}، وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة، وهو

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، برقم (١٣٦٥).

أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما.

{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} أي: زال الفزع عنها، قال ابن عباس، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي، وإبراهيم النَّخَعيّ، والضحاك والحسن، وقتادة في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} يقول: جُلِّي عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف -وجاء مرفوعا-: " حَتَّى إِذَا فرغ" بالغين المعجمة، ويرجع إلى الأول. فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؛ ولهذا قال: {قَالُوا الْحَقّ} أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

في قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} قراءة الجمهور، وفي قراءة ابن عامر بالبناء للمعلوم {فُزع} يعني الله، والمعنى يرجع إلى شيء واحد وهو الذي يزيل الفزع من قلوبهم هو الله -تبارك وتعالى-، والفزع هو الخوف الشديد، فالخوف مراتب، فالخوف والرهبة والرعب والفزع والهلع كل هذه مراتب في الخوف، فالفزع خوف شديد، إذا فُزع عن قلوبهم معنى فزع كما قال هنا: **جلي** يعني فرغ الخوف منها، يعني خرج الخوف أخرج الخوف من قلوبهم، والمراد بقوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} بعض المفسرين يقول: هذا في المحشر مما يتصل بالشفاعة، وأن هذا في الشفعاء، وأنهم في حال من الخوف لا يجترئون على الله -عز وجل- في الشفاعة ولا يتقدمون بين يديه بذلك إلا بإذنه، ويكونون في حال من الوجل والفزع والخوف منه -تبارك وتعالى- تعظيماً، فإذا فزع عن قلوبهم أُزيل الفزع منها تقدموا بالشفاعة {قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} فيسأل بعضهم بعضاً، وبعضهم يقول: إن الذين يقولون: {قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ} هم طالبوا الشفاعة، يعني ليسوا الشفعاء وإنما المشفوع فيهم هم ينتظرون النتيجة والجواب، {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ} يعني هل قبل شفاعاتكم فينا؟ إلى غير ذلك من المعاني التي ذكروها ولا أحب أن أطول بها لأنها جميعاً مع أن الآية تحتملها في الظاهر تحتمل أن يكون هذا في القيامة! {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ} فالسياق في هذا، ولكن إذا وجد الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه يوقف عنده ولا يتعداه وإن كان ظاهر السياق يحتمل معنى آخر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينطق عن الهوى -عليه الصلاة والسلام- ولذلك المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا هو المعنى أن ذلك انتقال إلى بيان عظمة الله -عز وجل- من وجهاً آخر، وهو حال الملائكة معه {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} ظاهره أنه متصل بموضوع الشفاعة وأن هذا في القيامة، وإنما تكون الشفاعة يوم القيامة أليس كذلك فظاهره هذا، ولهذا قال بعض السلف: إن هذا يوم القيامة في الشفعاء، ولكن الحديث: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} يدل على أن المعنى منفصل عن يوم القيامة وما يتصل به من الشفاعة، وأن ذلك حديثاً آخر لبيان عظمته وذلك في حال الملائكة معه حينما يكلمهم بالوحي فذكر الحديث هنا وهو أنه إذا تكلم بالوحي..... إلى آخره سمع أهل السموات هنا ذكر الحديث نفسه قال: ((كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع

عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع))[٦]، هذا في الحديث، وإذا جاءت الآية في الحديث معنى ذلك ليس اجتهاد المفسر ربط حديث لم يذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية فربطه المفسر بالآية قد يصيب، وقد يخطئ فيكون الحديث لا علاقة له بالآية، لكن هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الآية فدل ذلك على أن المعنى هنا ليس في القيامة، وإنما في حال الملائكة مع الله حينما يوحي بوحيه فيصعقون، ويصيبهم الفزع وهم ملائكة الرحمن وبتلك المرتبة والمنزلة وبتلك القوة والشدة وهذا ما يقع لهم ويصيبهم، فكيف بغيرهم من المذنبين الضعفاء الذين لا يحتملون شيئاً يقتلهم الماء والهواء.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قضى الله الأمرَ في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوانَ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقّ، وهو العلي الكبير فيسمعها مُسْتَرِق السمع، ومسترق السمع -هكذا بعضه فوق بعض-ووصف سفيان بيده-فَحَرّفها ونشر بين أصابعه-فَيسمع الكلمة، فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن، فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كَذْبَة، فيقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدّق بتلك الكلمة التي سُمِعت من السماء))[٧].

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، -والله أعلم-.

هذا الحديث نص في تفسير الآية، وأن ذلك ليس في الشفاعة، لكن لبيان عظمته فبين ذلك في الشفاعة، وبينه أيضاً في إيحاء الله للملائكة وهذا الذي اختاره المحققون ومنهم الحافظ ابن القيم، ولا يصح العدول عنه، وهذا مثال على تفسير الآية في السنة على غير ما يسبق إليه الذهن بدلالة السياق، -والله أعلم-.

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة سبأ:٢٤-٢٧].

يقول تعالى مقررًا تفرُّدَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض -أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع-إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

في قوله: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ}** فالرزق هنا يشمل أنواع الرزق المطر وما ينزله الله -عز وجل- من خزائنه، وأما من الأرض سواء كان ذلك من الماء أو النبات أو المعادن أو غير هذا مما يستخرجه الناس من الأرض، أو ما أوجده الله -عز وجل- فيها لكن هنا ذكر السموات مجموعه **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}** الحافظ ابن القيم -رحمه الله- قارن بين هذه الآية وقوله: **{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، برقم (٤٥٢٢).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، برقم (٤٥٢٢).

مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [سورة يونس:٣١]، فهناك ذكرها مفردة لفت النظر إلى معنى لماذا هنا جمعت وهناك أفردت؟ لا بأس أن يقف عليه طالب العلم وهو ما خلاصته أن هناك ذكر أموراً مقررة معلومة لا يجادلون فيها ليتوصل بذلك تقرير الربوبية إلى الإلهية هم يعرفون أن الله هو الذي يرزقهم من السماء والمطر ينزل من السماء، والسماء يقال: للعلو فهذه القضية لا ينكرونها هو الذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت إلى آخره فذلك كان تقريراً لهم بأمور يعلمونها ويقرون بها ليتوصل إلى توحيد الإلهية إذاً أعبدوه وحده، أما هنا فيقول ابن القيم -رحمه الله- في أمر لم يكن هؤلاء يقرون به تقريراً مطلقاً فذكر السموات مجموعة السموات والأرض قل الله! فأجاب ولم يترك الجواب لهم! فالسموات من الذي يرزقهم منها الوحي يأتي من فوق سبع سموات من الله -تبارك وتعالى- وهم لا يقرون بما فوق السماء ولا يعرفون شيء فوق السماء أصلاً، يعني هل الكفار الذين خوطبوا بالقرآن يعرفون أن فيه سموات فوق السماء هذه وفيها ملائكة؟ وأن الله فوق السموات العلا؟ بعضهم يعرف هذا وهم قلة كما جاء في بعض أشعارهم:

يا عَبلُ أينَ من المَنيَّةِ مَهْربي *** إن كانَ ربي في السَّماءِ قَضاها

إن كان ربي في السماء قضاها هذا قول الشاعر الجاهلي، لكن هؤلاء قلة وإلا فهم أهل جهالة فلما كانوا ما يدركون ولا يؤمنون بالوحي أصلاً الذي يتنزل من فوق سبع سموات وهو أعظم الرزق الذي ينزل على الخلق، الرزق المعنوي الهدايات والكتب وما إلى ذلك لما كانوا ما يقرون يقول ابن القيم: أجابا قال: قل الله! هناك لم يذكر الجواب؛ لأنهم يقرون فكان الاستفهام تقريري، أنتم تقرون بهذا! فلماذا تعبدون غيره، والفرق على قول ابن القيم لماذا جمع هنا وهناك أفرد؟ ليشمل هنا الوحي، فأجابهم وما ترك الجواب لهم فهم هنا في مقام إنكار وتكذيب ومكابرة ولهذا قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وقوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}: هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

يقول: **هذا من باب اللف والنشر**، واللف والنشر يذكر قضيتين وأكثر ثم يذكر أحكامها بعدها أما مرتبة وأما غير مرتبة، فالمرتب هو الذي يقولون له اللف والنشر المرتب، وغير المرتب يقولون له: اللف والنشر المشوش، يعني هنا وأن وإياكم ذكر طائفتين {لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ} ذكر الأحكام بعدها، طائفة على هدى وطائفة على ضلال، فهذا مرتب، أن وذكر الهدى أولاً في الأحكام، الهدى لنا، والضلال للفئة الثانية فيكون الأحكام مرتبة كما رتب أصحابها، والمشوش كقوله: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [سورة آل عمران:١٠٦] ثم ذكر الأحكام، {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} بدأ بالثاني {أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} ثم ذكر الفريق الأخر حكم الفريق الآخر، {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ} [سورة آل عمران:١٠٧]، وقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [سورة هود:١٠٥]؟ {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [سورة هود:١٠٦]، ثم إلى أن قال: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ} [سورة هود:١٠٨] فهذا مرتب، يذكر القضيتين ثم يذكر أحكاماً بعدها إن كانت مرتبة

بحسب الترتيب السابق نصيب الأولين جاء أولاً، ونصيب الثانين جاء ثانياً هذا يسمونه لف ونشر مرتب، لف يعني يجمل {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ} مجمل، ثم ذكر الأحكام بعدها نشر بين حكم كل واحد من هذه الطوائف فإن جاء بالأحكام مرتبة على نفس النسق فهذا مرتب، وإذا جاء بها فيها تقديم وتأخير يسمى مشوش، يذكر قضيتين فأكثر ثم يذكر الأحكام بعدها فإن ذكرها على التوالي نفس ترتيب ما ذكر قبله فهذا مرتب، وإن ذكرها فيها تقديم وتأخير ذكر حكم الثاني أولاً، ثم حكم الأول ثانياً فهذا مشوش، {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} يقول: يعني نحن أما أن نكون مهتدين، وأما أن نكون ضالين هذا يقال على سبيل التنزل في المخاصمة والمناظرة والجدل تنزل مع الخصم تقول له: لا يخلوا الحال من طائفة مهتدية وطائفة ضالة يقوله من يعلم أنه مهتدي، وأنه واثق بما عنده، لكنه لا يريد أن يبين عن ذلك، فبعضهم يقول: "أو" هنا على بابها وليست للشك كما يقوله البصريون، {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ} يعني واحد من الفريقين لا يخلوا الحال إما هذا وأما هذا، لكن يقولها لغرض كالتنزل مثلاً مع الخصم، وبعضهم يقول: بأنها بمعنى الواو، يعني {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أو في ضلال مبين أنها بمعنى الواو وهذا قول الفراء وأبي عبيدة ومعمر ابن المثنى {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} تكون بمعنى الواو، {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وكأن الأقرب -والله أعلم- أنه الأول أنها على بابها، وأن المقصود بذلك أنه يقوله على سبيل التنزل أن الحال لا يخلوا أما كذا أو كذا؟ -والله أعلم-.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: {قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}: معناه التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم بُرآء منا، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة يونس:٤١]، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون].

هذا كقوله: {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} بعض أهل العلم يقف عند قوله: {أَجْرَمْنَا} في حق أهل الإيمان، {قُلْ لا تُسْأَلُونَ} يعني كأن الله -عز وجل- يأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول ذلك، فلماذا أضاف إليهم الإجرام إلى أنفسهم أعني القائلين أهل الإيمان؟ وبالنسبة للكافرين العمل بعضهم فهم الإجرام يعني الإساءة فقالوا هذا في غاية الإنصاف حال الحجاج، والمناظرة كأنه يعني يتنزل معهم إلى أبعد حد أن على إجرام لنا عملنا، ونحن سنجازى عليه ولن تسألوا عن أعمالنا وأعمالكم أنتم تلطف في العبارة، وقال: أعمالكم، لكن الواقع -والله أعلم- أن أجرم وأجترم بمعنى أقترف، فهي ترجع إلى معنى العمل فهذا يقال له: اجترام، نعم وما إلى ذلك لا يلزم بالضرورة أن يكون بالمعنى بمعنى الكسب السيئ، {قُل لَّا تُسْأَلُونَ} فيكون هذا من باب التفنن بالخطاب والتنويع في العبارة؛ لكمال البلاغة، {قُل لَّا

{تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} يعني لا تسألون عما نعمل، لستم مسئولين عن عملنا ولسنا بمسؤلين عن أعمالكم الله سيتولى الجميع ويحاسب الجميع ودعونا وشأننا ولهذا بعضهم يقول: بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف فبعد ما نزلت أية السيف قالوا ما فيه {وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} بل نأدبكم ونأخذ على أيديكم لكن هذا فيه نظر، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [سورة الروم:١٤-١٦]؛ **ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.**

الفتح بمعنى الحكم، والفتاحة بمعنى الحكم، والفتاح بمعنى الحاكم، أفتح بيننا وبين قومنا بالحق يعني أحكم.

وقوله: {قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا، {كَلَّا} أي: ليس له نظير ولا نَديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: {بَلْ هُوَ اللَّهُ}: أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

الرؤية هنا تحتمل أن تكون بصرية {أَرُونِيَ} هذا المفعول الأول الياء، الذين هذا المفعول الثاني، {أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ} يكون ذلك من قبيل الرؤية البصرية، وهذا ذهب إليه بعض أهل العلم ومن اختار هذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ولفت النظر إلى معنى وهو ذلك يقال في مقام يقصد به التحقير، يعني التحقير للشيء، تقول له: ورني هذا إلى تقول خلني أشوفه، الذي تقول: إنه ينفع في كذا، ورني هذا الطب الذي عندك أو العلاج الذي عندك أو العلم الذي عندك، أو الصنعة التي عندك، أو المهنة التي عندك، أو الثوب الذي تصف أرني تقول على سبيل يعني كأنك تتقال هذا الشيء أو تحتقره أو نحو ذلك أروني هذا الشيء، أروني هؤلاء الذين {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} [سورة الفرقان:٤١]، {أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} ويحتمل أن تكون الرؤية هنا ليست رؤية بصرية وإنما رؤية علمية وهي قلبيه، رؤية علمية.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة سبأ من الآية (٢٨) إلى الآية (٤٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} [سورة سبأ:٢٨-٣٠].

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ}: أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [سورة الأعراف:١٥٨]، **{تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** [سورة الفرقان:١]، **{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي تبشر مَنْ أطاعك بالجنة، وتنذر مَنْ عصاك بالنار.**

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}، كقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، **{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}** [سورة الأنعام:١١٦].

قال محمد بن كعب في قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ} يعني: إلى الناس عامة.

وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمدا -صلى الله عليه وسلم- إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله أطوعُهم لله -عز وجل.

و في الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة))[١].

وفي الصحيح أيضا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بعثت إلى الأسود والأحمر))[٢]، قال مجاهد، يعني: الجن والإنس، وقال غيره: يعني: العرب والعجم. والكل صحيح.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فـ"كافة" فسره بعضهم بكونه -صلى

---

١ - رواه البخاري، في أوائل كتاب التيمم، برقم (٣٢٨)، ومسلم، في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١).

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧٤٢)، وقال محققوه: "حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف يزيد -وهو ابن أبي زياد الهاشمي مولاهم- لكنه متابع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح"، والطبراني في الأوسط، برقم (٧٤٣٩)، وصحح إسناده الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣١٦/١).

الله عليه وسلم- جامعاً، فسروا هذه اللفظة "كافة" يعني إلا جامعاً للناس ولكنه بعيد، وبعضهم يقول: {إلا كَافَّةً} أن ذلك من الكف أي مانعاً لهم من الكفر، كما يقول أبو حيان في البحر المحيط مانعاً كافاً، تقول: كفه عن كذا أي حجزه ومنعه عنه، مانعاً لهم من الكفر، وهؤلاء نظروا إلى هذا المعنى في اللفظة وهو معنى صحيح لهذه اللفظة من حيث هي، {كَافَّةً لِلنَّاسِ} ولكن السياق قد يفهم منه غير هذا المعنى، وبعضهم يقول: هو صفة لمصدر محذوف "وما أرسلناك إلا رسالة" هذا مصدر "رسالة"، رسالة كافة للناس، وبعضهم يقول: إنه حال يعني أن كافة حال من الناس تقدمت عليه، يعني {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً} والمقصود عموم رسالته -صلى الله عليه وسلم- أن رسالته عامة لجميع الخلق، وهذا هو المعنى الأقرب -والله تعالى أعلم- ويدل لهذا هذه النصوص {إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}، وهكذا في قوله -صلى الله عليه وسلم -وكان في الخصائص التي أعطيها -عليه الصلاة والسلام-: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم يحتجون بهذه الآية {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ} على عموم رسالته -عليه الصلاة والسلام-، قال {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} لا يعلمون ما عند الله لهم من النفع مثلاً في إرسال الرسل، هكذا ذكر بعض المفسرين، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، وهذه الآية، كما قال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} الآية [سورة الشورى:١٨].

ثم قال: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ} [سورة نوح:٤]**، وقال: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}** [سورة هود:١٠٤-١٠٥].

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} هذا اليوم: الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولا ينقص فإذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يقدم {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ} وظاهره من ذكره للآية يعني ظاهر كلام ابن كثير {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ} أن المقصود به يوم البعث {لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ} أنه يوم البعث والنشور، وبعضهم يقول: إن هذا الميعاد ميعادُ يومٍ هو آجالهم، الأجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر، وبعضهم يقول: هذا المقصود به يوم بدر حيث قُتل منهم من قُتل وأُسر من أُسر، وهذا بعيد، -والله تعالى أعلم-، والميعاد: "لكم ميعاد يوم" يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الوعد {لَكُمْ مِيعَادُ} أي وعد يوم أو اسم زمان، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذا يكون في يوم البعث والنشور.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ

لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة سبأ:٣١-٣٣].

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعدا، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجّهم: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} منهم وهم الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم قادتهم وسادتهم: {لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} أي: لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل، لشهوتكم واختياركم لذلك.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} من أهل العلم من يقول: إنهم قصدوا بهذا {وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} يعني من الكتب التي تقدمت القرآن، وبعضهم يقول: {وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} ما سيأتي بعده مما أخبر عنه من القيامة والبعث والنشور والجزاء والحساب وما إلى ذلك، يعني الدار الآخرة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ} [سورة سبأ:٣١] هنا الجواب غير مذكور {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ} ماذا يحصل بعد ذلك إذا رأيت هذا؟ يعني لرأيت أمراً هائلاً عظيماً، والجواب يحذف في مثل هذه المقامات لتهويل المقام وتفظيعه وتشنيعه ليذهب الذهن فيه كل مذهب، لرأيت أمراً كما يقول الله -عز وجل-: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} [سورة سبأ:٥١] يعني لرأيت أمراً شديداً، أو لرأيت أمراً هائلاً، أو لرأيت أمراً مفزعاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ} -نسأل الله العافية- يعني يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم، فهؤلاء يلقون الملامة على هؤلاء، أي الأتباع والمتبوعون، هؤلاء يلومون هؤلاء، وهؤلاء يلومون هؤلاء، وليس ذلك بنافعهم وهذا كله وغيره -كما مضت الإشارة إلى ذلك في مناسبات- يدل على أن النار فيها هؤلاء وهؤلاء، وأن الأتباع غير معذورين عند الله -تبارك وتعالى-، وذلك أن من الناس من يتوهم أن هؤلاء الأتباع من المقلدين أنهم جهلة، وأنهم معذورون، والواقع ليس كذلك، فالقادة والأتباع كلهم في النار، وإن تفاوتوا في العذاب.

ولهذا قالوا: {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا، وتَغُرّونا وتُمَنّونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطلٌ وكَذِبٌ ومَيْن.

قال قتادة، وابن زيد: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يقول: بل مكركم بالليل والنهار، وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكركم بالليل والنهار.

{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يعني على قول قتادة وابن زيد مكركم بالليل والنهار يعني هو الذي أضلنا، وبعضهم يقول: مكركم بنا الليل والنهار، والمعنى متقارب {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا} أي مكركم بنا الليل والنهار، يعني الواقع في الليل والنهار، يعني أنه مكرٌ دائمٌ مستمر لا ينقطع ليلاً ونهاراً من أجل إضلال الناس، وأصل المكر في كلام العرب هو الخديعة والحيلة، ويكون ذلك بطُرق خفية، يعني أنهم يعملون على

ما من شأنه إضلال هؤلاء الناس وإزاغتهم عن الصراط المستقيم بكل سبيل مستطاع، يمكرون بهم يضلونهم يزينون لهم الباطل يصدونهم عن الحق، يشوهونه في نظرهم وما إلى ذلك من الأعمال القبيحة التي آلت بهؤلاء إلى الضلال والانحراف والبعد عن الصراط المستقيم.

{إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبَهًا وأشياءَ من المحال تضلونا بها {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ نَدم على ما سلَف منه.

{وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا}: وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٨].

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن جهنم لمّا سيق إليها أهلها تَلَقّاهم لهبُها، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب))[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} ظاهر كلام ابن كثير أن الجميع ندم على ما سلف منه، يعني أنه أضمر الندامة في نفسه بعدما أدرك ما هو عليه وحقيقة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وكشفت الغيوب عن ضلالهم وسوء مصيرهم {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أضمروا الندامة، وبعضهم يقول: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أي أخفوها عن غيرهم، وبعضهم يقول: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أسرّ كل فريق الندامة على الآخر -نسأل الله العافية-، يعني أدرك الجميع أنهم على ضلال فندم السادة وأسروا ذلك عن الأتباع، وندم الأتباع وأسروا ذلك عن السادة {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} فكل فريق أسرّ ذلك عن الآخر، وبعضهم يقول: إن أسرّ من الأضداد تأتي بمعنى أظهر، ويقول: إن قوله: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أي أظهروا الندامة، هذا وإن كان يصح في اللغة إلا أنه بعيد؛ لأن المتبادر من ذلك هو إضمارها وإخفاؤها {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه لا حاجة للتدقيق في المعنى من جهة أنهم أسروها عن السادة أو السادة أسروا عن الأتباع إلى آخره، والمقصود أنهم لما عاينوا الحقائق وتكشفت لهم الأمور أضمروا الندامة في نفوسهم، أضمروا الندامة في نفوسهم عمن؟ هل أضمروها عن السادة أو العكس؟ كل فريق عن الآخر أو أضمروها عن غيرهم لئلا يشمت بهم مثلاً أو غير ذلك، من وقع في مغبة فعله وانكشف له الأمر عما لا يسره فإنه يندم، ويظهر ذلك الندم ويبديه وقد يبتلعه ويخفيه، فهؤلاء أخبر الله عنهم {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} يعني وقع الألم والندم في نفوسهم ولم يعلنوا بذلك، يعني هذه تكون نهاية للإنسان، إذا كان في حال من الإحباط، والوقوع في أمر لا مخرج منه ونحو ذلك، فيتسلل إلى نفسه الندم، وهذا -والله تعالى أعلم- هو المتبادر.

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ

---

٣ - رواه الطبراني في الأوسط، برقم (٢٧٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٥٣٠٢).

فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة سبأ:٣٤-٣٩].

يقول تعالى مسليا لنبيه، وآمرا له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} [سورة الشعراء:١١١]، {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} [سورة هود:٢٧]، **وقال الكبراء من قوم صالح:** {لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سورة الأعراف:٧٥-٧٦]، **وقال تعالى:** {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام:٥٣]؟، **وقال:** {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} [سورة الأنعام:١٢٢] **وقال:** {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} [سورة الإسراء:١٦]، **وقال هاهنا:** {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ} **أي: نبي أو رسول** {إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، **وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة.**

قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر، {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} **أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.**

هنا قوله: {إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا} قول ابن كثير -رحمه الله-: **وهم أولي النعمة والحشمة والثروة والرياسة،** وقول قتادة: **هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر،** فالحافظ ابن كثير في عبارته جمع كلام السلف في تفسير هذه المادة أي المترفون، منهم من يقول: هم الكبراء والقادة أو الجبابرة، وهذا يرجع إلى المعنى نفسه ، ومنهم من يقول: هم أولى النعمة، وأرباب الترف والأغنياء وما إلى ذلك، هذا كله لا إشكال فيه، فإن لفظ المترفين يدل على التنعم الكثير والتوسع في ذلك، وهذا إنما يكون عادة لدى الكبراء والجبابرة والأغنياء وما إلى ذلك، بخلاف الضعفاء والفقراء، وفي سؤال هرقل لأبي سفيان كان من جملة تلك السؤالات: هل يتبعه ضعفاء الناس أو كبراؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فذكر له فيما ذكر من أجوبته بعد ذلك أن هؤلاء هم أتباع الرسل، وهنا جاء به بأسلوب الحصر بأقوى صيغة "ما وإلا"، {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} يعني: أنها عادة مطّردة لكل زمان، وأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لهم نصيب من هذا، فالذين يواجهونهم عادة ولا يقبلون دعوتهم في الغالب هم الكبراء والمترفون؛ ولذلك تجد الدعوة تنتشر في أوساط الضعفاء غالباً، وكلما كانت البيئة فقيرة كانت الدعوة فيها أكثر، وكلما ازداد فيها الترف وطمع الناس فيه وأوغلوا كلما قل الإقبال والاستجابة، وأعداء الله -عز وجل- من المنافقين ومن وراءهم من الكافرين يعزون هذا إلى أمورٍ كما قال الأولون: إن الذين اتبعوا الرسل إنما جاءوا من أجل شيء يُعطَونه، فكان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يقولون لهم: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:١١٤] بطارد الذين آمنوا، ثم يذكرون أن جزاءهم وحسابهم إلى الله وحده، وأنهم ليسوا بصدد محاسبتهم ولم يُطلب منهم ذلك، "إنْ حسابهم إلا على ربي" فكانوا يتهمونهم أنهم إنما اتبعوهم من أجل طُعمة يطعمونها عندهم أو عطية يعطونها أو نحو ذلك، وهكذا الذين يحللون كثرة اتباع أو إقبال الناس في الأحياء أو البلاد الفقيرة على

الدعوة وعلى طاعة الله وطاعة رسوله أن ذلك بسبب أوضاعهم الاجتماعية وبسبب فقرهم وأنه ينبغي أنه يكون هناك شيء من إصلاح أوضاع هؤلاء الناس من أجل أن لا يكون ضحايا -في نظرهم- لهؤلاء المصلحين، فهذه سنة الله -عز وجل- الجارية في الخلق؛ ولهذا تجد من يستغرب حينما يعرف أن أحداً من الكبراء اهتدى أو يتسامع الناس أنه طرأت عليه توبة أو استقامة أو شيء من هذا القبيل، ولربما يكون الأمر على خلاف ما قيل، وهذا الاستغراب محله وداعيه أن ذلك نادر في الحصول وإن كان يقع لكنه نادر أو قليل، والله المستعان.

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} **أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة.**

مقاييسهم فاسدة، إنما مقاييسهم غير صحيحة، يعني كما يقول فرعون عن موسى -صلى الله عليه وسلم- ليبين فضله على موسى -عليه الصلاة والسلام- {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} [سورة الزخرف:٥٢-٥٣]، وهكذا حينما يقول لهم: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الزخرف:٥١] يعني يرى هذا هو المعيار لأحقية ما يقول وبطلان ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم.

وهيهات لهم ذلك، قال الله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦]، **وقال:** {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} **[سورة التوبة: ٥٥].**

مثل هذه الآيات هي كثير، وجواب ما يثيره بعض العامة وأشباه العامة كثيراً بشأن ما أعطيه الكفار في زماننا هذا من ألوان النعيم والملاذ حتى الأمطار يقولون: نتحرى نزول المطر نادراً في العام، والأمطار تنزل عليهم في طول العام، بلادنا مجدبة نفرح إذا ظهر فيها شيء من النبات قليل في وقت الربيع وبلادهم معشبة خضراء جنات وأنهار فالجواب هو هذا: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} ليس بعد هذا شيء.

وقال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [سورة المدثر:١١-١٧].

وقد أخبر الله عن صاحب تينْك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم يُغن عنه شيئا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} **أي: يعطي المال لمن يحب ومَنْ لا يحب، فيفقر مَنْ يشاء ويغني مَنْ يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة** {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.

ثم قال: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} **أي: ليست هذه دليلا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم.**

روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله

عليه وسلم-: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[٤]، ورواه مسلم وابن ماجه.

ولهذا قال: {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: **إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح،** {فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} أي: **تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف** {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} أي: **في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحْذَر منه.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} يعني قُرْبى، قال: ليست دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم، قوله: **ولهذا قال:** {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} الاستثناء هنا الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه منقطع بمعنى لكن {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} لكن {مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ} استثناء منقطع هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، يقول ابن كثير: **أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح،** وذلك باعتبار أن الإيمان والعمل الصالح لا تعلق له بما قبله من جهة الأموال والأولاد، فإذا كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهذا هو الاستثناء المنقطع.

قال الإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: " قوله تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إلاّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} فمن آمن ليس داخلا في الأموال والأولاد"[٥].

فهو يقرر أنه استثناء منقطع، ثم يلفت النظر إلى معنى قد يشكل وهو أن كثيراً من التراكيب حينما ينقر فيها على طريقة النحات مثلاً في الأعاريب أن ذلك يقلب المعنى إلى إشكال وينغلق، وإنما المخرج من ذلك أن يلاحظ طريقة القرآن، وأن يلاحظ معهوده في الخطاب، وذلك بالالتفات إلى المعنى دون التنقير في اللفظ على طريقة بعض النحاة.

قال -رحمه الله-: "ولكنه من الكلام المحمول على المعنى، لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه، وذلك يتضمن أن أربابها ليسوا هم من المقربين إليه فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً"[٦].

هناك ذكر الأموال والأولاد قال: {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} ابن القيم يقول: من جهة المعنى هناك ملازمة فالأموال والأولاد ملازمة لأصحابها أليس كذلك؟ ولهذا قال: إن أصحابها لا يكونون من أهل القربى والزلفى عند الله -تبارك وتعالى-، فأصحاب هذه الأموال والأولاد إذا كانت الأموال والأولاد لا تقرب يساوي أن أصحابها ليسوا من المقربين {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} والآن راعى المعنى {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ} ولم يقل: إلا ما بذل منها في سبيل الله، وإنما قال: {إلا مَنْ آمَنَ} فالأموال والأولاد مضافة إليهم، فهو يقول ليس المعيار ليس المقياس هو وجود الأموال والأولاد فإن أصحابها لا يتأهلون بمجرد كونهم يحوزون الأموال الطائلة ولهم من الأولاد الكثير ليس ذلك بمؤهل لهم إلى مرتبة القرب عند الله -عز وجل- لا يقربهم المال

---

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب القناعة، برقم (٤١٤٣).

٥ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٥٧٩/٣).

٦ - المصدر السابق (٥٧٩/٣).

والولد، {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} بمعنى أنه يريد أن يحل الإشكال الذي قد يتبادر إلى الذهن، ذكر الأموال والأولاد {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ}، {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} من آمن من أصحاب الأموال والأولاد، جاء هذا من جهة المعنى، فإذا كانت الأموال والأولاد لا تقرب يساوي أن أصحاب الأموال والأولاد ليسوا بأهل الزلفى والقربى من الله -تبارك وتعالى- لحوزهم هذه الأموال وحصول هؤلاء الأولاد لهم، هذا المعنى، ولا أقصد أن الاستثناء متصل؛ لأنه ما ذُكر هنا المستثنى منه الذي هو أصحاب الأموال والأولاد، لو ذُكر أصحاب الأموال والأولاد لصار الاستثناء متصلاً، وبعضهم يقول: هو متصل، لكن الأقرب أنه منقطع، لمّا لم يذكر ما قبله صار الاستثناء منقطعاً، لكن يراعى فيه المعنى المذكور {إلا مَنْ آمَنَ}، جاءت {إلا مَنْ آمَنَ} بعد ذكر الأموال والأولاد ولم يقل: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا ما بذل منها في سبيل الله} وهنا لا إشكال، لكن قال: {إلا مَنْ آمَنَ} وهم أصحاب الأموال والأولاد يعني أنها لا تؤهلكم للقرب {إلا مَنْ آمَنَ} لكن من آمن.

وقال -رحمه الله-: "فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحا، أي لا قريب عنده {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير لكن ههنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه واردا على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عيًّا"[٧].

وكثير من التنقير يورث إشكالاً فيستقلق المعنى، يعني أحياناً قد تفهم الآية وليس عندك فيها إشكال فإذا نقّرت في اللفظ استحكم الإشكال وهذا كثير، فهذا من أنفع الأشياء، ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

وقال -رحمه الله-: "وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف، فقدر المتكلفون لنطقه ما فر منه وألزموه بما رغب عنه وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلاً ولا تقع في تراكيب الفصحاء ولو سمعوها لاستهجنوها، وسنعقد -إن شاء الله تعالى- فصلاً مستقلا"[٨].

قوله: {فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ} كما ذكر الحافظ ابن كثير الحسنة بعشرة أمثالها، {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} في قراءة حمزة "الغرفة"، والمعنى يرجع إلى شيء واحد، وذلك أن الغرفة اسم جنس مفرد وهو في معنى العموم كقوله -تبارك وتعالى-: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١]، يعني أو الأطفال سواء كان مضافاً أو من غير إضافة يعني مضافاً إلى منكر أو مضافاً إلى معرفة كقوله: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١]، يعني أو أصدقائكم، هنا والمقصود بالغرفة يقول: منازل الجنة العالية؛ لأن العرب تطلق الغرفة على المكان المرتفع في الدور يقال لها: غرفة، يقال للغرفة السفلية كما نقول اليوم: الحجرة

---

٧ - بدائع الفوائد، لابن القيم(٣/٥٧٩).

٨ - المصدر السابق (٣/٥٧٩).

السفلية، ما يقال لها: غرفة، والناس صاروا يتوسعون في هذا الاستعمال والأصل أنها تكون في الأعلى {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} [سورة الفرقان:٧٥]، الغرفة هنا بمعنى {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}.

وروى ابن أبي حاتم عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن في الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها))، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: ((لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام))[٩].

{وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته، {أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي: جميعهم مَجْزِيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

في قوله: {يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} طالبين إعجازاً مثلاً أنهم يفوتون من الله -عز وجل- فلا يجازيهم ولا يعاقبهم ولا يأخذهم، هذا معنى، والمعنى الآخر الذي ذكرناه {مُعَاجِزِينَ} يعني طالبين إبطال ما جاء به الرسل عن الله -تبارك وتعالى.

وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} أي: بحسب مَا لَه في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيرا، ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدًا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره.

يعني ليس هذا بدليل على التفضيل والمحبة إطلاقاً، وإنما ذلك وفق حكمته -سبحانه وتعالى- لأهل الإيمان ولغيرهم فالعطاء الدنيوي لا يدل على منزلة العبد عند ربه -تبارك وتعالى- كما ادعى أولائك المبطلون.

كما قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [سورة الإسراء:٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قد أفلح مَنْ أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه الله بما آتاه))[١٠] رواه مسلم.

وقوله: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

هذا أحسن من قول من قال: فهو يخلفه أي في الآخرة، ومنهم من خصه في الآخرة بالجزاء والثواب، وأقرب من هذا -والله أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن ذلك يشمل الدنيا والآخرة ((ما نقص مال من صدقة))[١١].

---

٩ - رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة غرف الجنة، برقم (٢٥٢٧)، ولفظه: "...لمن أطاب الكلام..."، وأحمد في المسند، برقم (١٣٣٨)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٢٣٢).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، برقم (١٠٥٤).

١١ - رواه الطبراني في الأوسط، برقم (٢٢٧٠)، والبزار في مسنده، برقم (١٠٣٢).

كما ثبت في الحديث: يقول الله تعالى: ((أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك))[١٢]، وفي الحديث: أن ملكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: ((اللهم أعط مُمْسِكا تَلَفًا))، ويقول الآخر: ((اللهم أعط منفقا خَلَفًا))[١٣]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا))[١٤].

هنا في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم أعط ممسكاً تلفاً)) وإن لم يكن العادة في هذا المجلس أن نخرج عن المقصود من توجيه كلام المفسرين لكن لا بأس أني رأيت لبعض الجمعيات الخيرية دعايات صدقة يومية بريال، تصدق بريال يومياً ويذكرون الحديث: ((اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً)) بمعنى أن الإنسان يحتاج كل يوم أن يتصدق بصدقة، هكذا حملوه أو فهموا، وكثير من الناس يسأل عن هذا يقول: عندي حصالة في البيت كل يوم أضع فيها مبلغاً من المال هل تعتبر صدقة خرجت من يدي أو أنها لا زالت عندي؟ وبعضهم يسأل يقول: لو أعطيتُ ما أريد أن أتصدق به خلال الشهر دفعة واحدة بدلاً من أن أخرج كل يوم هل هذه تعتبر صدقة عن كل يوم؟ فمنشأ السؤال هو فهم الحديث، قول الملكين في كل صباح ((اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً)) لا يعني أن كل إنسان يتصدق كل يوم صدقة وإلا يقع عليه هذا الدعاء كما فهموا، فيقول: أُخرجُ كل يوم ريالاً على أساس أنه يخرج من العهدة فلا يقع عليه مثل هذا الدعاء، ليس هذا هو المراد، وإنما المقصود ((اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً)) إن كان هذا وصفه وهذا شأنه فيدخل فيه النفقات الواجبة في حق الله مثل الزكاة وهي أيضاً لها شائبة في حق المخلوق، وكذلك أيضاً النفقات على الأولاد، والنفقات على النفس وكذلك أيضاً الصدقات ولا يلزم ذلك في كل يوم، لكن من كان بهذه المثابة فهم يدعون له أن يُعطَى الخلف، وأن من كان ممسكاً يعني عن النفقات الواجبة فضلاً عن كون هذا الإنسان من شدة شحه لا يخرج شيئاً من الصدقة فهذا ممسك، يعني من شأنه أنه كذلك، وأنه صاحب تقتير أو امتناع من الصدقة والمعروف والإحسان هذا هو المراد وليس المقصود أن يتصدق في كل يوم وإلا وقع عليه ((وأعط ممسكاً تلفاً)) ليس هذا معنى الحديث، ومن ثَمّ فإن مثل هذه الدعايات: كل يوم يتصدق بصدقة ويوضع الحديث معها أن هذا وضع للحديث في غير موضعه، وحينما يفهم هذا لابد أن يتصدق، لكن لو واحد كل يوم يتصدق بريال ويترك الزكاة الواجبة، ويترك النفقات الواجبة هذا أقرب إلى أعط ممسكاً تلفاً، ولو تصدق في الشهر في يوم بعشرة آلاف ولم يتصدق بقية الشهر بشيء وآخر، كل يوم ريال المجموع ثلاثين ريالاً، فأين هذا من هذا؟ لا مقارنة.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة هود، برقم (٤٤٠٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى} [سورة الليل:٥-١٠]، " اللهم أعط منفق مال خلفا"، برقم (١٣٧٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، برقم (١٠١٠).

١٤ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠٢٠)، والأوسط، برقم (٢٥٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٦٦١).

{كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سورة سبأ:٤٠-٤٢].

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رءوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورة الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: {أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}؟ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: {أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} [سورة الفرقان:١٧]**، وكما يقول لعيسى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}** [سورة المائدة:١١٦]**. وهكذا تقول الملائكة: {سُبْحَانَكَ} أي: تعاليتَ وتقدستَ عن أن يكون معك إله {أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ} أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء.**

هنا تخصيص الملائكة {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ} مع أن السؤال متوجه في الآية الأخرى كما سمعتم لعيسى -صلى الله عليه وسلم- هنا تخصيص الملائكة، بعض أهل العلم يقول: لأنهم أشرف معبوداتهم فخصهم بالذكر وإلا فإن السؤال يتوجه إلى من عُبدوا من دون الله -تبارك وتعالى-، وفي الآية الأخرى آية الفرقان جاء ذلك على العموم: {أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ}.

{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

يعني الآن {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} الملائكة يقولون: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} ابن كثير يقول: **لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان** فكان ذلك -يعني طاعة الجن- عبادة لهم بهذا الاعتبار، وهذا المعنى قريب ووجهه ظاهر كما ترون، ومن أطاع هواه فقد عبده {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [سورة الفرقان:٤٣] هؤلاء الذين يطيعون الشيطان هم عابدون له، وكذلك من أهل العلم من قال: إنهم قالوا هذا يعني بل كانوا يعبدون الجن؛ لأن المشركين عبدوا الجن وزعموا أنهم بنات الله، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [سورة الصافات:١٥٨]، قالوا: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [سورة الزخرف:١٩] بعض أهل العلم يقول: إن المقصود بذلك قبيل من الجن يقال لهم: الملائكة، هكذا زعم بعضهم، وبعض أهل العلم هنا يقول: إنهم عبدوا الجن وزعموا أنهم بنات الله فلهذا لما سأل الله ملائكته أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ تبرءوا من عبادتهم قالوا: إن هؤلاء كانوا يعبدون الجن، وبعض أهل العلم حمله على أن هؤلاء الشياطين طبعاً المقصود بالجن هنا ليس كل الجن وإنما الكفرة منهم الذين هم الشياطين، وبعضهم حمل ذلك على كون هؤلاء الشياطين يتلبسون بهذه المعبودات ويدخلون في أجوافها فلربما كلمتهم وهذا معروف في التاريخ، إذا نظرتم في معبودات العرب وما كان يحصل لهم معها فلربما خاطبهم أو سمعوا لمن يخاطبهم من هذه المعبودات، وفي قصة خالد -رضي الله تعالى عنه- لما بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى العزى، قطع السمُرات وجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ما فعل شيئًا فرجع فوجد امرأة سوداء ناشرة شعرها تدعو بالويل والثبور، فعممها بالسيف ثم أخبر النبي -صلى الله

عليه وسلم- قال: ((تلك العزى))[١٥]، يعني هذه مَن هي؟ شيطانة تمثلت وتلبست بهذه الصفة فقتلها خالد -رضي الله تعالى عنه- ((تلك العزى))، فمن أهل العلم من يقول: هذا هو المراد {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} أن الشياطين هي التي تتمثل لهم، والواقع أنه يعبد صنماً لكن في داخله شيطان، فهم يعبدون هؤلاء الشياطين، لكن كلام ابن كثير -رحمه الله- هو ما سمعتم من أن المقصود التزيين وأن طاعة الشيطان عبادة له، وأما ابن جرير -رحمه الله- فذكر المعنى الآخر وهو أن هؤلاء عبدوا الجن وكانوا يسمونهم ملائكة، وكانوا يقولون: هم بنات الله، هكذا قالوا عن الجن وعبدوهم.

{أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}، كما قال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [سورة النساء:١١٧].

قال الله تعالى: {فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا} أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا، {وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} وهم المشركون {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} أي: يقال لهم ذلك، تقريعا وتوبيخا.

تم بحمد الله وفضله.

---

١٥ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٩٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة سبأ من الآية (٤٣) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [سورة سبأ:٤٣-٤٥].

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، {قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ}، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل -عليهم وعلى آبائهم لعائن الله- {وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى} يعنون: القرآن، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ}، قال الله تعالى: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ} أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد -صلى الله عليه وسلم-، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}، قوله عن قيلهم: {مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى} قال: **يعنون القرآن** أي أنه مختلق، اختلقه من عنده، وهذا الذي قاله ابن كثير هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وهذا لا إشكال فيه، فالإشارة عائدة إلى القرآن، وأما قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ} فما المراد بذلك هل المراد به أيضاً القرآن؟ أو المراد بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-؟، وابن جرير يقول: إن الثاني وهو قوله: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} المقصود به النبي -صلى الله عليه وسلم- الأول في القرآن، والثاني في الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وبعض أهل العلم يقول: إن المراد بالأول {مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى} يعني ما تضمنه القرآن، ما فيه من المعاني والهدايات والتشريع والأحكام، والحِكَم وإن قولهم: إنه سحر يعنون به ألفاظه ومبانيه؛ لأنه معجزة فهو معجز بلفظه فعجزوا عن الإتيان بمثله فقالوا: هذا سحر، وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك يرجع إلى شيء واحد فهؤلاء الكفار طائفة منهم قالت: إنه مفترى، كذب مفترى، وطائفة قالوا: إنه سحر مبين، وبعضهم يقول: إنهم قالوا هذا تارة، وهذا تارة، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن أقوال الكافرين في القرآن كما أخبر

عن أقوالهم في النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهم قالوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه تلقى هذا القرآن من {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفرقان:٥]، وقالوا عنه: إنه شاعر، وقالوا: إنه ساحر، وقالوا: إنه كاهن، وقالوا عنه الأقاويل المعروفة التي قصها الله -تبارك وتعالى-، كما قالوا عن القرآن: إنه كذلك أيضاً سحر أو متلقى من غيره أو إنه غير ذلك من الأقاويل التي يزعمونها، فهذه أمور متلازمة كلٌ من ذلك قد صدر عنهم {وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى} يعني ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} فهم قالوا عن القرآن: إنه سحر، وقالوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه ساحر، قالوا كذلك عن معجزاته -عليه الصلاة والسلام- فكل هذا واقع، قالوا تارة هذه المقالة، وتارة هذه المقالة، وبعضهم صدر منه هذا، وبعضهم صدر منه هذا، ولا حاجة لحمل ذلك على الألفاظ، الأول على الألفاظ، والثاني على المعاني أو العكس، حمل الأول على المعاني والثاني على الألفاظ، لا حاجة إلى هذا، هم قالوا: إنه سحر، وقالوا: إنه مفترى، وإذا كان من قبيل السحر فهو في الوقت نفسه مفترى، فهو يضيفه إلى الله -تبارك وتعالى-، يقول هذا كلام الله وهذا وحيه فإذا كان من قبيل السحر فإن إضافته إلى الله -عز وجل- تكون من قبيل الافتراء، فهذه الأمور متلازمة ولا حاجة للترجيح بينها، كل ذلك قالوه عن القرآن إنه سحر ومفترى، وقالوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه هو الذي بلغه عن ربه -تبارك وتعالى-، وقوله: {وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ}، هذا كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على ظاهره يصور حال العرب الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لم ينزل عليهم قبله من كتاب، ولم يأتِ قبله نذير {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} [سورة السجدة:٣] باعتبار أن ما نافية، فهذا يصور حالهم، لكن من أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يحمل قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا} على أنه يعني تنزلت بقولهم هذا، بأنه سحرُ مفترى يعني هذه المقالات من أين جاءوا بها؟ ما أنزلنا عليهم قبل ذلك من كتب يدرسونها ويجدون فيها أن هذا إفك مفترى وأنه سحرٌ مبين، لم يحصل ذلك، ولكن ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كأنه أقرب -والله تعالى أعلم- هو يصف حالهم وما هم فيه من الجهالة، ولكن يمكن أن يكون من لازم ذلك أنهم في جهالتهم هذه لا خبرة لهم ولا دراية بالكتب فكيف حكموا على شيء لا عهد لهم به ولا يعرفونه؟ ويمكن أن يكون ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار المنّة أن هؤلاء ما نزل عليهم من كتاب ولا بُعث إليهم رسول فكان اللائق بهم أن يغتبطوا ببعثته -صلى الله عليه وسلم- وأن يفرحوا بإنزال الكتاب عليهم ولكنهم قابلوا هذا بالتكذيب والكفر.

ثم قال: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم، {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي من القوة في الدنيا، وكذلك قال قتادة، والسدّي، وابن زيد.

يعني أنهم لا شيء بالنسبة للأمم التي قبلهم، أمم قوية ممكّنة ذات عَدد وعُدد كما وصفها الله -تبارك وتعالى- في مواضع في كتابه، لأنه مكن لهم وأعطاهم ما لم يعط هؤلاء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} المعشار بمعنى العشر يعني أن المشركين هؤلاء ما بلغوا عشر ما أعطيه الأولون من القوة والتمكين والكثرة في العدد وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: إن المعشار هو عشر العشر، عشر العشر كأن

يكون واحد من مائة، عشر العشر، وبعضهم يقول: عشر العشير، والعشير هو عشر العشر بمعنى أنه واحد على ألف، والمشهور هو الأول أن المعشار بمعنى العشر {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} يعني ما بلغوا عشر ما أعطيه هؤلاء وذلك يقال للتقليل، يقال للتقليل بمعنى أن هؤلاء لا يقارنون بأولائك تقول: فلان لا يبلغ معشار ما بلغه فلان، فلان ما عنده معشار ما عند فلان، والله أعلم.

كما قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الأحقاف:٢٦]، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً} [سورة غافر:٨٢]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله؛ ولهذا قال: {فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي: فكيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي؟.

آثارهم تدل على هذا على قوتهم وتمكينهم، ما بقي منها يعني الأهرام مثلاً تدل على هذا التمكين والقوة التي يتحير فيها أهل العصور المتعاقبة، وقد مضى في بعض المناسبات أن الكثيرين من أهل العلم كانوا يقولون: إن هذه الأهرام لا يعرف لها تاريخ، لا يعرف من الذي بناها وإن ذلك يعني أنها كانت قبل الطوفان لأنهم ما يعرفون التاريخ قبل الطوفان، ويقولون: لو بنيت بعد الطوفان عرفت مع أنهم دخلوها قديماً ونظروا ما فيها فتحوا فيها باباً ووصفوا التوابيت التي يتحدث عنها المعاصرون اليوم، وذكروا مضامينها، حصل هذا، وهدمت بعض الأهرام الصغيرة، كل هذا قد حصل هدمت يعني ليست قصداً وإنما كان الناس الأهالي يحملون الأحجار لزروعهم وما إلى ذلك -بعض الأهرام الصغيرة- لكن هذه الكبيرة العظيمة الشاهقة ما يستطيعون هدمها وإنما يرون أمثال الجبال، مثل هذه الأشياء وهذا النحت، هذا الذي وجد فقط وكان كثير من هذا مطموراً في الأرض، فالذي ذهب في الممالك والمدن وغير ذلك تحت الأرض شيء كثير لا يحصيه إلا الله -عز وجل-، ذهبوا وذهبت آثارهم لكن ما وجد منها يدل على شدة التمكين والدقة في البناء والنحت نحت الصخور بطريقة عجيبة كأنما ألين لهم الصخر، كل هذا يدل على التمكين، المشركون الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا كانوا يستطيعون من مثل هذه الأعمال والمزاولات؟.

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ:٤٦].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: {إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} أي: إنما آمركم بواحدة، وهي: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} أي: تقوموا قياما خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا، {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ}.

هذا معنى ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسُّدِّيّ، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} يعني بخصلة واحدة قال: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} مثنى

بعضهم كابن جرير يقول: اثنان اثنان، وفرادى واحد واحد بمعنى أنهم يقومون يتفكرون منفردين تارة ومجتمعين تارة أخرى، وابن كثير -رحمه الله- يقول: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى}: **يعني تقوموا قياماً خالصاً لله من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون؟! فينصح بعضكم بعضاً، ثم تتفكروا أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ويسأل غيره من الناس**، يعني حاصل هذا القول الذي ذكره أنهم يقومون منفردين يتفكرون، وأيضاً يحصل بينهم سؤال وتفكر في حال اجتماعهم يجتمعون يسأل بعضهم بعضاً ويطارح بعضهم بعضاً هل بمحمد -عليه الصلاة والسلام- من جنون؟ فهم يعرفون أنه أعقل الناس وأن هذا الكلام الذي جاء به لا يمكن أن يصدر عن مجنون وأن هذه الدعوى دعوى النبوة لا يجترئ عليها أحد إلا أن يكون مرسلاً من عند الله -جل جلاله- فيأتي بالبينات على ذلك، ويصدر عنه ما يدل على صدقه، أو أن يكون مجنوناً الذي يجترئ على هذه الدعوى الكبيرة، لو جاءك إنسان وقال لك: إنه رسول، مباشرة يتبادر إلى ذهنك أنه مجنون يضحك الناس من عقله ويُستهدف، ويشمت الناس به، فمن جاء بمثل هذه الدعوى وجاء بما يدل على صدقه بالبينات فمثل هذا يكون صادقاً، جاء بهذا القرآن المعجز وتحداهم به فعجزوا عن الإتيان بمثله إلى غير ذلك من دلائل صدقه الكثيرة، فإذا تفكرتم هذا التفكر علمتم أنه ليس بمجنون، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول في هذا الموضع: إن ذلك في مقام الاستدلال والاحتجاج والمناظرة أمرهم أن يقوموا منفردين مع التجرد؛ ليتفكر الواحد منهم حتى يتوصل إلى المطلوب، وأمرهم أن ينظروا مجتمعين من أجل أن يسأل بعضهم بعضاً، وأن يذكر بعضهم بعضاً وأن يجاوب بعضهم بعضاً عن حال محمد -صلى الله عليه وسلم- هل به من جنون؟ فيقول: المطلوب تارة يحصل للمكلف بتجرده وقيامه بنفسه وتفكره، وتارة يكون ذلك بالرجوع إلى غيره ومسائلته ليصل إلى مطلوبه، فالله -تبارك وتعالى- أرشدهم إلى هذا وإلى هذا، النظر والتفكر بانفراد ويكون ذلك أدعى إلى صفاء الذهن والبعد عن المشوشات والأمور التي تؤثر في أحكام الناس، وأن ينظروا مجتمعين لأن من الأمور ما يحتاج فيه إلى التشاور والسؤال وما إلى ذلك، فأرشدهم إلى هذا وهذا، {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة أي فإنكم عند ذلك تعلمون أن صاحبكم ليس بمجنون، يعني إذا فعلتم هذا توصلتم إلى هذه النتيجة، وبعضهم يقول: إن هذه الجملة {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} مستأنفة من الله -تبارك وتعالى- يعني الكلام الأول الذي أرشدهم إليه {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} يكون الوقف هنا ثم يبدأ كلام جديد {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} ينفي عنه هذا الوصف الذي نسبوه إليه فيكون ذلك على طريق التنبيه، فهذا الأمر لا يمكن أن يصدر أو لا يمكن أن يتعرض له أو يجترئ عليه إلا من كان به جنون أو كان صادقاً، وبعضهم يقول: إن ما هذه استفهامية {تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} ما الذي به من الجنون؟! وكأن الأول -والله تعالى أعلم- أقرب، يعني أنهم إن حصل منهم هذا التفكر بتجرد توصلوا إلى هذه النتيجة.

وقوله: {إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}: **قال البخاري عن ابن عباس قال: صَعَدَ النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا ذات يوم، فقال: ((يا صباحاه))، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: ((أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقوني؟))، قالوا: بلى، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي**

عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}[1] [سورة المسد:١].

وقد تقدم عند قوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ} [سورة الشعراء:٢١٤].

{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سورة سبأ:٤٧-٥٠].

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين: {مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} أي: لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمْركم بعبادة الله، {إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ} أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه.

قوله: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} يعني هذا دفعٌ للتهمة، لو كان يسألهم أجراً على دعوته لكان في ذلك نوع تهمة أنه يريد أن يتحصل على شيء من أموالهم، ولكنه لكمال تجرده يقول لهم هذا كما قالت الرسل قبله -عليهم الصلاة والسلام- فنفوا أن يكونوا يسألون على ذلك شيئاً من المال أو الأجر، لا أسألكم عليه أجراً، لا أسألكم عليه مالاً هكذا كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يقولون لأقوامهم، وينفون ذلك عن أنفسهم، فمن يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ينبغي عليه أن يتجرد وألا يتاجر بدعوته، فلا يتخذ الدعوة سبيلاً إلى التجارة والتوصل إلى الأموال بطريق أو بآخر، تكون دعوته مجاناً.

وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ}، كقوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [سورة غافر:١٥]، أي: يرسل الملك إلى مَنْ يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

قوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} القذف هو الرمي والمعنى يتكلم بالحق وهو القرآن والوحي يعني يبين الحجة ويظهرها على ألسن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فينكشف الباطل ويظهر الحق بذلك {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} وابن جرير -رحمه الله- يفسر هذا بالوحي {يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} يعني بالوحي وهو معنى ما ذكرت، وكلام أهل العلم في غالبه ومجمله يدور على هذا {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [سورة الأنبياء:١٨]، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينطق عن الهوى ومن فسر ذلك بالحجج والبراهين والأدلة الدامغة فإن هذا إنما جاء في الوحي، فكل هذا صحيح لا إشكال فيه، وبعضهم خص ذلك {يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} يعني يقذف به الباطل، والمعنى أعم من هذا، والله تعالى أعلم.

وقوله: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}، ولهذا لما دخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطعنُ

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، برقم (٤٤٩٢)

الصنم منها بِسِيَةِ قَوْسِه، ويقرأ: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}، {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}.[٢] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية.

ما نقله صاحب المختصر ليس فيه بيان معنى {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} فيراجع الأصل، حُذف كلام يتعلق بالآية فبقي بلا تفسير أصلاً في هذا المختصر.

والشاهد قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} يعني ذهب ذهاباً فاضمحل ولم يبقَ معه أو لم يبقَ منه ما يبقى من الباطل لا إقبالاً ولا إدبار، إذا لم يبقَ منه ما يبقى إقبالاً ولا إدباراً ولا إبداء ولا إعادة يعني تلاشى واضمحل وذهب، وانظر الآية وتأمل {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} يعني فزهق الباطل، جاء الحق فاضمحل الباطل، جاء النور وتلاشى الظلام فصار الباطل في حق لا يُبدئ معه ولا يعيد، لم يعد فيه إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة، ذلك يرجع إلى الباطل، والباطل المقصود به الباطل المعروف الكفر وما تفرع منه، هذا هو الباطل، وبعضهم -كما أشار ابن كثير -رحمه الله- في الأصل- يقول كقتادة: إن الباطل هو الشيطان، {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ} الشيطان، ومعنى كون الباطل لا يبدئ ولا يعيد، يعني ما منه إبداء الخلق ولا الإعادة إعادة الخلق من جديد، هذا على قول قتادة وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} يعني الشيطان.

قال: **وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أنه لا يخلق أحدا ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا والله أعلم**، قوله: **وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا** يعني أن إبليس باطل، ويقال له: باطل وأنه لا يستطيع الإبداء ولا الإعادة إلى آخره، ولكن هنا ظاهر السياق لا يدل عليه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله -عز وجل- من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومَنْ ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، لما سئل عن تلك المسألة في المُفوّضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

المُفوّضة: الواقعة التي حصلت، السؤال الذي وُجه لابن مسعود -رضي الله عنه- يترددون عليه شهراً كاملاً رجل توفي عن امرأة قبل الدخول بها ولم يسم لها مهراً صداقاً، كانوا يترددون عليه، فأجابهم بعد شهر بأن لها مثل مهر مثيلاتها، وعليها العدة ولها الميراث، فالشاهد أنه قال ذلك، قال: **أقول فيها برأيي**، المفوّضة يعني لم تحدد صداقاً معيناً.

وقوله: {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} أي: سميع لأقوال عباده، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا))[٣].

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل "الإسراء"، برقم (٤٤٤٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، برقم (١٧٨١).

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم (٣٩٦٨)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب

وهنا ذكر الحافظ ابن القيم معنى يحسن الرجوع إليه في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} حاصله أن الهدى إنما يحصل بما أوحاه الله -عز وجل- إليه، الهدى في هذا الوحي وليس في الآراء والعقول والإحالة إلى رأي فلان، وقول فلان، ونظر فلان، إنما الهدى باتباع الوحي، إذا كان ذلك في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- فكيف بمن دونه؟ فمن طلب الهدى فإنه يجد ذلك في الوحي في الكتاب والسنة {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} فقدم المعمول وذلك يفيد الحصر أن الهدى إنما يؤخذ من الوحي لا من الآراء والإحالة إلى قول فلان وما إلى ذلك، فيراجع كلام ابن القيم فهو جيد في هذا الموضع يُحتاج إليه في مثل هذه الأيام التي صار الناس فيها يخوضون بعقولهم وآرائهم دون نظر في الوحي والاعتبار بذلك.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سورة سبأ:٥١-٥٤].

يقول تعالى: ولو ترى -يا محمد- إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، {فَلَا فَوْتَ} أي: فلا مفر لهم، ولا وَزَر ولا ملجأ {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} أي: لم يمكّنوا أن يُمعنوا في الهرب بل أخذوا من أول وهلة.

قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} متى يكون الفزع؟ قول الحسن هنا: حين خرجوا من قبورهم {فَلَا فَوْتَ} أو {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} يعني حين أخرجوا أو خرجوا من قبورهم، معناها أن الفزع يكون في الآخرة وهذا مقتضى ولازمُ قول الحسن، ولهذا بعضهم يقول: إن ذلك يكون عند خروجهم من قبورهم، يحصل لهم هذا الفزع، فالناس يكونون في حال من الفزع والله -عز وجل- يقول: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، فهم في ذلك اليوم يكونون في حال من الأمن، وبعضهم يقول {إِذْ فَزِعُوا} يعني عند حلول الموت بهم، عند الموت لما تتلقاهم ملائكة العذاب فيحصل لهم هذا الفزع ولا يفوتون الله -تبارك وتعالى- ولا يستطيعون الخلاص والتخلص من ذلك، وبعضهم يقول: {إِذْ فَزِعُوا} يعني في القبور يكونون في حال من الفزع من الصيحة، وبعضهم يقول: هذا كان في الدنيا {إِذْ فَزِعُوا} إذ نزل بهم بأس الله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} يحملها على يوم بدر لمّا تلقتهم الملائكة بالقتل والتنكيل فلا خلاص لهم من ذلك ولا يستطيعون الهرب والفرار مما قضاه الله -عز وجل- عليهم {إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ}، وبعضهم كما سبق يقول: إن ذلك حينما ينزل بهم بأس الله -جل جلاله- ولا يخص ذلك بيوم بدر، ويحتمل أن يكون الفزع بمعنى الإجابة {إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} لمّا يجيبون الداعي ولا يفوتونه تقول: فلان يفزع لفلان، يعني كما يقال في النجدة، ولا يزال هذا يقال اليوم في بعض البلاد القريبة يسمونها الفزعة هكذا، يعني النجدة، الفزعة تجد سيارة مكتوباً عليها الفزعة يعني النجدة لكن هذا القول بعيد، -والله تعالى أعلم-، وابن جرير -رحمه الله- يحمله على نزول العذاب بهم إذا أخذهم العذاب حل بهم بأس الله -تبارك وتعالى- فعند ذلك لا يستطيعون الخلاص إذا نزل بهم بأسه {إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} فيكون هذا في

استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٤).

الدنيا إذا نزل بهم عذابه -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} لا فوت: لا مفر، {وَأُخِذُوا} يعني لا فوت، يعني لا مفر ولا وَزَر ولا ملجأ، لا يفوت اللهَ -عز وجل- منهم أحدٌ {وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} يعني ما أمعنوا في الهرب، وإنما أخذوا من أول وهلة، {إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} يعني لرأيت أمراً هائلاً، فأقرب هذه الأقوال أن يكون ذلك في الآخرة حيث يحصل الفزع {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} [سورة غافر:١٨] كما وصف الله -عز وجل- ذلك اليوم والأهوال والأوجال التي تقع فيه، والله يقول: {وَاتَّقُواْ يَوْماً} يعني أهوال يوم، ويقول أيضاً في أهواله وأوجاله: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:٢] ولا يبعد أن يكون ذلك أيضاً حينما ينزل بهم بأس الله -عز وجل- في الدنيا وعذابه، والمختصر حذف كلاماً كان لا ينبغي أن يحذف، فالحافظ -رحمه الله- يقول: ...والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة.

{وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة:١٢]؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

قال مجاهد: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ} قال: التناول لذلك.

وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا.

وقال الحسن البصري: أمَا إنهم طلبوا الأمر من حيث لا يُنال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} يعني يقولون: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، {آمَنَّا بِهِ} بعضهم يقول {آمَنَّا بِهِ} أي آمنا بالله، وبعضهم يقول: {آمَنَّا بِهِ} يعني بالقرآن، وبعضهم يقول: {آمَنَّا بِهِ} أي بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: {آمَنَّا بِهِ} أي بالبعث الذي أخبر عنه الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قد جمع بين هذه الأقوال جميعاً، هذه الأمور كذبوا بها واستبعدوها غاية الاستبعاد، فالحافظ ابن كثير يقول: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} أي: **بالله وملائكته وكتبه ورسله**، يعني هذه الأمور جميعاً {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} التناوش تناول الشيء، {مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} كيف لهم تعاطي الإيمان وقد صاروا إلى الآخرة، {آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} تناول الإيمان {وَقَالُوا آمَنَّا} فهذا الإيمان لا ينفعهم لأنه وقع في محل لا يقبل لهم فيه، وبعضهم يقول كابن جرير: المراد بذلك التوبة {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ} يعني أن هذه التوبة لا تنفع يوم القيامة أو إذا نزل بأس الله -عز وجل- بهم إذا رأوا العذاب إذا عاينوا العذاب فلا تنفعهم توبتهم، وهذا القول بأنه التوبة أو قول من قال بأنه الإيمان غير متعارض؛ لأن توبتهم تعني الإيمان، التوبة من الكفر في الدخول في الإيمان، فلا إشكال في هذا، فمثل ما ذكر هنا عن بعض السلف أن المقصود بذلك -كقول الزهري-: **تناولهم الإيمان وهم في الآخرة** وكذلك قول الحسن البصري، ويقول به جماعة من أهل العلم، وهو يتضمن ما عداه يعني من يقول: إنه آمنا بالبعث أو

آمنا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أو بالقرآن أو غير ذلك {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} يعني أنى لهم الإيمان من مكان بعيد فهذا لا يقبل منهم ولا يصح، والشنقيطي -رحمه الله- يقول: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ} يعني الإيمان تناوش الإيمان، تناول الإيمان أنى يصح أن يقبل منهم وقد وقع بغير وقته الذي يقبل فيه إيمان مَن آمن.

وقوله: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسل؟

{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} قال مالك عن زيد بن أسلم: {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ} قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [سورة الكهف:٢٢]**، فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: {إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}** [سورة الجاثية:٣٢].

قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار.

من مكان بعيد يعني من جهة بعيدة لا مستند لهم فيها، إنما هو التخرص والظنون الكاذبة.

وقوله: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني الإيمان.

وهذا الذي اختاره ابن جرير {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} يعني الإيمان وهكذا أيضاً قول من قال: التوبة وقول من قال: إنه الرجوع إلى الدنيا، هم يريدون الرجوع إلى الدنيا من أجل العمل الصالح {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [سورة فاطر:٣٧] فهذه كلها أقوال لازمة، {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} يعني الإيمان أو التوبة أو الرجوع إلى الدنيا كل ذلك صحيح، الرجوع إلى الدنيا من أجل العمل والإيمان.

وقال السُّدِّي: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} وهي التوبة، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله.

اختيار ابن جرير {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} قال الإيمان، ولكن التوبة ذكرها هناك في قوله: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} قال: **التوبة**، ولا إشكال، التوبة من الكفر بمعنى الإيمان كما سبق؛ ولهذا عبر هناك بالتوبة وعبر هنا بالإيمان يعني ابن جرير -رحمه الله.

وقال مجاهد: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل، وروي ذلك عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس، وهو قول البخاري وجماعة، لاحظ الآن هذه الأقوال {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} من الأموال وزهرة الدنيا أو التوبة أو الإيمان أو الرجوع، الآن انظر ابن كثير الآن جمع بين هذه الأقوال.

والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمُنعوا منه.

قوله: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} ما الذي يشتهونه لا يتحقق لهم مطلوب لا يتحقق لهم؟ هم في الكلام الذي قبله {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} فهم يطلبون أي يستعتبون أن يرجعوا إلى الدنيا، وأن يقبل منهم الإيمان ويتخلصوا من العذاب، كل ذلك حيل بينهم وبينه، كما حيل بينهم وبين شهواتهم التي تطمح إليها نفوسهم، ومن أجلها تركوا اتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا، فلم يقبل منهم، {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر:٨٤-٨٥].

قوله: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} ابن جرير -رحمه الله- كأنه يرى أن هذه قرينة على أن المقصود العذاب -نزول العذاب بهم-، فلم يفسر ذلك بالقيامة، ومن قال إنه القيامة {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} فالقرآن مفسر بعضه بعضاً فما ذكر في موضع يفسره الموضع الآخر، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

يعني {إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} الشك والريب متقاربان، إلا أن الريب هو شك مقلق، أي شك مع قلق، فالشك المريب يعني الشك الموقع في الريبة.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فاطر من الآية (١) إلى الآية (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فاطر:١]: عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها، وقال ابن عباس أيضًا: {فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: بديع السماوات والأرض.

وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض فهو: خالق السماوات والأرض.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} حمد -تبارك وتعالى- نفسه هنا على كونه فطر السماوات والأرض وخلق الملائكة بهذه الأوصاف الكاملة، وهذا الحمد لنفسه -تبارك وتعالى- في خلق السماوات والأرض جاء في القرآن تارة باعتبار أنها دالة على عظمته -جل جلاله وتقدست أسماؤه- كما في سورة الأنعام في قوله -جل وعلا-: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [سورة الأنعام:١]، فهو يحمد نفسه على خلق المخلوقات لكونها دالة على عظمته، وتارة يحمد نفسه على خلقها أو يرشد خلقه إلى حمده على خلقها وإيجادها باعتبار أنها مسخرة لهم وُجِدت لمصالحهم كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ} [سورة إبراهيم:٣٣]، فهذا امتنان منه -تبارك وتعالى- وتعليم لخلقه أن يحمدوه على ما سخر لهم من هذه الأجرام والمخلوقات العظام، وقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} هذه المادة تدل على الإيجاد الذي يكون مبتدأً على غير مثال سابق فهو أخص من الخلق، الخلق بمعنى الإيجاد والإنشاء، وتارة يكون بمعنى التقدير، وقوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...} إلى قوله: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [سورة الحشر:٢٢-٢٤]، فالخالق هناك في سورة الحشر بمعنى المقدر، والبارئ هو الموجد من العدم لئلا يكون ذلك تكراراً، والمصور هو الذي أعطى هذه المخلوقات الصور والهيئات والأشكال التي تليق بها وتميزها عن غيرها، إذاً الفطْر أخص من الخلق، يدل على الابتداء والاختراع على غير مثال سابق، ولهذا هذه الأقوال **أنا فطرتها أنا بدأتها** أي: بديع السماوات والأرض، كل هذا يرجع إلى معنى واحد، وأما ما ذكره الضحاك: **كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض فهو: خالق السماوات والأرض** فهذا تفسير له بما

يقاربه ولكنه ليس بما يطابقه؛ إذ الفطر أخص من مطلق الخلق، وقول الضحاك هذا يقال له: كليات القرآن، كل كذا فهو كذا، يعني كل كذا في القرآن فهو كذا، هذا يسمى الكليات، وهو نوع من قواعد التفسير، إلا أنه مبتدأ بصيغة كل كذا في القرآن فهو كذا، والقواعد لا يلزم منها أن تكون كذلك، ولكن هذه الكلية باعتبار اللفظ يجب أن تكون مطابقة لجميع الجزئيات، أما القواعد فهي قضايا كلية أغلبية، أما هذه فلا يصح أن تكون أغلبية، ولهذا لابد فيها من التصريح والاستثناء إن وُجدت استثناءات، والواقع أن هذه -كما سبقت الإشارة في بعض المناسبات- على ثلاثة أنواع: نوع صحيح أنه كلي بمعنى لا يستثنى منه شيء أصلاً، ونوع يستثنى منه المثال والمثالان، لابد أن يقال إلا كذا، ونوع لا يصح أن يقال، كما يقولون: كل ريح في القرآن فهي عذاب وكل رياح فهي رحمة هذا بالاستقراء غير صحيح، وبعضهم يستثني من هذا استثناءً كأن يقول: إلا قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ} [سورة يونس:٢٢]، يقول: إلا هذا المثال، والواقع أن المستثنى ليس فقط هذا المثال بل قد يخرج منه أشياء على بعض القراءات، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- بهذه السورة، والطريق في معالجة مثل هذا هو الاستقراء والتتبع والتريث وعدم التعجل، يعني قد تجد هذا في أول وهلة حينما تقرأ على قراءة حفص تجد الأمثلة تحتاج إلى النظر في معانيها، لكنك أيضاً تحتاج إلى النظر هل يوجد قراءات أخرى أو لا؟ فقد تجد على قراءة أخرى الريح: الرياح قراءة متواترة، يدخل في ضبط الكلية هذا أن كله قرآن، وهذه القراءات إذا قلنا: الريح والرياح بمعنى واحد فهي آية واحدة، أما إذا تعددت المعاني وصحت القراءة فهي بمنزلة الآيتين، ولو كان كذلك -مع أنه ليس كذلك في هذا المثال- فهذا كله قرآن يحتاج أن يُتتبع، يقال: كل كذا في القرآن إلا أن تقيد تقول: كل كذا على قراءة حفص، وهذا لا يتأتى؛ لأن قراءة حفص هذه هي اختياره فقط من مجموع أوجه في القراءة، يعني انظر مثلاً في قوله: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ} في هذه السورة في القراءة الأخرى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ} هذه قطعاً ليست عذاباً، هذا امتنان من الله -تبارك وتعالى- بإنزال المطر "فأحيينا به الأرض بعد موتها" وهو تعليم لهم، أو هو احتجاج على البعث بإحياء الأرض بعد موتها.

وقوله: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا} أي: بينه وبين أنبيائه، {أُولِي أَجْنِحَةٍ} أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا {مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} أي: منهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة، ومنهم مَنْ له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح[1]، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب؛ ولهذا قال: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء.

في قوله: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا} قال: **أي بينه وبين أنبيائه**، الملائكة جعلهم الله رسلاً هذا نوع من الملائكة

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم:١٠]، برقم (٤٨٥٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، برقم (١٧٤)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة والنجم، برقم (٣٢٧٧)، وقال: "هذا حديث حسن غريب صحيح".

ومعلوم أن من الملائكة من لهم أعمال أخرى، منهم من يختصون بعبادته والتقرب إليه -جل جلاله- فهم مشتغلون بالعبادة فحسب، ومنهم من يقومون بأعمال غير ذلك منهم حملة العرش ومنهم من وُكل بالأرواح، ومنهم من وكل بالأرزاق، ومنهم من وكل بالوحي وهم الرسل بين الله وخلقه، وقوله -تبارك وتعالى-: "مثنى وثلاث ورباع" ليس ذلك للحصر، يعني الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- منهم من له أجنحة كثيرة كما جاء في الحديث المتقدم، ولهذا قال: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} فالجمهور من المفسرين على أن ذلك يرجع إلى خلق الملائكة يرجع إلى ما قبله {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ} يعني في خلقهم فيكون له أجنحة أكثر من أربعة وذلك لا يعلمه ولا يحصيه إلا الله -تبارك وتعالى- هذا الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم يقول: لا يختص ذلك بالملائكة بل هو أعم من هذا {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} والسلف -رضي الله عنهم- ذكروا أشياء يصلح أن تكون من قبيل التفسير بالمثال، وأنهم لا يريدون ذلك التحديد والحصر، كقول بعضهم مثلاً: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} هو الصوت الحسن فهذه زيادة يتفاضل بها الناس، ويتفاوتون، وقد تجد الرجل من كبار القرّاء إلا أن صوته ليس بذاك، وهذا الذي يشاهد في أكثر المشتغلين وأكثر العلماء بالقراءة، علماء القراءات ليست أصواتهم جميلة في الغالب، الصوت موهبة من الله -عز وجل- لا يد للإنسان فيها، أكثر العلماء ليست أصواتهم جميلة بل قراءتهم ليست كقراءة من أعطاهم الله -عز وجل- أصواتاً حسنة، هذه أمور يفرّقها الله -عز وجل- بين العباد فيعطي ويمنع وله الحكمة التامة، وبعضهم يفسره بأشياء أخرى كالملاحة في العينين، والحسن في الأنف والحلاوة في الفم، وبعضهم يقول: الوجه الحسن، وبعضهم يفسر ذلك بكمال العقل {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} العقل وحسن النظر في الأمور، وبعضهم يقول: حسن الخط، وهذه تارة تكون موهبة، وتارة تكون بالتعلم والممارسة والاكتساب، فالناس يتفاضلون فيها، أكثر العلماء خطوطهم سيئة مثلاً، فابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، وهذا من قبيل التفسير بالمثال لا يريدون بها الحصر، {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} الخط الحسن لا يقصد الحصر بهذا وإنما كمثال على هذه الزيادة، ومن ثم لا يصلح أن نجعل هذه أقوالاً في التفسير ثم نحتاج إلى الترجيح بينها لكن الخلاف بين المفسرين هل ذلك يرجع إلى الملائكة أو أنه أعم من هذا {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ} في خلق الملائكة وفي غير الملائكة؟ الجمهور على أن ذلك يرجع إلى الملائكة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، لأنه لما ذكر "مثنى وثلاث ورباع" مع أن الملائكة لا ينحصرون في هذا لا ينحصر خلقهم في هذا فقال: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} كما قال في النجوى: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [سورة المجادلة:٧] يتبادر: إذا كانوا عشرة مثلا؟ قالوا: {وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ} هذا يعم في عدد النجوى، فالمقصود هنا أن ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين فقال: إن ذلك يرجع إلى خلق الملائكة {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} وفي غيرهم -غير الملائكة-، وأما القول: إنه في غير الملائكة، فهذا بعيد، أقصد لو أنه قصر ذلك بغير الملائكة؛ فالحديث عن الملائكة.

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة **فاطر:٢**].

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

روى الإمام أحمد عن ورّاد -مولى المغيرة بن شعبة- قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعتَ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا انصرف من الصلاة قال: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ))، وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومَنَع وهَات[2]، وأخرجاه من طرق.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: ((سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهلَ الثناء والمجد، أحقّ ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجدّ))[3].

وهذه الآية كقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [سورة يونس:١٠٧]، ولها نظائر كثيرة.

الشاهد في هذه الأحاديث التي ذكرها قوله: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت))، وذُكر تفسيراً لقوله -تبارك وتعالى-: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} [سورة الفتح:١١]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} [سورة الأحزاب:١٧]، والرحمة هنا في قوله: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا}، هذه الرحمة تحمل على أعم معانيها {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا} رحمة: هنا هذا اللفظ منكّر جاء في سياق الشرط "ما يفتح الله للناس من رحمة"، جاءت في سياق الشرط أليس كذلك؟ وسبقت بمن، والنكرة في سياق الشرط تكون للعموم، فإذا سبقت بمن فذلك ينقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، يعني تكون نصاً في العموم وليست ظاهرة فيه، {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا} فهذه الرحمة يدخل فيها صور كثيرة، كل رحمة فهي داخلة في هذا: الوحي وإنزال الكتب، {مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [سورة الشورى:٥٢] الآية الأخرى {وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا} [سورة القصص:٤٦]، وكذلك إرسال الرياح وإنزال المطر {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [سورة الأعراف:٥٧]، فالمطر رحمة من الله -تبارك وتعالى- يرسلها، وإذا أراد إرسالها وأن يفتح بها فلا يستطيع أحد أن يحجزها ويردها أو أن يمسكها {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ} [سورة

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل من تَعارّ من الليل فصلى، برقم (١١٥٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٣)، وأحمد في المسند، واللفظ له، برقم (١٨٢٣٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح. علي بن عاصم -وهو الواسطي، وإن كان ضعيفاً- توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين".

٣ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، برقم (٤٧١).

الشورى:٢٨] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى، {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة القصص:٨٦] فهي أعظم رحمة وهي إنزال الكتب.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [سورة فاطر:٣].

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَلْيُفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ} كقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة الأحزاب:٩] فهو أمر منه -تبارك وتعالى- بذكر نعمه عليهم، هذا الذكر يشمل الذكر باللسان أن يذكروها وأن يعترفوا بها ويقروا، كما يشمل الذكر بالقلب وهو استحضار النعمة، ويشمل الذكر الثالث وهو الذكر بالجوارح، فيعمل بطاعته شكراً على إنعامه وإفضاله {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} [سورة سبأ:١٣]، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} يقول: أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان؟ {تُؤْفَكُونَ}، بعضهم يقول: هذا من الإفك بمعنى الصرف {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [سورة يونس:٣٢] عن عبادته وهو الخالق المنعم المتفضل الرازق، وبعضهم يقول: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} من الإفك وهو الكذب، يعني كيف تكفرون وتكونون بهذه المثابة من ادعاء الشركاء والأنداد له -تبارك وتعالى-؟، أو كيف يقع لكم التكذيب مع هذه الدلائل على وحدانيته -تبارك وتعالى- {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أن يقع لكم التكذيب؟، ولكن الأول هو المتبادر والأقرب والأليق بالسياق، -والله تعالى أعلم-، {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أن تُصرفوا عن طاعته وعن عبادته وتوحيده -جل جلاله-؟.

{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة فاطر:٤-٦].

يقول: وإن يكذبك -يا محمد- هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، {وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء.

وفيه أيضاً وعيد، وعيد مغلف يعني هؤلاء الذين يكذبون سيجازيهم الله -عز وجل- ويحاسبهم، {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [سورة الغاشية:٢٥-٢٦]، أيضاً سيجزيك الله -تبارك وتعالى- على هذا البلاغ والصبر والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- فلا يضيع من أجرك شيء، إن عليك إلا البلاغ، فأجرك على الله موفور وثابت لا ينقصه تكذيبهم وإعراضهم، فما عليك إلا أن تقوم بهذه الوظائف الشريفة وتبلغ عن الله -جل جلاله-، وهذا يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- ويكون للدعاة من بعده.

ثم قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: المعاد كائن لا محالة، {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهَّوا عن ذلك الباقي بهذه

الزهرة الفانية، {وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} وهو الشيطان، قاله ابن عباس، أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرَّار كذاب أفاك، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة لقمان:٣٣].

الغَرور بالفتح هو الشيطان، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وأما الغُرور بالضم فهو مصدر غر يغر غروراً وهو كل ما صرف الإنسان واستهواه وزين له أمراً يستهويه به فصده عما هو بصدده من اتباع الحق ونحو ذلك يقال له غرور، اغتر بشيء لا حقيقة له، أما قوله: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} فالذي عليه عامة السلف فمن بعدهم أن المقصود بذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا وهو المعاد، وإن ذكروا عبارات وتفاصيل أخرى غير ما ذكر، يعني كقول بعضهم مثلاً: البعث والنشور والجنة والنار والحساب وما إلى ذلك، كله مضمن في قوله: المعاد كائن لا محالة {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} المعاد وما فيه وما يتبعه ذلك حاصل لا محالة، كل ذلك حاصل لا محالة، ثم قال: {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} فهي مزرعة للآخرة، ومعبر وليست دار إقامة، وإنما هي دار فناء فلا تغتروا بها، إنما يُتبلغ بها إلى الآخرة من أجل تحصيل المنازل فيها لا أن تكون محل اشتغال، يعني عن الآخرة.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهذه كقوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [سورة الكهف:٥٠].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} اتخذوه: أضفنا في بعض المناسبات أن الاتخاذ يدل على مزيد من عناية الشيء أن اتخذ، يقول: اتخذت فلاناً صاحباً، اتخذت الشيء الفلاني طعاماً، اتخذت المكان الفلاني، اتخذت المسجد مجلساً ونحو هذا، فهنا {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر معنى لطيفاً وهو أن المراد باتخاذه عدواً التنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس، {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته فهو عدو لا يفتر يتربص بك في كل حالاتك، وتربُّصه ووساوسه وخواطره وتزيينه بقدر الأنفاس، فجد واجتهد وكن على حذر دائم، لا تفتر، واقع كثير من الناس أنهم اتخذوه ولياً وصاروا من حزبه، والله -تبارك وتعالى- قد قص ذلك مفصلاً في خبره مع أبينا آدم -صلى الله عليه وسلم-: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٦٢]، وقال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سورة الأعراف:١٧]، {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ} [سورة النساء:١١٩] فهو يتوعد ويتهدد، صار كثير من الناس بطاعتهم له واستجابتهم لتزيينه صاروا من حزبه وأوليائه، فكيف يُتخذ هذا العدو، كيف يُتخذ متبوعاً ومطاعاً

وتترك طاعة الله -عز وجل- وعبادته؟! فالله -تبارك وتعالى- لعنه وطرده وأخرجه من الملأ الأعلى؛ لأنه امتنع عن سجدة لأبينا آدم -صلى الله عليه وسلم-، أبَى هذا التكريم لأبينا آدم فلعنه وطرده، ثم بعد ذلك تُترك عبادة الله -عز وجل- ويتبع هذا الشيطان و يطاع ويعبد من دون الله -تبارك وتعالى- فهذا لا شك أنه أعظم الكفران والجحود للمنعم المتفضل جل جلاله وتقدست أسماؤه، {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} نحن في العادة لا نستطرد في مثل هذه الأشياء إنما فقط نوجه الأقوال لطلاب العلم وما إلى ذلك فيما يذكره ابن كثير فحسب، لكن بعض المواضع تحتاج إلى توجيهٍ قدْرَ الحاجة إليها، فمن هذه الأشياء التي ينبغي أن يحذرها الإنسان هي ما يُلقيه من الوساوس والخواطر التي قد لا يظن الكثير من الناس أنها من الشيطان، فمن هذه الخواطر والوساوس التي تقتل الكثيرين المخاوف التي تتعاظم في قلوبهم المخاوف أيًّا كانت، بعض الناس مخاوفهم من المرض يتوجس ويتوقع ويتحسس ويؤمل شراً بصورة دائمة، فهو مريض قبل أن يمرض، فهذا من الشيطان سواء كانت هذه العلة أنه مريض بمرض من الأمراض العضوية أو أنه مصاب بمس أو سحر أو عين أو غير ذلك، تخور قواه أو يضعف ويقعد عن كثير من مزاولاته فلا ينتفع بعمل عرض دنيا ولا آخرة، ويبدأ في عمل طويل ينشغل به كثيراً وليس به علة فهذا من الشيطان، وحاله مع ابن آدم كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- مثل هذا يقول: الغزال أسرع من الكلب، ولكن الكلب حينما يجري خلفه تحين من الغزال التفاتة من شدة الخوف فإذا التفت خارت قواه فانثنى عزمه فسقط وضعف جريه فيتمكن منه الكلب هكذا يصيده، فالإنسان حينما يلتفت إلى الشيطان يلتفت إلى عدوه هنا الشيطان يقوى ويطمع فيه، فإذا التفت إلى خواطره ووساوسه تسلط عليه وقوي عليه فلا يزال به حتى يجثم على صدره ويتمكن منه فيمرضه ويقعده، ويلقي في قلبه ألوان الخواطر والوساوس والعلل والأدواء الكثيرة، فهذا لون يدخل فيه ما شئت من الوسوسة في الصلاة، والوسوسة في الطهارة، والوسوسة في الطلاق، والوسوسة في العقيدة، ويدخل فيه أشياء تتعلق بالعلل البدنية فيدخل فيه أشياء من الأمور النفسانية، وما يسمى بالوسواس القهري وغير ذلك، كل هذا يرجع إلى تسلط هذا الشيطان ولربما قوي واشتد فصرعه فسقط يتلبط ويتخبط ولربما زين له المنكر والفاحشة ومعصية الله -عز وجل- بأمور قد لا تخطر للإنسان على بال، وإنما هي من قبيل خطواته يبدأ معه بالشيء المباح، ثم بعد ذلك في المشتبه، ثم بعد ذلك بتأويل وتبرير، ثم بعد ذلك ينتقل به إلى أمور ظاهرة هي من قبيل اللمم، ثم ينقله بعد ذلك حيث يكون مهيأ إلى كبائر الإثم، ثم بعد ذلك ينقله إلى الكفر بالله -عز وجل-، وهذا التدرج حاصل في المعاصي وحاصل في الخواطر والوساوس والشكوك الأخرى، ولهذا الذين يستجيبون حتى في باب الطهارة والصلاة للوساوس بعضهم حدثني أنه صار لا يصلي لمدة شهر من العذاب الذي كان يلقاه في الطهارة، يقول من العصر إلى ١٢ بالليل وأنا أتوضأ، وبعضهم ذكر سنة كاملة لا يغتسل من الجنابة؛ لأن بعض الناس -نسأل الله العافية- عنده وسواس في الغسل، وبعض النساء تذكر أنها تغتسل مرات كثيرة جداً حتى إنها إذا ذهبت إلى مكة كلما مرت برجل شعرت أنها أنزلت فترجع وتغتسل، وترجع وتغتسل، وترجع وتغتسل طول اليوم وهي تغتسل، وبعضهن تقول: بمجرد ما يخطر ببالها شيء تشعر أنها أنزلت حتى لو كانت في البيت لا ترى رجلاً، هذا لا يمكن في مجال العادات، لا يمكن وقوى البشر لا تحتمله كيف تفعلين؟! وإن كان هذا فهو مرض وعلة، لا يُغتسل من مثل هذا، لكن من ابتلي بمثل

هذا لا يسلّم، يعني وان اقتنع من الناحية النظرية إلا أنه في حال من الضعف لا يستطيع معها أن يجاهد وأن يقاوم الشيطان وخواطر الشيطان ووساوسه، حتى بلغ الأمر ببعض النساء أن تضع مسجلاً ثم تكبر: الله أكبر، ثم تسمع هل كبرت أو لا؟ ولا تصدق، وبعضهم قد وكل بعض أهله يسمع قراءته وتكبيره، وكل هذا سمعته بنفسي من السائلين أنفسهم الذين ابتلوا بهذا، لازم يجلس أحد ويسمع هل كبر تكبيرة الإحرام؟، الآن قرأ سورة الفاتحة ومع ذلك لا يقبل، لا أنا لم أكبر، تكبيرتي غير صحيحة!، إذا جاء أحد يسأل مِن هؤلاء تجده يرتعش ويبكي، خائف ويشعر أنه لا يقبل منه شيء؛ ولذلك بعضهم يفكر أن يقتل نفسه ينتحر، ينتهي من هذا العذاب الدائم، وبعضهم يترك الصلاة بالكلية، خلاص هذه الصلاة صارت عذاباً، الصلاة التي كان يقول –صلى الله عليه وسلم- في شأنها: "أرحنا بها يا بلال"، وتنهى عن الفحشاء والمنكر تحولت إلى عذاب -نسأل الله العافية-، {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ} هذا تنبيه إلى هذا الجانب، بعض الناس قد يتصور عدوا يدعوه إلى الكفر مباشرة، فهو لا يدعو إلى الكفر مباشرة وإنما يبدأ معه بوسوسة بالطهارة إن كان له ميل للعبادة، ويبدأ معه في الأمور المباحة إذا كان له نوع من الميل إلى المباحات والتوسع فيها ثم إلى المشتبه، ثم إلى اللمم والصغائر ثم إلى الكبائر ثم إلى الكفر، ما يأتي مباشرة، حينما نقول: {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} ترى المخاوف التي يلقيها قلبك هي من الشيطان {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [سورة آل عمران:١٧٥] يعني يخوفكم من أوليائه، يضخم أولياءه ويجعل لهم من المهابة فيجبن الإنسان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من الناس بما يتضخم بقلبه من حال هؤلاء، التضخيم هو من الشيطان، وهو من أعظم العوائق التي تمنع الإنسان عن تحصيل المعالي، فما يوجد في قلبه من مخاوف، يخوفه من كذا ويخوفه من كذا، يتوقع كذا يحسب حسابات لكذا إلى آخره كل هذا وهم كبير من الشيطان، هذه تحتاج إلى التنبيه عنها وهي تقرقر في نفسي دائماً كلما أسمع حال هؤلاء التي يُرثى لها، وهذا من الشيطان، ولكن لا يتنبهون إلى أن هذا من الشيطان، {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} هذا يقول عندي رهاب اجتماعي، عندي خوف ما أستعجل مع الناس أشعر بارتباك هذا من الشيطان، ما أستطيع أن ألقي كلمة، ما أستطيع أن أصلي بالناس، أصلي وركبي تتحرك، هذا من الشيطان ليثنيك ليقعدك فلا تستجب له، والله المستعان.

وبعض أهل العلم يقول: إنه لا يقيد ليقال هذا، والذي يظهر أنه لا إشكال فيه، ودليله {إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ} [سورة الشورى:٢٩] وكل شيء بمشيئته، فالإطلاق أن يقال مثلاً: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} هذا هو الغالب، ولو قال: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} هذا استعمال لا إشكال فيه وهو استعمال صحيح، لكن قدرته على كل شيء على ما شاء وما لم يشأ تعلقت به القدرة يعني لو شاءه كان قادراً عليه، لم يخلق الله -عز وجل- إنساناً مثلاً له قلبان {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [سورة الأحزاب:٤] لكن لو شاء فهو قدير، فيفهم المعنى أن القدرة لا تتعلق بما تعلقت به المشيئة فقط، لا تنحصر في هذا، وإنما قدرته -تبارك وتعالى- مطلقة: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فهذه الممكنات القدرة متعلقة بها قادر أن يخلق أكثر مما خلق، أن يخلق مخلوقاً آخر غير الإنسان والنبات والحيوان والجماد، خلق الناس عدد الناس قادر أن يخلق الضعف مثلاً أليس كذلك؟ {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فلا يختص ذلك بما تعلق بالمشيئة، هل هي صحيحة؟ بعض أهل العلم يعترض على مثل هذه العبارة وتجدون مثل هذا في بعض شروح كتب التوحيد، والواقع أنه لا شيء فيها إذا فهم المراد،

يختلف ولكن من جهة المعنى هو على جمعهم وإن لم يشأ قدير أو غير قدير؟ هو قدير، فهذا التقييد صار لا إشكال فيه فهنا من هذا الباب وإن كان هذا موضوع، وهذا موضوع لكن هذا فرد من الأفراد التي تعلقت بها القدرة مثلاً، مثال هذا هو الغالب {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وإذا قال: على ما يشاء قدير لا يقال: هذا غلط، والله أعلم.

{الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [سورة فاطر:٧-٨].

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصَوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: لما كان منهم من ذنب، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} على ما عملوه من خير.

هذا الذي يذكره ابن كثير هنا هو الذي يسمى بعلم المناسبة فهو وإن لم يصرح ويقول المناسبة بين الآية والتي قبلها أو المقطع والذي قبله لكنه يذكر هذا كثيراً، حتى بعض من ينكر هذا ويقول: إن الاشتغال به اشتغال عن المقصود مثل الشوكاني يكثر من ذكر المناسبة وإن لم يصرح أنها مناسبة فهذا وجه الارتباط بين الآية والتي قبلها هو نوع من المناسبة يقول: لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن {الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}.

ثم قال: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالا سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه.

لاحظ هنا {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} فالذي زين له سوء العمل هو الشيطان كما وعد بذلك، وهذا التزيين يكون تارة بالوعد بالمغفرة وسعة رحمة الله -عز وجل-، وتارة يكون بتزيين الباطل فيكون حسناً في نظر صاحبه وهذا يكون حال انعدام البصيرة فتنعكس المقاييس والموازين في نفس هذا الإنسان وفي نظره فيرى الباطل حقاً ويرى الحق باطلاً وبهذا تفترق الخليقة، وكما ترون في هذا العالم من هذا التباين العجيب فهذا يبذل ماله وجهده وكل ما يستطيع في نشر الباطل والدعوة إليه ومحاربة الفضيلة، وذاك يبذل كل مستطاع في سبيل الدعوة إلى الحق وتحكيم شرع الله -عز وجل- في الأرض، وأن يوحد وأن يعبد دونما سواه، {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} وهنا لاحظ هذا الاستفهام الذي هو مضمن معنى الإنكار {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} وابن كثير -رحمه الله- يقول: **ألك فيه حيلة؟** {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} ألك فيه حيلة؟ هذا تقدير حسن وهو مناسب للسياق، ويكون في الكلام محذوف يقدر بمثل هذا أو بغيره على قول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إن من هذه مبتدأ {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ}، والخبر محذوف، يقدره بعض الأئمة كابن جرير، والكسائي وأمثال هؤلاء يقولون: "ذهبت نفسك عليه حسرات؟" ويقولون: القرينة الدالة على هذا المقدر هي النهي عن ذلك بقوله: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} ذهبت نفسك عليه حسرات، يعني ينكر أن يكون كذلك، يعني هذا الذي حصل له طُمست بصيرته فرأى عمله حسناً تذهب نفسك عليه حسرات؟ دعه، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} [سورة الكهف:٦] مُهلك

نفسك {إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} فنهاه عن الحزن وأن يهلك نفسه {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، وبعضهم يقول كالزجاج: التقدير {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} كمن هداه الله؟، وبعضهم يقول: كمن لم يزين له؟ وهذه ليست بعيدة -هذه التقديرات-، لكن يفهم أن هناك مقدراً يعلم من السياق، {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} كمن لم يكن كذلك فمن يهديه مثلاً؟ أو كمن هداه الله -عز وجل-؟ أو ذهبت نفسك عليه حسرات؟ هذه كلها مقاربة، والله تعالى أعلم.

{فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} أي: **بقدره كان ذلك،** {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} أي: **لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يُضل من يُضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ولهذا قال:** {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}.

قوله تعالى هنا: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، قال: **أي لا تأسف على ذلك** وهذا تفسير بالمقارب، تفسير بالمعنى، وأصل الحسرة شدة الاغتمام والحزن على ما فات، الحزن الذي ينقطع له القلب؛ لأن أصل هذه المادة يدل على الانقطاع، ومنه قول الشاعر:

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا *** فَبِيضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

في وصف الإبل المنقطعة في مرات واسعة، فالإبل كما هو معروف يحصل لها انقطاع مع طول المسير يقال: حَرَنتْ، كما قالوا: خلأت القصواء؟ قال: ما خلأت القصواء وما كان لها بخُلُق[٤]، خلأت يعني انقطعت من طول المسير كلّت وتعبت وحرنت، هذا معروف في حال الإبل من طول التعب والمسير، حرنت لا تقوم ولو أحرقت بالنار، لو أحرقت بالنار ما تقوم حتى تشاء فإما أن تترك فتموت في مكانها، وإما أن تنحر وإما أن يجلس عندها صاحبها يعلفها، يجمع لها العلف ويأتيها بالماء يتلطف بها ويزيل عنها القراد، ويمسح عليها حتى يطيب خاطرها، بعد أسبوعين أقل أو أكثر الله أعلم متى ما شاءت قامت ولو أحرقت بالنار ما تقوم بالخشب من تحتها والرجال يحملونها وتقع فيتركونها أو ينحرونها

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا *** فَبِيضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

يابسة متقرمشة، {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٤] فهذه الحسرة شدة الاغتمام والحزن على ما فات ينقطع لها القلب وهذا أمر لاشك أنه يشغل القلب ويضعفه ويضعف قواه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن تتابع الحزن على القلب يثقله ويقعده ويشغله عن ما هو بصدده، فهو غير محمود إلا إن كان من جراء الآخرة، {الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤] على أحد المعاني فيكون محمولاً على هذا المعنى، أما ما عدا ذلك فإن الأحزان لا خير فيها، أما الرجوع إلى شريط الأحزان في الماضي واجترار ذلك دائماً، وتذكر المواقف الصعبة والأمور المؤلمة فإن هذا ليس من شأن العقلاء؛ لأن ذلك ينقبض له القلب وتضعف قواه فلا ينتفع بشيء، إنما هو الانطلاق وأن ينظر الإنسان إلى ما يستقبل ولا يلتفت إلى ما مضى إلا على سبيل المحاسبة فقط.

{وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ *

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في صلح العدو، برقم (٢٧٦٥).

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّه الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة فاطر:٩-١١].

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها -كما في أول سورة الحج- ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [سورة الحج:٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعًا فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ ولهذا جاء في الصحيح: ((كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلق ومنه يُركّب))[٥]؛ ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ النُّشُورُ}.

وفي حديث أبي رَزِين: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: ((يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك مُمحِلا ثم مررت به يهتز خَضِرًا؟))، قلت: بلى. قال: ((فكذلك يحيي الله الموتى))[٦].

في الحديث: ((الحبة في حميل السيل))[٧]، النبتة الخضراء الصغيرة التي تنبت في مجرى فيما يحمله السيل فتنبت نبتة قرأها باعتبار الحديث، فتلك نبتة خضراء صغيرة تكون منثنية صفراء في البداية ثم بعد ذلك تبدأ في حميل السيل، ما يحمله السيل من أشياء كما هو معروف فتنبت فيها حبة يقال لها حِبة، وأما الحب فواحدها حبة، فهذه إذا بذرت في الأرض بذوراً يقال لها: حبة، كما تنبت الحبة في الأرض فلا حاجة إلى تخصيصها -والله تعالى أعلم- هنا بكلام ابن كثير -رحمه الله-، الحبة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ} كما سبق في قوله: {أَرْسَلَ الرِّيَاحَ} في قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ}، وهذا في مقام الاحتجاج على البعث والنشور هذا أحد الأنواع التي وردت في القرآن في مواضع على الاستدلال على البعث، الاحتجاج والاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها، خروج النبات بنزول المطر، والأنواع الأخرى معروفة في سورة البقرة مثلاً في طيور إبراهيم {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، برقم (٢٩٥٥).

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦١٩٢)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة حال وَكِيعِ بْنِ حُدُسٍ"، وبرقم (١٦١٩٤)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لانقطاعه"، والحاكم في المستدرك، برقم (٨٦٨٢)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

٧ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٢).

جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} [سورة البقرة:٢٦٠] وكذلك أيضاً في قتيل بني إسرائيل في سورة البقرة {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى} [سورة البقرة:٧٣]، وكذلك الذي مر على قرية في سورة البقرة {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} [سورة البقرة:٢٥٩] إلى غير ذلك، فأخبار الإحياء كذلك في الصعقة التي حصلت لبني إسرائيل في نفس سورة البقرة {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [سورة البقرة:٥٥-٥٦] على أحد القولين أن هذه الصعقة صعقة موت وهذا هو الراجح لقوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم} كل هذه أدلة في سورة البقرة فقط على إحياء الموتى إلى غير هذا من الأدلة مثل إخراج النار من الشجر الأخضر، وكذلك بالاحتجاج إلى خلق السماوات والأرض والأجرام العظام، وكذلك بالاحتجاج بالنشأة الأولى "كما بدأنا أول خلق نعيده" أنواع من الأدلة في القرآن على البعث والنشور؛ لأن المشركين كانوا يكذبون بذلك فهذا أحد هذه الأنواع، {فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فهي عملية إحياء تتكرر ونشاهدها لكن لا نعتبر بذلك.

وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} أي: مَنْ كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [سورة النساء:١٣٩].

وقال تعالى: {وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [سورة يونس:٦٥]، وقال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ} [سورة المنافقون:٨].

قال مجاهد: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ} بعبادة الأوثان، {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}.

وقال قتادة: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} أي: فليتعزز بطاعة الله -عز وجل.

هذه الأقوال متقاربة، وكذا ما لم يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} إلا أن بعضها لا يخلو من بعد، كقول بعضهم: إن المراد بذلك {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ} أي علم العزة، يعني يريد أن يعلم لمن تكون العزة، وهذا بعيد، وإنما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده** من كان يريد العزة فهذا بمعنى قول من قال: من كان يطلبها مثلاً بعبادة الأوثان وهكذا حينما نقول: نطلب ذلك باتخاذ الكافرين أولياء كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ} [سورة النساء:١٣٩]، فإن العزة لا تطلب من فاقدها، فإن هؤلاء أذلاء كما وصفهم الله -عز وجل- لاسيما أهل الكتاب في قوله -تبارك وتعالى-: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} [سورة البقرة:٦١]، فهذا في أهل الكتاب، ولا تختص باليهود، سياق الكلام في بني إسرائيل، وبنو إسرائيل يشمل اليهود والنصارى، فكل من ترك عبادة الله -عز وجل- فهو ذليل، وإن كان أكثر كلام أهل العلم إنما يدور على اليهود ولكن الكفار كذلك ليسوا أعزاء فالعزة لله جميعاً، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}، فكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **من كان يحب أن يكون عزيزاً** يعني {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ} يعني يريد أن يكون عزيزاً فالطريق إليها بطاعة الله -تبارك وتعالى- وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالتوحيد وتحقيق العبودية، فكلما كان محققاً للعبودية أكثر كانت عزته أكثر لرسوله وللمؤمنين،

ومعلوم أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر ما يستقر في قلب العبد من التقوى والخوف من الله -عز وجل- والذل له والعبادة تكون عزته بقدر ذلك، وإن لم يكن له سلطان كما هو معروف في أخبار أهل العلم وتراجمهم، منهم من كان السلطان إذا دخل عليه هذا العالم يقول: كأنه أسد قد دخل عليّ، ويكون في حال الخوف والخضوع لهذا العالم، فالمقصود أن الذل يكون بمعصيته ومخالفة أمره كما جاء عن الحسن: وإن طقطقت بهم البراذين إلى آخره -هملجت بهم البراذين- لا يزال ذل المعصية على وجوههم، فهي قضية تزيد وتتفاوت حسب هذا الحال، حينما يتفاوت حال الإنسان وذلك بضعف تقواه بربه -جل جلاله- فهذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهذا الذي اختاره ابن القيم وما ذكر هنا عن قتادة -رحمه الله- {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ} أي: **فليتعزز بطاعة الله -عز وجل**-، وهكذا ما قاله مجاهد: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ} **بعبادة الأوثان**، يعني أنه قد أخطأ الطريق {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} وليست لهذه الأوثان فلا تطلبها من فاقدها، وإنما توجه إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- تحصل لك العزة، بهذا لا إشكال، هذا في اليهود بسبب اتخاذهم العجل لكن هذا لا يختص باليهود، يقصد الذل فإن الذل يكون لكل من خالف أمره -تبارك وتعالى- كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وجعل الذل والصغار على من خالف أمري))[8]، فهذا يشمل اليهود والنصارى فهذه قوى الكفر اليوم وإن كانت ممكّنة في الظاهر فالواقع أنهم في غاية الذل؛ لأن هؤلاء قلوبهم مظلمة، ولا يمكن أن يكون هؤلاء أعزاء ولا يمكن أن يحصل منهم العز ولقد رأيتم حال أولائك الذين يتعززون بهم فأرانا الله -عز وجل- بهم آية كبرى في هذا العصر ما كنا نظن أن نعيش حتى نشاهدها، هذا في قفص، وذاك يجرجر ويضرب ويلطم ثم بعد ذلك يموت شر ميتة، ميتة السوء والمنقلب ومنظر السوء وحال السوء، -نسأل الله العافية-، اجتمعت فيه الأربع هذه كلها، صار عدوه يشفق عليه، والثالث فر حتى صار يبحث عن مكان يأوي إليه، نسأل الله العافية، هؤلاء الذين تعززوا بالأذلاء وطلبوا العزة من غير الله -عز وجل- فصاروا في حال من الذل، واعتبروا بباقي أحوالهم ألا ترون أن هؤلاء يبقون على ما هم عليه من الباطل ومحادة الله -عز وجل- ومحادة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يتوبون، فهؤلاء كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ} [سورة الأعراف:٢٠١-٢٠٢] يعني إخوان الشياطين {يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٢] ما يحصل له توبة إلى آخر ما فسر، كحال هؤلاء الذين يموتون على الضلال ومحاربة الله، ومحاربة رسوله، أما الأحياء فالله أعلم بحالهم وما يصيرون إليه لكن من مات على محاربة الله ومعاندته -نسأل الله العافية- فهؤلاء كما قال الله -تبارك وتعالى-، وأهل الإيمان حينما يرون هذا يتعجبون ألّا يتوب هذا! ألّا يستدرك! إلا ما علموا أن الشياطين تمدهم وتزين لهم وتغويهم ثم لا يقصرون، يعني لا يحصل منه رجوع ولا يرعوي ولا يتوب إلى آخر نفس -نسأل الله العافية-، وهو مقيم على شر حال إلا من لطف الله -عز وجل- به ورحمه، والله المستعان.

---

٨ - رواه أحمد في المسند، برقم (٥١١٤)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٨٣١).

وقوله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} يعني: الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف.

الكلم الطيب هنا يشمل ما ذكر هنا، والتلاوة والدعاء، معظم الذكر كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، ويدخل في الذكر أيضاً قراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله -عز وجل-، فكل ما يتصل باللسان من هذا فهو داخل في قوله: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}** فهو من جملة الكلم الطيب، كل معروف من الكلام كل طيب منه فهو داخل في ذلك، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الكلمة الطيبة صدقة))[9]، فأعلى الكلم الطيب لا إله إلا الله، ويدخل في ضمنه أيضاً قراءة القرآن، والأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله -هو ابن مسعود- إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: "سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله"، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمْعٍ من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن -عز وجل-، ثم قرأ عبد الله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[10].

هذا روي موقوفاً ومرفوعاً، ولا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأما الموقوف فبعض أهل العلم ضعفه، وبعضهم حسنه، والمسألة اجتهادية.

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الذين يذكرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يُذَكِّرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم ألّا يزال له عند الله شيء يذكر به؟))[11]، وهكذا رواه ابن ماجه.

وقوله: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله، -عز وجل-، والعمل الصالح: أداء الفرائض، ومن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عملهُ ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله -عز وجل-، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رُد كلامه على عمله، فكان أولى به.

خلاصة هذا الذي قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- أن القول لا ينفع بلا عمل، وأن الكلم الطيب وحده إن لم يكن معه عمل صالح يصدقه فإن ذلك الكلم لا ينفع صاحبه، هذا هو المراد أنه لابد من العمل الصالح، فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فلا ينفع كلمٌ بلا عمل، فهذا معنى هذا القول، والآية تحتمل هذا المعنى

---

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨١٨٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٥٢٨).

١٠ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩١٤٤)، والطبري في تفسيره (٢٠ / ٤٤٤).

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٣٦٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير موسى بن مسلم الطحان ، فمن رجال أصحاب السنن عدا الترمذي، وهو ثقة"، والحاكم في المستدرك، برقم (١٨٤١)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

-وهذا مشهور- وتحتمل غيره، ويمكن أن تحمل على هذه المعاني، وذلك أن الضمائر فيها محتملة له {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}، فالضمير يرجع إلى العمل الصالح أو يرجع إلى الكلم الطيب، أنه الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، أو أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو العمل الصالح يرفع الكلم الطيب هذا بناء على قاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وخلاصة أقوال أهل العلم: أن بعضهم يقول: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب كما سبق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهذا قول أكثر السلف -رضي الله تعالى عنهم- تلاميذ ابن عباس سعيد بن جبير، ومجاهد وقتادة والضحاك، وقال به آخرون كالحسن البصري وأبي العالية وأمثال هؤلاء، وهو اختيار كبير المفسرين أبي جعفر بن جرير -رحمه الله- أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فكلم بلا عمل لا يفيد، لابد من عمل يرفع هذا الكلم، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الكلم الطيب فهو الفاعل، ليرفعه الكلم الطيب، والمفعول هو العمل الصالح وذلك عند القائل به أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان فيكون الكلم الطيب هو شهادة أن لا إله إلا الله، فبذلك يقبل العمل ويرتفع إذا وجد الإيمان، ففسر الكلم الطيب بالإيمان شهادة أن لا إله إلا الله، قال: هذا الذي يرفع العمل، فالعمل بلا إيمان لا ينفع، وبعضهم يقول: ذلك يرجع إلى الله، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الله، وبعضهم يقول: إن هذا الرفع من قبل الله -عز وجل- أنه يرفع الكلم الطيب، يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب؛ لأن الفعل يصدق القول يعني الرفع هنا ليس معناه الصعود إلى الله -تبارك وتعالى- وإنما بمعنى المفاضلة، تفضيل {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} على الكلم، يرفعه الله على الكلم الطيب، وهذا القول فيه بُعد -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول -وهو أبعد مما قبله-: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} يعني يرفع صاحبه، فيكون الضمير في يرفع راجعا إلى غير مذكور، لكن غير المذكور هذا ينبغي أن يكون مفهوماً من السياق، وهنا السياق لا يدل عليه، يعني من قال: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فيكون عزيزاً، يرفع صاحبه، يرتفع بالعمل الصالح، أرشد إلى طريق العزة بالأعمال الصالحة، وهذا بعيد -والله تعالى أعلم-، وبعضهم فسر بعض العمل الصالح بمعنى القبول، ولكن ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار))[12]، وكذلك ما جاء بالأحاديث التي فيها رفع في الأعمال، الرفع على ظاهره، فيبقى عندنا قولان هما الأشهر في تفسير الآية: الأول الذي عليه الأكثر: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، هذا القول الأول الذي عليه عامة الجمهور، والقول الثاني: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، فهذان قولان إذا أردنا الترجيح نرجح الأول باعتبار أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وأن الكلم الطيب لا يختص بلا إله إلا الله، وإنما كل كلم طيب، ولعله أحسن من هذا -والله أعلم- أن تكون الآية دالة على المعنيين، وذلك في الضمائر وفي سائر الاحتمالات، الضمير مثل: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [سورة البقرة:٢٥٥]، قال:

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٢).

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} من علم ماذا؟ يحتمل أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، ويحتمل أن يكون {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} من علم الله، فهما متلازمان، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم هو علم الله -عز وجل- فتحمل على هذا وهذا، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وعلى هذه الجادة يمكن أن يقال هنا أيضاً {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}: إن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، الصعود بمعنى الارتفاع، ولكن الرفع يدل على أن ذلك يكون بغيره، أن الله يرفعه أو أن العمل الصالح يرفعه، والحديث الذي ذكره -حديث النعمان- قال: ((الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل يُذكِّرن بصاحبهن...)) إلى آخره هذا رفع للكلم الطيب، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} أثر ابن مسعود -رضي الله عنه- أن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تبارك الله أخذهن ملك إلى آخره فهذا صعود للكلم الطيب، {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} يرفع الكلم الطيب، والكلم الطيب يرفع العمل الصالح، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فاطر من الآية (١٢) إلى الآية (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

يقول المؤلف -رحمه الله-: **قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ}** [فاطر: ١٠]: **قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بغضاء إلى -عز وجل-، يراءون بأعمالهم، {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [النساء: ١٤٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال: {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر: ١٠] أي: **يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهى، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.**

فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبيٍّ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

قوله - تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ}** المكر بمعنى الخديعة والاحتيال، ويحتمل أن يكون نصبُ السيئات على أنه صفة مصدر محذوف، أي: يمكرون المكرات السيئات، ويمكرون مكرا سيئا، يعني: يكون مكرهم السيئات، وعلى كل حال هذا فيه إشكال -أعني الأخير أي يمكر السيئة- لأن كلمة مَكَرَ هذا الفعل لازم غير متعدٍّ فلا يكون ما بعده مفعولا له، إلا إذا قيل: إن يمكرون مضمن فعلا آخر متعديا، مثل يكسبون السيئات، وإلا فيكون فيه تقدير: يمكرون المكرات السيئات.

وقد نقل عن بعض السلف أنهم المراءون بأعمالهم، يعني: وجه المكر هنا أنهم يُظهرون شيئا غير ما يبطنون، وقال عبد الرحمن بن زيد: هم المشركون.

وقوله: **{وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}** [فاطر: ١٠] هل مثل هذا السياق يمكن أن يكون لمن وقع في شيء من الرياء؟ وهل هؤلاء الذين وقعوا في شيء من الرياء لغلبة النفس من غير ترصد وقصد وإنما غلبته نفسه لما في النفس من الميل والتزين بالعمل عند الآخرين هل يكون هذا موصوفاً بأنه ممن يمكرون السيئات ثم يقال في حكمه **{لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}**؟

الذي يظهر -والله أعلم- حينما يقال: أهل الرياء أن ذلك أعلق بأهل النفاق هم الذين يمكرون السيئات ومع سبق الإصرار والترصد كما يقال، يظهرون مالا يبطنون وهم يكيدون للإسلام وأهله، فهؤلاء أحرى وأليق بهذه الأوصاف، من كانت أعماله رياء لا من وقع في شيء من الرياء -والله تعالى أعلم-، ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** [هود: (١٥-١٦)]

قال بعض السلف كمعاوية -رضي الله عنه-: إنهم أهل الرياء، وقد مضى الكلام على هذا، وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الطويل لما بكى ونشج وذكر حديث أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فمثل هذا في آية هود هذه يحمل على أن من كانت كل أعماله رياء، وأن الرياء قد دخل في أصل الإيمان، وإلا فإن آية هود تصدق على الكفار أو من كان يريد الحياة الدنيا بكل أعماله، وهذا لا يتصور من مؤمن، يعني: جميع أعماله الصالحة يريد بها عرضاً من الدنيا، فالدنيا هي غايته، وأما من وجد في قلبه شيء من طلب الدنيا ومحبتها والميل إليها وما إلى ذلك مثل هذا لا تنطبق عليه آية هود، والله تعالى أعلم، وهنا ذكر مكره ووعيداً على هذا المكر وعاقبة لهذا المكر فلا يحمل هذا على مجرد يسير الرياء، ونحو ذلك، إنما من كانت أعماله كلها رياء فمثل هذا هو المنافق، كما قال الله -عز وجل- {يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢] فالرياء المذكور هنا وفي آية هود يحمل على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

وكذلك أهل الإشراك فظاهر الآية -والله تعالى أعلم- "والذين يمكرون السيئات" أنها تصدق على الكفار على المحاربين للإسلام وأهله، على من يكيدون له، فهؤلاء هم الذين يكيدون السيئات، أما من واقع شيئاً يسيراً أو نحو ذلك فإنه لا يكون بهذه المثابة -والله تعالى أعلم-، ويدخل فيها أهل الرياء بالاعتبار الذي ذكرت فتكون عامة كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر: (١٠)] كما قال الله -عز وجل-: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠]، {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [النمل: ٥٠-٥١] فهذه في الكفار.

والمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، وينكشف عما قريب، هذا المرائي الذي ينكشف أمره هو من كان ذلك وصفاً لازماً له، يعني: هو الغالب عليه فيعرفه الناس بهذا، أن الإنسان مراءٍ بنفقته وعمله في عباداته، لكن التخلص من الرياء جملة وتفصيلاً أمر في غاية الصعوبة يحتاج إلى مجاهدة وملاحظة ومراقبة للخواطر؛ لأن ذلك يطرأ على النفس من غير إرادة ولا تطلب، فلا يكون الذي بهذا الوصف ممن قال الله -تبارك وتعالى- فيهم: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ}، فيحتاج العبد إلى مدافعة الخواطر، ولهذا فإن مثل هذا الرياء إذا وقع في النفس أثناء العمل فدفعه المكلف فإن عبادته صحيحة ولا يضره ذلك؛ لأن الخواطر التي تقع من غير طلب ولا إرادة لا يكلف الإنسان من جهتها بأن لا ترِد أصلاً على قلبه، وإنما هو مطالب بمدافعتها، أما ورودها فإن هذا أمر إذا قيل: لا يرِد أصلاً وإن هذا هو الواجب فهذا من قبيل تكليف مالا يطاق؛ لأن الخواطر تقع في القلب من غير إرادة، واضح الفرق؟، الخاطر يقع في القلب يلقيه الشيطان من غير إرادة العبد لكن هو بحاجة إلى دفعه، ولهذا تكلموا في العبادة إذا دخلها الرياء من أولها فإنها تبطل، وإذا طرأ عليها في أثنائها فإنْ دفعَه صحت، فإن استرسل معه بطلت.

على كل حال ما ذكره ابن كثير هو الأقرب، والله أعلم .

مع أنه يوجد من قال بأن ذلك مخصوص لفئة معينة، كقول من قال: إن ذلك في المشركين حيث مكروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في دار الندوة، لكن لا حاجة إلي التخصيص بهذا، هم من جملة الذين يمكرون السيئات، والله تعالى أعلم.

بل إن بعضهم يقول: إن ذلك في أصحاب الذنوب والمعاصي والسيئات، يعني: يتشاغلون بها ويعملونها ويكتسبونها، فذَكرَ أهل العمل الصالح والكلم الطيب، ثم ذكر حال أهل السيئة، فلا يكون ذلك مختصا بالكفار والمنافقين وإن كانوا أولى من يدخل بهذا.

وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} [فاطر: ١١] أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١] أي: ذكرا وأنثى، لطفا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم، لتسكنوا إليها.

وقوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١] أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٨-٩].

وقوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [فاطر: ١١] أي: ما يُعطَى بعض النُّطَف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول، {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس...

وروي من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١]، يقول: ليس أحد قضيت له طول عمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

حاصل هذا القول هو أن قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} وما يعمر من معمر، قضى الله أن يعمر ولا ينقص من عمر معمر آخر إلا في كتاب، يعني: في اللوح المحفوظ، وأن التعمير أو القصر -قصر العمر- أن ذلك ليس بنقص ولا زيادة عما في اللوح المحفوظ، وإنما النقص والزيادة بالنظر إلى الطرف الآخر، يعني: هذا لما طال عمره، والآخر مات في أول شبابه مثلاً، هذا مات وهو ابن عشرين سنة، وهذا مات وهو ابن مائة، هذا عمر وهذا بالنظر إليه، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، ولا ينقص من عمر آخر، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ابتداءً أول ما ذكر هذا القول، هذا معنى كلام ابن كثير، ولا ينقص من عمره، والضمير عائد على الجنس لا على العين، ومعنى على الجنس لا على العين أنه لا يعود على هذا المعمر أنه ينقص من عمره وإنما آخر {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} يعود على الجنس لا على الشخص المعين الذي عمر، من الناس من يطول عمره، ومن الناس من يقصر عمره، يكون عمره قصيراً، وهذا هو المقصود -والله تعالى أعلم- هذا هو المشهور، وفي الآية أقوال كثيرة وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

وقال بعضهم: بل معناه: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ} أي: ما يكتب من الأجل {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ}، وهو ذهابه قليلا قليلا الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهرا بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك، وإليه ذهب السدي، وعطاء الخرساني، واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال.

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من سره أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليصل رحمه))[1].

وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وقوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

هذا القول غير القول الأول تماما، أن ذلك يرجع إلى شخص واحد {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ} هذا باعتبار ما يصير إليه ما كتب لهم من العمر المديد {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} التناقص الذي يكون بعد كر الليالي والأيام فينقص العمر، نقصت ساعة، نقص أسبوع، نقص شهر وما إلى ذلك انظروا هذه الساعة الآن لو أنها برمجت على طريقة بالتناقص، يعني قدرنا مثلاً مائة دقيقة، ثم جعلناها تتناقص حتى تصل إلى الصفر هذا ممكن وموجود في بعض الساعات، فهذا التناقص مثل عمر الإنسان، هذا قُدر له أن يعيش ستين سنة، ثم بعد ذلك كأن الساعة ركبت بهذا فيبدأ التناقص، ويفرح الإنسان بمرور الأيام والليالي، وينتظر الأجازات وما إلى ذلك، والواقع أن العمر يتلاشى حتى يضمحل، ثم بعد ذلك ينقضي الأجل، فنحن قبل الصلاة أعمارنا كانت أطول من الآن، وبعد هذا الدرس ستكون أعمارنا أقصر، وفي هذا المساء إذا قدر لنا أن نبقى ستكون أعمارنا أقصر، وفي الغد أقصر من اليوم، واليوم أقصر من أمس، وهكذا، فيكون ذلك يرجع إلى شخص واحد، وعلى كل حال المقصود بالكتاب هو اللوح المحفوظ، واختار ابن جرير -رحمه الله- القول الأول أن ذلك يرجع إلى معمر آخر، وهو الذي اختاره ابن كثير – رحمه الله .

ولما كانت القضية تتعلق بالعمر "وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره" عمر إنسان ما هو نفس المعمر، السياق لابد أن يكون مراعى، يعني: ما نمشي على قاعدة دائماً الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فالسياق أحياناً يأبى هذا {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} فهل نقول: ينقص من عمر هذا المعمر باعتبار تناقص الأيام والليالي؟، أو يقال: ينقص من عمر معمر شخص آخر؟ هذا أقرب للسياق -والله تعالى أعلم ، ودلالة السياق أولى من مراعاة مرجع الضمير وكونه لأقرب مذكور، فإن هذا لا يساعد عليه السياق أحياناً، وأحياناً توجد قرينة أخرى تأباه، وأحياناً الخارج يأبى ذلك، فما نبقى مع هذه القواعد بصورة آلية جافة، لابد من مراعاة السياق والسباق واللحاق وما أشبه ذلك.

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: ((من سره أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليصل رحمه))، وقوله – عليه الصلاة والسلام -: ((لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البر))[2]، فمثل هذه الأحاديث

---

[1] - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥/٨)، رقم (٥٩٨٥).

[2] - أخرجه الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٤/٤٤٨)، رقم (٢١٣٩).

دلت على أن الدعاء له أثر، وأن صلة الرحم لها أثر، فيكون عمر هذا الإنسان الذي قد قدره الله -عز وجل- له في اللوح المحفوظ أنه يعيش سبعين سنة، يكون في صحف الملائكة -التي عند الملائكة- أنه يعيش ستين سنة وفي علم الله أنه سيصل رحمه، وأن ذلك يكون زيادة له فيصل إلى السبعين، فالذي في اللوح المحفوظ أنه يموت وهو ابن سبعين سنة، فالزيادة صارت عشر سنوات بما في صحف الملائكة، وبعضهم حمله على هذا أنه يرجع إلى شخص واحد، ما يزاد في عمره إلا بسبب صلة الرحم والدعاء.

فالدعاء سواء كان دعا بدفع بلاء، أو دعا بدعوة فدُفع عنه من الشر مثل ذلك كما في الحديث، واضح؟، الذي في اللوح المحفوظ لا يتغير، فهذا قول ثالث أنه يرجع إلى شخص واحد بهذا الاعتبار: ما يزاد وينقص في صحف الملائكة.

وقد قال الله -سبحانه-: {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤]، وقال -سبحانه-: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]، باعتبار أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ وأن المحو والإثبات يكون بالصحف التي تكون بأيدي الملائكة، والله تعالى أعلم.

على كل حال الأقرب من هذه الأقوال -والله أعلم- أن ذلك يرجع إلى الجنس كما قال الحافظ ابن كثير، وقبله ابن جرير -رحم الله الجميع-، مع أن الأقوال الأخرى التي ذكرت آنفاً ليست شاذة ولها وجه، ولكن هذا هو الأقرب، والله أعلم.

{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} **[فاطر: ١٢]**.

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: خلَقَ البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك.

قوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ} [فاطر: ١٢] هذا مثل ضربه الله -عز وجل- لحال المؤمن والكافر عند بعض أهل العلم، يعني: أنه من قبيل المثل، ولا شك أن هذا من دلائل قدرته {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ} العذب الفرات: شديد العذوبة، ابن جرير يقول: أعذب العذب يقال له فرات، هذه صفة للعذب، فالعذوبة نسبية تتفاوت، أعذبه يكون فراتاً.

{سَائِغٌ شَرَابُهُ} سائغ يعني: أنه يسهل انحداره في الحلق والجوف لعذوبته، لكن الذي يكون مراً أو يكون ملحاً أجاجاً فإنه لا يكاد يسوغه الإنسان، "يتجرعه ولا يكاد يسيغه" هذا في العذاب، -نسأل الله العافية-، فلا يسوغ لشاربه، و"سائغا للشاربين" أي يسهل شربه وانحداره، ولهذا يقولون: هذا يعلق بالحلق لا يكاد الإنسان يمضيه، هذا خلاف العذب الفرات، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [الفرقان: ٥٣].

{وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي مُر، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعَاقا مُرة، ولهذا قال: {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ}، أي: مر.

يقول: {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي: مُر وهو البحر الساكن، يعني: هذا الملح أيضا يتفاوت، فكما أن العذب يتفاوت، فهذا الملح يتفاوت بشدة ملوحته، وأشد ذلك ما كان شديد الملوحة مراً لا يستساغ، قال: البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، تسير فيه السفن الكبار، والسفن الكبار قد تسير في البحر العذب.

البحيرات الضخمة كالبحر تماماً إذا رأيتها، بحيرات لربما تشترك فيها خمس دول وهي كالبحر تماماً بأمواجها وتباعدها، لا ترى لها طرفاً، وتسير فيها السفن الكبار لكن الغالب أن الأنهار ليست كذلك، وهذه البحيرات لا تكون سارحة كالأنهار.

والبحار تتفاوت يعني المحيطات أقل ملوحة من الخلجان، وهذا هو الواقع، الآن لو تذهب إلى المحيطات تسبح فيها ما تحتاج أن تغمض عينك كأنك تسبح بماء عادي، هو ملح، لكن ليس بمستوى الذي عندنا في الخليج، إذا أصاب عينك تحتاج إلى شيء من المعاناة، إنما المحيط تسبح ويدخل في جوفك شيء منه وفي عينك وأنت تفتح عينك ولا تجد أي غضاضة في هذا، ولذلك تجد الأشجار تنبت بكثرة على شواطئ البحار، والبحر الميت أشد البحار ملوحة.

ثم قال: {وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} يعني: السمك، {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، كما قال تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٢٢-٢٣].

قوله: {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أنه يرى أن ذلك -يعني الحلية أو اللؤلؤ والمرجان- يخرج من البحرين العذب والملح، وهذا هو ظاهر القرآن، مع أن عامة المفسرين لا يقولون بهذا، ويقولون: إن حلية اللؤلؤ والمرجان إنما تستخرج من البحر الملح لا من العذب، ويوجهون الآيتين باعتبار أن العرب قد تعيد الضمير على مذكوريْن وهي تقصد أحدهما، ويحتجون على هذا بأشياء من كلام العرب، ويقولون: هذا أسلوب عربي معروف واضح، ولكن ظاهر الآيات يدل على خلاف هذا، فإذا دل الواقع على أن الحلية تستخرج من البحر العذب فإن ذلك يكون مرجحاً للقول بأن ذلك يرجع إليهما كما يدل عليه ظاهر القرآن، فهم باعتبار ما يكون مُدركاً عندهم أن الحلية لا تستخرج من البحر العذب، والشنقيطي -رحمه الله- في الأضواء احتج على إبطال ذلك القول المشهور للمفسرين بهذه الآية، والله تعالى أعلم.

والقول الأول قال به خلق لا يحصيهم إلا الله من المفسرين، وأهل معاني القرآن كالمبرد والنحاس، وهو اختيار ابن جرير أن ذلك يخرج من الملح فقط، وبعض أهل العلم يتوسط كالزجاج فقال: يخرج من اجتماع الملح والعذب، أظن هذا لا حاجة إليه.

وقوله: {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ} أي: تمخره وتشقه بحَيْزومها، وهو مقدمها المسنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

لاحظ حتى عود الضمير هنا "فيه" هذا يرجع إلى البحرين بظاهر السياق "فيه"، لكن إذا قيل هنا بعود الضمير إلى أقرب مذكور {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: (١٢)]، فبعضهم يقول: يرجع إلى الملح كما يقول النحاس باعتبار أنه آخر المذكورين، وباعتبار أيضاً أنه المشاهد عندهم بذلك الحين، يعني: أنهم ما ذهبوا وما شاهدوا بعض البحيرات الضخمة التي تسير فيها البواخر الكبيرة.

والفلك يكون بمعنى السفن الضخمة التي لا تسير إلا في البحار الكبيرة، وجؤجؤ الطير هو الصدر الخشب، المنقور في صدر السفينة والمنحوت بطريقة معينة بحيث إنه يقابل صدمات الماء فيتفرق عنه يمنة ويسرة، فتشقه، تشق الماء.

وقوله: {لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

على كل حال كما سبق أن هذا عند أكثر المفسرين مثل ضربه الله -عز وجل- للمؤمن والكافر، وللكفر والإيمان {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: (١٢)] هذا العذب وهذا الملح يختلف حالهما اختلافا كبيراً، هذا عند أكثر المفسرين أنه من قبيل المثل كما سيأتي في التمثيل بذلك أيضاً بالحي والميت، ولا شك أن هذه الآية هي من دلائل القدرة، ذكرها الله -عز وجل- ليدلل على قدرته، باعتبار أنه لم يقتصر على ذكر البحرين في الموازنة أو المفارقة بينهما، وإنما ذكر أمراً مشتركاً {وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: (١٢)]، هذا كله بيان لقدرته ومنته وفضله على خلقه، فلا يكون هذا مجرد مثل، والله أعلم.

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٣-١٤].

وهذا أيضا من قدرته التامة، وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه، والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفا وشتاء.

وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات شتى، وأن هذا هو الأشهر، والأقرب في معنى هذه الآية {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السماوات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم.

{كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى} أي: إلى يوم القيامة.

هذا كله في دلائل القدرة، والأجل المسمى هنا يوم القيامة، وبعضهم يقول: هي المدة التي يقطعان فيها الفَلك، الشمس تقطعه في سنة، والقمر يقطعه في شهر، وبعضهم يقول: الأجل المسمى هو جري الشمس في النهار، وجري القمر في الليل، والمشهور هو ما ذكره الحافظ ابن كثير {لِأَجَلٍ مُّسَمًّى} أي إلى يوم القيامة فعند ذلك تتغير حال هذه الأفلاك والنجوم.

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ} أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين {مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ}.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء وعطية العوفي، والحسن، وقتادة وغيرهم: القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السماوات والأرض شيئا، ولا بمقدار هذا القطمير.

هذا هو المشهور أن القطمير هو اللفافة، لكن بعضهم كالمبرد يقول: هو شق النواة، النواة ما ترون فيها خطا، فلقا؟ فهذا يقول المبرد: إنه هو القطمير، ولكن الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وبعضهم كقتادة يقول: هو القمع الذي يكون في رأس التمرة، وعلى كل حال الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، والقائل بهذا القول أكثر أهل العلم، وبعضهم يقول كالجوهري: هو النقرة التي تكون على ظهر النواة، ما يوجد على ظهر النواة مثل ثقب الإبرة.

فالقطمير هو اللفافة، والنقير هو الثقب الذي في ظهر النواة، والفتيل المشهور أنه مثل الخيط الذي في شق النواة، مثل الفتيلة.

ثم قال: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ} يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}، أي: يتبرءون منكم، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: (٥-٦)].

وقال: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم: (٨١-٨٢)].

وقوله: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال قتادة: يعني نفسه -تبارك وتعالى-، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

في قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} [فاطر: (١٤)] ابن كثير -رحمه الله- يقول: لو سمعوا فإنهم لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها، فهؤلاء أعجز من أن يحققوا لهم ذلك، يطلبون منه الشفاء، يطلبون منه التوفيق، يطلب منه المنزلة في الآخرة والنجاة، فهؤلاء لا يملكون شيئاً من هذا، وبعضهم يقول: لو جعلنا لهم سمعاً وأبصاراً فسمعوكم لكانوا أطوع لله -عز وجل- منكم، ولم يستجيبوا لكم بما تدعونهم إليه من الكفر، ولن يوافقوكم على هذا الذي تدعونهم، ولكن هذا فيه بُعد، وابن جرير -رحمه الله– يقول: {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} يعني: لو أُعطيت هذه الأصنام لما استجابت دعاء الداعين؛ لأنها غير ناطقة، يقول: ما كل سامع يستجيب وينطق، فالبهائم لها سمع ولكن إذا دعاها الداعي، واستغاث بها المستغيث، واستنصر بها أحد، هل يمكن أن ينتفع بشيء منها؟ الجواب لا، فهي ليست أهلاً بذلك أصلاً، على كل حال ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا

قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [فاطر: (١٥-١٨)].

يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ} أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه.

كقوله تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء} [محمد: (٣٨)]، وكقوله: {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن: (٦)]، وهنا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر(١٥)] الحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد في هذا المعنى، وحاصله أن فقر الخلق إلى ربهم -تبارك وتعالى- هو فقر ذاتي، وأن غنى الرب -تبارك وتعالى- هو غنى ذاتي، ثم رد على الفلاسفة والمتكلمين وما يقوله القائلون من أسباب وعلل الفقر، فالخلق يفتقرون إليه سبحانه في إيجادهم.

وقوله: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [فاطر: (١٦)] أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: (١٧)].

الله -تبارك وتعالى- هو الغني، وهو محمود في غناه، والإنسان لا يكون محموداً في غناه، قد يكون مذموماً بسبب سوء تصرفه في المال، أو بخله، أو ما إلى ذلك، {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: (٦-٧)].

وقوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: يوم القيامة.

هذه الآية لا تنافي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت: (١٣)]، وقوله: {لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [النحل: (٢٥)] وما شابهها من الآيات، فإن ذلك فيما يكسبه الإنسان، ومما يتسبب عنه من ضلالة غيره، فتكون أعماله من جملة كسبه، وإلا فإن الإنسان لا يحاسب عن عمل غيره {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}.

{وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا} [فاطر: (١٨)] أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: (١٨)] أي: ولو كان قريبا إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله.

{وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ} أي: نفس مثقلة بالأوزار.

ثم قال: {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [فاطر: (١٨)] أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به.

{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ} يعني: أنهم إذا غابوا عن الأبصار فهم ملازمون لخشيته، يعني: لا يخافونه أو يظهرون خوفه أمام الآخرين، فإذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، وهذا أحد المعنيين في قوله سبحانه: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: (٣)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فاطر من الآية (١٩) إلى الآية (٣٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأحْيَاءُ وَلا الأمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [سورة فاطر:١٩-٢٦].

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [سورة الأنعام:١٢٢]، **وقال تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأعْمَى وَالأصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا}** [سورة هود:٢٤] **فالمؤمن سميع بصير في نور يمشي، على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي، لا خروج له منها، بل هو يتيه في غَيِّه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ}** [سورة الواقعة:٤٣-٤٤].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ}**، كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ}** [سورة فاطر:١٢] أن ذلك عند طائفة من أهل العلم من قبيل ضرب المثل، ومن القرائن الدالة على هذا قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ}** فإن ذلك بلا شك من قبيل ضرب المثل فكأنه قرينة دالة على أن ما سبق أيضاً من قبيل المثل، وإن كان في هذا المقام أوضح، وصدر الآية يمكن أن يُحمل على هذا مع ما فيه أيضاً من معنى آخر وهو تقدير قدرة الله -تبارك وتعالى- وما إلى ذلك من المعاني، وقوله هنا: **{وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ}** فيكون ذلك باعتبار الهداية والإيمان، وما يقابله من الضلالة والكفر، وقد مضى الكلام

على هذا في تفسير الأمثال في رمضان، وتحدثت عن الآيات التي تتعلق بهذا المعنى، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ} الظل معروف، وأما الحرور فالمقصود به الحر، حر الشمس على خلاف في تفصيل ذلك، الحافظ ابن كثير هنا ما تكلم على معنى الحرور، في الأصل ما في شيء، هو شدة الحر حر الشمس، وبعضهم يقول: إن الحرور لا يكون إلا في النهار مع الشمس، بخلاف السموم فإنه يكون بالليل، وبعضهم يقول عكس ذلك يقول: الحرور يكون في الليل، والسموم يكون في النهار مع الشمس، وهذه أقوال أهل اللغة، وبعضهم يقول: إنه يكون في الليل والنهار، والحرور هو الحر في أي وقت كان وإن المقصود بالظل هنا البرد، ولا الظل ولا الحرور يكون قابله بالحرارة، هكذا فسرها بعضهم، والمعنى أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى، والحر الذي يكون متلهباً مؤذياً مزعجاً بحرارته يتأذى منه الناس، والحرور كما نعلم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فهو من الحر إلا أن فيه زيادة في الحروف وفيه مبالغة في ذلك، يعني شدة الحر، قيل له: حرور بهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم-، وذهب كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- إلى أن الحرور يكون في الليل والنهار لكنه هنا بهذا الموضع يكون مع الشمس، ما القرينة الدالة على ذلك عنده؟ هنا قال: {وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ}؛ لأن الظل يكون في وقت الشمس فقابل هذا وهذا {وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ}، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ} أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} أي: كما لا يسمع وينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم.

{إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ} أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النُّذُر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [سورة الرعد:٧]**، وكما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} الآية** [سورة النحل:٣٦]**، والآيات في هذا كثيرة.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ} اقتصر هنا على النذارة، ربما يقال في ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار أنها أعلق بالمقام، أعلق بالمقام في هذا الموضع {إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ} ثم ذكر الأمرين بعده في قوله {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فهو -صلى الله عليه وسلم- في رسالته جامع بين البشارة والنذارة، وقوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} يمكن أن يكون، قوله: {بِالْحَقِّ} حالاً من الفاعل {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} يعني نحن {بِالْحَقِّ} يعني محقين، أو من المفعول {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} أي محقاً، ويحتمل أن يكون غير ذلك، يعني يمكن أن يكون من قبيل النعت لمصدر محذوف، إنا أرسلناك إرسالاً بالحق، أو يكون إرسالاً متلبساً بالحق، -والله تعالى أعلم-، ويحتمل أن يكون تعلقه بقوله: {بَشِيرًا}، {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا} يعني {بَشِيرًا} بالحق أو بالوعد الحق، ونذيراً بالوعد الحق لكن هذا أضعف -والله تعالى أعلم-، والأوضح أن يقال -والله أعلم-: إنا أرسلناك إرسالاً متلبساً بالحق، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} **وهي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات،** {وَبِالزُّبُرِ} **وهي الكتب،** {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} **أي: الواضح البين.**

في قوله: {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} قال: **هي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات** {وَبِالزُّبُرِ} قال: **هي الكتب،** {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} **أي الواضح البين** هذه ثلاثة أشياء ذكرها الله -تبارك وتعالى- وهكذا فسرها الحافظ -رحمه الله- وبعضهم يقول: الزبر يعني الكتب أو الصحف المكتوبة، كصحف إبراهيم، وقد مضى في بعض المناسبات في الكلام على معنى الزبور، فالصحف المكتوبة بعضهم يقول: هي المرادة بقوله: {وَبِالزُّبُرِ} وأن الكتاب المنير مثل التوراة والإنجيل وهذا لا يتضح فيه الفرق، -والله تعالى أعلم-، والتوراة مكتوبة إلا إن أرادوا أنها كتبت بعد ذلك، وأما قوله: {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} يقول: كالتوراة والإنجيل، وبعضهم يقول: إن البينات هي المعجزات كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وإن الزبر هي الكتب ذات المواعظ أخذاً من كون الزبور كما هو مشهور فيه مواعظ وما شابه ذلك، وإن الكتاب المنير هو الذي يحوى الشرائع والأحكام، وابن جرير فسر البينات بالحجج الواضحات كما قال الحافظ ابن كثير هنا، وفسر الزبر بالكتب التي هي من عند الله -تبارك وتعالى-، والكتاب المنير أي منير لمن تدبره أنه الحق وهذا أوضح ما قيل فيما وقفت عليه في تفسير هذا الموضع، -والله تعالى أعلم-، {بِالْبَيِّنَاتِ} يعني الآيات والحجج الواضحات، والزبر الكتب التي أنزلها الله -تبارك وتعالى- على رسله {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} يعني أنه موضح للحق مبين له يجليه ولا يترك فيه لبساً فهو منير لمن أقبل عليه وتدبره، والله أعلم.

{ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا} **أي: ومع هذا كله كذّب أولائك رسلَهم فيما جاءوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال،** {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} **أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيما شديدًا بليغا، والله أعلم.**

في قراءة متواترة قراءة ورش عن نافع بإثبات الياء {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي} وقفاً ووصلاً، فنكيري بمعنى نكير يعني المعنى واحد {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} كيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [سورة فاطر:٢٧-٢٨].

يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يُخرج به ثمرات مختلفا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَفِي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى * بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد:٣- ٤].

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} **أي: وخلقَ الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق -وهي: الجُدَد جمع جُدّة- مختلفة الألوان أيضا.**

في قوله: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} **أي وخلقَ الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو**

المشاهد من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق -وهي الجُدد جمع جُدّة- مختلفة الألوان أيضاً ونقل قول ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره، هذا المعنى الذي ذكره هنا من كون الجدد هي الطرائق هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- والمراد بذلك –أي الطرائق- أن الجبال فيها ما يسمى اليوم مثل الطبقات فتجد الجبل فيه مثل الشرائح، هذه هي الطرائق التي ذكروها هنا، تجد الجبال فيها مثل العرق الجبل لونه أحمر تجد فيه عرقاً يضرب إلى السواد مثلاً، وتجد في الجبل الأسود عرقاً أحمر مثل الطبقة فتجد هذه الطبقات موجودة في الجبال وهذا من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، والله -تبارك وتعالى- خلق الجبال وأرساها وجعلها أوتاداً فلا يقال: إن الجبال -جميع الجبال- متكونة عبر ملايين السنيين من تراكم الأتربة والطين والأشياء الأخرى من حمم بركانية وما إلى ذلك حتى تجمعت وصارت بهذه المثابة، وصارت جبالاً بهذه الطريقة، هذا لا يقال، فالله أخبر أنه خلق الجبال وأرساها وجعلها أوتاداً للأرض؛ لئلا تميد، فكيف كان حال الأرض قبل الجبال، إذاً هل يقال: إنها خلقت بلا جبال وإنها تكونت عبر السنيين بفعل العواصف وما إلى ذلك من الأمور التي يقولون ويعزونها إلى الطبيعة؟ الجواب: لا، فالله خلق الأرض وخلق الجبال وجعلها أوتاداً ولذلك تجد في خلقها وهيئتها مثل هذه الأمور العجيبة الغريبة، وبعض أهل العلم يقول: إن الجُدد ليس بجمع جُدّة كما ذكر ابن كثير، وابن جرير، وبعضهم يقول: إن الجُدد مأخوذة من القطع، جَدّهُ بمعنى قطعه، قِطَع أي بيض وحمر وسود وهكذا، وبعضهم يشبه هذه التي ذُكرت هنا بأنها الطرائق كما يكون على ظهر الحمار لون مغاير لسائر لونه إن كان الحمار أبيض فذلك لربما يميل إلى السواد، وإن كان الحمار يميل إلى السواد لربما وجدت شيئاً من الحمرة فوق ظهره كالخط، يشبهون هذا وهذا تقريباً للمعنى، وهذه الجدد مشاهدة ويراها الناس ومعروفة -والله أعلم- فهي مثل الخطوط وهذا قول عامة المفسرين سلفاً وخلفاً، عروق وخطوط ألوان في هذه الجبال يعني ليس المقصود -والله تعالى أعلم- أن من الجبال ما لونه أحمر وما لونه أسود وما لونه أبيض، إنما في الجبل الواحد تجد مثل هذه الطرائق، هذا قول عامة المفسرين، وإن كان هناك من فسر الجدد بأن الجبال تختلف ألوانها هذا أحمر وهذا أسود، وما أشبه ذلك.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: الجُدَد: الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادة، والسدي. ومنها {وَغَرَابِيبُ سُودٌ}، قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخرساني وقتادة.

وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب.

الأسود الغربيب، ويقولون: أسود حالك، وأسود زنجي، يصفون به شدة السواد، كقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا}** [سورة البقرة:٦٩] فهذا من أوصاف الإبل عند العرب، وقيل: إنها صفراء يعني الصفرة المعروفة، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن ذلك لا يمكن أن يوصف بكونه فاقعاً؛ لأن الفقوع إنما يُقال في أوصاف البقر، فالمقصود بالصفراء يعني الصفرة المعروفة في أوصاف البقر، أما الإبل إذا قيل صفراء فإنها لا توصف بالفقوع، وإنما إذا قيل ذلك فإن المقصود به الصفرة المعروفة، فالعرب تصف الألوان فإذا قالوا في البقرة **{صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا}** فمعناها الصفرة المعروفة، والإبل قد توصف بالصفرة كما قال الشاعر يصف إبلاً:

*** هنّ صفرٌ أولادُها كالزبيب

أي سود، وكقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [سورة المرسلات:٣٢-٣٣] صفر أي سود وليس المقصود الصفرة المعروفة فذلك من أوصاف الإبل خاصة، -والله تعالى أعلم-، {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [سورة فاطر:٢٧] غرابيب يقول هنا الجبال الطوال السود، وكذا قال ابن جرير، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب، و{وَغَرَابِيبُ سُودٌ} عند ابن جرير من المقدم الذي بمعنى التأخير، المعنى المؤخر أي سود غرابيب، سود خالصة السواد، حالكة السواد، وهنا غرابيب صفة للسود هذا وصف له يصف السواد بأنه شديد، والسواد والبياض -كما هو معلوم- الذي يسميه أهل المنطق المشكك يعني يتفاوت، البياض على درجات، والسواد على درجات وهكذا الألوان الأخرى من باب أولى.

وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} أي: وكذلك الحيوانات من الأناسي والدواب -وهو: كل ما دب على قوائم- والأنعام، من باب عطف الخاص على العام، كذلك هي مختلفة أيضا، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطماطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: {وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [سورة الروم:٢٢].

في قوله: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} تأملْ {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} لو أردنا أن ننظر في العطف في الآية {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} لو أرجعناه إلى جدد {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ} صفتها كذا وكذا، ومن الجبال أيضاً غرابيب سود، يعني كل الجبل أسود خالص، ليس المقصود: فيه جُدة أو خط أو طبقة أو نحو ذلك سوداء، يعني {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ} ذات ألوان حمر وبيض مختلفة الألوان، ومن الجبال غرابيب سود، يكون الجبل كله أسود، لكن يحتمل أن يكون العطف هنا على قوله: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ} عُطفت على حمر يكون هذا من جملة الجدد، فتكون الجدد حمراً وبيضاً وسوداً مختلفة الألوان، وقوله هنا: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} هذه ليست جدداً، وإنما اللون بكامله بطبيعة الحال، هنا قال: {وَالأَنْعَامِ} من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة، يعني الأنعام من جملة الدواب فالناس منهم بربر وحُبوش وطماطم في غاية السواد، والطماطم يعني الأعاجم.

وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير.

وعن ابن عباس قال: العالم بالرحمن مَنْ لم يشرك به شيئا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله.

وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله -عز وجل.

وقال الحسن البصري: العالم مَن خشي الرحمن بالغيب، ورغِب فيما رغّب الله فيه، وزهد فيما سَخّط الله فيه، ثم تلا الحسن: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}.

وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان التميمي، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله -عز وجل.

يعني مثل الذي يعرف من أوصاف الله وكمالاته ما يبعثه على تعظيمه، ولكنه لا يعرف الحدود والأحكام، والعكس قد يوجد من يُعنى بالأحكام والفقه وما إلى ذلك ولكنه لا يعرف المعبود المعرفة اللائقة به -تبارك وتعالى-، وقوله هنا: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ذكره في هذا السياق لما ذكر هذه العجائب في صنعه وخلقه -تبارك وتعالى- عقّب بهذا وهو أن أهل الخشية هم العلماء فمن المراد بذلك؟ كل مَن يُعتد به من أهل العلم مما رأيتم هنا ممن ذكرهم ابن كثير -رحمه الله-، ومن لم يذكرهم كلهم يقولون: المقصود بذلك العلم بالله -تبارك وتعالى-، العلماء بالله، العلم الذي يعبرون عنه كثيراً بالخشية أو الذي يورث الخشية وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته، وكذلك العلم بالطريق الموصل إليه، والعلم بما يصير إليه الناس عند الوصول إليه في الدار الآخرة، هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-، وما يقوله بعض الناس: إن المقصود بهذا العلماء بهذه الأمور التي في الطبيعة كما يعبر أحياناً، هذا غير صحيح، والتوسع في مثل هذه العلوم ومعرفة الدقائق والتفاصيل في هذه الأشياء سواء كان يتصل بالجبال أو علم الجيولوجيا وعلم الأرض أو كان ذلك مما يتصل بعلوم أخرى كالفلك أو علوم الطب ونحو هذا مما يُعنى فيه الدارس بمعرفة تفاصيل دقيقة وأشياء لا يعرفها عامة الناس، هل العالمون بذلك هم أهل خشية؟ وهل الواقع يدل على هذا؟ الآن كبار العلماء بالجيولوجيا وكبار العلماء في الفلك، وكبار العلماء في الطب، وكبار العلماء في علوم الأحياء الدقيقة وما إلى ذلك هل هؤلاء هم أهل خشية الله -عز وجل- والخوف منه كما قال الله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} عرفوا دقائق وأشياء ورأوها بالمكبرات وغير المكبرات، ودراسات وأعمار تفنى في تتبع أشياء دقيقة جداً ثم بعد ذلك ما الذي أورثهم هذا؟ هل أورثهم خشية الله -عز وجل-؟ هل هؤلاء هم أهل الخشية؟ الجواب: لا، أكثر هؤلاء لا يعرفون الله، ويعزون ذلك إلى أمور من الطبيعة وأن الطبيعة هي التي تفعل هذا كله، فهم أبعد الناس عن الإيمان إلا ما ندر، والنادر والشاذ لا حكم له، كونه يَسْلم واحد منهم لا يعني أن هذا يُعطَى للجميع، ويقال: كلما تبحر الواحد في هذه العلوم وتوسع فيها فإن ذلك يكون محققاً لهذه الصفة {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ} إنما يزداد خشية لله -تبارك وتعالى-، أبداً {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} هم العلماء الذين عرفوه معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته وما يليق به من عظمته وجلاله، فالعلماء به وبالطريق الموصل إليه، والدار التي يسير الناس إليها هؤلاء هم العلماء الذين يخشونه؛ لأن هؤلاء إذا كانوا يفقهون عن الله -عز وجل- وما ذكره في كتابه من دلائل قدرته وعظمته مع ما يشاهدونه من دلائل القدرة والأنفس والآفاق فإن ذلك يورث له تعظيمه وخشيته وكلما كان العبد به أعرف كان أكثر تعظيماً له وإجلالاً وخشية، وهذا هو العلم الصحيح،

فمثل هذا العلم من شأنه أن يورث الخشية فإن اختل في المكلف شيء من دوافعه ومقاصده فإن ذلك قد لا يورثه هذه الخشية كالذي يأخذ العلم من أجل الدنيا، أو يتعلم العلم للثقافة، هو لديه نوع من الرغبة والهواية أشبه ما يكون هؤلاء بالهواة، فتجد الواحد منهم له مدارك واسعة ومعرفة، أبعد ما يكون على الوصف بالعلماء الربانيين، لربما تجد حاله وسلوكه لا يختلف كثيراً عن عامة الناس لا في مظهره ولا مخبره يكون هذا من كبار المحققين لكتب التراث وله اطلاع واسع على هذه الأشياء ولا يُسأل عن مخطوط ولا مطبوع إلا وعنده معرفة واسعة فيه، وإذا نظرت إلى حاله أبعد ما يكون عن العمل، وبعضهم لا يصل إليه، لي محقق من المعتنين بالتراث يعرف المخطوطات، والمطبوعات ويعرف كل هذا هي هواية، هؤلاء هواة يعني ما أخذوا العلم من مأخذه الصحيح، ما أورثهم الخشية، بعض هؤلاء يدخن وحليق ومسبل وهيئته إفرنجية وهو من كبار المحققين، ما هي المفارقة؟، وقد لا يكون من هؤلاء المحققين قد يكون من كبار الأساتذة بالجامعات، وإذا نظرت إلى حاله فحال العوام أفضل منه أخلاقاً وتعاملاً، والعبادة والصلاة إذا نظرت إلى صلاته لا تريد أن تنظر إليه، طريقة الصلاة وأداؤها صلاة العوام أحسن منها، وبعد ذلك قد يكون من أقسى الناس قلب جلف جافٍ، سيئ الخلق مثل هذا أين هو من قوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}؟ فهؤلاء ما أخذوا العلم من مأخذه الصحيح، ولا تلقوه بطريقة صحيحة، وكثيراً ما يقع ذلك لمن كان كما يعبر بعضهم فيقول: وجدت طريقاً فسلكته ثم وجدت نفسي محاصراً، يقول: أنا أدخلني أهلي المعهد المتوسط، وفي الثانوي في المعهد وتخرجت ما وجدت أمامي إلا كلية الشريعة وتخرجت منها أردت أن أكون تاجراً فعينت معيداً في الكلية فوجدت نفسي أكمل الماجستير والدكتوراه، وجدت نفسي هكذا في النهاية، يعني كان ينصح بعض طلابه ألا يسلكوا هذا الطريق، وأن يتعظوا به فمثل هؤلاء أبعد ما يكونون عن العمل لكن هو وجد نفسه هكذا بهذا السياق، ثم صار أمام الناس أنه من المنسوبين للعلم، وقد يكون فيه ذكاء ونباهة، لكن ذكاء من غير زكاة، علم بلا خشية ولا ورع، وبعض أهل العلم يستيقظ ضميره ويشعر بالحرج يصرح أحياناً لبعض الناس يقول: أتمنى أن أكون مثل هذا، يعني يرى عامياً صرفا مصليا يحافظ على الفروض الخمسة في المسجد ما يتأخر يبكر للصلاة فيقول: أتمنى أن أكون مثل هذا، يعني أن يكون خاليا من العلم لكن يكون بهذه المثابة مثل هذا العامي، هذا غير الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وصار يفتي الناس بالضلال ويضلل الناس -نسأل الله العافية-، فذلك كما قال الله -عز وجل-: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} [سورة الأعراف:١٧٦] نحن لا نتحدث عن هذا المستوى لكن نتحدث عما دونه، فحينما يقال: العلم الخشية ليس معنى ذلك أن هذا الإنسان يكون قد درس وقرأ فإن ذلك أيضاً يكون كثيراً لهؤلاء الذين يتلقون العلم من مجرد القراءة والاطلاع على الكتب فقط، فإنّ أخْذ العلم مع التربية وغالب ما يكون ذلك بالجلوس في مجالس العلم عند من ينتفعون بمجالسته، كان بعض السلف يحضر لربما خمسا وعشرين سنة، يقول: من أجل أن أستفيد سمتاً وهدياً ودلًّا، فمثل هذه الأمور لابد من مراعاتها حتى تخرج الصورة المتكاملة للمشتغل بالعلم فيكون ممن إذا رآه الناس ذكروا الله -عز وجل-، ويحمل قدوة صحيحة في العلم والعمل ولا يكون ذلك لمن أوتي ذكاء ولم يؤت زكاة، فالذكاء شيء، والعلم شيء، والخشية شيء آخر، لكن العلم إذا أخذ من مأخذه الصحيح كما يقول الشاطبي -رحمه الله- في أول الموافقات يقول: ممن رباه الشيوخ وتخرج على يد الشيوخ هي

معادلة مركبة من هذه الأمور جميعاً من باب أولى، قال: إن العلوم الطبيعية هذه والمادية والتجريبية إلى آخره بمفردها بمجردها هكذا لا يمكن أن تكون هي المراد بقوله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، وكلام أهل العلم على هذه القضية أن العلم هو الخشية.

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [سورة فاطر:٢٩-٣٠].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلا ونهارا، سرا وعلانية، {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} أي: يرجون ثوابا عند الله لابد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، {إِنَّهُ غَفُورٌ} أي: لذنوبهم، {شَكُورٌ} للقليل من أعمالهم.

قوله هنا: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} يعني لا يحصل لها كساد، البوار هو الكساد، وقوله: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} {لِيُوَفِّيَهُمْ} اللام هذه يُحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف دل عليه السياق، {لِيُوَفِّيَهُمْ} يعني فعلوا ذلك {لِيُوَفِّيَهُمْ}، يعني يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا وفعلوا ذلك ليوفيهم الله، ويحتمل أن يكون الكلام متعلقاً بقوله: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} يعني لن يحصل لها كساد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، لن تبور لأجل أن يوفيهم، والله تعالى أعلم.

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة فاطر:٣١].

يقول تعالى: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} يا محمد من الكتاب، وهو القرآن {هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين.

{إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضّله به على مَنْ سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد -صلى الله عليه وسلم- فوق جميعهم، -صلوات الله عليهم أجمعين.

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [سورة فاطر:٣٢].

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة.

في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ} كما في كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن المقصود به القرآن؛ لأنه قال: **بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه** فيكون القرآن، وابن جرير -رحمه الله- يحمل الكتاب على الكتب قبل القرآن {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}، والمراد بهذا الميراث إيمانهم بتلك الكتب جميعاً قبل القرآن {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} فصاروا مؤمنين بهذه الكتب، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أوضح -والله تعالى أعلم-، ولو قال قائل: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} إن المقصود جنس الكتاب كانت الكتب تنزل على بني إسرائيل كانت تنزل على الأمم السابقة، ونزل منها طائفة على بني إسرائيل، وبقيت فيهم النبوة مدة طويلة، واصطفاهم الله -تبارك وتعالى- وفضلهم على العالم في

زمانهم، واجتباهم واختارهم على علم، ثم بعد ذلك لما وقع ما وقع منهم من الكفر والمحادة لله ولرسله -عليهم الصلاة والسلام- لعنهم وأبعدهم وطردهم من رحمته، وقضى عليهم بما وصف "وقطعناهم في الأرض أمماً" إلى غير ذلك ثم أورث الكتاب فصار الكتاب والنبوة إلى غيرهم، فصارت إلى العرب إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، فوقع منهم ما وقع من الحسد مع ما عرفوا من وصفه -عليه الصلاة والسلام- فانتقل التفضيل من بني إسرائيل إلى هذه الأمة {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} فالمصطفون هم هذه الأمة أورثهم الله -تبارك وتعالى- الكتاب بعد أن كان ينزل على الأمم السابقة، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}، قال: هم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- وَرَّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَر له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

قسمهم إلى هذه الطوائف الثلاث {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} على كلام الحافظ ابن كثير، ويكون المعنى أن الذين اصطفاهم الله -عز وجل- ينقسمون إلى ثلاث طوائف، فالظالم لنفسه هو الذي يقصر في بعض الواجبات ويفعل بعض المحرمات، والمقتصد من يلزم حدود الله -تبارك وتعالى- دون زيادة ولا نقصان، يفعل الواجب ويترك المحرم، ولكنه لا يفعل المندوبات والمستحبات ويترك المكروهات والمشتبهات، فهذا من أعدل الأقوال ويرد عليه سؤال معروف عند أهل العلم أن الظالم كيف يدخل في هؤلاء الذين اصطفاهم الله -عز وجل- وهل يكون الظالم لنفسه من المصطفين الأخيار؟ فهذا سؤال يجيبون عنه يعني من قالوا بقول ابن كثير -رحمه الله- يجيبون عنه بأجوبة معروفة ويقولون: إن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- صدر منهم ما وصفوا معه أنفسهم بالظلم، فآدم -صلى الله عليه وسلم- يقول: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا} [سورة الأعراف:٢٣]، وأيضاً يونس -صلى الله عليه وسلم- لما قال: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧] هو نبي كريم -عليه الصلاة والسلام- وآدم نبي كريم -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء أنبياء وصفوا أنفسهم بالظلم، فالظلم يكون بمخالفة أمر الله -تبارك وتعالى- ولا يخرج صاحبه عن كونه من أمة الاجتباء والاصطفاء، فهذه الأمة اختارها الله -عز وجل-، وجعل منها أمة الإجابة وهم المعنيون هنا، واختار من هؤلاء أي أمة الإجابة اختار منهم السابقين بالخيرات، فهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم- فهذا الظالم لنفسه لا يخرج عن كونه من أمة الاصطفاء، وهكذا ما أوردوه من قوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} وأن الضمير يرجع إلى الجميع وكيف يدخل الظالم لنفسه؟ قال: يدخل بعد أن يعذب ويكون مآله إلى الجنة إن لم يغفر الله -عز وجل- له أو يحصل له شفاعة فإن مصيره إلى الجنة لا إشكال في هذا، على اختلاف بينهم في هذا الظالم لنفسه هل هو من أصحاب الصغائر أو من أصحاب

الكبائر، وقد ذهب جماعة من السلف من الصحابة فمن بعدهم إلى أن هؤلاء من أصحاب الصغائر، وهو منقول عن عمر وعثمان وابن مسعود وعائشة -رضي الله تعالى عنهم- كل هذا من أجل أن يصدق عليهم وصف الاصطفاء، مع أن من أهل العلم من يقول: إن صاحب الكبائر داخل في هذا؛ لأن مآله إلى الجنة وهو من أمة الاجتباء والاصطفاء طالما أنه من المسلمين فهو يصدق عليه هذا، أنه ممن اصطفاه الله -عز وجل- من عباده، وهذا الموضع فيه أقوال كثيرة جداً للمفسرين، وبعض هذه الأقوال يرجع إلى ما يعرف باختلاف التنوع يعني كالذين يقولون مثلاً: السابق بالخيرات هو الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد هو الذي يصلي في آخر أو في وسط الوقت، والظالم هو الذي يصلي بعد خروج الوقت، أو قول مثلاً من يمثل بالزكاة: إن السابق هو الذي يتصدق ويزكي، وإن المقتصد هو الذي يزكي، وإن الظالم هو الذي يقصر في ذلك، وهكذا بعضهم يمثل بالصيام، وهذا كله من قبيل التفسير بالمثال، ولكن يوجد قدر ليس بالقليل من هذه الأقوال لا ترجع إلى هذا النوع من الاختلاف بل هي من قبيل اختلاف التضاد، منها ما يمكن أن يرجع إلى بعض ما سبق، ومنها مالا يمكن فيه ذلك، وبعضهم يفسر المقتصد بالمؤمن العاصي باعتبار أن الظالم هو الكافر المشرك، والمقتصد هو المؤمن العاصي قال به بعض السلف كالضحاك وقتادة وعكرمة، وأما السابق فهو التقي بإطلاق، بعضهم يرجع ذلك إلى ما ورد في القرآن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، والسابقون، فكما جاء عن مجاهد أن الظالم لنفسه هم أصحاب المشأمة، وأن المقتصد هم أصحاب الميمنة، وأن هذا في الناس جميعاً، يعني ما يرجع ذلك إلى هذه الأمة ويكون منحصراً بها، ويكون ذلك التقسيم في العباد يعني {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} لا يخصه بهذه الأمة، وهذا فيه بعد، فيجعلون هذا أقساماً للعباد، والسياق لا يدل على هذا، وبعضهم يقول: إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها، يعني أن السابق هو الذي يكون إقباله على الآخرة ليس بذاك، وبعضهم يقول: الظالم الذي ترجحت سيئاته على حسناته، المقتصد من ساوى هذا وهذا؛ ولهذا بعضهم يعبر يقول: أصحاب الأعراف، باعتبار أن أصحاب الأعراف -على أحد الأقوال- من قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وأما السابق فهو الذي رجحت حسناته على سيئاته، يكون سابقاً للخيرات، وهذا فيه بُعد، وبعضهم يجعل الظالم لنفسه هم أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يقع في الكبائر لكنه يقع في الصغائر، والسابق هو الذي يسبق بالأعمال الصالحة، وهناك أقوال أخرى غير هذا حتى إن بعضهم كما نُقل عن الضحاك حمل ذلك على الذرية {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}، كل هذا من أجل الاستشكال في اجتماع الاصطفاء مع الظلم للنفس أي مع هذا الوصف {ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}، {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} جعلوا ذلك في أتباعهم وذرياتهم أن من ذريتهم من هو ظالم لنفسه كما يقوله الضحاك، وأما الصوفية فأقوالهم في ذلك كثيرة على مشاربهم وطريقتهم فيما يسمى في التفسير الإشاري ولا حاجة لهذا، وظلم النفس يكون بالشرك والمعصية سواء كانت صغيرة أو كبيرة، ولكن الشرك هنا غير مراد، ليتحقق وصف الاجتباء والاصطفاء، فهذه الأمة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم تنقسم إلى أمة إجابة وأمة دعوة، فأمة الدعوة هي التي توجه لها

الدعوة دعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي من هذه الأمة ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[1]، والله -تبارك وتعالى- أخبر أنه أُرسل للناس كافة فهو مرسل إلى جميع الناس، ومن أجابه فهؤلاء أمة الإجابة وهم المصطفون الذين اختارهم الله -عز وجل- وهم على ثلاثة طوائف {ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} ومآل الثلاث إلى الجنة، مصيرهم إلى الجنة، هذا أقرب ما يقال في الآية، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، ويبقى هنا سؤال وهو أنه قدم الظالم لنفسه وأخر المقتصد ثم السابق فما وجه ذلك؟ هذا جوابه: يمكن أن يكون باعتبار الأكثر، أن الظالمين لأنفسهم أكثر ثم المقتصدين ثم السابقين فهم أقل القليل، حتى لا يقال هذا ذكره بعض أهل العلم كالشنقيطي -رحمه الله- قال: ابتدأ بالظالم، وذكر بعض أهل العلم أن ذلك لئلا يقنط ثم ذكر المقتصد، ويمكن أن يكون التدرج من الأدنى إلى الأعلى ويمكن أن يقال: إن الواو أصلاً لا تقتضي ترتيباً ولا تشريفاً بطبيعة الحال {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [سورة الحشر:٢٠] فبدأ بأصحاب النار.

وروى أبو القاسم الطبري عن ابن عباس، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال ذات يوم: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))[2]، قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير.

وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب.

والصحيح أنه أيضاً من هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة.

يوجد أحاديث كثيرة في الباب، وهذه الأحاديث على كثرتها قد صح بعضها، والكثير منها لا يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لما ذكر هذه الآية: ((هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة))[3]، هذا الحديث يكون قاطعاً للإشكال، والخلاف في كون الظالم لنفسه هل هو من هذه الأمة أو ليس من هذه الأمة؟، وهذا يؤيد ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وصح من حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه

---

١ - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٣٣٠٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٢٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٠٩٣).

٢ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في الشفاعة، برقم (٤٧٣٩)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الشفاعة، برقم (٢٤٣٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٢٢٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٧١٤).

٣ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الملائكة، برقم (٣٢٢٥)، وأحمد في المسند، برقم (١١٧٤٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لإبهام الرجل من ثقيف، والرجل من كنانة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، محمد: هو ابن جعفر، وشعبة: هو ابن الحجاج".

وسلم- من أنه ذكر هذه الآية وقال: ((فأما الذين سبقوا بالخيرات فأولائك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولائك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولائك الذين يحاسبون في طول المحشر وهم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}))[٤] هذه أحاديث صحت في تفسير هذه الآية وبناءً عليه يقال: إن الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم من هذه الأمة، والله تعالى أعلم.

والضمير في قوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} يرجع إلى الطوائف الثلاث، فهؤلاء الذين يُخرجون الظالم لنفسه يقولون: إنه يرجع إلى المقتصد والسابق، وهذا التقسيم: فمنهم ظالم قالوا: هذا يرجع إلى العباد وليس إلى المصطفين، وهذا فيه إشكال {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} كأنه يقول: فمن عبادنا {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}، لا أن ذلك تقسيم لأهل الاصطفاء، وهذا بعيد، والله أعلم.

فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء -وهو بدمشق- فقال: ما أقدمك أيْ أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من سلك طريقا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم مَنْ في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر))[٥]، وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

أبو الدرداء -رضي الله عنه- لما جاءه رجل بدمشق ذكر له هذا الحديث الذي ذكرته آنفاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه خصه به وتحدثه بذلك يعني: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}، وما ذكره الحافظ ابن كثير من كون العلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة بأي اعتبار؟ ما وجه ذلك؟ كيف؟ يجمعون العلم والعمل فيكونون في أعلى المراتب، والاصطفاء، وغيره: حقيقة العبودية، وغيره: من سبق، وغيره: أنهم يعرفون عن الله مالا يعرفه غيرهم، انظر إلى الحديث الذي أورده ((إن العلماء هم

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢١٧٢٧)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لانقطاعه بين علي بن عبد الله وأبي الدرداء، بينهما فيه أبو خالد البكري كما في "تاريخ" البخاري ١٨/٩، ولم نتبينه".

٥ - رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، برقم (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٢٢٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٧١٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، وقيس بن كثير، وقيل: كثير بن قيس -وهو قول الأكثرين- ضعيف، ثم إن عاصم بن رجاء لم يسمعه من قيس، فهو منقطع، بينهما داود بن جميل كما في الحديث التالي، وهو ضعيف أيضاً"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٧).

ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً))، فالله يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} أورثنا الكتاب فمن هم المعتنون به العارفون بمعانيه ومضامينه؟ هم العلماء فهم ورثة الأنبياء بهذا الاعتبار، هذا وجه كلام ابن كثير، ولهذا فإن بعض أهل العلم حمل ذلك على العلماء أصلاً {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} حمله على أهل العلم، والظاهر -والله تعالى أعلم- أنه في طوائف الأمة الثلاث كل الأمة، وأن العلماء لهم حظ وافر من ذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((العلماء هم ورثة الأنبياء))، {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} هذا ليس إرثاً للعلم فقط وإنما هو جنس الكتاب فصار ينزل في هذه الأمة بعدما كان ينزل على بني إسرائيل، فنُقل عنهم فصار في هذه الأمة، فكل واحد من هذه الأمة من أمة الإجابة له حظ من هذه وكلٌّ بحسبه والعلماء العاملون هم أوفر الناس حظاً من هذا الوصف بهذا الاعتبار، وإلا فحتى العامة وطوائف الأمة الثلاث كل الأمة داخلة فيه لكن يتفاوت حظهم بذلك.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [سورة فاطر:٣٣-٣٥].

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة {جَنَّاتُ عَدْنٍ} أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله -عز وجل-، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا}، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء))[٦].

{وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} ولهذا كان محظورا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة))[٧]، وقال: ((لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة))[٨].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} يدخلونها هذه الواو ترجع إلى الطوائف الثلاث وهي التي قال فيها بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين باعتبار أنها شملت هذه الطوائف الثلاث، ولهذا كانت هذه الآية من أرجى الآيات من كتاب الله -تبارك وتعالى- أنها وعد من الله بدخول الجنة لطوائف الأمة الثلاث، لكن لا يحمل هذا أحداً من الناس على مواقعة ما حرم الله والتفريط فيما أوجبه، فقد يبقى في النار مدة طويلة، والإنسان لا يحتمل عذاب الله، من أراد أن يجرب يجرب أيسر ما يكون من هذه النار يضع أصبعه على جمرة لمدة دقيقة واحدة يعد ذلك بستين ثانية ثم ينظر بعد ذلك هل يطيق ويحتمل أو

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، برقم (٢٥٠).

٧ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال، وقدر ما يجوز منه، برقم (٥٨٣٣)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب إباحة لبس الحرير للرجل إذا كان به حكة أو نحوها، برقم (٢٠٧٣).

٨ - رواه أبو داود، كتاب الأشربة، باب في الشراب في آنية الذهب والفضة، برقم (٣٧٢٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٣٤٣٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

لا؟، فكيف بنار جهنم ولو لحظة واحدة ولو لفحة؟! نسأل الله أن يعيذنا وإياكم وإخواننا المسلمين منها.

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

قال: **هو الخوف من المحذور**، هنا المشهور الحَزن: هو الاغتمام لأمر مضى لأمر فائت، وأن الخوف: هو الاغتمام والقلق لأمر مستقبل، هذا الخوف فهنا كيف يفسر الحزن بمعنى الخوف، قال: **هو الخوف** {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} تجد في كلام بعض أهل العلم تفسير ذلك بأنه الخوف من الدار الآخرة، والعاقبة التي يصيرون إليها، فهذا مثال عند من يقول: الحزن يأتي بمعنى الخوف، لكن إذا تأملت كلام ابن كثير تجد أنه فسرها بمعنى أوسع من هذا لم يفسرها بمعنى الخوف؛ لأنه قال: **هو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة**، وأوضح منه وأوسع كلام الحافظ ابن جرير -رحمه الله- الذي جعله عاماً، يعني هذا الموضع يعم كل ما قاله المفسرون، وحاصل قول المفسرين أن هذا الحزن كما يقول سعيد بن جبير مثلاً: {أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} إن هذا الحزن همّ رغيف الخبز، ولذلك بعضهم صرح بتلقى المعيشة، تجد عند كثير من الناس هما لاسيما إذا كان صاحب عيال، هذا نوع من الهم وهموم الناس هي في المعايش، إنما قال: الرغيف، ومن جعلها بصورة أكبر يقول: العقارات، تقول: التجارات؛ لأن منتهى هذه التجارات إلى الرغيف، فإذا وصلت الحال إلى هذا قامت الثورات التي يقال لها: ثورات الخبز، وهذه حصلت في مرات التاريخ غير قليلة، حينما يصير الناس في ضيق في عيشهم، يصير حال الناس إلى شدة ومعاناة وطول صبر عند ذلك ينقضّون وينقطع الصبر، وبعضهم يقول: إن هذا الحزن، والحزن إنما هو من الخوف من العاقبة، والآخرة خوف من النار، وبعضهم يقول: المقصود به ما يجدونه في الدنيا من أنواع الهموم أيًّا كان مصدرها وأن الدنيا دار كبد فما يعتورهم من هذه المخاوف والآلام والأحزان وما يتقضى عليهم من الأمور الفائتة التي فيها ذهاب محبوباتهم أن ذلك داخل به إلى غير هذا من الأقوال، بعضهم حمل ذلك على أمر الآخرة، وبعضهم جعلها في الدنيا، والأقرب أنه في ذلك جميعاً {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} فمن هذا الحزن ما جاء في الحديث الذي ذكرته آنفاً في الظالم نفسه، أولائك الذين يحاسبون طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، فهذه المعاني التي يذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- كلها داخلة فيه، وأولى ما يدخل فيه ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن ذلك يكون من قول الظالم لنفسه حينما يلقى الحساب ثم تكون عاقبته بعد ذلك إلى الجنة فيقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، فهذا داخل فيه، وكذلك يؤخذ من عموم اللفظ سائر الأحزان التي تكون في الدنيا فإن الجنة ليس فيها حزن ولا غم ولا تعب، {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}، فهذا الحزن والكدر حزن من فوات المحبوب، حزن لوقوع مرض، حزن لإخفاق في تجارة، لإخفاق في دراسة، حزن لانفراط في مصالحه علاقات تقطعت أواصرها وما إلى ذلك، كل هذا يذهب في الآخرة، وهذا يؤخذ منه معنى كبير وهو أن العاقل ينبغي أن يدفع عن نفسه الحزن وأنه لا خير فيه إلا إن كان ذلك من جراء الخوف من الله والدار الآخرة، يعني أن يكون مفسَّراً بمعنى الخوف، إلا أن يكون ذلك من ذنوب مضت فإنه يحزن، وهذا الحزن هو بمعنى الندم بهذا الاعتبار فهذا مطلوب؛ لأنه من شروط التوبة، ولا إشكال فيه، وأما

الحزن للحزن كأن يجتر الإنسان شريط الذكريات السيئة فيما مضى، يجتر الأحزان فيبقى كئيباً فهذا لا خير للإنسان فيه إطلاقاً، وهذا كما قال شيخ الإسلام يضعف قوى القلب ويهدمها فلا ينتفع بعمل دنيا ولا عمل آخرة، وبعض الناس لربما يهوى هذا ويطلبه بأسباب متنوعة إما أنه يسترسل مع الأفكار، ويجتر كل ذكرى سابقة قديمة، أو يكون هذا الإنسان يتلقف الأخبار في العالم مع وسائل الاتصال الآن الجوال وغيرها والوتس اب والصحف وإلى آخره فكل خبر هذه شغالة ذبحت مدري من في الحمام، وهذه شغالة طعنت هذا، وهذه شغالة فعلت كذا، وهذا واحد مذبوح، وصورة آخر مطعون بسكين في ظهره، ثم يبدأ بحال من ضعف القلب والحزن والألم، لماذا تجمع هذا الذي في العالم من الأحزان والأمور المؤلمة تجمعه كله جميعاً وتجعله في قلبك؟ هذا لا يفعله عاقل، وأسوء من هذا حالاً بعض الناس الذين يبحث عن الأشياء المحزنة يسمع قصائد محزنة وبصوت حزين ويأنس ويطرب لسماعها، وبعضهم يدعي أنه يريد أن يبكي عنده رغبة بكاء نقول: يا أخي اقرأ القرآن تذكر الدار الآخرة، تذكر ما عند الله -عز وجل- همٌّ أنك تبكي وتسمع القصائد الملحنة بصوت فيه حزن ونحو ذلك، ثم معانٍ حزينة وناس ماتوا سقط عليهم كذا وحصل لهم كذا يرثيهم ويرثي أهله ماتوا جميعاً بصورة مؤلمة، ثم يجتر هذه الأحزان، هو حتى لا يعرفهم ولا يعرف هذا حقيقة أو فيه مبالغة أو خيال حتى يقول: أنا أريد أن أبكي ولي رغبة في البكاء، فيسمع هذه الأشياء، أنا أحدث عن أشياء شاهدتها فهؤلاء يستغنون عن سماع القرآن، ويسمعون هذه القصائد والألحان وأشياء من هذا القبيل، هذا غلط لا يفعله عاقل، واللائق بنا أننا نحرص ونجمع ما يبعث الأمل ويقوي القلب، ويبعثنا على العمل وأن تشرق الآفاق والدنيا حتى لا يشعر الإنسان بيأس ولا إحباط ولا عراقيل وأوهام وقيود تقيده وتقعده وتثقله عن الانطلاق، فيعمل بطاعة الله -عز وجل- ويدعو إلى سبيله، ويكون صالحاً في نفسه مصلحاً لغيره هذا هو المطلوب، أما الضعفاء والذين يبحثون عن الأمور المحزنة فهذا غير محمود، بل حتى الإنسان لابد له من حزن، لابد له من أمور يضيق بها صدره؛ لأن هذه الحياة جُبلت على هذا ولا يمكن أن تحول عن طبيعتها وجبلّتها، ولكن العاقل له ثقة مع النفس فيدافع هذه الأمور يدفعها عن نفسه ولا يسترسل معها، وجاء عن بعض السلف أنه ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، ويخاف أن يكون من أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} هذا الحزن يحمد في حال واحدة فقط ما كان من جهة الخوف من الله والدار الآخرة فقط إذا فعل معصية يندم، قد قصر بحق الله يندم، يحزن هو في خوف دائم من الله، هذا فقط المحمود الذي ينفع ويبعث على العمل وترك مالا يليق، وما عدا ذلك فلا خير فيه، مثل الذي يحتفظ بصورة للميت وكل مدة يفتحها ويطالع فيها يتذكر كل لحظة معه، إلى متى يجدد المصيبة؟!.

قال ابن عباس، وغيره: غَفَر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

{الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ}: يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومَنِّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لن يُدخل أحدا منكم عملُه الجنة". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغَمَّدَني الله برحمة منه

وفضل))[٩].

{لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء.

بعضهم يقول: إن اللغوب هو الإعياء من التعب، أنه نتيجة وأثر للتعب، أثره هو اللغوب والإعياء، والكلال من النصب ولهذا فسره ابن كثير -رحمه الله- بالعناء والإعياء.

والنصَب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [سورة الحاقة:٢٤].

هذا نوع من النصَب والتعب، الذي يكون بسبب النصب مكابدة الليل والنهار بألوان العبادات والقيام والصيام وما إلى ذلك من أداء الفرائض وتوقي المحظورات التي تشتهيها النفس وتطلبها فهذا يحتاج إلى صبر ومعاناة وفيه حبس للنفس وضيق فكانت الدنيا هي سجن المؤمن، وكذلك أيضاً النصَب الذي جبلت عليه هذه الدنيا، فالله -تبارك وتعالى- حينما خلق آدم وأسكنه الجنة قال له: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [سورة طه:١١٨-١١٩]، وقال: {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [سورة طه:١١٧]، فالشقاء في هذه الدنيا الجوع فيها، ويضحى الإنسان حينما يتعرض لحر الشمس وما يكابده، والتعب في طلب المعيشة وما إلى ذلك، فيشقى بسبب ذلك يكابد ويعمل من أجل أن يحصّل شيئاً يأكله هو وعياله، فهذه الدنيا لا تكون إلا بالنصَب والكد والتعب وليس عليها مستريح، وأكثر الناس إغراقاً في الترف فيها -كما هو مشاهد- هم أكثر الناس ضيقاً في الصدر، هذا أمر مشاهد كلما انغمس في الترف والدعة والنعيم بهذه الحياة الدنيا كان ذلك أدعى للوحشة والضيق في الصدر؛ ولهذا تجد العامل البسيط الذي يعمل ويشتغل ويكدح أكثر انشراحاً وسروراً وسعادة وغبطة من كثير من المترفين في العالم الذين يملكون المليارات، وانظر إلى حال أبنائنا وما هم فيه من الترف والراحة ومع ذلك يشتكون من الضيق الدائم كما يعبرون دائماً: في ضيق، وانظروا إلى حال النساء كذلك وغير حال النساء من الشباب وغيرهم هم في ترف وكل شيء عندهم ومع ذلك دائماً يشعرون بضيق وملل، فهذا لا يمكن أن يوجد ويطلب بغير طاعة الله -عز وجل- والإقبال عليه والسرور بمعرفته، فهذا كله النصَب الذي في الدنيا التعب وطلب المعيشة وغير ذلك هذا كله يزول في الآخرة، ليس فيها تعب ولا عناء، وحري بمن سمع عن الله -عز وجل- وعقلَه أن يعرف قدر الحياة الدنيا وأن يكون جده وسعيه وإقباله على الدار الآخرة، ويكون ذلك سلوة لكل صاحب معاناة من مرض أو فقد أحبة أو خسارة أو إخفاق في عمل أو دراسة أو غير ذلك، كل ما فاته شيء من محبوباته، كله سلوته هناك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، وكذا {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} يعني: لا تعب ولا إعياء ولا إنهاك ولا إرهاق، جنة لا يُعرف فيها هذا، فهذا إنسان مرهق إنسان يشعر بالخمول بالضعف بتعب أو بحزن أو بقلق أو بحقد هذا كله يُنزع ويذهب عن الإنسان هذا سلوة لأهل الإيمان، يعلمون أن ما يصيبهم في هذه الحياة الدنيا

---

٩ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦).

هو أمر عارض، ولكن العبرة هناك بالشقاء الدائم أو النعيم الدائم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا المسلمين.

طالب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وقوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء ولا يكون عالما إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم، لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يُظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني، فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [سورة فصلت:١٧]، وقال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:٥٩]، وقال عن قوم فرعون: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [سورة النمل:١٤]، وقال: {وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٨]، وقال موسى لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ} [سورة الإسراء:١٠٢]، وقال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [سورة التوبة:١١٥]، وقال: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [سورة البقرة:١٤٦]، [سورة الأنعام:٢٠] يعني القرآن أو محمدا -صلى الله عليه وسلم- وقال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران:٧١]، وقال: {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [سورة الأنعام:٣٣]، والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القرآن، قيل: حجج الله لا تتناقص بل كلها حق يصدق بعضها بعضا، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقر به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله أليس ذلك أجهل الجاهلين؟ وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم فقال: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف:١٩٩] فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق وقال: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً} [سورة الفرقان:٦٣] فالجاهلون هم الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل بل يثبت له العلم ويُنفي عنه في موضع واحد كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:١٠٢] فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة ونفي عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار، وهذا نكتة المسألة وسر الجواب فما دخل النار إلا عالم ولا دخلها إلا جاهل، وهذا العلم لا يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله

واستحضاره ومعرفة موجبه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبها وتأويلات تعارضه، فلا يزال المقتضى يضعف والعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه، فلو علم إبليس أن تركه للسجود لآدم يبلغ به ما بلغ وأنه يوجب له أعظم العقوبة وتيقن ذلك لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره ويُنفذ قضاءه وقدره، ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى ما قرباها، ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما يجري عليهم وما يصيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك لما عادوهم، قال تعالى عن قوم فرعون: **{وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ}** [سورة القمر:٣٦]، وقال: **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ}** [سورة سبأ:٥٤]، وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عيانا: **{وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}** [سورة التوبة:٤٥]، وقال: **{وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ}** [سورة الحديد:١٤]، وقال: **{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}** [سورة البقرة:١٠]، وهو الشك، ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم لما كانوا في الدرك الأسفل من النار بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعا بالغفلة والإعراض واتّباع الهوى وإيثار الشهوات، وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده، فتأمل هذا الموضع حق تأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل، فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره، ويراد به المقتضى وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه، فالثاني يجامع الجهل دون الأول، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم، وإن كان كذلك فعدم العلم ليس أمرا وجوديا بل هو لعدم السمع والبصر والقدرة والإرادة، والعدم ليس شيئا حتى يستدعي فاعلا مؤثرا فيه بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده، وعدم السبب الموجب لضده، والعدم المحض لا يضاف إلى الله فإنه شر والشر ليس إليه، فإذا انتفي هذا الجازم عن العبد ونفسُه بطبعها متحركة مريدة وذلك من لوازم شأنها تحركت بمقتضى الطبع والشهوة وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة فوقعت في أسباب الشر ولابد"[10].

وقال -رحمه الله-: "وَمَقَامُ الْخَشْيَةِ جَامِعٌ لِمَقَامِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِحَقِّ عُبُودِيَّتِهِ، فَمَتَى عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ حَقَّهُ اشْتَدَّتْ خَشْيَتُهُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** [سورة فاطر:٢٨] فَالْعُلَمَاءُ بِهِ وَبِأَمْرِهِ هُمْ أَهْلُ خَشْيَتِهِ، قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- ((أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً))[11]"[12].

وقال -رحمه الله-: "قول الله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}** [سورة فاطر:٣٢].

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

---

١٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (ص:١٧٢-١٧٢).

١١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أعلمكم بالله))، وأن المعرفة فعل القلب، برقم (٢٠)، ولفظه: ((إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)).

١٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٥٦).

وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.
فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذى الضار.
والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة. والسابق بالخيرات همه في تحصيل الأَرباح وشد أَحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأَرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أَن أمامه بلدة يكسب الدرهم فيها عشرة إِلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أَمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إِلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإِذن ربه يرى خسراناً بيناً أن يمر عليه وقت في غير متجر.
فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو: فأما الظالم لنفسه فإِنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إِلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها ساعية فيها، فإِذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة فمرة يأْخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة، فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإِذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصّل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحُكم الله من وراءِ ذلك لا يعدم عباده منه فضله وعدله.
وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشتغلاً بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب تعالي فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأُخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاءَ الليل فكذلك إلى حين النوم يأْخذ مضجعه حتى ينشق الفجر فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب يقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.
وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون، وهؤلاء الأَصناف الثلاثة هم أَهل اليمين، وهم المقتصدون والأَبرار والمقربون، وأَما الظالم لنفسه فليس من أَصحاب اليمين عند الإِطلاق وإِن كان مآله إِلى أَصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} [سورة فاطر:٣٣] الآية، هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأَخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم؟، على قولين: فذهبت طائفة إلى أَن الأَصناف الثلاثة كلهم في الجنة، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأَبى سعيد الخدرى وعائشة أم المؤمنين...، واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمى الكل "مصطفين"، وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد، ومحال أَن يكون الكافر والمشرك من المصطفين، لأن الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره، فعلم أَن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق وبعضهم خير من بعض، فسابقهم مصطفي عليهم، ثم مقتصدهم مصطفي على ظالمهم، ثم ظالمهم مصطفي على الكافر والمشرك.

واحتجت أيضاً بآثار روتها تؤيد ما ذهبت إليه:....، واحتجت أيضاً بالآيات والأَحاديث التي تشهد بنجاة الموحدين من أهل الكبائر ودخولهم الجنة، واحتجت أيضاً بأَن ظلم النفس إنما يراد به ظلمها بالذنوب والمعاصي، فإِن الظلم ثلاثة أَنواع: ظلم في حق النفس بإتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها، وظلم في حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم، وظلم في حق الرب بالشرك به، فظلم النفس إنما هو بالمعاصي وقد تواترت النصوص بأَن العصاة من الموحدين مآلهم إلى الجنة.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه، فإِن الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو الكافر، والمقتصد المؤمن العاصي، والسابق المؤمن التقى، وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة، وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشاف ومنذر بن سعيد في تفسيره والرمانى وغيرهم، قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم، وهى نظير آية: {وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * وَالْسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [سورة الواقعة:٧-١٠]، قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات.

قالوا: ولم يصطفِ الله من خلقه ظالماً لنفسه، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء؟ قالوا: فأيضاً صفوة الله هم أحباؤه، والله لا يحب الظالمين فلا يكونون مصطفين، قالوا: ولأن الظالم لنفسه وإن كان ممن أورث الكتاب فهو بتركه العمل بما فيه قد ظلم نفسه، والله تعالى إنما اصطفي من عباده من أورثه كتابه ليعمل بما فيه، فأما من نبذه وراء ظهره فليس من المصطفين من عباده قالوا: ولأن الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء وهو خلاصته ولبّه، وأصله اصتفي فأُبدلت التاءُ طاءً لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه، والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبّهم فلا يكون مصطفي، قالوا: ولأن الله سلَّم على المصطفين من عباده فقال: {قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِين اصطفي} [سورة النمل:٥٩]، وهذا يقتضى سلامتهم من كل شر وكل عذاب، والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا فكيف يكون من المصطفين؟ قالوا: وأيضاً فطريقة القرآن أن الوعد المطلق بالثواب إنما يكون للمتقين لا للظالمين كقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا} [سورة مريم:٦٣] فأَين الظالم لنفسه هنا؟ وقوله تعالى:

{قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة الفرقان:١٥]، وقوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٢]، وقوله: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً} [سورة النبأ:٣١-٣٦]، والقرآن مملوءٌ من هذا، ولم يجئ فيه موضع واحد بإطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلاً، قالوا: وأيضاً فلم يجيء في القرآن ذكر الظالم لنفسه إلا في معرض الوعيد لا الوعد، كقوله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [سورة الزخرف:٧٤-٧٦]، وقوله: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سورة سبأ:٩٩]، وقوله: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة النحل:١١٨]، قالوا: وأيضاً فالظالم لنفسه هو الذي خفت موازينه ورجحت سيئاته، والقرآن كله يدل على خسارته وأنه غير ناج كقوله تعالى: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [سورة الأعراف:٨-٩]، وقوله: {وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [سورة القارعة:٨-٩]، فكيف يذكر وعده بجناته وكرامته للظالمين أنفسهم الخفيفة موازينهم؟ قالوا: وأيضاً فقوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} مرفوع لأنه بدل من قوله: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} وهو بدل نكرة من معرفة كقوله: {لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ} [سورة العلق:١٥-١٦]، وحسّن وقوعه مجيء النكرة موصوفة لتخصيصها بالوصف وقربها من المعرفة ومعلوم أن المبدل منه هو "الفضل الكبير" مختص بالسابقين بالخيرات، والمعنى أن سبقهم بالخيرات بإذنه ذلك هو الفضل الكبير وهو جنات عدن يدخلونها، وجعل السبق بالخيرات نفس الجنات لأنه سببها وموجبها.

قالوا: وأيضاً فإنه وصف حليتهم فيها بأنها أساور من ذهب ولؤلؤ، وهذه جنات السابقين لا جنات المقتصدين، فإن جنات الفردوس أربع كما ثبت في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنة عدن))[١٣].

ومعلوم أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين، فإذا كانت الجنتان الذهبيتان للظالمين لأنفسهم، فمن يسكن الجنتين الفضيتين؟ فعلم أن هذه الجنات المذكورة لا تتناول الظالمين لأنفسهم، قالوا: وأيضاً فإن أقرب المذكورات إلى ضمير الداخلين هم السابقون بالخيرات فوجب اختصاصهم بالدخول إلى الجنات المذكورات. قالوا: وفي اختصاصهم -بعد ذكر الأقسام- بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما هو معلوم من طريقة القرآن إذ يصرح بذكر ثواب الأبرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم ويذكر عقاب الكفار والفجار والظالمين لأنفسهم ومن خفت موازينهم، ويسكت عن القسم الذي فيه شائبتان وله مادتان، هذه طريقة القرآن كقوله تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سورة الانفطار:١٣-١٤]، وقوله:

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ومن دونهما جنتان} [الرحمن:٦٢]، برقم (٤٨٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٠).

{فَأَمَّا مَن طَغَى * وآثر الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات:٣٧-٤١]، وهذا كثير في القرآن، قالوا: وفي السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف له بأن أمره مرجأٌ إلى الله وليس عليه ضمان ولا له عنده وعد، وليحذر كل الحذر وليبادر بالتوبة النصوح التي تلحقه بالمضمون لهم النجاة والفلاح.

قالوا: وأيضاً فمن المحال أن يقع على أحد من المصطفين اسم الظلم مطلقاً، وإنما يقع اسم الظلم على الكافر، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة البقرة:٢٥٤]، وقال تعالى: {وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِن وَلِي وَلا نَصِيرٍ} [سورة الشورى:٨] مع قوله: {اللهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة البقرة:٢٥٧] والظالم لا ولي له ولا يكون من المؤمنين.

قالوا: وأيضاً فمن تدبر الآيات وتأمل سياقها وجدها قد استوعبت جميع أقسام الخلق، ودلت على مراتبهم في الجزاء، فذكر سبحانه أن الناس نوعان: ظالم، ومحسن، ثم قسم المحسن إلى قسمين: مقتصد، وسابق، ثم ذكر جزاء المحسن، فلما فرغ منه ذكر جزاءَ الظالم فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [سورة فاطر:٣٦]، وقال: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٢٩]، فذكر أنواع العباد وجزاءَهم، قالوا: وأيضاً فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة كما ذكرهم الله تعالى في سورة الواقعة والمطففين وسورة الإنسان، فأما سورة الواقعة فذكرهم في أولها وفي آخرها، فقال في أولها: {وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [سورة الواقعة: ٧-١٢]، فأصحاب المشأمة هم الظالمون.

وأما أصحاب اليمين فقسمان: أبرار وهم أصحاب الميمنة، وسابقون وهم المقربون، وفي آخرها: {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِن الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} [سورة الواقعة:٨٨- ٩٤]، فذكر حالهم في القيامة الكبرى في أول السورة، ثم ذكر حالهم في القيامة الصغرى في البرزخ في آخر السورة، ولهذا قدم قبله ذكر الموت ومفارقة الروح فقال: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الواقعة: ٨٣-٨٧] ثم قال: {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [سورة الواقعة:٨٨] إلى آخرها.

وأما في أولها فذكر أقسام الخلق عقب قوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثّاً * وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً} [سورة الواقعة:١-٧]، وأما سورة الإنسان فقال تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً} [سورة الإنسان:٤]، فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة، ثم قال: {إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} [سورة الإنسان:٥]، فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين، ثم قال: {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً} [سورة الإنسان:٦]، فهؤلاء المقربون السابقون، ولهذا خصهم بالإضافة إليه وأخبر أنهم يشربون بتلك العين صرفاً محضاً وأنها تمزج للأبرار مزجاً كما قال في سورة المطففين في شراب الأبرار: {وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا

الْمُقَرَّبُونَ} [سورة المطففين:٢٧-٢٨]، وقال: "يشرب بها المقربون"، ولم يقل: "منها" إشعاراً بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها وبغيرها فضمّن "يشرب" معنى يروى فعُدَّى بالباءَ، وهذا ألطف مأخذاً وأحسن معنى من أن يجعل الباء بمعنى من، يضمن يشرب الفعل معنى فعل آخر، فيتعدى تعديته، وهذه طريقة الحذاق من النحاة، وهي طريقة سيبويه وأئمة أصحابه، وقال في الأبرار: {يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} [سورة الإنسان:٥]، لأن شرب المقربين لما كان أكمل استعير له الباءُ الدالة على شرب الري بالعين خالصة، ودلالة القرآن ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر.

وقال تعالى في سورة المطففين: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ} إلى قوله: {كَلا إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة المطففين:٧-١٧]، فهؤلاء الظالمون أصحاب الشمال، ثم قال: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ مَا أَدرَاك مَا عِلِّيُّونَ} [سورة المطففين:١٨-١٩]، فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم -أي يكتب بحضرتهم ومشهدهم- لا يغيبون عنه، اعتناءً به وإظهاراً لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه.

ثم ذكر سبحانه نعيم الأبرار ومجالستهم ونظرهم إلى ربهم وظهور نضرة النعيم في وجوههم، ثم ذكر شرابهم فقال: {يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [سورة المطففين:٢٥-٢٦]، ثم قال: {وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [سورة المطففين:٢٧-٢٨]، التسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبون} [سورة المطففين:٢٨]، كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء، قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً.

وهذا لأن الجزاءَ وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه.

قالوا: فهكذا هذه الآيات التي في سورة الملائكة ذكر فيها الأقسام الثلاثة: الظالم لنفسه وهو من أصحاب الشمال، وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين، وذكر السابقين وهم المقربون.

قالوا: وليس في الآية ما يدل على اختصاص الكتاب بالقرآن والمصطفين بهذه الأمة، بل الكتاب اسم جنس للكتب التي أنزلها على رسله، فإنه أورثها المصطفين من عباده من كل أمة، والأنبياء هم الذين أُورثوه أولا ثم أَورَثوه المصطفين من أممهم بعدهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [سورة غافر:٥٣-٥٤]، فأخبر أنه إنما يكون هدى وذكرى لمن له لبٌّ عقلَ به الكتاب وعمل بما فيه، والعامل بما فيه هو الذي أورثه الله علمه.

وتأمل قوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [سورة الشورى:١٤]، كيف حذف الفاعل هنا وبنى الفعل للمفعول لمّا كان في معرض الذم لهم ونفي العلم عنهم، ولما كان في سياق ذكر نعمه وآلائه ومنته عليهم قال: {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ}، ونظير هذه الآية: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢]، ومن ذلك قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} [سورة الأعراف:١٦٩]، وأنه لما كان الكلام في

سياق ذمهم على اتباعهم شهواتهم وإيثارهم العرَض الفاني على حظهم من الآخرة وتماديهم في ذلك لم ينسب التوريث إليه، بل نسبه إلى المحل فقال: أورثوا الكتاب ولم يقل: أورثناهم الكتاب وقد ذكرت نظير هذا في قوله: {أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ} أنه للمدح، و"أورثوا الكتاب" إما في سياق الذم، وإما منقسم في كتاب "التحفة المكية".

والمقصود أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده أولا وآخراً، قالوا: وقوله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} لا يرجع إلى المصطفين، بل إما أن يكون الكلام قد تم عند قوله: {مِنْ عِبَادِنَا} ثم استأنف جملة أخرى وذكر فيها أقسام العباد وأن منهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق.

ويكون الكلام جملتين مستقلتين، بين في إحداهما أنه أورث كتابه من اصطفاه من عباده، وبين في الأخرى أن من عباده ظالما ومقتصدا وسابقا، وإما أن يكون المعنى تقسيم المرسل إليهم بالنسبة إلى قبول الكتاب وأن منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه، ومنهم من قبله مقتصدا فيه، ومنهم من قبله سابقا بالخيرات بإذن الله، قالوا: والذي يدل على هذا الوجه أنه سبحانه ذكر إرساله في كل أمة نذيرا ممن تقدم هذه الأمة فقال: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [سورة فاطر:٢٤]، ثم ذكر أن رسلهم جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير الآيات الدالة على صدقهم وصحة رسالاتهم، والزبر: الكتب، واحدها زبور بمعنى مزبور أي مكتوب، الكتاب المنير: من باب عطف الخاص على العام لتميزه عن المسمى العام، بفضله وشرفه امتاز بها واختص بها عن غيره، وهو كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وكعطف أولي العزم على النبيين من قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [سورة الأحزاب:٧] والكتاب المنير هاهنا: التوراة والإنجيل.

ثم ذكر إهلاك المكذبين لكتابه ورسله فقال: {ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}، ثم ذكر التالين لكتابه وهم المتبعون له العالمون بشرائعه فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [سورة فاطر:٢٩-٣٠].

ثم ذكر الكتاب الذي خص به خاتم أنبيائه ورسله محمداً -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة فاطر:٣١].

ثم ذكر سبحانه من أورثهم الكتاب بعد أولائك، وأنه اصطفاهم لتوريث كتابه إذ رده المكذبون ولم يقبلوا توريثه.

قالوا: وأما قولكم: إن الاصطفاء افتعال من الصفوة وهي الخيار وهي إنما تكون في السعداء، فهذا بعينه حجة لنا في أن الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده، وقد تقدم تقريره.

قالوا: وأما الآثار التي رويتموها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك فكلها ضعيفة الأسانيد ومنقطعة لا تثبت، كيف وهي معارَضة بآثار مثلها أو أقوى منها، قالوا: وأما النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يدخلون الجنة فصحيحة لا ننازعكم فيها، غير أنها مطلقة، ولكن لها شروط وموانع، كما أن النصوص الدالة على عذاب أهل الكبائر صحيحة متواترة، ولها شروط وموانع يتوقف لحوق الوعيد عليها، فكذلك نصوص الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها، قالوا: وأما قولكم إن ظلم النفس إنما يراد به ظلمها

بالذنوب والمعاصي دون الكفر فليس بصحيح، فقد ذكر في القرآن ما يدل على أن ظلم النفس يكون بالكفر والشرك، ولو لم يكن في هذا إلا قول موسى لقومه: {يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} [سورة البقرة:٥٤]، وقوله -عز وجل-: {وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيث وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّق} [سورة سبأ:١٩] ونظائره كثيرة.

قالت الطائفة الأولى: لو تدبرتم القرآن حق تدبره، وأعطيتم الآيات حقها من الفهم، وراعيتم وجوه الدلالة وسياق الكلام لعلمتم أن الصواب معنا، وأن هذا التقسيم الذي دلت عليه أخص من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والإنسان والمطففين، فإن ذلك تقسيم للناس إلى شقي وسعيد، وتقسيم السعداء إلى أبرار ومقربين، وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه، وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأمة إلى محسن ومسيء، فالمسيء هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان مقتصد وسابق بالخيرات، فإن الوجود شامل لهذا القسم، بل هو أغلب أقسام الأمة فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه؟، ثم لما استوفي أقسام الأمة ذكر الخارجين عنهم وهم الذين كفروا فعمت الآية أقسام الخلق كلهم، وعلى ما ذهبتم إليه تكون الآية قد أهملت ذكر القسم الأغلب الأكثر وكررت ذكر حكم الكافر أولاً وآخراً.

ولا ريب أن ما ذكرناه أولى لبيان هذا القسم وعموم الفائدة، وأيضا فإن قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢] صريح في أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده، وقوله -عز وجل-: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} إما أن يرجع إلى الذين اصطفاهم، وإما أن يرجع إلى العباد، ورجوعه إلى الذين اصطفاهم لوجهين:

أحدهما أن قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ}، إنما يرجع إلى المصطفين لا إلى العباد، فكذلك قوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}، ولا يقال: بل الضمائر كلها تعود على العباد؛ لأن سياق الآيات والإتيان بالفاء والتقسيم المذكور كله يدل على أن المراد بيان أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد، إذ لو أراد ذلك لأتى بلفظ يزيل الوهم ولا يلتبس به المراد بغيره، وكأن وجه الكلام على هذا أن يقال: ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا} منهم، وهذا معنى الكلام عندكم، ولا ريب أن سياق الآيات لا يدل عليه إنما يدل على أنه أورث الكتاب طائفة من عباده، وأن تلك الطائفة ثلاثة أقسام، هذا وجه الكلام الذي يدل عليه ظاهره.

الثاني: أنك إذا قلت: أعطيت مالي البالغين من أولادي فمنهم تاجر ومنهم خازن ومنهم مبذر ومسرف، هل يفهم من هذا أحد قط أن هذا التقسيم لجملة أولاده، بل لا يفهم منه إلا أن أولاده كانوا في أخذهم المال أقساما ثلاثة، ولهذا أتي فيها بالفاء الدالة على تفصيل ما أجمله أولاً، كما إذا قلت: خذ هذا المال فأعط فلانا كذا وأعط فلانا كذا، ونظائره متعددة، ولا وجه للإتيان بالفاء هاهنا إلا تفصيل المذكور أولاً، لا تفصيل المسكوت عنه، والآية قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفي منهم من أورثه الكتاب، فالتفصيل للمذكور ليس إلا، فتأمله فإنه واضح.

قالوا: وأما قولكم: إن الله لا يصطفي من عباده ظالما لنفسه لأن الاصطفاء هو الاختيار من الشيء صفوته وخياره إلى آخر ما ذكرتم فجوابه أن كون العبد مصطفى لله ووليا لله ومحبوبا لله ونحو ذلك من الأسماء

الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلم العبد نفسه أحيانا بالذنوب والمعاصي، بل أبلغ من ذلك أن صِدّيقيته لا تنافي ظلمه لنفسه، ولهذا قال صدّيق الأمة وخيارها للنبي -صلى الله عليه وسلم-: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: "قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم".

وقد قال تعالى: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** [سورة آل عمران:١٣٣-١٣٥].

فأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك، وقال تعالى: **{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [سورة الزمر:٣٣-٣٥] فهؤلاء الصدّيقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالا سيئة يكفرها، ولا ريب أنها ظلم للنفس، وقال موسى: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}** [سورة القصص:١٦]، وقال آدم -عليه السلام-: **{قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [سورة الأعراف:٢٣]، وقال يونس -عليه السلام-: **{لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** [سورة الأنبياء:٨٧]، وقال تعالى: **{إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [سورة النمل:١١].

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصديقية والولاية، ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين، بل يجتمع فيه الأمران يكون وليا لله صدّيقا متقيا وهو مسيء ظالم لنفسه، عُلم أن ظلمه لنفسه لا يخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه، إذ هو مصطفي من جهة كونه من ورثة الكتاب علما وعملا، ظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أمر به وتعديه بعض ما نهي عنه، كما يكون الرجل وليا لله محبوبا له من جهة، ومبغوضا له من جهة أخرى، وهذا عبد الله الخمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن لعنه وقال: إنه يحب الله ورسوله، ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التَّجْزِيء والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الإيمان، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفي من وجه ظالما لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر، ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف.

فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمد الله.

قالوا: وأما قولكم: إن قوله تعالى: **{جَنَّاتُ عَدْنٍ}** مرفوع لأنه بدل من قوله: **{ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}** [سورة فاطر:٣٢]، وهو مختص بالسابقين، وذكْر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك إلخ فجوابه من

وجهين: أحدهما أن هذا بعينه وارد عليكم، فإن المقتصد من أهل الجنات، ومعلوم أن جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته، فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه، فإن التفاوت حاصل بين جنات الأصناف الثلاثة، ويختص كل صنف بما يليق بهم، ويقتضيه مقامهم وعملهم.

الجواب الثاني: أنه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات هنا مشوقا لعباده إليه منبها لهم على مقداره وشرفه، وسكت عن جزاء الظالمين لأنفسهم والمقتصدين ليحذر الظالمون ويجدّ المقتصدون، وذكر في سورة الإنسان جزاء الأبرار منبها على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على أن هذا إذا كان جزاء الأبرار المقتصدين فما الظن بجزاء المقربين السابقين فقال تعالى: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً}** إلى قوله: **{وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}** إلى قوله: **{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً}** [سورة الإنسان:٥-٢١]، فذكر هنا الأساور من الفضة والأكواب من الفضة في جزاء الأبرار، وذكر في سورة الملائكة الأساور من الذهب في جزاء السابقين بالخيرات، فعلم جزاء المقتصدين من سورة الإنسان، وعلم جزاء السابقين من سورة الملائكة، فانتظمت السورتان جزاء المقربين على أتم الوجوه، والله أعلم بأسرار كلامه وحكمه.

قالوا: وهذا هو الجواب عن قولكم: إن الضمير يختص به أقرب مذكور إليه.

قالوا: وأما قولكم: إن الظالم لنفسه إنما هو الكافر فقد تقدم جوابه وذكر ما يبطله"[١٤].

تم بحمد الله وفضله.

---

١٤ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (ص:١٨٦-٢٠١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فاطر من الآية (٣٦) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [سورة فاطر:٣٦-٣٧].

لما ذكر تعالى حال السعداء شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}، كما قال تعالى: {لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا} [سورة طه:٧٤]**، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون))**[1]**، قال الله تعالى: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}** [سورة الزخرف:٧٧]**، فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}** [سورة الزخرف:٧٤-٧٥]**، وقال: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}** [سورة الإسراء:٩٧]**، {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}** [سورة النبأ:٣٠].

ثم قال: {كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **لما ذكر تعالى حال السعداء** إلى آخره هذا الذي يعرف بعلم المناسبة -وقد سبق التنبيه عليه مراراً- ووجه الارتباط بين الآية والتي قبلها، ومنه أنواع أخرى كوجه الارتباط بين المقطع والمقطع، أو وجه الارتباط بين خاتمة الآية وموضوع الآية وما شابه ذلك، وابن كثير -رحمه الله- يشير إلى هذه المناسبات في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، وكذلك بعض من ينكر المناسبات صراحة كالشوكاني في مواضع من كتابه إلا أنه يكثر من ذكرها من الناحية العملية، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} بمعنى أنهم يبقون فيها أبداً كما

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (١٨٥).

ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وأورد عليه النصوص من الكتاب والسنة، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا: "أما أهل النار الذين هم أهلها.." يعني أهل الخلود فيها وذلك لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [سورة النبأ:٢٣] فالأحقاب هي المدد الطويلة غير المتناهية، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [سورة هود:١٠٦-١٠٧]، وتعليقه ببقاء السماوات والأرض هذا على طريقة العرب وهي أنها قد تعلق شيئاً بفانٍ وتريد التأبيد وهذا معروف في كلامهم، ونحن نقول مثلاً: "اللهم صلِّ على محمد -صلى الله عليه وسلم- ما تعاقب الليل والنهار مثلاً أو ما تحركت الأغصان أو ما غرد طائر أو نحو ذلك"، والمقصود بهذا التأبيد، تقول: لا أفعل ذلك ما تعاقب المَلَوان يعني الليل والنهار، والعرب قد تعلق بزائل وقد تريد التأبيد، وهكذا في الاستثناء في قوله: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} فهذا كما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الفتح: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ} [سورة الفتح:٢٧] وهم داخلون قطعاً، فقد يأتي الاستثناء أو التعليق بالمشيئة على أمر متحقق الوقوع، وقد يرد ذلك على أمر منتفي الوقوع كما في هذا الموضع، ولكنه لما كان كل شيء بإرادة الله -عز وجل- ومشيئته ذكر ذلك، ودلت النصوص الكثيرة على أن أهل النار لا يخرجون منها، وأنهم باقون فيها أبداً.

وقوله: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله -عز وجل- بأصواتهم: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب -جل جلاله- أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبرا عنهم في قولهم: {فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} [سورة غافر:١١-١٢]**، أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رُددتم لعدتّم إلى ما نُهيتم عنه؛ ولهذا قال هاهنا: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} أي: أوَمَا عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟**

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه))[٢].

وهكذا رواه الإمام البخاري في "كتاب الرقاق" من صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعذر الله -عز وجل- إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة))[٣].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من عَمَّرَه الله ستين سنة،

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٧٧١٣)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير الرجل الذي من بني غفار، وهو معن بن محمد الغفاري، كما جاء مصرحاً به في رواية البخاري وغيره، وهو صدوق حسن الحديث"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥١١٨).

٣ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، برقم (٦٤١٩).

فقد أعذر إليه في العمر))[٤]، وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق.

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم مَن يجوز ذلك))[٥].

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعا في كتاب الزهد.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} العمر الذي يكون كافياً للتذكر، وأمهلكم هذا الإمهال، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: أ**وَما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟** هذا المعنى، والأحاديث التي أوردها هنا التي تدور حول هذا المعنى ((أعذر الله إلى رجل أمهله حتى بلغ ستين سنة))، هذا مما يحصل به أبلغ الإعذار إلى الخلق، أن يمهل الإنسان إلى ستين سنه، لكن قوله -تبارك وتعالى- هنا: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} هل هذا التذكر يحصل ببلوغ ستين سنة فيكون الله -عز وجل- قد أعذر إليه، وأن التذكر لا يحصل بما دون ذلك مما يلقاه الإنسان في هذه الحياة؟، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا التذكر يحصل بما هو دون ذلك بلا شك، لهذا فإن هذا العمر الذي يمكن أن يحصل به هذا يكون دون الستين، ولكنه بالستين يكون قد بلغ إلى حد قد أعذره الله فيه إليه، ولهذا فإن من أهل العلم من يقول: إن ذلك يحصل بأربعين سنة يعني {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} بأربعين سنة، وبعضهم يقول: هو بما دون ذلك، بعض السلف كعطاء وقتادة يقولون: إذا بلغ الثامنة عشرة فقد بقي هذه المدة التي يحصل بها التذكر {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} إذا بلغ ثماني عشرة سنة، والذين قالوا بالأربعين كأنهم أخذوا ذلك -والله تعالى أعلم- من قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [سورة الأحقاف:١٥]، بمعنى أنه بمنتهى العقل وقوة الإدراك؛ لأن ذلك يعظم في سن الأربعين، وهذه قضية تتفاوت يعني من جهة قوة المدارك العقلية ولكن الإنسان يكون في حال يتذكر فيها إذا كان يعقل عن الله -تبارك وتعالى- فهذا يكون ببلوغ السن التي يحصل بها التكليف، فإن كان له زيادة إمهال فإن ذلك يكون أكثر في الإعذار إليه، فإذا بلغ ستين سنة فذلك المنتهى؛ ولهذا لا يُرجى لأحد رشدٌ بعد الستين، يعني إذا كان فيه سفه لا يرجى له رشد بعد ذلك، لكن الناس يتفاوتون، وهكذا في كل مقام بحسبه، يعني فيما يتصل بالأموال والتصرف فيها الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [سورة النساء:٦]، وقد مضى الكلام على هذا وأن الأقرب في محمل الآية أن يكون ذلك بمجموع أمرين كما قال الإمام مالك وغيره: البلوغ وحسن التصرف بالمال؛ لأنه هو المقصود

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٢٥١)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٦٣١٠)، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٥٩٧)، وقال محققوه: "صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤١٤).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٥٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، برقم (٤٢٣٦)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٢٩٨٠)، وقال الألباني: "حسن لذاته صحيح لغيره"، في السلسلة الصحيحة، برقم (٧٥٧).

هناك، {آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} فهنا التذكر يحصل ببلوغ الستين ويحصل ببلوغ الأربعين، وهذا التعمير الذي يحصل ويتحقق فيها هذا يحصل لما دون ذلك أيضاً، يعني أبقيناكم مدة كافية للتذكر، والله أعلم.

وسن التكليف إذا كنت تعني هذا: أن الله -تبارك وتعالى- لا يؤاخذهم بالميثاق الأول حينما استخرجهم من صلب أبيهم آدم فذلك ميثاق، وكذلك ما أودع في نفوسهم من الفِطر وما أعطاهم أيضاً من العقول التي يميزون فيها، وما علِمه أيضاً منذُ الأزل عما هم عاملون، كل هذه الأمور لا يؤاخذهم فيها، وإنما أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وأناط التكليف بحال أو بحد محدود وهو أن يكون الإنسان وصل إلى سن البلوغ، فهنا يجري عليه الكتاب ويحاسبه على أعماله التي صدرت منه، لكن المقصود هنا -والله تعالى أعلم-: أن أمهلناكم وأبقيناكم المدة التي تكفي للتذكر.

وقوله: {وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} روي عن ابن عباس، وعِكْرِمَة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عُيَيْنَة أنهم قالوا: يعني: الشيب.

وقال السُّدِّيّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقرأ ابن زيد: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} [سورة النجم:٥٦]**، وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل.**

وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [سورة الزخرف:٧٧-٧٨]**، أي: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا}** [سورة الإسراء:١٥]**، وقال تبارك وتعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ}** [سورة الملك:٨-٩].

وقوله: {فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} أي: فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

قوله هنا: {وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} ما ذكره عن طائفة من السلف كابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أن المراد بذلك الشيب، وهذا اختيار الفراء وجماعة، الشيب بمعنى أن الشيب نذير للموت، أنه مؤذن بقرب الرحيل، والقول الآخر الذي نقله عن السدي وجماعة أن النذير هو الرسول -عليه الصلاة والسلام- {وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} وهذا الذي قال هو اختيار ابن جرير، ورجحه أيضاً الحافظ ابن كثير، وهو قول جمهور المفسرين، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-؛ وذلك أن النذير في القرآن يأتي كثيراً بمعنى الرسول، والقرآن إنما يفسر باعتبار الأغلب في الاستعمال في الألفاظ والتراكيب، فجمع لهم بين هذا وهذا أنهم بقوا مدة كافية للتذكر وقامت عليهم الحجة وجاءهم الرسول {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} وكما في قوله -تبارك وتعالى- عن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أو عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- {هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى} [سورة النجم:٥٦]، وبعضهم يقول غير هذا، يعني هناك أقوال في بعضها غرابة في تفسير النذير، هذا هو الأشهر، يعني أشهر هذه الأقوال أنه الشيب، أو أنه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، أما قول من قال: إنه القرآن

{وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} فهذا لا نقول إنه بحاجة إلى ترجيح أو رد لهذا القول؛ لأنه متلازم مع القول بأنه الرسول -عليه الصلاة والسلام- من قال: إن النذير هو القرآن فالنبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بالقرآن، ولكن تفسيره بالرسول أظهر، ومثل هذا لا يحتاج أن يرجح بينه وبين القول بأنه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، لكن بعضهم يقول: النذير رسول الموت الذي هو الحُمى، أي أنها رسول الموت باعتبار أن الناس تصيبهم الحمى في حياتهم، يتكرر ذلك مراراً، لكن هذا القول بعيد، وبعضهم يقول: موت الأهل والقرابات حتى إن الإنسان لربما انفرد بينهم، فإذا مات قرابته وأقرانه ونحو ذلك فهذا نذير باعتبار أنه ينتظر الدور وأنه سيلاقي المصير نفسه ، وبعضهم يقول: {وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} يعني كمال العقل، وبعضهم يقول: البلوغ، وهذا بعيد -والله تعالى أعلم-، وأما فيما يتعلق بالشيب فيظهر في الإنسان في وقت مبكر ولربما يكون كثير من الناس يبدأ يظهر فيهم الشيب بعد الأربعين.

{إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا} [سورة فاطر:٣٨-٣٩].

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنّه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله.

ثم قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ} أي: يَخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} [سورة النمل:٦٢]، {فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، {وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا} أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ} الحافظ ابن كثير هنا يقول: أي: **يَخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم** وهذا المعنى قريب، وقد يكون هو المتبادر ولا يبعد منه قول ابن جرير -رحمه الله- خلائف في الأرض يعني أنكم تخلفون من سبقكم من الأمم كثمود وعاد، الأمم التي أهلكها الله -تبارك وتعالى- فلا شك أنهم جاءوا بعدهم، وهذا لا ينافي أن يكون الخلائف أن يخلف بعضهم بعضاً جيلاً بعد جيل فمن هذه الأجيال تلك الأمم المهلَكة، وبعضهم يقول: المراد بالخلائف أي أنكم تخلفون عن الله -تبارك وتعالى- وأنه استخلفكم في الأرض، ويفسرون بذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠]، وقد مضى الكلام هناك على الأقوال التي ذكرها المفسرون في هذا وأن قول من قال: خليفة أي عن الله -عز وجل- أنه غير صحيح، وأنه لا يصح أن يقال: إن الإنسان خليفة عن الله -تبارك وتعالى-، وإنما المقصود: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} يعني الناس يخلف بعضهم بعضاً، فالله استخلفهم فيها وجعلهم خلائف يتعاقبون فيها ويخلف جيل جيلاً، وهكذا قول من فسره هنا {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} بأنهم يخلفون عن الله -تبارك وتعالى- هذا غير صحيح، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا} المقت هو أشد البغض، كما أن المحبة درجات أعلاها الخُلّة،

فكذلك البغض درجات، فمن أعلى درجات البغض المقت.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة فاطر:٤٠-٤١]، **يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للمشركين:** {أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} **أي: من الأصنام والأنداد،** {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ} **أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير.**

وقوله: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ} **أي: أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك،** {بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا} **أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور.**

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} **أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال:** {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} [سورة الحج:٦٥]، **وقال تعالى:** {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [سورة الروم:٢٥]، {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ} **أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر ويُنظر ويؤجل ولا يَعْجَل، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال:** {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ} يقول: هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله -تبارك وتعالى- إما أن يكونوا خالقين، أو أن يكونوا مشاركين، أو أن يكون لكم على ذلك الشرك كتابٌ، لاشك أن هؤلاء ليسوا بخالقين، ولا مشاركين، وليس عند المشركين بينة من كتاب على ما يشركون به -تبارك وتعالى-، وقوله: {بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} يدخل في هذا ما يحصل من الوعد بالنصر وما إلى ذلك فيما بينهم أنهم ينتصرون، ويظهرون، أو أن الدار الآخرة لهم، أو كما يقول اليهود: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [سورة البقرة:٨٠]، وما أشبه هذا، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} بعض أهل العلم يقول: إن هذا مشعر بأن السماوات والأرض تكاد أن تضطرب بسبب ذنوب بني آدم، وأن الله يمسكها، وكأنهم أخذوا ذلك من قوله -تبارك وتعالى- في آخر الآية: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} قالوا: إن السماوات والأرض تكاد أن تطبق على هؤلاء أو أن تضطرب أو تميد بهم بذنوب بني آدم وإن الله يمسكها لئلا تميد وتضطرب لكونه متصفاً بالحلم والغفر، وذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا بصورة أظهر، ولكن هؤلاء فيما يبدو -والله تعالى أعلم- لا يقصدون حصر التفسير في هذا، وإنما أن ذلك شيء يؤخذ من هذه الآية، ولكن لا يعارضون على الذي يذكره عامة المفسرين كما ذكر ابن كثير -رحمه الله- وكما يدل عليه القرآن كما في قوله: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة الحج:٦٥] وقوله: {وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا} "إنْ" هذه نافية، لما أمسكهما من أحد من بعده، يعني لا يستطيع أن يمسكهما

أحد من بعده، وهذه قضية قررها الله -تبارك وتعالى-، ومن ثَمّ فلا يمكن للسماوات والأرض أن تضطرب قبل يوم القيامة، ومن ثَمّ ما يذكره أهل الفلك حيناً بعد حين من أن كوكباً يتجه إلى الأرض أو أنه سيصطدم بها أو قد يصطدم بها أو نحو ذلك هذا كله كلام لا قيمة له، ولا حقيقة له إطلاقاً، وهكذا ما يذكرون -إن صح ذلك وصدقوا فيه- من ثقب الأوزون وما أشبه ذلك، وأن الحياة على وجه الأرض محددة وكل هذا الكلام إن سلم من مقاصد فاسدة لهم فلا يمكن أن تنتهي الحياة على وجه الأرض أبداً قبل يوم القيامة، لكن هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يعرفون هذه الحقائق ومن ثم فهم يضطربون هذا الاضطراب ويتخرصون هذه التخرصات، ويصدقهم بعض المسلمين.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا} [سورة فاطر:٤٢-٤٣].

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم: {لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ} أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [سورة الأنعام:١٥٦-١٥٧]، **وكقوله تعالى: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}** [سورة الصافات:١٦٧-١٧٠].

قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ} -وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين- {مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا}، أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: {اسْتِكْبَارًا فِي الأرْضِ} أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، {وَمَكْرَ السَّيِّئِ} أي: ومكروا بالناس في صدِّهم إياهم عن سبيل الله، {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ} أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

وقوله: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأوَّلِينَ} يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} أي لا تُغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا} أي: {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ} [سورة الرعد:١١]، **ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد.**

قوله -تبارك وتعالي-: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} يعني مجتهدين في اليمين، يعني بأقصى ما يستطيعون، ما أمكنهم ذلك {لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره** يعني أنه حمل ذلك على العموم، {أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ} من جميع الأمم، وقيده بعضهم بالمكذِّبة التي خلت من قبلهم، وبعضهم حمل ذلك على الأكمل في الأوصاف {لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ} من الأمة التي يقال لها ذلك، كأنها متفردة في الكمال ومفضلة على غيرها، فيقول: هذه إحدى الأمم، يعني متوحدة بالفضل والتفضيل على غيرها، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إن المعنى من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم، وهذا يشبه كلام ابن كثير -رحمه الله-، لكن كلام ابن

جرير يكون أدق أو أوضح مما قاله ابن كثير، يعني ابن كثير نقل قول الضحاك: أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جميع الأمم، وعبارة ابن جرير: من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم، يعني هذا يرجع إلى دليل الأمم، -والله تعالي أعلم-، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ} قال: أي استكبروا عن اتباع آيات الله، وبعضهم يقول: لأجل الاستكبار، من أجل الاستكبار في الأرض ومن أجل المكر السيئ {مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ} لأجل الاستكبار في الأرض {وَمَكْرَ السَّيِّئِ} أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله -تبارك وتعالى-، مكر السيئ: بعضهم يقول: فيه مقدر محذوف {وَمَكْرَ السَّيِّئِ} مكر العمل السيئ، أو مكروا مكر السيئ، فالمكر هنا مضاف إلى صفته، مكر موصوف بالسوء، يعني مثل مسجد الجامع، والصلاة الأولى، فأضيف إلى صفته {وَمَكْرَ السَّيِّئِ}، يعني مكروا المكر السيئ {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} يحيق هذه اللفظة –حاق- فيها معنى الإحاطة، يعني ولا يحيط، ومن فسره بأنه لا ينزل ولا يقع إلى آخره فهذا تفسير له بالمقارب.

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [سورة فاطر:٤٤-٤٥].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فَخُلِيَتْ منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض، {إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

ثم قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق.

وقال سعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّيّ في قوله: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب.

{وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: ولكن يُنْظِرهُم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهلَ الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}.

آخر تفسير سورة "فاطر" ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} قال: **لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق**، وما لا يملكونه من الدواب كالوحش والهوام ونحو ذلك؛ ولهذا فإن من المفسرين من حمله على العموم، والدابة تقال بإطلاق أوسع لكل ما يدب على الأرض، كل ما دب عليها من الهوام وذوات الأربع والإنس والجن كل هؤلاء يقال له: دواب بهذا الاعتبار، وتقال لذوات الأربع

بمعنى أضيق وليس ذلك هو المراد هنا، ليس المراد: أعني تحديداً، وبعضهم خصه بالإنس والجن باعتبار أنهم أهل التكليف، وأن العقوبات تقع عليهم دون غيرهم، وبعضهم خصه بالإنس باعتبار أنهم يدبون على الأرض، والظاهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك على العموم فيدخل فيه كل من دب على الأرض حتى الجعلان في جحرها تموت بذنوب بني آدم، وقد يكون ذلك بحبس المطر عنه كما جاء عن السدي وسعيد بن جبير فيكون ذلك سبباً للهلاك، وقد يكون بغيره مما أراده الله -تبارك وتعالى-، لكن الذين خصوا ذلك بالجن والإنس مثلاً أو بالإنس باعتبار العقوبة، وإنما العقوبة تقع على من فعلها، ولكن السلف -رضي الله تعالى عنهم- كثيراً ما يذكرون مثل هذا من جهة أن شؤم الذنوب يتعدى فيصل إلى هذه البهائم والدواب وما إلى ذلك، والله -تبارك وتعالى- يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [سورة الروم:٤١]، ومن هذا الفساد الذي حصل في البر والبحر ما يحصل من هلاك الدواب في البحار، وما يحصل من ألوان الفساد من التلوث ونحو ذلك، والقحط في البر إلى غير هذا، فهذه العقوبات تعم إذا نزلت، -والله المستعان-، ولهذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان...))[٦]، ذكروا في وجه هذا قالوا: باعتبار أنه يعلم الناس ما يسوغ وما لا يسوغ فيتكلم في أمور مباشرة في منع هذه الآثار الفاسدة والمُفسدة التي تأتي على هذه الدواب والبهائم، تُؤذَى ولا يحصل لها ضرر من جهة بني آدم يعني بالمباشرة، وكذلك أيضاً هو يعلم الناس ما تحصل به التقوى فلا يحصل انحباس القطر، ولا تحصل العقوبات العامة التي تتضرر منها هذه الدواب والبهائم في البر والبحر، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

---

٦ - رواه الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب ثواب معلم الناس الخير، برقم (٢٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٧١٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٨٨٣)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٣٠٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يس من الآية (١) إلى الآية (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [سورة يس:١-٧].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول "سورة البقرة"، {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

{إِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم.

{تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنزل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ} [سورة الشورى:٥٢-٥٣].

وقوله تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} يعني بهم: العرب فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذِكرُهم وحدهم لا ينفي مَنْ عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته -صلوات الله وسلامه عليه- عند قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [سورة الأعراف:١٥٨].

قوله: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ}: قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، {فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} بالله، ولا يصدقون رسله.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى الكلام على الحروف المقطعة بفواتح السور، وأن العلماء -رحمهم الله- ذكروا في ذلك نحو أربعين قولاً، ولكن في هذا الموضع ذكروا أيضاً أقوالاً تخصه، كقول بعضهم: إن {يس} اسم من أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: هو من أسماء الله، وبعضهم يقول: هو بمعنى يا رجل، وبعضهم يقول غير هذا، ولا يثبت من هذا شيء، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنها كغيرها من الحروف المقطعة في فواتح السور، وأنها لا معنى لها في نفسها، ولكنها تشير إلى معنى يتصل بإعجاز القرآن، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} {تنزيلَ} بقراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو بالرفع {تنزيلُ} على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير هذا تنزيل، أو هو تنزيل، أو أنه {تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ

الرَّحِيمِ}، وأما على هذه القراءة -قراءة الباقين- {تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} فبالنصب على المصدرية، {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، فهذا الكلام يقتضي أنه قد فسر "ما" هنا على أنها نافية {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ}، يعني لم يُنذَر آباؤهم، لم تسبق لهم نذارة، وهذا قول أكثر أهل العلم، أكثر المفسرين يقولون: إنها نافية والقرينة الدالة على هذا هنا في هذه الآية أنه قال: {فَهُمْ غَافِلُونَ} فهذا يبين الحال والعلة باعتبار أن هؤلاء لم تسبق لهم نذارة فحصلت لهم الغفلة فصاروا بهذه المثابة، لهذه العلة {فَهُمْ غَافِلُونَ} فالفاء تدل على التعليل لماذا كانوا غافلين؟ لأنهم ما أتاهم من نذير، وبعضهم يقول: إن "ما" هنا موصولة {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ} [سورة القصص:٤٦] يعني لتنذر قوماً الذي أتاهم، ولكن مع تلك القرينة السابقة التي ذكروا "فهم غافلون" ما يدل على أن هذا نفي أيضاً فإن ذلك أليق في السياق، يعني أي المعنيين أوضح وأليق في السياق {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} لم يأتهم نذير من قبلك، أو يكون المعنى لتنذر قوماً الذي أتاهم؟ الأول، ثم انظر في دخول من {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ} "من نذير" فهنا نذير نكرة في سياق النفي وسبقت بمن وهي تسبقها عادة في مثل هذا السياق ويكون ذلك للعموم أنه ما أتاهم من نذير من قبلك، وهذا يصدق على هؤلاء وهم أهل الفترة على كلام لأهل العلم في التفاصيل، يعني هل يكون النذير لم يأتِ هؤلاء، ولكن جاء لآبائهم الأولين يعني المتقدمين الذين أدركوا عيسى -صلى الله عليه وسلم-؟، وعلى القول أنه جاء بعده رسل أنهم أدركوهم أو أدركوا دعوتهم أو أدركوا شيئاً من ذلك، ولكن المتأخرين منهم لم يدركوا هذا {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ}، {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ} المقصود بالآباء يعني القريبين وليسوا بالآباء البعيدين الذين أدركوا عيسى -صلى الله عليه وسلم- مثلاً أو أدركوا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فإن آباء الرجل هم آباؤه وإن علوا، هنا {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ} لتنذر قوماً الذي أنذر آباؤهم يقول المعنى هكذا، وعلى النفي: لتنذر قوماً لم يُنذَر آباؤهم، والأقرب أنها نافية للقرينة المذكورة في الآية {فَهُمْ غَافِلُونَ} لكونهم لم يأتهم نذير، ثم قال: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} ما هذا القول الذي حق على أكثرهم؟ ومن المقصود بهؤلاء؟ الآن في قوله: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} إذا قلنا: إنها نافية فهذا يكون لقريش أو للعرب مع عموم دعوته، وقد أجاب الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن هذا بالآيات الأخرى، لكن هنا: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} يحتمل أن يرجع ذلك إلى أهل مكة، ويحتمل أن يرجع إلى العرب، باعتبار أن ما سبق يصدق على أهل مكة، وهو يصدق على العرب إذا قلنا: إن ما نافية "ما أنذر آباؤهم" فهم أهل فترة، ويحتمل أن يكون المراد بذلك العموم عموم الخلق {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ} باعتبار أنها موصولة فهذا لا إشكال فيه، أو باعتبار أن الآباء يُقصد بهم الآباء القريبون، وقوله: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} هنا ما المراد به؟ هنا نقل كلام ابن جرير قال: وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ}، {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [سورة البقرة:٧] فهؤلاء لا يصل إليهم الهدى ولا الإيمان ولا الموعظة، ومن أهل العلم من يقول: إن هذا القول الذي حق

عليهم هو المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة السجدة:١٣]، وهكذا سائر الآيات {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس:٩٦] سواء ذكرت الكلمة كلمة ربك أو ذكر القول، ولكن حق علينا قول ربنا يعني {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} حق علينا قول ربنا، فهذا ذكره الشيخ الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ويحسن مراجعة ذلك الموضع فقد ذكر الآيات في القرآن التي من هذا القبيل التي فيها ذكر "حق القول"، وفسرها بهذا المعنى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} فقال: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} [سورة ص:٨٤]، وهذا كله بهذا المعنى، رجع إلى هذا المعنى، وابن جرير -كما رأيتم- قال: وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، وهو قريب مما ذكره الشنقيطي، قريب مما ذكر، وذلك {جَزَاء وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦]؛ لأنه كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} [سورة محمد:١٧]، وأما هؤلاء الكفار فزاغوا {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف:٥].

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس:٨-١٢].

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غُل، فجَمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسُه، فصار مُقمَحا؛ ولهذا قال: {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} والمُقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زَرْع في كلامها: "وأشرب فأتقمَّح" أي: أشرب فأروى، وأرفع رأسي تهنيئا وتَرَوّياً، واكتفى بذكر الغُل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين.

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ} قال: هو كقول الله تعالى: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} [سورة الإسراء:٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير.

وقال مجاهد: {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} قال: رافعو رءوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

الغُل في العنق، والغِل في القلب، الغِل بمعنى الحقد، والغُل ما يربط به العنق، هذا مثل: ضربَه بالدُّرة والجوهرة الكبيرة، لكن ضربه بالدِّرة يعني العصا الصغيرة.

وقول الله -عز وجل-: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا} كثير من أهل العلم يقولون: إن ذلك من قبيل المثل، من أمثال القرآن مع أنه كما تلاحظون هنا لم يذكر لفظ المثل، ما قال مثلهم ولم يذكر تشبيهاً أصلاً: مثلاً {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة:١٧]، هذا تشبيه، وهنا ذكر المثل صرح فيه، قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٩] هذا راجع لما قبله بذكر المثل صراحة لكن في التشبيه {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} [سورة النور:٤٠] فهذا في الأمثال تذكر التشبيهات، وهنا لم يذكر لفظ المثل أصلاً ولم يذكر التشبيه صراحة، يعني ما ذكر حرفاً أو أداة تدل

على التشبيه، وهذا يوجد في بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل-، وأهل العلم الكثير منهم يعدونه من قبيل المثل، يقولون: هذا مثل مضروب لحالهم سواء كلن في عدم استطاعة الإيمان أو كان في عدم القدرة على فعل الخير وبذل المعروف، كما أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ولهذا يقول هنا: **إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غُل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه** يعني هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى أنه مَثَل حينما يقول: نسبة هؤلاء في الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غُل، هذا كلام ابن كثير يعني أنه مَثَل، وكثير من أهل العلم يصرحون بأن هذا من قبيل المثل المضروب لهؤلاء بصرف النظر عن المعنى المراد، وقوله هنا: **من جُعل في عنقه غُل فجمعت يداه إلى عنقه أو مع عنقه تحت ذقنه**، الذقن هذا هو مجمع اللحيين {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} قالوا: **المُقمح هو الرافع رأسه**، فالإنسان قد غلت يداه إلى عنقه وشدت فهو مقمح، صارت يداه إلى ذقنه، هكذا شدت في عنقه ارتفع الرأس، وتصوير هذا المثل بهذه الطريقة: رأسه مرفوع غاض بصره وإن غلت يداه ومن بين يديه سد ومن خلفه سد وعلى بصره غشاوة مثل هذا كيف يتصرف وكيف يفعل وكيف يهتدي وكيف يصل إلى الهدى؟ لا يمكن، هذا تصوير لحال هذا الإنسان الذي طبع الله على قلبه بعدما أعرض عن الحق وآثر الباطل ورد دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فعاقبهم الله -تبارك وتعالى- فصارت الهداية لا تصل إلى قلوبهم، ختم عليها، طبع عليها، قوله هنا: {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} قال: المقمح الرافع رأسه، ثم ذكر كلام أم زرع **وأشرب فأتقمح**، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويّاً، تشرب ثم تقول هكذا، يعني ليكون الشرب أهنأ وأمرأ إذا شرب الإنسان، وكذا يقال له: هنيئاً مريئاً، هي ترفع رأسها، لذا يشرب الإنسان بثلاثة أنفاس ليكون ذلك أهنأ وأمرأ، بعض أصحاب العلم -الإعجاز العلمي- يقول: لأنه ينزل لذا كان يحتاج أن يشرب ثلاثة أنفاس ويكون جالسا لأنه إذا كان واقفا فينزل مرتفعا فيتضرر بذلك، نقول: هو الذي ينزل إلى المعدة سواء كان جالساً أو كان قائماً المسافة واحدة، وبعض الناس يطرب لهذا الكلام وينقله ويذيعه، إعجاز علمي وما أشبه هذا، فهنا {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} هذا هو المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير: أنه يرفع رأسه ويغض بصره، هذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم، وقول جماعة من البصريين من أئمة اللغة، قال به الفراء والزجاج، يرفع رأسه، ويغض بصره، قال له: مقمح، فالإقماح رفع الرأس وغض البصر، يقول: أقمح البعير إذا رفع رأسه بهذه الطريقة عند الشرب، يعني رفع رأسه بعد الشرب أو لم يشرب، يعني رفض أن يشرب شتاء مثلاً حينما يورد على الماء لشدة برودته ونحو ذلك، وهو يرفع رأسه فيقال: أقمح البعير، رفع رأسه، وبعضهم يقول: إنه يكون مقنعاً، هكذا يكون مقنعاً يعني الرأس، يعني ينزل بذقنه هكذا ثم بعد ذلك حتى يصير الذقن إلى الصدر ثم بعد ذلك يرفع رأسه، هذا يعني الفرق أن أولائك أي الكوفيين يقولون: يرفع رأسه ويغض بصره، وهؤلاء أعني البصريين يقولون: هو الذي يقنع رأسه ثم يرفعه، كأن الأولين جعلوا الخفض في البصر وهؤلاء جعلوه في الرأس ثم يكون رفعه، أولائك جعلوا الخفض في البصر والرفع في الرأس، والمشهور عند المفسرين أن المقمح رأسه هو الذي يرفعه ويغض بصره، يرفع رأسه ويغض بصره فهم لشدة شد اليد إلى العنق ارتفعت رءوسهم ونزلت أبصارهم، قال هنا: **واكتفى بذكر الغُل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين** يعني على هذا المعنى وهو قول الأكثرين أن في الكلام حذفاً {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ

{أَغْلالاً} [سورة يــس:٨] جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، فالضمير يرجع إلى الأيدي على قول هؤلاء، {فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ} هنا {فَهُم مُّقْمَحُونَ} فيكون: فهي أي الأيدي إلى الأذقان مرفوعة جداً، يكون الغُل في العنق ولكن اليد إلى الصدر مثلاً، لكن هنا شدت حتى وصلت إلى العنق فارتفع الرأس، وهذا الذي يسمونه بالاكتفاء، يعني على هذا القول فيه مقدر محذوف، إنا جعلنا في أعناقهم وأيديهم، يقولون: هذا الاكتفاء عند البلاغيين بمعنى أنه اكتفى بذكر العنق -الغل في العنق- عن ذكر اليد؛ لأن ذلك معلوم للسامع؛ لأنه معلوم مثل سرابيل تقيكم الحر قالوا أيضاً: والبرد {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩]، يعني وإن لم تنفع، على هذا القول يسمونه الاكتفاء، اكتفى بأحدهما ليدل على الآخر، لكن هذا ليس محل اتفاق أن "فهي" ترجع إلى الأيدي وأن الأيدي لم تذكر؛ لأن ذلك معلوم للسامع، ولكن يدل على هذا القول قراءة لابن عباس وهي قراءة شاذة {إنا جعلنا في أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون} وفي قراءة أخرى شاذة: {إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً} ذكر اليمين هنا؛ لأن اليمين هي التي يُعطَي فيها ويأخذ، هذا يصلح للمعنى الثاني الذي ذكره في مسألة البذل والإنفاق كما سيأتي، فهنا هذا معنى وهو المشهور الذي عليه أكثر أهل العلم، واختاره من أهل المعاني الفراء والزجاج، والمعنى الآخر أن الضمير في قوله: {فَهِيَ} يرجع إلى الأغلال باعتبار {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ}، {فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ} يعني الأغلال على قول ابن القيم -رحمه الله- فهي أي الأغلال يقول: **لكونها عريضة**، ولكونها عريضة يرتفع العنق، الغُل عريض فالعنق يرتفع {فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ} يعني أن الأغلال تبلغ إلى الأذقان، ترتفع فيرتفع الرأس فلا يستطيع أن ينزل وينكس رأسه فقد أحاطت بعنقه، وهذا المعنى: كون الضمير يرجع إلى الأغلال وأنها عريضة إلى آخره هو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والذي عليه الأكثر هو أن ذلك يرجع إلى الأيدي {فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ} مشدودة إلى الأذقان.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ} **قال: هو كقول الله تعالى: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير**، فهذا معنى آخر، المعنى الأول هو ما يتصل بالبداية أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الهداية، والمعنى الثاني كقوله: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} الذي غلت يده إلى عنقه في القراءة التي أشرت إليها آنفاً {إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً فهي إلى الأذقان} هذا بمعنى هذا القول المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- غُلت أيمانهم، اليمين هي التي يكون بها البذل والعطاء إلى آخره، فهم لا يبذلون معروفاً ولا خيراً ولا طاعة، والله المستعان.

وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا}: قال مجاهد: عن الحق، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون، وقال قتادة: في الضلالات.

وقوله: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ} أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، {فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه.

قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: "فأعشيناهم" بالعين المهملة، من العشا وهو داء في العين.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧] ثم قال: من منعه الله لا يستطيع.

وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمدًا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً} إلى قوله: {فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ}، قال: وكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره، رواه ابن جرير.

هذه الروايات لا تصح أنها نزلت في هذا المعنى أنهم لا يبصرون النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمشهور عند السلف فمن بعدهم المعنى الأول: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} الهدى والحق، انطمست بصائرهم انمحت فصاروا في هذه الحال من العمى كما في آية البقرة وغيرها: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [سورة البقرة:٧]، هذا معنى {فَأَغْشَيْنَاهُمْ} فيكون على هذا الاعتبار عن الهدى، والقول الآخر عن رؤية محمد -صلى الله عليه وسلم- حينما أرادوا الإساءة إليه أو تآمروا على قتله كما جاء في بعض الروايات، ولكنه لا يصح من هذا شيء في سبب النزول، {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} ما المراد بـــ "بين أيديهم"؟ بعضهم يقول: {بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} يعني في الدنيا، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} يعني الآخرة كما يقوله الضحاك، وبعضهم يقول بالعكس {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} ما يستقبلوه من أمر الآخرة، ومن خلفهم ما وراءهم من الدنيا {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم} يعني عموا عن البعث سواء قلنا من بين أيديهم يعني الآخرة البعث وما بعده، ومن خلفهم الشرائع وما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- والإيمان وما إلى ذلك، أو العكس، وابن جرير يقول: المعنى أي زين لهم سوء أعمالهم {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ} وهذا يرجع إلى معنى ما ذكر من أنهم صاروا لا يبصرون الهدى، فإذا انطمست البصيرة صار الإنسان يرى الأشياء على غير حقيقتها فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً فهذا معنى {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} [سورة فاطر:٨]، وهو في هذه الحال يراه حسناً مع قبحه، وهكذا كلما ضعفت البصيرة فإن الإنسان يصير إلى حالٍ لا يبصر الأشياء على حقيقتها كما هي ولكن ذلك بحسب حال بصيرته قوة وضعفاً وعمى، ولذلك تجد من الممارسات والأفعال والأشكال والصور في الزي والهيئة وما إلى ذلك من الأعمال التي يستقبحها أهل الإيمان ويستبشعونها ذوقاً أيضاً قبل أن يكون ذلك ديانة، ومع ذلك ترى من خلْق الله -عز وجل- مَن يعملها أو يتزيا بها أو يظهر بهذه الصورة فيكون في حال من التشويه والقبح حتى يخيل إليك أنه ليس من جنس الآدميين بما عمل بنفسه وشعره، وعند نفسه أنه في أحسن الأحوال وأكمل الأوصاف، وقد حصّل من المروءات والكمالات الغاية، لذلك تستغرب تقول: هذا الآدمي ما يجلس أمام المرآة وينظر نظرة إلى نفسه فيعرف حاله هنا {زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} فإذا أردت أن تعتبر هذا المعنى انظر إلى أحوال الناس في أعمالهم وما هم عليه من بدع وضلالات وأهواء وأعمال وما يستحسنون من ذلك فيحمد المؤمن ربه على العافية، ولكن في الوقت نفسه عليه أن يدرك أنه يقع في أشياء يستحسنها وهي ليست كذلك لضعف البصيرة، -والله المستعان-، وهنا قال: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} والمعنى -والله تعالى أعلم- هو أن المقصود حيل بينهم وبين الهدى فهم لا يصلون إليها

فكانوا بتلك الصورة والمثابة في المثل المضروب.

وقوله: {فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} قال: وكانوا يقولون: هذا محمد فيقول: أين هو؟ ولا يبصرونه الرواية هذه، هذا القول عموماً: لا يبصرون محمداً حين ائتمروا على قتله قاله السدي وجماعة، بعضهم يقول: إن من قرأ هذه الآية أي قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} هذا القدْر عدوه لا يراه هكذا يقولون، وإنه يقرؤها حال خوفه من عدوه، فالله تعالى أعلم، لم يرد في هذا شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والمعنى ما ذكر، المعنى أنه وصف لحال الكافرين بكونهم لا يرون الهدى والإيمان.

وقوله: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به.

وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧].

{إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ} أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ} أي: لذنوبه، {وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة الملك:١٢].

يعني بخلاف حال المنافق فهو في العلانية أمام الناس يبدي تحرزاً وتحفظاً من مواقعة مالا يليق، وأما في حال السر فإنه ينتهك محارم الله -عز وجل- ولا يبالي، فهنا أثنى على هؤلاء وجعلهم المنتفعين بالنذارة {إِنَّمَا تُنذِرُ} وجاء بأسلوب الحصر كأن النذارة محصورة في هؤلاء مع أنه منذر للجميع لكن لمّا كان هؤلاء الذين ينتفعون بذلك أتى بهذا الأسلوب، {وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ} يعني أهل الإيمان وليسوا بأهل النفاق، فهؤلاء هم الذين ينتفعون بهذا، وهذا يدل على أهمية هذا الوصف ومنزلته في الإيمان، الخشية بحال الغيب إذا غاب عن أنظار الناس أن يراقب الله -تبارك وتعالى- فهذه درجة عالية ينتفع صاحبها غاية الانتفاع بالتذكير إذا كان مراعياً وحافظاً لله -عز وجل- في حال سره وغيبته، فهذا يدل على أنه بلغ مرتبة الإحسان، ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[1]، ومن بلغ هذه المرتبة العالية فإنه يكون في غاية الانتفاع بالتذكير والموعظة، ويضعف أثرها في قلبه إذا انحط عن تلك المرتبة بحسب درجته؛ ولهذا كما ترون الناس في الموعظة في المسجد في خطبة الجمعة وما إلى ذلك يخرجون على درجات متفاوتة منهم من يخرج كما دخل، ومنهم من يتأثر بما سمع وينتفع ويلين قلبه ويستجيب.

ثم قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب مَنْ يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، برقم (٨).

القلوب: {**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} [سورة الحديد:١٧].

يعني لاحظ الآن هنا {**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى**} قال: **أي يوم القيامة** يعني الإحياء الحقيقي البعث بعد الموت وهذا هو الظاهر المتبادر مع أن بعض السلف يقول: المقصود بذلك إحياء قلوب الكفار {**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى**}، وبعضهم يفسر نظائر هذا في القرآن بهذا المعنى كان ميتاً فأحييناه، يعني كافراً فهديناه وهذا بهذه الآية قال به من السلف الحسن البصري والضحاك يعني يحييها من الكفر إلى الإيمان، أو الإيمان بعد الجهل والضلال والكفر، ابن كثير -رحمه الله- فسرها على ظاهرها ثم قال: وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، فيكون هنا قد جمع بين المعنيين لكنه جعل المعنى الأول من قبيل الظاهر، والمعنى الثاني من قبيل الإشارة، هذه الإشارة هل هي إشارة القبول عند الأصوليين دلالة الإشارة، إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد علم؟، أنواع الدلالة في المنطوق: كلام منطوق ومفهوم، فأنواع المنطوق النص والظاهر والالتزام والإيماء والتنبيه والإشارة والتضمن، هذه أنواع دلالة المنطوق، دلالة المنطوق: المطابقة والتضمن والالتزام والإيماء والإشارة والتنبيه هل هذا هو المقصود هنا من كلام ابن كثير أو المقصود بالإشارة أن ذلك يشير إلى هذا المعنى من باب كأنه من باب الاعتبار والشيء بالشيء يذكر، ويقصد هذا المعنى الذي يسمونه التفسير الإشاري، وقد عرف بهذا النوع من تفسير الصوفية -التفسير الإشاري-، وبعضهم يقول: يصح التفسير الإشاري بشروط ويذكر منها ألا يكون في الكلام ما ينافيه ويعارضه، وأن يكون المعنى صحيحاً وإلا فيكون التفسير ليس باعتبار أنه المراد من الآية وإنما من باب الشيء بالشيء يذكر ونحو ذلك، والقياس والاعتبار، فهذا -بالشروط هذه- أمثلته المقبولة قليلة جداً أو نادرة، هذا مثال على ما يقبل من هذا، والقرينة على ذلك لاحظ هنا {**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ * وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**} هذا كله في مَن مُنع من الهداية، في الضلال يتخبطون {**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**} فذكر إحياء الموتى بعد ذكر الأحوال من الضلال التي يتخبط بها أصحابها ولا يرون الهدى، فيه نوع إشارة، فيه نوع مناسبة، إن إحياء الموتى فيه نوع ملائمة مع المعنى هذا، وهو أن الله يحيي القلوب الميتة فينقلها من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، لكن المعنى الظاهر المتبادر {**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى**} لاحظ {**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**} من هم؟ هؤلاء الذين يحييهم الله -عز وجل- الموتى {**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**} فهذا ظاهره، فالأمثلة على هذا النوع -أي التفسير الإشاري المقبول- قليلة جداً، هذا مثال، وهناك أمثلة أخرى، يعني ما يذكرونه مثلاً قوله تعالى: {**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**} [سورة الواقعة:٧٨-٧٩] المراد بالكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون اللوح المحفوظ، وبعضهم يقول: القرآن، ولكن الراجح أنه اللوح المحفوظ؛ لأنه قال: {**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**} والقرآن ليس كذلك، فالقرآن في اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون الذين هم الملائكة، إذا فسرت الآية بهذا من أهل العلم من يزيد زيادة هذه الزيادة هي التفسير الإشاري المقبول

وهي أنهم يقولون: وإذا كان الذي في السماء لا يمسه إلا المطهرون فينبغي أن يكون هذا الذي في الأرض {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} فيدخل في "المطهرون" المؤمن ولا يمسه الكافر، ومن عليه حدث أكبر لا يمس القرآن، ومن عليه حدث أصغر لا يمس القرآن، يعني المصحف مع أن الآية ليست في هذا، لكن يقولون: هذا من باب الاعتبار، إذا كان في السماء لا يمسه إلا المطهرون ففيه إشارة إلى كون هذا الذي بين أيدينا لا يمسه إلا المطهرون هذا يسمى بالتفسير الإشاري، والناس يستوحشون إذا سمعوا التفسير الصوفي ويقولون: ما لنا والصوفية، أقول: مَن ذكر من أهل العلم أن التفسير الإشاري يُقبل بشروط يقول: الأمثلة التي تصدق عليه قليلة أو نادرة، هذا منها، ومنها ما يذكر في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة))[2]، ذكر هذا شيخ الإسلام بنقله عن غيره، يعني يقول: فكذلك القلوب إذا كانت تحمل أخلاق الكلاب فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة، هذا من التفسير الإشاري، هذا أوضح، ولكن التخليط الذي في كلامهم -الألوسي والنيسابوري صاحب غرائب القرآن ورغائب الفرقان وأمثال هؤلاء- في نحو قوله تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ} [سورة التوبة:١٢٣] قال: هي النفس تذبح بسكين الطاعة، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [سورة البقرة:٦٧] قالوا: هي النفس {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} قالوا: هذا الصوفي ليس في شرخ الشباب، ولا في سن الهرم والشيخوخة فيضعف عن العبادة {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} [سورة البقرة:٦٩] قالوا: صفرة أصحاب الرياضات النفسية والمجاهدة والعبادة، ليست صفرة مرض، وهكذا.

وقوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} أي: من الأعمال.

وفي قوله: {وَآثَارَهُمْ} قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثّروها مِن بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزرُ مَنْ عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))[3].

رواه مسلم، عن جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه-، وفيه قصة مُجْتَابِي الثمار المُضريِّين[4]، ورواه ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله، فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}، وقد رواه مسلم من طريق آخر.

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير معنى مشهور ذكره كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو معنى ظاهر في الآية {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} ما قدموا: ما عملوه وباشروه من الأعمال صلى، صام، تصدق وما أشبه ذلك، {وَآثَارَهُمْ} ما تسببوا فيه من القدوة الحسنة

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٢٥)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، برقم (٢١٠٦).

٣ - رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

٤ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، برقم (١٠١٧).

واقتدى الناس بهم، من سن سنة حسنة كما في الحديث فله أجرها وأجر من عمل بها، فيكون ذلك دالاً على الهدى "من علم آية من كتاب الله فله أجرها ما تليت"[٥]، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كما في الصحيح، فتكون هذه هي الآثار وتبقى بعدهم، دلوا على هذه، سنوا سنة حسنة ما عمل بها يأتيهم الأجر بعد موتهم، هذا المعنى لا إشكال فيه ولا غبار عليه، وهنا معنى آخر أيضاً وهو **{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}** الخُطا التي تكون في الأعمال الصالحة أو السيئة يعني **{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}**، الذي سن سنة سيئة فإنه يجازَى على ذلك فيكون عليه مثل أوزار من تبعه من هؤلاء الذين أضلهم، فهؤلاء دعاة الضلالة بعدما يموتون تأتيهم الأوزار، لأنه قد أقام مؤسسة تنشر الضلال، أقام صحيفة تنشر الضلال، كتب مقالات، ألف، كتب، أسس، بدع، أسس مذاهب وفرقاً منحرفة، وهو بعدما يموت هؤلاء الذين يعملون بهذه الطريقة أو بهذا الضلال يأتيه وزرهم **{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ}** [سورة العنكبوت:١٣]، يحمل أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من آثارهم، وفي الهدى نفس الشيء من دل على هدى، المعنى الثاني الخطا التي يمشونها إلى المساجد، إلى مجالس الذكر والعلم وما أشبه ذلك ذهاباً وإياباً كل هذا يكتب، وهذا معنى صحيح، وذكر فيه الحديث فيما يتصل في بني سلمة لما أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((دياركم تكتب آثاركم))[٦]، وصح عند الترمذي في رواية: أن ذلك هو سبب النزول، مع أن ذلك لا يخلو من إشكال، وقد ذكر القرطبي -رحمه الله- أن هذه السورة مكية بالإجماع، وهذه الواقعة -قصة بني سلمة- كانت في المدينة قطعاً فكيف نزلت فيهم؟ فبعضهم كان يضعف الرواية أصلاً التي فيها التصريح بسبب النزول، لكن قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((دياركم تكتب آثاركم)) ثابتة في الصحيحين، والإمام أحمد، وهذه الرواية الثانية التي فيها التصريح عند الترمذي أنها سبب النزول، وبعض أهل العلم يضعفها، ولكن الترمذي حسنها وصححها الألباني، فإذا صحت هذه الرواية فيكون ذلك من قبيل سبب النزول الصريح، فهل يقال: إنها مستثناة نزلت في المدينة؟ يحتمل هذا، ويحتمل أنها نزلت مرتين، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- لما ذكر مثل هذا قال: ولعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها عندهم يعني عند هذا الموضع -أو هذه المناسبة- ذكر الآية، أو ذكرها جبريل بهذه المناسبة، لا أن الآية نزلت مرتين، يقول: ويمكن أن يحمل على هذا ما يقال فيه أنه نزل مرتين، لكن الذين قالوا الآية تنزل مرتين ولا إشكال يقولون كما يقول الحافظ ابن حجر: إنها قد تنزل ويتكرر النزول تذكيراً بالحكم الأول، ولبيان أن الحكم الجديد مثل الحكم الأول، أو نحوه يصدق عليه، أو نحو ذلك، فإذا قلنا: إن الأصل كل الآيات مكية فإذا ثبت شيء منها نزل في المدينة فهذا يقال: مستثنى، أو يقال: لعله نزل مرة أخرى تذكيراً بالحكم، أو كما يقول ابن القيم: النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأها أنها نزلت، أو قرأها جبريل في هذا المقام على النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانت نازلة عليه قبل ذلك، ولم يكن تنزيلاً جديداً، يعني من الله مباشرة في تلك اللحظة، وإلا فهي نازلة من الله المرة الأولى بلا إشكال.

---

٥ - رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، (٨/٢٢٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٥٧٠٤).

٦ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، برقم (٦٦٥).

وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده))[٧].

وقال سفيان الثوري عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهدًا يقول في قوله: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} قال: ما أورثوا من الضلالة.

قال ابن أبي نَجِيح وغيره، عن مجاهد: {مَا قَدَّمُوا}: أعمالهم، {وَآثَارَهُمْ} قال: خطاهم بأرجلهم.

قول مجاهد: **ما أورثوا من الضلالة** هذا من باب التفسير بالمثال، يعني ما أورثوا من الضلالة، وأيضاً من الهدى، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً ما ورد في هذا الحديث: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث..))، هي داخلة في هذه الآثار قطعاً من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية، وهكذا في بعض الأمور الأخرى التي وردت بغيره مثل أو مصحف ورثه أو نهر أجراه أو بيت لابن السبيل بناه، كل هذه الأشياء داخلة فيه، والأوقاف والمدارس التي ينشئها.

وكذا قال الحسن وقتادة: {وَآثَارَهُمْ} يعني: خطاهم، قال قتادة: لو كان الله تعالى مُغفلا شيئًا من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله فليفعل.

الذي يُكتب هو الممشى الذهاب والمرجع، ولا يقطعون وادياً فهذه كلها تكتب، والرجل الذي قيل له: لو اتخذتَ حماراً يعني تركبه للذهاب إلى المسجد، فذكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يحتسب ممشاه حينما يمشي إلى المسجد، ورجوعه حينما يرجع فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "كل ذلك قد كُتب لك"، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فدل على أن الرجوع من الطاعات من القربات يكتب.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال لهم: ((إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد)) قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: ((يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم))[٨]، وهكذا رواه مسلم عن جابر -رضي الله عنه.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: توفي رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: "يا ليته مات في غير مولده". فقال رجل من الناس ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله -صلى

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (١٦٣١)، والترمذي، أبواب الأحكام عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في الوقف، برقم (١٣٧٦)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٢٤٩٤)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٠١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٩٣).

٨ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٥٦٦)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، برقم (٦٦٥).

الله عليه وسلم-: ((إن الرجل إذا توفي في غير مولده قِيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة))[٩].
ورواه النسائي وابن ماجه.
وروى ابن جرير عن ثابت قال: مشيت مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشينا رويدًا، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شعرتَ أن الآثار تكتب؟ أما شعرتَ أن الآثار تكتب؟.
وهذا القول لا تنافِيَ بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فلأن تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

يعني هنا جمع بين القولين، فإذا كان كل قول تدل عليه أدلة، القول الأول والقول الثاني الذي عليه الأدلة ولا يوجد ما يمنع من حمل الآية على المعنيين تحمل عليهما لاسيما إن كان بينهما ملازمة، كأن يكون مثلاً أحد المعنيين يلزم منه الثاني، يقتضي القول الآخر كما هنا، فهذا مما يقال فيه: إن الآية تحمل على هذا وهذا، وهذا هو الأقرب، وإن كان ابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على كتابة الآثار التي هي بمعنى الخطا، وسبقه إلى هذا جماعة من السلف واختاره النحاس، وهنا في الحديث أثر ثابت عن أنس: أخذ بيدي، لما أسرع أنس المشي، قد يقول قائل: إن النتيجة واحدة سواء كان قد أسرع أو لا، هي الخطا، يمشي على قدميه أسرع أو لم يسرع، ولكنه يمكن أن يقال: إن الإسراع يكون فيه تباعد بالخطا، بخلاف الذي يمشي رويداً تتقارب خطاه، وليس معنى ذلك أنه إذا مشى إلى المسجد يمشي مشياً متماوتاً حتى يكتب له، يعني يلصق الخطوة بالخطوة، لا يتكلف هذا، إنما يمشي مشية مترسلة كما قال الله -عز وجل-: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان:٦٣]، مشية معتدلة بسكينة ووقار كما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، أما قوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:٩]، فقد مضى الكلام عليه عند تفسير هذه الآية وهو أن المراد العمل على حضورها كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وغيره، وليس المقصود الإسراع بالمشي؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عنه ((فأتوها وأنتم تمشون))[١٠]، لا تعارض.

وقوله: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هاهنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

يعني الإمام المبين أم الكتاب اللوح المحفوظ وهذا اختيار ابن جرير، وابن القيم، والشنقيطي، وهذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم- فالإمام المبين اللوح المحفوظ، وبعض أهل العلم يقول: المقصود به هنا صحائف

---

٩ - رواه النسائي، كتاب الزكاة، باب الموت بغير مولده، برقم (١٨٣٢)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن مات غريبا، برقم (١٦١٤)، وأحمد في المسند، برقم (٦٦٥٦)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦١٦).

١٠ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا، برقم (٦٠٢).

الأعمال، أنها تكتب فيها أعمال العباد.

وكذا في قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٧١] أي: **بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر.**

هذا غير الإمام المبين الذي في سورة يس هناك اللوح المحفوظ {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}، هنا {نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} فيها أقوال، ومنها أن المقصود كتاب الأعمال بقرينة {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ}.

كما قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [سورة الزمر:٦٩]، **وقال تعالى:** {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة **الكهف**:٤٩].

هذه صحائف الأعمال، كُتب الأعمال وليس اللوح المحفوظ، والذي في الآية هنا هو اللوح المحفوظ {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} فأعمال العباد مكتوبة في اللوح المحفوظ، كما أنها تكتب في الصحف التي بأيدي الملائكة، وهذا المراد بقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} وقال الله تعالى: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة:٦].

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يس من الآية (١٣) إلى الآية (٣٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [يس: ١٣ - ١٧].

يقول تعالى: واضرب -يا محمد- لقومك الذين كذبوك {مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} [يـــس: (١٣)] قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: أنطيخس بن أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصدوق وشلوم، فكذبهم.

وهكذا روي عن بريدة بن الحصيب، وعكرمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} [يـــس: (١٣)] هنا جاء ضرب المثل في ذكر خبر هؤلاء القوم وما وقع لهم مع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وقد مضى الكلام في الأمثال، وبينا أن الأمثال تطلق بإطلاق واسع عند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على خلاف ما يتناقله أهل العلم في المراد بالمثل في القرآن، فهو يقول بأن ذلك يشمل القصص المذكورة في القرآن، وهذا يشهد لذلك؛ إذ إن عامة أهل العلم من المفسرين وغيرهم يعبرون عن المثل فيقولون: إنه ما يصور به المعنى المعقول بصورة حسية تقريباً للأفهام، أو ما يعبرون به مما يقرب من ذلك، وهذا يصدق على بعض الأمثال، وربما يصدق على الأمثال الواضحة في القرآن التي لربما يُدرِك أنها مثلٌ أكثرُ الناس كقوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [البقرة: (١٧)] فهذا قرّب فيه المعنى المعقول بصورة محسوسة، لكن قصص الأنبياء، قصص الأمم، أخبار الغابرين، هل هذه من الأمثال؟ شيخ الإسلام يقول: نعم، هي من الأمثال، والله قال عنها ذلك: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} [يـــس: (١٣)] {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا} [الكهف: (٣٢)].

فشيخ الإسلام –رحمه الله- يرى أن المثل يرجع إلى معنى الشبه، وأن ذلك إنما يكون فيما يحصل به الاعتبار، لما يحصل به الاعتبار، بالنظر إلى أحوال هؤلاء، وما جرى لهم سواء من إدالة الرسل وأتباعهم

على أقوامهم، أو مما وقع لهؤلاء الأقوام من العذاب ونحو هذا، فيرجع الناس إلى أنفسهم؛ لأن الله لم يذكر هذه القصص للتسلية .

هنا قال: إن ذلك يراد به مدينة أنطاكية، واسم هذا الملك، وهؤلاء الرسل، ولم يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومثل هذه الأشياء إنما نقبلها ونصدقها ونعتقد بموجبها ومقتضاها إذا كان ذلك عن المعصوم -صلى الله عليه وسلم- بإسناد صحيح، وهذا غير موجود، وهذه الروايات كأنها مما تلقي من بني إسرائيل، والموقف من الإسرائيليات معروف، وإذا تتبعت الروايات الواردة في هذا تجد أنها مختلفة كثيراً في أسماء هؤلاء الذين أرسلوا واسم ذلك الملك، وكذلك أيضاً في حقيقة هؤلاء، وفي أي زمان، هل كانوا من الرسل الذين أرسلهم الله -عز وجل-؟ أو ممن أرسلهم المسيح -عليه الصلاة والسلام- من الحواريين؟ هذا كله يدل على أن المرجع إلى أخبار بني إسرائيل وهي أخبار لا يوثق بها، مع أن القول بأن المراد بذلك أنطاكية قال به جماعة من أهل العلم، منهم: بريدة وعكرمة وقتادة والزهري، بل عزاه القرطبي إلى جميع المفسرين، والواقع أن ثمّة من خالف في هذا، أن هناك من خالف في المراد، وإن كان عامة المفسرين يقولون: أنطاكية، لكنه يرِد على هذا ما سيذكره ابن كثير -رحمه الله- من الإشكال، حاصله أن أنطاكية كانت من أول من آمن بالمسيح -عليه الصلاة والسلام-، هذا على القول بأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أَرسل إليهم من الحواريين، أو على القول بأن هؤلاء الرسل كانوا بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- أن الله أرسلهم؛ لأن هناك من يقول بأنه أرسل بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بعض الرسل، ولا يثبت شيء من ذلك، وكذلك أيضاً الإشكال الذي أورده ابن كثير -رحمه الله- يرجع إلى أن أهل أنطاكية لا يُعرف أنهم عذبوا عذاباً كهذا مستأصلاً، والإشكال الثالث الذي أورده -وكلها إشكالات قوية- أن أهل العلم يقولون: إنه لم يرد عذاب مستأصل بعد نزول التوراة، وإنما يكون ذلك بالقتال بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فيعذبون بأيديهم ويحصل لهم من القتل والأسر وما أشبه ذلك، أما العقوبات المستأصلة فكانت قبل نزول التوراة.

وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة، إن شاء الله تعالى.

وقوله: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا} [يــس: (١٤)] **أي: بادروهما بالتكذيب.**

الفاء في قوله -تعالى-: {فَكَذَّبُوهُمَا} تدل على التعقيب المباشر، بمجرد ما أرسلوا إليهم لم يتريثوا ويتلبثوا ويتحققوا ويتحروا، بل بادروا بالتكذيب مباشرة.

وفي قوله: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ} دليل على أن الله هو الذي أرسل، وهذا فيه رد على من قال بأن المسيح -عليه الصلاة والسلام- هو الذي أرسل هؤلاء الرسل، وكانوا من الحواريين، لكن أولائك لا يعجزون عن الجواب، فقالوا: إن إرسال المسيح -عليه الصلاة والسلام- للرسل كان بأمر الله -عز وجل-، فأضاف الله ذلك إلى نفسه بهذا الاعتبار، لكن هذا خلاف الظاهر، فإرسال الرسل حينما يرد بالقرآن إنما ذلك بمعنى أن هؤلاء أرسلهم الله بوحيه إلى من أرسل إليهم.

{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} **أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث، قال ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي قال: كان اسم الرسولين الأوليْن شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية.**

{فَقَالُوا} أي: لأهل تلك القرية: {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبو العالية.

وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح -عليه السلام- إلى أهل أنطاكية، {قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة. وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه.

{قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} لو كان المسيح -عليه الصلاة والسلام- أرسل من الحواريين ما احتاجوا أن يقولوا: {مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} المسيح سيرسل لهم بشراً من أصحابه، إنما ذلك يقوله الكفار عادة إذا جاءهم من يقول: أرسلني الله إليكم، فيستكثرون ذلك ويستعظمونه ويقولون: {لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً} [فصلت: (١٤)].

وقوله: {قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [إبراهيم: (١٠)]، وقوله حكاية عنهم في قوله: {وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ} [المؤمنون: (٣٤)]، {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: {مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} [يـــس: (١٥-١٦)] أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [العنكبوت: ٥٢].

{وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [يـــس: (١٧)]، يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبّ ذلك، والله أعلم.

لم يذكر الله -تبارك وتعالى- لهم آية خارقة بمعنى المعجزة، وقد مضى الكلام على هذا في قصة هود -صلى الله عليه وسلم- لما قال له قومه: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [هود: (٥٣)]، وكلام أهل العلم في ما جاء به هود -عليه الصلاة والسلام- وما قاله لقومه: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ} [هود: (٥٥)]، وأنه تحداهم، فبعضهم يقول: هذه معجزته، وهذا غير صحيح، وليس من الأمور الخارقة للعادة، هذا قد يقع لغيره، ولكن عدم ذكر تلك المعجزة لا يدل على عدم وجودها، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ،

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة))[1] فآيات الأنبياء وما تقوم به الحجة على الناس لا يلزم منه وقوع خوارق العادات، وسؤالات هرقل التي سألها لأبي سفيان لم يكن فيها شيء واحد عن خوارق الآيات، ومع ذلك عرف أنه نبي وأنه سيملك ما تحت قدميه، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدل على أن آيات الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- منها ما يكون من قبيل الخوارق، ومنها ما لا يكون من قبيل الخوارق للعادات، وصِدقُ النبي يعرف بأشياء منها ما يدعو إليه، ومنها حاله قبل ذلك -قبل البعثة- وأوصافه، ومنها ما يظهر على وجهه من أمارات الصدق والإشراق، وما أشبه ذلك.

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [يــــس: (١٨-١٩)]. **فعند ذلك قال لهم أهل القرية: {إنا تطيرنا بكم} أي: لم نر على وجوهكم خيرا في عيشنا، وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها.**

يعني بمعنى أنهم تشاءموا منهم، كما كان الكفار يقولون لأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام–، فقد قال فرعون لموسى -صلى الله عليه وسلم-: **{اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}** [النمل: (٤٧)] فكانوا يتشاءمون، **{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}** [الأعراف: (١٣١)]، وهذه ليست من قول فرعون، بل قد قالها قوم صالح -عليه الصلاة والسلام-.

قوله: {لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} [يــــس: (١٨)] قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم.

قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم، فالرجم يكون تارة بالحجارة وقد يكون أيضاً بالشتم، والعلماء -رحمهم الله- يختلفون في تفسير هذه المواضع في كتاب الله -تبارك وتعالى-، أي ما جاء فيه الرجم -ذكر الرجم- إلا في موضع واحد وهي الآية المنسوخة لفظاً وهي قوله: {الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبته نكالاً من الله} فهنا المقصود به الرجم بالحجارة، وما عدا ذلك فإنهم يختلفون فيه، فبعضهم يقول: المقصود الرجم بالحجارة، وبعضهم يقول: المقصود معنى آخر وهو الشتم، كما قال مجاهد، وبعضهم يقول كالفراء: إن عامة المواضع في كتاب الله -عز وجل- التي يذكر فيها الرجم المقصود به القتل، وإن الموضع الذي يُختلف فيه يُرجع فيه إلى الغالب إذا كان محتملاً، ينظر لاستعمال الغالب في كتاب الله -عز وجل- فيفسر به، فعند الفراء أن المقصود بذلك القتل، وهذا العذاب الأليم.

{وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [يــــس: (١٨)] أي: **عقوبة شديدة.**

هو هذا العذب الأليم، لا حاجة إلى تقييده بمعنى كذاك الذي يقول بأنه الشتم، ولا دليل على هذا، لكن العذاب الأليم العذاب المؤلم، يتوعدونهم بالرجم، والعذاب الأليم أعم من الرجم سواء قيل بأن الرجم هو القتل، أو قيل

---

[1] - أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل (٦/١٨٢)، رقم: (٤٩٨١)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (١/١٣٤) رقم: (١٥٢).

بأنه الرجم بالحجارة، أو قيل بأنه الشتم.

فقالت لهم رسلهم: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} [الأعراف: ١٣١]، **وقال قوم صالح: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ}** [النمل: ٤٧]. **وقال قتادة، ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم، وقال تعالى: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}** [النساء: ٧٨].

{طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي: مردود عليكم، يعني كأنه يقول: إن شؤمكم معكم، يعني من قِبل أنفسكم لازم لكم في أعناقكم، والإضافة إلى العنق عادة؛ لأنه جزء لا ينفك إلا بمفارقة الحياة، والشيء يمكن أن يعلق باليد فتنفصل اليد ويبقى الإنسان حياً، لكنه يعلق بالعنق، وتقول: هذه أمانة في عنقك؛ لأن هذا الجزء لا ينفك إلا بمفارقة الحياة، {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [الإسراء: (١٣)]، فالطائر في هذه الآية عمله، لكن هنا قالوا: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}، أي: أن شؤمكم معكم من جهة أنفسكم لازم في أعناقكم، وبعضهم يقول: رزقكم وعملكم معكم، يعني: أن ذلك جميعاً قد كتب عليكم، فواقعٌ بكم ولا محالة، يعني: ما كتب لكم من رزق وعمل وأجل فهو واقع متحقق، يعني: لا علاقة لنا به ولا لمجيئنا فلا تتشاءموا بنا، هذا المعنى، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير - رحمه الله - وسبقه إلى ذلك الفراء، واضح الفرق بين المعنيين، الأولون يقولون: شؤمكم معكم لازم لكم بسبب أعمالكم وليس بسببنا، والقول الآخر: أن ذلك من الأرزاق والآجال، وما إلى ذلك كله قد كُتب، فالطائر صار بمعنى ما كتب على الإنسان وقدر من رزق وأجل وعمل.

وقوله: {أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [يـــس: (١٩)] **أي: من أجل أنا ذكّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا؟ بل أنتم قوم مسرفون، وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟، بل أنتم قوم مسرفون.**

بعضهم يقول: من عادتكم الإسراف في المعصية، أنتم مسرفون على أنفسكم في الكفر والمعاصي، مجترئون عليها مستكثرون منها، وبعضهم يُرجع ذلك إلى التطير كقتادة، بل أنتم قوم مسرفون في تطيركم، يعني: متوسعون فيه مكثرون منه، فبادروا الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بمثل هذه التهمة، وبعضهم يقول: مسرفون في كفركم، وهذا يرجع إلى ما سبق، وقال بعضهم: بمعاصيكم وذنوبكم، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ما بكم التطير بنا، ولكنكم قوم أهل معاصٍ.

فليست المسألة عندكم مسألة تطير ولكنكم قوم مسرفون في كفركم ومعاصيكم، فعبرتم بذلك لدفع دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام– ومناهضتها، فجئتم بهذه الشبهة أو بهذه الفرية التي افتريتموها علينا، وغاية ما هنالك أنكم تريدون الإقامة على إجرامكم وكفركم ومعاصيكم، يعني: أنهم غير متشائمين حقيقة، ولكن استمرءوا حالاً كانوا عليها من الكفر والمعاصي، وما قصه الله -تبارك وتعالى- عن الرسل مع أقوامهم أنهم تطيروا بهم يدل على أنهم كانوا يتطيرون بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا لا يمنع أن يكون التطير

له دوافع، منها أنهم يريدون الإقامة على الضلال والانحراف والكفر، ولكن أيضاً هؤلاء لفساد اعتقادهم يُسرع إليهم التطير، ولهذا فإن التطير هو من أخلاق وأعمال الجاهلية، وهو نقص في توحيد العبد، فحينما يتطيرون فإن هذا هو مظنة ذلك، أعني هؤلاء الكفار هم مظنة التطير، كانوا يتطيرون بالطيور، وبأشياء كثيرة كما هو معروف، فإذا جاءتهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- تطيروا بهم، يقولون: لمَا يرون ما يكرهون، ولهذا رد الله -عز وجل- عليهم: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [النساء: (٧٩)] في مقام التقرير، وفي مقام الرد عليهم {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: (٧٨)] .

قال سبحانه: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ *وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} [يس: ٢٠ - ٢٥].

قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه-: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير -وهو الحبال- وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم النظرة.

وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس –أيضا- قال: اسم صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه.

{قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}: يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم، {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} أي: على إبلاغ الرسالة، {وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

هذا كله من الإسرائيليات ليس ذلك بمحل اتفاق أنه حبيب النجار، بعضهم يذكر غير هذا، وكونه يصنع الحبال ويصنع شيئاً آخر هذا ما تلقي عن بني إسرائيل، وهذه صفات الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فلا يقال: إن هؤلاء ممن أرسلهم المسيح -صلى الله عليه وسلم.

وفُهِم أنهم قتلوه من قوله -سبحانه-: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: ٢٦، ٢٧]، مع أن الآية لم تصرح بهذا، وقد يقول قائل: إنه قيل له ادخل الجنة بعدما مات، وإن صح حديث عروة وابن مسعود فيكون دليلاً على أنهم قتلوه.

{وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

{أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ} أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا، فإن الله لو أرادني بسوء، {فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ} [يونس: (١٠٧)]، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه، {إني إذا لفي ضلال مبين} أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ}: قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب-: يقول لقومه: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ} الذي كفرتم به، {فَاسْمَعُونِ} أي: فاسمعوا قولي.

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ} أي: الذي أرسلكم، {فَاسْمَعُونِ} أي: فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني قد آمنت بربكم واتبعتكم.

وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب-: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه.

وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: "اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون". فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك، فقتلوه، -رحمه الله.

أقعصوه يعني قتلوه قتلاً مجهزاً في مكانه، أقعصوه قتلوه في مكانه قتلاً مجهزاً، القتل المجهز يقال له: إقعاص.

{قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يس: ٢٦، ٢٩].

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود: إنهم وطِئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره، وقال الله له: {ادْخُلِ الْجَنَّةَ}، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها.

وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قُتل فوجبت له، فلما رأى الثواب {قال يا ليت قومي يعلمون}.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحا، لا تلقاه غاشا؛ لمّا عاين ما عاين من كرامة الله {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له، وما هَجَمَ عليه.

وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}، وبعد مماته في قوله: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} رواه ابن أبي حاتم.

وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} بإيماني بربي وتصديقي المرسلين.

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه.

قال ابن أبي حاتم عن عبد الملك -يعني ابن عمير- قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ابعثني إلى قومي أدعُهم إلى الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إني أخاف

أن يقتلوك". فقال: لو وجدوني نائما ما أيقظوني، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "انطلق". فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحنك غدا بما يسوءك، فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عزى، أسلموا تسلموا، يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا، قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله، فبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: "هذا مثله كمثل صاحب يس، {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}.

ما ذكره عاصم الأحول قال: بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، وهذا الذي قاله ابن جرير أيضاً في معنى الآية، وحديث عروة بن مسعود من قبيل المرسل لكن قد يكون له طريق آخر فيراجع، وإن صح فيدل على أنه قُتل مع أن ظاهر الآية أنهم قتلوه.

وقوله: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} [يـــس: (٢٨)]، يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضبا منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه، ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك، قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عنه أنه قال في قوله: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} أي: ما كاثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك، {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يـــس: (٢٩)]، قال: فأهلك الله ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية.

هذا هو القول المشهور الذي عليه عامة المفسرين، أعني أن قوله: **{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** المقصود بذلك أن إهلاكهم ما احتاج إلى جند من الملائكة من أجل هذا الإهلاك، وإنما الأمر كان أيسر من ذلك، خلافاً لقول من قال: إن المعنى في قوله: **{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** يعني: رسالة أرسلناها إليهم بعد ذلك، وحاول بعضهم أن يتأول على قول من قال: أي برسالة من السماء، فالرسالة لا يقال عنها: إنها جند، فبعضهم قال: أي: بإرسال رسل وأن المقصود بالرسالة ما يلزم منها من إرسال الرسل؛ لأن قول من قال: برسالة اعترض عليه؛ لأن الرسالة لا يقال لها جند، وهذا ضعيف، وإنما المقصود أن الله استأصلهم وعذبهم وأهلكهم جميعاً.

وقيل: {وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم.

وقيل: المعنى في قوله: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ} أي: من رسالة أخرى إليهم. قاله مجاهد وقتادة.

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}.

قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جندا.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل -عليه السلام-، فأخذ بعضادتيْ باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة

واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق فيهم روح تتردد في جسد.

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح، -عليه السلام-، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يُذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله -عز وجل-، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ} [يـــس: (١٤)] إلى أن قالوا: {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [يـــس: (١٦-١٧)]. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، -عليه السلام-، والله أعلم.

ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: {مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} [يس:١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرَّهابين، ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطّده، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها.

قد مضى الكلام على شيء من هذا، وما فعله ملك الروم، وما إلى ذلك في بلاد الشام ومصر، وأُنفقت الخزائن للملوك بهذا السبيل، لما انتقل إلى القسطنطينية أيضاً، فالبطريك والبترك أصلها كلمة يونانية تعني: الأب الرئيس، وهؤلاء أربعة يعني بمنزلة البابا، البابا الذي في مصر هذا بهذه المنزلة، الأب الرئيس، فهذا من كبار أهل ملتهم، وهذه الوظائف في ديانة النصارى ليست محل اتفاق عند النصارى، وكلها حادثة بعد المسيح -عليه الصلاة والسلام-، وهذه الرتب: القساوسة أوالبتاركة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والرَّهابين إلى آخره، هذه كلها مسميات لمراتب دينية وظيفية عندهم في الكنيسة، اللهم إلا الرهبان وليست محل اتفاق عند النصارى لاختلاف مذاهبهم الأرثوذكس مثلاً والبروتستانت، وهؤلاء يختلفون في مثل هذه الأشياء فيعتبرون بعضاً دون بعض، ومن أراد فليقرأ في تاريخ النصارى سيجد هذه المسميات مُقرَّة جميعاً عند بعض مذاهبهم، وتجد بعضها دون بعض في مذاهب أخرى، فهذا البطريك هو الأعلى مثل البابا يقال له ذلك، المرتبة التي بعدها تأتي هي المطران، هو دون البابا أو دون البطريك، فالبابا مثلاً في مصر تحته أربعة من هؤلاء الذين يقال لهم مطارنة، فهي مرتبة بعد البابا، ثم يأتي بعد ذلك عندهم الأساقفة، أسقف هي أيضاً كلمة يونانية، والبطريك أيضاً كلمة يونانية في أصلها، الأسقف بمنزلة المشرف عندهم دون المطران، ولكنه فوق القسيس، ثم بعد ذلك يأتي القسيس وهي كلمة أيضاً يونانية بمنزلة الشيخ، القسيس هو الذي يفتيهم، ويجيب على أسئلتهم، يعني: شخصية علمية عند النصارى يسألونه ويستفتونه، من رؤسائهم في العلم، الذي يقيم لهم الصلوات، هذا القسيس، ثم يأتي بعد ذلك الشماس وأيضاً كلمة يونانية الشماس دون القسيس يعني بمنزلة الخادم، خادم في الكنيسة مثلاً فهو يقرأ الكتاب المقدس، ويقوم بخدمة المذبح، يعني: يقوم بأعمال

مساندة، لكن ليست شخصية علمية، ولذلك تجد مثل هؤلاء الشمامسة لا يطلب من الواحد منهم ما يطلب من غيره ممن هم فوقه ألا يتزوج مثلاً ويكون له أولاد إلى آخره، لا، الشمامسة يتزوجون ويكون لهم أولاد بل بعضهم يشترط هذا؛ لأنه يقوم على ممارسة هذه المهنة بين الرجال وكذلك بين النساء، وكذلك اشتراطات سن معين عندهم في هذه الوظائف، كل وظيفة وكل مرتبة لها شروط من السن، فبعض ذلك لا يشترط فيه السن، وبعضه يشترط فيه السن، أما الراهب فهو بمنزلة العابد لكن في الدير، فهذه كلمة تعني عندهم التبتل والفقر والزهد والعبادة وما أشبه ذلك من الطاعة، يعني: هو رجل عابد منقطع، هذا هو الراهب، وإن كانت هذه الكلمة تستعمل عند غيرهم كالبوذيين، ونحو هذا اليهود.

كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، فالله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى} [القصص: (٤٣)].

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينةً أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أُهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

على كل حال مثل هذا لا أثر له، وقد سبق الكلام في عدد من المناسبات عن المبهمات في القرآن، وأن معرفة ذلك لا فائدة تحته، لا طائل تحته، اللهم إلا في مواضع بسيطة كدفع تهمة ونحو ذلك.

{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: ٣٠ - ٣٢].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} أي: يا ويل العباد.

وقال قتادة: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}: أي يا حسرة العباد على أنفسها، على ما ضيعت من أمر الله، فرطت في جنب الله، قال: وفي بعض القراءة: "يا حسرة العباد على أنفسها".

ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذِّبون منهم.

{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق.

لاحظوا عبارات المفسرين هنا في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}، قراءة الجماهير

وهي القراءة المشهورة بالنصب على أنه منادى نكرة منصوب، يا حسرةً احضري، هذا أوانك فاحضري على العباد، وبهذا عبر جماعة من أهل العلم منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.
فإن الاستهزاء بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو أوان ظهور الحسرة على هؤلاء المستهزئين، وبعضهم يقول: إن ذلك بالنصب على المصدرية وإن المنادى محذوف {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} يعني: يا هؤلاء تحسروا، حسرة منصوب على المصدرية، يعني: فيه تقدير محذوف، والأصل عدم التقدير، لكن كل هذه العبارات من أجل أن ذلك جاء من قول الله -تبارك وتعالى- {يَا حَسْرَةً} فهل التحسر يضاف إلى الله -عز وجل- من جهة المعنى؟، فتجد المفسرين يحاولون تفسير ذلك بمعنى يرجع إليهم، يرجع إلى المكذبين؛ لأن أصل الحسرة هي الندامة البالغة، تحسر على الشيء يعني: ما يلحقه بسبب الندم الكبير الذي يحصل له فيتحسر كأنه ينقطع لشدة ندمه فيكون حسيراً، وابن جرير كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا قال: المعنى يا حسرةً من العباد على أنفسهم، مع أن الله قال: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} لكن على هذا يكون باعتبار أن حروف الجر تتناوب، يُضمَّن بعضُها بعضاً فتكون على بمعنى من، ويكون المعنى يا حسرة من العباد، وهذا قد يكون فيه إشكال أي أن على بمعنى من، كما يقول ابن القيم في غير هذا الموضع: إن حروف الجر إذا قيل بتناوبها أو بتضمين بعضها بعضاً فإن ذلك يبقى معه رائحة على الأقل من أصل المعنى الذي يتبادر من الحرف، مثلاً على تدل على الاستعلاء، وفي تدل على الظرفية، وما أشبه ذلك، فيبقى فيها من هذا المعنى.
على كل حال القراءة غير المتواترة المروية عن ابن عباس وعلي بن الحسين زين العابدين -رضي الله عنهم-: يا حسرة العباد.
والقراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، أن الحسرة صادرة من العباد، وهذه القراءة مروية عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه-، وبعضهم كالضحاك يقول: إن هذا صادر من الملائكة، هم الذين يقولون هذا يا حسرةً على هؤلاء الكفار الذين كذبوا، وهذا فيه بعد؛ لأن ظاهر السياق ليس فيه ما يدل على هذا، وبعضهم يقول: إن هذا صادر من الكفار أنهم لما هلكوا وعاينوا العذاب تحسروا على تلك الأرواح الطيبة التي كذبوها أعني الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وما لقيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- منهم، تحسروا على قتلهم وتمنوا الإيمان بهم، وهذا أبعد من الذي قبله.
وبعضهم يقول هذا على ظاهره أن التحسر من الله على هؤلاء الكفار، لكن هذا التحسر بمعنى الندم البالغ الذي يحصل معه الانقطاع، ويقولون: هذا على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جناه هؤلاء الكفار، وبعضهم يقول: هي نوع قائم برأسه ليس من المجاز، وعامة أهل العلم يضيفون ذلك إلى هؤلاء الكفار، يعني: يا حسرة العباد على أنفسهم.
ويقول السعدي -رحمه الله-: قال الله متوجعا للعباد: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي

سبب لكل شقاء وعذاب ونكال"[٢].

فقوله: متوجعا على العباد، هذا لا يضاف إلى الله -عز وجل- لا يقال في حق الله مثل هذا، فالله لا يتوجع -تبارك وتعالى- ولا ينسب إليه مثل ذلك، مثل هذه العبارة كان ينبغي أن يعلق عليها وأن يعبر بغير هذا، كما يعبر المفسرون، ترون عبارات المفسرين كيف تنوعت وهي تدور حول معنى أن ذلك يضاف إلى العباد، أو أنه صدر من الملائكة، أو أن ذلك صدر من الكفار، لكن الله -تبارك وتعالى- لا يقال: إنه يتوجع، جل جلاله وتقدست أسماؤه.

وأنا لا أستبعد أنها حرفت، والنسخة التي حققها الشيخ محب الدين الخطيب وهي الطبعة السلفية، أو الطبعة الأخرى التي أخرجها النجار كلها وقع فيها التغيير من عند أنفسهم، فإذا رأوا عبارة رأوا أن فيها ضعف التركيب شطبوها، وقد رأيت هذا في نسخة محب الدين الخطيب -رحمه الله- بنفسي يضرب بالقلم بالسطر ويكتب من عنده سطراً آخر، أما النجار فيأتي بالصفحة والصفحتين من عند نفسه، وكثير من الناس كانوا يظنون حتى الذين حققوا الكتاب في البداية كانوا يظنون أن تعليقات النجار هي المشكلة، حتى بعض كبار طلاب الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، ولذلك طبع الكتاب طبعة بعد ذلك من غير تعليقات النجار، وظنوا أنهم قد خلصوه من هذا التحريف، التعليقات كانت أيضاً فيها إشكالات، فحذفت في بعض الطبعات، وما علموا أن المشكلة موجودة في النص، أنه يكتب من عنده بالصفحة والصفحتين يضيفها -ولا يشير- على أن ذلك من كلام الشيخ -رحمه الله-، وأكثر الطبعات المصورة والمتداولة كانت طبعة النجار، وإن لم يكتب عليها ذلك.

ثم قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [يــــس: (٣١)] أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [المؤمنون: (٣٧)]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [يــــس:(٣١)].

وقوله: {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يــــس: (٣٢)] أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيام بين يدي الله -عز وجل- فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ} [هود: ١١١].

وجه الرد على أهل التناسخ {أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، وكذلك في قوله: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [الأنبياء: (٩٥)] لا ترجع الأرواح ثانية كما يزعم هؤلاء، يعني إلى أجساد أخرى فتنعم أو تعذب.

{وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ *سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٣ - ٣٦].

---

[٢]- تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٩٥).

يقول تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ} أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ} أي: إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: {أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} أي: جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم، {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ} أي: جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها، {لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ} لمّا امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس وقتادة؛ ولهذا قال: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ واختار ابن جرير -بل جزم به ولم يحك غيره إلا احتمالا- أن "ما" في قوله: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} بمعنى: "الذي"، تقديره: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود {لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمِمّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}.

{وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} ذكر القولين في هذه الآية، أنا أذكر المعنيين لا على ترتيب ابن كثير الأول: أنها موصولة، يعني: ما أخرجه الله -عز وجل- لهم من غير كدهم ولا كسبهم بإنزال المطر بتقدير الله -جل جلاله- أي ويأكلوا من الذي عملته أيديهم، سواء كان ذلك من العصير الذي يعصرون من هذه الثمار وما أشبه ذلك مما يستخرجونه منها فيعملونه ويطحنونه، أو ما أشبه هذا، أو كان ذلك بزرع يزرعونه وغرس يغرسونه، ليأكلوا من ثمره الذي أخرجه الله -عز وجل- بالمطر ولم يكن لهم فيه كد، الذي يزرعونه ويعملونه ما عملته أيديهم مما يغرسون ويزرعون، واضح؟، هذا على القول بأنها موصولة، وهو مروي عن الضحاك واختاره ابن جرير وجزم به، أنها موصولة، والقول الآخر: أن ما نافية، وهذا الذي قاله مقاتل والضحاك {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} لم تعمله أيديهم، وإنما الله - تبارك وتعالى- هو الذي شق الأرض عن مسمار النبات، وهو الذي أحيا هذه الأرض بألوان الزروع ذات الثمار وما كان ذلك من عملهم ولا كسبهم.

يقول: قال: بمعنى الذي تقديره ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه- "ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم"، وهذه واضحة صريحة تشهد لقول من قال بأن ما موصولة، يعني: ومن الذي عملته أيديهم، ولهذا ابن جرير قال بهذا القول، مع أن ظاهر الآية والأدل على القدرة والامتنان أن تكون نافية، ولهذا ذكر الشكر بعده؛ لأن الله هو الذي امتن بهذا، ولم يكن لهم فيه قدرة ولا كسب، فقد ينزل المطر وقد يحصل السقي للأرض والبذور ولا يخرج النبات، وقد يخرج النبات ولا يثمر، وقد يثمر ثم تأتي الآفة فتهلكه.

والقول بأنها نافية أقرب إلى السياق وأدل في القدرة وأثبت في الامتنان، والله تعالى أعلم.

وابن كثير يرى أنها نافية، وابن جرير يرى أنها موصولة، وهذا له ما يؤيده، وهذا له ما يؤيده، فإن صحت هذه القراءة عن ابن مسعود من جهة الإسناد فإن القراءة الأحادية تفسر المتواترة، وإن لم تصح فإن ظاهر السياق على أنها نافية، والله تعالى أعلم، يعني الأقرب إلى ظاهر السياق، والله أعلم.

ثم قال: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ} [يـــس: (٣٦)]، أي: من زروع وثمار ونبات.

{وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ} **فجعلهم ذكرا وأنثى،** {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} أي: **من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى:** {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩].

{الْأَزْوَاجَ} يعني: الأصناف والأنواع هذا هو المقصود، {وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ} أيضا جعله على نوعين أو على صنفين الذكر والأنثى، {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} يعني: من المخلوقات التي لم يقفوا عليها ولا يعرفوها، جعل منها أصنافاً وأنواعاً، وليس بالضرورة هنا أن الأزواج بمعنى الذكر والأنثى، إذا نظرت إلى النخيل مثلاً تجد أنها ذات ألوان وأصناف منها ما هو باللون الأحمر ومنها ما هو باللون الأصفر، فهذه أزواج، ومعنى الأزواج في قوله سبحانه: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [طـه: (١٣١)] أي: الأصناف، وليس المقصود الزوجات، أو الأزواج الذكور، أو هذا وهذا، الرجل والمرأة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يس من الآية (٣٧) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٣٧-٤٠].

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلْقُ الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعْلُهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [سورة الأعراف:٥٤]**؛ ولهذا قال -عز وجل- هاهنا: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} أي: نصرمه منه فيذهب، فيقبل الليل؛ ولهذا قال: {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} كما جاء في الحديث: ((إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم))**[1].

هذا هو الظاهر من الآية.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}** قد مضى الكلام على نحو هذه الآيات وهذه الآية في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، قوله: **{نَسْلَخُ مِنْهُ}**، "من" هنا بمعنى "عن" مضمنة معنى عن، يعني نسلخ عنه النهار **{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}** هذا الذي قاله أهل العلم من المفسرين وأصحاب معاني القرآن، واختيار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- وأهل العلم يقولون: إن الأصل في هذا الكون هو الظلام فالشمس بضوئها تجلو هذا الظلام فيكون النهار **{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}**، فيرجع إلى أصله، فالذي لا تظهر عليه الشمس يكون مظلماً، وهذا شيء مشاهد.

وقوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، في معنى قوله: {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} قولان:

أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض في ذلك الجانب، وهي أينما كانت

---

١ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب متى يحل فطر الصائم، برقم (١٩٥٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، برقم (١١٠١).

فهي تحت العرش، وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكُرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة.

العرش هو سقف العالم كما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة))، قال: ((وسقفه عرش الرحمن))[٢]، العرش كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إنه كالقبة وهو سقف العالم، نعم سقف العالم **{تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}** أي: تسجد تحت العرش، فهذا القول يؤيده ما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا المعنى، فلا يصح العدول عنه، وإن كانت الآية في ظاهرها تحتمل القول الآخر، **{تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}** هذا المستقر هل المقصود به أنه ما قدره الله -تبارك وتعالى- لها في جريها حتى إذا أراد الله -تبارك وتعالى- تغيرت هذه الأفلاك وتحول حال العالم فكورت الشمس يوم القيامة، **{وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}** [سورة القيامة:٩]، كما قال الله -تبارك وتعالى-؟، فبعضهم يقول: هو هذا **{تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}** يعني يوم القيامة حيث تتحول وتتغير، وبعضهم يقول: **{تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}** هو جريان الشمس في الفلك بحسب حسابٍ دقيقٍ قدره الله -عز وجل- لها لا تتجاوز ذلك، هذه الأقوال تحتمل لكن هل هي المراد بالآية؟ إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، فإذا صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئاً من ذلك فإنه لا يصح العدول عنه اللهم إلا أنه في بعض المواضع تكون الآية تحتمل هذا وتحتمل غيره، وتوجد أدلة تدل على غيره أيضاً، فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- فسرها ببعض المعنى، لكن من عمومها يؤخذ منها أو من سياقها أو نحو ذلك أنها تدل على القول الآخر، لكن لا يصح أن يُرجَّح قول آخر على شيء ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيانه وتفسيره.

وهو فوق العالم مما يلي رءوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون من العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث.

يعني إذا كانت في كبد السماء هي أعلى ما تكون فوقنا، وقبل ذلك تكون في أقصى المشرق، بعدها تكون في أقصى المغرب، رابعاً حينما تكون مقابلة في منتصف الليل حيث يكون منتهى الظلام تكون في الجهة الأخرى.

روى البخاري عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في المسجد عند غروب الشمس، فقال: ((يا أبا ذر، أتدري أين تغربُ الشمس؟))، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}))[٣].

هذا أوضح ما يكون من التفسير النبوي، والتفسير النبوي على نوعين:

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، برقم (٢٧٩٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، برقم (٣١٩٩).

النوع الأول: ما تطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- لنفس الآية، فهذا لا يصح العدول عنه بحال من الأحوال، وإذا صح إسناده لا يمكن أن يتطرق إليه الخطأ، حاشا وكلا، النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بكتاب الله {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} [سورة النجم:٣].

أما النوع الثاني: ما يذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- من المعاني والهدايات وما إلى ذلك دون أن يتعرض للآية، فيأتي بعض المفسرين يفهم أن الحديث مرتبط بالآية الفلانية وأنه يصح أن يكون تفسيراً لها، فيقوم المفسر ويربط بين الحديث والآية اجتهاداً، لاحظ: الكلمة هذه مهمة -اجتهاداً منه- ولهذا حينما نقول: هل يدخل الاجتهاد في التفسير النبوي؟ بعض الناس ينقبض من هذه الكلمة، كيف يدخل الاجتهاد في التفسير النبوي؟ نقول ليس المقصود اجتهاد النبي -صلى الله عليه وسلم- فكلامه وحي -عليه الصلاة والسلام-، ولكن اجتهاد المفسر فيما لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فيعمد المفسر للربط بين الآية وذاك الحديث، فقد يخطئ المفسر وقد يصيب في هذه الحالة، فهنا نقول هذا النوع ليس بقاطع التفسير، تفسير السنة نوعان، الذي صرح فيه بالآية مثل هذا المثال الذي أمامنا هو من أجلى الأمثلة، فهذا لا يصح العدول عنه، ولا ترِد عليه الواردات يعني يقول الإنسان: الشمس مثلاً تجري تظهر على الآخرين فهي بالنسبة لهم نهار إلى منتصف الليل عندنا فكيف تذهب وتسجد تحت العرش؟، نقول: هذه الأمور الغيبية خالقها أخبرنا عن طريق رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذا الحديث في الصحيح أنها تسجد تحت العرش، إذاً فهي تسجد تحت العرش والذي خلقها أخبرنا بهذا، وعقولنا قاصرة، هذا الذي أدركته عقولنا أصلاً، وإذا كان أهل الفلك إلى الآن يزعمون أنهم يكتشفون مجرات وليست مجرد نجوم أو كواكب، مجرات، يكتشفون مجرات جديدة ويعترفون أن ما يعرفونه، ووصلوا إليه وأدركوه في هذا الكون أنه قطرة من بحر أنه قليل جداً ضئيل بالنسبة لسعة الكون، هذا كله في السماء الدنيا أو دون السماء الدنيا، لكنهم لا يعرفون شيئاً عن السماء الدنيا التي هي سقف {وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [سورة الأنبياء:٣٢]، إلى الآن علوم هؤلاء لا تثبت أن السماء سقف ولا يعرفون هذا، ولا وصلوا إليه ولا يستطيعون الوصول إليه؛ لأن هذا أبعد من إمكاناتهم، هذا لا يمكن أن يعرفه هؤلاء بالتلسكوب؛ لأنه لا يصل إلى السماء، فما بالك بالسماء الثانية! هذا محال، والثالثة والرابعة إلى السابعة! فما بالك بعرش الرحمن!، فمثل هذه الأمور من كون الشمس تسجد تحت العرش هذا لا مدخل للعقل فيه، فهي تسجد تحت العرش، انتهينا، فما يرِد على الإنسان مثل هذه النصوص والقضايا التي يولدها العقل أحياناً فترد الواردات، لكن الذي خلقها أخبرنا بهذا، فهذا هو حقيقة التسليم، قد تقول: أنا لا أدرك هذا؛ لأن هذا غير داخل تحت نطاق العقل مما يدركه بمداركه العادية، إنما هذا يتلقى من الوحي فقط، فيجب الإذعان والتسليم له، وهذا له نظائر كثيرة مما يدركه العقل، ولهذا قالوا: إن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يأتون بمحارات العقول ولكنهم لا يأتون بمحالات العقول، يأتون بأشياء يتوقف العقل فيها، ولكن لا يأتون بشيء مستحيل، فهي تسجد تحت العرش وتستأذن ربها، وستطلع في يوم من الأيام -حيث تحبس- من مغربها؛ لأن هذا كلام من لا ينطق عن الهوى، ليست نظريات، وهناك أشياء مما يقوله أصحاب الفلك أو أصحاب العلوم المتنوعة، وبعض هذا يقولون عنه: إنه حقائق ومع ذلك تتوقف فيه العقول، فالإنسان إذا أراد أن ينظر على قولهم بأن الأرض تدور، أنا لا أريد أن أتعرض إلى مسألة الدوران إطلاقاً، وإنما أقول: على قولهم هذا هم

يتفقون على أن الأرض تدور، عن المعاصرين من أهل الفلك أنهم يقولون: إنها تدور، معنى ذلك أن هناك أناساً في الأسفل رءوسهم مقلوبة وأوضاعهم مقلوبة، هذا مقتضاه!

ومع هذا لا يشعرون أنهم مقلوبون؛ لأن الناس حينما يسمعون الكلام هم يثقون بأهل الفلك وبهذه القوانين والنظريات فيسلمون لها وإن لم تدركه عقولهم، هذا هو الواقع وإلا فتصور كيف نحن الآن في الجهة المقلوبة ونحن نرى السماء فوقنا ولا يشعر أحد أبداً أنه في الجهة الأخرى، وقل مثل هذا في أشياء يتكلمون عنها ويقولون: هذا لو حصل معه مدة أو إلى آخره لكانت مثلاً خيطاً يمكن أن يصل إلى الطرف الآخر أو يحيط بالكرة الأرضية شي يسير، ويقولون هذا يمكن أن يُمثَّل أو يقولون: هذا يصل إلى القمر، هناك أشياء يذكرونها عن أبعاد وأشياء معينة مما يراه الإنسان ويزاوله، أحياناً يقولون: لو مد الشيء الفلاني لكوّن خطاً يدور على الكرة الأرضية كاملة، وهذا لو مد وصل إلى القمر، تراه صغيراً، ويمكن أن يصل إلى القمر هذا ما يمكن أن يصل خمسين متراً! وتجد الناس يقبلون هذا ويسلمون له مع أن العقول لا تتصوره؛ لثقتهم بهؤلاء يقبلون ويسلمون، فإذا جاء كلام الله -عز وجل- فينبغي أن يكون التسليم أعظم من كلام هؤلاء الذي يصيب ويخطئ وإلا ففيه أشياء يتوقف فيها العقل.

وكذلك المسيح الدجال موجود والأقمار الصناعية تصور العالم وما تركوا شبراً إلا وصلوا إليه بزعمهم فأين المسيح الدجال؟ أين هو؟ ومن يقوم على خدمته؟ وكيف يأكل؟ وكيف يشرب؟ وهل يهرم أو لا؟ طول هذه المدة يتغير أو يتوقف العمر مثلاً؟ نقول هذا ما يرِد، هذه قضايا غيبية، وإذا جاء المسيح الدجال ما يأتي بصورة إنسان كبير هرم، عمره أكثر من ألف سنة ما ندري متى ولد! هذه قضايا أرادها الله، فبنو إسرائيل -ومعهم هارون وموسى -عليهم السلام- تاهوا في أرض صحراء محدودة لو ساروا من أي اتجاه لقطعوها فبقوا فيها نحو أربعين سنة على قولٍ هنا في الآية: {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [سورة المائدة:٢٦] يكون مدة التيه أربعين سنة، أناس –قوم- عددهم في بعض التقديرات ستمائة ألف فيهم أهل خبرة وفيهم أهل معرفة وهذه المناطق يعرفونها صلة بين بلاد الشام ومصر مطروقة ومع ذلك يضيعون فيها أربعين سنة لا يستطيعون تجاوزها، لو مشوا أربعين ساعة لوصلوا إلى أحد النواحي والأطراف فيها من أي اتجاه فكيف يضيعون أربعين سنة؟ نقول: الله أراد أن يضيعوا أربعين سنة، إذاً سيضيعون أربعين سنة حتى جاء في بعض الآثار أنهم يمشون اليوم كاملاً، فإذا باتوا أصبحوا فوجدوا أنفسهم في المكان الأول؛ لأن الله أراد هذا، فإذا أراد شيئاً لابد أن يكون فهذا مقتضى التسليم، والله -عز وجل- يبتلي العقول بأشياء ليختبر إيمانها وتسليمها فما كل شيء تدرك العقول حقيقته وتدرك حكمته، فبعض الأشياء يستشكل الإنسان الحكمة منها، فيقال له: أنت لا تعلم الحكمة، لكن الله حكيم، فهناك حِكم عظيمة جداً ولكن ليس بالضرورة أن الملك الأعظم -جل جلاله- إذا اقتضت حكمته شيئاً أن ذلك يتوقف على إعلامنا وإفهامنا، فمن نحن؟ وإذا كان ملوك أهل الأرض لا يلزم من كل مرسوم يرسلونه أن يخبروا الأفراد والناس بخلفيات هذا القرار والحِكم والغايات التي من أجلها سُن هذا القرار لا يخبرونهم ويقولون: هناك ملابسات معينة وأشياء والحكمة هي كذا وكذا، هذا في الدنيا، فالله -عز وجل- أعظم وأجل شأناً من ذلك، هذه قضية مهمة في التسليم والإذعان والقبول عن الله -تبارك وتعالى.

وأيضاً عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}، قال: ((مستقرها تحت العرش))[٤].

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوّر، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني.

يعني على الأول يكون المستقر مكانياً تحت العرش، وهذا مستقر زماني، وهذا القول لا يمكن جمعه مع الحديث فلا نقول: هذا وهذا، فهذا اختلاف تضاد لا تجمع فيه الأقوال، هو سجودها تحت العرش إذاً، ليس المراد منتهى حركة الشمس، سير الشمس إلى يوم القيامة.

قال قتادة: {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه.

وقيل: المراد: أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لا مُسْتَقَرَّ لَهَا) أي: لا قرار لها ولا سكون.

يعني أنها دائبة الحركة، لكن هذه القراءة هل تفسر القراءة المتواترة {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}؟ لا تفسرها، لا تفسرها لحديث السجود تحت العرش، لا تفسرها، هذا إذا صحت هذه القراءة من جهة الإسناد، هذا يحتاج إلى مراجعة هل ثبتت هذه القراءة من جهة الإسناد، فهي ليست متواترة.

بل هي سائرة ليلا ونهارًا، لا تفتر ولا تقف، كما قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} [سورة إبراهيم:٣٣] أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة.

{ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ} أي: الذي لا يُخالَف ولا يُمانَع، {الْعَلِيمِ} بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام:٩٦]، وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة فصلت:١٢]، ثم قال: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار.

يعني القمر قدرناه منازل ثمانية وعشرين منزلاً.

كما قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [سورة البقرة:١٨٩]، وقال {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} الآية [سورة يونس:٥]، وقال: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا} [سورة الإسراء:١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل

---

٤ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ} [يس:٣٨]، برقم (٤٨٠٣).

ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبسًا من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم.

حتى يصير كالعرجون القديم: أي في آخر الشهر، والجمع والتثنية {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [سورة الرحمن:١٧]، {بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [سورة المعارج:٤٠] فبعضهم يقول: مشرق الشمس والقمر، وبعضهم يقول: أقصى نقطة في الشروق صيفاً، وأقصى نقطة في الشروق شتاءً، وأقصى نقطة في الغروب صيفاً، وأقصى نقطة في الغروب شتاءً، بمعنى أن الشمس في طلوعها تكون في الشتاء في أقصى نقطة مجراها ومكان شروقها من جهة المشرق إلى جهة الشمال في الشروق، هذا في الشتاء، ثم بعد ذلك تنتقل إلى الجنوب في الغروب فتغرب غرباً من جهة الجنوب في أقصى نقطة لها فتجد الظل في هذه الناحية إلى ناحية الشمال في منتصف النهار ونحو ذلك يبقى الفيء، ثم في كل طول السنة تنتقل درجة درجة إلى أن تنتقل من الجهة الأخرى في الصيف فيكون شروقها في أقصى نقطة إلى جهة الغروب، ثم بعد ذلك تذهب في غروبها في أقصى نقطه إلى جهة الشمال، يعني ما تكون فقط من جهة واحدة تخرج وتطلع طول السنة وإنما تنتقل درجات في مشارقها وفي مغاربها {بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} هذا معنى لهذه الآية، فالحاصل أنها تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، وهكذا القمر قدره منازل تطلع في أول ليلة من الشهر فيكون ضئيلاً قليل النور، العرب أو أهل الفلك يقولون: هذه المطالع الثمانية والعشرون أربعة عشر منها شامية، وأربعة عشر منها يمانية، وهي التي تجدونها في التقويم، أحياناً تجدونها في مجموعها ثمانية وعشرين، فأولها يعني الشامية: الشرطين ثم البطين ثم الثريا ثم الدبران ثم الهقعة ثم الهنعة ثم الذراع ثم النثرة ثم الطرف ثم الجبهة ثم الزبرة ثم الصرفة ثم العوّا ثم السماك، هذه أربعة عشر شامية، وأما اليمانية فهي: الغفر والزبانا والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم الدلو، ومؤخر الدلو والحوت، هذه أربعة عشر يقولون عنها: إنها يمانية، فهو لا يزال ينتقل في هذه المنازل فإذا كان في آخر الشامية اكتمل وصار بدراً، ثم بعد ذلك يبدأ بالتحول وينتقص شيئاً فشيئاً حتى يصير كالعرجون القديم، والعرجون القديم أصل العذق الذي فيه قنو التمر، فالعرجون القديم الآن إذا نظرتم إلى النخيل تجدون ما بقي من العام الماضي متقوساً، الذي فيه الشماريخ التي يكون فيها الرطب، فهذا العود الذي يمسكها هذا يقال له: العذق، هذا العذق يتقوس وييبس من ثقله، يتقوس يحمل الرطب التمر، يتقوس، فإذا أُخذ هذا الرطب تساقط، ويبقى، قد عاد على هذا فيكون مقوساً، فإذا يبس صار مثل القوس الدقيق، {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} فكلمة عاد من الأضداد عاد هل كان كالعرجون القديم من قبل؟ لا وإنما هنا بمعنى صار، حتى يصير كالعرجون القديم، ذكرنا مثل هذا أنه يحتمل أن الساعة لا تقوم حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، ويحتمل أن تكون بمعنى تصير، تحتمل أن تكون مثل ذلك، هكذا يحتمل، فهنا بمعنى صار.

قال ابن عباس: وهو أصل العِذْق.

والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول "غُرَر" واللواتي بعدها "نُفَل"، واللواتي بعدها "تُسع"؛ لأن أخراهن التاسعة، واللواتي بعدها "عُشَر"؛ لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها "البيض"؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن "دُرَع" جمع دَرْعاء؛ لأن أولهن أسود؛ لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود، وبعدهن ثلاث "ظُلَم" ثم ثلاث "حَنَادس".

حنادس يعني شديدة الظلام.

وثلاث "دآدئ" وثلاث "مَحاق"؛ لانمحاق القمر أول الشهر فيهن، وكان أبو عُبيد ينكر التُّسع والعُشَر، كذا قال في كتاب "غريب المصنف".

وقوله: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ}: قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا.

ولهذا بعض أهل العلم يرى أن القمر لو حصل له خسوف بعد صلاة الفجر مثلاً يقول: هذا في غير سلطانه، سلطانه في الليل، فلا تصلى صلاة الخسوف، هكذا يقول بعض أهل العلم، والمسألة فيها كلام معروف، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقيدها بهذا القيد، فهي آية من آيات الله، وإذا رأى الناس ذلك فزعوا إلى الصلاة.

وقال عكرمة في قوله {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ}: يعني: أن لكل منهما سلطانا، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل.

وقوله: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}: يقول: لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل.

وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا، وأومأ بيده إلى المشرق.

يعني ما يكون في وقتٍ بين بين مثلاً، يكون مختل السير أعني اختلال سير الشمس والقمر، أو تداخل هذا وهذا أو تقدم هذا بهذا، فالليلة سابقة لليوم، فما تنقلب هذه الأشياء أو تتدارك.

وقال مجاهد: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} يطلبان حثيثَيْن، ينسلخ أحدهما من الآخر.

والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخٍ؛ لأنهما مسخران دائبيْن يتطالبان طلبا حثيثًا.

هذه الأقوال متقاربة، لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} لا تسبقه، وكذلك أيضاً لأن سبق الليل النهار مع أن الشمس تسبق القمر فهي لا تدركه ولا تسبق القمر ولا تتداخل معه، وإنما يسيران في نظام، منذ خلقهم الله -تبارك وتعالى- لم يحصل تغير، ولم يحصل تخلف وتأخر وبطء أو تعطل، كما يحصل في آلات الناس.

وقوله: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس، وعكرِمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخرساني. قال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فَلْكَةٍ كفَلْكَة المِغْزَل.

المغزل هو الصِّنارة، ويكون فيه فلكة مكورة من الصوف الذي يغزل، **{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** لماذا قال الليل والنهار والشمس والقمر؟ باعتبار الجمع **{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}**، هما اثنان الشمس والقمر **{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}**، وبعضهم قال: الشمس والقمر والنجوم والكواكب؛ لأن القمر من قبيل الكواكب، والشمس من قبيل النجوم، فكلٌّ في فلك يسبحون، ويمكن أن يقال: إن ذكر الجمع **{يَسْبَحُونَ}** باعتبار أن أقل الجمع عند جماعة من أهل العلم اثنان، كما قال في المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهرِ *** الاثنان في رأي الإمام الحميري

عند الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-، والله -عز وجل- يقول: "فإن كان له إخوة فلأمه السدس" ويكون ذلك باثنين، فالحاصل أنه هنا عبر بالصيغة التي يعبر بها عن العقلاء "يسبحون"، فتحدث عنها حركة وانتقالاً وجريا **الليل والنهار، والشمس والقمر**... إلى آخره، كالحديث عن العقلاء فأجرى عليها ما يجري على العقلاء في الاستعمال والصيغ، وهذا كثير في القرآن، **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** [سورة يوسف:٤] ما قال: ساجدات، كما يقال عن غير العاقل؛ لأن السجود من أفعال العقلاء فاستعمل لها ما يستعمل للعقلاء، وهكذا في الأصنام، وكذا **{أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا}** [سورة الأعراف:١٩٥]، ما قال تبطش؛ لأنه جعلهم آلهة فقط عقلاء، فعاملهم بحسب تصورهم عنها، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يس من الآية (٥٥) إلى الآية (٧٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد:

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [سورة يس:٥٥-٥٨]: **يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في روضات الجنات: أنهم {فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} أي: في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم.**

قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: {فِي شُغُلٍ} عما فيه أهل النار من العذاب.

وقال مجاهد: {فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} أي: في نعيم معجبون، أي: به، وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس: {فَاكِهُونَ} أي فرحون.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد: {فِي شُغُلٍ} عما فيه أهل النار من العذاب، **وقال مجاهد:** {فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} أي: **في نعيم معجبون، أي: به، وكذا قال قتادة**، وهو قول مجاهد والضحاك، وجاء عن قتادة ومجاهد {فِي شُغُلٍ} يعني من افتضاض الأبكار، افتضاض العذارى بقرينة ما بعده وهو أنه قال: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ}، بعضهم يقول: الشغل بالسماع يعني المطرب -الأصوات المطربة-، غناء الجنة، وبعضهم يقول: هم {فِي شُغُلٍ} بالتزاور فيما بينهم بعد أن انقطعوا هذه المدة الطويلة عن بعضهم فصاروا يتزاورون ويتساءلون، وهكذا قول من قال: إنهم في شغل يعني بكونهم في ضيافة الرحمن -تبارك وتعالى- والأقرب -والله تعالى أعلم- كما قال كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-: يحمل ذلك على العموم، فهم {فِي شُغُلٍ} في شغل بهذا النعيم عن أهل النار وعذابهم، وهذا النعيم ينتظم الأمور المذكورة، ففي هذا النعيم يتزاورون، وفي هذا النعيم يفتضون الأبكار، وفي هذا النعيم يشتغلون بألوان الملذات التي في الجنة، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ} قال مجاهد: وحلائلهم {فِي ظِلالٍ} أي: في ظلال الأشجار {عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ}.

يعني {فِي ظِلالٍ} الأشجار المقصود أن الجنة ليس فيها شمس، {فِي ظِلالٍ} الأشجار أو ظلال الفرش والستور التي تكنّهم؛ لأن الأرائك كما سيأتي تكون عليها مثل الستور في أعلاها فيكونون في ظل هذه الستور، رأيتم

بعض الأسرّة -غرف النوم- يكون عليها مثل السقيفة على السرير فهذه يقال لها: الأريكة، وإن كان إطلاق الأريكة اليوم على المواضع التي يُجلس عليها بطريقة معينة للاسترخاء، يقال لها: أريكة، لكن السلف أهل اللغة يفسرون الأرائك بما ذكرت: السرر في الحجال، فيكون عليها مثل السقيفة من الستور، فتلك الأرائك، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {فِي ظِلَالٍ} هذه الظلال يمكن أن تكون في ظلال القصور التي يسكنونها، أو في ظلال الأشجار، وليس ذلك يعني أن هناك شمساً، الجنة ليس فيها شمس وليس فيها حر، ولكن الله -تبارك وتعالى- يذكر ألوان النعيم كما قال -جل جلاله-: {وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} [سورة الواقعة:٢٩]، وقد مضى الكلام في بعض المناسبات أن الطلح فيه قولان مشهوران: الأول: أنه شجر الشوك المعروف قد قطع شوكه وأن ذلك حينما يذكر للعرب -وهم في بلاد حارة- يكون قد خاطبهم الله -عز وجل- بما يعقلون، فإن ذلك في غاية اللذة والنعيم؛ لأنهم بحاجة ماسة إلى الظل، إذا وجد مثل هذا الشجر الذي ليس له شوك قليل فهذه من الأماني عندهم؛ لأن الشجر في بلادهم الذي يستظلون به في أسفارهم وتنقلاتهم مليء بالشوك، والشوك صلب فإذا أردت أن تجلس تحت بعض ذلك الشجر فلابد من شيء من العمل والمعاناة في توقّيه أو إزالته كما هو معروف، فإذا ذُكر لهم شجر ظليل بلا شوك مما يعهدون –طلح- فإن هذا أمر لا عهد لهم به، والقول الآخر معروف: وهو أنه شجر الموز، والشاهد هو الأول على ذلك القول، فذكر مثل هذا يحرك شيئاً في نفوسهم، والجنة دار النعيم فإذا ذكر الظل -الظلال- وهم في بلاد حارة يحتاجون فيها إلى الظل ويعانون من حر الشمس مثل هذا لا شك أنه يأسر النفوس، والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت:٦٤]، والشجرة في الجنة يسير الراكب تحت ظلها مائة عام لا يقطعها؛ وهذا أمر يحتاج تصوره إلى شيء من المعاناة حتى يتصور طول هذه الشجرة، وكم يحتاج أن يقطعها وهو في الطائرة، يقطع ظل هذه الشجرة، وأن ظل هذه الشجرة أو أن الأرض برمتها حبة من خردل بالنسبة لهذه الشجرة، الأرض بكاملها، حينما يقال: ظلال الجنة وما أشبه ذلك كما قال الله -عز وجل-: {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاء مَّسْكُوبٍ} [سورة الواقعة:٣٠-٣١] هذا الظل لا انقطاع له، مائة عام تحت ظل شجرة واحدة لا يقطعها، لكن يأسرنا ما نشاهده في مألوفنا في هذه الحياة الدنيا فإذا ذكر نعيم الجنة بدأنا نتذكر شجرة ونحو ذلك بطول أربعة أمتار وعرض أربعة أمتار، أعني ظلها.

قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والسُّدِّيّ، وخُصَيْف: {الأَرَائِكِ} هي السرر تحت الحجال.

السرر تحت الحجال ولهذا قال ثعلب -رحمه الله-: لا تكون الأريكة إلا سريراً تحت قبة؛ ولهذا نقول: لا يصح حمل القرآن على اصطلاح حادث، الاصطلاح الحادث في الأريكة اليوم غير معنى الأريكة عند العرب الذين خوطبوا بالقرآن {فِي ظِلَالٍ} فهذا أبهى وأجمل وأكثر في النعيم، مع أن الناس حينما يضعون ذلك في بيوتهم اليوم إنما يفعلونه من أجل التجمل به والتزين، مع أن هذا الظل أو السقيفة لا يضعونها من أجل أن يستظلوا بها من الشمس أليس كذلك؟ ولكن هذا بزيادة التنعم والتوسع في الملاذ والزينة يفعلون ذلك، فكيف بحجال الجنة أو بسرر الجنة وأرائك الجنة؟!

وقوله: {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ} أي: **من جميع أنواعها.**

التنكير هنا يعني للتعظيم في الفاكهة {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ} يعني عظيمة، {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} [سورة البقرة:٢٥]، فيها قولان:

القول الأول: أنهم أتوا به متشابها يعني يشبه ما عهدوا في الدنيا إلا أن الطعوم والحقائق تختلف، فهذا رمان وهذا عنب ونحو ذلك، لكنه هناك شيء آخر في طعمه وحقيقته وصفته.

والقول الثاني: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} يعني يشبه هذا الذي رزقوه قبله في الجنة، فإذا ذاقوا طعمه فإنهم يجدون لوناً من الطعوم آخرَ جديداً وما إلى ذلك {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}.

{وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} أي: **مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.**

يعني ما يتمنون {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} ما يتمنون، ما تمنوه وجدوه، وفي كثير من الأحيان إذا جاء الحديث عن نعيم الجنة سألت النساءُ خاصة النساء اللاتي لم يتزوجن: الرجال لهم الحور العين فماذا للنساء؟

الجواب: إن ذلك لم يرد فيه شيء لخصوصه، ولكنه ذكر نعيم أهل الجنة نعيم الرجال؛ لأن العادة جرت أن تذكر النساء في جملة ما يذكر في النعيم كما قال الله -عز وجل- في ذكر اللذات والشهوات {زُيِّنَ لِلنَّاسِ} وهذا يشمل الرجال والنساء في الأصل، لفظ الناس {حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة آل عمران:١٤]، من النساء، طيب والنساء هل زين لهن الرجال؟ لما كانت العادة أنه إذا ذكرت الشهوات واللذات فإن أول ما يتبادر للذهن النساء وهذا أمر معروف في كلام الناس في مخاطباتهم، فهنا ما يرِد أن تقول امرأة مثلاً: "زين للناس حب الشهوات من الرجال"، أُنسِي هذا على طريقة ومعهود العرب، فإن اللذات إذا ذُكرت ذُكر النساء؛ لأنها أعظم اللذات، وهكذا لما ذكر الله -تبارك وتعالى- نعيم أهل الجنة يذكر الحور العين الأزواج المطهرة، وماذا للنساء؟ لم يذكر، لكن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهنا قال: {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} في الموضع الآخر: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} [سورة الزخرف:٧١] ما الذي تطلبه النفوس؟ فليس هناك نعيم منغص ولا نعيم ناقص في الجنة، فنعيمها كامل، وكل ما تطلبه النفوس تجده ويكفي هذا العموم والإجمال، فتجد المرأة في غاية النعيم، والرجال في غاية النعيم، فهي دار ليس فيها للحرمان معنى، ولا للتنغيص والكدر محل؛ ولذلك عفا الله عنهم فذكر الخلود ونفى عنهم سائر المنغصات {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [سورة المائدة:١١٩]؛ لأن كمال التنعم بالشيء لا يحصل إلا مع حصول الرضى، فقد تكون في محل تتنعم فيه، في استراحة، في قصر، في كذا، ولكنّ بقاءك فيه ليس كما ينبغي بحيث إنه لا يكون مأذوناً فيه أو نحو ذلك، فيبقى الإنسان غير مستريح في تنعمه وبقائه {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}، وكذلك ما أخبر عن نزع الغل عنهم كل هذا لكمال النعيم، فهو مقام كريم ليس فيه جار سوء، وليس فيه منغصات، ولا مزعجات، ولا لغو، ولا تأثيم، {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة:٢٦]، فهنا {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ}، وفسره بعضهم كالزجاج بأن ذلك من الدعاء، يعني ما يدعون ما يطلبون، وبعضهم يقول غير ذلك كقول من قال: المعنى {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} يعني من ادعى منهم شيئاً فهو له، من ادعى شيئاً في الجنة فهو له، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} يعني ما يتمنون، وتطلبه نفوسهم، ويمكن أن يكون القول الثاني -لهم ما

يطلبون- مضمناً في القول الأول، فإذا كانوا يتمنون شيئاً فيحصل لهم فهذا التمني هو طلب للنفوس، فإن التمني من مطالبها فإذا كان الشيء بعيد المنال قيل له أمنية، وإذا كان قريب المنال قيل له رجاء.

وقوله: {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} قال ابن جريج: قال ابن عباس في قوله: {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}: فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة.

وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤].

هنا {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} يكون الوقف على قوله: {يَدَّعُونَ} تاماً، ثم قال: {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} فيكون هذا مبتدأ، يعني لهم سلام {مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} يعني هذه جملة جديدة وليست متعلقة بما قبلها، يعني ليس المعنى كما يقول بعضهم: {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ}، وبعضهم يقول: إنه سلام يعني خبر ذو سلامة، يعني أنه خالص ذو سلامة {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}، وبعضهم يقول: إنه بدل -سلام يعني- رفع على البدل من ما {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ} يعني ولهم أن يسلم الله عليهم وأن هذه أمنية أهل الجنة، فكأنه يقول: ولهم سلام من ربٍ رحيم بهم -تبارك وتعالى-، فهذا قال به أصحاب معاني القرآن كالزجاج، وما ذكر قبله -والله أعلم- أولى وأقرب، وبعضهم يقول: إن {سَلامٌ} ارتفع هنا على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو أنه مبتدأ وخبره محذوف، أي سلام لهم، يكون مرفوعاً على أنه مبتدأ وأن الخبر محذوف، سلام لهم، أي سلام يقال لهم، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: إن الخبر قوله من رب رحيم، والآية فيها قراءات أخرى غير متواترة، ولكن الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن قوله: {سَلامٌ} بمعنى أن الله يسلم عليهم، أن الله يسلم عليهم سلاماً كائناً لهم من الله -تبارك وتعالى- {سَلامٌ قَوْلا} فهذا منصوب على المصدرية بفعل محذوف، قال الله لهم ذلك: {سَلامٌ قَوْلا}، أو يقوله لهم {قَوْلا}، أو يقال لهم قولاً، {سَلامٌ قَوْلا} سلام لهم قولاً، أو يقال لهم قولاً من الله -تبارك وتعالى.

{وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [سورة يس:٥٩-٦٢].

يقول تعالى مخبرًا عمّا يئول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} [سورة يونس:٢٨]**، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ}** [سورة الروم:١٤]، **{يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ}** [سورة الروم:٤٣] **أي: يصيرون صِدْعَيْن فرقتين، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}** [سورة الصافات:٢٢-٢٣].

امتازوا يعني عن المؤمنين، هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعض السلف كالضحاك يقول: يمتاز المجرمون عن بعضهم فتكون كل طائفة من طائفة الكفر بمفردها، يحشرون جميعاً مجتمعين مع نظرائهم كما قال الله -عز وجل-: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} يعني مع نظرائهم، امتازوا يعني يتميز بعضهم عن بعض، فاليهود مع بعضهم، والنصارى مع بعضهم، كما دلت السنة على ذلك وأن كل أمة تؤمر أن تتبع ما كانت تعبد، فلو قال قائل -والله تعالى أعلم-: إن قوله: {وَامْتَازُوا} يشمل هذا وهذا، فهم يمتازون عن أهل الإيمان، يفصلون عنهم، فالمؤمنون يحشرون مع بعضهم، والكفار يحشرون مع بعضهم، وكل طائفة

من طوائف الكفار تتميز عن غيرها فاليهود مع اليهود والنصارى مع النصارى، ومن يعبد الأصنام مع أشكاله ونظرائه، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} أزواجهم ليس المقصود الزوجات وإنما المقصود مع نظرائهم وإلا فقد تكون زوجته مؤمنة كما هو الحال بالنسبة لفرعون مثلاً، والعكس قد يكون الرجل مؤمناً وزوجته ليست كذلك كما في نوح -صلى الله عليه وسلم- ولوط -عليه الصلاة والسلام-، فتحشر كل طائفة مع بعضها.

وقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا} والمراد بذلك الخلق الكثير، قاله مجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، وسفيان بن عيينة.

قوله: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ} يعني على ألسن رسلي، {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} يعني ألم أتقدم إليكم على ألسنة رسلي ألا تعبدوا الشيطان وتعبدوني؟، وبعضهم يقول: إن ذلك العهد المشار إليه هنا هو أخذ الميثاق حينما كانوا في صلب أبيهم آدم -صلى الله عليه وسلم- فاستخرجهم الله -تبارك وتعالى- على هيئة الذر وذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ} [سورة الأعراف:١٧٢]، فبعضهم يقول: هذا هو المراد بهذا العهد الذي أخذه، وبعضهم يقول: العهد هذا المشار إليه {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ} بما نصبه من الدلائل على وحدانيته -تبارك وتعالى-، والأقرب -والله أعلم- هو الأول {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ} يعني ألم أتقدم لكم على ألسنة رسلي {أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي} [سورة يس:٦٠-٦١]، والعهد يأتي بمعنى الوصية، يقول: عهد لي بالخلافة، عهد إليه بكذا وكذا، ألم أعهد إليك بكذا؟ يعني أوصيك بكذا.

وقوله: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا} هذه القراءة التي نقرأ بها وهي قراءة نافع وعاصم (جِبِلًّا)، وفي قراءة أبي عمرو وابن عامر (جُبْلاً كثيراً)، وقرأ الباقون (جُبُلاً كثيرًا) وذلك يرجع -والله أعلم- إلى معنى واحد (جبِلًّا كثيراً) يعني خلقاً كثيراً، أضل منكم خلقاً كثيراً.

وقوله: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}؟ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان؟!

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ} [سورة يس:٦٤-٦٧].

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة -وقد برزت الجحيم لهم- تقريعًا وتوبيخًا: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، كما قال تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ} [الطور:١٣-١٥].

قوله -تبارك وتعالى-: {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} هنا ما ذكر المعنى، وكثير من المفسرين يفسرون ذلك في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- بمعنى الدخول، وهذه اللفظة "صلَى" تأتي بمعنى الدخول، وبمعنى الاحتراق -مقاساة حر النار-، ولهذا تقول: هذه شاة مصلية، يعني على النار، ومن قاس حرها واحترق بها فإن ذلك يقتضي أنه دخلها، قال الله تعالى: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [سورة الليل:١٥] يعني لا يقاسي حرها إلا الأشقى، وهذا يقتضي أن يكون قد دخلها، فتارة يفسرونه بلازمه وهو الدخول، وتارة يفسرونه بمعناه المطابق أو ما يقرب من المطابق، ولهذا تجد بعض الحذاق من المفسرين يعبرون بعبارات دقيقة مثل هذه المقامات، تجد مثل ابن جرير يقول: {اصْلَوْهَا} يعني احترقوا فيها وادخلوها، فيجمع بين المعنيين، احترقوا بها اليوم ورِدوها، الورود في كلامه هنا بمعنى الدخول، فبين المعنيين ملازمة.

وقوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت.

يعني قال الله تعالى: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} فجعل الأيدي تتكلم، والأرجل تشهد فبعضهم يقول: هذا في وصف ما وقع في الأيدي أو الأرجل باعتبار أن الأيدي تباشر عادة، يعني غالباً تكون المباشرة باليد؛ ولهذا يعبر بها يقال: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} مع أنهم قد يكسبون سيئات بغير الأيدي، بالعين أو بالفم أو بالمشي بالرجل أو غير ذلك، لكن لما كان ذلك هو الغالب عبر به قال: بما كسبت يداه، بما كسبت يداك، لما كانت الأيدي هي التي تباشر صارت هي التي تنطق، والأرجل لما كانت حاضرة كانت شاهدة، هكذا قال بعض أهل العلم في وجه التفريق بين ما يصدر من الأيدي في الصفة وما يكون من الأرجل، والأيدي حينما تتكلم فتلك شهادة، والأرجل حينما تشهد فإن الله -عز وجل- ينطقها فتكون شاهدة بذلك، فيكون أحد المعنيين، والله -تبارك وتعالى- قال عن الكفار الذين قالوا بأن الملائكة بنات الله قال: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:١٩] فهذه الدعوى من أن الملائكة بنات الله سماها الله شهادة، "ستكتب شهادتهم"، وابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا المعنى في بعض كتبه والكلام على الشهادة ونحو ذلك فيما نقله صاحب الطحاوية الواقع أنه كلام الحافظ ابن القيم في هذا المعني في الكلام على الشهادة، والأرجل تشهد وكلام الأيدي يعتبر شهادة، وهكذا حينما ينطق فخذه وسائر جوارحه فتلك شهادة عليه {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة فصلت:٢١]، {لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا} فهي نطقت، فهذا النطق شهادة {أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} فالأرجل تنطق، وذلك شهادة.

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ((أتدرون مم أضحك؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهدًا من نفسي، فيقول كفى بنفسك

اليوم عليك حَسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودا، فيُختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنتُ أناضل))[1].

وقد رواه مسلم والنسائي.

وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-: يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فَيَعْرِضُ عليه رَبُّه عملَه فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أيْ رب، عملتُ عملتُ عملت، قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها، قال: فما على الأرض خَليقة ترى من تلك الذنوب شيئًا، وتبدو حسناته فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها، ويُدعى الكافر والمنافق للحساب، فَيَعرِضُ رَبُّه عليه عمله، فيجحد ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملَك ما لم أعمل، فيقول له الملَك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أيْ رب ما عملتُه، فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه، قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[2].

شهادة الألسن، الألسن تشهد عليهم فهل بين هذه وما ذكر هنا منافاة؟، في سورة النور ذكر الله شهادة الألسن أليس كذلك؟ القذفة، وذكر هنا أنه يختم على الأفواه فالحاصل هل بينهم منافاة؟، يمكن أن يكون هذا في موقف وهذا موقف، قاله بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إنه حينما ينكر يختم على فيه فتنطق جوارحه فإذا أسقط في يده وشهدت جوارحه بناء على ما جاء في هذه الأحاديث أنه ينكر ثم يكون الشاهد عليه من نفسه فإذا أسقط في يده، وقال من قال: **((فعنكنَّ كنتُ أناضل))** فعند ذلك ينطق فوه.

وقوله: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مَرّة: أعميناهم.

وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عُميًا يترددون.

وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: {فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ} يعني: الطريق.

وقال ابن زيد: يعني بالصراط هاهنا: الحق، {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} وقد طمسنا على أعينهم؟

وقال العوفي، عن ابن عباس: {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}: لا يبصرون الحق.

هذا الكلام المنقول هنا يدور على معنيين الأول: **{لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ}** طمس على الأعين بمعنى أنه يذهب محل العين وليس العمى فقط، وإن فسر بالعمى فإن هذا تفسير له ببعض معناه، فإنه إذا ذهب محل العين طمست لاشك أنه يكون في حال من العمى أبلغ من مجرد ذهاب نور العين، فهنا هذا معنى، معنى أنا أعميناهم فصاروا لا يبصرون الطريق، والمعنى الثاني: **{لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}** طمسنا على أعينهم بمعنى عمى البصيرة وليس عمى العين، أضللناهم فأنى لهم الهدى بعد هذا الإضلال؟، هذان معنيان يرجع إليهما جميع ما ذكر، وهنا قال: **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في**

---

[1] - رواه مسلم، في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٦٥٣)، والحاكم في المستدرك، برقم (٨٧٧٨)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

[2] - تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٧١/١٠)، برقم (١٨٤٥٥)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، سنة النشر: ١٤١٩هـ.

تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مَرّة: أعميناهم، يعني عمى العين، وقال **الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عمياً يترددون**، يعني الطريق الذي يريدون سلوكه الطريق الحسي وليس طريق الهدى، **وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي**: **{فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ}** **يعني: الطريق**، طريق الصراط الطريق الذي يكون فيه استقامة أو يكون مستقيماً، ما يقال له صراط، **وقال ابن زيد: يعني بالصراط هاهنا: الحق، {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} وقد طمسنا على أعينهم؟** ابن جرير -رحمه الله- اختار هنا أن المقصود طمس الأعين بمعنى العمى بذهاب موضع العين بالكلية، ورد القول بأن المقصود عمى البصيرة وأنهم لا يهتدون إلى الحق؛ وذلك لأنهم كفار لا بصائر لهم، فكيف يقول الله -تبارك وتعالى-: ولو نشاء لطمسنا على بصائرهم فلا يعرفون الحق ولا يهتدون إليه ولا يسلكونه، فهم بمنأى عنه أصلاً، هذا وجه ترجيح ابن جرير، فالسلف لهم قولان فيها، فالله -تبارك وتعالى- يذكر قدرته عليهم، وأنه لو شاء لفعل بهم هذا، وهذا كما ترون له وجه لهذه القرينة أنهم كفار قد طمست بصائرهم فكيف يقال: لطمسنا بصائرهم عن الحق فلا يهتدون إليه؟ هم كذلك أصلاً، هذا الذي حصل لهم فلابد أن تكون الآية تضيف معنى آخر جديداً، والله أعلم، لا، هو الكلام على الدنيا هنا، الله لو يشاء لطمس على أعينهم في الدنيا، يذكر قدرته عليهم هذا في مقام الحساب في الآخرة، **{لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}**، قبلها **{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** هذا في الآخرة قطعاً قولاً واحداً، والواو في **{وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا}** لو نشاء ليست في الآخرة، **{وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}** هل المقصود الصراط الذي يكون على جسر جهنم؟ ليس هذا المقصود، وما رأيت قائلاً بذلك من السلف، ومعلوم أن الكفار لا نور لهم يوم القيامة أصلاً، وأن المنافقين يكون لهم شيء من هذا في أول الأمر ثم بعد ذلك ينطمس ويذهب نورهم، لكن هل الكفار أصلاً على الصراط أو أنهم يسحبون إلى النار مباشرة ويكبكبون فيها، الكفار هل يمرون على الصراط؟ قال الله: **{يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا}** [سورة الطور:١٣]، فدلت ظواهر النصوص على أن الكفار يكبكبون فيها ويُدَعّون فيها ويسحبون مُقَرّنين، يربط بعضهم ببعض فيلقون فيها **{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}** [سورة الملك:٨] بخلاف الذين يمرون على الصراط فيتساقطون والكلاليب تخطف من تخطف، فأما الكفار فيُقرّنون ويبقون فيها مجموعات -نسأل الله العافية-، فهما معنيان: طمس البصائر فلا تبصر الحق، أو طمس الأعين ومن ثَمَّ يبقى الإنسان لا يبصر الطريق الذي يريد أن يسلكه في الدنيا، فيذكر قدرته عليهم، وكلام ابن جرير له وجه: أن هؤلاء مطموسة بصائرهم فكيف يقول الله -عز وجل-: **{وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ}**؟.

وقوله: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ} قال العوفي عن ابن عباس: أهلكناهم.

وقال السدي: يعني: لَغَيَّرنا خَلْقَهم.

وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة.

وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم.

ولهذا قال تعالى: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا} أي: إلى أمام، {وَلَا يَرْجِعُونَ} أي: إلى وراء، بل يلزمون حالا واحدًا، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

كلام السلف أن ذلك في الدنيا كالذي قبله {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِم} يعني ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: **أهلكناهم**، **السدي**: **يعني لغيرنا خلقهم**، **أبو صالح**: **لجعلناهم حجارة**، هذا يرجع إلى ما قبله، **الحسن وقتادة**: **لأقعدهم على أرجلهم**، وهذا يرجع إلى ما قبله من تغيير خلقهم، {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِم} المكانة هي المكان، {لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِم} يعني في أماكنهم، أي أن الله -تبارك وتعالى- يبدل خلقهم على المكان الذي هم فيه أو الذي فعلوا فيه المعصية كما يقول بعضهم، فهذا كله في الدنيا {لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِم} في موضعه الذي هو فيه غيّر الله -تبارك وتعالى- خلقه الأول، أنه يطمس على أبصارهم لو شاء فيذهب موضع العين فلا يبصر طريقاً يسلكه، كما أنه -تبارك وتعالى- لو شاء لغير خلقهم فهو عليهم قادر لا يفوتونه، مع أن بعض المفسرين وأعني بذلك يحيى بن سلام المتوفى سنة مائتين للهجرة له تفسير موجود بعض أجزائه إلى اليوم، وهو الذي اختصره ابن أبي زمنين في التفسير المطبوع في ثلاث مجلدات، هو اختصار لتفسير يحيى بن سلام، وهو الذي اختصره أيضاً الهواري من الخوارج وهو مطبوع أيضا في ثلاث مجلدات، هذه مختصرات، لكن الهواري لما كان من الخوارج حذف النصوص التي لا تخدم مذهبه، وأضاف بعض الإضافات، وتفسير يحيى بن سلام تارة ذهب إلى أن ذلك جميعاً في الآخرة يعني حتى قوله: {لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ} أن ذلك في الآخرة {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا} هم كما قلت: لا يذهبون إلى الصراط، فهذا قال به يحيى، والمناسبة أن يحيى بن سلام بتفسيره هذا مثل ابن جرير، يعني يذكر الآثار ويذكر من عنده تفسيراً وترجيحاً وإعراباً وما إلى ذلك، يعني خلاف الذي يتداوله الناس عادة الذين يكتبون في مناهج المفسرين، ويقولون: كان التأليف من كتب التفسير بذكر الآثار في التفاسير المعروفة من أبي حاتم وعبد الرزاق وابن المنذر وابن حميد وأمثال هؤلاء دون خلط ذلك بشيء آخر، وابن جرير هو الذي جاء بهذه الطريقة أولاً يذكر الآثار، ويذكر تفسيراً يوجه به، يعني غير الآثار يعلق ويناقش، والواقع أن ابن جرير -رحمه الله- مسبوق لهذا، فابن جرير متوفى سنة ثلاثمائة وعشرة، ويحيى بن سلام متوفى سنة مائتين للهجرة، وتفسيره موجود لكن ناقص بعض الأجزاء، ومختصراته موجودة، وكثير من الأشياء هذه تجدونها تتكرر في مناهج المفسرين وأصول التفسير وعلوم القرآن تحتاج إلى شيء من التمحيص والتحرير، وينقل الناس بعضهم عن بعض غالباً، لكن تفسير يحيى بن سلام يذكر الآثار، لكن لا يقارن بتفسير ابن جرير بوجه من الوجوه لا بكثرة الآثار، فيحيى بن سلام تارة يذكر آثاره مسندة وتارة من غير إسناد مخلوطة بكلامه، وابن جرير يذكر الأقوال ثم يقول: ذِكْر من قال بذلك ثم يسرد الآثار، ثم ذِكْر من قال بكذا، ثم يسرد الآثار ثم ذِكْر كل قول ويسرد الآثار ثم يقول: قال أبو جعفر فيبدأ يرجح ويناقش ويؤصل ويقعّد، فلا مقارنة من جهة الآثار من ناحية الكثرة ولا من ناحية الإسناد ولا من جهة المعاني التي يذكرها والترجيحات والتأصيل الذي في تفسير ابن جرير، فلا وجه للمقارنة بين التفسيرين، وتفسير ابن جرير -رحمه الله- مليء بالعلم من الناحيتين ناحية الآثار التي يوردها، ومن ناحية المعاني التي يقررها هو، وطرائق الترجيح، والأصول التي يذكرها في ثنايا ذلك ويبني عليها هذه الترجيحات، ليس له نظير إطلاقاً، بل هذا الكتاب الذي بين أيدينا -تفسير ابن كثير- لا يقارن بينه وبين تفسير ابن سلام بوجه من الوجوه، هذا أنفع وأفضل بمراحل، ذكرت هذا لئلا يُظَن أن هناك ما يضاهي تفسير ابن جرير؛ لأنه يجمع بين هذا وهذا من المتقدمين، لكن المقصود

واضح أن ابن جرير لم يكن ابتدأ هذه الطريقة، فقط، وكلام **الحسن وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم**، قالوا: **ولهذا قال تعالى:** {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا} أي: **إلى أمام**، {وَلا يَرْجِعُونَ} أي: **إلى وراء**، يعني بدلاً من أن تكون الأرجل الآلة التي ينتقل عليها يذهب ويجيء تكون الأرجل هي محل القعود، أقعدهم على أرجلهم، طيب يمشي على ماذا؟ كيف ينتقل إلى الأمام ويرجع إلى الوراء إلى آخره إذا كانت الأرجل هي التي يجلس عليها؟! واضح؟ هي آلة القعود، واضح المعنى؟، هذا بمعنى قول من قال: غيّرنا خلقهم، كيف يكون التغيير؟.

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ * وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة يس:٦٨-٧٠].

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط.

يعني في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ} ننكسه هذه القراءة التي نقرأ بها قراءة عاصم وحمزة، وقراءة الجمهور {نُنْكِسه في الخلق} المعنى واحد ولكن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، يعني أن القراءة بالتشديد تدل على التكثير، وهنا قال: **يخبر عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط** {نُنَكِّسْهُ} يعني على عكس ما خلقناه عليه من قبل، كيف كانت بدايته؟ من الضعف إلى القوة فيصل إلى مرحلة يكون منتهى القوة، بعضهم يقول: إذا بلغ الأربعين هذا منتهى القوة، وهذا هو المشهور عند أهل العلم، ثم بعد ذلك يتماسك بعض الوقت ثم يبدأ يتدرج بالضعف {نُنَكِّسْهُ} فالشنقيطي -رحمه الله- يذكر هذا الملحظ في التنكيس، ننكسه بدلاً من أن كان الصعود من الضعف إلى القوة -تدرج حتى يكتمل- يبدأ في العد التنازلي، ينزل ننكسه، يبدأ النزول من الأعلى إلى الأسفل حتى يصل إلى حال لا يعلم بعد علم شيئاً، تتلاشى قواه العقلية والبدنية -والله المستعان-، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، كبار السن يشتكون دائماً من النسيان، يشتكون من العظام من الركب إلى آخره، ينبغي أن يدرك أن هذا الأمر طبيعي، وأنه لا غرابة فيه، وإنما الغرابة لو أنه كان سالماً من ذلك جميعاً، هذا هو المستغرب، فإذا عرف الإنسان أن هذا الأمر طبيعي، وأنه لا إشكال فيه خفت عليه آلامه وأوجاعه التي يعانيها، وزكريا -عليه السلام- قال: {إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [سورة مريم:٤] نبي {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} هذا الذي يقولون له: هشاشة العظام، كبار السن يصيبهم هذا هشاشة العظام، {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} فهذا طبيعي، فإذا ذكر الكبر ذكر الوهن وهن البدن، وهن العظام وما إلى ذلك من ضعف الحواس والإدراك، والله المستعان.

كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم:٥٤]، **وقال:** {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة الحج:٥].

والمراد من هذا -والله أعلم- الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار.

كما يقول الشاعر:

المرءُ يأملُ أن يَعيشَ *** وطولُ عيشٍ قد يضرهْ

تفنى بشاشتهُ، ويبقى *** بعدَ حلوِ العيشِ مُرّهْ

وتَخونُهُ الأيّامُ حتَى *** لا يَرَى شيئاً يَسُرّهْ

لا شك كما قال -صلى الله عليه وسلم-: ((خيركم من طال عمره وحسن عمله))[٣]، لكن المقصود هو ما استعاذ منه النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن يرد إلى أرذل العمر، فمثل هذا لا يتمناه أحد، وليس هو المقصود بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((خيركم من طال عمره))، أن يرد إلى أرذل العمر، النبي -صلى الله عليه وسلم- استعاذ من هذا، فيتولى الناس منه كل شيء، يكون كالطفل تماماً بكل هذا، فيمنعونه من الخروج بأنه إذا خرج يضيع، قد يضر نفسه، قد يؤذي نفسه كالطفل تماماً، لكن الطفل يُستملح، يُستلطف ويُنتظر فيه الكمال ويُرجى النفع وراء ذلك، وأما هذا الكبير فيُرجى المفارقة لهذه الحياة وليس يرجى له كمالاً بعد ذلك، ينسى كل شيء لا يعرف، يسأل زوجته يقول: من هذه؟ من هذا الرجل؟ يعني ولده، ما يعرف أحداً، فيتولون كل شيء منه من إطعامه وما يقتضيه ذلك، ما أحد يتمنى هذا.

والمراد من هذا -والله أعلم- الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: {أَفَلا يَعْقِلُونَ} أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشَّيبة، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

هو هذا، كل شيء تتأمله يردك إلى هذا المعنى، يعني الهلال يبدأ صغيراً فما يلبث أن يزيد حتى يكتمل فيصير بدراً، ثم بعد ذلك يبدأ بالتلاشي والنقص حتى ينمحي، وهكذا إذا نظرت إلى العام حينما يبدأ تجد أنه يبدأ بهذه الطريقة ثم بعد ذلك يبدأ بالتلاشي، طول الليل والنهار، يقصر الليل إلى أقصر مدى ثم بعد ذلك يبدأ يطول حتى يصل إلى المنتهى، ثم بعد ذلك يبدأ يتقاصر ويطول النهار، فالحياة كلها بهذه الطريقة، تبدأ الأشجار صغيرة ثم بعد ذلك تكتمل، ثم بعد ذلك تبدأ بالتلاشي، البهائم، الدواب، الثمار تبدأ بداية ضعيفة يسيرة ثم بعد ذلك تبدأ تكتمل حتى تصير في حال من الازدهار والنضج، ثم بعد ذلك تبدأ بالضعف والذبول والتلاشي، كل شيء فلا يبقى إلا وجه الله -تبارك وتعالى-، مثل هذا كله حري بالعاقل أن يزهد فيه وألا يغتر بشبابه وماله أو بنضارته أو نحو ذلك.

وقوله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}: يقول تعالى مخبرًا عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: أنه ما علمه الشعر، {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه -عليه الصلاة والسلام- كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إنْ أنشده زَحّفه أو لم يتمه.

يعني بمعنى أنه -صلى الله عليه وسلم- يقوله بطريقة يحصل بها انكسار بحركةٍ بتنوين فينكسر البيت، أو يقدم ويؤخر في لفظه، وقد جاء في هذا روايات، وبصرف النظر فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يحسن الشعر كما قال الله -تبارك وتعالى-، وذلك رداً على دعوى الكافرين بأن القرآن شعر وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- شاعر، والعلماء -رحمهم الله- في مثل هذا المقام بعض المفسرين وغير المفسرين ممن تكلموا

---

٣ - رواه الترمذي عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: ((من طال عمره وحسن عمله))، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، برقم (٢٣٢٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٦٨٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢٩٦).

عن شمائله -صلى الله عليه وسلم- يذكرون أشياء من هذا القبيل، وأنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يحسن الشعر إطلاقاً، وكذلك ما ذكر وفيه شيء من الوزن مثل:

أنا النبي لا كذبْ *** أنا ابن عبد المطلبْ

هل أنتِ إلا أصبع دَميتِ *** وفي سبيل الله ما لقيتِ

أو نحو هذا فيقول: هذا وقع اتفاقاً وليس على أوزان الشعر، يقصد به الشعر الموزون.

وروى البيهقي في الدلائل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: للعباس بن مرداس السلمي: "أنت القائل:

أتجعلُ نَهبي ونَهْب العُبَيد * بين الأقرع وعيينة".**

فقال: إنما هو: ((بين عيينة والأقرع))، فقال: ((الكل سواء))[٤]، يعني: في المعنى، -صلوات الله وسلامه عليه.

البيت الذي قاله العباس بن مرداس السلمي في غزوة هوازن أعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن مائة من الإبل، ونقص من عطاء العباس بن مرداس السلمي فغار فقال:

أتجعلُ نهبي ونهب العُبيد *** بين عيينة والأقرع

وما كنتُ دون امرئ منهما *** ومن تضع اليوم لا يُرفع

إلى آخر القصيدة التي قالها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اقطعوا عني لسانه))[٥]، فوفوا له مائة، فكان هو سيد قومه، لربما لا يقصد زيادة من الإبل أن ذلك يكون هو غاية طلبته، وإنما المقصود بذلك أنه لا يخفى العطاء عن عيينة والأقرع بن حابس بحيث إن الناس لا يرونه بعد ذلك، أو أن قومه أو أن العرب ترى أنه دونهم، فقال ما قال، يقول: أنا كنت مشغولاً، وما كنت دون امرئ منهما، كنت مشغولاً بمطاردة الأعداء، يعني لم يحضر هذه القسمة، جاء بعد ذلك؛ لأنه مشغول بمصاولة العدو ومطاردته، وهزيمة الفلول، فالشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الرواية قال:

أتجعل نهبي ونهب العُبيد *** بين الأقرع وعيينة

انكسر البيت، صار البيت مكسوراً، الأصل بين عيينة والأقرع.

وذلك لأن الله تعالى علمه القرآن العظيم الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢]، وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يُؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضُّلال وآراء الجُهال، وقد كانت سجيته -صلى الله عليه وسلم- تأبى صناعة الشعر طبعًا وشرعًا.

---

٤ - رواه مسلم، في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٧٩/٥).

٥ - انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٧٣/٤).

{إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} أي: ما هذا الذي علّمناه {إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره.

ظاهر كلام ابن كثير هنا {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ}، يعني ما هذا الذي علمناه إلا ذكر وهو القرآن، {ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} وابن جرير -رحمه الله- يقول: {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ} أي محمد -صلى الله عليه وسلم-، {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ} يعني أنه مُذكِّر، قد أنزل الله عليه القرآن فيكون "ذكر" من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم-، الذكر قد جاء عن طريقه، أنزله الله -تبارك وتعالى- عليه، فإذا قيل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذِكْر أي أنه مذكر بما أوحي إليه بما أوحاه الله إليه قد أوحى الله -تبارك وتعالى- له أوحى إليه القرآن {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا} [سورة الطلاق:١٠-١١]، وبعضهم يقول: {أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} هو القرآن، {رَّسُولًا} أي أرسل رسولاً، يكون منصوباً بفعل مقدر محذوف، أرسل رسولاً، وبعضهم يقول: إن الذكر هو الرسول هناك {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا} فهو بدل من الذكر، وهذا هو اختيار ابن جرير في هذه الآية هنا {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ} فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذِكْرٌ في هذا الموضع أيضاً عند ابن جرير.

ولهذا قال: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} أي: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض، كقوله: {لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، وقال: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود:١٧]، وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر، وقال الضحاك: يعني عاقلا {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} قال: **لينذر هذا القرآن كل حي على وجه الأرض كقوله: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}**، {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} هل المقصود إنذار الأحياء ليحق القول على الكفار؟، أو أن المقصود {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} أي حي القلب كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [سورة ق:٣٧]، لذكرى لمن كان له قلب يعني قلباً حياً وقاداً، وهكذا قول من قال من السلف: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي عقل، فهذا كما قال هنا عن الضحاك -رحمه الله-: يعني عاقلاً، كان عاقلاً {مَن كَانَ حَيًّا} أي عاقلاً يقصد بذلك من كان له قلب حي وقاد، فإنّ موضع القلب موضع العقل، هو القلب فمن كان له قلب حي فهو الذي يعقل عن الله -تبارك وتعالى- وينتفع بالقرآن كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢]، فخصهم بذلك؛ لأنهم المنتفعون به، وهنا قال: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} أي: حي القلب فهو الذي ينتفع مع أنه منذر للجميع {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} لكن خص هؤلاء أصحاب القلوب الحية لأنهم المنتفعون {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [سورة الأنعام:١٢٢]، هذه حياة القلب، الإيمان والهداية، وهكذا {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [سورة الروم:٥٢]، بعض أهل العلم قال: هذا من قبيل ضرب المثل، {لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} يعني موتى القلوب، الكفار الذين ختم الله على قلوبهم، لقد مضى الكلام على هذه الآيات وغيرها جميعاً في رمضان في الكلام على الأمثال، الآيات التي ذكر فيها حال الكافر أنه ميت أو وصف الكافر بأنه ميت، وأن

المؤمن حي، وهكذا مضى الكلام على السميع والبصير وأن المقصود بذلك الذي يسمع سماع الانتفاع ويبصر الحق {هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [سورة الرعد:١٦]، وكذا {الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} أن هذا كله من قبيل المثل.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ} [سورة يس:٧١-٧٣].

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم، {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ}: قال قتادة: مطيقون أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطارُ مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير.

الآن هذا المعنى ظاهر هو الذي عليه عامة المفسرين سلفاً وخلفاً وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} يعني يتصرفون فيها وتنقاد لهم، سهلة لا تستعصي عليهم يعني ليست كالوحشية ذات نفور وجفول من الناس، وإنما هي تحت تصرفهم {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} يتصرفون فيها ويقودونها وينتفعون بها كيف شاءوا، وقال بعضهم: {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} بمعنى أنها بجملة أملاكهم يعني أنهم يتملكون هذه في جملة ما يملكون من الزروع والدور وما إلى ذلك، {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} يملكونها، لكن القول المشهور هو الأول وهو أدل في الامتنان، امتنان الله -عز وجل- على الخلق كيف ذللها لهم، ولهذا قال بعدها: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} فهذه الفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، لمّا جعلها مذللة لهم أمكنهم بعد ذلك ركوبها والانتفاع بها في الأكل وغيره.

وقوله: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار.

يعني مركوبهم الذي يركبونه كما يقال: حلوب يعني محلوبة، ركوب يعني مركوبة {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ} التي يركبونها.

{وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} إذا شاءوا نحروا واجتزروا.

{وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، {وَمَشَارِبُ} أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك، {أَفَلا يَشْكُرُونَ}؟ أي: أفلا يُوحِّدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يس من الآية (٧٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد.

اللهم اغفر لشيخنا والحاضرين والمستمعين.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [سورة يس:٧٤-٧٦]: **يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى.**

قال الله تعالى: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ}: قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خِزْيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم.

وقال قتادة: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} يعني: الآلهة، {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ}، والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيرًا، ولا تدفع عنهم سوءاً، إنما هي أصنام.

وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} قال الحافظ: **والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً إنما هي أصنام** إلى آخر ما قال، والمعنى أن الكفار جند للأصنام محضرون، وكما يقول الحسن يعبر عن عبارات السلف، مفيد ليتبين المراد، يعني هذا القول الذي هذه الأصنام والآلهة يدفعون عنها في الدنيا، وهكذا قول الزجاج بمعنى أنهم ينتصرون لهذه الأصنام في الدنيا وهي لا تستطيع نصرهم، وعلى هذا الاعتبار يكون الضمير في قوله: {وَهُمْ} يرجع إلى المشركين، لا يستطيعون أي الآلهة نصرهم، نصر المشركين، عبدوها من أجل أن تنصرهم وهي لا تستطيع نصرهم {وَهُمْ} يعني المشركين {لَهُمْ} الضمير الثاني يرجع إلى الآلهة، فالمشركون لآلهتهم أصنام لهذه المعبودات، {جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} ينتصرون لها ويذبون عنها، ويستميتون في سبيلها ويوالون فيها، ويعادون، فهم جند لهذه الآلهة الباطلة في الدنيا رجاء النصر منها، والمدد وما إلى ذلك، وهي لا تستطيع من ذلك قليلاً ولا كثيراً،

فالضمير الأول يرجع إلى المشركين على هذا القول، والضمير الثاني يرجع إلى الآلهة وهم: أي المشركون، لهم: للأصنام جند، المشركون جنود مجندة لهذه الأصنام يبذلون في سبيلها الغالي والرخيص، وبعض السلف كمجاهد عكس ذلك فقال: {وَهُمْ} أي الأصنام الآلهة، لهم أي للمشركين جند محضرون يعني في الآخرة وهذا رده كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- باعتبار أن هذه الآلهة تكون عدواً لهؤلاء العابدين لها من دون الله -تبارك وتعالى- كما أخبر الله -تبارك وتعالى- في غير ما موضع من القرآن، {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٦]، فلا يمكن أن يكون الضمير الأول يرجع إلى الآلهة، والثاني للمشركين باعتبار أنه يوم القيامة كما يقوله مجاهد، فتحضر {جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} فتكون جنداً محضرة لهؤلاء العابدين لها من دون الله -عز وجل-، فهي في الواقع لا تنصرهم ولا تنفعهم لا قليلاً ولا كثيراً، فهم يعادونهم، وهذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير ورجحه قبله ابن جرير ونقله جماعة من هنا من السلف هو الأقرب، -والله تعالى أعلم-، {وَهُمْ} يعني المشركين {وَهُمْ} يعني الآلهة {جُنْدٌ} فإذاً لم تستطع نصرهم وهم مع ذلك يبذلون كل مستطاع في الذود عنها، والمحاماة، لكن كما قلت: هذا مثال على جمع أقوال السلف في التفسير التي يتضح بها المراد، يعني لو بقينا مع قوله مثلاً: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} إذا نظرنا إلى بعض الأقوال فقط عن السلف قد لا يتبين المراد قال قتادة: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} [سورة الأنبياء:٤٣] يعني الآلهة، {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق لهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً، هكذا قال الحسن البصري.

وقوله: {فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله، {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا.

وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، فهنا الوقف لازم على قوله: {فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} ثم زاد في تطمينه -عليه الصلاة والسلام-: {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} فمكر هؤلاء وقول هؤلاء في النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي الوحي الذي أنزله الله -عز وجل- عليه وفي دينه وشرعه من الأقاويل الباطلة التي تورث نبي الله -صلى الله عليه وسلم- الحزن، وكذلك ما يحصل له من الحزن إضافة إلى ذلك بسبب إعراضهم وعدم إيمانهم كل هذا نهاه الله -عز وجل- عنه؛ لأنه لا جدوى فيه، فالله لم يُرد هداية هؤلاء {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} [سورة يونس:٩٩]، {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [سورة الأنعام:٣٥-٣٦]، فالهداية بيده -تبارك وتعالى-، وأيضاً هذا الحزن لا يورث نفعاً، وإنما يعود بالضرر فحسب، وكما ذكرت في بعض المناسبات كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن الحزن إذا تتابع على القلب أضعفه وعطل قواه فصار صاحبه لا ينتفع بأموره الدنيوية ولا أموره الدينية والأخروية إذا كثر الحزن على القلب وتتابع، ولذلك لا يحسن بالإنسان أن يجتر الأحزان سواء كان ذلك بسبب عدم هداية هؤلاء الناس فإن كان ذلك يغلبه فينبغي أن يدفع أسبابه؛ وذلك

بالنظر فيما ذكرت وبيّنه الله -عز وجل- في كتابه من أن الهدى بيده وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، ثم إن هذا الكيد الكبير وما يقولونه وما يأتمرون به الله يقول: {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} فكل هذا التدبير، والمكر وما يبيتون كل ذلك قد أحصاه الله -عز وجل- وعلمه، وسيجازيهم عليه، ليس عليك حساب هؤلاء، وليس عليك أيضاً هداهم، فلا حاجة لمثل هذه الأحزان التي تورث ضرراً من غير جدوى، هذا يقال لأتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كل زمان لاسيما في هذه الأوقات التي أصبح كيد الأعداء من المنافقين وغيرهم يصل إلى الأفق بالوسائل التي تعرفون، فيتعمد بعض الخيرين ليتابع كل ما يصدر عن هؤلاء فيقرأ لهم تلك السموم التي يكتبها الواحد منهم بنابٍ -نسأل الله العافية- يقطر سماً، فمثل هؤلاء إنما كتبوا هذا ليُقرَأ، فهؤلاء شياطين الإنس، وصار كثير من شياطين الجن من بعض تلامذتهم، فحينما يكتبون مثل هذه ويقرأ الواحد ثم بعد ذلك ينفطر فؤاده وتتشقق كبده غيضاً وكمداً وحنقاً وغيرة على دين الله -عز وجل- أنا أقول: إن مثل هذا لا يجدي بل هو طريق إلى الهم والأمراض المستعصية، فلا حاجة إلى مثل هذا، يكفي أن يطلع الإنسان إطلاعاً مجملاً ويعرف هؤلاء، وبعض هؤلاء يكفي أن تنظر إلى العنوان وتنظر إلى وجهه، نسأل الله العافية.

{أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} [سورة يس:٧٧-٨٠].

قال مجاهد، وعِكْرِمَة، وعروة بن الزبير، والسُّدِّي، وقتادة: جاء أُبي بن خلف -لعنه الله- إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُه ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: ((نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار))، ونزلت هذه الآيات من آخر "يس": {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ}، إلى آخرهن[١].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم))، قال: ونزلت الآيات من آخر "يس"، ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبير[٢].

وهذه الآيات سواء قد نزلت في أُبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، ولكنها عامة في كل مَنْ أنكر البعث.

يعني من حيث المعنى فإذا صحت الروايات كانت أكثر من رواية، نزلت في فلان، ونزلت في فلان فإن كان ذلك في الزمان قد تقارب فإنه يقال حصل من هذا، وهذا القول حصل من الآخر مثله، فنزلت الآية بعدهما فكلاهما سبب للنزول، فقد يتعدد السبب والنازل واحد والعكس، ولا إشكال في هذا وإن تباعد النزول فإنه

---

١ - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٣٦٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٢ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، (١٠/٣٢٠٣)، برقم (١٨١٢٦).

يحكم بتكرر النزول -والله تعالى أعلم-، وإن لم يعلم ذلك فيبقى الاحتمال فيقال: إن كان نزولاً متقارباً نزلت بعدهما، وإن كان متباعداً فقد نزلت الآية مرتين، المقصود أن هذا جميعاً يدور على أن ذلك سبب نزولها، بمعني لا نحتاج إلى الترجيح وإن قال بعض أهل العلم: إنه يرجح في مثل هذا المقام يعني إذا لم يعلم أن الآية نزلت بعدهما، وأن ذلك في وقت متقارب، يعني لا يقولون بتكرر النزول، يرجحون -والله أعلم-، والأقرب أنه لا حاجة إلى هذا؛ لأن الترجيح فيه إهدار لإحدى الروايتين، وكل ذلك إذا صح وكان صريحاً، أما إذا كان أحدهما ضعيفاً فتترك الروايات الضعيفة، وإذا كانت أيضاً غير صريحة فإنها تترك وهي قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، فيكون ذلك من قبيل التفسير، والصريح هو أن يقول: أسباب نزول هذه الآية كذا، أو يذكر واقعة أو سؤالاً ثم يقول: فنزلت الآية.

والألف واللام في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ} للجنس، يعم كل منكر للبعث.

{أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} أي: أولم يستدل مَنْ أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ} [سورة المرسلات:٢٠-٢٢]، وقال {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ} [سورة الإنسان:٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟

هذه إحدى الطرق التي يُستدل بها على البعث، فأصل خلق الإنسان من هذه النطفة الضعيفة كيف جعل الله -عز وجل- منها هذا المخلوق الذي فيه هذه الصورة التي كرمه الله -عز وجل- بها، وركبه هذا التركيب وجعله في أحسن تقويم، وصار من الناحية الباطنة يعقل ويفكر وينظر ويتعرف على الأشياء وما إلى ذلك، وهو من نطفة، فهذا استدلال بأصل الخلقة، وطرق الاستدلال على البعث في القرآن كثيرة، وقد مضى منها في سورة البقرة جملة، فذكر الله -عز وجل- فيها أحياء، أناس قد ماتوا إلى غير ذلك، ومضى الكلام على نحو خمسة أدلة في سورة البقرة كل ذلك يدل على البعث، مثل: قتيل بني إسرائيل لما أحياه الله -عز وجل-، ومثل: أصحاب موسى لما جاءوا إلى الطور وحصل لهم الصعق فماتوا -على الراجح أنها موتة ولم تكن إغماءة- فأحياهم الله -عز وجل- ثانية، وكذلك أيضاً الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وما قص الله من خبره فأحياه بعد مائة عام، وكذلك أيضاً الطير التي أمر الله -عز وجل- إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما سأله كيف يحيي الموتى في القصة التي قصها الله في سورة البقرة إلى غير هذا، هذا كله من إحياء الموتى، دليل واحد نوعٌ واحد ناس ماتوا فأحياهم الله -عز وجل-، وهذا دليل آخر: أصل خلق الإنسان، وهذا غير الدليل الذي يتكرر في القرآن أيضاً، وهو الاحتجاج بالنشأة الأولى أن الذي خلق أول مرة -بصرف النظر عن الأصل حتى هذا من تراب- قادر على الإعادة، فإن ذلك في معهود المخاليق يكون أصعب، فالذي كان قادراً على الخلق ابتداء هو على الإعادة أقدر مع أن ذلك يستوي في حق الله -تبارك وتعالى.

كما قال الإمام أحمد في مسنده عن بُسْر بن جَحَّاش: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بَصق يوما في كفِّه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: ((قال الله تعالى: ابن آدم، أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى

إذا سوَّيتك وعدَلتك، مشيت بين بردَيك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلَغت التراقي قلت: أتصدّقُ وأنَّى أوان الصدقة؟))[٣]، ورواه ابن ماجه.

هذا صححه الحافظ ابن حجر، والبوصيري والألباني وحسنه الأرنؤوط، ولا حاجة لذكر هذا؛ لأن الأصل أن هذا الكتاب اختار الروايات الصحيحة فإن كان ثمّت شيء ينبه عليه في موضعه.

ولهذا قال: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}؟ أي: استبعد إعادة الله تعالى - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده؛ ولهذا قال تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت.

هنا في قوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ} ما المراد بقوله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا}؟ مضى الكلام على الأمثال، والمراد بالمثل وكلام أهل العلم فيه وهو كثير واختلافهم في هذا كثير ولا ينضبط قولهم فيه، فبعضهم يقول: إن المقصود هنا في هذا الموضع الصفة العجيبة، وذكرت هناك أن قوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُ الْجَنَّةِ} [سورة الرعد:٣٥]، قالوا: يعني الصفة العجيبة، مع أن بعض أهل العلم أنكر هذا، وقال: إن المثل لا يأتي بهذا المعنى، وحمله على المعنى الذي طرده في سائر المواضع، لكن أحياناً على وجه من التكلف فيما يبدو -والله تعالى أعلم-، والذين قالوا: إن المثل يرجع إلى معنى الشبه وطردوا هذا في سائر المواضع -ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وكبير المفسرين ابن جرير- يقولون في مثل هذا الموضع: إن المراد به أيضاً الشبه، ووجه الشبه يقولون: من جهة أن هذا زعم أنه لا أحد يقدر على إعادة هذه العظام التي صارت رميماً، لا يقدر أحد على إعادتها ثانية، وجعل الله -تبارك وتعالى- كمن لا يقدر، لاحظْ الكاف هنا جعله كمن لا يقدر، هذه الكاف كاف التشبيه يقولون: جعل الله كغيره {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ}، قال: {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}؟! هذا استفهام إنكاري يعني لا أحد يقدر على إحياء العظام وهي رميم، من يحييها؟ ولم يستثنِ ربه -تبارك وتعالى- فجعله كمن لا يقدر، وقالوا: هذا فيه معنى الشبه من هذه الحيثية، فهذا قد يتأتى في هذا الموضع، لكن قد يصعب في مثل قوله: {مَثَلُ الْجَنَّةِ} القول: إنه من صفة الجنة، هناك ليس فيه تكلف وبه فسر صاحب الكشاف، والذين قالوا: إنه يرجع إلى الشبه مطلقاً يقولون هناك: إن جئت إلى قصص القرآن التي يجعلها شيخ الإسلام من جملة الأمثال يقولون: لأنه يوجد قدر مشابهة فهؤلاء كفروا، وأولائك آمنوا، أولائك استجابوا لرسولهم فالله يذكر هذا لمن بعدهم من أجل ألا يقعوا فيما وقعوا فيه، فيقولون: هذا الشبه يحصل به الاعتبار، فإن هذه الأمثلة إنما ضربت من أجل الاعتبار والاتعاظ باعتبار الانتقال، مثل العبارة المعبرة تنتقل من العين إلى الخد، أو العكس ففيها معنى العبور، فينتقل من حال أولائك، فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فينتقل من هذا إلى هذا، والله أعلم.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٧٨٤٢)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨١٤٤).

روى الإمام أحمد عن رِبْعِيّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: سمعته يقول: ((إن رجلا حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمعوا لي حَطَبا كثيرًا جزَلا ثم أوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلت لحمي وخلَصت إلى عظمي فامتَحَشَتْ، فخذوها فدقوها فَذَروها في اليم. ففعلوا، فجمعه الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله له))، فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نبَّاشا[٤].

هذا الرجل الذي خاف من ذنوبه العظام كان نباشاً، ينبش القبور ويأخذ الأكفان ويبيعها، قديماً كان هناك من يشتغل بنوع من السرقات، سرقة الأكفان لما فيه الناس من فقر وحاجة وكذا، وتعلمون أن مِن قطاع الطرق مَن كانوا يسلبون ثياب الناس فيتركونهم عراة، وهذا حصل كثيراً في الحج، وطريق الحج وعلماء أصابهم وقع لهم هذا في طريقهم للحج، فيسرقون الثياب، وإلى عهد قريب ربما اشترط المغسل للميت والمغسلة أن تأخذ عباءتها أو نحو ذلك، يعني أن تُعطى مقابلاً، أما اليوم فصار الناس يستوحشون حتى من ثياب الميت ويريدون التخلص منها في أسرع وقت وألا تبقى في البيت، وألا ينظر إليها وألا يمسوها، والشجاع في هذه الدار هو الذي يستطيع أن يقوم بهذه المهمة بأسرع وقت، والباقي لا يستطيعون أن يمسوها بأيديهم كأن شيئاً قد حل بها.

وقد أخرجاه في الصحيحين بألفاظ كثيرة منها: أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يَذْرُوا نصفه في البر ونصفه في البحر، في يوم رائح -أي كثير الهواء- ففعلوا ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن غفر له"[٥].

هذا الحديث فيه كلام معروف لأهل العلم في توجيهه هل هذا الرجل كان يشك في قدرة الله -عز وجل-؟ أو أنها حال عارضة بسبب غلبة الخوف من الله -عز وجل-؟ فمن أهل العلم من يقول: إنه كان يشك في قدرة الله -عز وجل- على الإعادة في مثل هذه الحال لجهله؛ لأنه جاهل، والشك بقدرة الله -عز وجل- كفر مخرج من الملة، والإنسان يشك في قدرة الله على بعثه إذا حُرق ثم ذُري بهذه الطريقة في يوم رائح، والله لا يتعاظمه شي ولا يعجز شيء، فهذا الرجل هل جهله في هذا يغني عنه إذا قلنا: إن السبب هو الجهل؟ هذا قال به جمع من أهل العلم، وقال به شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال: هذا بسبب الجهل كان يشك في القدرة، والذي يشك في القدرة كافر، وشيخ الإسلام يقول في مثل هذا: عذر بجهله، فالعذر بالجهل يكون حتى في مثل هذه الأمور العظام، وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإلا ما آتاها، وأن المكلف إذا بذل وسعه في طلب الحق ثم بعد ذلك عجز عن إدراك بعضه في قواه وإمكاناته وقُدره العقلية أو في إمكاناته العملية إذا كان ذلك من الأمور العملية فإن الله يغفر له؛ لأن الله قال: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}** [سورة الطلاق:٧]، هذا

---

٤ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم (٣٤٧٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٣٣٥٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٥ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (٦٥٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

قول شيخ الإسلام: العذر بالجهل حتى في مثل هذه القضايا، والذين استشكلوا هذا وقالوا: هذا شك في القدرة لا يمكن أن يكون معه مؤمناً حملوا ذلك على معنى آخر وهو أن الإنسان لربما في حالات الخوف الشديد يصيبه شيء من الذهول فيقع منه بعض الشيء، لا لأنه يشك في القدرة مثلاً، وإنما لغلبة الخوف في هذا الحال أصابه ذهول ففعل أو قال في هذه الحالة الخاصة فإنه لا يؤاخذ؛ لأن الإنسان يختل مزاجه وتفكيره في حالات الفرح الشديد، كالرجل الذي قال: ((اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح))[٦]، لما رأى ناقته عند رأسه، وكذلك في حالات الخوف الشديد يمثلون بهذا، وكذلك في حالات الشدة الواقعة على أهل الإيمان، أو على بعضهم، ويحمل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} [سورة يوسف:١١٠] على هذه القراءة، "كُذِبوا"، القراءة الأخرى متواترة "كُذِّبوا، هذه لا إشكال فيها يعني كذّبهم قومهم قالوا: أين الذي تقولون من النصر وما وعدتم به؟ القراءة الأولى التي نقرأ بها {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} ما معناها؟ معناها أن وعد الله قد تخلف، وكيف يُظن هذا بالرسل؟ كيف الرسل يظنون هذا وهم أعلم الناس بربهم؟ الجواب أن هذا خاطر وعارض يعرض للنفوس في أوقات الشدائد العظيمة ولكنها ما تلبث أن تدفع ذلك، كما يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في كتابه "القواعد الحسان" إن هذا في حالات شدة الخوف، شدة البلاء الذي نزل بهم، فعلى هذا المَهْيَع يكون مثل هذا الرجل قال ما قال لشدة الخوف لا أنه كان يشك في القدرة، قال: ولو كان يشك في القدرة كان كافراً، وشيخ الإسلام يقول: إنه كان يشك لجهله فغفر الله له؛ لأن هذا هو مبلغه في العلم.

وقوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضرًا نَضرًا ذا ثمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء.

يعني الآن هذا دليل ثانٍ من دلائل القدرة على البعث وحاصله إخراج الشيء من ضده، الشجر الأخضر طبيعته وتكوينه وتركيبه مقابل للنار تماماً، النار التي طبيعتها الإحراق، والحرارة يناسبها اليبوسة، الذي يكون بهذه المثابة وهو الشجر الأخضر طبيعته الرطوبة، فهي تخالف تماماً وتناقض طبيعة النار، فالنار لها خصائص، والشجر الأخضر له خصائص متناقضة، فإخراج الشيء من نقيضه دليل من دلائل قدرة الله -عز وجل- يدل على البعث، يُخرج الشيء من معدنه مما يقاربه ويشاكله، لكن أن يُخرج الشيء من النقيض هذا دليل على القدرة، ومن شاء المزيد حول المسألة فليراجع كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فقد فصل في هذا، وذكر خصائص النار، وطبيعتها، وذكر خصائص الشجر الأخضر وطبيعته، وبه يتضح توجيه هذا الدليل.

قال قتادة في قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه.

وقيل: المراد بذلك شجر المَرْخ والعفَار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قَدْح نار وليس معه زناد

---

٦ - رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم (٢٧٤٧).

فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، روي هذا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وفي المثل: لكل شجر نار، واستَمجَدَ المَرْخُ والعَفَار.

واستنجدَ المَرخ والعَفار يعني أنه تميز بهذا، يعني كل شجر فيه نار، ولكن المرخ والعفار هذا مثلُ ذكرٍ وأنثى في الشجر يكون زنداً فيقدح فيه فيشتعل، فكانوا يوقدون فيه النار مثل الولاعة، يعني بهذين النوعين من الشجر، يقدح هذا بهذا، هذا العود بهذا العود ويشتعل، فتميز المرخ والعفار بهذه الخاصية.

وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

لا ليس الغاب، في كل شجر نار إلا العناب، فالعناب نوع من الشجر المعروف له ثمر.

الشجر الأخضر الذي أخرج الله منه النار على المعنى الأول أن ذلك يكون حطباً فيكون وقوداً للنار، والمعنى الثاني أنه في حال خضرته قبل أن يصير حطباً ويجف يخرج منه النار، وذلك في نوع مخصوص، وهو المرخ والعفار {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا}، فعلى الأول أن مادة النار هي الشجر لكن بعد جفافه ويبوسته، والثاني لا، يقطع الغصن من هذه ويقطع الغصن من هذه ثم يقدح فتخرج منه النار، فخرجت النار من هذه الأغصان الرطبة، وهذا أوضح وأدل في القدرة، من إخراج الشيء من أضداده ولكن لا ينفي الأول، فمادة النار هي الحطب والحطب من الشجر، لكن هنا قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا} هل المقصود به مباشرة هو شجر أخضر كالمرخ، والعفار؟ ذلك ليس بقاطع، -والله تعالى أعلم-، فيمكن أن يكون أخرج من الشجر الأخضر ناراً بعدما يقطع ثم يجف ثم يكون وقوداً للنار، فالله أخرج من الشجر الأخضر ناراً وذلك بقطعه حتى يصير حطباً فيكون وقوداً للنار كما هو معروف، ومن صوره الجلية الواضحة وهي لربما أدل في القدرة -والله أعلم- قطع هذا النوع من الشجر وهو أخضر ثم بعد ذلك يقدح فيخرج منه النار.

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة يس:٨١-٨٣].

هذا هو الدليل الثالث وهو خلق السماوات والأرض {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧]، فالذي خلق هذه الأجرام العظام قادر على إعادة هؤلاء من جديد، فذلك سهل يسير.

يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلق السماوات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧]، وقال هاهنا: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير.

وهذه الآية كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، وقال: {بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} أي: إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا *** يَقُولُ لَهُ "كُنْ" قَوْلَةً فَيَكُونُ

وروى الإمام أحمد عن أبي ذَر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون))[٧].

هذا الحديث بعض الجمل فيه لها ما يشهد من الأحاديث الصحيحة، لكنه بهذا السياق فيه كلام معروف، ضعفه بعض أهل العلم وصححه آخرون، وممن صححه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وممن ضعفه الشيخ ناصر الدين الألباني -رحم الله الجميع.

وقوله: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل.

ومعنى قوله: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} كقوله -عز وجل-: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة المؤمنون:٨٨]، وكقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [سورة الملك:١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبَة ورَهَبُوت، وجَبْر وجَبَرُوت، ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالَم الأجساد، والملكوت هو عالَم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

يعني أنه لفظ مبالغة في المُلك، ملك ملكوت، رحمة رحموت، جبر جبروت وهكذا.

معروف أن زيادة المبنى لزيادة المعنى فالملكوت أبلغ من الملك، والرحموت أبلغ من الرحمة وهكذا، ولهذا قالوا أيضاً فيما عدل به من الصيغ: الرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأن رحم يقال: رحم رحمة فهو راحم ورحيم فلما عدل به عن نظائره تقول: كرم فهو كريم، عظم فهو عظيم، فهنا رحم فهو رحمن فلما عدل به عن نظائره كما يقول ابن جرير -رحمه الله- كان ذلك أبلغ، فالرحمن أبلغ من الرحيم.

روى الإمام أحمد عن حذيفة -وهو ابن اليمان -رضي الله عنه- قال: قمت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة، فقرأ السبع الطُّوَال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: ((سمع الله لمن حمده))، ثم قال: ((الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة))، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاي[٨].

ثبت عن حذيفة -رضي الله عنه- أنه صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم، لكن بهذا السياق الحديث فيه ضعف، والجملة الأخيرة أنه في ركوعه وسجوده -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة))، هذا جاء أيضاً من غير حديث حذيفة -رضي الله

---

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٣٦٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب ضعيفان".

٨ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٣٠٠)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة ابن عم حذيفة".

تعالى عنه-، حديث عوف بن مالك الأشجعي ثابت صحيح، وهنا الحديث بهذا السياق فيه ضعف، وهذا يحتج به من يقول بأن ترتيب السور توقيفي، ويحتج بنظائره، يعني هنا يقول: قرأ السبع الطوال، السبع الطوال معروفة، ومعنى ذلك أن السبع الطوال كانت مرتبة بهذا الترتيب في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ البقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلم يكن بهذا الترتيب، لكن هذا الحديث لا يخلو من ضعف، أي الذي أورده الحافظ ابن كثير، حديث حذيفة في هذا السياق.

وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: ((سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة))، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة[٩]، ورواه الترمذي في الشمائل، والنسائي.

آخر تفسير سورة "يس" ولله الحمد والمنة.

تم بحمد الله وفضله.

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، برقم (٨٧٣)، والنسائي، كتاب التطبيق، باب الدعاء في السجود، برقم (١١٣٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٣٩٨٠)، وقال محققوه: "إسناده قوي"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٨١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [سورة الصافات:١-٥].

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: روى النسائي عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات"[١]، تفرد به النسائي.

هذا صححه الشيخ أحمد شاكر.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} وهي: الملائكة.

يعني هي الملائكة باعتبار أن {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} صافات جمع صافّة، صافات يكون جمعاً لصافة، فالملائكة صافة عند ربها -تبارك وتعالى-، وإنها صافة لأجنحتها كما سيأتي، فيكون من قبيل جمع الجمع كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [سورة الصافات:١٦٥]، فذلك في الملائكة ولهذا فسره الجمهور بالملائكة هنا، الصافات الملائكة: هو الذي عليه السواد الأعظم، هذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وتدل عليه هذه الآية {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}، ويدل عليه الحديث: ((ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها؟))[٢]، فالصافات هي الملائكة، وهذا الذي اختاره المحققون كابن جرير وغيره.

{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} وهي: الملائكة، {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} هي: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

وهو اختيار ابن جرير، وذلك -والله تعالى أعلم- قول عامة أهل العلم من السلف والخلف، أن ذلك جميعاً في الملائكة، ومما استدل به ابن جرير -رحمه الله- أن ذلك يرجع إلى موصوفٍ واحد {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا...} فهذه أوصاف متعاطفة لموصوف واحد وهم الملائكة وأنه لا دليل على أن المراد ببعض هذه الأوصاف غير الملائكة.

قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء.

وروى مسلم عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فُضِّلنا على

---

١ - رواه النسائي، كتاب الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل، برقم (٨٢٦)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١١٣٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأُول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، برقم (٤٣٠).

الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعل لنا تُرابها طهورًا إذا لم نجد الماء))[٣].

وقد روى مسلم أيضًا، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربهم؟))، قلنا: وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((يُتمّون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون في الصف))[٤].

هذان الحديثان والآية قبل ذلك {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} كلها يدل على أن المراد بذلك الملائكة، وهذه الأحاديث تدل على أنهم يصفُّون عند ربهم، يصفون للصلاة لطاعته، لعبادته، وهذه الأحاديث صريحة وواضحة في هذا المعنى، ومن أهل العلم ممن قال: إن المراد الملائكة قال: تصف أجنحتها في السماء انتظاراً لأمر الله -عز وجل- لها، ولكن هذا القول الذي قبله هو الذي تدل عليه هذه الأدلة، فالمقصود بذلك الملائكة، وبعضهم قال: المقصود بذلك الطير فذلك من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، والقَسم لا يكون إلا بمعظم، فالطير أخبر الله -عز وجل- أنّ صفَّها للأجنحة {صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} [سورة الملك:١٩] أن ذلك من دلائل قدرته، صافات في جو السماء فتبقى معلقة في الهواء، {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} يعني ما يبقيها قائمة في الهواء هكذا صافة لأجنحتها إلا الله كما أنه يمسك السماء من غير عمد فلا تسقط على الأرض، فهكذا هذه الطيور من الذي يبقيها هكذا معلقة صافة لأجنحتها إلا الله -تبارك وتعالى- وإلا لسقطت، لكن هذا ليس المراد بالآية -والله تعالى أعلم-، وهكذا من قال: المقصود به المصلون من بني آدم أو الذين يصطفون في صف الجهاد، {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} لكن الآية وهذه الأحاديث تدل على أن المراد بذلك الملائكة تصف عند ربها، فأقسم الله بها.

وقال السدي وغيره: معنى قوله {فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} أنها تزجر السحاب.

تزجر السحاب يعني هذا في الملائكة أيضاً، فهي تزجر السحاب أو أنها تزجر عن المعاصي، والشيطان كذلك باعتبار أنها تزجر عن المعاصي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا أن الرعد صوت الملك الموكل بالسحاب، وأن البرق سوطه حينما يسوقها ويزجرها، فالزاجرات تزجر يعني الملائكة تزجر السحاب، وبعضهم كقتادة يقول: المقصود بالزاجرات: الزواجر من القرآن، وهذا لا دليل عليه -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: العلماء؛ لأنهم يزجرون الناس -بالمواعظ والتذكير وما إلى ذلك- عما لا يليق، وأصل الزجر هو الدفع بقوة، وزجرته عن كذا أزجر فلاناً.

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس.

---

٣ - رواه مسلم، في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٢).

٤ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأُوَل والتراص فيها والأمر بالاجتماع، برقم (٤٣٠)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، برقم (٦٦١)، والنسائي، كتاب الإمامة، حث الإمامِ على رص الصفوف والمقاربة بينها، برقم (٨١٦)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب إقامة الصفوف، برقم (٩٩٢).

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} [سورة المرسلات:٥] ولهذا خصصه بعضهم بجبريل -عليه الصلاة والسلام- باعتبار أنه المُوكل بالوحي، فالوحي إنما يأتي به جبريل -عليه الصلاة والسلام- فيكون قد عبر بالجمع مراداً به المفرد، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والله -تبارك وتعالى- جعل من الملائكة واختار منهم رسلاً كما اختار رسلاً من الناس {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحج:٧٥]، فهؤلاء الرسل يكونون رسلاً بين الله وخلقه، لكن هؤلاء يأتون بالوحي إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهل يأتي بغير القرآن أحدٌ غير جبريل -صلى الله عليه وسلم-؟ ظواهر النصوص من الكتاب والسنة {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [سورة الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وكذلك أيضاً {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} [سورة النجم:٥-٦] إلى آخره، هذا كله في جبريل -صلى الله عليه وسلم-، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل:١٠٢] فجبريل -صلى الله عليه وسلم- هو الذي ينزل على النبي -عليه الصلاة والسلام- خلاف من قال: إنه يَنزل بعضُ القرآن بطريق أو من غير طريق جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ويحتجون بالحديث حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه لما كان جبريل عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمع صوتاً فرفع رأسه، وقال: ((هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته))[٥]، قالوا: هذا الملك جاء بها فبعضهم يقول: هذا يدل على أن غير جبريل قد يُنزل شيئاً من القرآن، وقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} هذه الآيات باعتبار الغالب، وأما القليل والنادر فلا أثر له في ذلك ولا حكم، وبعضهم يقول: إن هذا ألقاه إلى جبريل، وإنما جاء بالبشارة فقط، ويمكن أن يقال -والله أعلم-: إنه لم ينزل بها حينئذ، وإنما جاء بالبشارة، فسورة الفاتحة كانت نازلة في مكة وهذه الواقعة كانت بالمدينة، وإنما جاء بالبشارة فقط والبشارة قد تكون على أمر قد مضى، وقد تكون على أمر قد يقع، وقد تكون على أمر قد يحصل بالمستقبل، فهنا خصه بعضهم {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} بجبريل -عليه الصلاة والسلام-، لكن هذا إذا خصصناه بالقرآن فإذا قلنا الوحي: فقد يأتي به غير جبريل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، قد يأتي به ملك من الملائكة، فمن نظر إلى أنه قرآن قال: هذا جبريل عبر بالجمع وأراد به الواحد، وبعضهم عمم المعنى كقتادة قال: كل من تلا القرآن فيدخل فيه الملائكة كجبريل -عليه السلام-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وهكذا كل من يتلو من أهل الإيمان، فأقسم الله -عز وجل- بذلك {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}، وبعضهم يقول: إن المراد بذلك الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يتلون على أقوامهم، وهذا الذي قاله الماوردي، والمشهور أن المراد بذلك الملائكة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وأن هذه الآيات كما سبق كلها بالملائكة، هذه الأوصاف المتتابعة في موصوف واحد متعاطفة.

وابن القيم -رحمه الله- جعل هذا محتملاً، يعني الآية {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} يحتمل أن يكون المراد جبريل، وأن

---

٥ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، برقم (٨٠٦).

يكون الملائكة، وأن يكون من يتلو القرآن كما قال قتادة: إن هذا كله احتمال، أقسم الله بمن يتلون كتابه، ولكن جَعلَ أولى ما يصدق عليه ذلك وما يقال فيه هم الملائكة، هذا ابن القيم يقول: لا يبعد أن يرادوا به جميعاً، ولكن أولى ما يدخل فيه ذلك ويصدق عليه هذا الوصف الملائكة {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}.

وقوله: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: من المخلوقات، {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} [سورة المعارج:٤٠]**، وقال في الآية الأخرى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}** [سورة الرحمن:١٧] **يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.**

الآن عندنا شيئان: الأول: هو أنه ذكر المشارق ولم يذكر المغارب، الجواب الذي ذكره ابن كثير عن هذا أنه من باب الاكتفاء اكتفى بأحد القبيلين ليدل على الآخر، كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] يعني والبرد، وعليه حمل قولَه -تبارك وتعالى- بعضُ أهل العلم: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩] أي وإن لم تنفع، فلا يسقط الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر والتذكير إذا كان يتوقع ألا يقبل هذا المذكَّر والمنصوح والمأمور والمنهي، وليس هذا محل اتفاق، لكن أن يذكر أحد القبيلين ليدل على الآخر، أحد المتقابلين ليدل على الآخر هذا أسلوب عربي معروف، على هذا قول ابن كثير أنه ذكر المشارق أي والمغارب، القضية الثانية وهي هنا أنه ذكرها بصيغة الجمع {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} المشارق، كذلك في {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}، وفي الآية الأخرى {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} ذكر المشرقين، وفي الثالثة {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [سورة المزمل:٩] بصيغة الإفراد، فصار عندنا الجمع والتثنية والإفراد، وقد مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات، وحاصل ما ذكر هناك أن الجمع {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} من أهل العلم من يقول: باعتبار -كما هو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا- مشارق الكواكب ومغاربها فالشمس والقمر والنجوم تشرق وتغرب، فبهذا الاعتبار جَمعَ، وأن قوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} يعني الشمس والقمر، والمغربين، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يعني مشرق الشمس ومغرب الشمس، فهذا توجيه للجمع والتثنية والإفراد، وبعض أهل العلم يقول: كل ذلك في الشمس، فـــ {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} يعني المشارق الشمس يقولون: هي ثلاثمائة وستون مشرقاً، وكذا المغارب مع أنها كل يوم لها طلوع وغروب، شروق وغروب كل يوم، يعني حينما تخرج في الشتاء في حال شروقها فإنها تتجه من أقصى نقطة في الشمال الشرقي، وفي الغروب أقصى نقطة من جهة الجنوب الغربي بهذا الشكل، وكل يوم تنتقل درجة، فتجد الفيء يتحول، حتى تصير في الصيف أقصى نقطة تشرق من ناحية الجنوب الشرقي، وتغرب في أقصى نقطة من جهة الشمال الغربي يعني غرباً إلى ناحية الشمال في أقصى نقطة لها، فهذه مشارق كل يوم تنتقل، ومغارب كل يوم تنتقل، فإذا ذكر مفرداً {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} فهو باعتبار شروق الشمس وغروبها مشرق واحد، ومغرب واحد، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، يحتمل أن يكون الشمس والقمر، يحتمل أن يكون أقصى نقطة لها كما وصفت من ناحية الجنوب الشرقي والشمال الشرقي، وهكذا الجنوب الغربي والشمال الغربي أقصى نقطة من هنا وهنا، صار

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} باعتبار أقصى نقطتين فقط وترك ما بينهما، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} باعتبار الشمس والقمر، هذا توجيه لهذا المعنى -والله تعالى أعلم-، وكون أنه اقتصر هنا على المشرق ليدل على المغرب ليس هذا بقاطع، فمن أهل العلم من يقول: ذكْرُ المشارق مقصود وحتى من يقول: إنه مقصود بعضهم لا يمنع من أن يكون المغارب لكن هذا ذكر المشارق وحدها بأي اعتبار؟ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنه قصد ذكر المشارق بالذات إما أنه أرادها دون المغارب هنا في هذا المقام فلا يكون من باب الاكتفاء، أو يكون من باب الاكتفاء وأنه ذكرها؛ لأنها الأشرف كما قال: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} فذكر أشرف الاحتمالين وترك الآخر، فبأي اعتبار هنا ذكرَ المشارق دون المغارب؟ يعني المشارق هي مطلع الأنوار، فهي أشرف من المغارب أو باعتبار أنها الأنسب في المقام أنه هنا جعل الكواكب زينة للسماء الدنيا، وذلك المناسب معه ذكر المشارق مشارق هذه الأنوار لا مغاربها فإنها تكون في حال من الأُفول، وإنما سلطانها حينما يكون شروقها فيراها الناس في السماء، وتكون زينة لها لا في أفولها، وكل ذلك من دلائل عظمته -تبارك وتعالى- فكما أنه أقسم بالليل في حالة إقباله وحالة إدباره {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١]، {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [سورة الضحى:٢]، {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [سورة المدثر:٣٣] وعليهما يحمل قوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧] فهو مشترك يحمل معنيين متضادين، فيكون أقسم به في حالة إقباله وفي حالة إدباره فذلك مظاهر عظمته -تبارك وتعالى- وهنا هذه مظاهر القدرة والعظمة، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٦) إلى الآية (٤٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين يا كريم، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [سورة الصافات:٦-١٠].

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ}، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت في السماء تضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٥]، وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [سورة الحجر:١٦-١٨].

وقوله هاهنا: {وَحِفْظًا} تقديره: وحفظناها حفظًا، {مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى} أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣]، ولهذا قال: {وَيُقْذَفُونَ} أي: يرمون {مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، {دُحُورًا} أي: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٥].

وقوله: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} أي: مستنير.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرْمى قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعًا، قال: فلما بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جَعل الشيطان إذا قصد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث، قال: فبَثّ جنوده، فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم يصلي بين جبلي نخلة -قال وكيع: يعني بطن نخلة- قال: فرجعوا

إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: **قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعنى واحد**، بالبدل على هذه القراءة {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} فتكون الكواكب بدل الزينة، وهذه الزينة التي يزين الله بها السماء الدنيا هي الكواكب، {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} كأنه قال هنا: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا} بالكواكب، وعلى الإضافة {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} من غير تنوين زينة، بزينة الكوكب، زينها بزينة الكواكب، هذا هو المراد من كلام الحافظ -رحمه الله-، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} قال: {دُحُورًا} أي: **رجماً يدحرون به ويزجرون**، وأصل الدحور بمعنى الطرد، دحره، دحر العدو بمعنى دفعهم وطردهم، {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} قال: **أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر** بالدار الآخرة، وأصل الواصب هو الذي فسره به عامة أهل العلم الجمهور: الدائم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي: عذابٌ دائمٌ مستمر هنا قال: **في الدار الآخرة**، وهذا ليس محل اتفاق، فمن السلف من قال: إن هذا العذاب الواصب إلى النفخة الأولى، يعني أن ذلك في الدنيا، هذا قاله مقاتل، والعذاب الواصب هو الدائم، وجمع من السلف فسروه بالموجع الذي يصل وجعه إلى القلب، قالوا: إنه مأخوذ من الوصب الذي هو المرض، هكذا قالوا، و بعضهم يعبر عن ذلك بالشديد، وهذا مثل قول من قال: إنه موجع، ومن قال: إنه يصل وصبه إلى القلب، وكذلك أيضاً هو من شدة إيلامه يصل إلى القلوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} قال: **إلا من اختطف من الشياطين الخطفة**، والخطف أصله الاختلاس، المسارقة وأخذ الشيء بسرعة، الخطف هو المصدر، ويقال: خطفة للواحدة من الخطف، إلا من خطف الخطفة هذا الاستثناء في هذه الآية {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} يحتمل أن يرجع إلى قوله: {لَا يَسَّمَّعُونَ}، بمعنى أنه يحصل الاستماع لمن خطف الخطفة، {لَا يَسَّمَّعُونَ} إلا أن يكون ذلك بمعنى بعض ما يحصل له ذلك، ويحتمل أن يرجع إلى قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ}، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} فبمعنى أنه لا يصيبه الشهاب، فالأول يدل على أنه لا يحصل لهم الاستماع مطلقاً {لَا يَسَّمَّعُونَ} لا يتسمعون؛ لأن أصل قوله: {لَا يَسَّمَّعُونَ} أي: لا يتسمعون كما في القراءة الأخرى المتواترة، نفي للسماع من أصله، ومن ثمّ فهم لا يحصل لهم سماع ولا استماع.

الثانية: لا يتسمعون حصل لها الإدغام {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ}، وبعضهم يقول: إن هذا الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٢]، وهذا فيه نظر -والله تعالى أعلم-، فهم معزولون عن السمع بهذه الشهب، وكما في هذه الرواية التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **كان للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يتسمعون الوحي، وكانت النجوم تجري وكانت الشياطين لا تُرمى، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض** ... إلى آخره ثم مُنعوا من هذا فعُزلوا عن السمع فكانوا كما قال الله -عز وجل-: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، وكما قال الله -عز وجل- عن الجن: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا} [سورة الجن:٨-٩] يعني مرصداً، وقد يقول قائل: إنه وُجد ما

يدل على أن الرجم لهم بهذه الشهب كان موجوداً في الجاهلية، ويدل عليه حديث: ((ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟))، قالوا: "يموت عظيم أو يولد عظيم"[1]، فالسؤال الذي يرد أنهم إذا كانوا بالجاهلية يُرجمون فما الجديد بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قد أجاب بعض السلف بأن الجديد أن ذلك صار مضاعفاً فوجدوا السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً أكثر وأعظم مما كان، يعني كانوا يرجمون قبل بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن ذلك بعد بعثه -عليه الصلاة والسلام- صار أشد، وتضاعف، وبعض أهل العلم يقول: الاستثناء في قوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} منقطع لا يرجع إلى شيء مما سبق ليس بمتصل، بمعنى لكن {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، والحديث صور استراق هؤلاء الشياطين للسمع وأنهم يرقى بعضهم على بعض وكل واحد منهم يلقيها للذي يليه حتى يصل إلى الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة، وقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} الثاقب هنا قال: أي: **المستنير**، أصل الثاقب أو الثقوب الثاقب: هو المضيء، ثقوب الإضاءة، {شِهَابٌ ثَاقِبٌ} أي: مضيء، يعني {إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} [سورة الحجر:١٨] هنا بمعنى الثاقب وهو ما نراه ونشاهده يكون معه في الإضاءة، كأنها جذوة من نار تلقى على هذا الشيطان فهذه الشهب التي نراها ترمى بها الشياطين، وصدر سورة الصافات هذا له أثر عجيب في القراءة على الشياطين يعني المصروع الذي يتخبطه الشيطان، ومن به شيطان "مس" ونحو ذلك إذا قرئ عليه صدر هذه السورة فإنه لا يتمالك، فإذا قرأتَ عليه الآية: {وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} فإن ذلك يكون في غاية الإيلام والإيجاع له، لا يتمالك يصيح بأعلى صوته، ويطلب الخلاص والخروج من هذا المصروع، فإذا كررت ذلك عليه فكأنما تنخسه برمح، هو من أقوى ما يؤثر في هؤلاء الذين يصرعون الناس ويؤذونهم من هؤلاء الشياطين.

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [سورة الصافات:١١-١٩].

يقول تعالى: فَسَلْ هؤلاء المنكرين للبعث: أيّما أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ -وقرأ ابن مسعود: "أم مَن عَددنا"- فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم.

كثير من السلف يفسرون هذا الموضع، {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} بما سبق، يعني الأشياء التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- قبله، هذه الأشياء التي عدها من ذكر السماوات والأرض والشياطين.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة سبأ، برقم (٣٢٢٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٨٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وابن حبان في صحيحه برقم (٦١٢٩)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٤٦٠١).

وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}؟ [سورة غافر:٥٧] **ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ}، قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد.**

هذا كله هل يرجع إلى معنى واحد؟، هذا الذي يقال له: اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد، وعامة عبارات السلف مما ذكر والذي لم يذكر يرجع إلى هذا المعنى، يعني أنه يلزق باليد، وكذلك أيضاً اللازب كل ذلك بمعنى واحد، والله -تبارك وتعالى- أخبر أنه خلق الإنسان من تراب، خلق آدم -صلى الله عليه وسلم- من تراب، وأخبر أنه خلقه من طين، أنه خلقه {مِنْ طِينٍ لازِبٍ}، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [سورة الحجر:٢٦]، {مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن:١٤] فكل هذا أطوار خلق الإنسان، والله خلقه من تراب، وهذا التراب بُل بالماء فصار طيناً، فتُرك حتى صار حمأً وصار بهذه المثابة يلزق باليد، طين متلاصق يلصق ويعلق باليد ثم تُرك حتى جف فصار كالفخار، فإذا عبر عن حالة من هذه المراحل في صفة الخلق فإن ذلك يصدق عليه في طورٍ من أطواره، طوره الأول التراب، ثم صار طيناً، ثم صار بعد ذلك حمأً، ثم جف وصار كالفخار.

وقوله: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} أي: بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد -صلى الله عليه وسلم-، وسَخِر ضُلّال بني آدم.

قوله: {بَلْ عَجِبْتَ} به قراءتان متواترتان الأولى بالضم وهي قراءة حمزة والكسائي، {بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ} ويكون ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، فيُستدل بهذه الآية -على هذه القراءة- على إثبات صفة التعجب لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذه الصفة ثابتة لله تعالى بالسنة كما هو معلوم ((عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم))[٢]، وحديث: ((عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل))[٣]، وغير ذلك مما يدل على هذه الصفة، فيدل عليها من القرآن هذه القراءة وهي مروية عن علي وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-، واختار هذه القراءة أبو عبيد والفراء، وقراءة الجمهور على ما نقرأ به {بَلْ عَجِبْتَ} بالفتح يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والقاعدة أن القراءتين إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، وصارت القراءة التي بالضم تدل على صفة الله -عز وجل-، {بَلْ عَجِبْتُ} يكون التعجب صادراً من الله، وعلى القراءة الأخرى يكون التعجب صادراً من النبي -صلى الله

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الرجل يشري نفسه، برقم (٢٥٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٩٨١).

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٠١٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد -وهو ابن سلمة- فمن رجال مسلم. محمد بن زياد: هو القرشي الجمحي مولاهم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٩٨٢).

عليه وسلم-، وعليه فالمعنى إن كان ذلك من قِبل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: {بَلْ عَجِبْتَ} يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين، وبعضهم يقول: عجبتَ من قدرة الله -عز وجل- ويسخرون منك ومن تعجبك، يعني باعتبار ما ذكر قبله من صفة الخلق وقدرة الله -تبارك وتعالى- على خلق هذه المخلوقات العظيمة، وبعضهم يقول: يسخرون من إثباتك للبعث {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} يقول: **قال قتادة: عجب محمد -صلى الله عليه وسلم- وسخر ضُلّال بني آدم**، وما حدد شيئاً.

{وَإِذَا رَأَوْا آيَةً} أي: **دلالة واضحة على ذلك** {يَسْتَسْخِرُونَ} **قال مجاهد وقتادة: يستهزئون.**

{يَسْتَسْخِرُونَ} يعني يبالغون في السخرية يسخر ويستسخر زيادة المبنى لزيادة المعنى، فكُبكبوا أبلغ من فكُبوا، وهكذا يستسخرون أي يبالغون بالسخرية.

{وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ} أي: **إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين،** {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ} **يستبعدون ذلك ويكذبون به،** {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} أي: **قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابا وعظاما،** {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} أي: **حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى:** {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [سورة النمل:٨٧]، **وقال:** {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠].

ثم قال جلّت عظمته: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} أي: **إنما هو أمر واحد من الله -عز وجل-، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.**

{وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [سورة الصافات:٢٠-٢٦].

يخبر تعالى عن قِيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندِموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون:** {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، **وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ.**

قوله: وقالوا: {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا} الويل على المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أنها كلمة تقال حال مواجهة الهلكة، فإذا كان الإنسان في حال كهذه يعني في وقت الهلكة يقول: يا ويلي، {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا} لما رأوا العذاب {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} خلافاً من قال: إن أصلها من كلمتين ياوي لنا، وإن الويل هو الحزن يعني يا حزننا، {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} ولكن جاءت موصولة بالكتابة ولم تأتِ مفصولة مما يدل على أنها كلمة واحدة، هذا وإن قال به بعض أهل المعاني كالفراء إلا أن المشهور خلاف ذلك، ورد عليه النحاس بما سبق {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، يقول: **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون:** {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} لا شك أن هذا من متكلم آخر، ولا يقال بحال من الأحوال: إن هذا من الموصول لفظاً المفصول معنى؛ لأن الخطاب وجه به إليهم {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، لكن الحافظ ابن كثير -رحمه

الله- هنا جمع بين القولين؛ لأنه لا دليل على أن هذا القائل هم الملائكة أو أنهم المؤمنون، فبعضهم يقول هذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون** يعني الذين يقرون بأن {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} من كان يؤمن بذلك يقول لهم: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} بمعنى أن الاقتصار على القول بواحد منهما فيه تحكم من غير دليل.

ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} قال النعمان بن بشير -رضي الله عنه-، يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم، وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم وغيرهم.

وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو قول الجمهور {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} يعني وأشباههم ونظراءهم، وهو الذي اختاره الحافظ ابن القيم، والشيخ الأمين محمد الشنقيطي -رحمه الله-، وهو الذي دل عليه القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ} [سورة الحجر:٨٨] أي أصنافاً منهم، وليس المقصود الزوجات، وقد يأتي بهذا المعنى غالباً، وتفسير القرآن بالغالب هو المتعين إلا بدليل.

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} قال: أشباههم قال: يجيء أصحاب الزّنا مع أصحاب الزّنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر.

يعني هذا الذي ذكره عن النعمان -رضي الله عنه- قال: سمعت عمر -رضي الله عنه- هذا من قبيل تفسير الصحابي الذي ينقله عن صحابي آخر، صحابي عن صحابي آخر وهو أحد الأنواع الستة التي يفسر بها الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، القرآن وغالبُ ما تجدون في الكتب التي تتحدث عن هذا في كتب أصول التفسير أنهم لا يذكرون هذا النوع، وهو موجود وله أمثلة هذا واحد منها، هذا النعمان -رضي الله عنه- ينقل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عن الجميع- قال: **يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا** ... إلى آخره، ويحشرون مع نظرائهم فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، ومن يعبد صنماً مع عابديه وهكذا قال: **عن ابن عباس** {أَزْوَاجَهُمْ} **قرناءهم**، ومقصوده بذلك: الأزواج: القرناء، ويحتمل أنه قصد بذلك: القرناء من الشياطين، وقد جاء مصرحاً بذلك حينما نجمع الروايات عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- عن جماعة من السلف كالضحاك قال: قرناءهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه، وبهذا أيضاً قال مقاتل، وهذا احتمال، ولكن عامة أهل العلم على الأول، وهناك من قال -كما جاء عن الحسن ومجاهد- {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}: أي: الزوجات، ولكنهم قيدوه بالمشركين الذين تكون زوجاتهم مشركات، وإلا ففرعون كما هو معلوم كانت زوجته مؤمنة، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} ولا يقول قائل: إنه ذكر ذلك مذكراً {وَأَزْوَاجَهُمْ}، فإن هذه اللغة الأشهر والأفصح يقول: الرجل هذه زوجي، وهذه اللغة هي التي وردت في القرآن، أما زوجة فبعضهم قال: إنه لحن، والصحيح أنه ليس بلحن لكنها ليست الأفصح، ولم تستعمل بالقرآن، ويدل على أنها ليست بلحن قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليُفسد زوجتي *** كساعٍ إلى أُسد الشرى يستبيلها

"زوجتي"، ومعلوم أن الفرزدق بعصر الاحتجاج، يحتج بشعره والشاهد:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ***

فهي لغة صحيحة، ولكن الأفصح زوجي، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [سورة الأنبياء:٩٠]، هذا القول لهؤلاء من السلف عن الحسن ومجاهد أن المقصود الزوجات إلا أنه بعيد، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم قال: إن المقصود وأزواجهم: أنه يزوج بين الأرواح والأبدان، بين النفوس والأبدان، ترجع النفوس والأرواح بلا أبدان، قالوا: هذا هو المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧]، والأقرب أن قوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أنه كهذا الموضع هنا {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} بمعنى أنه يلحق بنظرائه يوم القيامة الأشرار مع الأشرار، والأخيار مع الأخيار، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى أنه يحصل جمعٌ بين العمل وعامله، وهذا أيضاً بعيد، وبعضهم يقول: بين الشياطين ومن أضلوهم، ولكن الأقرب -والله أعلم- أن ذلك يكون بضم النظراء مع بعضهم.

روى مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: {أَزْوَاجَهُمْ}: قُرَناءهم.

"وما كانوا يعبدون من دون الله" أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أماكنهم.

هذا دل عليه القرآن {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء:٩٨]، وفي قوله تعالى: {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم:٦]، والسبب الأصنام التي كانوا يعبدونها مع قول من قال: إن ذلك حجارة الكبريت؛ لأنها تتوقد عليهم، وهو لا ينافي ما ذكر من أنها الأصنام أيضاً، فلماذا تحشر معهم الأصنام؟ يكون ذلك تبكيتاً لهم لزيادة حسرتهم، والله المستعان.

وقوله: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [سورة الإسراء:٩٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ} [سورة الحج:٤] يعني الشيطان، كتب عليه {أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}، كقوله هنا: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} يعني دلُّوهم، هذه الهداية هداية الإرشاد دلوهم إلى طريق النار، وكذلك في قوله: {وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} يعني أنه يدله عليه، يدله إلى عذاب النار بما يقارفه من الضلالات الشرك بالله -عز وجل- والأهواء والجرائم والمعاصي، وهذا معنى كون الشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

وقوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: {مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ} أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

قوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} قال: أي قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في **الدار الدنيا** هذا هو المتبادر، وبعضهم يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} يعني من المسئولية يعني أنهم

محاسبون، وأنت مسئول عن كذا أي محاسب على ذلك، وبعضهم يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} يعني أهذا شيء يرضيكم ويعجبكم أنكم تساقون إلى النار؟، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر، والآية الأخرى مضى في بعض المناسبات الجمع بينهما، أي ما جاء من نفي السؤال يوم القيامة لهؤلاء الكفار {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [سورة الرحمن:٣٩] فهناك نفى السؤال وهنا أثبته {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، هناك لا يسأل سؤال استعتاب، يعني المنفي أن يسأل سؤال استعتاب سؤال من ينتظر منه الجواب ليحصل له المخرج والعذر، وهنا يسأل سؤال تبكيت كالذي وقع في مصيبة وفي بلاء فيأتيه من يوبخه ويبكته أي من الذي أوقعك في هذا؟، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، وبعض أهل العلم يقول: إن يوم القيامة يوم طويل ففي بعض المواقف {لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} وفي بعض المواقف يحصل السؤال.

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:٢٧-٣٧].

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عَرَصات القيامة، كما يتخاصمون في دَرَكات النار، {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [سورة غافر:٤٧، ٤٨]، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة سبأ:٣١-٣٣].

هذه الآيات تصور ما يقع في ذلك اليوم بجلاء كأنك تشاهده، ولكنها الغفلة الغالبة بهذه الدار الدنيا، فهؤلاء حينما يرون العذاب، وتتقطع بهم الأسباب، ويكونون في حال من الحسرة والندامة يتوجه بعضهم إلى بعض بالملامة، فيقول الأتباع للأئمة المضلين الذين أضلوهم من شياطين الإنس وشياطين الجن يقولون لهم: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ...} إلى آخر الآيات، فهنا أثبت هذا التساؤل بينهم، و في الموضع الآخر قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة المؤمنون:١٠١]، فهناك لا يتساءلون بمعنى أنهم لا يتفقد بعضهم بعضاً ولا يسأله عن حاله كل أحد مشغول بنفسه، وهنا يتساءلون على وجه التلاوم، وذلك أشد في الحسرة كما هو معلوم، فالناس إذا وقعوا في ورطة أو مصيبة ليسوا بحاجة إلى أن يرجع بعضهم إلى بعض بالملامة فإن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ولا ينفعهم، ولا يرجعون منه بشيء، إنما هو مزيد من التحسر والتبكيت والألم كما هو معلوم، فهؤلاء في القيامة -نسأل الله العافية- إذا تقطعت بهم الأسباب وعاينوا الهلكة ويئسوا من النجاة صار بعضهم يلوم بعضاً {إِنَّكُم كُنتُم} هؤلاء الأتباع {إِنَّكُم كُنتُم تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ}، {قَالُواْ بَل لَّم تَكُونُواْ مُؤمِنِينَ} قالوا: نحن وجدنا أناساً فيهم خفة لقبول الكفر بالله -تبارك وتعالى-

ولم يكن عندهم من اليقين الذي يحجزهم عن ذلك فسارعوا وبادروا إلى تلقيه عنا وتقبّله، فأصبحنا مشتركين بهذا الكفر والضلال، {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} هؤلاء الكبار من أئمة الضلال من شياطين الإنس ومن شياطين الجن هذه هي النهاية، يقولون لهم مثل هذا الكلام بعدما كانوا في الدنيا يتبنونهم ويدافعون عنهم، ويعملون ليل نهار في إضلالهم، وإغوائهم كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا} [سورة سبأ:٣٣]، بمعنى أنه مكر واقع في الليل والنهار لا يفتئون ولا يفترون من هذا المكر والتحيل والتخطيط والعمل الدائب؛ من أجل إضلال الناس وإغوائهم وإفسادهم ثم تكون هذه هي النهاية، في نهاية المطاف هذه الصورة النهائية لهؤلاء المضلين، ومن تابعهم وهذه عبرة عظيمة لمن كان له قلب ولكنها الغفلة، -والله المستعان-، ويحتاج المؤمن أن يعرض هذا على قلبه، وأن يعرض قلبه على هذا دائماً ليكون ذلك له واعظاً، وكثير من الأشياء يسمعها الإنسان ولكنها قد تمر على أذنيه كأنه لم يسمعها، لكن إذا سمعها وقت الشدة التي تتحدث عنها الآيات فكأنما يسمعها لأول مرة، كل ما يجري في القيامة الله قصه وأخبر عنه ومع ذلك قلما نعتبر، والله المستعان.

وهكذا قالوا لهم ههنا: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال: مِن قِبَل الخير، فتنهوْننا عنه وتبطئوننا عنه.

وقال السدي: تأتوننا مِن قِبَل الحق، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به.

وقال يزيد الرشْك: مِن قِبَل لا إله إلا الله.

من قِبل لا إله إلا الله، من قبل الإيمان والتوحيد يعني يوقعونهم في الشرك، و هنا هذا التساؤل الذي أخبر الله -عز وجل- عنهم: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} الآيات الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على أن الكفار يتلاومون في عَرصات يوم القيامة كما يتخاصمون في دركات النار، يعني الأتباع يتخاصمون مع المتبوعين الأتباع مع الرؤساء، وهذا داخل في هذا المعنى والآيات تدل عليه، كذلك في قوله تعالى: {فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} [سورة غافر:٤٧]، وبعض السلف حمل ذلك هنا {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}، أن هذا التساؤل وهذه المجاوبة بين هذين الطرفين هي واقعة بين الكفار والشياطين الذين أضلوهم، هذا قال به مجاهد وقتادة واختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن يحمل -والله تعالى أعلم- على الطائفتين من الذين ضلوا والذين أضلوهم، يعني الشياطين من الإنس والجن، يحصل هذا التجاوب والتساؤل بين الأتباع والمتبوعين، بين هؤلاء الذين وقع لهم الإضلال مع من أضلوهم، وقوله -تبارك وتعالى- عنهم: {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يقول: **قال الضحاك عن ابن عباس: يقولون كنتم**

تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء هذا بناء على أن اليمين التي في كلام العرب -في لغة العرب- بمعنى القوة والقدرة، فراغ عليهم ضرباً باليمين، باليمين بمعنى القوة {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يعني بالقهر والتسلط والمغالبة؛ لأن هؤلاء هم الرؤساء وأولائك هم الضعفاء والأتباع، يقول: كنتم تأتوننا بطريق السلطة فحصل لنا من قِبَلكم هذا الإضلال، فسر اليمين هنا بالقوة، وقال قتادة: **قالت الإنس للجن**، ويقول: إن المجاوبة بين الإنس والجن، بينهم وبين الشياطين، {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال: **من قِبل الخير فتنهوننا عنه وتبطئوننا عنه**، وهكذا قول السدي: **تأتوننا من قِبَل الحق تزينون لنا الباطل وتصدوننا عن الحق**، وهكذا قول ابن زيد: **تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به**، وهكذا قول من قال: من قِبَل لا إله إلا الله، فصار حاصل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- من المعاني اثنين الأول اليمين، والثاني الخير فإنه يقال له ذلك، بمعنى أنهم صرفوهم عن الحق والهدى وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وزهدوهم في ذلك، وزينوا لهم في المقابل الكفر والبدع والضلالات والأهواء بمختلف أنواعها، وبعضهم فسر ذلك بالحلف، اليمين بمعنى القسم، والحلف يقال له: يمين، وأصل ذلك أن الحالف كان يأخذ بيمين صاحبه فيؤكد القول الذي هو الحلف بالعمل، الأخذ باليمين، وقد تنوسي ذلك يعني الأخذ باليد اليمنى فصار يقال اليمين لكل حلف سواء أخذ بيمينه أو لم يأخذ بيمينه، فهذا قال به بعض أصحاب المعاني -أعني معاني القرآن- قالوا: إن المراد بذلك الحلف، الرؤساء كانوا يحلفون لهم يقسمون أن هذا هو الحق، {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [سورة غافر:٢٩] هذا هو الحق الذي ندعوكم إليه ونختاره لكم، وبعضهم يقول: إن اليمين المقصود بها الكناية عما يتفاءل به كما هي عادة العرب، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- هو أن المقصود باليمين الخير والإيمان والحق، ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: إن ذلك واقع بين الإنس والشياطين من الجن الذين يضلونهم، يقول: إن الإنس تقول للجن: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق فتخدعوننا بأقوى الوجوه، ويذكر أن اليمين في كلام العرب تأتي بمعنى القدرة، والقوة، فحاول أن يجمع بين المعنيين كما سبق أن من أهل العلم من قال: اليمين بمعنى القوة، ومن قال: إن اليمين يعني الخير والحق وما إلى ذلك يقال له: يمين، فابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يعني تصرفوننا عن الحق والهدى والإيمان بأقوى الطرق والأساليب، فهذا من الأشياء التي تميز بها تفسير ابن جرير -رحمه الله- وكذا تفسير ابن كثير: الجمع بين المعاني الراجحة، أو القريبة التي تحتملها الآية {كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} فجمع بين معنى القوة والمعنى الآخر المشهور الذي هو الخير، وهذه المجاوبة -والله تعالى أعلم- هي واقعة بين الأتباع والمتبوعين بين الشياطين من الإنس والجن والذين تبعوهم فضلوا بسببهم، يقول: {كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} فتصرفوننا عن الحق والهدى الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ويقول أولائك: أنتم ما فيكم خير، أنتم قابلون لهذا متهيئون له لم نلزمكم ولم يكن لنا عليكم سلطان بل كنتم أهل غواية وضلال.

وقوله: {قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} **تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان،** {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} **أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه،** {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ} **أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا**

وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به، فخالفتموهم.

{فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ}، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} أي: دعوناكم إلى الضلالة.

هنا قوله -تبارك وتعالى- عن قيلهم: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} قال: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، حقت عليهم كلمته أنهم من أهل الخسار والشقاء والعذاب، وبعضهم يقول: قصدوا بذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-يعني حقت علينا {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا}- وهو: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة ص:٨٥]، يقولون: قصدوا هذا المعنى، وهذا قال به بعض أهل العلم ومنهم من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وعبارة ابن جرير قريبة أيضاً مما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: وجب علينا عذاب ربنا، وقول الله -تبارك وتعالى-: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ} يعني إبليس {وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} هذا غير مخالف لما ذكر فهذا بمعنى أنه حقت عليهم كلمة العذاب أنهم أهل الشقاء فوجب عليهم عذاب الله -تبارك وتعالى- فكانوا من الأشقياء.

{إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} أي: الجميع في النار، كل بحسبه، {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا} أي: في الدار الدنيا {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} أي: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله في كتابه -وذكر قوما استكبروا- فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}))[٤].

{وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ} يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء بالحق في جميع شرْعة الله له من الإخبار والطلب، {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} أي: صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وأمره كما أخبروا، {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} الآية [سورة فصلت:٤٣].

عبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والضمير في عنه يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني كما أخبر الأنبياءُ قبله عن صفته -عليه الصلاة والسلام-

---

٤ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢١٠/١٠)، برقم (١٨١٧١)، وأصله في الصحيحين بدون الزيادة الأخيرة، البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (١٣٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ووكلت سريرته إلى الله تعالى وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام، برقم (٣٢).

فكان واقعه مصدقاً بخبره {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} قال: **وأخبر عن الله تعالى بشرعه وأمره كما أخبروا** يعني أنه -صلى الله عليه وسلم- صدقهم فيما قالوا وأقر بذلك ودعا إليه، ومن ثم فهذه العبارة لابن كثير الواقع أنها تتضمن معنيين تحتمله الآية لكن الذي يقرؤها لأول وهلة لا يتفطن لهذه الدقة بهذه العبارة كما هو في كثير من المواضع من هذا التفسير، وذلك أنه يجمع بين المعاني المحتملة التي لا يوجد ما يرجح بعضها على بعض، والقاعدة أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين فإنه يمكن حملها على ذلك ما لم يوجد مانع، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- فسرها بهذين، ولكنه صرح بهذا فذكر المعنيين صراحة وحملها عليهما، يعني من كونه -صلى الله عليه وسلم- كان مصدقاً لهم بخبرهم عنه هذا المعنى الأول، أخبروا أنه يأتي وأخبروا عن صفته فجاء كما أخبروا، فمجيئه -صلى الله عليه وسلم- وبعثه كان تصديقاً لهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أخبروا أنه سيبعث، وأن من صفته كذا وكذا، والمعنى الثاني: أنه شهد هو -صلى الله عليه وسلم- بصدقهم {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}.

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [سورة الصافات:٣٨-٤٩].

يقول تعالى مخاطبًا للناس: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى** {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة العصر:١-٣].

وقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة التين:٤-٦]**، وقال:** {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [سورة مريم:٧١-٧٢]**، وقال:** {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [سورة المدثر:٣٨-٣٩]**، ولهذا قال هاهنا:** {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} **أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف.**

قوله -تبارك وتعالى- {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} هذه قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة، وقرأ الجمهور بكسر اللام {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} والمخلصين هذا بمعنى الإخلاص، فإن الله -تبارك وتعالى- يخلصهم لإخلاصهم، فالأول {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يعني الذين أخلصهم الله -تبارك وتعالى- لطاعته وعبادته وتوحيده والإيمان به، وعلى القراءة الثانية {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} هذا يدل على أن الإخلاص من ثمراته العظيمة أن يكون سبباً للنجاة من عذاب الله -تبارك وتعالى- وهذا أمر مقرر بأدلة كثيرة لا يحتاج إلى توضيح، والاستثناء هنا {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يحتمل أن يكون متصلاً، وأن يكون منقطعاً، وهنا قال: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إذا كان منقطعاً فهو بمعنى لكن، لكن عباد الله المخلصين أولائك لهم رزق معلوم، وإذا كان متصلاً فيكون العذاب للجميع قال هنا:

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} ما تجزون إلا ما كنتم تعملون، إن "ما" هذه للعموم ثم بعد ذلك استثنى {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}.

وقوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} قال قتادة، والسدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله تعالى {فَوَاكِهُ} أي: متنوعة {وَهُمْ مُكْرَمُونَ} أي: يُخْدمون ويرفهون وينعمون، {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} بعضهم يقول: أي في طيبه وحسنه وما إلى ذلك، ولكن ما جاء بعده يمكن أن يكون تفسيراً له كما هو الظاهر {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ}، وهذا الرزق المعلوم هو {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ}، وهذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- أن ما بعده هو المقصود بهذا الرزق المعلوم، وبعضهم يقول: معلوم الوقت، وهذا لا حاجة إليه، **قال قتادة والسدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله: {فَوَاكِهُ} أي: متنوعة**، قول من قال: إنه الجنة، {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} لا ينافي ما ذكر من التفاصيل فإن ذلك كله من نعيم الجنة، قال: {فَوَاكِهُ} أي فواكه متنوعة، وخصت الفواكه في قوله: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} مع أن نعم الجنة كثيرة بعضهم يقول: إنها خصت لأنها من أطيب ما يلتذ به الإنسان من المطعومات، وبعضهم يقول: لأن ما بعدها هو تبع لها، يعني أنها من المكمَّلات، وما يحصل بعد ذلك أو قبله فهي من التوابع والمكمِّلات، فإذا كانت هذه التوابع والمكمِّلات فما بال المطعومات الأخرى التي تكون قبلها وبعدها؟!، وبعضهم يقول: طعام أهل الجنة {فَوَاكِهُ} ولذلك قال هنا: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} وهذا فيه نظر، وذَكر نوعاً من ألوان المطعومات في الجنة ولا شك أنه من أحسنها وأعظمها لذة كما هو الحال في الدنيا فإن ذلك يكون زيادة على المطعومات الأساسية، يعني تقول: فلان يتفكه، فالتفكه إنما يكون فيما زاد على ما كان أصلياً من المطعومات فهؤلاء يتفكهون بهذه الفواكه ويتمتعون ويلتذون بها فذكر مثل هذه الأشياء التي يحصل بها التنعم والالتذاذ وهو زائد على ما يكون أساسياً في المطعومات، -والله تعالى أعلم-، قال هنا: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} **أي يُخدمون ويرفهون وينعمون، {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض**، وبعضهم يقول: تدور بهم هذه السرر حيث شاءوا فلا يحتاج الواحد منهم إلى أن يستدير بظهره إلى ناحية أخرى فهم متقابلون، ولا شك أن التقابل في المجالس مما يحصل به التنعم، ويكون ذلك من طيب هذه المجالس، ومن دواعي الاسترواح فيها أن الناس يتقابلون، يتقابلون فيها.

وقوله: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}.

قبل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} الكأس في اللغة: كل إناء فيه شراب، وبعضهم يقول: إن المقصود بالكأس هنا الخمر، وإن العرب تطلقها وتريد بها ذلك، وهذا الإطلاق موجود في كلام العرب معروف، وإن كانت الكأس تقال فيما هو أعم من ذلك، وإلا فقد جاء عن بعض السلف كالضحاك أن كل كأس في القرآن فهو خمر، يعني كلما ذكرت الكأس في القرآن فالمقصود بذلك الخمر وبهذا قال السدي، هنا قال: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} ولا شك أن المقصود بالكأس هنا في هذا الموضع أنه الخمر، لكن تخصيص هذا بأن يقال في اللغة إذا قيل الكأس فهو الخمر -وإلا فإنهم يقولون: لقدح غير الخمر إذا كان فيه لبن مثلاً أو ماء أو نحو هذا- فهذا وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أن ذلك ليس مطرداً،

والمقصود بالكأس هنا الخمر قال: {مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} فهي تجري، معين يعني جارية على وجه الأرض، أنهار من الخمر تجري على وجه الأرض وليست غائرة فيها، ولا تحتاج إلى أخاديد كما هو الحال بالنسبة لأنهار الدنيا، فهي بادية للأعيان.

{بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزفُونَ}، كما قال في الآية الأخرى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ} [سورة الواقعة:١٧-١٩]، **فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول.**

المقصود بقوله: {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} أنها صافية بصفائها، شدة الصفاء، بخلاف خمر الدنيا، فيقال لها: {بَيْضَاءَ} أو المقصود البياض الذي هو البياض المعروف يحتمل، وجاء عن بعض السلف كالحسن البصري أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن؛ لأنها شديدة البياض، لونها مشرق، ومشرق بمعنى أنها بغاية الصفاء، ولا يلزم من ذلك أن تكون بيضاء البياض الذي يتبادر إلى الأذهان كبياض اللبن.

نزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول- وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى هاهنا: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كُدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله -عز وجل-: {لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} أي طعمها طيب كلونها، وطِيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك.

يعني أنها كريهة المنظر، كريهة الرائحة، كريهة الأثر.

وقوله: {لا فِيهَا غَوْلٌ} يعني: لا تؤثر فيهم غولا -وهو وجع البطن، قاله ابن عباس ومجاهد، وقتادة، وابن زيد- كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

القُولنج وجع البطن، دائماً يصيب البطن يعني يصيبه بالوجع والمغص، ويكون في هذا الجزء من الأمعاء الذي يسمى اليوم بالقولون، وقديماً كان يقال له: القولون أيضاً، فيحصل بسبب ذلك أوجاع وإمساك شديد وهو من الأمراض المشهورة المعروفة قديماً وحديثاً، وأوجاع القولون كثيرة لكن الذي يقصدونه هنا نوع من هذه الأوجاع المشهورة التي يصيب الإنسانَ معها الألمُ الشديد الذي لا يطاق، وقد يحصل معه الوفاة، يذكرونه في كتب الطب القديم في مواضع كثيرة؛ لأنه من الأمراض المشهورة جداً، ويذكرون في كتب الأعشاب والأدوية، يذكرون الأشياء التي تفيد معه كثيراً يقولون: الشيء الفلاني، الطعام الفلاني، العشبة الفلانية نافعة يتكرر هذا كثيراً، والقولنج عندهم أنواع منها ما هو رطب بارد، وهنا قالوا: لكثرة مائيتها، إذاً قوله -تبارك وتعالى-: {لا فِيهَا غَوْلٌ} الغول فُسر بوجع البطن الذي يصيبه بسبب الخمر، لذلك تجدون -أعزكم الله- هؤلاء يستفرغون غالباً بعدها، ولذلك تجدون في بلاد الغرب وما شابهها من البلاد التي تبيح الخمر يعاني أصحاب الحانات والأماكن التي تبيع الخمور معاناة شديدة من أمور كثيرة منها ما يحصل من السكارى، ومنها ما يحصل أيضاً من الأذى والقذر بأن هؤلاء يبدءون يستفرغون بهذا المحل، ففسر بوجع البطن، وفسر

أيضاً بالصداع، وفسر أيضاً بذهاب العقل إذا سكر الإنسان، فبعض أهل العلم جمع هذه المعاني في تفسيرها وقال: إن نفي الغول عنها بمعنى أنها لا تغتال عقول شاربيها، ولا يصيبهم منها الصداع وأوجاع البطن، فجمعوا بين هذه المعاني، وبعضهم اقتصر على ذهاب العقل، قال: الغول هو ذهاب العقول تغتال العقول، هذا قال به أبو عبيدة من أهل اللغة وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {لا فِيهَا غَوْلٌ} لا تذهب عقولهم بسبب شربها، وأصل الغول -فيما يذكره بعض المفسرين كالواحدي- هو الإهلاك، الغول يأتي بمعنى الهلاك، أصله قالوا: بمعنى الهلاك، {لا فِيهَا غَوْلٌ} أي إهلاك، كل ما اغتالك فهو يقال له: غول، وحاول بعضهم أن يجمع المعاني التي قيلت بطريقة أخرى فقال: كل ما يحصل به الإهلاك بطريق خفي أو كل ما يحصل به الفساد بطريق خفي فهو غول، فساد العقل وفساد مزاج البدن بالصداع والمغص والوجع الذي يكون في البطن، {لا فِيهَا غَوْلٌ} يعني مثلاً الحسن البصري اقتصر على الصداع، وابن كيسان اقتصر على المغص، والسلف يفسرون الآية بجزء المعنى، فإذا كان هؤلاء أهل اللغة، وفسر بعضهم بهذا وبعضهم بهذا ونحن نعلم أنه يفسره ببعض المعنى، ومن ثم إذا كان ذلك فيصدق على هذه جميعاً أنها {غَوْلٌ} فلا يكون فيها {غَوْلٌ} فلا تذهب بالعقول، ولا يفسد معها مزاج البدن بصداع أو مغص أو وجع البطن، والله أعلم.

وقوله: {وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزفُونَ} قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخرساني، والسدي، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات.

قوله: {لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} قراءة الجمهور {يُنْزَفُونَ} وفي قراءة حمزة والكسائي بضم الياء وكسر الزاي {يُنزِفُونَ} وهاتان القراءتان كل قراءة لها معنى، فقراءة حمزة والكسائي {يُنزِفُونَ} تحتمل معنيين بمعنى أن المراد أنزف الرجل إذا فنيت خمره يعني تفنى وتنقضي وتنفد، والمعنى الثاني الذي هو الذهاب، أنزف الرجل ذهب عقله، أما {يُنْزَفُونَ} فيكون بمعنى ذهاب العقول ولهذا تجدون من فسر الأول {لا فِيهَا غَوْلٌ} بوجع البطن، أو الصداع أو نحو ذلك وما فسره بذهاب العقل مع أنه يأتي بمعناه كأنهم راعوا هذا ألا يكون هناك تكرار فقصروا الأول على بعض معانيه، {لا فِيهَا غَوْلٌ}، والثاني على معنى ذهاب العقل على قراءة {يُنْزَفُونَ} وهذا ملحظ لا إشكال فيه في التفسير، ولو أن قائلاً أيضاً قال: إن الأول عام {لا فِيهَا غَوْلٌ} لا يتطرق الفساد إليهم بشربها بذهاب العقول، ولا اختلال مزاج الأبدان بوجع الرأس وألم البطن، وأنه ذكر بعده معنى أخص وهو المشهور وهو الأعظم و الأنكى الذي حرمت من أجله الخمر وهو ذهاب العقول فيكون من قبيل عطف الخاص على العام، فذكر مفسدة أفردها هي أعظم مفاسد الخمر فيكون هذا خاصا والأول عاما، الغول، لو قال أحد بهذا لكان ذلك له وجه قريب من النظر، -والله تعالى أعلم- لاسيما أنه تفسير له بمعناه الذي يدل عليه بلغة العرب، فإن الخمر تطلق على هذا وهذا، ولكن هذه القراءة التي تكون بضم الياء وكسر الزاي {يُنزِفُونَ} تحتمل المعنيين أنها تنفد، أو تذهب بالعقول، بعض أهل العلم فسرها بالأول قال: إن هذه القراءة {يُنزِفُونَ} بمعنى أنها لا تفنى، أنزف الرجل إذا فنيت خمره، وهذا المعنى اختاره ورجحه الفراء وابن جرير من أجل أن كل قراءة يكون لها معنى، فتكون {يُنْزَفُونَ} بمعنى تذهب عقولهم

و{يُنزِفُونَ} بمعنى تفنى خمرهم، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فدلت إحدى القراءتين على أنها لا تذهب بالعقول، ودلت القراءة الثانية على أن هذه الخمر لا تنفد، فهي أنهار من الخمر، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٤٨) إلى الآية (٧٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين والمستمعين.

وقوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} [سورة الصافات:٤٨] **أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم.**

وقوله: {عِينٌ} أي: حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، ولهذا قال: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}.

وقوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} يقول: اللؤلؤ المكنون.

وقال الحسن: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} يعني: محصون لم تمسه الأيدي.

وقال السدي: البيض في عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ}، يعني: بطن البيض.

وقال عطاء الخرساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدي: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} يقول: بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله: {مَكْنُونٌ}، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}، قال: **أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن،** وقوله: {عِينٌ} أي: **حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهو يرجع إلى الأول،** يعني أن الأعين إذا كانت واسعة فإن ذلك يكون من قبيل الحسن والجمال فيها، ومن ثَمّ مَن قال: ضخام الأعين فإن هذا يرجع إلى قول من قال: حسان الأعين؛ لأن ذلك يكون زينة في العين، قال: **وهي النجلاء العيناء،** يعني واسعة العين، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {عِينٌ} يعني واسعات الأعين جمع عيناء، قال: فوصف عيونهن بالحسن والعفة، الحسن من قوله: {عِينٌ} والعفة من قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} يعني لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وقوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} قال هنا: **وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان،** وجاء عن الحسن البصري أن تفسيره بشديدات بياض العين مع شدة السواد إنما يعرف بمعنى الحَوَر، فالحَوَر فسر بشدة البياض في العين مع شدة السواد، وهنا في قوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} يقول: **اللؤلؤ المكنون** كما قال الله -عز وجل-: {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:٢٢-٢٣]، فحاصل قوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} أن اللؤلؤ مكنون في أصدافه فهو في غاية الصفاء لم

تمسه الأيدي، والمعنى الآخر كالبيض في بياضه بلونه الذي يميل إلى شيء من الصفرة، يقولون: وهذا أحسن الألوان بالنسبة للنساء، البياض الذي يضرب إلى الصفرة وهؤلاء يرِد عليهم إشكال، وهو أن هذا البيض ليس بمكنون باعتبار أن الطائر يمسه، فكيف قال عنه: إنه مكنون؟ والذين قالوا إنه المراد قالوا: فإن الطائر يكنه يغطيه ولا يمسه شيء، وبعضهم خصه ببيض النعام، فقالوا: فإنه مكنون بريشه، وهذا قول من قال: إنه البياض الذي يضرب إلى الصفرة فذلك بيض النعام وليس كل بيض، ومن نظر إلى هذا الإشكال الذي يرد على هذا التفسير وأراد حمل اللفظ على ظاهره باعتبار أن البيض هو البيض، فإذا أطلق تبادر الذهن إلى هذا المعنى المعروف، فمن نظر إلى هذا الإشكال قال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} يعني ما تحت القشرة، فما تحت القشرة من بياض البيض مغطى أيضاً بهذا السحاء الذي هو قشرة رقيقة فهذا لم تمسه الأيدي، {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ}، فهو في حال من حسن المنظر واللين، وما مسته الأيدي، ما مسه شيء بخلاف ظاهر البيض، قال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} فهذا حاصل الأقوال في هذه الآية، وهذه الأقوال الثلاثة ترجع إليها سائر الأقوال، {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، ويحتج من يقول بأن المقصود بـــ {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} اللؤلؤ في استدارته بأنه كالبيض بهذا الاعتبار، وهذا كله تقوله العرب حتى اللؤلؤ يقولون له: بيض بكلامهم، فمن فسره باللؤلؤ لم يكن ذلك التفسير خارجاً عن كلام العرب ومعهودهم، وهذا مهم، ومما جاء في هذا المعنى قول بعضهم:

وهي بيضاءُ مثلُ لؤلؤةِ الغَوّا *** صِ مُيزت مِن جوهرٍ مكنونِ

بيضاء، فهنا قال: مُيزت من جوهر مكنون، والذين يقولون: إن ذلك هو البيض ويخصون ذلك ببيض النعام يعني البيض بظاهره يكون ضارباً إلى الصفرة وإن هذا أجمل الألوان في ألوان النساء -والله أعلم- فالأجمل هو البياض الذي يضرب إلى الحمرة وليس إلى الصفرة، ويبدو أن الناس يتفاوتون بمعايير الجمال كما لا يخفى، وهؤلاء يقولون: مكنون أن النعامة تكنه بريشها تغطيه من الريح والغبار فلونه أبيض في صفرة، ويقولون: إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالحسن والنظافة قالوا: كأنه بيض النعام، ومعروف أن ريش النعام في غاية الرقة ويستعمل في التنظيف، فيقولون: بيض النعام المغطى بالريش، فيضربون به المثل، فخاطبهم القرآن بما يعهدون، بمعهود خطابهم وكانوا يستعملون هذا في أشعارهم كما يقول امرؤ القيس:

وبيضةِ خدرٍ لا يُرام خِباؤُها *** تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

يعني لا يصل إليها أحد، ولا يتطلع إليها أحد، والشاعر ماجن يقول: إنه وصل إليها وتمتع بها من غير خوف، ولا يحاذر أحداً، ولم يكن ذلك على وجه الاستعجال، والحاصل أنه شبهها بالبيض في صفائها ورقتها، وهكذا إذا نظرت إلى الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير، وبعضهم يجعل تشبيهها بالبيض باعتبار أنها لم تكسر {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} مكنون مصون من الكسر، يعني أنهن عذارى، وابن جرير -رحمه الله- يفسرها بالبيض المعروف لكن باعتبار ما تحت القشرة وهو لم تمسه الأيدي قبل ذلك، -والله تعالى أعلم-، وهذه الأقوال التي ترجع إليها الأقوال في الآية، فهنا قال: **بياض البيض حين ينزع قشره قال: واختاره ابن جرير،** فعبارة ابن جرير أدق من هذا، ويقول عطاء الخرساني: إنه الغشاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيضة {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} مغطى بهذه القشرة فلم تمسه الأيدي، وصار عندنا بيض مكنون، بيض النعام

يغطي ولا يمسه ولا يصيبه شيء لا غبار ولا غيره، أو أن ذلك المراد به من حيث إنه لم يكسر البيض أو داخل البيض أو أن المراد بذلك اللؤلؤ، -والله تعالى أعلم-، والشنقيطي -رحمه الله- في قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} له كلام جيد في هذا المعنى، ويُحتاج إليه في هذه الأيام التي لربما تتطلع كثير من النساء إلى الخروج من منزلها، ومن خدرها تبحث عن عمل تكون فيه أجيرة، ولربما رأت أن من العيب أن تبقى -كما يعبر بعضهن- بحال من البطالة، تعتبر بقاءها في بيتها وتربية النشء، والقيام بوظائفها الأساسية أن ذلك بطالة، فتذهب بأي أجر المهم أن تخرج، وترى ذلك من الأمور التي تتزين بها أمام الآخرين، فهي تستحي إذا حضرت مجلساً وتحدثت كل واحدة عن نفسها مُعرِّفة بها أن تقول: إنها ربة منزل، فهذه مشكلة كبيرة حينما تتغير مفاهيم الناس، فهذا كلام يصلح لمثل هؤلاء ويحتاج النساء أن يطلعن عليه ويعرفن الأوصاف الكاملة.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [سورة الصافات:٤٨-٤٩].

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة:

الأولى: أنهن قاصرات الطرف، وهو العَين، أي: عيونهن قاصرات على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أنهن عِين، والعِين جمع عيناء، وهي واسعة دار العين، وهي النجلاء.

الثالثة: أن ألوانهن بيض بياضا مشربا بصفرة؛ لأن ذلك هو لون بيض النعام الذي شبههن به، ومنه قول امرئ القيس في نحو ذلك:

كبكرِ المُقاناةِ البياض بصفرةٍ *** غذاها نميرُ الماءِ غيرُ المُحلَّلِ

لأن معنى قوله: كبكر المقانات البياض بصفرة: أن لون المرأة المذكورة كلون البيضة البكر المخالط بياضها بصفرة، وهذه الصفات الثلاث المذكورة هنا جاءت موضحة في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة، فبيّن كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى في "ص": {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} [سورة ص:٥٢]، وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

منَ القاصراتِ الطرفِ لو دب مُحْوِلٌ *** من الذرِّ فوق الإتب منها لأثّرا"[1].

كما في قول الآخر أيضاً:

لو دَبّ ذَرٌّ فوق ضاحي جلدِها *** لأبان من آثارهن حُدورُ

يعني من شدة الرقة لو دب ذر فوق ضاحي جلدها -يعني الضاحي الظاهر للشمس- لأبان من دبيبهن حدور يعني يظهر آثار خطوط أثر مشي الذر على جلدها لرقته.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "وَذَكَرَ كَوْنَهُنَّ عِينًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِنَّ: {وَحُورٌ عِينٌ} [سورة الواقعة:٢٢]، وَذَكَرَ صفَا أَلْوَانِهِنَّ وَبَيَاضَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:٢٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كَأَنَّهُنَّ

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦ / ٣١٣).

{الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [سورة الرحمن:٥٨]، وَصِفَاتُهُنَّ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَيْهِنَّ بِنَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَصْرِ:
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ، وَالطَّرْفُ الْعَيْنُ، وَهُوَ لَا يُجْمَعُ وَلَا يُثَنَّى؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَصْدَرٌ، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا مُفْرَدًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [سورة إبراهيم:٤٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [سورة الشورى:٤٥]، وَمَعْنَى كَوْنِهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ هُوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهُنَّ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ بِخِلَافِ نِسَاءِ الدُّنْيَا.
وَالثَّانِي مِنْ نَوْعَيِ الْقَصْرِ: كَوْنُهُنَّ مَقْصُورَاتٌ فِي خِيَامِهِنَّ، لَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِأَزْوَاجِ نَبِيِّهِ -صلى الله عليه وسلم-: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٣]، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [سورة الرحمن:٧٢]، وَكَوْنُ الْمَرْأَةِ مَقْصُورَةٌ فِي بَيْتِهَا لَا تَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ صِفَاتِهَا الْجَمِيلَةِ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

مَنْ كَانَ حَرْبًا لِلنِّسَاءِ *** فَإِنَّنِي سِلْمٌ لَهُنَّهْ
فَإِذَا عَثَرْنَ دَعَوْنَنِي *** وَإِذَا عَثَرْتُ دَعُوتُهُنَّهْ
وَإِذَا بَرَزْنَ لِمَحْفِلٍ *** فَقِصَارُهُنَّ مِلَاحُهُنَّهْ"[٢].

فإذا اجتمعن في محفل فقصارهن ملاحهن، والملاح هن القصار، ليست قصيرة القامة، وإنما اللاتي لا يخرجن من بيوتهن، هذه الملاحة الحقيقية وليست الأجيرة، يهجو الأخطل النصراني وكان مما قال:

والتّغلبيّون بئس الفحل فحلُهم *** فحلاً وأمّهم زلّاء منطيقُ

يعني أن كونها تضطر لفقرهم أن تخرج فتعمل ويصيبها شيء من الهزال فتكون زلاء يعني أنها ليس على أوراكها شيء، وإنما تستحسن العرب أن تكون المرأة ضخمة العجيزة، فإذا كانت المرأة زلاء يعني ليست أوراكها كذلك فإنها تربط خرقاً تُكبر عجيزتها بها فتبدو جميلة، فهذا يهجوهم:

والتّغلبيّون بئس الفحل فحلُهم *** فحلاً وأمّهم زَلاء منطيقُ

تربط النطاق لتضع الخرق على عجيزتها لتغطي هذا القبح.
وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "فَقَوْلُهُ: قِصَارُهُنَّ، يَعْنِي: الْمَقْصُورَاتِ مِنْهُنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ اللَّاتِي لَا يَخْرُجْنَ إِلَّا نَادِرًا، كَمَا أَوْضَحَ ذَلِكَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ فِي قَوْلِهِ:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ *** إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَاكَ الْقَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ *** قِصَارَ الْخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرُ

وَالْحِجَالُ: جَمْعُ حَجَلَةٍ، وَهِيَ الْبَيْتُ الَّذِي يُزَيَّنُ لِلْعَرُوسِ، فَمَعْنَى قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ: الْمَقْصُورَاتِ فِي حِجَالِهِنَّ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنْ رَجُلًا سَمِعَ آخَرَ، قَالَ: لَقَدْ أَجَادَ الْأَعْشَى فِي قَوْلِهِ:

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا *** تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحِلُ
كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا **** مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

---

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣١٣-٣١٤).

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرَانُ طَلْعَتَهَا *** وَلَا تَرَاهَا لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَتِلُ

فَقَالَ لَهُ: قَاتَلَكَ اللَّهُ، تَسْتَحْسِنُ غَيْرَ الْحَسَنِ هَذِهِ الْمَوْصُوفَةُ خَرَّاجَةٌ وَلَّاجَةٌ، وَالْخَرَّاجَةُ الْوَلَّاجَةُ لَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا مَلَاحَةَ لَهَا، فَهَلَّا قَالَ كَمَا قَالَ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْأَسْلَتِ:

وَتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا *** وَتَعْتَلُّ مِنْ إِتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ"[٣].

يعني لا تحب الخروج أبداً حتى إلى جاراتها، يثقل عليها الخروج.

والنساء البحاتر يعني القصيرات.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [سورة الصافات:٥٠-٦١].

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} قال مجاهد: يعني شيطانا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا.

يعني من البشر قرين صاحب، وبعضهم يقول: هذا القرين شيطان، والأقرب -والله تعالى أعلم- والذي عليه عامة المفسرين أن المقصود به قرين من الإنس.

قوله: {يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟.

وكلاهما صحيح.

قال: {قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} أي: مُشرِفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة، {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصري وقتادة، والسدي، وعطاء الخرساني يعني في وسط الجحيم.

وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

{قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدتَ لتهلكني لو أطعتك، {وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} أي: ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضَر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٦/٣١٤).

اللَّهُ} [سورة الأعراف:٤٣].

وقوله: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، قيل: لا، قالوا: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وقوله: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة.

هذا يحتمل أن يكون من كلام الله، وأن يكون من بقية كلام أهل الإيمان، وبعضهم يقول: هذا من كلام الملائكة، ولا دليل على هذا، -والله تعالى أعلم-، لكن باعتبار أنه ليس من كلامهم أي ليس من كلام أهل الإيمان وأنه من كلام الله أو من كلام الملائكة يكون هذا من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى.

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

روى ابن جرير عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} قال: إن رجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار؟، قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما، فلما أتاه قال: إني تزوجت امرأة بألف دينار، قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحور العين، فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعت هذين البستانين، فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة، فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملَك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا، قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة، قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم، قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم، فقال عند ذلك: {تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} الآيات.

هذا من الأخبار الإسرائيلية وفيه عبرة، وهو داخل ضمن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن

بني إسرائيل ولا حرج))[٤]، ومثل هذا ليس فيه ما يخالف ما ورد في شرعنا.

{أَذَلِكَ خَيْرٌ نزلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [سورة الصافات:٦٢-٧٠].

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خيرٌ ضيافة وعطاء {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} أي: التي في جهنم؟.

المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ} [سورة المؤمنون:٢٠]، يعني الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ} [سورة الواقعة:٥١-٥٢].

{أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} يعني معناها أنها ليست شجرة واحدة وإنما شجر كما تدل عليه الآية الأخرى {لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ}، هذا معنى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا في غاية الأهمية، والمفترض أنه لا يحذف، فما ذُكر هنا في المختصر يوهم أن الحافظ ابن كثير اختار أنه شجر، أنه جنس، وإنما ذكره في الأصل احتمالاً، يحتمل أن تكون شجرة واحدة، ويحتمل أن يكون جنساً من الشجر، يقال له: الزقوم، فالحافظ -رحمه الله- لم يرجح هذا القول بأنه جنس من الشجر، فطريقة الاختصار هذه هنا غير صحيحة، و{الزَّقُّومِ} هل هو شيء معهود أو غير معهود؟ أو هذا اللفظ مشتق مثلاً من التزقم وهو التكلف في أكله وابتلاعه فيبتلعه على جهد، يُكره على ذلك؛ لسوء طعمه وطبيعته، فيكرهون على تناوله؟، وهل هذا الشجر معروف أيضاً أو لا؟ يعني هل هو معروف في الدنيا؟ بعضهم يقول: نعم! الشجر معروف في الدنيا من أخبث الشجر وأسوئه، وبعضهم يقول: إن {الزَّقُّومِ} يطلق على كل نبات قاتل، وبعضهم يقول: غير معهود في الدنيا، لا يعرف، وإنما هو شجر خاص أو شجرة خاصة بالنار.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ}، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} غُذيت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} قال أبو جهل -لعنه الله-: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [سورة الإسراء:٦٠].

مع أنه يحتمل أن يكون قوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} الفتنة تطلق أيضاً على العذاب، فالفتنة تقال للاختبار، وتقال لنتيجته، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسرها بالاختبار والامتحان، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى العذاب فتكون قد أطلقت على نتيجة الاختبار والامتحان، {فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} يعني يعذبون فيها

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

بالأكل منها، هذا احتمال، وظاهر السياق -والله تعالى أعلم- يرجح ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

وقوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} أي: أصل منبتها في قرار النار، {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} تبشيع لها وتكريه لذكرها.

وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

هذا صحيح، والعرب وغير العرب يشبهون الشيء الذي يكون غاية في القبح برءوس الشياطين مع أنهم ما رأوهم، كما أنهم يشبهون أو يمثلون الشيء الذي يكون في غاية الكمال والجمال بالملَك، كما قال النسوة لما رأين يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} [سورة يوسف:٣١]، مع أنهن ما رأينا الملَك، فالعرب تشبه الشيء القبيح جداً بالشياطين، وبعضهم يقول: رءوس الشياطين المقصود بها هنا نوع من الحيات لها رءوس وأعراف برءوسها هي في غاية القبح، وهذا يقول به بعض أصحاب المعاني كالزجاج والفراء، {كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}، وبعضهم يقول: هذا نبت معروف قبيح في اليمن، والأول هو الأرجح أن {رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} الشياطين المعروفة، والقرآن لا يفسر بغير الظاهر المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لكن فيما يتصل بالنبات الذي يكون في اليمن من أراد أن يرى عجائب النباتات في الدنيا فذلك موجود في اليمن في ناحية يقال لها: سقطرة، فيها نباتات عجيبة جداً إذا نظرت إليها تعجب أن هذا يكون من جنس النبات، نباتات نادرة في العالم .

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ}، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية:٦-٧].

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} قال ابن عباس: يعني شُرب الحميم على الزقوم.

وقال في رواية عنه: {شَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} مزجا من حميم.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغسّاق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يُصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل -وهو الذي قد انتهى حره- فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٤]، **هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي.**

وقال السدي في قراءة عبد الله: "ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم" وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا

ينتصف النهار يوم القيامة حتى يَقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثم قرأ: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} [سورة الفرقان:٢٤].

في قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} جاء بثم التي تدل على التراخي، ومن معانيها الترتيب وذلك ليس بلازم، فهنا {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} بهذا الاعتبار بعضهم يقول: يُوردون لشربه -وهو خارج عن النار- ثم يرجعون إليها، {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} يوردون إلى هذا الحميم خارج النار فيشربون منه ثم يرجعون إلى النار، وبعضهم يقول: هذا قبل دخول النار إنما هو نزلهم، ثم بعد ذلك يصيرون إلى النار فيكون لهم هذا الحميم، والأكل من هذه الشجرة -نزلاً- يقدم لهم قبل دخول النار -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-، وبعضهم يقول: {ثُمَّ} هذه بمعنى الواو فهي لا تدل على هذا الموضع، لا تدل على ما قد يفهم من ترتيب ذلك، أو حتى التراخي وإنما هي بمعنى الواو، وهذا يقول به أبو عبيدة، يعني هو يذكر أوصافاً وأموراً تقع لهم، {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ} كأنه يقول: وإن مرجعهم لإلى الجحيم، وعلى هذا {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} يكون بمعنى أنهم يحصل لهم هذا وهذا وهذا في النار -والله تعالى أعلم-، لكن في قوله -تبارك وتعالى-: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} والآيات التي ورد فيها ذكر الحميم كل ذلك إنما يكون في النار، لكن الذي حمل هؤلاء على القول بأنه خارج هنا في هذا المقام قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ}.

وقوله: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: {فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

{يُهْرَعُونَ} بمعنى يسرعون، وهنا قال: **شبيهة بالهرولة** يعني هذه المشية شبيهة بالهرولة، وبعضهم كالفراء يقول: هي مشية فيها شيء من رعدة، يمشي ويرتعد، يقال: يهرع يعني فيه شيء من الارتعاش أو نحو ذلك، وهي تدل على إسراع وانزعاج في هذا المشي، فليس كل إسراع يقال له ذلك، جاءوا {يُهْرَعُونَ} يعني يأتون بإسراع وانزعاج، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٧١) إلى الآية (١١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} [سورة الصافات:٧١-٧٤].

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفّرهم، ولهذا قال: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} [سورة الصافات:٧٥-٨٢].

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا فذكر نوحا -عليه السلام-، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} أي: فلنعم المجيبون له، {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، وهو التكذيب والأذى، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح -عليه السلام.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال: الناس كلهم من ذرية نوح -عليه السلام.

وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سمرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال: ((سام، وحام ويافث))[1].

وروى الإمام أحمد عن سمرة؛ أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم))[2].

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الصافات، برقم (٣٢٣٠)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/٥٦٠).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٠١٠٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

ورواه الترمذي.

والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأُوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح، -عليه السلام.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا **{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}** اللام هنا **{وَلَقَدْ نَادَانَا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}** هي الموطئة للقسم، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}** ونقل هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أنه لم يبق إلا ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، وهذا إما أن يكون باعتبار ما جاء في بعض المرويات التي ترجع إلى بني إسرائيل أن الذين آمنوا معه هؤلاء القليل الذين قال الله -تبارك وتعالى- فيهم: **{وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}** [سورة هود:٤٠] وأن هؤلاء هم أبناؤه -سوى الابن الذي غرق- وأزواج بناته فكانت الذرية بهذا الاعتبار من هؤلاء، أنهم هم الذين ركبوا معه في السفينة وأنجاهم الله -تبارك وتعالى- فتناسل الناس منهم، وبهذا يكون ذلك مع قوله -تبارك وتعالى-: **{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}** [سورة الإسراء:٣]، ما قال ذرية نوح: **{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}** فهؤلاء ركبوا معه، والله أضاف الذرية إليه: **{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}**، **{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [سورة هود:٤٨] هؤلاء يأتون بعد ذلك، **{أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ}** فيكون بهذا الاعتبار بناء على هذه المرويات، ولا يمكن أن يعتمد على المرويات الإسرائيلية أن الناس تناسلوا من نوح -صلى الله عليه وسلم- بهذا الاعتبار، باعتبار الذين ركبوا معه هم أبناؤه وأزواج بناته، ومعلوم أن أولاد البنات من جملة الذرية كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحسن -رضي الله عنه-: ((إن ابني هذا سيد))[3]، وهو ولد بنت، و لا عبرة بقول الشاعر:

بنُونا بنو أبنائِنا وبناتُنا *** بنوهنّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

لا عبرة بهذا، والصحيح أن أولاد البنات من الذرية، وبعض أهل العلم يقول غير ذلك، يعني منهم من يقول في قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}**: يمكن أن يكون ذلك باعتبار أن الذين بقوا من النسل هم من كان تناسل من نوح -عليه الصلاة والسلام- بعد ذلك، وأن الباقين الذين ركبوا معه قد انقطعت ذريتهم، لم يكن لهم التناسل الممتد الذي جاء بعده أمم وأقوام وما شابه ذلك، و بعضهم يقول: إن ظواهر الآيات الأخرى تدل على وجود ذرية ممن كانوا مع نوح -صلى الله عليه وسلم- غير ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، فيحتجون بمثل قوله: **{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}** وهذا ليس بصريح في ذلك، ويمكن حتى وإن كان معه غير أزواج بناته وغير أبنائه الذكور أن يكون الذين بقوا ممن تناسلوا بعد ذلك هم ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وأولاد نوح، وإن ركب معهم في السفينة غيرهم، والذين ركبوا في السفينة الروايات مختلفة في عددهم بعضهم يوصلهم إلى ثمانين، وبعضهم إلى غير هذا أنهم قلة، قال: **الناس كلهم من ذرية نوح -عليه السلام-** وهذا واضح لقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}**، ولهذا يقال لنوح

---

٣ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين -رضي الله عنهما-، برقم (٣٥٣٦).

-صلى الله عليه وسلم-: إنه آدم الصغير؛ لأنه أبو البشر فكل الناس الذين على ظاهر الأرض هم من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- كما أنهم من ذرية آدم -عليه الصلاة والسلام-، أما هذه الروايات هنا قال: **وقد رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمرة -رضي الله عنهم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:** {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} **قال: سام وحام ويافث**، فإنها لا تصح من رواية الحسن عن سمرة، وهي معنعنة لا تصح، وكذلك التي بعدها، **روي الإمام أحمد عن سمرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:** ((سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم)) **رواه الترمذي** لا تصح، وتقسيم الأمم وإرجاع ذلك إلى أولاد نوح تفصيلاً ليس ذلك محل اتفاق، وتجد في الروايات اختلافات، لكن لا يصح في ذلك شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فتجد أن بعضهم نسب البعض إلى أحد أولاد نوح، وبعضهم يرجعه إلى آخر، وجاء عن سعيد بن المسيب -رحمه الله- أن سام أب للعرب والفرس والروم واليهود والنصارى، وهذا غير منضبط، والنصارى حينما يقال: نصارى فإن ذلك لا يعني قوماً لهم عرق معين، فمعلوم أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى بني إسرائيل، والنصارى واليهود شيء واحد، فاليهود هم بنو إسرائيل وعيسى -صلى الله عليه وسلم- أرسل إليهم، {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ} [سورة الصف:١٤] كما أنه أرسل -عليه الصلاة والسلام- للكفار من اليونان، وهؤلاء غير بني إسرائيل، وقد آمن به أقوام غير هؤلاء منذ قديم الدهر، ونحن نعرف أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة، وكان فيها النصارى وهم أفارقة ليسوا من عرق اليونان ولا من بني إسرائيل، وهذا معروف، كما وُجد النصارى في نواحٍ مختلفة في بلاد العرب وغيرها، كان بنو تغلب في الجاهلية على دين النصارى في الغالب إلى غير هؤلاء، فهذه الرواية عن سعيد بن المسيب تعزو هؤلاء إلى سام، وأن حام هو أبو السودان من المشرق إلى المغرب السند والهند، وأهل النوبة والزنوج والحبشة والقبط والبربر وغير هؤلاء كل هؤلاء يرجعون إلى حام، ولكن الهند لا علاقة لها بهذا، فالهند كما يقول من زارها من الرحالة مثل ابن بطوطة لما وصف حال الهند وما رأى فيها وشاهد من الناس وصف الناس فذكر أنه وجد قوماً يعني في صفتهم كالسودان في لون البشرة، وذكر من ذكائهم وفطنتهم ونباهتهم، فهم يشبهون الحبشة من جهة اللون، وأما يافث فيقولون: الصقالبة والترك والخَزَر ويأجوج ومأجوج وغير هؤلاء، -والله أعلم-، ولا يثبت في هذا شيء.

وقوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ}، **قال ابن عباس: يُذكر بخير.**

يعني الذكر الجميل، والثناء عليه بالخير.

وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم.

هذا لا يختص بنوح -صلى الله عليه وسلم- وإنما لجميع الأنبياء جعل الله لهم لسان صدق، ويُذكرون كلهم بخير.

وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} **مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يُسلَّم عليه في جميع الطوائف والأمم.**

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} الآن تَرَكَ عليه {سَلامٌ} لكنها جاءت مرفوعة

ففهم منها بعضهم أنها جملة جديدة وليست مفسرة لما قبلها {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} الذكر الجميل والثناء الحسن، ثم قال {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} أي: من الله، وهذه جملة جديدة، ولكن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الرد على هذا وأن ذلك لا يصح، وأن قوله -تبارك وتعالى- {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} يكون مبهماً، فلابد أن يكون ثمّة ما يفسره ويوضحه، وأن الكلام لا معنى له {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} إذا لم يكن ذلك تفسيراً له {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} والأقوال التي ذكروها هنا نقلت عن السلف من أنه الذكر الجميل والثناء الحسن وإلى آخره، قال: كل هذه المعاني متلازمة ولا حاجة للترجيح بينها، فحينما يكون ذلك تفسيراً {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} فإن هذا السلام متضمن للثناء الحسن والذكر الجميل والتسليم عليه، وكل هذه المعاني داخلة فيه، فهؤلاء الذين يسلمون عليه، يقول: ليس ذلك بسلام من الله؛ لأن السلام من الله لا يقيد بهذا، ما تقول: اللهم سلم على نوح في العالمين، وإنما يكون مطلقاً لا يكون مقيداً، فلا يقال: اللهم صل وسلم على نبينا محمد في العالمين مثلاً، هذا كلام الحافظ ابن القيم، وهنا قوله: {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} هو تفسير لما قبله، -والله تعالى أعلم-، وجاء مرفوعاً يمكن أن يكون ذلك على سبيل الحكاية، أنه محكي {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ} جاء محكياً فجاء بالرفع، ويمكن أن يكون مقولاً لقول مقدر -والله تعالى أعلم-، وكون هذه الجملة {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ} متعلقة بما قبلها وتفسير لها هذا هو الأقرب، -والله أعلم-، يعني تَركَ عليه ذلك أن الأمم تسلم عليه، وتثني عليه.

قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك.

ثم قال: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} أي المصدقين الموحدين الموقنين.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} هذا عام، بعدما ذكر نوحاً -صلى الله عليه وسلم- عم بالحكم بعده إن كان من أهل الإحسان فإنه يعامله بهذا فمما ذكر بعده {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}، فيكون له من الذكر الحكيم والمحبة في قلوب الخلق وما أشبه ذلك جزاء على إحسانه {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

ثم قال: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} أي المصدقين الموحدين الموقنين، {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} أي: أهلكناهم، فلم تبْق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

{وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:٨٣-٨٧].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

الضمير في قوله: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ} يرجع إلى نوح -صلى الله عليه وسلم-، لأنه هو المحدَّث عنه، مع أن بعضهم يقول: يرجع إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ} من شيعته: من شيعة النبي -صلى الله عليه وسلم.

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله.

وروى ابن أبي حاتم عن عَوْف: قلت لمحمد بن سِيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعاناً.

هذه الأقوال الآن هل بينها اختلاف: لا يكون لعاناً، سليم من الشرك، سليم من كل ما يضاد ذلك، يعلم أن الله حق إلى آخر ما قيل، هل هذه الأقوال بينها اختلاف؟ هل نحتاج أن نرجح؟ الجواب: لا يحتاج هذا إلى ترجيح، سليم: ليس بلعان، والسلف يفسرون بعبارة تدل على المراد تارة بالمثال، وتارة بجزء المعنى، وتارة بعبارة مقاربة وما إلى ذلك، فهنا كيف نستطيع أن نفهم هذه الأقوال؟ نفهمها كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وكما يذكر ابن القيم في معنى القلب السليم، {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٨٩] ففسروا القلب السليم قالوا: السالم من كل آفة، السالم من الآفات التي أعظمها الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، وهو سالم أيضاً من الغل الحقد والحسد على أهل الإيمان، {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحشر:١٠] والقلب المشوش في هذه الأمور ليس بقلب سليم، {إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} سليم من كل آفة، وما عدا ذلك فهو قلب مريض إما بالشرك، فالكافر قلبه ميت، والمشرك قلبه ميت، وإما بالنفاق فالمنافق النفاق الأكبر قلبه ميت، والمنافق الذي نفاقه دون ذلك في قلبه من المرض بحسب ما في قلبه من النفاق، وهكذا سائر الأدواء، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، فالقلب يمرض، والمريض لا يكون سليماً، فهذا الذي فيه ميل محرم للنساء، وتعلقٌ بالصور ليس بقلب سليم، وهكذا القلب المريض بالأحقاد وما إلى ذلك ليس بقلب سليم، تقول: فلان قلبه سليم على إخوانه المسلمين يعني أن قلبه نقي أبيض لا يحمل على أحد، ولا يحقد على أحد، فكل هذا داخلٌ فيه.

وقوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ} أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} قال قتادة: يعني ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

هنا {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} قوله: {أَئِفْكًا} بعضهم يعربه أنه مفعول لأجله وأن {آلِهَةً} مفعول لتريدون، يعني تريدون {آلِهَةً} من دون الله للإفك، يكون "إفكاً" مفعولاً لأجله مقدماً، وبعضهم يقول: إن إفكاً مفعول لتريدون، وآلهة بدل {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} يعني تريدون إفكاً ما وهذا الإفك آلهة فيكون بدلاً منه {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} **قال قتادة: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره**، هذا الذي عليه عامة المفسرين وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم، وبعضهم يقول: المعنى {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أيّ شيء توهمتموه بالله حتى عبدتم معه غيره يعني من النقص؟ توهمتم أنه بحاجة إلى أعوان بحاجة إلى وسطاء وما أشبه ذلك ما هذا الظن السيئ الذي أوقعكم بهذا الإشراك والكفر بالله -تبارك وتعالى-؟، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- إذا تتبعت كلامه في أكثر من موضع في هذه القضية في كتبه تجد أنه في هذا الكلام جمع بين القولين، وإن لم يذكر الأقوال، إنما يُعرف ذلك بمعرفة الأقوال في كتب التفسير، فمن قرأ كلام الحافظ ابن القيم لا يتفطن لهذا لأول وهلة، وإذا كان يعرف الأقوال

وجد أنه عبر عن ذلك بعبارة -بجميع المواضع- تجمع بين هذه الأقوال، فابن القيم -رحمه الله- هنا يقول: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} إذا لاقيتموه وقد أشركتم به أنه فاعل بكم؟، {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} حيث أشركتم به غيره هل كان ذلك باعتبار أنكم تتوهمون العجز والضعف فيه فهو بحاجة إلى شركاء أو أنه لا تبلغه حاجاتكم فيحتاج إلى من يبلغه ذلك، أو أنه مثل المخلوقين يحتاج إلى وسطاء فعبدتم هؤلاء ليقربوكم إلى الله زلفى ما ظنكم برب العالمين، ما هذه الظنون؟ كل من أشرك بالله -تبارك وتعالى- فقد أساء الظن به، فالحافظ ابن القيم يجمع هذه جميعاً، ما ظنكم أنه فاعلٌ بكم؟، وما هذه الظنون الكاذبة السيئة التي أوقعتكم في هذا الإشراك؟، لكن عامة المفسرين على الأول {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أنه فاعلٌ بكم؟ مع أن ظاهر الآية يحتمل هذا وهذا، وإنما جرى ابن القيم -رحمه الله- على ما سبق باعتبار أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين فأكثر ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني فلا إشكال من حملها على الجميع.

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ} [سورة الصافات:٨٨-٩٨].

إنما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر، فَهِموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه.

بعضهم يقول: سقيم من هذه الحالة التي أنتم فيها من الإشراك والكفر بالله -عز وجل- وعبادة غيره، فذهب وهمهم إلى المرض، أي معتل، يعني اختل مزاج بدنه، هذا هو المرض.

{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكّر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر في السماء متفكرا فيما يلهيهم به، فقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} أي: ضعيف.

قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} كثير من المفسرين كما نقله الواحدي يقولون: إن هؤلاء كانوا يتعاطون النظر في النجوم، يعتقدون في النجوم، ويستدلون بأحوالها على الأحوال الأرضية كما هو معروف في حال هؤلاء، فيقولون: إنه عاملهم بذلك مجاراة لما كانوا عليه ظاهراً ليتوصل إلى مطلوبه، ليتخلف من مطلوبهم يتخلف عن حضور عيدهم، وهذا العيد عيد مكاني من الأعياد الزمنية، والأعياد المكانية، فقد يكون الزمانُ حدثٌ له كما هو ظاهر، ويكون له مكان محدد، كعرفة مثلاً عيد زماني مكاني، أما عيد الفطر فإنه عيد زماني، عرفة عيد مكاني يجتمع الناس فيه في يوم محدد، فهؤلاء يخرجون إلى عيد لهم، هذا العيد يجتمعون فيه، الشاهد أنه أراد أن يتخلف عن هذا العيد وأن لا يحضر {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} لما نظر قال: {إِنِّي سَقِيمٌ} يعني في مستقبل كل إنسان سيجدّ عليه المرض {إِنِّي سَقِيمٌ} أي إنه سيمرض مستقبلاً وإنه لا يسلم أحد من مرض واعتلال وما أشبه ذلك، وبعضهم كالحسن يقول: لما دعوه إلى الخروج فكر ماذا يفعل، وهذا التفكر يعبر عنه بهذا {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} بمعنى أن العرب تقوله لمن

تفكر، {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} فيما يعمل، يقصدون أنه نظر وتأمل فيما ينجم له من الرأي، ما ينجم له من الرأي: يعني ما يخرج له، ويتوصل إليه من الرأي فعلم أن كل شيء يصيبه المرض ويسقم {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فيكون من قبيل التعبير عن الأمر المستقبل ببالك، {إِنِّي سَقِيمٌ} يعني مستقبلاً أن ذلك سيصيبه كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ} [سورة الزمر:٣٠] هذا باعتبار ما سيكون {وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} فيكون هذا محملاً، وبعضهم يقول: إن الرجل إذا تفكر نظر في النجوم، فصار ذلك يعبر به عن التفكير، يعني لا يقيد هذا القول بقول: ينظر فيما نجم له، هذا الفرق مع الذي قبله، أن الذي يفكر ينظر في النجوم فقيل عن التفكير مثل هذا التعبير نظر في النجوم إذا كان الرجل يفكر في أمر يدبره ونحو ذلك، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني كالمبرد وقال به غيره كالخليل بن أحمد، وبعضهم يقول: إنه كان مريضاً في الساعة التي دعوه فيها {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فاعترض لهم بعذر واقع صحيح، كان تعتاده الحمى، وكان الوقت الذي طلبوا منه الخروج هو الوقت الذي تأتي فيه الحمى هكذا قال بعضهم: يعني سواء في اللحظة كان مريضاً جداً أو في التوقيت الذي دعوه يعني في اليوم الآخر مثلاً أن يخرج معهم هو عرف أنه يمرض في هذا الوقت، وهذا فيه تكلف لا دليل عليه، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول كالضحاك {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}: باعتبار أن كل إنسان سيأتيه مرض الموت {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} وهذه الأقوال هي محاولة لتفسير ذلك {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}، و يكون ذلك من قبيل التورية حتى إن بعضهم قال: إنه أشار لهم إلى مرض يعني يُعدي بإذن الله، فعصب رأسه وأوهمهم أن به الطاعون {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} يعني فروا منه، وهذا بعيد، -والله تعالى أعلم-، ولا دليل عليه {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} ذهبوا إلى شأنهم وتركوه، وقوله: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} يمكن أن يكون باعتبار المستقبل، ويمكن باعتبار الحال إما أن يكون سقيماً معنوياً بسبب ما يرى من عبادة غير الله -عز وجل- وإصرار هؤلاء على الشرك والكفر، ويمكن أن يكون في حينها كان معتلاً، ولكن في الحدث الذي يأتي ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الكذبات التي كذبها إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فالظاهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك من باب التورية، وأنه حينما نظر في النجوم هو لا يعتقد في النجوم، ولكنه فعل ذلك من أجل أن -يعني كما يقال- يكتمل المشهد، يعني ليقبلوا ذلك ويعذروه فيعرضوا عنه وهم أهل نظر في النجوم، فنظر في النجوم وقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} إما باعتبار الحال أو باعتبار المستقبل أنني سأمرض، يعني يقول لهم: سأمرض، باعتبار أن النظر في النجوم كانوا يستدلون به على أحوال الأرضية يعني {نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} قال: إنه سيصيبني في هذا الوقت المرض مثلاً يحتمل هذا، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا من قبيل التورية، كما يدل عليه الحديث، ولا يظهر أنه كان مريضاً حينها، -والله أعلم-، لكن كل إنسان سيمرض إذا قال الإنسان باعتبار أنه مستقبل فلا إشكال، تقول: أنا مسافر يعني باعتبار المستقبل، يعني الآن لو أن أحداً قال لك: اذهب معي، تقول: أنا مسافر وتقصد أنك مسافر إلى الله، أو تقصد أنك في المستقبل ستسافر، هذه التورية، هل هذا يكون من قبيل الكذب؟ الجواب: لا، لكن لا يتوسع الإنسان في مثل هذه الأمور كما هو معلوم بعد ذلك لا يعرف له حق من باطل كل كلامه تورية لكن إذا ضاق الأمر ففي المعاريض مندوحة عن الكذب.

فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا عن أبي هريرة؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لم

يكذب إبراهيم، -عليه الصلاة والسلام-، غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: {إِنِّي سَقِيمٌ}، وقوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [سورة الأنبياء:٦٢]، وقوله في سارة: هي أختي" فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني.

وقيل: أراد أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله -عز وجل.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: {إِنِّي سَقِيمٌ}، وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها، رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي: إلى عيدهم، {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء.

سرعة واختفاء من قوله: فراغ، مع أن أكثر المفسرين في هذا الموضع لا يفسرونه بالذهاب بسرعة وخفاء، وإنما يقولون: مال إليه، راغ أي مال، هذا عامة المفسرين، لكن مضى الكلام على هذا المعنى في بعض المناسبات {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [سورة الذاريات:٢٦] راغ من الروغان وهو الذهاب بسرعة وخفاء

يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً *** ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

يروغ الثعلب: يميل يذهب بسرعة وخفاء.

ولهذا قال تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي: إلى عيدهم، {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ}، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرّك لهم فيه.

فلما نظر إبراهيم -عليه والسلام- إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: {أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ}؟!

الآن على قول ابن كثير هذا الطعام {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} كانوا يضعون عندها طعاماً لا لتأكل وإنما للتبرك، يعني يضعون عندها طعامهم، طعاماً لهم ليتبركوا بهذه الآلهة، لينالوا بركتها لتبارك لهم هذا الطعام، وبعضهم يقول: كانوا يصنعونه لها لتأكل، وهل يعقل هذا؟ الجواب نعم كل شيء يتصور من هؤلاء الوثنيين، ولا يزال يوجد إلى اليوم في بعض النواحي كما في بلاد الهند من يضعون أطيب الطعام وأفضل الطعام في بلد يوجد فيها ملايين من الفقراء الذين لا يجدون ما يقيمون أصلابهم يضعونه لأصنامهم، ويعتقدون أن هذا الصنم إذا كان راضياً عنهم فإنه راضٍ عنهم من هذا الطعام، وهكذا في كل يوم يجددون ذلك، فيُتصور هذا من هؤلاء الوثنيين فإن العقل يصير على حال من المسخ فيصل الأمر إلى هذا الحد، وبعضهم يقول: هذا الطعام يوضع لسدنة الأصنام، فكان موضوعاً فقال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {أَلا تَأْكُلُونَ} وهو موضوع للسدنة، وبعضهم يقول: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لربما هو الذي قربه إليهم إلى هذه الأصنام أعطاهم مستهزءًا {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} دفع إليهم طعاماً، {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} يسخر من هذه الأصنام، وممكن أن يكون هناك طعام تركوه لأنفسهم يتبركون أو السدنة أو كانوا يضعونه لها، ليس عندنا دليل على شيء من هذا، لكن دل على وجود طعام قوله: {أَلا تَأْكُلُونَ}.

وقوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وبعضهم يقول: اليمين يعني القوة، والعرب تعبر عن القوة باليمين، وذلك يرجع إلى أن اليمين أقوى من الشمال فصار يعبر بها عن القوة {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} يعني بالقوة يُضربون، يضربهم ضرباً قوياً، وبعضهم يقول: {بِالْيَمِينِ} يعني بالعدل فإن العدل يقال له: يمين، بخلاف الظلم والكفر والشرك وما إلى ذلك فإنه يعزى إلى الشمال، واضح؟، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: إنه حلف {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} [سورة الأنبياء:٥٧] فهذه يمين {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} إلى حلفها، يعني وفّى بالحلف {ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} حلف أن يكيد الأوثان فوفى بذلك {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}، فهنا يقول: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} إنما ضربهم باليمين؛ لأنها أشد وإن كان على ظاهره ضربه بيمينه فهذا يقتضي أن يكون ضرباً قوياً، عبر باليمين؛ لأنها تدل على القوة.

قوله هاهنا: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ}: قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون.

يعني هذا الآن هم عبدة الأوثان قوم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وليست الأصنام أقبلت عليه بعدما ضربها؛ لأنها تكسرت وتهاوت، وإنما المقصود أن هؤلاء العبدة لهذه الأصنام أقبلوا إليه يزفون، قال: أي يسرعون، وبعضهم فسرها يقول: يمشون، وبعضهم يقول: يرعدون من الغضب والحنق، جاءوا في حال من الهيجان والتوتر، وبعضهم كمجاهد يقول: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} يختالون إليه، وبعضهم يقول: بين العدْو والمشي، يسرعون في المشي وهذا هو المشهور أن قوله: {يَزِفُّونَ} بمعنى يسرعون، جاءوا إليه في حال من الإسراع بما حل بمعبوداتهم، يعني جاءوا يتدافعون ويتعادون إليه بسرعة لهول ما شاهدوه.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة مَن فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم -عليه السلام-، هو الذي فعل ذلك.

يعني هم هناك كما قال الله -تبارك وتعالى- عن قيل بعضهم: {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} [سورة الأنبياء:٦٠]، لما قالوا {مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا}؟ [سورة الأنبياء:٥٩] فكان الجواب من بعضهم {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} يعني يذكر هذه الآلهة بسوء، مَن الذي سيجترئ عليها وهي آلهة في اعتقادهم؟، {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} يذكر هذه الآلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، وأنها ليست بآلهة حقيقية إذاً من الذي سيفعل هذا؟ والقرينة عندهم الأخرى غير ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لهذه الآلهة بالذم والعيب أنه تخلف عن عيدهم {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} إذاً هو كان ينوي أمراً قد بيته لهذه الآلهة فجاءوا فشاهدوا ذلك فعرفوا أنه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولهذا سألوه: {أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ}؟ [سورة الأنبياء:٦٢] هم يسألون ويستوضحون؛ ليتحققوا من هذا الظن الذي ظنوه والأمارات والقرائن التي عرفوها {أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ}؟.

فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟! أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟!

النحت هو نجر الشيء ونقره حتى يصير على هيئة معينة، فينحت الخشب، وينحت الصخر وما إلى ذلك حتى يصير على الهيئة المطلوبة صورة صنم أو غير هذا.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يحتمل أن تكون "ما" مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى "الذي" تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر.

قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} إذا كانت "ما" مصدرية فإنها تنسبك مع ما بعدها بمصدر فيكون الكلام هكذا والله خلقكم وعملكم، فهذه يحتج بها أهل السنة، أو من يحتج من أهل السنة، ومن وافقهم على أن أفعال العباد مخلوقة، وعلى هذا طوائف من المتكلمين، يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن العبد مخلوق فعله، فالأشاعرة في ظاهر الأمر يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة لله -عز وجل- ولكنها كسب لهم، مسألة كسب الأشعري التي تعرفون، وهو قول مشهور عنه ذلك الكسب لا غناء فيه، ولا يمكن أن يفسر بمعنى يظهر كل الظهور، فالشاهد أن الأشاعرة يردون على المعتزلة في قولهم: إن أفعال العباد هي خلق لهم، ولهذا تجد مثل صاحب الكشاف في مثل هذه الآية يشتط في تقرير أن "ما" هذه ليست مصدرية، وأنها موصولة {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني الأصنام، ولو قال: والله خلقكم وما تعملون، يعني وعملكم فهذا يكون رداً على عقيدتهم، وهم -كما ذكر شيخ الإسلام في طريقة أهل البدع والضلال- تجاه النصوص تارة يفسرون القرآن بناء على ما يعتقدونه يحملونه يعني على معانٍ يعتقدونها فإن عجزوا عن هذا لجئوا إلى الأمر الآخر سلبوا القرآن ما دل عليه فصرفوه إلى معنى آخر لا يدل على خلاف اعتقادهم، فهنا السهيلي وغيره لهم ردود، والسهيلي محسوب على عقيدة الأشاعرة مع علمه وإمامته في العلم -رحم الله الجميع-، فالشاهد أن السهيلي يرد على الزمخشري، والزمخشري يقول: هذا لا يصح من جهة النحو والإعراب واللغة أن تقول "ما" مصدرية هنا، ويقول: حتى من جهة المعنى لا يصح، فالسهيلي يرد عليه رداً مفصلاً، وهو رد وجيه، وله حظ قوي من النظر، وابن القيم -رحمه الله- في بعض كتبه نقل شيئاً عن السهيلي تارة يناقشه بها، وتارة يقرر ما ذكره السهيلي، فالشاهد أن ابن القيم نقل كلام السهيلي في بعض المواضع ثم ناقشه أيضاً فابن القيم يرد على الزمخشري ويرد على السهيلي، وحاصل ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- أن "ما" هذه ليست مصدرية، ويقول: إنها موصولة {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ} والذي تعملون، ويقول: إن هذا أوفق وأقرب إلى المعنى، وإن الرد على المعتزلة لا ينبغي أن يحملنا على أن نحمل الآية على محمل ليس بقوي، أو ليس بذاك، ليس له وجه صحيح في التفسير، ولكن يمكن أن يرد على المعتزلة بأشياء أخرى، وإن هذه الآية لا تدل على عقيدة المعتزلة بحال من الأحوال، لكن يقول: هذا التفسير هذا المعنى أوضح وأوجه، وأقوى من أي وجه يُذكر، وجوهٌ متعددة، لكن من أبرزها، يقول لو أنه قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني وعملكم هم سيقولون: إن عبادتنا هذه للأصنام إذاً الله هو الذي خلقها، في مقام هم يعبدون الأصنام فينكر عليهم، ويقول لهم: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ} وعملَكم، يقولون: عملنا هذا هو عبادة الأصنام إن كان الله الذي خلقه كيف تحتج علينا إذاً، كأنه لقنهم الحجة، فالشاهد أن ابن القيم -رحمه الله- يرد علي السهيلي ويرد على المعتزلة أيضاً يقول: هذه الآية لا حجة فيها، ويوافقه ابن قتيبة، والسهيلي يرد على ابن قتيبة ويرى أن هذا من الأخطاء، وإن كان ابن قتيبة لا يوافق المعتزلة في عقيدتهم هذه لكن في تفسير الآية يقول: إن "ما" هذه

موصولة والله خلقكم والذي تعملون، لاحظ عبارة ابن كثير دقيقة جداً يقول: **وكلا القولين متلازم**، أي متلازمان، ثم إن ابن القيم -رحمه الله- يقول: نفس الآية هي رد أيضاً على المعتزلة على قولهم: إن "ما" موصولة، يقول: حتى على هذا القول هي رد على المعتزلة فما يفرحون بهذا التفسير من أي وجه، يقول: إذا كان الآن {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني والذي تعملونه –صنع الأصنام- الله خلقها فهي مخلوقة من حيث المادة التي وجدت منها حجر، طين، خشب..... إلى آخره وهي مخلوقة من جهة التصوير والصورة والهيئة التي صارت عليها، وهذا التصوير والتشكيل نتيجة النحت الذي عمله المخلوق، فإذا كان الله -عز وجل- قد خلق هذه الأصنام التي يعبدونها فهي خلق له في مادتها وخلق له في هيئتها وصورتها أصلاً، يعني أن الله هو الخالق، بمعنى أنها خلق لله يصح أن يطلق عليها هكذا أنها خلق لله، مع أنهم هم الذين صوروها وشكلوها فذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- خالق أفعال العباد، فالأيدي التي صنعتها مخلوقة، إذاً هي أثر للمخلوق، لعمل مخلوق خلقه الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} صارت أفعالهم التي هي واسطة صار بها هذا التصوير والتشكيل لهذه المعبودات، صارت أفعالهم بهذا الاعتبار مخلوقة، هذا يذكره ابن القيم في الرد عليهم، هنا لاحظ ابن كثير يقول: **وكلا القولين متلازم والأول أظهر**، يعني كيف يكون كلا القولين متلازماً؟ الله خلقكم والذي تعملونه، خلقكم وعملكم، فعملهم هذا نتج عنه هذه المنحوتات والمعبودات والأشكال والصور التي صوروها، لا من الأصنام فإذا كانت هذه مخلوقة فإن الأيدي التي صنعتها مخلوقة والأفعال التي وجدت بها والجهود مخلوقة فصار بين القولين بهذا الاعتبار ملازمة، ويمكن أن يراجع كلام ابن القيم -رحمه الله- مفصلاً في هذا، يراجع مثلاً بدائع التفسير.

والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب "أفعال العباد"، عن حذيفة مرفوعا قال: ((إن الله يصنع كل صانع وصنعته))[٤]**، وقرأ بعضهم:** {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}.

الصنعة تقال: للمصنوع، صنعة، وابن القيم -رحمه الله- يحتج على قوله، على ما ذكر من أنها موصولة، وهي كانت بأفعال المخلوقين نتيجة لأعمالهم ونجْرهم ونقرهم ونحتهم وما إلى ذلك، ويذكر ابن القيم -رحمه الله- على هذا آيات من القرآن مثلاً قوله تعالى عن سفينة نوح -صلى الله عليه وسلم-: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [سورة يس:٤١-٤٢] مع أن من الذي صنع الفلك التي يركبون فيها؟ -السفن-، وابن القيم استبعد قول من قال: إن المقصود الإبل كما سبق أنها سفن البر إلى آخره وإنما {مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} من المراكب سواء كانت البحرية على قول من حدده بذلك أو المراكب الأخرى التي يركبونها منها الطائرات اليوم والسيارات ونحو هذا، فعلى كل حال هذه السفن وسائر المراكب وأنواعها من الذي صنعها؟ الناس أليس كذلك؟ والله -عز وجل- قال: {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} مع أنها مخلوقة ومصنوعة بأيدي الصناع الناس، وذكر آيات غير هذه فأضاف ذلك إلى نفسه.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} **وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته**

---

٤ - رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٣٧).

ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}.

الجحيم: كل نار بعضها فوق بعض يقال لها: جحيم، والجمر المتراكم بعضه فوق بعض يقال له: جحيم، فلذا قال أصحاب اللغة والمفسرون كابن جرير وغيره: نار متراكمة.

وهنا عبرة وآية عظيمة يعني هؤلاء الناس لما ألقوه في هذه النار العظيمة، وإذا نظرتم ما يذكر فيها -هي من قبيل الروايات الإسرائيلية- لكن لا شك أنها نار عظيمة: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} والتعبير بالجحيم يدل على هذا، مع ذلك لما وجدوه من غير بأس وما مسته النار، هل تحولوا إلى الإيمان؟ آمن هؤلاء وبقي إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيهم؟ أبداً ما تغير في الأمر شيء قال: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦] خرج وتركهم، فإذا طُمس على القلوب فمهما رأوا من الآيات فإن ذلك لا يؤثر فيهم -نسأل الله العافية-، فأي آية أعظم من هذا شاهدوها عرفوها عرفوا حقيقة ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-؟ ومع ذلك بقوا على لسانهم ورجزهم وضلالهم، والله المستعان.

{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} [سورة الصافات:٩٩-١١٣].

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم -عليه السلام-: إنه بعدما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} يعني: أولادا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم.

هكذا الإنسان إذا دعا ربه وسأل الذرية يقيد ذلك بالصلاح قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [سورة آل عمران:٣٨]، فذلك يكون نعمة على الإنسان لكن قد يأتي أولاد بخلاف ذلك فيكونون نقمة.

قال الله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ} وهذا الغلام هو إسماعيل -عليه السلام-، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم -عليه السلام-، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم -عليه السلام- ست وثمانون سنة، ووُلدَ إسحاق وعمْرُ إبراهيم تسع وتسعون سنة.

لما هاجر إلى بلاد الشام قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} فالله -تبارك وتعالى- يقول: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ} الآن ليس عنده أولاد فسأل الولد فعوضه الله -عز وجل- بالذرية الطيبة، الذين يُنسونه قومه وعشيرته وأهله ووطنه الذين فارقهم لله وفي الله، فهنا إذا كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- أكبر فإن المبشَّر به إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- بهذا الاعتبار، هذا دليل أول أنه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، والدليل الثاني من كتبهم قال: وعندهم أن الله -تبارك وتعالى- أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده هذا في نص كتابهم،

وفي نسخة أخرى بِكْره، والبكر في كتبهم هو إسماعيل هم يوافقون أنه هو الأكبر، أكبر من إسحاق.

وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بِكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا إسحاق.

وهذا من تناقضهم وتحريفهم حينما يوافقون على أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو الأكبر ثم يقولون: أن يذبح بِكره إسحاق فهذا كذب يلوح كيف يكون البكر إسحاق؟، فهذا مما يحتج عليهم به من باب المناظرة للنصارى أنهم حرفوا كتبهم مما يحتج عليهم به في هذا الموطن قال كيف تتناقضون؟ أنتم تقولون: إنه هو الوحيد إسماعيل، إنه هو الأكبر فكيف يكون البكر هو إسحاق؟.

ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: "وحيد" إلا لمن ليس له غيره.

هذا دليل آخر من النظر أول ولد له معزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد يعني إذا أُمر بذبحه فهذا يكون أشد في البلاء.

وأيضا فإن أول ولد له معزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

هذا الوجه الثالث الذي ذكره ابن كثير للاحتجاج على أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو الذبيح، والمسألة فيها خلاف كثير بين أهل العلم، فيها قولان مشهوران بكل واحد منهما قال جماعة من الصحابة فمن بعدهم، وليس في المسألة دليل صريح يقطع الخلاف ويرفعه، ولعل أوضح ما فيها ما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يتصل بقرني الكبش في جوف الكعبة، فذلك مما توارثوه وعُرف وأقر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فهذا أوضح دليل أن الذبيح كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، وأما الدلائل من القرآن فإنك إذا نظرت إلى استدلال كل طائفة ظننت أن هذا الاستدلال الأوجه والأقوى والأصح، فإذا نظرت إلى استدلال الطائفة الثانية وجدت أنهم يحتجون بأدلة أو بطرائق لا تقل عن الأولين من حيث الوجاهة والقوة، لكن الآن لو سألناكم لأول وهلة الآن لو جاء واحد منكم وقال: الذبيح هو إسحاق ما رد الفعل عندكم؟ ماذا تقولون عن هذا القول؟ ماذا تقولون؟ ضعيف فقط، أو خطأ فقط، أو هاوٍ، أو في غاية الضعف والسقوط في نظركم ما تقولون؟، الآن أنا في هذا الدرس لو قلت لكم: إن الذبيح هو إسحاق لسارت به الركبان أو لا؟ أرأيتم أن هذا من الشناعة أليس كذلك؟، ولولا خشية الوقت لقرأنا من تفسير ابن جرير؛ لأنه يقول: الذبيح إسحاق والحجج التي يوردها ابن جرير بحيث لو قرأت عليكم بمجردها أظن أنكم إما أن تقولوا: إن الذبيح إسحاق أو تتوقفوا في المسألة وتتحيروا، يعني لا نقول: إن الذبيح إسحاق، والذبيح هو إسماعيل -عليه السلام-، لكن أقصد من المسائل ما يظن الإنسان أحياناً لأول وهلة أن هذا القول ساقط ولا وجه له، فلو نظر في حجج أصحابه لغير رأيه فلا يستعجل الإنسان في رأي أقوال أهل العلم وردها قبل أن ينظر في حججهم وأدلتهم، وأكثر أهل العلم كما يقول القرطبي: إن الذبيح هو إسحاق وأنا لم أتتبع هذا بدقة لكن هذا كلام القرطبي، يقول: الأكثر يقولون: هو إسحاق، مع أن الحاكم النيسابوري يقول في المستدرك: إن الذين أدركهم من الشيوخ شيوخ الحديث في البلدان يقولون: إن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- لا يختلفون في

ذلك، أهل الحديث، ثم يذكر عن قومٍ وُجدوا أنهم يقولون، لا يقصد أنهم غير موجودين من قبل، هذا قول معروف لبعض الصحابة لكن وقف عمن يقول في زمانه بأن الذبيح هو إسحاق، هذا كلام الحاكم النيسابوري، والقرطبي يعزو ذلك إلى أكثر أهل العلم: الذبيح هو إسحاق، وهذا يروى عن العباس عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويروى عن ابن عباس، وصح عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وجابر يروى عنه ذلك أيضاً، وعلي بن أبي طالب وابن عمر، وعمر بن الخطاب يروى عنه هذا إن صح، فهؤلاء سبعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يروى عنهم القول: إن الذبيح هو إسحاق، وأما الذين قالوا هذا من التابعين فمن بعدهم واختلاف الطبقات فهؤلاء كثير فهو مروي عن علقمة وأصحاب ابن مسعود، والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير، وكعب الأحبار، وقتادة ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي برزة، وعطاء ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابق، والسدي وعبد الله بن هذيل، ومالك بن أنس هؤلاء كلهم يقولون: إسحاق، واليهود والنصارى يقولون: الذبيح هو إسحاق، ومن أهل العلم من المفسرين وأصحاب المعاني كابن جرير يقول: الذبيح إسحاق، والنحاس صاحب معاني القرآن يقول ذلك، وأما الذين قالوا: إنه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- فهذا مروي عن أبي هريرة والطفيل عامر بن أبي واثلة، وهو أيضاً مروي عن ابن عمر، وأيضاً عن ابن عباس -رضي الله عن الجميع-، وممن جاء بعد الصحابة: الذين روي عنهم من الصحابة سبعة في السابق قالوا: إنه إسحاق، وهنا عن ابن عمر روايتان، وعن ابن عباس روايتان فبقي عندنا أبو هريرة وأبو الطفيل، والتابعون قال بهذا سعيد بن المسيب، وهو مروي عن الشعبي أيضاً، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وعلقمة فهؤلاء أقل من الأولين، لهذا قال القرطبي: إنه قول الأكثرين يعني أن إسحاق هو الذبيح، والأصمعي سأل أبا عمر بن العلاء عن الذبيح من هو؟ فقال له: يا أصمعي! أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وقد يقول قائل من أصحاب القول الآخر: من قال لكم إن الذبح كان في مكة، إنه أُمر بذبحه في بلاد الشام، يعني هذا قول، فهم يقولون: لا نسلم أصلاً أنه بمكة، فيستطيعون الجواب عن هذا الذي ذكره أبو عمر بن العلاء -رحمه الله-، فهذا فيه عبرة أن الإنسان لا يستعجل برد بعض أقوال أهل العلم حتى ينظر في أدلتهم وما شابه ذلك، وهي مسألة دقيقة؛ لأن من الناس من يستعمل مثل هذا في ضرب الثوابت عند الناس، لكن فرق بين هذا وهذا، نحن نتكلم عن أقوال معتبرة عند أهل العلم، ومشهورة ولربما قال فيها أكثر أهل العلم، لكن أولائك يستعملون هذا في هز الثوابت عند الناس يقولون: انظر في كلام الآخرين ولا تأخذ الكلام لتسمعه على أنه مسلَّم، وهذه مشكلة كبيرة، والعوام لا يطالبون بهذا، إنما مذهبهم مذهب من أفتاهم من علمائهم علماء بلدهم، أنا مع البلد الذي يعني يستفتي فيه هؤلاء، وإذا نظرت في حجج هؤلاء، وحجج هؤلاء ابن كثير -رحمه الله- أورد ثلاثة مثلاً وليس المقصود الاستقصاء إنما مزيد من الإيضاح بعض الشيء، فمثلاً الذين قالوا: إنه إسحاق قالوا: إن الله -عز وجل- قد أخبرهم عن إبراهيم حينما فارق قومه فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال: **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}**، قالوا: دعا فقال: **{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}**، فقال تعالى: **{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}** [سورة مريم:٤٩] فلما اعتزلهم، **{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}** [سورة العنكبوت:٢٦] وقال: **{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ**

{بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} وهذا الغلام الحليم قالوا: تفسره الآية الأخرى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} قالوا: إسحاق هذا هو المقصود المبشَّر به لما اعتزل قومه وذهب إلى بلاد الشام، وهذا استدلال وجيه، قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وإنما بشر بإسحاق، وابن جرير يقول: كل المواضع التي فيها تبشير في القرآن لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بالولد فالمقصود به إسحاق، والملائكة لما جاءوا لإهلاك لوط ومروا على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في القصة المعروفة بشروه أيضاً بغلام فجاءت امرأته في حال من الدهشة {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [سورة الذاريات:٢٩]، وهذه المرأة بالاتفاق هي سارة وليست هاجر، فقالوا: هذا الذي بُشر به، فابن جرير يقول: في كل المواضع الذي بشر به هو إسحاق -عليه الصلاة والسلام-، يقولون: بشر بإسحاق؛ لأنه قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا}، وقال هنا: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} وذلك قبل أن يعرف هاجر، قبل أن يذهب إلى بلاد مصر، وقبل أن يولد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- لكن هذا يقتضي أن إسحاق أكبر من إسماعيل مع أن أهل الكتاب يوافقون -كما ذكر ابن كثير- على إن إسماعيل هو الأكبر، وقضية الغيرة التي حصلت سببها أن سارة لم يكن يولد لها فلما أهديت إليه هاجر فولد لها غلام تحركت دواعي الغيرة عند سارة فذهب بها إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وكما في الحديث إن أول من اتخذ النطاق هي هاجر، كانت تمحو أثرها عن سارة، كانت تتبع آثارها فكان لها نطاق، عملت نطاقاً لتمحو الأثر إذا مشت حتى لا تتعرف تلك على الأماكن التي ذهبت إليها وأين جاءت وأين ذهبت، وهل لقيت إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-؟، فهذا يدل على أنها غارت، وذهب بهاجر إلى أرض الحجاز إلى مكان الحرم مع ولدها، وهذا ظاهر، ثم بعد ذلك وُجد له إسحاق -عليه السلام- لكن مثل هذا النوع من الاستدلال له وجاهة لكن إذا نظرت إلى غيره من الأدلة كأنه لا يتفق معها وهي أمور مسلمة واضحة، فهذا الاحتجاج له وجه وله قوة، ويقابل أموراً مسلّمة ينقضها أو يصادرها، فالذين قالوا: إنه إسماعيل -عليه السلام- قالوا: أولاً الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الأنبياء:٨٥]، وقد قال لأبيه: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} قالوا: هذا الصبر على الذبح، ووصفه بصدق الوعد هو وعد أباه {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} فالله قال عنه: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [سورة مريم:٥٤] هذه أوصاف إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، فوفى بما وعد، ولأن الله قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا} فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا} هو يكون نبياً بعدما يكبر، فكيف يأمره بذبحه؟ إذاً لن يتحقق هذا الذبح، سيكون نبياً في المستقبل! والاستدلال واضح، كيف يبشره به -بإسحاق بولد- وأنه سيكون نبياً ثم يأمره بذبحه؟ هذا الذبح لن يتحقق، لابد أن تتحقق هذه البشارة أنه سيكون نبياً، وهكذا أيضاً قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [سورة هود:٧١]، فهذا الولد سيكون له نسل فهل يكون هو المأمور بذبحه؟ كيف يؤمر بذبحه ويعرف أنه سيولد له ولد آخر من هذا الولد؟ سيكون له ذرية {وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} فلا معنى للأمر بذبحه، وهكذا ما ورد من القرْن، قرنا الكبش موجودان في الكعبة، وذلك صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولو كان إسحاق فإسحاق ما جاء إلى مكة! وإنما يكون ذلك في الشام، فهذه الأشياء هي محل احتمال، وليس هناك

دليل قاطع، فإذا نظرت إلى أدلة هؤلاء، وأدلة هؤلاء وجدت أن ذلك له وجاهة، لكن الأرجح أن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، وحديث: ((ما بعث نبي إلا بعد الأربعين عاما))[٥]، لا نبي إلا بعد الأربعين إلا عيسى -صلى الله عليه وسلم-، فقال بعضهم: فكان قبل الأربعين، لكن لا أعلم أحداً يقول: إن أحداً من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان نبياً في صغره أبداً، لا عيسى -صلى الله عليه وسلم-، ولا إسحاق، ولا يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وموسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ذهب إلى مدين كان ذلك قبل النبوة، وإنما نُبئ لما رجع في الطريق عند الطور، ويوسف -صلى الله عليه وسلم- حينما قال الله -تبارك وتعالى- له: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف:١٥]، جاء ذلك وحياً من الله -تبارك وتعالى- وتطميناً أنه سيأتي اليوم الذي يخبر إخوته بفعلتهم وهم لا يشعرون أنه يوسف، وتحقق هذا لما قالوا له: {أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ} [سورة يوسف:٨٩-٩٠] فقال: {أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ...}، فالشاهد أنه أشعرهم بهذا، وهو خاطبهم بهذا وهم لا يشعرون، كان هذا قبل النبوة حينما قال الله له: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا} وهذا يُحتج به على أن الوحي قد يأتي لأحد من الناس ولا يكون نبياً كما أوحى الله إلى أم موسى وإلى الحواريين، وقد يأتي الوحي لبعض الأنبياء قبل النبوة كما في يوسف -صلى الله عليه وسلم.

تم بحمد الله وفضله.

---

٥ - ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة، وقال: قال ابن الجوزي: إنه موضوع، المقاصد الحسنة (٥٨٧)، برقم (٩٨٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (١٠٢) إلى الآية (١٣٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله أجمعين، وبعد.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [سورة الصافات:١٠٢] **أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم -عليه السلام- يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد "فاران" وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.**

وعن ابن عباس ومجاهد وعكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخرساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} يعني: شب وارتجل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْي، ثم تلا هذه الآية: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى}.

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}** هنا الحافظ يقول: **أي كبر وترعر وصار يذهب معه**، يعني مع أبيه، والسعي يقال: للمشي، ويقال: للإسراع في المشي **{وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}** [سورة القصص:٢٠]، ويقال أيضاً: للعمل، **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ}** [سورة الملك:١٥]، التقلب فيها والعمل وطلب الرزق والتجارة وما أشبه ذلك، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}** [سورة الجمعة:٩]، والمقصود بالسعي في هذه الآية على أرجح أقوال المفسرين يعني العمل على حضورها، وترك الاشتغال عنها والمبادرة إليها، وليس الإسراع في المشي؛ لأنه منهي عنه، وهنا في هذه الآية: **{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}** يقول: **وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه**، هذا احتمال **{بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}** يعني صار يذهب ويمشي، ويحتمل معنى آخر نقله هنا عن جماعة من السلف قال: **بمعنى شب وارتجل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل**، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- **{بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}** يعني صار في سنٍ يطيق فيها العمل وهو الوقت الذي يتشوف الوالد فيه إلى الولد وعائدته وما يرجِّيه منه، ثم بعد ذلك يؤمر بذبحه فذلك أشد من ذلك الطفل الصغير الذي يحتاج إلى رعاية ويكون كَلًّا على أبيه، هذا بلغ السن الذي يرجّيه، يرجّي نفعه وعائدته ثم بعد ذلك إذا أمر بذبحه فهذا أشد، فهذان معنيان قريبان وبينهما نوع ملازمة، وذلك أنه إذا بلغ السن التي يطيق فيها العمل فإنه يصير في حال يذهب ويجيء ويمشي مع أبيه ويتقلب معه كما لا يخفى فهذان معنيان متلازمان، أما قول من قال: إن المقصود سعي العبادة، بلغ معه السعي أو أنه سعي العقل أو نحو ذلك فهذا لربما يكون أبعد من سابقيه،

-والعلم عند الله-، {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى}، وفي القراءة الأخرى قراءة حمزة والكسائي {تُرِي} وهذه القراءة بالياء فسرت بأن المراد ماذا تريني؟ ماذا تريني من صبرك واحتمالك؟، وبعضهم يقول: ماذا تُرِي؟ يعني ماذا تريك نفسُك؟ وليس ماذا تريني؟ ماذا تريك نفسك من الرأي؟، والله أعلم.

وقوله: يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران، والمقصود ببلاد فاران يعني الحجاز، وجاء هذا أيضاً في بعض النصوص المنقولة من كتب أهل الكتاب، في نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن الله تجلى من جبال فاران.

وقوله: **وإنما أعلم أبنه بذلك ليكون أهون عليه ليختبر صبره في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه**، بمعنى أنه لم يكن يعرض ذلك عليه لأخذ رأيه في تنفيذ ما أمره الله -عز وجل- به فيكون تنفيذ ذلك متوقفاً على رأيه، ليس هذا هو المقصود وإنما قصد بذلك أن ينظر في صبره وتحمله ليكون عوناً له على تحقيق أمر الله -تبارك وتعالى-، يعني لم يكن عنده تردد في تنفيذ أمر الله.

{قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} أي: **امضِ لما أمرك الله من ذبحي**، {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} أي: **سأصبر وأحتسب ذلك عند الله -عز وجل-، وصدقَ -صلوات الله وسلامه عليه- فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى**: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [سورة مريم:٥٤-٥٥].

قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أي: **فلما تشهدا وذكرا الله تعالى، إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت، وقيل**: {أَسْلَمَا}، **يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه، قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.**

هذه المرويات عن بعض السلف: أنه {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} يعني على وجهه، على جبينه ليذبحه من قفاه بألا يرى وجهه فيرقّ قاله جماعة من السلف، ولكن يمكن أن يكون المعنى غير هذا -والله أعلم-؛ وذلك أن الجبين هو جانب الجبهة يقال لكل جانب منها: جبين، وليس المقصود بالجبين الجبهة حتى يقال: أكبه على وجهه، فمن كان على جانبٍ كهيئة الذي يذبح فإن جبينه أي أحد جانبي الجبهة يكون إلى الأرض، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} كهيئة الذي يذبح يكون جبينه يعني أحد جانبي الجبهة إلى الأرض، ولا يلزم من ذلك أن تكون الجبهة على الأرض بحيث يذبحه إلى قفاه، والله أعلم.

وقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} أسلما بمعنى استسلما وانقادا، هذا معنى أسلما، لكن هنا {فَلَمَّا أَسْلَمَا} والتقدير يكون أمرناه ناديناه أوحينا إليه، لا، هو قال: {وَنَادَيْنَاهُ} [سورة الصافات:١٠٤] هذا مصرح به ليس بمحذوف {فَلَمَّا أَسْلَمَا} فإذا قلت: إنه محذوف بعضهم يقدر ذلك بقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} ظهر صبرهما، {وَتَلَّهُ} والسياق يكون {فَلَمَّا أَسْلَمَا} ظهر صبرهما {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أو يكون التقدير {فَلَمَّا أَسْلَمَا} أجزلنا لهما أجرهما، أو {فَلَمَّا أَسْلَمَا} فديناه بكبش، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} لكن هذا الأخير فيه إشكال، لما أسلما فديناه بكبش {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} كأن الكلام يعود إلى الكبش، وبعضهم يقول: إن الجواب مذكور، يقولون: إن الجواب هو {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} طيب والواو؟ الواو زائدة عندهم، وهذا على طريقة الكوفيين فإن مذهبهم أسهل بكثير من مذهب البصريين، أما تلك

التقديرات فهي للبصريين، ويعارضون مثل هذا الإعراب عند الكوفيين، يقولون: الواو هنا من حروف المعاني لا يمكن أن تزاد، وبعضهم يقول: إن الجواب هو ناديناه وإن الواو زائدة {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ} [سورة الصافات:١٠٢-١٠٣]، -والله تعالى أعلم-، ويحتمل {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ} فيما يظهر أن واحدة من هذه المذكورات هي الجواب، لكن كونه مقدراً مع أن الأصل عدم التقدير كأنه أقرب -والله أعلم-، فلما أسلما ظهر صبرهما، ظهر ثباتهما، ظهر يقينهما، وقد يفهم المقدر من بعض ما ذكر، يعني مثلاً ظهر يقينهما، ظهر صبرهما {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} والتل جذب الشيء بقوة أو بشدة، تلّه.

ومعنى {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}: أكبه على وجهه.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "لما أُمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنُودِيَ من خلفه: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضَّرْب من الكباش[1].

على هذه الرواية يكون ذلك في مِنى؛ لأن المفسرين والمؤرخين يختلفون كثيراً أين كان ذلك.

الضِّرب أو الضَّرب؟ ذلك الضَّرب: النوع يعني من الكباش، أننا نشتري هذا للأضحية ما كان بهذه الصفة أبيض أقرن أعين.

وذكر هشام الحديث في المناسك بطوله.

وقوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [سورة الصافات:١٠٤-١٠٥] أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وذكر السدي وغيره أنه أَمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم -عليه السلام- عند ذلك: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}.

مسألة النسخ قبل التمكن مشهورة في كتب الفقه وأصوله في موضوع النسخ، يعني تمكن المكلف من الامتثال، وعندهم النسخ بعد التمكن، فقبل التمكن يمثلون له بنسخ خمسين صلاة إلى خمس صلوات، يقولون: نسخت قبل أن تبلغ المكلفين وأول صلاة صلاها النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة الظهر، لهذا يقال لها:

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٧٠٧)، وقال محققوه: "رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوي، فقد روى له أبو داود، وقال أبو حاتم: لا أعرف اسمه ولا أعرفه، ولا حدّث عنه سوى حماد بن سلمة، وقال إسحاق بن منصور عن ابن معين: ثقة، وقال الحافظ في "التقريب": مقبول. قلنا: ولمعظم هذا الحديث طرق وشواهد يتقوى بها، سريج: هو ابن النعمان، ويونس: هو ابن محمد المؤدب"، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٣٣٧).

الصلاة الأولى، وهناك نسخ بعد التمكن من الامتثال لكن قبل وقوعه، وهذا مثلما يقولون: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وضع السكين على رقبته سواء على هذه الروايات التي تذكر أنها تحولت إلى نحاس وغير هذا، هذا ليس عندنا دليل ثابت فيما أعلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك أنها تحولت إلى نحاس، لكن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنه تله للجبين وهيّأه ليذبحه ففداه الله -عز وجل- بذبح عظيم، فهذا نسخ بعد التمكن وقبل الامتثال، وليس هناك من الصور فيما أعلم لهاتين المسألتين غير ما ذكر، يعني حتى مسألة نسخ الصدقة قبل النجوى مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان ذلك بعد التمكن والامتثال، يعني لو امتثل واحد من المكلفين حصل الامتثال، وعليه فهذه المسألة لا يترتب عليها عمل بالنسبة للمكلفين، وهناك جدل كثير في كتب أصول الفقه حول هل يصح النسخ قبل التمكن؟ وهل يصح بعد التمكن؟ وقبل الامتثال أو لا؟ وهي من المسائل التي لا يبنى عليها عمل، والمفروض أنها تخرج من أصول الفقه، أصول الفقه يحتاج أن يخرج منه هذا النوع من المسائل، وهي موجودة -المسائل التي لا يبنى عليها عمل-، بالإضافة إلى ما هو أهم من هذا وهي المسائل المبنية على عقيدة فاسدة، مثل هل الأمر يقتضي الإرادة أو لا يقتضي الإرادة؟، هؤلاء الذين لا يفرقون بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية فيفترضون مثل هذه الإشكالات، ويذكرون الأقوال فيها، ولا حاجة إلى ذلك، لكن لما كان الذين ألفوا في أصول الفقه في الغالب من المعتزلة والأشاعرة احتاجوا إلى مثل هذا السؤال؛ لأنه على عقيدتهم يكون محلا للإشكال.

وقوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: **هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}** [سورة الطلاق:٢-٣].

هذا الحكم العام يذكره الله كثيراً، يعني يذكر قضية معينة خاصة ثم يأتي بالحكم العام بعدها؛ ليشمل ذلك ما ذكر وغيره، {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} كذلك الجزاء نجزي المحسنين، فكل من أحسن فإن الله يجازيه ويوجد له من الأسباب التي يحصل له بها السعة والفرج والمخرج ما لم يخطر له على بال كما فعل بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وابنه إسماعيل.

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ}.

كلام ابن كثير: النسخ قبل التمكن من الفعل، وبعضهم يترجم لهذه المسألة كما قلت: قبل التمكن أو بعد التمكن؟ فنسخ الصلوات قبل التمكن، وهذه على أنه أمرّ السكين إلى آخره، فيكون بعد التمكن، وقبل تحقق الفعل، وهذه يترتب عليها عمل.

أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [سورة النجم:٣٧].

وقوله: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} عن ابن عباس قال: كبش قد رَعَى في الجنة أربعين خريفًا.

هذا -والله أعلم- يحتمل أن يكون أخذه عن بني إسرائيل، وابن عباس -رضي الله عنهما- كان ممن أخذ عن بني إسرائيل أمثال كعب الأحبار، ووهب بن المنبه، ومثل هذه الروايات، والله يقول: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} والعظيم في اللغة يقال للشريف، والكبير {بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} والمفسرون في هذا الموضع يفسرونه بالشريف {بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} وقول ابن عباس هذا الذي ذكره عزاه الواحدي لأكثر المفسرين، لكن مثل هذا لا يقال من جهة الرأي لكنه لا يمكن الحكم برفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا بقيد، وهو أن يكون من رواه لا يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل، فهنا لا نستطيع أن نحكم برفعه، فالله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم -ولّدت عامة أهل دارنا-: أرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عثمان بن طلحة -وقالت مَرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: قال: ((إني كنتُ رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمِّرَهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي))، قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا[٢].

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل -عليه السلام-، فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فُدي به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم.

هذا الدليل سبقت الإشارة إليه في الكلام على هذه المسألة في تحديد الذبيح وأن هذا أوضح دليل في أن الذبيح هو إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، وليس لقائل أن يقول: إن قريشاً قد تكون توارثت شيئاً لا حقيقة له، وإنهم نسبوا ذلك إلى ذلك الذِّبح الذي فدى الله -عز وجل- به إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، فقد أقر به هذا الحديث الثابت الصحيح، فدل على أنه إسماعيل وأنه لا يعرف أن إسحاق -عليه السلام- قد قدم إلى مكة، ولم يكن هناك إلا إسماعيل مع أمه، وذكر هنا جملة من الآثار.

قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس: هو إسماعيل -عليه السلام.

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل -عليه السلام-، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود.

عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبي: هو إسماعيل -عليه السلام-، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أُمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٦٣٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير مسافع: وهو ابن عبد الله الحجبي، فمن رجال مسلم، وهو ثقة، سفيان: هو ابن عيينة".

إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}، يقول الله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك -قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز- فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لكون إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكلٌّ قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله -عز وجل.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل، ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل -عليه السلام-، قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روى ابن جرير عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدّ علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني.

هذا الحديث لا يصح، ولو صح لكان نصاً في هذا الموضوع، وهكذا في قوله: ابن الذبيحين! لا يصح، لا يصح شيء في هذا، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان (٦/٣١٧-٣١٨): " اعْلَمْ أَوَّلًا: أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ بِذَبْحِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، ثُمَّ لَمَّا بَاشَرَ عَمَلَ ذَبْحِهِ امْتِثَالًا لِلْأَمْرِ، فَدَاهُ اللَّهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، هَلْ هُوَ إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ وَقَدْ وَعَدْنَا فِي سُورَةِ الْحِجْرِ، بِأَنَّا نُوَضِّحُ ذَلِكَ بِالْقُرْآنِ فِي

سُورَةِ الصَّافَّات، وَهَذَا وَقْتُ إِنْجَازِ الْوَعْدِ.

اعْلَمْ، وَفَّقَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ، أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَدْ دَلَّ فِي مَوْضِعَيْنِ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ لَا إِسْحَاق، أَحَدهمَا فِي الصَّافَّات، وَالثَّانِي فِي هُود.

أَمَّا دَلَالَةُ آيَاتِ الصَّافَّاتِ عَلَى ذَلِكَ، فَهِيَ وَاضِحَةٌ جِدًّا مِنْ سِيَاقِ الْآيَاتِ، وَإِيضَاحُ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ: **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}** [سورة الصافات:٩٩-١١٠]، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ عَاطِفًا عَلَى الْبِشَارَةِ الْأُولَى: **{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}** [سورة الصافات:١١٢]، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْبِشَارَةَ الْأُولَى شَيْءٌ غَيْرُ الْمُبَشَّرِ بِهِ فِي الثَّانِيَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ حَمْلُ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ: فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ قِصَّةِ ذَبْحِهِ يَقُولُ أَيْضًا: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ، فَهُوَ تَكْرَارٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ يُنَزَّهُ عَنْهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَهُوَ وَاضِحٌ فِي أَنَّ الْغُلَامَ الْمُبَشَّرَ بِهِ أَوَّلًا الَّذِي فُدِيَ بِالذَّبْحِ الْعَظِيمِ هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَنَّ الْبِشَارَةَ بِإِسْحَاقَ نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهَا مُسْتَقِلَّةً بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَدْ أَوْضَحْنَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}** [سورة النحل:٩٧] الْآيَةَ، أَنَّ الْمُقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ: أَنَّ النَّصَّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-، إِذَا احْتَمَلَ التَّأْسِيسَ وَالتَّأْكِيدَ مَعًا وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى التَّأْسِيسِ، وَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى التَّأْكِيدِ، إِلَّا لِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ". ا.هـ.

التأسيس كلام في المعنى، يعني هنا الآن ذكر في هذين الموضعين في الموضع الأول كما ترون: **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}** وما أمر به من ذبحه ثم بعد ذلك قال: **{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}** فلا تكون البشارةُ الأولى البشارةَ الثانية وأن ذلك من قبيل التوكيد؛ لأن التأسيس لمعنى جديد مقدم على التوكيد.

وقال -رحمه الله- في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣١٨/٦): "وَمَعْلُومٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ، فَآيَةُ الصَّافَّاتِ هَذِهِ، دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِلْمُنْصِفِ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ لَا إِسْحَاقُ، وَيُسْتَأْنَسُ لِهَذَا بِأَنَّ الْمَوَاضِعَ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا إِسْحَاقُ يَقِينًا عُبِّرَ عَنْهُ فِي كُلِّهَا بِالْعِلْمِ لَا الْحِلْمِ، وَهَذَا الْغُلَامُ الذَّبِيحُ وَصَفَهُ بِالْحِلْمِ لَا الْعِلْمِ.

وَأَمَّا الْمَوْضِعُ الثَّانِي الدَّالُّ عَلَى ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ فِي سُورَةِ هُود: فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ}** [سورة هود:٧١]؛ لِأَنَّ رُسُلَ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ، وَأَنَّ إِسْحَاقَ يَلِدُ يَعْقُوبَ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُؤْمَرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ، وَهُوَ صَغِيرٌ، وَهُوَ عِنْدَهُ عِلْمٌ يَقِينٌ بِأَنَّهُ يَعِيشُ حَتَّى يَلِدَ يَعْقُوبَ؟!.

فَهَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُنْصِفِ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ دَلَالَةِ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى". ا.هـ.

وقوله: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}، لما تقدمت البشارة بالذبيح -وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي هود والحجر.

وقوله: {نَبِيًّا} حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين.

وهذا يستدل به من يقول: إن الذبيح إسماعيل، فهنا بشره بإسحاق نبياً فلو أمر بذبحه فإن ذلك لا يتفق مع ما بشر به من كونه نبياً فيكون ذلك بعدما يكبر ويكون ذلك عند ولادته، يعني لا تكون نبوته عند ولادته، وإنما هذا يدل على أنه سيعيش حتى يُنبأ.

وقوله: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، كقوله تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة هود:٤٨].

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الصافات:١١٤-١٢٢].

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}** قال الحافظ -رحمه الله-: **من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء،** **{وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}** فالكرب عند بعض المفسرين هو ما كان يقع عليهم، علي بني إسرائيل من الإذلال والمهانة والعذاب الذي يوقعه فرعون على بني إسرائيل، أن هذا هو الكرب يستحيي نساءهم ويذبح أبناءهم، وبعضهم يقول: إن المراد بذلك **{الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}** هو النجاة حينما أغرق الله -عز وجل- فرعون وقومه فبنو إسرائيل جاوزوا البحر، وأغرق الله فرعون ومن معه، والله -تبارك وتعالى- لم يحدد معنى بعينه، وإنما أخبر أنه نجاهم من **{الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}**، ولهذا فإن بعض المحققين من المفسرين كابن جرير ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع- يحمل ذلك على هذه المعاني، فيفسرون الكرب العظيم الذي نجاهم الله -عز وجل- منه بالأمرين، نجاهم من الغرق، حيث أغرق فرعون ومن معه، ونجاهم من الظلم والتسلط الذي كان يوقعه فرعون عليهم، نجاهم من هذا كله، وهذا كله من قبيل: **{الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}** فهو يصدق على هذه الأشياء التي حصلت ووقعت في ذلك الحين، يعني انظر ما بعده **{وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}** يصدق على كون الله -تبارك وتعالى- أغرق فرعون ونجى بني إسرائيل، ويصدق أيضاً على أنه نصرهم عليه بعدما كان يستضعفهم **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ}** [سورة القصص:٥].

ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً} [سورة الأنبياء:٤٨].

هنا {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ} جاء الضمير بصيغة الجمع فذلك هل يرجع إلى موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- ويقال: إن أقل الجمع اثنان، كما في أشهر الحج مثلاً يقال: أشهر الحج وهي شهران وعشرة أيام، ويقال عنها: أشهر الحج {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧]، فعبر بالجمع، وفي قوله تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [سورة النساء:١١]، ويكون هذا النوع من الحجب -الذي هو حجب النقصان- باثنين من الإخوة فما فوق، ولهذا قال في المراقي:

أقلُّ معنى الجمعِ في المشتهرِ *** اثنان عند الإمام الحميري

يعني عند الإمام مالك -رحمه الله- وهذا لا يختص بالإمام مالك، بل قال به جمع حتى من أهل اللغة، فيمكن أن يكون ذُكرت باعتبار أقل الجمع، أو يكون للتعظيم {وَنَجَّيْنَاهُمَا} يعني موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يرجع ذلك {وَنَصَرْنَاهُمْ} يرجع إلى موسى وهارون ومن معهم من قومهم، قوله: إنه يرجع إلى موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- قال به بعض المفسرين، ولكن القول بذلك يرجع إليهما وإلى قومهما فعبر بالجمع لهذا "ونصرناهم" هذا الذي اختاره ابن جرير والفراء وجماعة أنه يرجع إليهما وإلى قومهما، {وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} ثم رجع وقال: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} فيكون النصر قد حصل لهم لموسى وهارون -عليهما السلام- ولقومهم.

وقال هاهنا: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} أي: في الأقوال والأفعال.

فالكتاب المستبين هو التوراة.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ} أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: {سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

تقدم الكلام على قوله: {سَلامٌ} وتقدير ذلك، وهل هو مفسِّرٌ ما قبله الذي تركه الله -عز وجل- عليهم {فِي الآخِرِينَ}؟ قول من قال: الذكر الجميل، وقول من قال: {سَلامٌ} بينهما ملازمة، وأن ذلك جميعاً مما تركه الله -عز وجل- عليهم.

{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الصافات:١٢٣-١٣٢].

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك.

{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} القول بأنه إدريس تؤيده قراءة مروية عن ابن مسعود -رضي الله عنه- والأعمش {وإن إدريس} يعني هذا الذي حملهم على القول بأن "إِلْيَاسَ" هو إدريس، وإلا فإن الاسم يختلف، فإلياس غير إدريس، لكن جاء في هذه القراءة {وإن إدريس} ففسروه بهذا.

وقال وَهْب بن منَبِّه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

يعني هو من نسل هارون من أنبياء بني إسرائيل وأنه غير إدريس -عليه السلام-، وإدريس كان قبلُ، قبلَ موسى وهارون، بل وقبل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وبعض المؤرخين يقولون: كان قبل نوح -صلى الله عليه وسلم- والعلم عند الله -عز وجل-، وقيل بأن الأهرام الموجودة في مصر الذي بناها إدريس -عليه الصلاة والسلام-، وأنه كان قبل نوح وكانت قبل الطوفان، وأنها لو كانت بعد الطوفان لعرف من بناها، وعرف تاريخها بالبعثة الفرنسية، أو حملة نابليون كان معهم ١٤٦ من علماء الآثار جاءوا في سفينة، وهؤلاء هم الذين أظهروا مثل هذه الثقافة، ونبشوا عن الأشياء ونقبوا عنها ثم أخرجوا للناس هذه الأقاويل والدعاوى الكثيرة وهذا كذا وهذا الفراعنة، وأهل العلم ذكروا أنهم فتحوا بعض الأهرام ورأوا التوابيت ورأوا ما في داخلها.

بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل -عليهما السلام-، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: "بعل"، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب -عليه السلام-، فأُمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبْه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

مثل هذا لا يعول عليه.

{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ} أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟.

{أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي: {بَعْلا} يعني: ربا.

قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن، وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أزد شنوءة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: "بعلبك"، غربي دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

قوله: {أَتَدْعُونَ بَعْلا} بعضهم يقول: إن هذا صنم، وبعضهم يقول: امرأة، وبعضهم يقول غير ذلك، والقول بأنه صنم أو أنه بمعنى الرب كما في لغة أهل اليمن بينهما ملازمة كما قال النحاس: فإن هذا المعبود من دون الله -تبارك وتعالى- جعلوه رباً فهذا الصنم الذي عبدوه {أَتَدْعُونَ بَعْلا} جعلوه رباً فصرفوا له العبادة فمن قال: إنه الرب ومن قال: إنه صنم فإن بين القولين ملازمة، وابن جرير -رحمه الله- ذكر أن العرب تقول للرب: بعلاً، تسميه بعلاً، ومن هنا يقولون للزوج: بعل، هذا بعل المرأة يعني أنه سيدها وربها، الرب بمعنى السيد، عرفنا في الأسماء الحسنى أن الرب يأتي لمعانٍ منها السيد، وهكذا يقولون: بعل الدار يعني رب الدار، ولا زال الناس إلى اليوم يقولون للزرع الذي يستقل بالمطر من غير سقي: بعل، كما في الشام ونجد،

فيزرعون القمح مثلاً على المطر في الأماكن التي -في وقت نزول المطر- يتوقعون فيها نزول الأمطار فيزرعون القمح فيخرج من غير سقي، وإنما يكون ذلك على المطر فيقولون له: بعل، يقصدون العَثَرِيّ من الزرع.

وقوله: {أَتَدْعُونَ بَعْلا} **أي: أتعبدون صنما؟** {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} **أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.**

قال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} **أي للعذاب يوم الحساب.**

قوله: {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ} القراءة بنصب لفظ الجلالة على أنه بدل أو عطف بيان {اللهَ} أو أنه نصب على المدح، وفي القراءة الأخرى المتواترة وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع وعاصم بالرفع {اللهُ} فيكون مبتدأ أو خبراً لمبتدأ مرفوع مقدر محذوف أي هو الله.

{إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} **أي: الموحدين منهم، وهذا استثناء منقطع من مثبت.**

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} يعني أي للعذاب يوم الحساب، والإحضار إذا ذكر على سبيل الإطلاق فإن ذلك يكون مخصوصاً بالشر يعني أنهم محضرون للعذاب.

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}، {الْمُخْلِصِينَ} قال: **أي الموحدين منهم**، هو فيه قراءتان متواترتان، فتح اللام، وكسر اللام، قال: {فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يكون الاستثناء منقطعاً، {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} وبين القراءتين ملازمة فإن إخلاصهم سبب لخلاصهم، وقد مضى هذا في مواضع قوله -تبارك وتعالى- عن يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [سورة يوسف:٢٤]، و{الْمُخْلِصِينَ} قراءتان متواترتان، فالإخلاص سبب للخلاص في الدنيا والآخرة.

وقوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ} **أي: ثناء جميلا.**

{سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} **كما يقال في إسماعيل: إسماعين.**

هنا "ثناءً جميلاً"، والسلام كما سبق تَركَ عليه السلامَ والثناءَ الجميل، وفي قوله: {سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} قراءة أخرى لنافع وابن عامر.

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء، وطور سينين، وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ.

يعني هذا بمعنى أن {إِلْ يَاسِينَ} هو المذكور قبله {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ}، فإلياس هو إلياسين وأن العرب تتصرف بهذه الأشياء الأعجمية ويقولون هنا: القرآن نزل على معهودهم في الخطاب كما في إبراهام، وإبراهيم وما ذكر معه، فالشاهد أن هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن إلياس هو إلياسين، ومما يدل على هذا أن الله -تبارك وتعالى- بعد الأنبياء الذين ذُكروا قبله كان يسلم عليهم في الآخر {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:٧٩] {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} وهكذا قالوا: هذا كالذي قبله {سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} هو

نفس النبي المذكور قبل ذلك، يذكر الله خبره ثم بعد ذلك يذكر التسليم عليه وليس {إِلْ يَاسِينَ} غير إلياس، فهذا فيه هاتان القراءتان المتواترتان، وكل ذلك يراد به إلياس وأنه هو الذي وقع عليه التسليم لكنه اسم أعجمي، والعرب كما يقول بعض أهل العلم: تتصرف في الأسماء الأعجمية، ولهذا قال صاحب كتاب "الصاحبي" وغيره : "أعجمي فالعب به"، يقصدون اللفظ الأعجمي من الأسماء أنهم يتصرفون بها وأن العرب حينما تتكلم بالأسماء الأعجمية فإنها تتصرف بها بما يتفق مع فطرتها اللغوية ولا يلوون ألسنتهم بالأعجمية كما يفعل بعض المتكلمين اليوم الذين يظنون أن ذلك اليوم هو الكمال والحكمة والحذق، وإنما كان يثقل على ألسنة العرب النطق بالأعجمي ولا يبالون بالتصرف به، وذكرت لكم حينها في تلك المناسبات بعض الأمثلة المتنوعة، وبعض ذلك مما يمكن أن يعبر به اليوم عن أسماء الأشياء والآلات وما إلى ذلك، وبعض الناس يتبسم إذا سمع مثل هذا قد غير بعض الشيء، ويظن أن هذا من الجهل وما علم أن الجهل هو أهله وأولى به؛ حيث يلوي لسانه بالعجمة حتى يصير أكثر عجمة من الأعجمي، فالقاعدة عند العرب: أعجمي فالعب به، فيغيرون فيها ويتلاعبون فيها، ذكرها جمع من علماء اللغة، وكما ذكرتُ صاحب "الصاحبي" وابن جني وغير هؤلاء فيتلاعبون بهذه الأسماء، وإلياس وإلياسين بعضهم يقول: كل هذا شيء واحد، وبعضهم يقول: إن الياسين {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} أراد به قومه، ولهذا فإن بعض أهل اللغة يقول: إن ذلك يراد به القوم وإنهم يسمون ويُنسَبون إلى الرجل العظيم منهم وإن لم يكونوا من نسله، فإنهم ينسبون إلى العظيم كما يقول الأخفش وإن لم يكونوا من نسله، ينسبون إلى الواحد المعظم عند العرب فينسب إليه القوم وإن لم يكونوا من ذريته ونسله، وهذا معروف عند العرب، فيقولون مثلاً: المهالبة نسبة إلى المهلب، المهالبة وإن لم يكونوا من نسل المهلب، -والله المستعان-، فيقولون هنا: إنه سمي كل رجل منهم بإل ياسين، وإن لم يكن من نسله -عليه الصلاة والسلام- {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم قال: يرجع إليه وأراد أن يدخل قومه معه، فدخلوا في اسمه، وبعضهم يقول: إن هذا أصله إلياسيين نسبة إلى إلياس في أنه حذفت الياء كما حذفت في الأشعرين ونحو ذلك، وكما سبق -والله تعالى أعلم- {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} أنه إلياس وأن التسليم في أواخر الآيات السابقة كان يقع على النبي المذكور فهذا كذلك -والله تعالى أعلم-، ويحتمل أنه يرجع إليه وإلى أتباعه، وأما قول من قال: إن المراد النبي -صلى الله عليه وسلم- آل ياسين، آل محمد -عليه الصلاة والسلام- فهذا بعيد، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرد له ذكر بهذه الآيات كما ترون، وابن القيم -رحمه الله- له تفصيل في هذا، وذكر ضابطاً جيداً مفيداً يمكن الرجوع إليه فقال -رحمه الله-: "وأما قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} فهذه فيها قراءتان إحداهما إلياسين بوزن إسماعيل وفيه وجهان:

أحدهما: أنه اسم ثانٍ للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل.

والوجه الثاني: أنه جمع وفيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع إلياس وأصله إلياسيين بياءين كعبرانيين ثم خففت إحدى الياءين فقيل إلياسين، والمراد أتباعه كما حكى سيبويه: الأشعرون ومثله الأعجمون.

والثاني: أنه جمع إلياس محذوف الياء.

والقراءة الثانية سلام على آل ياسين وفيه أوجه:

أحدها: أن ياسين اسم لأبيه فأضيف إليه الآل كما يقال: آل إبراهيم.

والثاني: أن آل ياسين هو إلياس نفسه فيكون آل مضافة إلى ياسين والمراد بالآل ياسين نفسه كما ذكر الأولون.

والثالث: أنه على حذف ياء النسب فيقال ياسين وأصله ياسيين كما تقدم، وآلهُم أتباعهم على دينهم

والرابع: أن ياسين هو القرآن وآله هم أهل القرآن.

والخامس: أنه النبي وآله أقاربه وأتباعه كما سيأتي.

وهذه الأقوال كلها ضعيفة، والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى ياسين واسمه إلياس، وإلياسين، ورأوها في المصحف مفصولة، وقد قرأها بعض القراء آل ياسين فقال طائفة منهم: له أسماء ياسين وإلياسين وإلياس، وقالت طائفة: ياسين اسم لغيره ثم اختلفوا فقال الكلبي: ياسين محمد، سلم الله على آله، وقالت طائفة: هو القرآن، وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه، والصواب -والله أعلم- في ذلك أن أصل الكلمة آل إلياسين كآل إبراهيم فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال، ودلالة الاسم على موضع المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال، ولهذا لا يحذفون النون من إني وأني وكأني ولكني ولا يحذفونها من ليتني ولما كانت اللام في لعل شبيهة بالنون حذفوا النون معها ولاسيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له، فيقولون مرة إلياسين ومرة إلياس ومرة ياسين وربما قالوا ياس، ويكون على إحدى القراءتين قد وقع على المسلم عليه، وعلى القراءة الأخرى على آله، وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل: أن الآل إن أفرد دخل فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: **{أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [سورة غافر:٤٦] ولا ريب في دخوله في آله هنا وقوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ}** [سورة الأعراف:١٣٠] ونظائره.

وقول النبي: ((اللهم صل على آل أبي أوفى))[٣]، ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك وقوله: ((اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم))[٤]، هذه أكثر روايات البخاري، وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعل هذا مراد من قال: آل الرجل نفسه

وأما إن ذكر الرجل ثم ذكر آله لم يدخل فيهم، ففرق بين المجرد، والمقرون، فإذا قلت أعطِ لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلا في آله، وإذا قلت أعطه لآل زيد تناول زيداً وآله، وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع وهي أن اللفظ تختلف دلالته بالتجريد والاقتران كالفقير والمسكين هما صنفان إذا قرن بينهما، وصنف واحد إذا أفرد كل منهما؛ ولهذا كانا في الزكاة صنفين وفي الكفارات صنف واحد، وكالإيمان

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، برقم (١٤٢٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، برقم (١٠٧٨).

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {يزفون} النَّسَلانُ في المشي، برقم (٣١٩٠)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، برقم (٤٠٥).

والإسلام، والبر والتقوى، والفحشاء والمنكر، والفسوق والعصيان، ونظائر ذلك كثيرة ولاسيما في القرآن"[٥].

وقوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} قد تقدم تفسيره.

{وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٣-١٣٨].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط -عليه السلام- أنه بعثه إلى قومه.

فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله.

إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها.

فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلّتهم من الأرض بُحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}** فإن هذا اللفظ من الأضداد من جهة المعنى، وذلك أنه يقال للذاهبين والباقين، وبعضهم قال: **{إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}** أي الباقين في العذاب، وبعضهم قال: **{إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}** أي: الهالكين الذاهبين، ويمكن الحمل على المعنيين في مثل هذا المقام، وأن المقصود بذلك -والله تعالى أعلم- أنها ذاهبة وباقية يعني أنها بقيت في العذاب، وهلكت وذهبت في جملة من ذهب، وأن هذا كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** [سورة التكوير:١٧] بمعنى أقبل وأدبر، ونظائر هذا من المعاني المتضادة التي يمكن حمل اللفظ عليها، **{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}** [سورة القلم:٢٠]، يعني سوداء محترقة أو بيضاء لا شيء فيها، وهذا كله لا إشكال فيه أنه قد ذهب منها ما كان فيها من الزرع لم يبقَ منه شيء، فمن قال: إنها بيضاء يعني ليس فيها زرع ومن قال: سوداء يقصد أنها احترقت، فكان ذلك يرجع إلى شيء أو إلى معنى واحد -والله أعلم-، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ}** [سورة الحجر:٧٦] مضى الكلام على هذا وأن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير بذلك إلى البحر الميت، وهي البحيرة المنتنة، وبعض المؤرخين والمفسرين يقول: هذا كان موضع قرى قوم لوط -عليه السلام- تحولت إلى هذه البحيرة المنتنة، وهذا لا يثبت بدليل قطعي فيما أعلم، وإنما يذكره بعض المؤرخين، وذلك لو صح فإنه يمكن أن يقال معه بأنه لا يصح أن ينتفع بشيء من منتجات البحر الميت، وقد كثرت في هذه السنوات، بل الاستشفاء هناك وتقام وحدات ومنتجعات وعيادات يزعمون أنهم يتداوون بذلك من أنواع العلل، فإذا كان هذا موضع قرى قوم لوط فإنه لا يصح قصد ذلك والتداوي به أو تعاطي هذه المنتجات سواء كان بأكل أو غيره، لكن هذا يحتاج إلى إثبات، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

---

٥ - جلاء الأفهام، لابن القيم (٢٠٧-٢٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (١٣٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: **{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}** [سورة الصافات:١٣٩-١٤٨].

قد تقدمت قصة يونس -عليه السلام- في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى))[1].

وقوله: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} قال ابن عباس: هو المُوقَر، أي: المملوء بالأمتعة.

{فَسَاهَمَ} أي: قارع {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} أي: المغلوبين.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أصل الإيباق يقال: للهرب من السيد، يقال: عبدٌ أَبَقَ يعني قد فر من سيده، وذلك أن يونس -صلى الله عليه وسلم- لما كان خروجه بغير إذن ربه -تبارك وتعالى- قيل له ذلك، قيل له: أبق {إِذْ أَبَقَ} فوُصف بهذا، وبعضهم يقول: إن معنى {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} ذهب إليه، {إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} هذا قاله بعض أصحاب المعاني كالمبرد وهو من أئمة اللغة، وكأنه أراد أن يخفف العبارة، يعني كلمة أبق والخروج عن طاعة السيد والفرار منه، فالذي عليه عامة المفسرين أنهم يقولون: المراد أنه خرج بغير إذن ربه -تبارك وتعالى- إذ لم يأذن له بالخروج لما أوشك العذاب أن ينزل بهؤلاء ووعدهم يوماً معيناً ثم بعد ذلك خرج وتركهم مغاضباً لهم قبل أن يأذن الله له، هذا الذي يقوله عامة المفسرين، {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}، والفلك: مضى الكلام على هذا بأنها السفن وتقال للواحدة وللجمع، قال: {فَسَاهَمَ} أي: **قارع**، هذه الفلك أوشكت على الغرق فأجروا قرعة فكان ذلك يخرج في سهمه، يعني أنه يُلقَى في البحر، ساهم، فأصل المساهمة هي المغالبة وهي الاقتراع من إجالة السهام، فالقرعة يقال لها مساهمة، قال: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} قال: **أي المغلوبين**، وأصل

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين}، برقم (٣٢٣٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس -عليه السلام- وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى، برقم (٢٣٧٦).

الدحض هو الزلق عن مكان الظفر، هكذا يفسره أهل العلم، {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} دحض: زلق تزل به الأقدام، ودحض: مزلة تزل بها الأقدام {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} فيكون الزلق عن مقام الظفر هنا بمعنى أنه كان من المغلوبين في المساهمة، يعني خرج السهم الذي يكون فيه الإلقاء في البحر في نصيبه، وكما يقول ابن جرير -رحمه الله- أصله الزلق يعني في الماء، مأخوذ من الزلق في الماء والطين {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}.

وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس -عليه الصلاة والسلام- ثلاث مرات.

معروف أن القرعة تكون في الحقوق المتساوية، فمَن الأوْلى أن يلقى في البحر؟ هذا يحتاج إلى قرعة.

وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك.

يعني يتمسكون به، شحّ به أو ضن بما في يده يعني أمسكه ولم يفرط فيه.

فهم لا يريدون أن يلقى، يرون فضله.

وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم، يونس -عليه السلام-، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظماً.

حوت من البحر الأخضر هذا لم يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في شيء كأنه متلقى في بني إسرائيل، ومثل ذلك لا يصدق، إنما كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٢]، والمقصود بالبحر الأخضر يعني الأزرق، فالعرب تسمي الأزرق: أخضر، ولا زال هذا إلى اليوم، وتجد في كلام العامة الآن يقولون: صاحب القبة الخضراء بعض الناس يظن أنهم يقصدون النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن هذا إذا كان في بيئة لا تعرف هذه الأشياء لا تعرف الشرك والدعاء ونحو ذلك، يعني تجد هذا في قلب "نجد" عندنا يقولون: "أفوض أمري إلى القبة الخضراء"، يقصدون بذلك السماء، لكن لو قيل هذا في بيئة خرافية يقصدون به النبي -صلى الله عليه وسلم- اللون الأخضر الذي هو لون القبة التي على قبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد أن العرب تقول للأزرق أخضر، أزرق يقولون: أخضر!، وفي ألوان الناس الأخضر، ليس السواد الشديد، السواد الخفيف، السمرة يقولون: أخضر، أخضر سمرة مثل أهل السودان يقولون: أخضر، وإذا كان مثل الأفارقة يقولون: أزرق، هذا في اصطلاح خاص.

فجاء ذلك الحوت وألقى يونس -عليه السلام-، نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها، ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: "يا رب، اتخذتُ لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس"،

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل، برقم (٣٦٦٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٠١٣٠)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن عمرو -وهو ابن علقمة الليثي- فهو حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، أبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣١٣١).

واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة، وقيل جُمعة قاله جعفر الصادق، وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

وقال مُجَاهد، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك.

كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء:٨٢] مثل هذه الروايات إنما تُلقِّين عن بني إسرائيل، وكتبهم قد حرفت فتجد فيها مثل هذا الذي لا يمكن أن تجمع بينه ثلاثة أيام وبين أربعين يوماً، أو في يوم واحد هذا كله لا يعول عليه، وهذا الذي حصل يعد من المعجزات؛ لأنه إذا ابتلعه الحوت فكيف له بالنفس؟ كيف يتنفس؟ كيف يبقى؟ يختنق ويموت أليس كذلك؟ فهذه معجزة هذا أمر خارق للعادة، وإلا فالإنسان إذا ابتلعه الحوت ولو لم يهشم له لحماً ولم يكسر له عظماً فإنه يموت في بطنه، إذا دخل الإنسان الحوت هل سيجد غرفة فارغة في داخل بطن الحوت؟ ستلتصق عليه أحشاؤه لا يوجد موضع للنفس.

وقوله: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء، قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

لاحظْ هذا معنى جيد وفيه لطيفة، وذلك أن من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} يعني في الزمن الماضي فنفعه ذلك في وقت الشدة فنجاه الله -عز وجل- من هذا الكرب، ولكن هذا المعنى وإن كان بهذه المنزلة إلا أن الآية تحتمل معنى آخر، قد يكون هو الراجح {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} يعني في بطن الحوت؛ لأنه كما أخبر الله -تبارك وتعالى- عنه أنه كان يقول: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧]، فكان يردد هذا، فهذا الذي يفسر قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} يعني حينما كان في بطن الحوت، فإذا كان على هذا المعنى فإنه يدل على أن التسبيح يكون سبباً للخلاص من الكروب والشدائد والمحن، فهذا أيضاً معنى عظيم لا يقل عن الأول، فإذا كان المعنى الأول صحيحاً دلّ عليه: تعرفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، لكن لا يكون هو تفسير الآية، وإن كانت تحتمله، والمعنى الثاني أن التسبيح حال الفتنة والمحنة والشدة، والكرب يكون سبباً للفرج والخلاص، فمن ابتلي بشدة فعليه التسبيح، والله المستعان.

وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك -إن صح الخبر-، وفي حديث عن ابن عباس: ((تَعَرفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة))[٣].

وقيل: المراد: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} هو قوله: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧-٨٨].

القاعدة أن يأتي بالحكم الخاص ثم يعقبه بالحكم العام ليعم ذلك غيره، فهذا لا يختص بيونس -عليه الصلاة والسلام-، قوله -تبارك وتعالى-: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٨٠٣)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٢٩٦١).

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧-٨٨]، فدل ذلك على أن الإيمان أيضاً سبب للنجاة، {وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}، ولكن هذا كما يذكر في هذه المجالس وفي غيرها مراراً أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه {وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} فالوصف الإيمان، والحكم هو الإنجاء، فتكون النجاة بقدر الإيمان، يحصل لأهل الإيمان من النجاة والخلاص بقدر إيمانهم، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق:٣] يعني كافيه، فهذا يقال فيه كما سبق: الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، على قدر التوكل تكون كفاية الله -عز وجل- للعبد، ولا يقول قائل: إن الناس قد يتوكلون ويحصل لهم المكروه! يقال: لا، هذا يتوقف على تحقق الشرط وانتفاء المانع، فإن ذنوب العباد تكون سبباً لما يقع لهم من المصائب والآلام كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [سورة آل عمران:١٦٥]، {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [سورة النساء:٧٩] قال: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ} [سورة آل عمران:١٦٦-١٦٧] قد يكون ذلك ابتلاءً يحصل به رفع الدرجات ويكون خيراً لهم ورفعة مثلما يذكر؛ لأنه يشكل على بعض الناس، يسألون عن هذا ويظنون أن وعد الله -تبارك وتعالى- يتخلف، وهذا من سوء الظن بالله -عز وجل.

قاله سعيد بن جبير وغيره.

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك -ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "أن يونس النبي -صلى الله عليه وسلم- حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيده غريبة، فقال -جل وعلا-: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال الله: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أوَلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجِّيه في البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعرَاء"[٤].

يعني هذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر**، ويقصد أن هذا يقيد القول الذي اختاره ابن جرير وقال به الضحاك، وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير هؤلاء من أن ذلك كان في الزمن الماضي فنفعه في وقت الشدة، ولك أيضاً لو نظرت إلى هذا الأثر على فرض صحته فإنك ستجد فيه أنه حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧] القرآن يدل على هذا أيضاً أنه قال ذلك في بطن الحوت، فلولا أنه كان من المسبحين، فهذا التسبيح حينما كان في بطن الحوت، لكن لو قال قائل: إن هذا التسبيح أطلقه الله -تبارك وتعالى- فيدخل فيه دخولاً أولياً ما ذكره الله -تبارك وتعالى- من قيله {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} يعني في بطن الحوت، وإن ذلك يصدق على ما كان في

---

٤ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٩/٢١).

الزمن الماضي من صلاته وتسبيحه وذكره لربه وعبادته إياه فنفعه ذلك، ولا شك أن العبادة في الزمن الماضي تكون سبباً للتخليص من الكروب، كما يدل عليه: تعرفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، فهذا أيضاً معنى دل عليه الدليل، فإذا أردنا أن نجري عليه ما يذكره أهل العلم من أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة وأن هذا أولى من الترجيح، فلو قال قائل: إن ذلك جميعاً داخل في معنى الآية: إنه كان من المسبحين حينما كان في بطن الحوت وله أيضاً معهود وتاريخ في هذا، كان يعرف ربه -تبارك وتعالى- قبل ذلك يكون هذا له وجه حسن كما ترون، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ} أي: ألقيناه {بِالْعَرَاء} قال ابن عباس، وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء.

{وَهُوَ سَقِيمٌ} أي: ضعيف البدن.

قال هنا: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ}، وفي سورة القلم: {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء} [سورة القلم:٤٩]، وهو ماذا؟ {وَهُوَ مَذْمُومٌ}، قال: {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ} يعني أنه قد فعل ما يستحق عليه الذم، قال في القلم: {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}، وهنا قال الله -تبارك وتعالى-: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ} وليس هناك تعارض، فهنا أثبت أنه مريض، وهذا يشعر أنه بقي في بطن الحوت مدة، والثانية {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ} لولا حرف امتناع لوجود، فلولا وجود هذه النعمة التي تداركه الله -عز وجل- بها {لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ} إذاً لم يحصل ذلك لوجود النعمة، لم يحصل له النبذ بهذا الوصف، لم يحصل له النبذ بالعراء مقترناً بهذا الوصف، {وَهُوَ مَذْمُومٌ} لوجود النعمة التي تداركه الله -عز وجل- بها، فهذا لم يحصل؛ لأن الله أنعم عليه، لكن المثبت أنه نبذ بالعراء وهو سقيم يعني أثبت وصفاً ونفى آخر.

وهنا {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}، هناك {لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}، وهنا {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} يقول: ألامَ الرجلُ إذا أتى بما يلام عليه، اللوم، تقول: ما الذي حملك على هذا؟ لماذا فعلت هذا؟ واللوم غير الذم، يعني {وَهُوَ مَذْمُومٌ} إذا أتى بما يلام عليه وإن لم يحصل له لوم، يعني وإن لم يلمه أحد، مليم، يعني قد جاء بما يلام عليه وإن لم يلمه على ذلك أحد في الواقع، فهذا بالنسبة للوم، فأثبته هنا حال التقام الحوت له {وَهُوَ مُلِيمٌ} جاء بما يستحق عليه اللوم، وإن لم يلمه أحد على هذا لكن حينما نبذ بالعراء كان سقيماً {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ} من الله -تبارك وتعالى- عليه {لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ} لكنه لم ينبذ بهذه الصفة، فصار عندنا ثلاثة أشياء حال التقام الحوت جاء بما يستحق عليه اللوم، لمّا نبذ بالعراء كان سقيماً، ولولا نعمة الله عليه {لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}.

{وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ} قال ابن مسعود، وابن عباس -رضي الله عنهم-، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف وعبد الله بن طاوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخرساني وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب،

وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا.

قال الله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ} الذي عليه عامة المفسرين أن اليقطين هو القرع المعروف، وذكر فوائد لهذه الشجرة، سرعة النبات وسعة مساحة الورق، فهو بحاجة إلى ظل، وشجرة سريعة الامتداد، بحاجة إلى ثمرٍ لا يتعب في صنعه وطهيه، ويكون مفيداً لمثل حالته هذه، فهذا الورق يستتر به من الشمس، ويستتر به أيضاً حيث لا لباس، وهو بحاجة إلى هذا الثمر لإصلاح بدنه، فهذا هو المشهور أنه القرع، وبعضهم يقول: كل شجرة ليس لها ساق يقال لها: يقطين، وهذا اختاره ابن جرير -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف، ومن بعدهم كالحسن ومقاتل وغير هؤلاء، وبعضهم يعبر عن هذا يقول: كل شجرٍ يموت من عامه فهو يقطين، فيدخل في هذا أشجار تموت في عامها، كالحبحب، يموت في عامه، شجر ليس له ساق أيضاً الحبحب والبطيخ كثير من أشجار الخضروات ونحو ذلك تكون بهذه المثابة، فبعض أهل العلم كابن جرير يقول: مالا ساق له فإنه يقطين ولا يختص هذا بالقرع، فالقرع نوع منه، يعني القرع يقال له: يقطين، ولكن المعنى أوسع من هذا، هكذا اختار كبير المفسرين أبو جعفر -رحمه الله.

وقد ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من نواحي الصَّحْفَة.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} كأن الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وقوله: {أَوْ يَزِيدُونَ} وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف، رواه ابن أبي حاتم.

هؤلاء {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} كأن الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه، يعني أنهم نفس القوم الذين خرج عنهم، وبعض أهل العلم يقول غير ذلك، بعضهم يقول: أرسل إلى آخرين غير هؤلاء، يقولون: إن يونس -عليه الصلاة والسلام- وعدهم وقتاً للعذاب ثم خرج، هكذا يقولون، وهذا كله مبناه على روايات إسرائيلية، يقولون: خرج منهم وهو ينتظر نزول العذاب في الوقت المحدد فلما كانوا يرقبونه ويقولون: إن خرج فإن العذاب نازل بكم وقد صدقكم، فلما رأوه خرج خرجوا وفرقوا بين النساء والصبيان والرجال والنساء، واجتمعوا يتضرعون إلى الله -عز وجل- ويدعونه ويبتهلون ويبكون فذلك قوله -تبارك وتعالى- كما يقولون: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} [سورة يونس:٩٨]، فكانت هذه حالة تعتبر استثناء في الأمم أن عذاب الله -عز وجل- إذا نزل فإنه لا مرد له، فهؤلاء رفع الله عنهم العذاب بعدما رأوا أمارات العذاب، يقولون: فلما لم ينزل بهم العذاب خشي أن يكون هؤلاء قد كذّبوه، أنه لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم بنزوله وأنه قال: إنه لا يرجع إليهم، فيكون مكذَّباً عندهم، فالحاصل أن بعضهم يقول: إن الله أرسله إلى {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، والعلم عند الله -عز وجل-، ويحتمل أن يكون هؤلاء هم الذين خرج منهم، ويحتمل أنه أرسله إلى آخرين، وكأن السياق يشعر أنه أرسله إلى آخرين {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} كأنه إرسال جديد غير الأول، قال: {أَوْ يَزِيدُونَ} **قال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف**، لكن هذا كله لا دليل عليه.

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

ولذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [سورة البقرة:٧٤]، وقوله: {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]، وقوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [سورة النجم:٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

الكلام الذي يحوم حوله الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ونقل به كلام ابن جرير هو في "أو" هذه أنها إذا حملت على أصل معناها فإنها تكون للشك، لمثل هذا السياق، وهذا لا يخلو من إشكال؛ ولهذا فإن من أهل العلم من فسرها في هذا الموضع بالواو، و"أو" تأتي بمعنى الواو، وتأتي لعدة معانٍ منها: التخيير، ومنها: الإضراب يعني أنها تكون بمعنى بل، فمن قال: إنها بمعنى الواو {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} يعني ويزيدون على ذلك، وهذا لا إشكال فيه إذا فسرت بالواو، وكلام ابن جرير الذي نقله هنا لا إشكال فيه، المعنى الثاني: أنها بمعنى "بل" التي هي للإضراب هذا الذي قاله الفراء، وهو مسبوق إلى هذا، سبقه إليه مقاتل والكلبي، بل يزيدون، وعلى هذا التفسير لا إشكال، يأتي المعنى الثالث الذي أشار إليه ابن جرير وقال به بعض أهل البصرة هو من يقصد بهذا؟ أهل البصرة أمثال الزجاج والأخفش والمبرد: أنها على أصلها بمعنى {أَوْ يَزِيدُونَ} يعني الشك، فإذا جعلت بهذا المعنى {أَوْ يَزِيدُونَ} الإشكال أن هذا من كلام الله -عز وجل-، والله -تبارك وتعالى- يعلم عددهم أحصاهم بدقة، هنا أورد نظائرَ هذا الحافظُ ابن كثير -رحمه الله- كقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [سورة البقرة:٧٤] والله يعلم حالهم تماماً، وقد قيل هناك في آية البقرة: بل أشد قسوة، والمعني الذي يشير إليه ابن جرير وقال به هؤلاء من أهل المعاني وغيرهم معنى لا إشكال فيه، وذلك أن القرآن يرد فيه الخطاب مُراعًى فيه حال المخاطب، حال السامع وهذا له صور متعددة ذكرت في دروس قواعد التفسير، ذكرت عدة صور، ذكرت هناك أنه قد يأتي التعبير حسب اعتقاد المتكلم وله أمثلة، وقد يأتي بحسب نظر يراعى فيه المخاطب {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [سورة الحجر:٦] هم ما يعتقدون أنه نزل عليه الذكر إنما هو بحسب زعمك، وهكذا على أحد القولين في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} [سورة هود:٧٨]، اعتقادك وزعمك على أحد القولين في الآية، لكن فيما يتعلق بـــ "أو" ما ورد في أو في الآية إذا قلنا: إنها بمعنى الشك فهو نوع وهو بحسب نظر المخاطب بحسب تصوره، قال الله -تبارك وتعالى- لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، والله يعلم أنه لن يتذكر ولا يخشى، وهذا في "لعل" إذا فسرت بمعنى الترجي فهذا نوع منه، أنه يرد الخطاب مراعًى فيه حال المخاطب {لَّعَلَّهُ} وليس الكلام في "أو" هنا في هذا المثال {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، وهكذا في كل المواضع التي وردت فيها "لعل" التي تفسر بالترجي وذلك في عامة القرآن، عند من فسرها بذلك يعني مالم يفسرها بالتعليل أنها تفيد التعليل، فكيف يقع الترجي في كتاب الله إن كان ذلك صادراً منه -تبارك وتعالى-، يعني الخطاب؟ قال: بحسب نظر المخاطب، روعي فيه حال المخاطب، {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [سورة طه:١١٣]، فالله يعلم هل يتقون أو لا يتقون هل يحدث لهم الذكر أو لا يحدث لهم ذلك، وهنا: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} فلا إشكال في هذا بهذا الاعتبار أنه بحسب نظركم، بحسب نظر الناظر إليه، من نظر إليهم يقول: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} فيكون خرج هذا المخرج مراعًى فيه حال السامع أو حال المخاطب، من نظر إليهم

يقول: {مِائَةِ أَلْفٍ} إذا رآهم الرائي {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]، {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [سورة النجم:٩]، فقوله: {أَوْ أَدْنَى} يعني بل أدنى، أو تفسر بمعنى الواو، لكن إذا كانت بالمعنى الذي ذكره ابن جرير فيكون ذلك بحسب نظركم، فإذا نظر الناظر يقول: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} وإلا فالله يعلم لا يخفى عليه شيء، فإذا فهمتَ هذه القاعدة وهذا الأصل انحلت عنك جميع الإشكالات التي تكون من هذا القبيل، والصور الداخلة تحته، كل صورة تحتها أمثلة.

وقوله: {فَآمَنُوا} أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس -عليه السلام- جميعهم، {فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: {فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [سورة يونس:٩٨].

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} [سورة الصافات:١٤٩-١٦٠].

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات -سبحانه- ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يَودّون لأنفسهم الجيد، {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [سورة النحل:٥٨] أي: يسوءه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: {فَاسْتَفْتِهِمْ} أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} كقوله: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم:٢١-٢٢].

وقوله: {أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ} أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:١٩] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ} أي: من كذبهم {لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ} أي: صدر منه الولد {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا -تعالى وتقدس-، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله -تعالى وتقدس-، وكل منها كافٍ في التخليد في نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} أي: أيّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا} [سورة الإسراء:٤٠]؛ ولهذا قال: {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟.

{أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ} أي: حجة على ما تقولونه.

{فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب مُنزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوّزه العقل بالكلية.

وقوله: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله، فسأل أبو بكر -رضي الله عنه-: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن.

قوله في قوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}: إن الملائكة بنات الله قال به عامة المفسرين، قالوا: قصدوا بذلك الملائكة {بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ} يعني قالوا: الملائكة بنات الله، والملائكة كيف وصفوا أو سموا بهذا {الْجِنَّةِ}؟ بعضهم قال: يجتنون يعني يستترون لا يُرون فكل ما يجتن كالجنة؛ لأنها تغطي ما بداخلها، والجنين؛ لأنه مستور في البطن، والجن؛ لأنهم لا يُرون، فالملائكة؛ لأنها لا تُرى قيل لها ذلك، وبعضهم كمجاهد يقول: إن {الْجِنَّةِ} هم بطن من الملائكة، صنف من الملائكة، يقال له: {الْجِنَّةِ}، وبعضهم يقول: هم خزان على الجنان، وكل هذا لا دليل عليه، يعني هذا التخصيص أنه بطن من الملائكة وخزان على الجنان، وبعضهم كقتادة يقول: إنهم زعموا أن الله -تبارك وتعالى- صاهر سروات الجن فكان الملائكة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فقتادة والكلبي يقولان: إن الذين قالوا هذا اليهود، والمعروف أن الذين قالوا ذلك هم المشركون، وبعضهم يقول: الذين قالوه كنانة وخزاعة من العرب، وهذا قال به جماعة كمجاهد والسدي ومقاتل، وبعضهم ذهب إلى معنى أبعد من هذا كله كقول الحسن: إن المقصود بالنسب أنهم عبدوا مع الله -تبارك وتعالى- الشياطين والجن فجعلوهم شركاء لله -جل جلاله- فهذا هو النسب {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} جعلوهم آلهة وشركاء معه، وهذا بعيد، والله تعالى أعلم، على كل حال المشهور {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} قالوا: الملائكة، هذا الذي عليه أكثر المفسرين وبعضهم كما سمعتم يقول: {الْجِنَّةُ} يعني الجن وأن الله صاهرهم، تعالى الله عن قول الكافرين علواً كبيراً.

وكذا قال قتادة، وابن زيد، ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ} أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: {إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

الضمير في قوله: {إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} يحتمل أنه يرجع على الذين قالو ذلك {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} والإحضار بعضهم يقول للحساب، وكما سبق أن من أهل العلم من يقول: إن الإحضار في كتاب الله -تبارك وتعالى- أو على الأقل في هذه السورة هو بمعنى العذاب، {لَمُحْضَرُونَ} يعني في العذاب، {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} يعني في العذاب، يعني هؤلاء الذين افتروا هذه الفرية وقالوها، وبعضهم يقول: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} الضمير يرجع إلى أقرب مذكور {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} يعني للحساب، أن الجن علموا عن أنفسهم أنهم سيحضرون للحساب فكيف يكون بينهم وبين الله -تبارك وتعالى- نسب؟!، وابن جرير اختار الأول {إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} الذين قالوا ذلك، وهو الذي قاله أكثر المفسرين، أن الضمير يرجع إلى المفترين؛ لأن هذا يدل عليه السياق هنا، ما حملنا الضمير على أقرب مذكور، {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} فيكون هذا إجراء على قاعدة أخرى وهي توحيد مرجع الضمائر، وأنه أولى من تفريقها، توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، والله المستعان.

وقوله: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به

الظالمون الملحدون علوا كبيرا.

وقوله: {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: {عَمَّا يَصِفُونَ} عائداً إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل.

فيكون استثناء متصلاً على هذا الاعتبار، لكن المشهور أنه استثناء منقطع {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}، {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} يعني هؤلاء الذين نسبوا له البنات {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}، لكن {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} ليسوا كذلك، فإذا كان ذلك لا يعود إلى هؤلاء {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} يعني عما يصفه الواصفون عموماً من عموم الناس ليس هؤلاء فقط الذين نسبوا إليه الصاحبة والولد، فيكون {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يكون استثناء من عموم الناس، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} فيه قراءتان بالفتح على اللام وبالكسر كما سبق في بعض نظائره {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} و{إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} فيدخل في ذلك الرسل وأهل الإيمان وأتباع الرسل.

{فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الصافات:١٦١-١٧٠].

يقول تعالى مخاطبا للمشركين {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُرئ للنار، {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩]، فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [سورة الذاريات:٨-٩] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ} "ما" هذه تحتمل أن تكون موصولة، أي والذي تَعبُدون، وتحتمل أن تكون مصدريه، فإنكم وعبادتكم، {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} يعني أن مثل هذه المعبودات أو هذه العبادة، وأنتم معها لستم بفاتنين إلا من سبق له في علم الله -عز وجل-، وفي قضائه الذي قضى، وقدره الذي قدره أنه من أهل الشقاء، قضى عليه ذلك في الأزل أنه من أهل الشقاء، وإلا فإن هذه الأصنام والأوثان وحال هؤلاء الذين يعبدونها حيث ألغيت العقول التي أكرم الله -عز وجل- الإنسان وميزه بها فانحطت هذا الانحطاط وسفلت هذا السفول، هؤلاء لا يفتنون أحداً إلا من هو صال الجحيم، وقل مثل هذا اليوم في ألوان الضلالات التي يضل بها من يضل، فهذا معنى كبير، ومثل هذا قوله -تبارك وتعالى- عن وحي الشياطين -شياطين الإنس والجن-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٢-١١٣] فهذا إنما

تصغي إليه القلوب المريضة التي تؤثر الباطل على الحق فأولائك كالجعلان يدفع بأنفه النتن، وتقتله الروائح الطيبة، -نسأل الله العافية- هذا حال كثير من الخلق، واعتبر هذا بما تشاهده اليوم عبر هذه الوسائل في الاتصال وفي غيرها تجد للفتن من يتقحمها -نسأل الله العافية- يتقلبون في أهوائهم ويتمرغون ظهراً لبطن ويتشربون الشبهات والضلالات والأهواء ويبحثون عنها يجرون وراءها ويقرءون ما يكتب في هذا، وما ينشر، ثم ما يلبث الواحد منهم أن يفتن في دينه -نسأل الله العافية- وفي إيمانه فينتكس ويبقى في قلبه ريب وشك فهذا لا يمكن أن يكون عليه حال أهل الإيمان الذين عرفوا الله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته وعظموه التعظيم اللائق، {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ}، ولهذا قال الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨] هؤلاء الذين انحرفوا وضلوا والذين ارتدوا على أدبارهم كل هؤلاء لا يستحقون أن تتأسف عليهم، وأن تحزن عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، والله عليم حكيم، وإلا فشأن هذه الأشياء التي هي باطل وضلالة أنها لا تفتن من كان من أهل اليقين والإيمان الراسخ والبصائر في الدين، إنما تفتن الذين عندهم ضعف وشك، أو وهن ومرض في قلوبهم.

ثم قال تعالى مُنزهاً للملائكة مما نَسَبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} أي: له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وقال الضحاك في تفسيره: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} قال: كان مسروق يَرْوِي عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم))[٥]، فذلك قوله: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}.

يعني المعنى الأول: {مَقَامٌ مَعْلُومٌ} يعني أن جبريل قاله للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما توقف ليلة المعراج، عنده حد لم يتجاوزه.

والمعنى الثاني: له مقام معلوم في العبادة يقومه، فما من موضع إلا فيه ملك قائم أو ساجد، فلهم مواضع يتعبدون الله -تبارك وتعالى- بها في السماء.

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} وكذا قال سعيد بن جبير.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} أي: نقف صفوفًا في الطاعة، كما تقدم عند قوله: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا}.

يعني هنا يقول: **قال الضحاك في تفسيره {وَمَا مِنَّا} قال: كان مسروق يروي عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجدٌ أو قائم))[٦]**، فذلك

---

٥ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن جابر بن عبد الله، برقم (١٧٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص، برقم (٣٧٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٥٩)، ولم أجده من حديث عائشة -رضي الله عنها.

٦ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن جابر بن عبد الله، برقم (١٧٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص، برقم (٣٧٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٥٩)، ولم أجده من حديث عائشة -رضي

قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ} إن كان قوله، وذلك قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا} وليس من قول عائشة، ليس من قبيل المدرج فيكون هذا من التفسير النبوي الذي صرح فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- بالآية، فهذا لا يعدل عنه بحال من الأحوال، لا يكون فهماً من المفسر من الصحابي أو من غيره فيكون على هذا {إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ} يعني موضعاً يتعبد الله -عز وجل- فيه.

وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياما، يريد الله بكم هَدي الملائكة، ثم يقول: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر -رضي الله عنه-، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

هذا لو ثبت عن عمر -رضي الله عنه- فهو يدل على أن ما يقوله الإمام قبل تكبيرة الإحرام وبعد الإقامة ليس بتوقيف، يعني أنه لا يكون مقيداً بما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من الألفاظ والعبارات، وأبو نَضرة من التابعين ما أدرك عمر -رضي الله تعالى عنه.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وتربتها طهورا))[٧]، الحديث.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وبعضهم فسر قوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} بالمصلين، فالصلاة يقال لها: تسبيح، ويقال: تسبيحة الضحى، وهكذا فسرت مواضع من كتاب الله -عز وجل- بالصلاة حيث ذكر التسبيح في بعض المواضع، وبعضهم فسره بهما أي مسبحون من التنزيه -التسبيح المعروف- وأيضاً الصلاة.

وقوله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا} [سورة فاطر:٤٢]، وقال: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [سورة الأنعام:١٥٦-١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم -عز وجل- وتكذيبهم رسوله -صلى الله عليه وسلم.

التقدير: فجاءهم محمد فكفروا به، يعني الله -تبارك وتعالى- هنا يقول: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} يعني فجاءهم محمد -صلى الله

الله عنها.

٧ - رواه مسلم، في بداية كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٢).

عليه وسلم- {فَكَفَرُوا بِهِ} ولاحظْ هنا بعدما قال: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ} يكون الضمير رجع إلى غير مذكور لكنه يفهم من السياق، وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وهو معروف في كلام العرب، ومنه في القرآن من أوضح الأمثلة: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١] أنزلناه فالهاء الضمير يرجع إلى غير مذكور لكنه يفهم من السياق يعني أنزلنا القرآن.

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نزلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} [سورة الصافات:١٧١-١٧٩].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة المجادلة:٢١]، وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [سورة غافر:٥١]؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} أي: في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجّى عباده المؤمنين.

{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} أي: تكون لهم العاقبة.

الغلبة هنا {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا} يعني {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} كتب ذلك في الأزل، كتبه في اللوح المحفوظ، فكلمته -تبارك وتعالى- هي ما قضاه وقدره في الأزل قال: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} النصر والغلبة هنا بعض أهل العلم يحمله على الغلبة بالحجة والبرهان، وهذا الذي ذهب إليه جمعٌ من المفسرين كابن جرير -رحمه الله- وجماعة، وكأن الذي حملهم على هذا -والله تبارك وتعالى أعلم- أن من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من لم يؤمن به أحد، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يأتي النبي يوم القيامة معه الرجل ويأتي النبي ومعه الرجلان، ويأتي النبي ومعه الرهط، ويأتي النبي وليس معه أحد))[٨]، فهذا الذي ليس معه أحد هل يقال: إنه انتصر وغلب؟ هذا بالإضافة إلى أن بعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قُتل، والذي قتل يكون مغلوباً بدليل قوله الله -تبارك وتعالى-: {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤]، فجعل المقتول مقابلا للغالب، يُقتَل أو يغلب، قالوا في المقتول مغلوب فكيف قال الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}؟ قالوا: بالحجة والبرهان والبيان وهذا قول، وذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، والقول الآخر وهو أن الغلبة تشمل الحجة والبيان، والغلبة أيضاً بالسيف والسنان ميدان المعركة، وهذا الذي يدل عليه القرآن -عامة المواضع-، وإذا تردد المعنى بين احتمالين انظر للغالب في الاستعمال في القرآن {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [سورة البقرة:٢٤٩]، والآيات التي فيها الغلبة كقوله: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}، وكذلك {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ} [سورة الروم:١-٢] إلى غير هذا، ومحمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- مثلاً في عدد من المواضع يجمع الآيات التي فيها ذكر الغلبة ثم يقرر بأن الغالب في ذلك هو بمعنى الغلبة في ميدان المعركة، ولهذا يقول: إن الآية محمولة على المعنيين الغلبة بالحجة والبرهان،

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب من لم يَرقِ، برقم (٥٤٢٠).

والغلبة بالسيف والسنان، إذا تقرر هذا فيرِد السؤال على هذا القول إذا كان الغلبة بالسيف والسنان فبعض الأنبياء قتل والمسلمون هزموا يوم أحد فما الجواب؟ الجواب أن دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- واحدة، والله قال: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الأعراف:١٢٨]، ولما ذكر الله -عز وجل- عيسى -صلى الله عليه وسلم- قال: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، مع أن أتباع المسيح -عليه السلام- كانوا مستضعفين من قبل اليهود ثم بعد ذلك نحو ثلاثمائة سنة لما دخل قسطنطين في النصرانية بوثنيته وأفسدها، وأقرت عقيدة التثليث في الواقعة المشهورة المجمع الذي عقد لهذا في نيقيا، وصار أهل التوحيد مستضعفين في ممالك الروم فلم يكن لهم ظهور وغلبة في المعنى المعروف، كانوا مستضعفين، والله -عز وجل- يقول: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} [سورة الصف:١٤]، يعني {الَّذِينَ آمَنُوا} بعيسى -صلى الله عليه وسلم- {عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} فهذا الظهور يقصد به بعضهم يقول: {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} أصبح النصارى ظاهرين على اليهود، وهذا ما عرف إلا بعدما دخل قسطنطين، لكن قسطنطين أدخل الوثنية وأدخل النصرانية في وثنيته، فبعض أهل العلم كابن القيم -رحمه الله- يقول: لما كان النصارى عندهم شائبة من اتباع المسيح وإن كان عندهم ضلال وانحراف وشرك إلا أنهم كانوا أقرب إلى المسيح من اليهود الذين قالوا: ابن زانية، فكان لهم هذا الظهور باعتبار قربهم من المسيح، أقرب من اليهود، وبعض أهل العلم يقول -ولعله أقرب -والله أعلم-: إن هذا الظهور لم يكن إلا ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فحصل لليهود ما حصل من إجلاء وقتل وأسر، {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف:١٤] فالمقصود أن العبرة بالعاقبة، ليست العبرة بنقص البدايات، وإنما بكمال النهايات، فدعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- واحدة فتكون العاقبة لهم، وكما جاء في حديث هرقل لما سأل أبا سفيان عن الحرب بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "يُدال علينا مرة ونُدال عليه مرة"، قال: هكذا الرسل، ثم ذكر لهم بالنهاية العاقبة والغلبة، فكون النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً والصحابة -رضي الله عنهم- هزموا يوم أحد ومعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا لا يشكل على هذا الموضع، وإنما العبرة بالنهاية، وأنت حينما تقرأ ما وقع في يوم أحد والتفاصيل في كتب السيرة التي تذكر التفاصيل ومن قُتل من الصحابة، وما قيل في ذلك المقام ونحو ذلك كأنك تشاهد تلك الواقعة، ويقع الحزن في قلب الإنسان وينسى نفسه وكأنه يعيش معهم في نفس الحدث، لكن حينما ينظر إلى هذه الواقعة ويخرج من هذا النظر في محيطها ينظر إلى ما بعد ذلك من دخول هؤلاء وبعض هؤلاء في الإسلام، فأبو سفيان مَن قاتل المرتدين، وابنه صار أمير المؤمنين، والحارث بن هشام أسلم وحسن إسلامه، وقل مثل ذلك في عكرمة وخالد بن الوليد، صاروا من خيار أهل العلم صاروا يقاتلون ويذبون عن هذا الدين ويجاهدون في سبيل الله -تبارك وتعالى- فليست العبرة بهذا الذي وقع في يوم أحد إنما العبرة في كمال النهايات، فهذه محطة ومرحلة لكن العبرة كما يقول الناس -سواء من الأطباء أو من غيرهم في أي مجال من المجالات- في الانحدار والارتفاع، تجد في قول النبي -صلى الله

عليه وسلم- مثلاً: ((لا يأتي على الناس زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم))[٩]، يعني خط الانحدار في الرسم البياني لكنه متعرج ففي بعض المواضع تجد فيه ارتفاعاً في المؤشر، ثم بعد ذلك الانحدار، وهذا الارتفاع في المؤشر لا يؤثر على مسار هذا، والله المستعان، الانحدار لا يؤثر فيه، وقل مثل ذلك في الأحوال والأشياء الكثيرة الداخلة في هذا المعنى، والإنسان الذي يرتقي وإيمانه –المؤمن- وموفق في الارتقاء قد يحصل له في الرسم البياني في بعض المواضع فتور ولكن يبقى المؤشر في ارتفاع فهذا هو الصحيح، لا يخلو الإنسان من فتور لا يخلو من خطأ لا يخلو من تقصير، لكن يكون إلى ارتفاع، لكن المشكلة من يكون في انحدار وإن حصل له من نتوءات وارتفاع قليل في بعض المواضع لكنها في النهاية غير مؤثرة، فهو إلى الحضيض، هذا في معاني الأمور وفي غيرها.

وقوله -جل وعلا-: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر.

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} قال بعضهم في الحين: انتظر إلي وقت مؤجل، وبعضهم يقول: إلى مدة الكف عن القتال، وبعضهم يقول: حتى نأمرك بالقتال، فهذه من آيات الصفح والإعراض إلى آخره التي كانت في مرحلة الضعف، حتى نأمرك بالقتال، وبعضهم يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف، كل آية فيها إعراض وصفح وكف ونحو ذلك هي منسوخة، والواقع أنها لم تنسخ، نقول: نسخت مائة وأربع وعشرون آية، والواقع أنها ليست منسوخة إنما لأحوال القوة والظهور، ففي حال الظهور أحكام وأحوال القوة والظهور، ولأحوال الضعف أحكام أخرى، وبعضهم يقول: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} يعني إلى حين الموت كما يقول قتادة، وبعضهم يقول: إلى بدر وما يقع بهم من الهزيمة والقتل والأسر، وبعضهم يقول: فتح مكة، وأحسن من هذا ما قاله ابن جرير -رحمه الله-: تولّ عنهم حتى حين يعني إلى وقت مجيء عذابنا ونزوله بهم.

وقوله: {وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} أي: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، ثم قال -عز وجل-: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة.

قال الله تعالى: {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} أي: فإذا نزل العذاب بمحلّتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم.

ذكر الصباح {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} بعضهم يقول: لأن العذاب ينزل بهم في الصباح، أن دابر هؤلاء مقطوع في الصباح {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ} [سورة الحجر:٦٦]، وهكذا في أصحاب الجنة {أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} [سورة القلم:١٧]، وهكذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنا إذا نزلنا بساحة قوم {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}))[١٠]، في قصة خيبر، لما دخل خيبر -عليه الصلاة والسلام-.

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٦٦٥٧).

١٠ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم (٣٩٦٢)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، برقم

قال السدي: {فَإِذَا نزلَ بِسَاحَتِهِمْ} يعني: بدارهم، {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} أي: فبئس ما يصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث عن أنس -رضي الله عنه-، قال: صَبَّح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيبر، فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين))[11]، ورواه البخاري.

الخميس يعني الجيش.

يعني هم خرجوا على عاداتهم، خرج الفلاحون بمساحيهم، ومعاولهم فرأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- والجيش فرجعوا وهم يقولون: محمد والخميس.

وقوله: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:١٨٠-١٨٢].

في قوله -تبارك وتعالى- ثانية: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، يقول: تأكيد لما تقدم أنه ذكره قبل ذلك، قال: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} هذا عذاب في الدنيا {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، بعضهم يقول: هذا عذاب الآخرة، وعليه فلا يكون توكيداً، وبعضهم يذهب إلى هذا باعتبار أن التأسيس مقدم على التوكيد، ومن قال: إنه كالأول يقول: هذا من باب التوكيد.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون -تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوا كبيرا-ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}، أي: ذي العزة التي لا ترام، {عَمَّا يَصِفُونَ} أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين.

رب العزة أي صاحب العزة، والعزة ليست مخلوقة، وإنما هي صفة من صفاته،

{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقِّيته.

{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا سلمتم عليَّ

(١٣٦٥).

١١ - هو الحديث المتقدم.

فسلموا على المرسلين، فأنا رسول من المرسلين))[١٢]، هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

قتادة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا مرسل.

قال أبو محمد البغوي في تفسيره عن علي -رضي الله عنه- قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

هذا روي مرفوعاً وموقوفاً ولكنه لم يصح، وكفارة المجلس تعرفون ما صح فيها.

وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وقد أفردت لها جزءًا على حدة، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى.

آخر تفسير سورة الصافات.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} السلام هنا يحتمل أن يكون بمعنى التحية، الله يسلم عليهم، وهذا قال به جماعة من المفسرين، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى السلامة لهم من الآفات والمكاره ومما يكون أيضاً من فزع يوم القيامة، سلامة لهم من المخاوف والمكاره، وقد ذكر الله -عز وجل- ما وقع للكافرين والمكذبين وما توعدهم به فيكون هنا قد أمّن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وسلمهم من المخاوف والمكاره في الدنيا والآخرة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} ولو نظرتم في كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فيما يتعلق بالسلام عليكم –التحية- هل هي خبر أو دعاء حينما نلقي عليهم هذا الاسم اسم الله -عز وجل-، ومضمون كلامه في النهاية يرجع إلى أن ذلك يراد به هذا وهذا، فهو إخبار وهو في الوقت نفسه يتضمن دعاءً لهم بالسلامة.

تم بحمد الله وفضله.

١٢ - رواه ابن جرير في تفسيره (٢١/١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣٢٣٤)، برقم (١٨٣٢٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ص من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [سورة ص:١-٣].

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة "البقرة" بما أغنى عن إعادته هاهنا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمضى في سورة البقرة وفي غيرها أن هذه الحروف على الأرجح لا معنى لها في نفسها، وتأتي الإشارة بعدها غالباً إلى القرآن، الأمر الذي يشعر أن ذلك يشير إلى الإعجاز، أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، ونحن نقول لكل معترض على القرآن مشكك فيه مستهزئ: بيننا وبينك هذا التحدي، أن تأتي بسورة من مثله ولو بأقصر السور، فإن عجز فهو مكابر أفاك، وللأسف تجد اليوم من يلبس على الناس ويشكك في هذا القرآن، ويُدخل من الاعتراضات والشبهات والأباطيل والأكاذيب ما هو ظاهر لكل من أعطاه الله -عز وجل- بصراً في الدين، ولكن قد يخفى ذلك على بعض من لا يعرف من العلم شيئاً، ولا بصر له ولا بصيرة، فيفتن بذلك من شاء الله فتنته، ومثل هذا لو أن هؤلاء رجعوا إلى هذا الأصل إن لم يكونوا يعرفون الجواب، فقالوا لمثل هؤلاء الأفاكين اليوم الذين قد وضعوا لأنفسهم مواقع في الشبكة يصطادون فيها بعض الأغرار، فأجابوهم بهذا الجواب: بيننا وبينكم هذا التحدي فأتوا بمثله، وما كان يُظن أن أحداً يُخدع بمثل هؤلاء أو يغتر بهم، فإلى الله المشتكى، والله المستعان.

قبل يومين لقيت بعض الشباب الصغار في أولى ثانوي، ذكروا لي أن عندهم بعض الشبهات، فظننت أن الأمر قد يقتضي بالكثير نصف ساعة، وإذا معهم أوراق كثيرة، فجلست معهم من بعد صلاة العصر إلى إقامة صلاة العشاء، جلسة واحدة لا نخرج إلا للإقامة، ونظرت في هذه الشبهات التي يذكرونها وقد زلزلت إيمانهم، وأوشك بعضهم أن يُلحد، وإذا هي شبهات لا قيمة لها إطلاقاً، ويمكن أن يجاب عنها بإجابات علمية مفصلة من وجوه كثيرة، يكفي واحد منها لاقتلاع هذه الشبهة من جذورها وأساسها، ولكن هؤلاء شباب صغار ينظرون ويتتبعون هذه المواقع المتعفنة، ثم بعد ذلك تعلق هذه الشبهات في قلوبهم ولا يستطيعون الخروج منها، يشككهم في أصل القرآن وفيمن تكلم بالقرآن، وفيمن جاء بالقرآن -عليه الصلاة والسلام-، وبالله وبالوحي وبالرسالة، وبالرسول والكتاب المنزل، ثم للأسف تجد هذه الشبهات من يصغي إليها ويفتن

بها، فالحاصل كنت أذكر لهم الجواب المفصل والجواب المجمل، وبعد الإجابة على ما عندهم أسألهم أقول لهم: ترون أن هذه تستحق الوقوف عندها؟ يقولون: لا، إذاً ما الذي تحتاجون إليه؟ قالوا: نحتاج إلى العلم، وهكذا بعد كل شبهة، فلما انتهينا، قلت لهم: حينما أتيتم كيف كنتم ترون هذا؟ قالوا: قد لُبس علينا في أصل الدين، قلت لهم: والآن كيف ترون هذه الأشياء؟ قالوا: ساقطة، قلت: ما الذي تحتاجون إليه إذاً؟ قالوا: نحتاج إلى العلم، قلت: العلم مثل الكشاف يقوى ويضعف، يقوى حتى يكون كالشمس يبدد هذه الظلمات، ويضعف، ولكن الإنسان لا يشعر بضعف بصيرته، مثل الإنسان الذي يبقى في مكان لربما يعتم قليلاً وهو لا يشعر ويقرأ، فإذا أضيء له مصباح قوي أبصر وقال: أين كنتُ؟ كنت أقرأ في مكانٍ الإضاءة فيه ضعيفة جداً، لكن كان يظن أن الوضع طبيعي، إذا كنت تقرأ في مكانٍ الإضاءة ليست بتلك، فجاء من أوقد لك مصباحاً قوياً رأيت الفرق في الكتاب، وفيما تقرأ، فالبصائر هكذا، فهذا التحدي بالقرآن قائم، فكل الكذابين وكل الملاعين الذين يشككون بالقرآن بيننا وبينهم هذا، أن يأتوا بسورة من مثله، فإن جاءوا بها صاروا أضحوكة أمام العالم، "والطاحنات طحنا، فالعاجنات عجنا، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً" عند ذلك يُعرف قدرهم ويعرف مكانهم، فهذا يشكك في قصص القرآن، ويشكك ويطعن ويضرب القرآن بعضه ببعض في أشياء لا قيمة لها، ولا يمكن أن ينطلي ذلك إلا على أجهل الجاهلين، وللأسف أنها تروج، ذكروا لي أسماء أول مرة أسمع بها، ويقولون: تروج، ويتتبعونها ويبحثون عن هذه الإشكالات والشبهات، فقلت لهم: إلى يومي هذا ما قرأت في كتاب فيه شبه ولا استمعت إلى مناظرة بين محق ومبطل، ولا تتبعت شيئاً من هذا، فالسلف ينأون بأنفسهم ويحذرون، وأنتم تبحثون عن هذه الضلالات والشبهات ثم بعد ذلك تطلبون الخلاص، هذا الذي يطلب الخلاص، هذا غير الذي يأتي يتفلسف ويريد أن يناقش، وأنا لا أجلس معهم أصلاً، وأقول: اذهب إلى شاك مثلك جادله، فبعضهم لا يريد أن يسأل، فهؤلاء الذين أتى بهم اشترطت أن يكون هؤلاء يطلبون الحق، وأنهم مسترشدون، فسألهم وأعاد عليهم، قالوا: نعم، فجاءوا بهذه الصفة، لكن هناك من يتفلسف، ويقول: أريد أن أناقش، أريد أن أحاور، مثل هؤلاء العلاج معهم عراجين عمر، حتى يذهب ما برءوسهم، والله المستعان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة "ص" من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً} إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامة ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير "ص" وبسورة "ق" غير حرفها، وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم"[1].

وقوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد.

---

١ - بدائع الفوائد، لابن القيم (١٧٤/٣).

قال الضحاك في قوله تعالى: {ذِي الذِّكْرِ} كقوله تعالى: {لَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ} [سورة الأنبياء:١٠] **أي: تذكيركم، وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير.**

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي: {ذِي الذِّكْرِ} ذي الشرف أي: ذي الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، فقوله: {ذِي الذِّكْرِ} قال: أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، وعلى هذا: الذكر هنا اسم مصدر، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} يعني: أنه مشتمل على التذكير فيما يكون فيه صلاح العباد وفلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة، اسم مصدر بمعنى التذكير.

المعنى الثاني الذي ذكره جماعة: أنه ذو الشرف، فالذكر هو الشرف، وهذان المعنيان في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤]، ذكر لك ولقومك، يعني: أنه تذكير، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [سورة ق:٣٧]، والمعنى الثاني: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} أي: شرف لك ولقومك، فهذان المعنيان صحيحان، والجمهور قالوا بالأول، ذكر: تذكير، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} يعني بمعنى التذكير.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: **ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار**، فجمع بين المعنيين، وهذا من أحسن ما يكون، وإلى هذا ذهب الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والمعنيان إذا كانت الآية تحتملهما ويمكن أن تُحمل عليهما من غير مانع فإنها تحمل على هذه المعاني جميعاً، فالقرآن ذي الذكر فيه تذكير، وهو أيضاً بمعنى الشرف والمكانة، {ذِي الذِّكْرِ} ذي الشرف والشأن والمكانة، والله تعالى أعلم.

جواب هذا القسم هو قوله تعالى: {إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ}، وقال قتادة: جوابه: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} واختاره ابن جرير.

هذان القولان باعتبار أن الجواب مذكور، والذين قالوا: إن الجواب مذكور افترقت أقوالهم، ومن هذه الأقوال هذان القولان هنا، وهنالك أقوال غير ذلك، بعضهم يقول: الجواب "إن ذلك لحق"، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} إن ذلك لحق، لكنه بعيد متأخر، فهذا وإن قال به بعض الأئمة من أصحاب المعاني كالزجاج والكسائي إلا أنه رده آخرون منهم كالفراء، قالوا: هذا متأخر، وجواب القسم لا يكون بهذه الصفة من التأخر والبعد، وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا} كما يقوله ثعلب -رحمه الله-، وهذا أيضاً أيده الفراء، وقد اعترض على القول الذي قبله، هؤلاء جميعاً كما ترون وغير هذه الأقوال، يقولون: إنه مذكور، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- والشنقيطي أطالوا في الكلام على هذا، وذكروا أن الأقوال بأنه مذكور، أنها جميعاً ساقطة، وابن القيم -رحمه الله- رتب هذه الأقوال من جهة الضعف على مراتب، إنه مذكور، يقول: أحسنها كذا لو صح، ثم كذا، ثم كذا، ثم كذا، وأبعدها كذا، ومن أراد المزيد فليراجع كلامه -رحمه الله-، الطائفة الثانية: هم الذين قالوا: الجواب محذوف، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- والشنقيطي من مشاهير المفسرين، وقال به ابن عطية والزمخشري قبله وجماعة، لكنهم أيضاً اختلفوا في تقدير الجواب، فبعضهم

يقول: إن التقدير: {لتبعثن}، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} {لتبعثن}، وأن الله أقسم بالقرآن على وقوع البعث، وهذه السورة كما في الآيات، {بَلِ الَّذِينَ كفرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص:٢-٥] إلى أن قال الله تعالى: {أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [سورة ص:٨] إلى آخر ما ذكر الله من الآيات، فهنا الأشياء المذكورة: قضية الرسول أن يكون من البشر، تعجبوا كيف يكون، وكيف أنزل عليه الذكر من بينهم، وحي وقرآن، وكذلك قضية الوحدانية: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً}، وهكذا قضية البعث بعد ذلك، فهذه قضايا ثلاث، فبعضهم قال: المقسم عليه محذوف، وهو قوله: {لتبعثن}، وبعضهم كابن عطية أطلق وقال: التقدير: ما الأمر كما تزعمون، وأطلقه هكذا: ما الأمر كما يزعم الكفار، والزمخشري يقول: إنه لمعجز، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} إنه لمعجز، وابن القيم يقول: إن القرآن لحق، يعني: كأنه نظر إلى الآيات التي بعدها، {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، فجعلوه ساحراً، جعلوا القرآن سحراً، ولعله أحسن من هذا كله -والله تعالى أعلم- ما ذكره الشنقيطي يقول: الجواب محذوف، ولكن هذا المحذوف حينما نقدره كما يقول ابن عطيه: ما الأمر كما يزعم الكفار، فهم زعموا الأشياء التي جحدوا بها وهي كل هذه الأقوال، وغير هذه الأقوال التي أوردت آنفاً داخلة فيه، أعني: قول من قال: إنه قسم على البعث أو القرآن، أو قضية النبوة أو الوحدانية أو البعث، وحينما نقول: النبوة يدخل في ذلك الوحي؛ لأنها قضايا متلازمة، فيكون هنا التقدير على ما ذكره ابن عطية، ما الأمر كما يزعم الكفار، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، قضية الوحدانية، {أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ}، وهكذا، فتدخل هذه الأشياء فيه، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، ليس الأمر كما تزعمون، ومزاعمهم هي التي أوردها أو ردها بعد ذلك، مثل هؤلاء العلماء رحمهم الله كالحافظ ابن القيم يحتجون على أن الجواب محذوف بقرائن في نفس الآيات، يقولون: لما قال الله -عز وجل-: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} أضرب بعده قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، يعني مثلاً ابن القيم يقول: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} إن القرآن لحق والكفار يعرفون، لكنهم في عزة وشقاق، وكأن ابن القيم أخذ من كون القسم بالقرآن أن المقسم عليه يتعلق به، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، إن القرآن لحق، ثم أضرب عن ذلك قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، إذاً {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، هنا {بَلِ الَّذِينَ كفرُوا}، إذاً القضية ليست كما يقولون، ولكنهم في حال من الاستكبار يمنعهم من الانقياد والقبول والإذعان والإيمان، فهذا الإضراب قالوا: هو الذي يدل على أن الجواب محذوف، {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ}، إذاً هنا شيء يفهم من السياق، يشير إليه، إما لأنه أقسم بالقرآن أو بما ذكر بعده، فابن القيم كأنه نظر إلى أنه أقسم بالقرآن، والشنقيطي نظر إلى الأشياء التي ذكرت وجحدوا بها وأنكروها بعد ذلك، فجعلها داخلة فيه، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم {فِي عِزَّةٍ} أي: استكبار عنه وحمية.

{وَشِقَاقٍ} أي: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ}، العزة تأتي بمعنى الغلبة، والله عزيز غالب، فتكون العزة من مجموع أوصاف يكون بها الغلبة والظهور، وصاحب العزة لا يغالب، هذه العزة بهذا المعنى هذا هو الأصل فيها، فالعزيز الذي لا يغالب، والعرب تقول: من عَز بَزّ، من غلب استلب، من عز بز يعني: من غلب وتمكن بز، ومن غلب استلب، هذا معنى العزة، والله -تبارك وتعالى- أخبر أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين، فهنا قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، فقد يقول قائل: كيف هنا أثبت لهم العزة، والله -عز وجل- يقول: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون:٨]، لما قال المنافق: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} يعني نفسه أنه الأعز، فرد الله عليه. {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ} وتقديم الجار والمجرور هنا يفيد الاختصاص أو الحصر، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، فإذاً هي ليست للمنافقين ولا للكفار، فكيف أثبت هنا العزة للكفار، {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ}؟، العزة هنا ليست بمعنى الغلبة، العزة هناك غير هنا {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، هذه العزة هنا هي العزة التي بمعنى الحمية والأنفة المذمومة التي ترفعوا بها عن الحق، ونفروا منه، ومن الاستجابة له استكباراً بغير حق، فهذا المعنى هو معنى العزة هنا، ليس بمعنى الغلبة؛ ولذلك تجد عبارات المفسرين كهذه التي بين أيديكم، {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ} أي: استكبار عنه وحمية، لم يقل: العزة بمعنى الغلبة؛ لأنها ليست لهم أصلاً، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فهذه العزة هنا بهذا المعنى وهي مذمومة، أما العزة الحقيقية العزة المحمودة هي التي أثبتها الله لأهل الإيمان ونفاها عن الكفار، بل حكم عليهم، فقال: {أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} [سورة المجادلة:٢٠]، هؤلاء أبعد ما يكونون عن العزة، وقال عن أهل الكتاب: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} [سورة البقرة:٦١]، فهؤلاء أبعد ما يكونون عن العزة، لكنهم {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، تقول: فلان أخذته العزة بالإثم، {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ} [سورة البقرة:٢٠٦]، معنى العزة هنا الأنفة والحمية وهذه الأوصاف المرذولة، هذا هو المراد، والله أعلم.

وأصل الشقاق بمعنى المخالفة، كأن أصله أن يكون هذا في شق، وهذا في شق، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ} [سورة الحشر:٤]، شاقّ الله، يعني: كأنه في شق وهذا في شاق، مثل: حادّ، هذا في حد وهذا في حد، المعاداة، هذا في عدوة وهذا في عدوة، هذا أصلها، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى معنى المشقة، بمعنى أن هؤلاء الذين يشاقون يبذلون الجهد ويشْقَوْن ويتعبون ويبذلون كل مستطاع في إبطال الحق، لكن هذا فيه بُعد، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى معنى الشق، كأنهم يشقون الصف، يفرقون بكبرهم وتيههم وعنادهم، فلا يستجيبون مع من يستجيب، وإنما يخالفون ويفارقون، والمشهور هو الأول، في شقاق قال: يعني مخالفة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} أي: من أمة مكذبة.

القرن يطلق على المدة من الزمان، وعلى الجيل، ويطلق على الأمة من الناس، يعني الجيل منهم قرن، وبعضهم يقول: إنه يطلق على مدة معينة مثل مائة سنة، قرن، فهذا اصطلاح، القرن الأول والقرن الثاني والثالث والرابع، لكن قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم))[٢]، هل يعد هذا

---

٢ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٣).

بمائة سنة؟ هذا فيه خلاف وفيه كلام لأهل العلم، فبعضهم يقعد ذلك بمدة أقل من هذا، ولما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد))[٣]، فذكر مائة سنة، فأخذ بعضهم من هذا أن القرن مائة سنة، والقرن يطلق على إطلاقات متنوعة.

{فَنَادَوْا} أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله، وليس ذلك بمجدٍ عنهم شيئاً، كما قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} [سورة الأنبياء:١٢] **أي: يهربون، {لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}** [سورة الأنبياء:١٣].

وغير هذا من الآيات كثير يذكر الله -عز وجل- فيه حال هؤلاء الذين نزل بهم العذاب، حال الأمم حينما ينزل بهم العذاب، ويرون بأس الله -تبارك وتعالى-، ولكن ذلك لا ينفعهم.

روى أبو داود الطيالسي عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله -تبارك وتعالى-: {فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} قال: ليس بحين نداء، ولا نزو ولا فرار[٤].

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: {فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء.

وقال مجاهد: {فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} ليس بحين فرار ولا إجابة؛ ولهذا قال تعالى: {وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله -سبحانه وتعالى- الموفق للصواب.

هذا الذي ذكره آخراً {وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، هذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من المحققين، ومن هؤلاء الشنقيطي، والأقوال التي قبله قريبة منه، يعني: ليس هذا وقت يمكن فيه الخلاص بالتوبة أو الفرار أو اللجوء إلى ما يعتصم به فإن العذاب واقع لا محالة.

والمناص أصله مصدر، ناص ينوص مناصاً، فالمناص مصدر يرجع إلى معنى الفوت والتأخر، {فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} يرجع إلى معنى التأخر، ليس بحين مناص، ليس حيننا حين مناص، فهذا الذي يتأخر هو يبحث عن المخرج، فهذا البحث عن المخرج يكون بالتراجع أو التوقف أو محاولة التجاوز ليتخلص مما هو فيه، ولهذا تجد بعض أهل العلم كالشنقيطي -رحمه الله- من حاول أن يربط المعاني أو بعض المعاني التي ذكرت بهذا الأصل، وهو أنه بمعنى التأخر، فأعادها إليه بطريق أو بآخر، ويمكن أن يراجع كلامه، وهو كلام جيد، وكذلك كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، لكن الكلام إذا كثرت فيه وجوه الإعراب ونحو هذا لا أحب أن أقرأه لئلا يثقل، فيحسن مراجعة مثل هذا، فالشنقيطي يعيده إلى هذا المعنى الذي هو الفوت والتأخر.

{وَلاتَ} هذه بمعنى "ليس"، أصلها "لا" التي هي بمعنى ليس أو مشبهة بليس، "لاتَ" فتكون التاء هذه زيدت عليه، تاء التأنيث، لات، مثل التي تزاد على رُب، فيقال: رُبت، وثُم، وثُمتْ، فمضيتُ ثُمتَ قلت: لا يعنيني،

---

٣ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم، برقم (٢٥٣٧).

٤ - رواه ابن أبي حاتم في الزهد، برقم (٥٢).

ثمت وربت، فهي مشبهة بليس، وهذا الذي اختاره سيبويه، وقال به كثيرون، والاسم فيها مضمر لات حين يعني: ليس حينُنا حين مناص.

وفي الكلام فيها تفاصيل الأشياء التي تدخل عليها، مثل الحين، والساعة، لات ساعة مندم، لات حين مناص، وما أشبه ذلك، فالتاء هذه زائدة تدخل على مثل رُب، ولا، وثُم.

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ * أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَل لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ} [سورة ص:٤-١١].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بشيراً ونذيراً، كما قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [سورة يونس:٢].

يقول تعالى -من البداية- مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهذا هو الأليق بالمقام أن يكون هكذا بشراً، والنسخ مختلفة، والذي يظهر -والله أعلم- أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كان يصحح في الكتاب ويعيد، ويغير، ويبدل، فهذا من جهة، وهناك أشياء هي من قبيل تصرف النساخ، ووقع فيها مثل هذه الفروقات، فهذا الكتاب منه ومنه، يعني يصعب الجزم في كثير من المواضع أن هذا من تصرف النساخ، ولهذا يعمد بعض الذين يحققون الكتاب إلى تلفيق النسخ ثم بعد ذلك يضيفون كل ما وجدوا، ومن ذلك أشياء ابن كثير -رحمه الله- حذفها مثلاً، فيرجعونها مرة أخرى.

وقال -جل وعلا- هنا: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} أي: **بشر مثلهم.**

تعجبهم من بعثة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بشيراً ونذيراً، كيف بعث -صلى الله عليه وسلم- بشيراً ونذيراً يعني مضمن أنه بشر، يعني لو بقيت هكذا ما وجدت عندنا نسخ أخرى فهذا كيف بعثه الله بشيراً ونذيراً، كيف بعثه رسولاً بدلاً من بشيراً ونذيراً، كيف بعثه {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، تعجبهم من بعثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما تعجبوا من بعثه بشيراً ونذيراً، لكن تكون هذه صفة كاشفة، تعجبوا من بعثه -صلى الله عليه وسلم-.

وطالما أنه وجد في النسخ المحققة النسْخ أنه بشر، فهذا هو الأليق بالمقام، تعجبوا من بعثه -صلى الله عليه وسلم- بشراً، {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً}.

وقال -جل وعلا- هنا: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} أي: **بشر مثلهم،** {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً}.

الآيات كثيرة في هذا في تعجبهم واعتراضهم على أن يكون بشراً، وأنه لو شاء الله لأنزل ملائكة، وكذلك ما اقترحه الكفار كفرعون أن يأتي معه الملائكة مقترنين، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي يذكر الله فيها اعتراض الكفار على بعث الرسول بشراً، وأنه لم ينزل ملائكة معه، ورد الله عليهم في مواضع، يعني قال

مثلاً: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [سورة الأنعام:٩]، {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٥]، ولو نزّل عليهم ملكاً لقالوا: لا نستطيع الأخذ عنه، وهذا الملك فيه من الخصائص والصفات وما جبل عليه من طاعة الله مما لا يصلح معه الاقتداء.

أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك -قبحهم الله تعالى- وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربتْهُ قلوبهم، فلما دعاهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}.

عجاب: أي شيء عجيب، وبعض أهل العلم يقول: إن عجاب أبلغ من عجيب، وإن الأبلغ من ذلك عجَّاب، فعندنا عجيب وعجاب وعجَّاب، والمشهور أن عجيب وعجاب أنهما بمعنى واحد.

{أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ} وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم.

المراد بالملأ علية القوم، الكبراء، وقيل لهم ذلك؛ لأنهم يتمالئون على الأمر، أو لأنهم يملئون صدور المجالس، أو غير ذلك مما قيل، الملأ.

قائلين: {امْشُوا} أي: استمروا على دينكم.

قوله: {امْشُوا} **استمروا على دينكم**، وهو معنى قول من قال كابن جرير -رحمه الله-: {امْشُوا} أي بمعنى امضوا على دينكم، اصبروا على دينكم، امضوا فاصبروا على دينكم.

وبعضهم يقول: {أَنِ امْشُوا} يعني المشي المقصود به للنبي -صلى الله عليه وسلم- لما اجتمعوا إليه يطالبونه عند عمه أبي طالب مثلاً بأن يدع دينه، أو يدع سب آلهتهم، ولا يتعرض لدينهم، أو حينما انطلقوا منه لما دعاهم إلى التوحيد في ذلك المجلس قاموا وانطلقوا ونفروا مما قال، قالوا: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ}، فبعضهم فهم منه أن المقصود المشي المعروف والمضي، ولكن الحافظ ابن كثير قال: **أي استمروا على دينكم**، كما تقول لإنسان: امشِ على هذا المَهْيَع، والمهيع الطريق يعني أنت تقول له: استمر على هذا العمل، يعني لا تقصد حقيقة المشي، تقول: امشِ على هذا الأساس، نحن نمشي على هذا، بمعنى، {أَنِ امْشُوا} استمروا.

{وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}.

{وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} كقوله -تبارك وتعالى- عن قيل هؤلاء الكفار: {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا} [سورة الفرقان:٤١-٤٢]، فهم يتواصون بالصبر، ويذكرون أنفسهم به، الصبر على هذا الباطل.

قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد -صلى الله عليه وسلم- من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

وهذا هو المشهور -الذي ذكره ابن جرير- وإن اختلفت فيه عبارات المفسرين، ولكن هذا هو المشهور، {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}، يعني: يريد به الترفع والشرف والرئاسة عليكم، وإن قال بعض المفسرين غير ذلك، {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}، لكنها أقوال بعيدة بالنسبة لهذا القول، ولا حاجة إليها.

روى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل قال: فخشي أبو جهل -لعنه الله- إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية)) ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك عشراً فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا إله إلا الله)) فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} لفظ أبي كريب[٥]، وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي نحوه، وقال الترمذي: حسن.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والحديث فيه ضعف لكنه غير شديد، لكنه جاء بصيغة مختصرة فيها أن ذلك لما اجتمعوا عند أبي طالب، وذكروا له ذلك، وأجابهم -عليه الصلاة والسلام-، لكن باختصار ليس بهذا السياق، فمثل هذا يكون سبباً للنزول، لكن بهذا السياق الرواية ضعيفة.

فهذه الرواية بهذا السياق ضعيفة، لكنه جاء برواية يمكن أن تكون حسنة الإسناد بسياق أقصر من هذا، مختصرة، يعني هذه فيها رجل فيه جهالة، ولم يتابع، قال عنه الحافظ في التقريب: مقبول، يعني: حيث يتابع، ولا متابع له.

وقولهم: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ} أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ} يعني: النصرانية. قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى.

النصرانية هذا قول عامة المفسرين، قول الجمهور، وبعضهم يقول غير ذلك فيما يتصل بالملة الآخرة، لكن هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

---

٥ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/١٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (٣٤١٩)، وقال محققوه: " إسناده ضعيف، عباد بن جعفر -وهو يحيى بن عمارة، جزم بذلك البخاري ويعقوب بن شيبة وابن حبان، ويقال: يحيى بن عباد- لم يروِ عنه غير الأعمش، ولم يوثقه غير ابن حبان، فهو في عداد المجاهيل، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين"، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٤٣٧).

{إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} قال مجاهد وقتادة: كذب.

هنا في قوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ} قال: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا النصارى، هذا يَحتمل أن يكون المراد {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا} يعني: القرآن، ويَحتمل معنى آخر وجيهاً وقويا وهو أنه {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا} يعني: التوحيد في الملة الآخرة، ما سمعنا به في الملة الآخرة، لأنهم قالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، فهم تعجبوا من هذا، ثم بعد ذلك قالوا: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ}، يعني كيف يجعل الآلهة إلهاً واحداً؟!، ولا يقولن قائل: إن الملة الآخرة النصارى وإنهم على التوحيد؛ لأن دينهم استقر على التثليث كما هو معلوم، فالذي أدركه هؤلاء الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من دين النصارى إنما هو الشرك والتثليث، وكأن قول من فسره بالقرآن، {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا} يعني: القرآن أنه حق وأنه من عند الله وحي في الملة الآخرة، باعتبار أن الذي جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- هو التوحيد، فقالوا: القرآن، المقصود القرآن، وحتى هذا لو أردنا أن نقول: جاءت البشارة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في نفس الإنجيل، وأن الله -عز وجل- ينزل عليه كتاباً لا يغسله الماء، يقرؤه نائماً ويقظانَ.

فلو قال قائل: إن المراد بقوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ} يعني: التوحيد لكان أقرب، والله تعالى أعلم.

{إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} قال مجاهد وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

قوله: {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} هل المقصود بالاختلاق {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} يعني القرآن، أو المقصود به ما قاله وما جاء به من التوحيد؟ {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ}، {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي}، كيف أنزل عليه الذكر؟ كأن القائل بأن {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} يعني: القرآن؛ لأنه قال بعده: {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي}، الذكر هو القرآن، وإذا كان كذلك فيمكن أن تكون هذه قرينة للقائل بأن ما قبله أيضاً في القرآن، وهذا يقول به ابن جرير -رحمه الله- {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} يعني: القرآن، أنه مختلق ومفترى، كما قال الله -عز وجل- في مواضع من كتابه عن قولهم، {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفرقان:٥]، والله أعلم.

وقولهم: {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: {لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} قال الله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}.

وفي قوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} بالنظر إلى ما قبله وما بعده، هم تعجبوا {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، الآن تعجبوا أن يكون الرسول من البشر، وقالوا: ساحر كذاب، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، هذا مضمون ما جاء به وهو التوحيد، أيضاً أنكروه، {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ}، فالمذكور قبله {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا}، هذا الذي استنكفوه، وقبله {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ}، لكن هذا لا يقال -والله أعلم-: إنه المراد بقوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ}؛ لأن الملة الآخرة النصرانية والذي جاءهم عيسى -صلى الله عليه وسلم- وهو من البشر، والمشركون ما كانوا يعتقدون أنه

إله، أو أنه ابن الله، {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} يعني: ما هذا، "إن" هذه نافية، ما هذا إلا اختلاق، {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا}، لاحظ في البداية {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا}، ثم قال: {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}، يعني كما قال الله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [سورة الزخرف:٣٢] يعني: النبوة، {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، لما قالوا: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [سورة الزخرف:٣١]، مكة والطائف، {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}، فالشاهد أن قوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي}، إذاً قوله: {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا} إنكار للرسول كيف يكون من البشر، وإنكار للرسالة والوحي الذي هو القرآن، {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}، فيشمل ذلك، فيكون {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} دعوى الرسالة، وما في مضامينها من الوحدانية، وما أوحي إليه من القرآن، {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}، كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} [سورة الفرقان:٥]، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ}، إفك، وهذا اختلاق.

قال تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [سورة الزخرف:٣٢]، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله تعالى ونقمته، سيعلمون غب ما قالوا، وما كذبوا به يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعّا.

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} أي: العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً} [سورة النساء:٥٣-٥٥]، وقوله تعالى: {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا} [سورة الإسراء:١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري -صلى الله عليه وسلم-، وكما أخبر -عز وجل- عن قوم صالح -عليه السلام- حين قالوا: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} [سورة القمر:٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: {أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: يعني طرق السماء.

وقال الضحاك -رحمه الله-: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

يصعد إلى السماء السابعة، يمكن أن يرجع إلى قوله: يعني طرق السماء، والأسباب في اللغة جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره، يتوصل به إلى المطلوب، يقال له: سبب، {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} فالطرق التي يصعد بها إلى السماوات وإلى أبواب السماء يقال لها: أسباب، "ولو رام أسباب السماء بسلم"، فهذا يقال للطرق التي توصل إلى ذلك، وبعضهم يقول: المراد بالأسباب هنا {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} يعني: في الكمالات، أسباب الكمال، وما إلى ذلك من الفضل ونحوه، وبعضهم يقول: {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} يعني: أسباب القوة إن كانوا يظنون أن ذلك يمنعهم، ولكن هذا كله فيه بُعد، وإنما المعنى المشهور الذي عليه جمهور المفسرين وهو المتبادر، {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} أسباب السماوات، وبعض أهل العلم يوضح ذلك أكثر، يقول: فإنهم إذا كانوا يملكون خزائن الله -تبارك وتعالى- فإن من شأن المالك أن يتفقد مملكته، فليرتقوا في الأسباب وليصعدوا إلى الملأ الأعلى ويتفقدوا ما لهم من الأملاك والخزائن، لكنهم أعجز وأضعف من ذلك كله.

ثم قال -عز وجل-: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ} أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه الآية كقوله -جلت عظمته-: {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [سورة القمر:٤٤-٤٥] وكان ذلك يوم بدر {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [سورة القمر:٤٦].

هنا {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ}، هنا الحافظ جعله كقوله: {أَمْ يَقُولُونَ} إلى قوله: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ...} وأن ذلك كان في يوم بدر، وأن الآية تشير إلى هذا، وإلى ذلك ذهب ابن جرير -رحمه الله-، {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ}، فحمُل على ما وقع لهم في يوم بدر، فيكون ذلك من قبيل الإخبار بالغيوب المستقبلة، والشنقيطي -رحمه الله- له كلام في مثل هذه الآية مع أنه لا ينكر هذا المعنى بل يثبته ويزيد عليه، وهذا هو الفرق بين العالم وغير العالم، الشنقيطي -رحمه الله- يقول: وفي الإشارة هنا إلى البعيد {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ} إلى البعيد ما يفهم منه أو قد يفهم منه أن المراد بذلك ما سيق في زمان مستقبل بعيد، يعني هذا العصر من دعوى الصعود إلى القمر، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [سورة الرحمن:٣٣]، ثم ذكر ما يكون لهم بعد ذلك {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ} [سورة الرحمن:٣٥]، فالشنقيطي -رحمه الله- يقول: إن ذلك لا يمكن، يعني الصعود إلى القمر، وإنهم لو حاولوا الوصول إليه لجاءهم الشواظ من النار والنحاس، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الآية لا تدل على هذا ولا علاقة لها بهذا المعنى، وإنما {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ} ما يقع لهؤلاء من الهزيمة النكراء، وقد حصل ذلك في يوم بدر وفي غيره، وإن كانت هزيمتهم أوضح وأظهر وأجلى وأقوى وأنكى في يوم بدر، فإنه بعد يوم بدر لم يحصل لهم مثل هذه الهزيمة، يعني في أحد انتصروا، وفي الأحزاب ذهبوا بالريح، وفيما بعد ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني بعد

الأحزاب: ((اليوم نغزوهم ولا يغزونا))[٦]، وما كان من فتح مكة لم يكن ثَمّة قتال بالمعنى المعروف من مواجهة الجيوش لبعضها، فالهزيمة النكراء كانت يوم بدر، وهي النكاية العظمى التي وقعت من قتل سادتهم وكبرائهم في أمر لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال، ولم يدُر في خيال، حتى في أحلام المنام ما رأوه، ما توقعوا هذا ولا دار في خلدهم، أما قضية الصعود إلى القمر ونحو ذلك فالآية لا علاقة لها بهذا، والإشارة إلى البعيد أي ما سيكون في المستقبل، {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ}، أما قضية الصعود إلى القمر فهذا الذي يظهر أن القرآن لم يتحدث عنها أصلاً، لكن هل ما وقع من الصعود إلى القمر صحيح أو لا؟ الله أعلم بهذا، لا نعلم، وقد كتب كتاب من الغرب كتابات قوية تشكك في هذا، وذكروا أدلة لإبطال هذه الدعوى، من الغرب، من الكفار، عيونهم زرقاء، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، قالوا: هذا غير صحيح، وقالوا: أقرب ما يدل على كذب هذا الكلام أن في القمر ظلًّا، والقمر أصلاً ما فيه ظل، ومن صورهم التي ظهرت في الفضاء فيها ظل، والقمر أصلاً ما فيه ظل، فالشمس لا تظهر وينعكس الظل هناك، إذا انتقلوا من الغلاف الجوي ظلمة، فمن أين جاء هذا الظل، وذكروا أن هذا عملوه في صحراء نيفادا، وأن القضية كلها تمثيل، ولا حقيقة لها، وقالوا: لماذا لم يتكرر هذا مع تطور العلم، وتقدمه والطموح المستمر على المعرفة والاستزادة واكتشاف الفضاء وما إلى ذلك؟، هي مثل بيضة الديك، مرة لأمريكا ومرة لروسيا، ما في محاولات أخرى، ما في دول أخرى تقدمت وحاولت أيضاً أن تغرس علمها على القمر، ما أحد استطاع ولو بدفع أجرة، فقط هؤلاء ثم لا تتكرر انتهت! قالوا: مكلفة، طيب والآن إمكانيات أكبر، ويبذلون على البحوث العلمية ووكالة الفضاء المليارات، لماذا لا يكررون هذه الأشياء بأشياء جديدة وتجارب واكتشافات؟! الله أعلم، {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [سورة الإسراء:٣٦]، فما كل ما يقولونه نحن نصدقه، لكن القرآن ليس فيه ما يدل على هذا، يعني من الامتناع، امتناع إمكانية ذلك، أو من حصوله، فالعلم عند الله -عز وجل.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأيْكَةِ أُولَئِكَ الأحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص:١٢-١٦].

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة.

في الأصل لم يتطرق لقوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ}، هو باعتبار أنه تكلم على هذه الأشياء في مواضع سابقة، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ}، فرعون هنا قال: {ذُو الْأَوْتَادِ}، قيل له: {ذُو الْأَوْتَادِ} بعضهم يقول: كانت له أوتاد للتعذيب يعذب بها الناس، فمن أراد أن يعذبه عذبه، ومن خالفه فأراد أن يبطش به وتد يديه

---

٦ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٣٠٨)، وقال محققوه: " إسناده صحيح على شرط الشيخين، يحيى: هو ابن سعيد القطان، وعبد الرحمن: هو ابن مهدي، وسفيان: هو الثوري، وأبو إسحاق: هو السَّبِيعي، وقد صرَّح بالسماع"، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٤٨٤)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٨٧٩).

ورجليه ورأسه، فهذه الأوتاد للتعذيب، فإذا خالفه أحد وتد رأسه ورجليه ويديه على الأرض بهذه الأوتاد، والوتد ما يحصل به تثبيت الشيء، فالمسمار يقال له: وتد، والحديدة التي تثبت بها الخيمة يقال لها: وتد، والجبل يقال له: وتد، {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [سورة النبأ:٧]، فهذه الأشياء التي يحصل بها التثبيت، فهذا بعض المفسرين يقول: هذه الأوتاد أوتاد يثبت بها الشخص الذي يريد أن يعذبه، يثبت يديه ورجليه ورأسه في الأرض، فقيل له: {ذُو الْأَوْتَادِ}.

وبعضهم يقول: الأوتاد هنا بمعنى الجنود والجموع والجيوش التي تثبت ملكه، عنده جيوش وجنود وجموع يثبتون ملكه فقيل لهم: أوتاد، كما أن الأوتاد تثبت الخيمة مثلاً أو ما يضرب بالوتد، فالأوتاد تستعمل للتثبيت فكذلك هؤلاء الجنود الذين يقوون أمره، والعرب يتوسعون في الكلام فيعبرون عن من لهم ثبات وقوة وتمكن يقال: هؤلاء لهم عز ثابت الأوتاد، لهم ملك ثابت أو راسخ الأوتاد، عز ثابت الأوتاد، ملك ثابت وراسخ الأوتاد، فهذا العرب تتكلم به، وقد ذكر هذا المعنى ابن قتيبة -رحمه الله.

وبعضهم يقول: {وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} الأوتاد بمعنى البناء المحكم، يقال له ذلك، يعني: {وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} يعني: ذو الأبنية المحكمة.

وهل هذه الأبنية المحكمة المقصود بها الأهرام أو غير ذلك؟ هو يقول: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الزخرف:٥١] تحت قصوره يعني، كانت له قصور، أما هذه الأهرام فقد مضى الكلام عليها في مناسبات سابقة، وأن كلام أهل العلم فيها كثير، وأن كلامهم يرجع إلى أنها لا يعرف لها تاريخ، ولذلك قال كثيرون: إن ذلك لعله كان قبل الطوفان، ومن يقولون: إن إدريس -صلى الله عليه وسلم- كان قبل نوح -عليه الصلاة والسلام- يقولون: إن الذي بناها إدريس، فالعلم عند الله -عز وجل-، ويقولون: لو كانت بعد الطوفان لعرف تاريخها وخبرها، والله أعلم، والذين قالوا: إن الذين بنوها هم الفراعنة هم الذين جاءوا مع البعثة الفرنسية، جاء مائة وستة وأربعون عالماً مع نابليون، وهم الذين نبشوا هذه الأشياء، مع أنها كانت معروفة من قبل، وما ذكره السيوطي في حسن المحاضرة من المحاولات لاكتشافها ومعرفتها، وأن الناس من قبل قرون في أيام الدولة العباسية دخلوا فيها، وفتحوا بعض الأهرام، ورأوا التوابيت، ورأوا ما في مضامينها، وأنهم حاولوا أن يكسروا هذه الأهرام، وعجزوا عن ذلك؛ لضخامتها، وأنها كانت مدفونة في أغلبها، فالسيوطي ذكر هذا، والمحاولات من المأمون وغير المأمون، والذين فتحوها ودخلوها قبل الفرنسيين، وقبل اكتشافات هؤلاء، فجاء الفرنسيون وقالوا: هذا رمسيس، وهذا برمسيس، وجاءوا للناس بهذه الأشياء، فهز الناس رءوسهم وقالوا: نعم، وقالوا: هذا فرعون موسى، وهذا كذا، وهذا فلان، قالوا: نعم، جلسوا يؤمِّنون على ما قاله هؤلاء، وجاءوا لهم بالكتابات، وقالوا: نحن حللنا هذه الألغاز وقرأنا هذه الكتابات القديمة، وهذه تعني كذا، وهذا يعني كذا، هذا مثل ما نُقل عن بعضهم لما سئل عن لون كلب أصحاب الكهف، قال: ما أعرف، فقيل له: لو قلت أبقع لما وجدت من يقول: لا، فالله أعلم، {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [سورة الإسراء:٣٦].

فبعض السلف كالضحاك يقول: البنيان يقال له: أوتاد، وبعضهم يقول: ملاعب، كان عنده ملاعب، مثل الملاعب الموجودة عند الرومان، ولربما لا زال بعض بقاياها موجوداً، ملاعب ضخمة يستعملونها للعب

ونحو ذلك، ولربما للصراع والنطاح، يأتون كما كان يفعل اليونان، يأتون باثنين من المماليك، ويجعلونهم يقتتلون، يعطون كل واحد سلاحاً، والناس تتفرج، جماهير حاشدة على المدرجات، وأحياناً يأتون برجل مع سبع -مع أسد- ويتصارع معه وهم يتفرجون ويتسلون، ويقال: خلص نفسك، وأحياناً يأتون برجل مع ثيران ويعطونه قماشاً أحمر، ويتصارع معها فتنطحه وهكذا، والجماهير تتفرج، فكان عند الأولين ملاعب، وفيها ألوان من العبث، ومن أراد أن يقرأ يجد ذلك في التاريخ، وما كانوا يعافسونه من ذلك.

ابن جرير -رحمه الله- جعله محتملاً للمعنى الأول، الذي هو أنه له أوتاد يعذب بها الناس، ويحتمل أن ذلك بمعنى أنه كان له ملاعب، وأن الملاعب يقال لها: أوتاد، {وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ}.

قال: {وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ}، الأيكة: هي الغيطة، الشجر الكثيف الكثير الملتف يقال له: أيكة، الشجرة الملتفة يقال لها: أيكة، وغيطة، {وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ}، وهم قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، وهل أصحاب الأيكة هم قوم شعيب الذين أرسل إليهم، أو أن هؤلاء غير أصحابه، يعني هل أرسل شعيب إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، أو أن ذلك أصلاً يرجع إلى شيء واحد، فتارة نسبوا إلى البلد "مدين" -وقيل: القبيلة-، وتارة نسبوا إلى الأيكة.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ الأحْزَابُ} أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك.

يعني بعض أهل العلم يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ الأحْزَابُ} يعني: الحزب أصله يقال لجماعة من الناس فيها غلظ، هذا في اللغة، جماعة فيها غلظ، والجماعة التي فيها غلظ كما هو المصطلح المعاصر في كلمة حزب: رأس وقاعدة، يتحزب بعضهم لبعض، بمعنى ليست كل مجموعة من الناس يقال لها: حزب، الناس حينما يجتمعون في منى أو عرفة لا يقال لهم: حزب، لكن الطائفة والجماعة ذات غلظ في أصل اللغة يقال لها: حزب، والاصطلاح المعاصر فلسفة الحزب: رأس وقاعدة.

{أُولَئِكَ الأحْزَابُ}، فهؤلاء الأمم أصحاب الأيكة وفرعون وما إلى ذلك {أُولَئِكَ الأحْزَابُ} إشارة إلى البعيد، {أُولَئِكَ} بدخول "ال" على الأحزاب، يعني: كأن هؤلاء هم الأقوياء، وهم الممكنون حقاً، يعني: أن قريشاً ليست بشيء بالنسبة إلى هؤلاء، وما عندهم من معطيات القوة والتمكن، ومع ذلك الله -تبارك وتعالى- دمرهم وأهلكهم، {أُولَئِكَ الأحْزَابُ}، كما تقول: أولائك الرجال، لمّا تذكر بعض الكبار، أولائك الرجال، تقول: تلك المكارم، وهكذا، وتقصد أن هؤلاء الذين استحقوا الأوصاف الكاملة من هذا المعنى، {أُولَئِكَ الأحْزَابُ}.

ولهذا قال -عز وجل-: {إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ} فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله تعالى: {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مَثْنوية أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي: فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يُطوِّلها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله -عز وجل.

في قوله: {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، هذه الصيحة هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إنها نفخة الفزع، وعرفنا من قبل أن ابن كثير يرى أن النفخ في الصور ثلاث مرات، نفخة الفزع {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة النمل:٨٧]، والنفخة الثانية التي هي نفخة الصعق، والنفخة الثالثة التي هي نفخة البعث، وأن الذي عليه عامة أهل العلم أنهما نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

فالحاصل أن الحافظ ابن كثير هنا يقول: وما ينظر هؤلاء -بناء على أن ذلك يرجع إلى كفار قريش- إلا نفخة؛ لأن أولائك الأحزاب هلكوا وماتوا وانتهوا -الأمم السابقة- فما تدركهم نفخة الفزع، أو النفخة الأولى على الأقل، عند ابن جرير مثلاً وعند الجمهور أنها نفخة الصعق، يعني: سواء قلنا: إن النفخة الأولى هي الفزع أو قلنا: إنها نفخة الصعق، الذين ماتوا وهلكوا هل تدركهم نفخة الصعق أو نفخة الفزع يصعقون؟ الجواب: لا نفخة قبل {يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ}، فهذه تكون قبل القيامة، يصعقون جميعاً، يموتون جميعاً، لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن الرجل يليط حوضه، قد حلب لقحته فلا يشرب منها، هذا يكون بين يدي الساعة، فيصعقون، عند ابن كثير هي نفخة الفزع، وعند الجمهور ومنهم ابن جرير أنها نفخة الصعق، هذا بناءً على أن هؤلاء هم كفار قريش، {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ} يعني: من المشركين من أهل مكة الذين كذبوك {إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ}، فأولائك الأحزاب أولائك الأمم لا تدركهم هذه النفخة، ويكون ذلك للأحياء، يهددهم بها، وبعض أهل العلم -لا أعرف كيف- قال: إن ذلك يرجع إليهم، وإن هذه النفخة هي نفخة البعث، لما أهلكهم الله -عز وجل- ما ينظرون بعد ذلك ينتظرون وهم في الأجداث أو هم في عالم البرزخ إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون للحساب، ويحصل لهم العذاب، وهذا بعيد، وكذلك قول من قال: إن المراد {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، صيحة العذاب الذي ينزل بهم وليس المقصود بها الصعق، وإن العذاب الذي يفجأ الناس يقال له: صيحة، لكن هذا فيه بُعد -والله تعالى أعلم-؛ لأنه قال: {إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، فالمتبادر إلى الذهن أنها النفخة، النفخ في الصور، وإن كان قوم أهلكوا بالصيحة صاح بهم الملك، فالله تعالى أعلم، لكن هذا هو المتبادر، ولو أن قائلاً قال بذلك لم يكن بعيداً، والله أعلم.

وقوله هنا: {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} هنا قال: عن مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية.

ليس بمعنى التكرار، أنها ثانية، لا مثنوية يعني لا تأخر ولا تباطؤ ولا رجوع أن ذلك يقع ولابد، ولا رجوع فيه؛ ولهذا قال مجاهد ومقاتل: الفواق بمعنى الرجوع، بل بعض أهل العلم أرجع معنى الفواق إلى هذا، إلى الرجوع، قالوا: الآن لما يقال: فُواق ناقة، وفَواق ناقة، بالضم والفتح في الفاء فَواق وفُواق، فواق ناقة، ما بين الحلبتين يقال له ذلك، استُعملتْ هذه فَواق وفُواق قالوا: إنه ما بين الحلبتين حينما يحلب يرجع اللبن إلى الضرع، وإنما هو لبن جديد.

حلبة ثم حلبة، ما بينهما، ويرجع اللبن يتراد إليه، فُواق ناقة، وما بين الحلبتين، فَواق وفُواق، فجعلوه بمعنى الرجوع، رجوع الحليب ثانية إلى الضرع، ليس الذي خرج، وإنما جديد يرجع فتكون حلبة ثانية، فَواق ناقة وفُواق ناقة، فهو بمعنى الرجوع، {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} أي: رجوع، وبعضهم فسره بالإفاقة، {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ}، والذين أرجعوا معنى هذه المادة في الأصل إلى الرجوع قالوا: هذا الذي يفيق من المرض أو الإغماء أو غير ذلك يرجع إلى وعيه، يرجع إلى عافيته، يرجع إلى صحته، أفاق من علته، أفاق من الإغماء، أفاق

من نومه، أفاق من غفلته، بمعنى الرجوع، بمعنى رجع إلى حاله التي كان عليها، أو رجع من تلك الحالة التي كان فيها، وهذه {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} فيها قراءتان، قراءة الجمهور {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} بالفتح، وقراءة حمزة والكسائي بالضم {مَّا لَهَا مِن فُوَاقٍ}، وبعض أهل العلم يقول: القراءتان بمعنى واحد، وأنهما لغتان، وبعضهم فرق بينهما كالفراء وأبي عبيدة، وقالوا: إنها بالفتح بمعنى الراحة، {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} يعني: راحة، ما يحصل لهم فيها راحة، وكما يفيق المريض ونحو ذلك، وبالضم {مَّا لَهَا مِن فُوَاقٍ} أي: انتظار وإمهال، وإنما تأتي مجهزة، وابن جرير يقول: ما لها من فتور ولا انقطاع.

فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله -عز وجل.

وقوله -جل وعلا-: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القِطّ هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة: كما قالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢].

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة؛ ليلقوا ذلك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

يعني ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، فهنا الله يقول: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}، فالقط هنا يقول: هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب، وعبارات المفسرين: سألوا تعجيل العذاب، سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة، وهذه المعاني ليست متخالفة، فإن أصل القط هو الكتاب الذي يكتب فيه نصيب الإنسان أو العطاء الذي يعطيه الملِك، مثلاً يكتب ذلك في رق أو نحو هذا، كما قال الأعشى:

ولا الملكُ النعمانُ حين لقيته *** بغبطته يُعطِي القطوطَ ويأفقُ

يعطيهم رقاعا، كتابات، كل واحد فيها جوائز الملك التي يعطيها الوفود، ويأفق: بعضهم قال: يأفق يعني: يفاضل في العطاء بين هؤلاء المعطَيْن، فقالوا: {عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} يعني: نصيبنا، سواءً كان من العذاب أو كان من النعيم، فهم يستعجلون بالعذاب كما قال الله -عز وجل-: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} [سورة العنكبوت:٥٤]، فاستعجلوا بنصيبهم لا أنهم يؤمنون به، وأرادوا فعلاً أن يتحقق لهم في الدنيا حتى لو كان عذاباً، وإنما قالوا ذلك على سبيل التكذيب والسخرية والاستبعاد، {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا}، فهذه الأقوال التي ذكرها هنا ليست متخالفة، فهي ترجع إلى هذا -والله تعالى أعلم-، وابن جرير كما ترون جمع بين المعنيين، نصيب في الخير والشر؛ لأن بعضهم خصه بالخير، بالعطاء، وما أشبه ذلك، لكن القرآن دل على أنهم استعجلوا أيضاً بالعذاب.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ص من الآية (١٧) إلى الآية (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [سورة ص:١٧-٢٠].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود -عليه السلام- أنه كان ذا أيدٍ، والأيدِ: القوة في العلم والعمل.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والسدي وابن زيد: الأيدِ: القوة.

وقال مجاهد: الأيدِ: القوة في الطاعة.

وقال قتادة: أعطي داود -عليه الصلاة والسلام- قوة في العبادة وفقْهًا في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه -عليه السلام- كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله -عز وجل- صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وإنه كان أواباً))[1]، وهو الرجّاع إلى الله -عز وجل- في جميع أموره وشئونه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ}** أورد أقوال السلف هنا، وفي غيرها مما ورد عنهم من أن الأيدِ القوة، وفي مجموعها أن الأيدِ القوة في العبادة وكذا أيضاً الفقه في الدين؛ ولهذا جمع بينهما الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: **القوة في العلم والعمل**، وذلك ما وصف الله -تبارك وتعالى- به خيار الخلق من الأنبياء الذين اصطفاهم من قوله -تبارك وتعالى-: **{أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}** [سورة ص:٤٥]، فجمع لهم بين هذا وهذا، فالأبصار بمعنى البصائر، يعني: العلم والفهم الذي يكون به الميز بين الحق والباطل، والأيد بمعنى القوة، وبعض المنحرفين لربما يحتج على أهل السنة بأنهم يؤولون وينقلون أقوالاً عن السلف في هذه الآية أنهم فسروا الأيد بمعنى القوة، مع قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}** [سورة الذاريات:٤٧]، فيقول: لم يفسروا ذلك باليد التي هي الصفة المعروفة، والواقع أن هذه غير اليد، هذه الأيد بمعنى القوة،

---

١ - رواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، برقم (١١٥٩).

{بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} أي: بقوة، وهذا ما وصف الله به داود -عليه الصلاة والسلام-، فهذا ليس من التأويل في شيء.

وقوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ} أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال -عز وجل-: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠] **وكذلك كانت الطير تسبِّح بتسبيحه وترجِّع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.**

روى ابن جرير عن عبد الله بن الحارث بن نوفل أن ابن عباس -رضي الله عنهما- كان لا يصلي الضحى فأدخلته على أم هانئ -رضي الله عنها- فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني به، فقالت أم هانئ: دخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الفتح في بيتي ثم أمر بماء صب في قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ} وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟، وكان بعدُ يقول: صلاة الإشراق.

ولهذا قال: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} أي: محبوسة في الهواء، {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي: مطيع يسبح تبعاً له.

قال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي: مطيع.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}، قال: **أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار**، والعشي يقول ابن جرير -رحمه الله-: إنه من بعد العصر إلى الليل.

ويطلق العشي على ما بعد الزوال، من بعد الظهر، وكذلك لما بعد العصر، وسيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} [سورة ص:٣١]، فهنا قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ} يعني: في آخر النهار، {وَالإِشْرَاقِ} يعني هنا فُسر بصلاة الضحى، والتسبيح يقال للصلاة، ويقال لصلاة الضحى: سبحة الضحى، وكذلك ما جاء عن ابن عمر: لو كنت مسبحاً لأتممت، أي: مصلياً، فلا شك أن الصلاة يقال لها: تسبيح.

ويقال التسبيح أيضاً للذكر الذي هو بمعنى التنزيه، سبحان الله ونحو ذلك، فالتسبيح هنا {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}، ليس معنى ذلك أن الجبال تصلي معه، وإنما المقصود تسبح بمعنى أنها تنزه الله -تبارك وتعالى- وتردد معه؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ}، قال: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠]، فالتأويب بمعنى الترجيع والترديد، فيكون ذلك ترديداً للذكر، وليس المقصود -والله تعالى أعلم- أنها تصلي معه، لكن هنا ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أخذ من قوله: {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ} صلاة الضحى، {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}، ويمكن أن يحمل هذا على الذكر طرفي النهار، فإن الذكر يكون في هذا الوقت أول النهار، ويكون أيضاً في آخره، {بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}

[سورة النور:٣٦]، فالغدو هو أول النهار، والآصال يكون بعد العصر، فهذا بمعنى هذا -والله تعالى أعلم-، فالمقصود أنها كانت تردد معه، تفسره الآية الأخرى، {أَوِّبِي مَعَهُ} ردّدي معه، وهذا على ظاهره، يعني لا يقال كما يقول بعضهم: إن ذلك مع الجبال هو ما يكون من قبيل رجع الصدى، فإن ذلك لا يختص بداود -عليه الصلاة والسلام-، ولكن كانت تردد معه، الله -تبارك وتعالى- على كل شيء قدير، وأخبر الله أنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، وقال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء:٤٤]، وأخبرنا عن قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-: {عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ} [سورة النمل:١٦]، وقال: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ} [سورة النمل:١٨] إلى غير ذلك، فهذا كله على ظاهره، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث))[٢]، وكذلك ما جاء من حنين الجذع، والله قال للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت:١١]، فالجبال كانت تسبح معه حقيقة، فيحمل على ظاهره، وليس هناك ما يدل على أن المقصود غير ذلك، وكذلك الطير كانت تردد معه التسبيح، وابن كثير -رحمه الله- يقول: أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، فابن عباس -رضي الله عنهما- حمل التسبيح على أعم معانيه، وذلك أن التسبيح مشترك، يقال للصلاة ويقال أيضاً للذكر الذي يكون بمعنى التنزيه، والمشترك لا إشكال في حمله على معنييه أو معانيه إن لم يوجد ما يمنع من ذلك، لكن سياق الآية -والله تعالى أعلم- إنما هو في التسبيح الذي هو الذكر.

قال: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}، قال: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} أي: **محبوسة في الهواء**، {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}، قد تكون محبوسة في الهواء، وقد تكون تجتمع عنده على الأرض، {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي: **مطيع يسبح تبعاً له**.

وقال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي: **مطيع**، وأصل الأوْب بمعنى الرجوع، وفسر بمعنى أنه مسبح، {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي: مسبح؛ وذلك لأجل تسبيح داود -صلى الله عليه وسلم-، فهي تسبح بهذا الاعتبار، كل له أواب، فوضع الأواب موضع المسبح، {كُلٌّ لَهُ} والضمير يرجع إلى داود -صلى الله عليه وسلم-، يعني: يسبح لتسبيحه.

{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} رددي معه، فالأوب بمعنى الرجوع، يعني أنها ترجع معه التسبيح، وبعضهم يقول: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} يعني: الضمير يرجع إلى الله -جل جلاله، وتقدست أسماؤه-، بمعنى أن الجميع رجاع إلى الله تواب إليه، داود -صلى الله عليه وسلم- وغيره، ولكن ظاهر السياق -والله تعالى أعلم- أن ذلك يرجع إلى داود -عليه الصلاة والسلام-، لكن كأن هؤلاء نظروا إلى معنى الأوب والرجوع والتوبة وما أشبه ذلك، قالوا: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} إلى الله، ولكن الضمير هنا يرجع إلى غير مذكور، والأصل أن الضمير إذا قيل: إنه يرجع إلى غير مذكور فإن ذلك إنما يكون مع وجود قرينة، الضمير إما أن يرجع إلى مذكور وإما أن يرجع إلى غير مذكور، لكن إن كان يرجع إلى غير مذكور فلابد أن يوجد ما يدل عليه من القرينة أو السياق، وهنا لا يوجد ما يدل عليه، لكن كأنهم أخذوا من لفظة أواب، فهموا منها التوبة تواب، فقالوا: التوبة إنما تكون لله

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

-تبارك وتعالى-، ولكن إذا فهم ما سبق فلا إشكال، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، أن ذلك يرجع إلى داود -عليه الصلاة والسلام-، {أَوَّابٌ} أي: مسبح، يعني كونها تردد معه، كانت بهذه المثابة، والله أعلم.

ولا إشكال أن الصلاة والتسبيح هنا ذكر كل واحد على حدة، وأخبر الله -تبارك وتعالى- أنه يسجد له من في السموات والأرض، لكن إذا ذكر التسبيح وحده فإنه يحتمل هذا وهذا، فالمتبادر إلى الذهن أحياناً من السياق مثل هذا المقام يكون التسبيح بمعنى -بل هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق- الذكر الذي هو بمعنى التنزيه، لكن إذا وجد قرينة، ((لو كنت مسبحاً لأتممت))[٣] مثلاً ونحو ذلك، فإن ذلك يحمل على الصلاة، لكن إذا أردت أن توجه أقوال السلف لاسيما ما جاء عن مثل ابن عباس -رضي الله عنهما- فيمكن أن تقول: هذا من قبيل حمل المشترك على معنييه، -والله أعلم-، لكن قوله: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} [سورة النور:٤١] لا يعني بالضرورة أن ذلك يعني أن التسبيح لا يكون بمعنى الصلاة، وهنا ذكر هذا وهذا، فيكون لهذا معنى ولهذا معنى.

وقوله تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

{وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} قال هنا: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع الوجوه. {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} يعني ثبتناه وقويناه وذلك لا يكون إلا بتحقق ما يُثبت أو يحصل به ذلك، يحصل به ثبات الملك، وقوة الملك، ورسوخه، وذلك بأمور لا تخفى، شددنا ملكه، ملكٌ وسلطان قوي ثابت ليس فيه ضعف واضطراب.

وقوله -عز وعلا-: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل والفطنة.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدي: {الْحِكْمَةَ} النبوة.

الحكمة تفسر بهذا وهذا، ولذلك تجد عبارات السلف فيها وكلام أهل العلم في المواضع المتفرقة يأتي لمعانٍ متعددة، والواقع أنها ترجع إلى معنى يمكن أن يلتئم من كون الحكمة في أصلها -أصل هذه المادة "الحاء والكاف والميم"- ترجع إلى المنع، ولذلك يقولون فيها: إنها مثلاً الإصابة في القول والعمل، فهذا الذي تحصل له الإصابة في القول والعمل يحصل له بذلك منع بهذه الحكمة من الشطط والخطل في القول والرأي والحكم وما إلى ذلك؛ ولهذا يقال في الحكم مما يرجع إلى هذه المادة، وقد مضى الكلام على هذا في الكلام على اسم الله الحَكم والحكيم، وذلك أن الحكم يمنع أحد الخصمين من أخذ حق غيره، أو من التعدي على الآخر، والحاكم كذلك أيضاً، وحينما يقال: إن الحكمة وضع الشيء في موضعه، وإيقاعه في موقعه، فذلك أيضاً منع لمن كان موصوفاً بهذه الصفة من الخطل والخطأ والشطط في القول والعمل، فهذا يحصل بالعلم، وهو يحصل في أجلى صوره بالنبوة، فهي أعلى وأعظم، فهي منحة إلهية تكون متضمنة للعلم، ويكون معها من الفهم والصواب، ووضع الأشياء في مواضعها وما إلى ذلك، كل ذلك متحقق في النبوة، ولهذا كانت الحكمة تأتي بمعنى النبوة، وتأتي بمعنى الفهم، وتأتي بمعنى العلم، وتأتي بمعنى الإصابة وما إلى ذلك، كل هذه

---

٣ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

المعاني التي يذكرها السلف صحيحة، ولهذا قال: الفهم والعقل والفطنة، قال قتادة، كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي: الحكمة النبوة.

وقوله -جل جلاله-: {وَفَصْلَ الْخِطَابِ} قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل -أو قال: المؤمنون والصالحون- وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي.

وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك.

وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد واختاره ابن جرير.

هنا {وَفَصْلَ الْخِطَابِ}، هذه الأقوال التي ذكرها ما عدا الأخير يعني قول مجاهد: هو الفصل في الكلام وفي الحكم، ما قبل ذلك الأيمان والشهود، شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، وهكذا، الأقوال أو العبارات التي نقلها عن السلف في هذا المعنى ترجع إلى شيء واحد، وهذا الذي عزاه الواحدي لأكثر المفسرين، فصل الخطاب يعني: ما يتعلق بالحكم، الشهود والأيمان، فالقول الأخير الذي نقله عن مجاهد، قال: **هو الفصل في الكلام وفي الحكم**، الفصل في الكلام بعضهم قال: الإيجاز في الكلام، يقول قولاً فصلاً، وبعضهم يقول: الفصل في الكلام يكون المراد به قول: أما بعد، يفصل بين جزءين من الكلام، أما بعد، يقولون: أول من قالها داود -عليه الصلاة والسلام-، وليس ثمة ما يثبت ذلك -والله تعالى أعلم-، وهكذا قول من قال: إيجاز المعنى، الكلام الكثير أو المعنى الكثير في القول أو الكلام الوجيز المختصر، {وَفَصْلَ الْخِطَابِ}.

مجاهد -رحمه الله- جمع هذه الأقوال فقال: **هو الفصل في الكلام وفي الحكم**، وابن كثير يؤيده، يقول: **وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير**، وذلك أن ابن جرير كما هي العادة يقول: إنه لا يوجد دليل يدل على أحد هذه المعاني، وكل ذلك يقال له: فصل الخطاب، فآتى الله داود -عليه الصلاة والسلام- هذا كله من الفصل في الكلام وفي الحكم بين الخصوم، والله تعالى أعلم.

{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [سورة ص:٢١-٢٥].

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس -رضي الله عنه-، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله -عز وجل-، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً.

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من الإعراض عن الروايات التي امتلأت بها كثير من كتب التفسير للأسف من روايات لا تليق مع أحد من صالحي الأمة، فضلاً عن نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، لا شك أن هذا الإعراض هو المتعين، ولكن ليس ذلك يعني أنه لا يفهم المعنى، ولا يريد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حينما يقول: يقتصر على قراءتها، أن المعنى لا يفهم، المعنى مفهوم، أنه جاءه خصوم، وعرضوا عليه هذه القضية، وأنه حكم فيها، لكن ما دواعي ذلك وما سببه، وهل كان هؤلاء من الملائكة أو كانوا من الإنس، هذا الذي عناه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ومما يذكر من القصص أن الله أراد أن يعلمه وأن يبين له بهذه القضية أمراً كان قد وقع فيه، فهذا كله ينبغي أن يُعرَض عنه، أعني ما يذكر من القصص والأخبار التي لا تليق مع مقام داود -عليه الصلاة والسلام-، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، فالخصم مصدر وهو يصدق على الواحد والجمع، كما يصدق على المثنى، {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ}، ولهذا جاء بعده بضمير الجمع {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، وهما اثنان، {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، ويصح التعبير عن الاثنين بضمير الجمع {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [سورة التحريم:٤]، فقلوب جمع، سواء قيل: إن أقل الجمع اثنان أو قيل: إن ذلك يعبر به عن هذا في لغة العرب، وهنا {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} يعني: الخصوم، هؤلاء هل كانوا من الملائكة أو كانوا من الإنس؟، بعضهم كالنحاس يقول: لا خلاف بين المفسرين أن هؤلاء كانوا من الملائكة، هذا قول أكثر المفسرين، لكن بناءً على هذه الروايات الإسرائيلية أن القضية لم تكن خصومة حقيقية، وإنما كانت من قبيل ضرب المثل لداود -عليه الصلاة والسلام- ليتبين أمراً قد وقع فيه، هكذا قالوا، أنها ليست خصومة حقيقية بين اثنين، لكن جاءوا إليه ليبينوا له، والواقع أنه ليس هناك اتفاق وإجماع بين المفسرين أن هؤلاء من الملائكة، وقد قال بعض المفسرين: إن هؤلاء كانوا من الإنس، وإنها كانت قضية حقيقية وخصومة وقعت بينهم فيما ذكر، فالله تعالى أعلم، {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، على قول أكثر المفسرين يكون ذلك كأنه من قبيل ضرب المثل، وليُتبين به أمرٌ آخر، وهذا يمكن أن يؤخذ منه بعض المعاني أو بعض الأشياء، لكنه لما كان ذلك لا يقطع به، فإن الجزم بذلك قد لا يخلو من إشكال، وأعني بهذا أنه هل يجوز مثلاً ذكر القصص غير الحقيقية للفائدة، وإيصال المعاني النافعة للناس، والناس يعرفون أنها قصة غير حقيقية؟، يعني هذا يُسأل عنه كثيراً، بعض الناس يقول: أنا أؤلف قصصاً أكتب قصصاً، بل حتى بعض الأمهات تقول: أنا أقص على أولادي قصصاً فيها فوائد -الأطفال الصغار-، فهل يتطلب ذلك أن أقول: لنفترض، لنتصور، أو نحو ذلك من العبارات التي تدل على أنها غير حقيقية، أو يكفي أن أقول: كان في كذا، وحصل كذا، وذلك لم يحصل؟، ومن أهل العلم من قال: إن هذه ليست واقعة حقيقية، ولكن هؤلاء لا يقصدون أن قصص القرآن غير حقيقية، فهذا قول فاسد، ولا يقول به أحد من أهل العلم المحققين الثقات، وإنما الذين قالوا ذلك قالوا هذا في خصوص هذا الموضع، قالوا: إنما هو من قبيل ضرب المثل، ولم يكن ذلك واقعاً، ومضى الكلام على هذا، وقلت: إن الراجح حينها أنها قصة حقيقية، وأن هذا على ظاهره، وليس له صارف مثل هذا، هنا في هذا الموضع: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ} عند من يقول: إن ذلك كان من قبيل ضرب المثل والتقريب يمكن أن يحتج بهذا على أنه لا بأس، لاسيما أن السامع يعلم بذلك، ولا يحتاج أن يقدم بمقدمة، ويقول: لنفترض أو نحو هذا، وقد يحتج

به أيضاً من يقول: إنه يجوز أن يحاكي، أو أن يقوم بمزاولات وأعمال تحكي شيئاً معيناً أو واقعاً معيناً أو حالاً معينة، أو وقائع مفترضة متصورة لإيصال معانِيَ يجسدها بهذه المزاولات، وهو ما يسمى اليوم بالتمثيل، بضوابطه عند من يجيزه بضوابط من أهل العلم، لا يعد ذلك من قبيل الكذب، فبعض أهل العلم يقول: يجوز، وأنه ليس من قبيل الكذب، وأنه من قبيل ضرب المثل، ويذكرون على هذا أشياء.

وفي كلام أهل العلم كابن القيم وغيره، يذكرون أشياء هي من قبيل ضرب المثل، يعني يجرونها على ألسن الحيوانات، وعلى ألسن بعض الكائنات والمخلوقات مما ينطق أو مما لا ينطق، حتى بعض الجمادات، فيحتج بعضهم بمثل هذه الأشياء، وأنهم لا يرون بها غضاضة، وليس الكلام في هذا، لكن على قول عامة أهل العلم، وما نقل النحاس عليه يعني ما يشبه الاتفاق، قال: لا خلاف بين المفسرين أنهما ملكان، فتكون تلك الواقعة غير حقيقية، يعني: لم تكن خصومة حقيقية، هذا المقصود، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، قد يكون هذا وقد يكون هذا، {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}.

وقوله تعالى: {فَفَزِعَ مِنْهُمْ} إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم.

قوله: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، المحراب قال هو: **محرابه وهو أشرف مكان في داره**، وبعضهم كيحيى في تفسيره يقول: إنه الغرفة {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، الغرفة، والغرف إنما تقال لما كان في الأعلى، يعني: كأنها أشرف المساكن، فهذا يرجع إلى هذا المعنى، وهكذا من قال: إنها صدور المجالس، فهذا يرجع إلى هذا المعنى، يعني: أشرف المجالس يقال لها: محاريب، فالمحاريب تقال للأماكن الشريفة في المجالس، والبيوت، ولهذا قيل لمَا يكون في مقدم المسجد الذي يصلي فيه الإمام صدر المسجد يقال له: محراب؛ لهذا المعنى، الأماكن الشريفة في المجالس والبيوت ونحو هذا، فمن قال: الغرفة مثلاً، فهو يرجع إلى هذا المعنى، باعتبار أن الغرف أشرف المواضع، فكلامهم يرجع إلى شيء واحد، {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، فكان يجلس في هذا المكان الذي هو أشرف المواضع في بيته فتسوروا عليه، دخلوا عليه، {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، قال: وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين..، ابن الأعرابي يقول: إن البنيان على هذا المحراب، أو على هذا المكان الذي دخلوا فيه قال: لا يستطيع أحد أن يتسوره، فلما تسوروا فزع منهم، كيف استطاعوا الوصول إليه!، وبعضهم يقول: إنه أمر خادمه أن يقف على الباب ولا يأذن لأحد، ففوجئ بدخول هؤلاء، فالحاصل أن داود -صلى الله عليه وسلم- كان قد قسم الزمان بين عبادة، وصلاة، وجلوس إلى الناس، وراحة، فكان يفصل بين الناس في الخصومات، ودخل عليه هؤلاء في غير وقت جلوسه للناس، {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، وأما ما يذكر في بعض الروايات الإسرائيلية في سبب ذلك فإن هذا لا يعول عليه بحال من الأحوال.

فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

قال: تسورا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما، احتاطا به يعني أحاطوا به، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن التسور المقصود به معنى غير هذا، وهو الذي عليه عامة المفسرين، فتسوروا المحراب بمعنى أنهم لم يأتوا من الباب وإنما من السور، أتوا من سور الحائط؛ لأن السور هو الحائط المرتفع، فهؤلاء

أتوه من أعلى السور ونزلوا عليه، فدخلوا عليه من غير باب المحراب، هذا الذي يذكره المفسرون، وهو معنى التسور، وليس ذلك -والله تعالى أعلم- بمعنى الإحاطة به، لكن كأن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أخذ هذا من أصل هذه المادة، من أن السين والواو والراء تدل على معنى الإحاطة، أو أن من معانيها الإحاطة، ولهذا يقال: سور المدينة، ففيه معنى الارتفاع، وفيه معنى الإحاطة؛ لأنه يحيط بها، ومن ثَم قيل: السوار، لإحاطة أيضاً، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} يعني: كأنهم قد أحاطوه، لكن لو قال: تسوروا داود -عليه الصلاة والسلام- لكان هذا المعنى متجهاً، يعني: أحاطوا به عن يمينه وعن يساره، ولكنه قال هنا: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، فهل معنى ذلك أنهم كانوا على يمين المحراب ويسار المحراب؟، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المقصود معنى آخر، وهو أنهم أتوه من أعلى السور، سور المحراب، قال: يسألانه عن شأنهما.

ومعنى {وَلَا تُشْطِطْ} يعني: لا تجُرْ في الحكم، نهي عن الجور، {فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ}، فإذا حكم بينهم بالحق فإنه لا يكون جائراً، ولكن لزيادة التأكيد {وَلَا تُشْطِطْ}، {وَاهْدِنَا} قال: يأمرونه بهذا وهو نبي الله -عليه الصلاة والسلام-، نبي، وملك، فيأمرونه بأن يهديهم سواء الصراط، وسواء هنا صفة، وذلك من إضافة الصفة إلى الموصوف، {إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} يعني: الصراط المستوية، وسواء الصراط بمعنى: وسط الصراط، يعني أرشدنا إلى الحق واحملنا عليه، فلاحظ مثل هذا المخاطبة والفعل قبلها، جاءوا إليه في وقت خلوته، من غير إذن، وتسوروا عليه المحراب، حتى إن ذلك أفزعه مع ما هو فيه من القوة والتمكن والملك، ورباطة الجأش، ومع ذلك قالوا له وخاطبوه بهذه المخاطبة، {فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ}، وأيضاً أمروه ونهوه وهو نبي الله -عليه الصلاة والسلام-، {وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ}، فمثل هذا لو أنه حصل لآحاد الناس لما تقبله أحد، وقد حصل لنبي الله داود -عليه الصلاة والسلام-، فأهل العلم لهم أسوة بهذا -طلاب العلم-، وهذه التربية تستفاد من هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فداود -عليه الصلاة والسلام- ما زجرهم، ولا آذاهم، ولا أمر بحبسهم، وكان يستطيع ذلك، ولكنه حكم بينهم بما أرادوا، وفصل في هذه القضية بما ظهر له، فقد يلقى طالب العلم من الناس شططاً وأذية، وسوء أدب في السؤال أو في وقت الاتصال أو نحو ذلك، وليس ثمة إلا الصبر، وكثير من الأحيان قد ينسى الإنسان مثل هذه المعاني، والله المستعان.

وقوله -عز وجل-: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} أي: غلبني يقال: عزّ يَعُزُّ إذا قهر وغلب.

يعِز يعني الشيء القليل، لكن عز يعُز بمعنى قوي وغلب، وعلى هذا المعنى، وقد مضى الكلام على هذا مراراً، والمثل المضروب فيه: من عَزّ بَزّ ومن غلب استلب، والعزة التي أثبتها الله -عز وجل- للكافرين {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [سورة ص:2]، فوصف هؤلاء الكفار بأنهم في عزة، وقلنا العزة هناك بمعنى: الأنفة والترفع عن الحق، فهو معنى مذموم، التعالي على الحق، وليست العزة المعروفة التي تكون من أوصاف الكمال، فهذه منفية عنهم، وهي التي قال الله -عز وجل- فيها: {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [سورة النساء:139]، وأثبتها أيضاً له -تبارك وتعالى- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولأهل الإيمان، فهنا قوله: {وَعَزَّنِي} بمعنى العزة التي هي بمعنى الغلبة، وأما التي أثبتها للكفار هناك فليست بمعنى الغلبة، فهنا قال: {وَعَزَّنِي فِي

{الْخِطَابِ} أي: **غلبني**، فهو يتكلم بقوة وبعبارة أفصح من عبارة صاحبه وما إلى ذلك، ماذا قال له؟ هنا ما ذكر قوله: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ}، فالذين يذكرون الروايات الإسرائيلية وما إلى ذلك يقولون: هذا فيه إشارة إلى معنى وقع من داود -صلى الله عليه وسلم-، والواقع أنه منزه عن ذلك، لكن المقصود بالنعجة بعضهم يقول: النعجة المقصود بها نعجة حقيقية، وهي أنثى الضأن، وأنهم اختصموا في هذا، وبعضهم يقول المقصود بالنعجة هنا المرأة، فهذا له تسع وتسعون امرأة، وهذا له امرأة واحدة، فيقول له: انزل لي عنها، طلقها حتى أتزوجها، واختيار ابن جرير -رحمه الله- أن المقصود بالنعجة المرأة في هذا الموضع، ولربما يتعجب الإنسان من مثل هذا أو يستنكف لاسيما النساء، تقول: كيف يقال عن المرأة: إنها نعجة؟، لكن لو علم النساء المعنى المراد لرحبن به، وفرحن بذلك، وسررن به، فماذا يقصد العرب حينما يقولون هذا؟، يقصد العرب بذلك البقرة الوحشية، فإن العرب تطلق النعجة على أنثى الضأن، وتطلقها على البقرة الوحشية، والمقصود بالبقرة الوحشية المها: وهي نوع من الظباء، عادة ما تشبه بها النساء، تشبه بها في بياضها، يقال: النساء البيض، يقال عن النساء البيض، ولذلك يقال للمرأة في بيئتنا الصحراوية يقال: وضحا من الوضح وهي الإبل البيض، يقال: وضحا، وتسمى المرأة بهذا، فالمها يشبهون المرأة بها -وهي التي يسمونها البقرة الوحشية- في بياضها، وفي عنقها، وفي جمال عينيها من سوادها ونحو ذلك، فهي في غاية الجمال، فيقال:

عيونُ المَها بين الرُّصافةِ والجِسرِ ***

وهذا كثير في شعر العرب، وفي منثور كلامهم، فهذا مقصودهم حينما يقولون: النعجة هي المرأة في هذه الآية، وليس المقصود أنثى الضأن، لا يقصدون هذا، وإذا اتضح هذا المعنى زال الإشكال وما قد يستهجن من قول بعض المفسرين أو يستبعد جداً، فإذا عرف أن المراد هو هذا المعنى هان وقعه على النفوس، والله المستعان.

قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي اختبرناه.

قوله: {وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} يعني هذا الذي حمل أكثر المفسرين على أن ذلك كان من قبيل ضرب المثل لداود -صلى الله عليه وسلم-، لكن يمكن أن يقال: إنها كانت خصومة حقيقية، وإنهما لم يكونا ملكين، وإنما من الإنس، فوقع له فتنة بسبب ذلك، وهذه الفتنة قد يكون المراد بذلك -والله تعالى أعلم- أنه حكم قبل أن يسمع قول الخصم الآخر، فقد تكون هذه هي الفتنة والاختبار، والله -تبارك وتعالى- يظهر لعباده ما يوجب افتقارهم إليه -تبارك وتعالى-، وخضوعهم كما قال موسى -صلى الله عليه وسلم- حينما كان في ملأ من بني إسرائيل وسألهم: من أعلم الناس؟ فحصل ما حصل من اتباعه الخضر، كما حكى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك مفصلاً، وقد جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى-، فقوله: {وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} قال: أي **اختبرناه**، ومعنى الظن هنا العلم، ظن أي: علم، {أَنَّمَا فَتَنَّاهُ}، ومعلوم أن الظن يأتي بمعنى العلم، كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة البقرة:٤٦]، يعني: يعلمون ويتيقنون.

وقوله تعالى: {وَخَرَّ رَاكِعًا} أي: ساجداً {وَأَنَابَ}.

الركوع هنا بعضهم كابن العربي -رحمه الله- يقول: لا خلاف أن المقصود به السجود، والواقع أن هناك من خالف في هذا، فبعضهم قال: {وَخَرَّ رَاكِعًا} يعني: الركوع المعروف، والركوع يقال للسجود، ويقال أيضاً للصلاة، فهذا الانحناء يقال له: ركوع، وبعضهم يقول: والسجود هو وضع الجبهة على الأرض، والواقع أنه يعبر بهذا بالركوع عن السجود، {وَخَرَّ رَاكِعًا}، ويدل عليه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قرأها سجد، وكانت في عداد المواضع التي يسجد فيها، ولكنها ليست من عزائم السجود، فدل على أن الركوع أطلق وأريد به السجود، فإن الركوع يقال للانحناء الذي هو بمعنى الركوع الذي نسميه الركوع دون وضع الجبهة على الأرض، ويكون بمعنى وضع الجبهة على الأرض، فكل ذلك يقال له: ركوع، كما يقال السجود للانحناء بمعنى الركوع، وذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [سورة البقرة:٥٨]، وليس المقصود أنهم يدخلون وقد وضعوا جباههم على الأرض، وإنما المقصود يدخلون في حال من الانحناء الذي هو بمعنى الركوع، خضوعاً لله -تبارك وتعالى-، وشكراً على نعمة الفتح، فيقال السجود لهذا، ويقال الركوع أيضاً لهذا، ولا إشكال، {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}.

ولفظة "خر" تشعر بأن المقصود إلى الأرض، أهوى إليها ووضع جبهته على الأرض، {وَأَنَابَ} يعني: رجع إلى الله -تبارك وتعالى- وتاب.

{فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ} أي: ما كان منه، مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

يعني هذه العبارة قد يُتحفظ عليها وقد توجه وتحمل على معنى، وإن كان يذكرها كثير من أهل العلم، ولكن العبارة ليست كما ينبغي -والله تعالى أعلم-، فإن حسنات الأبرار لا تكون سيئات في حق المقربين، وإنما الحسنات تتفاوت وتتفاضل، وقد يكون الشيء مفضولاً، ولكنه يكون فاضلاً في حق بعض الناس، أو في بعض الأوقات، أو بعض الأحوال، أو بعض المواضع.

فقوله: **حسنات الأبرار سيئات المقربين**، حسنات الأبرار لا يقال عنها: إنها سيئات، ولا توصف بهذا بحال من الأحوال، وإنما قصدوا بذلك أن داود -عليه الصلاة والسلام- لم يقع منه معصية، وهكذا يقولون في المواضع التي يذكر الله -عز وجل- فيها هذا المعنى، والواقع أنه لا حاجة لمثل هذا التكلف، -والله تعالى أعلم-، فالله قال عن آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو نبي من الأنبياء، قال: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [سورة طه:١٢١]، فهذا صريح، وآدم -صلى الله عليه وسلم- رجع إلى الله -عز وجل-، قال الله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [سورة البقرة:٣٧]، رجع عليه بالتوبة، فحصل من آدم معصية وهي الأكل من الشجرة، ومن الفوائد المنقولة من كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن حال الإنسان بعد المعصية قد تكون أفضل من حاله قبلها، فتحصل له المعصية فيحصل له انكسار، وتذهب عنه الغفلة ويزول عنه العجب، ورؤية النفس والترفع بالطاعة، وما إلى ذلك، فتكون حاله أحياناً بعد المعصية أفضل من حاله قبلها، ويكون له من أجر التوبة وكذلك ما يحصل من الاستغفار، بالإضافة إلى أنه يتذكر دائماً هذه المعصية فيجدّ ويجتهد في الطاعات، فيكون ذلك رفعة له، وليس كل الناس كذلك، فهنا الله -تبارك وتعالى- أخبر عن داود -صلى الله عليه وسلم- أنه {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}، {وَخَرَّ رَاكِعًا}: **خر ساجداً؛ توبة إلى الله**، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن هذه السجدة كانت توبة من داود -عليه الصلاة والسلام-، قال: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ}، والغفر يدل

على وقوع أمر يُتاب منه، أو يستوجب التوبة، أو يتطلب التوبة، ولكن هل يلزم أن تكون التوبة من معصية في كل الأحوال؟ الجواب: لا، وقد مضى الكلام في الأعمال القلبية على هذه الجزئية في التوبة، من أن التوبة قد تكون من المعصية، تكون من الكفر، تكون من الكبائر، تكون من الصغائر، وتكون من فعل المكروه، ومن خلاف الأولى، وذكرت حينها بعض الأمثلة على ذلك، وكذلك في التوكل، في الكلام على الكيف وطلب الرقية، وحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هل لأحد ممن وقع في ذلك أن يستدرك؟ الجواب: نعم، يمكن أن يتوب، وذكرت الدليل على هذا وهو أن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنه- كانت تسلم عليه الملائكة، ثم بعد ذلك اكتوى فلم يعد ذلك التسليم، لم يعد يسمعه، ثم بعد ذلك تاب، فلما تاب رجع إليه، فالتوبة تنفع من هذا، مع أن الذي فعله ليس بمعصية، يعني: لو أن أحداً اكتوى ثم تاب فيكون قد تاب من فعل المكروه، وقد يتوب الإنسان من فعل خلاف الأولى، وقد يتوب من ترك بعض السنن، إنسان يفرط بالوتر، أو بالسنن الرواتب أو نحو ذلك، فيتوب من هذا، فهذه توبة صحيحة لا إشكال فيها؛ لأن التوبة بمعنى الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى-، فالرجوع يكون تارة من المعصية، وتارة يكون من التقصير بأي وجه كان.

سجدة "ص" ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: السجدة في "ص" ليست من عزائم السجود وقد رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسجد فيها.

ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- سجد في "ص" وقال: ((سجدها داود -عليه السلام- توبة ونسجدها شكراً))[4]، تفرد بروايته النسائي ورجال إسناده كلهم ثقات.

وروى البخاري عند تفسيرها أيضاً عن العوّام قال: سألت مجاهدا عن سجدة "ص" فقال: سألت ابن عباس -رضي الله عنهما-: من أين سجدت؟ فقال: أوَمَا تقرأ: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} [سورة الأنعام:٨٤]، **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه}** [سورة الأنعام:٩٠] **فكان داود -عليه الصلاة السلام- ممن أُمِر نبيكم -صلى الله عليه وسلم- أن يقتدي به، فسجدها داود -عليه الصلاة السلام- فسجدها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-**[5].

---

٤ - رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب سجود القرآن السجودُ في ص، برقم (٩٥٧)، وقال الألباني: "وإسناده صحيح" صحيح أبي داود (١٥٤/٥)، في كلامه على حديث برقم (١٢٧٠).

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:١٣٩]، برقم (٤٨٠٧).

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر "ص" فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تَشَزّن الناس للسجود، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما هي توبة نبي ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم))[٦].

يعني تهيأتم للسجود.

فنزل وسجد، وتفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله -عز وجل- بها وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة؛ لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: ((المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا))[٧].

هنا أثبت الله -تبارك وتعالى- لداود -عليه الصلاة والسلام- بعد توبته المغفرة، وكذلك الزلفى وهو القرب من الله -تبارك وتعالى-، وكذلك حسن المرجع إليه، فهذه بعض آثار التوبة.

{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [سورة ص:٢٦]، هذه وصية من الله -عز وجل- لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده -تبارك وتعالى- ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة -وكان قد قرأ الكتاب- أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسَب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان، قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود -عليه الصلاة والسلام-؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ} الآية.

وقال عكرمة: {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله -سبحانه وتعالى- الموفق للصواب.

النسيان يأتي بمعنى الذهول عن المعلوم، ويأتي بمعنى الترك، وقد مضى هذا مراراً، {نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} يعني: تركوا وأعرضوا عن العمل له والاستعداد للقاء الله -تبارك وتعالى.

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب السجود في "ص"، برقم (١٤١٠)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٤٥٥)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٢٧٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود، برقم (١٢٧١).

٧ - رواه البزار في مسنده، برقم (٢٣٤٠).

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ}، خليفة يعني: تخلف من قبلك من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقد مضى الكلام في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠] يعني: يخلف بعضهم بعضاً، وأنه لا يقال الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن هذا لا يصح، وإنما يخلف بعضهم بعضاً، {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، لم يذكر في مقابل الحق إلا الهوى، فدل على أنه ليس هنا إلا اتباع الحق أو اتباع الهوى، فكل من لم يحكم بالحق فهو حاكم بالهوى، وهذا معنى يحتاج الناس إلى تذكره والوقوف عنده في مثل هذه الأيام، ليس هناك إلا الحق، اتباع الحق، وهو شرع الله -تبارك وتعالى- المنزل، أو اتباع الأهواء، فهذه التي يروج لها، ويسوّق لها في مشارق الأرض ومغاربها من حكم الشعب للشعب، وأن الديمقراطية هي الخيار الأمثل، والأفضل، وأن الحرية بإطلاق هكذا، وما إلى ذلك مما تسمع هتاف الملايين يطالب به، أو أولائك الذين يَعِدون عِدة لهؤلاء الناس من أنهم سيحكمون بينهم بالديمقراطية، وأن الشعب هو المرجع، وأن الشرعية تستمد من الشعب، وما إلى ذلك، هذا كله داخل في قوله: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، فكل من لم يتبع شرع الله -تبارك وتعالى- ويحكّم ذلك في خاصة نفسه، وفيمن تحت يده فإنه يكون إن لم يفعل ذلك يكون متبعاً للهوى، ومن ثم فإن ذلك يضله عن سبيل الله، ثم انظر الوعيد الذي رتبه بعد هذا، قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، نسوا الآخرة، والعمل للآخرة، وصارت الغاية والهمة متوجهة إلى أمور دنيوية من الحريات والمعايش وما إلى ذلك، دون النظر إلى العمل للمعاد، وما يكون من الحساب والجزاء، كل هذا بمنأى، وتجد للأسف الشديد غفلة كبيرة عن مثل هذه المعاني، وإعراضاً عن شرع الله -تبارك وتعالى-، وتصريحاً بمخالفته، وترك العمل والتحاكم إليه، ومن كان بهذه المثابة لا يرجى له أن يسدد ويوفق، وأن يجري على يده الخير والبر والمعروف، والله المستعان.

وما ذكره عن الوليد بن عبد الملك لما قال لإبراهيم: **أيحاسَب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول؟**، يعني هذا السؤال أصلاً كيف ورد، يعني ما منشأ هذا السؤال: أيحاسب الخليفة؟، وهل في هذا تردد، لكنه ينبئ عن معنى، وهو الحال التي يصل إليها بعض الناس أحياناً، ولربما يزين له ذلك بعض من حوله، فربما بلغ الحال أنه قد يشعر أنه فوق هذه المرتبة، وأنه لا يحاسب، وأصحاب عقيدة الحلول والاتحاد هذه العقيدة الفاسدة القائلين: إن الله -تبارك وتعالى- حل بجميع الخلق، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال: إن القول بالحلول وقع به طوائف مثل النصارى حينما قالوا: حل بالمسيح، قال: ووقع به بعضهم حيث زعم أن الله -تبارك وتعالى- حل بالحاكم، ومن ثم فإنه لا يخطئ ولا يتطرق إليه الخطأ، ولا تصدر منه المعصية، ومن ثم فكل ما يقوله إنما هو مظهر من مظاهر الحق، وأن ذلك صادر عن حكم الله -تبارك وتعالى-، فهو لا يسأل عما يفعل، وهذه مصيبة، والذي يوقع في هذا أحياناً النفاق الحامض، وأحياناً الغلو في تبجيل وتعظيم الحاكم فوق ما أمر الله -تبارك وتعالى- به، فإن الله -تبارك وتعالى- أمر بالطاعة، وإنما تكون الطاعة بالمعروف، فإذا وصلت الحالة إلى حال من الغلو في ذلك فإنه قد نصل إلى مثل هذه الأحوال التي قد يستشعر فيها مثل هذا مشاعر غير عادية، فيرِد مثل هذا السؤال: أيحاسب الحاكم؟ ولماذا لا يحاسب؟، أليس من

البشر؟، أليس من خلق الله -عز وجل-؟!، والله يقول لداود -صلى الله عليه وسلم- يأمره بأن يحكم بين الناس بالحق، ولا يتبع الهوى، فالاعتدال في الأمور والتوسط، وللأسف تجد هذا الغلو يورث عند الناس ردود أفعال عنيفة مجافية للحق، فتجد الناس بين إفراط وتفريط، هذا يغلو ويقدس الحاكم وينزهه، ويقول: لا يمكن أن تصدر منه المعصية، ولا الخطأ وما إلى ذلك، فيتسبب عن ذلك نزعة أخرى في الطرف الآخر، فيستنكر كل ما يمكن أن يقال، ما جاء في النصوص صريحاً واضحاً مما أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- من السمع والطاعة ونحو ذلك، والأحاديث التي فيها ((وإنْ ضرب ظهرك وأخذ مالك))[٨]، فبعضهم يتندر بمثل هذه الأحاديث، -نسأل الله العافية-، وبعضهم يحمل ذلك على محامل مستكرهة، وهذا انحراف وخطأ، وذاك أيضاً انحراف وخطأ، وهكذا دائماً تجد الانحرافات، الخوارج والمرجئة، هؤلاء يقولون بقول يتطرفون فيه بهذه الناحية، والآخرون يقابلونه بانحراف آخر، لكنه سؤال عجيب يعني يقف عنده الإنسان أحياناً ويتعجب راداً، كما يقال التحليل النفسي لمن صدر منه مثل هذا القول كيف صدر، وما خلفية هذا القول، وما الدوافع له، أيحاسب الحاكم؟!.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الأَلْبَابِ} [سورة ص:٢٧-٢٩].

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تبارك تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بيّن تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} أي: لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الأَلْبَابِ} أي: ذوو العقول وهي الألباب جمع لب، وهو العقل.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}**، **{بَاطِلا}** يعني: من غير حكمة، يعني أن الله خلقها عبثاً، قال: **{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يذكر معنى وقد دل عليه القرآن وذكره كثير من أهل العلم

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، برقم (١٨٤٧).

كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن المعاد يمكن أن يستدل عليه بالعقل، يمكن إثبات المعاد بالعقل، وحاصل ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأرْضِ}، هذا الاستفهام إنكاري، يعني: أن هذا لا يكون، ودل ذلك على أن مثل هذا الأمر أنه قبيح في نفسه، وهذا يستدل به أهل السنة والجماعة على أن من الأشياء ما يكون له قبح ذاتي، ومسألة التحسين والتقبيح مضى الكلام عليها في بعض المناسبات، وأن المعتزلة يضطردون على قواعدهم ويقولون: إن التحسين والتقبيح كل ذلك مرجعه إلى العقل، وأن الأشاعرة لما كانوا يتناقضون خالفوا أصلهم في هذا من تقديم العقل على النقل، وقالوا: إن مرجع التحسين والتقبيح إلى النقل، فجاءوا بأمور لا يمكن أن يقبلها العقلاء، قالوا: لو أن الله حسن الزنا وأقره لكان حسناً، ولو أن الله حسن الظلم والعقوق والكذب والفجور لكان حسناً، يقصدون بذلك لو أن الله أمر به لكان حسناً، فهم عندهم الحسن والقبح مرتبطان بالأمر والنهي، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأن هناك مقدمة قبل ذلك، وهي أن من الأشياء ما يدرك حسنه أو قبحه بالعقل، هم يقولون: لا مدخل للعقل في هذه الأشياء إطلاقاً، وهذا الكلام غير صحيح، وإنما وقعوا في ذلك بسبب بعض المناظرات مع المعتزلة، فالأشياء على نوعين: منها ما لها حسن أو قبح ذاتي تدركه العقول، مثل الظلم والكذب والفجور، السرقة، وما إلى ذلك، فهذا يدركه العقل، وهناك أشياء لا يدركها العقل فنهى عنها الشرع فدل على أنها قبيحة، فهنا نقول: إنها قبيحة؛ لأن الشرع نهى عنها، والشرع لا ينهى إلا عن شيء قبيح، فهذه هي خلاصة الكلام في هذه المسألة، فأهل السنة يقولون: إن العقل له مدخل في التحسين والتقبيح حيث يدرك حسن أو قبح الأشياء التي لها حسن أو قبح ذاتي، كالعدل مثلاً فهو حسن، الصدق حسن، وما إلى ذلك، فهذه لها حسن ذاتي يدركه العقل، وهناك أشياء لا يدركها العقل، فما أمر به الشارع فهو حسن، وما نهى عنه فهو قبيح، ولا يمكن أن ينهى عن العدل والصدق والفضيلة وما إلى ذلك من العفاف والمعاني الكاملة، أو يأمر بأمور باطلة وفاسدة كالظلم والفجور والفواحش وما إلى ذلك، لا يمكن أن يحصل هذا، فكل ما أمر به الشرع فهو موافق للعقول الصحيحة، فيما كان للعقل فيه مجال أن يدركه.

وقوله: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}، يعني هذا لا يكون لا في الحياة ولا في الممات، كما قال الله -عز وجل-: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [سورة الحشر:٢٠]، فنفيُ الاستواء يحمل على أعم معانيه، لا يستوون بحال من الأحوال، لا في معاشهم ولا في البرزخ، ولا يستوون في يوم معادهم، ولا في موضع القرار في الجنة أو النار، وكذلك ما جاء من الآيات {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ} [سورة السجدة:١٨]، فنفى الله -تبارك وتعالى- التسوية بين هؤلاء وهؤلاء؛ لأن هذا خلاف الحكمة والعدل.

في قوله: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ}، وصف الله -تبارك وتعالى- هذا الكتاب هنا بأنه مبارك، وذكر علة الإنزال قال: {لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ}، فتدبر الآيات بمعنى التفكر والنظر فيما دلت عليه وما تضمنته، وما حوته من ألوان الهدايات والعبر والعظات والمعاني والحكم والأحكام، {وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ}، فالتذكر نتيجة للتدبر فإنه إذا تدبر حصل له التذكر، هنا قال: {لِّيَدَّبَّرُوا

آيَاتِهِ}، وفي القراءة الأخرى {لتدبروا آياته}، فهذه إحدى الآيات الأربع في التدبر، {أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}، فهي عامة للجميع، وفي الآيات الأخرى وردت آيتان في المنافقين وهي قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء:٨٢]، {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [سورة محمد:٢٤]، وفي موضعٍ ذكرَ الله ذلك في حق الكافرين {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ} [سورة المؤمنون:٦٨]، فهنا ذكر الله -تبارك وتعالى- علة إنزال القرآن، وهي التدبر، ومن ثَم التذكر الذي يعقبه العمل والامتثال، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ص من الآية (٣٠) إلى الآية (٤٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [سورة ص:٣٠-٣٣].

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً كما قال -عز وجل-: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} أي: في النبوة وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر.

وقوله تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} أي: إذ عرض على سليمان -عليه الصلاة والسلام- في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع، وكذا قال غير واحد من السلف.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}، يقول: ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله -عز وجل-، فسليمان -عليه الصلاة والسلام- أعطاه الله -تبارك وتعالى- من الكمالات أموراً كثيرة لا تخفى، وقد قص الله -تبارك وتعالى- خبره في هذه السورة وفي سورة الأنبياء، وذكر أنه أعطاه ملكاً استجابة لدعائه، حينما قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} [سورة ص:٣٥]، فأعطاه الله ذلك كله، مع ما أعطاه من ألوان النعم، حيث سخر له ما سخر، ومع ذلك فالله -تبارك وتعالى- يثني عليه بأنه {أَوَّابٌ}، يعني لم يكن الثناء بالعطاء الدنيوي والملك، مع أن سيلمان -عليه الصلاة والسلام- كما سيأتي حينما سأل المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده فإنه لم يسأل ذلك حباً في الدنيا وتعلقاً بها، وإنما سأل ذلك لمعنى شريف، ويأتي الكلام على هذه المسألة، فهذا معنى يحتاج الإنسان أن يقف عنده وأن يعلم أن العطاء الدنيوي مهما بلغ فإن هذه الأوصاف الكاملة من الأوبة إلى الله، كثرة الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى-، والإنابة إليه، والعبادة له -جل جلاله- هي الأعظم والأكمل والأوفى من العطاء الذي يعطيه الله -عز وجل- لعباده.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، العشيّ: من الظهر أو العصر إلى آخر النهار، كل هذا يقال له: العشي.

وقوله -تبارك وتعالى- في الآية التي قبلها: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} هذا في سليمان -عليه الصلاة والسلام-، كما ذكر الحافظ ابن كثير، مع أن بعض المفسرين يقول: هذا في داود -صلى الله عليه وسلم-، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ} أي: داود، والذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود به سليمان -عليه الصلاة والسلام-، {نِعْمَ الْعَبْدُ} هو، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو سليمان -عليه الصلاة والسلام-، والذين يقولون: إنه داود قالوا: هذا في معرض ذكر ما أنعم الله به على داود، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ} أنعم الله عليه وتفضل وأعطاه هذه الهبة العظيمة، وهو هذا الولد الذي ورثه في النبوة، لكن هذا لا يخلو من بعد، -والله أعلم-، لكن معوَّلهم ذِكْر ما أعطى داود -عليه الصلاة والسلام-، والواقع أن هذا شروع في الكلام على خبر سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وما أنعم الله به عليه، فكان هذا مدخله.

وقوله: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} يقول: الخيل الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، هذا معنى مشهور، وقال به بعض أصحاب المعاني كالزجَّاج، وبعضهم لم يقيد ذلك بما ذكر من الخيل، وإنما عمم الصافن في الواقف من الخيل أو غيرها، الصافنات يعني: الواقفات، هذا قال به بعض أصحاب المعاني كالفراء، وقال به من السلف قتادة، وبعضهم قيده بقيد آخر كأبي عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله- قال: هو الذي يصُفّ يديه ويسويهما، يعني ما قال: يقف على ثلاث مثلاً وطرف حافر الرابعة، أو يقف على ثلاث مطلقاً، وإنما قال: يصُفّ يديه، صافنات بمعنى أنها تصُفّ، تجمع يديها وتُسويهما، فالمشهور -والله أعلم- هو الأول، ولكن هؤلاء جميعاً من أئمة اللغة الكبار، واختلفوا في تحديد معنى الصافنات تحديداً دقيقاً، لكن هذه المعاني التي ذكروها تشترك في كونها واقفة وإن اختلفت في صفة الوقوف، والأمر في ذلك يسير، والخيل كما تعلمون حتى في نومه يكون واقفاً.

قال: {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، الجياد هنا قال: **السراع، وكذا غير واحد من السلف**، هذا يقال للفرس إذا كانت شديدة العدو –السرعة-، يقال له: جواد، وتجمع على جياد، وبعضهم يقول غير هذا، يقول: الصافنات الجياد التي توصف بطول العنق، وهذه من صفات الجمال والكمال في الخيل، وليس في مزايين الإبل، فطول العنق في الخيل مأخوذ من الجِّيد وهو العنق، {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، ولعل الأول -والله أعلم- هو الأشهر.

قال: وروى أبو داود عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة -رضي الله عنها- لُعَب فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((ما هذا يا عائشة؟)) قالت: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، قال: ((ما هذا الذي أرى وسطهن؟)) قالت -رضي الله عنها-: فرس، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((وما هذا الذي عليه؟)) قالت -رضي الله عنها-: جناحان، قال رسول الله -صلى الله عليه

وسلم-: ((فرس له جناحان؟!)) قالت -رضي الله عنها-: أما سمعت أن لسليمان -عليه الصلاة والسلام- خيلاً لها أجنحة؟ قالت -رضي الله عنها-: "فضحك -صلى الله عليه وسلم- حتى رأيت نواجذه"[١].

الرقاع: يعني الجلود، من جلد.

يعني الآن هل يؤخذ من هذا الإقرار؟، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقرها على ذلك، وأن هذه الخيل لسليمان -عليه الصلاة والسلام- كان لها أجنحة، يعني أن ضحكه -صلى الله عليه وسلم- كان للإقرار؟ الذي يظهر أنه ليس كذلك، إنما كانت صغيرة فكأنه كان يعجب من قولها، وإلا فإن الصارف له عن أن يكون من قبيل الإقرار أنه لو كان ذلك واقعاً وحاصلاً وموجوداً لما تعجب منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، خيل لها أجنحة!، لو كانت خيل سليمان -عليه الصلاة والسلام- لها أجنحة لما تعجب النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا من جهة، ومن جهة أخرى -والله تعالى أعلم- أنها لو كان لها أجنحة لكان ذلك أولى بالوصف في ذكر كمالها، وما يخرج عن عادة مثلها، أن يذكر هذا في صفتها، فإن الله -تبارك وتعالى- قال: **{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}**، فذكر أمراً معهوداً في الخيل، فلو كان فيها صفة خارجة عن هذا وهي من أعجب الأشياء؛ لأن الخيل هي أسرع ما يكون من الدواب، ولذلك تستعمل في الإغارة على الأعداء، كما قال الله -عز وجل-: **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}** [سورة الحشر:٦]، فالخيل للإغارة، فلو كان لها أجنحة لكان ذلك أعظم في فتكها ونكايتها في العدو، فهي كانت في ذلك الوقت سلاحاً ضارباً في الحرب، لو كانت من ذوات الأجنحة لكان الشأن أكبر وأعظم، وماذا يؤخذ من هذا الحديث، وإن كان ليس هذا هو المقصود، يعني أننا لا نستطرد في مثل هذه الأشياء لكن التوسعة في لعب الأطفال، وهل يقيد هذا في العرائس البنات، أو حتى الحيوانات؟ يؤخذ منه أنه حتى الحيوانات في لعب البنات لا إشكال فيها، -والله أعلم-، وهذا تستغربونه؛ لأنكم لربما تسمعون دائماً أن المرخص به هو العرائس، لكن ما تقولون في هذا؟ خيل لها أجنحة، فأقرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن عائشة لما وضعت الستار الذي فيه الصور لذوات الأرواح وقف بين البابين وغضب، ورفض الدخول -عليه الصلاة والسلام- حتى شقته، فعد ذلك من المنكر العظيم، لكن في هذه ضحك -صلى الله عليه وسلم- وأقرها، وما قال: أتلفيه، وهي خيل، فيرخص في لعب البنات بمثل هذا، يعني لا يُخص بالعرائس البنات، لو كان عند البنت لعبة أخرى من الحيوانات ونحو هذا فلا إشكال في هذا، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شُغل النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر -رضي الله عنه- قال: جاء عمر -رضي الله عنه- يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله ما كدت أصلي

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في اللعب بالبنات، برقم (٤٩٣٢)، وأحمد في المسند، برقم (٧٨٨١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، إسماعيل بن عمر الواسطي من رجاله، ومَن فوقه من رجال الشيخين"، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم (٣٢٦٥).

العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والله ما صليتها)) فقال: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ نبي الله -صلى الله عليه وسلم- للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[٢].

هنا قوله: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}، عُرِضت عليه بالعشي، والعشي يكون بعد الظهر، أو بعد العصر، وعلى هذا المعنى الذي ذكر يكون ذلك بعد الظهر حيث فاتت صلاة العصر، {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}.

{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}، أحببت: بعضهم كالفراء يقول: إنه مضمن معنى آثرت، ونحن سبق لنا الكلام على التضمين في مناسبات شتى، أن يضمن الفعل معنى الفعل، وقلنا: إن هذا أبلغ من تضمين الحرف معنى الحرف، وإن هذا يُحتاج إليه في التعدية، يعني هنا: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} مجيء "عن" هنا مع {أَحْبَبْتُ}، أحببت عن، فهنا يمكن أن يقال: إن أحببت مضمن معنى فعل آخر يصح تعديته بعن، فيكون فيه معنى أحببت ومعنى آخر: آثرت، فقال: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}، والذين يقولون بتضمين الحرف معنى الحرف، يقولون: إن "عن" من حروف الجر، مضمن معنى حرف آخر وهو "على" ويستريحون، يعني: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} يعني: على ذكر ربي.

وقوله: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ}، الخير يقولون: المقصود بها الخيل، أنها هي المقصودة بقوله: {الْخَيْرِ}، في هذا المقام، وإلا فالخير كما هو معلوم لا يفسر بالخيل، لكن هنا في هذا المقام فسر بالخيل، ومن قال به من أصحاب المعاني الفراء والزجَّاج، وعللوا هذا، الذين قالوا: إنها الخيل عللوا هذا بتعليل، قالوا: النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة))، وقالوا: لكثرة خير الخيل قيل لها: خير؛ ولذلك يقال: الخيل والخير، يقولون: هما بمعنى واحد، يعبر عن الخيل وتسمى بهذا وهذا، {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}، فالتي توارت بالحجاب بعضهم يقول: الشمس، وعليه فالضمير يرجع إلى غير مذكور، الشمس لا ذكر لها، فيكون هذا أحد أمثلة عود الضمير على غير مذكور، لكنه يفهم من السياق، مثل: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١]، أنزلناه يعني: القرآن، ولم يكن له ذكر قبل ذلك، فعلى هذا -أن المقصود بها الشمس- تكون الشمس قد غابت ولم يصل العصر، وابن جرير -رحمه الله- يفسر قوله -تبارك وتعالى-: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي}، يقول: حتى سهوت عن ذكر ربي، {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}، وبعضهم يقول: إن الضمير في قوله: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} يعود إلى الخيل، أنها انطلقت إلى مدى حتى غابت فلم يعد يراها، ثم قال: {رُدُّوهَا عَلَيَّ}؛ لأنها ذهبت شوطاً وأبعدت حتى غابت عن ناظره، ثم قال: {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}، كما يفعل أصحاب الخيل، على هذا المعنى الثاني: يمسح أعناقها ويمسح سوقها، والخيل إذا انطلقت تجري وأسرعت فإنها تعرق، كما هو معلوم، وأصحاب الخيل يعرفون هذا، ويمسحونها، على هذا المعنى، فهذان قولان معروفان، والأشهر أنها الشمس حتى فاتته صلاة العصر، وبعض أهل العلم ينكر هذا ويقول: هذا لا يكون من نبي أن يشتغل بشيء

---

٢ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، برقم (٤١١٢).

من عرض الدنيا عن صلاة العصر، ويقولون: المقصود بها الخيل، وأنه لم يقم بنحرها، وإنما كان يمسحها كما هي عادة أهل الخيل، وأنه لا ذنب لهذه، يعني يستشكلون القول بأنه قام بعقرها ونحرها، ويقولون: لا معنى لهذا ولا ذنب لها، وأن هذا من تضييع المال وإفساده، فكيف يقوم به نبي معصوم؟!، والذين يقولون: إنها الشمس غابت، وإنه قام بعقر الخيل، يقولون: هذا لا إشكال فيه، فإن اشتغاله بها لم يكن من قبيل الاشتغال بالدنيا ومحبة الدنيا وعرض الدنيا، فعنده ملك وعنده من الأزواج والجواري الحسان الشيء الكثير، وإنما كان ذلك لاشتغاله بالجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، كما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اشتغل في المعركة عن الصلاة فما صلاها إلا بعد المغرب، شغلوه عن صلاة العصر، فكان هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يشتغلون بمحابّ الله ومرضاته، كما جاء عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يجهز الجيش في الصلاة، وقد تكلم أهل العلم على هذا ومنهم الشاطبي في الموافقات، فهل هذا يكون من قبيل النقص أن يشتغل في صلاته عن أمر هو خارج عنها؟، وتكلم على هذا الحافظ ابن القيم بكلام قد يضيق عنه العطن، وذكر أن ذلك كمال في حقه وليس بنقص، فاجتمع في قلبه الإقبال على الصلاة مع الاشتغال بمحابّ الله -تبارك وتعالى-، فهو يجهز الجيش وهو في صلاته مع أنه مقبل عليها، وأن ذلك يجتمع في القلوب الكبيرة، كما يجتمع الرضا بقدر الله -عز وجل- مع الرقة والرحمة، وهذا لا يتأتى لكثير من الناس، ولهذا تكلم على ما جرى ووقع من الفضيل بن عياض لما مات ولده ضحك، فلما سئل عن هذا يعني علله بأنه يحب أن يرى الله -تبارك وتعالى- منه الرضا بالقضاء، فقال: هذا نقص، والكمال هو ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث دمعت عينه ورق قلبه رحمة لهذا الميت مع أنه كامل الرضا، فتجتمع الرحمة والرضا، وأن كثيراً من الناس لا يحتمل هذا، فإما أن يحصل في قلبه هذا أو هذا، وكذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في هذه المسألة في القلوب الكبيرة من اجتماع العقوبة للإنسان الذي أساء وارتكب ما يوجب عليه العقوبة أو الحد كقطع اليد ونحو ذلك، وأنه في الوقت نفسه يُحَب بقدر ما عنده من إيمان، ويُعطَى من بيت المال ما يكفيه ويغنيه عن السرقة أو ارتكاب الجريمة، وذكر أن مثل هذا يجتمع في قلوب أهل السنة والجماعة، يعني: البغض من وجه والحب من وجه، وإقامة العقوبة عليه من وجه والرحمة به من وجه والإحسان إليه.

وابن جرير -رحمه الله- يرجح القول المشهور أن التي توارت بالحجاب هي الشمس.

ذكرت هذا: ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شُغل النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الخندق عن صلاة العصر. وهذا كلام ابن جرير قال: حتى سهوت عن ذكر ربي، قطعاً هو لم يتركها عمداً.

قال: قال الله تعالى: {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ}.

قال الحسن البصري: قال: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وكذا قال قتادة.

وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وهذا كما سبق هو المشهور، وبه قال من أصحاب المعاني الفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وعلى هذا إذا قلت: إنه عقر الخيل، فمعنى ذلك أن المقصود بـــ {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} هي الشمس، ولم يفعل ذلك عقوبة للخيل، يعني هذا من إجابات القائلين بهذا القول على الاعتراض الذي ذكرت آنفاً، ما ذنب هذه الخيل؟ هو لم يفعله عقوبة لها، فهي لا ذنب لها، قالوا: ولكنه جعل ذلك في سبيل الله، بمعنى أنه أطعمها الفقراء والمساكين، والخيل كما هو معلوم يجوز أكلها، والله تعالى أعلم.

ولذلك يبنون على هذا القول ويرتبون عليه في أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، يقولون: لما عقر الخيل لله -تبارك وتعالى- طلباً لمرضاته عوضه الله -عز وجل- بالريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب.

قال: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها.

هذا عكس المعنى السابق، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بهذا الإسناد، وقال به أيضاً من السلف الزهري وقتادة.

قال: وهذا القول اختاره ابن جرير قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها.

وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضباً لله -عز وجل- بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة.

بهذا أجاب آخرون كالزجاج، ولكن لا يلزم أن يقال بالضرورة: إن ذلك كان عقوبة لها، وإنه كان جائزاً في شرعهم، بل في مضامين جواب غيره أن ذلك -كما سبق- فعله تقرباً إلى الله -تبارك وتعالى-، نحر هذه الخيل وعقرها، وبالمناسبة كلمة "النحر" تستعمل في الإبل وغيرها، حتى في الغنم، وإن كان المشهور أن النحر يكون في الإبل، والذبح في الغنم والبقر، والجواب السابق الذي ذكره أنه في مضامين كلام بعض أهل العلم أنه فعل ذلك تقرباً إلى الله وليس عقوبة للخيل.

ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله -عز وجل- ما هو خير منها وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

وروى الإمام أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء -وكانا يكثران السفر نحو البيت- قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجعل يعلمني مما علمه الله -عز وجل- وقال: ((إنك لا تدع شيئا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله خيرا منه))[٣].

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [سورة ص:٣٤-٤٠].

---

٣ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٩٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٣٦٤).

يقول تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ} أي: اختبرناه، {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا}، لم يبين الله تعالى حقيقة هذا الجسد الذي ألقاه على كرسيه، فنحن نؤمن أن الله تعالى اختبره بإلقاء الجسد على كرسيه، ولا نعرف ما هو، وكل ما قيل حوله فهو من الإسرائيليات، لا نعرف صدقه من كذبه، والله أعلم.

هنا في هذا الموضع كلام كثير وروايات كثيرة جداً من الإسرائيليات، فيما وقع لسليمان -عليه الصلاة والسلام- من هذا الفَتْن والاختبار، {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ} أي: اختبرناه، والفَتْن أصله كما مضى في بعض المناسبات: إدخال الشيء في النار؛ ليتبين خالصه من زائفه، أي: أن الله -تبارك وتعالى- ابتلاه واختبره، فحصل له ما حصل، فألقي على كرسيه وسرير الملك، على عرشه، قال: {جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}، ما هذا الاختبار الذي وقع، وما هذا الجسد الذي ألقي على كرسيه؟ هذه الروايات الإسرائيلية الكثيرة لا يمكن أن يفسر القرآن بشيء منها، والله -تبارك وتعالى- أبهمه هنا، فلا حاجة للاشتغال بتحديده، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **إن هذه الروايات الإسرائيلية مما لا نعرف صدقه من كذبه**، بل نعرف كذب كثير من هذه الروايات؛ لأنها لا تليق بمقام النبوة بحال من الأحوال، واليهود كما هو معلوم يقدحون بأنبياء الله -تبارك وتعالى- وينسبون إليهم ما يتنزهون عنه، وما نزههم الله وبرأهم منه، يذكرون أشياء لا تليق بحال من الأحوال، قصة الجرادة، امرأة يقال لها: الجرادة، وأشياء من هذا القبيل، ويدل على كذبها وتهافتها التناقض الواقع فيها، مختلقات وأكاذيب، ومفتريات تقدح في مقام هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، من كل وجه، سواء قالوا بأنه أراد أن يتزوج امرأة كافرة، فطلب منها أن تسلم، وأنها أخبرته أن القتل أقرب إليها من الإسلام وأحب، وأنه تزوج لشدة جمالها تزوج منها، إلى آخره، وأن الله عاقبه بهذا، هذا كذب ولا يليق بمقام النبوة، وكذلك ما يذكرون من الأكاذيب والأباطيل أنه لما خرج من الحمام أعطى الجرادة خاتمه، وأنه جاء شيطان، وتمثل بصورة سليمان، وأنه أخذه منها وجلس على سريره، فهذا هو الجسد، شيطان، وجاءت تسميته بأسماء مختلفة في هذه الروايات المختلقة، ويذكرون في هذا أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما خرج إليها أنكرته وما عرفته، وكذبته، وأنه صار طريداً لا يجد شيئاً، حتى لا يجد شيئاً يأكله، وأن الناس أنكروه، وأنه ذهب إلى امرأته ليطلب منها شيئاً يأكله، فأعطته سمكة، فلما شق بطنها وجد فيه الخاتم، وأن معنى {أَنَابَ} أي: رجع إلى ملكه، أو أنه صار يشتغل، فحمل لرجل يصيد السمك على أن يعطيه سمكة من هذا السمك كأجرة، فأعطاه سمكة فلما شق بطنها وجد خاتمه فيه، فرجع إليه ملكه، وهذه كلها أكاذيب، كيف يصير، كيف يتسلط الشيطان على نبي من أنبياء الله -عز وجل-، ويجلس على كرسيه؟!، بل يذكرون أقبح من هذا، وأقذر من هذا، يذكرون أشياء يتنزه عنها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، والله لا يفعل ذلك بأنبيائه، قالوا: إنه سأل أزواجه عن شيء إن كنّ ينكرن شيئاً مما يفعله، فقلن: كان لا يأتينا في حال الحيض والآن يأتينا في حال الحيض، يعني أن هذا الشيطان سلط حتى على زوجاته، وإنما ذكرت هذا لبيان تهافت هذه الأشياء؛ لأن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **لا نعلم صدقه من كذبه**، فأردت أن أبين أننا نعلم كذب هذه الأشياء، ولا نتوقف فيها، وكما مضى في بعض المناسبات أن الروايات الإسرائيلية على ثلاثة أنواع، ونحن لا نذكرها ولا نشتغل بها أصلاً، حتى لو كانت مما نتوقف فيه، لا نذكرها في تفسير كلام الله -عز وجل-، والسلف إنما يذكرون ما يذكرون منها من باب الاستئناس لا من باب الاعتماد، وهم لا يفسرون القرآن بها، وللشيخ أحمد

شاكر -رحمه الله- كلام جيد في مقدمة اختصاره لتفسير ابن كثير، والكلام المعروف الذي ذكره الحافظ ابن حجر، وغير الحافظ ابن حجر: أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع: قسم يخالف ما عندنا فنكذبه، كهذه الروايات، وقسم يوافق ما عندنا فيقبل، وقسم لم يرد ما يوافقه أو يخالفه فنتوقف فيه، قالوا: وهذا الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٤]، مع النوع الثاني الذي يوافق ما عندنا، فهذا الذي لا نصدق به ولا نكذب، لكن هذه الأشياء التي تقدح في الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- نكذبها، وهذه الروايات يذكرون أن الشيطان أراد أن يتسلط عليه، وذكروا أشياء، ومدارها على أن ملك سليمان وكل ما يتعلق بالجن والإنس حتى الزوجات ما كن يعرفنه إلا بخاتمه، يعني: كأنه لما خلع الخاتم تغير كل شيء، حتى أنكرته زوجاته، ما عرفوه، أنكروه، وأقرب الناس إليه وأخص الناس به أنكروه، فما عرفوه، فذهب لا يجد شيئاً يطعمه، هل هذا يعقل أنه كان يسخر هذا الملك جميعاً بخاتم، إذاً هذا الخاتم وقع بيد شيطان فصار هذا التسخير لشيطان؟!، ولهذا يقولون في هذه الروايات، أو في بعض هذه الروايات: إن الشيطان هذا لما عرف أنه قد كشف حاله، فجاءوا ونسخوا كتب السحر، ووضعوها تحت كرسي سليمان، فلما رجع سليمان استخرجوها وقالوا: سليمان كان يسخر الجن بهذه الكتب، بالسحر يعني، وهذا يذكرونه عند قوله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} [سورة البقرة:١٠٢]، فهذا كله من الإسرائيليات التي لا يمكن أن تقبل ولا يصدق بها، والله تعالى أعلم.

فاختبرناه، قال: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا} هذا الجسد أقرب ما يفسر به هو ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بخبر سليمان لما قال: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، ولم يقل: إن شاء الله، فولدت امرأة بعض إنسان، يعني إنساناً ناقصاً في الخلق، قالوا: هذا هو المقصود، {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} يعني: رجع إلى الله وعرف أنه ترك الاستثناء، والعلماء يتكلمون على هذا عند قوله تعالى في سورة الكهف: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف:٢٣-٢٤] في أن الاستثناء لا يصح أن يكون منفكاً -كما هو قول الجمهور- متراخياً عن اليمين، قالوا: ولو كان ذلك يصح لقال سليمان بعده: إن شاء الله، والله أعلم.

وابن جرير -رحمه الله- فسره بأن هذا الجسد شيطان، ومعوّله في ذلك هذه الروايات، وأن قوله: {ثُمَّ أَنَابَ}، ليس المقصود به التوبة، وإنما المقصود به أنه رجع إلى ملكه كما تقدم في قصة الخاتم، ولكن مثل هذا إنما مبناه على هذه الروايات الإسرائيلية، والله أعلم.

قال: {ثُمَّ أَنَابَ} أي: بعد هذا الاختبار أناب إليه تعالى ودعا وطلب منه المغفرة.

هو هذا وليس معناه أنه رجع إلى ملكه، وهذا هو المتبادر في القرآن، يعني إذا ذكرت الإنابة فالمقصود بها الرجوع والتوبة إلى -تبارك وتعالى.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦١).

قال: ودعا وطلب منه المغفرة، وطلب حكماً لا ينبغي لأحد بعده، {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، قال بعضهم: {لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} أي: إنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية.

أنه لا ينبغي لأحد من بعده، أنه يختص به، وبعضهم يقول: {لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} إن هذا متصل بما ذكر قبله بأنه سلب الملك ثم رجع إلى ملكه مرة أخرى فقال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}، قالوا: لا يُسلب مني، لا يتمكن أحد أن يسلبه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- بناءً على ما سبق، فإذا قيل: إن المعنى الأول غير صحيح أي الذي ذكره في أن ذلك المقصود به شيطان، وأنه سلط على ملكه، وأن {أَنَابَ} رجع إلى ملكه، فكذلك هنا يقال: إن هذا المعنى غير صحيح، {لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} يعني: أي يسلبه، لا، وإنما يكون في شيء يختص به، ويدل على ذلك الحديث الذي يشير إليه، أو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من قول النبي -صلى الله عليه وسلم.

قال: وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه قال: ((إن عفريتا من الجن تَفَلَّت عليّ البارحة -أو كلمة نحوها- ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان -عليه الصلاة والسلام-: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي}.

قال رَوْح: فرده خاسئاً[٥]، وكذا رواه مسلم والنسائي.

هذا الحديث واضح، وهو مرتبط بالآية، ومن ثَم يُقال: إذا جاء التفسير عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا يصح العدول عنه بحال من الأحوال، فهذا تفسير نبوي مرتبط بالآية، ليس من اجتهاد المفسر الذي يصيب ويخطئ، فدل على أن هذا المُلك الذي سأله شيء يختص به، وإلا فلو كان المقصود أنه لا يسلب من بعدي، لا يتمكن أحد من سلبه فإن سليمان -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته انتقل الملك عنه وارتفع، ولا يوصف بعد موته بأن ملكه باقٍ وأنه لا يزول، وإنما ملك البشر يزول، ويبقى ملك الله -تبارك وتعالى-، فيكون المراد أنه شيء يختص به، ولذلك ترك النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا العفريت، ومن هنا يقال لأولائك الذين يزعمون أنهم يتسلطون على الجن برقية ونحو ذلك، يقال: هذه الرقى يمكن أن تسبب ضيقاً وإزعاجاً لهؤلاء الشيطان، فيخرجون من جسد هذا الذي تلبسوا به، لكن أن يصير هذا الإنسان الراقي ونحو ذلك أن يصير متسلطاً على هؤلاء الجن بحيث يتصرف فيهم فهذا الكلام غير صحيح، وأقول هذا؛ لأن بعض هؤلاء يزعم أنه يفعل ذلك، وأنه يتسلط عليهم، وأنهم يطيعونه، وأنهم يستجيبون لما يقول، ويذكرون في هذا أشياء، وبعضهم قد لا يصرح بهذا، ولكن حاله تدل عليه، ويبدو أن غالب من يتعاطى الرقية ويشتغل بها أنهم يستعينون بالجن، بعضهم يصرح بهذا، ويزعم أنهم من الجن المسلمين، ويعرض الخدمات على من يثق به، وربما جاء إلى المريض أو المصاب أو الممسوس أو من يتوهم ذلك، وعرض عليه، بل وأخبره أنه يدفع إليه

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الأسير -أو الغريم- يربط في المسجد، برقم (٤٦١).

نفراً من الجن، سبعة أو أكثر، وربما مع أسرهم يصاحبونه حيثما ذهب، وأنهم يحمونه، وأنهم يقاتلون دونه، يقاتلون المردة من الشياطين، وما إلى ذلك من أمور ومختلقات الله أعلم بصحتها، لكن الذي أعرفه وأتيقنه أن الأمر كما قال الله -عز وجل-: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [سورة الجن:٦]، فهذا الشيء الذي نراه عياناً، أن هؤلاء الذين يتعلقون بهم ويلجئون إليهم، ولو زعموا أنهم من المسلمين، أن ذلك لا يزيدهم إلا رهقاً، فهم لا يبرءون من عللهم وإنما ينتقلون من بلاء إلى بلاء، ومن أمور الله أعلم بها من الأوهام الكبيرة -أي الواسعة-، حتى ظن بعضهم أنه يخوض المعارك، وأخبروه أو أنهم أوهموه أو أنهم زينوا وصوروا له أن بيده سيفاً ضارباً، وأنه لا يزال يفتك بالمردة من الجن، وأنه يخوض المعارك في ليله ونهاره، وأنه قتل منهم خلقاً عظيماً، وأنه صار أقوى من هؤلاء الذين جاءوا لحمايته والذب عنه وما إلى ذلك من أمور، هذه الأمور إذا دخل الإنسان بها فعند ذلك ستختلط عليه الأمور، وسيبقى في متاهة لا حد لها، لا يقف عند شيء، وبعض الذين يشتغلون بهذا من أوقات أو نحو ذلك لربما أوقعهم هذا في أنواع من السحر للأسف، وبعضهم صار يبيع الخواتم، وبعض هؤلاء قد يكون على عقيدة صحيحة قبل ذلك، ولربما يدعو إليها ويتحول بعد ذلك إلى عبد للشيطان، وإلى ساحر من السحرة، وأعرف من هذا أشياء وأشياء، تحوّل هؤلاء، وبعضهم أُخذ بجرمه، يعني بعضهم عوقب وحبس بهذا، والبداية كانت رقية، اشتغال بالرقية، وأذكر أن الشيخ عبد الفتاح سلامة كان من العلماء السلفيين في مصر، من مؤسسي جماعة أنصار السنة المحمدية، من زملاء الشيخ محمد حامد الفقي -رحمه الله-، كان يقول: بعض الذين اشتغلوا عندنا بالرقى من أصحاب العقيدة الصحيحة، يقول: بعضهم تحول إلى سحرة ومشعوذين، وهكذا تلاعب الشيطان بالناس، والله المستعان.

فهؤلاء الذي يتوسعون في هذا ويسجلون أشرطة ويتكلمون، بل بعضهم كان يخوف الطلاب دائماً، ويوهم الطلاب ويرسل لهم رسائل مباشرة وغير مباشرة، في ثنايا الكلام أنه لديه قدرات ومتمكن من الجن، فكان حتى في الأشياء التربوية والتعليمية وما إلى ذلك يخبرني بنفسه أنه إذا رأى بين اثنين من الطلاب علاقة فيها ريبة جاء بأحدهما، وقال له: تخبرني الآن أو سيخبرني غيرك، هو لربما يلبس خاتماً، لكنه ليس فيه سحر، أنا أعرف أنه ليس به، لكن هؤلاء يظنون، فهو يوهمهم بطريقة أو بأخرى، فيجلس الطالب يبكي ويرتعد، ثم يخبره عن الخيط والمخيط وعن كل شيء، مما سأله عنه ومما عرفه، ومما لم يعرفه، ومما خطر في باله، وما استراب منه، وما لم يسترب، ويعطيه كل ما يتعلق بحياته، يقول له: ستخبرني وإلا كذا -يعني يهدده-، ويتكلم معهم بأشياء يقول: عندي شيطان صغير أضعه في ميدالية، أنقله معي حيث شئت، وأخبرني آخر أنه يؤذن فبمجرد ما يؤذن يحضر المارد، العلامة بينه وبين المارد هو الأذان، أخبرني بنفسه، قال: إن شئت حضر الآن، هذا في مكة، وذاك في المغرب، المارد في المغرب، وهذا في مكة في الحرم، رجل ملتحٍ ولابس عمامة، قال: بيني وبينه الأذان، كيف هذا المارد سُخر لك؟ قال: كان في إنسان ورقيته واستعنت بالله -عز وجل-، وطال ذلك، طال أمده، ثم بعد ذلك هداه الله وأسلم وصار طيّعاً لي يأتي حيث شئت، بمجرد ما أؤذن يحضر المارد، لا أحدث عن آخرين، أنا سمعته بنفسي.

فانظروا إلى أي حد بلغ هؤلاء في أمور قد تكون حقيقية فيتلاعب بهم الشياطين، وأمور قد تكون موهومة، لكنهم يتلاعبون بهم في كل حال، وقد يعطونهم في البداية أشياء ثم بعد ذلك يتحول الأمر إلى عبادة لهم، يستذلونهم، {وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [سورة النور:٢١].

قال: وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي فسمعناه يقول: ((أعوذ بالله منك))، ثم قال: ((ألعنك بلعنة الله)) -ثلاثا- وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك -ثلاث مرات-، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يتأخر -ثلاث مرات- ثم أردت أخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة))[٦].

وقوله تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} قال الحسن البصري -رحمه الله-: لما عقر سليمان -عليه الصلاة والسلام- الخيل غضباً لله -عز وجل- عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر.

هذا المعنى جميل وجيد، وكما سبق في بعض المناسبات قد تجد المعنى الذي يروقك، ومثل هذا الموضع من المواضع التي تكون في التدبر هي مما يرفع الناس إليه أبصارهم، يعني: قوية ذات معنى يأسر النفوس، المعاني التي تذكر في التدبر هي أنواع، وفي شهر شعبان الماضي جردت الكتب الخمسة التي صدرت عن مركز التدبر، ورأيت أن الأشياء التي تذكر هي على ثلاثة أنواع، نوع هو خطأ في التفسير أصلاً وفي المعنى، فُهمت الآية على غير وجهها، فذكر معنى بناءً عليه غير صحيح، فهذا ليس من التدبر، وليس من التفسير، وإنما هو غلط، كقول بعضهم مثلاً: {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [سورة المرسلات:٣٢-٣٣]، يقول: {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} يعني: أن الشرر الذي نراه في الدنيا بمجرد ما يتطاير ينطفئ ويذهب توهجه، بينما هذا يستمر في التوهج لقوته وشدة حرارته فيبقى على حاله {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}، هنا فسر الجمالة بأن لونها أصفر، بينما الصفر في ألوان الإبل المقصود به السواد، وقد مضى الكلام على هذا، {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء} [سورة البقرة:٦٩] يعني: سوداء، هنّ صفرٌ أولادها كالزبيب، كل هذا مضى، فهو فاهم أن الصفرة هي الصفرة المعروفة، وأن الشرر يتوهج، هذا الكلام غير صحيح، فهو مبني على معنى غير صحيح، فهناك أشياء من هذا القبيل، والنوع الثاني ليس من التدبر، هي مجرد معانٍ في التفسير، تفسير للآية فقط، النوع الثالث هي أشياء من التدبر وهي على مراتب، فالذي بهذه الصفة التي ذكرت، يعني ما يأسر السامعين هذه قليلة قد لا تتجاوز أصابع اليدين، أقصد في هذه الكتب الخمسة، وربما تختلف مقاييس الناس وأنظار الناس، فمثل هذه هي معنى يأسر النفوس، من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، لما عقر الخيل، لكن لاحظوا أنه على أحد المعنيين، ونرجع نكون مثل أصحاب الإعجاز، نحن نقول لهم: قولوا: على أحد المعنيين، فيذهب الزخم الذي أرادوه وقصدوه في ما ذكروا من الإعجاز لو قالوا: هذا على أحد القولين، هذا

---

٦ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، والتعوذ منه، وجواز العمل القليل في الصلاة، برقم (٥٤٢).

على قول فلان، فكذلك في قضايا التدبر إذا قيل: هذا على أحد المعنيين، يعني لا يكون بقوة أن تذكر هذا جزماً بلا تردد، ومثل كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، أحياناً يكون ليس على أحد القولين، وإنما يكون أحياناً فيه ما يعكر عليه، قول ابن القيم -رحمه الله- عند قوله -تبارك وتعالى-، لكن الإنسان أحياناً ينسى نفسه، ابن القيم -رحمه الله- لما تكلم على قوله تعالى في قصة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما جاءته الملائكة وبشروا امرأته بالولد، فصكت وجهها وقالت: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [سورة الذاريات:٢٩]، هكذا أدب المرأة المسلمة مع الرجال، في كلمتين كل واحدة تضمنت علة تمنع من الإنجاب بمفردها، فكيف باجتماع الأمرين: عجوز وعقيم؟!، فالمرأة لا تتوسع في الكلام مع الرجال الأجانب، معنى جميل، لكن قوله في الآية الأخرى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [سورة هود:٧٢]، هل يستطيع أن يذكر هذا المعنى في هذا الموضع، مع أن القصة واحدة؟، وإنما قالت كلاماً واحداً، ولكنه اختلف والمضمون واحد، بسبب أن المنقول من كلام هؤلاء المتكلمين من غير العرب إنما هو بمعناه، فتارة يذكر بسياق أطول، وتارة يختصر ويذكر المضمون، المقصود هو الترجمة، نقل المعنى، فمثل هذا المعنى جميل لكن قد ينغص هذا الجمال ما ذكرت.

قوله: {رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}، رخاءً يعني: رخوة بمعنى أنها لينة في هبوبها وجريها، فهذا المعنى الآن كونها رخاءً يرد عليه إشكال، وهذا معناها أنها رخوة لينة في هبوبها، لكن الآن في هذا المعنى هنا في سورة ص قد يشكل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} [سورة الأنبياء:٨١]، والعاصفة هي شديدة الهبوب، قوية، فهنا قال: {رُخَاءً} فبعض أهل العلم أجابوا عن هذا بإجابات، فبعضهم يقول: إن قوله هنا: {رُخَاءً} هي: لينة، وهناك قال: {عَاصِفَةً}، أي رخاء في قوة العاصفة، فوصفها من حيث التأثير والسرعة، {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سورة سبأ:١٢]، وقد مضى الكلام على هذا، أنها عاصفة، ووصفها هنا في لينها وفي سهولتها وما إلى ذلك بأنها {رُخَاءً}.

وبعضهم يقول: إن الموصوف هناك بكونها عاصفة هذا في رجوعها إلى الأرض التي بارك الله فيها، وهي موطن سليمان -عليه الصلاة والسلام- وهي الشام، {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [سورة الأنبياء:٧١]، قالوا: قيده بهذا في سورة الأنبياء، فهي إذا كانت راجعة إلى الشام فإنها تكون عاصفة تسرع به، وأما في الذهاب فإنها تكون لينة رخوة وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: إن ذلك من أوصافها حيث إنها في حال رفعها لهم، يعني حينما ترفع الجيش تكون قوية عاصفة، فإذا ارتفعوا فإنها تكون رخوة لينة، يعني كما يعبر الآن في الطيران بالإقلاع، يكون الدفع قويا جداً، وإذا استقام سيرها وارتفعوا تكون رخوة لينة، وبعضهم يقول: هي رخوة في نفسها، ولكنها عاصفة في عملها، وتأثيرها حيث تؤدي ما تؤديه الريح العاصف، والله تعالى أعلم.

قال: وقوله -جل وعلا-: {حَيْثُ أَصَابَ} أي: حيث أراد من البلاد.

كما تقول: أصابك الله بخير، بمعنى أرادك بخير، {حَيْثُ أَصَابَ} حيث أراد، وهنا يرد سؤال وهو أنه في سورة الأنبياء قال: {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}، وهنا قال: {حَيْثُ أَصَابَ}، فهي تنقله ليس فقط إلى الأرض التي هي الشام، وإنما هذا في رجوعها إلى مقر مملكته، وإلا فإنها تنقله منها إلى حيث أراد، وهذا من أعجب الأشياء، جيش بكامله يُنقلون على متن الريح، بما معهم من سلاح ودواب، ومؤن، {وَقُدُورٍ

رَّاسِيَاتٍ} [سورة سبأ:١٣] وما إلى ذلك من أشياء، ينقلهم بالريح، فهذا من العطاء الذي أعطاه الله -عز وجل- لسليمان -عليه الصلاة والسلام- والله يختص بفضله ورحمته من يشاء، فهذا من الأمور العجيبة.

وقوله -جل جلاله-: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها.

كما قص الله -عز وجل- في سورة الأنبياء بتفصيل أكثر من هذا، {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا} [سورة الأنبياء:٨٢]، هذه في الأنبياء {وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ}، العمل الذي دون ذلك هو كل الأعمال التي يزاولونها من البناء، ولا زالت بعض الأشياء حتى في شعر العرب القديم، يعني في أيام الجاهلية، وفي صدر الإسلام يذكرون بعض الآثار التي لا زالت موجودة في أطراف الشام وفي الأردن وفي تدمر ونحو ذلك، يقولون: الشائع عند العرب أن هذا مما صنع الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، أي أمور عجيبة قد لا يتوصل إليها البشر ولا يطيقونها، ولا تزال توجد بعض الآبار المنحوتة نحتاً دقيقاً في الصخر، يعني كأنها نحتت بآلات دقيقة، ملساء في قلب الصخر، فلا زالت موجودة إلى اليوم، يزعمون أن ذلك مما حفرته الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهذه أمور الله أعلم بها، ونحن أخبرنا القرآن أن ثمّة ممالك ممكَّنة وأمم قوية جداً، وأن الله -عز وجل- قد أعطاهم من أسباب القوة والتمكين، وأنهم أثاروا الأرض وعمروها، فقد يكون عندهم من الوسائل والآلات، ونقوش هؤلاء -مُلك غير مُلك سليمان -عليه الصلاة والسلام- تدل على دقتهم، ينقشون على الحجر نقوشاً في غاية الدقة، يرسمون فيها ويصورون صور الطير وغير ذلك بشيء قد تعجز عنه الآلات، وهذه أيضاً الأهرام وما إلى ذلك من الأصنام الموجودة والمنحوتة بأحجام ضخمة جداً تدل على أمم ممكنة قوية، قد يكون عندهم من أسباب التمكين المادي ما لم يوجد في عصرنا هذا، ولكن الإنسان لا يعرف إلا عصره، ويظن أن هذا هو نهاية المطاف في القوة والتمكين، وما ذلك إلا لعجز الإنسان وضعفه وقصر نظره.

قال: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ} أي: موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

الأصفاد هي الأغلال، سواء كان المصفد بالسلاسل –الحديد- فشدت شداً موثقاً بقوة، يعني كلما شددته شداً محكماً موثقاً قوياً فقد صفدته، فهؤلاء من المردة الكبار، الشياطين العتاة، منهم من هو مصفد، وقد جاء بعض الآثار فيمن تتلاعب بهم الشياطين فتضلهم أن من هذه الشياطين ما هو موثق أوثقه سليمان -عليه الصلاة والسلام- في البحر، وأنه يوشك أن تُطلق، فتأتي وتحدث الناس.

قال: وقوله -عز وجل-: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا فأَعطِ من شئتَ واحرمْ من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، يعني: أعطِ من شئت واحرمْ من شئت من هذا الملك والعطاء، وهذا أعم من قول من قال: إن ذلك يتعلق بهؤلاء الجن والشياطين الذين سخروا له، بأنه يُبقي من شاء منهم، ويأسر من شاء منهم، ويستعمل في الخدمة أو الأعمال الشاقة من شاء منهم، ويمنن على آخرين فيطلقهم ولا يُحاسَب ولا يُسأل عن ذلك، والمُلك هو التصرف المطلق كما هو معلوم في كلام العرب.

قال: وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما خُيِّر بين أن يكون عبدًا رسولا -وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به- وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح[٧]، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل -عليه الصلاة والسلام- فقال له: تواضع، فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة؛ ولهذا لما ذكر -تبارك وتعالى- ما أعطى سليمان -عليه الصلاة والسلام- في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} أي: في الدار الآخرة.

يعني أن ذلك لم يُنقص من حظه في الآخرة، وهذه مسألة العلماء تكلموا عليها، تكلم عليها الشاطبي -رحمه الله- في الموافقات، وتكلم الحافظ ابن القيم، العطاء الدنيوي هل يكون نقصاً في حظ الإنسان من الآخرة؟ فالذين يقولون: إنه ينقصه يحتجون بالآثار الواردة عن السلف، أشياء عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يترك بعض الطيبات، والتوسع في المباحات فكأنه يتأول قوله -تبارك وتعالى-: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا} [سورة الأحقاف:٢٠]، وكذلك ما جاء عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم- من الصحابة، لربما بكى الواحد منهم حينما يتذكر إخوانه الذين قتلوا، وما حصل لهم شيء من السعة في الدنيا وتحصيل المغانم، فكانوا يخافون أن يكون قد عُجلت لهم، أو عُجل لهم بعض أجورهم، وكذلك ما جاء في بعض الأحاديث في كون الغزاة إذا حصّلوا الغنيمة فقد تعجلوا شطر أجرهم، فكل هذه الأمور مجتمعة يحتج بها من يقول: إن هذا العطاء الدنيوي وهذا التوسع في هذه الأمور المباحة وما إلى ذلك يكون نقصاً في حظ صاحبه، لكن هذا لا يرد في حق سليمان -عليه الصلاة والسلام-: أولاً: لأن الله عقب ذلك بقوله: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى} قرْب من الله -تبارك وتعالى-، {وَحُسْنَ مَآبٍ}، حسن العاقبة، هنا عممها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الدنيا والآخرة، حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

وذكْر الدنيا هنا لا معنى له، وإنما في الآخرة، {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}، فهذا يدل على أن ذلك لا يُنقص حتى على القول بأن العطاء الدنيوي الكثير يكون نقصاً في حظ صاحبه، فهذا غير وارد هنا، الأمر الثاني: أن هذا المُلك الذي سأله سليمان، وما أشرت إليه قبلُ لم يكن تعلقاً بالدنيا وحباً لها وجمعاً لحطامها كما هو فِعْل لربما مَن قل حظه من معرفة الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة، وإنما طلب ذلك لمعنى، هذا المعنى بعض أهل العلم قال: إنه طلب ذلك ليسخره للجهاد في سبيل الله، والدعوة إليه والعمل بمرضاته، فهذا يكون قد طلبها للآخرة، وبعضهم يقول: لما وقع له هذا الابتلاء أراد أن يعرف منزلته عند الله بعده فطلب

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٧١٦٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٣٦٥)، وقال محققه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

هذا، فأجابه الله إليه، وبعضهم يقول ما هو قريب من هذا، يقولون: إنه طلب ذلك من أجل أن يكون له، يعني أن يخصه الله -تبارك وتعالى- بأمر يبين به فضله ومنزلته عند الله -جل جلاله-، وهذا قريب من الذي قبله، فهذا يرجع إلى أنه ما طلب الدنيا، ما طلب هذا الملك من أجل التعلق بالحطام الدنيوي، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أبعد الناس عن هذا، ولهذا لما عرضت عليه ملكة سبأ الهدايا وبعثت بها إليه ردها كما سبق، وأخبرهم أن ما آتاه الله -عز وجل- أفضل مما يعطونه ويقدمون إليه.

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص:٤١-٤٤].

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب -عليه السلام- وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا فَسُلبَ جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها.

يعني رُمي بمزبلة، على مزبلة من مزابل البلدة، هذا كله من الروايات الإسرائيلية التي لا يعول عليها، الروايات الإسرائيلية في هذا أيضاً كثيرة جداً كما سبق في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وما ألقي على كرسيه مما ذكر الله -عز وجل-، فهنا هذه الروايات الإسرائيلية كثيرة في صفة البلاء الذي وقع لأيوب -صلى الله عليه وسلم-، وما سبب هذا البلاء.

قال: ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته -رضي الله عنها-، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءاً إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المَطال واشتد الحال وانتهى القدر المقدور وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} وفي هذه الآية الكريمة قال: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، قيل: بنُصب في بدني وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله تعالى عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، أكثر ما يذكر هنا في ذلك من الروايات إنما هي مما تلقي عن بني إسرائيل، وقول أيوب -عليه الصلاة والسلام-: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، هذه قراءة الجمهور، وقرئ بفتح فسكون (بنَصْبٍ وعذاب)، وقرئ أيضاً بضمتين (بنُصُبٍ وعذاب)، وهذه القراءات ترجع إلى معنى واحد، لا فرق بينها من جهة المعنى عند الجمهور، عامة أهل العلم يقولون: المعنى متحد، وإنما ذلك يرجع إلى اختلاف اللغات، وبعضهم فرق فقال: إن هذه المادة إذا كانت بفتحتين قيل: (نَصَب) فهو التعب والعناء، وما كان بغير ذلك فإنه يكون بمعنى الشر،

{أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} يعني: بشر، وهنا ذكر النُّصْب وذكر العذاب، فذكر أمرين، فبعضهم يقول: هذا النُّصْب هو في الجسد، والعذاب في المال، ما وقع له من المرض في الجسد هذا هو النُّصْب، والعذاب ما وقع له في ولده وماله، يعني ما كان خارجاً عن جسده، وهذا الذي قال به كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف كقتادة ومقاتل، وبعضهم يقول غير ذلك، بعضهم يقول: إن الأول هو التعب، {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ} يعني: بتعب، {وَعَذَابٍ} أي: ألم، أن العذاب هو الألم، وهنا أسند ذلك إلى الشيطان {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، أسنده إلى الشيطان، وبعضهم يقول: أسنده إليه تأدباً، وفي الآية الأخرى {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ} [سورة الأنبياء:٨٣] فلم يسنده، والمراد بإسناده إلى الشيطان أن هذا كله يرجع إلى الروايات الإسرائيلية، وهي روايات كثيرة جداً لا يعول على شيء منها، لكن حتى يتضح ما تضمنته هذه الروايات مما يرجع إليه أقوال كثير من المفسرين في إسناد ذلك إلى الشيطان، ووجه ذلك، بعضهم يقول: إن الشيطان كان هو السبب في وقوع هذا البلاء لأيوب -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أنه صدر من أيوب -عليه الصلاة والسلام- شيء من التقصير، فوقع له هذا البلاء؛ ليرفعه الله -عز وجل- وليطهره، وما إلى ذلك، هكذا يقولون، على اختلاف في هذه الروايات، ما الذي حصل، يعني سواءً قيل: إنه استغاثه رجل مثلاً فلم يغثه، أو غير هذا مما يذكرون، وبعض هذه الأشياء التي يذكرونها لا تليق بحال من الأحوال بنبي من الأنبياء، فالمقصود أن مرجع هذه الروايات جملة إلى هذه الروايات الإسرائيلية، إلى أن الذي حصل هو تقصير في حق الله -عز وجل- أو في حق بعض خلقه مما أمر الله -عز وجل- بالقيام به، فأدى ذلك إلى هذا الابتلاء، فأضاف ذلك إلى الشيطان، باعتبار أن هذا الخطأ الذي وقع أو التقصير الذي حصل أنه من تسويل الشيطان وتزيينه، فأضافه إلى الشيطان بهذا الاعتبار، وجملة كبيرة من هذه الروايات على أن هذا الذي وقع له إنما كان من تسلط الشيطان، هذه روايات كثيرة، وفيها تفاصيل لا يعول على شيء منها، أن التسلط وقع على جسده، ووقع على ماله، ووقع على ولده، فأصابه الضر في جسده هذه السنين الطويلة، في الروايات الإسرائيلية طبعاً مختلفة، لكنه صح في الحديث أنها ثماني عشرة سنة، وفي تفاصيل ما وقع له في جسده كل ذلك يرجع إلى الروايات الإسرائيلية، لا يعول عليه، المهم أنه وقع له الضر في ولده، مات ولده جميعاً، وفي ماله قالوا: كان له أموال كثيرة، وغنم، وبقر، وإبل، وأن ذلك جميعاً قد ذهب، ويذكرون تفاصيل في هذا لا يعول على شيء منها؛ لهذا قالوا: إن قوله: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، قال: النُّصْب في الجسد والعذاب ما كان خارجاً عنه، الذي هو في المال والولد، فذهب ماله وولده، وبعضهم يقول: {مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} إن الشيطان زيّن لأتباعه فرفضوه، وتركوه، ولم يبق معه أحد، وبعضهم يقول: إن هذا الذي أضافه إلى الشيطان إنما المقصود به الوسوسة، أن الشيطان كان يوسوس له في حال المرض، ويقنطه من رحمة الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن هذا الذي وقع له من الشيطان حيث كان يأتيه الشيطان بعد وقوع الضر وبعد هلاك أنواع المال في كل مرة، وكذا الولد، كان يأتيه شياطين ويقولون له: إن ربك فعل بك كذا وكذا، فقال: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}.

قال: وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن نبي الله أيوب -عليه السلام- لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب

والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم -والله- لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشفَ ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب -عليه الصلاة والسلام-: لا أدري ما تقول غير أن الله -عز وجل- يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله -عز وجل-، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده..)).

يعني المقصود أنه بلغ هذه المنزلة، وهذه المرتبة من المراتب الكاملة، والخبيئة العظيمة، فإذا كان ينزه الله -تبارك وتعالى- من أن يذكر في موضع خصومة فيذهب يكفر عن هؤلاء فكيف يُظن به أنه أذنب ذنباً عظيماً فعاقبه الله -عز وجل- بهذا الضر؟!.

قال: ((فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ)).

يعني إذا ذهب إلى الخلاء.

قال: ((فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله تبارك تعالى إلى أيوب -عليه الصلاة والسلام-، أن {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} فاستبطأته فتلقته تنظر فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أيْ بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً)).

"على ذلك" يعني: هي لم تعرفه، مع ذلك تقول: أنت تشبهه حينما كان صحيحاً.

قال: ((فإني أنا هو، قال: وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب...)).

الأندر هو البيدر الذي يوضع فيه الحب فيداس ليخرج ويتخلص من سنبله، كما هو معروف، يعني يأتون بالحبوب القمح مثلاً أو نحو هذا فيوضع في هذا المكان –البيدر-، وتدوسه الدواب، فيتخلص من سنبله، ثم بعد ذلك يجمعونه، كان له أندران.

قال: ((أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض))[٨] هذا لفظ ابن جرير.

هذا حديث صحيح، وهو غاية ما ورد في خبر أيوب -صلى الله عليه وسلم-، مع الحديث الآخر المعروف المشهور أنه حينما كان يغتسل أنه وقع له جراد من ذهب فجعل يحثو[٩].. إلى آخره.

فالشاهد أن مثل هذا الحديث دلَّ على سبب الدعاء، وأن ذلك بسبب ما قيل من أنه بسبب ذنب عظيم أصابه، ودلَّ على تحديد المدة، أنها ثماني عشرة سنة، وأنه بهذا الضر قد تغير حتى إن امرأته لم تعرفه لما عاد إلى حاله الأولى.

---

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/٢١١-٢١٢).

٩ - رواه البخاري، باب قول الله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣] {ارْكُضْ} [ص: ٤٢]: اضْرِبْ، {يَرْكُضُونَ} [الأنبياء:١٢]: يَعْدُونَ، برقم (٣٣٩١).

وروى الإمام أحمد عن أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب -عليه الصلاة والسلام- يحثو في ثوبه، فناداه ربه -عز وجل-: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك))**[١٠] انفرد بإخراجه البخاري.

ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ}، قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

هنا: آتيناه أهله ومثلهم معهم، بعضهم يقول: أحياهم له، وزاده مثل هؤلاء الأهل، وبعضهم يقول: لا، إن الله عوضه عنهم غيرهم وزاد على هؤلاء الذين عوضهم، يعني إذا كان أولاده مثلاً عشرة فإن الله عوضه بعشرة وزاده أيضاً عشرة، وقيل: جمَعَهم بعدما تفرقوا، إذ كانوا ما هلكوا.

قال: وقوله -عز وجل-: {رَحْمَةً مِنَّا} أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، {وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ} أي: لذوي العقول ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

قوله: **{وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ}** وفي سورة الأنبياء في نفس القصة ختمها بقوله: **{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}** [سورة الأنبياء:٨٤]، وقد مضى هناك ذكْر معنى لطيف، وهو ما يستخرج بدلالة الإشارة عند الأصوليين بالجمع بين الآيتين، **{وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ}** و**{وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}**، فإذا جمعت بين هذا وهذا يساوي النتيجة أن العابدين هم أولو الألباب؛ لهذا يقولون: لو أوصى الرجل بماله لأعقل أهل البلد فإنه يُعطَى للأصلح والأعبد لله -عز وجل-، وأن أولي الألباب هم الذين عرفوا الله -تبارك وتعالى- وعبدوه وعملوا بطاعته.

قال: وقوله -جلت عظمته-: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ} وذلك أن أيوب -عليه الصلاة والسلام- كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله -عز وجل- أن يأخذ ضغثاً وهو: الشِّمْراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برّت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال -جل وعلا-: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

هنا في قوله: **{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ}**، الضغث، هنا قال الحافظ ابن كثير: هو الشمراخ فيه مائة قضيب، والضغث يصدق على الشمراخ وغيره، لكن هذه الكلمة في أصلها تدل على أخلاط مجتمعة، قالوا: **{أَضْغَاثُ أَحْلامٍ}** [سورة يوسف:٤٤] أضغاث أي: أخلاط، قالوا: فالأضغاث جمع ضغث وهو الشيء المجتمع، سواء كان ذلك من حشائش أو كان من شمراخ، شماريخ النخل، وشمراخ النخل هو الذي يكون فيه الرطب، وكذلك قد يكون من فروع أشجار أو نحو هذا مختلطٌ الرطب فيها باليابس، فكان حلف أن يضربها كما يدل عليه السياق، فقال الله -عز وجل- له: **{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ}**، فيكون قد بر بيمينه وحقق ذلك بشيء لا يضرها ولا يؤذيها، والفقهاء -رحمهم الله- يستنبط بعضهم من هذا أن من حلف أن

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ}** [الفتح:١٥]، برقم (٧٤٩٣)، وأحمد في المسند، برقم (٨١٥٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

يضرب إنساناً مثلاً مائة ضربة أنه ممكن أن يأخذ شمراخاً وفيه مائة من القضبان، فيضرب به السياط، ويكون قد بر بيمينه، لكن هذا ليس محل اتفاق، بعضهم كالشافعي -رحمه الله- يقول: ما لم ينوِ أو يقيد ذلك بالشديد، فقال: ضرباً شديداً، أو نوى أن يضربه ضرباً بعصا أو سوط أو نحو ذلك فلا يجزئه أن يكون تحلّة قسم بضربة واحدة؛ لأن مقصوده هو أن يعاقبه عقوبة شديدة، وهذا نموذج أو مثال على ما يستخرج من القصص من الأحكام، فإن العلماء -رحمهم الله- حينما تكلموا على أحكام القرآن فإن الغالب أنهم تكلموا على الآيات المباشرة التي سيقت لتقرير الأحكام، وهذا الذي يسمونه بالخمسمائة آية، كما ألف في هذا مقاتل وغيره، وعلى هذا جرى كثير من المؤلفين في أحكام القرآن، ولكن بعضهم كالقرطبي -رحمه الله- فسر القرآن بكامله ويستخرج الأحكام من مثل هذه المواضع -القصص-، فيقولون: لو تأتي مسألة شرع من قبلنا، وقد ورد في هذا حديث، في ضرب رجل مقعد، لو صح الحديث فيكون ذلك من شرعنا، لكن شرع غيرنا، شرع من قبلنا، هل هو شرع لنا أو لا؟ المقصود أنه لا يوجد في شرعنا ما يخالفه، فإذا وجد ما يخالفه فليس بشرع لنا.

قال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} **أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه** {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} أي: **رَجّاع منيب؛ ولهذا قال -جل جلاله-:** {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [سورة الطلاق:٢-٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ص من الآية (٤٥) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} [سورة ص:٤٥-٤٩]: يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ} يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {أُولِي الأَيْدِي} يقول: أولي القوة {وَالأَبْصَارِ} يقول: الفقه في الدين.

وقال قتادة والسدي: أُعطُوا قوة في العبادة وبَصرًا في الدين.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ}، قال الحافظ -رحمه الله-: **يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة**، يعني {أُولِي الأَيْدِي} يعني: أصحاب القوة العملية، {وَالأَبْصَارِ} ذلك يعني القوة العلمية، يعني البصيرة في الدين، وباجتماع هذين الأمرين يكون الكمال للعبد، فبحسب قوته العملية مع قوته العلمية يكون كماله، وذلك أن القوة العملية من غير بصيرة لا شك أن ذلك نقص يوقعه في ألوان الانحرافات في السلوك والاعتقاد والعمل، وكذلك إذا كان هذا الإنسان لديه قوة علمية وبصيرة ولكنه ليس له عمل فإنه يكون ناقصاً؛ لأن المقصود من العلم العمل، مع أن البصيرة ليست هي مجرد العلم، ولكنها تعني نوراً يقذفه الله -عز وجل- في قلب العبد يميز به بين الحق والباطل، ومعدن الحق ومعدن الشبهات، فيتعرف بذلك النور حقائق الأشياء على ما هي، ولا يلتبس عليه الحق بالباطل، وهذا لا يتأتى للإنسان إلا بعمل وعبادة، واجتهاد في طاعة الله -عز وجل-، وتوقي الحرام مع حفظ حدود الله -جل جلاله-، بالإضافة إلى ألوان المجاهدات مع العلم، فالاجتهاد في العمل وحده لا تنفتح معه البصيرة وتكتمل، كما أن الاجتهاد في العلم وحده بالنظر البحث بعيداً عن العمل واللجأ إلى الله -تبارك وتعالى-، وطلب التوفيق منه، والإخبات وحياة القلب وما إلى ذلك، كل هذا لا تنفتح معه البصيرة، فالله -عز وجل- أثنى على هؤلاء الكُمل من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بهذين الوصفين، {أُولِي الأَيْدِي} أصحاب القوة العملية في طاعة الله -عز وجل-، وهذه الطاعة والقوة العملية يدخل فيها التعبدات

الخاصة قيام الليل وصيام النهار، وألوان العبوديات القاصرة، ويدخل فيها العبادات المتعدية من الدعوة إلى الله -عز وجل-، فهم أقوياء في دعوتهم، نشطاء لا يتوقفون، لا يكل الواحد منهم ولا يمل من تبليغ دين الله -عز وجل-، ومجاهدة أعدائه، {أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ}، فالنشاط وحده والقوة والتوقد والحيوية وما إلى ذلك مطلب، والعلم والاشتغال به مطلب، ولكن لابد من اجتماع الأمرين، فإذا اجتمعا استنار القلب، فيكون له هذه الخاصية والصفة التي تقوى وتضعف وهي بمنزلة نظر العين، فالبصيرة هي نظر القلب، وتقوى وتضعف كما يضعف ويقوى نظر العين، هذه هي البصيرة، {أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ}، إذاً الجاهلون قد يُفسدون ولا يصلحون بأعمالهم واجتهاداتهم سواء كان ذلك في دعوتهم أو في عبادتهم الخاصة، وما إلى ذلك، يقعون في البدع، يقعون في المخالفات المتنوعة، وإذا عمل في الدعوة جاء بمخالفات وأمور، حتى إنك في كثير من الأحيان قد تحتاج إلى احتساب على هؤلاء كما تحتسب على كثير من أصحاب المنكرات في أمور مخالفة، ولربما تكون ظاهرة أمام الناس في إعلانات، وهي مخالفات وأمور منكرة في الشرع تتعجب كيف تصدر عن طريق هذه الجهة الخيرية أو الدعوية التي قصد أصحابها طلب ما عند الله -تبارك وتعالى-، لكن بسبب الجهل يقعون في مثل هذه الأمور، فإن اشتغل في أمور إغاثية أو نحو ذلك تصرّف في الأموال تصرفات لا تبرأ بها الذمة، وهو يريد ما عند الله -عز وجل-، فيتحمل في ذمته أشياء بسبب هذه الاجتهادات التي لم تصدر ممن تأهل للاجتهاد والنظر في مثل هذه الأمور، فيرتكب أموراً يلحقه فيها الحرج باجتهاده، وقل مثل ذلك إذا اشتغل بعمل من الأعمال القاصرة أو المتعدية، فإذاً لابد من اجتماع الأمرين، فالكمال بحسب ما يحصل للعبد منهما {أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ} عمل ببصيرة، والحديث في مثل هذا ذو شجون ويطول، ولكن ليس هو المقصود في مثل هذه المجالس.

فما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قال هنا: **يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة، والبصيرة النافذة**، هذا الذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، ونقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {أُولِي الأَيْدِي} يقول: **أولي القوة والعبادة**، {وَالأَبْصَارِ} يقول: **الفقه في الدين**، وهذا مثل الذي قبله.

وقال قتادة والسدي: أُعطُوا قوة في العبادة وبصراً في الدين، وهذا كله يرجع إلى ما سبق، وهذا هو قول الجمهور، بل نقل النحاس اتفاق أهل العلم على أن المراد بالأبصار –البصائر- في الدين العلم، يعني: لم يقل أحد مثلاً: إن المقصود بالأبصار بصر العين مثلاً، ليس هذا هو المراد بحال من الأحوال، لكن الذي اختلفوا فيه هنا هو الأيدي، {أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ}، فإن الجمهور يقولون: الأيدي يعني القوة في العبادة، والجانب العملي، يعني القوة في الدين في خاصتهم وفيما يكون متعدياً في دعوتهم وجهادهم وبذلهم وما إلى ذلك، وبعضهم يفسر الأيدي هنا بالنعمة، {أُولِي الأَيْدِي} تقول: فلان له أيدٍ على الناس يعني: له فضل ونعمة وإحسان على هؤلاء الناس، فهم يحسنون إلى الناس بألوان الإحسان، لهم أيادٍ بيضاء على الناس، وبعضهم يفسر الأيدي أيضاً بالنعمة، لكن يحمل ذلك على أنهم {أُولِي الأَيْدِي} يعني: الذين أنعم الله عليهم، يعني أنهم من المُنعَم عليهم، الذين حصلوا حظاً وافراً من نعم الله -عز وجل- عليهم، هؤلاء كلهم يفسرون الأيدي بالنعم، لكن الأولين يقولون: المقصود إفضالهم على الناس وإنعامهم، والآخرون قالوا: المقصود أن الله أنعم

عليهم، {أُولِي الأَيْدِي} يعني: الذين أنعم الله عليهم وحباهم وأولاهم وأعطاهم وامتن عليهم بكثير من النعم، وكأن ابن جرير -رحمه الله- في بعض كلامه يميل إلى تفسير الأيدي بالنعم، أصحاب النعمة يعني: الذين أنعم الله عليهم، كأنه يميل إلى هذا، مع أنه في بعض كلامه يقول ما ظاهره موافقة من قالوا: القوة العلمية والقوة العملية.

والقراءات المتواترة في هذا الموضع، {أُولِي الأَيْدِي} قرأ بالياء على قراءة الجمهور، وعلى هذا فهي جمع يد، الأيدي جمع يد، ولكن في قراءة أخرى غير متواترة مروية عن ابن مسعود والأعمش والحسن البصري {الأيد}، وهذه القراءة تحتمل، فالأيدي جمع يد، ومن فسره بالنعمة على هذه القراءة فله وجه {الأَيْدِي}، لما ذكر الله -عز وجل- داود قال: {ذَا الْأَيْدِ} يعني: ذا القوة، وقال: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [سورة الذاريات:٤٧] بدون ياء، والأيد في لغة العرب القوة، الأيد غير الأيدي، الأيدي جمع يد، والأيد بدون ياء تعني القوة في لغة العرب، هذا ليس بتأويل، هذه مادة وهذه مادة، هذه لفظة وهذه لفظة، ليس هذا من التأويل في شيء، فهنا عندنا في هذا الموضع {أُولِي الأَيْدِي} هذا ممكن أن يحمل على القوة، {أُولِي الأَيْدِي} ويمكن أن يحمل على النعم وما إلى ذلك، والآية تحتمل أن يكون المعنى -كما سبق- أصحاب القوة العلمية والعملية، والمعنى الثاني: أنهم أصحاب إحسان إلى الناس، إلا على قول من قال: المقصود بالأيدي أن الله أنعم عليهم وأحسن إليهم، أصحاب إحسان إلى الناس، وبصائر في الدين، فيكون بذلهم وإحسانهم ونفعهم على بصيرة، كما قال الله -عز وجل-: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف:١٠٨]، ولا شك أن من أعظم الإحسان إلى الناس تبليغ دين الله، وتعليم الناس دينهم، ودعوتهم إلى الله -تبارك وتعالى-، وهداية الناس، تقديم الهداية للناس هذه أعظم ما يمكن أن يقدم لهم، ((لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم))[1]، فهذا من أياديهم البيضاء على الناس، {أُولِي الأَيْدِي} فيكون ذلك على بصيرة، {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، فلا يكون ذلك على جهل، وهذه الدعوة التي يعملون بها هي من جملة العمل عند من فسر ذلك بأصحاب القوة العملية كما سبق، فيكون هذا القول الثاني مضمناً في القول الأول، فالقول الأول أعم من هذا القول الثاني.

والآية فيها هذا الاحتمال والعلم عند الله -عز وجل.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها، وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها.

وقال قتادة: كانوا يُذَكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

هنا هذه صفة أخرى ذكرها، صفة ثالثة، الأولى {أُولِي الأَيْدِي} الثانية: {وَالأَبْصَارِ} أصحاب البصائر، ثم قال: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، برقم (٣٠٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٦).

قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها، يعني: بمعنى هذا فيه معنى الإخلاص، يعني: أنهم لا يريدون بعملهم سوى الله -تبارك وتعالى-، العمل للدار الآخرة، لا يعملون من أجل أن يحصلوا عرضاً من الدنيا، وهذه صفة عظيمة، من أعظم أوصاف الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- من الرسل وأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وذلك مضمن في قوله تعالى: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ}**، يعني: لا يدعو إلى نفسه، لا يدعو إلى طائفة غير طائفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحزبه، ولا يدعو ليحصّل مكاسب دنيوية في هذه الدعوة، فيتحول إلى تاجر، ولا يدعو من أجل أن يحصل جاهاً ومنزلة وحظوة في قلوب الناس، فيكون له من الجماهير والمتابعين ما يفتن به، فيتحول هذا إلى هم -نسأل الله العافية-، بل لربما يلبس عليه الشيطان فيظن أن هذا هو المعيار في كون الإنسان على حق أو على باطل، والعاقل إذا أراد الله به خيراً وفتح بصيرته نظر في بعض من لا يُشَك بل يُتفق على ضلالهم من المُجّان أو من أصحاب الديانات الأخرى الفاسدة الباطلة، ولربما تجد نصرانياً لا يساوي نعله التي يلبسها ويتابعه الملايين، يتابعه لربما أكثر من مائتي مليون في برنامج يقدمه، وهذا موجود في الإحصاءات والدراسات التي ينشرها الغرب، وعالم الإعلام الجديد كما تعرفون تجد بعض المُجّان الذي يُتفق على أنه من المُجّان يتابعه خلق كبير من الناس أكثر من المتابعين للدعاة إلى الله وطلبة العلم من المصلحين، ناس لا خلاق لهم، وتجد لهم الأتباع، والله -عز وجل- أخبر عن حزب الشيطان، **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [سورة الأنعام:١١٦]، فليس المعيار هو الكثرة، فيبحث الإنسان عنها ويضيع آخرته، وينسى ما خلق من أجله، فالطريق هو لزوم السنة ظاهراً وباطناً، وطلب ما عند الله -تبارك وتعالى-، **{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}** كما سيأتي، فهذا الأجر تارة يكون مالاً، وتارة يكون رئاسة، وتارة يكون هذا الأجر جاهاً يحصله وما إلى ذلك من أمور هي حظ للنفس، أعظم من المال؛ لأن المال إنما يبذل من أجل تحصيل هذه المطالب والمكاسب الدنيّة، فهنا الله -عز وجل- يقول: **{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}**، هم يعملون للآخرة، يريدون بعملهم هذا ما عند الله -تبارك وتعالى-، لا أن يُقدَّموا في الناس، ولا أن يكون لهم منزلة وحظوة في قلوب الخلق، فهذا هو الرياء الذي يبطل الأعمال، قال: **وكذا قال السدي**، يعني: ذكرهم للآخرة وعملهم لها، **{ذِكْرَى الدَّارِ}**، يعني أن الآخرة بين أعينهم، لا يفارق ذكرها قلوبهم، ملازمة لقلوبهم، وإذا كان الإنسان يتذكر اليوم الآخر دائماً فإن أعماله وأحواله تكون على حال من الاستقامة والصلاح، ولذلك تجد دائماً في القرآن الارتباط بين اليوم الآخر والإيمان بالله، فالإيمان باليوم الآخر محرك للعمل والامتثال، والذين ينعى القرآن عليهم انحرافهم يعلل ذلك في كثير من المواضع بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإذا كان الإنسان لا يؤمن باليوم الآخر فإنه لا يؤمن بأنه سيكون حساب وجزاء على الأعمال ومن ثَمَّ يعمل ما يحلو له، ولا يرعوي ولا يقف عند شيء.

قال: **وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها.**

وقال قتادة: كانوا يُذكِّرون الناس الدار الآخرة والعمل بها.

هذه الأقوال متقاربة، يعني أنهم يشتغلون بالدار الآخرة ويعملون من أجل الدار الآخرة، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما كانوا يعملون للناس دورات كيف تثمر أموالك، وكيف تبني مستقبلك الدنيوي، وكيف تستطيع أن توفر أرصدة، وكيف تستطيع أن تدير حياتك المعيشية اليومية، وما إلى ذلك، هذه مطالب دنيوية

مطلوبة، لكن يوجد من أهل الدنيا من أهل الحذق من يتولى هذا على أكمل الوجوه وأتمها كأنهم خلقوا لهذا، أما الدعاة إلى الله -عز وجل- فلا يصح أن يتحولوا إلى بهلوانيين ومهرجين، ويقدمون مثل هذه الأمور، فهم ليس هذه مهمتهم، مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- تختلف تماماً عن هذا، والإنسان لابد أن يعرف الثوب الذي يلبسه ويخرج به إلى الناس، ليست أعمال الداعية إلى الله -عز وجل- أنه يتحول إلى مدرب في الأمور الدنيوية، والناس في غاية الحرص على هذا، ولهذا كما قال الشاطبي -رحمه الله-: لم يأت في القرآن تكرر الحث على الأكل والشرب والنكاح وما إلى ذلك؛ لأن هذه تطلبها نفوس الناس جبلّة، لا يحتاج الناس إلى أمر وحث عليها ووعيد لمن تركها، مع أن القدر الذي يقوم به حياة الناس واجب، لكن ما جاء القرآن بالحث على هذه الأشياء، وإنما إذا ذكرت فإن ذلك يذكر في مقام الامتنان على الناس، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً} [سورة البقرة:١٦٨]، وفي مقام التفضل عليهم، وما إلى ذلك، لا يحتاجون أن يقال لهم: كلوا، اشربوا، إلا في مقام الامتنان والإفضال أو التعليم والتوجيه لأمر يتصل بذلك {وَلاَ تُسْرِفُواْ} [سورة الأعراف:٣١] مثلاً، لكن هم بحاجة إلى العمل الصالح، والتذكير باليوم الآخر.

فهنا إذاً {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}، "خالصة" هذه تحتمل أن تكون صفة لموصوف محذوف، {أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ}، وتكون الباء للسببية، {أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ}، بسبب خصلة خالصة، أخلصناهم بسبب خصلة خالصة، ما هذه الخصلة الخالصة؟ هي {ذِكْرَى الدَّارِ}، وهذه الآية قرأ نافع وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى، يعني من غير تنوين، {بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ}، فهذه قراءة في الآية، والقراءة الأخرى التي نقرأ بها، وهي قراءة الجمهور بالتنوين، {بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}، فعلى القراءة بالتنوين جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار، يعني خلص لهم تذكر الدار الآخرة، يعني: أنهم يتذكرون التأهب للآخرة، ويعملون من أجلها، ويزهدون في الدنيا وحطامها.

وعلى الإضافة من غير تنوين، كأن المعنى يكون أخلصنا لهم، {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ}، أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار الآخرة {بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ}، المقصود أنه كان اشتغالهم في التأهب للآخرة، وأن عنايتهم كانت متوجهة إليها، فهذا يدل على إخلاصهم لله -عز وجل-، وأنهم لا يريدون الدنيا، ولا يعملون من أجلها، لا بعملهم هذا الذي يقدمونه في دعوتهم، وليس ذلك أيضاً مستحوذاً عليهم غالباً -على حالهم- التفكير في الدنيا، والاشتغال بها، إنما يأخذون منها بقدر الحاجة مما يبلغهم، ولكنها لا تدخل قلوبهم، فإذا دخلت الدنيا في القلوب، واشتغلت القلوب بها تفكيراً ونظراً واهتماماً وما إلى ذلك فهذا عن الزهد بمنأى، فيكون هذا الإنسان في قلبه تعلق بهذه الحياة وحطامها، أما المزاولات العملية فالرسل كانوا يمشون في الأسواق، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((حُبب إلي من دنياكم النساء والطيب))[٢]، إلى آخره، فهذا كما قال شيخ الإسلام في كتاب العبودية: إن هذا بمنزلة الكنيف الذي يجلس عليه -أعزكم الله- والدابة التي يركبها، ولكنها لا تدخل إلى قلبه، فالدنيا إذا دخلت القلب أفسدته وأشغلته وصرفته عن ذكر الله -عز وجل- وطاعته وعبادته، وهذا أمر يعرفه الإنسان من نفسه، وهو مشاهد لا ينكره أحد، والله المستعان.

---

٢ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٣٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣١٢٤).

لكن هذه الآية جامعة، ونحن نغفل عنها كثيراً في دعوتنا وعملنا واشتغالنا، ومزاولاتنا، يحتاج الإنسان أن ينظر في نفسه، وينظر في اهتمامه، وينظر في توجه قلبه إلى أين يتوجه، ليس المقصود أن الإنسان يلتفت إلى الناس، وينظر إلى الناس، ويقول: هؤلاء يريدون الدنيا أو يريدون الآخرة، إنما ينظر إلى نفسه هو ماذا يريد، النفس تحتاج إلى مجاهدة كبيرة في كل الأعمال التي يراد بها وجه الله -تبارك وتعالى- فضلاً عن الأعمال التي قد يختلط فيها طلب هذا وهذا على سبيل التبع، يطلب الدنيا تبعاً للآخرة فيما يجوز الالتفات فيه إلى المطالب الدنيوية، لكن في الأعمال المحضة التي يراد بها ما عند الله -عز وجل- يحتاج الإنسان إلى مجاهدة كبيرة، وحبس لهذه النفس، وصبر على طاعة الله، وإلا فقد يقوم ويقعد ويذهب ويجيء، وينشغل عن أهله، وعن كثير من اللذات، وهو يطلب لذة كبرى من لذات هذه الحياة الدنيا، الجماهيرية والناس يشيرون إليه بالأصابع، وما إلى ذلك، أنه يُعرف ويُذكر، -نسأل الله العافية-، وما يغني عنه مثل هذا، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار.

في كلام ابن جرير في قوله: {أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}، قال: ويعني بالأيدي القوة، يقول: أهل القوة على عبادة الله وطاعته، ويعني بالأبصار أنهم أهل أبصار القلوب، يعني: أولو العقول للحق، يعني: الأبصار.

هذا -كما ذكرتُ- موافق لكلام ابن كثير -رحمه الله-، وذكَرَ الأقوال ثم قال: فإن قال لنا قائل: وما الأيدي من القوة، والأيدي إنما هي جمع يد، واليد جارحة، وما العقول من الأبصار، وإنما الأبصار جمع بصر؟ قيل: إن ذلك مَثَل، وذلك أن باليد البطش، وبالبطش تعرف قوة القوي، يعني حتى على قراءة الياء، ولهذا الجمهور فسروه بالقوة، وهم لا يقرءون بهذه القراءة الشاذة الأخرى التي هي غير متواترة {الأيد} التي هي بمعنى القوة، يعني حتى قراءة الياء الجمهور حملوه على معنى القوة، وأنه جمع يد لكن ليس بمعنى النعمة، فإن اليد يكنى بها عن القوة كما هو معلوم، ولكن ذلك إذا جاء في صفة الله -عز وجل- ففيه إثبات صفة اليد، وقد يكون فيه معنى زائد على ذلك، لكن أولاً نثبت الصفة، ثم ننظر في المعاني المكملة.

يقول: فلذلك قيل للقوي: ذو يد، وأما البصر فإنه عَني به بصر القلب، وبه تنال معرفة الأشياء، فلذلك قيل للرجل العالم بالشيء: بصير به، يقول: وقد يمكن أن يكون عَنى بقوله: {أُوْلِي الْأَيْدِي} أولي الأيدي عند الله بالأعمال الصالحة.

فكأنه في بعض كلامه الذي يرجحه هو الأول {الْأَيْدِي} بمعنى القوة، لكنه هنا ذكر المعنى هذا: أولي الأيدي عند الله بالأعمال الصالحة، فجعل الله أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا أيدياً لهم عند الله تمثيلاً لها باليد تكون عند الرجل، ثم ذكر القراءة الشاذة:

قال: وقد يحتمل أن يكون ذلك من التأييد {الأيد}، وأن يكون بمعنى الأيدي ولكنه أسقط منه الياء، كما قيل: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ} [سورة ق:٤١] بحذف الياء، إذاً هو يذكر القول الأول ابتداءً، الأيد يعني القوة، وذكر الاحتمال الآخر فيها {أُوْلِي الْأَيْدِي}، لكن قوله هنا في المعنى الأخير يعني كأنه عند التأمل الذي ذكره احتمالاً فيه فرق بين قوله وقول من قال: {أُوْلِي الْأَيْدِي} يعني الذين أنعم الله عليهم، هو يقول: أصحاب أيدٍ عند الله، عندهم أعمال صالحة يدخرونها عند الله، لاحظ هذا الفرق الدقيق -والله أعلم-، كأننا إذا أردنا أن نفصل هذه الأقوال نجعلها على قسمين: القوة أو الأيدي على الناس بالإحسان إليهم، ألوان الإحسان، أو بإنعام الله -عز

وجل- عليهم، أو بأن لهم أيدياً عند الله -تبارك وتعالى- لا على وجه -لا على معنى- أنهم محسنون إلى ربهم -تبارك وتعالى-، فالله غني عن خلقه وعن عملهم، ليس لأحد يد على الله، ولكن عندهم أيدٍ يدخرونها عند الله يرجون بها ثوابه، بهذا الاعتبار، والله أعلم.

قال المؤلف -رحمه الله-: وقوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ} أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار فهم أخيار مختارون.

يعني هنا لمن المجتبين، {الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ}، مضى معنا الكلام على أولي العزم من الرسل، وأن الجمهور يقولون: هم الخمسة، ويجمعون بين الآيتين في قوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٣٥]، مع قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} [سورة الأحزاب:٧]، هؤلاء الخمسة -عليهم الصلاة والسلام-، فالآيتان ليس بينهما ارتباط، هذه في مقام الإيحاء، وتلك أمر من الله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بالصبر العظيم مقتدياً بذلك بأولي العزم من الرسل، ولم يسمهم، فكثير من أهل العلم يقولون: هم الخمسة الذين ذُكروا في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}، وبعضهم يزيد على هؤلاء فيذكر أنبياء آخرين، لا يقتصر على الخمسة، وبعضهم يقول: كل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم من أولي العزم، وبعضهم يقول: المقصود بأولي العزم من الرسل هم أصحاب العزائم العظيمة من غير تحديد، مَن عُرفوا وتميزوا واشتهروا بالعزائم الكبيرة والصبر العظيم على الأذى في سبيل تبليغ دين الله -تبارك وتعالى-، فلاحِظْ هؤلاء الرسل الذين ذكرهم الله -عز وجل- هنا بعدما ذكر داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام-، وأيوب -صلى الله عليه وسلم-، قال: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ}، ولما ذكر يوسف -صلى الله عليه وسلم-، وذكر خبره وما وقع له مع امرأة العزيز قال: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [سورة يوسف:٢٤] على هذه القراءة، فأخلَصَهُم: اجتباهم واصطفاهم من بين سائر الناس، فهذا كله يمكن أن يقال معه -والله تعالى أعلم-: إن أولي العزم من الرسل لا يحصرون بخمسة، ولا شك أن هؤلاء الخمسة -عليهم الصلاة والسلام- هم من أجلهم وأعظمهم وأشرفهم، ولكن أولو العزم لا يحصرون بهؤلاء الخمسة؛ لأنه لا دليل على هذا الحصر، وأن الآيتين الأولى في الإيحاء، والثانية في الأمر بالصبر من غير تخصيص لأحد من الرسل باسمه، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ} قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله -عز وجل-: {هَذَا ذِكْرٌ} أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

قال السدي: يعني القرآن الكريم.

{هَذَا ذِكْرٌ} يعني: القرآن، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

{وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [سورة ص:٤٩-٥٤].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة {لَحُسْنَ مَآبٍ} وهو: المرجع والمنقلب، ثم فسره بقوله تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هاهنا بمعنى الإضافة كأنه يقول: "مفتحة لهم أبوابها" أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها.

يعني لما ذكر الله -عز وجل- هؤلاء الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- ذكر ما للمتقين من أهل الإيمان عموماً، فذكر لهم حسن المرجع والمنقلب عنده -تبارك وتعالى-، وذكر طرفاً من هذا النعيم، {جَنَّاتِ عَدْنٍ} يعني: جنات إقامة لا يحصل منها زوال ولا فراق ولا موت، ولا انتقال، فإن الإنسان إنما يحصل له التكدير في هذه الحياة الدنيا ولو سكن عالي القصور حينما يتذكر أنه يفارقها.

لا أرى الموتَ يَسبقُ الموتَ شيءٌ *** نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

فإذا تذكر الإنسان أنه سيفارق هذا كله فإنه يتكدر عليه النعيم، أن المسألة مؤقتة، هي مسألة وقت، ثم بعد ذلك سيُلف بخرقة ويوضع في لحد يدفنه فيه أقرب الناس وأحب الناس إليه، أما هذه الجنات، {جَنَّاتِ عَدْنٍ} فيعني: جنات إقامة، لا يحولون، ولا يزولون، ولا ينتقل نعيمها، ولا يتحول، {مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ}، يقول: أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها، هذا معنى ذكره الحافظ ابن كثير وهو ظاهر، وكذلك أيضاً أبواب الجنة تفتح لسكانها من غير إعمال جارحة ولا يد ولا بذل جهد، تتفتح لهم الأبواب من غير أن يُعملوا في ذلك جوارحهم كما يقول الحافظ ابن جرير -رحمه الله-: يعني من كمال النعيم أن الأبواب تفتح، كما أن قطوفها دانية تميل إليهم ثمارها اليانعة، ويجتنونها من غير تعب ولا حاجة إلى صعود ولا تسلق، وإنما كل شيء مذلل حتى الأبواب تفتح بمجرد مجيئهم إليها، {مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ}، أما النار -أعاذنا الله وإياكم منها- فإنها تكون عليهم مؤصدة {فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ} [سورة الهمزة:٩]، فتغلق عليهم أبواب النار.

في مثل هذا يا إخوان لو نتدبر القرآن فيه أعظم التربية في طلب ما عند الله، والزهد في الدنيا، وأن يكون العمل خالصاً لله -عز وجل- في مزاولاتنا المختلفة في اليوم والليلة، وما نشتغل به، كل المجالات في جهادنا وفي بذلنا وسعينا، وما إلى ذلك، هذا النصر الذي تأخر في سوريا؛ لأننا بحاجة إلى مزيد من التمحيص، النفوس لم تتمحص بعد، تحتاج إلى مزيد من التمحيص، حتى حينما ننهض ونتبنى مثل هذا العمل، ونقوم في الذب عن هؤلاء وفي نصرتهم، وفي كذا، نحن بحاجة دائماً إلى أن نتمحص وأن نتخلى عن حظوظ النفس، وإلا فإن النصر يُبطئ، يتأخر، بل حتى لو حصل فإنه يكون منغصاً ناقصاً مكدراً، مثل الذي حصل في أماكن أخرى كما تعلمون، يحصل نصر ناقص، فيتفرق الناس، ويشتغل بعضهم ببعض، وأخشى أن تكون البوادر والبدايات اليوم قائمة في سوريا، -نسأل الله أن يدفع عن المسلمين الشر-، لكن حينما ينهض الأخيار في نصرة هؤلاء ينبغي أن يتفطنوا لهذا المعنى، يبتعد عن حظ النفس، فيمد يده مع كل إخوانه، ويقول: ما مني شيء ولا لي شيء، نحن نريد ما عند الله -عز وجل-، لا يكون له ويقول: لا، وأنا تبعي كتيبة، وأنا تبعي كتائب، وأنا تبعي كذا، وأنا عندي كذا، وما عندي شيء، ولا لي شيء، وما مني شيء، أنا المكدى وابن

المكدى، فإذا كان الأخيار وأهل الصلاح، أو أهل الجهاد، أو أهل الدعوة إلى الله لا زالت النفوس تحتاج إلى عمل وتهذيب من أجل أن لا تكون هناك حظوظ نفسية، أن يكون لي كيان، أن يكون لي أتباع، أن يكون لي، فيأتي الآخرون من أجل أن يتلطفوا وأن يبذلوا كثيراً من الجهد حتى يعني يكون هناك شيء من التفاهم والتواصل، هذا يعني أن النفوس لم تتجرد، فإذا كان قيام الإنسان ليس خالصاً لله -عز وجل- فمعنى ذلك أن النصر يتأخر، فأول ما يحتاج الناس إليه أن القادة والأخيار وأهل الصلاح، وأهل النجدة، أنهم يكونون قد تمحصت نفوسهم وتجردت، تريد ما عند الله، فانظر إلى هذه الآيات لمّا ذكر هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وذكر ما للمتقين جنات العدن هذه المفتحة لهم الأبواب، فإذا التفت الإنسان إلى هذا أعرض عن كل ما سواه.

قال: وقوله -عز وجل-: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا} قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال.

يعني بمعنى كما يقول ابن القيم -رحمه الله-: أن التربع نوع من الاتكاء، فذكر التربع، والاتكاء أوسع من التربع، يعني: إذا جعلنا التربع أحد أنواع الاتكاء، فالله -عز وجل- أخبر أنهم {مُتَّكِئِينَ}، وإنما يتكئ الإنسان إذا كان مستريحاً في مجلسه، وهذا من التنعم والتمكن في المجالس؛ لأنه إذا كان الإنسان غير متمكن في المجلس أو مترقب، أو في حال من الوجل لا يتكئ، ولا يسترخي في الجلسة، وإنما يكون مشدوداً كأنه مُستوفِز، ولذلك قد يخاطب مثل هذا ويقال له: استرخ في جلستك، اجلس على سجيتك؛ لأنه مشدود.

يقول: متربعين فيها على سرر تحت الحجال، قلنا: هذا السرير الذي فوقه مظلة وعليه ستور، هذه يقال لها: حجلة، لا يكون ذلك إلا لسرير فوقه مثل السقيفة أو المظلة أو كذا، الآن يعمل وقديماً يعمل هذا للعروس، ونحو ذلك، هذه الأسرّة، ونحن لا نتصور أن المسألة أربعة أمتار في أربعة أمتار، هذه جنة عرضها السماوات والأرض، فكم مقدار مثل هذا؟ هذا شيء لا يمكن أن يتخيله عقل الإنسان.

قال: {يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} أي: مهما طلبوا وجدوا وحضر كما أرادوا، {وَشَرَابٍ} أي: من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [سورة الواقعة:١٨].

{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} أي: عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن.

يعني هنا {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} قد يأتي من يقول: هذا يدل على أن الشراب يكون بعد الفاكهة، كما يقول بعضهم: إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [سورة الواقعة:٢٠-٢١]، يدل على أن الفاكهة تكون أولاً ثم اللحم ثانياً، هذا فيه نظر؛ لأن هذا إنما هو في ذكر النعيم، والواو تدل على مطلق الجمع، ولا تدل على الترتيب، فلا يقول الإنسان: إن مثل هذه الأشياء قصد هذا الترتيب ليكون ذلك في الخارج متناولاً على هذه الطريقة التي ذكرها القرآن مثلاً، أنّ هذا بعد هذا، إنما الواو لمطلق الجمع، فالإنسان يأكل فاكهة ولحماً أولاً هذا، أو هذا ثانياً، لا إشكال في هذا، إنما يرجع في ذلك إلى أهل الخبرة من أهل الطب والعارفين في هذه الجوانب في أمور الغذاء وما إلى ذلك، لكن القرآن لم يكن القصد في هذه المقامات بيان ما يتناول أولاً، وما يكون ثانياً، ليس هذا هو المراد.

قال: {أَتْرَابٌ} أي: متساويات في السن والعمر، هذا معنى قول ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدّي.

هنا {أَتْرَابٌ} يعني هذا المشهور أن المقصود به التساوي في السن والعمر، يعني هن متساويات في سن واحدة، لا يحصل لهن هرم، لا يتغير حسنها وجمالها، تكون كبيرة في السن مع الأيام والليالي، لا، وإنما هي باقية على سن معين في حسن يتجدد، وبعضهم يقول: {أَتْرَابٌ} يعني: متساويات في الحسن، يعني كلهن قد بلغن الغاية في الجمال، {أَتْرَابٌ}، وبعضهم يقول: إن المراد أتراب متآخيات لا يتغايرن ولا يتحاسدن كما هو الحال في الدنيا، فإن ذلك مما ينغص ويكدر على الأزواج، يتزوج الرجل المرأتين والثلاث والأربع، وقد يكنّ أو يكون بعضهنّ في غاية الجمال، ولكن هذا الجمال منغص بأمور كثيرة تعرفونها، ومنها هذه المغايرة والحسد والتكدير والتنكيد، فهو تزوج من أجل أن يلتذ ويسعد ويُسر، فإذا دخل بيته وجد أسباب التنغيص والأذى، ويسمع ما يسوءه من الكلام بسبب الغيرة، فهؤلاء لا يتغايرن، لكن المشهور هو الأول {أَتْرَابٌ} في سن واحدة، ولا شك أن هذه الغيرة غير موجودة؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن نعيم الجنة وما فيها {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} [سورة الحجر:٤٧]، فالجنة لا يوجد فيها غل ولا حسد، ولا ما يؤذي النفوس، وقضية الحسن أنهن في غاية الحسن إلى آخره هذا أيضاً جاءت النصوص موضحة له في الجمال، أن المرأة من أهل الجنة لو اطلعت على الدنيا لأضاءتها، وأنه يُرى مخ ساقها من شدة صفاء الجلد، وشدة البياض، فهذا كله ثابت، {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} فالحاصل أنه ذكر لهم الملاذ الثلاث: الأكل والشرب والنساء {النكاح}، والعرب يقولون: الأطيبان، وغالبهم يقصد بذلك الطعام والشراب والنكاح، الأطيبان، فذكر لهم هذه الأشياء الثلاثة، وغالب سعي الناس في الدنيا في طلبهم لها -طلب المال- هو من أجل هذه الأمور الثلاثة، فهو يعمل لماذا؟ هؤلاء الناس الذين يعملون ويتاجرون ويكتسبون ويحصلون الأموال ويجمعونها لو سألتهم عن مطالبهم هل يجمعونها ليتصدقوا بها في سبيل الله؟، لا، تختصر هذه الجهود العظيمة والأوقات العظيمة في هذا البطن والفرج، يبغى يأكل ويشرب ويتزوج باختصار، هذه الغاية والهدف من جمع الدنيا، أما الذي يجمع ويقول: من أجل أن أتصدق، يقال له: الله لم يطالبك بجمع الدنيا حتى تتصدق بها، لكن من حصلت له فعليه أن يبذل وأن يتصدق، ويحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه، لكن أن يجمع ليتصدق، يقال: لم تؤمر بهذا أصلاً.

قال: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين الذين يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر -تبارك وتعالى- عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء فقال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} كقوله -عز وجل-: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [سورة النحل:٩٦]، وكقوله -جل وعلا-: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود:١٠٨]، وكقوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} أي: غير مقطوع، وكقوله -عز وجل-: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} والآيات في هذا كثيرة جداً.

يعني لذات الدنيا والنعيم، الثمار تذبل وتنقضي، والأموال تنقضي، فإذا جاء الإنسان يريد أن يلتذ بماله، ويتنعم فيه، ويذهب ويأكل ويشرب ويسافر، ويتنقل وما إلى ذلك فهو يحسب الحسابات، كم أنفق، وكم بقي، ومتى ينفد هذا المال؟، فهو في كل شيء يحسب حساباً لما بقي عنده وما ذهب، أما في الجنة فـــ {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}،

هذه القضية منسية، هذه ليست في القاموس، لا يوجد شيء ينتهي وينفد، ولا يوجد شيء يعطب ويذبل، ولا يوجد شيء يمل، ولا يوجد ما ينغص، يعني الإحصاءات تقول: إن أكثر من٧٠% من المسافرين يصابون بأمراض في الجهاز الهضمي وغيره بسبب تغير الأجواء، وتغير الطعام والنظام الذي اعتاد الناس عليه، وما إلى ذلك، فهم في أسفارهم يتنغصون، تصيبهم أمراض وأوجاع، وما إلى ذلك، وقد يرجع من سفره وما حصل له التذاذ وسرور بسبب هذا أو غيره، أما في الجنة فهذا لا يوجد، لا يوجد تنغيص، لا يوجد انتهاء وانقضاء لهذه اللذات، ولا يوجد خوف ولا قلق ولا حزن.

{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [سورة ص:٥٥-٦٤].

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثَنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال -عز وجل-: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} وهم: الخارجون عن طاعة الله -عز وجل- المخالفون لرسل الله -صلى الله عليهم وسلم-، {لَشَرَّ مَآبٍ}.

كما هي عادة القرآن يجمع بين الترغيب والترهيب، فإذا ذكر حال السعداء ذكر حال الأشقياء ليجمع العبد بين الخوف والرجاء، قال: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}، بعضهم يقول: إنه خبر لمبتدأ محذوف، يعني الأمر هذا: {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}، ويحتمل أن يكون مبتدأً وخبره محذوف، يعني هذا كما ذُكر {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}، أو هذا ذكر، يكون هذا مبتدأ وذكر خبراً، {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}، وابن جرير -رحمه الله- يقول: هذا الذي وصفت لك للمتقين، هذا الذي وصفت لك أو الذي وصفت لكم للمتقين {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} يعني ما سبق للمتقين، هذا للمتقين التي هي جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} وهم الخارجون عن طاعة الله -عز وجل- والمخالفون، كل من تجاوز الحد الذي رسمه له الشارع فيكون قد طغى، "ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي"، من تجاوز ما حده الله -تبارك وتعالى- له فإنه يكون قد طغى، وهذا التجاوز يكون بالزيادة عليه، يعني بالغلو فيه، أو بالنقص والتقصير، وذلك بالجفاء، فهذا كله يكون من الطغيان، وإنما يكون الاعتدال بلزوم ما حده الله -تبارك وتعالى-، بلزوم الصراط المستقيم.

{لَشَرَّ مَآبٍ} أي: لسوء منقلب ومرجع، ثم فسره بقوله -جل وعلا-: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم.

كلمة "صَلَي" صلْيُ النار يعني الدخول، {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [سورة الليل:١٥]، وتعني أيضاً الاحتراق ومقاساة حر النار -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-، وتقول: شاة مصلية يعني مشوية، {يَصْلَوْنَهَا} يدخلونها ويقاسون حرها، إذا جمعت بين المعنيين.

قال: {فَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

{فَبِئْسَ الْمِهَادُ} هنا لم يتكلم عن المهاد، في الأصل ذُكر شيء؟ {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} يحتمل أن يكون المعنى {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} يعني: بئس ما مهدوا به لأنفسهم من الكفر بالله -عز وجل-، وتعدي حدود الله، والعمل بمساخطه، ومحاربة أوليائه، ورسله، فيكون الواحد منهم قد مهد لنفسه حتى حصل هذا العذاب؛ ولهذا سماه الله اشتراءً، قال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [سورة البقرة:١٦]، {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} يعني: آثروا الضلالة على الهدى فاشتروها، وقد مضى الكلام على هذا المعنى، والمهاد أيضاً يحتمل أن يكون المقصود الموضع {فَبِئْسَ الْمِهَادُ}، وذلك أن النار تكون كالمهاد الذي يكون للصبي، والمهاد يشتمل على هذا الصبي من جميع جوانبه، يمهد يلف فيه، فالنار تحرقهم من جميع الجوانب، وتشتمل عليهم اشتمال المهاد على الصبي، كما قال الله -عز وجل-: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف:٤١]، فالنار تحرقهم من كل ناحية، ولهذا فسره ابن جرير {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} قال: بئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم وهو جهنم، والمعنيان بينهما ملازمة، فإن هذا الفراش الذي افترشوه من النار كان بسبب ما قدموه ومهدوه لأنفسهم، فبينهما ملازمة.

قال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره.

أيضاً في قوله: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ}، أيضاً بعضهم يقول: هذا مبتدأ، والخبر: حميم وغساق، يكون الخبر: {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، {فَلْيَذُوقُوهُ}، بعضهم يقول على هذا التقدير: فيه تقديم وتأخير، يعني: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والقاعدة: "أنه مهما أمكن حمل الكلام على معنى يكون فيه مرتباً كما ذكر الله -عز وجل- فهو أولى من دعوى التقديم والتأخير"، وهذا من القواعد الترجيحية، فإن القواعد الترجيحية المقصود بها ما كان مبناه على هذه الزنة، إذا دار الكلام بين الإعمال والإهمال فالأصل الإعمال، إذا دار بين التأسيس والتوكيد فالمقدم التأسيس، هذا يسمى القواعد الترجيحية، لا كل ما يرجح به، فالشاهد هنا {هَذَا} فيكون مبتدأ، والخبر {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، هذا على كلٍّ ذكره بعضهم كالفراء والزجَّاج، وبعضهم جوز معنى آخر كالنحَّاس يعني أن يكون "هذا" خبراً، يعني الأمر هذا، {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ}، الأمر هذا، ويكون {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} خبراً أو خبرين لمبتدأ محذوف، أي الأمر هذا هو {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، ويحتمل أن يكون {حَمِيمٌ} مبتدأ، {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، والله أعلم.

قال: أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم.

يعني كما قال بعض السلف: الذي قَتل ببرده، يَقتل، طبعاً لا يوجد قتل في النار؛ لأنهم لا يموتون فيها، لكنه من شدة برده فأهل النار يعذبون بنوعي العذاب: الحار الحميم، والزمهرير وهو البرد الشديد الذي يقتل، هؤلاء الذين قالوا هذا قالوا: ومنه قيل لليل غاسق {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق:٣]، باعتبار أنه أبرد من النهار، وليس المقصود الاستعاذة هنا لكونه أبرد، إنما الليل لظلمته تنتشر فيه الشياطين والأشرار، والهوام والسباع، وما إلى ذلك، ينتشرون في الظلام، شياطين الإنس والجن.

وهكذا قول من قال: إنه الثلج الذي قد انتهى برده، يعني لشدة برودته، تناهى في البرودة، كما يقوله بعض السلف كمجاهد ومقاتل، هذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- بصرف النظر عن التفاصيل الدقيقة، وهو الأقرب باعتبار أنه قابله بالحميم، {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، يعني يحصل لهم الحر الشديد، الحرارة التي تصهر

الجلود والأحشاء، ويحصل لهم أيضاً البرد الشديد الذي لا يطاق، وبعضهم يحمل الغساق على معنى آخر يرتبط بالحميم، يعني لا يكون البرد وإنما بمعنى مرتبط بالحميم، كأنه نتيجة له، فيقولون: هو ما سال من جلود وعيون هؤلاء -أهل النار- من القيح والصديد، ولهذا يقولون: غسقت عينه إذا سالت وانصبت، ويقولون: إن الغساق هو الانصباب، {حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، حميم ماء أو شراب في غاية الحرارة يصهر، وكذلك غساق ما يخرج من عصارتهم وصديدهم، وما إلى ذلك فيشربونه ويسقونه، {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم فسره بمعنى أيضاً يرتبط بالحميم قال: هو المنتن، كأن هؤلاء ذكروا صفة من صفاته، يعني لا يخرج عن هذا القول، فهذا الغساق منتن الرائحة، فهو لا يطاق، وبعضهم يقول: إن الغساق هو عين في جهنم، يعني تذيب أبعاضهم وأبشارهم وما إلى ذلك.

وبعضهم كقتادة يقول: ما يخرج من فروج أهل النار -النساء الزواني- من نتن لحوم الكفار، يعني هذا مثل قول من قال: منتن، النتن وما إلى ذلك، فيذوقون هذا أو يشربونه، وهكذا قول من قال: إنه عصارة أهل النار، أو قول من يقول: إنه ما يسيل من دموعهم -نسأل الله العافية-، والأحاديث الواردة في صفة الكافر في النار، وأن مقعدة كما بين مكة والمدينة، وأن ضرس الكافر في النار كجبل أُحد سبعة كيلو في ثلاثة كيلو، سبعة في ثلاثة، هذا الضرس، وجاء في عضد الكافر وجلد الكافر، جلد الكافر مسيرة ثلاثة أيام، هذه الأقوال ترجع إلى أنه مرتبط بالحميم، وليس المقصود شديد البرودة، فالآية في مجملها أن الغساق إما أن يكون شديد البرودة، زمهريراً، والقرينة على ذلك أنه قابله بالحميم، فذكر المتقابلين، أو يكون المقصود معنىً يرتبط بالحميم، الغساق: ما يكون نتيجة لهذا الحميم من صديد أو نتن أو عصارة أو دموع أو غير ذلك، يعني نعيم أهل الجنة مفتحة لهم الأبواب، وقاصرات الطرف إلى آخره، وهؤلاء في هذه الحال.

قال: ولهذا قال -عز وجل-: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} أي: وأشياء من هذا القبيل الشيء وضده يعاقبون بها.

وقال الحسن البصري في قوله: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصَّعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه.

يعني مثل هذا الحميم والغساق، باعتبار أن الحميم الحار، والغساق هو الزمهرير، يعني العذاب في أمور متقابلة متناقضة، وبعضهم يقول: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ} أي: عذاب آخر، أو مذوق آخر، أو نوع آخر، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ} يعني: مثل هذا، الشكل هو المثل.

وفي قراءة متواترة لأبي عمرو: {وَأُخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} أُخر يعني من ألوان وصنوف العذاب، يعني ليس فقط يعذبون بالزمهرير والحميم، وإنما يعذبون بأشياء أُخَر متقابلة ومتنوعة.

قال: وقوله -عز وجل-: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا}.

يعني هذا قول أهل النار، هذا هو الظاهر وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وهو قول الجمهور، أن هذا قول أهل النار، يعني الدفعة التي دخلت، الأولى مثلاً وهم الكبراء والرؤساء، الذين أخبر الله -عز وجل- عن قيلهم وجدالهم في النار، {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ} [سورة غافر:٤٧]، يتخاصمون فيها، فالضعفاء يدعون ويطلبون الله -تبارك وتعالى- أن يضاعف للكبراء، والمضلين، والسادة الذين أضلوهم، أن يضاعف لهم العذاب، وأولئك يتبرءون منهم ويقولون: أنتم تستحقون هذا، وأنتم قدمتموه لأنفسكم، وأنتم الذين عملتم، وأنتم، وهم لا يغني عنهم شيئاً كون هؤلاء يضاعف عليهم العذاب أو لا يضاعف، وماذا يستفيدون إذا كان هؤلاء يضاعف لهم العذاب، فهم في عذاب، وكل واحد يشعر أنه لا يعذب أحد كعذابه، وقال الله -عز وجل-: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [سورة الأعراف:٣٨]، فهذا قول الأولين الكبراء والقادة، هذا قول الجمهور، وبعضهم يقول: إن هذا القول المشار إليه في هذه الآية: {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ}، يعني الذين يقولون: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ}، من الذي يقول مثل هذا الكلام؟، يقول: هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، عندنا {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} يحتمل أن يكون من قول أهل النار، يقول بعضهم لبعض: هذا فوج جديد جاء للنار؛ لأنهم يقْدمون أفواجاً، ويحتمل أن يكون القائل بذلك هم خزنة النار، كلما جاءوا بدفعة قالوا: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ}، فيجيبون {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ}.

قال: كما قال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ} أي: داخل معكم {لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} أي لأنهم من أهل جهنم {قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ} أي: فيقول لهم الداخلون: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا}.

يعني وكما سبق أن كثيراً من المفسرين يقولون: إن الذين يقولون: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ} هم الأتباع، وأن الأولين هم الرؤساء، هذا فوج مقتحم معكم، لا مرحباً بهم، لا يرحبون بالأتباع، والأتباع -نسأل الله العافية- أيضاً يقولون لهم: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ}، فهم يحصل بينهم هذه الوقيعة والشتم، والتبرؤ في النار، فما ينفعونهم حينما كانوا يطيعونهم في الدنيا ويستجيبون لهم، ويسارعون في تحقيق مطلوباتهم.

{لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} أي لأنهم من أهل جهنم {قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ} أي: فيقول لهم الداخلون: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير.

{أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} يعني: من دعوتكم وإضلالكم، دعوتكم لنا إلى الكفر والضلال، أنتم أضللتمونا، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، أنتم قدمتموه لنا بالإضلال.

قال: {فَبِئْسَ الْقَرَارُ} أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير، {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا}.

يعني الذي يقول هذا: {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا} هم الأتباع؛ لأن الرؤساء والقادة لا يدعون على أنفسهم، فهم الذين أضلوا هؤلاء، فهم يقولون، الأتباع يقولون: {مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ}.

{قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} كما قال -عز وجل-: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٨] أي: لكل منكم عذاب بحسبه.

كما قال الله -عز وجل- عن قيلهم أيضاً: {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [سورة الأحزاب:٦٨].

قال: {وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ} [سورة ص:٦٢-٦٣] هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟.

قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً، وهذا ضرْب مثَل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: {مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} أي: في الدار الدنيا {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ} يسلون أنفسهم بالمُحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم.

يعني في قول ابن كثير -رحمه الله-: هذا ضرْب مثَل يقصد أنه من قبيل التفسير بالمثال، يعني أن قول من قال: إن أبا جهل والكبراء مثلاً كأبي لهب ونحو ذلك يقولون: ما لنا لا نرى رجالاً كبلال وعمار ونحو ذلك؛ لأنهم كانوا يحتقرونهم ويستهزئون بهم في الدنيا، ما لنا لا نراهم معنا في النار، افتقدوهم، يقول: هذا ضرب مثل، يعني من قبيل التفسير بالمثال، وإلا فهذا في عموم الكفار، فالكبراء وأهل الإضلال ونحو ذلك، بل أهل النار عموماً يفقدون أناساً كانوا يسخرون منهم في الحياة الدنيا، لكن لما كانت السخرية غالباً إنما تقع من القادة والكبراء فإن كثيراً من السلف من المفسرين يذكرون أن الذين قالوا ذلك هم القيادات، هم الكبراء، هم أصحاب التوجيه والرأي وما إلى ذلك، يقولون: {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ} في الدنيا، ويقولون: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [سورة الأحقاف:١١]، فهم يحتقرونهم ويزدرونهم ويرون أنهم ليسوا على شيء.

{أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا}، في قراءة متواترة لأبي جعفر ونافع والكسائي بالضم، يعني: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا} من التسخير، يعني مسخرين لنا، كأعبُد وخدم ومماليك، وما إلى ذلك، {أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا}، وعلى قراءة الجمهور، {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} القراءة التي نقرأ بها يعني: محلاً للاستهزاء والتندر والسخرية بهم، وما كانوا عليه من حال وهيئة وعمل، يعني جعلوهم محلاً للتندر والاستهزاء، وشغلهم ذلك عن عبادة الله وطاعته وتوحيده، كما مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات، {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي} [سورة المؤمنون:١١٠]، {حَتَّى أَنسَوْكُمْ} يعني: اشتغلوا في الدنيا بالسخرية والتندر بهؤلاء وكتابة المقالات والأعمدة، ليس له شغل إلا الأخيار حتى أنسوه ذكره، يكون بمعنى إلى الفاعل أو إلى المفعول، {حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي} أنسوهم ذكر الله فلم يذكروه، أو أنسوهم ذكره الذي هو مذكور الرب -تبارك وتعالى- وهو القرآن تكلم به فلم يقرءوه ولم يعملوا به، ولم يرفعوا بذلك رأساً، فهم مشغولون بهؤلاء الصالحين، وبهؤلاء الأخيار يتندرون بهم، ويسخرون منهم، ويكذبون عليهم، ويستهزئون بهم حتى أنسوهم طاعة الله وعبادته، فهنا يقولون: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ}، وإذا نظرت إلى بعض الكاتبين، وإلى بعض الأشرار في برامجه، انظروا الآن في كثير من بلاد الله في مصر مثلاً، هؤلاء الذين ليس لهم هم إلا الوقيعة بالأخيار والاشتغال بهم، وتنفير الناس منهم، والكذب عليهم، فهؤلاء يسخرون منهم، والله -عز وجل- يقول عن قيل أهل النار: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا

{أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ}، وزيغ البصر يعني: ميل البصر عن مراده، يعني هم في النار لكن لا نراهم، أين هم؟ لماذا لا يكونون معنا ولا نشاهدهم في النار؟ ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، إلى آخره، -والله المستعان-، {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} أي: في الدار الدنيا، {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ}، يقول: يسلون أنفسهم بالمُحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم.

قال: فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله -عز وجل-: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} إلى قوله: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [سورة الأعراف:٤٤-٤٩].

وقوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [سورة ص:٦٥-٧٠].

يقول تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه {الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي: غفار مع عزته وعظمته.

{قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} أي: خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم.

أو ما أنذرتكم به من العقاب، ما بينته لكم من التوحيد، وبعضهم يحمل ذلك على القرآن، هذا قاله جماعة من السلف، {نَبَأٌ عَظِيمٌ} يعني: هذا القرآن، وهذا يتضمن ما قبله؛ لأن القرآن فيه إرسال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو وحي من الله له، وكذلك فيه هذه النُّذر التي هذا الموضع منها، وهذا الأخير أنه هو القرآن هو اختيار ابن جرير، {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} يعني: هذا القرآن وما تضمنه من خبر عن صفة النار وأهلها وما يحصل من خصام، وما فيه من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد.

قال: {أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} أي: غافلون.

وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم -عليه الصلاة والسلام- وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

يعني هذا يتعلق بما حصل من هذه المجاوبة والحوار بالملأ الأعلى في شأن آدم -صلى الله عليه وسلم-، فهي الآيات التي فصلها الله -عز وجل- بعد ذلك، وهنا قال الله -عز وجل-: {إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي: مبين لكم إنذاره إياكم، {مُّبِينٌ} مبين لكم إنذاره إياكم، ومبين تأتي بمعنى "بيّن" أي بيّن النذارة،

فتكون قاصرة، بيّن النذارة ظاهر واضح؟، وتأتي بمعنى متعدٍّ، يعني مبين للحق والهدى والرشاد وما إلى ذلك، فعلى الأول قول كعب بن زهير في بردته المعروفة:

*** عِتقٌ مُبِينٌ وفي الخديْن تسهيلُ

عتق مبين أي: عتق بيّن وظاهر، في صفة هذه الناقة، عتق مبين وفي الخديْن تسهيل.

وعلى المعنى الثاني: مبين يعني مبين لغيره، هذا أصل مادة "بان" تأتي لهذا وهذا.

وهو قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة ص:٧١-٨٥].

هذه القصة ذكرها الله -تبارك وتعالى- في سورة "البقرة" وفي أول "الأعراف" وفي سورة "الحجر" و"سبحان" و"الكهف"، وهاهنا، وهي أن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم -عليه السلام- بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله -عز وجل-، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه -عز وجل- فيه، وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه. وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله، وكفر بذلك فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه وحضرة قدسه، وسماه "إبليس" إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة.

أبلس: يعني يئس.

بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النَّظِرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يَعْجَل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى.

هنا في قوله تعالى في هذه الآيات: **{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}** هذا قبل خلق آدم -عليه الصلاة والسلام-، **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ}** [سورة البقرة:٣٤]، فهذه الآيات ليس بينها منافاة، هذا يدل على أنهم أُمروا بالسجود قبل خلقه، وفي المواضع الأخرى أنهم أمروا بالسجود بعد خلقه، فيقال في الجمع بين هذه الآيات: إن الله -تبارك وتعالى- أعلمهم قبل خلقه أنه سيخلقه، فإذا خلقه فهم مأمورون بالسجود له، فلما خلقه أمرهم بعد الخلق بالسجود، **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}**، أعلمهم قبل الخلق، وأنه إذا خلقه فعليهم السجود، فلما خلقه واكتمل خلقه أمرهم بالسجود فسجدوا، قال الله تعالى: **{فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}**، وأكده بهذين التأكيدين، أقوى صيغة في التأكيد "كل وجميع"، فجاء بهما جميعاً، بعض أهل العلم يقول: إن كل واحدة لها معنى، بناءً على قاعدة التأسيس مقدم على التوكيد، يعني سجدوا كلهم، الأولى للإحاطة، يعني: ما

تخلف أحد، والثانية في التوقيت، يعني: سجدوا جميعاً في وقت واحد، وليس على أوقات مختلفة، كلهم سجدوا في وقت واحد كما يسجد الناس خلف إمامهم، هكذا قال بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: الثانية تأكيد ومبالغة في التأكيد؛ لأن الملائكة جميعاً قد سجدوا، {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}.

فأضاف خلق آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى يديه بالتثنية، وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على أن الله باشر خلق آدم -عليه الصلاة والسلام- بيده، أن الله خلقه بيده، فهذا فيه اختصاص لآدم، وكذلك بنى جنة عدن بيده، هذا بخلاف الإضافة بالجمع، {خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [سورة يس:٧١]، {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا}، أضافه إلى الأيدي، فهذا لا يعني المباشرة، وإنما أضافهم إليه -تبارك وتعالى- أنه خلق، يمتن عليهم أنه خلق هذه الأنعام، فإذا أضافه إلى اليد بالتثنية فهذا يقتضي المباشرة، وهذا جاء في خلق آدم -صلى الله عليه وسلم-، أما بصيغة الجمع فإن ذلك لا يقتضي المباشرة.

يقول: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}، يقول هنا: {أَسْتَكْبَرْتَ} يعني: تركت السجود استكباراً على آدم وترفعاً عليه، {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} قبل ذلك، يعني فكان هذا الامتناع من السجود إنما هو أثر لهذا العلو والترفع الذي كان صفة لك قبل أن تؤمر بالسجود لآدم -صلى الله عليه وسلم-، يعني: هل استكبرت فطرأ لك ذلك ولم يكن وصفاً متحققاً فيك قبل ذلك، وهو الاستكبار، أستكبرت الآن، {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} يعني: كنت كذلك صاحب علو وتكبر على ربك -تبارك وتعالى-، فكان من نتيجة ذلك وأثره الامتناع عن السجود لآدم -صلى الله عليه وسلم.

قال: وقال: {لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} **كما قال:** {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلاً}.

هنا لم يتطرق لقوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات عدة، وكلام العلماء في أن أول من قاس قياساً فاسداً، وقابل النص بالرأس هو إبليس –لعنه الله-، ويرد العلماء على إبليس من وجوه مختلفة كثيرة في قياسه الفاسد هذا في أن النار أشرف من الطين، ويبينون أن إبليس أخطأ في هذا القياس، وأن الواقع أن الطين أفضل من النار، فيقولون: النار من طبعها الخفة، والطين من طبعه الرزانة، والنار لا تكون إلا من عنصر من الأرض، أما الطين فلا يكون قيامه بالنار، ويقولون: النار لا تأتي على شيء إلا أتلفته وأحرقته، من طبعها الإحراق والإتلاف، وأما الطين فتوضع فيه الحبة فتكون شجرة، وتوضع النواة فتكون نخلة مثمرة، وما إلى ذلك، فالحاصل أن العلماء يردون على إبليس في هذا القياس الفاسد، ويبينون أنه أخطأ في قوله هذا.

قال هنا: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، قد مضى الكلام على الرجيم في الكلام على الاستعاذة، وذكرنا هناك أنه يحتمل معنيين: الأول: أنه مرجوم إما بالسب واللعن، وإما بالشهب التي ترمى على الشياطين، وأن الرجم يأتي بمعنى الطرد والإبعاد، فهو مُبعَد مطرود من رحمة الله -تبارك وتعالى-، {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، وبعضهم يقول: {رَجِيمٌ}، فعيل بمعنى فاعل هنا، ما هو مفعول، يعني يرجم الناس بالوساوس والخواطر السيئة وما إلى ذلك، لكن هذا القول فيه ضعف، يعني الأول أشهر.

{وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، {فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، بعضهم يقول: إلى النفخة الأولى التي يموت فيها الخلائق، يعني نهاية الحياة الدنيا بالنفخة الأولى. وبعضهم يقول: {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، البعث يكون بالنفخة الثانية، حيث تلتقي الأرواح بالأجساد، ويبعث الناس من قبورهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، {فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، فالله -عز وجل- قال له: {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} الوقت الذي حدده الله -عز وجل- وأراده.

قال: كما قال: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٦٢] **وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى:** {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا} [سورة الإسراء:٦٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}، **قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع "الحق" الأول، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول، وفي رواية عنه: الحقُّ مني، وأقول الحقَّ.**

وقرأ آخرون بنصبهما.

الآن يقول: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول، قال: {فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ}، هذه قراءة متواترة هي التي نقرأ بها، قراءة عاصم، وبها قرأ حمزة أيضاً من السبعة، وهي قراءة مجاهد بن جبر من التابعين، قال: {فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ}، قال: برفع الحق الأول، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحقُّ، قال: {فَالْحَقُّ} يعني: فأنا الحقُّ، {وَالْحَقَّ أَقُولُ}، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

قال وفي رواية عنه يعني عن مجاهد: الحقُّ مني وأقول الحقَّ.

فأنا الحق، قال: {فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} أنا الحقُّ، وعلى هذا يكون الحق خبراً لمبتدأ محذوف، "أنا" مبتدأ، الحقُّ: خبر، أو الحقُّ مني، الحق: مبتدأ وما بعده يكون خبراً، الحق مني، أو يكون الخبر مذكوراً، فالحقُّ لأملأن جهنم، فالخبر: لأملأن، نحن لا نشتغل بالإعراب، ولكن ما يتوقف عليه فهم المعنى، أحياناً لا يتصور المعنى إلا بالإعراب، قال: {وَالْحَقَّ أَقُولُ}.

قال: وقرأ آخرون بنصبهما.

قال: قال السدي: هو قسم أقسم الله به.

يعني: قرأ آخرون بنصبهما، قال هنا: {قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ}، وهذه أيضاً قراءة متواترة قرأ بها بقية السبعة، يعني هذه قراءة الجمهور، {فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ}، بأي اعتبار {فَالْحَقَّ}؟ بعضهم يقول: هذا قسم، أن الله أقسم بالحق، قال: {فَالْحَقَّ} حذف منه حرف القسم فنصب بنزع الخافض، {فَالْحَقَّ} يعني كأن الأصل قال: أقسم بالحقِّ، قال: فبالحقِّ، فلما حذف حرف القسم الباء انتصب بنزع الخافض، {فَالْحَقَّ}، وبعضهم يقول: ليس فيها قسم، وإنما الأولى تكون منصوبة على الإغراء، الزموا الحقَّ، {وَالْحَقَّ أَقُولُ} تكون "الحقّ" الثانية منصوبة بفعل يفسره ما بعده {أَقُولُ}، يعني: وأقول الحقَّ، {فَالْحَقَّ} الزموا الحقَّ، {وَالْحَقَّ أَقُولُ} يعني: وأقول الحقَّ، مفعول به منصوب، والله أعلم.

وهنا قال السدي: هو قسم أقسم الله به، إذا كان قسماً فيكون على النصب باعتبار أنه بنزع الخافض كما سبق، والخافض هو حرف الجر فحين يحذف ينتصب الفعل، ولا يكون مجروراً في اللفظ.

قال: قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة السجدة:١٣]، **وكقوله -عز وجل-: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}** [سورة الإسراء:٦٣].

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [سورة ص:٨٦-٨٨].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} أي: وما أريد على ما أرسلني الله به ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته ولا أزيد عليه ولا أنقص منه وإنما أبتغي بذلك وجه الله -عز وجل- والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري عن الأعمش، ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله -عز وجل- قال لنبيكم -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، أخرجاه.

وقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما.

في قوله تعالى: **{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}** يعني القرآن وما تضمنه من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يقولون لأقوامهم ذلك، يعني أنهم لا يسألونهم على دعوتهم إلى الله أجراً، فهذه الآية تتضمن أصلين كبيرين من أصول الدعوة: أنها مجاناً بلا مقابل، أيًّا كان هذا المقابل، قد لا يأخذ من الناس مباشرة يقول: أعظكم فتعطونني، لكن قد يأخذ من القنوات، قد يأخذ من الشريط، وتتحول المسألة إلى تجارة، تحصيل للأموال بسبب هذه الدعوة، وللأسف بعضهم يفتخر في قناة يتكلم يقول: كان دخله سبعة آلاف، والآن متوسط الدخل في الشهر مائة ألف، هذا ينزع القبول مما يقول، ولا يكون على كلامه نور، والقلوب تدفعه وترفضه، ولا يحتمل الناس أن يسمعوا منه دقائق، مباشرة إذا رأوه غيروا القناة، وإذا رأوا كلاماً له مكتوباً أو نحو ذلك في موقع من المواقع، أو نحو ذلك مباشرة بحثوا عن غيره، ينطفئ نور الكلمة، بعدما يكون الإنسان له أقوال وكلام يشرق ويغرب، وله قبول، تحولت القضية إلى تجارة، وهنا تنطفئ نور الكلمة، لذلك أقول: مهمة الدعاة إلى الله -عز وجل-، مهمة المصلح أنه يقدم للناس الدعوة مجاناً، ما يأتيه مقابل منها، وإلا فإن ذلك مؤذن بالنهاية الحتمية، والله يغرس لهذا الدين غرساً يقوم بذلك الدعوة إلى الله، ونشر الخير، وما إلى ذلك، ويذهب أولائك وينساهم الناس، فالإنسان عليه أن يختار إما ما عند الله، وإما ما عند الناس، فالدعوة مجاناً.

الأمر الثاني: التكلف، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، التكلف في كل شيء؛ ولهذا أخرج البخاري في الصحيح عن عمر -رضي الله عنه-: "نُهينا عن التكلف"[٣]، وإذا جاءت هذه الصيغة "نُهينا" فإن الذي نهاهم هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا مطلق، "نُهينا عن التكلف"، وما حدد شيئاً، والأصل حمل مثل هذا على عمومه؛ لأنه حذف فيه المقتضى، فيحمل على أعم معانيه، التكلف في العلم، ألا يقول الإنسان ما لا يعلم، ليس باللازم أن يجيب الإنسان على كل ما سُئل عنه، أو إذا سئل تورع فإنه يجيب بجواب ضبابي لا يأخذ منه السامع حقاً ولا باطلاً؛ لئلا يقول: لا أعرف، لا يجيب عن المسألة بخصوصها، لكن يتكلم بكلام يحوم حول السؤال، لكنه لم يجب، فلماذا لا يقول الإنسان: لا أعلم، وكذلك أيضاً التكلف حينما يتصنع؛ لأن أصل معنى التكلف التصنع، أن يأتي الشيء بكلفة، فليس بالضرورة أن الإنسان يكون له حضور في كل مناسبة، في كل حدث يحصل، أحياناً الإنسان لا تحضره النية، وأحياناً الإنسان ليس عنده ما يقوله، ما يضيفه، أحياناً قد تكون تعليقات شفوية وليست بكلام يكتب، في مجلس في مذاكرة بين أهل علم، فيتحدثون في موضع يتشاورون فيه، فالكلام الذي سيقوله قاله فلان، لا داعي لأن يسجل حضوراً، انتهى خلاص ما عندي شيء، يكون الإنسان في مؤتمر أحياناً، أو ملتقى، ويتكلم الناس ويعلقون على الموضوع الذي طرح، ليس عنده شيء، لا يتكلم، يعيد كلاماً قاله غيره، فهذا نُهي عن التكلف، وأحياناً يقال كلام لا معنى له ولا قيمة له فقط تسجيلاً للحضور، أني علقت في هذا الحدث، تكلمت في هذه المناسبة، علقت على كتابة فلان، فهذا كله من التكلف، "نُهينا عن التكلف" والإنسان إذا كانت لا تحضره نية لا يتكلم، إنسان ليس عنده إضافة جديد، ليس عنده شيء له قيمة، تحدث الناس عن هذا المعنى بما فيه الكفاية، لماذا كل واحد لابد أن يتكلم؟!، يسعه السكوت وأن يشتغل بذنوبه، ومن الخطأ أن يتوهم الإنسان أنه لابد أن يكتب في كل شيء، ويشارك في كل شيء، وأن يكون حاضراً في كل مناسبة، وللأسف الوسائل هذه الاتصال والتواصل بين الناس اليوم أصبحت تدفعهم دفعاً لأن يكتبوا في كل مناسبة، كل ما يقع من المناسبات، كل واحد لابد أن يسجل حضوراً ويكتب وما إلى ذلك، ومن عرف أن هذا سيعرض عليه ويحاسب فيه على نيته، ويحاسب فيه على مضامينه أيضاً فلا يكتب إلا ما يكون الجواب حاضراً، إذا حضرت الصحيفة وقيل له: ما أردت بهذا؟ ما هذا الذي كتبت؟ الجواب حاضر، أمّا أن يهرف الإنسان في كل شيء ويثرثر في كل شيء فهذا غير صحيح إطلاقاً، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، هذا ينبغي أن يكون سمة لأهل العلم، والدعاة إلى الله -عز وجل.

قال: وقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهذه الآية كقوله تعالى: {لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، **وكقوله -عز وجل-: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}** [سورة هود:١٧].

وقوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ} أي: خبره وصدقه {بَعْدَ حِينٍ} أي: عن قريب، قال قتادة: بعد الموت، وقال عكرمة: يعني يوم القيامة، ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة.

آخر تفسير سورة "ص"، ولله الحمد والمنة، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، برقم (٧٢٩٣).

وهذه طريقة حسنة في الجمع بين القولين، وعلى هذا مشى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، باعتبار أن القولين لا منافاة بينهما، فمن مات قامت قيامته، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكان هناك موضع يحتاج إلى مراجعة وهو عند قوله -تبارك وتعالى-: {هَذَا ذِكْرٌ} [سورة ص:٤٩]، وما في غالب النسخ كما في المختصر هنا: **أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، قال السدي: يعني القرآن العظيم**، {هَذَا ذِكْرٌ}، وبعض النسخ فيها "هذا فضل"، وهو في عامة النسخ "هذا فصل"، بالصاد، هذا فصل، وفي إحدى النسخ المطبوعة "هذا فضل"، وإلا فالطبعات المعروفة المشهورة في غالبها "هذا فصل"، وحتى طبعة الشعب "هذا فصل"، والشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- حينما أثبت في المختصر "هذا فضل" فذلك بناءً على النسخة التي اعتمدها -والله أعلم-؛ لأن آخر كتاب عمدة التفسير لم يكن محرراً كما هو معلوم، يعني الكتاب صدر منه خمسة أجزاء اختصار تفسير ابن كثير لأحمد شاكر -رحمه الله-، وتوفي الشيخ ومضى على ذلك عشرات السنين، ثم بعد ذلك ظهر المختصر كاملاً، وذلك أنهم وجدوا نسخة من تفسير ابن كثير نسخة الشيخ أحمد شاكر الذي كان يضرب بالأحمر على التي تحذف، فالضرب على المواضع التي تحذف لا يعني أن الألفاظ محررة في نهاية الأمر، فهذه النسخة التي كتب عليها هي نسخة قديمة معروفة -أو التي اختصرها- وفيها "هذا فضل"، لا تعني أن الشيخ -رحمه الله- كان يرجح هذا، وإنما أخذوا هم هذه النسخة وحذفوا الذي ضرب عليه وأخرجوا الباقي.

فالمقصود: أن هذه العبارة تحتمل الوجهين: هذا فصل، وهذا فضل، يحتمل، فهنا {هَذَا ذِكْرٌ} قال: **أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر**، ويحتمل أن يكون: **هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر، قال السدي: يعني القرآن العظيم**، وهذا الذي اختاره ابن جرير كما سبق، فالآن إذا قلنا: هذا فضل بالضاد هذا يوافق قول جماعة من المفسرين في تفسير الآية -تفسير هذا الموضع من الآية-، هذا فضل {هَذَا ذِكْرٌ} يعني: لما ذكر هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يعني كأن المعنى هكذا: هذا شرف وذكر جميل وفضل يُذكرون به، {هَذَا ذِكْرٌ} ذكر جميل، لما أثنى على هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} [سورة ص:٤٥-٤٩] هذا فضل أعطاهم الله -عز وجل- إياه، وذكر جميل يذكرون به، {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء:٨٤]، {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [سورة الشرح:٤]، فهذا قال به جماعة من المفسرين كالزجاج والواحدي وابن الجوزي والقرطبي وآخرين، يعني فسروها: {هَذَا ذِكْرٌ} أي: شرف وذكر جميل وما شابه ذلك، فعلى هذا المعنى هذا الاحتمال، فهو إشارة إلى مدح من ذكر من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإبقاء الشرف لهم هذا يحتمل، ويحتمل معنى آخر {هَذَا ذِكْرٌ} يعني: أن القرآن ذكر للعالمين، يتذكرون به، تكون الإشارة

إلى القرآن، لهذا هنا قال السدي يعني: القرآن، وهذا اختيار ابن جرير، يعني هذا القرآن ذكر، هذا معنى آخر، أما الذي قبله {هَذَا ذِكْرٌ} فيعني: هذا الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في حق هؤلاء الأنبياء {ذِكْرٌ} أي: شرف وفضل وما أشبه ذلك، والثاني {هَذَا ذِكْرٌ} أي: هذا القرآن ذكر يتذكر به من أراد الله به خيراً، ويحتمل أن يكون {هَذَا ذِكْرٌ} يعني: هذا فصل، يعني أن يكون ذلك مثلما تقول: هذا نوع، ثم تنتقل إلى النوع الآخر، لما ذكر هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قال: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}، ذكر الأنبياء هؤلاء ثم انتقل إلى أمر آخر، ما يكون لأهل الإيمان عموماً غير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ذاك مختص بهم، وهنا انتقل الحديث إلى عموم المؤمنين هذا فصل، مثلما تقول: هذا نوع، هذا باب، مثل: أما بعد، للفصل بين كلامين أو نحو ذلك، وهذا الذي مشى عليه صاحب الكشاف واختاره صاحب التفسير الكبير، ورجحه ابن جزي في التسهيل، واختاره أبو حيان في البحر المحيط هذا فصل، يعني الحديث عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هذا فصلٌ، ثم انتقل إلى الحديث عن المؤمنين، فصل في الكلام، هذا باب، هذا نوع، هذا جانب، ثم ينتقل الحديث إلى غيرهم، يعني هذه الجملة {هَذَا ذِكْرٌ} على هذا المعنى يكون قد جيء بها للإيذان بأن الكلام الذي قبلها قد تم، ثم شرع في كلام آخر، فهي فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصداً، للانتقال إلى غرض آخر، كما تقول: أما بعد، ولو تأملنا كلام ابن كثير -رحمه الله- أيّ المعنيين يقصد؟، {هَذَا ذِكْرٌ}، لو قلنا: أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر، على هذه العبارة وهذا السياق يكون الأقرب هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، ما سبق ما ذُكِر فيه ذكر لمن يتذكر، على كلام ابن كثير، وإلا فيمكن أن يكون هذا فضلاً وشرفاً يذكر به هؤلاء الأنبياء، هذا معنى آخر، هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر، أو هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، على سياق الكلام في ابن كثير هنا عبارته: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، أو فضل فيه ذكر لمن يتذكر، والأقرب أن نحملها على فصل، هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، لكن فضل تبقى محتملة، وليس ذلك ببدع في الكلام فابن كثير -رحمه الله- مسبوق إلى هذا، والإشكال هو أن نسخ ابن كثير الخطية فيها تغيير وتبديل وحذف وإضافة وتعديل، والسبب -والله تعالى أعلم- أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في حياته كان يضيف ويحذف ويعدل حيناً بعد حين، فجاءت النسخ الخطية متفاوتة، فالذين يحققون الكتاب يجدون هذا التفاوت في النسخ، وأما الذين يحققون على النسخ المطبوعة فهذا ليس تحقيقاً وإنما هو عبث في التراث، وهؤلاء يجمعون أخطاء الطباعة والتحريفات في الطباعة، وتحريف المصحفين في النسخ الخطية، والسقط الذي في الطباعة، واختلاف ما في النسخ أو اختلاف النسخ الخطية ضمناً، فيجمعون ذلك جميعاً في نسخة واحدة، فما قصدَ ابنُ كثير حذفَه وشطبه أرجعوه، وما وقع من تحريفات النساخ وضعوه، فجاءوا بنسخة هي مزيج من هذا جميعاً، والمؤلف حينما يصلح في كتابه ويحذف لا يمكن أن يقبل أن أحداً من الناس يأتي ويجمع له ما حذفه من جديد ويعيدها كما كانت في صورتها الأولى حينما كتبها، فيحتمل أن ابن كثير -رحمه الله- قال: هذا فضل، وفي بعض النسخ قال: هذا فصل مثلاً في نسخة أخرى يحتمل، فالأقرب إلى السياق "هذا فصل" يعني في الكلام، وإذا كان هذا يرد في المعنى وذاك يرد في المعنى أيضاً فالأمر في هذا يسير، بمعنى أن هذا لا يقال: إنه خطأ وتحريف، وإن الكلام لا معنى له بهذا الاعتبار مثلاً، الأمر يسير، يحتمل هذا ويحتمل هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية.

روى النسائي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر"[1].

يقول: إن سورة الزمر مكية، بعض العلماء يستثني بعض الآيات، وإن كانوا لا يتفقون على عدد المستثنى، يعني أن بعضهم يزيد على بعض، وذلك -والله تعالى أعلم- أن من أهل العلم من يلاحظ المعنى، فيقول: هذه السورة مكية بناء على أنها نزلت في مكة، ثم يستثني بعض الآيات؛ لأنها تحدّث عن قضية، مثلاً هي مكية تحدثت عن اليهود أو عن المنافقين، قال: هذا كان في المدينة إذاً هذه الآيات مدنية، أو تحدثت عن معنى فهمه، قد لا يكون هو معنى الآية بالضرورة، يعني مثلاً: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [سورة الكوثر:٢]، يقول لك: السورة مكية وهذه الآية مدنية؛ لأن المقصود صلاة العيد ونحر الأضاحي، طيب هل هذا المعنى مسلّم؟، من قال: إن المقصود {فَصَلِّ لِرَبِّكَ} يعني صلاة العيد يقول: صلاة العيد ما شرعت إلا في المدينة، هذا المعنى غير مسلم، وإن المقصود بالنحر نحر الأضاحي، ليس هذا بالضرورة، وهكذا يقولون: صلاة عيد الفطر والتكبير مع الصلاة، في آية {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى:١٤-١٥] قالوا: تزكى أخرج زكاة الفطر، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ} هذا التكبير في العيد، قالوا: السورة مكية والآية مدنية، بناءً على هذا المعنى الذي فهموه، وهذا المعنى غير مسلم أصلاً، وإنما {تَزَكَّى} يعني زكى نفسه من الشرك والذنوب والمعاصي، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}، وتلك {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣]، {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، وليس المعنى صلاة العيد ونحر الأضاحي، فهذا المعنى توهمه، ثم لو سُلم بهذا المعنى، فإن من الآيات ما ينزل قبل تقرير وشرع الحكم، يكون متقدماً عليه، والحكم أعم من الحلال والحرام والواجب، وهذا

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٣٨٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح دون قوله: وكان يقرأ في كل ليلة ببني إسرائيل والزمر، وهذا إسناد فيه أبو لبابة العقيلي، وهو مروان مولى عائشة -رضي الله عنها-، ويقال: مولى هند بنت المهلب بن أبي صفرة، ويقال: مولى عبد الرحمن بن زياد العقيلي، ...، وذكره ابن حبان في "الثقات" لكن الذهبي نص في "الميزان" (٥٦٥/٤) على أن خبره منكر، وتوقف فيه ابن خزيمة في "صحيحه" (١١٦٣) ، فقال: باب استحباب قراءة بني إسرائيل والزمر كل ليلة استناداً بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره، فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح، قلنا: حسن حديثه الترمذي، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، حسن: هو ابن موسى الأشيب"، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٦٢٥)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١١٦٣)، ورواه النسائي بدون زيادة: "وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل، والزمر"، كتاب الصيام، باب صوم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأبي هو وأمي وذكر اختلاف الناقلين للخبر في ذلك، برقم (٢٣٤٧)، وقال الشيخ الألباني: "وهذا سند صحيح" في أصل صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- (٥٢٦/٢).

له نظائر في القرآن، المقصود أن السورة حينما تنزل بمكة الأصل أن جميع الآيات نازلة بمكة إلا لدليل، فيكون عندنا سبب نزول صحيح أنها نزلت في المدينة وما كان من هذا القبيل، ويوجد في السورة المكية آيات مدنية، ولكن لا يقال هذا من جهة المعنى، فيكون هو المعول فقط، ولكن لابد من نقل صحيح، يعني هنا مثلاً ما الذي جعلهم يقولون: إنه تُستثنى آيات هي نازلة في المدينة، يقولون في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [سورة الزمر:٥٣]، إنها نزلت في وحشي الذي قتل حمزة -رضي الله تعالى عنه- وإنه أراد أن يسلم، وكان يمنعه من الإسلام هذا الجرم العظيم، وإنه نزل فيه آيات إلى آخره، فنقول: لو ثبت هذا وصح لقيل: هذه مستثناة، لكن إذا لم يصح نقول: لا يستثنى منها شيء، هذه قاعدة، دائماً تجدون في كتب التفسير هذه المستثنيات إما تبنى أحياناً على روايات ضعيفة أو على معنى لاح للمفسر، فليس بالضرورة إذا تحدثت الآيات عن اليهود مثلاً أو بعض الآيات أن تكون الآية نازلة في المدينة، ولا الحديث عن المنافقين كذلك، يعني في سورة العنكبوت ذكر الله المنافقين {وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [سورة العنكبوت:١١]، قالوا: هذه مدنية، وكذلك أيضاً في سورة الأنفال وهي مدنية ذكر الله فيها المنافقين في غزوة بدر قبل أن يظهر النفاق على المشهور، والمشهور عند أهل العلم أن النفاق لم يظهر بعد غزوة بدر، وذلك في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنفال {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢]، هذا قبل وقوع الغزوة، يقولون: هؤلاء ذهبوا يقاتلون قريشاً وهم في هذا الضعف والقلة، قبل غزوة بدر، والسبب في ذلك وإن كان هذا استطراداً لكنه مهم في مثل هذه المواضع التي يحكم فيها بأن السورة مكية أو مدنية، وقضية النفاق هذه لربما وجدت في مكة، ووجدت قبل غزوة بدر بدليل آية العنكبوت وآية الأنفال، قبل غزوة بدر، وقت الضعف يعني، وما هذا النفاق الذي يكون في وقت الضعف؟ النفاق الذي يكون في وقت الضعف يكون بسبب الضعف أمام الأذى، يعني الضعف بسبب الخوف، فالناس قد يحصل لهم شيء من ضعف الإيمان ولربما التلون، التلون هذا هو النفاق، لكن النفاق على مراتب ودرجات، فالنفاق قد يكون خالصاً، وقد يعتري في بعض الحالات، نافق فلان، نافق حنظلة، نافق كذا، كما فهم، يعني بعض المواقف نافق فلان، لقد نافق يا رسول الله دعني أضرب عنقه، يعني بسبب موقف محدد، في أوقات الاستضعاف قد يحصل، ولهذا يقولون دائماً بعد الحروب بعد استيلاء العدو يقولون: ونجم النفاق، هذا يقال في التاريخ، يعني لما يستولي العدو ويتغلب يبدأ ضعفاء النفوس يبحثون عن حماية، فيمد بعضهم يده للعدو، ويبدأ يدل على عورات المسلمين، ليتخذ يداً عند هذا العدو، يبدأ يتجمل أمام العدو ويتنصل مما كان عليه في السابق، هذا نفاق، فالنفوس لها تحولات، هذه التحولات منها ما يكون مجرد ضعف في الإيمان، لكن لا يصل إلى حد النفاق، ومنها ما يكون نفاقاً، ومنها ما يكون كفراً، ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً))[٢]، ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر الزمان، والعكس أيضاً، ((يبيع دينه بعرض من الدنيا))، فهذا ملحظ دقيق لا يكاد يذكر في الحديث عن النفاق، وإنما نحن لا نتصور إلا إنساناً يكون قد نافق نفاقاً خالصاً، وأن مثل هذا بهذه الطريقة وهذا التدبير إنما

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

حصل في المدينة بعد غزوة بدر في وقت القوة، وأنهم ماذا يصنعون بالنفاق في وقت الضعف في مكة؟، نقول: هناك نوع من النفاق يتسلل للنفوس بسبب الشدة فيحصل، الذين خرجوا مع المشركين في غزوة بدر وهم من المسلمين، **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ}** [سورة النساء:٧٩]، خرجوا مع المشركين بأسمائهم، واقرءوا في كتب السيرة أسماء الذين خرجوا في بدر مع المشركين من المسلمين، الذين كانوا في مكة، وقُتل عدد من هؤلاء، وقال الله فيهم: **{أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ}** [سورة النساء:١٢١]، فمثل هذا التصرف حينما يخرجون ويقولون: نحن من المستضعفين، تصرفهم هذا هو نوع نفاق.

هذا فيما يتعلق باستثناء آيات من السورة، وأما هذا الحديث حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر"، فمعناه أنه كان -عليه الصلاة والسلام- يواصل الصوم، يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، يسرد الصوم سرداً، وهذا لا إشكال فيه، وإنما المحرم هو صوم الدهر، فلو أن الإنسان مثلاً شغل عن الصيام الذي اعتاده -صيام تطوع- في مدة من الزمان ثم أراد أن يعوض هذا فسرد الصوم لمدة شهر أو لمدة شهرين أو نحو ذلك ليعوض، ليستدرك ما شغل فيه في سائر أيام العام مثلاً، فهذا لا إشكال فيه، حتى بعض الذين كانوا يدمنون الصوم ويسردون الصوم يصوم كل يوم، هؤلاء كانوا يرون: أن المحرم هو صوم الدهر، وأن من أفطر الأعياد وأيام التشريق لم يصم الدهر، وإن كان عمل هؤلاء مفضولاً، يعني الأفضل أفضل الصيام كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- صيام داود -عليه الصلاة والسلام- يصوم يوماً ويفطر يوماً، لكن المقصود هنا من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يسرد الصوم كأنه يعوض -عليه الصلاة والسلام- الأيام التي يفطر فيها حتى يقال: ما يريد أن يصوم، ينشغل -عليه الصلاة والسلام- في أمور أخرى فيسرد الصوم، يعوض، "**وكان -عليه الصلاة والسلام- يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر**"، هذه هل يقرؤها في صلاة الليل أو يقرؤها خارجاً عنها؟، الظاهر أنه -عليه الصلاة والسلام- كان يقرؤها خارجاً عن الصلاة، يعني يقرؤها قبل النوم وليس في الصلاة؛ لأنه في رواية عنها: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل"، وفي لفظ: "كان لا ينام على فراشه حتى يقرأ"[٣]، "لا ينام على فراشه"، فهذا كله يدل على أنه كان -صلى الله عليه وسلم- يقرأ هذه السور قراءة خارج الصلاة، لا ينام حتى يقرؤها، ولو أنه وضعها في صلاة، لو أن المكلف وضعها في صلاة يكون تحقق المطلوب، والقراءة في الصلاة أفضل من القراءة خارج الصلاة، المقصود أنه لا ينام حتى يقرأ هذه السور، وظاهر فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقرؤها خارج الصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٩٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٤١).

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة الزمر:١-٤].

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده -تبارك وتعالى-، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤١-٤٢].

جرت العادة في القرآن أن الله -تبارك وتعالى- إذا ذكر تنزيل القرآن أعقب ذلك بذكر أسمائه الحسنى، وهنا قال: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وهكذا أيضاً في سورة الجاثية وفي سورة الأحقاف، وفي موضع آخر -في سورة غافر-: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة غافر:٢]، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، فهذا هو الغالب في القرآن، وذلك أن مصدر هذا الكتاب إنما هو من الله -تبارك وتعالى-، ولهذا يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن التنزيل والإنزال في القرآن على ثلاثة أنواع: نوع مطلق، كقوله: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد:٢٥]، ونوع مقيد بأنه من الله، وهذا لم يرد إلا في القرآن {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ}، ونوع مقيد بغيره مثل {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر:٦]، {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ} [سورة المؤمنون:١٨]، مقيد بقيد غير ما سبق، يعني لم يقيده بأنه أنزله من الله، وإنما من السماء، ومن الأنعام، كما سيأتي في قوله: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وقوله هنا: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ}، يمكن أن يكون التقدير: هذا تنزيل الكتاب، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف، ويمكن أن يكون مبتدأ {تَنزِيلُ الْكِتَابِ}، وما بعده خبر، يعني الجار والمجرور، وهذا قال به الفراء والزجّاج وأصحاب المعاني، معاني القرآن.

وقال -جل وعلا- هاهنا: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ} **أي: المنيع الجناب،** {الْحَكِيمِ} **أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.**

هذه الأسماء الحسنى تفسيرها في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فالعزيز هنا يقول: **أي المنيع الجناب**، هذا أحد معاني العزة بمعنى المنعة، والعزة صفة تكون من مجموع أوصاف، تحصل من مجموعها صفة العزة، العزيز، ولهذا يقول بعضهم: العزيز هو الذي لا يغالب، وكل هذا بعض معناه، **والحكيم: أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره**، لكنه ما فسر بهذا معنى الحكيم، ومضى الكلام على أصل هذه المادة الحاء والكاف والميم، حكيم وأنها تدل على المنع، أو ترجع إلى معنى المنع، عند عامة أهل العلم، فالحكيم والحكمة كل ذلك يرجع إلى معنى المنع، الحكَمة الحديدة التي توضع في فم الدابة تمنعها من الانفلات، فالحكمة صفة توجب الإصابة في القول والعمل، فيمتنع معها الخطل في الرأي، والخطأ في اللسان أو في العمل، فتكون الأحكام صائبة، والأقوال صحيحة مسددة، والأفعال على الوجه اللائق، فيقال لمن اتصف بذلك: إنه حكيم،

يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها، يقال: فلان حكيم، الإصابة في القول والعمل، القول صحيح والرأي والحكم صحيح، ويفعل ذلك في الوقت المناسب، هذا هو الحكيم عند الناس، أو الحكيم من الناس.

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، يحتمل أن تكون الباء سببية، يعني: أنزلنا إليك الكتاب بسبب الحق، فتكون متعلقة بالإنزال، أنزلناه بالحق، ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف وليس بالإنزال، أنزلناه بسبب الحق، أو متعلقة بمحذوف هو حال من الفاعل الذي أنزله -تبارك وتعالى- يعني: أنزلنا إليك الكتاب متلبسين بالحق حال إنزاله، هذا من الفاعل، أو من المفعول {أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} يعني: متلبساً بالحق، هذا من المفعول، {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ}، هذا التقييد {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ}، ما قال: فاعبد الله مثلاً، والله -عز وجل- كما قال عن المشركين: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ} [سورة يونس:١٨]، قالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} كما سيأتي أيضاً {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، فهؤلاء يعبدون الأولياء والأنداد، ويقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، فدل على أنهم يعبدون الله، ويعبدون هؤلاء ليقربوهم إلى الله، ويكونوا شفعاء لهم عند الله -جل جلاله-، فهذا لا ينفعهم؛ لأن العبادة يجب أن تكون خالصة، ولا يمكن أن يقال: هذا عابد لله -عز وجل- أو عبد لله إلا أن يكون مخلصاً، {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}، ولهذا هذه السورة سورة الزمر يقال لها أيضاً: سورة الإخلاص الثانية، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص:١] سورة الإخلاص الأولى.

ثم أخبر تعالى عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: {إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك"، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه.

كما قال الله -عز وجل- عنهم مما يفسر هذا الموضع {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}: {وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ} [سورة يونس:١٨]، فهم يقولون: {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}، هذا معنى {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، يعني: يطلبون الشفاعة منهم عند الله، يعتقدون أن لهم منزلة عند الله فيصرفون لهم بعض أنواع العبادة من أجل أن يشفعوا

لهم، فالزلفى تدل على القرب، فهي نائبة عن المصدر، يعني ليقربونا تقريباً من الله، يقربونا قرباً من الله، فجاءت "زلفى" موضع "قرباً"، يقربونا قرباً، لكن ليست من لفظه، فجعلت في موضع المصدر.

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [سورة النحل:٣٦]، **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [سورة الأنبياء:٢٥].

وأخبر أن الملائكة التي في السماوات من المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذن فيما أحبه الملوك وأبوْه، {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ} [سورة النحل:٧٤] **تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.**

يعني هؤلاء -أعني المشركين- يقولون: إن الكبراء والملوك والعظماء من أهل الدنيا لا يمكن الوصول إليهم إلا بالشفعاء، فيقولون: إن الله -تبارك وتعالى- أجل وأعظم في ملكه من هؤلاء الملوك في الدنيا، فلابد من الشفعاء الذين يتوصل إلى رضاه بواسطتهم، هكذا يقيسون، وهذه الجملة التي يرددها المشركون وسجلها عليهم القرآن ويقولها الرافضة بعينها، يعني نطق بها بعضهم، فبعض بسطائهم كأنه قد لقن هذا، قال: إذا أردت أن تأتي إلى ملك من الملوك فلابد أن تبحث عمن يوصلك إليه، فنحن كذلك نتوسل إلى الله ونتوصل إليه بعلي والحسين وما أشبه ذلك، هؤلاء يقربوننا عند الله، نفس الكلام، فهم يعبدونهم، أصحاب العتبات المقدسة كما يقولون، يقدمون أنواع العبوديات لهم، بل جعلوا لهم من المنزلة أعظم مما لله -تبارك وتعالى-، فجعلوهم هم الذين يديرون الكون، وهذا هو عين قول المشركين، بل إن قول المشركين دونه، المشركون يقولون: مجرد شفعاء، {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} وهؤلاء جعلوهم يدبرون الكون كله، فقولهم أعظم من قول المشركين الأولين.

وقوله -عز وجل-: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} أي: يوم القيامة، {فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله.

في قوله: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [سورة النحل:٧٤] المقصود به الأمثال السيئة، في مثل قول هؤلاء في تشبيه الله -تبارك وتعالى- بالملوك من أهل الدنيا، وأنه لا يتوصل إليهم إلا بالشفعاء، فكذلك الله، فجعلوه بمنزلة هؤلاء، فهذا محرم لا يجوز، قول منهي عنه، وليس المقصود الأمثال الصحيحة، ولهذا العلماء -رحمهم الله- كانوا يذكرون أمثالاً في مقام الرد على المنحرفين في الاعتقاد، ولربما ذكروا ذلك في مقامات أخرى، فلو قال أحد من الناس: إن الإنسان لو وقف أمام ملك من الملوك فإنه يتجمل في وقوفه، ويحسب كل حركة أو كل ما يصدر عنه، ويتجمل في لباسه وما إلى ذلك، وهو يقف بين يدي الله -عز وجل- في اليوم والليلة خمس مرات، فهو أولى وأحرى أن يتجمل في هذا الوقوف صورة ومعنى، فهذا لا إشكال فيه، ولا يقال: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}، فهذه الأمثال الصحيحة لا إشكال فيها، والعلماء كثيراً ما يذكرون هذا، ولله المثل الأعلى.

وقوله هنا: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، هو قال: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، الكلام هنا السياق {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فمن نظر إلى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور قال: هذا في الذين اتخذوا من دون الله

أولياء، ففسروا الآية، قالوا: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} يعني: هؤلاء العابدين لغير الله -عز وجل- على اختلاف معبوداتهم وأديانهم ومذاهبهم وآرائهم، {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} فالذين يعبدون غير الله هم على أصناف وملل، وبينهم من الاختلاف الشيء الكثير، هؤلاء يعبدون الملائكة، وهؤلاء يعبدون عزيراً، وهؤلاء يعبدون المسيح، وهؤلاء يعبدون الجن، وهؤلاء يعبدون الشجر أو الحجر، فالله يحكم بينهم، ومن نظر إلى أن الآيات دالة على أن الله -تبارك وتعالى- يحكم بين الخلائق جميعاً، {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} قال: يحكم بينهم: بين هؤلاء الذين يعبدون من دون الله -عز وجل- أولياء وبين خصومهم من أهل التوحيد والإيمان، {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} لكن كأنهم نظروا إلى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} وإن جاء بصيغة الغيبة، ما قال: إن الله يحكم بينكم وبينهم مثلاً، قال: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} من معبوداتهم وأديانهم، وهذا لا ينفي أن الله يحكم بين العباد والخلائق كما تدل عليه الآيات الأخرى.

ويبدو -والله أعلم- ظهور القول الأول.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سورة سبأ:٤٠-٤١].

وقوله -عز وجل-: {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} أي: لا يرشد إلى الهداية من قصدُهُ الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كفّار يجحد بآياته وحججه وبراهينه.

العلماء -رحمهم الله- في العادة يقولون في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} يعني مصراً على التكذيب والكفر، ولهذا في مثل قوله: {لا يهدي القوم الظالمين}، {الكافرين}، يقولون: المقصود المصرين على الكفر أو الظلم؛ لأن الله هدى كثيراً من الكافرين والظالمين، والكاذبين وما أشبه ذلك، الكفار الذين أسلموا ولا زالوا، فيهديهم الله -عز وجل-، فلهذا العلماء -رحمهم الله- يفسرون هذا يقولون: هم المصرون على كفرهم، على ضلالهم، أهل العناد والشقاق.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى فقال -تبارك وتعالى-: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال -عز وجل-: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٧]، {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف:٨١]، **كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم.**

هذا جواب {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}، أن التعليق على شرط لا يقتضي تحقق الوقوع، يعني قد يقول قائل: هذا محال، فكيف علقه على شرط، هذا مستحيل؟، فيقال: التعليق على شرط لا يقتضي الوقوع، وهذه قاعدة معروفة، يجاب بها عن مثل هذا السؤال الذي يرد في مثل هذه المقامات، مع أن هذه المواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- التي علق فيها على شرط تحتمل معنى آخر، فمثلاً في هذا الموضع، بعض العلماء يقول: إن الله قال: {لاصْطَفَى} ما قال: لاتخذ، {لاصْطَفَى}، يعني: لاصطفى يعني لعبوديته؛ لأن كل ما سوى الخالق فهو مخلوق، ولا يمكن أن يكون هذا المخلوق يصلح أن يكون ولداً

يُصطفي مما يَخلق، فهذا المخلوق لا يصلح أن يكون ولداً للخالق؛ لأنه جنس لا يصلح لأن يكون ولداً لله -عز وجل-، هذا لا يتأتى، كيف يكون مخلوق ولداً للخالق؟!، فهو من جنس لا يصلح له هذا، المخلوق لا يصلح أن يكون ولداً للخالق -تبارك وتعالى-، قالوا: ولهذا قال: {لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}، فاصطفى مما يخلق ليس للولدية وإنما للعبودية الخاصة، قالوا: فعبر بالاصطفاء، هذا هنا يذكره بعض أهل العلم ويفسر الآية بهذا، وعليه -على هذا التفسير- لا يقال هنا: إن المعلق على شرط لا يقتضي الوقوع، فعندهم أن هذا ليس من هذا القبيل، وهكذا في قوله مثلاً: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف:٨١]، {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، بعضهم يقول: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} لله -عز وجل-، فهنا لا يتأتى القول بهذه القاعدة، أن المعلق على شرط لا يقتضي الوقوع، لا يقتضي الحصول؛ لأن المعنى عندهم ليس {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} لهذا الولد، لكن عند من فسره بهذا قال: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} للولد، أن هذا لو {كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} فيكون معلقاً على شرط، والمعلق على شرط لا يقتضي الوقوع، ولهذا فمثل هذه القواعد يمكن أن يجاب بها عن مواضع من كتاب الله -عز وجل-، ويمكن أن يجاب بقواعد أخرى، بحسب المعنى، ويمكن أن يجاب بإجابات غير القواعد عن هذه السؤالات، ولذلك هؤلاء الذين يوردون إشكالات ويلبسون على الناس في كلامهم وكتاباتهم ومواقعهم، ويتابعهم بعض الناس ويقعون في إشكالات، الواقع أنه يمكن أن يجاب عن إشكالاتهم بأنواع الأجوبة، بكل سهولة، المشكلة أنهم يعرضون هذا على أناس لا يعرفون هذه المعاني، وما يراد بها، وكلام أهل العلم فيها، وما يمكن أن يجاب به، وما هي القاعدة في هذا الباب، وإلى آخره، فيتحيرون، وبعضهم يقع عنده لبس وشك في كلام الله -عز وجل-، أو يضربون بعضه ببعض، ويصفونه بالتناقض، ويكذبونه، ونحو هذا، والواقع أنه يمكن أن يجاب عن هذا بأجوبة متنوعة ويتفنن في الجواب حتى لا يبقى لهؤلاء أدنى مقال بعد ذلك، أنا لا أتابع كلام هؤلاء ولا أقرؤه أبداً، لكن أحياناً تبتلى بمن يسأل ويصر ويقول: أنا قرأت هذا في كلام فلان، ذكره فلان، موقع فلان، حساب فلان، فتحتاج إلى الجواب على هذا الإشكال عنده، فأتعجب من إيراد هؤلاء لهذه الأشياء، فأقول: إما أن يكون هؤلاء في غاية الجهل، وإما أن يكونوا من قبيل الشياطين، يضللون الناس في أمور إذا كانوا يعرفون الجواب عنها، إذا كان عندهم علم، لكن يلبسون على الناس.

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} أي: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

{خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [سورة الزمر:٥-٦].

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره، {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا

يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثاً، كقوله -تبارك وتعالى-: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [سورة الأعراف:٥٤]**، هذا معنى ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم.**

يعني {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}، التكوير: تكوير الشيء بمعنى إدارته، وضم بعضه إلى بعض، كتكوير العمامة، كوَّر العمامة بمعنى: أدار بعضها على بعض، فالله -تبارك وتعالى- يكور الليل على النهار، بمعنى أنه يدير الليل والنهار بهذه الطريقة العجيبة التي يحصل بها هذا التعاقب والتتابع الذي يحصل به قيام مصالح الخلق ومعايشهم، وأظن أنه يمكن في مثل هذا العصر الآن التصوير بالأقمار الصناعية وما أشبه ذلك لو صور الليل وهو يتحرك وينتقل من مكان إلى آخر والنهار ينسحب فتجد أنه في بعض الأماكن في وقت الفجر ووقت المغرب تجد أن الوقت يكون بين بين، يعني في الظلام، بين الظلام والنور -الإضاءة-، فتجد أنه يغشاه فينسحب النهار بهذه الطريقة، يعني تصور من المشرق مثلاً يبتدئ من جهة الصين أو اليابان أو إندونيسيا وهكذا ينسحب حتى يصل، فلهذا دخلنا في الصباح نحن الآن وأسفرت الدنيا بهذه البقاع التي نشاهدها، ولكن ما وراءنا لا زال الليل يغشى النهار، فتجد مثل هذا يدور بهذه الطريقة فتحصل بذلك مصالح الخلق.

والتكوير يأتي بمعنى طرح الشيء على الشيء، وهذا بمعنى ضم الشيء أيضاً ضم بعضه إلى بعض، طرح الشيء بمعنى يطرح الليل على النهار، يلقيه عليه، وهذا معنى التغشية أو قريب منه، يُغشيه، فالليل يغشى النهار، الليلة سابقة لليوم، فالليل يغشى النهار، {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}، وهذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فيغشيه حتى يذهب ضوءه، فيكون يكور الليل على النهار بمعنى يغشيه، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، يعني القضية هكذا، ليل ونهار، هذا الليل يدور والنهار بعده، يعني هذا الوقت الذي يكون بين بين، هذا الفراغ مثلاً، وإن كان هو جزءاً من النهار أو الليل، لكن للإيضاح، فهو يدور بهذا الشكل، فيغشيه، وبعضهم حمل ذلك على معنى سبق الكلام عليه في قوله: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [سورة فاطر:١٣]، فذكر فيه هذا المعنى الذي ذكر آنفاً، وهناك يذكر معنى آخر ذكره بعض أهل العلم هنا أيضاً، وهو أن الليل يأخذ من النهار فيطول الليل في الشتاء ويقصر النهار، ثم يبدأ الليل في التناقص تدريجياً فيأخذ النهار من الليل، فيطول النهار كما في الصيف إلى أقصى مدى، ويقصر الليل، وهكذا في حركة مستمرة يحصل بها هذا التناقص، يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، ومن أهل العلم من حمل هذا الموضع من كتاب الله -عز وجل- على هذا المعنى، والمعنى الأول في التكوير، يعني تفسيره بالتغشية {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} كأنه في هذا الموضع ألصق -والله تعالى أعلم-، وهناك {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}، يكون هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، إضافة إلى المعاني الأخرى التي ذكرت هناك، والعلم عند الله -عز وجل.

{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى} أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم تنقضي يوم القيامة.

قوله: {كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى}، قال الحافظ -رحمه الله-: **إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم تنقضي يوم القيامة**، فالأجل المسمى هو يوم القيامة، هذا قال به طوائف من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، إلى يوم القيامة فينخسف القمر وتنكدر النجوم، وتكور الشمس، {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [سورة التكوير:١]، وكما هو معلوم

حينما تطلع الشمس من مغربها، فتتغير هذه الحركة المستمرة المنتظمة بهذه الطريقة الدقيقة، ويحتمل أن يكون {لأَجَلٍ مُسَمًّى} يعني: أن لكل منهما منازل لا يتعداها ولا يتجاوزها في حركته وانتقاله وجريانه ودورانه، يدور، يتحرك، يسير في منازل، يعني فيكون هنا {كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى} يعني: ما حده الله -عز وجل- له من المنازل.

{أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

من مجموع الاسمين أو الصفتين يحصل وصف ثالث، فهنا العزيز الغفار، فهو مع عزته يغفر، والغفر قد يكون عن عجز بالنسبة للمخلوق، يقول: أنا عفوت عنك أنا غفرت لك، أنا سامحتك؛ لأنه لا يستطيع أن يعاقبه أو أن يأخذ بحقه أو أن ينتقم، لكن الله -تبارك وتعالى- عزيز فهو مع عزته غفار يغفر، لا عن عجز بالمؤاخذة، وهذا هو الكمال، ولذلك أيضاً مضى الكلام على قول عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ} [سورة المائدة:١١٨]، ما قال: الغفور الرحيم، قال: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}؛ لأنه حينما يغفر لهم فإن ذلك لا يكون عن عجز في المؤاخذة، وإنما هو قادر على مؤاخذتهم ومعاقبتهم ولكنه يغفر عن اقتدار وعزة.

وقوله -جلت عظمته-: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم -عليه الصلاة والسلام-، {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وهي حواء -عليها السلام-، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [سورة النساء:١].

مثل هذا الموضع: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} وما أشبهه من المواضع في كتاب الله -تبارك وتعالى- صريح في أن البشر إنما خلقوا من آدم، وما كنت أظن أننا في يوم من الأيام نحتاج إلى أن ننبه على هذا، فالناس من ذرية آدم، كل البشر من ذرية آدم، لا يوجد أحد من البشر خارج عن ذلك، لكن الآن للأسف يوجد من يكتب ويتكلم ويروج غير هذا في جنس البشر، لا أقصد الذين يقولون بنظرية التطور، يوجد شيء آخر، يوجد من يتفلسف ويقول: إنه يوجد بشر قبل آدم، ويفسر بعض الآيات هذا التفسير، ما كنت أظن أن أحتاج أن أنبه لهذا، كما أني لم أكن أظن أبداً أننا نحتاج أن ننبه إلى أن اليهود والنصارى كفار، {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ} [سورة الحشر:٢] إلى أن وجد من يقول: هؤلاء من المؤمنين، ولماذا تقولون: إنهم كفار؟ إلى هذا الحد!، فهنا {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} آدم -عليه الصلاة السلام-، فلا يوجد أحد من البشر ليس من ذرية آدم، ولكنه الولع بالإغراب، وأصبحت القضية مثل ما يبتلى به بعض الصحفيين أو كثير من الصحفيين فيما يسمى بالسبق الصحفي، فيأتي بأشياء أحياناً لا حقيقة لها، أو مشوهة أو غير ذلك من أجل أن يكون للخبر شيء من الزخم والصدمة في نفوس الناس فيتفاعلون معه وما إلى ذلك، فيوجد الآن من يكتب من المسلمين ولربما بعض المتدينين أشياء عجيبة غريبة، لم يقل بها أحد، ووجد من ينازع في بعض الأنبياء هل هم رسل أو لا؟، ويأتي بعض الشباب ويقول: ما الجواب على هذا؟ فهذه من العجائب والغرائب، وصلنا إلى هذا المستوى!، ومثل هؤلاء أنا لا أجيبهم بالعادة، أقول لهم: كم بلغ سعر الحنطة؟ كما قال الشعبي -رحمه الله.

وقوله تعالى: {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} أي: خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام...

يعني هنا التعبير بلفظ الإنزال، {وَأَنزلَ لَكُمْ}، شيخ الإسلام يقرر أن هذه اللفظة هذه الكلمة، هذه المادة، {أَنزلَ} تدل على نزول من أعلى إلى أسفل، ويقرر نزول القرآن وأنه منزل من الله، ويقرر مسألة العلو لله -تبارك وتعالى-، فيأتي بجميع الموارد لهذه اللفظة، ووجوه الاستعمال في القرآن لها، فيأتي هنا مثلاً {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الإنزال باعتبار أنه نزول من أعلى إلى أسفل، فهنا العلماء يذكرون وجوهاً في المعنى، فيحتمل أن يكون أصول هذه الأنعام أنزلت إلى الأرض من السماء، أن الله خلقها في السماء أو في الجنة أو غير ذلك -الله أعلم-، فأنزلها يعني أنزل أصولها، فتوالدت، ومن معاني الإنزال فيها أنه نزول، يعني يتحقق فيها معنى النزول من أعلى إلى أسفل، وما ذكره بعض أهل العلم أن ذكورها تنزو على إناثها، فيستقر ذلك في أرحامها، فهذا فيه معنى النزول، أصلها يعني نطفة، أو أن هذه الأنعام حينما تولد تنزل من الأمهات إلى أسفل، ففيها معنى النزول {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، أو أن المراد أنزل لكم، باعتبار أنها تعيش على النبات، والنبات يكون بالمطر بإذن الله -عز وجل-، فترعاه هذه، كما قال الشاعر:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناه وإن كانوا غضاباً

يعني رعينا الزرع الذي نبت بالمطر، وليس المراد رعينا السماء.

إذا نزل السماءُ بأرض قوم *** رعيناه وإن كانوا غضاباً

فالذي يُرعى هو النبات، فسماه بهذا سماء يعني مطراً، باعتبار أنه ناتج عنه بإذن الله، فعبر عن المسبب باسم السبب الذي هو المطر، السماء، هذا وأياً كان من هذه الأقوال في التفسير {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ}، ففيه معنى الإنزال، كما قال في: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد:٢٥] بأن أجود الحديد إما أنه أنزل من السماء أصلاً، أو أن أجود الحديد إنما يؤخذ من أعالي الجبال، {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}، هنا: {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، قال: أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، لاحظْ من ظهور الأنعام، يعني من أصلابها، {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، يعني: أنزله من أصلابها، هذا أحد المعاني التي مضت، كأن ابن كثير -رحمه الله- يشير إليه، وبعضهم يقول: إنه قيل لها ذلك، أو قيل فيها: إنزال، أنزل لكم من الأنعام باعتبار أنها كانت بأمر الله -عز وجل-، وأمره -تبارك وتعالى- ينزل من السماء، كانت بأمره خلقت، وبعض هذه الأقوال فيه بعد، ولا يخلو من تكلف، وإنما المقصود تنزيل ذلك جميعاً على هذا المعنى الأساس، وهو أن النزول يكون من أعلى إلى أسفل فقط، لا أن هذه المعاني في قوة ومرتبة واحدة أو متقاربة.

{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٣]، {وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٤].

يعني هذا موضع في كتاب الله -عز وجل- كمثال لتفسير القرآن بالقرآن حيث يكون ذلك مقطوعاً به، وتفسير القرآن بالقرآن يدخله اجتهاد المفسر، فقد يصيب وقد يخطئ، يربط بين آيتين لا وجه للارتباط بينهما أحياناً، فيخطئ المفسر، وأحياناً يكون محتملاً، وأحياناً يكون قوياً مقطوعاً به، فمن أمثله المقطوع به هذا، {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، فهذه الثمانية هي التي في سورة الأنعام مفصلة: {وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ

وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ}، وكذا أيضاً {مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٣]، فهذه ثمانية، ومثل: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة:٢]، قال فرعون: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ} [سورة الشعراء:٢٣-٢٤]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في سورة النحل: {وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل}، وهذا جاء مفصلاً في سورة الأنعام في قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [سورة الأنعام:١٤٦]، فبهذا التفصيل هذا تفسير لقوله: {حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ} [سورة النحل:١١٨]، هذا يكون قطعياً، يعني لا مرية فيه، لكن ليس كل تفسير القرآن بالقرآن بهذه المرتبة، فحينما يقول العلماء -رحمهم الله-: إن تفسير القرآن بالقرآن هو أجود وأفضل طرق التفسير، يقصدون من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد والأمثلة والتطبيقات، فهذه تتفاوت، منه ما يقطع أنه خطأ، ومنه ما يكون محتملاً، ومنه ما يكون الاحتمال فيه قوياً، ومنه ما يكون قطعياً.

وقوله -عز وجل-: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي: قدّركم في بطون أمهاتكم.

هنا فسر الخلق بالتقدير، وكما سبق في الكلام على اسم الخالق، وكذا في سورة الحشر، أظن تكلمنا عليها، -أو لا-، في بعض الدورات قديماً في قوله: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [سورة الحشر:٢٤]، وقلنا هنا: إن الخالق هو المقدر في آية الحشر؛ لأنه ذكر بعده البارئ وهو الموجد من العدم، حتى لا يكون تكراراً، فالتأسيس مقدم على التوكيد، {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}، التصوير بمعنى التشكيل، فيكون كل واحد من هذه الأسماء له معنىً يخصه، وإن كان الخلق يأتي لهذه المعاني الثلاثة، يعني بمعنى التقدير والإيجاد من العدم، ويأتي بمعنى التصوير والتشكيل، فهنا {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} هل هو التقدير فقط أو الإيجاد والتصوير يعني المعاني الثلاثة؟، لو قيل هذا لكان أقرب -والله أعلم-، فالذي يحصل في بطون الأمهات التقدير، ويحصل أيضاً الإيجاد والإنشاء ويحصل التشكيل والتصوير، {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} هي الأطوار على الأرجح الذي عليه عامة المفسرين، الأطوار التي يمر بها الجنين، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يكون عظاماً ثم تكسى هذه العظام بلحم، ثم يتحول إلى خلق آخر، تنفخ فيه الروح، ويتحرك، ويجعل الله -عز وجل- له هذه الحواس وما إلى ذلك، فيخرج إلى الدنيا وهو ذو سمع وبصر، ويمشي، أو مهيأ للمشي، والتقلب في الأرض، {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} في هذه الأطوار.

{خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي: يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

وقوله -جل وعلا-: {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المَشيمة -التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد- وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد.

هذا الذي عليه عامة المفسرين، أن الظلمات الثلاث هي هذه، خلافاً لمن قال: إن الظلمات الثلاث ظلمة البطن وظلمة الليل، وظلمة الرحم، فالليل: الجنين في البطن لا يعرف ليلاً ولا نهاراً، ولا يغير ذلك من الحال عنده في شيء، وبعضهم يقول غير ذلك، لكن المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن هذه الظلمات الثلاث: البطن

والرحم والمشيمة، والمشيمة: الغشاء الذي يغطي الجنين الذي يسمى السلا، فالبهيمة مثلاً إذا ولدت يخرج منها غشاء مع الجنين، يقال له: السلا، هذا يغلف الجنين، فهذه كلها ظلمات يُجري الله -عز وجل- فيها هذه العمليات الدقيقة المتنوعة من غير حاجة إلى إضاءة ولا شق بطن، وهي عمليات تجري بالثانية، النمو الذي لا يدركه الإنسان هو بالثواني، فيتنامى ويتكامل حتى يتحول إلى شيء آخر، من غير حاجة إلى ما يحتاج إليه الأطباء في عملياتهم وجراحاتهم، فما يحتاج أنه يُدخل المرأة في صحية كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ولا يحتاج إلى إضاءة ولا يحتاج إلى شق البطن من أجل نقل الجنين من طور إلى طور.

قوله -جل جلاله-: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك.

هذا التخليق والتدبير والتصرف، هذا كله يرجع إلى معنى هذا الاسم الكريم الرب، يربي خلقه، المتصرف التصرف المطلق، يربيهم التربيتين التربية الجسمانية والتربية أيضاً الأخرى التي تكون بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

{لا إِلَهَ إِلا هُوَ} أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!.

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [سورة الزمر:٧-٨].

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه -تبارك وتعالى-: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة إبراهيم:٨].

وفي صحيح مسلم: ((يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً))[٤].

وقوله تعالى: {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} أي: لا يحبه ولا يأمر به، {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله.

{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه.

هنا: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ}، كما قال الله -عز وجل-: {فَكَفَرُوا} [سورة التغابن:٦] قال: {وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ}، {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، من كفر فإن الله غني، فهنا {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، هنا تجدون في كتب التفسير كلاماً كثيراً مرده -والله تعالى أعلم- على عدم التفريق بين الرضا، أو بين الإرادتين، الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى

---

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

{لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، بعض أهل العلم من السلف ومن وافقهم يقولون: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ} المؤمنين {الْكُفْرَ}، وبعضهم أطلقه، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير وسبقه ابن جرير -رحمه الله- أن يكون المعنى {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} كما في الآيات التي سبقت والحديث القدسي: ((لو أن أولكم وآخركم..))، فإن ذلك لا يؤثر في ملك الله -عز وجل- ولا يُنقصه كفر الكافرين، فالله هو الغني الحميد، {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، الرضا غير الإرادة، فالإرادة الكونية تقتضي حصول المراد، ولكنها لا تكون ملازمة للرضا والمحبة، {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، ولذلك يستدل أهل السنة بهذه الآية في الرد على هؤلاء القدرية، ومن لم يكن على الاعتقاد الصحيح في باب القدر لم يفرق بين الإرادتين، الإرادة الكونية أنه لا يقع في ملك الله -عز وجل- إلا ما يريد، فهذه لا تقتضي الرضا والمحبة، فكفر الكافرين هذا كله إنما وقع بإرادة الله، لكن {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، فالله لا يحبه ولا يرضاه، فمن الخطأ أن تجعل الإرادة ملازمة للرضا والمحبة فيقع الإشكال، فيقال: هناك إرادة أخرى، يعني هذا المراد كوناً قد يحبه الله وقد لا يحبه، فالإيمان الذي وقع من المؤمنين يحبه الله، ولكن هو لم يقع إلا بإرادة الله الكونية، أما الإرادة الأخرى وهي الإرادة الشرعية الدينية فهذه لا تقتضي وقوع المراد وهي ملازمة للرضا والمحبة، {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}، فصار عندنا إرادتان كونية تقتضي وقوع المراد، لا تلازم، لا تقتضي المحبة بالضرورة، قد يوجد ذلك، قد تكون مع المحبة وقد لا تكون، فما أراده الله -عز وجل- كوناً من محابّه لابد أن يقع، وهو يرضاه كالإيمان والطاعات، وما أراده كوناً مما يسخطه فهذا لابد أن يقع لكنه لا يقتضي المحبة والرضا، {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} مع أن الكفر وقع لكن بإرادة الله الكونية، فالتفريق بين الإرادتين ينحل به إشكالات كثيرة جداً، وهذه الآية هي من الآيات التي يستدل بها أهل السنة في هذا الباب على تقرير هذه المسألة، ويقولون: تنفرد الإرادة الكونية في الكافر والعاصي، وتجتمع الإرادة الكونية والشرعية الدينية في المطيع؛ لأن طاعته لم تكن إلا بإرادة الله الكونية، وفعله هذا أراده الله ديناً وشرعاً، لكن الإرادة الدينية الشرعية لا تقتضي وقوع المراد وإن كانت ملازمة للمحبة.

{ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: **فلا تخفى عليه خافية.**

{ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ} النبأ في الأصل كما سبق في مناسبات سابقة إنما يكون في الأمور المهمة -كما سبق- لا يقال: جاءنا نبأ حمار الحجام، وإنما ما له خطب وشأن، يقال: نبأ الجيش، نبأ الحرب، {فَيُنَبِّئُكُمْ}، فهذه أمور تتعلق بها سعادتهم ومستقبلهم ومصيرهم، {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ} و"ما" هذه تدل على العموم، كل أعمالكم الصغار والكبار {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف:٤٩]، {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة:٦]، {فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، فذكر هذا التعقيب {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} يعني: ما تكنه النفوس وما في دواخلها وما يجول في الصدور من الخواطر والإرادات والأعمال القلبية وما إلى ذلك، إذا كان يعلم هذا -{عَلِيمٌ} صفة مبالغة- فالأمور الظاهرة من باب أولى.

وقوله -عز وجل-: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ} أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ

أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء:٦٧]، ولهذا قال: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} أي: **في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع**.

يعني: {خَوَّلَهُ} بمعنى أعطاه نعمة منه -تبارك وتعالى-، قال: {نَسِيَ} نسي ماذا؟ {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} فابن كثير -رحمه الله- يقول: **نسي ذلك الدعاء والتضرع**، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، يدعو ويرفع يديه ويلح يا رب ويا رب ويا رب، فإذا حصل له المطلوب بعد ذلك ينسى ويترك هذه الضراعة والدعاء الذي كان يلازمه، فهذا وصف مذموم، فالعبد يتعبد لله ويتقرب إليه بالدعاء دائماً، فيتعرف إليه بالرخاء وليس في الشدة فقط، وبعضهم يقول: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} يعني: نسي الضر الذي أصابه وكان يدعو بسببه ربه -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} يعني: نسي ربه، يعني ترك عبادته وطاعته والتقرب إليه.

{وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}.

وقوله تعالى: {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} أي: **في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً.**

{وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ}، قراءة أخرى متواترة لابن كثير وأبي عمرو {لِيَضِل عَنْ سَبِيلِهِ}، الأولى {لِيُضِل} قراءة الجمهور يعني ليُضل الناس، جعل لله أنداداً ليُضل الناس بها عن سبيل الله -عز وجل-، تمرد على الله وعتا ونسي الدعاء حال الضر، وفي القراءة الآخرة {لِيَضل عن سبيله}، فكأن اللام هنا تدل على العاقبة، {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيَضِل} لتكون عاقبته الضلال، {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨]، يعني هم ما التقطوه من أجل أن يكون عدواً لهم، لكن العاقبة هكذا.

{قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} أي: **قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلاً. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله تعالى:** {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [سورة إبراهيم:٣٠]، **وقوله تعالى:** {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان:٢٤].

هذا التمتع هو الذي نراه من بهجة الحياة الدنيا التي تحصل لكثير من الكفار، والتقلب في الأرض، والتمتع بأنواع اللذات، ويحصل لهم من الأمور التي تطمح إليها كثير من النفوس، يحصل لهم شيء من ذلك يتمتعون به من جمال في بلادهم أو في نسائهم، أو رغد في العيش وتذليل سبل الحياة وما إلى ذلك، هذا كله داخل في {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا}، هو متاع قليل، ثم مأواهم جهنم، فماذا يغني هذا المتاع القليل؟ مثل النفس والانتعاش الذي يكون عند الإنسان قبيل موته، صحوة الموت، ماذا تنفعه هذه الصحوة حينما يشرق وجهه وتزدان حالته؟، إنما هي ساعات ثم بعد ذلك تحصل له الوفاة، فهو متاع قليل يسير لا قيمة له ولا شأن له، فمن نظر إلى ما عند الكفار من الأمطار المدرارة، وما عندهم من جمال في الطبيعة، وما عندهم من صور حسنة، وتذليل سبل العيش الرغيد، وما إلى ذلك فيتذكر أن هذا متاع قليل، هو هذا الذي ذكره الله -عز وجل-: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} فلا يستغرب مثل هذا، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر به أو أن يشك فيما هو عليه من الحق، أو يتساءل كيف نحن في حالٍ من لربما قلة المطر وقلة الزرع وقلة ذات اليد،

والكفار في هذه الحال من الأجواء الجميلة والبلاد الجميلة، وأماكن السياحة عندهم في الغالب، وكل شيء هناك؟، فهذا {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا}، هذا المتاع القليل، فيحصل لهم بسبب هذا من الاغترار والإصرار والاستمرار على الكفر ومحادة الله -تبارك وتعالى- ما لا يكون حال الشظف.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (٩) إلى الآية (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ} [سورة الزمر:٩].

يقول -عز وجل-: أمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [سورة آل عمران:١١٣]، **وقال -تبارك وتعالى- هاهنا: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا}** أي: **في حال سجوده وفي حال قيامه.**

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: القانت المطيع لله -عز وجل- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا}، {أَمَّنْ} قرأه نافع وابن كثير {أَمَنْ} بالتخفيف، يعني أن الميم غير مشددة، {أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ} فتكون همزة الاستفهام دخلت على "مَن"، {أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} يعني: كمن كفر؟، الجواب محذوف للعلم به، والعرب تحذف من الكلام استغناءً بما ذكرتْ ثقة بفهم السامع أو المخاطب، وهذا كثير في القرآن وقد مضى له نظائر وسيأتي أشياء من هذا القبيل، يعني القرآن يختصر الأشياء التي هي مُدرَكة، كما في سورة يوسف لما قال إخوة يوسف لأبيهم: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ...} [سورة يوسف:١٢-١٥]، قال: {وَجَاءُواْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ} [سورة يوسف:١٦] يعني ترك الكلام عن أنهم أخذوه وألقوه في البئر، قال: {وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ ...} ذكر عزمهم على هذا، لكن ما هي التفاصيل بعد ذلك؟ لم يذكرها، وإنما ذكر رجوعهم، وهذا كثير، فهو أنواع لكن على هذه القراءة "أَمَن"، والقراءة الأخرى التي نقرأ بها {أَمَّنْ}، تكون "أم" و "من" {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ}، فتكون "أم" استفهامية، وأمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟، هذا تفسير الحافظ ابن كثير للقراءة التي نقرأ بها، لا يستوون عند الله، هذا الجواب ذكره، لا يستوون، والثانية: أَمَن كمن كفر؟، يعني: أَمَن كان بهذه الصفة كمن كفر، كمن لم

يكن كذلك؟ لا يستوون، ليسوا كذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}** [سورة آل عمران:١١٣].

وقوله هنا: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ}** فسر القانت بالخاشع، ونقل أيضاً عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه مطيع لله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعض أهل العلم يفسر القنوت بالخشوع، وبعضهم يفسره بطول العبادة، وبعضهم يفسره بغير ذلك، **{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}** [سورة الأحزاب:٣٥]، **{اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي}** [سورة آل عمران:٤٣]، **{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}** [سورة التحريم:١٢]، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- له رسالة في قنوت الأشياء لله تعالى، وجمع موارده ثم بعد ذلك خرج بنتيجة وهي: أن القنوت في كتاب الله -عز وجل- يعني دوام الطاعة في كل الاستعمالات الواردة في القرآن، دوام الطاعة، فهنا: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ}** يعني: يطيل القيام والصلاة بسجوده وركوعه، وقد سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أفضل الصلاة فقال: ((طول القنوت))[1]، ومعنى طول القنوت يعني: طول القيام.

وهنا قول ابن كثير -رحمه الله- أو قول ابن مسعود -رضي الله عنه-: القانت المطيع لله، وهكذا وافقه عليه ابن جرير -رحمه الله-، المطيع لله، المطيع: شيخ الإسلام يقيد هذا بقيد الدوام، دوام الطاعة، دوام العبادة، هكذا، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ}** أي: قائم، فسره هنا في هذا الموضع بالقيام، لكن الله تعالى قال: **{سَاجِدًا وَقَائِمًا}** فكيف يفسر بالقيام؟ **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا}**، فهذا تفسير لهذا القنوت، فلو فسر بالإطالة في هذه الصلاة في حال القيام وفي حال السجود، والسجود يطلق على الركوع وعلى السجود، ومن إطلاقه على الركوع **{وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}** [سورة البقرة:٥٨]، يعني: في حال الركوع، وليس المقصود أنه يسجد على الأرض ويدخل الباب، باب المدينة، أو البلدة التي أمرهم الله بدخولها، إنما يدخل في هيئة الراكع تذللاً وخضوعاً لله -تبارك وتعالى-، فالركوع يقال له: سجود، وإن كان الإطلاق المتبادر له وضع الجبهة على الأرض، لكن هذا أبلغ صور السجود، وأظهرها، وضع الجبهة على الأرض، وبعضهم يفسره بالدعاء، **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ}** دعاء القنوت، فلان يقنت يعني: الدعاء، ففسره بعضهم بالدعاء، **{سَاجِدًا وَقَائِمًا}** يعني: يدعو، يمكن أن يفسره القائل ذلك بأن هذا الدعاء عبادة ودعاء، يعني هو متقلب بين دعاء عبادة ودعاء مسألة، دعاء عبادة: صلاته هذه هو يدعو بها يطلب الثواب من عند الله -عز وجل-، فهو سائل بفعله، كما نعرف أن الدعاء على نوعين، فدعاء العبادة هو نفس العبادة بحيث إن الإنسان يطلب بها ما عند الله، فهو داعٍ بهذا الفعل، حينما يقوم ويصلي، ودعاء المسألة هو الدعاء المعروف يا رب، يسأل بلسان المقال، وذلك سائل بلسان الحال، يسأل بفعله، وكل هذا يقال، وبعضهم يجعل أصله غير ذلك، يعني مثل النحّاس صاحب كتاب الإعراب والمعاني يجعل أصله الطاعة، يقول: القنوت أصله الطاعة، القانت هو المطيع، وكما قلت إن شيخ الإسلام يقول: دوام الطاعة، وهذا أحسن -والله تعالى أعلم-، فليس كل مطيع قانتاً، وإنما هو مطيع وزيادة، يعني حينما يصلي الإنسان ركعة، يتجوز بها، يعني يخفف، سريعة، لا يقال له:

---

١ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، برقم (٧٥٦).

قنوت، ويفهم من قوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} أنه يطيل الصلاة، لكن لو أنه صلى ركعة واحدة وتراً بدقيقة ونصف فهذا لا يقال له: قانت آناء الليل، ولا يفهم هذا من السياق، والله تعالى أعلم.

قال: وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحسن، والسدي، وابن زيد: {آنَاءَ اللَّيْلِ}: جوف الليل.

جوف الليل، ساعات الليل كما يقول بعضهم: قائم آناء الليل، وساعات الليل لعله أوضح؛ لأن القيام يكون الليلُ من أوله إلى آخره ظرفاً له ووقتاً له، {آنَاءَ اللَّيْلِ} يعني ساعات الليل، هذه الأقوال متقاربة، جوف الليل، ساعات الليل، بخلاف من قال: إن آناء الليل يعني ما بين المغرب والعشاء، وكان بعض السلف يصلي ما بين المغرب والعشاء، ولا شك أنها صلاة في الليل؛ لأن الليل يبدأ من المغرب، ولكن ليس ذلك هو قيام الليل إلا لمن جمع المغرب والعشاء، فقيام الليل يكون بعد صلاة العشاء، لكنها نافلة في الليل، وأما قيام الليل فلا يكون إلا بعد صلاة العشاء.

وقوله تعالى: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} أي: في حال عبادته خائف راجٍ، ولابد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال تعالى: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في مسنده عن أنس -رضي الله عنه- قال: دخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على رجل وهو في الموت، فقال له: ((كيف تجدك؟)) قال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله -عز وجل- الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه))[٢]، ورواه الترمذي والنسائي في "اليوم والليلة"، وابن ماجه، من حديث سَيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به، وقال الترمذي: غريب.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} قال: أي في حال عبادته خائف راجٍ، وهذا فيه معنى الإخلاص، إذا كان الإنسان يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فهو يريد ما عند الله لا يريد شيئاً من الدنيا، لا يريد ذكر الناس وثناء الناس، وهناك أنواع خفية من طلب الدنيا بعمل الآخرة، كأن يصلي الإنسان الليل من أجل أن يشرق وجهه في النهار، هذا معنى قد يلتبس على بعض أهل العبادة، يصلي بالليل ليشرق وجهه بالنهار، معروف أن صلاة الليل تكون سبباً لإشراق الوجه واستنارته، فهذا معنى خفي، صار يطلب شيئاً من الدنيا بهذا العمل، وإن كان هذا ليس من قبيل الرياء والسمعة، هذا يختلف، لكن هذه أمور خفية لو أن العبد كان تجرده أكبر فإنه لا يلتفت إليها بصرف النظر عن هذه الأنواع وما يكون مبطلاً للعمل، وما لا يكون مبطلاً للعمل، يعني مثل هذا إذا كان على سبيل التبع فهل يبطل العمل كالرياء والسمعة؟، أو يكون هذا من اللواحق والتوابع التي لا تبطله إن كانت على سبيل التبع، أما إن كانت بالقصد الأول فإنها تبطل، كما ذكر الشاطبي -رحمه الله- فيمن يصلي ليثبت عدالته، يصلي بالمسجد مع الجماعة؛ لأن الذي لا يصلي مع الناس في الجماعة لا تثبت عدالته، فهذا الذي يصلي، الشاطبي يرى أن مثل هذا أنه مطلب شرعي إثبات

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين، برقم (٩٨٣)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، برقم (٤٢٦١)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٣٩٤)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٦٢٠).

العدالة، لكن لا تكون صلاته مع الناس في المسجد من أجل إثبات العدالة، فيكون طالباً لأمر من الدنيا، ولكن يكون على سبيل التبع، يعني كأن يكون الإنسان لا يرى وجوب صلاة الجماعة، لكنه يحافظ عليها طلباً لما عند الله، ولأمر تابع وهو أن يثبت عدالته، ليس للرياء والسمعة، لاحظ الرياء والسمعة غير إثبات العدالة، فهذا ملحظ قد يراعيه بعض الناس، فالشاطبي يرى أن هذا من الأمور التي تصح على سبيل التبع، لا بالقصد الأول، مثل الذي يصوم ليصح بدنه، فإن كان بالقصد الأول فليس له نصيب من هذا العمل عند الله، لكن إن كان يريد ما عند الله وعلى سبيل التبع ليصح البدن أو طلباً للنحول أو ما أشبه ذلك -تخفيف الوزن- فمثل هذا يصح، وإن كان الأعلى من هذا أن لا يلتفت إلى شيء من ذلك، وإنما يريد فقط ما عند الله -تبارك وتعالى.

قوله: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} قال: **أي في حال عبادته خائف راجٍ**، لابد من الأمرين، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، هنا هذا فيه رد على الصوفية أو بعض الصوفية، وعلى بعض ما يتداول في رسائل الجوال من أن العبد عليه أن يعبد الله -عز وجل- طلباً لرضاه فقط، ويأتون بجمل وعبارات وللأسف يروج كثير منها، فيقولون: لا يكون العمل من أجل طلب الجنة أو الخوف من النار، هذا عند بعض الصوفية، وهذا ليس بصحيح، فهنا بنص القرآن في مقام الثناء والمدح لهؤلاء {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، وهذه الرحمة يدخل فيها الجنة والثواب، وهذا هو الذي وصف الله -عز وجل- به خلّص العباد، ومن اصطفاهم الله -تبارك وتعالى-، وهنا فيما يتعلق بتقديم ما في حال الصحة والعافية، قال: أن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، قال: ولهذا قال: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ}، فقدم الحذر من الآخرة، ففهم منه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن هذا التقديم يدل على أن الخوف مقدم في حال العافية، فهذا يتعبد والخوف عليه غالب، {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو} هذا وجه الاستدلال عند ابن كثير، ومن أهل العلم من يقول: إنه يستوي الخوف والرجاء في كل الحالات، وإنهما كالجناحين للطائر لا يطير إلا بهما، وهذا قال به طائفة من السلف ولهم أدلة، وليس هذا موضعه، والذين قالوا: يقدم الخوف في حال العافية، ويغلب الرجاء في حال المرض أو مرض الموت أو حال الاحتضار يحتجون بأدلة من المنقول ومن النظر، من النظر مثلاً يقولون: إن الإنسان في حال العافية هو بحاجة إلى وازع ورادع من أجل أن يجدّ ويجتهد ويشمر في طاعة الله -عز وجل-، ويجتنب مساخطه، وفي حال مرض الموت المخوف، أو في حال الاحتضار هو بحاجة إلى أن يحسن الظن بربه كما في الحديث: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه))[٣]، هذا يكون بتغليب الرجاء، وبما جاء عن ابن عباس لما دخل على عائشة -رضي الله عنها-وجعل يرجيها في مرض موتها، وعبد الله بن عمرو بن العاص لما دخل على أبيه وجعل يرجيه عند الاحتضار، يحتجون بمثل هذه الأشياء، لكن هذا الحديث الذي ذكره الحافظ ابن كثير لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الرجل قال: **((كيف تجدك؟))** **قال: أرجو وأخاف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه..))**، هذا قد يحتج به الفريقان، يحتج به من قال: يغلب جانب الرجاء، قالوا: لأنه قدم الرجاء كما قدم

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٤٨١)، وقال محققوه: "حديث صحيح".

الخوف في الآية، فالذين يقولون: يستويان في كل حال أو على الأقل يستويان في حال الصحة ويغلب الرجاء في حال مرض الموت المخوف يقولون: الواو لمطلق الجمع والتقديم والتأخير لا يعني أن هذا قبل هذا أو أنه أولى منه، إنما هي لمطلق الجمع، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يجتمعان..)) فدل على أن الخوف والرجاء مطلوبان في حال الاحتضار.

لو قيل: إن الناس يتفاوتون، فمن الناس من يكون الأصل له أن يغلب جانب الخوف، وأن ما يذكر له ويورد عليه من النصوص والمعاني والتربية وما أشبه ذلك يغلب فيه جانب الخوف لغلبة التفريط عليه، ومن الناس من هو بحاجة إلى الرجاء لغلبة اليأس عليه، فهذا يحتاج إلى ترجية، فيكون المربي أو المعلم مثل الطبيب يعالج كل حالة بحسبها، لكن إذا نظرنا إلى أحوالنا معاشر المقصرين فإننا لا شك بحاجة إلى جانب الخوف أكثر منا حاجة إلى جانب الرجاء، ولكن النفس يحدوها تارة هذا وتارة هذا، إذا ذكر لها ما عند الله من الثواب ونحو ذلك كان ذلك حافزاً لها على العمل الصالح، وإذا ذكر لها أيضاً الأمور التي تُخاف فإن ذلك يدعوها إلى الامتثال، ولذلك كانت الموعظة أمراً ونهياً مقروناً مع ما يحمل على الامتثال، إما ترغيب، وإما ترهيب، -والله أعلم-، لكن لا يخلو القلب من خوف ورجاء، فقد يزيد هذا وقد يزيد هذا بحسب حال العبد، ويُنظر فيما هو أصلح له، والله أعلم.

قال: وروى الإمام أحمد عن تميم الداري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة))[٤]، وكذا رواه النسائي في "اليوم والليلة".

هذا يدل على أن القنوت لا يكون بمجرد قراءة آية، أو ركعة قصيرة يوتر بها في دقيقة ونصف، مائة آية كتب له قنوت ليلة، وهذا من فضل الله -تبارك وتعالى- على عباده، يعني كأن هذا من باب التخفيف والتيسير أن يبلّغهم هذا بمثل هذا العمل اليسير الذي هو قراءة مائة آية، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله؟!

يعني هل يستوي هذا والآخر البعيد، هذا معنى يحتمل، وبعض أهل العلم يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ} ما أنزل الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- {وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} ذلك؟، وقريب من هذا قول من قال: هل يستوي العلماء والجهال؟؛ لأنه قال هنا: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، والمقصود بالعلم الخشية، وليس المعلومات الكثيرة والثقافة والحفظ وما أشبه ذلك، فهذا وحده لا يكفي، ولهذا فسر ابن مسعود -رضي الله عنه- وغيره العلم بالخشية، قالوا: العلم هو الخشية، وقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [سورة فاطر:٢٨]، فهم العلماء بأمره ونهيه وصفات كماله والطريق الموصل إليه والدار التي يصير إليها الناس بعد هذه الدار، فهذه الأمور التي عرفوها، وهذه التفاصيل كل ذلك يحملهم على العمل والامتثال، وإلا فما فائدة

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٩٥٨)، وقال محققوه: "حديث حسن بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، سليمان بن موسى-وهو الأشدق- لم يدرك كثير بن مُرَّة، فيما قاله أبو مُسْهِر، ونقله عنه المزي في "تهذيب الكمال"، وبقية رجاله ثقات، الهيثم بن حميد: هو الغساني"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٤٤)، وفي صحيح الجامع، برقم (٦٤٦٨).

العلم؟، فهذا يعمل بمقتضى العلم فهو {قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، أما الذي يتعلم ولا يعمل فهذا حاله أسوأ من حال الجهال؛ لأن أولائك تركوا العمل؛ لأنهم لم يعلموا، وهذا علِمَ ولكنه لم يعمل ولم ينتفع بهذا العلم، وإنما كان له منه التعب والعناء، ولا يقولن قائل: إن العلم شريف وطلبه عبادة، وإن الاشتغال به أفضل من نوافل العبادات وما إلى ذلك، يقال: لا يعرف هذا إلا عند أهل البدع والضلال، أولائك الذين يتعلمون للعلم فقط، أما علماء السلف جميعاً فإذا قرأت في تراجمهم وأحوالهم وأخبارهم وجدت أنهم على حال وقدر كبير من العمل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- هو إمام أهل العلم والعمل، وكان -صلى الله عليه وسلم- يعبد الله -عز وجل- ويجتهد في عبادته ويقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمن الناس من يبرر ضعفه وعجزه فلا يقول: أنا مقصر، أنا أسأل الله أن يتوب عليّ، وإنما يقول: هذه العبادة وهذا الاجتهاد في الطاعة وما أشبه ذلك، وهو من سمات أهل البدع؛ لأن هناك من يقول هذا للأسف، وإذا سمع أخبار السلف في عبادتهم واجتهادهم قال: هذه مبالغات وهذا لا يكون، والاشتغال بالعلم أفضل، وهذا الكلام غير صحيح، والإنسان عليه أن يتقي الله -عز وجل- وينصف من نفسه ويعترف بعجزه وتقصيره، أما إذا كان يكابر هذه المكابرة فمتى يرعوي ومتى يعمل، يعني بعضهم يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يعلمون أن البعث حق، والذين لا يعلمون ذلك؟، فهؤلاء يجتهدون في الطاعة من أجل أنهم يحاسبون على أعمالهم، يعني يعلمون أن ما وعد الله به من البعث والنشور إلى آخره والقيامة حق وأنه واقع، ومن لا يعلم ذلك، وبعضهم يقول: إن المفارقة هكذا، يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}: كما أنه لا يستوي الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي الذين يعملون ويطيعون والذين لا يعملون ويطيعون، يعني كأنه ذكر هذا لبيان الآخر، {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ} إلى آخره، يعني كما أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فكذلك لا يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون، يقول: كأنه ذكر هذا للتنظير للآخر، يعني كأنه ذكر شيئاً معروفاً أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهذا أمر مقرر ومعلوم ولا ينكره أحد، فكذلك من يعمل ومن لا يعمل، المطيع والعاصي، وهكذا عبارات المفسرين مقارب كثير منها لهذا، يعني كما يقول ابن جرير: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ}، يعلمون ما لهم من الثواب، يعني في حال الطاعة، وما عليهم من الوزر في حال المعصية، وهذا قريب، يعني كون الله -عز وجل- ذكر هذا في هذا المقام {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ}، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يعلمون ما لهم عند الله إذا أطاعوه وما عليهم من الوزر إذا هم عصوه وخالفوا أمره، فهؤلاء لا يستوون مع أولائك الذين يخبطون خبط عشواء، ويفرطون ويضيعون، لكن هذا التعقيب في غاية الأهمية بعد هذه الآية، يعني بعد قوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فهذا هو المراد من العلم، فالذين يعلمون يكونون بهذه المثابة، والذين لا يعلمون فكل من عصى الله فهو جاهل يعني لم يكن عندهم من العلم ما يحمل على الامتثال، فدل على أن المقصود من العلم العمل، فهذا فيه أعظم عبرة لنا، والله المستعان.

قال: **أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله؟**، وهذا قريب من الأقوال الأخرى، هذا حمله العلمُ على الطاعة وكذا والذي قبله هو في حال من الجهالة والعماية والتضييع.

قال: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ} أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلم.

{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الزمر:١٠-١٢].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم.

هنا قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، قوله: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} يحتمل أنه يتعلق بأحسنوا، ويكون المعنى هكذا {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} يعني: بالعمل الصالح، {حَسَنَةٌ} في الآخرة وكذلك في الدنيا؛ لأن العمل الصالح يكون ثوابه عند الله -تبارك وتعالى- يجزي عليه في الدنيا وفي الآخرة، لكن حتى لا يلتبس نقول: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} عملوا الأعمال الصالحة في هذه الحياة الدنيا {حَسَنَةٌ} عند الله في الآخرة وكذلك في الدنيا، فهذا احتمال، ويحتمل أن يكون في هذه الدنيا يتعلق بحسنة، فيكون المعنى للذين أحسنوا حسنة في هذه الدنيا، يكون لهم ثواب في هذه الدنيا، معجل قبل الآخرة، فإذا قلنا: إن قوله: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} متعلق بـــ {أَحْسَنُوا} يكون عملوا في الدنيا الأعمال الصالحة لهم حسنة عند الله، وإذا قلنا: إنه متعلق بحسنة يكون المعنى هكذا: للذين أحسنوا حسنة في هذه الدنيا، يكون لهم ثواب في هذه الحياة الدنيا من سعة الرزق، وانشراح الصدر، والسعادة، والبركة، ويدفع عنهم من الشرور والآفات، يكونون في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة، {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل:٩٧]، هذا في الدنيا، فهذان معنيان، {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} فالآية تحتمل معنيين، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن من أحسن في هذه الحياة الدنيا بالعمل الصالح والإيمان فإنه يجزى على ذلك في الدنيا والآخرة، كما سبق في قوله: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ} يعني: في الآخرة، وكذلك في الحديث: ((إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة))[٥]، فدلت النصوص على أن الإنسان يعطى بالحسنة في الدنيا، يجازى عليها في الدنيا ويجازى عليها في الآخرة، فإذاً يمكن أن يقال: إن كل واحد من المعنيين صحيح، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة في الدنيا، للذين أحسنوا وعملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا حسنة، وهذه الحسنة التي أطلقها الله -عز وجل- تبقى على إطلاقها فتشمل الدنيا والآخرة، فيكون هذا القول متضمناً للقول الذي قبله الذي يقيدها بالدنيا، أو الاحتمال الذي قبله، يعني إذا قلنا: إنها مطلقة تشمل الدنيا والآخرة، {حَسَنَةٌ} ما قيدها بالآخرة، فتكون في الدنيا وفي الآخرة، فيكون هذا القول أوسع من القول أو الاحتمال الآخر أنها في الدنيا، وهذا نوع من الأنواع التي يمكن الجمع فيها بين الاحتمالات الواردة في الآية، يكون بين المعنيين ملازمة، يكون أحد المعنيين أوسع من الآخر، متضمناً له.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، برقم (٢٨٠٨).

وعبارة ابن كثير: **أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم**، لكنه حمل قوله: **{فِي هَذِهِ الدُّنْيَا}** أنه متعلق بأحسنوا، وليس بحسنة، وهذا هو المتبادر.

قال وقوله: {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ}.

يعني هذا كأنه لما قال للذين آمنوا وحثهم على العمل الصالح وأثنى على هؤلاء الذين يعبدونه ويقنتون له إلى آخره، قال: **{وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ}** يعني: من لم يتمكن، ضُيق عليه في مكان فأرض الله واسعة، فليطلب مكاناً يعبد الله -عز وجل- فيه.

قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال لهم، إنما يغرف لهم غرفاً.

وقال السدي: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} يعني: في الجنة.

مضى الكلام على مثل هذا الاستعمال **{يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** ما يشبه هذا الموضع، وهو أن عادة الإحصاء والحساب والعد يكون للشيء المحدود المقدر، أعطه مائة، فتعد له عداً، وأما ما يكون حثواً بلا كيل ولا ميزان فهذا هو الشيء الكثير، والعرب تعبر بذلك عن الكثرة، يعني ليس بشيء معدود محدود فيحصى لهم وينقد بالعد والإحصاء، وإنما يعطون الجزاء جزافاً؛ لكثرة الثواب، **{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}**، ولهذا الصوم من الصبر، قال الله تعالى: ((إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))[٦]، فلم يجعله من قبيل الحسنة بعشر أمثالها، وهذا لم يجعل في شيء من الأعمال إلا في الصبر؛ لأنه المعول الذي يرجع إليه خير الدنيا والآخرة، وتحصيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، وفعل الطاعات لا يكون إلا بالصبر وترك المعاصي لا يكون إلا بالصبر، والتحمل والتماسك في حال الأقدار المؤلمة لا يكون إلا بالصبر، وفي حال الأقدار التي يفيض فيها الإنعام ويحصل البطر لكثير من النفوس يُحتاج إلى الصبر، فالعبد يدور مع الصبر في أحواله كلها، في حال النعمة والرخاء والشدة، وفي حال الطاعة وأمام المعصية، هو بحاجة إلى الصبر، فلا يصل إلا بالصبر، ولهذا الخلاصة أن الحياة كلها صبر ساعة، منذ زمن طويل وأنا أتمنى أن يوجد شيء يختصر الحياة يصور ذلك للناس عياناً يرونه، يعني كنت أحب أن أصور لهم مثلاً حال شيء في سنة تسرع فيه الصورة في دقائق مزاولات وأعمال و...و... إلى آخره، سنة وقس عليها بقية العمر مثلاً، تسرع في دقائق، تختصر عن طريق التقنية، صورة حقيقية حتى رأيت قبل أيام صورة لمكان لعلكم رأيتم هذا، صورة لمكان مجدب، أشجار يكسو أرضها الجليد، وليس فيها ورقة واحدة، صورة حقيقية، ثم الصورة في دقائق أو أقل من دقائق أظن في دقيقتين لمدة سنة كاملة يبدأ بسرعةٍ الجليدُ يذوب ويتحرك ويسيل، ثم تبدأ الأوراق تخضر شيئاً فشيئاً حتى يخضر تماماً، ثم تكون المنطقة في حلة عجيبة جداً من الجمال والخضرة، ثم بعد ذلك تصفر شيئاً فشيئاً ثم تعود إلى الحالة السابقة، صورة حقيقية، في سنة، فهذا تصوير لحقيقة ما نحن فيه، فالحياة كلها صبر ساعة، والمصيبة تمضي والنعمة تمضي، والعبادة تحتاج إلى قليل من الصبر ثم يذهب

---

٦ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، برقم (٥٥٨٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، برقم (١١٥١).

التعب، ولذات المعاصي تمضي، فإذا صبر الإنسان بلغ ووصل، فالمعول عليه من الأعمال إنما هو الصبر، لا يكون عمل إلا بالصبر.

وقال السدي: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} **يعني: في الجنة.**

وقوله: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} **أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له** {وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}.

سبق في كلام ابن القيم -رحمه الله- أن هذه سورة الإخلاص الثانية، وإذا تتبعت الآيات فيها وجدت الأمر بالإخلاص وإعلان الإخلاص فيها في مواضع كثيرة إما صراحة وإما أن يكون ضمناً، ضمناً مثل قوله -تبارك وتعالى-: {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}.

{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} [سورة الزمر:١٣-١٦].

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، **وهو يوم القيامة.**

وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى.

شرط يعني في قوله: {إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي}، {أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي}، يعني يقصد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو إمام المطيعين، لكن يقول تعريضاً بغيره: أنا وأنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، هذا الذي قصده ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يعبر بعبارات أخرى كأن يقول بعضهم: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي} أن المقصود بذلك غير النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الخطاب متوجه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول هذا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يخاف ربه وإذا كان بهذه المثابة فغيره من باب أولى ينبغي أن يخاف، يعني إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فغيره من باب أولى، وبعضهم يقول: إن هذه الآية منسوخة، وإن الذي نسخها هو قوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [سورة الفتح:٢]، هكذا قال بعض السلف، وهو منقول عن الحسن -رحمه الله-، لكن على كلام ابن كثير لا يحتاج إلى مثل هذا، أو على قول الآخرين الذين قالوا: هذا تعريض بغيره، لكن كأنه نظر -أعني الحسن -رحمه الله- إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم فكيف يتأتى هذا مع أن الله غفر له؟، لكن طبعاً هنا نلاحظ أمراً لا تكاد تجد من ينبه عليه: الذين يتكلمون عن موضوع الناسخ والمنسوخ يقولون: النسخ لا يدخل الأخبار وإنما هو في الإنشاء، يعني الأمر والنهي أو الخبر المضمن معنى الإنشاء، أي مضمن معنى الأمر أو النهي {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٣] خبر، لكنه مضمن معنى الأمر يعني ليرضعن، يقولون: يدخل الخبر المضمن معنى الإنشاء، لكن الخبر المحض يقولون: هذا لا يدخله؛ لأنه تكذيب له، والواقع أن هذا ليس على إطلاقه، والمسألة فيها تفصيل، فهذا الخبر المحض على نوعين، نوع هو إخبار عن أمر حصل وكان فنفيه أو نسخه تكذيب له، جاء زيد، ثم لم يأتِ زيد، هذا تكذيب، حصل كذا، وقع كذا، ثم لم يقع كذا، هذا تكذيب، وهو رفع خبر حصل ووقع في الزمن الماضي ثم يكون الرفع له مقتضياً لنفي وقوعه أصلاً، والنوع

الثاني من الخبر ما ليس كذلك، كأن يكون مثلاً وعد بالعقاب على فعل معين، ثم بعد ذلك يرفع هذا العقاب، خبر، فعلى القول بأن هذا ناسخ كما قال الحسن، بصرف النظر هل هذه منسوخة أو لا، أنا لا أتحدث الآن عن هذه الجزئية أنا أقول: كون بعض السلف يطلق النسخ في مثل هذا، هذا من قبيل الأخبار، {أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }، {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [سورة الفتح:٢]، فهو رفع لخبر، الذي هو أنه -صلى الله عليه وسلم- إن وقع منه ذلك عُذب، فرفعه يكون بأنه لا يعذب وإنما غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهذا نوع من الخبر، وليس هذا من قبيل الإنشاء الأمر والنهي، فهذا النوع من الخبر يدخله النسخ، فالخبر فيه تفصيل، ولكنك تجد عادة الذين يتحدثون عن النسخ لا يشيرون إلى هذا لا من قريب ولا من بعيد، وإنما مباشرة يقولون: الأخبار لا يدخلها نسخ؛ لأنه تكذيب لها، وهذا ليس على إطلاقه.

فالوعد لا يتخلف؛ لأن الله لا يخلف وعده، وإنما الوعيد هو الذي قد يتخلف، وهذا على نوعين، نوع يبقى فيه الخطاب والوعيد على حاله، ولكنه بالنسبة للمعين يتخلف بمغفرة الله -عز وجل- بحسنات ماحية، بمصائب مكفرة، بشفاعة، أو غير ذلك، هذا بالنسبة للمعين، النوع الثاني في تخلف الوعيد بأن يرتفع ذلك من أصله، أن يرتفع هذا من أصله، فمثل هذا لو قيل: إنه منسوخ، أنا لا أقصد هنا أن هذه الآية منسوخة أو ليست منسوخة، إن قلنا: هي تعريض بغيره كما يقول بعض العلماء أو ابن كثير يقول، فهذا لا يتطرق، ليس بمنسوخ، والأصل عدم النسخ، لكن أعني أن بعض السلف حينما يعبر في مثل هذا أنه منسوخ، هل هذا القول يقتضي أنه تكذيب بالقرآن، وبخبر الله -عز وجل- أو تكذيب بالخبر؟ الجواب: لا، هم يفهمون هذا جيداً، والله أعلم.

قال: وقال تعالى: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} وهذا أيضاً تهديد وتَبَرٍّ منهم.

قوله: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}، والآية التي قبلها {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ} ليس تكراراً، ولا يوجد في القرآن تكرار محض، والعلماء ذكروا أجوبة عن هذا، والذي يظهر -والله أعلم- أن أوضح ما يمكن أن يقال في هذا -والله أعلم- هو أن الأولى إخبار عما أُمر به، عما أمره الله به، أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وهو يقول لهم: إن الله أمرني بعبادته وحده لا شريك له، والثانية هذه إخبار عن حاله، يقول: أنا أعبد الله وحده لا أشرك به شيئاً، هناك إخبار عما أمره الله به، أمره بالتوحيد والإخلاص، وهنا أمره بعبادته وحده لا شريك له، وهذا مثل ما في قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [سورة الكافرون]، ليس بتكرار، {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} الآن، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} في الحال، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} في المستقبل، لن أتحول إلى عبادتكم ودينكم، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} في المستقبل لن تتحولوا إلى ديني وعبادتي، فالأولان في الحال، والآخران في المستقبل، فهنا ليس في الحال والمستقبل هنا إخبار عما أُمر به والثاني عن الحال الواقع.

قال: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ} أي: إنما الخاسرون كل الخسران {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أُسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور.

هم خسروا أنفسهم، الذي دخل النار خسر كل شيء، خسر نفسه وخسر أهله، إن كانوا في الجنة فهذا نهاية العلاقة، وإذا كانوا في النار فهي نهاية العلاقة، كل أحد مشغول بنفسه، إذا كان في القيامة قبل دخول النار {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [سورة المعارج:١٠-١١] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل- فكيف بالنار؟، فهذه هي الخسارة الحقيقية، وليست خسارة مال أو خسارة امتحان أو خسارة عمل ووظيفة وصفقة.

قال: {أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} أي: **هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.**

يعني هذا التركيب مضى الكلام عليه، فـــ "ألا" للتنبيه، يعني: {أَلا ذَلِكَ} كأنه ينادي على هذا، {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، والإشارة هنا تعود إلى ما ذكر، {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ} دخول "هو" ضمير الفصل بين طرفي الكلام {ذَلِكَ هُوَ} يفيد تقويته، دخوله بين طرفي الكلام كالمبتدأ والخبر مثلاً يفيد تقوية النسبة، تقول: هذا هو الكريم، ممكن أن تقول: هذا الكريم، زيد كريم، فإذا أدخلت "هو" زيد هو الكريم، فهذا لتقوية النسبة، فدخول "هو" مع "ال" {الْخُسْرَانُ} كأن هذا هو الذي قد استحق أو حقق الوصف الكامل من الخسارة، هذا هو الخسران، هذه الخسارة الحقيقية، تقول: هذا هو النجاح، هذا هو الفلاح، هذا هو الكرم، هذا هو العلم، هذا هو الجهاد، يعني: كأنه الوصف الكامل من ذلك.

قال: ثم وصف حالهم في النار فقال: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} **كما قال -عز وجل-:** {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} **[سورة الأعراف:٤١]، وقال تعالى:** {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} **[سورة العنكبوت:٥٥].**

الظلل من النار {وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} فسره بالآيتين، وهذا من محاسن هذا التفسير أنه يفسر القرآن بالقرآن، {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ}، الظلل -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين من النار- هي أطباق النار، ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم، فهي كما قال الله -عز وجل-: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف:٤١]، فهذه التي من تحتهم كالمهاد للصبي الفراش له، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [سورة العنكبوت:٥٥]، فالنار من تحتهم ومن فوقهم، وبعضهم يقول: إن الظلل التي تكون تحتهم هي فوق الذين أسفل منهم، يعني كأنهم نظروا إلى أن أصل هذه المادة الإظلال أنه يكون فوق الإنسان، فكيف قال الله -عز وجل-: {وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ}، يعني كأنهم نظروا على أصل المعنى "الإظلال"، قالوا: النار لما كانت دركات فهذه التي تكون من تحت هؤلاء تحرقهم من أسافلهم بالنسبة لمن هم تحتهم تكون فوقهم، يعني: يشتعلون في هذه الطبقات، فتحرقهم من جميع الجهات، وهذا في الواقع يمكن أن يكتفي عنه، ويستغنى عنه عن هذا الكلام أنه بالنسبة لمن تحتهم، تحتهم ظلل، يعني هؤلاء كأنهم قالوا: إن تحتهم ظللاً كالتي فوقهم، فالتي فوقهم هي مهاد للذين فوقها، والذين تحتهم هي ظلل بالنسبة إليهم، فهي تحرق الذين في الأعلى والذين في الأسفل، هكذا نظروا إلى أصل هذه المادة، لكن التعبير عن هذا بالمهاد، {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف:٤١]، هل المهاد هو فقط الفراش الذي ينام عليه الصبي، أو ما يمهد به ويلف فهو يشتعل عليه من كل ناحية، من فوقه ومن تحته، فالنار مشتملة عليهم من كل الجهات، يعني ما جرت به العادة مثلاً حينما يُصلى الشيء على النار عادة فإنه تكون

تحته ويحتاج أن يقلب على النار في الغالب، لكن هؤلاء لهم من فوقهم ومن تحتهم وهي محيطة بهم مشتملة عليهم كاشتمال المهاد على لابسه، ولهذا تجد في النصوص الأخرى {سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ} [سورة إبراهيم:٥٠] يعني: اللباس نفسه يشتعل ويحترق عليهم، إضافة إلى إحراق هذه النار، المقصود أنه من تحتهم نار ومن فوقهم يعلوهم نار، كما في هذه الآيات، وبهذا فسرها ابن جرير -رحمه الله.

قال: وقوله -جل جلاله-: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ} أي: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله تعالى: {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} أي: اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

{يَا عِبَادِ} من نظر إلى أن الغالب في القرآن أن العباد الذي يضيفهم الله -عز وجل- لنفسه هم أهل العبودية الخاصة -عبودية الاختيار-، يعني أهل الإيمان، قال: {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} أن هذا خطاب موجه لأهل الإيمان؛ لأنهم الذين يتقون وينتفعون بذلك، ينتفعون بمواعظ القرآن {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢]، وبعضهم نظر إلى السياق وأن الآيات في النار وفي العذاب وكذا، قال: هذه الآية {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} العبودية العامة، فالخطاب للكفار والعصاة الذين خوفهم الله -عز وجل- بهذا، وبعض أهل العلم قال: هذه الآية عامة، يدخل فيها الجميع {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} فالله يحذر ويخوف عباده كما قال الله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ}، فهذا الخوف يكون لأهل الإيمان ويكون لغيرهم، وكأن هذا -والله أعلم- لو قال به قائل: أقرب، والله أعلم.

{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ} [سورة الزمر:١٧-١٨].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي -رضي الله عنهم-، والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

كل الروايات الواردة في أسباب النزول أنها نزلت في معين لا تصح، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} فيصدق على كل من كان كذلك، وليس يختص بأحد، أو لم تنزل الآيات في أحد بعينه، {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا}، قد مضى الكلام على الطاغوت وأنه صيغة مبالغة من المصدر كالعظموت والرهبوت والجبروت، وما أشبه ذلك، فهو يدل على المبالغة، وبعضهم يقول: إن الطاغوت هو الشيطان، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، بل جعل كل الاستعمالات الواردة في القرآن لهذه المادة "الطاغوت" قال: هو الشيطان.

وبعضهم يقول: الطاغوت الشيطان والأوثان، {اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا}.

الذين يقولون: هو الشيطان، يقولون: إن عبادة غير الله -عز وجل- هي عبادة الشيطان، فإذا جاء النهي عن عبادة الشيطان، {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم:٤٤]، فقد لا يتوجه إليه كما هو الحال بالنسبة لعبدة الشيطان الآن، ولكن الشيطان لا يصل إلى هذه المرتبة التي هي النهاية في الانحراف أن يُعبد مباشرة إلا في حال الانغماس الكامل، والخروج عن معنى الإنسانية، لكن الغالب أن عبادة الشيطان تكون بعبادة غير الله -عز

وجل- كالذي يعبد الملائكة، يعبد الشجر، يعبد الحجر، يعبد الأصنام، هذه عبادة للشيطان في الواقع؛ لأن الشيطان هو الذي زينها وهو الذي أمر بها، بهذا الاعتبار، فالذين قالوا الشيطان كابن جرير لابد أنهم يلاحظون هذا المعنى، أنه في النهاية هي عبادة للشيطان، ولا تفهم أن المقصود أنه يعبد الشيطان مباشرة كعبدة الشيطان، لا يقصدون هذا بالضرورة، لكن هذا يعني صورة فجة لعبادة الشيطان لا يصل إليها أكثر المنحرفين، أكثر المشركين ما يصلون إلى هذا المستوى، إنما يصل إليه من كان في منتهى الانحطاط، يعني ليس بعده انحطاط، إطلاقاً، تجرد عن جميع معاني الإنسانية، والنزول إلى درجة أقل من درجة الحيوان، هؤلاء -نسأل الله العافية- لا يتنزهون عن شيء مطلقاً، من النجاسات والقذارات، وكل شيء، "كل" هذه بمعانيها تفيد العموم، وهي من أقوى صيغ العموم، لا يتنزهون عن أي شيء، لكن الذين يعبدون غير الله -عز وجل- من أصنام وغيرها عندهم أشياء يتنزهون عنها، يترفعون عنها، عندهم مكارم، عندهم أخلاق، عندهم أنفة، عندهم عزة نفس، لربما يترفع الواحد عن الفواحش، لكن هؤلاء لا يوجد ممنوعات، ولا يوجد فضائل، إنما هو دنس في كل صوره وأشكاله ومعانيه -نسأل الله العافية-، فالطاغوت الشيطان، أو الأصنام، أو الأوثان والشيطان، أو من قال بأنها الأوثان، {اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ}، كل هذا يمكن أن يعبر عنه، كل ما عبد من دون الله -عز وجل-، وهو راضٍ فهو طاغوت، هذا لا يخرج عن هذا المعنى، فأصله من الطغيان وهو مجاوزة الحد، {اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} من الأوثان والأصنام وسائر الأنداد من دون الله -تبارك وتعالى-، والصنم مشكل على صورة إنسان أو حيوان مصور، والوثن يمكن أن يكون شجرة، وممكن أن يكون بيتاً –بناء-، وممكن أن يكون حجراً، صخرة تعبد من دون الله -عز وجل-، فهذه كلها من قبيل الأوثان، وبعض أهل العلم يقول: الطاغوت هو الكاهن، والواقع أن هذا تفسير له أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، ولا يراد به الحصر، -والله أعلم-، ولا يمكن أن يحصر بالكاهن، فالكاهن هو نوع من الطواغيت الذين يضلون الناس، فالكاهن طاغوت، والشيطان طاغوت، وما عبد من دون الله -عز وجل- وهو راضٍ فهو طاغوت.

قال: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي: **يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى -عليه الصلاة والسلام- حين آتاه التوراة:** {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} [سورة **الأعراف:١٤٥**].

قوله: {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي: **يفهمونه ويعملون بما فيه**، ربما يكون قصد بذلك -والله أعلم- أن {أَحْسَنَهُ} أي: الحَسَن، يعني بمعنى أن أفعل التفضيل يراد به مطلق الاتصاف، يعني أحسن بمعنى حسن، أفعل التفضيل هو أصلاً في شيئين استويا في أمر في صفة وزاد أحدهما، تقول: زيد أعلم من عمرو، اشتركا في العلم، لكن لا تقول: زيد أعلم من السارية.

ألم ترَ أنّ السيفَ يَنقُصُ قدرُهُ *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

فلا مقارنة بين السيف والعصا حتى يقال: هذا السيف أقطع من هذه العصا، إذا كان الإنسان يستهزئ ويسخر من هذا السيف، فإذا قيل: زيد أعلم من السارية، هذا ليس بمدح؛ لأنه لا مقارنة، هذه لا توصف بالعلم أصلاً،

فهنا على كلام ابن كثير -رحمه الله- يحتمل أن يكون المراد {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} يعني: يتبعونه، كله حسن موصوف بالحسن، قال الشاعر:

تمنّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ *** فتلك طريقٌ لستُ فيها بأوحدِ

يعني: بواحد، وفي قوله: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧]، يعني: التقي، ولا يحمل هذا على خصوص أبي بكر -رضي الله عنه- وإن كان من سادة المتقين -رضي الله عنه وأرضاه-، فليس المقصود بها أفعل التفضيل، {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}، وإنما المقصود التقي، والله تعالى أعلم.

قال: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، {أَحْسَنَهُ} يمكن أن تفسر بالحسن، فلا تكون أفعل تفضيل، وإذا قلنا: إنها أفعل تفضيل، فيكون ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا غير ما ذكره عامة أهل العلم، يعني عامة أهل العلم حملوها على أنها أفعل تفضيل، وحاولوا أن يأتوا لها بمعنى، فبعضهم يقول: يستمعون الحق من الكتاب والسنة، فيتبعون محكمه ويعملون به، يعني لا يتبعون المتشابه، {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [سورة آل عمران:٧]، فالكتاب فيه محكم ومتشابه، والسنة فيها محكم ومتشابه، والذين في قلوبهم مرض يتبعون المتشابه ويتركون المحكم. فهؤلاء الذين وصفهم الله وأثنى عليهم يتبعون المحكم، {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، فإذا رأيت الرجل يتتبع المتشابه، فكما قالت عائشة -رضي الله عنها-: "فأولائك الذين سمى الله فاحذروهم"[٧]، هذا الذي يبحث عن الأمور المشكلة المتشابهة، ويثيرها على الناس، ويشككهم بها فهذا من أهل الزيغ لا يُسمع له، ولا يجالس، حتى لا تتلوث قلوبٌ بمثل هذه الشبهات.

وبعضهم يقول: القرآن فيه أشياء، يعني فيه العفو، والمجازاة بالمثل، {وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} [سورة الحج:٦٠]، {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [سورة الشورى:٤٠]، {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}، ففيه المجازاة بالمثل، وهذا عدل، وفيه العفو، {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، يأخذ بالأفضل دائماً، الذي هو العفو، {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [سورة فصلت:٣٤]، فهذا من اتباع الأحسن، وبهذا فسر قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم} [سورة الزمر:٥٥]، وهكذا قول من قال: إن المقصود أنهم يستمعون القرآن وغيره، ويتبعون القرآن، يعني هم يرِد على أسماعهم، أو يسمعون، يستمعون القول، والقول يشمل كلام الله -عز وجل- وكلام الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وكلام الحكماء وكلام سائر الناس، فيتبعون أحسنه، يتبعون القرآن.

وبعضهم يقول: يتبعون أحسن القول الذي يسمعونه، ويتركون الباطل فلا يحكونه، ولا يذيعونه، ولا يشتغلون به، {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [سورة الفرقان:٧٢]، فليسوا بأهل باطل واشتغال بالباطل ولا يقفون عنده، وهكذا قول من قال: القرآن يشتمل على رخص وعزائم، فهم يأخذون بالعزائم دائماً، {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [سورة مريم:١٢]، كما سبق في قوله تعالى: {أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [سورة ص:٤٥]، قلنا: إن الأيدي تعني: القوة في طاعة الله -عز وجل- وعبادته على قول جمهور من المفسرين.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، برقم (٤٢٧٣)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن، برقم (٢٦٦٥).

وابن جرير يقول: {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} من القائلين فيتبعون أرشده وأهداه، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- فسر ذلك بالقرآن، حمله على القرآن في مقام الرد على أصحاب الغناء والمعازف؛ لأن أحد هؤلاء الجهلة حمل ذلك على أنه الغناء، لا أدري كيف حملها!، لكن ابن القيم تهكم به ورد عليه بردود كثيرة، فذاك يقولك {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، أحسن هذا الغناء وأكثره إطراباً للنفس وما أشبه ذلك، فالشاهد أن ابن القيم في مضامين الرد عليه قال... رد بردود كثيرة، قال: {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ}، فالذي يتبعون أحسنه، و الذي أمر الله باستماعه وتدبره وتعقله والاشتغال به هو القرآن، فحمل ذلك على القرآن، وليس كل كلام كما قال ابن جرير -رحمه الله.

وأحسن من تكلم على هذا الإمام الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان حيث قال -رحمه الله-: "قوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، أظهر الأقوال في الآية الكريمة أن المراد بالقول ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- من وحي الكتاب والسنة"[8].

الآن هو يخرج ما قاله ابن جرير، ابن جرير أوسع، قال: يستمعون القول، قول القائلين من الكتاب والسنة، وكلام الناس والحكماء، وكلام المتكلمين فيتبعون أحسنه، هنا يقول: الكتاب والسنة، الوحي، وابن القيم يقول: القرآن.

قال -رحمه الله-: "ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [سورة المؤمنون:٦٨]، وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} [سورة الطارق:١٣]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي: يقدمون الأحسن، الذي هو أشد حسناً على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن، ويدل لهذا آيات من كتاب الله.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع ما أنزل عليه -صلى الله عليه وسلم- من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم} [سورة الزمر:٥٥]، وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} [سورة الأعراف:١٤٥]"[9].

هذا يمشي على أن أفعل التفضيل على بابه، في شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر.

وقال -رحمه الله-: "وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن فقد دلت عليه آيات من كتابه.

واعلم أولا أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الحج:٧٧]، قدموا فعل الخير الواجب على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير على مطلق الحسن الذي هو الجائز؛ ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٧]"[10].

---

٨ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣٥٦).

٩ - المصدر السابق.

١٠ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣٥٧).

هذا معنى كبير، وهو رد على دعاة التميع، الذين يسمون أنفسهم بدعاة التيسير، هذا خلاف المنهج القرآني في التربية، وفي الدعوة إلى طاعة الله -عز وجل- وعبادته، الله يقول: {فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، وأولائك يقولون: نحن دعاة تيسير، دعونا مع المحكمات فقط، والباقي كل ما فيه خلاف، وما فيه احتمال أو شبهة لا تشددوا على الناس، افعل ولا حرج، هؤلاء على خلاف هذا المنهج القرآني، هذا معنى كبير يحتاج أن نتبصر به ونقف عنده.

قال -رحمه الله-: "وقال تعالى: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الزمر:٣٥] كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٧]، وبينا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقي:

ما ربُّنا لم ينهَ عنه حسَن *** وغيرُه القبيحُ والمستهجن[١١].

صاحب المراقي -رحمه الله- من المتكلمين أشعري، والأشاعرة في هذا الموضوع في باب التحسين والتقبيح، ودخلوها في الأصول، وهي من المسائل الكلامية، لا علاقة لها بالأصول، وهم يقولون: إن ما لم ينه عنه الشارع، أو أمر به فهو حسن، وما نهى عنه فهو قبيح، هذه العبارة تنطلي على من لا يعرف حقيقة مذهب المتكلمين أو الأشاعرة، هم يقولون: إن التحسين والتقبيح يتبع النقل، ولا دخل للعقل فيه، وهذا هو الانحراف عندهم في هذا الباب، وهو من أبواب القدر، وهم خالفوا فيه أصلهم الكبير في جعل النقل تابعاً للعقل، هنا قالوا: لا، العقل لا علاقة له في التحسين والتقبيح، وأنكروا أن يكون للأشياء حسن أو قبح ذاتي، وهذا مكابرة، يقولون: الكذب ليس له قبح ذاتي، الزنا ليس له قبح ذاتي، الظلم ليس له قبح ذاتي، لو أمر الله بالزنا والظلم والكذب لكان حسناً، إنما صار قبيحاً؛ لأن الله نهى عنه، صار حسناً؛ لأن الله أمر به، أو سكت لم ينه عنه، دل على أنه ليس بقبيح؛ لأنه إذا نهى عنه فهو قبيح، فيجعلون القضية مرتبطة بالأمر والنهي فقط، التحسين والتقبيح عند الأشاعرة عكس المعتزلة، وهذا من تناقضات الأشاعرة، فقول صاحب المراقي هنا:

ما ربُّنا لم ينهَ عنه حسَن *** وغيرُه القبيحُ والمستهجن

هو ماشٍ على هذا الأصل عندهم، فالعبارة لو قالها صاحب سنة سليمة، وإذا قالها إنسان عنده هذا الأصل البدعي فنقول: هذا بناء على مذهبه، مثل عبارات الزمخشري التي يوردها، وهو يخفى ما تحتها من انحراف، فليت الشنقيطي -رحمه الله- نبه على العبارة، فالعبارة هذه عندما يستعملها الشنقيطي لا إشكال فيها، لكن لما ينسبها لقائلها فهنا نحتاج أن نبين ماذا يقصد هؤلاء بكلامهم، فكثير من القضايا التي تذكر في الأصول، أصول الفقه، هي مسائل كلامية، تحتها قضايا عقدية مثل هذه، ما يُتنبه لما تحتها من انحراف، فلو أنه ما أورده لكان أفضل، لا أعني أن الشنقيطي -رحمه الله- عنده إشكال في هذا الباب، إطلاقاً، فعقيدته نقية -رحمه الله.

---

١١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٥٧/٦).

وقال -رحمه الله-: "ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ} [سورة النحل:١٢٦]، فالأمر في قوله: فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن، فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر خير منه وأحسن في قوله تعالى: {وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام: {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ} [سورة الشورى:٤١]، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله بعده: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة الشورى:٤٣]، وكقوله في جواز الانتقام: {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ} [سورة النساء:١٤٨]، مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته -جل وعلا- مع كمال قدرته وذلك في قوله بعده: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [سورة النساء:١٤٩]، وكقوله -جل وعلا- مثنياً على من تصدق، فأبدى صدقته: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} [سورة البقرة:٢٧١]، ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم، في قوله: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}"[١٢].

بعض الناس يلح على بعض المحسنين المتصدقين أن يُظهروا هذه الصدقات، ويطالبهم بهذا، فلما قال له بعضهم: الله -عز وجل- قال: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ} [سورة البقرة٢٧١]، و((تصدق بصدقة فأخفاها))[١٣]، قال: لا، في كتاب الله -عز وجل- {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} يحتج عليهم بهذا، فأين هذا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه؟، يعني هذه طريقة في النظر والاستدلال والعمل والفهم والاتباع.

وقال -رحمه الله-: "وكقوله في نصف الصداق اللازم للزوجة بالطلاق قبل الدخول: {فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [سورة البقرة:٢٣٧]، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن؛ لأن الله شرعه في كتابه في قوله: {فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}، مع أنه رغب كل واحد منهما أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، وقد قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [سورة الشورى:٤٠]، ثم أرشد إلى الأحسن بقوله: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}، وقال تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [سورة المائدة:٤٥]، ثم أرشد إلى الأحسن في قوله: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}.

واعلم أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا.

منها ما روي عن ابن عباس، في معنى "فيتبعون أحسنه" قال: "هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به"[١٤].

هذا عام.

---

١٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٥٧/٦).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، برقم (١٣٥٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

١٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٥٨/٦).

وقال رحمه الله: "وقيل يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن.

وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلى غير ذلك من الأقوال"[١٥]. انتهى.

هذا لا يصح، و الروايات التي فيه لا تصح.

وكل ما رأيت في كتاب الله -عز وجل- {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم} [سورة الزمر:٥٥]، {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} [سورة الأعراف:١٤٥]، {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} فالمقصود أن في الكتاب ما هو حسن وفيه ما هو أحسن، فهذا إرشاد لهم إلى المراتب العالية في الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله -عز وجل-، والمسارعة بالخيرات، هذا المقصود باختصار، والله تعالى أعلم.

قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ} أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، {وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة.

وصفهم بهذين الوصفين العظيمين، {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، فهؤلاء وصفهم بالهداية، هداهم الله، {وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} أصحاب العقول الراجحة، بخلاف هؤلاء الذين يزعمون أن عقولهم الراجحة تقتضي التغيير والتبديل لدين الله -تبارك وتعالى- تحت مسمى التسهيل والتيسير، فهذا خلاف ما وصف الله -عز وجل-، هؤلاء ليسوا بأهل هدى، وليسوا بأصحاب عقول راجحة، فالهدى في ما أمر الله -عز وجل- به، واتباع ذلك بهذه الصفة، والعقل يقتضي أن يفعل العاقل ما يرفعه ويقربه، وأن نرفع الناس، لا أن نبرر لهم الانحراف، ونزين لهم التفريط والتضييع، فيفتن الناس كما هو حاصل الآن، ويبدأ حتى من كان فيه دين وخير وصلاح، يبدأ هذا الصلاح يتلاشى شيئاً فشيئاً، فتبدأ اللحية يوماً بعد يوم، وفلان يقول وفلان يقول، وأفتى فلان، والمشايخ يقولون، وتبدأ هذه الأمور من التقيد بالسنة ظاهراً وباطناً، سواء كانت واجبة أو مستحبة، يبدأ التفريط والزهد فيها، ويكون إقبال الناس -بدلاً من الإقبال على كلام الله وقراءته والاشتغال به، وتفهمه وتدبره- على قراءة كتب فلاسفة غربيين، وكتب مترجمة، ويظنون أن ذلك من الحكمة، وأنه من العقل، ومن سعة الأفق والإدراك وحسن النظر، والثقافة، وما علموا أنها صنعة المفاليس، وأنهم لا يخرجون بهذا بكبير طائل، وأن الهدى في كلام الله -عز وجل-، وأنه لا يشتغل المشتغلون بأعظم مما فيه، وأن كل هذه الفلسفات ما كان منها صحيحاً يختصر بربع آية أو أقل من ذلك، -والله تعالى أعلم-، ولكن {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [سورة النور:٤٠]، -نسأل الله العافية-، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، نسأل الله الثبات.

---

١٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٥٨/٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (١٩) إلى الآية (٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

ربنا اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} [سورة الزمر:١٩-٢٠].

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِي تَقْدِر تُنْقِذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر -عز وجل- عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أفمن كتب الله أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي له**، **{أَفَمَنْ}** الهمزة للاستفهام، و"من" هذه تحتمل أن تكون موصولة **{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ}**، فتكون موصولة في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف، أي كمن يخاف، أفمن حق عليه كلمة العذاب كمن يخاف الله -تبارك وتعالى-؟، أو أفأنت تخلصه أو تأسف عليه ونحو ذلك مما يمكن أن يقدر في هذا الموضع.

ويحتمل أن تكون شرطية **{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ}**، والجواب: **{أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}**، فيكون التكرار في الاستفهام إما للتوكيد وإما لطول الكلام؛ لأنه إذا طال قد يعاد للربط بين أطراف الكلام، يعني: أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب؟، وفي هذا الموضع كلام كثير في بعض كتب التفسير، وكلمة العذاب **{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ}**، كلمة العذاب هي كما يقول بعض المفسرين: قوله -تبارك وتعالى- لإبليس: **{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ}** [سورة ص:٨٥] يعني: أن أتباع إبليس سيملأ الله -عز وجل- بهم جهنم، **{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}**، قالوا: وهذه هي كلمة العذاب التي حقت على هؤلاء، أن الله يعذب من صار من جنده وأتباعه، من جند إبليس وأتباعه، والله -تبارك وتعالى- قبض قبضة كما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((هذه للجنة ولا أبالي، وقبض أخرى وقال: هذه للنار ولا أبالي))[1]، فهؤلاء هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب، حكم الله -عز وجل- عليهم بالنار، وللمزيد من التفصيل في "مَن" هذه نذكر كلام

---

١ - رواه أبو يعلى في مسنده، برقم (٣٤٢٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (٢٤٨).

العلامة الشنقيطي -رحمه الله-، وإن كان ليس من العادة أن نشتغل بالإعراب، ولكن أحياناً يتوقف عليه فهم معنى الآية، فيكون لها معنى على إعراب، ولها معنى آخر على وجه آخر من الإعراب، حيث قال -رحمه الله- في أضواء البيان: "{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} أظهر القولين في الآية الكريمة أنهما جملتان مستقلتان، فقوله: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} جملة مستقلة، لكنّ فيها حذفاً، وحذف ما دل المقام عليه واضح، لا إشكال فيه.

والتقدير: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} تخلصه أنت منه؟، والاستفهام مضمن معنى النفي، أي لا تخلص أنت يا نبي الله أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}.

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله هنا: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ} وقوله: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ}.

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية، كما قال الزمخشري: أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة"[٢].

{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} فأنت تنقذه، لم يأت بالضمير، وكان بالإمكان أن يستغنى بالضمير، على قول الزمخشري، {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} فأظهر في مقام الإضمار.

"فالآية على هذا جملة واحدة، فإنه لا يظهر كل الظهور"[٣]. ا.هـ

يعني أنه يرجح أنهما جملتان مستقلتان، {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} أفأنت تخلصه؟، ثم جاءت الجملة الثانية كالتأكيد والبيان لما قبلها -للجملة الأولى- وتدل على المقدر المحذوف، {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}، لكنه ليس هو الجواب.

ثم أخبر -عز وجل- عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة.

والعرب عادة تعبر عن العلية، هي الغرف التي تكون في الأعلى، بخلاف اصطلاح الناس اليوم، الغرف هي ما تكون عالية مرتفعة، ولا تكون لما كان في أسافل البناء، والله -عز وجل- كما في قوله: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} [سورة الفرقان:٧٥]، فالغرفة هنا جنس يصدق على القليل والكثير، وهنا جاء بصيغة الجمع {لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ}، {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ} [سورة سبأ:٣٧]، فكل ذلك بمعنى واحد، والله تعالى أعلم.

{مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

---

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣٥٨- ٣٥٩).

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣٥٩).

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن في الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها)) فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام))[٤]، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة ليتراءون في الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء))، قال: فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال: سمعت أبا سعيد الخدري -رضي الله عنه- يقول: "كما تراءون الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي"[٥]، أخرجاه في الصحيحين.

يعني يتراءون كما يتراءى أصحاب الغرف، أو يتراءون الغرف يعني لارتفاعها وبعدها وتباين هذه المراتب والدرجات، كما نتراءى الكوكب الغابر في الأفق، يعني كم بيننا وبين هذا الكوكب الغابر، فالجنة أعظم من ذلك، وأعظم مما نشاهده في هذه الدنيا، ولكن هذا للتقريب، وقد مضى الكلام في بعض المناسبات على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها))[٦]، ومائة عام لا يقطعها -شجرة- وذكرت بأقل التقديرات في سير الراكب القاصد أن هذا لا يمكن أن يقادر قدره، يعني ظل هذه الشجرة يحتاج في قطعه إلى مدة طويلة جداً سنوات بالطائرة، وأن الأرض بكاملها بالنسبة إلى هذه الشجرة ليست إلا كحبة رمل أو نحو هذا، الأرض بكاملها، هذا في شجرة، فحينما يأتي الحديث عن غرف الجنة وما بينها من التباعد والتباين فلا نتصور بحال من الأحوال غرف الدنيا وبنايات الدنيا وقصور الدنيا، لو أن قصراً بحجم الكرة الأرضية، فهذا لا يمكن أن نقول: إنه مثل غرف أو مثل قصور الجنة؛ لتباين ما بين الدنيا والآخرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرني فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات))، فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((بلى، والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل))[٧] ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة غرف الجنة، برقم (٢٥٢٧)، ومسند الإمام أحمد، برقم (١٣٣٨)، وقال محققوه: "حسن لغيره".

٥ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، برقم (٢٨٣٠ وبرقم ٢٨٣١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٨٧٦)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٦ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، برقم (٢٨٢٨).

٧ - رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف، برقم (٢٥٥٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٨٤٧١)، وقال محققوه: حديث صحيح.

وقوله تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاءوا وأين أرادوا، {وَعْدَ اللَّهُ} أي: هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين {إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}.

مثل هذه إذا أيقن بها المؤمن جد واجتهد في العمل للآخرة، وما يقعدنا عن هذا إلا ضعف اليقين، نحن نصدق بهذه الأشياء، ولكن العمل لا يدل على يقين تام بوعد الله -تبارك وتعالى-، واعتبرْ حال أهل الدنيا وما يتحملون من ألوان العناء في طلب قليل منها، وتعجبْ حينما ترى الناس في الزحام في الحج، كل واحد إنما همه أن يخلص نفسه وأن يؤدي الفرض من طواف أو سعي أو نحو ذلك، وتجد من يواصلون الليل والنهار من أجل دراهم معدودة، أصحاب العربيات، فأنا أعتبر كثيراً إذا رأيت هؤلاء، الإنسان إذا أتى إلى الحرم الموسم فهو يفكر كيف يستطيع أن يؤدي هذه العبادة ولا يحصل له ما يقطعها أو يعوقه، وهؤلاء يواصلون العمل الليل والنهار وكم سمعت قول بعضهم لبعض، هذا يقول: منذ يومين ما نمت، وهذا يقول: منذ ثلاثة أيام ما نمت، يقفون في طرف المسعى، وعند أبواب الحرم، وفي الطرقات يرجون أن يحصلوا شيئاً قليلاً من الدنيا، ويتحملون هذا التعب والزحام الشديد، فهو كلما أخذ شيئاً من هذه الدراهم القليلة ازداد نشاطه وتجدد، فهو لا يفتر، فهذا فيه عبرة عظيمة جداً، كيف أن الإنسان إذا كان يتطلع إلى شيء من المكاسب فإنه يتحمل العناء والتعب الكبير، أما الآخرة في هذه الغرف التي وصفها الله -عز وجل- بهذا الوصف، الذي ليس ثمة أبلغ منه، ما في أبلغ من كلام الله، ولا أفصح ولا أوضح ولا أبين، ومهما وصفها الواصفون فإنهم لا يقاربون ذلك، ومع هذا العمل ضعيف، والهمة ضعيفة في طاعة الله -عز وجل-، والأعمال التي تُعمل للآخرة يدخلها ما يدخلها من المقاصد الفاسدة، والإنسان يحتاج معها إلى جهاد عظيم لنيته، والله المستعان.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأولِي الألْبَابِ * أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة الزمر:٢١-٢٢]، **يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال -عز وجل-: {وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَ في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِعه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ}.**

قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: إن كل ماء في الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

أصله من الثلج: ليس بلازم، يعني أصله منه ما يكون من المطر، ومنه ما يكون من الثلج، لكن الثلج ينزل كالرذاذ شيئاً فشيئاً حتى يجتمع، فكل ما علا وارتفع يقال له: سماء، فحينما يقال: كل ماء في الأرض فأصله من السماء، لا يأتي هنا قائل فيقول للماء الذي يكون من العيون والآبار ونحو ذلك، هو يقصد في الأرض يعني في باطنها، وأما المياه السارحة والأنهار الجارية ونحو ذلك فهذه تأتي تارة من الأمطار، وتارة تكون من ذوبان الثلوج كما هو معلوم، لكن كيف تجتمع هذه الثلوج؟، هي تنزل شيئاً فشيئاً حتى تجتمع، والله -تبارك وتعالى- هنا لم يذكر ذلك على سبيل الحصر، وإنما أخبر أنه **{أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ**

{فِي الأَرْضِ}، ومعنى سلكه يعني: أدخله، أي أدخله في الأرض، سلكه فيها، فتخلل في باطن الأرض فصار عروقاً جارية ويكون على أنحاء شتى كما هو معلوم، فتارة يستخرجه الناس، وتارة يخرجه الله -تبارك وتعالى- بصورة العيون التي تفجر من الأرض.

وقوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، {ثُمَّ يَهِيجُ} أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل.

يعني {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} يدخل فيه اللون يعني هذا أحمر وهذا أصفر، ويدخل فيه الطعوم المختلفة، ويدخل فيه الأشكال والأنواع والأصناف المتنوعة، قال: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، {يَهِيجُ} يعني: يتم جفافه ثم بعد ذلك يتفرق، فإن أصل هذه المادة تدل على ذلك، هاج، فهو حينما ييبس يتكسر فيصير حطاماً متفتتاً، كما قال الله -عز وجل-: {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [سورة الكهف:٤٥]، فهذا إذا هاج الزرع صار يابساً ثم يتكسر ثم بعد ذلك يتفرق، تفتت وتكسر، فهذا قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، فمن فسره بـــ ييبس فإن تلك هي مقدمة ذلك، يعني يكون يابساً هي مقدمة لأن يتفتت، ثم بعد ذلك يتفرق تذروه الرياح، هذا {يَهِيجُ} يعني: يتفرق ويتشتت، ويُصَوِّح نبته ويدبر بعد أن كان في تلك النضارة والخضرة، فيولي ذلك النبت.

{فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} قد خالطه اليُبْس.

يعني يتحول لونه من الخضرة إلى الصفرة، وإذا صار بهذه المثابة فذلك يعني أنه صار يابساً وهذا يؤذن بتهشمه وتكسره وتفرقه، {يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا}، هذه هي المرحلة الثالثة، المرحلة الأولى أخضر يستهوي الناظرين، ثم بعد ذلك يصفر وييبس، ثم يصير إلى هذه الحال {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} يعني: يعود يابساً يتحطم، وأصل الحطام كما يقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: هو فتات التبن -أعزكم الله- والحشيش يقال له: حطام، وترون التبن والحشيش إذا يبس يتفرق ولا يمكن جمع ما تفرق منه، والرياح تذهب به يمنة ويسرة، فهذا تصوير لحال الحياة الدنيا، وإذا تأملت وقلبت النظر وجدت ذلك في كل شيء، هذا اختصار للحياة كلها التي نشاهدها، اعتبر هذا في كل ما تراه، الهلال يبدو صغيراً ثم ما يلبث أن ينمو حتى يكتمل ثم بعد ذلك يأخذ بالنقص حتى يرجع هلالاً ثم يضمحل وينمحي، هذه خلاصة للحياة الدنيا التي نشاهدها من أولها إلى آخرها مثل الهلال، والعام يبدأ هكذا، والشتاء يبدأ هكذا، والصيف يبدأ هكذا، والربيع يبدأ هكذا، والخريف يبدأ بهذه الطريقة، واللباس الذي نلبسه بهذه الطريقة في أوله نضر جميل، لربما ينظر الإنسان في ثيابه وفي عطفيه وما إلى ذلك ثم بعد ذلك يبدأ هذا اللباس شيئاً فشيئاً، وهكذا يبدو الإنسان صغيراً، ثم يشب حتى يكتمل ويكون في نضارة الشباب وقوته، جمال وما إلى هذا، ثم بعد ذلك يبدأ يضمحل شيئاً فشيئاً، فيتحول ذلك الجمال والنضارة والحسن إلى ذبول وتظهر آثار الأيام والليالي على وجه الإنسان، وإنك لتقدر عمر الإنسان من وجهه، هذا أمر مشاهد ومعلوم، وهذه فيها أعظم عبرة، بنظرة إلى الوجه تقول: هذا بلغ الأربعين، وهذا بلغ الثانية والأربعين، وهذا بلغ الخامسة والأربعين، وهذا بلغ السابعة والأربعين، يعرف مثل هذا بآثار الأيام والليالي على الوجه، فهذه عبرة عظيمة، وإذا نظرت إلى الثمار والأشجار، والمراكب ونظرت إلى الدور والقصور وهكذا، كل هذا يكون في حال من النضارة، ثم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى يعود

خراباً، فإذا كانت هذه حقيقة الحياة الدنيا فإن الإنسان لا يغتر بما فيها، وقل مثل ذلك في الأسفار والنزهة وما يزاوله الإنسان فيها والتجارات والشركات، يكون لها نوع من البريق وتتألق حيناً من الدهر ثم بعد ذلك يبدأ يخبت، الأسماء اللامعة، الأسماء التجارية، الأسماء التي تشرق وتغرب ما تزال ترتفع ثم بعد ذلك تبدأ تخفت وتذبل كما يذبل النجم أو الكوكب، ورأيت قبل مدة قريبة صورة حقيقية كنت أتمناها، صورة حقيقية اختصرت بثوانٍ أو بدقائق لمكان كله ثلوج والأشجار التي فيه ليس فيها ورقة واحدة، غابة ثم بعد ذلك تبدأ سريعاً هذه الثلوج تذوب، وتذوب، وتذوب، ثم بعد ذلك تجري على الأرض، ومن بعد ذلك تبدأ تخضر هذه الأشجار والمكان حتى يكون في غاية الجمال من الخضرة، صورة حقيقية، لكنها مسرعة، يعني صورت في سنة كاملة ثم دمجت وصار لها تسريع في الوقت بحيث تشاهدها، كيف يحصل لهذه التي في سنة من التغير والنمو وما يطرأ عليها، تشاهد ذلك في ثوان أو في دقائق، ثم بعد ذلك يبدأ يخضر ثم بعد ذلك يصفر شيئاً فشيئاً وأنت تشاهده في لحظات، ثم يتحول إلى شيء آخر، يعود من جديد في حال من اليبس والذبول وتذهب أوراقه ولا يبقى إلا تلك الأغصان السوداء، هذا مشهد يصور لك الحياة كما هي، الربيع ينتظره الناس، وينتظرون نزول الأمطار، فإذا نزلت فرحوا بها وتزدان الأرض، ثم يلبث شئياً فشيئاً حتى يضمحل ويزول، هذه هي الحياة، ومن يغتر بمثل هذا فلا بصر له، إنما يغتر بذلك من قد عميت بصيرته، فهو ينظر بنظر قاصر إلى شيء من البهرج الذي ما يلبث أن يضمحل ويزول.

{فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} قد خالطه اليُبس، {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} أي: ثم يعود يابساً يتحطم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ} أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خَضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هَرِماً كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما يُنزل الله من السماء من ماء، ويُنبت به زرعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حُطاماً، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [سورة الكهف:٤٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله -عز وجل-: {أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [سورة الأنعام:١٢٢].

الهمزة والفاء في قوله: {أَفَمَنْ} يعني هناك خبر محذوف، -والله تعالى أعلم-، مقدر يفهم من السياق، {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} يعني: كمن قسى قلبه وصار في حال من الحرج والضيق عن قبول الإسلام؟، أو {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} كمن طبع الله على قلبه؟، {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} شرح الله صدره للإسلام يعني: وسعه لقبول الحق.

ولهذا قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، {أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}.

قوله: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، "مِن" هنا يحتمل أن تكون بمعنى "عن" ومعروف أن حروف الجر تتناوب، {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} عن ذكر الله، كما يقوله أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- وقاله قبله أيضاً

جماعة من أصحاب المعاني كالفراء، {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، يعني قست قلوبهم عن ذكره -تبارك وتعالى-، {مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، وبعضهم يقول: إن "من" على بابها وإنها ليست بمعنى "عن" وإنما بمعنى "من أجل"، فويل للقاسية قلوبهم من أجل ذكر الله، يعني من الناس من إذا ذكر الله اشمأز ونفر وقسى قلبه -نسأل الله العافية-، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [سورة الزمر:٤٥]، فتنقبض وتنفر من ذلك، ويؤيد القول الأول أنها بمعنى "عن" قراءة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، وقراءة الآحاد كما هو معلوم إذا صح سندها فإنها تفسر القراءة المتواترة، {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} أي: عن ذكره، وهذا اختيار ابن جرير كما سبق.

{اللَّهُ نزل أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [سورة الزمر:٢٣].

هذا مَدْحٌ من الله -عز وجل- لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: {اللَّهُ نزل أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: {مَثَانِيَ} ترديد القول ليفهموا عن ربهم -تبارك وتعالى.

وقال عكرمة والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء، زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {مَثَانِيَ} قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء ويُرْوى عن سفيان بن عيينة: معنى قوله تعالى: {مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} أنّ سياقات القرآن تارةً تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سورة الانفطار:١٣-١٤]**، وكقوله -عز وجل-: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}** [سورة المطففين:٧] **إلى أن قال: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}** [سورة المطففين:١٨]**، {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}** [سورة ص:٤٩] **إلى أن قال: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}** [سورة ص:٥٥] **ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} ذاك معنى آخر.**

يعني أن التشابه المذكور في القرآن على نوعين، الأول: وهو التشابه العام، وهذا الذي جاء في هذه الآية، وصف القرآن كله بأنه متشابه، والمقصود: يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً، وكذلك في فصاحته وبلاغته من أوله إلى آخره، فهو متشابه بهذا الاعتبار، وأما التشابه الخاص المذكور في آية آل عمران {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [سورة آل عمران:٧]، فهذا التشابه الخاص وهو

-ولعله من أجود ما قيل في تفسير المتشابه- كما قال الإمام أحمد -رحمه الله-: إنه ما احتاج إلى غيره في بيان معناه، يعني ما لم يستقل بنفسه، يعني الآية، وهذا التشابه في المعنى، وهو تشابه نسبي وليس بمطلق، يعني لا يمكن أن يوجد شيء بالقرآن لا يعرف أحد من الأمة معناه إطلاقاً، وإنما قد يخفى على البعض، فحينما يقرأ الإنسان مثلاً: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} [سورة الأنعام:٣]، فإذا أشكل عليه هذا المعنى وظن أن الله بذاته في الأرض فهذا يكون بالنسبة إليه من قبيل المتشابه، فيرجع فيه إلى المحكمات، الآيات الدالة على علو الله على خلقه، وعلى استوائه على عرشه، فيتضح المراد، وهكذا، فالمتشابه الخاص ما لم يستقل بنفسه وإنما احتاج إلى غيره لبيان معناه، هذا المذكور في آية آل عمران: {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [سورة آل عمران:٧]، أما التشابه العام فهو المذكور هنا، كما أن الإحكام العام، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [سورة هود:١] حكم بأن القرآن كله محكم، فالمقصود أنه لا تناقض فيه ولا تعارض، وإنما يصدق بعضه بعضاً، فهنا قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}، متشابه يعني في حسنه وبلاغته وفصاحته وما إلى ذلك، وبعضهم قال: متشابه يعني: يشبه الكتب المنزلة قبله، ولكن هذا بعيد، والله تعالى أعلم.

وأما {مَثَانِيَ} فمن أشهر ما قيل فيها وهو اختيار ابن جرير وهو يشمل كثيراً من الأقوال التي قالها أهل العلم، أن المقصود بالمثاني هنا: أنه تثنى فيه الأخبار والقصص، والقضاء والأحكام وما إلى ذلك؛ ولذلك تجد قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- تتكرر في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، تكرر فيه المواعظ، الأمر بالتقوى وبمراقبة الله -تبارك وتعالى-، وما إلى ذلك من المواعظ التي تتكرر فيه، والأحكام التي تتكرر في مضامين هذا القرآن العظيم، وبعضهم يقول: {مَثَانِيَ} أي: أنه يثنى في القراءة فلا يمل كما يمل سائر الكلام شعراً ونثراً، فالناس إذا سمعوا القصيدة مرة أو مرتين أو نحو ذلك ملوا سماعها، أو سمعوا الحكاية أو الخبر، أو الكلام فإنه يثقل عليهم سماعه ثانياً، أما القرآن فإنك تقرأ الفاتحة دائماً في كل ركعة، ومع ذلك لا تمل من قراءتها، كأنك تقرؤها في كل مرة لأول مرة، وهذا قاله بعض أهل العلم، ولكن الأقرب -والله أعلم- في معنى المثاني هو ما سبق، تثنى فيه القصص والأحكام والقضاء والأخبار.

وهنا قال: **وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة: معنى "متشابهاً مثاني" أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين،** يعني: يكون المثاني بأن تذكر المتقابلات: الوعد والوعيد، وصفة أهل الجنة وأهل النار، صفة الأبرار وصفة الأشرار، فيكون هذا من قبيل المثاني، على هذا القول، واسترسال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مع هذا القول كأنه يؤيده، والله أعلم.

وهنا قال قبله، قال: عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {مَثَانِيَ} قال: **القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرد بعضه على بعض،** ما معنى يُرد بعضه على بعض؟ كما يقول الشاطبي -رحمه الله-: إن القرآن يفهم، يعني الشاطبي يقول: إن السور المدنية مبنية على السور المكية، يعني: أنه حتى نفهم القرآن نردّ بعضه على بعض، فنرد السور المدنية على السور المكية، يعني يقصد أنه وحدة كاملة -كما نعبر اليوم- مترابطة يفسر

بعضه بعضاً، فنحتاج أن نستقرئ النصوص، وأن ننظر في أول ما نزل وآخر ما نزل، ثم بعد ذلك نفهم على ضوء هذا مراد الله -تبارك وتعالى-، هذا معنى: أنه يُرد بعضه على بعض، هكذا فسر المثاني.

وقوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف.

معنى الاقشعرار الانقباض، يعني أن جلودهم تنكمش، تنقبض من خشية الله -تبارك وتعالى-، وهي عبارة في التفسير، يعني نحن حينما نفسر تقشعر بتنقبض قد لا تؤدي كل المعنى لهذه اللفظة، ولكن الإنسان يدرك المعنى حينا يقول: اقشعر جلدي من سماع كذا، فهو ليس مجرد انقباض وإنما انقباض خاص يدركه الإنسان ويعرفه من حاله ونفسه، قد لا تفي العبارة في بيان حقيقته، فتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، يعني تقشعر بسبب الخشية، والخشية هي خوف مقرون بالعلم، فالخوف إذا كان مع علم من المخوف منه فهذه هي الخشية، {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، فما يقع في القلب من الخوف يؤثر في البدن فيقشعر له الجلد، يشعر كأن جلده به حركة وانقباض بسبب هذا الشعور الذي وقع في القلب من الخوف حينما يسمع آيات الوعيد، وصفة النار، وما فيها من العذاب، وصفة أهل النار، أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها.

{تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ} من الخشية والخوف.

{ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} لما يرجون ويُؤمّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولائك نَغَمات الأبيات من أصوات القَيْنات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال:٢-٤]**، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}** [سورة الفرقان:٧٣] **أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.**

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة -رضي الله عنهم- عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة -رحمه الله-: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم،

وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرها في صفة أهل الإيمان حينما يسمعون كلام الله -تبارك وتعالى-، هذه حالهم، وهذه أوصافهم عند سماع القرآن، فهذه الآيات التي يذكرها الله -تبارك وتعالى- كما في آية الزمر هنا وفي غيرها ينبغي للمؤمن أن يعرض نفسه عليها إذا سمع أو قرأ كلام الله -تبارك وتعالى-، هل يحصل له ذلك أو لا؟ {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}، فإذا كان لا يحصل لنا هذا، فمعنى ذلك أن الخشية في قلوبنا ضعيفة أو منعدمة، وهكذا عندما يأتي بصيغة الحصر، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، فهذا كما يقول شيخ الإسلام في كتاب الإيمان الكبير: إن ذلك يعني حينما ينتفي فإن ذلك يكون من نقص الإيمان الواجب، يعني الذي يكون صاحبه من أهل الوعيد، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}؛ لأن "إنما" من أقوى صيغ الحصر، لربما في المرتبة الثانية من صيغ الحصر في القوة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، هذا يدل على أنها أوصاف واجبة في الإيمان، وأنها إذا تخلفت فإن صاحبها، صاحب هذه الحال، من تخلف عنه شيء من هذه الأوصاف يكون من أصحاب الوعيد، يعني نقص من إيمانه، من الكمال الواجب، وليس الكمال المستحب؛ لأنه جاء بصيغة الحصر، وهكذا في النفي حينما يقول: ((لا يؤمن))، لا يؤمن من فعل كذا، فهذا تارة يكون لنفي الإيمان أصلاً وتارة يكون لنفي الإيمان الواجب في مثل هذه الصيغ.

قال: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، بعضهم يقول: {إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} إن ذكر الله هنا له مفعول مقدر محذوف، {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} رحمته وثوابه وجزائه وجنته، هكذا قال بعض أهل العلم، وهذا وإن كانت الآية تحتمله لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن المقصود {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} يعني: إلى مذكوره، وهو كلامه، فإن كلام الله -تبارك وتعالى- في غاية التأثير، كما قال الله -عز وجل-: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [سورة الحشر:٢١]، وهكذا فالله -تبارك وتعالى- يقول: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} [سورة المجادلة:٩] يحتمل المعنيين، إذ الذكر مصدر، فيمكن أن يكون مضافاً إلى الفاعل أو إلى المفعول، يعني: أنساهم ذكر الله الذي هو كلامه، غفلوا عنه فلم يقرءوه، لم يتدبروه، لم يعملوا به، لم يتحاكموا إليه، ويحتمل أن يكون {فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} بقلوبهم لم يذكروه وبألسنتهم لم يذكروه، وبجوارحهم لم يعبدوه، فهذان معنيان، وكلاهما داخل في الآية، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}.

فهنا {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} يعني: إلى كلامه وما إلى ذلك.

وهنا في قوله: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، {ثُمَّ تَلِينُ} عدي هذا الفعل بـــ"إلى"، تلين إلى ذكر الله أو تلين لذكر الله، تعديه بـــ"إلى" يدل على أنه مضمن، هذا الفعل مضمن فعلاً آخر يصح تعديته بـــ"إلى"، مثل تسكن، تطمئن، وسبق أن تضمين الفعل معنى فعل آخر أولى وأبلغ من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر؛ لأنه لا يكون فيه زيادة في المعنى، والقرآن أبلغ الكلام وأفصح الكلام، ويعبر به بالألفاظ القليلة

الدالة على المعاني الكثيرة، {ثُمَّ تَلِينُ}، {إِلَى}، يعني: إلى ذكر الله، تلين بمعنى أيضاً تلين وتسكن وتطمئن إلى ذكر الله -تبارك وتعالى.

وقوله: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}.

{ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي} "ذلك" يعني: هذه الصفة المذكورة قبله، ويحتمل أن يرجع إلى القرآن، {ذَلِكَ} أي: القرآن، {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}.

{أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر:٢٤-٢٦].

يقول تعالى: {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، ويُقَرّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}، كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟! كما قال -عز وجل-: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة الملك:٢٢].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، هو حينما تكون يداه قد غلتا -نسأل الله العافية- فإنه لا يجد شيئاً يتقي فيه العذاب، والأصل أن الإنسان يتقي بيديه عن وجهه، فحين تغل أيدي هؤلاء المجرمين فإنهم يتقون العذاب بوجوههم، وبعض أهل العلم فسر ذلك بالسحب على الوجوه، {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} [سورة القمر:٤٨]، فهو يتقي العذاب، سوء العذاب بوجهه، {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فهو لا يجد شيئاً يتقي به النار سوى الوجه، لا يستطيع أن يدفعها بشيء آخر بيده أو نحو ذلك، {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، ويُقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}، كثيرا {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [سورة الدخان:٤٩]، مع أن أصل الذوق يقال لما يكون باللسان، وحاسة الذوق إنما هي باللسان، ولكن يأتي هذا كثيراً وهو في كلام العرب أيضاً، فيقال في كل ما تناله الجوارح ويصل إليها من ألم ولذة: إنه ذوق، يقال: ذاق المرض، وذاق الحر، وذاق البرد، وذاق الفقر، وذاق الجوع، وذاق الشدة، وما إلى ذلك، فهو يصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى حاسته التي يحس بها ذلك وهي اللسان، فهذه الأشياء من الآلام واللذات والنعيم وما إلى ذلك حينما يصل إلى الإنسان يصل إلى جوارحه، يصل إلى جسده فإنه يقال له ذلك، يقال: ذاقه، {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}، {أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}، {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ} هذا معطوف على {يَتَّقِي}، {أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ} يعني: ويقال لهم: {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}، يقال لهم، لكنه عبر عن هذا الأمر المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع، وإلا فهو أمر لم يحصل بعد، يعني: ويقال لهم {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}، والله تعالى أعلم.

وقال -جل وعلا-: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر:٤٨]**، وقال تبارك وتعالى: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [سورة فصلت:٤٠]**، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر.**

يعني {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} خير أمن ينعم في الجنان؟، فهذا الذي يسمونه بالاكتفاء، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] يعني: والبرد، وهو على أحد القولين أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩] وإن لم تنفع، باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط إذا غلب على الظن أو علم أن المأمور والمنهي لا يستجيب، وإنما ذكر أشرف الاحتمالين، هذا على أحد القولين في الآية، والقول الآخر معروف أن ذلك إنما يتوجه إذا وجد المحل القابل، وإلا فإنه لا يجب، والأول هو الأقرب -والله أعلم-؛ لوجود الأدلة التي تدل على هذا المعنى، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط لمجرد الظن أن ذلك لا يستجيب، كما قال الله -عز وجل- في أصحاب القرية التي مسخ أهلها، الذين كانوا يحتالون على أحكام الله -تبارك وتعالى-: {إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ} [سورة الأعراف:١٦٣]، فالطائفة التي أمرتهم ونهتهم قالوا: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} [سورة الأعراف:١٦٤]، يعني: إنا نفعل ذلك، نأمرهم وننهاهم ونعظهم إعذاراً إلى الله -تبارك وتعالى-، من أجل المعذرة، والذين سكتوا كانوا يائسين، فسكت الله عنهم، بمعنى أنه لم يذكر خبرهم وما آل إليه أمرهم، فمن أهل العلم من يقول: إنهم هلكوا معهم؛ لسكوتهم، ومنهم من يقول: إنهم نجوا، لكن لم يستحقوا التنويه والذكر.

والمقصود هنا بيان المراد بذكر أحد الاحتمالين أو الطرفين أو نحو ذلك.

وقوله -جلت عظمته-: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ} يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله -جل وعلا-: {فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم-، والذي أعده الله -جل جلاله- لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال -عز وجل-: {وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [سورة الزمر:٢٧-٣١].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فإن المثل يُقَرّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال -عز وجل-: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤٣].

قوله -تبارك وتعالى- بعدما سبق: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، يدل على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من أن الأمثال يدخل فيها القصص وما يحصل به الاعتبار والاتعاظ، مما قصه الله -عز وجل- علينا في القرآن، وأن ذلك لا ينحصر بما قاله كثير من أهل العلم، ولربما هو المتبادر إلى كثير من الأذهان من أن المثل هو تقريب الأمور المعنوية، أو المعاني بصور محسوسة من أجل أن يعقلها السامع وأن يدركها وأن يفهمها، ومثل هذا القول هو الذي ينحل به كثير من الإشكال في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، حيث يذكر المثل صراحة في أمور من قبيل القصص، قصص الأمم، وما حل

بهم ونحو ذلك، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وكثير من أهل العلم في أصله يرجعونه إلى معنى الشبه، يوجد قدر من المشابهة، فيذكر الله -عز وجل- أحوالاً وأموراً إذا سمعها المؤمن رجع إلى نفسه، ونظر في حاله واعتبر من أجل أن لا يقع له ذلك، ويحصل له مثل هذا المكروه، أو إذا كان ذلك في أمور محبوبة نظر في حاله، وهل هو كذلك محقق لهذه الأوصاف أو لا، والمقصود {ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} يعني: من كل مثل مما تحصل به الهداية، مما يحتاجون إليه، مما يجلي الله -عز وجل- فيه الحق، {ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، فهذا من قبيل العموم الاستعمالي كما يسميه الشاطبي، يعني كل مثل مما يحتاجون إليه، وما يحصل به الهداية وتجلية الحق وبيانه، ففيه أقوى صيغ العموم كما في قوله -تبارك وتعالى-: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥]، يقولون: ما دمرت الجبال، ولا دمرت السماوات والأرض، فالأصوليون عادة يقولون: هذا عموم قد خص بالحس، والشاطبي -رحمه الله- يقول: لا يخصه الحس، العموم لا يخصص بالحس، وإنما هذا تعرفه العرب، وهو ما يسمى بالعموم الاستعمالي يعني فيما سيقت لتدميره، فالسامع يدرك هذا، أنها ما جاءت لتدمير السماوات والأرض، فإذا سمع {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ} يعني: مما سيقت لتدميره، وفي قوله عن الحرم: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧]، يقول: هناك ثمرات في الدنيا ما تجبى إليه، فهذا غير وارد، وما اعترض المشركون بهذا، وإنما فيما يجبى إليه عادة، وفي ملكة اليمن بلقيس، {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣]، يقولون: ما أوتيت ملك سليمان، يقولون: هذا خصصه الحس، وما أوتيت لحية سليمان، فهذا غير وارد، وإنما حينما يسمع السامع ذلك يعرف أنها أوتيت من كل شيء مما يصلح لإقامة ملكها، وشده، وتثبيته، والله أعلم.

وقوله -جل وعلا-: {قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس.

يعني فسر بهذا {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} لا لبس فيه ولا اختلاف، كثير من السلف فسروا ذلك بالاختلاف، قالوا: لا اختلاف فيه، يعني كل هذه المعاني صحيحة، لا انحراف، لا اعوجاج، {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} ليس فيه تضارب ولا تعارض ولا فيه ضعف في مبانيه، ولا تضارب وتناقض في معانيه، وإنما هو في غاية الإحكام، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [سورة الكهف:١].

بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

ثم قال: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم.

يعني {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلاً}، "رجلاً" هنا منصوب باعتبار أنه تفسير لمثل، {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا}، فهو تفسير للمثل، {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً}، ويحتمل أن يكون نصب بنزع الخافض، ضرب الله مثلاً في رجل، فلما نزع الخافض -حرف الجر- صار: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً}، فنصب، ويحتمل غير ذلك، {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} قال: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، والتشاكس يعني التخالف والتعاسر، ورجل شكس يعني: فيه عسر في الخلق والتعامل، صعب، ليس بهين ولين في تعامله، في تعاطيه، في بيعه وشرائه، وعقده وما إلى ذلك، فهذا صعب الخلق، {فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} يعني: يديره أكثر من

واحد، فهذا يأمره بكذا، وهذا يأمره بكذا، ولا يحصل إغضاء ولا عفو، ولا يتنازل أحد عن حقه، كل واحد من هؤلاء يريد أن يستنطف حقه، فهذا يقول: اذهب هنا، وهذا يقول: اذهب هنا، وهذا يقول: لا تفعل هذا، وهذا يقول: افعل هذا، وكل واحد صعب، فإذا أراد شيئاً من حقوقه فإن كل واحد يحيله إلى الآخر، بينما كل واحد يأمره وينهاه بغير ما يأمره صاحبه وينهاه، فيحصل له بذلك تحير، إن أرضى هذا أسخط هذا، وإن أرضى هذا أسخط هذا، فيه شركاء متشاكسون، فهذا حال من يعبد غير الله -تبارك وتعالى-، فهو مشتت القلب بين هذه الآلهة، وفي المقابل هذا الذي يكون سلماً لرجل، إنما له مولى واحد يأمره، وينهاه، ويرجع إليه في حاجاته، وإذا جاع أو مرض رجع إليه فكساه وأطعمه وأعطاه الدواء وما إلى ذلك، لا يحيله إلى غيره.

{وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ} أي: سالماً.

قرأ أبو عمرو وابن كثير (ورجلاً سالماً لرجل)، وهي قراءة متواترة، سلماً لرجل وسالماً لرجل، والأقرب أنهما بمعنى واحد، وإن كانت سلماً تأتي لمعنى آخر أيضاً وهو ما يقابل الحرب، لكن تأتي لهذا وهذا، فهي بمعنى سالم، {سَلَمًا لِرَجُلٍ} يعني: أنه سالم لرجل ليس فيه شركة، فيتشتت بين هؤلاء الشركاء.

{لِرَجُلٍ} أي: خالصاً لا يملكه أحد غيره، {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا} أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس -رضي الله عنه- ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهراً بَيِّناً جلياً، قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي: على إقامة الحجة عليهم، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي: فلهذا يشركون بالله.

{لا يَعْلَمُونَ} يعني: لا يعلمون حال هذا الإشراك وحقيقته وما يئول إليه، وقوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، هو كما ذكر الحافظ ابن كثير: على إقامة الحجة عليهم، وبعض أهل العلم يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} يعني: على بيان الحق، وتجليته، وقيل غير ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق -رضي الله عنه- عند موت الرسول -صلى الله عليه وسلم-، حتى تحقق الناس موته، مع قوله -عز وجل-: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله -عز وجل-، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعيْن في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

هو هذا، يعني من أهل العلم من يقول: إن هذه الخصومة في قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} أن الخصومة بين أهل الإيمان وأهل الإشراك؛ لأن الله قال: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}،

قالوا: يعني قريشاً، يعني المشركين الذين كذبوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثَمّ ستنتقلون إلى الدار الآخرة، وتكون الخصومة بينكم.

والأقرب -والله تعالى أعلم- حمل ذلك على العموم، {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} يعني الناس، عموم الناس، {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} يعني: الخصومة تكون بين المؤمنين والكافرين، وتكون أيضاً بين الناس عموماً فيما يختصمون به من أمور تتعلق بالدين، ومن أمور أخرى تتعلق بالدنيا، وما يكون بينهم من المظالم، فهذا إنما يكون بين يدي الله -تبارك وتعالى- في الدار الآخرة، فيختصم الرجل مع الرجل، وتختصم الطائفة مع الطائفة، وهكذا فالله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وهذا المعنى: حمل الآية على هذا العموم فيكون ذلك في أهل الإيمان مع أهل الكفر، ويكون في أهل الإيمان مع بعضهم البعض هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وروى ابن أبي حاتم -رحمه الله- عن ابن الزبير -رضي الله عنهما- قال: لما نزلت: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} قال الزبير -رضي الله عنه-: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم)) قال -رضي الله عنه-: إن الأمر إذاً لشديد[٨].

تكرر علينا الخصومة يعني: المشهد يعاد بين يدي الله -عز وجل-، اختصم هذا مع هذا سيختصمون غداً بين يدي الله -تبارك وتعالى-، اختصمت هذه الطائفة، وهذه الطائفة سيحصل هذا الخصام بين يدي الله ويحكم الله بينهم.

وروى أحمد عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} قال الزبير -رضي الله عنه-: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: ((نعم ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذي حق حقه))، قال الزبير -رضي الله عنه-: والله إن الأمر لشديد[٩].

ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضال، والضعيف المستكبر.

وقد روى ابن منده في كتاب "الروح"، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنتَ فعلت، ويقول الجسد للروح: أنتِ أمرت، وأنت سولت، فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير والآخر ضرير،

---

٨ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الزمر، برقم (٣٢٣٦)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٦٨٧)، وقال الألباني: "وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات"، في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٤٠).

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٣٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح غير محمد بن عمرو -وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي المدني- فقد روى له البخاري مقرونا ومسلم متابعة، وهو صدوق حسنُ الحديث"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٤٠).

دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما.

يعني الروح والجسد، فيقولان: كلاهما، يعني: كلاهما معتدٍ، الضرير والمقعد، فهذا مثل الروح والجسد، الروح تركب الجسد، فالجسد يقول: هي أمرتني، والروح تقول: هو حملني.

فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت.

هذا في غاية الأهمية من جهة أن بعض الآيات قد يفسرها الواقع، ولا أعني بذلك أن الناس ينزلون القرآن على وقائع وأحداث ويقولون: هذا المعنِيُّ بذلك كلما وقع حدث، ولكنه قد يكون مما يدخل في معناها، مما تصدق عليه الآية، لكنه قد يتوقف المفسر أو العالم في فهم المراد، فإذا رأى ذلك واقعاً كما هو حال أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في فهمهم للقرآن، فهم الآية، يعني زال عنه الإشكال، هذا هو المقصود، لا تنزيل القرآن على وقائع أن هذا هو المقصود بذلك بعينه كما يفعل بعض الناس، يعني مثلاً: الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- حينما سمعوا قول الله -عز وجل-، أو حينما كان عمر -رضي الله عنه- يتساءل عن قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [سورة القمر:٤٥]، فكان يتساءل: أي جمع وأي دبر؟ استشكل ذلك؛ لأنه لم يقع، فلما رآهم يوم بدر منهزمين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يثب في الدرع ويقرأ هذه الآية فهم المراد، فهنا ابن عمر في {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} يتساءل عنده إشكال فيها، ما بينهم خصومة هم على قلب رجل واحد في زمن أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله تعالى عنهم-، في صدر خلافة عثمان -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ثم وقعت الفتنة، فلما وقع القتال بينهما ما كان هذا يخطر في بال، ولا يتوقعونه، ففهم ذلك.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} قال قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: هذا الذي وعدنا ربنا -عز وجل- نختصم فيه[١٠]، رواه النسائي.

يقول: ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، سواء كان في مكة أو كان في المدينة، ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، يعني هو كان يتوقع أن الخصومة تتوجه إلى هؤلاء، ولكنه بعدما رأى المسلمين يتقاتلون ويختلفون هذا الاختلاف عرف أن المراد بذلك ما هو أعم من هذا، وإلا فالخصومة والاختلاف كان واقعاً مع المشركين، مع عباد الأوثان، وعموماً الآيات التي يقولون: هذه بمكة، وأهل الكتاب كانوا في المدينة إلى آخره هذا الكلام ليس على هذا الإطلاق، وإنما قد تأتي بعض الآيات المكية -وهي مكية ولم تنزل في المدينة- لا يقال إنها مستثناة، وفيها ذكر لأهل الكتاب.

---

١٠ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٤٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (٣٢) إلى الآية (٤٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الزمر:٣٢-٣٥].

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه-: يقول -عز وجل- مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً -تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا- ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، ولهذا قال -عز وجل-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال -جلت عظمته- متوعداً لهم: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} وهم الجاحدون المكذبون.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} هذا استفهام مضمن معنى النفي، يعني لا أحد أظلم، وفيه السؤال المعروف الذي مضى مراراً وذكرت هنالك جوابين لأهل العلم عنه، وهو أن قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَنْ أَظْلَمُ}، لا أحد أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه، وأنه في مواضع أخرى قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [سورة البقرة:١١٤]، ونحو ذلك من المواضع في كلام الله -جل جلاله-، وأن الجواب عن هذا إما أن يقال: إن أفعل التفضيل تمنع الزيادة ولا تمنع التساوي، يعني كل هؤلاء قد بلغوا في الظلم غايته، بلغوا الغاية والنهاية في الظلم، وإما أن يقال: إن كل واحد يختص ببابه، ففي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، وفي المفترين لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وهكذا، هذا جواب عن هذا السؤال الذي يرد في هذا المقام، لا أحد أظلم ممن كذب على الله، والكذب على الله هنا يشمل ما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ويدخل فيه أشياء كثيرة، فمن أعظم القول على الله والكذب عليه ادعاء الشريك والصاحبة والولد، ويدخل في ذلك الكذب على الله كقول المشركين: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [سورة الأعراف:٢٨]، ويدخل في الكذب على الله -تبارك وتعالى- الكذب على شرعه ودينه، والكذب على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والقول على الله بلا علم، ولهذا نجد أن الله

-تبارك وتعالى- ذكر هذا -أعني القول عليه بلا علم- مع الإشراك والفواحش، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [سورة الأعراف:٣٣]، فهذا كله داخل في القول والكذب على الله، {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ}، يدخل فيه التكذيب بالقرآن والوحي، التكذيب بالنبوة، التكذيب بكل ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه جاء بالصدق، فكل مكذب بالإيمان أو مكذب بالرسالة والوحي أو بالقرآن فهو داخل في هذا، {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٦٨]، والمثوى هو مكان الثواء، يعني المكان الذي يصيرون إليه، ويئولون إليه هو النار.

قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: {الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} هو الرسول -صلى الله عليه وسلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {وَصَدَّقَ بِهِ} المسلمون.

الأقوال في هذا للسلف -رضي الله تعالى عنهم- متعددة، وكأن ذلك من قبيل اختلاف التنوع فهو يشبه التفسير بالمثال، أو ببعض ما يصدق عليه اللفظ، {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}، بعضهم يقول: جبريل -عليه الصلاة والسلام-، {وَصَدَّقَ بِهِ} هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} هو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والذي صدق به هو -عليه الصلاة والسلام-، جاء به وصدق به، وبعضهم يقول: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} هو الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم يحمل قوله: {وَصَدَّقَ بِهِ} على أفراد من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، كالذي يقول: هو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، والذي يقول: هو علي -رضي الله عنه- وما أشبه ذلك، فهذا كله من قبيل التفسير بالمثال، والآية عامة فتحمل على العموم ومعلوم أن الاسم الموصول من صيغ العموم، {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} كل من جاء بالصدق، ويدخل به دخولاً أولياً النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، ويدل عليه قراءة لابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {والذين جاءوا بالصدق} بصيغة الجمع، {والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به}، ومعلوم أن قراءة الآحاد تفسر القراءة المتواترة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يدخل في ذلك دخولاً أولياً، فهو جاء بالصدق، وهو إمام المصدقين به -عليه الصلاة والسلام-، ويدخل في ذلك أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-، ويدخل فيه أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام- وسائر من جاء بعدهم ممن صدق وآمن وانقاد قلبه وأذعن، {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}، فهذا يقابل الأول: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ}، فيقابله هذا، ولهذا جاء بصيغة الجمع، {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، فدل على أن الاسم الموصول هنا محمول على العموم، فجاء بالجمع بعده، -والله تعالى أعلم-، وعرفنا أن هذا التركيب {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} إشارة إلى البعيد، والمجيء بضمير الفصل بين طرفي الكلام وفيه تقوية الإسناد ودخول (ال) على "المتقون" فهذا يشبه الحصر، يعني كأن المعنى {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} يعني: هؤلاء هم الذين حققوا الوصف الكامل من التقوى.

{أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: اتقوا الشرك.

قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} اتقوا الشرك واتقوا كل ما يُتقى، كل ما أمر الله باتقائه واجتنابه فهو داخل في هذا.

{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} يعني: **في الجنة مهما طلبوا وجدوا،** {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

السؤال الذي يرد كثيراً، هل المرأة لها زوج في الجنة إن كانت لم تتزوج في الدنيا، وما أشبه ذلك؟ فيمكن أن يجاب بقوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} عن مثل هذا السؤال أنه لم يرد فيه جواب بخصوصه في الكتاب والسنة، لكن الله -عز وجل- أخبرنا عن الجنة وعن نعيم الجنة أن أهل الجنة لهم فيها ما يشاءون، وأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فهي دار النعيم الكامل من كل وجه، ويبقى الكلام في هذه الجزئية يحتاج إلى دليل خاص، ولكن يعلم العبد أن ما تشتهيه نفسه فهو في الجنة، ويجد فيها ما تقر به عينه، وأنه لا يكون فيها أدنى تنغيص أو لا أحد يشعر فيها أن نعيمه ناقص أو مكدر أو نحو ذلك، بل هو نعيم كامل ويجدون فيها اللذة الكاملة، أسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

كما قال -عز وجل- في الآية الأخرى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [**سورة الأحقاف**:١٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} والسيئ: إما أن يقال: إن أفعل التفضيل هنا ليس على بابه، وإنما المقصود مطلق الاتصاف، {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} يعني: الأعمال السيئة، وإما أن يقال: إن أفعل التفضيل على بابه فيكون المراد: {أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} يعني: أن ما دونه من باب أولى، أو يقال: إن الأعمال التي عملوها على ثلاثة أنواع -أو ثلاثة أقسام-: قسم سيئ وهو متفاوت في السوء، ونوع من قبيل الطاعة والقربة إلى الله -تبارك وتعالى-، ونوع من قبيل المباح الذي لا مؤاخذة فيه، فإذا كفر عنهم أسوأ الذي عملوا فما الذي عملوه مما يصدق عليه هذا الوصف من هذه الأقسام الثلاثة -أي الأنواع الثلاثة-؟ الأعمال السيئة -المعاصي- فالله -تبارك وتعالى- يكفرها لهم، و{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} ويمكن أن يستدل للقول الذي أشرت إليه آنفاً بأن أسوأ ليست على بابها من أنها يراد بها التفضيل، وإنما مطلق الاتصاف، يمكن أن يستدل على هذا بقراءة متواترة، قراءة ابن كثير {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَاءَ الَّذِي عَمِلُوا} أسواء جمع سوء، يعني: سيئ الذي عملوا، فهو من قبيل الوصف المطلق، {أَسْوَاءِ الَّذِي عَمِلُوا}، فإذا وجدتَ مثل هذا فالأجوبة عنه المشهورة هي ما سمعتم -والله تعالى أعلم-، فإن حملته على بابه فما دونه من باب أولى.

كذلك في قوله هنا: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فإما أن يقال: إن أفعل التفضيل ليس على بابه فيكون يجزيهم أجرهم بالحسن من أعمالهم، وإما أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- يرقيها إذا قلنا: إن أفعل التفضيل على بابه، يرقي الأعمال، يعني أن أعمالهم الصالحة على مراتب ودرجات، فالجزاء يكون بالأحسن، يعني لو أن أحداً جاء ببضاعة وصنائع، فهذه الصنائع متفاوتة في الجودة، فنقدتَ له الثمن باعتبار الأجود، يعني حسبت له بالنظر إلى الأجود منها، فمثل هذا فضل عظيم، فالله -تبارك وتعالى- يتفضل على عباده فيجزيهم بهذه الطريقة، فيرقي هذه الأعمال التي عملوها، وما كان فيه شيء من النقص أو العمل المفضول، أو نحو ذلك -فإن العبد قد يفوته الفقه في سيره إلى الله -تبارك وتعالى-، فقد يشتغل أحياناً ببعض الأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة- فالله يرقي لهم هذه الأعمال فيكون الجزاء على الأعلى والأفضل

والأكمل والأحسن من أعمالهم الصالحة، وهنا {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ويحتمل أن يكون كما سبق أن أعمالهم على ثلاثة أنواع: فطاعات ومعاصٍ ومباحات، فيجزيهم الله -تبارك وتعالى- على الأعمال الصالحة، ولكن ما قبله أحسن من هذا، ففيه بيان الفضل والإغراء بالعمل الصالح وذكر ما عند الله -تبارك وتعالى- من عظيم الجزاء، وهذه الأقوال محتملة، -والله تعالى أعلم-، وقد مضى الكلام على مثل هذا بما هو أوفى ولعلكم ما نسيتم، مضى قريباً في قوله أيضاً: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، فصار عندنا في تكفير السيئات يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، وفي الجزاء على الحسنات يجزيهم بأحسن الأعمال، وفي الاستماع فهم يستمعون، الاستماع والاتباع، {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}.

الآية التي استشهد بها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} [سورة الأحقاف:١٦] إذا قلنا على اعتبار أن الأعمال ثلاثة أنواع، فتكون الطاعات، وإلا فالقبول يكون للأعمال الصالحات، سواء كانت أحسن أو حسنة، هنا في القبول، أو يقال: إن أحسن المراد بها مطلق الاتصاف، فنجد بين هذه الآيات من الفروق ما قد يؤيد أن بعضها يحمل على معنى وأن الآخر قد يحمل على معنى غير هذا المعنى من الأقوال المحتملة، والله أعلم.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [سورة الزمر:٣٦-٤٠].

يقول تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} وقرأ بعضهم: "عباده" يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}، "أليس الله بكاف عباده"، هذه القراءة متواترة قراءة حمزة والكسائي، ولهذا يمكن أن يقال: إن قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} العبد هنا مفرد مضاف إلى معرفة، وهي الضمير الهاء {عَبْدَهُ}، ومثل هذا يحمل على العموم، المفرد المضاف إلى معرفة، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} أليس الله بكاف عباده؟، القراءة الأخرى تفسرها، فبعضهم يحمل قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} على أنه يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلا شك أنه داخل في هذا دخولاً أولياً، وبعضهم يقول: إن قوله: "أليس الله بكافٍ عباده" يعني: الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولا شك أنهم يدخلون في ذلك دخولاً أولياً، ولكن المعنى أعم من ذلك، فإن لفظ العباد المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- يشمل كل عبد من ذوي عبودية الاختيار، "أليس الله بكافٍ عباده" كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق:٣] يعني: كافيه، فالله يكفي أولياءه وعباده من الرسل وأتباع الرسل من الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- ما أهمهم، يكفيهم ويدافع عنهم، {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحج:٣٨] فيدفع عنهم شر الأشرار، وكيد الفجار، ويجعل العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وإن وقع عليهم بعض الأذى، فهذه سنته -تبارك وتعالى- في خلقه حيث يبتليهم، ثم هو يرقيهم بذلك حتى يبلغوا الكمالات والمراتب العالية في أهل الإيمان في الدنيا والآخرة، فهذه سنته -تبارك وتعالى- في خلقه مَن عرفها وأبصر الطريق وعرف ما أخبر الله -تبارك

وتعالى- عنه، وحقيقة هذه الحياة الدنيا هان عليه ما يلقاه، بخلاف ضعيف اليقين، فإنه إذا أصابه خير اطمأن به، وإذا أصابته فتنة انقلب على وجهه؛ لأنه يعبد الله على حرف، فهو لا يحتمل الابتلاء، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}؟ الجواب: بلى يكفيه، وذكْر هذا الوصف وهو العبودية هنا يدل ما ذكرته في مناسبات شتى من أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فيكون للعبد من الكفاية بقدر ما حقق من العبودية، فكلما كان العبد محققاً للعبودية كانت كفاية الله -عز وجل- في حقه أعظم، وهذا معنى شريف، والله المستعان.

{وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} يعني المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالاً.

كما خوفوا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- من آلهتهم أن يهلكوه أو يخبلوه، أو ينالوه بسوء، فقال لهم -عليه الصلاة والسلام- وهو إمام الحنفاء: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [سورة الأنعام:٨١-٨٣]، وهذه الحجة كما سبق في تفسير هذه الآيات من قول بعض أهل العلم بأن المراد هو هذا، أنه قال لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ}، وبعض أهل العلم يقول: ما مضى من احتجاجه عليهم في ما يتصل بوحدانية الله -تبارك وتعالى-، وما ذكر لهم في هذا الموضع، {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران:١٧٥]، {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ}، ليس المقصود أن الشيطان يخوف أولياءه أي يلقي في قلوب أوليائه الخوف، ليس هذا هو المراد، وإنما المعنى، {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} يعني: يخوفكم من أوليائه، فيضخم هؤلاء من أولياء الشيطان، ويعظمهم في النفوس فيكون لهم رهبة ومخافة في قلوب الناس، فيتعاظمون فيكون ذلك حاملاً لكثير من الناس على ترك ما أمرهم الله -عز وجل- به خوفاً من هؤلاء من أولياء الشيطان، {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، لماذا لا نخافهم؟ قال: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} فالله أحق أن يُخاف ويخشى.

ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} أي: منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله -صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

وروى ابن أبي حاتم هاهنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعاً: ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن

ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً))[1].

{قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ} أي: الله كافيّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود -عليه الصلاة السلام- حين قال له قومه: {إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود:٥٤-٥٦].

وقوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد، {إِنِّي عَامِلٌ} أي: على طريقتي ومنهجي، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} أي: ستعلمون غب ذلك ووباله {مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي: في الدنيا، {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه، وذلك يوم القيامة.

{إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الزمر:٤١-٤٢].

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} يعني: القرآن، {لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} أي: بموكل أن يهتدوا، {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [سورة هود:١٢]، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠].

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ} [سورة الأنعام:٦٠-٦١]، فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره، وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أوى أحدكم

---

١ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، برقم (٢٥١٦)، وأحمد في المسند، برقم (٢٧٦٣)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٩٥٧).

إلى فراشه فلْينْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلَفَه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))[٢].

{فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} التي قد ماتت، {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

هذه الروايات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- والسدي المعنى يكون: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}: أن الله -تبارك وتعالى- يتوفى الأنفس حين موتها، بمعنى أنه يقبضها -تبارك وتعالى- إليه فتجتمع الأرواح، وبعد ذلك يرسل الله -تبارك وتعالى- التي توفيت الوفاة الصغرى بالنوم، بعد ذلك يمسك الله -تبارك وتعالى- التي قبضها، يعني: لما تجتمع الأرواح حال الوفاة الصغرى والكبرى، فهذا التوفي الذي يحصل للنائمين وهو مفارقة الروح للجسد مفارقة يرتفع معها الإدراك، وليست مفارقة كلية، فحينما يتوفى هذه الأنفس تجتمع هذه الأرواح عنده، ثم يمسك -تبارك وتعالى- الأرواح، أرواح الأموات، {وَيُرْسِلُ الأخْرَى} التي لم يقض عليها بالوفاة الكبرى {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} إلى أجل وفاتها، يعني على هذا المعنى ليس المراد أن الله -تبارك وتعالى- يتوفى الأنفس حال النوم، فيموت بعضها، فيمسك بعضها ويرسل الأخرى، على هذا القول وهذه الروايات التي أوردها، {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}، ماذا يقول؟ يقول: فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع، فتجتمع عند الله -تبارك وتعالى-، فالممسَكة هي أرواح الأموات الذين ماتوا سواء كان موتهم قبل ذلك أو أن الله قضى عليهم الموت في منامهم، الموت الموتة الكبرى، فلا يختص ذلك بالتوفي، الوفاة الكبرى حال النوم على هذا القول، لأنه سيأتي قول آخر، اتضح أن الله -تبارك وتعالى- يتوفى الأنفس، فتجتمع أرواح النائمين مع أرواح الأموات عنده -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك يرسل أرواح النائمين التي لم يقض عليها بالموت، الوفاة الكبرى، ويمسك أرواح الأموات فلا يرسل شيئاً منها، فالله يتوفى الأنفس حين موتها الموت الحقيقي، والموت الآخر الإضافي الذي هو الوفاة الصغرى، {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} يعني أيضاً يتوفاها، {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} قضى: ليس قضى عليها في حال النوم أن تموت موتاً نهائياً، وإنما قضى عليها الموت قبل ذلك، التي ماتت سواء في منامها في ذلك الحين أو ماتت قبل ذلك، فترسل أرواح النائمين الذين لم يقض الله عليهم بالوفاة الكبرى إلى آجالهم، هذا معنى هذه الروايات التي أوردها هنا، يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط -سبحانه وتعالى-، فلا يرسلها إلى الأجساد مرة ثانية حينما يقبضها بخلاف أنفس النائمين فإنه يتوفاها ثم يرسلها، وهذا المعنى هو الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، بينما شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال بقول آخر وهو: أن الله -تبارك وتعالى- يقبض نفوس الناس حال نومهم، ثم بعد ذلك يعيد من لم يقض عليه الموت منهم من هؤلاء النائمين، ومن انقضى أجله قبض روحه فلم ترد، فرق بين هذا وبين الذي

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم، برقم (٥٩٦١)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم (٢٧١٤).

قبله، الذي قبله في عموم من قضى عليهم الموت عبر الدهور والعصور فأرواحهم لا ترجع ولا يحصل خطأ، وأرواح النائمين ترجع فتجتمع عنده الأرواح، يرجع هذا ولا يرجع هذا، هذا قول ابن القيم، وقول شيخ الإسلام أن التوفي في حال النوم فمن انقضى أجله بقيت روحه ولم ترجع، ومن بقي في أجله بقية ترجع روحه مرة أخرى، {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} يعني لم يقض الله عليها بالوفاة الكبرى في منامها، يعني فهم أن القضية تتعلق بهذا النوع خاصة، توفي حال النوم، فتكون الأرواح بعد هذا النوم على نوعين، الأولون يقولون: إن النفوس تقبض في حال النوم وفي غيره، والذين يموتون في غير النوم أكثر من الذين يموتون حال النوم، يعني نام فلم يستيقظ، كانت النومة، كانت وفاته في نومته الوفاة الكبرى، فالأكثر أن الناس لا يموتون بهذه الطريقة، فالأولون يقولون: إن حمله على هذا المعنى الضيق لا معنى له، وإنما المقصود: أن {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ}، فيتوفى الله الأنفس حين موتها، ومن ذلك نفوس النائمين، فتجتمع عنده الأرواح، فترجع نفوس من بقي لهم في الآجال بقية وتبقى الأرواح الأخرى التي قضي عليها بالوفاة -النهاية في هذه الدنيا-، فهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ومداره على أن الوفاة جميعاً هي في حال النوم، كل هذه الأرواح المخبر عنها هنا، أن ذلك في حال أن تمسك في حال النوم، ويتوفها حينما تنام، وفاة النوم، وهي المرسلة التي يرسلها، فهذا كله وفاة نوم عند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فمن استكمل الأجل لم ترد روحه ثانية إلى الجسد، والله أعلم.

{وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} هنا يعني لم يقضِ عليها الموت حينما نام صاحبها، لكن في الأول {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ} هل هذا محمول على العموم الأعم؟ يعني: نفوس الأموات ونفوس الأحياء حال نومهم، أو أن ذلك يختص بما دونه من العموم، وهو عموم نفوس الأحياء، الله يتوفى الأنفس، هل المقصود كل الأنفس هنا في هذه الآية حين موتها؟، هذا على قول ابن القيم أنه يحمل على كل الأنفس، وهو مقتضى الروايات السابقة عن ابن عباس والسدي، فأول الآية ما المراد بهذا العموم؟، فعندنا عموم أعم، وعندنا عموم دونه، فإذا حددنا هذا العموم بناءً عليه يأتي الكلام في الضمير، مرجع الضمير، والله أعلم.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الزمر:٤٣-٤٥].

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير.

ثم قال: قل: أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ}.

{لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: هو المتصرف في جميع ذلك، {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلا بعمله.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ}، {أَمِ اتَّخَذُوا}، "أم" هذه مضى الكلام على نظائرها أنها المنقطعة تقدر بــ"بل" والهمزة، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ} يعني: هؤلاء الشفعاء أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ} يعني: أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، تتخذونهم أولياء؟، {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ}، فمثل هؤلاء لا يرجى منهم شفاعة ولا نفع ولا دفع، فكيف تتخذونهم أولياء؟

ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ} أي: **إذا قيل: لا إله إلا الله وحده** {اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} **قال مجاهد:** {اشْمَأَزَّتْ} **انقبضت.**

كما قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة الصافات:٣٥]، أي: **عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر.**

{اشْمَأَزَّتْ} قال: **انقبضت**، وكثير من أصحاب المعاني -معاني القرآن- يقولون: نفرت، والواقع -والله أعلم- أن هذه اللفظة {اشْمَأَزَّتْ} لا تؤدي معناها بكامله لا لفظة نفرت، ولا لفظة انقبضت، فالاشمئزاز نفور خاص وانقباض خاص، يعني هو انقباض مع نفور، هذا هو الاشمئزاز، يعني هذا أقرب ما يفسر به، ليس كل نفور يقال له اشمئزاز، فقد ينفر ولا يشمئز، وقد ينقبض ولا يشمئز، فهو نفور خاص، انقباض خاص، نفور مع انقباض، يعني هذا أقرب من تفسيره بأحد هذين اللفظين بمجرده، ومعلوم أن أهل العلم يفسرون بمثل هذا من باب التقريب، وهم لا يقصدون بذلك أنه يؤدي كل المعنى، والله أعلم.

ولذلك قال -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أي: **من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد،** {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} أي: **يفرحون ويسرون.**

وهذا يقال فيما يدخل تحت ذلك، فإذا ذكر مثلاً توحيده -تبارك وتعالى-، ومما يدخل في توحيده إذا ذكر شرعه وحكمه {اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ}، حصل لها انقباض ونفور، كأن قائل ذلك قد قال نكراً، {وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} ذكرت شرائع الجاهلية وقوانين الجاهلية {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، فهم يفرحون بهذا ويرحبون به، ويرون قائله أنه يفهم، ويمكن أن يكون مقبولاً عند هؤلاء، لكنهم يشمئزون إذا طولبوا بأن يكون الله -تبارك وتعالى- هو المشرع وحده والحاكم وحده دونما سواه، فينقبضون من ذلك وينفرون كما هو مشاهد، فهذا يدخل فيه التوحيد بعبادته وحده لا شريك له، والتوحيد أيضاً توحيده في حكمه وشرعه.

{قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الزمر:٤٦-٤٨].

يقول تبارك تعالى بعدما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: **ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها،** أي: **جعلها على غير مثال سبق،** {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: **السر والعلانية،**

{أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

روى مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة -رضي الله عنها- بأي شيء كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت -رضي الله عنها-: كان -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل افتتح صلاته: ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[٣].

إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول هذا في افتتاح صلاة الليل فغيره من باب أولى، حاجة العبد إلى هداية الله -عز وجل- لما اختلف فيه الناس من الحق لا شك أنها عظيمة لا يستغني عنها المؤمن بحال من الأحوال، وفي هذه الآية قال الله -تبارك وتعالى-: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} فهو الذي أوجدهما على غير مثال سابق، وتأمل في هذا الحديث قال: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل))، فجبرائيل هو الملك الموكل بالوحي الذي تكون به الحياة الحقيقية للأرواح، وإسرافيل هو الذي تحصل به حياة الأبدان حينما ينفخ في الصور، وميكائيل هو الموكل بنوع آخر من الحياة، نوع ثالث وهو ما يتصل بالأقوات والأرزاق، فهذه أنواع الحياة الثلاثة جمعت في هذا الحديث، {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، ثم فيهما -في الآية والحديث-: ((عالم الغيب والشهادة))، فهو الذي يعلم الحق، ويعلم أحوال العباد ومقاصدهم، وما هم عليه من اعتقاد وعمل، ((أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك)).

وقوله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} وهم المشركون، {مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ} أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه {لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ} أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم. {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} يعني: كانوا يؤملون الثواب، كما في قوله -تبارك وتعالى- عن أعمال الكافرين: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [سورة النور:٣٩] يعني: ما يؤملونه من هذه الأعمال التي يرجون فيها ثواب الله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك يجعله الله هباءً منثوراً، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنْثُورًا} [سورة الفرقان:٢٣]، فهذه الأعمال تضمحل وتتلاشى، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يتوقعون، فهو يرجّي الثواب، ثم بعد ذلك يكون الأخذ والعقاب، وكما قال الله -عز وجل-: {حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة النور:٣٩].

---

٣ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧٠).

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، سيئات ما كسبوا يعني جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها، كأنه أطلق السيئات مراداً بها الجزاء، {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، والسيئة أصلها قيل لها ذلك لأنها تسوء صاحبها حينما يلقى الله -تبارك وتعالى-، وينظر في صحيفة أعماله، {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} يعني: جزاء هذه السيئات، ولو قال قائل: إنه تبدو لهم سيئات ما كسبوا بأنهم يرون ذلك في صحائف أعمالهم، هذه الأعمال السيئة، فتسوءهم وتسود وجوههم لذلك، فإن هذا المعنى أيضاً ليس ببعيد، وإن كان المعنى الأول قال به كثيرون من المفسرين وأصحاب المعاني، وممن قال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (٤٩) إلى الآية (٦٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الزمر:٤٩-٥٢].

يقول تبارك تعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يضرع إلى الله -عز وجل- وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} أي: لِمَا يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصِّيص لما خولني هذا.

قال قتادة: {عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [سورة القصص:٧٨] **على خبر عندي.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال قتادة: {عَلَى عِلْمٍ عِندِي} يعني: **على خبر عندي**، خبر عندي، جاء عن قتادة مصرحاً به، أي: بوجوه المكاسب، يعني على علم عندي بوجوه المكاسب، فهذا الخبر الذي عنده هو المعرفة بوجوه المكاسب، بهذا الاعتبار، ولو فرض أن العبارة: على خير عندي، يعني به هذا العلم بوجوه المكاسب، مع أنه يحتمل معنى آخر، لكن هذا المنقول عن قتادة، يعني كما قال قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} يعني: معرفة بوجوه المكاسب، أن ذلك ليس من فضل الله -عز وجل-، وإنما بمعرفته وخبرته وحذقه وذكائه وما أشبه ذلك، الحاصل هذا هو المعروف عن قتادة -رحمه الله.

وأما القول: إنه على علم من الله بفضلي فهذا قال به آخرون كمقاتل، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وكذلك قال به من المفسرين البغوي، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي} يعني: علم من الله بفضلي، أن لي منزلة عنده، فمثل هؤلاء يربطون بين العطاء الدنيوي والرضا الرباني، فيظن أنه إذا أُعطِي في الدنيا فإن ذلك لفضله ولمكانته عند الله ومحبة الله له، أعطاه هذا العطاء، وهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}، فهذا الرد يناسب هذا القول، أن ذلك ليس لفضله، وإنما هي فتنة واختبار له، ولعل هذا هو الذي حمل ابن جرير -رحمه الله- وهؤلاء على اختيار هذا القول، مع أن ذلك -يعني هذا التعقيب- لا ينفي بالضرورة الأقوال الأخرى، كما جاء عن بعض السلف كالحسن: على علم علمه الله إياي، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي}، يعني: ينسب العلم إلى الله -تبارك وتعالى-، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي}، لاحظْ الأول، علم من الله، علم عند الله بفضلي، هنا علم من الله علمني

إياه، فصار عارفاً بوجوه المكاسب، لكنه أضاف العلم إلى الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن قوله: {عَلَى عِلْمٍ عِندِي} يعني: أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا فإني كذلك في الآخرة، إذا أوتيت هذا وأعطيت هذا العطاء في الدنيا فلي في الآخرة منزلة عنده -تبارك وتعالى-، وهذا منقول عن مجاهد وهو يرجع إلى قول قتادة: على علم من الله بفضلي، يعني هذا وهذا، أنه يحتج بالعطاء الدنيوي على المنزلة عند الله -تبارك وتعالى-، أني أستحق هذا فأعطاني، ومن ثَمّ فلي عنده منزلة إذا صرت إليه، كما قالوا ذلك صراحة: {لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [سورة مريم:٧٧]، هذا على افتراض أن يكون البعث والنشور، فهذا الذي أعطانا في الدنيا وحرم هؤلاء سيكون لنا من العطاء والمنزلة أعظم من هذا العطاء الدنيوي، ولهذا قال: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}.

{بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} أي: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي: اختبار، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون.

لاحظ الآن ابن كثير في هذه الآية، أي: **لِمَا يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصّيص لما خولني هذا**، يعني هذا يوافق قول ابن جرير والبغوي ومقاتل، وإليه يرجع قول مجاهد، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي}: على علم من الله بفضلي، مع أن القول الآخر يحتمل أيضاً، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي} بوجوه المكاسب، يعني: أضاف ذلك إلى نفسه، ولم يضف ذلك إلى فضل الله تعالى.

{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم {فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: فما صح قولهم ولا منَعَهم جمعُهم وما كانوا يكسبون.

الآن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر "ما" هنا بأنها نافية، يقول: أي فما صح قولهم، ولا منعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون، وهي تحتمل أن تكون استفهامية أو نافية، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُم} فما الذي أغنى عنهم {مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}؟، هذه استفهامية، ويحتمل أن تكون نافية، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُم} فلم يغن عنهم {مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وابن جرير -رحمه الله- مشى على أنها نافية، يعني ابن كثير وابن جرير يقولون: إنها نافية، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُم} لم يغن عنهم، {مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ما أغنى عنهم هذا شيئاً عند الله -تبارك وتعالى-، فما دفع عنهم عذابه وبأسه ونقمته في الدنيا ولم يكن ذلك يدفع عنهم عذابه في الآخرة.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء} أي: من المخاطبين، {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي: كما أصاب أولائك.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} يعني: جزاء السيئات، فقيل لها سيئات، أصابتهم هذه السيئات، يعني: جزاء هذه السيئات، ولا يخفى الملازمة والارتباط بين السيئات وما يتبعها وينتج عنها؛ ولهذا فالإثم يقال للذنب والمعصية، كما يقال أيضاً للجزاء المرتب عليه، -والله المستعان-، فالناس قد تقع بهم عقوبة فيقولون: هذه ذنوبنا، أصابتنا ذنوبنا، يعني: جزاء الذنوب، والملازمة ظاهرة بين هذا وهذا، {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، وإنما قيل لها سيئات لأنها تسوء -كما سبق- صاحبها.

{وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا

{تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [سورة القصص:٧٦-٧٨]، **وقال تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}** [سورة سبأ:٣٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي: لعبراً وحججاً.

المقصود أن هؤلاء الخلق والعتاة على الله -تبارك وتعالى- والكفار والجاحدين له ولرسله -عليهم الصلاة والسلام- ليسوا بمعجزين له -تبارك وتعالى-، فنواصيهم بيده، قادر على أخذهم مهما كان عندهم من الإمكانات والقُدر والقوى، وإذا أردت أن تعرف هذا بكل بساطة اليوم فإن من أكبر ما عند هؤلاء من القوى والقُدر والإمكانات هذه المفاعلات النووية التي يرهبون بها العالم.

هذه بكل بساطة لما يأتي زلزال أو يأتي تسونامي أو يأتي يعني الأشياء السهلة هي الهواء والماء، وهي أعتى الأشياء، فلما يأتي مثل هذا الإعصار أو غير ذلك مما يريده الله -عز وجل- تتحول هذه المفاعلات النووية إلى نقمة في تلك الأمم المكذبة، والقوى الكافرة، فهي تهددهم صباح مساء، ولنا ما حصل في اليابان عبرة، وما حصل في أمريكا عبرة، فلا تستبعد أن يأتي اليوم الذي يندبون فيه حظهم، ويرون أن وجود هذه المفاعلات بين تلك المجتمعات، وفي تلك البلاد أنها نقمة وعذاب قد يصطلي بناره هم أولائك الذين فعلوه، وينفقون الأموال الطائلة في تفكيكه، والله -تبارك وتعالى- كما قال في يهود بني النضير: **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** [سورة الحشر:٢]، فقد يؤتى هؤلاء بنفس هذه الأسلحة التي يرهبون بها العالم، والله -عز وجل- على كل شيء قدير، وإذا أردت أن تعرف حقيقة قُدَر هؤلاء وإمكاناتهم وقواهم، وما نشروا قبيل الحروب وروج ذلك طلائعهم في بلاد المسلمين، عبر الصحافة والإعلام، ينشرون ما عندهم بأرقام ورسوم بيانية، ومقارنات، وكم عندهم من البارجات، وكم عندهم من حاملات الطائرات، وكم عندهم من المدمرات، وكم عندهم من الغواصات النووية وغير ذلك، بحيث إذا قرأتها تلك الشعوب أصابها الهلع والذعر، ورفعت راية الاستسلام قبل أن تأتيها تلك الجيوش، فإذا أراد الإنسان أن يعرف هذا فما عليه إلا أن ينظر في هذه الصور الحقيقية عبر هذه الوسائط والوسائل الحديثة قوقل (Google) مثلاً، ينظر إلى الأرض، صورة حقيقية، ويرى أن المسافة بين هذه القارات إنما هي سنتيمترات أو أقل من ذلك، وأين هذه القوى وأين هذه بالنسبة لقدرة الله -عز وجل-، فهي حبة رمل سابحة في الهواء، الأرض بكاملها وليست بارجة، فهذه البارجة لو حرك برأس دبوسٍ هذا الماء لغرقت وغرق من في هذا البحر، هذا إنسان ينظر إليها من بعد، لكن كلما يقترب الإنسان عند الصورة تتضخم الأشياء، حتى إنه يخيل إليه أن فنجان الماء لربما يكون بركة ضخمة عظيمة أو خزان ماء هائلاً يمكن أن يغرق به وتغرق به نفوس كثيرة، فهكذا نظر الإنسان القاصر.

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ

حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [سورة الزمر:٥٣-٥٩].

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله -تبارك وتعالى- يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

لا يصح حمل هذه يعني هذه الآية، بخلاف قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [سورة النساء:٤٨]، فهذه على إطلاقها بعد استثناء الشرك، وأما هذه الآية هنا فهي مطلقة، {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، فلابد من قيد، فيكون هذا من المطلق المحمول على المقيد في قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}، أما ما دون الإشراك فمن أهل العلم من يقول حتى في الآية الثانية: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} إن الكبائر لابد لها من توبة، وهذا ليس على إطلاقه، فإن هذه الآية: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} يدخل فيها الكبائر على الأرجح، فإن الكبائر تحت المشيئة، إن شاء الله -عز وجل- عذب صاحبها وإن شاء غفر له، أما من تاب من الشرك وغيره فإن الله -تبارك وتعالى- يغفر ذلك له، كما تدل عليه الآيات الكثيرة في التوبة، فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}، يدل على أن ذلك في غير التوبة، وإلا فالشرك يغفر إذا كانت التوبة، إذا تاب العبد من الشرك فإنه يغفر، فلماذا استثناؤه، فقال: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} يعني: فيما لم يكن منه توبة، ولهذا يقال: إن الكبائر داخلة تحت المشيئة، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ} [سورة الفرقان:٦٨]، ونزل: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}[1].

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سورة مريم:٦٠] الآية.

يعني هذا فيما يتعلق بالتوبة والإنابة، التوبة الحقيقية، التوبة النصوح، التوبة الصحيحة، وليست مجرد استغفار باللسان دون أن يكون ذلك أيضاً نابعاً من القلب مع الندم والعزم على أن لا يعود، مع الإقبال على الأعمال الصالحة، وأن تكون هذه التوبة خالصة لله -عز وجل-، وليس فيها أدنى تردد، فابن القيم -رحمه الله- يضيف هذا الشرط وهو أن يقبل العبد على الله -عز وجل-؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، فيقبل على ربه -تبارك وتعالى-، وتتغير حاله، ويترك ما هو فيه من الشر والفساد، ففي هذه الإنابة الحافظ ابن القيم له كلام في مواضع من كتبه، فلابد من الإقبال على الله بكليته، يقبل العبد بكليته على ربه -تبارك وتعالى.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الزمر، برقم (٤٥٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، برقم (١٢٢).

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وَأَمَّا آيَةُ الزُّمَرِ: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، فهي في حق التائب؛ لأنه أطلق وعمم، فلم يخصصها بأحد ولم يقيدها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها، فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب، فكل من تاب من أي ذنب كان غفر له"[٢]، وقال -رحمه الله-: "فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة"[٣].

فهذا قال به بعض أهل العلم، ولكن لما يقال: إن المطلق هنا محمول على المقيد هناك، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}، فيكون غير الشرك تحت المشيئة، {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، فهذه من آيات الرجاء، بل هي الأشهر بأنها أعظم الآيات ترجية للعصاة، ومعلوم أن العلماء اختلفوا في تحديد أرجى آية في كتاب الله -عز وجل-، وهذا أشهر الأقوال، وقد مضى في بعض المناسبات قول من قال: إن أرجى آية في كتاب الله هي آية الدين، وإن هذا قد يستغرب ويستبعد، معاملة مالية محضة ويقال: إنها أرجى آية في كتاب الله؟ وبينت وجه هذا، كيف أن الله احتاط لمال المسلم هذه الاحتياطات الكثيرة جداً، {إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ...} [سورة البقرة:٢٨٢]، كل هذه الاحتياطات لربما على مائة ريال، قالوا: فنفس المؤمن أعظم عند الله -تبارك وتعالى- من ماله، فالله لا يضيعه، وهذا وجه لكون هذه الآية أرجى، لكن ليس ذلك يعني أنه الأرجح بالضرورة، وقال ابن القيم -رحمه الله-: "والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ} [سورة الروم:٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: {ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} [سورة الروم:٣٣-٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك"[٤].

المقصود -على كلام ابن القيم- أنه ما يكفي أن الواحد يقول: إني تبت، أو أن يندم فقط على الذنب، بل لا أن يعزم على أن لا يعود إليه، ما يكفي هذا عند ابن القيم، بل لابد من إقبال القلب بكليته على الله -عز وجل- إقبالاً صادقاً، وتغير الحال، وذكرت في بعض المناسبات أن هذه هي التوبة النافعة، التوبة النصوح، لاسيما من بعض الجرائم والذنوب، مثلت على هذا بالمخدرات، وأن هؤلاء الذين يتوبون منها فقط غالباً يرجعون

---

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٣٣٥).

٣ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:١٦٥).

٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٤٣٣).

إليها ثانية، ولكن إذا حصلت له هذه الإنابة الموصوفة هنا فهذا هو الذي بإذن الله تصلح معه الحال، ولا يرجع الإنسان إلى هذه الشرور والآفات.

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}.

لا، هذه القراءة المشهورة المتواترة، لكن يقرأ: {إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ}، يعني هذا في ولد نوح -عليه السلام-، إنه عَمِلَ غيرَ صالح، لم يكن على استقامة، كان مشركاً.

وسمعته -صلى الله عليه وسلم- يقول: (({يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} ولا يبالي {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}))[٥]، ورواه أبو داود والترمذي.

إي، يعني بهذه الزيادة ((ولا يبالي))، هذه الرواية ضعيفة لا تصح، لكن الأولى الشق الأول منها له شاهد يقويه، {إنه عَمِلَ غيرَ صالح}، لكنها ليست متواترة، شاذة.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [سورة التوبة:١٠٤]، وقال -عز وجل-: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة النساء:١١٠]، وقال -جل وعلا- في حق المنافقين: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ} [سورة النساء:١٤٦].

هذه الآية التي أوردها الحافظ ابن كثير، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ}، مضى الكلام على هذا في التوبة، بأن هذا الاستغفار ليس مجرد استغفار باللسان بل هو استغفار مبني على رجوع القلب وتوبة القلب وندم القلب، وأن قوله -تبارك وتعالى-: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ}، فهذا يعني: صلاح الحال، وأيضاً إصلاح ما فسد، هذا في الأمور المتعدية، فإذا كان قد أضل أحداً من الناس أو نحو ذلك، {تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ} [سورة البقرة:١٦٠]، لابد من البيان، فإذا كانت له كتابات فاسدة، فيحتاج أن يبين وينقض ذلك، ويصلح ما أفسده، له مشروعات في الإفساد، برامج في الإفساد، يحتاج أن يصلح ما أفسد، بدعة نشرها، فلابد من بيان ذلك، وهذا مضى الكلام عليه أيضاً في التوبة، في الأعمال السارية التي لم تزل آثارها ممتدة، كيف تكون التوبة منها؟، أنه لابد من البيان، {الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ} يعني: بعدما تصدر منه الكلمة، أو يكتب كتاباً، أو نحو ذلك، هذا ينقض هذا الكلام الذي قاله، وتكلموا على أشياء أخرى قبل وقوع الشيء وبعد مفارقته للفاعل، كانوا يمثلون بالسهم إذا رماه ثم ندم وتاب قبل أن يصيب الهدف، الصورة غير واضحة؛ لقصر المسافة في السابق، المسألة ثوانٍ، لكن الآن لا، الآن ممكن أن يضغط برسالة جوال أو بالوتس أب أو في..، ثم ريثما هو يعتلج – يحمّل- ندمَ، ويريد أن يرجعها فلا ترجع، ولا زالت لم تصل، وندم بعدما أرسلها، سب أحداً من الناس، أو قذفه، أو نشر شيئاً لا يجوز له نشره، فندم وهي خرجت من يده ولم تصل إلى ذاك، لا زالت أمامه إشارة التحميل، فمثل هذا كيف تكون توبته، تكلم أهل العلم على هذا،

---

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٧٥٦٩)، قال محققوه: "الشطر الأول محتمل للتحسين بشاهده، وهذا إسناد ضعيف، وقد سلف الكلام عليه في مسند أم سلمة عند الرواية (٢٦٥١٨)".

والآن الصواريخ عابرة القارات، وكل هذه الأشياء التي لربما يعني تحصل آثارها بعد حين من الزمن كيف تكون التوبة منها.

وقال -جل جلاله-: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة المائدة:٧٣]، **ثم قال -جلت عظمته-:** {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة المائدة:٧٤].

هذه الآية بعض العلماء قال: هي أرجى آية، قالوا: نسبوا له الصاحبة والولد، ويتلطف بهم هذا التلطف العظيم مع هذا الجرم الكبير، {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}، يعرض عليهم التوبة بألطف أسلوب وأرق عبارة، وهم بهذه الجرائم العظيمة.

وقال -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}.

قال الحسن البصري -رحمة الله عليه-: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!.

والآيات في هذا كثيرة جداً.

رحمة الله واسعة، ليس كالخلق والعباد، الخلق لربما يريد الإنسان أنه يترك ما هو فيه ويعتذر ويتوب، ومع ذلك قد لا يتركونه، وأما الله -تبارك وتعالى- فيكفي أن العبد يتوب بينه وبين الله فتمحى هذه الذنوب والسيئات، وتعود صحيفته بيضاء، فلا أدري ما الذي يحول بيننا وبين التوبة، وأن نصلح ما بيننا وبين الله -عز وجل-، لماذا الإنسان يصر على حال غير مرضية، مع هذا العرض، العروض الكبيرة والألطاف العظيمة من الله -جل جلاله-؟، وبعض المخلوقين لربما يقضي حياته وهو يحاول أن يزين صورته ويظهر بحال أخرى، وأنه راجع عما كان فيه، ومع ذلك لا يقبل منه صرف ولا عدل، فالله أرحم من خلقه، أرحم من عباده، هذا الكرم والجود العظيم.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عُبَّاد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله -عز وجل- أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة[٦]، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله -تبارك وتعالى- أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد، هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -عز وجل-: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} **إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم} [سورة الكهف:٩]، برقم (٣٢٨٣)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، برقم (٢٧٦٦).

إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة المائدة:٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء، مَن قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤]، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨]. قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: من آيسَ عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله -عز وجل-، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني عن شُتَير بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [سورة النحل:٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الزمر: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [سورة الطلاق:٢ - ٣]، فقال له مسروق: صدقت.

يعني أشد آية في كتاب الله تفويضاً، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}، يعني: تفويض العبد لربه -تبارك وتعالى- بأن يتولى الله رزقه وأمره، لكن عليه أن يحقق الشرط، بأن يتقي الله، ولا يكون ركونه إلى نفسه وعلمه وحذقه وما إلى ذلك، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، فهذه الآية تقوي جانب التوكل في قلب العبد.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم))[٧] تفرد به أحمد.

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه-، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لولا أنكم تذنبون لخلق الله قوما يذنبون فيغفر لهم))[٨].

هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي.

يعني بمعنى أن مثل هذا تتجلى فيه معاني أسماء الله الحسنى، العفوّ، الغفور، الرحيم، التواب، وما أشبه ذلك، فهذه لا تظهر إلا بوجود الذنوب، وليس معنى ذلك أن الإنسان يجترئ على الذنوب والمعاصي ولا يبالي، وإنما ذلك واقع منه لا محالة، فعليه أن يبادر إلى التوبة إلى الله -تبارك وتعالى-، ويعظم الله -عز وجل- حق التعظيم، ولا يجترئ عليه وعلى معصيته، ولكن إن وقع منه شيء، غلبته نفسه، وهواه، ونحو ذلك،

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٣٤٩٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٩٥١).

٨ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٣٥١٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، ومسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، برقم (٢٧٤٩).

يبادر إلى التوبة، {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠١]، هذه حال المؤمن، وهذا الذي يخزي الشيطان ويؤذيه كثيراً، فهو دائماً يعمل على أن ذلك لا يكون بحيث يضلل هؤلاء فيوهمهم تارة بأنهم متلاعبون بالتوبة، وتارة يوهمهم بأنهم يظهرون ما لا يبطنون، وأنهم واقعون في نوع من النفاق، فيغريهم بالمكابرة والإعلان والمجاهرة للمعاصي والذنوب، وأن يكون ذلك قائداً وسبباً لمواقعة جرائم وذنوب أخرى، ويجد من يصدقه ويقبل منه مثل هذا التضليل، وهذا من أعجب الأشياء، وهذا هو محمل هذه الأحاديث، وليس ذلك إغراءً بالذنوب والمعاصي، لا يفهم أحد هذا الفهم، يفعل المعاصي ويقول: النصوص وردت أنه لولا أنكم تذنبون، فالله لا يحب الذنوب والمعاصي، ولا يرضى لعباده الكفر.

ثم استحث -تبارك وتعالى- عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} الآية، أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له.

لاحظ، يعني هذا بعدما قال: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، ونهاهم عن القنوط، قال: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ} هذا هو الطريق.

أي: ارجعوا إلى الله وأسلموا له {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ} أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} وهو القرآن العظيم.

{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} هو القرآن العظيم، إما باعتبار -كما سبق- أن {أَحْسَنَ} أفعل التفضيل المقصود بها مطلق الاتصاف، فكل ذلك حسن، أو باعتبار أن ما أنزل إلينا من الله -تبارك وتعالى- الكتاب والسنة، فيكون أحسن ذلك هو القرآن، وهذا فيه نظر، وذلك أن السنة شارحة وموضحة للقرآن، فلا تفهم الآية بهذه الطريقة، ولا تكون السنة بحال من الأحوال بمعزل عن القرآن، فيقول الإنسان: أنا أتبع أحسن ما أنزل إليّ، يعني: القرآن، فهذا لا يستقيم بحال من الأحوال، فلابد من اتباع الكتاب والسنة معاً؛ ولهذا بعض السلف يقول: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} يعني: المحكمات، وبعضهم يقول: الناسخ دون المنسوخ، يعني القرآن فيه محكم ومتشابه، فيه ناسخ ومنسوخ، فالله -عز وجل- أخبر عن الذين في قلوبهم زيغ أنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهذا حال من زاغت قلوبهم، فأهل الإيمان أمرهم الله -تبارك وتعالى- بأن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، هذا وجه هذا القول، وقد مضى الكلام أيضاً على أقاويل أخرى، كقول من قال: القرآن فيه العفو، والإحسان، والانتقام، {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [سورة الشورى:٤٠]، وأرشدهم إلى العفو في بعضها {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [سورة فصلت:٣٤]، {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ...} إلى أن قال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [سورة النور:٢٢]، فالشاهد أن الآيات فيها مقام العدل الذي فيه جزاء السيئة بسيئة، وفوقه الغفر والصفح والعفو، وهذا الغفر والصفح والعفو هو أيضاً على ثلاث مراتب، وليس على مرتبة واحدة، أظن سبق الكلام على هذا، ثم فوقها -فوق هذه المرتبة المنقسمة إلى مراتب- مقام الإحسان إلى من أساء، فيكون على هذا، {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} يعني: الأعلى، فتحسن إلى من أساء إليك، ويكون ذلك أفضل من معاملته بالمثل، والاقتصاص منه.

وبعضهم يقول: القرآن فيه أخبار عن الأمم الماضية، وما إلى ذلك، الأخبار عن المكذبين وعن المؤمنين، وفيه من العبر والعظات، وأشياء كثيرة، {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ}، فما تجدونه من أعمال طيبة مما قص الله وأخبر عنه من أحوال تلك الأمم فخذوا به، {أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ}، فيكون المؤمن يلتقط مثل هذه الأوصاف والكمالات ويستجمعها، فهذا قال به بعض أهل العلم.

وبعضهم كابن جرير يقول: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} افعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه، وبهذا تكونون قد اتبعتم أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، إذا فعلتم أوامره وتركتم نواهيه.

{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ} أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال -عز وجل-: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله -عز وجل.

يعني الآن {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} أي: حذراً من أن تقول نفس: يا حسرتى، أو لئلا تقول نفس: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}، كما يقول أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، يعني: لئلا تندم في وقت لا ينفع فيه الندم ولا يفيد، بادروا خوفَ أن تقول نفس: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}، هذه الآيات من جملة الآيات التي في كتاب الله -عز وجل- في مواضع يذكر الله -عز وجل- فيها حقائق يغفل عنها الإنسان كثيراً، ولكنه عند المعاينة لو طرقت سمعه فكأنه لأول مرة يسمعها، قال كل الحقائق كما هي، ما الذي سيكون من خصومة بين أهل النار الخصوم؟ ماذا تقول الطائفة الأولى للثانية؟، كيف يتندمون على ما مضى منهم من جرائم؟، والعبارات التي يقولونها حينها: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}، وكل ما يكون مما يحصل من الناس وقت ندمهم، وتكشّف الحقائق أمامهم ذكره الله في هذا القرآن، حينما يقف الإنسان أمامه يقول: ما بقي شيء إلا بينه الله -عز وجل-، ووضح الطريق إيضاحاً تاماً كاملاً لا لبس فيه، ماذا يقول، وماذا يقال له، هؤلاء الناس إلى ربهم كيف يصيرون إلى الله -تبارك وتعالى-، وماذا يلقون حينها، وما هي حتى المشاعر الداخلية والنفسية التي تدور في نفوسهم، وضحها الله وبينها، ومن ثَمّ لا أجد شيئاً إطلاقاً مما يمكن أن يقال للإنسان الذي يريد أن يتبصر، يريد أن يصلح حاله، يريد أن يتغير، يريد أن لا يعود إلى ذنوبه، يريد أن يكون في حال جديد، يريد أن يترك بعض الأشياء التي تعلقت نفسه بها، لا أجد مثل هذا القرآن، ولكننا نغفل كثيراً ولا نتدبر، وإذا أردت أن تعرف مثل هذا -وأنا أول المقصرين به- أقبل على القرآن إقبالاً صحيحاً، اقرأ القرآن في أفضل الأوقات عندك في اليوم والليلة، واقرأ قدراً مجزئاً من القرآن كل يوم، بحيث يكون القرآن يأخذ من وقتك واهتمامك وقلبك بصورة لائقة، ستجد أن الحياة برمتها تتغير، كل الحياة، وستجد أن شيئاً بداخلك ينبعث، يقول: كيف ضاعت أيامنا بعيداً عن القرآن، كيف يمكن العيش بعيداً عن القرآن، كيف كان منا هذه الغفلة والتفريط؟!، ويشعر الإنسان أنه مضيع في أيام العمر السابقة، مع أنه لربما كانت أوقاته مصروفة في العلم، والدرس، والاشتغال، والقراءة، والاطلاع، والبحث، وما إلى ذلك، مع التقصير في قراءة القرآن وتدبره فيشعر أنه مضيع لأيام عمره السابقة؛ ولهذا شيخ الإسلام في آخر حياته وهو يقرأ في الآية

أكثر من مائة تفسير كان يتمنى لو أنه صرف أوقاته في القرآن، فهذه الحقائق هي أمور ستقع، ويقول هؤلاء هذه المقالات، فالموفق من فتح الله -عز وجل- منافذ فكره وقلبه ليتعقلها، فيبصر بنور الله -جل جلاله- هذه الأمور كأنها واقعة يشاهدها، أما الغافلون فإنهم لم يزالوا في سكرتهم حتى يوافوا ذلك اليوم، فيقع منهم مثل هذا الندم، فكثير من الحقائق تكون غائبة غير حاضرة في القلب، ثم بعد ذلك إذا جاءت ساعة الجد وطرق السمعَ مثلُ هذه الآيات يشعر الإنسان حينها أنه لأول مرة يقرؤها، ولك عبرة بهذا ما حصل من الصحابة لما توفي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وافتهم الصدمة، فقرأ أبو بكر -رضي الله عنه- الآية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [سورة آل عمران:١٤٤]، رجعوا إلى صوابهم بعد الذهول الذي أصابهم بموت رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فكانوا يعبرون عن هذا المعنى، أنهم كأنهم يسمعونها لأول مرة، فالإنسان يقرأ أشياء لكنه إذا حقت الحقائق كانت قراءته لها أخرى تماماً، والله المستعان، {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}، يتحسر يتندم على هذا التفريط، {يَا حَسْرَتَى}، وهذه قراءة الجمهور، وفي قراءة أخرى لابن كثير (يا حسرتاه) بهاء السكت وقفاً.

وقوله: {عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} ابن جرير يقول: يعني أمر الله، وعبارات السلف في هذا: بعضهم يقول كالحسن: في طاعة الله، وهذا مثل ما قال ابن جرير -رحمه الله-، في طاعة الله، في أمر الله، وهكذا قول الضحاك: في ذكر الله، فإن الذكر يشمل الذكر باللسان والقلب والجوارح، يعني: {عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} في ذكر الله، القرآن والعمل به.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

{أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الزمر:٥٧-٥٨] أي: تود أن لو أعيدتْ إلى الدنيا لتحسن العمل.

هذه عباراتهم، هذا الساخر يقول: كنت أسخر وأستهزئ، وشغَلَنا هذا الاستهزاء والسخرية من عباد الله المؤمنين عن الإيمان والعمل الصالح، فهؤلاء الذين يسخرون من أهل الإيمان في أعمدتهم وصحفهم وكتاباتهم المتعفنة، هؤلاء ما يخشى الواحد منهم أن يكون ممن يقول هذه المقالة، في برامجهم الهابطة التي يسخرون فيها من شعائر الدين ومن أهل الإيمان، ومن أهل الغيرة، ومن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ما يخشى الواحد منهم أن يقول: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}، وهكذا هذا الذي يقول: أنا فرطت، وكنت في غفلة ولهو، فلو كان لي كرة لكنت من المتقين، وكذلك هذا الذي يقول: {لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ}، ذاك يقول: {فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، وهذا يقول: {لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، كل ذلك لا ينفعهم، ولا يحصل لهم شيء من مطلوبهم ولا يرجعون، وعند هذا تحصل الخسارة المحققة، هذه الخسارة الحقيقية، التي ليس بعدها خسارة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال تعالى: {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا

فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الزمر:٥٧-٥٩].

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة))، قال: ((وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني!)) قال: ((فيكون له الشكر))[٩].

يعني كما جاء في الحديث الصحيح بأن كل إنسان له مقعد في الجنة، ومقعد في النار.

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله -سبحانه وتعالى-: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة الزمر:٦٠-٦١].

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ} أي: في دعواهم له شريكاً وولداً {وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} أي: أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

يعني المثوى أصله مكان الثواء، المكان الذي يَثْوون إليه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، {لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ} أي: يوم القيامة.

{وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}، بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله -تبارك وتعالى-، وابن جرير -رحمه الله- يقول: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} يعني: بنجاتهم من النار وفوزهم، يعني: ينجيهم بمفازتهم يعني: بفوزهم، بنجاتهم من النار ودخولهم الجنة، وهذا هو الفوز الأكبر الذي لا فوز بعده، ويقابله الخسارة العظمى والكبرى.

وبعض أهل العلم يقول: {بِمَفَازَتِهِمْ} أي: متلبسين بمفازتهم، وفي قراءة متواترة لحمزة والكسائي بالجمع، ومعلوم أن القراءة بالإفراد {بِمَفَازَتِهِمْ} يمكن أن تكون عائدة إلى معنى قراءة الجمع، باعتبار أنه مفرد مضاف والمفرد المضاف يؤدي هذا المعنى، {بِمَفَازَتِهِمْ} بمفازاتهم، يحتمل أن تكون الباء للسببية، يعني بسبب مفازتهم، بسبب فوزهم بالإيمان وطاعة الله -تبارك وتعالى-، ورضا الرحمن وتوفيقه.

---

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٠٦٥٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط البخاري"، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٦٢٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٣٤).

{وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

{لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ} يعني: أي نوع من أنواع السوء، عذاب النار فما دونه، لا يأتيهم حر ولا مرض، ولا يحصل لهم شيء من المكروه مما يقع للناس في هذه الحياة الدنيا من المكاره وما يسوءهم والأخبار المزعجة وما إلى ذلك، {وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} لا يقع في قلوبهم الحزن على أمور فائتة متقضية، فيكون ذلك نقصاً في حقيقة الحياة؛ لأن الإنسان المغموم كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: المحزون تكون حياته ناقصة، لا تكون حياته كاملة، هذا الإنسان المريض أو المهموم أو نحو ذلك، وإنما كلما كانت عافية الإنسان من هذا مع وجود الكمالات في هذه الحياة فإن ذلك يكون أدعى للحياة بالكامل، وهذا لا يكون على الإطلاق في الكمال إلا إذا دخل أهل الجنة الجنة، فهنا لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، لا يوجد أي شيء لا من الأمور المسموعة ولا المشاهدة ولا المحسوسة، ولا الأمور المعنوية، لا يقع سوء إطلاقاً، بخلاف هذه الحياة المجبولة على الكدر، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد:٤]، أما أهل النار فهم في سوء من جميع الوجوه، يسمعون ما لا يسرهم فيحصل لهم من الهوان، ويسحبون في النار على وجوههم، ويعذبون فيها العذاب الأليم، وطعامهم كما أخبر الله تعالى وكذا شرابهم، فهذا سوء من كل وجه.

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [سورة الزمر:٦٢-٦٦].

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

يعني {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، هو الذي خلق وهو الذي يقوم على تدبيرها وتصريفها، وهو القائم عليها، القائم على هذه المخلوقات بأرزاقها وآجالها وأعمالها، {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [سورة آل عمران:٢]، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}.

وقوله -عز وجل-: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدي: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: خزائن السماوات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

هذا المعنى الكلي العام {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أن أزمَّة الأمور بيده، ومعنى المقاليد {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، مقاليد، هل هو جمع مقلاد، أو جمع إقليد، أو لا واحد له من لفظه؟

فبعض أهل العلم يقول: إن المقاليد {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} هو جمع إقليد، كما يقول الجوهري، ولكنه يضيف إلى هذا أنه جمع إقليد ومقلاد، بينما ابن جرير -رحمه الله- ينكر الأول هنا أنه جمع إقليد؛ لأن الإقليد يجمع على الأقاليد، على قول ابن جرير: الإقليد يجمع على أقاليد، والمقلاد يجمع على المقاليد، فابن جرير

يرى أن المقاليد جمع مقلاد، والمقصود بالمقلاد المفتاح، يعني ابن جرير يقول: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} يعني: مفاتيح الخزائن، خزائن السماوات والأرض.

يقول: **قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية**، وهذا لا دليل عليه، يعني كونه يقال: إنها فارسية، هذا كثير في عبارات المفسرين من السلف فمن بعدهم، لكن في الكلام هذا مما قيل في الألفاظ الأعجمية في القرآن، هل هي موجودة أو لا؟ وهل هي مشتركة بين اللغات، وقول من يقول: إن العربية أولى بها، فيقال: نقلت إلى الفارسية، ولا يقال: منقولة من الفارسية؛ لأن الله قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [سورة الشعراء:١٩٥]، فهي عربية، وهم الذين أخذوا، ولماذا نفترض أن العرب هم الذين أخذوها وعندنا شاهد من القرآن أنه {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}، وبعضهم يقول: هذه اشتركت فيها اللغات فلا تنسب إليهم، حينما جاءت في القرآن فهي عربية، وكذا ينطقها بعض الأعاجم، كلام معروف في هذا، والمقصود به النكرة فقط، وإلا فإن طرفي المسألة غير داخلين فيها، وأعني بذلك التراكيب في الكلام، يعني هل يوجد كلام مركب بالأعجمية؟ هذا بالإجماع لا يوجد، لا يوجد كلام مركب، جملة اسمية أو فعلية في القرآن أعجمية؛ لأن الله قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}، فهذا بالاتفاق، والطرف الثاني وهو الأسماء، مثل: إبراهيم، ويونس، وعيسى، وموسى، وما أشبه ذلك، أكثر أسماء الأنبياء والملائكة يقولون: ليست بالعربية، وإنما الوارد من هذا بالعربية أسماء معدودة قليلة، لربما لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة من أسماء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فالمقصود أن الأعلام تنطق كما جاءت، وإن كانت العرب تتصرف فيها بعض التصرف -كما سبق- بناء على ما يناسب لسانهم، لسان العرب، فيحصل فيه بعض لربما التغيير اليسير، لكنه يبقى على أصله، ولا يلوون اللسان به كما يلوي الأعجمي لسانه، وإنما ينطقون به نطقاً يتفق مع اللسان العربي، وأن العبارة المعروفة المشهورة عنهم: أعجميٌّ فالعبْ به، يعني: لفظ أعجمي فالعبْ به، فكانوا يتصرفون بالألفاظ الأعجمية بما يتفق مع اللسان العربي، لا ينطقون بها ملوية كما يفعل بعض الناس اليوم، كما في لغة القطط، نو، ونو، فيأتون بها بطريقة يعني ممجوجة تثير الاشمئزاز، ويظنون أن هذا من الحذق، والله -عز وجل- قد قسم العقول كما قسم الأرزاق.

فقال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، مفاتيح الخزائن، أو مفاتيح السماوات والأرض، والخزائن والأرزاق، والرحمة، وما أشبه ذلك، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة.

يقول: وقال السدي: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: خزائن السماوات والأرض، يعني هؤلاء فسروا المقلاد بالخزانة، {لَهُ مَقَالِيدُ} يعني: خزائن السماوات والأرض، وهذا قال به غير السدي جماعة، كالضحاك وقال به من أهل اللغة الليث أيضاً، الخزائن.

لا شك أنه بين الخزائن والمفاتيح ملازمة لا تخفى، والله -تبارك وتعالى- إذا قيل: له مفاتيح الخزائن، فإن ذلك يقتضي أن تكون الخزائن له، وإذا كانت الخزائن لله -تبارك وتعالى- فإن مفاتيحها تكون بيده -تبارك وتعالى-، ولهذا فإنه إذا كان بين القولين ملازمة فإن الآية تحمل على ذلك جميعاً، فالله -تبارك وتعالى- له الغنى المطلق، والملك المطلق، وله خزائن السماوات والأرض، ومفاتيحها بيده فينبغي أن يُتوجه إليه بالرغبة والرهبة دونما سواه.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} أي: **حججه وبراهينه** {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، وهذه كقوله: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨].

قوله هنا: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ} يعني: هل أوحي إلى الذين من قبله: لئن أشرك ليحبطن عمله؟ هنا بالإفراد، {أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ}، ما قال: لئن أشركوا، أو لئن أشركتم، وإنما قال: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ}، فهل الذي أوحي إليه -عليه الصلاة والسلام- وأوحي إلى الذين من قبله أنه إن أشرك ليحبطن عمله؟ بعض أهل العلم يقول: فيه تقديم وتأخير، يعني: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ}، {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، {أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ} لئن أشركوا ليحبطن عنهم ما كانوا يعملون، {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، فيكون المعنى بهذا الاعتبار فيه تقديم وتأخير، وهو اختيار أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، مع أن الأصل عدم القول بالتقديم والتأخير ما أمكن، يعني إذا أمكن حمل الآية على معنى بنفس الترتيب الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- فهذا هو المطلوب، هذا قول ابن جرير الذي ذكرته آنفاً، وبعضهم يقول: إن المعنى هكذا يعني: {أُوحِيَ إِلَيْكَ} بالتوحيد، وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، يعني هناك مقدر محذوف، ثم قال: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ} بالتوحيد، يعني هذا الذي أوحي إليه، {لَئِنْ أَشْرَكْتَ}، والأصل عدم التقدير.

وبعضهم يقول: الكلام على وجهه، {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} وجاء بالإفراد باعتبار أن ذلك متوجه إلى كل نبي على حدة، يعني ليس فيه لا تقدير ولا دعوى التقديم والتأخير، أوحي إلى كل واحد {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، وهذا مثال ما أذكره أحياناً من أن الآية قد تكون حينما يقرؤها الإنسان لا إشكال فيها ولا يستوقفه ذلك، فإذا أردنا أن نشق الشعرة والشعيرة ظهرت الإشكالات، وهذا كثير، لكن بعض هذه المعاني يقولها السلف، يتكلمون فيها، فذكرها لا يكون من التكلف إطلاقاً.

وقوله -عز وجل-: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ} أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك وصدقك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (٦٧) إلى الآية (٧٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الزمر:٦٧]**: يقول -تبارك وتعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي: ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.**

قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شي قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

روى البخاري في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}...

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} هذه الأقوال التي ذكرها عن بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- أن ذلك بمعنى: أنهم ما عظموه حق تعظيمه، هذا من أقرب ما يفسر به هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} ما عظموه حق تعظيمه، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- في معناها، وبه قال بعض أصحاب المعاني كالمبرد.

وما ذكر هنا من أن هؤلاء ما قدروه حق قدره يعني أولائك الذين كذبوا عليه -تبارك وتعالى-، أو قول ابن عباس: الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، وما إلى ذلك، فهذا كله داخل فيه، الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} هذا في اليهود، فكل من أضاف إلى الله -تبارك وتعالى- ما لا يليق به أو كذب عليه أو قال عليه بلا علم، أو قال: إنه لا يبعث من يموت وإن الله -تبارك وتعالى- لا يقدر على جمع الأجساد وما تفرق منها في التراب، فكل هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، ومن أضاف إليه الصاحبة والولد وأشرك معه غيره فما قدره حق قدره، فهؤلاء المشركون ما قدروه حق قدره حيث عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث.

قوله هنا: **وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية**، هو لا يقصد {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} إنما يقصد ما بعده {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يعني في إثبات الصفات، والكلام في هذا معروف، كلام الطوائف في هذا من المتكلمين وغيرهم، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى ذلك.

قال: روى البخاري في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد: إنا نجد الله -عز وجل- يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الآية[١].

ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟))[٢].

تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وروى البخاري في موضع آخر عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله -تبارك وتعالى- يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع، وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك))[٣].

تفرد به أيضاً من هذا الوجه، فروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول هكذا بيمينه يحركها يقبل بها ويدبر: ((يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم))[٤]، فرجف برسول الله -صلى الله عليه وسلم- المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [سورة الأنعام:٩١]، برقم (٤٨١١)، وبرقم (٧٤٥١)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ}، ومسلم، في أوائل كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (٣٥٩٠).

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، برقم (٤٨١٢)، وبرقم (٦٥١٩)، كتاب الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، ومسلم، أوائل كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٧).

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٧٤١٢).

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٥٤١٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، عفان: هو ابن مسلم الباهلي"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٧٣٢٧).

وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه.

هذا الحديث، وفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يفعل بيده ما وصف إنما كان ذلك لتحقيق الصفة، وليس ذلك من باب التمثيل؛ ولهذا فإن أهل العلم تكلموا فيمن ذكر شيئاً من الصفات وأشار إلى شيء من الحواس، بمعنى أنه إذا ذكر سمع الله -عز وجل- مثلاً أشار إلى الأذن، وإن كان السمع لا يقتضي إثبات الأذن، ولكن يشير إلى ما يتعلق بالسمع، وإذا ذكر البصر أشار إلى العين، وإذا ذكر القبض والبسط فعل هذا مثلاً، أو أشار إلى يده، أو إذا ذكر الأصابع أشار إلى أصبعه، أو حرك أصبعه أو نحو ذلك، هل هذا جائز أو لا؟ نقل عن بعضهم التشديد في هذا، وتعظيم النكير فيه، والأقرب في ذلك -والله أعلم- أن هذا يختلف، فإن كان فعل ذلك على سبيل التمثيل فهذا لا يجوز بحال من الأحوال، فالله -تبارك وتعالى-: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [سورة الشورى:١١]، وإن فعل ذلك لتحقيق الصفة فلا إشكال، لكن ينبغي أن يكون في مقام لا يلتبس، يعني ما يكون بحضرة من يفهم أو يتبادر إلى ذهنه من ذلك التمثيل؛ لأن الله لا يمثل بشيء من خلقه -سبحانه وتعالى-، هذا فيما يتعلق بفعل النبي -عليه الصلاة والسلام-، **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}**، فذكر هنا القبضة، وأيضاً قال: **{وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}**، فذكر القبض، أو القبضة، وذكر الطي وذكر اليمين، وجاء في الراويات أيضاً ذكر اليد الأخرى، وفي رواية عند مسلم: ((بشماله))، تكلم عليها أهل العلم، هل هذه الرواية شاذة أو لا؟ فالحاصل أن ذكر اليد والقبض والبسط والأصابع وما إلى ذلك كله يدل على أن هذه الصفة حقيقة، وأنه لا يصح في هذا الموضع أن تؤول بالنعمة أو القدرة أو نحو ذلك؛ لأن الله -تبارك وتعالى- صرفها هذا التصريف، فتارة ذكر ذلك بصيغة التثنية، **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}** [سورة المائدة:٦٤]، وذكر ذلك أيضاً بصيغة الإفراد، وذكر ذلك مع أمور أخرى كالبسط والقبض ونحو ذلك مما يدل بمجموعه دلالة قطعية على أن هذه الصفة حقيقية، ومثل هذا لو نظر إلى أحد هذه النصوص بمفرده، يعني كذكر اليد بمفرده فقط، فإن مثل هذا يحتمل، يعني فيه نسبة احتمال يعني أنه على اصطلاحهم في القطعي الدلالة يوجد فيه نسبة احتمال، هل المقصود به اليد الحقيقية أو المقصود به معنى آخر، فنسبة هذا الاحتمال موجودة، ولكن يسمونه الظاهر، يعني ليس بنص قاطع، فالنص القاطع في الدلالة هو الذي يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره أبداً، في اصطلاحهم المشهور، فهم ينظرون إلى هذه النصوص بهذا الاعتبار، ولكنهم يغفلون معنى آخر، وهو النظر إلى مجموع هذه النصوص، فإن النظر إلى مجموعها يدل على هذا المعنى دلالة قطعية، ولهذا كانت دلالة النص على نوعين: نوع يدل بمفرده على المعنى دلالة قطعية، هذا الذي يقولون عنه: إنه نادر، أعني إذا قلت: يقولون -الذي يقولون عنه- وأغفلتهم فإنما أعني المتكلمين، يقولون: هذا نادر، يقولون: النص نادر، كقوله: **{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}** [سورة البقرة:١٩٦]، والباقي الظواهر فيها احتمال.

أقول: بقي نوع ثانٍ من النص، وهو ما تضافرت فيه الأدلة وتنوعت حتى صارت تدل على معنى بمجموعها لا يحتمل غيره؛ ولهذا نقول: إن دلالة هذه النصوص على إثبات صفة اليد لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته هذا من قبيل النص الذي لا يحتمل معنى آخر، هذا النوع يغفلونه في النص، وإنما يتحدثون

عن النصوص المفردة، ومن ثَم يقولون: إنها نادرة، فكلامهم فيه ما فيه كما عرفنا، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا في عدد من كتبه: تضافر النصوص على إثبات هذا المعنى.

وهذا الأصل الذي ذكرته آنفاً أثبته بعض المتكلمين، ولكن لا يكاد يوجد في كلامهم ومصنفاتهم، هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة: إثبات هذه الصفات كما ورد على ما يليق بجلال الله وعظمته.

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة الزمر:٦٨-٧٠].

يقول -تبارك وتعالى- مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض، إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [سورة غافر:١٦] **ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يُحيي أول من يُحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ بالصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال -عز وجل-: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا حمل هذه النفخة على النفخة الثانية، وقد مضى الكلام على هذا، وأن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات، النفخة الأولى: التي هي نفخة الفزع، **{وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللهُ}** [سورة النمل:٨٧]، والنفخة الثانية: هي نفخة الصعق، والنفخة الثالثة: هي نفخة البعث، وكثير من أهل العلم يرون أن النفخ في الصور يكون مرتين، نفخة الصعق، ونفخة البعث، وبعضهم يقول غير ذلك، فهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق، هذه نفخة الصعق إذا قلنا: إن هذه النفخة نفخة الصعق، فهنا قال -تبارك وتعالى-: **{فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ}**، هذا ظاهر من الآية، على كل حال إذا قلنا: إن النفخ يكون ثلاثاً ففي نفخة الفزع **{وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}**، هذه نفخة الفزع بعض أهل العلم يقول: إن المستثنى فيها من الفزع هم الشهداء يكونون في حال من الأمن، وإنهم لا يحصل لهم الفزع، وإن المستثنى في نفخة الصعق هذه **{إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}** هم: جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وملك الموت وحملة العرش، هكذا قال بعض أهل العلم، والإمام ابن جرير -رحمه الله- يميل إلى هذا في ظاهر كلامه، أن المستثنى هنا في هذه النفخة هم هؤلاء: جبريل -عليه الصلاة والسلام- وملك الموت وحملة العرش.

وبعض السلف من الصحابة ومن بعدهم وهو مروي عن أبي هريرة وابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو منقول عن سعيد بن جبير من التابعين: أن المستثنى هنا هم الشهداء، باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنهم {أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [سورة آل عمران:١٦٩]، فهم لا يموتون بهذه النفخة نفخة الصعق، وأن هذه النفخة تكون لغيرهم من الأحياء، وهذه النفخة -والله تعالى أعلم- قد لا يتبادر إلى الذهن أن المستثنى فيها الشهداء؛ لأنهم قد ماتوا أصلاً الموتة الأولى، وذاقوا الموت، وهم أحياء عند الله -عز وجل- حياة غير الحياة الدنيوية، حياة أخرى غيبية يعلمها -سبحانه وتعالى-، فلو قال قائل: إن هؤلاء غير داخلين أصلاً في ذلك وإنما المقصود الذين لم يذوقوا الموت، الأحياء الذين ما ماتوا هم الذين يحصل لهم الصعق، ففي هذه الحال لا يحتاج معه إلى استثناء الشهداء.

كذلك أيضاً استثنى بعض أهل العلم كالإمام أحمد -رحمه الله- الحور والولدان في الجنة، وهذا لا إشكال فيه؛ لأن هؤلاء ليسوا للفناء، والجنة ليس فيها موت، قال ابن القيم -رحمه الله-:

والحورُ لا تفنى كذلك جنةُ *** المأوى وما فيها من الوِلدانِ

فهذه ليست للفناء، ويبقى مثل هذا الاستثناء، والله -تبارك وتعالى- أبهم فيه، فتحديد ذلك بأن الذين لا يصعقون هم جبريل -عليه السلام- وملك الموت أو نحو ذلك مثل هذا تركه أولى؛ لأنه يحتاج إلى دليل خاص، فهذه قضايا غيبية، أما الجنة والنار فإن ذلك لا يتصل به الفناء كما سبق، ولهذا بعضهم يقول: وكذلك النار فإن خزنتها لا يفنون، وهكذا من أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن رآهم فيها، رأى عمرو بن لُحَيّ بن قمعة الخزاعي أول من غير دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- رآه في النار، وكذلك صاحب المعجن، وما أشبه هذا، الذين صاروا إلى الجنة أو صاروا إلى النار، هذه أمور، هذه حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا، وإنما -والله تعالى أعلم- ذلك فيمن لم يمت، ويبقى هذا كما أبهمه الله -تبارك وتعالى-، لا ندخل في تحديد ذلك.

هنا يقول: كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وهذا الصعق الذي يحصل هل هو صعق غشية أو صعق موت؟، هذا فيه كلام لأهل العلم:

حكى الواحدي عن جمهور المفسرين أن هذا صعق موت، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، والذين يقولون: إنه صعق غشية يحتجون ببعض ما ورد من الأحاديث، مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المشهور: ((الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور))[٥]، {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٥]، واختلف في تلك الآية كما سبق في الكلام على سورة البقرة، هل الذي وقع لهؤلاء من بني إسرائيل كان من قبيل صعق الموت، أو كان غشية؟ هذا فيه خلاف معروف، وقلنا هناك: إن الراجح أنه صعق موت، وإن هذا أحد دلائل البعث في سورة البقرة، قلنا: في خمسة مواضع إحياء الموتى، كطيور إبراهيم -عليه الصلاة

---

٥ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...}، برقم (٣٣٩٨).

والسلام-، والذي مر على القرية وقال: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} [سورة البقرة:٢٥٩]، {الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} [سورة البقرة:٢٤٣]، وقتيل بني إسرائيل، فمثل هذا الصعق الذي في سورة البقرة الأقرب أنه صعق موت، فالذين قالوا: إنه صعق غشية كأنهم فهموا ربما من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفاق قبلي)) أنه أفاق من غشية، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم بكلام طويل، والمسألة مبسوطة في بعض كتب الاعتقاد، والوقت لا يكفي لتتبع بعض ما جُمع أو بعض المواضع التي جَمعت أشياء جيدة في هذا، فمن ذلك كلام ابن القيم -رحمه الله تعالى- حيث قال في قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}: "فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق فقيل: هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار.."[٦].

عندما ينقل ابن القيم أو الحافظ ابن كثير عن مقاتل فالمقصود به مقاتل بن حيان، وهو الإمام المعروف الثقة، أما مقاتل بن سليمان فقيل فيه ما قيل، إلا أنهم استحسنوا تفسيره، وكل أصحاب كتب التفسير إذا رأيت: قال مقاتل لا يقصدون بالضرورة مقاتل بن حيان، لكن ابن كثير إذا ذكره هكذا فالمقصود به مقاتل بن حيان، وهنا المقصود به مقاتل بن حيان، وهما كلاهما في طبقة واحدة، ووفاتهما في سنة واحدة، سنة مائة وخمسين للهجرة، هذا إمام ثقة، وهذا قالوا عنه: رمي بالكذب، ورمي بالتجسيم، وقد لا يثبت هذا عنه.

وقال -رحمه الله-: "وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها، قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان، وأما قول أهل النار: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [سورة غافر:١١]، فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} [سورة البقرة:٢٨] فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك"[٧].

يعني العلماء إذا تكلموا عن الموت والحياة يقصدون بالحياة ما فيه روح، أما كون الجنين نطفة فيقال: الحيوانات المنوية، أو حينما يكون علقة أو مضغة وقد يكون فيه نبض، وهذا يعرفه الأطباء، هذه لا تسمى حياة شرعية، إنما يكون ذلك بعد أن يتم أربعة أشهر، فيأتي الملك وينفخ فيه الروح، فهذه هي الحياة التي يقصدونها، حينما تكون الروح تعمر الجسد، فإذا خرجت منه فهذا هو الموت، ولهذا الموت الدماغي هو ليس بموت شرعي، وإنما يكون الموت الشرعي بمفارقة الروح الجسد؛ ولهذا فإن من أعظم الإجرام قتل هؤلاء وهم أحياء تحت ذريعة التبرع بالأعضاء، فهذا لا يجوز بحال من الأحوال، وهو يعتبر قتل نفس، فيقطعونهم

---

٦ - الروح، لابن القيم (٣٥).

٧ - الروح، لابن القيم (٣٥).

ويشرحونهم، ويأخذون أعضاءهم وهم أحياء، -نسأل الله العافية-، فهذه جريمة يغرر بها الناس ويلبس عليهم بها، ولا أعرف كيف يجترئون على مثل هذا -نسأل الله العافية-، إنسان حي ويقطعونه، يشرحونه ويأخذون أعضاءه ولا زال حياً، وثبت أن بعض هؤلاء أفاق بعد غيبوبة سنين طويلة، وهذا سمعته من بعض الأطباء، وكتب عن هذا أشياء بإثبات إفاقات، والله على كل شيء قدير، وبنفسي رأيت رجلاً بحال تشبه هذه، لا يعرف شيئاً سنوات، وأفاق، وكان يحضر معنا في هذا الدرس، وقع له حادث مرتين، وقع له حادث والذي أنقذه انقلب معه فأصيب برأسه، فكان يحضر معنا في الدرس، وكان أشبه بالجثة الهامدة أكثر من سنتين، رأيته في هذه الحال في المستشفى، حالة ميئوس منها، وجميع المستشفيات التي أرسل لها التقارير في الخارج وفي الداخل كانوا يقولون: الحالة ميئوس منها، كانوا في المستشفى يريدون إخراجه، يقولون: ضعوه في البيت خلاص، المخ فيه ضمور، انتهى، وأحياه الله -عز وجل-، كان أخوه كلما جاء أحد طلب منه أن يرقيه، الرجل كان يحضر في الدرس، فإذا تعب من الجلوس؛ لأن عظامه لا تنثنى من طول المكث على السرير، وكان فيه جروح، فالشاهد أنه كان يتعب ويمشي في الدرس، ثم يرجع ويجلس، فالشاهد أحد هؤلاء حينما كان الطبيب يجزره ضربه ضربة قوية، فالطبيب بقي يتعالج منها مدة، وكان الطبيب يعلل هذا بأنها ردود فعل لا إرادية، فالحاصل أن الموت الشرعي هو مفارقة الروح الجسد، الروح إذا كانت عامرة للجسد، ولو انتفى الإدراك، دخل في غيبوبة هذا لا يعتبر موتاً، ولا يجوز لأحد أن يوزع على الطلاب والطالبات الأغرار في المتوسط أو الثانوي نماذج، ويقول: وقع أنك تتبرع بأعضائك لو حصل حادث أو نحو ذلك، ثم يأتون ويتسابقون، ويأتون لهم بمن يعظهم ويتكلم معهم أن هذا يعتبر عملاً صالحاً تؤجر عليه، كيف يقتلونه وهو حي؟!، هذا غير موضوع التبرع أصلاً، هل يملك أن يتبرع بما لا يملك أصلاً حتى لو مات؟!.

وقال -رحمه الله-: "فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أزواجهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها"[٨].

رأي ابن القيم -رحمه الله- أن صعق الأرواح عند النفخ في الصور يقول: لا يلزم منه موتها.

ففي الحديث الصحيح أن ((الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزى بصعقة يوم الطور))، فهذا صعق في موقف القيامة، إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم، قال تعالى: **{فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}** [سورة الطور:٤٥] ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى، وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: وظاهر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق،

---

٨ - الروح، لابن القيم (٣٥).

ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل، وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض، قال: فتستقل الأحاديث والآثار[٩].

يعني يقصد أنه **{فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ}** [سورة النمل:٨٧] أنه فصعق، يعني أنه من الفزع يصيبهم الصعق الذي هو غشية -شدة الفزع-، ومن يقول بأن هذا يكون صعقاً بعد القيام من القبور على هذا إذا حسبت عند بعض أهل العلم عدد مرات النفخ في الصور تكون أربعاً، الأولى: نفخة الفزع، إذا كانت في البداية، ثم نفخة الصعق التي يموت فيها الأحياء، ثم بعد ذلك تكون نفخة البعث والنشور، ثم تكون بعدها نفخة الصعق -الغشية-، والمشهور أن النفخ في الصور يكون مرتين، هذا هو المشهور، نفخ الصعق الذي يموت فيه الأحياء، ونفخة أخرى يقومون فيها، وهذه النصوص مثل قوله: **{فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ}**، وكذلك في الحديث الذي سمعتم قد يفهم منها أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق التي يموت فيها الناس، أو نفخة البعث والنشور، والله أعلم، فأهل السنة مختلفون في هذا، وهذه من المسائل العلمية التي وقع بينهم فيها الخلاف، يعني حينما يقال مثلاً: هل عند أهل السنة والجماعة وقع خلاف في الاعتقاد؟ هذا كلام مجمل، وإن كان في بعض الدقائق والتفاصيل في مسائل علمية مثل هل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه أو لم يرَ ربه؟ هذه مسألة علمية، هل النفخ في الصور يكون ثلاث مرات أو يكون مرتين؟، مثل هذه الأشياء لا يترتب عليها تبديع ولا تضليل، النصوص تحتمل ذلك، وهو خلاف سائغ، ولا تتوقف عليه النجاة، ولا يقال لمن أخطأ فيه: ضل وانحرف، بخلاف تحريف الكلم عن مواضعه لأصول وقواعد بدعية، تحاكم إليها النصوص، وترد النصوص الواضحات من أجل قواعد وأصول مبنية على باطل، فهذا الذي يودي بصاحبه إلى البدعة والضلالة، نسأل الله العافية.

وقال -رحمه الله-: "ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح: أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذا بقائمة العرش قال: وهذا إنما عند نفخة الفزع، قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال -إن شاء الله تعالى- أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى، مع أنه قد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أن الله -عز وجل- حرم على الأرض أجساد الأنبياء))[١٠]، وأنه -صلى الله عليه وسلم- اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى، وقد أخبر بأنه ما

---

٩ - الروح، لابن القيم (٣٥).

١٠ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، برقم (١٠٤٧)، والنسائي، كتاب الجمعة، إكثار الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة، برقم (١٣٧٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، برقم (١٠٨٥)، وقال الألباني: "إسناده صحيح على شرط مسلم" في صحيح أبي داود، برقم (٩٦٢)، وصححه في صحيح الجامع، برقم (٢٢١٢).

من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غُيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء"[١١].

يعني هي الحياة البرزخية، وإلا فبالنسبة للحياة الشرعية لا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ماتوا إلا عيسى -عليه الصلاة والسلام- فإنه لم يمت، ولذلك أجريت عليهم أحكام ذلك من التغسيل، والصلاة والدفن، وما إلى هذا، فكل ذلك إنما هو بسبب وفاتهم، وهذا أمر لا إشكال فيه ولا شك، ولما ذكر يوسف -صلى الله عليه وسلم- للفراعنة قال: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** [سورة غافر:٣٤]، وهذا لا إشكال فيه، لا يحتاج إلى استدلال، لكنها حياة برزخية، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أيضاً: ((أن نفس المؤمن تعلق بأشجار الجنة))[١٢]، فهذه كلها حياة برزخية الله أعلم بها، والعلماء مختلفون في الأرواح هل هي في الجنة بالنسبة لأرواح المؤمنين، وأرواح الكافرين في النار، أو أنها على أفنية القبور، أو غير ذلك؟، هذه أمور غيبية، والأرواح لها حال أو أحوال من الانتقال، ولربما تتصل بالأجساد وتنعم وتعذب في القبور، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عمن شاهدهم في النار، وكذلك أخبر عن الأنبياء حينما شاهدهم، ومن رآه منهم يصلي في قبره، وصلى بهم -عليه الصلاة والسلام- في بيت المقدس، فهم منازلهم في السماء وأجسادهم في الأرض، والأرواح يكون لها اتصال بالأجساد، فهذه أشياء غيبية لا تصل إليها عقولنا، إنما يوقف فيها عند ما ورد فقط، لا نتجاوز القرآن والحديث، والله أعلم.

يعني المقصود هنا هذه النفخة **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}**، من قال: إن هذه نفخة الصعق التي يموت فيها الأحياء في آخر الدنيا، والنفخة الثانية نفخة البعث، انتهى، إذاً الذين ماتوا من الشهداء والأنبياء وسائر من مات هم غير مرادين أصلاً، فالذين ماتوا لا يدخلون في هذا، لكن من قال: إن هذه نفخة فزع أو صعق بعد البعث والنشور بعد البعث، فإذاً إذا قيل: إنها صعقة موت مثلاً، فهل هؤلاء الشهداء الذين أخبر الله أنهم أحياء مثلاً، هل يشملهم ذلك أم لا؟، الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هل يشملهم هذا أو لا يشملهم؟ إذا قيل: إنها نفخة فزع فقط، ولكن هنا أثبت الصعق، فبعضهم يجمع بين الصعق والفزع، فيقول: يحصل الفزع فيحصل الصعق، فهي نفخة واحدة، يفزعون فيصعقون، فالذين يصعقون إذا كانت بعد البعث **{إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}** هنا قال من قال: إنهم الشهداء، لكن إذا قيل بأنها نفخة، هي صعقة موت، ولو بعد البعث والنشور، أو هي النفخة الثانية التي يموت فيها من كان حياً، وهنا قالوا: الولدان؛ لأنه قال: **{مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ}**، الولدان والحور إلى آخره، هذه لا تفنى؛ لأنها لم تخلق للفناء، الفناء لا يتناولها، هي خلقت للبقاء، هؤلاء ما ماتوا من قبل، يعني ليسوا من أهل الدنيا، ليسوا من نساء الدنيا، الحور العين غير النساء التي في الدنيا، هؤلاء خلقٌ

---

١١ - الروح، لابن القيم (٣٥-٣٦).

١٢ - رواه الإمام مالك في الموطأ "رواية أبي مصعب الزهري"، برقم (٩٩٢)، ولفظه: "إِنَّمَا نفس الْمُؤْمِنِ: طَائِرٌ تعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ...".

يخلقهم الله -عز وجل-، وليسوا من أهل الدنيا، فمثل هؤلاء لا يتناولهم ذلك في الاستثناءات ويكون هذا الاستثناء على قول من قال بكذا، وهذا على قول من قال بكذا، فنفرق بين هذه الأشياء.

وقال -رحمه الله-: "وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق"[١٣].

يعني الآن ما الذي حمله على هذا التفريق أن غير الأنبياء يموتون في هذه الصعقة، والأنبياء تكون بالنسبة لهم غشية؟ هي بعض الألفاظ، ((ولا أدري أفاق قبلي))، موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما تجلى ربه للجبل خر موسى صعقاً، فهذه الصعقة غشية ليست بموت، فلما أفاق، غشي عليه -عليه الصلاة والسلام-، فهذه التي تكون في الآخرة، ويقال: إن غير الأنبياء يموتون، والأنبياء إنما يحصل لهم غشية هذا باعتبار أنها بعد نفخة البعث والنشور، وهذا ليس محل اتفاق، فهذا التفريق بناء على هذه الألفاظ، وهل يجري هذا على جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؟، هنا الحديث ذكر موسى -عليه الصلاة والسلام- ((أفاق قبلي))، قبل أن أفيق، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى الأنبياء في مقاماتهم في السماء ونحو ذلك، باعتبار أنهم لا يحصل لهم موت وإنما هم أحياء حياة خاصة، فالعلم عند الله -تبارك وتعالى-، لكن هنا قول من أطلق أن هذه غشية وليست بصعقة موت، حتى من قال بأنها صعقة موت، قال الله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، يعني إذا كانت هذه بعد البعث والنشور فينفخ في الصور فيصعقون، فإذاً هناك نفخة بعدها لقيامهم، فصار النفخ في الصور كم إذا حسبنا مجموع ما قيل؟ حسبنا الأربع، لكن إذا قلنا: هذه نفخة موت أو نفخة صعق بعد البعث والنشور، {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، فصارت خمساً، نعيدها: مجموع ما ذكر إذا قيل: إن الفزع يكون قبل النفخ في الصور، قبل نفخة الصعق التي يموت فيها الأحياء، نفخة فزع، ثم نفخة الصعق، ثم الموت، ثم بعد ذلك نفخة البعث والنشور، ثم بعد ذلك ينفخ فيصعقون على كلام بعض أهل العلم، ثم بعد ذلك، {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، صارت خمساً إذا جمعنا مجموع ما قيل، لكن ما كل أهل العلم يقولون هذا، بعضهم يقول: ثلاث نفخات، فلو بقينا مع هذا النص بمفرده فإنه يدل على نفختين، النفخة الأولى التي يموت فيها الأحياء، والنفخة الثانية التي يبعثون فيها، ومن نظر إلى النصوص الأخرى نفخ الفزع، ذكر الله فيه الفزع، والأحاديث: ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور))، فهذا يكون بعد البعث والنشور، فهذا منشأ الخلاف، ومن ثَمّ تبقى هذه المسألة لها تعلق بالاجتهاد في الجمع بين النصوص.

قال -رحمه الله-: "فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق، ولذلك قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق على صحته: ((فأكون أول من يفيق)) فنبينا -صلى الله عليه وسلم- أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى، فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على

---

١٣ - الروح، لابن القيم (٣٦).

الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؛ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور، وهذه فضيلة عظيمة لموسى، ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً. انتهى.

قال أبو عبد الله القرطبي: إنْ حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذِكْر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى: إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنتُ أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بنفخة الصور، قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه -صلى الله عليه وسلم- تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق، وقد قال في الحديث: ((فأكون أول من يفيق))، وهذا يدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق، ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان -صلى الله عليه وسلم- قد جزم بموته، وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت، وحينئذٍ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى، نعم، تدل على أن موت الخلائق كلها عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم..))[١٤]، قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين فجاء هذا، والحديثان هكذا: أحدهما ((إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق))، والثاني هكذا: ((أنا أول من تنشق عليه الأرض يوم القيامة))، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر))[١٥]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله: ((فلا أدرى أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله -عز وجل))، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ}** [سورة الزمر:٦٨] ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة؟ قيل: هذا -والله أعلم- غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: ((فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور))، فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثني منها، وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حينئذ

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، برقم (٢٤١٢).

١٥ - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب: ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٤٨)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٤٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٤٦٨).

هي إفاقة البعث، فكيف يقول: ((لا أدرى أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور))؟ فتأمله، وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، فجُعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق"[16].

ظاهر الآية: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} [سورة الزمر:٦٨-٦٩]، هذا يوم القيامة، فلو أخذنا بظاهر هذا فقط أنه قد يفهم منه أن المراد الصعق الأول الذي يموت فيه الأحياء، فيصعقون، ثم النفخة الثانية التي يبعثون فيها فيأتي الله -عز وجل- يوم القيامة لفصل القضاء، ولكن النصوص الأخرى كما سبق هي التي جعلت المسألة تحتمل معنىً آخر -والله تعالى أعلم-، لكن كما سبق أن هذه ليست من المسائل التي تتوقف عليها النجاة ولا يترتب عليها نقص منزلة العبد عند الله -عز وجل-، فضلاً عن التبديع، أو أن تؤثر في عقيدته وإيمانه، هذا خلاف سائغ.

قال الإمام الحافظ ابن كثير: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} أي: **أحياء، بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى:** {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤]، **وقال -عز وجل-:** {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا} [سورة الإسراء:٥٢]، **وقال -جل وعلا-:** {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [سورة الروم:٢٥].

روى الإمام أحمد أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمراً عظيماً، ثم قال عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين -لا أدري أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة- فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه))، قال: سمعتها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكرا))، قال: ((فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارّةٌ أرزاقُهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له،

---

١٦ - الروح، لابن القيم (٣٦-٣٧).

وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله تعالى -أو ينزل الله -عز وجل- مطرا كأنه الطل- أو الظل شك نعمان- فتَنبتُ...)).

هذا الأكثر على الطل، بالطاء، الطل، وقد ورد ((كماء الرجال)) يعني في صفة هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد، وهنا في هذا الحديث ما ذكر نفخة الفزع، بناء على قول من قال: إنها تكون قبل نفخة الصعق التي يموت فيها الأحياء.

قال: ((أو ينزل الله -عز وجل- مطراً كأنه الطل -أو الظل شك نعمان- فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس، هلموا إلى ربكم...)).

هذه نفخة البعث، النفخة الثانية.

قال: ((هلموا إلى ربكم: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [سورة الصافات:٢٤])**)، قال: ((ثم يقال: أخرجوا بعث النار)) قال: ((فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذ تبعث الولدان شيباً، ويومئذ يكشف عن ساق))**[١٧]**، انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.**

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما بين النفختين أربعون))، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال -رضي الله عنه-: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه فيه يُركّب الخلق))[١٨].

هنا في هذه النصوص ((ما بين النفختين))، وحديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- فيه إثبات النفختين، فلا شك أن هذا من الأمور المقطوع بها، تضافرت عليها النصوص، نفخة الصعق التي يموت فيها من كان حياً، والنفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور، هل هناك نفخة وراء ذلك زائدة على هذا القدر؟، هذا الذي فيه الخلاف، يعني بالاتفاق بإجماع أهل العلم أن النفختين في الصور نفخة الصعق ونفخة البعث.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق -جل وعلا- للخلائق لفصل القضاء.

{وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} يعني: **أضاءت يوم القيامة**، فهذا النور غير مخلوق، والنور المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- منه ما هو من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، وهذا مثال له {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}، فهذا ليس بنور مخلوق، وهناك نور مخلوق يضاف إلى الله كما يقال: بيت الله، وناقة الله، وأرض الله، فهذه الأنوار التي في الشمس والقمر ونحو ذلك تضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي خلقها، ويبقى الكلام في قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة النور:٣٥]، هل المقصود بهذا أمر معنوي، أو أن المقصود النور الحقيقي الذي هو صفته؟، وقول من يقول: منور هذه الأنوار ومدبر هذه الأفلاك المنيرة،

---

١٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (٦٥٥٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير النعمان بن سالم، ويعقوب بن عاصم بن عروة، فمن رجال مسلم".

١٨ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، برقم (٤٨١٤).

الشمس والقمر والنجوم وما أشبه ذلك، يعني: مدبر النيرات، فيكون من قبيل إضافة المخلوق، وابن القيم وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي وأمثال هؤلاء من المحققين من أهل السنة يثبتون أن هذه الآية -أعني آية النور وقد مضى الكلام على هذا في التعليق على سورة النور- فيها إثبات اسم النور لله -عز وجل-، وإثبات صفة النور، وأنه النور الحق الذي هو صفته، ويدخل في ضمن الآية النور المعنوي الذي هو الهداية، وما يضاف إلى الله من الأنوار المخلوقة باعتبار أنه خلقها.

وبعضهم اقتصر على المعنى قال: نور بمعنى الهداية، {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وشيخ الإسلام ناقش هذا وما نقل فيه عن ابن عباس، وقال: عمدة هؤلاء ما نقل عن ابن عباس، وتكلم هل يصح عنه أو لا، حيث إنه يحتاج إلى إثبات، وأن كثيراً مما نقل عن ابن عباس -رضي الله عنه- لا يثبت، مع أنه هو من رواية علي بن أبي طلحة، وهذه الرواية لا بأس بها، وإن كان بعض أهل العلم يضعفها، فالشاهد أن شيخ الإسلام يقول: ولو كان كذلك فإن هذا مما يدخل في المعنى، يعني الهداية، النور المعنوي.

فهنا في هذه الآية {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} هذا لا تردد فيه أنه نوره الذي هو صفته، إنما الخلاف وقع في آية النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} هل المقصود الهادي أو المقصود النور الذي هو صفته، أو المقصود أن ذلك من قبيل إضافة المخلوق إلى خالقه، أنه مدبر النيرات وخالقها، وخالق هذه الأنوار التي نشاهدها؟، وابن القيم وابن تيمية، ومن نهج منهج هؤلاء يجمعون بين هذه المعاني كما سبق.

{وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} **أضاءت يوم القيامة إذا تجلى لفصل القضاء**، تجلى للخلائق، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم وكبير المفسرين قبله ابن جرير، على هذا المعنى الذي قرره ابن كثير، وتجدون في كتب التفسير أشياء من التأويلات والتحريفات للكلم عن مواضعه عند الكلام على هذه الآية.

قال: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} قال قتادة: كتاب الأعمال.

وبهذا قال جماعة كمقاتل، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ}، ويدل عليه {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً} [سورة الكهف:٤٩]، كتاب الأعمال.

قال: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم.

كما قال الله -عز وجل-: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء:٤١]، وقوله: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} [سورة النحل:٨٤].

قال: {وَالشُّهَدَاءِ} أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر.

هنا يقول: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد، هذا الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: الشهداء يعني هم هذه الأمة، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [سورة البقرة:١٤٣]، فهم يشهدون على الأمم أن الأنبياء بلغوهم رسالات الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: {الشُّهَدَاءِ} هم الشهداء في أرض المعركة، يشهدون لمن ذب عن دين الله -تبارك وتعالى-، يؤتى بالأنبياء، والشهداء، من استشهد في أرض المعركة، وهذا فيه بُعد -والله تعالى أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إن

المقصود بالشهداء هم الأنبياء، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء}، هذا قال به الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، لكن الله -عز وجل- هنا قال: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء}، فالأصل أن العطف يقتضي المغايرة، ولا شك أن الأنبياء شهداء يشهدون على أقوامهم، ولكن ظاهر الآية أن الشهداء هنا غير الأنبياء.

فالشنقيطي -رحمه الله- يحتج بقوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم}، وهذا يحتمل، لكن ظاهر الآية -والله أعلم- أن الشهداء غير الأنبياء هنا، فيدخل فيه كل الشهداء الذين يشهدون، والله تعالى أعلم.

وقيل: إن الشهداء هم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وممن قال به ابن جرير الطبري -رحمه الله-، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} يعني: هذه الأمة، أخذاً من آية البقرة، لا شك أن الأنبياء يشهدون، هنا صرح بذلك {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ}، وهذه الأمة تشهد، والحفظة يشهدون، فالله -تبارك وتعالى- قال: {وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [سورة ق:١١].

قال: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي: **بالعدل** {وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}.

{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} قضي بين مَن؟ بعضهم يقول: قضي بين الأنبياء، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم}، بعضهم يقول: قضي بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأممهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ما موقف هذه الأمم من أنبيائهم الذين كذبوهم،، فيقضي الله -عز وجل- بينهم بالحق، قضاؤه بالحق، لا يحصل ظلم لأحد، ولا يحمل أحد وزر أحد، وكل نفس بما كسبت رهينة، لا يعاقبهم إلا بما جنوا.

قال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٧]، **وقال -جل وعلا-:** {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٤٠]؛ **ولهذا قال: -عز وجل-:** {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} أي: **من خير أو شر** {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}.

{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [سورة الزمر:٧١-٧٢].

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، كما قال -عز وجل-: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [سورة الطور:١٣] أي: **يدفعون إليها دفعاً، هذا وهم عطاش ظماء، كما قال -جل وعلا- في الآية الأخرى:** {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [سورة مريم:٨٥-٨٦]. **وهم في تلك الحال صمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه،** {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [سورة الإسراء:٩٧].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}، زمراً يعني: جماعات، وهذه الجماعات متفرقة يتلو بعضها بعضاً، يؤتى بهم مجموعات، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] يعني: ونظراءهم، فيؤتى بهؤلاء المتشاكلين ويساقون إلى جهنم هذا السوق العنيف، ويزجرون وهم في حال من

البؤس والذل والمهانة، مع شدة العطش، فيدفعون في النار دفعاً، وفي أعناقهم الأغلال، وفي أيديهم وأرجلهم، -نسأل الله العافية-، وفي السلاسل يسحبون ويسجرون في النار، والزمر يعني الجماعات، وبعضهم يقول: إن أصله مأخوذ من الزمر وهو الصوت، باعتبار أن الجماعة لا تخلو من صوت، {زُمَرًا}، أن أصله هكذا، لكن المقصود أنهم يؤتى بهم بصورة جماعات أو على هيئة جماعات، أو يأتون جماعات، كما قال الله -عز وجل-: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ} [سورة الملك:٨] يعني هم لا يلقون الكفار دفعة واحدة من أولهم إلى آخرهم، وإنما يكونون على مجموعات وأفواج، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأعراف: {ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ} [سورة الأعراف:٣٨]، فهنا ذكر الأمم، وفي آية الملك ذكر الفوج، وأيضاً هنا ذكر الفوج {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} [سورة ص:٥٩]، ، فهم يدخلون أفواجاً، مجموعات، يساقون إليها مجموعة مجموعة، فيدفعون دفعاً في النار.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً؛ لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية -الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القُوى- على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: {بَلَى} أي: قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق إلينا من الشِّقْوة التي كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال -عز وجل- مخبراً عنهم في الآية الأخرى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٨-١٠] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة {فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصْحَابِ السَّعِيرِ} أي: بُعداً لهم وخساراً.

هنا قول الله -تبارك وتعالى-: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} هذا قول ابن كثير -رحمه الله- أي: **ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق إلينا من الشقوة التي كنا نستحقها**، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: حقت عليهم كلمةُ حجته وكلمةُ عدله بعقوبته، كلمة حجته وكلمة عقوبته، وقد مضى الكلام على هذا المعنى في مناسبات سابقة.

وهنا قال الله تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ يعني هذا من اللطائف التي تذكر في هذا المقام، وإن كان ذلك ليس من التفسير الذي هو كشف المعنى.

ذكر بعضهم أن هذه الواو واو الثمانية، باعتبار أن أبواب الجنة ثمانية، ولكنه مستبعد جداً، هنا لا ذكر للأبواب الثمانية في هذه الآية، فهذا بعيد وإن ذكره بعض أهل العلم.

لكن ذكر بعضهم معنى لطيفاً في هذا -في الجنة- قال: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، قالوا: أبواب الجنة تفتح لهم، وكما قال الله -عز وجل-: {مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ} [سورة ص:٥٠]، ليس عليهم قيود، يخرجون ويتنقلون في الجنة حيث شاءوا، أما النار فهي موصدة عليهم، {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} [سورة الهمزة:٨]، فهي مغلقة، محكمة الإغلاق، فإذا وصلوا إليها تفتح الأبواب فيدخلون ثم تغلق أبوابها ثانيةً.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "وسر حذف الواو في قوله: {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} أنه فاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله فيها، فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه مُتوقِع منه شراً عظيماً، ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه"[١٩].

أهل العلم في هذه اللطائف يذكرون أشياء هي استنباطات واجتهادات وإن لم تكن هي من صلب التفسير.

وقال -رحمه الله-: "وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه، بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه، وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحاً، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، وحذف الجواب تفخيماً لأمره وتعظيما لشأنه على عادتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد، وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحداً بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمله، فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق -صلى الله عليه وسلم- يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقاً حتى يستفتحه، قلنا: هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذي استفتحها لهم، ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحاً"[٢٠].

يعني أنها تذكر بعد العدد ثمانية، هكذا قالوا أيضاً في آية الكهف، {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ} [سورة الكهف:٢٢] من غير واو، {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}، فجاءت الواو، فبعضهم يقول: هذه واو الثمانية، فتدخل بعد هذا العدد، لكن في الآية لم يذكر الثمانية، وإنما أحال هذا القائلُ إلى معلومة أن أبواب الجنة ثمانية، ولكن واو الثمانية لا تأتي إلا مع اللفظ، يقال: الأول الثاني الثالث الرابع الخامس السادس السابع والثامن.

وقوله -تبارك وتعالى- هاهنا: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون

---

١٩ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٢/٤٠١).

٢٠ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٢/٤٠١-٤٠٢).

شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حَكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال -جل وعلا-: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزمر من الآية (٧٣) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -يرحمه الله- في قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [سورة الزمر:٧٣-٧٤].

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة {زُمَرًا} أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً.

{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا} أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتُص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصُّور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً -صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم-، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله -عز وجل-، أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد -صلى الله عليه وسلم- على سائر البشر في المواطن كلها.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أول شفيع في الجنة))[1]، وفي لفظ لمسلم: ((وأنا أول من يقرع باب الجنة))[2].

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك))[3]، رواه مسلم.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا"، برقم (١٩٦).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا"، برقم (١٩٦).

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا"، برقم (١٩٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٣٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأَلُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً))[4]، ورواه البخاري ومسلم.

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الأَلُوَّة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء))[5]، وأخرجاه أيضا من حديث جرير.

وعن أبي هريرة، -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يدخل الجنة من أمتي زُمْرَة، هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر))، فقام عُكاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم: فقال: ((اللهم اجعله منهم))، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((سبقك بها عُكاشة))[6]، أخرجاه، وقد روى هذا الحديث -في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب- البخاري ومسلم، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة الجهني، وأم قيس بنت محصن -رضي الله عنهم.

ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو: سبعمائة ألف آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر))[7].

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره:

---

٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٧٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، برقم (٢٨٣٤)، وأحمد في المسند، برقم (٨١٩٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، برقم (٣٣٢٧)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، برقم (٢٨٣٤).

٦ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، برقم (٥٣٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٣٦٧).

٧ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، برقم (٦١٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢١٩).

إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفرحوا، بقدر ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.

ومن زعم أن "الواو" في قوله: {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النّجْعَة وأغرق في النزع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان))، فقال أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي من أيها دعي، فهل يُدعَى منها كلِّها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: ((نعم، وأرجو أن تكون منهم))[^٨].

ورواه البخاري ومسلم بنحوه، وفيهما عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون))[^٩].

وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلِغ -أو فيسبغ- الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء))[^١٠].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} الأحاديث التي أوردها المؤلف -رحمه الله-: قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ومجامرهم الألُوَّة)) يعني: العود الهندي.

وقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} يقول: لم يذكر الجواب هنا {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}، أين الجواب؟ {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا} على كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن الجواب مقدر محذوف، وهو يقول هنا: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، تلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا، يعني هذا الجواب، {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا، فهذا باعتبار أنه مقدر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وإن اختلفت عباراتهم في المقدر،

[^٨]: رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٤٤)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (٢٤٣٩)، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (٧٦٣٣).

[^٩]: رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة، برقم (٣٠٨٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، برقم (١١٥٢).

[^١٠]: رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، برقم (٢٣٤).

بعضهم يقول: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دخلوها، ولا إشكال في ذلك ولا منافاة؛ لأن دخولهم يعني أنهم يسعدون فلا يشقون أبداً، أما على قول طائفة من النحاة وهم الكوفيون، وبه قال الأخفش، فإنهم يقولون: إن الواو زائدة، وليس في الآية حذف، فتكون هكذا: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا} {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، هذا الجواب، باعتبار أن الواو زائدة، وهم حينما يقولون: إن الواو زائدة يقصدون بذلك أنها زائدة إعراباً، وإلا فهم يقرون بأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، هم لا ينكرون هذا، ومن ثَمّ فإنه لا يوجد في القرآن حشو، ولكن كل حرف فيه وكلمة فإنها تكون لمعنى، والأصل خلاف ذلك، وأما مسألة التعبير بالزيادة فقد أنكره طائفة من أهل العلم تأدباً؛ ولهذا يعبرون أحياناً عن الزيادة يقولون: صلة، ونحو ذلك، ويقول في المراقي:

تواتر السبع عليه أجمعوا *** ولم يكن في الوحي حشو يقع.

ما في حشو، فإطلاق الزيادة غير مناسب، لكن إذا فهم مرادهم أنهم يقصدون إعراباً فالأمر في ذلك يكون أسهل، لكن يحسن تأدباً أن لا يذكر هذا اللفظ.

على قول الكوفيين أنه ليس هناك مقدر محذوف، وهذا يؤيده أن الأصل عدم التقدير، وأولائك يؤيد قولهم -إن الأصل عدم الزيادة- أن الأصل عدم التقدير.

فقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، فتحت أبوابها، القراءة الأخرى المتواترة لأبي عمرو وابن عامر وابن كثير {وفتِّحت أبوابها}، وكما سبق أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، وأن ذلك -"فتّحت"- إما باعتبار الكثرة، كثرة الأبواب أو الفتح، كما قال الله -عز وجل-: {وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ} [سورة يوسف:٢٣]، مبالغة في الإغلاق أو لكثرة الأبواب، {وفتِّحت أبوابها}.

قال الإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}: "وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً، فلا تهمل تدبر قوله: {زُمَرًا} وقال خزنة أهل الجنة لأهلها: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} فبدءوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قال لهم: {طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} أي: سلامتكم ودخولها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها، وزيدوا على ما هم فيه من توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} فاعترفوا وقالوا: بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها، وإنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: {فَادْخُلُوهَا} وقول خزنة النار لأهلها: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل، وهو: أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً، وأعظمه غماً، يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والحزن والكرب

بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها؛ صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار، وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها"[١١].

مضى في المجلس الماضي الفرق في الموضعين، وقول من قال: لما كانت أبواب النار موصدة على أهلها، فهم حينما يأتون إليها تفتح أبوابها فيفجؤهم عذابها، ويساقون إليها، وأما الجنة فإنهم حينما يأتون تكون أبواب الجنة مفتحة، كما قال الله -عز وجل-: {مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ} [سورة ص:٥٠]، يدخلون ويخرجون في نواحي الجنة، فيتقلبون حيث شاءوا.

قال ابن كثير -رحمه الله-: ذِكْر سعة أبواب الجنة -نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها-:

في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في حديث الشفاعة الطويل: ((فيقول الله يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة -ما بين عضادتي الباب- لكما بين مكة وهجر، أو هجر ومكة))[١٢]، وفي رواية: ((مكة وبُصرى))[١٣].

وفي صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ((ولقد ذُكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام))[١٤].

ابن القيم -رحمه الله- نظر إليها من جهتين، أو ذكر في الجواب عنه أمرين، الأول قال: يحتمل أن يكون الباب الذي يكون مسيرة أربعين سنة أنه الباب الأعظم، الباب الأيمن، وباقي الأبواب تكون متفاوتة، فتكون كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا: ((ما بين مكة وهجر)) و((ما بين مكة وبُصرى))، وفي رواية أخرى ذكر حمير وهي اليمن صنعاء، فهذه المسافات متفاوتة وإن كان بينها شيء من التقارب غير حديث عتبة بن غزوان، غير الأربعين، يعني ما بين مكة وهجر يقرب من ألف ومائتي كيلو، وما بين مكة وصنعاء أيضاً قريب من هذا، وما بين مكة وبصرى أيضاً قريب من هذا، يعني في أطراف بلاد الشام، حوران، فهذه الحافظ ابن القيم يقول: لعله الباب الأيمن هو الذي يكون مسيرة أربعين، وذكر الاحتمال الثاني قال: أن يكون حديث عتبة بن غزوان موقوفاً، فيرجح المرفوع، المرفوع: هذه الأحاديث: ((ما بين مكة وبصرى)) إلى آخره، والواقع أن حديث عتبة بن غزوان -رضي الله عنه- جاء مصرحاً برفعه عن جماعة من الصحابة، كعبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه-، وغيره أنه بالتصريح بالرفع إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، فيمكن أن يكون هذا الباب هو الباب الأعظم من أبواب الجنة، مسيرة أربعين سنة، ومثل هذا عادة يحسب

---

١١ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم (٣٩).

١٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤)، واللفظ لمسلم.

١٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

١٤ - رواه مسلم في أول كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٧).

بسير الإبل القاصد، يعني الأشياء التي ذُكرت في النصوص، مسيرة كذا، مسيرة ثلاثة أيام، مسيرة يوم وليلة، ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[١٥]، فهم يفهمون مسيرة شهر، يعني إلى أي مدى، إلى أي حد يكون ذلك، فإذا حسب بهذا التقدير للتقريب فقط، للتقريب والتفكر والاعتبار، فإن هذا يحتاج في رحلة بالطائرة تسير ثمانمائة كيلو بلا توقف، حوالي تسعة وعشرين يوما ونصف حتى تقطع هذه المسافة، مسيرة أربعين عاماً، يعني أكثر من قطع الكرة الأرضية بكاملها، هذا الباب فكيف بالجنة!

لاحظ هنا: ((وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام))، جاء في بعض الروايات يعني تصوير ذلك الزحام في شدته بزحام الإبل ((وردتْ لخمسٍ ظمأ))[١٦] يعني: خمسة أيام ما شربت، ووردت على الماء، لا شك أن هذا يكون في غاية الزحام والتدافع، وهو في هذه السعة.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات: ((إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة))[١٧]، وفي رواية: ((مؤمنة))[١٨].

قوله: {طِبْتُمْ} قال: **طابت أعمالكم وأقوالكم**، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يراد به ما يحصل لهم من التطهير والتنقية عند القنطرة قبل دخول الجنة، فيطيبون، فإن الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، فيذهب ما في نفوسهم من الغل والحقد والحسد والتباغض والشحناء وما أشبه ذلك، فتكون نفوسهم طاهرة سليمة، وقلوبهم نقية، فالآية تحتمل هذا وهذا؛ لأنهم إذا دخلوها فلا شك أن أعمالهم طيبة، ونفوسهم زاكية من جهة ما كانوا عليه في الدنيا من العمل الصالح والإيمان، ومن جهة ما يحصل لهم من التنقية والتطهير قبل دخول الجنة، فهذا كله مما توصف به نفوس الداخلين فيها.

قال: وقوله: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} أي: ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً.

هذه المعاني لو يتأملها الإنسان، وإن كان في هذا المجلس نحن في الأصل لا نعرض لهذا، لكن هي تحتها هدايات ومعانٍ عظيمة، يعني حينما يحصل لهم مثل هذا التطهير فإن الإنسان يتنغص ويتكدر عيشه إذا كان في قلبه شيء من البغضاء والغل، فهو عذاب ينغص عليه النعيم، ويكدر عليه الحياة، إذا كان يبغض أحداً، ويذهب أثر هذه اللذات وما يجده الإنسان من النعيم بسبب ما يقع في هذا القلب من الشحناء، فيُطهّرون، ليس

---

١٥ - رواه البخاري في أول كتاب التيمم، برقم (٣٢٨)، ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١).

١٦ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٥٣)، قال الشيخ الألباني تحت حديث رقم (١٦٩٨): "الإسناد صحيح لأن كل رجاله ثقات".

١٧ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، برقم (٦١٦٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، برقم (٢٢١).

١٨ - رواه النسائي، كتاب مناسك الحج، باب قوله -عز وجل-: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}، برقم (٢٩٥٨)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٢)، وأحمد في المسند، برقم (٥٩٤)، وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك، برقم (٤٣٧٦)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

فيها تباغض أصلاً، ثم هذا الخلود في الجنة هو من أعظم النعيم، فحينما يقال لهم: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} هذا نعيم آخر؛ لأن الإنسان تتنغص لذّاته إذا تذكر أنه يفارقها، ولهذا قال الشاعر:

هو الموتُ ليس كالموتِ شيءٌ *** نغّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

فإذا كان الإنسان في غاية النعيم، وعنده ما يحتاج إليه من الأموال والخدم، ونحو ذلك، ثم إذا تذكر أنه سيفارق هذا تكدر عليه وتنغص، وقل مثل ذلك أيضاً فما يحصل بسبب الافتراق بعد الاجتماع؛ ولهذا كان بعض الشعراء يذكر أنه يحب أيام الفراق؛ لأنه يؤمل بعدها الوصال، ويكره أيام الوصال؛ لأنه يعقبها الفراق، ولذلك تجد من الناس من قد لا يحب زيارة بعض أهله في ناحية أو بلد آخر والسبب في هذا أنه يتذكر اللحظة التي يفارقهم فيها، وما يحصل له من حسرة وألم، ويحصل لهؤلاء أيضاً، فيترك تعاهدهم بالزيارة لهذا السبب، يعني بعض الناس عندهم هذا الجانب، ولربما بعض الرقة، فيصرح بهذا أنه ما يترك الزيارة إلا لتلك اللحظة التي فعلا كل حال الجنة ليس فيها شيء من هذا، فهو نعيم غير مكدر بأي شيء من المكدرات، فلو نظرت إلى جميع المكدرات وجدت أنها منفية في القرآن.

قال: وقوله: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [سورة آل عمران: ١٩٤]، **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}** [سورة الأعراف:٤٣]، **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}** [سورة فاطر:٣٤-٣٥].

ليس بعد هذا شيء، وصف لهم كل شيء حتى قِيلهم حينما يدخلون الجنة، ماذا يقولون، ليس بعد هذا شيء، ذكر دعاءهم أولاً، ثم ذكر قولهم حينما يدخلون الجنة، فإذا كان المؤمن يوقن بهذا ويصدقه حقاً فينبغي عليه أن يعمل من أجل تحصيل هذا النعيم المقيم، من أجل أن يكون من هؤلاء القائلين: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ}، وإذا أردت أن تدرك معنى لربما يحمل على مجاهدة النفس والصبر على طاعة الله -عز وجل-، فانظر إلى ما مضى من الأيام وما حصلت فيها من الآلام أو اللذات فكل ذلك قد مضى لا تشعر بشيء منه في ساعتك هذه، الطاعات والعبادات والقربات ونحو ذلك، لا يوجد من هذا شيء، فالذين جاهدوا أنفسهم وعبدوا الله كثيراً هم لا يجدون في هذه الساعة من تعب تلك الأيام الخالية شيئاً، ومضت تلك السنون كأنها ليلة، أو أقل من ذلك، وهكذا بقية العمر، هذه مختصرة تلخص لك حقيقة هذا الأمر، ويحتاج إلى شيء من الصبر والمجاهدة، ثم يمضي ذلك وينقشع دون أن يشعر به الإنسان، فتكون الحياة بكاملها كأنها ليلة بل كأنها ساعة، ولذلك فإن الناس حينما يقومون من قبورهم يقولون ما قد أخبر الله -تبارك وتعالى- عنه، بعضهم يقول: {إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طه:١٠٤]، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [سورة الروم:٥٥]، وهذه حقيقة في الدنيا، الإنسان يعتبر ما مضى من أيامه وإن طالت كأنها ساعة، كأنها أحلام، فما سيأتي حينما يطوى ويكون وراء ظهرك هو سيكون بهذه المثابة.

قال: وقولهم: {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة.

فهذه الآية كقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [سورة الأنبياء:١٠٥]؛ ولهذا قالوا: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}، الأرض هنا هل هي أرض الدنيا أو أنها أرض الجنة؟، بعضهم قال: هي أرض الدنيا، وقالوا: إن "ال" هذه عهدية، {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ} المعهودة، وإنها إذا أطلقت –الأرض- فإن المقصود بها الأرض المعروفة، {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} قالوا: يعني أن الله -تبارك وتعالى- قد أوجدنا في الأرض ويسر لنا الأسباب للأعمال الصالحة التي أورثتنا هذا النعيم المقيم في الجنة، هذا قول لبعض أهل العلم، والقول الآخر وهو قول الجماهير من السلف والخلف: إن المقصود بالأرض هي أرض الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ} يعني: كأنهم أُورثوها من قوم قبلهم، {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ} يعني عبر بهذا يعني أنهم ملكوها كأنها صارت إليهم من غيرهم، فتصرفوا فيها، {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ}، كما يرث الإنسان المال، فصارت الجنة إليهم فملكوها، تصرفوا فيها، تنعموا، ذاقوا اللذات وعافسوها.

وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك باعتبار أن كل واحد من أهل الجنة له مقعد في الجنة ومقعد في النار، فالتوارث حاصل فيها، فأهل الجنة يرثون مقاعد أهل النار في الجنة، كما أن أهل النار يرثون مقاعد أهل الجنة في النار، وهذا مضى الكلام عليه، وأنه من صور التغابن {ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [سورة التغابن:٩]، فمن هذا التغابن هذا التوارث، هذا الذي في الجنة يرث مقعد هذا الذي في النار، وذاك الذي في النار يرث مقعد ذاك الذي في الجنة، أي مقعده في النار، فيكون إضافة إلى مقاعدهم في الجنة ومنازلهم يرثون منازل شاغرة كانت لأهل النار، وهذا يدل على سعة الجنة جداً، أنها في غاية السعة، بمعنى أن كل واحد من الخلق له منزل في الجنة حتى أهل النار، فتبقى هذه فارغة فتصير إلى أهل الجنة، كما أن النار واسعة جداً، فكل الخلق لهم منازل فيها -أعاذنا الله وإياكم منها- كل الخلق لهم منازل في النار، فيكون التوارث بعد ذلك، فأهل النار يتوارثون المنازل الشاغرة في النار، التي كانت لأهل الجنة، فهذا قال به كثيرون، بل نسبه بعض أهل العلم للأكثر من العلماء، أن المقصود بـــ {وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ} هذا المعنى، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

والقول الذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود بالأرض أرض الجنة، لكن اختلفوا في معنى هذا التوارث أو الإرث ما المراد به؟ فالأولون يقولون: إن تمكينهم فيها وإفضاءهم إلى الجنة كأنها صارت إليهم من غيرهم، فحلوا بها ونزلوها، فقالوا: الحمد لله الذي أورثنا الأرض، والطائفة الأخرى باعتبار التوارث في المنازل.

قال: ولهذا قالوا: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفي الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- في قصة المعراج قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أُدخلتُ الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك))[١٩].

جنابذ تقال للقباب والأبنية المرتفعة.

---

١٩ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، برقم (٣٤٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٣).

{وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الزمر:٧٥].

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزّل كُلًّا في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال -عز وجل-: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: بين الخلائق {بِالْحَقِّ}.

وبعضهم يقول: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} يعني: بين النبيين والشهداء وأممهم، فإنه يؤتى بالأنبياء والشهداء كما أخبر الله -عز وجل-، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ}، فيقضي الله -عز وجل- بين هؤلاء وأممهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو لا ينافي ما ذكره ابن كثير: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: **بين الخلائق**، وبعضهم يقول هنا: قال الله: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ}، الكلام في الملائكة، قال: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، يعني قالوا: بين الملائكة بإنزالهم منازلهم، لكن هذا فيه بعد -والله أعلم-، وإنما هذه الآية يخبر الله -عز وجل- فيها ويصور ما يجري في ذلك المقام والموقف العظيم، فيكون هؤلاء يصيرون إلى الجنة بهذه الصفة، يدخلون مجموعات وزمراً، وأهل النار يساقون سوقاً إلى النار بجموع وزمر، ثم بعد ذلك ماذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها، ويذكر الله -عز وجل- في ذلك اليوم عظمته وجلاله وتسبيح هؤلاء الملائكة العظام الذين يحتفون بالعرش، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} [سورة غافر:٧]، فهؤلاء كما قال بعض أهل العلم: هم الكروبيون، قاله جماعة من السلف، يعني: بمعنى الملائكة الذين يحملون العرش ومن حولهم أشراف الملائكة وسادة الملائكة، على قول الكثيرين، فهؤلاء هم الذين يسبحون، كل الملائكة تسبح، لكن يقولون: هؤلاء مهمتهم التسبيح حول العرش، {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ثم قال: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ} [سورة الأنعام:١] واختتم بالحمد في قوله: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

يقول الإمام الحافظ ابن القيم في قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ}: "فحذف فاعل القول لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار، قال الحسن أو غيره: قد دخلوا النار وإنّ حمْده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً، وهذا -والله أعلم- هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}، وقوله: {وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [سورة التحريم:١٠]، كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب"[٢٠].

---

٢٠ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم (٦٥).

القائل في قوله: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} على كلام ابن القيم يقول: كأن الكون ينطق بذلك، الجميع ينطق بذلك لما كانوا في هذا المقام من العدل الكامل، حيث تشهد على الإنسان جوارحه وينطق لسانه ويقر بما كان ينكر، ويجادل عن نفسه، ويكون في ذلك تمام العدل، فعندها ينطق الجميع: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}، والسر في حذف الفاعل -فلم يقل: وقال الله، وقالت الملائكة ادخلوا، وقالت خزنة جهنم: ادخلوا- على كلام ابن القيم: حينما تظهر دلائل العدل هذه وبراهين العدل، وأجلى صور العدل، فيكون على الإنسان شاهد من نفسه ونحو ذلك، عندها الكل يقول: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} ولم يبق لكم عذر تعتذرون به، وهنا {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الكل يحمد الله -تبارك وتعالى- على ذلك حتى أهل النار.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة غافر من الآية (١) إلى الآية (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سوُرة المؤمن وهي مكية، قال ابن عباس –رضي الله عنهما-: "إنّ لكل شيء لُبابًا ولُباب القرآن آل حم"[1].

هذه السورة سورة المؤمن يقول: مكية، كل الحواميم نزلت بمكة، وإن اختلفوا في بعض الآيات، وهذه السورة تُذكر لها أسماء متعددة مثل: سورة المؤمن، وكذلك أيضًا سورة الطَّوْل، **{ذِي الطَّوْلِ}** [سورة غافر:٣]، ويقال لها غير ذلك أيضًا، لكن قال: حم الأولى يعني هي أول الحواميم في ترتيب المصحف.

قال: ولُباب القرآن آل حم، أو قال: الحواميم.

لكل شيء لباب، لباب الشيء هو خالصه، لكن هذا في إسناده ابن لهيعة، وفيه كلام معروف.

قال: وقال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهن: العرائس، وروى ذلك كلَّه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام –رحمة الله تعالى عليه- في كتاب "فضائل القرآن".

هذا الكتاب مطبوع، وهو من أجلّ كتب فضائل القرآن وأحسنها، وأنفعها، كتاب مسند لهذا الإمام المتقدم أبو عبيد، توفى سنة ٢٢٤ للهجرة، وهذا الكتاب فيه أكثر من تسعمائة حديث وأثر مسند، رتبه على أبواب، ويذكر فيه مسائل وأشياء ويرجح، وهو من أجل الكتب في فضائل القرآن، وطبع عدة طبعات منها ما اعتُني فيه بالنص مثل الطبعة المغربية في مجلدين، وهناك طبعات يمكن أن يستفاد منها من جهة الحكم على الروايات والتخريج، فلو جمع هذا وهذا؛ لأن الطبعة المغربية قد لا يجد فيها القارئ بغيته من الكلام على الروايات فيجده في طبعة أخرى، فهذا كتاب جليل القدر.

قال: وروى حميد بن زنجويه عن عبدالله –رضي الله عنه- قال: "إن مثَل القرآن كمثَل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلًا فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دَمِثات، فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب، فقيل له: إن مثَل الغيث الأول مثَل عِظَم القرآن، وإن مثَل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن"، أورده البغوي.

إذا أطلق عبد الله فالمراد به ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه-، ودَمِثات يعني لينات، دمث الخلق يعني لين الخلق.

قوله: "إن مثل الغيث الأول" يعني سور القرآن، وآيات عامة القرآن، وعِظم القرآن: معظم آيات وسور القرآن.

---

١ – لم أجده بهذا اللفظ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ: "لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَلُبَابُ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَتَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ لَلْجَوْفُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ كِتَابُ اللَّهِ شَيْءٌ"، برقم (٨٦٤٤)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥/٢)، في الكلام على حديث رقم (٥٨٨).

وهذا الأثر ثابت عن ابن مسعود –رضي الله عنه–، لكنه موقوف.

وقال ابن مسعود –رضي الله عنه–: "إذا وقعتُ في آل حم فقد وقعت في روضات أتأنق فيهن".

بسم الله الرحمن الرحيم

{حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [سورة غافر:١-٣].

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عمن سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((إنْ بُيِّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون))[٢]، وهذا إسناده صحيح.

يعني إن بيَّتكم العدو –جاء بألفاظ مقاربة– فقولوا: حم، لا ينصرون، يعني يكون هذا شعارًا لهم في المعركة، ففي بدر كان لهم شعار، وأُحد كان لهم شعار، حم لا ينصرون، وكان هذا فيما بعد أيضًا في الوقائع التي حصلت بين الصحابة –رضي الله عنهم– صفين، والجمل، محمد بن طلحة السجّاد –رحمه الله– لما قتله الرجل الذي قال فيه:

يناشدني حاميمَ والرمحُ شاجرٌ*** فَهلّا تلا حاميمَ قبل التقدُّمِ

لكن ما كان يقول: حم لا ينصرون، كان يقول: ناشدتك أذكِّرك حم كلما قابل أحداً، كان هو الذي يحمل راية أهل الشام، خرج برًا بأبيه، محمد بن طلحة السجاد، كما خرج عبد الله بن عمرو بن العاص وهو من عباد الصحابة، وعلمائهم برًا بأبيه مع أهل الشام.

يقول: إن حم اسم من أسماء الله، هذا قيل في الحروف المقطعة في أوائل السور، ذكر فيها كما سبق نحو أربعين قولًا، منها أنها أسماء، وسبق أن هذا غير صحيح، وأن الحروف المقطعة حروف تهجٍّ ليس لها معنى في نفسها، ولكنها تشير إلى الإعجاز، وهكذا قيل في "طه" وفي "يس"، وفي "الم" فمثل هذا حذفه هو الأولى في المختصر، وحينما قال:

يناشدني حاميمَ والرمحُ شاجرٌ ***

لا يقصد يناشدني الله، إنما كان يقول: اذكر حم، يعني السورة، وتكلم العلماء ماذا يقصد فيها.

قال: وَقَوْلُهُ: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أَيْ: تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ –وَهُوَ الْقُرْآنُ– مِنَ اللَّهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ، فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرُّ وَإِنْ تَكَاثَفَ حِجَابُهُ.

وَقَوْلُهُ: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} أَيْ: يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وخضَعَ لَدَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: {شَدِيدُ الْعِقَابِ} أَيْ: لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَعَتَا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ، وَبَغَى، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [سورة الحجر:٤٩-٥٠] يَقْرِنُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِيَبْقَى الْعَبْدُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

---

٢ – رواه الترمذي، كتاب الجهاد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في الشعار، برقم (١٦٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٠٩٧).

هذا يستدل به من يقول: إن الإنسان في الحياة ينبغي أن يكون حاله على اعتدال واستواء فيما يتصل بالخوف والرجاء، فلا يغلب أحدهما على الآخر، فمن يقولون: ينبغي الاستواء يحتجون بمثل هذه النصوص.

فقوله -تبارك وتعالى-: **{تَنزِيلُ الْكِتَابِ}** تنزيل مصدر، **{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ}** وقد مضى الكلام على هذا المعنى وأنه لم يَرِد النزول أو الإخبار عن إنزال شيء أنه من الله إلا القرآن، وأما الباقي فإما أن يرد مطلقًا، وإما أن يرد مقيدًا بغيره، كالسماء والجبال والأنعام ونحو ذلك، وهذا مما ذكره الحافظ ابن القيم، وشيخ الإسلام يستدلون به على مسألة أن القرآن هو كلام الله، هذا أحد أنواع الأدلة، وكذلك أيضًا يُستدل به على مسألة العلو لله -تبارك وتعالى-، وأن القرآن تلقاه جبريل مباشرة من الله، ولم يكن بواسطة باعتبار أنه أخذه مثلًا من بيت العزة، أو أن جبريل تلقفه تلقفًا روحانيًا كما يقول بعض المتكلمين، أو أن جبريل فهم المعنى وعبر عنه، كل هذا باطل، قال: **{الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}**.

{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ}، "غافر الذنب وقابل التوب" التوب هذا مصدر من تاب يتوب توبة، وتوبًا، قابل التوب يعني توبة التائبين، وبعضهم يقول: إنه جمع توبة يعني أنه ليس بمصدر، وهنا **{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** فهذه أوصاف متتابعة، فعطفُ الأوصاف تارة يكون بالواو بذكر حروف العطف، وتارة بحذفها **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** [سورة الأعلى:١-٤].

إلى الملِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام *** وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحمْ

فهنا ذَكر حرف العطف في بعضها وحذفه في البعض الآخر، والأصل أن العطف يقتضي المغايرة سواء كان ذلك باعتبار التغاير بين الذوات المتعددة، أو تغاير الصفات، وتعدد الصفات -يعني عطف الصفات المتغايرة- بمنزلة تعدد الذوات، نحن نقول بالنسبة لصفات الله -عز وجل-: هي ملازمة لذاته -تبارك وتعالى- كما هو معروف ليست منفكة منفصلة عنها، لكن الكلام في اللغة: ينزَّل تعدد الصفات منزلة تعدد الذوات، فتأتي بالعطف، متعاطفة والموصوف واحد، فإذا كانت المباينة أكثر يعني بين الأوصاف كانت الواو أعلق وأولى بأن تذكر، كلما كان التباين أتم كان ذكر الواو آكد، فهنا إذا تأملت **{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** "غافر الذنب وقابل التوب" فهنا ذكر الواو ولم يذكرها مع شديد العقاب مع أن هذا يختلف، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذه المسألة كلاماً قيماً فقال -رحمه الله-: "فأتي بالواو في الوصفين الأوليْن وحذفها في الوصفين الآخرين لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يُظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما فمَن غفرَ الذنبَ قبلَ التوبَ فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران، ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه:

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة، وحسّن العطفَ ههنا هذا التغايرُ الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}** [سورة الحديد:٣] وترك في قوله: **{الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ}** [سورة الحشر:٢٣]، وقوله: **{الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}** [سورة الحشر:٢٣]، وأما: **{شَدِيدِ**

{الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ} فترك العطف بينهما لنكته بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له، بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية، ولهذا فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء))[3]، فأوليته أزليته، وآخريته أبديته"[4].

إذاً "غافر الذنب وقابل التوب" هما متقاربان فلئلا يُظن أن ذلك يرجع إلى معنى واحد جاءت الواو ليتبين أن هذه الأوصاف متغايرة، وكان الأمر لا يلتبس مع ما بعده {شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ}، مع شدة المباينة بين هذه الأوصاف، يقول: فتُركت الواو مع قوله ذي الطول باعتبار أن ذلك يجتمع له -سبحانه وتعالى-، فإن الطول بمعنى التفضل أو الفضل على العباد كما سيأتي، الإحسان إليهم مع ما ذكر من معناه أنه الغنى والسعة ونحو ذلك، فإن التفضل والإحسان إنما يكون عن الغنى والسعة، فالمعنيان متلازمان، يعني ما ذكره السلف في معنى الطَّوْل كما سيأتي، فهنا "شديد العقاب ذي الطول"، فهذا التفضل، وهذا شدة العقاب، فيقول: حذفت الواو من أجل تقرير أن ذلك يجتمع له -سبحانه وتعالى- مع ما بينهما من المفارقة، هذه المعاني التي تذكر هذه الدقائق في ذكر الواو ونحو ذلك هي اجتهادات واستنباطات تصيب وتخطئ، وأحياناً يكون الكلام ليس بتلك الدرجة من الوضوح أو الجلاء، وقد لا يخلو من شيء من التكلف أحياناً، فما ظهر من ذلك فلا بأس، وأحياناً قد يذكر ما يستلطف ويوجد في مواضع أخرى ما يشكل عليه.

وقوله تعالى: {ذِي الطَّوْلِ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني السعة والغنى.

هو مما جاء بمعنى السعة والغنى في القرآن في غير هذا الموضع، {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} [سورة النساء:٢٥] يعني ليس عنده من الغنى والسعة والمال ما يتمكن به من دفع الأموال للحرائر، فيرخص له بنكاح الأمة.

قال: والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والأنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها.

وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، يعني المتفضل على عباده، ولا منافاة بين المعنيين؛ فإنه متفضل عن غنى وسعة.

{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا} [سورة النحل:١٨] الآية، وقوله -جلت عظمته-: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه، {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله، وهو سريع الحساب.

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول عند النوم، برقم (٥٠٥١)، والترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه، برقم (٣٤٠٠)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٨٣١)، وأحمد في المسند، برقم (٨٩٦٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٤٢٤).

٤ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/ ٥٢-٥٣).

الله سريع الحساب يحاسبهم كنفس واحدة، وهذه الأوصاف التي ذكرها الله في صدر هذه السورة **{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ}** هنا ذكر شدة عقابه -تبارك وتعالى- بين أوصاف تتصل بفضله ورحمته "غافر الذنب وقابل التوب"، والتي بعد "شديد العقاب" "ذي الطول" صاحب الفضل، فهذا كما قال الله -تبارك وتعالى-: ((إن رحمتي سبقت غضبي))[٥]، فشدة العذاب بين هذه الأوصاف من الرحمة والإحسان إلى الخلق والمغفرة وقبول التوبة.

{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [سورة غافر:٤-٦].

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَدْفَعُ الْحَقَّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ {إلا الَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ: الْجَاحِدُونَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، {فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} أَيْ: فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا، كَمَا قَالَ: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [سورة آل عمران:١٩٦-١٩٧]، **وَقَالَ تَعَالَى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}** [سورة لقمان:٢٤].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ بِأَنَّ لَهُ أُسْوَةً فِي مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَمُهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَقَالَ: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، {وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ} أَيْ: مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ، {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} أَيْ: حَرَصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ.

"ليأخذوه" بعضهم يقول: ليتمكنوا منه، ويحبسوه ويعذبوه ويصيبوا منه ما أرادوا، وبعض السلف يقول: ليقتلوه، فالأخذ هو القتل، والأولون يقولون: الأخيذ هو الأسير، أي ليأسروه، ليحبسوه، ليعذبوه وليجرجروه، وكل هذا واقع كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** [سورة الأنفال:٣٠] وهذه سنة الله -عز وجل- في هذا الخلق، أقوى صيغ العموم "كل"، **{وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}** هذه الآية التي بين أيدينا "وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه" يعني يأخذوه بالقتل أو الأسر أو الإيقاع به والأذى، هذه سنة الله في الخلق فإذا عرف المؤمن أن جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لقوا الأذى من قومهم، وهمّ بهم قومهم أن يوصلوا إليهم الأذى بالقتل فما دونه فأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لهم نصيب من هذا، هذه سنته الجارية، فإذا رأى المؤمن الأذى، وما يحصل من أعداء الرسل من الكيد، والمكر الكبار وشدة العداوة والأذى فإنه لا يضيق ذرعًا بذلك، وإنما يعرف أنها سنة الله -تبارك وتعالى-، وأن العاقبة لأهل الإيمان، وأن الله يدافع عن أوليائه، وأنه لا يسلمهم إلى أعدائهم، وإنما يبتليهم فيرفعهم، ولذلك كانت الرفعة دائمًا للرسل -عليهم الصلاة والسلام- ولأتباع الرسل إذا صبروا، وذلك الأذى لا يكون إلا رفعة وتطهيرًا، وتكون لهم الإمامة في الدين **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}** [سورة السجدة:٢٤] صبروا على ماذا؟ **{وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** فالصبر هو الطريق،

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ}** [سورة هود:٧]، **{وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ}** [سورة التوبة:١٢٩]، برقم (٧٤٢٢).

ومن قل بصره في هذا الباب لربما ضاق عَطَنُه حينما يرى الأذى والكيد وقالة السوء التي تصدر من الأعداء لأهل الصلاح والخير والإيمان.

قال: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} أي: ماحلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

"ليدحضوا" قال: ليردوا الحق يعني ليزيلوه، المكان الدَّحْض هو المزلقة التي تنزلق بها الأقدام، فالباطل داحض **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}** [سورة الأنبياء:١٨] فيقال: الباطل زاهق، وداحض بمعنى أنه زائل لا بقاء له، ولا دوام، فلا يستقر الباطل، ينزلق ويزول، ويضمحل ويذهب كما يذهب الغُثاء يذهب جُفاء فلا بقاء له ولا دوام، وإن ظهر على سطح الماء وارتفع وانتفش مع الزَّبد، وما يجتمع حوله من القش ونحو ذلك، فيظن الناظر إليه لأول وهلة أن له حجماً وقيمة، ولكن سرعان ما يزول ويذهب ويضمحل، هكذا شأن الباطل دائمًا.

قال: وقوله -جلت عظمته-: {فَأَخَذْتُهُمْ} أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام.

هذا الجزاء من جنس العمل، وفي المختصر هذا لم ينبه عليها، فما أدري أهي في الأصل أو لا، وابن كثير كثيرًا ما ينبه على أن الجزاء من جنس العمل، ويذكر عقوبات الأمم كيف كانت من جنس أفعالهم، فهنا هؤلاء **{وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}**، قال الله تعالى: **{فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}**.

قال: {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} أَيْ: فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَذَابِي لَهُمْ، وَنَكَالِي بِهِمْ؟ قَدْ كَانَ شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا.

قَالَ قتادة: كان والله شديدًا.

وَقَوْلُهُ: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} أَيْ: كَمَا حَقَّتْ كلمةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَخَالَفُوكَ يَا مُحَمَّدُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وُثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ، والله أعلم.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}** "أنهم أصحاب النار" يحتمل أن تكون بدلًا من "كلمة"، فكلمته التي حقت عليهم أنهم أصحاب النار، ويحتمل أن تكون للتعليل يعني لأنهم أصحاب النار، ويحتمل أن تكون بمعنى: بأنهم أصحاب النار، يعني إذا قلنا: إنها للتعليل أي لأجل أنهم يستحقون النار، **{حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}** حقت يعني وجبت وثبتت ولزمت كلمة ربك على هؤلاء أنهم أصحاب النار.

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة غافر:٧-٩].

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكُرُوبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، أَيْ: يَقْرِنُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالِّ عَلَى نَفْيِ النَّقَائِصِ، وَالتَّحْمِيدِ الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ، {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} أَيْ: خَاشِعُونَ لَهُ أَذِلَّاء بَيْنَ يَدَيْهِ.

هؤلاء هم أشراف وسادة الملائكة من حملة العرش ومن حوله، وبعضهم يقول: كجبريل وميكال وإسرافيل، فهؤلاء من أعظم الملائكة الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: إن هؤلاء ملائكة العذاب؛ لأن ملائكة الرحمة يقال لهم: الروحانيون، وهذا يحتاج إلى دليل، فيقولون: هذا مأخوذ من الكرب وهو الشدة، لكن هذا يحتاج -أيضاً- إلى دليل، وبعضهم يقول: الكُروبيون هم المقربون؛ لأن أصل هذه المادة الكاف والراء والباء تدل على القرب، وهذا لا ينافي قول من قال: إنهم سادة الملائكة وحملة العرش ومن حوله، وورد في هذا آثار فيما أعلم أنه لا يصح منها شيء مرفوعًا للنبي -صلى الله عليه وسلم.

فالله -عز وجل- ما سماهم بالكروبيين ولا سماهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما قال: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}**، يعني: متلبسين بحمده -تبارك وتعالى.

وقوله: **حملة العرش الأربعة** باعتبار أنه ورد عن بعض السلف في بعض الآثار أنهم أربعة: اثنان يقولان كذا، واثنان يقولان كذا، لكن هذه الروايات فيها ضعف، وأما قوله: **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** [سورة الحاقة:١٧]، فقالوا: هذا حينما يأتي لفصل القضاء، والرواية التي يعتمد عليها في هذا مثلها -والله أعلم-، فلا يصح أن يثبت منها مثل هذا الأمر.

والضمير في قوله: **أَذِلَّاء بَيْنَ يَدَيْهِ** يرجع إلى الله -عز وجل-، أي يؤمنون بالله، وليس المقصود العرش، **{يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ}** أي: بربهم.

قال: وَأَنَّهُمْ {يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} أَيْ: مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ، فَقَيَّضَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانُوا يُؤَمِّنون عَلَى دُعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ((إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ))[٦].

يعني الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- أخبر الله وأخبر رسوله -عليه الصلاة والسلام- أنهم يلعنون بعض الناس، **{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [سورة البقرة:١٦١]، وكذلك أيضًا الأحاديث الواردة في المرأة إذا دعاها زوجها إلى فراشه فأبت فبات وهو ساخط عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح[٧] إلى غير ذلك، فهذا دعاء عليهم بالطرد والإبعاد من رحمة الله -تبارك وتعالى-، وهنا **{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}**، وذكر الله صفة ذلك **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا}**، لكن هؤلاء الذين آمنوا ذكر أوصافهم في هذه الآية، وهذا ينبغي أن يُعتبر وأن يعرض الإنسان نفسه عليه دائمًا **{فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا}** فغير التائبين لا يستحقون هذا الاستغفار، **{وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}** فالمضيع المفرط الذين كان أمره فرطًا لا يستحق هذا الاستغفار، إنما يكون هذا لأصحاب التوبة ولزوم الصراط المستقيم، يعني الذين يتبعون الوحي، أما الذين يتبعون المسالك المنحرفة، وينتحلون النحل الضالة فإن هؤلاء لا يصدق عليهم ذلك، ولاحظ هذا الدعاء "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم" فهم يدعون لهم، ويدعون أيضًا لأزواجهم، ولآبائهم ولذرياتهم، لكن لمن كان صالحًا منهم، فوجود هذا الصلاح والإيمان والتوبة، والعمل الصالح، ولزوم

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، برقم (٢٧٣٢).

٧ - رواه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، برقم (١٤٣٦).

الصراط المستقيم، واتباع الكتاب والسنة من كل وجه هو الطريق لمثل هذه المقامات العالية والرتب الشريفة التي تجعل هؤلاء الذين هم أشرف الملائكة، وأعظم الملائكة يستغفرون لهم، ويدعون لهم بهذا الدعاء، ولآبائهم وأزواجهم وذرياتهم، تدعو لهم عظام الملائكة، هذا ليس بالأمر السهل، ونحن نمر على هذه الآية لربما دون أن نقف عند هذا المعنى العظيم الذي تضمنته، فيحتاج المؤمن أن يعرض نفسه دائمًا على هذه الأوصاف هل هو محقق لها؟، فإذا كان مثل هؤلاء الملائكة يستغفرون له فإنه يستلذ بالأعمال الصالحة، وبما يلاقيه من المشاق في سبيل ذلك ولا يظهر عليه التبرم ولا الضجر ولا الضيق من قيامه بوظائف العبودية المتنوعة -وهي أبواب واسعة- ولسان حاله دائمًا **{وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}** [سورة طه:٨٤]، فيؤخذ من هذه الآية المسارعة، فموسى -صلى الله عليه وسلم- قال: **{وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ}** فينبغي أن يسارع الإنسان ويبادر في القيام بوظائف العبودية، ما يتباطأ ويتثاقل، ولهذا أخبر الله عن المنافقين: **{وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى}** [سورة النساء:١٤٢]، فهي ثقيلة عليهم، ينظر الإنسان هل تثقل عليه هذه العبادات، يتبرم بها، لا يقوم إلى الصلاة إلا في حال من الكسل والتثاقل؟.

قال: قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَب: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ، أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ.

هذا لا يقال من جهة الرأي، فإن كان ذلك مما تُلقي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا له حكم المرسل، باعتبار أن شهر بن حوشب لم يذكر الواسطة، ولا يقال: إنه من قبيل المقطوع حكمًا يعني إنه من قول التابعي مثلًا، وإنما ذلك من الأمور الغيبية، ما لم يكن قد تُلقي من بني إسرائيل، وفي غير هذا الأثر أنهم أربعة: اثنان يقولان كذا، واثنان يقولان كذا.

قال: وَلِهَذَا يَقُولُونَ إِذَا اسْتَغْفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} أَيْ: إِنَّ رَحْمَتَكَ تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} أَيْ: فَاصْفَحْ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، {وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} أَيْ: وَزَحْزِحْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمُوجِعُ الْأَلِيمُ.

{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} أَيْ: اجْمَعْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلَ مُتَجَاوِرَةٍ، كَمَا قَالَ -تبارك تَعَالَى-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [سورة الطُّور:٢١] **أَيْ: سَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي الْمَنْزِلَةِ، لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ، وَمَا نَقَصْنَا الْعَالِيَ حَتَّى يُسَاوِيَ الدَّانِيَ، بَلْ رَفَعْنَا النَّاقِصَ فِي الْعَمَلِ، فَسَاوَيْنَاهُ بِكَثِيرِ العمل، تفضلًا منا ومنة.**

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا طَبَقَتَكَ فِي الْعَمَلِ، فَيَقُولُ: إِنِّي إِنَّمَا عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ، فَيُلْحَقُونَ بِهِ فِي الدَّرَجَةِ، ثُمَّ تَلَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ هَذِهِ الْآيَةَ: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

قَالَ مُطرِّف بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الملائكةُ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ} وأغشُّ عِبَادِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الشياطينُ.

وَقَوْلُهُ: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أَيِ: الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ مِنْ شَرْعِكَ وَقَدَرِكَ.

هذا من المواضع التي يرد فيها السؤال وهو لماذا لم تختم الآية بالغفور الرحيم كآية المائدة {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}؟ [سورة المائدة:١١٨]، وقد مضى الكلام على هذا، وهو أنه حينما يغفر ويتجاوز لا يكون ذلك عن عجز عن الأخذ والمعاقبة، وإنما يكون ذلك عن عزة واقتدار مع حكمة، حيث يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها، هذا يذكر هنا، ويزاد عليه جواب آخر هناك في آية المائدة.

قال: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} أي: فعْلها، أو وبالها ممن وقعت منه.

يعني فعل السيئات أو وبال السيئات، وبين الأمرين ملازمة؛ فإذا وقاهم السيئات وقاهم مغبة السيئات وما ينشأ ويتأثر وينتج عنها، وكذلك {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} يعني عقوبات السيئات أو سوء عاقبة السيئات التي أتوها قبل توبتهم كما يقول ابن جرير -رحمه الله-؛ لأن من تاب تاب الله عليه، لكن قبول التوبة إنما يكون بمحض إرادة الله -تبارك وتعالى-، ويكون تفضلًا منه على عباده، فهنا يقول: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} إلى أن قال: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} يعني عاقبة السيئة، والسيئة قيل لها ذلك؛ لأنها تسوء صاحبها حينما يرى ذلك في صحيفة أعماله، حينما يرى عواقبها فإنه يستاء من ذلك، فيكون المعنى وقِهم سوء عاقبة السيئات التي كانوا يعملونها، وعلى المعنى الأول أنها السيئات {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} يعني فلا يواقعونها، لكن قوله: {وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} يشير إلى الآخرة يوم الجزاء، فيكون قهم السيئات يعني قهم شؤمها، ومغبتها وعاقبتها وجزاءها.

قال: {وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ} أي: يوم القيامة {فقد رحمته}، أي لطفت به، ونجيته من العقوبة، {وذلك هو الفوز العظيم}.

هناك كلام لابن القيم حول هذه الآية فيه معانٍ بديعة وجيدة، حينما يقف الإنسان مع هذه المعاني يعرف ضعفه وعجزه وقصوره في الفهم والعلم، يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قول ربنا: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} [سورة غافر:٩]: "فهذا يتضمن طلبَ وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنّه سبحانه متى وقاهم العملَ السيّئ وقاهم جزاءه السيّئ"[٨].

جمع بين المعنيين: يقيهم المواقعة للسيئات، وكذلك جزاء السيئات.

وقال -رحمه الله-: "{وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} أظهرُ في عقوبات الأعمال المطلوبِ وقايتها يومئذ.

---

٨ - الداء والدواء، لابن القيم (٢٦٩).

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَأَلُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَهَذَا هُوَ وِقَايَةُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي سَأَلُوا وِقَايَتَهَا الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ"[٩].

الآن مَن يقول: إنها الأعمال يقول: قهم عذاب الجحيم، هذه مغبة السيئات وعقوبة السيئات، فكيف يفسر **{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ}** يعني عقوبات السيئات؟ قهم عذاب الجحيم مرة ثانية؟ فيكون تكرارًا.

وقال –رحمه الله–: "يَكُونُ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَلَائِكَةُ نَظِيرَ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: **{يَوْمَئِذٍ}** فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ وِقَايَةُ شُرُورِ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهِيَ سَيِّئَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا.

قِيلَ: وِقَايَةُ السَّيِّئَاتِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: وِقَايَةُ فِعْلِهَا بِالتَّوْفِيقِ فَلَا تَصْدُرُ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: وِقَايَةُ جَزَائِهَا بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا، فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ سُؤَالَ الْأَمْرَيْنِ، وَالظَّرْفُ تَقْيِيدٌ لِلْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا لِلْجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ.

وَتَأَمَّلْ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْخَبَرُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مَدْحِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اسْتِغْفَارِهِمْ تَوَسُّلَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسَعَةِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، فَسَعَةُ عِلْمِهِ يَتَضَمَّنُ عِلْمَهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَسْبَابِهَا وَضَعْفِهِمْ عَنِ الْعِصْمَةِ، وَاسْتِيلَاءِ عَدُوِّهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَوَاهُمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَعِلْمَهُ بِهِمْ إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ هُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَعِلْمَهُ السَّابِقَ بِأَنَّهُمْ لَابُدَّ أَنْ يَعْصُوهُ"[١٠].

فكل هذا في ذكر العلم.

وقال –رحمه الله–: "وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَسَعَةُ رَحْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَهْلَكُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لَا يُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ رَحِمَتِهِ إِلَّا الْأَشْقِيَاءَ، وَلَا أَشْقَى مِمَّنْ لَمْ تَسَعْهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَهُ، وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ، فَتَابُوا مِمَّا يَكْرَهُ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ الَّتِي يُحِبُّهَا، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا، وَهُوَ –سُبْحَانَهُ– وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَإِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِهَا بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا: دُعَاءُ مَلَائِكَتِهِ لَهُمْ أَنْ يُدْخِلَهُمْ إِيَّاهَا بِرَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ وَفَّقَهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ يَدْعُونَ لَهُمْ بِهَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ –سُبْحَانَهُ– عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا عَقِيبَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ: **{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [سورة غافر:٨].

---

٩ - المصدر السابق.

١٠ - المصدر السابق (٢٦٩-٢٧٠).

أَيْ مَصْدَرُ ذَلِكَ وَسَبَبُهُ وَغَايَتُهُ صَادِرٌ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِكَ وَكَمَالِ عِلْمِكَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةَ كَمَالُ الْعِلْمِ، وَبِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ يَقْضِي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مَا شَاءَ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، فَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مَصْدَرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ"[١١].

---

١١ – المصدر السابق (٢٧٠-٢٧١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة غافر من الآية (١٠) إلى الآية (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ * ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر:١٠-١٤]: **يقول تعالى مخبرًا عن الكفار إنهم ينادَوْن يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا نادوهم نداءً بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة، قال قتادة في قوله تعالى: {لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمداني، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبري -رحمة الله عليهم أجمعين.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} المعنى كما ذكر الحافظ ابن كثير ونقله عن جمع من السلف وهو اختيار ابن جرير: أن مقت الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء في الدنيا حينما دُعوا إلى الإيمان فأبوا وأصروا على الكفر أعظم من مقتهم لأنفسهم حينما يكونون في غمرات النار؛ وذلك أن الإنسان حينما يقع في مغبّة فعله القبيح يمقت نفسه، كيف ضيع على نفسه الفرصة، وكيف فرط التفريط العظيم ثم بعد ذلك آل به هذا التفريط، وهذا السوء في التدبير إلى هذه الحال التي لا يحسد عليها؟، فيمقت نفسه، فمقت الله له في الدنيا أعظم من مقته لنفسه حينما يُسلم إلى العذاب ويكون في تلك الحال، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا نادوهم نداءً بأن مقت الله** إلى آخره، يعني أخذ ذلك من النداء {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ} فالنداء يكون للبعيد

فهؤلاء في غمرات النار، والنار قعرها بعيد، فالملائكة تناديهم نداء عاليًا لمقت الله، يعني كالذي تناديه من بعيد تصوت له من أجل أن يسمع، فيقال لهم هذا الكلام: لمقت الله إلى آخره.

وقوله: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: هذه الآية كقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة:٢٨]**، وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.**

وهذا أيضًا الذي عليه الجمهور، وهو الذي رجحه الشنقيطي -رحمه الله-، من تفسير القرآن بالقرآن **{أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}**، **{وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** فالموتة الأولى وذلك قبل نفخ الروح قيل: في مرحلة النطفة وكذلك الأطوار التي تكون قبل نفخ الروح فإن ذلك لا يكون حياة مستقرة كما هو معلوم، وقد مضى الكلام على هذا، وأن الموت في كلام الفقهاء بل في مثل هذه المواضع في كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك يقال للشيء الذي لا حياة فيه، يقال له: ميت، **{وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً}** ففي مرحلة النطفة أو حينما كانوا ترابًا كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وكما سبق أن مثل الحياة التي يذكرها المختصون بالأجنة ونحو ذلك من أن الحيوان المنوي يتحرك وينطلق بسرعة إلى آخره حتى يلقح البويضة، وما يكون في الجنين من النمو والنبض أيضًا هذا لا يقال له حياة شرعًا؛ لأن الحياة شرعًا هي التي تكون بحلول الروح في الجسد، فإذا خرجت منه فإن ذلك يعني مفارقة الحياة، ولذلك فإن هذا الذي يسمونه بالموت الدماغي لا يعتبر من قبيل الموت شرعًا؛ لأنه لا زال حيًا، ولا يصح أن تجرى عليه أحكام الأموات من الميراث، وأن زوجته تعتد مثلًا، ولها أن تنكح زوجًا آخر بعد ذلك، قد تطول مدة هذا الموت الدماغي أكثر من أربعة أشهر وعشرة أيام فلا يقال: إن عدتها قد انقضت، وإن لها أن تتزوج، بل هو على قيد الحياة، وهؤلاء الذين يشرِّحونهم ويشلحون أعضاءه ونحو ذلك هؤلاء مجرمون، وهذا يعتبر قتلًا لنفس، لا يجوز بحال من الأحوال، فالحياة والموت شرعًا هو بما ذكرت، فسواء كان ذلك قبل نفخ الروح في مرحلة من المراحل، أو كما يقول ابن جرير: حينما كانوا ترابًا يعني في خلقهم الأول خلق آدم -صلى الله عليه وسلم-، وليس ذلك بالضرورة، وإنما النطفة ميتة، وكذلك العلقة، وكذلك المضغة إلى أن ينفخ فيه الروح، هذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، وهو قول الجمهور، وبعض أهل العلم يقول: إن من قالوا بأن الموت هو سلب الحياة قالوا: الموتة الأولى حينما جاءت آجالهم فخرجت أرواحهم من أبدانهم، الموتة التي يموتها كل إنسان هذه الموتة الأولى، والإحياءة الأولى حينما نفخت فيه الروح وهو في بطن أمه حينما استتم له أربعة أشهر، والإحياءة الثانية قالوا: إنهم يحيون في قبورهم للسؤال والحساب، ثم بعد ذلك يميتهم ثانية، فقالوا: هاتان إحياءتان وإماتتان، وهذا الكلام فيه نظر -والله تعالى أعلم-، فالحاصل أنهم اعتبروا أن الموت هو سلب الحياة، وبعضهم يقول: إن الإحياءة الأولى حينما استخرجهم من صلب أبيهم آدم، وأشهدهم على أنفسهم ثم بعد ذلك أماتهم، ثم أحياهم بنفخ الروح، ثم بعد ذلك يموتون بآجالهم، وهذا أيضًا فيه بُعد، ولكن الذي دل عليه القرآن **{وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** [سورة البقرة:٢٨]، والله تعالى أعلم.

قال: والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله -عز وجل- في عَرَصات القيامة، كما قال -عز وجل-: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة:١٢].

فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون، قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام:٢٧-٢٨]، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [سورة فاطر:٣٧]، {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٧-١٠٨].

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} أي: قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعدما كنا أمواتًا ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، فهل إلى خروج من سبيل؟ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَمجُّه وتنفيه.

هنا في هذه المرات الثلاث في هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- يقولون هذه المقالة، وكذلك {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا}، الموضع الثاني الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير وقال: **إنه أشد حينما يوقفون على النار** فهنا يتمنون، ويقولون: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} فجاء هنا يعني أن مقالتهم فيها هذا التمني "يا ليتنا نرد"، وهذا لم يكن في الأول، وفي المقام الثالث حينما يكونون في النار {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} فهنا يصطرخون، وقبله يتمنون إذا رأوا النار، وفي المحشر يقولون: {فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} أي: أمتنا إماتتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، هذا هو التقدير، والله تعالى أعلم.

قال: ولهذا قال تعالى: {ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا}، أي: أنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام:٢٨]، وقوله -جل وعلا-: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} أي: هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو، وقوله -جل جلاله-: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ} أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، {وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا} وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء

واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، {وما يتذكر} أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها، {إلا من ينيب} أي: من هو بصير منيب إلى الله –تبارك وتعالى.

قوله –تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ} المراد بالآيات هنا الآيات الكونية، وذلك كما في قوله –تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} [سورة آل عمران:١٩٠]، فهنا قال: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}، وهناك قال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [سورة آل عمران:١٩١] الآيات.

وهكذا في قوله –تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٦٤] ونظائر ذلك من الآيات في كتاب الله –تبارك وتعالى-، فهذا هو المراد بقوله: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا}.

هنا جمع بين كونه يريهم الآيات وإنزال الرزق من السماء، وذلك أنه بهذه الآيات التي يشاهدون فيتعظون ويعتبرون وينيبون تكون حياة الأرواح، وإنزال الرزق يكون به حياة الأبدان، فجمع لهم بين سببي الحياة: حياة الأبدان وحياة الأرواح.

قال: وقوله –عز وجل-: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، روى الإمام أحمد كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يهلل بهن دبر كل صلاة"[١]، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي بنحوه، وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير –رضي الله عنهما- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون))[٢].

قوله –تبارك وتعالى-: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} الدعاء هنا يشمل الدعاء بنوعيه: دعاء العبادة ودعاء المسألة، أن يكون ذلك بإخلاص لله –تبارك وتعالى-، ولو كره المشركون، مثل هذه الآية

---

١ – رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٦١٠٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الزبير: وهو محمد بن مسلم بن تدرس، فقد أخرج له البخاري مقروناً بغيره، واحتَج به مسلم".

٢ – رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٤).

التي يأمر الله -عز وجل- بها بهذا الإخلاص في عبادته -تبارك وتعالى- ودعائه إضافة إلى ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقوله دبر كل صلاة، وذلك تعليم من الله، وتعليم من رسوله -صلى الله عليه وسلم- لأهل الإيمان أن يكونوا في حال من تحقيق العبودية، والإخلاص لله -تبارك وتعالى- طلبًا لمرضاته، ولو كان في ذلك الأمر كراهية المشركين.

وإن هؤلاء لن يرضوا عن أهل الإيمان ما داموا متمسكين بإيمانهم ثابتين عليه، ومن ثم فإن طلب مرضاة هؤلاء الناس، وتحسين الصورة عندهم ببذل الدين، والتخفف من أحكام رب العالمين، والعبث بالنصوص وفي محاملها، وفي حملها على المحامل البعيدة كل ذلك خلاف هذا الأمر الذي أمر الله -عز وجل- به، ولو أن الناس تبصروا فيما يرددونه دبر كل صلاة {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} فإن ذلك يكون أدعى لثباتهم على مبادئهم وعلى دينهم، وليست الأمة مطالبة بأن تسعى جاهدة وراء أعداء الله -تبارك وتعالى- من أجل أن تتطلب رضاهم، وأن تحسن الصورة عندهم، فإن هؤلاء يعتبرون عبادة الله وحده وتحقيق العبودية له بالقيام بوظائف الدين ظاهرًا وباطنًا يعتبرون ذلك سوءاً وسبَّة يعيرون بها أهل الإيمان، هذا في كل زمان وفي كل عصر، فما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا كان أصحابه ولا أهل القرون المفضلة ولا أهل الإيمان الحق الذين كانوا عبر هذه القرون المتطاولة يبحثون عن رضا هؤلاء الناس، وأن يظهروا أمامهم بصورة تعجبهم وتستهويهم حتى يرضوا عنهم، ويثنوا عليهم في محافلهم، وفي ما يقولونه ويكتبونه ويذيعونه وينشرونه عنهم، هذا ليس بمطلوب، ولا ينبغي للمؤمن أن يسعى إليه، ويحفل به، وإنما نسعى لتحقيق رضا الله -تبارك وتعالى-، ولن يجتمع رضا الله -عز وجل- مع رضا أعداء الله -جل جلاله-، فإنك إن أرضيت الله أسخطت أعداءه، وإن أرضيت أعداءه أسخطت ربك، فإذا صار الأعداء يثنون عليك وعلى إنجازاتك في هذا الباب وعلى ما حققته فاعلم أنك قد ركبت المراكب الصعبة، وأنك قد خالفت أمر الله -عز وجل-، وذلك لا يزيدك من الله -عز وجل- إلا بُعدًا، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يعرفها وأن يدركها الجميع، وإلا فهؤلاء كما قال الله -عز وجل-: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [سورة البقرة:١٢٠]، وإذا حصل مثل هذا فإن سخط الله -عز وجل- هو المستعاض به، نسأل الله العافية.

{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة غافر:١٥-١٧].

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [سورة المعارج:٣-٤]، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة.

يأتي الكلام على هذا -إن شاء الله- والروايات الواردة فيه وما قيل فيها، لكن قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} هل هذا يعود إلى الله -عز وجل-، أو يعود إلى غيره؟ كلام الحافظ ابن كثير هو ظاهر القرآن، {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} **يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها**، وذلك على ظاهره {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} أن ذلك يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، فهو عال على خلقه، مستو على عرشه، استواء يليق بجلاله وعظمته، وقد جاء عن السلف أقاويل أخرى وليست من التأويل واللفظ يحتملها، فإن الله -تبارك وتعالى- هنا قال: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} فبعضهم يقول: إن المقصود بـــ "رفيع الدرجات" أي: رفيع الصفات، ولا شك أن العلو صفة لله -تبارك وتعالى- والاستواء كذلك، فالله -تبارك وتعالى- له علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، كل ذلك ثابت لله -تبارك وتعالى-، رفيع الدرجات يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، بعضهم يقول: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} يعني رفيع درجات الملائكة، الروح هو الوحي، فرفيع درجات الملائكة يعني معارج الملائكة، فسروه بقوله -تبارك وتعالى-: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، وهنا بعضهم فسره بهذا يعني معارج درجة الملائكة ومعارج الملائكة، وبعضهم فسره بدرجات الأنبياء وأهل الإيمان والأولياء في الجنة، {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} يعني أن عنده درجات عالية، الملائكة لهم درجات، والأنبياء لهم درجات، وأهل الإيمان لهم درجات، وكلٌّ بحسبه، وهكذا فُسر أيضًا كما جاء عن سعيد بن جبير -رحمه الله- {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} يعني أن الله -تبارك وتعالى- رفع السماوات السبع، وهنا يكون رفيع بمعنى رافع، فعيل بمعنى فاعل، والأظهر -والله أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

قال: وقوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ}، كقوله -جلت عظمته-: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ} [سورة النحل:٢]، وكقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٤].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} أي من قضائه على من يشاء من عباده، وقوله -تبارك وتعالى-: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ} "من" هذه تحتمل أن تكون متعلقة بيلقي {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ} فتكون لابتداء الغاية، {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ} يعني مبتدأً من أمره، ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف على أنه حال من الروح، أي يلقي الروح كائنة مثلًا من أمره ونحو ذلك، والروح قيل: هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والله -تبارك وتعالى- وصف جبريل -صلى الله عليه وسلم- وسماه روحًا، كما وصف الله -تبارك وتعالى- الوحي الذي يأتي به جبريل -عليه الصلاة والسلام- بالروح، {يُلْقِي الرُّوحَ} يعني الوحي، {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} فتفسيره بأنه الوحي هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قَالَ تَعَالَى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} فَالْوَحْيُ حَيَاةُ الرُّوحِ، كَمَا أَنَّ الرُّوحَ حَيَاةُ الْبَدَنِ، وَلِهَذَا مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الرُّوحَ فَقَدْ فَقَدَ

الْحَيَاةَ النَّافِعَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَحَيَاتُهُ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ، وَلَهُ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا"[٣].

ولذلك سمى الله -تبارك وتعالى- الكفار أمواتًا، فهم موتى؛ لأنهم فقدوا هذه الروح، والحياة الحقيقية هي الحياة بالوحي والإيمان، ومن فقدها فهو ميت، كما أن من فقد الروح التي تعمر الجسد فهو ميت، فهما موتتان وحياتان، إحداهما أعظم من الأخرى؛ ولذلك كانت الأبوة أبوتين أبوة الولادة التي تكون سببًا للوجود في هذه الدنيا، والأبوة الأخرى التي هي أبوة التربية والتعليم فهذه التي يكون بها ارتقاء العبد إلى معارج الكمال.

قال: ولهذا قال -عز وجل-: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده، وذلك أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر.

هنا لينذر يوم التلاق لاحظ السياق **{يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ}** [سورة النحل:٢]، وإذا اعتبرت هذه الآية مع قوله -تبارك وتعالى-: **{يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}** من الذي ينذر؟ هنا في هذه الآية من هذه السورة يحتمل أن يكون **{لِيُنذِرَ}** أي: الله -تبارك وتعالى-، ينزل الوحي لينذر عباده يوم القيامة، ويحتمل أن الذي ينذر هو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، يعني هذا العبد الذي أنزل عليه الوحي، ينزل الوحي على من يشاء من هؤلاء العباد لينذر هذا الذي نزل عليه الوحي ينذر يوم التلاق، فهذان معنيان تحتملهما الآية، والمعنى الثاني هو الذي يشهد له قوله -تبارك وتعالى-: **{يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ}** فالذي ينذر هو الذي نزل عليه الروح الذي نزل عليه الوحي، وهكذا في قوله: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}** [سورة الشعراء:١٩٣-١٩٤] فالذي ينذر هو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ويدل على هذا أيضًا قراءة غير متواترة منقولة عن ابن عباس والحسن بالتاء {لتنذر يوم التلاق}، ومعلوم أن القراءة غير المتواترة تفسر القراءة المتواترة {لتنذر يوم التلاق}، هنا على هذه القراءة غير المتواترة لا يحتمل المعنى إلا الرسول -عليه الصلاة والسلام.

والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالله -تبارك وتعالى- ينزل الروح -الوحي- على من يشاء من عباده لينذر الله -تبارك وتعالى- هؤلاء العباد بواسطة الرسل الذين أمرهم بالإنذار، ينذرون عباد الله يوم القيامة.

وهنا قوله -تبارك وتعالى-: **{لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}** يقول: **هذا من أسماء يوم القيامة، وذلك أن كل عامل سيلقى ما عمله**، يعني سمي يوم التلاق على هذا للالتقاء بين العامل والعمل وهذا -كما هو معلوم- دل عليه القرآن **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}** [سورة الكهف:٤٩] وغير ذلك من الآيات، وبعضهم يقول: لالتقاء أهل السماء والأرض فذلك يوم التلاق، كما قال ذلك قتادة، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، كما اختار ابن جرير أيضًا في الذي قبله أن المنذر هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهنا الالتقاء بين أهل السماء والأرض، وبعضهم يقول: قيل له ذلك للالتقاء الذي يكون بين العابدين والمعبودين، وقد دل على هذا آيات

---

٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٤٣).

من كتاب الله -تبارك وتعالى- أنه يحصل هذا الالتقاء، وأن هؤلاء جميعًا سيحضرون ويحصل بينهم من البراءة، والعداوة ما أخبر الله -تبارك وتعالى- عنه، وقد مضى الكلام على ذلك، وهذا قال به طائفة من السلف كأبي العالية، وقال به أيضًا مقاتل، والعلم عند الله -عز وجل-، وبعضهم يقول غير هذا، وبعضهم يقول: الالتقاء بين الظالم والمظلوم، وبعضهم يقول: التقاء الدنيا بالآخرة، أو التقاء الأولين بالآخرين وذلك يوم التلاق، التلاق هنا بصيغة الجمع ويدل ذلك أيضًا على كثرة في هذا اللقاء، وذلك اللقاء -والله تعالى أعلم- بين أهل السماء والأرض، ويلتقي فيه الأولون والآخرون، ويلتقي فيه المعبود بعابده، والعامل بعمله، وهكذا أيضًا يلقون فيه صحائف الأعمال والدواوين التي سطرت فيها، ولهذا بعضهم حمله على جزاء الأعمال حيث يلتقيها العاملون، يلتقون بصحائف الأعمال، ولو قيل: إن هذه المعاني لا دليل على تخصيص واحد منها، القرآن يحتمل ذلك، وكله حاصل يوم القيامة، والقرآن دل على هذا يعني على وقوع جميع ذلك، مثل هذا لو حمل عليه لم يكن بعيدًا، والله أعلم.

قال: وقوله -جل جلاله-: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ}، أي: ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} أي: الجميع في علمه على السواء، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} قد تقدم في حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: ((أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده ثم يقول: أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟))[٤]، وفي حديث الصور أنه -عز وجل- إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول: ((لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلًا: لله الواحد القهار)).

وهذا الذي عليه الجمهور أن الذي يقول ذلك ويجيب به هو الله -تبارك وتعالى-، فالكل ساكتون لا يجيبون حتى يجيب الله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم يقول: إن الله يأمر مناديًا فينادي لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار، وبعضهم يقول: إن الذي يجيب بذلك هم أهل الجنة، ولا دليل على هذا، وبعضهم يقول: هذا حكاية عن لسان الحال، فهنا الحديث أن الله يقول ذلك ثلاثًا ثم يجيب نفسه لله الواحد القهار هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه، وقوله -جلت عظمته-: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يحكي عن ربه -عز وجل- أنه قال: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، إلى أن قال: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله -تبارك وتعالى- ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[٥]، وقوله -عز وجل-: {إِنَّ

---

٤ - رواه مسلم، في أوائل كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٨).

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدة، كما قال -جل وعلا-: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان:٢٨]، وقال -جل جلاله-: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠].

قد مضى الكلام على هذا في مناسبات سابقة، وأن الله لا يحتاج إلى عد وإحصاء وعقد أو آلة أو نحو ذلك مع كثرة الخلائق، وكثرة الأعمال، يحاسبهم كنفس واحدة.

{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [سورة غافر:١٨-٢٠]

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: {أَزِفَتْ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [سورة النجم:٥٧-٥٨]، وقال -عز وجل-: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [سورة القمر:١]، وقال -جل وعلا-: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} [سورة الأنبياء:١]، وقال: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١]، وقال -جل جلاله-: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الملك:٢٧] الآية.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى "كاظمين" أي: ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [سورة النبأ:٣٨]، وقال ابن جريج: كاظمين أي: باكين.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} الحنجرة هي الموضع البارز في العنق أو الرقبة، وقول الحافظ ابن كثير: **قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها**، ونقله عن جماعة من السلف، قال: **ومعنى "كاظمين" أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه**، بلوغ القلوب الحناجر يعني تصل إلى هذا الموضع فلا هي ترجع إلى موضعها، ولا هي تخرج، وهم في حال كما وصف الله -عز وجل-: {كَاظِمِينَ} قال: **أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه**، وهذا معنى ذكره مَن ذكره من السلف -رضي الله عنهم-، والعبارات في هذا متقاربة، يعني بعضهم يقول: مغمومين مكروبين في حال من الغم والكرب ممتلئين غيظًا، وابن جرير -رحمه الله- يفسره بأن قلوبهم تعلقت بحناجرهم بحلوقهم، كاظميها كاظمين للقلوب التي ارتفعت من مواضعها وانتقلت حتى صارت عالقة بالحناجر فلا هي ترجع إلى مواضعها ولا هي تخرج، هذا معنى آخر غير ما ذكر قبله أنهم قد امتلئوا بالغم، فهنا أنهم قد تعلقت قلوبهم بحناجرهم فلا تخرج ولا ترجع فهم كاظمون لهذه يرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتون ويستريحون، وهذا الذي أيضًا قاله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، يعني كأنهم قد غصوا بقلوبهم حينما تحولت وانتقلت من أماكنها، فصاروا لا يستطيعون ردها ولا هي تخرج فيموتون، مع أن الشنقيطي -رحمه الله- ذكر المعنى الآخر أنهم مكروبون ممتلئون من الخوف والغم والحزن، -نسأل الله العافية-، والكظم هو رد الحزن والغم وما إلى ذلك من المعاني كالخوف والغضب، كظم الغيظ، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [سورة آل عمران:١٣٤] فالذي يدافع شيئًا في نفسه مدافعة

بحيث إنه يغالبه مغالبة يقال: كظمه، والإنسان يكظم الحزن الشديد والغم الشديد كما يكظم أيضًا الغضب الشديد، وإن كان هذا ليس المراد هنا –أعني الغضب–، وإنما المقصود **{إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ}** فهم في حال من الشدة، هذه الشدة ما حقيقتها؟ ما منشؤها؟ ما الذي جعل القلوب أصلًا ترتفع إلى الحناجر؟ "إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين" تصوير لشدة الخوف الذي اجتمع معه الغم والهم والحزن وما إلى ذلك من هذه المعاني، فإنه في ذلك اليوم حينما يشاهد هذه الأهوال القلب يكون في حال من الخوف الشديد؛ ولهذا أخبر الله –عز وجل– عن أهل الإيمان بأنهم **{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [سورة يونس:٦٢]، وقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢].

وإذا نفى ذلك عن أهل الإيمان أثبته لهؤلاء من المجرمين الكافرين والمنافقين، ففي ذلك بيان لشدة الحالة التي يصيرون إليها حيث يتعاظم خوفهم فترتفع القلوب إلى الحناجر.

فهذه المعاني ملتئمة مجتمعة وليست مفترقة، بصرف النظر عن هذه العبارة هل يراد بها حقيقة ارتفاع القلب إلى الحنجرة أو أن ذلك تصوير لشدة الخوف كأن القلوب قد ارتفعت؟ على قولين، وقد مضى الكلام على هذا في قوله –تبارك وتعالى–: **{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}** [سورة الأحزاب:١٠]، فالعرب تعبر عن شدة الخوف بمثل هذا، بلغت القلوب الحناجر، فبعضهم يقول: هذا تصوير لشدة الخوف كأن القلوب قد بلغت الحناجر، وبعضهم يقول: إن الإنسان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته، فيرتفع معها القلب فحينما يرتفع القلب يكون في أعلى مكان بحيث إنه يكاد يصل إلى الحنجرة، يكاد يخرج من شدة الخوف، ولهذا العرب يقولون –كما ترون في مرويات غزوة بدر–: انتفخ سَحْرُه، فهم يعبرون بمثل هذه العبارة، والمقصود به الرئة، انتفخ سحره يعني رئته، فهذا يقال له ذلك، وعائشة –رضي الله عنها– تقول: "قُبض النبي –صلى الله عليه وسلم– ورأسه بين سَحْري ونحري"[٦]، في هذا الموضع، فهذه الرئة يقال لها هذا، ومن ثَمّ فبعض أهل العلم يقول: تصوير لشدة الخوف بحيث إنه يعبر عنه كأن القلب يكاد يخرج، وبعضهم يقول: يرتفع حقيقة لانتفاخ الرئة **{إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ}**، وكون القلوب ترتفع بسبب شدة الخوف فهذان متلازمان، السبب والمسبب، فإذا كان الإنسان في حال من الخوف الشديد فإنه يكون بهذه المثابة، **{إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ}** وهذا الذي يكظمه ما هو؟ هذا القلب الذي ارتفع، وكذلك أيضًا هذه الأمور التي يدافعها كانت سببًا لحصول هذه الحالة عنده من شدة الخوف وشدة الغم –نسأل الله العافية–، هذا تصوير في غاية الدقة لما يكابده أهل الموقف.

قال: وقوله –سبحانه وتعالى–: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطع بهم الأسباب من كل خير، وقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} يخبر –عز وجل– عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه –عز وجل– يعلم خائنة الأعين وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، وقال الضحاك: {خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} هو

---

٦ – رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة –رضي الله تعالى عنهم–، باب في فضل عائشة –رضي الله تعالى عنها–، برقم (٢٤٤٣).

الغمز، وقول الرجل: رأيتُ ولم يرَ، أو لم أرَ وقد رأى، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا، وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} يعلم إذ أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا، وقال السدي: وما تخفي الصدور أي من الوسوسة.

{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} يعني ما يكون منها ويصدر من خيانة، وهذه الخيانة تشمل صور الخيانة جميعًا التي تكون بالنظر أو بحركة العين وما والاها، وذلك يكون بالإشارة، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في قصة عبد الله بن أبي السرح لما جاء وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أهدر دمه حينما فتح مكة فدخل على عثمان، وكان أخًا له لأمه، فدخل فلما سكنت -يعني حركة الناس- جاء به إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأراد أن يبايعه على الإسلام، ومعلوم أن عبد الله بن أبي السرح كان مسلمًا ثم ارتد بعد ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- تمهل وتوقف وأبطأ عن إجابته، ثم بعد ذلك أجابه، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك قال لأصحابه أو لمن حضره منهم: ((أما قام رجل إليه فضرب عنقه حينما أبطأت عن مبايعته؟))، فالشاهد فيه أنهم قالوا له: هلا أومأت إلينا يا رسول الله، أي أشرت إلينا، فقال: ((ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين))[٧]، هذا هو الشاهد خائنة الأعين وهي إشارة لا يشعر بها المخاطب أو الذي يخاطبك ويكلمك، تشير إشارة لآخر فيأتيه ما يكره دون أن يشعر بك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- اعتبر هذا من خائنة الأعين، فالإشارة هذه داخلة في خائنة الأعين، وكل إشارة محرمة بالعين فهي داخلة في خائنة الأعين، أشار بذلك إشارة إلى امرأة بأمر لا يحسن فذلك من خائنة الأعين، كما قال الشاعر:

فأوحى إليها الطرْفُ أني أحبها*** فأثَّر ذاك الوحيُ في وجناتِها

يعني فهمت فظهرت حمرة في وجناتها من الحياء، وهنا أوحى إليها الطرف أي أشار إليها الطرف، فهذا من خائنة الأعين، وقل مثل ذلك في كل نظر يسارق الإنسان به دون أن يشعر الآخرون، يعني ينظر خلسة وخفية إذا غاب عن أعينهم، أو حينما لا يتفطنون إليه إذا كان معهم يرمق وينظر فهذا كله من خائنة الأعين، كل ملابسة في هذه العين محرمة فهي داخلة فيه، النظر إلى الحرام هو من خائنة الأعين، النظر في الصور المحرمة، النظر إلى النساء نظرًا محرمًا، النظر إلى الأشياء التي لا يجوز النظر فيها من الشبهات ونحو ذلك، هذا كله داخل في هذا المعنى.

ثم قال: **{وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}**، وهذا من مجموعه يؤخذ منه أن الله -عز وجل- يعلم الأمور الخفيات التي قد تخفى على الناس حينما يسارق الناسَ النظرَ دون شعورهم وعلمهم، يسارق النظر إلى ما حرم الله -تبارك وتعالى-، وكذلك ما تنطوي عليه الصدور، إذاً النظر الذي يكون مكاشرة هذا لا شك أن الله يعلمه، وما يعلنه الإنسان بلسانه ويفعله علانية كل ذلك الله يعلمه، فإذا كان يعلم هذه الأمور الخفيات -النظر خلسة- دون أن يشعر بك الآخرون، وما يدور في النفس مما يتصل بهذا النظر كما عن ابن عباس -رضي الله عنهما- يعني أنه لو حصّل هذه المنظورَ إليها أنه يزني بها، **{وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}** وجاء عن ابن عباس -رضي الله

---

٧ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٦٦٥٦).

عنهما-: وحينما ينظر يكون مع الناس فإذا غافلهم يعني لم يشعروا به نظر، فإذا خشي أن يُتفطن له صرف بصره، فكلما وجد منهم غفلة نظر، يقول ابن عباس -رضي الله عنه- في بعض هذه الروايات: أنه يود لو أنه نظر إلى فرجها، هذه المرأة التي يسارق وينظر إليها حينما تمر في الدار أو نحو ذلك هذا داخل في قوله: {وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}، يعني ما وراء ذلك النظر، وكذلك ما تخفيه الصدور ما ذكره هنا في هذه الرواية عن ابن عباس من أنه لو تمكن لزنى بها، وكذلك ما تخفيه الصدور من غير هذا من الإيمان والكفر والنفاق وسائر الأمور المتعلقة بالقلب مما يخفى على الناس.

قال: وقوله -عز وجل-: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} أي: يحكم بالعدل، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ}: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.

يعني هذا عام، يقضي بالحق يعني يحكم بالعدل، وابن جرير -رحمه الله- ربطه بما قبله {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} فيمن نظر بنظر هو من قبيل الخيانة، أو من غض بصره وما يقع في القلب من جراء ذلك، هكذا ربطه ابن جرير -رحمه الله-، وهذا كله مما يحذِّر الله -عز وجل- به عباده ويدعوهم إلى مراقبته، وملاحظة الأنفاس والحركات، وما يختلج في النفوس، فإن الله مطلع على ذلك جميعًا، وهو يجازي العاملين بما عملوا، وهو يحكم بالحق، ويجد الإنسان ذلك جميعًا في صحيفة أعماله، فليس الشأن أن يخفى ذلك على الناس، وإنما الشأن أن يراقب العبد ربه، وهذه حقيقة التقوى.

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وهذا الذي فسر به ابن عباس -رضي الله عنهما- هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١].

وقوله -جل وعلا-: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ} أي: من الأصنام والأوثان والأنداد {لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ}، أي: لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أي: سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

{أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة غافر:٢١-٢٢].

يقول تعالى أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، {وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ} [سورة غافر:٨٢] أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال -عز وجل-: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ} [سورة الأحقاف:٢٦].

"إن نافية" يعني فيما لم نمكنكم فيه، يعني فيما لم يحصل لكم فيه التمكين والقدرة، وقد مضى الكلام على هذا المعنى بمناسبات سابقة، أن الأمم التي أهلكها الله -عز وجل- كانوا أهل قوة وشدة وعمروا الأرض، وهذه بعض آثارهم نشاهدها، ولربما يعجز أهل العصر عن إدراك بعضها، ومعرفة صنعته كما هو معروف، فالله

أعلم كم كان عندهم من القدر والإمكانات، وقوة الأبدان، والخلق، كل هذه أشياء أشار إليها القرآن، وآثارهم موجودة أو بعض آثارهم، ولكن الناس لا يعرفون إلا ما عافسوا وعايشوا وعاصروا، ويغيب عنهم ما سواه، فيظن الناس في هذا العصر أنهم قد حصلوا أسباب القوة والتمكين، وأنهم حصلوا من أسباب المعرفة والعلم وما إلى ذلك ما لم يحصل لمن قبلهم، وهذا الكلام فيه نظر، والله تعالى أعلم، أنا لا أعرف رأيت بعض الصور في الإنترنت إن كانت صحيحة لأنني لا أثق بالصور التي في الإنترنت؛ لأنهم يعبثون بها، لا أعرف رأيت صوراً لأجساد ضخمة، يعني آدم -صلى الله عليه وسلم- طوله ستون ذراعًا، أي خمسة وثلاثون متراً، جثة إنسان يعني هم حفروا عنه القبر، خندق في الأرض ضخم، وعظامه كاملة، والرجل عند جمجمته كأنه فَرْخ، ثم بعد ذلك بعدما رفعوه وضعوه على مكان مرتفع مثل الطاولة أو النعش أو شيء من هذا القبيل، والناس يطوفون به أمثال الذر بجانبه، صغار، يعني كأنها طائرة جاثمة تمامًا، وانظر إلى الناس حول الطائرة كيف أنهم صغار، كيف أنهم يحتاجون إلى سلم حتى يصعدون عليه، حينما أقاموه وضعوه بصورة كأنه قائم واقف يصعدون بسلم، مثل هذه الأشياء إن صحت فمثل هؤلاء من المخلوقين بهذه المثابة وبهذه الضخامة ماذا يساوي الناس اليوم بالنسبة إليهم؟ لا شيء، واحد من هؤلاء يطأ الناس جميعًا، لو جئت له بآلاف الناس ميدان ممتلئ بالناس يمشي ويطأ عليهم جميعًا بقدمه، وربما لا يصدق أن هؤلاء من جنسه، وأنهم من ذريته، يحملهم في كفه، هذا ذكَّرنا ببعض الأشياء التي كانت في الروايات الإسرائيلية **{إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}** [سورة المائدة:٢٢]، فكان هناك أشياء فيها مبالغات، لكن مثل هذا يذكِّر بهم بما قالوا: إنه حملهم في سلة وذهب بهم إلى الملك، وكان في مزرعته فرآهم رأى هذا الوفد الذين جاءوا من الإسرائيليين طليعة الجيش فأخذهم بسلة، سلة الفاكهة، وذهب بهم وضعهم بين يدي الملك هذا الضخم، قد يكون فيه مبالغة، وهل كان الناس بهذه الصورة في عهد موسى -عليه الصلاة والسلام-؟ ممكن أطول منهم بمترين بشيء من هذا القبيل، يعني ممكن يُتصور لكن بهذا الحجم؟ على كلٍّ ذلك كان في الأولين، ولم يزل الخلق كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- ينقص، فالشاهد أن مثل هؤلاء عمروا الأرض؛ ولذلك كما ذكرت في بعض المناسبات أن هذه الأهرام الضخمة التي بنيت من هذه الحجارة الضخمة، ما الذي رفع هذه الحجارة؟ ما الآلات التي رفعتها وجعلتها في هذه التناسق؟ ما الآلات التي قطعت هذه الحجارة بهذه الطريقة ثم عمرت بحيث إن بعض هذه الأهرام تدخلها الشمس صيفاً وشتاء بحسب منازل الشمس، دقة عجيبة، وقلت: إن كثيرًا من أهل العلم يقولون: إن هذه لم يعرف من بناها بعد الطوفان، وإن التاريخ الذي عُرف ودُوِّن إنما هو بعد الطوفان، أما قبل الطوفان فلا يعرف، ولهذا بعضهم يقول: إن الذي بناها هو إدريس -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه كان قبل نوح -عليهما الصلاة والسلام- كما هو معروف في القول الآخر للمؤرخين في ترتيب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وفي زمانهم، فالمقصود أن مثل هذه الأشياء العجيبة الهائلة في هذا النحت الدقيق، مدائن صالح، كيف تُنحت الصخور بهذه الطريقة، وبهذا النقش الدقيق العجيب الذي لا زال إلى اليوم مع تطاول الزمان وعوامل التعرية؟، كيف يستطيعون فعل مثل هذه الأشياء؟، هذا كله يدل على هذا المعنى، والله أعلم.

وقال تعالى: {وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} [سورة الروم:٩] أي: مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم، {وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ} [سورة غافر:٢١] أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، {فَكَفَرُوا} أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا فأخذهم الله تعالى أي: اهلكهم ودمر عليهم، {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [سورة محمد:١٠]، {إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، {إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي: عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله -تبارك وتعالى- منه.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة غافر:٢٣-٢٧].

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من قومه ومبشرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران -عليه السلام-، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: {بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} والسلطان هو الحجة والبرهان، {إِلَى فِرْعَوْنَ} وهو ملك القبط بالديار المصرية، {وَهَامَانَ} وهو وزيره في مملكته، {وَقَارُونَ} وكان أكثر الناس في زمانه مالًا وتجارة، {فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} أي: كذبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مموِّهًا كذابًا في أن الله أرسله، وهذه كقوله تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [سورة الذاريات:٥٢-٥٣].

{فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا} أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله -عز وجل- أرسله إليهم، {قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ} وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى -عليه السلام.

هنا جواب على سؤال وهو أن فرعون قال -لما تشاور هو والملأ وخرجوا بهذه النتيجة-: {اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ} هذا قرار جديد بعدما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- داعيًا، ومعلوم أن موسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ولد كان فرعون أيضًا يقتل الصبيان الذكور ويبقي الإناث، ولهذا ألقته أمه في اليم بأمر الله -تبارك وتعالى- ووحيه، والسؤال الذي يرد هو أن تقتيل الأطفال، تقتيل هؤلاء الأبناء الذكور إنما كان خشية أن يأتي من يكون ذهاب ملك فرعون على يده كما أُخبر فرعون بذلك -والله تعالى أعلم-، إضافة إلى الأمر الآخر أن ذلك لإضعاف هؤلاء، وكما سبق من أنهم كانوا يقتلون المواليد سنة ويتركونهم سنة، قالوا: من أجل أن قوم فرعون خافوا إذا قتل جميع الولدان فإن الفراعنة سيضطرون إلى مزاولة الأعمال والمهن الدنيئة التي كانوا يكلونها إلى الإسرائيليين، قالوا: من سيقوم بهذا؟ نحن سنضطر إلى هذا الشيء، فكان يقتل سنة ويترك سنة، وهارون -صلى الله عليه وسلم- كان في السنة التي لا يقتل فيها

الأبناء، وموسى -صلى الله عليه وسلم- في السنة الأخرى التي يقتلون فيها، فأوحى الله إلى أمه أن تلقيه في اليمّ، وكان ما كان، هذا في القتل الأول، وهنا لما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- أعادوا القرار نفسه أن يُقتل هؤلاء الأبناء وتُستحيا النساء، يعني تبقى حية من أجل أن تقوم بالخدمة لدى القبط، إذاً وقع ذلك مرتين هذا هو الشاهد، فهذه الآية في المرة الثانية التي وقع فيها الأمر بتقتيل الأولاد، كان ذلك إبان ولادة موسى -صلى الله عليه وسلم-، وكان بعدما جاء موسى لدعوة فرعون، فهذا هو الجواب عن هذا السؤال.

هنا عبارة ابن كثير: **فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب.**

كلمة شعب في هذا الاستعمال أي أهل البلد، وقد لا تعرف في لغة العرب، يعني هل هي كلمة عربية فصيحة؟ يقال: الشعب المصري مثلًا كما يستعمل اليوم، قد لا يعرف هذا في لغة العرب فيما أعلم، ولكنه مستعمل، فهذا ابن كثير -رحمه الله- يستعملها، يعني ليست من العبارات المحدثة في العصر الحديث، بل كانت موجودة قبل قرون، فهذا ابن كثير -رحمه الله- يستعمل هذه العبارة فيما يستعملها به الناس اليوم، يعني ترتيب الناس حينما يقال مثلًا: شعب وقبيلة وبطن وفخذ وعشيرة أو غير ذلك من التقسيمات التي تذكر، الشعب هناك ليس المقصود به ما يستعمل به اليوم، وإنما هو شيء أكبر من القبيلة، ما فوق القبيلة، فهذا يقال له: شعب، وليس أهل البلد على اختلاف قبائلهم وأنسابهم وما إلى ذلك، فترتيب الناس من جهة القبيلة وما دونها وما فوقها لا يراد به ما نستعمله به اليوم.

فكلمة شعب اليوم تقال: للمجتمعين في بلد معين، يقال الشعب الفلاني، أهل البلد من عربهم وعجمهم على اختلاف أصولهم وأنسابهم وألسنتهم وأديانهم، هذا لا أعرف له أصلًا في لغة العرب بهذا الإطلاق، ولكن لفظة الشعب التي وردت في لغة العرب في التسلسل القبلي فذلك يقال في تسلسل معين محدد يطلق على مراتب ودرجات من حيث الكثرة والقلة، وله تفسير محدد معين، فعندنا حينما نقول مثلًا: قريش قبيلة قريش من أين؟ من كنانة مثلًا، وكنانة من مضر، فمضر شعب، وقريش قبيلة، وبنو هاشم ممكن أن يكونوا فخذاً، وهكذا حينما تقول: القبيلة الفلانية، قبيلة من القبائل، قبيلة عتيبة هذه قبيلة، والبطن أو الفخذ ما دون ذلك يعني تقول مثلًا أسعدِي التي أكبر منها أعتقد قبيلة عتيبة، يعني مثلًا تنقسم إلى قسمين كبيرين هذا بطن، كل قسم ينقسم إلى أقسام هذا يسمى فخذ تدريج يعني فهمتم هذا؟ إطلاق الشعب على ما نطلقه اليوم على أخلاط الناس في بلد، على المنتسبين إلى بلد، على النازلين في بلد، الساكنين في بلد لا أعرف لهذا أصلاً في لغة العرب، إنما الذي ورد عندهم الشعب هذا في التسلسل القبلي، يعني هو أكبر من القبيلة في النسب، تسلسل في النسب، **{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** [سورة الحجرات:١٣]، فيه خلاف في تفسيره، وقد مضى الكلام على هذا شعوبًا وقبائل، بعضهم قال: الشعوب هم العجم، والقبائل هم العرب، وبعضهم يقول غير ذلك، بعضهم يفسر الشعب بما هو أكبر من القبيلة كما سبق.

وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية، ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى -عليه السلام- ولهذا قالوا: {أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:١٢٩]، قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قوله: **الأمر بعد الأمر** هل هو يقصد هذه الآية **{أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا}**؟ نعم يقصد الآية التي هو يفسرها، **{اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}** هذا الأمر الأول، **{وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ}** فقتل الأولاد لإضعافهم، يبقون ضعفاء تحت السيطرة، والنساء من أجل الإهانة والخدمة، ولهذا فإن إبقاءهن كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: ليس إكرامًا ولا رعاية للحقوق، ولا رأفة بالمرأة، وإنما هذا الإبقاء هو نظير القتل؛ لأن الله -عز وجل- ذكرهما معًا في الامتنان على بني إسرائيل لما نجاهم من فرعون **{يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}** [سورة الأعراف:١٤١] استحياء النساء هنا قد يقول قائل: طيب واستحياء النساء هذا جيد أنها تبقى حية، لا، هي لا تبقى حية للحياة الكريمة، إنما يبقونها حية ليمتهنوها ويبتذلوها فتشتغل عند عدوها بالأعمال المهينة وتُستذل، فهذا لربما كان القتل أسهل منه حينما يرى بنته تذهب إلى عدوه فيذلها ويهينها ويسخرها وتشتغل عنده فيما يأنف منه هذا العدو ويترفع عنه، فهذا بلاء لا يقل عن قتل الأبناء، ولهذا امتن عليهم بالأمرين، نجاهم من هذا الذي تسلط عليهم بالتقتيل والتنكيل فهذه نعمة الله -تبارك وتعالى-، وينبغي على أهل هذا الزمان فيمن نجاهم الله -عز وجل- من هؤلاء الفراعنة أن يعرفوا قدر هذه النعمة وأن يحمدوا الله -عز وجل- عليها، وتعجب حينما ترى هذا الاختلاف بينهم والتفرق والتشرذم والتراشق وما إلى ذلك في قضية لربما يمكن أن يحتمل الخلاف فيها، ولكن البلاء حينما يتكلم من لا يحسن في مثل هذه القضايا، تتحدث شرقًا ويأتيك الرد غربًا، هو ما فهم أصلًا محاور الكلام حينما تقول: هذا أخف الضررين، يقول لك: متى صار الكفر أخف الضررين؟ نقول: نحن لا نتكلم عن الكفر أنه أخف الضررين، نحن نتكلم عن كفر يمكِّنك من أن تدعو إلى الله، وأن تعمل، وأن تبقى طليقًا تعبد الله -عز وجل- وأنت في غاية الراحة كما فعل المسلمون حينما ذهبوا إلى أرض الحبشة عند قوم كفار، وكانت هجرة شرعية، ولذلك فإن الهجرة ليست النوع الذي يذكره فقط الفقهاء وهو الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، الهجرة أن ينتقل الإنسان من بلد لا يستطيع أن يعبد الله فيها إلى بلد يستطيع أن يعبد ربه فيها سواء كانت بلد كفر أو بلد إسلام، هذه الهجرة الشرعية، ولهذا الهجرة إلى الحبشة لم تكن إلى أرض إسلام كانت إلى بلاد كفار، ولكنها هجرة شرعية، فالقضية هي أن يكون الإنسان بين كفر -أعني به الديمقراطية- وألا تنفرد الشريعة في الحكم على الناس، هذا كفر، والقوانين لا يجوز أن تحكم في رقاب الناس، القوانين المخالفة للشرع، ولا يجوز أن يحكم غير شرع الله -عز وجل-، والديمقراطية هي ضرب من ضروب الكفر، هذا معلوم، لكن هناك كفر آخر سيصليهم بالحديد والنار، ولا يستطيعون عبادة الله -عز وجل- على الوجه الصحيح، ويملأ بهم السجون، ويسومهم الخسف والذل، ويعذبهم بأشد أنواع العذاب والنكال، بكل صنوف الأذى، ولعلكم رأيتم بعض الصور القديمة أيام سيئ الذكر الهالك عبد الناصر يطلقون عليهم الكلاب وهم مقيدون في السجن تنهشهم، فهذا كفر أسوأ وأشد من هذا الكفر الذي يطلق لهم الحرية في أن يعبدوا الله -عز وجل- ويتقربوا إليه بما يريدون، هذا معنى أخف الضررين، وليس أن الكفر هو أخف الضررين، ليس هذا المراد، ولكن ما تفعل بمن يأتي بها من ناحية أصلًا ليست هي محل البحث ولا الكلام، ويعترض بمثل هذه الاعتراضات الباردة التي لا يمكن أن تصدر ممن يعرف ما يقول، يقول: متى صار الكفر أخف الضررين؟ نحن لا نقول: إن الكفر أخف الضررين، نحن نقول: الكفر مراتب، هناك كفر يحرقكم بالنار في الدنيا، وكفر يترككم تعبدون الله -عز

وجل- ماذا تفعل؟ وهذه القضية ليست جديدة، بعد الحرب التي في البوسنة أقيمت انتخابات كان المرشحون "علي عزت" -وأعلن أنه سيكون دولة علمانية تحكم بالديمقراطية إلى آخره-، ورجل من الصرب ورجل شيوعي، ورجل كرواتي أصله من الكروات الذين في البوسنة، جاءت الانتخابات فجاء الدعاة هل ندخل في هذه الانتخابات؟ هل نرشح "علي عزت" أو لا؟ اختلفوا، هؤلاء يقولون: إن رشحتموه وهو يقول: إنه سيقيم دولة علمانية ديمقراطية فأنتم اخترتم الكفر بأنفسكم، ومن أقر الكفر واختاره فهو كافر، القضية ليست بهذه المعادلة، إذاً ما هو الحل؟ ما هو البديل شيوعي أو صربي يسومكم الخسف والذل، وما جفت أسلحتهم من دمائكم؟ ماذا تفعلون؟ هنا ارتكب الأخف من الضررين، وارتكاب أخف الضررين لا يتقيد بمسألة الإكراه وعدم الإكراه، ويقول: أنا عندي حرية، وأختار ما أختار، ليس هذا فقه المسألة أصلًا، عندنا مسألة إكراه هذه يرتفع معها التكليف بنوعيه، الإكراه الذي يسلب الإرادة تأخذ إنساناً وتربطه، تُؤخذ امرأة وتُوثق يُزنى بها، هذا يرتفع به التكليف، تفتح فمه وتصب فيه الخمر، ارتفع التكليف هنا، صومه صحيح، وهذه المرأة لا حرج عليها، هناك نوع إكراه حكمي فهذا يرتفع معه التكليف، وإن كان يستطيع الإنسان أن يمتنع لكن البديل هو ضرر معتبر كالقتل مثلًا فهذا يرتفع عنه التكليف ليس عليه حرج، وهناك مسائل الضرورة فهنا تحصل معها الإباحة، "الضرورات تبيح المحظورات"، تباح له الميتة، يباح له الخمر وما إلى ذلك في حال الضرورة، وهناك حالة أخرى يقال لها: "ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما"، هذه فيها مجال للاختيار، لكن اختيار الفقهاء الذين يقدرون أنواع الضرر، ويقدرون أخف الضررين، ويقدرون أعلاهما فهنا كما قال في المراقي:

وقدِّم الأخفَّ من ضُرَّيْن *** وخيرِّنْ لدى استِوا هذين

يعني حينما تتساوى المصلحة والضرر، هذا مأخذ المسألة، تطرق المسألة من هنا ويأتيك الجواب من جهة أخرى ليست هي محل البحث أصلًا، وليست هي المفصل الذي جرى الحديث فيه، فأحياناً تفكر تقول: يا ليت الأقلام تكسر ما دامت هذه الفهوم وهذه العقول، أصبح الإنسان يعيش حتى يرى أنواع الجهالات، يجترئ أصحابها، ويتكلمون، ويردون وبسوء أدب، وعبارات جافة هذا لا يليق، فالكلام في هذه المسألة مأخذها ارتكاب أخف الضررين، وإلا فليس الكفر أخف الضررين، ولكن هناك كفر وهناك كفر آخر، كفر آل فرعون هذا {اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا} أنا أتعجب ما رأيت في العالم من أوله إلى آخره أحداً في أيام الترشيح والانتخابات يهدد الناس مثل هذا الخائب شفيق، ومن معه صاحب البرداعة والفلول المتجمعة، ومن يعاونهم من المنافقين، يهددون الناس، وقت الترشيح المرشح يعطيهم الشمس في يد والقمر في يد؛ ليحصّل أكبر قدر من المؤيدين والأصوات، لكن هؤلاء يهددون في أوقات الترشيح، إذا تمكنوا ماذا سيفعلون؟ هم قالوها، قالوا: سنعيدهم إلى السجون! تريد أكثر من هذا؟! نسأل الله العافية.

قال الله -عز وجل-: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل؛ لئلا يُنصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال.

وهذا أصل كبير قرره القرآن، فلما توعد فرعونُ بتقتيل الأولاد إلى آخره ماذا قال الله -تبارك وتعالى؟ ماذا أجاب؟ ماذا حكم ربنا -تبارك وتعالى؟

هنا الجواب محكم: وهو قاعدة لا يمكن أن تتبدل قال: **{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}**، ولم يقل: "وما كيد فرعون إلا في ضلال" فرعون انتهى، لكن المقصود كل الكافرين الذين يكيدون للحق وأهله فإن كيدهم في ضلال، والضلال هو الذهاب والاضمحلال في أصل معناه، يعني أن كيدهم مضمحل ذاهب، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}** [سورة الأنفال:٣٦]، فهذه النفقات الطائلة والمليارات التي يقدمونها ويبذلونها للصد عن سبيل الله -عز وجل- اطمئنوا تمامًا هي ذاهبة **{فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}** هذا متى؟ هذا في الدنيا قبل الآخرة، في الآخرة: **{وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ}** [سورة الأنفال:٣٦-٣٧] فتوجد محرقة في الدنيا ومحرقة في الآخرة، فهذا حكم الله -تبارك وتعالى- **{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}**، وهذا لا يختص بفرعون جاء الحكم عامًا، ولهذا فإن القاعدة في هذا كما ذكر الشيخ عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله- في "القواعد الحسان" أن الله حينما يذكر قضية خاصة، ويقصد بعد ذلك أن يكون الحكم عامًا يختم الآية بالحكم العام؛ ليشمل هؤلاء وغيرهم.

كل الكافرين فإن سعيهم وكيدهم في ضلال ذاهب مضمحل، ولا أدل على هذا من الواقع، انظر للتنصير مثلًا إذا قرأت الأرقام أعداد المفرغين، وأعداد الأطباء، وأعداد الطائرات، والأرقام الخيالية الفلكية التي لا تستطيع أن تقرأها، الميزانيات والأرصدة تقول: ما هذا؟ هؤلاء سيحولون من على وجه الأرض إلى نصارى، وإذا نظرت إلى الواقع مع الجهود الضعيفة للمسلمين، والحصار المحكم على هذه الجهود والتبرعات، وما إلى ذلك ثم الإسلام باعترافهم هم الرئيس الأمريكي يعترف أن الإسلام هو الأول في الانتشار في العالم، ثم يعقب هذا الاعتراف اعتراف بابا الفاتيكان، وأن عدد المسلمين زاد على عدد النصارى في العام الماضي، يعني ليس عدد الداخلين، وعدد المسلمين على وجه الأرض لأول مرة يزيد على عدد النصارى، مع الجهود الضخمة، ومع ذلك الواحد إذا أراد أن يقدم مساعدة أو لبرنامج دعوي أو نحو ذلك كأنه سارق أو لص يخوفون الناس، ومع ذلك هذا الانتشار للإسلام والدخول فيه، وكلما أرادوا كيدًا لهم أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فكان ذلك سببًا لإقبال الناس للتعرف على الإسلام، والدخول فيه أفواجًا، **{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}** فلا حاجة للإنسان أنه يصدِّع رأسه وينظر في هذه الميزانيات الضخمة والمليارات التي للكنيسة أو نحو ذلك فيصيبه شيء من الإحباط واليأس، نحن عندنا هذا الأصل **{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}** فكلما ضاق الصدر باستعراض أو سماع أو رؤية هذه الجهود الجبارة التي يبذلونها للكيد لدين الله -عز وجل- تذكر هذا الأصل الكبير والقاعدة العظيمة **{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}** هذا في الدنيا.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} وهذا عزم من فرعون -لعنه الله- على قتل موسى -عليه الصلاة والسلام-، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا وليدع ربه، أي: لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والتهجم والعناد.

وقوله -قبحه الله-: {إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} يعني موسى، يخشى فرعونُ أن يُضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم.

يعني فرعون الآن هو المصلح، والمحافظ على مصالح الناس، وعلى استقامة الأحوال، وخائف عليهم من موسى -صلى الله عليه وسلم-، فرعون هو المصلح، خائف عليهم من موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يظهر في الأرض الفساد، وأن يبدل دينهم، فهكذا تقلب الحقائق، والناس يتكلمون ويتفوهون بما أرادوا ولكن الله -تبارك وتعالى- يحق الحق بكلماته، فماذا كانت النتيجة؟ من الذي هلك؟ ومن الذي ذهب كيده؟، ومن الذي كان فعلًا يفسد في الأرض، ويستضعف أهلها ويجعل هؤلاء على طوائف؟.

قال: وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكِّرًا، يعني واعظًا يشفق على الناس من موسى -عليه السلام-، وقرأ الأكثرون: {أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد}، وقرأ الآخرون: {أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}، وقرأ بعضهم: {يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ} بالضم، {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} أي: لما بلغه قول فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى} قال موسى -عليه السلام-: استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: {إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم} أيها المخاطبون {مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ} أي: عن الحق مجرم لا يؤمن بيوم الحساب، ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا خاف قومًا قال: ((اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم))[٨].

---

٨ - رواه أبو داود، بلفظ: ((اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم))، كتاب سجود القرآن، باب ما يقول الرجل إذا خاف قوما، برقم (١٥٣٧)، وأحمد في مسنده، برقم (١٩٧١٩)، وقال محققوه: "حديث حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٧٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة غافر من الآية (٢٨) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللحاضرين والمسلمين جميعًا، يقول ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [سورة غافر:٢٨-٢٩].

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى -عليه الصلاة والسلام-، وقال ابن جريج عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال يا موسى: {إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} [سورة القصص:٢٠]"[١] رواه ابن أبي حاتم، وكان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} [سورة غافر:٢٦]، فأخذت الرجلَ غضبةٌ لله -عز وجل-، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، كما ثبت بذلك الحديث[٢]، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}، اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: "قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكبي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر -رضي الله عنه- فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ}"[٣]

---

١ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٦٦).

٢ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم (٤٣٤٤)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، برقم (٢١٧٤)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٤٠١١)، كلهم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٢٠٩).

٣ - رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من المشركين بمكة، برقم (٣٨٥٦).

انفرد به البخاري، وقوله تعالى: {وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ} أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: ربي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟! ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: {وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاء به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذبًا فإن الله -سبحانه وتعالى- سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه، وهكذا أخبر الله -عز وجل- عن موسى -عليه السلام- أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ} [سورة الدخان:١٧-٢١]، وهكذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله، ولا يمسوه بسوء، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله -عز وجل-: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [سورة الشورى:٢٣] أي: ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني، وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحًا مبينًا، وقوله -جل وعلا-: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكاذبين لما هداه الله وأرشده لما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن محذرًا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله -صلى الله عليه وسلم-، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أرادنا بسوء، قال فرعون لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى -عليه السلام- فيما جاء به من الرسالة، قال: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ} [سورة الإسراء:١٠٢]، وقال الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل:١٤]، فقوله: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} أي: كذَبَ فيه وافترى، وخان الله -تبارك وتعالى- ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ورعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضًا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [سورة هود:٩٧]، وقال -جلت عظمته-: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [سورة طه:٧٩]، وفي

الحديث: ((ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام))[٤]، **والله –سبحانه وتعالى– الموفق للصواب.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى–: **{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ}** يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: **المشهور أن هذا الرجل كان قبطيًا من آل فرعون** هذا هو المشهور، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–، وظاهر القرآن يدل على هذا دلالة لا يصلح معها أن يقال: إن هذا من بني إسرائيل كما يقوله بعضهم، فالله –عز وجل– يقول: **{رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** فهذا لا يصح معه بحال أن يقال: إنه كان من الإسرائيليين، وفي هذا الخبر الذي قص الله –تبارك وتعالى– ما يجلي ويبين الطريق في الدعوة إليه –تبارك وتعالى–، وذلك بمثل هذه العبارات التي لا تصدر إلا عن محب ومشفق على قومه، فهو يخاطبهم بهذا الخطاب اللطيف الرقيق، ويجعل أمره وأمرهم متحدًا في المصير، ويتنزل معهم هذا التنزل وهو يخاطبهم بقوله: يا قومي، ويذكرهم بنعم الله –عز وجل– عليهم، وما يكون سببًا لسلب هذه النعم، وحينما يعبر فهو يجعل نفسه معهم، **{فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا}**، ولا يتحدث معهم بطريق لربما يكون فيه نوع فوقية، وإنما يتواضع هذا التواضع، ويشركهم في مثل هذه الأمور التي يتخوفها عليهم، وهذا هو الصحيح في خطاب الناس، وذلك أدعى إلى القبول، هذا بالإضافة إلى أن هذا الذي يخاطب بهذا الخطاب هو من أعتى أهل الأرض، يدعي أنه هو الرب الأعلى، ويستكبر هذا الاستكبار، ويقول لهم زورًا: **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}**، وكانت هذه المخاطبة في مقام أظهر فيه فرعون نيته، فهو يريد قتل موسى –صلى الله عليه وسلم–، فالمقصود أن مثل هذه ينبغي أن تكون طريقًا في الدعوة إلى الله –عز وجل– ومخاطبة الناس، والظاهر أن هذا الرجل المؤمن من آل فرعون كما قال الله –عز وجل– ولا يُعدل عن ذلك –عن ظاهر القرآن– إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وهذا الدليل غير موجود، وما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في تفسير هذه الآيات ظاهر لا يحتاج إلى إضافة أو تعليق.

وآل فرعون هم الأقباط، وليسوا بالإسرائيليين **{رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** هو من القبط، والإسرائيليون ليسوا من آل فرعون إطلاقًا، الإسرائيليون لم يكونوا من أهل مصر أصلًا، وإنما وجدوا بعدما جاء يوسف –عليه الصلاة والسلام–، ثم تبعه يعقوب مع أولاده –عليه السلام– فبقوا في مصر حتى تكاثروا فكان خروجهم مع موسى –عليه الصلاة والسلام–، فكانوا مستضعفين وكانوا على شريعة يعقوب –عليه الصلاة والسلام–، وما كانوا قط من آل فرعون.

وقال: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ

---

٤ – رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، برقم (١٨٣٠).

{يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [سورة غافر:٣٠-٣٥] هذا إخبار من الله -عز وجل- عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد، {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ} أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ}.

قوله: **{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ}** الأحزاب هم الأمم المكذبة كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قيل لهم: الأحزاب؛ لأنهم تحزبوا على أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-، وكذبوهم وآذوهم، وحاربوهم حتى أنزل الله -عز وجل- عليهم بأسه ونقمته، فحل بهم عذابه المستأصل، وهم هؤلاء الذين ذكر الله في هذه الآية **{مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ}**، والدأب هو العادة، يعني مثل دأبهم بعضهم يقول: كمثل حالهم في العذاب عذبهم الله -عز وجل-، يقول: أخشى أن يقع عليكم ما وقع عليهم، وأن ينزل بكم ما حل بهم، **{مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ}** أي: كعادتهم، بعضهم يقول: كسنته فيهم، سنة الله -تبارك وتعالى- في المكذبين كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: مثل دأبهم يعني كعادتهم في التكذيب، وإذا تأملت ونظرت في ظاهر القرآن **{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ}** فهو يخوفهم من عذاب الله -عز وجل-، وما ذكره الحافظ ابن جرير -رحمه الله- أن ذلك يراد به سنته -تبارك وتعالى- في تعذيب هؤلاء المكذبين واستئصالهم، ولا يخفى أن بين المعنيين أو بين القولين نوع ملازمة، فمن فسر الدأب هنا كدأبهم يعني في التكذيب فإن هذا هو السبب الموجب للعذاب والعقوبة، ومن قال: كسنته فيهم، فإن ذلك هو نتيجة العقوبة، والله هنا أضاف الدأب إليهم "دأب قوم نوح" فمن نظر إلى هذا قال: يعني كعادتهم وهي التكذيب، ومن نظر إلى ما قبله **{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ}** ما الذي حصل في تلك الأيام؟ فإن اليوم هنا يراد به الأيام، مثل أيام الأحزاب، لكل حزب منهم لكل قوم من المكذبين يوم عُذبوا فيه، فمن نظر إلى هذا فسره بعادة الله -عز وجل- وسنته في المكذبين حيث عاقبهم واستأصلهم وعذبهم، وكما سبق أن بين المعنيين ملازمة، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ}** يعني بعد هؤلاء كقوم إبراهيم، وقوم لوط -عليهما الصلاة والسلام.

ثم قال: {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} يعني يوم القيامة، وقوله تعالى: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} أي: ذاهبين هاربين، {كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [سورة القيامة:١١-١٢]، ولهذا قال -عز وجل-: {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}.

في قوله لهم: **{وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ}**، يعني يوم القيامة، لماذا قيل: يوم التناد؟ بعضهم يقول: لأنه ينادي بعضهم بعضًا فيه، وبعضهم يقول: ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، كما ذكر الله -عز وجل-: **{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا**

وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ} [سورة الأعراف:٤٤]، وهكذا قوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [سورة الأعراف:٥٠]، فبعضهم يقول: التناد هذا حينما ينادي أهل النار أهل الجنة، وهذا النداء الذي ذكروه هو ليس يوم القيامة في الموقف، وإنما هذا الذي ذكر الله في سورة الأعراف هذا يكون إذا دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار، والله سمى يوم القيامة هنا بيوم التناد، ولذلك بعضهم يقول: إنه في ذلك اليوم يوم القيامة ينادَى بسعادة السعداء، وينادَى بشقاوة الأشقياء، يوم التناد، أو أنه ينادَى كل أناس بإمامهم، {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٧١]، ففي ذلك اليوم تحصل هذه المناداة، وابن جرير -رحمه الله- يقول: يوم ينادي الناس بعضهم بعضًا، ثم يطلق بعد ذلك، يعني لا يحدد معنى من هذه المعاني المحتملة، ينادون إما من هول ما قد عاينوا من العذاب، فينادي بعضهم بعضًا كما يكون حال الناس في أوقات الأهوال والشدة، يبحثون عن المخرج والمنقذ وطريق الخلاص من هذا البلاء الذي حل بهم.

أو لتذكير بعضهم بعضًا بأن الله قد أنجز ما وعدهم في الدنيا، هذا الذي وعد الله، هذا ما أخبرنا الله به، هذا ما قاله المرسلون، يتنادون يقولون: هذا الأمر الذي حذرنا منه وأنذرنا منه.

أو يكون ذلك على سبيل الاستغاثة؛ لما يلقون من البلاء، فابن جرير -رحمه الله- يقول: {يَوْمَ التَّنَادِ} يتنادون ينادي بعضهم بعضًا إما من الأهوال والأوجال، أو يكون ذلك لأمر أو لمعنى من المعاني المحتملة، وهذا أحسن في التفسير، -والله تعالى أعلم-؛ لأن الله لم يحدد معنى من هذه المعاني، فيحتمل أن يكون ينادي بعضهم بعضًا للاستغاثة، أو ينادي بعضهم بعضًا لغير ذلك، ويحتمل أن يحصل فيه من أنواع التنادي أمور مجتمعة، والله تعالى أعلم.

هو فسره بقوله: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} يولون مدبرين إما أن يكون المراد -والله أعلم- {تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} أي: منصرفين ذاهبين من الموقف إلى النار {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، كما يقوله بعض السلف كقتادة ومقاتل، ويحتمل أن يكون أنهم يولون مدبرين إذا رأوا النار وبدت لهم وعاينوها، وسمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، فروا منها من شدة ما يفجأهم من هول المطلع، فلا يجدون سبيلًا إلى هذا الفرار، فهذا يكون فرارًا من النار، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، فيكون هذا الإدبار على سبيل الفرار، هو محاولة للفرار من النار لما عاينوها، والمعنى الآخر {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} تولون مدبرين يعني من الموقف مُنصرفًا بهم إلى النار فهو يخوفهم من هذا، {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، والغالب أن مثل هذا يستعمل في الفرار، يعني يعبر عن المنهزم الذي يفر أنه مولٍ للدبر، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ} [سورة الأنفال:١٦]، {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [سورة الأنفال:١٥]، {لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ} [سورة الفتح:٢٢]، كل هذا يعبر به عن الهزيمة والفرار، {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} [سورة القصص:٣١]، لما خاف موسى -صلى الله عليه وسلم- الحية، وانطلق فارًّا منها، فهذا الاستعمال تكرر في القرآن في هذا المعنى، وتفسير الآية بنظائر ذلك في الاستعمال في القرآن أولى من تفسيره بغيره، فحينما يُذهب بهم ويذهبون منصرفين إلى النار من الموقف هل هذا يقال له: "يوم تولون مدبرين"؟ يعني مدبرين من الموقف إلى النار ذاهبين؟ هذا يحتمل، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن

المقصود به أنهم يفرون، ويريدون الهرب ولكن لا يمكنهم ذلك، {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، فإذا رأوا النار فزعوا منها فزعًا شديدًا فحاولوا الانطلاق والبعد والهرب منها، هذه أشياء لا يمكن للإنسان أن يتصورها حقيقة؛ لأن الأمر أعظم من أن تحيط به عقولنا، ولكننا لو نظرنا في بعض الأشياء التي تقع في الدنيا، وترى حال الناس وهم يفرون حينما يفجأهم طوفان، أو حينما يفجأهم إعصار، أو حينما يحصل لهم أمر مذهل عظيم من حريق هائل سريع الانتشار كأنه يطاردهم، فتجد الناس يولون مدبرين منهزمين فارين يريدن الخلاص، لكنهم قد يفلحون في الدنيا أما في الآخرة فإلى أين المفر؟ {كَلَّا لَا وَزَرَ}، والملائكة تحيط بهم من كل ناحية، {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} أي: ذاهبين هاربين {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} فهذا يدل على أن فرارهم إنما يريدون به الاعتصام، أو العصمة من عذاب الله -عز وجل-، فيكون تفسيره بالفرار أقرب، والله تعالى أعلم.

هنا قول حسن حذفه المختصر وهو مهم، كان ينبغي ألا يُحذف، وفيه ترجيح صريح لابن كثير -رحمه الله- كان الأولى أن لا يحذف، فمما ذَكر في هذا الكلام المحذوف الأصل: سبب تسميته بيوم التناد، وذكر من الأسباب أنه حينما تنشق الأرض وتزلزل أنهم يفرون وينادي بعضهم بعضًا من الهول، وذكر هنا قراءة شاذة مروية عن بعض السلف {التنادّ} يعني من ندّ البعير، فهذا غير المناداة، وبعضهم أثبت الياء، وبعضهم من غير إثباتها، يعني من النداء، والثاني من ندّ، واختلفوا في تفسير هذه القراءة الأولى من ندّ ما المراد بها، ولكنها قراءة شاذة، وهذه القراءة المتواترة "يوم التناد" من النداء، أو أن الملَك ينادي حينما توزن الأعمال سعد فلان شقي فلان، أو غير ذلك، فالله تعالى أعلم، هذا كله يحتمل، فالحافظ ابن كثير هنا رجح قول البغوي، يقول: إن البغوي قال: إنه سمي بذلك لهذه الأمور كلها، يعني يشبه كلام ابن جرير -رحمه الله.

ولهذا قال -عز وجل-: {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، أي: لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، {وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، أي: من أضله الله فلا هادي له غيره، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ} يعني أهل مصر، وقد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو يوسف -عليه الصلاة والسلام-، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولًا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي.

هذه الآية يستدل بها على أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- كان رسولًا، وأنه لم يكن نبيًا فقط، وبناء على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وهو لعله أحسن ما قيل في الفرق بين النبي والرسول-: أن ما يقال من أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه أن هذا الكلام غير مستقيم؛ لأن الله قال: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [سورة آل عمران:١٨٧] إلى غير ذلك من النصوص التي يوجب الله -عز وجل- فيها البلاغ عنه، والدعوة إليه والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك.

فشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرد هذا القول، ويفرق بينهما -بين النبي والرسول- بأن النبي يأتي مقررًا لشريعة نبي قبله، فيكون فيهم كأنبياء بني إسرائيل في أغلبهم، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يسوسهم الأنبياء، ففيهم أنبياء كثر، وهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا، وأما الرسول فيكون قد أرسل لقوم كافرين، هذا هو الفرق عند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، أُرسل إلى قوم كافرين يدعوهم

يعني مع قومه –إن كان أرسل لقومه–، ويَحتج لرسالة يوسف –صلى الله عليه وسلم– أنه كان رسولًا نبيًا بأنه أرسل إلى الكفار مع الإسرائيليين، يعني أن بني إسرائيل كانوا من المؤمنين، وكانوا على شريعة يعقوب –صلى الله عليه وسلم–، فيوسف –صلى الله عليه وسلم– أرسل إلى فرعون –أيضًا–، إلى الفراعنة بدليل أن هذا الفرعوني المؤمن يقول لهم: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ}** يعني جاء إليهم إلى هؤلاء الفراعنة وأنهم تشككوا فيما جاءهم به في دعوته، **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}**، وهذا أيضًا يحتج به شيخ الإسلام أنهم قالوا قولًا أقره الله –تبارك وتعالى–، وذلك أنهم قالوا: **{لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** إذاً هو كان رسولًا –عليه الصلاة والسلام.

والقاعدة في هذا أن القرآن حينما يذكر مقالة ثم لا يعقبها أو يذكر معها أو قبلها ما يدل على ردها فالأصل أنها مُقرَّة وصحيحة، فهذا من كلام هذا الرجل المؤمن والله ذكره على سبيل الإقرار له، فكان يوسف –عليه الصلاة والسلام– رسولًا إلى بني إسرائيل مع الفراعنة.

وكذلك أيضًا موسى –صلى الله عليه وسلم– كان رسولًا إلى بني إسرائيل، وكان يقول: **{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ}** [سورة طه:٤٧]، وكان رسولًا أيضًا إلى فرعون **{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}** [سورة طه:٤٣]، وهذا هو الضابط عند شيخ الإسلام –رحمه الله.

وهنا في قوله –تبارك وتعالى– عن قيل هذا المؤمن من آل فرعون: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ}** ظاهره أن المقصود أنه جاء لآبائهم، فالخطاب توجه إلى هؤلاء وإن كان الأجداد هم الذين جاءهم يوسف –صلى الله عليه وسلم–، والخطاب في القرآن يتوجه أو قد يتوجه إلى الأحفاد فيخاطبون بأمور وقعت من الأجداد، أو وقعت لهم سواء كانت من النعم أو النقم أو الأمور القبيحة المشينة من التكذيب والكفر، أو الفجور أو نحو ذلك، ولهذا تجد الخطاب في القرآن لبني إسرائيل كثيرًا ما يخاطب الذين عاصروا النبي –صلى الله عليه وسلم– مع أنهم ليسوا هم الذين فعلوا هذا، حينما يقول: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [سورة البقرة:٥٥]، والذين قالوا هذا هم أجدادهم، هذا في مقام ذكر مساوئ هؤلاء الناس، وفي مقام ذكر الإنعام الله –عز وجل– يقول: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** [سورة البقرة:٤٩]، فيمتن عليهم مع أن الذين نجاهم من آل فرعون **{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}** [سورة البقرة:٥٠] الذين حصل لهم هذا هم الأجداد، ولكن القاعدة أن النعمة على الآباء تلحق الأبناء فيصح الامتنان عليهم بذلك، وكذلك المعرّة التي تحصل للآباء تلحق الأبناء إن كانوا على طريقتهم، ولهذا مخازي بني إسرائيل مع موسى –صلى الله عليه وسلم– وما فعله أجدادهم هذا يتردد في القرآن **{وَإِذْ قُلْتُمْ}** وهذا واضح.

فحينما يخاطبهم هذا المؤمن: **{فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ}** هذا وقع في أجدادهم، هم الذين حصل منهم هذا التكذيب والشك في يوسف –عليه الصلاة والسلام–، لكن لما كان هؤلاء على طريقتهم صح أن يوجه الخطاب إليهم، هذا القدر إذا عُرِف عرفنا خطأ قول من قال: إن فرعون كان طويل العمر؛ حيث كان فرعون موسى –عليه السلام– معاصرًا ليوسف –عليه الصلاة والسلام– وإنه كان الفرعون الذي كان في عهد يوسف –صلى الله عليه وسلم–، ما الذي حملهم على هذا القول؟ قالوا: إن الخطاب توجه إليهم "فما زلتم في شك مما جاءكم به"، نقول: لا حاجة إلى هذا؛ لأن هذا الأصل في التفسير إذا عرف انحل هذا الإشكال، وهذا كثير في

القرآن، ولا حاجة لأن يقال: كان ممتد العمر، والمدة التي كانت بين يوسف -صلى الله عليه وسلم- وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- تعتبر نسبيًا طويلة، وتكاثر فيها الإسرائيليون حتى في بعض التقديرات أن الذين خرجوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- لا يقلون بحال عن سبعين ألفًا، وقيل: هم أكثر من هذا، وهناك من يقول: إن هذه مبالغات يعني يصعب أن ينتشر هذا الانتشار ويحصل هذا التكاثر بهذه المدة، لكن المقصود أن هذا الخطاب توجه إلى فرعون ومن معه، والذين حصل منهم ذلك كانوا من سلفهم الذين كانوا يحكمون مصر في عهد يوسف -صلى الله عليه وسلم- هم القبط الفراعنة فامتد ذلك حتى جاء موسى -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا أيضًا هم الذين يحكمونها، حينما يقال: القبط لا يعني هذا أن القبط اليوم هم أهل مصر الأصليين الذين هم النصارى، لا، القبط هم أهل مصر فكانوا على دين فرعون، كانوا من الوثنيين حتى أهلكهم الله -عز وجل-، ثم بعد ذلك أهل مصر قبل الإسلام منهم من بقي على وثنيته، ومنهم من دخل في النصرانية، ثم بعد ذلك جاء الإسلام فأسلم من هؤلاء كثير، وأيضاً انتقل إليها من خارجها كثير، سواء كان من جزيرة العرب أو من بلاد الشام أو من غيرها عبر العصور والقرون، فهؤلاء من القبط لا يمثلون المصريين الأصليين وأنهم هم أهل مصر فحسب، وأن البقية -يعني المسلمين- وردوا عليها، هم يقولون هذا، هم يقولون: نحن أهل البلد، وهؤلاء طارئون على مصر، وهذا كلام غير صحيح.

هذا الخطاب هنا لفرعون بهذا الاعتبار، ولا عبرة بغيره، والله تعالى أعلم.

هناك في النسخة الأخرى "أمة القبط"، إذاً قال: القبط وليس القسط، يدعو إلى الله تعالى أمته القبط.

الأمة تأتي بمعنى مَن بُعث إليهم النبي، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو أمته وهو أرسل إلى الأحمر وإلى الأسود -عليه الصلاة والسلام-، فحينما يقال مثلًا: إن أهل الصين من أمة محمد، يأجوج ومأجوج من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، هذا لا إشكال فيه باعتبار أن مَن بُعث إليهم النبي يكونون أمته.

لكن "يدعو إلى الله تعالى أمة القبط" هذه قد تكون أوضح، حتى لا يُستشكل، يعني الشيخ الآن استشكل هذا المعنى "أمته" هل يقال: إن يوسف -عليه الصلاة والسلام- كان من القبط؟ فإن الأمة تقال للطائفة المجتمعة في شيء إما في نسب أو في سبب.

يعني أن يجتمعوا على دين وملة، أو على عمل معين ومهنة أو نحو ذلك، فلا إشكال، لكن كون أمته أمة القبط يعني يكون أوضح.

ولهذا قال تعالى: {فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا} أي: يئستم فقلتم طامعين: {لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}؛ وذلك لكفرهم وتكذيبهم، {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه، ثم قال -عز وجل-: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} أي: الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله -عز وجل- يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله علي قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفًا ولا ينكر منكرًا، ولهذا قال -تبارك وتعالى-:

{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ} أي: عن اتباع الحق، **{جَبَّارٍ}** قال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير الحق، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}**، بعضهم يقول: إن هذا من جملة كلام هذا المؤمن من آل فرعون، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو المتفق مع القاعدة المعروفة، فالكلام كله في نسق واحد وتوحيد ذلك يعني أن يكون من متكلم واحد هذا أولى -والله تعالى أعلم-، وهو الأصل؛ مراعاة للسياق.

وبعضهم يقول: هذا من كلام الله -تبارك وتعالى- في ثنايا هذه المحاورة والمخاطبة، فيكون ذلك من قبيل الموصول لفظًا المفصول معنى، يعني الكلام كأنه من متكلم واحد لكن يكون من متكلمين كما قص الله من خبر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- من عبدة الكواكب قال: **{هَذَا رَبِّي}** [سورة الأنعام:٧٨] فلما خوفوه بآلهتهم، قال: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ}** [سورة الأنعام:٨١] إلى أن قال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢] فبعضهم يقول: هذا من بقية كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- هو يقول لهم هذا، وبعضهم يقول: لا، هذا من كلام الله حكم بين الفريقين، وهكذا في قصة ملكة سبأ كما سبق لما قال: **{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}** [سورة النمل:٣٤] هذا من كلام ملكة سبأ، **{وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}** بعضهم يقول: هذا من كلام الله، يقرر قولها، وبعضهم يقول: لا، هو من بقية الكلام، وكذلك أيضًا ما مضى من كلام امرأة العزيز: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [سورة يوسف:٥٢] هل هو من كلامها أو من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام؟ "ليعلم" يعني العزيز **{أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** يعني حينما طلبت السؤال ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟.

فهذا يحتمل أيضًا، وهذا كثير في القرآن، والظاهر -والله أعلم- أنه من كلامه من كلام هذا المؤمن.

وقوله هنا: **{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}** هذا يرجع إلى ما قبله، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ}** فيكون تفسيرًا له، مَن هذا المسرف المرتاب؟ كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: هم **{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}**، ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا، **{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}**، "كذلك يضل الله" و"كذلك يطبع الله"، فهنا ذكر الإضلال، وذكر الطبع، وذكر بينهما هذا الفعل القبيح الذي يكون سببًا للإضلال والطبع: **{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}** فكل مجادل في آيات الله وشرعه ودينه بغير علم فإنه يُخشى عليه من هذا أن يضله الله -عز وجل- ويطبع على قلبه، فلا يكون بعد ذلك له سبيل إلى الهدى مهما بُينت له الآيات والحجج والبراهين، نسأل الله العافية.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}** هكذا بالإضافة على قراءة الجمهور والتقدير كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر، فاُكتفي بكل الأولى لتدل على الثانية، يعني يطبع على قلب كل متكبر، يطبع على كل قلوب المتكبرين، يطبع على كل قلب كل متكبر، فحذفت الثانية؛ لأن الأولى تدل

عليها، هذا على هذه القراءة التي هي قراءة الجمهور، ويدل على هذا التقدير أو هذا المحذوف قراءة غير متواترة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: **{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْب كُلِّ مُتَكَبِّرٍ}**.

وهناك قراءة أخرى قرأ بها ابن عامر بالتنوين يعني بقطع الإضافة **{عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}** فهذه واضحة وليس فيها تقدير.

فالمعنى في النهاية يرجع إلى شيء واحد، لكن هنا هل يوجد تقدير أو لا يوجد تقدير من الناحية الإعرابية؟ الإعراب يختلف، وإلا فالطبع أصلًا يكون على القلب، وليس على صاحبه، فهنا يطبع على كل قلبٍ متكبرٍ جبار، هناك يطبع على كل قلب كل متكبر، فالطبع في النهاية من حيث المعنى هو واحد يعني على القلوب لكن من الناحية الإعرابية هناك فرق من غير المعنى، والله أعلم.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} [سورة غافر:٣٦-٣٧]

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى -عليه الصلاة والسلام- أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا، وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا} [سورة القصص:٣٨]، وقوله: {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} الآية، قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السماوات، وقيل: طرق السماوات {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}، وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى -عليه الصلاة والسلام- في أن الله -عز وجل- أرسله إليه، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ}، أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}، قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار.

هنا قول فرعون -قبحه الله- لوزيره هامان **{ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}** يعني هذا يدل على أنه قد وصل بهذا المسخ وصل به الحال إلى حد من الاستهتار بما يقوله موسى -صلى الله عليه وسلم-، وفي الوقت نفسه الاستخفاف بالناس بالشعب -كما يقال- أو الجمهور وهو يقول: **{ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}**.

هنا قوله: **{لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ}** يقول: **قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السماوات**، وهذا قال به جماعة من السلف غير هؤلاء أيضًا كقتادة والزهري، أسباب السماوات يعني أبواب السماوات، وبعضهم يقول: طرق السماوات، السبب هو ما يتوصل به إلى المطلوب، ما يتوصل به إلى غيره، ولهذا يقال للحبل الذي يستخرج به الماء من البئر: سبب، وإذا تقرر هذا يعني أن السبب ما يتوصل به إلى غيره فهو يريد أن يتوصل إلى السماء، أسباب السماوات يعني كل ما يتوسل به أو يتوصل به إلى رؤية إله موسى كما يزعم.

فمثل هذا هو يريد أن يتوصل إلى ذلك بسبب سواء كان ذلك يعني طرق السماوات، أو كان أبواب السماوات، أيًّا كان ذلك فهو يريد أن يتوصل إليه، {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} يعني ما يتوصل به إلى رؤية إله موسى سواء كان ذلك أبواب السماوات، أو الطرق أو غير ذلك، فابن جرير -رحمه الله- يجعل ذلك جميعًا مما تحتمله الآية، ولكنه يقرر هذا المعنى أن الأسباب هي ما يتوصل بها إلى غيرها، فهو يريد أن يتوصل إلى رؤية إله موسى سواء كان ذلك بطريق الأبواب التي للسماء، أو بالطرق المؤدية إليها، {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} على هذه القراءة وهي قراءة حفص التي نقرأ بها على النصب هنا، هو يقول له: يا هامان ابنِ لي صرحًا لعلي أطلعَ، أو فأطلعَ إلى إله موسى، من أجل أن أطلعَ على إله موسى، فهنا النصب "فأطلعَ" يحتمل أن يكون على جواب الأمر {ابْنِ لِي} هذا الأمر، {ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} أو جواب الترجي {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}، فأطلعَ جواب الترجي، هو يرجي أن يبلغ الأسباب من أجل أن يطلع على إله موسى، أو يكون هكذا: متى بلغتُ الأسباب اطلعت على إله موسى -عليه الصلاة والسلام-، أما قراءة الجمهور {فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} هذا الذي عليه عامة القراء، فهنا انظر في الآية: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} "فأطلعُ" يكون عائدًا كما يقول ابن جرير على قوله: {أَبْلُغُ} فأطلعُ على إله موسى، وهذه القراءة التي ارتضاها ابن جرير، واختارها واقتصر عليها، وهما قراءتان متواترتان.

{لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} بعضهم يقول: ولعلي أطلعُ على إله موسى، يعني بعد ذلك بعدما أبلغ الأسباب أطلعُ على إله موسى.

{وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ}، "صُد عن السبيل" هذه قراءة الكوفيين، وهي التي نقرأ بها، "صُد" بُني للذي لم يسم فاعله، ما الذي صده عن السبيل؟ صُد عن السبيل بتكذيبه، صُد عن السبيل بإجرامه، صُد عن السبيل بسبب كفره بأن طبع الله على قلبه، زين له سوء عمله، صُد عن السبيل، صده هؤلاء الملأ الذين كانوا فراعنة أيضًا حيث يقولون له: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}؟! [سورة الأعراف:127] فيقول: {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} إلى آخر ما قال.

وعلى قراءة الجمهور بالفتح {وصَد عن السبيل} ولفظة صد تأتي لازمة وتأتي متعدية، لازمة: صَد يعني في نفسه يعني لم يؤمن، {صَد عن السبيل} يعني بقي على الكفر، هذا معناها حينما تكون لازمة، وتأتي متعدية أي فرعون صَد عن الحق، صَد غيره، صَد عن السبيل صار يتوعد من آمن، ويتهدد، وأنه سيبطش ويقتل إلى آخره، "زين لفرعون سوء عمله وصَد عن السبيل"، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقراءتان إن كان لكل واحدة معنى فهما بمنزلة الآيتين، وإذا جمعنا هذه القراءات يقال: "وصَد عن السبيل وصُد عن السبيل" صد فرعون في نفسه فلم يؤمن؛ لأنه زين له سوء عمله -نسأل الله العافية-، وأيضًا وصَد غيره عن الإيمان واتباع موسى -صلى الله عليه وسلم-، فهذا في صَد بالفتح -فتح الصاد- تحتمل هذين المعنيين، وكلاهما حق، وعلى القراءة الأخرى "صُد عن السبيل" صُد هو بكفره أو بأمور مجتمعة، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- حمل صَد بفتح الصاد على المعنيين متعدية ولازمة، باعتبار ما سبق أنه لا يوجد مانع من حملها، وهذا في مواضع أخرى من كتاب الله -عز وجل-، يعني مثلًا في قوله -تبارك

وتعالى-: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦]، هنا تحتمل أن تكون لازمة ومتعدية، صدوا في أنفسهم لما صاروا يحلفون، أهل النفاق يحلفون فيُتركون، استمرءوا هذا فكان ذلك سببًا لبقائهم على نفاقهم فصدوا في أنفسهم عن سبيل الله، صاروا صادين في أنفسهم، ومتعدية أي صدوا غيرهم، مما قاله المفسرون هناك قالوا: صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، صدوا عن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، صدوا عن الجهاد في سبيل الله، كما قال الله -عز وجل-: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [سورة الأحزاب:١٨] صدوا عن الإنفاق في الجهاد وعلى المجاهدين ونحو ذلك "هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا" يقول: الذين هاجروا إلى المدينة زاحموكم، هذا عبد الله بن أُبي -قبحه الله-، {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} [سورة المنافقون:٧].

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة غافر:٣٨-٤٠].

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغا وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ}، لا كما كذب فرعون في قوله: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}، ثم زهّدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى -عليه الصلاة والسلام-، فقال: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ}، أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}، أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن فيها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال -جلت عظمته-: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}، أي: واحدة مثلها، {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله -عز وجل- ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاذ، والله تعالى الموفق للصواب.

قوله: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}، هذا مضى في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- أن السيئة بمثلها، ومضى الجواب أيضًا عما قد يرد على ذلك، وقد يستشكل كما في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣٠]، وقول الله -تبارك وتعالى-: {إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} [سورة الإسراء:٧٥]، فهذا مضى الجواب عنه، وأن الأصل هو جزاء السيئة بواحدة، وأما ذلك فاستثناء.

وهنا قال: {فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} قال: **أي لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله -عز وجل- ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاذ**، أيضًا مضى الكلام على هذا المعنى بغير حساب، قلنا: إن العطايا والهبات إذا كانت قليلة فإنها تكون معدودة محسوبة، فيعطى بالعد إذا كان قليلًا، يقال: أعطي -مثلًا- مائة درهم، عشرة آلاف درهم فيكون معدودًا، أما الكثير فكما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذكر الخليفة أو الذي يحثو المال ولا يعده فهذا للكثرة، والعرب تقول للعطاء الكثير الذي لا يكون محصورًا بعدد معين: فلان يعطي بغير حساب، يعني من غير أن يحسب، كما سأل العباس النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعطيه من المال ليعوضه ما فدى به نفسه حينما أُسر في بدر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أمره أن يأخذ

فكان يحثو من المال حتى عجز عن القيام والنهوض به، فطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر رجلًا فيحمل معه، فامتنع النبي -عليه الصلاة والسلام- فوضع بعضه، فهذا بلا حساب.

فالله -تبارك وتعالى- يرزقهم في الجنة بغير حساب، يعني رزقًا كثيرًا، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم يقول: بغير حساب يعني لا تبعة لهم في هذا العطاء الذي يُعطَوْنه، كما يقول مقاتل: بغير حساب يعني لا يحاسبهم عليه، الإنسان كما قال الله -عز وجل- في هذه الحياة الدنيا **{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** [سورة التكاثر:٨]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أكل من البسر ثم الشاة إلى آخره قال لأصحابه لأبي بكر وعمر ومن معه حينما أكلوا عند الأنصاري: ((لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة))[٥]، فالإنسان يحاسب على هذه النعم، يحاسب عليها من المطعوم والملبوس والمركوب وغير ذلك، ويُعرَّف بنعم الله -تبارك وتعالى- عليه ماذا عمل بها؟ ((لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه))[٦].

هناك في الجنة لا حساب ولا تبعة، فعلى هذا المعنى الذي ذكره مقاتل أنهم لا تبعات عليهم في هذا الإنعام والعطاء والإفضال، وهذا معنى آخر غير الأول، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ويتحققه تحققا تاما واستحباب الاجتماع على الطعام، برقم (٢٠٣٨)

٦ - رواه الطبراني في الكبير، برقم (١١١٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة غافر من الآية (٤١) إلى الآية (٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [سورة غافر:٤١-٤٦]**: يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله -صلى الله عليه وسلم- الذي بعثه، {وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} أي على جهل بلا دليل، {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه {لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} يقول: حقًا، قال السدي وابن جرير: معنى قوله: لا جرم: حقًا، وقال الضحاك: لا جرم: لا كذب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا جرم يقول: بلى إن الذين تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر، وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}** [سورة الأحقاف:٥-٦]**، {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ}** [سورة فاطر:١٤]**.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- فيما قصه من خطاب مؤمن آل فرعون لقومه: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ}، قوله: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي: **هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه**، وكذلك يمكن أن يقال: إنه جمع لهم في ختم ذلك بين الترغيب والترهيب، {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} الذي يأخذ المكذبين والظالمين والمجرمين والكافرين بعزته فيهلكهم ويعذبهم، فهذا يدل على جانب الأخذ والعذاب والترهيب، والغفار كثير الغفر فهذا يتصل بالترغيب فجمع لهم بين هذا وهذا، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- صحيح، فإن الله -تبارك وتعالى- يغفر حينما يغفر لا لعجز عن المؤاخذة، وإنما يغفر مع كونه متصفاً بالعزة، وفي القرآن مواضع من هذا، ومنه قول عيسى -صلى الله عليه

وسلم-: **{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [سورة المائدة:١١٨]، وقوله: **{لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}** هذا المعنى الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير قال: يقول: حقًا يعني أن لا جرم أي حقًا، وتكون لا نافية يعني لنفي ما ادعاه ورد ما زعمه هؤلاء الكفار المكذبون، وإذا كان "جرم" هذا فعلاً فيمكن أن يكون فاعله **{أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...}** الآية فتكون الجملة هذه في محل رفع فاعل، **{أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ}** هنا يقول: **حقًا، قال السدي وابن جرير: معنى لا جرم: حقًا، وقال الضحاك: لا جرم: لا كذب**، وهذا من ناحية المعنى يرجع إلى الأول، فإنه إذا كان حقًا فمعناه لا كذب، من جهة المعنى، **وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ليس له دعوة في الدنيا، ولا في الآخرة**، يعني حقَّ ووجبَ بطلانُ دعوته.

وبعضهم يقول: إن معنى كونه **{لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ}** يعني كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: إنه جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، وبعضهم فسر ذلك بالشفاعة أي لا يشفع لعابديه كما يرجون ويؤملون حينما عبدوه، وبعضهم فسر ذلك بالاستجابة يعني ليس له استجابة دعوة تنفع، **{لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ}**، وهي معانٍ متقاربة، وبعضهم يقول: إن معنى ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة: يعني دعوة توجب الإلهية في الدنيا ولا في الآخرة كما يزعم هؤلاء، وهكذا ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، يعني ليس له استجابة ولا شفاعة ولا ينفع ولا يضر، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر، قال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كله بمعنى واحد، وهذا كقوله: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ}** [سورة الأحقاف:٥] مِن هنا فُسر بالاستجابة، **{وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}** [سورة الأحقاف:٥]، **{إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ}** [سورة فاطر:١٤]، فالحاصل أن هذه العبارات ترجع إلى هذا المعنى أنه لا ينفع داعيه ولا يضره وهو بمنأى عنه، إلا قول من قال: إن المراد ليس له دعوة من جهة ما ادعوه يعني توجب له الإلهية، **{لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ}** والمشهور هو الأول الذي تتابعت أقاويل السلف فمن بعدهم على تقريره بعبارات متنوعة.

وقوله: {وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ}، أي: في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بعمله، ولهذا قال: {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله -عز وجل.

{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله -تبارك وتعالى-، هذا قال به طائفة من السلف، **{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ}** يعني المشركين، ولا شك أن المشرك بالله -تبارك وتعالى- داخل في هذا، ولهذا قال بعضهم: إن المراد بالمسرفين من تجاوز الحد الذي حده الله -تبارك وتعالى- له، فهؤلاء أهل الإشراك تجاوزوا توحيده والإيمان به، وصاروا بهذه المثابة حيث صرفوا العبادة إلى غيره من الأنداد والأوثان، فهذا يقول به ابن سيرين وقتادة، وبعضهم يقول هذا ويزيد عليه فيقول: هم المشركون المتعدون لحدوده القتلة للنفوس التي حرم الله -تبارك وتعالى- كما يقول ابن جرير، حيث جمع هذه المعاني بعبارة واحدة؛ لأن من السلف من قال: إن المسرفين هم سفاكو الدماء، أي المسرفون في الدماء، القتل، إزهاق النفوس، وبعضهم يقول: الجبار هو الذي يكثر من القتل، وقول القبطي على أحد القولين: **{أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي**

كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} [سورة القصص:١٩]، ولهذا قال بعضهم: مَن قتل نفسين فهو جبار أخذاً من الآية، **{إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ}** قالوا: قتل رجلًا بالأمس، وهذا يقول: **{أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}** فالذي يقتل نفسين يكون جبارًا، وعند التأمل قد يقال: إن هذا ليس بلازم -ليس الحديث عن هذا لكن الحديث يجر بعضه بعضًا- فإن المقالات التي في القرآن إذا لم يرد قبلها ولا في ثناياها ولا بعدها ما يدل على ردها فالأصل أنها صحيحة، هذا غالبًا.

ومن غير الغالب قوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف: **{قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}** [سورة الكهف:٢١]، اتخاذ المساجد على القبور محرم في شرائع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بدليل أن اللعن لحقهم، وصاروا شرار الخلق عند الله -تبارك وتعالى-، فهذا باطل -أي هذا القول- ولم يرد في الآية ما يدل على بطلانه، ولكن يقال: غالبًا، كعدد أصحاب الكهف، **{وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ}** [سورة الكهف:٢٢]، وفي قولين قبله قال: **{رَجْمًا}**.

فهناك في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ}** من قتل نفسين يكون جبارًا هذا لا يلزم، وإنما هو من وُصف بالتجبر سواء قتل نفسين أو غير ذلك، والله تعالى أعلم.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}**، هو موضع الحديث، قال: **خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله -جل جلاله-**، وبعضهم يقول: المسرفون هنا هم المتكبرون الجبارون كما يقوله عكرمة -رحمه الله-، فالحاصل أن هذه الأقاويل بتفسيره بالمشركين أو بمعنى الإسراف في القتل أو تجاوز الحدود التي حدها الله -تبارك وتعالى- جمعها ابن جرير -رحمه الله-، فعد ذلك جميعًا من الإسراف، "وأن المسرفين هم أصحاب النار" من أعظم الإسراف صرف الشكر والعبادة لغير المنعم، صرفها لغير من خلق، هذا من أعظم الظلم والإسراف.

والمقصود هنا ليس الإسراف في المطاعم ونحو هذا، وإنما المقصود بالإسراف هنا الإسراف الذي يوجب الخلود في النار؛ لأنه قال: **{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}** وإذا ذكر مثل هذا يعني أصحاب كذا، أصحاب النار فإن المقصود أهل الخلود فيها، والذي يوجب الخلود في النار هو الإشراك، ولهذا فسره هؤلاء من السلف بالإشراك، يعني قد يسأل بعضكم لماذا لا يقال: الإسراف هو التوسع في الملاذ من مطعوم ومشروب وما إلى ذلك كما هو معروف، **{وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}**؟ [سورة الإسراء:٢٦-٢٧]، هذا لا يوجب الخلود في النار، ولما ذكر أصحاب النار فمعناه أهل الخلود ففسروه بالإشراك، وهكذا قول من قال: الإسراف هنا في القتل لما ورد من النصوص في التشديد في سفك الدماء وقتل النفوس التي يحرم قتلها، **{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ}** [سورة النساء:٩٣].

{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ} أي: **سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفع الندم.**

قال هذا باعتبار أن عاقبة المكذبين والكافرين لا شك أنها عاقبة سيئة سواء كان ذلك بإدالة أهل الإيمان عليهم، أو بما قيضه الله -عز وجل- من تسليط عدوهم عليهم، أو كان ذلك بتحول عافيته عنهم، فإن العاقبة

لا تكون للكافرين والمكذبين، فقال لهم بهذا الاعتبار: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ} باعتبار أن عاقبة التكذيب والكفر عاقبة وخيمة، يعني لا يقتضي أنه كان يعلم أنهم سيغرقون، وستكون نهايتهم هذه، لكن هو يعلم في الجملة أن العاقبة لا تكون لهؤلاء من أعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

قال: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} أي: أتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم {إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، أي: هو بصير بهم -تعالى وتقدس- فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وأيضًا هو بصير بهم وبكفرهم وتكذيبهم وأعمالهم، فيأخذهم -تبارك وتعالى- ويجازيهم على هذا التكذيب والكفر، ولاحظ بعده أن الله -عز وجل- قال: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} [سورة غافر:٤٥] والفاء هنا تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، هذا الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإيماء والتنبيه، أنه يوجد ارتباط بين هذا وهذا، أن الذي بعدها مرتب على الذي قبلها، هو قال قبلها: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} يعني أتوكل عليه، وهو أمام فرعون الذي يتوقع منه البطش والتنكيل، فقال: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ}، فكانت النتيجة {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} يعني أن الله نجاه من بطش فرعون ومن كيده فلم يصل إليه منه شيء؛ لأنه توكل على الله كما قال الله تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق:٣]، فهذه نتيجة التوكل، فهذا مثال: هناك حكم عام {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، هذا أحد أفراد هذا الحكم العام مؤمن آل فرعون، قال: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} "فوقاه الله" هكذا كانت النتيجة، هذا معنى "فهو حسبه"، فأهل الإيمان والدعاة إلى الله والمحتسبون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر يكون هذا حالهم فيتوكلون عليه، وتكون لهم الكفاية، والحفظ والكلاءة {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا}، ولذلك فإن الله -عز وجل- يدفع عن هؤلاء الكثير مما لا يعلمون، ولو أن الإنسان بقي ينظر ويسمع ما يقال ويتتبع ما قد يصدر في حقه، أو يقال عنه حينما يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر أو نحو ذلك لربما قعد عن هذا كله، واجتمعت عليه المخاوف، وظن أن كيد هؤلاء الذين لا يروقهم هذا الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أنه واصل إليه، ولكن الله يدفع عنه الكثير وهو لا يشعر، فلا يلزم من هذا أنْ يعلم أمرًا معينًا من المكروه أنه يراد به أو نحو ذلك، فإن الله يدفع عن عبده أمورًا كثيرة، ولهذا ما على الإنسان إلا أن يتوكل على الله -تبارك وتعالى-، ولا يلتفت بعد ذلك إلى شيء آخر إذا كان عمله صحيحًا من كل وجه، وأيضًا في موضعه وفي محله اللائق به.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى -عليه الصلاة والسلام-، وأما في الآخرة فبالجنة، {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

حاق بمعنى أحاط بهم، وحل بهم، ونزل بهم، وهذا لا يقال إلا في المكروه، فلا يقال: حاق به فضل الله، حاقت به النعمة، وإنما يكون في المكروه حاق به العذاب، حاق به بأس الله ونكاله ونحو ذلك، حاق بآل فرعون يعني أحاط بهم، نزل بهم، هنا آل فرعون يدخل فيه فرعون، ويدخل فيه أيضًا أتباعه، فإن مثل هذا

تارة يراد به الشخص المعين، وتارة يراد به المجموع، يعني هذا ومن معه، من هم على شاكلته من أتباعه وأهل دينه، أما إذا جاء معطوفاً فإنه لا يكون داخلًا فيه مثلما نقول: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، فآل محمد -صلى الله عليه وسلم- هنا النبي غير داخل فيه، لكن فرعون يدخل في مثل هذا الموضع، هنا {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}؛ لأنه لا شك أنه داخل معهم؛ لأنه هو المقدم وهو السبب فيما حلّ بهم، كما قال الله -عز وجل-: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ} [سورة هود:٩٨] فهذا الذي قادهم إلى هذه العاقبة السيئة، وكذلك "اللهم صلّ على آل أبي أوفى" هو وأهله، كما قالت: صلّ عليّ وعلى زوجي، فإن أهله يدخلون معه، {رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} [سورة هود:٧٣] لكن غير هذا مما يكون مراداً به الشخص المعين {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} [سورة الصافات:١٣٠] وقد مضى الكلام على هذا.

{وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} هنا "سوء" صفة مضافة إلى الموصوف، يعني العذاب السيئ الذي يسوء صاحبه، قال: **وهو الغرق في اليمّ ثم النقلة إلى الجحيم** يعني جمع بين هذا وهذا باعتبار أنهم بعدما حصل لهم الغرق -فإن هذا الغرق هو عذاب- حل العذاب بهم بعده كما قال الله -عز وجل-: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [سورة نوح:٢٥] وهنا فسر بعذاب البرزخ قبل عذاب النار، والفاء تدل على التعقيب المباشر، فهنا لمّا حصل لهم هذا قبل يوم القيامة؛ لأنه بعده قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} إذاً الذي حل بهم قبل القيامة هو سوء العذاب، فيدخل فيه الغرق، ويدخل فيه عذاب البرزخ الذي ذكره الله -عز وجل- أيضًا بقوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.

قال: ولهذا قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة -رضي الله عنها- إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ الله عذاب القبر، قالت -رضي الله عنها- فدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا، من زعم ذلك؟)) قالت: هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذاب القبر، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((كذبت يهود، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة))[1]...

فهذه الجملة "لا عذاب دون يوم القيامة" ظاهرها العموم والإطلاق، لا عذاب يعني لا على المسلمين ولا على غير المسلمين.

قالت: ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: ((القبر كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا وضحكتم

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٥٢٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

قليلًا، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر؛ فإن عذاب القبر حق)) **وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.**

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها دلالة على عذاب البرزخ؟

الآية نازلة بمكة وهذه الحادثة التي ذكرتها عائشة -رضي الله عنها- مع اليهودية، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا عذاب دون يوم القيامة))، هذا في المدينة، فكيف يستدل بهذه الآية المكية على إثبات عذاب القبر؟ وهذا دليل مشهور جداً يستدل به العلماء على إثبات عذاب القبر من القرآن، أوضح آية في هذا هي هذه الآية في عذاب القبر، أما الأحاديث فقد تواترت في هذا الباب، ولكن الكلام في القرآن هل دل على عذاب القبر أو لا؟ أوضح الآيات التي يُستدل بها هي هذه، لكن الآية مكية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة نفى هذا، فما الجواب؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر أجوبة.

قال: والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ.

الآن هذا الجواب الأول، أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ.

قال: وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصًا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها.

إذاً الجواب الأول: أن الآية دلت على أن العذاب يكون قبل يوم القيامة في البرزخ على الأرواح، هي التي تعرض على النار، والذي أنكره النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا الجواب هو عذاب القبر، وعذاب القبر يقع على الروح والجسد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أنكر هذا؛ لأن اليهودية كانت تقول: وقاكِ الله عذاب القبر، فنفى أن يكون في القبر عذاب، وغاية ما دل عليه القرآن أن الأرواح تعذب، هذا الجواب الأول، يعني إذاً ليس هو بعذاب القبر، فالأرواح لها أحوال وانتقال وأمور غيبية فتكون هي التي تعذب وتعرض على النار.

قال: وقد يقال -هذا الجواب الثاني-: **إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب.**

فهذه اليهودية كانت تقول: وقاكِ الله عذاب القبر، فأنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، وأخبر أن اليهود هم الذين يعذبون في قبورهم.

قال: ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول: "أشعرتِ أنكم تفتنون في قبوركم؟، فارتاع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((إنما تفتن يهود))، قالت عائشة -رضي الله عنها-: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا إنكم تفتنون في القبور))، وقالت عائشة -رضي الله عنها-: فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك يستعيذ من عذاب القبر"[٢]، وهكذا رواه مسلم.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر، برقم (٥٨٤)، وأحمد في المسند، برقم (٢٤٥٨٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

فهنا قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما يفتن يهود))، والفتْن أصله بمعنى عرض الشيء على النار، يعرض الذهب أو غير الذهب على النار ليتميز ويتخلص خالصه من شائبه، فهنا قال: ((إنما يفتن يهود)) يعني يعذبون بالنار، وأثبت أن ذلك حاصل لليهود، وهذا فيه إثبات عذاب القبر لكن في حق اليهود، لاحظ الحديث الأول لما قالت: هل للقبر عذاب يوم القيامة؟ هذا عام فإن العذاب هنا نكرة في سياق الاستفهام "عذاب" أيّ عذاب لأي أحد؛ لأن العموم يتجه إلى الأفراد والأحوال والأزمنة والأمكنة، فهنا هي تسأل هل للقبر عذاب يوم القيامة؟ والمكان هنا المحدد الذي هو القبر، قال: ((لا، من زعم ذلك؟))، قالت: هذه اليهودية، قال: ((كذبت يهود))، ثم قال: ((لا عذاب دون يوم القيامة))، "لا عذاب" نكرة في سياق النفي، الأول في سياق الاستفهام، وهنا في سياق النفي، النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام كل ذلك للعموم، "لا عذاب" فيشمل العموم الأفراد أي لا عذاب على أي أحد قبل يوم القيامة، فظاهر الحديث الأول أن ذلك يشمل اليهود وغير اليهود، "لا عذاب دون يوم القيامة"، والرواية الثانية فيها إثبات أن العذاب واقع على اليهود، ولهذا فإن هذا القول الثاني أيضًا له وجه قوي، فالرواية الثانية تكون مفسرة للرواية الأولى، وهذه واقعة واحدة يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- تكلم فيها بكلام محدد معين، فهنا قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا عذاب دون يوم القيامة))، مع قوله: ((إنما يفتن يهود)) على سبيل الحصر، يعني لا عذاب على هذه إذا قلنا: إن هذا خاص باليهود فمعناها أن هذه المرأة التي كانت تخاطب عائشة بقولها: "وقاكِ الله عذاب القبر" أن هذا غير صحيح، لا عذاب عليكِ، لا عذاب على المسلمين، لا عذاب على أهل الإيمان، لا عذاب على هذه الأمة قبل يوم القيامة، ((إنما تفتن يهود))، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينطق عن الهوى، فأخبر أن اليهود يعذبون في القبور، فهذا إنما يُفتن به يهود، هذا خاص باليهود، وبناء عليه فهذا الجواب الثاني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أثبت عذاب القبر، لكن الذي نفاه هو أن يكون واقعًا في حق المسلمين، أو هذه الأمة، أو إذا توسعنا قلنا: في حق غير اليهود، إذا أخذنا بالعموم وأخرجنا اليهود؛ لأن "إنما" من أقوى صيغ الحصر، يعني تأتي في المرتبة الثانية من حيث القوة، قال ((إنما تفتن يهود)).

قال: وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أُوحي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك بخصوصها استعاذ منه، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

كأنه يقول: لو قيل هذا لكان أقرب، أو له أوجه، أو أحسن، يعني كأنه يميل إلى القول الأول، **وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بخصوصها استعاذ منه، والله -سبحانه وتعالى- أعلم**، ويمكن أن يجاب بأجوبة أخرى غير هذه، كأن يقال مثلًا: إن قوله تعالى في هذه الآية: **{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}** هذا خاص بآل فرعون، **{وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}** فهذا خاص بهم حتى أُوحي إليه -صلى الله عليه وسلم- بعذاب القبر، لكن إذا قيل: إن هذا خاص بهم فمعنى ذلك أن هذه الآية قد يُستشكل الاستدلال بها على إثبات عذاب القبر، ولا يقال: إن النبي -صلى الله عليه

وسلم- فهم من الآية أنها خاصة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بمعاني القرآن فلا يتطرق إليه هذا الفهم إن كان غير مراد لله -تبارك وتعالى-، لا يمكن.

إذا قلنا: إن هذه الآية خاصة بآل فرعون ومن ثم فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنكر عذاب القبر في البداية ثم أوحي إليه أنه واقع فعلى هذا لابدّ أن يقال: إذاً هذه الآية لا يستدل بها على إثبات عذاب القبر، وإنما هذا خاص بآل فرعون، لكن هذا القول فيه إشكال؛ ولهذا يُستبعد هذا القول، ويبقى عندنا جوابان:

الأول: أن الأرواح تعرض على النار، ولكن هل يقع عذاب في القبر؟ هذا الذي نفاه النبي -صلى الله عليه وسلم- أولًا، أو يقال: نفى ما يتصل بهذه الأمة لما خاطبت اليهودية عائشة -رضي الله عنها-، وأثبته لليهود، وهذا جواب يؤخذ من ظواهر الأحاديث، وهما متقاربان، لكن ما يؤخذ من ظواهر الأحاديث في الجمع بينهما أولى من غيره مما يرجع إلى الاجتهاد، والله أعلم.

والقول بأنهما قضيتان أيضًا يرد عليه إشكال باعتبار أن عائشة -رضي الله عنها- بعدما عرفت أن عذاب القبر حق ثم هي تسأل مرة أخرى، وإذا كانت عرضت المرة الأولى فأنكره النبي -صلى الله عليه وسلم- فهل تعرضه مرة أخرى وتقول: يهودية تقول لي.. وقد عرفت الجواب؟، فالله أعلم، ويمكن أن يقال: هي واقعة واحدة لكن الروايات جاء فيها اختصار، يعني في بعض الروايات جيء بالنتيجة المتقدمة يعني النهائية أنه في النهاية قال: حق، وفي أول الأمر كان قد أنكره فاختُصرت، يعني في نتيجة الرواية أثبت عذاب القبر، والله أعلم.

قال: وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً، وقال قتادة في قوله: {غُدُوًّا وَعَشِيًّا} صباحًا ومساء ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخًا ونقمة وصغارًا لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يُغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون.

هذا بقية قول ابن زيد.

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} هذه قراءة حمزة والكسائي ونافع وحفص **{أَدْخِلُوا}** يعني يقال للملائكة: **{أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}**، وقرأ الباقون: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** يعني يقال لهم: ادْخُلُوا، أمر لهم بالدخول.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله -عز وجل- إليه يوم القيامة))[٣]، أخرجاه في الصحيحين.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، برقم (١٣٧٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٦٦)، وأحمد في المسند، برقم (٥٩٢٦).

هذا تفسير لقوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} فعلى هذا القدر من الرواية المخرجة في الصحيحين أنه يكون من قبيل التفسير بالحديث الذي لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الآية، يعني أن المفسر عمد إلى الحديث وفسر به الآية اجتهادًا منه، وهذا على درجات، فتارة يكون في غاية الوضوح مثل هذا، يعني لا إشكال فيه أنهم يعرضون عليها غدوًا وعشيًا، هنا إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، وأحيانًا يكون ذلك محتملًا، وأحيانًا في غاية البعد، يعني أن المفسر يربط بين الحديث وبين الآية وليس بينهما ارتباط، لكن هنا زيادة ليست في الصحيحين، وإنما هي عند ابن مردويه: "ثم قرأ -يعني الآية-: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}"، فيكون هذا من قبيل التفسير النبوي الصريح للآية الذي إذا صح سنده فلا كلام معه، يعني لا يتعلق به اجتهاد المفسر، نحن عرفنا في بعض المناسبات في أصول التفسير أو شرح المقدمة أن التفسير بالسنة على نوعين في الجملة: نوع يرجع إلى اجتهاد المفسر حيث يربط بين الآية والحديث الذي لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، وهذا يحتمل الصواب والخطأ، ويدخله الاجتهاد والخطأ من المفسر، والنوع الثاني الذي لا يتطرق إليه الخطأ إذا صح سنده وهو ما ذكر فيه النبي - صلى الله عليه وسلم- الآية، فهنا إذا صحت الزيادة فيكون من النوع الثاني، وإلا فهو من النوع الأول.

{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ* وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [سورة غافر:٤٧-٥٠].

يخبر تعالى عن تحاجّ أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، {فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} أي: قسطًا تتحملونه عنا، {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا} أي: لا نتحمل عنكم شيئًا، كفى بنا ما عندنا وما حُمِّلنا من العذاب والنكال، {إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} أي: فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٨].

{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ} لما علموا أن الله -عز وجل- لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: { اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٨] سألوا الخزنة -وهم كالسجانين لأهل النار- أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ} أي: أوَمَا قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟، {قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا} أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع لكم، ولا نود خلاصكم ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: {وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} أي: إلا في ذهاب ولا يُتقبل ولا يستجاب.

الضلال هنا يفسر بالذهاب، يعني هذا أصل معناه اللغوي، الضلال في الأصل بمعنى الذهاب، ضل الماء في اللبن بمعنى اضمحل، وكذلك:

فآبَ مُضلوه بعينٍ جليةٍ *** وغُودر بالجولان حزمٌ ونائلُ

آب مضلوه أي دافنوه، وهكذا **{أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}** [سورة السجدة:١٠] يعني ذهبت أجسادهم وتحللت في التراب، وغير ذلك من المواضع، هي بمعنى الذهاب، وكما مضى أيضًا في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ}** [سورة يوسف:٩٥] يعني في ذهابك عن الحق في شأن يوسف -عليه الصلاة والسلام-، فهنا يفسر بالمعنى اللغوي، **{وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}** أي: ذاهب لا أثر له.

{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ * إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

[سورة غافر:٥١-٥٦].

قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال السدي: لم يبعث الله -عز وجل- رسولًا قط إلى قومٍ فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله -تبارك وتعالى- لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها.

هذا جواب سؤال مقدر وهو أن الله قال: **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، فهذا النصر الذي في الحياة الدنيا قد يقول قائل: بعض الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قُتل وكما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [سورة آل عمران:١٤٦] على هذه القراءة وهذا الموضع في الوقف وهو موضع محتمل قال به جماعة من أهل العلم: {وكأين من نبي قُتل} أي أنبياء كثيرون قتلوا فما فت ذلك في عضد الأتباع، هذا المعنى؛ لأنهم إنما يعبدون الله -عز وجل-: **{أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}** [سورة آل عمران:١٤٤]، {وكأين من نبي قُتل} أنبياء كثيرون قتلوا فما كان ذلك سببًا للضعف، وإلقاء ما باليد وترك ما هم بصدده من الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله بسبب قتل نبيهم، فكان معه جماعات كثيرة وأتباع كثيرون فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله من قتل نبيهم، وما قع عليهم من الجراح وما إلى ذلك من الأذى، على هذه القراءة وهذا الموضع من الوقف، وهو غير متكلف، إذاً هذا جواب سؤال مقدر، وكذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى- عن بني إسرائيل من قتلهم الأنبياء: **{وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء}** [سورة آل عمران:١١٢]، **{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ}** [سورة البقرة:٦١]، وقتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا، فالمقصود أنه إذا كان النبي يقتل فكيف كانت الغلبة والنصر له؟ **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا}**، هذا قتل، هذا السؤال، فذكر هنا هذا القول ليكون جوابًا: إنه لا يذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم من فعل بهم ذلك في الدنيا، يعني أن هذا هو النصر أنه يأتي من ينتصر لهم في الدنيا، وتقرير هذا أن يقال: أولًا هل المراد بالنصر هنا "لننصر رسلنا" كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** [سورة الصافات:١٧٣] فهنا الغلبة ما المراد بها؟ هذا النصر بماذا؟ هل هو نصر وغلبة بالحجة أو أنه نصر وغلبة في ميدان المعركة؟ يعني الذي وقع لموسى -صلى الله عليه وسلم- مع فرعون

فوقع السحرة ساجدين مثل هذا يعتبر نصراً، فهل يقال: إن هذا النصر المقصود به الغلبة بالحجة والبيان؟ فإذا كان يُحمل على هذا فلا إشكال، لا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم الغالبون والمنصورون بميدان الحجة والبيان؛ لأن أولائك ليس عندهم شيء، وعلى المعنى الثاني أن النصر في ميدان المعركة النصر بالسيف فهنا يرد هذا السؤال، وهذا الكلام يذكره أهل العلم في قوله: **{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}**، فالآن صار عندنا هذان الاحتمالان، فعلى الأول: لا إشكال من نصر الحجة والبيان وقد يُقتل، والثاني: أنه بالسيف، فهذا الذي يرد عليه السؤال: أنبياء يُقتلون والمقتول مغلوب، وما الدليل على أن المقتول مغلوب **{فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ}** [سورة النساء:٧٤]، فقابل القتل بالغلبة فهما متقابلان، فالمقتول غير غالب على هذا الاعتبار، **{فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ}**، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك جميعًا حاصل للرسل ولأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، نعم قُتل أنبياء، وهمّ اليهود بعيسى -صلى الله عليه وسلم- فرفعه الله إليه، ولم يكن له ظهور في ميدان المعركة والانتصار العسكري على هؤلاء اليهود، رُفع وبقي أصحابه يُستضعفون، ومع ذلك يقال: إن الغلبة والنصر تكون في الدنيا بنوعيها بالحجة والبيان وهذا ظاهر، وأيضًا في الميدان، كيف يكون هذا؟ يقال: لا يلزم أن يظهر على يده، وإنما العبرة بالعاقبة، أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين قُتلوا في أول الإسلام أو في أول الهجرة وما رأوا ظهور الإسلام، الذين قتلوا يوم أحد هؤلاء ما رأوا ظهور الإسلام، وانتصار الإسلام، ولكن ظهر على يد إخوانهم، بل أوضح من هذا أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- مع كونه رُفع الله -عز وجل- قال له: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [سورة آل عمران:٥٥]، فيكون هذا باعتبار العواقب، فالله -عز وجل- أظهر ما جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- من الدعوة إلى التوحيد والإيمان، وعبادة الله وحده لا شريك له ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فكانت وقائعه مع اليهود مشهودة، في كل وقعة كان الخسف والذل والصغار واقعًا في حق اليهود، فالخلاصة أن ذلك في المجالين، في الجانبين، وأنه باعتبار العاقبة، فهذا الظهور يمكن أن يكون على أيديهم، على أيدي أهل الإيمان بإدالتهم على عدوهم وانتصارهم فيشفي صدورهم بذلك، أو بإهلاك عدوهم كما فعل بقوم نوح أن يهلكهم بأمر من عنده، بالريح أو بالغرق أو غير ذلك، أو بتسليط من ينتقم منهم، كما سلط على اليهود بُخْتَنَصَّر، وغير ذلك من الوقائع المشهودة المشهورة، حيث يسلط الله -عز وجل- على هؤلاء من ينتقم منهم، هذا كله في الدنيا، يعني لا يشترط أن يكون على أيديهم هم، وإنما قد يكون بعذاب من عنده -تبارك وتعالى-، أو بتسليط عدو ينتقم الله -عز وجل- منهم به، ولو كان كافرًا، ويحتمل أن يكون هذا من العام المراد به الخصوص **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، ويكون المقصود بالرسل محمداً -صلى الله عليه وسلم-، عام مراد به الخصوص، والذي ألجأ هؤلاء إلى هذا القول هو ذلك السؤال والإشكال أن من الرسل من لم ينتصر، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فانتصر، وأظهر الله دينه قال: **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا}** هذا عام، والعموم فيه من الإضافة إلى المعرفة، "رسل" مضاف إلى الضمير، يعني جميع الرسل، قالوا: هذا عام مراد به الخصوص، كما في قوله: **{ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}** [سورة البقرة:١٩٩] على أحد الأقوال: "حيث أفاض الناس" يعني إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وقوله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ}** [سورة آل عمران:١٧٣] **{إِنَّ النَّاسَ}** يعني أبا سفيان **{قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ}** ليوم أُحد، في أحد

الأقوال، فيكون هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، لكنه خلاف الظاهر، والأول -والله أعلم- أقرب، وحاصله أن العبرة بالعاقبة، باعتبار أن العاقبة تكون لهم ولا يشترط أن يكون ذلك على أيديهم، كما أظهر الله -عز وجل- الحق الذي جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- على يد محمد -عليه الصلاة والسلام.

وهكذا نصر الله نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم، وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سُراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالى إليه؛ لِما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله -تبارك وتعالى- أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله -عز وجل- ودعوا عباد الله تعالى إلى الله -جل وعلا-، وفتحوا البلاد والرَّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى، والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجلّ، قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

الرَّساتيق جمع رُستاق، ومعنى الرُّستاق الناحية، وهي كلمة أعجمية فارسية، لكنهم عاملوها معاملة العربية وإلا فأصلها فارسية، الرَّساتيق تعني التقسيم مثلما نقول: محافظة يتبعها مدن وقرى ونواحٍ، فهي بحسب المساحة والاتساع في العمران ونحو ذلك تتفاوت، فالرساتيق هذه هي ليست كالمحافظات أو المدن الكبار وإنما دونها، يقول في التعريب والمعرَّب قال أبو منصور: وكان الفراء يقول: الرُّسداق وهو معرَّب، ولا تقل: رُستاق.

قال: وقوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} بدل من قوله: {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}.

هنا قال: **{وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** قال: الأشهاد هم الملائكة، وبعضهم يقول: إن الأشهاد يعني الملائكة يشهدون على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أنهم بلغوا قومهم، ويشهدون على أقوامهم بما أجابوا الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: إن الأشهاد هنا الملائكة والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا الذي قال به ابن جرير -رحمه الله-، وقال به قبله أيضًا بعض السلف -رضي الله عنهم.

قال: وقرأ آخرون "يوم" بالرفع كأنه فسره به.

{وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ} وهم المشركون {مَعْذِرَتُهُمْ} أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، {وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ} أي الإبعاد والطرد من الرحمة، {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} وهي النار قاله السدي، بئس المنزل والمقيل.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى} وهو ما بعثه الله -عز وجل- به من الهدى والنور.

{آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى}، فُسر بالنبوة، وفُسر بالتوراة، والله -عز وجل- وصف التوراة بأنها هدى، والكتاب الذي أنزل عليهم هو التوراة **{وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة الإسراء:٢]، **{فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}** [سورة المائدة:٤٤]، فهنا في قوله: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى}** من فسره بالنبوة فإن ذلك أيضًا صحيح، وتفسيره بالتوراة أيضًا صحيح، وهذه أمور بينها ملازمة، فإن الله أوحى إليه بالتوراة، أنزلها -تبارك وتعالى- عليه مكتوبة، فهي وحي مكتوب، ولا إشكال في هذا أو هذا، ولهذا بعضهم يقول: الهدى هو النبوة والتوراة، **{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}**، وبعضهم يعبر بعبارة قريبة أيضًا كقول من يقول: إن الهدى هي ما أوحاه الله -عز وجل- إليهم مما أمرهم به ونهاهم عنه، وأرشدهم إليه، ودلهم عليه، وهذا كان في التوراة وفيما أوحاه الله -عز وجل- إلى موسى -صلى الله عليه وسلم.

{وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله -تبارك وتعالى-، واتباع رسوله موسى -عليه الصلاة والسلام-، وفي الكتاب الذي أورثوه -وهو التوراة- {هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

هنا **{وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}**، فسره بالتوراة، أعني ابن كثير -رحمه الله-، وقال به جماعة باعتبار أنهم توارثوها، يعني بقيت التوراة فيهم يتوارثونها جيلًا عن جيل، وهم متعبَّدون بها، والنصارى هم من بني إسرائيل، وهم متعبَّدون أيضًا بالتوراة، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يأتِ ناسخًا للتوراة، وإنما نسخ بعض الآصار والأغلال ونحو ذلك، وإلا فإن شريعتهم كانت في التوراة، وبعضهم يفسر الكتاب بالكتب التي أنزلها الله -عز وجل- بعد ذلك على أنبياء بني إسرائيل، فصارت الكتب تنزل فيهم مثل الزبور والإنجيل، فهذا قال به بعض أهل العلم، **{وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}**، وبقي الكتاب في بني إسرائيل مدداً متطاولة إلى أن حول الله -عز وجل- عافيته عنهم، فقال الله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}** [سورة فاطر:٣٢] يعني هذه الأمة، وظاهر هذا -والله تعالى أعلم- أن هذا الإيراث معناه أنْ يَنزل الكتاب على أنبيائهم بعد أن كان ينزل على غيرهم، يعني جنس الكتاب، ومن هنا قال الله في حق هذه الأمة: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ}**، وليس المقصود به كتاب بني إسرائيل، وإنما ما نزله الله -عز وجل- على أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- من الكتب، صار الكتاب نازلًا في هذه الأمة على خير البشر -عليه الصلاة والسلام.

قال: وفي الكتاب الذي أورثوه -وهو التوراة- {هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، وهي العقول الصحيحة السليمة، وقوله -عز وجل-: {فَاصْبِرْ} أي: يا محمد، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}، هذا تهييج للأمة على الاستغفار، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ} أي: في أواخر النهار، وأوائل الليل، {وَالْإِبْكَارِ} وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ} يعني متلبسًا بحمده -تبارك وتعالى-، **{بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}** العشي يبدأ من زوال الشمس إلى الليل، والإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، فبعضهم فسر ذلك بالذكر، وبعضهم فسره بالصلاة، فيدخل في صلاة العشي على هذا الاعتبار الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والإبكار صلاة الفجر، والصلاة يقال لها: تسبيح، وهذا معروف، ومنه قول ابن عمر: لو كنتُ مسبحًا لأتممت تسبيحة

الضحى، ونحو ذلك مما ورد فيه استعمال هذا اللفظ، وهو معروف مشهور، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر في تفسير العشي قال: **أي: أواخر النهار وأوائل الليل، والإبكار هي أوائل النهار وأواخر الليل** يعني من الفجر إلى طلوع الشمس، وهذه الآية تضمنت أصلًا كبيرًا لو أن الأمة عملت بذلك على مقتضى اليقين لما التفتوا معه إلى شيء إطلاقًا، لا من كيد الأعداء وقوتهم، ومحاربتهم أنواع المحاربة العسكرية والمكايد والتدبير والدسائس، أو كان ذلك محاربة اقتصادية لهز اقتصادهم، والعبث بخيراتهم وما إلى ذلك، أو بتسليط بعضهم على بعض، فهنا الله -تبارك وتعالى- يذكر نزول الكتاب وما فيه من الهدى، ثم يبين أن هذا هدى وذكرى لأولي الألباب، ثم يأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالصبر الصبر على طاعة الله، وعن معصيته وعلى أقداره وألا يكون ذلك -يعني ما ينزل من الشدة- سببًا للشك، والتحول عن الثوابت والتنازل للأعداء **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}**، اصبر على الحق الذي أوحاه الله -عز وجل- إليك، ولا تتراجع ولا تخضع ولا تضعف أمام هؤلاء الأعداء على كثرتهم وقوتهم وكثرة كيدهم وشدة عداوتهم، **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}** فهذا يجعل المؤمن في غاية الطمأنينة إلى نصر الله -تبارك وتعالى-، وأن العاقبة له، لكن ما عليه إلا أن يقوم بهذا الواجب الذي أمره الله به، وهو الصبر وينتظم ذلك أمورًا كثيرة كما لا يخفى، ثم أمره بأمر له اتصال بهذا الجانب وهو الاستغفار من الذنوب، فإن الذنوب تكون سببًا لتسليط الأعداء، وكما ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن هذه الذنوب تكون جنودًا مجندة يجندها العبد على نفسه، وكتائب يرسلها ويبعثها مع عدوه، فأمره بالاستغفار، فالأمة مأمورة بالصبر على الحق والثبات عليه، وفي الوقت نفسه الاستغفار والتوبة إلى الله -عز وجل- والرجوع إليه من أجل ألا يكون ذلك من الجند الذي يسلط علينا، لو عملت الأمة بمقتضى هذا لما هزها شيء، وما غلبهم أحد، ولا ضاقت صدورهم بكيد عدوهم، ولم يحصل لهم شيء من الشك أو الضعف، أو البحث عن طرق هنا وهناك يتوصلون بها مع العدو إلى حلول في منتصف الطريق، فإن أولائك الأعداء لا يرضيهم شيء، حتى نتحول إلى دينهم، وإلا فإن عداوتهم متأصلة، وكلما قدم المسلمون لهم تنازلات طمعوا بالمزيد حتى ينسلخ من دينه، **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [سورة البقرة:١٢٠] هذه هي الغاية، فالذي يسعى خلف العدو يطلب رضاه، وأن يطروه وأن يثنوا عليه، وأن يحسِّن صورته عندهم معنى ذلك أنه يسعى خلف أمر يؤدي به إلى الانخلاع من الإيمان والدين بالكلية؛ لأن ذلك لا يحصل إطلاقًا حينما يكون معتصمًا بما أوحاه الله -عز وجل- إليه، فإنهم يعادونه أشد العداوة، وانظر إلى مقاييس العدو ومعايير العدو ما يتفوه به من تصنيف الناس إلى أصناف من حيث الاعتدال والتشدد وعدم ذلك، كل هذا يرجع إلى هذا المعنى، فإذا رأيت الأعداء يصفون أحدًا بأنه معتدل فاعلم أنه مضيع مفرط لا يثبت على الحق الذي أُمر بالتمسك به بحال من الأحوال، وهذا يمكن أن يكون معيارًا يؤخذ من أفواه الأعداء فيُعرف حال من لا تعرف حاله، إذا ذُكر من لا تعرف ما حاله ورأيت العدو يصفه بالاعتدال فاعلم أنه مضيع، هذا معيار سواء كان ذلك في أشخاص أو في طوائف، حينما يصفه العدو بأنه معتدل اعلم أنه مضيع حاز على شهادة حسن سيرة وسلوك، هذه الشهادة لا تأتي مجانًا، ولا تأتي من صادق، ولا تُعطى لصادق متمسك بالكتاب والسنة أبداً، هذا إذا لم تعرف مَن هذا الذي أثنوا عليه ومدحوه ويزكونه ويشيدون بجهوده، هذه حاله.

قال: وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} أي: يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، {إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ} أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع.

هنا قوله: **{إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** يعني ما في صدورهم إلا كبر، يعني هذا تفسير لهذه المجادلة التي تكون بهذه المثابة، **{بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}**، فهذا في كل مجادل بغير حجة ولا برهان، إنما يريد إبطال الحق أو إظهار الباطل، أو يريد المجادلة للمجادلة، فكل هؤلاء يصدق عليهم هذا الحكم العام **{إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** فكل من لا يتبع الحق بعد ظهوره وتبيُّن دلائله فإنه يكون بهذا الوصف "إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه"، فهنا **{مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** قال: **وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع...** **{إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** كأنه يقول: ما هم ببالغيه يعني مقتضى هذا الكبر وهو إبطال الحق، فإن هؤلاء الذين يتكبرون ويتعاظمون ويتعالون يريدون إبطال الحق، ولهذا ذكر المعلمي -رحمه الله- في كتابه "التنكيل" الجزء الذي أفرد بالقائد إلى تصحيح العقائد، وهو كتاب في غاية النفاسة والنفع، ذكر من أسباب رد الحق أشياء منها الحسد، وذكر حسد اليهود **{حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم}** [سورة البقرة:١٠٩]، وذكر منها الكبر، أن يكون هذا الحق جاء على يد من يرى أنه دونه، أو أنه يساويه، أو ينافسه أو نحو ذلك فيأنف ويتكبر، أو يأتي ممن يكرهه فلا يريد أن يظهر الحق على يده فيكون ذلك شرفًا له، أو أنه اعتراف ضمني بفضله عليه، فيأبى ويرد الحق، هذا سواء في القضايا الكلية يعني في رد الدين برمته مثلًا، أو رد السنة والاتباع كما يفعل بعض أهل البدع، أو كان ذلك في المسائل الجزئية، يرد الحق؛ لأنه جاء ممن يعتقد أنه دونه أو نحو ذلك، فهذا يكون بسبب الحسد أو الكبر، أو بسبب أمور متوهمة كالذي يعتقد أن هذا الاعتراف يزري على نفسه، وعلى قومه وعلى أتباعه، أو أن ذلك لأمور أخرى كتضييع الأعمار فهو في عمر مديد يقرر أمرًا ثم بعد ذلك يتخلى عنه وينقضه في أصحاب الباطل لاسيما الذين لهم أتباع، فقد يرفضه بسبب ذهاب هؤلاء الأتباع، وهكذا منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، فيرد ذلك؛ لأنه يتوقع أن تتلاشى هذه الشهرة وتذهب هذه المعيشة وهذه الأموال التي يأخذها، ولذلك فإن رجوع هؤلاء أصعب من غيرهم، وإنما يكون عادة الذين يقبلون ويرجعون هم الذين يتواضعون؛ ولذلك كان أكثر أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم من الضعفاء، أما العظماء والملأ فكانوا أعداء الرسل؛ لأنهم في صدورهم كبر، قال هنا: **{مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** يعني على كلام ابن كثير ما هم ببالغي مقتضى هذا الكبر، وبعضهم يقول: **{مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** أي: ببالغي الكبر؛ لأن شأنهم الصغار، والمتكبرون يكونون كأمثال الذرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم، وبعضهم كمجاهد يفسر ذلك بالعظمة في صدورهم، كبر أي تعاظم، كقريش في تعاظمها ونحو ذلك.

{مَّا هُم بِبَالِغِيهِ} والمقصود أن هؤلاء الذين تكبروا أو حسدوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ابن جرير: على أمر ليسوا بمدركيه وهو النبوة، حسدوه على النبوة، أن اصطفاه الله تعالى، **{لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}** [سورة الزخرف:٣١]، **{أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا}** [سورة الفرقان:٤١] يقولون ذلك

على سبيل الاحتقار والازدراء، فابن جرير -رحمه الله- يقول: هؤلاء الذين في صدورهم هذا الكبر والحسد يحسدونه على أمر ما هم ببالغيه وهو النبوة التي شرفه الله -تبارك وتعالى- بها، فهم ليسوا بمدركين لذلك ولا حاصلين عليه؛ لأن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس ذلك بالأمر الذي يدرك بالأماني.

قال: {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}، أي: من حال مثل هؤلاء {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة غافر من الآية (٥٧) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة غافر:٥٧-٥٩].

يقول تعالى منبهًا على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السماوات والأرض، وخلْقُهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما هو دونه بطريق الأولى والأحرى كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، وقال هاهنا: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض وينكرون المعاد استبعادًا وكفرًا وعنادًا وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا، ثم قال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} أي: كما لا يستوى الأعمى الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، {قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس، ثم قال تعالى: {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ} أي: لكائنة وواقعة، {لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} أي: لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمراد هنا بقوله: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** المراد بالخلق هنا الفعل وليس نفس المفعول، **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** أي: أن فعله -تبارك وتعالى- وهو خلق السماوات والأرض -هذه الأجرام العظام- أكبر من خلق الناس، إذ إن دلالة القدرة على خلقها أظهر من خلق الناس فهم أضعف، ولا مقارنة بين خلق السماوات والأرض وخلق البشر، وليس المقصود بقوله: **{أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}** يعني أشرف، وإنما المقصود أن ذلك أعظم وأدل على القدرة، فالذي خلق هذه الأجرام العظام قادر على إعادة الناس مرة أخرى، وهذا أحد دلائل البعث في القرآن، وهو يتكرر في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وقوله: **{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ}** قد مضى في الكلام على الأمثال الآيات التي يذكر الله -تبارك وتعالى- فيها هذا المعنى، وجعله العلماء من قبيل المثل حيث إن الأعمى هو الأعمى عن الهدى وهو الكافر،

والبصير هو من فتح الله بصيرته وهم أهل الإيمان، {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} فالله قد سمى الكافر والضال بالأعمى، والمهتدي بالبصير، كما أن الله –تبارك وتعالى– قد سمى الكافر بالميت، وسمى المهتدي والمؤمن بالحي، وسمى الجهل والكفر والضلال بالظلمات، وسمى الهدى بالنور، وقوله –تبارك وتعالى–: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ} يعني لا يستوون، كما قال الله –تبارك وتعالى–: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا} [سورة السجدة:١٨-٢٠] الآية.

فهؤلاء لا يستوون، ونفي الاستواء –كما مضى في مناسبات شتى– يحمل على أعم معانيه، لا يستوون في أعمالهم وأحوالهم، لا يستوون في الدنيا ولا يستوون في الآخرة، لا يستوون في العمل، ولا يستوون في الجزاء من كل وجه في العاجل والآجل.

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠]

هذا من فضله –تبارك وتعالى– وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: "يا مَن أحبُّ عبادِه إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا مَن أبغضُ عبادِه إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرَك يا رب" رواه ابن أبي حاتم، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يغضب إنْ تركتَ سؤاله * وبُنَيُّ آدمَ حين يُسأل يغضبُ**

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أُعطيتْ هذه الأمة ثلاثًا لم تعطهن أمة قبلها ولا نبي، كان إذا أرسل الله نبيًا قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلكم شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحـج:٧٨]، وكان يقال له: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[1] رواه ابن أبي حاتم، وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن الدعاء هو العبادة))، ثم قرأ: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[2] وهكذا رواه أصحاب السنن والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير أيضًا من طريق آخر.

وقوله –عز وجل–: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} أي: عن دعائي وتوحيدي، {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} أي: صغيرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي

---

١ – تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٦٩)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز– المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

٢ – رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب الدعاء، برقم (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة البقرة، برقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، برقم (٣٨٢٨)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٣٥٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٣٢٩)، وفي صحيح الجامع، برقم (٣٤٠٧).

-صلى الله عليه وسلم- قال: **((يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّر في صُوَر الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار))**[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**، ادعوني هنا فسرها بعضهم باعبدوني، واستدلوا على ذلك بما بعده، قالوا: هو قرينة تدل على هذا المعنى، وهو أن الله قال: **{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}**، فقالوا: دل ذلك على أن المراد بالدعاء هنا هو العبادة، فهذه قرينة من الآية نفسها، وقد تحتمل الآية معنيين فأكثر ويكون في الآية قرينة مرجحة لأحد هذه المعاني فهذه طريقة في الترجيح، واستدلوا أيضًا بطريق آخر في الترجيح وهو باعتبار الاستعمال الغالب في القرآن، قالوا: فإن الدعاء في القرآن غالبًا يكون بمعنى العبادة، وذهب آخرون إلى أن المراد بقوله: **{ادْعُونِي}** يعني اسألوني، الدعاء المعروف بالسؤال، ولا شك أنه عبادة، وبين القولين ملازمة من هذه الجهة؛ وذلك أن الدعاء عبادة من أجلّ العبادات، والآية إذا كانت تحتمل معنيين فأكثر وكان بينهما ملازمة ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها جميعًا، فيكون المعنى -والله تعالى أعلم- **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**، يعني اعبدوني ويدخل فيه ضمن العبادة السؤال، **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**، فاستجابته للعابدين بالثواب لأن العابد سائل بالفعل، يعني كيف قيل للعبادة دعاء؟ "ادعوني أستجب لكم"، ففسر الدعاء بالعبادة باعتبار أن السؤال على نوعين إما سؤال بالفعل فهذا الذي يركع ويسجد ويصوم ويقرأ القرآن وما إلى ذلك هو سائل بفعله، هو حينما يفعل هذه الأعمال إنما يريد الثواب؛ فهو سائل بهذا الاعتبار.

والنوع الثاني وهو السؤال بلسان المقال، يقول: يا رب اغفر لي، يا رب ارحمني، فهذا دعاء، وهذا دعاء.

هذا دعاء بالفعل، وهذا دعاء بالقول.

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، فإذا كان هذا من قبيل المشترك اللفظي مثلًا فحمله على معانيه أو على معنييه لا إشكال فيه إن لم يوجد ما يمنع من هذا، وهذا أبلغ في المعنى، والله تعالى أعلم، مع أن كثيرًا من أهل العلم حملوه على العبادة، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فسر قوله: **{ادْعُونِي}** أي: اعبدوني؛ وذلك بالمرجحات التي ذكرت آنفًا.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ظاهر كلامه هنا لما تكلم على الدعاء والسؤال وما إلى ذلك يدل على أنه يُدخل السؤال في ذلك، يعني في هذا المعنى، بل كأنه فسرها بذلك، لأنه من البداية يقول: هذا من فضله -تبارك وتعالى- وكرمه أن ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة، والآثار التي نقلها بعده هي في السؤال.

على كل حال يدخل فيه هذا وهذا، ابن جرير يقول: اعبدوني، وظاهر كلام ابن كثير: اسألوني، وقد مضى الكلام على هذا أيضًا مفصلًا في رمضان في الكلام على آيات الصيام، **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}** [سورة البقرة:١٨٦]، فالقولان المذكوران هنا مذكوران هناك، **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}** مع أن الآية هناك أوضح في السؤال، ولكن الله -تبارك

---

٣ - رواه الترمذي، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٩٢)، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (٦٦٧٧)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٠٤٠).

وتعالى- قال أيضًا في الآية نفسها تلك: {فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} يعني إذا سألني أجبته وأعطيته سؤله، ويدخل فيه أيضًا العبادة وإثابة العابدين؛ لأنهم في الواقع يدخلون في جملة السائلين، وإن كانت تلك الآية أوضح في دعاء المسألة، وهنا {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، اعبدوني واسألوني ويدخل في تلك العبادة الذكر، ذكر الله -تبارك وتعالى- والثناء عليه وهو من جملة العبادة، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة))[٤]، وقال بعده: ((وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير))، هنا ما ذكر سؤالًا وإنما ذكر هذا الذكر، هو يقول: ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة))، فهل المقصود أفضل السؤال هو السؤال يوم العرفة يا رب اغفر لي يا رب ارحمني يا رب أعطني؟ أو المقصود ما هو أعم من ذلك، فيدخل فيه الذكر؟ أو ما هو أعم من ذلك فيدخل فيه أنواع العبادات فيدخل فيه الصدقة، وسائر وجوه البر، فهذه كلها عبادات فتكون للعبادة مزية وشرف بحسب متعلقها من الزمان والمكان كما هو معلوم، فتكون الصدقة في يوم عرفة أفضل من الصدقة في غيره مثلًا، كما أن الذكر في يوم عرفة أفضل من الذكر في غيره، كما أن السؤال في يوم عرفة أفضل من السؤال في غيره، -الدعاء بمعنى السؤال-، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أطال في الكلام على مسألة الذكر، وأنه أحد نوعي الدعاء، يعني الثناء على الله -عز وجل-، وذكر أدلة على هذا كثيرة، وبهذا ينحل عنك هذا الإشكال في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة))، ثم ذكر خير ما قال صلى الله عليه وسلم- وخير ما قال النبيون قبله: لا إله إلا الله إلى آخره، فما ذكر سؤالًا، إذاً ((أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة)) يدخل فيه الذكر كما يدخل فيه السؤال.

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} هذه القرينة التي أشرت إليها آنفًا مما يحتج به من يقول: إن الدعاء المراد به العبادة؛ ولهذا يقول ابن جرير في هذا: "الذين يستكبرون عن عبادتي" يقول: عن إفرادي بالعبادة، ويدخل فيه كل من استكبر عن عبادة الله -عز وجل- سواء استكبر عن إفراده بالعبادة أو عن فعل العبادة نفسها، يأنف من ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} هنا ابن كثير يقول: **دعائي وتوحيدي**، فذكر الأمرين {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} هذه قراءة الجمهور، وفي القراءة الأخرى المتواترة قراءة ابن كثير بالبناء للمجهول {سَيُدْخَلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} والداخر هو الصاغر الذليل الحقير كما فسره بذلك ابن جرير، وهو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله-: **أي: صاغرين حقيرين.**

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يُحشر المتكبرون يوم القيامة، أمثال الذرِّ في صُوَر الناس))، هذا أحد الأمثلة لمَا ذكره ابن كثير -رحمه الله- في عدد من المواضع بهذا الكتاب فيما يتصل من كون العقوبة من جنس العمل، والذين راموا إلحاق الضرر بإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بإلقائه في النار ماذا عاقبهم الله -عز وجل- وماذا حكم عليهم؟، الذين أرجفوا بنبيهم شعيبًا -صلى الله عليه وسلم- ماذا كانت عقوبتهم؟، قوم

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في دعاء يوم عرفة، برقم (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١١٠٢).

لوط ماذا كانت عقوبتهم لما قلبوا الفطر؟ وذكر لهذا أمثلة، وهنا هذا يصلح مثالًا أيضًا لذلك وهو أن المتكبر يريد التعالي والترفع فيعاقب بنقيض قصده فيكون هؤلاء أمثال الذر في صور الناس يطؤهم الناس يوم القيامة، وهكذا قوله -تبارك وتعالى-: {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} يعني في حال من الصغار والذل وكانوا قد تكبروا فعاقبهم الله بضد قصدهم، وهذا كثير لو أنه جمع في رسالة أو نحو ذلك لكان نافعًا.

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة غافر:٦١-٦٥].

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش في النهار، وجعل النهار مبصرًا أي مضيئًا يتصرف فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات، {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال -عز وجل-: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة منحوتة؟!.

الليل جعله الله -عز وجل- سكناً، والنهار مبصرًا؛ ليبتغي الناس فيه معايشهم ومصالحهم، والإفك بمعنى القلب {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي كيف تصرون وتقلبون هذه الحقائق والدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته -سبحانه وتعالى.

وقوله -عز وجل-: {كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أُفِكَ الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته، وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} أي: جعلها لكم مستقرًا بساطًا مهادًا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال؛ لئلا تميد بكم، {وَالسَّمَاء بِنَاء} أي: سقفًا للعالم محفوظًا، {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، أي: فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور، {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، {وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من المآكل والمشارب في الدنيا، فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق، كما قال تعالى في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:٢١-٢٢]، وقال تعالى هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، ثم قال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: هو الحي أزلًا وأبداً لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: لا نظير له ولا عديل {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: موحدين مقرين بأنه لا إله إلا هو، {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

روى الإمام أحمد عن أبي الزبير قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُهلّ بهن دبر كل صلاة[٥]، رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

قوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**، بعض أهل العلم قال: إن هذا تعليم من الله -تبارك وتعالى- لعباده ليقولوه، يعني إذا قالوا: لا إله إلا الله يقولون: الحمد لله رب العالمين، هكذا فهم منها بعض السلف، ولكن هذا قد لا يكون مرادًا من الآية أن المقصود أن القائل الذي يقول: لا إله إلا الله أنه يتبع ذلك بقوله: الحمد لله رب العالمين، ولكن الله -تبارك وتعالى- أثنى على نفسه، حمد نفسه -تبارك وتعالى- ووصفها بأوصاف الكمال بوحدانيته، وكماله المقدس من كل وجه؛ ولهذا فإن الله -تبارك وتعالى- يحمد نفسه في كتابه إما ابتداءً: الحمد لله رب العالمين، وإضافة المحامد كما في سورة الفاتحة، باعتبار أن "ال" للجنس، كل المحامد مضافة إلى الله فهذا يقتضي أنه الواحد الأحد الذي اتصف بجميع صفات الكمال وهو الذي ينبغي أن يعبد وحده لا شريك له، وإما أن يكون ذلك تعقيبًا بقطع دابر الكافرين، **{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [سورة الأنعام:٤٥]، وتارة يكون ذلك بعد بيان دلائل القدرة وإقامة الحجة على الكافرين ونحو ذلك.

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة غافر:٦٦-٦٨].

يقول -تبارك وتعالى-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله -عز وجل- ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بين -تبارك وتعالى- أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله -جلت عظمته-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا} أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك، {وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ} أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطًا، ومنهم من يتوفى صغيرًا وشابًا وكهلًا قبل الشيخوخة كقوله تعالى: {لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} [سورة الحج:٥]، وقال -عز وجل- هاهنا: {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، قال ابن جرير: تتذكرون البعث، ثم قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي: هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى}** بعضهم يقول: الأجل المسمى هو الموت الذي كتبه الله -عز وجل- وجعل له أجلًا محددًا لا يتجاوزه الإنسان ولا يتقدم عنه، وبعضهم يقول: إنه يوم القيامة، الإنسان يمر

---

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦١٠٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٤).

بهذه الأطوار، يكون في حال العدم ثم بعد ذلك يكون بأطوار شتى في بطن أمه، ثم يخرج إلى هذه الحياة الدنيا ويمر بأطوار ثم بعد ذلك ينتقل إلى عالم البرزخ، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الطور الأعظم والأكبر الأبدي السرمدي وهو يوم القيامة، فهذه الأطوار جميعًا هي مراحل يقطعها، فكما كان في بطن أمه لابدّ من وجود أطوار أخرى لجنس الإنسان؛ وذلك أن يخرج مَن شاء الله -عز وجل- خروجه من بطن أمه ثم يعيش ما شاء الله له أن يعيش في هذه الحياة، ثم لابدّ من طور آخر، ثم الطور النهائي وهو يوم القيامة ودخول الجنة أو النار، {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} لعلكم تعقلون توحيد الله -تبارك وتعالى- وقدرته البالغة في خلقكم في هذه الأطوار، تعقلون أن الله -تبارك وتعالى- ما خلقكم عبثًا ولن يترككم هملًا، بل لابدّ لكم من أن تصيروا إليه -تبارك وتعالى- فيجازيكم على أعمالكم، وأن هذا الذي فعل بكم ذلك جميعًا وقد أخرجكم من العدم، {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [سورة نوح:١٤] قادر على إعادتكم مرة أخرى، فهذا من أدل الأدلة على البعث، هذا الذي خلق وأنتم تقرون أنه الله -تبارك وتعالى- فكيف تنكرون الإعادة ثانية وقد أوجدكم من لا شيء؟!.

{فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة غافر:٦٨] أي: لا يخالَف ولا يمانَع، بل ما شاء كان لا محالة.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [سورة غافر:٦٩-٧٦].

يقول تعالى: ألَا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟!، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} أي: من الهدى والبينات، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} هذا تهديد شديد ووعيد أكيد من الرب -جل جلاله- لهؤلاء، كما قال تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:١٥].

قوله -تبارك وتعالى- في صفة هؤلاء المجادلين في آيات الله مع وضوحها وظهورها: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} الكتاب هنا يحتمل أن تكون "ال" عهدية، بمعنى أنه القرآن، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ} يعني هذا القرآن، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} فيكون الذي بعده -هذا الذي أرسل الله به الرسل- هي الكتب التي أنزلها على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، {كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ} أي: القرآن {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} يعني سائر الكتب، {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥].

وهذا قال به كثيرون ممن فسروا قوله: {بِالْكِتَابِ} أنه القرآن قالوا: {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} يعني سائر الكتب، إلا أن ابن جرير -رحمه الله- قال: {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} يعني من توحيد الله -تبارك وتعالى- وإخلاص العبادة له، يعني أن هذا أمر مشترك أن الله أرسل الرسل جميعًا يدعون إلى عبادة الله وحده، أوحى إليهم جميعًا وأمرهم أن يقولوا للناس: {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف:٥٩]، فابن جرير

يقول: الذي أرسل الله به الرسل هو الأمر بالإخلاص والتوحيد والعبادة، والذين قالوا: **{وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}** يعني الكتب السابقة قولهم أوسع وأشمل مما قاله ابن جرير -رحمه الله-؛ حيث إنه يتضمن ما ذكره ابن جرير؛ لأن هذه الكتب قد تضمنت هذا المعنى، ودلت عليه دلالة ظاهرة، بل هو المقصود من بعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وكل ما فيها من التفاصيل بأنواع التعبدات فهي داخلة في عبادة الله والإخلاص له وتوحيده، فكل هذه العبادات هي توحيد، كل ما يعمله الناس طلبًا لمرضاة الله -تبارك وتعالى- مما شرعه لهم فهو من جملة توحيده إذا صحت فيه مقاصدهم، ومن أهل العلم من يقول: إن "ال" للجنس في **{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ}** يعني كذبوا بالكتب، وعلى هذا هنا ابن جرير يقول: **{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}** يعني من الهدى والبيان، والذين قالوا: **{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ}** يعني سائر الكتب جنس الكتب قالوا: **{وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}** أي مما أوحى الله إليهم مما ليس في كتبهم، يعني كما أوحى الله -عز وجل- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسنة، **{وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}** يعني القدر الزائد على ما في الكتب المنزلة، يعني كذبوا بالوحي في صورة كتاب أو فيما كان زائدًا على ذلك، **{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**.

وقوله -عز وجل-: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ} أي: متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال تعالى: {فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [سورة غافر:٧٢]، كما قال -تبارك وتعالى-: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٣-٤٤]، وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٦٨]، وقال -عز وجل-: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [سورة الواقعة:٤١-٤٤] إلى أن قال: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الواقعة:٥١-٥٦]، وقال -عز وجل-: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ} [سورة الدخان:٤٣-٥٠] أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ}** الأغلال جمع غُل، وهو ما يربط في العنق، **{إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ}**، يعني يُسحبون بهذه السلاسل، وفي قراءة غير متواترة: **{يَسْحَبُونَ}** يعني أن هذه السلاسل في حال من الطول يَسحبونها، ولكن الأظهر أنهم يُسحبون بها، والله -تبارك وتعالى- قال: **{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}** [سورة الحاقة:٣٢] سبعون ذراعًا أي خمسة وثلاثون متراً تقريبًا، وقد تكلم أهل العلم على معنى **{فَاسْلُكُوهُ}**، فبعضهم يقول: تدخل هذه من ناحية في جسده وتخرج من ناحية أخرى -نسأل الله العافية-، يعني تدخل من فمه وتخرج من دبره، و**{إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}**، يسجرون ذكر أهل العلم لها معنيين:

الأول: قالوا: هو من سجَرتُ التنور يعني أوقدتُه.

والثاني: سجَّرته بمعنى ملأتُه بالوقود، ويكون على الأول "يسجرون" يعني توقد بهم النار، يكونون هم وقود النار، وهذا المعنى يدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}** [سورة البقرة:٢٤]، فالنار توقد بهؤلاء الناس، وهذا الذي قال به مجاهد، ومقاتل واختاره ابن جرير -رحم الله الجميع.

والمعنى الثاني: تُملأ النار بهم، والله -تبارك وتعالى- وعد كلًّا من الجنة والنار بملئها، أنها تملأ، والنار لا يزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ وبين المعنيين نوع ارتباط، **{يُسْجَرُونَ}** يعني توقد النار بهم، والمعنى الثاني: هو أنها تُملأ، سجّرت النار ملأتها بالوقود، تُملأ النار بهم، فهذا كله حاصل لهؤلاء توقد بهم النار، وتملأ النار بهم، لكن المعنى الأول هو الأظهر وهو الأشهر، ويدل عليه كما سبق قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}**.

ثم قوله: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ} أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم؟ {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا}، أي: ذهبوا فلم ينفعونا، {بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا} أي: جحدوا عبادتهم.

قوله: **{ضَلُّوا عَنَّا}** ليس المقصود -والله تعالى أعلم- أن هؤلاء فُقدوا، بمعنى فقدت ذوات هذه الأصنام، وإنما **{ضَلُّوا عَنَّا}** بمعنى أنهم عرفوا أنها ليست بشيء، وليس لها شيء، لا تنفع ولا تضر، ولا تشفع، ضلوا عنا.

أي: جحدوا عبادتهم كقوله -جلت عظمته-: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣]، ولهذا قال -عز وجل-: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ}، وقوله: {ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ} أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم، {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا في سبب تعذيبهم وإضلالهم: **{ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}**، الفرح هنا مقيد أنه بغير الحق، والفرح يأتي مذمومًا أحيانًا في كتاب الله -تبارك وتعالى- كما ذكر الله في خبر قارون لما خرج على قومه في زينته فقال له أهل الإيمان الذين عرفوا الله والدار الآخرة: **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** [سورة القصص:٧٦]، معلوم أن الفرح على أنواع منه ما هو مشروع، **{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ}** [سورة يونس:٥٨] فرح بانتصار الإسلام وعز الدين، وظهور الحق، وما أشبه ذلك، فهذا فرح مشروع يحبه الله، ويؤجر الإنسان عليه، ومنه الفرح بأعياد المسلمين، وإظهار ذلك فهذا من تعظيم شعائر الله، وهناك فرح مباح كفرح الإنسان حينما ينجح في الاختبار، أو يحصّل شيئًا من مطالبه المباحة ونحو هذا، فهذا لا إشكال فيه.

والنوع الثالث: وهو الفرح المحرم، وهو على نوعين:

النوع الأول: أن يفرح بشيء محرم، كالفرح بالظفر بالمعصية من المكاسب المحرمة، أو من الفواحش أو غير ذلك مما يسخطه الله -تبارك وتعالى-، فهذا فرح محرم.

النوع الثاني من هذا الفرح المحرم وهو المقصود -والله تعالى أعلم- بقوله: **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** هو الفرح الذي يحمل على الأَشَر والبطَر فهذا مذموم، **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** وهذا لا يزال مستعملًا معروفًا إلى اليوم، يقال: فلان فرِحٌ بنفسه، آل فلان فرِحون بأنفسهم، يعني يشعرون بشيء من الزهو، فهذا الفرح الذي يحملهم على نوع من التعالي على الناس، والكبر، ورؤية النفس وما أشبه ذلك، فهذا مذموم، فهنا قوله -تبارك وتعالى-: **{ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}** هذا الفرح بعض المفسرين يقول: هو البطر والتكبر، وهذا بمعنى ما ذكرته آنفًا في النوع الثاني من الفرح المحرم، وهو الذي يَحمل على البطر والكبر والتعالي والتعاظم والأشر وما أشبه ذلك، ففُسر بهذا.

وهكذا قال مجاهد -رحمه الله- وجماعة.

ولا يبعد منه أيضًا قول من قال كالضحاك: إنه السرور، هو لا يقصد مطلق السرور، وإنما المقصود سرور خاص مذموم، هذا الفرح الذي يَحمل على شيء من الأوصاف التي ذكرتها آنفًا، وبعضهم فسره بالبطر والخيلاء، وهذه كلها عبارات متقاربة إلا أن ابن جرير -رحمه الله- فسر الفرح هنا -لأنه جاء مقيدًا بغير الحق- بالفرح بمعصية الله -تبارك وتعالى، **{تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}** يعني الباطل والمعاصي، إلا أن هذا القيد في الواقع -والله تعالى أعلم- لا ينافي ما سبق من المعنى الذي ذكره بعض السلف، فإن من يفرح كفرح قارون الفرح الذي يورثه البطر والخيلاء الواقع أنه فرحٌ في الأرض بغير الحق؛ لأن الإنسان ينبغي أن يزيده ما أعطاه الله وأولاه من النعم والإفضال إخباتًا وتواضعًا لربه وخالقه -جل جلاله-، لا أن يتعاظم ويتعالى إذ الكبر لا يصلح للإنسان، إنما هو وصف مختص بالله -سبحانه وتعالى-، هذا هو الفرح، فيدخل فيه الفرح الذي يحمل على الأشر والبطر والعدوان، ويدخل فيه الفرح بمعصية الله -تبارك وتعالى-، يعني الفرح المذموم.

{وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم**، المرح بعضهم فسره بالزيادة في البطر، يعني أن الفرح هو البطر، والمرح هو التوسع في ذلك والزيادة فيه، وبعضهم فسره بالعدوان، يعني أن الفرح صفة في النفس تورث البطر، وأن المرح هو قدر متعدٍّ وهو العدوان كما يقول الضحاك -رحمه الله-، وبعضهم فسره بالخيلاء والبطر فيكون بمعنى الفرح، وبهذا أيضًا فسره ابن جرير -رحمه الله- بأنه البطر والأشر **{تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ}**.

على كل حال الفرح -والله تعالى أعلم- هو صفة في النفس، وهو على أنواع، والمحرم منه ما كان متعلقًا بالمعصية، أو كان من قبيل الأشر والبطر، والمرح كأنه سلوك خارجي، إما أن يكون متسببًا عن هذا الفرح بالتوسع في الملاذ أو إظهار مقتضى هذا الفرح بالأقوال والأفعال، أو يكون ذلك مستقلًا عنه، يعني ألا يكون أثرًا للوصف النفساني، فهو قد يكون مظهرًا من مظاهر هذا الفرح من سلوك خارجي، وقد يكون فعلًا مستقلًا، والغالب أنه يكون متولدًا عن الأول -والله تعالى أعلم-، تقول: فلان يمرح، فلان مرح ومارح، فهذا قد يكون بأمور وبحدود لا يتوصل بها إلى الحرام، وقد يكون ذلك بأن يرتع العبد فيما حرم الله -تبارك وتعالى- عليه، ويتعدى حدوده، ويواقع مساخطه.

فهؤلاء في نفوسهم يعيشون هذا الزهو والفرح المذموم، وفي سلوكهم الخارجي هم في حال من التوسع لا يتقيدون فيها بما حده الله –تبارك وتعالى– لهم، والله أعلم.

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} [سورة غافر: ٧٧-٧٨].

يقول تعالى آمرًا رسوله –صلى الله عليه وسلم– بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعْل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا وفي الآخرة {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، أي: في الدنيا، وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليهم مكة وسائر جزيرة العرب في حياته –صلى الله عليه وسلم.

وقوله –عز وجل–: {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسليًا له: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ} كما قال –جل وعلا– في سورة النساء، سواء أي منهم من أوحينا إليك خبرهم، وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة.

كما قال تعالى: **{وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [سورة النساء:١٦٤]، وهكذا في قوله –تبارك وتعالى–: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}** [سورة إبراهيم:٩] الآية.

قص الله خبر بعض الرسل –عليهم الصلاة والسلام– وبعض الأمم، وهناك رسل وأمم لم يقص الله –تبارك وتعالى– خبرهم، كما قال الله –تبارك وتعالى–: **{وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا}** [سورة الفرقان:٣٨].

{وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق من عادات إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل على صدقه فيما جاءهم به، {فإذا جاءَ أمرُ الله} وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين {قُضِي بالحقِّ}، فينجِّي المؤمنين ويهلك الكافرين ولهذا قال الله –عز وجل–: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، ذكر هذا ابن كثير، أي الآيات التي تدل على صدق ما جاء به من خوارق العادات، المعجزات.

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ} [سورة غافر:٧٩-٨١].

يقول تعالى ممتنًا على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية والأقطار

الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}** هنا خصه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بهذه الأصناف الثلاثة الإبل والبقر والغنم؛ وذلك أن الله -تبارك وتعالى- كما في سورة الأنعام لما ذكر الأزواج الثلاثة **{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}** [سورة الأنعام:١٤٣] ثم ذكر من البقر اثنين وذكر من الإبل اثنين، وذكر من الغنم بنوعيها الضأن والمعز، هذه هي الأنعام، وإذا قيل: بهيمة الأنعام فهي المقصود بذلك، وقال: **{وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا}** [سورة الأنعام:١٤٢]، وابن جرير -رحمه الله- حمله على ما هو أوسع من ذلك فجعله كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}** [سورة النحل:٨] إضافة إلى غيرها من الأنعام كالبقر والغنم، فجعل الأول داخلًا فيه الخيل والبغال والحمير، وأنها من قبيل المركوب، ولم يخص ذلك بما يؤكل لحمه أو بهذه الأصناف الثلاثة، "الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون" وأكثر المفسرين حملوا ذلك على الأصناف الثلاث وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، و"مِن" في قوله -تبارك وتعالى-: **{لِتَرْكَبُوا مِنْهَا}** يحتمل أن تكون تبعيضية بمعنى أن الذي يركب منها هو الإبل، وعلى قول ابن جرير: الإبل والخيل والبغال والحمير، **{وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}** الذي يؤكل يكون مختصًا، ما يؤكل من هذه الأصناف على قول ابن جرير، فالحمير والبغال لا تؤكل بخلاف الخيل والإبل والبقر والغنم، ويحتمل أن تكون "مِن" ابتدائية أي منها ركوبكم، ومنها تأكلون، فالركوب مبتدأ منها وكذلك الأكل، ويكون ذلك باعتبار المجموع، ولا يعني هذا أن كل واحد منها أو كل صنف منها يكون مركوبًا أو مأكولًا على قول ابن جرير بإدخال الحمير والبغال، **{وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ}** كالأصواف والأوبار ونحو ذلك، **{وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}** وهذه في الإبل، حيث يتوصلون بها إلى الأماكن البعيدة **{إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ}** [سورة النحل:٧].

ولذا قال -عز وجل- هاهنا: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}، وقوله -جل وعلا-: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ} أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، {فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ} أي: لا تقوون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر:٨٢-٨٥].

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك

لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءت به الرسل، قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب، وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالاتهم، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به، {وَحَاقَ بِهِم} أي: أحاط بهم، {مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه، {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، {قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} أي: وحدوا الله -عز وجل- وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: {آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة يونس:٩٠]، قال الله -تبارك وتعالى-: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس:٩١] أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى -عليه الصلاة والسلام- دعاءه حين قال: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٨٨]، وهكذا قال تعالى هاهنا: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: ((إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر))[٦] أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملَك فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} كما سبق في مناسبات شتى يمرون على ديار هؤلاء المعذبين كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وهكذا في المواضع التي أمر الله فيها بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين، وهذا السير الذي أمر به في القرآن إنما وجه الخطاب فيه لمن كان عنده نوع شك أو تردد، وأما أهل الإيمان الذين قد أيقنوا بالتوحيد، وبما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن هؤلاء ليسوا بحاجة إلى ذلك، فهم غير داخلين في هذا الخطاب الذي يأمر الله به في السير في الأرض؛ للنظر في عواقب المكذبين، ولهذا يقال: لا يشرع السفر إلى ديار المعذبين وقصْد ذلك، وإنما خوطب به من كان عنده شك أو تردد، وقوله -تبارك وتعالى-: {كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ} وهذا كما سبق أن من الأمم السابقة من هي أشدّ وآثارهم باقية كالأهرام، وكذلك مدائن صالح ونحو هذا مما ظهر ويظهر حيناً بعد حين مما انطمس واختفى من معالم حضارتهم مما يظهر عليه الناس حيناً بعد حين، فهذا كله يدل على أن هؤلاء كانوا في حال من التمكن والقوة، قد يزيد هذا التمكن والقوة على ما نحن فيه اليوم مما ظهر من المخترعات والمكتشفات وما إلى ذلك؛ لأن قُوى الناس وقُدَرهم اليوم تعجز عن معرفة بعض تلك الإمكانات والقُدَر التي كان عليها أولائك الناس، كيف استطاعوا فعل هذه الأشياء بهذه الطرق الدقيقة العجيبة، سواء كان ذلك في البناء أو النحت أو غير ذلك.

---

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، برقم (٤٢٥٣)، وأحمد في المسند، برقم (٦١٦٠)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٩٠٢).

قال الله -تبارك وتعالى-: {كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} "ما" هذه تحتمل أن تكون استفهامية يعني فما الذي أغنى عنهم ما كانوا يكسبون؟ ماذا أغنى عنهم؟ ماذا أغنت عنهم هذه القوى والقُدَر والإمكانات؟ وتحتمل أن تكون نافية {فَمَا أَغْنَى} لم يُغنِ عنهم ذلك من الله شيئًا.

وهكذا قوله: {مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} "فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون" تحتمل "ما" الثانية أن تكون مصدرية ، يعني فما أغنى عنهم كسبهم، وتحتمل أن تكون موصولة فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، يعني الذي كانوا يكسبون، {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}، الظاهر -والله تعالى أعلم- أن هذا العلم الذي فرحوا به هو ما كان عندهم من المعلومات والمعارف الدنيوية التي صاروا بها ممكنين وبنوا تلك الحضارات وشيدوا تلك الممالك، ففرحوا بهذا، فرحوا بقُدرهم وإمكاناتهم ومعارفهم وعلومهم الدنيوية التي قال الله -تبارك وتعالى- عنها: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الروم:٧]، فهذا يدل على أن معارفهم كانت هائلة، حيث حملهم ذلك على الفرح بها، وتعاظم ذلك في نفوسهم حتى إنهم كذبوا الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وازدروا علومهم، قال: {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} وقد مضى الكلام على مثل هذا قريبًا، فإن حاق كما سبق بمعنى أحاط، وقلنا: إن ذلك كما يقول بعض أهل العلم: إنما يستعمل في إحاطة المكروه خاصة، أحاط بهم يعني العذاب {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} هذه سنة الله -عز وجل-، ولم يُستثنَ من ذلك إلا قوم يونس لما رأوا العذاب فأنابوا وتابوا فنفعهم ذلك، وقُبل منهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فصلت من الآية (١) إلى الآية (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين.

تفسير سورة فصلت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [سورة فصلت:١-٥].

يقول تعالى: {حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل:١٠٢]، **وقوله: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}** [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٤]**، وقوله -تبارك وتعالى-: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} أي: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}** إضافة التنزيل إلى هذين الاسمين الكريمين "الرحمن الرحيم" فيه أن تنزيل هذا القرآن هو من آثار رحمته -تبارك وتعالى- بعباده، فإن من رحمته أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وقوله -تبارك وتعالى-: **{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}**، يقول هنا: **أي بُينت معانيه وأحكمت أحكامه**، هذا معنى، وبعضهم يقول: إن المراد بذلك **{فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}** أي: جاءت بأساليب متنوعة للترغيب والترهيب وضرب الأمثال، وذكر القصص، فلوّن لهم الخطاب ونوّعه بحيث يحصل بذلك تمام البيان والإيضاح للحق فلا يبقى في الحق لبس، وبعضهم يقول: إن المراد بتفصيل الآيات يعني بين الله فيه الحلال والحرام والطاعة والمعصية، فهذا هو التفصيل، كما يقوله بعض السلف كقتادة، وبعضهم يقول: إن المراد **{فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}** بالوعد والوعيد، كما يقول الحسن البصري، وبعضهم يقول: **{فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}** يعني ببيان الثواب والعقاب، وهذا يرجع إلى بعض ما ذكر.

هذه الأقاويل هي أشبه بكونها من قبيل ضرب المثال، يعني التمثيل على هذا التفصيل، فإن تفصيل الآيات ينتظم ذلك أن الله بينها بيانًا لا يدع في الحق لبسًا، فبين الحلال والحرام، وبين الجزاء والثواب والعقاب، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه، والله -تبارك وتعالى- في هذا التفصيل تارة يذكر علمه **{فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ}** [سورة الأعراف:٥٢]، وهذا التفصيل هو من آثار هذا العلم، وتارة يذكر أن هذا التفصيل بعد الإحكام **{أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ**

{فُصِّلَتْ}، وتارة يذكر إنزال هذا الكتاب بهذه الصفة **{وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}** [سورة الأنعام:١١٤]، وكل ما ذُكر -والله تعالى أعلم- داخل في هذا المعنى، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه**، وهذا لا ينافي ما سبق، وقوله: **{قُرْآنًا عَرَبِيًّا}** قال: **أي في حال كونه {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} بينًا واضحًا**، يعني أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اعتبر هنا النصب في هذا الموضع **{قُرْآنًا عَرَبِيًّا}** أنه منصوب على الحال، حال كونه قرآنًا عربيًا، وهذا أحد الأقوال الواضحة في إعرابه، وقيل غير ذلك، يعني بعضهم يقول مثلًا: إنه منصوب بفعل مقدر، والأصل عدم التقدير، ومهما أمكن الاستغناء عنه فهذا أولى.

{قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي: في حال كونه قرآنًا عربيًا واضحًا فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [سورة هود:١]، **أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [سورة فصلت:٤٢]، **وقوله تعالى: {لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي: إنما يعرف هذا البيانَ والوضوحَ العلماءُ الراسخون.**

بعضهم يقول: **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** وهم الذين أُنزل بلغتهم، أي العرب الذين خوطبوا به، فهم يفهمون هذا الخطاب، يعلمون معانيه ويفهمونها، فهم أهل اللسان، هكذا فسره بعض السلف، وبعضهم حمل ذلك على محمل آخر وهو أن المراد **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** أنه منزل من عند الله -تبارك وتعالى-، هذا قال به بعض السلف كالضحاك -رحمه الله-، يعلمون أنه منزل من الله ومن ثمّ فإنهم يتقبلونه ويأخذونه على أنه كلام رب العالمين -تبارك وتعالى- وليس بكلام البشر، وبعضهم يقول: إن المراد **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** أنه إله واحد -سبحانه وتعالى-، لمن يعلمون أن المعبود واحد لا شريك له، وهذا كأنه أبعد مما قبله وإن قال به بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهو منقول عن مجاهد -رحمه الله- **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** أنه إله واحد في التوراة والإنجيل، فهذا الكتاب أنزل بهذه الصفة **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [سورة الشعراء:١٩٥]، والله -تبارك وتعالى- قال في مواضع أخرى: **{يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** [سورة يونس:٥]، وإضافة ذلك إلى الذين يعلمون جاء في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وفي بعضها **{لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}** [سورة الأنعام:٩٨]، والفقه أخص من مطلق العلم، فإن الفقه يكون فيما من شأنه أن يخفى، يعني يحتاج إلى دقة، يحتاج إلى لطافة ذهن، يحتاج إلى استنباط، والعلم أوسع من ذلك، يكون في هذا وهذا، كما قال الله -عز وجل-: **{قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}**، فإذا جمعت بين هذا وهذا يمكن أن يؤخذ منه -والله تعالى أعلم- لو قال قائل: إن ذلك يدل على أن المراد **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** أنه ليس مجرد معرفة اللسان العربي؛ لأن الآية الأخرى ذكر فيها الفقه، "لقوم يفقهون"؛ فيكون المعنى أخص من هذا، والله تعالى أعلم.

وابن كثير هنا -رحمه الله- يقول: **أي: إنما يعرف هذا البيانَ والوضوحَ العلماءُ الراسخون** يعني هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أخص من مطلق العلم، ومن قال: إن المراد لقوم يعلمون أنه منزل من عند الله يعني أنه كلام الله، وليس بكلام البشر، هذا أخص أيضًا، ومن قال: إن المراد **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** أنه إله واحد، هذا أخص، لكن الذي قبله كأنه أقرب منه -والله تعالى أعلم-، يعني كأن العلم هنا يرجع إلى أمر يتصل بهذا القرآن **{لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}**، وليس مجرد العلم باللسان، والعلم عند الله -عز وجل.

{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي: **تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين** **{فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}**، أي: **أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه.**

{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} هذا جاء في كتاب الله في مواضع كثيرة، أن القرآن يحمل هذين: البشارة والنذارة؛ لتبشر به المتقين **{وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}** [سورة مريم:٩٧]، هذا تفسير لكونه بهذه المثابة بشيرًا ونذيرًا، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير، تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين، وأما ما جاء مقتصرًا به على أحدهما في بعض المواضع فهذا بحسب المناسبة، أو ليدل على الآخر، مثل: **{وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}** [سورة الإسراء:٩]، وهنا خصهم به، ولكن في بعض المواضع من غير تخصيص يعني جاء الإطلاق بالإنذار مثلًا، **{لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}** [سورة الأنعام:١٩]، فمثل هذا يقال: إما بحسب المناسبة فهو في مجال مخاطبتهم بهذا القرآن والمطالبة بالإيمان والاستجابة لهذه الدعوة الجديدة، أو ليدل على الآخر الذي هو البشارة مثلًا، **{فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** يقول: أي: **أكثر قريش** بمعنى أن الذين آمنوا خرجوا من هذا، أي الذين استجابوا، فعبر هنا بالأكثر **{فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ}** لم يعرض الجميع، **{فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** قال: أي لا يفهمون منه شيئًا، المقصود بنفي السماع عنهم ليس لانعدام الحاسة، وإنما لكونهم لا يسمعون سماع تفهّم وانتفاع، فمثل هذا يُنفى عنه السمع، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا}** [سورة الأعراف:١٧٩]، فآلة السمع موجودة ولكن هذا السمع لا ينفع، ولهذا يقولون بعد انكشاف الحقائق: **{لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [سورة الملك:١٠]، نسمع سماع انتفاع، لمّا صارت الحال وآلت إلى هذا، هذا المراد -والله تعالى أعلم-، وهذا له نظائر في القرآن.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ} أي: **في غُلْف مغطاة.**

الكِنان هو ما يغطي الشيء، ومنه الكنانة التي توضع فيها السهام، وهذا بمعنى الأغلفة، الغلاف، **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}**، هذه دعواهم الآن **{مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}**، يعني نحن لا نعقل عنك شيئًا، ولا يصل إلى قلوبنا، فلا حاجة إلى توجيه هذا الخطاب إلينا، فإنه لا أثر له ألبته، هذا المراد، أرادوا قطع الطريق على مخاطبتهم بالدعوة، ومطالبتهم بالإيمان فقالوا: هذه حالنا قلوبنا في أكنة، هذا الكلام الذي تقوله لا يصل إلى قلوبنا، وليس المقصود أنهم يخبرون عن حقيقة واقعة أن قلوبهم صارت في حال من الطمس والختم، فهم لا يعلمون ذلك، والله -تبارك وتعالى- ذكر هذا في مقام ذمهم وعيبهم، مع أن الله -تبارك وتعالى- أثبت الختم على قلوب المعاندين والمحادين له والكافرين الذين أعرضوا عن الحق، وكابروا **{خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}** [سورة البقرة:٧]، فالختم واقع على القلوب والأسماع، فلا يصل إليها شيء من الحق، **{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** صارت تغطيها فهم لا يبصرون الحق الذي يبصره أهل البصائر والإيمان؛ فهذه طرق معرفة الحق كلها مغلقة، فهناك أثبته، وهنا ذكره في مقام العيب لمقالتهم التي ينسبون ذلك فيها إلى نفوسهم، وليس بين الموضعين منافاة، يعني حينما يذمهم الله -عز وجل- أو يذكر هذا على سبيل الذم والعيب لدعواهم هذه مع أن الختم واقع حقيقة بهم كيف نجمع بين هذا وهذا؟

يعني هنا الله -تبارك وتعالى- ساق ذلك مساق الذم حينما ادعوا هذه الدعوى -قالوا قلوبنا في أكنة- أليس كذلك؟ يذمهم في هذا، مع أن الله -تبارك وتعالى- أثبت في مواضع أنه ختم على قلوب الكافرين الجاحدين

المعاندين وعلى أسماعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، ولما قال اليهود: **{قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** [سورة النساء:١٥٥] يعني أنها في أغلفة مثل هنا، لكن غلف مغلفة بغلاف لا يصل إليها الحق، **{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** [سورة البقرة:٨٨] خلافًا للقول الشاذ –وقد مضى الكلام على هذا– أي من قال: غلف يعني أغلفة للعلم، أوعية للعلم، هذا غير مراد، ولا يدل عليه السياق أصلًا.

إنما هي مغطاة، هم يقولون هذا، قال: **{بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا}**، وبين السبب أن ذلك لم يكن من قبيل الظلم **{بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤمنونَ إلا قليلًا}** فما الجواب عن هذا؟

يعني هم ادعوا هذه الدعوى، فالله –تبارك وتعالى– ذمهم بردهم الحق ومكابرتهم في رده وجحده حتى إنهم قالوا: **{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}**، وقالوا أيضًا: **{وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ}** أي صمم، **{وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}** يعني لا تحاول، فكان رد الحق وهذه المكابرة فيه سببًا للطبع على القلوب وحجب الحق عنها **{جَزَاء وِفَاقًا}** [سورة النبأ:٢٦]، كما قال الله –عز وجل–: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}** [سورة الصف:٥] زاغوا عن الحق فأزاغ الله قلوبهم، وكما ذكرنا في سورة الأنعام الله –تبارك وتعالى– قال: **{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ}** [سورة الأنعام:١١١]، فكل هذا لو اجتمع ما آمنوا، ما الذي قاله قبلها؟ قبلها ذكر أن عدم الإيمان وعدم التوفيق للهدى بما كذبوا من قبل، ورد الحق حينما يطرق الأسماع، فالمبادرة إلى رده قد تكون سببًا لعدم التوفيق، وأن الإنسان يُبلى بالحرمان –نسأل الله العافية–، فلا يستطيع بعد ذلك الإيمان كما قال الله –عز وجل–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}** [سورة الأنفال:٢٤]، فإذا رَدّ الحق لم يُؤمن عليه بعد ذلك أن يُبلى بالحرمان، فلا يحصل له الإيمان، ولا يوفق للهدى بعد ذلك، كما قال الله –عز وجل–: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [سورة الأنعام:١١٠]، والآية الأولى التي ذكرت هي في الموضع نفسه والشاهد نفسه، لكن التي في الأنعام قبلها: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}**، قال: **{وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}**، **{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ}** [سورة الأنعام:١١١]؛ لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة حينما طرق أسماعهم ووجهت الدعوة إليهم، على أرجح الأقوال في التفسير، فهنا ذم الله قولهم وعابه، **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}** في هذا المقام، مع أنه أثبت الختم والطبع عليها حقيقة، فكان هذا الختم والطبع له سبب هو هذا الإعراض والمكابرة فيه حتى قالوا مقالتهم هذه: **{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}** إلى هذا الحد، فطبع الله عليها كما قال الله –عز وجل– لما قال اليهود مثل هذه المقالة: **{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** ادعوا الدعوى نفسها، قال: **{بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}** [سورة النساء:١٥٥]، والباء للسببية، أي بسبب كفرهم الذي هذا مظهر من مظاهره، بل من مظاهر المكابرة في هذا الكفر والمبالغة فيه.

{مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} أي: صمم عما جئتنا به.

الوقر يعني الصمم، وأصل ذلك بمعنى الثقل، والمراد به هنا الصمم.

{وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} فلا يصل إلينا شيء مما تقوله، {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} أي: اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

{فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}، اعمل على طريقتك، ونحن نعمل على طريقتنا، أنت في سبيلك، ونحن في سبيلنا، وهذا من أوضح ما قيل في تفسير هذا الموضع، وبنحوه قال به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وزاد عليه زيادة مكملة: ودعْ دعوتنا إلى دينك، وما جئت به، ونحن ندعُ دعوتك إلى ديننا وإلى ما نؤمن به، امض في سبيلك ولا تشتغل بنا، يعني أنت مستغنٍ ونحن مستغنون، هذا مستغنٍ عما عند هذا، وهذا مستغن عما عند هذا، وكلٌ بما عنده راضٍ، كما يقول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنتَ بما ** عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

كل واحد راضٍ بالذي عنده، نحن مقتنعون أنا على حق، ولسنا بحاجة إلى ما عندك، وأنت أيضًا مقتنع بما عندك فلا تخاطبنا بهذا الخطاب، اعمل بما أنت معتقده ومؤمن به، ولا تشتغل بنا، ونحن لن نشتغل بك، "فاعمل إننا عاملون"، هذا الذي اختاره ابن جرير، دعنا في حالنا، وأنت في حالك، كما قال عبد الله بن أُبيّ لما جاء النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يزور سعد بن عبادة يعوده، ومر على نفر فيهم المسلمون والمشركون قبل إظهار رئيس المنافقين الإسلام، نفر معهم ابن رواحة -رضي الله عنه-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- على حمار، فوضع ثوبه على أنفه وقال: لا تغبروا علينا، فوعظهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكّرهم ودعاهم، فقال ابن أبيّ: يا هذا، أو أيها الرجل، ابقَ في موضعك فمن شاء أن يستمع منك أتاك، ولا تغشَ مجالسنا، لا تأتِ إلينا، الذي يريدك يأتيك ويقصدك، فقال عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-: بل يا رسول الله اغشَ مجالسنا وادعنا، وعظنا وذكّرنا، ووقع ما وقع، فهذا معنى ظاهر -والله تعالى أعلم-، بخلاف قول من قال: **{فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}** اعمل في إهلاكنا والكيد لنا، ونحن عاملون بذلك، يعني هات الذي عندك مما تقدر عليه في الكيد لنا، وإلحاق الضرر بنا، ونحن أيضًا لن نفتأ ولن نألوا جهدًا في هذا السبيل، ما تقدر عليه افعله في حربنا، وما نقدر عليه نفعله لا ندخر جهدًا في ذلك، وهكذا قول من قال: اعمل لآخرتك طالما أنك تؤمن بها، ونحن نعمل لدنيانا التي هي غايتنا، وليس بعدها حياة تُطلب، ولكن هذا والذي قبله بعيد، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره ابن جرير قبله هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، **{فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}** يعني نحن لا يصل إلينا من هذا الخطاب شيء، كن في حالك، ونحن في حالنا، أنت في عالمك ونحن في عالمنا، لا تظن ولا تتوقع ولا تؤمل أننا سنصغي إليك، وسنستجيب وسنتحول إلى دينك، فهذا أمر بعيد المنال، والله أعلم.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [سورة فصلت:٦-٨].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد.

قوله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}** كان الكفار -كما هو معلوم وجاء هذا في مواضع من كتاب الله- يستنكفون أن يبعث بشرًا وأن يستجيبوا إلى بشر، **{قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً}**، **{فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}** [سورة التغابن:٦]، هكذا قالت الأمم لرسلهم -عليهم الصلاة

والسلام-، والله -تبارك وتعالى- رد هذه المقولة في مواضع وأنه **{لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً}** [سورة الإسراء:٩٥]، وقال: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [سورة الأنعام:٩]، فبين أن الناس لا يطيقون الأخذ عن ملَك، ولا مشاهدة الملك، ولا معاشرته، هم لا يألفونه، ثم إن ذلك لو جاء بصورة رجل -تشكل بصورة رجل- لوقع اللبس هل هو ملك أو رجل، فهنا **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}**، وبعضهم يقول: المعنى أنا كواحد منكم من حيث الجنس، يعني في البشرية، أنني بشر لست من جنس مغاير حتى تقولوا: **{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}** أنا مثلكم أخاطبكم بما تفهمون، لم آتِ من كوكب آخر، ولست من جنس آخر حتى تقولوا هذه المقولة، هكذا قال بعض المفسرين، **{إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}** فما الداعي لمثل هذا القول؟ وبعضهم يقول: **{إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}** يعني لا أملك هدايتكم، ولا أملك قسركم وحملكم على الإيمان؛ فإن ذلك بيد الله -عز وجل-، ومهمتي مختلفة، أنا بشر يوحى إليّ فأبلغكم هذا الوحي، وأدعوكم إلى الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن المراد **{إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}** يعني لستُ بملَك ولكني بشر يوحى إليه، فعليكم اتباعي، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، يعني أنا لا أدعي أكثر من ذلك، ولكن الله أوحى إليّ، فهذا الوحي هو الذي تميزت به عليكم، فعليكم أن تستجيبوا، وأن تذعنوا، وأن تؤمنوا، وأن تنتفعوا بهذا الوحي، وذهب بعضهم كالحسن البصري -رحمه الله- إلى أن هذا تعليم من الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- التواضع، أن يعلن في الناس، ويقول: أنا مجرد بشر يوحى إليّ، ولكن الذي قبله -والله أعلم- كأنه هو المراد، والحصر في قوله: **{إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ}** طبعًا هو -صلى الله عليه وسلم- بشر، وله أيضًا أوصاف أخرى غير خارجة عن البشرية، لكن جاء الحصر هنا بهذا الوصف باعتبار أن المجادلة والمكابرة بسبب هذا الجانب، كيف يكون بشراً رسولاً؟ عندهم هذا لا يتأتى، كيف اختار الله -عز وجل- من البشر رسولًا؟.

{فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ} أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، {وَاسْتَغْفِرُوهُ} أي: لسالف الذنوب.

الاستقامة يدخل فيها الاستقامة بالقصد بالتوحيد والإخلاص، ويدخل فيها الاستقامة في العمل بما أمرهم به، يعني أن يكونوا على الصراط المستقيم، فهذا كله داخل في الأمر بالاستقامة، استقيموا إليه ظاهرًا وباطنًا، استقامة الباطن بتوجه القلوب إلى باريها وفاطرها -سبحانه وتعالى- وحده دونما سواه، فهذا الإيمان والتوحيد والإخلاص، وبالعمل بالاشتغال بطاعته على الوجه الذي شرعه **{فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ}**.

فَلِواحدٍ كن واحدًا في واحدٍ *** أعني سبيلَ الحقِّ والإيمانِ

يعني على طريق واحد، **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ}** [سورة الأنعام:١٥٣]، فهنا ذكر المعنيين، ابن كثير -رحمه الله- قال: أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، هذه العبارة هي تتضمن المعنيين، على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، هذا المتابعة، والأول الإخلاص، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر المعنيين، طبعًا هنا "فاستقيموا إليه واستغفروه" قال: لسالف الذنوب، الإنسان كما قال

النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((استقيموا ولن تُحْصُوا))[1]، فالتقصير لابدّ منه، ومن ثمّ فإن الاستغفار يكون لسالف الذنوب، ويكون أيضًا لما يعتور هذه الأعمال حال استقامتكم من نقص وتقصير وفتور وضعف، فهذه طبيعة البشر، فيحتاج إلى استغفار، استقيموا إليه واستغفروه، وهذا هو الطريق هذا هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه السالك إلى الله -تبارك وتعالى-، أن يجمع بين هذا وهذا، أن يجتهد في طاعة ربه ومليكه -تبارك وتعالى-، يسلك الطريق وأن يستغفر؛ لأنه لابدّ له من تقصير فيجمع بين الأمرين، ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن العجب والنظر إلى العمل والإدلاء على ربه -تبارك وتعالى- بعمله، لا يكون مدلًا على الله بعمله.

{وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} أي: دمار لهم وهلاك عليهم، يعني هذه كلمة وعيد، وابن جرير -رحمه الله- يفسرها عادة بواد في جهنم.

{الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وكذا قال عكرمة، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠]، وكقوله -جلت عظمته-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى:١٤-١٥]، وقوله -عز وجل-: {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [سورة النازعات:١٨]، والمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة؛ لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقًا إلى استعماله في الطاعات، وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأمورًا به في ابتداء البعثة، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١]، فأما الزكاة ذات النُّصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعًا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبًا قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله -صلوات ربي وسلامه عليه- الصلوات الخمس، وفصل شروطها، وأركانها، وما يتعلق بها بعد ذلك شيئًا فشيئًا، والله أعلم.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} ذكر القول الأول: وهو أن المراد لا يؤتون الزكاة يعني تزكية النفوس بالإيمان، وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- والاستجابة لما يدعوهم إليه، فإن أصل هذه المادة "زكَا" تدل على معنيين:

الأول: النماء، والثاني: الطهارة، وهذا واقع بزكاة النفوس، وزكاة الأموال، بمعنى أن زكاة النفوس إنما تكون بتعمير القلوب بالإيمان والطاعة والأعمال الصالحة، من زكَا الزرع يعني نما، وهذا مقصود لذاته، يعني أن تعمر القلوب بالإيمان.

---

١ - رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، برقم (٢٧٨)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٣٧٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح"، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢/ ١٣٥)، برقم (٤١٢).

والجانب الثاني: وهو تطهيرها مما يضاد ذلك من الشرك وما يتفرع عنه من المعاصي والذنوب والأرجاس والأدناس، وهذا يؤثر سلبًا في الجانب الأول فلا يحصل النماء المطلوب إلا بتطهير المحل، أن يكون المحل قابلًا، فإذا كان المحل فيه من الدنس والأرجاس فإنه لا يزكو كما ينبغي بالإيمان والعمل الصالح، فكان لابدّ من هذين لتزكية النفوس، ومن هنا هذه الآيات كقوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**، فالمراد بها هنا تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، والتدسية بأضداد ذلك بالشرك والمعاصي -يعني دساها-، فهذا يكون به وضع النفس، وتكون في حال من الانحطاط والهبوط والسفول بحسب ما فيها من الأرجاس والأدناس من الشرك والمعاصي؛ لأن الإنسان ينسفل بذلك، وهكذا **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** مع أن هذا الموضع قال بعض المفسرين: إن المراد به إخراج زكاة الفطر، قالوا: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}**، **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ}** هذا التكبير قبل صلاة العيد، **{فَصَلَّى}** صلاة العيد، مع أن السورة مكية، فهذا يكون القائلون به على مذهبين أو على منحيين:

الأول: أن بعضهم يلجأ في مثل هذه المواضع -وهو يعلم أن السورة مكية- إلى أن يقول: هذه السورة مكية لكن الآية هذه نزلت في المدينة باعتبار المعنى الذي فهمه، هي تتحدث عن زكاة الفطر وصلاة العيد، وهذا قطعًا ما شرع إلا في المدينة، قالوا: هذه مستثناة بناء على المعنى.

والثاني: قال بعضهم: هي نازلة معها في مكة ولكن هذا مما نزل قبل تقرير حكمه، يكون سابقًا على الحكم، فهناك أحكام تُقَر وتنزل الآية بعد ذلك، مثل التيمم، الوضوء، **{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}** [سورة المائدة:٦]، وهناك أشياء تنزل ويكون تقرير الحكم بعد ذلك، والحكم هنا أوسع من الحكم الذي هو الحلال والحرام، والأمر والنهي، فأحيانًا يكون مقتضى هذا الشيء الذي تحدث عنه مثل: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [سورة القمر:٤٥]، عمر -رضي الله عنه- كان يقول: أيّ دبر وأي جمع في مكة؟ يقول: لما رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم بدر يثب في الدرع ويردد هذه الآية: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** عرفت أنها في هذا، **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}** فيها القولان هل المراد تزكية النفوس أو المقصود زكاة الفطر؟ والأقرب أنها في تزكية النفوس، أما التي قبلها **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** فهي تزكية النفوس، وهكذا **{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}** [سورة النازعات:١٨-١٩]، خطاب موسى لفرعون فهذا في تزكية النفوس قطعًا، فالتزكية تأتي في هذا وتأتي في هذا، يقول: **زكاة المال إنما سميت زكاة؛ لأنها تطهره من الحرام وتكون سببًا لزيادته**، يعني جمع بين الأمرين التطهير والنماء، قال: **وقال قتادة: يمنعون زكاة الأموال، هذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير**، ما قال: عند أكثر المفسرين، قال: **عند كثير من المفسرين** حملوه على زكاة المال، بينما بعض المفسرين عزا القول الأول إلى أكثر المفسرين يعني أن المراد بذلك الإيمان، وممن عزاه لأكثر المفسرين ابن القيم -رحمه الله-، قال: هذا قول أكثر المفسرين، وإن لم يصرح بالترجيح، وهنا قال: **وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة**، لهذا الاعتبار الآية هنا تحتمل، وفيها القولان، **{الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}** فالذين قالوا: إن ذلك لا يكون في زكاة المال، وإنما تزكية النفوس قالوا: الزكاة ما فرضت إلا في المدينة، ومن يقول: إنها في زكاة المال يمكن أن يجيب بأحد جوابين:

الجواب الأول: أن هذا قد يكون مما نزل قبل تقرير الحكم.

والجواب الثاني: وهو أوضح، وهو الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن أصل الزكاة كان في مكة، وهذا كما في قوله: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١] أي أن هذا هو الأقرب، أن أصل الزكاة كان في مكة فكان يُخرِج شيئًا غير محدد، وإذا حضر من حضر من الفقراء أعطاهم شيئًا غير محدد، {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، مع أن بعض المفسرين يلجأ إلى ما سبق، يقول: سورة الأنعام مكية، وهذه الآية مدنية؛ لأنها تتحدث عن الزكاة، هي لا تتحدث عن تزكية النفوس، تتحدث عن زكاة المال، وهذا لا حاجة إليه، بل يكفي أن يقال: سورة الأنعام جاء في روايات كثيرة عن جمع من الصحابة أنها نزلت في ليلة واحدة، هذه الروايات لا تخلو من ضعف لكن بمجموعها تتقوى، ومع إقرارهم بأنها نزلت مجتمعة في ليلة إلا أن بعضهم يقول: هذه الآية نزلت في المدينة، ومثل هذا لا يصح، بمعنى أن أسباب النزول موقوفة على النقل والسماع، وليس ذلك للاجتهاد، أي أن المفسر إذا رأى آية تتحدث عن موضوع، تتحدث عن المنافقين أو عن اليهود أو عن الزكاة أو نحو ذلك قال: هذه نزلت في المدينة، هذا لا يكفي، بل لابدّ من النقل، ولا يدخل في ذلك الفهم والاجتهاد، هذا فيما يتعلق بأماكن النزول، الذي يسمونه المكي والمدني، فهنا ابن كثير لما ذكر هذا القول قال: **فيه نظر**، أي أنها في زكاة المال، بعد ذلك قال: يمكن الجمع بين الأمرين باعتبار أن أصل الزكاة نزل في مكة والنُّصب والمقادير والأموال المحددة كان ذلك جميعًا في المدينة، هذا صحيح، فيقول: ممكن أنهم {لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} زكاة النفوس، وزكاة الأموال على هذا الاعتبار، وهذا ليس بعيداً، لكن المعنى المتوجه والمعنى الظاهر هو الأول {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} وعند من قال: إنها زكاة المال أو من أمكن عنده الجمع بين الأمرين يستدل بها على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، هذا أحد الأدلة عند الأصوليين الذين يقولون: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، مع أنهم لو جاءوا بها ما صحت إلا بالإيمان، لكنهم يقولون: يترتب على ذلك -يعني المخاطبة بفروع الشريعة- أثر، هذا الأثر كثيرون يقولون: هو أثر أخروي ولا أثر له في الدنيا؛ لأنهم لو جاءوا بها لم تصح ولم تقبل، ما هو الأثر الأخروي؟ زيادة العذاب، فهم يعذبون على الشرك، {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [سورة المدثر:٤٢-٤٧] هذا من الكفر، وهناك أعمال {لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}، {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [سورة الماعون:١-٥]، إذا قيل: إنها في المنافقين كما يقول بعض السلف، وفيها أقاويل أخرى.

فالشاهد أن الذين يقولون: الكفار مخاطبون بفروع الشريعة يحتجون ببعض الآيات منها هذه التي في سورة فصلت، {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، فيضاعف لهم العذاب يحاسبون على الزكاة والصيام والجرائم التي عملوها وما إلى ذلك مما تركوا من طاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان بعض الأصوليين يقول: إن ذلك لا يختص بالآخرة، بل يترتب عليه أعمال في الدنيا، فيذكرون أشياء يعني في مسألة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والاحتساب، هل يُقَرون أو ما يقرون على المنكرات التي يفعلونها؟.

ثم قال -جل جلاله- بعد ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا مجبوب، كقوله تعالى: {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} [سورة الكهف:٣]، **وكقوله -عز وجل-: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [سورة هود:١٠٨].

هذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهذا أشهر الأقوال أن المقصود بـــ **{غَيْرُ مَمْنُونٍ}** يعني غير مقطوع، وبعضهم قال: غير منقوص، فالممنون المنقوص، لكن الأول أشهر، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، ويدل عليه قوله: **{عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}**، وبعضهم كمجاهد يقول: **{غَيْرُ مَمْنُونٍ}** يعني غير محسوب، يعني أنهم يعطون عطاء كثيرًا بلا عدٍّ، وبعضهم فسر ذلك بالمنة عطاء غير ممنون يعني لا يحصل عليهم به منة، ولكن الأقرب -والله أعلم- أن المراد **{غَيْرُ مَمْنُونٍ}** أي غير مقطوع **{أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا}** [سورة الرعد:٣٥].

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة فصلت:٩-١٢].

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء، فقال: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا} أي: نظراء وأمثالًا تعبدونها معه {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

الند هو النظير المناوئ، يعني أخص من مجرد النظير، أي نظير وزيادة، هذا هو الأدق في تفسير الند، ولكن العلماء أحيانًا يتوسعون، ويتجوزون فيقولون: الند هو النظير، وإلا هو نظير خاص.

هنا سؤال: تأملوا كلام ابن كثير -رحمه الله- في خلق الأرض في يومين، وتقدير الأقوات في يومين، وخلق السماوات في يومين، مع قوله تعالى هنا: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}** يعني بعد خلق الأرض، وهناك قال: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}**، فما لجمع بين هذه الآيات؟

ترك القول المرجوح لا يضر في المختصر، هو لا حاجة للاشتغال به في مثل هذا المختصر، يفترض أن المقصود تنقية الكتاب من الأقوال المرجوحة والروايات الضعيفة، يعني ليس بحاجة إلى إيراد القول الضعيف مثلًا مَن رد عليه، ولكني أورد بعض ذلك هنا في هذا المجلس من أجل أن يكون هذا للتمرين والتعليم وتربية الملكة لدى طالب العلم، وتفتيق الأذهان عمدًا، فتق الذهن كيف يذهب الذهن في تفسير الآيات والاحتمالات الواردة فيها، ولهذا كان السلف -رضي الله عنهم- يقولون: لا تعْلَم كل العلم حتى ترى للقرآن وجوهًا، فإذا اعتاد الذهن على هذا وتمرن عليه اتسع، فيبدأ الإنسان يتحرج ويتحرز ويتوقف؛ لأنه تبدو له أشياء واحتمالات ووجوه فلا يستعجل، يحتاج أنه يتأنى، بينما ترى الذي ليس عنده أصلًا شيء من هذا العلم مباشرة يبادر، الجواب عنده مقطوع به، ويسبق إلى الجواب دون أن يُسأل.

{ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: خالق الأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [سورة الأعراف:٥٤]**، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولًا لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال -عز وجل-:**

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [سورة البقرة:٢٩] الآية، فأما قوله تعالى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [سورة النازعات:٢٧-٣٣]، ففي هذه الآية أنّ دحْي الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس -رضي الله عنهما- فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه روى عن سعيد بن جبير قال رجل لابن عباس -رضي الله عنهما-: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة المؤمنون:١٠١]، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} [سورة الصافات:(٢٧)، سورة الطور: (٢٥)]، {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [سورة النساء:٤٢]، {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣].

يعني كل آية بما قبلها، {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} كيف ينكرون أنهم كانوا على الإشراك فهم بذلك كتموا؟.

فقد كتموا في هذه الآية؟ وقال تعالى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا} إلى قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} إلى قوله: {طَائِعِينَ}، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال: {وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة النساء:٩٦] {عزيزًا حكيمًا} {سميعًا بصيرًا} فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} في النفخة الأولى ثم نفخ في الصور {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ} [سورة الزمر:٦٨].

يعني تكون الأولى هنا باعتبار أنها نفخة الفزع، {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ} [سورة النمل:٨٧]، وسبق الكلام على هذا، هل نفخة الفزع قبل نفخة الصعق؟، فعلى هذا تكون النفخة الأولى هي نفخة الفزع على هذه الراوية.

فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخرى {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ}، وأما قوله: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا}.

ليس هذا هو المراد، لكنه ساق الرواية بطولها لما يتصل بهذا الموضع في سورة فصلت، ولكن حتى هذا السؤال من الإجابات عنه أيضًا الواضحة التي لها وجه ظاهر أن يوم القيامة كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يوم طويل، ففي بعض المواقف لا يتساءلون، وفي بعضها يسأل بعضهم بعضًا.

فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فيُختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يُعرف أن الله تعالى لا يُكتم حديثًا، وعنده {يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [سورة النساء:٤٢] الآية.

بمعنى أنهم لا يكتمون الله حديثًا، مع قولهم {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣] فهم في البداية ينكرون ثم بعد ذلك يختم على الأفواه فتنطق الجوارح ثم بعد ذلك يقرون، ولهذا وجه، وهذا جمعٌ أيضًا بين نطق الجوارح وما جاء من إنكار الإنسان {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} مع قوله: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} [سورة النور:٢٤] في الإفك، فالألسن تشهد، إذا كانت الألسن تشهد فما شهادتها؟ أن تقر بما فعل الإنسان، مع

قوله: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} [سورة يس:٦٥] ففي البداية يكابر، فإذا خُتم على فيه نطقت جوارحه فعند ذلك يقول: أبعدكنّ الله، عنكنّ كنت أناضل، ثم بعد ذلك لا يكتمون الله حديثًا، يقر ويعترف فيشهد عليه لسانه الذي كان منكرًا، هذا وجه الجمع.

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دَحَا الأرض، ودحْيُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام، وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى: {دَحَاهَا}.

وهو مفسر بما بعده {دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}.

وقوله تعالى: {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين، {وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة النساء:٩٦] سمى نفسه بذلك وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يُرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراده، فلا يختلفنّ عليك القرآن فإنّ كلًّا من عند الله -عز وجل-، رواه البخاري.

هذه الرواية توضح وجه الجمع، ولاحظوا الآيات {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا}، ثم قال: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} هذا الدحو، قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} يعني بعد خلق الأرض ودحو الأرض، هذه أربعة أيام ابتداء من يوم الأحد إلى يوم الأربعاء، خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، هذا الذي قاله عامة المفسرين من السلف فمن بعدهم، فهذه تدل على خلقها وعلى دحوها وأنه استوى إلى السماء بعد ذلك، فكان خلق السماوات في يومين: الخميس والجمعة، وهذا الذي قالوه من أن خلق السماء جاء بعد ذلك، وأن آدم -صلى الله عليه وسلم- خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، يكون على هذا الاعتبار خَلْقَ الأرض في يومين ودحاها في يومين فهذه أربعة أيام، ثم السماء في يومين، وليس المقصود بذلك ثمانية أيام قطعًا، وما قال بهذا أحد، ولكن العلماء يذكرونه من باب التنبيه؛ لئلا يخطئ أحد في الفهم، يعني لما يذكر الله -عز وجل- أنه خلق الأرض في يومين ثم يذكر بعد ذلك من أمر دحوها ثم يذكر المجموع في أربعة أيام فلا يصح جمع اليومين مع الأربعة، فإن ذلك -يعني الأربعة- مجموع ما يتصل بالأرض، ولا يقال: خلقها في يومين ثم بعد ذلك {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} فيكون المجموع ستة، ثم السماء في يومين صار المجموع ثمانية، هذا لا يمكن، وليس هذا المراد، مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان))[٢]، هل المقصود ثلاثة قراريط؟ قيراط للصلاة عليها، وقيراطان لشهودها حتى تدفن؟ لا، ليس هذا هو المراد، وإنما المجموع يكون هكذا في قيراطين الأول للصلاة، والثاني لاتباع الجنازة، فهذا مثل هذا.

يدل على هذا المعنى آيات كثيرة {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، هذا كثير في كتاب الله -تبارك وتعالى- فليست ثمانية، انظر هنا قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، برقم (٩٤٥).

{إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [سورة البقرة:٢٩] أصل خلق الأرض في يومين زائد الدحو {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} هذا مجمل، {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} يعني في أربعة أيام، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} فدل على أن خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد الدحو هنا {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، والآية الأخرى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} لاحظ هنا ذكر السماء أولًا، ثم ذكر الأرض، {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} فبعض أهل العلم يقول: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ} المعنى هنا ليس على الترتيب في الوقوع، وإنما كما تقول: فعلت كذا وكذا ثم أنت أيضًا فعلت كذا وكذا فوقه، يعني فوق ذلك تفعل كذا، {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [سورة البلد:١٧] فالإيمان أولًا وليس المقصود أن الإيمان يحصل بعد العمل، لكن هنا يمكن أن يقال: الترتيب هنا في الرتبة وليس في الوقوع، وبعضهم يفسر "ثم" بالواو في قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} يقول: هي بمعنى الواو وليس المقصود بها الترتيب.

هنا قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} وبعض العلماء يقول: إن خلق الأرض في يومين، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، ثم بعد ذلك دحا الأرض في يومين بناء على هذه الآية: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} فكان المجموع في أربعة أيام، فذكرها في بعض المواضع مجملة، حينما ذكر خلق الأرض ذكر ما يتصل بها فكان مجملًا، وإن كان الترتيب في الخلق أن الأرض أولًا ثم السماء ثم الدحو ثالثًا، فكان مجموع ما يتصل بالأرض أربعة أيام ذكرت مجملة في بعض المواضع دون تفريق، هذا من الأجوبة عن ذلك، وهذا الجواب أخذ هذا المنحى أن الدحو كان بعد خلق السماء، والأولون يقولون: لا، أخذوا بظواهر الآيات الأولى أن خلق الأرض أولًا، ثم الدحو، ثم بعد ذلك في اليومين الأخيرين من الأسبوع كان خلق السماء، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين من السلف فمن بعدهم، أن الأرض وما يتصل بها في الأربعة الأيام الأولى.

وتكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على هذه المسألة في كتاب دفع إيهام الاضطراب فقال -رحمه الله-: "قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} الظاهر أن معنى قوله هنا: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} أي: في تتمة أربعة أيام، وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط، لأنه تعالى قال: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}، ثم قال: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} أي: في تتمة أربعة أيام، ثم قال: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما ستة أيام، وهذا التفسير الذي ذكرناه في الآية لا يصح غيره بحال؛ لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [سورة الفرقان:٥٩]، وقوله تعالى في السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} [سورة السجدة:٤] الآية، وقوله تعالى في ق: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ} [سورة ق:٣٨]، وقوله تعالى في الأعراف: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى: **{فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}** بأن معناه في تتمة أربعة أيام لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام"[٣].

وقال –رحمه الله–: "وقد ذكرنا في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" أن آية فصلت هذه، أعني قوله تعالى: **{وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}** يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كقوله هنا: **{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}** ثم رتب على ذلك بـــ "ثم"، قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** إلى قوله: **{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}** مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض، كقوله تعالى في النازعات: **{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}** إلى قوله: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}**.

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه: قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}**، الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظة "ثم" التي هي للترتيب والانفصال.

وكذلك آية "حم السجدة" تدل أيضا على خلق الأرض قبل السماء؛ لأنه قال فيها: **{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}** إلى أن قال: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** الآية.

مع أن آية "النازعات" تدل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأنه قال فيها: **{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}**، ثم قال: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}**.

اعلم أولا أن ابن عباس –رضي الله عنهما– سئل عن الجمع بين آية السجدة، وآية النازعات فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولا قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعًا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك.

فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السماء.

ويدل لهذا أنه قال: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}** ولم يقل: خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}**، وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه، مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه.

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء.

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء؛ لأنه قال فيها: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** الآية.

وقد مكثت زمنا طويلا أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم، ففهمته من القرآن العظيم.

وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كل منهما تدل عليه آية من القرآن.

الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلق السماء الخلق اللغوي الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل، الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقًا، ومنه قول زهير:

ولأنتَ تفري ما خلقتَ وبَعْـ** ** ضُ القومِ يخلق ثم لا يفري[٤].

---

٣ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/١٢–١٣).

٤ – المصدر نفسه (٧/١٣–١٥).

يعني ما قدرتَ، فالخالق بمعنى المقدر، ثم الذي أوجد الأشياء على مقتضى ما قدر، ويمكن أن نمثل لتقريب المعنى بصناعة الطاولة مثلًا هذا يحتاج إلى تقدير أولًا، وبناء المسجد يحتاج إلى مخطط هندسي؛ تقدير معين، حجم المسجد وأبعاده وارتفاعه، ثم بعد ذلك التنفيذ فهذا الإيجاد.

لأنتَ تفري ما خلقتَ: يمدح ملكًا يقول: تخطط وتنفذ.

وبعض القوم يخلق: أي يقدِّر، ثم لا يفري: لا يستطيع أن ينفذ، ليس عنده إمكانيات من أجل تنفيذ ما يؤمله ويخطط له.

وقال –رحمه الله-: "والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت حيث قال: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}، ثم قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ} الآية"[٥].

هذا الجواب يكون بمعنى أنه {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} آية البقرة، بمعنى التقدير، والواقع أن هذا الجواب لا يخلو من إشكال، باعتبار أننا حينما نقول: هو التقدير والواقع أنه خُلق أصل الأرض قبل السماء هذا بلا إشكال فصار بعض ما يتصل بالأرض منجزًا واقعًا، والبعض مقدرًا وهو الدحو، فيرجع إلى قول ابن عباس؛ لأنه أصلًا لا يكون وقوع شيء إلا بعد أن يقدره الله –تبارك وتعالى- فصار هذا من قبيل تحصيل الحاصل، {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، إذاً تحقيق الدحو كان بعد خلق السماء ولا يقصد هو بهذا القول أن أصل الأرض إنما قدرت، وكان خلق السماء قبلها، لكن يريد أن يكون المجموع {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} بمعنى قدر فسينقسم هذا: أصل الأرض قُدر ووجد قبل السماء، والجزء المتعلق بالدحو كان بعد خلق السماء، لكنه أطلق عليه أنه خلق ما في الأرض جميعًا لنا باعتبار أنه قدر، فهذا فيه شيء –والله أعلم- من الإشكال، هذا الجواب الأول الذي ذكره.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه خُلق بالفعل لوجود أصله فعلًا.

يعني باعتبار خلق أصل الأرض، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض، في آية البقرة: {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} يعني حتى الدحو يعني {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} فيقول: لما خلق الأرض كأنه خلق ما فيها، لما خلق الأصل كأنه خلق ما فيها، وهذا الجواب أيضًا ليس بذاك الوضوح، وجواب ابن عباس المتقدم أقوى بكثير، بعضهم يقول: إن "ثم" هي بمعنى الواو، أو أن الترتيب ليس بالوقوع، وإنما في الرتبة.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع وإن لم يكن موجودًا في الفعل قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ} [سورة الأعراف:١١] الآية، فقوله: {خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أي: بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم، وجمع بعض العلماء بأن قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} أي: مع ذلك، فلفظة "بعد" بمعنى "مع"، ونظيره قوله تعالى: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [سورة القلم:١٣] وعليه فلا إشكال.

هذا جواب آخر، "والأرض بعد ذلك" يعني مع ذلك دحاها.

---

٥ – المصدر نفسه (٧/ ١٥).

وقوله: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ} يعني ليست في الترتيب للوقوع، وإنما مع ذلك.

ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة، وبها قرأ مجاهد: {والأرض مع ذلك دحاها}.

والقراءة الشاذة إذا صح سندها تفسر المتواترة.

وقوله: {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} يعني يوم الأحد ويوم الإثنين، {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا} أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه، وقال عكرمة ومجاهد في قوله -عز وجل-: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}: جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه العُصْب باليمن، والسَّابوري بسابور، والطيالسة بالري.

العُصْب باليمن هي أردية، أي نوع من اللباس معروف في أرض اليمن، بعضهم يقول: العصب يقال لما يعصب غزله، ثم بعد ذلك يصبغ ثم ينسج بعد الصبغ، العصب في اليمن، والسابوري نوع من الثياب منسوبة إلى بلاد سابور، والطيالسة بالري الطيالسة أكسية أو أردية لها صور مختلفة لكنها في القديم كانت توضع على المنكبين، ثم بعد ذلك صارت في أوقات متأخرة تقال على ما يكون مجتمعًا، مجتمع الرأس مع ما يغطي البدن، الطيلسان، وهي لها صور وأشكال وألوان أيضًا، وفي الحديث: ((يتبع الدجالَ سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة))[٦]، يعني يلبسون هذا اللباس.

قال: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} قدر فيها أقواتها كما يقول بعض السلف -وعباراتهم في هذا متقاربة-: خلق فيها أشجارها وأنهارها ودوابها كما يقول قتادة ومجاهد، وهكذا قول من يقول: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} يعني قدر فيها أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات وما إلى ذلك، {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} يعني أقوات أهل الأرض، قدر أقوات ساكنيها، هذا قال به جماعة من السلف كالحسن وعكرمة والضحاك.

كل هذا لا إشكال فيه، وهو من تقدير الأقوات، ولهذا حملها ابن جرير -رحمه الله- على هذه المعاني جميعًا قدر فيها أرزاق أهلها، معايشهم، ما تقوم به مصالحهم، تجاراتهم وزروعهم وحروثهم وما إلى ذلك، كل هذا داخل فيه، وكأن هؤلاء السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسروه بالمثال، يمثلون لذلك، ولا يقصدون الحصر.

وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: {سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} أي: من أراد السؤال عن ذلك.

{سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} يعني فسره بعض السلف كالحسن: في أربعة أيام مستوية للسائلين، يعني سواء للسائلين في أربعة أيام مستوية تامة، {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء} يعني أنها مستوية تامة ليس فيها نقص، وبعضهم يقول: إنه متعلق بقوله: {سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} يعني مستويات للسائلين، وبعضهم يقول: إن الآية فيها تقديم وتأخير، تأمل {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ}، يعني قدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، والسؤال يعني الطلب والحاجة، وليس الذين يسألون عن خلقها في كم خلقت؟، لا، {سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} قدر فيها أقواتها للسائلين في أربعة سواء للمحتاجين، يعني أعطاهم ما يحتاجون إليه كلٌّ بحسبه سواء للسائلين للمحتاجين بمنافعها وأقواتها؛

---

٦ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (٦٧٩٨)، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط البخاري".

ولذلك تجد هذه القسمة الله -عز وجل- جعلها في هذه الخليقة فتجد -سبحان الله- أنه أعطى الناس لما يصلح لمثلهم في كل قطر، فتجد ما يخرج من النباتات في البلاد الباردة غير النباتات التي في البلاد الحارة، وهؤلاء يصلح لهم هذا، وهؤلاء يصلح لهم هذا، ولذلك تجد مثل ابن القيم حينما يتكلم في مثل كتاب "أقسام القرآن" على التين والزيتون والمفاضلة بينهما، وكذلك العنب أو النخيل -التمر- أيهما أفضل؟ فيجعل هذه المفاضلة، يتحدث عنها ثم يخرج بنتيجة أن التين والزيتون وهذه الأشياء أفضل لأهل البلاد الباردة، والتمر أفضل لأهل البلاد الحارة، فهؤلاء جعل لهم ما يصلح لمثلهم، وهؤلاء جعل لهم ما يصلح لمثلهم، وحتى الحيوانات: تجد الحيوانات التي تعيش في المناطق في سيبيريا أو نحو ذلك حتى الإبل تجد عليها من الوبر الكثيف، والحيوانات الباقية من ذوات الشعر تجد عليها من الشعر الكثيف؛ لأنها في مناطق باردة، وتجد هذه الحيوانات أضخم أجسامًا حتى تتحمل، وتجد أجسام هؤلاء الناس في الغالب ضخمة لطبيعة هذه الأرض التي يعيشون عليها، وتجد الحيوانات التي تعيش في المناطق الجبلية دقيقة القوائم، وتجد الناس الذين يعيشون في المناطق الجبلية أدق أيضًا أجسامًا من غيرهم، فالله -تبارك وتعالى- جعل هذه الخليقة منقسمة وفق حكمته -تبارك وتعالى-، وفي بعض المناطق في أمريكا نوع من الظباء أو الغزلان تتغذى على نوع من النباتات والزهور، ويوجد في هذه المنطقة أسود كثيرة تتغذى على هذه الغزلان، فقامت البلدية هناك فقتلوا كثيرًا من هذه الأسود فتكاثرت هذه الغزلان جداً فأكلت جميع هذا النوع من النباتات التي تتغذى عليها وما بقي لها شيء، فصارت تموت بالجماعات، سبحان الله!، كان هناك توازن، كانت هذه الأسود تتغذى عليها ويرزق الله بعض هذه الحيوانات من بعض، وهذه الغزلان أو هذا النوع يتغذى على نوع من الزهور والنباتات بقدر محدود، فلما قُتلت هذه الأسود تكاثرت الغزلان ففنيت هذه النباتات، فماتت هذه الغزلان بالجموع، فهذا من تقدير هذه الأقوات، وإذا تأملت في حال هذا الخلق وجدته على نظام دقيق، وتكلم ابن كثير على الأنهار السارحة في بعض البلاد في مثل مصر تأتيها من مكان بعيد؛ لأنها سباخ إذا نزل عليها المطر لا تنتفع به وإنما تحتاج إلى أنهار ممتدة طول العام ينتفعون بها ويزرعون منها، وليس المطر، فيسوق إليها الماء من أماكن بعيدة.

في قوله تعالى: {سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} أي: لمن أراد السؤال عن ذلك، وقال ابن زيد معناه..

{قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} التقدير هنا بمعنى الخلق، ويفسر بالخلق، وهذا الذي فسره به الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

وقال ابن زيد معناه: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} أي: على وفق مراده، مَن له حاجة إلى رزق فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه، وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [سورة إبراهيم:٣٤]**، والله أعلم.**

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ} وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض.

يعني يصير **{سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ}** ليس المقصود الذي يستفسر ويسأل في كم خلقت؟، وإنما **{لِّلسَّائِلِينَ}** يعني للطالبين.

{فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أي: استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين.

في آية البقرة {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} قال: قصدَ، وليس هذا من قبيل التأويل، هو فسرها في هذا الموضع "ثم استوى إلى السماء" قال: قصد، لكنه في المواضع الأخرى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [سورة يونس:٣] يفسرها كما يقول السلف: بمعنى علا وارتفع، ولكن يبقى النظر هل يأتي استوى بمعنى قصد أو لا؟ ابن كثير -رحمه الله- فهم أنها بمعنى قصد من جهة التعدية بـــ "إلى"، أنها إذا عديت بـــ "إلى" فهي بمعنى قصد، وإذا عديت بـــ "على" فهي بمعنى ارتفع، والذي عليه عامة أهل العلم من أهل السنة أنهم يفسرون الجميع بمعنى علا وارتفع، وابن جرير -رحمه الله- فسرها في الموضعين بـــ"علا" استوى إلى السماء أي علا وارتفع، لكن هل يقال: إن ابن كثير -رحمه الله- وقع في التأويل؟

الجواب: لا، غاية ما هناك أن يقال: هذا من قبيل الخطأ في التفسير طالما أنه يثبت حقيقة الاستواء من الآيات الأخرى، فهذا يكون من قبيل الخطأ في التفسير، يعني مثل قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [سورة القلم:٤٢]، من قال: المقصود كرْبٌ وشدةٌ، هذا معنى في لغة العرب لكنه أثبت الساق من الحديث: ((فيكشف عن ساقه))[٧]، فهنا غاية ما يقوله من فسر الآية بأن الساق هو صفته -تبارك وتعالى- في الآية: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} أي: عن ساقه -تبارك وتعالى- فيسجدون له أعني أهل الإيمان فيكون القول بأن الساق بمعنى الشدة في تفسيره بالآية من قبيل الخطأ إذا كان يثبت هذه الصفة من نصوص أخرى، ومثل أيضًا ما ذكره شيخ الإسلام في {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [سورة القصص:٨٨]، يعني إلا ما قُصد به التقرب إليه وطاعته، أي الإخلاص، {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [سورة البقرة:١١٥] هنا فسره بالجهة يعني هل هذا من التأويل؟ بعضهم يقول مثل شيخ الإسلام في بعض هذه الآيات: أصلًا هي ليست من آيات الصفات، لكنه يثبت الوجه من النصوص الأخرى الكثيرة، ولا ينكر هذا إطلاقًا بل يثبته ويقرره ويستدل له، لكن الكلام في بعض الآيات هل هذه من آيات الصفات يقصد بها صفة الوجه أو لا يقصد بها، يقصد بها الجهة مثلًا؟ فيكون غاية ما هنالك عند القائل بأنها من آيات الصفات أن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، مع أن ابن القيم -رحمه الله- يثبت أنها من آيات الصفات ويخالف شيخه في هذا.

{فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} قال: أي: استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين.

هل المقصود {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أن تأتي السماء إلى ربها -تبارك وتعالى-؟ وتأتي الأرض أي دعاها أن تأتيه هل هذا هو المقصود؟ الظاهر أنه ليس هذا هو المقصود، قال هنا: **أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين** فهذا المعنى هو الذي ذكره أهل العلم فابن جرير -رحمه الله- يقول: أي: جيئا بما خلقتما له، وما هُيئتما له، جيئا به، انفعلا لفعلي أو لأمري فتُخرج الأرض النبات والأشجار وما إلى ذلك، والسماء تُنزل المطر، وتَخرج الشمس وتغرب وما إلى ذلك مما جعله الله -عز وجل- فيهما، فتُخرج السماء

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:٢٣]، برقم (٧٤٣٩).

القمر والشمس وينزل منها المطر، والأرض تخرج النبات والثمار وما إلى ذلك مما أودعه الله -عز وجل- فيها، قدر فيها أقواتها، ثم قال: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}.

{قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعًا مطيعين لك، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}، أي: ففرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين، أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

وهذا قول عامة أهل العلم، وعلى القول الآخر أن الدحو هو في آخر يومين، خلقُ السماء كان قبل ذلك، يعني الأرض ثم السماء ثم الدحو في يومين.

{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا} أي: ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو.

{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا} بعضهم يقول: يعني خلق شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وما فيها من الملائكة وما إلى ذلك مما أراده الله -تبارك وتعالى-، هذا قال به جماعة من السلف كقتادة والسدي، وبعضهم يقول: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا} يعني بما أراده وما أمر به.

{وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، {وَحِفْظًا} أي: حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

يعني بعضهم يقول: فيه مقدر محذوف يعني وحفظناها حفظًا، وبعضهم يقول: إنه منصوب على الحال، "زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا" يعني أيضًا أن هذه المصابيح تكون حفظًا للسماء كما قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [سورة الملك:٥] فتكون بمعنى هذه الآية، حفظًا لها، تكون هذه النجوم المصابيح رجومًا للشياطين.

{ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أي: العزيز الذي قد عزّ كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فصلت من الآية (١٣) إلى الآية (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

قال المؤلف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [سورة فصلت:١٣-١٨].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين، {صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، {إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ}، كقوله تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} [سورة الأحقاف:٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا وقالوا: {لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً} أي: لو أرسل الله رسلًا لكانوا ملائكة من عنده، {فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} أي: أيها البشر، {كَافِرُونَ} أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي: بغوا وعتوا وعصوا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}** الصاعقة المراد بها العذاب المهلك، فإنه يقال له في الجملة: صاعقة، من أي شيء كان، وتقدم ذلك في قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ}** [سورة البقرة:٥٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **كقوله تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}** فسرها هنا قال: **أي في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ}** هنا فسرها

باعتبار المكان {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أي من النواحي التي تحتف بهم من جميع الجهات، يعني أن بلادهم بالأحقاف، وقد مضى الكلام على شيء من هذا في بعض المناسبات، وأنها حبال الرمل فجاءت الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، يعني من نواحي بلادهم؛ ولهذا فسره بعضهم بقريب من هذا قال: {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أي: من جميع النواحي، ففسرت هنا بالمكان، والله -تبارك وتعالى- قال: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [سورة فاطر:٢٤] فتكون القرى التي حولهم -البلاد التي حولهم- خلها فيها نذر من الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-، وبعضهم فسرها من جهة الزمان {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} يعني الرسل الذين سبقوهم، والرسل الذين جاءوا من بعدهم، {وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} جاءت رسل قبلهم وجاءت رسل بعدهم يدعون إلى توحيد الله -تبارك وتعالى- ويحذرون من الشرك؛ فلهذا قال ابن جرير: إن قوله: {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} يعني الذين جاءوا إلى آبائهم، عَنَى بذلك المتقدمين، الرسل الذين تقدموهم {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} [سورة المائدة:٤٦]، وكذلك في قوله عن هذا الكتاب الذي أنزله على محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [سورة المائدة:٤٨]، فإن المقصود بقوله: {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} أي الإنجيل مصدق الذي تقدمه من التوراة، وهكذا في قوله عن القرآن {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ} يعني الكتب التي سبقته، وهنا النذر تقدمتهم جاءت قبلهم فهم الذين أرسلوا إلى آبائهم، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} الرسل الذين جاءوا بعد أولائك الذين بعثوا لآبائهم، هذا كلام ابن جرير -رحمه الله-، يعني أن هودًا -صلى الله عليه وسلم- أنذر قومه بالأحقاف {وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} وقد لا يقيد ذلك بآبائهم، وإنما يقال: النذر خلت في الأمم قبلهم، وجاءت رسل بعدهم -عليهم الصلاة والسلام- فلا يكون مقيدًا بالآباء ومن جاء بعد الآباء، فإن رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- كانت دعوتهم واحدة، وقد تقدم هودًا -صلى الله عليه وسلم- رسلٌ، وجاء بعده رسل، فالله يذكر خبره لهذه الأمة في قوله: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، هذا القيد هنا "بغير الحق" هذا من قبيل الصفة الكاشفة، يعني في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [سورة الأنعام:٣٨]؛ لأن الطائر إنما يطير بجناحيه، بعضهم ذكر أن السرعة يعبر أحيانًا عنها بمثل هذا، يعني بالطير، فحتى يعرف أن المراد الطير الحقيقي الذي يطير بجناحيه إلى آخره، فـ {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} وهكذا {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [سورة آل عمران:٢١] وما أحد يقتل نبيًا بحق، ولكنها صفة كاشفة تبين الحال يعني ليست صفة مقيدة، الصفة المقيدة تقول: رجل طويل، لكن لما تقول: رجل ذكر، هذه صفة كاشفة؛ لأنه لا يوجد رجل ليس بذكر، وهكذا في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [سورة المؤمنون:١١٧] لا يوجد أحد يمكن أن يدعو مع الله إلهًا آخر له فيه برهان إطلاقًا، ولكنها صفة كاشفة تبين الواقع، تبين الحال كما هي تكشف عنها، فهنا "فاستكبروا في الأرض بغير الحق"، وذكرت في بعض المناسبات أن الاستكبار والكبر في القرآن يأتي بصيغة الاستفعال أو التفعّل، والشاهد أنه لماذا؟ لأن الكبر لا يصلح لبني آدم ولكنه يتكلفه، وإلا فهو ليس كذلك.

{وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} أي: منُّوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله.

كما قال الله -عز وجل- عنهم: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [سورة الأعراف:٦٩]، كانت أجسامهم عظيمة طويلة ممتدة، هذه الأغراض البلاغية كقوله: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة:٧٩] هو معلوم أنهم يكتبون بأيديهم، فهناك أجوبة أخرى لكن بناء على هذا أنها صفة كاشفة، وهنا لتقرير الجُرم وتحقيق الجُرم، كما تقول: مشى إليه برجله، نطق بفيه، وتقول: كتبه بيده، أنت كتبت هذا بيدك، قلته بفيك، الناس يقولون: بعظمة لسانك، واللسان ليس له عظمة وإنما يقصدون بهذا تقرير وإثبات الجرم، هذه أغراض بلاغية، خلق عاد: توجد صور في الإنترنت -إن كانت صحيحة غير ملعوب بها- أنهم اكتشفوا وصوروا في هذه النواحي في الربع الخالي جثثًا ممتدة طويلة وضخمة، يعني الرجل بجانب الجمجمة كأنه يربوع، أنا لا أثق بشيء مما أراه في هذا الإنترنت؛ لأنهم يعبثون بالصور ويكبرونها ويصغرونها فتراها كأنها حقيقية، لكن هم صوروا في الحفْر حينما حفروا، ثم أخرجوها، ويضعون الرجل كسلّم حتى يصعد الناس إليه، ويطوفون بهذه الجثة كأنهم دمى صغيرة، والله أعلم.

قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد كما قال تعالى: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [سورة الذاريات:٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا آياته وعصوا رسله فلهذا قال: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}، قال بعضهم: وهي شديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك فإنها كانت ريحًا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً، كقوله تعالى: {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} [سورة الحاقة:٦] أي: باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصرًا لقوة صوت جريه.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} يقول: **قال بعضهم: هي شديدة الهبوب**، بمعنى أنها قوية، وهذا قال به أبو عبيدة معمر بن المثنى، يعني ريحًا عاصفة، {رِيحًا صَرْصَرًا}، **ويقول: وقيل الباردة**، هذا أيضًا قال به جماعة من السلف، الريح الصرصر: الباردة، كعكرمة وسعيد بن جبير، وقتادة، وكأنهم -والله تعالى أعلم- يفسرون ذلك ببعض معناها كما هي عادة السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فإنهم لا يدققون في الألفاظ، فإن الريح الشديدة يكون لها صوت، كالصوت مثلًا الذي يصدره الباب يقال له: صرصرة مثلًا ونحو هذا؛ ولهذا قال بعضهم: إن المقصود بالريح الصرصر الريح التي لها صَرّة، وهو الصوت، الرياح إذا كانت شديدة يكون لها صوتاً؛ وذلك أنها حينما تصطدم بما يعلو الأرض يُحدث ذلك الاحتكاك صوتاً يقال له: الصرة، وهذه الريح الشديدة فسرها بعضهم بالصيحة، وجمع بعضهم بين كونها باردة وأنها تحرق، أي ريح شديدة باردة محرقة، باردة ومحرقة كما يقول الفراء، وقد مضى في الكلام على الأمثال في القرآن وفي هذه المجالس أيضًا في التفسير الكلام على بعض المواضع التي فيها الجمع بين شدة البرودة والاحتراق، في الأمثال في قوله تعالى: {فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} [سورة البقرة:٢٦٦] فبعض المفسرين فسره بأنه إعصار لشدة برودته صارت كأنها محترقة، فإن النبات مع شدة البرد يسود، وتهلكه شدة البرودة، هكذا قال بعضهم، وإن كان المعنى -والله تعالى أعلم- هناك غير هذا، ولا حاجة لذكر الأقاويل، وليس هذا المراد،

ولكن الجمع بين هذا وهذا يوجد في بعض المواضع، حتى في قوله تعالى: **{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}** [سورة القلم:٢٠] بعضهم يقول: سوداء محترقة، وبعضهم يقول: بيضاء لا شيء فيها، لا نبت فيها، وبعضهم كالفراء يقول: باردة تحرق كما تحرق النار، يعني من شدة البرودة يسود النبات، وبعضهم يقول: إنها صرصرة يعني شديدة السموم كما يقول مجاهد -رحمه الله-، يعني حارة، ابن كثير هنا ذكر هذين المعنيين أنها شديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والشنقيطي -رحمه الله- جمع بين المعنيين أي كونها قوية ولها صوت، فهذان بينهما ملازمة **{رِيحًا صَرْصَرًا}** فهي لشدة هبوبها لها صوت يقال له: الصَرّة -والله تعالى أعلم-، فابن كثير -رحمه الله- أيضًا جمع بينهما وقال: **الحق أنها متصفة بجميع ذلك فإنها كانت ريحًا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت باردة شديدة البرد**، يعني كما يذكر ابن كثير في مواضع ومناسبات شتى أن العقوبات تكون من جنس الأعمال، وقد مضى نظائر لهذا، فهؤلاء لما اغتروا بأجسامهم الممتدة وقواهم أرسل الله -عز وجل- عليهم هذه الريح العاتية، فعذبهم بالهواء، العقوبات التي أرسلها الله -عز وجل- لهذه الأمم المكذبة المتجبرة التي اغترت بقوتها وعتت على ربها -تبارك وتعالى-: أهلكهم بالهواء الذي هو أرق وألطف الأشياء، ولكنه حينما يرسله الله -عز وجل- عذابًا فإنه يكون شديد الوقع، عظيم البأس كما قال الله -عز وجل-: **{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}** [سورة الأحقاف:٢٥]، وكذلك الماء الذي هو من ألطف الأشياء، كالطوفان الذي وقع لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام-، أو بالصوت المهلك المزعج الشديد الذي لا يتحمله البشر، فيصيح بهم الملك فيهلكون، وإذا قلنا: إن هذه معانٍ منفردة صحيحة لها فيكون من قبيل المشترك، وإذا قيل: إنهم فسروه بجزء المعنى، وإن تمام المعنى أنها لا تكون كذلك إلا إذا كانت شديدة ولها صوت، فبهذا لا يكون من قبيل المشترك، يعني حينما يقال: ريح فهو الهواء شديد الهبوب، لمّا يقال: صرصر فهذا قيد، معنى ذلك أنه له صوت، ولما يقال: باردة، هذا قيد آخر وهكذا، فبهذا الاعتبار ما يكون من قبيل المشترك، لكن لو كان الصرصر يفسر بكل واحدة مما سبق أنها من معانيه في اللغة فيكون من قبيل المشترك، فيحمل على جميع هذه المعاني إن لم يوجد مانع.

قال: **وكانت ذا صوت مزعج ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق صرصرًا** هذا النهر هو من أحد الأنهار المتفرعة من نهر الفرات، أحد الأنهار في العراق، نهر صغير ليس ببعيد من بغداد يعني بين بغداد والكوفة وبجواره هذه القرية، يقول هنا: **ببلاد المشرق صرصرًا لقوة صوت جريه**، بجواره قرية تسمى بذلك تسمى "صرصر".

قال: وقوله تعالى: {فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ} أي: متتابعات {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [سورة الحاقة:٧]، وكقوله: {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} [سورة القمر:١٩].

فهنا نحسات يقول: يعني **متتابعات**، النحس ليس معناه التتابع، هي متتابعات نعم، لكن معنى النحس يختلف عن معنى التتابع، وإنما لمّا كانت متتابعات قال: **أي: متتابعات** وإلا فهو ليس بتفسير للفظ النحس، فالمقصود بذلك أنها نحسات يعني مشئومات، **{فِي يَوْمِ نَحْسٍ}** هذا بالنسبة إلى هؤلاء -نسأل الله العافية-، ومن فسرها بأنها شداد فهو وصف لها بأثرها، كأنه اعتبر الأثر فقال: شداد؛ فإن هذه الأيام التي تهب عليهم فيها هذه الريح الشديدة العاتية التي تدمر كل شيء لا شك أن أثرها ووقعها عليهم شديد وعظيم، فبعضهم قال: نحسات

يعني شديدات، وبعضهم فسرها بباردات، وبعضهم فسرها بأنها ذوات غبار، نحسات يعني ذات غبار، والنحس كما سبق هو ضد السعد، وذلك من قبيل الوصف، ومن ثمّ فما جاء في النهي عن سب الدهر هذا معلوم، فلا يجوز لأحد أن يسب اليوم، أو الساعة، أو الشهر أو غير ذلك، حديث: ((يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر))[1]، وأما ما كان من قبيل الوصف فهذا لا إشكال فيه، فيقال: ذلك يوم نحس، كما قال الله -عز وجل-: **{فِي يَوْمِ نَحْسٍ}**، **{فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}** فما كان من قبيل الوصف فذلك ليس من قبيل سب الدهر، فيجوز إطلاق ذلك وصفاً لليوم لا سبًّا له، ومسألة الشر وهل في أفعال الله -عز وجل- شر؟، أفعال الله ليس فيها شر، والله خلق الخير والشر، ولكنه لا ينسب إليه -تبارك وتعالى-، "والشر ليس إليك" من باب التأدب مع الله -تبارك وتعالى-؛ فإن أفعاله خير، ولكن الشر يكون في مفعولاته، فهو بالنسبة إلى هؤلاء الناس يكون نحسًا ويكون شرًا ويكون ضررًا عليهم، ولكن الله -عز وجل- بالنسبة لأفعاله يتجلى في ذلك عدله وحكمته وما إلى ذلك من المعاني، تظهر فيه معاني بعض أسمائه الحسنى، مثل المطر هو مظهر من مظاهر الرحمة، وإن كان يتضرر به بعض الناس فتخرب بيوتهم، أو لربما تضررت زروعهم ونحو هذا، لكنه في الجملة هو خير ورحمة ونعمة يفرح به الناس، وإن حصل ضرر، وإن حصل للطرقات والسيارات ما حصل وما إلى ذلك، وهذا لربما سيارته تضررت، أو لربما هذا الطريق تضرر، أو لربما بيته تضرر، أو لربما مزرعته تضررت، لكن في الجملة المطر رحمة، لكن بالنسبة إلى هذا وقع له الضرر، فأفعال الله -تبارك وتعالى- ليس فيها شر، ولكن في مفعولاته ما يكون شرًّا لمن لابسه ووقع له ذلك، والله تعالى أعلم.

قال: وكقوله: {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} أي: ابتُدِئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم.

هذا جواب على سؤال مقدر أن الله -عز وجل- قال: "في يوم نحس" وهنا: **{فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}**، **{سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}**، فابتُدِئ بيوم واستمر هذه المدة، يعني لم يكن عذابهم في يوم ولكن كان مبتدؤه في يوم هذه صفته.

واستمر بهم هذا النحس {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال: {لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى} أي: أشد خزيًا لهم، {وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} أي: في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واقٍ يقيهم العذاب، ويدرأ عنهم النكال.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "**{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}** فَلَا ريب أَن الْأَيَّام الَّتِي أوقع الله سُبْحَانَهُ فِيهَا الْعقُوبَة بأعدائه وأعداء رسله كَانَت أَيَّامًا نحسات عَلَيْهِم؛ لأَن النحس أَصَابَهُم فِيهَا، وَإِن كَانَت أَيَّام خير لأوليائه الْمُؤمنِينَ، فَهِيَ نحس على المكذبين سعد للْمُؤمنينَ، وَهَذَا كَيَوْم الْقِيَامَة فَإِنَّهُ عسير على الْكَافرين يَوْم نحس لَهُم، يسير على الْمُؤمنِينَ يَوْم سعد لَهُم، قَالَ مُجَاهِد: أَيَّام نحسات مشائيم، وَقَالَ الضَّحَّاك: مَعْنَاهُ شَدِيد، أَي: شَدِيد الْبرد، حَتَّى كَانَ الْبرد عذَابا لَهُم.

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية:٢٤] الآية، برقم (٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، برقم (٢٢٤٦).

وَقَالَ ابْن عَبَّاس: نحسات: مُتَتَابِعَات، وَكَذَلِكَ قَوْله: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}** [سورة القمر:١٩] وَكَانَ الْيَوْم نحسا عَلَيْهِم لإرسال الْعَذَاب عَلَيْهِم، أَي: لَا يُقْلع عَنْهُم كَمَا تقلع مصائب الدُّنْيَا عَن أَهلهَا، بل هَذَا النحس دَائِم على هَؤُلَاءِ المكذبين للرسل، و"مستمر" صفة للنحس لَا لليوم، وَمن ظن أَنه صفة لليوم وأنه كَانَ يَوْم أربعاء آخر الشَّهْر وَأَن هَذَا الْيَوْم نحس أبداً فقد غلط وأخطأ فهم الْقُرْآن"[٢].

يقصد أن ذلك اليوم الذي وقع لهم فيه العذاب هو النحس، لكن لا يستمر ذلك دومًا في هذا اليوم، يعني في الرواية الإسرائيلية أنه وقع هذا في يوم الأربعاء، فمن ثمّ كل أربعاء فهو نحس، وجاء هذا في بعض الروايات التي لا تصح، إنما ذلك اليوم الذي وقع لهم فحسب.

وقال –رحمه الله–: "فإن الْيَوْم الْمَذْكُور بِحَسب مَا يَقع فِيهِ، وَكم لله من نعْمَة على أوليائه فِي هَذَا الْيَوْم، وإن كَانَ لَهُ فِيهِ بلايا ونقم على أعدائه، كَمَا يَقع ذَلِك فِي غَيره من الْأَيَّام، فسعود الْأَيَّام ونُحوسها إِنَّمَا هُوَ بسعود الْأَعْمَال وموافقتها لمرضاة الرب، ونُحوس الْأَعْمَال مخالفتها لما جَاءَت بِهِ الرُّسُل، وَالْيَوْم الْوَاحِد يكون يَوْم سعد لطائفة، ونحس لطائفة، كَمَا كَانَ يَوْمُ بدر يَوْمَ سعد لِلْمُؤْمنِينَ، وَيَوْمَ نحس على الْكَافرين، فَمَا للكوكب والطالعِ والقِراناتِ وَهَذَا السعدِ والنحسِ؟، وَكَيف يُستنبط علم أَحْكَام النُّجُوم من ذَلِك؟، وَلَو كَانَ الْمُؤثر فِي هَذَا النحس هُوَ نفس الْكَوْكَب والطالع لَكَانَ نحساً على الْعَالم، فَأَما أَن يَقْتَضِي الْكَوْكَب كَونه نحسًا لطائفة سَعْداً لطائفة فَهَذَا هو المحال"[٣].

قال الشنقيطي –رحمه الله–: "الصرصر: وزنه بالميزان الصرفي "فَعْفَل"، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا؛ فالصرصر من الصرّة التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله –تعالى–: **{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ}** [سورة الذاريات:٢٩] أي: في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم أي: صوتهما.

الوجه الثاني: أن الصرصر من الصِّر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله –تعالى–: **{كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}** الآية [سورة البقرة:١١٧]، أي: فيها برد شديد محرق، ومنه قول حاتم الطائي:

أوقِدْ فإنّ الليلَ ليلٌ قُرٌّ *** والريحَ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ

علّ يرى نارَك مَن يمرُّ *** إنْ جلبتْ ضيفًا فأنتَ حرُّ

فقوله: ريح صِر، أي: باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد.

---

٢ – مفتاح دار السعادة (٢/١٩٤).

٣ – المصدر نفسه.

وما ذكره -جل وعلا- من إهلاكه عادًا بهذه الريح الصرصر في تلك الأيام النحسات -أي: المشئومات النكدات؛ لأن النحس ضد السعد وهو الشؤم- جاء موضحًا في آيات من كتاب الله"[٤].

هو فسره هنا بالمشئومات، نحسات يعني مشئومات، وبهذا فسره ابن جرير أيضًا النحسات يعني المشئومات.

وقول الشنقيطي -رحمه الله-: "أي: المشئومات النكدات؛ لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم جاء موضحًا في آيات من كتاب الله"، لا ينافي كون أن الإنسان لا يتشاءم، فالشؤم منهي عنه، ولكن الوصف لشيء وقع مما حصل به العذاب والهلاك بذلك لا إشكال فيه، لا أن يتشاءم الإنسان في شيء مستقبل، إذا سمع صوت الغراب أو رأى أحدًا بصورة لا توافقه، كما كانوا يتشاءمون بالطير أو الظباء أو نحو ذلك، أو بأمور أخرى، فهذا لا يجوز، أن يبني في المستقبل على أمور كهذه، لكن في وصف الأشياء الواقعة هذا لا إشكال فيه، فيما وقع الضرر وانتهى، هذه الأمم التي عذبها الله -عز وجل- ذلك اليوم بالنسبة إليهم هو يوم مشئوم.

وقال -رحمه الله-: وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: **{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}** [سورة الحاقة:٦-٨]، وقوله تعالى: **{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}** [سورة الذاريات:٤١-٤٢]، وقوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ}** [سورة القمر:١٩-٢٠]، وقوله تعالى: **{هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}** [سورة الأحقاف:٢٤-٢٥]، وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: **{فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ}** الآية[٥].

فُسرت الصاعقة كما سبق بالشيء المهلك من أي شيء كان، وقد يكون بالريح، فهنا يقول: فسرت بصاعقة عاد.

قال: ولهذا قال تعالى: {لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى} أي: أشد خزيًا لهم، {وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ}.

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، وابن زيد: بيّنا لهم.

يعني أن المقصود بذلك هديناهم هداية الإرشاد؛ لأنه كما تعلمون الهداية هداية إرشاد وهداية توفيق، فلو كانت هداية توفيق لمَا استحبوا العمى على الهدى، ولكانوا مؤمنين، ولكنهم هنا كذبوا فدل على أن قوله: **{فَهَدَيْنَاهُمْ}** يعني أرشدناهم، **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** [سورة القصص:٥٦] يعني هداية التوفيق، هذه المنفية، **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [سورة الشورى:٥٢] هداية الإرشاد.

وقال الثوري: دعوناهم.

هو بالمعنى نفسه، هداية إرشاد.

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/١٦-١٧).

٥ - المصدر نفسه (٧/ ١٧).

{فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} أي: بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح -عليه الصلاة والسلام- فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ} أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًا وهوانًا وعذابًا ونكالًا بما كانوا يكسبون.

الهُون بمعنى الهوان.

قال: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: من التكذيب والجحود، {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح -عليه الصلاة والسلام- بتقواهم لله -عز وجل.

والعلامة الشنقيطي -رحمه الله- جمع بين ما ورد من نصوص القرآن في عقوبتهم وما حل بهم فقال في الأضواء: "واعلم أن الله -جل وعلا- عبر عن الهلاك الذي أهلك به ثمود بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: **{فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ}**، وقوله: **{فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}**.

وعبر عنه أيضا بالصاعقة في سورة "الذاريات" في قوله -تعالى-: **{وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ}** [سورة الذاريات:٤٣-٤٤].

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله -تعالى- في سورة "هود" في إهلاكه ثمود: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ}** [سورة هود:٦٧-٦٨]، وقوله -تعالى- في "الحجر": **{وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ}** [سورة الحجر:٨٢-٨٣]، وقوله -تعالى- في القمر: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}** [سورة القمر:٣١]، وقوله -تعالى- في "العنكبوت": **{وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}** [سورة العنكبوت:٤٠] يعني به ثمود المذكورين في قوله قبله: **{وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ}** [سورة العنكبوت:٣٨].

وعبر عنه بالرجفة في سورة "الأعراف" في قوله -تعالى-: **{فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}** الآية [سورة الأعراف:٧٧-٧٨].

وعبر عنه بالتدمير في سورة "النمل" في قوله -تعالى-: **{فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}** [سورة النمل:٥١].

وعبر عنه بالطاغية في "الحاقة" في قوله -تعالى-: **{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}** [سورة الحاقة:٥].

وعبر عنه بالدمدمة في "الشمس" في قوله -تعالى-: **{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا}** [سورة الشمس:١٤].

وعبر عنه بالعذاب في سورة "الشعراء" في قوله -تعالى-: **{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً}** [سورة الشعراء:١٥٧-١٥٨].

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك.

والصاعقة تطلق أيضا على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معًا، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي: تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميرًا واضح، وقيل لها: طاغية؛ لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك.

والطغيان في لغة العرب مجاوزة الحد، ومنه قوله -تعالى-: **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء}** الآية [سورة الحاقة:١١] أي: جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

واعلم أن التحقيق أن المراد بالطاغية في قوله -تعالى-: **{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}** [سورة الحاقة:٥] أنها الصيحة التي أهلكهم الله بها، كما يوضحه قوله بعده: **{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}** [سورة الحاقة:٦].

خلافا لمن زعم أن الطاغية مصدر كالعاقبة والعافية، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم، أي: بكفرهم وتكذيبهم نبيهم"[٦].

وقال -رحمه الله-: وأما قوله -تعالى-: **{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ}** [سورة الشمس:١٤] فإنه لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم أي: أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه بسبب ذنبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم.

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة "الشعراء" فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد"[٧].

{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ} [سورة فصلت:١٩-٢٤].

يقول تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار {يُوزَعُونَ} أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال -تبارك وتعالى-: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [سورة مريم:٨٦] أي: عطاشًا.

هنا قوله: **{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ}**، قال: أي: **اذكر لهؤلاء** بمعنى أن مثل هذا يكون فيه مقدر محذوف، أي واذكر يوم يحشر أعداء الله إلى النار، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَهُمْ يُوزَعُونَ}** يقول: **أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم** -نسأل الله العافية- وقد مضى هذا في الكلام على خبر سليمان وما قصه الله -تبارك وتعالى- عنه وما كان في جنده لما حُشروا له من الجن والإنس والطير قال: **{فَهُمْ يُوزَعُونَ}**، ومعنى ذلك أنه يردّ أولهم على آخرهم، حتى لا يتفرقون ويتشتتون؛ لكثرتهم، فإنه يرد بعضهم إلى بعض بحيث يكون سيرهم بحال من الاجتماع والانتظام، فهؤلاء الزُّمر الذين يساقون إلى النار -نسأل الله العافية-،

---

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢١/٧-٢٣).

٧ - المصدر نفسه (٢٣/٧).

فهم يساقون مجموعات، وهذه المجموعات تسوقهم الملائكة سوقًا عنيفًا شديدًا يضربون وجوههم وأدبارهم، يردون بعضهم إلى بعض بحيث يسيرون سيرًا مجتمعًا، يعني مثل الغنم أو الدواب التي تسير وهي قطيع وجَمْع فبعضها قد يسبق، وبعضها قد يتأخر، فيرد بعضها إلى بعض من أجل أن تلتئم في سيرها وتجتمع، {فَهُمْ يُوزَعُونَ} رد أولهم على آخرهم، هنا تصور التعبير بالفعل المضارع {يُوزَعُونَ} كأنك تشاهد الملائكة ترد بعضهم على بعض؛ ليُرد المتقدم أو المفترق عنهم إلى المجموع.

قال: وقوله -عز وجل-: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا} أي: وقفوا عليها، {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف.

يعني هنا في قوله: {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، الجلود: الذي عليه عامة المفسرين من السلف والخلف وهو الظاهر المتبادر من القرآن أنها الجلود المعروفة، تشهد، خلافًا لمن قال: إن المراد بالجلود الفروج، أنها تشهد عليهم بما قارفوا من الحرام، وهذا قال به الفراء، ولكن هذا خلاف الظاهر المتبادر، {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ} فذكر هذه الأذنين والعينين والجلود فهذه خمس على سبيل التفصيل، وثلاث على سبيل الإجمال، فكلٌّ يشهد عليهم، كل شيء يشهد عليهم، حتى الألسنة ذكر الله -تبارك وتعالى- أنها تقر في النهاية حينما ينكرون في البداية ويقولون: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣] فعند ذلك يُختم على الأفواه فتنطق الجلود والأرجل والأيدي فيقول: ((أبعدكنّ الله عنكنّ كنتُ أناضل))[٨]، فيقلن: {أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، فعند ذلك يقر ويعترف، {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} [سورة النور:٢٤] فهذا لا تعارض فيه بين ما جاء من إنكارهم وجحودهم مع قوله: {تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} فهذه شهادة بالألسن بعدما تنطق الجلود والجوارح ولا يبقى للإنكار موضع -والله المستعان-، فيقر ويعترف.

{شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ} فذكر هذه الأشياء السمع والبصر والجلود؛ لأنها الأكثر ملابسة واستعمالًا في المعصية والمنكر، فإذا كان الإنسان يشاهد ما حرم الله -تبارك وتعالى-، أو يسمع ما حرم الله -جل جلاله- فإن جوارحه تتحرك تجاه ذلك المنكر وتطلبه، فيكون ملابسًا له ببشرته، يواقع المنكر ويلابسه، وهذه الملابسة في الجلد، سواء كان ذلك بيده أو برجله أو بفرجه أو غير ذلك، فتشهد عليهم الجلود.

مع أن بعضهم يقول أشياء قريبة من هذا، يعني كأن يقال مثلًا: إن هذه الأشياء إما أن تكون مرئية، أو مسموعة، أو تقع على باقي الحس، كاللمس والذوق باللسان يرجع إلى هذا.

قال: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا} أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: {قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي: فهو لا يخالَف ولا يمانع، وإليه ترجعون، روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: ضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم وتبسم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تسألوني عن أي شيء ضحكتُ؟))، قالوا: يا رسول الله، عن أي شيء ضحكت؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهدًا إلا من

---

٨ - رواه مسلم، في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩).

نفسي، فيقول -تبارك وتعالى-: أوليس كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مرارًا، قال: فيُختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا، عنكنّ كنت أجادل))[٩]

رواه هو وابن أبي حاتم وقد أخرجه مسلم والنسائي، وروى ابن أبي حاتم عن أبي بردة قال: قال أبو موسى: ويُدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه -عز وجل- عمله فيجحد ويقول: أي ربي وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك يا ربي ما عملته، قال: فإذا فعل ذلك خُتم على فيه، قال الأشعري -رضي الله عنه-: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقوله تعالى: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: {وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} أي: هذا الظن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم {فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ} أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم، روى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشيٌّ وخَتَناه ثقفيان، أو ثقفي وخَتَناه قرشيان، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم.

الخَتَن يعني أقارب الزوجة من أب وأخ يقال له: خَتَن.

قال: فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئًا سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله -عز وجل-: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} إلى قوله: {مِّنْ الْخَاسِرِينَ}[١٠]، وهكذا رواه الترمذي، وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضًا بنحوه، ورواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم -رحمه الله- في قوله: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ}: "فهؤلاء لما ظنّوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءةً لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن.

وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووَصَفه بما لا يليق...

فيالله! ما ظنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمةِ بالله إذا لقُوه، ومظالم العباد عندهم؟...

---

٩ - رواه البزار في مسنده، برقم (٧٤٧٦)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٣٩٧٥).

١٠ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة حم السجدة، برقم (٣٢٤٩)، وأحمد في المسند، برقم (٣٦١٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، واللفظ له، والبخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت:٢٢]، برقم (٤٨١٦)، ومسلم، في أوائل كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٥).

ومن تأمل هذا الموضع علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه"[١١].

لا يكون ممن يقول: أنا أحسن الظن بالله، والله غفور رحيم، ويسيئ العمل.

وقال -رحمه الله-: "فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمالٍ ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي من حديث شداد بن أوس عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله))[١٢]، وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة"[١٣].

قال الإمام ابن كثير: وقوله تعالى: {فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ}، أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويُبدوا أعذارًا فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات، قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: {وَإِن يَسْتَعْتِبُوا} أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذه كقوله تعالى إخبارًا عنهم: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

كأن ابن جرير -رحمه الله- فسره بلازم معناه، "وإن يستعتبوا" هم يطلبون ذلك من أجل أن يعادوا ثانية، فهذا لازم المعنى، وليس هو معنى الاستعتاب، وإنما الاستعتاب تقول: أعتبني فلان يعني استرضاني حتى رضيت، لك العتبى حتى ترضى، فاستعتبني: أرضاني بعد إسخاطه إياي، واستعتبته: طلبت منه أن يرضى، يقولون: استعتبته فأعتبني يعني استرضيته فأرضاني، فهنا **{وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ}** يعني أنهم إن طلبوا أن الله -تبارك وتعالى- يرضى عنهم أن يسامحهم، يعفو عنهم ويتجاوز عنهم فإنهم لن يحصل لهم ذلك، فهنا قال: **وإن طلبوا أن يستعتبوا، ويُبدوا أعذارًا فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات** "وإن يستعتبوا" يعني بحيث إنه يُطلب منهم الاعتذار فيعتذرون، يعتذرون من أجل الخلاص أو الرجعة ولن يحصل لهم ذلك، والمعاتبة تارة تكون من أجل أن يبدي عذره فيُقبل، وتارة تكون من أجل التبكيت، وذلك حيث لا يقبل العذر، يعني حينما يقال: ما الذي حملك على هذا؟؛ ليعتذر فيقبل عذره فهذا لون، واللون الآخر أن يقال له: ما حملك على هذا؟ على سبيل التبكيت، لا ليبدي عذره فضلًا عن أن يقبل هذا العذر، يعني القائل لا يريد أن يسمع أصلًا العذر، وإنما يريد أن يبكته، ولهذا يقولون مثلًا: كثرة العتاب جالبة للعداوة أو النفرة أو نحو ذلك، أي:

---

١١ - الداء والدواء ط المجمع (٤٦-٤٨)، بتصرف.

١٢ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، برقم (٤٢٦٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٢٣)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات، علي بن إسحاق: هو المروزي، وضمرة بن حبيب: هو ابن صُهيب الزُّبَيدي أبو عتبة الحمصي"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٤٣٠٥).

١٣ - الداء والدواء (٤٨-٤٩).

العتاب المقصود به من أجل أن يقدم عذره؟، لا، إنما العتاب الذي يكون على سبيل التبكيت كأنه يضربه بسوط، يقرعه، يعني كثرة الملامة، الحافظ ابن القيم تكلم على الاستعتاب والعتاب، وأعتبه وأعتبته، وفصّل فيها جاء بالاستعمالات كلها، يُرجع إليها في كتبه.

{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [سورة فصلت:٢٥-٢٩].

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن.

قوله -تبارك وتعالى-: "وقيضنا لهم قرناء" العبارات التي فسر بها ذلك متقاربة ترجع إلى شيء واحد، التقييض بمعنى التهيئة، يعني هيأنا لهم قرناء، هؤلاء القرناء من الشياطين، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وبهذا قال جماعة من المحققين كابن القيم -رحمه الله- والشنقيطي، **{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء}**، أي شياطين كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}** [سورة الزخرف:٣٦] فهذا بسبب جرمهم وهو من عدله -تبارك وتعالى-، ولم يكن ظالمًا لهم، **{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ}** يعني يعرض عنه ويعمى عنه، فإن الله يعاقبه بطمس بصيرته، ويقيض له من الشياطين من يدفعه إلى المنكر والكفر دفعًا حتى يلقى الله -تبارك وتعالى- وهو على ذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ}** [سورة الأعراف:٢٠١-٢٠٢] يعني إخوان الشياطين، **{يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}** ما تحصل لهم توبة ورجوع عما هم فيه، فيبقى الواحد منهم على غيه تمده الشياطين، وهو يرى الموت أمام عينيه صباح مساء، وهو في أواخر حالات المرض يلقى الهلاك، يراه ويوقن، ربما يقول له الأطباء: ما بقي لك إلا أيام، ومع ذلك لا يتوب ولا يرجع، وهو على باطله -نسأل الله العافية- وضلاله، وفساده وإفساده إلى أن يموت، فالناظر لأول وهلة يستغرب ويقول: يرى الموت أمامه ولا يتوب؟! في آخر لحظاته؟! والسبب **{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** يتوب من ماذا؟ زُين له هذا العمل السيئ، يرى أن عمله هذا جيد، ليس فيه ما يوجب التوبة -نسأل الله العافية-، فيلقى الله على أسوأ حال.

قال: {فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} أي: حسنوا لهم أعمالهم في الماضي وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الزخرف:٣٦-٣٧].

{فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} كما سبق في **{مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ}** [سورة المائدة:٤٨]، **{وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}** [سورة الأحقاف:٢١]، فهنا ما المراد بقوله -تبارك وتعالى-: **{فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}**؟، الذي عليه الجمهور أن **{مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}** يعني من شهوات الدنيا،

زينوا لهم المعاصي، والكفر، والشهوات، وما إلى ذلك من محادة الله -تبارك وتعالى-، {وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني الآخرة أنه ليس ثمّة حساب ولا بعث ولا جنة ولا نار، فيفعل الإنسان ما يحلو له، هذا قول الجمهور، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وابن القيم -رحمه الله- لما ذكر هذا القول لم يرجحه ترجيحًا واضحًا، ولكن وصفه بأنه مستقيم ظاهر، لكنه يحتاج إلى تقدير.

{فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} وهذا الذي رجحه أيضًا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، {مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} من المعاصي والشهوات، {وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني في الآخرة من كونه لا حساب ولا بعث ولا نشور.

وقيل غير هذا، لكن هذا المشهور، وهذا الذي عليه عامة المفسرين من السلف فمن بعدهم.

وإلا فإن بعضهم يقول: {مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني ما عملوا، {وَمَا خَلْفَهُمْ} مما عزموا على فعله ولم يفعلوه بعد، فزينوا لهم أعمالهم التي عملوها أنها جيدة، وما عزموا عليه أنه حسن وصواب وحق وما أشبه ذلك، فهذا القول كأن ابن القيم -رحمه الله- يميل إليه ويستحسنه، وإن لم يؤيده بقوة، لكن كلامه يشعر أنه يميل إلى هذا، يعني كأنه يقول: هذا الأليق بالسياق أو بالمعنى في الآية، وبه قال بعض أصحاب كتب المعاني كالزجاج، فيكون ما بين أيديهم مما عملوا، وما خلفهم ما عزموا عليه من الأعمال.

وبعضهم عكس المعنى، الأول ما بين أيديهم يعني من أمر الآخرة أنه لا حساب ولا عقاب، وما خلفهم مما كان في الدنيا مما صدر منهم من الأعمال، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} أي: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس.

حق القول يعني وجب وثبت، {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ} [سورة السجدة:١٣] فهذا معنى حق القول "ولكن حق القول" يعني ثبت ووجب، وهو أن الله -تبارك وتعالى- حكم {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة ص:٨٥] **كما حق على أمم قد خلت من قبلهم**، "على أمم" يمكن أن تكون "على" بمعنى "في"، ويمكن أن تكون بمعنى "مع" يعني كما حق مع أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وهذا قال به ابن القيم -رحمه الله.

وهذا يدل على أن الجن كالإنس في مسألة الثواب والعقاب، وأنهم مثل الإنس يموتون، وينقضون جيلًا بعد جيل، فتلك أمم خلت من الجن كما تخلو أمم أيضًا من الإنس.

وكأن ابن القيم -رحمه الله- يفسر هنا "في أمم" بمعنى مع أمم، "وحق عليهم القول في أمم" يعني مع أمم.

{إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} أي: استووا هم وإياهم في الخسار والدمار، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} أي: تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره.

هنا فسره كما فسره الكثيرون بأن النهي عن السماع يعني سماع الاستجابة {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، لا تنقادوا له، وهذا من لازم السماع، فإنهم نهوهم عن سماعه أصلًا؛ لأنه قال: {وَالْغَوْا فِيهِ} حتى لا يطرق سمعهم فيتأثرون به، فالواقع -والله أعلم- أنه نهيٌ عن السماع من أصله، لا تسمعوا لهذا القرآن؛ ولهذا غضبوا على أبي بكر -رضي الله عنه- لما كان يقرأ القرآن، ثم صار يقرؤه بفناء بيته، فصاروا يسمعون وشكوا ذلك، فهم كانوا يتواصون، وهكذا لما كان يسمع بعضهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عند الكعبة

يستخفون ليسمعوا، ويتواصون ألا يكرروا ذلك، فالنهي عن السماع من أصله، ومن ثمّ فإن هذا يقتضي النهي عن الاستجابة من باب أولى.

قال: {وَالْغَوْا فِيهِ} أي: إذا تُلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد، {وَالْغَوْا فِيهِ} يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قرأ القرآن.

المكاء يعني التصفير، {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء} [سورة الأنفال:٣٥] يعني التصفير، {وَتَصْدِيَةً} يعني التصفيق، فهنا "والغوا فيه" يعني أنهم يقولون ما يشوش على القارئ والسامع فلا يعقل منه شيئًا سواء كان ذلك بتصفير أو تصفيق أو صرف الأصوات، فعل السفهاء من أجل ألا يُعقل منه شيء ولا يُسمع، وبعضهم يقول: "والغوا فيه" يعني قولوا فيه ما يلبس ويشكك وما إلى ذلك من الأغاليط والأباطيل.

قال: قريش تفعله، {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن.

من كان خاوي الوفاض من الحجة والبرهان فليس أمامه إلا رفع الصوت لعله يغلب بصوته، لذلك تجد في بعض المناظرات والتي تذاع في بعض القنوات ونحو ذلك تجد أن البعض في حالة غير عادية، يعني كأنه قد سُلب عقله، يرفع صوته بطريقة لا يريد من الطرف الآخر أن يتكلم أو يسمع، وإنما ضجيج يريد أن يقضي الوقت بهذا، فهذا ليس عنده إلا هذا الصوت المرتفع.

قال: ولذلك أمر الله -سبحانه وتعالى- بخلاف ذلك، فقال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٤]، ثم قال -عز وجل- منتصرًا للقرآن ومنتقمًا ممن عاداه من أهل الكفران: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه، {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: بشرِّ أعمالهم وسيئ أفعالهم.

يعني بأسوأ الأعمال ما هو؟ بعضهم فسره بالشرك، هو أسوأ الأعمال، قال به جماعة من السلف، وبه قال مقاتل، وبعضهم يقول: الشرك وسائر المعاصي والذنوب والجرائم باعتبار أن لهم من الأعمال ما هو حسن كالصلة والبر والصدقة وما إلى ذلك، فإنهم لا يثابون في الآخرة، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان:٢٣] فأعمال هؤلاء باطلة وداحضة وذاهبة وأعمالهم كرماد، فلا يبقى من هذه الأعمال شيء، وإنما يجازون بمساوئ الأعمال لا بمحاسنها، والله تعالى أعلم.

ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل "أسوأ" هنا ليست على بابها، وإنما المقصود مطلق الاتصاف، يعني بسيئ أعمالهم، وقد مضى الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {بِأَحْسَنِ} [سورة الزمر:٣٥] بالنسبة للمؤمنين، {الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} ما المراد به؟ هل ترقى باقي الأعمال الصالحة إلى الأحسن من أعمالهم كرمًا من الله وتفضلًا، أو أن المقصود بذلك أن أعمالهم يكون منها ما هو طاعة ومنها ما هو معصية فالله يجازيهم على الطاعات، ويتجاوز عن السيئات، وهكذا {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [سورة الزمر:١٨] مضى الكلام في هذا هل المقصود مطلق الاتصاف يتبعون الحَسن؟ أو أن المقصود به القرآن ففيه العدل، وفيه الفضل، فيأخذون بالفضل؟ يعني مثلًا {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [سورة الشورى:٤٠]، {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} فالجزاء بالسيئة هذا عدل، والعفو والصفح هذا فضل، فيستمعون القول فيتبعون أحسنه، أو من جملة كلام الناس، فكلام الناس فيه لغو، وفيه أشياء، فيأخذون منه الأفضل والأحسن والأنفع.

قال: {ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [سورة فصلت:٢٨-٢٩] قال سفيان عن علي -رضي الله عنه- في قوله تعالى: {الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا} قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه، وقال السدي عن علي -رضي الله عنه-: فإبليس يدعو به كل صاحب هوى وكل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث: ((ما قُتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل))[١٤].

هذا قال به كثير من السلف، أن المقصود ابن آدم الذي قتل أخاه فيكون أول من سن القتل، وإبليس، وقيل: إن ذلك يشمل شياطين الإنس والجن **{أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا}** يعني من الجن والإنس، شيطان الإنس والجن، وإن كل أحد كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وُكل به قرين من الجن[١٥]، فهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا}** هكذا قراءة الجمهور، وفي قراءة لأبي عمرو من بعض الطرق بإسكان الراء {أَرْنَا}، وهي أيضًا قراءة ابن عامر، بعضهم يقول: المعنى واحد في القراءتين "أرِنا" و"أرْنا"، وبعضهم يقول: إنها بالإسكان بمعنى أعطنا، وبالكسر من الرؤية "أرِنا"، ولعل منه قول الشاعر:

أرْنَا إداوةَ عبد الله نملؤها** من ماء زمزمَ إنّ القوم قد ظمئوا

أرْنا يعني أعطنا، وبعضهم يقول: معنى القراءتين واحد.

وقولهم: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا} أي أسفل منا في العذاب؛ ليكونا أشد عذابًا منا، ولهذا قالوا: {ليكونا من الأسفلين} أي: في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٨] أي: إنه تعالى قد أعطى كلًّا منهم ما يستحق من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [سورة النحل:٨٨].

هم يريدون التشفي بذلك، وليس بنافعهم -نسأل الله العافية.

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، برقم (٣٣٣٥)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل، برقم (١٦٧٧).

١٥ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠١٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٥١٤٣)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح، والبزار في مسنده، برقم (١٨٧١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فصلت من الآية (٣٠) إلى الآية (٤٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [سورة فصلت:٣١-٣٢].

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه-: يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، روى ابن جرير عن سعيد بن عمران قال: "قرأت عند أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئًا"[١]، ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: "ما تقولون في هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}؟، قال: فقالوا: ربنا الله ثم استقاموا من ذنب، فقال: لقد حملتموه على غير المحمل {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} فلم يلتفتوا إلى إله غيره"[٢]، وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد، وروى أحمد عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((قل ربي الله ثم استقم))، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف عليّ؟، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بطرف لسان نفسه ثم قال: ((هذا))[٣]، وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، والنسائي عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((قل آمنت بالله ثم استقم))[٤]، وذكر تمام الحديث.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه الطبري في تفسيره، تحقيق: شاكر (٢١/ ٤٦٤).

٢ - المصدر نفسه.

٣ - رواه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حفظ اللسان، برقم (٢٤١٠)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٤١٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٨٧٤)، وقال: "حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، برقم (٣٨)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٤١٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين غير أن صحابيّه لم يخرج له البخاري، وابن حبان في صحيحه، برقم (٩٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٩٥).

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من تفسيرها بإخلاص العمل لله، والعمل بطاعته على ما شرع لهم بمعنى أن قولهم: "ربنا الله" هذا هو الإيمان، وأن قولهم: "ثم استقاموا" يعني عملوا الصالحات، أي أنهم عملوا الأعمال التي شرعها الله لهم على وفق ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بشرطه {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:١١٠]، هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الذي قاله أيضًا كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، والمعنى الآخر الذي ذكره منقولا عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- مفاده أنهم استقاموا على هذه الكلمة وهي التوحيد والإخلاص، بمعنى أنه لم يقع منهم إشراك {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} على هذه الكلمة، يعني لم يحصل لهم التفات إلى غير الله -تبارك وتعالى-، ولا عبادة لأحد سواه، هذا معنى القول الآخر وهو الذي عزاه هنا لمجاهد وعكرمة والسدي بعد أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عن الجميع-، لكن القول الأول أيضًا قال به جماعات من السلف، يعني الذي رده عليهم أبو بكر -رضي الله عنه-، فهم في البداية عندما سألهم قالوا: استقاموا من ذنب، بمعنى أنهم جمعوا بين الإيمان والطاعة، فالذنب هنا يشمل ترك المأمور، أو فعل المحظور، يعني مثل قول ابن جرير وابن كثير، فرد ذلك عليهم، ثم ذكر المعنى الآخر، لكن المعنى الأول أن المقصود بالاستقامة طاعة الله -عز وجل- مع الإيمان، وهو ما يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((قل آمنت بالله ثم استقم)) لكن هذه الجملة مثل الآية استقم على ماذا؟ على هذه الكلمة؟، أو استقم في سيرك على الصراط في فعل الطاعات، واجتناب المعاصي مع تحقيق الإخلاص؟، وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير واختاره ابن جرير قال به جماعة من السلف وإن اختلفت عباراتهم، كقول قتادة وابن زيد: استقاموا على طاعة الله، هذا مثل قول ابن كثير {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} يعني على طاعته، وقول الحسن: على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته، وهذا أوضح وأكثر تفصيلًا، وقول الثوري: عملوا على وفق ما قالوا، يعني عملوا بمقتضى ما قالوا، بمعنى أنه لم يحصل منهم إشراك، "قالوا ربنا الله" آمنوا إيمانًا صحيحًا، وعملوا بطاعة الله -عز وجل-، فالآية -والله تعالى أعلم- تشمل ذلك جميعًا، {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} فأطلق الاستقامة هنا ولم يقيدها بشيء، والأصل حمل ذلك على أعم معانيه، هذا الذي يسمونه بعموم المقتضى، يعني أنه لم يقدّر أو يقيد بمعنى معين، استقاموا على هذه الكلمة لم يحصل منهم إشراك؛ لأنه إذا حصل إشراك لا يُقبل عمل، واستقاموا أيضًا على طاعة الله، فإن هذا القول وحده لا يكفي؛ ولذلك تجد في النصوص كثيرًا {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} فلابدّ من هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت، قائلين: {أَلَّا تَخَافُوا}، قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، {وَلَا تَحْزَنُوا} على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه عبدالرحمن بن زيد: **يعني عند الموت**، تتنزل عليهم الملائكة تطمئنهم عند موتهم وتبشرهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، قائلين لهم: "ألا تخافوا"، يخافوا من ماذا؟ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: **أي: مما تقدمون**

عليه من أمر الآخرة، فالخوف في الأصل يقال للقلق من أمر مستقبل، والحزن لأمر مضى، وإن كان الحزن قد يستعمل فيما يتصل بالمستقبل، ولكن الكثير في الاستعمال هو الأول، ومن الثاني ما قيل في قوله -تبارك وتعالى-: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** [سورة فاطر:٣٤]، على أحد المعاني المشهورة لذلك أنه أذهب عنهم الحزن يعني بشأن الآخرة، الحزن يعني الخوف من الآخرة، كانوا في الدنيا في أهلهم مشفقين فأطلقوا على ذلك الحزن -لكن هذا التفسير ليس محل اتفاق- ففي هذا الموضع على هذا القول عبر بالحزن عن الخوف، وهنا هذا المعنى الذي نقله عن مجاهد وعكرمة وزيد -رحمهم الله-: "**ألا تخافوا" مما تقدمون عليه من أمر الآخرة "ولا تحزنوا" على ما خلفتموه من أمر الدنيا**، لا تحزنوا على ما فات، هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم قال غير ذلك، يعني كقول مجاهد مثلًا: "ألا تخافوا" يعني الموت، أي طمأَنهم أو طمأنوهم وقالوا لهم: لا تخافوا من الموت الذين تقدمون عليه، "ولا تحزنوا" على ما خلفتم من الأولاد؛ فإن الله خليفتكم على ما تركتم، فإن الإنسان عادة يحزن من أجل أولاده لاسيما إذا كانوا صغارًا، **{أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا}**، وبعضهم يقول كعطاء: ألا تخافوا من رد أعمالكم وإثابتكم، فإن أعمالكم مقبولة، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم، لكن هنا لو نظرت **{أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا}** حُذف المتعلق أيضًا ما قال: ألا تخافوا الموت، ألا تخافوا من رد الأعمال، ألا تخافوا من الآخرة، ألا تحزنوا على أولادكم، ألا تحزنوا على ما خلفتم في الدنيا، كل هذه لم يذكر ربنا -تبارك وتعالى- واحدًا منها بعينه، بخصوصه، فنهاهم عن ذلك كله **{أَلَّا تَخَافُوا}** على سبيل الطمأنة، **{وَلَا تَحْزَنُوا}** فيدخل فيه انتفاء ذلك جميعًا، الخوف من أي شيء كان، رد الأعمال، أمر الآخرة، الخوف من الموت، اطمئنوا تمامًا، فإن الإنسان لا شك أنه يكون في حال من الخوف عند الموت يخاف ويحاذر من أمور كثيرة، يخاف الموت، يخاف سؤال الملكين، يخاف عذاب القبر، يخاف من أمر البعث والنشور والقيامة، يخاف من النار، من عذاب الله -عز وجل-، هنا "ألا تخافوا" نفي للخوف عنهم من كل وجه، "ولا تحزنوا" على فائت أيًّا كان هذا الفائت، فأهل الميت يحزنون على فراقه، وهو أيضًا عند الموت يتألم لفقدهم، ويحزن على ما ترك، ويحزن على ما فرط وما حصل من تقصير، في تلك اللحظات يراجع مسيرته في الحياة، وكيف كان خطوه فيها، فيتسلل إلى نفسه الحزن، وكيف ترك طاعة الله -عز وجل- وقصر فيها، يعني أنه لم يعمل ويجد ويجتهد ويشمر أكثر؛ لأن الدنيا تركها خلف ظهره، ليس معنى ذلك أنه كان مضيعًا لحق الله، فإن هؤلاء الذين قالوا: آمنا بالله واستقاموا هم على حال من الإيمان والطاعة، لكن المقصود هنا أن كل أحد يتمنى في تلك اللحظات أن لو تزود من طاعة الله -عز وجل-، وأنه كان على حال أفضل، فهنا يقول لهم: **{أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا}**، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير، وهذا كما جاء في حديث البراء -رضي الله عنه- قال: ((إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان))[٥]**، وقيل: إن الملائكة تتنزل**

---

٥ - أخرجه بمعناه الإمام مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٢).

عليهم يوم خروجهم من قبورهم، وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، رواه ابن أبي حاتم، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدا وهو الواقع.

هذا أيضًا قال به وكيع، والقول بأنه تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم قال به أيضًا جماعة من السلف كمقاتل وقتادة، والقول الأول الذي نقله عن مجاهد والسدي وابن زيد أن ذلك عند الموت هو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

{تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} وهذا القول الذي جمع هذه الأقوال -قول زيد بن أسلم: عند الموت وفي القبر وحين يبعث- ابن كثير استحسنه؛ وذلك أن هذه المواطن هي التي يتعاظم فيها الخوف، ويرى الإنسان فيها الملائكة، أو تتنزل على أهل الإيمان بالطمأنة، والله -تبارك وتعالى- نفى عن أهل الإيمان الخوف في ذلك اليوم في المحشر، وقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢]، وقال: **{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [سورة الأحقاف:١٣].

فالملائكة تتنزل عليهم عند الموت في القبر، وكذلك أيضًا في القيامة، والحشر والنشور، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم، {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ} أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون.

هنا قوله -تبارك وتعالى- عن قيل الملائكة: **{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** يعني كنا معكم في الدنيا نسددكم ونثبتكم وما إلى ذلك من هذا المعنى الذي ذكره، وكأنه المتبادر -والله تعالى أعلم-، بخلاف قول من قال: **{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** يعني كنا نحفظ أعمالكم ونحصيها ونكتبها في الدنيا، ونحن اليوم أولياؤكم في الآخرة، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن هذا المعنى الذي ذُكر من كتابة الأعمال وإحصاء الأفعال لا يختص بأهل الإيمان، وإنما يكون لهم ولغيرهم، و**{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** لا شك أن هذا من قول الملائكة، وهذا الذي عليه عامة السلف وهو ظاهر القرآن.

وبعضهم يقول: إن هذا من كلام الله **{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}**، لكن السياق يدل على أن هذا من جملة ما تقوله الملائكة لأهل الإيمان عندما يبشرونهم ويطمئنونهم، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} أي: مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم، {نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} أي: ضيافةً وعطاءً وإنعامًا من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف حيث غفر وستر ورحم ولطف.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}** مضى الكلام على مثل ذلك في موضع سابق، وأن ذلك يحمل -والله تعالى أعلم- على ما يتمنونه وتطمح إليه نفوسهم أو ما يطلبونه فيكون حاضرًا بين أيديهم لا يحتاجون إلى تعب وعناء في جلبه، لا كما يحصل في هذه الحياة الدنيا حيث يحتاج الإنسان أن يبذل جهدًا في تحصيل مطلوباته وصنع ذلك وإعداده وما إلى ذلك، وذكرنا هناك قول من قال: إن المراد أنه لا يدَّعي شيئًا إلا كان له، يعني يدعيه لنفسه، ليس ذلك بمعنى أنه يطلبه وإنما يدعي أنه له، والمعنى الأول أقرب، والله أعلم.

"تدَّعون" يعني تطلبون، تطمح إليه نفوسكم، تتمنون، فالجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فكل ما يتمناه يجده، وكما في الحديث: أنه يقال لأدنى أهل الجنة منزلة تمنَّ[٦]، فيتمنى فيعطيه الله -عز وجل- ضعف ما تمنى، فهذا فُسر بالطلب، وفسر بالتمني، والقول الآخر لربما يكون أبعد من هذين أي أنه يدّعي أن هذا له، البينة على المدعي واليمين على من أنكر[٧]، فكل ما ادعى أنه له كان كذلك.

فيما يتعلق بقوله: {نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} النُّزُل معروف أنه ما أعد للضيف، "من غفور رحيم" ذكر هنا هذين الاسمين الكريمين، فالغفور للزلات والتقصير؛ لأن الإنسان مهما كان على حال من الطاعة والاستقامة فلابدّ من تقصير، فالله -عز وجل- يغفر ويتجاوز، ولو أنه حاسب عباده على نعمه وأفضاله لما نجا أحد، وهو رحيم أيضًا فهذا من باب التحلية، يعني الأول من باب التخلية غفور الذنوب والتقصير، وبرحمته -تبارك وتعالى- أدخلهم الجنة وأورثهم هذا النعيم وأعطاهم وحباهم فكان لهم فيها ما تدعي أنفسهم، ولهم فيها كل ما يشتهونه ويطلبونه.

قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}: "فالملَك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته، ومُسكن جأشه ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه"[٨].

هذا الكلام بهذه الطريقة لا تجده في شيء من كتب التفسير.

قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة فصلت:٣٣-٣٦].

يقول -عز وجل-: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ} أي: دعا عباد الله إليه، {وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي: هو في نفسه مهتدٍ بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدع الخلق إلى الخالق -تبارك وتعالى-، وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتدٍ، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وقيل:

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٢).

٧ - رواه البخاري، بلفظ: "إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قضى أن اليمين على المدعى عليه"، كتاب الرهن، باب إذا اختلف الراهن والمرتهن ونحوه فالبينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، برقم (٢٥١٤).

٨ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص ٢٦٠).

المراد بها المؤذنون الصلحاء كما ثبت في صحيح مسلم: ((المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة))[٩]، وفي السنن مرفوعًا: ((الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن))[١٠]، فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين، والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأمّا حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعًا بالكلية؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أُرِيه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري -رضي الله عنه- في منامه فقصه على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأمره أن يلقيه على بلال -رضي الله عنه- فإنه أندى صوتًا[١١] كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذاً أنها عامة كما قال عبدالرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ}** هذا الاستفهام معناه النفي يعني لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله، لا يوجد أحد أحسن قولًا من هذا، والجمع بين الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- والعمل الصالح أمر ينبغي أن يقف المؤمن عنده بحيث يعرض نفسه على ذلك، يعني قد يكون الإنسان ممن يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يكون ممتثلًا، فهذا الثناء جاء لمن جمع بين هذا وهذا، يدعو إلى الله ويعمل صالحًا.

والناس في ذلك على مراتب: فأعلى هذه المراتب هو هذا، يدعو إلى الله ويعمل ويمتثل، والله -عز وجل- يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [سورة الصف:٢-٣]، وكذلك في ذمه لبني إسرائيل: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}** [سورة البقرة:٤٤]، فهذه المرتبة الأولى أن يتوافق قوله مع فعله، أن تتوافق دعوته مع الامتثال، وليس المقصود بذلك أن كل ما قاله الإنسان ودعا الناس إليه من نوافل العبادات، وألوان القربات أنه يفعل ذلك جميعاً؛ لأنه لا يستطيع أن يحصي، فقد يترك بعض النوافل؛ لأنه مشغول لربما بما هو آكد في حقه، فمثل هذا لا إشكال فيه؛ لأنه لا يستطيع أن يستوعب جميع شرائع الإسلام من أبواب العبادات، فإن ذلك لا يفي به العمر، ولكنه لا يكون متخلياً عن العمل، فأما الواجبات وترك المحرمات فيجب عليه أن يكون ممتثلاً سواء

---

٩ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، برقم (٣٨٧).

١٠ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت، برقم (٥١٧)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، برقم (٢٠٧)، وأحمد في المسند، برقم (٧١٦٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٥٣٠).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، برقم (٤٩٩)، وابن ماجه، كتاب الأذان والسنة فيه، باب بدء الأذان، برقم (٧٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٤٧٨)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن صحابيّه لم يخرج له سوى البخاري في "خلق أفعال العباد" وأصحاب السنن، يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد الزهري"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٥١٢).

كان ممن يدعو أو ممن لا يدعو، هذا واجب على الجميع، وأما النوافل فكلٌّ بحسبه لكن لا يكون مقصرًا في ذلك مُغفلًا لهذا الباب، لابدّ من تقصير ولكن المؤمن يتوب ويراجع نفسه، ولا يستمر على التقصير وكما قيل:

إذا لم يعظ الناسَ من هو مذنبٌ*** فمَن يعظُ العاصين بعد محمد

–صلى الله عليه وسلم–، وكما جاء عن السلف: وأيُّنا لم يذنب؟، أيُّنا لم يقصر؟ فهذه المرتبة الأولى.

المرتبة الثانية: أن يكون الإنسان ممتثلًا عاملًا بطاعة الله تاركًا لمعصيته، ولكنه لا يدعو إلى الله، وهذا تقصير في الامتثال في الواقع.

المرتبة الثالثة: أن يكون هذا الإنسان يدعو إلى الله، ويقضي أوقاته في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه في نفسه مقصر، فهذا الذي جاء فيه المعاتبة والإنكار **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ}**، والرجل الذي يلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور فيها كما يدور الحمار في رحاه، فيجتمع إليه أهل النار يا فلان، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، كنتم آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وأفعله[١٢]، فمثل هذا فعله غير حسن ولا محمود، وهؤلاء جاء الوعيد فيهم، فينبغي للمؤمن أن يحذر أن يكون بهذه المثابة –نسأل الله العافية– كالشمعة يضيء للآخرين ويحرق نفسه، ويدخل في قوله –تبارك وتعالى–: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** [سورة التغابن:٩] ما ذكره الحسن من الصور الثلاث: الرجل الذي علّم فانتفع وعمل بعلمه غيرُه فدخل الجنة، وهذا لم ينتفع بعلمه ولم يعمل بمقتضاه فدخل النار، فذلك من التغابن الذي يكون في الآخرة، هذا المُعلم صار في النار –نسأل الله العافية–، وهذا الذي تعلم صار في الجنة، دخل بسببه الجنة، وهذا لم ينتفع بعمله، وقد قيل:

وعالمٌ بعلمه لم يعملَنْ*** معذبٌ مِن قَبل عُبّاد الوثن

فهذا قد يكون فتنة –نسأل الله العافية–، قد يفتن بعض الناس بهذا فيشغله لربما تعليم الناس ودعوتهم عن نفسه وعن أهله وولده، فيكون في غاية التقصير في عمله وامتثاله، ويكون أيضًا في غاية التقصير في حق من يعول، في حق من تحت يده من ولد وأهل وزوجة فلا يعلمهم، ولا يأمرهم، ولا ينهاهم، فيكون في حال من الغفلة والتضييع والتفريط، ولكن نفعه للبعيد، وهكذا هذا الاشتغال الدائم في الدعوة إلى الله –عز وجل– والذهاب والمجيء ولربما الفضائيات ونحو ذلك مع الغفلة التامة عن النفس، ولربما عما يلج إليها دون أن يشعر، فيكون الإنسان أحيانًا في نفسه مفتونًا غافلًا مضيعًا مقصرًا، لكنه اتخذ الكلام صنعة كغيرها من الصنائع، فهو يتكلم كصاحب المهنة، ويلقي ويخاطب ويحاضر ويخطب على المنابر، ويخرج في الفضائيات، إنما اتخذ ذلك مهنة من المهن، لكن إذا نظرت إلى الحال والعمل وجدت غاية التقصير، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون بهذه المثابة، المفروض أنه يكون على حال من الاستقامة والتقوى والطاعة إذا كان يؤمن بهذه المبادئ التي يدعو الناس إليها.

وهذا هو الذي يكون له القبول والأثر، أما الذي يردد كلامًا وواقعه يدل على خلافه فهذا لا يبارك في قوله، ولا ينتفع بكلامه، وقلوب الناس تجفوه، والله المستعان.

---

١٢ – رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، برقم (٢٩٨٩).

فهذا معنى نغفل عنه كثيرًا **{دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا}** الدعوة وحدها لا تكفي، فهذه المراتب الثلاث، ثم تأتي –نسأل الله العافية– مراتب دونها، فيأتي بعد ذلك من لا يمتثل ولا يدعو، يعني هو مقصر في نفسه، وأيضًا لا يدعو غيره، ولا يأمر ولا ينهى، فيكون قد ترك الواجب من الناحيتين، ودون ذلك –نسأل الله العافية– من يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ودعاة الضلالة ودعاة الشر فهؤلاء كُثر، والله المستعان.

والحافظ ابن كثير –رحمه الله– هنا في قوله: **وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتدٍ، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– أولى الناس بذلك**، هو جمع هنا بين القولين، يعني أن بعضهم قال: **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ}** هو النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولا شك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو أولى بهذا الوصف ولكنه لا يختص به، فجمع بين القولين، وبهذا تعرف فضل هذا التفسير، فهو في مضامينه وتحت عبارة المؤلف –رحمه الله– من هذا كثير، يجمع بين القولين، ولكن القارئ الذي لم يكن له خلفية في أقوال السلف لا يشعر بهذا، فجاء بهذه العبارة التي جمع فيها بين هذا وهذا، ثم نقل عن جماعة من السلف هذا المعنى قال: **وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء**؛ لأنه دعا إلى الله وعمل صالحًا، فالمؤذن داعٍ لكنها لا تختص به، والسبب الذي ذكره واضح، وذلك أن هذه السورة مكية والأذان إنما شرع في المدينة، لكن المؤذن داخل في عمومها، فهو داعٍ إلى الله –عز وجل– حينما يقول: حي على الصلاة حي على الفلاح، ويدعو الناس إلى المسجد فهذا من الدعاء إلى الله –تبارك وتعالى–، وحملُ ذلك على المؤذنين منقول عن جماعة من السلف كعكرمة ومجاهد وقيس بن حازم، ولكن كأنهم ذكروا ذلك –والله أعلم– من باب المثال، لا يقصدون الحصر، ولا يخفى عليهم أن هذه الآية مكية، وأن الأذان شرع في المدينة، ولكنهم يذكرون أحيانًا بعض ما يدخل تحت معنى الآية ولا يقصدون الحصر، وإنما يفسرونه بالمثال، قال: **والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وغيرهم**، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} أي: فرق عظيم بين هذه وهذه، {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر –رضي الله عنه–: ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

قول –تبارك وتعالى–: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ}** هنا الحافظ ابن كثير –رحمه الله– لم يبين معنى الحسنة والسيئة بخصوصها، ما المراد بالحسنة والسيئة؟ من أهل العلم من حمل ذلك على الإيمان بالله والشرك والطاعة والمعصية، يعني حمل ذلك على معنى عام، كل حسنة وسيئة، رأس الحسنات الإيمان، ورأس السيئات الشرك، ويدخل في الحسنات سائر الطاعات، ويدخل في السيئات سائر المعاصي، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير –رحمه الله–، وبعضهم خصه بأحد هذه المعاني كقول من قال: الحسنة هي التوحيد، والسيئة هي الشرك، وهذا يشبه التفسير بالمثال، يعني كأنه من قبيل التفسير بالمثال وإلا فالآية ليس فيها التقييد بالإيمان أو الشرك، وهكذا قول من قال: إن الحسنة هي المداراة، يعني هنا حمله على التعامل بقرينة قوله بعده: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** فبعضهم حمله على المداراة **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** فالحسنة هي المداراة ويقابلها الغلظة والشدة، وهكذا قول من قال: الحسنة العفو والصفح، ويقابل ذلك الانتصار للنفس، وقول من قال: الحسنة الحِلم، وضده

الفحش، يعني استبدِلْ الكلمة بكلمة والتصرف بتصرف آخر، فإذا كانت الكلمة موحشة فاستبدِلْ ذلك بكلمة طيبة، والذي يظهر –والله أعلم– أن الآية عامة فيدخل فيها هذا وهذا، فالله –عز وجل– قال: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} فنفي الاستواء يُحمل على أعم معانيه، لا يستوي الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والكلمة الطيبة والكلمة الموحشة، {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، فلا يقال: إن ذلك يختص بالإيمان والكفر، أو مجرد الطاعة والمعصية، وإنما ما يتصل بالتعامل يدخل في هذا؛ لأن السياق يدل عليه، بل السياق فيه، فيتخير الإنسان الكلمة الطيبة بدلًا من الكلمة الموحشة، والمعاملة الحسنة والمداراة بدلًا من الغلظة والشدة والمكاشرة للناس بما يكرهون، فهذا توجيه وتعليم من الله –تبارك وتعالى– لعباده كيف يكون فعلهم، وكيف يكون صنيعهم في تعاملهم ابتداء، وكذلك أيضًا في مقابل ما يلاقون ويواجهون من تعامل الناس وأفعالهم، وما يواجهونهم به مما قد يكرهونه، فتبدأ النفوس لربما تتحرك فيها دواعي الانتصار والغضب، فتصدر من العبد كلمات لربما يندم عليها، ويسبب ذلك الجفوة والنفرة سواء كان ذلك مما يبتدِئ به غيرَه أو كان مما يقابل به أقوالهم أو أفعالهم، فالله –عز وجل– يعلم عباده كيف يتصرفون، كيف يكون التعامل فيما بينهم {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} فإذا ترددت بين كلمتين إحداهما فيها جفاء والأخرى فيها لين فالكلام الطيب يأسر النفوس، وله تأثير بالغ عليها، فيرجع صاحب الإساءة إلى حال من القرب والولاية والمحبة وما إلى ذلك، أما إذا قوبل بمثل صنيعه وقوبلت الإساءة بالإساءة فإن ذلك من شأنه أن يفرق ولا يجمع، ويورث القطيعة والشر بين الناس، فيقابل بمثل هذا أيضًا، وتحصل العداوة والبغضاء بين أهل الإيمان، فهذا كله –والله تعالى أعلم– داخل في الآية.

وقوله –عز وجل–: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي حميم، أي: قريب إليك، من الشفقة عليك والإحسان إليك.

هنا قوله –تبارك وتعالى–: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ} وقبله قوله: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، يعني حملها ابن كثير على ما يتصل بالتعامل، وهذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله– لكن هل هذا ينفي أيضًا ما ذكره بعض السلف من التوحيد والشرك والطاعة والمعصية؟ "لا تستوي الحسنة ولا السيئة" لا شك أن هذه لا تستوي، ولكن السياق في التعامل.

وقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك؛ فإنه يشق على النفوس.

صحيح ما يقبل هذه الوصية، وبعضهم يقول: ما يقبل هذه الخصلة يعني الدفع بالتي هي أحسن، وهذا مبناه أيضًا على أصل قبله وهو احتمال الأذى، فإنه لا يفعل ذلك ويرتقي إلى الدفع بالتي هي أحسن إلا من كان صابرًا محتملًا للأذى؛ ولهذا {وَمَا يُلَقَّاهَا} يعني هذه الخصلة، الضمير جاء مؤنثًا كما يقول ابن جرير –رحمه الله–، ما يلقى هذه الخصلة، هذه الصفة الدفع بالتي هي أحسن، وبعضهم يقول: {وَمَا يُلَقَّاهَا} يعني الجنة، وبعضهم يقول: {وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: كلمة التوحيد، ولكن السياق –والله أعلم– في هذا المعنى الذي ذكره ابن جرير، وذكره الحافظ ابن كثير، يعني ما يقبل هذه الوصية، أو ما يُلقّى هذه الخصلة إلا من صبّر نفسه على

ذلك، وذلك أن النفوس لها حضور قوي لاسيما في حال الخصومة فتطلب الانتصار ورد الإساءة بالإساءة، ولربما يشق على كثير من النفوس العفو والصفح فضلًا عن المقابلة بالإحسان، ولربما يخيل إليه أو يزين له شيطانُ الإنس والجن الانتصار ورد الظلم بمثله من أجل أنه يتوهم أن العفو والصفح فضلًا عن المقابلة بالإحسان أن ذلك من قبيل الضعف، وأن ذلك يجرئ المسيء عليه، وهذا كله من الشيطان، لكن حتى لو بقي الإنسان مدركًا أن ذلك لا يجرئ عليه، وأن ذلك ليس من الضعف في شيء، ولكن النفس تأبى، من الناس من تأبى نفسه الإحسان ابتداء لمن لم يسئ إليه، تأبى نفسه الإحسان بل قد تأبى نفسه حتى السلام والكلمات الطيبة واختيار العبارات اللطيفة وتكنية الناس ومناداتهم بما يحبون، تأبى نفسه هذا، هو اعتاد على الشدة والغلظة فلو أراد أن يتكلم بكلام لطيف أن ينادي هذا بكنيته، أن يناديه بأحب أسمائه إليه، أن يختار العبارات الجميلة اللطيفة الرفيقة تأبى نفسه ذلك مع كل أحد ممن لم يسئ إليه أصلًا، وإنما يبخل بهذه العبارات، ويعبر بعبارات فيها شيء من الجفاف، وإن لم تكن إساءة لكن ليس فيها تلطف ورفق حتى مع من لربما يكون له فضل عليه كالوالدين، أو معلميه أو نحو ذلك، يعني بعض التلاميذ لربما يأنف من أنه يتلطف مع أستاذه، ولربما يظن أن هذا من الضعف والخنوع أو المَلَق أو نحو هذا، وهذا يبدو أنه كثير في الجيل الجديد، وما كان الناس كذلك، كان الناس يعرفون كيف يتأدبون مع من له فضل عليهم في التعليم ونحو هذا، ويتسابقون في خدمته ولربما لا يدعونه يفعل شيئًا مما يزاوله فيمسحون السبورة ويبادرون إلى هذا، ويحملون حقيبته، هذا الذي أدركنا عليه الناس، ثم جاء جيل لا يحرك ساكنًا ولا يمكن أن تتحرك فيه شعرة تجاه هذه الأمور، والذي يبدو -والله أعلم- في أحوال هؤلاء الناس أنهم يتوهمون أن هذا نوع من المَلَق والضعف والخنوع، وأن هذا شيء يترفعون عنه، هكذا يبدو لي -والله أعلم- مع كثرة التأمل والمقارنة بين جيل عرفناه وأدركناه وجيل آخر في غاية الجمود والتبلد في المشاعر تجاه هذه القضايا، فهذا تقصير وخطأ، والبعض يستكبر أن يقبل رأس أبيه وأمه، وسمعت من يقول: يستغربون لو فعلتُ هذا؛ لأنهم ما اعتادوا على ذلك منه، اعتادوا على الجفاء، لو قلت له: تُكني إخوانك أو تقبل رأس أخيك الأكبر منك أو نحو ذلك يأنف غاية الأنفة ويتعاظم هذا، فنفسه لا تطاوعه ولا تطيق ذلك، بينما يوجد أناس الله -عز وجل- قد أعطاهم وحباهم، فأعرف من أعطاهم الله -عز وجل- الكثير فكل واحد يقبل رأس من هو أكبر منه، وإذا جاءوا -وأعمارهم بالثمانين وما يقاربها يعني من الستين إلى التسعين- كل واحد يقبل رأس الذي أكبر منه، وهكذا نشأ أولادهم، وإذا جاءوا إلى أي مكان لا يمكن أن يدخل أحد قبل من هو أكبر منه، وتجدونهم يدخلون صفًّا، يعني مثل هذه الأشياء مثل هذا الأدب مثل هذه الأخلاق يحتاج الإنسان أن يروض نفسه عليها، أما الجفاء والأخلاق الصحراوية هذه فلا تورث خيرًا، والنفس تحتاج إلى شيء من المجاهدة، هي تأبى لربما على صاحبها هذا في الذين لم يسيئوا إليه فكيف مع من أساء إليه -نسأل الله العافية-؟، بعض الناس لا يحتمل أن تلتفت إليه عند الإشارة، نسمع أشياء غريبة، يعني لا يحتمل أن ينظر إليه أحد عند الإشارة، فقط نظر.

وقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

قوله: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة هذا معنى عام، صاحب حظٍّ من كان بهذه المثابة، بهذه التربية، بهذه الأخلاق، وهكذا قول من قال: **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** يعني في الثواب والخير، وقول

من قال: {ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} يعني وجبت له الجنة كما يقول قتادة –رحمه الله–، والمعنى أقرب فيما ذكره ابن كثير –رحمه الله.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم.

وقوله تعالى: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا قام إلى الصلاة يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه))[١٣]، وقد قدمنا أن هذا لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأعراف:١٩٩-٢٠٠] وفي سورة المؤمنين عند قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} [سورة المؤمنون:٩٦-٩٨].

يعني في هذه المواضع الثلاثة هو يصانع شيطان الإنس أو العدو من الإنس بالفعل الجميل، والإحسان فيرده ذلك إلى أصله الطيب فيتحول من العداوة إلى الموالاة {كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، وأما الشيطان من الجن فلا سبيل إلى مصانعته، ولهذا جاء في شيطان الإنس أو في العدو من الإنس {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وفي شيطان الجن الأمر بالاستعاذة؛ لأنه لا سبيل إلى التخلص من وسواسه وأذاه إلا بالاستعاذة منه، وقوله –تبارك وتعالى–: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} فالنزغ شبيه بالنخس، والمقصود –والله تعالى أعلم– ما يلقيه الشيطان من الوسواس، والخواطر السيئة، وما يُغري به الإنسان من دواعي الانتقام والغضب ومقابلة الإساءة بالإساءة تحت أي ذريعة كانت، يعني من أجل ألا يُستضعف، من أجل ألا يقال: أنت جدار قصير، بل يقصِّر في المعروف والبر والإحسان تحت هذه الذرائع، يعني من الناس من لا يريد أن يبادر في خدمة الآخرين، والبذل والإحسان وتقديم ما يحتاجون إليه إلى آخره؛ لئلا يجترئ الناس عليه في طلب الخير وفعل الخير، فالبخل يصل بصاحبه أحيانًا إلى أن يقول: لا تفعل، لا تبادر، لا تقم بشيء من قبيل الإحسان والنفع المتعدي لهؤلاء الناس من أجل أن لا يُنتظر بعد ذلك منك، يظن أن هذا مما يجرئ الناس عليه، وأنه حطٌّ في مرتبته، والشيطان له مع الناس طرق ووسائل، ولا يترك أحدًا، من الناس من يكون من طلاب العلم فيترك وعظ الناس من أجل ألا يقال عنه: إنه واعظ، فيتكلم مثلًا في الحديث والعلل فقط، أو يتكلم في الفقه فقط، فلا يريد أن يتبادر إلى ذهن أحد أنه يمارس الوعظ، كأن الوعظ من العيوب والنقائص التي يترفع عنها، والله سمى القرآن موعظة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يعظ أصحابه، والصحابة يعظون، فالوعظ ليس

---

١٣ – رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، برقم (٧٧٥)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، برقم (٢٤٢)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الاستعاذة في الصلاة، برقم (٨٠٧)، وصحح إسناده الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٧٤٨).

بعيب وشيء يتنزه الإنسان منه، فيأبى كل الإباء من أن يلقي كلمة أو يعظ الناس، أو أن يذكّر الناس؛ لئلا يتبادر إلى الأذهان أنه واعظ، وقد يترك المشاركة في أي عمل من أعمال البر المتعدي والخير والنفع إذا احتيج إليه في أمور الدعوة أو في إغاثة الناس في النكبات أو غير ذلك؛ لئلا يتبادر إلى الأذهان أنه لربما من الدعاة إلى الله، وهل هذا من العيوب؟ هذا من الكمالات، ولكن يوجد من الناس من هو بهذه المثابة ويفكر بهذا، ويوجد غير ذلك أصحاب العقل المعيشي، مِن هؤلاء لربما مَن لا يصدر منه لا خير ولا شر، كأن لسان حاله:

قد هيئوك لأمرٍ لو فطنتَ له *** فاربأ بنفسك أنْ ترعى مع الهَمَلِ

الراعي مع الهمل يكون باذلاً للخير آمراً بالمعروف ناهٍ عن المنكر، فعند نفسه أن أوراقه تحترق، ومن ثمّ قد لا تحصل له بعض مطامحه، هكذا الشيطان يفعل ببعض النفوس، وأسوأ من هؤلاء جميعًا من يتكلم بالباطل، ويزين الباطل طمعًا في شأن من الدنيا، فيكون كما قال الله -عز وجل-: **{فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}** [سورة الأعراف:١٧٥-١٧٦] هذا صاحب العقل المعيشي بهذه الطريقة البائسة يظن أنه عاقل، وأنه ذكي، وأنه يفكر، وعنده بُعد نظر لما بعد عشر وأكثر من عشر سنوات وعشرين سنة، فلا يصدر منه خير ولا نفع ولا بر ولا معروف -نسأل الله العافية-، وعند نفسه أنه صاحب أفق واسع، ونظر بعيد للمستقبل، وله مطامح نسأل الله أن يخيبها، وأن لا يحقق له مطلوبًا، لا كثّر الله في المسلمين من هؤلاء.

العبد المؤمن ينبغي أن يكون أمره لله، يريد ما عند الله، فهذا الذي تحصل به الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في الفرق بين التعبير بقوله هنا: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** وقوله في الأعراف: **{إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**: "وسر ذلك -والله أعلم- أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله -عز وجل-: **{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مما تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ}**[١٤].

فجاء التوكيد في قوله: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرا مما يعملون، وحسَّن

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ}** [فصلت:٢٣]، برقم (٤٨١٧)، ومسلم في أوائل كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٥).

ذلك أيضا أن المأمور به في سورة "فصلت" دفْعُ إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**، فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضا: فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَيْلُ وَالنَّهَارُ}**، وبقوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أنك تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً}** [سورة فصلت:٣٩].

فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه "السميع العليم" كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرَّفة، والذى في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تُسَوُّونها به في العبادة؟!، فعلمتَ أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه"[١٥].

هنا في هذه السورة **{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** فجاء هنا بضمير الفصل بين طرفي الكلام؛ لتقويته **{إِنَّهُ هُوَ}**، وجاءت "أل" المعرِّفة **{السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**، وفي سورة الأعراف **{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [سورة الأعراف:٢٠٠] ما قال: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** هذا الذي يسمونه بالمتشابه اللفظي، وتوجيه هذا المتشابه اللفظي أحياناً يظهر فيه لطائف في المعاني، معانٍ جميلة ولفتات بلاغية وغير بلاغية، لكن قد لا يتوقف عليها المعنى الأصلي الذي سيقت الآية لتقريره، فما كان من ذلك له وجه ظاهر بيِّنٌ من غير تكلف فهذا حسن، وهذه اللفتات يذكرها ابن القيم، ويذكرها أصحاب التفاسير التي تُعني بالجانب البلاغي، ويذكرها آخرون ممن ألفوا في المتشابه اللفظي، كـــ "ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، و"درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، و"البرهان في متشابه القرآن" للكرماني، وكذلك أيضًا كتاب زكريا الأنصاري، هم يتكلمون في هذه المتشابهات اللفظية، فابن القيم كان يتحدث عن هذه القضية لماذا قال في الأعراف: **{إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** وهنا قال: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**؟، فهو يرى أنه في سورة فصلت المقام يحتاج إلى مزيد من التقوية؛ لأن هذه الأشياء التي يُواجَه بها تحتاج إلى دفع للنفس من أجل التحلي بما ذكر، والله -عز وجل- يسمع كلامه وكلامهم، وجوابه وجوابهم، وهو عليم بفعلهم وإساءتهم، وعليم بعفوه وتجاوزه وإحسانه إلى من أساء إليه، فيحتسب ذلك عند الله -تبارك وتعالى- ولا يطلب الانتصار لنفسه.

قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فصلت:٣٧-٣٩].

---

١٥ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٩٦-٩٧).

يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} أي: أنه خلق الليلَ بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران، والشمسَ ونورها وإشراقها، والقمرَ وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال تعالى: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا} أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره {فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ} يعني الملائكة {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} كقوله –عز وجل–: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [سورة الأنعام:٨٩].

وقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ} أي: على قدرته على إعادة الموتى، {أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} أي: هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة، {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار، {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قوله –تبارك وتعالى–: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أين موضع السجود؟ هل هو هنا أو بعد التي تليها {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} علامة السجود في المصحف عندنا بعد الثانية، فبعض السلف يقول: بعد الأولى؛ لاتصاله بالأمر بالسجود، يعني {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} فهذا أمر بالسجود فيسجد في هذا الموضع، وهذا قال به ابن مسعود –رضي الله عنه–، وهو رواية عن ابن عمر –رضي الله عن الجميع–، وبعضهم يقول: إنه يسجد بعد التي تليها؛ لأنه تمام المعنى فإن الله –عز وجل– قال: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} وقالوا: هذا من تمام معناه فيسجد بعد الثانية، وهذه الرواية عن ابن عمر، وبه قال ابن عباس –رضي الله تعالى عن الجميع.

وقوله –تبارك وتعالى–: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} خاشعة يعني أنها هامدة جدباء يابسة لا نبات فيها، {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} يعني تحولت من حال اليبس إلى حال أخرى {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} ما معنى {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}؟ اهتزت بالنبات، تحركت بالنبات، وربت أي أن الأرض تنتفخ بسبب حركة النبات تحتها، ومعلوم أن النبات أول ما يظهر إنما يكون تحت الأرض لا تراه العيون، فحركته تحت الأرض اهتزاز وظهوره وبدوٌّ هذا الظهور قبل أن يخرج إلى الظاهر يكون سببًا لارتفاعها {وَرَبَتْ} يعني الرابية تقال للأرض المرتفعة انتفخت بالنبات ارتفعت بالنبات ثم بعد ذلك يظهر على السطح، وبعضهم يقول: الآية فيها تقديم وتأخير، فإنها تربو أولًا، تنتفخ بالنبات ثم بعد ذلك يهتز هذا النبات ويتحرك، يعني إذا ظهر، ولكن هذا لا حاجة إليه، والأصل أنه إذا دار الكلام بين التقديم والتأخير أو الترتيب، فالأصل الترتيب كما ذكر الله –عز وجل– فيكون الاهتزاز هو حركة النبات تحت سطح الأرض تحت التربة، وربت يعني انتفخت به هو إذا تحرك تحت الأرض، فإن الأرض تنتفخ وهذا معروف، يعني ترتفع وتتحرك بالنبات، يحصل لها هذا وهذا،

وأحيانًا قد لا يكون له ظهور إذا لم يحصل له بعد ذلك أن يُعقبه المطر فيظهر، أو قد يحصل سبب آخر من شدة برد أو نحو هذا فيقولون: صامت عليه الأرض، يعني إنه تحرك وُجد في داخلها لكنه ما ظهر إلى الخارج لسبب أو لآخر، وقد يكون بسبب ذنوبنا كما هو الآن المشاهد أمطار نزلت وكثيرة في وقت مبكر، وقت نزول الأمطار، والأرض جدباء كأنه لم ينزل عليها مطر إطلاقًا، يعني استوت السنة التي نزل فيها مطر كثير في وقته وحينه مع السنوات التي لم ينزل فيها المطر، فهي جدباء، ومن ثمّ فلم يكن ذلك من قبيل الغيث، وإنما هو مجرد مطر نزل لكنه لم يخرج به النبات، فعلى الحالين -نسأل الله العافية- إما انحباس المطر، وإما أن ينزل المطر فلا ينتفع به، ويكون نزوله كعدمه، وهذا بسبب هذه الذنوب، ومنع الزكاة، والحسد والبغضاء التي بين الناس، وكثرة الذنوب والمعاصي، وظهور هذا، وكثرة الفساد والشر، كل ذلك من أسبابه.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [سورة فصلت:٤٠-٤٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا} قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه، وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد، وقوله -عز وجل-: {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} فيه تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال تعالى: {أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، الإلحاد مضى الكلام عليه، وأن المقصود به الميل، هذا أصله في كلام العرب ومنه اللحد؛ لأنه يكون من قبيل الشق المائل في القبر جهة القبلة، فالمعاني التي ذكرها السلف كما نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بأنه وضع الكلام على غير مواضعه وهكذا قول من قال كما جاء عن مجاهد: يميلون عن الإيمان بالقرآن، {يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا}، ونُقل عنه: يميلون عن القرآن بالمكاء والتصدية، يعني من أجل أن يصرفوا الناس عنه، وكذا قال: بالمكاء والتصدية واللهو والغناء، وقول من قال: يكذبون في آياتنا، وقول من قال: يعادون ويشاقون، وقول من قال: يشركون، كل هذه المعاني من الإلحاد "يلحدون في آياتنا" فيشمل التكذيب بآيات الله -تبارك وتعالى-، بمعنى أنه ينكر أن ذلك من عند الله -تبارك وتعالى- وأنه نزله، وأنه من كلامه، ويدخل في هذا الإلحاد أيضًا أن يحرف الكلام عن مواضعه فيحمل كلام الله -عز وجل- على معانٍ لم يُردها، فهذا داخل فيه، وهذا قول ابن عباس وضع الكلام على غير مواضعه، هذا الذي يقال له: التحريف المعنوي، ويدخل في ذلك أيضًا التحريف الحسي، وقد عصم الله -عز وجل- منه كتابه، فعل ذلك أعداء الله -تبارك وتعالى- في الكتب المنزلة قبله فهو من جملة هذا الإلحاد، فالكفر بها إلحاد، وحملها على غير مراد الله -تبارك وتعالى- هذا أيضًا من جملة الإلحاد {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا}.

ثم قال -عز وجل- تهديداً للكفرة: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} قال مجاهد والضحاك وعطاء الخرساني: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} وعيد، أي: من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

التهديد -كما هو معلوم- من معاني الأمر، والأصل أن الأمر للوجوب إلا لصارف، وقد يأتي للاستحباب، وقد يأتي للإرشاد، وقد يأتي للتهديد، فهنا هذا مثال على هذا النوع الأمر للتهديد {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}، يعني كما تقول لغيرك: اعمل ما بدا لك، على سبيل التهديد، {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

ثم قال -جل جلاله-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ} قال الضحاك والسدي وقتادة: وهو القرآن، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} أي: منيع الجناب لا يُرام أن يأتي أحد بمثله، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ} الذكر هو القرآن بلا شك، لكن أين الجواب؟ الأكثر على أن الجواب محذوف يفهم من السياق {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ} يعني يجازون بكفرهم يجازيهم الله بكفرهم أو يعذبون أو هالكون أو نحو ذلك من المقدرات، وبعضهم يقول: إنه مذكور، يعني الجواب هو قوله -تبارك وتعالى-: {يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، والأول أشهر وعليه الأكثر، وبعضهم يقول: إن الجواب هنا اكتُفي عنه يعني سد وأغنى عنه الخبر السابق، وهو قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، فهذا خبر، ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ} يعني أيضًا كالذي قبله لا يخفون علينا {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} أي: منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله، هذا مما يدخل في معناه {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، لا يستطيع أحد أن يحرفه، لا يستطيع أحد أن يأتي بحجة في تكذيبه أو يجد فيه تناقضًا وتعارضًا وتضاربًا {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء:٨٢]، وذكرتُ في بعض المناسبات أن من عزته أن معانيه لا تدخل في القلوب المعرضة عنه المشتغلة بغيره من اللهو والغناء والغفلة والمعاصي، فلابدّ من محل قابل، من قلب نظيف فيُفتح له من معانيه وهداياته، ويحصل له من تدبره ما لا يخطر له على بال، قال: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}، أي: ليس للبطلان إليه سبيل، هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أجمل في هذه العبارة، يعني ما المراد بقوله: {مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}؟

بعض السلف فسر "من بين يديه" أنه محفوظ من النقص، "ولا من خلفه" يعني الزيادة، يعني لا يُنقص منه ولا يزاد فيه، فلا يأتيه الباطل من هنا لا من هذه الجهة ولا من هذه الجهة، وهذا منقول عن قتادة والسدي، وقال به من أصحاب المعاني -معاني القرآن- الزجاج، يعني لا يتطرق إليه نقص ولا زيادة، وبعضهم يقول: إن المراد {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ} يعني لا يوجد في كتاب قبله ما يدل على تكذيبه بل الكتب التي قبله مصدقة له، {وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} ليس بعده كتاب ينسخه أو يبطله، وهذا قاله مقاتل، وقال به آخرون أيضًا كسعيد بن جبير، وبعضهم يقول: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ} يعني من جهة المعنى، في معانيه، {وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} لا يزاد فيه، لا يأتيه الباطل من بين يديه في المعاني، ولا من خلفه أي لا يزاد عليه، هذا قاله ابن جرير -رحمه الله-، فالله -عز وجل- أطلق هذا {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} فلا يتطرق إليه نقص ولا زيادة، ولا يوجد في كتاب قبله ما يدل على تكذيبه، ولا يأتي بعده ما يمكن أن يدل على نسخه أو

بطلانه، فهو محفوظ من هذا كله، يعني حفظه الله -عز وجل- من جميع جهاته، لا يتطرق إليه خلل ولا نقص ولا زيادة ولا يوجد فيه تناقض ولا تعارض ولا تضارب، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا}** [سورة الزمر:٢٣] يعني يشبه بعضه بعضًا في الحسن، ويكمل بعضه بعضًا، فهو نسيج متحد من أوله إلى آخره.

ولهذا يقول الشاطبي -رحمه الله-: إن الآيات المكية تُنزَّل على بعضها في الفهم كما تُنزَّل الآيات المدنية على الآيات المكية؛ لأنه وحدة واحدة كما نعبر اليوم، والله -عز وجل- قال: **{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}**.

ولهذا قال: {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} أي: حكيم في أقواله وأفعاله، {حَمِيدٍ} بمعنى محمود، أي: في مجموع ما يأمر به وينهى عنه الجميعُ محمودة عواقبه وغاياته، ثم قال -عز وجل-: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}، قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذبت كُذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك.

هذا هو المعنى المشهور، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أنه ما يقال لك إلا الكلام نفسه، والاتهام الذي وجه إلى الأنبياء قبلك، لا جديد، هذه دعاوى الكافرين والمبطلين عبر القرون، هكذا واجهوا الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فلست أول من يُكذب ويُرمى بهذه الأوصاف القبيحة أنه كذاب ومجنون إلى آخره، فقد قيل للرسل -عليهم الصلاة والسلام- قبلك كذلك، وبعضهم يقول: ما يقال لك يعني من قِبَل الله -عز وجل- من الأمر بالعبادة وإخلاص الدين لله -تبارك وتعالى-، لم تؤمر بشيء يستنكر، أو جديد على هؤلاء، وإنما هي سنة الله -عز وجل- مع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فقد أمرناك بما أمرنا به المرسلين، وله وجه، ولكن الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وهكذا بعضهم يقول: **{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}** إن هذا استفهام، والأقرب أنها ليست من قبيل الاستفهام، وأن "ما" نافية، هذا الذي عليه الجماهير من أهل العلم سلفًا وخلفًا، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ} أي: لمن تاب إليه، {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} أي: لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة فصلت من الآية (٤٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه- في قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} [سورة فصلت:٤٤-٤٥]**: لما ذكر الله تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال -عز وجل-: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء:١٩٨-١٩٩]**، وكذلك لو أُنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد: {لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}** [سورة فصلت:٤٤] **أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلًا بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه، هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم.**

ثم قال -عز وجل-: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء} أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} أي: لا يفهمون ما فيه، {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال -سبحانه وتعالى-: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [سورة الإسراء:٨٢]**، {أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم، قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول.**

قلت: وهذا كقوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٧١]**.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}** [سورة فصلت:٤٤] يعني كيف نفهمه؟، كيف يَنزل قرآن أعجمي على عربي المراد منه أنه يفهمه؟ **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء}** هنا قال: **{هُدًى وَشِفَاء}** ولم يقل: دواء، **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ**

{لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الإسراء:٨٢]، فالدواء قد يصيب وقد يخطئ، وقد يحصل المقصود منه، وقد يلائم بعض الناس، وقد لا يلائم آخرين، ولكن الشفاء يكون المقصود منه حاصلًا إذا وجد المحل القابل؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} والوقر هو الصمم، وقد مضى الكلام على هذا، قال: {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} -نسأل الله العافية-، يعني كما قال الله -عز وجل-: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [سورة التوبة:١٢٥] فمن الناس من لا يزيده سماع القرآن إلا ضلالًا وكفرًا ونفاقًا، وفي قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [سورة البقرة:٢-٣] ثم بعد ذلك لما ذكر أهل النفاق قال: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [سورة البقرة:١٨] وهكذا أيضًا مضى قوله -تبارك وتعالى- كما في هذه الآية: {أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ} [سورة النمل:٨٠-٨١]، فإن هؤلاء الصم لربما يفهمون بالإشارة، ولكنهم إذا ولوا مدبرين هم لا يسمعون عبارة، ولا يتفطنون لإشارة، يعني أنهم لا يصل إليهم من ذلك قليل ولا كثير، فهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} يقول: بعيد من قلوبهم، قاله مجاهد، وما ذكره ابن جرير -والله تعالى أعلم- هو الأقرب، وهو الذي عليه الأكثر، لكن ابن جرير -رحمه الله- ما ذكره اختيارًا، وإنما ذكر قولين في الآية هذا هو الأول منهما، فابن جرير لم يذكر هذا المعنى على أنه مرجح، وإنما قال: لأن ذلك يحتمل معنيين، أو قال: فيه قولان، فذكر هذا المعنى منهما، وفرق بين أن يذكره كما تعلمون على أنه اختيار له وبين أن يُذكر من جملة الأقوال، يقول: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول، وهكذا عبارات من عبر عن هذا المعنى: كأنهم ينادون من السماء مثلًا أو نحو ذلك، هذا يرجع إليه، {أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} ومن ينادَى من مكان بعيد لا يصل إليه كالذي ينعق بما لا يسمع.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ} أي: كُذب وأوذي، فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل، {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} [سورة الشورى:١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: لعجل لهم العذاب، {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا} [سورة الكهف:٥٨]، {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} وهو التوراة، {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} كون الضمير يرجع إلى أقرب مذكور هذا معلوم، فهنا هل يرجع الضمير إلى الكتاب الذي هو التوراة؟ أو أنه يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} من هو المحدَّث عنه؟ هل هو موسى أو الكتاب؟ يعني هنا سيقت الآية لبيان أن موسى أوتي الكتاب؟ أو لتقرير نبوة موسى -صلى الله عليه وسلم- وما لقي كما ذكر الله -عز وجل- في مواضع: {وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} [سورة البقرة:٩٢]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا} [سورة الأحزاب:٦٩]، فأحيانًا يكون المقصود بيان ما لقي موسى -صلى الله عليه وسلم-، وأحيانًا يكون المراد الكتاب وما حصل منهم إزاءه، فهنا {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} لاحظ هنا قول ابن كثير: **أي: كُذب وأوذي** هذا يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا قال به بعض

المفسرين، والقول الآخر أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور **{فَاخْتُلِفَ فِيهِ}** أي: الكتاب، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو الأقرب -والله أعلم-، هذا أرجح من الأول، والأول يحتمل وإلا فقد يختلفون في نبيهم ويرتابون به، مثلًا: **{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** [سورة غافر:٣٤]، هذا في الفراعنة، **{وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ}** [سورة البقرة:٨٩] كفروا بالرسول الذي جاءهم، فتارة يراد هذا، وتارة يراد هذا، ولكن السياق يبين، ولهذا كان الاحتمال قائمًا في هذه الآية، ولكن الذي يظهر -والله أعلم- أن الضمير هنا يرجع إلى الكتاب، ولا يخفى أن بين الكتاب والرسول الذي جاء به ملازمة، فإذا كانوا اختلفوا في الكتاب الذي جاء به فذلك يرجع إلى الرسول الذي جاءهم؛ لأن إيمانهم به كان ضعيفًا، كان عندهم تردد في هذا **{فَاخْتُلِفَ فِيهِ}** قال: **أي: كُذب وأوذي**، وإذا قلنا: الكتاب فيكون اختُلف في الكتاب، قال: **{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}** يعني أن لا يعذبهم قبل يوم القيامة مثلًا؛ لأن الله -عز وجل- كما ذكر أهل العلم لم ينزل عذابًا مستأصلًا لأمة بعد أن أنزل التوراة، يعني العقوبات العامة، وقد مضى الكلام على هذا قوم نوح وهود وصالح وقوم لوط أهلكوا بالعذاب المستأصل، فهذا لم يحصل بعد ذلك لأمة كاملة بعد موسى -عليه الصلاة والسلام-، قال: **{لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ}** أي: **{لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا}** [سورة الكهف:٥٨]، قال: **{وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}** الآن هنا أيضًا الضمير يرجع إلى من؟ إذا قلنا: إن الأول يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- فهم في شك من نبيهم، يقول: **أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم بما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه** هل هذا يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- أو يرجع إلى الكتاب؟ إذا قلنا: إن الأول يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- فهذا أيضًا كذلك، وإذا قلنا: إن الأول يرجع إلى الكتاب فهذا أيضًا كذلك، يعني يكون المعنى أن اليهود في شك من كتابهم، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- أنهم في شك مما قالوه فيه أي في كتابهم، وإذا كانوا في شك مما قالوه في كتابهم فهم أيضًا في شك من كتابهم، قالوا كلامًا، قالوا شيئاً في كتابهم وهم في شك من قولهم هذا، وذلك يرجع إلى هذا الكتاب أصلًا وإلى إيمانهم به أنه لم يكن عندهم يقين، "وإنهم لفي شك منه مريب"، لاحظ هذه الآية في اليهود، وكما قال -عز وجل-: **{وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}** فهذه الآيات على هذا المعنى توضح أمرًا في داخل نفوسهم، حقيقة غير ظاهرة، ولكن الله -عز وجل- أخبر عما يدور في هذه النفوس التي هي في مرية وفي ريب وفي شك من كتابهم، إذا كانوا في شك من كتابهم فذلك يعني أنهم في حال من التردد والضعف، هم على غير يقين، إذاً الكفر إليهم أسرع، والإلحاد أقرب، ومن ثمّ إذا عرف أهل الإيمان مثل هذا أن هؤلاء وهم من أشد الناس عداوة لأهل الإيمان، ولربما ظهروا من أكثر الناس تعصبًا لدينهم، ومعلوم أن اليهود لا يدعون إلى دينهم، ويرون أن هذا شرف لا يستحقه البشر من غير اليهود، فأراح الله -عز وجل- منهم ومن شرهم، وليت النصارى صاروا مثلهم، فالمقصود أن أقول: إذا كان اليهود في شك وهم من أكثر الناس تحيرًا ومن أكثر الناس تعصبًا لمبادئهم ودينهم كما يظهر للناس فهذا يدل على أنهم لا يقفون على أرض صلبة، هذه قضية مهمة جداً في معرفة العدو والحرب مع الأعداء، هم في مرية، وهم في شك، وهم في ريب، وإذا كان هذا في

اليهود فالنصارى أشد شكًّا وريبًا من اليهود، وهذا معلوم، إذا كان اليهود كذلك وهم أهل غضب عرفوا الحق وخالفوه فكيف بالنصارى الذين هم أهل ضلال أصلًا، وإذا ذكر أهل الكتاب دخل اليهود والنصارى، **{وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ}**، ولما ذكر الله -عز وجل- الصلب وهي العقيدة الكبرى عند النصارى مع التثليث ماذا قال الله -عز وجل-؟، قال: **{وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}** [سورة النساء:١٥٧]، فعلى المعنيين المشهورين اللذيْن سبقا، "ولكن شبه لهم" ذُكرت لهم قضية، شبهة، دعوى لما يتحققوا منها، فانطلى ذلك عليهم، حتى إن بعض المفسرين كما سبق يقول: **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** يعني أنهم ما محصوا هذه القضية ودرسوها، تقول: قتلتُ هذه المسألة بحثًا، قتلتها دراسة، **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** هكذا قال بعضهم، وإن كان القول الآخر أقرب أي أنهم ما قتلوا عيسى -صلى الله عليه وسلم- وليس ما قتلوا الأمر، أو البحث أو هذا القول، وهذا من الأمور المهمة في مجادلة اليهود، وفي مخاطبتهم، وفي الحرب معهم، أن هؤلاء يقفون على أرض هشة، هم في شك من كتابهم، وإذا قيل: إنهم في شك أيضًا من نبيهم فكذلك أيضًا سيعود هذا الشك على الكتاب الذي جاء به -نسأل الله العافية-، يعني إذا كان أهل الإيمان من هذه الأمة وهم على يقين ثابت ومع ذلك الذين أخذوا الإسلام بالوراثة يتسلل إلى نفوسهم التشكيك، ويتلاعب بكثير منهم شياطين الإنس والجن كما نشاهد هذه الأيام عبر وسائل الاتصال، فلربما بعضهم اعتنق الإلحاد، فكيف بأولائك الضُّلال أو الذين يدورون بين الغضب والضلال وكلهم في شك؟.

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ} [سورة فصلت:٤٦-٤٨].

يقول تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه {وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا} أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} أي: لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه.

هذه الآية تصلح موعظة للناس يوعظون بها، يعني من الناس من إذا وُجهت إليه الدعوة وخوطب بها -سواء كان خوطب بالدعوة الإسلامية يعني الدخول في الإسلام، أو خوطب ببعض ذلك يعني ببعض شرائعه- فكأنما يراد منه أن يحسن إلى ربه -تبارك وتعالى-، وأن يلين بجانبه، ويتنازل عن بعض رغباته، فكأن المسألة منة أحيانًا كما قال الأعراب: **{آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ...}** إلى قوله: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم}** [سورة الحجرات:١٤-١٧] فبعض الناس إذا خوطب بالدعوة أو خوطب ببعض شرائع الدين كأنما يراد منه أن يحسن إلى ربه، وأن يلين بجانبه، وأن يخفض جناحه، ويتنازل عن بعض حقوقه، أو رغباته أو شهواته، فكأنه يمتنّ على ربه، أو يُدل على الله بهذه الطاعة أو التوبة أو الاستقامة، **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا}** فهذا الذي يجمع الأوزار ويقترف القبائح والموبقات إنما يضر نفسه، فيقال للناس هذا في الدعوة: من شكر فإنما يشكر لنفسه، الله -عز وجل- غني عن عباده، نحن نقدم لأنفسنا **{إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [سورة إبراهيم:٨].

استعمال صيغة المبالغة في قوله: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} "ظلام" صيغة مبالغة، ويرد هنا سؤال وهو هل مفهوم المخالفة مراد في {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ} "ظلام" كثير الظلم فإذا نفي عنه كثرة الظلم فهذا قد لا ينفي الظلم القليل، تقول: فلان ليس بضراب للنساء، لكنه قد يضرب، فلان ليس بظلام لكنه قد يحصل منه الظلم، فلان ليس بكذاب، ولكنه قد يحصل منه الكذب قليلًا، والله -عز وجل- منزه عن الظلم قليله وكثيره، فلماذا جاء النفي بصيغة المبالغة؟ ولم يقل: وما ربك بظالم؟ نفيُ الظلم الكثير لا ينفي الظلم القليل، فهذا عنه أجوبة للعلماء معروفة:

والشنقيطي -رحمه الله- ذكر جملة منها، فقال -رحمه الله-: وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة {بِظَلَّامٍ} فيها صيغة مبالغة، ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله.

فقولك مثلا: زيد ليس بقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال.

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله.

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه:

الأول: أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة قد بينت آيات كثيرة أن المراد به نفي الظلم من أصله.

ونفي صيغة المبالغة إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل فلا إشكال؛ لقيام الدليل على المراد.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، كقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا} الآية [سورة النساء:٤٠]، وقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة يونس:٤٤]، وقوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٩]، وقوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} الآية [سورة الأنبياء:٤٧]، إلى غير ذلك من الآيات، كما قدمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء..."[1].

خلاصة هذا الجواب أن ذلك يفهم على ضوء النصوص الأخرى، فدلت النصوص الأخرى على أن الظلم منتفٍ عن الله -عز وجل- قليله وكثيره {لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}.

وقال -رحمه الله-: الوجه الثاني: أن الله -جل وعلا- نفى ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة، والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلا كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، كما ترى.

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة، وأن المراد بذلك نفي أصل الظلم عن كل عبد من أولائك العبيد، الذين هم في غاية الكثرة، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحدًا شيئًا، كما بينته الآيات القرآنية المذكورة، وفي الحديث: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي))[2] الحديث..."[3].

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/٣١-٣٢).

٢ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٢).

هذا الجواب مفاده أنه عبر بصيغة المبالغة بالنظر إلى المتعلق، يعني الذي ينزل عليه أو يقع عليه الظلم، فلكثرة العباد لو وقع لكل واحد مظلمة واحدة أو وقع عليه الظلم مرة واحدة فمع كثرة العباد يكون ذلك كثيرًا **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** [سورة فصلت:٤٦].

وقال –رحمه الله–: "الوجه الثالث: أن المسوغ لصيغة المبالغة أن عذابه –تعالى– بالغ من العظم والشدة أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم ومعاصيهم لكان معذِّبهم به ظلّامًا بليغ الظلم متفاقمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً.

وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال..."[٤].

هذا الوجه الثالث باعتبار صفة العذاب الواقع على الكافرين والمجرمين أنه عذاب لا يقادَر قدره، فلو كان ذلك من غير استحقاق لكن من أعظم الظلم أن يُفعل بهؤلاء هذا، ويخلدون في النار أبداً بألوان من العذاب الذي –نسأل الله العافية– وصفه الله –تبارك وتعالى–: **{يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}** [سورة الحج:١٩-٢٠]، نحن لو نرى واحداً عند هؤلاء المجرمين في بلاد الشام يصب عليه الأسيد لتمزقت قلوبنا ونحن نشاهد هذا، صُوَر عذاب يوم القيامة لكنه بحق، فلو كان بغير حق لكان أعظم الظلم، فجيء بالنفي بصيغة المبالغة.

وقال –رحمه الله–: "الوجه الرابع: ما ذكره بعض علماء العربية، وبعض المفسرين من أن المراد بالنفي في قوله: **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** نفي نسبة الظلم إليه؛ لأن صيغة فعّال تستعمل مرادًا بها النسبة، فتغني عن ياء النسب، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وَمَعَ فَاعِلٍ وَفَعَّالٍ فَعِلْ *** فِي نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ الْيَا فَقُبِلْ

ومعنى البيت المذكور أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي فاعل كظالم، وفعَّال كظلَّام، وفعِل كفرِح كل منها قد تستعمل مرادًا بها النسبة، فيُستغنى بها عن ياء النسب، ومثاله في فاعل قول الحطيئة في هجوه الزبرقان بن بدر التميمي:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا *** وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فالمراد بقوله: الطاعم الكاسي النسبة، أي: ذو طعام وكسوة.."[٥].

يعني لستَ بالذي تُطعِم، وإنما "الطاعم الكاسي" ينسبه إلى ذلك أي أنت مُطعَم مكسو.

وقال –رحمه الله–: "وقول الآخر وهو من شواهد سيبويه:

وَغَرَرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ *** لَابِنٌ فِي الصَّيْفِ تَامِرْ

أي: ذو لبن وذو تمر.

وقول نابغة ذبيان:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ *** وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

قوله: ناصب أي: ذو نصب.

---

٤ – المصدر نفسه (٧/ ٣٢-٣٣).

٥ – المصدر نفسه (٧/٣٣).

ومثاله في فعّال قول امرئ القيس:

وَلَيْسَ بِذِي رُمْحٍ فَيَطْعَنُنِي بِهِ *** وَلَيْسَ بِذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَّالِ

فقوله: وليس بنبال أي: ليس بذي نبل، ويدل عليه قوله قبله: وليس بذي رمح، وليس بذي سيف، وقال الأشموني بعد استشهاده بالبيت المذكور: قال المصنف -يعني ابن مالك-: وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى: **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** أي: بذي ظلم انتهى، وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين، ومثاله في فَعِلٍ قول الراجز وهو من شواهد سيبويه:

لَسْتُ بِلَيْلِيٍّ وَلَكِنِّي نَهِرْ *** لَا أُدْلِجُ اللَّيْلَ وَلَكِنْ أَبْتَكِرْ

فقوله: نَهِر بمعنى نهاري، وقد قدمنا إيضاحَه معنى الظلم بشواهده العربية في مواضع متعددة من هذا الكتاب، والعلم عند الله تعالى"[٦].

خلاصة هذا الجواب الرابع أن المقصود بقوله: **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ}** أي: بذي ظلم، لأن العرب تعبر بصيغة المبالغة وزن فعّال وتقصد به النسبة أي بذي ظلم، وهذا معنى معروف سمعتم كلام العرب والشواهد عليه.

وهناك أجوبة أخرى: من الأجوبة التي لها وجه أيضًا لا يقل عن هذه الأوجه التي ذكرها هو أن الظلم لو وقع من الله -عز وجل- ولو قليلا منه فإن ذلك يكون كثيرًا، فالله -تبارك وتعالى- هو العظيم الأعظم له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن غايته، وله صفات الكمال من كل وجه، فلو وقع منه ظلم ولو كان قليلًا، ولو على واحد من العباد فإن ذلك يكون مستكثرًا، يكون كثيرًا، يعني هناك في بعض الأجوبة نظر إلى المتعلق من جهة من يقع عليه الظلم، وفي هذا مَن صدر منه الظلم، ومن كان كامل العدل لو صدر منه الظلم فإن ذلك يُستكثر ويستعظم، والله أعلم.

ثم قال: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة، فقال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[٧]، وكما قال -عز وجل-: {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [سورة النازعات:٤٤]، وقال -جل جلاله-: {لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ} [سورة الأعراف:١٨٧].

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ} أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا} [سورة الأنعام:٥٩]، وقال -جلت عظمته-: {يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [سورة الرعد:٨]، وقال تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة فاطر:١١].

---

٦ - المصدر نفسه (٧/٣٣-٣٤).

٧ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -سبحانه وتعالى- برقم (٨).

وقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي} أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رءوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ {قَالُوا آذَنَّاكَ} أي: أعلمناك، {مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكًا، {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ} أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، {وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف: ٥٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}** "ما" هذه نافية، يعني **{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ}** هذه جملة تامة، **{وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}** هذه جملة جديدة مستأنفة، **{وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}** فتكون "ما" نافية، ويحتمل أن تكون "ما" هذه موصولة وتكون معطوفة على الساعة أي **{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ}** يعني والذي تخرج، أي إليه يرد علم هذه الأشياء ما هي؟ الساعة، والذي يخرج من الثمرات من أكمامه كل ذلك مرده إلى الله، فهو وحده الذي يعلمه، والأول -والله تعالى أعلم- أقرب، أنها نافية، **{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ}** هذه جملة تامة **{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا}** [سورة الأعراف:١٨٧] متى الساعة؟ ما المسئول بها بأعلم من السائل، ثم بعد ذلك تأتي جملة جديدة مستأنفة **{وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}**، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}** الأكمام جمع كِم، وبعضهم يجوِّز فيه الضم كُم، فهذه الأكمام للثمرات هي الغلاف الذي يغطي الثمرة أو يغطي أصلها عند بدوِّها ثم بعد ذلك ينفلق عنها، أو عن النَّوْر لهذه الثمار، يعني الآن مثلًا النخيل تخرج منه هذه الأكمام ثم تنفلق بعد ذلك فيخرج هذا النَّوْر، ثم بعد ذلك يُؤبَّر، الذي يخرج من النخيل ما هو في هذه الأيام؟ الطلع الذي يتحول إلى الثمر والرطب، فهذا الطلع الذي يخرج يكون مغلفًا، هذه الأغلفة هي الأكمام، **{وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}** يعني الله -عز وجل- يعلم ذلك تفصيلًا، فالجنين في بطن أمه وهذا كالجنين تغلفه هذه الأكمام والله -عز وجل- يعلم مقادير ما فيها، ويعلم متى تنفلق، وحينما تبدأ تنشق كل ذلك يعلمه تفصيلًا، لا يخفى عليه منه خافية **{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى}** سواء كانت تحمل بيضًا أو تحمل جنينًا أيًّا كانت هذه الأنثى؛ لأن هنا **{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى}** "ما" نافية، و"أنثى" نكرة في سياق النفي، وسُبقت بمِن فصار ذلك نقلًا لها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، بمعنى أنه ما تخرج أنثى أبداً عن هذا العلم، فكل ذلك بعلمه -سبحانه وتعالى-، والعباد لا يعلمون من ذلك شيئًا، هم يوم عرفوا أن يصوروا الجنين وهل هو ذكر أو أنثى أقاموا الدنيا ولا أقعدوها وصاروا يسألون عن الآية!

{قَالُوا آذَنَّاكَ} أي: أعلمناك، والأذان يقال: الإعلام، نفسر الأذان بالإعلام في اللغة، وكما في قول الشاعر:

آذنتْنا ببينِها أسماءُ *** ....

يعني أعلمتنا، **{وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ}** [سورة التوبة:٣]، فهنا **{آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ}** هذا من قول هؤلاء المشركين، وبعضهم يقول: إنه من قول الآلهة حينما يتبرءون من العابدين، والأول أشهر، **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي}** فهذا خطاب للمشركين، **{قَالُوا آذَنَّاكَ}** فالأصل أن يكون الجواب

صادرًا من هؤلاء الذين وجه السؤال إليهم، وقوله: **{وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ}** هنا قال: الظن بمعنى اليقين، مثل **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ}** [سورة البقرة:٤٦] وهذا كثير في القرآن، وهو أيضًا كثير في كلام العرب، ويأتي الظن مرادًا به طرف الرجحان يعني ما كان غير متيقن، فقد يطلق الظن كما هو معلوم على الطرف الراجح، وقد يطلق على التخمين، وهذا الذي ورد فيه الذم في القرآن **{إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}** [سورة الجاثية:٣٢]، فالمواضع التي ورد فيها الذم لاتباع الظن المراد بها هذا المعنى، **{إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ}** [سورة الأنعام:١١٦] لأن النسبة هكذا في مسألة الظن على ثلاث أنحاء: ما توسط فيه التردد يقال له: شك، يعني ما تَرجح شيء، النسبة خمسون وخمسون، إذا كانت مثلًا ثمانين وعشرين فالطرف الذي بالثمانين يقال له: ظن، يعني لم يصل إلى مرحلة اليقين، ولكنه ظن أيْ راجح، ويقال للتخمين يعني ما لم يكن متيقنًا إنما هو يتبع الظنون ولم يحقق ذلك، وليس هذا هو طرف الرجحان فهذا يقال له: ظن، هذا الذي ورد ذمه في القرآن، **{وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ}** المحيص هو المهرب، يعني أنه لا فكاك لهم ولا نجاة ولا خلاص من هذا العذاب، أيقَنوا.

قال تعالى: {لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [سورة فصلت:٤٩-٥١].

يقول تعالى: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، {وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ} وهو البلاء أو الفقر، {فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

قوله -تبارك وتعالى-: **{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ}**، يعني: لا يمل من دعاء الخير؛ لأنه كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** [سورة العاديات:٨]، والخير يأتي بمعنى المال، والمقصود به هنا في هذا الموضع: المال، **{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** [سورة الفجر:٢٠] وهنا قال: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم، وبهذا فسره ابن جرير -رحمه الله-، ويدل على هذا المعنى قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وهي غير متواترة: {لا يسأم الإنسان من دعاء المال} تفسير للخير.

قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} أي: إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقولن هذا، أي: إني كنت أستحقه عند ربي، {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}، أي: يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خُوِّل نعمة يبطَر ويفخر ويكفر كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧].

هو يقول: "هذا لي" يعني: لي عند الله -عز وجل-، يعني عن استحقاق، وهذا أيضًا يشبه قول قارون: **{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}** [سورة القصص:٧٨] على أحد المعاني التي مضى الكلام عليها، وهو أنه على علم من الله أنه يستحقه، "على علم عندي" على علم من الله أني أستحق هذا المال، والمعنى الآخر على علم عندي بوجوه المكاسب، يعني بذكائي وحذقي ومهارتي.

قوله تعالى: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى} أي: ولئن كان ثَمّ معاد فليحسنن إليّ ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار، يتمنى على الله -عز وجل- مع إساءته العمل وعدم اليقين، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال، ثم قال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أي: أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله -عز وجل- كقوله -جل جلاله-: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [سورة الذاريات:٣٩].

{وَنَأَى بِجَانِبِهِ} الجانب هو الناحية، وبهذا فسره ابن جرير -رحمه الله- يعني هذا أصل معناه، {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} يعني أعرض كما قال: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ}.

{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ} أي: الشدة، {فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}، أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض هو ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل.

يقال: فلان يدعي دعاوى عريضة، العرب تعبر بالعريض عن الشيء الواسع الكثير الطويل، دعوى عريضة يراد بها هذا.

وقد قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} الآية [سورة يونس:١٢] .

قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} [سورة فصلت:٥٢-٥٤].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به، أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟، ولهذا قال -عز وجل-: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى، ثم قال -جل جلاله-: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ} أي: سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًّا منزلًا من عند الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بدلائل خارجية {فِي الْآفَاقِ} من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع -تبارك وتعالى-، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك، وما هو متصرِّف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها.

قوله -تبارك وتعالى-: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} الآفاق جمع أفق وهو الناحية، وهنا يقول في الآفاق: من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، الآن هذا المعنى قال به جماعة من السلف كمجاهد، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، في الآفاق يعني في النواحي مما

يقع لغيرهم من ظهور دين الإسلام وفتوحات المسلمين فيعرفون أن هذا الدين هو الحق الذي كتب له الانتشار والثبات والبقاء، على هذا المعنى يكون ما يذكره أصحاب الإعجاز العلمي من الكلام الكثير في أن الآفاق المقصود بها اكتشاف مجرات جديدة وأشياء، وما يذكرونه في الإعجاز العلمي ويحملونه على هذه الآية: **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ}** أن هذا الكلام يكون غير مراد.

الآن يقول: **قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم** ما هذه الدلائل في أنفسهم؟ أصحاب الإعجاز يقولون: ما يعرف بعلم التشريح من قضايا تتصل بالخلايا بجسم الإنسان، ومجاري الدم والعروق، وما أشبه هذا من دقائق وتفاصيل الخلق.

هنا على تفسير مجاهد والحسن والسدي: **دلائل في أنفسهم** قالوا: وقعة بدر وفتح مكة، كون المراد وقعة بدر هذا قاله قتادة والضحاك، وبعضهم يقول: وقعة بدر وفتح مكة، وابن جرير -رحمه الله- حمله على فتح مكة، يعني على هذا القول لهؤلاء السلف واختيار ابن جرير أن الآيات التي **{فِي الْآفَاقِ}** هي ما يشاهدونه في غيرهم مما حل في ساحتهم من ظهور المسلمين عليهم، **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** ما يقع لهم كما حصل في يوم فتح مكة فظهر الإسلام وقام بلال يؤذن -رضي الله عنه وأرضاه-، ارتفعت كلمة التوحيد وشهادة أن محمدًا رسول الله فهذا في أنفسهم هذا حصل لهم هم، يكون على هذا المعنى.

ابن جرير -رحمه الله- يعلل هذا الاختيار يقول: لو كان المقصود في الآفاق يعني في السماوات ما يشاهده من الشمس والقمر إلى آخره، يقول: هذه لا تكون وعدًا في المستقبل هم يشاهدونه فكيف قال: **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ}**؟ هذا وجه الترجيح عنده؛ أن هذه أمور ستقع في المستقبل وأن الله سيريهم هذا، هؤلاء خوطبوا بالقرآن، فماذا شاهدوا؟ شاهدوا جيوش المسلمين تشرق وتغرب والفتوحات تتتابع، هذا في غيرهم في الآفاق النواحي المختلفة والبلاد والأقاليم، **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** يعني ما حل بهم وفتحت مكة وانتهت هذه الحكاية الطويلة، وانتهى أبو جهل وأولائك الذين كانوا يُذكرون حينما يُذكر الأذى الواقع على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى المسلمين، فهذا في أنفسهم.

وابن كثير يرى أن هذا القول هو الراجح، وكما سبق هو اختيار ابن جرير، يقول ابن كثير: **ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة** إلى آخره، يعني هذا في قوله: **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** يعني ما يعرف بعلم التشريح من دقائق الخلق، بل بعضهم ذكر شيئًا ظاهرًا قال: مسلك البول والغائط، لكن إذا فُسر الأول **{فِي الْآفَاقِ}** بما يقع في النواحي إلى آخره، **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** يعني ما يقع لهم فهذا هو المناسب في المقابلة بين هذا وهذا، هذا هو المناسب، لكن من السلف من قال: إن المراد بـــ **{فِي الْآفَاقِ}** يعني في السماء كما قاله ابن زيد، **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** حوادث الأرض، يعني ما يقع في العالم العلوي والسفلي **{فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ}**، كذلك يقول عطاء: إن **{الْآفَاقِ}** يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والبحار والأشجار وغير ذلك، **{وَفِي أَنفُسِهِمْ}** من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، الآن هذا قاله بعض السلف، وإذا قيل: **{فِي الْآفَاقِ}** يعني هذا العالم العجيب مثلًا في دقته، ويُرى لربما في مكبرات وفي مراصد وما إلى ذلك فهذا في الآفاق يعني في هذه المسارات للكواكب والمجرات وفي حركتها ودقتها وانتظامها

وكثرتها وأحجامها العجيبة الهائلة، {وَفِي أَنفُسِهِمْ} دقائق هذا الخلق، وما في صنع الله -عز وجل- في الإنسان من عجائب، فهذا قاله بعض السلف، إذاً هؤلاء الذين يتكلمون في الإعجاز العلمي أو نحن حينما نتكلم عن هذه الآية مثلًا لو جلسنا نتكلم عن بعض دقة الخلق، ونعرض أشياء من الكواكب وسير الكوكب صور حقيقية مما يدل على عظمة الله -عز وجل- وأنه الواحد الأحد وما يتعلق مثلًا بقوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا...} [سورة يـــس:٣٨]، {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يـــس:٤٠]، في مثل هذه المواضع في القرآن وجئنا بصور فلكية وصور من أقمار صناعية رأيتم لعلكم بعض المقاطع كيف أن الليل يمشي، يعني بطريقة تصوير تسرع البطيء بحيث إنك ترى الليل وهو يمشي صورة حقيقية ووجدت وتداولها الناس، الليل وهو يتحرك على الكرة الأرضية يمشي فهذه من الآيات في الآفاق، فلو ذكر مثل هذا هل يكون هذا من قبيل الخطأ؟

الجواب: لا، لماذا نقول: هذا لا إشكال فيه؟ لأنه لا يعود على أقوال السلف بالإبطال، إنما هو زيادة في التفصيل، تفاصيل تقرب لك هذا المعنى، وهكذا {وَفِي أَنفُسِهِمْ} إذا جلسنا نتحدث عن الخلايا التي في الدماغ، أو نتكلم عن قضايا الخلايا في الجسم أو عدد الكريات البيضاء، وبدأنا نتحدث عن دور هذه الكريات وكيف أنها تعمل وكذا القلب، ونبضات القلب وكم ينبض وكم يضخ من الدم، وكل هذه التفاصيل هذا لا إشكال فيه؛ لأن الآية تحتمل ذلك، ولو قيل: إن قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ} يدخل فيه هذا وهذا، {وَفِي أَنفُسِهِمْ} يدخل فيه ما يقع لهم، وما يشاهدونه أيضًا في أنفسهم من عجيب صنع الله -عز وجل-، فهذا كله يتعرف به على أنه الخالق وحده وأنه المعبود وحده، وأنه الإله الواحد -سبحانه وتعالى-، وأن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق.

وقوله تعالى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي: كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- صادق فيما أخبر به عنه كما قال: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [سورة النساء:١٦٦] الآية.

وقوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ} أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبئون به، وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه، ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه -تبارك وتعالى-: {أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، يقول: أي: **كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- صادق فيما أخبر به**، هنا جمع بين بعض الأقوال، كقول بعضهم: إنه شهيد على كل الأشياء، أو إنه شهيد مثلًا على أن القرآن حق، {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} هذا مما كما يقال:

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ *** إذا احتاج النهارُ إلى دليلِ

وإن الله -تبارك وتعالى- يُستدل به -جل وعلا- على ما يجري في هذا العالم، ويُتعرف على أحكام هذه الأشياء بما يُعرف من صفته -تبارك وتعالى-، وكما قالت خديجة لما جاءها النبي -صلى الله عليه وسلم- مذعورًا حين نزل عليه الوحي قالت: "كلا، والله لا يخزيك الله"[٨]، فهذه طريقة في الاستشهاد والاستدلال عالية لا يصل إليها أكثر الناس، وذلك بما عرف من كمال الله وصفاته يقال: هذا لا يحصل، هذا لا يقع، هذا لا يكون، وكذلك فيما يتصل بالتوحيد الطريقة المعهودة في القرآن الكثيرة وهي التي لا يفقه أكثر الناس سواها، وهي أنه يستدل على وحدانيته -تبارك وتعالى- بهذه الأشياء المشاهدة من خلق السماوات والأرض إلى آخره؛ ولهذا يقال: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، لكن الطريقة الثانية هي أن يكون الاستدلال به -تبارك وتعالى- وما عُرف من صفاته وكماله على أنه واحد بحيث لا يحتاج معه إلى نظر في هذه الأمور، الاستدلال بالطريقة الأولى **{أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [سورة إبراهيم:١٠]؛ ولذلك الذين عندهم تردد وشك الله يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا في عاقبة المكذبين، لكن من ليس عنده شك هو لا يحتاج إلى هذا، فيرى أن وحدانية الله -عز وجل- أبين وأظهر من أن يُستدل لها -بالنسبة إليه هو- بشيء آخر.

يعني هذه للكمّل من الناس، أبو بكر -رضي الله عنه- كان بهذه المثابة.

ولهذا قال بعضهم: إن قوله: **{لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}** "منه" الضمير يرجع إلى القرآن، هكذا قال بعضهم، لكن السياق السابق في القرآن لا يُشكل على التفسير؛ لأن الضمير واضح أنه يرجع إلى موسى أو إلى التوراة، لكن الله -عز وجل- يسلي نبيه -صلى الله عليه وسلم- كما قال: **{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}** فذكر له هذا على سبيل التسلية، يقول: هذا موسى -صلى الله عليه وسلم- وهو كبير أنبياء بني إسرائيل لقي منهم ما لقي، وحصل منهم الشك والتردد.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** [الضحى:٣]، برقم (٤٩٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشورى من الآية (١) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الشورى:١-٦].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير:

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله -عز وجل-: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي: كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك.

وقوله تعالى: {اللَّهُ الْعَزِيزُ} أي في انتقامه.

{الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله.

روى الإمام مالك -رحمه الله- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيَفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يأتيني الملَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول))، قالت عائشة -رضي الله عنها-: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه -صلى الله عليه وسلم- ليتفصد عرقًا"[1]، أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي -صلى الله عليه وسلم- في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم (٢٣٣٣).

فقوله -تبارك وتعالى-: {حم * عسق} هذه كما سبق أنها حروف مقطعة، وأنها حروف تهجٍّ، وأنه لا معنى لها في نفسها، وإنما يؤخذ من ذلك، أو يفهم، أو تشير إلى أن هذا القرآن معجز، ولهذا لا تكاد تذكر إلا ويأتي ذكر القرآن، أو ما يدل عليه بعدها، هذا غالبًا، وقد مضى هذا مرارًا.

والعلماء -رحمهم الله- بعضهم من يقول: إنها في هذا الموضع تدل على معنى، كما يقولون في {طه} وفي: {يس} مثلاً، ونحو ذلك.

والذي يظهر أنها كغيرها.

وقوله: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، {كَذَلِكَ يُوحِي} هذه قراءة الجمهور.

القراءة الأخرى المتواترة قراءة ابن كثير: "يُوحَى" بالبناء للمجهول.

ومعلوم أن الموحِي هو الله -تبارك وتعالى.

على القراءة الأولى: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله -تبارك وتعالى- فاعل {يُوحِي}، من الذي يوحِي؟ الله.

وعلى القراءة الأخرى: "كذلك يُوحَى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم" يكون لفظ الجلالة فاعلا لفعل مقدر محذوف، أي يُوحِي الله العزيز الحكيم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ} على القراءة الأخرى: "كذلك يُوحَى إليك" بعضهم حمل ذلك على المُوحَى، باعتبار أن المراد المُوحَى به، وبعضهم يقول: إن المقصود هو المعنى المصدري يعني الإيحاء، {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

فــ"كذلك يُوحَى إليك" {يُوحِي إِلَيْكَ} يعني باعتبار المعنيين: "كذلك يُوحَى إليك" يعني ما أُنزل إليك من الشرائع والإيمان والهدايات، وما إلى ذلك ليس ببدع، وليس بجديد {كَذَلِكَ} يعني كما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك، يعني كهذا الذي نزل عليك من التوحيد والإيمان والشرائع أُنزل على سائر الأنبياء.

{كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} بمعنى المضمون الذي هو التوحيد، وشرائع الإيمان أنزلها الله -عز وجل-، وأوحى بها إليك، وإلى الذين من قبلك، يعني فسروه بالمُوحَى {كَذَلِكَ} المُوحَى يعني المنزل.

المعنى الثاني: أن المقصود به الإيحاء، يعني المعنى المصدري: "كذلك يوحَى إليك"، {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ} كذلك الإيحاء يُوحِي إليك الله -تبارك وتعالى-، بمعنى أن الإيحاء إليك، وإلى الذين من قبلك.

والوحي مصدر -كما هو معروف- ويأتي تارة مرادًا به المفعول، وتارة يراد به المعنى المصدري، يعني هذا القرآن الذي بين أيدينا الآن ماذا يقال له؟

وحي، هذا وحي، يعني مُوحًى.

لما تتناقش مع إنسان، وتذكر له آية من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وتقول له: "هذا وحي، ليس برأي"، هذا وحي يعني موحًى.

وتارة يراد به المعنى المصدري، يعني هي العملية نفسها، الوحي يعني الإيحاء، نفس عملية الوحي.

تقول: الوحي تارة يأتي مثل صلصلة الجرس، وتارة يأتي بصورة رجل، وتارة.. وهكذا، تقصد نفس الإيحاء.

فهنا ذُكر في قوله: {كَذَلِكَ يُوحِي} كذلك الإيحاء يوحِي إليك، أو كذلك الموحَى يوحِي إليك.

الزمخشري حمله على معنى المفعول، الموحَى.

والشنقيطي -رحمه الله- رجح أن يكون المراد به المعنى المصدري، الإيحاء: {يُوحِي}.

في سؤال الحارث بن هشام: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟.

هنا أمر غيبي، يسأل عن الكيفية، المقصود به الصور والحالات التي يأتي بها الوحي، وذكر له النبي -صلى الله عليه وسلم- هاتين الحالتين، مع أنه توجد حالات أخرى -كما هو معلوم-، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر له الأغلب، غالب الحالات، يأتي كصلصلة الجرس، والصلصلة معروفة صوت، يعني بعض أهل العلم قالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أول ما يأتيه الوحي يسمع مثل صلصلة الجرس ليتهيأ لذلك، ثم بعد ذلك يعي ما قال، كما قال -صلى الله عليه وسلم-: ((فيَفصِم عني، وقد وعيت ما قال))[٢].

وبعض أهل العلم يقولون: إن ما ورد من صفة مجيئه أنهم كانوا يسمعون عند وجهه -صلى الله عليه وسلم- مثل دوي النحل، قالوا: ربما يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- يسمع مثل صلصلة الجرس، وهم يسمعون هذا الصوت، مثل دوي النحل، يعني بعضهم قال: هي حالة واحدة، والله تعالى أعلم.

وهكذا قد يأتيه في غير القرآن، في المنام، الرؤيا المنامية.

وقد يحصل النفث في الروع، كما في الحديث: ((إن روح القدس نفث في روعي))[٣] يعني في قلبي.

وبعض أهل العلم فسره: بالإلهام، يعني النفث في الروع.

وبعضهم فرق بينهما، وقال: ما كان بواسطة الملك فهو النفث في الروع، وما كان من قبيل الإلقاء في القلب من غير واسطة الملك فهو الإلهام، وكل ذلك من الوحي.

وتارة يأتيه الملك على صورته الحقيقية، هذا من صور مجيء الوحي، لكن منه ما يكون جاءه بالقرآن، ومنه ما لا يكون كذلك.

والوحي أوسع من القرآن، وسورة اقرأ -كما هو معروف- جاءه بها الملك على صورته الحقيقية.

هنا قول عائشة -رضي الله عنها-: "فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقًا".

مضى الكلام في بعض المناسبات في سورة النور -ربما في أصول التفسير، أو شيء من هذا- أن ما جاء عن عائشة -رضي الله عنها- في قصة الإفك أنها ذكرت مثل هذا: "وإنه لينزل عليه في اليوم الشديد البرد" ففهم منها: أن آيات الإفك نزلت في وقت الشتاء، فيجعلونه مثالاً على الشتاء، وقد ذكرت هذا في شرح رسالة أصول التفسير للسيوطي، وبينت هناك أن هذا لا دليل عليه، وإنما هي تصف الحالة، شدة الوحي، وأنه يأتي بشدة البرد، ولا يعني ذلك أن نزول آيات الإفك كان في شدة البرد.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٢) ومسلم، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي -صلى الله عليه وسلم- في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم (٢٣٣٣).

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، (٢١٤٤)، وابن حبان، رقم (٣٢٣٩)، وقال الألباني: "صحيح لغيره"، كما في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (١٦٩٨).

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الشورى:٤] أي: الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}؛ كقوله تعالى: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد:٩]، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:٢٣]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله -عز وجل-: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} [الشورى:٥].

وقال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأحبار: أي فَرَقًا، من العظمة.

قوله: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} التفطر هو التشقق.

{يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} يعني يتشققن من فوقهن، كما قال الضحاك، والسدي: يتفطرن من عظمة الله من فوقهن.

{مِن فَوْقِهِنَّ} الضمير يرجع إلى ماذا؟

الأكثرون على أنه يرجع إلى السموات، فإذا كان يرجع إلى السموات: {مِن فَوْقِهِنَّ} فما المراد بذلك؟

بعض أهل العلم يقول: {مِن فَوْقِهِنَّ} يعني كل سماء تكاد أن تتفطر من فوق التي تليها: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} كل واحدة تكاد تتفطر من فوق التي تليها، السموات سبع سموات، كل واحدة تكاد تتفطر من فوق التي تليها {مِن فَوْقِهِنَّ}.

فهذا معنى ذكره بعض أهل العلم.

وبعضهم يقول: إنه: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} يعني من فوق الأرضين.

وهنا يكون الضمير عاد إلى غير مذكور، لكن هؤلاء الذين يحملونه على هذا المعنى يقولون: يمكن أن يعود الضمير إلى غير مذكور، لكونه يفهم من السياق، مثل: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} فالضمير هنا يرجع إلى القرآن، ولم يرد للقرآن ذكر، لكنه معلوم من السياق، وهذا المعنى اختاره ابن جرير -رحمه الله-: {مِن فَوْقِهِنَّ} يعني من فوق الأرضين، مع أن الشنقيطي -رحمه الله- ضعف هذا القول، ولم يعتبره، {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} يعني من فوق الأرضين.

{تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} لكن هل هذا هو المعنى المتبادر، حينما يسمع ذلك: {مِن فَوْقِهِنَّ}؟

المعنى المتبادر أن ذلك يرجع إلى نفس السموات، وليس للأرضين.

وبعضهم يقول: إن {مِن} هنا: {مِن فَوْقِهِنَّ} لابتداء الغاية، يعني أن التفطر يبدأ من الجهة العليا للسموات، لماذا يبدأ من الجهة العليا؟

قالوا: لأن إلى الجهة الأعلى هناك من الأمور التي هي أدعى للعظمة والخوف والخشية، وما إلى ذلك، فهي أقرب إلى الآيات العظام، إلى أعلى، يعني العرش، الكرسي، والله فوق العرش، فيبدأ التفطر من الجهة الأعلى للسموات، وذلك؛ لأن الجهة الأعلى هي التي تكون مما يلي الآيات العظام، فيكون ذلك أدعى للخشية والخوف.

وبعضهم يقول: هذا على سبيل المبالغة، كأن كلمة الكفار حيث نسبوا لله الصاحبة والولد والشريك، وما إلى ذلك لما صدرت من أسفل كادت السموات أن تتفطر من فوقهن، يعني لشدة تأثيرها، الآن هذه السموات مثلاً

الكلمة هذه صدرت من أسفل، فلشدة وقعها وعظمتها كادت السموات أن تتفطر من فوقها، فما كان من أسفل منها فمن باب أولى، يعني لشدة وقع هذه الكلمة، وأثر هذه الكلمة، أو هذا الإشراك، أو نسبة الصاحبة أو الولد، والجرأة عليه -تبارك وتعالى- أثر ذلك في أعالي السموات، كادت تتفطر، فلا تسأل عن أسفلها، لشدة وقعها أثّرت، هي صادرة من أسفل، فأثرت في الجهة العليا من السموات، كادت أن تتفطر، فتأثيرها في الجهة الأسفل أشد، لكن هذا من باب بيان شدة أثر هذه الكلمة، أو الإشراك: {أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم:٩١-٩٢].

هذا التفطر: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} ما سببه؟ ما علته؟.

بعض أهل العلم يقولون: خشية من الله، وخوفاً منه، وإشفاقاً وتعظيمًا، تكاد تتفطر لعظمة ربها، ومليكها وخالقها -سبحانه وتعالى-، هيبة وإجلالاً له، هؤلاء يقولون: توجد قرائن تدل على هذا الوجه، أو هذا المعنى أنه هو المراد، قالوا هنا في هذه الآية: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} قال: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} فهم أيضًا كذلك معظمون لله -تبارك وتعالى-، كما قال الله: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ} [النحل:٥٠] فهم خائفون وجلون، معظمون لله -عز وجل.

ثم أيضًا قبله قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} [الشورى:٤-٥] يعني من عظمته وخشيته، كما قال الله -عز وجل-: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد:١٣].

والقول الثاني: أن هذا التفطر إنما سببه ما يزعمه المشركون من نسبة الصاحبة والولد إلى الله -تبارك وتعالى-، وجعل الشريك له، فهذه مقالات عظيمة من شدتها وعظمها كادت السموات أن تتفطر؛ كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا} [البقرة:١١٦]، قال: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مريم:٨٩-٩١].

فهنا ذكر التفطر، وأنه بسبب مقالتهم هذه، فهذان قولان لأهل العلم، وهما في مضامين كلام السلف -رضي الله عنهم- حينما يفسرون: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ} ونجد حينما يذكرون: ما معنى "يتفطرن من فوقهن"؟.

نجد عبارات وإضافات، يؤخذ منها: أن هذا التفطر، إما لكذا، وإما لكذا، إما لمقالة المشركين وشركهم، أو لعظمة الله -عز وجل-، والخوف منه، والإشفاق، وإجلاله، وما أشبه ذلك.

وإذا كان القولان لكل واحد منهما ما يدل عليه من القرآن، أو من غيره، كالحديث، ولم يوجد ما يمنع من الحمل على هذه المعاني فالأصل أن ذلك كله داخل في الآية، والله تعالى أعلم.

ولو نظرت في القولين، فإن مقالة المشركين التي سببت هذا، إنما يحصل هذا التفطر والتشقق بسبب ماذا؟ هذا يرجع إلى تعظيم الله، وخشيته والخوف منه، لو قال قائل مثل هذا لم يكن بعيدًا، والله تعالى أعلم.

{وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ}؛ كقوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر:٧].

هنا قوله: {وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} التسبيح -كما بينا- هو التنزيه بحمد ربهم، يعني متلبسين بحمد ربهم: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} [الشورى:٥] يعني هم يسبحون بحمد الله ينزهونه عما لا يليق به {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ}.

بعض أهل العلم يقول: التسبيح هنا يعني موضع التعجب: {وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} يعني يتعجبون من جرأة المشركين على الله -تبارك وتعالى-، حيث نسبوا إليه الأنداد والشركاء والصاحبة والولد {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}.

والمتبادر: أن التسبيح يراد به التنزيه، ينزهون الله -عز وجل- عما لا يليق بجلاله وعظمته: {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} هذا الاستغفار بعض أهل العلم قال: إن ظاهره العموم، فهم يستغفرون لمن في الأرض، لجميع من في الأرض، حتى الكفار؟! قالوا: حتى الكفار، وأنّ أثر ذلك في تأخير العذاب، وعدم المعاجلة بالعقوبة، فيستغفرون لهم، فيكون الإمهال، لا يعاجلهم الله -عز وجل- بالعقوبة.

ومن أهل العلم -وهذا هو الأقرب والله أعلم- من قال: إن هذا العموم: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} مخصص بالآية الأخرى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

والعام يحمل على الخاص، فهم يستغفرون لأهل الإيمان ممن هم بهذه الصفة: {لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الأحزاب:٤٣] ومعلوم: أن صلاة الملائكة بمعنى: الاستغفار.

وقوله: {أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} إعلام بذلك، وتنويه به.

باعتبار: **{أَلا}.**

وكذلك ما يُشعر بالحصر من دخول ضمير الفصل هنا "هو" بين طرفي الكلام.

يعني مثل هذا: {أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} فيه تأكيد لعظيم غَفْره -تبارك وتعالى- ورحمته.

وقوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} يعني: المشركين.

{اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} أي: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عدًّا، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء.

{وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء قدير.

تأمل هنا: أن الله -تبارك وتعالى- ذكر بعد قوله: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ}، قال: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} فهذا أيضًا قرينة تدل على أن المراد بقوله: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} أنهم أهل الإيمان، ثم ذكر غيرهم، وهم الكفار: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ}.

{حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} قال: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدًّا، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء.

{وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} أي: {إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود:١٢] يعني لست بموكل عليهم.

بعض أهل العلم فهم منها: {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} بمعنى لست أنت الذي تحاسبهم، وتحملهم على الهدى والإيمان، وما إلى ذلك، ولهذا قال من قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهي الآية الخامسة من سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥]، فهذه الآية قالوا: إنها نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية، كل آية فيها عفو وصفح وغفر، وإعراض عن المشركين، وتجاوز، وإخبار بأنك: {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية:٢٢] {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} إلى آخره: أن هذا كله منسوخ بآية السيف.

ولكن هذا الكلام فيه نظر.

والراجح: أن هذه الآيات لم تنسخ بآية السيف، لست عليهم بوكيل، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يتولى عباده.

وبعض أهل العلم مثل الشنقيطي -رحمه الله- حمل ذلك على معنى الهداية، لست عليهم بوكيل، لست موكلاً بهدايتهم: {إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ} [هود:١٢] يعني أنت ترشدهم، والله -تبارك وتعالى- هو الذي يوفق من شاء -هداية التوفيق-، وكما قال الله -عز وجل-: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [القصص:٥٦] لست عليهم بوكيل فتهدي قلوبهم، تدخلهم في الإيمان، فذلك ليس إليك: {إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ} يعني: عليك أن تؤدي الرسالة، وتبلغ عن الله -عز وجل-، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويحاسب عباده، ويتولاهم.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [الشورى:٧-٨].

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك: {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي: واضحًا جليًّا بينًا.

{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} وهي مكة.

{وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة "أم القرى"؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو واقف بالحَزْوَرَة، في سوق مكة: ((والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خرجت))[٤]، وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: "حسن صحيح".

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب أبواب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل مكة، رقم (٣٩٢٥)، والنسائي، كِتَابُ المناسك، باب فَضْلُ مَكَّةَ، رقم (٤٢٣٨)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم (٣١٠٨)، وأحمد (١٨٧١٥)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٢٧٢٥).

قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} مكة أم القرى، وأم الشيء: يقال في الأصل وما يرجع إليه غيره، كما يقال: المأمومة أم الرأس، أم الدماغ، والراية التي يجتمع حولها الجنود في الجيش، الراية الكبيرة يقال لها: أم، وهكذا.

قوله -تبارك وتعالى-: {لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} المقصود بقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا} يعني سائر البلاد، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُرسل للأحمر والأسود، ويدل على هذا النصوص الأخرى وهي واضحة وصريحة، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ} [سبأ:٢٨].

وكذلك في كتبه -صلى الله عليه وسلم- حينما كتب إلى قيصر وكسرى، وملك مصر، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أهل الأقاصي والبلاد البعيدة، دعاهم إلى الإسلام، وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة))[٥].

والنصوص في هذا كثيرة جدًّا.

فقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا} يعني سائر البلاد.

وعلى فرض كما يقول بعض أهل العلم: إن ما حولها يعني من البلاد المجاورة، فهل هذا يعني أن بعثته -صلى الله عليه وسلم- خاصة بالعرب؟ يعني ما جاور مكة قبائل العرب وبلاد العرب؟.

يقال: هذا غير مراد، فالله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤].

ومعلوم أنه -صلى الله عليه وسلم- منذر للجميع، والقاعدة: أن ذكر بعض أفراد العام بحكم لا يخصصه.

النبي -صلى الله عليه وسلم- مرسل للجميع، مرسل لأم القرى، وغيرها، فكون الله -تبارك وتعالى- يذكر: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} يذكر بعض أفراد العام بحكم فإن ذلك لا يخصص، أو لا يدل على تخصيص العام به.

فالأول هو الأقرب، وهو أن المقصود بقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا} سائر البلاد.

لكن على فرض؛ لأن من الناس من يجادل في هذا، أعني بعض أهل الكتاب ممن يقولون بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولكنهم يخصصونه بأنه مبعوث للعرب، دون غيرهم، ويحتجون بهذه الألفاظ، أو المواضع المتشابهة.

وهؤلاء يمكن أن يرد عليهم بأقرب طريق، النصوص الأخرى طبعًا كثيرة جدًّا، وكتابات النبي -صلى الله عليه وسلم- للملوك.

هكذا أيضًا يرد عليهم بأقرب طريق: إذا كنتم تؤمنون أنه نبي، وأنه صادق، وأنه من عند الله -عز وجل-، فقد أخبر أن بعثته لكل الناس: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة))[٦].

---

٥ - رواه البخاري، في أوائل كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

٦ - المصدر السابق.

وهكذا دعوته -صلى الله عليه وسلم- لغير العرب، فهو نبي، فكيف يقول على الله -تبارك وتعالى- ما ليس بحق؟!.

وقوله: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ} وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.

وهذا مضى مرارًا، وذكرنا: أنه أيضًا من أهل العلم من يقول: يجمع بين العامل وعمله، يجمع بين أهل العالم العلوي والسفلي، يجمع الله فيه بين الظالم والمظلوم، يجمع الله -عز وجل- فيه الأولين والآخرين، يجمع بين الثقلين.

كل هذه المعاني ذكرت في وجه تسميته بيوم الجمع: **{قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}** [الواقعة:٤٩-٥٠] فهذا يدل على أن المقصود به جمع الأولين والآخرين، وإن كان ذلك لا ينفي أيضًا المعاني الأخرى.

وقوله: {لا رَيْبَ فِيهِ} أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} كقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن:٩] أي: يَغْبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله -عز وجل-: {إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود:١٠٣- ١٠٥].

هذا كقوله هنا: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}**، فـ**{فَرِيقٌ}** نكرة، والأصل أنه لا يبدأ بالنكرة ما لم تفد، فهنا هذا المقام مقام تقسيم:**{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}** فهذا سوغ الابتداء بها، ولا حاجة لقول من قال: إن هذا خبر، أو إنه مبتدأ لخبر محذوف مقدم مقدر، إلى غير ذلك، هذا لا حاجة إليه، والأصل عدم التقدير، فهذا مقام تقسيم: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}**.

روى أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي يده كتابان، فقال: ((أتدرون ما هذان الكتابان؟)) قال: قلنا: لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال للذي في يده اليمنى: ((هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا)) ثم قال للذي في يساره: ((هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا)) فقال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فلأي شيء إذًا نعمل إن كان هذا أمرٌ قد فُرِغ منه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سَدِّدُوا وقاربوا، فإنّ صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَل، وإنّ صاحب النار يختم له بعمل النار، وإنْ عمِلَ أيَّ عمل)) ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: ((فرغ ربكم -عز وجل- من العباد)) ثم قال باليمنى فنبذ بها، فقال: ((فريق في الجنة)) ونبذ باليسرى، فقال: ((فريق في السعير))[٧]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

---

٧ - رواه الترمذي، كتاب أبواب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، رقم (٢١٤١)، وأحمد (٦٥٦٣) وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف"، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٩٦).

وكما في الحديث الآخر: قبض قبضة، فقال: **((هذه في الجنة ولا أبالي، وقبض قبضة، وقال: وهذه في النار، ولا أبالي))** [٨].

وروى الإمام أحمد -رحمه الله-: عن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه -يعني يزورونه-، فوجدوه يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خذ من شاربك ثم أَقِرَّه حتى تلقاني)) قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي)) فلا أدري في أي القبضتين أنا[٩].

هنا يقولون له: ما يبكيك، ألم يقل لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خذ من شاربك))؟ يعني قال له في مناسبة: ((خذ من شاربك)) يعني بمعنى: حف الشارب، قص الشارب، أرشده إلى أمر من سنن الفطرة، وأن يلتزمه، ثم أَقِرَّه حتى تلقاني، يعني وعده النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو جعل له عدة، وهي أن يلقاه على الحوض، يعني هذا تطمين له أنه سيرد الحوض على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقولون: لماذا تبكي، النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدك على الحوض؟!

وأحاديث القَدَر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدًّا، منها: حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جمّة -رضي الله عنهم أجمعين.

لا شك أن الله -تبارك وتعالى- قدر مقادير الخلق، وأن الله قد قدر الهداية لقوم، والضلالة على قوم، بعلم وحكمة، وأن الله -تبارك وتعالى- قد علم أهل الجنة وأهل النار، ولكن القدر هو سر الله في خلقه، ونحن لم نطلع على ذلك، ولا على هذا الكتاب، فالشقي من قدر نفسه في الأشقياء، ثم بعد ذلك ترك طاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ومثل هؤلاء الذين يعتذرون بالقدر فيتركون الإيمان والعمل الصالح لا يفعلون ذلك في دنياهم، فتجد الإنسان منهم يبذل الأسباب في دفع المكروه، وجلب المحبوب، فهذا الإنسان يبتعد عن الحفرة، ويتوقى في الطريق، وكذلك أيضًا إذا جاع يأكل، وإذا شعر بالحر أو البرد بذل الأسباب لتجنب ذلك، والبعد عنه، إلى غير ذلك من المزاولات، ومن أدناها المشي، فإن هذا بذل للسبب بالحركة، وتحريك الأقدام في طلب الحاجات، وما إلى ذلك، فهذا كله من التسبب.

فلو أن هؤلاء يقولون: قد قدر لنا، وكتب علينا ما سيأتينا، ومن ثم لا داعي للحركة، ولا داعي للذهاب، ولا للدراسة ولا للعمل، ولا للأكل ولا للشرب، ولا للباس، ولا أي حركة، سيبقى هؤلاء لا يأكلون ولا يشربون، ولا يلبسون، وهذا لا يقول به عاقل، لكن لربما يأتي صاحب الهوى، فيحتج بمثل هذا في عمل الآخرة، فيقال: فما بال عمل الدنيا؟ حتى عمل الدنيا لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.

---

٨ - رواه أحمد (١٧٥٩٤)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

٩ - رواه أحمد (١٧٥٩٣)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: {وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى:٨].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} [هود:١١٨-١١٩]، قال: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} بعض السلف يقول: خلقهم للرحمة.

وبعضهم يقول: ليس ذلك هو المراد، وإنما: ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم، يعني للاختلاف، {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} يعني أنهم يفترقون إلى أهل الإيمان وأهل الكفر والشقاء، ولذلك خلقهم، وهما قولان معروفان.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الشورى:٩-١٢].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ} [الشورى:٩]، {أَمِ} هذه هي المنقطعة، بمعنى: بل، والهمزة، يعني: بل أتَّخذ الكافرون من دونه أولياء -يعني معبودين- يطلبون منهم النصر والعز والرزق، وما إلى ذلك: {فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ}.

ثم قال: **{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء: {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} أي: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ كقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}** [النساء:٥٩].

هذا معنى ذكره الحافظ ابن كثير، وذكره كثير من أهل العلم: أن المقصود: {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} أي: أن الرد فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم.

والمعنى الآخر: {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} يعني أن الله يحكم بينكم يوم القيامة، أن هذا الحكم في الآخرة: {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} الله -تبارك وتعالى- يحكم بين عباده في الآخرة، وكما ذكر الله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الحج:٦٩] فحكم الله -تبارك وتعالى- بين المختلفين واقع في الآخرة، وكذلك أيضًا الله -تبارك وتعالى- إليه الحكم والتشريع وحده فيما اختلف فيه الناس: **{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}.**

{فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [النساء:٥٩].

{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥].

وغير ذلك من النصوص.

وهذا معنى صحيح، ومن ثم فإنه لا يجوز التحاكم إلى غيره، وكل من تحاكم الناس إليه وكان يحكم بينهم بغير ما أنزل الله -تبارك وتعالى- فذلك حكم الطاغوت، بأي اسم كان، سواء بمجلس الشعب، مجلس تشريع، برلمان، أو غير ذلك، فمثل هذا لا يُرد إليه ما اختلف الناس فيه، وإنما يحكم فيه بما شرعه الله -تبارك وتعالى.

وحكم أولئك ولو كان موافقًا للشرع فإنه حكم بالطاغوت؛ لأنه حكم بأهواء الناس، باعتبار غالبية الأصوات، أغلب هؤلاء ممن هم يمثلون الشعب، فصار الحكم بهذا الاعتبار.

يعني لا لأن الله شرّعه، فليس ذلك بحكم الله، وإن كان موافقًا له في هذه الجزئية، والله المستعان.

أهل الصلاح والمصلحون، ونحو ذلك يرون أنهم حققوا انتصارًا كاسحًا في بلاد كثيرة، وصارت الغلبة، والظهور لهم، وأعداؤهم من العلمانيين والليبراليين يقولون: بل نحن الذين انتصرنا، بأي اعتبار؟

يقولون: نحن حملنا هؤلاء على المبادئ التي ندعو إليها، وهي الديمقراطية، وحكم الشعب للشعب، وأن المرجع هو الشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات، فصاروا يلهجون بذلك ويرددونه، ويقررونه، ويعملون بمقتضاه، فصرفناهم عن حكم الشرع، يقولون: نحن الذين انتصرنا، نحن استطعنا أن نحول هؤلاء من مبادئهم وعقيدتهم إلى مبادئنا وعقيدتنا، يقولون: نحن الذين انتصرنا، وإن فاز هؤلاء بالانتخابات، ولكن الواقع نحن الذين انتصرت مبادئنا، هم حصلوا على أصوات كثيرة، لكن المبادئ التي انتصرت وراجت، وهم صاروا يتسابقون إليها، ويرفعون هذه الشعارات، يقولون: هي شعاراتنا وليست مبادئهم وعقيدتهم، هكذا يقولون، والله المستعان.

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي} أي: الحاكم في كل شيء.

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي: أرجع في جميع الأمور.

تأمل النصوص دائمًا، يعني هنا: **{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ}** الأولياء هنا يدخل فيها معانٍ، قد يكون هؤلاء الأولياء أصنامًا، قد يكون هؤلاء من البشر ممن ينتصرون بهم، ويتقوون بهم: **{فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}**.

فالرب هو الذي يشرّع، وهو الذي يصرّف عباده وخلقه، فهو المستحق للطاعة والعبادة.

ثم انظر هذا التعقيب: **{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** فهذا الرب المعبود الذي يتحاكم إليه دون أحد سواه، يكون التوكل عليه وحده لا شريك له، فلا يخاف الإنسان من المخلوقين أن يوصلوا إليه أذى أو ضررًا، أو أن يمكروا به، وتجد النصوص في القرآن كثيرة: **{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}** [الزخرف:٤٣] الله يأمره: **{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ}** [هود:١١٢-١١٤] تأمل هذه النصوص كيف تربي القلوب على الطاعة المطلقة لله -عز وجل-، والتحاكم إليه، والعمل بشرعه، مع الاستقامة، والتوكل، هؤلاء لن يستطيعوا أن يوصلوا إليك الأذى والضرر وأنت تركن

إلى الله -تبارك وتعالى-، فلماذا تخافهم؟ لماذا تتنازل؟ لماذا تحاول أن تلتقي معهم في منتصف الطريق؟.

ولهذا يقول الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [الأحزاب:١-٣].

لأنه حينما يطيع الله وحده، يطيع ربه وحده، يتحاكم إليه وحده، قد يعاديه بل سيعاديه أكثر الخلق، فهنا يأتي التوكل: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} هذا هو تعليم القرآن، ما هو المخرج؟ ما هو الطريق؟.

يستقيم كما أمره الله -عز وجل-، ويتوكل عليه، ويثق به، والله ينصره، ابتلاء ثم تمكين، لكن منتصف الطريق هذا هو الذي يحصل معه الخذلان، الاستنصار بالمخلوقين، التقوي بأعداء الله -عز وجل- من أجل أن يمكنوه، أن ينصروه هذا هو الخذلان والفشل الحقيقي.

وقوله -جل جلاله-: {فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: خالقهما وما بينهما: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} أي: من جنسكم وشكلكم، منّة عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرًا وأنثى.

يعني هنا: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} يحتمل أن يكون المراد خلق لكم من جنسكم، كما يقول ابن كثير، فالزوجة من جنس الآدميين، وهذه قضية معلومة لا إشكال فيها، إلا عند من أعمى الله بصائرهم، يعني في فرنسا يعقد اجتماع قبل أكثر من قرن، يناقشون فيه: المرأة هل هي إنسان أو ليست بإنسان؟ يعني هل هي من جنس الآدميين أو ليست من جنس الآدميين؟

ورجعوا في النهاية: أنها ليست من جنس بني آدم.

فهنا: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ} يعني من جنسكم.

ويحتمل أن يكون المراد: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ} يعني من حواء، خلقها الله -عز وجل- من آدم -عليه الصلاة والسلام-، من ضلع: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ} فيكون المقصود بذلك خلق الله حواء من ضلع آدم، فهي جزء منه.

ولا منافاة -والله أعلم- بين القولين {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ} فإن النساء من جنس بني آدم، وهي مخلوقة منه، ولهذا لو تأملت عبارة ابن جرير -رحمه الله- تجد أنه جمع بين القولين: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} يعني من جنسكم، وقد خلق حواء من ضلع آدم -عليه السلام-، هذان قولان مشهوران.

وهناك قول ثالث قال به مجاهد: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} يعني نسلاً بعد نسل، لكن بمعنى أن ذلك لا يختص بآدم وحواء.

{وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

{وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} فسر بهذا وهذا قول مشهور: {وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} يعني خلق لكم الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام.

والقول الآخر: {وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} يعني خلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، من يقول: هي الثمانية، المقصود بها الثمانية المذكورة في سورة الأنعام، هذا قول الجمهور، واختاره ابن كثير، وقبله ابن جرير، وذهب إليه الشنقيطي، وغيره.

لكن القول الآخر: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} أي: خلق لها من جنسها أزواجًا، كما خلق لكم من جنسكم أزواجًا خلق للأنعام من جنسها أزواجًا.

والقول الآخر: خلق لكم من جنسكم أزواجًا، وخلق لكم هذه الأنعام، أصنافًا من الأنعام.

أي {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} إما من جنسها خلق لها أزواجًا كما خلق لكم أزواجًا، أو خلق لكم من أنفسكم أزواجًا، وخلق لكم أصنافًا من الأنعام تأكلونها، وتنتفعون بها.

وقوله: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

قوله: {يَذْرَؤُكُمْ} بعض أهل العلم فسره بالبث، يعني يبثكم فيه: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني يبثكم فيه الذرء باعتبار البث، أو {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني يخلقكم وينشئوكم فيه، يعني فيما جعل لكم من أزواجكم، وابن جرير -رحمه الله- يذكر هذا المعنى، ويضيف إليه: ويعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام.

{يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} وتأمل هنا ذكر الأمرين، ابن جرير: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} ومع أن الضمير مفرد، بعد ذكر هذين الأمرين، لكنه على طريقة العرب أنهم قد يذكرون شيئين، فيعود الضمير لواحد منهما، لمعنى، لسبب يعني، فهنا: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني كما قال الشاعر:

فيها خطوطٌ من سواد وبَلَقْ *** كأنه في الجلدِ توليعُ البَهَقْ

كأنه: يعني كأن المذكور.

ما قال: كأنهما في الجلد توليع البهق.

والأمثلة والشواهد على هذا كثيرة في القرآن، وفي كلام العرب.

{يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} الضمير هنا في {يَذْرَؤُكُمْ} للمخاطبين على قول ابن جرير: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} فيما خلق لكم من الأزواج وما أوجد لكم وخلق من الأنعام، فالله -تبارك وتعالى- يُقيتكم فيها، ويعيّشكم في ذلك.

وعلى القول الآخر: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني فيما خلق لكم من الأزواج، وكذلك الأنعام، فإن الله -عز وجل- يذرؤها ويبثها ويخلقها وتتناسل عن طريق هذه السنّة التي جعلها الله -عز وجل-، خلق لها من أنفسها أيضًا أزواجًا، فيحصل بسبب ذلك التناسل: {يَذْرَؤُكُمْ} يبثكم فيه، فتتناسل الأنعام، كذلك يتناسل الناس، لكن هنا: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} ما قال: يذرؤها، فإن مثل هذا التركيب: {يَذْرَؤُكُمْ} هنا خاطب فيه العقلاء من باب أنهم الأشرف، أنهم المقصود بالخطاب، أن الخطاب موجه لهم، فما قال: يذرؤها فيه، وإنما قال: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} والواقع أنه يذرؤكم ويذرؤها أيضًا بهذه السنّة التي جعلها الله -تبارك وتعالى- في هؤلاء الخلائق.

فيكون هذا غير قول ابن جرير، {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} ويذرأ أيضًا الأنعام.

وعلى قول ابن جرير: يذرؤكم في هذا الخلق، في هذا التناسل، خلق لكم من أنفسكم، وفي الأنعام أيضًا، حيث جعلها سببًا، أو جعلها لكم معايش، أو جعل لكم فيها معايش، ومنها تأكلون.

والمعنى الثاني: يذرؤكم ويذرؤها، وهذا الذي اختاره الشنقيطي -رحمه الله- {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني في هذا الجعل المذكور، المشار إليه، فيرجع إلى المذكورين، يعني من الذكور والإناث {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني فيهما، يذرؤكم فيهما.

وبعضهم يقول: إن الضمير في قوله: {فِيهِ} يرجع إلى التدبير: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} هذا التدبير الذي دبر به شأن الخلائق، وصرفها هذا التصريف -سبحانه وتعالى.

وبعضهم فسر الذرء بالتكثير، وهذا لا ينافي ما سبق: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني يكثركم فيه، فهذا معنى يبثكم، فيحصل التناسل والتوالد، ويبقى نسلهم ويمتد.

وهناك أقوال أخرى لا تخلو من بعد، بعضهم يقول: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} يعني الزوج.

وبعضهم يقول: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} بحيث هذه الزوجة تكون محلاً، يعني هي مزدرع للرجل.

ولهذا قال بعضهم: يرجع الضمير في قوله: {فِيهِ} إلى البطن، {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} أي في البطن، لكن هذا لا يخلو من بعد، وهكذا قول من قال: الرحم، والله تعالى أعلم.

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} هذه الآية إذا قرأناها لا يشكل معناها إطلاقًا، يعني كلنا نفهمها، ولكن كما ذكرت في بعض المناسبات: أن شق الشعرة والشعيرة هو الذي يولد الإشكال، ولذلك نجد في كثير من كتب الاعتقاد، وكذلك في كلام المفسرين كلامًا طويلاً في هذا الموضع، أعني قوله -تبارك وتعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فدخول "الكاف" على "مثل"، فإنهم يوردون فيه سؤالات: "الكاف" هذه هل زائدة أو "مثل" زائدة؟

فهنا نفى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ} نفى المثل عن مثله، وهل نفي المثل عن المثل نفي عنه؟.

ثم أيضًا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} هل الله مثلٌ أصلاً حتى ينفى عنه المثل؟

فيوردون مثل هذه السؤالات، مع أنها لأول وهلة حينما يقرأ الإنسان الآية لا يشكل عليه المعنى بحال من الأحوال، فبعضهم يقول: إن ذكر المثل هنا من باب المبالغة، نفي المثل من باب المبالغة: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فيكون معناه: أنه ليس كالله -تبارك وتعالى- شيء، لا يماثله شيء: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فنفى المثيل، أو الشبيه عن المثل يقولون: من باب المبالغة.

وبعضهم يقول: إن "الكاف" زائدة لتقوية الكلام، يعني ليس مثل الله -عز وجل- شيء.

وبعضهم يقول: إن "مثل" هي الزائدة، ولا يليق إطلاق الزيادة في شيء من كلام الله -تبارك وتعالى-، ولكنهم يقصدون الزائدة إعرابًا، ولهذا بعضهم يسميها: صلة، من باب التأدب في العبارة، وإلا فالقرآن ليس فيه حشو، كما هو معلوم.

ولعل -والله تبارك وتعالى أعلم- ذلك على طريقة العرب، أنها تقيم المثل مقام النفس، ولا يقال: فيه شيء زائد، وإنما العرب تقيم المثل مقام النفس، تقول: مثلي لا يقال له كذا، تقصد: أنا لا يقال لي كذا، مثلك لا ينبغي أن يقول كذا، مثلك لا ينبغي أن يفعل كذا، ولست تقصد أنه من كان مثيلاً له، وإنما تقصد مخاطبته هو مباشرة، وهو يفهم هذا عنك، فهذا من أحسن ما قيل -والله تعالى أعلم-، وهو الذي ذهب إليه ابن قتيبة -رحمه الله-، أن هذا على طريقة العرب، تقيم المثل مقام النفس.

وقتْلاكَ كمثلِ جذوعِ النخل *** ....

كمثل جذوع النخل يعني مثل جذوع النخل.

وهكذا في البيت المشهور:

ليس كمثلِ الفتى زُهير *** ....

يعني ليس كزهير، أو ليس مثل زهير، وغير ذلك من الشواهد.

وكما:

.... *** ما إنْ كمثلِهم في الناس مِن أحدِ

يعني ما مثلهم في الناس.

هذه طريقة العرب ولا داعي لتشقيق ذلك، وتوليد الإشكالات منه.

وقوله: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} تقدم تفسيره في "سورة الزمر"، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}.

يعني في سورة الزمر مضى الكلام على المقاليد: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمر:٦٣] ابن كثير قال: قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وهذا الذي قال به عامة المفسرين، أن المقاليد هي المفاتيح، سواء قيل بالفارسية، أو غير ذلك، مسألة الكلام في المعرَّب معروفة، لكن المقاليد هي المفاتيح، وهو اختيار ابن جرير وعامة المفسرين، قالوا: إذا كان يملك مفاتيح السموات والأرض، مفاتيح الخزائن، والرزق، ومفاتيح كل خير من الهدى والضلال، وما إلى ذلك: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} فهو يملك إذاً الخزائن، يعني الذي يملك مفاتيحها هو مالك لها، يقول هنا: مفاتيح، إلى آخره، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي، والضحاك، وجماعة: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} يعني خزائن السموات والأرض.

وهناك قال: والمعنى على كل القولين أن أزمّة الأمور بيده –تبارك وتعالى-، ولعلي ذكرت هناك أن القولين بينهما ملازمة، وأنه لا حاجة للترجيح، بصرف النظر عن المقاليد هذه، يعني هل هي جمع إقليد أو جمع مقلاد، أو غير ذلك، مما مضى الكلام عليه، أو أنه لا واحد لها من لفظها أصلاً، والمقصود مفاتيح الرزق، ومفاتيح السموات والأرض، ومفاتيح الرحمة.

قال: {يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام: {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى:١٣-١٤].

يقول تعالى لهذه الأمة: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح –عليه السلام-، وآخرهم وهو محمد –صلى الله عليه وسلم-، ثم ذكر مَن بين ذلك من أولي العزم، وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم –عليهم السلام.

وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية "الأحزاب" عليهم، في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الآية [الأحزاب:٧].

مضى الكلام على هذا في أكثر من مناسبة من أن أولي العزم: أن الكثيرين من أهل العلم يربطون الآيتين هذه وآية الأحزاب مع قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [الأحقاف:٣٥] ويقولون: أولوا العزم: خمسة.

وسبق أن هذا الوجه في الارتباط لا يوجد دليل واضح وصريح عليه، فالله -عز وجل- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالصبر، كما صبر أولوا العزم -عليهم الصلاة والسلام- ولم يذكرهم هناك.

وهذه الآيات ذكر الله -تبارك وتعالى- هنا أنه شرع لنا: **{مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}** [الشورى:١٣] إلى آخره.

وهكذا في آية الأحزاب في أخذ الميثاق: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}** [الأحزاب:٧] فهذا في أخذ الميثاق عليهم، فليس في الآيتين أن هؤلاء هم أولو العزم -عليهم الصلاة والسلام.

ولهذا لو قيل: إن أولي العزم يعني أصحاب العزائم العظيمة، والصبر الكبير في طاعة الله -عز وجل-، والبلاغ، وتحمل الأذى، ومن ثم فإن هؤلاء الخمسة هم من أعظمهم وأفضلهم، ولكن ذلك لا يختص بهم، فبعض أهل العلم يقول: كل الرسل من أولي العزم، وإن كانوا يتفاوتون.

وبعضهم يذكر مجموعة من الرسل أكثر من الخمسة.

وكثير من أهل العلم يخصه بالخمسة.

ولا أعلم دليلاً على التخصيص بالخمسة، وإنما يربطون بين هذه الآيات بهذه الطريقة التي ذكرناها، وليس فيها شيء صريح في هذا.

والمقصود بقوله: **{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}** [الشورى:١٣] المقصود به أصول الدين، وشرائع الدين العظام، يعني أصول هذه الشرائع موجودة في ما بعث الله به رسله -عليهم الصلاة والسلام-: التوحيد، إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، الصيام، الحج، هذه الأركان الخمسة موجودة عندهم في شرائعهم، وكذلك أيضًا أصول الأخلاق، وما أشبه ذلك، أما تفاريع الشريعة فإنها تختلف: **{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}** [المائدة:٤٨].

والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥].

وفي الحديث: ((نحن معشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد))[١٠] أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم؛ كقوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}** [مريم:١٦]، رقم (٣٤٤٣) بلفظ: ((والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)).

[المائدة:٤٨]؛ **ولهذا قال هاهنا: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} أي: وصى الله –سبحانه وتعالى– جميع الأنبياء –عليهم السلام– بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.**

هذه من المحكمات، يعني: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}** [آل عمران:١٠٣] لكن هذا الاعتصام بماذا؟

بحبل الله، الاعتصام بالحق، الاعتصام بالتوحيد، بالإيمان الصحيح، بما أنزله الله –تبارك وتعالى–، بهذا الوحي.

وهنا: **{أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}** [الشورى:١٣] يعني الإيمان، والتوحيد، وطاعة الله، وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، هذا إقام الدين، إقامة شرائع الإسلام.

وقوله: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} أي: شق عليهم، وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} أي: هو الذي يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة.

{وَمَا تَفَرَّقُوا} هنا بعضهم يقول: المقصود قريش، ومن جاء بعدهم.

وبعضهم يقول: المقصود أمم الأنبياء الذين بعث إليهم الرسل –عليهم الصلاة والسلام–، وابن جرير –رحمه الله– عبارته عامة، يقول: **{وَمَا تَفَرَّقُوا}** يعني أمم الكفر، الكفار: **{إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ}** يعني لم يكن ذلك بسبب خفاء الحق، وإنما بسبب البغي، وذلك بسبب العداوات والحسد بينهم، فإن الذين يختلفون بعد مجيء الحق، وظهور الحق، وبيان الشارع له على الوجه الذي لا يترك فيه لبسًا إنما يكون ذلك بسبب البغي، وهذا الخلاف الواقع بين طوائف هذه الأمة إنما هو بسبب البغي بينهم، إمّا أن يعرف الحق ويتمسك بالباطل، وإمّا أنه يحمّل الأمور ما لا تحتمل، فيقع الاختلاف والتنازع والتفرق الذي نهى الله –عز وجل– عنه، بمعنى تكون الأمة طوائف متناحرة، يعادي بعضها بعضًا على أمور لا توجب هذا، فيكون ذلك بسبب الهوى والبغي.

بعضهم يخص هذا باليهود والنصارى: **{وَمَا تَفَرَّقُوا}** يعني اليهود والنصارى.

ثم قال –عز وجل–: {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا.

وبعضهم يقول: **{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** يعني إلى الوقت الذي حدده الله –عز وجل– لإنزال العذاب بهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة، وإنما لهم وقت معلوم محدد يجازيهم الله ويعاقبهم، يعني قبل يوم القيامة.

وقوله –جلت عظمته–: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق: {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} أي: ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

هنا قوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ} إذا قيل: من بعد أمم الأنبياء: {الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ} يكون مَن هؤلاء؟

بعضهم يقول: اليهود والنصارى أورثوا بعد تلك الأمم: {أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}.

{شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} يعني يبعث على الريب، والريب -كما بينا- شك مقلق، فهذا على هذا المعنى يدل على دواخل اليهود والنصارى أنهم في شك من كتابهم، أنهم ليسوا على يقين، وهذا يدل عليه أدلة أخرى من كتاب الله -عز وجل-، فهم مرتابون ليسوا على يقين، ومن ثم فإن مواجهة هؤلاء بالدعوة، والرد على باطلهم، وما إلى ذلك ينبغي أن ينطلق من قاعدة واضحة لدى من يناظرهم، وهي أن يعرف أن هؤلاء ليسوا على يقين، بل هم مرتابون، وأعظمهم ريبًا هم كبارهم الذين عرفوا من الحقائق ما لا يعرفه عوامهم وجهالهم، فعندهم ريب، ليس عندهم يقين.

وبعضهم يقول: المراد بذلك كفار قريش: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ} فبعد تلك الأمم صار الكتاب إلى العرب {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} أورثوا هذا القرآن بعدما أورث أهل الكتاب كتابهم، فهؤلاء من المشركين في شك منه مريب، هذان قولان معروفان.

هناك قول آخر لا يخلو من غرابة: أن قوله: {مِنْ بَعْدِهِمْ} المراد به من قبلهم، كأن ذلك من الأضداد، وهذا مروي عن مجاهد -رحمه الله-: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} يعني من قبلهم، من قبل هؤلاء المشركين، والمقصود بذلك مَن على هذا الاعتبار؟

قبل مشركي مكة يعني اليهود والنصارى: {لَفِي شَكٍّ} يقول: كما شك هؤلاء من أهل مكة من المشركين، وارتابوا في الكتاب، فكذلك الذين من قبلهم، لما أورثوا الكتاب هم أيضًا في شك منه مريب.

{لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} قال: "وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد"، حيرة في أمرهم.

وبعضهم يقول: {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ} أي: القرآن.

وبعضهم يقول: {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} أي: محمد -صلى الله عليه وسلم.

وهذه المعاني بينها ملازمة، إذا حملنا ذلك على العرب.

{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى:١٥].

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه.

قوله: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ} أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة، كأولي العزم، وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله -عز وجل.

وقوله: {وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} أي: صدقت بجميع الكتب المنــزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: {وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله: {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارًا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا فله يسجد من في العالمين طوعًا واختيارًا.

وقوله: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} أي: نحن برآء منكم؛ كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس:٤١].

وقوله: {لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} قال مجاهد: أي لا خصومة.

قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف.

وهذا مُتَّجه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: {اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا} أي: يوم القيامة، كقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ:٢٦].

وقوله: {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

قوله -سبحانه وتعالى-: **{فَلِذَلِكَ فَادْعُ}** يعني ما وصى الله -تبارك وتعالى- به من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه، فلهذا تكون الدعوة متوجهة مع الاستقامة من الناحية العملية، وقد تكون الدعوة إلى هذا مدة متطاولة، أو مددًا متطاولة، ثم بعد ذلك إذا جاء العمل والتطبيق وقع خلاف ذلك، **{وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}** لا تطع هؤلاء فيما يدعونك إليه: **{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}** [القلم:٩].

وهنا قوله -تبارك وتعالى-: **{لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}** ليس ذلك بمعنى أنه كما يقول السدي: كان ذلك قبل آية السيف، وكأن ابن كثير يستحسن هذا القول، يعني كأن هذا نسخ، والواقع أن هذا لم ينسخ، وإنما: **{لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}** يعني المقصود به نفي الخصومة، والجدال حال كون ذلك لا يجدي، يعني بمعنى: إذا ظهر الحق، وبان لم يعد للحجة، أو الخصومة، أو الجدال محل، وهذا الذي ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي، وغير هؤلاء: أن المقصود هنا في حال ظهور الحق، إذا ظهر وتجلى وانكشف لم يعد للخصومة مجال، هؤلاء يجادلون لإبطال الحق، لإظهار الباطل، ومن كان مجادلاً لإبطال الحق، أو لإظهار الباطل فإن جداله لا يلتفت إليه، إنما يكون الجدال لبيان الحق وتجليته، فهنا: **{لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}** أي بعد ظهور الحق، وإلا فالآيات الأخرى: **{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل:١٢٥]، **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [العنكبوت:٤٦] والقرآن رد عليهم في مواضع كثيرة.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قوله: **{يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}** قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج، ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل، والمعنى يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعله لكم أزواجًا، فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان بالأزواج.

والضمير في قوله: **{فِيهِ}** يرجع إلى الجعل.

ومعنى: الذرء الخلق، وهو هاهنا الخلق الكثير فهو خلق وتكثير، فقيل: **{فِيهِ}** بمعنى: الباء، أي: يكثركم بذلك، وهذا قول الكوفيين -يعني باعتبار تضمين الحرف معنى الحرف-، والصحيح أنها على بابها، والفعل

تضمن معنى: ينشئكم، وهو يتعدى بـــ"في"، كما قال تعالى: {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الواقعة:٦١] فهذا تفسير الآية.

ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح، وهو سبحانه الذي يحيي قلوب أوليائه، وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها، وتكثيرًا وذرءًا، والله أعلم"[١١].

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذه الآية من الأصول التي بنى عليها أهل السنة باب الأسماء والصفات، وردوا فيها على المخالفين، فإن قوله –تبارك وتعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} نفي للمماثلة.

وقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذا أصل في الإثبات، فذكر هاتين الصفتين: السمع والبصر اللتين هما في نظر هؤلاء المخالفين من الجهمية أوغل في التشبيه –السمع والبصر-، فالله –تبارك وتعالى- في جزئها الأول نفى المماثلة، وفي جزئها الثاني {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أثبت له الصفات، فكأن الله –تبارك وتعالى- يقول: يا عبدي، لا تمثل صفاتي بصفات المخلوقين، ولا تنفِ عني صفات الكمال، بل أثبتْ ما أثبتُّه لنفسي، فجمع بين النفي والإثبات، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي وسط بين الجهمية المعطلة، وبين الغلاة من الممثلة.

قال الإمام ابن القيم: "ثم قال: {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} –والحجة هاهنا هي الخصومة- أي: للخصومة، ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم بعدما ظهر الحق، وأسفر صبحه، وبانت أعلامه، وانكشفت الغمة عنه، وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين، كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول، وأن الدين لا احتجاج فيه، كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية، وأجوبة لمعارضتهم، وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين، وإخبار عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين، وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج، وإفساد حجج الخصم؟، وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد ناظر النبي –صلى الله عليه وسلم- جميع طوائف الكفر أتم مناظرة، وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم، وأخذها بكظمهم، وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة، ولم يجد إلى ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عنادًا منهم، وميلاً إلى المكابرة، بعد اعترافهم بصحة حججه، وأنها لا تُدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة"[١٢].

من أقر بأن دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم- عامة –والنصوص الأخرى شاهدة بهذا- فهذا يبقى محلا للنظر، هل هذه مرحلة من المراحل: {لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} هل كانت كذلك؟ يعني كانت هذه مرحلة من مراحل الدعوة أن النبي –صلى الله عليه وسلم- كان ينذر أم القرى ومن حولها فقط، هل كان هذا مقصودًا له في أول دعوته –عليه الصلاة والسلام- بحيث تحمل عليه الآية؟.

---

١١ – مدارج السالكين (٣/٢٨٠).

١٢ – مفتاح دار السعادة (٢/٥٨).

هذا يحتاج إلى إثبات، لكن لو قيل: إن ما حولها يعني سائر البلاد فهذا الذي يوافق سائر النصوص، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشورى من الآية (١٦) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمستمعين وللمسلمين أجمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ} **[الشورى:١٦-١٨].**

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ} أي: باطلة عند الله {وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ} أي: منه {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي: يوم القيامة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}** ذكر بعضهم: أن المراد بهذا قوم توهموا أو كانوا يرجون أن تعود الجاهلية.

وذكر بعضهم: أن المراد بذلك هم اليهود والنصارى.

والأقرب حمل ذلك على العموم، يعني كل من كان بهذه المثابة، كل من كان بهذه الصفة: **{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}** بعدما ظهرت أعلام الحق، واتضح، قال: **{لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}** فهؤلاء الذين يحاجون بعد أن استبان السبيل، وقامت الحجة، واتضحت المحجة، هؤلاء مكابرون مبطلون، عليهم غضب من الله.

يقول: **{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ}** سماها حجة باعتبار أنهم يزعمون أنها حجة، وإلا فهي ليست بحجة، فخرج الخطاب في هذا مراعى فيه حال أو نظر المخاطب.

{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} قال: أي: باطلة عند ربهم.

الدحض أو الإدحاض هو الإزلاق، وتقول: هذا دحض مزلَّة، يعني موضعًا أو مكانًا لا تثبت فيه الأقدام.

فهذا بمعنى: أنه لا ثبات لها، **{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ}** يعني لا ثبات لها، كالشيء الذي يزول عن موضعه، ولا يثبت، ولا بقاء له، فهو بمعنى الباطل.

قال ابن عباس ومجاهد: جادَلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك.

طمعوا أن تعود الجاهلية، هذا القول الأول الذي ذكرته.

وهنا: وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا: لهم ديننا .. إلى آخره.

هذه أشياء وردت على أنها من قبيل أسباب النزول، ولكن لا يصح شيء من ذلك.

ثم قال: {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه {وَالْمِيزَانَ} وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:٢٥].

وقوله: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧- ٩].

قوله هنا: {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} الكتاب هنا يحتمل: أن يكون القرآن، فتكون "أل" هذه عهدية.

ويحتمل: أن يكون المراد جنس الكتب، وهذا هو الأقرب.

{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، الكتب المنزلة من عنده، وأما الميزان فقال: وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة.

يقول: وهذا كقوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:٢٥].

وقوله: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ}، فهذا قول الجمهور: أن المراد بالميزان: العدل.

وبعضهم فسره: بآلته، الآلة التي يوزن بها.

وبين القولين ملازمة، والشنقيطي -رحمه الله- فرق بين هذه الآية مع آية الحديد: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} [الحديد:٢٥]، وبين آية الرحمن {وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}.

ففرّق بين إنزال الميزان كما في آية الشورى وآية الحديد، وبين {وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} كما في آية الرحمن.

ففسر الآيتين: آية الشورى وآية الحديد بالعدل.

وفسر آية الرحمن ووضع الميزان: أنه الميزان المعروف الذي يوزن به.

وقول الجمهور: إن المقصود به العدل والإنصاف.

وبعضهم يقول: ما في الكتب المنزلة مما يجب العمل به، وهذا ميزان، وهو عدل وإنصاف.

وبعضهم يقول: المقصود بذلك الجزاء على الطاعة والثواب، وعلى المعصية بالعقاب، وأن ذلك يعني أنه بالعدل، يعني كونه يثاب المطيع، ويعاقب العاصي أن هذا من العدل والإنصاف.

المشهور الذي عليه الجمهور: أن المراد: العدل.

لكن يرد سؤال، وهو أن قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ}** فهذه الكتب مشتملة على العدل والميزان والعدل، فهل هذا من قبيل التكرار على هذا التفسير؟

يعني هذه الكتب متضمنة للحق والعدل في كل شيء، يعني التوحيد عدل، وسائر ما أنزله الله -تبارك وتعالى-، وبه قامت السموات والأرض، فهل يقال: إن هذا التفسير -يعني أن الميزان هو العدل- تكرار مع ما قبله؟

فرق بعض أهل العلم بينهما، وقالوا: إن الكتب نازلة بالعدل بالحق، ومتضمنة للعدل، ولكن الميزان أعم مما جاء في الكتب من العدل، فهذا العدل قد يكون مما جاء في الكتاب، وقد يكون مما يلحق به بالقياس، وقد يكون بغير ذلك، فهو أعم مما نزل في الكتب من العدل.

وهناك كلام للشنقيطي في "الأضواء" نذكره ملخصاً:

قوله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}** بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبسًا بالحق الذي هو ضد الباطل.

وقوله: **{الْكِتَابَ}** اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية.

يعني "الباء" للملابسة بالحق، متلبسًا بالحق.

وقد أوضحنا في سورة الحج: أن المفرد الذي هو اسم جنس يطلق مرادًا به الجمع.

-يعني هنا يقول: الكتاب يعني الكتب-.

وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

وقوله تعالى: في هذه الآية: **{وَالْمِيزَانَ}** يعني أن الله -جل وعلا- هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف.

وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية هو آلة الوزن المعروفة، ومما يؤيد ذلك: أن الميزان مِفْعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة.

وعلى التفسير الأول، وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه؛ لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف.

-يعني بينهما ملازمة-.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذه الموضع، كقوله تعالى في سورة الحديد: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** [الحديد:٢٥].

فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف، وكقوله تعالى في سورة الرحمن: **{وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:٧-٩].

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: الذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين.

وأن الميزان في سورة الرحمن هو الميزان المعروف، أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات.

ومما يدل على ذلك: أنه في سورة الشورى وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه.

وقال في سورة الشورى: {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}، وقال في الحديد: {وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} [الحديد:٢٥].

وأما في سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال: {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} [الرحمن:٧] ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة، وذلك في قوله: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن:٩] لأن الميزان الذي نهوا عن إخساره هو أخو المكيال، كما قال تعالى: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} [الشعراء:١٨١-١٨٣]، وقال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين:١-٣]، وقال تعالى عن نبيه شعيب: {وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [هود:٨٤] الآية، وقال تعالى عنه أيضًا: {قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} [الأعراف:٨٥] الآية، وقال في سورة الأنعام: {وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [الأنعام:١٥٢]، وقال في سورة بني إسرائيل: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [الإسراء:٣٥].

فإن قيل: قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، وأن المراد بالميزان في سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية، وعلى هذا الذي اخترتم يُشكل الفرق بين الكتاب والميزان أن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف؟ -السؤال الذي أوردتُه-، فالجواب من وجهين:

الأول منهما: هو ما قدمنا مرارًا من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفتين مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات.

ومن أمثلة ذلك في القرآن: قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [الأعلى:١- ٤]، يعني أن ذلك يرجع إلى شيء واحد.

فالموصوف واحد، والصفات مختلفة، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

إلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ *** ولَيْث الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمْ

وأما الوجه الثاني: فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم -رحمه الله- في إعلام الموقعين: من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان، وإيضاح ذلك أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية.

وأما الميزان فيصدق بالعدل والإنصاف الذي هو مصرح في الكتب السماوية، ولكنه معلوم مما صرح به فيها، فالتأفيف في قوله تعالى: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [الإسراء:٢٣] من الكتاب، لأنه مصرح به في الكتاب، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عنه بالنهي عن التأفيف من الميزان، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسله، وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ}

[الطلاق:٢] من الكتاب الذي أنزله الله؛ لأنه مصرح به فيه، وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله مع رسله، وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [النساء:١٠] الآية من الكتاب، يعني مثل مفهوم الموافقة، وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه المعروف من ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.[١]

يقصد ما نطق به الكتاب هذا من العدل الذي جاءت به الكتب، وما يفهم من ذلك، أو يلحق به، أو يضاف إليه بالقياس، أو نحو هذا أن هذا من الميزان.

وقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

وقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} أي: يقولون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا} أي: خائفون وجِلون من وقوعها {وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد وفي بعض ألفاظه: أن رجلا سأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بصوت جهوريّ وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال: يا محمد، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم– نحواً من صوته: ((هاؤم)) فقال له: متى الساعة؟ فقال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟)) فقال: حُب الله ورسوله، فقال: ((أنت مع من أحببت))[٢].

فقوله في الحديث: ((المرء مع من أحب))[٣] هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: {أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ} أي: يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها: {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} أي: في جهل بيّن؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:٢٧].

{اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [الشورى:١٩-٢٢].

---

١ – انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/٦٤-٦٧).

٢ – رواه الترمذي، كتاب أبواب الدعوات عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم (٣٥٣٦)، وحسنه الألباني في الروض النضير، رقم (٣٦٠).

٣ – رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله –عز وجل–، (٦١٦٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠).

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدًا منهم، سواء في رزقه البَرّ والفاجر.

مضى الكلام في أسماء الله الحسنى على اللطيف، وأن من معاني اللطيف: أن ذلك من اللطف، وهو إيصال الإحسان إلى عباده.

وبعضهم يقول: بطرق خفية.

واللطف يأتي بمعنى: إيصال الإحسان، ويأتي بمعنى: العلم بدقائق الأشياء، دقائق الأمور.

فهنا: **{اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاء}** يعني يحسن إليهم، ويوصل إليهم أنواع البر والمعروف.

كقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦] ولها نظائر كثيرة.

وقوله: {يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ} أي: يوسع على من يشاء.

{وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} أي: لا يعجزه شيء.

ثم قال: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ} أي: عمل الآخرة.

{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله.

{يُرِيدُ حرث الآخرة} يعني عمل الآخرة.

أصل الحرث هو الكسب، أصله بمعنى الكسب، وأصل ذلك إلقاء البذر في الأرض، فهذا أطلق على ثمرات الأعمال، وفوائدها، وما ينتج عنها.

{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ} باعتبار هذا يعني عمل الآخرة، يعني الثواب، فتجد المفسرين يفسرون الحرث بالعمل، وفي ثنايا كلامهم يذكرون الثواب.

فالمقصود به نتيجة العمل **{حَرْثَ الْآخِرَةِ}**.

إن قلت: عمل الآخرة يعني الذي يرجون به ثوابها، فهذا أصله، صار يطلق على ثمرة العمل، يعني من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة لا يريد الدنيا: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** هنا يقول: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها، يعني هنا: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** نقويه ونعينه، هذا قول: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** يعني نقويه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها، فبعض أهل العلم يقولون: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** يعني نزد له في توفيقه وإعانته، وتسهيل سبل الخير له، يعني يعان في هذا العمل: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}** [محمد:١٧].

وبعضهم يقول: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** يعني ثواب الأعمال.

فهذان قولان، فتأمل عبارة ابن كثير -رحمه الله- كيف جاءت، وكيف جمع بين القولين قال: أي: نقويه، ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

جمع بين القولين: **{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}** يعني يُعان، وتُفتح له آفاق وسبل الخير، ويضاعف له في الجزاء والثواب.

{وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّة ألبته بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه، ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في "سبحان" وهي قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [الإسراء:١٨-٢١].

يعني عندنا أربع آيات، ثلاث مطلقة، وواحدة مقيدة، فهنا في الشورى: **{وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا}**، وفي آية هود: **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}** [هود:١٥] الآية.

وفي آية آل عمران: **{وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا}** [آل عمران:١٤٥]، وهنا هذه الآية الرابعة في سورة الإسراء: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ}** [الإسراء:١٨] فقيدها بقيدين، قيْد في المُعطَى، وقيْد في العطاء، يعني فيمن يُعطَون، وفي العطاء: **{عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ}** من العطاء: **{لِمَن نُّرِيدُ}** من الناس، فما كل من أراد الدنيا أعطي منها ما أراد، وحصل له مطلوبه.

وروى الثوري عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بشِّرْ هذه الأمة بالسَّنَاء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب))[٤].

وقوله: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

يعني بمعنى أن قوله: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ}** شرعوا لهم الضمير يرجع إلى المشركين، يعني الشركاء شرعوا للمشركين، هذا الذي عليه عامة المفسرين، خلافاً لمن قال: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ}** أن المشركين هم الذين شرعوا، يعني اخترعوا عبادات لهؤلاء المعبودين، فحللوا أشياء من عند أنفسهم، وحرموا أشياء، وتقربوا إلى هؤلاء الطواغيت والأوثان، والمعبودات الباطلة، لكن الأول هو الأرجح، وهو الذي عليه عامة المفسرين، يعني يرجع الضمير إلى المشركين: **{شَرَعُوا}** يعني أن الآلهة هذه، أو الشركاء شرعت للمشركين أشياء فحللت وحرمت، وما إلى ذلك، هذا الذي عليه عامة المفسرين **{شَرَعُوا لَهُم}** يعني: للمشركين.

---

٤ - رواه أحمد، رقم (٢١٢٢٢)، والحاكم، رقم (٧٨٦٢)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وقال الذهبي في تلخيص الحبير: "صحيح"، وقال محققو المسند: "إسناده حسن".

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه في النار))[٥]؛ لأنه أول من سيب السوائب.

وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشاً على عبادة الأصنام -لعنه الله وقبحه-، ولهذا قال تعالى: {وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد.

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

{لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} يعني يقول هنا: لعوجلوا بالعقوبة بينهم، بعضهم يقول: **{لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}** بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فعاجل هؤلاء الكفار بالعقوبة.

وبعضهم يقول: **{لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}** أي: بين العابدين والمعبودين، يعني هؤلاء الذين اتخذوا شركاء من دون الله -تبارك وتعالى-: **{لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}** بين المشركين والشركاء الذين زعموهم، واتخذوهم من دون الله.

ثم قال تعالى: {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا} أي: في عَرَصات القيامة.

{وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ} أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} فأين هذا من هذا؟، أين من هو في العَرَصَات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس...

هنا قوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ}** الروضة هي الموضع النَّزْه، الكثير الخضرة، الموضع الكثير النبت، لكن العلماء -رحمهم الله- مثلما ترون هنا عند ابن كثير قال: **{فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ}**: فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس، يعني فسروه بنعيم الجنة من أطايب المساكن والمآكل والمشارب والملابس، وما إلى ذلك **{فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ}** مع أن أصل الروضة -كما سبق- هي المكان النَّزْه كثير النبت.

ابن جرير -رحمه الله- أشار إلى سبب تفسير الروضة بالنعيم في الجنة، يعني من المآكل والمشارب، إلى آخره، يعني ما فُسر بأصله اللغوي، أصل المعنى اللغوي الذي هو المكان كثير النبت، باعتبار أن الروضة لا تقال للمكان كثير الشجر، والجنة قيل لها جنة لكثرة أشجارها، فهذا لا يقال له روضة، وإنما المكان الذي يكون كثير النبت هو الذي يقال له روضة، وليس كثير الشجر، كما نقول الآن، الآن الروضة ما معناها عندنا؟ الآن في المستعمل عند الناس؟

مكان كثير النبت، أيْ مكان كله أخضر، فيه أنواع النباتات، والعشب، وما إلى ذلك، بحيث يبهج الناظرين بكثرة نباته، وأزهاره وخضرته، وما إلى ذلك، هذه يقال لها روضة، فهنا الجنة كثيرة الأشجار، ففهم من ذلك

---

٥ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ}** [المائدة:١٠٣]، رقم (٤٦٢٣) ومسلم، كتاب في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٥٦).

أن المراد النعيم، والملاذ بأنواعه، يعني هذا وجه تفسير الروضة بالنعيم، لماذا لم تفسر بظاهر اللفظ -مكان كثير النبت-، الجنة كثيرة الشجر، المكان كثير الشجر لا يقال له: روضة، يقال له جنة.

ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

{ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى:٢٣-٢٤].

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

روى البخاري: عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: {لا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عَجِلْتَ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة"[٦]، انفرد به البخاري، ورواه الإمام أحمد من طريق آخر.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} هنا سؤالان:

السؤال الأول: من المراد بالقربى؟

والسؤال الثاني: هل {الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} من جنس الأجر أو أنها ليست من جنسه، يعني لا أسألكم أجرًا مطلقًا، فيكون الاستثناء منقطعًا، أي لكن أن تودوني في قرابتي، أنا لا أريد منكم أجرًا.

أما ما يتعلق بالقربى هنا: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} فكما في تفسير ابن عباس هنا: أن المراد بذلك ليس قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، من أهل بيته، وإنما المقصود به إلا أن تودوني في قرابتي منكم، يعني أنه ما من بطن من قريش إلا وله -صلى الله عليه وسلم- قرابة فيهم، فيقول: راعوا هذه القرابة التي بيني وبينكم، فلا يصل إليّ منكم أذى، أنا لا أريد منكم أجرًا على هذه الدعوة والبلاغ، أريد منكم أن تراعوني في قرابتي منكم، فتخلوا بيني وبين دعوتي، خلوا بيني وبين الناس، لا يصل منكم إليّ شيء من الأذى.

فعلى هذا التفسير لا يكون للآية علاقة بقرابات النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأهله بيته، وهذه: الرافضة حينما يتحدثون عنها يتكلمون بكلام طويل، ويسطرون المجلدات، ويبنون عليها أمورًا كثيرة.

هذا المعنى الذي فسره به ابن عباس، وردّ على سعيد بن جبير، فتكون الآية لا علاقة لها بأهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، هو يقول للمشركين: راعوني لقرابتي منكم، أنا لا أريد أجرًا، لا أريد منكم مالا.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، رقم (٤٨١٨)، وأحمد (٢٥٩٩).

فعليه يكون الأجر بمعنى: المال، وما يتقاضاه بسبب هذه الدعوة.

إذا فسر بهذا أن الأجر مثلاً هو المال، وما إلى ذلك فيكون الاستثناء منقطعًا، يعني المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، يعني ما سألهم شيئًا من الأجر إطلاقًا.

هنا يقول لهم: **{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** لكن راعوني في قرابتي منكم، فلا يصل إليّ منكم شيء من الأذى.

وهذا قال به كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، يعني: أن الاستثناء منقطع.

وبعضهم يقول: إن الاستثناء متصل، سواء قيل: إلا أن تودوني في قرابتي منكم، فلا يصل إليّ منكم أذى، فيكون هذا من جنس الأجر، ومراعاة النبي -صلى الله عليه وسلم- في قرابته منهم.

والمعنى الثاني: أن المقصود بقرابته -صلى الله عليه وسلم-: **{إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** أي: أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن يحفظوا أهل بيته **{إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** معرفة حق أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وما لهم من مكانة ومنزلة وحرمة، وما إلى ذلك.

وبعض أهل العلم يفسر الآية بغير هذا تمامًا: **{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** قالوا: التقرب إلى الله، والتودد إليه بطاعته.

فُسرت بهذا التفسير، وهذا منقول عن الحسن -رحمه الله.

وبعضهم يقول: هذه الآية باعتبار أن الاستثناء متصل، أن هذا من جنس الأجر.

وبعضهم قال: إن هذا منسوخ، نسخ بالآيات الأخرى التي جاء فيها الإطلاق، أنه لا يسألهم عليه أجرًا، من غير استثناء، يقولون: لما أعز الله دينه، ونصر نبيه -صلى الله عليه وسلم-، بعدما هاجر ألحقه بسائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حيث كانوا يقولون لأقوامهم: لا نسألكم عليه مالاً -أجرًا-، من غير استثناء، هكذا قال بعضهم.

هذا بناء على أن الاستثناء متصل، أن هذا من جنس الأجر والنسخ لا يثبت بالاحتمال.

وهذه المراعاة، مراعاة النبي -صلى الله عليه وسلم- في قرابته ليس هذا من الأجر، هو يقول: أنا لا أسألكم مقابلا على هذه الدعوة، ولكن راعوني في قرابتي منكم، فلا تؤذوني، وخلوا بيني وبين الناس، فيكون الاستثناء منقطعًا.

الشنقيطي -رحمه الله- له تفصيل جيد فيها، قال -رحمه الله-: **{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** قد بينا في سورة "هود" في الكلام على قوله تعالى: **{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ}** [هود:٢٩] أن جميع الرسل -عليهم الصلوات والسلام- لا يأخذون أجرًا على التبليغ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا: "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" وجه الجمع بين تلك الآيات وآية "الشورى" هذه، فقلنا فيه:

اعلم أولاً: أن في قوله تعالى: **{إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** أربعة أقوال:

الأول: ما رواه الشعبي وغيره عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم، كما نقله عنهم ابن جرير وغيره: أن معنى الآية: **{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** أي: إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم، وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم".

يعني هذا الخطاب للمشركين، والاستثناء إلا أن تودوني في قرابتي يحتمل الاتصال والانفصال، يعني هؤلاء بعضهم يقول: متصل، وبعضهم يقول: منفصل، يعني من اعتبر المودة في القربى من جنس الأجر قالوا: متصل.

"وكان -صلى الله عليه وسلم- له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكل أحد -لاحظ الشنقيطي يقول: هذا ما هو أجر، ومعناه أنه يقول: إنه منقطع- لأن كل أحد يوده أهل قرابته، وينتصرون له من أذى الناس...

القول الثاني: أن معنى الآية: **{إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** أي: لا تؤذوا قرابتي وعترتي، واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضًا؛ لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأحرى قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}** [التوبة:٧١].

وفي الحديث: ((مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد، إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) [٧].

وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[٨]، والأحاديث في مثل هذا كثيرة جدًّا".

-يعني بعض القائلين بهذا القول: تودوني في أهل بيتي وقرابتي، فتحسنون إليهم، وتحفظون حقهم، وتراعون حرمتهم، بعض هؤلاء يقول: الخطاب للمؤمنين، يعني من استجاب من هؤلاء الناس لدعوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول لهم: أنا ما آخذ على هذا مقابلا، وإنما احفظوا قرابتي، وأهل بيتي، وراعوا حرمتهم-.

"وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال.

فمعناه على القول الأول: **{لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}** لكن أذكركم قرابتي فيكم"، -بمعنى لكن-.

"وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي، فاحفظوني فيهم".

أيضًا على القول الثاني: حفظ قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته يحتمل أن يكون منقطعًا، فيكون بمعنى "لكن"، فلا يكون من قبيل الأجر، يعني: القربى إذا حمل على قرابته من المشركين فيحتمل الاتصال والانقطاع.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٦).

٨ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (٤٥).

وإذا حمل على المعنى الثاني المعنى الخاص الذي هو أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعندها أيضًا يحتمل الاتصال والانقطاع، يعني إذا قلت: منقطع معناه أنه ما سألهم شيئًا من الأجر، ومن ثم لا حاجة لقول من قال: إن ذلك منسوخ.

"القول الثالث: وبه قال الحسن: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي: إلا أن تتوددوا إلى الله، وتتقربوا إليه بالطاعة، والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال؛ لأن التقرب إلى الله ليس أجرًا على التبليغ".

وهذا خلاف الظاهر، يعني كيف يقال: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} يعني التودد في التقرب إلى الله؟.

"القول الرابع: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي: إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم، وتصلوا أرحامكم".

يعني هنا تأمل هذا القول: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} يعني في قرابتكم، يأمر بالصلة، يقول: أنا ما أسألكم عليه من أجر، لكن صلوا أرحامكم، وهذا بعيد، خلاف السياق.

"ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم، وعليه أيضاً فلا إشكال؛ لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجرًا على التبليغ".

وهو أيضًا منقول عن غيره، منقول عن الحسن بن الفضل.

"فقد علمت الصحيح في تفسير الآية، وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} منسوخ بقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سبأ:٤٧] فهو ضعيف، والعلم عند الله -تعالى-. انتهى منه.

وقد علمتَ مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية.

مع أن كثيرًا من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} إلا أن تودوني في أهل قرابتي، وممن ظن ذلك محمد السجاد"

محمد بن طلحة بن عبيد الله، كان عابدًا، فكان خرج برًّا بأبيه، ولقب بالسجاد لكثرة عبادته، فكان يحمل الراية يوم الجمل، وإذا حمل عليه أحد من جيش علي -رضي الله عنه- قال: أذكِّرك "حم"، اذكرْ "حم"، بعضهم قال: يقصد هذه الآية: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} يعني له قرابة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: لا يصل إليّ منك أذى.

وبعضهم يقول غير هذا.

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ *** فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

يعني هذا الذي قتله قال هذا الكلام، قُتل طبعًا.

"حيث قال لقاتله يوم الجمل: أذكرك "حم" يعني سورة " الشورى" هذه، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيلزم حفظه فيهم؛ لأن الله -تعالى- قال في "حم" هذه: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} فهو يريد المعنى المذكور، يظنه هو المراد بالآية، ولذا قال قاتله في ذلك:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ *** فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

والتحقيق -إن شاء الله- أن معنى الآية هو القول الأول: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي: إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها، فتكفوا عني آذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما هو شأن أهل القرابات"[٩].

وقوله: {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} أي: ومن يعمل حسنة.

{نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} أي: أجراً وثواباً.

أصل الاقتراف هو الكسب: {يَقْتَرِفْ حَسَنَةً} يعمل، يكسب.

كقوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٤٠].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} أي: لو افتريت عليه كذبًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون.

{يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} أي: لَطَبَعَ على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن؛ كقوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٤-٤٧] أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

يعني: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} "أم" هذه منقطعة، بمعنى "بل" و"الهمزة" بل أيقولون: {افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}؟ وهذا الإنكار للتوبيخ، يعني اختلق كذبًا.

قال: {فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} قال: أي: يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، هذا الذي قال به كثير من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، يعني: {فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} يسلبك الوحي، وهذا القرآن.

وهذا أحد المعاني المذكورة في الآية.

بعضهم يقول: لو افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لشاء الله عدم صدور هذا الكذب، والافتراء عليه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر على باله شيء من ذلك، كما تزعمون.

أو يسلبك ما أنزل عليك، كما يقوله ابن كثير هنا، ويقوله قبله ابن جرير -رحمه الله.

وذهب بعض السلف إلى أن المقصود بذلك غير هذا تماماً: {فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} أي: يربط على قلبك فيصبرك على آذاهم، ويقويك على ذلك، حتى لا يدخل في قلبك مشقة من هذه الاتهامات التي يوجهونها إليك، وما إلى ذلك.

وبعضهم ذكر أقوالاً بعيدة، لا تخلو من إشكال، يعني بعضهم يقول: هذا الخطاب موجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- في صورته الظاهرة، ولكن المراد به الكفار، أن الله يختم على قلوبهم، ويعاجلهم بالعقوبة، وهذا بعيد.

وبعضهم يقول: المراد أنه لو حدثتك نفسك بهذا -يعني بالافتراء على الله -عز وجل- لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الله -عز وجل- بالافتراء عليه إلا من ختم وطبع على قلبه، هذا لا يصدر من قلب سليم.

---

٩ - انظر: أضواء البيان (٧/ ٦٩-٧٢).

والمشهور الذي عليه عامة أهل العلم هو الذي ذكره ابن كثير: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** يعني يسلبك ما أنزل عليك، يسلبك هذا القرآن، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

{وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ} فهذا استئناف مقرر لما قبله من نفي الافتراء؛ لأن الله -عز وجل- يمحو الباطل، ويزيله، فلا يبقى له أثر، وليس لهذه الدعوى من أن هذا القرآن مفترى، ليس لها سبيل إليه، وسنته -تبارك وتعالى- التي لا تتبدل ولا تتغير هي محو الباطل وإزالته، فلا يبقى منه شيء، والله يحق الحق بكلماته.

ابن القيم -رحمه الله- تكلم على قوله: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** فيقول -رحمه الله-: "وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على آذاهم، حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله يُنسك القرآن، ويقطع عنك الوحي.

وهذا القول دون الأول لوجوه..".

دون الأول هنا ما يقصد أضعف من الأول، هو يقصد أقرب، "دونه" يعني أقرب من القول الأول، هو يرجح الذي ذكره ابن كثير وابن جرير، دون الأول يعني أقرب إلى الصواب، وذكر عشرة أوجه في ترجيح هذا القول، فهذه وجوه الترجيح لا تجدها في كتاب من كتب التفسير بهذه الطريقة وهي:

"أحدها: أن هذا خرج جوابًا لهم، وتكذيبًا لقولهم".

يعني ليس المقصود به هنا: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** بمعنى أنه يثبتك، ويربط على قلبك بالصبر، لا، هو يقول: يرد عليهم.

"الوجه الثاني: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم".

يعني قد يصبر المبطل.

"فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

الثالث: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له: ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب، ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن".

يعني أن التصبير لا يقال له: طبع على القلب وختم.

الرابع: أنه سبحانه حيث يحكى أقوالهم: إنه افتراه، لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه".

{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} [الحاقة:٤٤-٤٥].

"الخامس: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

السادس: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما، لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم، فمن أين يُعلم أنه أراد ذلك ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى، فيُحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه، ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ} [يونس:١٦] وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الإسراء:٨٦]، وقوله: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ} [النساء:١٣٣]".

يعني ليس لإثبات الصبر، وإنما لرفع ما أنزله عليه وإزالته.

"التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد، ويسلبه صبره.

العاشر: أن الختم هو شدُّ القلب، حتى لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والتقصد، والنبي –صلى الله عليه و سلم– كان يعلم قول أعدائه: أنه افترى القرآن، ويشعر به"[١٠].

يعني من ختم على قلبه فإنه لا يفقه.

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى:٢٥-٢٨].

يقول تعالى ممتنًّا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح، ويستر ويغفر، كقوله: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠].

وقد ثبت في صحيح مسلم –رحمة الله عليه– عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك – أخطأ من شدة الفرح))[١١]، وقد ثبت أيضا في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[١٢].

وعن الزهري في قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} أن أبا هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه))[١٣].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} الآية.

وقوله: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي.

---

١٠ – انظر: التبيان في أقسام القرآن، ص (١٨٥-١٩٠).

١١ – رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧).

١٢ – رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم(٢٧٤٤).

١٣ – رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، رقم (١٨٤٧٨).

{وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}** في قراءة حمزة والكسائي وحفص: "تفعلون".

وفي قراءة الباقين بـــ"الياء": **{وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ}.**

والمعنى متقارب، إما على الخطاب، وإما على الخبر، "ويعلم ما تفعلون"، "ويعلم ما يفعلون".

وقوله: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال السدي: يعني يستجيب لهم.

وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم لأنفسهم، ولأصحابهم، وإخوانهم.

{وَيَسْتَجِيبُ} من المستجيب؟

الله، فيكون **{الَّذِينَ}** الاسم الموصول في محل نصب على أنه مفعول به، الله يستجيب الذين آمنوا.

هنا تأمل ما ذكر، قال: "أي يستجيب دعاءهم، يعني ليس المستجيب هم الذين آمنوا، فيكون فاعلاً، يستجيب المؤمنون لربهم -تبارك وتعالى-، لا، هنا ما مشى عليه، واختاره ابن جرير، ونسبه إلى هؤلاء من السلف أنه يكون منصوبًا، يعني "الذين آمنوا" مفعول به، يعني الله يستجيب دعاءهم، يعطيهم ما طلبوا، ما سألوا، وما إلى ذلك.

وهكذا من فسره بأنه يقبل عبادتهم، يستجيب الذين آمنوا، الله يستجيب الذين آمنوا، يعني يستجيب دعاءهم أو يقبل طاعتهم، أو يستجيب لهم، إذا فسر بالدعاء.

ويقولون مثل: **{وَإِذَا كَالُوهُمْ}** [المطففين:٣] يعني: كالوا لهم: **{أَو وَّزَنُوهُمْ}** أو وزنوا لهم، قالوا: هكذا التقدير، فحذفت "اللام"، مع أن بعض أهل العلم يقول: إن الاسم الموصول "الذين" في محل رفع فاعل، يعني أن المستجيبين من هم؟

{الَّذِينَ آمَنُوا} يستجيبون لله -تبارك وتعالى-، وللرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}** [الأنفال:٢٤].

فهنا يقول: **{وَيَسْتَجِيبُ}** يخبر عنهم أنهم أهل استجابة لِمَا دعاهم إليه **{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** خبر عنهم باستجابتهم لدعاء الله -عز وجل- لهم إلى الإيمان، وقبولهم عن الله، وما لهم من الإذعان.

ولكن الذي عليه عامة المفسرين الأول: أن الله هو المستجيب **{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** بقرينة أنه قال بعده: **{وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ}** يعني يستجيب، يقبل أعمالهم، يقبل طاعتهم، أو يقبل دعاءهم **{وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ}.**

{وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك، وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال: يشفعون في إخوانهم {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} قال: يشفعون في إخوان إخوانهم.

يعني هنا في قوله عن النخعي: **{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** قال: يشفعون في إخوانهم، يعني أن الله يقبل شفاعتهم، هذا على المعنى الأول أيضًا.

وقوله: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين، وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم، يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ} أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشرًا وبطرًا.

كما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [العلق:٦-٧].

وقوله تعالى: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيُغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [الروم:٤٩].

وقوله -جل جلاله-: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر، وتلك الناحية.

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحط المطر وقنط الناس، فقال عمر -رضي الله عنه-: مطرتم، ثم قرأ: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}.

{وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

قوله: {يُنزِلُ الْغَيْثَ} قال: من بعد إياس الناس من نزول المطر، قال: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} يعم بها الوجود.

{الْغَيْثَ} ليس هو مجرد المطر، وإنما المطر الذي ينتفع به، فيخرج به النبات.

وأما المطر فقد ينزل ولا يخرج منه النبات، وقد يهدم البيوت، ويحصل للناس فيه الضرر، إنما الذي ينفع هو الغيث، ونحن كما نشاهد العام الذي ينزل فيه المطر، والعام الذي لا ينزل فيه المطر سواء؛ بسبب ذنوبنا، والأرض مجدبة قاحلة، بل أعجب الأشياء أن المطر ينزل والغبار يثور في نفس الوقت، يعني المعروف أن الغبار يذهب ويتلاشى إذا نزل المطر، وأما أن ينزل المطر والغبار في وقت واحد فهذا من أعجب الأشياء، وهذا كله بسبب ذنوبنا، والمنكرات التي ظهرت، ومنع الزكاة، وما إلى ذلك، فليست العبرة بنزول المطر، وإنما بنزول الغيث، فقد ينزل المطر الكثير، ولا يحصل منه أدنى نفع، أو نبات، وكأنه لم ينزل، السنة المجدبة التي لم ينزل فيها المطر سواء مع التي نزل فيها المطر، فهذه عبرة وعظة وآية، والعامة عندهم تاريخ من تواريخ العوام المعروفة المشهورة عندنا جدًّا، يؤرخون بها، عندهم سنة يقال لها سنة: الدِّمْنَة، هذه كانت لربما قبل نحو أكثر من خمسين سنة، ولربما ستين إلى سبعين سنة، تلك السنة نزل فيها مطر خفيف جدًّا جدًّا، بحيث إن الدِّمْنَة وهي واحدة الدِّمْن، معروف، وهو -أعزكم الله- الواحدة من فضلات الغنم، معروف صغير، يعني يكون بقدر رأس الخنصر.

فهذه الدِّمْنَة واحدة الدِّمْن، فهذه بحيث إنك إذا رفعتها تجد ما تحتها جافًا، يعني ما وصل إليه المطر.

يعني المطر ينزل أحيانًا ويصل إلى ذراع في الأرض، وأكثر، وأكثر، وإنما هذا لا يبل ما تحت الدمنة، فظهر في تلك السنة من النبات والربيع والكمأ ما لا يقادر قدره، وكان الناس يعرفون الكمأ من رائحته بالليل،

ظاهر على الأرض، كثير، حتى حدثني بعضهم يقول: إن الناقة أحيانًا بالليل تطأ عليه فتنزلق قدمها، ظاهر، الكمأ الكبير المعروف الذي عند الناس، الأبيض الزبيدي، ظاهر على الأرض كأنه حجارة، من مطر خفيف جدًّا.

وانظر هذا العام نزلت أمطار في وقتها، في وقت الوسم، ومع ذلك كأن الأرض ما أصابها أدنى مطر، فهذا لا يقال له: غيث، هذا يقال له: مطر، فالغيث ما يحصل به النفع، ويخرج به النبات، ولهذا نقول: اللهم أغثنا، اللهم غيثًا، ولا يقال: اللهم أمطرنا، اللهم مطرًا، والله المستعان.

هذه أعمالنا وذنوبنا -نسأل الله أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا- هؤلاء الذين يظهرون المنكرات، هؤلاء لا يجنون على أنفسهم، هم يجنون على المجتمع، على البلد، على الجميع، الناس يركبون في سفينة واحدة.

يقول: **{لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}** يقول: في قرابتي التي ليس بطن من قريش إلا ولي فيهم قرابة، يقول: هنا قال: **{فِي الْقُرْبَى}** جاء بـــ "في" فلو كان يريد معنى آخر لاستُعمل في ذلك حرفٌ آخر، عُدي بغير "في".

فإذا كان المقصود إيصال النفع لقرابته -صلى الله عليه وسلم- فماذا سيقول؟

يقول: إلا المودة للقربى، يعديه باللام، يعني الصلة الواصلة لهم، للقربى، ما يقول: في القربى.

أو يقول: إلا المودة إلى القربى، ولكنه قال "في"، وهو رد على الرافضة الذين خصوا القربى بأهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول: بمعنى الإحسان إليهم، فيقول: لو كان المقصود بهذا إيصال النفع لقرابته، الإحسان إلى قرابته، بأي نوع من الإحسان لقال: المودة إلى القربى، أو للقربى، إيصال النفع لهم، وإنما يقول: احفظوني في قرابتي، في الوشيجة التي بيني وبينكم، فلا تؤذوني فقط.

يعني مثل هذه الأشياء يذكر فيها بعضهم بعض المعاني، لكن قد لا تخلو من تكلف.

يعني: **{وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا}** [آل عمران:١٤٥] مثلاً لماذا ابتدأ بالدنيا هنا؟

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} [هود:١٥]، **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}** [الإسراء:١٨] هل هو باعتبار أن أكثر الناس يريدون العاجلة، أو باعتبار أنها قبل الآخرة؟

أكثر الناس تطلعهم للدنيا باعتبار أنه يريد شيئًا حاضرًا نقدًا يؤثره على نسيئة، لكن لا نجزم بهذا، المودة يقول: **{لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}** [الشورى:٢٣] لكن المودة في القربى، راعوا المودة، احفظوا المودة، ولهذا قالوا: احفظوني في قرابتي، على وجه التفسير، يعني منكم.

طبعًا هنا في السياق الباطل الذي لو أنه افتراه مثلاً، مع أن هنا هذه جملة مستأنفة على قول أكثر المفسرين، يعني انتهى الكلام، ثم هناك: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** [الشورى:٢٤] نقطة، يعني ليس بمتصل بما قبله: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ}** لا: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** ثم جاءت جملة جديدة: **{وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ}** فهنا من خلال السياق يمحو الله الباطل كما سنته الجارية في أن لا يبقي الباطل، والافتراء عليه -سبحانه وتعالى-، فلا يكون له بقاء، هذا من حيث السياق، ومن حيث عموم اللفظ: **{وَيَمْحُ**

اللَّهُ الْبَاطِلَ} وأنها جملة مستأنفة: يمحو الله الباطل عمومًا، كما قال الله -عز وجل-: **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء}** [الرعد:١٧].

قال: **{وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ}** [الإسراء:٨١] فظاهر اللفظ إبطال الباطل مطلقًا، لكن من خلال السياق: الباطل الذي لو قيل عليه، أو افتُري عليه، أو تقوله أحد على الله -عز وجل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشورى من الآية (٢٩) إلى الآية (٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

قال الإمام الحافظ ابن كثير -يرحمه الله- في قوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}** [الشورى:٢٩-٣١]: **يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته، وقدرته العظيمة، وسلطانه القاهر: {خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا} أي: ذرأ فيهما، أي: في السموات والأرض.**

{مِنْ دَابَّةٍ} وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض {وَهُوَ} مع هذا كله: {عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا}** لما ذكر الله السموات والأرض أعاد الضمير إليهما مثنى: **{وَمَا بَثَّ فِيهِمَا}** فهذا كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أي: في السموات وفي الأرض.**

ولا إشكال في هذا.

خلافًا لمن قال: إن الضمير المثنى هنا يرجع إلى أحدهما، وهو الأرض.

وهؤلاء كأنهم نظروا إلى أن الدواب إنما تكون في الأرض، وأن ذلك يقال لكل ما دب، كأنهم استشكلوا أن تكون الملائكة مثلاً يقال لها ذلك.

والله -تبارك وتعالى- أعاد الضمير إلى المذكورين قبله، وظاهره -وهو الذي عليه المحققون خلافًا لبعض أصحاب كتب المعاني-: أن ذلك يرجع إليهما، والله -تبارك وتعالى- قد خلق في السموات وخلق في الأرض ما أخبرنا عنه، وما لا نعلمه.

فالآية على ظاهرها، ومن ثم فلا يقال: إن هذا ثني فيه الضمير والمقصود أحد المذكورين.

هذا يرد في القرآن، ولكنه في هذا الموضع ليس كما قيل، والله أعلم.

وقد مضى بعض الأمثلة على ذلك، كقوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [الجمعة:١١].

{انفَضُّوا إِلَيْهَا} بعضهم يقول: الضمير هنا يرجع إلى أحد المذكورَيْن، وهو التجارة، باعتبار أنها هي المقصودة.

وبعضهم يقول: أعاده إليها؛ لأنها هي الأشرف، والضمير راجع إليهما معًا.

فالمقصود: هذا يقابل النوع الذي قيل فيه: إن الضمير المثنى يرجع إلى أحد المذكورين، والله أعلم.

وقوله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر:٤٥].

وفي الحديث الصحيح: ((والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب، ولا هم ولا حزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها))[١].

وروى الإمام أحمد: عن معاوية -هو ابن أبي سفيان -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته))[٢].

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عائشة قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحَزَن؛ ليكفرها))[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} بعض السلف حمل ذلك على معنى خاص، وهو الحدود، قالوا: إنها مقابل الجناية التي صدرت من العبد، ولكن هذا أيضًا لا دليل عليه، فظاهر الآية العموم، بل هي نص صريح في العموم، كما هو ظاهر: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ} فـ{مُّصِيبَةٍ} هنا نكرة في سياق الشرط، وقد سبقت بـ"من" وقد بينا أن ذلك ينقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ} أيّ مصيبة: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} وأن "الفاء" هذه الداخلة على الجواب تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، هذا الذي يسمونه بدلالة الإيماء والتنبيه، وهي تدل على التعليل: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} فكل ما يقع للإنسان من المكاره إنما هو بسبب جنايته، قال: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} وقد ذكر الواحدي: أن هذه أرجى آية في كتاب الله -عز وجل-، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- جعل ذنوب المؤمنين على صنفين: الصنف الأول: ما يجازيهم عليه بالمصائب، فهذا النوع الأول، فتكون كفارة.

والنوع الثاني: هو الذي قال فيه: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} بمعنى أنه لا يَبقى عليه ذنوب، فهي إما أن تكون مقابلة بمصائب تكفرها، يجازيهم عليهم بهذا، وإما أنه يعفو، فيقدم العبد على ربه -تبارك وتعالى- في الآخرة ليس عليه شيء، هكذا قال الواحدي، وكأنه فهم هذا من حديث جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية

---

١ - رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، رقم (٢٥٧٣) بلفظ: ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)).

٢ - رواه أحمد (١٦٨٩٩) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

٣ - رواه أحمد (٢٥٢٣٧) وقال محققو المسند: "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، رقم (١٩٩٤).

خاصة، وإن لم يذكر فيه أنها أرجى آية، ولكن جاء فيه التنويه بهذه الآية، باعتبار أنها اشتملت على هذا المعنى، ولكن الحديث لا يصح، ضعيف، وليس بالضرورة أن يكون الأمر كما قال، يعني أن الله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}** بمعنى أنه لا يعاجلكم بالعقوبة، وليس معنى ذلك: أنه لا يحاسبهم على ذلك في الآخرة، والنصوص الكثيرة الدالة على دخول طوائف من هذه الأمة النار -حديث الشفاعة، وغير أحاديث الشفاعة- تدل على هذا المعنى، أن من أهل الإيمان من يدخلون النار، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض))[٤]، إلى غير ذلك.

فليس بصحيح -والله أعلم- أن يقال: إن ذنوب أهل الإيمان إما أن تكون مقابلة بمصائب في الدنيا، فتكون مكفرة لها، وإما أن تكون من قبيل العفو، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير))[٥] هذا في عذاب القبر.

وقوله هنا: وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله -تعالى- بالحَزَن؛ ليكفرها))[٦]، هذا لا يصح، الحديث ضعيف.

وفي قوله تعالى: **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}** [النساء:٧٩].

ولما قال المؤمنون في يوم أحد: **{أَنَّى هَذَا}** [آل عمران:١٦٥]؟ أجاب الله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** فالمقصود هنا أنه بيّن أن المصائب التي تقع للناس والنكبات، أن ذلك بجناياتهم، وبسبب ما كسبت أيديهم، ولكن ليس المقصود في سياق هذه الآيات: أن الله -تبارك وتعالى- يجازيهم على ذلك في الدنيا، ويكون ذلك في الآخرة معفوًّا مغفورًا، فقد تكون الأشياء التي تحصل لهم في الدنيا لا تكافئ الجناية التي فعلوها، يعني المصيبة التي وقعت له قد تكون يسيرة بالنسبة إلى عظيم الجناية، فيبقى له في الآخرة ما يوجب العذاب إلا أن يعفو الله -عز وجل- عنه، وهكذا الأشياء التي لم يجازيهم عليها في الدنيا، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}** [فاطر:٤٥] فهم لا يحتملون، لو أن الله يؤاخذهم على كل تقصير، كل جناية، وكل ذنب لهلكوا.

{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} **[الشورى:٣٢-٣٥].**

---

٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم (٣٣١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، رقم (٢٦١٩).

٥ - رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

٦ - رواه أحمد (٢٥٢٣٧)، وقال محققو المسند: "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، رقم (١٩٩٤).

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه: تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك، أي: هي في البحر كالجبال في البر.

قوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ}** الجواري جمع جارية، وهي السفن، كما هو معلوم.

{فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} قال: كالجبال، وهذا الذي عليه الجمهور، والعرب تسمي الجبل علَمًا، والخنساء تقول في أخيها صخر:

وإنّ صَخراً لَتَأتمُّ الهُداةُ بِهِ *** كأنّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

يعني كأنه جبل في رأسه نار، هذا هو المشهور، وهذا الذي عليه عامة المفسرين.

وذهب مجاهد إلى أن المراد بقوله: **{كَالْأَعْلَامِ}** يعني القصور.

وأصل العلَم في كلام العرب هو كل ما ارتفع على الأرض، فيقال له: علم، كل شيء مرتفع عندهم يقولون له: علم، كما يقول ذلك الخليل بن أحمد.

وعلى هذا يكون قول مجاهد: القصور، باعتبار أنها مرتفعة، لارتفاعها، ولكن تفسير ذلك بالجبال هو المتبادر، وهو الأشهر، وحمل الكلام على الظاهر المتبادر الأشهر في لغة العرب هو الأولى، كما هو معروف، وقد مضى هذا مرارًا، يعني كأنها جبال.

{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ} أي: التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكّنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الشدائد.

{شَكُورٍ} أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالاتٍ على نعمه تعالى على خلقه.

{لِكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الشدائد.

{شكور} أي: في الرخاء.

هنا ذكر الصبار، وهو عظيم الصبر، كثير الصبر، والشكور وهو كثير الشكران، وذلك أن الإنسان لا يخلو من حالين: إما حال رخاء، أو حال بلاء وشدة، فهو بحاجة إلى الصبر، كما أنه بحاجة إلى الشكر.

والناس في هذا إزاء نعم الله -عز وجل- سواء في ركوبهم البحر، أو غير ذلك هم إما أن يكونوا في عافية ونعمة ورخاء، فهم بحاجة إلى الشكر، وكثير من الناس يغفل في حال النعمة، وينسى المنعم -تبارك وتعالى-، فهؤلاء لا يكون لهم آية فيما سخر الله -تبارك وتعالى- من هذه المراكب العظام التي هي كالجبال في البحر، تنقلهم من مكان إلى مكان آخر.

وكذلك أيضًا إذا كانوا في حال شدة لربما غلب عليهم اليأس والقنوط، ونسوا أفضال الله -تبارك وتعالى-، ونعمه المتوالية المتواترة عليهم، فإنما يعتبر بذلك وينتفع -سواء في هذه الآيات المذكورة، أو في غيرها- من كان جامعًا بين الصبر والشكر، فإنه يكون على حال من الاستقامة، فهو يقدر ما أعطاه الله -عز وجل- من

المنن والأفضال والنعم، وإذا سُلب منه شيء من ذلك فإنه لا يقنط ولا ييأس، ولا ينسى سوالف النعم، وإنما هو يعتبر في هذا كله، يعتبر في حال الشدة، ويعتبر في حال الرخاء.

وقوله: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا} أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرّقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} أي: من ذنوبهم، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا} أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكّن الريح فوقفت، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت.

يعني هذا معنى: **{يُوبِقْهُنَّ}** الآبق هو الشارد، العبد الآبق الذي فر من سيده.

{أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا} فهذه إذا جاءت الريح شديدة عاصفة فإنها تحولها عن مجراها، ولا تسير بحسب ما أرادها ملاحوها، أو راكبوها.

ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرًا جدًّا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سَيْحًا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

هنا: **{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ}**، **{يُسْكِنِ}** هذا جواب الشرط مجزوم.

{فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ} يعني هذه الحالة الثانية: **{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ}** تبقى واقفة لا تتحرك، أو تكون الريح عاصفة، فتذهب على غير مرادهم: **{أَوْ يُوبِقْهُنَّ}** فهذا معطوف على قوله: **{يُسْكِنِ}**.

{ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} هذا تكلموا فيه كثيرًا في إعرابه، يعني: **{وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ}** هل هذا معطوف أيضًا على: **{يُسْكِنِ}**، **{أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا}**؛ لأنه لو حصل ذلك لما كان ذلك من قبيل المعفو.

وإذا علم أن المراد بذلك التقسيم زال الإشكال، فالله –تبارك وتعالى– يذكر هذه الأحوال، فالله –تبارك وتعالى– إما أن يعاقبهم، فتسكن الريح، فلا تسير بهم هذه السفن، أو تكون الريح عاصفة، فتجري هذه السفن على غير مرادهم، أو أن الله يتجاوز ويعفو، فلا يحصل شيء من ذلك، فهذا ذكر في سياق التقسيم .

{فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} **[الشورى:٣٦-٣٩].**

يقول تعالى محقرًا لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة.

{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى} أي: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باقٍ سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي؛ ولهذا قال: {لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا.

{وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات.

وهذا من أعظم الآيات التي تحمل على الزهد في الحياة الدنيا، وتبصر المؤمن بحقيقة ما يحصل له منها، من هذا الحطام والملاذ، أيًّا كان نوعها، فإن هذه الآية عامة: **{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** يعني أنه زائل مضمحل، لا بقاء له: **{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** فيؤثر الباقي على الفاني، فيتصدق وينفق ويبذل، ويعمل في طاعة الله -عز وجل-، ويكون الحامل له على ذلك، والدافع له هو توكله على ربه -تبارك وتعالى-، فترتفع وتتلاشى عنه المخاوف، من جراء نفقته، أو جراء عمله بطاعة ربه -جل جلاله-، فكل ما يحصل بيد الإنسان فهو داخل في هذا العموم، فلا يفرح الإنسان بشيء من هذا الحطام، ولا يغتر به، هو متاع الحياة الدنيا، عما قليل يزول، وينتهي، أو يفارقه الإنسان، هذا إذا علم أيضًا معه أن هذه الأشياء التي يعطاها الإنسان قبل أن يفارقها، أو أن تفارقه هو ما يلبث عما قليل أن يزهد فيها، وأن يذهب رونقها، ولا تصير بعد ذلك تجذبه، أو تلفت نظره، أو تستهويه، هذا شيء مشاهد، إن كان ذلك في البساتين والمناظر التي تهواها النفوس، وما فيها من الخضرة والجمال، وإن كان ذلك في الأثاث، وإن كان ذلك في المساكن، أو المراكب، هو يفرح بها في أولها، في بدايتها، تأسره وتجذبه، ثم ما يلبث إذا عافسها أن يذهب هذا الرونق، وهذا اعتبِرْه في كل شيء، يعني الإنسان الذي لم يُعطَ من الدنيا ما يستطيع أن يجرب معه، أو يحكم بمثل هذا، يمكن أن يجرب هذا في أي شيء يسير يستهويه، مزهرية جميلة، تحفة جميلة، أسَرَتْه حتى اشتراها، فإذا وضعها في البيت، فهو يرمقها بين حين وآخر، تستهويه وتعجبه، لكن بعد مدة لا تكون هذه إطلاقًا، كأنها غير موجودة، قد تكون لوحة جميلة، قد يكون فيها كتابات، فهو لا يقرؤها أبدًا، وكأنها ليست موجودة أصلاً، هذا مثال بسيط، كل شيء، ما يعطاه الناس هو هكذا، الذين يسكنون في أعظم القصور هي ما تستهويهم بعد ذلك، هي في البداية فقط، فالذين يدخلون ينبهرون، وتطيش أبصارهم هنا وهناك، ويرون أشياء مبهرة، ولكن هي بالنسبة لأهلها لا تؤثر فيهم أبدًا، اعتبرْ هذا في مكان عملك، في أي مكان، الذي يدخل لأول وهلة ينظر إلى هذا المبنى الكبير، ولكنه بعد ذلك ما صار يؤثر فيه، وهكذا، أنت الآن في هذا المسجد أول مرة تدخل لربما تنظر، ويلفت نظرك أشياء، ولكن بعد أن ألفتَ ذلك ما صرت تستهوي النظر إليها.

ثم قال: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في "سورة الأعراف" {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}.

هنا: **{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}.**

{كَبَائِرَ الْإِثْمِ} يعني الذنوب الكبار.

وقد مضى الكلام على ضابط الكبيرة، فمن أهل العلم من يقول: ما ورد فيها وعيد خاص، أو لعن، أو حد، وما إلى ذلك.

وبعضهم يوسع في دائرتها، فيقول: هي كل ما كان عظيمًا كبيرًا، ليس من قبيل الصغائر في نظر أهل الإيمان، يعني كل ما استعظموه، كل ما كان عظيمًا، ليس من قبيل الصغائر، فهو من الكبائر.

ولم يرد تحديد للكبائر بنص في الكتاب ولا في السنة، وإنما العلماء اجتهدوا في ذلك، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في "أضواء البيان" في هذا الموضع ذكر أقوال العلماء في تحديد الكبيرة، وذكر تطبيقات وأمثلة على الكبائر، من خلال النصوص، ذكر تطبيقات يعني تارة يطلق عليه أنه فاحشة، فجاء بنصوص من هذا القبيل: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٨٠].

وتارة يصفه الله -عز وجل- بأنه عظيم، أو بأنه كبر، أو نحو ذلك: {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً} [النساء:٢٢].

{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [الإسراء:٣٢].

وكذا ما ورد فيه اللعن، إلى غير ذلك، فيراجع كلامه -رحمه الله-، وقد أطال في الكلام على هذه القضية وتطبيقاتها، وأقوال العلماء فيها.

وهنا في هذه الآية، ذكر الفواحش: {كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} الكبائر هي الذنوب العظام، خلاف الصغائر {وَالْفَوَاحِشَ} هي من الكبائر، فهنا عطفها عليها، والعطف يقتضي المغايرة، ومن هنا قال بعض السلف: إن ذلك ما يوجب الحد خاصة {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ} يعني الكبائر {وَالْفَوَاحِشَ} موجبات الحدود، كما يقوله مقاتل.

وبعضهم خص ذلك بنوع مما يوجب الحدود، وهو الزنا، وهذا باعتبار -والله أعلم- أن الفاحشة تطلق في عرف الاستعمال غالبًا على الزنا، وما في معناه: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}

وبعضهم يقول -كما بينت هذا في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [الأحزاب:٣٠]-: إن الفاحشة إذا جاءت معرفة بـــ"أل" فهي الزنا، أو ما في معناه.

وإذا جاءت منكّرة فالمقصود بها الذنب العظيم، وإذا جاءت مقيدة بالبيان فهي عقوق الزوج خاصة: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} لكن هذا لا دليل عليه، فأصل الفاحشة في اللغة هي الخصلة المتناهية في القبح، ويقال ذلك للشيء الكثير العظيم، يقال: "هذا مال فاحش، ودم فاحش، وقول فاحش، وفعل فاحش".

فالخصلة المتناهية في القبح يقال لها: "فاحشة" وهنا: {يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}، فالفواحش هنا هي من جملة الكبائر، لكنها أخص منها، فهي نوع من الكبائر، يمكن أن يقال: إن ذلك: "الزنا" وما في معناه.

ويمكن أن يقال: إن كل ما كان مستقبحًا، مستكرهًا، مستبشعًا يقال له: "فاحشة" يعني كبيرة، وبالإضافة إلى ذلك فهي غاية في القبح.

قوله: {كَبَائِرَ الْإِثْمِ} بينا -سابقا- أنه يطلق إزاء معنيين، يطلق على العمل نفسه، يقال: هذا إثم، يعني المعاصي يقال لها: آثام، ويطلق على نتيجة ذلك، يعني ما يترتب على المعصية، فتقول: من فعل كذا فهو آثم، يأثم عليه، إثم.

{الْإِثْمِ} هذا هو الجزاء، فيقال لهذا وهذا.

وذكرنا في مناسبات سابقة: أن العرب قد تطلقه على نوع خاص من الجرائم، أو من الآثام، أو من المعاصي، وهو الخمر، وذكرنا شاهدًا على هذا من قبل، وهو قول الشاعر:

شربْتُ الإثمَ حَتَّى ضلَّ عقلِي *** كذاكَ الإثمُ تَذْهبُ بالعقولِ

يقصد الخمر، باعتبار أنها أم الآثام، أصل الآثام، كانت العرب تسميها: إثمًا، وهي تشربها!.

{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} أي: سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٧].

تأمل هنا: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} يعني ذكر هنا الجانبيْن اللذين يحصل بهما الإقدام على المعصية:

الأول: وهو القوة الغضبية، فبها يحصل القتل، وإلحاق الأذى بالآخرين، والعدوان، وما إلى ذلك، بهذه القوة الغضبية، فهي باب من أبواب المعصية، والجرأة على حدود الله -تبارك وتعالى.

الجانب الثاني: وهو القوة الشهوانية، فذكر هنا: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} فهم إزاء هذه الشهوة يضبطونها، وليست هي التي تقودهم، وأيضًا فيما يتصل بالغضب يكون هؤلاء هم الذين يتحكمون في مشاعرهم وتصرفاتهم، فلا يصدر منهم إلا ما يجمل وما يليق.

وهنا ذكر الغضب، يعني: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} لأنه كما قيل:

ليست الأحلامُ في حالِ الرِّضا *** إنّما الأحلامُ في حالِ الغضبْ

هو ذكر حالة الغضب، هي التي تستدعي هنا الثناء والمدح، إذا حصل معه الغفر والعفو، مع تحرك الدواعي في نفس الإنسان للانتقام.

{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} لا يغفر في حال هدوء النفس، وسكون المشاعر، فهذا أمر متوقع، لكن حينما يكون ذلك مع قوة الغضب، وما يؤثره في دفع الإنسان للانتقام فهذا هو الكمال، فذكر هذين الأمرين اللذين تحصل بهما العدالة، وتتحقق بهما الاستقامة، وبهذا تقوم المروءات، ويكون الإنسان على حالة مرضية، فلا تقوده الشهوات، ولا يكون أيضًا في حال من الغضب، والإنسان يحصل له السكر إما بهذا وإما بهذا، يعني الغشاوة التي تحصل على العقل وتغطيه، وتذهب بمبادئه، والمفاهيم التي كان يقررها أو تعلمها، أو تربى عليها، هذا الغضب يكون على العقل مثل الغطاء، فيتصرف تصرفات ثم يندم، وهكذا إذا تحركت الشهوة واضطرمت، فإنه يكون على العقل مثل الغطاء، فإذا قضى نهمته ندم، فهؤلاء تحركهم هذه النوازع، وإنما

٧- جزء من حديث رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٣٥٦٠)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته -صلى الله عليه وسلم- للآثام، رقم (٢٣٢٧) بلفظ: ((... وما انتقم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها)).

ذلك يكون لضعف الوازع في قلب الإنسان، وازع الدين، وكذلك أيضًا ضعف العقل، فإن كمال العقل يقتضي أن يزمّ الإنسان نفسه في الحالتين، حالة الغضب، وحالة الشهوة.

وقوله: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره.

{وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} وهي أعظم العبادات لله -عز وجل.

{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} تأمل هذه من جملة الاستجابة، لكنه خصها لأهميتها، فهذا من عطف الخاص على العام، بمنزلة الصلاة في مكانتها.

{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} أي: لا يبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} [آل عمران:١٥٩].

ولهذا كان -عليه الصلاة السلام-، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم.

وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهم أجمعين-، فاجتمع رأي الصحابة كلهم -رضي الله عنهم- على تقديم عثمان عليهم -رضي الله عنهم.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم، واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف -عليه السلام- لإخوته: {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف:٩٢]. مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ -عليه السلام-، وهو في يده صَلْتًا، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره، وأمر هذا الرجل، وعفا عنه(٨).

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًّا، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

تأمل هنا: أن الله قال قبل ذلك: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} وندب إلى الغفر والعفو في مواضع، كما هو معلوم: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت:٣٤]، {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:١٠٩]، {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [آل عمران:١٣٤] وما أشبه ذلك.

ففي جميع المواضع تجد الحث على العفو، ومدح العافين.

في هذا الموضع الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}، {أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ} والبغي هو العدوان {هُمْ يَنتَصِرُونَ} فما محل ذلك؟

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، رقم (٢٩١٠)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توكله على الله -تعالى- وعصمة الله -تعالى- له من الناس، رقم (٨٤٣) بمعناه.

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسره بقوله: أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم، واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين، ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا.

هذا كلام ابن كثير، يعني أنه لا منافاة بين كونهم يغفرون ويعفون، مع كونهم ينتصرون: **{إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ}**.

يعني أن عفوهم ليس عن ضعف ومهانة، وعجز عن المؤاخذة، وإنما ذلك لكمالاتهم، فهم قادرون على الانتقام، ومع ذلك يعفون.

وبمثل هذا فسره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بأن عندهم قدرة على الانتصار، فيهم قوة الانتصار والتمكن من ذلك، لكن إذا قدروا وتمكنوا عفوا، فيكون ذلك العفو هو الكمال.

وهنا تأمل بعده قال: **{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}** فحث على العفو، ورغب فيه، مع قوله: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** فهؤلاء مدحهم الله -عز وجل- بأنهم أهل تمكن واقتدار ممن بغى عليهم، ولكنهم إذا تمكنوا فإنهم يغفرون ويصفحون ويعفون، ندبَهم إلى العفو في الآية التي بعدها، هكذا قال ابن القيم، وكذلك ابن كثير -رحم الله الجميع.

ويمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- وقد قال بهذا بعض أهل العلم: إن العفو هو المرغب فيه، وهو الكمال، إلا أنه في بعض المقامات يكون الانتصار هو الأكمل، وذلك إذا كان العفو يورثه مذلة ومهانة، وهذه قضية تختلط فيها حظوظ النفس، لكن إذا كان ذلك حقيقة يورثه مذلة ومهانة ففي هذه الحال يقال: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** يعني مثل ماذا؟

الآن لو نظرنا إلى الحال الجارية في سوريا -نسأل الله أن ينصرهم- لو جاء أحد، وقال: عفا الله عما سلف، والعفو والصفح، وما إلى ذلك، هذا مقام عفو، ومقام صفح؟

هذا مقام: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** ليس هذا مقام عفو وصفح لهؤلاء الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.

وهكذا قد يكون الإنسان أجيرًا عند أحد من الناس، لا يرقب فيه إلًّا ولا ذمة، يسخر من دينه، ومن مذهبه، ومن صلاته ومن هيئته، ومن نسبه، ومن بلده، وما إلى ذلك، فهنا العفو قد يورثه مزيدًا من المذلة والمهانة مع هذا الذي لا يرقب فيه إلًّا ولا ذمة، فهذا مقام: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}**.

ولا أقصد أنه ينتصر بيده، وإنما يقاضي هذا الإنسان، وينتصف منه، فلو جاءه إنسان وقال له: **{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}** [آل عمران:١٣٤] إذا كان يورثه مهانة ومذلة فليس هذا مقام عفو، يمكن أن يقال: إن ذلك بهذا القيد: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ}** حيث كان العفو يورثه مذلة ومهانة، فالمؤمن لا يكون ذليلاً، فعند ذلك يكون الانتصار هو الكمال، والله أعلم.

ابن القيم له كلام في هذا، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}**".

طبعًا بعضهم حملها على الكفار، يعني: **{إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** والآية ليس فيها ما يدل على التخصيص.

قال: "فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو، قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا".

انظر وتأمل هذا التفسير يجري على كلام ابن كثير وابن القيم.

قال: "فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: **{فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}** [النساء:١٤٩].

{وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة:٧٤].

وفي أثر معروف: "حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك".

ولهذا قال المسيح -صلوات الله وسلامه عليه-: **{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [المائدة:١١٨] أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة، وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام، وجهله بحقيقة ما صدر عن المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل، وباطنه عز ومهابة، والانتقام ظاهره عز، وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزًّا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لنفسه قط".

ليس هذا بلازم: أنه ما انتقم أحد إلا ذل، ولهذا شرع القصاص، ولا يكون ذلك مورثًا للمذلة حينما يقتص الإنسان ممن جنى عليه، ولكن مرتبة العفو أعلى.

يقول: "وتأمل قوله -سبحانه-: **{هُمْ يَنتَصِرُونَ}** كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولمّا كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا..".

يعني أنه قال: **{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** يعني يكون ذلك بالمثل.

هذا الجواب يرد عليه إشكال يعني الذي ذكره ابن كثير وابن القيم أن هذا الذي حصلت له القدرة ثم عفا أنه فسر هذا بقوله: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** هذا الذي عفا هل يكون قد انتصر فعلاً، قد يقال: إنه لم ينتصر، عفا، لم ينتصر، لكنه عفا عن قدرة، لكن في المآل هو عفا، ما انتصر لنفسه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- عفا عن غورث بن الحارث، سقط السيف من يده، فأخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((من يمنعك مني؟))[٩].

فالحاصل: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عفا عنه، ما انتصر لنفسه، ولذلك الجواب الذي ذكرته قد يقال: أنه لا يرد عليه إشكال، وهو أن ذلك حينما يكون في مقام يكون العفو مورثًا له مذلة، فهنا يمدح الانتصار، ليس العفو دائمًا، من الناس من لا يستحق العفو، يعني هذا إنسان مستخف ومستهتر بالأسواق، أو امرأة مستخفة ومستهترة تسخر بالهيئة، وتسخر بالمحتسبين، وتتطاول عليهم، وما إلى ذلك، فرفعت عليها قضية، ثم

---

٩ - المصدر السابق.

جاءت بين يدي القاضي، فهل هنا يندب هذا المحتسب، ويقال له: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} هكذا يقال، أو هنا يقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}؟، يقال: هذا مقام ينبغي أن تؤدب فيه هذه، وأن تعرف قدرها، إنسان يتطاول يستخف ويستهتر، ويؤذي الناس، ولا يقف عند حد، ويتبجح أنه لا يستطيع أحد أن يوقفه، أو أن يحاسبه، فإذا جاء من ينتصر منه، هل نقول له: تعفو عنه، هذا مقام عفو، أو نقول: هذا مقام انتصار، وإياك أن تعفو؟.

نقول له: إياك ثم إياك أن تعفو، هذا الذي يقال في بعض المقامات، مما يحصل فيه الاستخفاف ببعض المحتسبين، والإساءة إليهم أمام الملأ، وقد يصل إلى الضرب والإهانة، والكلام القبيح الذي يوجه إليهم أمام الناس في سوق، في مكان عام، ثم يرفع قضية، ثم يقال له: تعفو وتصفح، أليس كذلك؟

لكل مقام مقال، العفو يصلح في بعض المقامات، والعقوبة تصلح في بعض المقامات.

أسارى بدر، حكم الأسارى يختلف بعض الشيء، فالأسارى الإمام مخير فيهم بين ثلاثة أمور، هو مخير فيهم فينظر، وما كان فيه التخيير كما سبق في القواعد الفقهية شرح قواعد ابن سعدي هناك قاعدة هي: إن كان التخيير لأمر يرجع إلى المكلف، فذلك للتشهي، وإن كان يرجع إلى غيره، فذلك بحسب المصلحة، مثل: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ} [المائدة:٣٣] هل هذا للتشهي بالنسبة للإمام أو بحسب المصلحة؟

بحسب المصلحة، فإذا كان يرى أن المصلحة تقتضي الصلب والقتل، فهنا هو المتعين.

وكذلك في قوله -تبارك وتعالى- في كفارة اليمين: {إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ} [المائدة: ٨٩] فهنا هل هذا يرجع إلى المكلف، فيكون للتشهي، أو يكون بحسب المصلحة، يعني بحسب الحاجة مثلاً؟، يراعى فيه ذلك، فما كان يرجع إلى المكلف فهو للتشهي، يعني يختار الأرفق به، وإن كان يرجع إلى غيره، فيكون بحسب المصلحة.

فهنا بالنسبة للأسارى يكون ذلك الإمام مخيرًا فيهم، بحسب ما يراه من المصلحة، فكانت المصلحة تقتضي في أول معركة مع المشركين: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] يعني يكثر القتل، فيكسر العدو، ثم بعد ذلك فإذا: {أَثْخَنتُمُوهُمْ} يعني قتلاً: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} [محمد:٤].

لكن لا يتسابقون على أسرهم وتقييدهم قبل الإثخان فيهم، فهذا شأن الأسرى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قَتل -يعني في غير هذا- لما جيء بالأسرى عقبة بن أبي معيط، جيء به أسيرًا، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بضرب عنقه في الصفراء، لما بلغ الصفراء مقفله من بدر أمر بضرب عنقه، فقتل، هذا لم يشمله العفو.

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [الشورى:٤٠-٤٣].

قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} كقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة:١٩٤]، {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [النحل:١٢٦].

يعني أن بعض أهل العلم يقولون: سماها سيئة وهي من باب القصاص باعتبار المشاكلة في اللفظ، يعني أنه عبر بعبارة تشاكل العبارة التي قبلها، فهذا الذي حصل من العدوان هو سيئة، فحينما يقابل ويقتص منه فهل هذا يقال له: سيئة؟

بعضهم يقول: هذا من باب المشاكلة، لما ذكر عدوانه، وسماه بهذا سيئة سمى الاقتصاص سيئة من باب المشاكلة اللفظية، والمشاكلة هي نوع من المجاز على خلاف في ذلك عند أهل المجاز.

وهذا ليس بلازم، يعني حتى على القول بالمجاز لا يلزم أن تكون هذه من قبيل المشاكلة، وذلك أن أصل كلمة: سيئة تقال لما يسوء: **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}** [النساء:٧٩] فهذا الذي يصيبه من مرض، أو يصيبه من شوكة، أو غير ذلك، من نكبة، أو نحو هذا، سماه سيئة، وذلك بأنه يسوء صاحبه، الشيء الذي يسوء الإنسان يقال له: سيئة، أيًّا كان، فبهذا الاعتبار هذا الانتقام أو الاقتصاص من هذا الجاني: **{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** [الشورى:٤٠] هذا القصاص منه، ماذا يقال له؟ ما أثره على ذلك المقتص منه؟

يسوءه، فقيل له: سيئة، بهذا الاعتبار: **{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** ولا حاجة لأن يقال: هذا من قبيل المشاكلة، لأن هذا يسوء أصلاً من وقع له، إذًا هو سيئة بالنسبة إليه.

والسياق الذي ذكرت فيه هذه الآية -كما أشار ابن القيم -رحمه الله-: أنه لما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا قال الله -عز وجل-: **{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** لا يكون الانتصار بأكثر من هذا، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}** [الإسراء:٣٣].

وذكرنا هناك أن الإسراف في القتل يكون بقتل غير القاتل، كما كانت العرب تفعل، يقولون: لا يكافئه هذا القاتل، فيقتلون شيخ القبيلة مثلاً، أو فارس القبيلة، أو يقتلون جمعًا من الناس بواحد لم يتسببوا في قتله، ولم يشتركوا فيه، فيقولون: هذا ما يكافئه واحد، أو يمثل بالقاتل مثلاً، يتشفى، فكل هذا داخل في "فلا يسرف في القتل"، كل هذه الصور الثلاث داخلة فيه.

فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو؛ كقوله تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [المائدة:٤٥].

ولهذا قال هاهنا: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} أي: لا يضيع ذلك عند الله، كما صح في الحديث: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا))[١٠].

وقوله: {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

يعني الجاني، أما هذا المقتص فإنه لا ذنب عليه، ولا سبيل عليه.

وبعضهم يقول: **{إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** يعني من يتعدى في القصاص.

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

وهذا ظاهره العموم: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى:٤٠] فيدخل في هذا كل ظالم، سواء كان المبتدئ في الجناية، أو كان المعتدي في القصاص.

ثم قال: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم.

وقوله: {إِنَّمَا السَّبِيلُ} أي: إنما الحرج والعنت.

{عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي: يبدءون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: ((المُستبّان ما قالا فعلى البادئ، ما لم يَعْتَدِ المظلوم))[١١].

{أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: شديد موجع.

قوله هنا: {وَلَمَن انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ} "اللام" هذه لام الابتداء، خلافًا لمن قال: إنها للقسم، كما يقوله ابن عطية.

{وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ} أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم، ليس عليهم مؤاخذة، ولا ذنب.

{إِنَّمَا السَّبِيلُ} أي: إنما الحرج والعنت: {عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.

{يَظْلِمُونَ النَّاسَ} يقول: يبدءون الناس بالظلم.

والذي عليه عامة المفسرين: {الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} يعني في تعاطيهم وتعاملهم، وما يأتون وما يذرون، في النفوس والأموال، بغير الحق.

وعن محمد بن واسع قال: قدمت مكة، فإذا على الخندق قنطرة، فأُخذت فانطُلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله، قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي، قال: ومن أخو بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقًا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد: فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ} فقال مروان: صدق والله ونصح، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي، قال: نعم"[١٢]، رواه ابن أبي حاتم.

ثم إن الله -تعالى- لما ذم الظلم وأهله، وشرع القصاص، قال نادبًا إلى العفو والصفح: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ} أي: صبر على الأذى وستر السيئة: {إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}.

قال سعيد بن جبير: يعني لَمِن حقِّ الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

{لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} يعني من الأمور التي يعزم عليها، لفضلها، وعلو مرتبتها، لكونها من محابِّ الله -عز وجل-، وما لها من الآثار الجميلة في الدنيا والآخرة.

---

١١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب، رقم (٢٥٨٧).

١٢ - رواه ابن أبي حاتم، (٣٢٧٩/١٠) رقم (١٨٤٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف، رقم (٣٥٧٢٥).

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [لقمان:١٧] فهكذا تورث مثل هذه الخصال آثارًا حميدة في الدنيا والآخرة، فهي مما يعزم، من الأمور التي يعزم عليها، يعني تستحق أن يتوجه إليها العزم، وتتوجه الهمم في تحصيلها وتطلبها.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى:٤٤-٤٦].

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، كما قال: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف:١٧].

ثم قال -عز وجل- مخبرًا عن الظالمين، وهم المشركون بالله: {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا: {يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام:٢٧-٢٨].

وقوله -عز وجل-: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} أي: على النار.

{خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله -تعالى.

{يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مُسَارَقَةً خوفًا منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم -أجارنا الله من ذلك.

نظر المسارقة: {مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} مثل الذي يُعرض على السيف، فهو ينظر إليه من طرف خفي، ينظر إليه مسارقة.

{وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: يقولون يوم القيامة.

{إِنَّ الْخَاسِرِينَ} أي: الخسار الأكبر.

{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: ذُهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هو متضمن لجواب سؤال: أن هؤلاء الأهل قد يكونون في الجنة، وهو في النار، فقد لا يكون هؤلاء في النار، فإذا كانوا في النار فلا شك أنه قد خسرهم؛ لأنه مشغول بالعذاب عن كل أحد، فهنا قد يكون هؤلاء في الجنة.

وهذا الجواب الذي ذكره الحافظ ابن كثير، أو هذا التفسير هو مضمن للجواب، أن هذا الذي دخل النار فُرق بينه وبين أهله، فهو لا يلقاهم إلى الأبد، وصار مشغولاً بجزائه وعذابه وحسابه {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يعني هو في عذاب، وفرق بينه وبين الأحباب، فبقي يواجه هذا المصير وحده.

وهذا الجواب واضح: {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ} ولا حاجة لأن يقال -كما قال بعض المفسرين-: {خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ} أهليهم: يعني من الحور العين لو أنهم دخلوا الجنة، ففاتهم ذلك، بسبب كفرهم،

فكانوا خاسرين لأنفسهم، وخاسرين لأهلهم، بهذا الاعتبار، لا حاجة إليه، لكن هؤلاء الأهل حتى لو دخلوا الجنة، فهذا قد خسر كل شيء، فرق بينه وبينهم.

{أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

يعني هذه الجملة: **{أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ}** يحتمل أن تكون من بقية كلام المؤمنين: **{وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ}** فيكون من بقية كلامهم: **{أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ}** وهذا هو الأصل أن يكون الكلام على نسق واحد، من قائل واحد.

ويحتمل أن يكون ذلك من قبيل الموصول لفظًا، المفصول معنى، فيكون من كلام الله –تبارك وتعالى.

وقوله: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} أي: ليس له خلاص.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الزخرف:١-٨].

يقول تعالى: {حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس.

نعم هو كتاب مبين، سماه كتابًا كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [سورة البقرة:٢]، بعض أهل العلم يقولون: فيه إشارة إلى ما يصير إليه أمر هذا القرآن من الكتابة، وذكرنا هناك أن هذا يدل عند بعض أهل العلم على أن كتابة القرآن لم تكن من المصالح المرسلة لمّا كتب في صحف في عهد أبي بكر وجمع في عهد عثمان، والمشهور من كلام أهل العلم أنهم يقولون: هذا من المصالح المرسلة، يعني ما كتب في مصاحف ولا في صحف في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاقتضت الحاجة إلى كتابته في عهد هؤلاء الخلفاء -رضي الله عنهم-، وكان ذلك من قبيل المصلحة المرسلة، يعني التي لم يرد فيها نص، ومن نظر إلى هذه الألفاظ **{ذَلِكَ الْكِتَابُ}** وهنا: **{وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}** سماه كتابًا قالوا: فيه إشارة إلى ما يصير إليه أمره، فقالوا: كتابة القرآن في مصاحف أو جعله في كتاب هذا دل عليه القرآن، فليس من قبيل المصلحة المرسلة؛ لأن المصلحة المرسلة لم يرد فيها دليل خاص.

ولهذا قال: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ} أي: أنزلناه {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي: بلغة العرب فصيحًا واضحًا، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [سورة الشعراء:١٩٥].

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}** قال: **أي أنزلناه**، هذا قال به بعض السلف فسر الجعل بالإنزال كما يقول السدي، وبعضهم يقول: **{إِنَّا جَعَلْنَاهُ}** يعني سميناه ووصفناه، ويقولون: لهذا تعدى بعده إلى مفعولين، **{جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا}** هذا الأول، **{عَرَبِيًّا}** هذا الثاني، وبعضهم يقول: **{إِنَّا جَعَلْنَاهُ}** يعني قلناه كما يقول مجاهد -رحمه الله-، وبعضهم يقول: بيناه كما يقول الثوري، كل هذا باعتبار تفسير الجعل، جعل تأتي بمعنى خلق كما قال الله -عز وجل-: **{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}** [سورة فاطر:١]، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [سورة الأنعام:١]، **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}** [سورة النحل:٧٢] فهذا بمعنى خلق، ما ذكره ابن كثير **{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}**: يمكن أن يكون بمعنى أنزلناه، أو قلناه، أو نحو ذلك من العبارات التي قالها السلف، وليس معناه خلق، فإن جعل تأتي بمعنى خلق، وتأتي بمعنى صيّر، وتأتي بمعنى قال، أو حكم، أو نحو ذلك، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- بعض أنواع هذا الاستعمال، يعني **{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا}** [سورة الزخرف:١٩] فجعل تأتي لمعانٍ، ولهذا

يقال في تعريف التوحيد: مصدر وحّد يوحد توحيدًا فهو موحِّد، يقال: وهو من النسبة لا من الجعل، يعني أن الموحِّد ليس هو الذي جعل الله واحدًا، فالله واحد وحدّه الناس أو لم يوحدوه، ولكن أنت تنسبه إلى الوحدانية فقط.

وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: {وَإِنَّهُ} أي: القرآن {فِي أُمِّ الْكِتَابِ} أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد.

أم الكتاب يعني اللوح المحفوظ، أم الكتاب يعني أصل الكتاب، فأم الشيء أصله كما سبق في أم القرى، ويقال للراية التي يسير خلفها الجيش: أم، وهذا معناه معروف سبق الكلام عليه، فأصل كل شيء أمه، يعني أن القرآن موجود مكتوب في اللوح المحفوظ، {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} إنه في أم الكتاب: يعني القرآن في أم الكتاب في اللوح المحفوظ.

{لَدَيْنَا} أي: عندنا، قاله قتادة وغيره.

هنا {لَدَيْنَا} يحتمل أنه متعلق بأم الكتاب {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}، أي أنه في الكتاب الذي عندنا {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}، أم الكتاب لدينا، ما الذي لدينا؟ أم الكتاب، {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا} يعني الذي لدينا، فيكون "لدينا" متعلقًا بأم الكتاب، {وَإِنَّهُ} أي: القرآن {فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}، أم الكتاب لدينا، حتى تفهم المعنى أو تتصور: أم الكتاب التي عندنا، أو الذي لدينا، الذي عندنا، وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس –رضي الله عنهما–، ويحتمل أنه من صلة الخبر، أي: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} وإنه أي: القرآن في أم الكتاب لدينا تكون متصلة بالتي بعدها {لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، يعني وإن كذب به الكفار، أو قالوا: سحر، وأساطير الأولين، اختلاق، يقول: هو عندنا ليس كذلك، بل هو منزلة ومرتبة عالية شريفة، عليٌّ حكيم.

{لَعَلِيٌّ} أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، {حَكِيمٌ} أي: مُحكم بريء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله.

"حكيم" هنا يكون مِن معنى الإحكام، يعني {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [سورة فصلت:٤٢]، فيكون كما قال الله –تبارك وتعالى–: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [سورة هود:١] فليس فيه تناقض، وليس فيه خطأ ولا تضارب.

كما قال: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الواقعة:٧٧-٨٠] وقال: {كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١١-١٦].

وقوله: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} أي: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير.

وقال قتادة في قوله: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}: والله لو أن هذا القرآن رفُع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدًّا، وحاصله أنه يقول في معناه: إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم –وهو القرآن– وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي من قَدّر هدايته.

هنا **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** قال: ضربت عنه، وأضربت عنه، فإن هذا يعني الترك، الإمساك عنه، **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ}**، ولذلك يقال: فلان أضرب عن كذا، الإضراب ما معناه؟، الإمساك عن الشيء، تقول: أضرب عن الطعام، يعني أمسك عن الطعام، أضرب عن مكالمة زيد أو عن مخالطته، بمعنى أعرض عن ذلك، **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** "صفحًا" منصوب على المصدرية، أو على الحال أي أفنضرب عنكم الذكر صافحين، وأصل ذلك من إعطاء صفحة العنق كما سبق، تقول: أعرض عنه صفحًا يعني لم يقف عند إساءته، مثلاً: **{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ}** [سورة البقرة:١٠٩]، لا تقف عند الإساءة ولا تعاتب، فالصفح بمعنى الإعراض، **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** نعرض عن ماذا؟ هنا المعنى الأول الذي نقله عن هؤلاء من السلف واختاره ابن جرير يعني نعرض عن معاقبتكم، نترككم لا نعذبكم ولا نعاقبكم مع سوء حالكم، وفعالكم، وإعراضكم، وكفركم بهذا القرآن والوحي، هذا معنى، أو الإعراض عن ماذا؟ أو الإعراض ليس عن المعاقبة، وإنما عن التذكير بالقرآن، والأمر، والنهي، والمخاطبة بالإيمان، يعني كونكم كذبتم وأعرضتم هل هذا يقتضي أن نعرض عن مخاطبتكم بالإيمان، ودعوتكم إليه؟، أخاطبكم بهذا القرآن فلا توعظون ولا تؤمرون لكونكم أهل تكذيب وكفر وجحود، ولهذا تجد عبارات السلف متقاربة في هذا المعنى، كقول قتادة: أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم؟، فهذا يرجع إلى هذا المعنى الذي أشار إليه ابن كثير واستحسنه، **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** لا نأمركم ولا ننهاكم، لا يحصل لكم تذكير ومخاطبة بالإيمان، وهذا يشبه أيضًا قولًا أو رواية أخرى عن قتادة: أفنمسك عن إنزال القرآن لكونكم لا تؤمنون به؟ **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** يعني نترك إنزال القرآن ومخاطبتكم بالقرآن لكونكم قلتم فيه هذه الأقاويل الباطلة أنه سحر وما أشبه ذلك؟.

وعلى كل حال **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ}** الذكر هنا يمكن أن يكون بمعنى القرآن أو التذكير، لا نذكركم، لا نأمركم ولا ننهاكم، فصار هذا يرجع الآن عندنا إلى أحد معنيين: **{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا}** يعني أتظنون أن نترك محاسبتكم وأن لا نعذبكم؟، هذا الذي اختاره ابن جرير، لماذا اختار ابن جرير هذا القول؟.

ابن جرير يقول: فيه قرينة عندنا أن الله –تبارك وتعالى– قال: **{وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}**، يقول: تظنون أننا نترككم لا نعذبكم ولا نعاقبكم لتكذيبكم؟، ابن جرير يقول: هذه هي القرينة على هذا القول، والذي استحسنه ابن كثير من كلام قتادة –رحمه الله–، **{أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}** كأنه أقرب أو كأنه المتبادر من اللفظ، **{أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}** هذه القراءة التي نقرأ بها "أَن كنتم قومًا مسرفين" وهي قراءة الجمهور **{أَن كُنتُمْ}** فيكون هنا "أن كنتم" كأنه يفسر ذلك، كأنه على سبيل التعليل، يعني أفنضرب عنكم الذكر صفحًا لماذا؟ لكونكم على هذه الحال من الإسراف في التكذيب.

والقراءة الثانية قراءة حمزة والكسائي ونافع بالكسر **{إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}** فـ"إنْ" هنا شرطية **{أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}** ويكون الجزاء -جواب الشرط- محذوفًا **{أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}** نترك تذكيركم، وعلى قول ابن جرير نترك معاقبتكم، والله أعلم.

بل أمر به ليهتدي من قدّر هدايته وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى مسليًا لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من قومه، وآمرًا له بالصبر عليهم-: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ} أي: في شِيع الأولين، {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا} أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل وقد كانوا أشد بطشًا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً} [سورة غافر:٨٢] **والآيات في ذلك كثيرة.**

البطش ما معناه؟، شدة الفتك، الأخذ بقوة بشدة يقال له: بطش قد يكون فتكًا وقد لا يكون فتكًا، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث النفخ في الصور والبعث: ((فإذا موسى باطش بجانب العرش))[1]، الأخذ بقوة، ويأتي بمعنى المعاقبة والمؤاخذة الشديدة، شدة المعاقبة **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}** [سورة البروج:١٢].

وقوله: {وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ} قال مجاهد: سنتهم، وقال قتادة: عقوبتهم، وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ} [سورة الزخرف:٥٦]، **وكقوله: {سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ}** [سورة غافر:٨٥] **وقال: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا}** [سورة الأحزاب:٦٢].

{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ} نحن عرفنا أن أصل المثل في اللغة يرجع إلى معنى الشبه، **{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}** تكون العلاقة هنا **{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}** باعتبار أن الله يذكر أخبار الأولين، وذكرنا -على قول شيخ الإسلام-: أن قصص الأنبياء والأمم داخلة في جملة أمثال القرآن، **{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}** بعضهم يقول: مثلهم يعني ذكر الأولين في القرآن غير مرة، يعني تكرر ذكرهم، **{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}** يعني ذكرهم وخبرهم، وهكذا قول من قال: مضت صفتهم أي صفة الأولين التي هي إهلاكهم المستأصل بسبب تكذيبهم للرسل -عليهم الصلاة والسلام-، قالوا: المثل يأتي بمعنى الصفة، ومنه قوله تعالى: **{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}** [سورة الرعد:٣٥، وسورة محمد:١٥] يعني صفة الجنة، وقد مضى الكلام على هذا في الأمثال في القرآن هل يأتي المثل بمعنى الصفة أو لا، وأن شيخ الإسلام أرجعه إلى معنى الشبه، وأن منهم من أنكر مجيئه بمعنى الصفة، وبعضهم أثبته، وقلت هناك: إن إنكار مجيء المثل بمعنى الصفة ولو قليلاً هذا لا يخلو من تكلف، وإنما قد يأتي بمعنى الصفة وهو الأوفق -والله أعلم- في تفسير "مثل الجنة"، فهنا بناء عليه **{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}** أي: مضت صفتهم وما حل بهم مما أنزله الله من العذاب المستأصل، وهذا الذي

---

١ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذِكْره بعدُ، برقم (٣٤٠٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٧٣).

رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، واعتبر أن القول الآخر الذي هو بمعنى مضى عقوبة الأولين أنه يرجع إليه، **{وَمَضَى مَثَلُ الأوَّلِينَ}** يعني صفة الإهلاك التي حصلت، فمن قال: "عقوبتهم" كذلك، **{مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ}** [سورة الأنفال:٣٨] سنة الأولين ما هي؟، ما هي سنة الله فيهم؟ الإهلاك المستأصل، فكل هذه الأقوال ترجع إلى هذا المعنى، فمن قال: **{مَثَلُ الأوَّلِينَ}** أي: سنة الأولين، ومن قال: عقوبة الأولين وما إلى ذلك كصفة الأولين فهذا متقارب، وهكذا من قال: عبرة الأولين، باعتبار أن المثل يرجع إلى الشبه، وأن القصص هذه وجه الشبه أنها ذُكرت للاعتبار، وأن العبرة أن ينتقل من حال غيره وما حصل له إلى نفسه، وهذا المعنى أيضًا صحيح، فمن قال: إنها سنتهم إلى آخره فإنما ذكر ذلك من أجل العظة والعبرة ومن أجل الاعتبار.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (٩) إلى الآية (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [سورة الزخرف:٩-١٤].

يقول تعالى: ولئن سألت -يا محمد- هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: {مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا} أي: فراشًا قرارًا، ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا} أي: طرقًا بين الجبال والأودية، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

{وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ} أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم، وقوله: {فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} أي: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

ثم قال: {وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا} أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك أي: من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ} أي: السفن {وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} أي: لتستووا متمكنين مرتفقين {عَلَى ظُهُورِهِ} أي: على ظهور هذا الجنس، {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ} أي: فيما سخر لكم {إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} أي: مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس، وقتادة، والسدي وابن زيد: {مُقْرِنِينَ} أي: مطيقين.

{وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ

{التَّقْوَى} [سورة البقرة:١٩٧] **وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: {وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ}** [سورة الأعراف:٢٦].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}** قال: أي: **مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير، قال: ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها**، هنا فسر الأزواج بالأصناف، ولفظ الأزواج يأتي لهذا المعنى وقد مضى في مناسبات متعددة، وكما قال الله -عز وجل- في هذه الآية، وجاء -أيضًا- بمعنى النظراء والأشكال **{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}** يعني ونظراءهم، وقوله -تبارك وتعالى-: **{لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}** [سورة الحجر:٨٨]، يعنى أصنافا، ويأتي الزوج بالمعنى المعروف المشهور **{وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}** [سورة النساء:١]، فهذا يقال للرجل والمرأة، قال: **{وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}** [سورة الأنبياء:٩٠] يعني: زوجته وهذا هو الأفصح في اللغة وإن كان ورود الزوجة فصيحًا لكنه قليل في الاستعمال في لغة العرب -يعني من يُحتج بكلامهم- ولم يرد في القرآن، لكنه جاء في قول الفرزدق:

وإنّ الذي يسعى ليُفسد زوجتي *** كساعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتبيلُها

فهنا عبر بالزوجة لكن في القرآن يقال: زوج للذكر والأنثى، فهنا ابن كثير -رحمه الله- فسر الأزواج بالأصناف، **{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}** يعني الأصناف كلها، من هنا قال الحسن -رحمه الله-: يعني خلق الأصناف كلها الليل والنهار والشتاء والصيف والسماء والأرض والجنة والنار، وهكذا قول من قال: إن ذلك بمعنى ما يتلقب فيه الإنسان من خير وشر، من نعمة وغيرها، من إيمان وكفر، وبعضهم خصه بأزواج الحيوان، وهنا الله -تبارك وتعالى- يذكر نزول المطر من السماء قال بعده: **{وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}** الآية، فخصه بعضهم بأزواج الحيوان، وبعضهم خصه بأزواج النبات، **{وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}** كما قال الله -عز وجل-: **{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}** [سورة ق:٧] هذا في النبات فهذا تفسر به الآية لكن لا يُقصر ذلك على النبات، **{وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ}** يعني من كل صنف من أصناف النبات، فهذا مما يدخل في الآية، وكذا قوله: **{مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}** [سورة الشعراء:٧] فهذه كلها من الأصناف الداخلة فيه، يعني الأزواج أصناف النبات والحيوان، وهذه الأقوال كلها هنا بمعنى الأصناف، وإن كان بعضهم خصه بنوع أو بجنس معين، ابن جرير -رحمه الله- يرى أن ذلك بمعنى أن الله -عز وجل- خلق كل شيء فزوَّجه، يعني خلقه وجعل زوجه منه، فخلق الرجل وجعل زوجه منه، يعني حواء من ضلع آدم، والرجل هو أيضًا منها؛ فالمرأة هي التي تلد الرجل، فابن جرير يرى أن الله -تبارك وتعالى- **{خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}** يعني خلق للذكر زوجًا، وخلق للأنثى زوجًا، **{خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}** فالذكر يقال له: زوج، والأنثى يقال لها: زوج، **{خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}**، وبعضهم كالشنقيطي -رحمه الله- فسره بقوله: **{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}** [سورة يس:٣٦] لاحظ الآن ذكر ثلاثة أشياء: **{خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ}** فهذا يدخل في صنوف النبات، **{وَمِنْ أَنفُسِهِمْ}** الإنسان، **{وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}** سائر الأصناف،

فهذه الآية تفسر آية الزخرف هذه، وتبين أن المعنى هو الذي ذكرناه أولاً، ومشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي: **مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وصفاتها وزيادة**، يعني ابن كثير ذكر النوعين: الحيوان والنبات، والحيوان يدخل فيه الإنسان ليس بالمعنى المعهود للحيوان الذي هو البهيم، أو أن أصل الإنسان حيوان كما يقول الملاحدة، لا، المقصود حياة **{وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}** [سورة العنكبوت:٦٤] فالعلماء إذا قالوا: حيوان يقصدون ما له روح، ما فيه حياة يقال له: حيوان بهذا الاعتبار، والله -تبارك وتعالى- هنا جاء بلفظ "كل" بعد "الأزواج" **{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}** فـ"كل" هذه أقوى صيغة من صيغ العموم، لكن هذا -يعني مجيء "كل" بعده- ليس بقاطع أن المراد به كل الأصناف؛ لأن ذلك يرجع إلى الأزواج فما المراد بالأزواج؟ **{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}** خلق الأزواج كلها، فتخصيصه بنوع من هذه الأصناف مبناه -والله تعالى أعلم- على الاقتصار على إحدى الآيات التي تذكر بعض أنواعه، فمثلاً من اعتمد على قوله تعالى: **{وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}** [سورة ق:١٧] قال: **هي أصناف النبات**، خصه بالنبات، لكن هذه الآية لا تخصصه.

والظاهر -والله تعالى أعلم- حمل الآية على العموم، وأن تفسر بقوله: **{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}**، والله -عز وجل- يقول: **{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [سورة الذاريات:٤٩] فالعموم هنا في هذه الآية ظاهر بأنّ كل شيء جعل الله -عز وجل- له زوجًا ومن ثَمّ **{خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}**، خلق النبات والحيوان وما لا نعلمه، قال: **{لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}** الاستواء بمعنى العلو والظهور في كل استعمالاته وموارده، قال: **{ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}** هذا الذكر يشمل ذكر اللسان وذكر القلب، يعني استحضار النعمة، فالذكر يشمل هذا وهذا، وذَكَر هنا ما يقال: **{وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}** فهذا ما يقال عند الاستواء على الدابة، ما يحصل به الانتقال من أنواع المراكب من الحيوان والمراكب الحديثة أيًّا كان نوعها، كل ما ينتقل به يعني حتى لو كان الإنسان على السير الكهربائي أو الدرج الكهربائي فإنه يقول مثل هذا؛ لأن ذلك كله من المراكب، قال: **{وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}** هنا قال: أي: **مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وقتادة والسدي وابن زيد: مقرنين أي: مطيقين**، مقرنين يعني مطيقين هذا المعنى مشهور ومعروف، يقال: أقرن هذا البعيرَ يعني إذا أطاقه، أقرنه يعني أطاقه، وهذا الذي فسره به الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وعبارات المفسرين في هذا متقاربة، يعني أن بعضهم حاول أن يفسره بمعنى مطابق أو قريب من المطابق، وبعضهم فسره بمعنى مقارب كما يقول الأخفش وأبو عبيدة معمر بن المثنى ومن وافقهم من أصحاب المعاني -كتب معاني القرآن-: ضابطين **{وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}**، يعني ضابطين، ضابطين قريبة من مقرنين، يعني لا تستطيعون ضبط هذه المراكب في البحر ولا في البر، فإن الإنسان أضعف، فهذه المراكب البحرية قد تأتيها الرياح ولا يستطيع أصحابها السيطرة عليها وتوجيهها إلى الوجهة التي يريدون، ولكن الله سخر لهم هذا، قال: **{وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ}** [سورة يس:٤٣] فقد يغرقون، فما الذي جعلها تطفو على البحر وتسير وتنقلهم من

مكان إلى مكان؟، ليس ذلك بإطاقتهم وقوتهم فهم أضعف من ذلك، وهكذا هذه المراكب بأنواعها يعني هذه الدواب التي سخرها الله -عز وجل- الجمل أقوى من الإنسان كما لا يخفى فما الذي جعله مذللاً للإنسان يركبه ويتنقل به ويتصرف فيه، وهكذا يركب سائر المراكب من الخيل والبغال والحمير ويقودها كيف شاء، **{وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}** ضابطين يعني ما كان ليضبطها في سيرها والتمكن منها وتسخيرها وتذليلها لولا أن الله سخرها له، وإلا لما أطاق ذلك، الإنسان أضعف من هذا، والله المستعان، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- جمع المعنيين، وهما يرجعان إلى شيء واحد كما قلت: العبارة متقاربة، لكن ابن جرير عبر بالعبارتين، **{وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}** أي: مطيقين ولا ضابطين، لاحظ مطيقين ولا ضابطين وهذا يرجع إلى شيء واحد، فإذا كان لا طاقة له بها فمعنى ذلك أنه لا يستطيع أن يضبطها، غير مطيقين، مطيق ماذا؟، مطيق لتسخيرها بمعنى لضبطها، هو لا يطيق ذلك ولا يستطيعه؛ لأنها أقوى منه، وهكذا قول من قال: إن "مقرنين" يعني مماثلين لها في القوة، كأنهم نظروا إلى معنى القِرن، فلان قِرن لفلان أي نظير له، يضاهيه في قوته، فالإنسان أضعف من الجمل مثلاً، الإنسان ليس بقوة يستطيع فيها أن يتمكن من هذه الفلك ويديرها بقوته وشدته، فهو ليس بذاك في القوة

وابنُ اللَّبُونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ *** ....

يعني ماذا؟

ابن اللبون الجمل الصغير إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ يعني لو أنه ربط وشد بجمل، أو بين جملين قويين أو ربط بجمل كبير فإنه لا يطيق أن يصول صولة الجمل الكبير الضخم القوي، البيت المشهور.

قال: **{وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ}** لاحظ هذه اللفتة من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي: **لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}**، لما أمر المتزود في أسفارهم نبه على الزاد الآخر إلى السفر الطويل إلى الآخرة **{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** وهكذا "وريشًا" في قوله: **{قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ}** [سورة الأعراف:26] فذكر اللباسيْن، وهذا له نظائر كثيرة يعني في الحج لما قال الله -عز وجل-: **{فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** [سورة البقرة:203]، هم الآن في أيام التشريق، وسينفرون بعضهم في يومين، وبعضهم في ثلاثة أيام في اليوم الثالث من أيام التشريق، إذا تفرق هؤلاء الحجاج متى يلتقون؟، هل التقى الحجاج هم أنفسهم الذين حجوا في سنة في السنة الأخرى؟ هل هذا ممكن؟، لا يمكن، ما حصل هذا قط، إذا قلنا: حج في سنة من السنوات مثلاً ثلاثة ملايين تفرقوا في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث، أين يلتقي هؤلاء؟، يلتقون يوم القيامة، فذكر هذا **{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** هو الذي يجمعكم بعد تفرقكم هذا في الآخرة، وهذا كثير، أي أن ينبه بأمر على أمر آخر، يعني قوله مثلاً عن النار: **{نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** [سورة الواقعة:73] يعني بعضهم فسره: للمسافرين، وهذا معنى صحيح، ولكن أصل المعنى للنازلين في الأرض القَواء، الأرض القَواء يعني القفر، فالمسافر ينزل في أرض برية وهي متاع للمسافرين وللمقيمين، ولكن لماذا خص المسافرين؟.

بعضهم يقول: لأن المسافر أشد حاجة إلى النار من المقيم، وبعضهم كابن القيم يذكر المعنى الذي يتعلق بنا هنا يقول: {وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} ذكر المسافرين مع أنها متاع للجميع وذلك لينبه بهذا، يعني هي متاع للمسافرين يستمتعون بها مذكِّرًا بالسفر إلى الآخرة؛ لأن الإنسان مسافر، يعني ابن القيم يقول: {وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} يعني المسافرين، لماذا ذكر المسافرين؟ قال: الإنسان أصله مسافر يذكِّره بأنه مسافر، هو في سفر إلى الآخرة بلا توقف، يعني رأيتم هذه الساعة لو وُضع عمر الإنسان، الآن نحن نضعها ساعة ونصف وتبدأ بالعد التنازلي إلى أن تنتهي الساعة والنصف، لو رُكبت ساعة وهذا أمر متاح وممكن، مثلاً لو قيل: عمر فلان ستون سنة، فركبت وبرمجت على ستين ودفعت إليه أو وضعت أمامه بالثواني تنقص إلى أن تنتهي اللحظات الأخيرة، هذه أعمار الناس، الإنسان مسافر أصلاً بلا توقف، هذه حقيقة الحياة، هذه حقيقة ما يجري، فنحن كما تشاهدون اليوم الخميس تمشي بنا هذه الأيام والليالي تسير بنا إلى آجالنا فتأتي نهاية الأسبوع الجمعة، ثم يأتي يوم السبت، وتأتي الأيام الباقية، ثم يأتي الخميس، كم من مرة التقينا هنا عبر السنين، تَنقُلنا ثم ينتهي الفصل الدراسي الأول، ثم تأتي الاختبارات، ثم يأتي الفصل الثاني، أجازة بين الفصلين، ثم الأجازة في نصف الفصل، ثم تأتي الأجازة النهائية، وتنتهي، ويأتي رمضان، ثم يأتي العيد، ثم تبدأ الدراسة من جديد الفصل الأول ثم الأجازة، ثم الفصل الثاني، ثم.. وتمضي السنون، ويجد الإنسان أنه مضى عليه عشر سنوات كأنها أمس، وما هذه إلا محطات لو أغمض عينيه ونام ليله مع نهاره، فهو مسافر بلا توقف، تنقله الأيام وما مضى يكون كأنه حلم، كل ما مضى يستشعر أنه قريب جدًّا كالأمس سواء كان قبل أسبوع أو قبل سنوات، فهذا يرد في القرآن -أي التنبيه على هذا بهذا-؛ لأن هذا القرآن ذكرى وموعظة، لذلك تجد في ثنايا الكلام على آيات المعاملات وقضايا الطلاق وغير ذلك: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة التغابن:٨]، {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة البقرة:٢٣٣] {فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الحشر:٤] كل هذه الآيات التي تذكره من أجل أن يراقب الله وأن يمتثل.

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ} [سورة الزخرف:١٥-٢٠].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام، في قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الأنعام:١٣٦]، وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم:٢١-٢٢]، وقال هاهنا: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ}.

ثم قال: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ} وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تمام الإنكار فقال -جلت عظمته-: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} أي: إذا بشر أحد

هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله -عز وجل-؟!.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** ما المراد بهذا الجزء؟ هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام، في قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** نحن نعرف أنهم شرعوا من عند أنفسهم وشرعت لهم الشياطين فقالوا: **{هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ}** [سورة الأنعام:١٣٨] "حجر" يعني محصورة محجورة **{لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا}** مثل الحام وهو الفحل يَضْرِب الضِّراب المعدود عندهم بتفاصيل معينة، يعني يضرِّب الإبل، ثم يقال: حَمى ظهرَه لا يتعرض له أحد لا يُنحر، ولا يُركب، ولا يُباع، يترك؛ ولهذا عندهم السائبة مسيَّبة للطواغيت، الوصيلة الناقة التي تصل أنثى بأنثى على اختلاف في تفسير هذا، كل هذه الأشياء فصَّلوا فيها، شرعت لهم الشياطين فجعلوا شيئًا لله -عز وجل-، وشيئًا لطواغيتهم وشركائهم، فهنا **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** هذه الآية التي في سورة الزخرف هل تفسر بآية الأنعام كما فعل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مع أنه لم يقتصر على هذا، وإنما ذكر أيضًا المعنى الآخر وهو أنه قال: **وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين..** يعني الأدنى، يعني جعلوا له البنات فذكر المعنيين، لاحظ هنا في هذه الآية صحيح أن الجزء يدخل في آية الأنعام "من الحرث والأنعام نصيبًا"، يعني جعلوا له جزءًا لكن هل يفسر به -أي الذي في الأنعام- قوله في سورة الزخرف: **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}** جعلوا له من عباده فهل الحرث يقال له: عِباد؟ الزرع يقال له: عباد؟، الأنعام يقال لها: عباد؟، فيما جرى عليه عرف الاستعمال كل شيء هو مخلوق لله -عز وجل- لكن هل يقال في الأنعام: إنها عباد؟ يقال في الإبل والغنم: هذه عباد لله؟ هي صحيح أنها عابدة لله **{إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** [سورة مريم:٩٣] لكن في عرف الاستعمال إذا قيل: العباد ما المقصود به؟، هل يدخل فيه النبات والحيوان؟.

الجواب: لا، فهنا قال: **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** فهذا يدل على أن ما ذكر في آية الأنعام ليس هو المراد في هذه الآية، **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** تجد السلف -رضي الله عنهم- منهم من يقول كقتادة: يعني عِدلاً، يعني ماذا؟ كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى-، واضح؟ **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** يعني هذه المعبودات التي عبدت من دون الله -عز وجل-، بينما آخرون نظروا إلى السياق في الآية فقالوا: البنات، كما يقوله الزجاج والمبرد من أصحاب المعاني، لاحظ السياق هنا **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** بعدها قال: **{أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}** فدل على الذي فعلوه وهو أنهم قالوا: الملائكة بنات الله، والولد جزء من الوالد أو لا؟ **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** الجزء أعم من هذا، لكن هنا في السياق في آية الزخرف ما بعده يدل على أن المراد البنات، بصرف النظر عما يذكره بعض أصحاب المعاني مثل الزجاج والفراء، ومن كتبوا في المعاني بعضهم فسر نفس كلمة جزء بالبنات، يقولون: أجزأت المرأة يعني ولدت البنت **{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}** هنا فسروا نفس كلمة "جزءًا" قالوا: جزء معناه بنت، ما هو فقط من السياق، نفس اللفظة،

وهذا لا يخلو من إشكال، وقد رده بعض أهل العلم حتى قالوا: إن ما استشهدوا به على ذلك من الشعر مصنوع كما يقول الزمخشري، لكن بصرف النظر عن هذا التفسير من كون الجزء في اللغة بمعنى البنت فإنه لا يختص به، وإنما يصدق على الذكر.

وقوله: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ} هذه قرينة تدل على أن المراد بالجزء هنا الولد، ويمكن أن نقول بالتحديد -يعني بصورة أخص-: في هذا السياق يعني البنات، {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} قالوا: الملائكة بنات الله، {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}، ولهذا فسر بعضهم الجزء بالملائكة بأي اعتبار؟ أولائك قالوا: البنات، فالجزء هم البنات، والذين قالوا: الملائكة باعتبار أنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، يعني المعاني هذه متلازمة ليست مختلفة، يعني لا تحتاج إلى ترجيح، من قال: إنه الإناث أو البنات، ومن قال: إن المراد بذلك الملائكة، وهذا التفسير أن الجزء يعني الملائكة منقول عن بعض السلف كمجاهد والحسن البصري، وهكذا عبارة من يعبر يقول: يعني الأولاد وجعلوا له الأولاد، فالولد يصدق على الذكر والأنثى، وهم قالوا: الملائكة بنات الله، ما قالوا: إن الذكور هم أبناء الله -عز وجل-، {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ} فالأزهري صاحب تهذيب اللغة يعبر بعبارة واسعة يقول: يعني الولدان، ولكنه يقصد بهذا البنات؛ لأنه معروف أنهم نسبوا إلى الله البنات تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا، وهنا قال: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ} أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، "كفور": كثير الكفران، "مبين": مُعرب عن كفره، مُظهِر له، ثم أنكر عليهم فقال: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ} "أم" هذه المنقطعة بمعنى بل والهمزة، بل أَتَّخذَ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، يقول: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [سورة النحل:٥٨]، هنا قال: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا} المثل ما المقصود به؟ ذكرنا أن المثل يأتي بمعنى الشبه، وأن من أهل العلم من يرجعه في أصله إلى الشبه مطلقاً كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وأن بعضهم يقول: قد يأتي بمعنى الصفة، مثلاً "مثل الجنة" يعني صفة الجنة، وذكرنا في بعض المناسبات أنه في بعض المواضع -لربما قليلاً- يُحتاج إلى تفسيره بغير الشبه، لكن هنا {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا} هنا عبر بالمثل يعني بأي اعتبار؟، قالوا: الملائكة بنات الله، وعلى قول من قال: جعلوا له الشركاء من هؤلاء المخلوقين يكون بأي اعتبار؟ باعتبار الشبه إن قلنا: البنات، أو الولد؛ فإن الولد يشبه الوالد، فيه شبه أو ما يوجد شبه؟ يوجد شبه بوجه ما، أليس كذلك؟، يشبهه على الأقل أنه من جنسه، أليس كذلك؟، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لما ذكر الشبه: ((إذا علا ماء الرجل ماء المرأة...الخ))[1]، وقال أيضًا: ((ففيم يشبهها الولد؟))[2]، فكون الولد

---

١ - رواه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، برقم (٣١٤)، ولفظه: ((إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه)).

٢ - رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب غسل المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل، برقم (١٩٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (١٢٦).

يشبه الوالد هذا أمر لا إشكال فيه، فهنا إذا فسر الجزء بالولد فمعنى ذلك أنه لوجود الشبه، وإذا فسر بالأنداد والمعبودين من دون الله فلأنهم جعلوهم نظراء لله -عز وجل-، أليس كذلك؟.

قال هنا: أي: **إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به**، قال: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}**، **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا}** هنا قوله: **{بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا}** يُفسَّر بـــ"إذا بشر أحدهم بالأنثى"، فهذا الذي ضرب للرحمن مثلاً هو الجزء الذي جعلوه لله -تبارك وتعالى- كما سبق، قال هنا: **{ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}** يقول: **تعلوه كآبة من سوء ما بشر به**، وهكذا قول من قال: شديد الحزن، كثير الكرب، مملوء من الكرب، هذا معنى كظيم مملوء من الكرب، يعني كأنه بمعنى كاظم؛ لأن فعيل تأتي بمعنى فاعل، وتأتي بمعنى مفعول مكظوم أو كاظم، كاظم يعني أنه يكظم غيظه، والله -عز وجل- قال عن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: **{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}** [سورة يوسف:٨٤] يكظم الحزن الشديد الذي قد امتلأ صدره به، وهكذا قول من قال كقتادة: إنه بمعنى حزين، فهو كظيم أي حزين، هذه معانٍ متقاربة، قول عكرمة: مكروب، شدة الكرب يقال لها ذلك، وهكذا بعضهم فسره بلازمه، بلازمه يعني قول من قال مثلاً: إنه ساكت؛ لأن الحزين يكون مُبلِسًا ساكتًا لا يتكلم، لا يضحك ولا يتكلم مع الناس إلى آخره، الذي امتلأ قلبه بالحزن وتعلوه الكآبة والسكون، فمن فسره بأنه ساكت فهو يرجع إلى ما سبق وهو تفسير له بلازمه، وليس بالمعنى المطابق؛ لأنه ليس معني كظيم أنه ساكت، لأن الإنسان قد يكون ساكتًا وليس بحزين، والله أعلم.

ثم قال: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} أي: **المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَمَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص.**

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: "ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة".

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}** هذه القراءة التي نقرأ بها قراءة حفص، وبها قرأ أيضًا حمزة والكسائي، والقراءة الثانية قراءة الجمهور بالفتح **{أَوَمَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ}** هناك "يُنَشّأ" وهنا "يَنْشأ" والمعنيان متقاربان، يعني كون أنه يُنشّأ يُنشِّئه أهله بذلك، فهذا يعني أنه يَنْشأ في الحلية، **{أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ}** ويُنَشّأ في الحلية هنا يعني هل هذا نقص أو ليس بنقص؟

الآن الحلية جمال وزينة، وغالية من الذهب والفضة والجواهر هذه تجمل المرأة وتزينها، وتبذل فيها الأموال الطائلة؛ لجبر النقص الجِبلي، لهذا قال الشاعر:

وما الحَلْيُ إلا زينةٌ مِن نقيصةٍ *** يُتمم من حسنٍ إذا الحسنُ قصّرا

أمّا إذا كان الجمال موفَّرًا *** كحسنكِ لم يحتج إلى أن يُزوَّرا

إذا كان الجمال وافراً، وإذا أردت أن تتصور هذا المعنى المرأة إذا لبست الحلي صارت أجمل، فهذا الحلي يجملها سواء كان في الآناف أو في الآذان أو كان في جيدها أو في يديها أو في قدميها، أو في ساقيها، هذا جمال لها، ولكن إذا أردت أن تتصور هذا تصور لو أن رجلاً لبس قلادة، ووضع أسورة من ذهب في يديه، ووضع في أذنيه أقراطًا، وفي ساقيه حجلاً، ولبس الخلاخل، كيف يكون؟.

يكون سمجًا، أليس كذلك؟ يكون في غاية القبح، لماذا كان في غاية القبح والحلي جمال؟.

كان جميلاً في المرأة وقبيحًا في الرجل باعتبار أن الرجل فيه من كمال الخلقة ما لا يصلح معه هذا الحلي، فيكون نقصًا، أما المرأة فهي بحاجة إلى هذا.

الآن السيارة قد تكون في حال من الجودة في هيئتها التي صُنعت عليها ما تحتاج معها إلى زخارف وألوان وأصباغ وأشياء يعلقها ويلصقها بها وما إلى ذلك، فإذا وضع ذلك فيها شوهها، وأحيانًا تكون في حالة رديئة تحتاج معها إلى شيء من التزويق، وهنا إذا تبين هذا المعنى يقال: ليس ذلك من قبيل التنقص للمرأة، حتى ما ذكر الله -عز وجل- قال: **{وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}** كما قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، وكما قال الأعرابي الذي بُشر بالبنت: ما هي بنعم الولد، فذكر أن نصرها بكاء، فهذا الآن لو أن الرجل كان بهذه المثابة رجل إذا أراد أن يناقش بكى، هكذا عادته إذا جاء يناقش بكى، يقولون عنه: هذا بنت، يبكي لأدنى سبب، فالبنت من عادتها ذلك، **{وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}** لكن مثل هذه الأمور يحتاج الإنسان أن يتبين معها معنى هو قضية التنشئة في الحلية، والضعف في الخصومة، الآن اسمعوا مثلاً قول الشاعر يتغزل بامرأة أو ببنت اجتمع أهلها يضربونها في تهمة وهي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها وإنما تبكي، تجاوبهم بالبكاء، فرآها فرقّ لها فقال:

بنفسي وأهلي مَن إذا عَرَضوا له *** ببعض الأذى لم يدرِ كيف يجيبُ

يعني أفدي بنفسي وأهلي من لا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

فلم يعتذر عذرَ البريء ولم تزلْ *** به سكتةٌ حتى يقالَ مريبُ

يعني لم يدافع، يفصح، يبين موقفه وما جرى، وإنما لم يزل ساكتًا يجيبهم بالبكاء حتى يقال: مريب، الأمر فيه شيء، في شك فهم يضربونها وهي تبكي ولا تجيب، ساكتة لا تجيب، فهذا لما رآها انجذب لهذا الضعف الجِبلي فقال ما قال.

فهذا اعتبره الشاعر من قبيل الأمور الجاذبة، فكمال كل شيء بحسبه، انتبهوا لهذه، الآن الطفل الصغير تصور لو أنه يولد بعقل رجل، هذا الذي تضمه، وتريد أن تلاعبه، أنت تضم رجلا ونظراته وكلماته، حينما تلاعبه وتضاحكه يرد عليك رد الرجال، هذا الصغير عمره سنة، عمره سنتان، عمره ثلاث سنوات، رجل تنجذب إليه النفوس، ويُلعَّب ويُضحَّك ويُدلَّل ويُرقَّص

واللهِ لولا حَنَفٌ في رجلِه *** ما كان في فتيانكم مِن مثله

أم الأحنف بن قيس ترقصه، لو كان بنفسية رجل، وعقل رجل، وهو صغير عمره سنتان هل يصلح للتلعيب، ويستملح ويستلطف؟ لا، إذًا ملاحته وكماله فيما يصلح له، لكن تصور لو أنه كبير ينطق كما ينطق هذا الصغير، ويفكر بنفس الطريقة فإنه يقال عنه: في عقله شيء، لكن هذا الطفل الصغير ليس في عقله شيء،

الناس الذين عندهم ضعف في النمو، بطء في النمو العقلي، تجد الإنسان عمره قد بلغ ثلاثين سنة ويصلح أن يكون عمره تقريبًا ثماني سنوات أو اثنتي عشرة سنة، فإذا جلس مع الناس وبدأ يتكلم واهتماماته وألاعيبه ويميل إلى الصغار وإلى آخره، إذا تكلم كأنه طفل عمره ثماني سنوات، جلست تتحاور معه ما تقول: إنه مجنون، لكن التفكير والاهتمامات والمنطق منطق طفل، هذا موجود، فمثل هذا يعتبر من قبيل الكمال أو النقص بالنسبة للكبير؟ نقص، وبالنسبة للصغير هو نقص لكنه هو الذي يصلح لمثله فيكون كمالاً فيه.

ننتقل للمرأة، المرأة الآن لو كانت مثل الرجل تمامًا في عقلها ومنطقها هل يستمتع بها الرجل ويقبل عليها؟ لا، إطلاقًا؛ ولذلك كفى ذمًّا بامرأة أن يقال: مترجلة، لو أن أحدًا أراد أن يخطب امرأة فسأل عنها فقيل: شخصيتها مثل الرجل، يقبل عليها يتزوجها أو لا يتزوجها؟.

لا يتزوجها، فهذا الضعف الجبلي الذي فيها هو الذي يجعله ينجذب إليها وتأسره بضعفها، فهذه هي الأنوثة التي كلما ازدادت وتمكنت في المرأة كان ذلك كمالاً فيها، فكمالها في أنوثتها، كمال المرأة في أنوثتها، فالرجل يبحث عن امرأة كاملة الأنوثة، لكن إذا كان فيها نوع من الترجل، الميل إلى أخلاق الرجل، ما يسمى اليوم –أكرمكم الله– بـــ"البويات" تجد البنت تقص قصتها مثل الولد، وتلبس ألبسة تشبه الولد، وتسمي نفسها باسم ولد، وتتعامل مع البنات على أنها ولد ذكر، وليست ببنت، فهذا نقص أو كمال؟ هذا نقص شديد، هذا انحراف عن الفطرة، فكل مقام له مقال، فإذا جاء الكلام في الرد على المشركين فقيل لهم: **{أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}** ينبغي للنساء أن لا يغضبن، أن لا تغضب المرأة، فإن كمالها في أنوثتها، والأنوثة ضعف جبلي، فليس ذلك تعييرًا لها ولا سبة في حقها، بل ذلك كمالها الذي يصلح لها، فلو خرجت عنه لكان ذلك هو النقص، الآن لو قالت واحدة: أنا أريد أن أنتفي من هذه الصفة –أي الأنوثة–، تريد أن تكون مثل الرجل لكان ذلك شينًا في حقها، ونقصًا، ولذلك انظر إلى المرأة كثيرة الخروج الخرّاجة الولاجة، ولاسيما إذا كانت تخالط الرجال تكون امرأة صاحبة لسان في الغالب، وتصرفاتها وأفعالها وأخلاقها وطبيعتها تميل إلى طبيعة الرجال، فهذه قلما يتلاءم معها الرجل، فيكثر الطلاق في المجتمعات التي يكثر فيها خروج النساء، ويكثر فيها الاختلاط، المرأة ند للرجل، وقد رأيت مرة أمام المسجد، وأنا لربما في المرحلة الابتدائية في الصف الخامس الابتدائي، ونحن نخرج من صلاة المغرب، رجل وامرأة وقفا في الطريق على أقدامهم، جيران لنا من بعض البلاد فتخاصما وتشاجرا، فالرجل يلطمها على وجهها وترد له اللطمة، وهو يلطمها، وهي ترد اللطمة، لطمة بلطمة، مثل الرجل تمامًا هي صنو له، بل هو ضئيل ونحيل وهي امرأة عظيمة الخلقة بدينة، الحمد لله أنها وقفت على اللطم، وإلا لو جلست عليه لقتلته، فهذا مهم جدًّا، هذا مفصل يحتاج الإنسان أن يتبينه حينما يقال: ضعف، فالطفل كماله وملاحته فيما يصلح له، الرجل كماله في رجولته، ما يصلح أن يلبس الحلي، فيكون شينًا فيه، لمّا يتأنث بكلامه في مشيته في حركاته، الرجل لما يمشي ويقول بيديه هكذا ونحو ذلك، يعني هذا يكون نقصًا في حقه، المرأة إذا ترجلت يكون هذا نقصًا في حقها، إذاً كمالها في أنوثتها، وكمال الرجل في رجولته، فليس هذا من السب أو العيب أو الشين للنساء، فتأنف المرأة منه، وتقول: لماذا نحن هكذا؟ يقال: هذا جمالك، والله المستعان.

الإنسان إذا خرج عن الفطرة ضاع، قرأت مقابلات مع بعض النساء المتبرجات المخالطات للرجال في جامعات مختلطة طالبات في الجامعات، أذكر واحدة مثلاً في بلد من البلاد التي يختلط فيها الناس في المدارس، تقول: تعبنا، كل يوم أبدو بشخصية جديدة بحسب من أجالس من الرجال، فأحياناً أبدو بلهاء، يعني هم ينجذبون لمن فيها بلاهة، وغفلة، فتقول: أبدو بلهاء، وأحياناً أبدو حصيفة، وأحياناً أبدو في صفة أخرى ثالثة ورابعة بحسب من تجالسهم، مرة ملسونة، مرة تبدو رقيقة، وهكذا، والله المستعان.

لكن لو بقيت على أنوثتها لكانت على الفطرة، تقل هذه الأوصاف إذا أكثرت المرأة من الخروج، فإذا خالطت الرجال بدأت تتلاشى الأنوثة عندها، وأظن أنه كما ذُكر في بعض الدراسات أنه يبدو حتى الهرمونات تتأثر بهذا الخروج ومزاولة أعمال الرجال، ومخالطة الرجال، والقيام بوظائف لا تصلح للمرأة، تبدأ المرأة تتغير في سلوكها، في أخلاقها، في طبيعتها، فلا تتلاءم مع الزوج، فسرعان ما تطلق، الذين يريدون للمرأة أن تخرج وتخالط الرجال هؤلاء يجنون عليها جناية بالغة.

وقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ} أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ} أي: بذلك، ويسألون عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

قبل أن نجاوز {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} هنا المعنى الذي ذكرناه هو المعنى الذي عليه الجمهور، لكن يوجد من السلف من قال غير ذلك، يعني ابن زيد والضحاك مثلاً قالوا: {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} يعني الأصنام التي يعبدونها يزينونها بالحلي، وهي لا تُبين عن نفسها، لا تتكلم، ولا تنطق، صماء، لكن هذا المعنى بعيد، ليس المقصود، هؤلاء اطردوا في قولهم {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} يعني الأنداد والشركاء والمعبودين والأصنام، طيب {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ} هذه قرينة على أن المقصود البنات، قالوا: لا، "أومن ينشأ في الحلية" الأصنام نفسها تزين بالحلي ولا تبين عن نفسها، فصار قولهم مطردًا بهذا الاعتبار، يعني غير متناقض، القرينة التي تدل على القول الأول جعلوها بمعنى آخر فصارت تدل على قولهم، لكن القول الأول هو الذي عليه الجمهور، وهو الأرجح، والله أعلم.

قال: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} هذه قرينة واضحة أيضًا على أن المقصود بالجزء البنات، {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ} الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء، وقد مضى في بعض المناسبات، فجعل تأتي بمعنى خلق، قلنا مثل: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [سورة فاطر:١] يعني خالق الملائكة، {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [سورة الأنعام:١] يعني خلق الظلمات والنور.

وتأتي بمعنى حكم أو اعتقد، ولهذا نقول في تعريف التوحيد: مصدر وحد يوحد توحيدًا، وهو من النسبة لا من الجعل، ومعنى من النسبة لا من الجعل أن الموحد ينسب الوحدانية لله -عز وجل- لا أنه يجعله واحدًا، فالله واحد وإن لم يوحده أحد، واضح؟، من النسبة يعني التوحيد، أنت تنسب الوحدانية لله -عز وجل- ولكن لست أنت الذي جعلته واحدًا بتوحيدك، فالله واحد، من النسبة لا من الجعل، فجعل تأتي بمعنى خلق، وتأتي بمعنى صيّر، وتأتي بمعنى حكم، {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} هذه قراءة الكوفيين {الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، وقراءة الجمهور {الذين هم عند الرحمن إناثًا} والملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة هم

خلق آخر، طيب {الذين هم عند الرحمن إناثًا} يعني جعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن، {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} [سورة الأعراف:٢٠٦] يعني الملائكة، هذا معنى "عند الرحمن"، ليسوا عند الرحمن إناثًا، لا، جعلوا الملائكة إناثًا، الملائكة هؤلاء أين هم؟ عند الرحمن، جعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن، ليست "عند الرحمن" متعلقة بما بعدها الذي هو "إناثًا"، {جعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن} فـــ"عند الرحمن" متعلقة بما قبلها، أي الملائكة الذين هم عند الرحمن، {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ} فهذه أيضًا معناها لا يشكل، قال: **أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ}**، قال هنا: **أي: شاهدوه، {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ}** شاهدوه وحضروه، من الشهود {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} هنا سماها شهادة وإن لم ينطقوا بلفظ الشهادة، وهذا تكلم عليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، ومضى في بعض المناسبات، فإن من حكم على شيء فإنه يكون قد شهد بذلك وإن لم ينطق بلفظ الشهادة، فلو أنه قال: إن فلانًا كذا قذفه يعني فيكون قد شهد عليه بالفجور بالزنا، أو لو قال: فلان تقي فيكون قد شهد عليه بكذا، يقال: فلان شهيد يكون قد شهد له بالشهادة، فهذه الشهادة لا يشترط فيها لفظ الشهادة، ولذلك ينبغي أن تكون مستوفية لما ينبغي من التحري والتحقق... إلخ، ومن الذي يستطيع أن يشهد على أحد بأمر لم يتبينه ولم يتحقق منه، وإن لم يأت بلفظ الشهادة لم يقل: فلان شهيد مثلاً كيف يجزم بهذا؟ لا يستطيع أن يشهد لأحد أنه شهيد، يعني في الجنة، لا يستطيع أن يشهد لأحد بجنة ولا بنار إلا لمن شهد الله له، وهكذا.

{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدًا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله -عز وجل-، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَرًا، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [سورة النحل:٣٦]، وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [سورة الزخرف:٤٥].

وقال في هذه الآية -بعد أن ذكر حجتهم هذه-: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به، {إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ} أي: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد في قوله: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ} أي: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

هنا قوله: **الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا** يعني أنهم قالوا: "لو شاء الرحمن ما عبدناهم" كونه لو شاء الرحمن ما عبدوهم هذا صحيح، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام:١٠٧] لكن الإنكار عليهم من أي جهة؟ هو ما يقع شيء إلا بتقدير الله القدر الكوني، فالإنكار إلى أين يتوجه؟.

يتوجه إلى كونهم احتجوا بالقدَر الذي جعلوه دليلاً على المحبة والرضا، يعني يقولون: الله يريد منا هذا، الله يرضى عنا بهذا؛ لأنه قدره علينا **{لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}** هذا الذي ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهو معنى صحيح، فتُفهم عبارة ابن كثير -رحمه الله-، هو لا يخالف بهذا لكن حتى يعرف المراد، يعني في الرابع هنا احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا قد جهلوا في ذلك جهلاً كبيرًا إلى آخره، هو صحيح أن الله قدر عليهم، لكن الإنكار من هذه الحيثية أنهم جعلوا هذا القدر دليلاً على رضا الله، وأنه أحب ذلك منهم، وهذا غير صحيح.

والفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية معروف، الإرادة الشرعية أن الله يحب المراد، وأما الإرادة الكونية فلا تقتضي المحبة، قال: **{مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}** **بصحة ما قالوه واحتجوا به**، **{مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}** يعني هم احتجوا الآن بالقدر، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، **{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}** قال: أي: **بصحة ما قالوه واحتجوا به**، وهذا الذي قاله ابن جرير أيضًا قال: **{إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}** يعني يقولون قولاً لم يتحققوا منه.

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [سورة الزخرف:٢١-٢٥].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ} أي: من قبل شركهم، {فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} [سورة الروم:٣٥] **أي: لم يكن ذلك.**

ثم قال: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}** يعني حجة، السلطان يأتي بمعنى الحجة فلو فسر بالكتاب وما إلى ذلك فهذا كله لا إشكال فيه، "أم أنزلنا عليهم سلطانًا" كقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ}** [سورة فاطر:٤٠]، وهكذا في نظرائه في كتاب الله -تبارك وتعالى- كما سيأتي في سورة الأحقاف **{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [سورة الأحقاف:٤].

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} "أم" هذه هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة، **{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ}** من قبل ماذا؟ كثير من السلف فسروه فقالوا: "من قبله" يعني من قبل شركهم، يقرر لهم هذا "فهم به مستمسكون"، يعني هم حينما يشركون بالله -عز وجل- ويجعلون له البنات إلى آخره ما حجتهم ما متمسكهم

في ذلك؟، **{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ}** [سورة فاطر:٤٠] يعني قبل إشراكهم، هذا قال به كثير من السلف، وبعضهم يقول: **{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ}** يعني من قبل القرآن، كما يقوله ابن جرير –رحمه الله.

وفي قوله: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة الأنبياء:٩٢].

وقولهم: {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ} أي: وراءهم {مُهْتَدُونَ}، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم، {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [سورة الذاريات:٥٢-٥٣]، وهكذا قال هاهنا: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}.

وهذا كثير كقوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}** [سورة البقرة:١٧٠] وهكذا في نظائره **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}** [سورة المائدة:١٠٤]، فهذا مثل: **{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}**، والله –عز وجل– يقول: **{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ}** [سورة الصافات:٦٩-٧٠]، وفي إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– لما حاور قومه ورد عليهم واحتجوا بما كان عليه الآباء ماذا قال لهم، بماذا أجابهم؟ **{قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** [سورة الأنبياء:٥٤] دائمًا هؤلاء يحتجون بما كان عليه الآباء من غير حجة ولا برهان.

ثم قال تعالى: {قل} أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: {أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

هنا الله –عز وجل– يقول: **{قل}** هنا يقول: أي: **يا محمد لهؤلاء المشركين: {أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}**، **{قل أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ}** هذه قراءة الجمهور، وفي قراءة ابن عامر وحفص: **{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ}**، من الذي قال؟ يحتمل "قل" يعني يا محمد، و"قال" أي الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وبعضهم يقول: إن قوله: **{قَالَ}** يعني كل نبي لأمته لما ذكر أن هذا ديدن الأمم مع أنبيائهم –عليهم الصلاة والسلام–: **{إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ}**، قال: أي: كل منذر، كل رسول لأمته، وبعضهم يقول: إن القراءتين كلتيهما في المرسلين مع أممهم، يعني "قال" أي: كل رسول، "قل" يعني أن الله أمر كل رسول أن يقول ذلك، وبعضهم يقول: ذلك في الرسول –صلى الله عليه وسلم–، **{قَالَ}** أي الرسول –صلى الله عليه وسلم–، **{قل}** أي: يا محمد –عليه الصلاة والسلام–: **{أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ}**، **{إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا}** من المقصود بالمترفين؟ **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ}** [سورة المزمل:١١] هؤلاء هم الكبراء وهم أعداء الرسل عادة، وسؤالات هرقل لأبي سفيان لما سأله من يتبعه أكبراء الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هؤلاء هم أتباع الرسل –عليهم الصلاة والسلام–، فهؤلاء المترفون المقصود بهم الكبراء وهم يعادون الرسل عادة؛ لأسباب معلومة:

منها: الأنفة، هو ما تعود أنّ أحدًا يقول له شيئًا، أو يأمره أو ينهاه؛ ولهذا فرعون كان يقول: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** [سورة الزخرف:٥٢]، وقال: **{أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي}** [سورة الزخرف:٥١] يكون في حال من الأنفة والكبر فما اعتاد أن يقول له أحد: افعل، أو لا تفعل، أو ينقاد إليه، ويكون مطيعًا له، وإنما هو الذي يأمر وينهى، ولربما عنده حاشية لو قال لهم: ما الوقت الآن؟ قالوا: الذي تراه، لا يستطيعون أن يقولوا له: نحن الآن في الصباح؛ لأنه لو غضب أو قال: لا، نحن بالليل لم يكن لأحد أن يعترض، فهم يقولون الجواب الصحيح، أن يقولوا: الذي تراه، الوقت هو الذي تراه إن رأيت أنه ليل فهو ليل، وإن رأيت أننا في الظهر الآن أو العصر فنحن في العصر، فما اعتاد أن يأتيه أحد ويقول له: أنا رسول، وينبغي أن تسمع وتطيع وتنقاد وتسلم وتذعن، **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}** [سورة غافر:٢٩]، فيرى أنه ما يراه هو يساوي سبيل الرشاد، هي كذا، ما يراه هو سبيل الرشاد، **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}** فهنا: **{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ}** فهم أَنَفَة، وأيضًا هؤلاء يعادون الرسل غالبًا لماذا؟ لأنه كما قال المعلمي -رحمه الله-: منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، يكون له شهرة، يكون له معيشة، يكون له سلطة، فاتباعه للرسول يذهب عنه هذا؛ ولذلك مسيلمة عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون من بعده، أو أن يكون له الأمر من بعده، أو أن يكون له جزء وللنبي -صلى الله عليه وسلم- جزء، يعني من الإمارة والولاية وما أشبه ذلك.

قال الله تعالى: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجّى الله المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (٢٦) إلى الآية (٤٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف:٢٦-٣٥].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان وهي "لا إله إلا الله" أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم -عليه السلام-، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، ورُوي نحوه عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} نحن ذكرنا مرارًا أن مثل هذا اللفظ: {وَإِذْ قَالَ} تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم.

وقوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ} براء مصدر، ومعنى البراء معروف، وأصل ذلك يرجع إلى مفارقة الشيء ومزايلته، تقول: برء من المرض، من العلة، لِيَهْنِكَ البُرء، فلان بريء من كذا ونحو ذلك إذا فارق الشيء وزايله، فهنا فارق قومه في الله ولله، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي} فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً، ويحتمل أن يكون منفصلاً بأي اعتبار؟.

إذا نظرت إلى أن هؤلاء يعبدون الله -عز وجل- ويعبدون غيره فهم مشركون، فيقول: إنه بريء من معبوداتهم، ولكن من معبوداتهم الله -تبارك وتعالى-، فهو يقول: أنا بريء مما تعبدون إلا الذي فطرني،

فاستثنى من هذه المعبودات المعبود الحق -سبحانه وتعالى-، وبهذا الاعتبار يكون الاستثناء متصلاً، عرفنا أن الاستثناء المتصل ما كان المستثنى من جنس المستثنى منه، وإذا قيل: إنهم لا يعبدون الله أصلاً، وإنما يعبدون غيره -وهي هنا الأصنام، أو أولئك الذين مثلاً يعبدون الكواكب- فيكون الاستثناء منقطعًا، إنني براء مما تعبدون لكن الذي فطرني أعبده وأوحده، ففيها القولان بهذا الاعتبار، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}** [سورة الشعراء:٧٥-٧٧] فهذا كهذه الآية تمامًا، والخلاف في الاستثناء هناك كما هنا سواء.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}** ما هذا الذي أشار إليه؟، الضمير في "جعلها" يرجع إلى ماذا؟ جعلها كلمة، قلنا: إن الضمير يرجع إلى شيء مذكور قبله، فماذا قال لهم؟ قال لهم: **{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}** جعلها يعني جعل هذه الكلمة، ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي: هذه الكلمة** بهذا الاعتبار، ثم قال: **وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله**، وهذا من أحسن ما يكون في التفسير جمع فيه عبارات السلف، أو المعاني، أو الأقوال التي ذكرها السلف، والواقع أن ما ذكره السلف يرجع إلى شيء واحد، فتجد كثيرًا من الآثار يفسرون فيها هذه الكلمة بـــ"لا إله إلا الله"، لكن "لا إله إلا الله" هل ذكرت قبله؟، "وجعلها" الضمير يرجع إلى شيء مذكور في الأصل، قد يرجع الضمير إلى غير مذكور يدل عليه السياق لكن هنا لماذا قال كثير من السلف: هي "لا إله إلا الله"؟، هو باعتبار مضمون ما قاله لهم، قال: **{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}** هذا "لا إله" **{إلا الَّذِي فَطَرَنِي}** فهذا "إلا الله"، إذاً الذي قاله لهم هو مضمون الشهادتين، هو معنى لا إله إلا الله، ومن هنا كثير من السلف فسره بمعناه، يعني ليس بتفسير على اللفظ كما يقال، وإنما هو تفسير على المعنى، التفسير تارة يكون على اللفظ وتارة يكون على المعنى، فيكون هؤلاء فسروه بهذا الاعتبار على المعنى، فابن كثير جاء بالعبارتين جاء بما قاله إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبمضمونه **{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}** قال: **أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم -عليه السلام-**، **{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** **أي: إليها**، هنا نقل عبارات السلف أو بعض العبارات كقول عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي: يعني: لا إله إلا الله في ذريته من يقولها، جعلها في ذريته، **{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}** العقب هم الذرية، تقول: فلان ليس له عقب، فلان له عقب يعني له ذرية، جعل هذه الكلمة باقية فيهم، لم يزل فيهم من يوحد الله -تبارك وتعالى-، يقول: **وقال ابن زيد: كلمة الإسلام**، وكلمة الإسلام هي لا إله إلا الله، فهذا الذي يسمونه اختلاف التنوع، عبارات مختلفة والمعنى واحد، ولهذا قال: **يرجع إلى ما قاله الجماعة**، وهذا كله باعتبار أن الذي جعلها باقية في عقبه هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وهذا عليه كثير من السلف فمن بعدهم، ويكون ذلك مفسَّرًا بقوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [سورة البقرة:١٣٢] كذلك أيضًا: **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}** [سورة البقرة:١٢٩] فدعا الله -تبارك وتعالى- وكان الأنبياء الذين جاءوا بعده -عليه الصلاة والسلام- كلهم من ذريته، فلما ذكر الله -عز وجل- نوحًا وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال: **{وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب}**، فكل نبي جاء بعد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان من ذريته، **{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً**

{بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يعني يرجعون إليها، يعني لم يزل يوجد فيهم من يوحد الله -تبارك وتعالى-، فالزائغون يرجعون ويهتدون إلى الإيمان والتوحيد بوجود من يدعوهم إليه، مَن يوحد الله -عز وجل- فيهم من الأنبياء وأتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يعني لعل هؤلاء الذين ينحرفون عنها من ذريته -من عقبه- يرجعون إليها لوجود من يدعو إليها ولم يزل يوحد الله -تبارك وتعالى- كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

هذه الأقوال كما رأيتم، ابن جرير -رحمه الله- عبارته أيضًا قريبة مما ذكروا، لكنه زاد قليلاً ما لا يخالف ما ذُكر، يعني أن قوله: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} يعني البراءة من المشركين، والتوحيد، قول: لا إله إلا الله؛ لأنه هنا الكلام ماذا قال لهم؟، قال: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} ذكر البراءة من معبوداتهم، والله -تبارك وتعالى- ذكر عنه أنه تبرأ منهم ومن معبوداتهم -أيضًا- كقوله: {إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ} [سورة الممتحنة:٤]، فذكر الكفر بمعبوداتهم، والكفر بهم، وهناك فسر "كفرنا بكم" قيل: بعملكم، بعبادتكم لغير الله -عز وجل-، فابن جرير هنا راعى اللفظ فقال: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} يعني البراءة من المشركين، والتوحيد، قول: لا إله إلا الله، فلم يزل ذلك في ذريته، ومثل هذا ذكره ابن القيم -أيضًا-، يعني يقول: جعل الموالاة والمعاداة -الولاء والبراء- في كل ما يُعبد من دون الله -تبارك وتعالى-، {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} يتوارثها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأتباع الأنبياء، يقول: **وهي كلمة لا إله إلا الله**، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، أصلاً كلمة لا إله إلا الله الآن لو نظرت إلى الشق الأول "لا إله" يعني نحن نقول: إن الولاء والبراء هو من "لا إله إلا الله" باعتبار أن "لا إله" الشق الأول هو براءة من كل معبود من دون الله، وما يتصل بذلك، البراءة من المعبودين، ومن العابدين، و"إلا الله" هو إثبات عبادة الله وحده، وذلك يقتضي محبة هذه الكلمة، ومحبة من يوحد الله -تبارك وتعالى- إلى آخر ما هو معلوم مما تتضمنه هذه الكلمة، هذا كله يرجع إلى شيء واحد {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

ثم قال تعالى: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ} يعني: المشركين، {وَآبَاءهُمْ} أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم، {حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} أي: بيّن الرسالة والنذارة.

{وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والرَّاح كفرًا وحسدًا وبغيًا، {وَقَالُوا} أي: كالمعترضين على الذي أنزله -تعالى وتقدس-: {لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة والسدي، وابن زيد.

وقد ذكر غير واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان.

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ} "جاءهم الحق" يعني ماذا؟ ابن جرير يقول: يعني القرآن، "جاءهم الحق" القرآن، ورسول من الله أرسله إليهم، رسول مبين أي: بيّن الرسالة والنذارة، فإن مبين يأتي من بان كما تقول: بان الصبح لذي عينين، بان الحق يعني ظهر

واتضح، وتأتي مبين بمعني أنه يبين الحق لطالبيه، يبين الحق للناس، رسول مبين، {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} الروايات الواردة في هذا لا يصح منها شيء من جهة تعيين المقصود، من هو الذي قصدوه بذلك {رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ} والأسماء التي تذكر في تلك المرويات مختلفة ليست متفقة؛ ولهذا ابن كثير –رحمه الله– قال: **والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان**، فلا حاجة للتعيين؛ لأنه ليس عليه دليل، ولم تتفق فيه تلك الروايات على ما فيها من الضعف، يعني هم كانوا يرون أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كما قال الله –تبارك وتعالى– عنهم: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} [سورة الأنبياء:٣٦]، يعني يحتقرونه ويزدرونه، والله المستعان، يقولون: ابن أبي كبشة، في سؤالات هرقل لما سأل أبا سفيان لمّا خرج من عنده ماذا قال؟ قال: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، يعني أن يخافه ملك الروم.

قال الله تعالى رادًّا عليهم في هذا الاعتراض: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}؟ أي: ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلى الله –عز وجل–، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلا.

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} ما المقصود هنا بالرحمة؟.

بعض المفسرين فسره بمعنى الرحمة الأعم فيدخل فيه النبوة، وإنزال القرآن، والوحي والرزق والهداية، كل ذلك هو من رحمته –تبارك وتعالى–، {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} باعتبار العموم في اللفظ، ومن نظر إلى السياق والآيات التي تشهد لهذا الموضع فسره بالنبوة وإنزال الوحي؛ لأنهم هم يتحدثون عن هذه القضية، {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} التي هي النبوة وإنزال الوحي، إنزال القرآن على النبي –صلى الله عليه وسلم–، هم معترضون لماذا لم ينزل على فلان وفلان من العظماء في نظرهم؟ {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}؟.

فالذين فسروه بمعنى خاص نظروا إلى السياق، والسياق يحدد المعنى ويبينه ويوضحه، وهذا الذي مشى عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–، وفسر هذا بنظائره كقوله –تبارك وتعالى–: {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة الدخان:٥-٦]، {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة القصص:٨٦] فإنزال الوحي على النبي –صلى الله عليه وسلم– النبوة– هذا رحمة، بل هو من أعظم الرحمة.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}

وقوله: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا} قيل: معناه ليسخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره.

طبعًا هذا هو المعنى الذي عليه الجمهور، {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا} يعني يُسخَّر بعضهم لبعض، باعتبار أن الله فاوت بينهم في الأرزاق والعطاء، فهذا غني وهذا فقير، هذا قوي وهذا ضعيف، فهذا يحتاج إلى المال،

وهذا يحتاج إلى العمل، فهذا يعمل لهذا بالأجر فيسخر له، لو كان كلهم أغنياء لم يعتمل أحد، ولم يوجد من يحرث، ويصنع، ويقوم بالمهن ومزاولة الأعمال التي لربما تكون شاقة ونحو ذلك، لكنه بحاجة إلى المال فيعمل، وذاك بحاجة إلى العمل فيبذل المال، فتقوم مصالح الناس بهذه الطريقة.

لو كلهم أغنياء لم يجدوا من يعمل لهم، فهذا من حكمته -تبارك وتعالى-: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} يُسخَّر بعضهم لبعض، هناك من قال: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} يعني يُبتلى بعضهم ببعض، يَسْخر بعضهم من بعض، يعني لربما الغني يسخر من الفقير، لكنه معنى بعيد لا يدل عليه السياق، والله أعلم.

{وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} خير مما يجمعون من المال، رحمة ربك هنا ما المراد بها؟ قال: أي: **رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا**، هكذا العبارة فيها شيء من الإجمال، لكن هل هذه الرحمة في الدنيا أو في الآخرة؟، "ورحمة ربك" يعني يقول الله -عز وجل- إنه جعلهم في هذا التفاوت، {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فهذا في الدنيا {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} فبعض المفسرين قال: أي: في الآخرة، رحمة ربك في الآخرة خير مما يجمعونه في هذه الحياة الدنيا التي يتفاخرون فيها، وبعضهم طرد ما سبق يعني من تفسير الرحمة بالنبوة {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} يعني النبوة، ثم {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}، يعني النبوة ونزول الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، هكذا قال بعض المفسرين، وبعضهم كالشنقيطي -رحمه الله- وسع المعنى قليلاً فقال: يعني النبوة والاهتداء بهدي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يعني أن الأولين قابلوا هذا العطاء الدنيوي والتفاوت بين الناس فيه بالعطاء الأخروي، {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يعني في الآخرة، وبعضهم نظر إلى أن الرحمة المذكورة هنا هي المذكورة سابقًا، {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} يعني النبوة والوحي، هنا {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يعني النبوة، الشنقيطي زاد في هذا النبوة والاهتداء بهدى الأنبياء أنه أفضل من هذا، خير من هذا الحطام الذي يتنافس فيه الناس، ويجمعونه، والله -تبارك وتعالى- يقول: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس:٥٨] "ورحمة ربك" قد يقال: يدخل فيه النبوة والوحي وما يتصل بعمل الآخرة، وما يتصل بجزائها خير مما يجمعه هؤلاء ويتنافسون فيه.

ثم قال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} **أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال -هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم-** {لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} **أي: سلالم ودرجًا من فضة -قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي وابن زيد، وغيرهم-** {عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}**، أي: يصعدون.**

{وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف:٣٤-٣٥]، {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا} **أي: أغلاقا على أبوابهم** {وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ}**، أي: جميع ذلك يكون فضة،** {وَزُخْرُفًا}**، أي: وذهبًا، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ} يقول هنا: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطينا فيجتمعوا على الكفر لأجل المال..، ونقل هذا عمن قاله من السلف، يعني الآن {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني على الكفر يجتمعون، أي لولا أن يكون الناس على الكفر بالله -عز وجل- بسبب ما يرون من حال الكافرين أنهم في هذا النعيم والترف من البيوت التي من الذهب والفضة {لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ} الله لم يفعل ذلك، "لولا" حرف امتناع لوجود، امتنع هذا العطاء بهذه الصفة -يعني البيوت من الذهب والفضة- لوجود المانع، ما هو المانع؟، أن يكفر الناس جميعًا، لولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا للكفار، هذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ((لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء))[1]، فانظر الآن حال الكفار وما هم فيه من التمكين والقوة وما ذُلل لهم من أسباب العيش، هم أعداد كثيرة، وهم الأغنى، هم العالم الأول كما يقال، والأمطار تنزل عليهم صباح مساء، أجواء جميلة، بلاد جميلة، عمر -رضي الله عنه- لما بكى عندما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ينام على حصير قد أثر في جنبه، وتذكر كسرى وقيصر وما هم فيه ماذا قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-؟، قال: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟))[2]، فليس هذا هو المعيار في كون الإنسان على هدى وحق أن ينظر إلى حاله في الدنيا، وما هو فيه من الترف والنعيم، بينما المعتبر في ذلك هو ما عليه من الدين والاعتقاد والعمل، {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ} فيكون من رحمة الله -عز وجل- بالناس أنه لم يعطِ الكفار هذا العطاء الذي وصف، يعني إذا كان الآن العطاء الذي عند الكفار ما وصل إلى هذا المستوى، ولا قريب منه، ومع ذلك الفتنة بهم عظيمة، فكيف لو كانوا بتلك المثابة؟، والله المستعان.

وبعض المفسرين يقول: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني يجتمعون على طلب الدنيا ويزهدون في الآخرة {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ} إلى آخره، وهذا المعنى لا يبعد عن المعنى الذي قبله، بل قد يرجع إليه، وذلك أنهم إذا أقبلوا على الدنيا وزهدوا في الآخرة فمعنى ذلك أنهم يكونون على الكفر.

وقوله هنا: {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ} أبوابًا يقول: أي: **أغلاقًا على أبوابهم**، يمكن أن يفسر بالأبواب، يعني نفس الأبواب تكون من الفضة {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ} وليس أغلاق الأبواب فقط، إذا كانت السقف من الفضة والدرج من الفضة فما المانع أن يكون الباب من الفضة؟، قال: {وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ} أي: جميع ذلك من فضة، {وَزُخْرُفًا} قال: أي: وذهبًا، ونقله عن هؤلاء من السلف -رضي الله عنهم-، وهذا هو الظاهر وإن

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [الكهف:١٠٥] الآيةَ، برقم (٤٧٢٩)، ومسلم، في أول كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥).

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ}، برقم (٤٩١٣)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وإن تظاهرا عليه}، برقم (١٤٧٩).

كان بعض السلف كابن زيد فسره بما يتخذه الناس من الأثاث، يقول: الزخرف هو هذا الأثاث والأشياء التي يرتفقون بها في منازلهم، الأمتعة ونحو ذلك.

وفسره الحسن بالنقوش والزينة التي تكون، والأقرب -والله أعلم- هو ما ذكره ابن كثير أن المقصود بالزخرف الذهب، {وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا} الزخرف يحتمل أن يكون بعض ذلك بالذهب، وبعض ذلك بالفضة، يعني {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} أي من فضة، {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ} يعني من فضة، {وَزُخْرُفًا}، يعني وذهبًا، أي من الذهب والفضة، أن هذه الأشياء تكون من الذهب والفضة.

ثم قال: {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح، وورد في حديث آخر: ((لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء))، أسنده البغوي.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} هذه القراءة التي نقرأ بها قراءة عاصم قرأ بها أيضًا حمزة، وهي رواية عن ابن عامر، والقراءة الثانية قراءة الجمهور بالتخفيف في "لمّا"، {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} على قراءة التخفيف هذه تكون "إنْ" مخففة من الثقيلة، {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني ليست نافية، معروف أن "إنْ" قد تكون نافية

إنْ هو مستوليًا على أحدٍ *** إلا على أضعفِ المجانين

يعني ما هو مستولٍ على أحد {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ} [سورة هود:٥٤] يعني لا نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، وهذا كثير، تكون نافية، وقد تكون مخففة من الثقيلة، فإذا كانت هنا القراءة {لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بالتخفيف تكون "إنْ" مخففة من الثقيلة، واللام تكون هي الفارقة بين "إن" المخففة والنافية، و"ما" يقولون: زائدة إعرابًا، يعني كأنه هكذا: وإنْ كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

والزيادة كما سبق مرارًا المقصود بها الزيادة إعرابًا، وإلا فلا يوجد في القرآن شيء زائد؛ لهذا يسمونها صلة، ويقولون: زائدة للتوكيد، وهذا معروف، وعلى قراءة التشديد {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} تكون "إنْ" نافية، و"لمّا" تكون حرف إثبات بمعنى "إلا"، أي نَفَى {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ} ما كل ذلك، فالاستثناء من النفي يكون إثباتًا، فتكون "لمّا" حرف إثبات، يعني إلا متاع الحياة الدنيا، وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، هذا على القراءة التي نقرأ بها، {وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا} يعني إلا متاع الحياة الدنيا، الآن "وإنْ كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين".

ثم قال: {وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين صعد إليه في تلك المَشرُبة لما آلى من نسائه، فرآه على رمال حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما

هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- متكئًا فجلس وقال: ((أوَفِي شك أنت يا ابن الخطاب؟))، ثم قال: ((أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا))[٣].

هذا هو الجواب، يعني الذين يقولون: الغرب، ولماذا عندهم أمطار؟ ولماذا نحن ما عندنا؟ ولماذا عندهم هذه الأجواء ونحن ما عندنا؟ لماذا عندهم هذه الأموال ونحن ما عندنا؟ لماذا عندهم وسائل الراحة وإلى آخره؟، يقال هذا الجواب: ((أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا))، وانتهى، باختصار، يعني هو يتنعم كم؟ في بدنه يتنعم لكن كم يجلس؟ هل يُحسب بالمليارات في النار؟، ما في مليارات، إلى ما لا نهاية في النار، فما قيمة هذا المتاع الذي هو فيه؟ مع أن هذا متاع أجساد ولكن الألم الذي يعيشونه في نفوسهم والضيق والحسرة هذا لا يقادر، ولذلك المصحات النفسية في بلاد المسلمين أكثر أو في بلادهم؟، في بلادهم بطبيعة الحال، جيوشهم هذه التي تشرق وتغرب وتهدم البلاد على أهلها لما يرجع أصحابها يرجعون وهم بأي حال؟، اقرأ الإحصاءات والتقارير يرجعون مجانين، أمراض عقلية، وأحسن الأحوال أمراض نفسية، وكثير منهم ينتحر، والذين لم يذهبوا للقتال -عندهم للإجرام والإرهاب- هم أيضًا يعانون الأمرّين، ونسب الانتحار عندهم أعلى، إذًا هذه الحياة المذللة ماذا صنعت؟ هو التنعيم بالأجساد ولكن النفوس في غاية الوحشة، يعني الآن هذا الحال والنعيم والترف هل تحول أولئك إلى ناس سعداء، وفي غاية الانبساط؟ أبدًا هي وجوه كالحة إذا نظرت إليهم رأيت الشقاء في وجوههم -نسأل الله العافية-، بؤس **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}** [سورة طـه:١٢٤] هذه نتيجة حتمية **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}**.

وفي رواية: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟))[٤].

وفي الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة))[٥]، وإنما خوّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء أبدا))[٦]، قال الترمذي: حسن صحيح.

يعني الآن ما قال: بعوضة، البعوضة لا قيمة لها، ومع ذلك ما قال: لو كانت الدنيا تساوي عند الله بعوضة، لا، جناح بعوضة، وما قيمة جناح البعوضة، بل ما قيمة البعوضة، بل ما قيمة البعوض بأجمعه؟ لا قيمة له، جناح بعوضة واحد وليس بجناحين، وإنما جناح واحد ما سقى منها كافرًا شربة ماء، هذه المتع التي هم فيها، وما يأخذونه، وما يحصل من التهافت على ثروات الأمم المغلوبة المقهورة من قِبَل هؤلاء الأعداء، قد تذهب

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها، برقم (٢٤٦٨)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وإن تظاهرا عليه}، برقم (١٤٧٩).

٤ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ}**، برقم (٤٩١٣).

٥ - رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأكل في إناء مفضض، برقم (٥٤٢٦).

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦-٣).

نفس الإنسان حسرات أحياناً؛ لما يرى، ولكن إذا تذكر هذه: لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء، فيهون ذلك عليه، وإلا فهؤلاء كيف قامت دنياهم وحضارتهم؟ على حساب الأمم المنهكة المستعمرة.

هؤلاء خرجوا من حرب مدمرة واستعمروا بلادًا واسعة فاستحوذوا على ثرواتها وسخروا أهلها للعمل الشاق، جاءوا بهم، انظر مثلاً إلى الأعمال العملاقة في بلادهم من الذي قام بها؟ هم؟ أبدًا، القطارات تحت الأرض من الذي حفرها في لندن وفي غيرها؟، الذين جاءوا بهم من المستعمرات من الهنود سخروهم في هذه الأعمال يسومونهم العذاب، والثروات اذهب شرِّقْ وغرب اذهب إلى إفريقية مثلاً، بلاد جنات وأنهار لمن هذه الجنات؟، لتلك الدول المستعمرة إلى الآن، فهم يصولون ويجولون ويتمتعون ويتقلبون فيها، وأهل البلد ككلب الزرع، تحت الأشجار ضعفاء مساكين فقراء لا يجدون قوامًا من عيش، وهذه المزرعة الواحدة أحياناً مائتا كيلو متر بالطائرة يشرفون عليها للمستعمر، للرجل الأبيض.

قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [سورة الزخرف:٣٦-٤٥].

يقول تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ} أي: يتعامى ويتغافل ويعرض {عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ} والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هاهنا: عشا البصيرة.

هنا **{وَمَنْ يَعْشُ}** لاحظ عبارة ابن كثير -رحمه الله- دقيقة يقول: **يتعامى ويتغافل ويعرض، والعشا في العين ضعف بصرها، والمقصود هنا عشا البصيرة**، هنا **{وَمَنْ يَعْشُ}** العشا فسر بالإعراض، هذا قال به جمع من أصحاب كتب معاني القرآن أهل اللغة قالوا: يقال: عشوت عنه يعني أعرضت عنه، وعشوت إليه بمعنى سرت إليه أو قصدته أو نحو ذلك، يعني عكس المعنى السابق، عشوت عنه، وعشوت إليه، هذا قال به هؤلاء كالفراء والزجاج، وكذلك صاحب "تهذيب اللغة" الأزهري، قالوا: بمعنى الإعراض، يعشو عن ذكره يعني يعرض، وبعضهم فسره بما أشار إليه الحافظ ابن كثير، وهو ضعف البصر المقصود به هنا البصيرة، النظر الضعيف يقال له ذلك، يقال: فلان فيه عشا بصري، هذا الإنسان الذي يرى مثلاً في النهار ولا يرى في الليل يقال له: أعشى، تعرفون أنه لُقب بهذا بعض الشعراء، ففسر بضعف البصر، هذا الذي اختاره ابن جرير، وقال به أيضًا الخليل بن أحمد الفراهيدي، لاحظ هؤلاء أئمة في اللغة، ابن كثير جمع في عبارته: يتعامى ويتغافل، يعشو هذا من ضعف البصيرة، ويعرض، **{يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ}** إن قلت: يتعامى فهذا صحيح، وإن قلت: يعرض فهذا الذي يعشو هو في الواقع يتعامى **{نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}**، نسأل الله العافية.

هذه الآيات فيها معانٍ كبيرة، انظر ما نحن فيه في قوله -تبارك وتعالى- عن إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ} إلى آخره، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، وهكذا أيضًا: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} هذه معانٍ كبيرة، هدايات عظيمة هي جواب على سؤالات لربما تدور في نفوس الكثيرين الذين لم تنفتح بصائرهم، ويهتدوا بهذا الوحي، وهكذا هنا: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، ونحن نعرف أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، على قدر إعراضه وعماه يُقيَّض له شيطان، هذا الشيطان يزين له الباطل فيحسب أنه على هدى فيكون سادرًا في غيه، بحسب إعراضه، يعني قد يكون إعراضًا كليًّا فيبقى هذا الإنسان على الكفر والضلالة إلى أن يلقى الله -تبارك وتعالى-، ومهما يرى من الآيات فإنه لا يؤمن ولا يصدق، وتتحول المفاهيم عنده والتصورات والمعايير وما إلى ذلك، فهو يفكر بطريقة أخرى تمامًا، {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}، وهكذا أصحاب البدع والأهواء والضلالات، تجد هذا الإنسان صاحب البدعة الرافضي ونحو ذلك هو في غيه، فيرى أن عمله هذا وأن اعتقاده هو الصحيح فيموت دونه، ويبذل الأموال ويدفع الخمس، وأهل السنة جزء يسير بقدر اثنين ونصف في المائة، فالأموال والعروض لربما أكثر التجار لا يخرج عنها الزكاة، وهؤلاء يدفعون الخمس، يدفعونه طواعية لمن يأكلون أموال الناس بالباطل، {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} وهكذا الذي يطلب الهدى من الفلسفات قديمة أو حديثة معرض عن القرآن لا يقرأ القرآن، ولا يتفهم معانيه، ولا يتدبره، القرآن عنده هو كتاب يقرأ للبركة ولطلب الأجر فقط، فيبحث عن المصحف في أحسن أحواله في رمضان، المصحف مغبر في بيته يبحث عنه يطلبه في رمضان؛ لأنه لا عهد له به أصلاً فيقرأ للأجر، للبركة، لكن من أين يأخذ المفاهيم؟ من أين يأخذ التصورات؟، هو يرى أن القرآن لا يوفي بهذا، وليس فيه إلا أمور قضت وانتهت وزالت وتلاشت، لكن المفاهيم التي تؤخذ في الحياة، في الاقتصاد، في السياسة، في الاجتماع وما إلى ذلك هذه تؤخذ من هذه الفلسفات والآراء وزبالة الأذهان، فمثل هذا الذي يظن أنه على شيء {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} فهذا لما تتحاور معه وتتناقش معه هو يفكر بطريقة أخرى تمامًا، عقله صيغ صياغة أخرى، ويرى أن هؤلاء دراويش، أو أنهم ما عندهم عمل فجلسوا في المساجد يقرءون القرآن، أو يشتغلون بتفسيره أو نحو ذلك، ما عندهم شيء، متفرغ فجالس على سارية في المسجد ويقرأ، وقت فراغ، الحسنة بعشر أمثالها، هو هكذا متصور، ما هو متصور أن هذا القرآن فيه كل الهدايات التي يحتاج إليها البشر، وأن كل هذه الفلسفات التي عنده الحق الذي فيها مضمن بعبارات قصيرة في هذا القرآن، شتان بين من ينظر للقرآن بهذه النظرة، وبين من ينظر إلى القرآن باعتبار أنه تحفة أثرية تقرأ لطلب البركة، أو الاستشفاء، يرقى به المرضى البسطاء، بل حتى الاستشفاء هذا إن كان طبيبًا أحيانًا يرى أن هؤلاء الذين يذهبون يقول: إذا كُسرت يدك يا حاج تروح تقرأ عليها؟!، يخاطب المريض بهذه الطريقة، يقول له: ما لك وللرقية، القرآن لا يعالج هذه الأشياء، إذا انكسرت يدك يا حاج تروح تقرأ عليها؟!

أقول: أقرأ عليها، وأقرأ عليك أنت بعدُ معها حتى تذهب هذه الوساوس التي في رأسك، فهؤلاء عندهم القرآن هو كتاب أخبار، قوم مضوا وقضوا، انتهوا، ما بقي إلا أن تقرأ للأجر فقط، أما الحياة فلها شأن آخر، فهذا مفاهيمه مختلفة تمامًا، هو في عالم آخر، هو يفكر بطريقة أخرى، الماكينة تختلف تمامًا عملت له صياغة جديدة –فرمتة–، أنت في وادٍ وهو في وادٍ، أنت عندك نظارة وهو عنده نظارة أخرى تمامًا، وترى الحياة بلون، وهو يراها بلون آخر، والله المستعان.

{نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} هو يظن أنه على هدى، وإذا سمعت كلامه أحيانًا لربما يقع عندك وهم أن هذا الإنسان يعلم أنه على باطل ولكنه مكابر، لكن أحيانًا تسمع للكلام العفوي الذي يصدر منه تقول: الرجل صادق، يعني هو يتكلم عن قناعات حقيقية عنده، تستغرب كيف يصل الإنسان إلى هذا المستوى، ينحرف هذا الانحراف، ويعتقد أنه على حق، **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [سورة الأنعام:١٠٨] كل أمة، فهذا الرافضي زُين له عمله، والملحد زين له عمله، والنصراني زين له عمله، وإلا فكيف بقيت هذه الفرق، والطوائف، والنحل، والملل على وجه الأرض يتوارثها الأحفاد عن الأجداد؟.

{نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} كقوله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} [سورة النساء:١١٥] الآية، وكقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف:٥]، وكقوله: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} الآية؛ ولهذا قال هاهنا: {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا} أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، {قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}، وقرأ بعضهم: {حتى إذا جاءانا} يعني: القرين والمقارن.

هنا قوله: **{وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}** الضمير يرجع إلى من؟ يحتمل أن يرجع إلى الشياطين، يعني **{نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ}** يعني الشياطين **{لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ}** يعني يحسب الإنس الذين ضلوا وأضلوا **{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم}** يعني يحسبون أن الشياطين على هدى فيما يملون عليهم فيتلقونه، هذا معنى.

والمعنى الثاني: **{وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ}** يعني الشياطين تصدهم عن السبيل، **{وَيَحْسَبُونَ}** يعني الكفار، **{أَنَّهُمْ}** يعني يحسبون أنفسهم أنهم على هدى، وهذا هو الأقرب، والسبب في ذلك –والله أعلم– أن هذا الكافر هذا المشرك أو هذا الضال أو هذا الذي زينت له الشياطين هذا الضلال هو لا يرى الشياطين، ولا يسمع كلامهم، إنما هو يعتقد أن هذه قناعات عنده، وثقافات تلقاها، فهو لا يرى شيطانًا، ولا يسمع شيطانًا، ولو قيل له: هذا من إلقاء الشيطان في قلبك، وهذا من إضلال الشيطان لك لأنف من ذلك غاية الأنفة، فإذًا "ويحسبون أنهم مهتدون" يحسب نفسه هو أنه على شيء **{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}** [سورة المجادلة:١٨]، ولهذا قال الله –عز وجل– في الآيات الأخرى: **{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ}** [سورة فصلت:٢٥] يعني من الشياطين **{فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** زينوا لهم: هذا معنى "ويحسبون أنهم مهتدون"، يعني هو يرى أنه

على صواب وحق وهدى لكنكم أنتم الذين لم تفهموا حقيقة الدين، أنتم فهمتم الدين فهمًا معوجًّا، وهذا المعنى الذي ذكرناه هو الذي عليه المحققون، واختاره ابن جرير، والحافظ ابن القيم، وآخرون.

يقول: {حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} يقول للشيطان، {حَتَّى إِذَا جَاءنَا} هذا المُعرض، قال: **وقرأ بعضهم: {حتى إذا جاءانا}** بالتثنية يعني هذا الضال مع الشيطان، هذه قراءة الجمهور {حتى إذا جاءانا} بالتثنية، يعني القرين والمقارن، القراءة الأولى التي نقرأ بها وهي قراءة حفص، وقرأ بها أيضًا أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحتى على القراءة الأولى {حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي} يحتمل أيضًا، يعني بعضهم يقول: {حَتَّى إِذَا جَاءنَا} يعني هذا الشيطان وكذلك هذا، يعني كل واحد جاء على حدة، قال: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} والأقرب أن هذه القراءة بالإفراد "جاءنا" يعني هذا الضال، قال: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} ولكن مخاطبته له تدل على أنهما جميعًا جاءا، واضح؟، لكن لما كان هو القائل أفرد الضمير بهذا الاعتبار، وإلا فبقية الكلام تدل على أن الآخر معه "جَاءانَا" {قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} كثير من المفسرين فسر {بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} بمعني المشرق والمغرب، ما بين المشرق والمغرب هذا نهاية البعد، تقول: ما بين فلان وفلان كما بين المشرقين، شتان، بينهما كما بين المشرقين، يعني المشرق والمغرب، فذكر المشرقين من باب التغليب، تغليب المشرق على المغرب، وإلا فالمقصود المشرق والمغرب، كما تقول: العمران أي أبو بكر وعمر، وتقول: القمران يعني الشمس والقمر، هذا يسمى التغليب، تُغلب أحدهما على الآخر فتأتي بمثل هذا اللفظ، ما بين المشرقين، مع أن بعضهم كمقاتل قال: المقصود بذلك أبعد مدى ما بين المشرقين، يعني في الشتاء والصيف، ذكرنا في بعض المناسبات كما عند قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [سورة الرحمن:١٧]، {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [سورة الصافات:٥] جمعها، وثناها، وأفرد {الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [سورة المزمل:٩]، ذكرنا هناك المعاني التي تحتملها الآيات، وعرفنا من قبل بالنسبة للمشرق والمغرب أن الشمس لا تخرج من نقطة واحدة طول السنة، وتغيب أيضًا بنفس الدرجة، وإنما تتحول صيفاً وشتاء، فهي في الشتاء يكون خروجها في أقصى جهة الشرق إلى الشمال، هذا في الشتاء، ويكون غروبها إلى أقصى درجة في الغرب إلى ناحية الجنوب، والصيف بالعكس، يعني هي كل يوم يكون لها مشرق غير اليوم الذي قبله، درجات، يعني تكون أقصى درجة إلى جهة الشمال، وأقصى درجة إلى جهة الجنوب، فهي تتنقل طول السنة؛ لذلك تجد الظل يتحول في الشتاء والصيف، يعني ظل المسجد مثلاً هذا بعد الظهر من ناحية الشمال في الشتاء تجد الظل في مكان في الصيف لا تجد الظل فيه بعد الزوال، يتحول إلى الجهة الأخرى، فهي كل يوم في المشرق لها انتقال حتى تصل إلى أبعد مدى، وهكذا في غروبها.

فبعضهم يقول: ما بين المشرقين –بعد المشرقين– يعني أقصى مدى لها في المشرق شتاء وصيفاً، أبعد نقطتين، لكن المعنى الأول هو الأشهر، والذي عليه عامة أهل العلم أن هذا من باب التغليب، {بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} يعني المشرق والمغرب.

ثم قال تعالى: {وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

باعتبار أن الناس يتسلون في الشدائد والمصائب، أما هؤلاء في النار فلا ينفعهم اجتماعهم فيها، يعني لا يخفف عنهم، الناس في الدنيا إذا انفرد الإنسان بالمصيبة عظمت عليه، هذا إنسان مات له ولد أو نحو ذلك، أصابه مرض شديد خطير تعظم مصيبته، فإذا قيل له: فلان أصابه نفس المرض وفلان وفلان ممن يعرفهم، أو إذا مات له أحد فقيل له: فلان مات له كذا، وفلان مات له كذا، وفلان حصل له كذا، وفلان غرق خف عليه ذلك الأمر؛ لهذا تقول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حولي *** على إخوانهم لقتلتُ نفسي

فتخفف مثل هذه الوقائع المتكاثرة وقع المصيبة، لذلك الناس إذا وقع لهم بلاء من وباء أو حرب وكثر القتل فيهم فما يكون هذا القتل مثل لو قُتل واحد في البلد، بلد لا يوجد فيها قتل وقُتل واحد هي حديث المجتمع، حديث الناس، لكن إذا كان القتل -نسأل الله العافية- كثيرًا كالحروب فمثل هذا يخف، فيقتل العشرات فما يكون وقعه مثل لو قُتل واحد فقط.

وقوله: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك.

ثم قال: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} أي: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت، {أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا، ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكّمه في نواصيهم، وملّكه ما تضمنته صياصيهم، هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير.

يعني أن قوله: **{فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}** يعني هؤلاء الكفار الذين كذبوك، أي ليس لك من الأمر شيء، وهنا قال قبله: **{أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ}** الكلام في الكفار، وهذا اختيار ابن جرير.

وبعضهم قال: لا، هذا في أمته -عليه الصلاة والسلام- لكن هذا فيه بُعد، كيف يقال: **{فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ}**؟، السياق كله في الكفار، في المكذبين، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} قيل: معناه لشرفٌ لك ولقومك، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، و معناه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنبياء:١٠]، وكقوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [سورة الشعراء:٢١٤].

{وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ} بعدما قال: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}، {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [سورة آل عمران:١٢٨]، {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} فماذا عليك؟ قال: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ} فهكذا يكون المؤمن ليس عليه هدى الناس، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، وليس له عقابهم، والعذاب الذي ينزل بهم والنقمة هذا إلى الله -تبارك وتعالى-، هو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فما عليك إلا أن تتمسك بهذا الهدى والوحي، فتلك هي مهمتك، أما إنزال العذاب فليس ذلك إليك، اهتداء هؤلاء الناس هذا ليس إليك، هذه من الجمل، والكليات الكبرى، والحقائق التي ينبغي أن يتذكرها الإنسان دائمًا؛ من أجل ألا تتآكل نفسه وتذهب حسرات على هؤلاء الكافرين، والمكذبين والمحاربين لله ولرسله -عليهم الصلاة والسلام-، {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} فكفر هؤلاء لا يورثك ترددًا أو شكًّا أو ريبًا مهما أوتوا من القُدر والإمكانات، ومهما تسلطوا على المؤمنين، فإنك على حق إذا تمسكت بهذا الوحي، فهذه الغلبة المؤقتة التي تكون لهؤلاء المجرمين ليست هي نهاية المطاف، والأمر إلى الله -عز وجل- أولاً وآخرًا، فهو الذي ينتقم منهم وليست هذه من مهامك، إذًا عليك أن تستقيم كما أمرت.

ثم قال: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} هذا القرآن هذا الذي أنزله عليكم لذكر لك.

وهنا نقل عن هؤلاء من السلف أنه شرف، فالذكر يأتي بمعنى الشرف، تقول: فلان له ذكر، فلان صار له ذكر أي شرف، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، إنه لشرف لك ولقومك، يعني أن الله شرفكم بهذا، القرآن نزل بلغة العرب، صارت الرسالة فيهم، وكان الكتاب في بني إسرائيل فقال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢] هذه الأمة، ولذلك حسدهم بنو إسرائيل، وكان ذلك سببًا لكفرهم وتكذيبهم وإعراضهم عن هذا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وعما أنزل إليه مع علمهم به، {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [سورة البقرة:١٤٦] فهذا بمعنى الشرف، شرف لك، لكن هذا التشريف إنما يكون لمن تمسك به واهتدى بهداه، فيكون له من الشرف بقدر ما يكون له من هذا الاهتداء، وإلا فـ{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١] ما نفعه قربه من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا كونه من العرب.

وكون هذا الكتاب يكون تشريفًا لا يعني إلقاء التبعة والمحاسبة {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}؛ ولهذا كما يقول القرطبي -رحمه الله- في موضع آخر في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [سورة الأحزاب:٣٠]: "على قدر المقام يكون الملام"، إذا كان الله -تبارك وتعالى- لعن بني إسرائيل بعد أن اصطفاهم واجتباهم، طردهم من رحمته، وفرقهم في الأرض وجعلهم أممًا، وسلط عليهم من يسومهم الخسف والذل مع أنهم كانوا أهل اصطفاء، لما كفروا به -تبارك وتعالى- عاقبهم بهذه العقوبة، وقال عنهم: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [سورة الجمعة:٥] فهذه الأمة إذا أعرضت عن كتابها وهم

أشرف من بني إسرائيل، فإذا كان بنو إسرائيل كمثل الحمار يحمل أسفارًا وهذه الأمة أشرف من بني إسرائيل، وكتابها أشرف، ونبيها أشرف -عليه الصلاة والسلام-، فإن اللوم المتوجه إليهم، والذم الذي يستحقونه أعظم من الذم الذي يستحقه بنو إسرائيل؛ لأنه على قدر المقام يكون الملام، كما قيل:

كَفُوفَةِ الظُّفرِ تَخفى من حقارتها *** ومثلُها في سواد العين مشهورُ

وخطأُ الجاهلِ المغمورِ مغمورُ *** وخطأُ ذي الشرفِ المشهورِ مشهورُ

القول الثاني الذي ذكره هنا: أن المقصود بالذكر يعني التذكير، {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} تذكير، والقرآن كما قال الله -عز وجل-: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [سورة ص:١] فهو مذكِّر، وهذان المعنيان يمكن الجمع بينهما -والله تعالى أعلم-، فهو شرف وفي الوقت نفسه هو تذكير، فهذه المعاني كلها داخلة تحت الذكر، فالذكر مصدر، ذكر لك هو شرف وتذكير؛ لأنه لا يوجد دليل على تخصيص أحد المعنيين، وكل واحد منهما صحيح، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [سورة النحل:٣٦]، قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: {واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا}، وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعاصر أولئك الرسل فكيف يسألهم؟ فمن حمله على ظاهره قالوا: هذا كان ليلة المعراج لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنبياء، فإن جبريل -صلى الله عليه وسلم- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: اسأل هؤلاء الأنبياء {أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}، يكون السؤال موجهًا في ليلة الإسراء إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا قال به طائفة من السلف كسعيد بن جبير، وابن زيد، والزهري محمد بن شهاب، قالوا: المقصود سؤال هؤلاء ليلة الإسراء.

والقول الآخر الذي عليه عامة السلف أن المقصود سؤال أمم هؤلاء، هذا قال به كثيرون كمجاهد والسدي والضحاك وقتادة والحسن وعطاء والمبرد من أصحاب المعاني -كتب المعاني-، والزجاج، كل هؤلاء قالوا: اسأل أمم من أرسلنا؛ لأن هؤلاء هم الذين أدركهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالله -تبارك وتعالى- أرسل إلى هذه الأمم الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالسؤال لأتباع الرسل الذين على دين الرسل السابقين، وهذا الذي اختاره الفراء وابن قتيبة أيضًا، واختاره ابن القيم، وابن جرير خصه في أهل الكتاب، هو على نفس هذا القول، لكن لماذا خصه بأهل الكتاب؟

لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أدرك قوم نوح ولا قوم هود ولا قوم صالح ولا قوم لوط، إنما مَن الذين أدركهم ويستطيع أن يوجه السؤال لهم؟ هم أهل الكتاب اليهود والنصارى فقط، فابن جرير حينما يقول: أهل الكتابين قبله هو نفس القول حينما يقول هؤلاء من السلف ومن بعدهم: اسأل أمم هؤلاء، مَن مِن الذين

سُيسألون؟ هم اليهود والنصارى، ولذلك انظر هنا قراءة ابن مسعود: {واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا} فتكون هذه تفسيرًا للقراءة المتواترة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (٤٦) إلى الآية (٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [سورة الزخرف:٤٦-٥٠].

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى -عليه السلام- أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه.

أي: قول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}، هذا تكلمنا عليه، والمقصود بالآيات هنا هي ما أعطاه الله -عز وجل- من براهين نبوته، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ} [سورة الإسراء:١٠١] الآية، فهذه الآيات البينات كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [سورة النازعات:٢٠]، ومضى الكلام على ذلك كله، وأن الكثيرين من المفسرين يقولون: هي العصا، يعني الكبرى من هذه الآيات التسع، وهذه الآيات كما قال الله -عز وجل-: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ} [سورة الأعراف:١٣٣]، وهكذا في قوله: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} [سورة القصص:٣١]، وفي قوله: {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [سورة طه:٢٠]، وكذلك أيضًا: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} [سورة القصص:٣٢]، يعني أنه يضم إليه جناحه إذا خاف -شعر بالخوف- بين يدي فرعون فيصيبه الطمأنينة والأمن، وتذهب عنه المخاوف، وتنقشع، وهكذا في اليد، فأخرج يده، {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [سورة النمل:١٢]، يعني من غير برص، فهذه {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} لاحظ عبارة ابن كثير -رحمه الله- أنه قال: **أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع** هذا الملأ من القادة والكبراء، وعرفنا أنه قيل لهم ملأ قيل: لأنهم يتمالئون على القرار، على الأمر، يعني هم أهل الحل والعقد، وقيل: لأنهم يملئون صدور المجالس؛ لأنهم يقدَّمون على غيرهم، ولكن هنا: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}، والأتباع من قوم فرعون كذلك، وهكذا أيضًا الله -تبارك وتعالى- أرسله إلى بني إسرائيل، فموسى -صلى الله عليه وسلم- مرسل إلى بني إسرائيل، ومرسل أيضًا إلى فرعون وقومه، كل هؤلاء، لكن الله -تبارك وتعالى- ذكر هنا أنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه، عبارة ابن كثير قال: **من الأمراء**

والوزراء والقادة، زاد **والأتباع**؛ لأنه مرسل إليهم أيضًا، قال: **من القبط وبني إسرائيل** وهذا كله قد دل عليه القرآن.

وبنو إسرائيل قالوا: **{أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا}** [سورة الأعراف:١٢٩]، قال: **ينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آياتٍ عظامًا كيده وعصاه**، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروها منها، وضحكوا ممن جاءهم بها.

{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا} ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى -عليه السلام-، ويتلطفون له في العبارة بقولهم: {يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ}.

{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا} يعني موسى -صلى الله عليه وسلم- كان أول ما أراهم من الآيات العصا وهي أكبر الآيات، وكذلك أدخل يده ثم أخرجها بيضاء، فهذه من أكبر الآيات التي أعطيها موسى -صلى الله عليه وسلم.

وقال هنا: **{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}** يعني أن الطوفان والجراد والقمل إلى آخره جاءت بعد أن أراهم العصا حية تسعى، وبعدما أراهم يده بيضاء من غير سوء.

فذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بذلك **{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}** أن تتابع هذه الآيات يزيدها قوة، يعني لما تأتيهم الآية الأولى تأتي الآية الثانية تكون مؤيدة لها وزيادة، والثالثة مؤيدة لما قبلها من الآيتين وزيادة، والرابعة وهكذا، فيزداد البرهان وضوحًا وظهورًا، فهكذا قال بعضهم، بمعنى أنه ليس عين الآية أقوى من عين الآية، وإنما هي تدعم ما قبلها فيكون ذلك زيادة في قوة البرهان والدليل الذي جاء به على نبوته -عليه الصلاة والسلام.

وبعضهم يقول: **{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}** يعني من الآية التي سبقتها، وأن هذا يقال لبيان عظم هذه الآيات، تقول: كل دليل أكبر من الذي قبله، كل دليل أعظم من الذي قبله، تقصد بذلك أن هذه الآيات كافية، كل واحدة منها تكفي لبيان صدق ما جاء به، فكيف بها إذا اجتمعت؟!، **{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}**، وقيل لها: أخت هنا باعتبار أنها نظيرة لها؛ فإن نظير الشيء وما يصاحبه أو يقارنه يقال له: أخ، وإذا كان مؤنثًا يقال: أخت، وهكذا.

ويتلطفون له في العبارة بقولهم: {يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ} أي: العالم، قاله ابن جرير.

نعم وهكذا عامة المفسرين إن لم يكن جميع المفسرين، يعني هم الآن في مقام يحتاجون فيه إلى تلطف، هم الآن ليسوا في مقام سخرية وتكذيب، حينما تصيبهم الشدة يلجئون إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- فيقولون وهم يعنون ما يقولون بجد: **{يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ}** فالساحر هنا ليس المقصود به تكذيب موسى -صلى الله عليه وسلم-، وإنما يقصدون به -كما قال ذلك أهل العلم وكاد العلماء أن يطبقوا عليه-: يا أيها العالم، فإنهم كانوا يطلقون لفظ الساحر على العالم، يقولون له ذلك، هذا مدح عندهم؛ لأن السحر لم يكن جريمة بنظرهم، بل كان كمالاً، كان السحر يفشو عندهم، وسبق الكلام على عدد السحرة الذين

جاء بهم فرعون، وأن بعضهم قال: إنهم يصلون إلى اثني عشر ألفًا، وبعضهم أوصلهم إلى أكثر من ثمانين ألف ساحر، والله أعلم، وهذه روايات إسرائيلية، لكن المقصود أنهم عدد كبير، يدل على هذا أنه قال: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ} [سورة الأعراف:١١٢] فهم جاءوا بجميع السحرة، فالسحر كان يفشو في ذلك الوقت {يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ} فهنا لا يفهم منه أنهم لا زالوا يكذبون مع الشدة، لا، هم الآن في مقام تلطف ومحاولة استرضاء لموسى -صلى الله عليه وسلم-، لكن هذا جهدهم، {يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ} يعني حتى في حال الافتقار والحاجة والشدة ما أحسنوا التعبير وإن لم يقصدوا الإساءة، الرجل الأعوج أعوج، ما ترى العِوج؟!، يعني هؤلاء حتى في مقام الشدة يقولون له: {يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ} ما عرفوا النبوة.

وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذمومًا عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يَعِدُون موسى -عليه السلام- إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [سورة الأعراف:١٣٣- ١٣٥].

{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} [سورة الزخرف:٥١-٥٦].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء.

يعني هذا هو المشهور من أقوال المفسرين: {وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} يعني يقصد من تحت قصور فرعون، وذلك كما هو معلوم في البلاد المصرية النيل فهو يقول: هذه تجري من تحتي، يعني من تحت قصوري، وهي لا تختص به، يعني هي تجري تحت كل من يسكن على ضفاف النيل، لكن لما كان هو الملك وجريانها تحت قصره ليس كجريانها تحت بيوت الناس، فهو يرى أن ذلك مزية له على موسى -عليه الصلاة والسلام-، هذا المعنى الذي أشرت إليه آنفًا وهو أن هذه الأنهار لا تختص به، وإنما كل من كان في تلك الناحية فالأنهار تجري من تحت بيوتهم، ولهذا قال بعضهم: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} أي: من بين يديّ، تجري من بين يديّ، وهذا أيضًا كالذي قبله، ولكن كأنهم يشيرون إلى ما قاله الحسن البصري -رحمه الله- {تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} أي: بأمري، يعني وصل الأمر عنده إلى أنه الذي يصرف هذه الأنهار ويجريها ويسيرها كما أراد، تجري بأمري، وهكذا الطغيان حينما يبلغ بصاحبه مبلغه فإنه قد يتصور أنه هو الذي يسيّر هذا الكون

برمته، وأنه طوع أمره، ولهذا لا يستغرب من مثل فرعون أن يقول ذلك؛ لأنه يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤].

لكن بعض أهل العلم كأنهم نظروا إلى المعنى الذي أشرت إليه -أن الأنهار لا تختص به- ففسروا الأنهار بتفسير آخر كما يقول الضحاك: إن المقصود بالأنهار قواد الجيوش والجبابرة والكبراء والرؤساء، أن هؤلاء يأتمرون بأمره، ويخضعون له جميعًا {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} يمشون تحت لوائه، ويطيعونه، وينقادون له، لكن هذا بعيد؛ لأن الأصل في تفسير الأنهار أنها الأنهار المعروفة، ولا يصح أن تفسر بغير هذا من الناس، من الجبابرة، من الكبراء والقادة، لا يصح، هذا يعتبر من التأويل والخروج عن الظاهر من غير دليل، وإن قال به الضحاك -رحمه الله.

وكذلك أيضًا قول من قال: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} يعني الأموال، هذا قاله بعض السلف، ولكن أيضًا لا دليل عليه، لكن ما الذي جعلهم يقولون هذا؟ الذي جعلهم يقولون هذا كأنهم لاحظوا المعنى المشار إليه أن جريان الأنهار لا يختص به، لكن هو يعني بذلك أنه لما كان هو الملك وقد تعاظم هذه التعاظم، وقال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} فيقول: أنا في أبهتي وملكي {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} فالأرض ومن على الأرض ومن تحت الأرض ومن فوق الأرض كل هؤلاء يرى أنهم ملكه وتحت تصرفه ورهن إشارته، فهو يفتخر بهذا الاعتبار، ومن ثَمّ فهو لا يرى أولئك شيئًا، يعني الذين يسكنون في ضفاف أو على ضفاف هذه الأنهار يراهم من جملة مماليكه وخدمه وعبيده، والله المستعان.

المعيار عنده هو هذه الأمور المادية، هذا هو المعيار بالتفضيل والتكريم، وكون الإنسان مُحقًّا أو مبطلاً: ما أُعطي من الدنيا، ولهذا سيأتي {فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ}

والناسُ أكثرهم فأهلُ ظواهرٍ *** تبدو لهم ليسوا بأهل معانِ

فهُمُ القشورُ وبالقشور قوامُهمْ *** واللُّبُّ حظُّ خلاصةِ الإنسانِ

كثير من الناس هذه معاييرهم، ما حال هذا الإنسان، ماذا يركب، أين يسكن، ما هيئته، ما صورته الظاهرة، ما ثيابه، ما لباسه؟، ولا ينظرون إلى الحقائق والمعاني، فهؤلاء أسوتهم في ذلك فرعون.

{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؟، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء، وهذا كقوله تعالى: {فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى} [سورة النازعات:٢٣-٢٥].

وقوله: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ} قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين.

وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن "أم" هاهنا بمعنى "بل"، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: {أَمّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}، قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحًا واضحًا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرءوا: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون -لعنة الله- بذلك أنه خير من موسى -عليه الصلاة والسلام-، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بينًا واضحًا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعني بقوله: {مَهِينٌ} كما قال سفيان: حقير، وقال قتادة والسدي: يعني: ضعيف، وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

نعم، هذه المعاني متقاربة، فالمهين يعني الموصوف بالهوان، والهوان معنى يقارب الذل.

{وَلا يَكَادُ يُبِينُ} يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عَيِيٌّ حَصِر.

يعني موسى -عليه الصلاة والسلام- لما أرسله الله -عز وجل- إلى فرعون قال: **{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}** [سورة طه:٢٧-٢٨] والله -تبارك وتعالى- قال له بعد هذه الأمور التي سألها: **{وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}** [سورة طه:٢٩-٣٢] قال له بعد ذلك: **{قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}** [سورة طه:٣٦] فأعطاه الله -عز وجل-، انحلت هذه العقدة التي كانت في لسانه، وهذه العقدة الذي يظهر أنها كانت عارضة ولم تكن أصلية، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ليس فيهم علل تنفر الناس منهم، ليس فيهم عاهات تنفر الناس من قبول دعوتهم، فكان هذا أمرًا عارضًا ثم بعد ذلك ارتفع وزال عنه، طيب هو لا يزال يقول: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** هذا يحتمل أمرين:

الأمر الأول: أنه باعتبار ما سبق، يعني العلة زالت عندما أرسله الله -عز وجل-، فهو يتكلم عليه باعتبار ما عرف من هذه العقدة التي كانت في لسانه، فهي وإن زالت الآن لكن هو لم يستوعب بعد -أعني فرعون-، والناس لربما لم يعرفوا ذلك، وإنما يعهدون أن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان في لسانه بعض الشيء.

الأمر الثاني: يحتمل أن يكون المراد بذلك أن موسى -صلى الله عليه وسلم- قال: **{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}** يعني لم ينحل بصورة مطلقة وإنما بقي فيه بعض الشيء، ولكنه صار إلى حال يُفهَم فيها كلامه ومراده وخطابه بصورة لا يحصل معها خفاء أو التباس، ولكن بقي من أثر هذه العلة، فلذلك لا زال فرعون يقول: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}**، ولكن كأن الأول أحسن -والله أعلم-، والسبب أن قوله: **{وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** "لا يكاد" فإن "كاد" في الإثبات معروف أنها تدل على النفي، يعني تقول: كاد المطر أن ينزل معناه أنه ما نزلن كاد زيد أن يصل معناه أنه ما وصل، فإذا كانت مثبتة تدل على النفي، وإذا كانت منفية "لا يكاد" "إذا أخرج يده لم يكد يراها" قد تكلمت على هذا بشيء من التفصيل في الكلام على "الأمثال في القرآن" في رمضان في قوله: **{إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}** [سورة النور:٤٠] هل المقصود به أنه يراها لكن بصعوبة؟، بعضهم قال: نعم، المقصود هنا من السياق أنه يراها لكن بصعوبة بالغة، قد يتأمل حتى يراها، تقول: ما كاد زيد أن يصل، ما كاد زيد أن يتخلص من كذا، يعني يتخلص لكن بصعوبة، ما كدت أفهم هذه المسألة، يعني فهمتها ولكن بصعوبة بالغة.

وبعضهم يقول في قوله: **{لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}**: إن المقصود النفي ولكنه عبر بهذا من باب المبالغة، **{إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}**؛ لبيان شدة الظلام، وهذا مشى عليه بعض النحويين، وابن القيم تكلم على هذه الأقوال، وناقشها، ذكرنا هذا هناك فليراجع، فهنا **{وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** يدل على أن الإبانة عنده فيها صعوبة، إذاً هذه الحال التي كان عليها قبل أن يقول: **{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}**.

ويحتمل أن هذا قاله فرعون على سبيل التعالي والتعاظم والبهت، وإلا فموسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن كذلك، وهو الذي قال: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}، والله قال: { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}.

وقوله: {مَهِينٌ} كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخُلقًا ودينًا، وموسى -عليه السلام- هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد.

هنا يقول ابن كثير عن فرعون: إنه حقير خلقة وخُلقًا ودينًا، هذا واضح، لكن خلقة بأي اعتبار؟ باعتبار ما قد علمتم، أليس كذلك؟ يعني هذا الذي يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} وهو من نطفة ويصير إلى جيفة وما بين ذلك ما هو معلوم.

والكفر مهانة ومذلة تلوح على وجه صاحبه، فهو في غاية الهوان والذل، والله -عز وجل- قال: {أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} [سورة المجادلة:٢٠] يعني المحادين له ولرسله -عليهم الصلاة والسلام-، فكل من كان له محادًّا فقد حكم الله -عز وجل- أنه في جملة الأذلين، فكيف إذا كان يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}؟!، الذل يلوح عليه لا يفارقه.

وقوله: {وَلا يَكَادُ يُبِينُ} افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة...

يعني ما قد علمتم، يقولون: لما كان صغيرًا -روايات إسرائيلية- كان يشد لحية فرعون بقوة، ففرعون توجس منه خيفة أن هذا الصغير ليس كغيره، فهمّ به أن يقتله فامرأة فرعون قالت: هذا صغير، لا يميز، أعطِه تمرة وجمرة، وانظر ما يأخذ، فأخذ الجمرة ووضعها في فيه، فهي التي سببت له هذه العقدة.

فقد سأل الله -عز وجل- أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في ذلك في قوله: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [سورة طه:٢٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام.

نعم، هذا أحد الأجوبة التي ذكرتها آنفًا.

فالأشياء الخِلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا كقوله: {فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ} أي: وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، {أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} أي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

نعم، يعني أنه لما قال عن موسى ما قال، وقال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} ، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨] صدقوه في هذا، وانقادوا له واستجابوا، وقبلوا مقالته في نبي الله -عليه الصلاة والسلام-، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} استخف عقولهم، يعني وقبلوا ذلك وصدقوه، حتى في مثل هذه الأمور يوجد من يصدقه، وإذا أردت أن تعرف كيف تُستخف العقول اقرأ في تاريخ الباطنية، وكيف هؤلاء منذ زمن بعيد من قرون متطاولة يجدون أتباعًا، اقرأ في أسماء الفرق فرق كثيرة جدًّا، فرق الباطنية مثلاً، أسماء كثيرة

لهذه الفرق منذ زمن بعيد، وانظر: كل فرقة لها أتباع، كيف راج هذا على الناس في القرن الثالث الهجري والرابع الهجري والخامس الهجري؟، كيف وُجد من يتبعهم، ومن يقبل كلامهم؟، استخفوا عقول الناس.

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}، قال الله تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {آسَفُونَا} أسخطونا.

وقال الضحاك عنه: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وغيرهم من المفسرين.

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأيت الله -عز وجل- يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له))، ثم تلا: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}[1].

وعن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذُكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر، ثم قرأ: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}.

وقال عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: وجدت النقمة مع الغفلة، يعني قوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وقوله: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ} قال أبو مِجلز: {سَلَفًا} لمِثل من عمل بعملهم.

يعني أن من عمل عملهم يُلحق بهم، يصيبه ما أصابهم، كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** [سورة الفجر:١٤] لما ذكر مَن أهلكهم، وكذلك أيضًا بقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}** [سورة هود:٨٣].

وقال هو ومجاهد: {وَمَثَلا} أي: عبرة لمن بعدهم، والله -سبحانه وتعالى- الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

نعم عبرة لغيرهم، الآن عرفنا أن القصص تكون من قبيل الأمثال كما قال شيخ الإسلام، وذلك لما فيها من العظة والعبرة، وأن الأمثال إنما تذكر للاعتبار، فيرجع من حال أولئك إلى الحال التي هو فيها، فيتجنب ما حل بهم، أو أن يفعل فعلهم؛ لئلا يقع به ما وقع لهم **{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ}**، ابن جرير يفسر قوله: **{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا}** يعني مقدمة يتقدمون إلى النار، يعني يتقدمون كفار قومك -كفار قريش- يا محمد، **{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا}** فأهلكهم الله -عز وجل- كما قال: **{أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا}** [نوح:٢٥] فجعلهم سلفاً يتقدمون من كتب الله -عز وجل- له الغواية وحقت عليه كلمة العذاب.

---

١ - رواه الروياني في مسنده، برقم (٢٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (٥٧) إلى الآية (٧٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرحيم

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [سورة الزخرف:٥٧-٦٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} قال غير واحد عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والسدي: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون، وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا}** من الذي ضربه مثلاً؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتطرق إلى هذا من الذي ضربه مثلاً فحصل منهم هذا الذي ذكره بعده **{إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}**؟ عامة السلف كما تدل عليه أيضًا الرواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في سبب النزول أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر لهم أن الآلهة التي تعبد من دون الله -عز وجل- لا خير فيها، هكذا في الرواية عن ابن عباس التي صح سندها في سبب النزول غير ما ذُكر هنا من روايات لا تخلو من ضعف، فكان الإيراد على ذلك أنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المعبودات من الشمس والقمر وما إلى ذلك فأخبر أنها في النار، ثم سألوه عن المسيح -عليه الصلاة والسلام-، عُبد من دون الله المسيحُ، الملائكةُ، عزيرٌ، فقرأ عليهم: **{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}** [سورة الأنبياء:١٠١].

فالحاصل أنهم فرحوا بذلك، يعني فرحوا بهذا الاعتراض بإيراد المسيح -عليه الصلاة والسلام-، يعني كأنهم خصموا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهنا روايات لا تخلو من ضعف أن ابن الزِّبَعْرى قال: إنه سيخصم النبي -صلى الله عليه وسلم- لما بلغته هذه الآية: **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}** [سورة الأنبياء:٩٨] ما تعبدون، كل ما تعبدون في النار، فهذا أورَدَ المسيح أنه عُبد من دون الله إذًا هو في النار،

وأنت تثني عليه وتذكره بخير، يعني زعموا أنهم خصموا النبي -صلى الله عليه وسلم- فرحوا بهذا الإلزام بزعمهم، فضجوا فرحًا، هذا وجه.

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ} من الذي ضربه مثلاً؟، يكون ضرب المثل بعيسى -صلى الله عليه وسلم- من قبل المعترض المعارض للنبي -صلى الله عليه وسلم-، الاحتمال الآخر أن يكون ذلك **{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}** كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: لما شبه الله عيسى -عليه الصلاة والسلام- في إحداثه وإنشائه إياه من غير أب بآدم **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}** [سورة آل عمران:٥٩] يعني هذا دليل على قدرة الله -عز وجل- وليس ذلك يقتضي أن يتوجب التقديس والعبادة لعيسى -عليه الصلاة والسلام-، بل يدل على عظمة الله وقدرته، فلما شبه الله عيسى بآدم حيث خلق عيسى -عليه الصلاة والسلام- من غير أب وآدم من غير أب ولا أم إذا هؤلاء الكفار يضجون من هذا المثل.

لماذا يضجون؟ ابن جرير يقول: يقولون: ما يريد محمد إلا أن نعبده كما عبدت النصارى ابن مريم، يعني قالوا: أنت تذكر المسيح ماذا تريد؟، تهدف إلى ماذا مِن ذكر المسيح؟، حينما تذكرنا بالمسيح هل تريد منا أن نعبدك كما عبدت النصارى المسيح؟ فالمقصود أنه على قول ابن جرير: **{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}** يكون من الذي ضربه؟ هو الله **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}** ضجوا، لماذا ضجوا؟ فرحًا؟ لا، جزعًا ونفورًا قالوا: ما تريد إلا أن نعبدك كما عبدته النصارى، لماذا تذكر المسيح؟ هذا في ضرب المثل، وقد مضى الكلام على ضرب المثل مفصلاً ما معنى ضرب المثل، وذكرنا قريبًا أيضًا إشارة إلى هذا أليس كذلك؟، وقلنا: الضرب يأتي لمعانٍ منها: ضَرَبَ الخباء بمعنى أقامه، فضرب المثل يحتمل أن يكون بمعنى إقامة المثل، أو إبراز المثل، ويأتي الضرب بمعنى ضرب العملة وصياغتها، فيكون ضرب المثل بمعنى صناعة المثل، أو صياغة المثل، والضرب في الأرض السير فيها، كل هذا مضى، **{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}** أقيم، جُعل، صُيِّر بهذه المثابة، وعرفنا أن المثل يرجع إلى معنى الشبه في غالب استعمالاته، **{إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}** نقل هنا عن جماعة من السلف قال: **يضحكون**، يعني فرحًا وإعجابًا بذلك، إعجابًا بالإلزام والاعتراض، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون، وقال إبراهيم النخعي: يعرضون، لاحظ هذه المعاني المذكورة كل هذا بأي اعتبار؟ بحسب ما يفسر به ما قبله، من الذي ضرب المثل؟، إذا قلنا: المقصود أن الله -تبارك وتعالى- ضرب به المثل **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}** فهذا أوجب لهم النفور، وإذا كان الذي ضربه واحد منهم معارضة لقوله تعالى: **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}** [سورة الأنبياء:٩٨] فيكون ذلك على سبيل الفرح بهذا الاعتراض والإلزام بزعمهم.

وقوله: **{يَصِدُّونَ}** فيه قراءتان: "يصِدون" و{يصُدون}، فقراءة نافع وابن عامر والكسائي بالضم {يصُدون}، جمع من أصحاب المعاني يقولون: هما لغتان، المعنى واحد، هذا يقول به كبارهم كالفراء والكسائي والزجاج، "يَصِدون" و"يَصُدون" لا فرق، لغتان والمعنى واحد، يعني يضجون وما إلى ذلك، وبعضهم فرق بين اللغتين فقال: إنه بالكسر يضجون، "يصِدون" يعني يضجون، يصيحون، وبالضم "يصُدون" يعني يعرضون، وأبو عبيد -رحمه الله- الإمام في التفسير واللغة والقراءات كما هو معروف وهو من أهل الحديث والفقه يقول: إن المعنى هنا **{إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}** يعني يضجون ويضحكون إلى آخره مما ذكر من الألفاظ القريبة من هذا

المعنى، وليس معناه الإعراض، ما الذي حمله على هذا التفسير؟، قال: {إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ} لو كان المراد الإعراض لقال: عنه، هنا قال: "منه" ولم يقل: عنه، ولو قال: عنه لقلنا: هذا بمعنى الإعراض، لكن لما قال: "منه" دل على أن المراد يضحكون وليس يعرضون، لكن هذا لم يسلَّم له، الفراء يقول: إن حروف الجر تتناوب فمنه وعنه مؤداهما واحد، مع أننا عرفنا أن الفراء يقول: هما لغتان، ويفسر ذلك بمعنى يضجون إلى آخره، يعني هو يتفق مع أبي عبيد في النتيجة إلا أن أبا عبيد نظر إلى التعدية الحرف منه وعنه، والفراء نظر إلى أن يصِدون ويصُدون معناهما واحد، وأن أسباب النزول الواردة والسياق يدل على أنهم كانوا يضجون ويضحكون من هذا المثل، وليس معناه ينفرون، فلو فُرق بين القراءتين وقيل: كل واحدة لها معنى لكان "يصُدون" على قراءة الضم يعني يعرضون، وقراءة الكسر يعني يضجون، يضحكون وما إلى ذلك.

والعبارات التي ذكرت في معنى "يصدون" عبارات متقاربة ترجع إلى شيء واحد غير المعنى الآخر الذي ذكر يعني يعرضون، يعني على المعنى الأول يضجون، يضحكون، يصيحون فرحًا بذلك المثل المضروب، هذه كلها عبارات متقاربة، يعني أنهم لما ذُكر هذا المثل ارتفعت أصواتهم فرحًا واستبشارًا ضحكًا أنهم خصموا النبي –صلى الله عليه وسلم–، هذا على قول الأكثر باعتبار أن الذي ضرب المثل –صدر منه ضرْب المثل– هو المعارض.

انظر إلى هذه الروايات مع شهرتها لكن هذا قول الأكثر، يعني هذه الرواية التي يذكرها هنا من أن ذلك صدر من النضر بن الحارث –يعني المعارضة–، هذا الذي عليه عامة المفسرين، مع أن الرواية لا تخلو من ضعف، لكن الخبر له أصل كما جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قصة النضر حسنها الشيخ الألباني، عامة المفسرين يذكرون هذه في سبب النزول، يعني هي في إسنادها ضعف، ولكن بمجموع الطرق والروايات تعتضد، فالرواية لها أصل، وإن كانت لا تخلو الطرق من ضعف.

وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة...

لاحظ محمد بن إسحاق أصلا ضعيف وقال: فيما بلغني، فالرواية فيها ضعف، لكن مجموع الروايات يدل على أن أصل القضية ثابت.

حيث قال: وجلس رسول الله –صلى الله عليه وسلم– –فيما بلغني– يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} الآيات [سورة الأنبياء:٩٨]، ثم قام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى التميمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا محمدًا: أكلّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكِر ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: ((كل من أحب

أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته))[1]، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [سورة الأنبياء:١٠١] أي: عيسى وعزير ومن عُبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله -عز وجل-، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله، ونزل فيما يُذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} الآيات [سورة الأنبياء:٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى -عليه الصلاة والسلام- وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليدِ ومن حضره من حجته وخصومته: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله.

ثم ذكر عيسى فقال: {إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: {فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.

وذكر ابن جرير من رواية العَوفي، عن ابن عباس قوله: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} قال: يعني قريشًا لما قيل لهم: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [سورة الأنبياء:٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: ((ذاك عبد الله ورسوله))، فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربًّا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربًّا، فقال الله تعالى {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[2].

هذه الرواية هي لا تخلو من ضعف أيضًا، بالإضافة إلى أن سبب النزول هنا غير صريح، قال: فقال الله -عز جل-: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}، مع أن الغالب أن مثل هذا السياق يقصد به سبب النزول، لكن الرواية لا تخلو من ضعف، وكأن ابن جرير -رحمه الله- اعتمد على هذا حينما فسره بالإعراض، أنهم نفروا حيث قالوا: إن محمدًا ما يريد إلا أن نعبده كما عبدت النصارى ابن مريم، لكن الرواية لم تصح، والذي عليه عامة أهل العلم -قول الجمهور- أن "يصدون" بمعنى يضحكون، ويذكرون ما سبق في سبب النزول وأن الذي ضرب المثل هو المعارض وهو ابن الزبعرى، فكان ذلك من قبيل الفرح بهذا الاحتجاج والإلزام.

وقوله: {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ} قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: {وقالوا أآلهتنا خير أم هذا}، يعنون محمدًا -صلى الله عليه وسلم-.

يعني هنا {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ} ابن جرير -رحمه الله- ذهب إلى أن الضمير هنا يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني كما سبق بناء على قوله فهو يطرد معه، أنهم قالوا بناء على كلام ابن جرير الأول، بناء على الرواية السابقة عن ابن عباس التي قلنا: لا تخلو من ضعف، قالوا: ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربًّا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربًّا، فكان ذلك بمعنى ينفرون، على قول ابن جرير {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ} أي: خير أم محمد -عليه الصلاة والسلام-؟، يعني يريد أن نعبده {أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}؟، فنحن

---

١ - انظر: سيرة ابن هشام (١/٣٥٩)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٥٢-٥٣)، وصحيح السيرة النبوية (ص: ١٩٧).

٢ - انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٦٢٣).

لا نترك آلهتنا، ابن جرير يطّرد مع قوله، والجمهور على قولهم بأنهم يضجون فرحًا بالإلزام إلى آخره في قصة عيسى-صلى الله عليه وسلم- لما اعترضوا به {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}، يعني أم عيسى -عليه الصلاة والسلام-؟، هذا الذي عليه عامة المفسرين، بمعنى أنهم يقولون: إذا كان كل من عبد من دون الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة، فهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو الأقرب -والله أعلم-، والشيخ الشنقيطي -رحمه الله- تكلم على هذا ورجح هذا القول أيضًا، يراجع كلامه.

وقراءة ابن مسعود: {وقالوا أآلهتنا خير أم هذا} يعنون محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، القراءة الأحادية تفسر المتواترة.

وقوله: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا} أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل.

يعني هذا رد العلماء عليهم، {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} العلماء يردون عليهم يقولون: أصلاً ابن الزبعرى هذا مجادل وهم كذلك -أي المشركون-، وليس لهم أصلاً أن يفرحوا بمثل هذه الحجة التي لا يصح الاستدلال بها، لماذا؟ قالوا: إنه قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} فـــ"ما" تستعمل لغير العاقل فيدخل فيها الأوثان والأصنام والأحجار والأشجار التي يعبدونها، هذه الأشياء التي لا تعقل، وأن العاقل يعبر عنه بـــ"مَن"، ما قال: إنكم ومَن تعبدون من دون الله، قالوا: أصلاً ابن الزبعرى مخصوم منذ البداية والآية لا تدل على هذا، هذا رد العلماء، كثير من العلماء رد بهذا الرد، لكن ابن الزبعرى ومن معه يبقى أنهم عرب ويفهمون اللغة، هم أهل الفصاحة، فالمعروف أنه تستعمل مثل هذه الصيغ التي هي لغير العاقل مثلاً للعاقل لعلل معينة معلومة يذكرها أهل العربية، يذكرون ثلاث علل لاستعمال "ما" التي هي لغير العاقل لما يعقل، والعكس "من" فيما لا يعقل، مِن هذه العلل في الاستعمال: التغليب، هذه المعبودات التي تعبد من دون الله -عز وجل- كثيرة جدًّا منها أشجار وأحجار ومياه وفئران وبقر وشمس وقمر وكواكب، فهذه أكثر مما عُبد مما يعقل، ما الذي عُبد مما يعقل؟ عُبدت الملائكة ليس المقصود أفراد الملائكة فهم كثر لا يعلمهم إلا الله لكن جنس الملائكة، والمسيح، وعزير -عليهم الصلاة والسلام-، فعلى هذا يكون من باب التغليب {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي ردُّ أهل العلم ابتداء عليهم لو كان هذا فعلاً لا يرِد لكان الرد عليهم بهذه الطريقة: أن الآية أصلا لا تشمل هؤلاء في لفظها وفي صيغتها، لكن ما جاء الرد هكذا.

أي مراءً وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء:٩٨]، ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل))، ثم تلا هذه الآية: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ

{إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[٣]، ورواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه.

وقوله: {إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} يعني: عيسى -عليه الصلاة والسلام- ما هو إلا عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، {وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: دلالة وحجة وبرهانًا على قدرتنا على ما نشاء.

الآن هذه الضمائر متتابعة كلها في عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فالقول: إن الضمير في قوله: **{وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}** المقصود به هو محمد -صلى الله عليه وسلم- من قال ذلك يكون قد فرق الضمائر، والقاعدة أن توحيد مصدر الضمائر مقدم على تفريقها، هذه الضمائر هي في عيسى -عليه الصلاة والسلام- **{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}** يعني عيسى -صلى الله عليه وسلم- **{إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ}** يعني عيسى -عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ} أي: بدلكم {مَلائِكَةً فِي الأرْضِ يَخْلُفُونَ}، قال السدي: يخلفونك فيها، وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضًا، كما يخلف بعضكم بعضًا، وهذا القول يستلزم الأول، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ} قال هنا: **أي: بدلكم {مَلائِكَةً فِي الأرْضِ يَخْلُفُونَ}**، يعني أن نستبدلكم، **قال السدي: يخلفونك فيها** يعني في الأرض، **وقال ابن عباس وقتادة: يخلف بعضهم بعضًا**، وهذا القول يستلزم الأول بأي اعتبار؟ الأول: يخلفونكم فيها، يخلف بعضهم بعضًا، يعني إذا خلفوكم فيها خلف بعضهم بعضًا، استلزم الأول، لكن الأول لا يستلزمه؛ لأنهم قد يخلفونكم ثم لا يخلف بعضهم بعضًا، **وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم، {وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ}**، بعضهم يقول: **{لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً}** يعني جعلنا من بني آدم ملائكة، واضح؟ **{لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ}** هكذا فسره بعضهم، والأكثر أن المقصود أن يُسكن ملائكة في الأرض بدلاً منكم، بعضهم يقول: المقصود من هذا لو نشاء لأسكنا الملائكة الأرض، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يُعبدوا من دون الله -عز وجل-، **{وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ}** يعني ماذا تعبدون؟ الملائكة، يا من عبدتم الملائكة لو شاء الله -عز وجل- لجعلهم في الأرض؛ فإن إسكانهم السماء لا يقتضي تشريفًا يوجب العبادة، والآية تحتمل هذا وتحتمل أن يكون المراد أن الله -تبارك وتعالى- يخبر عن غناه عن هؤلاء الناس الذين كفروا وعبدوا غيره، وكابروا وجادلوا وأعرضوا عن حججه وبراهينه أنه لو شاء لجعل بدلاً منهم ملائكة.

---

٣ - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الزخرف، برقم (٣٢٥٣)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اجتناب البدع والجدل، برقم (٤٨)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢١٦٤)، وقال محققوه: "حديث حسن بطرقه وشواهده، وأبو غالب -وهو البصري نزيل أصبهان- يعتبر به في المتابعات والشواهد، ومَن دونه لا بأس بهم، عبد الواحد الحداد: هو ابن واصل أبو عبيدة البصري"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٣٣).

وقوله: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} الصحيح أن المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} أي: قبل موت عيسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [سورة النساء:١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: {وإنه لعَلَمٌ للساعة} أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم -عليه السلام- قبل يوم القيامة إمامًا عادلا وحكمًا مقسطًا.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} قال: **الصحيح فيه أن المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة** هذا الذي عليه عامة أهل العلم، هذا الذي عليه الجمهور، والأدلة تدل على هذا، وإلا فإن بعض السلف قال: المقصود بذلك القرآن {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} كما جاء عن الحسن وغيره، وبعضهم يقول: كون عيسى -عليه الصلاة والسلام- من غير أب هذا دليل على قدرة الله -عز وجل- على البعث والنشور والقيامة -قيام الأجساد من قبورها-، وأن الله يحيي الموتى، هذا كله يدل على صحة البعث، وبعضهم يقول: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} أي محمد -صلى الله عليه وسلم- كما قال: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[٤]، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود بذلك عيسى -صلى الله عليه وسلم-، والسياق كله في عيسى -عليه الصلاة والسلام-، والضمائر ترجع إليه، {لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} على هذه القراءة المتواترة، كيف عُبر عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- بهذا "عِلْم للساعة" جعله عِلْمًا؟، يعني كأن هذا من قبيل المبالغة لما يحصل من العلم بها بنزوله -عليه الصلاة والسلام- أنها قريبة توشك أن تقع، {لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} على سبيل المبالغة، يعني جعله عِلمًا فهو سبب للعلم بقرب وقوعها إذا نزل في آخر الزمان -عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن يأجوج ومأجوج، وهم في ذلك الحين أشراط الساعة الكبرى التي تتتابع كعقد قد انفرط {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [سورة الأنبياء : ٩٧] فالقيامة تكون على وشك عند ذلك، أما هذه القراءة الأخرى "لعَلَم للساعة" فهي مروية عن بعض الصحابة وغيرهم كابن عباس وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهم-، ويكون معناها "وإنه لعَلَم للساعة" أي: عَلَم من أعلامها، من أماراتها، من دلائلها، هنا قال: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة.

وقوله: {فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا} أي: لا تشكُّوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، {وَاتَّبِعُونِ} أي: فيما أخبركم به {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ} أي: عن اتباع الحق {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ} أي: بالنبوة {وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ}.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))، برقم (٦٥٠٤)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥١).

المقصود بالبينات يعني المعجزات الواضحات والبراهين الساطعات على نبوته، يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله –تبارك وتعالى–، وبعضهم يقول كقتادة: المقصود بالبينات الإنجيل، لكن الأول هو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو الأقرب، وإن كان الإنجيل من جملة البينات.

{جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ} قال: أي: **بالنبوة**، وبعضهم فسره بالإنجيل، وبعضهم فسره بما يرغِّب في الامتثال والعمل بطاعة الله –تبارك وتعالى–، بما يأمر بالجميل وينهى عن القبيح، "جئتكم بالحكمة"، والنبوة متضمنة لهذا، والإنجيل أيضًا متضمن لهذا.

{وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية.

نعم هو جاء من أجل هذا، الرسل –عليهم الصلاة والسلام– ما جاءوا من أجل بيان الأمور الدنيوية، وإنما جاءوا يبينون ويعرفون الناس بمعبودهم –تبارك وتعالى–، وبالطريق الموصل إليه، وتفاصيل الصراط، وبالدار التي يصيرون إليها.

فالصراط تفاصيله هو ما يتعلق بالشرائع والأخلاق وما إلى ذلك مما جاءت به الرسل –عليهم الصلاة والسلام–، وأتباع الرسل من الدعاة إلى الله –عز وجل– لا يصح أن يتحولوا إلى دعاة دنيا يعلمون الناس دنياهم، يقيمون لهم الدورات كيف تنمي مالك، كيف تثمر مالك، كيف ترتبين وتنسقين ديكور المنزل، كيف تختارين الألوان، كيف تختار الملابس، كيف تعاشر أهلك، ما هي المعاشرة بالأخلاق، لا، الجماع، يوجد من يتكلم في هذا، فالرسل –عليهم الصلاة والسلام– ما جاءوا يبينون للناس مثل هذه الأمور كيف يكسب المال، كيف يجمع المال، كيف يثمره وتكون أرصدته كبيرة، فلا يصح أن يتحول الدعاة إلى أساتيذ في أمور المعاش والدنيا، ويعلمون الناس طرق المكاسب، فالناس ليسوا بحاجة إلى هذا، هم أحرص ما يكونون عليه لكن الناس بحاجة إلى من يعظهم، من يذكرهم، من يعلمهم شرائع الإسلام، ويبين لهم الحلال والحرام، ويعرفهم بربهم –تبارك وتعالى– وبالدار التي يصيرون إليها.

يقول ابن جرير: "الذي تختلفون فيه" من الأمور الدينية لا الدنيوية، فأجمل في ذلك، بعضهم يقول: الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة، وهذا أخص مما قاله ابن جرير، فهم قد يختلفون في أشياء من أحكام التوراة ويختلفون في أمور أخرى، وبعضهم يقول: المقصود بذلك اختلاف الأحزاب في أمر عيسى –عليه الصلاة والسلام–، يقول: **{وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ}** الذين تحزبوا في أمر عيسى –صلى الله عليه وسلم– فبعضهم قال: هو الله، وبعضهم قال: ابن الله، وبعضهم يقول: ثالث ثلاثة، فعيسى –صلى الله عليه وسلم– جاءهم بالبينات، ويبين لهم بعض ما يختلفون فيه، وكان بينهم أمور لا شك أنهم اختلفوا فيها وحرفوا كتابهم، وبعضهم يفسره بغير هذا **{بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ}** قالوا: إن عيسى –صلى الله عليه وسلم– بين لهم بعض الأشياء التي يختلفون فيها، وبعضهم قال: لا، إن "بعض" بمعنى "كل" يعني يبين لهم جميع ما يختلفون فيه، وإنه عُبر بهذا على سبيل التجوز كما يقوله أبو عبيدة معمر بن المثنى، يعني لا يدع لهم شيئًا يختلفون فيه إلا بينه كما قال الله –تبارك وتعالى–: **{يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ}** [سورة غافر:٢٨] على تفسيره بأنه يصيبكم جميع ما وعدكم؛ لأنه خبرٌ حقٌّ صدقٌ، يصيبهم جميع ما وعدهم به، فقال: **{بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ}** هذه يمكن أن

تفسرها الآية الأخرى: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [سورة آل عمران:٥٠] كما يقوله مقاتل، لكن ما ذكره ابن كثير –رحمه الله– أو ابن جرير أوفى في المعنى من هذا كله، والله تعالى أعلم.

وهذا الذي قاله حسن جيد.

وقوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ} أي: فيما أمركم به، {وَأَطِيعُونِ}، فيما جئتكم به، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب –عز وجل– وحده.

وقوله: {فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} أي: اختلفت الفرق وصاروا شيعًا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله –وهو الحق–، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله –تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا–، ولهذا قال: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}.

{فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} هنا يقول: **اختلفت الفرق وصاروا شيعًا فيه**، من المراد بالأحزاب؟، بعض السلف كمجاهد يقول: المقصود بهم اليهود والنصارى؛ لأن عيسى –صلى الله عليه وسلم– بعث إلى بني إسرائيل، فاليهود قالوا فيه مقالتهم الشنيعة، والنصارى غلا فيه من غلا منهم على اختلاف في أقوالهم فيه، وخص بعضهم الأحزاب بفرق النصارى التي اختلفت فيه، وحملُه على اليهود والنصارى أقرب –والله تعالى أعلم–؛ فإن هؤلاء من جملة من اختلف في عيسى –صلى الله عليه وسلم–، وقوله –تبارك وتعالى–: **{فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}** يعني: اختلفوا فيما بينهم، وبعضهم يقول: اختلفوا من بين من بُعث إليهم من اليهود والنصارى، **{فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}** أي: فيما بينهم.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} [سورة الزخرف:٦٦-٧٣].

يقول تعالى هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل {إلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}؟ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين لها، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

يعني أنها تأتيهم تفاجئهم كما قال الله –عز وجل–: **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}** [سورة الأعراف:١٨٧] فهي تأتي مباغتة لا يتوقعها الناس، كما جاء عن النبي –صلى الله عليه وسلم– يعني هذا الذي يصلح حوضه ثم لا يسقي منه، وهذا الذي قد رفع اللبن، أو هذا الذي قد حلب ناقته فلا يطعم منه، وهذان يمتاران الثوب نشراه بينهما فلا يتبايعانه، فهي تأتي تفاجئ الناس، كما قال الله –عز وجل–: **{بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا}** [سورة الأنبياء:٤٠]، وكذلك قال الله –عز وجل–: **{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}** [سورة يس:٥٠] يكون خرج في حاجته فتأتيه الساعة فلا يستطيع أن يوصي ولا أن يرجع إلى أهله.

وقوله: {الأخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله –عز وجل–، فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم –عليه السلام– لقومه: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٢٥].

هنا: **{الأخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ}** الخُلّة عرفنا أنها درجة في المحبة عالية رفيعة، هي أعلى درجات المحبة، الأخلاء يعني من كانت علاقتهم وصلاتهم ومحبتهم في الدنيا، أو كان ذلك في معصية الله –عز وجل– ومحادته ومحادة رسله –عليهم الصلاة والسلام– كل ذلك يتحول إلى عداوة، وتتقطع هذه الأواصر.

وقوله: {يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} ثم بشرهم...

السياق هنا أن الله –تبارك وتعالى– قال: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** ما الذي يحصل حينئذ؟ **{الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ}** هنا قال: **{يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ}** هذا التركيب ما محمله؟، ابن جرير –رحمه الله– يقول: التقدير هكذا **{الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}** فيقال لهم: **{يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}**.

وقوله: {يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} ثم بشرهم، فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادي منادٍ: {يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} فيرجوها الناس كلهم، قال: فيُتبعُها: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين.

هنا قال: **{الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}** قال: **آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم**، هذا هو المشهور أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني في المعنى، فالله –تبارك وتعالى– يقول: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}** [سورة الحجرات:١٤] على اختلاف في توجيه ذلك من جهة المعنى لكن المشهور أن المقصود به إسلام الظاهر، وأن الإيمان لم يتغلغل إلى قلوبهم، وإنما حصل لهم إسلام الظاهر، **{وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}**، وبعضهم يفسره بمعنى مغاير بعض الشيء هناك في سورة الحجرات وسيأتي الكلام على هذا –إن شاء الله تعالى–، لكن المشهور أنه إذا ذكر الإسلام والإيمان يكون لكل واحد منهما معنى يخصه، فالإيمان يكون لتصديق القلب الانقيادي، بمعنى الإقرار والإذعان، والإسلام إسلام الجوارح، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير –رحمه الله– يقول: **آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}**، ابن جرير يفسره بمعنى فيه بعض المغايرة وله وجه لا يخفى؛ وذلك أنه بعد أن قرر أنهم أهل خضوعٍ لله –عز وجل– بقلوبهم، وقبولٍ منه لما جاءت به رسلهم عن ربهم هذا كله يرجع إلى شيء واحد، القبول والخضوع والانقياد والتسليم هذا كله يرجع إلى القلب، بقي **{وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}**، فهو يقول: على دين إبراهيم حنيفاً ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل أوثان، **{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ**

إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [سورة البقرة:١٣٣]، {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [سورة آل عمران:١٩]، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [سورة البقرة : ١٣٢]، {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة آل عمران:٦٧] فابن جرير يقول: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا} خضعوا وانقادوا وقبلوا {وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} يعني على ملة إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– حنيفاً ما كانوا يهودًا ولا نصارى، {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} هذا الكلام له وجه كما ترون، وما ذكره ابن كثير هو الأشهر في تفسير مثل هذه المواضع في كتاب الله –عز وجل–، فإذا ذكر الإيمان والإسلام يكون الإيمان في الباطن، والإسلام في الظاهر.

قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين.

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} أي: نظراؤكم.

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} الأزواج –كما سبق– يأتي بمعنى النظراء، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] يعني ونظراءهم، {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} [سورة طه:١٣١] يعني أصنافاً منهم، فالأزواج يأتي في كتاب الله –عز وجل– بهذا المعنى، لكن بعضهم فسره بالزوجات، {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}، وهذا معنى آخر، وهذا المعنى رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– بأي اعتبار؟ قال: هنا السياق {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} يعني تتعمون إلى آخره، قال: هذا أبلغ في النعيم إذا كانوا يدخلون مع زوجاتهم، وإنه جاء في القرآن في مواضع متعددة كون أهل الجنة مع زوجاتهم سواء من الحور العين أو من الزوجات اللاتي كن معهم في الدنيا، {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ} [سورة يس:٥٥-٥٦] فسرها بعض السلف في شغل فاكهون في افتضاض الأبكار، وذكرنا هناك أن الأقرب أنهم في شغل بالنعيم الذي منه ما ذُكر، يعني بألوان الملاذ والنعيم في شغل عما فيه أهل النار، يتنعمون، وهكذا في قوله: {وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [سورة الطور:٢٠] فالشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– يرجح هذا المعنى، ويقول: هذا أبلغ في النعيم من تفسيره بالنظراء، ففُسر بالزوجات، وفسر أيضًا بالحور العين {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} يعني من الحور العين تحبرون، والذين فسروه بالنظراء لعلهم نظروا إلى أمر وهو أنه ليس بلازم أن تكون زوجته معه في الجنة، فليس بالضرورة أن من دخل الجنة يقال له: إنك تلتذ وتُسر، يقال له: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} ولهذا فسره بعض السلف بالحور العين {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} يعني من الحور العين، وهذا لا يمنع من أن يكون مع زوجاته من الدنيا ممن دخل الجنة لكن {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}، والقول الذي ذكره ابن كثير –رحمه الله– باعتبار النظراء هذا لا يرِد عليه مثل هذه الإيرادات، وإذا فُسر بالزوجات قد لا تكون أصلاً من أهل الجنة.

{تُحْبَرُونَ} أي: تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم.

ذكرنا هناك أن المعاني التي ترجع إليها "تحبرون" أنها بمعنى تنعمون، تلتذون، تسرون، تكرمون، وهذه المعاني متلازمة فمن قال: تسرون وتلتذون وتنعمون فهذه كلها متلازمة، يعني أن نتيجة هذا الإكرام اللذة والسرور، من فسره بالإكرام كأنه فسره بالسبب، ومن فسره بالسرور فسره بالأثر، والسلف تارة يفسرون

بهذا، وتارة يفسرون بهذا، فهم يكرمون فيحصل من جراء ذلك -من نتيجة ذلك- اللذة والسرور والفرح، هذا معنى الحبرة، بعضهم يفسرها بالإكرام، وبعضهم يفسرها بالنعيم والسرور وما إلى ذلك.

{يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ} أي: زبادي آنية الطعام.

{يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ} هذه آنية الطعام، الصحفة قصعة كبيرة واسعة عريضة، الكسائي يقسم هذه الآنية بحسب الحجم وما تكفي له، فأعظمها الجفان، هي أعظم القصاع، وبعد ذلك تأتي القصعة، والقصعة تشبع عشرة من الرجال، ثم نصفها الصحفة تشبع خمسة، ثم بعد ذلك تأتي المَكِيلة تشبع الرجلين والثلاثة.

{وَأَكْوَابٍ} وهي: آنية الشراب، أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى، {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ}، وقرأ بعضهم: {تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ}، {وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ} أي: طِيب الطعم والريح، وحُسن المنظر.

هذا المشهور في الأكواب، ذكَرَ الآنية: للطعام الصحاف من الذهب، والأكواب آنية الشراب من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرى، بخلاف الكأس، قد مضى الفرق بينهما.

{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ} "ما" هذه صيغة عموم "ما تشتهيه الأنفس" يعني تميل إليه وتتوق إليه، وهذا عام في كل شيء كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**))**[5]، وكما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}** [سورة فصلت:٣١] وذكرنا المعاني هناك "تدعون" المعنى المشهور يعني تتمنون، والمعنى الآخر أن كل من ادعى شيئًا فهو له، والجنة فيها كل ما تطلبه النفوس **{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ}** [سورة الفرقان:١٦]، والسؤال الذي يرد عادة من النساء دائمًا هل النساء لهم أزواج في الجنة أو لا أي التي ماتت ولا زوج لها؟، الرجال لهم الحور العين فماذا للنساء غير المتزوجات؟.

ماتت ولم تتزوج هذا لم يرد فيها شيء لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيما نعلم- لكن في هذه العمومات فكل ما تطلبه النفوس وتتوق إليه وتشتهيه موجود في الجنة، يحصل لأهل الجنة النعيم الكامل من كل وجه، يعني ليس هناك تنغيص، ليس هناك نقص، ليس هناك شيء تتمناه، هنا في الدنيا تتمنى أن تتزوج زوجًا يسعدها، وتقر عينها به، في الجنة لا يوجد حرمان بحيث إن الإنسان يشعر بنقص في نعيمه معه، وإن كان أهل الجنة يتفاوتون فيها بشرابها ولباسها وما إلى ذلك، ومنازلها إلا أن كل أحد يشعر أنه ليس فوقه أحد في النعيم، أنه أعظم الناس نعيمًا، وبهذا يتم النعيم، وإلا فإذا كان الإنسان ينظر إلى من هو أعظم منه نعيمًا فإنه يزدري النعيم الذي هو فيه؛ ولهذا لما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الذي

---

٥ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم، أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٤).

يشرب الخمر لا يشرب من خمر الجنة[٦]، أي يموت وهو يشربها ولم يتب، أن هذا سبب لحرمانه من شرب الخمر في الجنة، فهل ذلك يعني أن الجنة فيها تنغيص وتكدير؟.

الجواب: لا، فيكون في حال من النعيم تذهله عن هذا الشراب، فلا يشعر بالنقص أو الحرمان؛ لأن الجنة فيها حبور ولذة وسرور فليس فيها أدنى كدر، أو تنغيص، وابن القيم -رحمه الله- يوسع هذا المعنى فيرى أن مَن توسع في الملاذ في الدنيا ولو كان ذلك من قبيل المباحات، وهذا مذهب عمر -رضي الله عنه- أن هذا يكون على حساب نقص اللذات في الآخرة، ابن القيم يوسع في المعنى من جهة بعض الجرائم والذنوب، يعني ليس فقط ما ورد فيه الدليل مثل أن من شرب الخمر لا يشربها في الآخرة، وإنما يذكر أشياء أخرى أنه إذا فعل ذلك في الدنيا ولم يتب فإن ذلك يكون سببًا للحرمان منها في الجنة، وهذا يحتاج إلى دليل، هذه الأمور لا يجري فيها القياس.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَتَلَذُّ الأعْيُنُ}** أي: **طِيب الطعم والريح وحُسن المنظر.**

في مصحف ابن مسعود **{وَتَلَذُّهُ الأعْيُنُ}** ما معنى "تلذ الأعين" أو "تلذه الأعين" تلذه الأعين يعني أنها تسر به من الملاذ، كما قال الله -عز وجل-: **{صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}** [سورة البقرة:٦٩]، فهذا الذي تلذه الأعين يكون في مآكلهم ومشاربهم ولباسهم ومساكنهم وقصورهم وأشجار الجنة وبساتين الجنة إلى غير ذلك من أنواع النعيم من المناكح وغيرها، فكما أن اللذات تحصل بالأكل -وهو لون من الألوان- فتحصل أيضًا بالشم، وتحصل أيضًا بالجس، وبأمور أخرى متنوعة، فإن من أعظم اللذات ما يكون بالسماع أو بالنظر، فكل ذلك يحصل في الجنة، تحصل اللذة من كل وجه؛ ولهذا يشربون الخمر التي لا تذهب العقول، ولا يصاب شاربها بالصداع كما هي خمر الدنيا، وهذه اللذة تكون في الأكل والشرب، فكما أن الإنسان يلتذ بطعمه وبرائحته كذلك هو يلتذ بالنظر إليه، فقد يكون الطعام لذيذاً من حيث الطعام والشراب كذلك لكن منظره بخلاف ذلك، فما تكتمل اللذة، وقد يكون جذابًا في منظره، فتقبل عليه النفوس فإذا ذاقه لم يكن بذاك من جهة الطعم، وقد يوجد فيه هذا وهذا إلا أن رائحته غير مستساغة، الجنة فيها ما تلذ ما تحصل به اللذة من كل وجه، ومن ذلك النظر، والله المستعان.

أحيانًا الناس يرون صنوفاً من الأطعمة فيطربون لها، والآن بالوسائل الحديثة يصورونها ولربما عرضوها على غيرهم ويتفننون في هذا، فهذا لا شيء بالنسبة لما في الجنة، ما هذه الأواني التي هي لا أقول: بقدر الذر بل أصغر من الذر بالنظر إلى الجنة التي اللؤلؤة الواحدة فيها المجوفة كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بارتفاع يبلغ ستين ميلاً في السماء، والعرض يبلغ ستين ميلًا[٧]، يعني في تقديرات الميل بالمتر

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: **{إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [المائدة:٩٠]، برقم (٥٥٧٥)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم (٢٠٠٣).

٧ - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٥٢٦٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد، برقم (١٨٠٠٥)، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم".

ما بين ١٨٠ كيلو متر إلى ٩٦ كيلو متر حسب تقديرات الميل بالذراع، ١٨٠ ارتفاع بـــ ١٨٠ عرض ولا تسأل عن الطول، والأواني ما حجمها إذًا؟، فلو جئنا بالأواني التي في الدنيا ماذا تكون؟، لا شيء، تحتاج إلى مجهر حتى تظهر، ونحن نحتاج إلى مجهر حتى نظهر، نُتَف، أحياناً الإنسان يتأمل المقاعد التي نقعد عليها كأننا في خيال، وإذا تأمل الإنسان في الآخرة وأحوال الآخرة بل في أحوال الدنيا إذا نظر من أعلى البيوت والمساكن، وإذا أردت أن تنظر أو تعرف أو تطلع أو تقف بمزيد من التوسع على أنواع الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح في الجنة راجع "أضواء البيان" في هذا الموضع ذكر حشد الآيات في كل نوع من هذه الأنواع، أنواع اللذات التي في الجنة كما وصفها الله -تبارك وتعالى.

{وَأَنْتُمْ فِيهَا} أي: في الجنة {خَالِدُونَ} أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا.

يعني هذا كمال النعيم، يعني مهما كان فيها من اللذات وأنواع النعيم إذا كان الإنسان سيفارقه فإن ذلك يكون تنغيصًا وتكديرًا لهذا النعيم، ولهذا يذكر الله -عز وجل- هذا الخلود كما يذكر الرضا "رضي الله عنهم ورضوا عنه"؛ لأن ذلك من كمال الراحة والنعيم؛ إذ إنّ ذلك إن لم يكن برضا من مالكه فإن النعيم يكون ناقصًا، كذلك إذا كان لا يبقى فيه وإنما سيفارقه فإن تنعمه به يكون ناقصًا، تسكن في أفضل الأماكن وأرقى الأماكن في فندق مثلاً فخم فيه كل ما تشتهيه من الطعام والشراب والأثاث، وأجود ما يكون من الفرش ونحو ذلك، وتجلس فيه ثلاثة أيام أو نحو هذا ثم تفارقه، يعني لا يكتمل، كأن ذلك لم يكن، والإنسان منذ أول لحظة يدرك ويتذكر أن هذا مؤقت وأنه سينتقل منه، لكن إذا كان قيل له: هذا المكان هو مكانك الذي لا تفارقه، فإنه يكفي الفراق في الدنيا أصلاً بالموت، فإن ذلك يكدر على أهل النعيم نعيمهم مهما أعطي من الدنيا والأموال الطائلة والقصور فإنه يتذكر مثل هذا المعنى فيحزن، قد مضى الكلام على هذا المعنى في بعض المناسبات، وقول الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ *** نغّص الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

فهو الذي كدر على أهل النعيم نعيمهم، وهكذا الافتراق بعد الاجتماع، وذكرت في بعض المناسبات قول الشاعر الذي يتمنى ويحب أوقات الفراق؛ لأنه يُرجِّي بعدها الاجتماع، ويكره أوقات الاجتماع بمحبوبته؛ لأنه بعدها لا ينتظر إلا الفراق، ولهذا يقال: ليس بعد الكمال في الدنيا إلا النقص، يبلغ الإنسان أشده، يبلغ أربعين سنة، يتماسك بعض الشيء، بعض الوقت، ثم بعد ذلك يبدأ الضعف والذبول شيئًا فشيئًا، وهكذا الحياة، والله المستعان.

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يُدخل أحدًا عملُه الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب عمل الصالحات.

يعني هذه الجنة **{أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** "الباء" هنا تدل على السببية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))، يعني على سبيل الاستقلال، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: ((ولا

أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته))[٨]، فالأعمال سبب، وقد دلت النصوص على هذا، لكنها لا تستقل بذلك، ولهذا الإنسان لا يرجو ويطلب دخول الجنة بعمله مجردًا من رحمة الله -عز وجل-، فإن عمله لا يبلغ به ذلك، ولكن مع رحمة الله وفضله ولطفه.

وقوله: {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ} أي: من جميع الأنواع، {مِنْهَا تَأْكُلُونَ} أي: مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم هذه النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

يعني إذا وجدت الفاكهة الكثيرة المتنوعة فلا تسأل عن المطعومات التي تكون هي الأساسية الأصلية، فإن الفاكهة تذكر زيادة على الأصل، والأساس في هذا المطعومات.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم (٦٤٦٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لن يُنجي أحدًا منكم عملُه))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا)).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزخرف من الآية (٧٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [سورة الزخرف:٧٤-٨٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله النبي الأمين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللحاضرين، يقول ابن كثير -رحمه الله-: لما ذكر تعالى حال السعداء ثنّى بذكر الأشقياء، فقال: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ} أي: ساعة واحدة {وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} أي: آيسون من كل خير، {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ} وهو: خازن النار.

روى البخاري حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ على المنبر: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [سورة فاطر:٣٦]، وقال: {وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [سورة الأعلى:١١-١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك {قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق، ومعاندتهم له فقال: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ} أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

ثم قال تعالى: {أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم.

وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة النمل:٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛

ولهذا قال: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} أي: سرهم وعلانيتهم، {بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى–: **{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ}** قال: أي: **ساعة واحدة،** الفتور معناه الضعف، هذا في أصله، والمراد **{لا يُفَتَّرُ}** أي: لا يخفف عنهم.

وقوله –تبارك وتعالى–: **{وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}** مضى الكلام على هذا، وعرفنا معنى الإبلاس، قال هنا: **آيسون من كل خير،** فالمبلس هو الذي حصل له اليأس من النجاة، وصار قانطًا فاستسلم للعذاب فغلب عليه الوجوم والسكوت، يعني المبلس الذي حصل له يأس، وقع في جريرة ذنبه، وانقطع رجاؤه من الخلاص فسكن واستسلم لمصيره والعذاب الذي ينتظره، فالإبلاس فيه هذا وهذا، أي يأس يحصل معه السكوت لانقطاع الرجاء هذا هو الإبلاس، وبعضهم يفسره ببعض معناه، يعني بعضهم يقول: ساكتون، وبعضهم يقول: آيسون، فهذا تفسير ببعض المعنى، وإلا فإن المعنى يشمل هذا وهذا، أي سكوت مع يأس، ليس كل ساكت يقال له: مبلس، وليس كل يائس يقال: مبلس، السكوت الذي ينقطع معه الرجاء، انقطاع الرجاء الذي يعقبه أو يحصل معه السكوت والاستسلام للمصير هذا هو الإبلاس.

وقوله: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}** هم يتمنون أن يخفف عنهم من العذاب الذي لا يفتر، ولهذا تارة يطلبون من خزنة جهنم أن يدعوا الله لهم أن يخفف عنهم بعض العذاب، **{ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}** [سورة غافر:٤٩]، فهم يتمنون تخفيف العذاب، وتارة يطلبون منهم الموت **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}** يتمنون الموت

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيًا *** وحسبُ المنايا أنْ يكنّ أمانيا

فإنه لا يطلب الموت ويتمنى الموت من كان في حال مرضية، نسأل الله العافية.

قال الله تعالى: **{لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}** يردُ سؤال أن هؤلاء جميعًا كانوا كارهين للحق، وهنا قال: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ}** فبعض أهل العلم يقول: ولكن أكثركم أي: الجميع، أي: كلكم، والعرب تعبر بالكثرة وتريد بها الكل، "ولكن أكثر الناس" هذا يرد أحيانًا ويراد به الكل، ويحتمل معانيَ أخرى، يعني بعضهم يقول: هو على ظاهره **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}**، هؤلاء هم الكبراء والقادة والرؤساء، وأما البقية فهم تبع لهم يقلدونهم، ويأتمرون بأمرهم، ويسيرون خلفهم، فالذين كرهوا الحق هم الكبراء الذين خافوا على رئاساتهم، وأما الأتباع فهم خلفهم يسيرون، هكذا قال بعض أهل العلم، ويحتمل هذا.

أما قوله –تبارك وتعالى–: **{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}** نقل عن مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم، "أم" هنا قبل الإبرام **{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}** "أم" هذه هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة **{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا}**، الإبرام ما معناه؟ الإبرام هو الإتقان، **{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا}** يعني بل أحكموا كيدًا للنبي –صلى الله عليه وسلم– وللحق الذي جاءهم به، **{فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}**، ولهذا فسرها ابن كثير –رحمه الله– بالآية الأخرى: **{وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}**، **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}** [سورة الطارق: ١٦]، **{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا}** أي: كيدًا أحكموا، تقول: أبرم هذا الأمر يعني أحكمه وأتقنه يعني خطط له بإتقان، **{فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ**

{وَنَجْوَاهُمْ} يعني حينما يخططون ويبرمون في كيدهم للحق فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَمْ يَحْسَبُونَ} و"أم" هذه أيضًا منقطعة بمعنى بل والهمزة، فالله -تبارك وتعالى- عالم بما يقع من هؤلاء الأعداء من الكيد للحق بجميع صنوفه، ما يكون منه في السر، وما يكون منه في العلانية، والله -تبارك وتعالى- كفيل بإبطاله وإزهاقه، وذلك أن كيدهم في ضلال، وأنهم لا يضرون إلا أنفسهم بهذا الكيد.

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الزخرف:٨١-٨٩].

يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد، {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة الزمر:٤].

ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} ابن كثير -رحمه الله- هنا فسره بأنا أول العابدين لهذا الولد؛ لأن الولد إنما هو بضعة من الوالد، فلو كان للرحمن ولد -تعالى وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا- لكان هذا الولد إلهًا، فيقول: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} ثم يذكر هذه القاعدة وهي أن الشرط لا يقتضي الوقوع بل ولا الإمكان، علق على شرط لا يقتضي وقوعه بل ولا إمكانه، فما محمل ذلك عند من فسره بهذا كما يقول ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير أيضًا؟، محمل هذا أنه على سبيل التنزل {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سورة سبأ:٢٤] من باب التنزل يقول لهم ذلك، وإلا فإن هذا الأمر من قبيل المحال، وهذه القاعدة في غاية الأهمية، التعليق على الشرط لا يقتضي الوقوع ولا الإمكان {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} لاسيما التعبير بـــ"إنْ" بدلاً من "إذا"، وفرق بينهما تقول: إن حصل كذا أعطيتك كذا؛ لأن هذا الأمر في غاية البعد، إن حصل، لكن إذا قلت: "إذا" فهذا أقرب في الحصول.

والعلماء -رحمهم الله- في هذا لهم أقوال متعددة، لأن بعضهم يقول: إن المعنى إن كان للرحمن ولد كما تزعمون فأنا أول العابدين لله -عز وجل-، هذا قال به جمع من العلماء من السلف فمن بعدهم، {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} يعني لربي وخالقي -سبحانه وتعالى-، فأنا أول من عبد الله وحده دونما سواه، وهذا الذي اختاره ابن قتيبة -رحمه الله-، وهذا المعنى أيضًا محتمل مع أن ما ذكره ابن جرير وابن كثير كأنه هو المتبادر إلى الأذهان، وبعضهم يقول: إنّ "إنْ" هذه نافية وليست شرطية أصلاً، {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} ثم ينتهي الكلام هنا، يعني ما كان للرحمن ولد

إنْ هو مستوليًا على أحدٍ *** إلا على أضعفِ المجانين

يعني ما هو بمستول على أحد، "إنْ" تأتي نافية فيقولون: إن المعنى هكذا {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} ما كان للرحمن ولد، ثم يبدأ كلام جديد: فأنا أول العابدين لله، وهذا وإن كان صحيحًا من جهة اللغة إلا أنه خلاف المتبادر، والقرآن الأصل أن يفسر بالظاهر المتبادر إلا لدليل، وعلى قول ابن كثير وقبله ابن جرير يقولون: هذا أبلغ بالنفي، يعني مثل هذا التعليق على شرط {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} يعني كما تقول لمن خالفك: إن كان ما تقول حقًّا فأنا سأكون أول من يوافقك ويتبعك عليه، بمعنى أنك في غاية الوثوق من أن هذا الأمر لا صحة له ولا أساس، وكما سبق أنه يكون على سبيل التنزل، وبعضهم يفسره بمعنى آخر تمامًا يقول: {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} يقول: معنى العابدين يعني الآنفين، وهذا المعنى صحيح في اللغة؛ لأنه يأتي بمعنى الأنفة، لكنه قليل في الاستعمال، والأصل أن يفسر القرآن بالغالب المشهور لا بالمعنى المغمور، معنى هذا الكلام: إن كان للرحمن ولد فأنا أول من يأنف من عبادة هذا الولد ويستنكف من ذلك، يعني أصل المعنى صحيح في اللغة، جمع من أهل اللغة ومن أصحاب المعاني قالوا بهذا، فسروه بالأنفة، ولكن كما سبق {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} فبقي أن الأشهر في تفسير الآية قول من قال كابن كثير وابن جرير: فأنا أول العابدين لهذا الولد، على سبيل التنزل، أن التعليق على شرط لا يقتضي الوقوع بل ولا الإمكان، والقول الثاني: فأنا أول العابدين لله، والأقوال الباقية فيها بُعد، والله أعلم.

يقول: ولهذا قال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} هذا يحتمل أنه من تمام كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما علمه ربه -تبارك وتعالى- {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، ويحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل-، يعني ينتهي كلام الرسول -عليه الصلاة والسلام- عند {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، ثم قال الله -عز وجل- منزهًا نفسه: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} فيكون من قبيل الموصول لفظًا المفصول معنى.

أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا ولد له.

وقوله: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا} أي: في جهلهم وضلالهم {وَيَلْعَبُوا} في دنياهم {حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم.

وبعضهم يقول: إن اليوم الذي كانوا يوعدون المقصود به العذاب في الدنيا، ولكن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- كأنه هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ} أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}

وهذه الآية كقوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [سورة الأنعام:٣] **أي: هو المدعو الله في السموات والأرض.**

{وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه

الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمّة الأمور نقضًا وإبرامًا، {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ}** هنا يقول: **هو إله من في السماء، وإله من في الأرض فيعبده أهلهما** بمعنى أنه هو المألوه في السماء والمألوه في الأرض، يألهه أهل السماء ويألهه أهل الأرض، والألوهة هي العُبودة، يعني العبادة لله -تبارك وتعالى-، ويكون الجار والمجرور في الموضعين "في السماء" "وفي الأرض" كله يتعلق بقوله: "إله" يعني في السماء إله وفي الأرض إله، يألهه أهل السماء يعني يعبده أهل السماء، ويألهه أهل الأرض هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله تعالى-، أو أن المقصود أنه المستحق للعبادة في السماء والأرض، وبعضهم يقول: إن قوله: "إله" في الموضعين مرفوع على أنه خبر، يعني وهو الذي في السماء هو إله، وفي الأرض هو إله، يعني أنه يُدعى الإله، أو أنه مألوه في السماء وفي الأرض، أنه خبر لمبتدأ محذوف كما يقوله أبو علي الفارسي، فالمعنى واضح، "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله" ليس معناه أن الله -تعالى وتقدس- حالٌّ في الأرض، وإنما هو مألوه في الأرض، يدعوه أهل الأرض بذلك، يألهونه يعني يعبدونه.

ثم قال تعالى: {وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} أي: من الأصنام والأوثان {الشَّفَاعَةَ} أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم، {إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** يقول: **هذا استثناء منقطع أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له**، والاستثناء المنقطع معناه أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فمعنى ذلك أن النفي هنا على حاله يعني على العموم؛ لأن ذات النفي لما دخلت على الفعل أفاد ذلك العموم، لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة، فيكون على عمومه، لا يُستثنى منه شيء، فهؤلاء من المعبودات الباطلة من دون الله -تبارك وتعالى- لا تملك الشفاعة، لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده، وتحديد الاستثناء أنه متصل أو منقطع باعتبار المراد بالمنفي هنا أو المراد بمن نفيت عنه الشفاعة من هو، فإذا قيل: إن المقصود بذلك الآلهة الباطلة التي يدعونها من دون الله -تبارك وتعالى- يكون الاستثناء منقطعًا كما قال ابن كثير -رحمه الله-، فهم يدعون الأصنام الأوثان فهذه لا تملك الشفاعة، فيكون الاستثناء منقطعًا، ويحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً وذلك بأحد اعتبارين:

الأول: أن يكون المراد بقوله: **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}** على سبيل العموم، عموم ما يعبد من دون الله -عز وجل-، واستثنى من هؤلاء **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ}** الملائكة، عزير، المسيح -عليهما الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-؛ لأن ظاهره العموم **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ}** يعني كل ما يدعى من دون الله -عز وجل- لا يملك الشفاعة، **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** فهؤلاء الذين يُدعون من دون الله منهم الملائكة، ومنهم المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فيكون الاستثناء

متصلاً **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** يعني استثني من هؤلاء المدعوين من كان بهذه الصفة، هذا اختيار ابن جرير –رحمه الله.

الاعتبار الثاني في كونه متصلاً **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ}** يعني لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق، يعني لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فيكون الكلام في قوله: **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}** في هؤلاء الكرام الذين عُبدوا من دون الله –عز وجل– وهم الملائكة وعزير والمسيح، فهم لا يشفعون إلا لمن كان بهذه الصفة **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** يعني لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فإن الشفاعة يشترط فيها إذن الله –تبارك وتعالى– للشافع ورضاه أيضًا عن المشفوع له، ولا شك أن الشفاعة جميعًا لله –عز وجل– كما قال: **{قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}** [سورة الزمر:٤٤] فهو الذي يملكها ولكنه يأذن لمن شاء، فهنا **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}** فيمكن أن يبقى هذا النفي على حاله من العموم؛ لأن الذي يملك الشفاعة هو الله، فلا حاجة إذًا لعبادة هؤلاء من أجل أن يكونوا شفعاء عند الله –تبارك وتعالى–، **{هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [سورة يونس:١٨] هكذا كانوا يعبدونهم ويعللون هذه العبادة، فالذي يملك الشفاعة هو الله –عز وجل– فيُتوجه بالعبادة إليه، لكن من شهد بالحق، فيكون الاستثناء منقطعًا أيضًا بهذا الاعتبار، وهذا وجه جيد، والله تعالى أعلم.

وأبعد هذه الاحتمالات هو أن يكون ذلك **{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ}** في المشفوع له، **{ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}** [سورة الأنبياء:٢٨] هنا في هذه الآية، وأما حصر هذا العموم بنوع من هؤلاء المدعوين من دون الله –عز وجل– كالمسيح والملائكة ونحو ذلك فليس عليه دليل يوجب هذا الحصر، وإنما ظاهر الآية العموم، فهم يعبدون الأوثان، وقول من قال: إن ذلك في المعبودات الباطلة فيكون الاستثناء منقطعًا بهذا الاعتبار كما هو ظاهر كلام ابن كثير –رحمه الله– أقرب من القول بأن ذلك في الملائكة والمسيح وعزير؛ لأن هذا الخطاب للمشركين ولم يكونوا يعبدون المسيح –عليه الصلاة والسلام– ولا عزيرًا، بل حتى قريشًا لم يكونوا يعبدون الملائكة، وإنما الذين عبدوا الملائكة هم بعض العرب، ولو نظرتم في تاريخ العرب وأديان العرب ومعبودات العرب انظر مثلاً كتاب "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لعلي جواد، عراقي، هذا كتاب كبير في نحو عشرة مجلدات فيه كل شيء عن العرب، كل ما تريد، إن أردت الآلهة المعبودة من دون الله، إن أردت المناسك، إن أردت التلبية، إن أردت المواضع التي يذبحون عندها، إن أردت الطقوس التي كانوا يفعلونها في مناسكهم، إن أردت الأسواق عندهم إلى غير ذلك من أحوالهم المتنوعة، كل ما تريد، هذا من أجمع الكتب في تاريخ العرب، وهناك كتاب آخر في تاريخ العرب لـــ البجاوي ومن معه –ثلاثة مؤلفين–، هو كتاب مفيد جيد في أربعة مجلدات، وقبل ذلك كتاب "الأصنام" لابن الكلبي، وهناك كتب أيضًا معاصرة في معبودات العرب قبل الإسلام، كتاب اسمه "الشرك" للميري، هذا أظنه جزائري، كتاب جيد، وتكلم أيضًا عن معبودات العرب، لكن هناك كتب خاصة في معبودات العرب، وكتب في أحوال العرب بالتفصيل، يعني هذا الكتاب الذي ذكرته آنفًا هو أجمعها، وهناك كتاب أيضًا معاصر آخر أظن اسمه "الشرك" أيضًا، و"معبودات العرب قبل الإسلام" غلاف حوالي مائتي صفحة، مفيد، جمع كثيرًا في هذه الجزئية، فالمقصود مثلا أن الذين عبدوا الملائكة من هم في بطون العرب؟، يقول لك: بنو فلان، وبنو فلان، وبنو فلان، لم تكن قريش ممن عبد الملائكة، لكن بعض العرب عبدوهم.

ثم قال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره {مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

وقوله: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ} أي: وقال محمد -صلى الله عليه وسلم- قيله، أي: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [سورة الفرقان:٣٠]، وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود -رضي الله عنه-، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير.

قال البخاري: وقرأ عبد الله -يعني ابن مسعود -رضي الله عنه-: {وقال الرسول يا رب}.

وقال مجاهد في قوله: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ}، قال: يُؤْثِر الله -عز وجل- قول محمد -صلى الله عليه وسلم.

وقال قتادة: هو قول نبيكم -صلى الله عليه وسلم- يشكو قومه إلى ربه -عز وجل.

الآن في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ} في قراءة عاصم وحمزة، وقراءة الجمهور {وَقِيلَهُ يَا رَبِّ} ابن كثير هنا يقول: أي: **وقال محمد -صلى الله عليه وسلم- قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه**، وذكر من قال بهذا القول أنه مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، "وقيله" "وقيلَه" على قراءة الجمهور، بعضهم يقول: إن هذا -يعني "وقيلَه" على قراءة النصب- معطوف على محل الساعة، {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} فإذا وضعت "قيله" مكان "الساعة" يكون وعنده علمُ قيلَه، على المحل وليس على اللفظ؛ لأن اللفظ مضاف إليه مجرور، {عِلْمُ السَّاعَةِ} علم قيله، على المحل محل الساعة، يعني يعلم الساعةَ ويعلم قيلَه، القيل والقول والقال بمعنى واحد، ولذلك تجد ابن جرير -رحمه الله- يقول مثلاً: وقِيلُ اللهِ -عز وجل-، يعني وقول الله -عز وجل-، وهذا القيل فيه كذا وكذا، يعني وهذا القول، هذه لغة عربية فصيحة مستعملة في القرآن، "وقيلِه" "وقيلَه"، فعلى قراءة الجمهور بعضهم يقول: إن ذلك معطوف على محل الساعة، وعنده علم قيلَه، على المحل المنصوب، وعلم قيلِه؛ لأنه مضاف إليه مجرور، علم الساعةِ، وإلا فالأصل يعلم الساعةَ، فالمحل باعتبار المفعولية، فهذا احتمال، يعني أنه يعلم الساعةَ ويعلم قيلَه، يعني قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "يا رب إن هؤلاء.."، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني مثل المبرد، وهو أيضًا اختيار ابن الأنباري، "وقيلَه" لكن لاحظوا البُعد، والذهن لا يذهب إلى هذا، يعلم علمَ الساعة وقيلَه يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وبعضهم يقول: إنه يرجع على هذه القراءة -قراءة الجمهور بالنصب- إلى قوله: "سرهم ونجواهم" في {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} يعني وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، فهذا أيضًا الذهن لا يتبادر إليه وإن قال به بعض أصحاب المعاني وهم أئمة في اللغة كالفراء والأخفش، وبعضهم يقول: إنه يرجع إلى قوله: {يَكْتُبُونَ}، {بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} يكتبون قيلَه، يعني يكتبون ماذا؟ المفعول محذوف يكتبون أعمالهم مثلاً، يكتبون قولهم، كلامهم، يكتبون ما يصدر عنهم، فيكون هذا يعود إلى المفعول المحذوف، أي يكتبون ما يصدر عنهم وقيلَه، يعني يكتبون أيضًا قيلَه، وهذا فيه بُعد، والله أعلم.

وبعضهم يقول: إنه يعود على مفعول يعلمون قال: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} يعني يعلمون ذلك ويعلمون قيلَه، وهذا بعيد، وبعضهم يقول: إنه مصدر، أي: وقال قيلَه، تقول: قال قولاً وقال قيلاً، {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [سورة المزمل:٦] يعني قولاً على اعتبار أنه مصدر، أو وقيلَه –هذا كله على النصب– باعتبار مقدر محذوف أي ويعلم قيلَه يا رب، يعني باعتبار أنه ما يتصل بشيء سبق مما ذكر قبله في الآيات، ولكنه معمول لفعل محذوف مقدر، يعلم قيلَه، أو يتعلق بقوله: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ} وبقيلِه، لكن هذا أيضًا لا يخلو من بُعد، إلى غير ذلك من الأقاويل، وكون هذا يبدأ كلامًا جديدًا هو المتبادر –والله تعالى أعلم–، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير وابن كثير، وهذه القراءة التي نقرأ بها {وَقِيلِهِ} بالجر كذلك بعضهم يقول: إنه معطوف على لفظ "الساعة"، هناك على المحل وهنا على اللفظ {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} وعلم قيلِه، علمُ قول النبي –عليه الصلاة والسلام–: {يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}، القال والقول والقيل كلها بمعنى واحد، قلت قولاً وقيلاً وقالاً، الذي ذكره ابن كثير –رحمه الله– على هذه القراءة قريب وهو المتبادر، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ} أي: المشركين، {وَقُلْ سَلامٌ} أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا.

نحن عرفنا الصفح وأنه إعطاء صفحة العنق بمعنى لا تقف ولا تعاتب، وإنما الإعراض، بعض المفسرين في مثل هذه المواضع يقولون: منسوخة بآية السيف، وأنه لا صفح ولا عفو، وذلك ليس بصحيح.

{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجِلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الزخرف.

الآن في قوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} هذا إخبار لهم بالسلامة منه لا إلقاء التحية، يعني أنه لا يصل إليهم أذى منه، وإن حصل منهم من المشركين أذى للنبي –صلى الله عليه وسلم– فهو لا يجازيهم بالسوء، لا يجازيهم بالمثل، سلام بمعنى سلمتم منا لا نسافهكم ولا نعاملكم كمعاملتكم لنا {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} يعني هذا فيه تهديد، أعرِضْ عنهم، ولا تقابل الإساءة بالإساءة، كما في قوله –تبارك وتعالى–: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} [سورة الأحزاب:٤٨] على أحد المعنيين كما سبق في سورة الأحزاب:

المعنى الأول: لا تلتفت إلى أذاهم فيقعدك ذلك عما أنت بصدده، ولا تكترث بإساءتهم.

والمعنى الثاني: دع أذاهم يعني لا توصل إليهم الأذى، اتركهم لا تقابلهم بالمثل.

تفسير سورة الدخان

وهي مكية.

وفي مسند البزار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة عن زيد بن حارثة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لابن صَيَّاد: ((إني قد خبّأت خبئًا فما هو؟))، وخبّأ له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سورة الدخان، فقال: هو الدُّخُّ، فقال: ((اخسأ، ما شاء الله كان))[1]، ثم انصرف.

نعم، يعني أن الكهان كانت تلقي عليهم الشياطينُ الكلمة فيختطفونها، تُلقَى سريعًا فأراد أن يقول: الدخان، فعبر ببعض الكلمة، إما أن هذه عادة الكهان أنهم يعبرون هكذا ببعض الكلمة يجتزئون الكلام، أو أنه لم يدرك ذلك ويعيه حينما تخطفه وتلقفه من الشيطان، فقال: هو الدُّخ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اخسأ فلن تعدو قدرك))[2] يعني أنت كاهن، أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يختبره، كانوا يظنون أنه يُشك فيه أنه هو المسيح الدجال.

---

١ - لم أجده في مسند البزار.

٢ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، برقم (٣٠٥٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الدخان من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الدخان:١-٨].

يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر كما قال -عز وجل-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١]، وكان ذلك في شهر رمضان كما قال -تبارك وتعالى-: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [سورة البقرة:١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقوله -عز وجل-: {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} أي: معلنين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعًا لتقوم حجة الله على عباده.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} الكتاب هنا الأكثر على أن المراد به القرآن، أقسم الله -عز وجل- بالقرآن، وفسره بعضهم بالكتب أي أنه جنس يشمل سائر الكتب، {وَالْكِتَابِ} أقسم بجنس الكتاب، ولكنهم لم يختلفوا في أن الضمير في قوله: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ} أنه يرجع إلى القرآن وليس سائر الكتب {فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ} بعضهم يقول: هذا هو جواب القسم كما مضى في سورة الزخرف، فما ذُكر هناك يقال هنا، {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} أين جواب القسم؟، بعضهم يقول: جواب القسم هو {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}، وبعضهم يقول: ليس هذا جواب القسم؛ لأن هذا صفة للمقسم به الذي هو الكتاب "والكتاب المبين" ثم وصفه بقوله: "إنا أنزلناه" يعني ليس هذا جواب القسم، فأين الجواب؟ بعضهم يقول: "إنا كنا منذرين" أي {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، وهذا الذي مشى عليه واختاره ابن عطية -رحم الله الجميع-، وبعضهم يقول: لا، هذا جواب آخر، أي هو الجواب الثاني، أما الجواب الأول فهو قوله: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} هذا الجواب رقم واحد، والجواب رقم اثنين {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، وبعضهم يقول: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ} جملة مستأنفة في حكم العلة، والله تعالى أعلم.

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} هذا جواب القسم، و{إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} يعني من أجل الإنذار، فهذا ليس بجواب آخر، وإنما هو كالتعليل لما قبله، والله أعلم، {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} هذه الليلة المباركة هنا قال: **ليلة القدر**، في بعض الليالي في رمضان تكلمت على ليلة القدر، ولماذا سميت بليلة القدر، وأن المشهور أن ذلك من التقدير {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} يقدّر فيها ما يكون في السنة، وهذا بنص القرآن، وبعضهم يقول: إن القدر بمعنى المنزلة، يعني لما لها من القدر والمكانة.

ومن أهل العلم من جمع بين هذا وهذا فقال: كل هذا صحيح فهي ليلة خير من ألف شهر، لها منزلة ومكانة {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم} [سورة القدر:٤]؛ لشأنها وعظم مكانتها، وهي أيضًا يقدّر فيها، فسميت بهذا لمجموع هذه الأمور، والله أعلم.

يقول هنا: كما قال: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وقال: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [سورة البقرة:١٨٥] هذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهو من أوضح أمثلته، وذلك أن تفسير القرآن بالقرآن يكون على مراتب من حيث القوة والوضوح، فهناك أشياء يقطع بها مثل هذا المثال: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}، ما هذه الليلة المباركة؟ {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، في شهر رمضان {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، وكما أيضًا في قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة:٢]، {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [سورة الشعراء:٢٣-٢٤] فهذا تفسير للعالمين، هذا واضح، ومن تفسير القرآن بالقرآن ما يكون محتملاً، ومنه ما يكون بعيدًا، يعني يتوهم المفسر أن الآية تفسر الآية وليس بينهما ارتباط، وذكرت في أصول التفسير في مناسبات شتى أنه حينما يقال: إن تفسير القرآن بالقرآن هو أفضل طرق التفسير فالمقصود من حيث الجنس لا من حيث الأفراد، فالأفراد يدخلها اجتهاد المفسر، وقد تكون صحيحة وقد تكون غير صحيحة، قد يوفق للصواب وقد لا يوفق، لكن من حيث الجنس تفسير القرآن بالقرآن هو أفضل أنواع وطرق التفسير، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} كون الليلة هذه مباركة بأي اعتبار؟ باعتبارات متعددة يعني هي خير من ألف شهر، هذا وحده يكفي، فإن البركة تعني الكثرة في الخير، {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [سورة القدر:٣]، وكذلك {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}، وكذلك أيضًا هي "سلام" سالمة من الآفات والشرور.

فهذه الليلة يقال لها: الليلة المباركة، هذا مما سماها به بعض أهل العلم، ليلة القدر، والليلة المباركة، ويذكرون لها أسماء أخرى، بعضهم يقول: ليلة البراءة.

وقوله: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} أي: في ليلة القدر يُفصَل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمرُ السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف.

هذا القول الذي ذكره ابن كثير {فِيهَا يُفْرَقُ} يفرق يعني يُحكم ويفصل كل أمر حكيم، قال: يفرق يعني يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، هذا الكلام الذي ذكره ابن كثير هو كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه يفصل من اللوح المحفوظ، فيكون "يُفرق" يعني يفصل من اللوح المحفوظ ، وبعضهم يفسره "يفرق" أي: يحكم، ولكن ينبغي أن نتذكر هنا أن قدر الله -تبارك وتعالى- على أنواع، عندنا القدر الأزلي، قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، هذا التقدير الأزلي الذي في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير، وهناك تقدير عمري، يرسل الملك إلى الجنين وهو في بطن أمه فيؤمر بأربع كلمات رزقه وأجله وعمله شقي أم سعيد، هذا عمري، وهناك تقدير حولي وهذا المراد هنا، والتقدير الحولي يعني يقدر فيها أمر السنة، "يفرق" أي: يُحكم، يُفصل ما يكون في الحول، طيب الله قدره قبل أن يخلق السماوات والأرض، يقال: هذا يكون لما في أيدي الملائكة، ابن كثير قال: يفصل

من اللوح المحفوظ، فلا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا الله، يفصل ما يكون في السنة من اللوح المحفوظ ثم يكون في صحف عند الملائكة، وهذا الذي يحصل فيه المحو والإثبات {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [سورة الرعد:٣٩] يعني: اللوح المحفوظ، هذا الذي ورد فيه أنه فيما يتعلق بصلة الرحم يُنسأ له في أثره، وما يتصل بالدعاء وما إلى ذلك، هذا التغيير الذي يحصل في الصحف التي بأيدي الملائكة، أن هذا يصل الرحم فيزاد في عمره مثلاً، أن هذا يتصدق فيدفع عنه بلاء، أو يدعو الله -عز وجل- فيرفع عنه أو يدفع عنه بلاء، فالداعي يكون له إحدى ثلاث: إما أن يعجل، وإما أن يدخر في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من الشر، فيكون الله -عز وجل- في اللوح المحفوظ قد قدر عليه أن يدعو فيكون ذلك صرفاً لبلاء يقع له، فالذي في أيدي الملائكة من الصحف أن فلانًا هذا يقع له كذا فيدعو الله -عز وجل-، {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، فالمقصود هنا أنه لو راجعتم عبارات السلف لوجدتم العلماء -رحمهم الله- يذكرون أنه في هذه الليلة {يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} وليس في ليلة النصف من شعبان، {يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} يعني يقولون: يكتب فيها أسماء كل شيء، أسماء الحجاج الذين يحجون ذلك العام، ومن يموت في أثناء العام {كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، والمراد بالأمر الحكيم: حكيم على وزن فعيل وهو يأتي بمعنى فاعل ويأتي بمعنى مفعول، هنا يقول: حكيم أي: مُحكَم لا يبدل ولا يغير، هذا هو الذي ذكره ابن كثير، وبعضهم يقول: حكيم هنا يعني أنه ذو حكمة بالغة، فأفعال الله -عز وجل- مبنية على الحكمة، والحكيم من أسمائه يتضمن صفة الحكمة، هذا الذي مشى عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، فسره بهذا، الحكيم يعني ذو حكمة، قال: وهذا لا يعارض قول من قال: إنه محكم كقول ابن كثير، قال: فهو محكم لا يتطرق إليه خلل، وهو أيضًا ذو حكمة، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

ولهذا قال -جل جلاله-: {أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} أي: إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات.

قال: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} أمراً هنا منصوب، بعضهم يقول: إنه منصوب بيُفرق، {يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} يعني هو بمعنى فرقًا لكنه غاير في اللفظ، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} فيكون بمعنى فرقًا، يعني يُفرق فرقًا، وهذا قال به جماعة من أصحاب المعاني كالزجاج والفراء، أي منصوب على المصدرية، وبعضهم يقول: النصب هنا على الحال، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} يعني آمرين من عندنا، حال كوننا آمرين، وبعضهم يقول: منصوب على الاختصاص، أي أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا، هذا قاله صاحب الكشاف، والأمين كأنه استحسن هذا القول، ونحن لا نشتغل بالإعراب لكن أحيانًا لا يتبين المعنى إلا به، يتوقف المعنى عليه، وإلا فالكلام كثير في مثل هذه القضايا، يعني مثل هذا الموضع ذكر فيه بعضهم اثني عشر قولاً في إعراب {أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا}، فلا تفهمها إلا أن تعرف إعرابها، {أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا} يُفرق فرقًا، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا} بمعنى فرقًا من عندنا، فيكون النصب على المصدرية أو على الحال، ذكرُ الإعرابات أحيانًا قد لا يستسيغه، أو يستثقله بعض الإخوان، وما أذكر هنا إلا ما تدعو الحاجة إليه، وبعضهم يقول: إنه أيضًا حال لكن ليس من يفرق، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ} بعضهم يقول: حال من أمر، كل أمر حكيم أمرًا، حال كونه أمرًا من عندنا، هذا الذي رجحه

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، مع أنه استحسن كلام صاحب الكشاف، قوله: **{أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}**، بعضهم يقول: **{إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** بدل من قوله: **{إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}**، يعني: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** أنه بدل من قوله: **{إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}**، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: هذا جواب ثالث للقسم على اعتبار أن الجواب الأول: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}**، والجواب الثاني: **{إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}**، والجواب الثالث: **{إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}**، وبعضهم يقول: هذه أصلاً جملة مستأنفة.

فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال تعالى: {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، {إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ} أي: إن كنتم متحققين.

ثم قال تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}.

قوله: **إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة كانت ماسة إليه**، ولهذا بعضهم كصاحب التفسير الكبير يقول: إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل **{إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، قال: ولهذا قال تعالى: **{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}** رحمة: بعضهم يقول: إن رحمة هنا منتصب للعلة، يعني: أن هذه تعليلية، يعني أنزله للرحمة كما يقوله الزجاج من أصحاب المعاني، أنزلناه للرحمة، **{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}** أنزلناه رحمة، من أجل الرحمة، وبعضهم يقول: هذا مفعول لمُرسِلين، مرسلين رحمة كما يقوله المبرد، **{إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً}**، والرحمة هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً}** [سورة الأنبياء:١٠٧] فإرساله -عليه الصلاة والسلام- رحمة للناس، وبعضهم يقول: رحمة هذا مصدر في موضع الحال، يعني حال كونك، أو يعني راحمين، والله أعلم، يقول: **{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** هذه القراءة هي قراءة الكوفيين بالجر **{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** باعتبار أنه بدل من "ربك" "رحمة من ربك رب السموات والأرض"، أو أنه نعت له أو بيان، والمعنى واضح لكن على قراءة الجمهور بالرفع **{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**، بعضهم يقول: إنه معطوف على السميع العليم فإنهما مرفوعان، هذه من جملة أوصافه، فيكون ذلك من قبيل عطف الأوصاف، وعطف الأوصاف تارة يكون مع ذكر الحرف، وتارة بإسقاطه، هذا في حال تعاقبها، وتتابعها كما في قوله تعالى: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** [سورة الأعلى:١-٤] جاء بهذا وهذا، وقوله:

إلى الملِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ *** وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحم

فجاء بالواو، ويحتمل أن يكون على الرفع جملة جديدة مبتدأ، وخبره "لا إله إلا هو"، أو أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو رب السماوات والأرض، هذا كله على الرفع، **{وَمَا بَيْنَهُمَا}** فالذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما.

وهذه الآية كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [سورة الأعراف:١٥٨] الآية.

قوله -تبارك وتعالى-: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ}**، بعضهم يقول: هذا على الاستئناف، يعني هو ربكم، جاءت مرفوعة هو ربكم، أو أنه بدل من "ربُّ السماوات" على قراءة الجمهور بالرفع، أو نعت له أو بيان **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ}** إلى آخره.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الدخان من الآية (٩) إلى الآية (٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} [سورة الدخان:٩-١٦]: يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم الحق اليقين وهم يشركون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال -عز وجل- متوعدًا لهم ومهددًا: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} عن مسروق قال: دخلنا المسجد -يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة- فإذا رجل يقص على أصحابه: {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود -رضي الله عنه- فذكرنا له ذلك وكان مضطجعًا ففزع فقعد وقال: إن الله -عز وجل- قال لنبيكم -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص:٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، سأحدثكم عن ذلك: "إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم بسنينَ كسنِي يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان[1]، وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهد"[2].

قال الله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} فأُتِي رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فقيل له: استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى -صلى الله عليه وسلم- لهم فسقوا فنزلت: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله -عز وجل-: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} قال: يعني يوم بدر، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "فقد مضى خمس الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام"[3]، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة.

---

١ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان:١١]، برقم (٤٨٢١).

٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان:١٠]، برقم (٤٨٢٠).

وقد وافق ابنَ مسعود -رضي الله عنه- على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى جماعةٌ من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير، وفي حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري -رضي الله عنه- قال: أشرف علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونارًا تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا))[٤]، تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لابن صياد: ((إني خبأتُ لك خبأ))، قال: هو الدُّخ، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((اخسأ فلن تعدو قدرك))، قال: وخبأ له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}[٥]، وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشفٌ على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يقرطمون العبارة ولهذا قال: هو الدُّخ، يعني الدخان، فعندها عرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مادته وأنها شيطانية، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((اخسأ فلن تعدو قدرك))، وقد رُوي من الأحاديث المرفوعة والموقوفة من الصحاح والحسان وغيرهما مما فيه مَقْنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود -رضي الله عنه- إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: {يَغْشَى النَّاسَ} أي: يتغشاهم ويعمهم ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: {يَغْشَى النَّاسَ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- فيه ثلاثة أقوال لأهل العلم، سمعتم منها قولين، وكل قول من هذه الأقوال له وجه، فابن مسعود -رضي الله عنه- يرى أن هذا من الآيات التي قد مضت، بمعنى أن الدخان من أشراط الساعة، فهل هو من الأشراط المنتظرة التي لم تقع أو هو من الأشراط التي وقعت؟ هذا أمر.

الأمر الثاني: هذه الآية في سورة الدخان هل هي في شيء قد مضى أو في شيء مستقبل؟

الأمر الثالث: هل الدخان من أشراط الساعة الصغرى أو أنه من أشراط الساعة الكبرى؟ يعني نحن نعلم أن أشراط الساعة الكبرى لم يقع شيء منها بعد، وأنها إذا وقعت فهي كعقد قد انفرط نظامه، تتتابع، تتعاقب

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، برقم (٤٣١١)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الخسف، برقم (٢١٨٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٦١٤٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، لكن اختلف في رفعه ووقفه".

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، برقم (١٣٥٤)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٢٤).

سريعًا، فلم يقع شيء من أشراط الساعة الكبرى اتفاقًا، فعلى قول ابن مسعود -رضي الله عنه- أن الدخان من أشراط الساعة، ومقتضاه أنه من أشراطها الصغرى، وأنه قد مضى، وأنه ما تتحدث عنه هذه الآية، ابن مسعود -رضي الله عنه- يرد على هذا القاصّ الذي يقول: إنه يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم... إلى آخره، ابن مسعود يرد على مثل هذا بأن ذلك لا يتأتى مع قوله: **{رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ}**، ولا يتأتى مع قوله: **{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}** يقول: إن هذا إذا وقع يوم القيامة لا يُكشف، لكن مثل هذا يمكن أن يقال فيه: إن ما قاله القاص لم يكن دقيقًا في عبارته، يعني هو يقول: يوم القيامة، وإن كان يمكن أن يحمل هذا على قرب القيامة، فهو من أشراط الساعة الكبرى، فيمكن أن يقع ثم ينكشف، هذا جواب عن هذا الإيراد.

الأمر الثاني: وهو الأقوى -يعني الذي يقوي هذا القول أن الآية تتحدث عن شيء مضى- هو سبب النزول، والحديث في الصحيحين، وهنا يقول: **إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم بسنينَ كسنِي يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية:** "**فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد**"، قال الله تعالى -هذا من تمام الرواية-: **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** وهذا جاء في بعض ألفاظه: فأنزل الله، فالعبارة صريحة في سبب النزول، ولو لم يكن ذلك فإن قوله بعده: فاستسقى لهم فنزلت: **{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}** فهذا لا ينفك عما قبله بحال من الأحوال، وهو صريح في سبب النزول **{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ}** أيّ عذاب؟ هذا المذكور قبله **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}** فحينما يقول: **{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ}** "أل" هنا تكون عهدية، وهو العهد الذكري، يعني العذاب المذكور قبله، فهذا واضح لا إشكال فيه.

في صحيح مسلم يقول في تمام الحديث: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا عليه، فأنزل الله -عز وجل-: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ}.

في صحيح مسلم فأنزل الله: **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** فالآن على هذا القول عندنا هذا الحديث المخرج في الصحيحين في سبب النزول، وسبب النزول يتضح به المعنى ويرتفع به الإشكال، يعني نحن أمام حديث مرفوع -الصريح في أسباب النزول هو من قبيل المرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، بالإضافة إلى أن ابن مسعود -رضي الله عنه- من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن أعلم الصحابة -رضي الله عنهم- بالقرآن ومعاني القرآن، وقال ذلك جازمًا، وغضب من كلام هذا الرجل، فمثل هذا لا يقابل به أقوال التابعين فمن بعدهم، نحن أمام تفسير صحابي، وتفسير الصحابي مقدم على غيره، فهذه كلها ترجح أن المراد بالدخان هنا هو ما حصل لهم من الجهد فصاروا يرون ذلك فيما بينهم وبين السماء بسبب الجوع، يعني يرى مثل الضباب، مثل الدخان، الإنسان المتعب الذي يشعر بشيء من الإغماء أو نحو ذلك يخيل إليه مثل الضباب، يقول: أنا ما أرى الأشياء بوضوح، الإنسان المجهد كثيرًا أو المريض العليل كثيرًا، أو الجائع كثيرًا يؤثر ذلك على بصره فيرى الأشياء غير واضحة، هذه كلها ترجح أن المراد بالدخان هنا هو هذا الذي حصل، لكنه يشكل على هذا القول الحديث الآخر حديث حذيفة الغفاري -رضي الله عنه-:

أشرف علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال: ((لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات...)) والآيات المذكورة كلها من الآيات الكبرى، علامات الساعة الكبرى، فذَكَره -صلى الله عليه وسلم- في هذا السياق، كل هذه الآيات آيات كبرى فدل على أن الدخان من أشراط الساعة الكبرى، والرجل الذي كان يقص في المسجد هو يتحدث عن قوله: **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** فكان يفسر الآية يتحدث عن أمر بين يدي الساعة، فأنكره ابن مسعود، فهذا الحديث الآخر: ((لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات..)) يدل على أن الدخان من أشراط الساعة الكبرى وأنه لم يقع، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، والأول قال به كثيرون غير ابن مسعود -رضي الله عنه-، وسمَّى هنا جماعة من هؤلاء، ابن كثير -رحمه الله- احتج بأشياء يقول: أولاً: أن الله قال: **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** هذا بيِّنٌ وليس أمورًا متخيلة، ليست الأشياء المرئية أمورًا متخيلة يتخيلها الناظر بسبب الجوع، **{بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** دخان حقيقي بيِّن واضح، يقول: فكيف يقال: إنه ذلك الخيال الذي رأوه بسبب الجوع؟ ثم الحجة الثانية **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ}** فـ"أل" للعموم، أي كل الناس وليس فقط يغشى الجوعى الذين أنهكهم الجوع بسبب القحط، فظاهر الآية العموم، وهذا لا يختص بأولائك، ثم قال: **{هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}** الآن هذا القول له وجه كما ترون ويؤيده حديث حذيفة الغفاري -رضي الله عنه-، بعض أهل العلم -وهذا القول الثالث الذي أشرت إليه- توسط في هذا، مثل الشوكاني قال: إن الدخان في هذه الآية المراد به هو الذي فسره به ابن مسعود -رضي الله عنه-، وما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث حذيفة هو من أشراط الساعة الكبرى وهذا لم يقع، وهذا القول وجيه كما ترون، فلا نستطيع أن نتجاوز سبب النزول، نحن نعرف أن المقرر أنه تُفسر به الآية ويرتفع به الإشكال الحديثُ الصريح في سبب النزول والرواية التي لا مطعن فيها وليست من قبيل الاحتمال، ومن الذي أنكر هذا القول على ذلك الذي يقص؟، ابن مسعود -رضي الله عنه-، فيمكن أن تفسر هذه الآية بما ذكره ابن مسعود -رضي الله عنه-، ومما يدل عليه سبب النزول، وما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث حذيفة يكون في علامات الساعة الكبرى وهذا لم يقع بعد؛ لأن هذا القول الثالث هو جمع بين القولين في الحقيقة، ولا إشكال في مثل هذا، وليس هو من إيجاد قول جديد، يعني إذا اختلفوا على قولين فليس لأحد أن يأتي بقول ثالث يعود على القولين بالإبطال، بمعنى أن كل الأمة ما فهمت الآية، لكن يمكن أن يؤتى بقول ثالث لا يبطل القولين ولكنه يوجه ويجمع مثل هذا، هذا مثال على القول الثالث الذي لا إشكال فيه، والله -تبارك وتعالى- أعلم، هذا كأنه أقرب، والله أعلم.

مع أن ظاهر الآيات أنه في شيء عام يخوف الله -عز وجل- به العباد، هذا ظاهر الآيات ولكننا نقدِّم على الظاهر ما دل عليه سبب النزول؛ لأن السنة تفسر القرآن، فلا نتمسك بمجرد الظاهر إذا كان في شارحه وهو السنة ما يدل على خلافه؛ لأنها تقيد مطلقه، وتخصص عمومه، وتبين مجمله، فهذا من تفسير القرآن بالسنة الصريحة، سبب النزول الصريح هو تفسير بالسنة الصريحة -والله أعلم-، لكن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن صياد: ((إني خبأت لك خبأ)) قال: هو الدُّخ، ابن كثير يقول: **وخبأ له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}** هل هذا من تمام الرواية؟ أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خبأ له سورة الدخان؟، فابن كثير حينما يذكر هذه الآية يستأنس

بها أو يستدل بها على قوله، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر له شيئًا يتعلق بالمستقبل، بأشراط الساعة، لو كان بشيء مضى -ما وقع في مكة من الجوع صاروا يتخيلون إلى آخره- لم يكن هناك ارتباط أو مناسبة بين هذا وابن صياد، والله أعلم، باعتبار أن ابن صياد كان يتنبأ بالغيب، وكانوا يشكون أنه المسيح الدجال، أما قوله: **وهم يقرطمون العبارة** فهذا من كلام ابن كثير، ويقرطم تعني أنه يأكل بعض الكلمة، يجتزئ ببعضها، فقال: هو الدُّخ، والذي يظهر أنه يلقيه الشيطان إليه إلقاء سريعًا فيتلقفه فما يدرك أحيانًا الكلمة بكاملها، الآن لو أحد يلقي لآخر كلمة سريعة فهو يأخذ بعضها لا يفقه ذلك عنه لسرعة الإلقاء.

وقوله تعالى: {هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُون} [سورة الطور:١٣-١٤].

يعني يقال لهم: **{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُون}** وهنا **{يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}**، أي يقال لهم: هذا عذاب أليم، وكما سبق مرارًا أنه يُختصر من الكلام كما يقول ابن جرير: العرب تحذف من الكلام ما يمكن أن تستغني عنه ثقة بفهم المخاطب، فيُطوى الكلام الذي يُستغنى عنه فما يحتاج أن يطوِّل، والقرآن أفصح الكلام فما يحتاج أن يقال: ثم يقال لهم، فيقال لهم كذا، فيقولون، هذا في مواضع من كتاب الله -عز وجل- في قصص الأنبياء وفي غيرها.

وقوله: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنعام:٢٧]، وكذا قوله: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [سورة إبراهيم:٤٤]، وهكذا قال -جل وعلا- هاهنا: {أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ}.

يقول: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بيِّنَ الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون، وهذا كقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [سورة الفجر:٢٣] الآية، وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة سبأ:٥١-٥٢] إلى آخر السورة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ}** يعني أن هذا بعيد غاية البعد عنهم، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكر، وعبر عنه بهذا -أي الذكرى- مبالغة لأن زيادة المبنى لزيادة المعنى **{ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ}**، **{إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}** [سورة النحل:١٠٣]، فقالوا عنه: معلم يعلمه بشر، وقالوا عنه أيضًا: مجنون، كما قالوا: ساحر، وغير ذلك.

قال: وقوله تعالى: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} معناه أنا لو كشفنا عنكم العذاب ورجَعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة المؤمنون:٧٥]، وكقوله -جلت عظمته-: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام:٢٨].

{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} ابن كثير هنا فسره بغير ظاهره قال: معناه أنا لو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه، يعني فسره بقوله: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ}، وظاهر الآية أن هذا وعد من الله بكشف العذاب، ولا يصح العدول عنه، أمّا على قول ابن مسعود -رضي الله عنه- أن هذا أمر مضى فقد كشفه عنهم لما سألوا ذلك، فذهب عنهم ذلك القحط الذي كان سببًا لهذه الخيالات التي هيأت لهم مثل هذه الصورة -صورة الدخان-، لكن كأن ابن كثير -رحمه الله- لما نظر إلى أنه أمر يتصل بالساعة فإنه لا كاشف له، وبهذا يحتج من يقول بقول ابن مسعود -رضي الله عنه- أن هذا كيف يكشف وقد وقع وحل بهم إذا كان يوم القيامة كما يقول هذا القاص؟، لكن الآن ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟، يعني هو يستنكر أن القاص يقول: هذا يوم القيامة، فابن كثير كأنه نظر إلى هذا وجعل هذا على سبيل الافتراض، وأنه ليس على سبيل العِدة مع أن ظاهره أنه وعد من الله، الذين يقولون بقول ابن مسعود -رضي الله عنه- يحتجون بهذا على أنه أمر قد مضى وإلا فما يكون في القيامة لا يكشف، لكن يمكن أن يقال: لو فسرت بأن الدخان هو الذي سيأتي على قول ابن كثير، وأنه لا ضرورة لما قاله ابن كثير هنا من أن ذلك على سبيل الافتراض وأنه لو كشف لرجعوا، لا، أن هذا يكشف يعني الدخان الذي يحصل قرب القيامة لا يستمر إلى أن تقوم الساعة، كذلك الخسوف الذي يحصل لا يستمر، كذلك خروج الشمس من مغربها هي تطلع من مغربها في يوم واحد، والذي عليه عامة أهل العلم أنها في باقي الأيام ترجع إلى ما كانت عليه، يعني حينما تطلع الشمس من مغربها {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [سورة الأنعام:١٥٨]، لكن إذا طلعت الشمس من مغربها هل معنى ذلك أن القيامة قامت؟.

الجواب: لا؛ لأن القيامة تأتيهم بغتة كما سبق في الأحاديث سرعة مجيئها وفي الآيات أيضًا، فهنا هذا الدخان الذي يحصل يعرض لهم ولا يستمر إلى أن تقوم الساعة -والله أعلم-، فما الإشكال من أن هذا يكشف؟

يعني ما رجح إذًا، هذا غير صحيح في طريقة الاختصار، يرجع فيه إلى الأصل، فهنا يقول: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا} يقول: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ} أنّا لو كشفنا عنهم العذاب، هذا الموضع يراجع فيه الأصل، هذه العبارة لا تفي بالمعنى ولا يتحملها ابن كثير -رحمه الله-، العبارة فيها إشكال.

قوله: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} يعني إلى ما كنتم عليه من الشرك والكفر كما يدل عليه قوله تعالى: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}، وقوله: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} القرآن يفسر بالقرآن، بخلاف قول من قال: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} أي: عائدون إلينا بالبعث والنشور، هذا قول من يقول بأنه من أشراط الساعة الكبرى، وهو خلاف الظاهر المتبادر.

قال: وقوله -عز وجل-: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} فسر ذلك ابن مسعود -رضي الله عنه- بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود -رضي الله عنه- على تفسيره الدخان بما تقدم.

كذلك قول من قال: إن الآية فيما مضى مع أن ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث حذيفة هو في أشراط الساعة الكبرى، مثل الشوكاني يقول: إن قوله: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى}: يوم بدر، والذين قالوا: إن المقصود هنا من أشراط الساعة الكبرى قالوا: البطشة الكبرى يوم القيامة، قيام القيامة.

قال: ورُوي أيضًا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب -رضي الله عنه- وهو محتمل، والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا، قال ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة"، وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

مع أن جماعة من السلف فمن بعدهم قالوا غير ذلك، يعني الحسن وعكرمة ومن أصحاب كتب المعانى الزجاج قالوا: **{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى}** يعني عذاب النار، لكن لا ملازمة بين المسألة السابقة وتفسير هذه الآية، **{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى}** يعني الذين مشوا على قول ابن مسعود -رضي الله عنه- لا يلزم من ذلك أن يفسروا هذا الموضع -البطشة الكبرى- بيوم بدر، فبعضهم يقول: القيامة كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبعضهم يقول: يوم بدر، ولاحظ أن ابن كثير -رحمه الله- قال: هذا محتمل، محتمل هذا وهذا، فالبطشة الكبرى يحتمل أن تكون يوم بدر باعتبار أنها كانت ضربة موجعة للمشركين، ويحتمل أن يكون ذلك يوم القيامة، فابن مسعود -رضي الله عنه- يفسر ذلك بيوم بدر، وابن عباس يفسره بالرواية الصحيحة بيوم القيامة، وبالرواية الضعيفة الأولى التي لا تصح عنه أنه يوم بدر، فهذا يحتمل.

{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} في آخر الكلام قال: **وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم**، يعني أن البطشة الكبرى يوم القيامة، والذي قاله الحسن وعكرمة هو أنها عذاب النار، يعني هذه العبارة أدق، وكأن ابن كثير -رحمه الله- نظر إلى اعتبار القسمة هل هي في يوم بدر أو في الآخرة؟ فعد هذا القول: إنها عذاب النار أي إنها القيامة، يعني ليس المقصود بها يوم بدر بهذا الاعتبار.

{وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ} [سورة الدخان:١٧-٣٣].

يقول تعالى ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر {وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} يعني موسى كليمه -عليه الصلاة والسلام-، {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}، كقوله -عز وجل-: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [سورة طـه:٤٧].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ}** يعني موسى، قطعًا جاءهم رسول، هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام- مبهم هنا، لكنه مفسر في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، **{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ}** [سورة طـه:٤٧]، **{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}** [سورة النازعات:١٧] فهذا من تفسير القرآن بالقرآن، قد يكون الموضع فيه إبهام فيأتي في القرآن ما يفسره، وإذا أردت النظر في هذا

بتوسع كبير فانظر مقدمة أضواء البيان ففيها من العلم الشيء الكثير، وفيها من أنواع تفسير القرآن بالقرآن ما لا تجده في كتاب، فرحم الله مؤلفه رحمة واسعة، وقوله هنا: **{وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}** هذا كما سبق في طي الكلام واختصار ما يُستغنى عنه بفهم المخاطب، يعني فجاءهم الرسول فقال لهم: "أدوا إليّ عباد الله" لاحظ هنا **{وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}**، جاءهم رسول أن أدوا فأن هذه تفسيرية، هي مفسرة، وهذا الذي مشى عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، **{أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}** مع أن بعضهم يقول غير ذلك، بعضهم يقول: إنها مخففة من الثقيلة، يعني أنّ الشأن والحديث أدوا إليّ عباد الله، وهكذا قول من يقول: إنها مصدرية، يعني بأن أدوا إليّ عباد الله، كقوله -عز وجل-: **{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ}** هنا فسر الآية بالآية دون الدخول في التفاصيل، فما معناه؟ على قول ابن كثير فأرسل معنا بني إسرائيل أدوا إليّ عباد الله، يعني يا معشر الفراعنة، يا فرعون سلم لنا بني إسرائيل، ادفع إليّ قومي، واضح؟ **{أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}** فهنا قوله: **{عِبَادَ اللَّهِ}** مفعول به، ابن كثير فسرها بقوله: **{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}** فــ "بني إسرائيل" مفعول به، والقرآن يفسر القرآن، فــ"عباد الله" هنا يكون مفعولاً به، بخلاف قول من قال: إنه منادى مضاف **{أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}**، أي أدوا إليّ، ثم ناداهم: يا عباد الله، كأن يقول: عباد الله استجيبوا، لا يكون المقصود به دفع بني إسرائيل إليه، لكن أدوا إليّ يا عباد الله، أدوا ماذا؟.

أدوا ما وجب عليكم من حقوق الله -عز وجل-، آمِنوا بي، استجيبوا، أو قول من قال: أدوا إليّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي، لكن الأرجح أن قوله: **{عِبَادَ اللَّهِ}** مفعول به، يعني أن أدوا إليّ بني إسرائيل، ادفعوا إليّ قومي، يقول للفراعنة: أدوا عباد الله إليّ، سلموهم لنا، اتركهم؛ لأن فرعون كان يستعبدهم، فهو يقول: ادفعهم إليّ، خلِّ بيني وبينهم ولا تعذبهم، هذا المراد -والله تعالى أعلم-، وهو صنيع ابن كثير وقبله هو اختيار ابن جرير أي أنه مفعول به، وهذا الذي عليه المحققون.

قال: وقوله -جل وعلا-: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} أي: مأمون على ما أُبلِّغكموه، وقوله تعالى: {وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ} أي: لا تستكبروا على اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه كقوله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠]**.**

{إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي: بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات، {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة، أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أو فعل.

قوله: **{وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ}** الرجم يأتي بمعنى الرجم بالقول بالشتم والسب، ويأتي بالفعل الرجم بالحجارة، وبعضهم يقول: القتل أيضًا كذلك، وآزر قال لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}** [سورة مريم:٤٦]، فيحتمل -أيضًا- هذه المعاني، هل قصد أن يرجمه بالفعل أو أن يرجمه بالقول بالسب ونحوه؟، فهذان قولان، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إنه أطلق ذلك يعني قال: **{وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ}** فيشمل الرجم بمعنييه، يعني استعاذ بالله -عز وجل- من أن يرجموه بالقول، أو أن

يرجموه بالفعل؛ لأن الله لم يخص معنى من هذه المعاني دون الآخر، أطلق فيبقى هذا على إطلاقه، ابن جرير -رحمه الله- في مثل هذه المواضع تارة يحمل الآية على هذه المعاني إذا كانت الآية تحتملها، فالرجم يأتي لهذا، وهذا، فيقول: ما عندنا ما يدل على التخصيص فيحمل على ذلك كله، وأحياناً يقتضي المقام أحد المعنيين وكلاهما معنى صحيح، فابن جرير في مثل هذه المواضع قد يتوقف فيقول: إنه يأتي لكذا وكذا، فيحتمل أنه أراد به هذا أو أراد به هذا، وليس عندنا ما يدل على تخصيص أحد المعنيين دون الآخر، أو إرادة هذا دون ذلك، يقول: يحتمل هذا ويحتمل هذا دون أن يرجح.

قال: {وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ} أي: فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} [سورة يونس:٨٨-٨٩]، وهكذا قال هاهنا: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ}.

يعني هنا قال: **دعا ربه عليهم** وهذه الآية غير صريحة في صيغة الدعاء، إنما هي في ظاهرها خبر، قال: **{فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ}** يعني ما طلب شيئًا معيناً أن يُفعل بهم من العقوبة، أو يعذبهم الله -تبارك وتعالى- ولكن في قوله: **{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا}** يعني موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، قالوا: لأن هارون -عليه الصلاة والسلام- كان يؤمِّن على دعاء موسى -صلى الله عليه وسلم-، والمؤمِّن أحد الداعييْن، وهذا يؤخذ منه أن لكل مقام مقال، فتارة يحسن الدعاء لهم بالهداية، وتارة يحسن الدعاء عليهم بالهلاك والاستئصال، فهذا كله جاء في دعاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ونوح -صلى الله عليه وسلم- قال: **{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** [سورة نوح:٢٦]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- دعا على قومه قال: ((اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف))[٦]، فهؤلاء الأنبياء الكرام دعوا على أقوامهم، فهؤلاء الذين الآن يريدون من الناس أن يستميتوا استماتة تامة، وأن يستكينوا استكانة كاملة بحيث لا يذكرون الكافر بكفره، وإنما يقولون: الآخر، هذا إذا ما قالوا: إنهم أهل إيمان، وكذلك لا يريدون أن يُدعى على الكفار، ويضيقون بذلك، ويضجون بسببه، وتأخذهم الحمية والأنفة فينفرون، **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}** [سورة المدثر:٥٠-٥١] إذا سمعوا الدعاء على الكافرين، فهذا الكلام غير صحيح، فإذا كان المقام يقتضي الدعاء على أعداء الله -عز وجل- على الكفار فإن ذلك يكون في موضعه، وقد فعله الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم أكمل الناس حالاً، ولا يلزم أن يُدعى لهم في كل موضع بالهداية، وأن يبقى الكلام دائمًا ليناً هيناً سهلاً

---

٦ - رواه البخاري، أبواب الاستسقاء، باب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-: "اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"، برقم (١٠٠٦)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم (٦٧٥).

لطيفًا رقيقًا في كل الحالات وهم يفعلون الأفاعيل، يعني كل الأوهام الكبيرة التي تروج على الناس من حقوق الإنسان، ومن التقارب والحوار، ونبذ أسباب العنف وما إلى ذلك مما يروج على البسطاء الواقعُ يكذبه، انظر الآن ماذا يفعل في بلاد الشام من الأفعال الهمجية التي لو كانت في أوربا في القرون الوسطى عندهم لكان ذلك معقولاً ومدركًا، لكن الآن في وقت الإعلام ما كنا نظن مع أننا نعرف حقد الأعداء، وكيد الأعداء، وأنهم جميعًا أعداء، ولا يرتجى منهم النصر، لكن ما كنا نظن أن الأمر يصل إلى هذه الحال والإعلام ينقل لحظة بلحظة، ويصور ما يجري، ما كنا نتصور أن الأمور تكون بهذه المثابة، كنا نقول: إن ما وقع قبل أكثر من ثلاثين سنة في حماة لا يمكن أن يتكرر اليوم لاعتبارات كثيرة: منها الإعلام، ووسائل الإعلام، في الأول لم يكن هناك وسائل تذكر، وكان الناس يتناقلون الواحد بعد الواحد أخبارًا من هنا وهناك يتلقفونها، وبقية جمهور الأمة مغيبة عن الحدث؛ لأن الوسائل التي كانت آنذاك موجودة على قلتها لم تكن تُعنى بهذا، وما كانت تنقل تلك الأحداث أصلاً، وإنما يتسامع بها بعض الغيورين فقط، هذا شيء نذكره تمامًا، خطبة واحدة هي التي طارت في الآفاق ينسخها الناس، فيتداولونها بأيديهم، خطبة عرّفت الناس بما يجري، خطبة واحدة!، أما الآن فبالصور وينقل القتل بأبشع الطرق، شيء تقشعر منه الأبدان، قتل وذبح الأطفال، ورمي لهم بالمزابل، شيء لا يفعل حتى مع الحيوانات، ومع ذلك لا إشكال، مع أنه لو قُتل واحد من اليهود في بلد من البلدان لقامت الدنيا من أولها إلى آخرها، ولو أنه كان هذا القتل على الرافضة لقامت الدنيا، وجمعيات حقوق الإنسان، والدول الكبرى، وحفظ الأقليات، وحفظ الحقوق، والاضطهاد الديني وما إلى ذلك، وأما المسلمون فلا بواكي لهم، وهذه هي الحقيقة التي يضعهم الحدث أمامها بصورة جلية لا خفاء فيها، وهذا لا نشك فيه إطلاقًا، نعرفه معرفة تامة، ولكن الله يظهر من الأحداث ما يبين به لأهل الغفلة الذين صدقوا تلك الدعايات حقيقة الأعداء، وأنهم جميعًا أعداء، وأن مثل هؤلاء الأعداء لا ينتظر منهم إطلاقًا أن ينظروا بعين الشفقة والرحمة، أو أن يمدوهم بشيء؛ لأن ما يجري إنما هو شيء يحصل به بعض التشفي لهم؛ لأنهم جميعًا أعداء، ومثل هؤلاء من الباطنية مَن الذي جاء بهم من الجبال ووطّنهم وجعلهم في هذه المرتبة من السلطة وغير اسمهم من النصيريين إلى العلويين، وحاول أن يواري سوءتهم؟، هي الدول المتحضرة، هم الذين فعلوا هذا فأحيوا هذه الفرق وأظهروها ودعموها، بل أظهروا فرقًا جديدة لم تكن موجودة، مثل القاديانية في بلاد الهند، فهم إنما يشاهدون بعض ما يتشفون به، فمن الخطأ كل الخطأ أن يترقب الناس من هؤلاء شيئًا من الإنصاف أو الدعم أو الرحمة والعطف والشفقة، هؤلاء لا شفقة عندهم **{وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ}** [سورة آل عمران:١١٩]، يعض أصابعه ويتألم فكيف إذا استطاع أن يجعل هذا الألم فيك؟ من شدة ما يجد بحركة لا إرادية أسنانه تعض أصابعه من التألم، لو استطاع أن يفرغ هذه الشحنة التي تنبعث بهذه الصور -عض الأصابع- لو استطاع أن يفرغها فيك ماذا يفعل؟ **{إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء}** [سورة الممتحنة:٢] يترجمون العداوة الباطنة بعداوة ظاهرة، فكل أفاك مبين، كل كذاب وكل دجال وكل مغفل ينبغي أن يقف أمام هذا الحدث ويتوب إلى الله -تبارك وتعالى-، وتوضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن من خالف عقدُه عقدَك -عقيدته خالفت اعتقادك- خالف قلبه قلبك، ولا يمكن أن يجتمع الناس على غير الحق والإيمان والتوحيد، وإلا فالعداوة متأصلة، ما جُرم هؤلاء الصغار والكبار والنساء والشيوخ والشباب وغير

هؤلاء؟ البيئة التي في بلاد الشام ماذا تمثل بالنسبة إليهم؟ شعب قد مورس عليه أنواع التضليل والتضييع، لما وقعت هذه المشكلة كثير من الناس في المخيمات ما كانوا يصلون، ولا يعرفون الله، وسبُّ الله -عز وجل- على طرف الألسن، وكثير من هؤلاء الإخوان الذين ذهبوا إليهم في المخيمات وجدوا أكثر من في المخيم في بعض المخيمات لا يصوم، جاءوهم في رمضان، لا يعرفون الله، ولا يعرفون كيف يتوضئون، ماذا يريدون منهم؟! كيف لو كان هؤلاء من المتدينين؟!

ومعلوم أن التصوف وغير التصوف ينتشر في بلاد الشام، هذا عند كثير من المتدينين، ونحن لا نعمم هذا، ومع ذلك يذبحونهم هذا الذبح، ويفعلون بهم هذا الفعل، كيف لو كان العدو من أصحاب العقيدة الصحيحة التي يسمونها بالوهابية؟ ماذا سيفعلون بهم؟

إذا كانوا هم أمام أناس قد ضُلل كثير منهم عقودًا متطاولة، مساكين لا يعرفون، لا يميزون الاعتقاد الصحيح من الاعتقاد الفاسد، كثير منهم، ولست أعمم هذا، وهذا الحقد تجاههم إذًا لو كانوا أمام أصحاب الاعتقاد الصحيح وأهل السنة حقًّا السنة المحضة ماذا سيفعلون بهم؟ هذا شيء لا يمكن أن يتصور، ولا يتخيل أبدًا، -نسأل الله العافية.

يقف ذهني عاجزًا كلما أتأمل وأتفكر ماذا يمكن أن يُفعل بالناس أكثر مما فعله الرافضة بأهل السنة في العراق؟!! فجاء هؤلاء بأكثر من هذا، والآن أتأمل وأتخيل لو ظفروا بمن يكنون لهم عداوة أشد ماذا سيفعلون بهم؟، الله أعلم، لكن ذكر لي بعض الإخوان عن بعضهم فيما يتحدثون به في مجالسهم، صارحه بهذا، قال: نحن نتحدث هكذا لو ظفرنا بكم، وذكر له كلامًا يصعب أن يقال، نسأل الله أن يكبتهم، وأن يخزيهم، وأن يهلكهم، وأن يحصيهم عددًا، وأن لا يغادر منهم أحدًا، وأن ينزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين الظالمين، وأن ينصر إخواننا في بلاد الشام نصرًا مؤزرًا، وأن لا يكلهم إلى أحد من خلقه، أن يغنيهم عن خلقه أجمعين، وإلا فإن أعداء الله -عز وجل- كلهم أعداء لهم، لا يريدون بهم خيرًا، وإن قدموا لهم أموالاً أو قدموا لهم أسلحة، فهذه الأسلحة يوظفونها في أمور لا تكون في صالحهم بحال من الأحوال أبدًا، فهي طعوم مسمومة، هي القضية هكذا، لا يقدمون لهم خيرًا، كل ما يقدمه الأعداء لا خير فيه، صندوق النقد الدولي، وغير صندوق النقد، هي مشنقة خذها أو دعها.

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ} [سورة الدخان:٢٢] يعني على إضمار حرف الجر، فدعا ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون، هنا سماه دعاء مع أن الصيغة ليس فيها دعاء، هي خبر، لكن كأنه استُغني بذلك عن الدعاء باعتبار أنه ذكر سبب استحقاق الدعاء وهو كون هؤلاء بهذه المثابة، "أن هؤلاء قوم مجرمون" فهم إذًا يستحقون العقوبة، يعني كأنه يقول: هؤلاء قوم مجرمون فعليك بهم يا رب.

قال: فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال -جل جلاله-: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ}، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [سورة طــه:٧٧].

وقوله -عز وجل- هاهنا: {وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ} وذلك أن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان؛ ليصير حائلاً بينهم

وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا} كهيئته وامضِه، وقال مجاهد: {رَهْوًا} طريقًا يبسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم، وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد.

هذه العبارات التي نقلها ترجع إلى معنى واحد، يعني اتركه على حاله، يعني لا تضربه بعصاك ثانية فيرجع؛ لأن المشهد لم يكتمل، ليس ذلك قد وقع من أجل إنجاء بني إسرائيل بل بقي نصف المشهد وهو هلاك فرعون، **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** هذه الأقوال والروايات التي ذكرها ترجع إلى هذا المعنى، وهو اختيار ابن جرير، يعني قول من قال: إن المراد اتركه ساكنًا، اتركه على حاله إلى آخره، يعني لا تغير حاله، دعه حتى يتحقق العذاب لفرعون، وتشاهدون ذلك بأعينكم، **{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [سورة البقرة:٥٠]، فهذا كما ذكرنا في سورة البقرة فيه من التشفي ما فيه؛ حيث يكون إهلاك العدو أمامك، تراه وهو يصارع الأمواج، هذا بخلاف لمّا يأتيك الخبر ويقال: غرق فرعون وانتهى، كيف غرق؟ ما الذي حصل؟ هذا بخلاف ما إذا وقع ذلك وأنت تشاهد، فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** رهوًا: قول من قال: ساكنًا هذا قول الأكثر وإن اختلفت العبارة التي يعبرون بها عن ذلك، يعني يقال في أصل اللغة: رها رهوًا يعني سكن، اتركه ساكنًا لا تغير فيه، يقال: افعل ذلك رهوًا كما يقول الجوهري: يعني ساكنًا ويقال: العيش الراهي يعني الساكن حينما يكون خفض العيش والسكون والرفاهية، يقال: راهٍ، نحن لا نستعمل هذه العبارة لكن نستعملها في معنى قريب من هذا وهو الكثرة والاتساع، تقول: هذا طعام راهٍ، هذا ثوب راهٍ، فهنا يدل على العيش الراهي، يعني الساكن معناها أنه في دعة، هو المعنى نفسه، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، هذا الذي يقوله أكثر أهل العلم من المفسرين وأهل اللغة، يعني لا تؤمره بعصاك، لا تضربه بعصاك ثانية فيرجع إلى حاله الأولى، اتركه حتى ينطبق عليهم فيغرقون، وقريب من هذا قول من قال كأبي عبيدة معمر بن المثنى: إن هذه المادة تدل على الانفتاح، فرهوًا يعني مفتوحًا، تقول: رها بين رجليه، يعني باعد بين رجليه، أي فتح رجليه، يعني اترك البحر منفرجًا، فهذا وإن اختلفت فيه العبارة لكنه يرجع إلى المعنى الأول، لكن الأول فسر بالسكون، وهنا بالانفراج، وذلك يرجع في أصل المعنى إلى شيء واحد، يعني اتركه على حاله منفرجًا، وعلى الأول لا تغير من حاله، دعه هكذا؛ لأن البحر انفلق، تصور كم عمق البحر إلى القعر؟ يعني هم ما صار السطح بالنسبة إليهم يابسة أو جامدًا ومشوا على الماء، لا، انفرج فصار كل فرق كالطود العظيم، تصور جبلا شاهقًا عن يمينهم وعن شمالهم وليس طريقًا واحدًا، كم طريق؟ اثنا عشر على عدد أسباط بني إسرائيل، فيرون الماء بالجوانب أمثال الجبال واقفة، وهم يمرون يمشون على الأرض، يمشون على القعر -سبحان الله- ويابس يبسًا ما فيه وحل، ما فيه زلق، وإنما يابس، أرض يابسة كأنهم يمشون في البر والماء واقف على الجوانب، اتركه ساكنًا، اتركه منفرجًا، وهذا معنى يقول به علماء كبار من أهل اللغة مثل أبي عبيدة، وقبله قال به جماعة كمجاهد، فهذا المعنى الذي هو الانفراج صحيح في اللغة، فيمكن أن تحمل -والله أعلم- على المعنيين، **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** يعني على حاله ساكنًا منفرجًا، فهذا كله لا إشكال فيه -إن شاء الله-، حتى إن بعضهم يربط بين المعنيين تمامًا يقول: لأن البحر أصلاً إذا كان بهذه المثابة -أي إذا سكن

جريه- انفرج، يعني هذا الذي حصل في الواقع، توقف الماء انفرج، وبقي بهذه الهيئة بينه طرقات يمشي ويمر بها الإسرائيليون، فهذا كله يرجع إلى معنى واحد، بخلاف من قال: إن ذلك يرجع إلى نعت موسى -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** يعني سر ساكنًا على هيئتك يا موسى **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** فيكون ذلك مما يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: إن رهوًا يعني طريقًا، **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** يعني طريقًا، وهذا في الواقع يرجع إلى الأول، يعني لا تضربه بعصاك فيرجع الماء مرة أخرى إلى حاله الأولى، هذه أقوال للسلف، يعني هذا قال به الضحاك والربيع بن أنس، قالا: **{وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا}** يعني سهلاً، اترك البحر سهلاً، وهذا يرجع إلى القول الأول، وهكذا قول من قال: اتركه طريقًا ككعب والحسن البصري، وقول من يقول: اتركه يبسًا، الشيء نفسه، كل هذا يرجع إلى الأول كما جاء عن عكرمة، -رحم الله الجميع.

على كل حال المعنى: اتركه على هيئته، فرهوًا هذا يرجع إلى البحر، وليس يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام.

قال: ثم قال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ} وهي البساتين {وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ}، والمراد بها الأنهار والآبار، {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} وهي المساكن الأنيقة، والأماكن الحسنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}: المنابر.

قال: المنابر في معنى **{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}**، مجاهد وسعيد بن جبير يقولون: المنابر، الآن عندنا المَقام والمُقام بعضهم يفرق بينهما، يقول: المَقام بالفتح مكان القيام، والمُقام مكان الإقامة، فهنا ماذا قال؟ **{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}** مكان القيام، إذا كان مكان القيام فهذا هو الذي حمل -والله أعلم- هؤلاء على القول بأن المقصود به المنابر، مقام كريم: مقامات يقومون بها، هذا عند من فرق هذا التفريق، وهنا قال: **{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}** وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة، يعني هذا مكان الإقامة، في صبيحة واحدة انتهى كل شيء فرعون والكبراء الذين معه، الجيش، الرجال، ما بقي إلا الضعفاء والخدم، والخدم أصلاً كانوا من بني إسرائيل، وخرجوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم-، بقي الناس والأطفال، هذه قوة الله -عز وجل-، وكان هذا الهلاك بأسهل الأشياء، بالماء الذي كان فرعون يعتز ويفتخر ويقول: **{أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي}** [سورة الزخرف:٥١] فأراه الله -عز وجل- كيف صارت الأنهار تجري من فوقه، كيف صار الماء يجري من فوقه، ثم يخرج كأني أراه عاريًا ليس عليه ما يواري سوءته يلقيه الموج إلى الشاطئ كأنه قشة، جثة هامدة لا حراك فيها، هذا الذي يدعي الإلهية **{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [سورة النازعات:٢٤] يغرق بالماء، انظر كيف بأس الله -عز وجل- الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وعاد التي كانت تفتخر بقوتها وجبروتها وما أوتيت من ضخامة الأجسام **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [سورة الفجر:٦-٧] ماذا فعل الله بهم؟ ريح، الهواء هذا الساكن، هذا الهواء اللطيف الرقيق، هلاك هؤلاء العتاة الكبار بالماء والهواء، فهذا الذي يدعي الإلهية يصارع ويعارك ثم هو وجنده وعسكره وخيولهم وبعارينهم وحميرهم وبغالهم كلهم في الماء، **{وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي}** انظر كيف تجري الأنهار من تحتك، فنحن ينبغي أن نعظم الله، وأن نعرف عظمته وقدره وقوته وبأسه، وإذا أردنا النصر حقيقة فالنصر يأتي من عند الله -عز

وجل- وليس من أعدائه، {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى} [سورة الأنفال:١٠] ألف ملَك ينزلون بشرى {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} ملائكة، فما قيمة البشر وعتاد البشر وأسلحة البشر؟! لكن القوة الحقيقية هي في أمر مقدور لنا، الذي في أيدي الأعداء ليس بمقدور لنا، ولا يعطونك إياه إلا بما هو أسوأ وأنكأ، فأنت بين خيارين أحلاهما مر، لكن أسباب النصر مقدورة {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [سورة محمد:٧]، وتفاصيل هذه الجملة {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال:٤٦] فإذا حققنا هذا انتصرنا، وأما القوة فلسنا بمطالبين بأكثر مما نطيق، {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [سورة الأنفال:٦٠] لا نطالَب بأكثر من هذا، لكن حينما لا نحقق هذا فنكون متفرقين وكل واحد يقول: نحن هنا لا يأتي النصر، هذا أمر باليد ومع ذلك نعرض عنه وننتظر من أعدائنا أن يمدونا، وأن يقوونا، وأن يعينونا، وأقبح من هذا كله أولائك الذين قد ضيعوا العقود المتطاولة، وضيعوا مقدسات المسلمين على مفاوضات ومحادثات لا تجلب لهم نفعًا ولا تدفع عنهم ضرًا ولا تغير من الواقع شيئًا، بل تزيده سوءًا، محادثات كثيرة، ولكن لا قيمة لشيء منها، كانت قضية فلسطين قضية الأمة ، ثم صارت القضية العربية، ثم ما لبثت أن صارت قضية الشرق الأوسط، ثم صارت القضية الفلسطينية، الشأن الفلسطيني فقط، هذا محصور في فلسطين البقية ما لهم علاقة، إندونيسيا لا علاقة لها بالموضوع، ونحن نتقبل ونردد العبارات نفسها القضية الفلسطينية هذا شأن فلسطيني، هذا ليس شأن فلسطين فحسب هذا شأن الأمة جميعًا، والحوار والجدل والنقاش على حدود ٦٧، نحن لا نعرف لا ٦٧ ولا ٤٨ ولا ٤٥ نحن نعرف أن هؤلاء شذاذ الآفاق حقهم القتل، أعداء الله وأعداء رسله -عليهم الصلاة والسلام-، وأن هؤلاء لا حق لهم في فلسطين، وأنه ينبغي أن تُغسل الأرض وتطهر منهم تمامًا، ليس هناك شيء اسمه ٦٧ ولا ٦٥ ولا ٢٧ إطلاقًا، تجد الجدل كله ٦٧ وحدود ٦٧، الكلام كله على هذا الآن، ومن قال: لهم حق في ٦٧ أو ما قبل ٦٧ أو قبل ٤٧؟ هذا لا قيمة له، فكيف يُضلَّل الناس وتصير القضية هي فقط في هذا الحد أو ذاك الحد، ما في حد، حد السيف هو الذي ينبغي أن يكون بيننا وبين هؤلاء اليهود، لكن نصر الله آتٍ، نحن لا نشك في هذا، ولكن الأمة إلى الآن ما تهيأت لهذا النصر، ولا استكملت أسبابه، ولا نقول هذا والله تكثرًا، ولا نقوله من باب التفاؤل الذي لا يبنى على أساس، أنا أقوله وأتيقنه أعظم من مشاهدتكم، ولعلنا ندرك ذلك اليوم، لا نشك في هذا طرفة عين، ودائمًا أتخيل وأتذكر هذه المذابح، وأقول: سيأتي رجال في أصلاب آبائهم ويقولون: كيف جرى هذا؟ كيف وقع هذا؟، أين الناس؟ -والله المستعان-، وإلا فهؤلاء إذا حقت الحقائق هم من أشد الناس هلعًا ورعبًا وخوفًا، لكنهم جعلوا من أنفسهم هالة وجيشًا لا يقهر، وإذا جاء الجد رأيتهم صبيانًا يبكون، يلملمون بعضهم ويبكون بكاء النساء، هذا الجيش الذي لا يقهر كيف يثبت أصلاً؟!، ما عنده مقومات، لا يذكر الله ولا يعرفه ولا يصلي، لا يعرف الله -عز وجل-، فالذي ما عرف ربه هذا ريشة في مهب الريح العاصف، قلبه في كل مكان، هذا لا يثبت، كيف يقال: جيش لا يقهر وجيش لا يدحر؟ هؤلاء لو حقت الحقائق وواجهوا أهل الإيمان والله لا يمكن أن يكون لهم ولا لغيرهم من أعداء الله -عز وجل- أدنى ثبات، هؤلاء لا يريدون إلا الدنيا، هؤلاء لا يعرفون الله والذي لا يعرف الله كيف يعيش أصلاً، فكيف إذا جاء الخوف؟، هو خائف بدون شيء المصحات النفسية والقلق والهلع والموت يرونه صباح مساء في أيام العافية، فكيف لو جاء الخوف؟! ما رأيتم الصواريخ هذه التي في غزة الواحد قدر الذراع

يعملونها في ورش، هذه إذا جاءت يهرولون، مساكين، الوزير والفقير، يهربون ويفرون، وانظر كيف إخواننا في سوريا يتلقون هذا الضرب!!، لو وُجه لهؤلاء اليهود أنا متأكد أنهم يموتون بدون إصابات، لو وجه لهم هذا الدك والضرب سيموتون، ومن يبقى منهم حيًّا فإن ذلك لفقد عقله، خلاص عقله انتهى أصلاً، ما عاد يعقل، صار مخبولا، هذه هي الحقيقة، فالذي لا يعرف الله -عز وجل- لا يستطيع أن يثبت، ولا أن يعيش، هذا تنتابه المخاوف، انظر إلى المسلمين الآن الذين عندهم تقصير في هذا الجانب كيف يعيشون في قلق فكيف بالكافر؟.

قال المؤلف -رحمه الله-: قال الله -عز وجل-: {وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسُلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير.

{وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} النَّعمة بالفتح هي التنعم، **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ}** [سورة المزمل:١١] يعني أهل التنعم، وأما النِّعمة بالكسر فتقال للمنة، **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ}** [سورة الشعراء:٢٢]، وتقال أيضًا لما تُعطاه من النعم كالعافية والمال والولد وما أشبه ذلك مما أنعم الله به عليك، ولهذا يقال: فلان مثلاً واسع النعمة، يعني كثير المال مثلاً، **{وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ}** "فاكهين" على قراءة الجمهور بالألف، وفي قراءة أخرى عشرية {فكهين} الفاكه هو المتنعم الذي أثر ذلك في نفسه فصارت طيبة، فاكهين يعني يعيشون في حال من الراحة بهذه النعم، مرتاحين، تقول: فلان مرتاح تقصد أنه ما يكون في حال من المعاناة والكد في طلب لقمة العيش، وعلى القراءة الأخرى {فكهين} يعني أشِرين بطِرين، الرجل الفكِه يقال لصاحب الفكاهة والدعابة والضحك، يعني أورثتهم النعمة حالاً من البطَر والأشَر وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: هما لغتان، وبعضهم يقول: الفاكه هو المتلذذ بأنواع اللذات والنعم، متنعم بها كما يتنعم الإنسان بأنواع الفاكهة، والفكاهة تقال -كما هو معروف- للضحك والهزل، هؤلاء كانوا فاكهين يعني كانوا منعمين، هذا التنعم يورثهم شيئاً من السرور والراحة، وما إلى ذلك.

قال: قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} وهم بنو إسرائيل، وقوله -سبحانه وتعالى-: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ}...

الآن **{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}** قال: يعني بني إسرائيل كما في الآية الأخرى أن الله صرح بهؤلاء القوم قال: "كذلك وأورثناها بني إسرائيل" هذا من تفسير القرآن بالقرآن، هذا من تفسير المبهم، وهذا من النوع القطعي في تفسير القرآن بالقرآن، كما ذكرت لكم أن منه ما يحتمل، ومنه ما يقطع بصحته، ومنه ما قد يُردّ؛ لأن المفسر أخطأ في الربط بين الآيات، لكن قوله: **{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}** الكاف هنا في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، يعني الأمر كذلك، هذا قال به بعض أصحاب المعاني كالزجاج، الأمر كذلك أورثناها، ويمكن أن تكون الكاف في محل نصب، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه "تركوا"، يعني مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، أو مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم، على الاعتبار الأول هي في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك، ويكون قوله: **{وَأَوْرَثْنَاهَا}** معطوفاً على "تركوا"، وعلى الوجوه الأخرى يكون معطوفاً على الفعل المقدر.

قال: وقوله -سبحانه وتعالى-: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ} أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا ألا يُنظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم.

هذا الذي قال به كثير من السلف {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء} ما كانت هناك بقاع يعبدون الله -عز وجل- عليها فتفقدهم، ولا عمل يرفع إلى السماء فيُفقد صاحبه إذا هلك، والعرب أيضًا على نوع من الاتساع يعبرون بمثل هذا يعني أن فقده لا يعني شيئًا، ما بكت عليه السماء ولا الأرض، ذهب فرعون وقوم فرعون، فذهابهم لا شيء، ما تغيرت حال الدنيا، كل شيء ماضٍ على حاله، حتى البحر الذي انفلق رجع بعدما أدى المهمة، وعاد كل شيء كما كان، لكن الأسماك وجدت غذاء وطعامًا، رُزقت بدعوة غيرها.

قال: وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس -رضي الله عنهما- رجلٌ فقال: يا أبا العباس، أرأيت قول الله -عز وجل-: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟، قال -رضي الله عنه-: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله -عز وجل- فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله -عز وجل- منهم خير، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض"[7]، وروى العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- نحو هذا.

هذا هو الأقرب، والله أعلم.

وجاء عن الحسن أن المقصود {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء} يعني أهل السماء {وَالْأَرْضُ} أهل الأرض.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ} يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، وقوله تعالى: {مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا} أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا كقوله -عز وجل-: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ} [سورة القصص:٤].

يعني هنا: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ} ما هذا العذاب؟ {مِن فِرْعَوْنَ} فيكون {مِن فِرْعَوْنَ} بدلًا من العذاب، يعني كأنه جُعل نفس العذاب على سبيل المبالغة، ويحتمل أن يكون على حذف مضاف، يعني من عذاب فرعون، أو على أنه حال من العذاب تقديره: من العذاب المهين صادرًا من فرعون، لكن الأول كأنه أقرب -والله تعالى أعلم-، {مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ} ما هو هذا العذاب المهين؟ {مِن فِرْعَوْنَ}، فإذا ذُكر فرعون كفى، يعني ذُكر الشر.

---

٧ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٤).

قال: وقوله -جلت عظمته-: {فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ} [سورة المؤمنون:٤٦]، من المسرفين أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه، وقوله -جل جلاله-: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} قال مجاهد: اخترناهم على علم على العالمين على من هم بين ظهريه.

يعني على عالَم زمانهم كما يقوله أكثر السلف؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، وبعضهم يقول: باعتبار كثرة الأنبياء من بني إسرائيل، كل الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كانوا من بني إسرائيل إلا محمدًا -صلى الله عليه وسلم- فمن نسل إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، وإلا فالبقية من أنبياء بني إسرائيل، فبهذا الاعتبار يكون هذا الاصطفاء والاجتباء وأنه لا يوجد أمة بهذه المزية، لكن الكلام على الاصطفاء هنا المزية لا تقتضي الأفضلية بإطلاق، يعني ليسوا بأفضل من هذه الأمة، والله قال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢]، يعني هذه الأمة، فهذه الأمة أفضل من بني إسرائيل قطعًا، والله فضلهم على عالمي زمانهم {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة:٤٧] يعني عالَم زمانهم، فلما كفروا وعتوا لعنهم الله وحلت بهم نقمته.

قال: وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالَمًا، وهذا كقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} [سورة الأعراف:١٤٤] أي: أهل زمانه ذلك، كقوله -عز وجل- لمريم -عليها السلام-: {وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ} [سورة آل عمران:٤٢] أي: في زمنها، فإن خديجة -رضي الله عنها- إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة -رضي الله عنها- على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وقوله -جل جلاله-: {وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ} أي: الحجج، والبراهين، وخوارق العادات، {مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ} أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

لاحظ {وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ} الآيات بمعنى العلامات والحجج إلى آخره، {مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ} البلاء هنا فسره بالاختبار، والبلاء يأتي بمعنى الاختبار، لكن هذا الاختبار تارة يكون بالخير، وتارة يكون بالشر، تارة يكون بالرخاء، وتارة يكون بالشدة، فمن أهل العلم من قال: لمّا كان هذا في بني إسرائيل وليس في الفراعنة فهو يمتن عليهم {وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ}، فهو يذكر نعمه على بني إسرائيل، ولهذا جاء عن بعض السلف كقتادة أن هذا في النعم، يعني أن قتادة عدد الأشياء التي هي من قبيل النعم على بني إسرائيل، يعني مثل إنجاء بني إسرائيل من فرعون، وكذلك أيضًا أنزل عليهم المن والسلوى، وظلل عليهم الغمام، وفلق لهم البحر، إلى غير ذلك، فالبلاء المبين هنا النعم، فهذا في مقام امتنان على بني إسرائيل، كيف أن الله اصطفاهم وآتاهم من الآيات ما فيه بلاء مبين، يعني أعطاهم نعمًا متتابعة ومع ذلك حصل منهم ما حصل، فالبلاء المبين هنا مشى قتادة على أنه هذه النعم؛ ولهذا جاء عنه أن ذلك يراد به النعمة الظاهرة، يقال: البلاء المبين هو النعمة الظاهرة، هكذا فسر البلاء المبين.

وابن جرير في هذا الموضع قال: البلاء المبين هنا يحتمل البلاء الذي قد يكون في الرخاء، والذي قد يكون بالشدة، فقد يكون هذا البلاء المبين بما ذكر من هذه النعم، وقد يكون بما ابتلاهم الله -تبارك وتعالى- به من ألوان الشدائد كالتيه الذي حصل لهم، {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [سورة

المائدة:٢٦] فهذا بلاء شدة، فابن جرير يقول: لما كان البلاء يأتي لهذا وهذا وليس عندنا دليل يدل على أحدهما فيحتمل أن يكون المراد البلاء بالنعمة، ويحتمل أن يكون البلاء بالشدائد، يقول: ليس عندنا دليل على أحدهما، هذا الموضع لم يرجح فيه، لم يجمع بين القولين، هذا مثال على النوع الثاني الذي ذكرته، يقول: يحتمل هذا، وهذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الدخان من الآية (٣٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [سورة الدخان:٣٤-٣٧]: يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثَمّ إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقًّا فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين، وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا، ثم قال تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تُبّع -وهم سبأ- حيث أهلكهم الله -عز وجل- وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شَذَرَ مَذَر كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مصدَّرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك هاهنا شبههم بأولائك، وقد كانوا عربًا من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير -وهم سبأ- كلما ملك فيهم رجل سموه تُبعًا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه، وهو الذي مصّر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرونه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة، فنهياه عن ذلك أيضًا وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظَّمها وطاف بها وكساها المُلاء والوصائل والحبر، ثم كر راجعًا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى -عليه الصلاة والسلام- فيه مَن يكون على الهداية قبل بعثة المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فتهود معه عامة أهل اليمن، وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال

رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أدري تُبّع نبيًّا كان أم غير نبي))[1]، ورُوي عن تمام بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي رباح: "لا تسبوا تُبعًا فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن سبه"، والله تعالى أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أدري تُبّع كان نبيًّا أم غير نبي))، هذا محمول -كما يقول ابن عساكر- على ما كان من النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يوحى إليه بشأنه، والرواية أو الحديث الآخر عند أبي داود حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أدري أتبّع -أو تبّع- كان لعينًا أم لا))[2]، يعني هل كان كافرًا أم كان مسلمًا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان متوقفًا في أمره قبل أن يوحى إليه بشأنه، وهذا الحديث الذي ذكره المصنف -رحمه الله- وعزاه إلى عبد الرزاق لا وجود له في تفسير عبد الرزاق، ولا في مصنفه، ولكن أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير من طريق معمر شيخ عبد الرزاق، وكذلك أيضًا فعل الثعلبي في التفسير، وتُبّع هذا جاء في حديث آخر صحيح: ((لا تسبوا تُبعًا فإنه كان قد أسلم))[3]، كما يدل عليه هذا الخبر الذي نقله ابن كثير -رحمه الله-، هذا جاء عن سهل بن سعد، وجاء أيضًا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو حديث صحيح، ولذلك الله -تبارك وتعالى- هنا ما ذمه وإنما ذكر قومه **{أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ}** فالذين حصل لهم الإهلاك هم قومه.

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الدخان:38-42].

يقول تعالى مخبرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله -جل وعلا-: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص:27]، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [سورة المؤمنون:115-116]، ثم قال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ}، وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وقوله -عز وجل-: {مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: يوم يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا} أي: لا ينفع قريب قريبًا، كقوله -سبحانه وتعالى-: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة

---

1 - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (104)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (2217).

2 - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (3682)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه".

3 - رواه أحمد في المسند، برقم (22880)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة وأبي زرعة عمرو بن جابر، وأبو زرعة أشد ضعفا"، والطبراني في الأوسط، برقم (1419)، وفي الكبير برقم (6013)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (2423).

المؤمنون:١٠١]، وكقوله -جلت عظمته-: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ} [سورة المعارج:١٠-١١] أي: لا يسأل أخًا له عن حاله وهو يراه عيانًا، وقوله -جل وعلا-: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: {إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ} أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله -عز وجل- بخلقه، {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}** يعني خلقًا متلبسًا بالحق، وقول الحسن البصري وكذا قال الكلبي: إلا للحق، يعني أن الله لم يخلقهما عبثًا وباطلاً وإنما للحق، وهكذا قول من قال: لإقامة الحق وإظهاره، وهذه ألفاظ متقاربة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}** والحق هو الحِكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة:

منها: أن يُعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجودًا مشهودًا فيُحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علمًا مطابقًا لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها، وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلًا مختارًا.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به، ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها: أنه -سبحانه- يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح، ولابدّ من لوازم ذلك خلقًا وشرعًا.

ومنها: أنه يحب أن يثنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته، إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق، فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها متلبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو متضمن للحق، وقد أثنى تعالى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: **{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ}** [سورة آل عمران:١٩١]،

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة ص:٢٧]، وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له؟"[٤].

هو يرد على نفاة الحكمة والتعليل في أفعال الله -عز وجل- وصفاته، فهذه الأقوال التي سبقت: "إلا بالحق" يعني خلقًا متلبسًا بالحق، أو قول الحسن: إلا للحق، أو قول غيره: إلا لإظهار الحق، كل ذلك يرجع إلى معنى واحد، وقد انتظمها كلام ابن القيم -رحمه الله.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} المولى يقال: للناصر، والقريب ابن العم مثلاً؛ لأنه ينصر قريبه، ويقال للسيد: مولى، كما يقال للمملوك: مولى، ويقال للمعتَق: مولى، فالموالي بهذا الاعتبار أعلوْن وأدنوْن، السيد يقال له: مولى، والمملوك يقال له: مولى، فالمقصود أنه لا أحد ينصر أحدًا في ذلك اليوم، ولا يغني، كما قال الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة:٤٨] فنفى جميع الأسباب التي يحصل بها الخلاص، {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} لا يستطيع أن ينفعه بنافعة، {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} فهنا الوساطة من أجل تخليصه مِن قِبَل من له منزلة هذا لا يكون يوم القيامة إلا لمن أذن الله -عز وجل- له من الشافعين، ورضيه من المشفوع لهم، وكذلك أيضًا {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [سورة البقرة:١٢٣] لا يمكن أن يدفع فدية ويتخلص، أو يخرج بغرامة أو نحو ذلك، {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} لا يستطيع أحد أن يخلصهم بالقوة، فكل هذه الأسباب أسباب الخلاص نفاها، لا بواسطة، ولا بمقابل، ولا بالقوة، {لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ} ابن كثير يقول: أي: **لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله -عز وجل- بخلقه**، مقتضى كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا أن الاستثناء منقطع، يعني لكن من رحم الله، أي أنه لا يغني أحد، فالنفي باق على عمومه لا يُستثنى منه شيء، {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} لكن من رحم الله فإن رحمة الله تنفعه، هذا كلام ابن كثير، فالاستثناء منقطع بمعنى لكن، وهذا الذي مشى عليه بعض أصحاب المعاني مثل الفراء والكسائي، أنه استثناء منقطع، وبعضهم يقول: الاستثناء متصل يعني {لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ} لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، إلا من رحم الله، يعني من الشافعين، فإن الله -تبارك وتعالى- يشفعهم في قراباتهم، أي إلا أهل الإيمان هم أهل الرحمة، فهؤلاء يشفعون، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، استثناء متصل فلا أحد يغني عن أحد إلا أهل الإيمان فإنهم يشفعون، وعلى الأول لا أحد يغني عن أحد شيئاً إطلاقًا، لكن من رحمه الله -عز وجل- نفعته رحمة الله، ويحتمل أن يكون الاستثناء راجعًا إلى المشفوع لهم، أي إلا من رحم الله نفعته الشفاعة.

هذا المقام مقام بيان انقطاع الأسباب، وأن الأمر وحده لله -تبارك وتعالى-، وهو مقام تخويف {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} فكلام ابن كثير كأنه -والله أعلم- أليق بالسياق والمقام؛ لبيان أن الله وحده هو المتفرد، {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا} [سورة الإنفطار:١٩]، فهذا

---

٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:١٩٨).

باقٍ على إطلاقه، {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} فيكون اللجأ إليه وحده دونما سواه، والله أعلم؛ ولهذا عقب بهذين الاسمين الكريمين، {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} فمن مقتضيات عزته أنه لا أمر لأحد سواه، ولا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا أو يخلصه، وهو رحيم -تبارك وتعالى-، فمن حلت به رحمة الله -جل جلاله- ونزلت به نفعه ذلك، فجمع بين هذين الاسمين، فاسم العزيز إذا اقترن مع الرحيم فإن هذا فيه دلالة على أن عزته -تبارك وتعالى- لا تُقنِّط أهل الإيمان من رحمته، هو مع عزته رحيم، وكذلك أيضًا أنه -تبارك وتعالى- حينما يرحم لا يكون ذلك عن ضعف وعجز عن المؤاخذة، فهو رحيم مع العزة، وقد تكون الرحمة مع ضعف وعجز، أما الله -تبارك وتعالى- فهو عزيز رحيم.

قال تعالى: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ} [سورة الدخان:٤٣-٥٠].

يقول تعالى مخبرًا عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} والأثيم أي في قوله وفعله وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية ولكن ليست خاصة به، روى ابن جرير أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر، أي: ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، وقد تقدم نحوه مرفوعًا.

هنا ما جاء عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- حينما قرأ هذا الرجل: طعام اليتيم، الرجل يقرأ هكذا، يعني هو ما عرف يقرأ: الأثيم، فقال أبو الدرداء: قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر، وهذا أيضًا جاء عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، فهل هذا الذي قالاه من باب القراءة؟ أي أنهما ذكرا له وجهًا من أوجه القراءة، هل هذا هو المراد؟ يعني هل هذه قراءة؟ بعض العلماء يقول: نعم هذه قراءة، ولكنها ليست قراءة متواترة كما هو معروف، ولم يكن لهما أن يقولا له ذلك من عند أنفسهما؛ لأن القراءة مبناها على السماع والتلقي، التوقيف، وليس لأحد أن يأتي بلفظ من عنده، وهذا الذي مشى عليه في ظاهر كلامه الباقلاني في كتابه "الانتصار لنقل القرآن"، هذا الكتاب كان المطبوع منه مختصرًا -تهذيبًا- في جزء، وقبل سنوات قريبة طبع كاملاً، يعني طبع الموجود من الكتاب في ثلاثة مجلدات، كتاب كبير، وهو كتاب نافع جدًا، فيه رد على الطاعنين في القرآن من الرافضة والنصارى وغيرهم، فيرد عليهم هذه الأشياء التي يلبِّسون بها، ومثل هذه الأشياء الآن طعام الفاجر هل له أن يأتي بكلام من عنده؟ هل في القرآن زيادة، أو نقص، أو تحريف؟، والمستشرقون يأخذون مثل هذه الأشياء ويلبسون بها على الناس، وهكذا أيضًا تجد ذلك في الشبهات التي تبث الآن في وسائل الاتصال وما إلى ذلك، فمن أهل العلم مثل الباقلاني في كتابه الانتصار يقول: هذه قراءة، وهذا الذي مشى عليه الزرقاني أيضًا في "مناهل العرفان"، بعض أهل العلم يقول: إن ذلك كان على سبيل التفسير وليس على سبيل الإقراء أو القراءة، إنما هو يفسر له، فقُرئت كذلك، هذا قاله النحاس، وابن عطية في تفسيره "المحرر الوجيز"، أن هذا من باب التفسير، قراءة تفسيرية {طَعَامُ الْأَثِيمِ} قال: الفاجر، وبعضهم يقول كالأنباري: إنه من باب التقريب؛ لأن الرجل كان يقرأ الأثيم: اليتيم، فهو يبين له أنها مادة

أخرى، ليس الأثيم يعني اليتيم، يمكن أن يكون في سمعه شيء فهو يبين له أن الأثيم يعني الفاجر وليس اليتيمن تعرف تقرأ الفاجر، يعني اقرأ مثلها هناك في الأثيم، يعني أنه يقرب له اللفظة أنها ليست متصلة باليتم، وإنما المقصود مادة أخرى تتصل بالفجور من أجل أن يقرأ الأثيم قراءة صحيحة، هذا قاله ابن الأنباري، ويحتمل أن تكون قراءة غير متواترة، لكن أن يكون ذلك على سبيل الاختيار فهذا غير صحيح مع أنه ظاهر كلام صاحب الكشاف، هذا غير صحيح، ولا يجوز القراءة على المعنى، لا يجوز أن يبدل لفظة بلفظة من عند نفسه بزعم أنها تؤدي معناها، ولا يوجد لفظة تؤدي معنى اللفظة الأخرى من كل وجه، والقرآن كلام الله –عز وجل.

وقوله: {كَالْمُهْلِ} قالوا: كعَكَر الزيت يغلي في البطون.

المهل يقول: **كعكر الزيت**، يقال: دُرْدِيّ الزيت، وعكر القطِران، عكر الزيت، ما هو عكر الزيت؟ تجد الزيت يكون في أسفله مثل التَّخثُّر والحثالة، الزيت يصفو أعلاه، وأسفله يكون فيه شيء من الكدر، هذا يقال له عكر الزيت، كما يقال: حثالة الشيء ونحو ذلك، حثالة الزيت يكون أسفله متغيرًا، فهذا كالمهل يغلي في البطون –نسأل الله العافية–، قال: عكر الزيت، دُردي الزيت، ويقال: عكر القطران، وبعضهم يقول: إن المهل هو النحاس المذاب، أو ما يذاب من فضة أو رصاص، وابن جرير –رحمه الله– عمم ذلك في كل مذاب من رصاص أو فضة أو غير ذلك، {شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} والأثيم صفة يعني صاحب الآثام، نحن عرفنا أن الإثم يقال للمعصية، يقال: هي إثم، فيقال: الزنا إثم، والسرقة إثم، ويقال لجرائرها وما ينتج عنها من المؤاخذة، فيقال مثلاً: مَن فعل كذا فهو آثم، يأثم، يلحقه الإثم الذي هو النتيجة، المؤاخذة يقال لها: إثم، وعرفنا أيضًا أنه يقال بإطلاق خاص وهو شرب الخمر يسمى إثمًا، فالعرب تسميه إثمًا باعتبار أنه أصل في الآثام، فإذا شرب وسكر فعل كل شيء، فهنا {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} ما الذي يغلي في البطون؟، هنا يغلي في البطون كالمهل، "يغلي" قراءة حفص التي نقرأ بها هكذا بالياء {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ}، وبها قرأ ابن كثير، وهي قراءة ورش "كالمهل يغلي"، يغلي يرجع إلى ماذا؟

لا تقل: المهل، {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} هنا يصف ماذا؟ يصف المهل أنه في البطون يغلي؟ هل المهل في البطون يغلي؟ يعني هل هؤلاء في بطونهم مهل مثلاً يغلي؟، هل هذا المقصود؟ أو وصف الطعام أي {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} ما به؟ يغلي في البطون كالمهل غليان المهل، فالذي يغلي هو الطعام، "كالمهل يغلي في البطون"، وقراءة الجمهور بالتاء **{كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ}** "تغلي" يرجع إلى شجرة الزقوم، تغلي في البطون، فإذا أكلوها فإنها تغلي في بطونهم، –نسأل الله العافية–، وذلك لا يرجع إلى المهل على قراءة الياء "يغلي"، يعني الطعام طعام الأثيم، قال: {كَغَلْيِ الْحَمِيمِ} هو ما تناهت حرارته.

{يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ} أي: من حرارتها ورداءتها، وقوله: {خُذُوهُ} أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: خذوه ابتدره سبعون ألفًا منهم، وقوله: {فَاعْتِلُوهُ} أي: سوقوه سحبًا ودفعًا في ظهره، قال مجاهد: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ} أي: خذوه فادفعوه، {إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ} إلى وسط الجحيم.

{خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ} العتل هو القود بعنف، يقاد بعنف، يُدفع دفعًا، وبعضهم يقول: هو أن يُؤخذ من تلابيبه، هذا العتل عند العرب، يؤخذ الرجل من تلابيبه ومجامعه فيجر، يسحب، {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ} يعني يجر إلى النار ويسحب بقوة وبعنف، يعني ما هو يمشي على راحته ويقال له: تفضل إلى النار، لا، وإنما بعنف وقوة، وهؤلاء من المجرمين يكونون مقيدين، الأغلال في الأعناق والسلاسل، ومقرنين أيضًا يعني يُقرن بعضهم إلى بعض، ثم بعد ذلك يكبكبون في النار، يدفعون فيها، ويُدعُّون في نار جهنم دعًّا، تصور هذا المشهد وهم يتساقطون فيها ما مداها ما عمقها؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سمع صوت وجبة قال: هذا حجر ألقي في النار منذ سبعين سنة، يعني هذا الذي يهوي -يسقط- وفي النار، وبهذه الطريقة مقيد ومقرون بغيره أيضًا لا شك أن هذه مشاهد لو أن الإنسان يتصور ذلك ويتيقنه فإنه لا يهنأ لا بطعام ولا شراب ولا نوم، كون النار بين عينيه لا يمكن أن يجترئ على معصية الله -عز وجل-، لو قيل لإنسان: ستلقى فقط من مكان مرتفع لخاف أشد الخوف، أنت تلاحظ الآن عندما يكون الإنسان في مكان شاهق يعني يشعر أنه سيسقط في أي لحظة ويتخيل له السقوط، وعندما يكون الإنسان فوق جبل مرتفع أو مبنى مرتفع جدًا ثم ينظر إلى أسفل يشعر أن الدنيا تدور به، فكيف بالنار التي لا يقادر قدرها ولا يعرف مداها وقعرها؟!، لو لم يكن فيها نار لو كانت مجرد حفرة يلقى فيها لكان هذا شيئًا هائلًا، يعني لو قيل: عقوبة من فعل جريمة أو نحو ذلك أنه يلقى من أعلى مبنى في البلد، يعني انظر إلى العمائر مثلاً المجاورة للحرم عندما تأتي الصور للحرم من فوق من أعلى منها تجد منارات الحرم صغيرة، فلو قيل لأحد: تُلقى من فوق من أعلى هي عقوبة ليست سهلة.

{إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ} إلى وسطها، {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} كقوله -عز وجل-: {يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} [سورة الحج:١٩-٢٠]**، وذلك أن الملك يضربه بمقمعة من حديد فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك.**

تأمل هذه المشاهد التي نراها لإخواننا في بلاد الشام كيف الواحد يتألم من مجرد النظر إليها، فكيف هذه الأشياء التي لا يمكن للعقل أن يتصور حقيقتها كما هي؟!، لو إنسان يُصب عليه أسيد، أو تُلقى عليه مادة مشتعلة ثم توقد كيف يكون مثل هذا؟ فكيف بنار جهنم؟!.

وقوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي: لست بعزيز ولا كريم.

نعم، قال: لأنه يدعي ذلك، ويقال له على سبيل السخرية والاستهزاء والتهكم {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}، وفي القراءة الأخرى قراءة الكسائي وهي قراءة متواترة: {ذُقْ أَنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} أي لأنك أنت العزيز الكريم.

وقوله -عز وجل-: {إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ}، كقوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [سورة الطور:١٣-١٥]**، ولهذا قال تعالى هاهنا: {إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ}.**

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ} [سورة الدخان:٥١-٥٩].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء؛ ولهذا سُمي القرآن مثانِيَ، فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ} أي: لله في الدنيا، {فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب.

يعني يُحمل على أعم معانيه، **{فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}** يأمنون من كل المخاوف، المَقام على قراءة الجمهور هذه بالفتح فسره كما سبق: مَقام موضع القيام، كما يقول الكسائي، وعلى القراءة الأخرى بالضم {مُقام} يعني مكان وموضع الإقامة، وهذه قراءة نافع وابن عامر.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ...}** الآيات: "فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه، واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس، وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضًا، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا.

والحُور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء"[٥].

وقال -رحمه الله-: "**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}** والمقام الأمين موضع الإقامة، والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، والبلد الأمين الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}** وفي قوله تعالى: **{يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ}** فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمْن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمْن الموت فلا يخافون فيها موتًا"[٦].

{فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} وهذا في مقابلة ما أولائك فيه من شجر الزقوم وشرب الحميم، وقوله تعالى: {يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ} وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها، {وَإِسْتَبْرَقٍ} وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالريش وما يلبس على أعالي القماش.

السندس هو ما رق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، هذا المشهور وهو الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله- قال به آخرون، يعني يلبسون أنواع الحرير، والديباج الرقيق والغليظ.

{مُّتَقَابِلِينَ} أي: على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

هذا من كمال المجالس، ومن المتعة فيها، ولذلك الناس إذا هيئوا مجلسًا فإنهم إذا أرادوا أن يكون هذا المجلس على حال من الكمال يجعلون المقاعد فيه أو الأماكن المهيأة للجلوس متقابلة.

---

٥ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢١٨).

٦ - المصدر نفسه (ص:١٠٠-١٠١).

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [سورة الرحمن:٥٦-٥٨-٦٠].

{كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} "كذلك" هذه إما نعت لمصدر محذوف أي: نفعل بالمتقين فعلاً كذلك، وإما مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، يعني الأمر كذلك نفعل بالمتقين، **{كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ}** قال: **أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}** الحور ما المقصود به؟ سبق الكلام على هذا هل ذلك من صفات العين، أو أنه من صفات المرأة إجمالاً؟ بعضهم يقول: هو من صفة المرأة، فالحوراء هي البيضاء البياض النقي الذي لا شائبة فيه، يعني ليس فيه نمش، وليس فيه ما يكدره، وإنما هو في غاية الصفاء، فالبياض لا شك أنه كمال في المرأة، وأنه من المطالب، ولهذا قالوا: البيضاء هي الحوراء، وابن جرير فسره بهذا، البيضاء، نقية البياض، بياض في نقاء، والعرب تسمي النساء في مقامات المدح بالبِيض، كما تقول ذلك للسيوف أيضًا، ولا زال الناس يقولون هذا ويذكرونه، الآن يسمون المرأة بأسماء منها يقولون: وضحاء، ما معنى وضحاء؟، بيضاء، ويقولون للإبل البيض: الوُضح أو لا؟، لا زال هذا مستعملًا إلى اليوم، الوُضح يعني البيض، الإبل ألوان، فالبيض منها يقال لها: وُضح، يقال: هذه ناقة وضحاء، فالمرأة تسمى إلى اليوم: وضحاء، نظرًا للبياض، هذا أصله، فبعضهم يقول كابن جرير: إن المقصود أن المرأة بيضاء، حور فهن بيض، **{عِينٌ}** هذه صفة العين، بعضهم يقول: إن ذلك بمعنى الاتساع، فالمرأة العيناء هي واسعة العين، وأن السعة تُطلب في المرأة في أربعة مواضع، والضيق يطلب في أربعة مواضع، هذه من صفات الجمال عند العرب، وعند الحكماء، وعند الأمم، حتى حكماء الفلاسفة وغير هؤلاء، وكانت العرب تذم ضيق العين واستطالتها في المرأة، وترى أنه من العيوب، فالمرأة العيناء هي واسعة العين، بعضهم يقول: هو من صفة العين، ولكن هو بياض في غاية الصفاء مع شدة السواد أيضًا، وهذه في العادة لا شك أنه جمال، والغالب في عيون العرب السواد، ولكن لما لحقت الهزيمة الناس في كل شيء إلا من رحم الله -عز وجل- صار حتى أشكال هؤلاء الذين يقلدونهم من الغربيين صارت هذه الأشكال جميلة، ومطلوبة بالنسبة إليهم، وصار بدلا من الشعر الأسود الفاحم الذي هو في غاية الجمال، وقد جاء جبريل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- شديد سواد الشعر، والعرب في كل كلامها تمدح المرأة بشدة سواد الشعر، صار اللون الأشقر هو الأفضل، وتجد المرأة تفاجئك بحالة مشوهة قد غيرت شعرها وصبغته بلون لا يصلح لهيئتها وسحنتها، وهكذا في العين صار الآن الناس يلبسون العدسات فيتشبهون بأولائك، مع أن العرب تقول: إن زرقة العين تدل على الغدر، والله -تبارك وتعالى- قال: **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** [سورة طــه:١٠٢] يعني زرق الأعين، مع أن هذا ليس بلازم -أقصد أن زرقة العين تدل على الغدر-، فإن هذه خلقة في الإنسان، وكثير من الأخيار قد تكون عينه زرقاء، ويكون في غاية الصلاح فما ذنبه؟، لكن لا شك أنه من ناحية الصورة والجمال السواد هو الأفضل، ولكن حينما تتغير الفطر ينقلب الحسن إلى قبح والعكس، فاليوم الأمزجة والأذواق تغيرت، فبدلا من كون البياض في المرأة هو الجمال أصبح اليوم نسمع أن كثيرًا من النساء البيض صارت تضع على نفسها أشياء على جلدها من أجل أن

يظهر في حال من السمرة، هذا موجود الآن ويروج بين النساء، الشعر الناعم صار الآن توضع عليه مواد ليتجعد، فتخرج المرأة في حال وهيئة مخيفة بعد ذلك الشعر الناعم الفاحم، والعيون السوداء تحولت إلى عيون أخرى، -والله المستعان-، كل شيء تغير عند كثير من الناس.

فالمشهور أن الحور العين شدة البياض أنها من صفة العين، وهذا الصفاء يكون عادة في الأطفال الصغار، وكلما تقدم السن في الإنسان اصفر البياض، هناك لا، في غاية الصفاء، والأطباء يقول بعضهم: إن هذه الصفرة تكون بسبب الهموم والأشياء التي تمر على الإنسان، وهذا الذي ذكرته من بياض وسواد في صفاء هذا قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى مع أن بعضهم كأبي عمرو بن العلاء قال: هو سواد العين كاملاً، كل العين سوداء كعيون الظباء والمها والبقر، قال: ولهذا يشبهون المرأة بالمها وبالبقر، والبقرة يقصدون بها الوحشية فهذه الظباء والمها عيونها جميلة، والعرب دائمًا يذكرون هذا ويشبهون به النساء، وقد مضى الكلام على هذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً}** [سورة ص:٢٣] في قول من قال: إن المقصود بها المرأة، وإن النعجة عند العرب المقصود بها حينما يذكرونها في صفة المرأة، أو حينما يذكرون أحيانًا النعجة في كلامهم على سبيل ذكر الأوصاف الحسنة ونحو ذلك يقصدون بها الظباء والمها فعينها في غاية الجمال كلها سوداء، ولا يوجد امرأة أو إنسان عينه كلها سوداء، لكن هم يشبهون الجمال فلهذا يقولون ذلك في المرأة، ولهذا تسمى المرأة مها بهذا الاعتبار، فمع أن بعض السلف كمجاهد يقول: إنه قيل لها: حوراء؛ لأن الطرْف يتحير في حُسنها، يعني ليس ذلك يرجع إلى لون الجلد ولا إلى صفة العين، لكن المشهور خلاف ذلك، وبعضهم رده أيضًا من جهة أن أصل المادة -الحور- ليس من التحير، لكن هذا يشكل عليه أن مجاهدًا في وقت الاحتجاج.

وقوله -عز وجل-: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يُحضر إليهم كلما أرادوا.

{يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ} يعني يطلبون، كلما طلبوا شيئًا حضر لهم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ...}** الآيات: "والحور جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة، البيضاء شديدة سواد العين، وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرْف"[٧].

قول زيد بن أسلم هذا قول مجاهد أيضًا.

وقال -رحمه الله-: "وعين: حسان الأعين، وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين، واختلف في اشتقاق هذه اللفظة، قال ابن عباس: الحُور في كلام العرب البِيض، وكذلك قال قتادة: الحور البيض، وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه، وقال مجاهد: الحور العين التي يحار فيهن الطرف باديًا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة وصفاء اللون، وهذا من الاتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة،

---

٧ - المصدر نفسه (ص: ٢١٨).

وأصل الحَوَر البياض، والتحوير التبييض، والصحيح أن الحُور مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها، فهو يتضمن الأمرين، وفي الصحاح الحَوَر شدة بياض العين في شدة سوادها، امرأة حوراء بيِّنة الحَوَر"[٨].

هذا هو المشهور.

وقال -رحمه الله-: "وقال أبو عمرو: الحَوَر أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل: النساء حور العين؛ لأنهن شبهن بالظباء والبقر، وقال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العين، قلت: خالف أبو عمرو اللغة في اشتقاق اللفظة، وردَّ الحَوَر إلى السواد، والناس غيره إنما ردوه إلى البياض، أو إلى بياض في سواد، والحَوَر في العين معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما، واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر، عين حوراء إذا اشتد بياض أبيضها، وسواد أسودها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حَوَر عينيها بياض لون الجسد، والعِين جمع عيناء، وهي العظيمة العين من النساء، ورجل أعْيَن إذا كان ضخم العين، وامرأة عيناء والجمع عِين، والصحيح أن العِين اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة، قال مقاتل: العِين حسان الأعين، ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول، وضيق العين في المرأة من العيوب، وإنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع فمها، وخرق أذنها، وأنفها، وما هنالك"[٩].

يعني ثقب الأذن والأنف وما هنالك

وحذْفُ ما يُعلم جائزٌ كما *** تقول: زيدٌ بعدَ مَن عندكما؟

وقال -رحمه الله-: وفي قوله تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا"[١٠].

لاحظ المعاني الكثيرة التي جمعها "آمنين" الأمن من كل وجه.

وقوله -عز وجل-: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وقوله: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت))[١١]، وقد تقدم الحديث في سورة مريم -عليها الصلاة والسلام-، وروى عبد الرزاق عن أبي سعيد وأبي هريرة -رضي

---

٨ - المصدر نفسه (ص:٢١٨-٢١٩).

٩ - المصدر نفسه (ص:٢١٩).

١٠ - المصدر نفسه (ص:١٠٠-١٠١).

١١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} [مريم: ٣٩]، برقم (٤٧٣٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٩).

الله عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا))[١٢]، رواه مسلم.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه))[١٣].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}** هذا الاستثناء هنا يقول: إنه منقطع ومؤكد للنفي؛ لأن الاستثناء المنقطع يؤكد في مثل هذا المقام النفي ويقويه، **{إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}** يعني لكن الموتة الأولى؛ لأن الجنة ليس فيها موت أصلاً، ولكن الموتة الأولى التي ماتوها في الدنيا **{إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}**؛ ولهذا بعضهم يقول: إنه بمعنى بعد، يعني "لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى" يعني بعد الموتة الأولى، كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، يقول: الاستثناء بمعنى بعد الموتة الأولى، وما ذكره ابن كثير من كون الاستثناء منقطعًا هذا هو المشهور، وهو ظاهر القرآن، وهو الذي مشى عليه أصحاب المعاني كالزجاج والفراء، وهكذا قول من قال: إنه بمعنى سوى، كما يقوله ابن عطية، سوى الموتة الأولى، لكن ابن قتيبة يقول: إن الاستثناء متصل، كيف يكون متصلا؟ الجنة ما فيها موت، ما وجه كلام ابن قتيبة؟

وجه كلام ابن قتيبة وإن كان فيه نظر -والله أعلم- مع أنه إمام في اللغة وهو أديب أهل السنة بمنزلة الجاحظ عند المعتزلة، وجه كلامه أنه حينما يموت الإنسان فإنه يكون -يعني المؤمن- في حال من النعيم، يفتح له نافذة إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، ويرى منزله من الجنة صباح مساء، فهو في حال من النعيم، قد اتصل بأسباب الجنة، ولكنه ميت، فيقول: لمّا كان متصلاً بأسباب الجنة والله -عز وجل- يقول: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}**، فهذا الذي ينعَّم ويرى منزله من الجنة، ويأتيه من روحها هو لا يذوق الموت في الجنة إلا الموتة الأولى، هذه التي قد اتصل معها بأسباب الجنة من هذه الحيثية، يعني عنده أن الاستثناء متصل، فهذا لم يدخل الجنة بعد لكنه على نوع اتصال بها، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً، لكن هذا فيه بعد، والله أعلم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وَأَمَّا قوله: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}** فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء ألبته، إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع، فتأمله فإنه من أسرار العربية"[١٤].

---

١٢ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: {ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون}، برقم (٢٨٣٧).

١٣ - رواه الطبراني في الكبير، برقم (١١٦١)، وفي المعجم الأوسط، برقم (٨٠٤٥).

١٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٢٦/١).

قوله تعالى: {وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال -عز وجل-: {فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} أي: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحدًا لن يُدخله عمله الجنة))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))[١٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحًا بينًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي: يتفهمون ويعلمون، ثم لمّا كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- مسليًا له وواعدًا له بالنصر ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك: {فَارْتَقِبْ} أي انتظر، {إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ} أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [سورة المجادلة:٢١] الآية، وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [سورة غافر:٥١-٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

---

١٥ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجاثية من الآية (١) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الجاثية:١-٥].

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات الأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، {فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [سورة النحل:٦٥] **أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.**

وقوله -عز وجل-: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} أي: جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للِّقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

وقال -سبحانه وتعالى- أولاً: {لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}، ثم {يُوقِنُونَ} ثم {يَعْقِلُونَ} وهو تَرَقٍّ من حالٍ شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية "البقرة" وهي قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٦٤].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات الأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور..** إلى آخره.

ابن كثير هنا في هذه الكلمات جمع بين قولين معروفين للمفسرين في هذا الموضع، وما شابهه، فقوله: **{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** يحتمل أن يكون المراد **{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ}** يعني: من المخلوقات والكائنات ودلائل القدرة وصنوف الآيات مما تحويه السماوات والأرض، ففي للظرفية، يعني أنه يوجد في السماوات وفي

الأرض آيات متنوعة دالة على قدرة الله -تبارك وتعالى- ووحدانيته، وما إلى ذلك مما يتصل بالبعث والنشور، هذا معنى، المعنى الثاني: أن يكون المراد {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يعني: خلق السماوات والأرض، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، فنفس خلق السماوات والأرض هذا آية عظيمة دالة على قدرة الله -عز وجل-، هذان قولان، والزجّاج رجّح الثاني، أنه نفس خلق السماوات والأرض، واحتج بقرينة في الآية، وهي أنه قال بعد ذلك: {وَفِي خَلْقِكُمْ}، فيكون المراد بهذا الاعتبار عند الزجّاج ومن وافقه أن قوله: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ} يعني: خلق السماوات، والآية تحتمل المعنيين، ابن كثير في هذا الكلام جمع بين المعنيين كما ترون، نعود إلى عبارته ثانية، يقول: **يُرشد إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات الأرض**، هذا المعنى الثاني الذي ذكرناه، قال: **وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن..** إلى آخره، فهذا هو القول الأول، وهذا كثير في هذا الكتاب، يورد عبارة يجمع فيها بين القولين، أو الثلاثة، وربما أكثر مما تحتمله الآية ويجتمع تحتها.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ}، يعني: وخلق ما يبث مثلاً، {مِن دَابَّةٍ}، والدابة عرفنا من قبل أن ذلك يقال: لكل ما دب على الأرض، {يَبُثُّ} يعني: ينشر ويخلق.

وقوله هنا: {آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، آيات هذا الموضع {آيَاتٌ} جاءت بالرفع؛ على اعتبار أنها مبتدأ مؤخر، والخبر الظرف قبله، {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ} أي: آيات في خلقكم وفيما يبث، وهذه قراءة الجمهور، وفيها قراءة أخرى متواترة لحمزة والكسائي بالنصب {آيَاتٍ} فقراءة النصب هذه عطفاً على اسم "إن" {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ}، واسم "إن" هنا هو {لَآيَاتٍ} فتكون "آيات" الثانية على قراءة النصب معطوفة على الأولى، على اسم "إن"، والخبر {وَفِي خَلْقِكُمْ} يعني: إن في خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ، وبعضهم يقول غير هذا.

{آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، قال: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، الحافظ هنا يقول: اختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه. التعاقب هذا اختلاف الليل والنهار، وقد مضى الكلام على هذا، ومن أهل العلم من يقول: الاختلاف هنا التفاوت في الطول والقصر، اختلاف الليل والنهار: ما يقع فيهما من التفاوت في الطول والقصر، هذه آيات، يطول هذا تارة، ويقصر هذا تارة، ويعتدلان تارة، فهذا يحصل فيه هذا التفاوت والاختلاف، والآية تحتمل هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

قال: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}، يعني: في أحوال شتى، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو الذي عليه المفسرون، كابن جرير وغيره، أي هذا المعنى الذي ذكره في تنوع أحوال الرياح.

{آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، الآن {يَعْقِلُونَ} هذه {آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} على قراءة الجمهور التي نقرأ بها بالرفع، وعلى قراءة حمزة والكسائي بالنصب أيضاً {آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، مع اتفاق القراءتين على الجر في "اختلاف"، {وَاخْتِلَافِ} يعني كأنه على تقدير حرف جر، يعني: وفي اختلاف الليل والنهار، {وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ}، أو {آيَاتٍ}، فمن رفع الآيات فعلى

أنها مبتدأ كما سبق، والخبر في {وَاخْتِلَافِ}، أما على النصب فهو على العطف كما سبق، هنا {آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} عطف على معمولي عاملين مختلفين، وبعضهم يقول: إن الرفع على الاستئناف، وهذه المذكورات في هذه الآية لاحظوا الآن {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ}، {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}، هذه ستة أشياء، كلها دلائل على قدرة الله -تبارك وتعالى-، هذه براهين تدل على توحيده، وعظمته، كما أنها تدل أيضاً على قدرته على البعث، والله -تبارك وتعالى- يورد هذه الأمور المذكورة في هذه الآية، هذه الأمور الستة يوردها في القرآن لبيان هذين الأمرين: التوحيد، والقدرة على البعث وإعادة الأجسام ثانية بعد البِلى، ومن أراد أن يتوسع في هذا وينظر في الشواهد في كل واحد منها فليطالع ما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- في الأضواء عند تفسير هذه الآية، أطال في الكلام عليها، وفصّل وأورد الشواهد على كل واحد من الجهتين، الدلالة على الوحدانية، والدلالة على القدرة على البعث.

هنا كلام ابن كثير يقول: **وقال تعالى أولاً:** {لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ} **ثم** {يُوقِنُونَ} **ثم** {يَعْقِلُونَ}**، وهو ترقٍّ من حالٍ شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، باعتبار أن الإيمان أولاً ثم يرتقي مرتبة إلى حال اليقين، فهي أرفع، ثم بعد ذلك يعقل**، هكذا ذكر ابن كثير -رحمه الله-، وله وجه، ولكن أيضاً قد يُشكل على ما ذكر مواضع أخرى من كتاب الله -تبارك وتعالى- قد لا يكون الترقي فيها بهذه الطريقة.

يعني يمكن أن يقال: إنه لو يحصل التأمل في مضمون كل آية، ومناسبة ما ذكر بعدها ربما يكون هذا أوفق -والله أعلم-، وتأمّل الآيات المشابهة في مواضع أخرى، يعني في سورة الأنعام مثلاً: {إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [سورة الأنعام:٩٥] وما ذكر بعده، فلو قيل: إن كل خاتمة تتعلق بمضمون الآية، وإنها عقبت أو ختمت بذلك باعتبار ما تضمنته فهذا قد يكون أوفق -والله أعلم-، وإلا فالعلماء يذكرون مثل هذا التوجيه في مواضع قد لا تكون أيضاً بهذا الترتيب.

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} [سورة الجاثية:٦-١١].

يقول تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ} **يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبينات،** {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} **أي: متضمنة الحق، من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها،** {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}**؟!**

قوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}، الذي يتلو ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم- هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ولكن ذلك إنما هو بأمر الله -تبارك وتعالى- فأضاف ذلك إليه، كما قال: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [سورة القيامة:١٨]، والذي يقرؤه على النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم- هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يتلقى القرآن من الله مباشرة، إنما الذي يتلقاه من الله هو جبريل -صلى الله عليه وسلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} يعني: هذه الآيات المذكورة التي هي حججه وبراهينه -وقد عرفنا المراد بالآيات- {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}، هنا يمكن أن يكون قوله: {نَتْلُوهَا} منصوباً على الحال، تكون جملة حالية، {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ}، ويمكن أن يكون في محل رفع على أنه خبر {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ}، يكون خبراً لاسم الإشارة، و{آيَاتُ} يكون بدلاً منه، أو ما يقرب من ذلك كالبيان له، {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} {بِالْحَقِّ} يمكن أن تكون حالاً من فاعل "نتلوا" أو من مفعوله أي: محقين، أو متلبسة بالحق، وهذا مضى مراراً، {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} تلاوة متلبسة بالحق، ويمكن أن تكون الباء للسببية، يعني: بسبب الحق، {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} يقول: أي متضمنة الحق، يعني هذا معنى متلبسة بالحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}، هنا يقول: **إذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها** {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}؟!، يعني بعد حديث الله، وبعد آياته، وبعضهم يقول: إن قوله: {بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ} يعني: بعد آياته، باعتبار أن ذكر الاسم الكريم -لفظ الجلالة "الله"- لتعظيم الآيات، {بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ}، فإن المذكور هنا هو آيات الله، فجيء بالاسم الكريم لتعظيم هذه الآيات التي ذكرها، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}، فهذه آيات الله -تبارك وتعالى- يخاطبهم بها بهذا الخطاب الواضح المشتمل على دلائل وبراهين وحجج، وبعضهم يقول: هو على ظاهره، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ} يعني: بعد حديث الله، وبعد آياته، فبعد حديث الله هو القرآن، وهو المراد بالآيات.

قال: ثم قال تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} أي: أفاك في قوله كذاب حلاف، مهين أثيم في فعله، وقلبه كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ} أي: تُقرأ عليه {ثُمَّ يُصِرُّ} أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً.

الأفاك الأثيم، قبل هذا مما ذكرته في الآيات التي قبلها قلت: الآيات في سورة الأنعام {إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [سورة الأنعام:٩٥]، كذلك تأملوا في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [سورة الأنعام:١٥١]، فذكر هذه الوصايا وما عقبت به، وتأمل الترقي أو خواتم الآيات وقارن هنا في الموضعين، {إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}، و{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}، وهنا قوله: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الأفاك: هو كثير الإفك، وعرفنا أن الإفك هو الكذب العظيم، الذي يكون فيه قلب الحقائق، والأثيم: هو كثير الإثم، صاحب آثام كثيرة، {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} والويل عرفنا أنها كلمة تقال للعذاب، وتأتي بمعنى أو تأتي مراداً بها الوادي في جنهم، وابن جرير -رحمه الله- يجري في تفسيرها على الثاني.

قال: {كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا} أي: كأنه ما سمعها، {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً.

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً} أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخرياً وهزواً.

يعني الآن {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} مضى في عدد من المناسبات الكلام على البشارة، فهل هي الإخبار بما يسر، أو أنها أعم من ذلك؟، فمن قال: إنما تكون بالإخبار بما يسر يقولون عن هذه المواضع: إنها من باب التهكم {فَبَشِّرْهُ}، ومنه قول القائل:

يُبشرني الغرابُ ببيْنِ أهلي *** فقلتُ له: ثكلتْك مِن بشيرِ

وقول الآخر:

وبشرتَني يا سعدُ أنّ أحبتي *** جفوْني وقالوا: الودُّ موعدُه الحشرُ

أبشرتني، استعمل البشارة هنا في معانٍ غير محبوبة، غير مرغوبة، فبعض أهل العلم يقول: هذا من باب التهكم، ولكن في هذه الأبيات ليس فيها معنى التهكم، -والله أعلم-، هو يتحدث عن نفسه:

يبشرني الغراب ببين أهلي ***

فراق أهلي، يتشاءمون بالغراب، فقلت له: ثكلتك من بشير، فهذا لا يظهر منه معنى التهكم؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن البشارة تأتي لهذا وهذا، للإخبار بما يسر، والإخبار بما يسوء، وأنها غلبت في الإخبار بما يسر، وأن أصل ذلك قيل لظهور أثر البشارة على الأبشار، على البشرة، فقيل لها: بشارة، {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.

قال: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به.

يعني هذه أوصاف للعذاب، العذاب تارة يوصف بأنه أليم، فعيل، وفعيل يأتي بمعنى فاعل، ويأتي بمعنى مفعول، فهنا أليم أي مؤلم موجع، ويأتي بمعنى مفعول كما تقول: قتيل بمعنى مقتول، أسير بمعنى مأسور، فيأتي لهذا وهذا، فيوصف العذاب بأنه أليم ويوصف أيضاً بأنه مهين، فيحصل به إيلام الأبدان وإيلام النفوس، فالنفوس بالإهانة، {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر:٤٨]، فهذا إهانة لهم.

قال: أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يسافَر بالقرآن إلى أرض العدو؛ مخافة أن يناله العدو"[1].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ} أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة.

{مِنْ وَرَائِهِمْ}، هنا يقول: أي كل من اتصف، الآن {مِنْ وَرَائِهِمْ} مضى الكلام على هذا في عدد من المناسبات، {وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ} [سورة الكهف:٧٩]، ما المراد به؟ قلنا هناك: وكان أمامهم ملك، فهنا في قوله: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، الذي عليه الجمهور يعني: من بين أيديهم، يعني أمامهم ينتظرهم، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير، وأكثر المفسرين، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فهذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يعبر عن هذا المعنى بنفسه، لكن بعبارات مختلفة والمؤدى واحد، وهي في الواقع ترجع إليه، وبعضهم يقول: إنه عبر عنه بذلك {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ} باعتبار أن هؤلاء أعرضوا عن هذه الآيات، وعن الدار الآخرة كأنها خلفهم، فعبر بهذا: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، ولكن الذي عليه عامة المفسرين أن المقصود: {مِنْ وَرَائِهِمْ} يعني: من أمام هؤلاء وما ينتظرهم وما يستقبلهم.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، برقم (٢٩٩٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم، برقم (١٨٦٩).

قال: {وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا} أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، {وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ} أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

ثم قال -تبارك وتعالى-: {هَذَا هُدًى} يعني القرآن.

قوله: {هَذَا هُدًى} الهدى مصدر، تنزيل المصدر منزلة الوصف، {هَذَا هُدًى} إما على سبيل المبالغة، يعني جعله بنفسه -بعينه- هدى، وإما على تقدير مضاف، أي هذا ذو هدى، يعني: ما يتضمنه القرآن من الهدايات، {هَذَا هُدًى}، والله -عز وجل- يقول: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢]، فجعله هدىً في نفسه.

قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} وهو المؤلم الموجع، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

يعني: عذاب من رجز، الرجز هو العذاب أيضاً، فهذا ليس من قبيل التكرار {عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}، عذاب من عذاب أليم، ولا يوجد في القرآن تكرار محض، فهو وإن كان الرجز بمعنى العذاب إلا أن العذاب أنواع، فمنه ما هو مهين، ومنه ما هو أليم، ومنه ما هو عظيم، كما في الآيات الثلاث التي سبقت أليم، ومهين، وعظيم، فهنا {عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ} من أي نوعٍ هذا العذاب؟ من النوع الأليم.

هذه القراءة التي نقرأ بها: {عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} هي قراءة حفص وابن كثير، يكون "أليم" صفة للعذاب، وقراءة الجمهور الجر فيكون صفة للرجز، {مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ}.

{اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [سورة الجاثية:١٢-١٥].

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر {لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ}، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها، {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي: في المتاجر والمكاسب، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

ثم قال -عز وجل-: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: {جَمِيعاً مِنْهُ} أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك.

يعني أن قوله -تبارك وتعالى-: {جَمِيعاً مِنْهُ} باعتبار ما يحتمل أنه متعلق بمحذوف، يعني: كائنة منه، يكون صفة لجميعاً، ويحتمل أنه متعلق بسخر، أو أنه حال من قوله: {مَّا فِي السَّمَاوَاتِ} أو غير ذلك مما يذكر في إعرابه كأن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي أن كل ذلك رحمة منه لعباده، {جَمِيعاً مِنْهُ}.

قال: كما قال -تبارك تعالى-: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [سورة النحل:٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ}: كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك، قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

يعني هنا ماذا يقصد بــ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه؟، يعني كأنه يريد لفظ الجلالة؛ باعتبار أنه كما سبق في الأسماء الحسنى أن جميع الأسماء تعود إليه لفظاً ومعنى، تعود إليه لفظاً فهي دائماً تكون معطوفة عليه، ولا يعطف عليها، لا يأتي بعدها، وتعود إليه معنى حيث إن معاني سائر الأسماء الحسنى، وما تضمنته من الأوصاف هو داخل في معنى الألوهية الذي هو مضمن في هذا الاسم الكريم، يعني أن هذا الاسم الكريم "الله" متضمن لصفة الإلهية، وهي جامعة لجميع صفات الكمال.

وقوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} أي: ليصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أُمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد، هكذا روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وقتادة.

يقصد أنها منسوخة بآية السيف، كما يقوله بعض المفسرين، وقد مضى الكلام على هذا مراراً، وقول من قال بأنها نَسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، أي أن كل عفو وصفح وغفر وإعراض عن المشركين أنه منسوخ بآية السيف، وأن الراجح أن ذلك غير منسوخ، وإنما يكون الإعراض والصفح والغفر في أوقات الضعف والعجز عن إقامة حكم الله -عز وجل- فيهم، فإذا كان المسلمون في حال من القوة والتمكن فعندئذٍ يعمل بمقتضى آية السيف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}، يحتمل أن يكون {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا}، اغفروا {يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}، يعني يكون الأمر لهم بــ "اغفروا"، قل للذين آمنوا اغفروا، فتكون النتيجة {يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}، ويحتمل أن يكون على حذف اللام أي ليغفروا، ونحن نعرف أن الأمر له صيغتان، الصيغة الأولى: افعل، والصيغة الثانية: لِتفعل، ليغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ولغة العرب واسعة، والسياق يبين المراد، تقول: قل لفلان يفعل كذا، يعني افعل كذا، ومعنى "أيام الله" في قوله: {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} **قال مجاهد: لا يبالون نعم الله تعالى.**

فالأيام تذكر ويراد بها الوقائع، وهذا كثير في كلام العرب، يعني: لا يرجون أيام الله: لا يرجون وقائع الله بأعدائه، {لا يَرْجُونَ} يعني: لا يتوقعون ما حل بمن قبلهم من المَثُلات والعقوبات، وما أنزل الله -عز وجل- بهم من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، {لا يَرْجُونَ}، بعض أهل العلم فسر الرجاء هنا بالخوف، {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} يعني: لا يخافون وقائع الله -عز وجل- وعقوباته وحلول نقمه -تبارك وتعالى-، وبعضهم فسر الرجاء هنا بمعناه المشهور المعروف المتبادر، {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} يعني: لا يرجون ثوابه، باعتبار أن هؤلاء الناس لا يعبدونه ولا يتقربون إليه ولا يوحدونه، فهم لا يرجون الثواب.

و{لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} المشهور أن المقصود بذلك يعني وقائع الله ونقمه، هذا الذي عليه عامة المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

فلكون هؤلاء قد ترحل الإيمان من قلوبهم فهم لا يتخوفون عواقب الكفر، وأن تنزل بهم عقوبة الله -تبارك وتعالى- جراء إعراضهم وكفرهم، وتكذيبهم واستخفافهم بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم فسر أيام الله {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} يعني: نصره لأهل الإيمان، وإعزاز الدين وتمكين أوليائه، وإدالتهم على الأعداء، وبعضهم يقول: يعني لا يرجون البعث والنشور، لكن المشهور كما سبق: {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} يعني العقوبات والمثُلات والعذاب والنقم التي تحل بأعدائه.

{قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ}، قوله: {لِيَجْزِيَ قَوْمًا} القوم هؤلاء المراد بهم أهل الإيمان، هكذا يقول بعضهم: {لِيَجْزِيَ قَوْمًا} يعني: أهل الإيمان الذين أمرهم الله -عز وجل- بالغفر والإعراض عن هؤلاء المشركين، ليجزيهم الله -عز وجل- على أعمالهم الطيبة في الدنيا، وعلى إيمانهم، ومن جملة ذلك الصبر على أذى هؤلاء المشركين.

والقول الآخر: أن المقصود بالقوم {لِيَجْزِيَ قَوْمًا} يعني: الكفار، {لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ} وهذا هو المتبادر، -والله تعالى أعلم-، يعني كأنه يقول: دع هؤلاء لله -عز وجل- فهو الذي يحاسبهم، {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [سورة الغاشية:٢٢]، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠]، فالله -تبارك وتعالى- يتولى عباده ويجازيهم ويحاسبهم على كفرهم وإعراضهم، وليس ذلك موكولاً إليك.

قال: وقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله -عز وجل- مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [سورة الجاثية:١٦-٢٠].

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}.

يعني قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} بعضهم يقول: المقصود به التوراة، وبعضهم يقول: التوراة والإنجيل، باعتبار أن الإنجيل أيضاً منزل على بني إسرائيل، فهذا مقام امتنان، فالله -تبارك وتعالى- يمتن عليهم بذلك، وهذا الثاني الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله-، أن المقصود بالكتاب يعني التوراة والإنجيل.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ}، الحكم فسر بالفقه والفهم، والذي يكون به الحكم بين الناس، وابن جرير -رحمه الله- فسره بما هو قريب من هذا، يعني أن الله -عز وجل- آتاهم الكتاب والحكم، فالحكم هو ما كان من غير جنس الكتاب، فيدخل فيه السنن والفقه والفهم، يعني مما ليس من جنس الكتاب، يعني ما لم ينزل بالكتاب يعني بلفظه، فآتاهم الكتاب وآتاهم الحكم والنبوة يعني: جعلها فيهم، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [سورة المائدة:٢٠].

قال: {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من المآكل والمشارب.

يدخل في هذا المن والسلوى التي أنزلها عليهم، والمقصود بالعالمين أي في زمانهم، وهذا مضى الكلام عليه، فإن الله -تبارك وتعالى- حينما قال لهم: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة:١٢٢]، لم تكن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- موجودة، ولم يكن كتابهم قد نزل، ثم بعد ذلك لما كفروا حلت بهم لعنة الله -عز وجل-، وحل بهم سخطه فلعنهم وطردهم من رحمته، وقال الله -عز وجل- عن هذه الأمة: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة آل عمران:١١٠]، وفي حديث معاوية بن حيدة التصريح بهذا، لما ذكر الأمم: ((إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله))[٢]، فهذا صريح في خيرية هذه الأمة على الأمم، فما ورد من هذا القبيل في تفضيل بني إسرائيل على العالمين فالمقصود به عالم زمانهم، وليسوا أفضل من هذه الأمة قطعاً.

قال: {وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأمْرِ} أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً.

وهذا في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- أن الاختلاف الواقع في بني إسرائيل إنما كان بعد معرفة الحق، بعد بيانه بياناً لا يلتبس، وبعد أن قامت عليهم الحجة، وأن سبب هذا الاختلاف إنما هو البغي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن هذه الأمة ستتبع سَنَن من كان قبلها، ومضى في التعليق على كتاب الاقتضاء ما ذكره شيخ الإسلام في أوله، ثم بعد ذلك في مواضع أخرى، ذكر في موضع واحد نحواً من ثمانية عشر نوعاً مما تابعت هذه الأمة فيه بني إسرائيل، ومن هذه الأمور التي شابهت فيها الأمة مَن قبلها التفرق والاختلاف، وسبب ذلك التفرق والاختلاف لم يكن بسبب عدم بيان الحق، والنقص في تعريفه، وإنما كان ذلك بسبب التفريط وإن كان ذلك من جهة الجهل، التفريط في معرفته لكون هذا المفرط قد أعرض عنه، مع أن الشاطبي -رحمه الله- يرى أن هذا لا يكون للعالم الذي يستحق أن يقال عنه: إنه عالم، العالم الرباني، العالم الراسخ، لا يكون من قبل الجهل، يقول: لأن الجاهل أصلاً لا يعتد خلافه في الخلاف، ولا يكون فراقه معتبراً فيقال: هذا فراق، وفرقة.. إلى آخره، فهؤلاء الذين يخالفون بسبب الجهل إنما ذلك لتفريطهم في معرفة

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة آل عمران، برقم (٣٠٠١)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٢٨٨)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٠١٥)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، والحاكم في المستدرك، برقم (٦٩٨٧)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٠١).

الحق، وإلا فالحق بينه الله -عز وجل- بياناً واضحاً لا يلتبس، فيبقى اتباع الهوى تحت أي اسم كان، والبغي التعدي في أمور لا توجب ذلك، كما هو مشاهد اليوم بين طوائف الأمة، أكثر الخلاف الواقع إنما هو راجع إلى هذا السبب، وما يخرج عنه فهو راجع إلى اتباع الهوى، وكثيراً ما يجتمع هذا وهذا، اتباع الهوى والبغي الذي يكون بين الناس، لكنك أكثر ما تجد البغي حيث يكون الناس متفقين على أصل الحق، ومع ذلك تجد التفرق والاختلاف على قدم وساق، فيعجب الناظر من هذا، ما موجبه؟ وما سببه؟ إلى أي شيء يرجع؟ فهم متفقون على الحق في أصله، فهذا في الواقع يرجع إلى البغي، العدوان، الظلم، فيقع التناحر والتفرق والعداوات والشر بين طوائف المسلمين، -والله المستعان-، كنا دائماً نقول: من علامات أهل السنة أن كلامهم يخرج من مشكاة واحدة، كما يقول الصابوني ومن قبله السمعاني، تجد الذي في المشرق والذي في المغرب، وتجد المتقدم والمتأخر كلامهم من مشكاة واحدة ليس فيه اختلاف، وليس بأهل تفرق كما هو حال أهل البدع، واليوم تجد المنتسبين إلى السنة والسلف الصالح، تجد الخلاف فيهم أكثر ما يكون، والتفرق الذي يصل -أسأل الله العافية- عند البعض إلى الرمي بالبدعة والضلالة وما أشبه ذلك، وهذا لا يعرف عند أهل السنة، وإنما منشأ ذلك هو كما يقول الشاطبي: إذا تكلم في العلم من لم يكن متحققاً فيه، أو كان ذلك يرجع إلى اتباع الهوى والبغي والعدوان في أمور لا توجب ذلك من الخلاف في أمور اجتهادية، فتتحول إلى عداوات، فهذا إما أن يكون بسبب الجهل لكونه لا يعرف ما الذي يوجب الافتراق، وما الذي لا يوجبه، فيجعل من القضايا الاجتهادية قضايا كلية توجب الافتراق، وقد ذكر الشوكاني -رحمه الله- عن بعض شيوخ اليمن كما في الكتاب الذي ألفه في العلم "نهاية الأرب" ذكر فيه أشياء جيدة، منها قضية تتعلق بهذه الجزئية، وهي أن الناس ثلاثة، فالعلماء من أهل الرسوخ إذا اختلفوا فإن اختلافهم لا يوجب هذا التفرق، يتفاهمون، ويعرفون كيف يختلفون، وكيف ينزلون المسائل، والقسم الآخر وهم من يقابلهم وهم العوام، فهم تبع لعلمائهم، فهؤلاء لا يحصل منهم التفرق والاختلاف، بقيت الفئة الوسط وهم الذين لم يكونوا في عداد العوام ولم يكونوا من أهل الرسوخ في العلم، فهم لم يحصل لهم النضج، يقول: هؤلاء هم سبب التفرق والاختلاف والشر والعداوات والقيل والقال واللغط الكثير، وهذا هو الآن الذي نشاهده، ومع وسائل الاتصال الجديدة اليوم أصبح هؤلاء عندهم مجال كبير للكتابة، ولربما بأسماء غير صريحة، والشيطان يرقص بين هؤلاء، وتجد الوقيعة الشنيعة، كأن هؤلاء لا يعرفون الله، ولا يعرفون ما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حق المسلم على المسلم، ولا في أدنى مراتب الأدب التي درسوها في أوائل الطلب، كل هذا يُنسى، وما للمسلم من حرمة، فيرمى بأقبح الأوصاف على اختلافات في أمور اجتهادية، وأحياناً حتى لا ترى أمراً اجتهادياً، لا ترى شيئاً لماذا هذه العداوة وهذا الرمي بهذه العظائم لهذا الإنسان الذي لم يعرف عنه إلا الدعوة إلى الخير والسنة، لا يعرف عنه إلا هذا، وهذه الشناعة عليه ما موجبها؟ لا تعرف أحياناً، حسد، مرض عند هؤلاء، فهذه للأسف اليوم صارت أشد وأعظم من أي وقت مضى، والسبب هو أن هؤلاء صاروا يتوصلون إلى أمور لم يكونوا يقدرون عليها من قبل، وسائل الاتصال، ووسائل الكتابة أيضاً والطباعة وما أشبه ذلك، أصبح الآن بالإمكان أنه يكتب ويؤلف، ويجمع من هنا وهناك، وأحياناً تنظر في بعض الكتابات تقول: لو أنه يعقل ما أخرج هذا

الكلام، ولا كتب هذا الكتاب؛ لأنه ينادي عليه النقص والجهل، وهو لا يحسن، لكن الإنسان لا يرى عيوبه، والله يصلح الحال.

قال: {إِنَّ رَبَّكَ} يا محمد {يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال -جل وعلا-: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين.

{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ} الشريعة في اللغة هي المذهب والملة والمنهاج، ومنه الشارع؛ لأنه طريق إلى المقصود، يوصِّل أو يُوصِل أو يُتوصل به إلى المطلوب، إلى المراد، إلى الموضع الذي تقصده، يعني: جعلناك على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق.

قال: وقال -جل جلاله- هاهنا: {وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [سورة الجاثية:١٨-١٩] **أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً؟، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.**

يعني هناك آيات جامعة مثل هذه الآية مثلاً لو قيل: لو لم يُنزّل على الناس في السياسة إلا هذه الآية لكفتهم، {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا}، فهذا هو الطريق الوحيد الموصل إلى المطلوب، الموصل إلى الله والدار الآخرة، وهو الذي يحصل به التمكين والظفر والنصر، وشرح ذلك يطول، {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة الحج:٤١]، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [سورة النور:٥٥]، الآيات في هذا معروفة، {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يعني: كل ما يخالف الشريعة فهو أهواء، سواءً كان بثوبٍ لبرالي أو كان بأي وجه كان، بأي مذهب عبر العصور والقرون المتطاولة، كل ما خالف الشريعة فهو أهواء الذين لا يعلمون، هذه قيمته الحقيقية، هذه منزلته، هو عبارة عن أهواء، ديمقراطية، علمانية، أو غير ذلك مما يمكن أن يأتي من أسماء، فإن الباطل لا يمكن أن يعبر عنه بتتبع أفراده وآحاده فإن ذلك كثير، ويخرج شيئاً بعد شيء، ولا يمكن حصره، ولكن مثل هذا، {فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى} [سورة ص:٢٦]، فكل ما خالف الحق فهو هوى، ما هذا الحق؟ هل هو الديمقراطية مثلاً؟ الجواب: لا، {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}

فهؤلاء لا يمكن أن يخلصوك من عذاب الله في الدنيا، ولا في الآخرة، مهما كثروا، ومهما علت أصواتهم، ومهما كانت إمكانياتهم، ومهما كانت ضغوطاتهم، فهؤلاء الذين لا يعلمون قد يكونون دولاً ممكَّنة قوية، تضغط على المسلمين من أجل إقرار المنكر بين ظهرانيهم، الله -تبارك وتعالى- يقول: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}، فهؤلاء يحصل بينهم التعاضد والتناصر، وإن اختلفت نحلهم ومللهم

وأهواؤهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- ولي المتقين، فهذا وعد منه بالحفظ والتمكين والنصر؛ لأن من معاني الولي الناصر، فالله ينصرك على من عاداك إذا كنت ملتزماً أمره وطاعته، {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧]، {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش:٣-٤]، فهذا الطريق كما في أول سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:١-٣]، فإن هؤلاء لن يتركوك، لكن {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} يحفظك ويحوطك وينصرك على هؤلاء الذين يعادونك، ثم قال بعده: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [سورة الأحزاب:٤]، وقد مضى الكلام على هذا، وأن من المفسرين من يقول: هذا تابع لما قبله، لا يمكن أن تجتمع طاعة الله -عز وجل-، وطاعة هؤلاء المجرمين في قلب رجل إطلاقاً، إما أن يكون تابعاً لأمر الله -عز وجل- مطيعاً له، عابداً لربه وخالقه -جل جلاله-، وإما أن يكون عبداً لهؤلاء ولأهوائهم، {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ} لا تجتمع طاعة الله وطاعة أعداء الله.

قال: ثم قال -عز وجل-: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ} [سورة الجاثية:٢٠] يعني: القرآن.

بصائر يعني: براهين ودلائل، سماه بصائر، {قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} [سورة الأنعام:١٠٤]، والبصائر عرفنا أنها من بصر القلب الذي هو بمنزلة نور العين، فيبصر به حقائق الأشياء، هذا الذي سمعتم بصائر ويا لها من بصائر!، كما ترون آية واحدة تجمع كل ما يُحتاج إليه في أبواب واسعة، في آية واحدة.

قال: يعني القرآن {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [سورة الجاثية:٢١-٢٣].

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال -عز وجل-: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر:٢٠] وقال -تبارك وتعالى- هاهنا: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ} أي: عملوها وكسبوها.

يعني "أم" هذه هي المنقطعة، المقدرة ببل والهمزة، وقد مضى هذا مراراً، يعني: فيها معنى "بل" للانتقال من البيان الأول إلى البيان الثاني، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، والهمزة لإنكار هذا الظن حيث حسبوا ذلك وظنوه، ومعنى الاجتراح: الاكتساب، ومن ذلك الجوارح، وقد مضى الكلام على هذا في المائدة، {وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ} [سورة المائدة:٤]، فالاجتراح بمعنى الاكتساب، فهذه جملة مستأنفة لبيان تباين حال المسيئين والمحسنين، يعني {أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، نسوي بين هؤلاء وهؤلاء، يقول: {سَوَاءً مَّحْيَاهُم

{وَمَمَاتُهُمْ} يعني: في الدنيا والآخرة لا يستوون، يعني: لا يستوي أهل الإيمان وأهل الإجرام، لا يستوون في الدنيا، ولا يستوون في الآخرة، فحالهم مختلفة، وأعمالهم متفاوتة متباينة.

وبعضهم يقول: إن المراد {سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ} أننا يعني لا نسوي، أو إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، ولكن الأول هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ} فيه قراءتان متواترتان، القراءة الأولى بالرفع، وهي قراءة الجمهور، {سَوَاءٌ مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ}، على أنه خبر مقدم، والمبتدأ {مَّحْيَاهُم}، أي: محياهم ومماتهم سواءٌ، والقراءة الثانية قراءة حفص وحمزة والكسائي بالنصب، باعتبار أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله: {كَالَّذِينَ آمَنُوا}، أو غير ذلك مما يقال في توجيه هذه القراءة وإعرابها، والله أعلم.

قال: {أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ} أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة! {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار.

وقد روى الطبراني عن مسروق: أن تميما الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}؛ ولهذا قال تعالى: {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}.

وقال -عز وجل-: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} أي: بالعدل.

وهذا الذي قاله أيضاً ابن جرير: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}، الحق المقتضي للعدل بين العباد، وكما سبق أن {بِالْحَقِّ} يمكن أن يكون منصوباً على الحال، أي خلقاً متلبساً بالحق، أو أن تكون الباء للسببية.

يعني: أن الله -تبارك وتعالى- خلق السماوات والأرض بالحق، خلقاً متلبساً بالحق، أو {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} يعني: العدل بين العباد، {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، {وَلِتُجْزَى} يمكن أن يكون ذلك عائداً إلى الحق، فيكون كل ذلك سبباً لخلق السماوات والأرض، أن الله خلق السماوات والأرض بالعدل، {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، ومضى في كلام شيخ الإسلام الذي قرأنا شيئاً منه في "طريق الوصول إلى العلم المأمول" أن العلل التي يذكرها الله -تبارك وتعالى- في مواضع من كتابه ليست للحصر، وذكر أمثلة كثيرة لذلك منها هذا حينما يذكر الله -تبارك وتعالى- خلق السماوات والأرض، فهل خلق الله السماوات والأرض مثلاً من أجل أن تجزى كل نفس بما كسبت فقط أم هذه واحدة من العلل؟، فذكر لذلك أمثلة كثيرة، ويحتمل أن يكون {وَلِتُجْزَى} معطوفاً على محذوف، يعني خلق الله السماوات والأرض ليدل بهما على قدرته {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ} إلى آخر ما ذكر، ويحتمل أن تكون اللام هذه للصيرورة، {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، {وَلِتُجْزَى}، الصيرورة والعاقبة، كما في {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨].

قال: ثم قال -جل وعلا-: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه.

وقوله: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} أي: أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس.

يعني {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} هذا حال، إما من الفاعل وإما من المفعول، {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}، على علم من الله، هذا الذي عليه الجمهور، أن هذا لا يستحق الهداية، على علم سابق من الله -تبارك وتعالى- فيه أنه ليس بأهل للهدى، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنفال:٢٢-٢٣]، فهؤلاء لا خير فيهم، فهذا قول الجمهور.

والقول الثاني: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} أي: "علم" يكون حالاً من هذا الذي أضله الله، على علم منه، يعني: أنه كان يعرف الحق، يعلم الحق فتركه لغلبة هواه، لإيثار الهوى، أو أنه ترك الحق والعمل به؛ لأنه لا يرجو، لأنه يعلم أنه لا ثواب له عند الله -تبارك وتعالى-، يعني هذا الكافر {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}، وهذا بعيد، هذا المعنى الأخير.

وبعضهم يقول: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} منه بأن هذا المعبود من دون الله -عز وجل- كالصنم أنه لا يضر ولا ينفع، والمشهور هو الأول {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} يعني: من الله -تبارك وتعالى- به أنه ليس بأهل للهدى، وهذا تدل عليه آيات من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وهو الذي اختاره ابن جرير، وعزاه ابن القيم -رحمه الله- إلى الجمهور من المفسرين.

وابن كثير -رحمه الله- يقول: **أضله الله لعلمه**، يعني لعلم الله أنه لا يستحق ذلك، **أو أضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه**، يعني: على علم من هذا الضال أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب فعرّفهم بالحق، فضل هذا على علم.

يقول: **والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس**، باعتبار أن هذا الإنسان الذي جاءه الحق ووصل إليه فأعرض عنه أضله الله على علم فكان ضلاله ليس بسبب خفاء الحق، وإنما كان بعد بلوغه إليه، فهذا يستلزم الأول، وهو أن الله -تبارك وتعالى- في سابق علمه قد علم أن مثل هذا لا يؤمن ولو جاءته كل آية، هكذا ذكر ابن كثير، يعني هذا مراده أنه يستلزم الأول، الثاني يستلزم الأول ولا ينعكس، إذا قلت: على علم من الله بأنه ضال لا يستحق الهدى لا يستلزم الثاني أن ذلك لكونه قد علم الحق وعرفه ثم أعرض عنه.

وهذه الآية من الآيات التي يستدل بها أهل السنة في باب القدر، أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فهؤلاء الذين أضلهم لماذا أضلهم؟ لأنه -تبارك وتعالى- عليم حكيم، بل هم قالوا: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة الأعراف:١٣٢] قال مالك: لا يهوى شيئاً إلا عمل به، يعني هنا يقصد التحسين والتقبيح عند المعتزلة، تعرفون أن المعتزلة يقولون: إن العقل يستقل بالتحسين والتقبيح، وعكسهم الأشاعرة، وهذه من مخالفات الأشاعرة لأصولهم، الأشاعرة في باب التحسين والتقبيح يقولون: إن العقل لا يحسّن ولا يقبّح، ولا مدخل له في التحسين والتقبيح، وإنما يرجع ذلك إلى الشرع، ومن ثَمّ فإن الأشاعرة يقولون: الحسن والقبح يرجع إلى أن الله أمر بهذا أو نهى عنه، فلو أن الله أمر بالكذب والظلم والزنا والفجور والسرقة لكانت حسنة، ولو نهى عن العدل والعفاف والصدق لكانت قبيحة، وهذا الكلام غير صحيح، فإن من الأشياء ما جعل الله -عز وجل- فيه حسناً ذاتياً، تدركه العقول كالصدق والعدل والعفاف، وما إلى ذلك من الصفات التي تعرفها العقول، ولهذا الأعرابي لما قيل: بم عرفت أنه رسول الله؟ قال: "ما

أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به"، فكل ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو موافق للعقل فيما تدركه العقول، وما لا تدركه العقول فهو لا يخالف العقل بحال من الأحوال، وهذا مضى الكلام عليه في التعليق على كلام شيخ الإسلام وابن القيم في طريق الوصول، فهنا الأشاعرة يناقضون أنفسهم في هذا الباب، يلغون العقل تماماً، مع أنهم يجعلون العقل أصلاً والنقل تابعاً له في باقي الأبواب، ومن ثم فهنا يقول: رد على المعتزلة، باعتبار أنهم يقولون: إن العقل يستقل بالتحسين والتقبيح، فهذا متبع لهواه {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} فهو لا يستحسن شيئاً إلا فعله، فعقله هذا لم يهده إلى الحق، وإنما يكون الاهتداء باتباع الوحي، فهذه العقول التي تحسّن وتقبّح، كلما استحسن شيئاً فعله، لا يصل إلى الحق، ولا يكون متبعاً له، وإنما يكون متبعاً لهواه، ومضى الكلام على هذه العقول، وعلى تفاوتها، ولذلك اختلف أهلها اختلافاً كثيراً، وما يظنه بعضهم أن هذا عقل وقواعد عقلية، وأنها ليست كذلك.

قال: {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال تعالى: {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}، كقوله تعالى: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأعراف:١٨٦].

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وأما الغشاوة فهو غطاء العين كما قال تعالى: {وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تُظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه، وغُلّظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وجعْلُ الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى"[٣].

يعني هذه الأشياء القلبية، لذلك قيل: حبك الشيء يعمي ويصم، السمع لا يسمع والبصر لا يبصر، وكذلك بغضك الشيء يعمي ويصم، فترى المحاسن مساوئ، فهذا كله ما يقع في القلب ويحصل يؤثر في السمع والبصر، والله المستعان.

---

٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، لابن القيم (٩٦)، دار الفكر، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجاثية من الآية (٢٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد.

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ٢٤-٢٦].

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: {وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [الجاثية:٢٤] أي: ما ثَمّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون وما ثَم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ست وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهي، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: {وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ} [الجاثية:٢٤] قال الله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ} [الجاثية:٢٤] أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره))[1] وفي رواية: ((لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر))[2].

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر)): كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله -عز وجل-؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤]، المقصود بذلك: هو أن هؤلاء ينكرون البعث، بصرف النظر عن تنزيل هذه الألفاظ، وذلك أن قولهم: {نَمُوتُ

---

[1] - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وما يهلكنا إلا الدهر}، (٦/١٣٣)، رقم: (٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/١٧٦٢)، رقم: (٢٢٤٦).

[2] - أخرجه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/١٧٦٣)، رقم: (٢٢٤٦).

{وَنَحْيَا}، فذكر الموت أولاً، ثم ذكر الحياة بعده، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: {نَمُوتُ} أي: نحن، ويحيا آخرون، يعني: هكذا دواليك، حياة لا تنقضي، كما يقول بعضهم: أرحام تَدفع وأرض تَبلع، يعني: أن ذلك من غير تقدير العزيز العليم.

وأما قوله: {وَنَحْيَا} يعني: ويحيا أبناؤنا، باعتبار أنهم أضافوا الحياة إليهم، فابن جرير لاحظ هذه النسبة والإضافة، فقال: لما كان الأولاد منهم، وهم امتداد لهم، والعرب تقول: لم يمت من خلف مثل فلان.

يعني الرجل إذا خلف ولداً صالحاً فإن الناس يقولون: ما مات من خلف مثل هذا، يعني: أن الأولاد هم امتداد للآباء.

فقوله: {نَمُوتُ وَنَحْيَا}، يقول ابن كثير: {نَمُوتُ} نحن، ويحيا آخرون، وابن جرير يفسرها بمعنىً أخص نموت نحن ويحيا أبناؤنا، فحياة الأبناء حياة لهم.

وذكر احتمالاً آخر وهو مبني على قاعدة عند العرب في وجوه مخاطباتها، وذلك في الواو حينما تذكر العرب شيئين وتقرن بينهما بالواو، وتريد الإخبار عن الوقوع دون اعتبار في هذا الإخبار للمتقدم والمتأخر؛ لأن الواو لمطلق الجمع، وليست للترتيب.

فيقول: إن من عادة العرب أنهم إذا أرادوا الإخبار عن وقوع شيئين من غير اعتبار للترتيب بينهما فإنهم يذكرون الآخِر منهما أولاً، والتقدير: نحيا ونموت.

وهناك قاعدة أخرى وهي: أن الأصل في الكلام الترتيب، يعني: مهما أمكن حمل الكلام على وجه صحيح من غير دعوى التقديم والتأخير فالأصل أنه على وجهه كما هو، لا يُدّعى فيه التقديم والتأخير، فالآن تَقابل قاعدتان، على قول ابن كثير وقريب منه قول ابن جرير الذي قبله الذي ذكره على أنه هو الاختيار يكون الكلام لا تقديم فيه ولا تأخير، وعلى القول الآخر الذي ذكره ابن جرير احتمالاً يكون فيه تقديم وتأخير، ويكون التقدير: نحيا ونموت.

ويبقى أن المعنى الأول هو الأصل، {نَمُوتُ وَنَحْيَا}، وأن نسبته إليهم باعتبار المجموع، ولا يلزم من ذلك أن يضيق المعنى فيقال: نموت ويحيا أولادنا، فلا يلزم أن يكون ذلك حياة لهم، والله تعالى أعلم.

ثم ما ذكره من طوائف الدهرية، وهم الذين يقولون: إن هذه الحياة أبدية سرمدية، لكنهم يختلفون في مذاهبهم وما يدخل تحت ذلك من التفاصيل، فهنا يقول: وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، أي إن الحياة لا مبدأ لها ولا منتهى، أجيال تتعاقب منذ الأزل، ليس لها ابتداء ولا انتهاء، وأما طائفة الدهرية الدورية الذين يقولون: إن الدورة تكون ستاً وثلاثين ألف سنة، هذه دورة للحياة، ثم تبدأ دورة ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة، لكنهم يتفقون جميعاً على أنه لا معاد ولا انتهاء لهذه الحياة.

أما الحديث: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر)) فهو مفسر في نفس الحديث ((بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره))، فهذا معنى أن الله -تبارك وتعالى- هو الدهر، وليس ذلك من أسمائه الحسنى، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، أن الدهر ليس من أسماء الله، وأن الحديث مفسر بآخره، ولكن لما كان الله -عز وجل- هو الذي يجري هذه الوقائع والحوادث في الدهر كان سب الدهر عائداً إليه -عز وجل.

ومعنى الأذى معروف، وقد ذكرت في بعض المناسبات أنه يفرق بين الأذى والضرر، فالأذى يصل إلى الله -عز وجل- ومنه قوله – تبارك وتعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأحزاب: ٥٧]، وأما الضرر فالخلق أصغر وأحقر من أن يوصلوا ضرراً إلى الله -عز وجل- ((إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني))[٣]، فالله أعظم شأناً من أن يُلحق المخلوق به ضرراً، والله -عز وجل- يقول: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [آل عمران:١١١]، باعتبار أن الاستثناء منقطع في الآية كما سبق، يعني: أن الأذى ليس من جملة الضرر، إنما هو كلام تسمعونه تكرهونه، تكذيب وكفر ورمي بأمور قبيحة ونحو ذلك، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [الجاثية:٢٥] أي: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها {مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الجاثية:٢٥] أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً.

قال الله تعالى: {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ} [الجاثية:٢٦] أي: كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة:٢٨] أي: الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:٢٧]، {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ} [الجاثية: ٢٦] أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: {ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الجاثية:٢٥] ، {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} [التغابن:٩]، {لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ} [المرسلات:١٢-١٣]، {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ} [الجاثية: ٢٦] أي: لا شك فيه، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ٢٦] أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج:٦-٧] أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٧-٢٩].

قال: يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، الحاكم فيهما في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال -عز وجل-: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ} أي: يوم القيامة {يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

ثم قال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى -عليه الصلاة والسلام- ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني.

---

[٣]- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤/١٩٩٤)، رقم (٢٥٧٧).

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} يقول: أي: على ركبها من الشدة والعظمة، يعني: في ذلك اليوم، الجاثي: هو المُستوفِز، وهو الذي لا يصيب الأرضَ منه إلا الركب وأطراف الأصابع ، فهذا هو المراد، وهذا هو المشهور، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم.

الجمهور فسروا الآية بهذا، يعني: من شدة الهول، وإن قال بعضهم خلاف ذلك، كقول الفراء: إن المراد مجتمعة، يعني: كل أمة تجتمع وحدها، وهكذا قول من قال -وهو قريب من هذا-: يعني تتميز عن غيرها، كما يقوله عكرمة وهو بمعنى مجتمعة، يعني: كل أمة تحشر وحدها، وهكذا قول من قال: إن المراد {كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} أي: كل أمة خاضعة، ففسر الجُثُوّ بأمر معنوي، والأصل أنه أمر حسي، هي صيغة وصورة وصفة لهيئة معينة يجلسها الإنسان، فإنما يجلس هذه الجلسة عادة من كان خاضعاً، جثا على ركبتيه يعني: إنسان وصل إلى حال من الإحباط، أو الاستسلام، فألقى سلاحه ونزل على ركبتيه، بمعنى: أنه خضع، لا حراك به، لا دفع.

قال: وقوله -عز وجل-: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} [الجاثية: ٢٨]، يعني: كتاب أعمالها، كقوله -جل جلاله-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر:٦٩]؛ ولهذا قال -سبحانه وتعالى-: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٨]، أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله -عز وجل-: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: ١٣ -١٥].

ولهذا قال -جلت عظمته-: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ} [الجاثية:٢٩]، أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله -جل جلاله-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩].

قوله -تبارك وتعالى-: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} [الجاثية:٢٨]، قد مضى الكلام على قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء:٧١]، فبعض المفسرين يقول: إن المراد بالإمام هو الكتاب، وقيل غير ذلك كما مضى.

لكن في قوله –تبارك وتعالى-: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا}، يوجد في الآية قرينة تدل على أن المراد بالكتاب كتاب الأعمال؛ لأنه قال بعده: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٩]، فالكتاب الذي ينطق عليهم بالحق هو كتاب الأعمال، وآية الكهف تفسر هذا، قال –تبارك وتعالى-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، فهذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

قال: وقوله -عز وجل-: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٩] أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكةُ الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة

قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

هذه قرينة على أن المراد بالكتاب هو كتاب الأعمال، خلافاً لمن قال: إنه القرآن، وقد تحتمل الآية معنيين فأكثر، ويوجد في الآية قرينة ترجح أحد هذه المعاني، كما في هذا المثال.

قوله: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٩]، ذكر هنا المعنى الأول وهو: كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم، فالمقصود به كتابة الملائكة لأعمال بني آدم بعد وقوعها.

ثم ذكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكةُ الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفا**".

هذا القول المأثور عن ابن عباس -رضي الله عنهما- جمع فيه بين قولين، القول الأول: أن المراد بقوله: {نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} يعني: الملائكة تكتب أعمال العباد.

المعنى الثاني: أن الملائكة تنقل من اللوح المحفوظ ما يتصل بأعمال العباد، يُنسخ ذلك من اللوح المحفوظ، ثم يقابل بما دُوِّنَ عليهم مما صدر عنهم، فيوجد متطابقاً.

وهذا القول الأخير هو الذي عزاه الواحدي لأكثر المفسرين، يُطابَق على ما ينقل من اللوح المحفوظ فيوجد كما هو بلا زيادة ولا نقصان، يعني أن الملائكة ينسخون من اللوح فيُقابَل على ما كُتب من أعمالهم التي صدرت بعد وقوعها منهم، فيوجد متطابقاً، هذا الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم يقول: إن المراد أن الملائكة كل يوم تكتب كل ما يصدر عن ابن آدم من الأقوال والأفعال التي يترتب عليها الجزاء، والتي لا يترتب عليها الجزاء، فتصعد بها، ثم بعد ذلك يمحى ما لا يترتب عليه الجزاء، ويبقى الذي يتصل بالثواب والعقاب، فينسخون من هذا الكتاب الذي كتب فيه كل شيء، ينسخون منه الحسنات والسيئات، فهذا معنى {نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، يعني: الديوان يكتب فيه كل الأعمال.

وهذا مروي عن ابن عباس في كتابة كل شيء كما مضى، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، فابن عباس يقول: الملك يكتب كل شيء، أخذاً من العموم في قوله: "ما" فسواء قال: أكلت، أو شربت، ذهبت، مما لا يترتب عليه جزاء، أو غيره، ثم بعد ذلك يبقى ما يترتب عليه الجزاء ويمحى ما عداه، فهؤلاء أصحاب القول الأخير يقولون: معنى {نَسْتَنسِخُ} يعني: يُترك ما لا يترتب عليه الجزاء، ويُنسخ منه ما يترتب عليه الثواب والعقاب.

ابن القيم -رحمه الله- جمع بين المعنيين الأولين، قال: إن ذلك يكون بكتابة أعمال العباد، ويكون أيضاً بالنسخ من اللوح المحفوظ فيما يتصل بأعمالهم، والله تعالى أعلم.

قال: قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا

لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجاثية:٣٠-٣٧].

قال -رحمه الله-: يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع، {فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ} وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: ((أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء))[٤].

{ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} أي: البين الواضح.

ثم قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ} أي: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخاً: أمَا قُرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، {وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ} في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا} أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، {قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ} أي: لا نعرفها، {إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنّاً} أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً؛ ولهذا قال: {وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} أي: بمتحققين، قال الله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، {وَحَاقَ بِهِمْ} أي: أحاط بهم {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: من العذاب والنكال، {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ} أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم {كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} أي: فلم تعملوا له؛ لأنكم لم تصدقوا به، {وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ((ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك مُلاقِيّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني))[٥].

مضى الكلام على نظائر هذه الجمل، وأن قوله -تبارك وتعالى-: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} [الجاثية: ٣٣]، كما قال الله -عز وجل-: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الجاثية: ٣٤]، مضى الكلام على النسيان في مثل هذا، وأن المقصود به الترك في قوله -تبارك وتعالى- في أواخر سورة الحشر: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: ١٩]، يعني: تركوا الإيمان والعمل بطاعته، فأنساهم أنفسهم بمعنى: أنهم تركوا العمل بما ينفعهم، واشتغلوا بما يضرهم.

والنسيان يأتي لمعنيين: بمعنى الذهول عن المعلوم، تقول: نسيت الآية، نسيت المسألة، وكنتَ قد حفظتَها، وكذلك يقال لمعنى آخر وهو الترك، وهو المراد فيما يضاف إلى الله -تبارك وتعالى- دائماً.

---

٤ - أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/٢١٨٦)، رقم (٢٨٤٦).

٥ - أخرجه ابن حبان، كتاب السير، باب فضل النفقة في سبيل الله (١٠/٤٩٩)، رقم: (٤٦٤٢).

قال -رحمه الله-: قال الله تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً} [الجاثية:٣٥] **أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً، تسخرون وتستهزئون بها، {وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}** [الجاثية:٣٥] **أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا}** [الجاثية:٣٥] **أي: من النار {وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}** [الجاثية:٣٥] **أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.**

مضى الكلام على الاستعتاب، حينما يمكن الإنسان من الاعتذار يسأل عن العذر، من أجل أن يعتذر، فيقبل ذلك منه، هذا استعتاب، فهذا غير وارد في حق هؤلاء.

ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السموات وَرَبِّ الأَرْضِ} [الجاثية:٣٦] **أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}.**

ثم قال -جل وعلا-: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السموات وَالأَرْضِ} [الجاثية:٣٧] **قال مجاهد: يعني السلطان، أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: ((يقول الله تعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري))[٦]. ورواه مسلم.**

الكبرياء هنا فسره بالسلطان، وفسره جماعة من السلف بمعانٍ مقاربة، وليس ذلك بالمعنى المطابق، فإن الكبرياء إنما يكون لمن كان له السلطان الكامل، وكان له العظمة الكاملة من كل وجه، وكان له الكمال في جميع الصفات، الكمال في الذات، وفي الصفات والأفعال، فهذا الذي يكون له الكبرياء، ولهذا كان الكبر لا يصلح للمخلوق؛ لأن المخلوق ناقص، وضعيف، وعاجز، لا يصلح له الكبر، فالكبر صفة كمال بالنسبة لله -عز وجل-، وهو بالنسبة للمخلوقين نقص وشين، فالكبرياء هو بمعنى التعالي والترفع.

{وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الجاثية: ٣٧] يعني: أنه الموصوف بذلك في السماوات وفي الأرض، كما مضى في قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف:٨٤]، {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام: ٣].

قال: وقوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

٦- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٤/٢٠٢٣)، رقم: (٢٦٢٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحقاف من الآية (١) إلى الآية (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لعلنا قبل أن نبدأ بالدرس نبدأ باختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في سورتي الفلق والناس، عملها أحد الإخوان -جزاه الله خيراً- وروجعت، فهذا خلاصة أكثر من مائة وثلاثين أو مائة وأربعين صفحة، في نظري أنها مهمة، نقرؤها سريعًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

"فهذه اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية في معاني سورة الفلق.

{الْفَلَق}: فَعَل بمعنى: مفعول، كالقبْض بمعنى: المقبوض، فكل ما فلقه الرب فهو: فلق، وفي الفلق أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص، فإنه فسر بالخلق عمومًا، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى، وهو غالب الخلق، وفسر بالفجر.

ومن قال بأنه وادٍ في جهنم، أو أنه اسم من أسماء جهنم فهذا أمر لا تعرف صحته، لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقلٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

وأما تفسيره بالنار أو بجب أو شجرة فيها فهذا مرجعه إلى التوقيف.

{مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}: شر المخلوقات عمومًا.

{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، **{غَاسِقٍ}** هو: الزمان الذي يعم شره، ووجَّه حديث عائشة[١]: أن القمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل، فأمْرُه بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل، ودليله، وعلاماته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجودًا فشر الليل موجود.

ظاهر كلام الشيخ في معنى **{غَاسِقٍ}**: أنه يرى الغاسق هو: الليل، ومن هنا يأتي ليشرح دلالة أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عائشة الاستعاذة من القمر، وتسميته له: غاسقًا، وربط ذلك بالليل، وذكر الحكمة من تخصيص الاستعاذة من شر الليل دون النهار، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر

---

١ - رواه الترمذي، في أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة المعوذتين، برقم: (٣٣٦٦)، ولفظه: عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إلى القمر، فقال: ((يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب))، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم: (٢٤٣٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٧٩١٦).

والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة؛ ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار.

{إِذَا وَقَبَ} هو: دخول الظلام، ويدخل في **{شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** ما يؤثِّر من العلويات في السفليات من الليل، وما فيه من الكواكب كالثريا، وسلطانه الذي هو: القمر، ودخل في ذلك سحر التَمَرْسُحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه.

{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، النفاثات في العقد هن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام، **{النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**، خص من السحر **{النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}** وهن النساء، والحاسد: الرجال في العادة، ويكون من الرجال ومن النساء.

{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، هي: النفوس المضرة سفهًا، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة، إما بالعين، وإما بالظلم وباللسان واليد.

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، رب الناس الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره، وهو رب العالمين كلهم، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم.

{مَلِكِ النَّاسِ}: الذي يأمرهم وينهاهم، فإن الملك يتصرف بالكلام، والجماد لا مُلك له؛ فإنه لا يعقل الخطاب، لكن له مالك، وإنما المُلك لمن يفهم، والحيوان يفهم بعضه بعضًا.

{الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}: يتناول وسوسة الجن، ووسوسة الإنس، وإلا فأي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن؟.

{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}: لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}: الذي يوسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، القول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن معنى الآيات: من شر الموسوس **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** من شياطين الإنس والجن، الصحيح: أن الاستعاذة من شر الموسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فأمر بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن الذي يوسوس في صدور الناس، نفسه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس.

قول من قال: إن المعنى: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ومن الناس، وإنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس..."

يعني هذا القول الآخر في المسألة: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}** [سورة الناس:١-٥]، من هم الناس على هذا القول؟، الذين يُوسوَس في صدورهم -الجنة والناس-، فيكون **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** تفسيرًا للناس الذي قبلها.

هذا الذي رده شيخ الإسلام، ورده ابن القيم، وقال: لا معنى له.

"وإنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس، فسماهم ناسًا كما سماهم رجالاً: قول ضعيف.

وكذلك قول من قال: إن المعنى من شر الموسوس في صدور الناس من الجن، ومن شر الناس مطلقًا، قول ضعيف.

يعني: على الوقف، {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ}، فاستعاذ من الموسوس الذي يوسوس في صدور الناس من الجن، الشيطان من الجن، ثم قال: {وَالنَّاسِ} يعني: أعوذ أيضًا، كما أعوذ من الشيطان الموسوس إلى آخره، استعاذ من الإنس عمومًا وليس فيما يتصل بالوسوسة، يعني: والناس أعوذ بك منهم.

"ولم يُنقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة.

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} أصل الاستعاذة مأخوذ من الستر، ومأخوذ من لزوم المجاورة، وأصلها: أعْوُذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين، وتسكين الواو.

{الْفَلَقِ}: الصبح والنور، {الْفَلَقِ} هو: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، واعلم أن الخلق كله فلق؛ وذلك أن فلقًا فَعَلٌ بمعنى مفعول.

{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}، الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، ولذا كانت استعاذات النبي -صلى الله عليه وسلم- جميعًا مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه.

{مَا} هنا موصولة ليس إلا، وفيها عموم تقييدي".

يعني: ليست مصدرية، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}، ليست بمعنى: من شر خلقه على أنها مصدرية، يقول: هنا موصولة، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}: من شر الذي خلق.

"وفيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى.."

ما معنى عموم تقييدي؟ العموم التقييدي هو الذي يسميه الشاطبي: العموم الاستعمالي، يعني: لِمَا يصلح له، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}: فهنا عموم؛ الاسم الموصول يفيد العموم، {شَرِّ مَا خَلَقَ}، يعني: شر كل ما خلق، الله خلق الجنة فهل فيها شر؟ الله خلق الملائكة فهل فيهم شر؟.

الجواب: لا.

الحور العين هل فيها شر؟.

لا، إذاً هذا غير داخل، طيب هو من جملة ما خلق الله، يقال: هذا عموم تقييدي، وليس بعموم إطلاقي، هو العموم الاستعمالي الذي يذكره الشاطبي، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف: ٢٥]، يعني: كل شيء مما جاءت لتدميره، لم تدمر السموات ولا الأرض ولا الجبال ولا البيوت أيضًا، فبقيت بيوتهم، وهكذا في مكة {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص: ٥٧]، مع أن هناك ثمرات في الدنيا لا تجبى إلى مكة، لا في ذلك الوقت، ولا الآن، لكن ما اعترض المشركون وقالوا: كيف وهناك ثمرات لا تجبى؟، وهكذا في قول الله -تعالى- عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل: ٢٣]، قالوا: ما أوتيت ملك سليمان مثلاً، ولا لحية سليمان، وإنما أوتيت من كل شيء يصلح لملكها، يسمونه العموم الاستعمالي.

س: هل يمكن أن يسمى يا شيخ عمومًا عرفيًّا؟.

ج: هو لا يسمى عموماً عرفياً؛ لأن القضية ليس لها علاقة بالعرف، وإنما يمكن أن يقال: العام المراد به الخصوص مثلاً، وليس العام المخصوص؛ لأن الأصوليين يقولون: إنه عام مخصوص، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ

رَبِّهَا} [سورة الأحقاف: ٢٥]، خصصه الحس، نرى السموات والأرض ما دمرت، والجبال، الحس خصص، **{يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}** [سورة القصص: ٥٧]، يعني: خصصه الحس، **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [سورة الزمر: ٦٢]، يقولون: ذاته ليست داخلة بهذا قطعًا، فهو خالق وليس بمخلوق، قالوا: خصصه العقل، فيجعلون العقل مخصصًا، والحس مخصصًا.

ويرد عليهم الشاطبي، ويقول لهم: العقل لا يخصص، والحس لا يخصص، إنما هذا تعرفه العرب من خطاب من خاطبها بحسب السياق، وبحسب المقام، وتحمل كلامه على هذا؛ ولذلك لا يعترضون.

فالشاطبي لا يرى أن تكثر هذه المخصصات، وهذا كلام مهم؛ لأن هؤلاء –أعني: المتكلمين الذين يكثرون من هذه المخصصات– هم يُوَهِّنُون ويضعفون العام، ثم يقولون: أكثر النصوص من قبيل العمومات، فدخلها التخصيص؛ ولهذا يقولون: عامة النصوص العامة دخلها تخصيص؛ فإذا دخلها تخصيص أضعفها، يعني: لم تبقَ على عمومها، هذا كلامهم هم.

إذًا: هذه العمومات دخلها التخصيص فأضعفها، ومن ثَمَّ يقولون: إنها تفيد الظن من حيث الدلالة، غير الثبوت، يعني: حتى لو كانت متواترة من القرآن.

طبعًا الرد عليهم أنواع، فمن الوجوه التي تقال في الرد: إنه غير صحيح أن أكثر العمومات مخصصة، وابن القيم يسرد نصوصًا كثيرة جدًّا، حشدًا من النصوص، يقول: أين التخصيص؟ مثل: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [سورة الزمر: ٦٢]، **{وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [سورة آل عمران: ١٨٩]، ونحو ذلك، وهم يقولون: العام الباقي على عمومه نادر، هذا كلام المتكلمين، فيفضي إلى الطعن في النصوص، ومن ثَمَّ العقل عندهم هو المعول عليه في العقائد، يريدون أن يصلوا إلى هذا.

"وفيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى: من كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد: الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، والشر مسند في الآية إلى المخلوق، إلى المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما، فدخل في قوله: **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}** الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر، من حيوان أو غيره، إنسيًّا كان أو جنيًّا، أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة، وأي نوع كان من أنواع البلاء

{غَاسِقٍ}: الليل، ولا منافاة بين من قال: سمي غاسقًا؛ لظلمته، أو من البرد".

البرد هذا قال به بعض أصحاب المعاني، كما سبق، مع أنه بعيد، وإن كان له وجه في اللغة، والمشهور أنه لظلمته، لكن شيخ الإسلام لديه القدرة على الجمع بين الأقوال، حتى لو كان في بعضها بُعد، وانظر طريقته في الجمع:

"فإن الليل بارد مظلم، إلا أن الظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى من الاستعاذة من البرد الذي في الليل.

وأما تسمية النبي –صلى الله عليه وسلم– القمر غاسقًا فذلك حق، ولا يناقض التفسير الأول؛ بل يوافقه ويشهد لصحته، فالقمر هو آية الليل وسلطانه فيه، فهو أيضًا غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب.

وأما تخصيص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما فهذا يحتمل أن يدخل اللفظ عليه بفحواه، ومقصودٌ، وتنبيهٌ".

يعني: من باب دلالة الإيماء والتنبيه مثلاً، فهو ينبه، كون هذا النجم إلى الثريا أو غير ذلك، هذه النجوم كالقمر إنما تظهر في الليل، يعني: بهذا الاعتبار، يعني: تحتاج إلى معالجة حتى تدخل في المراد، يعني: ليست هي المعاني المتبادرة، المعنى الأساس، المعنى القريب، وإنما تحتاج إلى شيء من المعالجة يعني: ورشة، والأصل: أن مثل هذه المعاني يمكن أن تضم إلى المعنى الأساس، لكن أن يقال: هي المرادة هنا الإشكال.

"وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

{إِذَا وَقَبَ}، الوقوب هو: الدخول، من قولهم: وقبت العين: إذا غارت، وركيّة وقْباء: غار ماؤها فدخل في أعماق التراب، ومنه الوقب للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوبًا: إذا دخل.

وأما تفسير **{وقب}** بمعنى: إذا دخل القمر في الخسوف، أو غاب خاسفاً فقول ضعيف، ولا نعلم به سلفاً".

مع أن شيخ الإسلام يقول هذا، لكن هو أيضًا يقول: يمكن أن يدخل تحت المعنى، بمعنى أنه إذا خسف فإن خسوفه منذر لعقوبة، وآية يخوف الله بها عباده، فإذا خسف فمعنى ذلك هذه أمارة للخوف؛ فيفزع الناس إلى الصلاة.

"النفث هو: النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما".

بعض من فسر "النفث" قالوا: النفخ، وذكرت لكم عندها أنه ليس كما ذكروا، هو أعلى من مجرد النفخ، النفث مع ريق، هذه أعلى مراتب الرقية.

"**{النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر".

لاحظ أن الكثيرين أو أن البعض فسره بالنفوس السواحر، يعني: ما يختص بالنساء، شيخ الإسلام يقول: النساء السواحر، طبعًا لا ينفي عن الرجال، لكن لما كان السحر في النساء أكثر خُص النساء.

"فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلِمَ خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟.

فالجواب المحقق: أن النفاثات هنا: الأرواح والأنفس النافثات، لا النساء النافثات".

هذا غير الكلام الأول: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، يعني النساء السواحر، وبعد ذلك أورد هذا السؤال: لماذا خص الإناث؟ فجاء الجواب غير مطابق لما قبله، يعني: كان الأصل أن يقال: إنه خص النساء لكثرة وقوع السحر منهن، كما أجاب أهل العلم في مثل هذا السؤال لمن فسره بالنساء النفاثات، هنا جاء الجواب غير مطابق لما قرر قبله، قال: هن الأرواح والأنفس النافثات.

فالجواب المحقق: أن النفاثات هنا الأرواح والأنفس النافثات، لا النساء النافثات.

يعني: هذا الجواب يصلح أن يكون سؤالاً على النحو الآتي: أن يقال: لماذا جاء التأنيث في النفاثات؟ لا أن يفسر النفاثات بالنساء، ثم يقال: المقصود النفوس النفاثات، لا، لكن أحياناً النساخ لربما، وأحياناً يسبق القلم، وأحياناً الذهن، وهذا يحصل للإنسان، الإنسان عرضة، ابن جرير ذكرت لكم في بعض المناسبات أني كنت

أريد أن أختصر تفسيره، ليس أختصر؛ لكن أقتصر على المعنى الإجمالي الذي يذكره؛ لأنه دائمًا يذكر المعنى الإجمالي بعد الآية، بحيث يصلح أن يقرأ في المساجد، تفسير إجمالي حرفيًّا لابن جرير، لكن ما منعني من هذا –سنوات وأنا أقلب النظر فيه، حتى ظهر اختصار الدكتور بشار عواد معروف في سبعة مجلدات– أن ابن جرير –رحمه الله– رأيته في بعض المواضع يقرر في المعنى الإجمالي معنى، ثم يذكر الأقوال والآثار، ثم يقول: قال أبو جعفر، يرجح بين الأقوال، ثم يذكر معنى غير الذي قرره في المعنى الإجمالي، فتحيرت في هذا، هل أقر المعنى الأعلى، أو المعنى الجديد الآخر؟ هذا في بعض المواضع، هذا كبير المفسرين ابن جرير، فالإنسان الله يريه من عجزه ومن ضعفه أشياء عجيبة، أنا أحيانًا إذا سمعت درسًا أو كلمة أو محاضرة قبل أن تخرج أستغرب أحيانًا كيف قلت هذا الكلام؟ كيف نطقت هذه العبارة؟ كيف أخطأت في هذه الآية؟.

"لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها؛ فلهذا ذكرت **{النفاثات}** هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم.

{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، أصل الحسد هو: بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها.

{إِذَا حَسَدَ} بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل؛ لأن الرجل قد يكون في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود، لاهٍ عنه".

يعني: النفوس فيها حسد كامن، فالاستعاذة هنا حينما تتحرك دواعيه، تنبعث النفس بهذا الداء، وإلا فكما يقول شيخ الإسلام في موضع آخر: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه –يعني: يدفعه–، واللئيم يبديه.

"فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله؛ فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، وقد يكون الرجل عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

جاء ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابدّ، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن".

يعني: هذا الحاسد الذي يحسد الإنسان قد لا يكون عائنًا، يعني: قد يحسده ثم بعد ذلك يبدأ يفتح له "هشتاج" يسمونه في "تويتر"، ثم بعد ذلك يبدأ يطعن فيه، ويسب فيه، ويشتم فيه، وينتقصه، ويتتبع عيوبه وعثراته، وهكذا في المجالس يظلمه، ويأخذ ماله، وغير ذلك، من شر الحاسد، قد لا يكون بالعين.

"**{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** يعم الحاسد من الجن والإنس، والوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس والحسد يعمهما".

يعني: "الأخص" ليس المقصود أنه يختص به، وإنما أعلق به فقط، وإلا فكما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الجارية التي رأى في وجهها سوادًا: ((إن بها النظرة))[2]، ففسرت النظرة بأنها: عين الجن،

---

٢ – رواه البخاري، في كتاب الطب، باب رقية العين، برقم: (٥٧٣٩).

فالجن يصيبون بالعين، لكن غالب ما يصيب الناس إنما هو من الإنس، والوسوسة غالبًا ما تكون من الجن، وقد تكون من الإنس أيضًا.

"والوسواس والحسد يعمهما، فكلا الشيطانين حاسد موسوس، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعًا. الحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو مِن أمر خارج عنه، وأما الوسواس فإنما يؤذي العبد من داخلٍ بواسطة مساكنته له".

يعني سورة الناس، وسورة الفلق.

فالفلق: أشياء خارجة عنه، الشرور التي في العالم، الغاسق، الظلمة، الشرور التي تنتشر فيها، **{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**: السواحر، ومن شر هؤلاء الحسدة.

بينما سورة الناس: **{الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، فهذا في داخل النفس.

"وأما الوسواس فإنما يؤذي العبد من داخلٍ بواسطة مساكنته له، وقبوله منه".

قبوله منه يعني: إذا وجد المحل القابل أثرت هذه الوسوسة، سواء كانت في العبادة، في الطهارة، في الصلاة، في غير ذلك، أو كانت في أمور أخرى، أوهام يلقيها في قلبه، فيضيق صدره، وتتحسر الآمال في عينه، يترقب، يتخوف، إلى آخره.

"ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس الذي تقترن به الأفعال والعزم الجازم؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر؛ فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة".

يعني: بمعنى أن الإنسان إذا استقبل هذه الوساوس والخواطر كما هي في أولها، ثم بعد ذلك ساكنها حتى صار ذلك عزيمة مصممة فإنه يؤاخذ على هذا العزم، فكيف لو تحول إلى فعل في الخارج؟! فتبدأ خواطر، ثم بعد ذلك تكون إرادات، ثم بعد ذلك تتحول إلى عزيمة، ثم الفعل.

"**{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}**، رب الناس: فيه إضافة الربوبية المتضمنة لخلقه، وتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، ذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

{مَلِكِ النَّاسِ}: فيه إضافة المُلك، فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق، الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم، ومعاذهم، وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام لهم إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا داهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

{إِلَهِ النَّاسِ} فيه إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يَشْركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه، كرر الاسم الظاهر الناس ولم يوقع المضمر موقعه تحقيقًا لهذا المعنى، وتقوية له".

يعني: قال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ} ما قال: ملكهم، إلههم، وإنما قال: {مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ}، والأصل: أن العرب تكني بالضمير اختصارًا.

"تحقيقًا لهذا المعنى، وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو؛ لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، الوسواس: فَعْلال من وسوس، وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس، فيحترز منه، فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد، ومن هذا وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر -والله أعلم- أنها سميت وسوسة؛ لقربها، وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس، وهو الأذن، فقيل: وسوسة الحلي؛ لأنه صوت مجاور للأذن، كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في آذان من يوسوس له، ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها".

هنا يتكلم على تكرار الحروف.

"فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ؛ ليفهم منه تكرير مسماه، فلما كان الموسوس يكرر وسوسته، ويتابعها قيل: وسوس.

الوسواس المستعاذ منه في الآية هو: الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، يرى أن الوسواس وصف للشيطان لا مصدر لفعل الوسوسة، وساق الأدلة على ذلك".

لأن بعض أهل العلم يقول: هو مصدر، {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ} يعني: الوسوسة التي تقع في صدور الناس، هو يقول: لا، هو وصف للشيطان.

"{الْخَنَّاسِ} هو: فعّال من خنس يخنس، إذا توارى واختفى، وحقيقة اللفظ: اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، الخناس مأخوذ من هذين المعنيين: الاختفاء والرجوع، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه من أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به انخنس وانقبض، كما ينخنس الشيء؛ ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمُّعٌ ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معًا".

كلام ابن عباس السابق الذي استشكلناه في البداية، ثم جاء كلام ابن جرير يوافقه: أنه يدل على الرجوع وأيضًا الانقباض، خنس بمعنى: انقبض، وكذلك رجع، كيف رجع؟ هو يوسوس ثم يرجع، يلقي الوساوس ثم يرجع، وإذا استعاذ انقبض، وهنا ظاهر كلام ابن القيم أنه جمع بين الأمرين؛ لكن كأنه يميل إلى أن رجوعه بسبب الاستعاذة، إذا استعاذ تراجع، كلام ابن عباس وكلام ابن جرير: أنه يلقي الوساوس ثم يرجع، يعني: يكرر كرة بعد كرة.

"جيء من هذا الفعل بوزن فعّال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس؛ إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذل عند ذكر الله أحيانًا".

يعني: ليس ذلك قليلا أو نادرًا، وإنما كثير الخنوس.

"بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر.

تأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} ولم يقل: من شر وسوسته؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ} يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته، وأشدها شرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي: الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة".

يعني هنا لم يقل: من شر وسوسته، بل قال: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}، ذكر أسوأ صور هذه الوسوسة التي هي في صدور الناس، فهي أكثر تأثيرًا وإفسادًا.

"{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}: صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانيًا، وأنها في صدور الناس ثالثًا.

تأمل السر في قوله تعالى: {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} لم يقم دليل على أن الجنيَّ يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي".

يعني هنا يرد على الذين قالوا: إن قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} تفسير للناس في قوله تعالى: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}، من هؤلاء الناس؟ جن وإنس، فمن وجوه الرد التي يرد بها ابن القيم على هذا القول: أنه ما عندنا دليل على أن هذا الوسواس يدخل في صدور الجن، ويوسوس لهم، هذا أحد الوجوه.

"تقسيم الناس إلى الجن والإنس قول ضعيف، وساق وجوه ضعف القول".

هذا وجه آخر في الرد على هذا القول، هو طبعًا قاله بعض أهل اللغة، لكن يقول: هذا ضعيف، يقول: نعم رجال من الجن، صحيح، هذا ثابت في القرآن، لكن الناس يصدق على الجن، لا.

طيب وأثر ابن مسعود "ناس من الجن"؟، يناقِش هذا على كل حال.

"{النَّاسِ} اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم".

يعني ابن القيم في مثل: "جاء ناس من الجن"، إلى آخره، يقول: هذا بقيد، لكن إذا أطلق الناس فهم البشر، إذا قيل للجن: ناس فيقال: ناس من الجن، أما عند الإطلاق فلا يكون إلا الإنس، هذا جوابه على أثر ابن مسعود -رضي الله عنه.

"{النَّاسِ}: اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم.

{الْجِنَّةِ}: لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، لا أصلاً ولا اشتقاقًا ولا استعمالاً، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجن سموا جنًّا من الاجتنان وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر؛ فسموا جنًّا لذلك.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينها اشتقاق أوسط، وهو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد".

تعرفون الاشتقاق: أكبر وأصغر، ابن القيم هنا يذكر الأوسط كجبذ وجذب، لاحظ الحروف نفسها، ذاك صار فيها تقديم وتأخير، نفس الحروف: جبذ وجذب، وأحيانًا يكون بتغيير شيء من هذه الحروف: الناس من الأُنْس مثلاً، فهذا يحتمل كالناس والأُنْس، أو أنه من ناس ينوس بمعنى: الحركة.

"لا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس.

الإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله تعالى: **{آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا}**، أي: رآها، ومنه: **{فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا}** أي: أحسستموه ورأيتموه، فالإنسان سمي إنسانًا؛ لأنه يونس أي: بالعين يُرى، فالناس من النوس، وهو: الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة، فأصل ناس: نَوَس، تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا.

القول بأن الناس مقلوب من أنس بعيد، والأصل عدم القلب.

القول بأنه من النسيان، وسمي الإنسان إنسانًا؛ لنسيانه، وكذلك الناس سموا ناسًا؛ لنسيانهم: ليس بشيء.

الصواب: أن قوله: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس في صدور الإنس، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس".

هذه الاختيارات؛ لكن هذا لا يغني عن الرجوع إلى الأصل، وهذا يغنيك ببيان ما رجحه شيخ الإسلام وابن القيم في هذا الكلام الطويل الممتد، كما قلت: مجموع كلام الشيخين في نحو مائة وأربعين صفحة، لكن الكلام والتعليقات الجميلة، والهدايات، وكذا فهذا شأن آخر، لاسيما في كلام ابن القيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:١-٦].

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد -صلوات الله عليه دائما إلى يوم الدين.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة الأحقاف سميت بهذا؛ لورود ذلك فيها: {إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [الأحقاف:٢١]، وهذا اسمها المعروف، لا يعرف لها اسم سوى هذا، وهي سورة مكية بالاتفاق، وعامة أهل العلم يطلقون ذلك، يعني: أنها مكية من غير استثناء، هكذا جرى عامة أهل العلم عند الكلام على مكان نزولها، ولكن في ثنايا كلامهم يذكر بعضهم أنه يستثنى منها آية: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} [الأحقاف:١٠]، كما سيأتي، باعتبار أنها نزلت في عبد الله بن سلام، وهذا يحتمل -يعني حتى وإن نزلت فيه-، وذلك أن الآية قد تنزل قبل تقرير حكمها، والمقصود بالحكم ليس الحلال والحرام، كما ذكرت في مناسبات شتى، وإنما المضمون، ولكن ألفاظ المرويات الصحيحة في النزول تدل على أن هذه الآية نزلت في المدينة، يعني ليس مما نزل في مكة قبل تقرير حكمه، سيأتي مزيد إيضاح لهذا -إن شاء الله تعالى- عند الكلام على هذه الآية، أن من الألفاظ الواردة في المرويات الصحيحة ما يدل على أنها نزلت في المدينة، إلا إن قيل: إن ذلك تكرر، أي أنها نزلت مع السورة بمكة؛ لأن السورة مكية، ثم نزلت -أي هذه الآية- مرة ثانية في المدينة، هذا يحتمل، لكنه خلاف الأصل.

فيما يتعلق بالموضوع: هذه السورة في مجمل آياتها تتحدث عن الكافرين، وتحتج عليهم، الجاحدين للإيمان، والتوحيد، والوحي، والنبوة، والقرآن، وتذكر المؤمنين، وتتوعد الكافرين، وتعد المؤمنين، وكذلك أيضًا تذكر محال ملل الكفر، وطوائف الكفار الذين أهلكهم الله -عز وجل-، كما تذكر أيضًا الجن الذين آمنوا بهذا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وبما جاء به من القرآن.

في مجمل الآيات تتحدث عن هذا، وفي ثنايا ذلك عند الحديث عن أهل الإيمان أثنى الله -تبارك وتعالى- على صنف من عباده، وهم أولئك الذين إذا بلغوا مبلغًا من الرشد، عند قوله: {بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ..} [الأحقاف:١٥] إلى آخره، في سياق ذكر أهل الإيمان، وما يقابله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [الأحقاف:١٧]، فإن هذا من أوصاف الكافرين، لكن في موضوعها هي قريبة جدًّا من سورة الجاثية، ويوجد ارتباط فيما يتصل بالمعنى مع سورة الفتح في بعض الآيات، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- في قوله: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} [الأحقاف: ٩]، ففي سورة الفتح ذكر فيها مغفرته له.

قوله -تبارك وتعالى-: {حم} سبق الكلام على الحروف المقطعة، وأن هذه الأحرف المقطعة ليس لها معنى في نفسها على الأرجح، وإنما هي تشير إلى الإعجاز أن هذا القرآن مركب من هذه الأحرف، ومع ذلك أنتم عاجزون عن المجيء بمثله، ولا بسورة واحدة، ولذلك لا تكاد تذكر هذه الحروف المقطعة إلا ويذكر بعدها القرآن، أو ما يدل عليه غالبًا، إلا فيما قل من المواضع، مع أن بعض أهل العلم يتكلف لها تكلفات يحاول أن يقول: في جميع المواضع.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}: مضى الكلام على هذا في سورة الزمر، وفي سورة غافر أيضًا، في سورة الزمر: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمر:١]، وفي سورة غافر: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [غافر:٢]، وأيضًا في سورة الأحقاف هنا في هذا الموضع الذي نتكلم فيه.

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}: هذا تنزيل، يعني يكون "تنزيل" خبرًا لمبتدأ محذوف، أو أنه مبتدأ، والخبر: الجار والمجرور {مِنَ اللَّهِ}، مضى الكلام على هذا.

ويذكر الله هنا: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}، وفي سورة الزمر، وفي المواضع الأخرى يذكر الكتاب، وأن الله -تبارك وتعالى- نزل الكتاب، هنا قال: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وفي سورة الزمر: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمر: ١].

الشنقيطي -رحمه الله- يذكر أنه دل استقراء القرآن -كما ذكرنا في الزمر- على أن الله إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك بذكر أسمائه الحسنى، ففي الجاثية {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الجاثية:٢]، كذا في الأحقاف، وفي غافر: {الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [غافر:٢]، وفي فصلت: {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [سورة فصلت:٢]، وهكذا.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} أي: لا على وجه العبث والباطل.**

{إِلَّا بِالْحَقِّ} هذا الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: إلا خلقًا متلبسًا بالحق، هذا الذي يذكره عامة المفسرين، ابن جرير -رحمه الله- يقول: إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق، الشنقيطي -رحمه الله- ذكر المعنى السابق: إلا خلقًا متلبسًا بالحق، ثم ذكر أوجهًا في ذلك من استقراء القرآن قد لا تجدها في كتاب من كتب التفسير، ذكر هذه الأوجه، استنبطها، واستخرجها من القرآن، وذكر ما يدل عليها، وأورد النصوص الدالة عليها، أعطيك فقط رءوسًا من هذه الأشياء التي ذكرها[٣]، يقول: إلا خلقًا متلبسًا بالحق، يعني: أنه خلقهما لحكم باهرة، ولم يخلقهما باطلاً، ولا عبثًا، ولا لعبًا، ثم بدأ يذكر هذه الأوجه، يقول: فمن الحق الذي كان خلقهما متلبسًا به: إقامة البرهان -هذا أولاً- على أنه الواحد المعبود وحده -جل وعلا- كما أوضح ذلك في آيات كثيرة لا تكاد تحصيها في المصحف، كقوله في البقرة: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٣]، ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} إلى أن قال: {لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤]، وهنا يقول في قوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلى قوله {لَآيَاتٍ} بعد قوله: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، يقول: هذا واضح في أنه خلق السموات والأرض خلقًا متلبسًا بالحق؛ لأن إقامة البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق.

طبعًا الشنقيطي يذكر أنه في مواضع كثيرة جدًّا في القرآن يقرر الله -عز وجل- فيها أن الذي يستحق العبادة هو من خلق، ويورد على هذا نصوصًا كثيرة جدًّا، يحسن مراجعته، يقول: كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا} إلى أن قال: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١-٢٢]، ويورد في هذا أشياء كثيرة، لكن من الأوجه الداخلة تحت قوله في المعنى: خلقًا متلبسًا بالحق، يقول: وقد بين -جل وعلا- أن من الحق الذي خلق السموات والأرض وما بينهما خلقًا متلبسًا به تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، وذكر الآية:

---

٣ - انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٠٩) وما بعدها.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:١٢]، يقول: هذا مما يدخل في ذلك، خلقاً متلبسًا بالحق {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

يقول: وبه تعلم أن خلقه السموات السبع والأرضين السبع، وجعل الأمر يتنزل بينهن، ما جعل ذلك، ما خلقه إلا خلقاً متلبسًا بالحق.

ومن الحق الذي خلق السموات والأرض وما بينهما خلقاً متلبسًا به هو: تكليف الخلق وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، ثم جازاهم على أعمالهم، كما قال في أول سورة هود: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، فاللام للتعليل، متعلقة بقوله: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}، فهذا من التلبس بالحق في خلقهما، وذكر أيضًا آية الكهف: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: ٧]، وقوله في الملك: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢].

يقول: ومما يوضح أنه ما خلق السموات والأرض إلا خلقاً متلبسًا بالحق قوله في آخر الذاريات: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وكذلك أيضًا يذكر من ذلك مجازاة الناس بأعمالهم كقوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: ٣١]، يعني: خلقهما من أجل أن يجزي الناس، وهكذا، وهنا أيضًا تُراجع هذه المواضع.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: {وَأَجَلٍ مُسَمًّى} **أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، وقوله تعالى:** {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ} **أي: لاهون عما يراد بهم.**

يعني أن قوله في قوله تعالى: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى}، أي: وبتقدير أجل مسمى، هذا الذي رجحه الشنقيطي، وهذا الأجل هو يوم القيامة، وقال بهذا جماعة من المفسرين، هذا هو الأجل المسمى، يعني أنه في يوم القيامة تتغير أحوال هذا العالم، كما قال الله -تبارك وتعالى- {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر:٦٧]، هذا حال السموات، والأرض قال عنها: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر:٦٧]، وذكر تغير أحوال هذا العالم العلوي والسفلي، وتبديل الأرض مثلاً: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ} [إبراهيم:٤٨]، فهذا الأجل المسمى هو يوم القيامة، وبعضهم يقول: المقصود بالأجل المسمى انتهاء أجل كل فرد من أفراد هذه المخلوقات، يعني سواء كان ذلك يوم القيامة أو قبله، يعني الناس يموتون، فهذا أجلهم، هناك أشياء تتحول وتتغير قبل يوم القيامة من هذه المخلوقات.

ابن جرير يقول: وإلا بأجل لكل ذلك معلوم عنده يفنيه إذا هو بلغه، وهذا لا يخالف ما سبق، بل يرجع إلى ما سبق.

{وَأَجَلٍ مُسَمًّى}: محدد عند الله -تبارك وتعالى- لا يتبدل، لا يتقدم ولا يتأخر.

قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ} أي: لاهون.

{عَمَّا أُنْذِرُوا} "ما" هذه يحتمل أن تكون موصولة، يعني عن الذي أنذروا، أي معرضون عن الذي أُنذروه، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني "عما أنذروا" أي: عن الإنذار معرضون.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **وقد أنزل الله -تعالى- إليهم كتابًا، وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غِبّ ذلك.**

الإنذار معروف وهو إعلام مقترن بتهديد، يعني كل إنذار فهو إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا، فالإعلام المقترن بتهديد هو الإنذار، وقال سبحانه: **{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}** [الأنعام: ٤] كما ذكر الله -عز وجل- هنا عن هؤلاء: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ}**، وكما قال: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** [البقرة: ٦].

ثم قال: **{قُلْ}** أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: **{أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ}** أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض.

يعني: هؤلاء الذين تعبدونهم ليس لهم إيجاد خلق، ولا شراكة، وكما سبق في كلام الشنقيطي أن الذي يستحق أن يعبد هو الذي خلق، **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة:٢١].

وقوله هنا -تبارك وتعالى-: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ}** يحتمل أن تكون "ما" هذه في قوله تعالى: **{مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ}** استفهامية، و"ذا" موصولة، يعني: ما الذي خلقوه من الأرض؟، ويحتمل أن تكون كلمة واحدة للاستفهام "ماذا"، فإنها من أدوات الاستفهام، يعني: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **{أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ}** أي: **ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير.**

"أم" هذه منقطعة، تقدر ببل مع الهمزة، يقول: **{أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ}** أي: بل ألهم شَرِكة مع الله فيها، يعني: ليس لهم شيء من الأرض، ما خلقوا شيئًا من الأرض، وليس لهم شراكة في السموات، فيُعبَدون على ماذا؟!

إن المُلْك والتصرّف كله إلا لله -عز وجل-، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: {ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا}، أي: هاتوا كتابًا من كتب الله المنزلة على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يأمركم بعبادة هذه الأصنام.

الإشارة في قوله: "هذا"، **{ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا}** يعني: القرآن، هذا الكتاب قرر الله فيه بطلان الشرك، وأن هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر، وأنها باطلة، **{ائتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا}** يقرر صحة عبادة هذه الأصنام، يأمركم بعبادة الأصنام، كقوله تعالى: **{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}** [الزخرف:٢١].

{أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ} أي: **دليل بَيِّنٍ على هذا المسلك الذي سلكتموه {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: لا دليل لكم نقليًّا ولا عقليًّا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: {أو أَثَرَة من علم}.**

هذه ليست قراءة متواترة، هذه مروية عن ابن عباس وقتادة وعكرمة وعمرو بن ميمون والأعمش، من القراءات الشاذة: "أو أَثَرَة من علم".

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: أي: **أو علمٍ صحيح تأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: {أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ}: أو أحد يأْثُر علمًا.**

كما ذكر في الآية الأخرى التي ذكرتها آنفًا: **{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}** [الزخرف: ٢١]: ليس عندهم في ذلك مستند يؤثر من الكتب السابقة يدل على صحة هذه العبادة، أو هذه المعبودات لغير الله -تبارك وتعالى-، فالأثارة من الشيء: أثارة من علم يعني بقية منه، هكذا يقول أهل اللغة، بقية من علم، يعني تأثرونه عمن قبلكم من الكتب السابقة التي أنزلها الله -عز وجل- على الأنبياء، كما يقول ابن جرير: بقية من العلم، وهكذا عبارات المفسرين وأصحاب المعاني مقاربة لهذا في مجملها، ابن قتيبة يقول: بقية من علم الأولين، "أثارة من علم"، وهكذا قول الفراء والمبرد: ما يؤثر من كتب الأولين، وهذا قول عامة المفسرين، وما نقل عن السلف، كقول عطاء: تأثرونه عن نبي كان قبل محمد -صلى الله عليه وسلم-، وقول مقاتل: رواية من علم الأنبياء.

وأصل الكلمة يقولون: من الأثر والراوية، كما يقال: علم الأثر، مأثور، ما يؤثر، هذا أثر، ونحو ذلك، وتقول: أَثَرْتُ الحديث يعني هذا يؤثر، هذا يروى، يذكر، وما إلى ذلك.

بقية من علم، شيء يؤثر عمن سبق من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، أو الكتب المنزلة.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصنامًا، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صُمٌّ.**

هذا الاستفهام مضمن معنى النفي **{وَمَنْ أَضَلُّ}**؟! يعني: لا أحد أضل **{مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}**، فهكذا كل معبود من دون الله -تبارك وتعالى- فهو بهذه المثابة؛ ولذلك هؤلاء الذين يعجبون بالأمم الغربية أو الشرقية، ويثنون عليهم، وامتحنونا برسائل يرسلونها عن اليابان، وما عليه الناس هناك، والطفل، وعامل النظافة، وغير هذا من الأشياء التي يذكرونها من مآثرهم، ونحو ذلك، فهم في النهاية لا يعرفون الله، يعبدون بوذا، فهؤلاء أضل الناس، وإن وصلوا في العلم والتقنية إلى مراتب عالية، ولكن ذلك لا يغني عنهم شيئًا، هم أضل الناس، فينبغي أن يُعرف قدر هؤلاء، ولا تؤذى الأسماع بذكر مآثرهم، والإزراء على المسلمين، ومدح هؤلاء من أهل الأوثان، فيكفي ما نحن فيه من هزيمة، وتراجع، حتى أصبحنا نرى الفئام من الفتيات أصبحن يقلدن، فبعد أن قلدوا وشبعوا قلدوا الغرب في أزيائه ولباسه وحاكوه في كل شيء، الآن بدأنا نسمع أن الموضة الجديدة محاكاة الكوريين، والأمم الشرقية في اللباس، وما إلى ذلك، يلبسون لباسًا كوريًّا، أكَلَة الكلاب والحمير والحشرات، عبدة بوذا، ما بقي إلا هؤلاء يُقلَّدون، انتهينا من أهل الكتاب، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، ولما قيل له: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟))[٤] يعني: فمن الناس؟ والآن أصبح عبدة بوذا، وعبدة الأوثان، وعبدة الأَصنام هم

---

٤ - رواه البخاري، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، برقم: (٧٣٢٠).

الذين يُقلِّدون، ويحاكون، وماذا عند هؤلاء المفاليس حتى يستحقوا أن يكونوا في محل القدوة، والأسوة؟!، وهذا من أعجب الهزيمة والتراجع، نسأل الله العافية.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: **وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}، كقوله -عز وجل-: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}** [مريم:٨١-٨٢] **أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** [العنكبوت:٢٥].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}**، يرجع إلى من؟ **{كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً}** يرجع إلى المعبودات، هذا قول الجمهور من المفسرين، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، أن هذه المعبودات تتحول إلى أعداء لهؤلاء الكفار، أو لهؤلاء العابدين، كما أورد هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}**، مع أن بعض المفسرين قال: إن ذلك يرجع إلى الكفار، أنهم يتبرءون من هذه المعبودات في النهاية إذا عرفوا بطلانها، وعاينوا الحقائق؛ ولهذا يقولون: **{وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** [الأنعام:٢٣]، ولكن الأرجح هو الأول، وهو الذي عليه عامة أهل العلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحقاف من الآية (٧) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٧-٩].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللحاضرين والمستمعين، يقول ابن كثير -رحمه الله-: يقول -عز وجل- مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} أي: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضلّوا وكفروا {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} يعنون: محمداً -صلى الله عليه وسلم-، قال الله -عز وجل-: {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي: لو كذبتُ عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يَقْدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ} [الجن:٢٢-٢٣]، وقال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٤-٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيخبر الله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء الكافرين إذا سمعوا آيات الله تتلى كذبوا بها وقالوا: **{هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**، أي: سحر بيِّنٌ واضح، مع وضوح هذه الآيات، وما فيها من الهدايات، والله -تبارك وتعالى- قد أخبر في مواضع من كتابه عن قول المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام- في كل زمان أنهم قالوا عما جاءت به الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-: إن هذا سحر مبين، وقالوا عن هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- مثل ذلك، قال فرعون والملأ من قوم فرعون عن موسى -عليه الصلاة والسلام-: إنه ساحر، وحينما خاطبوه، وطلبوا منه أن يدعو الله لهم قالوا: **{يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ}** [الزخرف:٤٩]، على اختلاف بين أهل العلم في توجيهه، فالمقصود أن هذه سنّة المكذبين.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، "أم": هذه منقطعة، يعني: هي منقطعة بمعنى: بل والهمزة، ويمكن أن تكون أيضاً مع ذلك للإضراب، فيكون المعنى: دع هذا، واسمع قولهم

المُستنكَر؛ لظهور كذبهم فيه، فيقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد اختلقه، {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، يعني: أن الله -تبارك وتعالى- يعاقبه على ذلك، {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٤ - ٤٧]، قال آمرًا له أن يجيب عن مقالتهم هذه: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ}، أي: تخوضون فيه من التكذيب، والإفاضة في الشيء بمعنى: الاندفاع والخوض فيه، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ}، يعني: بما تقولون في هذا القرآن من التكذيب، وأنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين، أو نحو ذلك، كما يقول ابن جرير -رحمه الله- عند هذه الآية: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ} يقول: أفاضوا في حديثهم عن كذا بمعنى: اندفعوا يتحدثون عن هذا الأمر.

وقوله -جل وعلا-: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ترغيب لهم في التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم.

وهذه الآية كقوله -عز وجل- في سورة الفرقان: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان:٥-٦].

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}، أي: لست بأول رسولٍ طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني، وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله -جل وعلا- قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} بعد ذكر مقالتهم في القرآن، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- افتراه، وكذا في قولهم: إن هذا القرآن سحر مبين، هذا كله من المواضع الدالة على الرجاء، فالله -تبارك وتعالى- يرجّيهم بالتوبة والإنابة إليه، ويذكر مغفرته لهؤلاء، وهذا لا شك أنه يدل على سعة رحمته، كما قال -تبارك وتعالى- في أصحاب الأخدود: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج:١٠] أحرقوا أهل الإيمان، أحرقوا أولياءه، وحينما توعدهم قال: {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}، ولما ذكر مقالة النصارى في نسبة الصاحبة والولد إلى الله -تبارك وتعالى- دعاهم إلى التوبة بألطف عبارة: {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ} [المائدة: ٧٤]، بهذه العبارة اللطيفة، فهذا وأمثاله يدل على هذا المعنى، فهنا هؤلاء يقولون في القرآن هذه الأقوال الشنيعة، ثم تختم هذه الآية بقوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

أما قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}، فيقول: أي: لست بأول رسول طرق العالم؛ بل جاءت الرسل من قبلي.

البِدْع من كل شيء هو: المبدأ، والابتداء معروف يعني: الشيء الذي لا نظير له، الشيء المبتكر، يعني: ما أنا بأول رسول حتى تستغربوا، وتستنكروا، وتستنكفوا من الإيمان، وهذا المعنى هو الذي عليه المفسرون سلفًا وخلفًا، وبنحو هذا قال ابن جرير، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع- والله -عز وجل- يقول: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء:١٦٣] الآية، فالله

-تبارك وتعالى- قد جرت سنته أن يختار من هؤلاء البشر من يصطفيهم لرسالته، وينزل عليهم وحيه، فلم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- ببدع في هذا الأمر.

وبعض أهل العلم يقول: إن المراد بقوله: **{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}**: ما أنا بأول رسول، وبعضهم يقول: إن الشيء البديع هو الذي لم يُرَ مثله، وكلها عبارات وأقوال مقاربة لهذا وترجع إليه، فهي بنفس المعنى، وترجع إلى المعنى نفسه، الشيء الذي ليس له مثال سابق يقال له: بِدْع، مُبْتَدَع.

وقوله: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في هذه الآية: نزل بعدها: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح:٢][١]، وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله -تعالى-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بيّن الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله -تعالى-: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح:٥][٢]، هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله -سبحانه وتعالى- هذه الآية[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}**، هذا يحتمل أن يكون المراد بذلك في الدنيا، ومن ثَمَّ فإنه لا إشكال فيه، لا إشكال في المعنى، ويحتمل أن يكون المراد بذلك في الآخرة، وهذا موضع الإشكال، فهنا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من قول هؤلاء من السلف -رضي الله تعالى عنهم- من أنه نزل بعدها: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**، وما ذكر من الروايات من كونها منسوخة: كل هذا باعتبار أن ذلك في الآخرة، **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}**، يعني: في الآخرة كيف تكون حالنا، وما نصير إليه، أن الله يدخلنا الجنة، ويرحمنا، أو أنه يعاقبنا، فهذا باعتبار أن ذلك في الآخرة، ويكون ذلك موضع الإشكال باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- بقوله: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**، فكيف قال: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}**؟، فهنا جاء عن هؤلاء من السلف أنها منسوخة، ولا يقصد بالنسخ: النسخ المصطلح عليه، أو المعروف، أو في عرف المتأخرين الذي هو بمعنى رفع الحكم المتقدم بخطاب متأخر متراخٍ عنه، فهذا لا يكون في الأخبار -وهذا خبر-؛ فإن وقوع ذلك في الأخبار تكذيب لها، وإنما يكون ذلك في الأحكام، ويمكن أن يقع في الخبر الذي بمعنى الإنشاء، يعني: الأمر والنهي.

وقولهم: إنها منسوخة، السلف كانوا يطلقون النسخ على معنى أوسع، وذلك كل ما يعرض للنص من تقييد للمطلق، وتخصيص للعام، وبيان للمجمل، إضافة إلى المعنى عند المتأخرين وهو: الرفع.

---

١ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٢٢/ ٩٩).

٢ - أخرجه أحمد في المسند: (١٢٣٧٤)، والطبري في تفسيره: (٢٢/ ٢٠٠)، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٤٣٦).

٣ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: (٤١٧٢).

فالمراد هنا: أن هذه الآية بينت ذلك، أي ما يكون عليه حال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحال أهل الإيمان: **{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}**.

ويقول ابن كثير: **هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله -سبحانه وتعالى- هذه الآية.**

الذي في الصحيح هو نزول: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** [الفتح:١][٤]، وليس فيه الكلام على هذا: أنهم قالوا له: هنيئًا لك يا رسول الله... إلى آخره، وإنما جاء هذا عن عكرمة مرسلاً، يعني: أن قوله: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** سبب النزول في قصة الفتح، هذا لا إشكال فيه، هذا ثابت في الصحيح، ولكن ما بعده من قولهم: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ هذا عن عكرمة مرسلا، وليس في الصحيح، بل لا يصح.

وقوله: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}** بعض أهل العلم حمل ذلك على أنه في الدنيا، يعني: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، هل أخرج من مكة -لأن السورة مكية-، أو أبقى فيها؟، أو هل أُقتل؟، أو أنكم تدخلون في هذا الدين، ويظهرني الله -عز وجل- على من خالفني، وناوأني، وما أشبه ذلك؟، هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، أن هذا في الدنيا لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، وهذا الذي رجحه أيضًا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، ماذا يكون في شأنكم، وفي حقكم؟ هل تعجل لكم العقوبة في الدنيا كما وقع ذلك لأمم خلت، أو أن الله يمهلكم؟، هل تحصل لكم الهداية فتدخلون في الإسلام، أو غير ذلك؟، ما أدري ما يفعل بي ولا بكم.

أو أن يكون المراد: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم فيما يفترضه الله -عز وجل- عليّ، وينزل عليّ من الشرائع والأحكام في مستقبل الزمان، فأنا أتلقى عن الله -تبارك وتعالى- ولست مفتريًا عليه، لما قالوا: إنه افتراه، فيرد عليهم: **{مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}** يعني: أنا أستقبل من الله -تبارك وتعالى- هذا الوحي وهذه الهدايات، ولست بالذي يأتي بشيء من عند نفسه، فالله -تبارك وتعالى- ينزل عليّ وحيه وشرائعه وأحكامه، هكذا قال بعض أهل العلم.

وبعضهم -وهم الذين قالوا: إن ذلك في الآخرة، وقالوا: هي في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي حق أتباعه- قالوا: هذه الآية منسوخة، يعني مبيَّنة بقوله: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**.

وبعضهم قال: إن هذا الخطاب: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}** موجه لأتباعه، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاطب أتباعه، وأن الخطاب هذا ليس للمشركين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لأتباعه: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}**، حتى أعلمه الله -عز وجل- كما سبق في آيتي الفتح، وهؤلاء كأنهم أخذوا ذلك مما سيأتي في قصة عثمان بن مظعون -رضي الله تعالى عنه- حينما مات، الحافظ ابن كثير ذكر هذا في الرواية التي ذكرها بعد هذا مباشرة.

روى الإمام أحمد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء -وهي امرأة من نسائهم- أخبرته وكانت بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى

٤- المصدر السابق.

المهاجرين عثمانُ بن مظعون -رضي الله عنه-، فاشتكى عثمان -رضي الله عنه- عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما يدريك أن الله -تعالى- أكرمه؟)) فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي))، قالت: والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان -رضي الله عنه- عينًا تجري، فجئت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته بذلك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذاك عمله))، انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم[٥]، وفي لفظ له: ((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به))[٦].

الآن لاحظ هذه اللفظة: ((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به))، ابن كثير -رحمه الله- في الأصل يقول: "وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ؛ بدليل قولها: "**فأحزنني ذلك**"، يعني: ((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به))؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب، وإنما يوحي الله -عز وجل- إليه بشأن عثمان، وغير عثمان -رضي الله عن الجميع-، يعني في الآخرة هل هو في الجنة أو لا، والسياق في النهي عن التزكية.

فمثل هذا حينما تكون الرواية: ((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به))، يكون لا إشكال، فكأن الذين قالوا: **{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}**: إن المراد في الآخرة نظروا إلى الرواية الأولى، قالوا: هذه موافقة للآية، لكن إذا كان محمل الرواية على هذا اللفظ: ((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به))، فهذا لا إشكال فيه، وتكون الآية باعتبار الدنيا، وهذا المعنى هو الذي رجحه الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- أيضاً، ورجح هذه الرواية، أنها هي المحفوظة.

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال.

لأن عبد الله بن سلام شهد له النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}**، سيأتي ما يدل على هذا المعنى: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- شهد له بالجنة، والغميصاء هي: أم سليم -رضي الله تعالى عنها- لحديث: دخلتُ الجنة فسمعتُ خَشْفة -صوت حركة- بين يدي، فقلت: ما هذه؟، ثم ذَكر أنه أجيب بأنها الغميصاء، أو أم سليم -رضي الله تعالى

٥- أخرجه أحمد، رقم: (٢٧٤٥٧)، والبخاري، كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام، رقم: (٧٠١٨).

٦ - أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، رقم: (١٢٤١)، وأحمد في المسند، رقم: (٢٧٤٥٧).

عنها-[٧]، فهذه شهادة لها بالجنة.

وبلال كذلك لمّا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه سمع أيضًا صوت نعليه في الجنة[٨].

وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر.

لمّا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله كلمه كفاحًا[٩].

والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة.

يعني: لاحظ هناك بعض هذه الأشياء يفهم منها ضمنًا، يعني: كمثل ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أوحى الله إليه وكان قرآنًا يتلى ثم نسخ لفظه: "أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه"[١٠].

وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء -رضي الله عنهم.

هؤلاء استشهدوا وشهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في مؤتة، هؤلاء القادة الثلاثة -رضي الله تعالى عنهم.

طبعًا مَن شهد له النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة فهذا لا شك فيه، سواء كان ذلك صراحة أو ضمنًا، والذين شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر من هؤلاء، وأكثر من العشرة، ومن أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مَن ذكر أن من استفاض في الأمة فضله فإنه يشهد له بالجنة، هكذا قال، يعني: مثل عمر بن عبد العزيز، مثل الإمام أحمد، ومالك، والشافعي، والأوزاعي، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وابن سيرين، وأمثال هؤلاء، -رحم الله الجميع- أئمة المسلمين، هؤلاء الأئمة أئمة الهدى، فشيخ الإسلام -رحمه الله- يرى أن مثل هذه الاستفاضة تجعل الشخص يُشهد له بالجنة، فعنده أن مثل هؤلاء يُشهد لهم بالجنة، والوقوف مع النص أولى.

وقوله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ} أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليَّ من الوحي، {وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: بيِّن النِّذَارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

---

٧ - أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، رقم: (٣٦٧٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك، وبلال -رضي الله عنهما-، رقم: (٢٤٥٦)، واللفظ له.

٨ - أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل بلال -رضي الله عنه-، برقم: (٢٤٥٨).

٩ - أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة آل عمران، رقم: (٣٠١٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه، أبواب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم: (٢٨٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: (٧٩٠٥).

١٠ - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل قول الله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]، رقم: (٢٨١٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم: (٦٧٧).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف:١٠-١٤].

يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد، لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ} هذا القرآن {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ} أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله عليَّ لأبلغكموه، وقد كَفرتم به وكذبتموه، {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به؟.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} يعني: أخبروني {إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} إن كان هذا القرآن، هذا قول الجمهور، إن كان هذا القرآن الذي قلتم: إنه سحر ومفترى، وبعضهم يقول: إن كان محمد -صلى الله عليه وسلم- مرسلا من الله، أن الله أرسله، مرسل من عند الله، والأول هو الأشهر، {وَكَفَرْتُمْ بِهِ} أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم؟.

وهنا يشير ابن كثير-رحمه الله- إلى أن الجواب محذوف في قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ} أين جوابه؟ هل هو مذكور أو محذوف؟ بعضهم يقول: هو مذكور، وهو قوله: {فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ}، ولكن الذي عليه الجمهور أنه محذوف، وإن اختلفوا في تقديره.

يعني: الحافظ ابن كثير-رحمه الله- يشير إلى الجواب هنا، وأنه محذوف مقدر بقوله: "**ما ظنكم أن الله صانع بكم؟**"، إن كان من عند الله وكفرتم به فما ظنكم أن الله صانع بكم؟.

وبعضهم كالزجاج يقول: أتؤمنون؟، يعني: هذا هو التقدير: أتؤمنون {إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ}، يعني: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} أتؤمنون، أتصدقون، أتنقادون؟.

وبعضهم يقول: التقدير: فقد ظلمتم.

وبعضهم يقول: فمن أضل منكم إذا كذبتم به وهو من عند الله -تبارك وتعالى-، مع هذه الشهادة المذكورة؟.

وبعضهم يقول: إن التقدير: أتؤمنون به؟، أو نحو ذلك من العبارات المقاربة لما ذكره الزجاج.

وبعضهم يقول كأبي علي الفارسي: {إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ}: أتأمنون عقوبة الله -تبارك وتعالى- أن تنزل بكم؟.

والشنقيطي -رحمه الله- يقدره بأنتم ضُلال ظالمون، يعني: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ} فأنتم ضلال ظالمون.

من أين أخذ هذا التقدير؟.

أولاً: الأصل في القواعد في التقديرات أو المقدرات أن لها ضوابط، منها: أن الأصل عدم التقدير، ومنها: أن التقدير ينبغي أن يراعى فيه الأخصر، والأبلغ، والموافق للسياق.

فالشنقيطي -رحمه الله- عبر بهاتين اللفظتين: "فأنتم ضلال ظالمون"، واحتج بآية فصلت: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٥٢]، فمن قوله تعالى: {مَنْ أَضَلُّ} أخذ الضلال، والآية شبيهة بهذه الآية، وفي الأحقاف: {فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أخذ من هذه الآية الظلم، فأنتم ضلال ظالمون؛ ولهذا قال -تعالى- في آخر هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}؛ ولهذا قال بعضهم: ألستم ظالمين؟، على أن هذا هو المقدر.

وعامة أهل العلم يقولون: إن الجواب مقدر، وإنْ اختلفوا في تقديره، وهذه أقوال مقاربة، وما ذكره الحافظ ابن كثير هنا: أي: **ما ظنكم أن الله صانع بكم؟**، ونحو هذا.

قال: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، فمن هو هذا الشاهد؟ وما المراد بقوله: {عَلَى مِثْلِهِ}؟ فهذا الموضع اختلف فيه السلف -رضي الله تعالى عنهم- ومن بعدهم، وذكر ابن كثير -رحمه الله- طرفًا من هذا.

وقوله -عز وجل-: {فَآمَنَ} أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل؛ لمعرفته بحقيقته، {وَاسْتَكْبَرْتُمْ} أنتم عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، وهذه كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} [القصص:٥٣]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا} [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

وعن سعد قال: ما سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام[١١].

هذه التي ذكرها ابن كثير فيمن شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة.

قال: وفيه نزلت: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، رواه البخاري ومسلم والنسائي، وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدَّي، والثوري، ومالك بن أنس، وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، هنا قولان في الآية:

الأول: أن الشاهد هو: موسى -صلى الله عليه وسلم.

١١- أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، رقم: (٣٨١٢)، وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، رقم: (٢٤٨٣).

والقول الآخر: أنه عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه-، وهذا الذي عليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، وهو الذي يدل عليه أيضًا سبب النزول.

هذه السورة مكية، والأصل في السورة المكية أن جميع الآيات النازلة فيها أنها نازلة بمكة، هذا الأصل، وكما ذكرنا مرارًا: أنه لا يصح أن يُخرَج شيء من ذلك بالنظر إلى المعنى، فلو بقينا مع المعاني لأمكن أن يقال إذا كانت في عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه-: إن الآية قد تنزل قبل تقرير حكمها -يعني مقتضاها وحصول المضمون الذي دلت عليه-، وإن الحكم ليس المقصود به -كما عرفنا- الحلال والحرام، لا، وإنما مقتضى الآية وما تضمنته -حصول ذلك-، فقد تنزل الآية قبلُ؛ فتكون إشارة إلى ما سيقع بعد ذلك، حيث أسلم عبد الله بن سلام، وشهد أن هذا القرآن هو المذكور في التوراة، وأن صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- عندهم ثابتة، ومعروفة، وأنها منطبقة عليه -عليه الصلاة والسلام-، يمكن أن يقال هذا، وتبقى هذه الآية مكية، ويقال: كل آيات السورة مكية، ولكن بالنظر إلى ما صح من أسباب النزول فإن ذلك يدل على أن هذه الآية نازلة بالمدينة، إلا أن يقال: إنها نزلت مرتين، مرة مع السورة بمكة، ومرة في قصة ابن سلام في المدينة، وهذا خلاف الأصل، يعني: هذا نلجأ إليه متى؟ إذا تعددت عندنا مرويات في أسباب النزول، ولكن هنا لا يوجد.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} يعني: أن في التوراة ما يوافق ما جاء به القرآن من الهدايات، على قول بعض أهل العلم، فهو موافق لما جاء في الكتب السابقة، **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}** فـ"على مثله": بعضهم يقول: يعني على مثل القرآن، وهو: التوراة، وهذا عليه الأكثر، وبعضهم كالجرجاني يقول: إن هذه اللفظة "على مثله" صلة، وإذا قالوا: صلة ماذا يقصدون؟ يقصدون أنها زائدة، يعني: إعرابًا، زائدة إعراباً، وهذا قاله بعضهم في قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى:١١]، فإن الله ليس له مثل حتى يُنفى عنه المثل، يعني: عن مثلِ مثلِه، فليس له مثل -تبارك وتعالى-، يعني: وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه، يعني: ذات القرآن، وليس على مثل القرآن، وهو: التوراة، **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}** أي: أن القرآن من عند الله -تبارك وتعالى-، وهذا الذي اختاره الواحدي، ولكن الأكثر على أن المراد بذلك التوراة.

فالشاهد هو عبد الله بن سلام، كما ذكر ذلك ابن كثير -رحمه الله- عن هؤلاء من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهذا القول هو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ورجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فالشنقيطي يقول: إن الآية مدنية، باعتبار سبب النزول، وقال به أيضًا غير من ذكرهم ابن كثير -رحمه الله- من السلف، قال به الحسن ومجاهد.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: المراد به ابن سلام، وقوله: **{عَلَى مِثْلِهِ}** يعني: التوراة، فعلى مثل القرآن هو: التوراة، يقول: وذلك شهادته أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- مكتوب في التوراة أنه نبي، كما هو مكتوب في القرآن، يعني: الشهادة له بأنه نبي موجودة في التوراة.

إذاً **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** هو: عبد الله بن سلام، **{عَلَى مِثْلِهِ}** أي: على مثل القرآن، وهو التوراة، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مكتوب في التوراة أنه نبي، وذُكرت لهم صفته -عليه الصلاة والسلام-،

والعلماء ينقلون مثل هذه العبارات، والله -تعالى- يقول: {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} [الأعراف:١٥٧]، فهذا بنص القرآن أن صفته -صلى الله عليه وسلم- مثبتة في التوراة.

القول الآخر: أنه موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} يعني: موسى -عليه الصلاة والسلام-، {عَلَى مِثْلِهِ} يعني: على مثل القرآن، وهو: التوراة، أن التوراة من الله وحي، يعني: كيف تكذبون، وتنكرون هذا الوحي، وهذا القرآن، وتقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد افتراه؟، وهذا الخطاب موجه للمشركين في مكة على قول الجمهور، والسياق كله في خطاب المشركين في هذه السورة قبله وبعده، بخلاف من قال: إن ذلك خوطب به اليهود، لكن لو قال قائل باعتبار أن الآية مدنية: إن ذلك من خطاب اليهود، فإن ذلك ليس بمستبعد، ولو قيل: إن ذلك يشمل كل المكذبين بالقرآن الذين يقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد افتراه، فالخطاب متوجه إليهم، فهذا أيضًا يحتمل، والله تعالى أعلم.

قول مسروق: إنه موسى -صلى الله عليه وسلم- يعني الشاهد-، هنا نقل عن مسروق قال: واستكبرتم أنتم عن اتباعه، قال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم، هنا ما ذكر قوله الصريح: إنه موسى، لكن هذا معروف عن مسروق.

إذا قلنا: إن هذه السورة مكية، فموضع الإشكال الذي ذكرته عند أهل العلم هو: كون هذه السورة مكية وتتحدث عن أمر وقع في المدينة، وهو: شهادة عبد الله بن سلام قبل أن يسلم، وقبل أن يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- وقبل أن يقع ذلك، كيف تحدثت عن قضية لم تقع؟ فقالوا: موسى -عليه الصلاة والسلام- هو المراد بقوله -تعالى-: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فهو موسى، {عَلَى مِثْلِهِ} يعني: التوراة، هذا لو لم توجد عندنا روايات في أسباب النزول، ولم توجد أقوال هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- لكان متجهًا هذا القول، لكن الذي يمنع من الالتفات إليه: أنه يخالف أقوال هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- ومنهم: عبد الله بن سلام، فقد صرح أن هذه الآية نازلة فيه، يعني: بعض المرويات فيها أنها نزلت في عبد الله بن سلام، فهذا كما سبق في مناسبات شتى أنه غير صريح بأنه سبب النزول، يعني: أن هذا من قبيل التفسير، وأن هذا مما يدخل فيه، يدخل في المعنى، لكن ابن سلام يقول: هذه الآية نزلت فيّ، وكذلك أيضًا صح أنه هو سبب النزول، وذلك حينما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى اليهود في يوم عيد لهم، وخاطبهم، ودعاهم، وذكّرهم، وأنهم يعلمون أنه هو النبي الذي عرفوا صفته، وسألهم عن ذلك، وعن إقرارهم، فلم يجيبوه، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- راجعًا، فتبعه ابن سلام -رضي الله تعالى عنه-، وأقر للنبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، وأنه هو الذي يعرفون صفته في كتابهم[١٢]، الشاهد: أنه أسلم، في هذه الرواية التصريح بأن الآية نزلت فيه، فأنزل الله، فهذه الراوية ثابتة، إذًا هذه الآية نازلة في المدينة، فتكون مستثناة من السورة، والله تعالى أعلم.

١٢- أخرجه أحمد، رقم: (٢٣٩٨٤)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً، وعماراً، وصُهَيباً، وخباباً -رضي الله عنهم-، وأشباههم، وأقرانهم من المستضعفين، والعبيد، والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة، وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطئوا خطأ بينًا، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} [الأنعام:٥٣] أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا؟! ولهذا قالوا: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}.

وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة -رضي الله عنهم-: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله تعالى: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ} أي: بالقرآن {فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}.

هناك في الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، قال ابن كثير -رحمه الله- عبارة ذكرها هناك قال: "**الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- وغيره، فإن هذه الآية مكية، نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام**"، هذا القول ما أحسنه لو لم يرد في ذلك سبب النزول، فلا يقال هنا: إنه اسم جنس بهذا الاعتبار، يعني: ابن كثير -رحمه الله- حاول أن يجمع بين هذه الأقوال، ولكن الرواية في سبب النزول تأبى ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} ابن كثير -رحمه الله- يقول: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ} يعني: بالقرآن، وبعضهم يقول: بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: بالإيمان، ابن جرير -رحمه الله- يقول: وإذ لم يبصروا بمحمد، وبما جاء به من الهدى، لاحظ دقة العبارة، يعني: جمع بين قول من قال: بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وقول من قال: بالقرآن، وقول من قال: بالإيمان، هذه الأقوال الثلاثة عبر عنها بهذه العبارة الشاملة المنتظمة لهذه الأقوال جميعًا: وإذ لم يبصروا بمحمد، وبما جاء به من الهدى فيُرشَدوا به إلى الطريق المستقيم {فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}، فقوله: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ} أي: بهذا الهدى، وبهذا النبي، وبهذا القرآن.

وقوله تعالى: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ} أي: بالقرآن {فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ} أي: كذب، {قَدِيمٌ} أي: مأثور عن الناس الأقدمين.

يعني قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} ما سبقونا إلى ماذا؟ ما سبقونا إلى الإيمان، ما سبقونا إلى هذا الوحي، إلى هذا القرآن، إلى هذا النبي -صلى الله عليه وسلم-، كل ذلك، ما سبقونا إلى الدخول في الإسلام، يعني: هم يرون أنهم أهل العقول الراجحة الذين يميزون بين الأشياء، ولو كان في ذلك خير لما سبقهم إليه هؤلاء الأعبُد، ومن يزدرونهم من الضعفاء، فجعلوا ذلك مقتضيًا ضعف عقولهم، يعني: أن الضعف المادي عندهم يقتضي ضعف العقول، فالمعايير عندهم أصلا فاسدة.

{قَدِيمٌ} أي: مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بطَر الحق، وغمْط الناس)).

ثم قال تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} وهو: التوراة، {إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ} يعني: القرآن.

{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً} النصب هنا على الحال: **{إِمَامًا وَرَحْمَةً}**، وبعضهم يقول: على القطع، وبعضهم يقول: بمقدر محذوف بتقدير: كتاب موسى جعلناه إمامًا ورحمة، والأصل عدم التقدير، يعني: حال كونه إمامًا ورحمة.

{مُصَدِّقٌ} أي: لما قبله من الكتب، {لِسَانًا عَرَبِيًّا} أي: فصيحاً بيناً واضحاً.

وهذا أيضًا منصوب على الحال: **{لِسَانًا عَرَبِيًّا}**.

{لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} أي: مشتمل على النّذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين.

قوله: **{لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}** يحتمل أنه يرجع إلى القرآن، لأن بعض العلماء يقولون: إن ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، يعني: لينذر الله به، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه القرآن؛ لأن القرآن كلام الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني: لينذر من أوحينا إليه هذا القرآن الذين ظلموا، وهذا ظاهر وواضح على القراءة الأخرى قراءة ابن عامر والبَزِّي: **{لِتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}** بالتاء.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، تقدم تفسيرها في سورة: "حم السجدة".

فقوله: **{لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}**، تذكرون في شرح كتاب "طريق الوصول إلى العلم المأمول" من الأشياء التي مرت بنا: أنه قد تُذكر علة لشيء ويكون هناك علل أخرى في مواضع، هذا نقلته عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في بعض المناسبات، فالله -تبارك وتعالى- مثلما ذكرنا بالأمس- لما ذكر العلة من خلق السموات والأرض، من أجل ماذا؟ من أجل الابتلاء، ومن أجل أن تعرف وحدانيته -تبارك وتعالى-، إلى غير ذلك من المعاني المتنوعة، فذكر في موضع إحدى هذه الحكم، وذكرت الحكم الأخرى في مواضع متفرقة، فهنا: **{لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}** يعني: هل أنزل القرآن لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين فقط، أو لمعانٍ آخر أيضًا غير النذارة والبشارة؟، كذلك أيضًا فيه: الأحكام، والهدايات، وشرائع الإسلام، وما إلى ذلك، لكن لكل مقام مقال، فالله لما ذكر النجوم مثلاً في موضع قال: **{لِتَهْتَدُوا بِهَا}** [الأنعام:٩٧]، وفي موضع آخر في سورة الصافات ذكر الزينة والحفظ: **{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ}** [الصافات:٦-٧]، فلم يذكر الاهتداء، وهكذا.

وقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}** يعني: أنهم أذعنوا بالتوحيد، واستقاموا بالطاعة، واستقاموا بالعمل.

وقوله تعالى: {فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي: فيما يستقبلون، {وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي: على ما خلفوا، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم، وسُبُوغها عليهم، والله أعلم.

قبل أن نجاوز هذا المقطع أقول: ما ذكرته عن الجرجاني في قوله تعالى: **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}**، يعني: أن قوله: **{عَلَى مِثْلِهِ}** صلة، يعني: على ذاته، أي: شهد شاهد من بني إسرائيل على أن القرآن حق، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- حق، رسول من عند الله، هذا أيضًا رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، يعني: هو لا يرى أن **{عَلَى مِثْلِهِ}** أي التوراة مثل القرآن، وذكر شواهد لهذا،

يعني: في قوله تعالى مثلاً: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ} [البقرة:١٣٧]، ما المقصود؟ يعني: بما آمنتم به، وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، أي: ليس كهو، أو ليس كذاته شيء، على أحد الأقوال المعروفة في الآية، وقوله: {كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام:١٢٢]، يعني: كمن هو في الظلمات.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف:١٥-١٦].

لما ذكر تعالى في الآية الأولى: التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله -عز وجل-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء:٢٣]، وقوله -جل جلاله-: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان:١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال -عز وجل- هاهنا: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} أي: أمرناه بالإحسان إليهما، والحنو عليهما.

وروى أبو داود الطيالسي عن سعد -رضي الله عنه- قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين؟، فلا آكل طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} الآية، ورواه مسلم، وأهل السنن إلا ابن ماجه[١٣].

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}، الوصية بالوالدين بعدما ذكر الله حقه، كما في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء:٢٣]، وقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء:٣٦]، والآيات المحكمات في سورة الأنعام.

فأعظم الحقوق بعد حق الله -تبارك وتعالى- هو حق الوالدين، وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- وأمه، وهي مشركة، وتدعوه إلى الكفر، ومع ذلك جاءت الوصية بالإحسان إلى الوالدين، فكيف إذا كان هؤلاء الأبوان يدعونه إلى الإيمان، وطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-؟! فإن الإحسان إليهما في هذه الحال يكون أعظم، وهذا يدل على أن الإحسان إلى الوالدين في كل الحالات لا يُستثنى منه شيء، ولهذا الفقهاء -رحمهم الله- تكلموا فيما لو كان الوالد أو الوالدة ملابسًا لمنكر، كيف يُغيِّر هذا المنكر؟ يعني: لو كان مثلاً يلبس لباسًا منكرًا، أو قد علق صليبًا، أو نحو ذلك، هل له أن ينزعه منه أو لا؟ باعتبار أنه لا يخلو من إساءة ونوع جرأة على هذا الوالد.

١٣- أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، رقم: (١٧٤٨)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب: ومن سورة العنكبوت، رقم: (٣١٨٩)، وأخرجه أبو داود الطيالسي، أحاديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، رقم: (٢٠٥)، ولم أجده في سنن أبي داود، ولا سنن النسائي.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}**، فقوله: **{إِحْسَانًا}**: هذه قراءة عاصم وحمزة والكسائي، وأما قراءة الجمهور فهي **{حسنًا}** في هذا الموضع فقط، يعني: في بقية المواضع يقرءون: **{إِحْسَانًا}**، كقوله تعالى: **{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** في سورة الإسراء، وفي سورة الأنعام، أما في هذا الموضع في سورة الأحقاف ففيه قراءتان: فالجمهور يقرءونه: **{حسنًا}**.

وعلى القراءتين: **{إِحْسَانًا}** و**{حسنًا}** النصب يكون على المصدرية، يعني: ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والديه حسنًا وإحسانًا، وصيناه أن يحسن إلى والديه حسنًا وإحسانًا، فأطلق هذا الإحسان، فيشمل جميع صور الإحسان، من الإحسان بالقول، والإحسان بالفعل، والإحسان بالمال، والإحسان بالمعاشرة والمخالطة، بل الإحسان حتى في النظر إليهما، والإحسان حتى في المشاعر نحو الوالدين، وكل ما يمكن أن يتصور من الإحسان فهو داخل في هذه الآية، فأطلقه الله -تبارك وتعالى-، فيحسن في المخاطبة، ويحسن في المخالطة، ويحسن بالمال.

بعض الناس قد يقول: هؤلاء من الوالدين غير محتاجين للمال، نقول: لكن إعطاء المال لهما أو لوالدته مثلاً إذا كان ليس لها مال، وإن لم تكن محتاجة، فهي مكفية قد كفاها زوجها مثلاً، فإن هذا التصرف من الولد يدل على أصالته، ويدل على كرم ضريبته، ويدل على سمو تربيته، فهذه الأم التي تعبت، وربت، وفي كل يوم هي معه صباح مساء تنظر إلى وجهه، وتهيئه لمدرسته، وشقيت معه طويلًا حتى تخرج وصار يعمل تنتظر العائدة من هذا الولد من حسن تعامله، وبره، وما إلى ذلك، فإذا كان هذا الولد يبادر من أول ما بدأ يعمل، ويكتسب، فيعطيها شيئًا، ولو لم تكن محتاجة، فإن هذا لا شك أنه يؤثر فيها غاية التأثير، ويغمرها بمشاعر لا يمكن وصفها تجاه هذا الولد: أن هذا الولد بار، وأصيل، وأنه ما نسيها قط، وأنه يدرك ما بذلت من إحسان، وتربية، وجهد، وأن ذلك لم يذهب، ولم يتلاشَ، وما ضاع، فهي ترجو عائدته أيضًا في الآخرة.

الأم تحتاج أن تتصدق، وتحتاج أن تُفرح الصغار، وما أشبه ذلك، ولا تحتاج في مثل هذه القضايا أنها تنتظر وتقول: أعطوني أنا محتاجة كذا، أنا أريد كذا، أريد أن أقدم هدية لفلانة، أو نحو هذا، فيكون ذلك بيدها، والأم عادة تبادر لأمور قد لا تخطر لهذا الولد على بال، إذا حصل نقص، أو نحو هذا فإنها تبادر وهي مسرورة فرِحة بتسديد هذه الحاجات، بخلاف غيرها ممن لربما لا يقع في يدها شيء إلا أتلفته، الأم تحنو وتحفظ للولد هذا المال، وإذا رأت فرصة انتهزتها في شأن من شئون بيتها، وبيت ولدها، فمثل هذا ينبغي أن نتذكره، فكثير من الناس لا ينتبهون لهذا، ويقول: هي غير محتاجة، فهذا من الإحسان الذي نغفل عنه، وله أثر بالغ، ولربما تبقى صامتة وساكتة، ولكن ذلك يقع في نفسها: أن هذا الولد لم يتذكر بذلها، وإحسانها، لكنه حينما يترجم عنه بمثل هذا سيكون له غاية التأثير.

من البر المنسي للأسف الشديد وهو شاق على نفوس الأبوين مما لا يعرفه كثير من الذين ظاهرهم الاستقامة والصلاح: أنه يعرف من حال أبيه أو من حال أمه أنهما يكرهان كذا، يكرهان صحبته لفلان، يكرهان ذهابه إلى المكان الفلاني، يكرهان هذا الفعل منه، يكرهان هذه المزاولات والاشتغال بكذا من الأمور التي ليست من العمل الصالح، لكنها أمور قد تكون مباحة، قد يريد أن يخرج إلى المكان الفلاني، وهم يكرهون ذلك، فإذا عرف منهم هذا فلا داعي لأن يكرره عليهم، أو أن يطالبهم بالسماح له بزعم أنه بار لا يخرج إلا بإذنهما،

فيُضجر أبويه في المطالبة بهذا الشيء الذي يعلم أنهما يكرهانه، فلربما وافقا على ذلك على مضض، يريدان الخلاص من هذا الإلحاح، فإذا عرف الإنسان أنهما يكرهان طرح الأمر الفلاني، ذكر القضية الفلانية، المطالبة بالشيء الفلاني؛ لمصلحته، أو لمصلحة غيره، أو نحو ذلك، يكف عنه، فهو يعرف من خلال هذه العشرة الطويلة الممتدة ما الذي يدخل السرور عليهما، وما الذي يحصل به الانزعاج لهما، فيترك هذه الأمور التي يكرهانها، ولا يحبان سماعها، للأسف هذا منسي لدى الأكثر، وإن زعم وظن أنه بار باعتبار أنه لا يفعل إلا بإذنهما، لكن هذا الإذن لا يأتي إلا بعد السآمة، والضجر، والملل، والضيق، تضيق به الدنيا بما رحبت من كثرة هذا الإلحاح والطرق على هذا الموضوع حتى يوافق هذا الأب كارهًا ومرغمًا من أجل الخلاص من هذا الإزعاج، وعند نفس هذا الولد أنه بار، وهذا من العقوق الذي لا يدركه كثير من الأبناء، والله المستعان.

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا} أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا، من وحَام وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، {وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} أي: بمشقة أيضا من الطلق وشدته.

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا}، قوله: {كُرْهًا}: هذه قراءة الجمهور، بالضم ثم السكون، وعلى قراءة أبي عمرو وأهل الحجاز بفتحهما، يعني في الموضعين، {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}، بالضم، وبالفتح، وهما لغتان، والمعنى واحد عند أكثر أهل العلم، الجمهور يقولون: المعنى واحد وهما لغتان، وإن فرق بعضهم بينهما.

ما المعنى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}؟ يعني: ذات كره، ومشقة، كما يقول ابن جرير –رحمه الله–، واختار هذا أيضًا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وهذا كله بمعنى متقارب.

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا} أي: حملته على مشقة ومعاناة، وذلك أن الحمل إذا ثقل فإن ذلك يؤثر فيها غاية التأثير، كما هو معلوم في أمور كثيرة، وفي الوضع فيه من الآلام والمشقة، وذكر هذا بالنسبة للأم خاصة، يعني: الحمل والوضع، هذا كله مما تختص به الأم، والأب لا يشعر بشيء من ذلك، هذا إشارة إلى تأكد حق الأم، ولهذا جعل لها النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما سئل: أي الناس أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك ثلاثًا[١٤]، فهذا في الصحبة والمعاشرة، يعني: البر الذي يكون للأم على ثلاثة أضعاف ما يكون للأب، يعني: من التلطف والحنو واللباقة، فإذا كان الإنسان مأمورًا بالبر مع الأبوين، وأنه أطلق الإحسان –كما سبق–، فماذا عسى لو أنه ضاعفه ثلاث مرات؟ سيكون في غاية التلطف والتذلل مع أمه، يعني: إذا كان بارًّا بأبيه غاية البر لا يمكن أن يمشي أمامه ولا يدخل قبله، ولا يرفع صوته، ولا ينظر إليه شَزْرًا، كل هذا وغير هذا مع الأب، فلو ضاعفنا ذلك ثلاث مرات: كيف ستكون الحال مع الأم؟ حتى ندرك مدى التقصير الذي مُنينا به، والله المستعان.

١٤- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم: (٥٩٧١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم: (٢٥٤٨).

{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا}، وقد استدل علي -رضي الله عنه-، بهذه الآية مع التي في لقمان: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} [لقمان:١٤]، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} [البقرة:٢٣٣]: على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح.

هذا الاستنباط ماذا يسمى عند الأصوليين؟ هذا النوع من الاستنباط تحت أي نوع يدخل؟ يدخل تحت دلالة الإشارة، ليس التفسير الإشاري عند الصوفية، لا، دلالة الإشارة هي: أحد أنواع المنطوق غير الصريح، يعني: الكلام: إما منطوق، وإما مفهوم، والمنطوق: إما دلالة مطابقة، أو تضمن، أو التزام، أو إيماء وتنبيه، أو إشارة، فهذا الإشارة، والإشارة على نوعين: تارة يكون ذلك من دليل واحد، كما ذكرنا في الكلام على آيات الصيام: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة:١٨٧]، فإذا أبيح لهم الأكل والشرب والجماع إلى آخر لحظة من الليل فهذا ما دلت عليه الآية بالمعنى المطابق، لكن بدلالة الإشارة -وهي من المنطوق-: أنه لو أصبح جنبًا لصح صومه، من أين أخذناه؟ أنه إذا صح له أن يجامع إلى آخر لحظة من الليل فالغسل متى يكون؟ يكون بعد طلوع الفجر، أخذناه من دلالة الإشارة، والمقصود بها: إشارة اللفظ إلى معنًى ما سيق اللفظ من أجل تقريره، يعني: الآية: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة:١٨٧] ما سيقت من أجل بيان صحة صوم من أصبح جنبًا من غير احتلام، هل الآية سيقت من أجل هذا؟ الجواب: لا، فهذا من دليل واحد، وأحيانًا تكون دلالة الإشارة من مجموع دليلين مثل هذا، فإذا كان قوله: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا} مع الآية الأخرى: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} [لقمان:١٤] يعني: أربعة وعشرين شهرًا، فيبقى من الثلاثين للحمل إذا أخرجنا مدة الرضاع، يبقى ستة أشهر للحمل، إذًا يمكن أن يولد الولد مكتملاً ويعيش لستة أشهر من الحمل، أقل مدة الحمل، وأما أكثر مدة الحمل فهذه في الغالب تسعة أشهر، وقد يزيد، في تراجم بعض أهل العلم تجدون أن بعضهم كان حمله في سنتين، بل ذكر لبعضهم أن أمه حملت به خمس سنين.

ومن دلالة الإشارة مما يؤخذ من دليلين: وجوب إعفاء اللحية من القرآن، من آيتين في قوله: {لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي} [طه:٩٤]، قول هارون -صلى الله عليه وسلم-، فدل على أن له لحية، وأن هذه اللحية لم تكن مجرد خط أو عوارض، كما يقال، وإنما لحية كثة يمكن أن يؤخذ بها، مع آية الأنعام لما ذكر الله الأنبياء فقال: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [الأنعام:٨٤]، فقال: {وَمُوسَى وَهَارُونَ}، فهارون من الأنبياء الذين أُمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقتدي بهم، كما قال بعدما ذكر هؤلاء الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام-: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام:٩٠]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بالاقتداء بهؤلاء، وهارون -عليه الصلاة والسلام- كانت له لحية كثة.

روى محمد بن إسحاق بن يسار، عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: "تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنَة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان -رضي الله عنه- فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: وما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله -تعالى- غيره قط، فيقضي الله -سبحانه وتعالى- في ما شاء، فلما أتي بها عثمان -رضي الله عنه- أمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا -رضي الله عنه-، فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تمامًا لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي -رضي الله عنه-: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله -عز وجل- يقول: {وَحَمْلُهُ

وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا}، وقال: {يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان -رضي الله عنه-: والله ما فطنت لهذا، عليّ بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه، قال: وابتلاه الله -تعالى- بهذه القرحة بوجهه، الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات"، رواه ابن أبي حاتم[١٥]**.**

هذا لو صح، فأنتم تعرفون حال محمد بن إسحاق، لكن حتى مثل هذا، يعني: كون الرجل ولدت له لستة أشهر، ويفهم أن المرأة لا يمكن أن تلد لستة أشهر ولدًا تامًّا، وهكذا فهم عثمان -رضي الله عنه- لأول وهلة، ومن حضره من الصحابة، حتى أورد عليه عليٌّ -رضي الله تعالى عنه- ما قد سمعتم، فهل الرجل يكون ملومًا بسبب هذا؟ الرجل غير ملوم، يعني: هذا منتهاه، هذا مبلغه من العلم، وعثمان -رضي الله عنه- وافقه في أول الأمر، هذا لو صحت الرواية، فكونه عوقب بعد ذلك بظهور هذه القرحة بوجهه حتى مات، هذا فيه إشكال، يعني: هو لم يقصد الإساءة والظلم والعدوان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا فَرْوَة بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مِسْهَر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}.

يعني: مثل هذا نظر فيه إلى ظاهر اللفظ: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}**، وهذا الاستنباط له وجه ظاهر، فينقص من مدة الرضاع بقدر ما كان له من الحمل، لكن إذا نظرت إلى الآية الأخرى مجردة وهي قوله: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** [البقرة:٢٣٣]، فهذا عام أيًّا كان له من الحمل، مع أن الغالب أن الحمل يكون لتسعة أشهر، هذا هو الأصل، وما كان أقل فهو خارج عن هذا الأصل، فإذا كان الله -تبارك وتعالى- يقول هذا القول العام مع مراعاة أن الغالب تسعة أشهر **{لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}**؛ فيدل ذلك على أن إتمام الرضاعة بصرف النظر عن مدة الحمل تكون لعامين.

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ} أي: قوي وشب وارتجل، {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} أي: تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه.

بلوغ الأشد: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}**، مضى الكلام عليه عند قوله: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}** [الأنعام:١٥٢]، فما هو بلوغ الأشد؟ لاحظ هناك في اليتيم: **{حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}**، ما هو بلوغ الأشد بالنسبة لليتيم؟ بعضهم يقول: البلوغ، وبعضهم يقول غير ذلك، لكن مع قوله: **{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}** [النساء:٦]، بعضهم قيده بمرحلة عمرية، يعني: بعضهم يقول: إذا بلغ ثمانية عشر عامًا، وبعضهم يقول: إذا بلغ إحدى وعشرين سنة، لكن الأقرب أن ذلك لا يقيد بعمر معين، فبالنسبة لليتامى يُمتحنون، فلابدّ من أمرين، لابدّ من وصفين:

الأول: هو البلوغ.

١٥- أخرجه ابن أبي حاتم، في تفسيره (١٠/ ٣٢٩٣)، رقم: (١٨٥٦٦).

والثاني: حسن التصرف في المال، لقوله: **{فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا}**؛ لأن هذا هو المطلوب، وهذا قد لا يصير صفة للولد إذا بلغ الثامنة عشرة، أو العشرين، أو الخامسة والعشرين، فقد يكون سفيهًا مضيعًا، فلا يعطى المال، وذكرنا الأقوال في بلوغ الأشد ما المراد به لاسيما في مثل هذه الآية: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}**، فبلوغ الأشد كم يكون؟

بعضهم يقول: البلوغ، وبعضهم يقول: إذا بلغ الثامنة عشرة، وبعضهم يقول: الخامسة والعشرين، فالشعبي وابن زيد يقولان: إذا بلغ الحلم فهذا بلوغ الأشد، والحسن يقول: إذا بلغ أربعين سنة، يعني: كأنه فهم أن هذا العطف يوضح ما قبله، أي: قوله: **{وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}** هذا تفسير لبلوغ الأشد، وبعضهم يقول: إذا بلغ الثالثة والثلاثين.

ولما ذكر الله خبر يوسف -صلى الله عليه وسلم- وقصته وأنه صار عند امرأة العزيز قال: **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}** [يوسف:٢٢]، متى بلغ أشده هنا وهو في بيت العزيز؟ معنى ذلك: أنه لم يبلغ الأربعين بعد وقد بلغ أشده، فدل هذا على أن بلوغ الأشد لا يحد بسن معين، -والله تعالى أعلم-، ولهذا قال ابن جرير: هو تناهي قوته، واستواؤه، هذا بلوغ الأشد.

التناهي عندنا: تناهي قوة البدن، وتناهي قوة العقل، فالأطباء يقولون: إن نمو العظام مثلاً عند البنت إذا بلغت سبع عشرة سنة توقف النمو، يعني: ما يرجى أنها تطول أكثر، أو أن عظامها تحصل لها قوة زائدة، أو نحو ذلك، كذلك لو كان عندها عيوب معينة قد تنمو مع الوقت، أو نحو ذلك في العظام ينتظرون، فإذا بلغت السابعة عشرة معناها: أنه لا ينتظر بعد ذلك مضاعفات جديدة، أو نحو هذا، أما الأبناء أو الذكور فيكون إلى الحادية والعشرين ثم يتوقف نمو العظام عند الذكور، هذا بالنسبة لنمو العظام، لكن قوة البدن لا تزال تنمو، فيكتمل ذلك إلى الأربعين، أما بالنسبة للنمو العقلي فإن الإنسان إذا وصل إلى سن الواحد والعشرين مثلاً فإنه يكون قد بلغ مبلغ الرجال لا في أحكام الشرع، فأحكام الشرع إذا بلغ، يعني: وصل سن البلوغ أي: الاحتلام، وإذا لم يظهر عليه شيء من علامات البلوغ المعروفة فإنه يحكم ببلوغه إذا أتم الخامسة عشرة، باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رد ابن عمر -رضي الله عنه- ثم قَبِله، يعني: رده في بدر، ثم قبله في أحد، كان عمره أربعة عشر عامًا، فعمر بن عبد العزيز قال: يصلح أن يكون هذا حدًّا، يعني: فاصلاً بين الرجل والغلام، فإذا كمّل الخمسة عشر حتى لو ما بلغ؛ لأن بعض الأبناء أو بعض الشباب قد لا يبلغ حتى يدخل الجامعة، متى يدخل الجامعة؟ بعد الثامنة عشرة، قد حدثني بعض الناس أنه دخل الجامعة، وسجل في الجامعة، وهو لم يبلغ بعد، ولم يظهر عليه أي شيء من علامات البلوغ، فهذا يحصل وإن كان قليلاً، فمنتهى القوة البدنية واكتمال القوة البدنية إلى الأربعين، ومنتهى القوة العقلية إلى الأربعين، فيبقى في حال من التماسك لربما إلى الخمسين، ثم بعد ذلك يبدأ بالضعف والتلاشي، ويبدأ بالشيخوخة والضعف، وتبدأ الخلايا لا تتجدد في الجلد وفي غيره، فيبدأ الذبول، والنظر يضعف، والسمع، وما إلى ذلك، ولذلك يقولون: الذي لم يحصل له رشد بعد أن بلغ الأربعين لا يرجى له رشد بعد ذلك، يعني: وصل الأربعين وهو سفيه، ما ينتظر من هذا الإنسان أن يكون راشدًا عاقلاً -والله المستعان-، فهذا اكتمال العقل.

هذه الآية تضمنت معنى كبيرًا ينساه الكثيرون إذا بلغوا هذا السن، يقول الله تعالى: **{وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}**، هو جاوز مرحلة الطيش، ومراحل الغفلة، فينبغي أن يكون راشدًا بحق، ويدعو بمثل هذا الدعاء، وأن يزداد بره بأبويه، وأن يترك ما كان فيه من الجهالات، والحماقات، والسفه، وما إلى ذلك، فتكون أقواله وأفعاله واقعة على وجه الصواب، والحكمة، ومقتضى العقل، والرشد، وتصرفاته موزونة، فلا يصلح لشيء من السفه، ومخالطة السفهاء.

ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين.

ابن جرير فيما يتعلق بالرشد اختار أنه إذا بلغ الثالثة والثلاثين، بأي اعتبار؟ أولاً: هذا أحد الأقوال عند أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم، أنه إذا بلغ الثالثة والثلاثين، مع أنه لا دليل عليه، فهذا كله من الرشد، وابن جرير يقر بهذا: أن القضية لا تتقيد بسن معين، لكن يقصد في هذه الآية هنا فقط، **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}** [الأحقاف:١٥].

وباعتبار أن الأربعين ليست بتفسير لبلوغ الأشد، كما سبق عن الحسن أنه قال: إذا بلغ الأربعين، فيكون من باب التفسير له: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}**، ابن جرير يرى أن هذا مغاير لما قبله، فبلوغ الأشد يحصل قبل الأربعين، ولكن منتهى ذلك والاكتمال يكون في الأربعين.

لماذا قال: ثلاثة وثلاثين، ما قال: ثمانية عشر، أو قال: إذا بلغ الاحتلام؟ ابن جرير بنى ذلك على قاعدة وأصل عند العرب في كلامها ومخاطباتها، وهي باعتبار: أنها إذا عطفت وقتين مثلاً، أو مثل هذا عطفت وقتًا على صفة، هذه الصفة تحمل وقتًا، أو فسرت بأوقات، أو نحو ذلك، العرب تجعل الثاني قريبًا من الأول، يقول: فالثلاثة والثلاثون قريبة من الأربعين، يعني: العرب ليس من مخاطبتها، وليس من طريقتها أن تقول مثلاً: عدد القوم واحد واحتمال أنهم ألف، يعني: مثل هذا لا يقبل في الكلام، واحد واحتمال ألف المباينة بينهما كبيرة، لكن لو قلت: إنهم عشرة واحتمال اثنا عشر مقبول، لكن واحد واحتمال ألف يقال: هذا ليس من كلام العقلاء، فيقول: العطف هنا إذا قلنا: بلوغ الحلم، وهو إذا بلغ ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، يحتلم الولد، أو يصير بالغًا، أو إلى الخامسة عشرة يحكم ببلوغه، فهذا القول مع الأربعين تكون المدة بينهما بعيدة، فجعله في أقرب هذه الأعمار المذكورة، هذا وجه كلام ابن جرير، وأنه لا يبلغ منتهى الأشد حينما يكون محتلمًا، واختار ثلاثة وثلاثين؛ لأنه أحد الأقوال في بلوغ الأشد، وأنه قول صحيح، ولكنه يقر بأن ذلك مما يصدق عليه بلوغ الأشد، ولكن لماذا اختار هذا؟ لأن أقصى ما ذكر في الأعمار دون الأربعين هو ثلاثة وثلاثون، لأن بعضهم قال: خمسة وعشرين، وبعضهم قال: ثمانية عشر، وبعضهم قال: البلوغ، وبعضهم قال: الخمسين، أخذوه من قول عليٍّ -رضي الله عنه-، يروى عنه قول:

أخو خمسين مُجتمِعٌ أشُدِّي *** ....

فقالوا: بلوغ الخمسين، والواقع أن الخمسين من بلوغ الأشد، فابن جرير نظر إلى قوله: **{وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}**، فأخذ الأقرب في العدد، وقال: من عادة العرب أنها لا تجعل مباينة بين العددين، فإذا بلغ الحلم وبلغ أربعين سنة قفزة بعيدة، هذا وجه كلام ابن جرير في قوله: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}**، لكن يمكن أن

يقال: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ} أي: بلغ منتهى القوة، وأكمل الأربعين، فهذا تمام سن الرشد، وابن جرير لم يختر هذا القول من أجل أنه أعمار أهل الجنة، كما يظن البعض، وإنما باعتبار أنه أحد الأقوال في بلوغ الأشد، فهو نظر إلى الأقوال، وأعداد السنوات المذكورة، فأخذ القريب من الأربعين باعتبار هذه القاعدة أو الأصل عند العرب في مخاطباتهم، ووجوه كلامهم، راعى هذا فقط، ولم يذكر غيره.

{قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي} أي: ألهمني {أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: في المستقبل، {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي} أي: نسلي وعقبي، {إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله -عز وجل-، ويعزم عليها.

قال الله -عز وجل-: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ} أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله تعالى، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، {فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ} أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله -عز وجل- من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال تعالى: {وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}.

فيما يتصل بكلام ابن جرير الآنف، يعني: تصور لو أردنا أن ننظر إلى السياق: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ} أي: ثلاثًا وثلاثين سنة، {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي}، لكن لو بقينا على أصل كلام ابن جرير: أن الأشد هو تناهي القوة والاستواء، هذا أولى من تحديد ذلك بسن معين، يعني: حتى إذا اكتملت قواه البدنية والعقلية، {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}، هذا هو الأقرب، والله أعلم.

ولاشك أن الناس يتفاوتون في النمو الجسمي، وفي النمو العقلي، وفي الكمال في هذه الأمور، وأحيانًا تجد الشاب عمره ثماني عشرة سنة بل أقل، وإذا جلست معه كأنك جالس مع ابن أربعين، هذا شيء مشاهد، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لكن هذا قليل، والغالب الطيش، والخفة، وقصور النظر في الأشياء.

ولاشك أيضًا في الوقت نفسه أن السن له أثر، وهنا ينبغي أن يفرق بين العلم والعقل، يعني: العلم ليس هو العقل، قد يكون الإنسان من أوعية العلم، ولكن لا عقل له، وقد يكون جاوز السبعين والثمانين وعقله في خفة، كما يقال: أحلام الطير، يطيش، ويلقي الكلام على عواهنه، ولا يزن الكلمة، أو العبارة، أو الفتوى، وردود الأفعال عنده سريعة، يلقي كلمات قوية شنيعة في أمور لا تستحق؛ لمجرد ردود أفعال سريعة، بناء على شيء سمعه، أو قرأه، أو نحو ذلك، فهذا غير صحيح، وهو موجود، ومثل هذا لا يصح أن يفتي، ولا يصح أن يُرجع إليه في النوازل، والقضايا، والمصائب، والمشكلات، والبلايا التي تقع في الأمة؛ لأنه يسرع مباشرة بردود الأفعال العنيفة التي لم توزن، ومع أنه من أوعية العلم، يعني: عنده علم كثير، فالعلم وحده لا يكفي، والسن له أثر في الفتيا، وفي النظر في الأمور، وما إلى ذلك، فكون الناس يرجعون إلى من جرب الأمور، وخبرها، واستقر عقله ومداركه، هو الأفضل، وقد يكون غيره أكثر حفظًا منه، ولكن هذا السن يؤثر، وقد رُئي هذا في الناس، فقد يوجد في بعض منهم في مقتبل العمر من الحافظة والجمع للعلم أكثر بكثير ممن جاوزوا الستين وما إلى ذلك، لكن إذا سمعت كلام هؤلاء، وتقريرات هؤلاء ترى الفرق، فهذه الخبرة مع

العلم، والممارسة الطويلة للفتيا، وما إلى ذلك؛ تجد عنده من الاستقرار، وحسن النظر ما لا يوجد عند غيره؛ ولذلك ينبغي مراعاة مثل هذه الأمور، وأن الإنسان في نفسه لا يستعجل، ثم يقرر أن هذه الأشياء لا محيد عنها وإلى آخره في قضايا قابلة للأخذ والرد، فقد يغير رأيه كما هو معلوم، فالسن يؤثر.

العقل نوعان:

عقل غريزي فطري، فهذا يهبه الله -عز وجل-، ويتفاضل الناس فيه.

وعقل بالتجارب، العقل المكتسب، والله المستعان.

في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، "أوزعني" قال: **أي: ألهمني**، ابن جرير يقول: أغْرِني بشكر نعمتك، والإلهام في ألهمني أن أشكر يعني: ادفعني لذلك، أغرني به، ألهمني إياه، الأكثرون يفسرونه بالإلهام، حتى بعض من ذكر معاني قريبة مثل: الإغراء بالشيء، أو نحو ذلك، أو الدفع بهذا الاتجاه يذكرون الإلهام أيضًا: ألهمني ذلك.

{أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، يقولون: أصله من وزعتُ الرجل على كذا يعني: دفعته عليه، الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر أنه يرجع إلى معنى: ألهمني ذلك، واجعلني مُغرًى به، وكُفَّني عما سواه، فجمع بين المعنيين: أغرني وألهمني، بمعنى: وفقني لهذا، وألهمني إياه، واحملني عليه، فالإنسان يحتاج إلى أن يوفق للشيء، وأن يعان على فعله، ولذلك يقول: {أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}، ما الذي أنعمه الله -عز وجل- على والديه؟ ما هي نعمته عليه وعلى والديه؟ هي: نعمته بالخلق، وبالإيجاد، وبالنعم، ربّاهم، وغذاهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، وهداهم للإيمان، واختارهم من بين الناس ليكونوا من أهل الإيمان، وأنعم عليهم بالمال، وأنعم عليهم بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة، فهذا كله داخل تحت قوله: {نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}، ولا يقيد هذا بأن نعمته على والديه: أن الله أغراهما بالعطف والحنو عليه مثلاً، لا، بل كل النعم داخلة في ذلك.

قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ}، مضى الكلام على {أَحْسَنَ}، طيب وما حكم بقية الأعمال؟، هنا {أَحْسَنَ} أفعل تفضيل، طيب وما حكم الحسن؟

بعض أهل العلم قال في قوله تعالى: {أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}: المقصود بأفعل التفضيل هنا: مطلق الاتصاف، يعني: الحسن من أعمالهم، وهذا يأتي في اللغة، كما مضى في بعض المناسبات، وبعضهم يقول: إن "أحسن" هنا مقصودة، يعني: أفعل التفضيل باعتبار أن الأعمال التي يعملها الناس منها: ما هو المباح، ومنها: ما هو الطاعة والقربة، فالقربات والطاعات هي الأحسن.

وأما ما يتعلق بالجزاء الوارد في مواضع أخرى من كون الله -عز وجل- يجزي هؤلاء المؤمنين بأحسن ما كانوا يعملون فذاك ذكرنا فيه أوجهًا أخرى، يعني: بعض أهل العلم يقول: إنه يُرَفِّعُ لهم الأعمال، فأعمالهم بين حسن وأحسن، فيجازيهم على الحسن بالأحسن، هكذا قال بعض أهل العلم، وقيل غير ذلك، وقد سبق في مواضع من هذا التفسير، وكذلك في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر:١٨]، هناك أجوبة أخرى، ما هو أحسن ذلك؟ فقد ذكرنا هناك أن بعض أهل العلم يقولون: إن الذي

يستمعونه: يستمعون كلامًا مباحًا، ويستمعون كلامًا خيِّرًا صالحًا -فهو من قبيل المحبوب لله -عز وجل-، ويستمعون كلامًا سيئًا، فهؤلاء يتبعون أحسنه، وقيل غير ذلك.

وهنا بعضهم يقول: **{الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}** يعني: ما يتصل به الثواب، يعني: غير المباحات والأمور التي لا يتعلق بها ثواب.

{فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}، أي: هم في جملة أصحاب الجنة، هذا حكمهم عند الله.

{وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}، **{وَعْدَ الصِّدْقِ}** هذا مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، **{وَعْدَ الصِّدْقِ}** يعني: هذا الذي وعدناهم هو وعد الصدق، أو أنه مصدر لفعل محذوف، أي: وعدهم الله وعد الصدق، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحقاف من الآية (١٧) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف:١٧-٢٠].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، ولوالدينا، وللحاضرين، والمستمعين، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: لما ذكر تعالى حال الداعين للوالديْن البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين، فقال: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا}، وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف مردود؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

روى البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله عنهما- شيئًا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة -رضي الله عنها-، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي}، فقالت عائشة -رضي الله عنها- من وراء الحجاب: "ما أنزل الله -عز وجل- فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذرِي"[١].

طريق أخرى: روى النسائي عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله عنهما-: سُنَّة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} الآية، فبلغ ذلك عائشة -رضي الله عنها-

---

١ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأحقاف:١٧]، رقم: (٤٨٢٧).

فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعن أبا مروان ومروانُ في صلبه، فمروان فَضَضٌ من لعنة الله[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي}** الآية، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء...** إلى آخره، هذا هو الذي يقال له: المناسبة، هنا ابن كثير لم يصرح أن هذه هي المناسبة، ولكن هذا معروف، وهو كثير في هذا التفسير، ويُعنَى به بعض المفسرين عناية خاصة، ومن أعظمهم عناية بهذا -كما هو معلوم- البقاعي في كتابه نظم الدرر، وهذا تفسير كبير يزيد على العشرين مجلدًا، عنايته الأولى في المناسبات، يعني: وجه الارتباط بين الآية والتي قبلها، وهو نوع من أنواع المناسبات.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي}**، يقول ابن كثير: وهذا عام في كل من قال هذا، بأي اعتبار؟ باعتبار أنه لم يثبت أنها نزلت في معين -أي: أنها نزلت بسبب خاص-، فليس لها سبب نزول، وحتى لو ثبت لها سبب نزول خاص فإن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، ومن ثَمَّ فإن القول فيها باعتبار العموم من جهة أن **{الذي}** صيغة من صيغ العموم، فالعموم له صيغ لفظية كما هو معلوم، ويأتي أيضًا من جهة المعاني، ومن صيغه اللفظية: الأسماء الموصولة، مثل: الذي، ونحو ذلك، فهو بمعنى: الذين، ويدل على هذا أنه جاء بعده بصيغة الجمع؛ لأن الله -عز وجل- قال بعده: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}**، فـ**{الذين}** هنا مفسر لما قبله من قوله: **{الذي}**، وهذا كثير في القرآن.

أما ما ذكره مروان فقد ردته عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وهي أعلم بكتاب الله منه.

وقوله هنا: "**طريق أخرى: روى النسائي عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية -رضي الله عنه- لابنه..**" إلى آخره، هذه الرواية صححها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله-، وأعلّها الذهبي بالانقطاع.

وقول عائشة -رضي الله تعالى عنها- هنا: "**فمروان فَضَضٌ من لعنة الله**" يعني: قطعة من لعنة الله، باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعن أباه وهو في صلبه، يعني: قبل أن يولد مروان، فهذه أعلها الذهبي بالانقطاع، وعلى فرض صحتها فإن مثل هذا قد يقال فيه: إن لعن الوالد لا يلحق الولد ولو كان في صلبه، يعني: قبل أن يولد، فلعن الآباء لا يلحق الأبناء إذا لم يكونوا على سيرتهم وطريقتهم، قال تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [المدثر:٣٨]، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان آباؤهم من الكفار في أغلبهم، وإن وُجد بعض الصحابة من كان أبوه مؤمنًا، وجدّه مؤمنًا، لكن الغالب أن أكثرهم كفار، وبعض هؤلاء لعنهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني بعض الآباء-، ومع ذلك فإن هؤلاء الأولاد كانوا من خيار الصحابة -رضي الله عنهم-، هذا بالإضافة إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعن بعض من ذُكر له عمله ممن

---

٢ - أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة الأحقاف، قوله: **{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا}**، رقم: (١١٤٢٧)، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/٧٢٢): إسناده صحيح.

ينتسب إلى الإسلام، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أو سأل ربه أن يجعل لعْن مَن لعنه -يعني من المسلمين- أن يجعله عليه صلاة ورحمة[٣]، فإذا كان مَن توجه إليه اللعن بعينه يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، فكيف بمن جاء اللعن في حق أبيه -لو صح-؟!، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لعن أقوامًا وهم في الكفر، ولعن قبائل بأكملها، ومع ذلك أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، لكن الأصل أن المعرة والمذمة التي تتوجه إلى الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، هذه هي القاعدة، ولهذا نجد في القرآن كثيرًا: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [البقرة:٥٥]، مع أن الذين قالوا هذا هم الأجداد، وهكذا في مواضع كثيرة من كتاب الله يخاطب الله -عز وجل- بني إسرائيل بهذه الصيغ -صيغ المخاطبين-، والذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقع منهم هذا الفعل، سواء كان ذلك في مقام الذم، أو كان في مقام الإفضال، والإنعام، والامتنان، كقوله تعالى: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** [البقرة:٤٩]، وقوله: **{وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}** [البقرة:٥٧]؛ لأن النعمة الواقعة على الآباء لاحقة للأبناء، هذا هو الأصل، والعكس: المذمة التي تلحق الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم.

وقوله: {أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ} أي: أبعث، {وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي} أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، {وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ} أي: يسألان الله فيه أن يهديه، ويقولان لولدهما: {وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

هذا دليل على أن قول مروان غير صحيح؛ لأنه قال: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}**، وعبد الرحمن بن أبي بكر أسلم، فهذا يدل على أنه غير مراد، ولو حق عليه القول لما دخل في الإسلام، وذكرنا في تفسير سورة المسد أن ما ذكره الله -عز وجل- فيها من قوله: **{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}** [المسد:٣]، أن هذا حكم عليه بأنه من أهل النار؛ ولهذا لم يسلم، وهذا من إعجاز القرآن، أخبر بأمر غيبي، وتحقق، فهنا لو كان عبد الرحمن بن أبي بكر هو المراد بهذه الآية لما دخل في الإسلام، ولا يقال مثل هذا في رجل من المسلمين فضلاً عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن الناس قد يتحدثون في حال الغضب بما يكون خارجًا عن وجه الحق، والله المستعان.

وقوله: **{وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}** هذا خرج مخرج الشفقة من الأبوين على الولد؛ فإن أعظم ما يشق عليهما هو: انحراف الولد عن الصراط المستقيم، فجيء بلفظ الاستغاثة هنا.

وقوله: **{مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** يعني: أحاديث الأولين وأباطيل الأولين التي سطروها في الكتب مما لا حقيقة له، والله المستعان.

---

٣ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو سبه، أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرًا ورحمة، رقم: (٢٦٠١)، ولفظه: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة)).

وقوله: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}** يعني: وجب، أي: حقت كلمة العذاب والشقاء على هؤلاء أنهم أصحاب النار، وأنهم لا يؤمنون كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [السجدة:١٣]، وقال: **{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** [يس:٧].

وقوله: {أُولَئِكَ} بعد قوله: {وَالَّذِي قَالَ} دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك، وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} أي: لكلٍّ عذابٌ بحسب عمله.

قوله: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ}** يعني: مراتب عند الله -عز وجل- يوم القيامة بأعمالهم، يعني: أهل الإيمان، والكفار، أصحاب الجنة، وأصحاب النار، هؤلاء **{لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ}**، فهم بحسب أعمالهم يتفاوتون غاية التفاوت، أهل الإيمان يتفاوتون، وأهل الكفر يتفاوتون، فالجنة كما أنها درجات كذلك النار هي أيضًا دركات، ومثل هذا يدل على أن الدرجات تقال للدركات، فإن السفول في النار -أعاذنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منها- دركات، فعبر عنه هنا بالدرجات، فمراتب الانحطاط والانحدار والسفول يقال لها: درجات في الانحراف، درجات في الضلال، درجات في الشقاء والعذاب، فهم ليسوا على مرتبة واحدة، والله -عز وجل- أخبر أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

والتنوين في قوله: **{لِكُلٍّ}** تنوين عوض، أي: لكلٍّ من المؤمنين والكفار أو لكل من المذكورين درجات.

{وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوًّا.

وقوله -عز وجل-: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم -وبّخهم وقرعهم-: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}، وقال أبو مجلز: ليفقدنّ أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}**، هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**يقال لهم: أذهبتم طيباتكم**"، فلم يتكلم عن هذا المقطع.

وبعضهم يقول: أي: يقربون منها، فينظرون إليها، فيقال لهم عند ذلك، يعني: أن الذين كفروا هم الذين يعرضون على النار، ومعنى يعرضون: يقربون منها، فيرونها أمامهم، فيقال لهم عندها.

وبعضهم فسر **{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}** يعني: يعذبون، تقول: عرضت الذهب على النار يعني: أنك أحرقته فيها، أدخلته فيها، وهكذا في قولهم: عرضه على السيف.

وبعضهم يقول: الكلام فيه قلب، فقوله: **{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}** يعني: أن النار هي التي تعرض عليهم، والقلب أسلوب من أساليب العرب في كلامها ومخاطباتها، هذا أسلوب معروف يعرفه أهل البلاغة، وله شواهد يذكرونها من القرآن، ومن كلام العرب في شعرهم ونثرهم، وهذا القول مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، يقولون: مثل قول القائل: عرضتُ الناقة على الحوض، يقولون: الأصل

عرضْتُ الحوض على الناقة، ويقولون هكذا أيضًا في قوله تعالى: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} [الكهف:١٠٠]، هذا مثل هذا الموضع، فبعضهم يقول: إن هذه الآية تكون مفسِّرة، فقوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} لا تكون مقلوبةً إذا قيل: إن هذا الموضع الذي في سورة الأحقاف مقلوب، وهو قوله: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}، ففي سورة الكهف قال: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} فهي التي تعرض عليهم، فيكون ذلك من قبيل تفسير القرآن بالقرآن.

قوله: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} يعني: يقال لهم ذلك، واختصر؛ لأن العرب تختصر من الكلام ثقة منها بفهم السامع، وهذا له أمثلة كثيرة.

{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ} أي: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، وقرأ هذا الحرف ابن كثير –رحمه الله– بهمزتين مخففتين: {أَأَذْهَبْتُمْ}، ويكون على سبيل الاستفهام، والعرب –كما يقول بعض أصحاب معاني القرآن كالفراء والزجاج– توبخ بالاستفهام، وبغيره، فقوله: {أَأَذْهَبْتُمْ} تكون الهمزة الأولى همزة الاستفهام، أي: يوبخهم، وعلى القراءة الثانية: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} بهمزة واحدة، فلا يكون ذلك من قبيل الاستفهام، وعلى كلا القراءتين يكون ذلك توبيخاً لهم.

قوله: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} يوبخون بهذا.

ابن كثير –رحمه الله– نقل عمن قال من السلف: **ليفقدنّ أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}**، وقبله يقول: **وقد تورع أمير المؤمنين عمر –رضي الله عنه– عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ}**.

هذه مسألة معروفة: هل الاستمتاع بالطيبات في الدنيا والتوسع في الملذات يكون على حساب النعيم الأخروي أو لا؟

هذه الآية في الكفار، فالكفار جاءت الآيات الكثيرة بأنهم يتمتعون، وأن الله يمتعهم قليلاً، ثم بعد ذلك يضطرهم إلى عذاب النار، لكن بالنسبة لأهل الإيمان: هل ما يتعاطونه من اللذات والطيبات يكون نقصًا في نعيم الآخرة؟ عمر –رضي الله تعالى عنه– كان يتحرز من التوسع في المباحات واللذات احتجاجًا بهذه الآية، والصحابة –رضي الله تعالى عنهم– نُقل عن بعضهم: أنه كان يتخوف أن تكون قد عجلت له حسناته في الدنيا، لما صاروا إلى حال من السعة، والغنى، بعدما قضى أصحابهم من الأولين –رضي الله عنهم–، كمصعب بن عمير، وحمزة، وأمثال هؤلاء –رضي الله عنهم–، ممن ماتوا في أول الهجرة، أو ماتوا قبل الهجرة وكانوا في حال من الشدة، ولم يروا تلك الفتوح وما أفاض الله –عز وجل– على المسلمين من جراء ذلك، فكان بعض الصحابة يبكي، جاء هذا عن بعضهم كصهيب الرومي –رضي الله عنه–، وغيره.

وهذا القول وإن قال به بعض السلف إلا أن الجمهور على خلافه –الجمهور من الصحابة فمن بعدهم–، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((حُبب إليّ من دنياكم: النساء والطيب))[٤]، وكان –صلى الله عليه

---

٤ – أخرجه أحمد، رقم: (١٢٢٩٣)، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم: (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، رقم: (٣١٢٤).

وسلم- يحب الحلو البارد[٥]، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأكل ما تيسر، والله -عز وجل- يقول: **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [الأعراف:٣٢]، فهم كما يشاركهم فيها غيرهم من الكفار في الدنيا إلا أنها تكون خالصة لهم يوم القيامة، فهذا الذي عليه الجمهور أن ذلك لا يكون نقصًا في نعيمهم في الآخرة، وفي حديث أنس عند مسلم: ((إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها))، وفي لفظ: ((إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته))[٦]، فهذا يدل على هذا المعنى: أن ذلك لا يكون نقصًا لنعيمهم في الآخرة، والشاطبي -رحمه الله- تكلم على هذا المعنى في الموافقات، وتكلم عليه أيضًا غيره، لكن ابن القيم -رحمه الله- له كلام من وجه آخر فيمن تعاطى اللذات المحرمة، هل يحرم في الجنة من هذا النوع من اللذات؟ الحديث دل على أن من شرب الخمر في الدنيا ثم مات ولم يتب فإنه لا يشرب من خمر الآخرة[٧]، هذا في الخمر خاصة، لكن هل يقال ذلك في غير الخمر؟ يعني: مثلاً الذي يلبس الحرير من غير عذر في الدنيا، ما حكمه؟ الذي جاء فيه النص لا إشكال في ذلك، لكن ما لم يرد فيه نص كالذي يزني، ويموت وما تاب، هل يقال: إنه لا يكون له من جنس هذا النعيم، أعني: الوقاع في الجنة، فلا يتمتع بالحور العين، ونحو ذلك؟، ظاهر كلام ابن القيم -رحمه الله-: أنه يحرم من النعيم الذي يكون من هذا القبيل، وهذا يحتاج إلى دليل، وهذه الأمور لا يجري فيها القياس.

وقوله -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}، فجوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم، واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي جازاهم الله -تبارك وتعالى- بعذاب الهون، وهو: الإهانة، والخزي، والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله -سبحانه وتعالى- من ذلك كله.

قوله هنا: **{فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}** يعني: الهوان، **{بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ}** الباء هذه سببية، يعني: بسبب استكباركم، **{فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}**، هل يوجد أحد يستكبر في الأرض بحق؟.

---

٥ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٤١٠٠)، والترمذي، أبواب الأشربة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أيّ الشراب كان أحب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ رقم: (١٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، رقم: (٤٦٢٧).

٦ - أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم: (٢٨٠٨).

٧ - أخرجه البخاري، كتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: **{إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون}** [المائدة: ٩٠]، رقم: (٥٥٧٥)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، رقم: (٢٠٠٣).

الجواب: لا يوجد استكبار في الأرض بحق، فهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران:٢١]، هل هناك أحد يقتل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بحق؟ لا يوجد، وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [المؤمنون:١١٧]، فهل هناك أحد يدعو مع الله إلهًا آخر له فيه برهان؟ لا، فمقتضى مفهوم المخالفة -وهو حجة عند الجمهور كما هو معلوم- أن من دعا غير الله ببرهان فلا حرج عليه، من قتل الأنبياء بحق فلا حرج عليه، أليس كذلك؟ هذا مقتضى مفهوم المخالفة؛ إلا أن مفهوم المخالفة لا يحتج به في نحو سبعة أو ثمانية مواضع، من هذه المواضع: أن تكون الآية نزلت على وفاق الواقع، يعني: لا يوجد أحد يقتل نبيًّا بحق، لا يوجد أحد يدعو مع الله إلهًا آخر ببرهان، فلا تكون هذه الصفة مقيدة، فلا مفهوم لها، وإنما هي صفة كاشفة، تكشف عن حقيقة الأمر؛ لأنه لا يكون إلا كذلك أصلاً، كقوله تعالى: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩] هل هناك أحد يكتب بغير يده؟ وقوله: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ} [آل عمران:١٦٧]، وقوله: {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام:٣٨]، الطائر يطير بماذا؟ يطير بجناحيه، فهي صفة كاشفة، ومن ثَمَّ المخالفة لا مفهوم لها، فهنا حينما يقال لهؤلاء: {بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} لا مفهوم للمخالفة؛ لأنه لا يوجد أحد يستكبر في الأرض بحق؛ لأن الاستكبار لا يصلح للمخلوق.

{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [الأحقاف:٢١-٢٥].

يقول تعالى مسلياً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذب من قومه: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ}، وهو هود -عليه الصلاة والسلام-، بعثه الله -عز وجل- إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حِقْف وهو: الجبل من الرمل، قاله ابن زيد، وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار، وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}، ابن كثير -رحمه الله- يقول: **يقول تعالى مسليًا لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب...** على هذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- يكون المعنى: {وَاذْكُرْ} يعني: في نفسك، الله يذكّره بهذا؛ ليصبره؛ ليسليه؛ ليخفف عنه، فيذكر له من قصص الأنبياء ما يكون به سلوة، أي سار على هذا الطريق وسلكه سالكون قبلك من الأئمة الكبار في الهدى ممن يقتدى بهم، ولقوا من أقوامهم ما لقوا من التكذيب والأذى، فلست بواحد في سلوكه، ومن ثَمَّ فيكون ذلك بمعنى: {وَاذْكُرْ} أي: في نفسك، ولكن يحتمل أيضًا أن يكون المراد: {وَاذْكُرْ} أي: لقومك؛ ليتعظوا ويعتبروا وينزجروا بما وقع لغيرهم، فالعاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فهذه السورة مكية والنبي -صلى الله عليه وسلم- لقي منهم من التكذيب ما لقي، وهم يعرفون خبر هؤلاء، وذلك في جزيرة العرب، فيذكرهم بذلك ويخوفهم؛ ليتعظوا، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، ويمكن

أن يكون ذلك مرادًا بحيث إن الله -عز وجل- يسليه بذلك ويذكره، وكذلك أيضًا يذكّر هؤلاء، فقد أخبر الله -عز وجل- عن قصص هؤلاء المكذبين وغير المكذبين: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ}** [يوسف:١١١]، يعتبر بها أهل الإيمان من أولي الأبصار والبصائر، وكذلك أيضًا يكون في ذلك من تثبيت فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}** [هود:١٢٠]، فإذا نزل عليه الوحي، وذكر له من أحوال هؤلاء الكبار حصلت له سلوة، إذا كان الإنسان يقول لغيره: ما وقع لك قد وقع لفلان، ووقع لفلان، ووقع لفلان ممن يقتدى بهم ويتأسى بهم فإن مثل هذا لا شك أنه يخفف عنه، فكيف إذا كان الله -تبارك وتعالى- هو الذي يقول له هذا، وينزل عليه به جبريل -صلى الله عليه وسلم-، ونزول الملك بحد ذاته فيه من التثبيت ما لا يخفى.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ}** هنا لم يسمه، ولكنه جاء في مواضع أخرى من كتاب الله -تبارك وتعالى- مصرحًا به، كقوله تعالى: **{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}** [الأعراف:٦٥]، والأخوّة هنا المراد بها: الأخوة في النسب؛ لأنه كان من نفس القبيلة، والأخوة كما سبق في بعض المناسبات تارة تقال للأخوة في النسب، كما في هذا الموضع، و تارة تقال للأخوة في الإيمان: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات:١٠]، وهذا هو الأكمل في إطلاقاتها، وتقال أيضًا للمتشاكلين في أمر من الأمور، المتشابهين فيها: **{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}** [الإسراء:٢٧]، وقد تقال أيضًا لمن اشتركوا في أمر، كسكنى بلد، أو نحو ذلك، وهو أحد الأقوال في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب: **{وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [الأحزاب:١٨]، بعضهم يقول: إنهم من نفس القبيلة، وبعضهم يقول: **{وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ}** يعني: من المنافقين، فهذه أخوة في الاعتقاد، وبعضهم يقول: باعتبار أنهم في بلد واحد، فصاروا بهذا إخوة، فيصح إطلاق ذلك عليهم.

وقوله: **الأحقاف جمع حِقْف وهو: الجبل من الرمل، قاله ابن زيد، وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار، وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.**

الأحقاف: الذي عليه الجمهور أنها التي بأرض اليمن، والمقصود بها: الكثبان من الرمل، مثل الجبال من الرمل، وحال الربع الخالي معروف، فهي أمثال الجبال، ولهذا يقول الخليل: إن الأحقاف هي جمع حقف، وهو: الرمل العظيم المستطيل المعوج، وهذه معروفة، فهي أمثال الجبال، والطريق الذي يكون بينها يكون أشبه ما يكون بالطرق التي تكون بين الجبال تمامًا، وهي تلزم أماكنها عادة، يعني: هذه المنعطفات التي فيها ونحو ذلك باقية ثابتة، فلو جاء أحد وغير فيها ونحو ذلك عادت ورجعت، وهذا يدل على أنها لم تتغير من زمن هود -صلى الله عليه وسلم-، يقول كثير من المؤرخين: إن عادًا من العرب البائدة، فهم كانوا في القدم، ومع ذلك هذه التضاريس كما هي، مع أن أسرع شيء في التحول والانتقال ببادي الرأي هو الرمال، هذه التي يسمونها الرمال المتحركة، فإذا كانت في هذا الموضع من ذلك الحين فهذا يدل على عدم التغير، والمدة التي كانت بين هود -صلى الله عليه وسلم- وبين نوح ليست ببعيدة نسبيًّا إذا ما قرن هذا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني: هو أقرب إلى زمان نوح منه إلى عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا كانت التضاريس لم تتحول ولم تتغير فهذا يدل على أن ما يذكره أهل الجيولوجيا وعلوم الأرض وما إلى ذلك أن هذا الكلام فيه نظر من أنها تحولت وتغيرت وإلى آخره، الله أعلم كيف يكون ذلك، ومتى يكون، لكن ليس هذا بهذه

السهولة، إذا كانت كثبان الرمل باقية من ذلك الحين إلى اليوم، يعني: لم يندفن مثلاً اليمن أو حضرموت بهذه الكثبان، وزحفت عليه إلى البحر، هي باقية من ذلك الحين، وهذا موضعها، فلم تنتقل مع أنه ليس فيها نبت يذكر، وما يحجزها من التحول.

ابن زيد روايته الأخرى التي هي أكثر وضوحًا يقول: هي رمال مبسوطة مستطيلة، كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً، وبنحو هذا قال ابن جرير، وعن عطاء: رمال بلاد الشِّحْر، والشحر معروفة إلى اليوم بحضرموت، لكن ما يذكر من أن قبر هود -صلى الله عليه وسلم- موجود هناك، ويعظم، ويعبد من دون الله هذا لا يثبت، كما قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: لا يثبت شيء من قبور الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مطلقًا، لا في الشام، ولا في غيرها، إلا قبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا يوجد مكان في بلاد الشام يقال أيضًا: إنه قبر لهود -صلى الله عليه وسلم-، وهود -صلى الله عليه وسلم- لم يذهب إلى الشام، مع أنه وجد من المفسرين والمؤرخين من قال: إن الأحقاف ثمّة في بلاد الشام، ومقاتل يقول: هي في اليمن، في حضرموت، وهذا كله يرجع إلى معنى واحد.

وفي كلام العرب أسماء يطلقونها على مثل هذه الكثبان الرملية، لكل منها اسم بحسبه، الطويل الممتد له اسم، المستعلي الذي كأنه قمة جبل له اسم، الذي فيه انبساط له اسم، المطمئن في الأرض له اسم، فهذا يدل على سعة لغة العرب.

قوله: {إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ} أي: وقد مضت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والرسل {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}.

قال ابن ماجه: باب إذا دعا فليبدأ بنفسه، ثم روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يرحمنا الله وأخا عاد))[٨].

وقوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى مَن حولْ بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله -عز وجل-: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [البقرة:٦٦]، وكقوله -جل وعلا-: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [فصلت:١٣-١٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} يحتمل معنيين:

الأول: ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} يعني: من النواحي، فأرسل الله -عز وجل- لهؤلاء الأقوام المجاورين رسلاً يدعونهم إلى الله، وإلى توحيده.

والمعنى الثاني: {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} يعني: قبله وبعده، فهو واحد في سلسلة من هؤلاء الأنبياء الكرام، والرسل العظام -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا الذي مشى عليه الفراء -رحمه الله-، ويدل عليه قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه-، وهي قراءة غير متواترة: {من بين يديه ومن بعده}، وقلنا: إن

---

٨ - أخرجه ابن ماجه، أبواب الدعاء، باب: إذا دعا أحدكم فليبدأ بنفسه، رقم: (٣٨٥٢)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٠/ ٣٧٧)، رقم: (٤٨٢٩).

القراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، فقوله: **{مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}** يعني: من بين يديه ومن بعده، يعني: في الزمن، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين، ولم يوجد ما يمنع من حملها عليهما فإنها تُحمل، فلو قال قائل: إن ذلك جميعًا حاصل فالله -عز وجل- أرسل لهم الرسل من حولهم، وكذلك سبقه رسل، وجاء بعده رسل، فهذا كله صحيح، والله تعالى أعلم.

{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: {أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا} أي: لتصدنا عن آلهتنا.

يعني: لتصدنا، لتصرفنا، لتُزيلنا، لتمنعنا مثلاً، كل هذه العبارات ترجع إلى شيء واحد، هكذا عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- في قوله تعالى: **{لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا}**.

{فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم وقوعه، كقوله -جلت عظمته-: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى:١٨].

{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ} أي: الله أعلم بكم، إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به.

كذلك أيضًا في قوله: **{إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ}** يعني: متى يأتيكم العذاب، هل يعجل لكم في الدنيا، أو يؤخر، ومتى وقته، كل ذلك عند الله -تبارك وتعالى.

{وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} أي: لا تعقلون، ولا تفهمون.

قال الله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ} أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا مُمْحلين محتاجين إلى المطر.

قوله: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ}**، الضمير هنا يرجع إلى ماذا؟

بعضهم يقول: يعود إلى **{مَا}** في قوله: **{فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}**، وهو العذاب، **{فَلَمَّا رَأَوْهُ}** يعني: العذاب الذي وعدهم به، فيكون الضمير عائدًا على مذكور قبله، يرجع إلى **{مَا}**.

وبعضهم يقول كالزجاج والمبرد: إنه يعود إلى غير مذكور يفهم من السياق، ويدل عليه قوله: **{عَارِضًا}**، في قوله: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ}** وهو: السحاب.

فعلى الأول: أنه العذاب، وعلى الثاني: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا}**، هم ماذا رأوا؟ هم رأوا السحاب الذي في ضمنه العذاب، أو الذي حقيقته العذاب، يعني: هم كانوا يظنون أن الذي يرونه من قبيل السحاب، والواقع أنه عذاب، والسحاب يقال له: عارض؛ لأنه يعرض في الأفق، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: إن السحاب في العشيّ يكون في السماء أو في الأفق، ثم بعد ذلك من الغد يزحف بعضه إلى بعض، فيجتمع، فيقال له: عارض، فظنوا أن هذا سحاب يمطرون به، على كل حال: السحاب يقال له هذا؛ لأنه يعترض في الأفق.

قال الله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: هو العذاب الذي قلتم: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

قوله: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ}، من الذي قال هذا؟ هل هو الله -تبارك وتعالى-، أو أنه هود -صلى الله عليه وسلم-؟ هذا يحتمل، يعني: لما قالوا: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} أجابهم فقال: بل هذا هو العذاب الذي استعجلتم به، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

{تُدَمِّرُ} أي: تخرب، {كُلَّ شَيْءٍ} من بلادهم مما من شأنه الخراب.

يعني: هذا كما سبق في عدد من المناسبات "كل" أقوى صيغة من صيغ العموم، "كل" و"جميع"، فقوله: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}، قال مع ذلك: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}، فمساكنهم ما تدمرت، والأصوليون يقولون: هكذا الجبال والسموات والأرض ما دمرت، فهذا الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله-: العموم الاستعمالي، وقد سبق الكلام على هذا، والمراد: أن العرب قد تعبر بالعموم، ويَفهم مَن خاطبته أن المراد في كل موضع بحسب ما يصلح له، وذكرنا لكم أمثلة في قوله -تبارك وتعالى- عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [النمل:٢٣]، وقلنا: ما أوتيت ملك سليمان -عليه السلام- مثلاً، وإنما أوتيت من كل شيء مما يصلح لملكها ويقيمه، وكذلك في قوله عن مكة الحرم: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [القصص:٥٧]، وتوجد ثمرات في الدنيا لا تجبى إليه، وهذا معروف، وما اعترض أحد من هؤلاء العرب الأقحاح على ذلك.

ومن ثَمَّ فإن الأصوليين قالوا: إن العقل يخصص، والحس يخصص، قالوا هنا: السموات والأرض والجبال ما دمرت، خصصه الحس؛ لأننا نشاهدها، يقال: هذا فيه نظر؛ لأن الأصوليين يطلقون أمثال هذا ويقصدون به توهين النصوص، باعتبار أن الذي لم يرد فيه مخصص لفظي من العمومات خصصته مخصصات أخرى، والعموم عندهم إذا دخله التخصيص أضعفه، ومن ثَمَّ يقولون: فإن هذه النصوص من الوحي الكتاب والسنة ما ثبت منها بالآحاد فهو ظني، وما ثبت منها بالتواتر فهو قطعي الثبوت ظني الدلالة، باعتبارات معينة، منها: أن أكثرها عمومات، ويقولون: إن العام الباقي على عمومه نادر، وهذا كلام كله غير صحيح، ولهذا زهدوا في النصوص والوحي، وصاروا يشتغلون بالمقاييس العقلية، ومقاييسهم العقلية هذه في الواقع لا تفيد علمًا ولا يقيناً، بل أورثتهم الحيرة والشك، وكثر بينهم التفرق والاختلاف، فلو كانت تفيد اليقين لما اختلفوا فيها هذا الاختلاف، ولأورثتهم اليقين.

{بِأَمْرِ رَبِّهَا} أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله -سبحانه وتعالى-: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات:٤٢] أي: كالشيء البالي؛ ولهذا قال -عز وجل-: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية، {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

يعني: بعدما ذكر خبر هؤلاء جاء بالحكم العام؛ ليدخل فيه كل من كان بهذه الصفة، فذلك لا يختص بهم، فالله -تبارك وتعالى- يذكر ذلك عظة وعبرة للمكذبين، والله المستعان.

انظر إلى هؤلاء العتاة الذين أعطاهم الله قوة، وتمكيناً، وبسطة في الأجسام، كما قال الله: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [الأعراف:٦٩]، أهلكوا بالريح التي هي هذا الهواء اللطيف حينما يشدد فيدمر كل شيء، وقوم نوح -صلى الله عليه وسلم- أهلكوا بالماء الذي هو ألطف الأشياء، وهكذا فرعون، وهكذا الإهلاك بالصيحة،

يعني: بهذه الأمور: الماء، والهواء، والصوت الشديد المزعج المرتفع المهلك، صوت ويموت الخلق، بهذا الماء يغرقون، أو بهذا الهواء، فما أضعف الخلق وأهونهم على الله –تبارك وتعالى– إذا عصوا أمره!.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: ما رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، وقَالَتْ: وكَانَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إِذَا رَأَى غَيْمًا –أَوْ رِيحًا– عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن النَّاس إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}))، وَأَخْرَجَاهُ[٩].

روى الإمام أَحْمَدُ: عَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ))، فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ حَمِدَ اللَّهَ –تعالى–، وَإِنْ أَمْطَرَ قَالَ: ((اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا))[١٠].

وقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ))، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَت السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَمْطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ –رضي الله عنها–، فَسَأَلَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: ((لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}))[١١].

وَقَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ هَلَاكِ قوم عَادٍ فِي سُورَتَي "الْأَعْرَافِ" و"هُودٍ" بما أغنى عن إعادته هنا، ولله تعالى الحمد والمنة.

يعني: إذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يحصل له مثل هذا الخوف –وهو أتقى الأمة لله– إذا رأى السحاب فكيف إذا حصل كسوف، أو خسوف، أو حصلت ريح عاتية، أو نحو ذلك من الأمور التي توجب الخوف؟، يعني: السحاب إذا رآه الناس فرحوا، لكن كيف تكون الحال إذا رأى أمرًا مما يخاف منه الناس؟، بهذا يعرف الإنسان قدر الغفلة التي مُني بها.

---

٩ – أخرجه أحمد، رقم: (٢٤٣٦٩)، والبخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم}** [الأحقاف: ٢٤]، رقم: (٤٨٢٩)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم: (٨٩٩).

١٠ – أخرجه أحمد، رقم: (٢٥٥٧٠)، وأبو داود، أبواب النوم، باب ما يقول إذا هاجت الريحُ، رقم: (٥٠٩٩)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

١١ – أخرجه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم: (٨٩٩).

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف:٢٦-٢٨].

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْلَهُ، وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ.

هذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أن: {إِنْ} نافية، و{مَا} موصولة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} يعني: مكناهم فيما لم نمكن لكم فيه، مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من المال، وطول الأعمار، وقوة الأبدان، إلى غير ذلك من أسباب القوة والتمكين، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقال به من أصحاب المعاني المبرد، ومن المعاصرين أيضًا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، فقد رجح هذا القول.

وبعضهم كابن قتيبة يقول: إن {إِنْ} زائدة، وهذا صحيح في لغة العرب، ولكن الأول أرجح، والأصل عدم الزيادة، وسيتغير المعنى تمامًا إذا قلت: إن {إِنْ} هذه صلة للتوكيد، فيكون المعنى: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه، يعني: مكناهم في هذا التمكين الذي مكناكم، أي: تمكيناً كالذي مكناكم فيه، فأهلكناهم، يعني: ابتليناهم بهذا التمكين، فكفروا، فأهلكهم الله -عز وجل-، ولكن نصوص القرآن الكثيرة تدل على أن الأولين كانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض، فهي تدل على المعنى الأول، ولا تدل على هذا المعنى، وإن كان ذلك مما يصح وجهه من جهة العربية، أي القول بأنها زائدة، لكن المعنى في الآية الراجح أنه الأول.

وبعضهم يقول: إن {إِنْ} هذه شرطية، {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} أين الجواب إذا كانت شرطية؟ يقولون: مقدر محذوف، يعني: فيما إن مكناكم فيه طغيتم وكفرتم وتجبرتم، وهذا أضعف هذه الأقوال الثلاثة، والله أعلم.

{وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أَيْ: وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَالنَّكَالُ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ، وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ، أَيْ: فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ بِالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَادٍ وَكَانُوا بِالْأَحْقَافِ بِحَضْرَمَوْتَ عِنْدَ الْيَمَنِ، وَثَمُودَ وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ، وَكَذَلِكَ سَبَأٌ وَهُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، وَمَدْيَنُ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرِّهِمْ إِلَى غَزَّةَ، وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: {وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ} أَيْ: بَيَّنَّاهَا وَوَضَّحْنَاهَا، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً} أَيْ: فَهَلَّا نَصَرُوهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ.

قوله: {فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً} الفعل: "اتخذ" يطلب مفعولين، أين المفعول الأول؟، وأين المفعول الثاني؟، هل المفعول الأول "قربانًا"، والثاني "آلهة"؟، هذا قال به بعض المفسرين كابن

عطية، وأبي حيان، مع أن أبا حيان -كما هو معلوم- قد انتفع انتفاعًا كبيرًا بتفسير ابن عطية إلا أنه كثير المخالفة والمناقشة له، لكنه هنا وافقه في هذا الموضع.

وبعضهم يقول: إن المفعول الأول لـــ"اتخذوا" هو: ضمير راجع إلى الموصول، يقول: الاسم الموصول في قوله: {فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا} فالضمير يرجع إلى الذين، فيكون هذا هو المفعول الأول، والمفعول الثاني "آلهة"، و"قربانًا" حال، أي: اتخذوها قربانًا، متقربين بها إلى الله، والقربان: كل ما يتقرب به من نسيكة وغير ذلك، فهؤلاء عبدوا هذه المعبودات طلبًا للزلفى والتقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، لتشفع لهم.

{بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} أَيْ: بَلْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ، {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ} أَيْ: كَذِبُهُمْ، {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أَيْ: وَافْتِرَاؤُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ آلِهَةً، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

قوله: {ضَلُّوا عَنْهُمْ} أي: ذهبوا عنهم، غابوا عن نصرهم، لم ينفعوهم، لم يشفعوا لهم، وهذا الذي دل عليه القرآن في مواضع كثيرة، بل هذه الآلهة تتبرأ منهم.

وبعضهم يقول: إن الضمير في قوله: {بَلْ ضَلُّوا} راجع إلى الكفار، يعني: أنهم في ذلك اليوم يتنصلون ويتبرءون من الأصنام، ولا يلتفتون إليها؛ لأنهم قد عرفوا بطلان ما ادعوا فيها من الإلهية، والله -عز وجل- يذكر هذا في القرآن، ويذكر أيضًا تبرؤ الأتباع من المتبوعين، والأول هو الذي اختاره ابن جرير، وهو المتبادر: {بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} يعني: ضلت هذه المعبودات عن عابديها، ذهبت، وتلاشت، واضمحلت، فلم تنفعهم بنافعة.

قوله: {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ} أي: كذبهم، يعني: بزعمهم أنها آلهة، وأنها تقربهم إلى الله، فلم يحصل شيء من ذلك.

قوله: {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياها آلهة، فقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأحقاف من الآية (٢٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}. [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

يقول: روى الإمام أحمد، عن الزبير: "{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}، قال: بنخلة، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي العشاء الآخرة، {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن:١٩]، قال سفيان: ألْبَدَ بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض" تفرد به أحمد[(١)].

يقول: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} لما بيَّن الله -تبارك وتعالى- أن في الإنس من آمن، ومنهم من كفر بيَّن أن الجن كذلك، هذا وجه من الارتباط بين الآيات وما قبلها، وبعضهم كابن جرير يذكر أن ذلك على سبيل التقريع لكفار قريش، لما كفروا، وأعرضوا، فقرعهم الله -عز وجل- بذلك، فذكر لهم خبر الجن، وكيف كانت استجابتهم.

فقوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ}، {صَرَفْنَا} يعني: وجهنا، وبعثنا إليك، {نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} النفر: دون العشرة، {يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}.

قال: بنخلة.

الموضع المعروف قرب مكة، وهو: وادي نخلة.

قال: ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي العشاء.

يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في طريقه إلى عكاظ، إلى الطائف، فلما كان بوادي نخلة يصلي بأصحابه اجتمع الجن واستمعوا لقراءته، وذلك كما في السياق الآخر الذي أورده ابن كثير في الرواية التي عند الإمام أحمد وغيره، قال:

"وقال الإمام أحمد، والإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ما قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الجن، ولا رآهم، انطلق رسول الله

---

١ - أخرجه أحمد، رقم: (١٤٣٥)، وقال محققو المسند: "حسن لغيره".

-صلى الله عليه وسلم- في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو بنخلة، عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، -لاحظ هناك قال: صلاة العشاء- فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا -والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: يا قومنا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن:١- ٢]...".

يعني: انظر: هذا في سورة الجن، وعلى هذه الرواية يكون ذلك جميعًا في واقعة، يعني: أن ما في سورة الأحقاف وما في سورة الجن أن ذلك في واقعة واحدة، كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعلم بهم، فالله -عز وجل- صرفهم إليه؛ ليستمعوا القرآن: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}، فلم يشعر بمجيئهم، ولا باستماعهم حتى أوحى الله إليه: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ}، فذاك إعلام له باستماعهم، فيكون ما في سورة الأحقاف وما في سورة الجن كل ذلك في واقعة واحدة، هذا على قول بعض أهل العلم، وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهو ظاهر رواية ابن عباس -رضي الله عنهما.

قال: "وأنزل الله على نبيه -صلى الله عليه وسلم- {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ}، وإنما أوحي إليه قول الجن...".

يعني: هناك أخبره: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}، وفي سورة الجن أوحى إليه بما حصل من استماعهم: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}، يعني: أنه لم يسمعهم، ولم يكن ذلك في واقعتين.

قال: "رواه البخاري بنحوه، وأخرجه مسلم، ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير"[٢].

قال ابن كثير: "وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: هبطوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قال: صه...".

يعني: اسم فعل بمعنى: اسكت.

---

٢ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٢٧١)، والبخاري، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، رقم: (٧٧٣)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم: (٤٤٩)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الجن، رقم: (٣٣٢٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة الجن، رقم: (١١٥٦٠)، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب المبعث، باب ذكر إسلام الجن، وما ظهر في ذلك من آيات المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم-.

قال: "وكانوا تسعة...".

ونحن عرفنا أن النفر ما دون العشرة.

قال: "أحدهم زوبعة...".

يعني: أن اسمه زوبعة.

قال: "فأنزل الله -عز وجل-: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}، إلى قوله: {ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٣].

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس -رضي الله عنهما- يقتضي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قومًا بعد قوم، وفوجًا بعد فوج.

يعني: من أهل العلم من يرى أن الجن وفدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في غير ما مرة، فما وقع في سورة الأحقاف هذه إحدى المرات، وما وقع في سورة الجن في مرة أخرى، ولربما يفهم ذلك من بعض الروايات، فالحاصل: أن أهل العلم منهم من يرى أن ذلك كان في واقعة واحدة، أي: لم يشعر بهم، وأنه أعلمه الله -عز وجل- بذلك، كما في سورة الجن، وبعض أهل العلم يرى أن ذلك قد تكرر وتعدد، ولعله يأتي مزيد إيضاح لذلك -إن شاء الله.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ}**، حضروا ماذا؟ يحتمل أن يكون: حضروا القرآن، وهذا هو الأقرب؛ لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، قال تعالى: **{يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ}** أي: حضروا القرآن.

وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- **{فَلَمَّا حَضَرُوهُ}** أي: حضروا النبي -صلى الله عليه وسلم-.

على كل حال: الأمر مقارب، يعني: لا إشكال فيه -إن شاء الله-، فمثل هذا لا يحتاج إلى ترجيح؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ القرآن، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله- عبر عن هذا المعنى بقوله: فلما حضروا القرآن ورسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يتلوه، فحضروه: حضروا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتلو، أو حضروا القرآن، لكن القرآن كيف يستمعونه؟ إنما ذلك بحضورهم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسماع ما يقرأ.

{فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} وعرفنا أن الإنصات هو: الاستماع وزيادة، بمعنى: أنه يستمع ولا يشتغل بشيء آخر.

{فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}، **{فَلَمَّا قُضِيَ}** يعني: فرغ من تلاوته، وقد قرأ جماعة من السلف: **{فَلَمَّا قَضَى}** لكنها قراءة غير متواترة، وعلى هذه القراءة: من الذي قَضَى؟ هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعلى هذه القراءة يكون قوله: **{فَلَمَّا حَضَرُوهُ}** يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم-، **{قَالُوا أَنْصِتُوا**

---

٣ - أخرجه الحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحقاف، رقم: (٣٧٠١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

{فَلَمَّا قَضَى}، يعني: قراءته، **{وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}**، فهذا ظاهر على هذه القراءة، لكنها غير متواترة، وعلى قراءة: **{قُضِيَ}** باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، أي: قُضي القرآن، أي: قُضيت قراءته التي كان يتلوها -صلى الله عليه وسلم-، **{وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}**.

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}، يؤخذ من هذه الآيات: أن الجن مكلفون كالإنس، وإن كانوا يختلفون في بعض التفاصيل؛ لاختلاف طبائعهم وخلقهم، لكن في أصل التكليف هم كالإنس، وهم مخاطبون بهذه الشريعة، مأمورون باتباعها، وطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كقوله -جل وعلا-: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢]، وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف:١٠٩]، وقال -عز وجل-: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [العنكبوت:٢٧]، فكل نبي بعثه الله -تعالى- بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله -تبارك وتعالى- في الأنعام: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام:١٣٠] فالمراد هنا: مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما، وهو الإنس، كقوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن:٢٢] أي: أحدهما.

هذه الآيات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هي حاصل ما يذكره أهل العلم في هذه المسألة، يعني: هل الجن منهم رسل أو ليس منهم رسل؟ الجمهور أو عامة أهل العلم يقولون: منهم نذر، والمسألة ليس فيها دليل صريح، لكن يؤخذ من ظواهر هذه الأدلة، منها: قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}** [يوسف:١٠٩]، نحن عرفنا أن الرجال يقال للجن، ويقال للإنس، كما قال تعالى: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ}** [الجن:٦]، فالجن يقال لهم: رجال، ولكن هنا قال: **{مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}** [يوسف: ١٠٩]، فدل على أنهم من الإنس، هذه الآية يؤخذ منها أمران:

الأول: أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا من الإنس، ولم يكونوا من الجن.

الأمر الثاني: أنهم كانوا من أهل القرى، يعني: الحواضر، ولم يكن أحد منهم من البادية.

ومنها: قوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}**، الجن يأكلون الطعام، لكن قوله: **{وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}** هذا يدل على أنهم من الإنس، هذا وجه الاستدلال بهذه الآيات.

وكذلك في قوله: **{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}** يعني: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولا شك أن ذريته جميعًا من الإنس، لكن قد يقال: هل كان فيمن قبل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ممن ليس من ذريته رسولٌ من الجن؟.

على كل حال هذا حاصل ما يذكر من الأدلة، وأما ما قد يستدل به على أنه أُرسل منهم رسل فآية الأنعام، وأجاب عنها بهذا الجواب: أنه من مجموع الجنسين، لكن ما ذكره من قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن:٢٢] يعني: من أحدهما، أن ذلك يخرج من الملح، يعني: البحر المعروف، وليس من الأنهار، هكذا يقول كثير من المفسرين، مع أن الأقرب -والله أعلم- أن ذلك يخرج منهما، ولهذا قال الله -عز وجل- {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر:١٢] فهذا صريح وواضح في أن ذلك يستخرج منهما.

هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- نظيرًا لهذه الآية بناء على أحد القولين فيها، {يَخْرُجُ مِنْهُمَا} يعني: من أحدهما، لكن يوجد أدلة أخرى غير هذا، وفي كلام العرب أيضًا وقد مضى عند الكلام على سورة الجمعة قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة:١١] أي: انفضوا إلى التجارة، فهنا أعاد الضمير إلى أحدهما، فهذا عكس ما هنا، بناء على المعنى الذي ذكره ابن كثير، فالعرب تارة تعيد الضمير مثنى بعد ذكر شيئين، وتارة تعيده مفردًا، وتارة تذكر التثنية والمقصود واحد، إلى غير ذلك من وجوه الاستعمال عند العرب.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى}، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى -عليه السلام- أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ، وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هي التوراة، فلهذا قالوا: {أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى}، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- بقصة نزول جبريل -عليه الصلاة والسلام- أول مرة فقال: بَخٍ بَخٍ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيه جَذَعًا[٤].

موسى -عليه الصلاة والسلام- هو كبير أنبياء بني إسرائيل، فبنو إسرائيل كان فيهم أنبياء كثر، ومنهم عيسى -صلى الله عليه وسلم-، فكبير الأنبياء في بني إسرائيل هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- كان متممًا لشريعته، داعيًا إليها، ولهذا سبق في بعض المناسبات أن النصارى متعبدون بالتوراة، ولكن لشدة العداوة بينهم وبين اليهود تركوا العمل بالتوراة، فبقوا بلا قانون ولا شريعة، فاخترعوا كتابًا وقانونًا وضعيًا سموه: الأمانة العظمى، أو الكبرى، ومضى كلام ابن كثير على هذا، وأنه الخيانة الكبرى، فالشاهد أنه يُذكر موسى -صلى الله عليه وسلم- عادة بهذا الاعتبار، وبعض أهل العلم فهم من هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان مرسلاً إلى الجن دون عيسى -عليه الصلاة والسلام-، ولكن هذا ليس بلازم، لكن الكتاب الأصل هو: التوراة.

---

٤ - أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم: (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم: (١٦٠).

{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، وقولهم: {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} أي: في الاعتقاد والإخبار، {وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام:١١٥].

هذا التفصيل لا بأس به، ولو قيل: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}** مطلقًا، فكل ما فيه فهو حق، في الأمور العلمية، والأمور العملية، فهو: **{يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}** من الدين الصحيح، والاعتقاد الصحيح، والعمل الصحيح، والشريعة القويمة، **{وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}** يعني: في السلوك إلى الله -تبارك وتعالى-، وذلك كما في قوله: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [الفاتحة: ٦]، فالصراط هو: الطريق.

وقال -سبحانه وتعالى-: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة:٣٣] فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق هو: العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} في الاعتقادات، {وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: في العمليات.

{يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ} فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً -صلى الله عليه وسلم- إلى الثقلين: الجن والإنس؛ ولهذا قال: {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ}**، **{دَاعِيَ اللَّهِ}** يعني: محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، هذا ظاهر الآية، وبعضهم يقول: هو القرآن، وبين القولين ملازمة؛ لأن القرآن هو كذلك أيضًا يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، والإيمان به، ولكن الظاهر من السياق أن المراد: النبي -صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} قيل: إن {مِنْ} هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبعيض.

يعني: الذين قالوا: إنها زائدة يقصدون زائدة إعرابًا، كما سبق في مناسبات كثيرة، والزيادة عندهم لمعنى؛ لأنه لا يوجد زيادة بلا معنى في القرآن، ليس فيه حشو، وهذا المعنى هو: التوكيد، لكن ما الذي حملهم على القول بأن **{مِنْ}** زائدة في قوله: **{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}**؟ يقولون: باعتبار أن الإيمان يجبّ ما قبله، فكيف تكون تبعيضية؟ فإذا آمن الإنسان غفرت له ذنوبه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمرو بن العاص لمَّا أراد أن يبايع: ((أمَا علمتَ أن الإسلام يجب ما قبله؟))[٥].

وبعض أهل العلم لا يقولون بالزيادة، ولا يقولون: إنها للتبعيض، يقولون: ابتدائية: **{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** فهي هنا ابتدائية، مع أنه لا يخلو من بعد، والله أعلم.

وبعضهم يقول: إن **{مِنْ}** تبعيضية، والمقصود: ما عدا حقوق العباد، حقوق الخلق، فالإيمان يجبّ ما قبله، والتوبة تجبّ ما قبلها، والهجرة تجبّ ما قبلها، لكن تبقى حقوق العباد، المظالم التي تكون بين العباد، هكذا قال بعض أهل العلم.

{وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

---

٥ - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم: (١٢١).

هنا ذكر الجزاء على الإيمان في حق الجن، قال: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، وهذا كله من باب التخلية: غفران الذنوب، والإجارة من العذاب، لكن هل يحصل لهم نعيم؟ هل يحصل لهم ثواب؟ هل يدخلون الجنة؟ هنا ذكر الوقاية من العذاب -الإجارة من النار-، ففهم منه بعض أهل العلم أن هذا هو الغاية بالنسبة للجن: أن من آمن منهم سلم ونجا من العذاب، لكن ليس لهم ثواب، فلا يدخلون الجنة، يفنيهم الله -عز وجل- بعد الحساب، فمن كان كافرًا عُذِّب ودخل النار، ومن كان مؤمناً فإن غاية ما هنالك أنه ينجو من العذاب، استدلوا بهذا، قالوا: ما ذكر ثوابهم، لكن ممكن أن يجاب عن هذا بماذا؟ بقولنا: ذكْرُ الإجارة من العذاب هنا وغفران الذنوب لا يعني أن هذا هو الجزاء وحده، فإن الله -عز وجل- قال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن:٤٦]، وسورة الرحمن هي خطاب للثقلين قال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن:٤٦-٤٧]، فدل على أنهم يدخلون الجنة، وهذا هو الذي عليه الجماهير من أهل العلم سلفًا وخلفًا، وهذا مقتضى عدل الله -تبارك وتعالى-: أنهم يحصل لهم العقاب، وكذلك يحصل للمحسن منهم والمؤمن الثواب، هذا قول الجمهور، أنهم يدخلون الجنة، ويكفي في هذا ما ذكرت من قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن:٤٦]، والعلماء بسطوا هذه المسألة، وتكلموا فيها، وذكروا الأقوال، راجع على سبيل المثال أضواء البيان، وهي مبسوطة أيضًا في عدد من كتب التفسير، وفي بعض كتب الاعتقاد.

ثم قال مخبراً عنهم: {وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ} أي: بل قدرة الله شاملة له، ومحيطة به، {وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ} أي: لا يجيرهم منه أحد، {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وهذا مقام تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع في كثير منهم وجاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفودًا وفودًا، ولله الحمد والمنة، والله أعلم.

انتهى الآن الكلام على خبر الجن، ومجيئهم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان عندي في هذه المسألة كتابة في حدود سنة ١٤١٢هـ، وكنت أريد أن آتي بخلاصتها وحاصلها، ولكنني نسيت أن أراجعها، أو أن آتي بها، لعله يكون -إن شاء الله- في مجلس آخر، أقصد حاصل الكلام في مسألة الوفد الذين استمعوا قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هل كان مرة واحدة أو كان أكثر؟ يعني: هل سورة الجن في واقعة، وسورة الأحقاف في واقعة أخرى كما قد يفهم من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- الحديث الآخر لما فقدوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم بمكة، هذا كله قبل الهجرة، فبحثوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: اغتيل، استطير يعني: خطفته الجن، ثم أقبل -صلى الله عليه وسلم- من ناحية حراء، فذكر لهم أن وفد الجن أتوا إليه -صلى الله عليه وسلم-، وذهب بهم، وأراهم مواضع نيرانهم، يعني: المكان الذي كانوا اجتمعوا فيه مع النبي -صلى الله عليه وسلم-[٦]، وجاء أيضًا في حديث آخر: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عرف ذلك أخبرته شجرة، يعني: أشعرته بهم، وأخبرته عنهم، وهذا في الصحيح[٧]، وهذا لا يستغرب فالجذع

---

٦ - أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم: (٤٥٠).

٧ - أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، رقم: (٣٨٥٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم: (٤٥٠).

حن[٨]، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إني لأعرف حجرًا كان يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث))[٩]، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام[١٠]، وكذلك أيضًا في حديث جابر في صحيح مسلم: لما أراد النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يقضي الحاجة في سفر، فلم يجد شيئًا يستتر به، فأخذ بطرفي شجرتين وقال: انقادا، فأتت كل شجرة، واقتربت، ومشت؛ حتى كوّن ذلك ساترًا، يقول جابر –رضي الله عنه–: فانطلقت، خشي أن يراه؛ لأنه تبع النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يشعر به، ومعه الماء، فلما قضى حاجته –صلى الله عليه وسلم– أمرهما بأن تذهبا، فذهبت كل شجرة إلى مكانها[١١].

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٣-٣٥].

يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا} أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد: {أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ}، أي: ولم يكْرِثه خلقهن، بل قال لها: كوني، فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك: {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ كما قال –عز وجل– في الآية الأخرى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر:٥٧]؛ ولهذا قال تعالى: {بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قوله –تبارك وتعالى–: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}، الرؤية هنا هي: رؤية قلبية، بمعنى: العلم، أولم يعلم هؤلاء الكفار، وهذا أحد الأدلة التي تتكرر في القرآن، أحد أنواع الأدلة الدالة على قدرة الله –عز وجل– على البعث، أن خلق السموات والأرض أعظم وأكبر من خلق الناس، فهذا دليل على قدرته –تبارك وتعالى– على إعادة الأجساد، هذا واحد من الأدلة الكثيرة على قدرة الله –عز وجل– على البعث، وقد مضى أشياء من هذا، كالاستدلال بالنشأة الأولى على الإعادة، وهذا كثير في القرآن، وكذلك أيضًا ما يذكره الله –تبارك وتعالى– كما في سورة البقرة في خمسة مواضع من إحياء أموات، وكذلك أيضًا أنواع الأدلة الأخرى المعروفة في القرآن.

{وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ} يعني: لم يعجزه ذلك؛ لقدرته الباهرة.

---

٨ – أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: (٣٥٨٣).

٩ – أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم: (٢٢٧٧).

١٠ – أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: (٣٥٧٩).

١١ – أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم: (٣٠١٢).

ثم قال -جل جلاله- مهدداً ومتوعداً لمن كفر به: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}؟ [الطور:١٥] {قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا} أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، {قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}، هذه المسألة سبقت في الدرس الماضي، وذكرنا قوله تعالى: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} [الكهف:١٠٠]، وهي: هل النار تعرض على هؤلاء أو هم الذين يعرضون عليها؟ فهنا هذه الآية مصرحة بأنهم يعرضون على النار، بمعنى: يعذبون فيها، أو أن النار تقرب إليهم فيرونها ويشاهدونها عيانًا، أو غير ذلك كما سبق.

{أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} هنا الكلام فيه اختصار، يعني: يقال لهم: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ}، والإشارة هنا {هَذَا} إلى أي شيء ترجع؟ ترجع إلى العذاب، {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} يعني: هذا العذاب وهذه النار التي كنتم بها تكذبون، فما أخبرت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الآن أصبح عين اليقين إذا كان المقصود أنهم يشاهدونها، وإذا دخلوا فيها فإن ذلك يصير بمنزلة حق اليقين، وعرفنا أن اليقين على ثلاث مراتب: علم اليقين إذا علمت شيئًا فتيقنته، مثال ذلك: علمنا بوجود الآخرة والجنة والنار، فهذا علم اليقين بالنسبة إلينا، فإذا رأينا ذلك فهذا عين اليقين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فذلك حق اليقين، فالمقصود أنه يقال لهم: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} أي: هذا الذي ترونه، أو هذا الذي تقاسونه أليس بالحق؟.

ثم قال -تبارك وتعالى- آمرا رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} أي: على تكذيب قومهم لهم، وأولو العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد -صلى الله عليه وسلم-، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى.

قوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، أولو العزم يعني: أصحاب العزائم العظيمة، والثبات العظيم على الحق، وعلى دعوة قومهم، والصبر العظيم على الأذى الذي لقوه في سبيل ذلك، فالله -تبارك وتعالى- هنا لم يحدد هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولهذا اختلف أهل العلم فيهم اختلافًا كثيرًا، وقد مضى الكلام على ذلك في الكلام على سورة الشورى، والكلام على سورة الأحزاب، وهنا يشير إلى هذا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**وقد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى**"، فآية الأحزاب قال: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب:٧]، وآية الشورى قال: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى:١٣]، فهاتان الآيتان يذكر كثير من أهل العلم أنهما مفسرتان لهذه الآية من سورة الأحقاف، في كل من هاتين الآيتين لم يذكر ذلك على أنه من قبيل ما ذكر هنا في سورة الأحقاف، أي: ما ذُكروا على أن هؤلاء هم أولو العزم، يعني هناك في آية الأحزاب في أخذ الميثاق: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ} [الأحزاب:٧] إلى آخره، فذكر جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فقال: {مِنَ النَّبِيِّينَ}، ثم خص هؤلاء، ففُهِم منه أن هؤلاء لهم مزية.

فقوله: {مِنَ النَّبِيِّينَ} أي: من كل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فلما ذكر هؤلاء الخمسة -خامسهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فُهِم أن هؤلاء لهم مزية على بقية الأنبياء، لكن السياق في أخذ الميثاق، وكذلك في آية الشورى فيما شرَّعه الله -عز وجل- من الدين: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} إلى آخره، فهذا في هذا السياق، وإلا فما الفرق بين هذا وبين قوله -تبارك وتعالى- في مقام الإيحاء: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء:١٦٣]، ففي هذا السياق في مقام الإيحاء ذكر فيه هؤلاء، فلماذا لا تفسر آية الأحقاف بهذا مثلاً؟ وهؤلاء الأنبياء المذكورون هنا غير الأنبياء المذكورين في الآيتين من سورة الأحزاب والشورى؛ ولهذا فإن أهل العلم اختلفوا في هذا كثيرًا، وقد مضى الكلام على هذا، يعني: بعض أهل العلم يقولون: كل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم من أولي العزم، لكن هذا يردِ عليه إشكال؛ لأن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [القلم:٤٨]، وهو يونس -صلى الله عليه وسلم-، فهذا يُشكل على ما ذُكِر: أن جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من أولي العزم، وبعض أهل العلم يذكر أيضًا آدم -صلى الله عليه وسلم- لقوله: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه:١١٥]، لكن قد يُرَدّ على هذا بأن آدم -صلى الله عليه وسلم- لم يكن من الرسل، وإنما كان نبيًّا، فأول الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو نوح -صلى الله عليه وسلم.

على كل حال القول بأن أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو قول مشهور يذكره كثير من أهل العلم، وممن قال به من السلف مجاهد -رحمه الله-، أنهم هؤلاء الخمسة، ويستدلون على هذا بالآيتين السابقتين، وبعضهم كأبي العالية يقول: هم ثلاثة: نوح وإبراهيم وهود، وبعضهم كالسدي يقول: إنهم ستة إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: هم ستة فيذكر نوحًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا ولوطًا وموسى -عليهم الصلاة والسلام-، وابن جريج يقول: منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس، الشعبي والكلبي يقولان: هم الذين أُمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة، وجاهدوا الكفرة، يعني: ذكرا لهم صفة ولم يعينا أسماءهم، قالا: الذين أُمروا بالقتال هم أولو العزم، وبعضهم يقول: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام، وهم ثمانية عشر: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [الأنعام:٨٤] فذكر ثمانية عشر رسولاً: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط، هذا قال به بعض أهل العلم كالحسين بن الفضل، واحتج بقوله تعالى بعد ذكرهم في سورة الأنعام: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام:٩٠]، قالوا: فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بالاقتداء بهم: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، وبعضهم يقول: اثنا عشر أرسلوا إلى بني إسرائيل، وهذا بعيد، والحسن البصري يقول: هم أربعة: إبراهيم وموسى وداود وعيسى.

وهذه الأقوال جميعًا -والله أعلم- كما ترون تدل على أن هذه المسألة ليست محل اتفاق، وإن كان المشهور الذي ربما لم نسمع أو لم يسمع الكثيرون غيره أنهم خمسة، لكن هذا لا دليل عليه، فالله -عز وجل- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، أصحاب العزائم العظيمة، والثبات

العظيم على الحق، والتحمل لأعباء الدعوة، فكل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين يصدق عليهم هذا الوصف داخلون فيه من غير تحديد، ولا شك أن هؤلاء الخمسة -عليهم الصلاة والسلام- من أولي العزم من الرسل، وهم من أفضل الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه.

و{مِنَ} هنا في قوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} على القول بأنهم بعض الرسل: تبعيضية، وعلى القول بأنهم جميع الرسل تكون "مِن" بيانية.

{وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} [المزمل:١١]، وكقوله تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق:١٧].

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}، كقوله -جل وعلا-: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات:٤٦]، وكقوله -عز وجل-: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} [يونس:٤٥] الآية.

يعني: مدة البقاء في الدنيا حينما يكون هؤلاء في القيامة تكون بهذه المثابة، كأنهم ما بقوا في الدنيا إلا ساعة واحدة؛ وذلك لسرعة تقضِّي هذه الحياة، وكما سبق في عدد من المناسبات: أن هذا الأمر يجده الإنسان فيما مضى من أيامه، والحياة التي مضت كأنها أحلام أو كأنها ساعة.

وقوله -جل وعلا-: {بَلَاغٌ} أي: إن هذا القرآن بلاغ.

يعني: كما قال الله -عز وجل- {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} [إبراهيم:٥٢] وقوله: {إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} [الأنبياء:١٠٦] وهكذا، فيكون: {بَلَاغٌ} خبرًا، يعني: هذا بلاغ، أي: خبر لمبتدأ محذوف، والمبتدأ: "هذا"، أو يقدر نحو هذا.

والبلاغ هنا بمعنى: التبليغ، أو هذا الذي وعظتم به بلاغ، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الساعة التي في قوله: {لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ} أي: هذه الساعة بلاغ، أو ذلك اللبث بلاغ، أي: بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم، لكن الأول أقرب وهو: أن هذا القرآن بلاغ، كما دل عليه ما ذكرت مما يفسره من كتاب الله -تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله -عز وجل- أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأحقاف، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة محمد من الآية (١) إلى الآية(٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد:١-٣].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد الأمين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللحاضرين والمستمعين.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: **يقول تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}** أي: **أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوابًا ولا جزاء، كقوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} [الفرقان:٢٣].**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة: سورة القتال، ويقال لها أيضًا: سورة الذين كفروا، وهي سورة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فقد ذكر اسمه صريحًا -عليه الصلاة والسلام- في هذه السورة.

وهذه السورة كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: من السور المدنية.

ونقل عليه بعض أهل العلم الاتفاق، وهذا لا شك فيه.

وإن كان مِن قولٍ فهو في آية منها، فقد ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وقتادة: استثناء قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ}** [محمد:١٣] قالوا: هذه مكية.

مع أنه جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن السورة مدنية، ومقصودهم بذلك -يعني أن هذه الآية مكية- أنها نزلت في حجة الوداع، لما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يغادر مكة، هكذا جاء، وكما هو معلوم أنه على الاصطلاح المشهور في المكي والمدني: أن ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، وإن كان نازلاً في مكة.

فعلى هذا: هذه الآية تكون من قبيل المدني، وإن نزلت في مكة، لو صحت الرواية، مع أنه أيضًا ورد في رواية ولكنها لا تصح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك حينما أراد الخروج من مكة مهاجرًا، فهذا لا يصح، يعني في أسباب النزول، وعليه فلا دليل على أن هذه الآية نازلة في مكة، والله أعلم.

أمّا الموضوع الذي تدور حوله آيات هذه السورة فهي تتحدث عن الطوائف الثلاث، تتحدث عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأعمالهم وجزائهم، هذا في مجملها.

قوله –تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}** هذه هي الطائفة الأولى، وكثير من المفسرين يقولون: المراد بـــ**{الَّذِينَ كَفَرُوا}** هنا، هم: كفار قريش.

وبعضهم يقول: أهل الكتاب.

ولا شك أن الأول أقوى من الثاني، وإن كان ذلك عامًّا في جميع طوائف الكفار.

وهذا حكم عام في الكافرين: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** قال: أي: بآيات الله، كفروا بالله، كفروا برسول الله –صلى الله عليه وسلم.

{وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} "صدوا" بيّنا –سابقًا– أن مادة "صد" تأتي لازمة ومتعدية، وقد مضى الكلام على ذلك في مناسبات كما ذكر الله –تبارك وتعالى– عن المنافقين: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** [المنافقون:٢] وذكرنا هناك: أن الآية تحتمل معنيين: أنهم صدوا أي: في أنفسهم، فتكون لازمة، ويحتمل أن تكون صدوا غيرهم، صدوا عن الإسلام، والدخول فيه، صدوا المؤمنين عن الإنفاق في سبيل الله، صدوهم عن الجهاد، كل هذه المعاني مذكورة في تفسير تلك الآية.

وهنا: **{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** صدوا في أنفسهم، صدوا غيرهم عن سبيل الله، وهو الإسلام.

وبعض أهل العلم كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– يفسرها في هذا الموضع بأنها متعدية، يعني صدوا غيرهم، صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، وذلك أنه قال: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** فهو يقول: إن قوله: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** هذا صدودهم في أنفسهم، فلو فسر: **{وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** أي صدوا في أنفسهم لكان تكرارًا، فيكون: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** يدل على أنهم صدوا عن الحق في أنفسهم، ابتعدوا عنه، جانبوه، جافوه. **{وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** صدوا غيرهم.

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} صدوا في أنفسهم، وصدوا غيرهم.

ويمكن أن تتابع الأوصاف وزيادة، وهي أنهم صدوا الناس عن الدخول في الإسلام.

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} بعضهم كالضحاك يقول: **{وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** يعني عن بيت الله: **{هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [الفتح:٢٥] فهذا من صدهم عن سبيل الله، فصدهم عن سبيل الله أعم من هذا، فهم يصدون عن الدخول في الإسلام، ويصدون عن بيت الله الحرام.

{أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} ذكرنا في مناسبات متعددة معنى كلمة: "الضلال وضل" وأن أصلها بمعنى: الذهاب والاضمحلال، أو الذهاب عن حقيقة الشيء.

فهنا: **{أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}** يقول ابن كثير: يعني أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثوابًا ولا جزاءً.

هذا هو المتبادر، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله.

ابن جرير –رحمه الله– يقول: جعلها على غير هدى، وغير رشاد.

والضحاك فسر ذلك: {أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} يعني أبطل كيدهم، يعني الأعمال التي يكيدون بها دين الله -تبارك وتعالى- وأولياءه، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [الأنفال:٣٦].

فالله -تبارك وتعالى- يبطل هذا الكيد، والأعمال والجهود التي يبذلونها للصد عن سبيل الله.

لكن المعنى المتبادر هو أن الله -تبارك وتعالى- أبطلها، كما قال: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [الفرقان:٢٣] يعني لا يجدون عليها جزاءً وثوابًا.

ثم قال -جل وعلا-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم وظواهرهم.

{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته -صلوات الله وسلامه عليه.

هذا استنباط صحيح وجيد، فهنا لابد من ذلك: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هنا الإيمان يدخل فيه الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، ولكن خصه بالذكر: {وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} وهذا الموضع الذي ذكر فيه اسمه -صلى الله عليه وسلم- يدل على أنه لا يكفي الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، وبالرسل -عليهم الصلاة والسلام- دون الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

هنا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[1].

فكل هؤلاء من اليهود والنصارى ممن لم يؤمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فهو كافر، لا يُقبل منه صرف، ولا عدل، وهو من حطب النار.

وقوله -تبارك تعالى-: {وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} جملة معترضة حسنة، ولهذا قال -جل جلاله-: {كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي: أمْرهم.

وقال مجاهد: شأنهم.

وقال قتادة وابن زيد: حالهم.

والكل متقارب.

وقد جاء في حديث تشميت العاطس: ((يهديكم الله، ويصلح بالكم))[2].

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

[2] - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا عطس كيف يشمت، رقم (٦٢٢٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}** هذه جملة معترضة، والقاعدة: أن المحترزات في القرآن تأتي بحسب الحاجة إليها، تارة لدفع توهم معنى غير مقصود، معنى غير صحيح، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}** [المنافقون:١].

هنا جاء بجملة معترضة: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}** ثم قال: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** يعني لو أنه قال: إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، لأوهم أن ما قالوه باطل، وإنما المقصود أنهم لا يعتقدون ذلك، ولا يوقنون به، فقال: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}** فجاء بهذه الجملة هنا احترازًا من هذا الفهم لهذا المعنى غير المراد.

والأمثلة على هذا كثيرة.

وهذا من جملة هذه المحترزات: **{وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}** [محمد: ٢]. **{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}** ما حال هذا المنزَّل على محمد -صلى الله عليه وسلم؟

هو الحق من ربهم.

{كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} هذا جزاء الإيمان أنه يكون مكفرًا للذنوب والسيئات.

{وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} العبارات هنا متقاربة، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي أمرهم.

وقال مجاهد: شأنهم.

وقال قتادة وابن زيد: حالهم. وكذا قال المبرد.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: **{وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}** في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة في الجنة، يعني أصلح حالهم مطلقًا، أصلح حالهم في الدنيا، وأصلح حالهم في الآخرة.

وعبارات السلف المذكورة هنا لا تنافي ذلك بحال من الأحوال: أصلح أمرهم، أصلح شأنهم، أصلح حالهم، كل ذلك بمعنى متقارب.

وبعضهم يقول: المراد هنا عصمهم من المعاصي، وأرشدهم إلى أعمال الخير.

وهذا من جملة المعاني الداخلة تحته، فإن الله -عز وجل- إذا أصلح حالهم -أصلح شأنهم، وأمرهم- صارت لهم الخيرات والبركات، وسخرهم للعمل بطاعته، وكان لهم الجزاء الأوفى في الآخرة.

ثم قال -عز وجل-: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شئونهم؛ لأن: {الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} أي: اختاروا الباطل على الحق.

الإشارة هنا بقوله: **{ذَلِكَ}** تعود إلى ما ذكر مما أوعد الله به الكفار: **{أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}** وما وعد به المؤمنين، أو ما يكون للكفار، ما فعله بالكافرين من إضلال أعمالهم، وما فعله بأهل الإيمان من إصلاح بالهم، ففعل بهم ذلك؛ لأن **{الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ}**، فبعضهم يقول: **{ذَلِكَ}** مبتدأ، والخبر ما بعده.

وبعضهم يقول: إنه خبر، والمبتدأ مقدر، يعني الأمر **{ذَلِكَ}** بسبب أن: **{الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ}**.

{وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} يعني لماذا فعلنا بهم ذلك من إضلال الأعمال، وإذهابها وإبطالها؟ {اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ}.

{وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

فهنا ضرب المثل مضى الكلام عليه في الكلام على الأمثال، وفي مواضع من هذا التفسير {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} أي مثل ذلك الضرب {يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} ويبين لهم: {أَمْثَالَهُمْ} يعني أحوال الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر، هذه الأحوال الجارية في الغرابة -كما يقول بعض أهل العلم- مجرى الأمثال؛ لأنه كما سبق في الكلام على الأمثال أن المثل عند بعض أهل العلم يقال بالشأن والحال التي فيها غرابة.

ومن ثَمّ فسر هذا الموضع بهذا التفسير.

وبعضهم كالزجاج يقول: كذلك يبين للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

وابن جرير يقول: كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً.

كل هذا يرجع إلى تفسير المثل، هل هو يرجع إلى معنى الشبه، إلحاق النظير بالنظير مثلاً؟

صاحب الكشاف يقول: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

ويمكن أن يفسر ذلك بما هو أسهل من هذا، وأبعد عن التكلف إذا قلنا: إن المثل يأتي بمعنى: الصفة، وقد ذكرت في الكلام على الأمثال: أن حمل المثل في جميع المواضع على ما يتعلق بالشبه، أو ما يرجع إلى الشبه، أنه لا يخلو من إشكال، فتحتاج إلى تكلف في بعض المواضع كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ} [محمد:١٥] في بعض المواضع لو فسر بالصفة والنعت فإن ذلك يكون أوضح وأسهل، والعلم عند الله -عز وجل.

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} الأوصاف التي يكون عليها أهل الإيمان، والأوصاف التي يكون عليها أهل الكفر والضلال.

{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٤-٩].

يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف.

{حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ} أي أهلكتموهم قتلا: {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم، فأطلقتم أساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، وتشارطونهم عليه.

والظاهر: أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله -سبحانه وتعالى- عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ، فقال: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٦٧-٦٨].

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}** يعني لما بين الله -عز وجل- أعمال الكافرين، وما فعل بها من إذهابها وإبطالها، وما فعل بأهل الإيمان من إصلاح البال أمر بجهاد هؤلاء الكفار الذين ذكر صفتهم: **{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}** يعني هنا "الفاء" تربط ما بعدها بما قبلها، إذا كان هذا ما فعله الله -تبارك وتعالى- بهؤلاء الكفار، وهذه صفتهم، وهذا حالهم اتبعوا الباطل، فإذا لقيتموهم فأزهقوا أنفسهم، كما أبطل الله أعمالهم وثوابهم، فهؤلاء لا صلاح لهم بحال من الأحوال، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بخلاف أهل الإيمان، **{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}** "ضرب الرقاب" هذا مصدر لفعل محذوف، يعني فاضربوا الرقاب ضربًا، كما يقول بعض المفسرين.

وبعضهم يقول: اقصدوا ضرب الرقاب، يعني أن العامل فيه فعل محذوف، اقصدوا ضرب الرقاب.

والشنقيطي -رحمه الله- يقول: هو مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر.

ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع:

الأولى هي الأشهر: فعل الأمر، تقول: اضرب، كقوله -تبارك وتعالى-: **{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}** [الأنفال: ١٢].

والصيغة الثانية: هي الفعل المضارع الذي دخلت عليه "لام الأمر" نحو لتضرب؛ كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** [آل عمران:١٠٤].

{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} فهذا أمر تقول: لتفعل كذا، يعني افعل.

والصيغة الثالثة هي: اسم فعل الأمر، تقول: صه، بمعنى: اسكت.

والصيغة الرابعة هي هذه أي المصدر النائب عن فعله: ضرب الرقاب.

{فَضَرْبَ الرِّقَابِ} يعني اضربوا الرقاب ضربًا، علمهم كيف يتعاملون مع الكفار إذا لقوهم، أنهم يضربون رقابهم، وخص الرقاب مع أن القتل قد يكون بالطعن، ونحو ذلك، لكنه خص الرقاب؛ لأن ذلك أبلغ في القتل، وأجلى صور القتل التي لا يمكن أن يكون للحياة معها بقاء، إذا ضرب عنقه معنى ذلك أنه لا طب فيه، لكنه قد يداوى من الطعن، أو نحو هذا، فذكر لهم أبلغ الصور، كما في آية الأنفال: **{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}** وقد مضى الكلام على هذا، وأن بعضهم فسره: بحز الغلاصم، وقالوا: إن ذلك الموضع هو الذي يُبان منه العنق بأسهل طريق، وأيسر عمل، وقيل غير هذا كما سبق، لكنه علمهم كيف يباد هؤلاء الكفار، وتشل حركتهم

أيضًا: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} قطعوا أطرافهم، بحيث لا يستطيعون حمل السلاح، والعدوان على عباد الله –تبارك وتعالى.

وهنا يقول: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف {حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ} الإثخان مأخوذ من الشيء الثخين وهو الغليظ.

{أَثْخَنتُمُوهُمْ} والمقصود الإكثار والمبالغة في القتل، {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} [الأنفال:٦٧].

{حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} يعني يكثر القتل في أعداء الله –تبارك وتعالى–، فإن هؤلاء يستحقون ذلك، وهذا أمر الله –جل جلاله–، وهو أعدل وأحكم وأعلم، ومن ثم فلا حاجة لاجتهادات وفلسفات مع هذا النص الواضح البين، وأمثال هذا النص مما يتعامل به مع أعداء الله المحاربين للإسلام وأهله.

أما تصوير الإسلام بأنه دين لا سلام فيه فإن هذا باطل، وتصوير الإسلام على أنه دين ضعيف فإن ذلك بخلاف حقيقته، وبخلاف ما قرره القرآن، ولذلك فإن هؤلاء المنهزمين لا شك أن مشكلتهم الأولى والكبرى مع القرآن، هذه نصوص القرآن –كما نرى– وهم يحاولون أن يصوروا الإسلام بصورة أخرى تمامًا، فيحسنون إلى الكفار، ويعاملونهم معاملة لا يعاملون عشر معشارها للمسلمين، فهذا قلب للحقائق

{حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} يعني أكثرتم من القتل فيهم، بحيث لا تقوم لهم قائمة، إذا أنهكهم القتل: {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} الوثاق، ويقال أيضًا: بالكسر.

الوثاق هو ما يوثق به، ما يربط به من جلد بعير، أو نحو ذلك، أو الحبل، فهذا يقال له: الوثاق، وهو اسم للشيء الذي يوثق به، يربط به، أي شُدوه لئلا يحصل لهم انفلات.

{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} يعني بعد ذلك أنتم مخيرون: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} أي: إما أن تمنوا عليهم بعد الأسر {مَنًّا} يعني أن تمنوا {وَإِمَّا فِدَاء} أن تفدوا: {فِدَاء}.

هنا جاء بالمصدر {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} يعني أنتم مخيرون بين الإطلاق مجاناً، أو أخذ العوض من المال، فيفتدي الأسير نفسه بما يدفعه من مال يطلب منه.

وهنا قدم المن على الفداء، بعض أهل العلم يقول: لأن ذلك –والله أعلم– مما كانت تتمدح به العرب، وهذا موجود في كلامهم وأشعارهم، يتمدحون بالمن على الأسارى، يعني من غير مقابل، وأن ذلك أكمل في مكارم الأخلاق، فقدمه: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء}، يقول هنا: وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، وتشارطونهم عليه.

لماذا قال: نزلت بعد وقعة بدر؟

باعتبار أنها لو نزلت قبل وقعة بدر لما حصل ما عاتبهم الله –عز وجل– عليه: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى} [الأنفال:٦٧] لو كانت هذه الآية عندهم نازلة قبل الوقعة لفعلوا بهم ما أمر الله به، والنبي –صلى الله عليه وسلم– هو أعظم الأمة امتثالاً، فلو كانت نازلة لم يحتج إلى مشاورة أحد، لكن لم تكن هذه الآية نازلة حينئذ، هذا وجه كلام ابن كثير –رحمه الله.

وقوله -عز وجل-: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام.

وكأنه أخذه من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، حتى يقاتل آخرهم الدجال)) [٣].

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني سيّبتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: لا قتال، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ الله -تعالى- قلوب أقوام، فيقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ألا إن عُقر دار المؤمنين بالشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة))[٤] وهكذا رواه النسائي.

هنا جعل الله -عز وجل- لذلك غاية: **{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}** هل المقصود بذلك في الوقعة المعينة، افعلوا بهم هذا حتى تضع الحرب المعينة القائمة أوزارها؟ أو أن المقصود بذلك عموم المعاملة مع الكفار، أن يكون هذا هو المَهْيَع والمنهج والطريق، هو الإكثار من القتل: **{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}**؟.

ومتى تضع الحرب أوزارها؟

لن تضع الحرب أوزارها إلا في آخر الدنيا؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن الملاحم التي تكون مع الكفار، وأخبر أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وأخبر أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين قال: ((حتى يقاتل آخرهم الدجال))[٥].

وأخبر عن الدجال ومن يخرج له.

وكذلك أيضًا الملاحم التي تكون ببلاد الشام في آخر الزمان، وغير ذلك مما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-، الفتوح فتح القسطنطينية، وفتح روما، وهذه الفتوح لم تأتِ بعد، فكل ذلك كائن وواقع، فتضع الحرب أوزارها في آخر الدنيا في آخر مدتها.

---

[٣] - أخرجه اللالكائي، في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، رقم (١٦٨) وأصله في البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون" وهم أهل العلم، رقم (٧٣١١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) رقم (١٩٢٠).

٤ - رواه أحمد (١٦٩٦٥) وقال محققو المسند: "إسناده حسن".

٥ - أخرجه اللالكائي، في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، رقم (١٦٨) وأصله في البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون)) وهم أهل العلم، رقم (٧٣١١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم))، رقم (١٩٢٠).

وأبو هريرة -رضي الله عنه- كان يقول: "أحب تميمًا لثلاث" وذكر منها: أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أشد أمتي على الدجال))[٦].

فالمقصود: أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، فبعض أهل العلم فسره بهذا، يعني: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} يعني إلى نهاية المطاف إلى أن تنتهي المواجهة بين المسلمين والكفار، وذلك في آخر عهد الدنيا، وهذا قال به كثيرون، ولهذا قال مجاهد هنا: حتى ينزل عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام.

{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} ما معنى الأوزار هنا؟

{تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} يعني حتى تضع الحرب أثقالها.

ما هذه الأثقال التي تضعها الحرب؟

هي التي لا تقوم الحرب إلا بها من السلاح والمراكب، ونحو ذلك.

{تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} فأسند الوضع إليها، إلى الحرب.

والمقصود: أهل الحرب، يعني حتى يضعوا أثقال الحرب من السلاح، والعتاد، والمراكب التي يركبونها للقتال.

وابن جرير -رحمه الله- فسره بآثامها، حتى تضع الحرب آثامها، وأثقال أهلها المشركين بالله، بأن يتوبوا إلى الله من شركهم، فيؤمنوا به وبرسوله -صلى الله عليه وسلم-، فذلك وضع الحرب أوزارها.

وكأن الذي قبله أوضح وأقرب -والله أعلم-، فإن هذا الأسلوب مستعمل في كلام العرب: وضعت الحرب أوزارها، يعني حطت أثقالها من آلة الحرب من العتاد والعدة، ونحو ذلك مما يستعمل للحرب.

قول مجاهد هنا: حتى ينزل عيسى -عليه الصلاة والسلام.

وجاء عنه أيضًا: حتى لا يكون دين غير دين الإسلام.

وهذا بمعنى ما ذكر قبله.

عيسى -صلى الله عليه وسلم- لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فيُسقط الجزية.

بهذا المعنى قال الحسن والكلبي.

يعني بمعنى أنه في عهد عيسى -صلى الله عليه وسلم- يدخل الناس في دين الله -تبارك وتعالى.

والله -عز وجل- يقول: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء:١٥٩] وذكرنا هناك أن الراجح في تفسير الآية: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى -صلى الله عليه وسلم- قبل موته، لأن الضمير يرجع إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لا يرجع إلى الكافر قبل موت عيسى، يعني إذا نزل في آخر الزمان.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية، رقم (٢٥٤٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل غفار، وأسلم، وجهينة، وأشجع، ومزينة، وتميم، ودوس، وطيّئ، رقم (٢٥٢٥).

وقريب من هذا قول جماعة من المفسرين أصحاب كتب المعاني، مثل الكسائي والفراء، يقول: حتى يُسلم الخلق، يعني: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ" فليكن هذا هو العمل تجاههم، حتى يدخل الناس في دين الله –تبارك وتعالى.

وبعضهم يقول: **{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}** يعني حتى يضع الأعداء الكفار أوزارهم، وهو سلاحهم، بالهزيمة والموادعة، يعني يعلنون الاستسلام، اضربوا الرقاب، فلتكن هكذا سيرتكم معهم، حتى تتكسر شوكتهم، ويذعنوا لكم، وينقادوا.

وبعضهم يقول: الآية فيها تقديم وتأخير.

وهذا مقتضى قول بعض السلف، كالحسن البصري وعطاء، المعنى: إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإما منا بعد وإما فداء، يعني لا يكن ثمة أسر حتى تثخنوا قتلاً، عند ذلك إذا أسرتم فشدوا الوثاق، ثم بعد ذلك أنتم بالخيار.

والقاعدة والأصل هو: أن الكلام على وجهه من الترتيب دون دعوى تقديم أو تأخير، إذا أمكن حمل ذلك على وجه صحيح.

{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} يعني ليكن هكذا التعامل معهم، لا يكون ثمة أسر إلا بعد الإثخان في القتل في هؤلاء الكفار، حتى تُكسر شوكتهم، وتخضد قوتهم، وعند ذلك يمكن أسرهم، يعني لا تستبقوا هؤلاء الكفار للأسر، بل أبيدوا خضراءهم، ثم بعد ذلك إذا كسرت شوكتهم فتأسرون من بقي، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية لم يتكلم في هذا المختصر على كلام أهل العلم فيها: هل هي منسوخة، وإنما تكلم عليها في الأصل؛ لأن هذه الآية: **{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}**.

{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} هل يترك الكفار من غير أهل الكتاب ويقبل منهم الفدية إذا أسروا، أو يتركون مجاناً هكذا يذهبون؟

فبعض أهل العلم يقول: ليس لهم إلا الإسلام، أو السيف، هذا بالنسبة للعرب؛ لأنه لا مجال للخيار الثالث: أنه يدفع الجزية، ومن ثم فإن بعضهم يقول: إن هذه الآية منسوخة، وإن الآيات الواردة في سورة براءة وهي آخر ما نزل في القتال، كآية السيف، تأمر بالقتل دونما سواه: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** ولم يجعل لهم مخرجًا من ذلك، إلا: **{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [التوبة:٥] هذا هو المخرج الوحيد لهم، هكذا يقول بعض أهل العلم، فاستشكلوا هذا الموضع، وقالوا: إنها منسوخة، بهذا الاعتبار.

وبعضهم يقول: هذه ناسخة لتلك الآيات، فإنه يكون مخيرًا بين هذه الأمور، قالوا: وهكذا كانت سيرته –صلى الله عليه وسلم–، وسيرة أصحابه، ولم يزل الناس على هذا بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، في تعاملهم مع الكفار، وقتالهم لهم، هذا مجمل الكلام في هذه المسألة، ومنشأ الخلاف فيها، ومعلوم: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، الأصل عدم النسخ، ولا تصح دعوى النسخ لمجرد الاحتمال، وأن الجمع مطلوب ما أمكن،

وهذه الآيات ليس بينها منافاة، والله -تبارك وتعالى- يعلم أهل الإيمان، ويبين لهم كيف يتعاملون مع هؤلاء الكفار، من أجل كسر شوكتهم، وكون العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف لا ينافي هذا، أعني قوله: **{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء}** ومثل هذا عام في الكفار، يعني ليس ذلك في العرب خاصة، والسياق في بيان وجه التعامل مع هؤلاء بالقتل الذريع.

والذين يقولون: إن هذه الآية منسوخة في أهل الأوثان خاصة، أما أهل الكتاب فيتعامل معهم بهذا، يعني المن أو الفداء، أو القتل، على خلاف في ذلك؛ لأنه هنا ما ذُكر، قال: **{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء}** هل يؤخر بين القتل والفداء؟ وبين الفداء والمن والقتل؟ أو الاسترقاق؟

فبعض أهل العلم نظر إلى كون القتل هنا لم يذكر، فقالوا: لا يجوز قتل الأسير، وهذا فيه نظر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قتل عقبة بن أبي معيط، بعد بدر وهو أسير، ومنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- على بعض المشركين، كما هو معلوم، مثل ثمامة بن أثال، وكذلك أيضًا قبل الفداء من أسارى بدر، سوى من قتله منهم، وهو عقبة بن أبي معيط.

فالحاصل: أن بعض أهل العلم يقول: هذه نسخ منها أهل الأوثان: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** [التوبة:٥].

فهنا يقولون: لا يجوز أن يُؤخذ منهم لا فدية، ولا يمن عليهم، والناسخ آية السيف، وقد مضى: أن بعض أهل العلم يقولون: إنها نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية، كل آية فيها تسامح وعفو، وتجاوز وإعراض فهي منسوخة بآية السيف، حتى قال بعضهم: إن قوله: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** [التين:٨] منسوخ بآية السيف.

وذكرنا أن هذا الكلام غير صحيح.

والراجح: أنها لم تنسخ هذا القدر.

وهكذا قالوا: إن مما نسخ هذه الآيةَ آياتٌ كقوله: **{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ}** [الأنفال:٥٧] كيف يشرد بهم من خلفهم؟، إذا وقع لهم القتل الذريع، وليس بالمن أو الفداء، ونحو ذلك، هذا مما قالوا: إنه ناسخ لهذه الآية، وهذا قال به جماعة من السلف، كقتادة والضحاك وابن جريج والسدي، وآخرين، باعتبار أن سورة براءة هي آخر ما نزل في القتال في الواقع، قالوا: فكل مشرك يجب قتله، إلا من قام الدليل على تركه، كالنساء والأطفال، والشيوخ الكبار الذين لا مشاركة لهم في الحرب، أما إذا كان له رأي، ويستشار، ونحو ذلك فيقتل، كما قتل دريد بن الصمة، في هوازن، كان شيخاً كبيرًا، طاعناً في السن، لكن كان مجربًا في الحرب، يرجع إلى رأيه، ويستشار.

ويستثنى من ذلك أيضًا: من تؤخذ منه الجزية.

هذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة.

والجمهور على خلافه.

بعضهم يقول: إنها هي هذه الآية هي التي نسخت آية براءة: **{فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** [التوبة:٥] وجاء هذا عن بعض السلف، كعطاء -رحمه الله.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية ليست منسوخة، وأيضًا ليست ناسخة، قالوا: الإمام مخير بين القتل والأسر والفداء، وكون القتل ما ذُكر في: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} فباعتبار أنه ذكر في آيات أخرى، كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

وكل ذلك فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما سبق.

وهذا قول مالك والشافعي وسفيان الثوري والأوزاعي وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأئمة كثير، هذا قول الجمهور من أهل العلم.

وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه تدل على ذلك.

وأما ما جاء في قوله: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} فإن هذا لا يقتضي الحمل على قتل الأفراد الذين يؤسرون بالضرورة، فإنه يكون مخيرًا فيهم، وسعيد بن جبير يقول: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان، والقتل بالسيف؛ لقوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] وهذا لا ينافي ما سبق، والله أعلم.

الأقرب أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن الإمام مخير في هؤلاء الكفار، بحسب ما يراه من المصلحة، لكن المطلوب ابتداءً هو الإثخان في القتل، والإكثار من القتل.

هنا في الحديث الذي ذكره، جاء القتال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزيغ الله -تعالى- قلوب أقوام، فيقاتلونهم))[٧] يعني لا يزال الكفر يتجدد في الناس جيلاً بعد جيل، فسبب الجهاد قائم.

وقوله -عز وجل-: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ} أي: هذا: ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده.

{وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} أي ولكن شرع لكم الجهاد، وقتال الأعداء، ليختبركم، ويبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٢].

وقال -تبارك وتعالى- في سورة براءة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:١٤-١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثير من المؤمنين، قال: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} أي: لن يذهبها، بل يكثرها وينميها ويضاعفها.

ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي -رجل كانت له صحبة- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج

---

٧ - رواه أحمد (١٦٩٦٥)، وقال محقق المسند: "إسناده حسن".

من الحور العين، ويأمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان)) تفرد به أحمد -رحمه الله[٨].

وقال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)) [ورواه أبو داود][٩].

والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدًّا.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}** هذه قراءة أبي عمرو وحفص.

{قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} بمعنى: أن الله -تبارك وتعالى- ينميها، ويجزيهم عليها، فلن يذهب سعيهم وعملهم وجهادهم، فإن ذلك يجدونه عند الله -تبارك وتعالى-، لا يضيع أعمال هؤلاء الذين قتلوا، لكن قوله -تبارك وتعالى-: **{سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** هنا يرد سؤال عن المراد بالهداية بعد القتل، هؤلاء قتلوا، فارقوا الدنيا، فيهديهم إلى ماذا؟.

مضى في سورة الفاتحة الكلام على الهدايات **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [الفاتحة:٦] أن ابن القيم -رحمه الله- ذكر أنواعًا كثيرة للهداية، فبعض هذه الهدايات في الدنيا، وبعض هذه الهدايات في البرزخ، وبعض هذه الهدايات في القيامة، فالهدايات التي في الدنيا: أولها: الهداية إلى الإسلام، والهداية إلى العلم، والهداية إلى الصواب فيه، والهداية إلى العمل، والهداية إلى أفضل الأعمال؛ لأن الأعمال متفاوتة، والهداية إلى الثبات، هداية التوفيق، أن يثبت الإنسان على هذا، ما يتعلم مدة ثم ينقطع، أو يعمل مدة ثم ينقطع، بل يسدد ويستمر إلى أن يلقى الله -تبارك وتعالى-، وكذلك أيضًا من الهدايات: أن يهدى الإنسان عند الموت، فيختم له بالسعادة، الإنسان قد يفتن عند موته.

ومن الهدايات التي تكون بعد الموت: الهداية عند سؤال الملكين، فيسدد ويثبت.

ومن الهدايات التي تكون له بعد ذلك في القيامة: أنه يهدى عند الحساب، وكذلك أيضًا: يهدى إلى الصراط، ويهدى على الصراط، ثم يهدى إلى باب الجنة، ثم يهدى إلى منزله في الجنة، وهذا الأخير هو الذي يذكره أكثر المفسرين، يقولون: **{سَيَهْدِيهِمْ}** يعني إلى منازلهم في الجنة، يهتدون إليها، يعرفونها أعظم مما يعرفون منازلهم في الدنيا، هكذا قال أكثر المفسرين، مع أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر هذا المعنى، وذكر فيه معنى آخر على سبيل الاحتمال: هؤلاء الذين قتلوا ما هذه الهداية التي تحصل لهم؟

المعنى الثاني الذي ذكره: أن من علم أن هذا هو مصيرهم، أنهم سيصيرون إلى القتل في سبيله، فإن الله يسددهم قبل ذلك، قبل القتل، ويهديهم إلى أحسن الأعمال، وإلى ما يكون به سعادتهم، وحسن خاتمتهم، هكذا ذكره احتمالاً، وما عزاه لأحد، يعني يقول: لا يستبعد أن يكون هذا هو المراد.

---

٨ - رواه أحمد، رقم (١٧٧٨٣)، وقال محققو المسند: "حديث حسن".

٩ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الشهيد يشفع، رقم (٢٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (٢٢٧٧)، وفي صحيح الجامع الصغير وزياداته، رقم (٨٠٩٣).

لكن على قراءة الجمهور: "والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم" هذا واضح، لا يرد عليه السؤال السابق؛ لأن المجاهدين المقاتلين في سبيل الله لن يضيع الله أعمالهم، قال: **{سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** يهديهم إلى الحق، يهديهم إلى الصواب، يهديهم إلى أحسن الأعمال.

وتأمل هنا: "والذين قاتلوا في سبيل الله" فما كل من قاتل يكون قتاله في سبيل الله، ومن ثم لا تحصل له هذه الهداية، فقد يقاتل الإنسان رياءً، وقد يقاتل حمية لقومه، وقد يقاتل شجاعة، وقد يقاتل عصبية، وقد يقاتل لزيد أو عمرو من الناس، من أجل أن يحصل له سلطان وظهور، ونحو ذلك، وقد يقاتل من أجل حزب، أو نحو ذلك، أو قومية، أو وطنية، أو ما أشبه هذا.

القتال في سبيل الله: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

إذًا، من قاتل متجردًا لله وفي الله فهو في سبيل الله، يريد أن يظهر الحق، تعلو كلمة الله، المقاتل قد لا يستحضر هذا المعنى، قد يكون قتال بعض الناس ظاهره أنه في سبيل الله، والواقع أنه يقاتل رياءً، أو يقاتل حمية، وعصبية لطائفة من الناس، وهذا أشد ما يكون على أعمال المجاهدين ونياتهم، أن يدخل الدخيل، فينسى نفسه، فيكون الصراع ليس لإعلاء كلمة الله، وإنما لهذه الشعارات، كل مجموعة لها شعار تدور حوله، وتريد أن تنتصر له، وتنتصر لهذه الطائفة، وأن تكون هي الأقوى، والأكثر والأوفى والأوفر، وكل النقاشات وكل الجدال، وكل الحديث مع الآخرين، وكيف أستطيع أن أقنعهم بأن هذه الطائفة التي أقاتل معها أنها أولى وأكمل وأحسن وأصلح، وأن البقية يجب أن ينقادوا لهم، ويذعنوا، وأن يدخلوا تحت رايتهم، فأصبحت أحزابًا متصارعة، ليُنسى معها الهدف الأسمى والأكبر، وهو: أن تكون كلمة الله هي العليا، هذا يحصل في ساحة القتال وميدانه، ويحصل أيضًا في ساحة الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وهذا من أشد الأمور إيلامًا، فهو أمر في غاية الإزراء، إذا تذكره المرء أورثه مرارة، كيف يتحول الناس الذين ينتسبون إلى الدعوة إلى الله -عز وجل- في أصقاع المعمورة إلى مثل مشجعي الرياضة والكرة، وما أشبه ذلك، كل واحد يقول: طائفتي، ويدور حولها، وقد يكون هذا باسم جمعية، أو باسم غير ذلك، تجد جمعيات وأسماء الدعاة يدورون حولها، في بلاد مختلفة، فكيف تكون هذه الجمعية هي الجمعية الأولى في ذلك الإقليم أو البقعة أو البلد، فينسى الهدف الكبير: أن تكون كلمة الله هي العليا، يكفي أن الإنسان يقصد هذا الهدف، ولا يلتفت إلى شيء بعد ذلك، يقرب الناس ويحبهم ويؤثرهم، وما إلى ذلك بقدر ما فيهم من تحقيق الاتباع للكتاب والسنة، دون أي اعتبار آخر، وما عداه فهو لعب صبيان، لا يجوز الالتفات إليه بحال من الأحوال.

ومثل هذا أيضًا -وهو أشد- مواجهة الكفار، أن تتحول كتائب الإيمان إلى عصابات متناحرة، كل عصابة ترفع شعارًا، وهم لا يختلفون على المبدأ، وإنما لو حصل التجرد من حظوظ النفس والطائفة لكانوا مجتمعين، كانوا يدًا واحدة على هؤلاء الأعداء، ولكنه الشيطان لا يترك أحدًا، حتى هؤلاء الذين يبذلون أرواحهم في سبيل الله، فقدموا أغلى الأشياء، قدموا النفس والمال، ولكن الشيطان لا يتركهم، فيورثهم هذا الصراع والاختلاف فيما بينهم، ثم بعد ذلك تتحول النيات وتتغير، وهذا بلاء كبير على مستوى الأفراد، حينما تتحول نيته ويقتل، فقد لا يكون ذلك في سبيل الله، الإنسان ليس له إلا نفس واحدة، وهكذا أيضًا حينما يؤثّر ذلك على أهل الإيمان، وعلى أمة الإسلام عمومًا، التي لا يمكن لطائفة أن تستقل بمصالح الأمة، وأن تدعي أنها تملك

جهاد الأعداء، أو أنها تأخذ وتملك زمام الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، فهذا كله ينبغي الترفع عنه، والتجافي عن مثل هذا، وأن يكون أمر الإنسان دائمًا إلى الله -عز وجل- لا يلتفت إلى شيء آخر، ولا يجوز أن يتعصب، وأن يتحزب لطائفة، ولكن سبحان الله حينما يعيش الإنسان في بيئة منتنة فإنه قد لا يدرك مثل هذا البلاء ولا يشعر أنه منغمس فيه، مثل ذاك الذي -أعزكم الله- يعيش في مدبغة، محل لدباغة الجلود، فالروائح تقتل، لكنه لا يشعر، أضرب لكم أمثلة، يعني الناس حينما يكونون في مكان محصور، في غرفة مغلقة النوافذ والأبواب وهم كثير فإن الهواء يتغير، فمن يرِد عليهم من خارج هذا المكان يدرك ما هم فيه، ولكنهم لا يشعرون، جميعًا لا يشعرون، فحينما يكون الإنسان في بيئة معتمة هو لا يشعر، لكن من فتح الله بصيرته يدرك الخلل والعوار والانحراف، وينبغي أن ينصح الناس بعضهم بعضًا، ويسدد بعضهم بعضًا، ويأخذ بعضهم بيد بعض، والمؤمنون نَصَحة، ولا يُترك الناس هكذا، كلٌّ يفعل ما شاء ثم بعد ذلك تضيع جهودهم ومصالحهم، وتضيع مصالح الأمة، والأعداء يكيدون، ولن يجدوا أعظم مما يفعله المسلمون بأنفسهم في تفرقهم واختلافهم هذا، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {سَيَهْدِيهِمْ} أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس:٩].

{سَيَهْدِيهِمْ} هنا إلى الجنة، هؤلاء الذين قُتلوا، على قراءة أبي عمرو وحفص، ولكن على قراءة الجمهور **{سَيَهْدِيهِمْ}** إلى الرشد في الدنيا والثواب في الآخرة، والجنة في آخرتهم.

وقوله -عز وجل-: {وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} أي: أمرهم وحالهم.

{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} أي: عرفهم بها، وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا.

"لا يستدلون عليها أحدًا" يعني ما يأتي يسأل أحدًا، يقول: أين الجنة؟ وأين بيتي في الجنة؟ وأين منزلي في الجنة؟ كمن يرد إلى مكان لا يعرفه، فهو يحتاج أن يسأل ويذهب، وربما يستعين بخريطة، أو نحو هذا، الجنة لا يحتاجون فيها إلى مثل هذا.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا))[١٠].

هذا الحديث يدل على هذا المعنى: **((إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا))** **{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}** [محمد:٦] وهذا الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله-، فيكون ذلك من قبيل تفسير القرآن بالسنة، مع أن الحديث لم يذكر فيه الآية، ولكنه مرتبط بها غاية الارتباط من جهة المعنى.

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قصاص المظالم، رقم (٢٤٤٠).

ويقول الحسن -رحمه الله-: وصف لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها، يعني: أن قوله: {عَرَّفَهَا لَهُمْ} يعني في الدنيا بذكر صفتها، فلما دخلوها وجدوا الصفة المذكورة مطابقة لما ذكر، هذا معنى آخر.

وبعضهم يقول: {عَرَّفَهَا} يعني طيبها.

مأخوذ من العَرف الذي هو الطيب، الرائحة الطيبة، يقولون: طيبها بأنواع الملاذ.

ولكن هذا دون ما قبله.

فالمشهور: {عَرَّفَهَا لَهُمْ} ما يدل عليه الحديث، يعني أنهم يهتدون إلى منازلهم فيها، يهتدون إلى الجنة ابتداء، ثم إلى منازلهم فيها.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧] كقوله -عز وجل-: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} [الحج:٤٠] فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: {وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} كما جاء في الحديث: ((من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله -تعالى- قدميه على الصراط يوم القيامة))[11].

هذا الحديث فيه ضعف، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ} يعني إن تنصروا دينه وشرعه ينصركم، وهذا -كما ذكرنا مرارًا- حكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، بقدر نصرنا لدين الله -تبارك وتعالى- يكون نصر الله لنا، فإذا ضعف ذلك، وصار الناس يلتفتون إلى الانتصار لأنفسهم، أو تغيرت نياتهم أو تحولت أو قلت أعمالهم وضعفت فإنه يقل النصر الحاصل لهم، {وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} يثبت أقدامكم على ماذا؟

{إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} هذا في ميدان نصر، في ميدان جهاد، فالمتبادر أن تثبت الأقدام في ميدان المعركة، هم لا يفرون، لا ينهزمون، "فلا تولوهم الأدبار".

أما قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال:١١].

فالمقصود هناك: كانت الأقدام تسوخ في أرض المعركة؛ لأنها دهسة، فنزل المطر فلبّدها، وصارت الأقدام تثبت عليها، وليس المقصود عدم الفرار بكونه ربط على القلوب، فثبتت الأقدام في الميدان، ليس هذا هو المراد في آية الأنفال، لكن هنا: تثبت الأقدام عند القتال.

وبعضهم يقول: على الإسلام.

وبعضهم يقول: على الصراط.

ثم قال -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله -تعالى- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم.

---

[11] - جزء من حديث طويل رواه الطبراني في الكبير، رقم (٤١٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، رقم (٤٨).

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: **((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش))**[١٢] أي: **فلا شفاه الله -عز وجل.**

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ} "الذين كفروا" مبتدأ، والخبر بعض أهل العلم يقول: مقدر محذوف، يدل عليه ما بعده أي الذين كفروا فتعسوا تعسًا، ويكون الخبر بهذا الاعتبار جملة فعلية، وهنا: "تعسًا" جاء منتصبًا على المصدر للفعل المقدر: "تعسوا تعسًا".

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ} تعسوا تعسًا، مثل سقيًا لهم، يعني أصل التَّعْس: فلان تعيس، فلان في تعاسة، ونحو ذلك، هذا بمعنى الشقاء، الانحطاط، التعثر.

وبعضهم كابن السكيت يقول: التعْس هو الجر على الوجه، والنكس أن يجر على رأسه، مع أنه يقرر أن التعْس بمعنى الهلاك: "تعسًا لهم" هلاكًا لهم، فكأنهم نظروا إلى أصل المعنى، كما يقول بعض أهل اللغة في تفسيره، مثل الجوهري صاحب الصحاح: إن أصله الكب، وهنا قالوا: الجر على الوجه، هذا في أصله، لكنه صار يستعمل في الشقاء، ولهذا قالوا: هو ضد الانتعاش، وعبارات أصحاب المعاني والمفسرين في هذا: بعضهم كابن جريج يقول: بعدًا لهم.

والمبرد يقول: فمكروهًا لهم.

هذان متقاربان.

وكذلك قول السدي: خزيًا لهم.

وقول ابن زيد: شقاء لهم.

وقول الحسن: شتمًا لهم.

وقول ثعلب: هلاكًا لهم.

وقول الضحاك: خيبة.

وقول من قال: قبحًا لهم، أو شرًّا لهم، أو شقوة.

كل هذا تفسير للتعْس والتعاسة ببعض معناه، فهي بمعنى الشقاء الذي يحمل في طياته هذه المعاني، التعاسة لهم، الشقاء، هذا الشقاء في الدنيا والآخرة، من شقائهم: أنهم يسحبون في النار على وجوههم، من شقائهم: التعثر في الدنيا، من شقائهم: قلة التوفيق، وانعدام التوفيق، إلى غير ذلك، ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: فخزيًا لهم وشقاء وبلاء.

فكل هذا داخل في التعاسة: "تعسًا لهم" التعاسة هي النصيب الأوفى والأوفر للكفار، هؤلاء لا فلاح لهم، وإن حصل لهم شيء من التمتع في هذه الحياة الدنيا، لكن هؤلاء يعيشون في ضيق ونكد لا يقادر قدره، ولذلك قارن بين المصحات النفسية في بلاد الغرب، هؤلاء الذين مُتعوا بالملاذ، ولا يوجد عندهم محرمات وممنوعات، وهم في حال من التمكن، ذللت لهم سبل العيش تذليلاً، ومع ذلك هم أتعس الناس، وأشقى الناس، وهؤلاء يكفي أنهم لا يعرفون الله -تبارك وتعالى-، ولا يذكرونه، فأسباب الفلاح والسعادة منعدمة في حقهم

---

[١٢] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦).

تمامًا، ولذلك تجد المقاتلين منهم مع أنهم في الظاهر في حال تمكن وانتصار، ويقتلون المسلمين قتلاً ذريعًا، ويخربون البلاد على رءوس أهلها، ومع ذلك تقرءون في التقارير أنهم يتراوحون بين حالات جنون، وحالات اكتئاب شديد، وإحصاءات تذكر لهؤلاء العائدين من ميادين القتال، إحصاءات بالاكتئاب، والأمراض العقلية، والأمراض النفسية، مع أنهم في الظاهر في انتصار.

لو كان هؤلاء يُمزَّقون كما تمزق أشلاء المسلمين، ويفعل بهم ما يفعل بالمسلمين كيف يكون حالهم؟!

سيموتون، موت -نسأل الله العافية- الفراش، الذي يتهافت على النار، يموتون يعني من غير قتل.

لو كان هذا البلاء الذي يصب على بلاد المسلمين في بلد من بلدانهم، لهلكوا، لا يحتملون إطلاقًا، ولا يطيقون؛ لأنهم لا يحتسبون، ولا يعرفون الله، ولا يرجون ما عنده، غاية ما عندهم هي هذه الحياة الدنيا، فبأدنى مكدر تتحول حياتهم إلى جحيم، والله المستعان.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} أي: أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} أي: لا يريدونه ولا يحبونه، {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ}، {ذَلِكَ} هنا إشارة إلى ما تقدم من التعْس والإضلال: لماذا فعل بهم ذلك؟ أي الأمر ذلك، أو ذلك الأمر لأنهم: {كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} فعل بهم ذلك لكونهم: {كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ}.

وهنا هذا الموضع يبين خطورة هذا العمل القلبي، بالكراهية، يعني مجرد الكراهية، كراهية ما أنزل الله، فالذي يكره دين الله -تبارك وتعالى- وشرعه، يرى أن هذا التشريع ثقيل، أن هذا التشريع لا يتناسب مع العصر، أنه لا يمثل ما ينبغي أن يكون عليه الناس في حضارتهم، وما وصلوا إليه من الأسباب في هذه العصور بتعاملاتهم وقوانينهم ونظمهم، وما أشبه ذلك، كل هذا يدخل في هذه الآية.

يبغض الدين، يكره الدين، يكره ما أنزل الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، يكره الشرع، هو دائمًا محارب لله ولرسوله ولأوليائه ولدينه وشرعه، ليس له شغل إلا هذا، في عموده الذي يكتب فيه دائمًا ليس له شأن إلا الوقيعة في أهل الإيمان، ويفرح وينتشي لكل ما يحصل ويحدث مما يكون فيه الحط، أو الخفض للدين وأهله، يعلن فرحه بذلك، ويضيق ذرعًا حينما يرى الظهور لأولياء الله -تبارك وتعالى-، ولشرعه وكتابه، فمثل هذا المبغض لدين الله -عز وجل- داخل في ذلك: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} فيعلل هذا لماذا كانت لهم التعاسة والشقاء؟ لكراهيتهم، هذا الذي يكره الشريعة، ويكره التحاكم إليها، ويكره تحكيمها، ويرى أن ذلك من العار والشنار، وأن من الجرم أن ينادى بتحكيم شرع الله -عز وجل- في رقاب الخلق، مثل هذا لا شك أنه داخل في هذه الآية: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} ويكون ذلك سببًا لحبوط الأعمال: {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} ولا يمكن أن يحصل هذا -حبوط الأعمال- إلا لمن خرج من دائرة الإسلام، إلا لمن كان كافرًا، فإن الله -تبارك وتعالى- يقول: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر:٦٥] فلا يوجد شيء يحبط جميع الأعمال إلا الإشراك بالله -عز وجل.

فيحذر المؤمن من الوقوع في مثل هذا.

ومن أراد الله -عز وجل- شقاءه فإن ارتكاسته تكون بهذا وأمثاله، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة محمد من الآية (١٠) إلى الآية (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد:١٠-١٣].

يقول تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا} يعني المشركين بالله، المكذبين لرسوله {فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، فالسير في الأرض مضى في بعض المناسبات أن الله -تبارك وتعالى- يأمر به: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ} [الأنعام:١١] لمن كان عنده شك أو تردد أو تكذيب، من أجل أن يعرف ما حل بالمكذبين الكافرين.

وأن هذا إنما يتوجه لمثل هؤلاء، وأما غيرهم فإنهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، أعني أهل الإيمان واليقين، فما في كتاب الله -عز وجل- من الأمر بالسير في الأرض فهذا محمله، والله تعالى أعلم.

وهنا يخاطب هؤلاء الكفار: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}.

وقوله -تبارك وتعالى-: {دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} هذا جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ما حل بهم؟ ماذا نزل بهم؟ هنا: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} ما عاقبتهم؟

{دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} والتدمير هو الإهلاك.

يقول: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} يعني أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم المكذبة الكافرة المتمردة على الله -تبارك وتعالى-، المكذبة لرسله -عليهم الصلاة والسلام.

فالضمير يرجع عند طائفة من أهل العلم -أعني "الهاء" في {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}- إلى عاقبة الذين من قبلهم {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} أمثال عاقبة هؤلاء الذين مضوا، الذين من قبلهم، كما يقوله الزجاج، واختاره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله.

وهنا تأمل في هذا: أن الله -تبارك وتعالى- قال: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} العاقبة واحدة، يعني أنه ذكرها مفردة، قال: {وَلِلْكَافِرِينَ

{أَمْثَالُهَا} الأمثال جمع، فهذا باعتبار أن العواقب متعددة بتعدد الأمم المكذبة الذين أنذرهم الله -تبارك وتعالى- مثل هذه العاقبة.

وبعضهم يقول: {أَمْثَالُهَا} يعني أمثال العقوبة، أو الهلكة، أو التدمير، والله تعالى أعلم.

لكن يبقى أيضًا أن "العاقبة" جنس، فهذه تصدق على الواحد والكثير: {عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} فكل قوم من هؤلاء الذين مضوا كانت لهم عقوبة تختص بهم.

ثم قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم- فلم يُجَب، وقال: أمّا هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله -تعالى- لك ما يسوءك، وإن الذين عددتَ لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْلةً لم آمر بها، ولم تسوءني، ثم ذهب يرتجز، ويقول: اعلُ هُبل، اعلُ هُبل، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تجيبوه؟)) فقالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((قولوا: الله أعلى وأجل)) ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تجيبوه؟)) قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: ((قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم))[1].

قوله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، {ذَلِكَ} إشارة إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى} ذلك الوعيد للكافرين بأمثال تلك العقوبات، ثم قال: {بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} مولاهم، أي: أنه وليهم، كما في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا" فهذه تفسرها.

ثم قال -سبحانه وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: يوم القيامة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ} أي: في دنياهم يتمتعون بها، ويأكلون منها كأكل الأنعام خَضْمًا وقَضْمًا، وليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: ((المؤمن يأكل في مِعًي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء))[2].

يأكل ولا يشبع.

ثم قال تعالى: {وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} أي: يوم جزائهم.

وقوله -عز وجل-: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} يعني: مكة.

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٣).

٢ - رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد، فيه أبو هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٥٣٩٣)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب المؤمن يأكل في معي واحد، رقم (٢٠٦٠)، ورقم (٢٠٦١).

{أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله -عز وجل- قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟

فإنْ رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [هود:٢٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} "كأي" هذه مركبة من "الكاف" و"أي" وهي بمعنى: كم، وتستعمل للتكثير: أن قرى كثيرة أهلكها الله -عز وجل- كانت أعظم قوة، وأشد تمكينًا {مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} أي من قومك الذين أخرجوك، أهلكهم الله -تبارك وتعالى.

{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ} يعني: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ} [الأعراف:٤] هذا هو المعنى، والله أعلم.

وقوله تعالى: {مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم-: لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه قال: فالتفت إلى مكة، وقال: ((أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك)) فأعدى الأعداء من عدا على الله -تعالى- في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، فأنزل الله -تعالى- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد:١٣][٣].

قوله: عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم-: لما خرج من مكة إلى الغار، وأتاه، فالتفت إلى مكة، وقال: ((أنتِ أحب بلاد الله إلى الله)) الحديث.

هنا السياق الذي ورد فيه هذا الحديث على أنه سبب نزول هذه الآية لا يصح.

ومن هنا قال بعض أهل العلم -كما سبق-: إن سورة محمد -كما هو معلوم- هي من السور المدنية بالاتفاق، لكن كما سبق أنه روي عن بعض السلف استثناء هذه الآية، بناءً على ماذا؟

بناءً على رواية في أسباب النزول، لكنها لا تصح، وهي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك حينما كان خارجًا إلى الغار، لما خرج من مكة في هجرته -عليه الصلاة والسلام.

وكثيرًا ما نجد من الأقوال في التفسير، سواء كان في استثناء بعض الآيات، في أنها مثلاً مكية، أو أنها مدنية، أو في بعض الأقوال التي لربما فيها غرابة في التفسير، ولا يساعد عليها السياق، كثيرًا ما نجد لو أجلْنا النظر في كتب المأثور، نجد لها مستندًا من روايات قد لا تصح، بمعنى: أن هذا القول الذي ذكر في التفسير في كثير من الأحيان له مستند، لو أنك بحثت ونظرت، له مستند، تجد رواية، وإن لم يصرح بها هذا القائل، لكن حينما تنظر في الروايات الموجودة ستجد أن هذه الرواية مطابقة أحيانًا بلفظها في بعض الأقوال، وهذا كثير، والأقوال التي قد يرى أنها بعيدة أو غريبة أو لا وجه لها أحيانًا تستند إلى مرويات، لكنها لا

---

٣ - رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢/١٦٥) بلفظ: "فأعتى الأعداء من عتا..."، بدلا من: "فأعدى الأعداء من عدا...".

تصح، وهذا مهم في تبرير هذه الأقوال، أنها لم تكن لمجرد الرأي المحض، وإنما كان لذلك مستند بالمأثور، ولكنه لا يثبت، وغالب ذلك من غير ذكر هذا المستند.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ}** ذكرنا مرارًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج مستخفيًا، وأنه -عليه الصلاة والسلام- هو الذي خرج بنفسه، وأن المشركين ما كانوا يريدون خروجه، وكذلك أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في هجرتهم كما هو معلوم، ولكن الله أضاف ذلك إلى المشركين، بأي اعتبار؟

أنهم اضطروهم إلى الخروج، فأضيف الإخراج إليهم: **{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ}** [الممتحنة:١] فهذا مضى في عدد من المناسبات، وهنا يقول: فأعدى الأعداء من عدا على الله -تعالى- في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، ذحول الجاهلية يعني ثأر الجاهلية، ما كانوا عليه من الثأر، فأنزل الله -تعالى- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ}** فتأمل: هنا جعل ذلك هو سبب النزول، فهذا السياق لا يصح.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}** يحتمل أن يكون المراد وهذا هو الظاهر -والله أعلم- الذي يدل عليه السياق: أنه **{فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}** عند نزول العقوبة، وحلولها بهم، لمّا وقع بهم بأس الله لم يكن لهم من ينصرهم، ويخلصهم من ذلك **{فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}**.

ويحتمل أن يكون: **{فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}** يعني الآن بعدما أهلكوا من عذاب الله -عز وجل- الذي يلقونه، ولا مخلص لهم من ذلك.

وهذا تحتمله الآية باعتبار أنه قال: **{فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}** فيمكن أن يكون في المستقبل، أو في الحال، لا ناصر لهم يخلصهم من عذاب الله في قبورهم، وفي القيامة.

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد:١٤-١٥].

يقول تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} أي: على بصيرة ويقين من أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة {كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [الرعد:١٩].

وكقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر:٢٠].

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ}** **{أَفَمَنْ}** "الهمزة" للإنكار، و"الفاء" يقول بعض أهل العلم: إنها للعطف على مقدر، يعني: أفيستوي من **{كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ}**؟ لا يستوون، وهذا كما يقال في الكفار فإنه يقال أيضًا في غيرهم، ممن كان على غير هدى، من أهل الأهواء والضلالات والبدع، ومن ثَمّ فإن المؤمن من شأنه أن يتبصر، وأن لا يُقدم على شيء حتى يعلم أنه حق،

وموافق للشرع، فهو على بينة من ربه، يتوثق فيما يأتي وما يذر، ولا يكون الحامل له على الفعل أو الترك هو مجاراة الناس، فيفكر بعقولهم ويجاريهم، سواء كانوا على حق أو على باطل، فهو يتبعهم في ذلك كله.

وأمّا من كان على ضلالة فهو يعمل بحسب ما نشأ عليه، أو تلقفه من غيره، أو كان مجاريًا في ذلك لأهل زمانه، هذا لا يكون عليه المؤمن بحال من الأحوال، لا يستوي هذا وهذا.

والمقصود: أن ذلك يحمل أهل الإيمان على التبصر في كل ما يأتون ويذرون، ولا يكون شيء من العمل أو الاعتقاد إلا على بينة وحجة من كلام الله، أو كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم.

{كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} هنا بني الفعل للمجهول، فالنفس تزين له، وشياطين الإنس والجن يزينون له، كما أخبر الله -تبارك وتعالى- عن ذلك في مواضع من كتابه، فالشيطان يزين لهؤلاء أعمالهم، فيتشبثون بها ويتعلقون، ويرون أنها الحق الذي لا محيد عنه، ويموتون دونها، وهكذا كل صاحب هوى، فإنه يتشبث في هواه، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} [البقرة:٩٣] يعني أشربوا حبه، تعلقوا به، يعني صارت محبته بهذه المنزلة، بلغت إلى حد الإشراب، أُشربتها القلوب، نسأل الله العافية.

فهكذا تفعل العقائد بأهلها وأصحابها، فذلك كله من تزيين الشيطان، يزين لهم هذا الباطل، والعمل السيئ.

وهنا في قوله: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} جاء الجمع باعتبار معنى "مَن"؛ لأن "مَن" اسم موصول تكون بمعنى الجمع، {كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} فهذه من جهة المعنى تكون للجمع؛ لأن الاسم الموصول من صيغ العموم.

ثم قال -عز وجل-: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} قال عكرمة: {مَثَلُ الْجَنَّةِ} أي نعتها.

{مَثَلُ الْجَنَّةِ} قال عكرمة: أي: نعتها.

وقد مضى الكلام في عدد من المناسبات عن المثل، ومعناه، وأن من أهل العلم من أعاده إلى الشبه في كل استعمالاته، وذكرنا في عدد من المناسبات: أن هذا قد لا يخلو من تكلف في بعض المواضع، وهذا من أجلاها وأوضحها.

{مَثَلُ الْجَنَّةِ} يعني صفة الجنة، وربطه هنا بالشبه لا يخلو -والله تعالى أعلم- من تكلف.

وقد مضى الكلام على ذلك في ذكر الأمثال في القرآن مفصلاً، وأن شيخ الإسلام -رحمه الله- يرجع ذلك إلى معنى الشبه.

ولو حمل في بعض المواضع القليلة على غير هذا لكان أبعد عن التكلف والعلم عند الله -عز وجل-، ولهذا هنا في هذا الموضع فسره سيبويه وابن جرير بالوصف، صفة الجنة، فيما يتلى عليكم مثل الجنة، هكذا يقول سيبويه، يعني صفة الجنة، وصف الجنة.

{فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والحسن وقتادة: يعني غير متغير.

وقال قتادة والضحاك وعطاء الخرساني: غير منتن.

والعرب تقول: أسِنَ الماء إذ تغير ريحه.

هذه اللفظة: {آسِنٍ} هذه قراءة الجمهور.

وهناك قراءة أخرى متواترة لابن كثير: "أَسِنٍ".

و"الآسن" و"الأسِن" بمعنى واحد.

والمقصود به: الماء المتغير، فإن الماء إذا طال مكثه فإنه يتغير طعمه وتتغير رائحته، وهذا أمر معلوم، ولذلك نجد في كلام الشعراء حينما يصفون الماء في مواضعه التي يجتمع فيها، يصفونه أحياناً بالحركة، أو الجريان، أو نحو ذلك؛ كقول كعب بن زهير:

تَنْفِي الرِّيَاحُ القَذَى عنْهُ وَأَفْرَطَهُ *** مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ

{وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع: ((لم يخرج من ضروع الماشية))[٤].

{لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} يعني اللبن يتغير طعمه كثيرًا للحموضة، كما هو معلوم، فهذه آفة تعتري اللبن في الدنيا.

هنا هذا اللبن: **{لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ}** لا بالحموضة ولا بغيرها، مما يكرهه الناس، ولا يستسيغون شربه معه.

{وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ} [الصافات:٤٧]، {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ} [الواقعة:١٩]، {بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} [الصافات:٤٦].

وفي حديث مرفوع: ((لم يعصرها الرجال بأقدامهم))[٥].

هذا الحديث لا يصح من جهة الإسناد.

والخمر هنا: **{وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ}** ليست كالخمر التي في الدنيا تُعصر، وتحتاج إلى شيء من المكث والتخمير الذي تتغير معه الرائحة والطعم، ويحصل معه الكدر، ولذلك نجد أن ذلك يصاحبه أمور معروفة لدى شاربيها، فيكثر استفراغهم لها، وما تحدثه من علل عارضة ومستديمة في أجوافهم وأبدانهم، ولذلك في تلك البلاد التي أدمن أهلها على شرب الخمور، وتوجد حاناته في كل ناحية، وفي كل طريق وسوق، المحلات التجارية غالبًا عندهم تتوقف في وقت في ساعة معينة في الخامسة مثلاً مساءً، أو نحو ذلك، لا أحد يفتح متجرًا ولا غير ذلك، إلا أماكن الخمور، فهؤلاء يعطون في بعض البلاد التي يقال لها: بلاد متقدمة، يعطون ما يقابل ذلك لما يلقونه من أنواع الأذى.

من هذا الأذى الذي يلقونه: كثرة الاستفراغ -أعزكم الله-، يعني تجد المكان محلا لهذه القاذورات، هم يتعبون في التنظيف ليلاً طويلاً، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الذين فقدوا عقولهم، يمكن أن يقتل، ويمكن أن يفعل كل شيء، ولذلك تسمع الأصوات في ساعات متأخرة من الليل، يعني من بعد الساعة الثانية عشرة، تسمع الأصوات في الطرقات، مجانين، يمشون مجموعات، شباب وفتيات، ورجال ونساء، يصرخون بأعلى أصواتهم، وتجده يقف عند هذا المكان الذي يبيع الخمر، أو غيره، ويضرب رأسه بالزجاجة، يترنح، نسأل الله العافية.

فهذه الخمر ليس فيها شيء من هذا، ليس فيها الطعم الكريه، وليس فيها الرائحة الكريهة، وإنما هي مستلذة، يعني أن أهل الدنيا حينما يشربون الخمر لا يشربونها للذة في طعمها يجدونها، وإنما يشربونها لما تؤثره من

---

٤ - كنز العمال (٢/٤٦٤)، رقم (٤٥٠٤)، وضعفه الألباني، في سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم (٦٧٢٤).

٥ - المصدر السابق.

السكر وذهاب العقل، وما يجدونه من النشوة، لهذا السبب، فيتحملون الرائحة، ويتحملون الطعم الكريه، ولذلك الواحد -كما سبق- يستفرغ -أعزكم الله- من شدة ما يجد، فجوفه قد لا يتقبلها، ولكنه يحمل نفسه على ذلك لعاقبتها القبيحة، وهي السكر، من أجل أن يسكر، هم لا يشربونها يستلذون، كما يستلذ بالطيبات، هنا: **{لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ}**.

{وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: ((لم يخرج من بطون النحل))[٦].

وهذا أيضًا لا يصح.

لكن هو عسل مصفى، هي أنهار من عسل مصفى.

والعسل المصفى لا شك أنه هو الأجود والأفضل، كما هو معلوم عند أهل العسل، مصفى، ليس فيه قذى، ليس فيه بواقٍ من نحل ميت فيه، أو أجزاء وأبعاض من هذا النحل، كما يشاهد في عسل الدنيا، ليس فيه شيء من الشمع، ليس فيه شيء من الكادورات، وإنما هو في غاية الصفاء، لا يخالطه شيء آخر.

وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد))[٧]**، ورواه الترمذي في صفة الجنة، وقال: "حسن صحيح".**

وفي الصحيح: ((إذا سألتم الله -تعالى- فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن))[٨].

وقوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، كقوله -عز وجل-: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} [الدخان:٥٥].

وقوله -تبارك وتعالى-: {فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} [الرحمن:٥٢].

وقوله -سبحانه وتعالى-: {وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} أي: مع ذلك كله.

"التنكير" هنا للتعظيم، يعني مغفرة عظيمة من ربهم.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ} أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات.

{وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا} أي حارًّا شديد الحر لا يستطاع.

{فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله تعالى من ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}** يقول: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة: **{كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}**؟ يعني: أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟.

---

٦ - المصدر السابق.

٧ - رواه أحمد، رقم (٢٠٠٥١) وقال محقق المسند: "إسناده حسن".

٨ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي، وهذا سبيلي، رقم (٢٧٩٠).

وهذا قال به بعض المفسرين، وبعض أصحاب المعاني كالفراء في معاني القرآن.

وبعضهم كالزجاج يرى أن ذلك يرجع إلى قوله: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} يعني: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} وأعطي هذه الأشياء: {كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} وصارت عاقبته إلى النار؟!.

وكأن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك يرجع إلى ما قبله، فمن كان بهذا النعيم، وهذه الأنهار من العسل والخمر واللبن: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}؟.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد:١٦-١٩].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم، وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده: {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} من الصحابة -رضي الله عنهم-: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}؟ أي: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير من أن ذلك بسبب بلادتهم، وقلة فهمهم، وإدراكهم يشهد له قوله -تبارك وتعالى- بعده: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} [محمد:١٦] فإذا طُبع على قلب الإنسان فإنه لا يعي، ولا يفقه، ولا ينتفع بما سمع، ولا تصل هذه المواعظ إلى قلبه بحال من الأحوال.

مع أن الكثيرين فسروا هذا الموضع باعتبار أنهم يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء والاستخفاف، يعني يقولون مستهزئين مستخفين: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}؟ هو يقول ماذا؟ يعني أنهم يظهرون قلة الاكتراث بكلامه، وما يوحى إليه، هكذا قال كثيرون، وهذا يحتمل، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} قد يفهم منه أن ذلك بسبب كون هذه القلوب لا تعي ولا تعقل عن الله -تبارك وتعالى-، فهم لهم قلوب لا يعقلون بها، فيسألون أهل العلم والفقه: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}؟ ولهذا يقول: {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} لو كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية لربما لا يجترئون أن يسألوا أهل العلم هذا السؤال البارد، وإنما يسألون إخوانهم من المنافقين على سبيل الاستهزاء، إذا تسللوا وخرجوا من مجلسه، لربما يواجه بعضهم بعضًا بهذا السؤال الذي ينبئ عن بلادتهم: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}؟ على سبيل الاستخفاف والاستهزاء، يعني أنهم يقولونه لأصحابهم؛ لأنه ما يُظن بهؤلاء المنافقين أنهم يجترئون بهذا القول الذي يواجهون به أهل العلم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقولوه على سبيل الاستخفاف، فإن الغالب أن المنافق هو أضعف من أن يقف أمام الذين أوتوا العلم؛ لأنه يذوب كما يذوب الماء في الملح، يتلاشى، لا يستطيع أن يتمالك، فضلاً عن أن يستطيع أن يسأل بطريقة فيها استخفاف، يعني لو أراد أن يسأل من غير استخفاف يمثّل أنه حريص وأنه يريد الفائدة، وما أشبه ذلك، هو لا يجرؤ على هذا، إذا رآه من جهة انحاز إلى ناحية أخرى؛ لأن الضعف الذي يملأ قلبه، التخوف من كل شيء، التردد يجعله لا يستطيع أن يواجه هؤلاء أصلاً بشيء من الحق الذي يسأل عنه، لو سأل بجد، فكيف يقول لهم على سبيل الاستهزاء والاستخفاف؟!، والله أعلم.

{قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} ما كانوا يقولون لإخوانهم وأصحابهم هذا، ومن هنا فإن الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- كأن السياق يشعر به، لا يفقهون، ولهذا قال الله -عز وجل- عنهم: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}** [المنافقون:٤].

وذكرنا هناك: **{كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}** أن هذا يدل أيضًا على البلادة، فإن البليد يقال له: لوح، فلا يفهمون، وذكرنا هناك أن هذه الخشب أيضًا لا يستفاد منها، فهي مسندة، هي عالة على غيرها، هي ليست بسقف ولا عُمد، ولا ينتفع بها في بناء ولا غيره، وإنما هي مسندة، تعتمد على غيرها، فهؤلاء -أعني المنافقين- هم من الطفيليات التي تعيش في المجتمع، في جسد الأمة، وتنخر فيه، ولا خير فيهم، ولا فائدة، هم يحضرون مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن لا ينتفعون بهذا الحضور، فهم كأنهم ألواح في هذه الأجسام والقامات الممتدة، التي ينظرون إلى طولها وعرضها، صباح مساء؛ لأنها غاية ما يؤملون، وجُلّ الهم متوجه إلى هذه الأجسام أن تُحفظ، وأن تطعم، وأن تستريح، وأن تحصل من اللذات، لكن ما يفوتها من النعيم الحقيقي، نعيم الأرواح أضعاف ما تتعاطاه من المآكل والمشارب، ونحو ذلك، ولذلك فإن الخوف يملأ قلوبهم والقلق كما قال الله -عز وجل-: **{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** فنعيم الأبدان غير نعيم الأرواح، ينعمون الأبدان، ولكن الأرواح خاوية، فتكون في شقاء دائم، وعذاب وقلق، بحيث يتخوف من كل شيء، ويتوقع المكروه دائمًا، فلا خير في هذه اللذات من المطعوم والمشروب مع حال بائسة كهذه، وروح خاوية كهذه الروح، نسأل الله العافية.

قال الله -تعالى-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

لا فهم صحيح باعتبار أن الله طبع على قلوبهم، لا يفهمون، **ولا قصد صحيح**؛ لأنهم يتبعون الهوى، وإذا لم يوجد الفهم الصحيح، واجتمع مع ذلك سوء القصد فإن غواية الإنسان تكون أسبابها قد استحكمت، فإن الضلال إنما يكون بسبب هذا أو هذا، يعني إما أن يكون الإنسان لم يؤتَ فهمًا، فيقع في الانحراف؛ لأنه لم يعرف الحق أصلاً، أو لسوء قصده.

والانحراف عن الحق إما أن يكون لهذا أو هذا، فإذا اجتمع الأمران: سوء الفهم، وسوء القصد فلا طب لمن كانت هذه حاله، نسأل الله العافية.

وهذا قد يوجد بعضه لدى بعض المنتسبين للإسلام، فيكون انحرافهم بسبب هذين الأمرين، يعني لا فهم صحيح، ولا قصد صحيح، ومتبع لهواه، ومتعصب له، لا يريد أن يغير هذه الحال، وإذا كُلم ونوقش ونصح وعلم لربما لا يفهم هذه النصيحة على وجهها، ولربما ينقل عن هذا الناصح كلامًا مقلوبًا، لا تدري هل فهمه هكذا، أو لسوء قصده قلبه، فيقوّل الناس ما لم يقولوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال -عز وجل-: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله -تعالى- لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم منها.

{وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} أي: ألهمهم رشدهم.

قوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} الطبع على القلب بمعنى الختم، بحيث يصير هذا القلب عليه ما يغلفه، ويحول بينه وبين الهداية، فجاء الختم والطبع والأكنّة: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [البقرة:٨٨] الغلاف الذي يغطيه، فلا يصل إليه الهدى ولا الموعظة، وغير ذلك من الران، ونحوه، كل هذا مما يحجز عن الفهم، وعن الفقه، وعن الانتفاع، انتفاع الإنسان بما يسمع، وهذه الألفاظ -هذه العلل- التي تحول دون الفهم بالكلية تكلم عليها الحافظ ابن القيم -رحمه الله- جميعها، وشرحها وفسرها في بعض كتبه، كـ"إعلام الموقعين"، ولعلّي ذكرت شيئًا من هذا في الكلام على التدبر.

يقول: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} يعني: أن الله -تبارك وتعالى- يزيد المهتدين هدى {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الحديد:٩] فهداياته -تبارك وتعالى- لأوليائه متتابعة ومستمرة: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} [التوبة:١١٥]، فالله -تبارك وتعالى- يزيد عبده المؤمن الذي أقبل عليه، وصدق معه، يزيده من الهداية، وينقله من هداية إلى هداية، ومن حال إلى حال أكمل منها {زَادَهُمْ هُدًى}.

وبعضهم يقول: {زَادَهُمْ هُدًى} يعني: زادهم إعراضُ المنافقين هدى.

وبعضهم يقول: {زَادَهُمْ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم يقول: أي: القرآن.

ولكن السياق في أن الله -تبارك وتعالى- {زَادَهُمْ هُدًى} مع أنه يحتمل أن يكون يعني ما يسمعون من النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهدى والقرآن والوحي يزيدهم هدى، وأما أولئك فلا يزيدهم سماع الآيات إلا رجسًا إلى رجسهم.

وهذا القول لا ينافي ما ذكره الحافظ ابن كثير: أن الله وفقهم فهداهم، إلى آخره؛ لأن الله -تبارك وتعالى- هو الذي أنزل هذا الوحي، وهو الذي يوفق للانتفاع به، والاهتداء به من شاء من عباده.

{وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} قرينة تدل على أن ما ذكره الحافظ ابن كثير: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ} أي: الله هداهم وآتاهم تقواهم، أن هذا هو الأولى.

وقوله تعالى: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً} أي: وهم غافلون عنها {فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا} أي أمارات اقترابها؛ كقوله -تبارك وتعالى-: {هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتْ الْآزِفَةُ} [النجم:٥٦-٥٧]، وكقوله -جلت عظمته-: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر:١].

وقوله -سبحانه وتعالى-: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل:١]، وقوله -جل وعلا-: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ} [الأنبياء:١].

فبعثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله -تعالى- به الدين، وأقام به الحجة على العالمين.

وقد أخبر -صلى الله عليه وسلم- بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وروى البخاري عن سهل بن سعد -رضي الله عنه-، قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[٩].

ثم قال تعالى: {فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [محمد:١٨] أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك؟ كقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر:٢٣]، {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ:٥٢].

وقوله -عز وجل-: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} هذا إخبار بأنه "لا إله إلا الله"، ولا يتأتى كونه آمرًا بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه قوله -عز وجل-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد:١٩].

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي))[١٠].

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: ((اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت))[١١].

وفي الصحيح أنه قال: ((يا أيها الناس: توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[١٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [الأنعام:٦٠].

وقوله -سبحانه وتعالى-: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} الحافظ ابن كثير هنا فسره بقوله: **يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم، في ليلكم**، وذكر الشواهد في ذلك.

وهذا القول هو الذي يدل عليه ظاهر السياق -والله تعالى أعلم-، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم يقول: {يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} أي: في أعمالكم.

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين)) رقم (٦٥٠٤)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥١).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت)) رقم (٦٣٩٩)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧١٩).

١١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥]، رقم (٧٤٩٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩).

١٢ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم والليلة، رقم (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة، بلفظ: ((والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)).

وهذا لا ينافي ما ذكر.

وبعضهم يقول: {يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} متقلبكم في الأصلاب، ومثواكم في الأرحام.

وتخصيص المعنى بهذا لا دليل عليه.

وهكذا قول من قال: إن ذلك في الآخرة، أو يعلم متقلبكم في الأصلاب والأرحام، ومثواكم في الأرض، أو يعلم متقلبكم يعني أعمالكم، ومثواكم في الآخرة.

لكن الأقرب -والله أعلم- هو ما ذكره ابن كثير، واختاره ابن جرير: تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة محمد من الآية (٢٠) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}** [محمد:٢٠-٢٣] **يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله -عز وجل-، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [النساء:٧٧].**

وقال -عز وجل- هاهنا: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ} أي: مشتملة على حكم القتال، ولهذا قال: {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} أي: من فزعهم ورعبهم، وجبنهم من لقاء الأعداء.

ثم قال مشجعًا لهم: {فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة.

{فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ} أي: جد الحال، وحضر القتال {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ} أي: أخلصوا له النية {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}** يعني مشتملة على حكم القتال، وهذا كما أنهم سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، وتمنوا أن يعرفوه من أجل أن يفعلوه كما سبق في الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف:٢] وأن ذلك نزل بسبب أنهم تمنوا أن يعرفوا أحب الأعمال إلى الله، فلما أخبروا أنه الجهاد تباطئوا وتثاقلوا عنه.

فهنا تمنِّي نزول سورة، سور القرآن تنزل، وإنما قصدوا سورة يكون فيها فرض الجهاد **{فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ}** "المحكمة" هنا من الإحكام، والإحكام -كما هو معروف- يأتي بمعنى: الإتقان، والقرآن كله محكم، بهذا الاعتبار كما هو معلوم **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [هود:١] فهي لا يتطرق إليها خلل، ولا خطل في ألفاظها ومضامينها، الألفاظ والمعاني، وهذا معنى معروف في الإحكام، عام في القرآن، ويأتي الإحكام فيما يقابل النسخ، يعني في معناه الخاص: غير منسوخة.

فهنا بعضهم حمله على هذا المعنى الخاص: **{فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ}** يعني غير منسوخة.

وقد جاء عن قتادة: أن كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، لكن هذا المعنى -والله أعلم- فيه بعد، هنا في هذا الموضع: **{فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ}** يعني غير منسوخة، وحينما تنزل سورة ويفرض فيها الجهاد فإن ردود الأفعال تجاه ذلك قبل نسخها سيتبين فيها الحال، ليس المقصود هنا أنها نزلت سورة غير منسوخة، محكمة بهذا الاعتبار، وإنما يحمل الإحكام هنا على معناه العام، ولهذا قال ابن جرير: محكمة بالبيان والفرائض، يعني أنه قد بيّن ذلك فيها، وفصل على وجه لا يدع في الحق لبسًا.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- رد على القائلين بأنها غير منسوخة، هنا في هذا الموضع وفسره بأن المراد متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الألفاظ، واضحة الدلالة، وزاد عليه غير منسوخة، يعني جعلها بمعنى أعم وأوسع، هو لا يحملها على هذا المعنى الضيق، يفسرها به، أنها غير منسوخة، لكنه حملها على أوسع معانيها، فنظر إلى احتمال اللفظ الذي هو الإحكام للمعنى الخاص، وللمعنى العام، ففسره بهذا وهذا جميعًا، فهذا أوسع ما يحمل عليه هذا الموضع، والله تعالى أعلم.

ومثل هذا التفسير بهذا الاعتبار لا إشكال فيه -إن شاء الله-؛ لأن اللفظ يحتمل، لكن حينما يفسر ذلك بما يقابل النسخ فقط فهذا فيه بعد.

{فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} هذه صفة ذكرها الله -عز وجل- في المنافقين.

وكما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب أيضًا عنهم، وقد مضى الكلام على هذا، فهم في حال الخوف يكونون بهذه المثابة: **{يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}** [الأحزاب:١٩]، **{تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ}** بمعنى: أنه لا ينظر النظر الذي يكون متصرفًا فيه، متحكمًا في توجيهه، وإنما يتحرك بصره، تتحرك عيناه بطريقة غير إرادية من شدة الخوف، كأنه في سكرات.

وبعضهم فسره: بشخوص البصر، من شدة الخوف.

المقصود في هذا وهذا أنه لم يعد يتحكم ببصره، صار بصره يتقلب من شدة ما أصابه، والبصر في حالاته حين الخوف يكون بهذه المثابة، فيكون له من الشخوص، كما أخبر الله -تبارك وتعالى- عن أحوال الكفار في القيامة من شخوص الأبصار، وكذلك أيضًا بحال هؤلاء المنافقين، ففسر هذا بنظر من صار بصره شاخصًا عند الموت.

وحمله ابن قتيبة والزجاج على أنهم يشخصون أبصارهم نحوك، يشخصونها نحوك، ينظرون إليك نظرًا شديدًا، يعني صارت أبصارهم كأنها من حال الفزع في حالة من الدهشة والخوف والانزعاج، يصوبون النظر إليك بطريقة لا إرادية، فيكون هذا النظر بهذه المثابة.

فهنا في هذا الموضع قال: **{يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}**.

هناك قال في الأحزاب: **{تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}**، فـ**{تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ}** يعني ينظر بطريقة من شدة الخوف، تدور عيناه، كأنه في حال غشية، نسأل الله العافية.

فهذه حال هؤلاء المنافقين، فالله ذكر أحوالهم ودخائلهم ومشاعرهم، والقلق الذي ينتابهم: **{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** [المنافقون: ٤] فهم في توجس وترقب دائم للمكروه.

يقول: ثم قال مشجعًا لهم: **{فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}** هل هذا تشجيع لهم؟

هذا على المعنى الذي فسرها به ابن كثير –رحمه الله– يكون من قبيل الحث، والدفع على الامتثال، يعني ابن كثير هنا فسرها: أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة، يعني هنا هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير يحتمل، لكن عامة المفسرين على خلافه، فقد حملوا الآية على معنى آخر، يعني هنا على قول ابن كثير: قوله: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** يتصل بما بعده: **{فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ}** كان الأجدر بهم والأولى بحالهم أن ينقادوا ويطيعوا، وأن يقولوا قولاً معروفًا، وأن لا يتلكئوا في الاستجابة، هذا المعنى تحتمله الآية، وهو الذي مشى عليه ابن كثير –رحمه الله.

ولكن عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم فصلوا بين الجزأين، قالوا: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** هذا وعيد، كقوله: **{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}** [القيامة:٣٤] وذلك للوعيد، فيكون قوله: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** توعدهم، ثم يأتي كلام جديد مستأنف: **{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}** يعني خير لهم، أو غير ذلك، مما ذكر من التقديرات كما سيأتي.

إذًا: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** هذا تهديد ووعيد، يتوعدهم به، وهذا الذي قال به من السلف مقاتل والكلبي وقبلهم قتادة، وبه قال من اللغويين الجوهري، واختاره كبير المفسرين ابن جرير، وقد ذكر العلماء أصل هذه المادة، حينما يقال: أولى له، في الوعيد، فالأصمعي يقول: حينما يقال ذلك في التهديد: أولى لك، أي: وليك وقاربك ما تكره.

ويقول غيره كالجرجاني: إن ذلك مأخوذ من الويل: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** أي: فويل لهم، وهذا الذي اختاره صاحب الكشاف.

وجاء عن قتادة: أن ذلك بمنزلة قوله: العقاب أولى لهم، يعني كأنه يتعلق بمقدر: العقاب أولى لهم.

وعلى كل حال هي للوعيد على قول عامة أهل العلم من المفسرين سلفًا وخلفًا "أولى لهم" على خلاف ما ذكره ابن كثير، فلا يكون قوله: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** متعلقًا بقوله: **{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}** ومن ثم جعلوا قوله: **{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}** أنه كلام مستأنف، يعني: **{فَأَوْلَى لَهُمْ}** وعيد لهم، وويل لهم، ثم تقف، ثم: **{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}**.

فيكون التقدير: **{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}** بعضهم يقول: أمرُهم طاعة وقول معروف، أو طاعة وقول معروف خير لكم، وبنحو هذا قال الخليل بن أحمد وسيبويه، يقول: التقدير: طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما.

يعني الآن على تقدير: أمرهم طاعة، يكون طاعة وقول معروف خبرًا لمبتدأ محذوف.

وعلى قول هؤلاء كسيبويه: يكون مبتدأ، طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم.

ولكن هناك من قال كقول ابن كثير –رحمه الله–، يعني يكون: طاعة خبرًا لأولى **{فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}**.

هذا على قول ابن كثير، تكون الجملتان مرتبطتين ببعضهما: {فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} إلى غير ذلك.

ابن جرير –رحمه الله– يقول: إن {طَاعَةٌ} خبر عن مقالهم قبله.

هذا معنى مغاير لما سبق، يعني ابن جرير يرى أنها منفصلة، وأن قوله: {فَأَوْلَى لَهُمْ} وعيد، لكن ما المراد بقوله: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}؟.

يقول: إن ذلك من قبيل الخبر عنهم، حيث كانوا يقولون قبل ذلك: سمعًا وطاعة، فيكون ذلك إخبارًا عن قولهم وحالهم، هنا يقول: {فَأَوْلَى لَهُمْ} ثم نقف في رأس الآية: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} يعني أنهم كانوا يقولون: سمعًا وطاعة، فيكون: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} من قبيل الخبر عن هؤلاء، وليس من قبيل الطلب، كأنه نظر إلى ما بعده: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} يعني هم يقولون: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ} في قيلهم هذا، ودعواهم التي ادعوها أنهم يسمعون ويطيعون: {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} هذا على قول ابن جرير –رحمه الله–، والذي قبله أوضح في المعنى، والله أعلم. طاعة وقول معروف خير لهم، أو أمرهم طاعة وقول معروف، فهي جملة مستأنفة على تقدير محذوف، إما أن يكون مبتدأ أو خبرًا، لا أنها إخبار عن قولهم قبل ذلك.

وقوله –سبحانه وتعالى–: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ} أي: عن الجهاد ونكلتم عنه {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله –تعالى– بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال.

وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

روى البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((خلق الله –تعالى– الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن –عز وجل–، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك)) قال أبو هريرة –رضي الله عنه–: اقرءوا إن شئتم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: ٢٢][١].

ثم رواه البخاري بلفظ: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((اقرءوا إن شئتم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}))[٢] ورواه مسلم.

---

١ – رواه البخاري كتاب تفسير القرآن، باب {وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، رقم (٤٨٣٠).

٢ – رواه البخاري كتاب تفسير القرآن، باب {وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، رقم (٤٨٣١) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٤).

وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من ذنب أحرى أن يعجل الله -تعالى- عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))[٣]، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وروى أحمد عن ثوبان -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سره النَّساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه))[٤]، تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها))[٥]، رواه البخاري.

وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنة كحُجْنة المِغزل، تَكلَّم بلسان طلْق ذلْق، فتقطع من قطعها، وتصل من وصلها))[٦].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- يبلغ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنة من الرحمن من وصلها وصلتْه ومن قطعها بتّتْه)) وقد رواه أبو داود والترمذي، وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية، وقال الترمذي: "حسن صحيح"][٧].

والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: ٢٢].

يقول: أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام.

هذا الخطاب الآن: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ} بعدما كان الكلام عن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، وعن حالهم وصفتهم، حينما تنزل السورة التي يفرض فيها القتال، جاء الكلام على سبيل الالتفات.

---

٣ - رواه أحمد، رقم (٢٠٣٩٨) وأبو داود، كتاب أحاديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، باب أبي بكرة، رقم (٩٢١)، والترمذي، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب، رقم (٢٥١١)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم (٤٢١١) وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

٤ - رواه أحمد، رقم (٢٢٤٠١) وقال محقق المسند: "صحيح لغيره".

٥ - رواه أحمد، رقم (٦٥٢٤) وقال محقق المسند: "إسناده صحيح" وهو في البخاري، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم (٥٩٩١).

٦ - رواه أحمد، رقم (٦٧٧٤) وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف".

٧ - رواه أبو دواد، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وأحمد، رقم (٦٤٩٤)، وقال محققو المسند: "صحيح لغيره" وقال الألباني: "حسن لغيره" كما في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٢٥٦).

وقد بينا في مناسبات شتى: أن الالتفات هو تحويل الكلام من الغائب إلى المخاطب، أو العكس، إلى غير ذلك من ألوان التصرفات فيه، مفرد إلى جمع، والعكس، وهكذا، فهذا بعض أهل العلم حمله على ذلك، يعني قالوا: الكلام لا زال عن هؤلاء المنافقين، لكنه تحول من الغيبة إلى الخطاب: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ} يعني: يا معشر المتلكئين المتخلفين عن الجهاد، يخاطب الذين في قلوبهم مرض: {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}. والكلام على سبيل التوبيخ: {إِن تَوَلَّيْتُمْ} الذي عليه الجمهور يعني أعرضتم عما أمرتم به من الإيمان، وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم يقول: أعرضتم عما أمرتم به من الجهاد؛ لأن السياق فيه.

المقصود: أن على هذين المعنيين يكون التولي عندهم بمعنى الإعراض.

الجمهور يحملونه على هذا، بصرف النظر عما حُمل ذلك عليه من معنى عام، أو معنى خاص.

معنى عام: أعرضتم عن الإيمان، وأعرضتم عن طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا إشكال فيه، أو أعرضتم عما أمرتم به من الجهاد؛ لأن السياق في ذلك.

{أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} فقتادة يقول: إن توليتم عن طاعة كتاب الله -عز وجل-: {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} بسفك الدماء {وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}.

وهكذا جاء عن ابن جريج: {إِن تَوَلَّيْتُمْ} عن الطاعة، عبارات السلف في هذا متقاربة.

لكن من أهل العلم من حمله على معنى آخر، كما جاء عن الكلبي: {إِن تَوَلَّيْتُمْ} يعني أمرَ الأمة: {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} جعله من الولاية، يعني إن صار الأمر إليكم، وصرتم من ذوي السلطة: {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} إن توليتم.

ولكن هذا خلاف الظاهر، وذلك أن السياق في الكلام على الطاعة، والاستجابة لأمر الله -عز وجل-، وعدم التباطؤ فيه، والاستثقال له، فالذي يقابل ذلك هو الإعراض والترك والتضييع، فيقول لهم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} فابن كثير حمله على الإعراض، لكنه على المعنى الخاص، أي: عن الجهاد، وهذا باعتبار السياق كما سبق.

وهنا في هذه الآية القراءة المعروفة المتواترة هي هذه التي نقرأ بها: {إِن تَوَلَّيْتُمْ} بالبناء للفاعل.

ولكن من المفيد الإشارة إلى قراءة أخرى مروية عن جماعة من السلف، كعلي -رضي الله تعالى عنه-، وهي أيضًا رواية عن يعقوب، ويرويها عنه ورش: أنها بضم التاء والواو: {إِن تُوُلِّيْتُمْ} فهذه بالبناء للمفعول، فيكون المعنى: هل عسيتم إنْ ولِيَ عليكم ولاة جائرون أن تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم، وتقطعوا أرحامكم بالبغي والظلم والقتل، هذا معنى هذه القراءة: {إِن تُوُلِّيْتُمْ}.

لكن على هذه القراءة التي عليها الجمهور، القراءة المتواترة: {إِن تَوَلَّيْتُمْ} يعني عن طاعة الله وطاعة رسوله، وتركتم الجهاد في سبيل الله: {أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}.

وحملُ ذلك على ما يدل عليه السياق، أو ما يتسق معه من أن التولي عن الجهاد لا إشكال فيه، ومعلوم أن الإنسان بطبيعته لابد له من مزاولة وفعل وإرادة، فإن لم يصرف ذلك في طاعة الله -عز وجل- صار اشتغاله بأضداده، صار اشتغاله بما يضره، ولهذا فإن كل من أعرض عما هو بصدده ابتلي بالاشتغال بضده،

وقد مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في كتابه: "القواعد الحسان" تكلم عن هذه القاعدة، وذكر لها أمثلة، ومن أوضح الأمثلة لهذا: ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عن اليهود: **{وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ}**.

ماذا كانت النتيجة؟

{نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة:١٠١-١٠٢] تركوا اتباع النبي المرسل -عليه الصلاة والسلام-، كليم الرحمن، وتركوا الكتاب المنزل، وهو التوراة، وصاروا متبعين للسحرة، مشتغلين بالسحر، أحط الأشياء.

فمن أعرض عن الجهاد صار اشتغاله بعد ذلك بأضداده، بالإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

وحال الأمة شاهد على هذا، صار بأسهم بينهم.

وهكذا أيضًا فيما يتصل بالنفقات، من لم ينفق في سبيل الله -عز وجل-، ويمتثل أمر الله سلط ماله على هلكته في الباطل، تجد هذا الإنسان ينفق في أمور تضره ولا تنفعه، هذا على مستوى الأفراد، وكذلك على مستوى الأمة، فهذه الأموال الطائلة، والثروات الهائلة إذا لم تصرف في سبيل الله، ونصر الدين، وإعزاز كلمة الله -عز وجل- أنفقت في أمور أخرى، تضر ولا تنفع.

وهكذا، فهذه قضية مطردة مشاهدة، الواقع يصدقها ويشهد لها، وتتكرر كثيرًا، تسخر الأموال في الإفساد والباطل، والله المستعان.

هنا في الحديث الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: ((خلق الله -تعالى- الخلق، فلما فرغ منهم قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن))[٨].

الحقو: الإزار، وأصله يكون معقد الإزار، ولكن توسع في الاستعمال فصار ذلك يقال للإزار.

وهنا أيضًا في الحديث يقول: ((توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنة كحُجْنة المِغزل)).

((حُجْنة المغزل)) هي سنارته، أعلاها المعقوف.

((لها حُجْنة كحُجْنة المِغزل، تَكلّم بلسان طلْق ذلْق))[٩] اللسان الطلْق يعني سريع النطق، والذلْق البليغ، يقال: فلان طلْق ذلْق، له لسان طلق ذلق، يعني يتكلم بطلاقة وببلاغة.

وحديث: ((توضع الرحم يوم القيامة لها حجنة)) إلى آخره، في إسناده ضعف.

وقوله في الحديث: ((الراحمون يرحمهم الله، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحمة شُجْنة من الرحمن))[١٠].

((شُجنة)) الشجنة أصلها في اللغة: الشجرة التي لها عروق، أو الشيء المشتبك، فيقال مثلاً: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، يعني الرحم أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها، تقال الشجنة أيضًا للفرع من الشجرة

---

٨ - سبق تخريجه.

٩ - سبق تخريجه.

١٠ - سبق تخريجه.

المتشابك في أغصانه، شجنة تكون العروق فيها متداخلة ومشتبكة، الرحم أثر من آثار الرحمة ومشتبكة بها، مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، والله أعلم.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٢٤-٢٨].

يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيًا عن الإعراض عنه، فقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

روى ابن جرير: عن هشام بن عروة عن أبيه -رضي الله عنه- قال: تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومًا: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها، حتى يكون الله -تعالى- يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر -رضي الله عنه- حتى ولي، فاستعان به.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}** هذا توبيخ من الله -تبارك وتعالى- في هذا الخطاب الموجه للمنافقين، وسبق الكلام على التدبر، وأن الآيات الأربع فيه منها آيتان في المنافقين: **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}** هذه.

وفي الآية الأخرى: **{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [النساء:٨٢].

والثالثة في الكفار: **{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ}** [المؤمنون:٦٨].

والرابعة عامة: **{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ}** [ص:٢٩] هذه عامة للخلق جميعًا.

وذكرنا هناك أن التدبر لا يحتاج إلى كون الإنسان عالمًا، ليس ذلك من شرطه، فهذا خطاب للمنافقين، وهناك أيضًا خطاب الكافرين، وخطاب عموم الأمة، ولا يوجد في موضع واحد أن الله وجه ذلك الخطاب لخصوص أهل الإيمان، أو للعلماء مثلاً، وذلك أن التدبر مطلوب من الجميع، وكلٌّ بحسبه، التدبر الذي يخاطب به هؤلاء من أهل النفاق والكفار كقوله: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [النساء:٨٢] فهنا قد يتدبرون من أجل أن يعرفوا أن هذا القرآن حق، بحيث لا تناقض فيه، ولا اختلاف، وهذه قضية تتأتى لمن نظر في القرآن وفحصه، ولا تحتاج إلى عالم، فهذا أحد مطالب المتدبرين.

وكذلك أيضًا: أن يتدبر قارئ القرآن من أجل الوقوف على العبر والعظات المضمنة في هذا القرآن وألوان الهدايات، فهذا لا يحتاج إلى عالم، ولا طالب علم.

وكذلك حينما يتدبر من أجل التعرف على محابّ الله ومساخطه، وأوصاف المؤمنين، وأوصاف الكافرين، وكذلك وصف هذه الدار الحياة الدنيا والآخرة، فهذا لا يحتاج إلى عالم، هناك قضايا واضحة في القرآن ذكر الله فيها صفات هؤلاء وصفات هؤلاء، ذكر صفة الجنة وصفة النار، القارئ يدرك هذه المعاني.

ثم أيضًا يتدبر ليعرض نفسه على القرآن، وما ذكر فيه من صفة أهل الجنة وصفة أهل النار، فيتتبع ذلك، وينظر بهذه الأوصاف هل تنطبق عليه أو لا تنطبق عليه، هذا لا يحتاج إلى عالم.

تدبر القرآن من أجل أن يرقق قلبه، وأن يلينه، وأن يعالجه من أدوائه وعلله، هذا لا يحتاج إلى عالم.

لكن أين المشكلة؟.

المشكلة هي أن الكثيرين صارت أذهانهم تتوجه حينما يذكر التدبر، أو حينما تنبعث هممهم إليه أنهم يطلبون المعاني الدقيقة، واللطائف التي تستخرج بالمناقيش، مما لم يسبقوا إليه، يعني هو يبحث عن لفتات دقيقة، وأشياء تتكشف له، قد لا توجد، أو لم تذكر من قِبَل أحد قبله، وهذا غير مراد، يعني هذا نوع، ومثل هذا غالب ما فيه إنما يستخرجه من كان عنده آلة وقدرة على الغوص، من أجل استخراج هذه المعلومات، ولذلك كثير من هؤلاء حينما يغوصون –أعني ممن لا بصر لهم– يستخرجون لفتات غير صحيحة، ومعانيَ ليست كما ينبغي، هذا فيما نشاهده فيما ينشر بعضهم ويكتب ويرسل رسائل بالجوال، أو عبر الوسائط الأخرى.

وبعضهم يسأل قبل ذلك، يرسلون نماذج، يقول: ما رأيك فيها؟، أريد أن أنشرها؟ وهؤلاء قلة، بل ندرة، وفي كثير من هذه الأشياء واضح إذا كان الإنسان هذا ليس عنده بصر، ولا آلة تمكنه من هذا الغوص أنه يأتي بمعانٍ غير صحيحة، واستنباطات ولطائف ولفتات ليست بسديدة، وهذه هي المشكلة، أن تتوجه الأذهان حينما يذكر التدبر إلى هذه اللفتات واللطائف، ليس هذا هو المراد من هؤلاء الناس، حينما نخاطب الناس بالتدبر، ونطالبهم به نحن لا نطالبهم بمثل هذا، نقول: اعرضوا أنفسكم على القرآن، رققوا قلوبكم بالقرآن، انظروا في محابّ الله ومساخطه، فامتثلوا، افعلوا ما أحبه، واجتنبوا ما سخطه، انظروا في صفة هذه الدار، فازهدوا فيها، وانظروا في صفة الآخرة، فشمروا لها، هذا هو المراد.

ومن كان عنده شك في القرآن وتردد من أهل النفاق والكفر ونحو ذلك نقول: اقرأ القرآن، وتدبر لتعرف مصدر القرآن، وأنه من عند الله –تبارك وتعالى.

المقصود: أن مطالب المتدبرين متنوعة، فلا يصح أن تتوجه أذهاننا إذا ذكر التدبر إلى هذا النوع بخصوصه، ومن ثم يتكلف الإنسان تكلفات لا يحسنها، ويكون قائلا على الله بلا علم.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} "أم" هذه هي المنقطعة، بمعنى: بل والهمزة.

{أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} أي: بل على قلوب أقفالها، يقول: فهي مطبقة، لا يخلص إليها شيء من معانيه، يعني بمعنى أن القلب هذا عليه قفل، فكأنه قد أغلق وأُرتج بالكلية، ولا يمكن فتحه، قد صار عليه القفل، فهو مغلق، لا ينفذ إليه شيء، يعني أن هذا القلب لا يستقبل، كما أن اليد آلة للبطش، والرجل للمشي، والعين للإبصار، فإذا تعطلت منافع هذه الأعضاء صارت كالعدم، القلب آلة للفكر والتفكر والعقل والعلم والفهم والإدراك، فإذا تعطل من هذا صار كالعدم.

لذلك الله –تبارك وتعالى– نفى عن هؤلاء الذين صاروا بهذه المثابة الذين: **{خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** [البقرة:٧] فصاروا لهم قلوب لا يعقلون بها، يعني إذًا لا قلوب لهم؛ لأن قلوبهم لم تعد تبصر **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج:٤٦] فكما أن العين

إذا ذهب بصرها فإنها تكون معطلة لا ينتفع بها، إنما هي صورة فقط، فكذلك القلب حينما يصاب بالعمى، وهذه الأدواء فإنه لا ينتفع به، فلا يعقل عن الله –تبارك وتعالى.

وقد ذكرت –سابقًا– أنواع هذه الحواجز والموانع التي تمنع من العقل عن الله والتدبر والتفكر بالكلية: الران، الأقفال، الأكنة، الأغلفة، الختم، الطبع، كل هذه الأشياء تمنع بالكلية، لكن قبل ذلك المرحلة الرمادية هذه التي يتفاوت فيها الناس، فهي قضية نسبية، فالقلب يمرض كما يمرض البدن، فهنا قد يكون المرض يسيرًا قد يتعاظم ويشتد، لكن إذا وصل إلى حال الموت فهنا يكون صورة بلا معنى، مثل الجثة، الإنسان المريض حركته ضعيفة، نشاط الأعضاء ضعيف، وظائف الجسم ضعيفة، وإذا تعاظم فيه المرض، ووصل إلى حال الموت فعند ذلك يكون جثة هامدة، لا يعمل شيء من هذه الأعضاء والأبعاض، والله المستعان.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}، **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}** "الفاء" هذه عاطفة على جملة محذوفة، كأن التقدير: أيعرضون عن كتاب الله، فلا يتدبرون القرآن؟!

ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم} أي: فارقوا الإيمان، ورجعوا إلى الكفر {مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}.

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ} أي: زين لهم ذلك وحسنه.

{وَأَمْلَى لَهُمْ} أي: غرهم وخدعهم.

قوله –تبارك وتعالى–: **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}** يقول: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر.

من هؤلاء؟

هذه ظاهرها العموم: **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم}** يعني رجعوا إلى الوراء، والدُّبر معروف، فمن رجع فإنه يكون قد ولى دبره.

فبعض أهل العلم كقتادة واختاره ابن جرير يقولون: هذه قصد بها أهل الكتاب، بأي اعتبار؟

باعتبار أنهم عرفوا نعته –صلى الله عليه وسلم– ثم كذبوا وكفروا، وأعرضوا: **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}**.

وبعضهم كالضحاك والسدي يقولون: هي في المنافقين أظهروا الإيمان، وعرفوا حقيّة ما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم نكصوا وكفروا، وتركوا العمل بما أمروا به من طاعة الله وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، والجهاد في سبيل الله.

وبعض أهل العلم يقول: إن ذلك فيمن ارتد بعد إسلامه، هذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله.

وكأن هذا أقرب –والله أعلم–؛ لأن ظاهر اللفظ العموم **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}** فالذين قالوا: إنها في المنافقين قالوا: لأن السياق في المنافقين.

قال: **{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}**، **{سَوَّلَ لَهُمْ}** يقول: **زين لهم ذلك وحسنه** **{وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}** [طه:٩٦] يعني زينت وحسنت.

وكما قال الله -تبارك وتعالى-: **{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}** [المائدة:٣٠] زينت له نفسه ذلك.

هنا: **{ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}**.

{سَوَّلَ لَهُمْ} الشيطان.

{وَأَمْلَى لَهُمْ} من الذي أملى لهم؟

هنا ابن كثير يقول: **غرهم وخدعهم**، يعني الشيطان، كل ذلك في الشيطان، أن الضمير يرجع إلى الشيطان في الموضعين.

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} الإملاء بمعنى: أنه يعدهم ويمنيهم، يعدهم بالمغفرة، يرجيهم بالتوبة، فكل ذلك تغرير بهم.

وبعض أهل العلم يقولون: إن الذي أملى لهم هو الله.

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ} زين لهم الكفر والارتداد، وترك طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- **{وَأَمْلَى لَهُمْ}** أي: الله.

فيكون المعنى: أنه أمهلهم، فلم يعاجلهم بالعقوبة، واستدرجهم: **{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [القلم:٤٥].

وقالوا: الإملاء من الله على سبيل الاستدراج، والتسويل من الشيطان، وقد ذكرنا قاعدة من قواعد التفسير، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

وهذا الذي يدل عليه ظاهر السياق.

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} هو أيضًا، **{وَأَمْلَى لَهُمْ}** أي: الشيطان.

لكن لو نظرنا أيضًا إلى القراءات في الآية فهذه قراءة الجمهور: **{وَأَمْلَى لَهُمْ}**.

وفي قراءة أخرى متواترة، قراءة أبي عمرو بالبناء للمجهول "الشيطان سول لهم وأُملِي لهم"، من الذي أملى لهم؟

هنا غير مذكور، فبعضهم يقول على هذه القراءة: "أُملِي لهم" يكون الذي أملى لهم هو الله.

فتأمل هنا: "الشيطان سول لهم وأُملِي لهم" فالذي أملى بهذا الاعتبار عند بعض أهل العلم هو الله، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وبهذا قال الفراء، مع أن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك مطلقًا -يعني سواء على هذه القراءة، أو على قراءة الجمهور: **{وَأَمْلَى لَهُمْ}**- على أن الذي أملى لهم هو الله، والشيطان سول لهم.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- ذكر شواهد الأول، وشواهد الثاني، يعني يقول: كل واحد منها يشهد له القرآن، يعني توجد نصوص بأن الشيطان يرجِّيهم، ويملي لهم، يعني يوسع لهم الأمل، ويفسح لهم فيه، من أجل الاستغراق في الكفر والمعاصي، والاسترسال في ذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}** [إبراهيم:٢٢].

الله يقول: **{وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}** فوعْده هو إملاؤه، وعَدَهم التوبة، وعدهم أن لهم عند الله الجنة، ونحو ذلك بمغفرة الله لهم، ثم ورطهم، فالشنقيطي -رحمه الله- ذكر شواهد لهذا، وشواهد لهذا، مع أنه يميل إلى أن الذي أملى لهم هو الشيطان.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين، يظهرون خلاف ما يبطنون.

ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} أي: ما يسرون وما يخفون الله مطلع عليه، وعالم به، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{ذَلِكَ}** هذا إشارة إلى ما تقدم من ارتدادهم: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ}**.

هنا هؤلاء: **{الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}** هذا الارتداد لأي شيء كان؟

لكونهم: **{قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}** بهذا كانوا مرتدين.

وهذا السياق كما هو معلوم في المنافقين، فالآيات لم تزل تتحدث عنهم، وهذه من صفات المنافقين، فهنا: **{قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ}** من الذين كرهوا ما نزل الله؟

أهل الكتاب مثلاً، هذا قال به جماعة من أهل العلم، وذلك كما في قوله -تبارك وتعالى- عن المنافقين: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم}** [المجادلة:١٤] يعني المنافقين تولوا اليهود.

وقالوا لهم أيضًا: **{لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا}** [الحشر:١١] فهم يقولون: لا نسمع فيكم قول قائل، ولا نقبل عذل عاذل، فبعض أهل العلم حمل ذلك على المنافقين، أنهم قالوا ذلك لليهود.

وبعض أهل العلم يقول: الذين كرهوا ما نزل الله هم الكفار والمشركون، فهم كرهوا ما نزل الله.

وهذا يشهد له قوله -تبارك وتعالى- قبله: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}** [محمد:٨].

قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}** [محمد:٩] هذه في صفة الكفار التي ذكرها قبل ذلك.

فهنا جاء الكلام عن المنافقين بعد هؤلاء الكفار، قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}**.

فهذا يمكن أن يكون قرينة تدل على ذلك.

ولا شك أن الكفار من المشركين أنهم بهذه المثابة، وبهذه الصفة: أنهم كارهون لما أنزل الله، وكذلك أيضًا أهل الكتاب، فكل ذلك واقع ومتحقق في صفتهم.

ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي: مالئوهم وناصحوهم، يعني: **{سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}** ناصحوهم في الباطن على الباطل، يعني أن المنافقين يتمالئون مع أعداء الله -عز وجل-، الكارهين لشريعته، ووحيه وأحكامه وحدوده، يقولون لهم: **{سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}** تأمل **{فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}** ليس في كل الأمر، فهنا هذا من أعمال المنافقين التي أوجبت كفرهم وردتهم؛ لأن الله قال بعده: **{فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}** فالذين يكونون بهذه الصفة عند الوفاة تضرب وجوههم وأدبارهم هم الكفار **{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}** [الأنفال:٥٠].

فهذا لا يكون لأهل الإيمان من العصاة، فهذه الآية فيها وعيد شديد وتهديد لمن أذعن للكفار، وأطاعهم، وانقاد لهم، مَن دخل في طاعتهم، ولو في بعض الأمر.

خطورة تقديم التنازلات، والاستجابة لمطالب أعداء الله –عز وجل-، فإن ذلك قد يؤدي إلى الخروج من الإسلام بالكلية –نسأل الله العافية-، فالأمر ليس بالسهل.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله- في "الأضواء" تكلم على هذا الموضع بكلام جيد، يحسن مراجعته، إذا كان طاعة هؤلاء الكفار في بعض الأمر توجب هذه النهاية الخطيرة، فكيف بالدخول تحت طاعتهم في كل شيء، وتبديل شرائع الإسلام بالكلية، والتمالؤ معهم على كل شيء، بل لربما تحول بعض من ينتسب إلى الإسلام إلى حال من الإفساد والنكاية بالدين وأهله أعظم مما للكفار، فيتحول هو إلى محرض لهم، ومهدد لهم من الإسلام وأهله، يخوفهم من الإسلام وأهله، يعني هم لربما لا ينشطون في بعض القضايا أن يحاربوها، أو يكون لهم موقف حاسم تجاه قضايا المسلمين، فيأتي هذا ويحرضهم ويخوفهم ويضغط عليهم، من أجل بعث هممهم لمحاربة هذا الأمر الذي يتصل بدين الله –عز وجل-، أو أوليائه، وأهل طاعته، يعني يكون هو أسوأ حالاً منهم، هو يستقوي بهم ويحرضهم على الإفساد والإيقاع بأهل الإيمان، أو إفساد شرائع الدين، نسأل الله العافية.

حتى قال قائلهم: أنا أعلم بمصلحة فرنسا من فرنسا، يعني هو يستحثهم على خطوات وإجراءات، وهم يتباطئون فيها، يرون أن النار الهادئة أولى لتحقيق أهدافهم، وهو يريد أن لا يتوانوا في سحق ما يتصل بالإسلام، فيقول: أنا أعلم بمصلحة فرنسا؛ لأنه طبعًا وليه هناك، يقول: أنا أعلم بمصلحة فرنسا من فرنسا، إلى هذا الحد صار –نسأل الله العافية- الضلال والنفاق متغلغلاً في عروقه، وقد تحدثنا في مناسبة ماضية عن حديث: ((اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا))[١١] إلى آخره.

وذكرنا أن الإنسان يصل به الحال أحيانًا إلى أن يكون في حالة كأنما عجن وخلط الإيمان مع لحمه ودمه، وكذلك يصل في حال الضلال والانحراف إلى حال كأنما عجن النفاق بلحمه ودمه، لا ينطق ولا يرى ولا يبصر ولا يتكلم ولا يتصرف ولا يحاول ولا يزاول إلا بنفاق حامض –نسأل الله العافية- فيكون من المردة، كما قال الله –تبارك وتعالى-: **{مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ}** [التوبة:١٠١] الإنسان المسلم يحذر من هذا كله.

وكما قيل: كثرة المزاولات تورث الملكات، هذا في الخير وفي الشر، يصير النفاق كأنه سجية وملكة له، ولذلك لما ذكر الله المنافقين ذكر من أحوالهم أشياء عجيبة، حتى في الآخرة لما يبعثون: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** [المجادلة:١٨] يعني هم إلى آخر لحظة، حتى في الآخرة، يقوم من قبره وهو يحلف أيمانًا، ما بعد هذا شيء، هل ترجِّي أن هذا يرجع في الدنيا ويتوب ويستغفر؟ هذا حتى في الآخرة يقوم من القبر، وبهذا الكذب الفج الذي يحلف عليه ويقسم الأيمان، نسأل الله العافية.

أما قول من قال: إن القائلين هم اليهود **{قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}** أي اليهود قالوا للمنافقين، والمنافقون هم الذين كرهوا ما نزل الله فهذا بعيد، الآية في المنافقين، قالوا للكارهين لما أنزل الله، وقد ذكر الله هذه الكراهة بصفة الكافرين في السورة نفسها، يقولون لهم: **{سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}**

---

١١ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم (٦٣١٦)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٣).

فهؤلاء كما قال الله -عز وجل- عنهم: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} يعني هم يريدون التوفيق بين الإيمان والكفر، بين أهل الإسلام والكفار، فيلفقون لهم دينًا ومنهاجًا وشريعة من هذا وهذا، وهذا لا يمكن أن يحصل به التوفيق إطلاقًا، الذين يفعلون ذلك لا يمكن أن يصلوا إلى نتيجة، فالله -عز وجل- يقول: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة:١٢٠] الرضا لن يتحقق حتى تتبع ملتهم، أمّا أن تتنازل عن بعض الأشياء فهذا لربما يغض الطرف عنك مؤقتًا، ثم يأتي التحطيم، ويدوسونه بنعالهم، كما شاهد العالم: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} هذا الرضا، لكن الكف عن القتال: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} [البقرة:٢١٧] فالكف عن القتال إلى حد الردة، أما الرضا فـــ{حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} لاحظ اليهود والنصارى {حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} لكن ملة من؟

إذا اتبعت ملة النصارى لن ترضى اليهود، وإذا اتبعت ملة اليهود لن ترضى النصارى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة:١١٣].

{وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [البقرة:١٣٥] "أو" هذه للتقسيم، يعني قالت اليهود: كونوا هودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وليس معناه التخيير، فاليهود لا يقولون: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، هم يرون أن النصارى كفار، والنصارى يعادون اليهود في أصل دينهم، فهذا لن يتحقق له مبتغاه، الذي يلفق ويطيعهم في بعض الأمر، زعمًا منه أنه يريد الإحسان والتوفيق، وأولئك كما قال الله -عز وجل-: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [النساء:٦٣].

هؤلاء أهل النفاق: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٠-٦٣] هذه في المنافقين.

يقولون: إن السيخ، الديانة هذه التي في بلاد الهند، طبعًا بعضكم لربما ما أدرك هذا، في أواخر القرن الماضي، ليس ذلك ببعيد، يعني قبل نحو ثلاثين سنة، أو نحو ذلك، قاموا على المسلمين في بلاد الهند، وذبحوا الصغير والكبير، مقتلة للأطفال والنساء والشيوخ، وهدموا، والإعلام لم يكن بهذه الصورة الآن بوسائله وقنواته إلى آخره، ولكن وصلت بعض الصور، فلو بحثت مثلا في النت عن: "السيخ، مذابح السيخ للمسلمين" إلى آخره لشاهدت العجب العجاب.

فهؤلاء من أشد الناس عداوة للمسلمين، وحقدًا عليهم، يعني أشد من الهندوس والبوذيين، يقال: إن أصل هذه الديانة، هي ديانة حادثة في الهند، يعني متأخرة، يقال: إنها أصلها أن رجلاً من الهندوس كان يشتغل عند تاجر من المسلمين، فكان معجبًا بأمانته وأخلاقه واستقامته ونزاهته، أعجب به إعجابًا شديدًا، فكان مترددًا بين ديانته الهندوسية، وما يرى من أخلاق هذا المسلم، ويرى التنافر والصراع الدامي بين المسلمين والهندوس، فأزمع على أن يجمع الطائفتين، ويوحد بينهما في ديانة واحدة، لينتهي هذا الصراع، فهو يرى أن المسلمين جيدون، كحال هذا التاجر الذي عرفه من قرب، وأن هؤلاء الهندوس هم قومه وأهل دينه، فأراد أن

يجمع ويمزج بينهما، فجاءت هذه الطائفة: السيخ، التي صارت أشد عداوة على المسلمين من الهندوس، فأقامت مذابح للمسلمين، ولو قرأتم في تاريخ بعض ملوك الهند من المسلمين، والتحولات التي حصلت، والتبديل والتلفيق، حصلت أشياء من هذا القبيل، ومحاولات للجمع بين هذه الديانات، لتكون ديانة متقاربة، أو ديانة واحدة، فماذا نتج عن ذلك؟.

اقرءوا في تاريخ الهند.

ثم قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال -سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [الأنفال:٥٠] الآية.

وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} [الأنعام:٩٣] أي بالضرب {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام:٩٣].

ولهذا قال هاهنا: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}.

هذا الموضع فيه قراءتان متواتران: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} قراءة الجمهور بالفتح: "والله يعلم أسرارهم" جمع سر، الأسرار التي بينهم وبين هؤلاء الكفار الذين اتفقوا معهم على الطاعة في بعض الأمر، ويعلم أسرارهم كلها في هذا وفي غيره، مما يبيتونه من مساخط الله -تبارك وتعالى.

وقراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وهي التي نقرأ بها بالكسر: {إِسْرَارَهُمْ} على المصدر.

يقول هنا: أي ما يسرون وما يخفون، والله مطلع عليهم، هذه الأشياء التي يبيتونها مع أعداء الله -عز وجل-، ويتفقون معهم عليها، وما يقدمون لهم من التنازلات، الله يعلم ذلك جميعًا، وإن خفي على الناس.

ابن جرير -رحمه الله- حمل هذه الآية على غير ما ذكر، يعني من كون ذلك أنهم: {قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ} هم الكفار أو اليهود، أو أهل الكتاب، وإنما ذلك لطائفة أيضًا من المنافقين: {قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ} يعني من المنافقين، يعني أن المنافقين يقول بعضهم لبعض: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم.

يقول: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} يقول: أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم؟

يقول: {فَكَيْفَ} "الفاء" هذه لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

و"كيف" هذه في محل رفع على أنها خبر مقدم، فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة؟!.

أو في محل نصب بفعل محذوف، يعني كيف يصنعون؟

ويحتمل غير ذلك، كأن تكون خبرًا لـــ"كان" مقدرة، يعني فكيف يكونون **{إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}**؟

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}، **{ذَلِكَ}** إشارة إلى التوفي المذكور، توفي الملائكة لهم، في هذه الحال: **{يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}** لماذا؟

لأنهم: **{اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}**.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة محمد من الآية (٢٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}** [محمد:٢٩-٣١]: **يقول تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يَفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله -تعالى- في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى: الفاضحة، والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله، والقائمين بنصره.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}** "أم" هذه هي المنقطعة، كما ذكرنا مرارًا أنها بمعنى: بل والهمزة، يعني: بل أحسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟

والمرض المراد به هنا: مرض النفاق، وذكرنا في بعض المناسبات: أن المرض في كتاب الله -تبارك وتعالى-: **{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً}** [البقرة:١٠] يطلق ويراد به: النفاق، وهذا هو الغالب في كتاب الله -تبارك وتعالى.

وقد يطلق ويراد به: ضعفاء الإيمان، وهو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [الأحزاب:١٢] يحتمل أن هذا لصنفين من الناس: للمنافقين، وعطف عليه الذين في قلوبهم مرض، أن العطف يقتضي المغايرة، عطف عليه ضعفاء الإيمان.

ويحتمل: أنه من قبيل عطف الأوصاف التي ترجع إلى موصوف واحد، وهذا ذكرنا نظائره أيضًا.

والإطلاق الآخر هو الميل المحرم إلى النساء، كما في آية الأحزاب: **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** [الأحزاب:٣٢] يعني المريض الذي يميل ميلاً محرمًا إلى النساء.

فهنا في هذه الآية المراد: النفاق **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** والقلوب تمرض كما تمرض الأبدان، وتموت كما تموت الأبدان، وشر عللها هو النفاق.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} يعني المنافقين **{أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}**؟

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه، حتى يَفهمهم ذوو البصائر.**

{أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} الإخراج بمعنى: الإظهار، يعني: أن الله يكشف دخائلهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من الضغائن.

وفسر ذلك -أعني الأضغان- بالأحقاد، هذا قال به جماعة من السلف فمن بعدهم.

وفسر ذلك بمعانٍ أيضًا متقاربة.

بعضهم يقول: الغش.

وبعضهم يقول: الحقد.

وبعضهم يقول: الحسد.

وبعضهم يقول: العداوة.

وكل هذا متقارب؛ لأن هذه الأحقاد التي في قلوبهم إنما تثمر غشًّا وعداوة، فتارة يفسرون هذا ببعض لوازمه، أو ببعض آثاره، أو ببعض معانيه.

فالأضغان هي ما ينطوي عليه القلب من المشاعر غير الحميدة تجاه الآخرين.

يعني أنه يحمل في نفسه عليهم حقدًا وغلا، يعني أنه يتحامل عليهم، هذا هو المراد.

والعقائد وما تنطوي عليه النفوس لا شك أنه يؤثر في سلوك الإنسان، فيظهر ذلك في نظر العين، ويظهر ذلك على اللسان، ويظهر في تصرفات الجوارح، وذلك أن الناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم، هذه المكنونات في النفوس تسيطر على تصرفات أصحابها، وتسوقهم إلى مقتضياتها، فيصدر عنهم كل قول قبيح، وكل فعل قبيح، كما هو معلوم.

وهذا يدل دلالة واضحة لا لبس فيها على أن هؤلاء المنافقين ليسوا فقط يكفرون في الباطن، ويريدون مجرد حقن الدماء، وإحراز الأموال، وإنما هم أيضًا يتحاملون على أهل الإيمان، ويحملون نحوهم مشاعر العداوة والبغض، فهذه المشاعر التي يحاولون أن يداروها وأن يخفوها يظهرها الله -تبارك وتعالى- على فلتات الألسن، وصفحة الوجه، وتأتي الأحداث والمواقف التي تبين وتكشف عن حقيقة هؤلاء، بحيث لا يستطيع الواحد منهم أن يخفي هذه المكنونات في بعض الأحوال، وذلك إما بحالات تمر على أهل الإيمان من الضعف أو الهزيمة، أو نحو ذلك، فيرفع هؤلاء عقيرتهم بالوقيعة، والثلب، والسب، والشتم، والأذى، ويرمونهم بكل قول قبيح، وبكل وصف شنيع، فهم لا يفتئون في الوقيعة، والتخذيل، والذم، وتفريق الصف، وبث الأراجيف، فهذه بضاعتهم، وهذه آثار هذه الأضغان التي تنطوي عليها نفوسهم.

وقوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ} يقول -عز وجل-: {وَلَوْ نَشَاء} يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانًا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، وردًّا للسرائر إلى عالمها.

{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: "ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه".

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ}** يعني: أنْ تعرفهم بأشخاصهم تحديدًا، فلان، وفلان، وفلان، وهذا كان قبل أن يُطلع الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- على جماعة من المنافقين بأعيانهم، وأسرّ النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى حذيفة -كما هو معلوم- بأسماء جماعة من المنافقين.

{وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ} يعني: لعرّفناك هؤلاء، يقول: ولكن لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه.

{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} يعني: لحن القول: فحواه ومغزاه، وذلك مما يتفوهون به من ثلب ووقيعة، أو توهين أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه، وسوء الظنون بالله -تبارك وتعالى-، فتارة يقول قائلهم: "سمِّنْ كلبَك يأكلْك".

وتارة: "والله ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أشد حرصًا على البطون، وأجبن عند اللقاء".

وتارة: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [المنافقون:٨]، وقولهم: **{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}** [المنافقون:٧].

يعني حتى يتفرقوا عنه، ويطلبوا بلدًا آخر يُؤويهم، فلا يتواردون على مدينتكم وبلدتكم، فيزاحمونكم في أقواتكم وأرزاقكم، اقطعوا عنهم النفقة، وغير ذلك من العبارات التي كانوا يتفوهون بها، فقد سجل القرآن عليهم جملة من ذلك، وكذلك جاء في السنة في أسباب النزول، وفي غيرها، فهذا مما يعرف به أهل النفاق، وذلك أن ما يتفوه به بلسانه، أو يكتبه بقلمه يُنبئ عن حاله، فهذا الذي لم تزل كتاباته في الوقيعة، والثلب، والحط على أهل الإيمان، وليس له بضاعة، وليس له شيء يشتغل به إلا هذا اللون من الأذى لأولياء الله -تبارك وتعالى-، وتوهين كل ما يتعلق بأمر الدين، فهو تارة يعلن فرحه بكل ما يحصل ويوجد ويقع من الأمور التي من شأنها أن تضعف الدين في نفوس الناس، أو في تمسكهم به أو في ذيوعه وانتشاره بينهم، أو يكون ذلك بإظهار الشماتة بأهل الإيمان، وإطلاق الألقاب القبيحة عليهم، أو التشكيك في مقاصدهم، أو التندر بالعبارات أو الشعارات التي يذكرونها، فهذه بضاعة أهل النفاق، وهذا من لحن القول الذي يعرفون به، حينما لا يعرف عن هذا الكاتب، أو هذا الذي يطعن ويثير قالة السوء بين أهل الإيمان، ما يعرف عنه إلا هذا فمثل ذلك ينادي على نفسه أنه ممن في قلوبهم مرض.

فمثل هذا حينما يصدر منه خلاف ذلك، يعني يغلط مرة، أو يفيق ضميره ويستيقظ قلبه، فيكتب كتابة حسنة، يستغرب الناس ويقلّبونها ويتداولونها بينهم، ما الذي حدث؟

لأنه كما قال الله -عز وجل-: **{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}** [النور:٢٦].

وذكرنا هناك: أن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين من الناس، فهم معادنها، فإذا صدرت عنهم فإن ذلك لا يستغرب، وأثر ذلك يرجع عليهم، ولا يضر أهل الإيمان، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول والأفعال، وإن كان المعنى أعم من هذا، الخبيثات من النساء والأوصاف والأقوال والأفعال للخبيثين من الناس، لكن هذا المعنى الذي ذكره ابن جرير هو بعض ما يدخل في معناها، الخبيثات من الأقوال للخبيثين من الناس.

فهؤلاء هم مظنة لصدور مثل هذه المقالات، والأفعال القبيحة، ولم يزل ذلك منذ عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى يومنا هذا، وهم يشتغلون هذا الاشتغال، ويتكلمون بمثل هذه القبائح، فهذا لحن القول، يعني فحواه ومغزاه.

وأصل اللحن هو إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء، لغرض من الأغراض، فهو يلحن في كلامه، لا يأتي به صريحًا فيعلن نفاقه، وإنما يتكلم بطريقة تدل على أن قائلها والمتفوه بها من المِراض وليس من الصحاح، أنه مريض، نسأل الله العافية.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى–: في قوله تعالى: **{وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}**: "وذلك في حق المنافقين: فالأول: فراسة النظر والعين: **{فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ}**.

والثاني: فراسة الأذن والسمع: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}**.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبرا مؤكداً بالقسم، فقال: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه؛ أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع"[١].

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله)) ثم تلا قوله تعالى: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}** [الحجر:٧٥][٢]، والحديث فيه ضعف.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "وَذَلِكَ أَن ظُهُور مَا فِي قلب الْإِنْسَان على لِسَانه أعظم من ظُهُوره فِي وَجهه، لكنه يَبْدُو فِي الْوَجْه بدوًّا خفِيًّا يُعلمهُ الله، فَإِذا صَار خلقًا ظهر لكثير من النَّاس، وَقد يقوى السوَاد وَالْقتمَة حَتَّى يظْهر لجمهور النَّاس، وَرُبمَا مُسخ قردًا أَو خنزيرًا، كَمَا فِي الْأُمَم قبلنَا، وكما فِي هَذِه الْأمة أَيْضا"[٣].

قال ابن القيم –رحمه الله–: "وظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدوًّا خفيًّا يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس، ثم يقوى حتى يُمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير،

---

١ – مدارج السالكين (٢/٤٥٢).

٢ – أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب: ومن سورة الحجر، رقم (٣١٢٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (١٨٢١) وفي ضعيف الجامع الصغير، برقم (١٢٧).

٣ – الاستقامة (١/٣٥٥).

كما جرى على كثير من الأمم قبلنا، ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى"[٤].

هذا صحيح، ولذلك ترى ذلك يظهر جليًّا يعرفه كل أحد فيما يتعلق بأصحاب البدع الغليظة، من الرافضة مثلاً، فإذا رأيته بين ملايين الناس عرفت أنه رافضي، وهذا فيه أكبر عظة وعبرة، لو أن هؤلاء يعقلون لتابوا إلى الله -تبارك وتعالى- من هذا، بمجرده، دعك مما وراءهم من العقائد الفاسدة.

فما يكنّه الإنسان يظهر على وجهه، فيقوى تارة فيعرفه كل أحد، وقد يكون دون ذلك فيراه أهل الفراسة، ولذلك مهما كان يتصنع في مظهره، في محاكاة أهل الإيمان، ونحو ذلك، فهم يرون في وجهه شيطاناً، يرون هذه اللحية التي ظهرت على وجهه أنها ليست بلحية حقيقية تظهر عليها أنوار السنة، ويظهر ذلك على وجهه، وإنما هي لحية تحت كل شعرة منها شيطان، وهذا أمر مشاهد لا يخفى يلوح على وجه صاحبه، يراه أهل الإيمان، "فما أسرّ أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحة وجهه، وفلتات لسانه".

وقوله -عز وجل-: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} وليس في تقدم علم الله -تعالى- بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- في مثل هذا: {إِلَّا لِنَعْلَمَ} [سبأ:٢١] أي: لنرى.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} هذا كما قال الله -عز وجل-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ} [البقرة:٢١٤].

وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٢].

وفي قوله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} [التوبة:١٦] إلى غير ذلك مما وعد الله به.

وذكرنا هناك في سورة الأحزاب عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [الأحزاب:٢٢] تعليقاً على قول ابن كثير -رحمه الله- حينما ذكر معنى حسناً فيها: أن ذلك إشارة إلى ما وعد الله به من الابتلاء {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} وهو: {أَمْ حَسِبْتُمْ}.

والقول الآخر: هذا ما وعد الله ورسوله من النصر.

---

٤ - بدائع التفسير، (٢/٤٥٥)، دار ابن الجوزي، ط١، سنة النشر:١٤٢٧هـ.

وبين القولين نوع ملازمة، ذكرنا أن المعنى -والله تعالى أعلم- هو الذي ذكره الحافظ ابن كثير: الابتلاء الذي يعقبه النصر، هذا الذي وعد الله ورسوله، وأن المؤمن إذا رأى الابتلاء تذكر وعد الله به: {أَمْ حَسِبْتُمْ} والنصر يعقب ذلك، والتمكين يحصل بعد الابتلاء.

وهنا: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} لنختبرنكم بالأوامر والنواهي، وليس ذلك فحسب، وإنما فيما يبلوهم به مما يجريه -تبارك وتعالى- في خلقه، ويقع في كونه مما يكون ابتلاء لعباده من تسلُّط الكافرين، ومن إنهاض عزائمهم وهممهم لحرب المسلمين، فيبتلي الله -عز وجل- بذلك أهل الإيمان، فالكفار يُبتلون بالمسلمين، والمسلمون يُبتلون بالكفار، والله -عز وجل- يبلو الناس بعضهم ببعض.

فهنا هذه الأمور الواقعة مما يبتلي الله -عز وجل- بأمره ونهيه وشرعه.

وكذلك أيضًا فيما يقع في هذا الباب من النسخ، كنسخ القبلة مثلاً: {لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة:١٤٣].

وكذلك أيضًا ما يجري في قدره، كل هذا يقلب الله -عز وجل- فيه الناس، فيبتليهم حتى يعلم المجاهدين منهم والصابرين.

قال: {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} يعني نظهرها ونكشفها امتحانًا لكم، ليظهر للناس من أطاع ومن عصى، ومن آمن ومن كفر.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} يعني فنعرف الصادق منكم من الكاذب، والله -عز وجل- لا يخفى عليه شيء، ولكن كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: فالمراد حتى نعلم وقوعه، يعني هذا يفسر به المواضع في كتاب الله -تبارك وتعالى- التي ذكر فيها التعليل بالعلم: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة:١٤٣] الله يعلم ولكن القصود العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وقل مثل ذلك في سائر المواضع.

وتارة يراد به العلم الذي يحصل به الظهور والانكشاف للناس، يعني في آية الكهف في قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف:١٢] لنعلم هذا العلم الذي يحصل به الانكشاف للناس والظهور، وإلا فالله يعلم: {أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٢-٣٥].

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه، ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقّبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، عن أبي العالية قال: "كان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرون أنه لا يضر مع "لا إله إلا الله" ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} فخافوا أن يُبطل الذنب العمل"[٥].

ثم روي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "كنا معشر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء:٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها[٦].

قوله -تبارك وتعالى- هنا في صفة هؤلاء: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} هو الذي اقتضى اختلاف المفسرين في هذا الموضع، يعني أن أول الآية ظاهره العموم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} والاسم الموصول -كما هو معلوم- من صيغ العموم، فهذا يصدق على كل الكفار الذين هم بهذه المثابة.

لكن حينما قال الله -عز وجل-: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} فهذا في نوع من المشاقين والكافرين، ومن هنا حمله بعض أهل العلم على أهل النفاق، عرفوا الحق ثم بعد ذلك انحرفوا عنه، ووقعوا في النفاق.

وبعضهم يقول: إن ذلك في أهل الكتاب، عرفوا صفته -صلى الله عليه وسلم-، وأن ما في كتبهم ينطبق على النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويصدق عليه، ولكنهم جحدوا وكفروا.

وبعضهم يقول: إنها في المطعمين يوم بدر، والمطعمون يوم بدر -كما هو معلوم- لما سار المشركون إلى بدر، فكان في كل يوم يطعمهم واحد من أهل الجدة من كبراء قريش، يطعمهم عشرًا من الإبل، ينحر عشرًا من الإبل، لكن هذا كأنهم نظروا فيه إلى قوله: {وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} فهذا أضعف هذه الأقوال.

وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئًا.

فهذا يصدق على المرتدين، كما أنه يصدق على المنافقين، وعلى كل من ينطبق عليه هذا الوصف: {كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} وأهل الكتاب الذين عرفوا حقية ما جاء به -صلى الله عليه وسلم- داخلون في ذلك.

ولكنها تصدق بصفة أو بصورة أولية على من دخل في الإسلام، ثم ارتد عنه ردة مكشوفة، أو دخل في باب النفاق.

وقوله: {وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} سبق الكلام على هذا في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- وذكرنا أن "صد" تأتي لازمة ومتعدية.

---

٥ - رواه المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٤٥) رقم (٦٩٨).

٦ - رواه المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٤٦) رقم (٦٩٩).

"صد" لازمة، أي: صد في نفسه، تقول: فلان صدَّ وصادٌّ، يعني أنه انقبض، وبقي في حاله، وانطوى على نفسه.

ويمكن أن تكون متعدية: {وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} وقد ذكرنا هذا في مواضع، من ذلك في سورة المنافقين: أن هؤلاء يكون صدودهم بما ذكره السلف من المعاني: أنهم صدوا في أنفسهم، إذا فسرت بأنها لازمة.

وأنهم صدوا عن الدخول في الإسلام، صدوا الناس هذه متعدية، وكذلك صدوا عن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، والجهاد في سبيل الله، والنفقة في سبيله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب:١٨] فهم يعوّقون ويثبطون، ويخذلون عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام.

{سَبِيلِ اللَّهِ} أيضا مضى الكلام على هذا، وأنه غالبًا ما يأتي في القرآن بمعنى: الجهاد في سبيل الله، وقد يأتي بمعنى أوسع من ذلك.

فهنا: {وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} صدوا عن الجهاد، وصدوا أيضًا عن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعن دين الله -تبارك وتعالى.

{وَشَاقُّوا الرَّسُولَ} أيضًا ذكرنا أن المشاقة أصلها أن يكون هذا في شق وهذا في شق، مثل المحادة والعداوة، المحادة هذا في حد وهذا في حد، والعداوة هذا في عُدوة وهذا في عُدوة، يعني من شقي الوادي، أو من شفتي الوادي، أو من شاطئي الوادي، يقال: عدوة: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [الأنفال:٤٢]، فهنا: {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} هؤلاء ما شأنهم؟

قال: {لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} إذًا هؤلاء لن يضروا الله شيئًا؛ لأن الله -تبارك وتعالى- غني عن خلقه {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ} [الزمر:٧].

وكما جاء في الحديث القدسي: ((إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني))[٧].

فهؤلاء الذين ينتكسون ويرتكسون، ويرجعون بعد الإيمان: {لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا}؛ لأن الله غني عنهم، وغني عن خلقه أجمعين، إنما هم في الواقع يضرون أنفسهم، ويسيئون إليها، ويحملونها الأثقال والأوزار، ويتقوتون بما يصير بهم إلى النار، فهذا حالهم، وهذا شأنهم، وهذا هو مآلهم ومصيرهم، ولهذا نهى الله -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن على الكافرين، وما يصدر عنهم: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف:٦].

{بَاخِعٌ نَّفْسَكَ} أي: مهلك نفسك، لكون هؤلاء لم يدخلوا في الإيمان.

وقال: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر:٨] فالله -تبارك وتعالى- ينهى نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن بسبب كفر من كفر، وإعراض من أعرض، وضلال من ضل؛ لأن هؤلاء هانوا على الله -عز وجل- فأهانهم، وصيّرهم إلى هذه الحال التي يرتكسون فيها.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

ومثل هذا الخطاب يوجه أيضًا إلى أهل الإيمان: فلا تذهب نفوسهم حسرات بسبب ضلال من ضل، وشقاء من شقي، وإنما عليهم أن يبلّغوا دين الله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك الله يهدي من شاء من عباده، ويضل من شاء عن علم وحكمة.

فهنا قال: {لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا}، وقال: {وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} وقد مضى الكلام على الحبوط، وأنه بمعنى الإبطال، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وإنّ كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطًا أو يُلم))[٨] يعني يقارب.

فالزهوق، البطلان، الإبطال كل ذلك بمعنى الحبوط، فالله -تبارك وتعالى- يحبط أعمال هؤلاء، بمعنى يبطلها ويذهبها.

والله -تبارك وتعالى- يأمر عباده بطاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فلمّا ذكر حال هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وما آل إليه أمرهم من حبوط الأعمال وجه الخطاب لأهل الإيمان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٣].

الإحباط، والحبوط بمعنى البطلان.

وأصل الحبوط يقال: للدابة إذا أكلت -كما سبق في الحديث- حتى انتفخ بطنها، ثم بعد ذلك هلكت، ((وإن مما أنبت الربيع ليقتل حبطًا)) انتفاخ بطن الدابة، قال: ((إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترّت وثلَطَت))[٩]، فمثل هذا هو الذي يحصل به الانتفاع، وأما التي تأكل وبعد ذلك يتتابع أكلها من غير ما ذكر في الحديث فإن ذلك يؤدي إلى الحبوط، فيكون حتفها في هذا الأكل.

ولهذا نسمع أحيانًا في كلام المرأة لصغيرها، إذا حصل منه شيء من التدنيس والتلويث والتقذير بالنجاسات، أو نحو ذلك، لربما دعت عليه بهذا، وهي قد لا تفقه المعنى، تقول: "حَبَط" ولا زالت هذه الكلمة مستعملة إلى اليوم، تدعو عليه بهذا، وهي تدعو عليه بالهلاك.

وهنا: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} ذكر ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك في الكفر، وأن الردة هي التي تبطل الأعمال، وهذا صحيح في جنس الأعمال، فكل الأعمال يكون بطلانها وحبوطها بالردة عن الإسلام: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر:٦٥].

والله -عز وجل- يقول: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا} [الفرقان:٢٣].

ويكون بطلان الأعمال الجزئية يعني العمل المعين وليس كل الأعمال، يكون بمبطلات من ذلك الرياء والسمعة، والمقاصد السيئة، فالله أغنى الشركاء عن الشرك.

وكذلك أيضًا: {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [البقرة:٢٦٤]، فهذا مما يبطل الأعمال.

فمبطلات الأعمال تارة تكون سابقة لها، وتارة تكون مصاحبة، وتارة تكون تابعة، يعني أنها تحصل بعدها.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، رقم (٢٨٤٢)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢).

٩ - المصدر السابق.

فيدخل فيه هذا وهذا، ولكن الذي يدخل فيه دخولاً أوليًّا هو ما يحصل به بطلان جميع الأعمال بالكفر، ولهذا أمر بطاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، بخلاف حال أولئك الذين شاقوا الرسول -عليه الصلاة والسلام.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}** يعني أعمالهم التي عملوها يتقربون بها إلى الله -تبارك وتعالى-، هذا هو المشهور الذي عليه الجمهور.

وذهب بعض أهل العلم: إلى أن هذه الأعمال التي وعد بإحباطها هي الأعمال التي يكيدون بها دين الله -تبارك وتعالى- وأولياءه، يعني ما يبذلونه من الجهود والنفقات في سبيل إطفاء نور الله -عز وجل-، كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}** [الأنفال:٣٦] هذا قانون لا يتبدل ولا يتغير، فكل من بذل وأنفق، وجد واجتهد في سبيل إطفاء نور الله -عز وجل- فإن ذلك يرجع إليه، ولا يضر الله شيئًا، وجهده وعمله وسعيه وبذله ونفقته، كل ذلك يبطله الله -عز وجل-، ويجعله حسرة عليه: **{فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}** هذه هي العاقبة.

أهل الإيمان يتيقنون هذا؛ لأن الله حكم به، ونواصي الخلق بيده، والملك ملكه، والخلق خلقه، فهو -تبارك وتعالى- العزيز القوي القاهر الذي لا يتعاصى عليه شيء، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يبطل حكمه وقضاءه وأمره.

لكن المعنى هنا: **{وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}** المقصود بها الأعمال التي يرجون فيها الثواب، وهذا هو المستعمل في القرآن، هذا هو الذي يرد في نصوص الكتاب والسنة، أن المقصود الأعمال التي يتقربون بها إلى الله -تبارك وتعالى-، وهكذا في قوله: **{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}**.

هنا في هذا الحديث الذي ذكره عن أبي العالية قال: "كان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرون أنه لا يضر مع "لا إله إلا الله" ذنب" إلى أن قال: فنزلت[١٠] هذا مرسل.

ثم أمر -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} أي: بالردة، ولهذا قال بعدها: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}، كقوله -سبحانه وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [النساء:٤٨] الآية.

هنا قوله: **{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} أي: بالردة**".

هذا -كما سبق- في إبطال جميع الأعمال، كل الأعمال تبطلها الردة.

وبعض السلف كالحسن يقول: "لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي".

وهذا مضى الكلام عليه: هل السيئات تبطل الحسنات أو لا؟

---

١٠ - رواه المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصلاة، (٢/٦٤٥) رقم (٦٩٨).

وأهل العلم لهم كلام في هذا، وذكرنا في: "شرح طريق الوصول إلى العلم المأمول" كلام أهل العلم في هذه المسألة، والحديث الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- حال قوم يأتون من أمته يوم القيامة بأعمال صالحة، ومثّلها بجبال تهامة البيضاء، ثم بعد ذلك يبطلها الله -عز وجل-، وذكر أنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها[١١].

فهنا لم يذكر الكفر والردة، فأخذ منه بعض أهل العلم: أن السيئات تبطل الحسنات.

وذكرنا: أن شيخ الإسلام -رحمه الله- في هذه المسألة يرى أن السيئة تبطل ما قابلها، وذكرت هناك: أن المتيقن من إبطال الحسنات يكون بالمبطلات لها من المقاصد السيئة، أو المن والأذى، والعجب، ونحو ذلك من الأدواء التي يحصل بها البطلان للعمل المعين.

لكن الحسن يقول: بالمعاصي.

والزهري يقول: بالكبائر.

كل هذا بناءً على المسألة السابقة: السيئة هل تبطل الحسنة أو لا؟

وجماعة من السلف كابن جريج والكلبي يقولون: الرياء والسمعة، وهذا لا شك أنه يبطل العمل المعين، أما الرياء والسمعة إذا دخلا في أصل الإيمان فإن ذلك يبطله بالكلية، يعني هذا هو النفاق، إذا كان آمنَ رياءً وسمعة، وتجد عبارات السلف هي تفسير بالمثال، واضح؟، كقول مقاتل مثلاً: إنه بالمن، تبطلوا أعمالكم، يعني بالمن.

ولكن كما سبق أن المبطلات على نوعين: مبطل عام، ومبطل خاص.

ويقول: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}**، تأمل هذه الآية، هي التي يستدل بها العلماء في هذا الباب على حبوط الأعمال بالموت على الكفر: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}** فيكون عدم المغفرة، وحبوط الأعمال إذا مات على الكفر، لكن لو أنه حصلت له ردة ثم رجع إلى الإسلام فإن الله يغفر ما سلف، وأعماله ما حالها؟.

ترجع إليه، ولهذا اختلف أهل العلم في حج من حصلت له ردة، حج ثم ارتد، ثم رجع إلى الإسلام، هل يجب عليه أن يحج مرة أخرى باعتبار أن الحج الأول بطل أو لا؟

الأقرب: أن حجه صحيح، وأنه لا يجب عليه أن يحج ثانية.

ثم قال -جل وعلا- لعباده المؤمنين: {فَلَا تَهِنُوا} أي: لا تضعفوا عن الأعداء {وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ} أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم، وكثرة عَددكم وعُددكم، ولهذا قال: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ} أي: في حال علوكم على عدوكم.

---

١١ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (٥٠٥) وفي صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٣٤٦).

فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمامُ في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم -صلى الله عليه وسلم- إلى ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}** المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين...

يعني الحافظ ابن كثير يرى أن قوله: **{وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}** يرتبط بما قبله، وأنه قيد له، يعني: لا تهنوا وتدعوا إلى السلم إذا كنتم في حال من القوة والتمكن والظهور، وإنما في هذا المقام ينبغي أن تبلوا بلاءً حسناً في جهاد أعداء الله -تبارك وتعالى-، وأن تبذلوا في سبيل ذلك كل مستطاع لإعزاز الدين، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو يحتمل، ولكن عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً فسروها بغير هذا، فجعلوا الجملتين منفصلتين **{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ}** هنا وقف تام، ثم: **{وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}** فهذه تكون جملة استئنافية مقررة صفةً لأهل الإيمان، وهي أن العزة والعلو لهم دون غيرهم.

أمّا على ما ذكره الحافظ ابن كثير فإن قوله: **{وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}** يكون في محل نصب حال مما قبله، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم حال كونكم بهذه المثابة، أنكم الأعلون، فهذا لا يكون محلا للضعف والهوان لأعداء الله -عز وجل-، والدعوة إلى السلم.

والسلم يعني المسالمة، وترك القتال.

ويحتمل أن تكون "الواو" هذه -كما ذكرت- استئنافية مقررة لما قبلها من النهي، يعني يقول لهم: لماذا التنازل؟ ولماذا الدعاء إلى السلم والواقع أنكم الأعلون؟ يقول: لماذا يحصل هذا الذل والضعف أمام الأعداء والدعاء إلى المسالمة أن يكون ذلك مبتدَأً منكم ومبادرة من قِبَلكم، والواقع أنكم الأعلون، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولو كانوا في حال ضعف أو هزيمة، فإن هذا هو حالهم، ولهذا قال الله -عز وجل- معزيًا لهم بعد وقعة أحد كما جاء ذلك في سياق طويل في سورة آل عمران وكان مما قال فيه: **{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا}** [آل عمران:١٣٩] يعني يعزيهم بهذا العزاء اللطيف الرقيق، وهم في حال هزيمة وانكسار، فيذكرهم بهذا، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير مع أنه يحتمل إلا أنه خلاف قول عامة أهل العلم.

الشنقيطي -رحمه الله- رد على الحافظ ابن كثير هذا القول، وحاصل ما ذكره: أن العزة وصف لازم لأهل الإيمان، فلا ينبغي أن يتطرق إليهم الضعف وطلب المهادنة والمسالمة من الكفار، ومن ثم فإن بعض أهل العلم قالوا: إن هذه الآية منسوخة.

ما الذي نسخها؟

قالوا: نسخها قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ}** [الأنفال:٦١] قالوا: هذه تقرر السلم وهذه تنهى عنه مطلقاً، هكذا فهموا.

وبعضهم يقول: هذه الآية ناسخة لتلك، باعتبار أن سورة الأنفال نزلت بعد بدر.

لكن الذي يظهر –والله أعلم– أن ذلك ليس بناسخ ولا منسوخ، وإنما هي آية محكمة في هذا الموضع، وكذلك آية الأنفال، وأن المقصود بهذه الآية: النهي عن الدعاء إلى السلم، أن ذلك لا يكون مبتدأً منهم، لكن إذا طلبه الكفار فإن آية الأنفال تدل على أنه يمكن النظر فيه، وأن يقبل إذا كانت المصلحة تقتضيه: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} فيكون ذلك مبادرة من الكفار، لا يكون ذلك مبادرة من أهل الإيمان، هذا هو المعنى الذي حمل الآيةَ عليه جماعةٌ من المحققين، والله تعالى أعلم.

وقوله –جلت عظمته–: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء: {وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئًا، والله أعلم.

يعني هنا في قوله –تبارك وتعالى–: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ} فهنا الجملة حينما نقول: إنها استئنافية: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} القرينة التي تدل على هذا المعنى الذي ذكره الجمهور ما ذكره بعده، قال: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} يعني في حال النصر، وفي حال الهزيمة، وفي حال القوة، وفي حال الضعف، فالله معكم، ومن كان الله معه فإنه لا يتطرق إليه الهوان، ولا يمكن أن يخنع ويضعف أمام عدوه، قال: {وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} هنا قال: أي: ولن يحبطها ويبطلها، ويسلبكم إياها، وأصل ذلك من النقص، يقال: وتره حقه يعني نقصه، تقال: فلان موتور، مثل الذي قُتل له قتيل ولم يستوفِ القصاص مثلاً، لم يستوفِ حقه، لم يحصل له ثأره، فيبقى موتورًا؛ لأنه صار بهذه المثابة، وصار منقوصًا، فأصله بمعنى النقص: {وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} يعني أن الله يوفيكم الجزاء الكامل على هذه الأعمال، ولن يتطرق إلى ذلك نقص في كل الحالات، فضلاً عن الإبطال، أي أن الجزاء على الله –تبارك وتعالى–، وأنه متحقق وثابت، سواء كنتم في حال قوة، أو كنتم في حال ضعف، فلا يظهر منكم أدنى تضعضع أمام الأعداء ولا خنوع ولا ذل ولا استكانة، فأنتم الله معكم، وجزاؤكم عليه، وسيكون هذا الجزاء وافيًا، وإنما غاية ما هنالك أن الله يطالبكم بما كان تحت قُدركم وإمكاناتكم فقط، ويجازيكم على هذه الأعمال الجزاء الأوفى.

{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٦-٣٨].

يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله –عز وجل–، ولهذا قال تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} أي هو غني عنكم، لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

قوله –تبارك وتعالى–: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} مضى الكلام على الفرق بين اللعب واللهو، وأقوال أهل العلم في ذلك في مواضع سبقت من هذا التفسير، وكذلك أيضًا في الكلام على الأمثال في القرآن، عند الكلام على الأمثال المضروبة للحياة الدنيا.

لعب ولهو، من أهل العلم من يقول: إن اللعب هو الشيء الذي لا حاصل تحته، لا نفع فيه، ولا طائل من ورائه، وإن اللهو كل ما يتلهى به، ويشغل الإنسان عما هو بصدده من حق وباطل، فهذا حال هذه الحياة الدنيا، والله -تبارك وتعالى- يدعو أهل الإيمان من أجل أن لا يتعلقوا بها، ويتشبثوا بحطامها، وإنما تكون قلوبهم معلقة بمراضيه، والعمل للآخرة، فهذه الحياة لا تستحق أن يتشبث الناس بها، وأن تكون هي غاية مطلوبهم، وعليها يؤملون ومن أجلها يعملون.

يقول هنا: أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله -عز وجل-: **{وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}** يقول: أي: هو غني عنكم، لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ}** [البقرة:٢٧٢] فهذه نفعها يعود عليكم، والله -عز وجل- لا يسألكم.

وبعضهم يقول: **{وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}** بمعنى أنه لا يسألكم أن تخرجوا جميع المال، وإنما يخرجون قدرًا من هذا المال، ليعود نفعه على إخوانهم، وتقوم مصالحهم من الجهاد، وغيره، ويعود جزاء ذلك وثوابه عليهم في العاجل والآجل.

وبعضهم يقول: إن قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}** أي إنما يسألكم ماله هو -سبحانه وتعالى-؛ لأن هذه الأموال وديعة في أيديكم، وأنتم مستخلفون فيها، وإلا فالمال حقيقة لله -تبارك وتعالى- فهو المالك الحقيقي، وإنما جعل ذلك في أيديكم من أجل أن يبتليكم، وأن ينظر كيف تعملون وتتصرفون، هكذا قال بعض أهل العلم، وهذا فيه بعد لا يخفى.

وبعضهم يقول: هذا من قبيل الآيات الأخرى التي يَذكر فيها الرسلُ -عليهم الصلاة والسلام- لأقوامهم أنهم لا يسألونهم على البلاغ والدعوة أجرًا ومالاً، وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات من هذا التفسير، كذلك في مجالس خاصة في بعض الموضوعات، مثل: **{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}** [فصلت:٤١] طلب الدنيا بالقرآن، وكذلك أيضًا في الكلام على الدعوة إلى الله في قوله -تبارك وتعالى-: **{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}** [النحل:١٢٥].

هنا: **{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ}** فهو يدعو إلى سبيل الله -عز وجل-، لا يدعو إلى نفسه، ولا يدعو من أجل أن يحصّل عرضًا من الدنيا، وأن يتخذ الدعوة تجارة، فمن أهل العلم من حمل هذه الآية على هذا باعتبار أن الدعوة مجانًا، فهو حينما يدعوكم إلى الإيمان لا يطلب على ذلك شيئًا من عرض الدنيا مما في أيديكم مقابل دعوته وتبليغ الرسالة.

وتأمل قوله -تبارك وتعالى- بعده: **{إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}** يعني هذا يمكن أن يكون قرينة للقول بأن المقصود بذلك: إخراج جميع الأموال؛ لأنه لو طلب منهم أن يخرجوا جميع الأموال لضاقت نفوسهم بذلك، وظهر منهم ما لا يجمل ولا يحسن، ولبقي في نفوسهم مما يكون من أثر ذلك مما هو من قبيل الأضغان: **{وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}**.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا}** أيضًا يحتمل أن يكون هذا قرينة للقول الآخر: أن المقصود بذلك أنه لا يسأل هذه الأموال مقابل الدعوة وتبليغ الرسالة، يعني أن هذه

الدعوة لا يطلب العوض المادي عليها، ولو طلب العوض المادي عليها لتحركت النفوس، ولم يكن لذلك من القبول ما يكون لمن بذل الدعوة مجانًا، نصحًا للناس، ومحبة للخير لهم، فالناس يستثقلون من يطلب منهم الأموال، ولهذا قال: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}.

ثم قال -جل جلاله-: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا} أي: يحرجكم تبخلوا.

{وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} قال قتادة: قد علم الله -تعالى- أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان.

وصدق قتادة؛ فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا} قال: "يحرجكم".

وهكذا فسره بعضهم بـــ"يجهدكم".

وهذا مقارب لما قاله ابن كثير، وأصل الإحفاء الاستقصاء، يقال: أحفى في المسألة يعني استقصى، حيث يسأل بطرق ووسائل وأساليب متنوعة، فيستقصي في ذلك، لا يدع طريقًا يمكن أن يتوصل به إلى أموال الناس إلا سلكه، فهذا الإحفاء في المسألة.

ابن جرير يقول: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ} يعني يجهدكم بهذا السؤال، يشق عليكم، حينما تطلب الأموال: {تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} يجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها، طلب هذه الأموال منكم.

{تَبْخَلُوا} ابن جرير يقول: تَبْخلوا بها، وتمنعوها إياه منًّا منكم بها.

يعني يكون المعنى هكذا: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ} يجهدكم بهذا السؤال يشق عليكم بهذا الطلب، طلب الأموال، النتيجة ما هي؟

{تَبْخَلُوا} إذا سألكم الأموال شق عليكم وأجهدكم، ونتج عن ذلك بخلكم في هذه الأموال، فتضنون بما في أيديكم، وليس ذلك فحسب: {وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}.

هنا نقل عن قتادة: قد علم الله -تعالى- أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، هذا في الأصول، يعني الكتب التي تذكر المرويات، لربما تكون العبارة فيها بعض المغايرة، أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان؛ لأن العبارة هنا بمجردها محتملة، إخراج الأضغان بمعنى أنه يحصل تطهير النفوس من الأضغان مثلاً، كأن هذا غير مراد -والله تعالى أعلم-، وإنما إخراج الأضغان بمعنى أنها تبدو وتتكشف وتظهر؛ لأن طلب الأموال يبدي ويبين ويظهر ويكشف، بل وينبت الأضغان في النفوس، الناس يشق عليهم ويثقل جدًّا طلب الأموال، ولهذا قيل: "استغن عما في أيدي الناس يحبك الناس"

فالناس يستثقلون من يطلب ولو كان لغيره، وقد ذكرت في بعض المناسبات: قول الإمام أحمد -رحمه الله- لما سئل عمن يطلب المال لغيره، مع أن هذا مأجور، وعلى عمل صالح، فالإمام أحمد -رحمه الله- كره ذلك، وذكرت هناك أن هذا لا يعارض قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر: ١٨] فالحث على إطعام المسكين، وعلى الإنفاق، والتصدق يبينه فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان

يقف أمام الناس، ويدعو إلى الصدقة دعاءً عامًا، يأمر الناس بالصدقة، ولا يحرج أحدًا بعينه فيقول: يا فلان تبرع، يقف على النساء: ((يا معشر النساء تصدقن...))[١٢].

فإذا خص ذلك بأحد بعينه فإن ذلك يشق عليه، فيستثقله الناس، ولهذا فإن الإمام أحمد كأنه كره ذلك، مع أنه صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيمن يسعى على الصدقات، ونحو ذلك، لكن فرق بين هذا وبين من يأتي للمعين يطلب منه الصدقة والتبرع، فيوقع هؤلاء في شيء من الحرج، فيخرج أضغانهم، إذا رأوه تذكروا مباشرة أن هذا جاء ليطلب منهم، فيتبرمون منه ويستثقلون، ولربما تحاشوا مقابلته، وهذا أمر مشاهد.

وكان بعضهم لربما إذا رأى بعض هؤلاء ممن يطلب منهم دائمًا بأعيانهم، وبأشخاصهم أن يتبرعوا، وأن يتصدقوا ونحو ذلك، إذا رأوه قام في المسجد يعظ، أو نحو ذلك، بعد الصلاة انسلوا من المسجد لئلا يراهم، أو ليتحاشوا مقابلته، هذا أمر واقع.

ولربما تجد الرجل الحليم إذا جاءه هذا -ولكثرة من يأتيه- لربما بدر منه بعض ما لا يليق، مما يدل على ضيق وضجر، مما لا يحسن في الرد على من ذكّره بالصدقة، ودعاه إليها، لكن هذا كما قال الله -عز وجل-: {وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} فالنفوس تتحرك في هذا النوع من المزاولات، ويحصل بسبب ذلك من الكدر فيها والضيق بمن يسأل هذه الأموال.

ولذلك ينبغي لمن ينتسب إلى العلم، أو الدعوة إلى الله -عز وجل- أن يخفف على الناس، وأن لا يطلب منهم شيئًا، إلا على سبيل العموم، يدعو الناس إلى الصدقة، وإذا جاءه من يريد من أصحاب المشروعات، والأعمال الخيرية، والمعاهد والمدارس والجامعات، ونحو ذلك، ممن يحتاجون إلى التبرعات، ونحو هذا يمكن أن يرسل ذلك بعنوانه، وما يتصل به إليهم، ويترك ذلك إليهم، فعندهم أرقام حسابات هؤلاء، دون أن يُلحف في المسألة، وأن يتابع، وأن يقول لهم: يا فلان، تبرعْ، وما إلى ذلك، إنما يدع الإحراج، ويترك ذلك بينهم وبين الله -عز وجل-، وهم أعلم بأحوالهم، وأدرى بشئونهم، فقد يكون هؤلاء عندهم من الالتزامات بأعمال ينفقون عليها من أعمال البر والخير ما لا يتحملون معه الزيادة، فلا داعي للإحراج، وإن كان ولابدّ فيمكن أن يقوم بهذا آخرون، يعني ممن لا يقدمون نفعًا للناس من العلم والدعوة، من أجل أن لا يُستثقل هؤلاء، أن يَقبل الناس منهم، إذا رأوهم فرحوا بهم، وإذا دخلوا دارهم سروا واستبشروا، لكن إذا عرفوا أنه كلما جاء فمعناه أنه يطلب منهم أن يتبرعوا فإنهم لا يستبشرون بمجيئه، ولا يفرحون به، بل يستثقلون ويتبرمون، ويتنصلون من ذلك، فلا داعي لمثل هذا الإثقال، يكون الإنسان خفيف الظل على عباد الله -عز وجل-، ويدعو دعاءً عامًّا: من شاء أن يتصدق، فهذه أبواب من البر وأبواب من الخير يوفق الله -عز وجل- لها من شاء من عباده.

هذا ما يتصل بهذه الجزئية، والله أعلم.

وقوله تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ} أي: لا يجيب إلى ذلك.

---

١٢ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٧٩،٨٠).

{وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ} أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه.

{وَاللَّهُ الْغَنِيُّ} أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائما، ولهذا قال تعالى: {وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء} أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا} أي عن طاعته واتباع شرعه.

{يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

آخر تفسير سورة القتال، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء}** كما قال الله -عز وجل-: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** [فاطر:١٥] فهو محمود في غناه.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِن تَتَوَلَّوْا}** هنا تتولوا عن ماذا؟

قال: **{هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ}** تتولوا عن الإيمان، تتولوا عن الجهاد، تتولوا عن الإنفاق في سبيل الله -عز وجل-، وإعزاز الدين، ونصرته، وتشتغلوا بحظوظ النفوس: **{يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** هنا لا داعي للاشتغال بتحديد هؤلاء القوم من هم، وإنما أطلق الله -تبارك وتعالى- ذلك، فيستبدل من شاء بدلاً من هؤلاء الذين أعرضوا، وتولوا.

أعرض أهل مكة عن الاستجابة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهيأ الله له الأنصار في المدينة، فأعز الله دينه، ونصر نبيه -صلى الله عليه وسلم.

وهكذا العرب إذا أعرضوا وتركوا وضيعوا فإن الله -عز وجل- يقيض لهذا الدين من ينصره، فقام بذلك بعض الأعاجم، وامتدت ساحة الإسلام، ونصر الله -عز وجل- الدين بهؤلاء، فجاهدوا في سبيله، وكسروا أعداءه، وفتحوا الممالك، فهذه سنته في هذا الخلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفتح من الآية (١) إلى الآية (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الفتح: روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل قال: "قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجَّع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته"، أخرجاه من حديث شعبة به[١].

بسم الله الرحمن الرحيم.

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح:١-٣].

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام؛ ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة -إن شاء الله تعالى-، فلما نحر هديه حيث أحصر، ورجع، أنزل الله -عز وجل- هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، وغيره أنه قال: "إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية".

وعن جابر -رضي الله عنه- قال: "ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية".

وروى البخاري: عن البراء -رضي الله عنه- قال: "تعدون أنتم الفتح: فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا"[٢].

---

١ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (٢٠٥٤٢)، وأخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وروايته عن ربه، رقم: (٧٥٤٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ذكر قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- سورة الفتح يوم فتح مكة، رقم: (٧٩٤).

٢ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: (٤١٥٠).

وروى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: "كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سفر، قال: فسألته عن شيء -ثلاث مرات- فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي، فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيّ شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت، وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء، قال: فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نزلت عليّ البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ})) ورواه البخاري، والترمذي، والنسائي من طرق: عن مالك -رحمه الله-، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مديني جيد لم نجده إلا عندهم[3].

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} مرجعه من الحديبية، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض))، ثم قرأها عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: "هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بين الله -عز وجل- ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟" فنزلت عليه -صلى الله عليه وسلم-: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حتى بلغ: {فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح:5]، أخرجاه في الصحيحين[4].

وروى الإمام أحمد: عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا؟))، أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود[5].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة الفتح هي: مدنية بالإجماع، باعتبار أن المدني كما هو معلوم: ما نزل بعد الهجرة، وإلا فإن هذه السورة لم تنزل في المدينة، وإنما نزلت في الحديبية.

والحديبية موضع معروف إلى الآن، فإذا أتيت على طريق جدة إلى مكة وصلت إلى الموضع المعروف بالشميسي، وهي إلى ناحية اليسار هناك.

---

٣ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (٢٠٩)، وأخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: (٤١٧٧)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الفتح، رقم: (٣٢٦٢)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** [الفتح: ١]، رقم: (١١٤٣٥).

٤ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (١٣٠٣٥)، والبخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: (٤١٧٢)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم: (١٧٨٦).

٥ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (١٨٢٤٣)، والبخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- الليل حتى ترم قدماه، رقم: (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم: (٢٨١٩)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الاجتهاد في الصلاة، رقم: (٤١٢)، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، الاختلاف على عائشة في إحياء الليل، رقم: (١٦٤٤)، وابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة، رقم: (١٤١٩).

وهذه السورة أيضا يمثل العلماء بها على ما نزل ليلا؛ لحديث عمر -رضي الله عنه-، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نزلت عليّ الليلة))، فهذا مما نزل ليلا، كما يقول السيوطي في كتابه الإتقان: الليلي والنهاري، ومثل هذا -كما سبق في شرح رسالة السيوطي- ليس من صلب العلم، يعني: لا يترتب عليه كبير فائدة، ولكن مثل هذا يدل على عناية الأمة بالقرآن، وضبط الصحابة -رضي الله عنهم- لأحوال هذا القرآن، وأوقات النزول، لكن الذي يُحتاج إليه هو: المكي والمدني، وتاريخ النزول، فهذا يتعلق به تاريخ التشريع، ويتعلق به موضوع النسخ، أما كونها نزلت ليلا أو نهارا فمثل هذا لا يترتب عليه حكم.

أما الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة فيمكن أن يكون موضوعًا واحداً، وهو: الفتح الذي هو صلح الحديبية، على قول الجمهور، وما يحتفّ به، وما يتصل به، ويتبعه، فكل ذلك مما يتعلق بهذه الحادثة، وما اتصل بها من بيعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه، بيعة الرضوان، وما وعدهم الله -تبارك وتعالى- به، وما يقال لهم بعد ذلك، كل هذا يرتبط بهذا الموضوع، فموضوعها واحد.

وقوله هنا: "**روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه- قال: قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها..**".

ما معنى: رجَّع؟ الترجيع في القراءة يعني: ليس مجرد الترتيل، إنما يكون الصوت فيه إما زيادة في المد، أو يكون فيه نوع تردد؛ ولهذا فإنه يحتمل أن يكون ذلك بسبب أنه على الراحلة، فراكب الراحلة يتحرك ويهتز، -ليست مثل السيارات- فيكون من غير قصد، ويحتمل أن يكون ذلك قصده النبي -صلى الله عليه وسلم.

وقوله هنا: "**قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته**".

معاوية هذا هو: معاوية بن قرة، الذي يرويه عن عبد الله بن مغفل، فهو تابعي، وليس معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه.

هذه الأحاديث والآثار التي رواها عن الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- من كون الفتح هو: صلح الحديبية، هذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وإن قال بعضهم: إنه فتح مكة، كما سيأتي.

يقول هنا في جملة ما ذكر من هذه الروايات من حديث أنس عند الإمام أحمد: "**قال: نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} مرجعه من الحديبية، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد أنزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض))، ثم قرأها عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله**".

الهنيء هو: المستلذ المستساغ بحيث إن تعاطيه يكون على وجه لا كدر فيه، والمريء هو: الذي لا يعقبه ولا يتبعه كدر وأذى، يعني: يكون محمود العاقبة.

يقول: "**لقد بين الله -عز وجل- ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟"، فنزلت عليه -صلى الله عليه وسلم-: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حتى بلغ: {فَوْزًا عَظِيمًا}، أخرجاه في الصحيحين.**

البخاري بعد هذا الحديث يقول: قال شعبة -يعني ابن الحجاج، أحد رواته-: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له، يعني: قتادة، فقال: أمّا: **{إِنَّا فَتَحْنَا}** فعن أنس، وأمّا "هنيئًا مريئًا.. إلخ" فعن

عكرمة، يعني: أنه مرسل، بمعنى: أن حديث أنس من قوله: "نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} مرجعه من الحديبية، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد أنزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض))، ثم قرأها عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم-"، إلى هنا، فهذا عن أنس، وأما قوله: "فقالوا هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بين الله -عز وجل- ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه.. إلخ"، فهذا عن عكرمة، يعني: أن هذا ليس عن أنس، وإنما عن عكرمة.

قال -رحمه الله-: قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} أي: بينًا ظاهرًا، والمراد به: صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} قال: "**صلح الحديبية**"، وعلل ذلك بما ترتب عليه من الآثار العظيمة، من كثرة الداخلين في الإسلام، وما حصل بعده من فتح خيبر، والذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- عام الحديبية قد لا يتجاوزون ألفًا وأربعمائة في أعدل الأقوال، يعني: قد جاء أنهم ألف وثلاثمائة، وجاء أنهم ألف وخمسمائة، والمشهور: أنهم ألف وأربعمائة، وهذا العدد كان في الحديبية في السنة السادسة، فلما جاءوا بعد سنتين لفتح مكة جاء معه -صلى الله عليه وسلم- عشرة آلاف، وهو عدد هال قريشًا، حتى إن أبا سفيان لما خرج مع العباس بقي في مكان ينظر، ولا يعرف من هؤلاء، ويرى نيرانهم، فلم يخطر بباله أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه قد ساروا بهذا المسير، وبهذا الجيش الذي هو فعلا في الليل يسير كالسيل، حتى إنه قلل من شأن خزاعة، وأنهم أدنى وأقل من ذلك.

فانظر إلى هذا العدد، فقد أصبح عشرة آلاف بعد سنتين من الحديبية، من ألف وأربعمائة إلى عشرة آلاف، فهذا فتح مبين، ولا شك أن فتح مكة هو فتح، ولكن المقصود بهذه الآية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}: أنه صلح الحديبية، ومما يدل على ذلك أنه عبر بالماضي: {إِنَّا فَتَحْنَا}، لكن الفتح الذي هو فتح مكة جاء في سورة النصر: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر:١]، بصيغة المستقبل، أما هنا فقال: {إِنَّا فَتَحْنَا}، فهذه نازلة في الحديبية.

إذاً هذا الصلح هو الفتح، مع أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كرهوا ذلك، وحصل من بعضهم ما حصل مما هو معلوم، فما كان ذلك في ظاهر الأمر في صالح المسلمين في نظر الكثير من الصحابة -رضي الله عنهم-، وقد رجعوا في حال من الغم حيث لم يبلغوا مرادهم من دخول مكة، وأداء العمرة، وإنما تحللوا تحلل المحصر على أطراف الحرم، ونحروا هديهم هناك، فلم يبلغ الهدي محله، فانظر إلى هذا: هم ذهبوا وهم في غاية التطلع إلى دخول مكة، والطواف بالبيت، ثم بعد ذلك يتحللون على أطراف الحرم، وينحرون هديهم ويرجعون، فهذا قد وقع في نفوسهم منه الكثير، ولكن الله -عز وجل- هو الذي يعلم العواقب، ومغيبات الأمور، والله عليم حكيم، فقد يكون في مضامين المكروه الخير الكثير مما لا يبلغه علم الإنسان، وإدراكه، ولا يحيط به فهمه، فيتقاصر دونه عقله ورأيه، ويكون هو الخير الذي لا يخطر له على بال.

هنا يقول: "**وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان**"، يعني: أَمِنَ الناس فصاروا يختلطون بعد الصلح، وصار يسمع بعضهم بعضاً، فانتشر الإسلام، أما في السابق

فكان المشركون يحيطون مكة وأهلها بسياج لا يصل إليهم أحد من أهل الإيمان، ولا يسمعون القرآن، ولما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بين ظهرانيهم في مكة كانوا يمنعونه من الدعوة، ومن قراءة القرآن على الناس، وقد مضى الكلام على شيء من هذا في بعض المناسبات.

ولابن جرير -رحمه الله- كلام مهم في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** الآيات، يقول: "يعني: بقوله -تعالى ذكره- لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكمًا لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر؛ لتشكر ربك، وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لك بفعالك ذلك ربك ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته.

وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول الله -عز وجل-: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر:١-٣] على صحته، إذ أمره -تعالى ذكره- أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك"[٦].

قول ابن جرير -رحمه الله- هذا واضح منه: أنه يفسر الفتح بالحكم، يعني: أن الله حكم لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بالظهور والغلبة والنصر على أعدائه، هكذا فسره، وقلنا: إن الجمهور من السلف فمن بعدهم يقولون: إن الفتح هو: صلح الحديبية، وابن جرير -رحمه الله- لا يخالف في هذا، ويرجح أن هذا الفتح هو: صلح الحديبية، لكن الصلح يقال له: فتح، كما قال ذلك الفراء وغيره، وذلك -كما سبق- لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، وإلا فالفتح قد يكون بالنصر في المعركة، وفتح البلاد، وقد يكون بالصلح، إذ إنه في أصله يقابل: الغلق، يعني: أن فتح المنغلق قد حصل في صلح الحديبية، واختلط الناس، وبلغتهم الدعوة، ودخلوا في دين الله -تبارك وتعالى-، فهذا الذي عليه عامة أهل العلم، ومن نظر في هذه الأمور المذكورة: من التعبير بالماضي، ومن الآثار المترتبة عليه مما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، كل ذلك يدل على أن هذا الفتح هو: صلح الحديبية، وترتب عليه فتح خيبر أيضاً، فإنه أثر من آثاره، وثمرة من ثمراته، والذين غنموا خيبر هم من كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلح الحديبية، لم يشاركهم أحد غيرهم، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا}** [الفتح:٢٠]، فالمغانم هذه في فتح خيبر، وكذا في قوله تعالى للأعراب: **{قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا}** [الفتح:١٥]، يعني: إلى خيبر، كل هذا بعد الصلح، حتى إن من أهل العلم من يقول: إن ظهور الروم على الفرس كان في ذلك الحين، مع أن المشهور: أنه كان في يوم بدر، وهناك من قال: إن الفتح هو: فتح خيبر، ولكن هذا فيه نظر، والواقع: أن فتح خيبر وفتح مكة كل ذلك من آثار صلح الحديبية؛ ولهذا كان فتحًا مبيناً، ففتح خيبر فتح، وفتح مكة لا شك أنه فتح، ولكن كل ذلك مما نتج عن هذا الصلح، فهما من آثاره، وهكذا قول من قال: إن ذلك يشمل سائر ما فتحه الله -عز وجل- على نبيه

---

٦ - تفسير الطبري (١٩٧/٢٢).

-صلى الله عليه وسلم-، ولكن المشهور هو: الأول، وهنا ظاهر أنه يراد به فتح معين، وذلك أنه قال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، فوصفه بهذا الوصف، وقيده بهذا القيد.

وأما من فسره بتفسيرات أخرى: من الدعوة والقبول الذي أعطيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، فهذا بعيد في هذا الموضع، وإن كان هذا من آثار صلح الحديبية، فإنه كان هناك عقبة كئود فزالت هذه العقبة، وكان هذا الصلح ممهدًا لانتشار الإسلام، وذيوع الدعوة.

والفتح يأتي بمعنى: الحُكم، وقد مضى الكلام على هذا في مثل قوله -تبارك وتعالى- {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}، يعني: إن تطلبوا الحكم بين الطائفتين فقد جاءكم الحكم، وكقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف:٨٩]، يعني: احكم، وقد تكلمنا على هذا أيضاً في الأسماء الحسنى في الكلام على الحكيم والحكَم، وقلنا: إن الحُكم يأتي بمعنى: الفتح، وإن الحاكم يقال له: فتّاح، والحُكم يقال له: فُتاحة، كقول الشاعر:

*** فإني عن فُتَاحتِكم غنيٌّ

كل هذا قد مضى، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله- هنا، حيث فسر الفتح: بالحكم، كأنه يقول: إنا حكمنا لك، وقضينا لك قضاءً مبيناً، يعني: ظاهرًا بينًا واضحًا، لا خفاء فيه.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}، هذا من خصائصه -صلوات الله وسلامه عليه- التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو -صلى الله عليه وسلم- أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله وأشدهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: ((حبسها حابس الفيل، ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها))[٧]، فلما أطاع الله في ذلك، وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} أي: في الدنيا والآخرة، {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم، {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} أي: بسبب خضوعك لأمر الله -عز وجل- يرفعك الله، وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله -عز وجل- إلا رفعه الله تعالى))[٨]، وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: "ما عاقبتَ أحدًا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله -تبارك وتعالى- فيه".

قوله -تبارك وتعالى-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}، اللام هذه ما موقعها؟ قال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}، فتحنا لك؛ ليغفر، فذهب طوائف من أهل العلم إلى أن هذه اللام: لام التعليل، وبعضهم يقول: لام كي، والمعنى واحد، يعني: لكي يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، أي: ليجتمع لك مع هذا الفتح المبين نعمة أخرى جزيلة، وهي: غفران الذنوب المتقدم منها

---

٧ - أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: (٢٧٣١).

٨ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم: (٢٥٨٨).

والمتأخر، ليجتمع لك هذا الفتح مع هذا الفضل من مغفرة الله -تبارك وتعالى- لك، فيحصل بذلك كمال النعمة، هكذا قال جماعة من أهل العلم، ولكنه يبقى في المعنى شيء، فتحنا لك؛ ليغفر لك الله، فإذا قلنا: إنها لام التعليل فإن هذا التفسير قد لا يتضح به الارتباط بين الفتح والمغفرة، أي: كون الفتح علة لما ذكر بعده من قوله: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}**.

على كل حال، هكذا فسره بعض أهل العلم، وبعضهم ذهب به إلى أن ذلك من قبيل الأمارة على المغفرة، **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}** يعني: هذا الفتح جعل بمنزلة العلامة والأمارة التي يتحقق معها الأمر الآخر، وهو: مغفرة الذنوب السابقة واللاحقة، الماضية والمستقبلة، يعني: فتحنا لك هذا الفتح المبين؛ لتعلم أن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ولهذا يقول ابن عطية: فتحنا لك هذا الفتح؛ لكي نجعل الفتح علامة للمغفرة الموصوفة بهذه الصفة: ما تقدم وما تأخر، لكن بهذا الاعتبار تكون اللام لام العاقبة **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}** أي: لتكون عاقبة أمرك مغفرة الذنوب جميعاً، ويمكن أن يكون على الأول للتعليل، بمعنى: أن الله -عز وجل- يعدد نعمه على نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذا الفتح، وما يرقّيه به من درجات الكمال ومن غفران الذنوب، فبذلك تتحقق له الرفعة في الدنيا والآخرة، أي: فعلنا بك ذلك، وفتحنا لك هذا الفتح؛ رفعةً لك، ولدينك، ولأتباعك؛ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك، وليكمل لك هذه الفتوح، والنِّعم، والإفضال بغفران الذنوب، فالفتح ومغفرة الذنوب كل ذلك يحصل به كمالات الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**، فأمره بالتسبيح والاستغفار، وأشار إلى كونه توابًا، يقبل توبة التائبين، ويغفر الذنوب، ويتوب على من يشاء من عباده، ويوفقهم للتوبة، فهذه الأمور بينها تلازم وارتباط، ومن ثَمَّ فإن الأمة بصفة عامة، والمجاهدين بصفة خاصة أحوج ما يكونون إلى كثرة الاستغفار والتوبة، فإن ذلك أمر يرتبط كل الارتباط بالنصر والفتح، وهذا لا يتأتى إلا مع تجاهل حظوظ النفس، ونكران الذات، والاتصال بالله -تبارك وتعالى-، وإرادة ما عنده دون شيء سواه، فمتى صار الناس إلى هذه المرتبة انحلت أسباب الشر، وتلاشت أبواب الفتن، وصار الناس إلى حال من الاستقامة والإيمان والطاعة، والنصر والظفر بالأعداء.

ولابن جرير -رحمه الله- كلام على هذا التعليل، فيقول: "ففي ذلك بيان واضح أن قوله -تعالى ذكره-: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** إنما هو خبر من الله -جل ثناؤه- لنبيه -عليه الصلاة والسلام- عن جزائه له على شكره له على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها.

وبعدُ ففي صحة الخبر عنه -صلى الله عليه وسلم-: أنه كان يقوم حتى ترم قدماه، فقيل له: يا رسول الله، تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا؟))، الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأن الله -تبارك وتعالى- إنما وعد نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- غفران ذنوبه المتقدمة، فتح ما فتح عليه، ويعده على شكره له على نعمه التي أنعمها عليه.

وكذلك كان يقول -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة))[٩]، ولو كان القول في ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية، ولا لاستغفار نبي الله -صلى الله عليه وسلم- ربه -جل جلاله- من ذنوبه بعدها معنى يعقل؛ إذ الاستغفار معناه: طلب العبد من ربه -عز وجل- غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى؛ لأنه من المحال أن يقال: اللهم اغفر لي ذنبًا لم أعمله.

وقد تأول ذلك بعضهم بمعنى: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر إلى الوقت الذي قال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

وأما الفتح الذي وعد الله -جل ثناؤه- نبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه العِدة على شكره إياه عليه فإنه فيما ذُكر الهدنة التي جرت بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين مشركي قريش بالحديبية"[١٠].

انظر فابن جرير يفسرها بهذا.

قول ابن كثير هنا: "**فلما أطاع الله في ذلك، وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} أي: في الدنيا والآخرة**".

قوله هنا: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** ابن جرير -رحمه الله- يشير إلى أن هذه العِدَة من الله -تبارك وتعالى- بغفران الذنوب أنها لا تكون ولا تقال لمن ليس له ذنب أصلا، يعني: أن بعضهم يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تتطرق إليه الذنوب، وبعضهم حمل ذلك على ما قبل الرسالة، أي: قبل رسالته، وأنه بعد الرسالة معصوم -عليه الصلاة والسلام-، وهذه المسألة سبق الكلام عليها في بعض المناسبات أيضا: هل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم المعصية، أو لا؟ وذكرنا هناك قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** [طه:١٢١]، وأن المعتزلة أولوا ذلك تأويلاً بعيداً وأن المراد به: أنه أصابه البشم يعني: انتفاخ البطن من كثرة الأكل، كما يقال: بشمت الدابة، أو بشم الفصيل إذا رضع وانتفخ بطنه، يعني: أكثر من الرضاع، وذكرنا أن هذا بعيد، وتأويل فاسد، والراجح: أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم المعصية من الصغائر، ولكن ذلك مقيد بأمرين:

الأول: أنه لا تقع منهم الصغائر التي يقال لها: صغائر الخسة، يعني: التي تسقط المروءة.

الثاني: أنهم أيضاً لا يصرون عليها، بل يتوبون، ويكون حالهم بعد المعصية أكمل وأرفع من حالهم قبلها، هذا الذي دلت عليه نصوص القرآن، فهنا بعض أهل العلم حمل ذلك على أنه من باب -كما يقولون-: خلاف الأولى، وأن هذا في حقهم كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، هكذا يقولون، باعتبار أن ترك ما هو أولى بالنسبة لأصحاب المراتب العالية يعتبر سيئة وإن لم يكن من قبيل المعصية التي يعاقب عليها أو يؤاخذ عليها الإنسان، وإن كان في حق غيرهم لربما من قبيل الحسنات، يعني: أن من اكتفى بالفرائض مثلاً فهذا بالنسبة إلى أصحاب المراتب من المقتصدين بالنسبة إليهم حسنة، لكن بالنسبة لأصحاب المراتب العالية من كون هذا الإنسان لا يصلي السنن الراتبة ولا يوتر ولا يتطوع بالصيام ونحو ذلك يعتبر سيئة ونقصًا في حقه،

---

٩ - أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم: (٢٧٠٢).

١٠ - تفسير الطبري (٢٢/ ١٩٧-١٩٨).

هكذا يقولون، ولا حاجة لمثل هذا هنا -والله تعالى أعلم-، وإن قال بهذا جماعة من أهل العلم، وكذلك القول الآخر: إن المقصود: ما قبل الرسالة، وبه قال مجاهد وسفيان الثوري، وهو: اختيار بن جرير، واختاره أيضا الواحدي: أن المقصود ما قبل الرسالة، والذي حملهم على هذا هو ما ذكرت: هل تصدر منهم المعصية أو لا؟ وهناك أقوال بعيدة لا وجه لها أصلا، ولا حاجة للإشارة إليها.

يقول ابن كثير: "**{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}** أي: **في الدنيا والآخرة**"، في الدنيا: بنصرك على الأعداء، وإعزاز دينك، وإظهار الدين على الدين كله، **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}**، فكل هذا داخل في إتمام النعمة، وبعضهم فسره بمعانٍ يمكن أن تكون داخله في جملة إتمام النعمة، كقول من قال: فتح مكة، أن هذا من إتمام النعمة بعد هذا الصلح الذي هو فتح، وكذلك أيضا بعضهم يقول: بالنبوة، ويتم نعمته عليك بالنبوة، أي: يكمل لك ذلك، فيكون على وجه التمام والكمال بما يوحيه الله -عز وجل- إليك من شرائع الإيمان، حتى يكتمل الدين، حتى قال ربنا -تبارك وتعالى- كما نزل عليه -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}**، فهذا من إتمام النعمة، **{وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}**، ولا شك أن هذا من إتمام نعمته على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا ما حصل له من الفتوح بعد هذا من فتح خيبر والطائف، ومجيء الوفود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة في السنة التاسعة من الهجرة، ثم العاشرة، كل هذا من تمام النعمة.

يقول ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **{وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}** يقول: "**أي: بما شرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم**".

قوله: **{وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}** بعضهم حمل ذلك على التدبير والرأي فيما يتصل بتعامله -صلى الله عليه وسلم-، وتعاطيه مع الأعداء في الحرب والسلم، وما أشبه ذلك، لكن هذا فيه بعد، وكأن الذي حملهم على ذلك: أنهم نظروا إلى كون الله -عز وجل- قد هدى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بما أوحى إليه من الإيمان والعلم، فليست هذه هي الهداية الموعود بها، والواقع: أن من عرف أن ما ينزله الله -عز وجل- من شرائع الإسلام والإيمان على نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنها هدايات متتابعة، فالله -تبارك وتعالى- قد أوحى إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بشرائع الإيمان متتابعة شيئًا بعد شيء، فكل ذلك يقال له: هداية، وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات مختلفة، وعند قوله تعالى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [الفاتحة:٦]، وذكرنا في مناسبة قريبة أن الهداية أنواع في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** [محمد:٤-٥]، إلى ماذا يهديهم بعد القتل؟ فذكرت طرفاً من الهدايات التي تكون قبل وبعد موت الإنسان.

فهذه الهدايات من تشريع الصلاة والزكاة والصيام والحج وما إلى ذلك من الجهاد وغيره، كل هذا مما هدى الله -عز وجل- إليه نبيه -صلى الله عليه وسلم-، قال الله تعالى: **{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}** [الشورى:٥٢]، فلم تزل شرائع الإسلام تنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أكمل الله له الدين، وتمت هذه النعمة والهداية على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا تصورنا هذا في قوله: **{وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}** اتضح المعنى، ولا حاجة لتقييده بأمر معين، فكأن هؤلاء نظروا إلى ما ذكر، وما يأتي بعده من

قوله: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}، أن هذا في التدبير في أمر السلم والحرب، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- رد على هؤلاء، وذكر -رحمه الله- نحوًا مما قاله ابن كثير -رحمه الله.

وأما قوله هنا: ((حبسها حابس الفيل)) فقد مضى الكلام عليه في مناسبات قريبة، وأن قولهم: "خلأت القصواء" يعني: انقطعت في سيرها، بسبب طول المسير، والكلال في السفر.

قال الله -تعالى-: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح:٤-٧].

يقول تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ} أي: جعل الطمأنينة، وقال قتادة: الوقار، {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} وهم الصحابة -رضي الله عنهم- يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك، واستقرت زادهم إيمانًا مع إيمانهم، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال -سبحانه وتعالى-: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة، ولهذا قال -جلَّت عظمتُه-: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}.

قبل تفسير هذه الآيات: في قوله تعالى: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}، النصر العزيز: يعني ينصرك نصرًا غالبًا منيعًا لا يعقبه ذل، هذا النصر العزيز.

قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}، أنزل السكينة قال: "**جعل الطمأنينة، وقال قتادة: الوقار، {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} وهم الصحابة -رضي الله عنهم- يوم الحديبية**".

السكينة بهذا المعنى الأول الذي ذكره وهو: الطمأنينة قاله جماعة من المفسرين من السلف فمن بعدهم، وما ذكر من المعاني فهو مقارب له، فهي عبارات إما أن تكون من قبيل أثر السكينة، يعني: يعبرون بأثرها، أو ببعض أثرها، وإما يعبرون بما يقرب من معناها، اللهم إلا قول من قال: إن هذه السكينة هي التي كانت في التابوت، وما إلى ذلك، فهذا في غاية البعد، بل هو غلط من قائله، فلا علاقة لهذه السكينة هنا في هذا الموضع.

وأما السكينة التي تنزل على الذاكرين لله -تبارك وتعالى-، المجتمعين على ذلك، فما المراد بها؟ السكينة بمعنى: الطمأنينة، فهي: من السكون، وهو: خلاف الحركة والاضطراب، فما يحصل من طمأنينة النفس، وما يحصل من هدأة الضمير أو القلب كل ذلك من السكينة، بحيث لا يتطرق إلى القلب شيء مما يزعجه ويقلقه ويحركه من المخاوف والقلق والتردد، وما إلى ذلك من العوارض التي تعرض لقلب الإنسان، فيحصل له بسبب ذلك الانزعاج، فهذه الطمأنينة يجدها الناس في بيوت الله -تبارك وتعالى-، ويجدونها في مجالس

الذكر، ويجدونها في العبادة، وكذلك ينزلها الله -تبارك وتعالى- على قلوب أوليائه، فأنت تجد في نفسك في المسجد وفي حضور مجالس الذكر ما لا تجده في الملعب حيث الصخب، فإذا رأيت الناس وهم في ذلك الصخب، ورأيتهم وهم ينطلقون ويخرجون، فشتان بين حال هؤلاء وبين الخارجين من مجالس الذكر أو من المساجد، فهذا كله من السكينة.

إذًا فتفسير السكينة: هي الوقار في قلوب المؤمنين، فإن الوقار من القرار، فقرار الماء بمعنى: السكون، قر الماء في الحوض أي: سكن واستقر، والله -عز وجل- يقول: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** [الأحزاب:٣٣]، كل ذلك يرجع إلى هذا المعنى.

والطمأنينة والوقار والسكون كل ذلك يفسر به السكينة، وأصلها من السكون، فإذا حصلت هذه الطمأنينة لأحكام الله -عز وجل-، وما يقدره ويقضيه من الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، صار العبد متنقلا من الصبر إلى الرضى، ثم إلى أعلى المراتب التي هي الشكر، فيكون شاكرًا لربه -سبحانه وتعالى- في حال السراء والضراء، لا يفارقه ذلك، فهو بين صبر ورضا وشكر، كل ذلك إذا حصلت له السكينة، وكذلك الشخص الذي نزل به المكروه، والذي نزلت به مصيبة، إذا نزلت عليه السكينة لم يصدر منه شيء مما لا يليق من الضجر والتسخط، أو النياحة، أو نحو ذلك، وإنما يتقبل ذلك عن الله -تبارك وتعالى- بنفس رضيَّة ساكنة.

وأما اللام هذه في قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}** فهي: لام التعليل، فإن نزول هذه السكينة يكون علة لزيادة الإيمان؛ لأن من نزلت في قلبه السكينة فإنه يقبل عن الله -تبارك وتعالى-، ويرضى بأحكامه الشرعية والكونية، وهذا نص صريح في زيادة الإيمان.

وقوله هنا: **{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** كقوله -عز وجل-: **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [المدثر:٣١]، فهذه الجنود من الملائكة والجن والإنس، وغير ذلك مما خلقه الله -تبارك وتعالى- كالرياح والمياه، فكل هذا من جنده، فيسلط ما شاء من ذلك على من شاء من عباده، فتارة يهلكهم بالريح، بهذا الهواء اللطيف الرقيق، وتارة يهلكهم بهذا الماء اللطيف، فيكون مدمرًا، وتارة يهلكهم بصيحة ملك، إلى غير ذلك مما يقيّضه الله -عز وجل- لهلاكهم، أو لنصر جنده وأوليائه، ومن ثَمَّ فأهل الإيمان مطالبون بأن يلتزموا شرائعه، وأن يرتبطوا بربهم -تبارك وتعالى- كل الارتباط، ولا يلتفتوا إلى شيء سواه، وأما نصرهم وتمكينهم فإن ذلك بيد الله -تبارك وتعالى-، إما بإدالتهم على عدوهم في ميدان المعركة، أو بغير ذلك مما يقيضه الله -عز وجل- مما يكسر به عدوهم، أو يهلكه فيُستأصل، فهذا ليس من شأن الناس، ولا من اختيارهم، وإنما ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، فالواجب هو: العمل بطاعته، واجتناب مساخطه، وأما كيف يأتي النصر، وكيف يهلك هؤلاء الأعداء فهذا إلى الله، ولقد أرى الله الناس من آياته في هذا الزمن عبراً وعظات كبيرة، فقد رأى الناس أممًا ممكنة، ودولاً ظاهرة قوية انتهت، لقد كان الناس في أواخر القرن الماضي إذا تحدثوا عن القوة، فإنما يتحدثون عن القطبين، يتحدثون عن القوتين العظميين الكونيتين كما يسمونها أحيانا، قوة أمريكا، وقوة الاتحاد السوفييتي، بعض الناس في هذا العصر ما أدرك هذا، لكن ذلك يذكر على الألسن دائماً، كانوا يسمونه: الاتحاد السوفييتي، قوة عظمى كونية، ويلقبونه بالتنين، والآن لربما بعض الناس لم يسمع بشيء من ذلك، ما

الذي قهرهم، وفكك ممالكهم؟ إنه الله -تبارك وتعالى-، قيض عليهم أضعف الأمم، أضعف الناس من المقهورين المظلومين كما هو معلوم، وهكذا بقية الظالمين هم سينتهون ويتلاشون، لكن ما الذي يكون عليه أهل الإيمان من الاستقامة على أمره وطاعته؟ وإلا فهؤلاء مصيرهم الزوال بلا شك، وهكذا يَخلُفُ الظالمين ظالمون، فيبتلي الله -عز وجل- أولياءه بهم، ثم بعد ذلك يكون مصيرهم إلى الزوال، ويخلفهم من بعدهم، وهكذا جيلا بعد جيل، وهذه سنته في هذا الخلق، لكن على أي شيء تكون من العمل؟ فهذا هو الذي عليه المعول، والذي ينبغي أن نفكر فيه دائمًا، وإلا فالله قادر على نصر دينه بـــ"كن"، لا ملائكة، ولا أحد، حتى نزول الملائكة: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** [الأنفال:١٠]، فنزول الملائكة مجرد بشارة، وإلا فكما قال ابن كثير: لو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، فكيف بنزول ألف من الملائكة في بدر يقابلون ألفاً من المشركين؟ لو نفخ عليهم الملك لأطار جمالهم ورحالهم وخيامهم، ولم يُبقِ لهم أثراً، ولكن عَلِم الله -عز وجل- حال قلوب الخلق، وما يحصل لها من الطمأنينة بهذا، فأنزل ملائكته وبشرهم بذلك.

ولابن جرير -رحمه الله تعالى- كلام في تفسير الطمأنينة وتفسير السكينة فيقول: "القول في تأويل قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}**.

يعني -جل ذكره- بقوله: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}**: الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين.."[١١].

انظر قال هنا: "السكون والطمأنينة" فهذا كله بمعنى مقارب، يعني: لا تجد لفظة تقوم مقام لفظة في اللغة، وتأتي بكل معانيها الأصلية والتكميلية، فتحتاج أحيانا إلى أكثر من عبارة.

يقول -رحمه الله-: "الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله إلى الإيمان، والحق الذي بعثك الله به يا محمد.

{لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} يقول: ليزدادوا بتصديقهم بما جدد الله من الفرائض التي ألزمهموها، التي لم تكن لهم لازمة.

{إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} يقول: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائض التي كانت لهم لازمة قبل ذلك"[١٢].

يعني: كلما شرع الله شيئًا فذلك زيادة في الإيمان، وهذا سبق الكلام عليه، وأثر ابن عباس يدل على هذا، فابن عباس له أثر في زيادة الإيمان، وهو بهذا المعنى، أي: أن تشريع شيء بعد شيء يكون زيادة في الإيمان، فلما أذعنوا زادهم الصلاة، فلما أذعنت نفوسهم زادهم الفرائض، هكذا شيئًا بعد شيء.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: ثم قال -عز وجل-: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}، قد تقدم حديث أنس -رضي الله عنه- حين قالوا: هنيئًا لك يا رسول الله، هذا لك،

---

١١ - المصدر السابق (٢٢/ ٢٠٣).

١٢ - المصدر السابق.

فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبدًا.

يعني: هنا قوله: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} هذه اللام تتعلق بماذا؟ انظر إلى السياق: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، بعضهم يقول: تتعلق بمحذوف يدل عليه ما قبله، يعني: أن الله -تبارك وتعالى- يبتلي بتلك الجنود في قوله: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}، يبتلي بتلك الجنود من شاء من خلقه، فيؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر، فيقبل من أهل الإيمان، ويعاقب أهل الكفر والإشراك، يعني: أن الله -عز وجل- له جنود السموات والأرض، قال: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ} فيحصل الابتلاء بذلك؛ ليُدخل هؤلاء الجنة ممن نجحوا في هذا الابتلاء، ويُدخل الآخرين النار، وبعضهم يقول: إن هذه اللام متعلقة بقوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} يعني: فتحنا لك؛ {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...}، وأيضا: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}؛ ويعذب الكفار والمنافقين، وبعضهم يقول: إنها متعلقة بقوله: {وَيَنْصُرَكَ} في قوله: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}، وكذلك ما بعده من قوله: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، وبعضهم يقول: متعلق بقوله: {لِيَزْدَادُوا}، يعني: أن الله -تبارك وتعالى- قال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}، يعني: أنزل السكينة ليدخلهم، فهنا يحتمل أن تكون اللام هذه هي: لام الصيرورة والعاقبة على هذا، ويمكن أن تكون أيضاً لام التعليل، هكذا يحتمل هذا الموضع، {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ} يعني: هذا التفسير على سبيل الإجمال، فعل ذلك ليدخل المؤمنين، ما الذي فعله؟ أنزل السكينة في قلوبهم؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فعل بهم ذلك؛ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، ليدخلهم الجنة، لكن قوله بعده: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} يحتمل على هذا: أن الله -تبارك وتعالى- أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، ومفهوم المخالفة: أنه حرمها الكافرين والمنافقين؛ {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}، ويعذب المنافقين والمشركين، باعتبار مفهوم المخالفة، تفضل على هؤلاء، وحرم هؤلاء؛ ليدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار.

ولابن جرير -رحمه الله- كلام على هذا، يمكن أن ننظر إلى عبارته فيقول: "القول في تأويل قوله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا}.

يقول -تعالى ذكره-: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}؛ لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربَّهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها إلى غير نهاية؛ وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها؛ شكرًا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به.

{وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا} يقول -تعالى ذكره-: وكان ما وعدهم الله به من هذه العِدة، وذلك إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتهم بحسنات أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم {فَوْزًا عَظِيمًا} يقول: ظفرًا منهم بما كانوا تأمّلوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب الله عظيمًا.

والشنقيطي هنا يقول: "أظهر الأقوال وأصحها في الآية: أن اللام في قوله: {لِيُدْخِلَ} متعلقة بقوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}.

وإيضاح المعنى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ}، أي: السكون والطمأنينة إلى الحق في قلوب المؤمنين؛ ليزدادوا بذلك إيمانا؛ لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار.."[١٣].

فهو هنا عبر عن السكينة بمثل تعبير ابن جرير: السكون والطمأنينة.

ومعنى كلامه: فعل بهم ذلك؛ ليدخلهم جنات، ثم انظر ماذا قال في غير المؤمنين، يقول: "ومفهوم المخالفة في قوله: {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}: أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك، وهو كذلك، ولذا كان جزاؤهم مخالفًا لجزاء المؤمنين، كما صرح تعالى بذلك في قوله: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}.."[١٤].

هذا من أوضح ما يمكن أن يقال -والله أعلم- في تفسيرها.

يقول: "وإيضاح المعنى: أنه -تعالى- وفق المؤمنين بإنزال السكينة، وازدياد الإيمان، وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين، فلم يوفقهم بذلك؛ ليجازي كُلا بمقتضى عمله"[١٥].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: ثم قال -عز وجل-: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}، قد تقدم حديث أنس -رضي الله عنه- حين قالوا: هنيئًا لك يا رسول الله، هذا لك، فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبدًا.

{وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر.

{وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا} كقوله -جل وعلا-: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥] الآية.

وقوله تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} أي: يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم-: أن يُقْتَلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} أي: أبعدهم من رحمته، {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.

---

١٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/٣٩٤).

١٤ - المصدر السابق.

١٥ - المصدر السابق (٧/٣٩٥).

ثم قال -عز وجل- مؤكدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء -أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين-: **{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}**.

قوله -تبارك تعالى-: **{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}** أي: ساءت ظنونهم بالله -تبارك وتعالى-: أنه لا ينصر أولياءه، وأنهم لا يرجعون إلى أهليهم أبدًا، بل يُستأصلون، فهذا من ظنهم السيئ بربهم -تبارك وتعالى-، وهكذا ظنونهم بأهل الإيمان، وما يتربصونه بهم من الدوائر من أنه ينزل بهم من المصاب ما يستأصل شأفتهم، وأن المسألة مسألة وقت، وأن عاقبة هؤلاء لا تكون إلى نصر وتمكين؛ ولذلك لما خرجوا إلى تبوك كانوا يسخرون منهم، ويقولون: تظنون أن جلاد بني الأصفر كقتال العرب، كأنا نراكم موثقين بالحبال غدًا، يقولون: أنتم تلعبون بالنار، وتظنون أن المسألة سهلة ويسيرة كقتالكم لقوم لا خبرة لهم بالحرب، ولا عهد لهم بها، ستذهبون إلى جيوش نظامية، وقوية، ودول عظمى يريدون أن تقاتلوهم، كأننا نراكم غدًا موثقين بالحبال، فهذا نظر هؤلاء المنافقين الذين كانوا يرون أنهم أصحاب العلم والحكمة والتؤدة، والنظر الصحيح في الأمور، والتوفيق بين حزب الله وحزب الشيطان، **{إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}** [النساء:٦٢]، هذا حال الظانين بالله ظن السوء.

ولقد تكلم الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بكلام طويل على ظن السوء، وأن كل من ظن: أن الله لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، ولا ينصر أولياءه، فهو من الظانين بالله ظن السوء، ومن ظن: أن الله يديل الكافرين على المؤمنين إدالة دائمة مستمرة مستقرة، فهو من الظانين بالله ظن السوء، ومن ظن: أن الله -تبارك وتعالى- لا يدخل أهل الإيمان الجنة، فهو من الظانين بالله ظن السوء، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة الداخلة تحته، وكذلك من ظن أن الله يبتلي المؤمنين لغير حكمة، وكحال أولئك الذين يتسخطون على أقدار الله -تبارك وتعالى-، وقد ذكرت أشياء من كلامهم، وما ذكره ابن الجوزي -رحمه الله- في مناسبات: في شرح فتح المجيد، وفي التعليق على طريق الوصول إلى العلم المأمول، وفي الكلام على الصبر في الأعمال القلبية، كمثل قول القائل لما ابتلي بالجرب وهو فقير، وقد ذكرتها وهي: عبارات لا يحسن ذكرها ولا التفوه بها ولو على سبيل النقل، نسأل الله العافية، وآخر لما رأى دابة مريضة فتكلم بكلمات في غاية القبح، انظروا ذلك وراجعوا كلام ابن الجوزي، وقد نقله صاحب تيسير العزيز الحميد، وكذلك ابن القيم -رحمه الله- ذكر كلامًا طويلا مفصلا في هذا.

فهنا قال: **{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ}**، فقوله: **{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}** يعني: ما يتربصونه بأهل الإيمان دائر عليهم، أن ذلك ينزل بهم، وقد فسر **{السَّوْءِ}** هنا جماعة كالخليل بن أحمد وسيبويه: بالفساد، **{دَائِرَةُ السَّوْءِ}** يعني: الفساد، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين: **{السُّوْءِ}**، وقراءة الجمهور بالفتح كما نقرأ، وهما بمعنى واحد، يعني: هما لغتان.

وأما ابن جرير -رحمه الله- ففسره بقوله: إن دائرة العذاب تدور عليهم، أي: أن المكروه ينزل بهم، يعني: هم يتربصون بأهل الإيمان الدوائر، ولكن الله يوقع عليهم المكروه، وينزل بهم البلايا والمحن والمصائب والهلاك والهزيمة والقتل والأسر، كل هذا داخل فيه؛ لأنه مما يتربصونه بهم من المكروه، والله -عز وجل- يقول: **{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}**، أي: أن ذلك يرجع إليهم، ويقع بهم، فإن هذه المحاذرة للمكروه لا تنجيهم من

قدر الله -تبارك وتعالى-، بل عاقبتهم لا تكون إلى خير بحال من الأحوال، كما قال سبحانه: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ}، يعني: انتصر الكفار، {قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ} يعني: يقولون ذلك للكفار، {وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:١٤١]، فهؤلاء يترقبون المواقف، وإذا كان السفر قاصدًا قريبًا سهلا والمغانم كثيرة خرجوا مع المؤمنين، وإذا كان السفر طويلاً والعدو قويًّا تخلفوا، تارة بأعذار واهية، وتارة بالتواري والاستخفاء، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفتح من الآية (٨) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة الفتح:٨-١٠].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} أي: على الخلق، {وَمُبَشِّرًا} أي: للمؤمنين، {وَنَذِيرًا} أي: للكافرين، وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب.

{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وغير واحد: تعظموه، {وَتُوَقِّرُوهُ} من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، {وَتُسَبِّحُوهُ} أي: تسبحون الله، {بُكْرَةً وَأَصِيلًا} أي: أول النهار وآخره.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} "شاهدا" هنا منصوبة على الحال المقدرة، أرسلناك على كونك شاهداً، ويقول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي: على الخلق**، وبعضهم يقول: على أمتك كما قال الله -عز وجل-: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [سورة النساء:٤١] النبي -صلى الله عليه وسلم- يشهد على أمته، والذين قالوا بهذا -يعني أنه شاهد على أمته بتبليغ الرسالة إليهم- يحتجون بمثل هذا، {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ}، وجعلوا ما بعده أيضًا لأمته -عليه الصلاة والسلام-، {وَنَذِيرًا} أي: لهم، لأمتك، أي: تبشرهم وتنذرهم، هنا قال: "شاهداً" على الخلق، "ومبشرًا ونذيرًا" مبشرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، يعني عموماً، والذين حملوا الأول على معنى أخص وهو الأمة حملوا ما بعده أيضا كذلك: مبشرًا لأمتك ومنذرًا لهم.

{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ} هنا نقل عن ابن عباس معنى التعزير التعظيم {وَتُوَقِّرُوهُ} **من التوقير وهو الاحترام والإعظام**، {وَتُسَبِّحُوهُ} **أي: تسبحون الله** {بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، الآن قوله -تبارك وتعالى-: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} هذه القراءة التي نقرأ بها، يعني لتؤمنوا كون ذلك الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأمته؛ لأنه داخل في الخطاب كما هو المقرر عند الأصوليين، هذا الأصل، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- داخل في

الخطاب العام، ولكن على القراءة الأخرى قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالياء {ليؤمنوا بالله}، لاحظ {ليؤمنوا بالله ورسوله} وهذا كأنه قرينة أيضاً على أن ذلك لأمته -صلى الله عليه وسلم- {ليؤمنوا بالله} بخلاف قول من قال: إن ذلك على الخلق أجمعين، نعم النبي -صلى الله عليه وسلم- شاهد على أمته، وهذه الأمة تشهد على سائر الأمم، وهنا في قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} تعزروه وتوقروه وتسبحوه هذه الضمائر ترجع إلى أي شيء؟

لاحظوا الكلام عن النبي -صلى الله عليه وسلم- {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، فآخر ما ذكر هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتعزروه: الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتوقروه: النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتسبحوه: الله، بكرة وأصيلاً، إلى هذا ذهب طوائف من أهل العلم، وهذا يقتضي تفريق الضمائر، وهناك قاعدة معروفة هي: "أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها"، فهذا الموضع يتنازعه قاعدتان، القاعدة الأولى: وهي عود الضمير إلى أقرب مذكور، وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يقتضي تفريق الضمائر، وهو مخالف لقاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، ومن هنا اختلفت أقوال أهل العلم في هذا الموضع، فالتعزير هنا فسره بالتعظيم، والتفخيم كما قال به الحسن -رحمه الله-، وكذلك الكلبي.

وفُسر بالنصر أيضاً، التعزير بمعنى النصر، تنصروه، كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، وهو قول قتادة قبله، وهو بمعنى كلام عكرمة أي: تقاتلوا معه بالسيف، هذا التعزير، النصر: تجاهدوا معه.

ويكون التوقير بمعنى التعظيم كما يقول ابن جرير، وهذا أقرب -والله تعالى أعلم-، يكون {وَتُعَزِّرُوهُ} بمعنى تنصروه، {وَتُوَقِّرُوهُ} أي: تعظموه، وما ذكره ابن كثير أنه من التوقير والاحترام والإجلال والإعظام هو بهذا المعنى، معنى التعظيم، فيكون كأنه من قبيل التكرار، لكن إذا فسر التعزير بمعنى النصر، والتوقير بالتعظيم فيكون ذلك من باب التأسيس وهو مقدم على التوكيد.

وهكذا قول من قال كالسدي: إن معنى {وَتُوَقِّرُوهُ} أي: تسوّدوه، فإن هذا يرجع إلى معنى التعظيم.

هنا الضمير الأول والثاني: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} هذان الضميران من أهل العلم من قال: يرجعان إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه أقرب مذكور، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا يكون الوقف تامًّا عند قوله: "وتوقروه"، {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، ويقف، ثم يقول: {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، أي: الله، وهذا يقتضي كما سبق تفريق الضمائر، لكن يكون لقرينة وهي أن التسبيح إنما يستعمل في القرآن في حق الله تعالى مع أن معناه التنزيه، وهذا المعنى يصح في حق النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكنه في الاستعمال القرآني إنما يستعمل في حق الله -عز وجل-، فهذه تكون قرينة لحمله على غير ما يرجع إليه الضمير في الأول والثاني،

وبعضهم يقول: كل الضمائر ترجع إلى الله، **{لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}**، أي: الله، "وتوقروه" يعني تعظموا الله، وهذا كله لا إشكال فيه من جهة المعنى، ولكن صار الضمير فيه يرجع إلى غير الأخير من المذكورات، ويكون "تسبحوه": تنزهوه من كل قبيح أو تصلّوا له، كما يقول ابن جرير، فالصلاة يقال لها: تسبيح.

فيكون عندنا قولان في مرجع الضمير، هو تفريق الضمائر، نفرق الضمائر، أو نوحد الضمائر.

لا يقال: إن ذلك جميعًا يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والقولان متقاربان، كل قول له وجه.

ولو قيل: أعملنا قاعدة توحيد مرجع الضمائر هنا لكان هذا مرجحًا، يعني لو قلت: كل هذه الضمائر ترجع إلى الله، **{لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}**، فلا يكون الوقف عند قوله: "وتوقروه"، فنكون أعملنا هذه القاعدة، وتركنا القاعدة الأخرى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور لقرينة، لكن لو قلنا: إن الأول والثاني يرجعان إلى الأقرب، والثالث يرجع إلى الأول نكون قد تركنا العمل بالقاعدتين، والله أعلم.

"وتسبحوه": قال: تسبحون الله -كما عرفنا-، بعضهم يقول: من التنزيه، وابن جرير يقول: تصلون له، وإن كان الأكثر في الاستعمال أن التسبيح يرد في القرآن للتنزيه، **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [سورة الأعلى:١]، **{سَبَّحَ لِلَّهِ}** [سورة الحشر:١]، وما أشبه ذلك.

لكن ما القرينة التي حملت ابن جرير -رحمه الله- على القول بأنها الصلاة؟.

ذكر البكرة والأصيل، البكور والأصيل، كما في الغدو والعشي، ومضى الكلام في البكرة والأصيل، وقلنا: إن هذا الوقت: البكرة يكون من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وإن الأصيل يقال لما بعد العصر، وقد يقال لمعنى أخص، وذلك حينما تنكسر حدة الشمس ويذهب البياض، لا تكون بيضاء نقية، ولكن تميل إلى الصفرة، ومن أهل العلم من ذكر أن الأصيل يقال لما هو أوسع من هذا، يعني لما بعد الزوال، كل هذا أصيل، ولكن هذا خلاف المشهور، ولا شك أن الذكر يكون في البكور والعشي، تسبحوه بكرة وعشيًّا، فعلى القول الذي يكون محمل الأصيل فيه أوسع يكون ذلك يشمل صلاة الظهر والعصر، على تفسيره بالصلاة، والبكرة صلاة الفجر، وهذا يحتمل أن يكون هذا هو التسبيح المراد، ولكن الصلوات خمس، ولربما يقول صاحب هذا القول: إنما ذكرت هذا الصلوات؛ لأنها في طرفي النهار، لكنه لا شك أنه وقت للذكر، ولهذا فإن عامة أهل العلم حملوا ذلك على التسبيح الذي هو بمعنى التنزيه، **{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [سورة الأحزاب:٤٢].

وإذا كان ذلك يرجع جميعًا إلى الله: تسبحوه، وتعززوه وتوقروه، يكون الخطاب للأمة ومعها النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما سبق على القراءتين: بالياء، والتاء.

ثم قال -عز وجل- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} كقوله -جل وعلا-: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [سورة النساء:٨٠]، {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:١١١].

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}**؛ لأن ذلك إنما هو بأمر الله -تبارك وتعالى-، فهم إنما يفعلون ذلك طاعة له، **{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}** هنا ابن كثير يقول: **هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو المبايع بواسطة رسوله -صلى الله عليه وسلم-**، فيه إثبات صفة اليد لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وأن هذه البيعة لله حينما يبايعون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأن الله -تبارك وتعالى- مؤيدهم ومقويهم وناصرهم، **{فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ}** النكث بمعنى النقض، يعني نقض بيعته، فإن ذلك يرجع إليه، فهو الذي يحصل له الضرر والنقص بسبب ذلك؛ لأنه لا يضر الله شيئًا، فالله غني عن خلقه.

{وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} أي: ثواباً جزيلاً، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة -رضي الله عنهم- الذين بايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومئذ قيل: ألفاً وثلاثمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

نعم، ألف وأربعمائة، وهذا الذي عليه الجمهور، والروايات صحت في أنهم ألف وخمسمائة، وألف وثلاثمائة، وكذلك ألف وأربعمائة، ومثل هذا لا يستغرب؛ فإن التقديرات تختلف عادة فيما عايشه الناس ورأوه بأنفسهم، نحن فيما نشاهده يختلف الناس في تقدير هذه الأعداد.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ}** لاحظوا أنها جاءت هنا بالضم "عليهُ"، ما قال: عليهِ، ما السبب؟

هذه لغة، يعني ليست حركة إعراب، وإنما حركة بناء، فهي إحدى اللغتين في الهاء، عليهِ، عليهُ، يعني في هذا الموضع وفي غيره.

روى البخاري عن جابر -رضي الله عنه- قال: "كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة"[١]، ورواه مسلم.

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [الفتح:١٨]، برقم (٤٨٤٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٦).

هذا عند مسلم والبخاري، ألف وأربعمائة، حديث جابر -رضي الله عنه.

وأخرجاه أيضًا عن أبي جابر -رضي الله عنه- قال: "كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم"[٢].

كان في الحديبية بئر لا يكاد يكفي لواحد يحتاج إلى معالجة من أجل استخراج الماء منه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وضع يده الشريفة وأصابعه -عليه الصلاة والسلام- فالماءُ شرب منه جميع من كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فكفاهم وما معهم من الدواب.

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعطاهم سهمًا من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء حتى كفتهم، فقيل لجابر -رضي الله عنه-: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا[٣]، وفي رواية في الصحيحين عن جابر -رضي الله عنه- أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٤].

لاحظ يعني ألفًا وخمسمائة فهذا مما يقع فيه التردد أو النسيان والذهول، وكذلك أحيانا يجبر الكسر قد يكون ألفًا وأربعمائة وكسر، فيجبر الكسر فيقال: ألف وخمسمائة.

وروى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قلت فإن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال -رحمه الله-: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٥]، قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة[٦].

هذا كلام البيهقي أنه تذكر ثانية، لكن كلام سعيد بن المسيب: **هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة**، أن الأول هو الوهم هذا كلام ابن المسيب، والبيهقي يؤيده، فالبيهقي يقول بأنه عكس ذلك كذا، البيهقي يقول بالعكس، وهذا يحتمل أنه وهم، ويحتمل أنه جبر الكسر إن وُجد كسر، والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب شرب البركة والماء المبارك، برقم (٥٦٣٩).

٣ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٧٦).

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٧٦)، وبرقم (٤١٥٢)، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٦).

٥ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، برقم (٤١٥٣).

٦ - انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٩٧/٤).

قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظمًا لحرمته، فخرج عثمان -رضي الله عنه- إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فانطلق عثمان -رضي الله عنه- حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أرسله به، فقالوا لعثمان -رضي الله عنه- حين فرغ من رسالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين أن عثمان -رضي الله عنه- قد قتل، قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: ((لا نبرح حتى نناجز القوم))[٧]، ودعا رسول الله الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الموت، وكان جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- يقول: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر -رضي الله عنه- يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس.

الله المستعان، هذا الوحيد الذي لم يدخل هذه البيعة، ولم يشمله هذا الفضل العظيم ومعروف أن أفضل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- هم الخلفاء الأربعة، ثم العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، فهذا المحروم لم يكن أهلا لهذه البيعة، وهنا يظهر سبب هذه البيعة وهو أنهم لما احتبسوا عثمان -رضي الله عنه- ثم أشيع أنه قد قتل، وأمّا ما بايعهم عليه النبي فقد صح في الروايات عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن بعضهم قال: بايعهم على الموت، وأن بعضهم قال: بايع على ألا يفروا، كل هذا ثابت، فيحتمل أن يكون شيء من ذلك مما فهمه بعضهم، فهم البيعة هكذا، أو يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- بايع بعضهم على الموت أو أن بعضهم قال ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- مبتدئاً له به، أي قال له: أبايعك على الموت، ليس فقط على ألا يفر، هذا كله مما يحتمل، فهؤلاء الذين بايعوا بعضهم ينقل أن بيعته كانت على الموت، والآخرون على أن ذلك كان على ألا يفروا، ويمكن أن تكون هذه البيعة فيها هذا وهذا، يعني أن بعضهم بويع بهذا، وبعضهم بويع بهذا، هذا يحتمل، أو أن ذلك من قِبل الفهم أي: أن بعضهم فهم

---

٧ - انظر: سيرة ابن هشام (٢/٣١٥)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/٣١٩).

هذا، والبعض الآخر فهم غيره، **قال: ثم أتى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- أن الذي كان من أمر عثمان -رضي الله عنه- باطل.**

هنا أمران: انظر إلى حال قريش حينما جاءهم عثمان -رضي الله عنه-، وفرغ من رسالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم قالوا: **وإن شئت أن تطوف بالبيت فطف** هذا مع شدة العداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهم كفار محاربون له، لكن هكذا كانوا يتعاملون مع رسوله وما كانت عليه العرب في جاهليتهم، وكذلك ما تعارف عليه الأمم جميعًا في التعامل مع الرسل في جميع الحالات في وقت الحرب وغيره، وانظر إلى أفعال بعض من ينتسب إلى الدين أو الجهاد ويفعل ما لا يفعله -نسأل الله العافية- كبار هؤلاء الكفار، وكذلك أيضا هنا بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وطلب منهم البيعة بناء على هذا الخبر وهو أن عثمان -رضي الله عنه- قد قتل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- معهم ويوحى إليه ومع ذلك ذاعت هذه المقولة لمّا حُبس عثمان -رضي الله عنه- عن الرجوع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والرسل لا تحبس، وليس معنى حُبس أنه سجن، لا، وإنما لم يمكنوه من الرجوع مباشرة بعد أن بلغ رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا كان هذا حصل في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا الخبر انتشر وصدقه الكثيرون وأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- البيعة على أصحابه بناء على صحة هذا الخبر بمعنى أنه إن صح فسيناجزهم، إذا كان هذا في ذلك الزمان الشريف ومعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم بهذه المثابة ففي وقتنا ينبغي أن يكون هذا دافعًا لمزيد من التحري وأن لا يصدق الإنسان ما يتناقله الكثيرون من الأخبار والمعلومات التي تذاع وتشاع، فإن شياطين الإنس والجن على حد سواء في مثل هذه الأوقات لا شك أنهم يرتعون في تضليل الناس، والإفساد، وإشاعة الفرقة والاختلاف، والوقيعة بين أهل الإيمان، إرجاف على قدم وساق في مثل هذه الأوقات، فالتحري والتثبت وأن ينظر في كلام الناس أنفسهم، وما يصدر عنهم، وما يقولونه، ثم بعد ذلك يحكم عليهم بمقتضاها، أما ما يتناقله عنهم خصومهم وأعداؤهم ونحو هذا فهذا لا يصح قبوله، نسأل الله العافية.

ثم أتى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- أن الذي كان من أمر عثمان -رضي الله عنه- باطل.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: لما أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- رسولَ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم إن عثمان في حاجة

الله تعالى وحاجة رسوله))، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعثمان -رضي الله عنه- خيراً من أيديهم لأنفسهم[٨].

وروى البخاري عن نافع -رضي الله عنه- قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر -رضي الله عنهما- أسلم قبل عمر وليس كذلك، ولكن عمر -رضي الله عنه- يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار، أن يأتي به، ليقاتل عليه ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبايع عند الشجرة، وعمر -رضي الله عنه- لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله -رضي الله عنه-، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر -رضي الله عنه-، وعمر -رضي الله عنه- يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر -رضي الله عنهما.

يعني كونه بايع قبل أبيه، ومعنى يستلئم للقتال يستعد ويلبس السلاح، لأمة الحرب.

ثم روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: أن الناس كانوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال -يعني عمر -رضي الله عنه-: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فوجدهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر -رضي الله عنه-، فخرج فبايع[٩].

وعن جابر -رضي الله عنه-، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر -رضي الله عنه- آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت[١٠]. رواه مسلم.

وروى مسلم عن معقل بن يسار -رضي الله عنه- قال: لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر[١١].

---

٨ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب فيمن جاء بعد الغنيمةِ لاسَهْمَ له، برقم (٢٧٢٦)، والترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، برقم (٣٧٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، برقم (٧٦٥).

٩ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، برقم (٤١٨٧).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٦).

١١ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٨).

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- قال: بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة. قال يزيد: قلت يا أبا سلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[١٢].

لاحظ الآن هذه الرواية في البخاري على الموت من أحد المبايعين، وجابر -رضي الله عنه- حديثه مخرج في الصحيحين على ألا يفروا، مثل هذا قد يكون من قِبل الفهم، بايع على هذا، فهم أنه على الموت، أو أنه قال ذلك من قِبل نفسه، يعني أن بعضهم بايع النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طلب من بعضهم أن تكون بيعته على الموت، وهذا أولى من أن ينسب الراوي إلى الوهم.

وروى البخاري عن سلمة -رضي الله عنه- قال: بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية، ثم تنحيت، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((يا سلمة ألا تبايع؟))، قلت: قد بايعت، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((أقبل فبايع))، فدنوت فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت[١٣].

لاحظ هذا تكررت منه البيعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم شجعان الصحابة، علام بايعته؟، على الموت، قد يكون وضع يده على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: أبايعك على الموت، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- اكتفى من البعض أن يبايعهم على ألا يفروا.

وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت[١٤].

وروى البيهقي عن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا تُرويها، فقعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على جَبَاها -يعني الركي-، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسَقَيْنا واستقيْنا.

قال: ثم إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا إلى البيعة في أصل الشجرة، فبايعتُه أول الناس، ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال -صلى الله عليه وسلم-: ((بايعني يا سلمة))، قال: فقلت يا رسول الله: قد بايعتك في أول الناس، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((وأيضا))، قال: ورآني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: عزلا فأعطاني حَجَفة أو دَرَقة.

عزلا يعني لا سلاح معه، والحَجَفة الترس الذي يكون من جلد أو خشب، جلد قاسٍ طبعاً يكون في صلابته كالحديد أو الخشب، أو دَرَقة بمعنى واحد، حَجَفة أو دَرَقة هما بمعنى واحد: ترس.

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، برقم (٢٩٦٠)، وبرقم (٤١٦٩)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الحديبية، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٦٠).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، برقم (٢٩٦٠).

١٤ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، برقم (٢٩٥٩)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٦١).

ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تبايع يا سلمة؟))، قال: قلت: يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((وأيضا)) فبايعته الثالثة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا سلمة أين حَجَفتك أو دَرَقتك التي أعطيتك؟))، قال: قلت: يا رسول الله لقيني عامر عزلا فأعطيتها إياه، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: ((إنك كالذي قال: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي))...

يقصد بعامر عم سلمة الذي أصيب أين؟، في خيبر، القصة المعروفة لما أهوى بالسيف ليضرب به خصمه الكافر فأصاب السيف ساقه فمات -رضي الله عنه-، هنا لاحظ: سلمة تكررت منه البيعة مراراً، ويقول: بايع على الموت، فالوهم يبعد أن يتطرق إلى مثل هذا لاسيما مع تكرر ذلك من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني أن القائل به غير واحد، يعني البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن للجميع.

قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا، قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- أسقي فرسه وأجنبه وآكل من طعامه.

وأجنبه: يعني هو عند مسلم "وأحُسُّه" يعني أحك ظهره، المحسة: يعني أزيل عنه الغبار ونحوه، يحكون ظهر الفرس ويأنس بهذا، وأجنبه هذه الرواية، كذلك الآخر رواية ثابتة عند مسلم لا إشكال.

وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت في أصلها -في ظلها-...

كسح شوكها يعني كنس ما تحتها من الشوك، أو قطع شوكها، كل ذلك يقال: كسح وكسحه، شجر العظاه هذا معروف في الحجاز، شجر له ظل لكنه كثير الشوك، وشوكه لربما يبلغ الخنصر بطوله، طويل وقوي، وله شعب يتساقط تحت الشجر، فمن أراد أن يستظل به يحتاج إلى تنظيف للمحل -للموضع- وهو في غاية الأذى، هذه الأشواك كبار قوية ذات شعب، يعني تجد الشوكة بهذا الشكل، والمكان مليء فيحتاج إلى تنظيف للمكان، لكن إزالة شوك الشجر هذا أمر متعذر؛ لكثرته لأن الشجر كله شوك، يزيل ماذا؟، يحتاج إلى أيام حتى يزيل هذا الشوك.

فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين قتل ابن زُنيم، فاخترطت سيفي.

ابن زُنيم: ابن الجوزي يقول: ما نحفظ من الصحابة من يقال له: ابن زُنيم إلا شخصين الأول سارية بن زُنيم، والثاني أخوه أنس بن زُنيم، وهنا لم يبين.

فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة، وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا في يدي.

"ضغثًا" الضغث الحزمة **{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا}** [سورة ص:٤٤] يعني حزمة، فجعل سلاحهم مضمومًا، ضم بعضه إلى بعض هكذا، جمع سلاحهم وضمه إلى بعض في يديه.

ثم قلت: والذي كرم وجه محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: مِكْرز من المشركين.

العبلات من قريش يقولون: هم أمية الأصغر وأخواه نوفل وعبد الله بن عبد شمس بن عبد مناف، العبلات نسبة إلى أم لهم، يعني هم من قريش نسبوا إلى أم لهم يقال لها: عبلة من بني تميم، هي ليست قرشية نسبوا إليها، العبلات.

ومِكْرز بن حفص بن الأخيف.

حتى وقفنا بهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سبعين من المشركين.

يعني الذين أرادوا الغدر وأَخْذَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بغِرّة يبلغون في الروايات ثمانين رجلاً جاءوا من قبل جبل التنعيم فأُخذوا، في بعض الروايات أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم فأخذ الله أبصارهم فأُخذوا جميعًا، ثم من النبي -صلى الله عليه وسلم- عليهم فلم يقتلهم.

فنظر إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثِناه))....

يعني يكون لهم بدء الفجور -أول الفجور- في صدهم عن البيت -يعني المشركين-، وثِناه يعني بهذا الغدر، يعني ما اكتفوا برد وصد النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه وهم محرمون ومعهم الهدي صدوهم عن المسجد الحرام، ثم بعد ذلك أيضًا يأتي هذا الغدر، ثِناه.

فعفا عنهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنزل الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [سورة الفتح:٢٤] الآية، وهكذا رواه مسلم[١٥]، نحوه أو قريبًا منه.

هذا سبب نزول صريح لهذه الآية: **{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ}** يكون المقصود به هذه المجموعة من المقاتلين الذي أرادوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- غِرّة فأُخذوا في الحديبية، ولا يقال: إن كف أيديهم إلخ حينما وقع الصلح مع المشركين في الحديبية فلم يحصل قتال، لا، هو فيما هو أخص من هذا، في هذه المجموعة، أن الله سلم رسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أذاهم، وكذلك لما سلطه عليهم وتمكن منه لم يقتلهم؛ لأنه في الحديبية النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ظفر بالمشركين، وهنا يقول:

---

١٥ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، برقم (١٨٠٧).

{مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} فمن الذين ظفر بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذه القضية في الحديبية ولا يقال: إن ذلك في فتح مكة لمّا عفا عنهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسبب النزول يوضح المراد، هي في هذه المجموعة الممثلة بثمانين.

وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: "كان أبي ممن بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة"، ....

لاحظ: الآن هذا أبوه المسيب بن حسن جاءوا في السنة التي بعدها وخفي عليهم المكان، أضلوه، المكان متشابه -الحديبية- كما ذكرت سابقاً وأنت ذاهب من جدة إلى مكة إذا وصلت عند الشميسي، تعرفون كبري الشميسي الذي فيه التفتيش على اليسار تحتاج أن تمشي ما يقرب ربما من سبعة عشر كيلو أو قريب من هذا إلى اليسار، فتصل إلى الحديبية وبعضها من الحرم وبعضها من الحل، الطريق القديم طريق جدة ومكة هنالك يمرون بها، فتلك الناحية فيها شجر، شجر العضاه، شجر شوك، ومتشابه، من عرف أرض الحجاز الأشجار التي في أرض الحجاز تلتبس عليه، لو أنه خرج من المكان ثم أراد أن يرجع إليه يلتبس عليه في أي موضع المكان الذي نزل فيه.

قال: فانطلقنا من قابل حاجّين فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم فأنتم أعلم[١٦].

يقول لنا: كيف عرفتم ونحن من السنة الثانية مباشرة ذهبنا ولم نتعرف على المكان؟، وهؤلاء في زمن التابعين.

وروى أبو بكر الحميدي عن جابر -رضي الله عنه- قال: لمّا دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الناس إلى البيعة وجدنا رجلا منا يقال له الجد بن قيس مختبئا تحت إبط بعيره[١٧]**، رواه مسلم.**

وقال الحميدي أيضا: حدثنا سفيان عن عمرو أنه سمع جابراً -رضي الله عنه- قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنتم خير أهل الأرض اليوم))، قال جابر -رضي الله عنه-: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[١٨]**، قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه.**

وروى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا يدخل

---

١٦ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٩).

١٧ - رواه الحميدي في مسنده، برقم (١٣١٤)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (١٩٠٨)، وقال محققه حسين سليم أسد: "رجاله رجال الصحيح".

١٨ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، برقم (٤١٥٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، برقم (١٨٥٦)، والحميدي في مسنده، برقم (١٣١٤).

النار أحد ممن بايع تحت الشجرة))[19].

وروى عبد الله بن أحمد عن جابر -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من يصعد الثَّنيَّة ثنيَّة المِرار فإنه يُحط عنه ما حُط عن بني إسرائيل))، فكان أولَ من صعد خيلُ بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعدُ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر))، فقلنا: تعالَ يستغفرْ لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: والله لأَنْ أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، فإذا هو رجل ينشد ضالة[20]**، رواه مسلم عن عبيد الله، به.**

هنا لاحظ في الأثر السابق في الصحيحين عن سعيد بن المسِّيب، وابن المسيَّب كل ذلك يقال فيه، ولا يصح عنه أنه قال: سيَّب الله من سيَّبني، قال: **كان أبي ممن بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجّين،** لاحظ الأثر أنه: **فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم فأنتم أعلم.**

هنا هذا مختصر، الرواية وردت بما هو أوفى من هذا، أن أناسًا اتخذوا مسجدًا عند هذه الشجرة، فسئلوا عن هذا فقالوا: هذه الشجرة التي بايع النبي -صلى الله عليه وسلم- تحتها، فسئل سعيد بن المسيب عن هذا، فقال: كان أبي ممن بايع إلخ، وفي زمن عمر قبل ذلك لمّا نزل منزلا في طريقه -طريق مكة- فصار الناس يذهبون يسرعون إلى شجرة يصلون تحتها، فهذا يدل على ماذا في ذلك الزمن؟، على تسارع الناس إلى مثل هذه الأشياء، فكأنها قضية مما تنجذب إليه النفوس انجذاباً قويًّا، كانوا في ذلك الزمان يتسارعون ليصلوا تحتها، فقطعها عمر -رضي الله عنه-، ثم في زمن التابعين يوجد من اتخذ مسجداً عندها، فماذا عسى أن يقال في زماننا هذا من سرعة الناس إلى مثل هذا؟، لكن في تلك الأوقات في زمن عمر -رضي الله عنه- كان هناك من يأخذ على أيدي الناس فيحصل بذلك استقامة الحال، وإلا لو ترك الناس لذاعت البدع وشاعت، وهذا الذي حصل في القرون التي بعدهم وهكذا في أمور كثيرة متنوعة كما في مثل هذه الواقعة حينما تلكأ أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبطئوا في التحلل وشق ذلك عليهم، وراجعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا، فهو يأمرهم بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا، وهم يتمنعون ويتأخرون ويراجعونه مرة بعد مرة في هذا الأمر، هذا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم خيار أهل الأرض بشهادة النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث، ومع ذلك شق عليهم هذه المشقة العظيمة، فمع غير النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يكون الحال؟، فكيف إذا كان الناس ليس لهم رأس أصلا كما في زماننا هذا؟ وكل واحد منهم هو

---

١٩ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في الخلفاء، برقم (٤٦٥٣)، والترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، برقم (٣٨٦٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٧٧٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٦٨٠).

٢٠ - رواه مسلم، في أوائل كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨٠).

ابن جَلا وطَلّاع الثنايا حينما يكتب في هذه الوسائل، يكتب في حسابه في تويتر فتجد الاختلاف على أشده، نسأل الله العافية.

تمزق شديد واختلاف، ويكاد أن يكون لكل واحد رأي يباين به الآخرين، ثم يأتي من يأتي بالعجائب والغرائب ولا يردهم شيء، ولا يقفون عند شيء، حتى يكفر العلماء وطلبة العلم، ولا يبقي ولا يذر، ويكفر أهل الجهاد، وهو ذاهب في زعمه ليجاهد، ولكنه بعد ذلك يتحول إلى جهاد في سبيل الشيطان، نسأل الله العافية.

وقد حدثني أحد الرجال الذين بقوا في أفغانستان سبع عشرة سنة وتزوج أفغانية، سبع عشرة سنة منذ الجهاد الأول من بدايته، سبع عشرة سنة لم يرجع هنا، يقول: كنت أجادل واحداً من هؤلاء يعني في غلوه في التكفير فذكر له بعض الأمثلة، وكان مما ذكر له أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عاتبه الله فقال: **{لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** [سورة التحريم:١] يعني هو تكلم على مسألة من وقع بشيء من الكفر -الكفريات- فإنه يكفر مباشرة، وكان يناقشه يقول له: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الله له: **{لِمَ تُحَرِّمُ}** قال: النبي -صلى الله عليه وسلم- كفر بهذا ولكنه لم يقر عليه، ولم يصر، فرجع وتاب، إذا وصل الأمر بهذا الجاف الجلف أن يقول ذلك في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- يا إخوان، وهذا رجل أنا أعرفه معرفة لا يُتهم، ولم يكن بحاجة، ولم يقل لي هذا الكلام في هذه الأيام في هذه الفتن، هذا الكلام سمعته منه قبل نحو خمس عشرة سنة حينما لم تكن هذه الأمور ظاهرة، وإنما كانت حالات شاذة، فكان يحكيها هناك، هو لا يتكلم اليوم، الكلام الذي سمعته قديم قبل ما تظهر هذه المشكلات الجديدة، وهؤلاء الزعانف الذين عم شرهم وبلاؤهم وضررهم، فصاروا يتقربون إلى الله بقتل أهل الإيمان، ويكفرونهم، ويكفرون صلحاء الأمة وخيارها، وهؤلاء ثِقوا ثقة تامة أنهم سيرجعون على أنفسهم بالتكفير، هم يكفرون أنفسهم، وقد آل الأمر ببعضهم في بعض النواحي إلى هذا، وذكرت لكم في بعض المناسبات في أرض اليمن جاءهم من بعض النواحي رجل في قرية فكان يأخذ النصوص التي لا يفقه معانيها وينزلها على من يقعون في المعاصي، ثم بعد ذلك حج هو وصاحبه ممن أغواهم، فصاحبه سأله قال: هذا الموسم هؤلاء الحجاج جميعًا ما في حاج غيري وغيرك فقط، نحن الذين أقمنا الموسم قال: نعم، هؤلاء كلهم كفار ولا حج لهم، فهذا ما استطاع أن يستوعب أن الحج ما قام إلا باثنين فقال: إذاً أنا معهم، إذا كان هؤلاء كلهم كفار والحج ما قام إلا بي وبك فأنا مع هؤلاء، فكان هذا سبباً لرجوعه لما حج معه، فتن وشرور، وكون الإنسان يحلق لحيته وينغمس في الشهوات ويزني ويشرب الخمر واللهِ أحبّ إليّ من أن ينغمس في هذه البلايا والشرور فيقتل أهل الإيمان ويكفرهم ويستحل دماءهم ويحكم عليهم بالردة، أهون بكثير أن يأتيك خبر إنسان أنه صار في حال من الفسق والمجون ويقارف الكبائر، فهذا أسهل من أن يقارف هذه العظائم التي قد يمرق معها من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والمسألة ليست سهلة، ماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الخوارج؟ الخوارج أهل عبادة، وقيام ليل، وصيام نهار، وبين أعينهم مثل رُكب المَعِز من

السجود، ومع ذلك كفّروا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا من أشجع الناس، وأصدق الناس، ولذلك حديث الخوارج العلماء يقبلونه، والبخاري أخرج لبعض من هؤلاء؛ لأنهم من أصدق الناس، واليوم ابتلينا بمن هم أكذب الناس، وأقل الناس عبادة، وأضعفهم أمانة، وأغدرهم بالعهد، كل هذا موجود للأسف ومع ذلك ينتسب للجهاد، ومع ذلك لا نعلم عمى بصائر كما في مثل هذه الحال التي نشاهدها، وما تبديه الأيام مع ذلك الإصرار على هذا الانحراف والضلال المبين، لا أعلم عمى في البصيرة مثل هذا، كما قال الله -عز وجل- عن أولئك الذين أعمى بصائرهم: **{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}** [سورة الأنعام:١١٠]، -نسأل الله العافية-، وقال: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}** [سورة الأنفال:٢٤] فيبقى في أودية الهلكة -نسأل الله العافية-، لا يرجع عنها، فهذا أمر لا يجوز السكوت عنه ويجب التحذير منه، الإنسان يخاف على نفسه، ويتقي الله -عز وجل- ويتوب، ولا ينغمس في شيء من هذه الضلالات، والأهواء التي صارت الشياطين عن طريقها تتلاعب بالناس، نسأل الله العافية.

ولا يقولن قائل: إن الخوارج يكفرون فاعل الكبيرة وهؤلاء لا يكفرون فاعل الكبيرة، المسألة ليست مقررات نظرية، الخوارج الذين قاتلهم علي -رضي الله عنه- ما كانوا يقولون: نكفر فاعل الكبيرة، ما تبلورت هذه الأفكار إلا فيما بعد، كانت القضية كيف تحكّم الرجال؟ فلا حكم إلا لله، ما كانوا يقولون: نحن نكفر فاعل الكبيرة، فالذي يكفر من خالفه ولم يفعل كبيرة -بل هم خيار الناس-، كل من خالفه رماه بالردة ويعلق رءوسهم ويصور بجانبهم فرحان مستبشرًا ماذا يقال له؟! الذين يفكر بهذه الطريقة ويعمل هذه الأعمال لا يحتاج أن يقول: أنا أكفر بالكبيرة، الذين كانوا في زمن علي -رضي الله عنه- ما كانوا يقولون: نكفر بالكبيرة، كانوا يقولون: لا حكم إلا لله، نفس العبارة اليوم لا حكم إلا لله، وهؤلاء يحكّمون ماذا؟ لكن كانوا جهلة، واليوم جهلة، هات عالمًا واحدًا، لا يوجد، العلماء ضرب عليهم كلهم هؤلاء العلماء بين مرجئ، ومرتد، مرجئ يعني الآن صارت تزكية؛ لأن الرمي بالردة صار حنانيك يُرمى بالإرجاء أسهل من أن يرمى بالردة، لا يقبل من أحد، -نسأل الله العافية-، فهذا حال نسأل الله -عز وجل- أن يهدي الجميع، وأن يعيذنا وإياكم من ذلك، وأن يتوفانا ويقبضنا إليه غير مفتونين، الموت راحة للمؤمن ولا يُبتلى بشيء من هذا، نسأل الله العافية.

فينبغي الخوف والحذر، يخاف الإنسان على نفسه يتقي الله، ويعتبر وليست القضية بالمظهر، الخوارج الذين كانوا في زمن علي -رضي الله عنه- ومن بعدهم من الأزمان كانت لحاهم طويلة، وثيابهم إلى ما تحت ركبهم، وهذا لا يمنع من أن يكون الإنسان على صيام وقيام وذكر وعبادة لكن لا يجاوز تراقيهم -نسأل الله العافية-، هذه السيرة وهذه الأحاديث وهذه الوقائع في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي الأزمان التي بعدهم انظر إلى جرأة هذا الرجل، عند نفسه أنه شجاع آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر لا تأخذه في الله لومة

لائم، اعدل يا محمد فإنك لم تعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله[21]، عبارات تردد في وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- خير الخلق، فإذا قيل هذا في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- قاله مثل هؤلاء، فماذا عسى أن يقال في حق غيره؟ ماذا يمكن أن يقال في حق العلماء والهداة؟! ما شاء الله! شجاع، اعدل يا محمد فإنك لم تعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، العدل عنده هو، هو الذي يعدل، هو الذي يعرف الحق، وينزل ذلك في مواضعه، ومن أين تعلم هذا؟!.

الثَّنِيَّة الطريق التي يكون فيها وعورة، طريق فيها جبل يصعب اجتيازه.

وعن أبي الزبير أنه سمع جابراً -رضي الله عنه- يقول: أخبرتني أم مُبشِّر أنها سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول عند حفصة -رضي الله عنها-: ((لا يدخل النار -إن شاء الله تعالى- من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحدٌ))، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة -رضي الله عنها-: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [سورة مريم:71]**، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: قد قال الله تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}** [سورة مريم:72][22]**، رواه مسلم.**

أم مُبشِّر هذه هي امرأة زيد بن حارثة -رضي الله عنه.

وفيه أيضا عن جابر -رضي الله عنه- قال: إن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبًا فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كذبت، لا يدخلها فإنه قد شهد بدرًا والحديبية))[23]، ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، كما قال -عز وجل- في الآية الأخرى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [سورة الفتح:18]**.**

هو هذا المشهور من الروايات أنهم ألف وأربعمائة.

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا

---

21 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، برقم (6100)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، برقم (1062).

22 - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان -رضي الله عنهم-، برقم (2496).

23 - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (2495).

بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة الفتح:١١-١٤].

يقول تعالى مخبرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاعتذروا بشغلهم لذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم -تعالى وتقدس-، وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: {بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} تركوا المسير مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أين؟، إلى الحديبية، هذا هو المشهور، والسياق كله في هذه الحادثة في قصة الحديبية، وهذا قال به جماعة من السلف كمجاهد وغيره، هؤلاء الأعراب سماهم بعض السلف قالوا: غفار وجهينة وأسلم وأشجع والدؤل، ينسب إليه الدؤلي، هؤلاء من الأعراب الذين كانوا حول المدينة، وبعضهم يقول: هذا كان عام الفتح، ولكن هذا بعيد؛ فالسياق في الحديبية، كأن الذين قالوا: إنه عام الفتح نظروا إلى أن الحديبية إنما ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها للنسك، ذهب للعمرة، ولكن حملُه على ما يدل عليه السياق أولى، وكذلك ما بعده فإنه مرتبط به، فإن ما سيأتي بعده في كون هؤلاء يقولون: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [سورة الفتح:١٥] في مسيرهم إلى خيبر وكان هذا قبل فتح مكة، ومُنعوا من الذهاب إلى خيبر، وقولهم: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} يعني بماذا اشتغلوا؟، بإصلاحها والقيام عليها، شغلهم ذلك عن الخروج مع النبي -صلى الله عليه وسلم- {فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} هذا الكلام لا يدل على إيمان أو أنهم شعروا بالتقصير، وإنما يقولون ذلك نفاقاً بدليل: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} فهذا يشمل الدعوى الكاذبة {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} أنه لم يكن ثمّةَ ما يمنعهم من الخروج مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما كانت هذه أعذارًا كاذبة، وكذلك أيضاً في طلبهم من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يستغفر لهم فإن ذلك ليس عن إيمان وخوف من الله -تبارك وتعالى-: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا} هكذا في هذه القراءة التي نقرأ بها بالفتح، فهو مصدر بهذا الاعتبار، وفي القراءة الأخرى المتواترة قراءة حمزة والكسائي بالضم "ضُرًّا" وهذا باعتبار أنه اسم لما يضر، يقال له: ضُر، والضَّر يكون بهذا الاعتبار مصدرًا، وبعضهم يقول: هما لغتان، الضَّر والضُّر بمعنى واحد.

ثم قال تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاصٍ بل تخلف نفاق {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} أي: اعتقدتم

أنهم يُقتلون وتُستأصل شأفتهم، وتُستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} أي: هلكى، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين، وقيل: هي بلغة عمان.

هنا يقول: هذه أعذار كاذبة لا حقيقة لها، وإنما حقيقة الأمر {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} يعني ظنوا أنهم يُستأصلون في مخرجهم هذا، وهكذا حكم الله -عز وجل- قال: {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ} فهذا الظن السيئ كما قال الله -تبارك وتعالى-: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [سورة الفتح:٦] فالدائرة: المكروه يرجع إليهم ويقع بهم، ما يتخوفونه ينزل بهم، وأما الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن الله يكلؤه ويحوطه ويرعاه وينصره ويؤيده ومن معه من أهل الإيمان، وهكذا من ظن أن أهل الإيمان يحصل لهم الاستئصال، وأنهم لن يرجعوا إلى أهليهم أبداً، وما إلى ذلك فتخلى عن إيمانه أو عن مبادئه أو عن دعوته ومالأ أهل الباطل والشر والمنكر والفساد والنفاق فإن ذلك إنما يرجع ضرره عليه هو، وأما أهل الإيمان فهم من رفعة إلى رفعة، ومن تمكين إلى تمكين، وإن عمي ذلك على أصحاب البصائر الخفاشية

خفافيشُ أعماها النهارُ بضوئهِ *** ووافقها قِطعٌ من الليلِ مظلمُ

فهذه الآية فيها عبرة للمؤمن، {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} يعني: هلكى، وأهل اللغة يقولون: يقول بعضهم كصاحب الصحاح: البور هو الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، ولهذا يقال: أرض بور، يعني لا نبات فيها، لا شيء فيها، ويقال ذلك لمن لا خير فيه، ومن ثم قيل ذلك للهالك؛ لأن من هلك لم يُبقِ شيئاً، يعني أن هلاكه ذهب بكل ملذاته وشهواته وما يحترز له.

ثم قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر، ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

قال تعالى: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الفتح:١٥].

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم- إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد

أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرًا؛ ولهذا قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} قال مجاهد وقتادة وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير.

وهكذا السياق كله في هذا كما سبق، وأن ذلك في خيبر هي التي حصلت فيها مغانم كثيرة، ابن جرير -رحمه الله- يحتج في هذا -كما سيأتي في الآيات بعدها- بأن أول غنيمة كبيرة حصلت بعد الحديبية كانت في خيبر غنمها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحصلَت لهم أموالٌ كثيرة منها.

{قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ} أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، {فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا} أي: أن نشرككم في المغانم، {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي: ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم.

هم يفهمون أن هذه قضايا نفسية من قبيل الحسد والأثرة، والأمر أن الله حكم بذلك، فأهل الإيمان يتقيدون به، لكن لما كان هؤلاء لا فقه لهم نظروا إلى أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما ينظرون به لأنفسهم من الأثرة عندهم والحسد الموجود في نفوسهم، فظنوا أن الناس من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- على شاكلتهم {بَلْ تَحْسُدُونَنَا}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفتح من الآية (١٩) إلى الآية (٤٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}** [الفتح:١٦-١٧].

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يُدعوَن إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن، رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميعًا، ورواه هشيم عن أبي بشر عنهما، وبه يقول قتادة في رواية عنه.

الثاني: ثقيف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر، ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري، وروي مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم.

وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم.

وعن مجاهد: هم أهل الأوثان.

وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ}** هؤلاء هم المذكورون في الآيات قبله، من قوله تعالى: **{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا}** [الفتح:١١].

وهم الذين قال الله فيهم: **{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}** [الفتح:١٥].

فهؤلاء امتُحنوا بهذا: **{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}** من هؤلاء؟

اختلف فيهم، وهذا هو أحد الأنواع الداخلة تحت ما يعرف بالمبهمات في القرآن، فإن المبهمات في القرآن تارة تكون في أسماء الأشخاص، وتارة تكون في البقاع والأمكنة، وتارة تكون في الأزمان والأوقات، وتارة بغير هذا، ولا طائل تحته في غالب الأمثلة، وقد ألف فيه السهيلي، والغرناطي، وغير هؤلاء، لكن لا فائدة في غالب ما يذكر تحته؛ لأن ذلك لو كان فيه فائدة لذكره الله -عز وجل-، وغاية ما هنالك أنه قد يُحتاج إليه إما

لدفع تهمة، أو لبيان فضيلة، كما مضى في قوله تعالى: **{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا}** فمروان قال: إنه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، فردت عليه عائشة -رضي الله عنها- ذلك، فمثل هذا يُحتاج إليه لدفع تهمة، وإلا فالغالب أن هذا لا حاجة إليه، وقد جاء عن عكرمة أنه قال: "تطلبت الذي خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله أربع عشرة سنة حتى وجدته" يعني الذي في قوله:**{وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ}** [النساء:١٠٠]، هل في هذا فائدة؟، لا فائدة في هذا، فهو بقي نحوًا من أربع عشرة سنة وهو يتطلب هذا المعين، هذا مما تنقضي به الأعمار -على قصرها- من غير فائدة، هذا بالإضافة إلى كثرة الاختلاف الواقع تحته، خاصة فيما ينقل عن بني إسرائيل، فتجد أنهم يذكرون أسماء كثيرة، وهذا يدل على أنه ليس هناك ما يمكن أن يوقف عنده في كثير من هذه المواضع؛ فليس عليه دليل صحيح.

فهنا هؤلاء القوم الذين وصفهم الله -عز وجل- أنهم بهذه المثابة: **{أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}** فمن قائل: إنهم هوازن. ولا شك أن هوازن يصدق عليهم هذا الوصف، فكما نعلم ما حل بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في وقعة حنين، فقد خرج بهم مالك بن عوف النضري، وهو قائد هوازن، خرج بهوازن ومن وافقهم وتبعهم في وادي حنين، خرجوا بالنساء والأطفال والإبل والبقر والغنم، ما تركوا شيئا بزعمه -أعني مالك بن عوف النضري- أن الرجل إذا كان أهله وماله وراء ظهره فإنه لا ينهزم، يثبت حتى يموت، وقد ذكرت في بعض المناسبات طرفًا من هذا، وما حل بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث كمنوا لهم ببعض نواحي وادي حنين، فلما دخلوا انهالت عليهم النبال كأنها مطر يزعزعه الريح، فانهزموا، ولم يبقَ مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا نحو عشرة رجال، هذا العدد الكبير ما يقرب من اثني عشر ألف رجل، حتى قال قائلهم: "لن نغلب اليوم من قلة" **{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا}** [التوبة: ٢٥].

فالمقصود: أن هذا القتال الذي كان مع هوازن لا شك أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لقوا فيه ما لقوا.

وبعضهم يقول: ثقيف، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حاصرهم بعد هوازن، مع فلول المنهزمين من هوازن، ولم يُفتح عليهم حتى رجعوا، وسَمّى هنا من قال بهذا، ومن قال بهذا.

وبعض السلف قال بهما معًا، يعني أنهم ثقيف وهوازن، كما جاء عن سعيد بن جبير -رحمه الله-.

ومن قائل: إنهم بنو حنيفة، وهؤلاء لا شك أنهم أحدثوا في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة، وقُتل من القراء فقط، وهم أهل العلم، قتل ما يقرب من سبعين، كما هو معروف في خبر عمر مع أبي بكر -رضي الله عنه- في جمع القرآن الأول، الذي كان في الصحف، وكان سببه ما حصل: "استحر القتل بالقراء" وكانوا قد تضعضعوا وهزموا في البداية في اليمامة، حتى أعاد خالد -رضي الله عنه- تنظيم الجيش، فقدم أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان الأعراب قد اختلطوا بالناس -وهم كثر في جيش المسلمين- فأخرهم، وقدم أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصفوف المقدمة، فحصل الفتح والنصر، فهذا قال به هؤلاء الذين ذكرهم ابن كثير، وقال به غيرهم كمقاتل، وهذا الذي حكاه الواحدي عن أكثر المفسرين، أي قول الجمهور: إن هؤلاء هم أهل اليمامة.

والرابع: أنهم أهل فارس، وهنا نقله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعن عطاء، وهذا قال به عطاء بن أبي رباح، وعطاء بن يسار، كلاهما، وعكرمة في إحدى الروايات عنه، كما يقول هنا، وغير هؤلاء كابن أبي ليلى.

والمعروف المشهور عند العرب: أن الفرس كانوا أشداء في القتال، في غاية الشدة، ولذلك في أخبار فتح فارس يعني بعد حروب الردة لما كان عمر -رضي الله تعالى عنه- يسير الجيوش بعد وفاة أبي بكر -رضي الله عنه- كان الناس يذهبون إلى الشام؛ لما ورد فيها من الفضائل، ولا يكاد يذهب إلى فارس أحد، فكان يحثهم عمر -رضي الله عنه- على الخروج إلى فارس، حتى إننا نجد في الأخبار المدونة في التاريخ والسيرة أنه لربما كان الذين يذهبون إلى فارس عامتهم ممن وقع لهم شيء يرون أنه لا يكفره إلا القتل في سبيل الله، يعني ممن ارتدوا عن الإسلام، ثم رجعوا، ولذلك تجد أمثال عمر بن معد يكرب -فارس العرب- وغيره ذهبوا إلى فارس، وهذا هو المشهور عند العرب، فغير فضائل الشام الفرس كانوا أهل صلابة وشدة في الحرب.

ومن هنا قال بعضهم: إنهم الفرس.

يقول: وقال كعب الأحبار: هم الروم، وهذا قال به أيضًا الحسن في إحدى الروايات عنه، ورواية أيضًا عن ابن أبي ليلى وعطاء، والحسن في رواية، وعطاء في رواية أيضًا قال: هم فارس والروم معًا، هذا بعد حروب الردة.

وبالمناسبة العداء الشديد بين الفرس والروم في التاريخ، والحروب التي بينهم كانت قبل الإسلام، اجتمعوا في معركة واحدة إبان الفتوح الإسلامية لبلاد فارس، يعني في بعض المعارك اجتمع الفرس والروم في معركة واحدة يقاتلون المسلمين، وهذا لا يعرف في التاريخ قط أنه حصل، ولكن إذا كان العدو هم أهل الإسلام فإن هؤلاء يتناسون العداوات التي بينهم.

وعن مجاهد: هم أهل الأوثان.

وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، يعني أن الله -تبارك وتعالى- لم يبين هذا المبهم، ولا داعي ولا حاجة للتكلف في تحديد هؤلاء؛ لأنه ليس عندنا في ذلك دليل.

ومن ثم اختلف هؤلاء الأئمة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، ومن ثم فإن تحديد مثل هذا يحتاج إلى دليل.

قال: "وبهذا قال ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير".

ولا شك أن هذا أسلم، وهؤلاء الذين ذُكروا مثل أهل اليمامة وهوازن، وكل هؤلاء، وكذا فارس هم بهذه الصفة.

وبعضهم جمع بين بعض هؤلاء الكفار، كما جاء عن قتادة: أنهم هوازن وغطفان يوم حنين.

قال تعالى: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح: ١٦] **يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرًّا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار.**

قوله: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} يقول ابن كثير: فلا يزال ذلك مستمراً عليهم -يعني القتال أو الجهاد-، ولكم النصرة عليهم {أَوْ يُسْلِمُونَ} فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار.

بمعنى أنه يحصل واحد من هذين الأمرين: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} على هذا المعنى ليس معناه: أنكم تقاتلونهم إلى أن يسلموا، يعني أن يكون الخيار الوحيد هو الإسلام، تقاتلونهم إلى أن يسلموا، وهذا الذي قاله ابن كثير، وهو اختيار ابن جرير.

والزجاج يقول: التقدير: أو هم يسلمون، وهذا واضح في أن ذلك يكون بهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير وابن جرير.

وفي قراءة لأبيٍّ -وهي قراءة غير متواترة-: "تقاتلونهم أو يسلموا" أي حتى يسلموا، على هذه القراءة: المعنى أن يستمر القتال إلى أن يدخلوا في الإسلام، وهذا غير المعنى الأول.

المعنى الأول: أنه يقع لهم أحد أمرين: إما القتال، وإما أنهم يدخلون في الإسلام اختيارًا وطواعية، فلا يحصل لهم قتال أصلا.

وهؤلاء الذين يُقاتَلون وليس ثمة خيار غير الإسلام هم -كما هو معلوم- أهل الإشراك، فإن أهل الكتاب تؤخذ منهم الجزية، وأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- الجزية من مجوس "هجر".

و"هجر" هي الأرض الممتدة على ساحل البحرين، كل ذلك يقال له: "هجر".

فهؤلاء أخذ منهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الجزية، فيلحقون بأهل الكتاب من هذه الحيثية.

فالذين قالوا: إنهم هوازن أو ثقيف أو أهل اليمامة، أو نحو ذلك، مما يستندون إليه هذا، أنه لم تذكر الجزية، بينما أهل الكتاب قال فيهم الله -عز وجل-: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

ثم قال -عز وجل-: {فَإِن تُطِيعُوا} أي: تستجيبوا، وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا الذي عليكم فيه: {يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ} يعني زمن الحديبية، حيث دُعيتم فتخلفتم: {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

قوله: {يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا} أطلق هذا الأجر الحسن، ومن ثم فإن بعض أهل العلم أيضا حمله على معنى كذلك، يعني قالوا: في الدنيا وفي الآخرة، أن الله لم يقيد ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فيكون الأجر الحسن يشمل هذا وهذا، ففي الدنيا الغنيمة والظفر والنصر، وفي الآخرة الجنة.

وبعض أهل العلم نظر إلى أجلى صور الأجر الحسن، فقال: الأجر الحسن هو الجنة، كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

ولكن هذا الاطلاق، لو أنه بقي معه المعنى على الإطلاق، أو قال هذا قائل لكان له وجه -والله أعلم- أن ذلك يشمل الدنيا والآخرة.

{وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ} يعني حيث دُعوا فتخلفوا زمن الحديبية.

{يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} العذاب الأليم هنا أيضا مطلق، فيشمل القتل والأسر، ويشمل أيضا عذاب الآخرة.

ابن جرير -رحمه الله- لما حمل "الأجر الحسن" على الجنة، حمل هذا أيضا على عذاب النار.

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم، كالعمى والعرج المستمر، وعارض، كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة، حتى يبرأ، ثم قال –تبارك وتعالى– مرغبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ} أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش {يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم.

قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ١٨ – ١٩].

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى البخاري عن طارق عن عبد الرحمن –رضي الله عنه– قال: "انطلقت حاجًّا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟..

عبد الرحمن البجلي، وهو من التابعين، هنا قال: "–رضي الله عنه–"، لا إشكال من جهة المعنى كما سبق في الكلام على الأذكار أنه يقال لغير الصحابي: "–رضي الله عنه–"، لكن الذي جرى عليه العمل أن الصحابة يُترضى عنهم، ويترحم على من بعدهم، ذكرت هذا حتى لا يتوهم أن هذا صحابي.

قال: انطلقت حاجًّا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان في من بايع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم؟"[١].

مضى الكلام على هذا مختصرًا، ففي هذا السياق ما يوضح أنهم يصلون، يعني اتخذوا هذا مسجدًا، وأنه في ذلك الزمان الشريف تجد من الناس إسراع إلى مثل هذه الانحرافات، يعني الآن إذا كان هذا في ذلك الوقت، فإبراز معالم السيرة النبوية بالصور هذا يذكي هذا الجانب ويحييه، هذا بالإضافة إلى وجود ملحوظات علمية على بعض الكتب التي صدرت وبطبعات فاخرة، ورق مصقول، وبالألوان، وأحجام مغرية، في وضوحها وسهولة قراءتها، وضخامتها، والغلاف الذي يزينها، ويجذب القراء ممن لا شأن له بالقراءة، والصور أكثر من المكتوب، أصلا هذه المواقع ليست محل اتفاق، وبعض هؤلاء الذين كتبوا عولوا على بعض من كتب في المعالم الجغرافية، كناحية فقط تعريفية، مثل الذين يكتبون في معاجم البلدان، ولكن كتابتهم عليها استدراكات مع ما فيها من الفائدة، لكن عليها استدراكات كثيرة، بمعنى أنها ليست محل ثقة عند أهل العلم، فجاء بعض هؤلاء ممن لا يميز أصلا هذه القضايا، وإنما هو طارئ عليها، فوقع في يده بعض هذه الكتب، فبنى عليها، وذهب وصور هذه الأماكن، أشجار وأحجار وآبار، وغير ذلك، فنشرت، والناس قد لا يتصورون كيف

---

١ – رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٦٣).

يتهافتون على مثل هذه الأشياء، من غير شيء، ومن سكن المدينة أو مكة، رأى من هذا عجائب، هؤلاء الذين ينقلون الحجاج يذهبون بهم إلى أماكن لا تخطر على البال، يذهبون إلى بئر، يقولون: هذا بئر عثمان -رضي الله عنه-، التي اشتراها، يذهبون بالحجاج زرافاتٍ ووحدانًا، أيام الحج، كأن هذا من أعمال النسك! يذهبون ويستقون من هذا الماء، ويأخذون معهم مياهًا، ويذهبون بها إلى بلادهم، في الصحراء، بعيد، بئر صغيرة جدًّا في حجمها واتساعها، وفي عمقها، لا تصل إلى أربعة أمتار، بل أقل، ويأتيها هؤلاء الأعاجم، يتواردون عليها، يقولون: هذه بئر الناقة، التي شربت منها ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا يُعرف لهذا أصل، بل وجد من يبتز هؤلاء الحجاج، ويأخذ أموالهم بالباطل، ويذهبون بهم إلى حجر، ومكان صغير في جبل أحد، أشبه بالغار، وهو ليس بغار، ويجلسون عليه بالتتابع، يصطفون طوابير، هؤلاء المساكين، وبعشرة ريالات: هذا المكان الذي استراح به النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، اجلس، اجلس، لحظة، ثم يقول: قم، الثاني، الثالث، بهذه الطريقة، وهؤلاء طبعًا يصدقون؛ لأن هؤلاء حينما يأتون هم لا يتصورون الذي أمامهم إلا واحدًا من أحفاد النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو أحفاد أبي بكر، أو أحفاد عمر، هكذا يتصورون، وأن هؤلاء لا يتطرق إليهم الخلل ولا الخطأ، فضلا عن الكذب، لأن هؤلاء قد عرفوا هذه الأماكن معرفة تامة، وتوارثوها عن آبائهم، وهم ينظرون إلى تقاسيم وجوههم كأنما ينظرون إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا شيء مشاهد، فتصوير هذه المشاهد، أو إقامة معارض لمعالم السيرة النبوية التي تشرح الغزوات هذا لا إشكال فيه، لكن التي تذكر مثل هذه الأماكن والآبار والمياه والأشجار التي استظل تحتها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو جلس أو استراح فيها، أو الثياب و السلاح، ونحو هذا، مع أنه لا يثبت شيء إطلاقًا مما قيل إنه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا من شعر، ولا من سلاح، ولا من ثياب، أو نعل، كل ذلك لا يثبت فيه شيء، ولذلك في باب التبرك حينما تذكر هذه المسألة هي مجرد مسألة نظرية؛ لأن كل هذه الأشياء المنسوبة في بعض المعارض والمتاحف لا يثبت منها شيء، لا يصح منها شيء.

وهذه -وللأسف- تجد سوقًا رائجة، فلا يُفرح بمثل هذه الكتب، لهذه الأسباب:

أولا: من الجانب العلمي والدقة.

ثانيا: من ناحية الآثار التي توصل إليها؛ لأن هذا يؤدي إلى تتبع هذه الآثار، وتعظيم هذه الآثار، إذا كان في ذلك الزمان هناك من اتخذ هذه الشجرة التي قطعها عمر -رضي الله عنه- مسجدًا، في زمن عمر يتسارعون إليها، فكيف بزماننا هذا بأن تعطي لهؤلاء مواقع إضافية، وبقاعًا، من أجل أن يذهبوا، وأن يتطلبوها، وهؤلاء يستلذون المشاق في هذا، تجد كبارًا في السن قد انحنت ظهورهم، وعجائز، تجدهم في غاية النشاط في هذه الأماكن، ويصعد إلى أماكن مرتفعة، وجبال وصخور، ووعر، وهو يستلذ وهو يزاول هذه الأعمال، نشاط غير عادي، والله المستعان.

"غار حراء" في الحج تجد خطًّا لربما يتوهم الناظر -وأنا من هؤلاء الذين توهموا هذا- في الظهيرة أنه خط في الجبل، من صبغ، قد صُبغ جزء، أو خط في الجبل لسبب أو لآخر، ثم يتبين بعد مدة أن جزءًا من هذا الخط تغير لونه إلى الصفرة، فلما تأملت تبين أن هذا بشر حجاج يمشون، عليهم إحرامات، هؤلاء البيض، ثم جاءت طائفة لا أدري نساء، أو نحو ذلك، صفر، يلبسون ثيابًا صفراء، فكانوا يمثلون جزءًا من هذا الخط في

الجبل، مع أن الصعود إلى الجبل يحتاج ما لا يقل عن ساعتين، حتى تصل إلى الغار، وفي الظهيرة، وفي وقت كان الحج في الصيف في شدة الحر، ويصعدون! ما عندهم مشكلة، ويصلون ركعتين في الغار.

إذا كان "جبل عرفات" هناك من يطوفون به، ويصلون إليه، بصرف النظر عن القبلة، ويربطون الخرق، ويكتبون الكتابات، ويضعون الأوراق، وأنا بنفسي سمعت من يدعو: "يا جبل عرفات أودعتك أهلي ومالي" ووراءه جمع من الناس يرددون، هؤلاء بحاجة إلى من يبرز لهم المعالم التي مر بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في طريقه للهجرة، أو في غزواته، استراح تحت هذه الشجرة، وجلس تحت هذا الجبل؟!.

وقوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة {فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ} وهي الطمأنينة {عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} وهو ما أجرى الله -عز وجل- على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر، وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}** قال: "أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة" كل هذه أقوال للسلف -رضي الله تعالى عنهم.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: **{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}** يعني من الصدق.

وهذا الذي عليه عامة أهل العلم: أن المقصود أنه علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء بالبيعة، والاستجابة لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وإن كان ثمة من قال: إنه علم ما في قلوبهم من التردد والمخاوف **{فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}** فثبتوا، علم ما في قلوبهم من الاضطراب، لكن هذا بعيد، وإنما هذا أشبه بما يكون بأنه كافأهم وجازاهم بإنزال السكينة عليهم، لمّا علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، فيكون ذلك منقبة لهم.

{فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ} قال: هي الطمأنينة، والسكينة مضى الكلام عليها وأنها تقال: للطمأنينة، وهي مأخوذة من السكون، والنفس إذا حصل لها السكون -سكنت- حصلت لها الطمأنينة، بخلاف الخوف والاضطراب، فإن ذلك يزعجها ويقلقها، فهنا حصل لهم سكون إلى الحق أورث الثبات والإقدام حين البأس.

أما قوله هنا: "والسمع والطاعة" فهذا جاء من كلام بعض السلف أيضًا، كما جاء عن قتادة وابن جريج، قالوا: من الرضا بأمر البيعة على أن لا يفروا كما سبق.

والمعنى الآخر الذي أشرت إليه منقول عن مقاتل: أنه علم ما في قلوبهم من كراهة البيعة على الموت، **{فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}**.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- معلقًا على قوله تعالى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** "علم الله -سبحانه وتعالى- ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمةً منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجها آخر: وهو أنه -سبحانه- علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير، ومحبته ومحبة رسوله، فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر: أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه من إنزال للسكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها"[٢].

هنا حمل على المعنيين.

وكلام مقاتل -رحمه الله-: علم ما في قلوبهم من كراهة البيعة على الموت، وهنا: الاضطراب.

والذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم: علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء.

هنا قال: **{وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** فسره هنا بصلح الحديبية، وما حصل من جراء ذلك من الخير المتصل بفتح خيبر، وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد؛ لأن هذا الفتح القريب من أهل العلم من قال: إنه خيبر، كما جاء عن قتادة وابن أبي ليلى، باعتبار أن هذا أقرب فتح كان للمسلمين بعد صلح الحديبية، فوصفه الله بأنه قريب، فكان أقرب ما يلي الصلح هو خيبر.

وبعضهم قال: إنه فتح مكة "أثابهم فتحًا قريبًا" باعتبار أن الفتح إذا أطلق يتبادر إلى الذهن فتح مكة، ولكن الحديبية -كما هو معلوم- كانت في السنة السادسة، وفتح مكة كان في السنة الثامنة، وخيبر كانت في السنة السابعة، فابن كثير -رحمه الله- حمله على هذا المعنى الذي هو صلح الحديبية نفسه، وما اتصل به من فتح خيبر ومكة، فيكون جمعَ بين الأقوال الثلاثة في هذه العبارة، هذا من مزايا هذا التفسير؛ لأن صلح الحديبية يقال له: "فتح" كما هو معلوم في أول السورة: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [الفتح: ١] وهذا هو صلح الحديبية.

قال: **{وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا}** هذه المغانم الكثيرة الفتح، صلح الحديبية ليس فيه مغانم، ولكن قوله تعالى: **{وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا}** لا يقتضي أن ذلك في هذا الفتح نفسه إذا فسر بصلح الحديبية، لكن على كلام ابن كثير: أنه صلح الحديبية وما انجر معه، وترتب عليه، وكان من آثاره، مثل فتح خيبر، فإن من أهل العلم من فسر هذه المغانم التي يأخذونها بغنائم خيبر، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- باعتبار أنها أقرب غنائم حصلوا عليها بعد صلح الحديبية، فيحمل ذلك عليها عنده.

قال تعالى: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح: ٢٠ - ٢٤].

قال مجاهد في قوله تعالى: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} هي جميع المغانم إلى اليوم، {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} يعني فتح خيبر.

وروى العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} يعني صلح الحديبية.

---

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/١٥٥).

قوله -تبارك وتعالى-: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً} هل هذه المغانم هي المذكورة قبله في قوله: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا}؟.

الأقرب أنها ليست كذلك، هذه أخرى، ومن ثم هنا فسرها ابن كثير -رحمه الله- بأنها جميع ما يحصل للمسلمين إلى اليوم مما وعدهم الله -تبارك وتعالى-.

وابن جرير -رحمه الله- فسرها بقريب من هذا، بأنه ما يحصل لهم من الغنائم بعد ذلك، سوى خيبر؛ لأنه اعتبر أن غنائم خيبر هي المفسرة بالآية التي قبلها، فهذه مغانم أخرى زائدة على خيبر، هذا الذي فسره ابن جرير {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} يعني فتح خيبر، وهذا قال به مجاهد، ونقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه صلح الحديبية، هذا باعتبار ما سبق: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}.

{وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم.

يعني الآن: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} قال ابن كثير: "لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال".

هؤلاء الأعداء من هم؟

قريش، فحصل كف الأيدي، هذا الموضع في الصلح، وهذه الآيات تتحدث عما جرى في صلح الحديبية.

وبعضهم يقول: هذا يراد به خيبر، وأنصار اليهود، ولكن الآية لا تتحدث عن هذا، -والله تعالى أعلم-.

{فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} لكن من فسره بأنه خيبر: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} يعني خيبر {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} يعني أعوان هؤلاء اليهود، وحلفاء هؤلاء اليهود، فلم ينصروهم، ويقاتلوكم.

وعلى كل حال هذا قال به بعض أهل العلم.

وذهب بعض السلف كقتادة إلى أن المراد اليهود الذين كانوا في المدينة، بمعنى أنه كف أيديهم عن ذراريكم وأهليكم بالمدينة بعد أن خرجتم إلى الحديبية.

وهذا الذي اختاره ابن جرير، باعتبار أن كف أيدي المشركين في الحديبية عند ابن جرير -رحمه الله- هو المذكور في الآيات التي بعده: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ}.

لكن ذكرنا: أن هذا إنما هو في أولئك الثمانين الذين أرادوا غِرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأُخذوا، تمكن منهم المسلمون، ثم عفا النبي -صلى الله عليه وسلم- عنهم، وليس ذلك في كل المشركين، ومن ثم لا إشكال بأن يحمل هذا على قريش؛ لأنهم خرجوا بمن استطاعوا أن يخرجوه معهم لقتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعهم العُوذ المطافيل، ليقاتلوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويردوه عن البيت.

هذا الذي كان، وكما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} هذه الحمية على اختلاف تفسيرها كما سيأتي -إن شاء الله- أن من المعاني المشهورة: أنها تلك الحمية والنخوة التي أخذتهم أن لا يدخل المسلمون مكة، وأن لا يعتمروا، مع أنهم جاءوا محرمين، ومعهم الهدي قد قلدوه، فردوهم؛ لئلا يتحدث الناس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد دخلها ضغطة، يعني قهرًا وبالقوة، أنهم في مقام ضعف، هذه حمية الجاهلية في بعض تفسيراتها في هذا الوضع.

وكفُّ الأيدي: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} إذا فسر بخيبر يكون لأهل خيبر، وإذا فسر بالحديبية يكون كف أيدي المشركين.

ولو قال قائل: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ} في كف المشركين عن قتالكم لمّا جاءوا للقتال، فوقع الصلح، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد شاور أصحابه لما بلغه أنهم قد خرجوا ليصدوه عن البيت، وأنهم عزموا على قتاله، فشاور أصحابه -صلى الله عليه وسلم-: هل يمضي للبيت فيقاتل من صده، أو أنه يميل إلى ذراري هؤلاء، فيقطع بذلك طرفًا من المشركين، وعنقًا من أعداء الله -تبارك وتعالى-، فيبقى هؤلاء موتورين محزونين؟، وأن أبا بكر -رضي الله عنه- أشار عليه بأن يمضي للبيت، ويقاتل من صده.

تأمل، كان القتال مطروحًا بقوة، والمشركون خرجوا على هذا، فهنا الله -عز وجل- يقول: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ}.

{وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} أي: يعتبرون بذلك، فإن الله -تعالى- حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر، كما قال -عز وجل-: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [البقرة: ٢١٦].

{وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله -صلى الله عليه وسلم.

قوله: {وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} قال: أي: يعتبرون بذلك، فإن الله -تعالى- حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما اختاره الله -تبارك وتعالى-؛ لأنهم كانوا كرهوا الصلح، والرجوع عن مكة وهذه الاشتراطاتَ التي كانت في الصلح، فكانت خيرًا لهم في العاقبة، فهنا "اللام": {وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} هنا يحتمل أنها تتعلق بمحذوف يقدر بعده: أي فعل ما فعل من التعجيل، عجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم لتكون آية.

أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل، وكف لتنتفعوا بذلك، وتسلموا، وتكون آية للمؤمنين.

وابن جرير -رحمه الله- يذكر معنى يرجع إلى ما ذكره ابن كثير -رحم الله الجميع-: {وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}: وليكون كفه أيديهم عن عيالهم؛ لأنه فسرها بأن المقصود اليهود، كف الله أيديهم عن ذراري المسلمين لما خرج المسلمون إلى الحديبية، فهو يقول: إن كف الله -تبارك وتعالى- هؤلاء اليهود عن عيال المسلمين؛ ليكون هذا الكف آية يعلمون بها أن الله -تبارك وتعالى- هو الحافظ لهم، والمتولي لهم، وأن بيده النفع والضر، فيتوكلون عليه، ويعولون عليه، فهو الذي حفظهم من هذا كله، من غير عمل منهم، هذا قاله ابن جرير -رحمه الله.

يعني يكون لهم آية أن الحافظ هو الله، فما عليهم إلا أن يمتثلوا أمره، ويستجيبوا لرسوله -صلى الله عليه وسلم-، والله يحفظهم ويكلؤهم، ويرعاهم.

{وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} قال: أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله -صلى الله عليه وسلم-، يعني يزيدكم بتلك الآية هدى، {وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} ابن جرير يقول: يسددكم طريقًا

واضحًا لا اعوجاج فيه، هذا الصراط المستقيم، فيبينه لكم، وهو أن تتقوه في أموركم كلها، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطكم حياطته إياكم في مسيركم إلى مكة في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعله بكم، يعني: **{وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}** بمعنى تحصل لكم هذه الهداية؛ لأن الحافظ هو الله -تبارك وتعالى-، وأنكم إذا أطعتم أمره فإنه لا يضيع أولياءه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} أي: وغنيمة أخرى، وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها، فقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هي خيبر، وهذا على قوله في قوله -عز وجل-: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ}: إنها صلح الحديبية، وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم.

وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وروى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا} قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

قوله -تبارك وتعالى- في هذه العِدة التي وعدهم الله -عز وجل- بها: **{وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}** هنا بالتأكيد هذا لا يمكن أن يحمل على صلح الحديبية، فإذا كان جرى الخلاف في الفتح الذي قبله هل هو صلح الحديبية أو لا، فهنا هذه الأخرى ماهي؟

فمن فسر صلح الحديبية بأنه الفتح القريب فإن هذه التي قال: **{لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}** بعضهم يقول: خيبر، وهذا منقول عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبه قال جماعة من التابعين، مثل الضحاك وابن زيد، ولا يقال هنا: إن الله مكنهم من خيبر، فكيف يقال: **{لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}**؟، إذ المعني بجهدكم وإمكاناتكم.

والقول الآخر: أنها فتح مكة، وقال به قتادة، وهذا الذي اختاره ابن جرير، بأي اعتبار اختار أنه فتح مكة، وليس خيبر مثلا؟.

ابن جرير كعادته -رحمه الله- يعلل حينما يرجح، يبين وجه الترجيح، لماذا كان هذا أرجح من القول الآخر؟ ابن جرير يقول: لأنه لا يقال لقوم: لم يقدروا على هذه المدينة إلا إذا كانوا طلبوها وراموها، فلم يحصل مرادهم، يعني جرت محاولة، ولكنها لم تُجدِ، فابن جرير يقول: قبل نزول هذه الآية لم تكن خيبر مستهدفة، لم يرسل إليها النبي -صلى الله عليه وسلم- سرية، ولا أرسل إليها جيشًا، ولا سار لها بنفسه -عليه الصلاة والسلام-، فلم تجرِ محاولات قبل ذلك ومزاولات لفتح خيبر، فابن جرير يقول: مثل هذا التعبير: **{لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}** معناه أنه كانت هناك محاولة، ولكن لم يتحقق من جرائها المطلوب، هذه المحاولة ابن جرير يقول: إنما كانت في دخول مكة لمّا ذهبوا، وجرى صلح الحديبية، وهذا له وجه.

والقول بأنها خيبر باعتبار أن ذلك لم يكن بإمكاناتكم، وقدراتكم منفردة، وإنما أمكنكم الله -عز وجل- منهم، فألقى في قلوبهم الرعب، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يدخل خيبر في غلس الصبح، لما رأوه وهم قد خرجوا بمساحيهم، فقالوا: محمد والله، محمد والخميس، يعني خرج الفلاحون وهم غارُّون، يعني ما توقعوا نزول النبي -صلى الله عليه وسلم- بساحتهم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بأرض قوم فساء صباح المنذرين))[٣].

فتهافت هؤلاء ولم يكن ثمة مقاومة، فالله هو الذي أقدرهم عليهم، هذا كله يحتمل، المقصود أنه في مثل هذه المواضع التي لم يحدد الله -عز وجل- فيها شيئًا، وإنما بقيت هكذا مبهمة: الجزم والقطع بأنه هذا، أو ذاك، هذا يحتاج إلى دليل، فيحتمل أن يكون فتح خيبر، ويحتمل أن يكون فتح مكة، وهكذا الفتح القريب فإنه أيضًا يحتمل.

هنا لاحظ: أن بعضهم يقول: هي فارس والروم، كما جاء عن ابن أبي ليلى والحسن وآخرين كمقاتل وقول مجاهد: كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، بمعنى أن ذلك يصدق على كل الفتوحات التي حصلت للمسلمين بعد ذلك؛ لأن الله لم يحدد، هذا مبنَى هذا القول: **{لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}** قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

وعكرمة يقول: هي حنين.

لكن قوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}** ما معناه؟

بعض أصحاب المعاني كالفراء يقول: **{أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}** لكم حتى تفتحوها وتأخذوها، يعني أعدها لكم وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه، فهي لا تفوتكم، يعني كأنها شيء مدخر لكم، ثابت حاصل لا محالة، **{قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}** بعضهم يقول: أحاط علمًا أنها ستكون لكم، وهذا لا ينافي ما قبله، فهذه التي أحاط بها وعجل لهم شيئًا قبلها ماهي؟ فالذين قالوا: هو فتح مكة، قالوا: أحاط الله بها فهي حاصلة لكم، والظفر متحقق، والفتح كائن، لكن عَجَّل لكم هذه: صلح الحديبية، أو فتح خيبر، أو أن هذه التي **{لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}** هي خيبر، لكن عجل لكم هذه أي الصلح؛ ليكون موطئًا لفتح خيبر.

وبعضهم يقول: حنين، كما جاء عن عكرمة كما سبق.

وقوله تعالى: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} يقول الله -عز وجل- مبشرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فارًّا مدبرًا {لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} لأنهم محاربون لله ولرسوله، ولحزبه المؤمنين.

{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ}، **{قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** هنا يقول: لو ناجزكم المشركون، وأطلقه ابن كثير -رحمه الله-، وقيده بعض السلف هنا بمشركي قريش يوم الحديبية؛ أنهم لو قاتلوكم لولوا الأدبار؛ لأنهم

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤١٩٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، رقم (١٣٦٥).

خرجوا يريدون القتال، وهم قد أخذتهم تلك الحمية: {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} هذا قال به قتادة من السلف، أن المقصود كفار قريش، {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ} فتكون "أل" هذه عهدية.

وبعضهم يقول: إن هؤلاء هم أسد وغطفان الذين أرادوا أن ينصروا اليهود في خيبر، فإنه لو نهضت هممهم لذلك وخرجوا لنصر اليهود وقاتلوكم فإنهم سيولون الأدبار؛ لأن القضية كانت محسومة، وعلى هذا، أو الذي قبله -يعني أن المقصود قريش، أو أنهم أسد وغطفان- يكون هذا في معين، لو قاتلوكم لولوا الأدبار، وعلى المعنى الآخر الذي مشى عليه ابن كثير في ظاهر كلامه: لو قاتلكم الذين كفروا، مطلقا، أن الكفار لا يستطيعون أن يحققوا، وأن يحرزوا نصرًا على المسلمين في ميدان المعركة، فإن الله ينصر أولياءه {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١].

وكذلك قال الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات:١٧٣] فهذه الغلبة -كما سبق- يدخل فيها المعنيان: الغلبة في ميدان المعركة، باعتبار أن هذا هو الغالب في الاستعمال في القرآن، ويدخل فيها الغلبة في ميدان الحجة.

قد يقول قائل: انهزم المسلمون يوم أحد ومعهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وانهزموا بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- في وقائع، فكيف قال الله -عز وجل- على هذا المعنى: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ}؟، والجواب أن هذا إذا كانوا محققين لما أمرهم الله -عز وجل- به، ولهذا أجابهم الله -عز وجل- في يوم أحد: {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا}؟ {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥].

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه: ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصلٍ إلا ونصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل الله -تعالى- يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}.

هذا امتنان من الله -تعالى- على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى، فأوثقوهم بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنظر إليهم، فقال: ((أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه)) قال: وفي ذلك أنزل الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم} الآية[٤].

وروى الإمام أحمد عن أنس عن مالك -رضي الله عنه- قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غِرة

---

٤ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فدعا عليهم، فأُخذوا، قال عفان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}[٥]، ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما.

قوله -تبارك وتعالى-: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ} هنا نصب {سُنَّةَ اللَّهِ} يمكن أن يكون على المصدرية، فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، ومحل هذا الموضع في قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم} كما سبق أن ذلك في أولئك الذين راموا غِرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح: ٢٥-٢٦].

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي هم الكفار دون غيرهم.

{وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر.

{وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه -إن شاء الله تعالى-.

قوله -تبارك وتعالى-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} كلام ابن كثير -رحمه الله- يقول: "أي هم الكفار دون غيرهم"، هو لا يقصد الحصر، لكن المقصود أن مثل هذا اللون من التعبير يُشعر بكمال الاتصاف، يعني أن هؤلاء هم الذين حصّلوا الوصف الكامل من الكفر، يعني هؤلاء هم الكفار حقيقة، وليس المقصود أن هؤلاء هم الكفار فقط، وغيرهم ليسوا بكفار، هو لا يعني هذا إطلاقاً.

قال: {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} فهنا هذا الموضع: {وَالْهَدْيَ} معطوف على الضمير المنصوب في قوله: {وَصَدُّوكُمْ} على قول بعض أهل العلم، صدوكم وصدوا معكم الهدي.

وقوله -تبارك وتعالى-: {مَعْكُوفًا} بعض أهل العلم يقول: إنه منصوب على الحال، أي والحال أنه كذلك، يعني صدوكم وصدوا الهدي حال كونه {مَعْكُوفًا} أي محبوسًا، وأصل هذه المادة عند كثير من أهل العلم يرجع إلى هذا المعنى: الحبس، ومنه الاعتكاف، العبادة المعروفة، وهي بمعنى حبس المكلف نفسه في المسجد بقصد التعبد، هذا الذي يعبر به الفقهاء: لزوم المسجد للعبادة، فهذا حبس للنفس، مع أن من أهل العلم من فسر ذلك أعني هذا الموضع: {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا} أي مجموعًا، {مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} "أن يبلغ محله": يحتمل أن يكون مفعولا لأجله، أي كراهة أن يبلغ محله، وما محله؟

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله -تعالى-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ} الآية، رقم (١٨٠٨).

الحرم، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- على حد الحرم، الحديبية كما سبق أن بعضها في الحل وبعضها في الحرم.

وقوله -عز وجل-: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ} أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه، ويخفيه خيفة على أنفسهم من قومهم لكنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن من بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: {لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ} أي: إثم وغرامة {بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء} أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

تأمل هذا التعليل الذي تأخر فيه دخول المسلمين إلى مكة، خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه الهدي ومعه هؤلاء الذين قد تشوفوا غاية التشوف إلى دخول مكة، والطواف بالبيت، وأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الرؤيا التي رآها، حتى صار ذلك يقيناً عندهم أنهم داخلوه قطعًا في هذه السفرة، ومع ذلك يُصدون عن البيت، والله -تبارك وتعالى- يذكر هذا التعليل في هذا الموضع، حصل كف الأيدي، فلم يحصل قتال، ولم يدخلها المسلمون بالقوة لما صدهم هؤلاء، وقد تهيئوا للقتال، وأخذتهم حمية الجاهلية، فالله -تبارك وتعالى- يذكر هذا التعليل في هذا المقام: **{وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ}** هؤلاء كانوا من أهل الإيمان من المستضعفين في مكة، الذين لا يستطيعون الهجرة، فإذا دخل المسلمون فإن هؤلاء قد يقع لهم مكروه، إذا دخلها المسلمون بالقوة؛ لأن هؤلاء لا يميزهم المسلمون، فيقع عليهم شيء من القتل بغير قصد، فهنا: **{فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** فأخر هذا الدخول، وكان هذا هو التعليل، فانظر إلى هذا، ومعهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعه هؤلاء الأصحاب الأطهار الأخيار، وهم محرمون، وقد قلدوا هديهم، وفي غاية التطلع إلى دخول مكة، فيُؤخَّروا من أجل هذا، فأين هذا ممن يقتل هؤلاء الذين يستهدفهم بالقتل بطريقة لا تميز بين البشر والحجر والدواب؟!.

وإذا سئل عن هذا في هؤلاء من المسلمين قال: "من كان مسلمًا عجلنا به إلى الجنة، ومن كان كافرًا عجلنا به إلى النار"، وهكذا بكل سهولة، ليكون هذا العمل الذي عمل يقتل به العشرات، وأحيانا قد يقتل به المئات، وبعض هؤلاء ممن لا شأن لهم ممن كانوا يجتازون في الطريق، أو وقفوا لحاجة، وأحياناً في جامع من أجل أن يستهدف زعيمًا من الزعماء وشيوخ القبائل، ونحو ذلك، أو خطيبًا لا يلائمهم، أو نحو ذلك -نسأل الله العافية-، يفجر المسجد بكامله، وإذا نوقش هؤلاء قالوا: من كان من أهل الإيمان عجلنا به إلى الجنة، ومن كان من أعداء الله عجلنا به إلى النار، بكل بساطة، انظر إلى القرآن وما يقرره: **{وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ}** ما قالوا: نعجل بهم إلى الجنة، ثم ماذا إذا قتلوا هؤلاء، وحصل هذا الخير العظيم بفتح مكة، ودخول مكة، وتخليص مكة من الأوثان والشرك، قارن هذا مع ما تشاهد، ليس ما ينقله الخصوم، وإنما مما يفتخر به هؤلاء الذين يعملون هذه الأعمال، ويصورونها ويتبجحون بذلك، ويجادلون ويعادون كل من خالفهم، بل يستحلون عرضه ودمه وماله، نسأل الله العافية.

أين الفقه؟!

وهذه الهدايات القرآنية، والاحتراز للدماء، هذا من غير قصد، فكيف إذا كان القتل بقصد؟.

هؤلاء لا يُعلم بهم ممن يخفي إيمانه خوفاً من الكفار، هو في ظاهر الأمر من المشركين، ما يقال: هذا له حكمهم، وهو بين أظهرهم، ولماذا لم يظهر دينه، ويعتز بإيمانه؟، مثل هؤلاء الضعفاء لا مكان لهم، هذا ما قاله ربنا -تبارك وتعالى-، وهو أرحم الراحمين.

فأقول: نحن بحاجة إلى أن نتعلم ونتفقه، وأن ندرس مثل هذه السور والآيات، ليعرف الإنسان ما يأتي وما يذر، فلا يكون في زعمه مجاهداً وهو محارب لله ورسوله، ولأهل الإيمان؛ لأن مثل هذا -نسأل الله العافية- يخرج ليس بمعرة فقط، إنما يخرج بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، قد يموت ميتة السوء، ويحصل له سوء المنظر والمنقلب، نسأل الله العافية.

يقول: {لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ} يحتمل أن يكون قوله: {أَن تَطَئُوهُمْ} بدلا من {رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ}، {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ} أو أن يكون بدلا من مفعول: {تَعْلَمُوهُمْ} يعني "الهاء" {تَعْلَمُوهُمْ} ماذا؟

{أَن تَطَئُوهُمْ} هذا يعني {أَن تَطَئُوهُمْ} بماذا؟

بالقتل والإيقاع بهم، فإن هذا يعبر به عن الإيقاع بالغير بقتل وإذلال، وأسر وغلبة.

{أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم} أي: من جهتهم {مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، {مَّعَرَّةٌ} هنا قال: الإثم والغرامة.

الإثم معروف وتأمل هنا: {بِغَيْرِ عِلْمٍ} ابن كثير يقول: إثم، والغرامة المقصود بها: الكفارة {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} [النساء: ٩٢] ولا يقال هنا: الدية لماذا؟.

{فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} تأمل: إذا كان بين المؤمنين وبينهم ميثاق فهنا الكفارة والدية، وإذا كان من قوم أعداء فما يعطون ما يتقوون به، وإنما يبقى حق الله -عز وجل-، وليس لأولياء المقتول، فهنا الكفارة: تحرير رقبة مؤمنة، هذه هي الغرامة التي أشار إليها ابن كثير -رحمه الله-، وتفسيره بالإثم قال به جماعة، وكذلك تفسيره بالغرامة -يعني الكفارة- قال به آخرون، وممن فسر المعرة بالإثم جماعة من أهل اللغة، مثل الزجاج في معاني القرآن، وكذلك قال به الجوهري، وقال به من السلف ابن زيد -رحم الله الجميع.

والذين قالوا: المقصود كفارة القتل الخطأ -وهذا قال به مقاتل والكلبي، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، باعتبار أن هذا بغير علم، وهو الذي رتب الله عليه ذلك في قوله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} الآية التي أشرت إليها آنفاً.

وبعضهم يفسر المعرة بالمشقة، بما يلزمهم في قتلهم من الكفارة، فبينهما ملازمة، يعني من قال: إنها الكفارة، أو قال: المشقة.

وبعض أهل العلم يرجع ذلك إلى معنى مما يحصل من الأدواء للدواب، أو لبعض الدواب كالجرب الذي يقع للإبل، عرار، {فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، تأمل: {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء} هنا يقول: أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

هنا ابن كثير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، وهذه من عادته -رحمه الله- يجمع بين الأقوال ما أمكن، فهذا الذي قاله أولا: ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، هذا قال به بعض أهل العلم: {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء} يعني لم يأذن بدخولكم مكة، وكف أيديكم، لماذا؟

{لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء} من هم؟

بعض أهل العلم يقول: هم أهل الإيمان الذين في مكة، هؤلاء حصل لهم الفرج والمخرج بعد ذلك لما فتح النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة، وأمن أهلها.

والمعنى الثاني -وهو الذي اختاره ابن جرير-: أنه {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء} يعني من هؤلاء الكفار، فيدخلون الإسلام، بسبب هذا التأخير، يعني صارت لهم مهلة، وهذا الصلح اختلط به الناس، وسمع بعضهم من بعض، فدخل بعض المشركين في الإسلام قبل أن يدخلها النبي -صلى الله عليه وسلم- فاتحًا، فابن كثير هنا جمع بين المعنيين، فكان من رحمته -تبارك وتعالى- أن خلص هؤلاء المستضعفين من بين أظهر المشركين.

وكذلك أيضًا منَّ على بعض هؤلاء من أهل الإشراك فدخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء}.

ثم قال -تبارك وتعالى-: {لَوْ تَزَيَّلُوا} أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم: {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعًا.

{لَوْ تَزَيَّلُوا} يعني لو تميزوا، بعضهم يعبر بالافتراق، وهو يرجع إلى هذا المعنى، يعني يحصل تمايز، تأمل: هذا هو المانع: لو تميزوا عن الكفار لعذب الله -عز وجل- هؤلاء الكفار بالقتل الذريع والاستئصال، عذبهم عذابا أليما، أباد خضراءهم، لكن السبب هو وجود نفر من المؤمنين لا تعلمون عنهم، ولا تدرون عن حالهم من أنهم كانوا يخفون الإيمان، وهم معذورون بذلك؛ لأنهم من المستضعفين، فكان ذلك مانعًا لهذه المدة -لسنتين-، تأخير فتح مكة وهو أعظم فتح في التاريخ يؤخر سنتين على شأن أفراد، مجموعة قليلة، الله أعلم بعددهم، أخر هذه المدة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والأصنام تحيط بالكعبة، وتقام مظاهر الشرك وأدناسه وأرجاسه في أطهر بقعة، ويُصد عنها أشرف الخلق لسنتين من أجل هؤلاء، يحتاج الإنسان أن يتبصر فيما يأتي ويذر، والله المستعان.

وقوله -عز وجل-: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، {فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}.

قال مجاهد: {كَلِمَةَ التَّقْوَى} الإخلاص.

وقال عطاء بن أبي رباح: هي "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ} الحمية هي الأنفة.
يقول: وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، يعني عند الصلح، قالو: لا نعرف الرحمن الرحيم، قالوا: اكتب باسمك اللهم، كما كانوا يكتبون، وقد مضى في بعض المناسبات في الكلام على البسملة والفاتحة: أن المشركين كانوا يعرفون الرحمن، وأن ذلك جاء في أشعارهم في الجاهلية، ولكن إنما قالوا ذلك مكابرة وعنادًا، وإلا فقد وُجد حتى في أسمائهم في الجاهلية من تسمى بـــ"عبد الرحمن".
وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ} المراد: بـــ{حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} في هذا المقام كما ذكرنا: الأنفة، لكن بأي مظهر تجلت؟ ما الذي أفرزته هذه الحمية؟
بعضهم هنا يقول: "حينما أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله".
ابن كثير هنا جمع بين قولين؛ لأن من السلف من قال: إن المقصود بذلك هو إباؤهم أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم.
وبعضهم يقول: هو إباؤهم أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه رسول الله، وقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، ولما صددناك عن البيت، فبعضهم يقول هذا، وبعضهم يقول هذا، وكل ذلك يحتمل، وكله وقع في مقام واحد، وهو من حمية الجاهلية، ولهذا جمع بينهما ابن كثير -رحمه الله-، ووافقه ابن جرير، مع زيادة ثالثة، وهي منعهم من دخول مكة، منعوه من دخول مكة بأي اعتبار؟ لما امتنع سهيل بن عمرو من كتابة ذلك، ومن الموافقة عليه، إلا العام المقبل، يأتون عُمارًا بشروط، كل ذلك من أجل ماذا؟
من أجل ألا تتحدث العرب أنه دخلها -صلى الله عليه وسلم- ومن معه ضغطة، يعني بقوة وغلبة وقهر للمشركين، فدخلها بالرغم من أنوفهم، فيكونون في موقف ضعف، فأخذتهم حمية الجاهلية، قالوا: ما تدخل هذا العام، إذا قلنا: لا يعني لا، حتى تعرف العرب أننا نستطيع أن نقول: لا لأي أحد، هذه حمية الجاهلية، البيت لا يُصد عنه، النبي -صلى الله عليه وسلم- محرم ومعه الهدي، ومع ذلك منعوه، فكل ذلك من حمية الجاهلية.
وبعضهم فسره بهذا الأخير، يعني بمنع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الدخول؛ لئلا تتحدث العرب.
وبعضهم فسره ببعض ما سبق، كما قال الزهري: إن ذلك بالامتناع عن الإقرار برسالته -صلى الله عليه وسلم-، فكل هذه واقعة، وكلها من حمية الجاهلية، ولهذا فإن ابن كثير -رحمه الله- في حمله على المعنيين، وابن جرير في حمله على الثلاثة -وهو أحسن- كل ذلك يدخل في المعنى والله تعالى أعلم.
فتجلت حمية الجاهلية عندهم بهذه التصرفات المشينة.
{فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، {سَكِينَتَهُ} بينا أن السكينة من السكون، وهي الطمأنينة، الوقار الذي يورث الصبر والثبات، بهذا فسره ابن جرير.
{وَأَلْزَمَهُمْ} ماذا؟
{كَلِمَةَ التَّقْوَى}.
ماهي {كَلِمَةَ التَّقْوَى}؟

يقول: قال مجاهد: الإخلاص.

وقال عطاء: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وقال المسور: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

والجمهور يقولون: {كَلِمَةَ التَّقْوَى} هي: لا إله إلا الله، فهي التي يُتقى بها عذاب الله -عز وجل.

هذه {كَلِمَةَ التَّقْوَى} من حقق هذه الكلمة، ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله))، فهم يتقون بأس الله -عز وجل- وعذابه في الدنيا والآخرة بهذه الكلمة ((فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام))[٦].

فالجمهور يقولون: هي لا إله إلا الله.

ابن جرير يقول: يتقون بها النار؛ لأنه جاء في النصوص: أنه يحرم على النار، وكذلك أيضًا دلت النصوص على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل لا إله إلا الله.

وبعضهم زاد: الشهادة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالرسالة، محمد رسول الله.

وجاء عن بعض السلف كالزهري أن {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} يعني: بسم الله الرحمن الرحيم، عند كتابة الصلح، رفضها المشركون، فأقر بها أهل الإيمان: {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} تُخص بذلك.

وبعضهم يقول: {كَلِمَةَ التَّقْوَى} هي الوفاء بالعهد، فكان النقض من المشركين.

والظاهر -والله أعلم- والذي عليه عامة أهل العلم أن {كَلِمَةَ التَّقْوَى}: لا إله إلا الله.

ألزمهم {كَلِمَةَ التَّقْوَى} بخلاف أهل الإشراك.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- معلقاً على قوله تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}: "لمّا كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة، وهذه الكلمة جندًا من جند الله، أيد بها رسوله والمؤمنين، في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه، وألسنتهم، وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد، ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها، وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله"[٧].

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: "لا إله إلا الله"، رقم (٢٠).

٧ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/١٥٥).

وقال -رحمه الله- معلقاً على قوله تعالى: **{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}**: "و**{كَلِمَةَ التَّقْوَى}** هي: الكلمة التي يُتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: "لا إله إلا الله" ثم كل كلمة يُتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري، تابع لإرادتهم واختيارهم، فهو الملزم وهم الملتزمون"[٨].

روى البخاري -رحمه الله- في صحيحه في كتاب الشروط عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه قالا: "خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى كان بـــ"غدير الأشطاط" أتاه عينه، قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، ومانعوك، فقال: ((أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟))[٩].

وفي لفظ: "أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم؟"[١٠].

"حتى كان بـــ"غدير الأشطاط" هذا ماء بقرب عسفان.

"قلد الهدي" معروف، يأخذون من لحاء شجر الحرم مثلا، أو نحو ذلك، أو يضعون نعلا، أو أي شيء، ثم يقلدون الهدي، ليعرف أن هذا يساق إلى البيت، وأنه هدي.

وهنا: "الأحابيش" فيه كلام كثير في المراد بهم، لكن ليس المقصود بالأحابيش أنهم من أهل الحبشة، ليس هذا هو المراد، وإنما هم بطون من العرب تجمعت في عهد معين، وحلف معين، فقيل لهم: الأحابيش، ويحددهم بعضهم: ببني الهون بن خزيمة بن مدركة، وهؤلاء هم الذين يقال لهم: القاريون، وبنو الحارث من كنانة، هؤلاء كلهم من العرب الأقحاح، وبنو عبد مناة، وبنو المصطلق من خزاعة، هؤلاء قيل: إنهم تحالفوا مع قريش تحت جبل يقال له: "حبشي، قريب من مكة، أسفل مكة، قيل: سمو بذلك لتحبّشهم، يعني تجمعهم. التحبُّش هو التجمع، والحباشة الجماعة، ليسوا من قبيلة واحدة، الأحابيش.

"فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقًا من المشركين، وإلا تركناهم محزونين".

تأمل أن القتال كان أمرًا قريبًا، فكف الله أيدي هؤلاء وأيدي هؤلاء.

وفي لفظ: "فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين، وإن نجوا يكن عنقًا قطعها الله -عز وجل-، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟

فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: يا رسول الله، خرجتَ عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربًا، فتوجه لهم فمن صدنا عنه قاتلناه.

---

٨ - شفاء العليل، ص (٦٠).

٩ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٧٨).

١٠ - رواه أحمد (١٨٩٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (٨٧٨٩)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح".

وفي لفظ: فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فروحوا إذن)).

وفي لفظ: ((فامضوا على اسم الله تعالى)) حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين)) فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هم بقَتَرة الجيش.

يعني غبار الجيش.

فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل.

هذه كلمة تزجر بها الإبل.

فألحت، فقالوا: خلأت القصواء.

يعني انقطعت من طول السير وكلت، فحرنت، ما تنهض أبدًا.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله -تعالى- إلا أعطيتهم إياها)) ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء.

"ثمد" يعني هو الماء القليل الذي لا ماد له، ولهذا بعضهم يقول: حوض، أو حفرة فيها ماء قليل، لكن الآبار الكثيرة التي في الحديبية فيها ماء ماد هذه أخذها المشركون، ونزلوا عليها، وبعضهم يقول: إن الثمد هو ما يظهر في الشتاء من الماء، ثم يختفي في الصيف.

يتبرضه الناس.

يعني يأخذونه قليلا قليلا، لا يكفي لشيء.

فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العطش، فانتزع -صلى الله عليه وسلم- من كنانته سهمًا فأمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيبةَ نُصحِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أهل تهامة.

"عَيبةَ نُصحِ" يعني موضع الأمان على سره، يعني كأنه شبه الصدر الذي هو مستودع السر بالعيبة التي هي مستودع الثياب، يعني لا يخفون عليه شيئًا، يخبرونه بما يجري، بما يرون، بما يشاهدون، بما يحصل.

فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعدادًا مياه الحديبية.

أبناء لؤي: أربعة، لؤي من الأجداد لقريش بينه وبين عام الفيل أكثر من خمسمائة سنة، فهذا من أجدادهم، وأولاده أربعة منهم: كعب، وعامر اللذين تنتسب إليهما قريش التي في الحرم، وهم الخلص من قريش الذين لا شك في أنسابهم، وهناك من ينتسب إلى قريش فمنهم في الظواهر وخارج الحرم، فهؤلاء ينتسبون إلى ولديه الآخريْن، معنى هذا إذا كان هنا يقول لهم: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي فهو يعني ويقصد أن أهل الحرم أي قريشًا قد خرجت إليه.

معهم العُوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

نزلوا أعدادَ مياه الحديبية، أعداد: جمع عد، وهو الماء الذي لا انقطاع له، نزلوا على هذه المياه الكثيرة، معهم العُوذ المطافيل، العوذ جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل التي معها الأطفال، يعني العوذ المطافيل: النوق التي معها أولادها، في وقت نتاج الإبل تكون معها الأولاد الصغار، وتكون ذوات لبن، أخرجوا معهم هذه، يعني أنهم في حال من الترهل.

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهرْ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمُّوا)) "جمُّوا" يعني حصل لهم إجمام، يعني عادت لهم قوتهم من جديد **((وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره))** يعني السالفة: هي صفحة العنق، والإنسان له سالفتان، فانفرادها عن الجسد معنى ذلك الموت، فارقت الحياة، يقول: سأصبر على ذلك، سأستمر عليه إلى آخر نفس.

قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشًا، فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذَوُو الرأي منهم: هات ما سمعته، يقول: قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله –صلى الله عليه وسلم–، فقام عروة بن مسعود، فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أوَلستُ بالولد؟ قالوا: بلى.

يعني عروة بن مسعود هو ليس من قريش هو ثقفي، من ثقيف، فهو يقول: ألستم بالوالد؟، لأن أمه من قريش، وهي سبيعة بنت عبد شمس القرشية، فهم أجداده لأمه، وهو ولد لهم بهذا الاعتبار، أوَلستُ بالولد؟ يعني يقول: أنا غير متهم.

قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرتُ أهل عكاظ، فلما بلّحوا عليّ –بلّحوا عليّ يعني امتنعوا عن الإجابة– **جئتكم بأهلي وولدي، ومن أطاعني، قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– له نحوًا من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أيْ محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟، وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أوشابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك.**

يعني هنا يريد أن يقول: هذه معركةٌ المنتصر فيها خاسر، إن انتصرت عليهم فهؤلاء قومك لا فخر، وإن انتصروا عليك أرى معك أخلاطًا من الناس يتفرقون كل يذهب إلى قبيلته وقومه، وتبقى بعد ذلك وحيدًا، فهكذا قال: أوشابًا من الناس، يعني أخلاطًا من الناس، والأوباش قريب من هذا، الأوباش: الأخلاط من السفلة.

فقال له أبو بكر –رضي الله عنه–: امصُصْ بظرَ اللات، أنحن نفر وندعه؟

هذه العبارات هي عبارة صريحة وقوية، لكن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه، ولا تكنوا))[11]، يعني يقال له صراحة كذا، كما قال أبو بكر -رضي الله عنه-، يعني أن الفحش حرام، لا يجوز، ولم يكن -عليه الصلاة والسلام- فاحشاً ولا متفحشاً، ولكن من دعا بدعوى الجاهلية، تعزى بعزاء الجاهلية فإنه يقال له ذلك صراحة، فيكون هذا استثناء، كما تُستثنى بعض الأشياء، مثل مشية الخيلاء في الحرب، فهذا مستثنى.

أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أمَا والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

يعني هؤلاء على جاهليتهم وشركهم كانوا يعرفون لصاحب المعروف معروفه، فلا يقابلون شتمه بالشتم، استبقاءً لذلك المعروف الذي لم يكافئوه عليه، واليوم ترى من ينتسب إلى الإسلام، وينتسب لربما للجهاد، ولا يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ولا يعرف له سابقة، ولا يعرف له عهدًا، ولا يعرف له فضلا، ولا يعرف له إحسانًا سابقًا عليه، وعلى من معه، يرميه بالكفر وبالعظائم، ويتكلم عليه بكلام لا يقوله إطلاقًا من يحمل أدنى تربية، دعك مما يقال من الناس، اقرأ ما يكتبونه هم، كلام لا يمكن أن يصدر إلا ممن تربى في الحظائر -أعزكم الله-، لا يمكن أن يصدر من إنسان مؤمن، إنسان فيه خير، إنسان تلقى أدنى تربية، لغة شوارع بمعنى الكلمة، بكل استحقاق -نسأل الله العافية-، دعك مما يقال، ما عليك مما يقال من الخصوم، اقرأ ما يقوله هؤلاء أنفسهم -نسأل الله العافية-، بجدارة تربية شوارع، في غاية الوقاحة، لا يعرف لأحد سابقة، ولا فضلا، ولا علمًا، ولا دينًا، ولا جهادًا، ولا مروءة، ولا بذلًا، ولا نفقة في سبيل الله، يرمى بأعظم الأوصاف وأقبحها، ولا يعرف لكبير فضلا، نسأل الله العافية.

قال: وجعل يكلم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكلما كلمه وأخذ بلحيته -صلى الله عليه وسلم-، والمغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- قائم على رأس النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعه السيف، وعليه المِغْفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي -صلى الله عليه وسلم- ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

نعل السيف: يعني مؤخرته، يعني ما يكون في أسفل جفن السيف من فضة، أو حديد، أو نحو ذلك، يكون في أسفل الجفن معدن، فيضربه به.

فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، قال: أيْ غُدَر ألستُ أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أمّا الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)).

المغيرة بن شعبة ابن عم هذا الذي يفاوض النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو عروة بن مسعود، يقول: من هذا؟ قالوا له: هذا ابن عمك، فذكر ما ذكر، أنه يسعى في غدرته فيما ذكر مما وقع من المغيرة من قتل هؤلاء غدرًا في جاهليته، يعني قبل إسلامه، وأخذ الأموال، فماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ((أما

---

١١ - رواه أحمد، رقم (٢١٢٣٤)، وقال محققو المسند: "حديث حسن".

الإسلام فأقبل)) يعني حينما جاء مسلمًا ((وأما المال فلست منه في شيء)) يعني لا أتعرض له ولا آخذه؛ لأنه أخذ غدرًا، فتأمل: أُخذ من أهل الجاهلية، وأخذه رجل من أهل الجاهلية، ثم أسلم، أخذه في جاهليته، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يتبرأ من هذا المال، فكيف بأموال المسلمين؟ كيف بأموال المسلمين المجاهدين، أو التجار، أو غيرهم ممن يأتيهم أموال من هنا وهناك، فتؤخذ هذه الأموال تحت ذرائع واهية؟، هذا لا يحل، ولا يجوز بحال من الأحوال، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((وأما المال فلست منه في شيء)) لأنه أخذ بغير حق، ما قال: الإسلام يجبّ ما قبله، وهذا الرجل أسلم، وما أخذه من أموال أهل الجاهلية فإن ذلك لا يؤاخذ عليه، وهذا المال يبقى للمسلمين، فكيف بأموال المسلمين؟ أثناء المفاوضة، يعني لم يكتب الصلح بعد مع المشركين؛ لأن ذلك تحقق على يد سهيل بن عمرو لما جاء بعدُ؛ لأنه جاء أكثر من واحد يفاوض النبي -صلى الله عليه وسلم- في وقت الصلح، وهذه عرضًا مجاوبة بينه وبين ابن عمه، لما صار يضربه بنعل السيف، فيقول: هذا جزائي، أحسنت إليك، ولا زلت أسعى في غدرتك، وتفعل معي هذا؟! النبي -صلى الله عليه وسلم- يسمع المحاورة بينهما، فيقول: ((أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)).

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.

يعني هذا لم يكن عادة لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا بصق تلقوا ذلك، وتبركوا به، مع أنه يتبرك بالأجزاء المنفصلة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا تبرك صحيح، لكن لم يكن عادة لهم، لكن في هذا المقام أرادوا أن يظهروا لرسول المشركين هذه الطاعة، وهذه المحبة، وأنهم يفدون النبي -صلى الله عليه وسلم- لاسيما أنهم تكلموا، وقالوا: ما نرى إلا أوشابًا، أو نحو ذلك مما تكلموا به، بهذا أرادوا أن يظهروا لهؤلاء للمشركين محبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنهم ليسوا كما قيل.

وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون النظر إليه، تعظيمًا له -صلى الله عليه وسلم-، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أيْ قوم -هذه النتيجة الآن، لما رأى التصرفات، انظر بماذا رجع؟- **فقال: أيْ قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر، والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا.**

"إن" هذه نافية، إن رأيت: يعني ما رأيت.

والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون النظر إليه، تعظيمًا له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، قالوا: ائته، فلما أشرف على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له)) فبُعثت، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدوا عن البيت.

هذا من فقه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعرفته بحال هؤلاء الذين يفاوضهم ((هذا رجل من قوم يعظمون البدن)) فاحفظوها له مقلدة -أي هديًا-، فلما رآها قال: مثل هؤلاء لا يمكن أن يُصدوا عن البيت، فكفاه ذلك عن تطويل الكلام.

فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا مكرز، وهو رجل فاجر)) فجعل يكلم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((قد سهل لكم من أمركم)).

تفاءل النبي -صلى الله عليه وسلم- باسمه "سهيل".

قال معمر: قال الزهري في حديثه: "فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- بعلي -رضي الله عنه- وقال: ((اكتب، اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم)) فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، قال المسلمون: والله ما نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب باسمك اللهم)) ثم قال: ((هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله)) فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني)).

تأمل! الآن علي -رضي الله عنه- لما كفره الخوارج، قالوا: إنه محا من اسمه إمرة المؤمنين، فهو أمير الكافرين، سار إلى المفاوضة مع أهل الشام في القصة المعروفة، فقالوا: محا نفسه من إمرة المؤمنين، فهو أمير الكافرين إذًا، فناقشهم ابن عباس، وناظرهم -رضي الله تعالى عنه-، هو ذكر لهم هذا، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- محا "محمد رسول الله"، وكتب "محمد بن عبد الله"، فهل صار بذلك مؤاخذاً -عليه الصلاة والسلام؟.

فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله)) قال الزهري: وذلك لقوله، والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله -تعالى- إلا أعطيتهم إياها، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به)) فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة.

هذه حمية الجاهلية أيضًا، ما يمكن، يعني قهرًا.

لكن ذلك من العام المقبل، فكتب، وقال سهيل: وعلى ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين -الرسف هو المشي الثقيل، كمشي المقيد- **فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه، أن ترده عليّ، فقال صلى الله عليه وسلم: ((إنا لم نقضِ الكتاب بعد)).**

يعني لم ينته بعدُ عقد الصلح.

فقال: إذًا والله لا أصالحك على شيء أبدًا، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((فأجزه لي)) قال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: ((بلى فافعل)) قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئتُ مسلمًا ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله –عز وجل–، قال عمر –رضي الله عنه–: فأتيت النبي –صلى الله عليه وسلم– فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: ((بلى)) قلت: أولسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: ((بلى)) قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: ((إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري)) قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: ((بلى، أفأخبرتك أننا نأتيه العام؟)) قلت: لا، قال –صلى الله عليه وسلم–: ((فإنك آتيه ومطوِّف به)) قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرْزِه.

هذا للإبل بمنزلة السرج للفرس، أو الركاب، بحيث إن الراكب يتمسك به.

فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به، قال الزهري: قال عمر –رضي الله عنه–: فعملت لذلك أعمالا.

تأمل! من أجل هذه المجادلة للنبي –صلى الله عليه وسلم– يعمل أعمالا ليكفر ذلك.

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأصحابه: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا)) قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال –صلى الله عليه وسلم– ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل –صلى الله عليه وسلم– على أم سلمة –رضي الله عنها– فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة –رضي الله عنها–: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج فلا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا –يعني من الزحام– **ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله –عز وجل–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} حتى بلغ: {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة: ١٠] فطلق عمر –رضي الله عنه– يومئذ امرأتين، كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.**

يعني هنا لاحظ أن أبا بكر –رضي الله عنه– كان جوابه كجواب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهذا يبين منزلة أبي بكر –رضي الله تعالى عنه–، وأنه كان في حال من الطمأنينة والثبات في هذا المقام العظيم، وهنا أيضا حين أمرهم النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا)) هذا للوجوب، ما قام منهم رجل واحد، فإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يأمرهم ثم يدخل على أهله، ويشكو، فكيف بغيره؟!، وكما هو الحال اليوم وقد استوت الرءوس، من يستجيب لأهل العلم، ومن الذي يستجيب للناصحين؟، والله المستعان، ثم ما أشارت به أم سلمة –رضي الله عنها– يدل هذا على فضلها، ثم هؤلاء الصحابة –رضي الله عنهم– لما

رأوا ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم- عرفوا أن الأمر قد فرغ منه، نحر هديه، وحلق شعره، فأيسوا، كانوا يرجون لعله يحصل شيء، كل هذا: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ}.

ثم رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين.

تأمل: الآن في أبي جندل رده النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم، وأبو بصير الآن يرده النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم كفار، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يفي لهم، وهو أهل للوفاء -عليه الصلاة والسلام-، هذا مع الكفار، فكيف مع المسلمين؟، ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ} [الممتحنة: ١٠] هذا مضى في الكلام على سورة الممتحنة، وأن نصفها الثاني: {إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ} إذا قيل إن أولها -صدرها، نصفها الأول-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء} [الممتحنة: ١] إن هذه في قصة حاطب في فتح مكة، فيكون النصف الثاني -الذي نزل قبل صدر السورة- قطعًا نازلا في الحديبية، وإذا قيل: إن صدر السورة في قصة حاطب وإنها وقعت في صلح الحديبية فيكون بين النزولين -صدر السورة، وآخر السورة- وقت يسير، بنفس قضية الصلح، هذا صدرها نزل في قصة حاطب، وهذا نزل في المؤمنات المهاجرات، لما هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فما ردها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعض أهل العلم يقول: هذا غير داخل أصلا في الصلح؛ لأن العبارة التي كانت في الصلح: لا يأتين منا رجل، والنساء غير داخلات، وبعضهم يقول: هذا مما نسخ القرآنُ به السنة؛ لأن الصلح ثابت بالسنة، فهذا قرآن نسخ ما ثبت في السنة، نسخ رد النساء، مضى الكلام في هذا في تفسير سورة الممتحنة.

فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد.

القائل الآن هو صاحب السيف، يقول: أجل، إنه جيد، أنا جربته.

لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برَدَ.

يعني مات.

ففر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رآه: ((لقد رأى هذا ذعرًا)).

هو يعدو؛ لأن أبا بصير يشتد في طلبه، فهو دخل، فدخل أبو بصير بعده.

فلما انتهى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول.

لماذا يقول: مقتول؟ لأنه طلبه، ما تركه.

فجاء أبو بصير، فقال: يا رسول الله والله قد أوفى الله ذمتك، فقد رددتني إليهم ثم نجاني الله -تعالى- منهم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ويل أمه، مسعر حرب لو كان معه أحد)).

"مسعر حرب" يعني موقد حرب، أو مذكيها ومهيجها، لو كان معه أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير.

خلاص، هو الآن غير داخل تحت حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- من الناحية الإدارية، فكان يهاجم قوافل المشركين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- غير مسئول عنه، ومن ثم ليس على النبي -صلى الله عليه وسلم- سبيل بسبب هذا، هذا رجل فر منكم إلى سيف البحر، نحن لم نستقبله، فلا يحسب علينا.

فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن.

تأمل! الآن هم كانوا يقولون: ما يأتيك منا رجل إلا رددته، والآن يقولون: خذهم، يتوسلون إليه أن يأخذهم.

فأرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم، وأنزل الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ} حتى بلغ: {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا بـــ"بسم الله الرحمن الرحيم" وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك[١٢].

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخاري في التفسير عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفين.

يعني أهل الشام رفعوا المصاحف كما هو معلوم، وقالوا: ندعو إلى كتاب الله.

فقال رجل: ألم ترَ إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتُنا يوم الحديبية -يعني الصلح الذي كان بين النبي -صلى الله عليه وسلم- والمشركين- ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر -رضي الله عنه- فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا، فرجع متغيظًا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر -رضي الله عنه-، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفتح[١٣].

وقد رواه البخاري أيضًا في مواضع أخر، ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل عن سفيان بن سلمة عن سهل بن حنيف به، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس اتهموا الرأي، فلقد رأيتُني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أرد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره لرددته[١٤].

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١)، وفي كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٧٨)، وأحمد، رقم (١٨٩٢٨).

١٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: ١٨]، رقم (٤٨٤٤).

١٤ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٨٩)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم (١٧٨٥).

وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقرأها عليه.

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال: "إن قريشًا صالحوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي -رضي الله عنه-: ((اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم)) فقال سهيل: لا ندري ما "بسم الله الرحمن الرحيم"، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب من محمد رسول الله)) قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، لكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب من محمد بن عبد الله)) واشترطوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله)) رواه مسلم][15].

وروى أحمد أيضًا عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: "لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي -رضي الله عنه-: ((اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله)) قالو: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((امحُ يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسولك، امحُ يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله))، والله لرسول الله خير من علي، وقد محا لنفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة، أخرجتُ من هذه؟ -يعني الآن أجبت عنها بما فيه مقنع؟- **قالوا: نعم". [ورواه أبو داود بنحوه][16].**

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "نحر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية سبعين بدنة، فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها"[17].

هذه الرواية فيها ضعف في إسنادها.

---

١٥ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم (١٧٨٤)، وأحمد، رقم (١٣٨٢٧).

١٦ - رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب لباس الغليظ، رقم (٤٠٣٧)، وأحمد (٣١٨٧)، وقال محقق المسند: "إسناده حسن".

١٧ - رواه أحمد (٢٨٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (١٠١٥٩)، وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفتح من الآية (٢٧) إلى آخرها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [الفتح:٢٧-٢٨]، قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح، ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة -رضي الله عنهم- من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: ((بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟)) قال: لا، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فإنك آتيه، ومطوف به))[1]، وبهذا أجاب الصديق -رضي الله عنه- أيضًا حذو القذّة بالقذّة؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}، هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}**، قوله: **{بِالْحَقِّ}** صفة لمصدر محذوف، أي: صدق رسوله صدقًا متلبسًا بالحق، **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}** هذا جواب قسم مقدر، كأنه يقول: والله لتدخلن المسجد الحرام، فهذا جواب لهذا القسم المقدر المحذوف، المدلول عليه بهذه اللام الموطئة للقسم، ونحن عرفنا أن هذا موضع قسم؛ لوجود هذه اللام، وهذا الذي يسمونه بالقسم غير الصريح، ويسمونه القسم المضمر، أما الصريح فهو: ما ذكر فيه فعل القسم، أو المقسم به، أو هما معًا، إحدى هذه الصور الثلاث، فأما ذكرهما معاً فكقولك: أقسم بالله، وأما حذف فعل القسم وذكر المقسم به فكقولك: والله، وأما حذف المقسم به وذكر فعل القسم فكقولك: أقسم، وأحلف، وأما هنا في قوله: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}** فحذف فعل القسم، وكذلك أيضًا المقسم به.

قوله: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}**، يقول: "**هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء**"، يعني: أن الله -عز وجل- قال ذلك، أي: جاء التعليق بالمشيئة وهم داخلوه قطعًا، فالله -عز

١- أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: (٢٧٣١).

وجل- قد علم ذلك، وقدره، فالاستثناء بالمشيئة تارة يكون على سبيل التحقيق، كهذا، وتارة يكون على سبيل التعليق، تارة يكون تحقيقًا، وتارة يكون تعليقًا، ومسألة الاستثناء في الإيمان معروفة، إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وفيها كلام لأهل العلم معروف، ولو أجري عليه هذا التفصيل لكان أفضل، يقول مثلا: أنا مؤمن إن شاء الله، يعني: تحقيقًا، فهذا أفضل، وكذلك هذا يجري في الأيمان حينما يقول: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، فإن قصد بذلك التحقيق يحنث، وإن قصد بذلك التعليق على المشيئة فإنه لا يحنث، فهذا الاستثناء بالمشيئة جاء هنا على سبيل التحقيق، وهذا مثل ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في زيارة القبور: ((وإنا إن شاء الله بكم لاحقون))[٢]، وهو يعلم أنه لاحق بهم قطعًا، وقد قال طائفة من أهل العلم: إن الله -تبارك وتعالى- ذكر هذا الاستثناء بالمشيئة هنا؛ تعليما لعباده أنهم لا يقولون لشيء في المستقبل أنه حاصل، أو أنهم فاعلوه، أو نحو ذلك إلا أن يعلقوا ذلك بالمشيئة: **{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** [الكهف:٢٣-٢٤]، فقالوا: هذا من باب التعليم للعباد أن يقولوا ذلك، فالله -عز وجل- يعلَم ما سيكون، لكن كما قال الإمام ثعلب: ليعلّم عباده الاستثناء فيما لا يعلمون، وبعض أهل العلم حمل ذلك على محمل آخر، قال: إن الله تعالى علم أن بعض هؤلاء الذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقت صلح الحديبية، أن بعضهم يموت أثناء العام؛ لأن من ضمن الصلح والاتفاق أنهم يأتون مكة في العام القابل معتمرين، فمات بعض من شهد الحديبية، علم الله أن بعضًا لن يدرك، فقال: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}**، يعني: باعتبار أن البعض لا يدرك ذلك الدخول؛ لكونه قد مات، وبعضهم حمله على معنى آخر لا يخلو من بعد: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}**، أي: كما شاء الله، لكن هذا تكلف -والله تعالى أعلم-، وهكذا قول من قال: إنَّ "إنْ" هنا بمعنى: "إذ" أي: إذ شاء الله، وهذا كله لا حاجة إليه.

على كل حال، هذا يذكر على سبيل التحقيق، وتوجيه ذلك بأنه تعليم من الله لعباده، هذا أقرب هذه التوجيهات، والله تعالى أعلم.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله -عز وجل-: {آمِنِينَ} في حال دخولكم.

وقوله: {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}، حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ولا مقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال.

وكان منهم من حلق رأسه، ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رحم الله المحلقين))، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين))، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين))، وقالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((والمقصرين))، في الثالثة أو الرابعة[٣].

٢- أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم: (٩٧٤).

٣- أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، رقم: (١٧٢٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير، رقم: (١٣٠١).

هذا الحديث دليل على فضل الحلق، ومما يدل على فضل الحلق أيضًا هنا: أنه قدمه: **{مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}**، وذكرنا في مجالس التدبر وتطبيقاته في رمضان ما يدل على فضل الحلق على التقصير، وذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}** [البقرة:١٩٦]، فقوله: **{وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ}**، أي: ولا تقصروا، فالتقصير له حكم الحلق، ولكنه ذكر الحلق؛ لأنه أكمل، والله تعالى أعلم.

يقول: "**وقوله: {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}، حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين، ولا مقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال**"، أي: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}** حال كونكم **{مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}**، فهي: حال مقدرة باعتبار أن هذا لم يقع بعد.

قال -رحمه الله-: وقوله -سبحانه وتعالى-: {لَا تَخَافُونَ}، أثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رجع من الحديبية في ذي القعدة، رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عنوة، وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة: جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه -رضي الله عنهم-، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سماك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج -صلى الله عليه وسلم- إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون، فلما كان -صلى الله عليه وسلم- قريبًا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رُعِبُوا رعبًا شديدًا، وظنوا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها.

مر الظهران: وادٍ قريب من مكة، ويأجج أيضًا وادٍ قريب من مكة على طريق المدينة، يبعد عن مكة تقريبًا عشرة كيلو مترات، يعني: بعد التنعيم.

قال -رحمه الله تعالى-: وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((وما ذاك؟)) قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح، فقال -صلى الله عليه وسلم- ((لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج))، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رءوس الكفار من مكة؛ لئلا ينظروا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإلى أصحابه -رضي الله عنهم-؛ غيظًا وحنقًا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا على الطرق، وعلى البيوت، ينظرون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه، فدخلها -عليه الصلاة والسلام-، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه

إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقودها، وهو يقول:

بسم الذي لا دين إلا دينُه * بسم الذي محمدٌ رسولُه**

خلوا بني الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تأويله**

كما ضربناكم على تنزيله * ضربًا يزيل الهامَ عن مَقيله**

ويُذهل الخليل عن خليله * قد أنزل الرحمنُ في تنزيله**

في صحف تُتلى على رسوله * بأن خير القتل في سبيله**

يا رب إني مؤمن في قيله(٤)

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

وروى أحمد: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها سوءًا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرًّا، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- على ما قالوا، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا، أخرجاه في الصحيحين(٥)**.**

وفي لفظ: "قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم- صبيحة رابعة، يعني: من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم"(٦)**.**

وروى البخاري: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- لعامه الذي استأمن، قال: ((ارملوا))؛ ليُري المشركين قوتهم، والمشركون من قِبَل قُعَيقعان"(٧)**.**

"قعيقعان" هو: جبل، وهو جبل مشرف على مكة، يعني: الذي يشرف على الحرم، أو على الكعبة من الجبال: جبل أبي قبيس، كما هو معلوم، وهذا الجبل الآخر الذي هو: قعيقعان، ولكن الآن لا يسمى بهذا الاسم، بل كل ناحية منه تسمى باسم، مثل: السليمانية، ونحو ذلك، وهو شمال غرب الحرم، شمال غرب الكعبة.

٤- أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في عمرة القضية وتصديق الله -سبحانه وتعالى- وعده بدخولهم المسجد الحرام آمنين.

٥- أخرجه أحمد في المسند، رقم: (٢٦٣٩)، والبخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، رقم: (٤٢٥٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة، وفي الطواف الأول في الحج، رقم: (١٢٦٦).

٦- أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب: كيف كان بدء الرمل، رقم: (١٦٠٢).

٧- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، رقم: (٤٢٥٦).

قال -رحمه الله تعالى-: وأيضا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إنما سعى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالبيت وبالصفا والمروة؛ ليُري المشركين قوته[٨].

وروى البخاري أيضا: عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر -صلى الله عليه وسلم- من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثًا أمروه أن يخرج، فخرج -صلى الله عليه وسلم[٩].

وقوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}، أي: فعلم الله -عز وجل- من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم.

{فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ} أي: قبل دخولكم الذي وُعدتم به في رؤيا النبي -صلى الله عليه وسلم- {فَتْحًا قَرِيبًا}، وهو: الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

قوله: **{فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}** هذا الذي علِمَه الله -تبارك وتعالى- بعضهم يقول: هو وجود بعض المؤمنين من الرجال والنساء في مكة ممن لا يعلمهم المسلمون، فلو دخلوا لوقع عليهم القتل، ونحو ذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [الفتح:٢٥]، هكذا فسره بعض أهل العلم، وممن قال بذلك ابن جرير -رحمه الله-، قال تعالى: **{فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}**، ويحتمل غير هذا.

وهذا الفتح القريب هنا فسره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بصلح الحديبية، وهو قول الجمهور، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وكما سبق أنه هو المراد بقوله في أول السورة: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}**، أن المقصود به: صلح الحديبية، وقد قال الزهري -رحمه الله-: لا فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، باعتبار أنه كان مقدمة لفتح مكة، فبعد صلح الحديبية كثر المسلمون، يعني: كانوا في وقت صلح الحديبية ألفاً وأربعمائة تقريبًا، ولما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة فاتحًا قدم بعشرة آلاف، فهذا يدل على كثرة الداخلين في الإسلام بعد صلح الحديبية، وقد فتحت خيبر، وما فيها من الأموال الكثيرة، فكان ذلك توسعة للمسلمين، فكل هذا مما يدل على عظمة هذا الصلح، مع أن بعض أهل العلم كابن زيد والضحاك -كما سبق- فسروه بفتح خيبر، قالوا: هذا هو الفتح القريب الذي حصل بعد صلح الحديبية؛ لأنه بعد صلح الحديبية فتحت خيبر، ثم فتحت مكة، فكان فتح خيبر في السابعة، وفتح مكة في الثامنة، فقالوا: أقرب ما يلي الصلح هو فتح خيبر.

٨- أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة، رقم: (١٦٤٩).

٩- أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين، رقم: (٢٧٠١).

وأما ابن جرير -رحمه الله- فيقول: إن الله لم يحدد فتحًا بعينه في قوله: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}، فالذي حصل من هذه الفتوح القريبة بعد صلح الحديبية، من فتح خيبر وفتح مكة كل ذلك يدخل فيه، يعني: أنه يشمله، فحملها على هذا جميعًا؛ لأنه لا دليل على تحديد واحد منها، والله أعلم.

قال -رحمه الله-: ثم قال -تبارك وتعالى- مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق، وإنشاءاتها عدل.

قوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى} يعني: أرسل رسوله -صلى الله عليه وسلم- إرسالا متلبسًا بالهدى.

قال: قوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أي: على أهل جميع الأديان من سائر الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين.

{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} أي: أنه رسوله، وهو ناصره، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

يعني: أن الله -تبارك وتعالى- أرسل هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام- {بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، فهذه اللام: لام التعليل: أرسله؛ ليظهره على الدين كله، فهذا أمر لابد أن يتحقق، فهذه إرادة الله -عز وجل-، ولو كره الكافرون، وكذا لو كره المشركون، فهذا أمر لابد أن يقع، وأن يبلغ مداه، وأن يظهر هذا الدين على سائر الأديان، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يمنع من تحقق إرادة الله -جل جلاله وتقدست أسماؤه-، وما عمل هؤلاء إلا كما قال الله -عز وجل-: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [التوبة:٣٢]، فهذا الذي يريد أن يمنع دين الله -عز وجل- من الظهور والغلبة والانتشار هو كالذي ينفخ في الشمس من أجل أن يطفئها، بل أعظم من ذلك يريد أن يطفئ نور الله الذي هو أعظم من الشمس، فلو أن الأولين والآخرين اجتمعوا في صعيد واحد من أولهم إلى آخرهم، ومن إنسهم وجنهم، وجعلوا ينفخون على مخلوق وهو هذه الشمس ليطفئوها فإنهم مهما فعلوا، ومهما نفخوا فإن ذلك لا يحركها، ولا يؤثر فيها، ولا يبلغها إطلاقا، فكيف بنور الله -عز وجل-؟!، هذا أمر لا طاقة للبشر به.

قال -رحمه الله-: قال الله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩].

يخبر تعالى عن محمد -صلى الله عليه وسلم-: أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريب، فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه -رضي الله عنهم- فقال: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، كما قال -عز وجل-: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة:٥٤]، وهذه صفة المؤمنين: أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيمًا برًّا بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}

[التوبة:١٢٣]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[١٠]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا))، وشبك -صلى الله عليه وسلم- بين أصابعه[١١]، كلا الحديثين في الصحيح.

قال -تعالى- في صفة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، وقال في صفة القوم الذين يحبهم ويحبونه: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}، فالشدة على الكفار، والرحمة لأهل الإيمان هي من صفة أولياء الله -تبارك وتعالى-، وأهل القُرْبِ منه، وأما الذين يكونون في غاية اللين واللطف على الكفار، والشدة على أهل الإيمان فإن هذه من صفة المنافقين، وينبغي على المؤمن أن يحذر من الوقوع في مثل هذا، وأن ينظر في حاله وعمله، وأن يتحقق بهذه الأوصاف التي يحبها الله -تبارك وتعالى-، ويحب أهلها، وللأسف صرنا اليوم إلى حال آل فيه الشر والاختلاف بين المسلمين إلى أن أدى إلى فجور في الخصومة، وانتفى هذا الوصف: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} عن الكثيرين، فتجد أن بعض المسلمين هو أشد على المسلمين في فجوره وبغيه وصلَفه وأذاه من بعض الكافرين، نسأل الله العافية.

قال -رحمه الله-: وقوله -سبحانه وتعالى-: {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، وصفهم بكثرة العمل، وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله -عز وجل-، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله -عز وجل-، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال -جل وعلا-: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة:٧٢].

وقوله -جل جلاله-: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ} يعني: السمت الحسن، وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع، وقال بعضهم: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس، وقال أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه-: ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة))، ورواه أبو داود[١٢].

١٠- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: (٦٠١١)، وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: (٢٥٨٦).

١١- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا، رقم: (٦٠٢٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: (٢٥٨٥).

١٢- أخرجه أحمد في المسند، رقم: (٢٦٩٨)، وأبو داود، أول كتاب الأدب، باب في الوقار، رقم: (٤٧٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/٤٠١)، رقم: (١٩٩٣).

فالصحابة -رضي الله عنهم- خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك -رضي الله عنه-: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة -رضي الله عنهم- الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}** من أهل العلم من حمله على أنه في الدنيا، ومنهم من حمله على أن ذلك في الآخرة، أنهم يأتون يوم القيامة بصفة معينة، وهذا وذاك منهم من حمله على معنى خاص في موضع، ومنهم من حمله على ما هو أعم من ذلك، بمعنى: أن هذه السمة التي في وجوههم -هنا فيما أورده في هذا المختصر لا يوجد شيء منه-: أن ذلك هي العلامة التي تكون في الجبهة من أثر السجود، وإن كان هذا أحد الأقوال التي قيلت في ذلك، فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك إنما هو من أثر الاجتهاد في العبادة، فهم بين قيام طويل، وصيام، فيظهر أثر ذلك في وجوههم من تعب وصفرة العبادة، ونحو ذلك، قالوا: هذا المراد بقوله: **{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}** يعني: نَصَب العبادة، وأثر التعب فيها، هذا قاله الضحاك، وبعضهم يقول: إن مواضع السجود تكون أشد بياضًا في وجوههم يوم القيامة، فهو حمله على الآخرة، وهذا قال به محمد بن شهاب الزهري -رحمه الله-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن الغرة والتحجيل من أثر الوضوء[١٣]، وهنا من أثر السجود، فيكون هذا من قبيل الأنوار المضاعفة التي تكون من أثر الوضوء، ومن أثر السجود، وبعضهم يقول: ما يظهر عليهم في الدنيا من الخشوع والتواضع، وهكذا قول من قال: السمت الحسن، ما يظهر عليهم من سيما الإيمان والصلاح والتقوى وحسن السمت، فهذا كله لا شك أنه حلية لأهل الإيمان، وممن فسره بالتواضع والسمت مجاهد -رحمه الله-، وهذا قال به كثيرون، بعبارات مقاربة: أنه السمت الحسن والوقار والتواضع وبهاء الإيمان ونور الطاعة على وجه الإنسان، وهذا الذي أورد من أجله ما مضى: "**ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه**"؛ ولهذا قالوا: من طال قيامه بالليل حسن وجهه في النهار، فهذا الوجه مرآة تعكس ما في قلب الإنسان، وما هو عليه من الحال، والعمل، فيشرق الوجه ويضيء، وتظهر عليه أنوار الإيمان إذا كان على حال من التقوى، وكان الذي بينه وبين الله عامرًا، وإذا نقص فإنه ينقص من ذلك بحسبه، ومنهم من قال: هي العلامة التي تكون في الجبهة، وهذا مروي عن سعيد بن جبير، والإمام مالك -رحمهما الله.

وأما ابن جرير -رحمه الله- فذكر الوقار يعني: السمت الحسن، ولكنه عمم المعنى؛ ليشمل كل ذلك جميعًا، في الدنيا والآخرة، يعني: ما يظهر عليهم في الدنيا من الوقار والسمت الحسن وأنوار الإيمان والطاعة، وما يكون في الآخرة من الغرة والتحجيل والأنوار التي تكون في مواضع السجود، باعتبار أنه لا دليل يدل على تحديد شيء من ذلك، وممن قال: إنها إنارة الوجه سفيان الثوري -رحمه الله.

١٣- أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء، والغر المحجلون من آثار الوضوء، رقم: (١٣٦)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم: (٢٤٦).

فقوله: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ}، السيما هي: العلامة، قال: {مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، فهذا يدل على أن السجود من أبلغ العبادات، والصلاة من أبلغ العبادات أثرًا في استنارة الوجه في الدنيا والآخرة، فالذين لا يصلون –نسأل الله العافية– ما حالهم؟ وكيف يعرفهم النبي –صلى الله عليه وسلم– وهم لا يصلون، ولا يتوضئون؟ يعرف أمته بالغرة والتحجيل، فهؤلاء الذين لا يتوضئون ولا يصلون يعرفون بماذا؟!.

أما مجرد العلامة التي تكون في الجبهة وتظهر لبعض الناس فالذي يظهر –والله أعلم– أن هذا غير مراد، وإن كانت قد تكون داخلة في جملة هذا المعنى العام، لكن لا يحد ولا يخص ذلك بها، وأنت ترى هذه أحياناً ظاهرة في بعض أهل البدع الغليظة مع ظلمة الوجه، أحياناً لا تستطيع أن ترى أو تنظر إلى بعض وجوه هؤلاء من أصحاب البدع الغليظة، وعلامة السجود تلوح –نسأل الله العافية–، وهي لا تزيده إلا ظلمة، والله المستعان.

قال –رحمه الله تعالى–: وقد نوه الله –تبارك وتعالى– بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال –سبحانه وتعالى– هاهنا: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، ثم قال: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، أي: فراخه، {فَآزَرَهُ} أي: شده، {فَاسْتَغْلَظَ} أي: شب وطال، {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}، أي: فكذلك أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع؛ {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.

قوله –تبارك وتعالى–: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، المثل هنا بمعنى: الصفة، وقد مضى الكلام على معنى المثل، وأن بعض المواضع يمكن أن يفسر فيها بالصفة، فقوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} أي: وصفهم فيها، صفتهم فيها: أنهم بهذه المثابة: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، وأنهم: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، فيكون الكلام قد تناهى عند قوله: {فِي التَّوْرَاةِ} ونقف، فيكون هذا المثل في قوله: {مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} يرجع إلى ما قبله، من السيما، والشدة على الكفار، والرحمة بينهم، ثم يأتي ما بعده: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، هذا هو الأقرب، –والله تعالى أعلم–، وهذا الذي عليه كثير من المفسرين، وممن اختار هذا كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–: أن قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} يعود إلى ما سبق، وأما قوله: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ} فهو ما ذكر بعده: {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} إلى آخره، مع أن من أهل العلم من قال: إن ذلك يشمل ما ذكر، أي: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ} ويقف، ثم يستأنف: {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} إلى آخره، فيكون مثلهم في التوراة والإنجيل هو ما سبق، وهو قوله: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} وكذلك: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، هذا قال به بعض أهل العلم، ورده ابن جرير –رحمه الله–، وقال: لو أنه كما قالوا؛ لكان قوله: {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} بالعطف، يعني: لدخلت عليه الواو، أي: و{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}؛ ليكون عائداً على الصفة الأولى، فيكون و{كَزَرْعٍ} وصفاً آخر لهم، فالوصف الأول قوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}، ثم ذكر وصفاً آخر لهم قال: و{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، لو دخلت الواو، فيقول: لم تدخل الواو، فدل على أن قوله: {كَزَرْعٍ} يتعلق بما قبله من قوله: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}، فيكون المثل الثاني: {كَزَرْعٍ} هو: المثل المضروب لهم في الإنجيل.

قوله: **{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}** ما معنى شطأه؟ يعني: فراخه، فتنبت بجانبه صغيرة دقيقة، ثم ما تلبث أن تتكاثر وتقوى، ثم بعد ذلك تنمو وتشتد وتقوم على سوقها، هذا الذي فسره به أكثر أهل العلم، وقد قال الأخفش والكسائي: إن شطأه يعني: طرفه، **{أَخْرَجَ شَطْأَهُ}** أي: طرفه، وقال الفراء: أشطأ الزرع إذا خرج، والزجاج قال: **{أَخْرَجَ شَطْأَهُ}** أي: نباته، وقيل غير هذا، وهناك رواية أخرى عن الفراء أنه قال: السنبل، والجوهري يقول: شطْءُ الزرع والنبات هو: فراخه، كما ذكر ابن كثير –رحمه الله– هنا.

قوله: **{فَآزَرَهُ}** يعني: الزرع آزر الشطء وقواه، وبعضهم يقول عكس ذلك، وقد مضى الكلام على هذا مفصلا في الكلام على أمثال القرآن، ومعنى المثل: أن أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– في الابتداء كانوا قلة ضعفاء، فما لبثوا أن كثروا، وزاد عددهم، وتعاظمت قوتهم، حتى صاروا في حال يتغيظ منها أعداء الله –عز وجل–؛ لكثرتهم، وقوتهم، **{لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}**.

قوله: **{فَاسْتَغْلَظَ}** أي: شب وطال.

قوله: **{فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}**، الزراع يعجبهم، وهم أعلم بالزرع، وأخبر، وأدرى به، فيعرفون أن هذا هو حال مرضي جيد، ونماء صالح.

قال ابن كثير –رحمه الله–: "**فكذلك أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع؛ {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}**"، وكما يقول الله –عز وجل–: **{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [الأنفال:٢٦]، فهذا من نعمة الله –عز وجل– على هذه الأمة في صدرها وأولها، وهذه النعمة لاحقة لأوسطها وآخرها، فإن النعمة التي لأصولهم ومبدئهم لا شك أنها لاحقة لآخرهم إذا كانوا على طريقتهم.

قال سبحانه: **{لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}**، وهذا أمر لابد أن يتحقق، بمعنى: أن الكفار يغتاظون إذا رأوا أهل الإيمان يكثرون ويقوون، والأمة تعود إلى دينها، وإلى عبادة ربها –تبارك وتعالى–؛ لأنهم كما قال الله –عز وجل–: **{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [البقرة:١٢٠]، وقال تعالى: **{وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}** [البقرة:٢١٧].

قال –رحمه الله تعالى–: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك –رحمة الله عليه– في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة –رضي الله عنهم–، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة –رضي الله عنهم– فهو كافر؛ لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء –رضي الله عنهم– على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة –رضي الله عنهم–، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال –تبارك وتعالى–: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ} "مِن" هذه لبيان الجنس، {مَغْفِرَةً} أي: لذنوبهم، {وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي: ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف، ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة –رضي الله عنهم– فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُد أحدهم، ولا نصيفه))[١٤].

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة.

قوله: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ}**، يقول: "**مِن**" **هذه لبيان الجنس**"، يعني: لا يفهم من هذا أنها تبعيضية، باعتبار أن المراد به: أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن على القول الآخر: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}**، ليس فقط الصحابة، وإنما الأتباع الذين آمنوا به، فهؤلاء **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً}**، فيمكن هنا أن تكون تبعيضية بهذا الاعتبار، يعني: من أهل العلم من حمل ذلك على الصحابة فقط، وبعضهم قال: لا، بل من أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقوله: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}** يعني: من الأتباع معه، يعني: من الأتباع إلى يوم القيامة.

١٤- أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت متخذًا خليلا))، رقم: (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب تحريم سب الصحابة -رضي الله عنهم-، رقم: (٢٥٤٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجرات من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ١- ٣].

هذه آيات أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي: فيما أمركم به.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي: لأقوالكم {عَلِيمٌ} بنياتكم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من السور النازلة في المدينة، ومجمل آياتها يدور حول موضوع واحد، وهو: ما يتصل بالآداب والأخلاق.

التخلق والتأدب الذي ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان، بأدبهم مع الله -تبارك وتعالى-، وأدبهم مع رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأدبهم فيما يكون بينهم وبين الناس، أو مع أنفسهم، وما يرِد عليهم وينتابهم.

أدب في تلقي الأخبار.

وكذلك أيضًا ما يتعلق بالمواقف حينما يحصل القتال بين أهل الإيمان من الإصلاح.

وكذلك أيضًا ما يتعلق بالتواضع، وترك الفخر والسخرية بالناس، وما شابه ذلك من ترك الغيبة، وما في معناها.

كل هذه الآداب وما ذكر بعده مما قاله الله -عز وجل- عن الأعراب يرجع إلى هذه المعاني؛ تزكية النفوس، دعاوى الإيمان من غير أن يكون لذلك ما يصدقه في واقع الإنسان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} هذا الخطاب لأهل الإيمان،

فهذا يؤدب الله -عز وجل- به عباده المؤمنين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} انقادت قلوبهم وصدقوا، وأقروا وأذعنوا: **{لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** -صلى الله عليه وسلم.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذا الموضع: **أي: لا تسارعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور.**

فإن "قدّم" هذه: **{لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** يحتمل أن تكون لازمة، يعني كونوا تبعًا له لا تتقدموا بين يديه، فتكون لازمة لا تحتاج إلى مفعول مقدر، وهذا الذي ذهب إليه طوائف من أهل العلم، وممن اختاره الواحدي، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهو ظاهر كلام الحافظ ابن كثير: "**بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور**".

يعني: لا تتقدموا بين يديه.

الآخرون الذين يقولون: إنها متعدية تحتاج إلى مفعول يقولون: **{لَا تُقَدِّمُوا}** رأيًا **{لَا تُقَدِّمُوا}** اقتراحًا **{لَا تُقَدِّمُوا}** تشريعًا **{لَا تُقَدِّمُوا}** تحليلاً أو تحريمًا.

يعني هناك مقدر محذوف، فالذين قالوا: إنها متعدية قالوا: حُذف المتعلَّق، يعني المقدر المحذوف، والقاعدة عند الأصوليين -كما مضى في مناسبات متعددة-: "أن حذف المتعلَّق يفيد العموم".

فيكون: **{لَا تُقَدِّمُوا}** شيئًا من الأشياء، لا تقدموا تحليلاً، ولا تحريمًا، ولا تشريعًا، ولا اقتراحًا، ولا رأيًا، سواء كان ذلك في الأمور التشريعية، التحليل والتحريم إلى آخره، أو كان بالرأي، والاقتراح قبل أن يتكلم، كما حصل في قصة وفد تميم، فإنه قد ثبت في أسباب النزول في صحيح البخاري: أن هذه الآية نزلت بسبب ما جرى بين أبي بكر، وعمر -رضي الله تعالى عنهما- لما قدم وفد تميم، فقبل أن يتكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أبو بكر -رضي الله عنه- اقترح رجلاً أن يكون هو الذي يؤمّر على هؤلاء، واقترح عمر -رضي الله عنه- رجلاً آخر، ووقع بينهما مجاوبة، فأنزل الله -عز وجل-: **{لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**[1].

النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يؤمّر أحدًا عليهم، ولم يتكلم، فلا يُتقدم بين يديه برأي ولا اقتراح، قبل أن يتكلم.

وهذا لا شك أنه من الأدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم.

سبب النزول هذا يمكن أن يجري مع التفسير بأن "تقدم" هنا لازمة، يعني كونوا تبعًا له، فهذا يقتضي أن لا يُتقدم بين يديه إلى آخره برأي، فيكون ذلك من قبيل دلالة اللزوم.

ويمكن أن يكون سبب النزول هذا على معنى أنها متعدية: **{لَا تُقَدِّمُوا}** في اقتراح ورأي، ويدخل فيه من باب أولى التشريع، الحكم، أن يقول الإنسان، أن يتكلم بشيء، أن يحرم ما لم يحرمه الله، أو يحلل ما لم يحلله الله، أو يتكلم؛ كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لا تقولوا خلاف

---

١ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي}** [الحجرات:٢]، رقم (٤٨٤٥).

الكتاب والسنة، وهكذا ما جاء عن قتادة من قول بعضهم: لو أنزل في كذا وكذا، كأنه يقترح أن تنزل آيات في أمر لم تنزل فيه الآيات، وهكذا..

ولا زال هذا إلى اليوم، يعني قبل أيام أحدهم يسأل عن قول بعضهم: لو كان الوحي متصلاً -يعني لم ينقطع- لنزلت آيات في كذا وكذا، من الوقائع والأحداث الجارية.

هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وما يدريه أن الله ينزل في ذلك؟.

فهذا لا يصح، ولا يُجترأ على الله -تبارك وتعالى- بهذه الطريقة.

هذا الأدب لا زالت الأمة عليه في عصر الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، ولكن وقع الإخلال بذلك كثيرًا لما دخلت العلوم الكلامية، فمن نظر في كتب المتكلمين، والمسائل التي يجادلون فيها، وجد الجرأة التامة في هذا الباب، فتجد أنهم يتكلمون بجرأة على الله -تبارك وتعالى-، لا يستطيع الإنسان أن يتفوه بها على سبيل النقل في مجادلاتهم ومخاصماتهم، وردودهم ومناقشاتهم، وافتراضاتهم، فهذا كله من التقدم بين يدي الله ورسوله.

ومن أقبح التقدم بين يدي الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-: تقديم العقل والرأي على الوحي، يقدم عقله ورأيه، ويعرض النصوص على عقله، يعرض الوحي على عقله، فما قبله عقله قبله، وما رده عقله رده، فإن هذا من أعظم التقدم.

هذا وقع فيه طوائف أهل الكلام، وكذلك يقع فيه اليوم كثيرون ممن يدعون أنهم يحكّمون عقولهم في نصوص الوحي، وفي غيرها، وما لم تقبله تلك العقول الفاسدة ردوه وأنكروه، ولو كان ذلك في الصحيحين.

مما قد يؤيد أن "تقدم" هذه لازمة: **{لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** ما جاء في قراءة يعقوب، وهو أحد القراء الثلاثة المكملين للعشرة من القراءات العشر المتواترة: **{لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**.

{لَا تَقَدَّمُوا} يعني كونوا تبعًا له.

"تَقَدموا" هذه لازمة.

المتعدية تحتاج إلى مفعول.

{لَا تُقَدِّمُوا} رأيًا، **{لَا تُقَدِّمُوا}** حكمًا، **{لَا تُقَدِّمُوا}** تشريعًا، فيه مفعول به محذوف.

لكن: **{لَا تَقَدَّمُوا}** ما تحتاج إلى مفعول.

وفي أسباب النزول أيضًا في غير الصحيحين: ما جاء عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن ذلك نزل في التقدم بين يدي صيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رمضان بيوم، يعني الذي يصوم آخر يوم من شعبان، فذكرت أن قومًا تقدموا بهذا الصيام، فنزلت الآية.

والمعنى أوسع من ذلك، ويمكن أن يكون هذا وهذا، كل ذلك وقع، فنزلت الآية، يعني وقع في وقت متقارب، أو أن الآية نزلت في قصة تميم مثلاً، ثم بعد ذلك وقعت واقعة أخرى، فنزلت الآية تذكيرًا بالحكم إذا كان النزول متباعدًا، هذا يحتمل.

إلا إذا سلكنا طريقة بعض أهل العلم في الترجيح بين الروايات الصحيحة بأن رواية البخاري مقدمة، وقلنا:

سبب النزول هو وفد تميم، وما جرى بين أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما.

المؤلف في هذا المختصر لم يذكر سبب النزول في قوله: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} ذكره في التي بعدها، وكذلك ابن كثير في تفسيره لم يذكره، ذكره في الآية التي بعدها.

وهنا كلام للحافظ ابن القيم في قوله: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات:١]: "فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به؟!.

قال غير واحد من السلف: "ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر".

ومعلوم قطعاً: أن من قدم عقله أو عقل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأشدهم تقدماً بين يديه، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته فكيف برفع معقولاتهم فوق كلامه، وما جاء به؟!.

ومن المعلوم قطعاً: أنه لم يكن يفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون، فهم الذين حكى الله –سبحانه– عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المعارضة ميراثاً في أشباههم؛ كما حكى الله عن المشركين معارضة شرعه وأمره بقضائه وقدره، وورثهم في هذه المعارضة طائفتان:

إحداهما: إخوانهم المُباحية الذين خلعوا ربقة الشريعة من أعناقهم، ودانوا بالقدر.

والثانية: الذين عارضوا قضاءه وقدره بأمره، وقالوا: لا يمكن الجمع بينهما، فأبطلوا القدر بالأمر، وأولئك أقعد بالميراث من هؤلاء.

وقد ذكر سبحانه الأمثال العقلية التي عارض المشركون بها الوحي لتكون عبرة للمؤمنين، ومثلا للمعارضين: {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٤٢]"[٢].

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} **[الحجرات: ٢] هذا أدب ثانٍ أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي –صلى الله عليه وسلم– فوق صوته.**

وقد روي: أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما.

وروى البخاري عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: "كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر –رضي الله عنهما–، رفعا أصواتهما عند النبي –صلى الله عليه وسلم– حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، –قال نافع: لا أحفظ اسمه– فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} **[الحجرات: ٢].**

قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

٢– الصواعق المرسلة (٣/٩٩٨).

حتى يستفهمه يعني لشدة خفض الصوت، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يستفهم منه؛ لأنه لا يسمع كل ما يقول.

ولم يذكر ذلك عن أبيه -يعني أبا بكر -رضي الله عنه-، انفرد به دون مسلم [٣].

وفي رواية للبخاري عنه: أنه قَدِم ركب من بني تميم على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاعَ بن مَعْبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس[٤]. الحديث.

وهكذا رواه هاهنا منفردًا به أيضًا.

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: ((اذهب إليه، فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة))[٥] [تفرد به البخاري من هذا الوجه].

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} إلى قوله: {وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢].

وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينًا، ففقده رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقدك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبروه بما قال، فقال: ((لا، بل هو من أهل الجنة)).

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوِّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قُتل"[٦].

هنا قوله في الرواية الأولى: قال ابن الزبير -رضي الله عنهما-: فكان عمر -رضي الله عنه- يُسمع رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- بعد هذه الآية إلى آخره، قال: ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر، وهو أبوه لأمه، يعني هو جده لأمه، والجد يقال له: أب، فأمه أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنها.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}** [الحجرات: ٢]، رقم (٤٨٤٥).

٤ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}** [الحجرات: ٤]، رقم(٤٨٤٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}**، رقم(٤٨٤٦).

٦ - رواه أحمد، رقم (١٢٣٩٩) وقال محقق المسند: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

وهنا في هذه الآية: النهي عن رفع الصوت فوق صوت النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يرفعوا صوتهم فوق صوته، والذي بعده: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢].

فهذان أدبان متغايران: الأول: يتعلق برفع الصوت فوق صوت النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني إذا كان بحضرته -عليه الصلاة والسلام- ما يكون صوت أحد من الحاضرين أرفع من صوت النبي -صلى الله عليه وسلم.

{لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ٢] وإنما يكون صوتهم دون صوته، تأدبًا معه.

ورفع الصوت فوق صوته -عليه الصلاة والسلام- بحضرته، في مجلسه -عليه الصلاة والسلام- لا شك أن هذا ينبئ عن نوع من قلة الاكتراث، والجرأة، وسوء الأدب معه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يجوز.

{لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ٢] فتكون دائمًا أصواتهم دون صوته.

هذا هو الأدب المذكور هنا.

الأدب الذي يليه يختلف عن هذا، فهو في مخاطبته -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢] ليس في أن يكون صوتهم فوق صوته، قد يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيته لم يتكلم، فيأتي من يناديه من وراء الحجرات مثلاً: يا محمد، اخرج إلينا، فهنا ليس هذا من قبيل رفع الصوت فوق صوته؛ لأنه ليس بحضرتهم، أو لأنه لم يتكلم، وإنما في طريقة المخاطبة، الأدب في مخاطبته -صلى الله عليه وسلم-، كيف يكون ذلك، وكيف يعبرون.

ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: {وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات:٢] كما قال: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور:٦٣].

يعني هنا هذا الجهر له بالقول، الجهر ضد الإسرار، هذا الجهر بأي صفة يكون؟

لا يكون كما يجهر بعضكم لبعض في القول، كما يخاطب بعضكم بعضًا، كما ينادي بعضكم بعضًا، كما يدعو بعضكم بعضًا.

{وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢] فمن أهل العلم من حمل ذلك على رفع الصوت في مخاطبته -صلى الله عليه وسلم-، أو في مناداته، كالذين ينادونه من وراء الحجرات.

فهذا سوء أدب معه بلا شك، يعني يرفع صوته وهو يخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا أمر مدرَك أنه خلاف الأدب، ولا زال الناس يعرفون هذا، ومن خاطب الكبير كالوالد أو غيره بطريقة يرفع فيها صوته في مخاطبته فإن هذا يدل على اجتراء عليه، وسوء أدب معه، وقلة اكتراث وهيبة.

المعنى الثاني قال به أيضًا طوائف من أهل العلم: أن المراد لا تنادوه وتدعوه باسمه -صلى الله عليه وسلم-، لا تقولوا: يا محمد -عليه الصلاة والسلام-، وإنما: يا نبي الله، يا رسول الله: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢].

فالناس يدعو بعضهم بعضًا بأسمائهم: يا فلان، يا زيد، ولكن النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يكون هذا معه إطلاقًا، ولذلك جميع المواضع التي جاء فيها مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلم– في القرآن لم يأتِ شيء من ذلك باسمه، وإنما: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} [الأنفال: ٦٤].

إلا ما كان في مقام الخبر: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} [الفتح: ٢٩] –صلى الله عليه وسلم–، وما شابه ذلك، فهو في مقام الإخبار عنه –عليه الصلاة والسلام–، لكن النداء يكون دائمًا بالنبوة، بينما الأنبياء الآخرون –عليهم الصلاة والسلام–: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي} [الأعراف: ١٤٤].

{وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: ١١٦].

{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} [هود: ٧٦] في مجادلته في قوم لوط .. وهكذا.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– لم يرد شيء من ذلك في حقه –عليه الصلاة والسلام–، هذا قال به بعض أهل العلم، ويمكن أن يكون ذلك جميعًا مما يدخل في الآية: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢].

فيدخل في ذلك رفع الصوت، ويدخل في ذلك مناداة النبي –صلى الله عليه وسلم– باسمه، لا تخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضًا، وإنما تأدبوا في خطابه.

هذا الأدب في الخطاب ينتظم الأمرين: خفض الصوت، وكذلك أيضًا: أن يناديه: يا نبي الله، يا رسول الله.

هؤلاء الذين وفدوا على النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقالوا: يا محمد، اخرج من وراء الحجرات –كما سيأتي–: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤].

هذا سوء أدب مع النبي –صلى الله عليه وسلم– لما فيه من الجهر بالقول، ولما فيه أيضًا من مناداته باسمه، ولما فيه من مناداته من وراء الحجرات، فإن هذا نوع جفاء.

هذه آداب ثابتة صحيحة أدب الله –عز وجل– بها عباده مع نبيهم –صلى الله عليه وسلم–، فهذا يدل على أن أصل هذه الآداب: أن رفع الصوت في المخاطبة خلاف الأدب، أن رفع الصوت فوق صوت الكبير كالوالد مثلاً أن هذا نوع من سوء الأدب، خصام الأولاد بحضرة أبيهم، رفع الأصوات، المرأة حينما ترفع صوتها، كذلك أيضًا مناداة الآخرين من وراء الدار، يصرخ من الشارع: يا فلان، هذا فيه نوع جفاء، والله أعلم.

وقوله: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢] أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بَالا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالا يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض))[٧].

قوله هنا: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢].

ابن كثير يقول: أي إنما نهيناكم عن رفع صوتكم خشية –يعني كراهة– أن تحبط أعمالكم، وبعضهم –كالزجاج– يقول: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} التقدير؛ لِأنْ تحبط أعمالكم {وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أي فتحبط.

---

٧ – رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٨).

فاللام – لِأنْ تحبط– المقدرة هذه لام الصيرورة، ويحتمل: أنها لام التعليل {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ}.

والحُبوط بمعنى: الزهوق والبطلان، تذهب أعمالكم وتبطل.

وهذا البطلان هنا: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} لا يلزم أن يكون ذلك ردة وخروجًا عن الإسلام، وإنما هذا حبوط بسبب ذنب عظيم، وقد مضى الكلام في بعض المناسبات على حبوط الحسنات بسبب السيئات، وحديث الرجال الذين يأتون يوم القيامة بمثل جبال تهامة البيضاء، فيجعلها الله هباء منثورًا، وذكر أن هؤلاء كانوا إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها[٨].

فهؤلاء لم يأتوا بردة، فالذي يحبط جميع الأعمال: الإشراك بالله –عز وجل–، والذنوب كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– والحافظ ابن القيم: إنما تحبط ما يقابلها، يعني ما يكون بقدرها من الحسنات.

فهنا: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} يعني أن تبطل، وقلنا في بعض المناسبات: إن العرب تقول كما في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((وإنّ كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطًا أو يُلم))[٩].

قلنا: إن الحَبَط هو أن تأكل الدابة حتى ينتفخ بطنها، ثم بعد ذلك يكون هلاكها، ينحبس ذلك في بطنها، فلا يخرج فتموت.

ثم ندب الله –عز وجل– إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} [الحجرات: ٣] أي: أخلصها لها، وجعلها أهلا ومحلا، {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ٣].

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ}[الحجرات: ٣].

{يَغُضُّونَ} أصل الغض النقص من كل شيء، وابن جرير يقول: أصله الكف في لين.

"غض": {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور:٣٠] يعني كف البصر عما حرم الله –تبارك وتعالى–، الحط منه، فلا ينظر إلى الحرام.

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الحجرات: ٣].

في الأول: نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي.

وفي الثاني: نهاهم أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض.

فهذا كله يقتضي غض الصوت عنده –صلى الله عليه وسلم–، سواء كان ذلك حينما يتكلم، فتكون أصواتهم دون صوته –صلى الله عليه وسلم– في الارتفاع، وكذلك أيضًا في المخاطبة يغضون أصواتهم، فيتكلمون معه بلين وأدب، وخفض صوت.

وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد: عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟، فكتب عمر –رضي الله عنه–: إن

---

٨ – رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٣٤٦).

٩ – رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢).

الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}** **[الحجرات: ٣].**

هنا: **{امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}** يعني كما يمتحن الذهب في النار، فيخرج شائبه، ويبقى خالصه، يعني اختبرها واصطفاها.

{امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} أخلصها للتقوى، محّضها للتقوى، فهذا الذي ذكره أهل العلم في تفسير هذا الموضع، كمقاتل ومجاهد وقتادة والفراء وابن جرير، وأمثال هؤلاء.

{امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} اختبرها واصطفاها، ومحضها وأخلصها للتقوى.

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} **[الحجرات: ٤- ٥].**

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: **{أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}** **[الحجرات: ٤].**

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{لَهُم مَّغْفِرَةٌ}** [الحجرات: ٣] إلخ، قال: وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد، وذكر قول عمر -رضي الله عنه- فيمن يشتهي المعصية، ومن لا يشتهي المعصية، ذكر أن هؤلاء ممن يدخل في قوله: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}** محضها وأخلصها.

الذي يشتهي المعصية فيجاهد نفسه، هذا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، قال له: أجران، لكن الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة[١٠].

وهذا أرفع من ذاك، فهذا له أجران، ولكن القاعدة: أن المزية لا تقتضي الأفضلية.

له أجران، لكن ذاك مع السفرة الكرام البررة، ذاك أكمل حالاً.

وكذلك أيضًا الذي يجاهد نفسَه -نفسُه تطلب المعصية فيجاهد- فهذا يؤجر على المجاهدة، ويؤجر على صبره عن معصية الله -عز وجل-، وكفه عنها حينما تطلبها نفسه، فيتركها خوفاً من الله، فله هذه الأجور، ولكن الذي لا يخطر ذلك في باله لا يؤجر على مجرد الترك، يعني المعاصي التي لم تخطر على باله لا يؤجر على تركها، يعني أنت الآن جالس في هذا المكان، معاصٍ كثيرة لا تحصى، هل يقال: تأتيك الأجور الآن؛ لأنك ما عملت كذا، وما عملت كذا، وما عملت كذا؟

الجواب: لا، ولكن حينما تتهيأ الأسباب، وتوجد الدواعي: ((ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله))[١١].

فهذا الذي يؤجر.

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا}** [النبأ: ١٨] رقم (٤٩٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به، رقم (٧٩٨).

١١ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

ذاك الذي لا تطلب نفسه المعصية، ليس المقصود المعصية المعينة؛ لأنه لا يشتهيها أو لا يحبها، أو لا يميل إليها، لا، إنما جنس المعاصي، لا تطلبها نفسه، هذا يعني أن نفسه قد تروضت بالإيمان، ارتاضت به، وأنها صارت في حال من كمال الإيمان، لم تعد هذه النفس تطلب سوى مرضاة الله -تبارك وتعالى-، فهذا أكمل حالاً.

الشاطبي -رحمه الله- ذكر مراتب الناس من المنتسبين إلى العلم، ذكر لهم ثلاث مراتب: أعلى هذه المراتب من صار العلم سمة راسخة لهم، فهؤلاء الدواعي عندهم تنتفي، فلا يحتاجون إلى مجاهدات الطبقة التي قبلهم -الطبقة الثانية.

وتبقى أمور أخرى، قد لا تطلب نفسه الخمر والزنا، وما أشبه ذلك، لكنها قد تطلب الرئاسة، قد يكون العالِم بمنزلة من التقوى والورع ومن الترفع عن كل المدنسات هذه مما يقارفه كثير من الناس، لكن تبقى نفسه بهذه الجوانب تحتاج إلى مجاهدة كبيرة.

قال: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤].

و{الْحُجُرَاتِ} جمع حجرة، وذلك يقال للبقعة التي عليها تحجير، التي عليها حجر، التي عليها جدار، أو نحو ذلك، يقال لها: حجرة.

المقصود بيوت نسائه، يقول: "كما يصنع أجلاف الأعراب" وهذا جاء في قصة بني تميم لما جاءوا فدعوه -صلى الله عليه وسلم- أو دعاه بعضهم من وراء الحجرات، قال: {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} يعني لا يعقلون الأدب اللائق مع النبي -صلى الله عليه وسلم.

ثم أرشد إلى الأدب في ذلك، فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [الحجرات: ٥] أي: لكان لهم في ذلك الخيرة، والمصلحة في الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ٥].

وقد ذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي، فيما أورده غير واحد، روى الإمام أحمد: عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد، -وفي رواية: يا رسول الله[١٢]- فلم يجبه، فقال: يا رسول الله، إن مدحي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: ((ذاك الله -عز وجل))[١٣].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٦- ٨].

١٢- رواه أحمد، رقم (٢٧٢٠٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم (٣٢٦٧)، وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف".

١٣ - رواه أحمد، رقم (١٥٩٩١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم (٣٢٦٧)، وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف".

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقد روي في سبب نزول هذه الآية قصة من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو: الحارث بن ضِرَار، والد جُويرية بنت الحارث أم المؤمنين -رضي الله عنها-، قال الحارث بن ضرار الخزاعي: قدمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وتُرسل إليَّ يا رسول الله رسولا إبَّان كذا وكذا ليأتيك بما جمَعتُ من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخْطة من الله ورسوله، فدعا بسَرَوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان وَقَّت لي وقتًا يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلِقوا فنأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق -أي: خاف- فرجع فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فغضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبعث البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((منعتَ الزكاة، وأردت قتل رسولي؟)) قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ} إلى قوله: {حكيمْ} [الحجرات: ٦][١٤]**، ورواه ابن أبي حاتم والطبراني.**

هذا الحديث في سبب النزول هو واحد من روايات متعددة عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وأيضًا جاء في ذلك جملة من الروايات المرسلة عن جمع من التابعين، وهذه الرواية قال عنها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إنها من أحسن ما روي في سبب نزول الآية.

---

١٤ - رواه أحمد (١٨٤٥٩)، وقال محققو المسند: "حسن بشواهده"، وقال الألباني: "وهذا إسناد صحيح" كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/٢٣٤).

الروايات الواردة في الباب لا تخلو من ضعف، ولكن هذه الروايات قد يعتضد بعضها ببعض، فيتقوى هذا السبب بمجموعها، فيكون سبب النزول له أصل، والمفسرون مطبقون على ذلك، وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر –رحمه الله– في كتاب "الاستيعاب": أن ذلك بإجماع المفسرين.

فعلى كل حال الروايات كثيرة، فهذا يدل على أصل لهذه الواقعة أنها نزلت بسبب ما ذكر.

وقوله –تبارك وتعالى–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** [الحجرات: ٦] تلك هي الآداب مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهذا تأديب آخر للأمة في تلقي الأخبار.

{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} الفسق أصله معروف، وهو الخروج، تقول: فسقت الفأرة من جحرها يعني خرجت منه للإفساد، وفسقت النواة يعني خرجت من التمرة.

فهذا أصله في اللغة، الخروج.

وأما في الشرع فهو: الخروج عن طاعة الله –تبارك وتعالى–، إما خروجًا مطلقًا، وهو الكفر، فالكافرون هم الفاسقون.

فالكافر يقال له: فاسق، وكذلك أيضًا العاصي يقال له ذلك، فالخروج المطلق الكفر يقال له: فسق، والخروج الذي يكون دونه يقال له: فسق.

ولهذا في المثال الذي يذكره الأصوليون دائمًا ولا يكاد يخلو منه كتاب فيما يتعلق بمفهوم الموافقة الأولوي، يقولون: **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** [الحجرات: ٦] فإن جاء كافر فمن باب أولى، ثم يستدركون يقولون: قد يكون الكافر عدلاً في دينه، يتحرز من الكذب، بحيث يكون دينه يحرم عليه الكذب، فيقولون: هذا من قبيل مفهوم الموافقة الأولوي الظني وليس القطعي، هكذا يقولون، لكن إذا أدركنا هذا المعنى وهو أن الفاسق يشمل هذا وهذا فلا حاجة لهذا الكلام.

وسبب النزول لا يكون ذلك مخصصًا للعموم.

{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} فـ **{فَاسِقٌ}** هنا نكرة في سياق الشرط، أيّ فاسق، سواء كان فسقًا أكبر أو فسقًا أصغر.

{فَتَبَيَّنُوا} مفهوم المخالفة: أنه إن جاء عدل فخبره يقبل.

وكذلك أيضًا هنا الأمر بالتبين والتثبت يدل على أن خبر الفاسق لا يرد مطلقًا، وإنما يطلب فيه التبين والتثبت، فهذا قدر زائد.

وإذا كان الأمر كذلك: **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** [الحجرات: ٦] فكما قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: من هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، فكيف بمجهول العين؟، مجهول الحال لا يقبل خبره، فكيف بمجهول العين؟

واليوم الناس كثير يكتبون بمعرِّفات مجهولة، وأسماء ورموز، وأبو فلان، وأبو فلان، ويقولون إفكًا عظيمًا، لا تقف له الجبال.

كذب وبهت، ويتلقى خبرَهم كثيرٌ من الناس كأنه وحي منزل، من مجاهيل لا يدرى ما حال هؤلاء الناس، من هو هذا الكاتب؟ هل هو إنسان من أهل الإيمان أصلاً أحمق؟ أو من غيرهم ممن يدس عليهم هذه الدسائس،

ويفسد بينهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء؟ هل هذا من الرافضة؟ ما تدري، فيكتب من يكتب، ويتلقى من يتلقى، وينشر من ينشر.

وهذا أبعد ما يكون عن هذا الأدب الذي أدب الله -عز وجل- به عباده: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦] هذه الرسائل التي تنتشر بـــ"الواتس آب": قل كذا، احذر من كذا، لا تقل كذا، افعل كذا، إلى آخره، بروايات لا تصح، أو بمعلومات غير صحيحة، أو نحو ذلك، وينشرها الناس، فيتلقفونها وهم لا يعرفون مصادرها أصلاً، فهذا لا يجوز، إذا كان الفاسق يُتثبت منه وهو معروف، فكيف بهؤلاء المجاهيل؟!، والله المستعان.

{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦] هنا في الأصل ما تكلم على هذا الموضع.

{فَتَبَيَّنُوا} هذا التبين، ما المراد به؟

التبين يعني أنهم يتفحصون ويتعرفون على هذا الخبر، هل هو صدق أو كذب.

وفي القراءة الأخرى وهي قراءة سبعية متواترة، قراءة حمزة والكسائي: {فتثبتوا} فهذا التثبت يعني الأناة، وعدم العجلة، تريثوا حتى يظهر هذا الخبر وينكشف هل هو حق أو باطل، صدق أو كذب.

فالقراءة الأولى تكون في التفحص، والثانية في التريث، عند من فرق بين القراءتين، وبعض أهل العلم قال: هما بمعنى واحد، وإحداهما تفسر الأخرى، فنحن مأمورون بالتبين الذي هو التثبت.

وكما بينا أن هذه الألفاظ قد لا تتفق في المعنى من كل وجه، يعني في المعنى الأصلي، والمعنى التكميلي، وإنما يوجد فروقات بينها، والله أعلم.

هنا قال: {فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات: ٦] يعني كراهة: {أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} يعني حينما تتلقون خبر هذا الفاسق -ومن باب أولى المجهول- فقد تقعون في مغبة ذلك، ويلحقكم معرته، فتصيبوا: {قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} تكونوا بذلك مقارفين لما يوجب الإثم، فتقعون فيما لا يحل الوقوع فيه: {فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦] يتبين أن هذا الأمر لا حقيقة له، وهذه الندامة قد تحصل في الدنيا، وقد تحصل في الآخرة.

تحصل في الدنيا لأهل الإيمان لمن قلبه لا يزال حيًّا بالإيمان، فإذا انكشف له هذا الأمر أنه غير صحيح فإنه يندم، ولكن من طمس الله بصيرته ومات قلبه -نسأل الله العافية- فإنه وإن تبين له أن هذا باطل ذهب وزاد عليه أضعافه من الأكاذيب، وأصر على نسبة الباطل لمن يخاصمهم أو يخالفهم أو يعاديهم، أو يتوقع على الأقل أنهم يخالفونه، وإن لم يسمع منهم شيئًا، لكن هو يتوقع أنهم لا يوافقونه على باطله، فهو يرميهم بالعظائم، فإذا تبين له أن ما قاله غير صحيح زاد من الأكاذيب.

وهذه اليوم سوق رائجة، ليس لها خطام ولا زمام، ولكن كما قال الله -عز وجل-: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٣].

فهذا كله مما جرت به إرادة الله -عز وجل-، فيقع بسبب ذلك من هان على الله -عز وجل-، وصار يتخبط في هذه الضلالات.

وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ} [الحجرات: ٧] أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب:٦].

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ} [الحجرات: ٧] يعني هذه نعمة ومنة من الله -عز وجل-، بحيث يكون الرجوع إليه نهاية لهذه الأمور والمشكلات، وما يرِد على المجتمع المسلم، وما يعرض له.

والذين يقومون بعد ذلك مقامه -صلى الله عليه وسلم- من بعض الوجوه هم حملة ميراثه، وهم العلماء، فيرجع الناس إليهم: **{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ}** [النساء: ٨٣] فأولو الأمر منهم هم كل من يرجع إليه الناس من العلماء، ونحوهم، ممن يصدر الناس عن رأيهم، يعني يرجعون إلى كبارهم، فهذا يكون سببًا لدفع شرور وتمزق وخلاف.

وقوله: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}** [الأحزاب:٦] ذكرنا هناك في تفسير الآية أن هذا يشمل: أولى بالمؤمنين من أنفسهم بالمحبة وبالاتباع والطاعة، وأن النفس إذا أمرت بشيء وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بشيء فإن أمره يكون مقدمًا، وأن حكمه نافذ فيهم، بحيث يكون أنفذ من حكم الواحد على نفسه.

كل هذه المعاني داخلة في قوله: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**.

ويدخل فيه أيضًا: ((من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دَينًا أو ضَياعًا فإليّ وعليّ))[١٥].

{أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب:٦].

ثم بَيَّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم، فقال: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ} أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٧١].

قوله: **{لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ}** يعني للحقكم بسبب ذلك عنت وهو المشقة، ويقال ذلك للإثم والهلاك، بمعنى: أنكم تركبون المراكب الصعبة التي لا تورث خيرًا، ولا توصلكم إلى مطلوب.

{لَعَنِتُّمْ} للحقكم الشقاء والتعب والعنت، فدل على أن هذه الآراء المجردة التي يختلف الناس فيها، فتتفرق أنظارهم: أن هذه لا يصح أن يعول الناس عليها، وإنما ينبغي أن يرجعوا إلى الوحي، فتكون هذه العقول والآراء مستضيئة بنور الوحي، ويكون حاكمًا عليها، ولا يقدم رأيه، أو رأي غيره بمجرده: **{لَعَنِتُّمْ}** فإن ذلك يورث العنت.

وقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

وهنا كلام للحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: "والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن.

والتبين طلب بيان حقيقته، والإحاطة بها علما.

١٥- رواه البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا، رقم (٢٣٩٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، وهذا لفظ مسلم.

وهاهنا فائدة لطيفة وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو رُدت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولاسيما مَن فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحرٍّ للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره، ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد –رحمه الله"[١٦].

وقال ابن القيم –رحمه الله– في قوله تعالى: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ}** [الحجرات: ٧] فتحبيبه –سبحانه– الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه، وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو –سبحانه– هذا التحبيب والتزيين، وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه"[١٧].

"وذكر هذا عقب قوله: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ}** [الحجرات: ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك، فقال: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ}** يقول سبحانه لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه"[١٨].

يعني هنا يقول: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}** [الحجرات: ٧] فلم تقعوا في هذه الأمور وهذا العنت وما يوجبه؛ لأن **{اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}** [الحجرات: ٧] فارتاضت نفوسكم بذلك، فصاروا يقبلون، أو يذعنون، أو يرجعون، أو يأتمرون بأمر النبي –صلى الله عليه وسلم–، وينقادون له.

١٦– مدارج السالكين (٣٦٨/١).

١٧– شفاء العليل (٥٧/١).

١٨– مدارج السالكين (٤١٦/١).

وقال –رحمه الله-: "فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق ذلك عليكم، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم"[١٩].

وقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [الحجرات: ٧]

أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار.

والعصيان وهي جميع المعاصي.

وهذا تدريج لكمال النعمة.

يعني هنا الكفر هذا هو الأعظم، ثم الفسوق الذنوب الكبار، والعصيان ما دون ذلك، هكذا فسره ابن كثير، ابن جرير –رحمه الله– فسر الفسوق بالكذب هنا، مع أن الفسوق أعم من ذلك، لكن من أجل أن يفرق بينه وبين المعصية باعتبار أن العصيان يوجب الفسوق، قال: **{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ}** أي الكذب والعصيان، يعني سائر المعاصي.

والمعنى –والله أعلم– أعم من هذا، وابن كثير حمل الفسوق على ما هو أكبر من العصيان، وإلا فكل ذلك خروج عن طاعة الله –تبارك وتعالى–، كما أن الكفر –كما سبق– خروج عن طاعة الله –عز وجل–، فحينما ذُكرت هذه مجتمعة متتابعة دل ذلك على أن كل واحد منها له معنى يخصه، والله أعلم.

وقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

الرشد هو الاستقامة على طريق الحق مع الثبات والتصلب، ومنه الرشادة، وهي تقال للصخرة.

روى الإمام أحمد عن ابن رفاعة الزرقي عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((استووا حتى أُثني على ربي –عز وجل)) فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: ((اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق))[٢٠]، ورواه النسائي في اليوم والليلة.

١٩- المصدر السابق.

٢٠ – رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٤٩٢)، والنسائي في السنن الكبرى، رقم (١٠٣٧٠)، وفي عمل اليوم والليلة، رقم (٦٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم (٢٥٩/١).

يعني الشاهد من إيراد هذا الحديث هو ما جاء في مضامينه من قوله: ((اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا)) إلى آخره.

ثم قال: {فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً} [الحجرات: ٨] **أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجرات من الآية (٩) إلى الآية (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:٩-١٠].

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **يقول تعالى آمرًا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩].**

لاحظ هنا أنه قال: **{اقْتَتَلُوا}** وذكر قبله مثنى: **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** فالطائفتان: مثنى، فعاد الضمير عليه مجموعًا، وهذا باعتبار أفراد كل طائفة.

يقول ابن كثير: **فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، ونحوهم.**

الخوارج كما هو معروف يكفرون صاحب الكبيرة، ويقولون: إنه كافر ومخلد في النار، فيسلبون عنه اسم الإيمان، ويثبتون له اسم الكفر، ويحكمون عليه بالخلود في النار.

وأما المعتزلة فإنهم يقولون: إنه فاسق مِلِّي، بمنزلة بين المنزلتين، ليس بكافر ولا مؤمن، ولكنه فاسق.

وأما في الحكم فإنهم يحكمون عليه بالخلود في النار، هذه التي تسمى مسائل الأسماء والأحكام، يعني ماذا يسمى فاعل الكبيرة؟

هؤلاء يسمونه: كافرًا، وهؤلاء يسمونه: الفاسق الملي.

أما في الأحكام، فيحكمون عليه بالخلود في النار، يعني النتيجة عند المعتزلة في المصير مع الخوارج واحدة.

وهذا الأمر الذي يذكره أهل العلم عن هؤلاء الخوارج أنهم يكفرون صاحب الكبيرة هذا صحيح، ولكن ذلك حينما استقر مذهبهم على هذا، يعني بعدما صارت هذه المذاهب -كما يقال- متبلورة، بحيث ظهرت معالمها، وأصّل أصحابُها أصولها، وقعّدوا قواعدها، وإلا فإنها في البدايات لم تكن كذلك، يعني الأصول الخمسة عند المعتزلة مثلاً في بداياتهم لما ظهر واصل بن عطاء، وقال ما قال، هل كانت عندهم هذه الأصول الخمسة مقررة مقعدة مؤصلة، أو أنها وجدت مع الجدال مع الفرق والطوائف، وهذه الفرق قد درست الجدل والمنطق، وصارت تجادل عن مذاهبها وآرائها الفاسدة؟.

وكذلك أيضًا الخوارج، فإنهم في البداية كانت مسألة التحكيم -كما هو معلوم- وقالوا: لا حكم إلا لله، ما كان عندهم أصول الخوارج التي تقررت فيما بعد، يعني ما كان هؤلاء الذين اجتمعوا وانشقوا من جيش علي -

رضي الله تعالى عنه- يعتقدون أن فاعل الكبيرة كافر، لكنهم كما قال أهل العلم: يكفرون من خالفهم، ويحكمون بذلك على أمور لا توجب التأثيم، فضلاً على أن تكون من الأمور المخرجة من الملة، هم يكفرون من سواهم من المسلمين، يحكمون عليهم بالكفر، فالأمور التي أخذوها على عليٍّ -رضي الله عنه- لم تكن أمورًا توجب المؤاخذة والإثم، فضلاً عن أن تكون من الكبائر، فضلاً على أن تكون من الأمور المخرجة من الملة، وهذا يحتاج أن نعرفه وأن نتبينه، ومن ثَمّ فإذا جاء من يكفر المسلمين بالاجتهادات، أو يكفر من لم يكن معه وعلى طائفته ورأيه، أو يكفر من خرج عن طاعته هكذا مطلقًا، فإن هذا يكون من جنسهم، وإن لم يقل من الناحية النظرية: إن فاعل الكبيرة كافر، قد لا يقول هذا من الناحية النظرية لكن حاله أسوأ ممن يقول: إن فاعل الكبيرة كافر؛ لأن هذا يكفر الناس الذين اختلفوا معه في أمور يسوغ فيها الاختلاف، أمور اجتهادية، يكفر من لم يقارف ما يؤاخذ عليه شرعًا، ويستحل دمه، فمن كان بهذه المثابة فهو من جنس هؤلاء، ولا نحتاج أن ننظر هل يصرح هو ويعتقد أن فاعل الكبيرة كافر، هو الآن لا يكفر فاعل الكبيرة هو يكفر من يخالفه في اجتهاده، فلا يُنتظر منه أن يقول: إن فاعل الكبيرة كافر، حتى يقال: إنه من الخوارج، يكفر من يختلف معه بالاجتهاد، يكفر كل من عدا طائفته من المسلمين من أهل العلم ومن غيرهم من عامة الناس، فهذا لا يقال: إنه لا يكون من الخوارج؛ لأنه لم يصرح بأن فاعل الكبيرة كافر، أو أنه قال في يوم من الدهر: إننا لا نكفر من يقارف الكبائر، هو أسوأ ممن يكفر مقارف الكبائر، بل قد تجد في أحوال بعض هذه الطوائف من هو أسوأ من الخوارج، يعني الخوارج يتحرزون، وهم أصدق الناس -كما هو معلوم-، والعلماء قبلوا روايتهم في الحديث؛ لأنهم يتحرزون من الكذب، وقد تجد في بعض هذه الطوائف الذي يقول من الناحية النظرية: إنه لا يكفر فاعل الكبيرة، وقد تجده يستحل الكذب، ومن أكذب الناس، لا يضاهيه في الكذب إلا الرافضة، اختلاق الإفك على الناس، واستحلال الأعراض، ورمي الناس بالعظائم مما يبرءون إلى الله منه مما لم يقولوه ولم يفعلوه، استحل كل ذلك من أجل أن غايته التي يريد الوصول إليها تبرر هذه الوسائل، وكل من خالفه فإنه لا يتورع في رميه بكل قبيح من الكفر فما دونه.

فمثل هذا لا شك أنه أسوأ حالاً من الخوارج.

ثم بعد ذلك في التعامل مع مثل هؤلاء لا يُنظر إلى كل فرد، هل هو يقول بهذا، مغرر به، أو غير مغرر به، الكلام على طائفة الآن مجتمعة، لها شوكة، تقتل الناس، وتبيد خضراءهم، تسعى لهذا، هنا لا يقال في مثل هذه الحال: والله يوجد مجموعة من الناس مغرر بهم، إلى آخره، هؤلاء يُبيَّن لهم الحق عمومًا، فمن قبله فالحمد لله، ومن لم يقبل فإن عليًّا -رضي الله عنه- وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ذهبوا ينظرون في كل فرد من هؤلاء الأفراد ما حالهم، وماذا كانوا عليه من العمل، هؤلاء قوم قد اجتمعوا يقاتلون المسلمين، ويتركون أعداء الله -عز وجل.

فيفرق بين حال هؤلاء، وحال البغاة.

وكذلك أيضًا ما يحصل من القتال بين المسلمين على أمر من الأمور اختلفوا فيه، قد يختلفون على دماء فيقتتلون، قد يختلفون على أرض، قد يختلفون على أموال يتنازعونها فيقتتلون، قد يقتتلون على عصبية وحمية وقبلية، قد يقتتلون على حدود أرضية، أو غير ذلك، فهنا يُصلَح بينهم.

لكن إذا كانت الطائفة الأخرى ليست كذلك، الطائفة الأخرى هي ترى أن هؤلاء من المرتدين ومن الكفار، وأن قتالهم أوجب من قتال الكفار الأصليين، وأنه أفضل وأعظم، فهنا ما يقال: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات:٩].

تصلح بين طائفتين إحداهما ترى أن هؤلاء من أكفر الكفار، وأنه ليس لهم علاج إلا الاستئصال؟، الإصلاح ما وجهه هنا؟!

الإصلاح ليس على دماء، ليس على أموال، ليس على أرض، ليس على اختلاف في اجتهادات، هذه الحال لا يكون للإصلاح فيها موضع.

يقول: وبهذا استدل البخاري إلى آخره.

يقول: وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكرة: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خطب يومًا ومعه على المنبر الحسن بن علي –رضي الله عنهما–، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، ويقول: ((إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين))[١].

فكان كما قال –صلوات الله وسلامه عليه–، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

هؤلاء تنازعوا على أمر وهو أن أهل الشام كانوا يطالبون بدم عثمان –رضي الله عنه–، وعليٌّ –رضي الله تعالى عنه– كان يرى أن ذلك لا يتأتى حتى يُبايَع، ويتمكن ويستقر له الأمر، ثم بعد ذلك يستطيع القصاص من هؤلاء، فوقع هذا القتال، فهنا يأتي الإصلاح.

ابن جرير –رحمه الله– له كلام جيد في هذا المعنى في قوله: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات:٩] يقول: فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، {فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى} يقول: فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله لها وعليها، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تبغي، يقول: فقاتلوا التي تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم الله، {حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} يقول: حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه.. إلى آخر ما قال.

وقوله: {فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} أي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) قلت: يا رسول الله، هذا نَصَرتُه مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: ((تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه))[٢].

---

[١] – رواه البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم– للحسن بن علي –رضي الله عنهما–، رقم (٢٧٠٤).

٢ – رواه الترمذي، في كتاب أبواب الفتن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، رقم (٢٢٥٥) وأصله في البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، رقم (٢٤٤٤).

قال أيضًا جماعة من السلف بهذا المعنى الذي ذكرته آنفًا مما قاله ابن جرير -رحمه الله-: وأصلحوا بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، كما قال ابن جرير، جاء هذا عن الحسن وقتادة والسدي، فإن الإصلاح لا يكون إلا بالتحاكم إلى شرع الله -تبارك وتعالى-، ولا يكون بحال من الأحوال بالتحاكم إلى غيره من المحاكم التي تحكم بغير ما أنزل الله، ويدخل في ذلك ما يسمى بـ"السُّلُوم القبلية" يعني يحصل قتال بين قبيلتين أحيانًا، أو بين طائفتين من القبيلة، فيتحاكمون إلى عادات عندهم يسمونها بهذا، ولا يخرجون عنها، فهذا من قبيل التحاكم إلى الطاغوت **{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}** [المائدة:٥٠].

وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنـــزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما.

هذه الروايات مراسيل، ولكنه يوجد في بعض المرويات: أن الآية نزلت فيما هو شبيه بهذا، في واقعة وقعت لما أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- عبد الله بن أُبيٍّ، وحصل في ذلك الحين مجاوبة ومخاصمة في الكلام، ثم بعد ذلك صار اقتتال بالنعال، ونحو ذلك، فنزلت الآية.

وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: "عمران" كانت له امرأة تدعى: أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّية له -يعني الغرفة في الدور الثاني مثلا يقال لها ذلك -بالكسر والضم- **لا يدخل عليها أحد من أهلها، وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنـــزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنـــزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصلح بينهم، وفاءوا إلى أمر الله.**

وقوله: {فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا))[3][ورواه النسائي].

وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠] أي: الجميع إخوة في الدين؛ كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه))[4].

وفي الصحيح: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[5].

---

٣ - رواه النسائي، كتاب الْقَضَاء، بَابُ ذِكْرِ الِاخْتِلَافِ عَلَى الزُّهْرِيِّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، رقم (٥٨٨٦) وأحمد، رقم (٦٤٨٥) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٤ - رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم (٢٤٤٢) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠).

٥ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

وفي الصحيح أيضا: ((إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله))[٦].

والأحاديث في هذا كثيرة.

وفي الصحيح: ((مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهَر))[٧].

وفي الصحيح أيضا: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا)) وشبك بين أصابعه[٨].

يعني أن الأخوة الإيمانية ثابتة لا ترتفع إلا بالخروج من الإيمان، فهي ثابتة حتى مع وجود القتال الذي هو أعظم المعاصي –بعد الشرك– التي يعصى الله –تبارك وتعالى– بها، ومع ذلك فالأخوة ثابتة بين هؤلاء المقتتلين.

وقوله: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات:١٠] يعني: الفئتين المقتتلتين، {وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي: في جميع أموركم، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

هنا قال: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} وهناك قال: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} [الحجرات:٩].

قلنا: إن الضمير عاد مجموعًا باعتبار الأفراد، أفراد كل طائفة، وهنا: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠]، ما قال: فأصلحوا بين إخوتكم، هنا يقول: يعني الفئتين المقتتلتين.

ذكرُ التثنية هنا يحتمل أن يكون ذلك كما يقول بعضهم: باعتبار أن التثنية قد ترد مرادًا بها الكثرة، يعني التثنية قد تذكر ويراد بها الجمع، وهو أحد الأوجه في قوله –تبارك وتعالى–: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [ق: ٢٤].

وبعضهم يقول: المعنى: أصلحوا بين كل أخوين، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠] فذكر التثنية باعتبار أن المعنى أصلحوا بين كل أخوين مقتتلين.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} قال: أي في جميع أموركم، يعني أنه خاطب الأمة بهذا الخطاب العام، ما قال: واتقوا في الإصلاح بينهما مثلاً، فيكون ذلك شاملاً لكل ما يدخل تحت تقوى الله، كما مشى عليه الحافظ ابن كثير –رحمه الله–.

ابن جرير يفسر هذا الموضع كعادته، فيرجع ذلك إلى ما قبله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} في هذا الإصلاح بينهما، بحيث لا يميل مع طائفة دون الأخرى، فيكون بذلك ظالمًا، "اتقوا الله" في هذا الإصلاح، فيكون بالقسط والعدل والتجرد، بعيدًا عن أهواء النفوس وميلها.

---

٦ – رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

٧ – رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٦).

٨ – رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، رقم (٢٤٤٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥).

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: ١١].

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((الكِبْر: بَطَر الحق، وغَمْص الناس))[٩].

ويروى: ((وغمط الناس))[١٠].

والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقَر أعظم قدرًا عند الله، وأحب إليه من الساخر منه المحتقِر له؛ ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ} فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء.

قوله –تبارك تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ}.

السخرية هي: الاستهزاء، وهي فرع عن الكبر كما جاء في الحديث، فإن غمص الناس هو احتقارهم، وإنما يحتقرهم من كان متكبرًا متعاليًا مترفعًا.

وهذه السخرية تدل على نقص وجهل.

وموسى –صلى الله عليه وسلم– لما أمر قومه بذبح البقرة قالوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة: ٦٧].

فدل على أن الذي يستهزئ بالناس أنه من الجاهلين، بنص القرآن.

وهذه السخرية: {لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ} [الحجرات: ١١] يدخل فيها جميع أنواع السخرية، احتقار الناس، الاستهزاء بهم، سواء كان ذلك للونهم، أو كان ذلك لغيره مما يتصل بخلقتهم، أو كان ذلك لأنسابهم وقبائلهم، أو كان ذلك لبلدهم، أو كان ذلك لناحيتهم، أو كان ذلك للهجاتهم، كلامهم، أو لحركاتهم وأفعالهم وتصرفاتهم، أو غير ذلك مما يسخر منه السفهاء، فإن هذا لا يجوز، وهذا نهي، والنهي للتحريم.

فالذي يسخر من الناس إضافة إلى كونه قد عصى الله –تبارك وتعالى– هو ينبئ عن جهل وكبر.

{لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ} [الحجرات:١١] والقوم في الأصل يقال لجماعة الرجال خاصة على المشهور، وقد يدخل فيه النساء على سبيل التبع.

وهذه الآية مما يستدل به على رجحان هذا القول، أي أن القوم يقال لجماعة الرجال؛ لأنه قال بعده: {وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء} [الحجرات: ١١] فدل على أن النساء لم يدخلن في ذلك، في لفظ القوم.

ومما يدل على هذا أيضًا قول الشاعر:

---

٩ – رواه الترمذي، كتاب أبواب البر والصلة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في الكبر، رقم (١٩٩٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٣٤).

١٠ – رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

وما أدري ولستُ إخالُ أدري *** أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

ففرق بين القوم والنساء.

هنا قال: {لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ} [الحجرات: ١١]

{عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ} بمعنى: أنه قد يسخر ممن هو أفضل منه، لكنه يزدريه لبلده أو لهيئته ورثاثة ثيابه، أو لبُكوء في كلامه، أو نحو ذلك من المظاهر التي يعتقد أنها دالة على عجز أو ضعف أو قصور، أو نحو ذلك، فينتقص هؤلاء الناس، وقد يكون هؤلاء عند الله أفضل منه.

هذا أدبٌ أدّب الله –عز وجل– به أهل الإيمان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ} [الحجرات: ١١].

وانظر إلى حالنا اليوم، وما يحصل من السخرية بين طوائف المسلمين، وعبر هذه الوسائل الجديدة التي يتداولها الناس، فتجد من هذا أشياء كثيرة في صور متنوعة، تارة تكون على سبيل الطرف والفكاهة على قبيلة، أو أهل بلد، أو نحو ذلك، مما يكون فيه نوع انتقاص لهؤلاء الناس، وهذا لا يجوز، وهذا الذي ينشرها ويرسلها، أو يضحك حينما تقال، أو يكتب ضحكته هو مشارك لهؤلاء في هذا الوزر، فلا يجوز تداول هذه الأشياء، ولا يجوز نشرها، ولا يجوز الضحك منها، بل ينكر على من فعل ذلك.

هذا تجدونه يذكر كثيرًا، ينسب إلى أهل بلد، أو رجل من أهل بلد، أو من قبيلة، أو نحو ذلك، وهذا لا يجوز.

وأما السخرية بأهل الفضل والدين والعلم والخير والصلاح في هذه الأمة فهذا أعظم وأشد، وإذا أردت أن ترى من هذا أشياء كثيرة انظر إلى التعليقات التي تكتب في هذه الوسائل الجديدة، لا يكاد يسلم أحد من السخرية، مهما كتب من الحق، ومهما كتب من الصواب، فالسخرية للأسف أصبحت صنعة لدى بعض الناس، وحرفة لا يتخلى عنها، ليس له شغل إلا السخرية بالآخرين –نسأل الله العافية–، وبئست البضاعة.

وقوله: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ} أي: لا تلمزوا الناس.

والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون؛ كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [الهمزة:١].

فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: {هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم:١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} كما قال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

اللمز هو العيب، وهذا العيب قد يكون باللسان يعني بالقول، وقد يكون بالفعل يعني كالإشارة بالعين، أو بالشفة، أو بغير ذلك مما يصدر من الإنسان بيده أو برأسه، أو نحو هذا مما يقصد به عيب الناس، فهذا كله من قبيل العيب، يعني يعيب الناس بقوله أو فعله، يبقى الفرق بين الهمز واللمز فهنا الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يقول: الهمز بالفعل، واللمز بالقول.

بالفعل –كما قلت– حركة يد أو شفة، أو حركة لسان من غير نطق، أو حركة عين، أو نحو ذلك، هذا الهمز، واللمز بالقول أن يعيبهم ويدخل في ذلك الغيبة أيضًا، فإنها عيب لهم، ولذلك ذكر بعده الغيبة.

اللمز والهمز، مضى الكلام على شيء من هذا، وأن أهل العلم غير متفقين على تفسير الهمز بالفعل واللمز بالقول، فابن جرير –رحمه الله– يعكس هذا المعنى، فيرى أن اللمز يكون باليد والعين واللسان والإشارة،

يعني يرى أن اللمز أعم وأوسع، فيشمل كل عيب، سواء كان بالقول أو بالفعل، وأما الهمز فيرى أنه لا يكون إلا باللسان.

وتأملوا هنا قوله –تبارك وتعالى–: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} ليس معناه أن الإنسان يوجه العيب إلى نفسه، وإنما كما قال ابن كثير: **أي: لا تلمزوا الناس**، وقد ذكرنا –في مناسبات متعددة– أن النفوس المجتمعة على أمر تنزل منزلة النفس الواحدة، فأهل الإيمان لما اجتمعوا عليه صاروا بمنزلة النفس الواحدة، ولهذا قال الله –تعالى–: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩] يعني لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقال في بني إسرائيل: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [البقرة: ٨٥] يعني يقتل بعضكم بعضًا.

وقال: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ١٨٨] يعني لا يأكل بعضكم مال أخيه، فنزّلت هذه النفوس منزلة النفس الواحدة.

هنا: {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} يعني لا يلمز بعضكم بعضًا.

ابن جرير –رحمه الله– يقول: فجعل اللامز لأخيه لامزًا نفسه؛ لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه ومحبته الخير، يعني هو يحب لأخيه الخير، ويزين أمره، ويذكره بما يجمله، فإن عابه فكأنما يعيب نفسه، {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} يعيب نفسه بذلك.

هذا التعبير من أدق ما يكون، حينما نهى عن اللمز قال: {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} فيستشعر اللامز لإخوانه المسلمين، الساخر منهم، أو المستهزئ بهم، أو الذي يعيبهم أنه يوجه ذلك إلى نفسه، وأن ما يعيب إخوانه فإن ذلك يرجع إليه، ويكون عيبًا فيه؛ لأن أمر المسلمين واحد.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حيَّان: {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: {وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

روى الإمام أحمد: عن أبي جَبِيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: {وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} قال: قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت: {وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} [ورواه أبو داود].

{وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} يقول هنا: أي لا تتداعوا بالألقاب، وهكذا قال ابن جرير –رحمه الله.

{وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} هذا التنابز بالألقاب يدخل فيه صور وأنواع كثيرة جداً، منها: الألقاب التي أشير إليها في هذا الحديث، مما يكون في بعض البيئات، كل إنسان لابد أن يلقب بلقب، قد يكون هذا اللقب لكلمة أخطأ فيها في يوم من الدهر، وكان ذلك سببًا لوصمه بلقب، أو كان لتصرف أو لشيء فعله، أو لغير ذلك مما يلابسه ويقارفه، أو لشيء رُمي به من غير أن يصدر منه ما يوجب ذلك، فتجد هؤلاء الناس لا يتركون أحدًا إلا بلقب.

وهذه من الأمور التي كانت تكرهها العرب في الجاهلية، وجاء الإسلام فحرمها، {وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ}.

ويدخل في ذلك أيضًا رمي الناس بالأوصاف التي لا يرتضونها، أيًّا كانت، وإن لم تكن لقبًا لهم، كأن يقول: يا فاسق، يا كذا، يا فاجر، يا كافر، فهذا أشد وأعظم -كما سيأتي إيضاحه في التي بعدها.

ويدخل في ذلك أيضًا كل لقب يكرهه الإنسان ولا يرضى أن ينسب إليه، سواء كان ذلك يرجع إلى مهنة، أو إلى طائفة ينسب إليها، وهو لا يرتضي ذلك، ولا يقر به، ولا يرضاه، لا يجوز التراشق بين المسلمين بهذه الأمور.

وللأسف لها سوق رائجة في مثل هذه الأوقات، مع ضعف الإيمان والتربية، وقلة الخوف من الله -تبارك وتعالى-، فكل من خالف هؤلاء الذين لا يتقون الله -عز وجل- لابد أن يرموه بلقب من هذه الألقاب، وإن كان لا يرضى بحال من الأحوال بشيء من هذا.

فتُركت مثل هذه الآداب الربانية الواجب اتباعها، وصار ذلك فسوقًا عند فاعليه وأهله بنص القرآن -نسأل الله العافية-، فهذا الذي يرمي الناس بهذه الألقاب، ويلقبهم بها، أو يعيرهم بها، أو يتنقصهم، أو نحو ذلك فهذا فاسق وليس بصالح، والفاسق لا تقبل له شهادة في الأصل إلا في حالات -كما هو معلوم-، ولهذا قال بعده: **{بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ}**.

وقوله: {بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ} أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه.

{وَمَنْ لَمْ يَتُبْ} أي: من هذا: {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

{وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} نقل الواحدي عن المفسرين في قوله: **{وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}** هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق، أن هذا هو التنابز بالألقاب، يعني يرميه بهذه الأحكام، أو يعير المسلم بما كان عليه قبل ذلك من ذنب ومعصية تاب منها، أو من مذهب منحرف كان عليه ثم رجع، أو مَن كان على دين فتركه ودخل في الإسلام، كأن يقول لمن كان على اليهودية: يا يهودي، والنصراني يقول له: يا نصراني وقد دخل في الإسلام، فإذا غضب منه دعاه بذلك، فهذا أسلم وكان على المجوسية، فيقول له: يا مجوسي، أو أنه يخالفه أو يخاصمه أو نحو ذلك فلا يسميه إلا بالمجوسي، فهذا لا يجوز بحال من الأحوال.

وكذلك أيضًا ما جاء عن عطاء: "كل شيء أخرجتَ به أخاك من الإسلام".

والواقع أن هذا جميعًا من باب التقريب والتمثيل، ولهذا قال بعضهم: كقول بعضهم للبعيد: كلب، خنزير، حمار، نحو ذلك، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- عمم المعنى: **{وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}** فيدخل فيه هذا جميعًا، كل ما يوجه إليه من لقب، أو اسم، أو نحو ذلك مما يكرهه، فيقال: كذا، هو كذا، يا كذا.

فهؤلاء الذين يفعلون هذا ينادون على أنفسهم بالفسق.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}** قال: أي: **بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه.**

معنى كلام ابن كثير -رحمه الله-: أن هذا الصنيع يكون فسوقًا ممن صدر عنه، بئس الحال التي تصيرون إليها بعد الدخول في الإيمان أن تتحولوا إلى حال كهذه، وهي الفسوق، أن يصدر منكم هذا العمل الذي يوجب الفسق.

وقال ابن زيد: أي بئس أن يسمى الرجل كافرًا أو زانيًا بعد إسلامه وتوبته، "بئس الاسم الفسوق" يعني أن ترمي أخاك بشيء كأن يقال: مجوسي، يهودي، بناء على ديانته السابقة، أو بناء على عمله، يقول: فاجر، زانٍ، سارق، وقد تاب من ذلك.

والذي يظهر وهو ما عليه عامة أهل العلم: أن المراد أن من قارف ذلك، وصدر منه فإنه فاسق، ولهذا فإن من أهل العلم من جعله -يعني هذا الحكم: **{بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}**- شاملاً لما ذكر قبله، فمن فعل ما نُهي عنه: السخرية بإخوانه المسلمين، واللمز، والنبز فهو فاسق، وبئس الحال التي صار إليها من الفسوق بعد الإيمان، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

{بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} يعني ما يصدر من تلك المزاولات من سخرية، وما بعدها، فهذا يوجب الفسوق.

وقوله هنا: **{وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [الحجرات: ١١] هذا كله يدل على أن هذه الأفعال محرمة، فالله -تبارك وتعالى- نهى عن ذلك، وحكم على فاعله بالفسق، وأيضًا توعدهم، قال: **{وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**.

وجاء بهذه الصيغة: الإشارة "أولئك"، وفصل بين طرفي الكلام بضمير الفصل: "هم"، وأدخل "ال" على الخبر، كل هذا يدل على توكيده، وهو يشبه الحصر، يعني كأن هؤلاء هم الذين استحقوا الوصف الكامل من الظلم، يعني هؤلاء هم الظالمون حقيقة، تقول: هؤلاء هم الأبرار، هؤلاء هم الفجار، هؤلاء هم المنفقون، فهذا كله يدل على تقوية الكلام، ويشبه الحصر.

ولابن القيم كلام في هذا، يقول -رحمه الله تعالى- معلقاً على قوله تعالى: **{وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**: "قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمّ قسم ثالث ألبته، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[١١].

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: ((رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور))[١٢] مائة مرة.

---

١١ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

١٢ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥١٦)، والترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، رقم (٣٤٣٤) وابن ماجه، كتاب الأدب، باب الاستغفار، رقم (٣٨١٤)، وصححه الألباني، في صحيح أبي داود، رقم (١٣٥٧).

وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١] إلى آخرها، إلا قال فيها: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)) [١٣].

وصح عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لن يُنجي أحدًا منكم عملُه)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)) [١٤].

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله، وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها، وأقومهم بها." [١٥]

وقال -أيضا-: "وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: {الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ} [التوبة: ١١٢].

فحفظ حدود الله جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سُمي تائبًا؛ لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته." [١٦]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} **[الحجرات: ١٢].**

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليُجتنب كثير منه احتياطًا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: "ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا وأنت تجد لها في الخير محملا".

وروى مالك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا)) [١٧] [رواه البخاري ومسلم وأبو داود].

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٨]، رقم (٤٩٦٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

١٤ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله -تعالى-، رقم (٢٨١٦).

١٥ - مدارج السالكين (١/١٩٦- ١٩٧).

١٦ - المصدر السابق (١/٣١٣).

١٧ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، رقم (٥١٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم (٢٥٦٣)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الظن، رقم (٤٩١٧)، وهذا لفظ مسلم.

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام))[١٨][رواه مسلم، والترمذي وصححه].

قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ}** [الحجرات: ١٢].

{اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس،** يعني من غير دليل، وإنما يكون ذلك مبناه على الأوهام، ولا حقيقة لذلك.

الأصل حمل الناس على ظاهرهم، وأنْ توكل سرائرهم إلى الله -تبارك وتعالى-، فمن أظهر خيرًا قُبل منه، ولم يطلب ما وراء ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليُجتنب كثير منه احتياطًا.

{اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} معناه مفهوم المخالفة: أن من الظن ما لا يكون إثمًا، لكن ما هذا الظن الذي لا يكون إثمًا؟.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذا الظن الخارج عن كونه من الإثم هو أن يظن بالمسلمين خيرًا، فالظن ينقسم إلى قسمين: ظن سيئ، وظن حسن.

{إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} فالظن السيئ إثم، ما الذي يبقى؟.

أن يظن بأخيه خيرًا.

هذا كلام ابن جرير -رحمه الله-، وهو ملحظ مهم، فهو يقول: لم يقل: إن الظن كله إثم، وإنما قال "بعض الظن إثم"، **{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}** [النور: ١٢].

وقد ذكرت في تفسير سورة النور أن المعنى: أن يظن بأخيه الظن الحسن، وهنا نزّل النفوس منزلة النفس الواحدة، **{ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ}** يعني بإخوانهم.

والمعنى الثاني الذي ذُكر: أن **{ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ}** يعني: يرجع إلى نفسه، هل يفعل أو لا؟ فإن نزه نفسه، وقال: أنا لا يصدر مني هذا لو كنت مقامه، فليس ذلك بممتنع عليه وسائغ أو واقع من أخيه، كما في قصة أبي أيوب مع امرأته في قضية الإفك: "لو كنتِ مكانها أتفعلين ذلك؟" قالت: لا، قال: وأنا لو كنت مكان صفوان لم أفعل، ووالله إنها خير منك، وصفوان خير مني".

فيرجع إلى نفسه، هل أنا أفعل هذا الشيء؟

والمعنيان صحيحان، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيرجع إلى نفسه، ويحسن الظن بإخوانه.

---

١٨ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، رقم (٢٥٥٨).

وبين المعنيين ملازمة -كما هو ظاهر-، فهنا ابن جرير -رحمه الله- يذكر هذا: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢] البعض الذي لا يكون إثمًا هو الظن الحسن بإخوانه المسلمين.

أما ظن السوء فعلى هذا يكون من قبيل الإثم؛ لأنه لا يجوز له أخذ الناس بالظن، والحكم عليهم بالظن، ولو كانوا كما قال؛ لأنه لم يقل ذلك عن علم، إنما بمجرد الظنون، أما البواطن فأمرها إلى الله -عز وجل-، ليس إليه، فلو كان كلامه بالظنون الكاذبة موافقًا لحقيقة الأمر في الباطن فإنه لا يكون سالمًا من التبعة؛ لأنه تكلم حيث لا يجوز الكلام، يعني هو ما بنى كلامه على ما يوجب ذلك، وإنما قاله بظن كاذب، فوافق وصادف أن الحال في الباطن كما قال، لكن هو لم يصل إلى هذا بطريق صحيح، فلا يكون سالمًا، لا يجوز للإنسان أن يطلق لسانه، أو يظن بالناس الظنون السيئة.

يبقى أن الظن قد يوجد في قلب الإنسان، ولا يتكلم به، فهل يكون مؤاخذًا؟

هو إن بنى عليه الحكم بأن تكلم أو تعامل مع هؤلاء الناس بمقتضاه فإنه يكون مؤاخذًا، فإن لم يصدر منه شيء، ولم يعاملهم بمقتضاه فينبغي عليه مدافعته، وأما ما يقع في القلب من الخواطر من غير إرادة فإنه يدفعها، ولا يكون مؤاخذًا على ذلك، لكن عليه أن يدفعها، وأن يلتمس المعاذير لإخوانه المسلمين.

وقوله: {وَلا تَجَسَّسُوا} أي: على بعضكم بعضًا.

والتجسس غالبا يطلق في الشر، ومنه: الجاسوس، وأما التحسس، فيكون غالبًا في الخير؛ كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} [يوسف:٨٧].

وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا))[١٩].

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم[٢٠][رواه ابن أبي حاتم].

وقيل غير هذا في الفرق بين التجسس والتحسس، لكن ذلك حينما ورد في الحديث منهيًّا عنه: ((لا تجسسوا ولا تحسسوا))، فدل ذلك على أن هذا التحسس قد يقع أيضًا في الشر، ولا يلزم أن يكون ذلك في الخير مطلقًا، لكنه قد يستعمل في الخير، أو في المباح، وقد يستعمل في غيره، وقد يكون أحدهما بالاستماع ونحوه، والآخر بالفعل ونحو ذلك، فهذا كله محرم، فإن الناس إنما يؤخذون بما ظهر منهم، ولا يطلب ما وراء ذلك.

وقد تكلم أهل العلم على الحالة التي يستثنى فيها من ذلك، بحيث يجوز فيها التحسس أو التجسس، وهي ما إذا قويت التهمة في مفسدة متعدية، قالوا: مثل المحتسب، من كان من أهل الحسبة، فإنه حينما تقوى التهمة، وتظهر أمارات قوية على ذلك في مفسدة متعدية، فيجوز في ذلك التحري، كأن يكون مثلاً رجل قد اتخذ داره

---

١٩ - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، رقم (٥١٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم (٢٥٦٣)، وهذا لفظ مسلم.

٢٠ - تفسير القرآن العظيم (٧/٣٧٩).

شراكًا للإيقاع بالنساء، أو نحو ذلك، أو اتخذ متجره لهذا الغرض، وقويت الأمارات، أو أن هذه الدار اتخذت للبغاء -أعزكم الله-، ويرى من أمارات ذلك وعلامته وما إلى ذلك مما يقوي هذه التهمة، بوجود نساء لا صلة لهن بصاحب هذه الدار، أو نحو ذلك، يدخلن، وأمور من هذا القبيل، ففي هذه الحال لا بأس في منكر متعدٍّ قد ظهرت أماراته، قويت التهمة يعني، أما ما عدا ذلك فلا، مثل أن يكون المنكر قاصرًا على نفسه، كأن يظن بهذا الإنسان مثلاً أنه يفعل معصية في داخل بيته غير متعدية، كأن يكون يشرب الخمر، أو غير ذلك، مما قد يقارفه، فهذا يكون بينه وبين الله -عز وجل-، ومعصيته لا تضر المجتمع، وإنما تضره هو فقط، فيعاقب عليها، إنما الذي يضر المجتمع ما كان متعديًّا أو ما كان ظاهرًا.

وقوله: {وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ((ذكرك أخاك بما يكره)) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته))[21] [ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وقد ورد في الغيبة الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت؛ كما قال تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}؟ أي: كما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال -عليه السلام- في العائد في هبته: ((كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه))[22]، وقد قال: ((ليس لنا مثَلُ السَّوْء))[23].

وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه -عليه السلام- قال في خطبة حجة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا))[24].

وروى أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم))[25] [ورواه الترمذي، وقال: "حسن غريب"].

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عَمٍّ لأبي هريرة: أن ماعزًا -رضي الله عنه- جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فأعرض عنه، قالها أربعًا فلما كان في الخامسة

---

٢١ – رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٤)، والترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الغيبة، رقم (١٩٣٤).

٢٢ – رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها، رقم (٢٥٨٩)، ومسلم، كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض إلا ما وهبه لولده وإن سفل، رقم (١٦٢٢).

٢٣ – رواه البخاري، كتاب الحيل، باب في الهبة والشفعة، رقم (٦٩٧٥).

٢٤ – رواه البخاري، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (٤٤٠٦)، ومسلم، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم (١٦٧٩).

٢٥ – رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤).

قال: ((زنيت؟)) قال: نعم، قال: ((وتدري ما الزنا؟)) قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالا، قال: ((ما تريد إلى هذا القول؟)) قال: أريد أن تطهرني، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب المِيل في المكحلة والرِّشاء في البئر؟)) قال: نعم، يا رسول الله، قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم ترَ إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجمَ رجم الكلب، ثم سار النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: ((أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار)) قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: ((فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها))[٢٦] [إسناده صحيح].

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس))[٢٧].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا}** [الحجرات: ١٢] وهذا نهي أيضًا وهو للتحريم، ومما يدل على ذلك أيضًا الأحاديث الواردة في هذا الباب، وكذلك أيضًا ما ذكر بعضه في هذه الآية من هذا التمثيل الذي ضربه للمغتاب وغيبته: **{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}**؟ فمثل هذا لا يقال في شيء مباح، أو مكروه كراهة تنزيه، بل إن أهل العلم عدوا الغيبة من كبائر الذنوب، وما جاء فيها من الوعيد لهؤلاء الذين يأكلون أعراض الناس، فإن الكبيرة -كما هو معروف- في ضابطها: ما جاء في خصوصه وعيد، أو عقوبة أو حد، أو نحو ذلك.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}** مضى الكلام على هذا مفصلاً في شرح الأمثال في القرآن.

ومما ذكر هناك: أن قوله: **{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}** وجه الشبه: أن هذا الذي يُغتاب غير حاضر، هو لا يستطيع الدفع عن عرضه، فهو كالميت، فكذلك شبه هنا بأكل لحم الأخ وهو ميت.

وهذا التشبيه لا شك أنه في غاية التنفير، وذلك أن الإنسان ينفر عادة من الميت ويستوحش، كما يذكر الحافظ ابن القيم وغيره، وقد ذكرت ذلك في الكلام على اتباع الأوهام، بأنه لو وُضع في حجرة مع ميت وهو يعلم أنه ميت، وأنه لن يتحرك، وأنه لن يصدر منه شيء، ومع ذلك فإنه لا يستطيع النوم في هذا المكان وعنده أحد ميت، عنده جنازة، لا يستطيع النوم في هذه الحجرة مع هذا الميت، كأنه يتوهم -كأنه يشعر- أن هذا الميت سيصدر منه شيء، سيصدر منه حركة، سيصدر منه تصرف، مع أنه يعلم بقرارة نفسه أن ذلك لا يكون، ولكن هذه هي النفوس.

---

٢٦ - رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم (٤٤٢٨)، والنسائي، كتاب الحدود، باب من قال لا يقام عليه الحد حتى يعترف أربع مرات، رقم (١٦٩٩٨)، وضعفه الألباني، في مشكاة المصابيح، رقم (٣٦٢٧).

٢٧ - رواه أحمد في المسند، رقم (١٤٧٨٤)، وحسنه الألباني، في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٨٤٠).

فهنا إذا كان بهذه المثابة، فكيف يأكل لحمه؟ فكيف إذا كان أخًا له؟.

فذكر الأخوة، وذكر أكل اللحم، وذكر الموت، وكل هذه الأمور الثلاثة موجبة للنفور من هذا.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في خطبة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا))[٢٨] ذكر هذه الثلاث، قرن الأعراض مع الدماء والأموال، وذكر هذه الحرمات الثلاث: اليوم والشهر والبلد، فدل ذلك على أن أعراض المسلمين في غاية الحرمة، فضلاً عن دمائهم وأموالهم، وأنه ينبغي الاحتراز من هذا غاية الاحتراز، وأن يتباعد الإنسان غاية التباعد عن الوقيعة في ذلك، وأن يحفظ لسانه وقلمه، وأن يتقي الله -تبارك وتعالى-، فإن هؤلاء سيقتصون منه في يوم من الدهر، ولكن من حسناته، والله المستعان.

الحال لا تسر، الغيبة والوقيعة في الأعراض فاشية في المسلمين، وهي أكثر في مثل هذه الأوقات مع هذه الأسباب التي صار الناس يتوصلون بها إلى نشر ذلك في الآفاق، يعني في السابق لربما كان الإنسان يغتاب في مجلس، يغتاب مع أحد من الناس، ويتكلم في عرض أخيه، اليوم وهو جالس في بيته يتكلم ويكتب سواء أراد أن يكون ذلك مسموعًا أو مكتوبًا، ويمكن مع المشاهدة لصورته، وهو يتكلم ويقع في أعراض المسلمين، وينتشر ذلك، فيقرؤه من بأقطارها، ويحسب أن ذلك هينًا سهلاً، ويذهب بعده ينام، أو يأكل أو يضحك بملء فيه، إنْ كانت كلمة -إشارة واحدة-: "حسبك منها أنها قصيرة" قال: ((لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته))[٢٩].

فكيف بعظائم تقال، ومختلقات وأكاذيب وفرى توجه إلى المسلمين، بل إلى خيارهم وعلمائهم وصلحائهم، والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل، أصبح الإنسان لا يفرق أحيانًا بين حال هؤلاء، هل هؤلاء الذين يكتبون هم من أعداء الإسلام أو هم من عصاة المسلمين؛ لأن الكلام لا يصدر من إنسان يتقي الله -عز وجل-، ويعلم أنه محاسب بين يديه، يعني هذه الأشياء التي تكتب أو تقال يمكن أن يكتبها عدو مندس، يمكن أن يكتبها الرافضي، ممكن أن يكتبها بعض العصاة، والله المستعان.

هذا الحديث لما قال: ((انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار))[٣٠] إلى آخره في إسناده ضعف، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا صحح إسناده.

والحديث الذي بعده: "كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فارتفعت ريح جيفة منتنة"[٣١]، هذا حسّن إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط، وكذلك الشيخ ناصر الدين الألباني.

---

٢٨ - رواه البخاري، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (٤٤٠٦)، ومسلم، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم (١٦٧٩).

٢٩ - راه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٨٣٤).

٣٠ - رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم (٤٤٢٨)، والنسائي، كتاب الحدود، باب من قال لا يقام عليه الحد حتى يعترف أربع مرات، رقم (١٦٩٩٨)، وضعفه الألباني، في مشكاة المصابيح، رقم (٣٦٢٧).

ولا شك أن الذنوب لو كان لها رائحة لما أطاق أحد مجالسة أحد، يعني الغيبة وغير الغيبة، الذنوب لو كان لها رائحة أو كان لها صورة تبدو في وجه الإنسان لما أطاق أحد أن ينظر إلى أحد، أو أنّ أحدًا يجالس أحدًا، والله المستعان.

وقوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه.

{إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نـــزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه.

وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذًا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك.

هنا في هذه التوبة يقول: قال الجمهور: طريق المغتاب أن يقلع، ويعزم ألا يعود، وهل يشترط الندم؟

الندم يشترط في التوبة، لكن يرِد عليه السؤال المعروف وهو أن الندم لا يملكه الإنسان، فقد يندم ويريد دفع الندم على خسارة، أو نحو ذلك ولا يستطيع، وقد يريد الندم ولكنه أيضًا قد لا يستطيع، يعني قد ينال من امرأة يحبها ويعشقها قبلة أو نحو ذلك مما حرم الله -عز وجل- عليه، ويريد أن يندم، فإذا تذكر ذلك لربما تاقت نفسه إليه.

ومن هنا أورد العلماء -رحمهم الله- هذا السؤال هل هذا الندم من قبيل تكليف ما لا يطاق: **{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [البقرة:٢٨٦] فهو شيء يقع في القلب من غير تطلب؟.

وقد ذكرت -في بعض المناسبات- قاعدة في هذا، وهي: أن خطاب الشارع إذا توجه إلى المكلف في أمر لا يدخل تحت طاقته فإنه يتوجه إلى سببه، أو إلى أثره، ومثلنا للأثر بقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}** [النور:٢] إقامة الحد، فالرأفة تقع في القلب من غير إرادة، رحمة رقيقة.

إذًا يكون الأثر هو تخفيف الحد، أو التقليل منه، أو الإلغاء للحد، بدافع الرأفة.

وأما السبب فمثاله الندم، فإنه ينظر في الأمور التي توجب له الندم، أنه عصى الله، وأن الله رآه، وأن ذلك مكتوب في صحيفة عمله، وأنه سيحاسب عليه، إلى آخره، فيكون ذلك جالبًا للندم.

وهنا مسألة التحلل، يقول: إن بعض أهل العلم اشترطوا ذلك، وقال آخرون: لا يشترط؛ لأنه يتأذى، هذا بالإضافة إلى أمر آخر ذكره بعض أهل العلم كالنووي -رحمه الله- أن ذلك يوجب الشحناء والنفرة، وما لا يراد أن يكون بين أهل الإيمان من التشاحن والتفرق والعداوات إذا أعلمه بذلك.

ولو قيل: إن ذلك يمكن أن يكون فيه تفصيل، بحيث ينظر إن كان ذلك -يعني الإخبار والتحلل له- يوجب عداوته أو إيلامه، أو نفرته، أو نحو ذلك فهنا يمكن أن يتحلل منه إجمالًا، يقول له: إنه وقع مني بعض ما لا يحل في حقك فحللني مثلاً، فإن كان هذا القدر يوجب أيضًا عداوته، أو نحو ذلك، كأن يكون هذا الإنسان

---

٣١ - رواه أحمد في المسند، رقم (١٤٧٨٤)، وحسنه الألباني، في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٨٤٠).

عنده ردود أفعال، أو كما يقال: يحمل عداوات، ولربما يتحامل على الناس بهذا، ويقاطعهم، أو يتمحل في السؤال، ما الذي قلته؟ وما الذي فعلته؟ ونحو ذلك، ففي هذه الحال يقال: إنه يدعو له، ويحسن أمره، ويذكر هذا الإنسان بالخير في المجالس التي ذكره فيها بالشر.

لكن أقول: ما الحاجة لمثل هذا كله؟ لماذا يطلق الإنسان لسانه بالغيبة ثم بعد ذلك يكون أسيرًا لهذا الذي اغتابه، فيبحث عن مخرج هل يذهب إليه ويتكلم معه في التحلل منه إجمالاً أو تفصيلاً، أو يدعو له، ويذكره بالذكر الحسن في المجالس التي اغتابه فيها؟، سمعت بعضهم يقول: سأتصدق عنه، كل صدقة سأجعله معي فيها، ما الحاجة لهذا؟، ما الحاجة لإطلاق اللسان أصلاً في غيبة الناس؟، فيحفظ المرء لسانه، ويتقي الله -عز وجل-، ولا يحتاج إلى مثل هذا، ولكن النفس إذا ضعفت قارفت مثل هذه القبائح، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجرات من الآية (١٣) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]: **يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما: آدم وحواء، وجعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أُخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ، وغير ذلك.**

وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: "الأشباه" لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب: "القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم"، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا منبهًا على تساويهم في البشرية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣] **أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌّ يرجع إلى قبيلته.**

وقال مجاهد في قوله: {لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣] **كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا.**

وقال سفيان الثوري: كانت حِمْير ينتسبون إلى مَخَاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

هذا من جملة الآداب التي أدب الله بها أهل الإيمان، فبعد أن نهاهم عن السخرية: {لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ} [الحجرات: ١١].

هنا بين لهم أنه خلق الجميع من ذكر وأنثى، والمشهور في أقوال المفسرين وهو المتبادر: أن المقصود بالذكر والأنثى آدم وحواء -عليهما السلام- فالأصل واحد، فعلام يكون التفاخر بالأنساب؟.

وإنما يكون التفاخر بأمر آخر هو من الأمور الكسبية، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، أو بعبارة أدق من ذلك: إنما يكون التفاضل بالإيمان والعمل الصالح، وليس بالأنساب ولا بالصور والأشكال والألوان، وإنما بما يكون عليه العبد من حاله مع ربه، فبذلك يتفاضلون، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣].

فهنا قوله –تبارك وتعالى–: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى}** يدل على هذا الأصل.

وبعض أهل العلم يقول: إن المقصود بقوله: **{مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى}** أن الله خلق الجميع من أب وأم، يعني لم يُخلق أحد هكذا مثلاً بعد آدم –صلى الله عليه وسلم–، أو يخلق من جوهر أو معدن آخر، إنما الجميع من أب وأم، وقد خرج جميعهم من مخرج البول –أعزكم الله– مرتين، فعلى أي شيء يكون تفاخرهم؟!.

لكن المشهور الأقرب –والله تعالى أعلم– أن المقصود آدم وحواء، فالأصل واحد للجميع.

وقوله –تبارك وتعالى–: **{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** هنا يقول: جعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أُخر، كالفصائل والعشائر والأفخاذ، وغير ذلك.

الشعوب جمع شَعب بالفتح.

والمقصود بالشعب كما قال ابن كثير –رحمه الله– ما هو أعم من القبائل، يعني يقال للحي العظيم، فربيعة شعب، ومضر شعب، وتحت ربيعة ومضر من القبائل الكثير –كما هو معلوم–، فبنو بكر مثلاً من ربيعة، وبنو تميم من مضر.

وكذلك أيضًا بعضهم يقول: إنهم سموا الشعب لتشعبهم واجتماعهم، كشُعب أغصان الشجرة.

مع أن أصل هذه المادة من الأضداد، يعني يقال في الاجتماع وفي التفرق، يقول: شعبته يعني إذا جمعته، وكذلك إذا فرقته.

وهذا التفسير للشعب ليس بمتفق عليه، وبعضهم يفسر ذلك بتفسير مجمل، صاحب الصحاح –أعني الجوهري– يقول: إن الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم، وقبله مجاهد يقول: الشعوب البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك، مع أن قتادة يعكس هذا، ويقول: إن الشعوب ما دنا من النسب، يعني الأقرب، وهذا خلاف المشهور والمعروف، يقول: النسب الأقرب هو الشعب، وبعضهم يقول: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، وهذا تخصيص بلا موجب، والله تعالى أعلم.

في المقابل يجعلون القبائل من ربيعة ومضر، وسائر عدنان.

وبعضهم –كما سبق– يقول: الشعوب هم بطون العجم، والقبائل بطون العرب، وأبو عبيد القاسم بن سلام –رحمه الله– يقول –كما هو المشهور–: إن الشعوب أوسع من القبائل وأكثر، ثم تأتي بعد ذلك القبيلة، ثم العِمارة بالكسر، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة، هكذا قسمها.

وعلى هذا التقسيم تكون الطبقة الأولى هي الشعب، والطبقة الأخيرة هي العشيرة، وتأتي بعد العشيرة الأسرة القريبة، وإنما العشيرة –كما سبق ذكر ذلك في بعض المناسبات– قيل لها ذلك، قيل: لمعنى المعاشرة، للقرب، يعاشر بعضهم بعضًا، ويخالط بعضهم بعضًا، بخلاف القبيلة، أو الفخذ مثلاً.

والمقصود أن الشعب على هذا يجمع القبائل، تتفرع منه القبائل، والقبيلة تجمع العماير، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، فمثلاً يقولون: إن مضر شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة –فإن قريشًا من كنانة–، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وبنو العباس فصيلة، هكذا يمكن أن يمثل لهذا.

فهذه ستة، والقرآن لم يذكر إلا ثلاثة: الشعوب، والقبائل، والفصيلة: **{وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ}** [المعارج: ١٣].

فذكر هؤلاء الثلاثة، بل ذكر رابعًا: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء: ٢١٤].

واختلفوا إلى أي حد تكون العشيرة، يعني ما هو الجد الذي يجمعهم؟، بعضهم يقول: سميت العشيرة؛ لأنهم يجتمعون في الجد العاشر، لكن هذا بعيد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال الله له: **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء: ٢١٤] قال: يا بني...[1]، فيُنظر هل هو الجد الرابع الذي يجتمعون فيه؟، أهل العلم لهم كلام في هذا، والعرب قد تطلق بعض هذه الأسماء في موضع غيرها، في الموضع الآخر، فلا يشكل عليكم مثل هذا، تجدونه في كلامهم شعرًا ونثرًا، والأمر في ذلك يسير.

لكن إطلاق الشعب على أهل البلد عمومًا، كما يطلق في هذا العصر: الشعب الفلاني هذا قد لا يكون له أصل في اللغة، أيْ خليط من الناس، مزيج من الناس، لا يرتبطون، لا بنسب وقبيلة، لا قريب ولا بعيد، أخلاط، أصول من العرب ومن العجم، ومن غيرهم.

هذا الإطلاق لا أصل له في اللغة، لكن قد يكون أخذ من هذا المعنى الواسع: أن الشعب قيل لهم ذلك؛ لتشعبهم مثلاً، فأُطلق، فيبدو أنه استعمال محدث.

هنا يقول: "**وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة، جمعتها من كتاب: "الأشباه" لأبي عمر بن عبد البر** "الإنباه" وليس الأشباه، "الإنباه على قبائل الرواة" لابن عبد البر.

وكذلك الكتاب الآخر: "القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم"، هذا أيضًا لابن عبد البر، كلاهما لابن عبد البر، الأول في أنساب الرواة، وهذا في أنساب العرب والعجم.

هنا يقول: فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء -عليهما السلام- سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله -تعالى- ومتابعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، قال: وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** [الحجرات: ١٣] يعني "اللام" هذه للتعليل، ليحصل التعارف بينكم، كل يرجع إلى قبيلته، قال مجاهد: كما يقال فلان بن فلان، يعني من أي قبيلة كان، يعني يحصل التعارف بينهم حينما ينتسبون: أن هذا من بني فلان، وهذا من بني فلان، فقط، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ليعرف بعضكم بعضًا في قرب القرابة مِن بُعده، وهذا قد يكون من المعنى الداخل فيه "لتعارفوا"، ليعرف قُرب فلان منه، وبُعد فلان منه، فهذا ابن عم قريب، وهذا ابن عم بعيد، وهذا لا قرابة بينه وبينه، وأيضًا ليعرف بعضهم بعضًا حينما ينتسب: أن هذا من بني فلان، وهذا من بني فلان، إلى آخره.

هذه هي العلة التي ذكرها الله الذي خلق الخلق، وجعلهم على هذه الأحوال، يقول: إنه جعلهم كذلك للتعارف، ليتعارفوا.

إذًا اتخاذ ذلك لغير التعارف هو معنى مرفوض، وعبث من عمل الجاهلية، التفاخر على الناس بالأنساب، وهذا مما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الأمة لا تدعه، أنه باقٍ فيها التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب، مع أنه من أعمال الجاهلية وخصالها، وهذا كما أنه موجود في قبائل العرب كذلك أيضًا هو موجود بين النواحي والأقاليم -للأسف- والبلاد المختلفة عند العرب والعجم، عند الجميع -إلا من رحم الله-، تجد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب في قوله تعالى: **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء: ٢١٤] رقم (٢٠٤).

في البلاد الأعجمية على سبيل المثال، بلاد متجاورة في الصورة الظاهرة، لا فرق بينهم إطلاقًا، لا تميز بين هؤلاء وهؤلاء، وكلهم من الأعاجم، تجد أن هؤلاء لا يزوجون هؤلاء، وهؤلاء لا يزوجون هؤلاء، كلهم من المسلمين، وتجد أنهم يحتقرونهم ويرون أنهم دونهم، وإذا أراد أن يسب أحدًا، قال له كذا، يعني العبارة التي تدل على أولئك، هذا موجود، ولطالما سألت بعض هؤلاء الذين يفتخرون ويترفعون: أنتم تترفعون بماذا؟ كلكم أعاجم، وبلادكم متلاصقة، والصورة الظاهرة متحدة، لا تفرق بين هؤلاء وهؤلاء، على أي شيء تتفاخرون؟، بماذا؟.

ما في أي موجب، إلا أنه من عمل الشيطان، وتجد أنهم لا يزوجونهم، ويحتقرونهم، ولا يرونهم شيئًا، وتجد هذا في البلد الواحد في بلاد الأعاجم أيضًا، قد نكون مثلاً في بعض البلاد الأعجمية لا نعرف إلا مسمى معيناً، والواقع أن هذا المسمى يطلق على أهل ناحية معينة في بلادهم، ويأنفون منه -يعني بقية النواحي والأقاليم- ويعتبرون أن ذلك من الانتقاص والمسبة أن يوجه لأحد مثل هذه اللفظة، ونحن نعبر بها عنهم، لا نقصد بذلك إلا التعريف، لا نعلم، نظن أنه شيء يجتمعون عليه، وإذا ذهبت إلى بلادهم، وذهبت إلى الأقاليم الأخرى يقول: أنتم تقولون عنا كذا، يعني تسموننا بكذا، ونحن لا نقبل، يعتبرون هذا من الانتقاص، مع أن هذا يمثل لربما ناحية هي أوسع تلك النواحي، بل هي أشهرها، والبقية يأنفون، ولا يرونهم شيئًا، فهذا كله من أجل ماذا؟ على أي شيء؟، **{مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** [المائدة: ٩٠].

{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣] وهؤلاء الأعاجم أيضًا هم قبائل، يرجعون إلى قبائل في الغالب، سواء كان ذلك في أفريقيا، أو كان في آسيا، أو كان في غيرها من البلاد.

وهنا يقول: قال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها، مخاليف اليمن كثيرة جدًّا، وهذه المخاليف هي نوع من التقسيم نستطيع أن نقول: الإداري، يعني مثل المديريات، أو المحافظات في العصر الحديث، يقال: مخلاف صنعاء، مخلاف صعدة، هذه كلها مخاليف في اليمن، ويقال: مخلاف بكيل، مخلاف ذمار، وغير ذلك من المخاليف التي يطول تعدادها وذكرها، يقولون: هي مثل الرساتيق للأعاجم، وقد تكلمنا على الرساتيق في موضع آخر وقلنا: مثل مجموعة من القرى في ناحية، يقال لها: رساتيق في بلاد الأعاجم، فهذه القرى المجتمعة في ناحية مثل المحافظة، وتسمى في بعض البلاد قضاء هي المخاليف، فيقولون: إن هذه القبائل في اليمن نزلت في نواحٍ، وسميت هذه النواحي بأسمائها، وصاروا ينتسبون إلى ذلك، لا أدري هل هي موجودة إلى الآن تسمى مخاليف، كذا مخلاف بني فلان، ومخلاف فلان، مديريات، محافظات، أو شيء من هذا، وكل مخلاف الأصل أنه يكون لقبيلة، هذه المخاليف في اليمن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري كان كل واحد منهم على مخلاف، وإلى عهد ليس بالبعيد كان في القريب من جيزان -أظن- المخلاف السليماني.

وقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:-

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:أي الناس أكرم؟ قال: ((أكرمهم عند الله أتقاهم)) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: ((فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن

نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله)) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: ((فعن معادن العرب تسألوني؟)) قالوا: نعم، قال: ((فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقِهُوا))[٢] [رواه البخاري في غير موضع، ورواه النسائي في التفسير].

حديث آخر: روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[٣] [ورواه ابن ماجه].

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: طاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل -صلى الله عليه وسلم- على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطبهم على راحلته، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: ((يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة -العُبِّيَّة يعني الكبر- الجاهلية وتعظُّمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تقي كريم على الله، ورجل فاجر شقي هين على الله، إن الله يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣] ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: ((أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم))[٤][هكذا رواه عبد بن حميد].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة، وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين؛ لقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

لأهل العلم كلام في مسألة النسب، هل العرب أكفاء لبعضهم؟ أو يكون الجميع في ذلك أكفاء؟، أو يقال: إن العرب أكفاء إلا قريش مثلاً؟

وكلام أهل العلم في مراعاة مثل هذا معروف، والإمام أحمد -رحمه الله- وإسحاق بن راهويه أيضًا لهم كلام فيما إذا تزوج من كانت غير مكافئة له في النسب، فيرون أن ذلك إذا أجازه العصبة، أو أجازه بنو العم فإن ذلك يكون مراعاة لما قد يحصل من إشكالات بسبب هذا في البيئات التي يحصل فيها بسبب ذلك قطيعة وصرم، ولربما قتل، والله المستعان.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- زوج ابنة عمته زينب بنت جحش -رضي الله عنها- بمولاه زيد بن حارثة -رضي الله عنه-، ثم تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولو نظرتم في ترجمة زيد بن حارثة -رضي

---

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} [يوسف: ٧]، رقم (٤٦٨٩) وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ} [البقرة: ١٣٣] رقم، (٣٣٧٤).

٣ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤).

٤ - رواه ابن أبي شيبة، كتاب المغازي، حديث فتح مكة، رقم (٣٦٩١٩) وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٢٨٠٣).

الله عنه- تزوج نحو سبع نسوة، هؤلاء النسوة فيهن ما لا يقل عن خمس من أشراف العرب في النسب، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، أول مهاجرة بعد صلح الحديبية، وهو مولى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وعقبة بن أبي معيط معروف أنه من أشراف قريش، فزوجه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يجد في ذلك غضاضة، والوقائع في السيرة التي تدل على هذا معروفة، وكثير من العامة لربما يترخصون حينما يكون لهم هوى في ذلك، فإذا أراد أن يتزوج الواحد منهم امرأة يرغبها، وليس لها نسب معروف أصلاً، فيذهب ويتزوج، ويعلل ذلك بأن المرأة مثل الوعاء، يقولون: "ماعون"، وأن التزوج بها لا يضره في نسبه، ولو كانت غير ذات نسب، ولكن لو طلب منه أن يتزوج أو أن يزوج ولده مثلاً من امرأة من بلده ممن قد لا يكون لها نسب معروف، أو نحو ذلك قد يأنف غاية الأنفة، لكنه يذهب إلى بلاد أخرى يتزوج امرأة لا يعرف لها نسبًا أصلاً، ولا يعرف تربيتها، ولا منشأها، وعلى أي حال هي، إنما تعجبه صورتها حينما تعرض عليه، فيأتي بها ويتزوجها، وقد تكون غير مسلمة أصلاً، قد تكون نصرانية، قد تكون ولدت قبل عقد الزواج، عادة ينجبون الطفل الأول أو الطفل الأول والثاني قبل عقد الزواج، ويتزوجها، ولو قيل له: تزوج من البلد امرأة ولدت قبل عقد النكاح لاعتبر ذلك شتمًا ومسبة، لا يمكن أن يقبل سماع هذا الكلام، فضلاً عن أن يتزوج بها.

فتجد أن المقاييس والموازين غير قائمة على أصل صحيح، فهذا الذي لربما يتعصب غاية التعصب في هذه الأمور، ويذهب ويتزوج امرأة لو سئل: ما نسبها؟ إلى من ترجع من قبائل العرب؟

لا يوجد شيء، قد لا تعرف هي، وأهلها لا يعرفون أكثر من الجد الرابع، فأين هذا النسب الذي يقف عنده ويتعصب له، ويقاطع ويوالي، ويفتخر من أجله؟، فليس هناك ميزان يمكن أن ينضبط مع هؤلاء الناس، فالله -عز وجل- قال: **{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}** فللإنسان أن يراعي ما يتعلق بالصلات: صلات القرابة، وألا يتصرف بتصرف يمكن أن يؤدي إلى قطع قراباته وعداواتهم، أو قتل، أو نحو ذلك، فلا بأس أن يتحاشى هذه الأمور، لكن ليس معنى ذلك أنه يفتخر، أو يحتقر الآخرين، وهذا للأسف أحيانًا يصل إلى حالات مشينة، والله المستعان.

{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات:١٤- ١٨].

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل -عليه الصلاة والسلام- حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: أعطى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجالا ولم يُعطِ رجلا منهم شيئًا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانا ولم تُعط فلانًا شيئًا، وهو مؤمن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أو مسلم؟)) حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أو مسلم؟)) ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعطي رجالا وأدع من هو أحب إليّ منهم فلم أعطه شيئًا؛ مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم))[٥] [أخرجاه في الصحيحين].

فقد فرق النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من "صحيح البخاري" ولله الحمد والمنة.

فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأُدبوا في ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** بعض أهل العلم يقول: إن وجه الارتباط بين هذه الآيات وما قبلها من الآداب كقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** يقولون: لما قرر أن الأكرم عند الله -تبارك وتعالى- هو الأتقى، يقول: فادعى بعض الأعراب الإيمان، ليحصّلوا مرتبة لم يصلوا إليها، ويرتقوا مرتقى لم يحققوا شرطه، فرد عليهم بهذه الآيات: **{وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** هكذا قال بعض أهل العلم.

وهذا يتصل بالآداب إما من هذا الوجه، أو من ناحية أخرى، وهي ما يتعلق بالتفاضل أيضًا، لمّا كان التفاضل بالتقوى فرّق بين من حقق الإيمان ومن لم يزل دون ذلك، أسلم ظاهرًا ولمّا يدخل الإيمان قلبه، فهذا له تعلق بالتفاضل، كذلك أيضًا الدعاوى التي قد يدعيها الناس دون أن يكون لها حقيقة.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا}** بعضهم يقول: هؤلاء الأعراب هم من بني أسد.

وبعضهم يقول: من بني أسد وكذلك خزيمة، أظهروا الإسلام في سنة مجدبة، من أجل الصدقة.

ومن هنا اختلف أهل العلم في هؤلاء الأعراب، هل هم منافقون أو غير منافقين؟ هل هم من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم دون أن يكونوا من المنافقين، أو أنهم من المنافقين؟.

فبعض أهل العلم يقول: هؤلاء كانوا من المنافقين باعتبار أن الله نفى عنهم الإيمان: **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** فالمنافقون يظهرون الإسلام ظاهرًا، ولكن الباطن لم يتحلَّ بالإيمان، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، فقالوا: حينما نفى الله عنهم ذلك **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** فإن هذا لا ينتفي عن المؤمن بحال من

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، رقم (١٥٠)، وأبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٣) والنسائي، كِتَابُ الْإِيمَانِ وَشَرَائِعِهِ، تَأْوِيلُ قَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: ١٤]، رقم (٤٩٩٢) وأحمد، رقم (١٥٢٢).

الأحوال؛ إنما يكون ذلك وصفاً للمنافق، هكذا احتجوا، وممن ذهب إلى هذا جماعة، كالزجاج، ومن المفسرين أيضًا الشوكاني والشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحم الله الجميع.

ابن كثير هنا يقول: إن هؤلاء لم يكونوا من المنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، يعني كانوا قد دخلوا في الإسلام من غير نفاق، ولكن لم يحسن إسلامهم بعد، ويدخل الإيمان في قلوبهم، ويتمكن منها.

والحافظ ابن القيم –رحمه الله– ينتصر لهذا القول من وجوه متعددة، يأخذها من هذه الآيات.

ابن كثير –رحمه الله– يقول هنا في الأصل: "وإنما قلنا ذلك؛ لأن البخاري –رحمه الله– قال..، يعني نبهْنا على أنهم ليسوا بمنافقين؛ لأن البخاري قال: إنهم كانوا من المنافقين.

لكن الذي يحتج به من قال: إنهم من المنافقين: أن الله نفى عنهم الإيمان، ولا ينتفي إلا عمن كان منافقاً، فالمؤمن لا يُنفى عنه الإيمان، لكن هؤلاء يجيبون عن هذا بأجوبة، ويحتجون على أنهم كانوا من المسلمين لكن لم يحققوا الإيمان الكامل، كان هؤلاء من ناقصي الإيمان.

قال الإمام الحافظ ابن القيم –رحمه الله–: "قوله تعالى: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا}** نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه"[٦].

لاحظ الإيمان المطلق، يعني الإيمان الكامل، أما مطلق الإيمان فيعني أدنى ما يتحقق ويصدق عليه الإيمان، يعني الإيمان المنجي ولو كان ناقصًا.

وقال: " لوجوه منها: أنه أمرهم، أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء لا نفاقاً وكفرًا"[٧].

قد يرِدُ على هذا أنه هل هؤلاء الأعراب الذين قال الله عنهم: **{وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** هم نفس الذين ينادونه من وراء الحجرات؟

لا يلزم؛ لأن أهل العلم مثلاً من قال: هؤلاء من بني أسد، أو من خزيمة قالوا: جاءوا في سنة مجدبة، فأظهروا الإسلام من أجل الصدقة، أن يعطوا من الصدقة.

وقال –أيضا–: "ومنها: أنه قال: **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** ولم ينفِ دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى الإيمان"[٨].

وهذا يرِدُ عليه أنه هنا نفى عنهم الإيمان في القلوب، والإسلام والإيمان إذا ذكرا: فالإيمان ما يتصل بالقلب، والإسلام إسلام الظاهر، فهنا ما يقال: إنه لم ينفِ الإسلام عن قلوبهم، فإذا نفى الإيمان عن قلوبهم فبقي الإسلام إنما هو في الظاهر فقط.

---

٦ – بدائع الفوائد (١٧/٤).

٧ – المصدر السابق.

٨ – المصدر السابق.

وقال –رحمه الله-: "ومنها: أن الله –تعالى- قال: **{وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا}** أي: لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له"[٩].

نعم، هم لو أطاعوا الله ورسوله وكانوا محققين لشرطه فإن الله لا ينقصهم، فهذا معلق على شرط، يعني كل هذا ليس بدليل واضح على أن هؤلاء كانوا من غير المنافقين، مع أن هذا لا يستبعد أن يكون هؤلاء لم يقصدوا بذلك النفاق، وإنما هم أناس أظهروا الإسلام، ولم يعرفوا حقائقه، ولم يتغلغل ويتمكن في نفوسهم، هذا لا إشكال فيه، لكن الكلام في الوجوه التي يستدل بها لهذا، فالمقام يحتمل.

وقال –رحمه الله-: "ومنها: أنه قال: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم}** فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم"[١٠].

هو هذا، الإشكال فيه؛ لأنه قال: **{وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** الكلام في نفي الإيمان عنهم، يعني هذا الآن التعداد لهذه الحجج والوجوه أكثرها قد لا يكون متجهًا في موضع الإشكال، نفى عنهم الإيمان، هذا الذي يحتاج إلى جواب، أمّا أنه أثبت لهم الإسلام فهؤلاء لا ينكرونه –أي الذين قالوا: إنهم من المنافقين-، إسلام الظاهر، لكن قال: **{وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا}**، وقال: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}** هذا هو الذي قد يُحتج به: **{أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}** فأثبت لهم إيمانًا، لكن لأولئك الذين قالوا: إنهم كانوا من المنافقين أن يجيبوا عن هذا بجواب، كأن يقول قائل: إن الله –عز وجل- يذكر منته على عباده فيمن هداهم إلى الإيمان، ولا يعني أن هؤلاء قد حققوا هذا الإيمان.

يقول ابن القيم: "ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذبهم في قولهم: **{نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}** [المنافقون: ١] لمّا لم تطابق شهادتهم اعتقادهم"[١١].

هناك فرق بين هذا وهذا، هنا: **{قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** [المنافقون: ١] فهذه الشهادة كاذبة، لكن هنا إسلام الظاهر يثبت لهؤلاء الذين أظهروه، لكن يبقى الإيمان، فلو كان هؤلاء من المنافقين؛ لأنه تُجرى عليهم أحكام الإسلام لمَا أظهروا.

وقال أيضا ابن القيم –رحمه الله-: "ومنها أنه قال: **{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ}** ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم.

ومنها: أنه قال: **{أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}**، ولا ينافي هذا قوله: **{قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا}** فإنه نفَى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذى هو متضمن لمطلق الإيمان"[١٢].

هذا والذي قبله واحد: **{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ}** هذا متصل بما بعده: **{يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}** المنة بالهداية للإيمان، يعني هذا وجه الاحتجاج، فدل على أنهم كانوا مؤمنين، الاثنان واحد.

---

٩ – المصدر السابق.

١٠ – المصدر السابق.

١١ – المصدر السابق.

١٢ – المصدر السابق.

وقال -رحمه الله-: "ومنها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قسم القسم، قال له سعد: أعطيت فلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن؟ فقال: أو مسلم؟ ثلاث مرات[١٣]، وأثبت له الإسلام دون الإيمان، وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها"[١٤].

هذا يحتمل، وأهل العلم اختلفوا فيهم -كما سبق-، والمقام يحتمل، ولا يترتب بالنسبة إلينا على هذا شيء، فيوجد في الآية قرينة تدل على أنهم كانوا غير منافقين، وهي قوله: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ}.

ويوجد فيها قرينة على أنهم كانوا منافقين، وهي قوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}.

ولو قيل: إن هؤلاء كانوا من الأعراب، فأظهروا الإسلام، ولكن على جهل وجفاء، دون أن تخالط بشاشته قلوبهم لكان هذا له وجه، فإن الرجل قد يدخل في الإسلام لرغبة أو رهبة من غير نفاق، ثم بعد ذلك يحسن إسلامه، كما حصل لكثير ممن دخلوا عام الفتح، فهؤلاء قد يحصل منهم ردة لعارض، ولكن قد يحصل لهؤلاء ثبات، ويحسن إسلامهم بعد ذلك.

قال: "**وهذا معنى قول ابن عباس -رضي الله عنهما- وإبراهيم النخعي وقتادة، واختاره ابن جرير**".

ابن جرير -رحمه الله- يقول: ولما يدخل العلم بشرائع الإيمان، وحقائق معانيه في قلوبكم، {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ} فسره بهذا، يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائق معانيه في قلوبكم.

وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: {قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: {وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئا؛ كقوله -عز وجل-: {وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ} [الطور:٢١].

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: لمن تاب إليه وأناب.

وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} أي: إنما المؤمنون الكمَّل: {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض: {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أي: في قولهم إذا قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} أي: أتخبرونه بما في ضمائركم؟ {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

---

١٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، رقم (١٥٠).

١٤ - بدائع الفوائد (١٧/٤).

ثم قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم} يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول الله ردًّا عليهم: {قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ} فإنّ نفعَ ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه.

يعني كانوا يقولون: أسلمنا وتابعناك ولم نقاتلك، أسلمنا طواعية، ولم نكن كسائر العرب، يمنون على النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا، يقولون: أتيناك طواعية بأهلنا من غير قتال.

{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- للأنصار يوم حنين: ((يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟)) كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[١٥].

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم))، ونزلت هذه الآية: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[١٦].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

---

١٥ – رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠).

١٦ – رواه البزار، رقم (٥١٤١) وقال البزار: "وَهَذَا الْحَدِيثُ لا نعلَمُ أَحَدًا رَوَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم- بِهَذَا اللَّفْظِ إِلاَّ ابْنُ عَبَّاسٍ، ولاَ لَهُ طَرِيقًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلاَّ هَذَا الطَّرِيقَ، ولاَ نَعْلَمُ أَسْنَدَ مُحَمدُ بْنُ عُبَيد اللَّهِ عَن سَعِيد بْنِ جُبَيرٍ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ، ومُحَمَّدُ بْنُ عُبَيد اللَّهِ هُوَ: أَبُو عَوْنٍ".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجرات: (مسألة في قوله تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦])

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

مسألة في قوله تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات:٦].

بقي بقية -كما وعدتكم من قبل- في مسألتين مما سبق الكلام عليه:

الأولى: في تفسير سورة الحجرات، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات:٦].

فقوله: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ}، من هذا الفاسق؟ كثير من المفسرين يقولون: إنه الوليد بن عقبة، والمرويات في أسباب النزول كثيرة، وهذه المرويات وإن كان كثير منها لا يخلو من ضعف إلا أنها بمجموعها تتقوى، فالنظر في هذا من جهتين:

الجهة الأولى: من جهة صحة الروايات في أسباب النزول.

والجهة الثانية: فيما يتعلق بالمتن، يعني: هل كان الوليد في ذلك الوقت في سن يؤهله أن يرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- جابيًا ليأخذ الصدقات أو لا؟

هذا موضع الكلام في هذه المسألة.

أولاً: الروايات في أسباب النزول، فالروايات التي جاءت بها منها مسندة ومنها مرسلة، يعني: بعض هذه المرويات مسندة، وكثير منها مراسيل، والمراسيل كما هو معروف إذا تنوعت طرقها وتعددت فإن ذلك يورثها قوة، فالمسندة تبلغ نحو خمس روايات، وهي: ما يرويه الحارث بن ضرار المصطلقي، وعلقمة بن ناجية المصطلقي، وجابر بن عبد الله، وأم سلمة، وابن عباس -رضي الله عنهم-، فهذه خمس روايات مسندة، وأما المرسلة فخمس: عن مجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ويزيد بن رومان.

فمن هذه الروايات المسندة رواية الحارث بن ضرار الخزاعي، وهي أولها، وهي مخرجة عند الإمام أحمد -رحمه الله- وغيره، وقد حكم عليها السيوطي فقال: بإسناد جيد، والواقع أن إسنادها لا يخلو من ضعف، قال ابن كثير -رحمه الله-: وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية الحارث، يعني: أن قوله: "ومن أحسنها" لا يدل على التصحيح، ونقل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في كتابه الإصابة في ترجمة الوليد بن عقبة عن ابن عبد البر قوله: لا خلاف بين أهل العلم في تأويل القرآن أنها نزلت فيه، يعني: في الوليد، هذا كلام حافظ المغرب ابن عبد البر، يقول: "لا خلاف"، مع أن الروايات الواردة ليس كلها بمصرَّح فيها باسم الوليد، ففي بعضها إبهام.

الرواية الثانية: رواية علقمة بن ناجية، وهذه الرواية أخرجها ابن أبي عاصم، والطبراني، وابن عساكر، وقال عنها الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين، وذكر في الإسناد الأول رجلا ضعيفاً، ولم يذكر أن في السند الثاني ضعيفا أيضاً، مع أن في إسنادها الثاني أيضا: يعقوب بن محمد، وقد ضُعِّفَ.

الرواية الثالثة: رواية جابر بن عبد الله عند الطبراني في الأوسط، وهذه الرواية أيضا في إسنادها رجل ضعيف، وذكر هذا أيضا الهيثمي.

الرواية الرابعة: رواية أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-، وهذه عند ابن جرير الطبري في التفسير، والطبراني في الكبير، وأيضا في إسنادها رجل ضعيف.

الرواية الخامسة: رواية ابن عباس -رضي الله عنهما- عند ابن جرير بالإسناد المسلسل بالضعفاء، وهو: الإسناد المعروف: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي... إلخ، فهذا إسناد ضعيف، فهذه هي الروايات المسندة.

أما الروايات المرسلة فكما قلنا: روايات مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى، وعكرمة، ويزيد بن رومان، ونحن نعرف أن المرسل من أنواع الضعيف، لكن بمجموع هذه المراسيل تتقوى الرواية، وذلك إذا جاءت تلك الروايات من طرق ووجوه متعددة، وإذا صح سندها إلى من أرسلها، فهذه هي المرويات.

ثانيا: المتن، فلو نظرنا إلى المتن لوجدنا أن في بعضها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل جيشًا في أعقاب هذا الخبر، واختلفت هذه الروايات التي ذكرت هذا الجيش من الذي كان يقوده، ففي بعضها: أنه خالد بن الوليد، وفي بعضها في رواية جابر: أنه نوى أن يبعث علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-، ثم اختلفت الروايات أيضا في الجيش الذي بعثه إليهم بعد خبر الوليد: هل وصل إلى بني المصطلق، أو أنه لقيهم في الطريق، ففي رواية الحارث: أن بني المصطلق استبطئوا رسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فخرجوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن الوليد رآهم في الطريق فخاف، وعاد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبره، ولم يعلموا بقدومه إليهم، بل تفاجئوا بالجيش الذي بعث إليهم، بينما في بعض الروايات الأخرى: أنهم علموا بمقدمه، فخرجوا لاستقباله، إلا أنه خاف حين رآهم فرجع.

والعلماء تكلموا في هذا، وأن الله -تبارك وتعالى- حكم بالفسق فقال: **{إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ}**، فكيف يحكم على رجل له صحبة كما في الروايات هذه، يحكم عليه بالفسق؟، وقد أنكر بعض أهل العلم أن يكون الوليد هو السبب في النزول، وممن أنكر ذلك: أبو بكر بن العربي، وذلك أنه بنى على بعض الروايات التي يؤخذ منها أن سنه كان صغيرًا في ذلك الحين، ومثله لا يُرسل جابيًا للصدقات، ثم يقول: كيف يُفسَّق رجلٌ من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وأما ما يتعلق بحده في الخمر فيقول: ليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة، هذا حاصل كلام ابن العربي، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- يقول: والرجل قد ثبتت صحبته، وله ذنوب أمرُها إلى الله -تعالى-، والصواب: السكوت.

أما الجانب المهم في هذا الموضوع مما يتعلق بالمتن فهو: كم كان سن الوليد حينها حتى لو صحت الروايات؟ يعني: لو ثبت أنه صغير فإن هذا يمكن أن يكون سببًا لرد هذه المرويات التي يذكر فيها أنها نازلة في الوليد.

أما غزوة بني المصطلق هذه فذكر موسى بن عقبة: أنها في السنة الرابعة، وقال الواقدي: إنها في السنة الخامسة قبل الخندق، وذكر ابن اسحاق: أنها في السنة السادسة، ورجح ابن القيم بمرجحات متعددة: أنها في

السنة الخامسة قبل الخندق، ورجح ابن عبد البر: أنها في السنة الخامسة بعد الخندق، وعلى هذا فهم متفقون أنها كانت قبل فتح مكة.

وأما الوليد بن عقبة فكان إسلامه عام الفتح، لكن ما سنه حينما أسلم؟ بعض هذه الروايات تقرر: أنه لا زال صغيرًا صبيًّا، وبعض هذه الروايات تدل على أنه كان في سن الرجولة، ففي بعض هذه المرويات يقول الوليد: لما افتتح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مكة، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم، فيدعو لهم بالبركة، ويمسح على رءوسهم، فجيء بي إليه وأنا مُخلَّق –يعني: بالطيب–، فلم يمسني من أجل الخَلوق، أي: من أجل الطيب، لأنه مُحرِم –صلى الله عليه وسلم–، فهذه الرواية معناها: أنه كان صغيراً، وهذه الرواية هي التي تمسك بها ابن العربي، وقال: إن من كان بهذه المثابة لا يُرسل جابياً للصدقات، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– معلوم أنه توفي بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة، يعني: بعد فتح مكة بقي النبي –صلى الله عليه وسلم– مدة قليلة، فالفتح كان في الثامنة، فبقي التاسعة والعاشرة، وبعد حجته –صلى الله عليه وسلم– بمدة ليست بالطويلة قبض، فعلى هذا يكون هذا الصغير الذي جاء به أهله لم يبلغ مبلغ الرجال، فلا يصلح أن يُبعث لهذا الغرض.

لكن هذه الرواية لا تصح، حكم عليها بعض أهل العلم بأنها منكرة، وممن ردها: ابن أبي خيثمة، وابن عبد البر، وتبعهم الحافظ ابن حجر؛ لجهالة أبي موسى الهمداني، هذا الذي يرويها، وقال: الحديث منكر مضطرب، لا يصح، واستدل الحافظ على اضطرابه بقوله: ومن يكون صبيًّا يوم الفتح كيف يبعث مُصدِّقًا بعد الفتح؟ يعني: بناء على الروايات الأخرى الكثيرة.

أما من استدل على أنه كان كبيرًا يوم الفتح فاستدلوا بما روى أهل السير والتواريخ في قصة صلح الحديبية في السنة السادسة من أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط لما خرجت إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– مهاجرة في الهدنة سنة سبع خرج أخواها: الوليد وعمارة؛ ليرداها، فمن يكون صبيًّا يوم الفتح كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح؟.

لكن هذه الحادثة أيضا ضعيفة، ذكرها ابن سعد دون إسناد، وعند ابن عساكر رواها بسنده إلى محمد بن عمر الواقدي، وذكر أسماء النفر الذين قدموا في الأسرى من بني عبد شمس، وذكر منهم: الوليد بن عقبة، في أسارى بدر.

لكن هذه الرواية مرسلة، والواقدي متروك.

كذلك أيضا يستدل من قال: إنه كان كبيرًا حينها بقصة شكوى زوجته للنبي –صلى الله عليه وسلم–، كما جاء عن علي –رضي الله عنه–: أن امرأة الوليد بن عقبة جاءت إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– تشتكي الوليد أنه يضربها، فقال لها: ارجعي، فقولي: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد أجارني، قال: فانطلقت، فمكثت ساعة، ثم إنها رجعت، فقالت: يا رسول الله، ما أقلع عني، قال: فقطع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هُدبة من ثوبه، فأعطاها، فقال: قولي: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد أجارني...، إلخ، فرفع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يديه فقال: اللهم عليك بالوليد، مرتين أو ثلاثا.

لكن هذه الرواية أيضا ضعيفة، وعلى هذا فلا يصح شيء من هذه الروايات التي تدل على أنه كان صغيرًا أو أنه كان كبيرًا، وابن عبد البر -رحمه الله- يقول: أظنه لما أسلم كان قد ناهز الحلم، بينما قال آخرون: إنه كان طفلا، وبعضهم قال: كان كبيراً، والحافظ ابن حجر في التهذيب يقول: ويدل على أنه كان من زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلا ما ذكره أصحاب المغازي: أنه قدم في مدة الحارث، يعني: ابن عم أبيه الذي أسر في يوم بدر، فافتداه بأربعة آلاف.

فإذا لم يثبت شيء من هذه الروايات: أنه كان صغيرًا فهذا هو المهم، فإن مجموع هذه الروايات لا شك أنه يدل على أن أصل ذلك صحيح، وابن عبد البر -رحمه الله- نقل الإجماع عليه، لكن سمعتم كلام أهل العلم في هذا، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ق من الآية (١) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [سورة ق:١-٥].

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات، وأما ما يقوله العوام: إنه من "عَمَّ" فإنه لا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء -رضي الله عنهم- المعتبرين فيما نعلم، إذا عُلم هذا فإذا عددتَ ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة "ق"، بيانه: ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، وسبع: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وإحدى عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان و"الم" السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وثلاث عشرة: الصافات و"ص" والزمر وغافر وحم السجدة و"حم عسق" والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك حزب المفصل كما قاله الصحابة -رضي الله عنهم-، فتعين أن أوله سورة "ق"، وهو الذي قلنا، ولله الحمد والمنة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى الكلام عن الحروف المقطعة وأن الأقرب أنها حروف تهجٍّ لا معنى لها في نفسها، وإنما فيها إشارة إلى الإعجاز لهذا القرآن الذي تحدى الله -تبارك وتعالى- به أنه مركب من هذه الحروف التي تركبون منها كلامكم فأتوا بمثله، أما ما يذكر من معانٍ كثيرة -كما تعرفون قد اختُلف في هذه الحروف المقطعة على نحو من أربعين قولاً، لاسيما بعض الأقوال البعيدة جداً كقول من يقول: إن "ق" مثلاً هنا هو جبل محيط بالأرض- فأشياء لا أصل لها ولا حقيقة لها.

وأما ما ذكره من أن "ق" هي أول المفصل وما احتج له من قوله: **إذا علم هذا فإذا عددتَ ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ق بيانه: ثلاث... الخ**، فالمقصود بهذا التقسيم الذي كان عليه عامة السلف -رضي الله عنهم- في جعل القرآن على سبعة أجزاء أو أقسام، فما كانوا يقسمون للتلاوة والختم على هذه الأجزاء الثلاثين، أو أكثر أو أقل من هذه التجزئة التي كانت بعد عهد الصحابة -رضي الله عنهم-، وإنما كانوا يقسمون بالسور، فختم القرآن في سبعة أيام أو في سبع ليالٍ، كيف يقسم؟

يقسم بهذه الطريقة، وكان أكثر السلف -رضي الله عنهم- يختمون في سبع، وكما قال شيخ الإسلام: إن التقسيم بالسور موافق لطريقة السلف وهو أحكم من طريقة الخلف؛ لأن طريقة المتأخرين على التجزئة التي نقرأ بها لربما ينتهي الجزء في وسط القصة، فضلاً عن السورة، فتنقطع المعاني.

أما السلف فكانت تُقرأ السورة كاملة كما في هذا التقسيم، هذا أوفق وأنفع بلا شك، المهم أنه يحتج لهذا -لكونها أول المفصل- بالتقسيم الذي كان عليه السلف، فكان حزب المفصل هو الأخير، فإذا حُسب بهذه الطريقة كانت سورة "ق" هي أول المفصل وليست الحجرات.

روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في العيد؟ قال: "بقاف واقتربت"[1]، ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

حديث آخر وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: "لقد كان تَنُّورُنا وتنور النبي -صلى الله عليه وسلم- واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت {ق وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ} إلا على لسان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس"[2]، رواه مسلم.

ظاهره أنه كان يقرأ السورة كاملة على المنبر في الخطبة، ولو قيل: إنه كان يكتفي بقراءتها لم يكن ذلك بعيداً، وقولها: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرؤها كل جمعة يمكن أن يُحمل هذا على الكثرة، وإلا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كانت له خطب كما هو معروف ونُقل بعضها، وإنما مثل هذا يمكن أن يُحمل على الكثرة أنه كان يخطب بها لما تضمنته هذه السورة من المعاني والمقاصد، وهكذا السور التي تُقرأ كسورة الكهف يوم الجمعة، والقراءة في صلاة الفجر السجدة والإنسان، فهذه كلها فيها ما يتصل بالبعث والنشور وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، وما يتعلق بالآخرة، وما يُذَكِّر بيوم القيامة، كل هذه السور تتحدث عن هذه القضايا، وأما ما يذكره بعضهم من معانٍ بعيدة فهذا لا يُلتفت إليه، يعني بعض الناس يفلسف هذه القضايا بطريقة لا تصلح أبداً، مثلاً سورة الكهف في أولها الكلام على قصة أصحاب الكهف، فهذه البداية في الدعوة بالعزلة، لجئوا إلى الكهف، وهذه مرحلة التربية، ثم يجعل هذه المراحل إلى أن يأتي ذو القرنين في الأخير، فيقول هذه مرحلة القوة وبناء الدولة، ومن هذا الكلام الذي لا أصل له، فيجعل القضية على ثلاث مراحل، ومن ثَم يقول: يؤخذ من سورة الكهف أن الدعوة تكون على مراحل وكلام يُنشر ويجد من يتلقفه ويتأثر به، وهذه القضايا تتحدث عن الآخرة وليست تتحدث عن عمارة الدنيا، وهذا يجعل ذلك في الدنيا وعمارتها، عكس ما قصده القرآن تماماً، فقصة أصحاب الكهف التي ذكرها الله -عز وجل- لبيان قدرته على إحياء الموتى هذه القصة أحد البراهين الدالة على هذا المعنى، إحياء من أماتهم فجعلها آية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف:9].

1- رواه مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، برقم (891)، والنسائي، كتاب صلاة العيدين، باب القراءة في العيدين بقاف واقتربت، برقم (1567)، وأحمد في المسند، برقم (21946)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (1047).

2- رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (873)، وأحمد في المسند، برقم (27456).

وليس في المرحلة الأولى من التربية الذاتية، وقل مثل ذلك فيما ذكر في ثنايا السورة قصة موسى -عليه السلام- مع الخضر، وما إلى ذلك.

وروى أبو داود عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت ق إلا من فِي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب بها كل جمعة قالت: "وكان تنورنا وتنور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واحداً"[٣]، وكذا رواه مسلم والنسائي، والقصد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجُمع لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، والله أعلم.

هذا كلام أهل العلم، تنتشر أشياء للأسف خفيفة وقصيرة كتيبات لربما في ثلاث أو أربع صفحات جميلة ولها غلاف تستهوي الناس، أو تستهوي بعض القراء، وفيها مثل هذه الأمور التي قد لا تكون صحيحة.

وقبل مدة قريبة اطلعت على كتيب عليه سورة بصمة يد كاملة للأسماء الحسنى، وكل اسم له معطًى معين وله رسالة معينة لنفس الإنسان يتذكرها إلى آخره، وهذه الأسماء أولاً بعضها لا يثبت، والمعاني التي ذكرها قد يقال غيرها أصلاً، وينتشر.

"ق" حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى: {ص} و{ن} و{الم} و{حم} و{طس} ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

ولا يقال -كما سبق-: إن حروف التهجي هذه من كونها لا معنى لها أنه يوجد في القرآن شيء لا معنى له؛ لأن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، التي هي حروف المعاني، أما حروف المباني التي تركب منها الأسماء والأفعال أو حروف المعاني مثلما نقول: زيد فالزاي والياء والدال لا معنى لها في نفسها إطلاقاً، ولا معنى لها في غيرها، ولكن يركب منها الكلام، ومن ثَم حينما يقال: القرآن لا يوجد فيه شيء ليس له معنى، ليس فيه حشو فهذا في الكلام الذي له معنى في الأصل، لا يوجد فيه لفظة ليس فيها معنى، ولا شيء من التراكيب، وأما هذه فحروف تهجٍّ وحروف التهجي في لغة العرب لا معنى لها، وإنما جاءت للإشارة إلى الإعجاز، -والله أعلم-، وهذا لا ينافي ما قد علمتم من أن القرآن ليس فيه حشو، وإنما كل ما فيه قد جاء لمعنى.

وقوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، أي الكريم العظيم الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢].

هذه المعاني التي ذكرها للمجيد قال: **الكريم العظيم**، وهكذا ما جاء عن بعض السلف كالحسن: رفيع القدر أو ما جاء عن بعضهم: كبير القدر، هذه معانٍ متقاربة، والمجد أوسع من ذلك كله، يأتي -إن شاء الله تعالى- في الأسماء الحسنى الكلام على المجيد فهو يتضمن صفة المجد التي هي أوسع الصفات يسمونها في تقسيم

٣- رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٧٣)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، برقم (١١٠٢).

الصفات "الصفات الجامعة"، يعني: التي يلتئم تحتها معانٍ كثيرة فهي تدل على معنى الكثرة والسعة في الكمالات والعطاء.

وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثيرٌ في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [سورة ص:١-٢]، **وهكذا قال هنا: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} أي تعجبوا من إرسال رسولٍ إليهم من البشر، كقوله -جل جلاله-: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ}** [سورة يونس:٢] **أي وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.**

قول الحافظ بن كثير -رحمه الله- هنا يعني أن جواب القسم مُقَدَّر يُفهم من المذكور في قوله: **وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم**، فهو يُفهم من قوله: **{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}**، فالله -تبارك وتعالى- يذكر كثيراً في القرآن تعجب الكافرين ومعارضتهم لبعث نبي من البشر، **{أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً}** [سورة الإسراء:٩٤]! فهذه واحدة.

والثانية **{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}** إلى أن قال: **{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}** فهؤلاء الكفار يتعجبون من بعث نبي من البشر، أو رسول من البشر، وكذلك ينكرون البعث، فيفهم من هذا المذكور جواب القسم على قول الحافظ ابن كثير وجماعة من أهل العلم، وحاصل ما يذكره أهل العلم في مسألة القسم هنا يرجع إلى ثلاثة أقوال هذا واحد منها، وإن اختلفوا في تقديره، يعني أنه مقدر ليس بمذكور، انظر كلام الحافظ -رحمه الله-، يعني أن جواب القسم يكون مقدراً بما يُفهم مما بعده يعني يدل عليه ما بعده، ولهذا قال بعضهم كالأخفش: إن التقدير: لتُبعثنّ، يقولون: **{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا}** الخ، فهذا بعض ما تضمنه الكلام بعده التي هي إحدى القضايا التي أنكروها، أو تعجبوا منها وهي قضية البعث يكون: لتبعثن، وبعضهم نظر إلى القضية الأولى التي هي: بعث نبي من البشر **{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}** أنزلنا إليك لتنذر هكذا، أو معنى أوسع من هذا، هذا أخذ الجزء الأول، معنى أوسع من هذا كما يقول الشنقيطي -رحمه الله- بأن التقدير لا لما يقوله الكفار أو ما الأمر كما يقول الكفار، فيقول الكفار: **{أَئِذَا مِتْنَا}** الخ يعني هم يتعجبون من هذه القضية، وقبله: **{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}** ما الأمر كما يقوله الكفار، وقد مضى الكلام على نحو من هذا عند الكلام على **{ص}** فما ذُكر هناك يمكن أن يُذكر هنا، فهذا منحى ذهب إليه بعض أهل العلم، والمنحى الآخر هو: أن الجواب مذكور وليس بمقدر، واختلفوا في هذا الجواب أين هو من الآيات؟ لكنهم يتفقون على هذا المعنى أن الجواب مذكور وليس بمقدر، فبعضهم كالكوفيين يقولون الجواب: **{بَلْ عَجِبُوا}**، يقولون: هذا الجواب ونحن عرفنا من قبل أن مذهب الكوفيين سهل، ومن استعصى عليه الإعراب والنحو فعليه بمذهب الكوفيين، وإذا كان يقال: إن النحو بيت من خشب بابه من حديد، هذا على مذهب البصريين، وأما على مذهب الكوفيين فالنحو بيت من خشب وبابه من قماش، سهل ولا يحتاج إلى كثير من التقديرات ولا التكلفات ولا شك أن مذهب البصريين أدق، ولكنه أصعب، وبعضهم يقول: إن

الجواب هو قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨] متأخر جداً، هذا قال به بعضهم كابن كيسان، وهذا بعيد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} وهذا وإن كان أقرب من الذي قبله لكن الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الجواب مقدر.

مع أن بعض أهل العلم -وهذا هو المنحى الثالث- يقول: إن الجواب قد لا يكون مذكوراً أصلاً ولا مقدراً، وهذا مر نظائر له في القرآن أن من أهل العلم من يقول في بعض المواضع: إن الجواب أصلاً لا وجود له لا لفظاً ولا تقديراً، فحاصل ما يذكرون في الفائدة من القسم أن المقصود التنويه بالمقسم به، وكلام أهل العلم ككلام ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن، في عددٍ من المواضع {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:١-٤].

هذا مثلاً جواب القسم، لكن في مواضع يبقى الإشكال كهذا، فالجواب: بعضهم يقول: إن الجواب لا وجود له أصلاً، ومن ثم المقصود التنويه وهنا كما يقول ابن القيم: اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه وأنه حق من عند الله -عز وجل-، ولهذا حُذف الجواب ولم يُصرح به لما في القسم من الدلالة على هذا المعنى، أو لأن المقصود هو المقسم به {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} يعني: المقصود التنويه بالقرآن دون التفات إلى جواب، يعني: لا تنتظر جواباً للقسم.

لو تتبعت الأمثلة في الأقسام في القرآن في مثل كتاب التبيان مثلاً لابن القيم ستجد مواضع يذكرها لا جواب للقسم على ترجيحه واختياره في قول طائفة؛ لأن الجواب غير موجود.

قال الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان: "قوله تعالى: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} المقسم عليه في الآية محذوف، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة "ص" وقد أوضحناه في الكلام عليها، وقوله تعالى هنا: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} قد قدمنا في سورة "ص" أن من المقسم عليه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صادق وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في ص: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وقد دل على ذلك قوله هنا: {بل عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وقد قدمنا في "ص" أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث ويدل عليه قوله هنا: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} الآية"[٤].

ولذلك جاء التقدير عند الشنقيطي عاماً، باعتبار نفي ما يقوله الكفار، فالكفار يقولون هذا وهذا.

وقال -رحمه الله-: "والحاصل أن المقسم عليه في "ص" بقوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [سورة ص:١]، وفي "ق" بقوله: {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} محذوف، وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحداً، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك في سورة "ص" وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة "ق" هذه المحذوف يدخل في إنكارهم لرسالة النبي -صلى الله عليه وسلم-

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٢٢).

بدليل قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وتكذيبهم في إنكارهم للبعث، بدليل قوله: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، وبينا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا"[٥].

ثم قال -عز وجل- مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعاد وقوعه {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي يقولون: أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ذلك رجع بعيد، أي بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه.

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} هنا الظاهر أن التعجب من ماذا؟ {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، لكن {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} إلى أن قال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}.

هنا الآية الأخيرة: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} ما هذا الحق الذي جاءهم؟ هل هو الوحدانية، أو من النبوة بعث الله نبياً بشراً؟ أو من قضية البعث؟ {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}.

قال الله تعالى رداً عليهم: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم. ثم بين -تبارك وتعالى- سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله كقوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [سورة الذاريات:٨-٩].

قوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت، يعني: إذا ماتوا وتحللت أجسادهم فإن الله يعلم ما تفرق منها، هذا الذي عليه عامة المفسرين، هذا قول الجمهور من السلف فمن بعدهم، وبعضهم كالسدي يقول: إن قوله: {مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} يعني: بالموت، يعني: من يصيرون إلى الموت والفناء، بمعنى أن الأحياء ينقصون، فيكون مآلهم إلى القبور، إلى الدفن، إلى التراب، وليس المقصود على هذا المعنى ما يتحلل من الأجساد وإنما ما تنقص الأرض من الأحياء بأن يموت من يموت منهم، فهم يموتون شيئاً بعد شيء، حتى يموت الجميع، فهذا المعنى وإن كان له وجه إلا أن المعنى الأول أظهر وأدل على القدرة، فهذه الأجزاء التي تتحلل إلى تراب الله -تبارك وتعالى- يعلم إلى أين صارت وما مآل ذلك كله، ثم الله -تبارك وتعالى- يعيد خلقه من جديد.

٥- المصدر السابق.

{وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} الراجح أن الحفيظ هنا فعيل بمعنى فاعل {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} يعني قيل هو اللوح المحفوظ، المراد به أن الله كتب فيه كل شيء، وكون هذا الكتاب حفيظاً بمعنى أنه لا يذهب منه شيء ولا يفوته شيء ولا ينمحي منه شيء.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن المراد بقوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، هو اختيار أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، قال -رحمه الله- في تفسير سورة ق: "القول في تأويل قوله تعالى: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، يقول القائل: لم يجر للبعث ذكر فيخبر عن هؤلاء القوم بكفرهم.."[٦].

هذا سؤال ذكره ابن جرير، ثم أجاب عنه، انظر في الآيات {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} التعجب الآن أن جاءهم منذر من البشر، ثم مباشرةً بعده {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} الآن التعجب من بعث بشر جعله الله -عز وجل- رسولاً، فما علاقة البعث؟ بلا مقدمات {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}؟ يعني التعجب هناك لم يكن من البعث، ما قال مثلاً: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا} أن يبعثوا مَثلاً بَعد الموت، عجبوا من البعث وقالوا {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} لا، {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} شيء عجيب، يعني: أن بعث الله بشراً رسولاً، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} بلا مقدمات ذكر هذه بعد هذه {أَئِذَا مِتْنَا} فصار التعجب الآن من قضية ثانية هي البعث ولم يُذكر، فهنا البعث لم يذكر، إنما ذكر التعجب من بعث البشر رسولاً، وجاء التعجب في الآية هذه: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} ووجه ذلك يجيب عليه ابن جرير -رحمه الله- حيث قال: "فما وجه الخبر عنهم بإنكارهم مالم يدعو إليه وجوابهم عما لم يسألوا عنه؟ قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك فنذكر ما قالوا في ذلك، ثم نتبعه البيان -إن شاء الله تعالى- فقال في ذلك بعض نحويي البصرة: قال: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} لم يذكر أنه راجع، وذلك -والله أعلم-؛ لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}"[٧].

على كلام البصريين {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} فقال لهم: إنكم تبعثون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} فتعجبوا من قضيتين مجيء رسول من البشر، وهذا الرسول، قال لهم: تبعثون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}.

وقال -رحمه الله-: "وقال بعض نحويي الكوفة: قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} كلام لم يظهر قبله ما يكون هذا جواباً له، ولكن معناه مضمر، إنما كان -والله أعلم- {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} لتُبعثنّ بعد الموت، فقالوا: أئذا كنا تراباً بُعثنا"[٨].

٦- جامع البيان، للإمام الطبري ت شاكر (٣٢٧/٢٢).

٧- المصدر السابق.

٨- المصدر السابق.

عند الكوفيين بناء على جواب القسم المقدر {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} كما سبق لتبعثن، فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} إن هذا جواب القسم المقدر لتبعثن، فقالوا: فتعجبوا فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}.

وقال -رحمه الله-: "ثم قالوا {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} جحدوه أصلاً، قوله: {بَعِيدٌ} كما تقول للرجل يخطئ في المسألة: لقد ذهبت مذهباً بعيداً من الصواب، أي أخطأت.

والصواب من قوله في ذلك عندنا أن في هذا الكلام متروكاً استُغنى بدلالة ما ذُكر عليه من ذكره، وذلك أن الله دل بخبره عن تكذيب هؤلاء المشركين الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عن تكذيبهم رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- بقوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} على وعيده إياهم على تكذيب محمد -صلى الله عليه وسلم- فكأنه قال لهم إذ قالوا منكرين رسالة الله رسولَه محمداً -صلى الله عليه وسلم- {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}: ستعلمون أيها القوم إذا أنتم بعثتم يوم القيامة ما يكون حالكم في تكذيبكم محمداً -صلى الله عليه وسلم- وإنكاركم نبوته، فقالوا مجيبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} نعلم ذلك، ونرى ما تعدنا على تكذيبك {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي أن ذلك غير كائن ولسنا راجعين أحياءً بعد مماتنا، فاستغني بدلالة قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} من ذكر ما ذكرت من الخبر عن وعيدهم"[٩].

إذاً ففيه ثلاثة أقوال، قول البصريين: إنه مقدر، يعني لما جاءهم رسول من البشر تعجبوا {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} هذا الرسول قال لهم: ستبعثون فتعجبوا وقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، على قول الكوفيين: إن ذلك عُرف من جواب القسم {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} لتبعثن، فتعجبوا وقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، وعلى قول ابن جرير أيضاً إنه مقدر، يُفهم من مضمون ما ذكر: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} فتعجبوا واستبعدوا مجيء رسول من البشر، فكأنهم تُوُعِّدُوا على هذا التكذيب بهذا الرسول بالعذاب في الآخرة، فتعجبوا ثانية من هذا {أَئِذَا مِتْنَا} يعني سنبعث، هل سيكون بعث أصلا حتى نعذب؟، وكأنه يُفهم -والله تعالى أعلم- من ذلك كله أن هؤلاء الكفار -والقرآن يختصر ما يُفهم إن كان في المذكور ما يدل عليه كما هي عادة العرب وهذا من بلاغة الكلام- لما جاءهم رسول {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} وكان في مضامين هذه الرسالة: البعث كما هو معلوم، وهو إحدى القضايا الكبرى التي جاء القرآن لتقريرها لاسيما في السور المكية، فالوحدانية، والوحي والرسالة، والبعث، هذه القضايا الثلاث في السور المكية، وهذا كثير جداً، فكان في مضامين هذه الرسالة تقرير البعث، فتعجبوا أيضاً من هذا فذكر القرآن هاتين القضيتين {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} فالحق الذي كذبوا به بعضهم يقول: القرآن، كما يقول ابن جرير: الحق الذي كذبوا به هو القرآن، وبعضهم يقول: الإسلام، وبعضهم يقول: بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: بالنبوة أصلاً، كل هذا متقارب، هم كذبوا

٩- جامع البيان، للإمام الطبري ت شاكر (٢٢/٣٢٧-٣٢٨).

بهذه القضايا جميعاً، {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ}: كذبوا بالإسلام، بالقرآن، بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وما تضمنته دعوته من تقرير الوحدانية، وكذلك البعث، {كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم-، والحق الذي جاء به هو الإسلام، والقرآن، والنبوة، كل هذه المعاني صحيحة، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- قال في المريج: قال: **المختلف المضطرب الملتبس المنكر...الخ**، ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع بين الأقوال التي يذكرها السلف، يذكرون هذه المعاني: مريج مضطرب، بعضهم يقول: مختلف، بعضهم يقول: فاسد، يقال: هذا شيء مريج أو مارج، مرجت البيضة: يعني فسدت، مروج: أي أزهار مختلطة، نباتات مختلطة، فهذه اللفظة فيها الاختلاط والاضطراب، ناس في أمر مريج: يعني في حال من الاضطراب، فهذه كلها معانٍ صحيحة ذكرها السلف -رضي الله عنهم- وهذه من مزايا هذا الكتاب أنه يجمع بين الأقوال، وهذا لا يُعرف إلا بالرجوع إلى كلام السلف والمقارنة بين عبارته الدقيقة وبين ما قاله السلف، ولا يتبين للقارئ لأول وهلة.

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [سورة ق:٦-١١].

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} أي بالمصابيح {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق. وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب كقوله -تبارك وتعالى-: {ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٣-٤]**، أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله -تبارك وتعالى-: {وَالأرض مَدَدْنَاهَا} أي وسعناها وفرشناها {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وقوله: {بَهِيجٍ} أي حسن المنظر {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} أي ومشاهده خلق السماوات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وَجِل رجاع إلى الله -عز وجل-، وقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} أي نافعا {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ} أي حدائق من بساتين ونحوها {وَحَبَّ الْحَصِيدِ} وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره {والنخل باسقات} أي طوالا شاهقات.**

هنا في قوله: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} هنا ماذا يقول: **الزرع الذي يراد لحبه وادخاره**، حب الحصيد: يعني ما يُقتات ويُحصد من الحبوب، يعني حب الزرع الحصيد، هذا الذي يقوله عامة المفسرين وأصحاب كتب معاني القرآن، حب الحصيد: حب الزرع الحصيد، هذا قول البصريين، أن فيه مقدراً، حب الزرع الحصيد.

الكوفيون يقولون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه لا يحتاج إلى تقدير، حب الحصيد مثل: مسجد الجامع، يعني: هو المسجد نفسه، فحب الحصيد: الحب نفسه، أضافه إلى نفسه باعتبار صفته أنه يُحصد هذا الحب، لكن الكوفيون يقولون: حب الزرع الذي يحصد، حب الزرع الحصيد، أن الذي يُحصد هو الزرع، ثم يستخرج منه الحب، والأمر واضح من جهة المعنى، ومذهب البصريين هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أن المعنى: حب الزرع الحصيد.

وابن كثير في قوله: **هو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره**، يوافق مذهب البصريين ويوافق كلام ابن جرير، العلماء هكذا عبروا قالوا: الحب الذي يُقتات ويُدخر...إلى الخ، وخصوا الحب بالذكر -مع أن هناك أشياء ثانية تخرج بالمطر غير الحب- لأنه مبنى الأقوات يعني هذه الحبوب، ولذلك في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} [سورة المطففين:١-٢]، فذكر الكيل مع أن التطفيف قد يكون بالوزن أيضاً، لكن لما كانت الأقوات -ثورة الخبز- كما يقال معايش الناس الأساسية، القضايا الأساسية عندهم التي تلمس الحاجة مباشرة هي الأشياء المكيلة من الحبوب التي عليها قوام العيش، فهنا جاء الوعيد: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [سورة المطففين٢:٣] فذكر الوزن في الآخر، والله أعلم.

{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات: الطوال.

هذا قول الجمهور، أن الباسقات: الطوال، مع أن لفظة الباسقات تأتي بمعانٍ أخرى، بسق: تأتي لمعانٍ غير الطول، لكن هنا في هذا الموضع {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} بمعنى: الطوال، وإلا فسعيد بن جبير يقول {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ}: يعني مستويات، {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} وبعضهم يقول: مواقير، حوامل {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} يعني مليئة بالحمل الثمر، حيث عذوق الرطب أو البسر أو التمر موقرة بهذه الثمار، كما يقوله جماعة من السلف كالحسن وعكرمة واختاره من أصحاب المعاني: الفراء، يعني: موقرة، ليس المقصود طويلة بل: حوامل، والشاة يقال: بسقت يعني ولدت، فهذا الحَمل الذي في هذه، وما يخرج وما يكون من الثمار المُوقَر في عذوق النخل، بعضهم يقول هذا معنى باسقات، لكن الذي عليه الجمهور، وهو اختيار ابن جرير والذي ذكره ابن كثير: أن المقصود بالباسقات: الطوال.

لكن يرد هنا سؤال هو أن الله -عز وجل- هنا قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} يعني طوال، وفي موضع آخر قال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [سورة الأنعام:٩٩]، قريبة التناول، لكن الباسقات هي التي لا تطالها الأيدي لارتفاعها.

يزعم بعضهم أن عندهم نخلاً طوالاً، في البلاد والمزارع القديمة تجد النخل أحياناً يصل إلى طول عظيم من أيام الأجداد بعضهم يزعم أنه لا يُؤبّر هذا النخل إلا بنوع من البنادق اسمه أم مقمع تُحشى في داخلها أشياء مع البارود، ثم يَرمى بها، قديمة لها فوهة عريضة قليلا، يقول: لا تؤبر إلا بهذا، بالرمي لبعدها، وهذا كلام غير صحيح، وفي الآية الثانية {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} قريبة، سهلة التناول، قريبة من الأيدي، في مقام الامتنان، فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: هنا هي في بيان دلائل القدرة أعظم في نظر الناظرين، النخل الطوال الباسقات، فهذا من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- وبديع صنعه {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} تريد أن تذكر أو تورد نماذج أو صوراً أو مرئيات ومشاهد تدل على خلق الله وعلى قدرته وعلى بديع صنعه تأتي بالنخل الطوال، {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ}.

أما في مقام الامتنان {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} فهي قريبة تأخذ منها، سهلة التناول، في متناول اليد، {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ} فهذا كله في مقام الامتنان.

{لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} أي منضود، {رِزْقًا لِلْعِبَادِ} أي للخلق.

الطلع: أول ما يخرج من الثمر للنخل، هذا المعروف في كلام العرب والذي ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وهو معنى معروف، {لَهَا طَلْعٌ} الطلع أول ما يخرج من الثمر، والنخل أول ما يخرج في غلاف، كما سبق في قوله: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا} [سورة فصلت:٤٧]، فهذا الكِم، والكُم -كما يقول بعضهم بالضم والكسر- هو هذا الغلاف عند تأبير النخل، فتخرج في هذه الأغلفة، فهذا الطلع الآن هو أول ما يخرج من الثمر للنخل.

نضيد: أي منضود بمعني: متراكب، ما المقصود بهذا الطلع النضيد؟ يعني المقصود ما كان في أكمامه ولم ينفتح بعد {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ}، أما إذا انفتح وخرج من أكمامه فليس بنضيد، هذا الذي قاله أهل العلم من أهل اللغة، قاله ابن جرير -رحمه الله- وابن القيم، أن ما كان في أكمامه فهو النضيد، وأما إذا خرج منها قالوا: فليس بنضيد، لا يُقال له نضيد، ولهذا الآن بعضهم يسمي محل التمور "نضيد"، هذا لا يقال له نضيد بها إن كان يقصد هذا المعنى الذي في الآية، وإنما النضيد ما كان في أكمامه قبل أن يخرج.

{رِزْقًا لِلْعِبَادِ} أي للخلق، {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} وهي الأرض التي كانت هامدة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرْف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المُشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث.

هذه إحدى الطرق في الاستدلال للبعث في القرآن الكريم، إحياء الأرض بالمطر، وهذا كثير في القرآن، هذا أحد أنواع الأدلة وله مفردات وأمثلة كثيرة، وهناك أشياء أخرى مثل: خلق السماوات و الأرض وأنها أكبر من خلق الناس، وهناك أناس ماتوا فأحياهم الله -عز وجل-، وهناك إخراج النار من الشجر الأخضر، إلى غير ذلك من دلائل قدرة الله -عز وجل- على البعث، ومن أشهرها: الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ولهذا قال: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة ق:١٥].

كقوله -عز وجل-: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧] وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، وقال -سبحانه وتعالى-: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فصلت:٣٩].

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة ق:١٢-١٥]، **يقول تعالى مهدداً لكفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظائرهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس، وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان.**

مضى الكلام عن هذا وأقوال المفسرين، بعضهم يقول: إن أصحاب الرس هم قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، وهذا فيه نظر -والله أعلم-، وبعضهم يقول: إن أصحاب الرس هؤلاء هم الذين جاءهم {مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [سورة يس:٢٠] يعني الذين ذُكروا في سورة يس هم أصحاب الرس، وبعضهم يقول: إن هؤلاء هم أصحاب الأخدود، وأصحاب الأخدود ذكرهم الله بهذا {قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ} [سورة البروج:٤]، ولم يُذكروا بغيره، والله تعالى أعلم.

وقال ابن جرير -رحمه الله- في هذا: إنهم قوم رسُّوا نبيهم في بئر؛ لأن الرَّس في لغة العرب بمعنى: البئر إذا كانت غير مطوية، فهؤلاء كأنهم وضعوا نبيهم في بئر، عدوا عليه وفعلوا به ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، وبعضهم يقول: هؤلاء في أنطاكيا، لكن هؤلاء يقولون بناء على آية يس: إن ذلك كان بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، لكن لا يُعرف نبي بعد عيسى -عليه السلام-، وأن ما يُذكر في هذا حتى في أنطاكيا أنه لم يُعرف أن الله بعث رسولاً في أنطاكيا يعني من الناحية التاريخية، فبعض هؤلاء يزعم أن هؤلاء قتلوا حبيباً النجار {وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} يقولون: إنه حبيب النجار، وهذا كله من الأخبار الإسرائيلية، وإن قال به بعض السلف كمقاتل وعكرمة.

وبعضهم يقول: هؤلاء كانوا في مكان آخر في أذربيجان، وأنهم قتلوا أنبيائهم فجفت أشجارهم وزروعهم، فماتوا من الجوع والعطش، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الشجر، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الأصنام وأنهم قوم شعيب، وبعضهم يقول: هؤلاء ناس أرسل الله إليهم رسوله فأكلوه، فقتلوه وأكلوه، وبعضهم يقول: هذه هي المرداة بقوله: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ} [سورة الحج:٤٥] وهذا بعيد؛ هذه في ذكر أنه أهلكهم الله -عز وجل- يعني صارت هذه البئر التي كان يُستقى منها، يعني: أيّ بئر، ليست بئراً معينة، وقصور كانت مشيدة هلك أهلها لم يبق منهم باقية، وبعضهم يقول: هي بئر كانت لثمود، وهذا أيضاً لا يخلو من بُعد، وبعضهم يقول غير ذلك.

وبعضهم يقول: الرس: هو الثلج الذي في رءوس الجبال في المناطق التي يكون فيها الثلج، وبعضهم يقول: اسم وادٍ إلى غير ذلك، وبعضهم يقول: الرس من الأضداد يعني الإفساد بين الناس وكذلك الإصلاح بينهم، فهو صفة من الأوصاف، وبعضهم يقول: هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهذا لا أساس له، وحنظلة بن صفوان يقولون: إنه بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- وإنه جاءهم، ويذكرون خبراً من الإسرائيليات كل هذا لا أساس له، وأصحاب الرس: الرس بئر، ابن جرير يقول: إنهم جعلوا نبيهم فيه، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: الرس هو موضع، وبعضهم يقول: فِعْل كالإفساد بين الناس، أو قول من قال: إنهم رَسُّوا نبيهم يعني أصحاب الرس بمعنى هذا الفعل الذي فعلوه رسوا النبي الذي بعث إليهم أو أنهم قوم أكلوا نبيهم، أو

قتلوه، أو إما أن يكون موضعاً، وإما أن يكون فعلاً كحفر البئر مثلاً، الرس حفر، والأقرب -والله أعلم- أن يُقال: إن أصحاب الرس: الرس بئر، وهؤلاء قوم نُسبوا إلى هذا إما أنهم رسُّوا نبيهم فيه، أو غير ذلك، والله تعالى أعلم.

{وَثَمُودُ *وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ} وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور.

قال: إخوان لوط، بعضهم يقول: لأنهم كانوا أصهاراً له، وبعضهم يقول: أصلاً هؤلاء هم في جملة قوم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ولذلك الملائكة لما أخبرته أنهم سيُنزلون العذاب بهم قال: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا} [سورة العنكبوت:٣٢]، فهم من جملة قوم إبراهيم -عليه السلام- و لوط كان يعرفهم فنسبوا إلى هذا، وهذا فيه بعد، والله اعلم.

والأخُوّة تذكر بأجزاء معانٍ كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨] آية الأحزاب تحتمل بعض هذه المعاني، قد تكون في النسب بناء على أن بعضهم قال لأخيه في النسب، ويمكن أن يرجع إلى هذا من قال: في القبيلة، يعني فيكون هؤلاء قالوا لبني قبيلتهم، فهنا إخوان لوط كانوا من نفس القوم مثلاً من نفس القبيلة، هو ابن أخي إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ومعنى ذلك كما قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦]، فظاهره أنه لم يكن منهم، يعني ليس من هؤلاء القوم الذين كانوا في هذه الناحية، والأخوّة تقال لمن يشتركون في بلد واحد، وهو أحد المعاني في قوله: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} كما أن الأخوّة تقال لمن يشتركون في دين واحد، وهذا غير مراد هنا في هذه الآية {وَإِخْوَانُ لُوطٍ}؛ لأنهم لم يكونوا على دينه، وفي آية الأحزاب يحتمل بناءً على أن القائلين هم من المنافقين قالوا لإخوانهم من المنافقين {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، والأخوّة تقال لمن يشتركون في صفة، أو في صفات كما في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء:٢٧] يعني يسيرون على طريقتهم وعلى منهاجهم ويتصفون بأوصافهم، فهنا {وَإِخْوَانُ لُوطٍ} باعتبار أنهم قومه الذين بُعث فيهم، والنسبة تكون لأدنى ملابسة.

وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم، وطغيانهم، ومخالفتهم الحق.

موطن قوم لوط هو نفس البحيرة المساة بالبحر الميت، هذا الذي يقوله كثير من أهل العلم ومن المؤرخين، وابن كثير مشى على هذا، و قد مضى ذلك عند قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وبهذا الاعتبار إذا قلنا بأن هذا مكان قوم لوط فتكون هذه أماكن المعذبين، يعني هذه البحيرة المسماة: البحر الميت، وبناء عليه هذه الأشياء التي تستخرج الآن منها، والمنتجات التي فيها، و العلاجات والمستحضرات الطبية والتجميلية، وما إلى ذلك من منتجات البحر الميت، يقال: إذا كان الأمر كذلك فإنه لا يؤخذ ذلك من أماكن المعذبين؛ ولهذا لما استقوا من الآبار في موطن ثمود -أعني أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرهم أن يعطوا العجين للدواب ولا يؤكل منه شيء، وإنما أذن لهم أن يستقوا من بئر الناقة.

{وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ} [سورة ص:١٣] وهم قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام- {وَقَوْمُ تُبَّعٍ} وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والشكر.

الكلام في أصحاب الأيكة في سورة الحجر {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} [سورة الحجر:٧٨-٧٩] {وَإِنَّهُمَا} يعني: لما ذكر قوم لوط، وذكر هؤلاء أصحاب الأيكة، وكثير من السلف يقولون في معنى الأيكة: هي الشجر الملتف، وأنهم قوم شعيب، وبعضهم يقول: الأيكة هي اسم لقريتهم، -والله تعالى أعلم-، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم أنه اسم للشجر الملتف.

{كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} أي كلٌّ من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل كقوله -جل وعلا-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم {فَحَقَّ وَعِيدِ} أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولائك.

قوله -تبارك تعالى-: {وَقَوْمُ تُبَّعٍ} قوم تبع كما يقول ابن كثير -رحمه الله-: هم قوم سبأ كانوا في اليمن، وأن الله -عز وجل- عذبهم وخرب بلادهم وشردهم في البلاد، وجعلهم الله -عز وجل- أي أهل سبأ- أحاديث ومزقهم كل ممزق، وتبّع لقب مثل: فرعون وقيصر وكسرى لمن ملك اليمن، يُقال له: تبع، وهؤلاء كانوا من قحطان من العرب، وملك عندهم يقال له: تبع، لكن ما جاء في كون النبي -صلى الله عليه وسلم- توقف فيه هل كان مؤمناً أو لا؟ وجاء في حديث آخر النهي عن سبه، وهذا كله صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه كان مسلماً، ووجه الجمع بين هذا وهذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يوحَ إليه فيه شيء، ثم بعد ذلك أوحي إليه، وأن تبع هذا كان مسلماً، ولهذا ذم الله قومه ولم يذم تبع، قال: {وَقَوْمُ تُبَّعٍ} المؤرخون يذكرون له خبراً أنه طاف أماكن كثيرة، وأنه جاء إلي المدينة و قاومه أهلها، ثم قال له أحبار اليهود: إنك لا تقدر على هذه البلدة؛ لأنها مبعث نبي، فأخذ حبرين من أحبار اليهود، وأنه هم بهدم الكعبة، فقالوا: إنك لا تمكّن من هذا؛ لأنه سيكون لهذا البيت شأن وقد بناه إبراهيم -عليه السلام-، فكساها، ثم بعد ذلك انطلق إلى اليمن وأنه تهود؛ لأن هؤلاء الذين كانوا معه قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- يهود فدخل في اليهودية، ثم دخل عامة أهل اليمن في اليهودية، يعني أنه آمن الإيمان الصحيح في ذلك الوقت قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن قرأ في كتب البلدان يجد أحياناً في بعض الأماكن مثل المناطق التي حول المدينة: وادي ملل، قريب من المدينة على طريق مكة القديم يبعد نحو أربعين كيلو متراً على طريق مكة تقريباً، وادٍ فيه أشجار من شجر العضاه، شجر فيه شوك يُقال له: ملل، يقال: إن تبّع مر به لما كان ذاهباً متجهاً من المدينة جنوباً وأراد أن يأتي مكة، ثم بعد ذلك يذهب إلى اليمن، فملّه لما نزل به قال: هذا ملل، فسمي بوادي ملل، والوادي لا يخلو من هذا، وكنت أقول: هذا وادٍ ممل والبقاء به لا يطاق، مع أنه مليء بالشجر والظليل، ولكل مسمى من اسمه نصيب، وهو معروف إلى اليوم، وبعضهم يذكر أشياء، مثل: أن تبّع هذا خرج من اليمن حتى وصل إلى سمرقند، وصار له ملك وجيوش وسلطان عظيم إلى آخر ما

ذكروا من خبره وفي الحديث: ((ما أدري تبّع كان نبيا أم غير نبي))، ونهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبه باعتبار أنه أسلم، فأُوحي للنبي -صلى الله عليه وسلم- في شأنه.

وقوله تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ} **أي أفأعجزنا ابتداءُ الخلق حتى هم في شك من الإعادة،** {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} **والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال -عز وجل-:** {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الروم:٢٧]، **وقال الله -جل جلاله-:** {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [سورة يس: ٧٨-٧٩]، **وقد تقدم في الصحيح: يقول الله تعالى: ((يؤذيني ابن آدم يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته))**[١٠].

في قوله -تبارك وتعالى-: {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} هنا جاء الفعل مفرداً، ما قال: كذبوا الرسل {كُلٌّ كَذَّبَ} باعتبار لفظ "كل"، فــ "الرسل" جمع ودخلت عليه "ال" فيحتمل أن تكون "ال" عهدية، يعني: الرسل الذين أرسلوا إليهم، ويحتمل أن تكون للجنس، ولا شك أن من كذب رسولاً فقد كذب بجميع الرسل، وكان أول رسول أرسل إلى أهل الأرض هو نوح -عليه الصلاة والسلام- ومع ذلك قال الله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٠٥]، مع أنهم ما أدركوا إلا رسولاً واحداً، من كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن ثَم هنا إذا قيل: إن "ال" للجنس فهم كذبوا رسولهم، ومن ثم كانوا مكذبين بجميع الرسل {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥] {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ}، **أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى من التكذيب...الخ،** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس:٩٦] {فَحَقَّ وَعِيدِ}، فوعيده النار فهذا لا يتخلف، حق عليهم العذاب.

فالوعد لا يتخلف، والوعيد يتخلف، والكريم إذا وعد لا يخلف، وإذا توعد قد لا يحقق الوعيد، ويذكرون البيت المعروف:

وإنِّي وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه *** لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

يقولون: الوعد بالخير والإيعاد بالشر، فهذه الكلمة المشهورة هي ليست على إطلاقها في مسألة تخلف الوعيد، فالذين حقت عليهم كلمة العذاب وهم الكفار المخلدون في النار هؤلاء لا يتخلف عنهم الوعيد، هم داخلون النار قطعاً، فلا يتطرق إليهم هذا المعنى من أن الوعيد قد لا يتحقق في حقهم، وإنما هذا في {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [سورة النساء:٤٨] فهذا فيما دون الشرك، أما أهل الإشراك فوعيده لا يتخلف، وفي هذه المسألة تفصيل، أما أهل الإشراك والخلود في النار فوعيده لا يتخلف في حقهم، أما أهل الإيمان ما دون الشرك فهذا قد يتخلف فيهم الوعيد: هنا في قوله: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ}، يعني: أعجزنا عن الخلق الأول؟.

وقوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧] في الآية الأخرى، سبق الكلام عليه من جهة أفعل التفضيل، هل أفعل التفضيل مراد هنا؟ فهذا عنه جوابان:

١٠- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وامرأته حمالة الحطب)، برقم (٤٩٧٤).

الجواب الأول: أن "أهون" هنا أفعل التفضيل ليس على بابه، وإنما المقصود مطلق الاتصاف: وهو هين عليه؛ لأنه يستوي في حق الله هذا وهذا، وهو على كل شيء قدير.

والجواب الثاني: أن {أَهْوَنُ عَلَيْهِ} هذا روعي فيه حال المخاطب، يعني: هذا بالنسبة إليكم، بحسب نظركم، وهذا كثير في القرآن، وله أنواع، كل نوع تحته أمثلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ق من الآية (١٦) إلى الآية (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ *إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ *وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ *وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:١٦-٢٢] **يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلْمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))**[1].

وقوله -عز وجل-: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فرّ لئلا يلزم حُلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} كما قال في المحتضر {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ} [سورة الواقعة:٨٥] **يعني ملائكته، وكما قال -تبارك وتعالى-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [سورة الحجر:٩] **فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله -عز وجل- وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله -جل وعلا- لهم على ذلك، فللملك لمّة من الإنسان كما أن للشيطان لمّة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} فالله -تبارك وتعالى- يذكر خلقه للإنسان وأنه قادر عليه محيط به الإحاطة التامة لا يخفى عليه من شأنه شيء ولهذا قال: {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}، وأصل الوسوسة في كلام العرب: هي الصوت الخفي، ولهذا يقولون: وسواس الحُليّ مثلاً، يعني الصوت الذي يُصدره الحُليّ إذا تحركت المرأة، وتجدون هذا في كلام العرب شعراً ونثراً، المقصود أن {مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} يعني ما يُحدث به نفسَه، فهذه الأشياء التي تجري في داخل النفس لا يطلع عليها أحد من الناس، الله -تبارك وتعالى- يعلمها ويطلع عليها، ولا يخفى عليه منها خافية، قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} هنا قال: يعني ملائكته قبل هذا، والمراد بحبل الوريد كما

١- رواه النسائي، كتاب الطلاق، باب من طلق في نفسه، برقم (٣٤٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٧٣٠).

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: حبل الوريد هو الذي بين الحلقوم والودجين، يعني كل إنسان له عرقان معروفان على جانبي العنق، يقال لهما: الودجان، فحبل الوريد بين الحلقوم والودجين، يعني أن الإنسان له حبلان عن اليمين وعن الشمال، وبعضهم يقول: هو الحبل الممتد ما بين الحلق أو الحلقوم إلى العاتق من كل جهة واحد، وبعضهم يقول كالحسن البصري: إن حبل الوريد: هو الوتين، وهو العرق المعلق بالقلب أو الواصل إلى القلب، العرق المعروف.

وبعضهم يقول: لكل إنسان حبلان وهما الودجان، يعني يقول: هما نفس الودجين عن يمين وعن شمال، فقوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} حبل الوريد، هذه الإضافة يقولون: هي إضافة بيانية، يعني الحبل الذي هو الوريد، فالآن هذا الحبل يقول ابن جرير -رحمه الله-: هو نفس الوريد، كقولهم: مسجد الجامع، وقد مضى الكلام على نظائر هذا، يعني أن الوريد تبيّن، والحبل هو نفس الوريد، حبل الوريد، مسجد الجامع، وقوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، والمراد بالقرب حمله الحافظ بن كثير -رحمه الله- هنا على قرب الملائكة، وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة القرب لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، والقرب له أدله كثيرة، ولكن يختلفون في تفسير بعض المواضع، هل هي مما يرجع إلى هذه الصفة ويتصل بها أو لا، وفرق بين من ينفي القرب بالكلية ويؤول النصوص، وبين من يثبت القرب ببعض الأدلة ويقول: هي دالة على صفة القرب، ولكن الدليل الفلاني ليس في قرب الله، وإنما في قرب كذا، قرب الملائكة مثلاً باعتبار السياق أو القرائن، فهذا لا إشكال فيه، وغاية ما يقال فيه عند المخالف يعني من فسره مثلا بأنه قرب الله -عز وجل- يقول: هذا من باب الخطأ في التفسير فقط، وهذا له نظائر، كقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [سورة القلم:٤٢]، هل الساق هنا المقصود به الصفة لله -عز وجل-، أو المقصود الكرب؟ من أهل السنة من فسره بالكرب، هل هذا من التأويل؟

لا يلزم، هم يثبتون صفة الساق، والحديث واضح وصريح ولا يقبل التأويل: "فيكشف عن ساقه"[٢]، فهذا دليل على إثبات صفة الساق، لكن الآية هنا تحتمل، فبعضهم قال: إن ذلك يقصد به ما في الحديث من الصفة، وبعضهم قال: الكرب، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [سورة البقرة:١١٥]، هل المقصود به الصفة أو الجهة والناحية؟ وشيخ الإسلام -رحمه الله- يثبت صفة الوجه بأدلة كثيرة، لكن يقول: هذه الآية ليست من آيات الصفات، وهذا الموضع أيضاً كذلك: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: المقصود بهذا الموضع قرب الملائكة، ملك الموت أقرب إليه من حبل الوريد للنصوص الواردة في مجيء ملك الموت {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ} [سورة الواقعة:٨٣-٨٥]، قال: المراد قرب الملائكة وقرب ملك الموت، وهذا الذي مشى عليه الحافظ بن كثيرَ -رحمه الله- هنا يقول: **يعني ملائكته تعالى أقرب إلي الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع** هناك من فسره بالعلم، قال: ليس المقصود قرب الملائكة، وإنما قرب الله تعالى، والله عالٍ من خلقه مستوٍ على عرشه قالوا:

٢- رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة:٢٣]، برقم (٧٤٣٩).

المقصود به قرب العلم، قريب بعلمه، وشيخ الإسلام -رحمه الله- يرد على هؤلاء، بقوله: هؤلاء توهموا أن القرب مثل المعية، فالمعية عامة وخاصة، فمعيته العامة مع خلقه بالعلم والإحاطة، {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [سورة المجادلة:٧]، وهذه الآية مسبوقة بالعلم، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} ومختومة بالعلم، كما قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: هذا قرينة ودليل على أن المقصود به كونه مع المتناجين بعلمه، وكذلك المعية الخاصة بالنصر والتأييد، يعني: ليس بذاته فهو مستوٍ على عرشه فوق خلقه، فشيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: إن القرب ليس كالمعية، المعية تكون عامة وخاصة مع جميع الخلق بالعلم والإحاطة، أما القرب فإنه في جميع المواضع في القرآن قرب خاص، يعني لا يوجد قرب عام.

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ} [سورة البقرة:١٨٦]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))[٣]، فهذا قرب خاص من الداعين، أو من الساجدين، ولكن القرب العام: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} [سورة الواقعة:٨٥] هذا القرب من المحتضرين هذا قرب عام من كل محتضر، يقول شيخ الإسلام: "لا يوجد قرب عام في القرآن، إنما ذلك في المعية"، فيقول: هؤلاء الذين فسروه بالعلم ظنوا أنه مثل المعية، فقالوا: بعلمه، يقول: هذا لا وجود له في القرآن، وإنما القرب قرب خاص، ولهذا لما كان هذا القرب من الجميع كل محتضر المؤمن والكافر، فلا يوجد قرب خاص من أهل الكفر، إذا هو قرب عام، يقول: هذا القرب العام لا وجود له في القرآن إنما هو قرب خاص، ولا يكون من الكافرين، إذاً إذا كان قريباً من كل محتضر فهذا قرب الملائكة، وابن كثير هنا يذكر أدله على هذا يقول: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} يعني المحتضر، {وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ}، يعني ملائكته كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر:٩]، ماذا يقصد بهذه هنا؟ هذه ليس لها علاقة بالقرب؟ يقصد {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ}، من الذي نزل به على النبي -صلى الله عليه وسلم- جبريل {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [سورة الشعراء:١٩٣-١٩٤]، قال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} وقد نزله بواسطة الملك، كذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إلى آخر ما ذكر، ولذلك قال: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} يعني -كما سيأتي- {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} حال تلقي المتلقيين، وشيخ الإسلام له كلام طويل مفصل في كتبه، ومن ذلك: شرح حديث النزول، فأهل السنة يثبتون القرب لله تعالى، ويبقى الكلام في بعض المواضع هل هذا من قرب الله أو من قرب الملائكة؟ فهذا لا إشكال فيه إذا أثبت العبد ذلك، والنصوص في قرب الله -تبارك تعالى- متنوعة يعني: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ} [سورة البقرة:١٨٦]، هذا قرب من الداعين، وهكذا ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))، هنا قرب العبد من ربه، وشيخ الإسلام عندما يتكلم على مثل هذا الحديث يقول: يقرّب قلبه إليه، أقرب ما يكون العبد، ما قال: الرب من العبد، العبد من ربه، والعبد في الأرض والله فوق العرش، يقول: فيقرب قلبه إليه وإذا قرب قلبه إليه صار الله قريباً منه، كما تقول مثلا إذا مشيت إلى مكة واقتربت منها تقول: قربت منا مكة، مكة قريب منا، يقول: قرب العبد من الرب يعني باللزوم أن الرب يكون قريباً منه، وإن كان الذي اقترب هو العبد ((أقرب ما يكون

٣- رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٢).

العبد من ربه وهو ساجد))، لكن في قوله: {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} [سورة هود:٦١] فهذا قرب خاص من الداعين وهو أحد أدلة هذه الصفة لله -تبارك وتعالى-، وكذلك: ((من تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً))[٤]، وكذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولكن تدعون سميعاً قريباً))[٥]، هذا القرب من الداعين، ((إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته))[٦]، وكذلك قربه من أهل الموقف يوم عرفة: ((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة))[٧]، فهذا يدل على القرب، فأهل السنة يثبتون هذا، لكن عبارة شيخ الإسلام التي أردت أن أوردها: يقول: "ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة"[٨]، يقصد: أن النص يحتمل، يعني:غاية ما هنالك أن يقال خطأ في التفسير عند المخالف، يقول: "ويُنظَر في النص الوارد فإن دل على هذا حُمل عليه، وإن دل على هذا حمل عليه"[٩]، كما سبق في بعض النصوص أنها في قرب الله تعالى، يقول: "وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء"[١٠]، ولتلميذه الإمام ابن القيم -رحمه الله- كلام مفيد في هذا الموضع حيث قال -رحمه الله-: " والقول الثاني أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا، وسمعته يقول: هذا مثل قوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [سورة يوسف:٣]، وقوله: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [سورة القيامة:١٨]"[١١].

يقصد كل هذا عن طريق الملك، بواسطة الملك.

وقال -رحمه الله-: "فإن جبريل -عليه السلام- هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه كما في صحيح البخاري عن ابن عباس-رضي الله عنهما- في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فانصت لقراءته حتى يقضيها، قلت: أول الآية يأبى ذلك فإنه قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}"[١٢].

هذا ليس الملك الذي يعلم والذي خلق والذي يعلم ما توسوس به نفسه ثم قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}.

٤- رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وروايته عن ربه، برقم (٧٥٣٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، برقم (٢٦٧٥).

٥- رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، برقم (٦٣٨٤).

٦- رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٤).

٧- رواه مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، برقم (١٣٤٨).

٨- مجموع الفتاوى (١٤/٦).

٩- المرجع السابق.

١٠- المرجع السابق.

١١- مدارج السالكين (٢٩٠/٢).

١٢- المرجع السابق.

وقال -رحمه الله-: "وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب وتخليق الملائكة، قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد -رضي الله عنه- في تخلق النطفة: فيقول الملك الذي يخلقه: يارب ذكر أم أنثى أسوي أم غير سوي؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلْقٌ له سبحانه فما ثَمّ خالق على الحقيقة غيره"(١٣).

الشنقيطي -رحمه الله- يرى أن القرب هو قرب الله -عز وجل- من العبد في هذا الموضع.

شيخ الإسلام يقول: القرب كله خاص بخلاف المعية منها عام ومنها خاص، فيقول: القرب لا يوجد منه خاص وعام فكله خاص، فلما جاء عند هذا الموضع هذا قرب عام باعتبار جميع الخلق، كل محتضر بهذا الاعتبار، وبناءً عليه شيخ الإسلام يقول: هذا ليس قرب الله -عز وجل-، يقول المواضع التي يثبت فيها قرب الله من العبد هو قرب خاص، قرب من الداعين، قرب من السائلين، قرب من أهل عرفة.

فهذا الذي قال فيه شيخ الإسلام بأنه جائز، يعني أنه يحتمل في بعض المواضع كهذا، والخلاصة أن صفة القرب ثابتة، لكن الخلاف بين أهل السنة في هذه النصوص هل تدل على قرب الله من خلقة أو لا؟، والأمر يسير.

وكذلك الشيطان يجري من بن آدم مجرى الدم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ولهذا قال تعالى هاهنا: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان.

التلقي: هو الأخذ {يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} والمعنى -كما سبق-: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} تكون إذ هنا متعلقة بـــ "أقرب"، أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} يعني حين يتلقى الملكان نحن أقرب إليه في هذه الحال، حال التلقي، يعني الله -عز وجل- يعلم ما توسوس به نفسه، وعلى هذا التفسير أنه قُرب الله، والله أقرب إليه من حبل وريده الذي هو أقرب الأشياء إليه حال كون الملكين يتلقيان ما يصدر عنه من الأقوال والأفعال، فالله جعل ذلك عليه -يعني من الملائكة- قطعاً للحجة، وإعذاراً وإلا فالله يعلم حاله، ولكن من باب التثبيت على العبد أنه جعل عليه من الحافظين شهوداً يشهدون عليه {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} [سورة الانفطار:١٠] يحفظون عمله، {كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الانفطار:١١-١٢].

هذا بالإضافة إلى الأمر الثالث وهو نطق الجوارح وشهادة الجوارح، ثم الأمر الرابع وهو إقرار اللسان واعترافه بعد شهادة الجوارح، فكل ذلك من باب التوثيق وقطع الحجة والعذر على العبد، إذاً على هذا يكون: {إِذْ} يتعلق بالقرب {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} أقرب حين، وإذ مثل هذه ترد كثيراً، فأهل العلم -أحياناً- يربطونها بشيء قبلها، وبعضهم يجعل ذلك مستأنفاً، واذكر {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} -مثلاً-، يعني بفعل مقدر محذوف. {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران:١٢٤] أي: واذكر {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ}.

قال: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} أي مترصد.

١٣- المرجع السابق.

القعيد يقال للرَّصَد الذي يرصده، يرصد ما يصدر عنه، {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} وهنا أفرده مع أنهما اثنان فقال: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} باعتبار أنه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، بعضهم يقول: حذف الأول لدلالة الثاني عليه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كما مشى على هذا سيبويه، وبعضهم لا يوافق على هذا يقول: إن "قعيد" يصلح للواحد فأكثر {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} وإنه لا حاجة للتقدير، وإن الأصل عدم التقدير كما يقوله الأخفش، أن كلمة {قَعِيدٌ} تفي لذلك كله {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} يعني كأنه قال: قعيدان، والقعيد هو المُقاعِد كالجليس بمعنى المُجالِس والأكيل بمعنى المؤاكل، وهذا هو الذي عليه المحققون، ليس قعيد بمعنى: قاعد وإنما مُقاعد رقيب يحفظ أعماله وأقواله، يعني يتتبع أمور الإنسان {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} يرقبه، وعتيد: أي حاضر مهيأ لا يغيب ولا يذهب لحاجة أو ينشغل بأكل أو شرب أو ينام أو يحصل له نعاس أو غفلة أو يتلهى بمكالمة أحد، هو يرقبه في كل لحظة لا يغيب عنه شيء من هذه التصرفات، فالمخلوق قد يرقب مخلوقاً، ولكنه ينشغل عنه، انشغل عنه بمكالمة غيره، ينشغل عنه بنوم، بنعاس، بل لربما ينظر إليه وعقله في مكان آخر يفكر فيه، ولكن هذا الملَك رقيب عتيد فهو حاضر لا يغيب بحال من الأحوال كل ما يصدر عن العبد فهو يرصده ويكتبه، ومعدٌّ لكتابته متخصص في هذا ليس عنده شغل آخر يشغله عنه، {رَقِيبٌ عَتِيدٌ} وهما اثنان أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات، ولو أن الإنسان وُكل به من البشر اثنان يرقبانه ويرصدانه لضاقت به أنحاء المعمورة، وضاقت به الأرض بما رحبت، إذا كان الناس يتضايقون إذا نظر أحد إليهم بالسيارة وهم وقوف عند إشارة أو غير ذلك لا يحتملون هذا، فكيف بمن يرقبه آناء الليل وأطراف النهار؟ المخلوق الذي يرقبه إذا دخل الإنسان في بيته هو لا يعرف ما الذي يجري، إذا كان وراء الجدار لا يعرف ما الذي يجري، لربما يكون هذا الإنسان يتحدث مع آخر وذاك ينظر إليه ولا يدري ما الذي يدور بينهم، لكن هذا الملك لا، وعلى قول شيخ الإسلام {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} أنها الملائكة {أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، بينما المخلوق الذي يرصده ويرقبه يكون بعيداً عنه لا يعلم ماذا يقول؛ لأنه لا يصل إليه صوته، فكيف يعلم بخطرات النفس؟!، فهذا من أعظم البواعث على مراقبة الله-تبارك وتعالى- في الخلوة والجلوة، في السر والعلانية، ومن أيقن هذا خاف الله -تبارك وتعالى- وارعوى وكف عن كل ما لا يليق وصار عليه رقيب من نفسه؛ لأنه يعلم أنه لا يحصل له خلوة إطلاقاً، فالخلوة على هذا الاعتبار متعذرة، هي خلوه عن الناس، ولكن الله يراه والملكان معه يكتبان ويرصدان، ويرقبان وينظران، لو جُعل على هذا الإنسان في بيته، وفي كل مكان حتى في مكان الخلاء وفي غيره -أكرمكم الله- كاميرات وما ينقل الأصوات لصار الإنسان يحسب الأنفاس وحركة العين، فكيف بنظر الله-تبارك وتعالى- إلى العبد؟

ونحن بحاجة إلى هذا المعنى كثيرا في مثل هذه الأوقات التي صار الوصول فيها إلى مطالب النفس الدنية أقرب إلى العبد من اليد للفم، {لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ} [سورة هود:٤٣] إذا ما وجدت هذه المراقبة لله -تبارك وتعالى- وإلا فإن العبد قد يسرح في أودية الهلكة، ويقارف مساخط الله -تبارك وتعالى-، ثم يكون حاله كحال ذاك الذي قال عنه النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((يأتي بأعمال كجبال تهامة

البيضاء من الحسنات ثم بعد ذلك يجعلها الله هباءً منثورا)) يُذهبها، هؤلاء ((إذا خلو بمحارم الله انتهكوها))[١٤].

{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ} أي ابن آدم {مِن قَوْلٍ} أي ما يتكلم بكلمة {إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} أي إلا ولها من يرقبها مُعد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الانفطار:١٠-١٢]**، فيكتب الملك كل شيء من الكلام، وهو قول الحسن وقتادة، هو ظاهر الآية وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله -عز وجل- له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه))**[١٥]**، فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح وله شاهد في الصحيح.**

كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث كم من كلام، كم من فعل، كم من كتابة، فالقلم أحد اللسانين، فالذين يخبطون خبط عشواء ويكتبون ما يحلو لهم في المنتديات والمواقع ووسائل التواصل وما إلى ذلك، ولابد أن يعلِّق على كل شيء، ولابد أن يبدي رأيه في كل شيء، ولابد أن يشمت في كل شيء، ولابد أن يهرف بما لا يعرف، هؤلاء لو عرفوا حقيقة ذلك لكفّهم حديث بلال بن الحارث عن كثير من هذا لكن للأسف الغفلة غالبة وكأن الإنسان قد رفع عنه القلم فيما يكتب وما يقول، وهذا القول الذي قال به الحسن وقتادة في قوله: **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** قال به جماعة آخرون منهم: ابن عباس -رضي الله عنهما-، وظاهر الآية يدل عليه لأنه قال: **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}**، فقول: نكرة في سياق الشرط، وقد سبقت بمن والنكرة في سياق الشرط أو النهي أو الاستفهام تكون للعموم، فإذا سبقت بمن نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}**، أيّ قول: **{إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**. وقال هؤلاء: إن الملك يكتب كل شيء: أكلت وشربت ومشيت وذهبت ورجعت وقمت وقعدت كل هذا يُكتب، لكنهم يتفقون في النهاية على أن الذي يترتب عليه الجزاء هو ما يتصل بالتكليف يعني مما يقوله الإنسان من طاعة الله -تبارك وتعالى- أو من معصيته، أما الأشياء العادية ذهبت وجئت ونحو ذلك مما لا يترتب عليها جزاء فبعضهم يقول: إن هذا لا يُكتب وإنما المقصود **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** يعني: من قولٍ يترتب عليه جزاء، قالوا: هو بهذا الاعتبار وبهذا التقدير، وأن هذا على طريقة العرب فهو مخصوص بهذا المعنى، والآخرون أخذوا بظاهر اللفظ فقالوا: يكتب كل شيء ثم يُمحى ما لا يترتب عليه الجزاء، وعلى أيٍّ من المعنيين **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**، المقصود ما يترتب عليه الجزاء أن الإنسان يحاسب نفسه

١٤- رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٥)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٤٦٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٠٥).

١٥- رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في قلة الكلام، برقم (٢٣١٩)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٦٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٨٨).

فلا يتكلم حتى يزن الكلمة، وليس المقصود أن هذه الكلمة يكون فيها مخالفة أو لا يكون فيها مخالفة، ليس ذلك فحسب، بل هناك معنى آخر فوق هذا، هل له فيها نية أو ليس له فيها نية؟، يعني قد يكتب كلاماً جميلاً من الحكمة أو من كلام المعصوم -صلى الله عليه وسلم- أو من كلام السلف -رضي الله عنهم- أو من كلام بعض أهل العلم، قال الحافظ ابن القيم، قال فلان وهو لا يقصد بذلك ولا يريد بهذا وجه الله -تبارك وتعالى-، فيكون بذلك مرائياً أو مسمعاً أو له قصد فاسد فيحاسب على هذا ويقع في الشرك الأصغر.

وكثير من الناس لا يتفطن لهذا فقد يورد ألواناً من الفوائد وهو يريد أن يعزز نفسه، أن يُذكر وأن يُعرف وأن يشتهر وأن يحمد، فيكتب ثم يفتح ماذا قال الناس عنه؟ فيكتب مقالة أو ينزل خطبة أو من هذا القبيل ثم ينظر ماذا قالوا عنه هل أُعجبوا به أو لم يعجبوا به؟ فهذا قصد فاسد يكون على صاحبه من الوزر بقدر جنايته، فهذه أمور يحتاج الإنسان أن يتبصر بها ولو أنه تبصر بها لقل كلامه وقلت كتابته؛ لأن ذلك جميعاً ينقش في صحيفته، وإذا نظرت إلى حالنا في كثير من هذه الملابسات كأننا غير مكلفين وكأن هذه الآيات لم تنزل، {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} غفلة عارمة -نسأل الله العافية-، وكما سبق هذا لا يختص بالأقوال بل يكون في كل شأن، في الأفعال، وفي أعمال القلوب، ما الذي يتوجه إليه القلب من المقاصد الفاسدة والنيات وما إلى ذلك، كل هذا يكتبه الملك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [سورة ق:١٩]، **يقول عز وجل: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} سكرة الموت: المقصود بها شدته وغلبته على الإدراك وعقل الإنسان بحيث يصير في حال تشبه الذهول والسكر كأن العقل يسلب لشدة الموت ولشدة النزع كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن للموت لسكرات))[١٦]، فهذه الشدة تذهب بعقل الإنسان، {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} فإن هذه السكرة تارةً تكون للنزع، وتارةً تكون للفرح الشديد، وتارةً تكون هذه السكرة للهول الشديد، وتارةً كما هي أهوال القيامة {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:٢] الإنسان في مواقف الشدة قد يصيبه مثل هذا يكون في حال كأنه في حلم قد لا يشعر بالناس حوله ويكلمونه ولا يفقه عنهم، ويحصل هذا في أوقات الشدة أحياناً -نسأل الله العافية للجميع- الحوادث أو نحو ذلك، تجد الرجل يقوم بحالٍ بعضهم يقوم يؤذن، وبعضهم يقوم ويقع، وبعضهم لربما قطعت رجله أو نحو ذلك وهو لا يشعر بها، والناس يكلمونه، ولربما كلمه بعضهم بكلام وإذا قيل له بعد ذلك يقول: لم أكن أشعر بشيء من ذلك إطلاقاً وهو في حال لم يكن في إغماء -مثلاً- لكنه في حال من الذهول كالسكر، وهناك نوع آخر من السكر وهو سكر الرئاسة كما يسميه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- هذا الذي يحصل له رئاسة إن لم يوفق ويهدى قلبه ويسدد لسانه فإنه يكون في حال من السكر لا يقبل فيها نصح الناصحين ولا يرعوى ولا يتذكر ولا يتبصر بعيوبه وأخطائه وتقصيره، وإنما يرى دائما أنه في حال من الكمال، ولسان حاله: {مَا

١٦- رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٨).

{أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [سورة غافر:٢٩]، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم عن مثل هذا، وأن الرجل قد يكون له صاحب وإذا صارت له رئاسة فإنه قد يتغير عليه، فيعجب من حاله ما الذي غيره؟ لكن لو شرب المسكر وتغير عليه لم يستنكر -لم يستغرب- لأنه سكران، فيقول: سكر الرئاسة أعظم من سكر الخمر، ولذلك أحياناً الإنسان قد يتعجب كيف لا يبصر هذا مثل هذه المفاسد؟ كيف لا يبصر هذه الحقائق؟ كيف لا يتقي الله -عز وجل- في كذا؟ لماذا لا يراقب ربه في كذا؟ لكنه لا يفكر بنفس الطريقة التي تفكر فيها، هو في سكرة، إلا من رحم الله -تبارك وتعالى.

قال: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} يعني ما كنت منه تفر، فلا محيد ولا مناص عنه {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} بعضهم يقول: الحق هو الموت، السكرة هذه جاءته بالموت، وبعضهم يقول: فيها تقديم وتأخير: جاءت سكرة الحق بالموت، والأصل عدم التقديم والتأخير قد مضى هذا مراراً أن الأصل في الكلام الترتيب، وأنه مهما أمكن حمله على معنى صحيح على النسق الذي جاء به القرآن من غير دعوى تقديم وتأخير فهذا هو الأصل.

وهنا يمكن أن يحمل على هذا المعنى {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} سكرة الموت هي التي جاءت بالحق الذي هو الموت، ولكن القول بالتقديم والتأخير هنا: جاءت سكرة الحق بالموت هذه جاءت فيها قراءة شاذة قرأ بها أبو بكر وابن مسعود -رضي الله عنهم- فإذا صح سندها فإن القراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة كما هو معلوم.

الموت يقال له: حق، ويقال: فلان جاءه الحق من ربه، كما في حديث عثمان بن مظعون، الموت يقال له: حق، الموت حق، جاء فلاناً الحقُّ.

قال: وقد ثبت في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: ((سبحان الله! إن للموت لسكرات))، وفي قوله: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} قولان:

أحدهما: أن ما هاهنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتناءى وتفر قد حل بك وقد نزل بساحتك.

والقول الثاني: أن ما نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

على المعنى الأول: أنها موصولة، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك الذي كنت منه تفر، هذا الذي كنت تفر منه طول عمرك وتتوقاه وتخافه وتحاذره، هاهو يقابلك ويلاقيك وينزل بك.

وعلى المعنى الثاني: أن ما نافية {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} يعني ما منه مفر، ما من منه مخلص {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} يعني ما منه بد، ما منه مفر، ما منه مخرج، إذا نزل فذلك الذي أعيا الأطباء، ولو اجتمعوا من أقطارها لا يغنون عنه شيئاً، والمعنى الأول هو المتبادر {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} يعني هذا الذي كنت تحاذره وتريد الفرار منه وتتوقاه دائماً، هاهو قد حل بك ونزل وجاءت به سكرة الموت، فنزل بك ما كنت تخشى وتتقي لا يدفعه عنك أحد.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الواقعة:٨٣-٨٧]، وهكذا {إِذَا

بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ* وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} [سورة القيامة:٢٦-٢٧] هاتوا الطبيب، ادعوا الطبيب وظن وعلم أنه الفراق، تيقن {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ} [سورة القيامة:٢٩-٣٠].

وقد روى الطبراني في المعجم الكبير عن سمرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بديْن، فجاء يسعى حتى إذا أُعيي وأُسهر دخل جحره وقالت له الأرض: يا ثعلب ديْني، فخرج وله حُصَاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات))[١٧]، ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفزع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة.

هنا قوله -تبارك وتعالى- {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} يوم القيامة فيه وعد ووعيد -كما هو معلوم-، وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين، والوعيد يقال في العذاب والوعد يكون في الثواب، فيوم القيامة فيه هذا وهذا، فهنا ذكر الوعيد دون الوعد {ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} للتهويل وبيان شدة ذلك اليوم، والترهيب والتخويف منه.

وفي الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له))، قالوا: يارسول الله كيف نقول؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل))[١٨].

{وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} أي: ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير ثم روى عن يحيى بن رافع -مولى لثقيف- قال: سمعت عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يخطب فقرأ هذه الآية {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت.

هكذا ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار ابن جرير ولعله الأقرب -والله تعالى أعلم-، أن معنى سائق وشهيد: سائق يسوقها من الملائكة، وشهيد يشهد عليها من الملائكة، فكل هؤلاء من الملائكة، وبعضهم يقول: إن السائق من الملائكة -كما يقول الضحاك- ولكن الشهيد من أنفسهم، يعني الأيدي والأرجل الجوارح التي تشهد عليهم {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} سائق يسوقها، وشهيد يشهد عليها من جوارحهم كما أخبر الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن السائق هو القرين من الشياطين، لا على أنه يسوقها، وإنما لكونه يتبعها فكأنه سائق لها {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ}، فهذا الذي يتبعها وهو القرين بمنزلة السائق وإن لم يكن يسوقها، لكن هذا خلاف الظاهر -والله تعالى أعلم- فظاهر القرآن يدل على أنه يسوقها، تساق كما يؤخذ المجرم أو الجاني، {كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، وبعضهم يقول: إن السائق هو الملك والشهيد هو العمل، والأولون قالوا: هي الجوارح تشهد عليه، وهنا العمل، وبعضهم يقول: إن السائق هو كاتب السيئات

١٧- رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٩٢٢).

١٨- رواه أحمد في المسند، برقم (٣٠٠٨)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية -وهو ابن سعد بن جُنادة العَوفي"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٧٩).

والشهيد هو كاتب الحسنات، -والله تعالى أعلم-، لكن الظاهر -والله تعالى أعلم- أن السائق والشهيد ملكان أحدهما يسوقه والآخر يشهد عليه، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢] **الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى:** {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} **يعني من هذا اليوم** {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} **أي قوي لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى:** {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم:٣٨]، **وقال:** {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة:١٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} لاحظ {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} يعني يقال له: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، فالقرآن أبلغ الكلام فيطوي ما يمكن أن يفهمه السامع، اختصاراً للكلام، {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} فيقال له: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، وظاهر هذه الآية أنها عامة لجميع الناس؛ لأن ظاهر الآيات العموم {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} المؤمن والكافر، والبر والفاجر {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا حمله على العموم، قال: **الإنسان من حيث هو**، وهذا قول أكثر أهل العلم قال به جمهور المفسرين، وهو اختيار ابن جرير- -رحمه الله- -بناءً على الظاهر، وبعضهم يقول: إن ذلك مخصوص بالكافر؛ لأنه هو الذي كان في غفلة من هذا {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، وهذا قال به الضحاك -رحمه الله-، لكن بناء على قول الجمهور -وهو اختيار ابن جرير وابن كثير- هو للعموم، كيف يكون هذا بالنسبة للمؤمن {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}؟ قالوا: باعتبار أنه تتكشف له الحقائق الغيبية التي ما كان يراها، وإنما كان يؤمن بها فهذه كالحُجب، يعني: حجاب الغيب، فإذا رفع عنه هذا الحجاب عند ذلك يبصر فيرى الملائكة، ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويرى كثيراً من الحقائق التي كان يسمع عنها ويؤمن بها، ولكن ليس الخبر كالمعاينة.

والقول الآخر أنه في الكافر له وجه باعتبار ذكر الغفلة، وكذلك ما بعده، {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة ق:٢٣-٢٤] فهذا في الكافر، والله تعالى أعلم.

{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة ق:٢٣-٢٩] **يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول:** {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} **أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان.**

هنا الحافظ بن كثير -رحمه الله- فسر {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} يقول: **إن الملك الموكل بعمله يشهد عليه يوم القيامة ويقول:** {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، **أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان**، بعض أهل العلم يقول:

إن الملك يخاطب العبد، يقول له: تفضل هذا عملك {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} هذا الرصيد، هذا الذي كنت أكتبه وأسجله، هذا الديوان، هذا العمل حاضر من غير زيادة ولا نقصان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٩].

فكما قال بعض السلف: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر، فأول ما ذكروا الصغائر {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}، ولذلك الإنسان لا يتساهل بالصغائر ويقول: الله غفور رحيم، انظر إلى هؤلاء ذكروا الصغائر قبل الكبائر، فبعضهم يقول: إن هذا خطاب من الملك {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، يخاطب به العبد، يقول: هذا عملك جاهز، حاضر، من غير زيادة ولا نقصان، وهذا قال به جماعة كالحسن والضحاك وقتادة، وجاء عن مجاهد: أن الملك يقول للرب: هذه الأمانة يا رب هذا الذي وكلتني به هذا عمله، سجلته عليه من غير زيادة ولا نقصان، هذا الذي وكلتني به، هذا ما صدر عنه، وجاء في رواية عن مجاهد: أن ذلك القائل هو قرينه من الشياطين، يقول: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} يخاطب الإنسان، يقول: هذا الذي هيأته لك بإغوائي وإضلالي وتزييني للمعصية والمنكر والباطل، {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} هذا الذي أغويتك به، تفضل واجه المصير وحدك ودافع عن نفسك، هذا وإن جاء في رواية عن مجاهد إلا أنه لا يخلو من بُعد -والله تعالى أعلم-، وهكذا ما جاء عن ابن زيد: أن القائل هو القرين من الإنس –الصاحب- يقول ذلك يتبرأ منه بتلك الحال، ويقول: هذا الذي قدتك إليه واجه مصيرك وعملك، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك من قول الملك {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} هل يخاطب به العبد يقول: هذه أعمالك التي سجلتها لك أو يخاطب به الرب؟، فهذا يحتمل، فيحكم الله -عز وجل- عندها {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ}.

فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} الظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عَرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير.

على هذا يكون الخطاب لاثنين {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} هذا السائق يسوقها من الملائكة، وهذا الشهيد من الملائكة يشهد عليها، فهذا الشهيد من الملائكة هو الذي يقول: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، فيقول الله -عز وجل- لهما: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} باعتبار أن الخطاب لاثنين: السائق والشهيد، هذا الذي مشى عليه ابن كثير ووجهه ظاهر، فهو أمر للملكين، وسبقه إلى هذا القول الزجاج، وبعضهم يقول: هو خطاب لاثنين لكن ليس للسائق والشهيد وإنما لاثنين من خزنة النار، {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} ولكن هذا خلاف الظاهر -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: إن الخطاب هنا لواحد، إذا كان الخطاب لواحد كيف خرج مخرج الاثنين، كيف عبر بصيغة التثنية؟ فيكون هنا محل سؤال أو إشكال، فبعضهم يقول: هذا معروف في لغة العرب وهو صحيح لا إشكال فيه، فيقولون: جرى هذا المجرى تنزيلاً لتثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} وتكريره مثل: ألقِ ألقِ، تقول: قف قف، فيتوسع بالتعبير حينها فيثنى الفاعل لتكرير الفعل، يعني الفعل مكرر ألقِ ألقِ، {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} وهذا الذي مشى عليه جماعة من أهل اللغة وأصحاب المعاني والخليل بن أحمد، والأخفش يقول: إن العرب تخاطب الواحد بخطاب التثنية،

يقول مثلاً في الناقة: أرحلاها وازجراها وهو واحد، خذاه وأطلقاه، وبأي اعتبار؟ يقولون: إن العادة جرت أن الرجل يكون معه في الأسفار أعوان، يكون معه الذين يرحلون الناقة أو نحو ذلك فيكون في العادة معه رفقة، أدنى الأعوان أن يكون معه اثنان في إبله وغنمه، كما يقوله الفراء، فتجد كلامهم عن الواحد بعبارة موجهة في ظاهر اللفظ لاثنين جرياً على عادتهم وطريقتهم في المخاطبة، فيقول الرجل: قوما عني، انصرفا عني وعنده واحد، وهذا جاء في قصيدة لامرئ القيس: خليليَّ وهو يخاطب واحداً:

خليليّ مُرا بي على أمِّ جُندَب *** نقضّ لُبانات الفؤادِ المعذَّبِ

وكذلك القصيدة المشهورة له التي مطلعها:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ *** بسقطِ اللِّوى بين الدخولِ فحَوملِ

وأيضاً:

فإنْ تزجراني يا ابن عفانَ أنزجرْ ***

تزجراني، وهو يخاطب واحداً، وكذلك ما ينقل عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه عبر بمثل هذا: يا حرسي خذاه وهو يتكلم لحارس واحد، وهذا يكون على طريقة العرب أو بناء على التكرير -كما سبق- ألقِ، ألقِ فنزل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل، يعني من باب التوكيد، والله تعالى أعلم.

{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة ق:٢٤] **أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك {مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ}** [سورة ق:٢٥] **أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة.**

{مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ}، لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ظاهره أنه في الحقوق المالية، ابن جرير خصه بالحقوق المالية {مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ} باعتبار أن الخير هو المال، {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [سورة العاديات:٨]، فالخير هو المال، {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ} [سورة البقرة:١٨٠] أي مالاً، فبهذا الاعتبار {مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ} يعني للمال من أن يصل لمستحقيه فيحبس الزكاة الواجبة، الصلة، النفقات وسائر وجوه البر والإحسان في المال.

{مُعْتَدٍ}، أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتدٍ في منطقه وسيره وأمره

{مُّرِيبٍ}، أي شاك في أمره، مريبٍ لمن نظر في أمره.

يقال: أراب الرجل إذا صار ذا ريب، الريب عرفنا في بعض المناسبات أنه شك خاص، شك مع قلق، شك مقلق، هذا الذي يقال له: الريب.

المقصود أن هذا في حال من البعد عن الله والإعراض {مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ} فهو لا يصدر منه خير، لا ينفق ولا يتصدق ولا يؤدي الحقوق لأصحابها، وهو في حال من التعدي والتجاوز مجترئ على حدود -الله -تبارك وتعالى- فإن كان في المال فهو يأخذه من غير حله ويصرفه في غير حله، وهكذا في سائر أموره، مع ما في قلبه من الريب والشك فهو ليس على يقين من أمر الآخرة ولا له إيمان ثابت يردعه، ولهذا الله -تبارك وتعالى- قال في سورة الماعون: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [سورة الماعون:١]، فجعل التكذيب في الدين سبباً لما بعده {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} [سورة الماعون:٢]، يدفعه عن حقه، {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [سورة

الماعون:٣]؛ لأنه لا يرجو عائدة في الآخرة، ثم ذكر ما بعده {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِـهِمْ سَاهُونَ} [سورة الماعون:٤-٥] فكأن هذا من صفة هؤلاء من أهل النفاق أو الذين يغفلون عن الصلاة باعتبار أن "عن" هنا بمعنى: عنها وليس السهو فيها، وإنما هم غافلون عنها {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِـهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [سورة الماعون:٥-٧] منع الماعون: هو يمنع الأشياء التي لا يتضرر ببذلها، والمسكين، ونحو ذلك، فإذا كان يمنع ما لا ضرر عليه من بذله فكيف سيبذل الأموال ويتصدق؟ هذا لا يكون، فهو في غاية الشح.

{الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [سورة ق:٢٦] أي أشرك بالله فعبد معه غيره {فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: ((يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكلت اليوم بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم تقذفهم في غمرات جهنم))[١٩]، {قَالَ قَرِينُهُ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به.

هذا قول الجمهور واختاره ابن جرير: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} هذا غير الأول، والجمهور يقولون: إنه الشيطان الذي وكل به يعني القرين، وهو اختيار ابن جرير، وآخرون كمقاتل وسعيد بن جبير يقولون: هو الملك الموكل بالسيئات، بأي اعتبار يقول الملك هذا؟ يقول: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}؛ لأن الكافر حينها لما يرى كتاب الأعمال لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ويقول: هذا الذي وكلت به، هذا عمله حاضر، يقول: ربي أعجلَني، لم يمهلني، لعلي أرجع، لعلي أفيق، لعلي أتوب، فهو يكتب مباشرة بمجرد ما يصدر العمل، لا يمهل لعله يحصل توبة، مجرد ما تصدر المعصية يكتبها، يقول: ربي أعجلَني، فيقول: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، ويقول الله تعالى: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، فعلى القول الأول أن القرين هنا من الشياطين -ولكل إنسان قرين- فهذا القرين يعتذر فيقول كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ أن اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} [سورة إبراهيم:٢٢]، فهذا يقول: أي القرين من الجن يقول: ربنا لست أنا الذي أضللته وأغويته لكن كان متهيئاً للفساد قابلاً له منقاداً طالباً للشر وللمعصية والمنكر والكفر بالله -تبارك وتعالى- فاستجاب لي لمّا دعوته إلى ذلك، أما أهل الإيمان فلم يكن لي عليهم سلطان.

{رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ} [سورة ق:٢٧] أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}، أي ما أضللته {وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، كما أخبر -سبحانه وتعالى- في الآية الأخرى في قوله: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ أن اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا

١٩- رواه أحمد في المسند، برقم (١١٣٥٤)، وقال محققوه: "بعضه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية -وهو ابن سعد العوفي- وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير معاوية بن هشام فمن رجال مسلم، وروى له البخاري في "الأدب المفرد" ، وهو حسن الحديث، شيبان: هو ابن عبد الرحمن النحوي، وفراس: هو ابن يحيى الهمداني الخارفي"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٦٩٩)، وفي صحيح الجامع، برقم (٨٠٥١).

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ أن الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة إبراهيم:٢٢]، وقوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} [سورة ق:٢٨]، يقول الرب -عز وجل- للأنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} أي عن منهج الحق، فيقول الرب -عز وجل- لهما: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} أي عندي {وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاضٍ {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} أي لست أعذب أحداً بذنب أحد ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} فالقول الذي لا يبدل بعض أهل العلم يقول: المراد بذلك {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [سورة الأنعام:١٦٠] الآية، والمشهور أن المراد من ذلك هو قوله: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة السجدة:١٣] أن الله قضى بملء جهنم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} بزيادة ولا نقصان، لا يستطيع أحد أن يكذب، كما يقوله جماعة من أصحاب المعاني، بهذا قال الفراء وابن قتيبة {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} لا يستطيع أحد أن يزيف ويروج كذباً بين يدي الله -تبارك وتعالى- لكونه يعلم الغيب والشهادة، وهذا اختاره الواحدي من المفسرين.

وآخرون يقولون: إنه قال: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} ما قال: ما يبدل قولي، يردون على الذين قالوا: إن المقصود {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} أو {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} قالوا: ما قال: ما يبدل قولي، وإنما قال: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، يعني عندي، لا أحد يستطيع أن يكذب أو يتزيد أو نحو ذلك. والمشهور هو الأول الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، يعني قضيت ما أنا قاضٍ كما يقول مجاهد -رحمه الله-، وهذه من الآيات التي تورِد في هذا المقام مسألة تخلف الوعيد فالمشهور أن الوعيد يتخلف، وأن الوعد لا يتخلف، ويذكرون البيت المعروف:

وإنّي وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه *** لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

يقول: الكريم ينجز الوعد -يعني بالخير-، ويمكن أن يخلف الوعيد يعني لا يوقع العقوبة، وقلنا: إن هذا ليس على إطلاقه في إخلاف الوعيد، وإن الوعيد الحاصل للكافرين لا يتخلف، ومما يدل على هذا {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} على أحد المعنيين، {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [سورة الطور:٧-٨] فوعيده تعالى بالكافرين حاصل لا محالة، وأما الوعد فلا يتخلف، أما وعيده لأهل الإيمان فيمكن أن يتخلف، وهكذا في قوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}، فنفى هنا صيغة المبالغة {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ} فيرد سؤال: وهو أنه إذا نفيت المبالغة فإن هذا لا ينفي أصل وقوع الظلم، ظَلَّام على وزن فَعَّال، يعني كثير الظلم، فنفى عنه كثرة الظلم، لكن هل يكون هذا نفياً للظلم القليل أو لا؟

وقلنا عن هذا أجوبة متعددة، منها:

الأول: أن الآيات دلت على أن الله {لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [سورة يونس:٤٤] فـ "شيئاً" نكرة في سياق النفي، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦] هذه صيغة مبالغة، و{لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} بدون صيغة مبالغة، فهذه النصوص الكثيرة في نفي الظلم تشمل قليله وكثيره، فدل على نفي أصل الظلم، هذا جواب باعتبار النصوص الأخرى، أن الله لا يظلم مثقال ذرة، فهذا نفي لأقل الظلم.

الثاني: أن ذلك -يعني صيغة المبالغة- باعتبار كثرة العبيد، يعني فلو وقع لكل واحد مظلمة فهم كثير، فعبر بصيغة المبالغة {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} فلو وقع لكل واحد ولو ظلم يسير فعلى كثرتهم يكون الظلم كثيراً.

الثالث: أن عقاب الله فظيع لا يُقادَر قدره، فلو أن هذا العذاب وقع على غير مستحق لكان من أعظم الظلم.

الرابع: هذه الصيغة -صيغة المبالغة ظلام-: تأتي في لغة العرب بمعنى النسبة، يعني بمنزلة الياء، كقوله:

*** فاقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسي

فالياء للنسبة، فهنا ظلام {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ} يكون المعنى: بذي ظلم للعبيد، فهذا يأتي في لغة العرب، أي استعمال صيغة المبالغة مراداً بها النسبة وليس معنى المبالغة، هذه أربعة أجوبة وهناك غيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ق من الآية (٣٠) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أواب حفيظ *مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [سورة ق:٣٥] يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه -تبارك وتعالى- وعدها أنه سيملؤها من الجِّنة والناس أجمعين، فهو -سبحانه وتعالى- يأمر بمن يأمر به إليها ويُلقَى وهي تقول: هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث، روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة))[1]، رواه مسلم.

حديث آخر: روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- رفعه وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان-: ((يقال لجهنم هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟، فيضع الرب -تبارك وتعالى- قدمه عليها فتقول: قط قط))[2]، طريق آخرى روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله -عز وجل- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله -عز وجل- من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله -عز وجل- ينشئ لها خلقاً آخر))[3].

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن المقصود أنها لا تزال تطلب الزيادة حتى يضع فيها رب العزة قدمه، فتقول:

١- رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٨)، وأحمد في المسند، برقم (١٣٤٥٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد قوي على شرط مسلم".

٢- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وتقول هل من مزيد} [سورة ق:٣٠]، برقم (٤٨٤٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٨).

٣- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وتقول هل من مزيد} [سورة ق:٣٠]، برقم (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦).

قط قط، يعني كفاني كفاني، هذه الأحاديث تدل على هذا المعنى، وإن كانت الآية تحتمل غيره من جهة ظاهر اللفظ، ولذلك فإن القول الآخر الذي قال به طائفة من السلف فمن بعدهم أن المقصود أن ذلك هو استفهام المقصود به: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} هل بقي فيَّ مكان يحتمل الزيادة؟ يعني هي امتلأت، الله -تبارك وتعالى- وعدها بملئها، فمَلأها، لا تزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟، يعني هل بقي فيَّ متسع، يعني أنه لم يبق فيها متسع، حينما تسأل: هل امتلأتِ تقول: هل بقي فيَّ متسع؟ يعني لم يبق فيَّ متسع، فهذا قول آخر معروف في الآية، وقال به جماعة كعطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان، لكن المعنى الأول هو الذي تدل عليه الأحاديث، وهو الذي اختاره المحققون من المفسرين كابن جرير وابن كثير والحافظ ابن القيم -رحم الله الجميع- فيكون هذا باعتبار أنها تطلب الزيادة لا تزال تطلب المزيد حتى يضع فيها رب العزة قدمه فتقول: ((قط قط)) كفاني كفاني.

وقوله تعالى {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} قال قتادة وأبو مالك والسدي {وَأُزْلِفَتِ}: أدنيت وقربت من المتقين {غَيْرَ بَعِيدٍ} وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} أي راجع تائب مقلع {حَفِيظٍ} أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله -عز وجل- كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه))[4]، {وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} أي ولقي الله -عز وجل- يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه {ادْخُلُوهَا} أي الجنة {بِسَلَامٍ} قال قتادة: سلِمُوا من عذاب الله -عز وجل- وسلّم عليهم ملائكة الله، وقوله -سبحانه وتعالى-: {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً ولا يبغون عنها حولاً، وقوله -جلت عظمته-: {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا} أي مهما اختاروا وَجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم، وقوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، كقوله -عز وجل-: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [سورة يونس:٢٦] **في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} هنا نقل عن هؤلاء من السلف -رضي الله عنهم- أن أزلفت بمعنى أدنيت، {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [سورة التكوير:١٣] يعني: قربت من المتقين، {غَيْرَ بَعِيدٍ} هنا فسره بيوم القيامة، باعتبار أنه ليس ببعيد، وإنما هو قريب وكل ما هو آت قريب {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [سورة المعارج:٦-٧] فهذا معنى، وبعضهم فسره بما هو أعم من ذلك بعبارة لا تخصص يوم القيامة -مثلاً- في المعنى {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} يعني تقريباً غير بعيد، أزلفت: قربت تقريباً غير بعيد، أو بحيث صارت في مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف، يعني أن الجنة تقرب لهم {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}، فهنا {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} يعني هل المقصود بغير البعيد أي يوم القيامة كما يقول الحافظ ابن كثير هنا؟ أو أنها تقرب لهم يوم القيامة قبل دخولها وهم في أرض المحشر تقريباً غير بعيد

٤- رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

بحيث يشاهدونها كما أن النار تقرب أيضاً ويؤتى بها يقول: ((لها سبعون ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك))[٥]، كما قال الله -عز وجل-: {إِذَا رَأَتْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [سورة الفرقان:١٢] فالجنة تقرب فيرونها قبل دخولها فتتشوف نفوسهم إليها وإلى دخولها -جعلنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منهم-، فهنا يكون المعنى: يعني {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ} من المتقين مكاناً، {غَيْرَ بَعِيدٍ} قربت لهم وهم في أرض المحشر {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} هذا المقصود {وَأُزْلِفَتْ} يعني أنها صارت في يوم القيامة هم لا يدخلونها إلا يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

قال: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} هنا فسر الأوّاب أي الراجع التائب المقلع، الأوبة: بمعنى التوبة والأواب فعَّال يعني كثير الأوبة كثير الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- يرجع بالتوبة من المعاصي والذنوب والتقصير في حق الله -تبارك وتعالى- أيًّا كان، والتوبة تكون حتى من عموم التقصير وإن لم يكن في الواجبات أو فعل المحرمات، يعني تكون التوبة من خلاف الأولى، ومن ترك السنن والمستحبات، وتكون من فعل المكروه، ومن أمثلة ذلك أن عمران بن حصين -رضي الله عنه- لما مرض وطال ذلك حتى بلغ أربعين سنة -يعني مدة المرض- أصابه شيء من المرض، استسقى فاكتوى وكان يُسلَّم عليه -يعني تسلم عليه الملائكة-، ثم تاب، وقبل أن يتوب الكي ليس بمحرم وإنما هو مكروه؛ لأنه تعذيب بالنار، فلما اكتوى ما عاد ذلك التسليم يقع، كأنه انتقل من مرتبة إلى مرتبة أدنى بسبب الكي، فتاب فرجع ذلك إليه -يعني صار يُسلَّم عليه- فدل على أن فعل المكروهات يُتاب منه وهذا من هذا الأثر، والأواب الرجاع إلى الله -تبارك وتعالى- بالتوبة عن المعاصي، وعن التقصير، وبعضهم يفسر الأواب بالمسبح، أو بالذاكر لله -تبارك وتعالى- في الخلوات كما يقول بعض السلف، أو الذي يذكر ذنوبه في السر وفي الخلوة إذا خلا فيستغفر، أو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر، هذه عبارات للسلف، ولكن الأوبة معناها التوبة وهي أحد معانيها، وقد مضى الكلام على هذا مفصلاً في الأعمال القلبية في الكلام على التوبة، {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}، قوله: {لِكُلِّ}، {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} هذا التركيب "لكل"، بعضهم يقول: إن قوله: "لكل" هو بدل من المتقين {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} {لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} مَن هؤلاء المتقون؟، هم كل أواب حفيظ {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} أزلفت الجنة لكل أواب، البدل يقوم مقام المبدل منه، لكنه هنا جيء به مع إعادته الخافض "اللام"، {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} كلِّ أواب حفيظ، هذا يكون بدلاً من المتقين فأعيد الخافض {لكل أواب حفيظ}، وبعضهم يقول: إن قوله: {لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} متعلق بمحذوف وليس ذلك من قبيل البدل من المتقين، وإنما هو متعلق بمحذوف وحال، أي مقولاً لهم: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} مقولاً لهم {لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}، قال: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} الحفيظ ما معناه؟ قال: **أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه** يعني يحفظ العهد مطلقاً، وأول ذلك وأعظمه العهد مع الله -تبارك وتعالى-، بعضهم يقول -وهو لا ينافي ما ذكره الحافظ ابن كثير فعبارة ابن كثير مجملة

٥- رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٢).

وعامة-: إن الحفيظ هو الذي يحفظ ذنوبه فيتوب منها، يعني كأنه يحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب، وبعضهم يقول: هو حفيظ على فرائض الله -عز وجل- وما ائتمنه عليه، ذلك يقول: حفيظ للذنوب، وهذا يقول: حفيظ لفرائض الله، ابن جرير -رحمه الله- حمله على المعنيين، يقول: ليس عندنا ما يدل على تخصيص أحد المعنيين دون الآخر ومن ثَمّ فإنها تحتمل هذا وهذا، فهذا حفيظ، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه**، إذا حفظ العهد مع الله فعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه، فهذان معنيان جمع بينهما الحافظ ابن كثير في هذه العبارة، ولذلك تجد عبارات السلف كقول بعضهم -كقتادة-: الحافظ لحدود الله تعالى، أو الحافظ لما استودعه الله -تبارك وتعالى- من حقه ونعمته عليه، إلى غير ذلك من العبارات، كقول مجاهد: هو الحافظ لأمر الله، فهذا مثل ما سبق، أو الحافظ لوصية الله كما يقوله الضحاك فيعمل بما أُمر به ويترك ما نهاه الله عنه، فهذا هو الحفيظ {لِكُلِّ أوابٍ حَفِيظٍ} فهو حفيظ على وزن فعيل وهذه صيغة مبالغة أي أنه عظيم الحفظ، كثير الحفظ يحفظ ما يجب عليه حفظه، أن يحفظ حدود الله -تبارك وتعالى- وأن يراعي حقوقه فيما أمره به وأن يجتنب ما نهاه عنه، فهذا هو الحفيظ.

يعني بخلاف من {كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف:٢٨] مضيع مفرط، ينتهك حدود الله -عز وجل- ولا يبالي، ويضيع أمره ونهيه غير مكترث: {لِكُلِّ أوابٍ حَفِيظٍ} قال: **أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه**، {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} لاحظ هنا قال: **أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله -عز وجل- لقوله -صلى الله عليه وسلم-:** ((ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه))، هذا المعنى قال به جماعة من السلف كالضحاك والسدي والحسن وغير هؤلاء، وهذا هو المتبادر {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ}، وهو أحد المعنيين اللذين يحتملهما قوله -تبارك وتعالى- في أول البقرة: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [سورة البقرة:١-٣]، يعني بما يجب الإيمان به من الغيب، الإيمان بالله وبالملائكة وكل الغيوب، بالنسبة لنا الكتب السابقة من قبيل الغيب، والرسل من قبيل الغيب، وما إلى ذلك، فهذا كله من الغيب، هذا هو المشهور، المعنى الثاني في آية البقرة يوافق هذا وهو {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} يعني ليس كالمنافق يؤمن علانيةً وأمام الناس، وفي سره هو غير مؤمن، {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ} يعني إيماناً حقيقياً بالغيب والشهادة، وإذا غابوا عن الناس فهم على الإيمان ومن ثم فهم مراعون لحقوق الله وحدوده، فالآية تحتمل هذين المعنيين، لكن هنا الآية واضحة أن المقصود {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} يعني حينما يغيب عن الأنظار، يعني في سره يراعي حدود الله وحقوقه ويراقبه في حال خلوته، هذا المعنى المشهور، وإن كان ابن جرير -رحمه الله- فسرها بغير هذا فحمل ذلك {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} على الإيمان في الدنيا باعتبار أنه لم يعاين الحقائق، فالآخرة بالنسبة إليه غيب فالذي يؤمن بالدنيا آمنَ بالغيب، {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} يعني في حال الدنيا، وهو في الدنيا، فالنار غائبة عنه والجنة غائبة عنه، والله تعالى غيب، فكل هذه غيوب، ولكن المعنى الأول هو الذي عليه الأكثر وهو الظاهر المتبادر، {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} ليس المقصود أنه خشي في الدنيا وإنما يخاف ربه -تبارك وتعالى- في خلوته فيراقبه، فهذه من أدله المراقبة، ومن أسماء الله -تبارك وتعالى-: {الرَّقِيبَ} [سورة المائدة:١١٧]، قال {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} خافه في سره، {وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ} يقول: **ولقي الله -عز وجل- يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه**، المنيب هو الراجع، من الإنابة وهي الرجوع، وهذا بمعنى التوبة، راجع إلى الله -تبارك وتعالى-، وعبارات السلف متقاربة في هذا: راجع إليه، مخلص إليه، مقبل على الطاعة، منيب بالطاعة، وبعضهم يقول: السليم، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- هنا جمعت بعض هذه المعاني التي ذكرها السلف، وهذا من مزايا هذا التفسير التي أشير إليها كثيراً، لاحظ: **لقي الله -عز وجل- يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه**، قال: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} يقول: **قال قتادة: سلِموا من عذاب الله -عز وجل- وسلّم عليهم ملائكة الله** {بِسَلَامٍ}: يعني في حال سلامة، هذا المعنى الأول: سلِموا من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وابن جرير ذكر عبارة أهم من هذا وأوسع منه {ادْخُلُوهَا بسلام} يعني بأمان من كل المخاوف، من الهم والغضب، غضب الله -عز وجل- والعذاب، وما كنتم تلقونه في الدنيا من المكاره، الجنة ليس فيها هم ولا حزن ولا مرض ولا قلق ولا أذى من حر أو برد أو غبار إلى غير ذلك مما يتأذى منه الناس فيسلمون فيها من كل الآفات، والمعنى الثاني الذي ذكره هنا وهو أنهم يدخلونها بسلام: أي أن الله يسلم عليهم، هكذا كما قال -عز وجل-: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [سورة يس:٥٨]، وقال: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [سورة الرعد:٢٣-٢٤]، وهكذا في قوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤]، وأنها تحتمل أن يكون المُحيِّي لهم الله -تبارك وتعالى- كما قاله بعض السلف، ويحتمل معنى آخر وهو: أنها التحية التي تكون بينهم، وهما معنيان صحيحان، الله -تبارك وتعالى- يسلم عليهم كما دلت عليه الآية {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}، وكذلك يسلم بعضهم على بعض فهذه تحية أهل الجنة، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} يعني يُحيي بعضهم بعضاً، هذا بالإضافة إلى أن الملائكة تحييهم، وهذه كلها معانٍ صحيحة، وهكذا قول من قال: بسلامة من زوال النعم، فهذا يدخل في السلامة من كل الآفات، يعني أنهم في أمان تام من كل وجه {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} فهم يدخلونها بأمان وهم سالمون من كل آفة، ومن كل المخاوف والمكاره ومن ذلك عذاب الله -تبارك وتعالى-، ويحتمل أن يدخل معه المعنى الآخر {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} أي: أنه يسلَّم عليهم من قبل الله وتسلم عليهم الملائكة، {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} البقاء الأبدي السرمدي، {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} فسر المزيد بالنظر إلى وجه الله الكريم، وهذا الذي يدل عليه الحديث، وكذلك في قوله تعالى {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[سورة يونس:٢٦]، وإن كان بعض المفسرين حمله على معنى عام {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} أي من النعم وألوان النعيم، والعطاء وما إلى ذلك، فعلى هذا التفسير العام لا شك أنه من أعظم هذا العطاء والنعيم الذي يعطيهم الله -عز وجل- النظر إلى وجهه الكريم، وهو داخل في ذلك {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

والتنكير في قوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} للتعظيم، {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} فإذا فسر هذا بالسلامة من الآفات والمخاوف وما إلى ذلك فهذا سلام مطلق، وإذا فسر أو أُدخل معه المعنى الآخر أنه يسلم عليهم فهذا أيضاً سلام مطلق فيدخل فيه تسليم الله وتسليم الملائكة وأنه يسلم بعضهم على بعض، لا إشكال لا يخص بأحد هذه المعاني، كلها ثابتة.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * أن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [سورة ق:٣٦-٤٠]، **يقول تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا} قبل هؤلاء المكذبين {مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا} أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال تعالى هاهنا: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أثروا فيها، وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها.**

قوله تعالى: **{وَكَمْ أَهْلَكْنَا}** هذه تدل على التكثير **{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ}**، والمقصود بالقرن هنا الأمة، **{هم أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا}** أشد من هؤلاء المكذبين لك يا محمد -عليه الصلاة والسلام-، **{أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا}**، **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}** نقّبوا في البلاد، وفي قراءة أبي عمرو **{فَنَقَبُوا فِي الْبِلادِ}** والنقب هو الخرق، ويقال للطريق بين جبلين **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}** هنا للتكثير، زيادة المبنى لزيادة المعنى نَقّبوا ونَقَبوا، فمن نظر إلى معنى الخرق فسره بهذا، **قال ابن عباس: أثروا فيها** نقبوا في البلاد يعني بما يعملون فيها من حفر الآبار وبناء البنايات وما إلى ذلك، فكانت لهم من الآثار في الأرض ما هو مشاهد بقيته وآثاره، وهذه الأشياء عجيبة، يعني الأهرام -مثلاً- ولا زالت بقايا ودفائن وأشياء تخرج من القصور العجيبة الهائلة التي هي في غاية التزيين والنحت على هذه المدد والآماد الطويلة لم يتغير بعضها، فهذا يدل على أن أولائك أوتوا من القوى والقُدر والإمكانات ما قد يعجز عنه الناس في عصرنا هذا، والله -تبارك وتعالى- يذكر هذا في مواضع من كتابه والناس لا يرون إلا عصرهم فقد يوجد عند بعض الأمم المهلكة من القوى والإمكانات والقُدر ما هو أعظم من الإمكانات الموجودة اليوم، والشواهد قد تدل على هذا، آبار تنحت في الصخر كأنها قد نحتت بالآلات في غاية الدقة، هذا لا يمكن أن يكون بمعاول عادية، والصخور حينما ينحت منها البيوت ويوضع عليها الزخارف، وباقية إلى اليوم فهذا في غاية العجب، ما فعله الناس اليوم، وهذه الأهرامات العجيبة وما في داخلها أيًّا كان أولائك الذين بنوها هذه في غاية العجب ولا زال الناس يعجبون من هذا، وما عندهم من الوسائل في حفظ هؤلاء الأموات والجثث إلى غير هذا من الأمور المعروفة التي لربما عُدت من عجائب الدنيا، فهذا المعنى الذي ذكره ابن عباس أثروا فيها، المعنى الثاني الذي قاله قتادة: فساروا في البلاد أي فساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}** يعني كما يقول مجاهد: بمعنى طافوا، ساروا في البلاد، ضربوا فيها، فالمشي في الأرض والتقلب فيها **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}** يقال له ذلك، يعبر عنه بالتنقيب **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}**، وبعضهم يعبر عن هذا يقول: دوَّروا في البلاد، فهي معانٍ متقاربة، وهكذا قول من قال: تباعدوا يعني وصلوا إلى أقاصي الدنيا، أماكن البلاد البعيدة **{فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ}** يحتمل أن يكون المراد أنهم ساروا طولاً وعرضاً، أو أثروا فيها كما -قال ابن عباس- ولكن هل أغني هذا عنهم من الموت ومن المصير المحتوم مع هذه القُدر والإمكانات والانتقال، أو التأثير في الأرض بتشييد البنايات وغير ذلك مما شيدوا هل أغنى هذا؟ هل دفع عنهم الموت وما أنزله الله -تبارك وتعالى- بهم؟ لم يغن ذلك عنهم شيئاً،

هذا معنى، والمعنى الثاني {هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} يعني {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} أنهم طلبوا البقاء فراراً من الموت ولكنهم لم يرجعوا من ذلك بشيء، يعني أن التنقيب تطلّب البقاء فنقبوا في البلاد هل من محيص.

وقوله تعالى: {هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

هل من محيص من ماذا؟ الحافظ ابن كثير يقول: من عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل، وبعضهم يقول: من الموت، وذكر هذا بعض أصحاب المعاني كالزجاج، إذاً الآية تحتمل معنيين، طبعاً {مَحِيصٍ} هو المفر {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} بمعنى أنهم ساروا فيها طولاً وعرضاً، أو أنهم أقاموا فيها من الأعمال التي اعتملوها وغير ذلك مما شيدوه، فهل أغنى ذلك عنهم وأورثهم الخلود والبقاء في هذه الحياة الدنيا ونجوا معه من الموت مع هذه القُدر والإمكانات؟، أو من عذاب الله -عز وجل- هل أغنى عنهم من عذابه على قول ابن كثير؟، المعنى الثاني: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} أنهم ذهبوا وساروا طولاً وعرضاً طلباً للبقاء فواجهوا القدر المحتوم فنزل بهم أمر الله -تبارك وتعالى-، وإذا قلنا بأن المقصود العذاب أيضاً {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ} طلبوا الخلاص ولكن نزل بهم أمر الله -عز وجل-، الله -تبارك وتعالى- يذكر هذه الأمم المهلكة أنها كانت أقوى وأقدر وأكثر آثاراً في الأرض فما أغني ذلك عنهم، فنزل بهم ما قضاه الله تعالى عليهم، ولم يدفع عنهم ذلك تلك القوى والقدر والإمكانات من أمر الله قليلاً ولا كثيراً، فأنتم إلى أي شيء تفرون؟ فلا ملجأ من الله إلا إليه، يعني أن الله إذا قضى على عباده أمراً فهو كائن لا محالة مهما كان عندهم من الإمكانات والقُدر والقوى لا يستطيعون الخلاص من هذا، والله يرينا من الآيات ما فيه العبرة لمن هدى الله قلبه، فانظر الآن ما يقع من الكوارث التي صار الناس يشاهدونها في كل مكان يقع زلزال، يقع طوفان -كتسونامي- وترى الناس تتحول ديارهم وهذه العواصم أو المدن الواسعة الشاسعة إلى حطام، فتكون كالقش أمام أمر الله -تبارك وتعالى- وعذابه إذا نزل بهم، هؤلاء لا يستطيعون الفرار، ليس عندهم قدرة على رد أمر الله -عز وجل- لا يمكن أن تغني عنهم هذه العلوم والدفاعات والتكنولوجيا وغير ذلك، وإذا نظرت إلى هذه السفن الضخمة والبواخر يحملها هذا الماء الذي هو أرق الأشياء ويلقيها بعنف، وإذا بها في وسط المدينة فوق بناياتهم، ويأتي هذا الهواء الرقيق اللطيف فيشتد إذا أراد الله -عز وجل- أن يعذب به قوماً فتجده يحمل السيارات، ويحمل كل ما في طريقه ويلقيه حتى تصير هذه كالهشيم، أو كالحطام المتجمع -نسأل الله العافية-، هذا مُشاهد، نشاهد السيول إذا جاءت الأمطار -عندنا- ترون السيارات فوق بعضها تتحول إلى سكراب كما يقال، أو تشليح تجد السيارات فوق بعضها تعوم فوق الماء في مشاهد عجيبة، فإذا جاء أمر الله فلا مرد له، وذلك يحمل العباد على الأوبة والتوبة، والرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- وألا يغتر الناس بقوتهم، وإمكاناتهم وعلومهم.

وقوله -عز وجل-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} أي لعبرة {لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي لُبٌّ يعي به، وقال مجاهد: عقل {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} أي: استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال مجاهد: {أَوْ أَلْقَى

{السَّمْعَ} يعني لا يحدث نفسه في هذا بغيره، وقال الضحاك: العرب تقول، ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد.

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى}** "ذلك" الإشارة ترجع إلى البعيد **{إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى}**، ابن جرير -رحمه الله- يقول: **{إِن فِي ذَلِكَ}** يعني: في إهلاك القرون التي عذبها الله -عز وجل- واستأصلها، هؤلاء الذين ذكرهم الله -تبارك وتعالى- الذين **{نَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ}** هل من مفر؟، أن في إهلاك هؤلاء **{لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** ولهذا ذكرت في الكلام عن الأمثال في القرآن أن القصص التي يذكرها الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء الأمم وما جرى لهم وما إلى ذلك أنها جميعاً عند شيخ الإسلام ابن تيمية من قبيل الأمثال في القرآن باعتبار أنها ذُكرت للعبرة والعظة، فيذكر الله خبر هؤلاء ليتعظ غيرهم، ولذلك يعقب الله -عز وجل- في بعض المواضع على ذكر القصص فيقول: **{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}** [سورة الحشر:٢١]، وما أشبه ذلك مما يُذكر فيه المثل بعد ذكر خبرهم وقصصهم، **{إِن فِي ذَلِكَ}** يعني في إهلاك هؤلاء عبرة وعظة، **{لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** القلب هنا ما المقصود به؟، يقول هنا: **قال مجاهد: عقل، قال: هنا:** أي **لُب يعي به،** عبارات السلف متقاربة، بعضهم يقول: **{لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** يعني القلب المعروف، قلب حي وقَّاد، وبعضهم يقول: عقل، ولا إشكال إذا عرفنا أن موطن وموضع العقل في القلب كما دل عليه القرآن، فالإنسان إنما يعقل بقلبه، وقد مضى الكلام على هذا في أول الأعمال القلبية، وإن كان له نوع اتصال بالدماغ، ولكن مستقر العقل هو في القلب، **{إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** بعض أهل العلم يقول: التنكير هنا في القلب، **{لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** أي: قلب حي وقّاد كامل الحياة، فهذا الذي يعتبر وينتفع الانتفاع الكامل، وبعضهم يعكس المعنى، يقول: **{إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** يصدق على أدنى ما يمكن أن يقال له ذلك، يعني ولو كان فيه أدنى حياة، ولو كان فيه أدنى عقل فإنه يتذكر بهذه العقوبات والمَثُلات التي أوقعها الله -عز وجل- بهؤلاء المجرمين **{إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** إذا عرفنا أن التذكر والاعتبار والاتعاظ يحصل بقدر ما يكون عند الإنسان من الحياة في قلبه فهو يزيد وينقص، فمن كان قلبه حياً الحياة الكاملة وقاداً فإنه ينتفع بالعبر والعظات الانتفاع الكامل، ومن نقص فيه من هذا الوصف نقص فيه من الاعتبار ومن الاتعاظ بقدره حتى يصير القلب إلى حال من الموت لا يعقل معه شيئاً؛ ولهذا الله -تبارك وتعالى- يقول: **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** [سورة البقرة:٧]، ووصفهم بأنهم: **{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}** [سورة البقرة:١٨]، فهؤلاء لا يعقلون ولا يصل إلى قلوبهم شيء، **{وقالوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** [سورة البقرة:٨٨] مغلفة، **{وقالوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}** [سورة فصلت:٥]، يعني لا يصل إلى هذه القلوب شيء فلا تنتفع الأدوات التي يحصل فيها اقتباس العلم والمعرفة، وما يصل إلى القلب مما يحصل به العظة والعبرة عن طريق السمع والبصر، لا يصل من هذا شيء لأنهم عمي وصم، فهذا إذا كان القلب في حال من الموت الكامل وصار عليه الرَّان فأطبقت عليه الغفلة فهذا لا ينتفع، إنما الذي ينتفع من كان له قلب، وهنا قال: **{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** يقول: أي: **استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال مجاهد: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} يعني لا**

يحدث نفسه في هذا بغيره، {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} شاهد القلب، يعني هو فسر {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} بشاهد القلب يعني {إن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} يعني لا يحدث نفسه بغيره، أي قلب حاضر، هذا قول مجاهد، {إن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي حي، {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} يعني لا يحدث نفسه بغيره، {وَهُوَ شَهِيدٌ} شاهد القلب، هذا كلام مجاهد، هنا قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} الإلقاء هنا يدل على الإصغاء التام، ألقى سمعه بمعنى أنه كان في غاية الإنصات، {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ولهذا يقال في تدبر القرآن، والانتفاع بالقرآن، وعند قراءة القرآن أمر الله -عز وجل- فقال: {فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٤] ما قال اسمعوا بل قال: استمعوا أمر بالاستماع والإنصات، وما معنى الإنصات؛ لابد يشتغل عنه بغيره بمعنى ممكن الآن وأنا أستمع المذياع، أستمع المسجل أستمع القارئ يقرأ ممكن في نفس الوقت أشتغل بالكتابة، أو المرأة تطبخ، أو تغسل الأواني، أو أنه يشتغل بكتابة رسائل بالجوال، أو يقرأ رسائل بالجوال، أو يقرأ في تويتر، أو غير ذلك، هل هذا منصت، هل هذا محقق لأمر الله؟ الجواب لا، يدل على هذا: الخطيب يوم الجمعة بماذا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو ما الذي ذكره، ((من غسل واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب، ثم دنا..))[٦]، والحديث الذي ذكر فيه الإنصات ماذا قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((من مس الحصى فقد لغا))[٧]، وأنه: ((إذا قال لصاحبه: أنصت فقد لغا))[٨]، فمس الحصى وهو جالس يستمع إلى الخطيب فقط مس الحصى، لو أنه قاعد يلمس الكيس أو أنه بجواله يضعه على الصامت أو على غيره، أو يقرأ رسالة ماذا يعتبر هذا أنصتَ أو لغا؟، يعتبر لغا مع أنه يستمع، لكن يده مشغولة بشيء آخر، فهنا {فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا} ليس معنى أنصتوا استمعوا؛ لأنه قال: استمعوا فليس من قبيل التأكيد، هو معنى آخر تفهمه على ضوء هذه الأحاديث والنصوص الأخرى: ((من مس الحصى فقد لغا))؛ لأنه غير منصت، منشغل بهذا الذي ينشغل فيه، ذلك لو أردت أن تعرف هذا وتدرك هذا المعنى استمع لشريط وأنت بالسيارة لا تحصل في الغالب، أكثر من ثلاثين بالمائة من المعاني، استمع إليه مرة ثانية تشك أحياناً هل أنت سمعته، أو لا، ليس بعد شهر لا، إعادة مباشرة، ستجد أن كثيراً من المعاني فاتت؛ لأن التركيز غير موجود إلا جزءاً قليلاً منه ؛ لأن الإنسان مشغول بشيء آخر فهو غير منصت، الآن لو واحد في الدرس وجالس طول الوقت أثناء الدرس ومعه الجوال ويقول: أنا معك أستمع هل يستمع؟، فهذا معنى في غاية الأهمية إذا أردنا أن ننتفع بالقرآن حال الاستماع فعلينا أن نستمع بالإضافة إلى الإنصات، أن ننصت. {أن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} يعني هو في غاية الإنصات، **قال الضحاك**:

٦- رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، برقم (٣٤٥)، والنسائي، كتاب الجمعة، باب فضل المشي إلى الجمعة، برقم (١٣٨٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٦١٧٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أن صحابيه لم يخرج له إلا أصحاب السنن"، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٣٨٨).

٧- رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة، برقم (٨٥٧).

٨- رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، برقم (٩٣٤)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب في الإنصات يوم الجمعة في الخطبة، برقم (٨٥١).

العرب تقول ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد هنا هل يعني هذه في حالين، أو هي حال واحدة اجتمع فيها الوصفان، يعني مجيء، "أو" هنا هل تدل على حالتين، أو أنها حالة واحدة جمعت بين وصفين؟، قولان لأهل العلم وإن تفرقت أقوالهم وتعددت وتنوعت عباراتهم، بعضهم يقول: إن قوله **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** هذا المؤمن، **{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** هذا في أهل الكتاب، إذا استمعوا وأنصتوا كانت قلوبهم حاضرة عند الاستماع؛ لأنهم ليس لهم قلوب حية، كفار، فإنهم يحصل لهم التذكر في ذلك، وهذا قال به جماعة من السلف قتادة ومجاهد والحسن، أنها في أهل الكتاب، وابن القيم -رحمه الله- رد هذا المعنى، ولذلك قال بعض السلف كمحمد بن كعب القرظي وأبي صالح: إنها في أهل القرآن، وهذا هو الصحيح، يبقى السؤال **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى}**، إن قلنا في أهل القرآن هل هي لحالين، أو لحال واحدة؟، بعض العلماء يقول: هي لحالتين **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**، بعضهم كابن القيم -رحمه الله- يقول: الإنسان على حالين إما أن يكون حي القلب -الحياة الكاملة- فهذا يحصل له التذكر بأدنى تنبيه، ومن كان دونه -الحالة الثانية- هذا يحصل له التذكر إذا ألقى السمع، أنصت وأحضر قلبه حال الاستماع، يعني الأول يحتاج لأدنى تنبيه ويحصل له التذكر، الثاني يحتاج جهداً أكبر؛ لأن القلب هذا ضعيف، فيحتاج إلى جهد مضاعف من أجل أن يحصل التذكر، مثل الذين عندهم صعوبات تعلم يحتاجون جهوداً أكبر في التعليم، فابن القيم جعله على هاتين الحالتين، أنه إما أن يكون قلباً وقاداً كامل الحياة، وإما أن يكون دون ذلك، وبعضهم يقول: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** إن الأشياء يعني إما أن يكون الإنسان شاهدها فيعتبر بقلبه، وإما أن تكون أشياء بلغته، تقص عليه يُخبر عنها فهذا يحتاج إلى أن ينصت ويحضر قلبه فينتفع، ولو قيل بأن ذلك المقصود به -والله أعلم- **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** حي وقاد كامل الحياة، **{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** يعني قد لا يكون له هذه الحياة الكاملة لكنه إن أحضر قلبه حال السماع وأنصت فإنه ينتفع، فهذا المعنى قريب باعتبار أن الكفار إذا استمعوا القرآن- من أراد الله هدايته-، وأخبار المشركين في مكة -مثلاً- لما كانوا يستمعون القرآن، جبير بن مطعم لما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب سورة الطور وبلغ قوله: **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ}** [سورة الطور:٣٥] قال: "كاد قلبي أن يطير"[٩]، وغير ذلك من أخبارهم وهم كفار، لكنه **{أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**، أحضر قلبه حال الاستماع، لكن لا يقال: هذا قلبه كامل الحياة في حال الشرك، فالذي ينتفع ويتذكر من كان له قلب حي، أو يحضر قلبه حال السماع وينصت ولا يشتغل عنه بغيره فينتفع ويتأثر، ولذلك قال الله -عز وجل-: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}** [سورة التوبة:٦]، فسماعهم للقرآن يكون له أثر إذا حصل معه الإنصات وإحضار القلب، وبعض العلماء يجعل ذلك في حالة واحدة ويجعل "أو" بمعنى الواو **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** قد يكون له قلب حي ولكنه غير مهيأ تلك الساعة حال الاستماع، أو أنه مشغول بشيء آخر غير منصت، فهنا لا يحصل له

٩- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}** [ق:٣٩]، برقم (٤٨٥٤).

الانتفاع، بحيث إن الاستماع لا يكفي في حياة القلب، فإن القلب قد يكون في مكان آخر تلك اللحظة، مشغول بشيء آخر، فيقرأ عليه القرآن إذا كان متهيئاً، أو يسمع القرآن، أو يقرأ القرآن من أجل أن يحصل له التدبر والتفكر والاعتبار، وهذا معنى قريب، ولا شك أن هذه الأمور الثلاثة مطلوبة بحيث إن الإنسان يكون له قلب حي وفي الوقت نفسه يحضر هذا القلب عند الاستماع، أو القراءة، وإلا فإذا كان قلبه حياً لكنه مسافر، مشغول، غائب، في مكان آخر فإنه لا يحصل له الاعتبار والاتعاظ، أو التفكر، أو التدبر فلابد من الأمور الثلاثة: حياة القلب وحضور القلب والإنصات والاستماع، فإذا وجد هذا حصل الانتفاع الكامل، فإذا نقص شيء من هذه الأمور، نقص من هذا الاعتبار، نقص واحد من هذه الأمور الثلاثة نقص الانتفاع بقدره، وكلام أهل العلم على هذا كثير وطويل، شيخ الإسلام له كلام كثير، وابن القيم له كلام كثير في مثل: مفتاح دار السعادة، والوابل الصيب وغير ذلك من الكتب، تكلم عليها طويلاً، وكذلك شيخ الإسلام في مواضع من كتبه، وكلام المفسرين على هذا كثير ويطول.

قوله -سبحانه وتعالى-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} فيه تقرير للمعاد لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى، وقال قتادة: قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} أي من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال الله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى {أَوَلَمْ يَرَوْا أن اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إنه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، وكما قال -عز وجل-: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧]، وقال تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [سورة النازعات:٢٧].

هنا في هذه الآية يبين الله -عز وجل- كمال قدرته، خلق السماوات والأرض في ستة أيام قال: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} يعني من تعب، وهذه الآية تتضمن معنى آخر بالإضافة إلى ما سبق، وهو أن ذلك دليل على قدرته على البعث، إذا كان خلقَ السماوات والأرض هذه الأجرام العظيمة في ستة أيام، خلقهما وما بينهما في ستة أيام وما مسه من تعب -لغوب- فقدرته -تبارك وتعالى- على إحياء الناس لا شك فيها، وأنه -سبحانه وتعالى- على ذلك قدير، ولهذا قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أن اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ} نفس المعنى استدل به على قدرته على إحياء الموتى، {بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} فهذه الآية مصرحة بهذا المعنى، والآية التي في سورة ق غير مصرحة، ولكن الآيات عموما في سورة ق تتحدث عن اليوم الآخر والبعث والنشور، وقدرة الله -عز وجل- على ذلك.

وقوله -عز وجل-: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء

بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: كنا جلوساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: ((أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا))[١٠]، ثم قرأ {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}، ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** التسبيح يأتي بمعنى التنزيه أن يقول الإنسان -مثلا- سبحان الله، ويأتي بمعنى الصلاة، كما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- في الصلاة الراتبة بعد الفريضة، ((لو كنتُ مسبِّحا لأتممت))[١١]، ولذلك الصلاة يقال لها: تسبيح، فهنا، **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}** [سورة الحجر:٩٨] سبح متلبسا بحمده، **{قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** فابن جرير -رحمه الله- حمله على صلاتي العصر والفجر، قبل غروب الشمس، والفجر قبل طلوعها، ويدل على هذا، الحديث: **((فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا))، ثم قرأ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** هذا من قبيل التفسير النبوي الذي ذكرت فيه الآية، وهذا النوع من التفسير لا يدخله الاجتهاد -كما هو معلوم-، فإذا صح سنده فبعد ذلك لا كلام، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أحياناً يذكر بعض المعنى -بعض ما دلت عليه الآية-، وأحياناً يذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض المعاني الداخلة تحت العموم وإن كان السياق في غيره فهو لا ينفي المعنى الذي فيه السياق، وهذا مضى له أمثلة، لكن تفسير ذلك بصلاتي العصر والفجر يدل عليه هذا الحديث، مع أن من أهل العلم من قال: هما وقت العصر والفجر **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** لا شك أن الوقتين هما العصر والفجر، هل المقصود الذكر، أو المقصود الصلاة؟، ابن جرير يقول: الصلاة، وبعضهم زاد على هذا قال: الصلوات الخمس **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ}** وقالوا: الليل يدخل فيه المغرب والعشاء، والذي قبل طلوع الشمس هو الفجر، وقبل الغروب يدخل فيه صلاتي العشي -الظهر والعصر-، وبعض الآيات أوضح في دخول الصلوات الخمس، وابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين حمل ذلك على الأذكار التي تقال في الصباح والمساء، واستدل على هذا بما جاء من الذكر بالغدو والآصال **{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}** [سورة الأعراف:٢٠٥] يعني أوقات الذكر -العصر والفجر- بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر، فهذا معنى تحتمله الآية، ولكن التفسير النبوي هنا دل على أنها صلاة العصر وصلاة الصبح، لكن لو قال قائل: إن التسبيح هنا يدخل فيه ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- دخولاً أولياً صلاة الصبح والعصر، ولفظ التسبيح أعم من هذا وأوسع فيدخل فيه الذكر أذكار الصباح وأذكار المساء فإنها مشروعة في هذين

١٠- رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٤)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في الرؤية، برقم (٤٧٢٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم (١٩٢٠٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

١١- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

الوقتين، وقد يقول قائل: إنه ذكر الطرفين كما في قوله: {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} لاستغراق الأوقات، فإن العرب تذكر الطرفين وتريد ما بينهما، لكن تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا بصلاتي الصبح والعصر يدل على خلاف ذلك، ولكنه قد يكون هكذا في مواضع أخرى غير هذا الموضع، وذكرنا هذا في مناسبات {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [سورة المزمل:٩] يعني وما بينهما، إذن {قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} الصبح والعصر، ودخول الأذكار عندئذ يؤخذ من عموم اللفظ {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} ولا أقصد بالعموم هنا المعروف عند الأصوليين، وإنما أن التسبيح لفظ يصدق على هذا وهذا، فإن المشترك هو نوع ملحق بالعام، أقصد لا تبحث عن صيغة من صيغ العموم المعروفة عند الأصوليين.

وقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} [سورة ق:٤٠] أي فصلِّ له كقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [سورة الإسراء:٧٩].

ابن جرير -رحمه الله- يقول: ليس عندنا دليل على تحديد شيء معين، هذه الصلاة {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، يقول: الصلاة في أي وقت كان من الليل، ويرد ابن جرير على من خص ذلك بصلاة المغرب، يقول: ليست المغرب فقط من صلاة الليل بل العشاء، فهما داخلان في ذلك، يقول هذا ردًّا على من خصه بصلاة المغرب، ثم قرر أن المعنى أعم، وأن الله لم يخص معنى دون معنى، فالصلاة بالليل في أي وقت كان، كثير من المفسرين يحملون ذلك على صلاة الليل -الذي هو القيام- وكان مفروضاً على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم قال: المراد بذلك الركعتان قبل الفجر -سنة الفجر الراتبة-، وبعضهم يقول: هي صلاة العشاء، لكن كلام ابن جرير أوضح وأقرب، والله تعالى أعلم.

{وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وما ذاك؟))، قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم،ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؛ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين))، قال: فقالوا يا رسول الله: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال –صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء))[١٢].

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}، هما الركعتان بعد المغرب، وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة -رضي الله عنهم-، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم.

١٢- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٥).

ذكر هنا معنيين: أنها الأذكار بعد الصلوات، والثاني: أنها الركعتان بعد المغرب، ونقله عن هؤلاء من السلف -وهم كثير-، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- لمّا ذكر المعنى السابق من أن المراد الأذكار ثم حمله على هذا المعنى الثاني أنهما الركعتان بعد المغرب، مع أنه يرى أن اللفظ أشمل وأوسع من هذا، وأنه لم يدل دليل على تخصيص الآية بالركعتين- قال: إلا أنا لا نستجيز مخالفة إجماع الحجة، وإجماع الحجة عند ابن جرير -رحمه الله- يعني قول الجمهور -قول الأكثر-، والآية ليس فيها إجماع، فيها خلاف، فابن جرير حملها على الركعتين وهو يرى أن اللفظ أعم من هذا قال: لإجماع الحجة، وهذه الطريقة عند ابن جرير في الترجيح معروفة ويقصد بإجماع الحجة قول الجمهور، وبعض السلف كابن زيد قال: هي النوافل التي بعد الفرائض، لم يخصها بالركعتين بعد المغرب {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} إذا كان هذا القول ليس بمحل إجماع بمعنى الاتفاق فمعنى ذلك أنه يجوز مخالفة قول الجمهور، فقول من قال: إن ذلك في الأذكار نقل عن ابن عباس قال: التسبيح بعد الصلاة واحتج له ابن كثير بالحديث، يعني كأن ابن كثير يؤيد هذا، في قراءة لنافع وابن كثير: {وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} يعني بعد الصلوات، الذين خصوه بصلاة المغرب لماذا خصوا الركعتين باللتين بعد المغرب؛ كأنه -والله أعلم- باعتبار أن صلاة المغرب هي وتر النهار فهذا آخر هذه الصلاة، -توترها- وليس بعد الوتر شيء، بمعنى أن صلاة المغرب هي الأخيرة بعد صلوات النهار، {وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} إذاً ما يكون بعدما يوترها، كأنه بهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم- في الآية الأخرى {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، هنا {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} فسرت بالركعتين بعد الفجر باعتبار آخر الليل، {وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} فسرت بالركعتين بعد المغرب بعد ختم صلاة النهار بالوتر، {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} النجوم معروف أنه يكون إدبارها في النهار، فإذا جاء الفجر فذلك مؤذن بزوال النجوم، تغيب النجوم ففسر بالركعتين قبل الفجر، قراءة نافع وابن كثير وحمزة في قوله -تعالى-: {وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} فهذه فيها قراءتان {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} و{وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} أما {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} فليس فيها إلا قراءة واحدة {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، والله أعلم.

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ *يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [سورة ق:٤١-٤٥]، **يقول تعالى: {وَاسْتَمِعْ} يا محمد {يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} أن تجتمعوا لفصل القضاء {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَمِعْ} بعضهم يقول: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة، ثم بدأ يسردها {يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}، وبعضهم يقول: استمع النداء {يُنَادِ الْمُنَادِ}، وبعضهم يعبر يقول: الصيحة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- استمع الصيحة {يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} استمع الصوت، {يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} المقصود بهذا النداء هو النفخ في الصور، وسيأتي هذا إن شاء الله، وهنا {وَاسْتَمِعْ} يعني استمع -مثلا- الملك ينفخ في الصور وجبريل ينادي في الناس للحساب؛ هذه أقوال يذكرها السلف، وبعضهم يقول: الذي ينادي هو الملك الذي ينفخ، ينادي الناس للحساب والحشر، فتكون هذه النفخة

نفخة البعث {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} وهذا يدل على أنها النفخة الثانية، وعند ابن كثير الثالثة، نفخة فزع وصعق وبعث.

{يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون.

قوله: **{يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ}** يقول: **النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون،** وهذا الحق قال بعضهم: البعث، يعني هنا تأتي بالحق {الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [سورة مريم:٣٤] هذا الحق هو البعث، يقولون: لن نبعث ولن يكون هناك حشر ولا نشور، وينفون قدرة الله -عز وجل- على ذلك، {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ}، وبعضهم يقول: المقصود بالحق يعني أنها كائنة وواقعة بالحق، هذه عبارات للسلف، وابن جرير -رحمه الله- يقول: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} أي بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب، {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب.

{ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} أي من الأجداث {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا} وذلك أن الله -عز وجل- ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا مبادرين إلى أمر الله -عز وجل.

هنا المختصر جعل ذلك من كلام ابن كثير، وابن كثير في الأصل ذكره على أنه رواية، أو على أنه أثر، أو على أنه حديث، إن لم أكن مخطئاً فقد ذكره على أنه رواية، وهذا لا يقال من جهة الرأي أصلاً.

{مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [سورة القمر:٨]، وقال الله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الإسراء:٥٢].

{يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا} يعني يخرجون مسرعين، وهنا: {مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} مهطعين: يعني مسرعين قد مدوا أعناقهم -هذا المُهطع- يستجيبون للداعي، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [سورة المعارج:٤٣] فهذا كله يدل على هذا المعنى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ} [سورة يس:٥١] والنسلان هو مشي سريع {مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} [سورة الأنبياء:٩٦] معنى النسلان الإسراع، {كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} أي يأجوج ومأجوج، مثل مشي السباع، فالنسلان مشي سريع بطريقة معينة مثل الجنود إذا دخلوا أرضاً أو بلداً يمشون بطريقة فيها سرعة وربما حذر، {مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}.

وفي صحيح مسلم عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أول من تنشق عنه الأرض))[١٣]، وقوله -عز وجل-: {ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا كما قال -جل جلاله-: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، وقال -تبارك وتعالى-: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِن اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة لقمان:٢٨]، وقوله -جل وعلا-: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك، كقوله {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ *وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر:٩٧-٩٩].

هذا كله تطمين للنبي-صلى الله عليه وسلم- وتسكين له وتصبير، ولهذا قال الله -عز وجل- في الآيات السابقة: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} هذا وغيره من الآيات التي في هذا المعنى كما في سورة الدهر من قول الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا *فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا *وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [سورة الإنسان:٢٦] هذه الآيات كلها يؤخذ منها معنى كبير، وهو أن الصبر على أعباء الدعوة وتحمل المشاق والأذى الذي يلقاه الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- وما إلى ذلك مما يعانيه الإنسان، فإن الطريق إلى تحمل هذه الأعباء هو الصبر الذي يعين عليه هذه الأمور المذكورة هنا في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} فقيام الليل، المحافظة على الصلوات لاسيما العصر والفجر، بالإضافة إلى التسبيح والإكثار من الذكر لله -تبارك وتعالى-، ولهذا ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في هذا المعنى أن من أعظم ما يستعان به على تحمل الأذى هو المحافظة على هذه الصلوات بالإضافة إلى التسبيح والذكر في طرفي النهار، فلا يصح أن يكون الداعية متلاشياً خاوياً ضعيفاً هشاً ومفرطاً في الصلوات لا يأتي إلا في أواخر الصفوف وهو قليل الذكر لله -تبارك وتعالى- غافل، ثم يكون بعد ذلك داعية فإذا أصابه الأذى حصل له تراجع وانكسر وصدر عنه ما لا يليق من الكلام، أو الفعال التي توقعه في حرج أمام الناس، وقبل ذلك أمام الله -عز وجل- وينسى المبادئ التي كان يدعو الناس إليها، وحينما كان يصبرهم ويثبتهم، فيكون أول من ينكسر ويضعف وينهزم إذا ابتلي، فلابد من هذه الأمور، والذين يتحملون أعباء أكبر من الجهاد في سبيل الله بقتال الكفار وما إلى ذلك هم أحوج إلى هذه المعاني، والجميع بحاجة إليها، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} [سورة البقرة:٤٥]، فهذه الصلاة من أعظم ما يقوي القلب ويثبت الجنان ويجعل العبد في حالٍ من الصلة بالله -تبارك وتعالى- تتلاشى معها المخاوف، لكن بقدر إقامته لها وحضور قلبه يحصل له من الصبر والثبات، ولهذا كان النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا

١٣- رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، برقم (٤٦٧٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٠٩٧٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"، ومسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق، برقم (٢٢٧٨)، بلفظ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر...)).

حزبه أمر فزع إلى الصلاة، هذا معنى نحتاج إليه، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} [سورة البقرة:٤٥] يدخل فيه الاستعانة بها على طاعة الله -عز وجل- إقامة العبودية لله -تبارك وتعالى-، والنهوض بالتكاليف الشرعية، وترك المحرمات، والصبر على أقدار الله المؤلمة {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} الاستعانة بها على المشاق في هذه الحياة الدنيا، {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد:٤] الذين يقيمون الصلاة كما أمر الله -تبارك وتعالى- هم أكثر الناس ثباتاً وتماسكاً، ولذلك في الإحصاءات التي تقرؤها هنا وهناك في دراسات تقام فيما يتعلق بالكآبة والانتحار ونسب الانتحار واستبانات توزع وأشياء تخرج من حين لآخر في مواقع وأماكن وبلدان مختلفة، حتى المخدرات، فنجد أن الذين يحافظون على الصلوات الخمس أبعد ما يكونون عن هذه الرزايا والبلايا بأنواعها؛ لأنه يحصل لهم من الثبات والصبر والطمأنينة والراحة مالا يحصل لغيرهم، ولكن بقدر إقامة الإنسان لها يجد من هذه الآثار، فهذا المعنى نحتاج دائماً أن نتأمله، أولائك الذين ينهزمون وينكسرون -نسأل الله العافية للجميع- الذين يضيقون ذرعاً بالمصائب والآلام فتتعاظم في نفوسهم الهموم والمخاوف، هؤلاء يحتاجون إلى مراجعة لهذا المعنى، وكلنا نحتاج إلى ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، ثم قال -عز وجل-: {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠]، **وقوله -جل جلاله-: {فَذَكِّرْ إنما أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}** [سورة الغاشية:٢٢]، **{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}** [سورة البقرة:٢٧٢]، **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}** [سورة القصص:٥٦]، **ولهذا قال تعالى هاهنا: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بار يارحيم.**

آخر تفسير سورة "ق"، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

هنا خص الله -تبارك وتعالى- بالتذكير بالقرآن {مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} باعتبار أن هذا هو الذي ينتفع، وإلا فإنه يذكر بالقرآن الجميع، ولكنه خص المنتفعين بذلك كما قال الله -عز وجل-: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢] فهؤلاء هم الذين ينتفعون به ويهتدون، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} [سورة فاطر:١٨]، فإقامة الصلاة هنا وأثرها في الانتفاع بالموعظة والنذارة هذه معانٍ تتكرر في القرآن، لو قرأناه بتدبر وتفكر وتمعن لحصل في ذلك من الانتفاع ومعالجة جميع الجوانب التي نحتاج إليها مما لا نحتاج معه إلى فلسفات وتنظير وكلام كثير ننشئه من عند أنفسنا، أو نستمده من غيرنا، كتب مترجمة ونحو ذلك، والله المستعان.

تنبيه على ما مضى من كلام ابن كثير -رحمه الله- في العبارة التي ذكرها عند قوله تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا} قال: **وذلك أن الله -عز وجل- ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور**

وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها إلى آخر ما ذكر.

هذا الكلام الحديث فيه عن أمور غيبية، وابن كثير -رحمه الله- ذكره على أنه رواية في موضع آخر، فهاهي المواضع التي ذكر الحافظ ابن كثير فيها هذا الكلام: في سورة الأنعام قال عنه: "**هَذَا حَدِيثٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ غَرِيبٌ جِدًّا، وَلِبَعْضِهِ شَوَاهِدُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وفي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ نَكَارَةٌ، تَفَرَّدَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ رَافِعٍ قَاصُّ أهل الْمَدِينَةِ، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَثَّقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ، وَنَصَّ عَلَى نَكَارَةِ حَدِيثِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ، كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَأَبِي حَاتِمٍ الرَّازِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ الفَلاس، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ فِيهِ: هُوَ مَتْرُوكٌ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: أَحَادِيثُهُ كُلُّهَا فِيهَا نَظَرٌ إِلَّا أنه يَكْتُبُ حَدِيثَهُ فِي جُمْلَةِ الضُّعَفَاءِ**".

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أيضاً: "**وَقَدِ اخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، قَدْ أَفْرَدْتُهَا فِي جُزْءٍ عَلَى حِدَةٍ، وَأَمَّا سِيَاقُهُ فَغَرِيبٌ جِدًّا، وَيُقَالُ: إنه جَمَعَهُ مِنْ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَجَعَلَهُ سِيَاقًا وَاحِدًا، فَأُنْكِرَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا الْحَجَّاجِ الْمِزِّيَّ يَقُولُ: إنه رَأَى لِلْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ مُصَنَّفًا قَدْ جَمَعَ فِيهِ كُلَّ الشَّوَاهِدِ لِبَعْضِ مُفْرَدَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ**".

رواه الطبراني في الطوال، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في البعث والنشور، والحديث بهذا السياق لا يصح ولبعضه شواهد، ما سبق نجده في سورة الأنعام عند قوله -تبارك وتعالى-: **{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...}** الآية [سورة الأنعام:٧٠].

وفي سورة النمل عند قوله تعالى: **{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}** [سورة النمل:٨٩] قال -رحمه الله-: "**وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح**" إلى آخر ما ذكر.

وهنا في سورة "ق" لم يذكره على أنه حديث، وصرح برفعه في المواضع السابقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (١) إلى الآية (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال صاحب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير -رحمهما الله تعالى:

تفسير سورة الذاريات وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة الذاريات:١-١٤].

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكوّاء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}؟ قال علي -رضي الله تعالى عنه-: الريح: {فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا}؟ قال -رضي الله تعالى عنه-: السحاب، قال: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا}؟ قال -رضي الله تعالى عنه-: السفن، قال: {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا}؟ قال: الملائكة.

وقال بعضهم: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} هي: النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة هي من السور النازلة بمكة، ومعلوم أن عامة السور التي نزلت بمكة تتحدث عن قضايا الاعتقاد، التوحيد والمعاد، وما إلى ذلك، ولهذا فإن هذه السورة تحدثت عن البعث وصحة وصدق ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم-، وتحدثت عن جزاء المصدقين، وجزاء المكذبين، وما وقع لهم من العقوبات العامة المستأصلة، وما ينتظرهم بعد ذلك من عذاب الله -عز وجل-، والله -تبارك وتعالى- أقسم في صدر هذه السورة بهذه الأمور، الذاريات، والحاملات وقراً، وكذلك الجاريات، والمقسمات، أربعة أشياء على صحة البعث والقيامة، وهذه الأشياء التي أقسم الله -تبارك وتعالى- بها عظيمة تدل على وحدانيته وربوبيته وعظمته، فالذاريات: الرياح، وهي لمن تأملها تدل على قدرة الله -عز وجل-، وعظيم تدبيره وتصريفه، فمنها ما يكون ليناً سهلاً لطيفاً تنعم به الأجسام، ومنها ما يكون عنيفاً شديداً يدمر كل شيء، كما قال الله -عز وجل- عن الريح التي أرسلها على قوم عاد: **{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}**

[سورة الأحقاف:٢٥]، وسماها بالريح العقيم، فهي لا تلقح السحاب ولا النبات، وإنما تستأصل حتى جعلتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية، لا تبقي ولا تذر، ومنها ما يكون حاراً، ومنها ما يكون بارداً، ومنها ما له صوت **{بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}** [سورة الحاقة:٦]، ومنها ما لا صوت له، ومنها ما يهب من جهة المشرق وهي الصَّبا، ومنها ما يهب من جهة المغرب وهي الدَّبُور، ومن الجنوب، ومن الشمال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور))[1]، فمنها ما يأتي للنصر، وكما فعل الله -عز وجل- يوم الأحزاب حيث هزم المشركين الذين تجمعوا حول المدينة بالريح، ومنها ما يسوق السحاب، ومنها ما يلقحه، ومنها ما يلقح النبات، فهي أنواع كثيرة جداً، وهكذا **{فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}** [سورة الذاريات:٢]، هذا السحاب الذي نراه معلقاً بين السماء والأرض، فهو كالقرب العظام، وقد صوره الله -عز وجل- بالجبال **{مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ}** [سورة النور:٤٣]، فهو آية عظيمة تسوقها الرياح ويصرفها الله -عز وجل- فتنزل حيث شاء الله، بالقدر الذي أراده الله -تبارك وتعالى- لا يزيد ولا ينقص، مقدر بقدر محدود في كل عام بنفس القدر، ولكن الله -عز وجل- يصرفه في كل عام بين المَحالّ وفق حكمته، حتى الذي يتبادر لربما إلى أذهان الكثيرين من أنه لا فائدة منه له غاية النفع، كالذي ينزل على البحر، فإن مياه البحار تتبخر منها كميات كبيرة كما هو معروف بسبب الشمس، فينعقد ملحاً صرفاً وتتضرر منه المخلوقات التي خلقها الله -عز وجل- في هذا البحر، ويختل ميزانه فينزل عليه الماء العذب فيحصل له التوازن، وهكذا ما ذكره جماعة من أهل العلم من أن اللؤلؤ إنما ينعقد مع نزول المطر في موسم معين كالوَسْمِ الذي يعرفه الناس الذي يُخرج كثيراً من النبات في اليابسة، فالحاصل أن هذا السحاب آية من آيات الله -عز وجل-، وهكذا أيضاً **{فَالْجَارِيَاتِ}** إذا فسر بالسفن فهي عظيمة، فهذه الجواري في البحر كما قال الله -عز وجل- كالأعلام: **{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ}** [سورة الشورى:٣٢]، والعلم هو الجبل، كالجبال طوابق هائلة ضخمة كبيرة كما نشاهد، تجري في هذا الماء الرقيق، فتمخر فيه، ويتنقل الناس، وتحمل البضائع التي تعجز عن حملها الدواب، كل هذا آية من آيات الله -تبارك وتعالى-، وهكذا تفسير من فسر ذلك بالنجوم، ومن اطلع على شيء يسير مما جعله الله -عز وجل- في هذا العالم، عالم الفلك والنجوم ومساراتها ومحالها، وأوقات طلوعها وأفولها، ومنها ما يقطع الفلك في ثلاثين عاماً، ومنها ما يقطعه في أكثر من هذا، ومنها ما يقطعه فيما دونه، كل هذا من آيات الله -عز وجل-، وهكذا الملائكة التي تنزل بأمر الله -عز وجل- من السماء إلى الأرض، **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ}** [سورة المعارج:٤]، يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام- **{إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}**، تصعد وتنزل، منها ما ينزل بالأرزاق والأقوات، ومنها ما ينزل بالعذاب، ومنها ما ينزل بالوحي، ومنها من يسوق السحاب، كما جاء في الحديث بأن الرعد ملك من الملائكة، فالبرق سوطه، والرعد صوته يزجر السحاب، وهكذا وكلهم الله -عز وجل- بأمور يجري بها تصريف أمر هذا العالم وفق إرادته -جل جلاله- وحكمته، هذه السؤالات، هذا الذي سأل "ابن الكواء" وهو رجل من الخوارج سأل عليًّا -رضي الله عنه- عن جملة أشياء، سأله عن القمر، ما هذا السواد الذي في القمر؟ فقال له: أعمى سأل عن عمياء، يسأل تكلفاً،

---

١ - رواه البخاري، أبواب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- نصرت بالصبا، برقم (١٠٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

وهذه الأسئلة مذمومة، هذه الأسئلة لا تحمد؛ لأنه لا يترتب عليها عمل، والسلف -رضي الله عنهم- كانوا لا يسألون السؤال عما لا يعني، وهذا من السؤال عما لا يعني، يكرهون المسائل المتكلفة، وتتبع صعاب المسائل، والاشتغال بالأغاليط وما لا طائل تحته، وإنما ينشغل الإنسان بما تحته عمل، وصَبِيغ بن عسل خبره معروف مع عمر -رضي الله عنه-، كان يسأل عن متشابه القرآن ويدور في الأجناد، يسألهم عن هذا، والأجناد منذ ذلك الحين عامتهم ليسوا من أهل العلم، فسمع به عمر -رضي الله عنه-، فقال: اللهم أظفرني به، فدخل الناس يتغدون عند عمر، فجاء رجل عليه عمامة فتغدى مع الناس، ثم قال: يا أمير المؤمنين **{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا}**، فقال: أنت هو؟ وفي رواية أنه قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر -رضي الله عنه-: وأنا عبد الله عمر، فضربه، وكان قد خبأ له عراجين، فضربه حتى سقطت عمامته، وأدمى رأسه، ثم عاد أياماً حتى قال الرجل: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد ما بي فوالله قد ذهب، وإن كنت تريد قتلي فأنت وذاك، فأمر عمر -رضي الله عنه- به فأخرج إلى البصرة وكتب إلى أميرها أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، أن لا يُجالَس ولا يكلم، فكان إذا جلس إلى جماعة من الناس -إلى حلقة- فمن يعرفه يقول لمن لا يعرفه: عزمة أمير المؤمنين، يعني ألا تكلموه، فيقومون عنه، فيبقى وحده، حتى شق عليه ذلك وكان عزيزاً في قومه فذل، فصلحت حالته، فكتب أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- إلى عمر أن الرجل قد استقام، فأمر عمر -رضي الله عنه- بمكالمته ومجالسته، فلما ظهر الخوارج قالوا له: هذا وقتك، هذا أوانك، فقال: لا، قد نفعني الله بالرجل الصالح، أو بموعظة الرجل الصالح، يعني عمر -رضي الله عنه-، فمن الناس من يحسن معه الجواب والرد والمناظرة والكلام والمحاورة، ومن الناس من لا يصلح معه إلا عراجين عمر، يُضرب على رأسه حتى يذهب ما برأسه من الوساوس والشُّبه والاشتغال بما لا يعني، والتلبيس على الناس وتشكيكهم في كتاباته.

هذه المعاني التي ذكرها عليٌّ -رضي الله عنها- جواباً على هذا السؤال: **{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}** قال علي -رضي الله عنه-: الريح، هذا الذي عليه عامة أهل العلم في تفسير الذاريات، والله -عز وجل- يقول: **{فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ}** [سورة الكهف:٤٥]، فالرياح تذرو التراب، وتذرو النبات الذي صار هشيماً، وهي تذرو أيضاً المطر، وقد جاء في وقعة الأحزاب تصوير النبال التي كانت تنهال على المسلمين كأنها مطر تزعزعه الريح، تنشره وتحركه الريح؛ لكثرته، فالحاصل أن هذا المعنى في الذاريات هو الذي عليه أكثر العلماء، الرياح، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وابن القيم.

وقال: **{فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}**، فسره بالسحاب، الحاملات وقراً يعني السحاب، كما قال الله -عز وجل-: **{وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}** [سورة الرعد:١٢]، **{حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً}** [سورة الأعراف:٥٧]، فالرياح هي التي تحمل السحاب وتسوقه حيث أمر الله -تبارك وتعالى-، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم أن الحاملات وقراً أنها أيضاً السحاب، وإن كان هذا ليس كالأول، يعني أن الذاريات تفسر بالرياح بلا إشكال ولا تردد، وأما الحاملات وقراً فالمشهور عند عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً هو أنها السحاب تحمل وقراً حملاً ثقيلاً، فهي وعاء للمطر، وهذا الذي مشى عليه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وعامة المفسرين، لكنه ليس كالأول، فقوله: **{فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}** يحتمل هنا أن المراد به غير السحاب، ويحتمل أن المراد به الرياح أيضاً؛ لأن الرياح

تحمل السحاب، فيكون الأول والثاني في الرياح، {وَالذَّارِيَاتِ} يعني: الرياح، {فَالْحَامِلَاتِ} أيضاً هي: الرياح، والله -عز وجل- يقول: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً} [سورة الأعراف:٥٧]، فالرياح هي التي أقلت سحاباً، حملت سحاباً ثقالاً، {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} على هذا التفسير على هذا المعنى هي الرياح، {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ} يعني: الرياح، فهذا يدل عليه القرآن، وهو معنى ليس ببعيد، ولكن المعنى المشهور هو أنها السحاب، والذي يظهر أنه لا يحتاج إلى ترجيح؛ لأن بينهما ملازمة، وكل ذلك يصدق عليها أنها حاملات، فالرياح دل القرآن على أنها تحمل السحاب، وكذلك أيضاً السحاب تحمل المطر، والآية أو اللفظة إذا كان لها أكثر من معنى وكلها دل عليها القرآن ولا يوجد ممانعة من حملها على هذا وهذا فإنها تحمل عليها جميعاً، فالحاملات وقراً يصدق على الرياح، ويصدق على السحاب، فكل ذلك حامل لغيره، هذه تحمل السحاب وهذه تحمل المطر، فهما متلازمان، وفسر الجاريات {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} بالسفن، وهذا المشهور وهو الأكثر في الاستعمال في القرآن في الجري، فالله -عز وجل- يقول عن السفن: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [سورة الشورى:٣٢]، الجواري، وفي قصة نوح -عليه الصلاة والسلام- {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [سورة الحاقة:١١]، سماها الجارية وهي: السفينة تجري في البحر، وقال عن الفلك: {وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [سورة الحج:٦٥] إلى غير ذلك من الآيات التي يصف فيها السفن بهذه الصفة، بالجري، فالمشهور في تفسير الجاريات {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} هي: السفن تجري في البحر جرياً يسيراً سهلاً، ولكن هذا المعنى في تفسير الجاريات ليس كاللذيْن قبله، يعني لو أردنا أن نتدرج في التفسير نقول: الذاريات بلا إشكال هي الرياح، والحاملات المشهور أنها السحاب، ولا يبعد أن يكون المراد الرياح، وذكرنا أن بين المعنيين ملازمة، ولا نحتاج أن نرجح، {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} المشهور أنها السفن، ومن أهل العلم من فسرها بالنجوم تجري في أفلاكها، كما رسم الله -عز وجل- لها وقدر، ولو قيل: كل ذلك جاريات، فالله -عز وجل- لم يحدد شيئاً دون شيء، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [سورة التكوير:١٥] يعني: أقسم بالخُنّس، فالخُنّس فسرت بالنجوم تخنِس في النهار، وفسرت ببقر الوحش تخنس في الغيطان، وكل ذلك خُنّس، كما قال ذلك بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فالله لم يحدد شيئاً منها، فالمشهور أن الجاريات هي السفن، وهذا هو الأكثر استعمالاً في القرآن، ومن أهل العلم من حمله على النجوم، وابن القيم -رحمه الله- وشيخ الإسلام فسروه بالنجوم، وقالوا كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا كلام شيخ الإسلام وكلام ابن القيم-: إن القضية تدرج من الأدنى إلى الأعلى، الرياح وفوق الرياح السحاب، وفوق السحاب النجوم، وفوق النجوم الملائكة، هذا وجه من وجوه الترجيح، ويمكن أن يقال: كل ذلك يقال له جاريات، النجوم جارية، وكذلك السفن يقال لها: جاريات، والأشهر هو تفسير ذلك بالسفن، فمن أراد أن يرجح فيمكن أن يرجح بالأشهر والأكثر استعمالاً في القرآن، هذا وجه الترجيح.

قال: {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا} يقول عليٌّ -رضي الله عنه-: الملائكة، وهذا بلا إشكال، تقسم أمر الله -عز وجل-، منها ما هو موكل بالرزق، ومنها ما هو موكل بالعذاب، ومنها ما هو موكل بالوحي، إلى غير ذلك، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- مشى على هذا في هذه الأمور الأربع، يعني: على ما قاله علي -رضي الله تعالى عنه-، فسر هذه الأشياء الأربع بهذه التفسيرات، ومن أهل العلم من يقول: إن المقسمات أمراً يعني:

السحاب، وهذا بعيد، والله -عز وجل- يقول: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [سورة النازعات:٥]، والمدبرات أمراً ليست هي السحاب قطعاً، وإنما هم الملائكة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا} مفسَّر بقوله: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}، وقال بعضهم: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} هي: النجوم، وبعضهم يقول: هي الرياح، وبعضهم يقول: هي السحاب، ومن أهل العلم من يقول: المراد بالأربع الرياح، فهي تذرو المطر والتراب وغير ذلك، وهي تحمل السحاب وتنشره وتقسمه حيث أراد الله -عز وجل.

وهذا قسم من الله -عز وجل- على وقوع المعاد؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ} [سورة الذاريات:٥].

إي نعم، يعني هذا هو المقسم عليه، والمقسم به الجاريات والذاريات..، هذه الأمور الأربع هي المقسم بها، والله -عز وجل- يقسم مِن خلقه بما شاء، وليس لمخلوق أن يقسم بغير الله -عز وجل-، {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ} أي: لخبر صدق، ووصفُه بأنه صادق أبلغ من وصفه بأنه صدق، تقول: هذا خبر صدق، وهذا خبر صادق، كما تقول: زيد صادق، وتقول: رجل صدق، فهذا تفسيره، كون صادق أبلغ من صدق معروف، تقول: يوم صائم، وليل قائم، في عيشة راضية، {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} [سورة الحاقة:٢١].

{وَإِنَّ الدِّينَ}، وهو: الحساب، {لَوَاقِعٌ} [سورة الذاريات:٦] أي: لكائن لا محالة.

إي نعم، الدين هو الحساب والجزاء، {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤] أي: يوم الحساب والجزاء، كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} [سورة النور:٢٥] يعني: جزاءهم الحق، تقول: كما تدين تدان، كما تُجازِي تُجازَى، فالله -عز وجل- يقسم {إِنَّمَا تُوعَدُونَ} من البعث والحساب والجنة والنار والقيامة {لَصَادِقٌ} خبر صادق، لا مرية فيه، ولا يتطرق إليه الكذب، {وَإِنَّ الدِّينَ} يعني: الحساب الذي تجادلون فيه والجزاء {لَوَاقِعٌ} لابد من وقوعه، كما قال الله -عز وجل-: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} [سورة الواقعة:٢]، {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ} [سورة الأنعام:١٣٤] لابد من مجيئه، والله -عز وجل- كما قال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [سورة آل عمران:٩].

ثم قال: {وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ} [سورة الذاريات:٧] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو صالح، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم.

هذا مشى عليه كثير من المفسرين، ذات الجمال، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [سورة الصافات:٦]، زيّنا، فهي مزينة، أي ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، مكتملة الخلقة، ليس في خلقها تفاوت، كما قال الله -عز وجل-: {مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ} [سورة الملك:٣]، {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ} [سورة الملك:٣]، هل ترى من تشقق؟ {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [سورة الملك:٤-٥]، فالله -عز وجل- أتقن خلقها وسواه، وجعلها مزينة بالنجوم، وجعلها بهية حسنة، فهذه المعاني قالها كثير من السلف -رضي الله تعالى عنهم.

وقال الضحاك، والمِنْهال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعّد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق فذلك الحبك.

فذلك الحبك، يعني الحبك كما يقال: كل شيء أحكمته وأتقنته فقد حبكته واحتبكته، وتقول: هذا قد حبك في صناعته مثلاً، وفي الثوب والنسج، وكل شيء أحكمت نسجه فقد حبكته واحتبكته، تقول: هذا محبوك أي: محكم متقن الصنع، والله -عز وجل- قد وصف السماء بهذا، **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}** يعني: أن خلقها متقن محكم مشدود، ليس فيه تفاوت، وجعلها الله -عز وجل- كما نراها بهية حسنة مزينة بالنجوم، فهذا معنى، والمعنى الثاني الذي ذكره بعده يقول: مثل هذا التموج الذي نراه في الماء الدائم إذا ضربته الريح، الماء إذا جاءت الرياح عليه يكون فيه تمويج، وكثيب الرمل إذا جاءت عليه الرياح يكون فيه تمويج، **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}**، فهي سقف كما وصفها الله -عز وجل- وأخبر عنها **{وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا}** [سورة الأنبياء:٣٢]، وهذا السقف في خلقه جعله الله -تبارك وتعالى- بهذه الصيغة فيه تمويج، فيه تموج كأثر الريح على الرمل، هذا هو المعنى الثاني، يقول: فذلك الحبك، يعني هذا التجعد، فالمتجعد يقال له ذلك، ومن أهل العلم من يفسر الحبك بالشدة، **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}** ذات الشدة، شديدة قوية، وهذه المعاني لا اختلاف بينها، وكل ذلك يصدق على السماء، ولا يحتاج إلى ترجيح معها، فيقال: **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}** ذات الشدة والقوة وهي محكمة الخلق في غاية الزينة والحسن والجمال، وقد خلقها الله -عز وجل- بهذه الصفة، فحينما أطلق الله -عز وجل- **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}** حملنا الحبك على ما نعرفه من المعاني، والله خاطبنا بلغة العرب، ولم يخص معنى دون معنى، وإنما نطلق كما أطلق الله -تبارك وتعالى- **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}**، الله -عز وجل- يقول في صفة السماء في موضع آخر: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}** [سورة النبأ:١٢]، ذات الشدة، والزينة في قول الله -عز وجل-: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}** [سورة الملك:٥]، وعلى تفسير ذلك بالطرائق -هذا التمويج- يكون وجه الإقسام بالسماء ذات الحبك مناسباً لما بعده من قوله: **{إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ}** [سورة الذاريات:٨]، **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ}** يعني الطرائق، فهم على طرائق شتى، فيما ينسبون إلي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما جاء به من الوحي، **{إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ}**، مِن قائل: إنه شاعر، أو ساحر، أو أخذ ذلك عن غيره **{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** [سورة الفرقان:٥]، مجنون، كذاب، وهكذا الباطل لا يتفق، فالحق واحد لا يختلف، وأهل الحق لا يتفرقون فيه، وأما الباطل فلا أدل على بطلانه من تفرق أهله فيه كما هو مشاهد، يختلفون فيه، فهم لا يتفقون على قول واحد، وهذا يدل على أنهم أهل تخرص وكذب وبهتان، فالشاعر غير الساحر، غير الكذاب، غير المجنون، فمِن قائل بهذا ومِن قائل بهذا، ومِن قائل بهذا، لم يتفقوا فيه على شيء؛ لأن ذلك جميعاً من الاختلاق، افتراء وكذب عليه -صلى الله عليه وسلم.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وهذا من محاسن تفسير الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن كاتبه له بصر في التفسير وذوق وحسن نظر، يستطيع أن يتعامل مع النصوص الواردة عن السلف، ويجمع ما يمكن أن يجتمع تحت معنى الآية دون أن

يكثر من ذكر الأقوال ويجعل القارئ في حيرة، ومثل هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير من أن هذه المعاني جميعاً صحيحة مشى عليه جمع من المحققين، من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (٨) إلى الآية (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [سورة الذاريات:٨] أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

{يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [سورة الذاريات:٩] أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقسم الله -عز وجل- بالسماء ذات الحبك، ذات الطرائق والخلق الحسن الشديد بأنهم في قول مختلف، أي: في النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي القرآن، هذا الذي عليه عامة المفسرين، ومنهم من يقول: في النبي -عليه الصلاة والسلام-، ومنهم من يقول: في القرآن، ولا إشكال في هذا؛ لأنهم تكلموا في أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما دعاهم إلى الله -عز وجل-، وأخبرهم أنه نبي يوحى إليه، فقالوا عنه: مجنون، وقالوا عنه: ساحر، وقالوا: كاذب، وقالوا عن القرآن: إنه سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: أساطير الأولين، فكل هذا قد وقع، فاختلفت أقوالهم فيه، وفيما جاء به من عند ربه -تبارك وتعالى-، فهم مبطلون ولا أدل على ذلك من أنهم لم يتفقوا على أمر واحد، وإنما قالوا بهذه الأقاويل المختلفة، هذا هو المشهور، وأما قول من قال -كما أورد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن قتادة هنا-: أي بين مصدق بالقرآن ومكذب به فيعني أن الاختلاف هنا أن منهم من صدق به، ومنهم من كذب به، فهذا وإن اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- إلا أن القول الأول أولى منه وأقوى؛ لأن الله -عز وجل- وصف حال هؤلاء المكذبين في موضع آخر من القرآن قال: {فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ} [سورة ق:٥]، في أمر مضطرب لا يتفق على مقالة ولا يثبت على رأي، وإنما يختلفون غاية الاختلاف، {فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ}، والذين هم في أمر مريج هم أهل التكذيب، وليس المقصود أنهم {فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ} أي: عموم الناس بين مصدق ومكذب، وإنما ذلك يختص بالمكذبين، {فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ} مضطرب، تارة يقولون هكذا، وتارة يقولون هكذا، فليست في المصدقين والمكذبين، وإنما في المكذبين خاصة، والسياق يدل على هذا، ولذلك بعده قال: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [سورة الذاريات:١٠]، فهم يتكلمون بالظنون والدعاوى الباطلة من غير حجة ولا برهان، فوقع لهم مثل هذا التباين في أقوالهم الكاذبة التي لا تقوم على أصل أو أساس، وما ذكرنا أولاً عن عامة المفسرين هو الأقرب، ومن أهل العلم من قال: إنهم اختلفوا واضطربوا يعني اختلفت مقالاتهم واضطربت في أمر المعاد، بين مكذب ومصدق، وبعضهم يقول: يقرون أن الله خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره، يعني يتناقضون مع أنفسهم، يقرون بتوحيد الربوبية ويشركون

بتوحيد الإلهية، والأصل أن من أقر بتوحيد الربوبية فإن ذلك يلزم عنه أن يوحد الله -عز وجل- في عبادته، الذي يخلق ويرزق يجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع، وما حدد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في أي شيء، ثم ذكر قول قتادة: بين مصدق بالقرآن ومكذب به، والله تعالى أعلم.

{يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غُمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:١٦١-١٦٣].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- والسدي: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ}: يضل عنه من ضل.

تأمل ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يقول: {يُؤْفَكُ عَنْهُ} أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غُمْر، لا فهم له.

غُمْر بضم الغين وإسكان الميم، **مأفوك ضال غُمْر لا فهم له**، ويقال: غِمْر بكسر الغين، هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير كلام جيد في تفسير الآية، ومعنى كلام ابن كثير {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} الأَفْك هو القلب، ومنه الإفك، ومنه المؤتفكة، {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] المنقلبة، قرى قوم لوط الله -عز وجل- أفَكَها، يعني قلبها، {يُؤْفَكُ عَنْهُ} أي: يُصرف بمعنى يُضل "عنه" أي: "عن" هنا تدل على السببية، يعني: يؤفك بسببه من أُفك، يُضل بسبب قولكم هذا المضطرب الذي لا يروج على أحد، ولا أدل على بطلانه من تناقضكم واضطرابكم واختلافكم، فهذا الذي تقولونه في النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي القرآن من أنه شعر أو سحر أو كهانة يُضل بسببه من أراد الله شقاءه وضلاله، هو لا يروج ولا تقوم به حجة، ولكن يضل به من أراد الله ضلاله، {يُؤْفَكُ عَنْهُ} أي: بسببه، فـــ "عن" هنا تدل على السببية، قولكم هذا الباطل يضل به -بسببه- من أراد الله شقوته، هذا معنى كلام ابن كثير، بينما ذهب جماعة من المفسرين إلى غير ذلك، فكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يرى أن {يُؤْفَكُ عَنْهُ} ما جعل "عن" سببية، جعلها على أصلها، والضمير يرجع إلى القرآن، يعني {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} أي: يُصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صرف، فيحرم الإيمان به، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} يُصرف عنه، عن الإيمان بهذا القرآن، {عَنْهُ} إذ جعل الضمير يرجع إلى القرآن، بينما على القول الأول {يُؤْفَكُ عَنْهُ} الضمير يرجع إلى القول المختلف، يضل بسبب هذا القول المختلف المضطرب، ولا غرابة في هذا، الآن ملل الكفر هؤلاء الذين يتبعونها بالملايين ولربما جاء إنسان وقرأ لهم ودخل في ديانتهم، بل لربما جاء بعض أبناء المسلمين ودخل بعض المواقع لهؤلاء الفرق أو الضُّلال ثم تحول إلى ملتهم ودينهم، أليس هذا يقع، يذكرون شبهات يمكن أن يردها صغار الطلبة، ومع ذلك قد يُصرف بسببها بعض الناس عن دينه تماماً، {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} بسببه، يكون الضمير راجعاً إلى القول المختلف، وبعضهم جعل الضمير يرجع إلى غير ذلك كالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فيبقى أن هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير أن "عن" سببية، يعني: يُصرف بسببه عن الإيمان بالله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- والقرآن من أراد الله شقوته، ويدل على ذلك قول الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} [سورة هود:٥٣]، يعني بسبب قولك، فـــ "عن" تدل على السببية، ويدل

على ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في الآية {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:١٦١-١٦٣]، يعني: أنتم وما أنتم عليه من الباطل لا تفتنون إلا من أراد الله شقوته، {يُؤْفَكُ عَنْهُ} بسببه من {أُفِكَ}، وبعضهم جعل "عن" ترجع إلى القول المختلف لكن فسره بتفسير آخر {يُؤْفَكُ عَنْهُ} أي: يُصرف عن هذا القول المختلف فلا يضل بسببه، عكس المعنى الذي قاله ابن كثير، فلا يضل بسببه من أراد الله عصمته، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} أي: يُصرف عنه من أراد الله عصمته، لكن السياق يأبى هذا، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فقوله: {مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} يدل على المراد في هذه الآية، والقرآن نسق واحد، كأنه آية واحدة، وما أشكل في موضع من جهة السياق يمكن أن يبينه موضع آخر، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ} [سورة هود:٥٣] أي: بسبب قولك، {مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ}.

والقول الذي ذكرته هو الذي عليه جماعة من المحققين، وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهو اختيار ابن كثير هنا.

وقوله: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [سورة الذاريات:١٠] قال مجاهد: الكذابون.

قال: وهي مثل التي في عبس: {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} أي: لعن المرتابون، وهكذا كان معاذ -رضي الله تعالى عنه- يقول في خطبه: هلك المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}، من أهل العلم من فسر القتل إذا جاء في كلام الله -عز وجل- إذا أطلقه الله -تبارك وتعالى- باللعن، {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} أي: لعن الخراصون، والخَرْص أصله القول بلا علم، القول بالظن والتخمين، هذا هو الخرْص، ومنه خرْص النخل أو الثمن على رءوس النخيل، بمعنى أنه بالتخمين والتقريب ليس بالكيل، فالخرّاص والمتخرص والخارص هو الذي يقول بالظن، {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} فهؤلاء في أمر مريج مضطرب في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به، وفي أمورهم كلها، في المعاد، وسائر الأمور التي كذبوا بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}، من فسره بالكذابين فإن ذلك لا ينافي ما ذكرنا من أنه القائل بالظنون، فهؤلاء لما تكلموا بالظنون تكلموا بخلاف الحقيقة، فهذه الأقوال لا تتنافى، من قال: إنه الكذاب، ما نحتاج أن نقول: القول الأول: الكذاب، القول الثاني: القائل بالظن، والقائل بالظن ماذا ينتج عنه؟ الكذب، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [سورة النجم:٢٨] يعني ما يتبعون إلا الظن {وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ} [سورة النجم:٢٣]، والله -عز وجل- يقول لداود -عليه الصلاة والسلام-: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة ص:٢٦]، فكل من اتبع هواه فهو ضال، {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ}، فقولهم كذب وباطل، فهم المبطلون والخراصون، لو قلت: المبطلون، لو قلت: الكذابون، لو قلت: الذين يتكلمون بالظنون، فإن هذا لا يتنافى، بل يرجع إلى شيء واحد بهذا الاعتبار الذي ذكرته آنفاً، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [سورة الذاريات:١١]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد...**

يقول: والخراصون الذين يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون، هذا القول باطل فهم كاذبون مبطلون قائلون بالظنون، مرتابون، هلك المرتابون، أهل الغرة والظنون، كل هذا من قبيل اختلاف التنوع، وليس من اختلاف التضاد.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون.

الغمرة أصلها ما ستر الشيء وغطاه، تقول: غمره الماء بمعنى غطاه وستره، كل ما ستر وغطى **{الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ}** يعني: في غفلة سادرون لا يفيقون منها، كما قال الله -عز وجل-: **{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا}** [سورة المؤمنون:٦٣] في غفلة وجهالة، قلوبهم لا تفيق للحق، ولا تعي ولا تفقه عن الله -تبارك وتعالى-.

أما السهو **فـــ {سَاهُونَ}** أي: سادرون في غفلتهم، وأصل معنى السهو الذهول عن الشيء، والفرق بين السهو والنسيان أن ذهاب المعلوم من الذهن هو النسيان، ينسى الإنسان **{لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى}** [سورة طه:٥٢]، ذهاب المعلوم من الذهن يقال له: النسيان، وأما السهو فالعلم مكتنٌّ لدى صاحبه ولكنه غاب عنه في لحظته، ما نسيه لكنه كما قال في المراقي:

ذهابُ ما عُلم قل نسيانُ *** والعلمُ في السهوِ له اكتنانُ

هذا الفرق بين النسيان والسهو، فهنا **{الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}** المقصود سادرون في غفلتهم لا يفيقون منها، تقول: فلان في سهو ولهو، يعني أن الغفلة غالبة عليه، والله أعلم.

{يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ} [سورة الذاريات:١٢]**: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا، قال الله تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}** [سورة الذاريات:١٣]**.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: {يُفْتَنُونَ}: يعذبون.

قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد -أيضا- وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعِي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: {يُفْتَنُونَ}: يحرقون.

{ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} [سورة الذاريات:١٤]**: قال مجاهد: حريقكم.**

{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} أصل الفَتْن هو الاختبار، أصله الاختبار وهذا الاختبار يتميز به الشيء ويعرف، ولهذا قيل لوضع المعادن في النار: إنه فتْن، تقول: فتنت الذهب، يعني أنك وضعته في النار لتميز خالصه من شائبه، يتميز، فهذا هو الفتْن، ولهذا فسره من فسره كما نقل عن جماعة هنا كسفيان وعكرمة وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم -رحمهم الله-، **{يُفْتَنُونَ}** قالوا: يحرقون، ؛ لأن هذا أصل معنى الفتْن، هو عرضه على النار ليتبين خالصه، هذا أصله، ومن قال: إنه الاختبار يرجع إلى هذا المعنى، ما يخالفه، يرجع إليه؛ لأنه وضع في النار ليتميز، ليخرج شوبه، ويبقى الخالص من هذا الذهب مثلاً، **{يُفْتَنُونَ}** أي: يحرقون، فالفتْن الحرق، وهو الاختبار، والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** [سورة

البروج:١٠]، ومعنى فتنوهم أي أحرقوهم في النار في قصة الأخدود، سماه فتناً، {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} من قال: أي يحرقون رجع إلى أصل معنى الفتْن، وهو عرض الشيء على النار، أي يحرقون بالنار، وهذا معنى صحيح، ومن أهل العلم من لاحظ التعبير هنا بـــ "على"، {عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} فجعلوها بمعنى "في" وحروف الجر تتناوب "على" تأتي بمعنى "في"، {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [سورة طه:٧١]، يدخلهم على الجذع، قالوا: {فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} يعني: على جذوع النخل، يربطه على الجذع، والجذع أشد إيلاماً من غيره، جذع النخل أشد من ساق الشجرة لو صلبهم عليها أو على الجدار إيلاماً، وإن كان من أهل العلم من يلاحظ أصل الحرف، ابن القيم –رحمه الله– يقول: مهما استعمل الحرف في معنى فإنه يبقى فيه من رائحته، ولذلك قال من قال من أهل العلم: إن قوله تعالى عن فرعون حينما قال للسحرة: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} يعني: على جذوع النخل، قالوا: لا، ما يكفي هذا، هناك شيء زيادة بعدُ، قالوا: لشدة الربط، لشدة شدهم إلى الجذع كأنه يدخلهم فيه ليؤلمهم غير ألم الصلب ألم الجذع الذي يشد إليه، والإنسان إذا شُد شداً قوياً فإنه يتمنى الموت، يتمناه ويدعو به لشدة ما يجد من الألم، فإذا أردنا أن نجري هذا على هذا {عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، عليها يفتنون، هل يقال: في النار يفتنون وانتهينا؟ من لاحظوا هذه القضية التي ذكرت آنفاً لفظة "على" قالوا: المعنى أوسع من مجرد أنهم يحرقون، {عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، فيبدأ ذلك بتكذيبهم بالنار أصلاً، تكذيبهم بالبعث، وقبل ذلك ما يجري لهم من ألوان الفتن التي يزاولون بها ألوان الأعمال الفاسدة، ويعتقدون العقائد الباطلة، ((تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأيما قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأيما قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء))[1]، فهم يفتنون بما يجري على أيديهم من المعاصي التي هي سبب لدخول النار والعقائد الفاسدة، ثم تكذيبهم أيضاً بالنار وبالبعث واليوم الآخر، ثم عرضهم على النار ورؤيتهم لها، ثم بعد ذلك دخولهم وإحراقهم فيها، ولهذا بعض أهل العلم قال: إن المعنى أوسع من مجرد أنهم يحرقون، وممن ذهب إلى هذا –إلى توسعة المعنى– كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–، والحافظ ابن القيم، فتفسيره بـــ "يحرقون" تفسير صحيح، لكن من لاحظ هذا الملحظ ذكر ما هو أوسع من ذلك، وهذا لا شك أنه أدق في التفسير، {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ}، قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم، حريقكم وعذابكم واحد، المعنى واحد، {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} أي: عذابكم، وعلى القول السابق أن الفتْن أوسع من ذلك، –كفرهم ومعاصيهم– {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} يعني: نتيجة كفركم، نتيجة عصيانكم، نتيجة تمردكم على الله –عز وجل–، فيحرقون بالنار.

{هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا، والله أعلم.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الأرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [سورة الذاريات:١٥-٢٣].

---

١ – رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين، برقم (١٤٤).

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله -عز وجل-: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولائك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال.

هذا على عادة القرآن حينما يذكر أهل الشقاء يذكر أهل النعيم؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد جامعاً بين الرغبة والرهبة، الخوف والرجاء، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}**، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ}**، التقوى معروفة: ألا يجدك حيث نهاك وألا يفقدك حيث أمرك، تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}**، الآن ذكر المتقين ذكر هذا الوصف، وترتيب النتيجة -التي يسمونها الحكم- عليه يدل على ملازمة بينهما، كترتب المسبب على السبب، ذكر معه ما يدل على سببه وهو التقوى، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}** يعني: أن التقوى سبب أورثهم هذه الجنات والعيون بعد رحمة الله -عز وجل-، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ}**، هذا المعنى الذي ذكرته آنفاً هو ما يعرف عند الأصوليين بدلالة الإيماء والتنبيه، أي يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء من السامعين، يقرن الحكم بوصف، تقول: الجادون يظفرون، وسبب الظفر الجد، فهو مذكور بعده، يقرن الحكم بوصف، يظفرون هذا هو الحكم، بوصف هو الجد، لو لم يكن علة له لكان عيباً بمعنى أنه لو قال: الجادون يظفرون، فقيل له: عرفنا أن الجد هو سبب للظفر، قال: لا، أنا لا أقصد هذا، فسبب الظفر أنه هبة وهبت لهم، نقول: إذاً لماذا تذكر الجد، لماذا لم تقل: الظفر هبة، فهذا يعتبر عيباً في الكلام، الجادون يظفرون، أنت ذكرت الصفة التي أوجبت هذه النتيجة، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ}**، والذي جعلهم في جنات التقوى، هذه اسمها عند الأصوليين دلالة الإيماء والتنبيه، وهي إحدى الدلالات المتعلقة بالمنطوق، والقرآن تسلط عليه جميع أنوع الدلالات فيستنبط منه الأحكام والمعاني الكثيرة، فدل ذلك على أن التقوى سبب.

وهناك قاعدة أخرى وهي: "أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه"، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}**، هذا حكم معلق على وصف وهو التقوى، فنعيم أهل الجنة يتفاوت بحسب تفاوت التقوى، على قدر تقواهم، على قدر ما يكون عندهم من النعيم، فأهل الجنة ليسوا على مرتبة واحدة، على مراتب، "الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه"، يزيد النعيم وينقص بحسب زيادة الوصف "التقوى" **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢]، الحكم **{لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** الوصف: **{آمَنُواْ}**، فعلى قدر إيمانهم على قدر ما يكون لهم من الأمن والاهتداء، وهكذا.

وقوله تعالى: {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}، قوله تعالى: {آخِذِينَ} حال من قوله: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}: فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة.

هذا هو المتبادر **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}**، في حال كونهم **{آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}** من النعيم، أي: أنهم قابلون ما أعطاهم ربهم من الكرامة والخير وألوان النعيم واللذة في الجنة، هذا هو المعنى المتبادر، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، ويدل عليه السياق **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ}**، هذا تعليل، **{قَبْلَ ذَلِكَ}** يعني قبل يوم القيامة، قبل الآخرة، قبل دخولهم الجنة، كانوا محسنين في أعمالهم، كانوا من الصالحين، من المتقين، فهذا تعليل لكونهم بهذه الحال، ثم ذكر هذا قال: **{كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}**، هذا الذي أورثهم هذا النعيم، فكل السياق قبله وبعده يدل على هذا المعنى، وإن كان من أهل

العلم من قال بخلافه، أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- يقول: {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} يعني: الفرائض في الدنيا، أنهم يتلقون عن الله بالقبول ما افترض عليهم، وقبل أن يفرض عليهم كانوا في حال من الإحسان والعمل الطيب الصالح الذي يرضاه عنهم، فكلما فرض عليهم فريضة تلقوها عنه بالقبول والإذعان، هذا اختيار ابن جرير، {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} أي: من الفرائض والأحكام في الدنيا، لكن القول الأول أقرب إلى السياق، وعلى فضل ابن جرير -رحمه الله- ومنزلته في التفسير ومكانته إلا أن العصمة متعذرة، فـ {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} يعني من الكرامة والنعيم واللذة.

وقوله -عز وجل-: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ} [سورة الذاريات:١٦] أي: في الدار الدنيا {مُحْسِنِينَ}، كقوله -جل جلاله-: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [سورة الحاقة:٢٤].

وهذا كثير في القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [سورة الرعد:٢٤]، بما صبرتم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، والدنيا دار الصبر، والآيات في هذا كثيرة في سورة السجدة وفي غيرها.

ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال -جل وعلا-: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [سورة الذاريات:١٧].

الهجوع أصله أو يطلق ويقال لنوم الليل خاصة، ونوم النهار لا يقال له: هجوع، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، ويبقى النظر في معنى {قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، فهذا اللفظ يحتمل معانيَ متعددة؛ ولهذا اختلفت فيه أقوال المفسرين، وسبب هذا الاختلاف يرجع إلى النص، والنص يحتمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (١٧) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال -جل وعلا-: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [سورة الذاريات:١٧] اختلف المفسرون في ذلك على قولين:

أحدهما: أن "ما" نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً.

وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله -عز وجل-، إما من أولها وإما من أوسطها.

وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، وكذا قال قتادة.

وقال أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء.

والقول الثاني: أن "ما" مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} عرفنا أن الهجوع هو النوم في الليل خاصة، وهذه الأقوال التي ذكرها مرجع الخلاف فيها وسبب الإشكال هو "ما" هذه، فمن قائل: إنها نافية -كما ذكر في القول الأول- وعلى هذا فالمعنى {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} يعني: أن هؤلاء مُدحوا، مدحهم الله -عز وجل- وأثنى عليهم بأن لهم نصيباً من الليل قليلاً -وقتاً يسيراً- لا ينامون فيه، يصلون، مدحهم بأنهم يخصون وقتاً يسيراً من الليل للصلاة، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، في وقت قليل من الليل لا يهجعون، هذا معنى، وهذا الوقت هل أنهم يصلون ما بين المغرب والعشاء، فهذا وقت من الليل؛ لأن الليل يبدأ من غروب الشمس، وكما ورد عن بعض السلف أنه في رمضان كان يقرأ ما بين المغرب والعشاء ويقول: هذا وقت غفلة، ومنهم من كان يصلي بين العشاءين، لكن هذا لا يقال: إنه قيام الليل، ليس ذلك بقيام الليل، ومن أهل العلم من يقول: يصلون من الليل وقتاً يسيراً، لكن هل هذا هو ما دل عليه السياق، {كَانُوا

{قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، مع قوله تعالى: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢]، و{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [سورة السجدة:١٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أنهم يحيون كثيراً من الليل في الصلاة، فهذا القول فيه بُعد، أن "ما" نافية بمعنى أن وقتاً يسيراً من الليل يحيونه بالصلاة، لم يمدحهم بصلاة عشر دقائق من الليل، ليس السياق في هذا، وهكذا قول من قال: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} عكس هذا القول، لا يهجعون قليلاً بمعنى أنهم يحيون الليل كله، ما يهجع قليلاً ولا وقتاً يسيراً، وهذا أيضاً فيه إشكال، فخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، والله -عز وجل- ما قال له: قم الليل كله، {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ} [سورة المزمل:٢-٣]، وكذلك في آخر السورة -سورة المزمل-، وكذلك ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قيام داود وصلاة داود -عليه الصلاة والسلام-، فكان يصلي صلاة لا تستغرق كل الليل، ولا يشرع للإنسان في غير العشر الأواخر من رمضان أن يحيي الليل كله، فهذا خلاف هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي قصة سلمان الفارسي -رضي الله عنه- المعروفة: ((إن لنفسك عليك حقاً))[١]، فنهاه أن يصلي الليل كله، وأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، وكذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص لما كان يحيي الليل فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقره على هذا، فليس المقصود بهذه الآية -والله تعالى أعلم- أن الله مدحهم أنهم يصلون وقتاً يسيراً، ولا أنهم لا ينامون وقتاً يسيراً، ما ينامون ولو قليلاً من الليل، ليس هذا ولا هذا، والله أعلم.

ومن أهل العلم من يقول: إن "ما" هذه صلة، يقصدون زائدة إعراباً، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} يعني: قليلاً من الليل، وقتاً من الليل الذي يهجعونه، أو هجوعهم قليل، فإذا حذفت "ما" هذه صار المعنى كانوا قليلاً من الليل يهجعون. بمعنى أنهم يصلون وقتاً أطول، وهكذا قول من قال: إنها موصولة، كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون، وهكذا قول من قال: إنها مصدرية كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، وهذه كلها ترجع إلى معنى واحد، وهو أن الله -عز وجل- مدحهم بأنهم يصلون من الليل صلاة طويلة، وقتاً طويلاً، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [سورة السجدة:١٦]، فهذه الآية تدل على أنهم يضّجعون، لا يصلون كل الليل، ولكن لا يستغرقون في نومهم فينامون نوماً طويلاً فيتركون صلاة الليل، يصلون من الليل صلاة طويلة كثيرة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، أن الله مدحهم بطول الصلاة في الليل وبكثرتها، بإحياء كثير من الليل في القيام، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات:١٧-١٨]، يصلون إلى السحر، ينامون بعض الليل، ويستغفرون في وقت السحر.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه -صلى الله عليه وسلم- عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: ((يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام))[٢].

---

١ - رواه أبو داود، أبواب قيام الليل، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، برقم (١٣٦٩)، والترمذي، في كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤١٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٢٣٩).

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام، برقم (٣٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٨٦٥).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها))، فقال أبو موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: لمن هي يا رسول الله؟ قال: ((لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما والناس نيام))[٣].

وقوله -عز وجل-: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات:١٨]، قال مجاهد، وغير واحد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [سورة آل عمران:١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن.

قوله: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} هل المراد بهذا الاستغفار أنه صلاة، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، يعني: يصلون، {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}؟، من أهل العلم من فسره بالصلاة باعتبار أن هذا المصلي يطلب مغفرة الله، فهو سائل بفعله، وقد يكون سائلاً بقوله حينما يستغفر في صلاته، {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، فهذا الذي يصلي من الليل أو بالسحر إنما يطلب مغفرة الله -تبارك وتعالى-، والمعنى الظاهر المتبادر هو أنهم في السحر يستغفرون، يعني: يطلبون المغفرة بقولهم: أستغفر الله، أو نحو هذا، هذا هو الظاهر المتبادر، وهذا أمر معروف، وهو أنه يشرع للإنسان أن يستغفر كما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الصلاة، فكان إذا انفتل من الفريضة يقول: أستغفر الله، ثلاثاً، ويقول: ((اللهم أنت السلام ومنك السلام...))[٤]، فيستغفر بعد هذا، والله -عز وجل- يقول: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [سورة البقرة:٢٠٠]، ويكون ذلك الاستغفار بعد العمل الطيب الصالح من القيام، يستغفر في السحر؛ لأن الإنسان لا يخلو في عمله من تقصير فيحتاج إلى استغفار، وهو بهذا يطرد العجب عن نفسه، فلا يكون مُدِلاً على ربه -تبارك وتعالى- بهذا العمل، يستكثره ويستعظمه، فهذا قد يحبط العمل الصالح، والله أعلم.

وهنا يقول: **فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن**، يكونون جمعوا بين هذا وهذا، وهذه الآية تدل على فضل الاستغفار في السحر.

وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر))[٥].

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام-: أنه قال لبنيه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} [سورة يوسف:٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

---

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٦٦١٥)، وقال محققوه: "حديث حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف"، والحاكم في المستدرك، برقم (١٢٠٠)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

٤ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩١).

٥ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، برقم (٧٥٨).

الذين قالوا بهذا -أعني التأخير- أخذوه من سوف، {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} [سورة يوسف:٩٨]، فهي تدل على التأجيل، لماذا لا يستغفر في الحال؟ قالوا: أخرهم إلى وقت السحر، وهذا يحتاج إلى دليل، لكنهم أخذوا ذلك من هذه اللفظة {سَوْفَ}.

وقوله: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [سورة الذاريات:١٩]: لما وصفهم بالصلاة ثنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} أي: جزء مقسوم قد أفرزوه {لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}.

كثيراً ما نذكر وجه الجمع بين الصلاة والزكاة في كثير من المواضع في القرآن، {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣]، فهنا ذكر الصلاة بالليل، وذكر أيضاً الإنفاق، إنفاق الأموال في مرضات الله -تبارك وتعالى-، وسعادة العبد دائرة بين أمرين: حسن الصلة بالله ورأس ذلك بالصلاة، والإحسان إلى الخلق وأعظم ذلك بالزكاة، وهذا لا ينافي قول من قال: إن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، وإن الزكاة هي رأس العبادات المالية؛ لأن العبادات إما مالية وإما بدنية، وإما مركبة من هذا وهذا، لا تخرج عن هذه الأقسام.

{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حق.

وأما المحروم فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المُحَارَف الذي ليس له في الإسلام سهم.

يعني: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ} [سورة المعارج:٢٤]، هذه السورة مكية بالإجماع، ومعروف كلام العلماء -رحمهم الله- هل الزكاة فرضت بمكة أو لا، وسورة الأنعام سورة مكية، وقد قال الله -عز وجل- فيها: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١]، فما هذا الحق؟

العلماء اختلفوا فيه، فمنهم من قال: هذه الآية من سورة الأنعام مدنية، وفسروها بالزكاة، ومنهم من قال: هذه الآية ليست في الزكاة {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، وإنما هو شيء يُعطَى وقت الحصاد غير مقدر، ثم نسخ بالزكاة، {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، والأقرب -والله أعلم-: أن أصل الزكاة فرض بمكة من غير تقدير وتحديد للأنصباء، ثم بعد ذلك في المدينة فصلت هذا التفصيل: أنواع الأموال الزكوية، ومقادير الأنصباء، وما أشبه ذلك، هذا كله في المدينة، فالآية مكية -أعني من سورة الأنعام-، وهنا هذه السورة مكية {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ} هل هذا الحق هو الزكاة؟ أو أنه حق جعلوه على أنفسهم ولم يوجبه الله -عز وجل- عليهم؟ وقد جاء في الحديث: إن في المال حقاً سوى الزكاة[٦]، فمن قائل: إن هذا قد نسخ بالزكاة، ومن قائل: إنه موجود لكنه شيء يُعطَى غير مقدر كما دلت عليه آية الأنعام، ويقول هنا في تفسير المحروم: قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد: **هو المُحَارَف الذي ليس له في الإسلام سهم**، يعني ليس له سهم من الغنيمة مثلاً، ما عنده سهم يستغني به، والمقصود بالمُحارَف: هو الشخص الذي يطلب ويبتغي ويكتسب يعني لا يكسب مالاً لكنه يطلب ذلك ويروح ويجيء ويعمل ولكنه لا يخرج بطائل، يعني: أنه لا يحصل له كسب، يعمل ويزاول أعمالاً من أول النهار إلى آخر النهار، لكنه لا يخرج بنتيجة، فالله -عز وجل- قد قدر له هذا، صار في ضيق من العيش، قدر عليه رزقه، والله -عز وجل- جعل الخلق في هذا التفاوت الذي نراه في المعايش والمكاسب لحكمة يعلمها، ومن الناس من يعمل عملاً يسيراً تافهاً ويكتسب الملايين في لحظات، ومن

---

٦ - رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقا سوى الزكاة، برقم (٦٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٧٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (١٩٠٣).

الناس من يجد ويجتهد ويعمل أعمالاً كثيرة تستغرق عليه يومه وليلته ولا يجد قوتاً، فهذا المُحارَف هو الذي يعمل ولكنه لا يخرج بنتيجة، ليس عنده مال يكفيه، هذا المحروم على هذا التفسير.

يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-: هو المُحَارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال قتادة والزهري: {الْمَحْرُومِ}: الذي لا يسأل الناس شيئاً.

المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً، هذه المعاني التي ذكروها للسائل والمحروم كلها صحيحة، وكذا قول من قال: إنه مَن أصابته جائحة ذهبت بماله، حرم ماله، فهو يستحق أن يعطى وأن يلتفت إليه، وهكذا قول من قال: إنه المملوك، محروم؛ لأنه لا مال له، كل ما يكتسب فهو للسيد، وهكذا قول من قال: الكلب، فالكلب يزجر ويطرد **{إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ}** [سورة الأعراف:١٧٦] تحمل عليه يعني تدفعه وتطارده.

أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخشَى وهي صامتةٌ *** وَالكَلْبُ يَخْسى لَعَمْرِي وَهو نَبَّاحُ

يَخْسى، فهذا قال به بعض السلف، أن المراد به الكلب، وهذا من باب التفسير بالمثال، فكل واحد من هؤلاء ذكر مثالاً على ما يصدق عليه أنه محروم يحتاج أن يلتفت إليه ويعطى، وكل هذه المعاني لا إشكال فيها، وكلها صحيحة، وإن استشكل هذا بعض أهل العلم، مثل الشعبي -رحمه الله- إمام من أوعية العلم- كان يقول: منذ احتلمت وأنا أتطلب معنى المحروم، ولم أصل فيه إلى شيء إلى يومي هذا، يقول: ما عرفت معنى المحروم، لكن هؤلاء العلماء فسروا المحروم بهذه التفسيرات، وكل ذلك صحيح، فالمحروم هو المحروم، لا يسأل ولا يُتفطن له، ليس عنده وظيفة تكفيه ولا دخل ثابت، وليس عنده تجارة، وإذا ذهب هنا وهناك يطلب الرزق يخرج صفر اليدين، وهكذا كل من كان بهذه الصفة -ليس عنده ما يكفيه- فإنه محروم، ويحتاج إلى أن يحسن إليه، والله -عز وجل- لم يجمع عليه حرمانين، حيث حرمه قدَراً فأمر شرعاً بإعطائه والإحسان إليه ورعايته، والله أعلم.

قال الزهري وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس المسكين بالطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه))[٧]، وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر.

هذا الحديث يدل على معنى المحروم هو لا يسأل فلا يتفطن له، ما عنده شيء يكفيه إن تطلب لم يربح، وليس له سهم في بيت المال ولا الفيء ولا الغنيمة، فهو ما عنده كفاية، مثل ابن القيم -رحمه الله- يفسر المحروم بالذي لا يسأل الناس فلا يتفطنون له، وهذا معنى صحيح، وكل المعاني التي ذكرها السلف لا تنافي هذا، ولهذا يحمله مثل ابن جرير -رحمه الله- على أعم معانيه، كل المعاني التي ذُكرت داخلة تحته؛ لأن أصل معنى الحرمان المنع، فهذا محروم أي أنه ممنوع لا يصل إليه رزقه، لا يسأل وليس عنده كفاية، لا من تجارة أو غيرها.

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٣٦٣٦)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف".

وقوله -عز وجل-: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} [سورة الذاريات:٢٠] أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جُبلوا عليه من الإرادات والقُوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الذاريات:٢١]، قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

الآيات التي في الأرض والآيات التي في الأنفس لا يمكن حصرها، ولو بقي الناس يعددون هذا لاستغرق منهم أوقاتاً طويلة، وكلما أمعن الإنسان النظر ودقق ظهر ولاح له أشياء وأشياء عجيبة، فانظروا في الكتب التي تتحدث عن عجائب المخلوقات، وآيات الله -عز وجل- في هذا الخلق من الدواب والجمادات، وفي الدقائق والأشياء العجيبة التي ركب الله -تبارك وتعالى- منها هذا الكون، وأجراه على سنن ثابتة بانتظام، وهذا أمر يطول وصفه، وقد تكلم ابن القيم -رحمه الله- على أشياء كثيرة جداً في عدد من كتبه، مثل "التبيان في أقسام القرآن"، و"مفتاح دار السعادة"، وعدد من الكتب، وهناك كتابات مثل "النحلة تسبح الله"، وهناك كتابات عن الفلك، وهناك كتابات عن الإنسان وخلق الإنسان تثير الدهشة، فإذا نظرت إلى هذه المخلوقات بصنوفها وأنواعها وحكمة الله -عز وجل- فيها، الأرض السباخ يأتيها الماء من أماكن بعيدة عن طريق الأنهار؛ لأنه إذا نزل عليها المطر لا تنتفع به، والأرض التي تصلح للإنبات ينزل عليها المطر فتُخرج من كل زوج بهيج، وهذا التوازن الموجود في المخلوقات عجب، وذكرت نماذج وأمثلة من هذا في الكلام على اسم الله الخالق في تفسير آخر سورة الحشر، تجد نوعاً من النمور تعيش على نوع من الغزلان تتكاثر، فتقتل هذه النمور كثيراً منها في أرض، ثم بعد ذلك تتكاثر هذه الغزلان بشكل عجيب وهي تتغذى على نوع من النبات فيفنى هذا النبات فتموت جموع كبيرة منها، وقد كانت تأكلها تلك النمور، وأنواع من الديدان تتكاثر بشكل عجيب لا يخطر على بال، ثم تكون خطاً مستقيماً تتوجه فيه إلى النهر فتلقي بنفسها وتموت، ولو بقيت لأفنت كل شيء من النباتات، وأشياء عجيبة جداً، اقرءوا مثل هذه الكتب، كتاب "غريزة أم تقدير إلهي"، كتاب "النحلة تسبح الله"، "خلق الإنسان في القرآن"، "مفتاح دار السعادة"، "التبيان في أقسام القرآن"، وأمثال هذه الكتب.

ثم قال تعالى: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [سورة الذاريات:٢٢] يعني: المطر، {وَمَا تُوعَدُونَ} يعني: الجنة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد.

{وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} قال: **يعني المطر**، باعتبار أن كل ما علا يقال له سماء.

إذا نزل السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناه وإن كانوا غِضابا

نزل السماء يعني المطر، السحاب، فكل ما علاك فهو سماء، وكثير من أهل العلم فسر السماء هنا {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} قالوا: يعني المطر، السحاب، باعتبار أنه ينزل فتكون به حياة الإنسان والحيوان، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنبياء:٣٠]، فهذا الماء الذي ينزل منه ما يكون في باطن الأرض فيستقون منه عن طريق الآبار، وبه يخرج النبات الذي يأكله الإنسان مباشرة، أو

بواسطة عن طريق الحيوان، حيث تدر ضروعها الألبان، ويأكلون لحمها وما إلى ذلك نتيجة لنزول المطر، {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} أي: السحاب والمطر، هذا قال به كثير من أهل العلم، والله –عز وجل– يقول: {وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا} [سورة غافر:١٣] يعني: هذا المطر، فقد سماه الله رزقاً، كما قال الله –عز وجل–: {وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [سورة الجاثية:٥]، فالآيات يفسر بعضها بعضاً، ولهذا فسره بعض المفسرين –بعض الأئمة– مثل ابن جرير –رحمه الله– بأنه المطر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} أي: السحاب أو المطر، باعتبار أن كل ما علاك فهو سماء، ويفسره الآيات الأخرى، {وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ} [سورة الجاثية:٥]، يعني: من مطر، ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بهذا {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} يعني: عند الله في السماء الرزق، وبعضهم فسره بما يجري من التقدير في السماء، تقدير الأرزاق والمعايش وسائر الأمور كل ذلك يجري في السماء، فتكون السماء ليس مراداً بها السحاب والمطر، وإنما السماء حقيقة، {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} فالله –تبارك وتعالى– يقدر في السماء، كما قال الله –عز وجل–: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ} [سورة السجدة:٥]، فتقدير الأرزاق في السماء، {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} أي: تقدير الأرزاق، والآية تحتمل هذا وهذا، ولا شك أن التقدير في السماء، والله –عز وجل– هو المقدر، وما يأتي للناس من أرزاق فإنما ذلك بتقدير الله –تبارك وتعالى–، والسحاب رزق يقدره الله –تبارك وتعالى– فينزل على من شاء الله نزوله عليه، وهنا قال: **قاله ابن عباس –رضي الله عنهما– ومجاهد وغير واحد**، يعني قالوا: إن {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} يعني: الجنة، وبعضهم قال: الجنة والنار، أما الجنة فلا شك أنها في السماء، وأما النار فهذا يحتاج إلى نظر وتأمل، النار يؤتى بها، ومن أهل العلم من يقول: إنها ليست في السماء، ويمكن أن يحمل قوله: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} على أعم معانيه من المطر، وما فيها من تقدير الأقوات والمعايش، وما يجري من القضاء والقدر، وفيها جنة الله –تبارك وتعالى–، وجزاء الأعمال {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [سورة الذاريات:٢٢]، ما توعدون: توعدون من الجنة، ومن أهل العلم من قال: النار، وذكرتُ أن هذا فيه ما فيه، لكن {وَمَا تُوعَدُونَ} من جزاء الأعمال من الثواب، كل هذا لا يتنافى، {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} تقدير الأرزاق والسحاب، وما أشبه ذلك، وما توعدون من الجنة من ثواب الأعمال، والقضاء والقدر.

وقوله تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} [سورة الذاريات:٢٣] يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون.

وكان معاذ –رضي الله عنه–، إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

يقول الله –عز وجل–: {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ}، يحتمل أن يكون ما أخبر عنه بهذه الآيات، ومن أهل العلم من قال: ما أخبر عنه في القرآن {إِنَّهُ لَحَقٌّ}، وبعضهم يقول: هذا فيما يتعلق بالرزق أو الآيات التي ذكرها، أو ما قص في كتابه عموماً، {إِنَّهُ لَحَقٌّ}، الله يقول: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}، ثم قال: {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} يعني: ما قصه في كتابه، ما أخبر عنه، أو هذه الأشياء المذكورة آنفاً، وبين القولين ملازمة، فما قصه الله في كتابه وأخبر عنه هذا بعضه، والله تعالى أعلم.

{مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} أي: أنه حق ثابت محقق كنطقكم، كما هو أحد المعاني في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}** [سورة الإسراء:٢٤] أي: ارحمهما رحمة محققة، فتربيتهما في حال الصغر ثابتة محققة، **{كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}**، **{إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}**، فنطقكم ثابت لا مرية فيه، لا يجادل فيه أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (٢٤) إلى الآية (٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:-

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [سورة الذاريات:٢٤-٣٠].

هذه القصة قد تقدمت في سورة "هود" و"الحجر" أيضا، وقوله: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} أي: الذين أرصد لهم الكرامة.

وقوله: {قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ} الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [سورة النساء:٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}، لما ذكر الله -عز وجل- ما للمكذبين، وما للمتقين المؤمنين ذكر بعد ذلك ما وقع لهؤلاء الأمم المكذبة من ألوان المثُلات، فذكر خبر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ومجيء الملائكة لإهلاك قوم لوط، ثم ذكر أمماً بعدهم، والاستفهام هنا في {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}؟ كقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}؟ [سورة الغاشية:١]، أن ذلك لا شك أبلغ وأدعى لتهيؤ السامع أو المخاطب لتلقي ذلك، ففيه من التشويق ما فيه، {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}، وهو يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب وإنما يتلقى عن الله -تبارك وتعالى.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}، يعني: ضيوف إبراهيم، فهم جمع من الملائكة؛ لأن "ضيف" مفرد مضاف، والمفرد إذا أضيف إلى معرفة فإن ذلك يكون بمعنى الجمع.

يقول: {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}، فسر المكرمين أي الذين أرصد لهم الكرامة، بمعنى أنه أكرمهم، ذبح لهم عجلاً، وأنضجه وهيأه وقربه، أن إبراهيم أكرمهم، ويمكن أن يفسر بأن ذلك يرجع إلى كونهم من الملائكة، وقد وصف الله -تبارك وتعالى- الملائكة فقال: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [سورة الأنبياء:٢٦]، فهذه صفة ثابتة للملائكة، وقال الله -عز وجل-: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٦]، فالملائكة موصوفون بهذا، وهذا فيه بيان فضل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، إذا كان

هؤلاء ضيوفه، وخبره يذكره الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذه الطريقة التي فيها ما فيها من التشويق، ويذكر في أشرف كتاب، هذا يدل على منزلة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

وهنا قوله: **الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم،** وجه هذا الكلام أن التقدير في قول إبراهيم -عليه السلام- **{قَالَ سَلامٌ}** أي: سلام دائم ثابت عليكم، سلام دائم، فسلام مبتدأ، فهذه جملة اسمية، وتسليم الملائكة، **{فَقَالُوا سَلامًا}** أي: سلّمنا سلاماً، جملة فعلية، سلمنا سلاماً، والجملة الفعلية تدل على التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فتسليم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- من هذه الناحية أبلغ من تسليم الملائكة، هكذا ذكر الحافظ ابن كثير، وذكر هذا جماعة كثيرة من أهل العلم كابن القيم وغيره، ومن أهل العلم من يفسره بغير هذا.

وقوله: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل -عليهم السلام- قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}.

من أهل العلم من يقول: إنه استنكر واستغرب لأنهم سلموا عليه، ولا يُعرف السلام في أرضه، فمَن هؤلاء الذين يسلمون؟، فهذا وجه قوله: **{قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}**، هكذا قال بعض أهل العلم، وبعضهم قال: لأنهم جاءوا بهذه الهيئة ولا يعرفهم فقال ما قال، ولم يوجه هذا إليهم مباشرة، ما قال: أنتم قوم منكرون، تأدباً معهم؛ لأن توجيه هذا لا شك أن فيه ما فيه من الإيحاش للضيف أو المخاطب، وإنما **{قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}** لم ينسب ذلك إليهم في الخطاب، تأدباً وتلطفاً.

وقوله -عز وجل-: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ} أي: انسل خفية في سرعة.

الروغان يدل على هذين المعنيين معاً، راغ يعني ذهب -انصرف- في خفية وسرعة، الحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذه القضية في موضعين من كتبه، يقول: ما جعل يعد الفلوس أمامهم -الدراهم-، ويقول: أنا سأذهب إلى السوق لأتبضع لكم وآتي بقراء أضعه بين أيديكم، فيحرج الضيف، وما جعل يتباطأ، وما احتاج أن يذهب إلى سوق؛ لأن قرى الضيفان موجود عنده، بل قال: إنه لم يذكر هنا أنهم استأذنوا عليه؛ قال: لأن بابه مفتوح للضيفان، يدخلون من غير استئذان، اعتاد الناس ذلك لكرمه، بابه مفتوح، **{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ}** ذهب مسرعاً في خفاء؛ لئلا يشعر به الضيف، **{فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ}** جاء به من عند أهله، ما ذهب إلى سوق، فهو متهيئ لمثل هذا.

{فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} أي: من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [سورة هود:٦٩] أي: مشوي على الرَّضْف.

والرَّضْف يعني الحجارة الرقاق، شرائح الحجارة، مشوي على الرضف، حنيذ، وجاء بعجل، العجل أنفس اللحم، وجاء به كاملاً من أجل أن الضيف يتخير ما شاء من لحم هذا العجل، قد يعجبه الظهر أو الكتف أو غير ذلك، وهذا يدل على أن ما يقدم للضيف مما لا يكون على سبيل المباهاة والتفاخر أنه لا إشكال فيه وهذا مطلوب، لكن بحيث إن هذا الطعام لا يفسد ويرمى ويهدر، وإنما ينتفع به، وإلا فلو قدمت لضيف واحد عجلاً لما كان ذلك كثيراً بشرط أن لا يكون هذا على سبيل المباهاة والتفاخر، ولا يمدح الإنسان بالبخل ولا بالتقتير، وإنما بالكرم.

{فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ} أي: أدناه منهم.

وهذا أبلغ في الإكرام، قربه إليهم ما قال لهم: قوموا لتأكلوا، أو جعلهم طوابير كل واحد ماسكٌ صحناً وملعقة لأجل أن يضعوا لهم ملعقة رز -بوفيه مفتوح-، رجال بلحاهم يقفون طوابير، كل واحد معه صحن، فهذا ما يليق، وليس هذا من الإكرام، ولكن ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[1]، فقربه إليهم ما أحوج الضيف إلى أن يقوم من أجل أن يأكل، فيشق ذلك عليه، ويجرحه بهذا، {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ}، وأيضاً بأسلوب لطيف رقيق، ما قال لهم: كلوا، وجه إليهم الأمر، وإنما بأسلوب العرض.

{قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} تلطفٌ في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون، بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: "نأتيكم بطعام؟" بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: {أَلا تَأْكُلُونَ} على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيتَ أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

وقوله تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهي قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [سورة هود:٧٠-٧١].

يعني أنهم لما لم يأكلوا من طعامه خاف أنهم أرادوا شراً؛ لأن من عادة من أراد شراً أن لا يأكل من طعام صاحبه، ومن عادة الناس إلى عهد قريب أن الإنسان إذا أراد أن يظهر حسن نية أن يأكل من طعام من نزل عليه، فإن لم يأكل فإنه يظن به السوء، وهنا الملائكة بينوا حالهم وأنهم ملائكة لا يأكلون، وأنهم جاءوا لغرض {أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}، وهذا فيه فائدة وهي أن الإنسان يدفع عن نفسه الريبة والتهمة إذا كان في موقف قد يظن فيه ذلك، ((حسبكم إنها صفية))[2]، أما الذي يضع نفسه في موضعٍ يجعل الناس يسيئون الظن به، ويلومهم بعد هذا فلا يلوم إلا نفسه، وذكر هذا من الفوائد الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الكلام على قصة الحديبية، لما بركت ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: خلأت القصواء، يعني انقطعت من طول السفر، فقال: ما خلأت القصواء، وما ذلك لها بخلق، إنما حبسها حابس الفيل، فبين لهم هذا، وما أنكر عليهم، ما قال: لماذا تقولون: خلأت القصواء؟، وإنما بين لهم حقيقة الأمر، فالإنسان يبين حاله، وإذا كان يتصرف تصرفات تجعل الآخرين يتقوّلون فيه، أو ينظرون إليه بريبة فالمفروض أنه يبين يقول: أنا فعلت هذا من أجل هذا؛ حتى لا يسيء الناس الظن به، فإذا أساءوا الظن به فلا يلومن إلا نفسه.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، برقم (٧٣٢٠).

٢ - رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، برقم (٢٠٣٨)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رُئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، برقم (٢١٧٥).

{وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

هذا هو الظاهر المتبادر أن الضحك على ظاهره، ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن إلا على المتبادر المشهور من معانيه، ولا يحمل على معنى قليل الاستعمال إلا لدليل يجب الرجوع إليه، فهذا أصل في التفسير، فهنا الضحك يحتمل الضحك المعروف، وهذا هو المتبادر، ويحتمل الحيض، ضحكت بمعنى حاضت، هي عقيم وكبيرة في السن قد انقطع حيضها، كما يقولون: جاوزت التسعين، وهو جاوز المائة، فجاءها الحيض بعد هذا السن مقدمة للحمل، صارت تحيض، من ذوات الأقراء، فهذا معنى وإن كان محتملاً من جهة اللغة إلا أن حمل الآية على المعنى المشهور المتبادر أولى، فضحكت يعني الضحك المعروف، لماذا ضحكت؟ بعضهم يقول: ضحكت لما رأت زوجها قد خاف منهم، لكن هذا ليس محلاً للضحك ولا سبباً للضحك، هذا ما يوجب الضحك لاسيما المرأة التي توقر زوجها وتعظمه، وهذا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أكمل الناس نفساً وأشجعهم قلباً، وأتمهم قوامة، والمعروف أنها ضحكت بسبب أنها فرحت بهلاك هؤلاء المجرمين، وهكذا المؤمن يفرح بهلاك أهل الظلم والإجرام والفساد والعتو على الله -تبارك وتعالى-، وقد قال الله -عز وجل- في خبر بني إسرائيل وإهلاك فرعون: **{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [سورة البقرة:٥٠] فهذا أبلغ ما يكون في التشفي، أن يهلك عدوه وهو يشاهد ويتفرج، ينظر إليه وهو يهلك، فهذا امتن الله به عليهم **{وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}**، وأبلغ منه إذا كان هذا الإهلاك بيده، كما قال الله -عز وجل-: **{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ}** [سورة التوبة:١٤]، ولهذا كان انتصار المؤمنين في غزوة بدر أبلغ بكثير من انتصارهم في يوم الأحزاب، فذاك جاء بالريح وزلزلة الملائكة -أعني يوم الأحزاب-، وأما يوم بدر فبقتل صناديدهم وكبرائهم، وجرهم ورميهم في القليب، فحصل بهذا من التشفي من أعداء الله -عز وجل- ما لا يقادر قدره، فهذا أبلغ، فهي ضحكت فرحاً، واستبشاراً وسروراً بهلاك هؤلاء المجرمين.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} [سورة هود:٧٢-٧٣].

قال الله تعالى: **{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}** [سورة هود:٧١-٧٢]، وفي الموضع الثاني قال: **{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}**، الكلام واحد وفي موقف واحد، أو حصل أكثر من مرة؟ مرة قالت: **{عَجُوزٌ عَقِيمٌ}**، ومرة قالت: **{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}**؟ هو موقف واحد، وهذا كثير في القرآن في ذكر قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وغير ذلك، فينقل الكلام بصيغتين مثلاً وهو من متكلم واحد في موقف واحد، وسبب ذلك أن هذا نقل للكلام بمعناه، بمعنى أن هذا الكلام الذي قيل بلغة أعجمية، هؤلاء ليسوا من العرب، وما ينقل من مثل هذا إلى لغة أخرى فإنما ينقل المعنى، فتارة يختصر وتارة يبسط فهو نقل للمعنى، ولذلك فإن بعض اللطائف التي قد يستنبطها بعض أهل العلم من هذا قد تكون محل نظر وتأمل، يعني مثلاً ابن القيم -رحمه الله- في الموضع الذي قالت

فيه: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} يقول: هذا فيه أدب المرأة المسلمة أنها تتكلم بأوجز عبارة، فما طولت الكلام، وإنما قالت كلمتين، ذكرت فيهما علتين كل علة تكفي بمفردها من أجل امتناع الولد {عَجُوزٌ} ما تلد، و{عَقِيمٌ}، وفي الموضع الثاني هنا قالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}، هذا كلام طويل، فحينما تذكر مثل هذه اللطائف أحياناً في بعض المواضع قد تُستملح ويستأنس بها، ولكن يبقى أن طالب العلم يراعي جوانب أخرى.

ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى- هاهنا: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بُشر به.

{وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}، هذا الغلام هو إسحاق، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وما خالف في هذا إلا النادر مثل مجاهد، والدليل على أنه إسحاق من عدة وجوه: أنه في الآية الأخرى قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [سورة هود:٧١].

وأم إسماعيل هاجر كانت في مكة، وجاءت بإسماعيل أولاً، فحصلت الغيرة كما هو معروف وكانت أم إسحاق سارة لا تلد، ثم بعد ذلك جاءها الولد، فهذه القصة، {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} هذه التي لا تلد لم تكن هاجر، هاجر لم تكن كذلك، فهذا إسحاق، أما الذبيح فهو إسماعيل.

وقوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} أي: في صرخة عظيمة ورنة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي.

جاءت في صرة، أقبلت في صرة، صيحة، وفعلت فعلاً معها يدل على تعجبها وهو أنها لطمت وجهها، صكت وجهها، والصك هو الضرب بالشيء بعرضه، {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} سواء قيل: إنها لطمت جبينها أو ضربت وجهها وضربت خدها، فهذا كله لا يتنافى، فمن ضرب جبينه فهذا جزء من الوجه، يصح أن يعبر عنه بالوجه، وصكت وجهها تعجباً.

وهي قولها: {يَا وَيْلَتَا} {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لطمت، أي تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنتُ في حال الصبا عقيما لا أحبل؟.

{قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة الذاريات:٣١-٣٧].

قال الله مخبرا عن إبراهيم، -عليه السلام-: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [سورة هود:٧٤-٧٦].

وقال هاهنا: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟.

{قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} يعنون قوم لوط.

{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً} أي: معلمة {عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٢].

{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً}، معلمة، {حِجَارَةً مِّن طِينٍ} هذه تفسر الآية الأخرى وهي {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الحجر:٧٤]، فالسجيل هو الطين، {حِجَارَةً مِّن طِينٍ}، {مُسَوَّمَةً} معلمة بعلامة، هذه العلامة قيل: إنها كتابة الأسماء، كل حجر عليه اسم صاحبه، وبعضهم يقول: عليها علامات تتميز بها، والله تعالى أعلم، {مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ}، وذكر هنا الصفة التي أوجبت لهم هذا الهلاك، ولهذا قال الله –عز وجل–: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [سورة هود:٨٣].

وهذا الخوف الذي وقع من إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– وما أجابه به الملائكة يدل على أن الأنبياء مهما علا قدرهم ومنزلتهم لا يعلمون الغيب، فذبح عجله وأنضجه وقربه إليهم، وهو يظن أنهم من البشر، فكيف بمن دون الأنبياء ممن يعتقد فيهم بعض الجهلة أنهم يعلمون الغيب، ويعلمون ما بين العرش إلى الأرض السفلى، وما أشبه ذلك مما يضيفونه إليهم، ويطلبون منهم قضاء الحاجات، –والله المستعان–، ويعبدونهم من دون الله؟!.

وقال تعالى هاهنا: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته.

{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، والإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وإذا ذكرا معاً فالإسلام باعتبار الظاهر والإيمان بما في القلب، النبي –صلى الله عليه وسلم– قال في الإيمان: ((أن تؤمن بالله وملائكته...)) فسره بمتعلقه، وفي الإسلام قال: ((تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة))[٣] إلى آخره، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [سورة الحجرات:١٤]، فالإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، {فَأَخْرَجْنَا} الإنجاء وقع للمؤمنين، ولهذا قال الله –عز وجل–: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} [سورة الحجر:٦٥] واستثنى امرأته، فالإنجاء للمؤمنين، والذي وجدوه: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، والإسلام هو إسلام الظاهر، فامرأة لوط كانت في الظاهر معه، ولكنها كانت تدل على أضيافه، فهي ليست من أهل الإنجاء، الإنجاء للمؤمنين، ووجدوا فيها بيتاً من المسلمين، إسلام الظاهر، وهؤلاء ليسوا ممن ينطبق عليهم وصف النجاة، الإنجاء للمؤمنين، ووجدوا فيها بيتاً من المسلمين باعتبار المجموع، بما فيهم امرأة لوط، فهي في الظاهر معه وفي الباطن معهم، لما كانت الآية الأولى: {فَأَخْرَجْنَا} في الإنجاء فإن ذلك يختص بالمؤمنين الصادقين، وأما من وجدوا {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} إسلام الظاهر، المنافقون يعتبرون من المسلمين، لكن في الباطن ليسوا كذلك، {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، فمعهم امرأة لوط، فهم بهذا المجموع يحكم عليهم بالإسلام لا بالإيمان، والله أعلم.

---

٣ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان:٣٤]، برقم (٤٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله –سبحانه وتعالى–، برقم (٨).

وقوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، {لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}.

الله -عز وجل- يقول: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، فهل مكان قول لوط هو البحر الميت؟ الله أعلم، ابن كثير يقصد هذا، بحيرة ميتة يعني البحر الميت، وإذا كان كذلك كان هو البحر الميت، فهل يجوز الانتفاع بمخرجاته؟ الآن تقوم مصانع شاسعة واسعة لها إنتاج في صنوف الأشياء التي ينتفع بها الناس من مواد التجميل والأدوية وغيرها تستخرج من البحر الميت، هل يجوز استعمالها باعتبار أنها منطقة معذبين أو لا؟ هذا يحتاج أن يثبت أولاً، هل فعلاً البحر الميت هو مكان قوم لوط؟ أو أنهم كانوا قريباً من تلك الناحية؟ فالله أعلم.

{وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [سورة الذاريات:٣٨-٤٦].

يقول تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى -عليه السلام- من الحق المبين، استكباراً وعناداً.

كقوله تعالى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحج:٩] أي: معرض عن الحق مستكبر.

الركن يقال للجانب أيضاً، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [سورة فصلت:٥١]، ومن أهل العلم من فسره هنا {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} أي بجانبه الأقوى، وهذا يوافق قول من قال أيضاً: إنه تولى بجنوده وأتباعه وجمعه كما يقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وهذا لا يخالف قول من قال: إن الركن هو القوة، {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:٨٠]، {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} أي: بقوته، فهذه الأقوال غير متعارضة، تولى بجانبه، بجنوده، بقوته، بأتباعه، ونحو هذا.

{وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً.

قال الله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ} أي: ألقيناهم في اليم، وهو البحر، {وَهُوَ مُلِيمٌ} أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

يعني قد قارف ما يستحق عليه الملامة، وقوله: {وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}، يحتمل أن تكون "أو" هذه بمعنى الواو، ساحر ومجنون، يحتمل هذا، أو أن ذلك على ظاهره، يعني إذا قيل: إنها بمعنى الواو تكون مثل {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [سورة الإنسان:٢٤]، يعني ولا كفوراً، فـــ "أو" تأتي بمعنى الواو، ويحتمل أنه ردد أمره بين هذا وهذا للتلبيس، كأنه يقول: هو ساحر أو مجنون، لا يخلو إما كذا وإما كذا، يحتمل أمره، بين وبين {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ} ألقيناهم في اليم {وَهُوَ مُلِيمٌ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (٤١) إلى الآية (٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

ثم قال -عز وجل-: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [سورة الذاريات:٤١] أي: المفسدة التي لا تنتج شيئًا، قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال تعالى: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ} [سورة الذاريات:٤٢] أي: مما تفسده الريح {إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} أي: كالشيء الهالك البالي.

قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: {إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} قالوا: هي الجنوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} الريح العقيم يعني التي لا تكون ممطرة، لا تسوق المطر ولا تلقح النبات ولا ينتفع بها، وذكرنا قبلُ أن الريح أنواع فمنها ما يأتي للعذاب كهذه الريح العقيم، {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} يعني التقدير ما تذر من شيء أتت عليه مما سيقت لإهلاكه إلا جعلته كالرميم، لكنها لم تجعل الجبال كذلك مثلاً، وهذا معلوم، فهذا العموم يحمل على ما يناسبه ويصلح له في المعنى، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، وهو الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله- بالعموم الاستعمالي، لا يحتاج إلا مخصص، والأصوليون يجعلون المخصص في هذا هو الحس، وهذا لا يخلو من إشكال عند التأمل، فأنت تقول: أنا زرت البلاد، ولبست الثياب، وأكلت الطعام، ورأيت العباد وما أشبه ذلك، وأنت لم ترَ كل الناس ولم تلبس كل الثياب ولم تأكل كل الطعام، وحينما تقول: الناس يحبون كذا، والناس يريدون كذا، والناس يقولون كذا، ما يأتي لك متفلسف ويقول: أنت قابلت كل الناس ووزعت استبانة على جميع المخلوقين -جميع البشر- في مشارق الأرض ومغاربها؟، لماذا لا تتقيد بألفاظك وتدقق؟، هذا كلام غير صحيح، هذه فلسفة، فالعرب تفهم من خطاب من خاطبها مراده في كل شيء بما يناسبه ويصلح له، ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه))[1] كما قال، فلربما هو من هذا القبيل، وكذلك أيضاً {أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ}، ثم ذكر صفتها بأنها ما تأتي على شيء من الأشياء التي سيقت لإهلاكها وإزالتها {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}، وهذا من أقوى صيغ العموم، "شيء" نكرة في سياق النفي {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ} والنكرة إذا سبقت بمن فإن ذلك ينقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز

---

١ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٧٠٦٨).

التنصيص الصريح في العموم، فهذه من أقوى صيغ العموم، النكرة في سياق النفي مسبوقة بمن، والرميم هو الشيء البالي، رم العظم بمعنى بلي، وبعضهم فسره بما ديس من النبات، بما يداس من النبات، كما يقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: هو الرماد، وبعضهم يقول: هو النبات المدقوق، وهذه المعاني لا تتنافى، فهي حصدتهم حصداً فجعلتهم كالرميم، أي الأجزاء البالية كالنبات الذي تهشم وديس أو الرماد أو نحو ذلك، رميم، كما هو مشاهد، انظر مثلاً الطوفان هذا الذي حصل في شرق آسيا، انظر إلى بيوت الناس، والناس معها كيف صاروا؟ صاروا كالرميم، سوى بهم الأرض، واختلطت جثث الناس مع قطع الأخشاب الصغيرة وبقايا البناء فأصبحت البلاد مدكوكة دكاً، مفتتة، {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ} -حصْد- {إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}.

وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نُصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور))[٢].

قلنا: الصَّبا الريح التي تأتي من المشرق، والدبور من المغرب.

{وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} [سورة الذاريات:٤٣].

هذا الحين بينه الله -عز وجل- في الآية الأخرى بقوله: {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ} [سورة هود:٦٥].

كقوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ} [سورة فصلت:١٧].

وهكذا قال هاهنا: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [سورة الذاريات:٤٣-٤٤]، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار.

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ}، وفي قراءة أخرى متواترة وهي قراءة الكسائي {الصعقة} وهما بمعنى واحد، والصاعقة يفسرها كثير من العلماء بالعذاب المهلك المميت، ويقولون: معناها الأخص: نار من السماء محرقة، وهذا لا يتنافى مع تفسير المعاصرين لها بأنها شحنة كهربائية عاتية تحرق ما وقعت عليه، فالعلماء فسروها بأثرها -نار من السماء محرقة-، وهؤلاء ذكروا حقيقتها.

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [سورة الذاريات:٤٤]، قول ابن كثير -رحمه الله- هنا: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع، {وَهُمْ يَنظُرُونَ} ابن كثير -رحمه الله- فسر {يَنظُرُونَ} بالانتظار، يعني وهم ينتظرون العذاب؛ لأنهم وُعدوا به {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ} [سورة هود:٦٥] فجلسوا ينتظرون فجاءهم العذاب في وقت الإنظار، وهذا معنى يحتمله قوله: {وَهُمْ يَنظُرُونَ}، وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير قال به أيضاً جماعة، ومنهم أيضاً ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من قال: {وَهُمْ يَنظُرُونَ} أي: من النظر، أخذتهم وهم ينظرون، لكن لربما يكون الذي حمل مثل ابن جرير -رحمه الله- والحافظ ابن كثير على القول بأنه بمعنى الانتظار {وَهُمْ يَنظُرُونَ} أنهم إذا أخذتهم الصاعقة فإنها تأخذهم

---

٢ - رواه البخاري، أبواب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- نصرت بالصبا، برقم (١٠٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

جميعاً، وليس هناك مجال للنظر، بخلاف قوله تعالى مثلاً: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٠]، لكن هذا ليس بقاطع، والله -عز وجل- لما ذكر الصعق الذي وقع لبني إسرائيل لما كانوا مع موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما قالوا: {أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً} [سورة النساء:١٥٣]، قال: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٥]، فهنا ما كان فيه إمهال ولا انتظار، {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، فينظرون الصاعقة وهي تنزل عليهم، -والله تعالى أعلم-، ولو فسر هذا بذاك -أي بما جاء في خبر بني إسرائيل- وهو موافق له وهناك ليس ثمة انتظار، بعض العلماء هناك يقول: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، يقول: ينظر بعضكم إلى بعض وهو يقضي -يموت-، يعني على أساس أن الصاعقة التي أخذت بني إسرائيل كانت صعقة موت، وليست صعقة إغماء؛ لأن الله قال: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [سورة البقرة:٥٦]، فماتوا حقيقة ثم أحياهم الله -عز وجل-، وهو أحد دلائل البعث المذكورة في سورة البقرة، و{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} [سورة البقرة:٢٥٩]، و{أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [سورة البقرة:٢٦٠].

{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ} أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، {وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

يعني ما استطاعوا الخلاص لا بالفرار والنجاء منها، ولا بدفعها والانتصار بقوتهم، وإنما وقع بهم وهم ينظرون لا يستطيعون حراكاً.

وقوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ} أي: وأهلكنا قوم نوح -عليه السلام- من قبل هؤلاء {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

فالله يذكر في كل موضع ما يليق ويناسب الموضع الذي ذكره، تارة يذكرها مختصرة وتارة يذكرها مبسوطة، في كلٍّ بحسبه.

وقوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}، فـ"إن" هذه تدل على التعليل، يعني أهلكهم الله -عز وجل-؛ لأنهم كانوا قوماً فاسقين، والفسق معروف هو مطلق الخروج، ويطلق على الفسق الأكبر والأصغر، فالفسق هنا هو الفسق الأكبر وهو الكفر بالله -تبارك وتعالى-، ولذلك فإن المثال الذي يذكره الأصوليون كثيراً على مفهوم المخالفة الأولوي الظني، يقولون: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [سورة الحجرات:٦]، مفهوم موافقة أولوي، يعني من باب أولى إن جاءك كافر تتبين، لكن يقولون: ليس بقطعي؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه يتحرز من الكذب، دينه يحرم عليه الكذب، فلا يُقطع أن التبين مطلوب في مثل هذه الحالة، هكذا يقولون، وهذا المثال فيه نظر؛ لأن الفاسق يطلق على الكافر والعاصي، "إن جاءكم فاسق"، فما يحتاج أن يقال: هذا من باب أولى الكافر نتثبت في خبره.

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [سورة الذاريات:٤٧-٥١].

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوي والسفلي: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا} أي: جعلناها سقفاً محفوظا رفيعاً، {بِأَيْدٍ} أي: بقوة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد.

هنا {بِأَيْدٍ}، الأيد القوة، كما قال الله -عز وجل-: {دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص:١٧] يعني: القوة، وليس جمع يد قطعاً، فإن هذه مادة أخرى، اليد تجمع على الأيدي، وهذه أيد بمعنى القوة، {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} أي: بقوة، فليست من آيات الصفات التي تدل على صفة اليد مثلاً، ليست منها، ولهذا بعض الناس يرى في كتب التفسير مثلاً من يفسر الأيد بالقوة ويقول: هذا تأويل، وهذا ليس بصحيح، هذه مادة أخرى، ليست جمع يد.

{وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، أي: قد وسعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي.

هذا الذي قاله الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه عامة أهل التفسير، عامة أهل العلم على أن قوله تعالى: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، أنه خبر عن خلقها، عن الماضي، خلقناها ووسعنا أرجاءها، فصارت كما ترون، خلقناها قوية واسعة الأرجاء، {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، خبر عن خلقها في الزمن الماضي وصفته أنه خلق شاسع واسع، وما في ضمن ذلك من الأفلاك والنجوم، والكواكب وما أشبه ذلك، فهذا كله خلق هائل واسع لا يحيط به إلا الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يفسر {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} من الوُسْع الذي هو القدرة والطاقة، خلقناها بقوة {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} أي: أصحاب وُسْع أو صاحب وسع بمعنى القوة والقدرة، تقول: في وسعي أن أفعل كذا، ما يسعني أن أفعل كذا، ما في وسعي صناعة هذا يعني ليس في قدرتي وإمكاني، {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} أي: لأقوياء قادرون متمكنون من ذلك، هكذا فسره بعض السلف، ولكن المعنى الأشهر والمتبادر من قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} أنه من السعة، وهي ضد الضيق، {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، ومن أهل العلم من فسر {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} يعني: الرزق بالمطر، وهذا بعيد، وسع عليه الرزق، بسط رزقه، وتقول: هذا قدر عليه رزقه وضيق عليه رزقه، وإنا لموسعون الرزق بالمطر، هذا بعيد، هذه أقوال أهل العلم في {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، وإذا اختُلف في تفسير آية على معنيين أو ثلاثة أو أكثر فإنه لا يجوز لمن جاء بعدهم أن يأتي بقول يعود على أقوالهم بالإبطال والتخطئة، بمعنى كل الأمة ما فهموا الآية ثم نأتي نحن نقول: لا، المعنى كذا، كل الذي قالوه غلط، هذا لا يمكن، هذه مبادئ أساسية في طلب العلم، يتربى عليها طلاب العلم منذ بداية طلبهم للعلم، فمجال النظر والاختيار والترجيح هو بين هذه الأقوال الموجودة، ومن جاء باستنتاج واستنباط تحتمله الآية فلا بأس، بشرط أن يكون هذا الاستنباط والمعنى غير خارج عما قالوه، بمعنى أن يكون زيادة في الفهم دون أن يعود بالتخطئة على جميع الأقوال، بمعنى أن الأمة أجمعت على الخطأ وإن تفرقت أقوالها، وبهذا نعرف بطلان قول أصحاب الإعجاز العلمي الذين يزعمون أن قوله: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} أي أن الكون في اتساع، وأنه تولد مجرات جديدة الآن، ولا زال الكون يتمدد، وأن هذه الآية تدل عليه، فمن أدرى محمداً -صلى الله عليه وسلم- بهذا؟، نقول لهم: كلامكم هذا غير صحيح، ولا تفسر به الآية؛ لأن عندنا مبادئ و أصولاً نمشي عليها، لا يمكن للأمة أن تجمع على الخطأ في تفسير الآية، يمكن أن تخطئ طائفة، يمكن أن تقول: قول ابن جرير غلط، قول ابن كثير غلط، يقول هذا أهل العلم لا يقوله إنسان تخصصه رياضيات ويأتي ويقول: هذا غلط، ابن جرير أخطأ، فالأرضية التي عندك يمكن أن تنطلق منها حتى تخطّئ ابن جرير، أمّا أن تخطّئ الجميع، تقول: كل هؤلاء ما فهموا الآية، فهذا قطعاً يحكم

بغلطه وأنه غير صواب، فهذا أصل من الأصول التي يبنى عليها التفسير ويعرف فيها صحيح الأقوال من باطلها.

{وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا} أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، {فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} أي: وجعلناها مهدا لأهلها.

كالمهد للصبي، ووصْفُ الأرض بأنها فراش ومهاد، وأنه -عز وجل- جعلها بساطاً كل ذلك لا ينافي أن الأرض كروية؛ لأن الجسم الهائل العظيم الواسع الشاسع لا تتبين كرويته بنظر الإنسان القصير -نظر العين-، وإنما تكون كرويته بالتدريج، لكن في أمد واسع جداً لا يلوح للعين بنظرها المعروف المجرد وهي على الأرض، فقضية كروية الأرض ذكرها العلماء منذ قرون متطاولة، ولم ينكرها السلف، ولا أحد من علماء المسلمين المحققين أبداً، فما جاء في القرآن من وصفها بأنها بساط وفراش وما أشبه ذلك فهو بالنسبة لنظر الناظر، فهي منبسطة كما نراها الآن ونشاهدها، والله -عز وجل- يخاطب الناس بحسب ما يرون، بل لربما خوطبوا بحسب ما يعتقدون وإن كان اعتقادهم باطلاً، كما سمى الله آلهة المشركين آلهة في مواضع من القرآن، وهي ليست آلهة، لكن هذا اعتقادهم، وسمى كلامهم والشبهات التي يلقونها حجة، وهي شبهات وتُرّهات، ليست حججاً، وعبر عن آلهة المشركين وهي جمادات أصنام بما يعبر به عن العقلاء، كما قال الله -عز وجل-: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٩٥]، الأصل تمشي بها، هذا الذي يعبر به عن غير العاقل، تمشي، تقول: هذه السارية تقف على قاعدة، هذه السواري واقفة على قواعد، ما تقول: يقفون، فلماذا قال: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا}، {أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا}، {أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا}، {أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}؟ لأنهم جعلوهم آلهة لا عقلاء فقط، فعبر عنهم بخطاب يستعمل مع العقلاء، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم- حينما نسب إلى الشمس والقمر فعلاً من أفعال العقلاء، قال: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [سورة يوسف:٤]، ما قال: رأيتها، الأصل أن يقول: رأيتها لغير العاقل، رأيتهم هذا للعقلاء، {لِي سَاجِدِينَ} الأصل أن يقول: ساجدة، لكن لما فعلت فعلاً من أفعال العقلاء نسب إليها ما يصلح للعقلاء وعبر عنها بما يعبر به عن العقلاء، وهذا كثير في القرآن، حتى القائلون والمتكلمون أنفسهم ممن نقل الله كلامهم في القرآن ربما يخاطِبون بهذا الأسلوب: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [سورة الحجر:٦]، هم ما آمنوا أنه أنزل إليه الذكر، لا يؤمنون بهذا، وإنما أرادوا بحسب زعمك، وهكذا، كثير جداً، تارة يعتقد السامع خلافه، وتارة يقول ما يعتقد، وتارة بحسب فهم المخاطب، يقول الله -عز وجل- مثلاً {إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ} [سورة الصافات:١٤٧] في قصة يونس -صلى الله عليه وسلم-، {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، إذا كانت "أو" هنا بمعنى "بل" فلا إشكال، بل يزيدون، لكن إذا كانت "أو" التي تذكر للشك، {أَوْ يَزِيدُونَ} للتردد -وهو أحد الأقوال في تفسيرها-، فالله يعلم كم عددهم بالضبط، لكنه عبر بحسب نظر المخاطبين، فالناظر إليهم من المخاطبين يقول: مائة ألف أو يزيدون، بحسب نظر المخاطب، ولما أمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، قال: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، لعل تأتي للترجي، على التفسير الآخر أنها للتعليل أي من أجل أن يتذكر أو يخشى، لكن على أنها للترجي فيكون بحسب نظركما، فالإنسان الداعية إلى الله عندما يذهب إلى آخر يدعوه فهو يترجى أن ينتفع بهذا ويقبل، {لَّعَلَّهُ} أي: بحسب نظركما، {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، فخاطبهم بحسب نظرهم، وهذا ينحل به إشكالات كثيرة جداً في التفسير، فهنا {وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا} [سورة الذاريات:٤٨]

ما يأتي إنسان ويقول: والله الأرض ما هي ببساط ولا فراش وإنما هي كروية، نقول: هذا لا ينافي كروية الأرض.

{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

{خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} هذا هو المشهور عند عامة أهل العلم، يعنى صنفين متقابلين، نوعين، الليل والنهار، العافية والمرض، الحر والبرد، الشدة والرخاء، القوة والضعف، وهكذا، {خَلَقْنَا}، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وليس الزوج يعني الذكر والأنثى، وإن كان هذا قال به بعض أهل العلم -الذكر والأنثى-، فهذا يوجد في بعض المخلوقات ولا يوجد في بعضها، فكلمة زوج بمعنى صنف، فالله -عز وجل- يقول: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] ليس المراد زوجاتهم، قد تكون مؤمنة مثل زوجة فرعون ما تحشر معه، وإنما {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} أي: ونظراءهم، من يشاكلونهم على طريقتهم ودينهم واعتقادهم، فهذا معنى الزوج، وهو أحد الأوجه أيضاً في قوله: {وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} [سورة الدخان:٥٤]، يعني: قرناهم، وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله- في سورة الطور.

{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له.

{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} أي: الجئوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}.

{وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} أي: لا تشركوا به شيئاً، {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}.

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [سورة الذاريات:٥٢-٦٠].

يقول تعالى مسليا نبيه -صلى الله عليه وسلم-: وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}!.

قال الله -عز وجل-: {أَتَوَاصَوْا بِهِ} أي: أوصى بعضُهم بعضا بهذه المقالة؟، {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}.

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}، يمكن أن تكون "أو" هذه للترديد، بمعنى أنهم يقولون: لا يخلو أمره إما أن يكون ساحراً، وإما أن يكون مجنوناً، لا يخلو من هذا أو هذا، ويمكن أن تكون "أو" هنا للتقسيم، بمعنى أن منهم من قال: ساحر، ومنهم من قال: مجنون، فهم في أمر مريج مضطرب، وقد يكون القائل الواحد تارة يقول كذا، وتارة يقول كذا؛ لأنه لا يثبت على أصل صحيح، وإذا كانت "أو" للتقسيم فهذا احتمال في الآية، وهو وجه صحيح في تفسير "أو" في بعض المواضع، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [سورة البقرة:١٣٥]، فالنصارى لا يقولون: كونوا يهوداً تهتدوا، يقولون: في النار، وكذلك اليهود لا يقولون: كونوا نصارى تهتدوا، أبداً، وكذلك في قوله: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [سورة البقرة:١١١]، فـــ "أو" في الموضعين قطعاً للتقسيم وليست للتخيير،

بمعنى قال اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، ولكن القرآن أبلغ الكلام، ويعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيفهم المخاطب من هذا الخطاب المراد من السياق لأنه يعرف أن اليهود لا يقولون: كونوا نصارى تهتدوا، بل العكس، فالمعنى قطعاً قال اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [سورة البقرة:١٣٥]، كل طائفة قالت، فهنا "أو" في هذه الآية عندنا {إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} تحتمل أن تكون للتقسيم، طائفة قالت هذا، وطائفة قالت هذا، وهو أحد الأوجه في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ} [سورة المائدة:٣٣]، تحتمل أن تكون للتخيير بمعنى أن الإمام مخير بما يرى من المصلحة، إن شاء قتل وإن شاء صلب وإن شاء نفى، وتحتمل أن تكون للتقسيم، إن فعلوا كذا قتلوا وإن فعلوا كذا صلبوا وإن فعلوا كذا فالنفي، كما يقول الإمام الشافعي -رحمه الله.

{أَتَوَاصَوْا بِهِ} كأنه يتلقى بعضهم عن بعض في هذه القضايا، ثم قال: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} طغيانهم هو الذي حملهم على هذا، كما قال الله -عز وجل- في سورة البقرة: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [سورة البقرة:١١٣]، يعني: {وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} وهم العرب، أهل الجاهلية، {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} يعني يقولون: اليهود والنصارى على شيء، -نحن على ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، وقال في الموضع الآخر: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} يعني الجاهليين، {لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} يعني: مما نقترحه من الخوارق، أن يجعل لهم الصفا ذهبا، أو تأتينا بآية، {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}، فكأنهم تواصوا بهذا، ولكنهم تشابهت قلوبهم، فهم ما أدركوهم حتى يتواصوا معهم، ما أدركوا ثمود وعاداً، لكن القلوب تشابهت في الكفر والطغيان ومحادة الله -عز وجل- ورسله -عليهم الصلاة والسلام.

{بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

قال الله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} أي: فأعرض عنهم يا محمد، {فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ} يعني: فما نلومك على ذلك.

{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة.

{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ}، "إنّ" هنا تعليلية وهي للتوكيد؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين، ينتفعون بها بعد غفلتهم، يفيقون ويحصل لهم التذكر، ومن أهل العلم من قال: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} يعني: ذكر جميع الناس فإن الذكرى تنفع من علم الله أنه سيؤمن، {تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} يعني: من كانوا في سابق علمه سيدخلون في الإيمان، هكذا قال بعض أهل العلم، والحافظ ابن كثير قال: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، وهذا هو الموافق لظاهر القرآن، وما كان موافقاً لظاهر القرآن فهو أولى بتفسير الآية، {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}، لكن قالوا: لمن كان في سابق علم الله، والسياق: أن الله -عز وجل- يقول: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ}، يعني: لا تحزن عليهم ولا تقلق، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} [سورة الكهف:٦]، لكن ذكر وسينتفع بهذا التذكير من سبق في علم الله -عز وجل- أنه يؤمن، هكذا قالوا، هو يذكّر الجميع، وإنما ينتفع بذلك أهل الإيمان، وهذه الآية تضمنت إحدى حكم التذكير وهي انتفاع أهل الإيمان، وجاء في آيات أخرى

بيان الحكم الأخرى أو بعض الحكم، مثل ما في قصة اليهود في القرية التي كانت حاضرة البحر، **{قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}** [سورة الأعراف:١٦٤]، لما قال لهم من قال: **{لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً}** [سورة الأعراف:١٦٤]، أي: وعْظُنا وتذكيرنا معذرة أي: من أجل المعذرة إلى الله -عز وجل-، لإبراء الذمة، لإلقاء العهدة، فنقوم بما أوجب الله -عز وجل- علينا، وكذلك ذكر الله -عز وجل- حكمة بعث الرسل **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** [سورة النساء:١٦٥]، فهذه إحدى حكم التذكير وبعث الرسل، إقامة الحجة على الناس.

ثم قال -جل جلاله-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ} أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إلا لِيَعْبُدُونِ} أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً.

القول الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.** وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر الذي تدل عليه الآيات الأخرى، خلقهم لعبادته، أي لآمرهم وأنهاهم ليوحدوني، فهذا الذي قال به عامة المحققين، ومنهم ابن القيم -رحمه الله- وشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، خلقتهم لأجل عبادتي، لآمرهم وأنهاهم ليوحدوني، هذا هو الذي خلق الله من أجله الخلق، وهنا ملحظ هو الذي جعل بعض أهل العلم يقولون بغير ذلك كما سيأتي مما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، -جاءت أقاويل موافقة ومخالفة-، الآن الناس الله خلقهم ليعبدوه، أكثر الناس تركوا عبادته، خلقهم ليعبدوه فترك أكثر الناس عبادته، والمراد بيعبدون: هنا ذكر قول ابن عباس: **ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً**، يعني ما يخرج عن هذا أحد، عبادة الاختيار، عبودية الاختيار من أهل الإيمان، وعبودية الاضطرار **{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** [سورة مريم:٩٣]، فكلهم لا يخرجون عن عبودية الاضطرار، كلهم عبيده شاءوا أم أبوا، وهم تحت قبضته وسلطانه، لا يخرجون عن ذلك، يتصرف فيهم كما يشاء، فهذا قال به بعض أهل العلم: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** قالوا: ليشمل الجميع، لينطبق على الجميع، فقالوا: من أجل أن يقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً فيدخل فيها الكفار، هذا الذي جعل بعض أهل العمل يقولون هذا القول، وكذلك قول من قال -وهو فيه بعد-: من أجل أن يعرفوه، يعرفوا الله -عز وجل-، من أجل العلم به وكذا، وهذا فيه إشكال، وبعضهم قال: هذا من العام المراد به الخصوص، **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ}** يعني: ممن سبق في علمي أنه يؤمن، ما خلقته إلا لعبادتي، وهؤلاء يستدلون بقراءة غير متواترة قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب {وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون} والقراءة الأحادية إذا صح سندها فإنها تفسر القراءة المتواترة، قالوا: من أجل أن الآية تكون صادقة على المطلوب، **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**، فأكثر الناس على غير ذلك، فإما أن نقول: طوعاً أو كرهاً، أو نقول: إنها من العام المراد به الخصوص، **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}** [سورة آل عمران:١٧٣] يعني: نعيم بن مسعود على قول بعض المفسرين، **{إِنَّ النَّاسَ}** يعني: أبا سفيان، و**{الَّذِينَ}** اسم موصول يفيد العموم، **{الَّذِينَ}** يعني: أبا بكر، قالوا: هذا عام مراد به

الخصوص، فهنا قال بعضهم: إن هذا {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ} الجن "ال" هنا تفيد الاستغراق إذا كانت غير معرّفة، والإنس كذلك، {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} فتخلف كثير منهم عن العبادة فقال بعض أهل العلم: أي ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، فتكون صادقة عليهم جميعاً، أو قالوا: من العام المراد به الخصوص بمعنى أن هذا فقط في من سبق في علمي أنهم يؤمنون، لكن على قول ابن كثير -رحمه الله- هنا وهو أن المراد به إلا لآمرهم وأنهاهم، طبعاً هذا القول الذي قال به ابن عباس هو قول ابن جرير، وقول ابن كثير يخالفه، أي إلا لآمرهم وأنهاهم، {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، فإذا قلنا بقول ابن كثير فتكون الإرادة إرادة شرعية، والإرادة الشرعية لا يجب معها أن يحصل المراد، فالله أراد أن يصلي الناس، كل الناس يصلون؟ لا، هذه إرادة شرعية، لكن الإرادة الكونية لا يتخلف معها المراد، إذا أراد الله كان ولابد، فهذه الإرادة {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} إرادة شرعية وليست كونية، فيبقى هنا سؤال وهو أن الله -عز وجل- قال في الموضع الآخر في الاختلاف بين الناس {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود:١١٨-١١٩]، إذا فسرت بأن المراد {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أي: للاختلاف على قول من قال هذا، فهنا قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وهناك {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}؟، هناك للإرادة الكونية وهذا في الإرادة الشرعية، فهذا وجه الجمع بين الآيتين، هناك لابد أن يقع الاختلاف بين كفار ومؤمنين، هؤلاء يكونون للنار وهؤلاء للجنة، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهنا في إرادته الشرعية أنه خلقهم من أجل عبادته، لكن هي إرادة شرعية لا يلزم معها وقوع المراد، تقول: يا فلان، الله خلقك من أجل أن تعبده وتوحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الذاريات من الآية (٥٧) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الذاريات:

وقوله تعالى: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات:٥٧-٥٨].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: أقرأني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين))[١].

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال الله: ((يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك))[٢].

ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

---

(١) رواه أبو داود، في كتاب الحروف والقراءات، برقم (٣٩٩٣)، والترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الذاريات، برقم (٢٩٤٠)، وأحمد في المسند، برقم (٣٧٧١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي سعيد -وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبيد البصري، مولى بني هاشم- فقد أخرج له البخاري متابعة، وهو ثقة، إسرائيل: هو ابن يونس بن أبي إسحاق، وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السبيعي".

(٢) رواه الترمذي، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم (٤١٠٧)، وأحمد في المسند، برقم (٨٦٩٦)، وقال محققوه: " إسناده محتمل للتحسين لأجل زائدة بن نشيط، فقد روى عنه اثنان، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وأبو خالد -وهو الوالبي- روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، فهو صدوق حسن الحديث"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩١٤).

فقوله -تبارك وتعالى-: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ}، يقول الحافظ ابن كثير هنا: **إنه -تبارك وتعالى- خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، وأخبر أنه غير محتاج إليه بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم**، وهذه العبارة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عبارة مجملة، بمعنى أنها تحتمل أن يكون مراده {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ} يعني: أن يرزقوني، {وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} **أي أن يطعموني**، وتحتمل معنى آخر وهو الذي قال به جمع من أهل العلم، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ} يعني: أن يرزقوا خلقي، {وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} أي: يطعموا خلقي، واستدلوا بالحديث، ((استطعمتك فلم تطعمني، فقال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟، قال: استطعمك عبدي فلان، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي))[٣]، فقالوا: إن قوله: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} يعني: أن يطعموا خلقي، ولهذا قال بعدها: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، هو الذي يطعمهم ويعطيهم ويرزقهم ويكلؤهم، فالحاصل أن الآية تحتمل هذا وهذا، وابن كثير -رحمه الله- أجمل العبارة.

وقوله: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا} [سورة الذاريات:٥٩] **أي: نصيبا من العذاب، {مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ}.**

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا}، يقول الحافظ -رحمه الله-: **أي نصيباً من العذاب**، وهذا التفسير ذكر فيه الحافظ -رحمه الله- المعنى المقصود بالآية مباشرة، يعني ذكر لك الخلاصة والنتيجة، وإلا فإن أصل الذَّنوب الدلو العظيمة المملوءة، ومنه الحديث في بول الأعرابي لما أمرهم أن يصبوا عليه ذَنوباً من ماء، الدلو الكبيرة يقال لها: ذَنوب، وما علاقة هذا -أعني الدلو الكبيرة الدلو العظيمة- بموضوع الذنوب والسيئات؟، العلاقة هي أنه من عادة العرب في بلادهم في الصحراء أنهم كانوا يقتسمون الماء بالدِّلاء، يستخرجونه من الآبار بالدلاء، فيستخرجون هذه الدلو وينتصفون ويتفقون على أن تكون القسمة بينهم بالسوية، فيكون لهذا ذَنوب، ولهذا ذنوب، ولهذا ذنوب، بمعنى أنه لا يغلب عليه واحد منهم، كما قال بعض الشعراء الجاهليين:

ونشرب إنْ وردنا الماء صفواً *** ويشرب غيرُنا كدراً وطيناً

الماء بعدما يترك مدة لا تكدره الدلاء يكون صافياً، فيأتي هؤلاء وينزحون البئر بالدلاء، فلا يبقى إلا عكره، فيأتي غيرهم ويشرب من هذا المختلط بالطين، فكانوا ينتصفون، لكم دلو ولنا دلو، فهذا نصيبهم وهذا نصيبهم، فعبر بالذَّنوب عن النصيب بهذا الاعتبار، هذا وجه الارتباط، ليس المقصود به الذُّنوب، الذَّنوب -بالفتح وهي الدلو العظيمة- علاقتها هنا هو ما ذكرت، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر النتيجة وهي النصيب، لهم نصيب، {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا} مأخوذ من مقاسمة السقاة كما ذكرنا، أي نصيباً، فهذا تمثيل، أعني التعبير بالذَّنوب، ولأن ذلك مستعمل عندهم، فجعل الذنوب مكان الحظ والنصيب، هذا الذي فسره به كثير من أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم من المفسرين كابن جرير، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ومما يدل على أن المراد به النصيب قول الله -تبارك وتعالى-: {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} [سورة الزمر:٥١]، {فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} لا يستعجلون

---

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، برقم (٢٥٦٩).

العذاب؛ لأنهم استعجلوه، قالوا: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} [سورة الأحقاف:٢٢] الكفار يقولون لأنبيائهم: هاتوا العذاب الذي وعدتمونا به، كما سمعتم في الآيات التي قرأناها من سورة الأعراف، {وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٧٧]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال له الله -عز وجل-: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ} [سورة الرعد:٦]، العقوبات العامة المستأصلة.

{فلا يستعجلون} أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة.

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [سورة الذاريات:٦٠] يعني: يوم القيامة.

كما قال الله -عز وجل-: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص:٢٧]، و{وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة إبراهيم:٢]، وأشباه ذلك من الآيات، وكلمة ويل كلمة تستعمل للوعيد والتهديد، وأيضاً كثير من أهل العلم يقولون: هو وادٍ في جهنم، وويل لهم: لو قيل بمعنى الوادي في جهنم فهذا وعيد وتهديد، ولو قيل: فالنار للمكذبين فهذا وعيد.

آخر تفسير سورة الذاريات، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطور من الآية (1) إلى الآية (28)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الطور وهي مكية

روى مالك عن جُبَير بن مطعم -رضي الله عنه- قال: "سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً -أو قراءة- منه"([1])، أخرجاه من طريق مالك.

جبير بن مطعم -رضي الله عنه- قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد غزوة بدر في قضية الأسارى.

وروى البخاري عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "شكوت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أني أشتكي، فقال: (طُوفي من وراء الناس وأنت راكبة)، فطفت ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور"([2]).

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ سورة الطور:1-16.

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى -عليهما السلام-، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له: جبل.

الطور، من أهل العلم من يفسره بتفسير أوسع من هذا، يقول: هو الجبل، وبعضهم يقول: أصله سرياني، وهذا لا دليل عليه، ومنهم من يفسره بمعنى أضيق إلا أنه واسع أيضاً، كما قال ابن كثير -رحمه الله- هنا، الطور: هو الجبل الذي فيه شجر، ولا يختص ذلك بطور سيناء

الطور، من أهل العلم من يفسره بتفسير أوسع من هذا، يقول: هو الجبل، وبعضهم يقول: أصله سرياني، وهذا لا دليل عليه، ومنهم من يفسره بمعنى أضيق إلا أنه واسع أيضاً، كما قال ابن كثير -رحمه الله- هنا، الطور: هو الجبل الذي فيه شجر، ولا يختص ذلك بطور سيناء

، ومن أهل العلم من يفسره بتفسير أضيق من هذا ويقول: هو جبل مخصوص، عرفه هنا بـ"ال" المعرِّفة، والطور، وعرفه بموضع آخر بالإضافة، وَطُورِ سِينِينَسورة التين:2وهو الجبل الذي أوحى الله -عز وجل- إلى موسى عنده، وكلم موسى عنده تكليماً مباشراً، فهذا الجبل له شرف ومزية على سائر الجبال، فتفسيره بهذا يؤيده قوله -تبارك وتعالى- في الموضع الآخروَطُورِ سِينِينَ، فقوله: وَالطُّورِ، يفسر بالآية الأخرى، فعُرف هنا بـ"ال" وعرف هناك بالإضافة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي عليه عامة المحققين سلفاً وخلفاً، أنه جبل خاص، وهو جبل معروف إلى اليوم، وبهذا قال ابن جرير والحافظ ابن القيم، وكثير من أهل العلم، ومن المتأخرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً.

قيل: هو اللوح المحفوظ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ السطر يعني: الكتابة، تقول: سطرته يعني كتبته، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، مكتوب، وتفسيره باللوح المحفوظ فيه إشكال، وذلك أن الله -عز وجل- قال: وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، والرق كثير من أهل العلم يفسرونه كما سيأتي بالجلد الرقيق الذي يكتب به، ومن قال: إن اللوح المحفوظ من جلد فهذا فيه إشكال، يقول هنا الحافظ ابن كثير: قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً، ولا يختص ذلك بكتاب منها، وبعضهم خصه بألواح موسى، مع أنه جاء في صفة الألواح في حديث حسن الإسناد ما يدل على خلاف ذلك، وأنها تحطمت حينما ألقاها موسى -عليه الصلاة والسلام-، فليست في جلد، وبعضهم يقول: هو ما تكتبه الحفظة من أعمال بني آدم فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ، كما قال الله -عز وجل-: وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا سورة الإسراء:13، فهو كتاب الأعمال التي كتبت على

الإنسان من خير وشر، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، وبعض أهل العلم فسره بتفسير لم يخصص فيه شيئاً دون شيء، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ يعني: وكتاب مكتوب، يحتمل أن يكون هذا القرآن، وهو ما اختاره ابن القيم -رحمه الله- أعني أنه هذا القرآن-، واستدل لذلك -كما سيأتي-، ويحتمل أن يكون الكتاب المسطور غير القرآن عند القائل بهذا وهو ابن جرير -رحمه الله-، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ يعني: وكتاب مكتوب، ولم يحدد هذا الكتاب، فيحتمل هذا أو هذا أو هذا، هذا ما اختاره كبير المفسرين، ويقول: التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ.

وتفسيره بالقرآن لعله أقرب -والله تعالى أعلم-، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، والله -عز وجل- قد أقسم بالقرآن قال: وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ سورة الزخرف:2، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ سورة يس:2، والقرآن مكتوب في صحف بأيدي الملائكة كما في سورة عبس فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ سورة عبس:13-15، فالله أقسم بمواضع من كتابه بالقرآن، وأخبر أنه بأيدي سفرة، كما أنه في اللوح المحفوظ، كما أنه أيضاً نزل جملة إلى سمائنا الدنيا في بيت العزة في ليلة القدر، وهذه الصحف قد تكون هي المرادة -يعني التي بأيدي الملائكة- بقوله تعالى: {فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} يعني: في صحف، وهذا القول رجحه ابن القيم -رحمه الله-، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

وابن القيم -رحمه الله- في مثل هذه المواضع يربط بين هذه الأقسام وبين النبوات، يعني مثلاً في قوله: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [سورة التين:1-3]، يقول: هذه دلت على النبوات الثلاث المشهورة، فالتين والزيتون ترمز للشام، وهو موطن عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وَطُورِ سِينِينَ لموسى -صلى الله عليه وسلم-، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعني مكة، للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وتجد في بعض الكتب السابقة أن الله -عز وجل- تجلى من الطور لموسى -صلى الله عليه وسلم-، ونزل في ساعير، يعني الشام، وتجلى في جبال فاران، يعني جبال الحجاز، أو عبارة نحو هذه في كتبهم، إن لم يكن ذلك مما حُرف، فذكر النبوات الثلاث، فهنا وَالطُّورِ ابن القيم -رحمه الله- يقول: هذا إشارة إلى نبوة موسى -عليه الصلاة والسلام-، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ قسم بالقرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا يقول أيضاً: إنه قد أقسم بسيد الجبال وهو

الطور، وسيد الكتب وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ سورة المائدة:48 وهو القرآن، وسيد البيوت وهو البيت المعمور، والله أعلم.

ولهذا قال: فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ.

{فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} بعضهم يفسر الرق بالجلد الرقيق، "رِق" الجلد الرقيق الذي يكتب به، وقد يكون هذا أصله، ولكن صار ذلك يطلق على كل ما يكتب به من صحيفة من ورق أو نحو ذلك، يقال له: رق.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في حديث الإسراء -بعد مجاوزته إلى السماء السابعة-:(ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم)([3]) يعني: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة.

البيت المعمور هذا أحسن ما يفسر به، وهذا من تفسير القرآن بالسنة، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض –الكعبة-، فوقه تماماً، وبعض أهل العلم يقول: لكل سماء بيت معمور، وبعضهم يقول: البيت المعمور المراد به هنا الذي في السماء الدنيا، وهذا لا دليل عليه، ومنهم من يقول: المراد به الكعبة، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وكذا أيضاً ما ورد في السنة.

ولهذا وَجد إبراهيمَ الخليل -عليه الصلاة السلام-، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم.

هذا بناء على الأثر الثابت عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وله حكم الرفع؛ لأن ذلك لا يقال من جهة الرأي، ولا يمكن أن يتلقاه ابن عباس -رضي الله عنهما- من بني إسرائيل، حينما ذكر أن القرآن نزل إلى بيت العزة في سماء الدنيا في ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذا –أي كونه بيت العزة، وكون القرآن نزل جملة واحدة وفي ليلة القدر إلى هذا المكان- لا يمكن أن يقال اجتهاداً، فله حكم الرفع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ: قال سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن علي: وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا

مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ سورة الأنبياء:32، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وهذا قسَمٌ بالسماء موجود في القرآن في مواضع متعددة، وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ سورة الطارق:1، وكما سبق وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ سورة الذاريات:7، وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوج سورة البروج:1، وما أشبه هذا.

وقوله تعالى: وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قال الجمهور: هو هذا البحر.

قال الجمهور: هو هذا البحر، البحر المسجور؛ لأن بعضهم يقول: هو بحر تحت العرش، والمشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن البحر المسجور هو هذا البحر الذي نعهده ونعرفه.

والمراد أنه يُوقَد يوم القيامة ناراً كقوله: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ سورة التكوير:6أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج، محيطة بأهل الموقف.

يدل على هذا -يعني هذا التفسير بأن الْمَسْجُورِ الموقد- قول الله -عز وجل-: ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ سورة غافر:72، ومعنى يسجرون يحرقون، تقول: سجرتُ النار بمعنى أوقدتها.

رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-، ورُوي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير وغيرهم.

وقال قتادة: وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ المملوء، واختاره ابن جرير ووجّهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء.

هذا الذي عليه عامة أهل اللغة إن لم يكن جميع أهل اللغة، يقولون: المسجور يعني: المملوء، فالله أقسم بالبحر، يقولون: ليس بموقد كما نشاهده، ومن معاني المسجور المملوء في اللغة، فابن جرير يقول: أشهر المعاني لهذه اللفظة الْمَسْجُورِ الموقد والمملوء، يقول: وحيث إنه ليس بموقد فبقي المعنى الآخر فصرنا إليه، وهو المملوء، مملوء ماء، كما نشاهد، وهذه آية من آيات الله -عز وجل- حيث لا يفيض هذا الماء على أهل الأرض فيغرقوا، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ المملوء.

ومن أهل العلم من يفسره بغير هذا، بعضهم يقول: الممسوك، المحبوس، تقول: سجرتُ الباب، اسجر البابَ، ولا زال هذا مستعملاً إلى اليوم، تقول: سجرت الكلب، منعته، حبسته، ربطته، فهو محبوس لا يفيض ولا يطغى فيغرق أهل الأرض، حبس في مكانه، وبعضهم يقول: المسجور يعني

المفجور، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ سورة الإنفطار:3، وبعضهم يقول: هو الذي يختلط فيه العذب والملح، مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ سورة الرحمن:19، على تفسير هذا بالعذب والآخر بالملح.

ويمكن أن تكون عامة هذه المعاني صادقة عليه، فهو مملوء ويسجر في يوم القيامة، وهو محبوس؛ لئلا يفيض على الناس فيهلكهم ويغرق أهل الأرض، وهذا الوجه من الجمع وجه حسن مال إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

وهذا الموضع يتكلم عليه أصحاب الإعجاز العلمي، ويقولون: إن الله أقسم بالبحر الآن، المسجور الموقد الآن، وما رأيت أحداً من المفسرين قال بهذا، الموقد الآن، يقولون: البحر الآن موقد، وقد قلت لبعضهم: الآن البحر يصور، يصور قعره وينزل إليه الغواصون ويغرق فيه الناس، تغرق فيه السفن ولا يحترقون، أين؟ ما نرى، فيه أسماك وفيه نباتات في قعر البحر، قال: لا، في خنادق، هذه الخنادق الذي يقع فيها ويدخل فيها يحترق، ولهذا وقع فيها قوم فرعون فاحترقوا، وهذا معنى أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًاسورة نوح:25الفاء للتعقيب المباشر، قلت له: فالله قال في حق فرعون وهو كبيرهم الذي أغرقوا من أجله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ سورة يونس:92ما احترق، نجا من هذه الخنادق التي أنت تقول عنها، قال: روحه، قلت: إذن هم أرواحهم، غرقوا في البحر فأدخلت أرواحهم النار من باب أولى، يحترقون هم وهو ينجو!، فقوله: وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ لا يقال: إنه الآن مسجور وإنما ذلك في يوم القيامة، وإذا فسر بالبحر الآن فهو المملوء، والله أعلم.

وقوله تعالى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ: هذا هو المقسم عليه، أي: الواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يَعِسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: وَالطُّورِ حتى إذا بلغ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ قال: قسمٌ -ورب الكعبة- حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه -رضي الله عنه.

وقوله: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: تتحرك تحريكا، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض.

وهذا اختيار ابن جرير، أنه التحرك في استدارة.

يعني من فسره بالحركة فسره بجزء معناه، بجزء المعنى، عبر بعبارة تدل على جزء المعنى، والسلف -رضي الله تعالى عنهم- كانوا يفسرون القرآن بما يقرب المعنى للسامع، دون أن يقصد الواحد منهم استقصاء ذلك المعنى بلفظ مطابق أو بشرح يأتي على دلالات هذه اللفظة، يقربون المعنى للسامع، ما كانوا يتكلفون كما نتكلف، والمَوْر يدل على حركة في تموج واضطراب، ذهاب ومجيء، تَكَفُّؤ، وقد مثله بعض أهل اللغة بالنخلة العَيْدانة -النخلة الطويلة جداً- إذا جاءت الريح تتكفّأ، فهو حركة بذهاب ومجيء وتَكفُّؤ، يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا سورة الطور:9، ويلزم من هذا المور التشقق، كما قال الله -عز وجل-: إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ سورة الإنشقاق:1.

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا أي: تذهب فتصير هباء منبثا، وتُنسف نسفاً.

كما قال الله -عز وجل-: وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ سورة النبأ:20، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ سورة التكوير:3، وهو معنى قول الله -عز وجل-: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ سورة النمل:88، وذلك في يوم القيامة في قول جميع المفسرين، إلا أصحاب الإعجاز العلمي اليوم يقولون: هذا في الدنيا وهو دليل على أن الأرض تدور، إذا كان هذا في الدنيا ويدل على دوران الأرض فليست الجبال فقط التي تحسبها جامدة، بل الكثبان ومن عليها من الجمادات والحيوانات وغير ذلك مما يراه الإنسان من الزروع، تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، كل من على الأرض يتحركون بحركتها، وليس هذا هو المراد، ولا معنى ولا وجه لتخصيص الجبال من بين هذه الكائنات التي على وجه الأرض، والله -عز وجل- يقول: أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا سورة النمل:61، يعني: مستقرة، فجميع المفسرين يقولون: هذا في يوم القيامة، وهذه الآيات تفسره، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا، والله أعلم.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أي: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم.

الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعباً.

يَوْمَ يُدَعُّونَ أي: يُدفعون ويساقون.

الدعّ هو الدفع بقوة، الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ سورة الماعون:2، يدفعه دفعاً، يدفعه عن حقه، فهؤلاء -عياذاً بالله- يدفعون دفعاً قوياً إلى النار، يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا، لا يدخلونها بأقدامهم، وإنما يدفعون إليها دفعاً.

إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدي، والثوري: يُدفعون فيها دفعاً.

كما قال الله -عز وجل-: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ سورة الدخان:47يعني: إلى وسط النار.

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا.

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته.

اصْلَوْهَا يعني: ادخلوها، وهي تدل أيضاً على مقاساة حرها، تقول: صليت اللحم، صليت الشاة بمعنى أحرقتها أو شويتها، تقول: صلي النار بمعنى الحرارة والإحراق الذي فيها، اصْلَوْهَا، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى سورة الليل:15، يعني: لا يدخلها إلا الأشقى، لا يقاسي حرها، لا يذوق لهيبها إلا الأشقى.

فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازي كلا بعمله.

كما قال الله -عز وجل- عنهم: سَوَاءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ سورة إبراهيم:21فالعذاب واقع بهم، والجزع لا يدفعه عنهم، ولا الصبر ينفعهم، وفي قوله -تبارك وتعالى-: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هؤلاء الكفار لما أنعم الله -عز وجل- عليهم في هذه الدنيا، وتوجهوا بالشكر والعبادة لغير من خَلق كانوا مستحقين بذلك للنار، أرسل إليهم الرسل، أنزل عليهم الكتب، وأقام عليهم الحجة فأمروهم ونهوهم فكذبوهم، فبقوا على التكذيب إلى آخر لحظة في حياتهم، فماتوا على الكفر، فكانت عاقبتهم الخلود في النار، وهم عازمون على ذلك تماماً، فلو بقوا الآماد الطويلة غير المتناهية فإنهم سيبقون على الكفر، بل إن الله -عز وجل- قال عنهم: وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ [سورة الأنعام:28] حتى بعدما يدخلون النار ويقولون: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ، ومع ذلك

لو أنهم ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، فهم عازمون تماماً على الإقامة على الكفر، والعزم المصمم يؤاخذ عليه الإنسان وهو بمنزلة العمل، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)([4])، فكانت المؤاخذة بالعزم، وبهذا يكون العزم أحد أنواع العمل التي يؤاخذ عليها الإنسان، الله لا يؤاخذ بالهم بالسيئة ولا بخطرات النفوس، وإنما إذا صار ذلك عزماً مصمماً فإن الإنسان يؤاخذ ويعاقب عليه كأنه عمله.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ سورة الطور:17-20.

أخبر تعالى عن حال السعداء فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، وذلك بضد ما أولائك فيه من العذاب والنكال.

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك.

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ قال: أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، يتفكهون، والفاكه هو المسرور المعجب بالشيء المغتبط به، يقال: فاكه، وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو ما رجحه ابن القيم أيضاً، ومن أهل العلم من قال: فَاكِهِينَ: أي عندهم فواكه كثيرة، كما تقول العرب: فلان تامر بمعنى عنده تمر كثير، ولابن عنده لبن كثير، وفاكه عنده فاكهة كثيرة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، ولعل الأكثر في الاستعمال -والله تعالى أعلم- أو المتبادر عند إطلاق هذه اللفظة هو أنه بمعنى المسرور المغتبط بالشيء، الملتذّ به، وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ سورة المطففين:31.

وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هنا إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، هذه ثلاثة أشياء، والرابع: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، تأمل هذه الأشياء الثلاثة، الأول: فِي جَنَّاتٍ

وَنَعِيمٍ، في عيش طيب وسعة وبرودة، وهذه غاية لذة الأبدان، وهم في غاية السرور، الإنسان قد يكون في سعة من العيش لكنه مكتئب، وهؤلاء في غبطة وسرور، وهذه لذة النفوس، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ، وهنا قال: وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وقاهم عذاب الجحيم فهم في مأمن، فاجتمعت لهم هذه الأشياء، ثم قال: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا الهنيء الذي لا تنغيص فيه ولا كدر ولا نكد، وبعضهم يقول: يعني لا يموتون، ولا شك أن الموت ينغص على الإنسان لذته وسروره وراحته، فمهما كان فيه من النعيم فإنه إذا تذكر الموت وأنه مفارق لهذا النعيم تَنغّص عليه وتكدر عيشه، ولهذا نفى الله -عز وجل- عنهم في موضع آخر الموت، وكذلك أيضاً أخبر أنه نزع ما في صدورهم من غل؛ لأن الغل مهما كان الإنسان فيه من نعمة ورفعة ولين من العيش فإن الغل على اسمه غلّ في القلب، يربط قلبه، فيضيق القلب وينعصر ألماً فهو عذاب، ولهذا لا يمكن أن يكتمل لأهل الجنة النعيم إلا بإزالة هذا الغل وسلّه من نفوسهم، فاكتمل لهم نعيمهم من هذه الوجوه جميعاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، كقوله تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِسورة الحاقة:24، أي: هذا بذاك، تفضلاً منه وإحساناً.

هو هذا، والباء هنا للسببية، وذلك لا يعارض قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله)([5])، فما ورد في الآيات من أن الإنسان يدخل الجنة بالعمل فإن ذلك يكون سبباً، ولكنه لا يستقل بالمطلوب، بل لابد معه من رحمة الله -عز وجل.

(لن يدخل أحدكم الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)، فهذا لا ينافي ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ سورة النحل:32، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ سورة الحاقة:24، ففي هذه المقامات يكون قد ذكر السبب، وفي الحديث: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله)يدل على أن هذا السبب لا يستقل بالمطلوب بل لابد من رحمة الله -تبارك وتعالى-، وإلا فإن الإنسان لا يوفي شكر الله وعبادته وحقه بأعماله مهما بلغت.

وقوله: مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ قال الثوري عن حصين عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: السرر في الحجال.

السرر في الحجال، الحجال مثل القبة مزينة بالخرق تجلس فيها العروس، هذا غاية ما يستطيعون من جعلها في مكان في غاية الترفيه والتحسين، لو جئت بإنسان ووضعت له مكاناً مثل هذا ووضعت له مكاناً يجلس فيه في وسط الغرفة فإن هذا زيادة في الرفاهية.

ومعنى مَّصْفُوفَةٍ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله تعالى: عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ سورة الصافات:44.

هذا أحسن لأنه دل عليه القرآن، أحسن من قول من قال: إنها مصفوفة أي أن بعضها مصفوف بجانب بعض فتكون متراصة كالخط المستقيم، إنما ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا أقرب؛ لأنه قال: عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.

وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أي: وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حساناً من الحور العين.

فابن كثير -رحمه الله- جمع بين المعنيين؛ لأن كلمة وَزَوَّجْنَاهُمْ يمكن أن تكون بمعنى التزويج المعروف، تكون زوجة له، ويمكن أن تكون بمعنى قرناهم، من أهل العلم من فسرها بهذا، يعني زوجناهم أي قرناهم بحور عين، قالوا: لأن المعروف في اللغة أن التزويج لا يتعدى بالباء، ما تقول: تزوجت بامرأة وإنما تقول: تزوجت امرأة، بدون التعدية بالباء، تزوجت امرأة، فإذا عدي بالباء فمعناه الاقتران، فهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو المشهور في اللغة وفي الاستعمال، وإن كانت تعديته بالباء ثابتة في لغة عند بعض العرب، ولكن الذين قالوا: هو بمعنى قرناهم قالوا: لأنه عدي بالباء، ومن أهل العلم من يجمع بين المعنيين مثل ابن كثير هنا وما صرح بوجهه، يعني العلماء أحياناً يعبرون بعبارة ضافية دقيقة جداً قد لا يتبينها القارئ العادي، ولا يعرف خلفيتها، لكنها تنطوي على خلفية معينة، يعني بعض أهل العلم مثلاً الحافظ ابن القيم يوجه مثل هذه القضية يقول: إن قوله: وَزَوَّجْنَاهُمْ بمعنى قرناهم، وزوجناهم بمعنى التزويج المعروف، يقول: التزويج المعروف إذا كان في المشهور في كلام العرب لا يعدى بالباء وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ فإنه لمّا ضمن فعل التزويج معنى قرنّا صح تعديته بالباء، ضمن الفعل زوجنا معنى قرنا، معنى فعل آخر، وقرنا يعدى بالباء، قرنته بكذا، فيقول: زوجناهم من التزويج المعروف وهو مضمن لمعنى قرناهم فعدي بالباء، عدي بما يعدى به الفعل المضمن فيه، وهو قرن، مثل قوله تعالى: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا سورة الإنسان:6، العين يشرب منها، وليس يشرب بها، فعداه بالباء يَشْرَبُ بِهَا؛ لأنه مضمن معنى فعل

آخر وهو يلتذ أو يرتوي، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا أي: يلتذ، يشرب ويلتذ، الشرب المعروف، ويلتذ ويرتوي، فدل على الشرب والالتذاذ بهذا الشرب والارتواء، فقد يشرب الإنسان ولا يلتذ، وقد يشرب ولا يرتوي، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذا أحسن من قول من قال: إن يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ أي: يشرب منها، فهنا ابن كثير -رحمه الله- جمع المعنيين، قال: وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين.

الحور العين: المشهور أن الحَوَر هو شدة البياض، فمن أهل العلم من فسره ببياض البشرة، بيضاء شديدة البياض، وأكثر من هذا شهرة في التفسير أنه شدة بياض العين، عين الإنسان بالعادة فيها صفرة، وبعض الأطباء يقول: إن عين الصغير –الطفل- شديدة البياض، وإذا تقدم به العمر وكثرت همومه ازداد صفرة مع الأيام والليالي، هكذا يقول بعضهم، وهو صحيح.

فالحاصل أن الجمال هو بشدة بياض العين مع شدة السواد، فهذا غاية الجمال، وإذا كان ذلك مع سعة العين فإن هذا لا يُقادَر قدره في الحسن، ولهذا قال: وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ، عيون بهذه الصفة شديدة السواد مع شدة بياض مع سعة، والمرأة كما يقولون: يطلب فيها في الجمال في البياض أشياء: بياض البشرة، بياض العين، بياض الأسنان، يقولون: أربعة أشياء تطلب في البياض، وأربعة أشياء تطلب في السعة، وأربعة أشياء تطلب في الاستدارة، وأربعة أشياء تطلب في الطول، وأربعة أشياء تطلب في الضيق، إلى غير ذلك مما يذكرون، وهذا موجود ومعروف في كلام كثير من أهل العلم، وبعضهم ينقله من حكمة فارس، فهذه لا شك أنها من صفات الجمال التي لا تكاد توجد في نساء الدنيا، بِحُورٍ عِينٍ، شديدة بياض مقلة العين في شدة سواد الحدقة، والعِين جمع عيناء وهي واسعة العين، عظيمة العين، فهذا منتهى الحسن.

على كل حال هذا المذكور هنا يدل على أن سواد العين أجمل وأوفى في الحسن من زرقتها أو خضرتها، ولكن الناس حينما تنتكس أذواقهم، ويحاولون أن يكونوا تبعاً لغيرهم في كل شيء حتى في الدون، يحاولون أن يقلدوهم حتى في هذا، يقلدونهم في ليّ ألسنتهم إذا تكلموا بلغتهم، ويقلدونهم في لباسهم، ويقلدونهم في طرائقهم في معيشتهم ومأكلهم ومشربهم، ويقلدونهم حتى في أشكال عيونهم، مع أن العرب كانت تكره زرقة العين، وكانوا يرون أن ذلك يدل على الغدر، والله -عز وجل- يقول: وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا سورة طه:102، وكثير من المفسرين قالوا: أي

زرق العيون، فاجتمعت لهم زرقة العيون في الدنيا وفي الآخرة، ولكن هذا المعنى فيه نظر، ومسألة لون العين هذا خلق من خلق الله -عز وجل- لا يد للإنسان فيه، ولا يعاب على هذا ولا يذم ولا يدل على صفة ذميمة فيه، يعني ما كان يعتقده بعض العرب من أن ذلك يدل على الغدر أو نحو ذلك هذا غير صحيح، لكن نحن نقول هذا لبيان ما يتصوره بعض العرب، يعني لاحظ هؤلاء في جهة والمقلدة هؤلاء في جهة أخرى، هذا هو المقصود فقط، وإلا فهذا خلق من خلق الله -تبارك وتعالى- وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ سورة القصص:68، ولا يمكن أن يلحق الإنسانَ الذمُّ بما صنعه فيه الله -تبارك وتعالى-، إنما يلحقه الذم بأعماله الاختيارية التي يعملها.

بعض أهل العلم يقول: حور عين يعني يحار فيها الطرف، يحار فيها النظر من شدة الحسن والجمال وصفاء الجلد، وصفاء اللون.

وقال مجاهد: وزوجناهم: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ سورة الطور:21-28.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، الذرية هي الفاعل، اتبعت هؤلاء بهذا الوصف بِإِيمَانٍ، هذا هو المعنى المتبادر الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، ولا حاجة لإشغالكم بما عداه، وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، فهذه القراءة تدل دلالة واضحة على هذا، وهناك قراءة أخرى متواترة قراءة أبي عمرو: والذين آمنوا وأتبعناهم، قرأها بالجمع: وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان، وعلى قراءة الإفراد -إذا أردت أن تجمع بين القراءتين- وأتبعناهم ذريتَهم بالنصب، فـ

"ذريتهم" هذه الثانية في ألحقنا بهم ذريتهم قرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو بالجمع ألحقنا بهم ذرياتهم، لكن في قراءة أبي عمرو لما قرأ الأولى {أتبعناهم ذرياتِهم} بالنصب والجمع قرأ الثانية ألحقنا بهم ذرياتهم، وعلى قراءة ابن عامر ونافع واتبعتهم ذرياتُهم بالرفع، وذريتهم وذرياتهم ترجع إلى معنى واحد، وإن كانت هذه جمعاً والثانية مفردة، لكن هذا المفرد الذي هو {ذريتهم} ذرية مفرد مضاف إلى معرفة، وهي الضمير الهاء، والمفرد إذا أضيف إلى معرفة فإن ذلك بمعنى الجمع، أَوْ صَدِيقِكُمْ سورة النور:61يعني: أو أصدقائكم.

فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك.

هو هذا لئلا يتوهم أنه يؤخذ من حسنات الآباء فتعطى للأبناء فيرتفعوا، وإنما هو تفضل من الله -عز وجل- يلحقهم بهم، وهؤلاء الذرية الله -عز وجل- قال: وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ، قوله: بِإِيمَانٍ هذا القيد لما نظر إليه أهل العلم اختلفوا وافترقت أقوالهم في تفسير الآية، وبيان المراد بها، فبعض أهل العلم قال: المراد بهؤلاء هم الصغار الأطفال الذين لم يبلغوا سن التكليف، فهؤلاء الذين يلحقون بآبائهم بخلاف الكبار الذين بلغوا، ما يلحقون بهم، والذرية تطلق ويراد بها الصغار أحياناً، وإلا فإن الذرية تطلق ويراد بها الكبار أيضاً، كما قال الله -عز وجل-: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ سورة الإسراء:3، وقال: وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ سورة الصافات:77، فهؤلاء ليس المراد بهم الصغار دون سن التكليف، وقال هؤلاء أيضاً: لو كان الكبار يلحقون بالآباء بإيمانهم للحق بهم أيضاً أبناؤهم، وكل جيل، يعني أن التابعين يلحقون بالصحابة، وأتباع التابعين يلحقون بالتابعين، وهكذا إلى يومنا هذا، فنحن نلحق بالصحابة ويكون الجميع على مرتبة واحدة في أعلى الجنة، وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ، إذا قلنا: إن المراد الكبار فهذا مشكل، ولهذا قالوا: المراد به الصغار من الذرية، ومن أهل العلم من قال: يُلحق بهم ذرية هؤلاء صغاراً كانوا أو كباراً، والآية ليس فيها ما يدل على التخصيص، وابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذه المسألة، وناقشها، وذكر الأقوال فيها، ويمكن أن نقرأ كلامه إن شئتم.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم فى الجنة، وأنهم يكونون معهم فى درجتهم.

ومع هذه فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية فإن الله لم يُلِتْهم أي لم ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباءِ عليهم، و لما كان إلحاق الذرية بالآباءِ في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأَعمال ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم فى العذاب تبعاً وإن لم يكن لهم أعمال الآباءِ، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ، وتأمل قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيْمَانٍ، كيف أتى بالواو العاطفة في اتّباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأْنهم، فجعل الخبر مستحقاً بأمرين:

أحدهما: إيمان الآباءِ.

والثانى: إتْباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضى أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أُريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطفُ الاتباع بالواو يقتضى أن يكون المعطوف بها قيداً وشرطاً في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ، وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: أُتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بصبي من الأنصار يصلى عليه: فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا لم يعمل شراً، ولم يدرِ به، قال: (أوَغير ذلك يا عائشة؟، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم)([6])، فهذا الحديث يدل على أنه لا يُشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يُشهد للمؤمنين مطلقاً أنهم في الجنة، ولا يُشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي-صلى الله عليه وسلم "([7]).

يعني الجواب عن حديث عائشة -رضي الله عنها- هنا مع أن هذا من أولاد الصحابة، أو طفل صغير مات في الإسلام فيقال: هذا في حق المعين، لكن ما حكم أطفال المسلمين؟ لا شك أنهم في الجنة، هذا بلا شك، وإنما الكلام في أطفال المشركين هل هم في الجنة أو في النار مع آبائهم، أو يمتحنون في الآخرة، أو أنهم يصيرون تراباً، أو غير ذلك من الأقوال التي قيلت فيهم؟، لكن أطفال المسلمين في الجنة، وهذا الحديث يقال في حق المعين.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: " ولا يُشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس"([8]).

هذه المسألة مسألة الأطفال نحن عرفنا أطفال المسلمين في الجنة، لكن أطفال المشركين هل هم في حكم آبائهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، أو يقال: إنهم على الفطرة (كل مولود يولد على الفطرة)([9])، فماتوا على الفطرة فيعطون حكمها فيكونون في الجنة، والولدان الذين كانوا حول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء ممن مات على الفطرة؟، والبخاري -رحمه الله- عقد لهذا باباً في الجنائز، يقول: باب ما قيل في أولاد المشركين، وذكر حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أولاد المشركين فقال: (الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين)([10])، هذا الحديث الأول، وذكر حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذراري المشركين فقال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، وذكر حديثاً ثالثاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، إلى آخر الحديث، فهذا الباب -باب ما قيل في أولاد المشركين- لم يجزم فيه بشيء فقد يشعر هذا أنه متوقف فيهم، وذِكْرُ هذه الأحاديث بهذا الترتيب وذكرُ الحديث الثالث: (كل مولود يولد على الفطرة) لربما يشعر أنه يميل إلى أنهم في الجنة، والحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- قال: "قوله: باب ما قيل في أولاد المشركين،

هذه الترجمة تشعر أيضا بأنه كان متوقفا في ذلك، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم بما يدل على اختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة كما سيأتي تحريره، وقد رتب أيضا أحاديث هذا الباب ترتيبا يشير إلى المذهب المختار، فإنه صدره بالحديث الدال على التوقف، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك فإن قوله في سياقه (وأما الصبيان حوله فأولاد الناس) قد أخرجه في التعبير بلفظ: (وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة)، فقال بعض المسلمين: وأولاد المشركين؟ فقال: (وأولاد المشركين)([11])، ويؤيده ما رواه أبو يعلى من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: (سألت ربي اللَّاهِينَ من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم)، إسناده حسن"([12]).

قوله: "سألت ربي اللاهين" يعني الأطفال، "فأعطانيهم" هذا يدل أنهم في الجنة.

وقال -رحمه الله-: "وورد تفسير "اللاهين" بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً أخرجه البزار، وروى أحمد من طريق خنساء بنت معاوية بن صريم عن عمتها -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال: (النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة) إسناده حسن"([13]).

في قوله: (والمولود في الجنة)، لم يقل: أولاد المسلمين في الجنة، قال: (المولود)، و"ال" هذه تدل على العموم، كل من يموت دون التكليف.

وقال -رحمه الله-: "واختلف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنهم في مشيئة الله تعالى، وهو منقول عن الحماديْن وابن المبارك وإسحاق، ونقله البيهقي في "الاعتقاد" عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة.

قال ابن عبد البر: وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذه المسألة شيء منصوص، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة فيه حديث: (الله أعلم بما كانوا عاملين).

ثانيها: أنهم تبع لآبائهم، فأولاد المسلمين في الجنة وأولاد الكفار في النار، وحكاه ابن حزم عن الأزارقة من الخوارج، واحتجوا بقوله تعالى: رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا سورة نوح:26وتعقبه بأن المراد قوم نوح خاصة"([14]).

يعني: دعا عليهم جميعاً فهلكوا مع ذرياتهم، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا سورة نوح:27.

وقال -رحمه الله-: "وإنما دعا بذلك لما أوحى الله إليه أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ سورة هود:36، وأما حديث: (من آبائهم أو منهم) فذاك ورد في حكم الحربي، وروى أحمد من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ولدان المسلمين، قال: (في الجنة)، وعن أولاد المشركين، قال: (في النار)، فقلت: يا رسول الله لم يدركوا الأعمال، قال: (ربك أعلم بما كانوا عاملين، لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار) وهو حديث ضعيف جداً؛ لأن في إسناده أبا عقيل مولى بهية، وهو متروك.

ثالثها: أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار؛ لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة، ولا سيئات يدخلون بها النار.

رابعها: خدم أهل الجنة، وفيه حديث عن أنس -رضي الله تعالى عنه- ضعيف، أخرجه أبو داود الطيالسي وأبو يعلى، وللطبراني والبزار من حديث سمرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعا (أولاد المشركين خدم أهل الجنة) وإسناده ضعيف.

خامسها: أنهم يصيرون تراباً، روي عن ثمامة بن أشرس.

سادسها: هم في النار، حكاه عياض عن أحمد، وغلطه ابن تيمية بأنه قول لبعض أصحابه ولا يحفظ عن الإمام أصلاً.

سابعها: أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبى عذب، أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما-، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه.

وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في كتاب "الاعتقاد" أنه المذهب الصحيح، وتعقب بأن الآخرة ليست دار تكليف فلا عمل فيها ولا ابتلاء، وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار، وأما في عَرَصات القيامة فلا مانع من ذلك

صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في كتاب "الاعتقاد" أنه المذهب الصحيح، وتعقب بأن الآخرة ليست دار تكليف فلا عمل فيها ولا ابتلاء، وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار، وأما في عَرَصات القيامة فلا مانع من ذلك

، وقد قال تعالى يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَسورة القلم:42، وفي الحديث: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبَقاً واحد)([15]).

ثامنها: أنهم في الجنة، وقد تقدم القول فيه في "باب فضل من مات له ولد"، قال النووي: وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون، لقوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولاً} سورة الإسراء:15وإذا كان لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب الأولى، ولحديث سمرة -رضي الله تعالى عنه- المذكور في هذا الباب، ولحديث عمة خنساء المتقدم، ولحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- الآتي قريباً.

تاسعها: الوقف.

عاشرها: الإمساك، وفي الفرق بينهما دقة، ثم أورد المصنف في الباب ثلاثة أحاديث: أحدها حديث ابن عباس وأبي هريرة: سئل عن أولاد المشركين، وفي رواية ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- "ذراري المشركين" ولم أقف في شيء من الطرق على تسمية هذا السائل"([16]).

فالأدلة تدل على أن أطفال المشركين في الجنة، والله تعالى أعلم.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب شهود الملائكة بدرا، برقم (4023)، ولفظه: "يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي"، ورواه عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ" قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، قَالَ سُفْيَانُ: فَأَمَّا أَنَا، فَإِنَّمَا سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ وَلَمْ أَسْمَعْهُ زَادَ الَّذِي قَالُوا لِي"، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ ق:39، برقم (4854).

[2] - رواه البخاري، كتاب الحج، باب المريض يطوف راكباً، برقم (1633)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز الطواف على بعير وغيره واستلام الحجر بمحجن ونحوه للراكب، برقم (1276).

[3] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (3207)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (162).

[4] - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، برقم (2888).

[5] - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم (6464)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (2816).

[6] - رواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (2662).

[7] - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (ص:396).

[8] - المصدر السابق.

[9] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (1385)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (2658).

[10] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (1383)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (2660).

[11] - رواه البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (7047).

[12] - فتح الباري لابن حجر (246/3).

[13] - فتح الباري لابن حجر (246/3).

[14] - المصدر السابق.

[15] - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ القلم: 42، برقم (4919).

[16] - فتح الباري لابن حجر (246/3-247).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطور من الآية (21) إلى الآية (28)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ولهذا قال: أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ سورة الطور:21.

قال الثوري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري، به.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قول الله -عز وجل-: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئاً.

وقد روى عبد الله بن الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: "سألتْ خديجة -رضي الله تعالى عنها- النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (هما في النار)، فلما رأى الكراهة في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول الله فولدي منك؟، قال: (في الجنة) قال: ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار)، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [الآية]([1]).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتقدم الكلام على أطفال المسلمين وأطفال المشركين، وأن أطفال المسلمين وأطفال المشركين في الجنة، على خلاف في أطفال المشركين، وهذا الحديث الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا -لما سألته خديجة- في سنده رجل يقال له: محمد بن عثمان، مجهول، فالحديث ضعيف لا يصح، ولا تعارض به الأحاديث الصحيحة التي تدل على أنهم في الجنة، الحديث السابق (كل مولود يولد على الفطرة)([2])، فهذه المسألة مضت، وكذلك الكلام على الذرية هل يعنى بها الصغار -من كان دون البلوغ-، أو يعنى بها الكبار؟، من كان يعنى بها الكبار نظر إلى قول الله تعالى: وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ، قالوا: قد يكون هذا الإنسان لا يدرك هذه الأمور، صغير فكيف

قال: وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ، إذن هؤلاء ناس يدركون ويعرفون الإيمان، فهم ليسوا بالأطفال الصغار، وهذا لا يلزم؛ لأن هذا القيد في قوله: وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أي: أنهم ليسوا على إشراك وكفر، فهذا احتراز، فولد نوح -عليه الصلاة والسلام- كان كافراً إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ سورة هود:46، فلئلا يفهم أن المؤمنين يكون أولادهم معهم، وأن من وقع بالإشراك من هؤلاء الذرية فإن ذلك يتجاوز عنه لمكان أبيه، ليس بين الله -عز وجل- وبين أحد نسب والأنساب تنقطع يوم القيامة، لكن إن كان هؤلاء على الإيمان بمعنى أنه لا يوجد عندهم مانع من دخول الجنة فإن الله يلحقهم بآبائهم

فلئلا يفهم أن المؤمنين يكون أولادهم معهم، وأن من وقع بالإشراك من هؤلاء الذرية فإن ذلك يتجاوز عنه لمكان أبيه، ليس بين الله -عز وجل- وبين أحد نسب والأنساب تنقطع يوم القيامة، لكن إن كان هؤلاء على الإيمان بمعنى أنه لا يوجد عندهم مانع من دخول الجنة فإن الله يلحقهم بآبائهم

، ومن نظر إلى لفظ الذرية وفهم منه أنهم الصغار قال: ليس هؤلاء بالكبار، إضافة إلى المعنى والإشكال الذي أوردوه وهو أن هؤلاء إذا قلنا: الكبار فمعنى ذلك أن أولادهم أيضاً يلحقون بهم وأولاد الأولاد يلحقون بهم، وهكذا إلى قيام الساعة، فيكون الجميع مع الصحابة، وهذا ليس بلازم، فلا تتم راحة الإنسان ولذته ولا يطيب له عيشه إلا إذا اجتمع مع أهله وولده، فالله -عز وجل- يرفعهم له، وفضل الله واسع، ولا يختص ذلك بمن كان دون البلوغ، ولا يقال: إن الذرية هنا هم الكبار؛ لأن الله قال: بِإِيمَانٍ، المقصود أنه لا يوجد فيه مانع يمنع من دخول الجنة، وإلا فإنه لن ينفعه إيمان الأب مهما علت درجته من الجنة.

وقوله: وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ أيضاً هذا قيد لئلا يفهم منه أن شيئاً من أجر هؤلاء الآباء يضاف إلى الأبناء أو الأولاد فيرفعون به، ومعنى أَلَتْنَاهُم أي: نقصناهم.

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه

وسلم-: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك)([3]).

إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)([4]).

وقوله تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ لما أخبر عن مقام الفضل -وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك- أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد.

هذا الكلام كالذي ذكره الحافظ ابن القيم، بمعنى أنه لما ذكر إلحاق الأولاد بالآباء، نقول: الأولاد من أجل أن يشمل الذكور والإناث، والأبناء يختص بالذكور، لما ذكر إلحاق هؤلاء بهؤلاء فقد يفهم منه أن أولاد المشركين يلحقون بآبائهم، فقال الله -عز وجل-: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ، فإلحاق الأولاد بالآباء بالنسبة لأهل الإيمان هو تفضل منه سبحانه، هم لا يستحقون هذا، لكن الله تفضل عليهم به، ومقام العدل أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى سورة النجم:38، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ يعني: مرتهنة، فلا يحمل أحدٌ جرم أحد، فأولاد المشركين لا يتحملون جرم الآباء بالإشراك والكفر بالله -عز وجل-، فلا ذنب لهم، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ، فهذا لئلا يتوهم متوهم هذا المعنى، والقيود في القرآن والمحترزات تأتي في كل مقام بما يناسبه، لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ سورة النساء:95.

أخبر عن مقام العدل -وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد- فقال تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ أي: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ سورة المدثر:38-41.

وقوله: وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ سورة الطور:22أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

يقول: وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، كما قال الله -عز وجل-: وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ سورة الواقعة:32، فهذه الفاكهة التي أمدهم بها كثيرة، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وهي متشابهة أيضاً في الألوان

مختلفة في الطعوم، كما هو أحد القولين المشهورين في قوله -تبارك وتعالى-: كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ سورة البقرة:25، فمن أهل العلم من يقول: هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ يعني: في الدنيا، فهو يشبه ثمرات الدنيا في شكله، لكنه مختلف في طعمه، ومنهم من يقول: هذا كالذي قبله مما أعطوه، ولكنه في طعمه يختلف، هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ يعني: في الجنة، وهي متنوعة كثيرة التنوع وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ سورة محمد:15، وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى أيضاً: وَلَحْمِ طَيْرٍ سورة الواقعة:21.

وقوله: يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا أي: يتعاطون فيها كأسا، أي: من الخمر، قاله الضحاك.

أيْ نعم، يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا، التنازع بمعنى التعاطي والتناول، وهذا معروف، العرب يعرفون معنى هذه الجمل والتعبيرات، وتقع في نفوسهم موقعاً، حينما يشربون الخمر هناك أشياء يفعلونها عند شربهم تكتمل بها لذتهم، فمن أنسهم ولذتهم أن يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا يتبادلون الكئوس، كل واحد يعطي الآخر ويأخذ، فيحصل بينهم هذا التنازع للكأس، يتبادلونها، يتجاذبونها، يناول بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم من بعض، يتعاطون فيها هذه الكئوس، والكأس إذا أطلقت غالباً فالمراد بها في مثل هذا المقام والمقصود بها كأس الخمر، إناء الخمر، يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا، يعني: من الخمر.

لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ أي: لا يتكلمون فيها بكلام لاغٍ أي: هَذَيَان، ولا إثم أي: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا.

كما قال الله -عز وجل-: لَا فِيهَا غَوْلٌ سورة الصافات:47بمعنى أنها لا تغتال العقول، فلا تذهب بها، وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ يعني وذكر صفات أخرى كقوله: لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا سورة الواقعة:19؛ لأن خمر الدنيا يصيب الناس بسببها الصداع، ويحصل لهم من مغبة شربها ما هو معلوم من أوجاع في البطن وعلل مستديمة، ومنها ما يكون بعده مباشرة، ومنها ما يكون مع تطاول الزمان وكثرة تعاطيها، فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ سورة الطور:23، لا لَغْوٌ فِيهَا فهنا نفى عنها الصفة التي تنتج عن شرب خمر الدنيا، فيصدر عن صاحبها ألوان الفحش والسباب، وكل قول قبيح، لربما من الكفر فما دونه، ويحصل له من الهذيان ما يترفع عنه العقلاء، حمزة -رضي الله عنه- قبل أن تحرم الخمر حينما شربها وجاء

إلى ناضح لعلي -رضي الله عنه- أو ناضحين فنحرهما وبقر بطونهما، وتركهما للناس، فلما جاء علي -رضي الله عنه- نظر، وكان يُعدّ ذلك ليجمع مهراً يتزوج من فاطمة -رضي الله عنها-، فجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فذهب معه النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما وقفا عليه قال: وهل أنتما إلا من عبيد أبي؟، أو كلمة نحوها، فتركه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس في عقله.

وذكر بعض أهل العلم خبر ذلك الرجل الذي كان يشرب الخمر فلما سكر جعل -أكرمكم الله ومن يسمع- يتبول، ويتمضمض ببوله ويغسل وجهه، ويقول: الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً، والصلاة نوراً، ويحدثني أحد الإخوان قريباً عن رجل قد سكر وجاء معه بزوجته وأولاده، فلما أراد أن يعبر وقف وهو في حال من السكر فصعد فوق السيارة أمام الناس وهم ينظرون، وأخرج عورته وجعل يتبول على السيارة، ثم بدأ يتكلم بكلام في غاية القبح والفحش ويسب الناس من أكبرهم إلى أصغرهم، وأولاده يتوسلون به، يريدون أن ينزل، والناس بين ضاحك ولاه، هذه الخمر، وأحد الذين تابوا تاب بسبب أنه كان يدخل على أهله بهيئة مزرية، حتى إنه -أكرمكم الله- لربما يتقيأ ويلعق قيئه من الأرض، فصوّرته امرأته، فلما أفاق أعطته هذا، فلما رآه اشمأز، فكان سبباً لتركه الخمر، فالله المستعان.

وترى في البلاد التي يُشرب فيها الخمر جهاراً ترى أشياء عجيبة، أحياناً لا تستطيع أن تنام طوال الليل من الأصوات في الشوارع، يمشون جماعات زَرافات ووُحداناً بأصوات مرتفعة وصراخ نساء ورجال، بأعلى أصواتهم، وتأتي وتجد الرجل يضرب رأسه بزجاج محل من المحلات وينطحه، وهو لربما يتصور أنه يلعب ملاكمة في حلبة.

فنفْيُ اللغو عنها نفي لكل هذا، والتأثيم فهم لا يلحقهم إثم، ما قال: لا إثم فيها، وإنما قال: تَأْثِيمٌ، نفى الإثم، فلا يلحقهم إثم كما هو الحال في خمر الدنيا، ولا يُؤثم بعضهم بعضاً، ولا يؤثمهم الله -عز وجل-، فارتفع عنهم الإثم، فهو لا يضاف إليهم، ولا يصدر منهم ما يوجب الإثم من الفعال والتصرفات.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: اللغو: الباطل، والتأثيم: الكذب.

وقال مجاهد: لا يستبُّون ولا يؤثمون.

اللغو: الباطل، اللغو: كل ما يتعلق باللسان من المقالات التي هي خلاف الحق من سب وشتم، لكن السلف قد يعبرون بما يقرب المراد بمثال يوضحه، وأما التأثيم فلا يحلقهم بشربها إثم ولا يحصل لهم بسبب ذلك تبعة يأثمون عليها، بخلاف خمر الدنيا إذا شرب فهي أم الخبائث، أم الذنوب، فقد يقتل، يسرق، يعتدي على الناس، فهذا كله من التأثيم، خمر الآخرة لا يحصل بها شيء من هذا مما ينتج عن الخمر، مما يلحق الإنسانَ به الإثم في الدنيا، كالكذب، وقذف الأعراض.

وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها -كما تقدم- صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ سورة الصافات:46.

بَيْضَاءَ يعني: صافية، ما فيها كدر، نحن -ولله الحمد- ما نعرف هذه الأشياء وليس لها موقع لربما في نفوسنا، لكن الذين يعرفون الخمر يعرفون معنى هذا الكلام، خمر الدنيا فيها كدر، ومن الذي يحصل له خمر بيضاء صافية، هم يبحثون عن الماء الصافي ولا يجدونه.

ونشربُ إنْ وجدنا الماءَ صفواً *** ويشربُ غيرُنا كدِراً وطيناً

هذا الفخر الذي يفتخر به هذا الشاعر الجاهلي، يتمنون الماء الصافي، فكيف بخمرة صافية؟ هم يضعون من هذه الفواكه حتى يحصل لها التلف وتُلقي بالزبد، ثم يشربونها في غاية النتن في رائحتها، يعني رائحتها لوحدها تسبب الغثيان فكيف بشربها؟!.

فقال: بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وقال: لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ سورة الواقعة:19، وقال هاهنا: يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ.

هذا كله مما عرف به هذا التفسير وهو أنه يُعنى بتفسير القرآن بالقرآن، هذا كثير في هذا الكتاب، ويفسر القرآن بالسنة، وبالأقوال الواردة عن السلف، فهذا معنى التفسير بالمأثور، ومن الكتب من تكون عنايته واضحة وظاهرة بإيراد الآيات المشابهة في المعنى، كما هو الحاصل هنا.

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ، الضمير يرجع إلى الكأس؛ لأنه أقرب مذكور وهذا هو الأصل، ومن أهل العلم من أعاده إلى الجنة، وهذا فيه بعد، يعني الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم، ما

فيها كلام باطل، ولا سباب، ولا فحش، ولا فيها إثم، انتهى ذلك جميعاً في الدنيا، يلهمون التسبيح وهم في غاية اللذة والانشراح والسرور، فهذا المعنى وإن كان ثابتاً لأهل الجنة لكن الآية تتعلق بالخمر وليست في الجنة.

وقوله: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم.

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ أي: خدم، كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ، اللؤلؤ فيه صفات متعددة، فمن نظر إلى صفة من هذه الصفات عبر بها، والله -عز وجل- لم يخص وصفاً دون وصف، شبههم باللؤلؤ ومن صفات اللؤلؤ قال: مَكْنُونٌ، فمن نظر إلى بياض اللؤلؤ قال: في بياضهم، هؤلاء الغلمان بيض، وهذا الذي عبر به الحافظ ابن القيم مثلاً: في بياضهم كأنهم لؤلؤ، ومن نظر إلى الصفاء في اللؤلؤ لاسيما مع قوله: مَكْنُونٌ قال: في صفائهم، وهذا لا يعارض قول من قال: في بياضهم، فإن البياض إذا كان معه صفاء فهذا هو الكمال، فهم في غاية البياض مع غاية الصفاء، فهم لؤلؤ مكنون أيضاً مصون مستور في أصدافه، لم تمسه الأيدي فيظهر أثر بصمتها عليه، فيكون ذلك ذهاباً لرونقه وبهائه وتلألئه، تقول: الشيء الفلاني يتلألأ، لكن هذا اللؤلؤ إذا مسته الأيدي قد ينطفئ نوره، فهؤلاء كأنهم لؤلؤ مكنون مستور، لم تمسه الأيدي فهو في غاية الصفاء، ما مسته يد، نقي، فهؤلاء مع قيامهم بالخدمة، وتقلبهم بها لم يذهب صفاؤهم، وإنما يبقى ذلك الرونق والبهاء مع عملهم واشتغالهم بخدمة أهل الجنة، وأين تجد هذا؟، الذي يشتغل في الخدمة الأصل أنه ملوث، والناس لربما يتباعدون منه ولا يريد أحد أن يمد يده ليسلم عليه، ولا يأكل معه؛ لأنه لا يطمئن إلى نظافته، فالأصل فيه أنه يلابس، الجنة ليس فيها أصلاً ما يُستنكف منه ولا قذر ولا أذى، وهؤلاء خدمها، فإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون فكيف بمن يُخدم في الجنة، كيف بأهل الجنة؟ إذا كان هؤلاء خدمهم كأنهم لؤلؤ مكنون، فكيف بالذين يدخلون الجنة؟، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا سورة الإنسان:19، فهم منتشرون في الخدمة، وهذا النشر يدل على سعة المكان، منتثرون لا يتجمعون في مكان واحد لضيقه، ضيق المكان أو غير ذلك، وإنما منتشرون في خدمة أسيادهم، في خدمة أهل الجنة، والجنة واسعة، بعض السلف كان على طعام دُعي إليه، فرأى من

يطوف عليهم بالكئوس والطعام وما يحتاجون إليه من الخدم فبكى، فسئل عن هذا، فقال: تذكرت نعيم أهل الجنة، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، كانوا يتذكرون الآخرة بما يرون في الدنيا.

ابن المبارك ينطفئ السراج ثم يسرج فيجدون لحيته قد ابتلت من الدموع، تذكر ظلمة القبر بالظلمة التي حصلت بانطفاء السراج.

ابن عمر يؤتى له بماء وشيء يفطر عليه، فيبكي، يبكي ولا يفطر، فيسأل عن هذا، يقول: تذكرت أهل النار حينما سألوا: أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُوَاْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ سورة الأعراف:50، فكانوا يعتبرون بما يرونه في الدنيا فيذكرهم بالآخرة.

كما قال تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ سورة الواقعة:17-18.

كما قال الله -عز وجل- أيضاً في الآيات الأخرى، قال: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، قيل: لا يهرمون، وهذا صحيح، وقيل: لا يموتون، من الخلود، البقاء الأبدي السرمدي، وهذا صحيح، وقيل: أسنانهم متقاربة، وهذه المعاني غير متنافية، غلمان مخلدون وولدان مخلدون، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ سورة الواقعة:18، كما قال الله -عز وجل-: يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍسورة الزخرف:71ما هي حديد ولا زجاج، بصحاف، الآنية، الصحن الذي نسميه بالصحن، صحون ذهب، يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ إي: من ذهب، وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا سورة الإنسان:15ليست من زجاج، قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا سورة الإنسان:16، الشراب الذي فيها بقدر كفايتهم فلا ينقص عنه، الإنسان قد يشرب ولا يرتوي، يكون الشراب قليلاً لا يكفيه، هذه بقدر ريهم، قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا، هذا شيء يسير من نعيم الجنة مما يفهمه السامع، ولكن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله تعالى: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ سورة الطور:25.

الآن هم لما آمنوا ودخلوا الجنة واطمأنوا بدءوا يتحدثون ويعيدون الذكريات، ويذكرون حالهم قبل هذا، بعد اطمئنانهم، أما الناس في المحشر فكل إنسان مشغول بحاله وبنفسه، همه الخلاص والنجاة، فلما دخلوا الجنة وجلسوا على الأرائك، وشربوا من هذه الخمرة والتذُّوا بهذه الطيبات، ويطوف عليهم الخدم في نزلهم ودار كرامتهم طاب لهم المقام فجعلوا يتحدثون.

لما آمنوا ودخلوا الجنة واطمأنوا بدءوا يتحدثون ويعيدون الذكريات، ويذكرون حالهم قبل هذا، بعد اطمئنانهم، أما الناس في المحشر فكل إنسان مشغول بحاله وبنفسه، همه الخلاص والنجاة، فلما دخلوا الجنة وجلسوا على الأرائك، وشربوا من هذه الخمرة والتذُّوا بهذه الطيبات، ويطوف عليهم الخدم في نزلهم ودار كرامتهم طاب لهم المقام فجعلوا يتحدثون.

أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم.

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ سورة الطور:26أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه.

كما ذكر الله -عز وجل- في صفة أهل الإيمان، هناك يتحدثون عن شيء مضى، كنا في أهلنا مشفقين، فهذا سبب أورثهم الجنة، ووصف الله -عز وجل- أهل الإيمان الذين يعملون بعمل أهل الجنة في مواضع من القرآن، وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ سورة المعارج:27، إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ سورة المؤمنون:57، ولهذا قال بعض السلف كالحسن البصري -رحمه الله-: ينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأن الله قال عن أهل الجنة: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، وينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ سورة فاطر:34، والمقصود بالحزن الذي في الدنيا الخوف من الله -عز وجل-، الخوف والإشفاق والخشية التي كانت تعمر قلوبهم في الدنيا، خائفون من العاقبة، من النتيجة، من النار، فأمّنهم الله -عز وجل- وأدخلهم الجنة، وكتب عليهم رضاه فلا يسخط عليهم أبداً، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ، وليس المقصود به الأحزان على الدنيا وما فات منها، فهذه ليست بصفة حميدة، ولا ينبغي ذلك لأهل الإيمان، وأما أهل الكفر فهم بعكس هذا، يعني هنا إذا قال أهل الإيمان: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فأهل النار لم يكونوا مشفقين، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا سورة الإنشقاق:13مبسوط، فارح، يضحك ويلعب ويعبث ويلهو بكل لون متاح له من ألوان اللهو، لا حساب ولا عقاب ولا تفكير ولا حزن ولا

خشية ولا نظر في عاقبة، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ سورة الإنشقاق:13-14، فهذه الأشياء الله -عز وجل- يذكرها من صفات أهل الإيمان، ويذكرها أيضاً من قول أهل الجنة حينا يدخلون الجنة، فكل شيء قد بينه هذا القرآن، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ سورة الإسراء:9، لكن الإنسان في كثير من الأمور لا يتحقق ذلك إلا إذا وقع له، فكأنما سمعه للمرة الأولى.

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف.

السموم قيل: هو اسم من أسماء النار -أعاذنا الله وإياكم منها-، والسموم هو ما يوجد من حرها ولفحها، وأصله الريح الحارة التي تدخل في المسام، مسام الجلد.

إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ سورة الطور:28أي: نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

ليسوا يدعونه فقط، يعني لا يفسر إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أنه ليس فقط نسأله وإنما نعبده، وعرفنا من قبل في مناسبات شتى أن الدعاء يأتي بمعنى العبادة، فهنا نَدْعُوهُ أي نعبده، وهو مضمن لدعاء المسألة، فإن الذي يعمل الأعمال الصالحة هو داعٍ بفعله، يطلب الجنة، ويستجير من النار بهذا الفعل، والذي يسأل بقوله: رب أعطني، رب أدخلني الجنة فهو سائل بقوله، وهو عابد أيضاً لله -عز وجل- ضمناً بهذا، فهذا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ، ما مدحهم بمجرد الدعاء في الدنيا، فإن هذا قد يقع من الكافر، وإنما بالعبادة، كنا نعبده، ونوحده ونخلص له، وفي ضمن ذلك السؤال، أنهم يسألون الله -تبارك وتعالى.

هذا المعنى الذي ذكرته آنفاً: نَدْعُوهُ أي: نعبده، والحافظ ابن كثير فسره بالسؤال نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، والمعنى الثاني الذي ذكرته هو الأكمل ويتضمن هذا المعنى، وهو الذي قال به جماعة من المحققين، ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والحافظ ابن القيم، والقاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين لاسيما إن كان بينهما ملازمة ولا مانع من حملها عليهما فإنها تحمل على الجميع، ندعوه: نعبده وفي ضمن ذلك نسأله.

قبل هذا إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ في قراءة متواترة لنافع والكسائي بفتح الهمزة أَنَّهُ هُوَ الْبَرَّ الرَّحِيمُ، فيكون المعنى، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ؛ لأنه هو البر الرحيم، أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ؛ لأنه هو البر، والبَرُّ هو كثير الإحسان.

---

[1] - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (1131)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة محمد بن عثمان"، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: "منكر بهذا التمام"، برقم (5791).

[2] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (1385)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (2658).

[3] - رواه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، برقم (3660)، وأحمد في المسند، برقم (10611)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود -وهو ابن بهدلة-، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح"، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (1598).

[4] - رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (1631).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطور من الآية (٢٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} [سورة الطور:٢٩-٣٤].

يقول تعالى آمرا رسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ} أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن: الذي يأتيه الرَّئِيّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، {وَلا مَجْنُونٍ} وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ}، {فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ}، بنعمة ربك يعني بما أنعم به عليك وتفضل من النبوة والوحي، فإنهم كانوا يقولون له -صلى الله عليه وسلم- الأمين، ولما جاءهم بما جاءهم به اتهموه بالجنون والشعر والكهانة والسحر، وما إلى ذلك من الأوصاف القبيحة، فالله -عز وجل- يقول: {فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ}، وفي سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [سورة القلم:١-٢] أي: بالنبوة والرسالة والوحي الذي أوحى الله -عز وجل- به إليك، كما قال في الآية الأخرى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [سورة التكوير:٢٢]، والكاهن: يقول: الذي يأتيه الرَّئِيّ من الجن، ويقال بالكسر أيضاً الرِّئِيّ من الجن، والمقصود بالرَّئِيّ من الجن أو الرِّئِيّ من الجن هو ما يعرض له من الجن، جني يعرض لهذا الإنسان ويزعم أنه يخبره عن أمر الغيب، كما جاء في خبر عمرو بن لحي الخزاعي أنه كان له رَئِيٌّ من الجن، فأتاه فقال: اذهب إلى ساحل جدة تجد أصناماً معدة، إلى آخر ما قال، فجاء بهذه الأصنام التي عبدها العرب في الجاهلية، وهي بقية أصنام قوم نوح قد غمرها الطوفان واندثرت ثم بعد ذلك استخرجها، وهي ودٌّ وسواعٌ ويغوثُ ويعوقُ ونسرٌ، فالحاصل أن الكاهن هو الذي يزعم أنه يأتيه خبر الغيب ويتلقفه عن طريق الشياطين، كما جاء وصفهم في الحديث بأنهم هكذا، يعني بعضهم فوق بعض حتى يصل إلى السماء، وفي بعض الروايات ما يوضح المراد أنه يأتي حتى يصل إلى السماء، أن الملائكة ينزلون إلى العنان -يعني السحاب-، فيتحدثون عن أمر الغيب، فهؤلاء بعضهم فوق بعض فيخطف الكلمة ثم يلقيها لمن تحته ولمن تحته، ثم يلقيها بسرعة على الكاهن، فقد يدركه الشهاب وقد لا

يدركه، فيلقيها عليه إلقاءً سريعاً فيخطفها هذا الكاهن، مثلما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لابن صياد حينما أراد أن يختبره قال: ((خبأتُ لك..)) فسأله عن شيء خبأه له، فقال: هو الدُّخُّ، والمراد الدخان، فخطف طرف الكلمة، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((اخسأ فلن تعدو قدرك))[1]، فهذا هو الكاهن، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يخبرهم عن أمور من الغيب أطلعه الله –عز وجل– عليها، فاتهمه بعضهم بالكهانة، وأما الجنون فقالوا: كيف يدّعي أن الله يوحي إليه وأنه رسول، هذا قد فقد عقله؛ لأنهم يعتقدون أن الرسالة والنبوة والوحي لا يكون للبشر، وإنما يكون للملائكة، {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤].

ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول –صلى الله عليه وسلم–: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} أي: قوارع الدهر، والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه.

{أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ}، "أم" هذه سيبويه –رحمه الله– يقول: إنها استفهامية، {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ}، استفهام إنكاري، وكثير من أهل العلم يقولون: إنها المنقطعة، "أم" المنقطعة هذه تفسر ببل والهمزة، فإذا وضعت بل والهمزة كيف تكون؟ {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ}، بل أيقولون: شاعر، {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ}، يعني: ننتظر، هي مسألة وقت يموت وينتهي خبره، كما مات من قبله، {نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} يعني: صروف الدهر، والله –عز وجل– يقول: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [سورة الحاقة:٤١-٤٦].

قال الله تعالى: {قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نَجِيح عن مجاهد عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ}.

هذه الرواية لا تخلو من ضعف لعنعنة محمد بن إسحاق وهو مدلس كما هو معروف.

ثم قال تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا} أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور.

بناءً على ما سبق من تفسير "أم" بالمنقطعة يكون المعنى هكذا {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا} بل أتأمرهم أحلامهم، وبل هذه تفيد الإضراب عما قبلها، وهكذا ما بعده {أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}، بل أطغوا فقالوا ذلك.

{أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

---

١ – رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم (١٣٥٤)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٢٤)

وقوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ} أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن، قال الله تعالى: {بَلْ لا يُؤْمِنُونَ} أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة، {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} أي: إن كانوا صادقين في قولهم: "تَقوّله وافتراه" فليأتوا بمثل ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

هذه الآية تحداهم فيها أن يأتوا بحديث مثله، بكل القرآن، والتحدي تعرفون أنه تدرج، فالله -عز وجل- تحداهم بمثله فلم يستطيعوا، وتحداهم بعشر سور مفتريات، {بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ} [سورة هود:٣]، فما استطاعوا، كما في سورة هود، وتحداهم بسورة كما في يونس {قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} [سورة يونس:٣٨]، وكذلك أيضاً في الموضع الآخر {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} [سورة البقرة:٢٣]، وأقل ما يحصل به الإعجاز على المشهور من أقوال أهل العلم أنها سورة، أقصر سورة، وهل يحصل ذلك بما يعادلها من آية أو بعض آية؟ فيه خلاف معروف بين أهل العلم، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الإعجاز حاصل بذلك، يعني بما يعادل أقصر سورة، يعني أقصر سورة أو ما يعادلها، مثل آية الديْن آية طويلة أطول من سورة الكوثر، وأقصر سورة في القرآن سورة الكوثر.

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الطور:٣٥-٤٣].

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أي: أوُجِدوا من غير موجِد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

قوله هنا: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ}، "أم" هذه كما سبق هي المنقطعة، يعني: بل أيقولون: إنهم خلقوا من غير شيء، وهكذا ما بعدها، وقوله هنا: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} "مِن" هذه من أهل العلم من فسرها باللام، جعلها بمعنى اللام، والمعنى أم خلقوا لغير شيء، يعني بلا غاية، وهذا المعنى دل عليه آيات في كتاب الله -عز وجل-، كما قال الله -تبارك وتعالى- مثلاً: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [سورة المؤمنون:١١٥]، فنزه نفسه عن هذا {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ} [سورة المؤمنون:١١٦]، قال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} [سورة ص:٢٧]، وقال: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا} [سورة الأنبياء:١٧]، فالحاصل أن هؤلاء فسروا "مِن" بمعنى اللام {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} أي: لغير شيء، لغير غاية عظيمة، وهي الابتلاء والامتحان، وأن الله يرسل إليهم الرسل وينزل إليهم الكتب، خلقهم من أجل عبادته، ومن أهل العلم من فسرها {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} أي: من غير أب ولا أم، فهم كالجمادات التي لا تعقل، وهذا قال به كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، {مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} من غير أب ولا أم، فهم كالجمادات، ومن أهل العلم من فسره بغير ذلك كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أي: أوجدوا

من غير موجد، {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} وجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟، لا هذا ولا هذا، بل الله -عز وجل- هو الذي أوجدهم وهذا هو المعنى المتبادر الذي يفهم من ظاهر الآية، وهو الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

روى البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ} كاد قلبي أن يطير[٢].

المعنى الأخير الذي ذكرته تدل عليه قرينة في نفس الآية {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}؛ لأن هذا يقابله أنهم {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} يعني: من غير خالق خلقهم وأوجدهم، {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}، لكن لو قيل: إنهم خلقوا لغير غاية لا يكون هذا في ارتباطه ومناسبته مع ما بعده كالقول السابق، أم خلقوا لغير غاية أم هم الخالقون، وكذلك على قول ابن جرير -رحمه الله-: أم خلقوا من غير أب ولا أم {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}، الأقرب أنه كما ذكر {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} من غير خالق وموجد {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

يعني هذه الآية كانت سبباً لدخول الإسلام في قلبه، لكنه لم يذعن ولم يعلن إسلامه آنذاك، ثم بعد ذلك رجع إلى مكة فأسلم، ويقول: كاد قلبي أن يطير، لما سمعها، ونحن نسمعها ولا يتحرك لنا قلب، والسبب أننا لا نفهم كالأعاجم، ولذلك فتجد من يفهم كالأعرابي الذي سمع القارئ يقرأ {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الحجر:٩٤] سجد، فقيل: لماذا سجدت؟ فقال: سجدت لفصاحته، أسره ما سمع، سمع {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} فسجد، فكلما كان الإنسان أكثر تذوقاً للغة العربية فهماً ومعرفة بها كلما كان هذا أدعى إلى تأثره بالقرآن، هذا مشرك ويقول: كاد قلبي أن يطير.

ثم قال تعالى: {أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ} أي: أهم خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ} أي: أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن؟، {أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ} أي: المحاسبون للخلائق؟، ليس الأمر كذلك، بل الله -عز وجل- هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

الخزائن هنا فسرت بخزائن الرزق، أو خزائن الرحمة، أو خزائن الرسالة.

وقوله: {أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ} أي: مرقاة إلى الملأ الأعلى.

{أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ} أي: بل أيقولون: إن لهم سلماً يستمعون فيه، والسلم معروف، المِرقاة مثل الدرج.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق:٣٩]، برقم (٤٨٥٤).

{فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ} وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا} أي: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم على ذلك شيئاً، {فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ} أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، {أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله.

{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ} أي: بل أيدعون أن عندهم الغيب {فَهُمْ يَكْتُبُونَ} قيل: يحكمون بما شاءوا، والأحسن من هذا -والله أعلم- هو ما قاله ابن جرير -رحمه الله- في تفسيرها {فَهُمْ يَكْتُبُونَ} يعني: يكتبون ذلك للناس، يُنبئون عن هذا الغيب.

{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ} يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون.

{أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} [سورة الطور:٤٤-٤٩].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} أي عليهم يعذبون به لمَا صدقوا ولمَا أيقنوا، بل يقولون: هذا {سَحَابٌ مَرْكُومٌ} أي: متراكم.

يعني أنهم في غاية المكابرة، مهما رأوا من آية فإنهم يكابرون، لا يؤمنون، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا}، الكسف جمع كسفة، وهو القطعة من الشيء.

وهذه كقوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٤-١٥].

يعني أنهم يقولون ذلك على سبيل المكابرة، هم يطلبون الآيات ولو جاءتهم الآيات لردوها وكذبوا بها، فهذه الآية كهذه الآية، الآيتان بمعنى واحد من هذه الحيثية، أن ذلك خرج مخرج المكابرة والعناد، {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ} وقد ذكرت في الكلام على الإعجاز العلمي أن من يتكلمون على الإعجاز يقولون: هذه الآية هي من آيات الإعجاز العلمي: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ}، يقولون: هؤلاء المشركون لو صعدوا لصاروا بعد الغلاف الجوي إلى ظلمة، فعندئذ سيقولون: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا

{بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٥]، يقولون: كيف عرف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه بعد الغلاف الجوي ظلمة؟، فهؤلاء الله يخبر أنهم لو صعدوا لصاروا بعد الغلاف إلى ظلمة، وهذا المعنى إذا فسرت الآية به فإنه يعود بالتخطئة لجميع ما قاله السلف، الآية: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ} [سورة الحجر:١٤]، السماء لها أبواب، ظلوا هم على أحد القولين يصعدون فإنهم يكابرون ويقولون: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا} سدت، {بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} سحرنا، يقولونه على سبيل المكابرة ليس أنه حقيقة يصيرون إلى ظلمة فيقولون عندئذ: سكرت أبصارنا، لا إنما هم في غاية المكابرة، {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، وفي الأخرى المتواترة {إِنَّمَا سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا} سكرت: أخذت أبصارنا، {بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ}، يقول: وعلى القول الآخر في الآية {فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ} أي: رأوا الملائكة تصعد إلى السماء لقالوا: أخذت أبصارنا، سدت أبصارنا، سحرنا فصار يخيل إلينا أن الملائكة تصعد.

هؤلاء يقولون: لا، هم يقولونه حينما يصيرون إلى ظلام.

قال الله تعالى: {فَذَرْهُمْ} أي: دعهم -يا محمد- {حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}، وذلك يوم القيامة.

يوم القيامة، وفسره بعض أهل العلم -ومنهم ابن جرير -رحمه الله- بأن الذي يصعقون فيه أنه يوم النفخة الأولى الذي يصعق فيه جميع الخلائق، وهذا لا يعارض ما قاله ابن كثير؛ لأن الناس متى يصعقون؟ في يوم القيامة، ينفخ النفخة الأولى فتموت جميع الخلائق، ثم ينفخ النفخة الثانية فيقوم جميع الناس، ومن أهل العلم من قال: {يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} يوم الموت، يوم موتهم، وبعضهم فسره بيوم بدر، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه يفسر بظاهره وهو يوم الصعق، ويوم الصعق معروف حينما ينفخ الملك بالقرن النفخة الأولى فيصعق كل الأحياء إلا من شاء الله -عز وجل-، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الزمر:٦٨].

{يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} أي: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئا، {وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}.

يعني أنهم {لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} لا تنفعهم الحيل للخلاص في ذلك اليوم، ولا يوجد من يخلصهم وينصرهم ويطلقهم بالقوة، لا هذا ولا هذا، لا يستطيعون هم فعل شيء، ولا يستطيع أحد تخليصهم.

ثم قال: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة السجدة:٢١]، ولهذا قال تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، وفي الأثر الإلهي: "كم أعصيك ولا تعاقبني، قال الله: يا عبدي، كم أعافيك وأنت لا تدري".

{وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} يعني: دون عذاب النار -عذاب الآخرة-، ولاحظ تسلسل هذه الآيات، {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} هذه قرينة تدل على أن قوله قبله {فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} أنه يوم النفخ في الصور، أو يوم القيامة، فعند ذلك {لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} دون يوم القيامة، فيدخل فيه عذاب البرزخ، كما قال الله -عز وجل-:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأكْبَرِ}، وإن كان في هذه الآية الأخيرة من أهل العلم من حمله على ما يقع لهم في الدنيا من القتل والأسر والهزائم والأمراض والجوع وما أشبه ذلك، وهو أقرب، ولقوله -تبارك وتعالى-: **{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** أما هنا، **{وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ}** فيدخل فيه عذاب القبر، عذاب البرزخ، كما عبر به جماعة من السلف، وممن قال به من أهل العلم أيضاً الحافظ ابن القيم، ويدخل فيه أيضاً ما يقع لهم في الدنيا من الأوصاب والأوجال والمصائب والهزائم وما إلى ذلك مما يحصل لهم، فهذا كله من العذاب الذي يكون قبل يوم القيامة، فمن مات منهم حصل له عذاب البرزخ، ومن بقي حياً فإنه يقع له في هذه الدنيا من الأكدار ما يقع.

وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} قال الضحاك: أي إلى الصلاة، سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

وروى مسلم في صحيحه عن عمر -رضي الله تعالى عنه- "أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة"[٣]، ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول ذلك.

من اعترض على هذا ولم يقل بهذا القول قالوا: إن الله قال: **{حِينَ تَقُومُ}** يعني عند قيامك، ودعاء الاستفتاح لا يكون عند القيام، وإنما يكون بعد الدخول في الصلاة.

وقال أبو الجوزاء: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} أي: من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير.

وإن كان ابن جرير -رحمه الله- خصه بالقيام من نوم القيلولة، والقيلولة تكون قبل الظهر وتكون بعد الظهر، فسره هنا بالقيام من القيلولة لصلاة الظهر؛ لأنه قال بعده: **{وَمِنَ اللَّيْلِ}**، **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}**، فذكر الأوقات الثلاثة، فلو كان عند القيام من الليل -من نوم الليل- فذلك يكون تكراراً مع قوله: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}**، إدبار النجوم يعني حينما يستيقظ لصلاة الفجر، فهذا قول كما ترون قد تدل عليه هذه القرينة، **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}** أي: من نومك، من فراشك، ومن أهل العلم من قال: المراد بذلك حينما يقوم من مجلسه، يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، كفارة المجلس يعني، والإنسان إذا قام إلى الصلاة قال دعاء الاستفتاح، وإذا قام من المجلس سبح وقال كفارة المجلس، وإذا قام من الليل ليصلي الليل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [سورة آل عمران:١٩٠-١٩١].

ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من تَعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة، برقم (٣٩٩).

الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي -أو قال: ثم دعا- استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى تقبلت صلاته))[٤].

وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن.

هذا مما قد يدخل في عموم الآية، ((إذا تعارّ من الليل)) بمعنى حصلت له يقظة، انتبه، فقال هذا، فهذا من التسبيح.

وقال ابن أبي نَجيح عن مجاهد: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} قال: من كل مجلس.

وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك))[٥].

رواه الترمذي -وهذا لفظه- والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جريج، وقال الترمذي: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: إسناده على شرط مسلم.

وقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [سورة الإسراء:٧٩].

وابن جرير -رحمه الله- فسر هذا بصلاتي المغرب والعشاء.

وقوله تعالى: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} قد تقدم في حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة.

يعني إذا غربت النجوم، وهذا في وقت الفجر.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر"[٦]، وفي لفظ لمسلم: ((ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها))[٧].

آخر تفسير سورة الطور، ولله الحمد والمنة.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى، برقم (١١٥٤).

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في كفارة المجلس، برقم (٤٨٥٩)، والترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول إذا قام من المجلس، برقم (٣٤٣٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٧٦٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد منقطع، أبو هاشم لم يسمع من أبي برزة، بينهما أبو العالية الرياحي كما سيأتي، وهو ثقة، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير حجاج -وهو ابن دينار الواسطي- فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة"، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم (٢٦٥١).

٦ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تعاهد ركعتي الفجر ومن سماهما تطوعا، برقم (١١٦٩).

٧ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما، برقم (٧٢٥).

وأما ابن جرير -رحمه الله- فقد فسر ذلك **{وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}** بصلاة الفجر نفسها، نفس صلاة الفجر، ويقال لها: تسبيح وتسبيحة، ويقول ابن عمر -رضي الله عنه-: لو كنت مسبحاً لأتممت، يعني في صلاة النافلة في السفر، أو السنة الراتبة في السفر، لو كنت مسبحاً لأتممت، ويطلق على التسبيح المعروف، أي تنزيه الله -عز وجل- عما لا يليق به، -سبحان الله-، والله -عز وجل- أمر بتسبيحه حين يقوم، ولم يحدد شيئاً من هذه، فكلٌّ جاء باجتهاده، وهذه التفسيرات المذكورة فيه -والله تعالى أعلم- الآية تصدق عليها جميعاً، لو قال قائل ذلك لما كان بعيداً، فكل ما قيل في هذا صحيح من هذه الأقوال التي سمعناها، وهو داخل في هذا التسبيح **{حِينَ تَقُومُ}**، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النجم من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى-: تفسير سورة النجم وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة: {والنَّجم}، قال: فسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافرًا، وهو أمية بن خلف[١].

وقد رواه البخاري أيضا في مواضع، ومسلم، وأبو داود، والنسائي من طرق، عن أبي إسحاق به.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [سورة النجم:١-٤].

قال الشعبي وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} قال ابن أبي نَجيح عن مجاهد: يعني بالنجم: الثُّريّا إذا سقطت مع الفجر.

وقال الضحاك: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} إذا رُمي به الشياطين.

وهذه الآية كقوله تعالى: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الواقعة:٧٥-٨٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى-: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}**، يقول: **قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: يعني بالنجم: الثريا**، والثريا واحد من النجوم، والله –عز وجل– أقسم بالنجم، **{وَالنَّجْمِ}**، ووجه تخصيص النجم بالثريا عند القائل به –كما نقل الحافظ عن مجاهد، وهو قول كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–، أنه الثريا– أن العرب إذا أطلقت النجم فإنها غالباً تقصد به الثريا، هذا وجه هذا القول عند القائل به، **{وَالنَّجْمِ}** يقولون: والقرآن نزل بلغة العرب، والعرب تطلق النجم وتقصد به الثريا غالباً، فقالوا: نحمل ذلك على معهودهم في الخطاب؛ لأن القرآن إنما نزل بلغتهم، وهذا القول وإن كان له وجه إلا أنه لا يخلو من إشكال، **{وَالنَّجْمِ}** يعني: هل يقسم الله –عز وجل– بالثريا إذا هوى **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}**، هل هذا هو المعنى المقصود؟ القسم كما هو

---

١ – رواه البخاري، أبواب سجود القرآن، ما جاء في سجود القرآن وسنتها، برقم (١٠٦٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، برقم (٥٧٦).

معلوم لا يكون إلا بأمر معظم، والثريا وإن عبدها قوم من أهل الجاهلية إلا أن ذلك لا يعني أن يحمل القسم هنا على الثريا، فالله -تبارك وتعالى- لم يحدد نجماً بعينه، ولهذا حمل بعضهم النجم على الجنس، جنس النجوم، وإن اختلف القائلون بذلك؛ لأن من أهل العلم من قال: المقصود بذلك في الآخرة، يوم القيامة، اليوم الآخر، بمعنى أن النجوم تسقط يوم القيامة، **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}** أي: يوم القيامة، فمعلوم أن النجوم تتكدر ويتغير نظام هذا الكون الذي نشاهده، **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}**، وهذا أيضاً لا يخلو من إشكال؛ لأن هؤلاء المخاطبين أصلاً لا يؤمنون باليوم الآخر، والقسم إنما يقصد به تأكيد الشيء وتقويته، فهم لا يؤمنون باليوم الآخر أصلاً، ولا عهد للمخاطبين بهذه القضية، وهي انكدار النجوم في يوم القيامة، فهذا المعنى وإن كان واقعاً -يعني أن النجوم تتكدر أو تسقط- إلا أن حمل القسم عليه هنا لا يخلو من إشكال، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}**، حمله على الجنس كما قلنا، لكن قالوا: معنى **{هَوَى}** أي: غرب، أقسم الله به حال غروبه، **{هَوَى}**، وهذا في الدنيا، فإن النجوم تدور وتتحرك كل في فلك يسبحون، وتطلع وتغرب، فيكون الله -عز وجل- أقسم به لهذا المعنى، وهو مظهر من مظاهر العظمة، كما أقسم الله -عز وجل- بالليل في حال إقباله وحال إدباره، **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** [سورة التكوير:١٧]، فإن كلمة عسعس من المشترك الذي يحمل معاني متضادة، بمعنى أقبل وبمعنى أدبر، **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [سورة الضحى:٢] يعني: أقبل وأرخى سدوله، **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** [سورة الليل:١]، بظلامه يعني، **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}** [سورة المدثر:٣٣] أقسم به في هذا، وفي هذا، فهذا المعنى محمول على هذا.

يقول: **يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر، وقال الضحاك: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} إذا رمي به الشياطين،** وهذه الآية كقوله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** [سورة الواقعة:٧٥-٧٦]، بين هذه الآية وهذه الآية ارتباط، لكن العلماء الذين يقولون بالارتباط بين الآيتين يختلفون في تفسير ذلك، على أي شيء تحمل هذه الآيات؟، فالشاهد نعود إلى القائلين بأن المقصود به النجم يعني جنس النجوم، فمنهم من قال: من يرمى به الشياطين، وهم لا يقصدون أن الشياطين يرمون بنفس النجم، يسقط عليهم، وإنما يسقط عليهم شهب من هذه النجوم، فهو من باب إطلاق الشيء على بعضه أو جزئه، **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}** يعني: ما يرجم الشياطين من الشهب، **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}**، **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}** [سورة الواقعة:٧٥] أي: بمساقطها، فمن أهل العلم من قال: إن الآيتين بمعنى واحد، **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}** أي: بمساقطها، حينما يرمى بها الشياطين الذين يسترقون السمع، وهذا القول اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- واحتج له بقرينة من الآيات في السياق، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}** أقسم على ماذا؟ **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}** [سورة النجم:٢-٦] إلى آخره، ويقول: هذه النجوم التي يرمى بها الشياطين الذين يسترقون السمع هي حماية للوحي من الشياطين، فالله -عز وجل- أقسم بها للون من الارتباط بينها وبين المقسم عليه، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ضل عن الحق وما غوى **{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى}**، فهذا من عند الله -عز وجل- ليس فيه شيء من الاختلاق والباطل أو من تدخل الشياطين، فيقول: الدليل على أن المقصود بالنجم إذا هوى يعني الشهب أن هذه النجوم حراسة للوحي، فدل ذلك على أن هذا

هو المقصود بهذا القسم، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، ومن أهل العلم من يقول: إن المعنى في الآيتين {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [سورة الواقعة:٧٥] و{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} أن المقصود بالنجم {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} يعني: نجوم القرآن، وقالوا: هذا كقوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [سورة الواقعة:٧٥-٧٧]، بمعنى: أن القرآن نزل منجماً بمواقع النجوم، نزل منجماً، ولم ينزل جملة واحدة كما كانت الكتب السابقة، وهذا القول اختاره جماعة من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، ومنهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، واحتج له بهذه القرينة، {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}، وفي الآية هنا {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى}، وهناك {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}، فيقول: هذا النجم هو قرآن كريم، ليس بضلال ولا غواية ولا من قول الشياطين، وقال: {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الواقعة:٨٠]، ويقول: إن الله -عز وجل- قد أقسم بالقرآن كما قال الله -عز وجل- في مواضع: {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} [سورة يس:٢]، {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} [سورة الدخان:٢]، وما شابه ذلك، فوجه هذا القول واضح، النجم المقصود به ما ينزل من القرآن؛ لأنه نزل منجماً، وقيل له: نجم؛ لأنه نزل مفرقاً، والعرب تسمي المفرّق منجماً، وتسمي التفريق تنجيماً، والسبب في هذا في الأصل -والله تعالى أعلم- أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول آجال الدين، هذا في الأصل، مواقيت لحلول آجال الديون، فيقولون: إذا طلع النجم -يعنون الثريا مثلاً- حل عليك الدين، متى موعد السداد؟ إذا طلع النجم، فالقرآن لما نزل منجماً صاروا يقولون هم في استعمالهم لكل ما فرّق: إنه منجم، فيقولون: هذا جعله نجوماً، حينما يكاتب مثلاً السيد العبد فهي كتابة منجمة، يعني: يدفعه له أقساطاً، هذا الذي نسميه أقساطاً هو التنجيم عندهم، يدفعه على نجوم، في كل نهاية شهر يدفع قدراً معيناً، فالقرآن نزل في عشرين أو ثلاث وعشرين سنة -على الخلاف المعروف- نجوماً، فهؤلاء يقولون: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} يعني: القدر الذي نزل من القرآن {إِذَا هَوَى}، لكن هذا غير متبادر، والله تعالى أعلم، وهل يقال لما ينزل من القرآن: إنه يهوي؟ وهل هذا معهود في القرآن أن يسمى نزول القرآن بالهَوِيّ، ففيه بعد، والله تعالى أعلم، ولو أن قائلاً قال: إن المقصود بالنجم جنس النجم فإن هذا لعله أقرب من تخصيصه بالثريا، ومن حمل النجم على القدر من الشيء كالأقساط أو المعنى الذي ذكرناه -بمعنى ما ينزل من القرآن-، وتكون النجوم هي التي يرمى بها الشياطين، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

ويقول: وهذه الآية كقوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [سورة الواقعة:٧٥].

وقوله تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بأنه بارٌّ راشد تابع للحق، ليس بضال: وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم.

{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، فالله -عز وجل- نفى عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- الضلال والغي، فهو على رشد، وقد وصفه الله -عز وجل- بالأوصاف الكاملة في القرآن، سلوك طريق الاستقامة {إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الزخرف:٤٣]، {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [سورة النمل:٧٩]، {إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الحج:٦٧]، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ}، الضلال بمعنى الذهاب عن الحق، ترك الحق بسبب الجهل به غالباً، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، هنا فقط لما قال: {وَمَا غَوَى}، وإلا فقد يضل الإنسان على علم، لكن يعبر في كل

مقام بما يليق، كما في قوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة:٧]، ففسر الأول باليهود لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وفسر الثاني بالنصارى، ضلوا عن الحق لجهلهم، وهذا وجه في تفسير قوله -تبارك وتعالى- في سورة النور في اللعان، لما ذكر لعان المرأة ختمه بقوله: {وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة النور:٩]، وفي لعان الرجل ذكر اللعن، فتوجيه ذلك يمكن أن يقال: لأن النساء لا يبالين باللعن غالباً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تكثرن اللعن))[٢]، فهو خفيف على لسانها فجيء بالغضب في حق المرأة، واللعن في حق الرجل في الشهادة، أو يقال -وهو الشاهد-: إن هذه المرأة تعلم أن ما قاله زوجها حق أو باطل، هل هو كاذب عليها أو غير كاذب، فجيء بالغضب؛ لأنها إن أنكرت وهو صادق فهي مستحقة للغضب، فقوله: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ} عبر بالصاحب؛ لأنه أبين في إقامة الحجة، وذلك أنهم يعرفونه تمام المعرفة، لا يخفى عليه من أمرهم شيء، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ}، صاحبكم الذي تعرفونه، {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [سورة التكوير:٢٢]، {أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} [سورة المؤمنون:٦٩]، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} والغي ضد الرشاد، يعني ما صار غاوياً.

ليس بضال: وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم.

والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره، فنزه الله -سبحانه وتعالى- رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو -صلوات الله وسلامه عليه- وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} أي: ما يقول قولا عن هوى وغرض، {إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} أي: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّرًا من غير زيادة ولا نقصان.

قوله: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى}، الضمير في قوله: {هُوَ} يرجع إلى القرآن، هذا يحتمل، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ} يعني: القرآن الذي جاء به {إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى}، ويحتمل أن يرجع إلى النطق المفهوم من الفعل ينطق، {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ} أي: النطق الذي ينطق به {وَحْيٌ}، {إِنْ هُوَ} أي: النطق، فهو إنما ينطق بالوحي، وهذا أحسن من الأول، فيدخل في ذلك القرآن، ويدخل فيه السنة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قالت قريش لعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يكتب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كل ما يقول، فقالوا: إنك تكتب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الغضب والرضا، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشر... إلى آخر ما قالوا، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق))[٣]، وأشار إلى فمه -عليه الصلاة والسلام-، فالسنة وحي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا وإني أوتيت القرآن

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق، برقم (٧٩).

٣ - رواه أبو داود، كتاب العلم، باب في كتاب العلم، برقم (٣٦٤٦)، وأحمد في المسند، برقم (٦٥١٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير الوليد بن عبد الله -وهو ابن أبي مغيث العبدري- فمن رجال أبي داود وابن ماجه، وهو ثقة، يحيى بن سعيد: هو القطان"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٥٣٢).

ومثله معه))[٤]، والله -عز وجل- يقول: {وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [سورة النساء:١١٣]، يعني السنة، فهي وحي من الله، فإذا فسر بهذا المعنى كان أشمل من المعنى الأول، {إِنْ هُوَ} لو فسرناه بالقرآن فيكون هذا التفسير قاصراً عن السنة، والتفسير الثاني أشمل وأوسع، وهو أقرب وأرجح، والله تعالى أعلم.

كما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثلُ الحَيَّيْن -أو مثل أحد الحيين-: رَبيعة ومُضَر، فقال رجل: يا رسول الله، أوَمَا ربيعة من مضر؟ قال: "إنما أقول ما أقول))[٥].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشر، يتكلم في الغضب، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ((اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق))[٦]، ورواه أبو داود

{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [سورة النجم:٥-١٨].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه علَّمه الذي جاء به إلى الناس {شَدِيدُ الْقُوَى}، وهو جبريل -عليه الصلاة السلام-، كما قال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:١٩-٢١].

وقال هاهنا: {ذُو مِرَّةٍ} أي: ذو قوة، قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد.

{ذُو مِرَّةٍ} أي: ذو قوة، وشدة في الخلق، ولكن هذا قد يكون تكراراً مع ما قبله {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}، شديد القوى، ذو قوة، فكأنه تكرار على هذا التفسير، ولهذا فسره جماعة من أهل العلم بغير هذا، فمن قائل: ذو مرة أي اكتمال في الخلق، أنه مكتمل الخلق، صحيح الجسم، سليم من الآفات، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، ومن قائل: إن المراد ذو مرة أي حصافة في الرأي، وهذا وإن كانت اللفظة تحتمله في

---

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٧١٧٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرَشي فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو ثقة"، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- (ص١٧١)، وفي تخريج مشكاة المصابيح، برقم (٤٢٤٧).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٢١٥)، وقال محققوه: "صحيح بطرقه وشواهده دون قوله: "فقال رجل: يا رسول الله ... إلخ"، فهي زيادة شاذة لم ترد إلا في حديث أبي أمامة، ورواتها ليسوا بأولائك الأثبات، وعبد الرحمن بن مَيْسرة -وهو أبو سلمة الحمصي- وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال ابن المديني وحده: مجهول، لم يرو عنه غير حريز بن عثمان، وقوله هذا مردود برواية اثنين عنه غير حريز، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، يزيد: هو ابن هارون السُّلمي"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٣٦٣)، وحسنه في السلسلة الصحيحة، برقم (٢١٧٨).

٦ - تقدم تخريجه

اللغة إلا أنه لا يخلو من بعد، الكلام هنا على الوحي وأن جبريل جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهل المراد أن يمدح جبريل بأنه ذو حصافة في الرأي في هذا المقام؟، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}، وفسره بعضهم كالحافظ ابن قيم -رحمه الله- {ذُو مِرَّةٍ} أي: حسن وبهاء وجمال في الهيئة والصورة وما إلى ذلك، {ذُو مِرَّةٍ} يقول: أي ذو قوة، قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقد ورد في الحديث الصحيح من رواية ابن عمر وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تحل الصدقة لغنيٍّ، ولا لِذِي مِرّة سَوِيّ))[٧].

وقوله تعالى: {فَاسْتَوَى} يعني: جبريل -عليه السلام-، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس.

استوى أي جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فمن أهل العلم من قال: استوى أي ارتفع؛ لأن من معاني الاستواء الارتفاع، فهو لما علّم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأوحى إليه ارتفع، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} بعدما علّمه، يعني ارتفع، صعد، علا، الآية: {ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى}، استوى وهو بالأفق الأعلى، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد {فَاسْتَوَى}: أي قام واعتدل {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى}، يعني أنه هبط من السماء فرآه النبي -صلى الله عليه وسلم- مستوياً في الأفق، {ثم دنا فتدلى} إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني رآه بين السماء والأرض ساداً ما بين الأفق، فهذا معنى {فَاسْتَوَى}، {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}، من أهل العلم من يقول: معنى استوى: أي أنه قام في صورته التي خلقه الله عليها، كان يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أحياناً في صورة الآدميين كدحية الكلبي -بعد ذلك في المدينة-، وأحياناً يأتي كصلصلة الجرس إلى غير ذلك من الحالات كما في الحديث في سؤال الحارث بن هشام للنبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف يأتيك الوحي؟، فجاءه {ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} أي: بصورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، وتفسير استوى بالمعنى الثاني -والله تعالى أعلم- أقرب، {ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}: أي رآه بين السماء والأرض مستوياً ساداً ما بين الأفق، وهذا في نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا غير الذي عند سدرة المنتهى، فإنه كان في المرة الثانية، لكن هذا حينما هبط إليه في الأرض، وابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على معنى استغربه ابن كثير -رحمه الله- في الأصل، وذكر أنه لم يقل به غيره، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ} أي: جبريل، {فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى}، يقول: يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أسري به، يقول: هذا ليلة الإسراء لما صعد بالنبي -صلى الله عليه وسلم- جاءه جبريل فعرج به إلى السماء إلى الأفق الأعلى، وهذا فيه بعد، فهذا حينما نزل جبريل على النبي -صلى الله عليه وسلم- بالوحي كما تدل عليه الأحاديث، وليس المقصود أنه عرج به إلى السماء.

{وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى} يعني: جبريل -عليه السلام- استوى في الأفق الأعلى.

وليس النبي -صلى الله عليه وسلم-، والسياق يدل على هذا.

---

٧ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى، برقم (١٦٣٤)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها، برقم (٢٥٩٧)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة، برقم (٦٥٣)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، برقم (١٨٣٩)، وقال الألباني: "قلت: حديث صحيح، وصححه ابن الجارود، وحسنه الترمذي" في صحيح أبي داود، برقم (١٤٤٤).

قاله عكرمة وغير واحد، قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد، وغيرهم.

هذه الأقوال الآن هل هي أقوال مختلفة يحتاج أن يقال: القول الأول: مطلع الشمس.

والثاني: الذي يأتي منه الصبح.

والثالث: الذي يأتي منه النهار؟.

الصبح من مطلع الشمس، ومطلع الشمس هو الذي يطلع منه النهار، فهذا يسمى باختلاف التنوع، يعني عبر كل واحد من هؤلاء بعبارة تدل على المراد غير عبارة الآخر، والمعنى واحد، فالأفق الأعلى هو مطلع الشمس، والأفق هو ناحية السماء في الأصل، ومراد هؤلاء **{بِالأفُقِ الأعْلَى}** يعني: المرتفع الذي يأتي منه الصبح، **{وَهُوَ بِالأفُقِ الأعْلَى}**.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله –أي ابن مسعود– رضي الله تعالى عنه– أنه قال: ((رأى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سَدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل، والدر والياقوت ما الله به عليم))[٨]، انفرد به أحمد.

كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل، العرب تقول التهاويل للشيء الذي له ألوان مختلفة، الأشياء المختلفة الألوان يقولون لها: تهاويل، يسقط من جناحه التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم، هذا الحديث في إسناده ضعف، وله شواهد متعددة.

وروى أحمد عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: "سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– جبريل أن يراه في صورته، فقال: ((ادع ربك))، فدعا ربه –عز وجل–، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر".

ما المقصود بالسواد؟ يعني شخصاً، فطلع عليه سوادٌ، سواد إنسان، صورة إنسان، هذا المراد وليس اللون الأسود.

"فلما رآه النبي –صلى الله عليه وسلم– صَعِق، فأتاه فَنَعَشَه ومسح البُزاق عن شِدْقه"[٩].

وهذا أيضاً في إسناده ضعف.

وفي قوله تعالى: **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}**، من أهل العلم من قال: إن "عن" بمعنى الباء، وما ينطق بالهوى، ومنهم من قال: لا، "عن" على بابها، ما يصدر نطقه عن هوى، قالوا: وهذا أبلغ من تفسير "عن" بالباء، لماذا؟

---

٨ – رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٣٧٤٨)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف شريك –وهو ابن عبد الله النخعي–، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم –وهو ابن أبي النجود– فقد أخرج له البخاري ومسلم في المتابعات، وهو حسن الحديث، حجاج: هو ابن محمد الأعور، وأبو وائل: هو شقيق بن سلمة الأسدي".

٩ – رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٩٦٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف، إدريس ابن منبه –وذكر الحافظ ابن حجر في "التهذيب" أنه في نسخة من "المسند": عن إدريس ابن بنت منبه–: هو إدريس بن سنان اليماني ابن بنت وهب بن منبه، فقوله هنا: عن إدريس ابن منبه عن أبيه فيه تجوز، وإنما هو جده لأمه، قال ابن معين: يُكتب من حديثه الرقاقُ، وقال ابن عدي: هو من الضعفاء الذين يُكتب حديثهم، وقال الدارقطني: متروك".

قالوا: إذا كان لا يصدر نطقه عن هوى فإن هذا يتضمن المعنى الثاني وهو أنه لا ينطق بالهوى، من كان نطقه صادراً عن هوى فإن ما سينطق به سيكون تابعاً للمصدر، فسيكون بالهوى، فهذا المعنى أبلغ من تفسير "عن" بالباء، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} أي: ليس مصدر هذا النطق من الهوى، قالوا: هذا يتضمن المعنى الثاني وهو قولهم: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}، أي: بالهوى؛ لأن نطقه إن كان صادراً عن هوى فسيكون حتماً ولا محالة بالهوى، فما كان مصدره باطلاً فإنه باطل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النجم من الآية (٩) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}** [سورة النجم:٨]، لم يتعرض لها المفسر هنا، ومَن المراد بذلك **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}**، هل هو جبريل -عليه الصلاة والسلام- دنا من النبي -صلى الله عليه وسلم- **{فَتَدَلَّى}** فازداد دنواً، أو أن ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- دنا من النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة المعراج، أو أن ذلك يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، أو يرجع إلى من؟

عامة أهل العلم يقولون: إنه يرجع إلى جبريل -عليه الصلاة والسلام-، هذا قول الجمهور، **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}**، يعني: جبريل من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالضمير يرجع إلى جبريل، وقد نقل عليه الإمام الدارمي -رحمه الله- الإجماع -وهذا الإجماع قد لا يصح؛ لأنه يوجد من خالف في هذا- وهو قول عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، فهو المراد بقوله: **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** في القرب، واستدل على ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- من ستة عشر وجهاً، ومعنى دنا يعني اقترب، ومعنى تدلى يعني ازداد في القرب، ومن أهل العلم من يقول: إن فيه تقديماً وتأخيراً، تدلى فدنا، وهو خلاف الأصل، فالأصل في الكلام الترتيب، ومهما أمكن حمل الكلام على وجه صحيح مرتباً فهو أولى من دعوى التقديم والتأخير، وهنا فيما يتعلق بالضمير **{دَنَا}** أي: جبريل -عليه الصلاة والسلام- يمكن أن يرجح هذا بقاعدة أشرت إليها في بعض المناسبات، أو لعلها تكررت في هذه الدروس قبل ذلك مراراً، وهي أن من طرق الترجيح في التفسير أن توحيد مصدر الضمائر أولى من تفريقها، وذكرنا على هذا أمثلة كقوله -تبارك وتعالى-: **{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ}** [سورة الفتح:٩] أي: الله، **{وَتُوَقِّرُوهُ}** أي: الله، **{وَتُسَبِّحُوهُ}** أي: الله، وأن هذا مما يرجح هذا القول على قول من قال: **{وَتُعَزِّرُوهُ}** أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، **{وَتُوَقِّرُوهُ}** أي: النبي -عليه الصلاة والسلام-، **{وَتُسَبِّحُوهُ}** أي: الله، وهما قولان معروفان في تفسير الآية، وله أمثلة كثيرة، فهنا قوله: **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}** [سورة النجم:٢] يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم-، **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}** [سورة النجم:٣] يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم-، **{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ}** [سورة النجم:٤-٥] أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم بدأ يتحدث عن جبريل -عليه الصلاة والسلام-، **{شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}** [سورة النجم:٥-٦] يعني جبريل -عليه الصلاة والسلام-، **{وَهُوَ}**: جبريل، **{بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا}** [سورة النجم:٧-٨] جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** [سورة النجم:٩] جبريل -عليه الصلاة والسلام-، **{فَأَوْحَى}** [سورة النجم:١٠] جبريل كذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [سورة النجم:٩] أي: فاقترب جبريل إلى محمد -عليهما السلام- لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد -صلى الله عليه وسلم- قاب قوسين أي: بقدرهما إذا مُدّا، قاله مجاهد، وقتادة.

هذا يذكر لبيان القرب، وإن اختلفت العبارات في توصيفه، لكنه يدل على القرب، فمن قائل: **{قَابَ قَوْسَيْنِ}**، فيما يتعلق أولاً بالقاب: يقصد به القدر، القاب هو القدر، فقاب قوسين يعني: قدر قوسين، لكن ما تحديد ذلك؟ هل هو من مقبض القوس والوتر؟ فالقوس مقوس ثم فيه الوتر، فكبد القوس أو المقبض ما بينه وبين الوتر هذه المسافة هل هي المقصودة بالقاب، أو أن المقصود بالقاب يعني ما بين كبد القوس مثلاً إلى الطرف، يعني نصف قوس يقال له: قاب؟، من أهل العلم من يقول هذا، ومنهم من يقول هذا، وبعضهم يقول: يعني قابَيْ قوس، قابَ قوسين أي قابَيْ قوس، باعتبار أنه إذا قلنا: إن قاب القوس من الكبد -كبد القوس- إلى الطرف فقابي قوس يعني القوس كاملاً، فهذا يقال له: قاب قوس، **{قَابَ قَوْسَيْنِ}** من كبده إلى طرفه، فقابَيْ قوس يعني من مقدار بُعد ما بين طرفي القوس، هكذا يقول بعض أهل العلم، وكذلك يحتمل أن يكون **{قَابَ قَوْسَيْنِ}** يعني: بمقدار قوسين، وأياً كان هذا فهو يدل على شدة القرب، هل هو طول قوس، أو طول قوسين كاملين؟، يعني هذا أبعد ما قدر به، أقصر تقدير أنه ما بين كبد القوس إلى الوتر، وأبعد تقدير أنه بطول قوسين، وأوسط تقدير أنه بقدر قوس؛ لأن قاب القوس من كبده إلى طرفه، وهذا لا يؤثر كثيراً، المقصود أنه اقترب منه جداً، يعني جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهنا هذه في الرؤية الأولى للملك، ليس ذلك في ليلة المعراج، **{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}** بالأفق الأعلى، **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}** أي: جبريل -صلى الله عليه وسلم- حينما نزل عليه أول مرة، وليس الكلام في ليلة المعراج أصلاً حتى يتوهم أن المراد بذلك الله -سبحانه وتعالى-، أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اقترب من الله.

وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها.

وقوله تعالى: {أَوْ أَدْنَى} قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه.

"أو" هذه كما سبق هل هي للتردد والشك مثلما سبق في قوله تعالى: **{مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [سورة الصافات:١٤٧]، **{كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}** [سورة البقرة:٧٤]، **{لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طه:٤٤]، فهذه إذا قالها الإنسان فقد يكون ذلك نتيجة لتردده، عنده شيء من التردد، شاك في العدد ما يعرف بالضبط كم يقول لك عددهم، عشرة أو يزيدون، مائة أو يزيدون، ألف أو يزيدون، وهكذا للمتردد، لكن الله -عز وجل- يعلم ذلك علماً تاماً، فما المراد بذلك؟، فهذا الذي يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جواب على هذا الإشكال، وخلاصة هذا الجواب الذي ذكره -وهو الذي اعتمده ابن القيم أيضاً- هو أن ذلك يقال لتحقيق -كما يقول هنا- المخبر عنه وإثباته، ونفي ما زاد عليه، هنا يقول: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}**، يعني: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها، يقول: وقد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عليه؛ لتحقيق المخبر أنهم لا يقلون عن هذا، **{كَالْحِجَارَةِ**

{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} ليسوا بأقل قساوة من الحجارة، {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} ليسوا بأقل من مائة ألف، وهنا {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}، هنا في هذا الموضع ليس بأزيد –ليس بأكثر– من القوسين، فهي لتحقيق هذا الخبر أنه اقترب منه جداً حتى صار بقدر قوسين أو أقرب من ذلك فقط، وليس للشك، وإنما يستعملها العرب لتحقيق الخبر، هذا جواب، وذكرنا جواباً آخر من قبل، قلنا: إن هذا مُراعًى فيه حال المخاطب، فالخطاب قد يرد بناءً على حال المخاطب، بالنظر إلى حال المخاطب، يعني أن الناظر إلى هؤلاء يقول: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، الناظر إلى قربه يقول: بقدر قوسين أو أقل من ذلك، يعني بحسب نظركم، وذكرنا له أمثلة على هذا وهو كيف يرد الخطاب بالقرآن بحسب نظر المخاطبين، وقيل غير ذلك من الأجوبة، يعني قيل: إن "أو" هذه ليست للشك، ومنهم من قال: إنها بمعنى الواو مثلاً.

أو بمعنى "بل"، بل يزيدون، وبل أقرب.

كقوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [سورة البقرة:٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله: {يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]، وقوله: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧]، أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها، فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا.

ممتنع؛ لأنه من كلام علام الغيوب، هذا يرد في كلام الآدميين لنقص علمهم.

وهكذا هذه الآية: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}.

وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد –صلى الله عليه وسلم– إنما هو جبريل –عليه السلام– هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة –رضي الله تعالى عنهم–، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله.

وقال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– في هذه الآية: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((رأيت جبريل له ستمائة جناح))[1].

وروى البخاري عن طلق بن غنام عن زائدة عن الشيباني قال: سألت زرّاً عن قوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} قال: حدثنا عبد الله أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– رأى جبريل له ستمائة جناح.

قوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [سورة النجم:١٠] معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد –صلى الله عليه وسلم– ما أوحى، أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح، وقد ذُكر عن سعيد بن جبير في قوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} قال: أوحى إليه: "ألم أجدك يتيما" {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [سورة الشرح:٤].

وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

---

١ – رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، برقم (١٧٤).

لا دليل على تخصيص شيء من ذلك، وهذا الإبهام أسلوب معروف في القرآن، وهو يفيد التفخيم، تفخيم الموحى به، {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}، فأبهمه للتفخيم –والله تعالى أعلم–، وهذان القولان في قوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ} أوحى الله إلى عبده، أو أوحى جبريل إلى عبد الله محمد –صلى الله عليه وسلم– بينهما ملازمة، فإن ما يوحيه جبريل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– إنما هو من وحي الله، ومثل هذا –والله أعلم– لا يحتاج إلى ترجيح، فإذا كان بين القولين ملازمة فإن ذلك يدخل جميعاً ضمن تفسير الآية، فأوحى الله إلى عبده محمد –صلى الله عليه وسلم– أو أوحى جبريل إلى عبد الله محمد –صلى الله عليه وسلم–، فإذا قلت: جبريل أوحى فإنما ذلك بوحي الله، وإذا قلت: إن الله أوحى فإن ذلك بواسطة جبريل –صلى الله عليه وسلم– في هذه القضية حينما نزل وقال له: {اقْرَأْ} [سورة العلق:١].

وقوله تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} روى مسلم عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} قال: "رآه بفؤاده مرتين"[٢].

فقوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} أي: فؤاد محمد {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، ابن جرير –رحمه الله– يقول: ما كذب فؤاد محمدٍ محمداً، يعني: ما كذبه فؤاده، {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، يعني: أن فؤاده صدّقه بما رأى، صدّقه بذلك ووافقه، بمعنى أنه تواطأ في هذه الرؤية التي رآها النبي –صلى الله عليه وسلم– القلب مع العين، بمعنى أن نظر العين وافق نظر القلب، يعنى أن الإنسان قد يرى شيئاً ولا يصدقه فؤاده، يعني قد يتهم الإنسان بصره، يقول: لا، أنا واهم، أنا أتخيل، لعل البصر زاغ، لعل..، يرى شيئاً لا يصدقه قلبه، البصيرة تخالف العين، البصيرة نظر القلب تخالف نظر العين البصر، فلا يتوافق نظر القلب مع نظر العين، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– صحيح البصر صحيح البصيرة، فوافق قلبه عينه فيما رأته، وما حصل لقلبه تكذيب لمَا رأى مع أنه رأى أموراً عظيمة جداً، حيث رأى من آيات ربه الكبرى، فهذا هو المراد –والله تعالى أعلم– {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، وفي قراءة أخرى بتشديد الذال {ما كذّب الفؤاد ما رأى}، {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ماذا رأى النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ يمكن أن يفسر بما جاء في الصحيح في البخاري عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: ((رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق))[٣].

يقول: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} قال: رآه بفؤاده مرتين، هذا رواه مسلم عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، رآه بفؤاده مرتين، وابن عباس –رضي الله عنه– رويت عنه في هذا روايات كثيرة، منها الصحيح ومنها الضعيف، منها ما مفاده أنه رآه بعينه مرتين، ومنها ما مفاده أنه رآه مرة بعينه ومرة بقلبه، ومعنى أنه رآه بفؤاده –بقلبه– مرتين من أهل العلم من يفسر هذا بالرؤيا المنامية، رآه بقلبه: يعني ليس حقيقة بعينه، وإنما بقلبه يعني في نومه، ورؤيا الأنبياء حق، والسياق هنا في أول مرة نزل فيها جبريل على النبي –صلى الله عليه وسلم– والأحاديث التي تدل على رؤية النبي –صلى الله عليه وسلم– للملك على صورته كثيرة، وهذا أولى ما تفسر به الآية، فقد رآه بعينه حقيقة، حينما عرج به، رأى جبريل –صلى الله عليه وسلم–، ولو

---

٢ – رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله –عز وجل–: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} وهل رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– ربه ليلة الإسراء؟، برقم (١٧٦).

٣ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم:١٨]، برقم (٤٨٥٨).

كانت رؤية بالقلب لما حصل منهم المماراة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}، تجادلونه تنكرون، تدفعون قوله، تريدون إبطاله؟.

وكذا رواه سِمَاك عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مثله، وكذا قال أبو صالح والسّدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين.

هو الكلام على الأول حينما رآه أول مرة قد سد الأفق، ليس بعدما عرج به.

وقال مسروق: دخلتُ على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قَفَّ له شعري، فقلت: رُوَيدًا، ثم قرأتُ: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، فقالت: أين يُذهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه، أو كتم شيئاً مما أُمِرَ به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ} [سورة لقمان:٣٤]**، فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق.**

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: "سألت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: هل رأيتَ ربك؟ فقال: ((نورٌ أنّى أراه))[٤]، وفي رواية: ((رأيت نوراً))[٥].

في قوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} يعني: جبريل -صلى الله عليه وسلم-، يعني فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- صدّق عينه فيما رأى، وبعض أهل العلم يحمل هذا على ليلة المعراج، {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} من المماراة وهي المجادلة، والملاحاة، وفي قراءة حمزة والكسائي {أفتمورونه} يعني: تجحدونه، {عَلَى مَا يَرَى}، بعض أهل العلم قال: إن "على" هنا بمعنى "عن"، ولا حاجة لمثل هذا، تبقى على بابها {عَلَى مَا يَرَى}؛ لأن ذلك مفسر بمعنى الجحد، {أَفَتُمَارُونَهُ} يعني: أتجادلونه، فهي مجادلة يراد بها الدفع والإبطال والجحد، {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}، وإنما فعلوا ذلك مكابرة، فهي مجادلة يطلبون بها دفعه عما علمه وشاهده، كما قال الله -عز وجل-: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [سورة الأنفال:٦] يعني: في يوم بدر، فهم جمعوا بين المجادلة والجحد والإنكار، فـــ "على" هذه تفيد معنى المكابرة، قراءة الألف: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} تجمع المعنيين، و"على" تشير بذلك.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [سورة النجم:١٣-١٥]**، هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيها جبريل -عليه السلام- على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة "سبحان" بما أغنى عن إعادته هاهنا.**

{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، قيل: النزلة يعني المرة من النزول، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} أي: مرة أخرى، {عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، وسدرة المنتهى: جاءت الأحاديث في سدرة المنتهى في بعضها كما في الصحيح أنها في السماء السادسة، وجاء في بعض الروايات أنها في السماء السابعة، والمنتهى يعني مكان الانتهاء، من باب إضافة الشيء إلى مكانه، {سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، مكان الانتهاء، ومن الناس من فسره بانتهاء علم الخلائق، ينتهي

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: نور أني أراه، وفي قوله: رأيت نورا، برقم (١٧٨).

٥ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: نور أني أراه، وفي قوله: رأيت نورا، برقم (١٧٨).

عندها، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وأحسن ما يفسر به -والله تعالى أعلم- ما جاء في بعض الأحاديث من أنه ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض، وما ينزل من السماء، والله أعلم.

{عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}، المأوى: المكان الذي يأوي إليه من يأوي، يقال له: مأوى، تقول: هذا مأوى زيد، هذا مأوى للناس، ولماذا قيل لها: جنة المأوى؟ من أهل العلم من يقول: لأن آدم -عليه الصلاة والسلام- قد أوى إليها، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين، أو أرواح الشهداء، وكثير من السلف قرأه بالفعل الماضي {عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى} جنَّهُ فعل ماض، ما هو بجنة -اسم-، وإنما عندها جنَّهُ المأوى، يعني ستره {عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى} يعني: كأنه ضمه المبيت أو ستره إيواء الله له، أو أدركه، جنَّهُ المأوى أدركه المأوى، ربما، وبعضهم يقول: {جَنَّةُ الْمَأْوَى} تأوي إليها الشهداء أو أرواح الشهداء، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا أن الجنة هي المأوى، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات:٤٠-٤١]، يعني: مأواه، وابن القيم -رحمه الله- يفسر ذلك {جَنَّةُ الْمَأْوَى} بأنه اسم من أسماء الجنة.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في هذه الآية: {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدرّ والياقوت))[٦]، وهذا إسناد جيد قوي.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: "رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم"[٧]، إسناده حسن أيضاً.

كذلك أيضاً ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: رأى جبريلَ -عليه السلام-، فهذا الذي يفسر به، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، لم يرَ النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه قط بعينه، وإنما رأى جبريلَ -عليه الصلاة والسلام.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح))، سألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب[٨]. وهذا أيضا إسناد جيد.

---

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٤٣٩٦)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨/٤٥): "وهذا إسناد جيد قوي؛ كما قال ابن كثير".

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٣٧٤٨)، وقال محققوه: " إسناده ضعيف لضعف شريك -وهو ابن عبد الله النخعي-، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم -وهو ابن أبي النجود- فقد أخرج له البخاري ومسلم في المتابعات، وهو حسن الحديث".

٨ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٣٨٦٢)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح"، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٨٥)، وقال: "وهذا إسناد جيد، كما قال ابن كثير في التفسير".

وروى أحمد عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتاني جبريل -عليه السلام- في خُضر معلق به الدر))[9]، إسناده جيد أيضاً.

في خضر: فسرها بعضهم بأنها ثياب، يعني في ثياب خضر.

وروى أحمد عن عامر قال: أتى مسروقُ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد -صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل-؟ قالت: "سبحان الله لقد قَفّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث مَن حَدّثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [سورة الأنعام:١٠٣]، {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [سورة الشورى:٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ} الآية [سورة لقمان:٣٤]، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [سورة المائدة:٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين"[10].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: "كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} [سورة التكوير:٢٣]، {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى} فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنها، فقال: ((إنما ذاك جبريل))، لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض، سادًّا عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض"[11].

أخرجاه في الصحيحين من حديث الشعبي به.

وقوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة.

---

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٨٦٣)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح"، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٨٥)، وقال:"وهذا إسناد جيد، كما قال ابن كثير في التفسير".

١٠ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٤٢٢٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

١١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} وهل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه ليلة الإسراء؟، برقم(١٧٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٥٩٩٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النجم من الآية (١٦) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [سورة النجم:١٦]**: قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغِربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي.**

روى الإمام أحمد عن عبد الله-هو ابن مسعود- قال: لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- انتُهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيُقبض منها، {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المُقحِمات[1]، انفرد به مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه فيه تفسير سدرة المنتهى، قال: **وهي في السماء السابعة إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها**، هذا أحسن ما تفسر به في تسميتها بهذا -والله تعالى أعلم-، وهذا من تفسير القرآن بالسنة.

وقوله في الحديث: **وأعطي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثاً**، وذكر منها: **غفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحِمات**، المراد بالمقحمات يعني: الذنوب العظام التي تقحم صاحبها في النار، الكبائر يعني، {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [سورة النساء:٣١] كما سيأتي.

وقوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [سورة النجم:١٧]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما ذهب يمينا ولا شمالا {وَمَا طَغَى} ما جاوز ما أمر به.**

وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي.

{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}: البصر ما مال عن المرء، وهذا هو الزيغ بمعنى الميل، ما مال، {وَمَا طَغَى}: ما جاوزه، وهذا من كمال أدبه -صلى الله عليه وسلم-، الإنسان قد يدخل في مكان فيه ما فيه من الأمور المبهرة، فيتلفت يمنة ويسرة ويتطلع ويبقى مشغولاً بالنظر إلى هذه الأشياء، فلو أن أحداً دخل على ملك من ملوك الدنيا ثم جعل يتلفت بحضرته -بين يديه- حينما دخل عليه، ينظر في سقف هذا البناء وينظر فيما زين فيه، وينظر فإن هذا يتنافى مع الأدب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- وصفه الله -تبارك وتعالى- بهذه

---

[1] - رواه الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، برقم (١٧٣)، وأحمد في المسند، برقم (٣٦٦٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

الأوصاف الكاملة، وصفه بصحة العلم، فعلُمه -صلى الله عليه وسلم- منزه عن الضلال {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ} [سورة النجم:٢] ونزه عمله عن الغي {وَمَا غَوَى}، ونزه نطقه عن الهوى، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} [سورة النجم:٣]، ونزه فؤاده عن تكذيب بصره مما يدل على صحة بصيرته، فهي موافقة لبصره -عليه الصلاة والسلام-، فهو رأى ما رأى وبصيرته صدّقت بصره، لم تكذبه، ونزه بصره أيضاً عن الزيغ والطغيان، لم يمل هذا البصر ولم يتجاوز في النظر.

وقوله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [سورة النجم:١٨]، كقوله: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} [سورة طه:٢٣] أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس.

{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، هذه الجملة تحتمل معنيين عند التأمل، وبكل واحد منهما قال طائفة من المفسرين، تأمل فيها، يحتمل أن يكون المعنى {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} أي: أنه رأى من الآيات العظام ما رأى، هذا معنى، والمعنى الثاني: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} يعني: الآية الكبرى، يعني يحتمل أن يكون "الكبرى" في محل المفعول، رأى الكبرى، ويحتمل أنه رأى من آيات ربه الكبار، تكون صفة للآيات، رأى من الآيات العظام ما رأى، يحتمل هذا، وهذا، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- يقول: رأى من أعلام ربه وأدلته الأعلام والأدلة الكبرى، هذا يوافق القول الأول، {رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ}، رأى من أعلامه ودلائل عظمته، رأى من الآيات الكبار ما رأى، وهذا هو المتبادر -والله تعالى أعلم-، وهو أحسن من أن يفسر بأنه رأى الكبرى من آيات الله -عز وجل-، سواءً أريد به على هذا المعنى أن الكبرى آية واحدة، أو أن الكبرى تكون وصفاً لجنس الآيات الكبار، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى من آيات الله، وما رأى كل آيات الله، فهو رأى من آيات الله الكبار ما رأى، والله تعالى أعلم.

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [سورة النجم:١٩-٢٦].

يقول تعالى مُقَرِّعا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن -عليه السلام-: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ}؟ وكانت "اللات" صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف -وهم ثقيف ومن تابعها- يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً.

إذا رجعتم إلى كتب السير أو السيرة أو التاريخ في أحوال العرب ومعبوداتهم في الجاهلية تجدون في هذه المعبودات أوصافاً متعددة في المرويات المنقولة، وقد لا يكون ذلك من التعارض أو الاختلاف الذي يحتاج إلى الترجيح، وإنما -والله أعلم- يذكرون أوصافاً لهذه المعبودات، يعني تجد بعضهم يقول: إن اللات مثلاً

بيت معظم عند أهل الطائف، وتجد آخر يقول: هي صخرة بيضاء، وتجد آخر يقول: هو رجل كان يلُتّ السويق، لا منافاة هذا بيت معظم عندهم عند صخرة أو على صخرة بيضاء، وأصل ذلك فيما ذكره بعض أهل التواريخ أن رجلاً كان يفعل ذلك للحجيج، يلت السويق، فمات، فعبدوا هذه الصخرة، وتجدون أشياء أيضاً في الآلهة الأخرى، فهنا على هذا الاعتبار يكون اللات يراد به هذا الرجل الذي كان يلت السويق، وعلى هذا ما تكون هذه التسمية مأخوذة من اسم الله -عز وجل- "الله"-، فيحتمل أنهم أخذوها من اسم الله -عز وجل-، ويحتمل غير هذا، كما سيأتي.

وحكي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والربيع بن أنس: أنهم قرءوا "اللاتّ" بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق.

السويق: طعام مدقوق من الحنطة والشعير، لربما قيل له ذلك لأنه يسوق في الحلق، سهل، ليس طعاماً صعباً في تعاطيه وأكله.

فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {اللَّاتَ وَالْعُزَّى} قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق، سويق الحاج.

يعني يلت بمعنى يخلطه بسمن أو غيره، عموماً القراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، إذا صح سند القراءة الأحادية فهي تفسر القراءة المتواترة، {اللاتّ} هذه واضحة في أن المراد أن رجلاً كان يلت السويق، تفسرها، لكن هل نقطع بهذا أن هذه القراءة مجرد تفسير للقراءة الثانية، ونقول: اللات ليس لها علاقة باسم الله -"الله"-، ما أخذوها منه؟، أو نقول: إن كل قراءة تدل على معنى، فاللات يمكن أن يكون مأخوذاً من اسم الله -عز وجل- "الله"، واللات من هذا العمل الذي كان يزاوله هذا الرجل؟، يحتمل، فنريد أن نعرف هذه مأخوذة من اسم الله، أو مأخوذة من فعل كان يفعله هذا الإنسان، هذا لا يتأتى إلا إذا قلت: إن بعضهم أخذه من هذا من اسم الله، والبعض الآخر من هذا الرجل، وهذا فيه بُعد، فإذا صح سند هذه القراءة الأحادية فالأحسن أن تكون مفسرة للقراءة المتواترة، ولا يكون ذلك من باب تعدد الأوصاف لموصوف واحد، مثلاً: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} [سورة البقرة:٢٢٢] و{حتى يطّهرن}، بمعنى أن المرأة إذا انقطع الدم واغتسلت جاز وطؤها، {تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [سورة الكهف:٨٦]، و{تغرب في عين حامية} ساخنة حارة ومنتنة متغيرة، لكن هنا اللات نقول: مأخوذ من اسم الله ومأخوذ من أنه يلت السويق فيه بُعد، في مثل هذا الموضع، فالأحسن -والله تعالى أعلم- فيما يبدو أن هذه مفسرة لهذه، {اللاتّ}، ومن لا يعمل بالقراءة الأحادية أصلاً لا في التفسير ولا يحتج بها في العربية ولا يحتج بها في الأحكام يطرحها، فيبقى النظر في المادة التي اشتقت منها هذه اللفظة "اللات".

قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز.

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزَّى لكم، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم))[٢].

العزى بعضهم يقول: إنه بيت كانت تعظمه قريش في الجاهلية، وبعضهم يقول: ثلاث سمُرات، شجر السمر معروف، فقطعها خالد بن الوليد –رضي الله عنه–، وتجد في بعض الروايات أنها ثلاث سمُرات عليها بيت معظم عند أهل الجاهلية، فيذكرون من هذا الموصوف بعض الأوصاف، فلا يلتبس الأمر عليك هل هو بيت أو هي سمرات، فمن قال: سمرات فهذا صحيح، ومن قال: هو بيت معظم في الجاهلية فهذا صحيح، بيت على سمُرات ثلاث معظم عند قريش.

وأما "مناة" فكانت بالمُشَلّل عند قديد، بين مكة والمدينة.

يقولون: إن مناة اسم صنم، ويمكن أن تكون مناة مأخوذة من مَنَى الله الشيء إذا قدّره، مَنَاه إذا قدّره، ويمكن أن تكون مأخوذة من مُنى يعني لكثرة ما يصب عندها من الدماء والقرابين التي كانت تقدم إليها يتقربون بها، مناة لكثرة ما يُمنَى عندها من الدماء، وإذا رجعتم إلى تاريخ العرب في الجاهلية تجدون عندهم كعبات، وتجدون عندهم أماكن للذبح، عندهم أشياء كثيرة.

وأما "مناة" فكانت بالمُشَلّل عند قديد –بين مكة والمدينة–، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة.

في قراءة ابن كثير وهي قراءة متواترة بالهمزة {مناءة}، بعضهم يقول: إن القراءتين بمعنى واحد، "مناة، ومناءة"، وبعضهم يقول: إن قراءة الهمزة تختلف في المعنى عن قراءة "مناة"، فبالهمزة من النوء ومعنى ذلك أنهم كانوا يستمطرون بها، أو يستمطرون عندها، يعني إذا أرادوا المطر فإنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، والله أعلم.

وروى البخاري عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– نحوه.

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخَر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

وروى النسائي عن أبي الطُّفيل –رضي الله تعالى عنه– قال: لما فتح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأخبره فقال: ((ارجع فإنك لم تصنع شيئًا))، فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة –وهم حَجَبتها– أمعنوا في الجبل وهم يقولون: ((يا عزى،

---

٢ – رواه الإمام البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، برقم (٣٠٣٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٩٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

يا عزى))، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فقال: ((تلك العزى))[٣].

هذه المرأة قد تكون شيطانة من شياطين الجن، فتبدت بهذه الصورة فقتلها، وقد تكون من شياطين الإنس هي التي كانت تنطق لهم لربما وتتكلم وتخبرهم عن بعض الأشياء، أو تأخذ منهم ما يقدمون من الهدايا والقرابين ونحو هذا، قد يكون هذا، وهذا، والمعروف في التاريخ -وهذا ذكره جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن معبودات هؤلاء في الجاهلية لربما سمعوا من يكلمهم منها فيفتنون بذلك، وهؤلاء الذين يكلمونهم منها هم شياطين، شياطين تلعب بهم فتنطق، فيسمعون صوتاً يجيبهم ويرد عليهم، كما ذكر شيخ الإسلام في الفرقان وغيره عما يحصل لبعض ضلال الصوفية، تجده يستغيث بشيخه بالجيلاني أو بالعيدروس أو بغيره، هذا في المشرق وهذا بالمغرب، فيرى يداً تنتشل السفينة تخرجهم من البحر، وهذه شياطين، ولربما رأى يد شيخه تأكل معه -يعرفها-، فيُضللون بسبب هذا، ويحصل لهم أشياء عجيبة من تلاعب الشياطين بهم، فيضلون ويظنون أن هذا من الحق، وذكرت لكم في بعض المناسبات -بعد صلاة العشاء- مرة ما ذكره الحافظ ابن كثير عن رجل عابد في زمن الوليد بن عبد الملك، رجل عابد كتب لأبيه وهو في الشام، يقول: قد عرض لي الشيطان، يقول يعني: انصحني، ذكرني، أرشدني، ماذا أفعل؟، فقال له: امض لما تؤمر، فإن الله يقول: **{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}** [سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٢]، وأنت لست بأفاك ولا أثيم، يقول ابن كثير: فأضله أبوه، فكان الرجل يأتي لأهل المسجد واحداً واحداً يكلمهم، ويقول: إن سمعتَ شيئاً قبلته وإلا فاكتم عني، فتبعه جماعة، يقول شيخ الإسلام: فكان يأتي للأسطوانة التي في المسجد من الصفا فينقرها بيده بأصبعه، وكان يأتيهم بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يخرج بهم من المسجد ويريهم، يقول: أريكم الملائكة، ويريهم رجالاً عليهم ثياب وعمائم بيض على خيل، ويقول: هؤلاء هم الملائكة، ففتن خلق بسببه، خلق بسبب هذا الرجل، وتابعوه، فبعد ذلك لما تطلبه الوليد وأُخذ بعد ذلك جعل يقول لهم لمّا أخذه بعض الجنود الأتراك جعل يقول لهم: **{أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}** [سورة غافر:٢٨]، فقالوا له: هذا كرآننا فأت بكرآنك، فلما وضعوه للقتل وضربوه بالحربة انثنت، ما دخلت فيه، فقال: ويحك، يقول لمن ضربه: هل سميت الله؟ قال: لا، قال: فسم الله، قال: بسم الله، فقتله، فانظروا يعني كيف يفتن الناس بسبب هؤلاء الشياطين، وهذا لو كان موجوداً في هذا العصر كانت القنوات الفضائية السيئة تتسابق على إجراء اللقاءات معه، وإبرازه، وتضليل الناس به.

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سَدَنتها وحجابها بنى مُعَتِّب.

قلت: وقد بعث إليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب -رضي الله تعالى عنهما-، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

مسجد ابن العباس الآن الموجود، الجامع الكبير في الطائف هو مكان اللات، وحين أسلموا طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يمهلهم في هدمها لئلا يروعوا نساءهم وصبيانهم، كيف يهدم الإله بهذه السهولة؟!،

---

٣ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٩٠٢)، وقال محققه حسين سليم أسد: "إسناده صحيح".

فأبى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: لا نهدمها بأيدينا، يعني أعفنا من هذا، لا تقل: اهدموها أنتم، ما نستطيع، فأرسل إليهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان فجاءوهم فتجمع النساء والأطفال يريدون أن ينظروا كيف يصنع الإله بهؤلاء الذين جاءوا لهدمه، فتجمهروا حولها، وجعلوا ينظرون، فأخذ المعولَ المغيرةُ بن شعبة فضربها ضربة ثم صاح بأعلى صوته وسقط على قفاه، فجعلوا يهتفون ويقولون: إنها قتلته، ثم قام وجعل يضحك منهم ويستهزئ بهم، ويقول: أين عقولكم؟ وكان فعل ذلك تصنّعاً من أجل أن يتلاعب بهم وأن يريهم أن هذه الأشياء لا حقيقة لها.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشَلّل بقديد، فبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليها أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه.

قال: وكانت ذو الخَلَصة لدَوس وخَثْعم وبَجِيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة.

تبالة: على مسيرة سبع ليالٍ من مكة، يقال: هم بنو مالك، الآن المالكي الذي بين الطائف وبين الباحة، قبيلة بجيلة ودوس من زهران، وموقع ذي الخلصة يزعمون أنه معروف إلى اليوم، نسأل الله ألا يرينا اليوم الذي يعاد فيه بناؤه، وإلا فسيبنى من جديد كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((**لن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخلصة**))**[٤]، يطوفون به.

قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية.

فبعث إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه- فهدمه.

قال: وكانت فَلْس لطيئ ولمن يليها بجبلي طيئ.

ضبطها بالفتح هنا، وفي السيرة لابن هشام مضبوطة بالكسر كانت فِلس، هذا عند أهل طئ في جبل أجا، شيء بارز أحمر من الجبل كأنه تمثال إنسان، فتخيلوه إلهاً فصاروا يعبدونه، جزء من الجبل بارز أحمر كأنه هيئة إنسان فعبدوه من دون الله -تبارك وتعالى-، ولكل مسمى له من اسمه نصيب، فَلس، فِلس.

وكانت فَلْس لطيئ ولمن يليها بجبلي طيئ من سَلمى وأجا.

قال ابن هشام: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث إليه علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرّسُوب والمِخْذَم، فَنفّله إياهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهما سيفا علي.

قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام.

المثبت في ابن هشام رئام بالهمزة.

وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تُبّع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان، برقم (٧١١٦).

قصة تُبع معروفة لما طاف في كثير من البلاد مر بالمدينة التي كان يقال لها: يثرب، وذهب معه اثنان من أحبار اليهود، ويقولون: هو أول من كسا الكعبة، وذهبوا معه حتى بلغوا اليمن، فيقال: هما اللذان هدما هذا، فالله أعلم.

قال ابن إسحاق: وكانت "رُضَاء" بيتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام...

المستوغِر لقب، ويقال إن اسمه عمر وقيل كعب، ويذكر هذا في أخبار المعمرين، يزعمون أنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة، وفي أخبار المعمرين يذكرون أنه عاش أربعمائة وعشرين سنة، يذكرون هذا، وفي بعض أشعارهم ما يدل على أنهم عاشوا مئات السنين، فالله أعلم بهذا هو مبالغة أو أنه يصح، فالمستوغِر هذا لقب له، وربما يكون لقب بهذا؛ لأنه قال بيتاً من الشعر في آخره –شطره الثاني– يقول:

*** نَشيشَ الرَّضْفِ في اللبنِ الوغيرِ.

فقيل له: المستوغِر، والله أعلم.

ولها يقول المستوغِر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدّةً * فَتَرَكْتُها قَفْرًا بِقاعِ أسحَمَا**

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابني وائل، وإياد بِسَنْداد.

بسَنداد وبسِنداد كلها يضبط به، وهذه سِنداد أو سَنداد هي منازل لإياد بأسفل الكوفة، أسفل سواد الكوفة، سَنداد.

وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:

بيْن الخَوَرْنَق والسَّدِير وبَارِقٍ * والبيتِ ذو الكَعَبَات من سَنْدَاد.**

الخَوَرْنَق: هو القصر الذي بناه النعمان، بناه له سِنمّار على هيئة عجيبة، ويذكرون فيه قصة الله أعلم بها، يقولون: إنه بناه بناءً عجيباً، وإنه يقوم على حجر بحيث لو سحب هذا الحجر سقط البناء، فيقولون: بأنه أخذه بعدما اكتمل البناء وألقاه منه.

والسدير يعني: بيت الملك باللغة الفارسية.

بيْن الخَوَرْنَق والسَّدِير وبَارِقٍ * والبيتِ ذي الكَعَبَات من سَنْدَاد**

وليس "ذو الكعبات"، الكعبة: كل بناء مربع عند العرب تسميه كعبة، و"ذي الكعبات" صفة هذا البيت يعني التربيع، مربع.

ولهذا قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}.

{أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى} استشكل هذا بعضهم، قالوا: إن الثالثة ما يقال لها: الأخرى، فوجهه الخليل بن أحمد الفراهيدي بأن ذلك لمراعاة رءوس الآي، **{أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}**، وبعضهم قال: فيه تقديم وتأخير، **{أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى}** الأخرى **{وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ}**، وهذا لا حاجة إليه، والأصل في الكلام الترتيب، وبعضهم قال: إن الأخرى المقصود بها المتأخرة الوضيعة فهو ذم لها، ولا إشكال في هذا، وكلام الله –عز وجل– هو أفصح الكلام، ومنه تؤخذ قواعد اللغة العربية، هي من أين أخذت

إلا من الاستقراء، فالله -عز وجل- قال: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}، فهذا فيه ما فيه من ذم هذه المعبودات، وإنكار أن يكون لها شيء من الإلهية.

ثم قال تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى} أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى...

الأنثى الذي جعلوه يحتمل أن يكون الملائكة، كما قال الله -عز وجل-: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:١٩]، فسماها منهم هنا شهادة مع أنهم ما نطقوا بلفظ الشهادة، وليس ذلك بلازم، {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ}، فالحاصل أن {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى} يحتمل أن يفسر بهذا، فيقال: المراد به أنهم جعلوا الملائكة بنات الله، ويحتمل أن يكون المراد بالإناث التي جعلوها لله -عز وجل- اللات والعزى ومناة، فهي مؤنثة في التسمية كما هو ظاهر، بل قال بعض أهل العلم كابن جرير: زعموا أنهن بنات الله، زعموا أن اللات والعزى هذه ومناة أنها بنات الله، {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى}، لا شك أنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، كما دل على ذلك -على أنهم افتروا هذا- القرآن، وقال أيضاً: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ} [سورة النحل:٦٢] يعني: البنات.

أي أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور؟!، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت {قِسْمَةٌ ضِيزَى} أي: جوراً باطلة.

{ضِيزَى}، وفي القراءة الأخرى المتواترة قراءة ابن كثير بهمزة: ضِئزى.

فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفها؟!.

ثم قال تعالى منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: {إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} أي: من تلقاء أنفسكم.

كما قال الله -عز وجل- في سورة يوسف: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا} [سورة يوسف:٤٠]، يعني لا حقيقة لها، هذه أسماء افتريتموها واخترعتموها، فجعلتم هؤلاء آلهة وسميتموهم بهذه الأسماء، وهي لا حقيقة لها.

{مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} أي: من حجة، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ} أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم.

لأنهم ليس لهم إلا اتباع الشهوات والشبهات، اتباع الظن هذا يدخل فيه ألوان الشبهات، وما تهوى الأنفس يدخل فيه الشهوات، فهم بين شهوة وشبهة، لا يتبعون وحياً، وليس لهم بذلك علم.

وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به، ولا انقادوا له.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النجم من الآية (٢٤) إلى الآية (٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

ثم قال تعالى: {أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى} [سورة النجم:٢٤] أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [سورة النساء:١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتدٍ يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته))[1]، تفرد به أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى} "أم" هذه هي المنقطعة، وهي مفسَّرة ببل والهمزة، أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له، وهذا الحديث الذي أورده في إسناده ضعف.

وقوله: {فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأولَى} أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

كما قال الله -عز وجل-: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٩١]، الدنيا والآخرة كلها لله -تبارك وتعالى-، وهو مالك يوم الدين، فذلك اليوم العظيم هو ملك له -تبارك وتعالى- وما دونه من باب أولى، {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} [سورة الليل:١٣].

وقوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}، كقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين -عليهم السلام- فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟!.

هذه الآية تضمنت شرطين من شروط الشفاعة {إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}، يأذن للشافع أن يشفع، ويرضى بالشفاعة، أو يرضى عن المشفوع له، وكذلك قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {وَلَا

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٦٨٩)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة عند التفرد، إسحاق: هو ابن عيسى ابن الطباع، وأبو عوانة: هو الوضاح بن عبد الله اليشكري"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٤٩٦١).

تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، ولهذا قال الله –عز وجل– في سورة البقرة: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة:١٢٣]، فالشفاعة المنفية "ولا تنفعها شفاعة" تفهم على ضوء هذه الآيات، والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [سورة النجم:٢٧-٣٠].

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله –تعالى الله عن ذلك– كما قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:١٩]؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} أي: ليس لهم علم صحيح يصدّق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} أي: لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث))[٢].

وقوله: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا} أي: أعرِضْ عن الذي أعرَضَ عن الحق، واهجره.

في قوله هنا: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، "إن" هذه نافية، يعني ما يتبعون إلا الظن، والمقصود بالظن الذي يرد ذمه في القرآن هو التخرص والظنون الكاذبة فيما يطلب فيه العلم واليقين، وهذا لا ينافي أنه يجوز العمل بالظن في بعض الأحوال، والمقصود بالظن الذي يُعمل به هو طرف الرجحان؛ لأن القسمة كما هو معلوم رباعية فالعلم يعني اليقين، هذا أعلاه، ثم بعد ذلك تأتي الأقسام الثلاثة، فما استوى فيه الطرفان فهو الشك، والطرف الراجح الذي لم يصل إلى مرتبة اليقين يقال له: الظن، والطرف المرجوح يقال له: الوهم، فالوهم لا يجوز اتباعه، والشك لا يفيد، والطرف الراجح الذي هو الظن يجوز العمل به، وكثير من المسائل يمكن أن نقول: هي من الظن، كجميع المسائل الاجتهادية، وهكذا، سواء كان ذلك في الفقه، أو كان ما يقوله المفسر، ففي كثير من المواضع إنما هو ظن راجح، يعني هل يستطيع أن يقطع ويجزم ويقول: هذا هو مراد الله –عز وجل– بهذه الآية؟، ما يستطيع، يقول: الأقرب كذا، الأرجح كذا، فهذا ظن، ولا يكون ذلك مذموماً، ونصوص الشريعة تدل على هذا، فليس هذا هو المقصود بالظن الذي ذمه الله –عز وجل–، وذم متبعيه، إنما ذاك هو أن هؤلاء يتبعون الظنون الكاذبة والتخرصات، ويتركون العلم واليقين الذي جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {عَن مَّن تَوَلَّى} أي: أعرَضَ عن ذكرنا، قال: أعرِضْ عن الذي أعرَضَ عن الحق، واهجره، {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}، فسره بعضهم بالآخرة، وهذا التفسير إن قبل فغاية ما هنالك أنه داخل ضمن بعض المعاني التي ذكرها السلف، وقال بعضهم: المراد به ذكر الله –تبارك وتعالى–، وذكره يشمل ذكره بالقلب، واستحضار عظمته –سبحانه وتعالى– ومراقبته، فلم يذكره بقلبه، ويشمل ذكره باللسان، فهو

---

٢ – رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، برقم (٦٠٦٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، برقم (٢٥٦٣).

غافل، كما هو حال المنافقين **{وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [سورة النساء:١٤٢]، ويشمل ذكره أيضاً بالجوارح بالتعبد بالأعمال الصالحة، **{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}**، أي: لم يذكر ربه -تبارك وتعالى-، غافل القلب، معطل اللسان والجوارح من ذكر الله -عز وجل-، ومن كان كذلك فهو غافل عن ذكر الآخرة بهذا الاعتبار، وبعضهم خص ذلك بالقرآن، **{تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}** أي: مذكورنا؛ لأن الذكر مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}** [سورة طه:١٢٤] وهذه كتلك من حيث إن المصدر يحتمل المعنيين، **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}**، يمكن أن يكون هنا الذكر مراداً به المعنى المصدري، **{عَن ذِكْرِي}**، ويمكن أن يكون بمعنى المفعول، فيحتمل أن يكون المراد **{أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}** أي: لم يذكرني، ويحتمل أن يكون **{أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}** أي مذكوري وهو كتابي وكلامي، فالقرآن يقال له: ذكر، **{أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}** أي: عن كتابي، تحتمل المعنيين، وكل واحد من هذين المعنيين صحيح، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذه الآية هنا **{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}**، أي: لم يذكر ربه، فغفل عنه بقلبه ولسانه وجوارحه، وأيضاً **{تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}** أي: الكتاب الذي أنزله الله -تبارك وتعالى- تركه وهجره، **{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}** [سورة الفرقان:٣٠].

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي أعرِضْ عن الذي أعرَضَ عن الحق، واهجره،** لا يخالف ما ذكرت؛ لأن الذي أعرض عن كتاب الله -عز وجل- يكون معرضاً عن الحق، ومن أعرض عن ربه -تبارك وتعالى- فلم يذكره بقلبه ولسانه وجوارحه يكون معرضاً عن الحق.

وقوله: {وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولذلك قال تعالى: {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه.

هذا هو المتبادر أن الاسم الإشارة "ذلك" يرجع إلى ما قبله مما ذكر، **{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}**، الدنيا هي همهم الوحيد التي بها يفكرون، ومن أجلها يعملون، وعلمهم وبصرهم إنما هو متوجه إليها، ومن أهل العلم من قال: إن المراد **{ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ}** أن هذا يرجع إلى قول المشركين: إن الملائكة بنات الله، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، **{ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}** هؤلاء الجهلة هذا هو علمهم وغاية ما وصلوا إليه، والمعنى الأول: **{ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}** أي: إرادة الحياة الدنيا والعلم بها والبصر بها، بصير بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة، هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وفي الدعاء المأثور: "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا، ولا مَبلغَ علمنا".

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبدًا، لا في شرعه ولا في قَدَره.

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [سورة النجم:٣١-٣٢].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلَقَ الخلق بالحق، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} أي: يجازي كُلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

اللام في قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا} لاحظ سياق الكلام، {ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}، اللام هذه {لِيَجْزِيَ} متعلقة بماذا من الكلام المذكور قبلها؟

يحتمل أن تكون متعلقة بما دل عليه الكلام في الآية الأخيرة، {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، كأنه يقول: هو مالك ذلك، {يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة فاطر:٨]، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ} ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}، أن الله مالك الملك، يملك ذلك جميعاً {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ} ليجزي المسيء، فالله مالك السماوات والأرض فهو يملك الهدى والضلال والعطاء والمنع، ويهدي من شاء من عباده، ويضل من شاء، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا} يجزي المسيئين والمحسنين كُلاً بعمله، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى}، ويكون ما بينهما جملة اعتراضية، يعني يكون الكلام هكذا، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى}، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}، ويكون {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} جملة اعتراضية، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا}، فالملك ملكه والخلق عبيده، فتكون هذه جملة معترضة، ويحتمل أن تكون اللام هذه لام العاقبة، يعني أن عاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن الله يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا} [سورة النساء:٣١]، وقال هاهنا: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، وهذا استثناء منقطع.

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} قرأه حمزة والكسائي: {الذين يجتنبون كبير الإثم والفواحش}، {كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}، الفواحش من الكبائر، فهذا -والله تعالى أعلم- من عطف الخاص على العام، فالكبائر هي ما يقابل الصغائر، والعلماء تكلموا في حد الكبيرة بكلام كثير، ولعل من أحسن ما قيل فيها أنها كل ذنب ورد فيه عقوبة خاصة في الدنيا أو في الآخرة، أو وعيد -مثل الحدود في الدنيا السرقة والزنا وما أشبه ذلك- أو لعن، أو عقوبة مخصصة في النار أو نحو ذلك، فهذا كله من الكبائر، وما في معناه، أو كان بمنزلته أو أشد، ومن أهل العلم كابن الصلاح قال: إن هذه السبع يلحق بها ما كان أشد منها أو في درجتها، الآن هناك أشياء غير مذكورة في السبع الموبقات، ولا مذكورة حتى في الكبائر، ما حكمها؟ يعني الآن من الكبائر التولي يوم

الزحف، هذا إنسان لم يحتمل حينما رأى العدو فامتلأ قلبه فرقاً، فلم تثبت قدمه في أرض المعركة ففر لغلبة الخوف، هذه من السبع الموبقات المهلكات، وهي من جملة الكبائر، بل من أكبرها، أيْ أعظمُ هذا أو الذي يذهب ويخبر عن دواخل المسلمين، ومواطن الضعف عندهم يُعلم عدوهم بذلك فيستأصلهم، أي أعظم هذا الفار أو الذي هو جالس يخبرهم كعمل المنافقين، يخبرهم عن الثغرات التي يمكن أن يدخل منها العدو؟ ما في مقارنة، مع أن هذا لم يذكر في السبع الموبقات، فذكر هذه الأشياء لا يعني أن ذلك يختص بها، بل يدخل فيها ما كان مثلها أو أشد، فهنا {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}، الكبائر تقابل الصغائر، والفواحش هي من جملة الكبائر، وتفسر بمعنيين، معنى عام، ومعنى خاص، والمعنى العام الذي تفسر به هو الأصل الذي دل عليه كلام العرب، والمعنى الخاص إنما هو في عرف الاستعمال غالباً، فالمعنى العام: الفواحش هي كل ذنب عظيم، فالشيء الذي يكون كثيراً أو متعاظماً تقول له العرب ذلك، تقول: هذا مال فاحش، وعمل فاحش، وقول فاحش، "لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- فاحشاً ولا متفحشاً"[3]، وتقول: هذا دم فاحش، وهكذا، فالشيء الكثير يقال له ذلك، هذا في أصل اللغة، وأما في عرف الاستعمال فغالباً ما يطلق ذلك على لون من الذنوب وهو الزنا وما في معناه، يقال له: الفاحشة، {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} [سورة الإسراء:32]، وذكرنا مراراً أن بعض أهل العلم يفصل في هذه، ويقول: إن هذا اللفظ إذا جاء معرفاً بــ"ال" في القرآن فهو الزنا وما في معناه، {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ} [سورة النساء:15] يعني: الزنا، وإنه إن جاء منكّراً فإن ذلك يحمل على الذنب العظيم، إن جاء منكراً، وإن جاء مقيداً بالبيان {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [سورة الأحزاب:30]، {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} [سورة الطلاق:1] يعني: المطلقات، {وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، فمن أهل العلم من يقول: إن هذا بمعنى عقوق الزوج، هكذا قال بعض أهل العلم، ولا يخلو من إشكال، والسياق يبين المراد، فهنا {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}، الفواحش: كل ذنب عظيم يقال له: فاحشة، ويدخل في ذلك الزنا دخولاً أولياً لغلبة ذلك وتوجهه إليه عند الإطلاق، حينما يقال: الفاحشة، والله أعلم.

وقال هاهنا: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، وهذا استثناء منقطع.

الاستثناء المنقطع عرفنا أنه بمعنى "لكن"، يعني إذا كان استثناءً منقطعاً يكون الكلام هكذا: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} لكن اللمم يقعون فيه، فهذا بناء عليه -إذا قلنا: إنه استثناء منقطع- يكون اللمم ليس من جملة كبائر الإثم ولا الفواحش، وإذا قلنا: إن الاستثناء من قبيل المتصل ولا شك أن الأصل في القرآن، وحتى في غيره من الكلام الأصل في الاستثناء الاتصال، وليس الانقطاع، لكن السياق يبين المراد، والقرائن والأدلة الأخرى، فهنا إذا كان الاستثناء متصلاً يكون الكلام هكذا: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، فيكون اللمم من جملة الفواحش أو الكبائر، لكن يقع منهم ذلك على سبيل الفلتة، ليس عادة، ولا كثيراً، ولا يصرون عليه، لربما وقع للواحد منهم وقوعاً نادراً، فيتوب، والمقصود هنا بيان الاستثناء هل هو متصل أو لا؟، وما الذي يترتب عليه بناءً على ذلك؟، والمشهور الذي عليه جماهير أهل العلم سلفاً وخلفاً: أن

---

3 - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (3559)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه -صلى الله عليه وسلم-، برقم (2321).

الاستثناء منقطع، فاللمم ليس من جملة الفواحش، بمعنى أن المستثنى ليس من جملة المستثنى منه، ليس من جنسه أصلاً، مثلما تقول مثلاً: جاء القوم إلا فرساً، الفرس ليس منهم، وهذا استثناء منقطع، واللمم يفسر بمعنيين، وكلاهما معروف في اللغة وفي كلام العرب وأشعارهم، فهو يطلق على الشيء القليل، يقال له: لمم، الشيء الصغير، تقول: ألمّ بالمكان أي قل لبثه به، ما طوّل، ألم بالمكان، الشيء القليل، والعرب أيضاً تعبر به عن معنى القرب والدنو من الشيء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن مما أنبت الربيعُ ليقتل حبطاً أو يُلم))، يعني: يوشك، يقارب يقتل حبطاً، والحبط: الدابة تأكل حتى ينتفخ بطنها من كثرة الأكل، ثم بعد ذلك تموت، فهذا بمعنى الدنو القرب، وفسر أيضاً بما يعمله الإنسان مرة أو نحو ذلك، ولكنه لا يكثر منه ولا يتعلق فيه، ولا يقيم عليه، الآن صار عندنا اللمم يأتي بمعنى مقاربة الشيء، أو الشيء القليل، وكذلك أيضاً بمعنى الشيء الصغير، فإذا كان الاستثناء متصلاً يفسر بالقليل، **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}** يعني أنه يقع له ذلك -إن وقع- قليلاً أو نادراً، ويمكن أن يفسر بمعنى المقاربة والدنو، يعني **{يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}** بمعنى: أنه إلا ما يحصل لهم من مقاربة ذلك، يعني الفواحش والكبائر والدنو دون المواقعة، يحتمل هذا، وإذا فسر بأنه منقطع **{إِلا اللَّمَمَ}** فإنه يمكن أن يفسر بالشيء الصغير، ويمكن أن يفسر بالدنو أيضاً والمقاربة، **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}**، من أهل العلم من يفسر الكبائر بالشرك هنا، والفواحش بالزنا وما في حكمه، كابن جرير، واللمم يحتمل هذا وهذا، والجماهير -أو الأقرب- أن المقصود باللمم الصغائر، والإنسان لا فكاك له، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو واقع فيه لا محالة))[4]، وذكر زنا العينين وزنا اليد وزنا الرجل، فهذا من اللمم، لا بمعنى أن الإنسان يتقصد هذه الأشياء ويقول: إلا اللمم، ويحتج بهذه الآية، فإن الإصرار على الصغائر يصيّرها كبائر، ولهذا قال بعض أهل العلم: كل الذنوب كبائر لا يوجد صغائر وكبائر، وهذا الكلام فيه إشكال، لكن يمكن أن يوجه بمعنى: فلتنظر إلى من عصيت، يعني هي في حق الله، يعني حينما يجترئ الإنسان على هذا الرب العظيم الأعظم فإن ذلك يعد كبيراً، لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، ومن الناس من يضره هذا، كما ذكرنا في مناسبات شتى أن من الناس من يتضرر بالعلم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن كل ما أنبت الربيعُ ليقتل حبطاً أو يُلم، إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها...))[5] إلى آخره، فالربيع هذا لمّا سأل الرجل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المال قال: أوَيأتي الخير بالشر؟ فقال: ((إن الخير لا يأتي بالشر، ولكن إن مما أنبت الربيعُ ليقتل حبطاً أو يُلم))[6]، وهكذا العلم، من الناس من يضره العلم، شخص يراود شخصاً على فاحشة ويحتج له بالآية **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}**، فهذا لا يصح بحال من الأحوال أبداً، هذا الإنسان مصر ومجرم وظالم على كل تقدير، حتى على تفسير هذا أنه يقع منه، ليس معنى ذلك أن يحتج بالآيات ليترخص فيها على

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، برقم (٦٢٤٣)، ومسلم، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، برقم (٢٦٥٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٤٢٧).

٦ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١١١٥٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

الجرائم ومعصية الله -عز وجل-، لكن الإنسان قد تزل قدمه، يخطئ، يذنب، فلا يكون هذا هو نهاية المطاف، يتوب يبادر إلى التوبة، {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠١] عرف أنه مخطئ ورجع، {وَإِخْوَانُهُمْ} [سورة الأعراف:٢٠٢١] إخوان الشياطين، {يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٢] استمروا، ويرى في ذلك انشراحاً وانبساطاً، وفرصاً لا يمكن أن تعوض، فيكون ذلك هو ديدنه وعمله.

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهِي، والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكَذِّبه))[٧]، أخرجاه في الصحيحين.

روى ابن جرير أن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويُصدّق ذلك الفرج أو يُكَذِّبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللَّمَم"[٨]، وكذا قال مسروق، والشعبي.

وقال عبد الرحمن بن نافع -الذي يقال له: ابن لبابة الطائفي- قال: سألت أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن قول الله: {إِلا اللَّمَمَ} قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

لا يفهم من هذا بحال من الأحوال أن الإنسان يترخص، ينظر إلى النساء وينظر إلى ما حرم الله وينظر إلى القنوات ويقول: إلا اللمم، هذا من اللمم، وما يدريك أن الله يغفر لك هذا، فالمغفرة تتوقف على وجود شروط وانتفاء موانع، ثم هذه الذنوب إذا تكاثرت فكما صوّر النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء هذا بعود وهذا بعود وهذا بعود، فتحرق صاحبها، ثم أيضاً هذه الذنوب ما يدريك أنه لا يُختم للإنسان بها، ثم أيضاً الذنب يجر إلى ذنب ويدفع الطاعة، فإذا عصى الإنسان ربه فإن ذلك يدعوه إلى معصية أخرى، ثم أيضاً هذه المعصية يتغير معها القلب شيئاً فشيئاً حتى يطمس عليه، لاسيما بعض الذنوب، ثم أيضاً أين الخوف من الله -عز وجل-، وأين مراقبته؟، فإن الاستخفاف به سبب أكيد لسخطه على العبد، وإذا سخط على العبد فلا خير فيه ولا في عيشه، إنما ما يقع من الإنسان، ولابد أن يقع من الإنسان، لابد فهذه الأمور لا يمكن أن يتوقاها، فيبادر إلى التوبة منها، وإلا لأحرقت الناس الذنوب، والله -تبارك وتعالى- كما في الحديث أن: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر))[٩]، وما ذكر من أثر

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند بهذا اللفظ، برقم (٧٧١٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٨ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٧٠٦٠).

٩ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، برقم (٢٣٣).

الوضوء، لكن لو فكر الإنسان في الأعمال التي يقع فيها كثير من الناس، التفريط في الصلاة حتى يخرج الوقت هذا ليس من اللمم، الغيبة التي هي فاكهة المجالس ليست من اللمم، البهتان ليس من اللمم، كثير من الأمور التي يواقعها الناس ليست من اللمم، الإنسان الذي يأتي لأولاده بدش يشاهدون فيه ما حرم الله هذا ليس من اللمم، ((ما من عبد يسترعيه الله رعية فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة))[10]، هذا من عظائم الذنوب، فكثير من الأشياء يتساهل فيها الناس، النساء الكاسيات العاريات ليس هذا من اللمم.

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} أي: رحمته وَسِعَت كل شيء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة الزمر:٥٣].

وقوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ} أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وكذا قوله: {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} قد كتب الملك الذي يُوكَّل به رزقَه وأجَلَه وعمله، وشقي أم سعيد.

هذه الآية أو هذا التعقيب بعد قوله: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ} هذا فيه تهديد، فالله -عز وجل- عالم بالخفيات والأعمال والسرائر وما يجترمه العبد علانية أو سراً فكل ذلك الله مطلع عليه، فيجزي كُلاً بعمله، {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ}، فهو عالم بهؤلاء، وعالم بمن يقعون في ذلك، عالم بالمجترئين عليه، وعالم بمن يتقيه ويخشاه، ولذلك نهى عن تزكية النفوس بعده {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}، لا تزكِّ نفسك، والناس كما قال الإمام أحمد لما أثنى عليه رجل، قال: إنما نعيش في ستر الله، ولو كشفه عنا لافتضحنا، وهكذا الإنسان في ذنوبه وتقصيره لولا ستر الله -عز وجل- لافتضح، فكل إنسان مقصر ومذنب، وإنما يستره ربه -تبارك وتعالى-، ومن الناس من يهتك ستره فيُفضح في العالمين، وليس معنى ذلك أنه الوحيد الذي عمل هذا، هناك كثيرون، ولكن الله -تبارك وتعالى- سترهم، {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}، وذلك يشمل المعنيين، -والله أعلم-، لا تزكِّ نفسك، بعض الناس إذا جاء يسأل يقدم بمقدمة، يقول: أنا ملتزم، أنا شاب ملتزم، وبعدين يبدأ يتكلم، ما تغتاب الناس في المجالس؟ ما تصور؟ هذا من الكبائر، ما تعق والديك؟ هذه أشياء متفشية من الكبائر التي قد عمت وطمت، والعقوق من أكبر الكبائر، يرفع صوته على أبيه أو أمه، أو يقول له: اجلس هنا، أو لا تذهب، لا تخرج هذه الليلة أو كذا، ويذهب، فهذا من العقوق، ليس هذا من اللمم، فالشاهد {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}، لا تزكِّ نفسك، بل يجب أن تعترف وأن تعرف تقصيرك وذنوبك وإسرافك على نفسك، لكن أحياناً التزكية تكون بالإزراء على النفس، أحياناً، {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [سورة البقرة:٢٢٠]، ما يخفى عليه شيء، يجلس الإنسان يزري على نفسه، ويقول: أنا المذنب وأنا، وأنا وهو يقصد تزكية نفسه، يقال: ما شاء الله عليه متواضع، وقد يقولها من هو كذلك، شيخ الإسلام -رحمه الله- كان يقول: أنا المُكدّي وابن المُكدّي، وكان يقول: ما مني شيء ولا لي

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، برقم (١٤٢).

شيء، فما كل من قال هذا يكون يزكي نفسه، لكن أحياناً يكون يزكي نفسه بهذا، الإزراء على النفس أحياناً في الملأ مدح لها، **{وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** ما يخفى عليه شيء، فالشاهد: لا تزكِّ نفسك، **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}**، وأيضاً لا تكون مداحاً، لا تزكِّ الآخرين، فكل واحد من هذين المعنيين صحيح، فإن نفوس أهل الإيمان مثلاً بمنزلة النفس الواحدة، كما قال الله –عز وجل– في بني إسرائيل: **{فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}** [سورة البقرة:٥٤] ليس المراد أن يقتل نفسه، وإنما فليقتل بعضكم بعضاً، قتلَ بعضُهم بعضاً، قيل: أُلقي عليهم الغمام، وصار الرجل يضرب أباه بالسيف وأخاه، كذلك **{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** [سورة النساء:٢٩]، هل معنى ذلك أن يأكل الإنسان مال نفسه بالباطل، أو مال إخوانه؟ مال إخوانه، فهنا **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}** أيضاً: لا تجلس تمدح، وتقول: فلان تقي، وفلان شهيد، وفلان كذا، الله –تبارك وتعالى– هو العليم بأهل التقوى، ولهذا فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– نهى عن هذا وقال: ((إن كان فاعلاً لا محالة فليقل: أحسبه، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً))[١١]، إذا كان الإنسان لابد له من هذا، احتاج إليه، سئل عن هذا الشخص ليتزوج مثلاً، يقول: الله يقول: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}**، رجل مواظب على المسجد، رجل من أهل الخير والصلاح والتقوى وكذا، هكذا أحسبه، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً؛ لأنه قد يوجد فيه أشياء أنت لا تعلمها، أنت تتكلم بما ظهر لك، وقد يكون في باطن الأمر من أفجر عباد الله، بل قد يكون واقعاً في الشرك، قد يكون ساحراً، قد يكون دجالاً وأنت لا تدري، فقل: أحسبه، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أما أن نتبنى شخصاً نزكيه ونقطع بهذا فهذا لمن شهد له الله –عز وجل– أو رسوله –صلى الله عليه وسلم–، ولهذا لا نحكم لأحد بالجنة إلا لمن شهد له الله –عز وجل–، ومن أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– من قال: من استفاض في الأمة صلاحه وخيريته وإمامته في الدين وما أشبه ذلك يمكن أن يقال، من أهل العلم من قال هذا، يعني الأئمة الكبار مثل مالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري وأمثال هؤلاء، هؤلاء أئمة في الدين، والإنسان لا حاجة له لمثل هذا، وإنما نشهد لمن شهد له الله –عز وجل– وشهد له الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالجنة، ومن عداهم نقول: نرجو لهم الخير، ونرجو لهم المنازل العالية في الآخرة، لكن القطع بهذا فيه إشكال، والرجل الذي أثنى الصحابة عليه وعلى بلائه في سبيل الله، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((هو في النار))، فتبعه رجل منهم فوجده جرح جراحة شديدة فوضع السيف بين ثدييه وتحامل عليه ثم قتل نفسه[١٢]، وكذلك الرجل الذي قتل في سبيل الله فقالوا: هنيئاً له الجنة، أو نحو هذا، فأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه في النار ((إن الشملة التي غلّها لتسعر عليه في قبره))[١٣]، نحن لا ندري، ولذلك تجد في البخاري باب لا يقال: فلان شهيد، فيه أثر عمر –رضي الله عنه–: تقولون لقتلاكم: فلان شهيد، فلان شهيد،

---

١١ – رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلا كفاه، برقم (٢٦٦٢)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، برقم (٣٠٠٠).

١٢ – رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، برقم (٢٨٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، برقم (١١٢).

١٣ – رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم (٤٢٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، برقم (١١٥).

الله أعلم بمن يقاتل في سبيله، فهل يعمل الإنسان معصية غير العمل السيئ الظاهر؟، نعم، تبقى قضية النية أصلاً تتقلب على الإنسان تقلباً سريعاً، ويصعب عليه أن يسيطر على هذه النية، وهذا الإنسان الذي يصلي أو يجاهد أو ينفق –الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار يوم القيامة– أو يطلب العلم قد تضطرب عليه نيته، وقد لا يحاسب نفسه، ولا يراقبها فيسترسل مع نية فاسدة، ولذلك تجد من الناس من يقاتل على الرئاسات وليس له هم إلا أن يحصل الشهرة بأي ثمن ولو بالكذب على الله –عز وجل–، ليس له هم إلا هذا، –نسأل الله العافية–، وكل من جاء يريد أن يعمل معه لقاء يعمل معه لقاء حتى لو كان أفجر الناس، ولو كان امرأة في غاية التبرج والسفور، المهم أنه يحصّل مزيداً من الأضواء، فأحياناً لا يكون العمل في الظاهر معصية، قد تكون أعماله التي يعملها في الظاهر حسنة لكن النية تضطرب على الإنسان فيحتاج إلى التعاهد لها، **{فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}**، لا تزكِّ نفسك ولا يزكِّ بعضكم بعضاً.

وقوله: {فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [سورة النساء:٤٩].

وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سَمّيْتُ ابنتي بَرّةَ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ بَرَّة، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا: بم نسميها؟ قال: سموها زينب))[١٤].

وقد ثبت أيضا في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكْرَة عن أبيه –رضي الله تعالى عنه– قال: مدح رَجلٌ رجلاً عند النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك –مرارًا– إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك))[١٥]، وكذا رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه.

وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: "أمرنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب"[١٦]، ورواه مسلم وأبو داود.

---

١٤ – رواه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما، برقم (٢١٤٢).

١٥ – رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلا كفاه، برقم (٢٦٦٢)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، برقم (٣٠٠٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٤٦٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم".

١٦ – رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، برقم (٣٠٠٢).

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى} [سورة النجم:٣٣-٤١].

يقول تعالى ذَامًّا لمن تولى عن طاعة الله: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة:٣١-٣٢]، {وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى} قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد، قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: "أكدينا"، ويتركون العمل.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} هل يُقصد به إنسان بعينه الآيات تتحدث عنه، أو أنها تتحدث عن صفة ذميمة ينبغي للإنسان أن يتجنبها؟، {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} البعض يقول: هو الوليد بن المغيرة في القصة التي يذكرون، وما يروى من أنه لما أراد الدخول في الإسلام جاءه من صرفه عن هذا وقال: أنا أتحمل عنك عذاب الله -عز وجل-، على أن يعطيه شيئاً من المال مرة بعد مرة، قدراً معيناً اتفق معه عليه، فوافقه بهذا وأعطاه، ثم بعد ذلك بخل وانقطع، {وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى}، فيكون تولى، تولى عن الإسلام، ومنهم من يقول: هو العاص بن وائل، ومنهم من يقول: هو أبو جهل تولى عن الإسلام، {وَأَعْطَى قَلِيلاً} قال: إن القرآن، أو إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يأمرنا إلا بخير، {وَأَعْطَى قَلِيلاً}، يعني: قال كلاماً حسناً قليلاً {وَأَكْدَى} انقطع، وحينما نريد أن نحدد أنها في فلان أو فلان لابد فيه من شيء ثابت صحيح، وإلا فيبقى أن هذا ذم لمن اتصف بهذه الصفة عموماً، وهذا الذي يعنينا، وسياق الآيات يدل على أن العطاء ليس هو المدح، ليس هو أن إنساناً من الناس أثنى على النبي -صلى الله عليه وسلم- أو على القرآن، لا، وإنما هو عطاء، أعطى شيئاً، أعطى مالاً ثم انقطع، قد يكون ذلك وقع وحصل من إنسان بعينه لكن تبقى هذه الصفة صفة ذميمة تدل على معانٍ رديئة فيمن اتصف بها وكثيرة، توليه وإعراضه وضعف عقله، وشحه وبخله، وقلة صبره على العمل، فالحاصل {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} تولى عن الإسلام، تولى عن الحق، {وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى}، أعطى مالاً، أعطى قولاً حسناً في القرآن، في النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأقرب أنه أعطى شيئاً، مالاً أو نحو ذلك.

يقول: {وَأَعْطَى قَلِيلاً} ثم قطعه {وَأَكْدَى}، وهذه خلاصة المعنى، ودلالات هذه اللفظة {وَأَكْدَى}، النتيجة التي نتوصل إليها حينما نحلل هذه اللفظة في النهاية أنه انقطع، يقول: **وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد، قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل**، إذا اعترضتْ كُدية -بمعنى صخرة- أثناء الحفر، يعني كأنهم يقولون: عجزنا، فينقطعون، ولهذا فسره من فسره، قال: {وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى} أعطى قليلاً ثم قطعه، فهؤلاء انقطعوا عن الحفر بسبب هذه الكُدية، أكدينا، وقال المعلق: كذا وقع في النسخ ولعله "أكدتنا"، بالتاء، إما بضمير الغائب أو بالمخاطب، ولا يلزم، أكدينا صحيحة لا إشكال فيها، والمعنى ظاهر، أكدينا ويتركون العمل، والعرب تقول: أكدى الرجل إذا قل خيره، وهو يرجع إلى هذا

المعنى، ما يطلع منه شيء، مثل هذا الذي يحفر ثم ينقطع، فلا يصل إلى نتيجة، {وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى} يعني انقطع.

وقوله تعالى: {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى} أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟!

قد يكون {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ} أنه يحصل له مثلاً الخلاص والنجاة، مثل الذي يحتج على العطاء في الدنيا على العطاء في الآخرة، في سورة الكهف مثلاً ماذا قال: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} [سورة الكهف:٣٦]، فمثل هذا، أو الذي قال: {إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى} [سورة فصلت:٥٠]، فمثل هؤلاء الذين يتركون العمل ويتكلون على الأماني الفارغة والظنون الكاذبة، {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [سورة المائدة:١٨]، {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [سورة البقرة:٨٠]، {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [سورة البقرة:١١١]، {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى}.

أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً؛ ولهذا جاء في الحديث: ((أنفق بلالاً ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا))[١٧]، وقد قال الله تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة سبأ:٣٩].

وقوله تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} قال سعيد بن جبير، والثوري: أي بلّغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَفَّى} لله بالبلاغ، وقال سعيد بن جُبَير: {وَفَّى} ما أمر به.

لاحظ هذا المعنى أشمل من الذي قبله "ما أمر به" يعني من الطاعة والبلاغ، وأشمل منه المعنى الذي بعده قول قتادة.

وقال قتادة: {وَفَّى} طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وهو يشمل الذي قبله، وهذا هو الأحسن في تفسيره -والله أعلم-؛ لأنه حذف المتعلق، والأصل أن حذف المتعلق يفيد العموم النسبي، يعني: في كل مقام بما يصلح له -حذف المتعلق-، هنا ما قال: وإبراهيم الذي وفى بالرسالة، أو البلاغ، أو وفى بالعبادة، وإنما أطلق ذلك فيشمل أنه وفى بطاعة الله -عز وجل-، ووفى بالبلاغ والقيام بأعباء الدعوة، والصبر على أذى قومه، كل هذا داخل فيه، والله أعلم.

وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [سورة البقرة:١٢٤] فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال.

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} المقصود بالكلمات هنا يعني التكاليف، الأوامر والنواهي فقام بذلك جميعاً.

فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يُقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله.

---

١٧ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠٢٠)، وفي الأوسط برقم (٢٥٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٥١٢).

ولهذا الله -عز وجل- وصفه بأنه أمة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [سورة النحل:١٢٠]، وهو الرجل الجامع لصفات الخير التي تفرقت في غيره في كل باب من الأبواب، تقول: فلان أمة.

قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل:١٢٣].

روى الترمذي في جامعه عن أبي الدرداء وأبي ذر -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الله -عز وجل- أنه قال: ((ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره))[١٨].

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى -عليهما السلام- فقال: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد.

كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ} [سورة العنكبوت:١٢]، {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}.

لا يحمله عنها أحد، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [سورة فاطر:١٨].

{تَدْعُ مُثْقَلَةٌ} أي: نفس مثقلة بالأوزار والذنوب لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى، ولو كان المدعو من قراباته.

{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} أي: كما لا يُحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصّل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه.

كلام أهل العلم في هذه الآية وتوجيهها والجمع بينها وبين الأدلة الأخرى التي تدل على أنه ينتفع بعمل غيره كلام كثير، مِنهم من قال: هذه الآية أصلاً منسوخة، وهذا بعيد، والنسخ كما في القاعدة "أنه لا يثبت بالاحتمال"، فإذا أعرضنا عن الأقوال الكثيرة الضعيفة والبعيدة والمتكلفة تبقى بعض الأقوال قريبة ومن أحسنها ما ذكره شيخ الإسلام -رحمه الله- من أن المراد، {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} أن الإنسان لا يملك إلا سعيه، ولا يملك سعي الآخرين، فهذا الذي قررته الآية، لكن الآية لم تنفِ أن غيره لو أعطاه من سعيه أنه يحصل له، الآية تتحدث أنه يملك عمله، كما أن الإنسان يملك ماله، وليس له يد على أموال الآخرين، فإذا أعطوه من مالهم صار له، وهكذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[١٩]، ولو غيرُ الولد، إنسان حج عنه، أو اعتمر عنه، أو تصدق عنه أو دعا له يحصل له الأجر، فهذه الآية دلت على أنه إنما يملك سعيه ولا يملك سعي غيره، لكن لم تمنع -لم تنفِ- أن يصل إليه شيء من سعي غيره إذا تبرعوا به له، يملكون هذا، والعلماء مختلفون في مسألة إهداء الثواب، هل يختص هذا بما ذكر في الأحاديث فقط، مثل

---

١٨ - رواه أبو داود، أبواب صلاة السفر، باب صلاة الضحى، برقم (١٢٨٩)، والترمذي واللفظ له، أبواب الوتر، باب ما جاء في صلاة الضحى، برقم (٤٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٤٦٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٣٩).

١٩ - رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (١٦٣١).

قضية الحج، ونحو ذلك مثلما ورد في الصيام ((من مات وعليه صيام صام عنه وليه))[٢٠]، وقضية الصدقة -حديث سعد بن عبادة-، ومثل هذه الأشياء، هل هو مختص بما ورد به الحديث أو أن ذلك يشمل الدعاء، ويشمل العبادات المالية عموماً، وما ترتب منها مثل الحج والعمرة، البدن يعني، أو أن ذلك يشمل الجميع كل الأعمال، فيدخل فيه إهداء ثواب قراءة القرآن، وما إلى ذلك من الأعمال، طواف مثلاً، طاف ويهدي ثواب هذه السبع لأحد من الناس، والخلاف في هذا مشهور وكثير ومعروف، أما الأمور المالية فلا شك أنها تصل، والدعاء كذلك، والأحاديث تدل على هذا، والحج والعمرة، تبقى العبادات البدنية المحضة فيقال للناس: مثل هذا لا يشرع، لكن لو أنهم فعلوه وأهدوا الثواب، قرأ قرآناً وأهدى ثوابه لفلان من الناس، الذي أظنه أقرب -والله أعلم- أن الثواب يصل، أن ثوابه يصل، وهذه إحدى المسائل التي خالف فيها ابن القيم -رحمه الله- شيخه شيخ الإسلام بقوة، فهذا قول ذكره شيخ الإسلام وتبناه، وهو من أقربها وأحسنها، ومن أهل العلم من يقول مثل ابن القيم، يقول: **{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}** بمعنى: أن نجاته تتوقف على سعيه وعمله، لا يتكئ على الآباء والأسلاف والأنساب والقرابات والشيوخ وما أشبه ذلك، ويظن أن ينجو بهذه الأمور، ليس لك إلا عملك، هذا هو المراد، وهذا معنى لا إشكال فيه، ولا ينافي القول الأول، ومن الأقوال القريبة في هذا أيضاً قول ابن عقيل الحنبلي: إن ذلك جميعاً يرجع إلى سعيه **{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}**، فيقول: الإنسان بسعيه حصل له الأولاد، فهم من سعيه، والزوجات، والأصحاب والأصدقاء والمعارف فهو بإحسانه إلى الناس وتلطفه بهم وما إلى ذلك صارت ألسنتهم تلهج بالدعاء له، فكل ذلك إنما متولد من عمله، يعني لو كان إنساناً سيئاً أو إنساناً سلبياً تماماً كان الناس ما ذكروه بالخير ولا دعوا له، فهو يقول: إن ذلك كله يرجع إلى سعيه والأعمال التي يزاولها من إحسانه إليهم، فيصل إليه من الأعمال والأجور من هؤلاء الناس، وكذلك يحتج لهذا بأن الإنسان في سعيه وتقلبه مع الناس وكذا يحصل له أجور لا تحصل له بمفرده، يعني إذا صلى مع أخيه جماعة -انضم هذا إلى هذا في الصلاة- فصار بسبع وعشرين، صلاة الجماعة، وهكذا العبادات التي تقام في الجماعة، صلاة التراويح مثلاً ونحو هذا، وهكذا أعمال كثيرة مما يعملها مع غيره من الناس، فيحصل له بسبب ذلك من الأجر المضاعف الكثير، وهناك من العبادات أصلاً ما لا تقوم إلا جماعة، لا يقوم بها الإنسان بمفرده.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به))[٢١]، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: ((إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه))[٢٢]، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه

---

٢٠ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، برقم (١٩٥٢)، ومسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، برقم (١١٤٧).

٢١ - رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (١٦٣١).

٢٢ - رواه النسائي، كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، برقم (٤٤٥٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٤٠٣٢)، وقال محققوه: "حديث حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (٢١٦٢).

هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} الآية [سورة يس:١٢]، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله.

فهذه الآثار تشمل المعنيين، الآثار مثل الخطى إلى المساجد، الخطى إلى مجالس العلم، إلى طاعة الله –عز وجل–، وكذلك أيضاً الآثار من وقف، أو صدقة جارية، أو علم ينتفع به، فهذه من الآثار التي يتركها الإنسان.

وثبت في الصحيح: ((من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا))[٢٣].

وقوله تعالى: {وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٠٥] **أي: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: {ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى} أي: الأوفر.**

---

٢٣ – رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النجم من الآية (٤٢) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى} [سورة النجم:٤٢-٥٥].

يقول تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} أي: المعاد يوم القيامة.

روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأوْديّ قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} أي: خلق في عباده الضحك، والبكاء وسببهما، وهما مختلفان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} يقول: **أي خلق في عباده الضحك والبكاء، وسببهما**، من أهل العلم من فسره بلازمه، فقالوا: {أَضْحَكَ وَأَبْكَى} أسعد قوماً، وأشقى آخرين، وهذا ليس تفسيراً بالمطابق، وتفسيره على ظاهره أن الله -تبارك وتعالى- أضحك قوماً وأبكى آخرين، يُضحك معناه -كما في عبارة ابن كثير هنا- خلق في عباده الضحك، ضَحِكَ؛ لأنه حصل له مثلاً ما يسره، وهذا لماذا بكى؟ حصل له ما يتأذى به، ففسرها بمجموع الأمرين، ويقول ابن جرير -رحمه الله-: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار، وأضحك قوماً في الدنيا وأبكى أيضاً، يُضحك من يشاء من أهل الدنيا، ويُبكي آخرين، فهو محمول على ظاهره، {أَضْحَكَ وَأَبْكَى}، أضحك قوماً وأبكى آخرين، ولازم ذلك أن هذا يضحك مسروراً مثلاً، أو لغير ذلك من الأسباب والدواعي، وهذا يبكي لما يتأذى به.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا}، **كقوله: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} [سورة الملك:٢].**

يعني: أن الله -عز وجل- خلق هذه الأشياء الدالة على قدرته، وهي متقابلة، الحياة والموت نقيضان، والضحك والبكاء ضدان، كما خلق الليل والنهار، والعافية والمرض، والقوة والضعف، والذكر والأنثى، فهذا كله يدل على قدرته -سبحانه وتعالى.

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}، كقوله: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [سورة القيامة:٣٦-٤٠].

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى} "الزوجين" يعني النوعين أو الصنفين، الذكر زوج، والأنثى زوج، **{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}**، **{أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ}** [سورة الواقعة:٥٨]، بمعنى: ما يصب في الأرحام، **{مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}**، والنطفة تقال للماء القليل، يقال: نطفة، تقول: هذا ينطف، القربة تنطف، فهذا القليل يقال له: نطفة، ومن أهل العلم من يقول: **{مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}** يعني: تُقدّر، يقدر منها الولد مثلاً، وهذا وإن كان يصح وجهه في اللغة إلا أن المشهور والأكثر في الاستعمال تفسيره بما سبق، **{مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}** إذا تصب، يقال: أمنى بمعنى أخرج المني.

وقوله تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى} أي: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة، {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} أي: ملّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما، وعن مجاهد: {أَغْنَى}: موّل، {وَأَقْنَى}: أخدم، وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد أيضا: {أَغْنَى}: أعطى، {وَأَقْنَى}: رضّي.

{أَغْنَى} بمعنى أعطى الغنى، **{وَأَقْنَى}** بمعنى أرضى بما أعطى، وأشرت إلى هذا المعنى في الليلة الماضية في الكلام على الرضا، ومن أهل العلم من يقول: إن **{أَغْنَى}** أعطى الغنى، **{وَأَقْنَى}** يعني: جعل للإنسان قنية، يعني ما يقتنيه من الأثاث والرياش وما أشبه ذلك.

وقوله: {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له: "مِرْزَم الجوزاء" كانت طائفة من العرب يعبدونه.

قوله: كانت طائفة من العرب يعبدونه، هذا جواب على سؤال مقدر، وهو أن الله -تبارك وتعالى- هو رب كل شيء ومليكه، فلماذا خص الشعرى وهو رب الجميع؟ فيقال: لأن العرب منهم من عبده فقال الله: **{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى}**، هذا هو السبب.

{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى} وهم: قوم هود -عليه السلام-، ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ} [سورة الفجر:٦-٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [سورة الحاقة:٦-٧] أي: متتابعة.

{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى}، هل يوجد عاد ثانية؟، لماذا قال الله تعالى: **{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى}**؟ بعض أهل العلم يقول: لأنهم جاءوا قبل ثمود، عاد الأولى، وبعضهم يقول: إن عاداً أعني قوم هود -عليه الصلاة والسلام- هم عاد الأولى، وقوم صالح وهم ثمود عاد الثانية، وهذا بعيد، ومنهم من يقول: إنه قيل لهم الأولى؛ لأن الله -عز وجل- أهلك قوم نوح فكانوا أول من جاء بعدهم وكفر بالله -تبارك وتعالى-، **{عَادًا الأُولَى}**، ومنهم من يقول: إن عاداً منهم عاد الأولى، ومنهم عاد الثانية، يقولون: عاد الثانية هم إرم، وعاد الأولى هم

قوم هود، عاد الأولى أهلكوا بالصرصر، وعاد الثانية أهلكوا بالصيحة، وهذا بعيد، ولو قال قائل: إن ذكر الأولى لا يلزم منه وجود الثانية، {عَادًا الأولَى} يعني: المتقدمة، لا يلزم منه وجود ثانية، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [سورة الأحزاب:٣٣]، لا يلزم من هذا أن نفتش أين الجاهلية الثانية، فإذا قلنا: إن الجاهلية الأولى هي ما كان الناس عليه إبان مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، كانت المرأة تخرج مبدية لنحرها، فلا يوجد جاهلية مطلقة بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني لا يصح أن نقول مثلاً: جاهلية القرن العشرين؛ لأن في هذا إزراء ببعثه -صلى الله عليه وسلم-، ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين، لكن يمكن أن يقال: جاهلية في البلد الفلاني، في القبيلة الفلانية، في الناحية الفلانية، وما أشبه هذا، أما بإطلاق فهذا لا يوجد، جاهلية القرن لا يوجد، إلا بعد أن تأتي الريح الطيبة في آخر الزمان وتأخذ المؤمنين ولا يبقى على الأرض من يقول: الله الله، فعندئذٍ.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} من حاول أن يوجد أولى وثانية قال: الأولى هي التي كانت زمن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، الناس الذين بعث فيهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والثانية في الوقت الذي بعث فيه محمد -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: في زمن داود وسليمان، وهذا كله لا دليل عليه، فذكر الأولى لا يلزم منه وجود ثانية.

وقوله تعالى: {وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى}، أي: دمرهم فلم يُبق منهم أحداً.

يقول: ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح ، بعض المؤرخين يذكرون بينهما عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

وقوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ} أي: من قبل هؤلاء، {إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى} أي: أشد تمرداً من الذين من بعدهم.

قوم ثمود أخبر الله -عز وجل- كيف أهلكهم {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ} [سورة فصلت:١٧]، وقوم عاد {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}، فكل هؤلاء قص الله -عز وجل- خبرهم في مواضع من كتابه.

{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} يعني: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها.

{وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى} بقي فيهم نبي كريم من أنبياء الله -عز وجل- ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك كذبوه وأصروا على كفرهم، فدعا عليهم بالهلاك، تصور قوماً يجلس فيهم نبي هذه المدة الطويلة ولا يحصل منهم الإيمان!، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}، {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، المؤتفكة، وفي بعض المواضع بالجمع المؤتفكات، والمؤتفكة هذا مفرد لكنه يدل على معنى الجمع، كما قال الله -عز وجل-: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١] يعني الأطفال، فالمؤتفكة هي قرى قوم لوط، وهي بمعنى القلب، الملك رفعها ثم قلبها ثم أُتبعوا بالحجارة.

وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة الشعراء:١٧٣].

{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة.

يعني تجادل وتشك.

وقال ابن جُرَيج: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} يا محمد، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

أي أن هذا متوجه للإنسان وليس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني الذين قالوا: متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ماذا قصدوا بذلك؟ يقولون: إن الخطاب يتوجه إليه والمقصود غيره، {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [سورة الإسراء:٢٣] ولم يكن له أب ولا أم -عليه الصلاة والسلام- حينما نزلت عليه هذه الآية، فالحاصل أن تفسير ذلك بالإنسان هو المشهور وهو الذي عليه عامة المفسرين، {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى}، والإبهام في قوله: {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، ما قال: فغشاها الحجارة، فهذا أبلغ في التهويل والتعظيم والتخويف.

{هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} [سورة النجم:٥٦-٦٢].

{هَذَا نَذِيرٌ} يعني: محمداً -صلى الله عليه وسلم- {مِنَ النُّذُرِ الأولَى} أي: من جنسهم، أُرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٩].

{هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} يقول: يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-، ومن أهل العلم من يقول: {هَذَا نَذِيرٌ} يعني: ما أنذرتكم، يعني المذكور في هذه الآيات مما حصل لهؤلاء الأقوام المكذبين {هَذَا نَذِيرٌ} أي: ما أنذرتكم من الوقائع التي أنذرت لكم من النذر التي أنذرتها الأمم التي كانت قبلكم في صحف إبراهيم وموسى، فيكون {هَذَا نَذِيرٌ} إشارة إلى الكلام المتقدم الذي فيه الإنذار، وهذا اختيار ابن جرير {هَذَا نَذِيرٌ} هذا الذي سمعتم، هذا الذي ذُكر {نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} مما أنذره الأقوام قبلكم في صحف إبراهيم وموسى، {نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى}، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- نذير من النذر الأولى، هو الإشكال في هذه {مِنَ النُّذُرِ الأولَى} يعني: إذا فسر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فهو متأخر جاء بعده، فعلى قول ابن كثير كيف وصفه بأنه من النذر الأولى؟، جوابه عن هذا أن يقول: أي من جنسهم، كما تقول: هذا من بني آدم، فـ{هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} أي: من جنس النذر الأولى {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٩]، هذا جوابه، ومن نظر إلى هذا الإشكال {نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} وأراد أن يخرج منه ابتداءً قال: هذا لا يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يرجع إلى الكلام الذي بعده، هذا الذي سمعتم مما حصل وقصه الله -عز وجل- من خبر هؤلاء المكذبين، {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى}، وبهذا يكون لا إشكال في الكلام، واضح السبب الذي جعل بعضهم يقول: هو محمد -صلى الله عليه وسلم.

{أَزِفَتِ الآزِفَةُ} أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة، {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}.

وهي القيامة، {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ} [سورة غافر:١٨]، {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١]، عبر عنه بالماضي لقرب وقوعه أو لتحقق وقوعه، {أَتَى} فهي قريبة، لشدة قربها قيل لها الآزفة، أزف زمانها، أزف وقوعها يعني قرب.

{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} أي: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه.

والنذير: الحذِر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ((إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[1]، **وفي الحديث:** ((أنا النذير العريان))[2] **أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عرياناً مسرعاً، وهو مناسب لقوله...**

هذا احتمال، أنه لعجلته لم يتمكن من اللباس، وكثير من أهل العلم يفسر ((أنا النذير العريان)) أنه الرجل الذي خلع ثوبه وجعل يلوح به من بعيد لقومه ينذرهم ويحذرهم الجيش، فهو لا ينتظر حتى يصل إليهم فيدركهم الجيش، فيلوح لهم، يصعد على مكان مرتفع من بعيد ويلوح بثوبه، ينذرهم ويحذرهم ليستعدوا.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}**، عبارة ابن كثير -رحمه الله-: **أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه**، جمع بين المعنيين المذكورين في تفسير الآية، **{لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}** يعني: إذا وقعت لا يستطيع أحد أن يدفعها، **{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ}** [سورة الأنعام:١٧]، اللهم اكشف ما بنا من ضر يعني: ارفع وادفع، ارفع ما بنا من ضر، **{لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}** إذا وقعت لا يستطيع أحد رفعها أو دفعها، والمعنى الثاني: ولا يطلع على علمها سواه، هذا معنى آخر ذكره جماعة من السلف، **{لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}**، لا يعرف أحد وقتها، متى هي، لم يكشف ذلك لملك مقرب ولا لنبي مرسل، **{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}** [سورة الأعراف:١٨٧]، فعلمها مختص بالله -تبارك وتعالى-، **{إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}** [سورة لقمان:٣٤].

وهو مناسب لقوله: {أَزِفَتْ الْآزِفَةُ} أي اقتربت القريبة يعني يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} [سورة القمر:١].

وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه))[3].

وهذا يذكر أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِلَّا اللَّمَمَ}** [سورة النجم٣٢]، لا يجترئ الإنسان على معاصي الله -عز وجل- ويقول: **{إِلَّا اللَّمَمَ}**، فأين التقوى؟.

ثم قال تعالى منكرا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهّيهم: {تَعْجَبُونَ} من أن يكون صحيحا، {وَتَضْحَكُونَ} منه استهزاء وسخرية، {وَلَا تَبْكُونَ} أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [سورة الإسراء:١٠٩].

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٥٤٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، برقم (٦٤٨٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، برقم (٢٢٨٣).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٨٠٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠٢).

وقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: الغناء، هي يمانية.

يعني لغة يمانية، يعني أهل اليمن يقولون ذلك.

اسْمِد لنا: غَنّ لنا، وكذا قال عكرمة.

وفي رواية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {سَامِدُونَ}: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة.

هذا هو المشهور في تفسيره، **{وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}** أي: لاهون، والغناء هو من جملة اللهو بلا شك، بل هو من أقبح اللهو، فبعضهم يقول: كانوا إذا سمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ القرآن أو سمعوا أحداً يقرأ القرآن جلسوا يغنون استهزاء وسخرية وشغباً عليه؛ ولئلا يسمعوه، ولئلا يسمع أحد، وعناداً ومضايقة له، يجلس يغني؛ لشدة العناد، الإنسان المعتوه الذي لا يريد أن يسمع الحق إذا سمع أحداً يتكلم به جعل يغني مكابرة واستهزاء وإعراضاً، **{وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}**، فالحاصل: أنتم لاهون معرضون، فمن كان يغني إذا سمعه فهو داخل في عموم هذا المعنى.

ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- والتوحيد والإخلاص: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} أي: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس"[٤]، انفرد به دون مسلم.

روى الإمام أحمد عن جعفر بن المطلب بن أبي وَدَاعة -رضي الله تعالى عنه- قال: قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعتُ رأسي وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه[٥]، وقد رواه النسائي في الصلاة.

آخر تفسير سورة النجم، ولله الحمد والمنة.

---

٤ - رواه البخاري، أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء، برقم (١٠٧١).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٤٦٥)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، جعفر بن المطلب بن أبي وداعة السهمي روى عنه اثنان، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وقال ابن حجر في "التقريب": "مقبول، وبقية رجاله ثقات، إبراهيم بن خالد، ورباح بن زيد: هما الصنعانيان"، والنسائي، كتاب صفة الصلاة، باب السجود في النجم، برقم (٩٥٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القمر من الآية ١ إلى الآية ٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة اقتربت الساعة وهي مكية.

قد تقدم في حديث أبي واقد -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفِطْر[١]، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [سورة القمر:١-٥].

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ} [سورة النحل:١]، وقال: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [سورة الأنبياء:١] وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خَطَبَ أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شِفٌّ يسير، فقال: ((والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرا))[٢].

حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره، روى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كنا جلوساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- والشمس على قُعَيْقِعان بعد العصر، فقال: ((ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى))[٣].

وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((بُعِثتُ والساعة هكذا))[٤]، وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. وأخرجاه.

---

١ - رواه مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، برقم (٨٩١).

٢ - رواه البزار في مسنده، برقم (٧٢٤٢).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٥٩٦٦)، وقال محققوه: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك -وهو ابن عبد الله النخعي-، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٢٨٦٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وروى الإمام أحمد عن وهب السُّوَائي قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها))[٥]، وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى.

وروى الإمام أحمد عن الأوزاعي حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((أنتم والساعة كهاتين)).

تفرد به أحمد –رحمه الله– وشاهد ذلك أيضا في الصحيح في أسماء رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه.

وقوله: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} قد كان هذا في زمان رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: "خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر"[٦]، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي –صلى الله عليه وسلم– وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى–: **{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** الساعة اسم من أسماء القيامة كما هو معلوم، وذِكرُ اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ووجه الارتباط بين هذا وهذا يمكن أن يقال –والله تعالى أعلم–: لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– الذي هو من أشرط الساعة، وزمانه أقرب ما يكون إليها كما تدل عليه هذه الأحاديث وغيرها، وفي الحديث هنا: ((والشمس على قعيقعان)) وقعيقعان جبل بمكة مقابل لأبي قبيس الذي عند الصفا، وهنا في هذه الرواية التي أخرجها الإمام أحمد –رحمه الله– عند وهب السوائي قال: وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى، وفي بعض النسخ: السباحة، المقصود بها السبابة يقال لها: المسبحة وهو أحسن من تسميتها بالسبابة، وقيل لها: السبابة؛ لأن الرجل كان إذا أراد أن يسب يشير بها، كما أن هذه يشار بها أيضا عند الدعاء فيقال لها: المسبحة، والسباحة، ويقال لها: السبابة، وتسميتها بالمسبحة والسباحة أحسن من تسميتها بالسبابة.

وقضية انشقاق القمر لا شك أنه انشق انشقاقاً حقيقاً، ورآه الناس كذلك، وقد تكلف بعضهم ففسرها بتفسيرات في غاية البعد كالذي يقول مثلاً: **{وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** يعني: اتضحت نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– ببراهينها وضوحاً لا مرية فيه، كما يقال: **{وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** يعني: لشدة تجليه، فهذا تأويل مستكره بعيد، وهذه آية من آيات الله –تبارك وتعالى– ومعجزة من معجزات النبي –صلى الله عليه وسلم–، وإلا فما معنى الآيات

---

٥ – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة {والنازعات}، برقم (٤٦٥٢)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧)، وبرقم (٢٩٥١)، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة.

٦ – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم (الدخان)، برقم (٤٥٤٨)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان، برقم (٢٧٩٨).

والخوارق والمعجزات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "سأل أهل مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}"، ورواه مسلم[٧].

قال في الهامش معلقاً على "مرتين": أي قطعتين، فهو ورد في كثير من الروايات كما سيأتي، وفي غيرها: وصار على فرقتين، ورُئي الجبل بينهما، ويوجد في رواية أخرى ما هو صريح بأنه لا يقصد بمرتين الفرقتين القطعتين؛ لأنه قال بعده: مرة بمكة قبل هجرته، فيبقى النظر هل انشق القمر أكثر من مرة أو لا؟ هذه مسألة ثانية لكن فقط التعليق على قوله مرتين أي قطعتين فيه نظر في تفسير الرواية بهذا.

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: "أن أهل مكة سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما"[٨]. وأخرجاه أيضا من طرق.

روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم -رضي الله عنه- قال: "انشق القمر على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم"[٩].

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقي في "الدلائل" من طريق آخر.

هذا وإن كان في إسناده شيء من الضعف لكن الأحاديث الأخرى تشهد له، وقولهم هنا: "فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم" المقصود به أن هذه آية رآها الناس في كل ناحية، وهو إن سحر كفار قريش الذين بينه وبينهم الخصومة لا يستطيع أن يسحر أهل الأرض جميعا، يعني أنها آية، وفي هذا وفي بعض الروايات الأخرى أصرح وأوضح من هذا ما يدل على أن الناس الآخرين رأوه كذلك، وفي هذا رد على أولائك الذين أولوه ببعض التأويلات المستكرهة وقالوا: إن هذا لو وقع ورآه أهل مكة لرآه أهل الأرض.

ويوجد من الروايات ما يدل على أنه رآه الناس وجاء المسافرون ونقلوا هذه الأخبار.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "انشق القمر في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم-"[١٠]، ورواه البخاري أيضا ومسلم، وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله:

---

٧ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر (٢١٥٩/٤)، برقم (٢٨٠٢)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة القمر، برقم (٣٢٨٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم (١٢٦٨٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب انشقاق القمر، برقم (٣٦٥٥)، ومسلم (٢١٥٩/٤)، رقم (٢٨٠٢)

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٧٥٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، حصين بن عبد الرحمن -وهو السلمي- لم يسمع هذا الحديث من محمد بن جبير بن مطعم، بينهما جبير بن محمد بن جبير وهو مجهول، وسليمان بن كثير -وهو العبدي- روى له البخاري عن حصين بن عبد الرحمن متابعة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

١٠ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر، برقم (٤٥٨٥)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، برقم (٢٨٠٠).

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه[11].

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– انشق فِلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((اللهم اشهد))[12]، وهكذا رواه مسلم، والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: انشق القمر على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((اشهدوا))[13]، وهكذا رواه البخاري ومسلم.

وروى ابن جرير عن عبد الله –رضي الله عنه– قال: "لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق"[14].

ورواه الإمام أحمد عن عبد الله –رضي الله عنه– قال: "انشق القمر على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر"[15].

وقوله: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً} أي: دليلا، وحجة، وبرهانا {يعرضوا} أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ سحرنا به.

قوله: **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً}** فـ**{آيَةً}** نكرة في سياق الشرط فهي للعموم، أيّ آية يرونها يقولوا: سحر مستمر، كما قال الله –عز وجل– في سوره الأنعام: **{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}** [سورة الأنعام: ٧] فهم في الوقت الذي يطلبون فيه الآيات إذا رأوا الآية كذبوا بها، وكما سبق في قوله –تبارك وتعالى–: **{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ}** [سورة الحجر: ١٤–١٥] من شده مكابرتهم، ولذلك أخبر الله –عز وجل– أنه لم يجبهم في ما يطلبون وما يقترحون من نزول الآيات: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}** [سورة الإسراء: ٥٩] يعني: آية مبصرة (فظلموا بها).

ومعنى {مُسْتَمِرٌّ} أي: ذاهب، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له.

---

١١ – جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، (٢٢/٥٦٨).

١٢ – رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر،، برقم (٢٨٠٠)، وأحمد في المسند، برقم (٤٢٧٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٥١٩٦).

١٣ – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر، برقم (٤٥٨٣) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، برقم (٢٨٠٠)، وأحمد في المسند، برقم (٣٥٨٣).

١٤ – جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٢/٥٦٧)، مؤسسة الرسالة.

١٥ – رواه أحمد في المسند، برقم (٣٩٢٤)، وقال محققوه: حديث صحيح.

هذان القولان بمعنى واحد ذاهب، باطل مضمحل لا دوام له، بمعنى ذاهب فهذا من قبيل اختلاف التنوع الاختلاف الصوري الذي لا يعد من الخلاف، فلا يقال: القول الأول ذاهب، والقول الثاني باطل، الذاهب هو الباطل وهذا هو الأقرب وهو المتبادر لربما من تفسير الآية وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–، وبعضهم يقول: المستمر يعني القوي الشديد، {وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا} عنها، ويقولوا: {سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، يقولون: مأخوذ من إمرار الحبل أي شده الفتل، وبعضهم يقول: مستمر أي دائم مطرد، لا يتوقف ولا ينقطع، وبعضهم يقول: مستمر يعني يشبه بعضه بعضاً، وبعضهم يفسره بمعنى آخر فيقول: هو من المرارة، يعني سحر مُر كما يقال: نفاق حامض، ولعل أقرب هذه المعاني –والله أعلم– أنه ذاهب باطل لا بقاء له، ويلي هذا –والله تعالى أعلم– أنه بمعنى المستمر أي دائم متصل.

{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وقوله: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر.

وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} أي: يوم القيامة.

هذه الأقوال الثلاثة لا تتنافى، بل هي ترجع إلى شيء واحد، فهذا أيضا يعد من اختلاف التنوع فلا حاجه لأن يقال: القول الأول كذا، والثاني كذا، والثالث كذا.

انظر إلى الأقوال في قوله: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} يقول قتادة: معناه أن الخير واقع بأهله، والشر واقع بأهل الشر، ويقول ابن جرير: مستقر بأهله أي منتهٍ إلى غاية، يعني: أن يقع لأهل الخير عاقبة هذا الفعل، ويقع لأهل الشر عاقبة هذا الفعل، وهذا نفس المعنى، وكذلك قول من قال كمجاهد: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} أي: يوم القيامة، فأهل الخير يجدون عاقبة فعلهم من الخير، وأهل الشر يجدون عاقبة فعلهم من الشر، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد فهو كما قال ابن جرير –رحمه الله–: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} يعني: من خير أو شر مستقر قراره ومتناهٍ نهايته، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} أهل الفضل والخير والصلاح والاستقامة يئول أمرهم إلى خير، وأهل الشر يئول أمرهم إلى شر {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} له نهاية وغاية وهؤلاء يلقون خيرا وهؤلاء يلقون شراً، {وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} سيجدون غِبَّه وعاقبته فيجازيهم الله –عز وجل– على ذلك، كما أن أهل الإيمان يجدون جزاءهم، ولهذا قال: {وَكُلُّ أَمْرٍ} كل أمر من خير وشر {مُسْتَقِرٌّ} يصير إلى غاية.

وقوله: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ} أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، {مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

يعني {مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} أي: ما يحصل به الزجر، والزجر يحصل بماذا؟ بالمواعظ، والتذكير، والوعد، والوعيد.

وقوله: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} أي: في هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله.

هذا معنى تحتمله الآية احتمالا قريبا، {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} أي: لله تعالى في هداية أقوام وإضلال آخرين {وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} ما يكفي لبيان الحق وإيضاحه ودفعهم عن باطلهم، ولكن كفروا، ولله في ذلك حكمة بالغة، ما تغني الآيات عن هؤلاء القوم المكذبين الذين لا يؤمنون، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، ويحتمل أن يكون قوله: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} أن المراد به القرآن، والله -عز وجل- هنا يقول: {وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} الأخبار التي قصها الله -عز وجل- في هذا القرآن، والنبأ لا يقال إلا للخبر الذي له شأن، والنبأ بمعنى الخبر لكن الخبر المهم يقال له: نبأ وغير المهم لا يقال له: نبأ؛ ولهذا قيل: النبوة مأخوذة من هذا؛ لأنه يأتي بالخبر عن الله -عز وجل-، ويأتي بوحيه ولهذا تقول: جاءنا نبأ الحرب، ولا تقل: جاءنا نبأ حمار الحجام، فإن هذا لا شأن له ولا خطب له، لكن تقول: جاءنا خبر حمار الحجام، فالحاصل أن قوله هنا {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} يحتمل أن يكون المراد به القرآن، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أن يكون المراد به ضلال من ضل، إضلال الله -عز وجل- لمن أضله وهدايته لمن هداه فكل ذلك بناء على علمه وحكمته -سبحانه وتعالى-: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ}، يمكن أن يكون هذا القرآن الذي جاءتهم فيه الآيات، ويمكن أن يكون جاءهم ما فيه الكفاية لكن لله حكمة بالغة، فما تغني عنهم النذر فلا ينتفعون بذلك، ولا يؤمنون، {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنفال: ٢٢-٢٣].

{فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟!

يعني "ما" في قوله: {فَمَا} هذه تحتمل أن تكون نافية، {فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} يقول هنا: يعني أيّ شيء تغني النذر؟ هنا فسرها على أنها استفهامية، وهذا يحتمل يقول: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} ماذا تنفع النذر في قوم كتب الله إضلالهم؟ لا تغني عنهم شيئاً، فتكون "ما" استفهامية، استفهام مضمن معنى الإنكار، ويحتمل أن تكون "ما" هذه نافية يقول: {وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ}، يعني: لا تغني النذر ولا تنفع إذا كان الله قد أراد شقاء العبد، وهذا شيء مشاهد تجد الإنسان ينشأ أحياناً في بيت خير وفضل، وحوله كل الوسائل والأسباب المهيئة لهدايته، أو طلبه للعلم، وسلوكه الصراط المستقيم، فتجده في غاية الإعراض، وتجد آخر ينشأ في بيئة سيئة لا يسمع شيئا من الخير وذكر الله -عز وجل- وما يذكره بالآخرة أبداً لا يسمع إلا اللغو، وحوله كل المغريات ومع ذلك يهتدي ويكون من أصلح الناس، وأحيانا يهتدي بسبب حكمة واحدة، وأحياناً بسبب آية سمعها حديثاً، وأحياناً بسبب حكمة أو موعظة أرسلت له برسالة جوال اهتدى، أحياناً بمشهد رآه، كأن يرى أناساً يصلون على الطريق وهم مسافرون، مشهد يتكرر رآهم فتأثر فاهتدى، وآخر سمع كلمة "حي على الفلاح" ما هو الفلاح؟ فانجذب قلبه إليها، فهناك أسباب أحياناً لا تخطر في البال، وآخر يسمع القرآن من أوله إلى آخره، ويمكن أن يكون قد حفّظه أبوه القرآن وحفّظه من السنة الشيء الكثير ورباه وتعب في تربيته، ومع ذلك في غاية الإعراض، وهذا مشاهد يعني في أشياء تقف عندها تقول: التربية مالها أي علاقة في الموضوع، التربية لها أثر كبير لكن في صور وحالات كثيرة نعرفها التربية مالها أي علاقة بالموضوع، هذا ربَّي وهذب وبذل جهداً كبيراً في تربيته ومع ذلك أدار ظهره حتى

وصل إلى حد الردة في بعض الحالات! وهناك صور صاحبها أبداً لا يعرف إلا الشر والفساد فيسمع كلمة واحدة تقلب حياته! فأحياناً لا تستطيع إلا أن تقول: هذا أمر الله، {يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [سورة الرعد: ٢٧] فالبشر ليس لهم يد في هذا، وليس المقصود بهذا أن التربية لا تؤثر، وإنما لا تؤثر بإذن الله –عز وجل–، والموفق من وفقه الله.

وهذه الآية كقوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الأنعام:١٤٩]، وكذا قوله تعالى: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس:١٠١].

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [سورة القمر:٦-٨].

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، {يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ} أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، {خشَّعًا أَبْصَارُهُمْ} أي: ذليلة أبصارهم.

هم أذلاء في ذلك اليوم وأضاف ذلك إلى أبصارهم، {خشَّعًا أَبْصَارُهُمْ} **أي ذليلة أبصارهم**؛ لأنه كما قال جماعة من أهل العلم ومنهم كبير المفسرين: إن العز والذل يلوح في عين الإنسان، يعني عين الإنسان يقرأ فيها بعض المعاني، فالذليل تجد بصره خاشعاً، فأضاف ذلك إلى أبصارهم، وقد جاء هذا مبيناً في آيات من كتاب الله –عز وجل– يصف ذلهم في موقف الحساب.

{يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ} وهي: القبور.

كما قال الله –عز وجل–: {فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ} [سورة يس:٥١].

{كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي {جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} في الآفاق.

الجراد حينما ينزل بكميات كبيرة جداً على الأرض، فهو يدب يمشي ويختلط في مشيه فهو كثير جداً، يمشي ويتحرك، وفي تحركه ومشيه اختلاط، يختلط بعضه ببعض، فصوّرهم حينما يقومون من القبور في كثرتهم ومشيهم، واختلاطهم –اختلاط بعضهم ببعض– مثل الجراد، والعرب تمثل بهذا كثيراً، يقصدون به الكثرة {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} تقول: الناس مثل الجراد، ويقولون: مثل الدّبا –وهو صغار الجراد– للكثرة فهذا مشهد للناس حينما يقومون من القبور.

ولهذا قال: {مُهْطِعِينَ} أي: مسرعين.

{مُهْطِعِينَ} أي: مسرعين، وبعضهم يقول: مسرعين بنظرهم ينظرون إلى الداعية، يترقبون، وينظرون إليه {مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}.

{إِلَى الدَّاعِي}، لا يخالفون ولا يتأخرون، {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} أي: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرِير {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدثر:٩-١٠].

وُصف مِن قِبَلهم بأنه عسر لما فيه من الأهوال والأوجال فهذا على سبيل الوصف والخبر عنه، فلا مانع من أن يخبر عنه بهذا، أو أن يوصف اليوم بمثل هذا، كما سيأتي في قوله –تبارك وتعالى–: {فِي يَوْمِ نَحْسٍ

مُّسْتَمِرٍّ} [سورة القمر:١٩]، فهذا ليس من سب الدهر **{فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}** [سورة فصلت:١٦]، فيجوز وصف اليوم بأنه يوم نحس، ولوط -صلى الله عليه وسلم- قال: **{هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}** [سورة هود:٧٧] فيقال: يوم شديد، ويوم نحس، ويوم عصيب وما أشبه ذلك يوصف بهذا، وليس ذلك من سب الدهر، وإنما هو من وصف اليوم بما هو عليه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ٢٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [سورة القمر:٩-١٧].

يقول تعالى: {كَذَّبَتْ} قبل قومك يا محمد {قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا} أي: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، {وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ} قال مجاهد: {وَازْدُجِرَ} أي: استطير جنونا. وقيل: {وَازْدُجِرَ} أي: انتهروه وزجروه وأوعدوه: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} [سورة الشعراء:١١٦]، قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول هؤلاء المكذبين لنوح -صلى الله عليه وسلم-: **{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}** ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- القولين: فالقول الأول: قول مجاهد: **{وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}** أي: استطير جنوناً.

القول الثاني الذي ذكره هنا **{وَازْدُجِرَ}** "أي: **انتهروه وزجروه**" فيكون هذا من كلام الله -عز وجل-، ومن نظائر هذا قوله -تبارك وتعالى- في سوره يوسف: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [سورة يوسف:٥٢] فالكلام الذي قبله من كلام امرأة العزيز، فيحتمل أن يكون هذا من بقيه كلامها، تقول: "ذلك أني لم أخنه"، لم أخن يوسف، أو لم تخن زوجها، ويحتمل أن يكون هذا من كلام يوسف **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام-، والأول من كلام امرأة العزيز.

وفي سوره الأنعام الله -عز وجل- ذكر المناظرة التي جرت بين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه فقال لهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ...}** [سورة الأنعام:٨١]، ثم بعد ذلك قال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢].

فهل هذا من بقيه كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-؟ أو من كلام الله حكم بين الفريقين؟ وقوله: **{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}** [سورة النمل:٣٤]، هل هو بقيه كلام ملكه سبأ؟ أو هذا من كلام الله -عز وجل- يُقر ما قالت؟ فهنا قالوا: **{مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}** يحتمل أن يكون

{وَازْدُجِرَ}: من كلامهم، ويحتمل أنهم زجروه أي انتهروه، يعني: كما قال الله -عز وجل-: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} [سورة الشعراء:١١٦].

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم {فَانْتَصِرْ} أنت لدينك، قال الله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، قال السدي: هو الكثير.

الشيء الذي ينزل أو يخرج بكثرة يقال له: {مُنْهَمِرٍ} دمه المنهمر، والسيل المنهمر.

{وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا} أي: نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيونا.

هذا على أحد الأقوال المشهورة في تفسير قوله تعالى: {وَفَارَ التَّنُّورُ} [سورة هود:٤٠]، فقد قال بعض المفسرين: التنور هو الذي يخبز به فجعله علامة لبداية الطوفان، {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ} جعله علامة له، {وَفَارَ التَّنُّورُ} فهنا يقول حتى التنانير، فالله قال: {وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا} هل كل الأرض تفجرت وصارت عيونا؟ أو أن التقدير "وفجرنا عيون الأرض"، ولكن لكثرة هذا كأن الأرض تحولت إلى عيون؟، {وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا} وهذا من بلاغة القران، والمطر ينزل من السماء، ولهذا قال هنا: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ} ولهذا قال جماعة من أهل العلم: إن هذا لم يضف إلى السحاب، وإنما إلى السماء وقد تطلق السماء ويراد بها العلو، ويراد بها السحاب كما هو معروف، ولكن هنا قال: {أَبْوَابَ السَّمَاءِ} فهل يقال ذلك في السحاب؟ ولهذا قال بعضهم: إن هذا الذي نزل عليهم نزل عليهم من السماء وليس من السحاب، فتحت أبواب السماء بالمياه، وتحولت الأرض إلى شيء آخر وصارت عيونها جارية.

{فَالْتَقَى الْمَاءُ} أي: من السماء ومن الأرض {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أي: أمر مقدر.

قوله: {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} هذا هو المشهور، وهو الذي عليه عامة المحققين، وبهذا فسره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وجماعة من المتأخرين كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- ومن أهل العلم كابن قتيبة من قال: إن المراد {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أي: أنه في حال من التساوي الذي نزل من السماء، والذي نزل من الأرض هذا يساوي هذا لا يزيد أحدهما على الآخر، والقول الأول أوضح وأقرب {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أي مقدر.

قال ابن جُرَيْج: عن ابن عباس: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء -من غير سحاب- ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر.

قدره الله -تبارك وتعالى- وقوله: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ} في قراءة متواترة قراءة ابن عامر بالتشديد (ففتَّحنا أبواب السماء)، ومعلوم أن مثل هذا التشديد يدل على التكثير.

{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}: قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير، كما يقال: حَبيك وحِباك، والجمع حُبُك.

يقال: دُسَير بضم الدال تصغير دُسُر الجمع، ودَسير للواحد، وهي المسامير كما فسرها أكثر أهل العلم، وهذا هو -والله أعلم- المعنى المتبادر، وبعضهم يفسره بما هو أعم من هذا فيدخل فيه المسامير، يقال: كل شيء أدخل في شيء ليشده فهو دسر، ويكون من ذلك المسامير، ومن ذلك الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة يقال

لها: دسر، وبعضهم فسره بظهر السفينة التي يضربها الموج، المقدمة التي يضربها **{ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}**، وإنما من قال بذلك؛ لأنه جاء في كلام العرب فالمعنى المشهور للدسر هي المسامير.

وقوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} أي: بأمرنا، بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا.

بأمرنا، بمرأى منا، وتحت حفظنا وكلاءتنا **{بِأَعْيُنِنَا}** وفيه إثبات صفة العين لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

{جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح -عليه السلام.

هذا انتصار لنوح -صلى الله عليه وسلم- فكذبوه فأهلكهم الله -تبارك وتعالى- لتكذيبهم لنبي كريم من أنبيائه **{جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}** وهو نوح -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: الله -تبارك وتعالى-، كفروا بالله، وبين القولين ملازمة، **{جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}** نوح -صلى الله عليه وسلم- والذين كذبوا نوحاً هم كافرون بالله، الذي كفر بنوح كافر بالله -عز وجل.

وقوله: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً} قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن.

يعني: هذا القول الأول وبه قال ابن جرير، **{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً}** يعني: سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام-، والقول الثاني: أنه جنس السفن **{وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}** آية تُذكّر بتلك التي حَمل عليها نوحاً -عليه الصلاة والسلام- ومن معه، وهي آية أيضا من آيات الله حيث تجري على الماء، وتحمل فيها الأحمال الثقال من الناس وألوان التجارات وما إلى ذلك، **{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً}** قال: المراد جنس السفن، **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}** [سورة يس:٤١-٤٢]، فما المراد بهذا الفلك المشحون؟ سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام-، هذا هو المشهور، لكن قال **{حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}** والمخاطب بذلك ليس من عاصر النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن هذا القول أنها سفينة نوح، ولفظ الذرية يطلق على الأجداد على الآباء، ويطلق على الأبناء فهو من الأضداد و**{ذُرِّيَّتَهُمْ}** أي: الآباء، ومن أهل العلم من قال: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** ليس المقصود الفلك الذي حَمل به نوحاً -صلى الله عليه وسلم- ومن معه، وإنما جنس السفن فتكون الذرية بمعنى الأبناء.

وقال: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [سورة الحاقة:١١-١٢].

الله -عز وجل- يقول: **{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [سورة العنكبوت:١٥]، **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}** [سورة الحاقة:١١-١٢]، والمقصود بقوله: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}** يحتمل أن يكون المراد به هذه الفعلة **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا}** يحتمل أن تكون هذه، فعلنا ذلك؛ لتكون آية، وتذكرة من أجل الاتعاظ والاعتبار كما قال الله -عز وجل- عن قوم نوح: **{أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً}** [سورة الفرقان:٣٧] فالآية هي ما وقع لهم من الغرق، **{ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً}** [سورة الشعراء:١٢٠-١٢١]، ويحتمل أن تكون الآية هي التذكرة هي السفينة.

ولهذا قال هاهنا: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود –رضي الله عنه–، قال: أقرأني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأني رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: {مُدَّكِرٍ}.

وهكذا رواه البخاري عن عبد الله قال: قرأت على النبي –صلى الله عليه وسلم–: {فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ} فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.

وقوله: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر؟.

هنا في قوله: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} أي ونُذُري، ويحتمل أن يكون النُّذر مصدراً بمعنى الإنذار، فكيف كان عذابي وإنذاري؟.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [سورة ص:٢٩]، وقال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم:٩٧].

وقوله: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟

{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [سورة القمر:١٨-٢٢].

يقول تعالى مخبرا عن عادٍ قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وإنه تعالى أرسل {عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}، وهي الباردة الشديدة البرد.

{رِيحًا صَرْصَرًا}، فُسرت بشدة البرد، وبعضهم يقول: لها صوت، ومن أهل العلم من يجمع بين المعنيين، فكل هذا صحيح في لغة العرب، يقول: وريح باردة شديدة لها صوت.

{فِي يَوْمِ نَحْسٍ} أي: عليهم، قاله الضحاك، وقتادة، والسدّي، {مُسْتَمِرٍّ} عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.

هذا لعله أحسن ما يفسر به –والله أعلم– وهو أنه من الدوام، فأهلكهم هذا العذاب واستأصلهم، ثم بعد ذلك صاروا إلى عذاب آخر برزخ، مستمر لم ينقطع عنهم حتى هلكوا، وبعضهم فسره بغير هذا بمعنى أنه من المرارة، وبعضهم فسره بالقويّ، وما ذكره ابن كثير –رحمه الله– هنا أقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.

قوله: **{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}** العَجُز: عَجُز الشيء هو مؤخره، **{أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}** والمنقعر بمعنى المنقلع المنقطع من أصله، فالله -عز وجل- صور هؤلاء الهلكى الذين قد تساقطوا وتناثروا وهم أصحاب أجسام ممتدة ضخمة، وإذا أردت أن تتصور هذا، لك أن تتصور ما حصل في الطوفان في شرق آسيا، وإذا رأيته تذكرت هذه الآية **{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}** لكن مع الفارق في الأجسام، لكن الناس تجد المُنكب على وجهه كأنه عجز نخلة انقلع، فهو في أصله في مؤخرته يبدو غليظا، ثم بعد ذلك يكون أدق، فهم متساقطون متهاوون هكذا، وهكذا قوله: **{فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}** [سورة القمر:٣١]، فإذا نظرت إلى بيوت أولائك، وكل ما عندهم من أثاث ونحو ذلك صار حطاماً هكذا كالهشيم، حصيد محصود.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القمر من الآية ٢٣ إلى الآية ٤٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [سورة القمر:٢٣-٣٢].

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا -عليه الصلاة والسلام- {فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ}، يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا.

ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: {بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} أي: متجاوز في حد الكذب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} النُّذر: هذه اللفظة جاءت بصيغة الجمع، وهؤلاء القوم كذبوا نبيهم الذي بعثه الله -عز وجل- إليهم وهو صالح -عليه الصلاة والسلام- ولم يأتهم نبي سواه، فكيف ذكر الله -تبارك وتعالى- النُّذر، وإنما كذبوا نذيراً واحداً ؟ والجواب عن هذا من وجهين:

الوجه الأول: هو أن من كذب نبياً واحداً فكأنما كذب جميع المرسلين، كما قال الله -عز وجل-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٠٥]، ونوح -عليه الصلاة والسلام- قطعاً هو أول رسول، ومع ذلك أضاف إليهم أنهم كذبوا المرسلين، فهذا وأشباهه يحمل على هذا المعنى، من كذّب واحداً فهو مكذب بالجميع، ولهذا قال: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، وهكذا في الموضع الآخر: {وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [سورة النساء:١٥٠-١٥١] فهذا جواب في هذا الموضع.

الوجه الثاني: هو أن "النُّذر" مصدر يعني كذبوا بالآيات والنذارة التي جاءتهم على يد نبيهم -عليه والصلاة والسلام- كذبوا بالآيات التي أنذرهم الله -تبارك وتعالى- بها، فإن هذه الآيات هي نذر، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا} [سورة الإسراء:٥٩] فأخرج الله -عز وجل- لهم ناقة عظيمة عشراء آية فكذبوا بها، وعقروها، ولم يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم -صلى الله عليه وسلم- من دلائل صدقه وأمارات نبوته ورسالته.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}.**

يقول الحافظ ابن كثير: "**وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً {فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}، يقولون: لقد خبنا وخسرنا**".

و"السُّعر" **{إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}** بعض أهل العلم فسره بالعناء والشقاء والعذاب، **{إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}** يعني: إذا اتبعنا واحداً فنحن في عناء وشقاء وعذاب وشدة، ويطلق السُّعر أيضاً على لهب النار، **{إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}** وهذا في الواقع يرجع إلى المعنى الأول؛ لأنهم لا يقصدون أنهم في ضلال وسعر في الآخرة، وإنما يصفون حالهم إن اتبعوا صالحاً -عليه الصلاة والسلام- فالذي يعيش في عناء وشقاء فإن ذلك يورث ضيقاً وحرارة وألماً كحرارة النار وإيلامها وشدتها، فهذا يرجع في الواقع إلى المعنى السابق، وهكذا قول من قال: **{إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}** أي: احتراق، فالذين قالوا: لهب النار، والذين قالوا: احتراق فسروا اللفظة بمعناها المتبادر، والمقصود بهذا الاحتراق هو راجع إلى القول الأول الذي ذكرناه، وأقول القول الأول تجوزاً؛ لأن هذه في الواقع يمكن أن ترجع إليه، فلا يحتاج إلى الترجيح بينها، يقولون: إن اتبعناه فنحن في حال من العناء والشقاء، فعبروا بهذه اللفظة؛ لدلالتها على هذا المعنى، وبعضهم يقول: السُّعر هو الجنون، وهم استبعدوا اتباع نبي، وأضافوا إلى أنفسهم: إنْ هم اتبعوه أنهم في حال غير طبيعة، يقولون: هذا لا يمكن، وبهذا نكون في ضلال أي ذهاب عن الحق، فأصل الضلال هو الذهاب عن حقيقة الشيء، ومنه قوله -تبارك وتعالى- في سورة يوسف عن قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: **{إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}** [سورة يوسف:٩٥] فلو كانوا يقصدون أنه ذاهب عن الحق مطلقاً لكانوا كفاراً بذلك، وإنما يقصدون أنه ذاهب عن حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء ذاهبون عن الحق، ولهذا يقال لمن قُبر ودُفن: إن دافنيه قد أضلوه.

فآبَ مُضلّوه بعينٍ جليةٍ***وغودر بالجولان حزمٌ ونائلُ

يعني: دافنوه أضلوه، ومنه قولهم: ضل الماء في اللبن يعني اختلط وذهب، وتحلل فيه فلم يعد متميزاً عنه.

وقوله: **{أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}** كيف يلقى عليه الوحي والنبوة من بيننا؟ ما مزيته؟ **{بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}** الأشر هذه اللفظة تأتي بمعنى التكبر والبطر، وهكذا قول من فسرها بأن المراد بها الفرح، والمقصود به ليس مطلق الفرح، وإنما الفرح الذي يورث الأشر والبطر؛ ولهذا قال الله -عز وجل- في قصة قارون حينما قال أولائك الذين ذكّروا من أُعجب به وتمنى مكانه وذكّروه هو قالوا له: **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** [سورة القصص:٧٦] فالفرح معلوم أنه ثلاثة أنواع: الفرح الذي يحبه الله -عز وجل- ويؤجر الإنسان عليه، **{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ}** [سورة يونس:٥٨]، والفرح المباح في الأمور المباحة، والفرح المحرم بهزيمة المسلمين واندحارهم وما أشبه ذلك، فهذا قالوا: **{كَذَّابٌ أَشِرٌ}** فالفرح الذي

يَحمِل على البطر محرم، وهكذا قول من قال: هو البَطِر المتكبر {كَذَّابٌ أَشِرٌ} وفي الحديث في الدعاء: ((لم أخرج أشراً ولا بطراً))[1].

قال الله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

قوله: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ} العرب تطلق الغد بإطلاقين:

الإطلاق الأول: على اليوم الذي يأتي بعد ليلتك، اليوم القريب، غداً الأربعاء مثلا.

والإطلاق الثاني: بمعنى المستقبل {سَيَعْلَمُونَ غَدًا} وهذا هو المراد، {مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} إذا جاء العذاب، أو في يوم القيامة فكل ما هو آتٍ قريب، فيعبرون بذلك إشعاراً بالقرب، بقرب الوقوع.

ثم قال تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ} أي: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمَّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح –عليه السلام– فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله صالح: {فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ} أي: انتظر ما يئول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر لك في الدنيا والآخرة، {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ} أي: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [سورة الشعراء:١٥٥].

وقوله: {كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ} قال مجاهد: إذا غابت حضرّوا الماء، وإذا جاءت حضرّوا اللبن.

قوله: {كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ} محتضر من الحضور، ويبقى المراد بالحضور، هنا نقل عن مجاهد قوله: "**إذا غابت حضروا الماء**" فهي نوبتهم، "**وإذا جاءت حضروا اللبن**" محتضر بمعنى أنهم يحضرون في كل يوم، هناك يوم للماء، ويوم للبن {كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ}، ويحتمل أن يكون المراد أن الناقة تحضر يوماً للماء، وهم يحضرون يوماً.

ثم قال تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدار بن سالف، وكان أشقى قومه.

قال الله تعالى في موضع آخر: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ} [سورة الأعراف:٧٧]، وقال: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [سورة الشمس:١٤] فأضاف العقر إليهم جميعاً، وهنا أضاف العقر لواحد فقال: {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} فدل ذلك على أنهم تمالئوا على عقرها فأضيف ذلك إليهم، فهذا وجه الجمع بين هذه الآيات وفي هذه الآية ما يبينه، وقوله: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} هذا أحيمر ثمود الذي عقرها، والمؤرخون يذكرون في هذا خبراً هو –والله أعلم– من الأخبار الإسرائيلية، يقولون: امرأة كان عندها بنات في غاية الجمال، وكان عندها نَعَم كثير فتضررت بسبب هذه الناقة؛ لا ترد هذه الأنعامُ إلا يوماً بعد يوم فضاق بها ذلك، وأغرت هذا أن تُزوّجه وأن تخيره من بناتها ما شاء إن هو عقر الناقة، هكذا قيل، وقد يكون هذا وقد لا يكون، فهؤلاء الله –عز وجل–

١– رواه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة، رقم (٧٧٨)، عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت– أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك))، وأحمد في المسند، برقم (١١١٥٧)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وقال الألباني: ضعيف جداً. السلسلة الضعيفة برقم (٦٢٥٢).

أضاف ذلك إليهم، فهم فعلوا ذلك تجبراً وتكبراً ومحادة لله -تبارك وتعالى- ولهذا قال الله -عز وجل- في سورة الأعراف: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٧٧] تحدوه بهذا: هات العذاب.

كقوله: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} [سورة الشمس:١٢]، {فَتَعَاطَى} أي: فَجَسر.

لفظة "تعاطي" في أصل معناها في كلام العرب تدل على تكلف في تناول الشيء وأخْذه، يعني: كأنه قام بتدابير وأعمال حتى عقرها، والمؤرخون يذكرون أشياء منها أنه كمن لها في أصل صخرة أو في أصل شجرة -كانت ناقة عظيمة- فضرب عضلة ساقها، رماها بسهم، ثم شد عليها بالسيف.

{فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟

{وَنُذُرِ} يمكن أن تفسر بأنها مصدر، يعني وإنذاري، أو نُذُري، كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟، يعني: يمكن أن تكون بمعنى الجمع، ويمكن أن تفسر بمعنى المصدر، يعني وإنذاري.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد وييْبس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين، والمحتظر: قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين ييْبس ويحترق وتسفيه الريح.

وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَارًا على الإبل والمواشي من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}.

{كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} يقول: قاله غير واحد من المفسرين، يعني: خمدوا وهمدوا كما يهمد وييبس الزرع والنبات، قالوا المحتظر، قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبيس الشوك.

فهو المراد هنا، وكثير من المفسرين يفسرون {الْمُحْتَظِرِ} بالنبات الذي قد يبس وتفتت، وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عن هذا المعنى، {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} فمن قائل بأن ذلك كالنبات والشوك الذي يوضع سياجاً على الدواب يمثل حظراً عليها، يعني حظيرة، بمعنى أنه بديل عن وضع الشبك مثلاً، قد لا يكون عنده هذا، أو لأنه في مكان يترحل فيضع من الشوك ما يمثل حاجزاً يحجز هذه الدواب، {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} فهذا ييبس على الشجر ويتفتت ويتهشم، فصاروا كهشيم المحتظر، وبعضهم يعبر عنه بأنه {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} مثل النبات الذي في الصحراء حينما ييبس ثم بعد ذلك تسفيه الريح، ويتفتت فصاروا بهذا المثابة، وبعضهم يفسر {الْمُحْتَظِرِ} بصاحب الحظيرة، الذي يضع حظاراً على غنمه فلا يتساقط منها، فهو هشيم، يعني: جعلوا المحتظر هو صاحب الحظيرة، فحينما يضع هذا السياج ويحصل له ما يحصل مع الوقت، وذلك كله يرجع إلى معنى متقارب وهو ما يتفتت من النبات ويتهشم سواء الذي يضعه صاحب الحظيرة حظاراً، أو ما يكون في أرض الحظيرة تطأه هذه الدواب، أو ما يكون في الصحراء من النبات الذي ييبس ثم بعد ذلك كما قال الله -عز وجل-: {مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [سورة الكهف:٤٥] فهذا الهشيم، والله أعلم.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}

[سورة القمر:٣٣-٤٠].

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط -عليه السلام- كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل -عليه السلام-، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} وهي: الحجارة.

وهنا يقال كما في الموضع السابق {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ}، وكذلك ما سيأتي من قوله: {وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} [سورة القمر:٤١] بالآيات المنذرة التي تنذرهم من عذاب الله -عز وجل- ونقمته، وكل موضع يفسر بحسبه، يعني هنا في قوله: {كَذَّبَت قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ} كما سبق في ثمود {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ}، وفي فرعون {وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} يمكن أن يفسر بالآيات التي جاءهم بها موسى -صلى الله عليه وسلم- وهي تسع آيات بينات، فكانت النتيجة أن قال له فرعون: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} [سورة الإسراء:١٠١]، ويمكن أن يكون هناك باعتبار أن أقل الجمع -عند بعض أهل العلم وهو قول الإمام مالك -رحمه الله- اثنان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧] وهي شوال وذو القعدة وبعض ذي الحجة على قول طائفة كبيرة من أهل العلم، وكذلك {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [سورة النساء:١١]، والأم تحجب حجب نقصان من الثلث إلى السدس باثنين وهكذا، قال في المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهر *** اثنان عند الإمام الحميري

الحميري هو الإمام مالك -رحمه الله-، فيمكن أن يكون باعتبار أنه جاءه موسى وهارون، فقال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} فجمع باعتبار أن أقل الجمع اثنان، والله أعلم.

{إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا} أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكّوا فيه وتماروا به.

هنا قال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ} هذا التكذيب أطلقه الله -تبارك وتعالى-، فهم كذبوا نبيهم -عليه الصلاة والسلام- وتمالئوا عليه، وأرادوا إخراجه {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [سورة النمل:٥٦]، وبعض أهل العلم يقول: بالتتبع لجميع المواضع التي ذكر فيها قوم لوط، يقول: ما خاطبهم لوط -صلى الله عليه وسلم- بالتوحيد، فقال بعضهم: إن هؤلاء لم يكن عندهم شرك لكن كانت عندهم هذه الفاحشة، وهذا ليس بلازم، فالله -عز وجل- يذكر من خبر هؤلاء الأمم والأقوام المهلَكة ما يذكر لحكمة

يقتضيها المقام، فهؤلاء جاءوا بأول ذنب كبير اخترعوه وابتدعوه لم يسبقوا إليه فذُكروا به، لكن هذا لا يعني أنه ما عندهم شرك! ناس يفعلون هذا ويتخذونه بدلاً لما أحله الله -عز وجل- لهم، ويكابرون غاية المكابرة، ويصرون عليه، ويكذبون نبياً من أنبياء الله -تبارك وتعالى-، فهؤلاء لا يسلمون من الشرك، ولولا فساد عقائدهم ما حصل منهم هذا الاستكبار والعتو على الله -عز وجل- إلى هذا الحد {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} فكونه لم يذكر الخطاب بالتوحيد لا يعني أنه ما كان عندهم شرك، والله أعلم.

{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ} وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل -عليهم السلام- في صورة شباب مُرد حِسان محنةً من الله بهم، فأضافهم لوط -عليه السلام- وبعثت امرأته العجوزُ السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط -عليه السلام-، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه.

النبي بالنسبة لقومه بمنزلة الوالد والأب، والأبوة معروفة أنها نوعان: أبوة تربية، وأبوة ولادة، والنبي بمنزلة الوالد لقومه، ولهذا جاء في القراءة غير المتواترة قراءة أبيّ وقراءة ابن عباس {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه أمهاتهم}، وفي القراءة الثانية {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم}، ويقول: هؤلاء بناتي يعني بنات القبيلة، والمعنى الثاني: أنه قال: هؤلاء بناتي فتزوجوهن، استغنوا بذلك عما حرم الله، لكن لا يمكن لأحد أن يفهم أنه يعرض بناته ليفجروا بهن، هذا لا يمكن ولا يقع من آحاد الناس فضلاً عن أن يقع من نبي كريم، فأعظم الناس غيرة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

ويقول لهم: {هَؤُلاءِ بَنَاتِي} يعني: نساءهم، {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [سورة الحجر:٧١]، **{قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ} أي: ليس لنا فيهن أرَبٌ، {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}** [سورة هود:٧٩] **فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل -عليه السلام-، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم.**

يعني في قوله {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ} يحتمل أن يكون بمعنى العمى، أُخذت الأبصار، وظاهره يدل على ما هو أبلغ من هذا، يعني أنها صارت الوجوه صفحة واحدة ليس فيها شق للعيون أصلاً! ذهبت، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا -عليه السلام- إلى الصباح.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ} أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القمر من الآية ٤١ إلى الآية ٤٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ * أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [سورة القمر:٤١-٤٦].

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون -عليهما السلام- بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبرًا ولا عينًا ولا أثرًا.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} قوله: {النُّذُرُ} بصيغة الجمع يمكن أن يحمل على مجيء موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- باعتبار أن أقل الجمع اثنان على قول بعض أهل العلم، فيمكن أن يعبر عن الاثنين بالجمع، يقال: (نُذر)، ويمكن أن يكون هذا باعتبار أن من كذب رسولاً أو رسولين فكأنما كذب جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ويمكن أن يكون النُّذر مصدراً بمعنى الإنذار، وقوله: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا} الله -عز وجل- أخبر أن الآيات التي جاء بها موسى -صلى الله عليه وسلم- تسع آيات من أظهرها وأبينها العصا، وكذلك ما ذكره الله -عز وجل- له من إدخال يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء من غير مرضن من غير برص، من غير علة، وكذلك أيضاً يضم إليه جناحه من الرهب فيحصل له طمأنينة وسكينة ويذهب عنه الخوف في أوقات المخاوف، وهكذا ما حصل على يده لفرعون وقومه مما قصه الله -تبارك وتعالى- فهي تسع آيات: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا} فقالوا له: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة الأعراف:١٣٢]، قال الله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ} [سورة الأعراف:١٣٣]، {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} كما قال الله -عز وجل-: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} [سورة الذاريات:٤٠] أي: قد جاء بما يستحق عليه اللوم، وقوله: {مُّقْتَدِرٍ} أبلغ من قادر كما هو معلوم فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، قادر، مقتدر فهذا لشدة تمكنه في القدرة.

ثم قال: {أَكُفَّارُكُمْ} أي: أيها المشركون من كفار قريش {خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أُهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولائك؟ {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} أي: أم معكم من الله براءة ألّا ينالكم عذاب ولا نكال؟.

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ} أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} أي: سيتفرق شملهم ويغلبون.

هنا ذكر ثلاثة أشياء في الرد عليهم {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ} يعني: إما أنكم أفضل من هؤلاء فتحصل لكم السلامة من العذاب {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ}، والأمر الثاني: {أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ} والزبر هي الكتب، وإما أن الله –عز وجل– أعطاكم ضماناً وعهداً ألا يعذبكم، فالأول منتفٍ، والثاني منتفٍ، بقي الثالث: أن تكون لكم قوة تخلصكم من عذاب الله –عز وجل– إذا نزل بساحتكم، {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ} يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله– "**أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء**"، يعني: كأنهم يقولون: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ}، نحن جماعة لا تطاق جمع كبير لا نطاق، لا نغلب لكثرتنا وقوتنا، أو أن أمرنا مجتمع فلا نغلب {نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ} ومعنى منتصر أي منتصرون، وكذلك قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} هذه الآية مكية فسورة القمر من السور النازلة بمكة، وفي مكة لم يكن هناك جمع، ولربما لا يخطر في بال أحد في ذلك الوقت أنه سيلتقي الصفان وتحصل معركة، وإنما هم أفراد مضطهدون يعذبون في دينهم، والله يقول: سيهزم الجمع فمثل هذا كان يتساءل عنه مثل عمر –رضي الله تعالى عنه– أيّ جمع؟ فالآية تتحدث عن أمر مستقبل كما هو ظاهر من قوله: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} فإن "السين" تدل على هذا المعنى {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}، وهذا مما نزل قبل وقوعه لقوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [سورة الروم:١-٣]، ولما كان في يوم بدر نزلت: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ} "غُلبت" بالبناء لغير المعلوم، وكانت غلبة الروم بالفرس في يوم بدر.

قوله: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} يعني يولون الأدبار وهذا تكني به العرب عن الهزيمة، فالمنهزم يعطي ظهره لعدوه ولهذا يفتخر من يفتخر بأن جراحهم تقع في صدورهم لا تقع في ظهورهم وأن دماءهم تنزل على أقدامهم لا على أعقابهم كما قال الشاعر: وهو ما تمثل به ابن الزبير –رضي الله تعالى عنه– حينما أصيب في وقعة الحجاج لحصاره لابن الزبير –رضي الله عنه–:

ولسنا على الأعقاب تَدْمَى كُلومُنا[1] *** ولكنْ على أقدامنا تَقْطُرُ الدِّما

لما وجد حرارة الدم حينما ضُرب أصيب في رأسه ونزل الدم قال:

ولسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومُنا *** ولكن على أقدامنا تَقطُرُ الدِّما

فالدبر هنا مفرد {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} والمراد به الجمع، أي يولون الأدبار، {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ} [سورة الفتح:٢٢] وذكرنا من قبل أن المفرد قد يأتي معبراً به عن الجمع كقوله تعالى: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [سورة النور:٣١] يعني: أو الأطفال.

روى البخاري عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال –وهو في قبة له يوم بدر–: ((أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدا))، **فأخذ أبو بكر –رضي الله**

١- يعني جراحنا.

عنه- بيده وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}**(٢).

وروى البخاري عن يوسف بن ماهَكَ قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- بمكة -وإني لجارية ألعب- **{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}** هكذا رواه هاهنا مختصراً(٣)، ورواه في فضائل القرآن مطولا، ولم يخرجه مسلم.

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}

[سورة القمر:٤٧-٥٥].

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} عرفنا أن الضلال هو الذهاب عن الحق، **{فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}** هل المقصود هنا بـــ "السعر" يعني: السعير الذي هو النار، الإحراق هو النار وذلك يوم القيامة ثم قال بعده: **{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}** فـــ "سعر" هل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ كلام الحافظ ابن كثير هنا -رحمه الله- يقتضي أنه في الدنيا وذلك بسبب الشكوك والاضطرابات وآثار هذه العقائد الفاسدة في قلوبهم، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، أو فسر "السعر" بالاحتراق لكن ليس الاحتراق المقصود به الاحتراق بالنار وإنما في الدنيا، احتراق وشدة وعناء بسبب فساد قلوبهم وعقائدهم وأعمالهم، فالعقائد تؤثر تأثيراً بليغاً في نفوس أصحابها، فالعقائد الصحيحة ينتج عنها انشراح الصدر، والأعمال الصحيحة ينفسح معها الصدر وتشرق النفس، ويستنير القلب، ويجد الإنسان برد اليقين، والعقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة تؤثر في نفوس أصحابها، ضيقاً، وحرجاً، وألماً وحسرة، وعناءً، وشقاءً فيظلم القلب وينعصر، ولا يجد صاحبه لذة وراحة وانشراحاً، وسروراً ونعيماً، فكلما كان الإنسان أتبع للحق وأكثر عملاً به فإنه يحصل له من اللذة والسرور والانشراح بإقباله على الله وتوحيده وعبادته مالا يقادر قدرة، وينقص بحسب ذلك، ولهذا تجد صاحب المعصية عنده من الحرج والضيق، والظلمة بحسب ما عنده من الضلال والانحراف، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}** [سورة الزمر:٢٢]، وقال: **{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}** [سورة الأنعام: ١٢٥]؛ لشدة ضيقه، فهذا "السعر" في الدنيا فهو يقول: "**وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق**" يعني: يكون له من الألم والضيق بحسب

٢- رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي -صلى الله عليه وسلم- والقميص في الحرب، برقم (٢٧٥٨)، وبرقم (٤٥٩٤)، في كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر.

٣- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر، برقم (٤٥٩٥)، و(٤٧٠٧)، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

الانحراف الذي عنده، ولذلك لا تجد الكافرين وأهل الفساد والمحادة لله -عز وجل- لا تجد عندهم اللذة التي يجدها المؤمن، والسعادة والأنس بالله والسرور بمعرفته، وانشراح الصدر بعبادته، والتقرب إليه، ولا يجدون شيئاً من برد اليقين، وإنما تجد نفوسهم ضيقة، ولهذا يتهافتون في أودية الردى فالأمراض النفسية تكثر وتعج في نفوسهم، التوتر والقلق والاكتئاب؛ لذلك تجد الانتحار عندهم مع أنهم لا يرجون ما عند الله -عز وجل-، هذا كله بسبب فساد عقائدهم، وفساد أعمالهم، فعلى قدر فساد الاعتقاد أو العمل على قدر ما يحصل من ضيق الصدر، فالسعر هذا في الدنيا قبل الآخرة، كما أن اللذة التي تحصل للمؤمن في الدنيا تحصل قبل الآخرة، ولهذا قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"، وإذا أراد الإنسان أن يعرف هذا ينظر إلى حاله وما في قلبه من اللذة والسرور والانشراح بذكر الله -عز وجل- ومعرفته وعبادته، فينظر في حاله، فالناس يتفاوتون في هذا غاية التفاوت.

ثم قال تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} أي: كما كانوا في سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالا يسُحبون فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}.

وقوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، كقوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [سورة الفرقان:٢]، وكقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [سورة الأعلى:١-٣] أي: قدر قَدَرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو عِلْمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلا وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري -رحمه الله-، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة.

{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير والذي عليه عامة أهل العلم: أي خلقناه بتقدير، كل شيء قدره الله -عز وجل-، وخلق كل شيء فقدره تقديراً هذا تفسير هذه الآية، ومن أهل العلم من ذكر قولاً يقرب من هذا، وقد يرجع إليه، كقول ابن جرير: خلقنا كل شيء بمقدار {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} بمقدار، وأقول: قد يرجع إلى هذا؛ لأن عبارته أشمل قليلاً أو حينما قال: خلقناه بمقدار، قال قدرناه وقضيناه أي كل شيء خلقناه بمقدار قدرناه وقضيناه، فقوله قدرناه وقضيناه {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}؛ لأن قوله بقدر، يحتمل معنيين يحتمل {خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} يعني: بمقدار لا يزيد عنه ولا ينقص، وهذا القول يتضمن القول الآخر خلقه ليس فقط بتقدير قدره، لا، وإنما بمقدار أيضاً لا يزيد عنه ولا ينقص، فيجد تقدير الخلق، ويجد أيضاً حده حيث لا يتجاوز ذلك الحد الذي حُد له بمقدار، وهذا المعنى يمكن أن يفهم من ظاهر الآية، والآية إذا احتملت معنيين صحيحين، ولا يوجد ما يدل على أحدهما دون الآخر، ولا يوجد مانع يمنع من حملها عليهما فإنها تحمل على المعنيين، وهذا الذي فعله ابن جرير ذكر المعنيين -الاحتمالين- وفسر بهذه العبارة الوجيزة التي ذكر فيها هذا وهذا، وكل ذلك من صميم القدر، يعني كل ما يقع في الكون من تحريكة وتسكينة فإنما هي بتقدير الله -تبارك وتعالى-، وهذا الشيء الذي يقع يعني حتى القطر من السماء الله-تبارك

وتعالى- قدره أن تنزل هذه الكمية لا تزيد قطرة واحدة ولا تنقص، وهكذا ما يحصل من مياه الأنهار وجريها، وما يستخرج منها وما ينزل في البحار، كل هذا بمقدار لا يزيد عنه ولا ينقص، من يموت في اليوم من يموت في السنة من الناس كل هذا بمقدار محدد، وهكذا ما يحصل للناس من الأرزاق كل هذا ذلك بمقدار ينزله الله -عز وجل- وفق حكمته فلا يحصل فيه شيء يخالف ما قدره الله -عز وجل-، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا مرتبتين من مراتب القدر الأربع عند أهل السنة والجماعة وهي الأولى: العلم السابق المحيط، والثانية: يعني أن الله علم ذلك وأيضاً كتبه، أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال ما أكتب؟، قال: اكتب أمره أن يكتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة، والثالثة: المشيئة العامة أن الله شاء وقوعه، والرابعة: أن الله خلقه، هذه المراتب الأربع لابد منها، ولهذا ما قدره الله -عز وجل- وقضاه لابد أن يقع، لابد أن يقع الذي في العلم السابق، ولذلك فإن قوله تعالى: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [سورة الرعد:٣٩] المحو يكون في الصحف التي بأيدي الملائكة، بهذا الاعتبار لا يتنافى مع ما ورد من أن صلة الرحم تزيد في العمر ((من سره أن يُنسأ له في أثره))[٤]، ((ما نقص مال من صدقة))[٥]، ((وإن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه))[٦] فهذا لا يتنافى مع ما سبق، فالذي في علم الله -عز وجل- وما كتب في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير والله بكل شيء عليم، وفيه المراتب الأربع لكن الصحف التي بأيدي الملائكة يكون مكتوباً فيها إن رزق هذا الإنسان كذا، ويكون في علم الله السابق أن هذا الإنسان سيتصدق فيزاد في رزقه، ويكون عمر هذا الإنسان خمسين سنة في الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي علم الله الشامل المحيط السابق بقدره أن هذا الإنسان يصل الرحم فيزاد "١٥" سنة، فيكون عمره "٦٥"، وما ورد: ((لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ))[٧]، كذلك قدر عليه في الصحف التي بأيدي الملائكة أن تصيبه مصيبة، يحصل له حادث ويموت ثلاثة من أولاده فيقدر الله -عز وجل- له قبل ذلك أن يرفع يديه ويدعو فيصرف عنه ذلك، فهذه أربع مراتب، وبهذا يعرف خطأ من يخطئ وهذا يقع كثيراً يقولون لبيان عدل الله -عز وجل-: هذا مثل المدرس حينما يدخل على الطلاب في الأسبوع الأول ويقول لهم: أنت في نهاية الفصل سترسب، وأنت ستنجح بامتياز، وأنت جيد جداً، وأنت جيد وأنت كذا ثم في النهاية في النتيجة يقع كما قال، لا أنه قصد هذا لكن بحسب علمه ومعرفته بهؤلاء ومستواهم حكم بمثل هذا، هل هو الذي رسبهم أو نجحهم؟، هذا غلط فقدر

٤- رواه البخاري، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، برقم (١٩٦١)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٧).

٥- رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٧٤)، وقال محققوه: حسن لغيره، والطبراني في المعجم الصغير، برقم (١٤٢)، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٦٢) وقال: صحيح لغيره.

٦- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم (٤٠٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٣٨٦)، وقال محققوه: حسن لغيره دون قوله: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"، وهذا إسناد ضعيف، وحسن الألباني هذه الجملة من الحديث وبقيته ضعيف، فقال في تحقيق الطحاوية: "حسن دون جملة: " وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"، العقيدة الطحاوية: (١٥٠).

٧- رواه الترمذي، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، برقم (٢١٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٠٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٦٨٧).

الله يختلف عن هذا، قدر الله فيه العلم، يعني هذه القضية فيها علم غير واثق قد يتغير ويتبدل ويخطئ، بخلاف علم الله الذي لا يتطرق إليه هذا، وفيها الكتابة وفيها أن الله أراده وشاءه، وفيها أن الله خلقه لابد أن يوجد وفرق بين هذه وهذه، وذكرت هذا لكثرة ما يقع فيه كثير من الناس، يشرح قضية ويبين عدل الله -عز وجل- ويمثلهم بهذا المثال، وهو ليس بصحيح.

روى أحمد عن أبي هُرَيرَة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاصمونه في القدَر، فنزلت: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه[٨].

وروى البزار عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده -رضي الله عنه- قال: ما نزلت هذه الآيات: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، إلا في أهل القدر[٩].

حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- صريح في سبب النزول، سبب النزول: مخاصمة المشركين في القدر كان المشركون يقولون: **{لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا}** [سورة الأنعام:١٤٨]، فالحاصل أن هذا هو سبب النزول، والرواية الثانية عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ليست سبباً للنزول، وإنما قصد من ذلك أن هذا مما يدخل في معناها، يقول: نزلت هذه الآية في أهل القدر، وأسباب النزول منها ما هو صريح، ومنها ما هو غير صريح، فالصريح أن يذكر سبباً ثم يقول: فنزلت الآية، أو يقول: سبب نزول الآية كذا، وغير الصريح أن يقول: نزلت هذه الآية في كذا، هذه الآية نزلت في أهل القدر، لا إشكال، بمعنى أنه مما يدخل في معناها، وليس المقصود سبب النزول.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن زُرَارة، عن أبيه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه تلا هذه الآية: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، قال: ((نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله))[١٠].

حقيقة سبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أيام وقوعه من حادثة أو سؤال، فالأشياء الماضية والمنصرمة القديمة ليست سبباً للنزول، مثلاً: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}** [سورة الفيل:١] لا يقال: سبب نزولها قصة أبرهة، وكذلك ما تخبر عنه الآيات من الغيوب المستقبلية مثلاً لا يقال: إنه سبب النزول، إنما سبب النزول ما حصل مثل: "جاء رجل فظاهر من امرأته -أوس بن الصامت- فجاءت إلى

٨- رواه أحمد في المسند، برقم (٩٧٣٦)، وقال محققوه: إسناده حسن، ومسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، برقم (٢٦٥٦)، والترمذي، في كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢١٥٧)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في القدر، برقم (٨٣).

٩- رواه البزار في مسنده، برقم (٢٤٦٧)، وقال الألباني: "سنده جيد" كما في السلسلة الصحيحة (٥٢/٤)، في كلامه على حديث رقم (١٥٣٩).

١٠- رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٥٣١٦)، وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة، برقم (١٥٣٩).

النبي –صلى الله عليه وسلم– فنزلت: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ} [سورة المجادلة:١][١١] وهكذا، هذا سبب النزول وماعداه يمكن أن يقال: الآيات تحدثت عن الموضوع الفلاني، أو أخبرت عن أمر سيقع، فهذا من الغيوب المستقبلية لكن لا يسمى سبب نزول.

وعن عطاء بن أبي رَبَاح، قال: أتيت ابن عباس وهو يَنزِع من زمزم، وقد ابتلّت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلّم في القدر، فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، أولائك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تُصلّوا على موتاهم، إن رأيتُ أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعيّ هاتين[١٢].

وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إليّ، فإني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر))[١٣] رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((كل شيء بقدر حتى العجْز والكيْس))[١٤].

ورواه مسلم منفردا به، من حديث مالك.

وفي الحديث الصحيح: ((استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان))[١٥].

وفي حديث ابن عباس –رضي الله عنهما–: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال له: ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يضروك، جفّت الأقلام وطويت الصحف))[١٦].

١١– رواه أبو داود، كتاب الطلاق، باب في الظهار، برقم (٢٢١٤)، والنسائي، كتاب الطلاق، باب الظهار، برقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار، برقم (٢٠٦٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٩٨١).

١٢– رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٢٠٦٦٩)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٣٩).

١٣– رواه أبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، برقم (٤٦١٣)، وأحمد في المسند، برقم (٥٦٣٩)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٦٦٩).

١٤– رواه مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، برقم (٢٦٥٥)، وأحمد في المسند، برقم (٥٨٩٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

١٥– رواه مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم (٢٦٦٤).

١٦– رواه الترمذي ولفظه: ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، برقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٧).

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لمّا تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني: إن متَّ ولستَ على ذلك دخلت النار))[١٧]، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)) زاد ابن وهب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [سورة هود:٧][١٨]، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

١٧- رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٧٠٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٧٨١)، وفي السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٣٩).

١٨- رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣)، والترمذي، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب الرضا بالقضاء، برقم (٢١٥٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القمر من الآية ٥٠ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠] **وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ} أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** يحتمل أن يكون المراد بذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "**أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية**"، يعني: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [سورة النحل:٤٠]، وهذا يدل على كمال قدرته -تبارك وتعالى- ويحتمل أن يكون المراد بذلك معنى أخص من هذا، وهو الساعة، فإن الساعة تأتي بغتة **{لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}** [سورة الأعراف:١٨٧]، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك بقوله: **((**تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يَلِطُ في حوضه فما يصدر حتى تقوم**))**[1]، وهكذا في أشياء ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأمر الساعة ووقوعها شيء مباغت سريع في غاية السرعة، وهذا القول داخل ضمن القول الأول، والقول الأول أشمل، وقد دل على كل واحد منهما القرآن، فدل على الأول قوله تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** في غاية السرعة، وكذلك أيضاً أمر الساعة فإنه يقع سريعاً وهو من جمله أمره -تبارك وتعالى-: **{كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** والمقصود باللمح بالبصر هو النظرة الخاطفة التي لا يسترسل صاحبها في النظر فيها، تقول لمحة، حصلت لمحة: نظرة سريعة.

وقوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ} يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل.

الأشياء يمكن أن تفسر بهذا باعتبار السياق **{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ}** باعتبار أن السابقين من الأمم المكذبة ليسوا أعواناً لهؤلاء ولا علاقة بينهم وبين هذه الأمور الأخرى، **{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ}** وإلا فإن الأشياع يطلقون على الأتباع والأعوان، لكن هؤلاء لم يكونوا من أتباعهم ولا من أعوانهم، وإن كان فسره بعض أهل العلم بهذا، يعني بعضهم قال: **{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ}** أي: أعوانكم وأتباعكم، وهذا لا يخلو من بُعد؛ لأن الذي هلك إنما هم أمثالهم وأشباههم مما قص الله -عز وجل- خبرهم، وأما الأتباع فلم يحصل لهم هذا، والخطاب

١- رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥٤).

لجميع هؤلاء المكذبين الذين نزل القرآن مخاطباً لهم، ومن قال: إن المقصود الأتباع يمكن أن يحمل ذلك على أن هذا الكلام متوجه لأولائك الذين أُهلكوا، لكنه لا يخلو من بعد.

{فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولائك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} [سورة سبأ:٥٤].

وقوله: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة –عليهم السلام.

{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} الزبر يعني الكتب، ويحتمل أن يكون المراد بذلك اللوح المحفوظ باعتبار أن الله –عز وجل– كتب فيه مقادير كل شيء إلى قيام الساعة، ويقول الله –عز وجل–: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** [سورة الإسراء:٥٨] يعني: مكتوباً، ويحتمل أن يكون ذلك في الكتب التي بأيدي الملائكة، والمقصود بها كتب الأعمال التي يعملها العبد، **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [سورة ق:١٨]، **{وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}** [سورة الكهف:٤٩]، فيكتب عليهم هذه الأعمال، ثم بعد ذلك يوم القيامة يجدون هذه الكتب فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، ويحتمل أن يكون المراد بالكتب: التي بأيدي الملائكة مما يكتب فيه القدر، فإن القدر مكتوب، فالأمور المقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ، وهناك كتابة في صحف بأيدي الملائكة، وهذه هي التي قال الله –عز وجل– فيها: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [سورة الرعد:٣٩] يعني: اللوح المحفوظ **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}**، ويقول: "**أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة**"، وهذا الذي قاله الحافظ ابن كثير قال به جمع من المحققين، وممن قال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–: "بالزبر" يعني: الكتب التي بأيدي الملائكة، ولا يقصدون بها التي كتبت فيها أقدار وأعمال بني آدم، وإنما المقصود ما عملوه من خير وشر مما دونته عليهم الملائكة، وهو مشار إليه بقوله –تبارك وتعالى–: **{يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً}**، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ}** يعني: في الماضي، ما هو ما سيعملونه في المستقبل، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}**، ومن قال: إن المقصود به اللوح المحفوظ فالقرينة هي السياق، وهو قوله –تبارك وتعالى–: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ}** [سورة القمر:٤٩-٥١]، ثم قال: **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}** [سورة القمر:٥٢-٥٣]، مكتوب يحتمل أن يكون مما سيعمله العباد، ما عملوه، وما سيعملوه والواقع أن الجميع مكتوب، فكل ما سيعمله العاملون مكتوب، وما عملوه في الزمن الماضي كل ذلك مكتوب قبل أن يعملوه، وهو مكتوب إذا عملوه، كل هذا دلت عليه الأدلة، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}** مكتوب قبل عمله، مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة التي كتب فيها القدر، والتقدير منه ما هو أزلي، والذي في علم الله، وما كتب في اللوح المحفوظ، ومنه ما هو عمري وهو مجيء الملك إليه، كما في حديث الصادق المصدوق: ((فيؤمر بأربع كلمات...))[٢]، ومنه ما هو حولي في السنة **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [سورة الدخان:٤]، وكذلك الأعمال التي يعملها الإنسان تكتب،

٢- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٣).

فالجمع بين هذه الأقوال ما عملوه وما سيعملوه كل ذلك مكتوب، وهو الذي رجحه الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

{وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ} أي: من أعمالهم {مُسْتَطَرٌ} أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((يا عائشة، إياك ومُحَقِّرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا))[٣]، رواه النسائي وابن ماجه.

وقوله: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} [سورة القمر:٥٤] **أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسُّعر والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.**

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} النهَر والنهْر واحد على المشهور، وهما لغتان فيه: نهَر ونهْر، والنهر واحد يمكن أن يراد به معنى الجمع، فإن المفرد قد يطلق ويراد به الجمع **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** أي وأنهار.

وقوله: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه.

{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} يقال: دار الكرامة، ولا يبعد من هذا قول من قال: مجلس حق **{لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}** [سورة الطور:٢٣]، فإن هذه من جملة دار الكرامة المجلس الذي لا يعصى الله -عز وجل- فيه، ولا يَسمع فيه لغواً ولا تأثيماً، لا يَسمع فيه ما يؤثمه كالغيبة التي في مجالس الناس، ولا يحصل منه إثم في هذا المجلس، ولا يتوجه إليه إثم، لا يؤثم بما يقول، وإنما في غاية الطهارة والنزاهة، فهو مجلس حق، والمقصود به الجنة، فهذه العبارات ترجع إلى معنى واحد **{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ}** أي: الجنة مقعد الصدق هذا من أوصافه أنه دار الكرامة، وأنه مقعد حق لا تأثيم فيه، ولا لغو، كما قال الله -عز وجل-: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}** [سورة الواقعة:٢٥-٢٦] وكل ما يمكن أن يوصف به المقعد الحسن داخل في هذا، أوصاف المقعد من الحسن كلها داخلة فيه، ولفظة **{مَقْعَدِ صِدْقٍ}** في كلام العرب يراد بها الكمال والجمال، فيدخل فيه الكمال الحسي والكمال المعنوي، وهو جنة فهي دار الكرامة.

{عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -يَبلُغُ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا))[٤]، وأخرجه مسلم والنسائي.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [سورة القمر:٥٤-٥٥] وهو الجنة، وقوله هنا: ((المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين)) من أهل العلم من حمله على

٣- رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٥١٧٧)، وقال محققوه: حديث حسن، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٧٣١).

٤- رواه أحمد في المسند، برقم (٦٤٩٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم (١٨٢٧)، والنسائي، كتاب آداب القضاة، باب فضل الحاكم العادل في حكمه، برقم (٥٣٧٩).

ظاهره، ومنهم من قال: إن المراد بذلك الكمال وليس المقصود تأويل الصفة، فالصفة -صفة اليد- تثبت كما يليق بجلال الله وعظمته، لكن يقصدون هل يقال: إن لله شمالاً أو لا؟ فبعضهم يقول: الرواية التي في صحيح مسلم في طي السموات وقبض الأرض، وذكر الشمال يقال: إنها شاذة، وإنما المقصود بالحديث الآخر: ((كلتا يديه يمين))، أنها ليست كالشمال عند بني آدم فإنها أنقص من اليمين ناقصة حساً ومعنى، وأما الله -تبارك وتعالى- فلا يتطرق إليه نقص، فكلتا يديه يمين بهذا الاعتبار، فمن أهل العلم من أثبت الحديثين وفسر ((كلتا يديه يمين)) بهذا التفسير، ومنهم من قال: لا يقال: إن لله شمالاً، والرواية التي في مسلم شاذة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ١ إلى الآية ١٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة الرحمن وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن زرٍّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: "ماء غير آسن أو أسن"؟ فقال: كل القرآن قد قرأت، قال: إني لأقرأ المفصل أجمع في ركعة واحدة، فقال: أهذًّا كهذِّ الشعر لا أبا لك؟ قد علمت قرائن النبي -صلى الله عليه وسلم- التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: {الرَّحْمَنُ}.

وروى أبو عيسى الترمذي عن جابر -رضي الله عنه- قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: ((لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد))[1]، ثم قال: هذا حديث غريب.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

وروى أبو جعفر بن جرير عن ابن عمر -رضي الله عنهما-؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ سورة "الرحمن" -أو: قُرِئَت عنده-فقال: ((ما لي أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم؟))، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ((ما أتيت على قول الله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمة ربنا نكذب))[2]، ورواه الحافظ البزار.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:١-١٣]، يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

١- رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الرحمن، برقم (٣٢٩١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢١٥٠).

٢- جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٣/٢٢)، والبزار في مسنده، برقم (٥٨٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٢٢٦٤)، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٧٦٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

قال الحسن: يعني: النطق، وذلك لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

هذا الظاهر –والله تعالى أعلم– من السياق **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** وهو ما يُبين به عما يختلج في نفسه، وبذلك صار الفرق بينه وبين العجماوات فهي لا تبين، فهذا نوع مَنٍّ امتن الله –عز وجل– به على الإنسان، **{فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}** [سورة النحل:٤] شديد الخصومة مبين عما في نفسه، ويحتمل أن المراد كما قال طائفة من السلف: **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** أي: بيان الحلال والحرام، والمعنى الأول أشهر، والآيات الأخرى تدل على هذا كقوله: **{مُّبِينٌ}** في صفة الإنسان، **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}**، ومن أهل العلم –كالشيخ الأمين الشنقيطي –رحمه الله– مَن فسره بهذا المعنى يبين عما في نفسه بيان النطق، واحتج له بالآيات التي تصف الإنسان بذلك، ومنهم من فسره بالآخر، والأكثر على الأول، ومن أهل العلم من جمع بين المعنيين ككبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– قال: **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** يبين عما في نفسه، يتكلم وأيضاً بيان الحلال والحرام، والله أعلم.

وقوله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} أي: يجريان متعاقبيْن بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب، {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، وقال تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام:٩٦].

الحسبان قال: **أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب**، ولفظة الحسبان مصدر كالطغيان والرجحان، وأشباه ذلك، فالحسبان بمعنى الحساب، ولكنها بنيت هذا البناء الذي يدل على الكثرة، ويمكن أن يفسر **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}**، بمثل قوله –تبارك وتعالى–: **{وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}** [سورة يونس:٥]، فهو يسير في منازل محددة بحساب دقيق ينتج عن ذلك معرفة الناس حساب الشهور والأيام والأعوام، وبذلك يعرفون مواسم الصوم والحج وعِدد النساء وما شابه ذلك، والله يقول: **{فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}** [سورة الإسراء:١٢]، فهذا هو الذي يشهد له القرآن، وهو الظاهر المتبادر في معنى هذه الآية، وإن اختلف المفسرون في تفسيرها ومعناها لكن هذا هو الأقرب –والله أعلم–: يجريان متعاقبيْن بحساب مقنن.

وقوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: {وَالنَّجْمُ} بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض –يعني من النبات.

اختلفوا في السجود واختلفوا في معنى النجم هنا، فـــ **{يَسْجُدَانِ}** السجود منهم من فسره بالانقياد فهي منقادة لربها، وفاطرها وخالقها خاضعة له، وقد يعبر بالسجود عن هذا المعنى أي الانقياد والخضوع، فيكون قد فسر بأمر معنوي، خاضعة، ومنهم من فسر السجود بسجود الظل كما قال الله –تبارك وتعالى–: **{يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ}** [سورة النحل:٤٨]، فيتحول مع الشمس ظل هذا الشجر، ومن أهل العلم من يقول: الشجر هذا يستقبل الشمس إذا طلعت ثم بعد ذلك يتحول ثم بعد ذلك يميل، يتحول معها إذا انكسر الفيء، ففسروه بميلان الشجر، وهذا لا يحصل لكل الشجر، وإنما هو لبعض أنواعه يستقبل الشمس إذا طلعت ثم

يميل معها، ومنهم من فسر سجود النجم بطلوعه إذا طلع وأفوله إذا أفل، والآية تحتمل هذا وهذا، ويحتمل أن يكون سجود الظل كما قال طائفة من السلف: إن الآية الأخرى قد تدل عليه {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن يكون المراد غير هذا، ولو أن قائلاً قال: نحن نثبت أن هذه الأشياء تسجد لله -عز وجل- سجوداً يصلح لمثلها قد لا نعلمه كالتسبيح، {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء:٤٤]، {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} [سورة سبأ:١٠]، {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الحديد:١]، كل هذا يسبح لله -عز وجل-: ((وإني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث))[3]، وأيضاً: "حنين الجذع، حنّ كحنين العشار لولدها حتى نزل النبي -صلى الله عليه وسلم- وسكنه"[4]، فهذه المخلوقات وهذه الكائنات تسبح لله -عز وجل-، والله -عز وجل- يقول: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ} [سورة البقرة:٧٤]، فهذه الجبال تخشى الله، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن نقيق الضفدع تسبيح[5]، فأعطاها الله من الإدراكات ما يليق بها، ويصلح لمثلها مما لا نعلمه، فهي تسجد وتسبح وإن كنا لا ندرك مثل هذا، ولا يعني أن الإنسان إذا وقف عند هذا لكفاه، دون الدخول في التفاصيل، فإنه لا يقطع بشيء من هذا، يحتمل أن يكون كما ذكر وهو سجود الظل ،والله أعلم.

روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض -يعني من النبات-، وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري، وقد اختاره ابن جرير -رحمه الله تعالى.

قوله: **ما انبسط على الأرض** يعني الذي ليس له ساق مثل: شجر القرع والبطيخ، فمنهم من قال: النجم هو هذا؛ لأنه قابله بالشجر، فالشجر ما له ساق، هذه هي القرينة، وإلا فالمعنى المتبادر أنه النجم المعروف في السماء، لكن الذي جعل هؤلاء يقولون: النجم هو الشجر الذي ليس له ساق قرينة ذكر الشجر، فذكَرَ الشيء وما يقابله.

وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة. وهذا القول هو الأظهر والله أعلم؛ لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ} الآية [سورة الحج:١٨].

ففي هذه الآية النجوم لا يمكن أن يكون المراد بها الأشجار التي لا ساق لها، والله -عز وجل- ذكر سجود النجوم في السماء، وما ذُكر محتملاً أو مجملاً في موضع من القرآن فإنه يفسر في موضع آخر، ولم يرد في القرآن موضع يذكر فيه سجود النبات ولو موضع واحد، فبناءً على ذلك هنا لما كان النجم محتملاً يمكن أن

٣- رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٤- رواه الترمذي، أبواب الجمعة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الخطبة على المنبر، برقم (٥٠٥)، وأحمد في المسند، برقم (٣٤٣٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢١٧٤).

٥- رواه الطبراني في الأوسط، برقم (٣٧١٦)، والكبير، برقم (١٤٦٩)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٤٧٨٨).

يفسر بما ورد فيه من سجود النجم الذي في السماء فهذا هو الأقرب، وهو الذي اتفق عليه هؤلاء الأئمة كابن جرير، وابن كثير وهو قول أكثر السلف: النجم الذي في السماء.

وقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} يعني: العدل، كما قال: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [سورة الحديد:٢٥]**، وهكذا قال هاهنا: {أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ} أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.**

فسر الميزان هنا بالعدل، ومن أهل العلم من فسره بالأدلة، ووضع الميزان براهين الحق، وهذا فيه بعد، ومنهم من فسر وضع الميزان بالميزان المعروف الذي توزن به الأشياء، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسره بالعدل، وهو اختيار ابن جرير، والميزان يطلق على العدل في كلام العرب، ويطلق على آلته، الآلة التي يحصل بها هذا العدل بين الناس وهو الميزان المعروف فيطلق على هذا وعلى هذا، وهما متلازمان **{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}** [سورة الشعراء:١٨٢]، فسر بالعدل، وفسر بآلته وهي الميزان المعروف، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين بينهما ملازمة فإن هذا من أوضح الصور التي تحمل فيها الآية على المعاني التي احتملتها إن لم يوجد مانع من حملها على بعضها، فيقال: إن الله -تبارك وتعالى- وضع الميزان العدل، ووضع آلته التي يتحقق بها بين الناس العدلُ، أما تفسير هذا بالبراهين فهذا بعيد، وابن القيم -رحمه الله- حمله على معنيين العدل وآلة العدل.

ولهذا قال: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} أي: لا تبخسوا الوزن، بل زِنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}.

وقوله تعالى: {وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ} أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر؛ لمَا على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

كما قال الله -عز وجل-: **{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا}** [سورة الرعد:٣] يمتن الله -عز وجل- على خلقه بهذا أن جعل لهم الأرض مهيأة يتقلبون فيها، وجعل فيها أسباب المعيشة **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}** [سورة النازعات:٣٠-٣١]، وكما قال: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ}** [سورة الملك:١٥].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام: الخلق.

{فِيهَا فَاكِهَةٌ} أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح.

قوله: **{فَاكِهَةٌ}** يعني فواكه، ومثل هذا يقصد به الجنس أي فواكه.

{وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ} أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطبا ويابسا.

النخل ثماره من جملة الفواكه، يقال له: فاكهة، لكن أفرده لشرفه فهو أطيبها وأحسنها وأنفعها وأجودها، وكثيراً ما يذكر في القرآن: **{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}** [سورة ق:١٠]، وفي الموضع الآخر: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ}** [سورة الأنعام:٩٩]، ويمكن أن يقال في الجمع بين الآيتين: إنه في مقام ذكر عظمة الخلق والقدرة وكذا فإن ذلك أبلغ في النخل الطوال، وفي مقام الامتنان بسهولة جنيها، فالنخل القصير

الذي يتناوله الإنسان بيده لا يحتاج إلى أن يصعد، ويصير فيه كلفة ومشقة، ومعنى {ذَاتُ الْأَكْمَامِ} نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: هي أوعية الطلع، والمقصود به ما يخرج من النخلة، مثل اللسان وهو {الْأَكْمَامِ} جمع "كم" وهو الذي يكون في داخله الطلع، والنخل يكون في أكمامه، هذا الذي يُؤبَّر به النخل، وما يكون فيه الرطب، يكون مثل اللسان يخرج من النخيل، "كم" ويكون فيه الطلع فينشق عنه فيُؤبَّر ثم بعد ذلك يتحول إلى عذق، {ذَاتُ الْأَكْمَامِ}، ومن أهل العلم من فسره بأعم من هذا، يقول ابن عباس: أوعية الطلع، ومن أهل العلم من قال: النخلة، ولا يبعد هذا التفسير، ليس ببعيد تفسيره بالنخلة، تفسير قريب، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وجهوا ذلك فقالوا: يخرج منها هذا الذي كهيئة اللسان ويكون فيه الطلع، وهي أيضاً مغلفة بالليف، {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ}، هي مغطاة بالليف، فمن أهل العلم من قال: إنه الليف الذي يغلفها، وابن جرير جمع بين المعنيين قال: النخلة موصوفة بهذا وهذا، فيكون ثمرها في أوله مكتنّا بالكم، وهي نفس النخلة يغلفها الليف، وإنها تخرج من ثمرات الأكمام، فإن هذه يكون الحب في سنبلة وهكذا في أوله، في بدايته.

والأكمام -قال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع، وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه.

{وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} يعني: التبن.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: {الْعَصْفِ} ورق الزرع الأخضر الذي قطع رءوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه.

هذه اللفظة {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} السلف -رحمهم الله- اختلفوا فيها كثيراً، وكذلك في الريحان ما المراد به؟ والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن اختلافهم هذا يرجع إلى أن ذلك عند العرب كله يقال له: عصف، فهؤلاء فصحاء وأهل لغة، ومثل هذا لا يخفى على جميعهم، فيختلفوا فيه هذا الاختلاف الكثير، ونقل عن ابن عباس أنه التبن، وهذا الذي اختاره ابن جرير، {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} قال: **يعني التبن**، وكذلك نقل عن قتادة والضحاك وأبي مالك هذا المعنى، ونقل أيضاً عن ابن عباس لكن من طريق لا تصح قال: {الْعَصْفِ} **ورق الزرع الأخضر الذي قطع رءوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس**، فبعضهم فسره بهذا اليابس سواء كان التبن، أو هذا الورق الذي قطع رءوسه، ومنهم من فسره بمعنى آخر لا تعلق له باليبوسة بل بعكسها، يقول: هذا الحب أول ما يظهر يكون ضعيفاً، نبتة ضعيفة لها ورقة، {ذُو الْعَصْفِ}، فهذا هو العصف النبتة أول ما تخرج نبتة خضراء صغيرة، ويكون لها ورقتان أو نحو هذا، فيقولون هذا هو {الْعَصْفِ}، أول ما ينبت، ومنهم من يقول: ما يقطع من الزرع قبل أن يدرك، قبل أن يتم وينضج فهذا هو العصف، وبعضهم يقول: هو عموماً ورق الشجر والزرع يقال له: العصف {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} يعني الورق.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: {وَالرَّيْحَانُ} يعني: الورق.

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَالرَّيْحَانُ} خضر الزرع.

قول الحسن -رحمه الله-: إن {وَالرَّيْحَانُ}: **هو ريحانكم هذا** يعني المشموم، وهو النبت المعروف الذي له رائحة طيبة، ومن أهل العلم من فسره بما هو أوسع من هذا، {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}: أنه كل نبت له رائحة طيبة، ومنه المشموم المعروف {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ} المتمتَّع بشم رائحته، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **والريحان خضر الزرع**، وهذه اللفظة {وَالرَّيْحَانُ} قُرأت بالرفع وبالجر، فإذا قُرأت بالرفع {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ} تكون معطوفة على الحب، وإذا قُرأت بالخفض تكون عائدة على العصف {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانِ}، وعلى قراءة الرفع يمكن أن يكون الريحان شيئاً مستقلاً لا علاقة له بالحب، يحتمل هذا، وبهذا فسره من فسره مثلاً بأنه كل نبت له رائحة طيبة، أو الريحان المعروف فهذا لا علاقة له بالحب؛ لأن الحب معروف أن ما يخرج منه وما ينبت لا رائحة له، فيكون ذكر الحب والعصف، وذكر الريحان، يحتمل هذا {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}، وأما قراءة الجر فإن أحسن ما تفسر به -والله تعالى أعلم- ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- من أنه الرزق، وهذا تحتمله قراءة الرفع، ولكن قراءة الجر أحسن ما تفسر به هو الرزق، فهو قوت الناس يقتاتون عليه، والعصف إذا فسر بالتبن أو الورق اليابس أو نحو هذا فهذا تأكله دوابهم، {تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ} [سورة السجدة:٢٧]، {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ} [سورة طه:٥٤]، فعلى قراءة الجر يمكن أن يفسر بالرزق، وهذا قال به طائفة من السلف، والقراءة الأخرى تحتمل المعنيين، وفي قراءة ابن عامر {وَالْحَبَّ ذَا الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانَ}، وهي قراءة متواترة، والمعنى وخلق الحبَّ ذا العصف وخلق الريحانَ، والريحان هنا يحتمل معنيين، فالحاصل أن قراءة الجر لا تحتمل المشموم.

فيكون الحب مثل القمح صاحب عصف، كأن يفسر العصف بالورق مثلاً، صاحب عصف، أو التبن، لكنه ليس بصاحب مشموم، وعلى تفسيره بما قال ابن جرير -رحمه الله- يكون الجمع بين ما تأكله الأنعام وما يأكله الناس، فالحب ما يأكله الناس فهو رزق، والعصف ما تأكله الأنعام، والله تعالى أعلم.

ومعنى هذا -والله أعلم- أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً، والريحان: الورق، يعني: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

وبعضهم يقول: العصف ما يؤكل من الزروع، والريحان على خلافه ما لا يؤكل منه، وبعضهم يقول: بالعكس يعني أن العصف هو ما تأكله البهائم، والريحان للآدميين.

وقوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي: فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده، أي: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: "اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلك الحمد"، وكان ابن عباس يقول: "لا بأيِّها يا رب"، أي: لا نكذب بشيء منها.

هذه الآية تكررت في مواضع كثيرة من هذه السورة {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، ولا يقال -والله تعالى أعلم-: إن ذلك التكرار لمجرد التأكيد، بل هو مرتبط بمعنى أو مرتبط بما ذكر قبله، وهذا يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم- في جميع القرآن، وليس فيه تكرار محض -مجرد تكرار- أبداً، وما قد يظن من أنه تكرار ليس صحيحاً، فهذه الآيات {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كل واحدة عائدة لما ذكر قبلها مما ذكر، وسيأتي إيضاح ذلك

يعني حتى ما جاء من ذكر جهنم **{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** [سورة الرحمن:٤٣-٤٥]، حتى هذا فإنه بتعذيب هؤلاء ظهرت معاني أسمائه وصفاته، وظهر اقتداره وكماله وعظمته وقوته وجبروته، وبهذا يظهر كمال نعيم أهل الجنة، فبضدها تتبين الأشياء، فهذا في هذا الموطن فكيف بالأشياء التي ذكرت فيها النعم الواضحة مثل هذا المقام؟! فكل واحدة من هذه مرتبطة بما قبلها: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** [سورة الكافرون:١-٥]، وهذا ليس بتكرار **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}**، يعني في الحال، **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** يعني في الحال، فأنتم على دين وأنا على دين آخر **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ}** في المستقبل، **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** في المستقبل لن تتحولوا إلى ديني، ولن أتحول إلى دينكم، لكم دينكم ولي دين، وبعض الناس قد يستصعب حفظ هذه السورة!، ويلتبس عليه، نقول: إذا فهمت المعنى سهل عليك الحفظ، فهذه ليس فيها تكرار، فليس في القرآن تكرار محض، وأوضح من ذلك ما في سورة الرحمن **{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** كل واحدة مرتبطة بالمعنى الذي قبلها، يعني مما ذُكر، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ١٤ إلى الآية ٢٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:١٤-٢٥].

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله الضحاك، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} من لهب النار، من أحسنها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} لم يذكر تفسيرها هنا! والصلصال هو الطين، وبعضهم فسره بالطين اليابس الذي له صوت، وأقوال أهل العلم في هذا متقاربة في جملتها، وأكثرهم يقولون: طين يابس له صلصلة، وبعضهم يقول: هو طين خلط برمل {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، وبعضهم يقول: طين منتن متغير، وهذا الوصف -أنه منتن متغير- يمكن أن يؤخذ من آية أخرى {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [سورة الحجر:٢٦] طين متغير من طول المكث، كما في قوله تعالى: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [سورة الكهف:٨٦] يعني متغيرة منتنة، فأما هنا {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} هذه الجملة لا تدل على التغير، وأنها طين منتن، وإنما ذكْرُ الفخار أخذ منه بعض أهل العلم أن له صوتاً إذا ضُرب، وهذا لا يعارض قول من قال: إنه خلط مثلاً برمل فهذا قد لا يخرجه عن وصف الطين، وهكذا قول من قال: إنه الطين اليابس الذي لم يطبخ؛ لأنه إن لم يطبخ كان يابساً فله صوت، فإن طبخ فهو فخار، فهنا قال: {كَالْفَخَّارِ}، والفخار هو الخزف المطبوخ، يعني الطين إذا عرض على النار صار فخاراً، مثل الجِرار ونحو ذلك، والله -عز وجل- ذكر أطوار خلق الإنسان، وهذا في خلق آدم -عليه السلام-، وأما الذرية فهي من نطفة، فالله ذكر أطوار خلق الإنسان، وفي وصف خلقه الأول أخبر أنه خلقه من تراب كما في عدد من الآيات، وذكر الله تعالى أنه خلق الإنسان من طين في عدد آخر من الآيات، وفي بعضها {مِّن طِينٍ لَّازِبٍ} [سورة الصافات:١١]، وفي بعضها {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، وفي بعضها {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، ووجه الجمع بين هذه الآيات: أن هذا التراب خلط بالماء فصار طيناً ثم ترك فتغير فصار حمأً مسنوناً ثم صار يابساً فصار صلصالاً كالفخار، فهذه الآيات لا منافاة

بينها، فهي أطوار مر بها، هذا هو التراب -والله تعالى أعلم-، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} فقال: هو طرف لهبها، وذكر أيضاً قول من قال: إنه من أحسنها يعني الصافي من النار، وهذا من اختلاف التنوع حينما يقول: من طرفها أو من الصافي منها أو نحو ذلك، أو بعضهم يقول: هو ذو الألوان أزرق وأخضر وأحمر، أخلاط، {مِن مَّارِجٍ}، {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} قد مرجت عهودهم يعني تداخلت واختلطت، فالمارج يوصف بهذه الأشياء، المارج من النار هو أعلاها، هو ذو الألوان، هو الصافي منها مثلاً، وابن جرير -رحمه الله- فسره بما اختلط بعضه ببعض في أعلى النار، يعني هو الذي يكون بمثابة لهب النار أو لسان النار {مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} فأخذ من لفظة المارج الاختلاط، مختلط.

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم))[(1)]، ورواه مسلم.

وقوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} تقدم تفسيره.

يقول: معنى كل جملة من هذه ترتبط بما قبلها، فليس هذا تكراراً محضاً، وقوله: {مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} أخذ منه بعض أهل العلم -وهو أصل الخلق، من النار أصلاً- أن هذا أيضاً فيه خفة، وأن خلق الجن فيه هذه الصفة -الخفة- فهي ملازمة لهم بخلاف الطين ففيه رزانة فقالوا: إن الإنس أفضل من الجن من حيث أصل الخلقة، ولذلك ردوا على إبليس في القياس الفاسد: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص:٧٦] ردوا عليه من وجوه متعددة منها: أن الطين فيه رزانة و{مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} فيه خفة واضطراب، وذلك معروف أن الجن فيهم خفة، والمقصود به خلاف الرزانة، ففيهم خفة وطيش وظلم، وذكروا أشياء أخرى من أن الشيء يوضع في النار فيحترق، والحبة توضع في النار فتحترق، وتوضع في الطين فتخرج نخلة، ومن شأن الطين التماسك، ومن شأن النار الإتلاف.

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء.

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} هذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أشهر الأقوال، ومن أحسنها، ومن أوضحها وأسهلها، ومعلوم أن الشمس تشرق في الشتاء من غير الموضع الذي تشرق فيه في الصيف، يعني هي في الصيف والشتاء تخرج من جهة المشرق، وتغرب من جهة المغرب، ولكن لها انتقال ولذلك تلاحظ أن الظل يتغير في الشتاء والصيف، ولو فرضنا أن الشمس في الشتاء تشرق من هنا إلى ناحية اليمين قليلاً مثلاً في المشرق، كل يوم تتغير درجة حتى تصل إلى منتهى الميل في شدة الصيف، تصل إلى منتهاه، ثم بعد ذلك تبدأ ترجع وهكذا ميلانها إذا كانت تأتي، لا تأتي عمودية، وإنما تميل في الشتاء ميلاناً، وتميل في أقصى درجة لها في الصيف، فكله من المشرق إلى المغرب، لكن من هنا من أبعد درجة في وسط الشتاء، ومن هنا في وسط الصيف من أبعد درجة من الناحية الثانية، وفي كل يوم درجة حتى تصل إلى هذا ثم تبدأ ترجع، فأقصى ذلك من اليمين إلى اليسار في الشرق، هذا مشرق وهذا مشرق، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} مشرقي الشمس في الشتاء والصيف، {وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} وإذا ذكر المشرق بالإفراد {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا

١- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، برقم (٢٩٩٦)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥١٩٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

{إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [سورة المزمل:٩] فالمقصود أن الشمس تطلع من المشرق وتغرب من الجهة المقابلة، وإذا ذكرت المشارق والمغارب فهو باعتبار هذه الدرجات التي تتحول فيها الشمس **{الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}** [سورة المعارج:٤٠] هذا أوضح ما يفسر به، ومن أهل العلم من يقول: المشارق والمغارب مشارق النجوم والكواكب، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- فسر المشرقين والمغربين بغير هذا فيقول: الشمس تختلف في درجة ارتفاعها شتاءً وصيفاً فهي تصل إلى أعلى درجة في صعودها وارتفاعها شتاءً فتقل الحرارة في الأرض، والدرجة التي أدنى منها تزداد الحرارة، ويقول: يحصل بهذا فصل الشتاء وفصل الخريف، فهو يرى أن حركتها في صعودها وهبوطها من حيث درجة الارتفاع أن هذا هو المراد بالمشرقين والمغربين، فلها مشرق صعود تصل فيه إلى أعلى درجة في الارتفاع، ولها مشرق آخر دونه فيقول: هذا هو المراد بالمشرقين والمغربين، والأول -والله أعلم- أوضح من هذا، وهو الذي عليه عامة أهل العلم.

وقال في الآية الأخرى: {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [سورة المعارج:٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس.

لأنها تطلع وتغرب كل يوم باعتبارها تنتقل، كل يوم من أيام السنة لها مشرق غير المشرق، ولذلك تجد الفرق يظهر تدريجياً شيئاً يسيراً ثم بعد ذلك يزداد حتى يصل إلى أعلى درجة.

وقال في الآية الأخرى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [سورة المزمل:٩]، وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولمّا كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب...

الحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم عن قضية وجه التثنية والإفراد والجمع في كل موضع من المواضع، يعني سبب ذكر المشرقين في سورة الرحمن، وفي الموضع الآخر ذكر الإفراد وفي الموضع الآخر ذكر الجمع، وبيّن المناسبة، فقال: إن الله -عز وجل- ذكر الشمس والقمر، وذكر النجم والشجر باعتبار أن النجم هوالشجر الذي لا ساق له، وذكر السماء ويقابلها الأرض، وذكر الميزان الذي هو العدل ويقابله الظلم، وقال: **{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ}** [سورة الرحمن:١٠]، تقابل السماء، وذكر الفاكهة والحب، وذكر خلق الإنسان وخلق الجن، ذكر كل شيء والصنف الآخر الذي يقابله، ثم ذكر المشرقين والمغربين، فيقول: المناسب هنا في هذا السورة أن يذكر على سبيل التثنية، يعني لم يقل: **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}**، ولم يقل: (رب المشارق ورب المغارب فبأي آلاء ربكما تكذبان)، ولم يقل: (رب المشرق ورب المغرب فبأي آلاء ربكما تكذبان)، وإنما قال: **{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}**؛ للمناسبة، فالمناسب جداً في هذا الموطن أن يذكر التثنية؛ لأن ما ذكر قبله كذلك.

ولمّا كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

هنا الحافظ ابن كثير في عدد من المواضع يذكر وجه المناسبة في ذكر هذه الآية **{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}**، فيقرر ضمناً أنها ليست تكراراً محضاً و يبينها في بعض المواضع، وهكذا جماعة من المحققين كابن جرير -رحمه الله- على هذا، يعني هنا يقول مثلاً بعد ذكر المشرقين والمغربين ما مناسبة ذكر **{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا**

تُكَذِّبَانِ}؟ يقول: لمّا كانت في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح الخلق من الجن والإنس باعتبار الشتاء والصيف قال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

وقوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} قال ابن عباس: أي أرسلهما.

أرسلهما باعتبار أن أصل هذه اللفظة تدل على التخلية {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} أي أرسلهما خلّاهما يلتقيان.

وقوله: {يَلْتَقِيَانِ} قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.

والمراد بقوله: {الْبَحْرَيْنِ} الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [سورة الفرقان:٥٣].

هذا لاشك أنه تفسير للقرآن بالقرآن مبيناً للمراد، و العلماء -رحمهم الله- في معنى {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} منهم من قال: العذب والملح والآية هذه تبينه وهذا لاشك فيه، ومنهم من قال: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} الملح والملح يعني تقول مثلاً: المحيط وماء الخليج، فهو بحر وهذا بحر، تلتقي البحار {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} تحتمل هذا أيضاً، وفي الكشوف الحديثة في علوم البحار ذكروا ما يؤيد هذا المعنى، وذكروا أشياء حسنة في هذا الباب، وإن كان كلامهم فيها متنوعاً، يعني ففي معنى {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ} خمسة أقوال في الحاجز، وكلها فيما أظن لا تختلف ترجع إلى شيء واحد، كل هذا يمكن أن يكون متحققاً، فمن ذلك أن البحر مع البحر بينهما حاجز من الماء له خصائص أخرى، وله كائنات تعيش فيه غير التي تعيش في هذا أو هذا، برزخ من الماء حاجز، والبحار تختلف، فمن أشد البحار ملوحة هذا الخليج مثلاً، فإذا أصاب الماء عين إنسان فإنه يتأذى به، بينما لو سبح إنسان في المحيط الهادي أو نحو هذا من المحيطات الكبار لا تجد هذا إطلاقاً، ولذلك تلك البلاد على هذه المحيطات يوجد على شواطئها مالا يحصيه إلا الله -عز وجل- من أنواع الأشجار المثمرة، تخرج طبيعة هكذا، الله يخرجها بدون زرع الإنسان، جوز الهند والمانجو وأشياء كثيرة على شاطئ البحر شواطئ خضراء، وجزر خضراء، فالبحار لا تختلط، ولم تكن شيئاً واحداً عبر السنين؛ لأن الله جعل لهذا خصائص ولهذا خصائص، وهذا له كائنات تعيش فيه، وهذا له كائنات تعيش فيه، هذا له طبيعة، وهذا له طبيعة، ونسبة ملوحة كذلك، يوجد منطقة تحجز {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا} فهذا إذا قيل: في البحر الملح مع الملح فهو معنى صحيح، وإذا ذكر هذا في البحر العذب -الأنهار- مع البحر الملح حينما تختلط به مصبات الأنهار فهذا كذلك، والعلم الآن يقرر هذا؛ لأن هذا الماء الذي يصب في الملح يبقى، كذلك العيون الجارية في وسط البحر في أسفله توجد عيون للماء، والناس يعرفونها حتى قبل هذه العلوم الحديثة؛ لأنهم كانوا يشتغلون بطرق بدائية في الغوص، يعرفون مواضع العيون في البحار، وينزلون ويستقون منها ويملئون القِرب وهم في وسط البحر، العلم الحديث يقرر أن هذه العيون حينما تصب: أن هذا الماء لا ينتهي -ويتحلل الماء العذب- وإنما يبقى في ممرات يجري كما يجري على اليابسة، فهذا معنى -إذا ثبت- داخل في العموم {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ}، وهذا لا يخالف قول من قال بأن الله -عز وجل- أجرى هذه الأنهار السارحة على وجه الأرض، وجعلها في خندق، في خنادق مثل الوديان، وماء البحر الذي جعله الله -عز وجل- في مواضع لا يتغير منها عادة، فالبحر في مكانه منذ مائة سنة، منذ مائتي

سنة، منذ ألف سنة هذا هو البحر، فما خرج هذا على هذا، وهذا على هذا واختلطت المياه، لا، الأنهار باقية والبحار باقية منذ عهود متطاولة، وفرعون يقول: **{لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي}** [سورة الزخرف:٥١]، يعني نهر النيل، فهو موجود منذ ذلك الحين، وقبل ذلك الحين، وإلى الآن لازال ماشياً في مجراه، فالبحر بحر، والنهر نهر **{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ}** من اليابسة، **{لَّا يَبْغِيَانِ}** فهذه المعاني كلها داخلة -والله أعلم- في هذا المعنى، وهذه الأشياء التي تذكر مما يثبت علمياً مما يذكرون من تفسير بعض ألوان هذا البرزخ هي من باب زيادة الفهم، ولا تعارض أقوال السلف إطلاقاً، ولا تعارض ظاهر القرآن، ويمكن أن تذكر في التفسير، وفيه قول آخر بعيد عن هذا والعجيب أنه اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- قال: بحر السماء وبحر الأرض، **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ}**، ثم قال: **{يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}** من مجموعهما قال: كما أن الولد يخرج من ماء الرجل وماء المرأة، فهذا من ماء السماء وماء الأرض اللؤلؤ، باعتبار أن العلماء -رحمهم الله- يقولون: إن المطر إذا نزل بحر السماء يعني السحاب فإذا نزل المطر على البحر في وقت معين يعني الآن مثل الحين فترة الموسم إذا نزل المطر هذه الأيام خرج "الكَمْأ" وخرجت ألوان من النباتات لا تخرج في المطر الذي ينزل في غير وقت الموسم، يعني هناك مطر الصيف، وهناك مطر آخر في الشتاء ينزل وتخرج منه بعض أنواع النباتات، لكن كثير من النباتات لا تخرج إلا في مطر الموسم، المطر إذا نزل على البحر في وقت الموسم انعقد منه اللؤلؤ، هذا الذي ذكره كثير من أهل العلم، يقول: ينعقد بنزول قطرات المطر على البحر فيحصل تلقيح اللؤلؤ، ويخرج كما يخرج "الكَمْأ" في الصحراء، وهذا يذكر لبعض الناس الذي قد يتساءل يقول: هذه أمطار هائلة تنزل على البحار، فماذا تستفيد البحار منها؟ والناس يعيشون في قحط؟ فيقال: كل شيء بحكمة كل شيء بمقدار، فالماء الذي ينزل على البحر ينعقد منه اللؤلؤ فيستخرج منه الناس حلية هذا الذي ندركه، وكذلك أمر آخر هو أن الماء ينزل على البحر، والبحار تتبخر منها كميات هائلة كل سنة، ويصير المطر فلو بقي هذا التبخر عبر السنين لصارت البحار في غاية الملوحة حيث لا تعيش فيها الكائنات الحية، وتغير نظامها، فينزل عليها من الماء العذب ما يعوض ذلك، ويبقى هذا التوازن مستمراً **{حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ}** [سورة القمر:٥] هذا الذي يظهر ويدرك أما الأشياء التي لا تدرك فالله أعلم بها، والبحار مليئة بأنواع النباتات المعروفة والأعشاب، والكائنات، فهل هذه الكائنات والنباتات لا تستفيد من ماء المطر الذي ينزل على البحر؟!

أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه.

وقوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ، قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك، وروي عن علي.

وقيل: كباره وجيّده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف.

قرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء **{يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}** يقول: **واللؤلؤ معروف**، يعني هو الدر الذي يكون حلية تلبسها النساء، ومنهم من يقيده بالكبير منه، يقولون: اللؤلؤ هو الدر الكبار، والقول الذي لا يختلف فيه أن اللؤلؤ هو الدر، وهو المشهور عند أهل العلم أن اللؤلؤ هو الدر، تقول: علاه عمر بالدِّرة، بكسر الدال

وليس بضمها، ومعناها بكسر الدال العصا الصغيرة، وأما الدُّرة فهي لؤلؤة، قال: **وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ**، وكثير من أهل العلم يقولون: هو الخرز الأحمر المعروف، وهذا الذي اختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، يقول: هو صغار اللؤلؤ، يعني يكون ذكر الكبار والصغار على هذا القول، وهذا الذي عليه عامة أهل اللغة بل نسبه بعضهم إلى جميع أهل اللغة: أن المرجان هو اللؤلؤ الصغار، فهو يقابل، ذكَرَ الأمرين، ذكرنا في هذه السورة أنه ذكر أموراً متقابلة فذكر صغار اللؤلؤ وكبار اللؤلؤ، ولكلٍّ مزية؛ الصغار يكون في غاية الجمال في مواضعه، والكبار يكون في غاية الجمال في مواضعه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن المرجان هو الصغار من اللؤلؤ، واللؤلؤ هو الكبار، قال: كباره وجيّده، وعن بعض أهل السلف ذكر هذا ثم ذكر قول ابن عباس.

وقد رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها -يعني من قطر- فهو اللؤلؤ.

إسناده صحيح.

مُوهَب القطر هو اللؤلؤ، يقصد أنه ينعقد منه اللؤلؤ في الأصداف، والبحارون الذين يبحثون عن اللؤلؤ يستخرجونه من الأصداف، فهم يستخرجون أصدافاً كثيرة، في الأكثر لا يجدون اللؤلؤ، وإنما يجدونه في القليل النادر على تفاوت بينه، أحياناً يجدونه في غاية الصغر، وأحياناً يكون كبيراً، كما هو مشاهد الآن في الكَمْأ مثلاً الذي جميعكم يراه ويشاهده في محاله فتجد بعضه صغيراً جداً لا يصلح للأكل، وبعضه أكبر وبعضه كبير، فكذلك اللؤلؤ، وليس المقصود أن اللؤلؤة تكون قدر الكَمْأة الكبيرة! ولكن أقصد تقريب المعنى.

ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن بها عليهم فقال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

وقوله: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ} يعني: السفن التي تجري في البحر، قال مجاهد: ما رُفع قُلُعه من السفن فهي منشأة، وما لم يرفع قُلُعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: {المنشآت} يعني المخلوقات، وقال غيره: المنشِآت -بكسر الشين- يعني: البادئات.

قُلُعُه جمع قلاع، والقلاع شراع السفينة، يقال: رفعت السفينة قلاعها يعني أشرعتها، قُلُعُه يعني الأشرعة من السفن {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ}، وبعضهم فسر هذا بما رُفعت أشرعته فالكلمة تدل على الارتفاع، ولهذا فسره بعضهم بغير هذا مما يدل على الارتفاع، يقول: إن السفن بني بعضها على بعض حتى ارتفعت وصارت كالجبل، وتجد هذه السفن منذ عهد طويل على طبقات وأدوار وهي التي تنقل المسافرين، ليست السفن البسيطة للصيد، فالتي يسافر بها الناس وصفت كالأعلام، كالجبال، والعلَم هو الجبل الطويل ليس كل جبل يقال له: علم، وإنما الجبل الطويل، واليوم هذا أوضح في هذه الآية التي ينبغي الاعتبار بها؛ لأن من السفن ما تدخل فيها الشاحنة الكبيرة الضخمة وكأنها نملة داخلة فيها، هذا شيء مشاهد كأنها نملة، تدخل وتخرج في وسط هذه السفن، فهذه السفن تحمل السيارات والناس والبضائع وأشياء هائلة، وبعضها فيها ملاعب ومطاعم ومسابح مدينة، بعض هذه السفن كل راكب يستأجر غرفة خاصة.

وقراءة {المنشِآت} بكسر الشين متواترة وهي قراءة حمزة.

{كالأعلام} أي: كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال تعالى: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ٢٦ إلى الآية ٤٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٢٦-٣٠].

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب -تعالى وتقدس- لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً.

قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان.

وفي الدعاء المأثور: يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

وقال الشعبي: إذا قرأت {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، فلا تسكت حتى تقرأ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}.

وهذه الآية كقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} [سورة القصص:٨٨]، **وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} أي: هو أهل أن يُجلّ فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالَف، كقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}** [سورة الكهف:٢٨]، **وكقوله إخباراً عن المتصدقين: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}** [سورة الإنسان:٩].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}**، قوله: **{ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}** عائد إلى وجه الرب -تبارك وتعالى- فهو موصوف بذلك، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: **وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} أي هو أهل أن يُجلّ فلا يعصى وأن يطاع فلا يخالَف**، وهذا بمعنى أنه يكرم عن كل ما لا يليق به -سبحانه وتعالى-، يجل عن ذلك ويعظم، وبعضهم فسره بأنه يُكرِم أولياءه **{ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}** أي: الإكرام لأوليائه، وعباده المتقين، وفي قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: **{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}** فعلى هذه القراءة يكون **{ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}** عائداً إلى الرب -جل وعلا- فيكون ذلك تنزيهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فهو ذو العظمة والإكرام.

وقوله هنا في مناسبة ذِكر {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} بعد الفناء أن هذه الآية تتعلق بما قبلها وليس تكراراً محضاً، ووجه الارتباط أو وجه تعقيب الآيات السابقة بهذه الآية ظاهر حينما يذكر أموراً من نعمه -تبارك وتعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [سورة الرحمن:١٩-٢٠]، فيعقب بقوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ووجه ذكر ذلك بعد ذكر الفناء للخلق ووجه النعمة هنا {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، بأي نعم ربكما تكذبان؟ أجاب عنه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **لما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل عقب بهذا التعقيب**، بمعنى أنه سوى بينهم في الموت، ويصيرون إلى الدار الآخرة جميعاً فيحكم بين الظالم والمظلوم فلا يبقى أهل الجدة والغنى والسعة والقوة والاقتدار أحياء، ويموت الفقراء، لا يموت الضعيف ويبقى القوي، الجميع سيموتون، وهذا يكون سبباً لانتقالهم إلى دار النعيم وسبباً إلى حكم الله -عز و جل- الفصل العدل بينهم فيقتص للمظلوم من ظالمه، فهذا هو مراد ابن كثير -رحمه الله- ومن قال بهذا المعنى سوى بينهم في الموت، ومن أهل العلم من قال: لأن الموت سبب للانتقال إلى الآخرة فيعدل بينهم، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع بين القولين، وعبر بهذه العبارة، يعني هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هما وجهان للعلماء في تعليل ذكر هذه الآية بعد ذكر الوفاة، وهذه عادته -رحمه الله- في هذا الكتاب يعبر بعبارات ضافية تشمل ما قاله أهل العلم في كثير من المواضع.

وقوله: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن.

قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، قال: من شأنه أن يجيب داعيا، أو يعطي سائلا أو يفك عانيا، أو يشفي سقيما.

{يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} يدخل الجميع في هذا، لا يخرج من هذا أحد لا ملك ولا أحد، كلهم يسألونه، يتقربون إليه ويسألونه الحاجات فكلهم مفتقرون إليه كل الافتقار، وقوله: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} ما ذكره هنا من المعنى صحيح، ويمكن أن تفسر بما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما سئل عن هذه الآية وهذا نص منه -عليه الصلاة والسلام- في التفسير، فذكر أن من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواما ويضع آخرين وهكذا ما ذكره كثير من أهل العلم، وبعضهم أطال في هذه الجمل: يفك أسيرا ويهلك ظالماً، ويطعم جائعاً، ويرد غائبا، ويخلق ويرزق.

{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٣١-٣٦].

وقال ابن جريج: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ} أي: سنقضي لكم.

وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: "لأتفرغن لك" وما به شغل، يقول: "لآخذنك على غِرَّتك".

قوله: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ} وفى قراءة حمزة والكسائي بالياء المفتوحة وضم الراء "سيَفرُغ"، والمتبادر إلى الأذهان أن الفراغ يكون بعد شغل والله –عز وجل– لا يشغله شيء عن شيء، ولذلك احتاج العلماء –رحمهم الله– إلى بيان وجه هذه العبارة هنا {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}، الفراغ في كلام العرب يأتي بمعنيين:
يأتي بمعنى الفراغ من شغل، تقول مثلا: "سأتفرغ لهذا العمل في الأجازة".
ويأتي بمعنى القصد تقول: "سأفرغ له" أي سأقصد {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ} أي سنقصد محاسبتكم، ولهذا فسره كثير من أهل اللغة والمعاني –معاني القرآن– هنا بالقصد، أي نقصد لحسابكم، نحاسبكم {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}، وهذه الكلمة قد تكون مضمنة أيضاً معنى التهديد، تقول لغيرك: "سأفرغ لك" ولا تعنى أنك مشغول ولكن سأقصد إلى محاسبتك، وهذا المعنى –أي تفسير هذه الآية بالقصد– هو الذي اختاره ابن القيم –رحمه الله– وجمع من المحققين.
وقوله: {أَيُّهَا الثَّقَلانِ} الثقلان: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: ((يسمعها كل شيء إلا الثقلين))[١]، وفي رواية: ((إلا الجن والإنس))[٢]، وفي حديث الصُّور الثقلان الإنس والجن.
{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ} قال: الإنس والجن، وسموا بالثقلين؛ لأن الذنوب تثقلهم، هذا وجه ذكر في سبب التسمية، ومن أهل العلم من يقول: سموا بذلك؛ لأنهم يمثلون ثقلاً على الأرض أحياء وأمواتاً، والله –عز وجل– يقول: {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:٢]، ومن أهل العلم من قال: لعظم شأنهم بالنسبة لغيرهم من المخلوقات، فلا تمثل شيئا بالنسبة إليهم الدوابُّ والبهائمُ والنباتاتُ، وإنما هم أهل الامتحان والاختبار والعمل، وبهم تكون عمارة الأرض، بالإنس والجن تبع، وهم محل الجزاء والحساب، وهم الذين تصدر منهم الذنوب والمعاصي، وفيهم الشهوات، والله أعلم.
ووجه ذكر {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} بعد قوله: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}: أن المحسن يجازى بإحسانه والمسيء بإساءته، ومن أهل العلم من يقول: إن هذا من آيات الوعيد، وهذا يكون سبباً لانزجار الإنسان عن الاسترسال بالذنوب والمعاصي ويرعوي ويتوب، فهذه نعمة من الله –عز وجل– أنْ خوّف عباده وأعلمهم بما سيكون لهم وما سيلاقون وما ينتظرهم من الحساب والجزاء فقال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.
ثم قال: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب.
{إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الأقطار يعني الأطراف، من أطراف السماوات والأرض من نواحيها {فَانفُذُوا} هذا يحتمل أن يكون في الدنيا، بمعنى إذا استطعتم أن تخرجوا من ملك الله –عز وجل– فافعلوا فإنكم لا تستطيعون ذلك، ويحتمل أن يكون في الدنيا –أيضاً– بمعنى إن استطعتم أن

---

١ – رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٢٧٣).
٢ – رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٠٥٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٧٧٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم (١٣٥٩).

تفروا من قبضته ومن الموت فافعلوا، ويحتمل أن يكون ذلك في الآخرة، **{إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** أي إن استطعتم أن تفروا من الحساب والجزاء وما ينتظركم من الأهوال والأوجال فافعلوا فإنكم لن تستطيعوا ذلك، وهذا قد يكون أقرب -والله أعلم- باعتبار السياق، يعنى بالنظر إلى ما قبله **{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}** فإذا حملنا هذا على أنه في الآخرة -بل هي في الآخرة- فقال بعده: **{فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}** [سورة الرحمن:٣٧] إلى آخر ما ذكر فهذا كله في الآخرة، مع أن الآية تحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، ويمكن أن تحمل على المعنيين، والله أعلم.

{إلا بِسُلْطَانٍ} أي: إلا بأمر الله، {يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [سورة القيامة:١٠-١٢].

السلطان يأتي بمعانٍ، يأتي بمعنى الحجة، قال بعض أهل العلم: السلطان في القرآن بمعنى الحجة، وبهذا فسره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، **{لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}** أي: بحجة، ومن أهل العلم من قال: إلا بقوة وقهر، فـــ "السلطان" يأتي بمعانٍ، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [سورة الإسراء:٣٣] بعضهم قال: حجةً، وبعضهم قال: اقتداراً وتسلطاً على القاتل، أن له سلطاناً فسلطه عليه شرعاً وجعل له إليه سبيلاً، ومكنه منه قدراً، **{لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}** بقوة وقهر أو بحجة، هنا قال: إلا بأمر الله.

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة يونس:٢٧]؛ ولهذا قال: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ}.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار.

لهب النار وبعضهم يقيده باللهب الصافي الذي لا دخان فيه، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله.

وقال أبو صالح: الشواظ هو اللهيب الذي فوق النار ودون الدخان.

الذي فوق النار يعنى الملون، ولهذا بعضهم قال: الأخضر الذي فوق النار في أعلاها، **ودون الدخان**؛ لأن النار يكون جلها في أسفلها ثم بعد ذلك يكون ما ارتفع منها من لسانها ثم بعد ذلك يكون الدخان، يتصاعد منها، وبعضهم فسره بالدخان **{شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ}** أي دخان من نار، وبعضهم قال: النار والدخان.

وقال الضحاك: {شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ} سيل من نار.

وقوله: {وَنُحَاسٌ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَنُحَاسٌ} دخان النار، وروي مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبير، وأبي سنان.

{وَنُحَاسٌ} قال: **دخان النار** يعني الذي لا لهب له، وهذا قال به الخليل بن أحمد، وهو اختيار ابن جرير، وفي القراءة الأخرى المتواترة قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالخفض {ونحاسٍ} فيكون ذلك عائداً إلى النار **{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ}** فيكون عائداً إلى النار **{مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ}**.

قال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاسا -بضم النون وكسرها- والقراء مجمعة على الضم، وقال مجاهد: النحاس: الصُّفر، يذاب فيصب على رءوسهم، وكذا قال قتادة، وقال الضحاك: {وَنُحَاسٌ} سيل من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: {فَلا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

قول ابن جرير والعرب تسمي الدخان نُحاسا بضم النون وكسرها يعني ((نُحاسا)) و((نِحاسا)) قال: والقراء مجمعة على الضم يعني أن الكسر لغة ولكنه لم يرد في القراءة، وليس مقصوده أن نحاساً أجمع القراء فيه على الرفع ليس هذا المراد؛ لأن القراءة الأخرى المتواترة ونحاسٍ، وقال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} هنا كما قيل في السابق وجه الامتنان أن هذا التهديد والوعيد يكون سببا لازدياد المحسن في إحسانه والمسيء يرعوي ويكف عن إساءته.

{فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}

[سورة الرحمن:٣٧-٤٥].

يقول تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ} يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٦]، وقوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا} [سورة الفرقان:٢٥]، وقوله: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [سورة الانشقاق:١-٢].

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} من الأذن يعني استمعتْ وهو مضمن معنى الانقياد والطاعة {وَحُقَّتْ} حق لها ذلك.

وقوله: {فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} أي: تذوب كما يذوب الدّرْدي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم.

وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردي الزيت، وقال مجاهد: {كَالدِّهَانِ}: كألوان الدهان.

{فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} هذا التشبيه يتصل باللون لون السماء كيف يتغير إلى الحمرة؟، كانت وردة يتغير لونها إلى الحمرة، من أهل العلم من يقول: إن لونها أحمر أصلا لكن لِمَا بيننا وبينها من المسافة الشاسعة والغازات وما أشبه ذلك نراها بهذا اللون الأزرق، ومن أهل العلم من يقول: يتغير لونها إلى الحمرة من الحرارة يوم القيامة {فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} الدهان هذا التشبيه لها إما أن يكون باعتبار اللون {كَالدِّهَانِ} إذا فسر الدهان بالزيت يعني في تغير الألوان، فالزيت يكون له ألوان تتحول، تجده في وقت يختلف لونه عن وقت آخر لو وضعته الظهيرة أمام الشمس فإن لونه لا يكون كلونه في الليل مثلاً، لا يكون كلونه في أول النهار، وهكذا يتغير لونه وفيه بقع وألوان، {وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} فيكون التشبيه في الموضعين باعتبار اللون، كالدهان يتغير هذا اللون ويتحول، ويحتمل أن يكون التشبيه الأول باعتبار اللون {وَرْدَةً} يعني يتغير إلى

الحمرة، و{كَالدِّهَانِ} باعتبار ما يصير إليه من الحال، من الذوبان {وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} كما قال الله -عز وجل- وأخبر في موضع آخر: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} [سورة المعارج:٨] وهو الزيت المذاب، أو الشيء المذاب من معدن من حديد، فالمنصهر هذا الحار، فهناك قال: {كَالْمُهْلِ} وهذا يدل على أنها تذوب، وهذا قال به كثير من أهل العلم: إن المقصود {كَالدِّهَانِ} أي أنها تذوب، وهذا لا يمنع عن المعنى الآخر فإنها إذا ذابت وصارت كالزيت فإن الزيت فيه ألوان متعددة، يقول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي تذوب كما يذوب الدردى والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها**، جمع بين المعنيين وهذا من دقته، فذكر أنها تذوب تتغير حقيقتها وتتغير ألوانها، فالدهان يدل على المعنيين، وما احتاج أن يرجح بينهما؛ لأن هذا كله يحصل، فالزيت المذاب فيه هذا وفيه هذا، والله شبهها به، يقول: **وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء وذلك من شدة الأمر والهول، وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة**، ولون البغلة الوردة هو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة، أبيض يضرب إلى الحمرة أو الصفرة، وتكون {كَالْمُهْلِ} كدردي الزيت، وقال مجاهد: {كَالدِّهَانِ} كألوان الدهان يعني يكون شبهها به في اختلاف ألوانه، ومن أهل العلم من قال: تكون في حمرة الورد وجريان الزيت، تذوب وتنصهر -والله المستعان-، وبعضهم يقول: إن الدهان هو الجلد الأحمر، فشبهها بأنها تكون وردة كالدهان في حمرتها.

وقوله: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ}، وهذه كقوله: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [سورة المرسلات:٣٥-٣٦]**، فهذا في حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [سورة الحجر:٩٢-٩٣]**؛ ولهذا قال قتادة: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ}، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ} هذا يذكره العلماء دائماً، هذا السؤال الوارد الذي أجاب عنه الحافظ ابن كثير بجواب وجيه وهو الذي وضع له الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- كتابه "دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب" يعني ما ظاهره التعارض يعني في موضع قال: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ}، وفي موضع آخر: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [سورة الصافات:٢٤] كيف نجمع بينها؟ وهكذا في مواضع من كتاب الله -عز و جل- قد يقف عندها القارئ ويشتبه عليه الأمر، و يلتبس كيف يجمع بين هذه الآية و هذه الآية؟ و هكذا في الأحاديث مثل: ((لا عدوى.......))[٣]، مع حديث: ((فِر من المجذوم فرارك من الأسد))[٤]، كيف نجمع بين هذه الأحاديث؟ والعلماء صنفوا في الأحاديث التي ظاهرها التعارض وجمعوا بينها وكان مثل ابن خزيمة يقول: لا يأتيني أحد بحديثين يظن بينهما التعارض إلا جمعت بينهما، وألف في مثل هذا الطحاوي -رحمه الله- كتاب مشكل الآثار، و كذلك ابن قتيبة -رحمه الله- ألف مشكل القرآن، ومن أحسن هذه الكتب فيما يتعلق بالقرآن كتاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب لا صفر -وهو داء يأخذ البطن- برقم (٥٣٨٧)، ومسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح، برقم (٢٢٢٠).

٤ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب الجذام، برقم (٥٣٨٠).

وهو مطبوع في آخر الأضواء، و في الطبعة الجديدة طبع في مجلد مستقل أو في مجلدين، هنا **{فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ}** يمكن أن يكون وجه ذلك **{لا يُسْأَلُ}**؛ لأنه معروف كما قال الله -عز وجل- **{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ}** [سورة الرحمن:٤١] من سواد الوجوه وزرقة العيون وما يَرهقهم من القتَرة، والذلة، فيمكن أن يوجه هذا بهذا المعنى، كما ذكره بعض أهل العلم، ويمكن أن يكون **{فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ}** سؤال استعلام واستخبار؛ لأن الله عليم بكل شيء، ولكنه في الموضع الآخر **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}**، **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ}** [سورة المدثر:٤٢-٤٣]، هذا سؤال تبكيت، والمنفى هو سؤال الاستعلام فالله عالم بهم، وقد كتب عليهم جميع الأعمال **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}** [سورة الكهف:٤٩]، **{أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}** [سورة المجادلة:٦] فيكون السؤال المنفي سؤال الاستعلام، والسؤال المثبت سؤال التبكيت، ومن أهل العلم من قال: إن يوم القيامة يوم طويل، ففي وقت منه لا يُسألون، وفي وقت يسألون إذا قاموا من قبورهم يهرعون كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، **{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}** وفي مقام آخر من ذلك اليوم يسألون، ومنهم من يقول: لا يسألون سؤال استعتاب يعني قد تسأل غيرك من أجل أن يذكر عذره ليُعذر، ويقبل منه هذا لا مجال فيه يوم القيامة لهؤلاء المجرمين، وإنما يسأل سؤال تبكيت ما الذي حملك على الكفر ومشاقة الله -عز و جل- ومحادة رسله؟، هم في النار يعذبون **{مَا سَلَكَكُمْ}** ما الذي أدخلكم النار؟، **{قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}** [سورة المدثر:٤٣-٤٤]، فهذا ليس سؤال استعلام، فقد علم تماماً الأمر الذي أدخلهم النار، فهذا الجواب الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- هو من أشهر الأجوبة، ومن أحسنها وأوضحها، لا يسأل سؤال استعلام، ومن أهل العلم من قال: إنه يختم على الأفواه وتنطق الجوارح تشهد عليهم، لكن هذا من أضعفها -والله أعلم-، وهو راجع إلى ما ذكرنا من أن ذلك في أحوالٍ من يوم القيامة، وذاك الجواب أوضح وأحسن من أن يخص ذلك بأنه بعد الختم على الأفواه، يخص الجواب بهذا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ٤١ إلى الآية ٥٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ} [سورة الرحمن:٤١] أي: بعلامات تظهر عليهم.

وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون.

قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ} أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه في النار كذلك.

وقال الأعمش عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الحطب في التنور.

وقوله: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ} أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا، يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا.

وقوله: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} أي: تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطّع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: {إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [سورة غافر:٧١-٧٢].

وقوله: {آنٍ} أي: حار وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطاع من شدة ذلك.

قال ابن عباس في قوله: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} قد انتهى غلْيه، واشتد حرّه، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي.

وقال قتادة: قد أنَى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض، وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرّكُ بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس، وهي كالتي يقول الله تعالى: {فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}، والحميم الآن: يعني الحار، وعن القرظي رواية أخرى: {حَمِيمٍ آنٍ} أي: حاضر، وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولا أنه الحار، كقوله تعالى: {تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [سورة الغاشية:٥] أي حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [سورة الأحزاب:٥٣] يعني: استواءه ونضجه، فقوله: {حَمِيمٍ آنٍ} أي: حميم حار جداً، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ} نقل عن الحسن وقتادة: أي بسواد الوجوه وزرقة العيون، فهذا مما يعرفون به، وهناك بعض الأوصاف الأخرى التي ذكرها الله -جل جلاله-، من صفاتهم في البعث والمحشر ما يرهقهم من الذل، والله -عز وجل- يقول: {وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [سورة يونس:٢٧] من شدة الذل، وأخبر عن ذلك أيضاً بخشوعهم وسكون جوارحهم وخشوع أبصارهم كل هذا من العلامات التي يعرفون بها {خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} [سورة الشورى:٤٥]، {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [سورة آل عمران:١٠٦]، {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}، وقوله هنا: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٤]، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الجمع بين القولين: {آنٍ} أي متناهٍ في الحرارة، والقول الآخر: أي قد نضج، {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [سورة الأحزاب:٥٣] أي نضجه، من الآداب التي أدب الله بها المؤمنين أن لا يطيلوا المكث عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيأتوا قبل تهيئته للقياهم وقبل نضج الطعام الذي جاءوا من أجله ودعوا إليه، أو أن يجلسوا بعد ذلك يستأنسون بالحديث، فجمع بين القولين غير ناظرين إناه قال هنا: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} أي حاضر وحار متناهٍ في الحرارة، فهذا من أحسن ما يكون في التفسير، وهذه هي الطريقة الصحيحة؛ وذلك لأن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر وكل معنى منها يشهد له القرآن أو السنة أو أن ذلك صحيح في كلام العرب ولا يوجد ما يمنع من حملها على الجميع فإن هذه المعاني تجمع، وهذا يوجد كثيراً في مثل هذا الكتاب، وأيضا في مثل تفسير ابن جرير وكلام الحافظ ابن القيم، وكلام شيخ الإسلام وفي مثل: "أضواء البيان" فهذه من أجلّ كتب التفسير.

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٤٦-٥٣].

يقول تعالى: ولمن خاف مقام ربه بين يدي الله -عز وجل-، يوم القيامة، {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [سورة النازعات:٤٠]، ولم يطغ، ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان.

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} هذه الجملة تحتمل معنيين احتمالا قريباً، المعنى الأول {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي: خاف مقامه بين يدي ربه، {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [سورة الأنعام:٢٧-٣٠]، فهم يقفون على النار، ويقفون بين يدي الله -عز وجل- للحساب {خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي: خاف مقامه بين يديه هذا معنى تحتمله الآية، وهو اختيار ابن القيم -رحمه الله-، والمعنى الثاني {خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي: في اطلاعه عليه، قيام الرب -تبارك وتعالى- على العبد، الحي القيوم فمن معاني القيوم القائم بنفسه، المقيم غيره، القائم على خلقه في أرزاقهم وأقواتهم وآجالهم وأعمارهم كل هذا داخل تحت القيوم، {خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} يعني قيام ربه "المَقام" اسم مصدر أي قيام ربه عليه وإشرافه، واطلاعه على أحواله

وأعماله كلها فراقبه، وخافه، وحاسب نفسه كقوله تعالى: **{أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** [سورة الرعد:٣٣] وهذه الآية كقوله تعالى: **{ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}** [سورة إبراهيم:١٤]، **{خَافَ مَقَامِي}** [سورة إبراهيم:١٤] يعني قيامي عليه واطلاعي عليه، وتحتمل المعنى الآخر أيضا "مقامي" أي قيامه بين يديّ **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}** [سورة النازعات: ٤٠] ويمكن أن تحمل الآية على المعنيين خاف مقامه بين يدي الله –عز وجل–، وخاف أيضا مقام ربه أي قيام ربه عليه، واطلاعه على أحواله كلها، والشيخ محمد الأمين –رحمه الله– في الأضواء جمع بين المعنيين، فسر الآية بالمعنيين.

كما روى البخاري –رحمه الله– عن عبد الله بن قيس –رضي الله عنه–؛ أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم –عز وجل– إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[1]، وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به.

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} خاف الله –عز وجل– خاف قيامه بين يدي الله، خاف من ربه؛ لأنه مطلع عليه، **{جَنَّتَانِ}** له جنتان، قال بعض أهل العلم: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}** جنة للخائف من الإنس، وجنة للخائف من الجن! وهذا فيه بُعد، ومنهم من يقول: له جنتان جنة عدن، وجنة النعيم، هذه جنات للخائفين، وهذا اجتهاد من قائله، ومنهم من يقول: الجنة هي البستان كما هو معروف في كلام العرب فله جنتان الجنة الأولى يعني كل إنسان له مقعد في الجنة، ومقعد في النار، فإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ توارثوا مقاعد أهل النار في الجنة، وإذا دخل أهل النارِ النارَ توارثوا مقاعد أهل الجنة في النار، كما جاء في الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))[2]، يعني آمنتَ وعملت صالحاً، وهكذا يقال للمؤمنين: ((هذا مقعدك من النار...))، فيتوارث أهل الجنة مقاعد أهل النار، وأهل النار يتوارثون مقاعد أهل الجنة، وهذا من أعظم التغابن الذي أشار إليه قوله –تبارك وتعالى–: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** [سورة التغابن:٩] هؤلاء يتوارثون مقاعدهم في الحميم والغسّاق، وهؤلاء يتوارثون مقاعدهم بالنعيم واللذة والحبور، فهذا من التغابن، فالحاصل أن الله –عز وجل– يقول: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}** هذا قول، والقول الأول يجري باعتبار أن الجنتين لهذا الخائف، يعني لكل خائف جنتان **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}** يكون له ذلك، والآية تحتمل معنى آخر، وهذا تفسير من فسرها –والله أعلم–، بجنة عدن مثلاً، وجنة النعيم أي للخائفين جنتان بحسب خوفهم وأعمالهم، فمنهم من يكون في جنة تكون أعظم نعيماً، ومنهم من يكون في جنة أخرى دونها كما سيأتي في **{وَمِن**

---

١ – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم –سبحانه وتعالى–، برقم (١٨٠)، وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهيمة، برقم (١٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٦٨٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري.

٢ – رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، برقم (١٣١٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٦٦).

دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن:٦٢]، لكن قد يكون القول الأول أولى منه لأنك إذا تأملت الآيات {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، ثم قال بعد ذلك في صفتهما: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} ثم ذكر في صفتهما أيضا {فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}، ثم ذكر حالهم {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٥٤-٥٥]، ثم قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [سورة الرحمن:٥٦] إلى أن قال: {وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}، فالمرتبتين: الأولى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} ثم ذكر أوصافها، والثانية التي دونها {وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} ثم ذكر أوصاف الجنة الثانية -أوصاف الجنتين الثانيتن-، يعني في المرتبة الثانية، وسيأتي في المقارنة بين هذه وهذه أن الأولى أرفع وأكمل في النعيم في كل شيء من الثانية، ومعروف أن أهل الجنة يتفاوتون، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: ((جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب..))، فجنان الذهب أكمل من جنان الفضة، فهذا هو الذي حمل بعض أهل العلم إلى القول بأن التثنية هنا غير مرادة، وإنما على طريقة العرب حيث يعبرون بالمثنى عن المفرد أحيانا {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة ق:٢٤]، وبعضهم قال: هذا ليس خطاب التثنية، الخطاب لواحد، وهذا يحتاج إلى مناقشة {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ}، يقولون كما تقول العرب: "افعلا ذلك" ويقصدون به الواحد، والخطاب للمثنى "اضربا عنقه" يعني اضرب عنقه، فالحاصل أن هذا لا يظهر هنا إطلاقاً، يعني وإن كان الاحتمال له وجه من النظر في سورة ق إلا أنه يستبعد هنا؛ لأن كل الأوصاف بالتثنية {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، لما قال: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، وقال: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}، {فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} فهذا يدل -والله تعالى أعلم- على أنهما جنتان حقيقة، وهذا في الدرجة العليا ((جنتان من فضة)) هذه مرتبة، وأعلى منها ((جنتان من ذهب))، قال: ((جنتان من ذهب))، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وكثير من المفسرين يتحدثون عن هذه القضية في هذا الموضع، والسبب أنه يوجد من أهل العلم من قال: إن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ولا ينعمون، وإنما ينجون من النار فقط، والكفار منهم يدخلون النار، والذي استدلوا به على أن الجن لا يدخلون الجنة آية من القران هي {وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأحقاف:٣١]، ولم يقل: يدخلكم الجنة لكن الآيات لا تفهم بمفردها، وإنما في مقامٍ ناسب أن يقول: {وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، وهنا ذكر {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} والآيات التي بعدها تدل على أن الجن الصالحين منهم من يدخلون الجنة، ولم يصح أبداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- دليل واحد على أنهم لا يدخلون الجنة، ورد عن بعض السلف في هذا المعنى بعض الآثار، ولكن العبرة بقال الله، قال رسوله.

ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

ثم نعت هاتين الجنتين فقال: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} أي: أغصان نَضِرَة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، هكذا قال عطاء الخرساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضُها بعضا.

{ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} قال: أي أغصان، والأفنان بهذا الاعتبار تكون جمع فَنَن وهو الغصن، والأفنان هي الأغصان واحدها فنن، {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} أي ذواتا أغصان، ويمكن أن يكون أفنان جمع "فن" بمعنى النوع والصنف، يعني تكون {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} أي ألوان لها أشكال، وصنوف من الثمار، فهذه الآية تحتمل هذا وهذا، وبعضهم فسرها بمعنى ثالث {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} قال: فضل وسعة يتبين به فضلها عما سواها، وبعضهم فسر الأفنان بظل الأغصان لكن المشهور هو الأول الذي عليه عامة أهل العلم {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} أي أغصان جمع فنن وهو الغصن، والقول الثاني اختاره ابن جرير {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} يعني الصنوف والأنواع جمع فن، تقول: فنون الكلام يعني ضروب الكلام، أنواع الكلام فنون الكتابة فنون الثمار، فنون يعني الصنوف والأنواع، وبعض العلماء يقول: الفنن هو الغصن المستقيم، ولذلك انظر الجنة التي بعدها –وسيأتي في المقارنة بينهما– قال: {وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن:٦٢] وذكر أنهما {مُدْهَامَّتَانِ} [سورة الرحمن:٦٤]، قال: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} [سورة الرحمن:٦٦]، وسيأتي في الكلام {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [سورة الرحمن:٦٨]، {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [سورة الرحمن:٧٠]، {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [سورة الرحمن:٧٢] إلى آخره، فالحاصل أن الأغصان هنا ذكرها {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، قال بعضهم: أي أن أغصانها ممتدة، وتلك وصفها بشدة الخضرة {مُدْهَامَّتَانِ} تضرب إلى السواد من شدة الارتواء.

وقوله: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} أي: **أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة** الجملة هذه قصد بها الجمع بين معنيين، وهذا مما تميز به تفسير ابن كثير –رحمه الله.

{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها: "تسنيم"، والأخرى "السلسبيل".

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

الحسن –رحمه الله– أخذ التسمية من {وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا} [سورة المطففين:٢٧]، يعني التسنيم هذه هي عين {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} قال: **إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل**، لكن قد يكون هذا وقد لا يكون هو المراد، ولهذا اختلفوا فيه، انظر قول عطية بعده وهو بعيد قال: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ورد عليه بكل بساطة أن هذه أنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن، فقال: {مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} [سورة محمد:١٥] والله أخبر أنه نهر من أنهار الجنة، وهنا عيون والعيون غير الأنهار.

ولهذا قال بعد هذا: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} أي: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخيرٌ مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

هذه الجملة فيها من كل فاكهة فيها صنفان، ومن أهل العلم من يقول: اليابس والرطب، وهذا لا دليل عليه، فالله أعلم به، لكن {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}: من كل فاكهة صنفان.

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة.

الله -عز وجل- لم يقل: من كل ثمرة زوجان حتى يذكر الحنظل، وإنما قال: فاكهة والحنظل ليس من الفاكهة، ولا للحيوانات.

وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني: أن بين ذلك بَونًا عظيما، وفرقًا بيّنا في التفاضل.

{مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٥٤-٦١].

يقول تعالى: {مُتَّكِئِينَ} يعني: أهل الجنة، والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع، ويقال: الجلوس على صفة التربّع.

الاتكاء هو الاعتماد فالإنسان حينما يكون مستريحاً في جلوسه يتكئ أو إذا أراد أن يستريح في جلوسه اتكأ فهنا يذكر نعيمهم، ويصور حالهم في جلوسهم، والاتكاء هو الاعتماد **{مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر الاضطجاع هنا فسره بالاضطجاع باعتبار أنه ما ذكر شيئاً يُرتفَق به ويتكأَ عليه، لم يقل: على وسائد مثلاً، وإنما قال: على فرش فإذا كان الإنسان على الفراش مباشرة يعتمد فمعنى ذلك أنه مضطجع، من هذا الباب فسره بالاضطجاع، والله أعلم.

{عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} وهو: ما غلظ من الديباج، قاله عكرمة، والضحاك وقتادة.

الديباج وهو الإستبرق: الحرير الغليظ، يعني يصور الله -تبارك وتعالى- لنا نعيم أهل الجنة فالفرش **{بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** يعني العادة عندنا أن الجهة الداخلية أو السفلية للفراش تكون من أردأ أنواع القماش، ولو جئت لأفخم أريكة أو كنبة أو فراش أو نحو ذلك لوجدت أن الأسفل أرذل نوع يوجد عندهم في القماش يضعونه فيه لأنه لا يُرى مستور عن الأعين لاتمسه الأجساد فما الحاجة أن يوضع فيه شيء جيد؟، فهنا ما ذكر الله -تبارك وتعالى- الظواهر، الظواهر هذه لا تخطر في البال، لكن البطائن فقط البطانة من إستبرق، من الحرير الغليظ فما بال الظواهر؟!، هكذا حينما ذكر الله الجنة، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ترابها المسك، إذا كان هذا التراب هو المسك فغير التراب أشياء لا يمكن أن يتخيلها الإنسان، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد -يعني سوطه- خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل النار لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))[٣]، أشياء لا تخطر على البال، ركعتان في جوف الليل أو صيام يوم في سبيل الله أو كف النفس عن الأهواء والشهوات، والغفلة غلّابة.

وقال أبو عِمْران الجَوْني: هو الديباج المُغَرّي بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف، شديدة سواد العين شديدة بياض العين، برقم (٢٦٤٣).

قال أبو إسحاق، عن هُبَيْرة بن يَرِيم، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟
{وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [سورة الحاقة:٢٣]**، وقال: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا}** [سورة الإنسان:١٤] **أي: لا تُمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ٥٦ إلى الآية ٦٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: {فِيهِنَّ} أي: في الفرش {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [سورة الرحمن:٥٦] أي غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً أحسن في الجنة من أزواجهن، قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخرساني، وابن زيد.

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئا أحسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} كما قال الله -تبارك وتعالى- في الموضع الآخر: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} [سورة الصافات:٤٨] جمع عيناء، وهي واسعة العين، أي جميلات العيون، {وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} [سورة ص:٥٢]، يعني في سن متقاربة، أو في سن متحدة، فهذه كلها من أوصاف هؤلاء النساء في الجنة، فهن في غاية الجمال في بياض مشوب بحمرة، في غاية الصفاء مع سعة العيون وتقارب في السن، والإنسان إذا كان له نساء في الدنيا فهذه عمرها ستون سنة، وهذه عمرها أربعون، وهذه عمرها ثلاثون، وأما في الجنة ففي سن الشباب في سن واحد، لا يهرمن، ولا يذهب حسنهن وجمالهن، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} قال: **أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئا في الجنة أحسن من أزواجهن**، {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} باعتبار أن الطرف هنا يراد به طرفهن يعني النظر، وتحتمل الآية معنى آخر قال به بعض السلف: أي قاصرات طرف أزواجهن عليهن لشدة جمالهن فهي في غاية الجمال لا ينظر زوجها إلى أحد سواها، ولا يتطلع إلى نساء أخريات؛ لأن عنده غاية الجمال والحسن فهي تقصر طرف زوجها {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، ولا شك أن المعنى الأول هو المتبادر، وهو الذي تمدح به المرأة عادة يقال: فلانة قاصرة للطرف، فهي عفيفة بغاية العفة لا تنظر إلى الرجال، ولا تتطلع إليهم بخلاف كثير من نساء الدنيا، فإنها يعجبها هيئة هذا وصورته، ويعجبها منطق هذا ويعجبها شجاعة هذا، ويعجبها أمور كثيرة مما قد تستهويها، وإذا كانت في غاية الجمال فإن هذا قد يفهم منه أنه لا ينظر إلى غيرها، تقصر طرف زوجها؛ ولهذا من أهل العلم من حمله على المعنيين، {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} لا تنظر إلى أحد لا تتطلع إلى أحد، وزوجها لا ينظر إلى غيرها لشدة حسنها وجمالها، أي ولشدة الحسن والجمال فهن {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، ذكر الفرش فقال: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [سورة الرحمن:٥٤]، ثم قال بعده: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، ثم قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}،

والمراد بقاصرات الطرف هنا يحتمل أن يكون المراد به الحور العين وليس نساء الدنيا اللاتي في الجنة، والقرينة الدالة على هذا هي أنه قال: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} وهذا يستغرق جميع الأزمنة، ما سبق أن طُمثت، وهذا وصف الحور العين، أما نساء الدنيا فبخلاف ذلك فهي في الأصل زوجته في الدنيا التي قد طمثها، وهذه {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، ومن أهل العلم من قال المراد به: نساء الدنيا ينشئهن الله نشأة أخرى والله يقول: {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا} [سورة الواقعة:٣٥-٣٧] عُرُباً متحببات، يعني متحببة إلى زوجها، فالتي عندها حسن التبعل إذا تكلمت معه أو دعاها أجابته وتكلمت معه بأعذب عبارة، وألطفها وأحسنها، {أَتْرَابًا} يعني في سن متقاربة في غاية الشباب، فهذا يحتمل، ومن أهل العلم من يقول: هؤلاء من نساء الدنيا ما مسهن أحد قبل ذلك، ليست زوجته، وإنما أخريات أيضا يتزوج بهن، لم يمسهن أحد قبل ذلك، وهذا القول يعني أنهن مُتن أبكاراً، وهذا يمكن أن يجاب به على السؤال الذي يسأل عنه كثير من النساء، فالنساء دائماً إذا سمعن عن الحور العين غرن منهن، ويقلن: أنتم لكم الحور العين ونحن ما لنا؟ نقول: أما المتزوجة فإنها لا ترى شيئا أحسن من زوجها {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، ترى أنه في غاية الحسن والجمال، ولا تطلب غيره، وعلى هذا القول يكون المراد النساء اللاتي لم يتزوجن في الدنيا، وهذا يُسأل عنه كثيراً يقال: التي ماتت ولم تتزوج؟ الرجال يتزوجون بالحور العين، والتي ماتت ولم تتزوج؟ من أهل العلم من يقول: اللاتي مُتن وما تزوجن هن اللاتي على هذه الفرش؛ لأنه قال: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} ماتت وهي بكر، -والله تعالى أعلم-، لكن الآية تحتمل هذه المعاني {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} ولعل أبعد هذه المعاني أو أضعفها هو المعنى الأخير مع أن الآية تحتمله، والله -عز وجل- أخبر أن الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها كل ما يتلذذ به الإنسان وهذا عام، ولذلك يقال للنساء اللاتي لم يتزوجن: لن ينقص من نعيمهن شيء إطلاقاً، لكن الله -عز وجل- لم يذكر لنا تفصيلاً في هذا؛ والسبب في ذلك -والله تعالى أعلم- أن العادة جرت بذكر النساء من جملة النعيم وهو من الأشياء المحببة للنفوس، فالله -تبارك وتعالى- مثلا يقول: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء} [سورة آل عمران:١٤]، أول ما بدأ بالنساء، ولهذا فإن العرب يقولون: إن الأطيبيْن هما النكاح والأكل {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء} ثم ذكر البنين والقناطير إلى آخره، لمّا تقرأ النساء هذه الآية {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء}، يقلن: ونحن زين لنا حب الشهوات من الرجال؟! فيقال: ما جرت العادة بهذا فالمرأة هي محل متعة الرجل؛ فلذلك إذا ذكر النعيم ذكر النساء وهذا تجده في القرآن في مواضع، فالقرآن جرى على هذه الطريقة المعهودة فيما يتعارفه الناس ويتحدثون به فيما بينهم، وتنجذب إليه أنفسهم وليس معنى ذلك أن المرأة لا يكون لها مثل هذا النعيم، والله تعالى أعلم.

{لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة.

{لَمْ يَطْمِثْهُنَّ} قال: بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ}، يعني لم يطأهن، وتفسير من فسره بأنه لم يذللهن لا يخرج عن هذا؛ لأن الموطوءة التي وطئت قد ذللت بالوطء بخلاف من لم توطأ، البكر، ومن أهل العلم من فسره بما هو أخص من الوطء، وطء مع تدمية {لَمْ

يَطْمِثْهُنَّ} أي وطء مع تدمية، يعني افتضاض الأبكار، وهو المعنى الذي فسر به قوله -تبارك وتعالى-: **{فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ}** [سورة يـــس:٥٥-٥٦]، قالوا: **{فِي شُغُلٍ}** يعني افتضاض الأبكار؛ لأنه ذكر الأرائك بعده، فمنهم من فسره بهذا المعنى الخاص أنه ليس مجرد الوطء هو الطمث وإنما وطء مع تدمية، وهو الذي قال به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وجمع من أهل اللغة.

قال أرطاة بن المنذر: سئل ضَمْرَةُ بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات، وذلك قوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

ثم قال ينعتهن للخُطاب: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، قال مجاهد، والحسن، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

إذا قيل بأن اللؤلؤ هو الدُّر الكبير، والمرجان هو الصغير، فيكون شبههن من جهة البياض بـــ "اللؤلؤ"، ومن جهة صفاء اللون بـــ "المرجان"، اللؤلؤ الصغير؛ لأن اللؤلؤ الكبير يكون كثيفاً فلو أنه وضع فيه السلك قد لا يظهر السلك، وأما المرجان فهو اللؤلؤ الصغير فهو في غاية الصفاء شفاف فلو وضع فيه السلك ظهر، فشبههن في البياض بـــ"اللؤلؤ" وفي صفاء اللون بـــ "المرجان" وقد جاء في الحديث أنه يرى مخ ساقها من وراء الجلد أو الثياب، لشدة الصفاء يرى مخ الساق، ومن فسر المرجان بالأحمر قال: **{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}** اللؤلؤ يدل على الصفاء والبياض، والمرجان يدل على الحمرة، بياض مع صفاء مشوب بحمرة، وهذا أجمل ما يكون في ألوان النساء.

وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟

يعني يقول ابن سيرين: إن أهل المجلس يعني أبا هريرة -رضي الله عنه-، ومن معه إما أنهم قالوا ذلك على سبيل البحث والمذاكرة، أو قالوه على سبيل المفاخرة: من الأكثر الرجال أو النساء في الجنة؟

فقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: أوَلَم يقل أبو القاسم -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضْوَأ كوكب دُرّيّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب))[1]، وهذا الحديث مُخَرّجٌ في الصحيحين.

قوله: **((وما في الجنة أعزب))** بمعنى أنه على هذا الاعتبار: النساء يكنّ على الضعف من الرجال، لكن هذا لا يعني أن هؤلاء النساء -لكل رجل من النساء اثنتان- من نساء الدنيا، فقد يكون المقصود من الحور العين، أو على قول من قال بغير هذا، فعلى كل حال هذا يحتمل، والآية لا يُقطع بتفسيرها بأحد هذين المعنيين، يمكن أن يكون المقصود من الحور العين، ويمكن أن يكون من نساء الدنيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم-

---

١ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، برقم (٢٨٣٤)، والبخاري، بدون "وما في الجنة أعزب"، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨١).

قال: ((يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار!))[٢]، ثم في مجاري العادات أن النساء يوازنّ الرجال يعني في العدد، وفي آخر الزمان النساء أكثر من الرجال، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((وما في الجنة أعزب)) بمعنى أن هذا ليس فقط لبعضهم، بل لكل واحد زوجتان، ويمكن أن يؤخذ من الجملة ((وما في الجنة أعزب)) يمكن أن يفهم منها: ولا في النساء، فالكل متزوج، والنساء اللاتي لم يتزوجن، يمكن أن يُجبَن بهذا الحديث: ((وما في الجنة أعزب))، أقول هذا؛ لأن السائلات عنه كثير، حتى إن بعض النساء تدعو لزوجها تقول: الله يدخلك الجنة لكن بدون حور!! إلى هذا الحد، هذا موجود، لا يكفي الغيرة من نساء الدنيا بل حتى من نساء الجنة!!.

روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لَغدْوَةٌ في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَابُ قوس أحدكم أو موضع قيده -يعني: سوطه- من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، ولنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))[٣]، ورواه البخاري بنحوه.

وقوله: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ} أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [سورة يونس:٢٦].

ولما كان في الذي ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

قوله هنا: **{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ}** الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فالذين أحسنوا جازاهم الله -عز وجل- بالحسنى، وقد ذكر بعضهم أن هذه الآية مع آيتين أخريين -مجموع ثلاث آيات- **{وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}** [سورة الإسراء:٨]، **{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ}**، **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [سورة البقرة:١٥٢] يقول: فيها نحو مائة قول، في كل واحدة مائة قول، والحمد لله الآية واضحة **{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ}**.

{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [سورة الرحمن:٦٢-٧٨].

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم (٢٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، برقم (٧٩).

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٢٤٣٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، والبخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف، شديدة سواد العين شديدة بياض العين، برقم (٢٦٤٣)، واللفظ لأحمد.

قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا} لفظة دون تشعر بأن هاتين الجنتين أقل في المرتبة من اللتين قبلهما، {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} كما في الحديث الذي ذكره: ((جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة))[٤]، والفضة دون الذهب، فعلى هذا تكون المراتب أن الجنتين الأوليين للسابقين، وهاتين الجنتين لمن دونهم، ومعلوم أن أهل الجنة كما قال الله -عز وجل-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة فاطر:٣٢]، فهم على المراتب الثلاث، قيل: بدأ بالظالم؛ لأن أكثر أهل الجنة من الظالمين لأنفسهم أصحاب الذنوب، وقيل: بدأ به؛ لئلا يقنط، وهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن قوله: {وَمِنْ دُونِهِمَا} يعني في المرتبة بمعنى أنها أقل، ومن أهل العلم من فهم عكس هذا، قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا} أي في القرب إلى العرش؛ ولهذا قال بعض السلف: إن الجنتين الأوليين جنة عدن وجنة النعيم، وأما الأخريين التي قال فيها هنا: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} فهما الفردوس والمأوى هناك عند سدرة المنتهى قال: {عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [سورة النجم:١٥] فعلى كل حال هذا بناء على ماذا من قال: إن هذا المقصود به الفردوس؟ بناء على أن {وَمِنْ دُونِهِمَا} يعني في القرب من العرش أقرب إلى العرش، لكن المعنى الأول هو المتبادر -والله تعالى أعلم-، والآن هي أربع جنات: جنتان {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن:٤٦] كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جنتان من ذهب))، {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} أيضاً، ويبقى النظر هل المقصود بذلك أن الجنان أربع يشترك فيها الناس ويدخلونها؟ كل له قصوره، وله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يعني هل المقصود بيان الجنان التي يدخلها أهل الإيمان في الآخرة أنها أربع جنان؟ جنتان من ذهب وجنتان من فضة؟ أو أن المقصود أن أهل الجنة بحسب مرتبتهم يكون لكل واحد جنتان، بستانان، الجنة تطلق على البستان فقد يراد بها جنس الجنة، يقال: الجنة هي مأوى المتقين أو المقصود لكل واحد، يعطى كما ذكرنا قول من قال مثلاً بأن واحدة هي مقعده الذي أعد له، والأخرى ما ورثه من محل الكافر، فله بستانان أو أن إحداهما بعمله الطاعات، والأخرى بتركه للمعاصي مثلاً كما يقول بعض السلف، -والله تعالى أعلم- لكن الآية تحتمل هذا، وقد يفهم من ظاهرها أو قد يشعر أن لكل واحد جنتين، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، فالكلام على الخائف يكون له جنتان، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والآية تحتمل، فالله أعلم.

وقد تقدم في الحديث: ((جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين)).

وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين.

والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: أحدها: أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}.

هنا ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عدة أوجه لتفضيل الجنتين الأوليين على الجنتين الأخريين، وحديث أبي موسى هذا واضح في هذا المعنى، وفي لفظ في الصحيحين: ((جنات الفردوس أربع جنات جنتان من

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٠).

ذهب......))[٥] إلى آخر ما ذكر، هذا في جنات الفردوس، ابن كثير -رحمه الله- في هذا الكلام الآن يذكر وجوه ترجيح الجنتين الأوليين على الجنتين الأخريين، وابن القيم -رحمه الله- ذكر عشرة وجوه استنبطها من المقارنة بين هذه الأوصاف، وكثير مما ذكره ابن القيم -رحمه الله- مشابه لكلام ابن كثير، يعني وجوه الترجيح عند ابن كثير -رحمه الله-: الوجه الأول أنه قدم **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}** والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}**.

وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني.

هذه وجوه المقارنة قال: أحدها أنه نعتَ، والثاني **{ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}**، وهكذا الثالث والرابع والخامس والسادس لم يعددها بهذه الطريقة، ذكر الأول فقط، وسيذكر الآن وجوه المقارنة

وقال هناك: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}: وهي الأغصان أو الفنون في الملاذّ، وقال هاهنا: {مُدْهَامَّتَانِ} أي سوداوان من شدة الري.

قال ابن عباس في قوله: {مُدْهَامَّتَانِ} قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من الماء.

وقال محمد بن كعب: {مُدْهَامَّتَانِ}: ممتلئتان من الخضرة، وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض.

يعني يقول من الناحية الجمالية: إن الشجر الذي تظهر أغصانه يكون أجمل وأبهى خاصة من فسر الأغصان بأنها الأغصان المستقيمة الممتدة، وأن الأفنان جمع فنن، وهو الغصن يقول: **قد اسودتا من الخضرة**، يقال للعراق مثلاً: سواد العراق؛ لشدة الخضرة وكثرة النخيل فيه، وهذا شيء مشاهد إذا ذهبت إلى البلاد التي تكثر فيها الخضرة جداً في الطائرة تراها سوداء، إذا كنت على ارتفاع يمكّنك من الرؤية تظن أنها حرّة سوداء الآن لو ذهبت إلى جزر أندونيسيا مثلا تراها من أعلى سوداء تظنها حرة سوداء من شدة الخضرة، الحين الذي لا يعرفها يظن أنها بلاد سوداء، حرة سوداء مثل التي حول المدينة، من شدة خضرتها تبدو سوداء.

وقال هناك: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}، وقال هاهنا: {نَضَّاخَتَانِ}، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فياضتان، والجري أقوى من النضخ.

النضخ هو فوران الماء من العين، تنضخ تفور من العين وهو أكثر من النضح، النضخ أكثر من النضح، وهناك قال: **{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}** عيون سارحة فقد تنضخ العين ولكنها لا تكون بهذه المثابة **{عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}**.

وقال الضحاك: {نَضَّاخَتَانِ} أي ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}، وقال هاهنا: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}.

هنا قال: **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ}**، وهناك: **{مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ}** [سورة الرحمن:٥٢] يقصد أنه من كل فاكهة، فيها من كل، كلمة "كل" هي أقوى صيغة من صيغ العموم، بينما هنا **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}** ما فيها عموم في الثانية،

---

٥ - رواه الدارمي في سننه، برقم (٢٨٢٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف لضعف أبي قدامة الحارث بن عبيد، وابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٣٤١٠٩).

{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ} فلا شك أنها فاكهة كثيرة كما جاء وصفها في موضع آخر، {لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ} [سورة الواقعة:٣٣-٣٤].

ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا ليس قوله: {وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

يعني وإلا فُهم من جمله الفاكهة، هذا هو المعروف عند العرب، والمشهور، والذي قال به عامة أهل العلم من الفقهاء وغيرهم إلا الحنفية كما هو معروف فإنهم لا يعدون هذا من الفاكهة، {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}، والشيء الخاص يعطف على العام أو يذكر بعض أفراد العام، هنا لا يوجد صيغة عموم، لكن المقصود أن الفاكهة تشمل هذا وهذا، العموم أقصد الذي أخذ من المطلق؛ لأن المطلق كما هو معروف فيه شمول، لكن شموله بدلي، وأما العام فإن شموله استغراقي؛ فلذلك تجد أن مباحث المطلق مشابهة تماماً لمباحث العام، ويذكرونه بعده مباشرة، ويختصرون الكلام فيه اختصاراً ويطيلون في العام هذا في أصول الفقه، فهنا {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ} فـــ "الفاكهة" مطلق، وهذا الإطلاق يشمل النخل والرمان، يعني هذا الرمان يعتبر فاكهة، والنخل يعتبر فاكهة، والعنب يعتبر فاكهة وهكذا، فذكر النخل والرمان مع أنه داخل في جملة الفاكهة؛ لشرفه {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [سورة البقرة:٩٨]، وهو من جملة الملائكة، مع أن هناك لفظة الملائكة فيها عموم؛ لأنه جمع مضاف إلى معرفة فهذا للعموم، لكن ذكر جبريل، و{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ} [سورة البقرة:٢٣٨]، "ال" هذه للعموم، {والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} لأهميتها، فيعطف الخاص على العام؛ لمعنى، فهنا من أهل العلم من يقول: ذكر النخل؛ لأنه غذاء، والرمان؛ لأنه دواء، هكذا قال بعضهم، ومعروف أن الرمان دباغ للمعدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرحمن من الآية ٧٠ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ثم قال: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [سورة الرحمن:٧٠] قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيّرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وروي مرفوعا عن أم سلمة، وفي الحديث الآخر: أن الحور العين يغنين: نحن الخيّرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}** يحتمل المعنيين، يعني الخيرات كل ما يصدق عليه هذا المعنى، ويدخل في هذا العموم النساء اللاتي في الجنة، والمعنى الثاني خيرات جمع خيّرة وهي المرأة الصالحة، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى بالتشديد **{فِيهِنَّ خَيِّرَاتٌ}** فالخيّرات قطعاً جمع خيّرة، و**{خَيْرَاتٌ}** يحتمل أن يكون جمع خيّرة، ويحتمل أن يكون جمع خير، والمعنى الأول أعم من المعنى الثاني، والقراءات كما هو معروف إذا تعددت فإنه يفسر بعضها بعضاً، فيمكن أن تفسر القراءة المشهورة بالقراءة الأخرى بالتشديد، **{خَيِّرَاتٌ}** والحديث يدل على هذا، فيما يغنين به: "نحن الخيّرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام"، ولهذا قال عامة المفسرين سلفاً وخلفاً: إن المقصود بذلك النساء الصالحات، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير وابن القيم، وخلائق، ومعنى ذلك إذا كانت بالنسبه للمرأة **{خَيِّرَاتٌ حِسَانٌ}** خيّرات الأخلاق، وخيّرات الأعمال، وخيّرات النفوس وحسان الوجوه، وإذا اجتمع هذا، وهذا اجتمع للإنسان الحسن الظاهر والباطن، وهذا أجمل ما يكون، وكثيراً ما يكون الحسن الظاهر والجمال حاملاً على آفات لا تخفى من الترفع وشراسة الخلق، والدلال بالجمال إلى غير ذلك مما هو معروف، أما إذا اجتمع حسن الظاهر والباطن فهذا هو الكمال.

ثم قال: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [سورة الرحمن:٧٢]، وهناك قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [سورة الرحمن:٥٦]، ولا شك أن التي قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ} وهناك **{قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}** قلنا: يحتمل معنيين، ويمكن أن يكون الثاني ملازماً المعنى الأول **{قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}** قصرن أبصارهن عن النظر إلى غير أزواجهن، تغض طرفها لا تتطلع إلى الرجال، ولشدة جمالها قصرت طرف زوجها فلا ينظر إلى غيرها، **{قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}** قاصرة لطرف الزوج، وقاصرة لطرفها والمعنى المتبادر أنها قاصرة لطرفها، وهنا قال: **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}** فسره بعضهم: بأنهن قُصرن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم، مقصورات قُصرن على الأزواج، تقول: هذه محصورة ومقصورة على هذا، لا تتطلع إلى غيره، **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ}**، ويحتمل أن يكون **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ}** أي قُصرن عن الخروج، والقصر يأتي بمعنى الحبس، بمعنى أنهن لا يخرجن، وإنما قد هُيئن وأُنشأن وخلقن لأزواجهن، لا تخرج من هذه الخيام، وقوله:

{فِي الْخِيَامِ} فسره بعض أهل العلم بأنه يعود إلى الحور، يعني يكون المعنى أن هؤلاء الحور في الخيام الحور اللاتي في الخيام قد قصرن على أزواجهن، يعني على هذا ليس المعنى أنهن قصرن في الخيام؟ لا، حور مقيمات في الخيام قد قصرن على أزواجهن {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ} فالحور في الخيام، والمعنى الثاني: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ} في الخيام قصرن في الخيام يعني {فِي الْخِيَامِ} جار ومجرور، وهنا يمكن أن يكون عائداً إلى الحور، حور كائنات في الخيام قصرن على أزواجهن، حور مقصورات في الخيام، ويحتمل أن يكون عائداً أو متعلقاً بمقصورات يبين أين قصرن، قال: {فِي الْخِيَامِ} يمكن أن يكون متعلقاً بهذا أو هذا.

{فِي الْخِيَامِ} روى البخاري عن عبد الله بن قيس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون))[1].

ورواه أيضا وقال: ((ثلاثون ميلا))[2]، وأخرجه مسلم ولفظه: ((إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا))[3].

وقوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} [سورة الرحمن:٧٤]: قد تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٥٨-٥٩].

من وجوه المفاضلة التي ذكروها بين الصنف الأول والصنف الثاني في نعيمهم وجناتهم: هناك قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، وهنا قال: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ} قالوا: قاصرات الطرف بإرادتهن أكمل من المقصورات في الخيام، وهذا على أحد المعاني في تفسير {مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}.

ولو أراد الإنسان أن يناقش هذا الكلام الذي ذكره بعض أهل العلم من أن الأول أكمل من الثاني باعتبار أنها قصرت طرفها، والثانية مقصورة في الخيام لا تخرج، يمكن أن يقال: إن هذا أيضاً من الكمالات أصلاً فالمرأة تكمل وتنبل إذا كانت في خدرها لا تخرج، وكلما كانت أكثر بقاءً واستقراراً فهي أكمل من الخرّاجة الولّاجة، وهذا معروف، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في كتاب "الرحلة إلى حج بيت الله الحرام" سئل -رحمه الله- عن النساء القصيرات أو القِصَر أو نحو ذلك، كان السائل يظن أن المقصود بها القصيرة القامة!! فبين له أن المراد التي لا تخرج، وذكر من أقوال العرب في مدح النساء اللاتي لا يخرجن ذكر طائفة من الأشعار، وهذا لا شك فيه، لا شك أن المرأة التي لا تراها الشمس أكمل وأنبل وأشرف من الخرّاجة الولاجة، لاسيما إذا كانت أجيرة بمعنى موظفة تشتغل وتأخذ أجراً على هذا، ففرق بين أن تتزوج امرأة -تخطب امرأة- لا تراها الشمس وبين أن تخطب واحدة لها ثلاث وعشرون سنة، وهي كل يوم تطلع من الصباح وترجع في الظهر تعبانة تالفة، تعمل أجيرة، إذا كانت فقيرة محتاجة فإلى الله المشتكى، لكن المشكلة إذا كانت مستغنية.

١- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، برقم (٢٨٣٨).

٢- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٧١).

٣- رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، برقم (٢٨٣٨).

قال الشيخ محمد الأمين –رحمه الله تعالى–: " ومما وقع السؤال عنه في أثناء المذاكرة ثناء أدباء الشعراء على قصار النساء كقول الشاعر:

من كان حرباً للنساء *** فإنني سِلم لهنّهْ

فإذا عثرنَ دعونني *** وإذا عثرتُ دعوتهنّهْ

وإذا برزن لمحفل *** فقِصارهن ملاحهنّهْ

مع أن القِصر جداً وصف مذموم، كما يدل عليه قول كعب بن زهير:

*** لا يشتكى قِصرٌ منها ولا طول

ومعلوم أن كمال القامة واعتدال القدِّ وصف محمود فيهن ومما يدل على ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

وساريتَيْ بَلَنْطٍ أو رخامٍ *** يرنُّ خَشخاشُ حَلْيهما رنينا

فكان جوابنا على المسألة أن قلنا لهم: إن القِصَر الذي يستحسنه الشعراء من النساء ليس هو القِصَر الذي ضد الطول بل هو القصر في الخيام فالقصار عندهم هن المقصورات في الخيام، العاملات بقوله تعالى: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** [سورة الأحزاب:٣٣] وهو معنى معقول؛ لأن الصيانة تصون ماء الملاحة ومعناها، والابتذال يذهب ذلك كله، وقد بين كُثيّر في شعره حل هذا الإشكال حيث قال:

وأنتِ التي حبّبتِ كلَّ قصيرة *** إليّ وما تدري بذاك القصائر

عَنيتُ قصيراتِ الحجال ولم أُرد *** قصارَ الخطا شرُّ النساءِ البحاترُ

والبَحتر القصير المجتمع الخلق فالخراجة الولاجة لا ملاحة لها أبداً، وهي مذمومة عندهم ولذلك لما سمع بعض الأدباء صاحبه يستحسن قول الأعشى ميمون بن قيس:

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها *** تمشي الهُوينى كما يمشي الوجى الوحلُ

كأنّ مشيتها من بيت جارتها *** مرُّ السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ

يكاد يصرعها لولا تشدُّدُها *** إذا تقوم إلى جاراتِها الكسلُ

ليستْ كمن يكره الجيرانُ طلعتَها *** ولا تراها لسر الجار تختتِلُ

قال له: قاتلك الله تستحسن غير الحسن، هذه خرّاجة ولّاجة لا خير فيها فهي مذمومة، فهل لو قال كما قال الآخر وهو قيس بن الأسلت:

وتَكسلُ عن جاراتها فيزرنها *** وتعتلُّ من إتيانهن فتُعذَرُ

وربما حضر مذاكرتنا بعض العوام الذين لا يفهمون، ومن جهلهم أن واحداً منهم قال لنا بكلامه الدارج ما مضمونه: إنه يغبطنا ويغار منا بسبب أننا نمر بأرض السودان التي فيها موضع شريف، قلنا له: وما ذاك الموضع الشريف؟ قال: الخرطوم!! قلنا: وأي شرف للخرطوم؟ قال: لأنه مذكور في القرآن العظيم في قوله تعالى: **{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ}** [سورة القلم:١٦]!! فقلنا له: ذلك خرطوم آخر غير الخرطوم الذي تعني، فضحك من يفهم من الحاضرين"[٤] أ.هـــ.

٤– رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، للعلامة محمد الأمين الشنقيطي (٧٥–٧٧).

بعض الناس -كما ذكرنا لكم من قبل- مسمٍّ ولده "خنزير" في بعض بلاد البلقان، وآخر مسمٍّ "جهنم"، و"مسجد لظى"!! مساكين، هذا يحصل عندهم ومشاهد، والشيخ -رحمه الله- يجيب بهذه الإجابات من حفظه، وهو مسافر يمر على ناس ويسألونه ويعطيهم من هذا البحر، فالكتاب في غاية الفائدة ففيه أشياء ترفع الهمم إذا قرأ الإنسان، مثل هذا مليءٌ بالعلم، ومِن حفظِه وهو مسافر، فهذا لا شك أنه يرفع همة الإنسان في العلم، وهذا المعنى لطيف وجميل **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}**، فهو كمال بمعنى أنها ليست خراجة ولاجة، وهذا يحفظ لها رونقها وبهاءها وحسنها وملاحتها، نحتاج أن يكون مثل هذا الكلام رُقية هذه الأيام يُرقى بها النساء، ومن في رأسه من وسوسة الشيطان فيظن أنه لا يمكن أن تبقى ابنته في البيت، لابد أن يبحث لها عن أي عمل المهم أنها تخرج، وربما يمتلك المليارات وبُنيته أجيرة!!!

وقوله: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس، وقال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي.

الرفرف يقول: **هي المحابس**، ويقول: **قال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي**، وبعضهم يقول: هي البُسُط، وبعضهم يقول: هي الزرابي، وبعضهم يقول: أنواع من الثياب الخضر، وبعضهم يقول: الفرش المرتفعة، وبعضهم يقول: كل ثوب عريض، وبعضهم يقول: ثياب خضر يتخذ منها المحابس، وقيل: رياض الجنة، فمن نظر إلى الخضرة والاتساع قال: رياض الجنة، ومن نظر إلى أنها من رفرفَ الطائرُ بجناحيه، رفرف بمعنى حلق، فإذا أراد أن يرتفع يرفرف، وإذا أراد أن يطير، فقال: هي من الارتفاع فرش مرتفعة، بهذا الاعتبار، ومنهم من نظر إلى عكس هذا المعنى أن الطائر إذا أراد أن يقع على شيء رفرف بجناحيه عليه ليقع عليه، ومن نظر إلى هذا المعنى قال: إنها مثل هذه الأشياء المتدلية في طرف البساط، التي تكون في طرف البساط يقال لها: رفرف، والرفرف يطلق على الطرف ففي المراكب السيارات مثلاً ما كان فوق العجلة يقال له: رفرف، وكذلك أيضاً الخيام كما فسره به بعضهم، لكن ليس هنا في هذا الموضع لكن في أصل معناها اللغوي ليس في هذا الموضع، الرفرف الخيمة، تجدونها من ظهرها أو من خلفها تجدون عليها شيئاً يستر بحيث لا تدخل الشمس ما بين الرواق وظهر الخيمة -سقف الخيمة-، يعني هذا الرواق وتجد هنا هذا يقال له: رفرف أي الذي متصل بالسقف وينزل قليلاً هذا الرواق، هذا يقال له: رفرف، الشيء النازل من السرير الآن أصبح يوضع منفصلاً أو لا؟ يوضع في أطراف السرير بحيث يغطي جوانبه من نفس قماش قطاع السرير عادة، وعادة تكون بهيئة معينة وفيها كسرات للزينة، للتغطية، يقال له: رفرف.

وقوله: {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ}: قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي: العبقري: الزرابي.

العبقري: الزرابي وبعضهم يقول: هي الزرابي والطنافس التي فيها وشي، والمقصود بـــ"الوشي" خطوط معلمة مخططة **{وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ}**، وابن جرير -رحمه الله- فسره بالطنافس الغليظة الثخينة، وبعضهم يقول: كل شيء فيه وشي من البُسُط، يعني المخطط المعلم يقال له: عبقري، يقول بعضهم: منسوب إلى أرض يصنع فيها ذلك، ونسب إليها فقيل له: عبقري، وبعضهم يقول: كل شيء جيد متقن الصناعة فإن العرب تقول له: عبقري، فيقولون للإنسان الحاذق: عبقري، الذكي عبقري، يقولون: نسبة إلى قرية يزعمون أن الجن يسكنونها، فينسبون إليها كل

ما فيه إتقان وحذق من مصنوع أو إنسان أو غير ذلك، يقولون: هذا عبقري، فالثياب أو المنسوجات الجيدة الحسنة متقنة الصنع، يقولون لها: عبقري بهذا الاعتبار نسبة إلى قرية يسكنها الجن في زعمهم، وبعضهم يقول: هي البُسُط، العبقري الحسان بسط حسان، وبعضهم يقول: الديباج، وقيل: غير ذلك، هذه الأقوال المتنوعة من الصحابة والتابعين في تفسير العبقري، وفي تفسير الرفرف مما يدل على أنه يطلق -والله أعلم- على هذه المعاني كلها، والعرب تطلقه على ذلك فالرفرف يطلق على طرف الشيء مما يكون في الخيمة، وطرف البساط وما يوضع على الأرائك من قماش يزينها، وكذلك أيضاً العبقري الطنافس الثخان، يقال لها: عبقري عندهم، وكذلك أيضاً البسط المزينة، والمزينة لا يخالف قول من قال: إنها ديباج أو إنها حسنة ومتقنة الصنع، والنسج، إلى غير ذلك من الأقوال، فكل هذا يقولون له: عبقري فتعددت أقوالهم فيه {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} فهم يتكئون ويجلسون على بسط في غاية الزينة والجمال والإحكام في الصنع والإتقان، ومن يعرف هذه الأمور يدرك هذا المعنى، فتجد البساط الذي يعمل: نسج جيد، وكذا يباع بمبالغ خيالية -والله أعلم-، ومثل هذه الألفاظ مرجعها إلى اللغة، وهؤلاء عرب خلص فتعددت أقوالهم فيها هذا التعدد وهم أهل اللغة، وهو شيء يعرفونه في بيئتهم، فدل ذلك -والله أعلم- على أنه يطلق على هذه المعاني كلها عند العرب، والله أعلم.

ثم قال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} أي: هو أهل أن يُجلَّ فلا يُعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

وقال ابن عباس: {ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} ذي العظمة والكبرياء.

وفي الحديث الآخر: ((إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه))[٥].

{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ} هذه الصيغة تدل على الكثرة {تَبَارَكَ} أي عظمتْ وكثرت بركته، {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}، {ذي} هنا ترجع إلى الرب، فالموصوف بأنه {ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} هو الرب -تبارك وتعالى- وفي قراءة ابن عامر -وهي قراءة متواترة- بالرفع {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} فيكون عائداً إلى الاسم، والاسم لا شك أن أسماء الله حسنى، ودالة على أوصاف الكمال، والله -عز وجل- يقول: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١] منهم من قال: سبِّح ربك: نزِّه ربك ذاكراً اسمه، وبعضهم يقول غير هذا، والاسم تارة يطلق ويراد به المسمى، وتارة يطلق ويراد به الاسم، وتارة يطلق ويراد به هذا وهذا، فلا شك أن أسماء الله -عز وجل- في غاية الكمال، وتدل على أوصاف الكمال ومتضمنة لها وهي جميعاً مشتقة تدل على الصفات الكاملة، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة الأعراف:١٨٠] فهي حسنى في ألفاظها ليس فيها لفظ ينبو عنه السمع، وحسنى في معانيها وما تضمنته من الأوصاف، وأيضاً هي أسماء لله -تبارك وتعالى-. {ذُو الْجَلالِ} أو {ذِي الْجَلالِ} في القراءة المشهورة، {وَالإِكْرَامِ}، {الْجَلالِ} فسر بالعظمة {وَالإِكْرَامِ}، ومنهم من يفسره بأنه {وَالإِكْرَامِ} يعني عن كل ما لا يليق بالتنزيه والتبجيل، ومنهم من فسره بمعنى أن الله يكرم أولياءه، وعباده الذين يتقربون إليه، فصار بهذا الاعتبار متعدياً، أي أن الله -تبارك وتعالى- مكرم لعباده، لأوليائه، لأهل

٥- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، برقم (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢١٩٩).

طاعته، والمعنى الآخر {ذِي الْجَلالِ وَالإكْرَامِ} أن ذلك منسوب إلى الرب -تبارك وتعالى- يُكرم ويُنزَّه ويجل ويرفع أو يعظم أو يقدس عن كل ما لا يليق، تقول: يكرم فلان عن كذا، وهذه المعاني كلها حق، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام))[٦]، ورواه النسائي.

معنى **ألظوا** الْهَجوا وأكثِروا من يا ذا الجلال والإكرام، قُلها كثيراً، الحديث ثابت صحيح، أكثر من قولك: يا ذا الجلال والإكرام.

وقال الجوهري: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه.

وقول ابن مسعود: "أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام" أي: الزموا، ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح.

قلت: وكلاهما قريب من الآخر -والله أعلم- وهو المداومة واللزوم والإلحاح، وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سلّم لا يقعد -يعني بعد الصلاة- إلا قدر ما يقول: ((اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام))[٧].

آخر تفسير سورة الرحمن، ولله الحمد والمنة.

٦- رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٢٤)، والنسائي في سننه الكبرى، برقم (١١٥٦٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٥٩٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٢٥٠).

٧- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ١ إلى الآية ١٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الواقعة وهي مكية.

قال أبو إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبتَ؟ قال: "شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعَمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت"[١]، رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرَة -رضي الله عنه- قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر "الواقعة" ونحوها من السور"[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [سورة الواقعة:١-١٢].

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [سورة الحاقة:١٥]، وقوله: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} أي: ليس لوقوعها -إذا أراد الله كونها- صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} [سورة الشورى:٤٧]، وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [سورة المعارج:١-٢]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سورة الأنعام:٧٣].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}** يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**الواقعة من أسماء يوم القيامة**"، كالطامة والصاخة والآزفة وما أشبه ذلك من الأسماء، يقول: "**سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها**"، لتحقق كونها قيل لها: واقعة، فهي ستقع لكنها واقعة لا محالة إن صح بهذا الاعتبار هذا الإطلاق، والمراد بالواقعة هنا القيامة، هل المقصود بها النفخة الأولى التي يصعق بها جميع الخلائق فيموتون، أو المقصود بها

١- رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الواقعة، برقم (٣٢٩٧)، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٣١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥).

٢- رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٠٩٩٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٥٠٦٧).

النفخة الثانية؟ يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن المراد النفخ في الصور للمرة الثانية، ويمكن أن يستدل على ذلك بقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٣-١٨].

هذا يكون بعد النفخة الثانية وليس النفخة الأولى، والله تعالى أعلم.

ومعنى {كَاذِبَةٌ} -كما قال محمد بن كعب-: لا بد أن تكون، وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة.

قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية.

ما ذكره هنا من الأقوال "**لا بد أن تكون، ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة**"، وقول ابن جرير: "**والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية**" كل هذا يرجع إلى معنى واحد، {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} أي: إن وقوعها لا يتخلف وقوعها متحقق، فالشيء الذي يحصل ولا يتخلف، يقال فيه ذلك، فهو وقوع مؤكد محقق ليس فيه مثنوية ولا تردد {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ}، واقعة لا محالة لابد أن تقع، وقول ابن جرير: **والكاذبة مصدر** بمعنى الكذب، يعني لا تخلف في وقوعها، يقول: "**والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية**"، العاقبة بمعنى العقبى، والعافية بمعنى المعافاة كما أن الكاذبة بمعنى الكذب، ويمكن أن يقرب المعنى هنا بتفسير ذلك بما يشبهه وإن كان في معنى آخر وذلك قوله -تبارك وتعالى-: {لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} [سورة الغاشية:١١] فاللاغية هنا أيضاً كما يقال هنا الكاذبة مصدر فاللاغية أيضاً مصدر بمعنى {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا} [سورة النبأ:٣٥]، {لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً}، كقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا} [سورة الواقعة:٢٥] والمعنى الأول هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: لا تخلف لوقوعها، وقوع متحقق لا محالة يقيناً، وهذا دل عليه قوله -تبارك وتعالى- هنا ذَكرَ بعض الآيات-: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} [سورة الشورى:٤٧] لابد أن يقع، {لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [سورة المعارج:٢]، {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [سورة الأنعام:٧٣]، وأشباه ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة النساء:٨٧]، وكقوله: {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا} [سورة غافر:٥٩] فهذا معنى، والمعنى الآخر ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} أي: مكذبة بمعنى إذا وقعت القيامة وقامت الساعة فعندئذ يعترف الناس بها، ويقرون باليوم الآخر ولا ينازعون فيه كما كانوا ينازعون في الدنيا، ويكذبون ويقولون: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [سورة المؤمنون:٨٢]، {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة الرعد:٥]، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [سورة ق:٣] ففي الآخرة إذا قامت القيامة صدقوا واعترفوا وأقروا وأذعنوا {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} أي نفس كاذبة، عندئذ يصدق الناس جميعاً ويعترفون بذلك اليوم الذي كانوا يكذبون به، كما قال الله -عز وجل-: {لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة الشعراء:٢٠١]، {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [سورة الحج:٥٥] فهذا معنى، وقيل غير ذلك {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} فمن أهل العلم من يقول: لا ينبغي أن يكذب بها

أحد، يعني هي أمر حكم الله به وأخبر عن وقوعه فليس لأحد أن يكذب فيه، وهذه المعاني على هذا التدريج، يعني الأقرب هو المعنى الأول، ثم يليه الثاني والثالث أبعدها، والله تعالى أعلم.

وقوله هنا: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} "إذا" هذه ظرف مضمن معنى الشرط فقوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} هل جوابه {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ}؟ يعني: إذا وقعت صدق الناس بها وأقروا ولا يكذبون وينازعون فيها أحداً؟ أو إذا وقعت الواقعة فإن وقوعها متحقق، أو يقال: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} إذا قامت الساعة وحصل ما حصل مما أخبر الله –عز وجل– به من انشقاق السماء وانكدار النجوم وما شابه ذلك من الأهوال والأوجال ظهر عندئذ منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة كما قال الله –عز وجل–: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} فعندئذ يكون أصحاب الميمنة بحال من النعيم، وأصحاب المشأمة في حال من الشقاء {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} فإذا قامت القيامة قامت الساعة وقعت الواقعة انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام.

وقوله: {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} أي: تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزّاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليّين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضعاء، وهكذا قال الحسن وقتادة، وغيرهما.

{خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– "**تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين**" يعني: في الآخرة، كقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [سورة النساء:١٤٥] وإن كانوا في الدنيا أعزاء {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ} [سورة المطففين:٢٩-٣١]، إلى أن قال: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [سورة المطففين:٣٤]، ويقول: "**وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضعاء**"، {فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [سورة طه:٧٥] يقول: "**هكذا قال الحسن**" وغيره، وقال العوفي عن ابن عباس {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} أسمعت القريب والبعيد، وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى ورفعت فأسمعت الأقصى، وكذا قال الضحاك وقتادة، وهكذا قول من قال: خافضة لبعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم، فإنها تنكدر وتنتثر، والجبال تسير وتكون هباءً منبثاً، والأرض التي هي سافلة منهبطة تكون بارزة، كما قال الله –عز وجل–: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧]، فالآية تحتمل هذه المعاني {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}، تخفض أقواماً وترفع آخرين، تخفض بعض الأجرام وتهبط بأخرى، والله –عز وجل– لم يحدد شيئاً، وهذا كله يقع في يوم القيامة.

وقوله تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا} أي: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في قوله: {إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا} أي: زلزلت زلزالا شديدا.

وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه.

وهذا كقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [سورة الزلزلة:١].

الرج هو التحريك بقوة وشدة كما صور هنا في بعض هذه الأقوال، كما "يرج ما في الغربال"، والغربال هو المنخل الذي يوضع فيه الحب من أجل تصفيته، فهو يرج؛ ليتصفى {إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا} حركت تحريكاً شديداً.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١].

وقوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} أي: فُتِّتَتْ فَتًّا، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم.

هذا هو المعنى المتبادر المشهور الذي عبر به أكثر المفسرين {وَبُسَّتِ} أي: فتتت، ومنه البسيسة تُفتت بمعنى البسيسة عبارة عن دقيق ملتوت بسمن ونحوه يفتت فهو ليس كتلة جامدة صلبة، وإنما مفتت فيه لين {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ} هذه الصلبة القاسية فتصير بهذه المثابة، كما قال الله -عز وجل-: {كَثِيبًا مَّهِيلًا} [سورة المزمل:١٤] يعني: رملاً متهايلاً، الرمل المتهايل إذا حركت طرفاً منه تداعى باقيه، هذا الرمل المتهايل الكثيب تحرك طرفاً منه يتهايل الباقي، وأخبر الله تعالى أنها تكون كالعهن المنفوش، يعني: الصوف المنفوش الذي يتطاير، والله -عز وجل- أخبر عن الجبال بأمور متعددة في مواضع من القرآن، فالجبال تقلع من أماكنها، وتتفتت حتى تصير هباءً منبثاً، وتسير بين السماء والأرض، {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [سورة النبأ:٢٠]، فلا يبقى لها أثر حتى تصير كالسراب الذي لا حقيقة له، وإنما يتراءى للناظر فحسب، {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، وقوله هنا: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ} هذا المعنى الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- هو الأشهر، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى التسيير، ويكون مفسراً بقوله: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} فالعرب تعبر بالبس عن التسيير، تقول: بَسستُ الإبل، بمعنى سقتُها وسيّرتُها، وهذا المعنى يحتمل، ويمكن أن يفسر البس بالتسيير، ويمكن أن يفسر بالتفتت، وهذا كله من الأشياء التي تحصل وتتحقق في يوم القيامة بالنسبة للجبال، فقوله: {كَثِيبًا مَّهِيلًا} يدل على هذا المعنى و{كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [سورة القارعة:٥] يدل على التفتيت، {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} هذا يدل على المعنى الآخر.

وقوله تعالى: {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}، قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي -رضي الله عنه-: {هَبَاءً مُنْبَثًّا} كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء.

وقال العَوْفِيّ عن ابن عباس في قوله: {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطرمت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا.

وقال عكرمة: المنبث: الذي ذرته الريح وبثته، وقال قتادة: {هَبَاءً مُنْبَثًّا} كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح.

هذه المعاني متقاربة {فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا} الشيء الصغير الخفيف الذي يتطاير يقال له: الهباء، المنبث يعني: المنتشر، هذا الذي يدخل من الكوّة إذا وقعت الشمس على الأرض فتجد شيئاً يتطاير في غاية الدقة، يقال له: هباء، فتتفتت هذه الجبال ذات الكتلة الصلبة حتى تصير بهذه المثابة {هَبَاءً مُنْبَثًّا} فهذا يقال له: هباء، وهكذا العرب تقول لما يتطاير فيتصف بالخفة: هباء، كالذي يتطاير من النار، وكرهج الغبار المتطاير.

وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها -أي قلعها- وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}** أي: **ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين.**

{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً} الأزواج بمعنى الأنواع أو الأصناف، فالصنف يقال له: زوج، وهذه الأصناف هي المذكورة في آخر السورة في قوله: **{فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}** [سورة الواقعة:٨٨-٩١] إلى آخر ما ذكر الله -تبارك وتعالى-، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "**ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف قوم عن يمين العرش**" يعني: أصحاب الميمنة، وقيل لهم أصحاب الميمنة؛ لأنهم عن يمين العرش، ولأنهم خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين، فهي أربعة أشياء، ومن السلف من قال: لأنهم يكونون عن يمين العرش، ومنهم من قال: لأنه يؤخذ بهم ذات اليمين، ومن قائل: لأنهم خرجوا من شق آدم الأيمن، ومنهم من قال: إنهم يؤتون كتابهم بأيمانهم، فجمعها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جميعاً؛ لأنه ليس عندنا ما يحدد واحداً منها، فكل هؤلاء أصحاب ميمنة، فمن يأخذ كتابه بيمينه من أصحاب الميمنة، ومن يؤخذ بهم ذات اليمين من أصحاب الميمنة، وعن يمين العرش من أصحاب الميمنة، وهكذا.

قال السُّدِّيّ: وهم جمهور أهل الجنة.

يعني: أكثر أهل الجنة من أصحاب اليمين، فالدليل على أنهم أكثر أهل الجنة قوله: **{وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** [سورة الواقعة:٤٠]، وقال في السابقين **{ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** [سورة الواقعة:١٣-١٤]، فهؤلاء أكثر أهل الجنة بينما في السابقين: قليل من الآخرين، فأكثر أهل الجنة من أصحاب اليمين، وليسوا من السابقين.

وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار -عياذاً بالله من صنيعهم.

ذكر المعاني الأربعة في أصحاب الشمال، ومن أهل العلم من يقول: العرب تعبر باليمين والشمال عن الرفيع والوضيع، فالمعاني التي ذكرها هنا أقرب، والله أعلم.

وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}.

يعني: هذا الاستفهام **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** يراد به التعجب، والتعظيم أيضاً والتفخيم **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ}** [سورة الحاقة:١-٢] فمثل هذا الذي يذكر مبهماً هكذا يكون أوقع في النفس وأفخم سواءً كان في مقام الوعيد أو كان في مقام الترغيب أو كان في مقام المدح والثناء، ويترك للسامع أن يتصور ما تحته من معانٍ، فيسرح الذهن في تصور ذلك، **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** بعض الناس يقول مثلاً: أنا الذي تعرفني، ما يحتاج أن يشرح، ولا يفصل كقول الشاعر: "وشِعري شِعري" يعني: شعري شعري الذي تعرفونه، يقول: "قلمي قلمي"، يقول: إذا كتبت عرفتم كتابتي، يعني فقلمي الذي تعرفون **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}**.

وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} الآية [سورة فاطر:٣٢].

مع وجود فارق فإن أصحاب المشأمة **{أَصْحَابُ الشِّمَالِ}** [سورة الواقعة:٤١] هؤلاء هم الكفار الذين يؤتون كتابهم بشمالهم، وفي هذه الآية **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ}** هي في طوائف هذه الأمة، يعني أمة الإجابة؛ لأنه قال بعدها: **{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا}** [سورة فاطر:٣٣]، فالجمع بهذه "الواو" يدل على أن الطوائف الثلاث تدخل الجنة، **{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}** ولهذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه "الواو" أن تكتب بماء العينين؛ لأنها جمعت طوائف الأمة الثلاث، كلهم يدخلون الجنة.

وقال محمد بن كعب وأبو حَرْزَةَ يعقوب بن مجاهد: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}: هم الأنبياء -عليهم السلام-، وقال السُّدِّيّ: هم أهل عليين.

هذا من قبيل التفسير بالمثال، وقد لا يريد قائله الحصر، وإنما أراد أن يمثل من هم السابقون، فقال: الأنبياء، الرسل، الصديقون، فيقرب المعنى بذلك **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}**، يقال فيه كما سبق، يعني السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بهذا **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}** لا يحتاج إلى أن يفصل ويصف، **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}** لا تسأل عن حالهم ومعينهم، السابق هو السابق، تقول: المجتهد هو المجتهد **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}**، ويحتمل: السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح هم السابقون إلى الجنة.

المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمروا، كما قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ} [سورة آل عمران:١٣٣]، وقال: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [سورة الحديد:٢٢]، فمن سابقَ في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}.

{السَّابِقُونَ} هم الذين يبادرون بفعل الخير، يفعلون الواجبات والمستحبات، ويتركون المحرمات والمشتبهات والمكروهات، ومن كان يبادر ويفعل النوافل، ولكنه يعصي الله -عز وجل- ويتبع هواه فإن هذا لا يكون من السابقين، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ١٣ إلى الآية ١٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة:١٣-٢٦].

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء السابقين أنهم {ثُلَّةٌ} أي: جماعة {مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}، وقد اختلفوا في المراد بقوله: {الأوَّلِينَ}، و{الآخِرِينَ}، فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة، هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة))[1]، ولم يحكِ غيره ولا عزاه إلى أحد.

ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: لما نزلت: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ} شق ذلك على أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة -أو شطر أهل الجنة- وتقاسمونهم النصف الثاني))[2]، ورواه الإمام أحمد.

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، -والله أعلم-، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ} أي: من صدر هذه الأمة، {وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ} أي: من هذه الأمة.

وروى ابن أبي حاتم عن السُّرِّيّ بن يحيى قال: قرأ الحسن: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ} ثلة ممن مضى من هذه الأمة.

١- رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم (٨٣٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، (٨٥٥).

٢- تفسير ابن أبي حاتم - (٢٧٢/١٢)، تفسير سورة الواقعة، وروي في البخاري بلفظ: ((أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، فكبرنا فقال: ((أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، فكبرنا فقال: ((ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود))، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم (٣١٧٠).

وروى عن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ} قال: كانوا يقولون -أو يرجون- أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))[٣] الحديث بتمامه.

وقال -عليه السلام-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة))[٤]، وفي لفظ: ((حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))[٥]، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها وعظم نبيها -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: "مع كل ألف سبعون ألفا"[٦]، وفي آخر: "مع كل واحد سبعون ألفا"[٧].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** هذا يرجع كما لا يخفى إلى السابقين، **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هنا القولين في الآية في المراد بـــ **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** والمراد بـــ"الثلة" الجماعة الكثيرة غير محصورة العدد، و"الثلة" طائفة كبيرة من الناس أعداد كثيرة من الناس، والكلام في "الثلة" هنا من الأولين كالكلام في الآية الأخرى عن أصحاب اليمين **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ}**، والكلام في "قليل" هنا من الآخِرين كالكلام في **{وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** [سورة الواقعة:٤٠] بمعنى إذا قيل: إن الثلة من الأولين في الموضع الأول

٣- رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، و-رضي الله عنهم-، برقم (٣٤٥٠)، بلفظ: ((خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...))، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٣).

٤- رواه البخاري، بلفظ: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون))، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)، وهم أهل العلم، برقم (٦٨٨١)، ومسلم، بلفظ: ((لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس))، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، برقم (١٠٣٧).

٥- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، برقم (١٩٢٠).

٦- رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٢٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢١٥٦)، وقال محققوه: صحيح، وهذا إسناد قوي من جهة سليم بن عامر الخبائري، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٣٦٦).

٧- رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٨٤).

يراد به الأمم السابقة فكذلك في الموضع الثاني في أصحاب اليمين يراد به الأمم السابقة، والكلام على الآخِرين في الموضعين يكون مراداً به هذه الأمة، وإذا قيل: إن الجميع يتعلق بهذه الأمة فإن **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِين}** يتعلق بأولها، واختلفوا في المراد بهم، فمنهم من قال: المراد بهم الصحابة يعني في السابقين **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِين}**، ومنهم من قال: أهل القرون المفضلة الذين ذكرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المشهور: ((خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم))، فهؤلاء **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** يعني: في السابقين.

والذين قالوا: إن الثلة من الأولين في الموضعين يرجع إلى الأمم السابقة احتجوا لهذا بحجج من أبرزها حجتان: الأولى في هذه الآيات؛ فالآيات لا تتحدث عن هذه الأمة، الآيات تتحدث عن اليوم الآخر وما يحصل فيه من الأهوال والأوجال، وما يقع من انقسام الناس إلى هذه الطوائف الثلاث، والله يقول: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}**، تخفض أقواماً وترفع آخرين، ثم ذكر ما يحصل من رج الأرض وبسِّ الجبال قال: **{وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** [سورة الواقعة:٧] هل المقصود به هذه الأمة فحسب؟ فالذين قالوا: جميع الأمم قالوا: اليوم الآخر لا يختص بهذه الأمة، بل إن ذلك الانقسام يكون لأهل المحشر، وكنتم أيها الناس أزواجاً ثلاثة، ثلاثة أصناف، الجبال يحصل لها كذا، والأرض يحصل لها كذا، والناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: وهذه حجة ظاهرة، فليس فيه ما يخصص هذه الأمة، واليوم الآخر ليس حصراً عليهم، وليس في الآية ما يشعر بأن المراد بذلك هذه الأمة، والحجة الأخرى الحديث المتعلق بسبب نزول الموضع الآخر في أصحاب اليمين **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** [سورة الواقعة:٣٩-٤٠]، وهذا الحديث وإن كان في إسناده ضعف إلا أنه ضعف منجبر، فأقل أحوال هذا الحديث أنه حسن لغيره فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما شق عليهم: **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}**، نزلت: **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}**، قد يقول قائل: شق عليهم باعتبار أن السابقين من هذه الأمة ثلة، وأن أصحاب اليمين والكثرة من السابقين المتقدمون من هذه الأمة، وأن القليل منهم من يصل إلى هذه المرتبة، شق عليهم باعتبار حال المتأخرين من هذه الأمة قد يقول قائل هذا: إنهم لم يفهموا أن المراد بالثلة من الأولين في السابقين أنها الأمم السابقة، لا، قد يقول قائل: الذي شق عليهم أن السابقين من هذه الأمة ثلة، وأن الأكثرية من أصحاب اليمين، لكن هذا الفهم غير صحيح، يعني: هم لم يفهموا هذا؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة -أو شطر أهل الجنة- وتقاسمونهم النصف الثاني))، فدل ذلك على أنهم استشكلوا أن يكون السابقون قلة من هذه الأمة، هذا الذي شق عليهم فطمأنهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأخبر أن هذه الأمة تبلغ إلى نصف أهل الجنة، الخلاصة: أن هذا الحديث يؤيد قول من قال بأن الثلة من الأولين الأمم المتقدمة، **{وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** في هذه الأمة، "الآخرين" هذه الأمة ويشهد له: ((نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة))، فقوله: ((نحن الآخرون))، كقوله هنا: **{وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}**، هنا دليل من قال المراد به: الأمم المتقدمة، فالدليل الأول من الآيات، والدليل الثاني في سبب النزول، وهذه أدلة قوية، قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة))، يمكن أن يقوي هذا المعنى، وإن كان ليس بصريح في المراد هنا بالآيات، هذا الذي قال به كبير المفسرين ابن جرير، وممن قال به من المتأخرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، والذين ردوا هذا القول كالحافظ ابن كثير ردوه من أجل أن هذه الأمة هي أفضل الأمم، فكيف يكون السابقون فيها قلة، ويكون السابقون من الأمم السابقة كثرة؟ وهذه

الأمة أشرف وأكرم على الله -عز وجل-، فهي خير أمة أخرجت للناس، فكيف تكون بهذه المثابة في الجزاء والمرتبة في الآخرة؟، هذا هو الإشكال فقط، والجواب عن هذا أن الأمم السابقة أمم كثيرة لا يحصيها إلا الله -عز وجل- من آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى بعثة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فيهم رسل كثير وفيهم أيضاً أتباع الرسل فهم باعتبار هذه الكثرة في هذه المدد المتطاولة الممتدة، فإن هذه الأمة بالنسبة إليهم شيء قليل، والمدة التي بقيت إلى قيام الساعة منذ مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- مدة قليلة بالنسبة لما مضى؛ ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[8]، وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا صُبابة يتصابُّها الناس، مثل الشيء القليل فالدنيا مضى أكثرها، وما بقي منها إلا القليل، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حال اليهود وحال النصارى، وحال هذه الأمة بالرجل الذي استأجر أجراء على عمل فاليهود عملوا إلى نصف النهار، والنصارى عملوا إلى العصر، وجاءت هذه الأمة وعملت ما بعد العصر فوفاهم الله أجرهم[9]، هذا فقط بالنظر إلى اليهود والنصارى فكيف بمن قبلهم من الأمم؟! فإذا نظر إلى هذه الأعداد الكثيرة في هذه الأمم فتكون هذه الأمة بالنسبة إليهم قليلة بهذا الاعتبار، رسل كثير، أنبياء، وأتباع أنبياء لكن لو قرنت بأمة واحدة فإن هذه الأمة قد تربو عليها، هذا الإشكال وهذا الجواب عنه، وكذا أن الداخلين من هذه الأمة في الجنة أكثر من غيرهم، أو يمثلون شطر أهل الجنة، يعني: لو نظرنا إلى كل أمة من الأمم فإن هذه الأمة يدخل الجنةَ منها أكثرُ من أي أمة من الأمم، وبمجموع الأمم يمثلون شطر أهل الجنة، فكيف قال: **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ}** من الأمم السابقة، **{وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}**؟ فيقال: إن الكثرة تأتي من أصحاب اليمين **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}**، وهذا لا يقتضي التساوي، إذا قيل **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** لا يعني أن العدد يستوي في الثلثين، يوضح ذلك الحديث وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصلهم إلى شطر أهل الجنة قال: ((وتقاسمونهم النصف الثاني))، فيكون بهذا الاعتبار مجموع القلة في السابقين، قليل من الأولين مع الثلة من أصحاب اليمين من الآخرين المجموع من هؤلاء وهؤلاء يمثلون شطر أهل الجنة، فتكون الأدلة بهذا مجتمعة وليس بينها منافاة، والإيراد الذي أورده ابن كثير -رحمه الله- يجاب عنه بمثل هذا الجواب، بعد ذلك قال ابن كثير: "**قال: كانوا يقولون -أو يرجون- أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها**" ليس هذا رجوعاً من ابن كثير عن قوله الذي قرره، ولم يذكر هذا احتمالاً في معنى يناقضه، فهو لا زال يقرر المعنى الذي قال به لكنه هنا يضيف عليه فيقول: يحتمل أن يكون المراد: **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** هذا باعتبار كل أمة، الآيات تحتمل هذا، إذا حشرت الأمم، يعني الآن هو يريد أن يقول: نعم هذه الآيات تتحدث عن اليوم الآخر، واليوم الآخر لا يختص بهذه الأمة، فيمكن أن يكون المراد بـــ**{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** بحسب كل أمة يعني يكون هذا متوجهاً لكل أمة، كل أمة فيها **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}**، وهذه الأمة فيها ثلة من الأولين وقليل من

٨- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة {والنازعات}، برقم (٤٦٥٢)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥١).

٩- رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب، برقم (٥٣٣).

الآخرين في السابقين لكنه لا زال متمسكاً بأن السابقين في هذه الأمة "ثلة"، لكن على قول ابن جرير قلة، الثلة في الأمم السابقة ما هو باعتبار كلٍّ بانفراد، باعتبار مجموع الأمم "ثلة"، وبالنسبة لهذه الأمة قليل من الآخرين، هم قلة وهم الصحابة، أو القرون الثلاثة المفضلة، **{وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** في الصحابة، **{وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}** في المتأخرين في هذه الأمة، على قول ابن جرير **{وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}** هم الصحابة أو القرون الثلاثة المفضلة، قليل من الآخرين السابقين، والثلة من أصحاب اليمين **{ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ}**.

والأقرب -الذي يدل عليه ظاهر الآيات والحديث- أن المقصود الأمم السابقة، وأن هذا لا يختص بهذه الأمة.

وقوله: {عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ} قال ابن عباس: أي: مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعِكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وزيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، وغيره.

وقال ابن جرير: ومنه سمي وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ.

{عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ} الوضن يقال: لكل نسج قد أحكم وأدخل بعضه في بعض، فهذا تسميه العرب "وضناً"، ويقال: هذا موضون يقول: يعني منسوجة قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب يعني: منسوجة قد أدخل بعضها في بعض، كما توضن حلق الدرع، ويقال في البناء: موضون وضن البناء بمعنى وضع بعضه على بعض، يضع اللبن بعضها على بعض، وفيه معنى الترتيب؛ ولهذا فسرها بعض السلف بأن "موضونة" يعني مصفوفة، فرش موضونة يعني مصفوفة، ومن قال: منسوجة راعى فيها هذا المعنى، أن وضع الشيء على الشيء يقال له: الوضن، فهي مجدولة أو منسوجة بالذهب مثلاً، يقول: قال ابن جرير: ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها، المقصود بـــ "وضين الناقة الذي تحت بطنها" هو عبارة عن حزام عريض موضون بمعنى أنه قد أدخل بعضه في بعض، ويصنع من الجلود، أو من الشعر أو نحو ذلك مما يشد به الرحل أو يشد به الهودج الذي يوضع فوقها أو نحو ذلك، فهذه السيور التي تكون تحت بطن الناقة يقال لها: وضين قد نسج بعضه على بعض، الوضين: حزام عريض تحت بطن الناقة أو الجمل أو نحو ذلك يربط به ما على ظهرها من رحل أو هودج أو نحو ذلك.

وقال: {مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد.

وهذا أحسن ما يكون في المجالس، متقابلين كما قال الله -عز وجل-: **{إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}** [سورة الحجر:٤٧] و"السرر" تقال لــ: سرير الملك، وهو المكان الذي يجلس عليه، مرتفع، وكما جاء في الحديث في الذين يغزون يركبون البحر قال: ((كالملوك على السرر))[١٠].

{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون.

قوله: **{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ}** الولدان تعني أنهم صغار السن **{مُخَلَّدُونَ}**، قيل: إنهم الذين يموتون من أطفال المسلمين قبل التكليف، وقيل: إنهم أطفال المشركين، ويحتمل أن يكون الله -عز وجل- قد أنشأهم وخلقهم

١٠- رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من يصرع في سبيل الله فمات فهو منهم، برقم (٢٦٤٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، برقم (١٩١٢).

في الجنة؛ لخدمة أهل الجنة، ومعنى {مُخَلَّدُونَ} هذه اللفظة في لغة العرب تأتي لمعانٍ متعددة: تأتي بمعنى لا يهرمون، والعرب تطلق وتقول: المخلد على الذي لا يظهر فيه الشيب، ولا يتغير مع مرور السنين، ويقال: المخلد للذي لا يموت، {خَالِدِينَ فِيهَا} [سورة الأحقاف:١٤] بمعنى أنهم يمكثون فيها بلا انتهاء، وأيضاً تأتي هذه الكلمة {مُخَلَّدُونَ} على المتقاربين في السن، يعني في سن متقاربة، ومن أهل العلم من قال: أي مقرطون: يعني يلبسون الأقراط وذلك في الآذان، ويقال: "خلّد جاريته" يعني حلاها بالأقراط خلدها، "جارية مخلدة" أي أنها تلبس القرط أو الأقراط، وهكذا قول من قال: إنهم منعمون، وقول من قال: إنهم مستورون يعني بالحرير والذهب الذي يلبسونه، مستورون بالحلية كل هذه المعاني ذكرت، والحافظ ابن كثير جمع بعضها فقال: لا يكبرون، على صفة واحدة لا يشيبون ولا يتغيرون، فالله -عز وجل- قال: {مُخَلَّدُونَ} وأطلق، وهذه اللفظة تأتي في كلام العرب على هذه المعاني، فهم لا يموتون، لا يهرمون، لا يتغيرون كما هو الحال بالنسبة لأهل الدنيا.

{بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}، أما الأكواب فهي: الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق: التي جمعت الوصفين.

إي، ولا عُرى، مالها شيء يعني الأكواب، والكوب هو الذي ليس له آذان، هو متسع من أعلى مستدير، ليس فيه خرطوم من الجهة التي يصب منها الشراب، وليس له مقبض لا من جهة واحدة ولا من جهتين، وليس له عرى، يقول: "**لا خراطيم لها ولا آذان**" ولا عرى، أحياناً قد يكون المقبض في أعلاها أو في الجنب فهذه ليس لها مقابض، وليس لها خراطيم، فالعرب تقول لما كان كذلك مما يشرب به: كوب، وقوله: "**والأباريق: التي جمعت الوصفين**" يعني: لها خراطيم ولها عرى، وهذا لا زال مستعملاً إلى اليوم نقول: إبريق الماء.

والكئوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية مَعِين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: {لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ} أي: لا تصدع رءوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة.

وروى الضحاك، عن ابن عباس، أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال.

وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطية، وقتادة، والسُّدِّيّ: {لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا} يقول: ليس لهم فيها صداع رأس.

وقالوا في قوله: {وَلا يُنزِفُونَ} أي: لا تذهب بعقولهم.

يقول: {لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ} أي: لا تصدع رءوسهم، يصدعون يحتمل أن يكون بمعنى الصداع، لا يصيبهم الصداع كما هي العادة في خمر الدنيا أن من شربها أصابه الصداع وهو وجع الرأس، وهذا هو المعنى المتبادر، ويحتمل أن يكون المعنى {لا يُصَدَّعُونَ} أي لا يتفرقون بعدها كما يتفرق الشُّراب عادة في الدنيا، يشربون يجتمعون على خمرة على كأس ثم بعد ذلك يتفرقون بعدها فينقضي أنسهم ولذتهم، فهؤلاء لا يتفرقون، وقد يؤيد ذلك قراءة لمجاهد غير متواترة "بفتح الياء" لا يَصَّدَّعون بمعنى لا يتفرقون، كما قال الله -عز وجل- في اليوم الآخر: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [سورة الروم:٤٣]، فالحاصل أنه يحتمل هذا المعنى، لكن

المعنى الغالب وعليه القراءة المتواترة هو ما سبق، يعني لا يصيبهم الصداع، قال: **{وَلَا يُنزِفُونَ}** يعني لا تذهب عقولهم، قال بل هي ثابتة مع الشدة المطربة؛ لأن اللذة إذا بلغت غايتها فإن العقل يستنزف معها ويذهب، فلذلك يذهب عقل صاحب السكر، فهذه تُبقى لهم عقولهم مع غاية اللذة، وهذا يدل على أن الله -عز وجل- ينشئ الناس في الآخرة نشأة أخرى، فيجتمع لهم هذا وهذا وإلا فالعقل لا يحتمل كمال اللذة، فإنه يرتفع معها ولا يشعر بشيء، فيقول هنا: قال مجاهد وعكرمة **{لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا}** يقول: "**ليس لهم فيها صداع رأس**" قال: **{وَلَا يُنزِفُونَ}** "**أي: لا تذهب عقولهم**" لا يصدعون عنها، ويحتمل أن يكون المعنى لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وينزِفون بكسر "الزاي" يعني لا يذهب شرابهم وينتهي كما ينتهي شراب أهل الدنيا، فتحتمل هذا المعنى لا ينقضي شرابهم، وبهذا فسرها ابن جرير **{وَلَا يُنزِفُونَ}** ما ينتهي ما عندهم من الشراب، والقراءة الأخرى المتواترة **{وَلَا يُنزِفُونَ}** بمعنى تذهب عقولهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ٢٠ إلى الآية ٣٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [سورة الواقعة:٢٠-٢١] **أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار.**

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، روى الإمام أحمد عن ثابت، قال: قال أنس: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أُثني عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأني أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وَجبَة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسَمَّتْ اثني عشر رجلا -كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بعث سرية قبل ذلك-، فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ -أو البيذخ- قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر، فأكلوا من بُسره ما شاءوا، فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان، حتى عد اثني عشر رجلا، فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المرأة فقال: "قصي رؤياك" فقصتها، وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال[1].

هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

وقوله تعالى: {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}، روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن طير الجنة كأمثال البخت، يرعى في شجر الجنة))، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة فقال: ((أكَلَتُها أنعمُ منها -قالها ثلاثا- وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها))[2]، تفرد به أحمد من هذا الوجه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -رحمه الله- تعليقاً على قوله تعالى: **{وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ}** يقول: "**هذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها**" يعني: أن الطعام إن كان لوناً واحداً فإن الإنسان يأكل مما يليه كما قال النبي

١- رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٦٩٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان -وهو ابن المغيرة- فمن رجال مسلم، وروى له البخاري تعليقا ومقرونا.

٢- رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٣١١)، وقال محققوه: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥١٤).

-صلى الله عليه وسلم-: ((سمِّ الله يا غلام وكل مما يليك))[3]، وإذا كان الطعام متنوعاً سواء كان فاكهة أو غير فاكهة فإن الإنسان يأكل مما يليه ومن غيره مما يتخيره، يقول: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ}، إذا كانت الفاكهة نوعاً واحداً فإن الإنسان يأكل مما يليه، ولا حاجة إلى أن يمد يده ليأكل من أمام الآخرين؛ لأن هذا لا معنى له إلا عدم التهذيب في آداب الطعام والشراب، وهذا أمر لا إشكال فيه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت عنه في السنة ما يدل على هذا المعنى: أن الطعام إن كان واحداً فإن الإنسان يأكل مما يليه، إنما هو طعام واحد[4]، وإذا كان متعدداً فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يوجه ويرشد إلى أن الإنسان يأكل من حيث شاء، فالفاكهة ليس بإطلاقها أن الإنسان يأكل متخيراً هذا إذا كانت متنوعة، فالرطب فاكهة فهل يأكل الإنسان مما يلي الآخر مثلاً؟، إنما يأكل مما يليه، والمقصود هنا {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ} أنها أنواع، فأي نوع اختاره فهو موجود مبذول بين يديه، ثم ذكر هذا الحديث المتعلق بهذه الرؤيا وهو حديث ثابت صحيح، ثم بعد ذلك تكلم على قوله تعالى: {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} هذا وجرت عادة كثير من المفسرين، وممن يتكلم على بعض القضايا المتعلقة بمصالح الإنسان من مأكله ومشربه ونحو ذلك، يقولون: إن الإنسان يبدأ بالفاكهة ثم بعد ذلك يأكل اللحم بعدها؛ لأن الله قال: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}، وهذا فيه نظر؛ لأن "الواو" لا تقتضي الترتيب، فالله -عز وجل- يعدد نعيم أهل الجنة فما عسى أن يقال؟، وكيف سيذكر هذا النعيم المتعدد المتنوع؟ لابد أن يذكر بهذه الطريقة، يقال: فيها كذا، وفيها كذا، وفيها كذا، لمّا يقول: {وَحُورٌ عِينٌ} [سورة الواقعة:22] أيضاً الحور العين تؤكل؟! فهذا تعداد لنعيم الجنة، و"الواو" لا تقتضي الترتيب، ولذلك فإن هذه الآية لا تعني أن الفاكهة تؤكل قبل اللحم أو تؤكل بعده، بل إن الأطباء يقولون: إن الجمع بين الفاكهة وبين اللحم يضر الإنسان، ويسبب له تلبكاً، وأما الفاكهة فسهلة الهضم، والمقصود أن هذه الآية يعدد فيها نعيم أهل الجنة، ولا حاجة للتكلف في مثل تلك الفهوم فيقال: الفاكهة تؤكل أولاً ثم اللحم بعدها، والله أعلم.

في قوله: "**كأمثال البخت**" يعني: الإبل البختية، وهي ضخمة كما هو معروف، قال: "**إن هذه لطير ناعمة**"، ومعنى ناعمة يعني منعمة بمعنى أنها صارت بهذه المثابة.

وقوله تعالى: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:23] أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، كما تقدم في "سورة الصافات" {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [سورة الصافات:49]، وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضا؛ ولهذا قال: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الواقعة:24] أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

3- رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، برقم (5061)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، برقم (2022).

4- رواه الترمذي، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في ترك الوضوء قبل الطعام، برقم (1848)، وابن ماجه عن عكراش بن ذؤيب قال أتي النبي -صلى الله عليه وسلم- بجفنة كثيرة الثريد والودك، فأقبلنا نأكل منها، فخبطت يدي في نواحيها، فقال: ((ياعكراش كُلْ من موضع واحد فإنه طعام واحد))...، كتاب الأطعمة، باب الأكل مما يليك، برقم (3274)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (5098).

بقيت بقية: فالله -عز وجل- في هذه الآيات يقول: {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} والحور المراد بها العيْن التي بها حَوَر، أي شدة البياض مع شدة السواد، ومن أهل العلم من يقول: إنه ميل قليل في العين يورثها ملاحة، يعني: إذا زاد الميل فهو الحَول فإن هذا ليس بمليح، لكن أحياناً يكون ميلاً يسيراً جداً يورث العين ملاحة، فمن أهل العلم من فسر الحَوَر بهذا، والمشهور -والله تعالى أعلم- هو شدة البياض مع شدة السواد، والعِين يعني واسعة الأعين، جمع عيناء، وهذه غاية الجمال في العين.

{كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} المكنون يعني: المحفوظ المصون في أصدافه، الذي لم تمسه الأيدي، ولم يقع عليه غبار؛ وذلك لشدة صفائهن حتى إن مخ ساقها ليُرى من وراء الجلد أو اللحم.

ثم قال: {لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيا، أي: غثا، خاليا عن المعنى، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: {لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً} [سورة الغاشية:١١]، أي: كلمة لاغية {وَلا تَأْثِيمًا} أي: ولا كلامًا فيه قبح، {إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} [سورة إبراهيم:٢٣] وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم.

{لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا} اللغو هو الكلام الذي لا قيمة له، ولا منه ولا فيه فائدة، {وَلا تَأْثِيمًا} يشمل جميع المعاني التي ذكروها والتي تحتملها الآية، التأثيم يعني لا يسمعون فيها ما يؤثمهم من الكلام الباطل، ولا يسمعون من يؤثمهم، يعني: لا يستمعون ما يستوجب الإثم، الجنة لا إثم فيها، وليس فيها إلا الطيب من الأقوال والأعمال، فلا يسمعون من يوجه التأثيم إليهم، يقول: {إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} لا يسمعون كلاماً سيئاً قبيحاً، فليس فيها سباب ولا شتم ولا غيبة، ولا كذب، ولا شيء مما يتكلم به الناس مما لا يليق من الفحش والباطل، {إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} والاستثناء هنا منقطع، فإن السلام ليس من اللغو ولا من التأثيم، يعني: لكن {سَلامًا سَلامًا} يعني: يسمعون التسليم، {إِلا قِيلا}، والقيل هو القول، {سَلامًا سَلامًا} يسلم عليهم ربهم، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤]، {سَلامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يس:٥٨]، وتسلم عليهم الملائكة: {وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد:٢٣-٢٤]، ويسلم بعضهم على بعض، قال: "**وكلامهم أيضا سالم من اللغو** {إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا}" باعتبار أن هذه اللفظة تدل على معنى السلامة {إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} إلا قولاً سالماً من كل عيب.

{وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} [سورة الواقعة:٢٧-٤٠].

لما ذكر تعالى مآل السابقين -وهم المقربون- عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين -وهم الأبرار- كما قال ميمون بن مِهْرَان: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين، فقال: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} أي: أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟ ثم فسر ذلك فقال: {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}، قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو الأحوص، وقسَامة بن زُهَير، والسَّفْر بن نُسَير، والحسن، وقتادة،

وعبد الله بن كثير، والسُّدِّيّ، وأبو حَرْزَة، وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه، وعن ابن عباس: هو المُوقَر بالثمر، وهو رواية عن عِكرمة، ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضا: كنا نُحَدَّث أنه المُوقَر الذي لا شوك فيه.

والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجّاد.

قوله: **{فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}** القرآن حينما يتحدث عن نعيم الجنة أو حينما يخاطب من يخاطبهم فإنما يخاطبهم بمعهودهم ولا يخاطبهم بما لا عهد لهم به، فحينما يذكر آيات الله -عز وجل- يذكر لهم الجمل، والجبل، والسماء، والأرض، والمطر وما إلى ذلك مما يشاهدون، وهناك أشياء كثيرة في أعماق البحار وتحت الأرض وفوق الأرض تدل على عظمة خلق الله -عز وجل- ودقته وبديع صنعه لم يخاطبهم بها، والسبب في ذلك -والله أعلم- أنه لا عهد لهم بذلك، لكن حينما يُخاطَبون بما يعهدون فإن ذلك يؤثر في نفوسهم، ويعقلونه، حينما ذكر لهم الجمل لم يذكر ما هو أضخم من الجمل الذي هو الفيل مثلاً؛ لأنه ليس بأرضهم ولا يعهدونه، وهكذا حينما ذكر نعيم أهل الجنة ذكر النخل والرمان وأشباه ذلك من الثمار، وذكر لهم السدر والطلح؛ لأن هذا هو الموجود في بلاد العرب، ليست بلادهم بلاد ثمر، إنما يوجد فيها العنب والرمان والنخل فذكر لهم هذه الأشياء، ما ذكر لهم الثمرات الأخرى التي توجد في الدنيا لهذه العلة -والله تعالى أعلم-، فالسدر يعرفونه، لكن سدر الجنة يختلف عن سدر الدنيا، فسدر الدنيا لا شأن له حقير، والله -عز وجل- عاقب "سبأً" بأن أبدلهم بجنتيهم **{جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}** [سورة سبأ:١٦]، فهو كثير الشوك قليل الثمر لا يشبع صغيراً، والعناء الذي يحصل من تطلبه أكثر من النفع الذي يحصل فيه، وبذلك لا تكاد تجد الناس ينتفعون به انتفاعاً ظاهراً كما ينتفعون بغيره في الدنيا، فالحاصل أنه يذكر لهم هذه الأشياء التي يعهدونها لكن في الجنة الأمر يختلف تماماً، فالطير كالناقة البختية، والشجرة هذه -الطلح- التي يرونها كثيرة الشوك ومؤذية لكن فيها ظل وهم في بلاد حارة أحوج ما يكونون إلى الظل، فهذا يحرك نفوسهم، يسير الراكب تحتها مائة عام لا يقطعها، يعني أكبر شجرة من الطلح لربما يمشي الإنسان من ساقها إلى آخر حد فيها مما يقابل آخر فرع لربما لا يمشي أكثر من سبع خطوات، وهذه مائة عام لا يقطعها، فهذه أمور لا يمكن للإنسان أن يتصورها؛ لأنها من العظمة بمنزلة لا تخطر على بال، هذه في الأشياء التي يعهدونها ويعرفونها كيف لو حدثهم عن أشياء لم يسمعوا بها أصلاً من نعيم أهل الجنة؟!، يقول: **{فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}** نقل عن جماعة من السلف قال: "**هو الذي لا شوك فيه**"، والقول الآخر: "**الموقر بالثمر**" ثم جمع بينهما: الموقر الذي لا شوك فيه، وهذا الوجه في الجمع بين القولين وجه حسن ويدل عليه قول قتادة: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه، الموقر يعني المملوء بالثمر، فهنا كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه جمَعَ بين المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والله تعالى أعلم.

عُتْبة بن عبد السلمي قال: كنت جالسًا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها؟ يعني: الطلح، فقال رسول الله

-صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَةَ التيس الملبود، فيها سبعون لونًا من الطعام، لا يشبه لونٌ آخرَ))[٥].

هذا الحديث ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود بـــ "الملبود" من أهل العلم من يفسره بأنه قد تلبد شعره بعضه على بعض، وهناك تفسير أقرب من هذا -والله تعالى أعلم- أنه المكتنز باللحم، وكأنه لزم بعضه بعضاً فتلبد ((فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لونٌ آخرَ))، هذا الحديث يفسر معنى "الطلح" كما سيأتي فإن من أهل العلم من قال: إن الطلح هو الموز، ومنهم من قال: الشجر المعروف من شجر العضاه، شجر له شوك معروف في بلاد العرب يستظلون به ولا ينتفعون بثمره، إنما هو للظل {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ}، بمعنى أن هذا الحديث يدل على أنه قُطع شوكه، وكثر ثمره، نَضَدَ، وهذا أولى ما يفسر به.

وقوله: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضَاه، واحدته طلحة.

شجرة العضاه يعني كل شجر له شوك فهو من العضاه.

وهو شجر كثير الشوك، وقال مجاهد: {مَنْضُودٍ} أي: متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشًا؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجّ، وظلاله من طلح وسدر.

العرب بحاجة ماسة إلى الظل، وأعظم شجر عندهم يستظلون به هو شجر الطلح، ولكن ينغص عليهم ذلك كثرة الشوك الذي فيه إلى درجة أنه يتساقط، فإذا أردت أن تستظل تحت شجرة منه تحتاج إلى عمل وجهد من أجل تنقية المكان من الشوك الشديد الصلب القوي الذي يتأذى به من يجلس تحت هذه الشجرة، وفي الجنة طلح ليس فيه شوك، وهذا لا معهود لهم به، "**وقال مجاهد: {مَنْضُودٍ} أي: متراكم الثمر**" يعني: نُضد، مكان كل شوكة ثمرة، فإذا تخيلت هذا هو شجر كله شوك لا تستطيع أن تحصي وتعد الشوك الذي فيه فنُضد بعضه إلى بعض، هذا الثمر الذي مكان الشوك، ومن السلف من قال: إنه الموز، والموز قالوا: يسمى بأرض اليمن بالطلح، وهذا الحديث يدل على أنه شجر الشوك المعروف، وهو المتبادر المشهور عند الإطلاق في كلام العرب، ومن أهل العلم -كالحافظ ابن القيم- مَن وجّه قول من قال: إنه كالموز بأنه لم يقصد تفسيره وبيان حقيقته، وإنما قصد بذلك التقريب والتوضيح بالمثال، بالتمثيل كيف هذا الثمر المنضود فيه؟ قالوا: كالموز مثل الموز، كيف يكون ثمر الموز؟ قد نُضد بعضه على بعض، هكذا قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، ويحتاج إلى تأمل؛ لأن الذين فسروه بذلك قالوا: وإن الموز يسمى في أرض اليمن بالطلح، فهم قصدوا الموز عيناً ولم يذكروه لتقريب صورة الثمر في هذا الشجر مكان الشوك.

{وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} والأصل أن يحمل كلام الله -عز وجل- على المعنى الظاهر المتبادر الأشهر في كلام العرب إلا لدليل يجب الرجوع إليه، فيحمل على المعنى الآخر، ومن أهل العلم من فسر المنضود بالذي قطع شوكه، وهذا لا ينافي ما سبق: قطع شوكه وصار مكانه ثمر، خضب شوكه، وبعضهم فسره بمعنى آخر قال: الذي لا يعقر اليد، من أراد أن يتناوله فإنه لا يصيبه الشوك فيمتنع منه، وهذا من قبيل التفسير باللازم، فإذا خضب شوكه فإنه لا يعقر اليد، ولا يجرح اليد، ولا يصيبها، فهم لم يقصدوا تفسيره تفسيراً مطابقاً بهذا، فهذا

٥- رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٣٧٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٧٣٤).

مثال على التفسير باللازم، وهو شجر قطع شوكه، وصار موقراً بالثمر والله تعالى أعلم، يقول: أهل اليمن يسمون الموز الطلح، ولم يحكِ ابن جرير غير هذا القول، بل إن ابن جرير قال: هذا قول الصحابة والتابعين، وعزا القول الأول أنه شجر الشوك المعروف عزاه لأبي عبيدة معمر بن المثنى فقط، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فإنه يقول: هو شجر له شوك، وأما قول الصحابة والتابعين فإنه الموز، وابن جرير لم يفهم مرادهم أنهم قصدوا التمثيل فقط لطريقة الثمر في ذلك، فإن ابن جرير يذكر هذا ويذكر هذا، -والله تعالى أعلم- لكن الحديث يبين أنه شجر له لشوك.

وقوله: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- يبلُغُ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}))[٦]، ورواه مسلم.

{مَمْدُودٍ} العرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع **{مَمْدُودٍ}**: ممتد لا تنسخه الشمس، ولا يزول ولا يتقاصر كما هو حال الظل في الدنيا، وهذا الظل **{وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}** الجنة ليس فيها شمس لكن فيها هذا الظل الذي هو من النعيم، وبعض السلف كالربيع بن أنس يقول: ظل العرش، فالله -عز وجل- يذكر نعيم الجنة، وأنها وافرة الظلال، ولا يلزم من ذلك أن يوجد فيها أماكن فيها شمس إطلاقاً، فالجنة لا شمس فيها، ولا فيها عناء ولا فيها حر، ولا فيها شيء مما يتأذى به الناس في هذه الحياة الدنيا، والناس يحدثون عما يستهوي قلوبهم من ألوان النعيم التي يعرفون، وفيها من النعيم ما هو أعظم من ذلك مما لا يخطر على بال بشر، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرءوا إن شئتم: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}))[٧] وكذا رواه البخاري[٨]، عن محمد بن سِنَان، عن فُلَيح به، وكذا رواه عبد الرزاق.

٦- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٤٥٩٩)، ومسلم بلفظ: ((إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة))، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، برقم (٢٨٢٦).

٧- رواه أحمد في المسند، برقم (١٠٢٥٩)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

٨- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ٣٢ إلى الآية ٤٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [سورة الواقعة:٣٢-٣٣]، أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} [سورة البقرة:٢٥] أي: يشبه الشكلُ الشكلَ، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى قال: ((فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر))[١].

وفيهما أيضًا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خُسِفَت الشمس، فصلى رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- والناس معه، فذكر الصلاة، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، قال: ((إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا))[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ}** يعني: أنها لا تنفد ولا تكون في وقت دون وقت كما هي الفاكهة في الدنيا، تكون في الشتاء أو في الصيف، **{وَلَا مَمْنُوعَةٍ}** ليست بعيدة عن متناولهم، وليس بينهم وبينها ما يحول دونها من شوك أو أذى أو منع أو حجز وحجر عليها كما هو الحال في بساتين الدنيا مثلاً، وإنما هي متاحة لهم في كل حين، فقولهم: "مقطوعة وممنوعة" يشمل جميع المعاني التي ذكرها السلف، وذكروا ما ذكروا من باب التقريب والتمثيل، والله تعالى أعلم.

وقوله: **{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا}** قال المفسر -رحمه الله- هنا: **أي: يشبه الشكلُ الشكلَ**، وفيه معنى آخر وهو أنها تشبه ثمار الدنيا في الصورة، ولكنها تختلف في الطعم، يعني القول الأول أن ما جاءهم من الثمار يشبه ما جاءهم قبله في الجنة، **{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ}** يعني في الجنة فثمار الجنة تتشابه في أشكالها، وتختلف في طعومها، والمعنى الآخر **{مِنْ قَبْلُ}** أي في الدنيا، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن عتبة بن عبد السلمي -رضي الله عنه- قال: جاء أعرابي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: ((نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى))، فذكر شيئًا لا أدري ما هو، قال: أيّ شجر أرضنا تشبه؟ قال: ((ليست تشبه شيئا من شجر

١- رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، برقم (٣٦٧٤).

٢- رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، برقم (١٠٠٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (٩٠٧).

أرضك))، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتيتَ الشام؟))، قال: لا، قال: ((تشبه شجرة بالشام تدعى الجَوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها))، قال: ما عِظَم أصلها؟ قال: ((لو ارتحلت جَذعَة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمًا))، قال: فيها عنب؟ قال: ((نعم))، قال: فما عِظَم العنقود؟ قال: ((مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر))، قال: فما عِظَم الحبَّة؟ قال: ((هل ذبح أبوك تيسًا من غنمه قط عظيمًا؟))، قال: نعم، قال: ((فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذي لنا منه دلوًا؟))، قال: نعم، قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي؟ قال: ((نعم وعامَّة عشيرتك))[3].

هذا الحديث فيه ضعف، ولكن ضعفه غير شديد، وهو محتمل للتحسين.

وقوله تعالى: {لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ} أي: لا تنقطع شتاء ولا صيفًا، بل أكلها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء.

قال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ، وقد تقدم في الحديث: ((إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى))[4].

وقوله: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} أي: عالية وطيئة ناعمة.

{وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} عالية وطيئة ناعمة، ويحتمل أن يكون المراد بكونها مرفوعة أنه رُفع بعضها فوق بعض، وهذا يدل على أنها ناعمة وطيئة، ويحتمل أنها مرفوعة على الأسرّة **{وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}** هذا كله إذا فسرت الفرش على ظاهرها، أن الفرش هي الفرش، **{مَرْفُوعَةٍ}** قد رفع بعضها على بعض، أو رفعت على الأسرّة وقد يكون ذلك الارتفاع بمعنى آخر، يكون معنوياً **{وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}** أي مرفوعة القدر والمنزلة، ويحتمل تفسير الفرش بمعنى آخر وهو النساء، فالعرب تكني عن النساء بمثل هذا، كناية عن المرأة بالفراش، ويكنون عنها بالإزار في البيعة التي بايع فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنصار، وكان من ذلك أن يمنعوه مما يمنعون منه أُزُرهم.

فـ **{وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}** إذا فسر بالنساء يحتمل أن يكون الارتفاع حسياً أي على الأرائك، ويحتمل أن يكون معنوياً مرفوعة أي في القدر والمنزلة، **{وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}** والقرينة التي تدل على أن المراد بالفرش النساء، أنه قال بعده: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً}** يعني النساء، **{فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا}** [سورة الواقعة:36] فقالوا هذا يرجع إلى الفرش، فالمقصود به النساء، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وتحتمله الآية احتمالاً قريباً، وقد يكون بين المعنيين ملازمة فهؤلاء النساء فرش مرفوعة فيها النساء، ثم قال: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ}** يعني يكون إشارة بالفرش إلى النساء، وإن كانت الفرش معناها معروف المعنى المتبادر جمع فراش، وأنه على ظاهره فتكون مشيرة إلى النساء؛ لأنه قال بعده: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً}**، والله تعالى أعلم.

3- رواه أحمد في المسند، برقم (17642)، وقال محققوه: إسناده قابل للتحسين، وابن حبان في صحيحه، برقم (7416)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره، وكذا قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (3729).

4- رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ثوبان -رضي الله عنه- بلفظ: ((إن الرجل إذا نزع من الجنة عادت مكانها أخرى))، برقم (1449)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (1446).

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ} [سورة الواقعة:٣٥-٣٨]، جرى الضمير على غير مذكور، لكن لمّا دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يُضاجَعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن.

يعني هنا جرى الضمير على غير مذكور باعتبار تفسير الفرش بالفرش المعروفة، وليست النساء، فيكون جرى الضمير على غير مذكور؛ لأنه مفهوم من السياق، فالسياق قرينة تدل عليه، مفهوم من السياق، وإذا كان المعنى مفهوماً من السياق فإن العرب تكتفي بذلك، فتعيد الضمير إلى غير المذكور، وإذا قلنا: إن الفرش بمعنى النساء فيكون الضمير عائداً إلى مذكور، وفرش أي النساء، مرفوعة أي مرفوعات القدر والمنزلة والحسن والكمال، {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ} أي: المذكورات المكنى عنهن بالفرش.

كما في قوله: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [سورة ص:٣١-٣٢] يعني: الشمس، على المشهور من قول المفسرين.

باعتبار أن الضمير يكون عائداً إلى غير مذكور {حَتَّى تَوَارَتْ} يعني: الشمس، ولكن على التفسير الآخر أن التي توارت هي الخيل -انطلقت حتى غابت عن نظره؛ لبعدها، {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}- فيكون الضمير عائداً إلى مذكور، وفي القرآن أمثلة متعددة في عود الضمير إلى غير مذكور؛ لأنه مفهوم من السياق.

وقال الأخفش في قوله: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك. وقال أبو عبيدة: ذُكرن في قوله: {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:٢٢-٢٣].

يعني أن الضمير عائد إلى الحور العين وليس الفرش، و لعل ما قيل قبله أقرب، والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ} أي: أعدناهن في النشأة الآخرة، بعدما كُنَّ عجائز رُمْصًا صرن أبكارًا عربًا.

قوله: **كُنَّ عجائز رُمْصًا**، الرَّمَص هو في موق العين يجتمع، أذى، وسخ، ويكون جامداً، فإذا سال فهو -بالغين- الغَمَص.

أي: بعد الثّيوبة عُدْن أبكارًا عُرُبًا، أي: متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة.

قوله: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} يحتمل معنيين: يحتمل {أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} يعني أعدنا إنشاءهن يعني في نساء الدنيا، بحيث تعاد شابة فتية في غاية الحسن والجمال بعد أن كان ذهب حسنها وجمالها لتقادم الزمان، وتكون في غاية الحسن والجمال والملاحة، وتعود بكراً متحببة إلى زوجها بعد أن سئمت وملت لربما من الحياة فتعود بهذه الصفة، ويحتمل أن يكون المعنى {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} أي خلقنا خلقاً جديداً من غير توالد، خلقاً جديداً في الجنة غير نساء الدنيا، والقائل بهذا استدل عليه بأنه أكد بالمصدر {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} يعني إنشاءً جديداً فليس المراد بذلك نساء بني آدم، ويمكن أن يحتج للقول الذي قبله أيضاً {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} أي نساء الدنيا بالحديث الذي جاء بروايات متعددة.

عن عائشة -رضي الله عنها- أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- أتته عجوز من الأنصار، فقالت: يا رسول

الله، ادع الله أن يدخلني الجنة فقال نبي الله: ((إن الجنة لا يدخلها عجوز))، فذهب نبي الله –صلى الله عليه وسلم– فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيتْ من كلمتك مشقة وشدة، فقال نبي الله –صلى الله عليه وسلم–: إنّ ذلك كذلك، إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا))[٥].

فهذا قاله في نساء الدنيا، فيحتمل أن تكون الآية راجعة إلى الحور، والذي يجعلها في نساءٍ خُلقن خلقاً جديداً في الجنة يعني لسن من نساء الدنيا التأكيد بالمصدر {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً}، وذكر الإنشاء فهو ابتداء مبتدأ هذا الخلق، وكذلك الله –عز وجل– لما ذكر ما للسابقين المقربين ذكر الحور العين، والحور لسن من نساء الدنيا، ففي نعيم أهل اليمين –أصحاب اليمين– ذكر النساء، وقال: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} فقد يفهم من هذا أن هؤلاء لسن من نساء الدنيا كما ذكر الحور العين للسابقين، فالكلام في نساء أُنشئن وخلقن في الجنة، ويمكن أن تحمل الآية –والله تعالى أعلم– على هذا وهذا، فإن الحور العين قد أُنشئن إنشاءً جديداً بلا شك، والنساء اللاتي في الدنيا يعاد إنشاؤهن من جديد فتعود شابة بكراً بالصفة التي ذكرها الله –عز وجل–: {فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا}، ويستدل له بالحديث أن النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر الآية فتكون الآية دالة على ذلك جميعاً، على ما يوجد فيها من النساء اللاتي خُلقن خلقاً جديداً، وعلى اللاتي أعيدت صياغة خلقهن من جديد، والله تعالى أعلم.

روى أبو داود الطيالسي عن أنس –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء))، قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: ((يعطى قوة مائة))[٦]، رواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: ((إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء))[٧].

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

وقوله: {عُرُبًا} قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يعني متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة؟، هي كذلك.

٥– رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٢٢٤٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، برقم (١٨٧٦٤)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه مسعدة بن اليسع وهو ضعيف.

ورواه الترمذي في الشمائل المحمدية مرسلاً عن الحسن برقم (٢٤١)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية، برقم (٢٠٥)، وقال في السلسلة الصحيحة: "حسنه الترمذي، و هو صحيح بمجموع طرقه و شواهده"، برقم (٢٩٨٧).

٦– رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في صفة جماع أهل الجنة، برقم (٢٥٣٦)، وأبو داود الطيالسي في مسنده، برقم (٢٠١٢)، وقال الألباني: صحيح لشواهده، في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٥٦٣٦).

٧– رواه الطبراني في المعجم الصغير، برقم (٧٩٥)، وقال: لم يروه عن هشام إلا زائدة، تفرد به الجعفي، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٦٧).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: العُرُب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون، وكذا قال عبد الله بن سَرْجِس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، ويحيى بن أبي كثير، وعطية، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

يقول: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا} {عُرُبًا}** قال أي متحببات إلى أزواجهن وكذلك قول من قال: "**العواشق لأزواجهن**" ونحو ذلك من العبارات التي قالها السلف فكل ذلك داخل في معناه فـ (العُرُب) جمع عَروب بفتح العين يقول لبيد بن ربيعة:

وفي الخباءِ عَروبٌ غيرُ فاحشةٍ *** ريّا الروادفِ يَعْشي دونها البصرُ

هذا يصف امرأة من الدنيا! ليس في الجنة، فالعروب هي المتحببة إلى زوجها، والعبارات التي قيلت في تفسير ذلك كلها داخلة في هذا المعنى، عبارات المفسرين مما ذكره البخاري –رحمه الله–، وما نقله في الصحيح كلها داخلة فيه عواشق لأزواجهن متحببات لأزواجهن، غنيجات والغنج هو الكلام الذي في غاية الرخاوة، يستهوي قلب السامع مما تقوله لزوجها، وهكذا ما يقال: امرأة شكلة، كما يعبر فيه، وهكذا عبارة من عبر يقول: غلِمة يعني اشتدت شهوتها، وهذا المعنى الذي نقله هنا ابن عباس قال: يعني متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة؟ هي كذلك، ومعنى الناقة الضبعة: هي التي اشتدت شهوتها للفحل فأرادته، ومعروف حال هذه البهائم حينما يأتي وقت اللقاح بينها في مواسم لا يخفى حالها، فهذه العبارات كلها يعني كما قال البخاري –رحمه الله–: "أهل مكة يسمونها العربة، وأهل المدينة الغنيجة أو الغنِجة وأهل العراق الشكلة"، فكل هذه المعاني داخلة في معنى العَروب، والعروب هي المرأة المتحببة إلى زوجها التي تقول سواءً كان ذلك في سائر أحوالها معه أو كان في حال المعاشرة، وهذا هو كمال اللذة؛ لأن نصف اللذة يكون بالسماع ما يسمعه الإنسان، ويوجد من كلام العرب ومن كلام بعض الصحابة في هذا ما لا قد يناسب ذكره بهذا المجلس مما يدل على هذا المعنى أن الكلام نصف اللذة.

وقوله: {أَتْرَابًا} قال الضحاك، عن ابن عباس يعني: في سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة.

وقال مجاهد: الأتراب: المستويات. وفي رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران.

كل هذا بمعنى واحد، أمثال متماثلات مستويات في السن على سن واحدة هذا من اختلاف العبارة، والمعنى واحد **{عُرُبًا أَتْرَابًا}**، لكن من أهل العلم من قال: إن ذلك يرجع إليهن فهن في سن واحدة، ومنهم من قال: **{أَتْرَابًا}** لهم، وهم متقاربون في السن **{عُرُبًا أَتْرَابًا}** والأقرب –والله تعالى أعلم– أن المقصود: هؤلاء النساء في سن متماثل، ومن أهل العلم من فسر **{أَتْرَابًا}** بالتقارب أيضاً؛ لأنها تدل على معنى التقارب، تقول: فلان ترب فلان يعني أنه ولد معه في يوم واحد، "فلان من أترابي"، ومن أهل العلم من فسره بالتقارب في الحسن والجمال والأخلاق والغنج والتحبب للزوج وما أشبه ذلك.

وقوله: {لأَصْحَابِ الْيَمِينِ} أي: خُلقنن لأصحاب اليمين، أو ادخرن لأصحاب اليمين، أو زوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله: { إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا *

لأصحَابِ الْيَمِينِ} فتقديره: أنشأناهن لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير.

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: {لأصْحَابِ الْيَمِينِ} متعلقاً بما قبله، وهو قوله: {أَتْرَابًا لأصْحَابِ الْيَمِينِ} أي: في أسنانهم، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوءِ أشد كوكب دُرّيّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوّة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء))[8].

وقوله: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} أي: جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض- قال: أكْرَينا ذات ليلة عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم غدونا عليه، فقال: ((عُرِضت عليَّ الأنبياء وأتباعها بأممها، فيمر علي النبي، والنبي في العصابة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد -وتلا قتادة هذه الآية: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [سورة هود:٧٨]- قال: حتى مرَّ عليَّ موسى بن عمران في كبكبة من بني إسرائيل، قال: قلتُ: ربي من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل". قال: قلت: رب فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظراب، قال: فإذا وجوه الرجال، قال: قال: أرضيت؟، قال: قلت: قد رضيت، رب، قال: انظر إلى الأفق عن يسارك فإذا وجوه الرجال، قال: أرضيت؟ قلت: رضيت، رب، قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفا، يدخلون الجنة بغير حساب))، قال: وأنشأ عُكاشة بن مُحْصَن من بني أسد -قال سعيد: وكان بَدْريًّا- قال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: فقال: ((اللهم اجعله منهم))، قال: أنشأ رجل آخر، قال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: ((سبقك بها عكاشة))، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فإن استطعتم -فداكم أبي وأمي- أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا وإلا فكونوا من أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت ناسًا كثيرًا قد تأشَّبوا حوله))، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبرنا، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، قال: فكبرنا، قال: ((إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، قال: فكبرنا، ثم تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفا؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا، قال: فبلغه ذلك، فقال: ((بل هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون))[9].

٨- رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، برقم (٢٨٣٤).

٩- رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢/٢٧٧)، والبخاري عن عمران بن حصين -رضي الله عنهما- بلفظ قال فيه: لا رقية إلا من عين أو حُمة، فذكرته لسعيد بن جبير فقال حدثنا ابن عباس -رضي الله عنهما- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد حتى رفع لي سواد عظيم قلت ما هذا؟

وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحاح وغيرها.

قوله: "**أَكْرَيْنا**" بمعنى أطلنا المكث عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذه اللفظة من الأضداد تأتي بمعنى أطلنا المكث، وتأتي بمعنى التقليل.

والظراب في قوله: **(انظر عن يمينك في الظراب قال: فإذا وجوه الرجال)** تطلق على الجبال الصغيرة، فإذا وجوه الرجال أي بادية، يعني رأى أمته -عليه الصلاة والسلام-، والله أعلم.

قوله: **((تأشَّبوا حوله))** يعني اجتمعوا وطافوا به.

{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الواقعة:٤١-٥٦].

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ} أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فَسَّر ذلك فقال: {فِي سَمُومٍ} وهو: الهواء الحار {وَحَمِيمٍ} وهو: الماء الحار.

{وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} قال ابن عباس: ظل الدخان، وكذا قال مجاهد، وعِكرمة، وأبو صالح، وقتادة، والسُّدِّيّ، وغيرهم.

قال: **{فِي سَمُومٍ}** وهو: **الهواء الحار**، قيل له ذلك؛ لأنه يدخل في مسام الجلد، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه حرارة النار، فإن هذا السموم، وهذا الحر أو الهواء الحار إنما يأتي من جهنم، **{فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ}** وهو الماء الحار **{وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}** **قال ابن عباس: ظل الدخان** الأسود شديد السواد فإن العرب تقول ذلك، يحموم لمَا اشتد سواده، فهم في حميم ماء حار يشربونه يقطع الأمعاء، ويأتيهم من الهواء الحار، وأيضاً الدخان يعلوهم ويغشاهم، وهو في غاية السواد **{وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}** أي أنه شديد السواد، والعرب تقول لكل ما اشتد سواده: **{يَحْمُومٍ}**، وسواءً كان ذلك له اتصال بما تعبر عنه العرب مثلاً من الفحم أو الشحم المحروق الأسود **{وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}** أو لم يكن.

أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى وقومه، قيل انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب))، ثم دخل ولم يبين لهم فأفاض القوم وقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية فبلغ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فخرج، فقال: ((هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون))، فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: ((نعم))، فقام آخر فقال أمنهم أنا؟ قال: ((سبقك بها عكاشة))، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، برقم (٥٣٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

وهذه كقوله تعالى: {انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٢٩-٣٤]، ولهذا قال هاهنا: {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} وهو الدخان الأسود {لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} أي: ليس طيب الهبوب ولا حَسَن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: {وَلا كَرِيمٍ} أي: ولا كريم المنظر، وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل.

المعنى أنهم قد أترفوا ترفاً لا يحل لهم، مضت حياتهم بالترف والتوسع في الملاذ، فيقال لهم في الآخرة: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [سورة الأحقاف:٢٠] كانوا مترفين، والله -عز وجل- وصف الكفار بهذا كما وصف به أهل النفاق: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [سورة المنافقون:٤]؛ لمَا يظهر عليه من أثر الترف، ومن السلف كعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- من كان يرى أن ذلك يكون نقصاً في حظ صاحبه من الآخرة، يعني حتى المؤمن، فكان يتأول هذه الآية: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} حتى لو كان ذلك مباحاً، والله -عز وجل- يقول: {لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [سورة التكاثر:٨]، فكل ذلك مما يحاسب عليه الإنسان، لكن يجوز للإنسان أن يأكل الطيبات فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحب الحلو البارد ويحب الحلوى ولم يكن يمنع نفسه، ويحرم على نفسه -صلى الله عليه وسلم- شيئاً من الطيبات، وكان يعجبه النساء والطيب: ((حُبب إليّ من دنياكم النساء والطيب))[١٠]، لكن هؤلاء تركوا الله -عز وجل- والدار الآخرة واشتغلوا بتتريف الأجسام على حساب آخرتهم فكان هذا جزاءهم {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}.

{وَكَانُوا يُصِرُّونَ} أي: يُصَمِّمون ولا ينوون توبة {عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله.

قال ابن عباس: {الْحِنْثِ الْعَظِيمِ}: الشرك، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّيّ، وغيرهم.

من أهل العلم من فسر {عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} باليمين الغموس، ومنهم من فسره بالذنب العظيم، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهؤلاء السلف -رضي الله عنهم- الذين فسروه بالكفر أو الشرك فسروه بنوع منه وغير الذي يوجب هذا، وليس كل ذنب يجعل صاحبه بهذا مخلداً في النار {فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ}، وإنما هو الشرك {بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [سورة البقرة:٨١] فأحاطت به خطيئته يعني الشرك والكفر بالله -تبارك وتعالى-، {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ} الذنب العظيم وهو الكفر والشرك بالله تعالى؛ ولهذا عوقبوا بالخلود؛ لأنهم مهما بقوا في الحياة فإنهم سيبقون على

١٠- رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٢٩٣)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن صحيح، في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٢٦١).

الشرك، فهم مصرون عليه غاية الإصرار، والعزم ينزل منزلة الفعل ((القاتل والمقتول في النار))[١١]، وبيّن -عليه الصلاة والسلام- أنه كان حريصاً -أي المقتول- على قتل صاحبه فدخل النار بهذا السبب فهؤلاء مهما بقوا سيبقون على كفر، ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا مرة ثانية إلى كفرهم.

١١- رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، برقم (٢٨٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ٤٧ إلى الآية ٦٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ} [سورة الواقعة:٤٧-٤٨]؟ يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [سورة الواقعة:٤٩-٥٠] أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة، لا نغادر منهم أحدًا، كما قال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [سورة هود:١٠٣-١٠٥]، ولهذا قال هاهنا: {لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} أي: هو موقت بوقت مُحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} [سورة الواقعة:٥١-٥٣]: وذلك أنهم يقبضون ويُسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملئوا منها بطونهم، {فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} [سورة الواقعة:٥٤-٥٥]، وهي الإبل العطاش، واحدها أهيم، والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة: الهيم: الإبل العِطاش الظِّماء.

وعن عكرمة أنه قال: الهيم: الإبل المِراض، تَمص الماء مَصًّا ولا تَرْوَى.

وقال السدي: الهيم: داء يأخذ الإبل فلا تَرْوَى أبدًا حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا.

ثم قال تعالى: {هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [سورة الكهف:١٠٧] أي: ضيافة وكرامة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ}** قال: "**هي الإبل العطاش**" هذا هو المشهور الذي عليه عامة المفسرين سلفاً وخلفاً، ومنهم من فسره بغير ذلك، ومنهم من فسره بالرَّمْل فالأرض الرملية مهما صببت فيها من الماء فإنها تبتلعه ولا تكتفي به كما هو معلوم، وصاحب الصحاح أعني الجوهري يقول: إن "الهُيام" بضم الهاء، يعني: يبدو أن الكلمة في لغة العرب تطلق على أمور متعددة، فالهُيام هو أشد العطش، ومنه يقال: الإبل الهِيم، يعني: العطشى، شديدة العطش، وهكذا أيضاً يطلق على العشق الشديد الذي يذهب بعقل صاحبه، يقال: فلان يهيم بفلانة، هام بها كأنه أصابه شيء في عقله، والداء الذي يصيب الإبل فلا ترتوي يقال له: الهُيام، والواحدة يقال لها: هَيْماء وهكذا المفازة التي ليس فيها ماء يقال لها ذلك، ويقال: "الهَيَام بفتح "الهاء" هو

الرمل وارتباطه بالمعنى ظاهر مهما صببت فيه من الماء فإنه لا يبقى فيه شيء، وكذلك أيضاً في صفته الرمل المتهايل الذي لا يتماسك يقال له: هَيَام بالفتح، يتهَايل {كَثِيبًا مَّهِيلًا} [سورة المزمل:١٤] يقال له: هَيَامَ، والهِيَام بكسر "الهاء" أيضاً يقال للإبل العطشى، والله أعلم.

قال: {هَذَا نزلُهُمْ} الأصل أن النزل هو ما يعد للضيف، أول ما يتحف به الضيف ليأكله يقال له: نُزُل، وهنا عبر به عن العذاب والمفسرون يقولون: هذا من باب التهكم بهم، كما يقال في التحية إذا استُعملت في غير معناها:

*** تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ

ونحو ذلك، فأول ما يقدم لهم في النار هو هذا، نسأل الله العافية.

قال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الواقعة:٥٨-٦٢].

يقول تعالى مُقررًا للمعاد، ورادًّا على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين قالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [سورة الصافات:١٦]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟!؛ فلهذا قال: {فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ} أي: فهلا تصدقون بالبعث!.

{فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ} فـ"لولا" هذه للتحضيض، فإذا كانت لأمر قد فات ولا يمكن استدراكه فهي للتبكيت، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [سورة هود:١١٦]، هذه للتبكيت {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [سورة الأنعام:٤٣] انتهوا هلكوا فهي للتبكيت، وأما إذا كانت لأمر مستقبل أو ما يمكن استدراكه فإنها تكون للتحضيض كما هنا {فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ} "**هلا تصدقون بالبعث**"، الآية تحتمل أن يكون المراد {فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ} يعني أنا خلقناكم لكن هنا قال: "**هلا تصدقون بالبعث**" الذي جعله يقول بهذا أمران:

الأمر الأول: أنهم لا ينكرون أن الله -عز وجل- هو الذي خلقهم {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة لقمان:٢٥].

الأمر الآخر: أنه جرت عادة القرآن أن يستدل بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ويقول: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} نحن الذين ابتدأنا خلقكم وأوجدناكم {فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ} "أي: **فهلا تصدقون بالبعث**" أنا نعيدكم مرة أخرى كما ابتدأنا خلقكم، ولم نعجز عن ذلك، فهذا أقرب من قول من قال: إن المراد: {فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ} أنا خلقناكم، مع أن البعث لم يجرِ له ذكر هنا، لكن هذا يفهم من هذه القرائن، والله تعالى أعلم.

ثم قال مستدلا عليهم بقوله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} أي: أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} "تُمنون" بالضم من أمنى الرباعي وهو بمعنى صب المني في الرحم، يعني الإنزال من جماع يقال فيه: أمنى، ويكون بالضم تُمنون، ومن أهل العلم من فرق بينه وبين خروج المني من غير جماع، فقالوا: بغير جماع يكون بالفتح تَمنون، يقول: مَنى الرجل يعني خرج منه المنيّ من غير جماع كالاحتلام مَنى، ومن أهل العلم من يقول: إن المعنى واحد تَمنون، و{تُمْنُونَ} وهما قراءتان لكن قراءة الفتح غير متواترة.

ثم قال: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} أي: صرفناه بينكم.

وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض.

قوله: "**صرفناه بينكم**" ساوى فيه بين هذين المعنيين، {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} وفي قراءة ابن كثير بالتخفيف {نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} وهي قراءة متواترة كما هو معلوم، يقول "**أي: صرفناه بينكم**"، وكثير من أهل العلم يقولون: إن قراءة التخفيف والتشديد بمعنى واحد "قَدَرنا"، و"قدّرنا" إلا أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فـــ { قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} قال: "**صرفناه بينكم**"، يعني: قسمناه ووقّتناه بينكم لكل فرد من أفرادكم، هذا يموت في الشباب، وهذا يموت طفلاً، وهذا يموت شيخاً، هذا معنى، والمعنى الثاني الذي ذكره هنا قال: "**ساوى فيه بين أهل السماء والأرض**" وهذا معنى قول من قال: إن معناه قضينا وكتبنا يعني: كتبنا وقضينا الموت، وهذا كله يرجع إلى شيء واحد، يعني: قضينا الموت على الجميع الكل يموتون، فهذان معنيان والآية مترابطة {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ}.

{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي: وما نحن بعاجزين.

يعني: بمغلوبين، يحتمل: على ما قدرنا من آجالكم، على المعنى الأول على ما قدرنا من آجالكم وأعماركم ما نحن بمغلوبين على ذلك، ولا يمكن لأحد أن يغير ما قررناه في حقه، يقدم هذا أو يؤخر هذا أو يخلص هذا، فكل إنسان كتب أجله فلا يتبدل ولا يتغير لا يمكن لأحد أن يخلصه من هذا الأجل المحتوم في الوقت المحتوم في المكان المحتوم، وما نحن بمغلوبين هذا معنى "مسبوقين" "**أي: وما نحن بعاجزين**".

{عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} أي: نغير خلقكم يوم القيامة، {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ} أي: من الصفات والأحوال.

يحتمل أن يكون المراد بـــ{عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} أي: أن نأتي بخلف منكم يخلفونكم، بخلق جديد، أي آخرين، ويحتمل أن يكون المراد {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} أي: نعيد خلقكم مرة أخرى، يحتمل هذا ويحتمل هذا، وابن جرير -رحمه الله- يقول: على أن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم فنجيء بآخرين من جنسكم، ونبدلكم عما تعلمون من أنفسكم في مالا تعلمون منها من الصور، وبعض السلف يعبر ويقول: يعني {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} نأتي بخلق، ممكن خنازير، نريدكم في صورة أخرى، كما نشاء من الصور والأشكال والهيئات، فعبارات السلف في هذا متنوعة، وابن القيم -رحمه الله- يقول: فإنكم علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم، ومبدؤها ما تمنون، بداية هذه النشأة، هذا البداية البسيطة ولم نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون يعني: إن أخبرناكم عن نشأتكم وأنتم تعرفون أنها من نطفة، فنحن قادرون على أن نعيد إنشاءكم مرة ثانية فيما لا تعلمون فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، يقول: {نَحْنُ قَدَّرْنَا

بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} وهذه الجمل مترابطة ويمكن أن نلخص هذه القضية، والمعنى على كل احتمال على المعنيين اللذيْن ذكرناهما أولاً: فيقال: إن قوله -تبارك وتعالى-: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} المعنى الأول الجمل التي بعده بناءً عليه، ويمكن أن نقول هكذا {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} أي: قدرنا لموتكم آجالاً مختلفة وأعماراً متفاوتة، فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت كبيراً كما قال الله -عز وجل-: {وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة الحج:٥]، وكذلك: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى} [سورة غافر:٦٧]، {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [سورة فاطر:١١]، فالله -عز وجل- فاوت بينهم {قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ}، {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي: بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددنا من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدّم أجلاً أخرناه، ولا يؤخر أجلاً قدمناه كما قال الله -عز وجل-: {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة الأعراف:٣٤]، {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [سورة الأنعام:١٣٤]، {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} [سورة آل عمران:١٤٥] فهو شيء مكتوب ومحدد ومقدر بوقت {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ}، فعلى هذا المعنى {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} تكون هذه الجملة متعلقة بـــ {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي: نبدل من الذين ماتوا آخرين أمثالاً لهم نوجدهم، يعني من ذراريهم {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام:١٣٣]، على هذا التناسق أو على هذا المعنى بهذا الترابط بهذه الطريقة، وهذا هو خلاصة اختيار ابن جرير المشار إليه آنفاً.

المعنى الثاني: {قَدَّرْنَا} بمعنى قضينا وكتبنا إلى آخر العبارات التي تدور في هذا الفلك، وهنا قال: "**سوينا بينكم في الموت**" يعني: بمعنى كتبناه على جميع الخلق، ما في فلان يموت وفلان لا يموت، أو بعض الناس يموت وبعضهم لا يموت، الموت على الجميع حتماً ، كما قال الله -عز وجل-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [سورة القصص:٨٨]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [سورة الأنبياء:٣٥]، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [سورة الفرقان:٥٨]، لا يبقى إلا الله -عز وجل- هذا هو المعنى الثاني، فتكون {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} متعلقة {بِمَسْبُوقِينَ} وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم، أي: ما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا، فنحن قادرون على إهلاككم ولا يوجد ما يمنعنا ويغلبنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم، كما قال الله -عز وجل-: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ} [سورة النساء:١٣٣]، {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة فاطر:١٦] وهذان معنيان في الآية، وكل معنى من هذه المعاني يوجد ما يشهد له في القرآن، والله تعالى أعلم.

ثم قال: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ} أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة -وهي البَداءة- قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، وكما قال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، وقال: {أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

شَيْئًا} [سورة مريم:٦٧]، وقال: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [سورة يس:٧٧-٧٩]، وقال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ [سورة القيامة:٣٦-٤٠].

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [سورة الواقعة:٦٣-٧٤].

يقول: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ} أي: تنبتونه في الأرض {أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} أي: بل نحن الذين نُقِرُّه قراره وننبته في الأرض.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقولن: زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ))، قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1].

هذا الحديث يدل على أدب في الألفاظ، يعني ليس ذلك على سبيل التحريم -والله تعالى أعلم-، يقول الإنسان زرعتُ وحصدتُ ونحو هذا لكن من باب كمال الأدب في التعبير، كما نهي الإنسان أن يقول: ((عبدي وأمتي، وإنما يقول: فتاي وفتاتي))[2]، من باب الأدب، مع أنه يجوز للإنسان أن يقول: عبدي وأمتي، وكذلك لا يقول: سيدي، وإنما يقول: مولاي، فهذا من هذا -والله تعالى أعلم-، لا يقول: زرعتُ، ولكن يقول: حرثتُ يعني هو الذي حرث والله -عز وجل- هو الذي أنبته.

وقوله: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، بل لو نشاء لجعلناه حطامًا، أي: لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده، {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}، ثم فسر ذلك بقوله: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أي: لو جعلناه حطاما لظلْتُم تفكهون في المقالة، تنوعون كلامكم، فتقولون تارة: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} أي: لَمُلْقَون.

وقال مجاهد، وعكرمة: إنا لموقع بنا، وقال قتادة: معذبون.

قوله: "**لَموقع بنا**"، يعني: نزلت بنا جائحة، وضبطت في تفسير ابن جرير "لَمُولع بنا" ويكون وجه هذا ما ذكره بعضهم في المعنى "**لمُولَع بنا**" قال: بل نحن مغرمون، مثلما تقول: فلان مغرم بفلان، أو فلان مغرم

---

١ - تفسير الطبري (١٣٩/٢٣)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١١٥٣٢)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٥٧٢٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٨٠١).

٢ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب لا يقول المملوك ربي و ربتي، برقم (٤٩٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (٨١٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٧٧٦٦).

بالشيء الفلاني، أو مغرم بفلانة، فهنا من شدة الحب يكون قد تَولَّع به، مولع، تقول: فلان مولع بفلان، ومغرم بفلان، {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} بهذا الاعتبار، مُولَع بنا.

وتارة تقولون: بل نحن محرومون.

وقال عكرمة: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} تَلاومون، وقال الحسن، وقتادة، والسدي: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} تندمون، ومعناه: إما على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتم من الذنوب.

قال الكسائي: تَفكّه من الأضداد، تقول العرب: تَفكهتُ بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

قوله -تبارك وتعالى-: {لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} [سورة الواقعة:٦٥] الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذه المعاني المذكورة في قوله: {تَفَكَّهُونَ} ترجع إلى شيء واحد، وأنها لا تحتاج إلى ترجيح بينها، {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}، فتفكهون أصله تطرحون الفُكاهة عنكم، فإذا طرحوا الفكاهة عنهم يكون حالهم ومصيرهم الندم والحزن، فمن طرح الفكاهة عنه فإنه صار إلى حال الحزن الندم والتأسي على ما فاته والتأسف، وهكذا قول من قال: تتعجبون وهو اختيار ابن جرير أن معنى تتفكهون تتعجبون، يتعجبون مما وقع بهم وحل بهم وصار أمرهم إليه {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} يعني تقولون: إنا لمغرمون، والمُغرَم هو الذي ذهب ماله بغير عوض، {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً} فهو يعطي ليدفع التهمة عن نفسه، لكنه لا ينتظر العائدة، يعتبر أن هذا مال تالف، وهو مقطوع من قلبه، لا يحتسب الأجر، وفي المقابل {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ} [سورة التوبة:٩٩] فهنا {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} يعني: عبارات السلف التي قالوا فيها، قال: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [سورة الواقعة:٦٦-٦٧] العبارات يقول: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} لملقون للشر، ذهب مالنا وهكذا من قال بـــ معذبون يعني ذهب بذهاب مالنا، معاقبون بهذا، وكذلك أيضاً المعاني الأخرى التي يذكرها المفسرون، وهكذا القول الذي نقله هنا في معنى {تَفَكَّهُونَ} تندمون على ما أنفقتم فيها "**تلاومون**" كل هذا -والله أعلم- يرجع إلى شيء واحد {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} من فسره بهذه المعاني فقد فسره بلازمه، يعني: أصل المعنى {تَفَكَّهُونَ} أي: تطرحون الفكاهة عنكم، هذا إذا أردنا أن نفسره تفسيراً حرفياً، فمن طرح الفكاهة عنه فإن ذلك يلزم أن يكون قد ندم وتأسى وحزن، وهكذا قول من قال: "**تلاومون**"، فهم يتلاومون؛ لأجل أساهم، كما في أصحاب الجنة في سورة القلم[٣]، والله أعلم.

---

٣ - إشارة إلى قوله تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} [سورة القلم:٣٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ٦٨ إلى الآية ٧٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} [سورة الواقعة:٦٨-٦٩] يعني: السحاب، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وغير واحد، {أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ} يقول: بل نحن المنزلون.

{لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} [سورة الواقعة:٧٠] أي: زُعاقًا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع، {فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبًا زلالاً! {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل:١٠-١١].

ثم قال: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ} أي: تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها.

{أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ} [سورة الواقعة:٧٢] أي: بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العَفَار، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران فحُك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار.

وقوله: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً} قال مجاهد، وقتادة: أي تُذَكِّر النارَ الكبرى.

قال قتادة: ذُكر لنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا قوم، ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم))، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية! قال: ((قد ضُربت بالماء ضربتين -أو مرتين- حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها))[١].

وهذا الذي أرسله قتادة رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد))[٢].

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، برقم (٢٨٤٣)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم))، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: ((فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها)).

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٣٢٧)، وقال محققوه: هذا الحديث رواه سفيان بن عيينة بإسنادين:

الأول: متصل، رواه عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم))، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية! فقال: ((إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا))[3]، رواه البخاري من حديث مالك[4]، ومسلم، من حديث أبي الزناد[5].

وقوله: {وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ} قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والنضر بن عربي: معنى {لِلْمُقْوِينَ} المسافرين، واختاره ابن جرير، وقال: ومنه قولهم: "أقوت الدار إذا رحل أهلها".

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوي هنا الجائع.

وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: {وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ} للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: {لِلْمُقْوِينَ} المستمتعين، الناس أجمعين، وكذا ذكر عن عكرمة.

وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى بها، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}** قال: "**يعني السحاب**"، قوله -تبارك وتعالى-: **{أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}** يؤخذ منه أن جميع الماء المودع في الأرض مما يستخرج من الآبار أو يخرج من العيون أو يجري في الأنهار كل ذلك نازل من السماء، **{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}** كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ}** [سورة المؤمنون:18]، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** [سورة الواقعة:73] بعدما ذكر النار وأنها آية: **{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ}** [سورة الواقعة:71-72]، فهذه إحدى الآيات على قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، أن يُخرج هذه النار الحارة المحرقة من الشجر الأخضر كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}** [سورة يس:80]، فقوله: **{تُوقِدُونَ}** مفسر لقوله: **{تُورُونَ}**، وهذا من أوضح صور تفسير القرآن

صحيح على شرط الشيخين.

والثاني: مرسل، رواه عن عمرو -وهو ابن دينار المكي-، عن يحيى بن جعدة، وعمرو بن دينار ثقة من رجال الشيخين، ويحيى بن جعدة تابعي ثقة، روى له أبو داود وابن ماجه والنسائي والترمذي في "الشمائل"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٧٤٦٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

٣ - رواه مالك في الموطأ، برقم (١٨٠٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٠٠٣٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٢).

٥ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، برقم (٢٨٤٣).

بالقرآن، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** نقل هنا عبارات السلف -رضي الله عنهم- قال: يعني "بالمقوين" المسافرين نقله عن ابن عباس وجماعة، وهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير باللازم؛ لأن أصل معنى "المقوين" يعني: النازلين بالأرض القَوَى وهي الأرض الخلاء، الأرض الخالية الصحراء فإذا فسر بالمسافرين كأنه تفسير بلازمه؛ لأن المسافر يقطع الأرض الخلاء يمر بها فيحتاج إلى النار التي يصطلي بها وما إلى ذلك، كأنه تفسير باللازم، ولا إشكال في هذا، ونقل عن بعضهم أن المُقوي هو الجائع، والقول الآخر الحاضر والمسافر، وهو الحاضر والمسافر باعتبار أن النار يحتاج إليها الجميع، والله تعالى هنا خص المقوين، ومفهوم المخالفة هنا **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** لا يحتج به، ولا عبرة به، ومفهوم المخالفة حجة عند الجمهور ولكنه لا يحتج به في نحو سبعة مواضع أو ثمانية، وأحد هذه المواضع: هو ما خرج مخرج الامتنان، كما قال في المراقي:

ودع ما إذا الساكت عنه خافا

أو جهل الحكم أو النطق انجلب *** للسؤل أو جرى على الذي غلب

أو امتنانٍ أو وفاق الواقع *** والجهلِ والتأكيد عند السامع

فهذا من الامتنان، يمتن الله -عز وجل- عليهم بهذا **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** فإذا كان مفهوم المخالفة هنا لا يحتج به فمعنى ذلك ألا نقول: إنها متاع للمقوين، وغير المقوين ليست بمتاع لهم، فلو أعملنا مفهوم المخالفة، "ومتاعاً للمقوين" إذاً ليست بمتاع لغيرهم هذا مقتضى مفهوم المخالفة، لكنه هنا غير معتبر؛ لأنه جاء ذلك في سياق الامتنان، يمتن الله -عز وجل- عليهم بهذا، كما قال الله في البحر: **{لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}** [سورة النحل:١٤]، فهذا لا يدل على أن القديد أو المجفف من لحم البحر لا يجوز أكله، أو ما طفا على البحر ومات، وألقاه البحر أنه لا يجوز أكله، وإنما خص الله اللحم الطري **{لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}** للامتنان، فهنا **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** فسره من فسره قال: يعني المستمتعين من الناس أجمعين، فالذي فسره بهذا الاعتبار نظر إلى هذه الحيثية، فمفهوم المخالفة هنا لا يعتبر، وأن المقصود بذلك الامتنان وإلا فهي متاع للجميع، ولهذا ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- العلة بتخصيص المقوين بالمسافرين؛ لأنهم أشد حاجة إليها من المقيمين، أشد حاجة أيضاً فيه ملحظ آخر يمكن أن يذكر عند قوله: **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** قلنا: إن المقوين يعني المسافرين، الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: فيه إشارة باعتبار أنه حكم على الجميع بأن المقوين إذا ما قلنا: إنه فقط المسافر، قال: باعتبار فيه إشارة إلى أن جميع البشر مسافرون، وأن هذه الحياة قصيرة، كراكب استظل تحت ظل شجرة، فالجميع مسافرون **{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}** للمسافرين، وهذا أشبه ما يكون بالتفسير الإشاري، ولا أعني به التفسير بالإشارة عند الأصوليين وهي دلالة اللفظ لمَا لم يكن القصد له قد علماء، وإنما المقصود بالتفسير الإشاري الذي يذكره أرباب السلوك والتصوف، ومنه ما هو صحيح مقبول بشروط، ومنه ما هو مردود، وأكثره مردود، فهنا يمكن أن يدخل بهذا المعنى "المقوين"، وابن القيم -رحمه الله- لا يخفى عليه أن "المقوين" بمعنى المسافرين، ويعرف أقوال السلف، لكنه أخذ منه أن التعبير بهذا فيه إشارة إلى أن الناس جميعاً على سفر، ومثل هذا من شروط التفسير الإشاري: ألا يفسر به النص، يعني الآن لما نأتي نفسر الآية:

{وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} نقول: متاعا لجميع الناس باعتبار أنهم مسافرون في هذه الحياة الدنيا حتى يصلوا إلى الآخرة، ليس هذا هو المعنى المتبادر إطلاقا، ولكن يذكر المعنى الأصلي {وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} أي: المسافرين، ويؤخذ من التعبير بذلك -أو عبر بذلك- كأنه لمّا كان الناس -في الحقيقة- في انتقال من الدنيا إلى الآخرة مثلاً، من هذا الباب فقط، لا لأنه تفسير للآية، هذا من أهم شروط التفسير الإشاري: ألا يقال: إنه هو معنى الآية، وإنما يذكر معناها ثم يذكر مثل هذا، ويوجد له أمثلة صحيحة، ولطيفة، ويوجد له أمثلة فاسدة لا تصح إطلاقا.

وقوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [سورة الواقعة:٧٤] أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجرًا لهم في المعاد.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} يعني: يمكن أن يكون المعنى على ما ذكره بعض أهل العلم: فسبح ربك ذاكراً اسمه، وقيل غير ذلك.

{فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [سورة الواقعة:٧٥-٨٢].

ليست "لا" زائدة لا معنى لها كما قال بعض المفسرين، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، كقول عائشة -رضي الله عنها-: "لا والله ما مست يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يد امرأة قط"[٦]، وهكذا هاهنا تقدير الكلام: "لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم".

وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: {فَلا أُقْسِمُ} فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل: أقسم.

وقوله: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} قال مجاهد أيضًا: {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها، وكذا قال الحسن، وقتادة، وهو اختيار ابن جرير، وعن قتادة: مواقعها: منازلها.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} من أهل العلم من قال: معنى النجوم القرآن؛ لأنه نزل منجماً، وأقسم الله -عز وجل- به فقال: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} [سورة النجم:١]، وذلك كقوله: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} هكذا فسره بعض أهل العلم، وهنا {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} قال: ليست "لا" زائدة، والجمهور يقولون: إن "لا" هذه زائدة إعراباً تفيد معنى التوكيد، هذا قول عامة أهل العلم، وهذه العبارة -عبارة الزائدة- قد لا تحسن ولا تجمل أن يعبر بها فيما يتعلق بالقرآن، كما قال في المراقي:

ولم يكن في الوحي حشوٌ يقع

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي، برقم (٤٩٨٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، برقم (١٨٦٦).

فالزيادة حشو فلا يليق أن يقال ذلك، فليس فيه شيء إلا له معنى، وزيادة المبني لزيادة المعنى، والذين قالوا: بالزيادة لا يقصدون هذا، فهم يقولون: زائدة المعنى، ولم تكن إطلاقاً من قبيل الحشو، إنما يقصدون بذلك أنها زائدة إعراباً، ولهذا أحياناً يهذبون اللفظة، يقولون: صلة، ويقصدون بـــ "زائدة" أنها زائدة إعراباً للتوكيد، يعني إذا دخلت على القسم **{فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}**، **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [سورة القيامة:١]، **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}** [سورة البلد:١] معناها أقسم، والعرب تزيد "لا" تأكيداً للقسم، هذا هو المعنى، "لا": يقول: ليست زائدة، والذين قالوا: إنها زائدة قالوا: إن الله –عز وجل– قال: **{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** فجعله قسماً فليست نافية قطعاً، وهذا الاحتجاج أو هذا الجواب يصلح رداً على من قال: إنها نافية للقسم، ومن العلماء من قال: إنها زائدة لتوكيد القسم، تفيد معنى، وهو توكيد القسم، ولكن لا محل لها من الإعراب **{فَلا أُقْسِمُ}** بمعنى أقسم، ومن العلماء من قال: ليست بزائدة، وقالوا: إن معناها النفي، والحافظ ابن كثير –رحمه الله– يقول: إنها تتعلق بنفي كلام مقدر، أو شيء مقدر، فلا أقسم بمواقع النجوم لا لما تزعمون، وتقولون في القرآن: إنه سحر وكهانة أُقسمُ بمواقع النجوم هذا القسم العظيم إنه لقرآن كريم، ليس كهانة ولا شعراً ولا سحراً، قالوا: هي نافية لكلام مقدر، لا لما تزعمون، لا لما تدعون، والأصل عدم التقدير، ومهما أمكن حمل الكلام على معنى صحيح من غير دعوى التقدير فهو الأولى، ومن أهل العلم من قال: هي نافية، ليست نافية لأمر مقدر، وإنما نافية للقسم أن المسألة أوضح من أن يقسم عليها، فلا أحتاج أن أقسم بمواقع النجوم **{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}** وهذا بعيد، وإن قال به بعض أهل العلم؛ لأنه قال: **{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** لكن يمكن لهؤلاء أن يجيبوا فيقولوا: وإنه لقسم لو أقسمتُ به، أنا لا أقسم بمواقع النجوم، ولو أقسمت به لكان قسماً عظيماً، يمكن أن يجيبوا، كل شيء يمكن أن يُجادَل فيه، والجدال ليس له حد محدود لمن أراد أن يجادل، ومن أهل العلم من قال: إن هذه "اللام" أصلاً "لام" الابتداء **{فَلا أُقْسِمُ}** هذه "لام" الابتداء أصلاً، والأصل فلأقسم، وجاء هذا في قراءة غير متواترة، فأشبعت هذه الفتحة فتولد منها ألف، أي فلا أنا أقسم بذلك، وهذا –والله أعلم– كما قال بعض المفسرين: بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مُقسماً به على منفي، والذين منعوا من هذا وهم الجمهور قالوا: الآن تحتاج إلى تقدير مبتدأ وخبر، أي فلا لما تقولون في القرآن: إنه سحر، ولا حقيقة لقولكم في القرآن، وإن الذين منعوا من هذا قالوا: أصلاً لا يجوز حذف اسمها وخبرها معاً، وأولائك أيضاً عندهم الاستعداد الكامل أنهم يجيبون عن مثل هذا، ولو تتبعنا مثل هذا لطال الوقت، فالقول بأنها لتأكيد القسم قول قريب له وجه ظاهر من النظر –والله تعالى أعلم–، ولا يحتاج إلى تقدير.

قال هنا يحتج على أن هناك كلاماً مقدراً: **كقول عائشة –رضي الله عنها–: "لا والله ما مست يد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يد امرأة"** يعني: "لا" لما قد يتوهمه البعض من أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يصافح النساء أو نحو ذلك، "**ما مست يده**"، والسياق يبين المراد، والمناسبة، والحال، والاحتمال لاشك أنه وارد، يقول: "**وهكذا هنا تقدير الكلام لا أقسم بمواقع النجوم..** إلى آخره، في معنى: مواقع النجوم يقول: **قال مجاهد: مواقع النجوم في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها، وكذا قال الحسن، وقتادة، وهو اختيار ابن جرير**، العلماء اختلفوا في المراد بالنجوم، فمنهم من قال: هي النجوم التي في السماء، وهذا قول عامة السلف

والمفسرين: أنها النجوم التي في السماء، واختلفوا في المراد بمواقع النجوم ما هي؟ فمن قائل: هي مطالعها ومغاربها؛ لأن هذه آية تتجلى فيها عظمة الله -عز وجل-، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [سورة المعارج:٤٠] أي أقسم برب المشارق، فالشمس والقمر، أو الأفلاك، من الممكن أن تكون الشمس شتاءً وصيفاً كما ذكرنا أو الأفلاك كل هذه تتطلع ثم تغيب، يقولون: ولهذا أقسم الله -عز وجل- بالليل في حال إقباله، وفي حال إدباره، فهذه مظاهر تتجلى فيها عظمة الله -عز وجل- وقدرته، ومن أهل العلم من قال: مواقع النجوم هي مطالعها ومغاربها ومساراتها إذا سارت، ومنهم من يقول: "مواقع النجوم" هي مساقطها ومغاربها إذا غابت، ومن أهل العلم من يقول: "مواقع النجوم" هي محالّها في السماء، ومنهم من يقول: هي منازلها، تمشي بمنازل كما أن القمر يمشي بمنازل، والشمس تسير وتجري بمنازل وهكذا، فقالوا: هذا هو المراد "مواقع النجوم" فهؤلاء كلهم يقولون: إنها النجوم التي في السماء، يقول هنا: "**قال مجاهد: مواقع النجوم في السماء ويقال مطالعها ومشارقها**"، والمراد بقوله: مواقع النجوم في السماء، يقول: "**وعن قتادة مواقعها منازلها**" منازل يعني التي تسير فيها، يقول عن قول مجاهد مواقع النجوم في السماء، ويقال: "**مطالعها ومشارقها وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير**"

ابن جرير فسره بمساقطها، ومن أهل العلم من قال: بمواقع النجوم يعني التي يرمى بها الشهب، وهذا القول الذي عليه عامة أهل العلم، ووجه العلاقة بين هذا وبين المقسم به {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ}، فمن أهل العلم من يحاول أن يربط بين هذا وهذا كابن القيم يقول: النجوم للاهتداء {لِتَهْتَدُواْ بِهَا} [سورة الأنعام:٩٧]، والقرآن للاهتداء، فهذه يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وهذه يهتدى بها من ظلمات الجهل والظلام، والنجوم آية من آيات الله -عز وجل- في هذا الخلق، والقرآن آية، وكله آيات تدل على أنه من عند الله -عز وجل-، وتدل على صدق قائله، ونسبته إلى الله، النجوم رجوم للشياطين الجنية، والقرآن رجوم للشياطين الإنسية، والجنية معنوياً، كما قال الله -عز وجل- وصور في سورة البقرة: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [سورة البقرة :١٧-١٨]، قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ} [سورة البقرة :١٩] ففسر هذا بآيات الوعيد والزجر، إذا سمعوه اضطربوا وخافوا هذا حال المنافقين، كالذي يمشي في ظلام، ويضع أصبعيه في أذنيه خوفاً من البرد والرعد، فزواجر القرآن هي الرعد، وآياته وبراهينه الواضحة وحججه الدامغة كالبرق الذي يخطف الأبصار، والقول الآخر: إن المراد {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} أي: نجوم القرآن، وهذا هو الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وقال: المناسبة ظاهرة بين القسم {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ}، قال فقوله: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ} يدل على أن مواقع النجوم هذه، {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ} تفسير لمواقع النجوم وهذا ليس بلازم، فأقسمَ بمواقع النجوم إنه لقرآن، ولم يقل: النجوم في السماء بأن هذا قرآن كريم، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، واحتج له ابن القيم -رحمه الله- من عشرة أوجه، أعني أنها النجوم التي في السماء، ورد على القائلين بغير هذا، والله أعلم.

وقوله: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظّمتم المقسم به عليه، {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم، {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ} أي: معظّم في كتاب معظم محفوظ موقر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية 77 إلى الآية 86

وعلى آله وصحبه أجمعين، قال الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، سورة الواقعة:77أي: إن هذا إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ :المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى سورة الواقعة:78أي: معظّم في كتاب فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم، معظم محفوظ موقر.

قال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن حكيم -هو ابن جبير- عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ سورة الواقعة:79قال: الكتاب الذي في السماء.

وقال العَوْفِيّ، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ يعني: الملائكة، وكذا قال أنس -رضي الله عنه-، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نَهِيك، والسُّدِّيّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، حدثنا معمر، عن قتادة: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَقال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: مَا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ.

وقال أبو العالية: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ليس أنتم أصحاب الذنوب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ثم ذكر المفسر طائفة من أقوال السلف -رضي الله تعالى عنهم- في المراد بهذا الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون، فوصف هذا الكتاب بهذين الوصفين أنه مكنون ولا يمسه إلا المطهرون، واختلف المفسرون في المراد بالكتاب المكنون اختلافاً كثيراً مشهوراً

ذكر المفسر طائفة من أقوال السلف -رضي الله تعالى عنهم- في المراد بهذا الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون، فوصف هذا الكتاب بهذين الوصفين أنه مكنون ولا يمسه إلا المطهرون، واختلف المفسرون في المراد بالكتاب المكنون اختلافاً كثيراً مشهوراً

، هل المراد به المصحف الذي في أيدي الملائكة؟ أو المراد به اللوح المحفوظ باعتبار أنه مكنون مغيب عن أنظار الناس وأعينهم؟، فإن هذا القرآن الذي بين أيدينا قد لا يصدق عليه هذا الوصف باعتبار أنه مكنون، بل نقرؤه، ونحفظه، وإنما أنزل لذلك؛ من أجل أن يُعمل به ويتدبر ويُتفهم مراد الله قال: فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، ومعلوم أن القرآن له تنزلات، الله -عز وجل- أنزل القرآن في اللوح المحفوظ كما قال الله -عز وجل-: فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ سورة البروج:22، وأنزله أيضاً في بيت العزة في سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، كما قال الله تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ سورة القدر:1، وإن كان من السلف من قال: إن المراد ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، فإن هذا لا يعارض ما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بأنه نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ سورة البقرة:185، ومثل هذا صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ولا يقال من جهة الرأي فهذا من الأمور الغيبية فله حكم الرفع، فهذا تنزل آخر للقرآن، التنزل الثالث أنه في صحف بأيدي الملائكة كما في سورة عبس: فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ سورة عبس:13-16، فهذا التنزل الثالث، والتنزل الرابع على النبي -صلى الله عليه وسلم- ينزل به جبريل من الله مباشرة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه أربعة تنزلات للقرآن، ووصف الله الكتاب بأنه مكنون فقال: فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ولهذا قال طائفة كثيرة من أهل العلم: إن المراد به الذي في السماء، منهم من يقول: في اللوح المحفوظ، ومنهم من يقول: الذي بأيدي الملائكة لكن ليس الذي في أيدينا، ونقل عن ابن عباس قال: "الكتاب الذي في السماء"، ومن أهل العلم من يعبر بعبارة أخص من هذه فيقول: الذي بأيدي الملائكة، كما قال به طائفة من السلف، وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله- : الذي بأيدي الملائكة، واحتج له ابن القيم من وجوه كثيرة، في بعض المواضع من عشرة أوجه، وفي بعضها من سبعة أوجه، ومن أوضحها أن الله وصفه بأنه مكنون، وكذلك هذا القرآن قال الله

-عز وجل-: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، ولم يقل: "المتطهرون"، فالمطهرون طهرهم الله -عز وجل- وهؤلاء هم الملائكة، وذكر وجوهاًأخرى، والله -عز وجل- يقول: فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، يقول: لو كان المقصود المتطهرون من الأحداث من الحدث يعني الوضوء أو من الحدث الأكبر بالغسل، يقول: هل هذا وصف مؤثر بالنسبة للمخاطبين الذين أراد الله -عز وجل- أن يبين لهم عظمة هذا القرآن؟، ويقول: إن تفسير ذلك بأن المراد به الملائكة أولى وأوقع في النفس، وأقرب إلى المطلوب من أن يوصف بأنه لا يمسه إلا المتوضئ مثلاً، أو المتطهر طهارة من الحدث الأصغر أو الأكبر، وأيضاً لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ هذا الوصف، قال بعده: تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ فهذه الأوصاف جميعاً أقرب إلى الذي بأيدي الملائكة من الذي بأيدينا؛ لأن الذي بأيدينا يمسه كما ورد في هذه الآثار يمسه المنافق، وقد يمسه غير المتوضئ، ويمسه لربما الكافر، فهنا قال: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، قال ابن عباس: "الكتاب الذي في السماء"، وفي قراءة أخرى متواترة أي قراءة نافع وأبي عمرو، في رواية عنهما بإسكان الطاء وفتح الهاء المُطْهَرون، والمعنى في ذلك واحد -والله أعلم-، والمُطَهَّرون يحتمل أن يكون المراد به من طهره الله -عز وجل-، وهم الملائكة وهذا الذي عليه كثير من السلف فمن بعدهم، ولهذا قال هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "هم الملائكة"، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ وهم الملائكة سفراء بين الله وخلقه، جمع سافر؛ لأنهم يُسفرون عن رسالات الله-عز وجل-، وقيل للسفر: سفر؛ لأنه يُسفر عن أخلاق الناس أخلاق الرجال فهؤلاء سفرة تقول: (فلان سفير) فالسفرة جمع سافر، فهذا من أشهر الأقوال في تفسير الآية: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ يعني الملائكة، وبعضهم يقول: لَّا يَمَسُّهُ بمعنى لا ينزل به، فإذا قلنا: الملائكة فيكون هذا من تفسير اللفظ بلازمه، وإلا فإن المس ليس معناه النزول، لكن لما كانت الملائكة هي التي تنزل به -وهم سفراء بِأَيْدِي سَفَرَةٍ أي: الرسل من الملائكة- جاز ذلك، وبعضهم قال: لَّا يَمَسُّهُ يعني المس، فسره على ظاهره المس باليد، قالوا: أي لا يقرؤه إلا المطهرون، فهذا قال: لا يمسه بالأيدي إلا المطهرون إلا من تطهر، وبعضهم فسره بالقراءة قال: لا يقرؤه وهذا بعيد؛ لأن القراءة لا يقال لها: مس، ومنهم من فسره بمعنى معنوي قال: لا ينتفع به ولا يفتح معانيه، ولا يفهم كتاب الله -عز وجل- إلا المطهرون؛ لأن الله -عز وجل- وصف هذا

الكتاب بأنه كتاب كريم، وكتاب عزيز، فلا تدخل معانيه في القلوب التي قد اشتملت على مساوئ الأوصاف من التعلق بغير الله -عز وجل-، وما شابه ذلك من الباطل، فإن ذلك لا يصلح أن يكون محلاً لمعاني القرآن، قد ذكرنا لكم من قبل كلام أهل العلم كلام شيخ الإسلام، ومن قبله قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد ذكره أبو حامد الغزالي، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة)([1])، قال: فكذلك القلوب إذا كانت تحمل أخلاق الكلاب، فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة، وهذا مثال على التفسير الإشاري للحديث، التفسير الإشاري اللطيف الذي يمكن أن يقبل للحديث، فالخلاصة في لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ من أهل العلم من فسر "المس" بالمس الحسي فقال: الملائكة وهذا هو الأقرب، ومنهم من فسره بالملائكة أو قال: الناس، ومنهم من فسره بأمر معنوي فقال: لا يمسه أي لا يفهم معانيه، ويدرك تفسيره إلا القلوب المطهرة من الشرك، والأوضار، والدنس، وكلما كان القلب أطهر كلما كان ذلك أدعى لانفتاح المعاني، فهذا فسره بمعنى معنوي، وليس ذلك معنى المس، فالأقرب أن يقال: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ المس على ظاهره، لا تمسه الأيدي، لا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة، فإنه قال: فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وفِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ومن تطهيرها أن الأيدي الدنسةلا تمسه، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، والذين قالوا: إن المراد بـ "المطهرين" الناس الذين تطهروا طهارة من الأحداث، اختلفوا في هذا، أو الذين قالوا: إنهم الناس، ومنهم من قال: يعني المؤمنين، فإن القرآن لا يمسه المشرك، ومنهم من قال: المراد بذلك الطهارة الحسية من الحدث الأكبر والأصغر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يمس القرآن إلا طاهر)([2])، قالوا: هؤلاء هم المطهرون، وهذا أخص معانيه، قالوا: المراد به من كان طاهراً، ويعد هذا أخص معانيه؛ لأن الكافر من باب أولى، إذا كان المسلم غير المتوضئ لا يمس القرآن فمن باب أولى الكافر، هذه الخلاصة، والراجح -والله تعالى أعلم- هو أن المراد بـ "المطهرين" الملائكة، وأن الكتاب المكنون هو الذي في السماء، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ من قال: إن القرآن لا يمسه إلا من كان متطهراً من الأحداث نقول: ليس المراد بـ "الكتاب المكنون" هو هذا الذي بأيدينا، لكن يمكن أن يفهم من هذه الآية أنها تشير إلى هذا المعنى الذي ذكره بعض أهل العلم أنه لا يمسه إلا طاهر من الكفر، وطاهر من الحدث الأكبر والأصغر، لكن ذلك ليس

بصريح، فهو من باب الإشارة، الإشارة التي عند أرباب السلوك وليست التي عند الأصوليين، وهي ليست من أنواع الدلالات التي تسلط على النص، ويستنبط منها الأحكام، وإنما هي لفتات يستأنس بها فقط إذا كانت صحيحة بشروط، ووجه ذلك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إذا كان الذي في السماء لا يمسه إلا المطهرون فإن هذا يشير إلى أن الذي في الأرض ينبغي أن يكون كذلك؛ لأن الذي في السماء نزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- أنزله جبريل، تلقاه من الله، فإذاً ينبغي أن يطهر فلا يمسه كافر، يدل لذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يمس القرآن إلا طاهر) هذا جاء في الكتاب الذي كتبه النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمرو بن حزم فهو كتاب، وقال الإمام أحمد -رحمه الله-: أعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قاله، فهو لا شك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتبه، وذكر ابن عبد البر -رحمه الله- أن هذا الكتاب لا يحتاج إلى إسناد صحيح، وإنما يكفي استفاضته بين العلماء، وتلقيهم له، وشهرته، قال: فإن ذلك يغني عن الملف، السند، وجاء عن ابن عمر في هذا، وعن عثمان بن أبي العاص -رضي الله عنهم-، وجاء من حديث معاذ، وإن كانت هذه الأحاديث لا تخلو من ضعف إلا أنها تنجبل بمجموعها، ويبقى معنى هذا الحديث (لا يمس القرآن إلا طاهر)، هذا كتبه الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأهل اليمن، اليمن فيها كفار من أهل الكتاب، وفيها مجوس وفيها مسلمون حينما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك فمن أهل العلم من قال: المراد به (لا يمس القرآن إلا طاهر)، أي إلا مسلم فالكافر نجس؛ لأن الله قال: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌسورة التوبة:28، ومنهم من قال بمعنى أخص وهو أنه لا يمسه إلا من كان طاهراً من الحدث الأكبر والأصغر، و الكلام في المس ليس في القراءة، والحديث اعتبره بعض أهل العلم من قبيل المجمل يعني أنه يحتمل معانيَ متعددة، والمجمل لا تسقط حجيته، وإنما يترجح لبعض أهل العلم معنى من معانيه فيقول به لكن حينما يقولون: إن الاحتمال كساه ثوب الإجمال فسقط به الاستدلال، غاية ما يقال في هذا -إن قُبل-: إنه في مقام المناظرة في مقام الاحتجاج على المخالف فيقول: لا تحتج عليّ بهذا، هذا محتمل لقولي وقولك فسقط به الاستدلال بهذا الاعتبار، لكن أنا يترجح لي معنى منه وتقول سقط به الاستدلال هذا ليس صحيحاً، وهذا تعطيل للنصوص، فكثير من النصوص محتملة، والحديث تبقى فيه هذه الاحتمالات، ولكن نأخذ مما ورد عن بعض

الصحابة كسعد بن أبي وقاص وجماعة مما صح عنهم أنهم كانوا يرون التطهر لمس القرآن، فإذا كان كذلك فنقف مع هذه النصوص، ونقول: لا يجوز للإنسان أن يمس القرآن إلا أن يكون متطهراً، وليس ذلك مأخوذاً من الآية، فالآية في الكتاب الذي في السماء، ولكن من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يمس القرآن إلا طاهر))، وورد هذا عن بعض الصحابة، ولا أعلم لذلك مخالفاً تصح عنه الرواية بأنه يجوز مس القرآن من غير طهارة عن الصحابة، وقول الصحابي إذا لم يوجد له مخالف فإنه حجة،هذا في المس، أما مسألة القراءة فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه يجوز للإنسان أن يقرأه جنباً يجوز الحائض أن تقرأه، ومن عليه حدث أصغر، والبخاري -رحمه الله- قال: باب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ القرآن على كل أحيانه كما في حديث عائشة -رضي الله عنها-، وهذا ظاهره أن البخاري -رحمه الله- كان يرى هذا، وبه قال طائفة من أهل العلم، والأحاديث التي وردت في أن لا يقرأ القرآن الحائض ولا الجنب إلى آخره لا يصح منها شيء، وهي مضطربة في المتن، ضعيفة في الإسناد -والله أعلم-، فهذه خلاصه للكلام في المعاني المذكورة في قوله: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، ولابن القيم -رحمه الله- كلام جيد في هذه القضية يصلح مثالاً على التفسير الإشاري لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فيقول -رحمه الله تعالى-: "وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال هذا من باب التنبيه والإشارة إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر"([3])، كلام شيخ الإسلام هذا من قبيل التفسير بالإشارة، مثال على التفسير الإشاري الصحيح، والتفسير الإشاري القليل منه يصح، وأكثره باطل وهذا مثال على الصحيح، وقال ابن القيم -رحمه الله-: "ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة"([4])، هذا من باب أن الشيء بالشيء يذكر، وهذه طريقة أهل السلوك، فهذا كلام حسن جيد، إشارتُها وإماؤها ليس المقصود دلالة الإشارة عند الأصوليين، وهي دلالة صحيحة استنبطوا بها الأحكام، ثم قال -رحمه الله-: "وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به، وهذا أيضا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام

الله تكلم به حقا وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحيا وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته ففي قلبه من حرج، ومن قال: إن له باطنا يخالف ظاهره وإن له تأويلا يخالف ما يفهم منه ففي قلبه منه حرج...، إلى أن قال: "وأنت إذا تأملت قوله: لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه وقياس الشيء على نظيره واعتباره بمُشاكله وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية وبالله التوفيق"([5]).

وقال ابن القيم –رحمه الله– أيضاً: " وأنت إذا تأملت قوله تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وجدتَ الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روح مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدتَ الآية أخت قوله: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ سورة الشعراء:210-211، ووجدتَها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتَها دالة أيضا بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا سورة آل عمران:93: "لا يمسه" لا يجد طعمه ولا نفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراًسورة الجمعة:5، وتجد تحته أيضا أنه لا ينال معانيه، ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب، وعقْد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي –رضي الله عنه–"([6]).

يعني لما سأله أبو جحيفة هل خصكم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشيء؟ قال: "لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله رجلاً في كتابه، أو ما في هذه الصحيفة، هذا من الفهم الذي يؤتيه الله رجلاً في كتابه([7]).

وقوله: قال: وهي في قراءة ابن مسعود ما يمسه إلا المطهرون، وقال أبو العالية: لَّا يَمَسُّهُ، ويمكن أن تكون نافية مخبرة إذا قلنا: إن المراد الذي بأيدي الملائكة فهذا خبر فتكون "لا" نافية، وإذا قلنا: إنه الذي في الصحف التي عندنا فتكون مضمنة معنى النهي لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ مضمنة معنى النهي، والله تعالى أعلم، يقول هنا قال أبو العالية: ليس أنتم أصحاب الذنوب، يعني: الملائكة، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ومطهرون أي من الذنوب.

وقال ابن زيد: زَعَمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ سورة الشعراء:210-212.

وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله.

يعني: الملائكة لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ سورة عبس:15مطهرون من الذنوب هذا كله يرجع إلى شيء واحد.

وقوله: تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر، أو كهانة، أو شِعر، بل هو الحق الذي لا مِرْية فيه، وليس وراءه حق نافع.

وقوله: أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ سورة الواقعة:81قال العَوْفِيّ، عن ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين. وكذا قال الضحاك، وأبو حَزْرَة، والسُّدِّيّ.

وقال مجاهد: مُدْهِنُونَ أي: تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم.

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ الإدهان فسر بالكذب وفسر بالنفاق، وفسر بالإعراض، وفسر بالمدارة التي يكون فيها التنازل عن الحق، أو عن بعضه، أو قول الباطل أو فعله، فإن الفرق بين المدارة وبين المداهنة معروف، فالمدارة هي التلطف بالقول والمصانعة دون أن يتنازل الإنسان عن الحق، أو يقول الباطل، وأما المداهنة فهي أن يفعل الباطل، ويتكلم بالباطل أو يترك الحق طلباً لإرضاء الخلق فهذه مداهنة، "مدهنون" لو تأملت هذه المعاني المذكورة الآن هنا في هذه الآية: قول من قال الإعراض، ومن قال: التكذيب ومن قال: النفاق ومن قال التنازل عن بعض الحق أو نحو ذلك وجدتَ بينها ارتباطاً وهو أن هذا الإنسان المدهن الذي يكون قد أراد أن يصانع غيره وأن يداريه بالتنازل عن بعض الحق أو فعل الباطل يكون قد أظهر ما لا يبطن، ويكون

معرضاً عن الحق، ويكون كذباً أو تكذيباً لهذا الذي بين يديه، وهكذا فهذه المعاني يمكن أن ترجع إلى معنى يمكن أن يكون متحداً، لكن أصل هذه الكلمة من اللين والإدهان، من اللين فهي ملاينة، ومصانعة للكافرين تتنازلون فيها عن بعض الحق؛ طلباً لرضاهم، أو تلتزمون لهم بشيء من الباطل؛ طلباً لرضاهم، فهذا كيف يقع مع عظمة هذا القرآن الذي أنزل عليكم ووضوح براهين الحق، وطهارة هذا الكتاب حيث وصفه الله -عز وجل- بهذه الأوصاف، فكيف يقع منكم مثل هذا؟! أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ تتركون الجد والعمل والأخذ به بقوة يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ سورة مريم:12وتصانعون وتمالئون هؤلاء الناس على حساب الحق الذي بأيديكم، هذا هو المعنى الظاهر المتبادر بهذه الآية، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ قال مجاهد: تريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم، هذا معنى ما ذكرت، -والله تعالى أعلم-.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ وتثنى عليه الخناصر وتعقد عليه القلوب والأفئدة ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ولا محاكمة إلا إليه ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به؟!"([8]).

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قال بعضهم: يعني: وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر.

وقد روي عن علي، وابن عباس أنهما قرآها: "وتجعلون شكركم أنكم تكذبون" كما سيأتي.

يعني: من أهل العلم من فسر الرزق بالشكر قال: إنها لغة لبعض العرب، يقولون: لغة "أزد شنوءة"، الرزق بمعنى الشكر وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أي: وتجعلون شكركم وقراءة عليَّ -رضي الله

تعالى عنه- هذه ليست قراءة متواترة، ومعلوم أن القراءة الأحادية إن صح سندها فإنها تكون مفسرة للقراءة المتواترة، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْأي: شكركم أنكم تكذبون، ومن أهل العلم من قال: إن في الآية تقديراً وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أي: شكر رزقكم التكذيب، تجعلون شكر الرزق: الرزق المعروف يفسرونه بالمعنى الظاهر المتبادر، تجعلون شكر هذا الرزق التكذيب أنكم تكذبون، تجعلونه تكذيباً، وهنا قال: أي تجعلون رزقكم، ومن أهل العلم من يقول: إنه عبر بالسبب عن المسبب، يعني عبر بالرزق عن الشكر؛ لأن الرزق يتسبب عنه الشكر، الرزق ينبغي أن يكون سبباً لظهور أثر النعمة على المُنعَم عليه بلسانه فيلهج بذكره، وشكره والثناء عليه بجوارحه، يعني بمرضاته، ويقلبه استحضار النعمة:

أفادتكُمُ النعماءُ منّي ثلاثةً *** يدِي ولسانِي والضميرَ المُحجَّبا

يقول: نعمتكم علي أفادتكم ثلاثة أشياء مني: لساني صار يلهج بذكركم، وقلبي مستحضر لإنعامكم، وجوارحي تعمل لخدمتكم، فهذا الذي تفيضه وتورثه النعمة، يكون هناك شكر، لكن حينما يجعل الإنسان ذلك تكذيباً وإعراضاً!!، فهذه ثلاثة أوجه في تفسيرها: فيه مقدر أي شكْرَ رزقكم، أو أنه عبر بالرزق أي بالسبب عن المسبب، أو أن ذلك لغة في الشكر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ما مُطِرَ قوم قط إلا أصبح بعضهم كافرًا يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا، وقرأ ابن عباس -رضي الله عنهما-: "وتجعلون شكركم أنكم تكذبون"([9]).

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

يعني: هذه صورة من صور التكذيب والكفر، كفر النعمة بأن تضاف إلى غير الله -عز وجل- ، لكن المعنى لا ينحصر في هذا، وإنما هذه إحدى الصور الداخلة تحته.

وقال مالك في الموطأ، عن صالح بن كيْسَان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد الجُهَني أنه قال: صلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال

ربكم؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)([10])، أخرجاه في الصحيحين، وأبو داود، والنسائي، كلهم من حديث مالك، به.

وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئسما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به؛ ولهذا قال قبله: أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ.

يعني: هنا على قول الحسن اعتبر القرينة التي قبله أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ دالة على أن الرزق المراد به الوحي، رزق الأرواح وهو هذا الهدى الذي أنزله الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، تجعلون رزقكم أنكم تكذبون قابلتموه بالتكذيب والإعراض عنه، وهذا معنى تحتمله الآية، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد في هذا جمع بين المعنيين قال: كل هذا رزق، رزق الأرواح، ورزق الأبدان، فقابلوا ذلك جميعاً بالتكذيب والإعراض، أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وقالوا: سحر وكهانة، وقول البشر، وأعرضوا عن شكر نعمة الله -عز وجل- عليهم بإدرار الأرزاق وعبدوا غيره.

وهذا وجه من الوجوه الجيدة في الجمع بين المعاني، وكلام ابن القيم مثال على كيفية الجمع بين المعاني التي يذكرها السلف، وهو كثير جداً في كلام ابن القيم لكن هذا مثال جيد يدل على قدرة في التعامل مع الأقوال.

قال ابن القيم -رحمه الله-: " ثم قال سبحانه: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه، وفاطره ومحبته والشوق إليه، والأنس بقربه"([11])، يعني الرزق مفرد مضاف إلى المعرفة "الكاف"، وهو للعموم فيشمل كل رزق، وهذا الهدى الذي أنزله الله -عز وجل- هو رزق، فحمله على أهم معانيه، وقال ابن القيم -رحمه الله-: "والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب

ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين، ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين، ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس، وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر، والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله تعالى تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه، ولابد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معا، وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم"([12]).

والظاهر أنه –والله أعلم– فيه تحريف، فهذا يصح أن يراد بالآية، وتدل عليه لكن المعنى أوسع منه.

فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ سورة الواقعة:83-87.

يقول تعالى: فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ أي: الروح الْحُلْقُومَ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار كما قال: كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ سورة القيامة:26-30.

هذا في الخلاصة، المرحلة النهائية من مراحل الإنسان التي ينتقل فيها بفترة وجيزة من الدنيا إلى الآخرة إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ هذه التراقي، هذه العظام يقال لها: التراقي، فبلغت هنا فيكون الجسد قد مات، جثة هامدة ما بقي إلا الروح تحشرج، لها صوت، فهذه أحلك اللحظات التي يمر بها الإنسان، فأهله حوله وينظرون إليه ولا يستطيعون تخليصه، يرونه يفارق بعد لحظات، نفسه تحشرج تخرج وهم لا يستطيعون تخليصه وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ سورة الواقعة:84-85، كما قال الله –عز وجل–: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ سورة ق:16.

ولهذا قال هاهنا: وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ أي: إلى المحتضر وما يُكابده من سكرات الموت.

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أي: بملائكتنا وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال في الآية الأخرى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ سورة الأنعام:61-62.

وقوله: فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا معناه: فهلا تَرجِعُون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد إن كنتم غير مدينين.

من أهل العلم من فسر "المدينين" بالمجازين والمحاسبين، وهو معنى معروف صحيح لهذه اللفظة، تقول: كما تدين تدان، كما تعامل الناس يعاملونك، كما تُجازِي تُجازَى، ولهذا قيل له: "يوم الدين" أي يوم الجزاء والحساب

من أهل العلم من فسر "المدينين" بالمجازين والمحاسبين، وهو معنى معروف صحيح لهذه اللفظة، تقول: كما تدين تدان، كما تعامل الناس يعاملونك، كما تُجازِي تُجازَى، ولهذا قيل له: "يوم الدين" أي يوم الجزاء والحساب

، فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ يعني إن كنتم غير مجازين ولا محاسبين كما تزعمون ما هناك بعث ولا حساب، ولا كذا فأرجعوها إن كنتم صادقين، فطالما أنكم لا تؤمنون بالجزاء فأرجعوا هذه الروح إلى الدنيا لتبقى فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، وكلمة مدين "دان" لها معنى آخر غير الجزاء، تقول: "دان له الناس" بمعنى انقادوا وذلت نفوسهم ذلوا له تقول: "هذا طريق مذلل" ليس معناه أنه محاسب ومجازي، وإنما مُعبّد ممهد، فإِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، يعني: غير مقهورين مستذلين مستعبدين تحت ملك قاهر يتصرف فيكم كما يشاء فخلّصوا أنفسكم، خلصوا هذه إن كنتم غير مربوبين لله -عز وجل- غير مقهورين تحت سلطانه وحكمه، وتصرفه التام فخلصوا صاحبكم هذا الذي نفسه تحشرج، فهذا معنى جيد، وقيل:من قال غير مجازين أو محاسبين هو معنى قريب وهو أحد معاني مدانين، وقال به كثير من السلف، وممن اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن

جرير -رحمه الله-، فهذه معانٍ صحيحة، وابن القيم له كلام على هذه جيد فقال -رحمه الله-: "فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟، قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون.."([13]).

ثم قال -رحمه الله-: " عبيد لمالك قادر متصرف فيهم، قاهر آمرناهٍ، أو لا يقرون بذلك، فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم، وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له نداً ولا شريكاً، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه، وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء والذي هو عبد مملوك من جميع الجهات، وهذا الاستدلال لا محيد عنه، ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية، والإقرار بالعبودية، ولله ما أحسن جزالةَ هذه الألفاظ وفصاحَتها وبلوغَها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، والاختصارَ التام، ونداءها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالَها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث"([14]).

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: " المعنى: فلولا ترجعونها أي تردون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مربوبين مملوكين، إن كنتم صادقين، وهنا الثاني شرط للأول، والمعنى إن كنتم صادقين في قولكم فهلا تردونها إن كنتم غير مدينين"([15])، هنا فسرها بمربوبين، وفي الموضع الأول قال: مجزيين محاسبين ثم ربطه بـ المربوبين، وقال ابن القيم -رحمه الله- أيضاً: " أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين"([16])، فالآن صرح بالمعنيين، هذا من أحسن ما يكون، وعامة من يتكلم في التفسير يقول: القول الأول والقول الثاني، ومن يكتب في التفسير يأتي باختلاف التنوع الواضح الصريح ويقول: القول الأول والثاني والثالث وهكذا.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: " ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته، وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم رباً قاهراً متصرفاً فيهم يميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما أن لا يقروا بربٍّ هذا

شأنه، فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليه، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم، وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته، أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف، ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليكم أحكامه، وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم"([17]).

---

[1]- رواه ابن ماجه بهذا اللفظ، كتاب اللباس، باب الصور في البيت، برقم (3650)، والنسائي، كتاب الصيد والذبائح، باب امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب، برقم (4281)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (3724).

[2]- رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (13039)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (2111)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (7780).

[3]- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (229)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[4]- المصدر السابق (230).

[5]- المصدر السابق (230-231).

[6]- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (1/ 268-269).

[7]- رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، برقم (2882)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعليٍّ -رضي الله عنهم- من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، برقم (78).

[8]- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (234-235).

[9]- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (154/23)، تحقيق: أحمد شاكر.

[10]- رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، برقم (810)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (71)، وأبو داود، كتاب الطب، باب في النجوم، برقم (3906).

[11]- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (235).

[12]- التبيان في أقسام القرآن (235-236).

[13]- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (237).

[14]- المصدر السابق (237-238).

[15]- بدائع الفوائد، لابن القيم (3/766)، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وغيره، مكتبة نزار مصطفى الباز -مكة المكرمة، ط1، سنة النشر: 1416هـ.

[16]- الجواب الكافي، لابن القيم (146)، دار الكتب العلمية -بيروت.

[17]- المصدر السابق (146).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الواقعة من الآية ٨٨ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقال سعيد بن جُبَيْر، والحسن البصري: {فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} [سورة الواقعة:٨٦] غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس.

وعن مجاهد: {غَيْرَ مَدِينِينَ} غير موقنين.

{فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [سورة الواقعة:٨٨-٩٦].

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ} أي: المحتضر، {مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} أي: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول: ((أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان))[١].

قال علي بن طلحة، عن ابن عباس: {فَرَوْحٌ} يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة.

وكذا قال مجاهد: إن الرَّوْح: الاستراحة.

وقال أبو حَزْرَة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جُبَيْر، والسدي: الروْح: الفرح. وعن مجاهد: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ}: جنة ورخاء، وقال قتادة: فروح ورحمة، وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: {وَرَيْحَانٌ}: ورزق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرّبًا حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ} هذه المعاني التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ} بالحياة الطيبة أو غير ذلك مما ذكر كلها متقاربة، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-

---

١- رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، برقم (١٨٣٣)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، برقم (٤٢٦٢)، وأحمد في المسند، برقم (٨٧٦٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، كلهم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٠٩).

لأن الروْح إذا قال الإنسان: وجدت روْحاً فإن هذا يدل على الراحة، ويدل على السعة، ويدل على الحياة الطيبة إذا وجد الإنسان شيئاً يستروح به من كرب الحر من النسيم البارد مثلاً، يقول: وجدت روحاً وهكذا فهذه المعاني التي يذكرونها كلها ترجع إلى هذا، وهكذا فعل ابن جرير -رحمه الله- جمع بينها، فهذا كله من قبيل اختلاف التنوع، ولا يحتاج معه إلى ترجيح، والريحان فُسر بمعانٍ تقارب ذلك، والمعنى الأخير الذي ذكره وقال: وريحان: رزق كما مضى في سورة الرحمن، ويعني رزقاً في الجنة، فروح وريحان، روح أي سعة، ونعيم وبهجة وسرور وراحة، فالجنة دار الكرامة والراحة والبهجة والسعة، ففيها السعة والبرودة، روْح، والريحان فسر بالرزق وفسر بالرحمة، وفسر بالريحان المعروف، وابن جرير -رحمه الله- يفسره بهذا، يقول: إن الإنسان عند الموت تبشره الملائكة بهذا، وتأتيه بغصن من الجنة غصن ريحان فلا يموت إلا وقد عرف إلى أي شيء يصير {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ}، ومثل هذا يعبر به {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ} إلى ما يصير إليه من محل الكرامة واللذة والحبور والسعة، والنعيم والمكان الطيب، والله تعالى أعلم.

{وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يُؤْتَى بغصن من ريحان الجنة، فيقبض روحه فيه.

وقال محمد بن كعب: لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار.

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش))[٢]، الحديث.

روى الإمام أحمد عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيت شيخًا أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة، فسمعته يقول: حدثني فلان بن فلان، سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه))، قال: فأكب القوم يبكون فقال: ((ما يُبكيكم؟))، فقالوا: إنا نكره الموت، قال: ((ليس ذاك، ولكنه إذا حُضِر {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}، فإذا بُشِّر بذلك أحب لقاء الله -عز وجل-، والله، -عز وجل-، للقائه أحب {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} فإذا بُشِّر بذلك كره لقاء الله، والله للقائه أكره))[٣].

هكذا رواه الإمام أحمد، وفي الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها- شاهد لمعناه.

وقوله: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} أي: وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين، {فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين.

كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

٢- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، برقم (١٨٨٧).

٣- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، برقم (٦١٤٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، برقم (٢٦٨٤)، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (١٨٢٨٣)، وقال محققوه: إسناده حسن.

وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [سورة فصلت:٣٠-٣٢].

وقال البخاري: {فَسَلامٌ لَكَ} أي: مُسلّم لك أنك من أصحاب اليمين. وألغيت "أنّ" وهو: معناها، كما تقول: أنت مُصدَّق مسافر عن قليل، إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل، وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقيًا لك من الرجال، إن رفعت "السلام" فهو من الدعاء.

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية، ومال إليه، والله أعلم.

هذه المعاني التي أوردها كلها ترجع إلى أحد المعنيين اللذيْن تحتملهما الآية من جهة "كاف" الخطاب إلى من تتوجه {فَسَلامٌ لَكَ}، هل تتوجه لصاحب اليمين سلام لك يا صاحب اليمين؟ أو تتوجه مثلاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ فهذا يحتمل، فإذا كانت تتوجه مثلا إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- سلام لك أي لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، سلام لك لا ترى فيهم إلا ما يسرك هذا معنى ذكره بعض أهل العلم، وقريب منه قول من قال: فلا تهتم بهم فإنهم يسلّمون من عذاب الله، لا تهتم بهم لا ترى فيهم إلا ما تحب، وهكذا قول من قال: {فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} أنه يصل سلام لك منهم، وقول من قال: أنت سالم من الاغتمام بهم كالأول، أو أنهم يسلّمون عليك ويدعون لك، هذا كله على أساس أن "كاف" الخطاب ترجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، {فَسَلامٌ لَكَ} أنه تسليم منهم، أو أن ذلك بمعنى أنهم سالمون فلا تهتم لشأنهم أو سلام لك منهم، ويحتمل أن تكون "الكاف" هنا خوطب بها صاحب اليمين، وهذه كل المعاني التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي ترجع إلى هذا، سلام عليك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، فإخوانك من أصحاب اليمين يسلمون عليك، وابن جرير فسره بمعنى آخر بمعنى سلام لك أنك من أصحاب اليمين فسلِمتَ من عذاب الله، سلام لك أنك من أصحاب اليمين، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر القول الأخير، أو ما قبل الأخير، {فَسَلامٌ لَكَ} قال: "**أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين**" {فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}، فالآية تحتمل أن يكون ذلك متوجهاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فـــ "السلام" بمعنى السلامة، "سلام لك" فيحتمل أن يكون تسليماً منهم، ويحتمل أن يكون ذلك متوجهاً إلى صاحب اليمين، بمعنى التسليم أو بمعنى البشارة بالسلامة، وقد يكون بمعنى التسليم له، بمعنى مسلم لك أنك من أصحاب اليمين، كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، لكن ما قبله أوضح منه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، {فَنزلٌ} أي: فضيافة {مِنْ حَمِيمٍ} وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، {وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

ثم قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وأما قوله تعالى: {وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [سورة

الصافات:١٠٩]، {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ} [سورة الصافات:٧٩]، ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان، وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة، فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالما غانماً، وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة، فإن قيل: فهذا فرق صحيح لكن ما معنى اللام في قوله: "لك"؟ ومن هو المخاطب بهذا الخطاب؟ وما معنى حرف "مِن" في قوله: {مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} فهذه ثلاثة أسئلة في الآية، قيل: قد وفينا بحمد الله تعالى بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية، وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالاً للفائدة –بحول الله وقوته– وإن كنا لم نر أحداً من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول المعنى فمسلم لك أنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوْم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له، ومن ذلك قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} [سورة الرعد:٢٥] ولم يقل: عليهم اللعنة، إيذانا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء:١٨]، ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام، ومنه هذه الآية فسلام لك أي ثبت لك السلام وحصل لك، وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئا لك يا من هو منهم، ولهذا –والله أعلم– أتى بحرف مِن في قوله: من أصحاب اليمين والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائناً من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئا لك من اتباع رسول الله وحزبه، أي كائناً منهم، والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم، أي كائناً منهم فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه منهم من حام وما ورد، ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه والله تعالى الموفق المان بفضله"[٤].

من أهل العلم من قال: إن الإشارة في قوله: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} ترجع إلى ما قصه الله وأخبر به في هذه السورة، وكثير من المفسرين يقولون: إنها ترجع إلى الأخير، وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله– ومعنى {حَقُّ الْيَقِينِ}: عند الكوفيين من النحاة أنه من باب إضافة الشيء إلى نفسه، بمعنى مثلما تقول: {وَلَدَارُ الآخِرَةِ} [سورة يوسف:١٠٩] فالدار هي الآخرة {وَمَكْرَ السَّيِّئِ} [سورة فاطر:٤٣] فالمكر هو السيئ، {حَقُّ الْيَقِينِ} فالحق هو اليقين بهذا الاعتبار على هذا المعنى، والله أعلم.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} عن جابر –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرِسَتْ له نخلة في الجنة))[٥].

٤- بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٧٤/٢– ٣٧٥).

٥- رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، برقم (٣٤٦٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر، وبرقم

هكذا رواه الترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب، وروى البخاري في آخر كتابه عن أبي هُريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم))[6]، ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود.

آخر تفسير سورة الواقعة، ولله الحمد والمنة.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} سبق الإشارة إلى هذا، منهم من يقول: سبِّح متلبساً باسمه، ومنهم من يقول: سبح اسمه، نزه اسمه، ومنهم من يقول: سبح باسم ربك، يعني سبح ربك، نزه ربك ذاكراً اسمه، فالاسم هنا مفرد مضاف يفيد العموم، سبحه بذكر أسمائه الحسنى، يعني سمه بأسمائه، سبح بتسميته بأسمائه الحسنى، هكذا قال ابن جرير -رحمه الله- ومن أهل العلم المعاصرين الشنقيطي، وترد هذه الاحتمالات في قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ }** [سورة الأعلى: ١]، نزِّه الاسم عن كل ما لا يليق به، فالذين اشتقوا مثلاً من أسماء الله -عز وجل- أسماء الإله المزعومة العزى واللات لم ينزهوا أسماء الله -عز وجل-، ولم ينزهوا الله، وهذه الأمور متلازمة بينها ملازمة، يعني من قال: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ}**، سبح ربك بذكر أسمائه يعني جعله تسبيحاً للرب، أو سبح متلبساً باسمه، يكون التسبيح لله، ومن نظر إلى أنها تسبيح وتنزيه للاسم فبين ذلك ملازمة لا تخفى، فمن نزه أسماء الله -عز وجل- فإن ذلك من تنزيه الله، ومنهم من يقول: إن المقصود بالاسم المسمى يعني الله، ومنهم من قال: المراد به الأسماء، تنزه هذه الأسماء عن كل مالا يليق **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**، والله أعلم.

(٣٤٦٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك، برقم (١٨٤٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٤٢٩).

٦- رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته، برقم (٦٣٠٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، برقم (٢٦٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

بداية سورة الحديد

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال صاحب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير -رحمهما الله تعالى-: **تفسير سورة الحديد، وهي مدنية.**

وروى الإمام أحمد عن بن أبي بلال، عن عِرْبَاض بن سارية، أنه حدثهم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: "إن فيهن آية أفضل من ألف آية"[1].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من طرق عن بقية، به، وقال الترمذي: حسن غريب.

هذا الحديث لا يخلو من ضعف؛ لبعض رواة إسناده: بقية بن الوليد مدلس، وفيه أيضاً راوٍ آخر مجهول، والشيخ الألباني حسن الحديث.

والآية المشار إليها في الحديث هي -والله أعلم- قوله: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال بعض السلف كيحيى بن أبي كثير -رحمه الله-: إنها الآية التي في آخر سورة الحشر.

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد:١-٣].

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة الإسراء: ٤٤].

قال: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}** التسبيح هو التنزيه، وذكره هنا بصيغة الماضي، وفي الآية الأخرى **{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}** بصيغة المضارع، وفي سورة الأعلى **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [سورة الأعلى:١] والأمر للمستقبل، فالله -تبارك وتعالى- مستحق للتسبيح في الأزمنة الثلاثة في الماضي والحاضر والمستقبل، وهنا قال: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** فـــ "ما" هذه تفيد العموم، ويوضح ذلك قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: **{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** [سورة الإسراء:٤٤]، فدل ذلك على أن المسبحات تشمل ما يعقل وما لا يعقل، ويمكن أن يقال: إنه عبر هنا بـــ"ما" التي تستعمل فيما لا يعقل من باب التغليب، لأن الجمادات، وما

١- رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٩٢١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٦٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

أشبه ذلك أكثر وأغلب، فعبر به، وهذا التسبيح على ظاهره، فهي تسبح تسبيحاً حقيقياً، لكن لا نفقه تسبيحها كما قال الله -عز وجل-، ولا يفسر التسبيح بالخضوع أو أنها مربوبة مخلوقة لله -عز وجل-؛ لأن الله قال: {وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، والله -عز وجل- قال: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠]، وهنا قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ}، فكذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث))[٢]، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى، كل هذا يدل على أنه تسبيح حقيقي، وأن الله -عز وجل- أعطى هذه المخلوقات إدراكاً الله تعالى أعلم به، فهي تسبح حقيقة لكن نحن لا نفقه تسبيحها، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن نقيق الضفدع تسبيح[٣].

وقوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي: الذي قد خضع له كل شيء {الْحَكِيمُ} في خلْقه وأمره وشرعه.

٢- رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٣- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٣٧١٦)، وقال: لم يرفع هذا الحديث عن شعبة إلا حجاج تفرد به المسيب بن واضح، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (٤٧٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحديد من الآية ٢ إلى الآية ٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ}** أي: **هو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** أي: **ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.**

وقوله: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية -رضي الله عنه-: أنها أفضل من ألف آية[١].

وروى أبو داود عن أبي زُمَيْل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال ما هو؟ قلت والله لا أتكلم به قال: فقال لي: أشيء من شك؟ -قال: وضحك- قال: ما نجا من ذلك أحد قال حتى أنزل الله {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} الآية [سورة يونس:٩٤]، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحوٍ من بضعة عشر قولا.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الأثر الذي روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- يعني كأنه أقر بهذا قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله الآية.

فالمقصود بقول ابن عباس هذا هو ما ورد في الحديث من أن الشيطان يأتي للإنسان ويقول له: من خلق كذا من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: يبلغ به من خلق الله؟!!!، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أرشدنا إلى الطريق الصحيح في مثل هذه القضايا في التفكير وقطع الوساوس، كذلك حينما شكا إليه بعض أصحابه ما يلقون من الوسوسة التي يلقيها الشيطان في قلوبهم، حتى إن أحدهم ليجد في نفسه الشيء فيتعاظم أن يتحدث به، أي يتكلم به، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أوَ قد وجدتموه؟! ثم قال: ((ذاك صريح الإيمان))[٢]، وفي بعض الروايات قال: ((الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة))[٣]، ومعنى ((ذاك صريح الإيمان)): من

١- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول عند النوم، برقم (٥٠٥٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٧١٦٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة ابن أبي بلال.

٢- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، برقم (١٣٢).

٣- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، برقم (٥١١٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أهل العلم من قال: المراد به أي: هذه الخواطر والوساوس هي صريح الإيمان، أما الشاك فهو كالبيت الخرب، والشيطان ما يفعل بالبيت الخرب، فهو استطاع أن يضل قوماً عن الإيمان بالله –عز وجل– بالكلية، وصاروا من الكفار بمختلف طوائفهم، واستحوذ على آخرين حتى شغلهم بالمعصية عن الطاعة، فإذا رأى من العبد إقبالاً على الله –عز وجل– وصدقاً في معاملته صار يزعجه، ويقلقه بإلقاء الخواطر السيئة الفاسدة، ولذلك أكثر ما يحصل هذا للإنسان إذا تاب واستقام في بداية هدايته، فإنه يزعجه ويقلقه بكثرة، والشيطان يريد ولو بإشغال وإدخال الحزن في النفس، وإن لم يظفر منه بانحراف وضلال، ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر عن الرؤية السيئة أنها من الشيطان؛ ليدخل عليه الحزن ولو في النوم، وكذلك أخبر الله أن النجوى من الشيطان فقال: **{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** [سورة المجادلة:١٠]، ليدخل في قلب هذا الإنسان –الذي يتناجون دونه– الحزن، لو كنت بالمقام الذي يؤهلني في نظرهم للمشاركة في الحديث لأدخلوني فيه، أو أنهم يتحدثون عن شيء يتعلق بي، فيحزن، فكان ذلك من الشيطان، يعني: من تزيينه، فهو ولو بإدخال الحزن فقط يشعر أنه حقق هدفه، والمقصود هنا من قول ابن عباس –رضي الله عنه– ونحو ذلك: هو ما يلقيه في القلب من الخواطر السيئة التي ينبغي على العبد ألا يبقيها، ولا يقرها، يدفعها فهذه لا تضره، وليس مقصود ابن عباس أن الشك متحقق وحاصل وثابت في قلب العبد وإيمانه، فإن هذا لا ينجو، فالإيمان لابد أن يكون راسخاً، ويقين العبد متحققاً، لابد من هذا.

والإنسان الشاك يكون كافراً، فمن أنواع الكفر كفر الشك، والنصوص تدل على هذا المعنى، والله –عز وجل– نهى رسوله –صلى الله عليه وسلم– عن الريب **فقال: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [سورة البقرة:٢] فهو نفيٌ للريب عنه، وهو المتضمن أيضاً للنهي، أي لا ترتابوا فيه، فلابد من الإيمان الجازم، وابن عباس لا يقصد أن هذا الإنسان يكون شاكاً أبداً، وإنما ما يلقيه الشيطان في قلبه من الخواطر السيئة التي يدفعها العبد ويأباها ويكرهها، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((ذاك صريح الإيمان))، قيل: المراد به هذه الخواطر، ما يفعل الشيطان بالبيت الخرب، وقيل: المراد تلك الكراهة كما شكوا إليه، أما أحدهم فلأن يتردى من شاهق أهون عليه أو أحب إليه من أن يتكلم بذلك فقال: ((ذاك صريح الإيمان)) ما داموا كارهين لهذا الشيء، ليس هذا هو الكفر وإنما هو الإيمان.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحوٍ من بضعة عشر قولا.

وقال البخاري: "قال يحيى: الظاهر على كل شيء علمًا، والباطن على كل شيء علمًا"[٤]**.**

قال شيخنا الحافظ المزيّ: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه: "معاني القرآن".

وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يدعو عند النوم: ((اللهم، رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل

٤– صحيح البخاري، (٢٦٨٧/٦)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت.

شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء وأنت الباطن ليس دونك شيء، اقضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر))[٥].

ورواه مسلم في صحيحه عن سُهَيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام: أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: ((اللهم، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم، رَبَّنَا وربّ كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر))، وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة عن النبي –صلى الله عليه وسلم[٦].

هذا الحديث هو الذي ينبغي أن تفسر به الآية، ولا يعدل إلى غيره، فـ"الظاهر" الذي ليس فوقه شيء، و"الباطن" الذي ليس دونه شيء، فسره بعض أهل العلم من جهة القرب كما قال ابن جرير –رحمه الله–، فسره بقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [سورة ق:١٦]، الباطن الذي ليس دونك شيء، يعني في قربك، والأول والآخر واضح، والله أعلم.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة الحديد:٤-٦].

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة "الأعراف" بما أغنى عن إعادته هاهنا.

{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ} أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} من زرع ونَبات وثمار، كما قال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة الأنعام: ٥٩].

قوله –تبارك وتعالى– هنا: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ} يحمل على أعم معانيه، وما ذكره السلف –رضي الله تعالى عنهم– من المعاني في هذا فإنه من قبيل التفسير بالمثال، إذا قال قائل: إن {مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ} أي: من المطر، من الماء الذي يدخل فيها، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الزمر:٢١]، أو الحب فإن ذلك من قبيل المثال فكل ما يتصور هو داخل في هذا المعنى من الحب والماء والأموات إلى غير ذلك كله يعلمه الله –عز وجل–، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} ما الذي يخرج من الأرض؟ النبات، المعادن النفط كل ما يمكن أن يتصور أن يخرجه الله –عز وجل– من الموتى {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:٢] ما يخرج منها من الكنوز، وغير ذلك.

٥- رواه أحمد في المسند، برقم (٩٢٤٧)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٦- رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم (٢٧١٣).

وقوله: {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} أي: من الأمطار، والثلوج والبرَد، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة "البقرة" أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى.

وقوله: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: ((يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل))[٧].

وقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم، من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال: {أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة هود:٥]، وقال: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [سورة الرعد:١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٨].

قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} فسره السلف –رضي الله عنهم– بلازمه وهو أنه معكم بالعلم، ومعلوم أن المعية على نوعين:

معية خاصة بالتأييد والنصر {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] وذلك معيته –تبارك وتعالى– لأوليائه من الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– والمؤمنين.

ومعية عامة بالعلم والاطلاع والإحاطة {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ} [سورة المجادلة:٧]، وذلك بالعلم، والإمام أحمد –رحمه الله– احتج على هذا المعنى بأن أول الآية في العلم وآخرها في العلم {أَلَمْ تَرَ} ثم ختمها أيضاً: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

وقوله: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} أي: هو المالك للدنيا والآخرة كما قال: {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأولَى} [سورة الليل:١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ} [سورة القصص:٧٠]، وقال {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سورة سبأ:١]، فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلهما عبيد أرقّاء أذلاء بين يديه كما قال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [سورة مريم:٩٣-٩٥]، ولهذا قال: {وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إنْ

٧- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله –عليه السلام–: "إن الله لا ينام"، وفي قوله: "حجابه النور لو كشفه لأحرق سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (١/١٦١)، رقم (١٧٩).

٨- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (١/٢٧)، رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله –سبحانه وتعالى– (١/٣٦)، رقم (٨).

يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، {وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٤٠] وكما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٧].

وقوله: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي: هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يُطوِّل الليل ويُقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعًا ثم قيظًا ثم خريفًا، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه، {وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت.

الأقرب في قوله –تبارك وتعالى–: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} هو ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا، وهو اختيار ابن جرير وعامة أهل العلم من المحققين أن المراد بذلك أنه يُدخل الليل في النهار والنهار في الليل، بمعنى أن الليل يأخذ من ساعات النهار فيطول ويتقاصر النهار، والعكس، فهذا معنى {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، والله تعالى أعلم.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [سورة الحديد:٧-١١].

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

في قوله هنا: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} وكذا في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة النساء:١٣٦] العلماء في مثل هذا كثيراً ما يقولون: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} يعني: استمروا على الإيمان، واثبتوا على الإيمان، وهذا من المعاني الداخلة فيه، والمعنى –والله أعلم– أوسع من هذا، كما نقول –أيضاً– في الدعاء في سورة الفاتحة {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦]، وقد هدانا الله –عز وجل– إلى الإسلام، فـــ {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} هو الإسلام فيقولون: المعنى: ثبتنا، يعني هو دعاء بالدوام والثبات والاستمرار على السير على الصراط المستقيم، فهذا أحد المعاني الداخلة تحته، وإلا فإن المعنى أوسع من ذلك، وهو أن كل ما ينزله الله –عز وجل– على رسوله من شرائع الدين، ومن الآيات فهو حق يجب الإيمان به، فـــ "الصلاة" إيمان، و"الصيام" إيمان، و"الحج" إيمان، فكل تشريع جديد وكل عمل شرعه –تبارك وتعالى– فهو إيمان، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} فيؤمن بالله –عز وجل–، ومن إيمانه بالله أن يؤمن بكل ما أخبر الله به، وأن يكون عابداً له موحداً مطيعاً ونحو ذلك؛ ولذلك كان الإيمان قولاً وعملاً، فشرائع الإسلام جميعاً

داخلة في ذلك، فتنزل تباعاً، فيحتاج الناس إلى إيمان جديد حتى اكتمل الإيمان فأنزل الله -عز وجل-: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [سورة المائدة:٣]، فكان أول ما يجب عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، ثم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى اكتملت شرائع الإسلام، ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- معاذاً إلى اليمن قال: ((ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله...))[9]، ثم ذكر له كيف يصنع إذا أطاعوه وأجابوه شيئاً فشيئاً الصلاة ثم الصيام إلخ، فإذا قال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، فإذا قيل: هذا الخطاب متوجه للمشركين معناه ادخلوا في الإسلام، لكن هذه السورة مدنية فالخطاب متوجه لأهل الإيمان بالدرجة الأولى، والله تعالى أعلم، فيكون المعنى على هذا الشمول، وهنا في قولهم: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} هذه العبارة {مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} تشعر بأن الذي معهم عارية في أيديهم، فيكون ذلك دافعاً لهم، هذا مال الله {جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}، فهو ليس بدائم وثابت في أيديكم فيكون ذلك مُخفِّفاً على النفوس إخراجَ المال المحبوب إلى نفوسهم، فكما جعلهم مستخلفين فيه فسيخلفهم غيرهم في هذا المال فهو شيء مؤقت باليد، جعله الله -عز وجل- فيها وعما قريب سيفارقهم أو يفارقونه.

وقوله: {مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان.

قال الحسن -رحمه الله-: بلغنا أن الغبن في ثلاث: رجل آتاه الله مالاً ولم يؤدِّ حق الله فيه، فصار إلى وارث أنفقه في سبيل الله فدخل الجنة وذاك دخل النار، ورجل آتاه الله علماً فلم يعمل به، فبلّغه إلى من عمل به فدخل الجنة، وذاك دخل النار، والثالث رجل مملوك أطاع الله، وأدى حق سيده فدخل الجنة، وسيده عمل بمعصية الله فدخل النار.

روى الإمام أحمد عن مُطَرِّف -يعني ابن عبد الله بن الشّخّير- عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: "{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [سورة التكاثر:١]، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟"[10].

ورواه مسلم، وزاد: "وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس"[11].

وقوله: {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال: {وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}؟ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به؟ وقد روينا في الحديث من طُرُق في أوائل شرح "كتاب الإيمان" من صحيح البخاري: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: "أيُّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟" قالوا: الملائكة، قال: "وما لهم لا يؤمنون وهم عند

٩- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، برقم (١٤٢٥).

١٠- رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٣٠٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فمن رجال مسلم وأصحاب السنن، ومسلم في بداية كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٨).

١١- رواه مسلم، في بداية كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٩).

ربهم؟" قالوا: فالأنبياء، قال: "وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟"، قالوا: فنحن؟ قال: "وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صُحُفًا يؤمنون بما فيها".

وقد ذكرنا طرفًا من هذا في أول سورة "البقرة" عند قوله: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [سورة البقرة: ٣]**.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحديد من الآية ١٠ إلى الآية ١٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ} [سورة الحديد:٨]، كما قال: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة المائدة:٧]، ويعني بذلك: بيعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم.

وقوله: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الحديد:٩] أي: حججًا واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات، {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، {وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}، أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

ولما أمرهم أولا بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضًا على الإنفاق، فقال: {وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: أنفقوا ولا تخشَوا فقرًا وإقلالا فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة سبأ:٣٩]، وقال: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [سورة النحل:٩٦] فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالا، وعلم أن الله سيخلفه عليه.

وقوله: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [سورة الحديد:١٠] أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديدًا، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ ولهذا قال: {أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}.

والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا: صلح الحديبية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}** النفقة هنا الأقرب -والله تعالى أعلم- أن تحمل على العموم كالنفقة في سبيل الله، كما يدل عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو

أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه))[1]، ومن النفقة في سبيل قتال المشركين فهو نوع من النفقة في سبيل الله، وابن جرير -رحمه الله- يحمله على هذا المعنى الخاص: النفقة في قتال المشركين خاصة، ولربما تكون القرينة في ذلك هي أن الله -عز وجل- قال: **{لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}** ذكر النفقة والقتال، وفي مواضع كثيرة الله -عز وجل- يذكر النفقة والجهاد بالنفس والمال فعدها ابن جرير -رحمه الله- من هذا القبيل -والله أعلم-، ولو حمل ذلك على العموم: من أنفق في سبيل الله مطلقاً على أساس أنهم كانوا في حاجة وشدة لكان أولى، وكذلك المراد بقوله: **{مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ}** مثل الشعبي والزهري وابن جرير يقولون: إن المراد صلح الحديبية، وعامة أهل العلم سلفاً وخلفاً يقولون: هو فتح مكة هذا الذي عليه عامة أهل العلم، ولكلٍّ مستند، يعني: الذين قالوا: إنه فتح مكة نظروا إلى أن الفتح إذا أطلق فهو متوجه إلى فتح مكة عند الإطلاق، وذلك به أعلق، وهو المعنى الأشهر، وإنما تحمل نصوص القرآن على المعنى الأشهر، والأغلب عند الإطلاق، ولا شك أن الحال بعد فتح مكة لم تكن كالحال قبلها، انفسح المجال أمام الإسلام والمسلمين، ودخلت القبائل في دين الله، وجاءت الوفود من نواحي جزيرة العرب تبايع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يبقَ بعد ذلك إلا ما وراء بلاد العرب أو جزيرة العرب، قتال فارس والروم، وقبل ذلك كانت الحرب قائمة على أشدها مع العدو التقليدي وهم قريش، لكن ما جاء فتح مكة حتى انتهى ذلك جميعاً، وأمْر اليهود بجميع طوائفهم في المدينة وفي خيبر قد انتهى، والعلماء -رحمهم الله- يقسمون طبقات الصحابة ومراتب الصحابة إلى طبقات: أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ويجعلون من أسلم بعد فتح مكة بعد ذلك، كما أن أيضاً صلح الحديبية كان فتحاً، كما قال الله تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [سورة الفتح:١]، فسماه فتحاً، وتغيرت الحال بعده أيضاً، فانتشر الإسلام، وحصل للمسلمين سعة وغنائم كثيرة جداً، ولم تعد الحال كما كانت من الشدة والضيق في النفقة صار عندهم خيبر، وصار النبي -صلى الله عليه وسلم- له سهم فَدَك، ولهذا طالبه أزواجه بعد ذلك بالتوسعة في النفقة وصارت لهم أرض قريظة والنضير، فوسع الله -عز وجل- على المسلمين والمهاجرين أيضاً، فحصلوا ما حصلوا من هذه الغنائم، وقسم النبي -صلى الله عليه وسلم- بينهم أرض النضير؛ فلهذا يقال لصلح الحديبية: فتح، وتدل عليه الآية **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** لكن هنا قال: **{لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}** فجاء معرفا بـــ"ال" فمن نظر إلى الأشهر في الإطلاق قال: هو فتح مكة، ومن نظر إلى بعض القرائن الأخرى وأن صلح الحديبية يقال له: فتح، وأن الحال تغيرت بعده ويوجد بعض الأدلة كما وقع بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهما-، فخالد كأنه تكلم أو قال كلمة لعبد الرحمن بن عوف: تفتخرون علينا إنما هي أيام أو بأيام سبقتمونا فيها بالإسلام؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال، فخالد أسلم قبل فتح مكة، بوقت ليس بالطويل، ومع ذلك خاطبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه))، هذا يخاطب به رجلاً أسلم قبل فتح مكة، فمن مثل هذا أخذ

---

١ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٦٥٨)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٦٨٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، برقم (٩٨٨).

مثل ابن جرير أن المقصود صلح الحديبية، ولا شك أن الحال قبل صلح الحديبية لم تكن كالحال بعده، والذين أسلموا قبل ذلك ليس كمن تأخر إسلامهم بعد صلح الحديبية، فعبد الرحمن بن عوف وأبو بكر وعثمان وأمثال هؤلاء ليسوا كخالد وعكرمة، ومن أسلم قُبيل الفتح أو بعد الفتح، وكذلك أولئك الذين تأخر إسلامهم مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية والحارث بن هشام وأمثال هؤلاء فإنهم ليسوا كمن أسلم قبل ذلك، وجاء مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مؤزِّراً له، وبهم فتحت مكة، فهذا السبق له اعتبار، والحال التي كانوا عليها قبلُ ثم ما صارت إليه الحال بعد الوفود الذين جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد فتح مكة جاءوا و قد تهيأ كل شيء، والأمور في سعة والغنائم والفيء والفتوحات ولا يخشون شيئا، لكن جاءه وفد عبد القيس وقالوا: لا نستطيع أن نأتيك إلا بشهر حرام، جاءوا قبلُ وقالوا: إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فالوضع كان في شدة، بخلاف الوضع حينما يركب الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أنس -رضي الله عنه- قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهما- كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد -أو مثل الجبال- ذهبًا، ما بلغتم أعمالهم))[٢].

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجَه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: "صبأنا، صبأنا"، فلم يحسنوا أن يقولوا: "أسلمنا"، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك، والذي في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه))[٣].

هذا الحديث لا يقال معه: إن الفتح فتح مكة، وإن من أسلم بعد فتح مكة ليس كمن أسلم قبله بإطلاق، بحيث إن الذين أسلموا قبله يكونون على درجه واحدة، أبدا، هذا يدل على أنه حتى الذين اسلموا قبل فتح مكة كانوا يتفاوتون؛ ولهذا يمكن أن يقال: إن الذين أسلموا قبل صلح الحديبية ليسوا كالذين أسلموا بعد صلح الحديبية، والذين أسلموا بعد صلح الحديبية ليسوا كالذين أسلموا بعد فتح مكة، والحال تقتضي هذا وهذا، والحديث -والله أعلم- يفهم منه ما يدل على القول الأول، لكن لا يعني أن القول الآخر مردود، لكن إذا أثبتنا وأقررنا

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٣٨١٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أحمد بن عبد الملك الحراني، فقد روى له النسائي وابن ماجه، وهو ثقة، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٩٨).

٣ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (لو كنت متخذا خليلا) (٣/١٣٤٣)، برقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب تحريم سب الصحابة -رضي الله عنهم- (٤/١٩٦٧)، برقم (٢٥٤٠).

هذا التفاوت اتضح الأمر، والله أعلم، فأهل السنة يقولون: إن الصحابة على طبقات ومراتب، وليسوا على مرتبة واحده، فالعشرة ليسوا كغيرهم، وأهل بدر ليسوا كغيرهم، وأهل بيعة الرضوان ليسوا كغيرهم، لكن لا يوجد منهم أفضل من أهل بيعة الرضوان ممن وراءهم يعني ممن جاء بعد ذلك، بعدما حصل الأمر، فالذي حضر فتح مكة لم يكن بمنزلة من شهد بدراً، أو من بايع تحت الشجرة.

وقوله: {وَكُلًا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما قال: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٩٥]**، وهكذا الحديث الذي في الصحيح: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير))[٤] وإنما نَبَّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمَّه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق. وفي الحديث: ((سبقَ درهمٌ مائة ألف))[٥] ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر -رضي الله عنه- له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله -عز وجل-، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.**

وقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية؛ ولهذا قال: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} كما قال في الآية الأخرى: {أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة:٢٤٥] **أي: جزاء جميل ورزق باهر -وهو الجنة- يوم القيامة.**

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ "قال: ((نعم، يا أبا الدحداح))[٦]. قال أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، فقال: اخرجي، فقد أقرضته ربي -عز وجل- وفي رواية: أنها قالت له: رَبح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كم من

---

٤ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٤/٢٠٥٢)، رقم (٢٦٦٤).

٥ - رواه النسائي، كتاب الزكاة، باب جهد المقل، برقم (٢٥٢٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، برقم (١٥١٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٠٦).

٦ - شعب الإيمان (٥/١٢٥)، رقم (٣١٧٨).

عَذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح))[٧]، وفي لفظ: ((رب نخلة مدلاة، عروقها دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة))[٨].

{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة الحديد:١٢-١٥].

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم في عَرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم مَن نوره مثل الجبل، ومنهم مَن نوره مثل النخلة، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره في إبهامه يتَّقد مرة ويُطفَأ مرة، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

يقول: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} النور يحمل على ظاهره النور المعروف، خلافا لمن فسر ذلك بـــ "الهدى" مثلا، هُداهم يسعى بين أيديهم، أو قول من قال: إنه ثواب الأعمال، فهذا لا حاجة إليه وهو خلاف الظاهر، وهذه الآية كقول الله -تبارك وتعالى- في سورة التحريم {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} [سورة التحريم:٨]، وكل هذا يدل على أنه نور يكون بين أيديهم، وقوله: {وَبِأَيْمَانِهِمْ} يحتمل أن يكون النور بين يديه وعن يمينه، ويحتمل أن يكون قوله: {وَبِأَيْمَانِهِمْ} يعني: كتاب الأعمال كما فسره به طائفة من السلف، فهم يؤتون كتابهم بأيمانهم، ويسعى نورهم بين أيديهم وهؤلاء هم أصحاب الفوز الكبير، بخلاف المنافقين الذين ينطفئ نورهم، والنصوص تدل على هذا المعنى: أعني أنه نور حقيقي يكون بحسب حالهم، بحسب إيمانهم، بحسب هدايتهم، ولا يفسر بمجرد الهدى، أو ثواب الأعمال، فهذا تأويل لا حاجة إليه، والله أعلم.

وقال الضحاك: ليس أحد إلا يُعطَى نورًا يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين، فلما رأي ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طُفِئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا، أتمم لنا نورنا.

وقوله {وَبِأَيْمَانِهِمْ} قال الضحاك: أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [سورة الإسراء:٧١].

وقوله: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبدًا {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

---

٧ - رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، برقم (١٢٤٨٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح علـــى شـــرط مسلم، والحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، برقم (٢١٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

٨ - تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب (٣٣٣٩/١٠).

{بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ} كما قال الله -عز وجل-: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة التوبة:٢١-٢٢]، {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [سورة فصلت:٣٠-٣١] كل هذا يفسر قوله -تبارك وتعالى- {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ} يبشرون بجنات.

وقوله: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر.

وقال العَوْفي، والضحاك، وغيرهما، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورًا فلما رأي المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة، فلما رأي المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: {ارْجِعُوا} من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور.

ومعنى {انظُرُونَا} أي: انتظرونا، يطلبون منهم الانتظار وفي قراءة حمزة وهي متواترة كما هو معلوم {أَنْظِرونا} يعني أمْهلونا، يريدون أن يدركوهم وأن يلحقوا بهم، وأن يستضيئوا بنورهم بحجة أنهم كانوا يشتركون معهم في الدنيا في حضور الجُمع والجماعات وما إلى ذلك.

وقوله: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} قال الحسن، وقتادة: هو حائط بين الجنة النار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [سورة الأعراف:٤٦]، وهكذا روي عن مجاهد -رحمه الله-، وغير واحد، وهو الصحيح.

{بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ} أي: الجنة وما فيها {وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} أي: النار، قاله قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ} أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ {قَالُوا بَلَى} أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتم معنا، {وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ}، قال قتادة: {وَتَرَبَّصْتُمْ} بالحق وأهله، {وَارْتَبْتُمْ} أي: بالبعث بعد الموت {وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ} أي: قلتم: سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ} أي: ما زلتم في هذا حتى جاء الموت {وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} أي: الشيطان.

{وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ} كل ما كان يغرهم في الدنيا من الأشياء التي تتعلق بها نفوسهم، وتنجذب إليها سواء كان ذلك من التمنية بالتوبة، وصلاح الحال أو كان ذلك بالأماني الفارغة، أنهم سيكونون في الآخرة مع المؤمنين، أو ما كانوا يتوهمونه أنهم سيحلفون لله -عز وجل- كما كانوا يحلفون في الدنيا ثم بعد ذلك تحصل لهم النجاة، ولهذا إذا قاموا من قبورهم {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى

{شَيْءٍ} [سورة المجادلة:١٨]، يعني: كما أن الحلف هذا نجاهم من الأمور التي تضيق بهم في الدنيا، يظنون أنه ينجيهم عند الله -عز وجل- في الآخرة، فهذا كله من الأماني {وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}، وهو الشيطان، {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ} مازلتم على هذا حتى جاء أمر الله، فالمشهور عند أهل العلم أن المقصود به الموت، كما اختاره الحافظ ابن كثير هنا، وهو اختيار ابن جرير قبله، واختاره جماعة كالشنقيطي -رحمه الله-، ومن أهل العلم من قال: المراد بـــ {أَمْرُ اللَّهِ} يعني: الآخرة {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}، ويبدو -والله أعلم- أنه لا منافاة بين القولين؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، ويكون قد عاين من الحقائق وانكشف عنه الغطاء، وعرف حاله وما يئول إليه، فهذه آخرته قد دخل فيها.

قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تُراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلا.

ومن الأماني التي يمكن أن يفسر بها قوله: {وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ}: ما كانوا يؤملونه من دحر الإسلام والقضاء على المسلمين، وأن المسألة مسألة وقت، ثم ينتهي كل شيء كما كانوا يتعاضدون مع المشركين ويحرضون الروم على قتالهم ويأملون استئصالهم، والقضاء على دين الله -عز وجل-، لما وقعت غزوة بدر قال عبد الله بن أبيّ -وكان ذلك أول النفاق-: هذا أمر قد توجه، فادخلوا فيه علانية وأبطنوا الكفر سرا، هذا أمر قد توجه: يعني ما عادت الأمور كما كانت قبل غزوة بدر، فالمسلمون حققوا انتصارا كبيرا وقتلوا رءوس المشركين من أهل مكة، ولم تكن المسألة مجرد دعوة في المدينة فحسب.

قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتا، ويُعطَون النور جميعًا يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويُماز بينهم حينئذ.

وقوله: {مَأْوَاكُمُ النَّارُ} أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم.

وقوله: {هِيَ مَوْلاكُمْ} أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم، وبئس المصير.

{مَوْلاكُمْ} أي: أولى بكم وهذا هو اختيار ابن جرير، وقال به جماعة من السلف، وأصل المولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم بعد ذلك استعمل فيمن يلازمه وإن لم يكن يتولى مصالحه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحديد من الآية ١٦ إلى الآية ٢١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة الحديد:١٦-١٧].

يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

روى مسلم عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} الآية إلا أربع سنين[١]، كذا رواه مسلم في آخر الكتاب، وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية[٢].

وقوله: {وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لمّا تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

{وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [سورة المائدة:١٣]، **أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهو عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.**

وقوله: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فيه إشارة إلى أن الله تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلَتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يُحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

---

١ - رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}، برقم (٣٠٢٧).

٢ - رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الرحمن -تبارك وتعالى-، برقم (١١٥٦٨).

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة الحديد:١٨-١٩].

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمُصَّدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة، {وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورًا؛ ولهذا قال: {يُضَاعَفُ لَهُمْ} أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف، وفوق ذلك {وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} أي: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب {كَرِيمٌ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} في قراءة أُبيّ -وهي قراءة غير متواترة- "المتصدقين" بالتاء، وفي القراءة الأخرى المتواترة قراءة ابن كثير "المصَدقين" بتخفيف الصاد، بمعنى الإيمان الذي هو التصديق الانقيادي، بمعنى الإقرار، فيكون المعنى بهذا الاعتبار {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ} يعني: الذين آمنوا وأنفقوا كما جاء في مواضع من كتاب الله -عز و جل-، والقراءتان كما هي القاعدة التي أشرنا إليها في بعض المناسبات: إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، يعني إن المؤمنين والمنفقين، والثانية إن المصَّدقين يعني المتصدقين الذين كانت صدقتهم بالصفة المذكورة، {وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}، والقرض الحسن هنا ذكر فيه ما يتعلق بالإخلاص، وذلك مما يدخل تحت هذا الوصف، وكذلك أيضا ألا يكون مع هذه الصدقة والنفقة منٌّ ولا أذى؛ لأن ذلك لا يكون من القرض الحسن، فهو الذي سلم من جهة قصد صاحبه، فلم يكن فيه رياء ولا سمعه، وسلم أيضا من الآفات التي تنقصه أو تبطل ثوابه {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ} [سورة البقرة:٢٦٤].

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} هذا تمام لجملة وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون.

قال العَوْفي: عن ابن عباس في قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} هذه مفصولة {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}.

{أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} الصدّيق مبالغة من الصادق، والمقصود بذلك من كمل في صدقه، وفي تصديقه، المعاني التي ذكرت في الصديق: بعضهم قال: الذين كمل تصديقهم أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-، ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئا إلا صدقه به فلقب بالصديق؛ لكثرة تصديقه، وكذلك لكمال صدقه، فإن من كمل صدقة وتحريه للصدق يقال له: صديق، يعني كثير الصدق فتكون هذه المعاني مجتمعة في الصديق، صيغة مبالغة، وهي درجة عالية بعد درجة الأنبياء وفوق درجة الشهداء، وقوله هنا: رواية العوفي عن ابن عباس -وهذه الطريق من الطرق التي لا تثبت عن ابن عباس- يقول: "{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} **هذه مفصولة**"، يعني: الآية في ظاهرها تحتمل {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} يعني: أن المؤمنين بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء، وأن هذا من باب عطف الأوصاف، فتارة تكرر الأوصاف، أو تتابع الأوصاف مع حذف أداة العطف، أو حرف العطف مثل: {سَبِّحِ

اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى:١-٢]، وتارة مع ذكره {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:٣-٤]، فهذا كله يرجع إلى موصوف واحد، فهنا {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ} يعني أن هؤلاء هم الشهداء فهذا على أنها موصولة، أن هذه كلها أوصاف متتابعة لموصوف واحد، وهنا على هذا المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- تكون مفصولة بمعنى أن ما بعدها جملة استئنافية جديدة، {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} انتهى، ثم يُبدَأ كلام جديد مستأنف.

وقال أبوالضحى: {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} ثم استأنف الكلام فقال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} وهكذا قال مسروق، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وهو اختيار ابن جرير، وكل هذا من قول أبي الضحى ومسروق و الضحاك ومقاتل، وهو القول المروي عن ابن عباس أنها مفصولة مستأنفة، بعدها مستأنف {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} كيف يكون المعنى على الوصل والفصل؟ الآن إذا قلنا: إن قوله: {وَالشُّهَدَاءُ} عطف على ما قبله وليس مستأنفاً، {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ} معنى كلمة الشهداء: من أهل العلم من فسرها بـــ {أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ} والأنبياء، يعني الأنبياء يشهدون على أممهم، ويشهدون لهم أيضا، {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء:٤١]، فيقول: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء} فيكون ترقى من الأدنى إلى الأعلى، وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}، قال: "**هم هؤلاء أصحاب الأوصاف الكاملة من الصديقين والشهداء عند ربهم**" يعني: الذين يشهدون عند ربهم على أممهم، يشهدون عليهم، ويحتمل أنّ جميع المؤمنين المحققين للإيمان {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} أن هؤلاء يوصفون بأنهم صديقون وشهداء، وهذا قال به بعض السلف، هذا كله على أساس أنها ترجع إلى موصوف واحد على العطف، وهؤلاء هم الجديرون بهذه الأوصاف {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}، هؤلاء هم الصديقون حقا والشهداء حقا، وبهذا الاعتبار يكون كل من حقق الإيمان بالله ورسله فهو من الشهداء، حكما، وهذا وإن كان يحتمله ظاهر الآية إلا أن غيره قد يكون أرجح منه، ويوجد بعض الآثار التي لربما يستدل بها أصحاب هذا القول، ولكن إن كانت موصولة فيفسر {وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ} بالذين يشهدون، وكذلك غير الأنبياء، فهذه الأمة تشهد على الأمم، وعلى أنها مستأنفة {وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ} يكون الشهداء بمعني الذين قتلوا في سبيل الله، المعنى المتبادر المعروف المشهور للشهيد، وهذا هو الأصل: أن تحمل النصوص على المعنى المتبادر إلا لقرينة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن معنى {وَالشُّهَدَاءُ} هنا الشهيد بالمعركة، ومعنى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِنْدَ رَبِّهِمْ}: يعني لهم أجرهم وثوابهم محفوظ مدخر لا يضيع منه شيء، والآية تحتمل هذا، وتحتمل هذا، وأكثر السلف على أن قول: {وَالشُّهَدَاءُ} مستأنف، والله أعلم.

وقال الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله في قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين، والصديقين، والشهداء، كما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [سورة النساء:٦٩]
ففرّق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان.

فيكون {وَالشُّهَدَاءُ} شهيد المعركة بهذا الاعتبار.

ولا شك أن الصدّيق أعلى مقامًا من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- في كتابه الموطأ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم))، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[٣]، اتفق البخاري ومسلم على إخراجه.

وقوله: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: ((إن أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك، فنُقتل كما قُتِلنا أول مرة، فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون))[٤].

وقوله: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدو فصدق الله فقُتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا -ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنْسُوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو قلنسوة عمر-، والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح، جاءه سهم غَرْب فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئًا لقي العدو فصدق الله حتى قُتل، فذاك في الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافًا كثيرًا، لقي العدو فصدق الله حتى قُتل، فذاك في الدرجة الرابعة))[٥]، وهكذا رواه علي بن المديني، وقال: هذا إسناد مصري صالح، ورواه الترمذي من حديث ابن لهيعة وقال: حسن غريب.

هذا الحديث إسناده ضعيف، فيه أبو يزيد الخولاني مجهول، وفيه أيضاً ابن لهيعة، ولكن يمكن أن يقال: إن ابن لهيعة هنا رواه عمن تقبل روايته عنه: أحد العبادلة.

وقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبيّن حالهم.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، برقم (٢٨٣١).

٤ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، برقم (١٨٨٧).

٥ - رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الشهداء عند الله، برقم (١٦٤٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٧١٨٨).

{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة الحديد:٢٠-٢١].

يقول تعالى مُوهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقّرا لها: {أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [سورة آل عمران:١٤].

قوله: {أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} اللعب واللهو من أهل العلم من يقول: هما بمعنى واحد، ومنهم من فرق بينهما، بعضهم يقول: اللعب هو الباطل، واللهو كل ما يتلهى به ثم يذهب يزول، والواقع أن المعنى متقارب؛ لأن الباطل إنما قيل له: باطل لزواله، واضمحلاله؛ ولهذا البطلُ قيل له: بطل، كأنه أبطل دمه في أرض المعركة لشدة إقدامه وثباته أمام العدو وجراءته وشجاعته، وبعضهم يقول: "اللعب" هو ما رغّب في الدنيا، و"اللهو" ما صرف وشغل عن الآخرة، وبعضهم يقول: "اللعب" ما كان بالجوارح، و"اللهو" ما كان في القلب، لهَا عن الشيء بمعنى انصرف عنه واشتغل عنه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن كل لهو باطل، ثم استثنى من ذلك ملاعبة الرجل لولده وامرأته، وتأديبه للفرس، فهذه أمور عملية، فهي من اللهو مما يدل -والله أعلم- على أن اللهو أعم من اللعب، فاللهو كل ما يلهو به الإنسان، واللعب نوع منه، منه ما يكون حقًّا، ومنه ما يكون من الباطل، هذا بالنسبة للعب، وكل ما يتلهى به فهو لهو، والدنيا لعب ولهو، بمعنى أنه لا بقاء لها وتشغل عن الآخرة، وهي مضمحلة زائلة عما قريب، وما كان هذا شأنه فهو لعب ولهو؛ ولهذا قال: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} [سورة العنكبوت:٦٤] يعني: الحياة الكاملة الثابتة الأبدية السرمدية، والنعيم المقيم الحقيقي، أما هذه فلا تستحق ذلك، ومن تبصر فيها ونظر بعين كاشفة للغطاء الذي يحول بين كثير من الناس، وبين معرفة حقيقتها فإنه يعرف ذلك، تجد الرجل يشتغل فيها عشرات السنين، وتشغله عن ذكر الله -عز وجل-، وعن طاعته، ويُحصِّل ألوان المكاسب، والتجارات بالحلال والحرام ثم آخر ذلك يتهافت، وأقرب الناس إليه، والجميع وكل أحد يريد أن يحثو حثوة على قبره! وذلك العناء الطويل، والتعب الكثير، بقي عليه الحساب، ولم يأخذ منه شيء لقبره، ولم يكن ذلك سبباً لبقائه، وتمتعه بهذا النعيم، وكذلك انظر إلى حال الناس اليوم في الأسهم -لعب- فإذا ارتفع المؤشر كالأطفال فرحوا وسروا وأخرجتهم الشاشات والصور في الصحف، يضحكون وفي غاية السرور، وإذا هبط المؤشر رأيت هذا وضع يده على رأسه، وهذا أصيب بجلطة، وهذا فتح فمه، وهذا يضحك بطريقه جنونية لا يعقل معها، ثم لعبٌ ولهو أبدا، مثل شغل الأطفال إذا قاموا يلعبون التيل! أبدا هكذا حقيقتها، هي لا تعدو هذا، لكن من الذي يتبصر فيها؟ الله المستعان.

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة فقال: {كَمَثَلِ غَيْثٍ} وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِمَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} [سورة الشورى:٢٨].

وقوله: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} أي: يُعجب الزراعَ نباتُ ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تُعجب الحياةَ الدنيا الكفارُ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعدما كان خضرًا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يَبَسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويَنْفَد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم:٥٤]، ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حَذَّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير، فقال: {وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا، إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أي: هي متاعٌ فانٍ غارٌّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك))[٦].

انفرد بإخراجه البخاري في "الرقاق"، من حديث الثوري.

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٣].

قوله: "**والمراد جنس السماء والأرض**"، الجنس يعني أنها ليست سماء واحدة، بل السموات السبع، والأرضون السبع كذلك، ومن أهل العلم من قال: إنها تكون بقدرها إذا مدت السموات السبع، وهذا معنى جنس السماء، و**جنس السماء** يعني ليست السماء الدنيا مثلا، وإنما جنس السماء فيدخل فيه السموات جميعا، وكذلك الأرض جميعا، هذا معنى جنس السماء، يعني أن السماء مفرد أريد به الجنس.

---

٦ – رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك، برقم (٦١٢٣)، وأحمد في المسند، برقم (٣٦٦٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وقال هاهنا: {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} أي: هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنّه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدَّمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: ((وما ذاك؟))، قالوا: يُصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتِقون ولا نُعْتِق. قال: ((أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين))، قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء))[٧].

هنا في قوله: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}**، يعني: إلى أسباب المغفرة، وكذلك **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}**؛ لأن المغفرة لا يسابق إليها، وإنما إلى أسبابها، ففيه مقدر معلوم من السياق، وقوله: **{عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ}** العرب تعبر بالعرض ولا تعبر بالطول عادة؛ ليتبين به مقدار الشيء، فإذا كان هذا هو العرض **{عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ}** والطول عادة أكبر من العرض، فإذا كان العرض كعرض السماء والأرض، فكيف بطولها؟!! ومن أهل العلم من قال: جنة الواحد منهم هي بهذا المقدار؛ لأن الله -عز وجل- قال بعده: **{أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}**، وهذا يدل أيضا على أن الإنسان لا يدخل الجنة بعمله، وهنا في قوله: **{أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}** هنا فسر الكفار بالزراع لأنه يكفر البذر، الكفر بمعنى الستر والتغطية، فهو يستره يغطيه بالتراب فالزارع يقال له: كافر بهذا الاعتبار؛ لأنه يكفر، ليس المراد بالكافر الخارج من الإسلام، لا، الكافر بمعنى الساتر يستر البذر بالتراب، والآية الأخرى في صفة أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- بمثلهم الذي ذكره الله -عز وجل- في الكتب المتقدمة **{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}** [سورة الفتح:٢٩].

---

٧ - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب من لم ير رد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة، برقم (٨٠٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٥)، واللفظ له.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحديد من الآية (٢٢) إلى الآية (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة الحديد:٢٢-٢٤].

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ} أي: في الآفاق وفي أنفسكم، {إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة.

وقال قتادة: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ} قال: هي السنون، يعني: الجَدْب، {وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ} يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى- هنا: **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}** الضمير هنا الهاء **{نَّبْرَأَهَا}** هل يعود إلى الأنفس -وهي أقرب مذكور-، أو يعود إلى الأرض، أو إلى أي شيء يعود؟

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **{مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا} أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة**، **{مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}** أن نبرأ المصيبة، أو نبرأ الأرض، أو نبرأ الأنفس، هذه ثلاثة أقوال للسلف، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أحسن ما يكون في التفسير، قال: **من قبل أن نخلق الخليقة**، وعلى هذا يكون الضمير يعود إلى الجميع، من قبل أن يخلق الله -عز وجل- النفوس، ومن قبل أن يخلق المصيبة، ومن قبل أن يخلق الأرض، وكل ذلك كائن؛ لأن الله -عز وجل- قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، من قال: قبل أن يخلق الأرض فهذا صحيح دل عليه الحديث، ومن قال: قبل خلق النفوس فهذا صحيح، ومن قال: قبل أن نخلق المصيبة فهذا أيضاً صحيح، فعبر بهذه العبارة: **من قبل أن نخلق الخليقة**، فصار ذلك شاملاً للجميع، وهذا هو الأحسن في تفسيرها، -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وأمّا من قبل أن نبرأ النسمة باعتبار أنه أقرب مذكور فهو قول صحيح، لكن هذا أشمل منه، القول الآخر من أنه قبل أن يخلق ويبرأ النسمة هذا قال به ابن جرير.

وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق قبحهم الله.

يعني هؤلاء القدرية القدماء الذين انقرضوا منذ عهود متطاولة، لم يعد يقول به طائفة، وإنما القدرية تركوا هذا القول وهجروه، فصاروا إلى ما دونه، فكان أوائلهم ينفون علم الله -عز وجل- السابق، يقول: إنه لا يعلم أفعال العباد مثلاً ما سيعملون، فهذا غاية الكفر؛ ولهذا قال من قال من السلف -رضي الله عنهم-: ناظِروهم بالعلم، فإن أثبتوه خُصموا -إن أقروا خُصموا-، وإن جحدوا كفروا.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة))[1].

ورواه مسلم في صحيحه وزاد: ((وكان عرشه على الماء))[2]، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وقوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طِبق ما يوجد في حينها سهل على الله -عز وجل-؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وقوله تعالى: {لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبْق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان، {وَلا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ} أي: جاءكم، وتفسير {آتَاكُمْ} أي: أعطاكم، وكلاهما متلازم.

هذا من الاختصار الذي يخل، لأن الكلام هنا ليس مستقيماً، يعني: **{وَلا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ}** هذه ضعها بين قوسين، هذه قراءة أبي عمرو قراءة متواترة، فهنا ما أتى بها على أنها قراءة، وَضَعَها هكذا، فالقارئ حينما ينظر إليها يقول: "فلا تأسوا على ما فاتكم"، لأنه لو قدر شيء لكان، **{وَلا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ}** يظن أنها خطأ في الكتابة -فقط الهمزة-، وإنما هي قراءة متواترة، الآية قرأها الجمهور: **{بِمَا آتَاكُمْ}** أي: بما أعطاكم، لا تفرحوا بما أعطاكم، والقراءة الثانية قراءة أبي عمرو: **{بِمَا أَتَاكُمْ}** يعني: جاءكم، وقال: والقراءتان متلازمتان، بمعنى: أن ما أعطاك إياه وصلك، جاءك، وما جاءك فقد أعطاك الله إياه، بينهما ملازمة، وإن كان المعنى يختلف إلا أن المعنيين متلازمان، "لكي لا تفرحوا بما آتاكم".

وتفسير: {آتَاكُمْ} أي: أعطاكم، وكلاهما متلازم، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا، تفخرون بها على الناس.

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٦٥٧٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله -عدا ابن لهيعة- ثقات رجال الشيخين، غير أبي هانئ الخولاني -واسمه حميد بن هانئ-، وأبي عبد الرحمن الحُبُلي -وهو عبد الله بن يزيد المعافري- فمن رجال مسلم. أبو عبد الرحمن شيخ أحمد: هو عبد الله بن يزيد المقرئ، وحيوة: هو ابن شريح، وابن لهيعة: هو عبد الله، وهو سيىء الحفظ، لكنه متابع"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٨٠).

٢ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣).

في قوله هنا: **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا}** يمكن أن يحمل كما قال جماعة من السلف -رضي الله عنهم- على الفرح المذموم، الذي يَحمل على الأشر والبطر والخيلاء والتكبر والتعالي، كما قال من نصح قارون، قالوا له: **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** [سورة القصص:٧٦] فالفرح منه ما هو محمود مطلوب: **{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ}** [سورة يونس:٥٨] الفرح بالإسلام، وبظهوره، وانتشاره، وانتصار المسلمين، هذا كله قربة وطاعة ويدل على الإيمان، والله يحبه، وهناك فرح مباح، كأن يفرح الإنسان بالتفوق في دراسة أو ربح تجارة.، أو نحو هذا، فهذا لا إشكال فيه، والنوع الثالث هو الفرح المحرم الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر والكبر، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ}** [سورة الإسراء:٣٧] يعني: فسر بالفرح، لكنه الفرح المذموم، هنا **{وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** يحتمل أن يحمل على هذا المعنى، ويحتمل أن يحمل على الفرح المعروف، لأنه قابله بالحزن: **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**.

ويقول هنا: أي: **لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً**.. إلى آخره، الآن ظاهر من كلام ابن كثير تفسير الفرح هنا بالفرح الذي يحمل على الأشر، الفرح المذموم، ولماذا يعني النهي عن الحزن، واضح أن هذا بقدر، لكن النهي عن الفرح: **{وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا علله كما ترون بأن ذلك ليس من كدكم، يعني: كتب للإنسان رزقه وأجله وعمله وهو في بطن أمه، وهذا التقدير العمري، وكتب أيضاً في اللوح المحفوظ التقدير الأزلي، فهذا ليس من كدكم ولا ذكائكم ولا سعيكم، وإنما كتبه الله لكم وقدره فلا داعي للفرح، **{وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**، ويمكن أن يكون النهي هنا عن الفرح أو التعليل بذلك كما قال بعض أهل العلم باعتبار أن هذا زائل عما قريب، والله -عز وجل- ساقه لكم وقدره لكم، وتأتي مقادير الله -عز وجل- على ما قدر، فسيأتي اليوم الذي تفارقونه فيه أو يفارقكم؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن ذلك يعني: **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**؛ لأن المصيبة فيه قد كتبت، المصيبة فيه كتبت أبداً، إن حصل اجتماع الأهل والأقارب والأسرة في عيد أو أجازة أو غير ذلك -مناسبة- سيأتي الافتراق، فالمصيبة فيه حاصلة، إن حصل أن الناس خرجوا في نزهة أو نحو ذلك فرحوا فعما قريب يتثاقل الواحد منهم أن يحمل نفسه فضلاً عن أن يحمل أمتعته حينما يرجع، وهكذا في كل أمور الإنسان، فالمصيبة فيها حاصلة، **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**، ومن أهل العلم من يقول: لأن هذا لا يستحق الفرح أصلاً، فهو متاع قليل زائل لا يستحق هذا كله.

والآية مرتبطة بالقدر، وهذا تعليل صريح: **{لِكَيْلَا}** يعني: أعلمناكم بذلك لكيلا يحصل منكم هذا، فيكون باعتبار أن الإنسان يعرف أن هذه الأمور مقدرة، فلا يجزع إذا وقعت له مصيبة، ولا تطير به النعمة فيخرج عن طوره ويَبطَر وتأخذه أو تحمله نشوة الفرح على أمور لا تليق، وإنما يبقى على حالة مستقرة ثابتة يلزم فيها الصراط المستقيم في أحواله كلها، في المصيبة وفي أوقات المسرات والفرح، وكثير من الناس لا يتمالك نفسه في الفرح فيتصرف بما لا يليق، إن جاء زواج له أو نحو ذلك وقع منه ما لا يليق، والناس إذا أردت أن تعرف عقولهم فانظر إلى تصرفاتهم في المصيبة، وفي أفراحهم ومناسباتهم، تعرف عقول الناس، كثير من

الناس تجدهم في حال من الرزانة وإذا جاء عندهم عرس رأيتهم في خفة النساء، ورأيت حرصهم وتباهيهم واستماتتهم على الظهور، وإذا نظرت إلى الأصباغ في وجوه النساء والألوان هؤلاء ما عُرفوا بهذا، الناس كانوا يظنون أنهم ناس أهل رزانة، فأصابهم شيء من الخفة في هذه المناسبة، طاشت عقولهم، وكذلك في الأحزان تجد الإنسان أحياناً تظنه ثابتاً ورابط الجأش، وقد تجده أحياناً يبكي بكاء النساء أو الأطفال في المقبرة أو في العزاء، أو مما ينتقده عليه حتى الأطفال الصغار، والناس ينظرون إليه وكذا، وقد رأينا من يغمى عليه في الهيئة، ويصيح بأعلى صوته في المقبرة، ويتجمع الناس عليه ويسقط شماغه، فمثل هذه الأشياء الإنسان ما يكتشف حقيقته أحياناً أو لا يعرفها الناس إلا في مثل هذه المقامات؛ ولذلك تكلم العلماء على مسألة العطايا والهبات في أوقات الحزن الشديد، وفي أوقات الفرح الشديد، وكره من كره من أهل العلم أخذ ذلك؛ لأنه يندم، فهو في حالة الفرح الشديد يمكن أن يقول: خذ مفتاح السيارة، خذ كذا، خذ لك مائة ألف، وإذا رجع إلى عقله -انتهت السكرة- بدأ يتندم وكيف أنا فعلت هذا؟!، هذا كان يمكن أن نعطيه ألفي ريال، كيف أعطيته سيارتي وكيف؟!، وهكذا تجده في وقت الحزن الشديد أيضاً قد يتصرف تصرفات عجيبة، والله المستعان.

ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي: مختال في نفسه متكبر، فخور أي: على غيره.

وقال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا.

هذا بمعنى الكلام الذي ذكرته آنفاً، لا يحملكم الفرح على ما لا يليق، ولا تحملكم المصيبة على الجزع، والنعمة لا تحملكم على البطر وما لا يحسن ولا يجمل، انظروا إلى الناس في الأعياد وفي غيرها من المناسبات.

وقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ} يعني هل الذين يبخلون عائد إلى ما قبله ويكون كالتفسير له، من هو المختال الفخور؟ {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، لا ليس كذلك، وإنما هذا كلام جديد مستأنف وليس تفسيراً لكل مختال فخور، والمختال الفخور قد لا يكون كذلك، وإنما هو كلام جديد، {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} والخبر مقدر أي فإن الله غني عنهم مثلاً، كما يدل عليه ما بعده.

ثم قال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه.

والبُخل فيها قراءة متواترة أخرى، قراءة حمزة والكسائي بفتحتين يعني: البَخَل، والمعنى واحد، هي لغة أهل المدينة، أو لغة الأنصار.

{وَمَنْ يَتَوَلَّ} أي: عن أمر الله وطاعته، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} كما قال موسى -عليه السلام-: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة إبراهيم:٨].

وهذه الآية فيها نوع من القراءة معروف من أوجه الأحرف السبعة، وهو ما يعبرون عنه بالزيادة والنقص، فهنا يقول: {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، وفي قراءة نافع وابن عامر: {فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} بدون هو، والأحرف السبعة الأقرب في تفسيرها أن المراد بها سبعة أوجه من وجوه التغاير، بالاستقراء غير التام، من ذلك مثلاً الإبدال: إبدال لفظة بلفظة مثل "كالصوف" مكان "كالعهن"، قراءة غير متواترة، وإبدال حرف بحرف التاء والياء: "تعملون ويعملون"، مثلاً السين والصاد: "صراط وسراط"، وكذلك أيضاً التقديم والتأخير: "النبي

أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم، والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم" قراءات غير متواترة، وكذلك أيضاً الزيادة والنقص: **{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى صلَاَةِ العَصْرِ}** [سورة البقرة:٢٣٨]، باعتبار أنها قراءة غير متواترة طبعاً، **{وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ}** [سورة الكهف:٧٩]، "وكان أمامهم"، هذا من الإبدال، وأيضا "ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً"، "صالحة" غير متواترة، وهنا: **{فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}**، "فإن الله الغني الحميد"، وكلاهما متواتر، وهنا يرد سؤال معروف وهو أنه إذا كان عثمان -رضي الله عنه- جمع الناس على حرف واحد وهو حرف قريش، وأيضاً كتب المصاحف، وأمر الناس.. فكيف وُجدت هذه "فإن الله هو، وفإن الله الغني الحميد"؟ يقال: إن ذلك يرجع إلى حرف قريش بالوجهين ففرقه في المصاحف، ما كان يرجع إلى حرف قريش كتبه على وجه في مصحف، وكتبه على وجه في مصحف آخر: **{تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** **{تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ}**.

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحديد:٢٥].

يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، {وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ} وهو النقل الصدق، {وَالْمِيزَانَ} وهو العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [سورة هود:١٧]، وقال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [سورة الروم:٣٠]، وقال تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} [سورة الرحمن:٧]؛ ولهذا قال في هذه الآية: {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} أي: بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [سورة الأنعام:١١٥] أي: صدقًا في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي؛ ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٤٣].

في قوله هنا: **{وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ}** الميزان فسره بعض السلف بالميزان المعروف، وفسره بعضهم بالعدل، وكذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}** [سورة الشعراء:١٨٢] فُسر بالميزان الآلة، يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه ولا تدليس وغش، وفسر بالعدل، وبين المعنيين ملازمة، فالآلة هذه إنما هي آلة العدل، الآلة التي يتوصل بها إلى تحقيق العدل، **{وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** أي: أنزل الله -عز وجل- معهم العدل وآلة العدل، ومعنى إنزال الميزان فسره جمع من أهل العلم بخلقه، إذا قيل الميزان الحسي، وليس بين المعنيين تعارض.

{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} أي: بالعدل، ومن فسره بالميزان الآلة قالوا: من أجل ألا يكون تكراراً مع قوله: **{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** يعني: أنزل العدل ليقوم الناس بالعدل، لكن الواقع أنه لا تكرار فيه.

وقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} أي: وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة تُوحَى إليه

السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((بُعِثتُ بالسيف بين يدَي الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمْحي، وجُعل الذلة والصَّغار على من خالف أمري، ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم))[٣].

ولهذا قال تعالى: {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} يعني: السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها، {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} أي: في معايشهم كالسكّة والفأس والقَدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك.

قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله، {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} البأس الشديد سواء كان في القتال أو كان في غيره كما هو مشاهد من هذه المراكب التي تحمل الأثقال، وما نشاهده من رافعات وغيرها، ومصانع ومنافع للناس مختلفة من الأشياء الدقيقة والأشياء الجليلة، فإن عامة هذه الصناعات تقوم على الحديد، **{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}** أنزل الكتاب هادياً، ومن لم ينفع معه هدايات الكتاب فإنه ينفع معه الحديد، هذا المعنى، فإذا تعذرت هدايات الكتاب تعينت الكتائب، والله –عز وجل– أنزل هذا وهذا، فمن الناس من يُقبل على هدى الله –عز وجل–، ومن الناس من يعرض عنه ويكابر، فالحديد لمثل هؤلاء.

---

٣ – رواه أحمد في المسند، برقم (٥١١٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف، عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان قد سلف الكلام عليه في الحديث السابق، أبو النضر: هو هاشم بن القاسم"، وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٠٩/٥)، عند حديث برقم (١٢٦٩): "قلت: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا، ففيه خلاف، وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ، وتغير بآخره".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحديد من الآية (٢٦) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد:٢٦-٢٧].

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً -عليه السلام- لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم -عليه السلام- خليل الرحمن لم يُنزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم -عليه السلام- الذي بشر من بعده بمحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ} وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} وهم الحواريون، {رَأْفَةً} أي: رقة وهي الخشية، {وَرَحْمَةً} بالخلق.

وقوله: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} أي: ابتدعتها أمة النصارى، {مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}**، أي: عيسى -عليه الصلاة والسلام-، **{رَأْفَةً}** من أهل العلم من قال: المقصود بذلك أتباع عيسى -عليه الصلاة والسلام- من الحواريين، وليس فيه ما يدل على ذلك، ومن أهل العلم من قال: **{رَأْفَةً وَرَحْمَةً}** أي: فيما بينهم، أو رأفة ورحمة عموماً، وإذا قارنت النصارى باليهود رأيت أن هذا أظهر فيهم، أعني الرأفة والرحمة هي في النصارى أظهر من اليهود، مقارنة باليهود؛ ولذلك تجد آثار هذا فيهم إلى اليوم، وإن كانت تستغل مثل هذه الأشياء لأغراض مشبوهة، لكن على الأقل في مجتمعاتهم من التكافل الاجتماعي والجمعيات التي يسمونها بالجمعيات الإنسانية، وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وإن كانت تستغل أبشع استغلال، وإذا نظرت إلى شرهم المتعدي إلى المسلمين فهو لا يقادر، **{قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}** [سورة آل

عمران:١١٨] لكن نحن نتحدث مقارنة باليهود مثلاً، فتجد عند النصارى من هذا نصيباً أكثر مما عند اليهود، والله تعالى أعلم.

وقوله هنا: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} قال هنا: **وهم الحواريون**، يعني: خص هذه الصفة بالحواريين {رَأْفَةً وَرَحْمَةً}، ومعنى ذلك أن من جاء بعدهم إلى يومنا هذا ليسوا كذلك، ليس فيهم لا رأفة ولا رحمة، والمسألة نسبية، وقال: الرأفة هي رقة، هي رحمة، يعني الرأفة من أرق الرحمة، أخص من الرحمة، رحمة رقيقة، قال: ورحمة أي: بالخلق، الآن ما ذُكر بعده: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} هل هذا معطوف على ما قبله، أو أنه مستأنف وانتهى الكلام عند قوله: {وَرَحْمَةً}، ويكون الوقف تاماً في هذا الموضع، بمعنى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} انتهى، {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} ما الفرق؟

الفرق أنه إذا جعلنا الرهبانية معطوفة على ما قبله، معنى ذلك: جعلنا في قلوب الذين اتبعوه ثلاثة أشياء: رأفة ورحمة ورهبانية، جعلها الله في قلوبهم، فالله أخبر عن هذا قال: {ابْتَدَعُوهَا} فكيف جعلها في قلوبهم وهم ابتدعوها؟ وقال: {مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}، لذلك فإن الأقرب –والله تعالى أعلم– أن الوقف تام عند قوله: {وَرَحْمَةً}، أي الذي جعله الله –عز وجل– شيئين: رأفة ورحمة، ثم يبدأ الكلام من جديد: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} فهم الذين ابتدعوها وأنشئوها واخترعوها من قبل أنفسهم، لم يأمرهم بها نبيهم –عليه الصلاة والسلام–، ولم يشرع الله –عز وجل– ذلك لهم، فهم فعلوا ذلك طلباً لمرضاة الله –عز وجل–، ومن رعاها حق رعايتها أثابه الله –تبارك وتعالى–، في هذه الشريعة –عندنا–: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[1]، فإذا سُكت عن تلك الرهبانية أو أقرت فإن هذه الشريعة الإسلامية ليس فيها رهبانية، ومن فعل ذلك –أعني ترهب– فقد ابتدع وخالف هدي النبي –صلى الله عليه وسلم–، والأحاديث الواردة في هذا معلومة، فالشاهد إذا قلنا بأن قوله: {وَرَهْبَانِيَّةً} تعتبر بداية جملة جديدة أنها لا تتعلق بقوله: {وَجَعَلْنَا} يعني ليست معمولاً لها ، جاءت منصوبة هنا: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} يمكن أن تكون منصوبة بالفعل الذي بعدها: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} فقدم المفعول به، ويمكن أن تكون منصوبة بفعل مقدر يدل عليه المذكور بعده: ابتدعوا {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}، فالشاهد أنها جملة مستأنفة جديدة، لم يجعلها الله –عز وجل– أعني الرهبانية– في قلوبهم، وإنما هو شيء من عند أنفسهم.

بعض المفسرين يقول: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} وقعوا في الإشراك بالله –عز وجل–، وهذا صحيح، وقعوا في التثليث وغيره، وأيضاً ما رعوا الرهبانية يعني هي معنى أخص فهي المبالغة في التعبد والانقطاع عن الناس من غلبة الرهبة من الله –تبارك وتعالى–، فذهبوا في الفلوات وفي الأديرة، واعتزلوا الناس وبالغوا في العبادة، وانقطعوا لها، وتركوا عمل الدنيا تماماً، ومنهم من كان يعذب نفسه كما يذكر في أخبارهم، منهم من وقف في بئر مثلاً يقولون: أربعين سنة، لا يضطجع ولا ينام أربعين سنة، وأكثر من هذا لربما الواحد جلس

---

١ – رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

هذه المدة لا يغتسل، ولا يقص الأظفار، ولا يميط عنه شعراً، وإنما بقوا كالوحوش يشتغلون في العبادة فقط ولا يلتفتون للجسد، ويأكلون بُلغة من الطعام، وأخبارهم في هذا كثيرة وعجيبة، وقد يكون في بعضها مبالغة لكن يبقى أن قدراً منها صحيح.

{فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} خالفوا ما تقتضي هذه الرهبانية، ومن أوضح صور هذا أن هذه الأديرة صارت أوكاراً للفجور والفواحش، فالرهبان يزنون بالراهبات، وصارت أقبية هذه الأديرة موضعاً لإلقاء الأجنة أو المواليد، يلقونها في هذا المكان، فلما كُشف عن بعضها وجد هياكل يعني في هذه الأقبية هياكل عظمية أجساد متحللة لأطفال حديثي الولادة، وصار هذا المكان الذي أعد للتعبد والانقطاع عن الدنيا والانقطاع عن الناس وغلبة الرهبة لله -عز وجل- صار مواضع للفواحش، وأشياء أخرى في غاية القبح من أخبارهم التي تطفو في هذا العصر على الفضائيات.

وقوله تعالى: {إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ} فيه قولان:

أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وهذا بعيد، القول الثاني بعيد، إنما القول الأول هو الأقرب -والله تعالى أعلم- وهو المتبادر، {مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ} يعني مِن قِبَلِهم، أنهم فعلوا ذلك طلباً لمرضاة الله -عز وجل.

قوله تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله -عز وجل.

كالذي ينذر مثلاً ثم بعد ذلك إذا حصل مطلوبه بدأ يسأل ما هو المخرج؟ نذر أن يصوم الإثنين والخميس طيلة حياته، ثم بعد ذلك بدأ يسأل كيف يتخلص من هذا؟ نذر أن يتصدق، نذر أن يحج أو نحو هذا، ثم بعد ذلك بدأ يبحث عن الطريق التي يخرج فيها من هذا النذر، وهكذا في كل أمر؛ ولذلك لا يحسن بالإنسان أن يلتزم شيئاً لله -عز وجل- ولا للناس حتى يعرف المخرج منه قبل أن يدخل فيه، هل يستطيع أن يقوم بهذا أو لا يستطيع؟، فلا يلزم نفسه بعبادة لم يلزمه الله بها، من الناس من ينذر أن يصوم يوماً ويفطر يوماً طالما هو حي، وبمجرد ما حصل له مطلوبه قال: هذا أمر كيف استطيع أن أفعله؟، ومن الناس من ينذر أن يصوم أربعة أشهر، امرأة نذرت أن تصوم شهرين إذا تزوج زوجها، لكثرة ما كان يقلقها أنه سيتزوج، ولم يفعل، فقالت: تزوج، إن تزوجت فسأصوم شهرين، يعني شكراً لله، فتزوج فصامت، فلما كانت في أواخر الشهرين جاء من سفر ولم يصبر عنها فوقع عليها في النهار وهي صائمة، فأفسد صومها، ثم عاودت الصوم مرة ثانية، فلما قاربت الستين قدم مرة أخرى ثم بعد ذلك لم يصبر عنها فوقع عليها، فاتصلت تسأل تقول: الآن هل أصوم ثالثة أو ماذا أصنع أخشى أنه يجيء ويبطل صومي؟ قلت: ما شاء الله، عقوبة رادعة فعلاً، عاقبتِ بها نفسك، يتزوج عليك وتصومين شهرين ويبطلها، ثم شهرين آخرين ويبطلها، وقد تصومين العام كله، ما هذه العقول؟!، ولذلك كره الشارع النذر.

كذلك فيما يلتزمه الإنسان للخلْق، كثير من الناس يضرب صدره ويقول: أنا أقوم بهذا الشيء، ثم بعد ذلك يدير ظهره ويتخلى عنه، هذا أمر ما يليق، لا تدخل في شيء إلا وتعرف هل تستطيع القيام به على الوجه الكامل المطلوب وإلا اعتذر من البداية؛ لأن هذا يزري بالإنسان غاية الإزراء، ويسقط من عين الناس، ربما أراد أن يتجمل بهذا أو استحى، ثم بعد ذلك يتخلى عنه، ((وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل))[٢].

روى ابن جرير وأبو عبد الرحمن النسائي -واللفظ له- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان ملوكٌ بعد عيسى -عليه السلام- بدلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتمٍ يشتمونا هؤلاء، إنهم يقرءون: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [سورة المائدة:٤٤]**، هذه الآيات مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دورًا في الفيافي، ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}.**

مثل هذا مما أخذ عن بني إسرائيل، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله -عز وجل))[٣].

ورواه الحافظ أبو يعلى ولفظه: ((لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله))[٤].

هذا الحديث فيه ضعف، فيه رجل يقال له: زيد العَمِّي.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه-: "أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألتَ عما سألتُ عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قبلك، أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم (٦٤٦٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، برقم (٧٨٢)، وبرقم (٢٨١٨)، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى.

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٨٠٧)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف زيد العمي- وهو ابن الحَوَاري- وقد أُعِلّ بالإرسال، سفيان: هو الثوري، وأبو إياس: هو معاوية بن قُرة المُزَني".

٤ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٤٢٢٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٤٢٠٤)، وقال محققه حسين سليم أسد: "إسناده ضعيف".

شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض"[٥]، تفرد به أحمد، والله أعلم.

وهذا أيضاً فيه ضعف، فيه رجل يقال له: عقيل بن مدرك، لم يدرك أبا سعيد، وفيه رجل آخر أيضاً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة الحديد:٢٨-٢٩].

قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث الشعبي عن أبي بُرْدَة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَوَاليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران))[٦]، أخرجاه في الصحيحين.

ووافق ابنَ عباس -رضي الله تعالى عنهما- على هذا التفسير الضحاكُ وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير.

هذا هو القول الأول في الآية، وهو باعتبار أن هذا الخطاب متوجه لأهل الكتاب: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}** باعتبار أنه كان يتحدث عن أهل الكتاب، فيقولون: ما زال الخطاب يتعلق بهم، فخاطبهم وقال لهم: إن آمنتم، يعني بالنبي -صلى الله عليه وسلم- آتاكم أجركم مرتين، وجعلوا ذلك مفسراً بالآية التي في سورة القصص وبهذا الحديث.

والمقصود بالآية التي في سورة القصص هي قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ}** [سورة القصص:٥٢] إلى أن قال الله -عز وجل-: **{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ}** [سورة القصص:٥٤]، ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية في هذه الأمة؛ لأن الله قال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** فهو خطاب لأهل الإيمان، وهذا القرآن إنما خوطبت به هذه الأمة في الأصل، فيكون الخطاب متوجهاً إليهم، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ولعله الأقرب -والله تعالى أعلم-، فالذين يؤتون أجرهم مرتين إذا جمعت النصوص الواردة في هذا المعنى في هذا الحديث ذكر ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، والحديث ليس

---

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١٧٧٤)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف، عقيل بن مدرك السلَمي لم يدرك أبا سعيد، والحجاج بن مروان الكلاعي لم نقع له على ترجمة في كتب الرجال إلا ما ذكره الحافظ ابن حجر في "التعجيل" ص٨٧ نقلاً عن الحسيني في "الإكمال" ص٨٨ من أنه ليس بمشهور، وبقية رجاله ثقات، حسين: هو ابن محمد بن بهرام المروذي، وإسماعيل بن عياش ثقة في روايته عن الشاميين".

٦ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، برقم (٣٠١١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (١٥٤).

فيه ما يدل على الحصر، إنما أخبر عن ثلاثة أصناف: الكتابي الذي آمن بنبيه وآمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، والعبد المملوك الذي أدى حق سيده وحق الله، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، فهؤلاء ثلاثة، ويمكن أن يزاد عليهم أيضاً نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال الله -عز وجل-: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣١]، وأيضاً هذه الأمة كما في الآية: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ} [سورة القصص:٥٢]، وهذه الآية محتملة في أهل الكتاب، والآية في سورة الحديد أيضا محتملة، فعلى أحد القولين يكون ذلك في عموم هذه الأمة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا من وجوه تفضيل هذه الأمة على الأمم التي قبلها.

وهذه الآية كقوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة الأنفال:٢٩].

وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمرُ بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- حَبْرًا من أحبار اليهود: كم أفضل ما ضُعف لكم حسنة؟

الآن لما أورد قول ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: وهذه الآية كقوله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}.

لكن: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} ليس فيها مضاعفة الأجر، لكن هذا يشعر بأن ابن كثير -رحمه الله- يميل إلى القول الثاني أنها في هذه الأمة.

وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- حَبْرًا من أحبار اليهود: كم أفضل ما ضعف لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة، قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين، ثم ذكر سعيد قول الله -عز وجل-: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك، رواه ابن جرير.

الكفل في قوله: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ} الحظ والنصيب، والله -عز وجل- يقول: {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا} [سورة النساء:٨٥]، بعض الناس يقول: الكفل في السيئة والنصيب في الحسنة، وهذا غير صحيح، وهذه الآية تدل على أن الكفل يكون في الحسنة أيضاً، فالكفل هو مطلق الحظ والنصيب، بغض النظر عن أصله، فالعرب تقول لما يوضع على البعير مما يثبت معه الراكب ولا يسقط، تقول: إنه مأخوذ من هذا، فبغض النظر عن المادة التي أخذ منها، لكن هو الحظ والنصيب، {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، والله أعلم.

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذي عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً

وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء))[7]، **وأخرجه البخاري.**

وروى البخاري عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قومًا يعملون له عملاً يومًا إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركُوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور))[8]**، انفرد به البخاري.**

ولهذا قال تعالى: {لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله، {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

آخر تفسير سورة الحديد، ولله الحمد والمنة.

قوله: **{لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** قال: أي: **ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله**، بهذا الاعتبار الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تكون "لا" هذه صلة، يعني: أنها زائدة إعراباً، جيء بها للتأكيد، فالمعنى: إذا حذفت "لا" **{لِئَلا يَعْلَمَ}**، أي: ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله، يعلمون يعني من أجل أن يعلموا أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله ولا يمنعوا شيئاً من فضل الله -عز وجل- على أحد، وهذا الذي عليه عامة المحققين وأكثر المفسرين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومنهم من جعل "لا" هذه نافية **{لِئَلا يَعْلَمَ}** وأبقاها وأثبتها، لكن المعنى -والله أعلم- فيه تكلف.

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٤٥٠٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، برقم (٥٠٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المجادلة من الآية (١) إلى الآية (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة المجادلة:١].

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِع سمعه الأصوات.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسورة المجادلة من السور المكية، وفي الآثار المروية في ترتيب السور -وإن كان لا يصح منها شيء من جهة الإسناد- هذه السورة نازلة بعد سورة المنافقين، وقبل سورة التحريم.

وهذه السورة يقال لها: المجادِلة، باعتبار المرأة التي جادلت النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي خولة بنت ثعلبة، على اختلاف في اسمها كما سيأتي إن شاء الله.

ويقال لها سورة: المجادَلة، باعتبار المصدر، الفعل الذي حصل في المجاوبة، والمجادلة بين المرأة والنبي -صلى الله عليه وسلم-، **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}**، فهذه سورة المجادَلة التي حصلت بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه المرأة.

ويقال لها أيضاً: سورة قد سمع، ويقال لها: سورة الظهار، سورة قد سمع باعتبار أول السورة **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ}**، ويقال لها: سورة الظهار باعتبار أنها تحدثت عن حكم الظهار تفصيلاً.

وهذه السورة لا تتحدث عن موضوع واحد، والذين يحاولون أن يرجعوا السور إلى موضوع واحد باعتبار اسم السورة لا أدري ماذا سيفعلون إزاء هذه الأسماء لهذه السورة، أربعة أسماء، وبعض السور لها أكثر من هذا، فهل سيرجعون كل قضايا السورة إلى المجادَلة، أو أنهم سيرجعونها إلى الظهار؟ فمثل هذا المنهج في التكلف في تحميل الأمور ما لا تحتمل باعتبار النظر إلى اسم السورة، ثم بعد ذلك محاولة حمل الآيات -ولو كانت السورة كالمائدة أو البقرة- على هذا الاسم، من أجل أن ترجع جميعاً إليه، وما تحته من الأسرار والمعاني التي ترتبط بها آيات السورة، وموضوعاتها وقضاياها، وسورة البقرة ليس لأنها ذكرت فيها البقرة، وإنما كل الآيات التي ذكرت فيها لها تعلق بموضوع البقرة، ثم تسمع ما لا يخطر على بال ولا يدور في خيال، ولا يمكن أن تتصوره من أشياء لا يمكن أن توصف إلا بالتكلف، والله -عز وجل- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}** [سورة ص:٨٦] يعلمه ذلك، وفي الصحيح عن عمر -رضي الله عنه-: "نهينا عن التكلف"، فبعض السور تتحدث عن موضوعات متعددة، وبعضها يتحدث عن موضوع واحد.

فسورة المجادلة تتحدث عن عدد من الموضوعات:

الموضوع الأول: هو ما يتصل بالظهار، الذي نزل صدرها بسببه، ذَكَر الظهار وحكمه أنه شيء محرم وباطل، وبيّن ما يترتب على الظهار من الكفارة، كما سيأتي إن شاء الله.

الموضوع الثاني: أن هذه السورة تحدثت عن ضلالات المنافقين، وعن نجواهم، وعن موالاتهم لليهود، وأنهم يحلفون على الكذب.

الموضوع الثالث: يتعرض للآداب المتعلقة بمجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما يُشعِر به التصدق قبل مناجاته.

الموضوع الرابع: أثنى الله فيه على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين، وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون، هذه يمكن أن نقول: أربعة موضوعات ترجع إليها، تدور حولها هذه السورة.

وهي مدنية.

قوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}، قد هذه للتحقيق، والسمع صفة ثابتة لله -تبارك وتعالى-، {قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ}، الجدال هو مجاوبة بين طرفين فأكثر، لكنها ليست أي مجاوبة، وإنما هي مجاوبة خاصة، بمعنى الاحتجاج والاستدلال والمراجعة، يعني المجادلة فيها احتجاج، لاحظْ تقول: جدلت الحبل، كل واحد يفتل صاحبه عن رأيه، هذا في المجادلة.

وزوجها هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت -رضي الله عنهم أجمعين- من الأنصار، {وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} والشكوى ذكر ما يتأذى به، وتشتكي: فالاشتكاء مبالغة في الشكوى، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}، ولم يقل: وهو يسمع، فهنا ممكن أن يؤتى بالضمير، الضمائر تَختصر، فوضْعُ المظهر موضع المضمر يكون لعلة، من ذلك هذه المعاني البلاغية التي يذكر فيها المظهر مكان المضمر، يعني مكان الضمير، مع أن الضمير يؤدي أصل المعنى، من هذه المعاني: تربية المهابة في النفوس، يعني أيهما أعظم وأكثر مهابة: لو قال: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} وهو يسمع تحاوركما، أو إذا قال: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}، أيهما أفخم وأعظم وأدعى لتربية المهابة؟

وقد مضى شيء من هذا في الكلام على قواعد التفسير، {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}، التحاور مجاوبة، محاورة ومجاوبة بين طرفين وأكثر، يعني: مجرد المجاوبة يقال لها: محاورة، لكن الجدال: حوار خاص فيه احتجاج، فالجدال أخص من الحوار، قد تحاور إنساناً، ثم تقول له: لا تجادل.

{وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}، لاحظ ابتدأ الآية بالسمع واختتمها أيضاً بالسمع، والمقام يتعلق بالسمع وذكر البصر معه، فهو يسمع ما دار من الحوار، ويبصر المتحاورين، وغيرهما لا يخفى عليه خافية، فالله -تبارك وتعالى- يسمع الأصوات الدقيق منها والجليل ، فينبغي أن يُتقى وأن لا يتكلم الإنسان إلا بما يعلم أنه ينفعه ويرفعه عند الله، أو في أقل الأحوال أن لا يكون عليه تبعة في هذه الكلمات.

هذه الآية كما ترون هذه المرأة التي جادلت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذكرت حالها، كما سيأتي في سبب النزول، يؤخذ منها أن من قُطع رجاؤه وتعلق بالله -تبارك وتعالى- أن الله يفتح له من آفاق رحمته

ومن الأبواب التي لربما يتوهم الكثيرون أنها قد أغلقت في وجهه، فيأتيه من ألطاف الله -عز وجل- ما يحصل به الفرج والمخرج، والله المستعان.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله -عز وجل-: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} إلى آخر الآية[1].

وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً، وأخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير.

وفي رواية لابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهي تقول: يا رسول الله، أَكَلَ شبابي، ونَثَرتُ له بطني، حتى إذا كَبُرَت سِنِّي، وانقطع ولدي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} قالت: وزوجها أوس بن الصامت[2].

هذا هو سبب النزول، أنها نزلت في خولة التي كانت تشتكي من زوجها أوس بن الصامت، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، والرواية واضحة وصريحة في هذا، وأما ما جاء في خبر سلمة بن صخر -كما سيأتي إن شاء الله- فإن ذلك ليس هو سبب النزول، وإنما وقع لسلمة بن صخر أنه ظاهر من امرأته ثم وقع عليها قبل أن يكفّر بعد هذه الواقعة التي حصلت، فالرواية هناك ليس فيها أنه هو سبب النزول، ولكنه أُمر بأن يكفر بأحد خصال الكفارة، العتق أو الصيام أو الإطعام، فهو دليل على أن من ظاهر ثم واقع قبل أن يكفّر يكون قد ارتكب معصية، ولكنه لا زال عليه كفارة واحدة، بمعنى أنها لا تتكرر في حقه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أمر سلمة بن صخر بالكفارة، ظاهرَ وواقعَ قبل أن يكفّر، ولكنه ليس هو سبب النزول وإن قال بعض أهل العلم: إنه سبب النزول، لكن كما ترون هذه الروايات، وغير هذه الروايات، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم أن سبب النزول هو خولة مع زوجها أوس بن الصامت لما ظاهر منها، وأوس بن الصامت هو ابن عمها، كما سبق أنه أخ لعبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عن الجميع.

{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة المجادلة:٢-٤].

---

١ - رواه ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، برقم (١٨٨)، وأحمد في المسند، برقم (٢٤١٩٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، تميم بن سلمة من رجاله، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين"، والبخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}** [النساء:١٣٤].

٢ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٣٤٢/١٠)، برقم (١٨٨٤٠)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار، برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني بشواهده في إرواء الغليل (١٧٥/٧)، برقم (٢٠٨٧).

روى الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة "المجادلة"، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه.

شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، وجاء في بعض الروايات: أنه كان به لمم، وفسر هذا كما قال الخطابي أن المقصود باللمم هنا هو شدة الرغبة في المعاشرة، يعني: به شبق.

قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إليَّ وقد قلتَ ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يا خويلة ابنُ عمك شيخ كبير، فاتقِ الله فيه)).

المجادِلة النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لها: ((ابن عمك))، كما كان يقول لها -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أراك إلا قد بنت منه))، وهي تشكو تقول: نثرت له بطني، وأكل شبابي، ثم ظاهر مني، وتشكو حال الصبية إن ضمتهم إليها جاعوا، وإن دفعتهم إليه ضاعوا، فهذه شكواها، وهذه المجادَلة التي حصلت بينها وبين النبي -صلى الله عليه وسلم.

وهنا خويلة بنت ثعلبة بالتصغير.

قالت: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما كان يتغشاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: ((يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك))، ثم قرأ عليَّ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} إلى قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} قالت: فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مُريه فليعتق رقبة))، قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق.

الآن صيغة سبب النزول هنا في هذه الرواية، نحن قلنا: الصيغة الصريحة في سبب النزول أن يذكر واقعة أو سؤالاً ثم يقول: فنزلت، فأنزل الله، أو يقول: سبب نزول كذا، فهذا هو الصريح، وكذلك ما هنا، **قالت: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال: ((يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك))، ثم قرأ علي: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ}**، فصيغة ((قد أنزل الله فيك)) من الصيغ الصريحة بلا شك، وغير الصريح أن يقول: نزلت هذه الآية في كذا.

قالت: فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مُريه فليعتق رقبة))، قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق، قالت: فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مُريه فليعتق رقبة))، قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق، قال: ((فليصم شهرين متتابعين))، قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام، قال: ((فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر))، قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر)).

الوسق يبلغ ستين صاعاً، وهو عليه الآن إطعام ستين مسكيناً، فيعطي كل واحد صاعاً من تمر.

قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر، قال: ((قد أصبت وأحسَنْت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً)). قالت: ففعلت[٣].

فهذا القدر الذي أعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعانته هي على سبيل التبرع منها لا يبلغ هذا المقدار الذي هو كفارة، لا يبلغ ستين صاعاً، فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، فأضافت إليه هي مثله.

ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه وعنده: خولة بنت ثعلبة، ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة. وقد تصغر فيقال: خُوَيلة، ولا منافاة بين هذه الأقوال، فالأمر فيها قريب، والله أعلم.

الأمر في هذا سهل، وهذه الطريقة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الجمع جيدة، يعني: خولة وتصغر يقال: خُويلة، والنسبة قد تنسب إلى أبيها خولة بنت مالك بن ثعلبة، فيقال: خولة بنت مالك، وخولة بنت ثعلبة، ويقال: خويلة بنت ثعلبة، وأيضاً مما ذكر في اسمها أنها خويلة بنت خويلد، وخويلة بنت الصامت، وخويلة بنت الدليج، وقيل: إن اسمها جميلة، وقيل: خولة بنت حكيم، أو خولة بنت مالك، والمشهور أنها خولة بنت ثعلبة، وقد تصغر ويقال: خويلة، كما في هذا الحديث، ومثل هذا لا يضر، وهي امرأة من الأنصار، والاسم لا أثر له هنا.

هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة.

يعني هذا الصحيح، خلافاً لمن قال: إنها في سلمة بن صخر.

فقوله تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ} أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت عليَّ كَظَهْرِ أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم.

يقول: **أصل الظهار مشتق من الظهر**، يعني: هذا في اللغة؛ لأنه يُذكر في الظهار غالباً، أو في صيغته المشهورة المعروفة، يقال: أنتِ عليّ كظهر أمي، فقيل الظهار، فهو مشتق بهذا الاعتبار من الظهر.

الظهار مشتق من الظهر، وهنا يرد سؤال وهو أنه ما علاقة الظهر بذلك، ولماذا لم يذكر البطن مثلاً؟ باعتبار أن الآدمية إنما يركب بطنها وليس الظهر بخلاف البهيمة غالباً، فذكر الظهر هنا يمكن أن يقال: باعتبار أن الظهر كناية عن الركوب، فالمرأة بمنزلة المركوب للرجل، ولهذا إذا طلقها قيل: نزل عن امرأته، يعني فارقها، فالمرأة بمنزلة المركوب للرجل، فيمكن أن يكون عبر بهذا لهذا السبب، وإذا قال: أنت عليّ كظهر أمي، يعني: أنت محرمة عليّ لا يحل ركوبك، فكأنه نظر أو يحتمل أن يكون نظر إلى موضوع الركوب عموماً، ولما كان الركوب عادة في المركوبات على الظهر -ركب ظهر راحلته- عبر بالظهر لهذا الاعتبار، وأرجعه بعض أهل العلم إلى العلو قال: لأن المقصود بذلك العلو، إذ إن مرتبة الرجل فوق مرتبة المرأة فهو

---

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٧٣١٩)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة مَعْمَر بنِ عبدِ الله بن حَنْظَلَة، فلم يروِ عنه سوى محمد بن إسحاق، وقال ابن القطّان في "بيان الوهم والإيهام" ٤/٤٦٤: مجهول الحال، وقال الذهبي في "الميزان": لا يُعرف، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وبقية رجال الإسناد ثقات، سعد بن إبراهيم: هو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري".

سيدها وقيّمها، {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} [سورة يوسف:٢٥]، فالرجل مرتبته أعلى من مرتبة المرأة، والزوج له القوامة، فبعضهم أرجعه إلى موضوع العلو، وقالوا: ذكر الظهر لهذا، لا الظهر المعروف، هكذا قال بعضهم، واعتبره من قبيل قوله تعالى في سورة الكهف: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف:٩٧]، من العلو، أن يعلوه، أن يرتفعوا، أن يصعدوا على السد، {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ}، وهكذا مَن غَلب يقال: ظَهَرَ على كذا، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف:١٤]، فبعضهم قال: المقصود العلو، ولكن هذا لا يخلو من نظر -والله تعالى أعلم-؛ لأن ذكر الظهر هنا العلماء تكلموا على الأعضاء كما سيأتي -الأعضاء الأخرى لو ذكرها في الظهار-، لكن يؤخذ من هذا أن المقصود أو كأنه يعني حينما يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي، باعتبار أنه لا يعاشرها، ولما كان الرجل عادة يعلو المرأة فكأنها يعني بمنزلة المركوب له، فذَكَرَ الظهر -والله تعالى أعلم-، يعني هذا تعليل، وحقيقة الظهار هو تشبيه ظهرٍ محلَّل بظهرٍ محرَّم، أنتِ عليّ -هي حلال له الزوجة- كظهر أمي، تشبيه بالظهر المحرم، والموجب للحكم منه تشبيه ظهر محلل بظهر محرم، لكن هذه العبارة إذا قال الإنسان: أنتِ عليّ كظهر أمي فهذا ظهار بالإجماع، وهي عبارة صريحة، وهي أصرح عبارات الظهار، وهي الصيغة المعهودة، أن يقول لها: أنتِ عليّ كظهر أمي، لكن يبقى الكلام في الصيغ الأخرى، فالظهار كالطلاق له صريح وكناية، فلو أنه قال مثلاً: أنتِ عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، فهل الحكم واحد أو لابد من ذكر الأم؟ الذي عليه عامة أهل العلم أنه ظهار، وإلى هذا ذهب مالك وأبو حنيفة، وهو قول الشافعي في الجديد، وقال به جماعة من السلف كالحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان، أنه لا فرق بين أن يذكر الأم أو يذكر الأخت أو غير ذلك من ذوات المحارم، والقول الذي للشافعي في القديم -رحم الله الجميع- أنه يختص بالأم وإن علت، يعني من الجدات من الجهتين من جهة أمه وأبيه، لكن لو شبهها بغير الأقارب ممن يحرم عليه تحريماً مؤبداً كالأم من الرضاعة، تحرم عليه تحريماً مؤبداً، وأم الزوجة مثلاً، فهذا كالذي قبله، من خصه بالأم وإن علت قال: لا يكون ظهاراً، والجمهور الذين عمموا قالوا: لا فرق بين هذا وهذا، ولو قال: أنتِ عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، هذا من الكنايات، فهو بحسب نيته عند مالك والشافعي وأبي حنيفة، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، فإذاً الظهار منه ما هو صريح، وهو أن يشبهها بظهر أمه أو أحد محارمه، مَن يحرم عليه تحريماً مؤبداً، أو بعضو منهن، لو قال: كيدِ أمي، كيد أختي، كرأس أمي، أو نحو ذلك، فلا فرق بين أن يذكر الظهر أو يذكر غيره، والكناية أن يقول: أنتِ عليّ كأمي، فهذا بحسب القصد، لكن لو شبهها بامرأة أجنبية لا تحرم عليه تحريماً مؤبداً، بل تحرم عليه تحريماً مؤقتاً، امرأة أجنبية ليست من المحرمات على التأبيد، فبعض أهل العلم يقول: هذا ظهار إذا ذكر الظهر، وهذا ذهب إليه مالك وهو رواية عن أحمد، ورجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وخالفهم في ذلك جمع كأبي حنيفة والشافعي، وهذا القول الآخر هو الذي ذهب إليه ابن قدامة -رحم الله الجميع-، هذا إذا ذكر الظهر، وإذا لم يذكر الظهر فبعضهم يقول: يكون طلاقاً، فلو قال: أنتِ عليّ كيد فلانة، كرأس فلانة، ممن لا تحرم عليه تحريماً مؤبداً، فبعضهم يقول: يكون طلاقاً، وبعضهم يقول: يكون ظهاراً وهما قولان للمالكية، وبعضهم يقول: لا يكون شيئاً كأبي حنيفة والشافعي -رحمهما الله-،

وهناك مسائل أخرى: لو أنه ظاهر من امرأة ثم تزوجها، قال في امرأة ليست في حباله أصلاً: فلانة عليّ كظهر أمي، هل يقع أو لا يقع؟ بعضهم يقول: يلزمه الكفارة كمالك -رحمه الله-، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي، يقولون: لا يلزمه شيء، وهذا هو الأقرب باعتبار أن الله قال: {مِّن نِّسَائِهِم}، فهذه ليست من نسائه، فهذا الظهار وقع على محل غير قابل، مثل لو أنه أوقع الطلاق على امرأة ليست في حباله أصلاً، رأى امرأة في الشارع وقال: أنت طالق، يعني أراد أن يخوف امرأة، يسمعها شيئاً تكرهه، فرآها فقال: أنت طالق، أو تخاصم معها، أو غضب عليها، وقال: أنت طالق فهل يكون ذلك طلاقاً؟

الجواب: لا يكون طلاقاً، وهنا ما جاء من قوله تعالى هنا في الآية: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم}، خصه بعض أهل العلم بالمسلمين {مِنكُم}، وبعضهم قال: لا، هذا باعتبار الغالب، فالخطاب متوجه للمسلمين وإلا فالذمي يقع منه الظهار، على كل حال، ولهذا فإن ظهار الذمي لا يلزم عند مالك وأبي حنيفة خلافاً للشافعي، قالوا: لا يلزم، قالوا: لأنه قال: {مِنكُم}، لكن الذين قالوا: يلزم، وهم الجمهور في الواقع، قالوا: لأن هذا خرج مخرج الغالب، ولو صدر الظهار من المرأة، قالت: أنتَ عليّ كظهر أبي مثلاً، هي تريد أن تتخلص منه فظاهرت منه، فهل يقع الظهار منها، كما لو طلقته، أو قالت له: أنت طالق؟ فظهار المرأة ليس بشيء، لا يقع، على قول الجمهور، خلافاً للأوزاعي وإسحاق بن راهويه، قالوا: عليها كفارة يمين، وليس بظهار، بمعنى أنه لا يمتنع منها زوجها، وإلا فيكون الرجال أمرهم بيد النساء، كلما غضبت قالت: أنتَ عليّ كظهر أبي، فينتظر منها أن تخرج الكفارة، يعني قد لا تفعل، مع أن من أهل العلم كالشافعي -رحمه الله- من قال: إن الكفارة المتعلقة بحق الغير يحبس عليها، يعني: الأصل لو إنسان عليه كفارة يمين، أو كفارة قتل خطأ، هذه بينه وبين الله، القتل الخطأ الحق للغير هو الدية، لكن الكفارة هذه بينه وبين ربه -تبارك وتعالى-، فهذه لا يحبس عليها، لكن ما يتوقف عليه حق الغير لو أن رجلاً ظاهر من امرأته ثم امتنع من الكفارة فإن المرأة يضيع حقها بهذا الاعتبار؛ لأنه لا يجوز له أن يعاشرها، فبعض أهل العلم يقول: هذا النوع من الكفارات يُلزم به، ويحبس عليه، وظهار المرأة ذهب بعض أهل العلم كالزهري إلى أن عليها كفارة ظهار، واحتجوا لهذا بقصة عائشة بنت طلحة، كانت معروفة من أجمل النساء في المدينة، خطبها مصعب بن الزبير، فأبت وتمنعت وقالت: إن تزوجته فهو عليّ كظهر أبي، هذا الآن ظهار قبل الزواج، يعني عندنا قضيتان: ظهار المرأة، والظهار قبل الزواج، ثم صارت إليه إمارة العراقين في عهد عبد الله بن الزبير، في عهد أخيه، فخطبها فوافقت، فسألت عن هذا من حضرها من فقهاء المدينة -الفقهاء السبعة-، فأفتوها بأنها تكفر كفارة ظهار وتتزوج منه، لكن الراجح -والله أعلم- أولاً: ظهار المرأة ليس بشيء، ولا يجوز لها أن تظاهر؛ لأن الظهار حرام أصلاً، والأمر الثاني: أن الظهار الواقع على غير محل ولو كان من الرجل فإنه لا يقع، ولكن ما علق بالشرط فيه خلاف معروف لو صدر من الرجل، كما لو قال: إن تزوجتُ فلانة فهي طالق، أو: إن تزوجتُ فلانة فهي عليّ كظهر أمي، هذا غير أن يقول: فلانة عليّ كظهر أمي وهي في غير حباله، في غير عصمته، هنا معلق بشرط، لكن ظهار المرأة عموماً ليس بشيء ولا يعول عليه.

الآن لو قال: أنتِ عليّ كظهر أمي، أنتِ لي كظهر أمي، أنتِ بالنسبة إليّ كظهر أمي مثلاً، يعني غيّر الصلة، -أنتِ عليّ-، فهذا لا يؤثر، لا أثر له تغيير الصلات، يعني بأي عبارة كان، لو قال: أنتِ مني كظهر أمي،

أو أنت معي كظهر أمي، أو أنتِ عليّ، أو أنتِ عندي كظهر أمي، أو أنتِ لي كظهر أمي، فهذا كله لا يؤثر، كما لو حذف الصلة أصلاً، لو قال: أنتِ كظهر أمي، ما قال: أنتِ عليّ، فهذا كله من قبيل الظهار، يعني هذه بعض المسائل المتعلقة بالظهار، والكلام في هذا لا شك يطول، ولكن هذا القدر يكفي، وإشارة ابن كثير -رحمه الله- إلى أن الظهار كان في الجاهلية طلاقاً، لهذا قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أراك إلا قد بنت منه))، بل كان أشد الطلاق في الجاهلية، ولهذا فهذا حكم جديد في الإسلام بسبب ما وقع من أوس بن الصامت مع امرأته خولة.

وقوله تعالى: {مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ} أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: "أنت عليَّ كأمي" أو "مثل أمي" أو "كظهر أمي" وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته؛ ولهذا قال: {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} أي: كلاماً فاحشاً باطلاً {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} أي: عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.

هذه الآية تدل على تحريم الظهار **{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}**، فهذا يدل على تحريم الظهار من أوجه متعددة: أنه قال عنه: إنه منكر، والمنكر محرم، وقال عنه: إنه زور، وأيضاً ذكر العفو والمغفرة، وإنما يكون العفو والمغفرة من الذنب، وأيضاً ذكر الذي بعدها الكفارة، والكفارة في الأصل تكون من ذنب في الأصل، وأنه أكذبهم في قولهم فقال: **{إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}**، **{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}**، فهذه أوجه ذكرها الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، كلها في هذه الآية تدل على تحريم الظهار، فلا شك أن الظهار محرم، ويترتب عليه حكم، وهو الكفارة بالإجماع، هنا قال: **{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}** [سورة المجادلة:٢]، فوصفه بأمرين: منكراً باعتبار أنه منكر، وزوراً باعتبار أنه هو أعظم الكذب، فإذا نظرت إلى الصيغة الخبرية حينما يقول لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي، هذا خبر صادق أو كاذب؟ فهو خبر كاذب فهو زور، فهذه الصيغة الخبرية تتضمن حكماً هو تحريم هذه المرأة، وجعلُ هذه المرأة بمنزلة الأم، فهذا الحكم باطل، فهو منكر، حكم منكر، فالصيغة خبر وهذا الخبر زور، وهو لا يقصد مجرد الإخبار، وإنما ينشئ حكماً بهذا الخبر، فهذا الحكم الذي تضمنه هذا الخبر -تضمنته هذه الصيغة- هو منكر، **{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}**، هنا قال: **{لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} أي عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وغيرها** إلى آخر ما ذكر.

وقوله: **{وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** عما يبدر من غير قصد، سبق لسان لا يقصده، فالله يعفو ويغفر، ولكن ليس للإنسان أن يتكلم عموماً بهذه الأمور مما يقوله الناس ولا يقصدونه ولا ينبغي أن يقال، كما ذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- أن الرجل لربما يقول لامرأته على سبيل التعليم للصغار؛ لأنه يريد أن يسمع هؤلاء الأطفال بماذا تنادى هذه المرأة، فهو حينما يناديها باسمها هم سينادونها باسمها، أولادها سينادونها باسمها، يقولون: يا فلانة، فإذا كنّاها سينادونها بالكنية، يا أم فلان، فبعض الناس يريد أن يعلم

الأطفال، فيقول: يا ماما، وأحياناً لربما هو يريد أن يتلطف بها، يا أمي، يعني بعض الناس على لسانه هذه الكلمة، يتلطف يقول: لابنته هكذا، يعني هو بطبيعته لطيف، فإذا جاء يكلم ابنته أو يكلم زوجته أو يكلم أحداً من محارمه قال: يا أمي افعلي كذا، وهو لا يقصد الظهار، {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} مما لا يقصد، لكن ليس له أن يقول هذا؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، فليس للرجل أن يقول لامرأته: يا أمي، لأي سبب كان، لكن هل يكون ظهاراً؟ بحسب قصده، بحسب نيته، والله -عز وجل- يغفر ويعفو ما لم يقصد به الظهار.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، قد يرد سؤال هنا، هل الرجل هذا قال لها: أنت أمي، أو قال لها: أنت عليّ كظهر أمي؟ لم يقل لها: أنت أمي، فكيف قال الله -عز وجل-: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}، "إن" هنا نافية، بمعنى: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، بأي اعتبار مع أن الرجل لم يقل: أنت أمي، أو ما جعلها أماً له؟ يمكن أن يجاب عن هذا فيقال: هو جعلها بمنزلة الأم، نزلها منزلة الأم حينما قال: أنت علي كظهر أمي، فأكذبه الله بهذا ورد قوله قال: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}، ليست الزوجة بمنزلة الأم، ولهذا قال في الأحزاب: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ} [سورة الأحزاب:٤]، فمن أهل العلم من قال: إن قوله: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} هو مقدمة لإبطال الظهار والتبني، كما لا يكون لرجل قلبان في جوفه، فكذلك لا تكون الزوجة أمًّا وزوجة في آن واحد، لا يجتمع فيها الوصفان كما لا يجتمع للرجل أبوان، بعضهم يقول: هي المقدمة لإبطال هذين الأمرين، فنزلها منزلة الأم.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد الظهار زمناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق.

وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حُكي عن مالك: أنه العزم على الجماع أو الإمساك، وعنه أنه الجماع.

عن سعيد بن جبير: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} يعني: يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم.

وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ} هذه فيها ثلاث قراءات متواترة، {وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ} هذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، وهذه القراءة التي نقرأ بها {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ} قراءة عاصم، والقراءة الثالثة: {وَالَّذِينَ يَظَّاهَرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ} قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي.

هذه المسألة التي يذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى قوله: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، اختلف أهل العلم في المراد بالعود كثيراً، فبعضهم فسره بالعزم، كما يقوله أبو حنيفة وهو رواية عن مالك، وقبلهم قال به قتادة، ولكن هذا المعنى أنكره الإمام أحمد -رحمه الله-، العزم، فهذا رجل الآن ظاهر من امرأته وقال ما قال، هل بمجرد العزم تشتغل ذمته بالكفارة فلو مات قبل أن يجامع، ظاهر وعزم على الجماع ثم مات، هل نُخرج من تركته كفارة، نقول: هذا عليه كفارة ظهار؛ لأنه عزم على الوطء، ولم يحصل منه وطء؟، لا يقال: ذمته مشغولة، إذاً تفسيره بالعزم {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} فيه إشكال، فبمجرد العزم لا

تشتغل الذمة، لا تكون مشتغلة بالكفارة بمجرد العزم، وهذا حمل بعض أهل العلم على القول: إن المراد بالعود هو الوطء؛ لأن الكفارة تتعلق بذمته إذا حصل الوطء، لكن هذا يرد عليه إشكال، وهو أنه لا يجوز له أن يطأ حتى يكفّر، فكيف يفسر بالوطء؟ الإمام أحمد ذهب إلى تفسيره بالوطء، وهو أيضاً مروي عن أبي حنيفة، وهو الرواية الأخرى عن مالك، وبه قال الحسن البصري، أنه الوطء، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، يعني: كأنه إما أن يقال: العزم على الوطء، فالذمة كما سبق لا تشتغل إلا بالوطء، وإذا قلت: الوطء، هو لا يجوز أن يطأ حتى يكفر، فهو متردد بين هذا وهذا، لكن الواقع يمكن أن يقال غير هذا، سمعتم قول الشافعي -رحمه الله- ماذا قال؟، أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، وقريب من هذا ينقل عن الإمام مالك -رحمه الله-: أن يمسكها ويترك مفارقتها بعد المظاهرة.

وبعضهم يقول كالليث -وهو منقول عن أبي حنيفة-: لأن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، والعود على هذا أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، وبعضهم يقول: المقصود {ثُمَّ يَعُودُونَ} يعني: يعودون إلى لفظ الظهار مرة أخرى، يعني تكرار أو تكرير هذا اللفظ، يكرره كما يقول الظاهرية ابن حزم وداود وأمثال هؤلاء، يكرر ذلك، لكن هذه الأقوال لا تخلو من إشكال، يقول هنا: **وقال أحمد: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفّر بهذه الكفارة.**

الشنقيطي -رحمه الله- ذكر قولاً يجمع بين القولين المشهورين -أنه العزم أو الوطء- قال: العود له مبدأ ومنتهى، له مبدأ ومنتهى، مبدأه العزم ومنتهاه الوطء، فإذا عزم فلا يجوز له أن يطأ حتى يكفر، {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}.

مع أن بعض أهل العلم يقول: هذا من المقدم، يعني: الآية فيها تقديم وتأخير، وعرفنا أن الأصل في الكلام الترتيب مهما أمكن حمله على معنى صحيح، فبعضهم يقول: فيه تقديم وتأخير، يعني: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}، ثم من لم يجد فإطعام ستين مسكيناً، {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}: إنا لا نفعله، فيفعلونه، يكون فيه تقديم وتأخير، يعني: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ} إلى آخره، ثم قال: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ} [سورة المجادلة:٣]، {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} [سورة المجادلة:٤]، {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}: إنهم لا يفعلونه، فيفعلونه، هذا معنى ذكره بعض أهل العلم، ولكن الأصل في الكلام الترتيب، فهو مقدم على القول أو دعوى التقديم والتأخير؛ لهذا ضعف هذا القول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ورده.

وعلى كل حال {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} يعني: يرجعون عما قالوا، في نقض ما قالوا، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن اللام هذه {لِمَا قَالُوا} هي بمعنى "إلى" أو "في" يرجعون فيما قالوا، يرجعون إلى ما قالوا، ولهذا فسره بأنهم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه، ويذكر أنه لو قيل: إن المعنى ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا أو تحريم ما حللوا فصواب؛ لأن كل ذلك عود له، يعني: يعودون لتحليل ما حرموا على

أنفسهم مما أحله الله لهم، هذا المراد بالعود، والله تعالى أعلم.

هنا قال الله تعالى: {مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} يعني: أن الكفارة {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، كذلك صرح بهذا في الصيام، {مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، والمس من أهل العلم من فسره بالوطء، ومن ثَمّ إذا فُسر بالوطء {مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} فإذاً غير الوطء من أنواع الاستمتاع جائز؛ لأن الممنوع هو المس كما جاء عن ابن عباس والحسن وسفيان، فلا حرج إذاً في المباشرة والتقبيل وسائر أنواع الاستمتاع غير الوطء.

القول الآخر: أن المس هنا يشمل الوطء وسائر أنواع الاستمتاع، كما جاء عن مالك وهو رواية عن الشافعي، وهذا رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، باعتبار أن الرجل هذا نزلها منزلة الأم، فلا يجوز له الاستمتاع بالأم بأي وجه كان، فمن نظر إلى ظاهر اللفظ {مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} فإن المس في لغة العرب هو الوطء، فأخذ بظاهر اللفظ، ومن نظر إلى المعنى قال: هذا نزلها منزلة الأم، فإذا نزلها منزلة الأم لا يجوز له أن يستمتع بشيء منها قبل أن يكفّر، وهذا القول أحوط، وأبرأ للذمة، والله تعالى أعلم.

وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج، وكان لا يرى بأسا أن يَغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفّر.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} والمس: النكاح، وكذا قال عطاء، والزهري، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفِّر.

وقد روي أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلا قال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال: ((ما حملك على ذلك يرحمك الله؟))، قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: ((فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله -عز وجل))[٤]، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح، ورواه أبو داود والنسائي.

لو واقع قبل الكفارة، ظاهر من امرأته وقبل أن يكفر واقع امرأته، فما الحكم؟

فهنا عندنا هذا الحديث، الرجل الذي سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- فأمره بكفارة واحدة، يعني هو يأثم لكن لا تتكرر الكفارة، مثل لو أنه أعاد اليمين قبل أن يكفّر، فإنه عليه كفارة واحدة، بخلاف ما لو أنه كفر ثم أعاد اليمين، أو أعاد الظهار فعليه كفارة أخرى، وكذلك جاء في السنن أن سلمة بن صخر أيضاً ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه، فأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكفارة، يعني: كفارة واحدة، وكذلك جاء عند الترمذي وابن ماجه عن سلمة بن صخر في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كفارة واحدة))[٥].

---

٤ - رواه الترمذي، أبواب الطلاق واللعان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، برقم (١١٩٩)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١٦٠٠)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٧/ ١٧٩)، برقم (٢٠٩٢).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الطلاق، باب ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، برقم (١١٩٨)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب المظاهر يجامع قبل أن يكفر، برقم (٢٠٦٤).

وقوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان.

الرقبة غير مقيدة بالإيمان، المطلق محمول على المقيد كما هو معروف، وله أحوال معه أربعة، لكن هذا مما يدخل في بعض صورها الصحيحة التي يحمل فيها المطلق على المقيد، اتحاد الحكم والسبب، واختلاف الحكم والسبب، واتحاد الحكم واختلاف السبب، والعكس.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ} أي: تزجرون به {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي: خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم.

وقوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} قد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان.

هذا الصيام قال: {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} لابد من التتابع، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}، ولو أنه أفطر أثناء الشهرين بعذر، سافر أو مرض، فالجمهور يقولون: يبني على ما سبق، فهو معذور، وهذا الذي اختاره ابن جرير، وبه قال جمع من السلف كسعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وهو رواية عن الشافعي، وقال به مالك، وقبله الشعبي، هؤلاء يعذرونه مطلقاً، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي يقيد هذا بقيد العذر، يقول: يفرق بين العذر الذي بيده، والعذر الذي ليس بيده، فالعذر الذي بيده السفر إذا كان يستطيع أن يدفعه، والعيد وأيام التشريق ورمضان، كيف يستطيع دفع العيد إلى آخره؟ قال: يوقّت الصوم بحيث لا ينقطع، هو يعرف أنه سيسافر في هذا الوقت، يعرف أنه سيقطعه العيد وأيام التشريق، إذاً يوقت الصوم في وقت ما ينقطع فيه، وإنما يعذر بالعذر الذي ليس له مدفع، مرض ماذا يفعل؟ {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [سورة البقرة:٢٨٦]، والشنقيطي قال: لأن التتابع مقصود فمهما أمكن تحقيقه فهو مطلوب، الآخرون قالوا: هذا مثل رمضان، إذا كان يعذر بالفطر في رمضان فكذلك في كل صوم واجب، فهذا قول عامة أهل العلم أنه معذور، وبعضهم قال: لا، هذا لا يأثم إذا أفطر بعذر، ولكن عليه أن يستأنف من جديد، فهذا مذهب أبي حنيفة وقبله قال به إبراهيم النخعي، وهو رواية عن الشافعي، ولا شك أن القول الأول أصح وأرجح، وقول الشنقيطي أحوط، يعني يمكن أن يرشد الإنسان قبل أن يفعل يقال له: لو جعلته في وقت لا ينقطع فهو أفضل؛ لأنك أيضاً تخرج من خلاف الذين قالوا: لا يصح، عليه أن يبدأ من جديد، فهذا قول وسط، وهذا مثال لإحداث قول ثالث ليس فيه إبطال للقولين، وإنما جمع بينهما، في أصول الفقه العلماء يتكلمون على نقض الإجماع فيما لو اختلف العلماء على قولين هل له أن يحدث قولاً ثالثاً أو لا؟ فإن كان هذا القول لا يرد القولين ولا يعود عليهما بالإبطال فلا إشكال، وذكرت في بعض المناسبات مثالاً لهذا في مسألة البسملة، وقول صاحب المراقي:

وبعضُهم إلى القراءة نظر *** وذاك للوفاقِ رأيٌ معتبر

يعني: أن البسملة على بعض الأحرف من الفاتحة مثلاً، وعلى بعض الأحرف ليست منها، فمن قرأ بحرف هي منها لم يسقطها، ومن قرأ بحرف ليست منها فله أن يسقطها.

ولو أنه حصل الوطء خلال الشهرين، هذا الوطء قد يقع ليلاً وقد يقع نهاراً، إن وقع نهاراً فهذا لا إشكال أنه يبطل الصوم، كما لو أكل أو شرب، بل أشد؛ لأن كل ذلك من أجل الوطء، وهو ممنوع من الوطء، فهذا يبطل بالإجماع، لو حصل الوطء نهاراً في وقت الصوم، يصوم الشهرين فوقع الوطء في النهار، هذا لا إشكال، لكن لو وقع الوطء ليلاً، هو ليس بصائم في الليل، نحن قلنا: إذا حصل الوطء قبل الكفارة لا زالت كفارة واحدة، لكن الآن هو يصوم، فوقع عليها ليلاً، هو لا يجوز له أن يقع عليها حتى ينتهي من الكفارة، فماذا لو أنه وقع منه الوطء؟ فبعض أهل العلم كمالك وأبي حنيفة وأحمد يقول: يبطل، ولو كان بالليل، يبطل، وأما الشافعي وهي رواية أخرى عن الإمام أحمد -رحمه الله- فيقول: يبطل بالنهار فقط، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- مع أنه ممنوع من الوطء ليلاً، هم يوافقون على هذا، فعليه أن يمتنع من الوطء، لكن لو حصل في الليل فهذا هل يبدأ الصوم من جديد أو يكمل صومه؟ فيه هذا الخلاف المعروف.

فعلى كلام الشنقيطي -رحمه الله- يكون عاصياً وآثماً لكن الصوم لم ينتقض، هو يصوم شهرين متتابعين.

هنا في إطعام المسكين، **{فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}**، ما قال هنا: **{مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}**، فمن عجز عن عتق الرقبة وعجز عن الصيام فحقه الإطعام، فلا يقال: يجب أن يكون الإطعام قبل المسيس، فيمكن أن يجامع ثم يطعم، كما في كفارة اليمين له أن يفعل ما حلف أن لا يفعله مثلاً ثم يكفّر، وله أن يكفر ثم يفعل، والأمر في ذلك يسير، والأحاديث تدل عليه.

والظاهر -والله تعالى أعلم- أنه يرجع إلى ما قبله من القيود، أن الإطعام يكون قبل المسيس أيضاً؛ لأنه ممنوع منها حتى يكفّر، نزلها منزلة الأم، فلابد من الكفارة من أجل أن تحل له، لكن هنا بالإطعام هل يحتاج أن يكون إطعام ستين مسكيناً عن ستين يوماً نقول: كل يوم واحد، اجلس ستين يوماً؟ الجواب: لا، لكن لابد من مراعاة العدد، من ستين، لو أعطى واحداً طعام ستين لا يجزئ؛ لأن ذكر العدد مقصود وفيه إحسان إلى هذا العدد الكبير، فما ذكر فيه العدد في الكفارات فهو معتبر، خلافاً لأبي حنيفة الذي يقول: يكفي لو أنه أعطاه لواحد، طعام ستين أعطاه لواحد، نقول: لا، لابد من استيعاب العدد؛ لأن الله ذكر ذلك، فيمكن أن يعطيهم دفعة واحدة، يمكن أن يكون الطعام مطبوخاً، يعطيهم عشاء، غداء، ويجلسون عليه ويأكلون في خلال نصف ساعة يكون هذا الإنسان أدى ما عليه، بل لا يحتاج أنهم ينتهون من الأكل، بمجرد التمكين لهم وتمليكهم، هو يجب أن يملكهم هذا الطعام، فإذا ملكهم إياه يكون قد فعل ما وجب عليه، يعني ما يحتاج أن ينتظر يقول: حتى تنتهوا، بمجرد ما يملكهم هذا الطعام يكفي ذلك، فيكفي فيه أن يكون غداء أو عشاء، سواء كانوا متفرقين أو مجتمعين، المهم أن يملّكهم ذلك، وهذا بعض ما يتعلق بقوله: **{فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}**.

{ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: شرعنا هذا لهذا.

أن الامتناع عن الزوجة إيمان، حتى يكفّر، الكفارة من خصال الإيمان، الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فكون الإنسان يمتنع من امرأته ونفسه تتوق إليها، وكون الإنسان يخرج الكفارة تقرباً إلى الله وتعبداً بما أمره فهذا إيمان، الإيمان قول وعمل، قال: **{ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}**.

وقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} أي: محارمه فلا تنتهكوها.

وقوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المجادلة من الآية (٥) إلى الآية (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين وللمسلمين أجمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة المجادلة:٥-٧].

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: أُهينوا ولُعنوا وأُخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم، {وَقَدْ أَنزلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} أي: واضحات لا يخالفها ولا يعاندها إلا كافر فاجر مكابر، {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه.

ثم قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً} وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} أي: يخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه، {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي: لا يغيب عنه شيء ولا يخفى، ولا ينسى شيئاً.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، المحادّة أصلها أن يكون هذا في حد وهذا في حد، يعني أصل ذلك من المفاعلة تكون بين طرفين وأكثر، هذا يكون في طرف وهذا يكون في طرف، مثل المشاقّة هذا في شق، وهذا في شق، والمعاداة هذا يكون في عُدوة وهذا يكون في عدوة الوادي، جانب الوادي، فالله -تبارك وتعالى- يذكر ذلك بعد ذكر هذه الأحكام المتعلقة بالظهار، بيّنَ حكمه وأنه محرم، وبين ما يترتب عليه من الكفارة، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، كُبتوا هنا فسره بأُهينوا ولُعنوا وأخزوا.

فالكبت يأتي بمعنى ما ذكر، وهو تفسير له بما يقاربه، وفي الكبت معنى زائد على ما ذكر وهو أنه لم يتحقق لهم مطلوب، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} [سورة الأحزاب:٢٥]، فهؤلاء الذين يحادون الله ورسوله ويريدون إبطال شرائع الإسلام، وإطفاء نور الله -تبارك

وتعالى-، لم يحصل لهم مطلوب ولم يتحقق لهم غرض، فهم كبتوا كما كبت الذين من قبلهم، فهذه سنة الله -عز وجل- في هؤلاء المحادين.

{الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} يشمل كل من كان قبلهم من هذه الأمة ممن كُبت قبل نزول هذه الآيات، كما يشمل أيضاً كل من كبتوا من الأمم السابقة.

قال: {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} يعني: واضحات، {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}.

ثم قال: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ} هؤلاء المحادين، هؤلاء الكفار، {يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً}، هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنه يبعثهم جميعاً كما ذكر الحافظ ابن كثير، وهذا قول الجمهور، أن الله يبعثهم جميعاً يعني مجتمعين، يبعث الله الأولين والآخرين، ويوم القيامة من أسمائه أنه يوم الجمع، فهو يوم الجمع، يُجمع فيه كما يقولون: يُجمع الأولون والآخرون، ويجمع أهل السماوات والأرض، ويجمع بين العامل وعمله، وبين المظلوم وظالمه، وبين العابد ومعبوده، كل هذا من معاني الجمع، فهنا {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً} المعنى الأول: أنه يبعث الأولين والآخرين.

المعنى الثاني: {يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً} يعني: أن الله يبعث هؤلاء جميعاً، يجمع ما تفرق من أجسادهم في الأرض، لا يفوته من ذلك شيء، لكن المعنى الأول هو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو الأقرب وهو المتبادر، وهو الذي يدل عليه مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى.

قال: {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}، فالنبأ أخص من مطلق الخبر، فكل نبأ فهو خبر، وليس كل خبر فهو نبأ، فالنبأ هو الخبر الذي له شأن، وهذه الأمور يترتب عليها مصير هؤلاء فهي أنباء.

قال: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}، أحصاه أي ضبطه وحفظه عليهم، جمعه، لم يفت منه شيء كما قال الله -عز وجل-: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف:٤٩]، {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}، وهم نسوه لكثرته أو لقلة مبالاتهم، أو لتقدم زمانه وتقادمه، يعني هذا من زمان، فهم ينسون هذه الذنوب التي مضى عليها وقت طويل، ولكن الله -تبارك وتعالى- أحصى ذلك عليهم جميعاً، والله على كل شيء شهيد، فالشهيد -كما مضى في الكلام على الأسماء الحسنى- فيه زيادة على معنى العلم –الشهود-، فالله -تبارك وتعالى- يعلم أحوال العباد وأعمالهم، كما أنه -تبارك وتعالى- مشاهد لهم، شاهد عليهم بهذه الأعمال، حاضر لا يغيب، وهو على عرشه -تبارك وتعالى- فوق سماواته.

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ} أي: من سر ثلاثة {إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسلُه أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ} [سورة التوبة:٧٨] **وقال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** [سورة الزخرف:٨٠]**؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ولا شك في**

إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه تعالى مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء.

ثم قال تعالى: {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

هو هذا، قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}، هذا ابتداء الآية بالعلم، واختتامها كذلك بالعلم {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فهذه قرينة تدل على المراد، فليس هذا من التأويل، وأهل السنة والجماعة لم يؤولوا شيئاً من نصوص الصفات، فالله -تبارك وتعالى- فوق عرشه، كما تضافرت النصوص بذلك، وكذلك أيضاً هو مطلع على خلقه محيط بهم، فهذه معيته العامة التي هي بمعنى الإحاطة -العلم-، فبصره نافذ فيهم، وكذا سمعه -تبارك وتعالى.

فهنا {أَلَمْ تَرَ}، الرؤية هنا رؤية علمية؛ لأن مثل هذا لا يُرى بالأبصار، {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ}، يعني: بعلمه -تبارك وتعالى.

{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ} النجوى في الأصل مصدر، وهي بمعنى حديث السر، وبعضهم يقول: أصلها مأخوذ من النَّجْوة وهي المكان المرتفع من الأرض، أي مكان بائن، وبعضهم يقول: لأن السر يصان عن الغير، فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى حال الخفاء، يعني: هذا المكان المرتفع النجوة، فعلى كل حال هذا المكان المرتفع هو متميز عن غيره، فكأن هؤلاء الذين يتناجون يمتازون عن الآخرين، يقصدون الانفراد عنهم والتميز، والاختصاص بهذا الحديث، فالمناجاة لا تكون إلا بين اثنين فأكثر، فإذاً هي حديث في السر يقصد به الاختصاص والانفراد، وحينما نقول: الحديث في السر قد يذهبون ويتحدون في ما بينهم بصوت مرتفع، لكن بحيث لا يسمعهم أحد، فهو بهذا الاعتبار يكون سراً، فيقصد به الانفراد، ويدخل في حكمه كل ما كان يرجع إلى ذلك، بمعنى حتى لو تكلموا بحضرة الناس، ولكن يتكلمون ويتقصدون أن يتحدثوا بلغة لا يفهمها الآخرون، لا يفهمها الطرف الآخر الموجود، فهذا الطرف الثالث لا يعرف اللغة الأعجمية، فيتحدثون بالأعجمية من أجل ألا يفهم، وهو جالس معهم ويسمع الكلام، فهذه تعتبر من النجوى من حيث الحكم، لكن هي هكذا في أصلها أنها الحديث الذي يقصد به الانفراد عن الناس، {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ} ليس بعد هذا شيء، فإذا كان الإنسان يتحدث ويقصد بهذا الحديث الانفراد والسر، فإن الله -تبارك وتعالى- مع هؤلاء المتناجين بعلمه، لا يخفى عليه منهم خافية، بل إنه أسمع لكلامهم من بعضهم لبعض، وهذا يحمل العبد على مراقبة الله -تبارك وتعالى- والتحرز، {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [سورة النساء:١١٤]، فكل حديث لربما يبالغ أصحابه في التخفي وفي صيانته عن الظهور مما يُكاد به الإسلام وتُحارب به الفضيلة فإن الله -تبارك وتعالى- يعلمه، وقد أحاط بهؤلاء وسمع كلامهم، وكتب ذلك جميعاً، ثم سينبئهم به ويقول: قلتم كذا وكذا في وقت كذا وكذا، وفي مكان كذا، فالذي يعرف هذا الكلام وهذه النتيجة فإنه يتحرز ولا يستطيع أن يتناجى إلا بما يرضي الله -تبارك وتعالى-، مما يكون حقاً في موضعه، وله فيه نية صحيحة، لابد من هذه الأمور الثلاثة، قد يكون حقاً لكن ليس في موضعه، فيكون ذلك عائداً إلى الفساد، ويكون له فيه نية صحيحة، فقد

يناجي الإنسان لأغراض ومقاصد فاسدة، وإن كان موضوع النجوى بظاهر الأمر محموداً، فقد يقصد بهذه النجوى حظوظاً نفسية، ورفعة، وحظوة، أو ثناء الخلق، وما إلى ذلك، يعني أنه يُعنى بكذا، وأنه حريص على كذا، أو أنه يخفي عمله، أو أنه لا يريد الاشتهار بالمعروف والخير، وإنما يقصد به ما عند الله -تبارك وتعالى- فهو لا يذكره إلا على أضيق نطاق مما عنده من أعمال البر والخير التي يريد أن يعملها فيستشير فيها فلاناً وفلاناً، هذه كلها عند الله -عز وجل- لا يعلمها إلا هو، فلابد من هذه الأمور الثلاثة، يكون المضمون صحيحاً، ويكون أيضاً ذلك في موضعه الصحيح، والثالث: أن يكون له قصد صالح، وإلا فإن ذلك يرجع إلى الفساد، كما سبق، -والله المستعان.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة المجادلة:٨-١٠].

قال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثم يعودون لما نهو عنه} قال: اليهود.
وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد: كان بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله -أو بما يكره المؤمن- فإذا رأى المؤمن ذلك خَشيهم، فترك طريقهم عليهم، فنهاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}.

وقوله تعالى: {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصِرون عليها ويتواصون بها.

وقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش))، قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أوَمَا سمعتِ أقول: وعليكم؟))، فأنزل الله: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}[1].

وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذَّام واللعنة، وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا))[2].

---

١ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٣٤٣/١٠)، برقم (١٨٨٤٣).

٢ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يستجاب لنا في اليهود، ولا يستجاب لهم فينا))، برقم (٦٤٠١)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، برقم (١٦٨٥).

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودي فسلَّم عليهم، فردوا عليه، فقال نبي الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل تدرون ما قال؟))، قالوا: سلم يا رسول الله، قال: ((بل قال: سام عليكم، أي: تسامون دينكم))، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ردوه))، فردوه عليه، فقال نبي الله: ((أقلت: سام عليكم؟))، قال: نعم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك))[٣] أي: عليك ما قلت، وأصل حديث أنس مخرج في الصحيحين، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه.

وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبياً حقّاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: {حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ} أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة {يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: {لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}؟، فنزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} إسناد حسن ولم يخرجوه.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}، مَن هؤلاء الذين نهوا عن النجوى؟ هم اليهود كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، والدليل على أنهم اليهود أمران يكفي كل واحد منهما في الدلالة على أن المراد به اليهود، الأمر الأول: قرينة في نفس الآيات، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}، قال: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}، من الذين يحيونه بما لم يحيه به الله؟ هم اليهود، فهذا حديث عنهم، هؤلاء الذين نُهوا عن النجوى، فهذه قرينة في الآية تدل على أن المراد اليهود، والأمر الثاني: هو سبب النزول، وهو حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-، فهي نازلة في اليهود.

قال: {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، هو النهي {نُهُوا عَنِ النَّجْوَى}، الذي نهاهم هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهؤلاء اليهود كانوا إذا رأوا أحداً من المسلمين يتناجون، فيأخذه ما قرب وما بعد، يأتمرون به، هؤلاء عندهم أسواق، عندهم مواضع، مكان لتجمعهم، وإقامتهم، فيأتيها المسلمون ويغشوا أسواقهم، فيبدءون يتناجون.

{وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، والنهي عن النجوى هنا في بيئة يمكن أن يوجد فيها بؤر للتآمر من المنافقين واليهود، وهؤلاء يجتمعون لحرب الإسلام، فقطع الطريق على هؤلاء بالنهي عن التناجي؛ لأن التناجي هو مبدأ الشر والفتنة، تبدأ بالنجوى ثم بعد ذلك تتحول إلى شيء آخر، إلى عمل خارجي يفسدون به، ويحولون جمع الناس إلى فرقة، وهذا الذي يناجي أول ما يبدأ ذلك أنه يلقي الكلمة فإن وجد من يصغي إليها زاده

---

٣ - جامع البيان، للطبري (٢٣/٢٤٠)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة المجادلة، برقم (٣٣٠١)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٤٢٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

أخرى، ثم بعد ذلك يلقي إليه ثالثة، ثم بعد ذلك يتمكن منه، فيلقي في قلبه ما شاء، فيتغير قلبه على إخوانه، ولو كان ذلك بلبوس الإصلاح أحياناً، يعني يأتي بها بثوب إصلاح، ولا يعجبه هذا الوضع القائم، يريد أفضل من هذا، كما كان الذين يتناجون في عهد عثمان مثلاً -رضي الله عنه- حتى جاءوا بهذه الجموع من الآفاق، وحاصروه -رضي الله عنه- وقتلوه في داره، فكان مبدأ ذلك النجوى عن طريق عبد الله بن سبأ وأهل البدع، ولهذا جاء عن بعض السلف -رضي الله عنهم- ما يدل على هذا في أبواب الاعتقاد أن الدين إذا كان نجوى فذلك يعني أنهم على ضلالة، أو يؤسسون ضلالة، فالدين معروف، فإذا كان دين هؤلاء نجوى، ليس المقصود أنهم يكونون في حالة من الاستضعاف فيتذاكرون ويتعلمون سراً، وإنما المقصود في البيئات الصحيحة، البيئات السليمة ويكون الدين بينهم نجوى فهذا يعني أنهم يؤسسون شراً، فهذا طريق في العلاج لمثل هذه المعضلات والمشكلات، ومنابت الشر، وبؤر التآمر، كما كان أيضاً هديه -صلى الله عليه وسلم- لما قال أهل الإفك ما قالوا، فأسرع بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على غير عادته، وسار بهم سيراً متواصلاً، لم يكن -صلى الله عليه وسلم- من عادته أنه يفعل ذلك بأسفاره فكان رفيقاً بالناس، ينزل بهم، ولكنه واصل السير من أجل أن يشغل الناس، فلما نزل -عليه الصلاة والسلام-، ما لا مست أجسادهم الأرض حتى ناموا، يعني هم في غاية الإنهاك، ما في مجال للنجوى، لا يوجد أحد عنده عرق يتحرك، يستطيع أن يتناجى ويتفرغ للحديث، ويدور بينهم شيء من هذا الإفك، فأشغلهم بهذا، هذه طريقة، ولهذا تجد في ثنايا تلك الآيات {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٤١]، أي اشتغلوا بالذكر بدلاً من الاشتغال بالقيل والقال، والحديث عن مثل هذه القضايا، سواء قضية الإفك، أو القضية الأخرى وهي تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- من زينب امرأة زيد وهو كان يُدعى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، يقال: زيد ابن محمد، وكان هذا من أعظم الجرم والفجور عند أهل الجاهلية، فسيتحدث المنافقون فأمر الله بالاشتغال بكثرة الذكر، قال: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}، هذه الأمور الثلاثة ما الفرق بينها؟ الإثم من حيث هو يطلق على الذنب، ويطلق يعني على المعصية، ويطلق أيضاً على الأثر، أثر الذنب الأثر الأخروي، يعني بمعنى أن تقول: من فعل ذلك فهو آثم، هذا يترتب عليه الإثم يعني المؤاخذة، كما أنه يطلق على نوع من الذنوب خاصة وهو الخمر، شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلي، يقصد الخمر، فالعرب تسميها إثماً، فهي أم الآثام، فهنا {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ} يعني: ما يوجب الإثم، يعني المعصية، يعني الأمور التي لا يحبها الله -تبارك وتعالى- ولا يرضاها، والعدوان: هو نوع من الآثام لكنه متعدٍّ، يعني هم يتناجون بأمور من المخالفات من مساخط الله، ويتناجون أيضاً بالعدوان، بأمور فيها إيصال الضرر للمسلمين، يحيكون المؤامرات، {وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} هذا يشمل ما سبق، فمعصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- تشمل الإثم وتشمل العدوان، وكأن هذا -والله تعالى أعلم- فيما يتصل بما نهوا عنه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى}، والذي نهاهم هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيتناجون بالإثم والعدوان ومعصيته -عليه الصلاة والسلام-، في شأن النجوى، وفيما يدبره من سياسة الناس، وإدارة شئون الدولة، وهم يريدون تعويق ذلك، وتفكيك ما يدبره النبي -صلى الله عليه وسلم- ويفتله.

{وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}، أصل التحية هي أول ما يقال عند اللقاء، وأصل ذلك أن الرجل يقول لمن يلقاه: حياك الله، أصلها دعاء له بالحياة، حياك، أحياك، ولهذا تجدهم يختصرون هذا أحياناً يقولون: حياك، أحياك الله، دعاء له بالحياة، ثم صار ذلك يقال على ضرب من التوسع في الاستعمال لكل ما يقال في أول اللقاء، فلو قال له: مرحباً يقال لها: تحية، صباح الخير هذه تحية، السلام عليكم هذه يقال لها: تحية، فهؤلاء كانوا يلقون السلام ظاهراً، ويلوون ألسنتهم به وهم في الواقع يقولون قولاً منكراً، {حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}، يدل عليه الروايات السابقة أنهم يقولون: السام عليك.

{وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}، تحتمل معنيين، المعنى الأول، ما هو؟ أنه يقولونه فيما بينهم، يقولونه في أنفسهم، وسبق في عدد من المناسبات أن النفوس المشتركة في أمر كالدين، والمذهب، والملة تنزّل منزلة الواحدة، {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم} [سورة البقرة:١٨٨] أي: لا يأكل بعضكم مال بعض، {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ} [سورة البقرة:٥٤] يعني: فليقتل بعضكم بعضاً، في توبة بني إسرائيل لما عبدوا العجل، {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}، {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة:٨٥] يعني: يقتل اليهودي أخاه اليهودي، يعني يقتل بعضكم بعضاً، هذا معناه، وهذا محرم عليهم، وهنا {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ} يقول بعضهم لبعض يعني سراً: {لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}، وتحتمل معنى آخر وهو أن الواحد يقول في خاصة نفسه هو، يحدث نفسه، والقول والحديث والكلام إذا قيد في النفس فإن ذلك صحيح في كلام العرب، ويدل عليه القرآن كهذا الموضع على هذا التفسير، يعني: أهل السنة حينما يردون على المتكلمين الأشاعرة مثلاً، أو على الأشاعرة من المتكلمين الذين يقولون بالكلام النفسي: إن كلام الله معنى واحد قائم بالنفس، يقولون: هو المعنى فقط أما اللفظ فمخلوق، هذا كلام الأشاعرة، سواء اللفظ من عند جبريل أو من النبي -صلى الله عليه وسلم-، على خلاف بينهم، ويقولون الكلام كلام الله -تبارك وتعالى-، يقولون: القرآن كلام الله، ويردون على المعتزلة، لكن ما مرادهم بكلام الله؟ يقولون: المعنى فقط، أما الألفاظ فحادثة، وكلامهم في هذا معروف أنه من أبطل الباطل ولا يمكن أن يُتصور، فمن جملة الرد عليهم أن الكلام والقول والحديث هذا مثل الإنسان، الإنسان بمجموع الأمرين الروح والجسد، فالروح وحدها لا يقال لها: إنسان، والجسد وحده لا يقال له: إنسان، يقال: جثة، فمجموع الروح والجسد يقال له: إنسان، فكذلك الكلام والحديث لابد أن يكون باللفظ والمعنى، أما ما يدور في نفس الإنسان من غير أن يتكلم به، يتحرك به لسانه ويجري عليه فمثل هذا لا يقال له كلام عند الإطلاق، ولا قول ولا حديث، ولكنه يكون مقيداً، قال في نفسه، حدث نفسه، زوّرتُ في نفسي حديثاً، في نفسي، فيكون بالقيد، فهنا يقولون: {فِي أَنفُسِهِمْ} على هذا المعنى الثاني أن الواحد يحدث نفسه بهذا، يقول: لو كان رسولاً لعذبنا كيف نقول له: السام عليك؟، وأيضاً لاستُجيب له فينا، هو يقول: وعليكم، فما وقع لنا شيء، فلنزل بنا العذاب بسبب قولنا هذا؟، ولولا هنا {لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ} بمعنى: هلا، فإن لولا تكون تارة للتبكيت إذا كان في أمر لا يمكن استدراكه، أمر ماضٍ، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ} [سورة هود:١١٦] أمم مهلكة، {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}، وإذا كان على أمر مستقبل أو في أمر مضى يمكن استدراكه فإنها تكون بمعنى التحضيض.

{حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ} يعني: كافيتهم، {يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، وهذه المادة يصلى تفيد معنيين، المعنى الأول: الدخول، والمعنى الثاني: هو مقاساة حر النار، لقوله: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [سورة الليل:١٥] يعني: لا يدخلها، أو لا يقاسي حرها، وكلاهما صحيح.

ثم قال الله تعالى مُؤدّباً عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} **أي: كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومَن مالأهم على ضلالهم من المنافقين،** {وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} **أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجزيكم بها.**

ثم قال تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} **أي: إنما النجوى -وهي المُسَارّة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً** {مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} **يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه،** {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} **أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.**

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍّ على مؤمن، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه))**[٤]**، وأخرجاه من حديث الأعمش.**

وروى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه))**[٥]**، أخرجه مسلم.**

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، هذه على طريقة القرآن في الغالب أنه إذا نهى عن شيء فاسد محرم أمرَ بما يكون فيه الصلاح والإصلاح والنفع، فوجّه الخطاب للمؤمنين، فهذه النجوى التي قال الله -تبارك وتعالى- عنها: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} فمعنى {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، قيل: هذا في مناجاة المنافقين، كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، وسبقه إلى ذلك قتادة، مثلاً المنافقون يتناجون من أجل أن يظن الظان من المسلمين ممن يراهم أنه يعني جُمعت جموع وحشدت حشود لغزوهم وحربهم، فتذهب أوهامهم هنا وهنا، ويضربون أخماساً بأسداس.

وبعضهم كابن زيد يقول: إن الرجل كان يأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليُرى أنه يناجي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكانت أرض حرب، والناس يقع لهم بسبب ذلك من المخاوف ما هو معلوم.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، برقم (٦٢٩٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، برقم (٢١٨٤)، وأحمد في المسند، برقم (٤٤٠٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٥ - رواه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف، برقم (١٩٨٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (٦٣٣٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

وبعضهم يقول: هي أحلام النوم المزعجة، {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، وهذا فيه بعد، يعني باعتبار أنها الرؤى هذه المزعجة مثلاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الرؤيا السيئة من الشيطان، وأنها لا تضره، فهي من أجل أن يحزن الإنسان، لكن {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ} يحمل ذلك على النجوى المذمومة، نجوى المنافقين، نجوى اليهود، النجوى التي نهى الله عنها، فهذه من الشيطان، {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}؛ لهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث))، فإذا وقع ذلك يعني تناجوا من غير إذنه فإنه يقع المحذور {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، إذاً هذه النجوى منهي عنها فهي محرمة؛ لأنها من الشيطان، {إِنَّمَا النَّجْوَى} وكل نجوى محرمة فهي داخلة في ذلك، تدخل فيها نجوى اليهود، ونجوى المنافقين، ويدخل في ذلك أيضاً النجوى التي قد تقع من بعض المسلمين، ولكن تكون من قبيل المحرم، لا الأخرى التي قال الله فيها: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}، الله -تبارك وتعالى- أمر المؤمنين إذا تناجوا {إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} هذا يدل على أن أصل النجوى مباح، وليس بمحرم، لكن ينبغي أن يوجه الوجهة الصحيحة، فلا تتناجوا؛ لأن ذلك مما يحتاج إليه، فقد يُخفي الإنسان ذلك طلباً للإخلاص في العمل، قد يكون من شئونه الخاصة، وقد لا يكون ذلك أيضاً، يكون في الأمور العامة لكن لا يحسن إذاعته وإفشاؤه؛ لما يحصل بسبب ذلك من الإرجاف والمفاسد، ونحو هذا، {فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى}، هذا الذي يحصل به النفع.

البر والتقوى من أجمع الألفاظ، والفرق بينهما أن البر يشمل كل محابّ الله -عز وجل-، كل ما يحبه الله فهو من البر، هذه التي يسمونها الحقائق الشرعية، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في كتابه القواعد الحسان تكلم على هذه المعاني، في إحدى القواعد التي أوردها، وتجد هذا في ثنايا كلام شيخ الإسلام، وفي ثنايا كلام ابن القيم -رحمه الله-، وقد جُمع فيه كتاب مستقل "الحقيقة الشرعية في القرآن"، فالبر كل محابّ الله -تبارك وتعالى- تدخل فيه، والتقوى تشمل هذا، يعني: جميع محاب الله، وكل ما أمر الله به أمر إيجاب أو أمر استحباب، ويدخل فيه الجانب الآخر وهو ترك مساخطه، يعني التقوى فعل المأمورات واجتناب المحظورات، وبهذا الاعتبار تكون التقوى أوسع وأعم من البر، فيكون من قبيل عطف العام على الخاص، {وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى}، فجاء بهذه الألفاظ العامة الواسعة، يعني كل ما كان من محاب الله -عز وجل- فهو داخل في ذلك، مما يكون فيه نفع ومصلحة، كما قال الله -عز وجل-: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}، ثم ذكّرهم الله قال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، فسيصيرون إليه، ويحشرون إليه، يجمعون إليه جميعاً في صعيد واحد، ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، إذاً هذه النجوى ينبغي أن تكون محسوبة، مراعى فيها ما ذكر تكون بالبر والتقوى، لا لشيء آخر، والله سيجازيكم ويحاسبكم على ذلك، قال: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، هذه جوانب تدل على كمال هذه الشريعة، فنهي عن النجوى؛ لما فيها من الفساد أو الإفساد أو الضرر الاجتماعي، سواءً كان على مستوى الأفراد أو مستوى الأمة؛ لأنها كما سبق منشأ المؤامرة وقالة السوء، وكذلك بين الأفراد قد يكون هذا أيضاً كذلك، وأقل ما يحصل بسببها الإيحاش، يعني تجد أن هذا الذي يُتناجى دونه، ((فلا يتناجى اثنان دون

الثالث))، كذلك ثلاثة دون الرابع، لكن يتناجى اثنان دون اثنين لا إشكال في هذا، لكن إذا بقي وحده يحصل الإيحاش له، من أي جهة كان، مثلاً قد يقع في وهمه أو يوقع الشيطان ذلك في وهمه أن هؤلاء يأتمرون به، أن الحديث الذي يدور يختص به، يتعلق به، في أمر يخصه، فتأخذه الظنون، والمخاوف تذهب به هنا وهناك، {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، هذه الحالة الأولى.

الصورة الثانية، أو الحالة الثانية: أنه قد يثق بهؤلاء أنهم لا يتآمرون عليه ولا يريدون به سوءاً، ويشعر أنه في نظر هؤلاء لم يصل إلى تلك المنزلة من الثقة والعلاقة والمكانة في نفوسهم بحيث يدخلونه معهم في هذا الحديث، هم يريدون التحدث دونه لا يريدونه أن يسمع، إذاً هذا يعطيه انطباعاً أنه لم يصل معهم إلى حال من الثقة أو المنزلة في نفوسهم، بحيث يدخلونه ويشترك معهم في هذا الحديث، فهم يتحاشونه فيحزن، هو يثق أن الحديث لا يدور عنه، وأن هؤلاء لا يريدون به إلا خيراً، ولكن يقع الحزن فيتسلل إلى نفسه مما يلقيه الشيطان في قلب العبد، فيحصل له شيء من الانكماش والانقباض، والوحشة، والفتور في علاقته مع هؤلاء، فتضعف نبرته في الحديث، وتذبل عينه، ويعتريه شيء من الخمول، والشعور بالغربة في هذا المجلس، أو بنوع من الغربة، فالشريعة راعت هذا لئلا يحزن المؤمن، فالشيطان يأتيه في هاتين الحالتين: إما النوم بالرؤى المزعجة، فقال له: هذا ما يضرك، لا تلتفت إليه، لا تحزن، أو في اليقظة عن طريق هذه النجوى، فمنعهم منها، فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإذا قالوا: عن إذنك عندنا حديث بيننا، تأذن في موضوع بيننا نريد أن نتحدث فيه ونهيه، تجد أنه ينشط ويقوى، وتنبعث نفسه على النشاط، ويبادرهم بأن ذلك لهم، ويكون في حال من التألق والنشاط، لاحظْ الفرق بين الحالتين، إلا بإذنه، حيث إنهم أعطوه اعتباراً، وراعوا وجوده، فلم يكن بالنسبة إليهم مصغى لهم الإناء، مَهيض الجناح، يتحدثون وكأنه لا شيء بالنسبة إليهم، لا يعني شيئاً، هذا من كمال هذه الشريعة التي لم يعرف قدرها كثير من المنتسبين إليها، والله المستعان.

ثم ختم الآية بقوله: {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، وهكذا في كل ما يعتري الإنسان من المخاوف، الشيطان يلقي في قلبه، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [سورة آل عمران:١٧٥]، يعني يضخم هؤلاء، أي أولياء الشيطان، وجند الشيطان، يضخمهم في نفس العبد، من أجل أن يخاف منهم، يخوفكم يعني من أوليائه، {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ}، ويعطيهم هالة، وشيئاً من العظمة الزائفة، من أجل أن تخافوهم، فالله -عز وجل- يقول: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، يخوفكم منهم، فهنا {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، فيفوض الإنسان أمره إلى الله، فالله بيده النفع والضر، ونواصي الخلق تحت قبضته -سبحانه وتعالى-، وإذا توكل عليه العبد فهو حسبه، {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق:٣] يعني: كافيه، فتتلاشى المخاوف من نفس الإنسان، وتذهب عنه الأوهام وإلا فإنه يكون أسيراً لها، لا يهنأ بأكل ولا نوم ولا مطالعة ولا غير ذلك، الوهم يلاحقه، والشيطان يملأ قلبه من هذه الأمور التي لا حقيقة لها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة المجادلة:١١].

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ} وقرئ {في المجلس}، {فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ} وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: ((من بَنَى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة))[٦]، وفي الحديث الآخر: ((ومن يَسَّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[٧]، ولهذا أشباه كثيرة؛ ولهذا قال تعالى: {فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وروى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يقيم الرَّجلُ الرَّجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا))[٨]، وأخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم))[٩]، ورواه أيضاً بلفظ: ((لا يقوم الرجلُ للرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم))[١٠]، تفرد به أحمد.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}، هناك نَهَى عن النجوى، وهي كما سبق قصد الانفراد في الحديث، إذاً يكون حديثهم مشتركاً مع الآخرين، يعني في المجلس يشتركون معهم، فذكر لهم آداب المجالس، لما نهاهم عن النجوى والانفراد والاختصاص، إذاً سيكون الحديث في المجالس يشترك فيه الجميع، لا ينفردون عنهم، فما هي آداب هذه المجالس؟

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}، {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}، قراءة عاصم هي هذه التي نقرأ بها، وقراءة الجمهور {في المجلس}، وما الفرق بين القراءتين؟ هذه جمع وهذه مفرد، ولكن المفرد بمعنى الجمع؛ لأن المجلس اسم جنس، فيصدق على المجلس الواحد وعلى المجالس، {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}، الحافظ ابن كثير يقول: إن المراد بها **أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس**، وبعضهم يقول: هي مجالس النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان الرجل لربما يسبق إلى القرب من مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كانوا يتفانون في محبته وفي القرب منه -عليه الصلاة والسلام-،

---

٦ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، برقم (٥٣٣).

٧ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، برقم (٢٦٩٩).

٨ - رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجْلِسِ، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا} الآيَةَ، برقم (٦٢٧٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه، برقم (٢١٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٤٦٥٩).

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨٤٦٢)، وقال محققوه: "إسناده حسن، يونس -وهو ابن محمد المؤدب- ثقة من رجال الشيخين، ومَن فوقه أحاديثهم من قبيل الحسن، فليح: هو ابن سليمان".

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٠٢٦٦)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، سريج -وهو ابن النعمان الجوهري- ثقة من رجال البخاري، ومَن فوقه أحاديثهم من قَبيلِ الحسن. فليح: هو ابن سليمان"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٢٨).

فلربما جاء الرجل من أهل العلم فلم يجد مكاناً يسمع فيه كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- فيظل بعيداً، أو نحو ذلك، فأُمِروا بالتفسح في المجالس، ولهذا عقب بعدها بقوله: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، فهؤلاء الذين أوتوا العلم هم أولى بالقرب من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم يسمعون كلامه ويعونه ويفقهونه، لكن قد يكون بالقرب منه -يسبق إلى القرب منه- مَن ليس كذلك، لا يكون فقيهاً، ولا يعقل عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأُمروا بالتفسح، وفي حديث عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً النهي عن أن يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، قال: ((ولكن تفسحوا))، بل كان ابن عمر -رضي الله عنه- إذا قام له أحد من مجلسه لم يجلس فيه، مع أن النهي أن يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، لا يقل له: قم، لكن يتفسحوا، أُمروا بالتفسح، وفعل ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- لا يدل عليه الحديث، لكن لكمال أدبه -رضي الله تعالى عنه- ما كان يجلس في مكان أحد ولو قام له عنه، وإلا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا جاء قامت إليه فاطمة -رضي الله عنها- وأخذت بيده وأجلسته في مجلسها، وهكذا كان يفعل معها -عليه الصلاة والسلام.

وبعضهم يقول: إن المقصود بالمجالس مجالس القتال، {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}، في الصف، {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [سورة آل عمران:١٢١].

فبعضهم يقول: هذا هو المراد، وابن جرير -رحمه الله- حمله على المعنيين، قال: لا يوجد دليل يخصص هذا أو هذا.

وبعضهم كالقرطبي حمله على ما هو أعم من ذلك كله، وهذا هو الأقرب -والله أعلم-، يعني العموم المطلق، ما يُخص بمجالس القتال أو مجالس النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيدخل فيه سائر المجالس، مجالس الناس يوم الجمعة، في الصلوات، في حضور مجالس العلم، مجالس القتال، في مجالسهم في مناسباتهم، لا يقيم الرجل أحداً من مجلسه فيجلس فيه، ولا يقام أيضاً أحدٌ من مجلسه، يعني قد يقال لبعض الناس، قد يقال لبعض الشباب، لبعض حدثاء السن: قم، فيجلس فيه رجل آخر، هذا له اعتبار، وابن عباس لربما جلس بجوار النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير، كما تعرفون في الحديث في الشرب، واستئذان النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، فقال: لا أؤثر بنصيبي منك، فلا يقام من مجلسه فإن ذلك له آثار، لكن يبقى الكلام في مسألة الصلاة خلف الإمام، إذا جاء هذا الصغير وجلس خلف الإمام، وأحياناً يبادر ويسرع والمؤذن يقيم ويجلس في مكانه، فمثل هذا يقال له: لو سمحت بالكلام اللطيف، لو سمحت اذهب لمكان آخر، سواء جلس في مكان المؤذن أو لم يجلس في مكان المؤذن، خلافاً لما قاله بعض أهل العلم من أنه لا يقال له ذلك، وأنه أحق به؛ لأنه سبق إلى هذا المكان، وإنما قصر أولائك الذين كان ينبغي أن يبكروا ويأتوا ((لِيَلِيني منكم أولو الأحلام والنهى))[11]، وأنه كان المفروض أنهم هم الذين يبكرون ويأتون في هذا المكان، فلما تخلفوا وتأخروا وجاء هذا، فمن سبق إلى مكان فهو أولى به، هذا من حيث النظر الفقهي لا إشكال فيه، لكن عندنا أثر صحيح عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- أنه أخذ غلاماً وأبعده من مكانه خلف الإمام، قال: هي السنة، وهذا

---

١١ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، برقم (٤٣٢).

هو الصحيح، فهذا المكان ليس له، فيأتي الأطفال خلف الإمام، ويصلون خلفه، هذا ليس بموضع لهم، فيقال له: لو سمحت خذ لك مكاناً ثانياً، لكن لا تجرح مشاعره، فلربما ينفر من المسجد، فهؤلاء الصغار لهم مشاعر وليسوا يحملون أحاسيس ميتة، بل هم أكثر إرهافاً في الحس لربما من الكبار أو من كثير من الكبار.

{إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}، وعليه، على العموم إذا قال لكم أي قائل: {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا}، فليس لأحد أن يقيم أحداً من مكانه، ليجلس هو فيه، أو ليجلس غيره فيه، يعني قد يقول لولده أو يقول للسائق أو الخادم: قم، ويقول لآخر: يا أبا فلان تعال هنا، هذا ما يصح، يا أخي هذا الذي جالس هو أحق بهذا المكان، كيف يقال له: قم؟!، فهذا فيه نوع تحقير وإهانة له، {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا} إذاً هي تحمل كما قال القرطبي: على المعنى الأعم، أيّ مجالس، والتفسح والتوسع، {فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}، الجزاء من جنس العمل، وقد مضى في بعض المناسبات الكلام على درس أظن سلامة الصدر، أو الأعمال القلبية، وأن ذلك يحمل أيضاً على الأعم من معانيه، يعني بعضهم يقول: يفسح الله لكم في الصدر، بعضهم يقول: يفسح الله لكم في الرزق، يفسح لكم في القبر، يفسح لكم في الجنة، في الآخرة، فالأقرب أنه يحمل على هذا كله؛ لأن حذف المقتضى يدل على العموم النسبي، فهنا ما قال: يفسح لكم في الصدر، ولا قال: يفسح لكم في القبر، وإنما حذف المقدر -المقتضى- فيحمل على العموم المناسب في هذا المقام، فيقال: {يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ} في ذلك كله، انفساح في الصدر، وانفساح في الرزق، وانفساح في القبر، وانفساح أيضاً في الآخرة، فإذا كان الإنسان يتفسح للناس في المجلس فإن صدره يتسع لهم، وهذا من الإحسان المتعدي، والإحسان لا شك أنه من أعظم أسباب الانشراح، انشراح الصدر، وسعة الصدر، وهو من أسرع ما يؤثر فيه ذلك، الإحسان إلى الناس، الإحسان المتعدي، فإذا كان الإحسان مع الله فهذا هو العمود والركن الأساس في انفساح الصدر واللذة والسعادة والسرور والانشراح الذي لا يعرف صاحبه الغم والكآبة وضيق الصدر، لكن للإحسان إلى الناس أثر سريع في نفس اللحظة، {فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ} في طرق الناس يفسح، لكن هنا الآية في المجالس، لكن أيضاً يؤخذ منها أنه أيضاً يفسح في الطريق؛ لأن المقصود واحد، وإذا لم يفعل الإنسان هذا ضاقت نفسه، وانقبضت وصارت في غاية الحرج، ضيقة، تنكمش، ويجد الإنسان من الضيق ما لا يخفى مما لا يعرفه كل أحد في نفسه، إذا كان الناس يبحثون عن أماكن في صلاة الجمعة، في مكان مزدحم في الحرم، إذا كان الإنسان لا يمكن أن يمكّن أحداً أن يأتي يصلي بجانبه ويضيق بهم ذرعاً، ويحمل هم ذلك اليوم من أجل أنه يبكر ثم يضيق بهؤلاء الذين يبحثون عن أماكن، فهو يرقبهم، وربما لا يسمع الخطبة، وإنما ينظر إلى هؤلاء أين يذهبون، لا يأتي أحد منهم بجواره، وإذا جاء أحد بجواره لم يتحرك، ولم يتفسح، وكأنه لا يسمع ولا يحس بهؤلاء، فتجد هذا نفسه تكون في غاية الضيق، لكن لو أنه يفسح للناس ويوسع لهم، سيجد أن نفسه في غاية السعة، ولو كان المكان الذي هو فيه محصور، وفي غاية الضيق، ولا يستطيع أن يحرك رجله، لكن صدره يتسع كثيراً، وأما صاحب النفس الضيقة فلو وُضع في مساحة شاسعة لوحده فإن نفسه في غاية الانقباض، فهذه أمور تُرى آثارها وتُعرف، ويجدها المرء من نفسه، {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا}، وهذا أمر والأصل أن الأمر للوجوب، {يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}.

وهنا يقول قتادة: نزلت في مجالس الذكر، لكن هي تشمل مجالس الذكر وغير مجالس الذكر من جميع المجالس.

وقد رُوي عن ابن عباس، والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ} يعني: في مجالس الحرب.

وهذا لا يصح عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، لا يثبت هذا عنه -رضي الله عنه.

طالب: رُوي بصيغة التضعيف، قال: رُوي بصيغة التضعيف، **وقد رُوي.**

ومعنى قوله: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا} أي: انهضوا للقتال.

وقال قتادة: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا} أي: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا}**، الشيء الناشز يعني المرتفع، المرأة الناشز: هي المترفعة عن طاعة الزوج، ترفعت على طاعة الزوج، ترفعت على زوجها، يقال لها: ناشز، ويقال: هذا مكان محل ناشز، موضع ناشز، نشاز من الأرض أي مكان مرتفع.

{وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا} يعني: ارتفعوا، قوموا فقوموا، **{وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا}**، انشزوا يعني ارتفعوا، وبعضهم يقول: إلى قتال عدوكم، يعني من يقول مثلاً: إن ذلك في مجالس القتال، **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}**، **{وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا}**، قوموا لقتال عدوكم، كذلك انشزوا إلى الصلاة، قوموا إلى الصلاة، أو مثلاً قوموا عن مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد كان -عليه الصلاة والسلام- يتأذى بذلك أي طول المكث عنده، والله -تبارك وتعالى- أخبر أن ذلك يؤذي النبي قال: **{فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}** [سورة الأحزاب:٥٣]، فالقيام من مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، القيام إلى الصلاة، القيام إلى الجهاد، إذا قيل لكم: قوموا لأي شأن، فتحمل على المعنى العام الذي تحتمله هذه الآية.

ابن جرير -رحمه الله- حملها على التفرق عن مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إذا قيل لكم: قوموا، يعني لا تطيلوا المكث عنده -صلى الله عليه وسلم- فتشقوا عليه.

فهذا المعنى داخل فيه، ولكن ظاهر الآية أعم من ذلك فتحمل على الجميع، والله تعالى أعلم.

قال هنا: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}**، هذا له تعلق بأولها كما سبق **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}**، فهؤلاء من أهل العلم هم أولى بالقرب من مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً امتثال هذه الأمور، ومراعاة هذه المعاني والآداب هذا من شأن أهل الفقه والعلم، كما قال الله -عز وجل- في سورة النور: **{وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}** [سورة النور:٢٨]، لكن أصحاب الجفاء الذين لم تتروض نفوسهم بهذه الآداب يرون أن هذا من قبيل الإساءة إليهم، لكن أهل الفقه والعلم لا يرون في ذلك غضاضة، فهنا قال: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}**، والمقصود به أن درجات أهل الإيمان متفاوتة، فأهل العلم في مرتبة أعلى، كما رفعهم الله -عز وجل- من سائر المؤمنين، ففاوت الله بين الناس هذا التفاوت، ولذلك هذا الأمر يجب مراعاته وحفظه وحفظ مكانة أهل العلم من أجل أن الناس يرجعون إليهم، وينتفعون بهم، وإلا فإلى مَن يرجع الناس؟، وهذه الوسائل الآن الجديدة التي يتواصل بها الناس يسمونها وسائط ووسائل التواصل الاجتماعي تهدم ذلك كله، فتجد أجهل الجاهلين يجترئ على أهل

العلم ويرميهم بما يحلو له، ويرد عليهم، ويعقب، ويعلق، وهو لا يحسن أن يركب جملة واحدة، كلام ركيك، وإملاء لا يحسن كتابة الكلام، وجهل غليظ كثيف، إذا رأيته تقول: لا إله إلا الله، ما أحلم الله، ترى طبقات الجهل الغليظ في الفهم والركاكة في التركيب، والأخطاء الفادحة في الإملاء وفي الإعراب، ومع ذلك يكتب، تقول: فالإنسان لا يبصر عيوبه، أفلا ينظر إلى المرآة؟!، ما يبصر هذه؟!، هو لا يرى عيوبه، فلازم يعقب ولازم يتكلم، ولازم يعلق، لا يوجد كبير، يعقب على كلام أهل العلم، ويستدرك عليهم، وينتقدهم الانتقاد اللاذع الذي يكسر العظام، فإذا حصل هذا -وهذه الأمور الآن تتوجه بقوة إلى هذا أن لا يبقى اليوم كبير للأسف- فلا حرمة لأحد أياً كان، ومن ثم فالنتائج كل واحد يقول: أنا عندي ما يكفيني من البصر والعقل والفهم والعلم، فلست بحاجة إلى أحد، ثم بعد ذلك يبقى الناس في حال من العماية، يقودهم فيها أهل الضلالة، -نسأل الله العافية-، لا يرجعون لأهل العلم ولا ينتفعون لا في فتوى ولا حكم ولا رأي ولا مشورة، فيقودهم كما يقال: الشارع، وإذا قادهم الشارع معناها أنه يقودهم الجهلة، رعاع الناس، ومن كان أطول لساناً فهو مقدم عندهم، ولو كان يقودهم إلى الردى، -نسأل الله العافية-، وهذا أمر مشاهد اليوم، تشاهده في مشارق الأرض ومغاربها، كان الذين يتأثرون بهذه الطريقة نفر ممن يذهب إلى بلاد الغرب، ويرجعون وقد تشبعوا بأنماط الحياة هناك، وطرق التفكير، فيشعر أنه ليس بحاجة إلى وصاية كما يزعم، وهو من حقه أن يبدي رأيه في كل شيء، وأن يناقش في كل شيء، وأن يعترض فهو والعالم سواء، يناقش ويداخل ويعترض ويبدي رأيه، وليس عندنا كهنوت كما يقول، وأما الآن فتغيرت الأحوال كثيراً، وأصبحت هذه الوسائل الآن تُجرِّئ الناس وتدفعهم بقوة، وأنا أرى التغير الكبير ليس في عبر السنوات، بل أراه اليوم عبر الساعات وليس الأيام، الأمور تتجه بقوة الآن لهذا، فلا يبقى عند الناس أحد عنده حرمة، فلا يوجد أحد يوثق برأيه، ولا يرجع إليه، وتقودهم أهواؤهم في كل شيء، وهذا أمر يعني لا يمكن أن يكون التعامل معه من قِبل فرد أو أفراد أو مجموعة من الناس ليعالجوا مثل هذا الأمر المستفحل الذي هو أشبه بنار في هشيم، لكن يحتاج إلى جهود أكبر من هذا تتعامل مع مثل هذه الأحوال بطرق تحتوي فيها مثل هؤلاء الناس، والعلماء لا يمكن أن يتجاوزوا ما يدينون الله -عز وجل- به، ويتجاوزوا القناعات التي يلقون الله فيها من أجل أن يرضوا الشارع أو الجمهور أو هؤلاء الناس الذين ينقمون عليهم وعلى كل شيء، لا يمكن للإنسان أن يتجاوز القناعات التي عنده من أجل أن يرضي هؤلاء أو أن يطرب له هؤلاء، ويهتفون له، ثم بعد ذلك يكون عنده ما شاء الله من المتابعين من الملايين، هذا لا يمكن، بل بعض السلف قال عمن يحبه جميع جيرانه قال: هذا رجل سوء؛ لأنه لا يأمرهم بالمعروف، ولا ينهاهم عن المنكر، ولا يأخذ على يد السفهاء، هو يرضي الجميع، وطيب مع الجميع، ويجامل الجميع، ويجاري الجميع، ولا يغضب منه أحد إطلاقاً لا الفاجر ولا البر، ما يمكن هذا، فهؤلاء لربما يحصل القبول عندهم لمن كان تابعاً لهم، وهذا خطأ أن تُعكس القضية، يكون العالم تابعاً للعامة، وإنما العكس هو الصحيح، فمن الخطأ -الخطأ يعتبر خطأ استراتيجياً يعني كما يعبر أهل العصر- أن يتحول العلماء من قناعاتهم إلى طالبين لرضا هؤلاء الجمهور، هذا خطأ، لكن تحتاج إلى معالجة صحيحة بما يدينون الله -عز وجل- به، ففي القيام بالحق ما يحصل به السداد والصلاح لأحوال المجتمع والأمة برمتها، لكن إن

حصل التقصير فقد يكون ذلك أحد الأسباب المهمة في تلاعب الشيطان بهؤلاء الناس، فيجد أبواباً مشرعة للوقيعة فيهم، والله المستعان.

وقوله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي: لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أُمر بالخروج فخرج أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره، ونَشَر ذكره؛ ولهذا قال: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي: خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه.

وروى الإمام أحمد عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزي، قال: وما ابن أبزي؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاضٍ، فقال عمر -رضي الله عنه-: أما إن نبيكم -صلى الله عليه وسلم- قد قال: ((إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين))[١٢]، وهكذا رواه مسلم.

---

١٢ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها و علمها، برقم (٨١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المجادلة من الآية (١٢) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة المجادلة:١٢-١٣].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي: يسارّه فيما بينه وبينه- أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ}.

ثم قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا} أي: إلا من عجز عن ذلك لفقره {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فما أمر بها إلا من قدر عليها.

ثم قال تعالى: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول؟، {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} فنسخ وجوب ذلك عنهم.

وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: {فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه -عليه السلام-، فلما قال ذلك صبر كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} فوسع الله عليهم ولم يضيق.

وقال عكرمة والحسن البصري في قوله تعالى: {فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} نسختها الآية التي بعدها {أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} إلى آخرها.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل بن حيان: سأل الناس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أحفَوْه بالمسألة، فَفَطَمَهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال مَعْمَر عن قتادة: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} إنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار، وهكذا روى عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن مجاهد قال علي: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وأحسبه قال: وما كانت إلا ساعة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}، هذا تعليم من الله -تبارك وتعالى- للمؤمنين، أدب من الآداب التي أدبهم بها بين يدي نجواهم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، كما سبق في الآيات التي مضت من هذه السورة مما يتصل بآداب المجالس، وما يتعلق بالنجوى، فهذا شروع في الكلام أيضاً على أدب من آداب مجالسه -صلى الله عليه وسلم-، وقد مضى قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا} [سورة المجادلة:١١]، وقول من قال بأن المراد بذلك مجالس النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا في قوله: {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا}، إذا قيل لكم: قوموا عن مجلسه -عليه الصلاة والسلام- من أجل أن لا تثقلوا عليه، كما هو أحد الأقوال الداخلة في معنى الآية، وأن الآية أعم من ذلك، فهذا أيضاً من جملة الآداب، وسبب ذلك ما جاء في سبب النزول هنا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من طريق ابن أبي طلحة، أكثروا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في النجوى، هذا الإكثار قد يكون الباعث له الحاجة لدى البعض إلى المناجاة في أمور لا يصلح إفشاؤها وذكرها في الملأ، وهذا لا إشكال فيه، فهو يحتاج إلى هذه النجوى، ولكن لربما لا يكون التقدير صحيحاً فقد يطلب آخرون مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم- والأمر لا يستحق ذلك، ولربما طلب مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم- من يريد بذلك التلذذ بمناجاته -عليه الصلاة والسلام- والقرب منه، فكثر ذلك عليه وشق، يعني تكون الأوقات مصروفة في حديث خاص مع هذا، وحديث خاص مع هذا، وموضوع خاص مع هذا، ومجلس خاص مع هذا، وتتفرق الأوقات، وهذا يحتاج إلى تقطيع وتشتيت لوقته -عليه الصلاة والسلام-، فأدبهم الله بهذا الأدب، أن يقدموا صدقة بين يدي النجوى، وهذا فيه فوائد منها: أن العلة الأصلية أنه يخفف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا قد تحقق، التخفيف عنه -عليه الصلاة والسلام- في أمر النجوى، فصارت النجوى بصدقة، والمال عزيز على النفوس؛ ولهذا بعض السلف جعل على نفسه أنه إذا اغتاب أحداً صام يوماً، ويسهل عليه الصوم، فلم يقطعه ذلك عن الغيبة، فجعل على نفسه أنه إذا اغتاب أحداً تصدق بشيء معين، فشق ذلك عليه فترك الغيبة، فهذه طريقة في المعالجة، يعني مثل الغرامة المالية، وإن كانت هنا ليست غرامة، هذه صدقة، لكن من باب أن الشيء بالشيء يذكر -التقريب-، فالناس مثلاً إذا قيل لهم: من فعل كذا فعليه أن يدفع كذا، فتجد الناس ينكفون، هنا هذا الأمر بينهم وبين الله -عز وجل-، يتصدق بصدقة، هل هو مستطيع أو غير مستطيع؟، هذا بينهم وبين الله، من جملة الأمانات؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، لا يستطيع، ما عنده شيء فيستطيع أن يناجي دون أن يقدم صدقة، ولا يحتاج أن يأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يناجيه فيقول: لقد تصدقت وأريد أن أناجيك، هذا حكم شرعي من جملة الأحكام، فالشاهد أن هذا تحقق فيه هذا المعنى، وفيه مصلحة ونفع للفقراء،

وفيه أمر ثالث يرجع إلى المناجي، فإن ذلك يطهره، ويؤهله لمناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهو يريد الاختصاص به والقرب منه.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}، هنا لم يحدد ذلك بقدر معين، فيصْدُق على أي صدقة كانت؛ لأن صدقة هنا نكرة في سياق الإثبات فيصدُق على القليل والكثير، وظاهره أنه لو تصدق بتمرة فإنه يكون قد حقق ما أمر به.

قال الله بعدها: {أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}، هذه الصدقات جمعت ربما باعتبار العدد، عدد الناس، يعني باعتبار الكثرة، كثرة الناس، {صَدَقَاتٍ}، فهذا يناجي وهذا يناجي وهذا يريد المناجاة، وهذا يتصدق، فذكر الجمع باعتبار المجموع، مجموع الناس، ويمكن للواحد أن يقدم صدقات متعددة بين يدي مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا الأمر متروك إليهم، قال: {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} يعني: رجع عليكم بالتخفيف، فإن التوبة تعني الرجوع، تاب عليكم، رجع عليكم، وخفف عنكم هذا الحكم {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، بمعنى أنه أسقط عنهم هذا الفرض، وهذا مثال من أشهر الأمثلة عند الأصوليين على النسخ إلى غير بدل، ومسألة النسخ إلى غير بدل فيها خلاف معروف عندهم بناءً على قوله -تبارك وتعالى-: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [سورة البقرة:١٠٦]، فالقائلون: لابد من البدل قالوا: هذا وعد من الله أنه ما ينسخ من آية إلا ويأتي ببدل منها، قد يكون هذا البدل خيراً منها، وقد يكون مماثلاً لها، قالوا: فهذا وعد لا يتخلف، فكيف يكون النسخ إلى غير بدل؟، وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال: لابد من البدل، وهذا المثال البدل موجود، الصدقة كانت واجبة، فبقيت على الاستحباب، ولم ترفع بالكلية، الصدقة مستحبة بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن ذلك لم يعد فرضاً على المكلفين، والذين قالوا: يصح النسخ إلى غير بدل قالوا جواباً عن قوله -تبارك وتعالى-: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} قالوا: البدل هو التخفيف والتوسعة على المكلفين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الله لم يترك المكلف بلا حكم، واضح؟ لم يترك المكلف بلا حكم، فذلك دائر بين الأحكام الخمسة، يعني هذه الأشياء إما أن تكون مباحة أو مستحبة أو واجبة أو غير ذلك، فقالوا: المكلف حكم الشارع متوجه إليه في كل حال، والإباحة إما إباحة أصلية أو إباحة شرعية، فقالوا: البدل هو التخفيف، وقد مضى الكلام على وجه الجمع كثيراً في القرآن بين الصلاة والزكاة، {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، ثم عطف العام عليه، {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فيدخل فيه جميع ما أمرهم الله -تبارك وتعالى- به، أو أمرهم به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يأمر بأشياء ليست في القرآن كما هو معلوم في أحوال السنة مع القرآن، كتحريم الحمر الأهلية، وكذلك تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، هذا ليس في القرآن، وإنما هي من الأحكام الزائدة في السنة، السنة مع القرآن إما أن تأتي مؤكدة وموافقة له، أو مبينة وشارحة ومفسرة، وقد تأتي -على الراجح- ناسخة، ولكن هل يوجد مثال صحيح سالم عن المعارضة القوية في هذا أو لا؟ هذه مسألة أخرى، لكن من حيث النظر يمكن أن تأتي ناسخة، والقسم الآخر وهو أنها تأتي بأحكام زائدة، فتعقيب الآية بهذا {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، كما سبق أن هذا متروك للمكلفين، فهو بينهم وبين الله -تبارك وتعالى-، لا يحتاج إلى إشهاد أو

إعلان بهذه الصدقة، وإنما هي من جملة التكاليف التي هي في ضمن الأمانات التي قال الله -عز وجل- فيها: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ} [سورة الأحزاب:٧٢]، فهذه الأمانات يدخل فيها سائر التكاليف.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة **المجادلة:١٤-١٩].**

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [سورة النساء:١٤٣]، **وقال هاهنا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} يعني: اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن، ثم قال تعالى: {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ} أي: هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود.**

هنا الله -تبارك وتعالى- يُعجّب نبيه -صلى الله عليه وسلم- من حال هؤلاء المنافقين، ومن قبيح فعالهم: {أَلَمْ تَرَ} إلى حال هؤلاء؟!، {أَلَمْ تَرَ} إلى هؤلاء من أهل النفاق {الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}؟!، فإن هذا الفعل لا شك أنه يبعث على التعجب، وذلك أن هؤلاء المنافقين تولوا اليهود، وقلنا: اليهود باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- وصف هؤلاء المتوليْن بالغضب، وإذا ذكر الغضب فمباشرة يتوجه أول ما يتوجه إلى اليهود، {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة:٧] وهم اليهود، فاليهود أهل الغضب، وذلك أن المنافقين تولوا اليهود، والتولي يأتي بمعنى النصرة والركون إليهم، وما إلى ذلك من المعاني في ممالأتهم ومودتهم، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، هنا ما قال: تولوا اليهود، {قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، بمعنى أن غضب الله -تبارك وتعالى- على هؤلاء القوم مؤذن بمباعدتهم، ومجافاتهم ومعاداتهم؛ لئلا يلحق الغضب من قرب منهم وتولاهم، فإذا كان الله -تبارك وتعالى- غضب على هؤلاء اليهود فإن من كان قريباً منهم محتفاً بهم متولياً لهم فإن هذا الغضب قد يتنزل عليه، فيلحقه حكمهم، ويصير إلى مثل حالهم، فهذه جراءة على الله -تبارك وتعالى-، هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود الذين كانوا في المدينة، يقول: كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن، وجه العجب الآخر غير أن هؤلاء من أهل الغضب وماذا يريدون من أهل الغضب، ومن القرب منهم، ومن توليهم، الأمر العجيب أن هؤلاء أيضاً الذين تولاهم هؤلاء من أهل النفاق قال الله عنهم: {مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ}، فهذا يرجع إلى اليهود أو يرجع إلى المنافقين؟ ابن كثير -رحمه الله- مشى هنا على أنه يرجع إلى المنافقين، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ}، أن هذا من صفة المنافقين، فهو كالشاة العوراء كما جاء وصفهم في الحديث:

((العائرة بين الغنمين))[1]، {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء} [سورة النساء:١٤٣]، فهؤلاء ليسوا من المؤمنين وليسوا من اليهود، {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، كأن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ومن وافقه نظروا إلى أن الجمل الثلاث هي في صفة المنافقين، {تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، الذي فعل هذا أهل النفاق، {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، فأهل النفاق هم من يفعلون هذا، والجملة التي في الوسط {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ}، فهذا اعتبره الحافظ ابن كثير من جملة أوصاف المنافقين؛ لأن الله يعدد أوصافهم القبيحة، ومن أهل العلم من قال: إن هذا الوصف يرجع إلى اليهود، {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ} باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هم الذين غضب الله عليهم، القوم الذين غضب الله عليهم، وصفة هؤلاء القوم المغضوب عليهم ما هم منكم ولا منهم، وهذا في التعجيب؛ لأن هذا مقام تعجيب أبلغ وأشد، من أي جهة؟ من جهة أن هؤلاء من المنافقين الذين ينتسبون إليكم في الظاهر تولوا قوماً غضب الله عليهم، لو كان هؤلاء المتوليْن من اليهود لو كانوا من المنافقين لقيل: الطيور على أشكالها تقع، لا غرابة، يتولى المنافق منافقاً، ولو كانوا من المسلمين لقيل: هم ينتسبون إلى المسلمين في الظاهر، فمالوا إليهم وناصروهم بهذا الاعتبار، لكن هؤلاء اليهود ليسوا من المنافقين، وليسوا أيضاً من المسلمين الذين ينتسب إليهم أهل النفاق ظاهراً، فما وجه هذه الموالاة؟!، يعني هذا الوجه وهذا المعنى أبلغ وأوضح، والمقام مقام تعجيب من حال المنافقين، تولوا أناساً لا يمتون إليهم بصلة، ولا يمتون إليكم بصلة، لو كانوا يمتون إليهم بصلة لفهمنا وجه الارتباط، ولو كانوا يمتون إليكم بصلة لفهمنا وجه الارتباط، لكن هذا قسم ثالث بعيد، فهذا -والله أعلم- كأنه أقرب، فالأول له ما يؤيده باعتبار أن الجمل الثلاث تكون على نسق واحد في صفة المنافقين، والثاني أقرب ويؤيده أمران: عود الضمير إلى أقرب مذكور، وأن هذا أبلغ في التعجيب، فكأن هذا -والله أعلم- هو الأقرب، فالذي ذكره ابن كثير له وجه ويؤيده ما ذكر، والعلم عند الله -عز وجل-، {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ}، فالجامع المشترك أمران: الأول الكفر في الباطن، والأمر الثاني: العداوة للمسلمين، فهؤلاء من المنافقين، يمكن أن يتولى جميع الطوائف إذا كان العدو المشترك هم أهل الإسلام، فتارة مع النصراني، وتارة مع اليهود، وتارة مع الملاحدة، وتارة مع الرافضة، يمكن أن يتولى جميع الطوائف، كما ترون الآن فيمن يسمون أنفسهم بالليبراليين مثلاً، هم مع كل عدو للإسلام، يثنون على الرافضة، ويمالئونهم، ويدافعون عنهم، كما أنهم مع النصارى، وهم أربابهم، كما هو معلوم، وإنما هم صنيعة من صنائعهم، تجدهم أيضاً مع اليهود حمائم لا يذكرونهم إلا بكل خير، وإن تهيأ لهم إعطاء وعود إن كان المقام يقتضي ذلك كما في بعض البلاد كما في مصر مثلاً، فهم يعلنون أن اليهود سيكونون لهم، ولهم عندهم من الحظوة والقرب والمكانة، فهذا حال المنافقين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، لا يتمالئون على حزب أو على طائفة أو على مجموعة من الناس، يقولون: نحن نعيب أخلاقهم أو أوصافهم أو عندهم فهمٌ للإسلام خطأ، وعندهم تشدد، وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يقال: النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يفهم الإسلام، فيأتي هذا الليبرالي الكبير عبد الله بن أُبي بن أبي سلول، يأتي ويقول: أنا أفهم الإسلام، وأنا أفسر القرآن،

---

[1] - رواه مسلم، في أوائل كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨٤).

أقرؤه بطريقة بحسب ما أفهم، فهؤلاء -نسأل العافية- يتولون هؤلاء الذين ليسوا منهم ولا منكم، كل ذلك في سبب أنهم يوافقونهم في الباطن من جهة، ومن جهة أخرى شدة العداوة للمسلمين، العدو المشترك، ولهذا قال الله -عز وجل- في توليهم لليهود قال: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [سورة الحشر:١٤] فالراجح أن الآية في المنافقين واليهود، أو في المنافقين؛ لأن السياق كان في المنافقين حينما تولوا بني النضير، وقالوا لهم ووعدوهم: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} [سورة الحشر:١١]، وكان فيما قالوا لهم: {وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا} [سورة الحشر:١١] يعني: كائناً من كان، يعني ولا النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقولون لهم هذا، يعدونهم، فهذا من أعظم التولي، فقال الله: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، يتولون اليهود، وتحسبهم جميعاً، هم في خندق واحد، كأنهم على قلب رجل واحد، والواقع أنهم تعصف بهم الأهواء، وهم في غاية التفرق والاختلاف والشر فيما بينهم، ولهذا قال: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، فهذا حالهم، لكن الجامع المشترك هو هذه العداوة، العدو المشترك، فإذا كان الأشرار وحزب الشيطان يجتمعون ويتمالئون في سبيل حرب الإسلام وأهله، فحري بأهل الإيمان أن يجتمعوا، وأن يتجاوزوا ما بينهم من حظوظ النفس والخلافات والشر، وأن لا يشمت بهم عدوهم، فيتفرقون هذا التفرق الذي نشاهده، -فالله المستعان-، فهذا من قلة العقل.

ثم قال تعالى: {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين -عياذاً بالله منه- فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا؛ ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

كثرة الحلف لم تذكر في القرآن إلا في حق المنافقين، اقرأ سورة التوبة، بل السورة التي خصهم الله -عز وجل- بها وسميت باسمهم سورة المنافقون أولها: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [سورة المنافقون:١]، فهنا معلق على شرط يتكرر بتكرره، كلما جاءوا، كلما دخلوا، {قَالُوا نَشْهَدُ} يشهدون بأنه رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولفظ الشهادة هنا هو بمعنى اليمين والحلف، والدليل دخول لام القسم، بل جاء معه التوكيد بـــ"إنّ"، {إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، فهذه لام القسم، فالمقام مقام قسم، إذا جاءوا حلفوا، والله، نشهد، بل جاءوا بلفظ الشهادة، والمقام مقام قسم في موضع ذكر الله هنا لام القسم الداخلة على الجواب، جواب القسم {لَرَسُولُ اللَّهِ}، كلما دخلوا حلفوا، فرد الله -عز وجل- عليهم: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ}، رد عليهم بنفس الصيغة، يشهد، وجاء بـــ"إنّ" المؤكد بمنزلة تكرار الجملة مرتين، {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، قسم، لكاذبون في قولهم هذا بأنه رسول الله، لكن لئلا يتوهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس برسول الله وأن ما قالوه في ذلك لا يصح جاء بالجملة المعترضة، فقال: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، فالمحترزات في القرآن تأتي في كل موضع بحسبه، بحسب الحاجة إليه، وجاء بهذه الجملة المعترضة؛ لئلا يتوهم المعنى الباطل، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، فهم يحلفون كلما دخلوا عليه، وما كان يفعل ذلك أبو بكر ولا عمر -رضي الله عنهما-، فهذه الأيمان الكثيرة {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} هي بسبب أنه مهزوز من الداخل، هو يعلم أن أصابع الاتهام موجهة إليه أنه كذاب، وأن الناس لا يصدقونه، والعرب تأتي بالمؤكدات في الكلام بحسب الحاجة إلى ذلك كما هو

معروف، فإذا كان المخاطب واثقاً لم يُؤتَ باليمين والحلف، تقول: جاء زيد، فإذا كان عنده نوع تردد جيء بمؤكد، فقيل: إن زيداً مسافر، فإذا كان التردد عنده أكثر جيء بمؤكد آخر، إن زيداً لمسافر، إن زيداً قد سافر، فإذا احتيج إلى أكثر جيء باليمين، والله إن زيداً لمسافر، فهؤلاء يشعرون أن الذين يواجهونهم سواء النبي -صلى الله عليه وسلم- أو غيره أنهم لا يثقون بهم ولا يصدقونهم؛ لأن الكذاب يظهر الكذب من عينيه، ويظهر من ملامح وجهه، "ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحة وجهه وفلتات لسانه"، اللسان ليس فقط أنه ينسى الكذب ثم يأتي بما يفضحه، وإنما أكثر من هذا، فلتات اللسان، طريقة حركة اللسان يعرف منها الكذاب من أول كلمة ينطق بها، لو قام يخطب ويتكلم يقول: إن الحمد لله، أهل الفراسة يعرفون الكذاب من أول ما يقول، أول ما يبدأ في أول جملة في الخطبة أن هذا اللسان كذاب، فهذا لا يخفى، يعرف حال الكاذب، يعني كيف كان القضاة يعرفون الكذابين، فالقاضي إياس المعروف بذكائه وحذقه تداعى رجلان في مال، فقال أحدهما: إنه دفع إليه هذا المال، قال: أين دفعت إليه؟ قال: دفعت إليه في المكان الفلاني عند شجرة، الثاني قال: ما أخذت منه شيئاً، فقال للمدعى عليه: اجلس، اجلس، وقال للثاني: اذهب إلى الشجرة لعلك تتذكر، لعلك أعطيته رجلاً آخر إذا أتيت ذلك المكان، فذهب، والقاضي غفل عن المدعى عليه وتركه، واشتغل بأمور أخرى، وكان يرمقه حيناً بعد حين دون أن يشعر، فلما طال جلوسه فاجأه وقال له: أتراه قد بلغ الشجرة؟ قال: لا، يقول: ما وصل إلى الآن، قبلُ كان يقول: أنا ما أعرفه، طيب كيف عرفت أنه ما وصل إلى الشجرة، وأن الشجرة تبعد عن المكان هذا بقدر كذا، وأن الرجل لم يصل إليها بعد؟، إذاً تعرف الشجرة، فقال له: يا خائن، الكاذب يظهر كذبه بأمور.

قال: وقوله: {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} يعني: أنهم يحلفون على الكذب، الكذب قد يحلف عليه الإنسان ولا يعلم، فالكذب يأتي لمعنيين، معنى مذموم شرعاً، ومعنى لا يذم، يفسر الكذب بمعنى خاص، ويفسر أيضاً أو يعرف بمعنى أعم، الكذب بالمعنى الخاص الذي ورد فيه الذم شرعاً هو المخالفة بين اللسان وما في القلب، سواء وافق الواقع أو خالفه، هذا الكذب المذموم شرعاً، ويلحق به التخالف بين الظاهر والباطن مطلقاً، يعني مثل حال المنافق أو من يظهر شيئاً معيناً وليس في باطنه، يعني الكذب في الفعل والعمل والحال، فهذا تخالف بين ما يجري على لسان الإنسان ما يقوله وما يقر في قلبه، هذا هو الكذب المذموم، فإذا قال: زيد مسافر، وهو يعلم أنه موجود، والواقع أنه موجود، فهذا كذب أصلع، لا مرية فيه، وهنا صورة أخرى، قال: زيد مسافر، ويعتقد أنه موجود، وتبين في الحال أنه فعلاً مسافر، لكن هذا القائل لم يكن يعلم، فقال: مسافر، وفي اعتقاده أنه موجود، والواقع أنه فعلاً مسافر، فهذا ماذا يعتبر؟، هذا موافق للواقع، هذا يسمى كذباً، وهو كذب ومذموم، هذه الصورة التي ورد فيها الذم شرعاً بفرعيها، هناك إطلاق أوسع في الكذب جاء في بعض الأحاديث، وجاء على لسان الصحابة -رضي الله عنهم-، منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق الله وكذب بطن أخيك))[٢]، لم يوافقه العسل، وكذلك تجد في كلام الصحابة: كذب فلان، يعني: أخطأ، فالتخالف بين القول وما في الخارج يسمونه كذباً وإن لم يُقصد، يعني لو جاء أحد

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، برقم (٥٦٨٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، برقم (٢٢١٧).

وسئل: عشرة ضرب عشرة، فقال وهو يعتقد هذا: ألف، يقال: كذَبَ، هو لم يقصد الكذب، وإنما بمعنى أخطأ، لو قيل مثلاً: ما حكم الصلاة إذا خرج وقتها بسبب عذر؟ فقال: لا تقضى؛ لأن ذلك واقع في غير محل، يعني في غير الوقت {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [سورة النساء:١٠٣]، الله وقَّتَ وقت الصلاة وهذا لم يوقعها في الوقت الذي شرعه الله، فلا يقضي، فيقال: كذَبَ، بمعنى أخطأ، وهو لم يتعمد هذا، فالكذب يقال لكل ما يخالف الواقع وإن لم يُقصد، ويقال لكل ما يخالف الباطن وافق الواقع أو خالفه، وهذا هو الذي ورد فيه الذم، فهنا {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ} لا خطأً منهم، وإنما {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أنه كذب، فيجترئون على الله -عز وجل-، فإذا كان كثرة الحلف مع الصدق يدل على ضعف في تعظيم المعبود -سبحانه وتعالى-، فكيف باليمين الغموس، الحلف على الكذب وهو يعلم؟!، هذا استخفاف عظيم وجراءة على الله -تبارك وتعالى-، اليمين الغموس تغمس صاحبها في النار، الحلف وصاحبه صادق إذا كثر مذموم، تعرفون باب ما جاء في كثرة الحلف في كتاب التوحيد، لماذا جعله الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في كتاب التوحيد؟ باعتبار أن هذا الذي يكثر الحلف لو كان معظماً لله لأمسك، فلا يحلف إلا على أمور تستحق، فهذا المنافق يدخل ويخرج والحلف على طرف لسانه.

ثم قال تعالى: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم.

يعني كلمة أعد هنا يقول: **أي أرصد الله لهم**، كلمة أعد هي أخص من كلمة جعل الله لهم عذاباً مثلاً؛ لأنها تدل على عناية بالمُعَد، عناية، تقول: أعددت لك كذا، {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} [سورة يوسف:٣١].

ولهذا قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة.

قوله: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ}، الاتخاذ أيضاً يدل على مزيد عناية بهذا الشيء المُتخَذ، تقول: اتخذت زيداً صديقاً جليساً، اتخذت الكتاب جليساً فهذا يدل على عناية خاصة بهذا الشيء المتخذ، اتخذوا أيمانهم جنة، يعني الحلف، واليمين والحلف بمعنى واحد، إلا أن أصل ذلك أن الرجل كان إذا حلف أخذ بيمين صاحبه توكيداً للقول بالفعل، ثم تُنوسي هذا فصار يقال اليمين لكل حلف، {جُنَّةً} والجُنة هي الوقاية والستر، وأصل هذه المادة يرجع إلى معنى الستر، ولهذا يقال: الجِن، لاستتارهم، ويقال: الجَنّة؛ لأنها تستر من دخلها، لكثرة أشجارها، ويقال كذلك أيضاً لكل أنواع الاستعمال في هذا، الجُنّة الترس؛ لأنه يستر حامله من النبال وضرب السلاح وما إلى ذلك، فهؤلاء اتخذوا الأيمان جُنة، مثل الترس، فإذا وجهت إليهم التهمة سارعوا بالحلف وأن هذا ما حصل، وما قلنا هذا الكلام، ولم يصدر منا شيء من ذلك، فهذا -نسأل الله العافية- أدى بهم إلى النتيجة التي بعدها {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فالفاء تدل على التعليل، وهي تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهذا يسميه الأصوليون دلالة الإيماء والتنبيه: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان معيباً عند العقلاء، ما الذي جعلهم يصدون عن سبيل الله؟ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

{جُنَّةً} يعني: استمرءوا هذا الأمر أنه كلما وجه إليهم تهمة حلفوا، البينة على المدعي واليمين على من أنكر، لا، هو ينكر ويحلف أنه ما قال، {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} [سورة التوبة:٧٤]، فهؤلاء -نسأل الله العافية- الحلف عندهم شيء معتاد وسهل، ولا يتوقفون دونه، {فَصَدُّوا} كلمة "صد" هذه تأتي لازمة، وتأتي متعدية، تأتي لازمة بمعنى أنها لا تحتاج إلى مفعول، يعني صدوا أنفسهم، بقوا على الكفر منطوين، بقوا على النفاق، بقوا على الضلال، تقول: فلان صادٌّ، فقد تقصد بها أنه منطوٍ على نفسه، وصد في نفسه، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، بقوا على الكفر، ارتضوا هذه الحال، وإذا وجه إليهم تهمة حلفوا، هذا معناها، وتأتي متعدية "صد"، صد زيداً عن الإسلام، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم حملوها على هذا المعنى، أنها متعدية، وإن اختلفت عباراتهم في تفسيرها، يعني بعضهم يقول: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} بمعنى أنهم حينما يحلفون لا يقام حكم الله فيهم، يعني مثلاً الذي يستهزئ بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يسخر منه، هذا الذي يقول كعبد الله بن أبي: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، هذا حكمه القتل، فيحلف كما حلف في بني المصطلق أنه ما حلف وما قال، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، بعض العلماء يقول: المعنى صدوا المسلمين عن إقامة حكم الله فيهم بسبب هذه الأيمان، وبعضهم يقول: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، صدوا عن الإسلام، إذا جاء أحد يسلم صدوه ومنعوه، وخوفوه، ونفروه، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحج:٢٥]، فهنا أيضاً تحتمل المعنيين، وبعض أهل العلم يقول: إنه بمعنى أنهم صدوا أهل الإيمان، الذي قبله صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، أنهم صدوا عن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومتابعته والجهاد في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، وبعضهم يخصه بالجهاد باعتبار أن سبيل الله إذا أطلق في القرآن فالمقصود به الجهاد، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وهذا المعنى يدل عليه مواضع من كتاب الله -عز وجل- كقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} [سورة الأحزاب:١٨-١٩] يعني: لا ينفقون ولا يتصدقون في سبيل الله، فهؤلاء صدوا عن سبيل الله، يعوقون ويثبطون، يقول: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة:٤٧]، يثيرون بينكم الأراجيف، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [سورة آل عمران:١٦٨]، {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} [سورة آل عمران:١٥٦]، فهم يصدون ويثبطون الناس، وهم الذين قالوا أيضاً: {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [سورة المنافقون:٧] يعني: حتى يتفرقوا عنكم، يذهبون يطلبون بلداً آخر غير المدينة إذا مُنعوا من الصدقة، فهذا كله من هذا الصد، {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، هذا كله باعتبار أنها متعدية، ولو حمل ذلك على الجميع لكان أحسن -والله أعلم-، فهم صدوا في أنفسهم، استمرءوا البقاء على النفاق والكفر، وصدوا أيضاً غيرهم، صدوا عن الإسلام، وصدوا عن الجهاد، وصدوا عن النفقة في سبيل الله، وطاعة الرسول ومتابعته، هذا حال المنافقين.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، وقبلها شديد، فجمع لهم بين الإيلام والإهانة، فلهم عذاب الله -عز وجل- بالنار التي تحرقهم ويحصل بها الإيلام، ومع ذلك يحصل لهم الهوان، {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، فهذا في صفة هذا العذاب، يحصل به إيلام الأجساد ويحصل به الإهانة، {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ

عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر:٤٨]، {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [سورة الدخان:٤٩]، {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٨]، وما أشبه ذلك، فيحصل إهانات شديدة لهم مع العذاب، فهذا عذاب آخر.

ثم قال تعالى: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

ثم قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا، {فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} أي: يحلفون بالله -عز وجل-، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} وجه الارتباط مع ما قبلها أن الذي أوقعهم في النفاق هو من أجل دنياهم، من أجل إحراز الأموال، وحفظ وحقن الدماء، أن يحقنوا دماءهم وما تحت أيديهم من الأولاد والأهل، هذا مرادهم، هذا غايتهم، هي الدنيا، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم} [سورة الأحزاب:١٤] يعني: المدينة، {مِّنْ أَقْطَارِهَا} يعني: من نواحيها المختلفة، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا}، وفي القراءة الأخرى {لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}، يعني بمعنى أنه لو دُخلت المدينة من أقطارها من نواحيها المختلفة، دخلها العدو يوم الأحزاب، ثم سئلوا الكفر فهم مباشرة يبادرون، ولا ينتظرون، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}، لا يحتاج أن يتروى، ولا يحتاج أن يتأنى، ولا يحتاج أن يفكر، مباشرة مع من غلب؛ ولذلك ترونهم لما دخل الصليبيون العراق كانوا معهم، ولما دخلوا في أفغانستان كانوا معهم، هم مع من غلب، وكتب بعضهم في بعض صحفنا إبان دخول الغزاة إلى العراق وكان يستبشر بمجيء هؤلاء وبنزولهم في ساحة المسلمين في العراق بأنهم قد اقتربوا، وأن هؤلاء سيعمرون العراق، وسيقيمون فيها الديمقراطية، وسيكون لها مستقبل، وللمنطقة مستقبل مشرق وواعد بسبب ما عرف عن هؤلاء من رعاية الديمقراطية والحرية، وكما ترون، ويتفلسف يقول: الأمريكان ليسوا كالإنجليز، يعني أنهم إذا جاءوا أشاعوا الحريات والديمقراطية، وعمروا البلاد، هذا كاتب كتَبَ يمدح هؤلاء ويظهر الفرح والسرور والاستبشار للمنطقة بأسرها أنها ستتغير وتتحول إلى تلك النظم من الديمقراطية والحرية وغيرها، فالمنافق ليس له مبدأ ودين إطلاقاً، مرة مع اليهودي ومرة مع النصراني ومرة مع كذا.

وهنا قال: {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا}، هذا وجه الارتباط والمناسبة، قال: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وإذا ذكر أصحاب النار دائماً فالمقصود بهم هم أهل الخلود فيها، يعني أن أهل الإيمان الذين يدخلون ويعذبون في النار ثم يخرجون منها لا يقال لهم أصحاب النار، قال: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، هذا يحتمل معنيين كما سبق في بعض المناسبات، {يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، قلنا: يحتمل معنى أنه يبعث هؤلاء جميعاً، فإن الله يبعث الأولين والآخرين، فيجمع هؤلاء لا يغادر منهم أحداً، ويحتمل معنى آخر {يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} يعني: ما تفرق من أجسادهم لا يفوته منهم شيء؛ لأن البعث الثاني يكون مما تفرق من الأجسام الأجساد وتحلل في {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} [سورة ق:٤] فالبعث لما تفرق من الأجسام،

والنشأة الأولى: آدم من تراب، والذرية من ماء مهين، ثم من علقة، ثم من مضغة، حتى يتكون هذا الخلق وتنفخ فيه الروح، هذا المخلوق ثم يكون الولادة إلى آخره، هكذا النشأة الأولى، والنشأة الثانية ليست من تراب وإنما نشأة جديدة مستقلة، وليست من نطفة، وإنما هي من حطام هذا الجسد، مما حصل له البلاء وتحلل، وهذا هو الذي يحصل به البعث حقيقة، والله -تبارك وتعالى- يعيد هذه الأجسام ولا يخلق خلقاً جديداً آخر، إنما نفس هذه الأجسام يعيدها؛ ولهذا قال: ((يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء:١٠٤]))[٣]، فيعيدهم كما هم، حتى الأجزاء التي فقدوها في الدنيا ترجع إليهم، قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام:٩٤]، الرجل الذي قال: إذا مت فأحرقوني ثم أذروني.. إلى آخره، فجمع الله ما تفرق منه، فهنا قال: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، فبعض المفسرين قال: {جَمِيعًا} يعني: يجمع ما تفرق من أبعاضهم وأجسامهم، والمعنى الأول هو الذي عليه الجمهور، وهو المشهور أن الله يبعثهم جميعاً يعني لا يغادر منهم أحداً.

فيحلفون له أيضاً، يعني هو يظن أنه لما راج ذلك في الدنيا، ودفع عنه العقوبات والحدود بهذا الحلف، يظن أن الأمر في الآخرة مثل الدنيا، فمباشرة الفاء تدل على التعقيب المباشر، هذا يطلع من القبر، ينفض التراب عنه، وأيمان متتابعة، حتى في يوم القيامة يحلف، إذا رأيت أحداً يحلف يوم القيامة -نسأل الله العافية-، {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}.

{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} يعني: يظن أن هذه الأيمان تروج وتنفع وتدفع عنه عذاب الله -تبارك وتعالى-، يظن أن الحكم هناك البينة على المدعي واليمين على من أنكر، {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، ومثل هذا مضى في مناسبات شتى، هنا جاء بالتأكيد بـــ"إنّ" {أَلَا إِنَّهُمْ}، وجاء بضمير الفصل بين طرفي الكلام {هُمُ الْكَاذِبُونَ} يعني هذا فيه تقوية النسبة بين المبتدأ والخبر مثلاً، بين طرفي الجملة، {هُمُ الْكَاذِبُونَ}، ودخول "ال" يدل على أنهم استحقوا الوصف الكامل من الكذب، يعني يشبه الحصر، يعني كأنه لا كاذب إلا هؤلاء، هؤلاء هم الكاذبون المستحقون لهذا الوصف، المستحقون من الكذب أكمله، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}.

{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} أي: حلفهم ذلك لربهم -عز وجل.

ثم قال منكرًا عليهم حسبانهم {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} فأكد الخبر عنهم بالكذب.

ثم قال تعالى: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله -عز وجل-، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ ولهذا روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد

٣ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩)، والترمذي واللفظ له، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شأن الحشر، برقم (٢٤٢٣).

استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية))[٤]، قال زائدة: قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة.

ثم قال تعالى: {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، ثم قال تعالى: {أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

هنا قوله تعالى: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}، استحوذ يعني استعلى وغلب، تقول: فلان استحوذ على التركة، استحوذ على المال، بمعنى أنه غلب عليه، وهكذا قول من قال: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} يعني: غلب عليهم وضمهم إليه، فصاروا من جنده وحزبه، وهكذا قول من قال: أحاط بهم، وقول من قال: قويَ عليهم، فكل هذا يرجع إلى معنى واحد، بمعنى غلب عليهم وضمهم إليه حتى صاروا من جملة جنده وحزبه وأوليائه، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}، وكانت النتيجة فأنساهم ذكر الله، و"الفاء" تدل على ما سبق من التعليل وترتيب ما بعدها على ما قبلها، وأن هذا ما يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه، فكانت النتيجة: مَن استحوذ عليه الشيطان أنساه، والنسيان هنا ليس بمعنى الذهول عن المعلوم كما تقول: نسيت الكتاب، وإنما بمعنى الترك، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩] يعني: تركوا طاعته وتوحيده والإيمان به، {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}، هنا {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}، هنا الذكر مصدر، ويحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل أو إلى المفعول، فيكون المعنى: أنساهم ذكر الله يعني القرآن مثلاً، القرآن وما فيه من دلائل الإيمان والتوحيد والأمر بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك، والمعنى الثاني هو المشهور {فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} يعني: أن يذكروا الله -تبارك وتعالى-، وهذا الذكر يشمل الذكر بالقلب والإيمان، وتعظيم الله -عز وجل-، ومراقبته، كما يشمل ذكر اللسان، فكما قال الله عنهم: {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء:١٤٢]، وكذلك يشمل ذكره بالجوارح، كما قال الله -عز وجل- عنهم أيضاً {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ} [سورة النساء:١٤٢]، فجوارحهم معطلة من ذكره وطاعته، وألسنتهم معطلة من ذكره أيضاً، كما أن قلوبهم مظلمة، ليس فيها تعظيم ولا مراقبة ولا خوف، ولا رجاء، ولا توكل، ولا إنابة، لو كانوا يعرفون هذه المعاني ما صاروا من المنافقين أصلاً -نسأل الله العافية-، ولهذا فإن الله ذكر أهل الإيمان ووصفهم فقال: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [سورة الأحزاب:٣٥]، {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٤١]، أمرهم بهذا، {فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء:١٠٣]، فهكذا يكون المؤمن، أما المنافق فقلة الذكر بالقلب واللسان والجوارح من صفات المنافقين، {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء:١٤٢]، والمشكلة أن ذلك يورث قضايا متتابعة، يعني ينبني عليه أشياء، الجفاف، تصحر القلب، يعني قضايا تدور، هي صفة من صفات المنافقين يحصل من جراء ذلك جفاف وتصحر، فتموت الأوراق الخضراء أو الفروع الخضراء التي في القلب، فيتلاشى، فقد تراه في حال في ظاهره يدل على الاستقامة، ولكنك إذا عاشرته أو عاملته ترى حالاً أخرى تماماً، إذا نام فهو جيفة، لا يصلي

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، برقم (٥٤٧)، والنسائي، كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، برقم (٨٤٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٧٥١٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش"، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (١٤٨٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٧٠١).

ولا يقوم للصلاة، لا تسمع منه ذكر الله -عز وجل-، إذا عامل الناس بالأموال فالحلال ما حل باليد، وإذا حدثهم لم يصدقهم، وإذا وعدهم لم يفِ، وأحوال تنبئ عن بُعد وجفاف، هذه حال المنافق، فهنا: {فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}، على المؤمن أن يكون في حال مغايرة لهؤلاء المنافقين، وكيف يعيش الإنسان بلا ذكر، والقلب مع الذكر كالسمك في الماء، فإذا أخرج منه مات، فالنسيان هنا بمعنى الترك وليس بمعنى الذهول عن المعلوم.

وقوله: {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} هنا ما فسر الحزب، {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ}، ومعنى حزب الشيطان: الحزب في الأصل في اللغة جماعة فيها غلَظ، يعني ليس كل جماعة، مثلاً موسى -صلى الله عليه وسلم- لما ذهب إلى مدين ووجد هناك على ماء مدين، {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [سورة القصص:٢٣]، أمة: جماعة، فهؤلاء الجماعة من الرعاة لا يقال لهم حزب، إذ ليس كل جماعة يقال لها حزب، إنما الحزب جماعة فيها غِلَظ، يعني قوة وشدة، وهذا يحصل بسبب لحمة بينهم واجتماع مقصود على أمر من الأمور، هذا أصل الحزب في لغة العرب، وفي العرف المعاصر حينما يقال: حزب معناها أنه طائفة لها رأس وقاعدة، أي أتباع، رأس وأتباع، هذا يقال له حزب، هذا في العرف المعاصر، فهؤلاء حزب الشيطان، فرئيس الحزب رسمياً هو إبليس، وهم على رتب في هذا الحزب، فبعضهم رتبه عالية، وبعضهم رتبه أدنى، وبعضهم قيادات، وبعضهم من الصحفيين، وبعضهم من المثقفين، وبعضهم لربما يتحول الشيطان إلى أنه جندي من جنده كما ذكر بعض أهل العلم، يعني صار من الأساتيذ في فنون الشيطنة، صار أستاذاً كبيراً، يعني أنه مدرب كبير في الصد عن سبيل الله وإضلال الناس، حتى صار الشيطان لربما من جملة تلامذته ومن جنوده، وهذا الحزب كما ذكر الله -عز وجل-: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام:١١٢]، فهذا الحزب مكون من كتلتين الجن والإنس، ونفس ما سبق {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، وهنا {أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، ويأتي {أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، {حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} يعني كأنه لا خاسر إلا هم، هؤلاء أصحاب الخسارة الكبرى، كما قال الله -عز وجل-: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الزمر:١٥]، هذه الخسارة الحقيقية لا الخسارة في تجارة ومال ونحو هذا.

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة المجادلة:٢٠-٢٢]، **يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعني: الذين هم في حَدٍّ والشرع في حَدٍّ، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية.**

{أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة.

{أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} يعني في جملة الأذلين، فإن المحادين لله ورسوله هكذا حكم الله -عز وجل- عليهم، كل محادٍّ، وكما سبق أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فبقدر المحادة يكون للإنسان من الذل، فأهل المحادة الكاملة هم أذل الناس، {أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ}، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام

في تفسير سورة التوبة في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٦٣]، من قوله تعالى: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ} [سورة التوبة:٦١]، وما ذكر الله -عز وجل- بعدها، ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الأذل أبلغ من الذليل، يعني يفرق يقارن بين الأذل والذليل، {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ} [سورة آل عمران:١١٢]، {أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ}، هذه أبلغ، يقول ابن القيم: إن الأذل أبلغ من الذليل، يقول: إنه لا يكون كذلك -يعني أذل- إلا إذا خاف على نفسه وماله، والمنافقون {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [سورة المنافقون:٤]، {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [سورة الأحزاب:١٩]، في حال من الهلع والفزع، فيقول ابن القيم: لا يكون أذل إلا إذا كان يخاف على نفسه وماله؛ لأن من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يقول: يدل عليه قوله تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [سورة آل عمران:١١٢]، هذا باعتبار أن الاستثناء من قبيل المتصل، وليس بمعنى بل، الذين يقولون: إنه منقطع يقولون: إن الذل لا يفارقهم، يعني: ولكن بحبل من الله وحبل من الناس يأمنون على أنفسهم مثلاً، {بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ} العهد الذي يعطيه أهل الإيمان؛ لأن ذلك عن أمر الله وموافق لحكمه وشرعه، والحبل من الناس: الذي يعطيهم الكفار، {إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ}، يقول: فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة، إلا مع العهد، فعلم أن من معه عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه وإن كانت عليه المسكنة، {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ}، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة وقد جعل سبحانه الحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية، وهذا ظاهر، فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء، فإذا كان من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه، {أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ}.

{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَره الذي لا يُخالَف ولا يُمانع، ولا يبدل... عبارات السلف متقاربة، {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}، بعضهم يقول: قضى، حكم، كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال الله: {لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}، عبارة ابن كثير هنا واضحة **حكم وكتب في كتابه الأول**، جمع بين بعض هذه الألفاظ التي ذكرها السلف.

أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَره الذي لا يُخالَف ولا يُمانع، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [سورة غافر:٥١-٥٢]**، وقال هاهنا: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.**

قوله: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} أن الغلبة له ولرسله، والمواضع التي ذكر الله فيها الغلبة من أهل العلم من حمل ذلك على الغلبة بالحجة والبيان، ومنهم من حمله على الغلبة بالسيف والسنان، وهؤلاء الذين حملوه على الحجة كأنهم نظروا إلى بعض المواضع أو بعض المقامات التي لم يحصل فيها نصر بالسيف، فيحيى -عليه الصلاة والسلام- قُتل، والله -عز وجل- يقول: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ} [سورة آل عمران:١٤٦] على هذه

القراءة إذا وقفت هنا؛ لأن أنبياء كثيرين قتلوا، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- أراد اليهود قتله فرفعه الله ولم يحصل غلبة بالسيف وميدان المعركة، فبعض أهل العلم قال: المقصود بالحجة والبيان، الحجة والبيان لا شك أنها داخلة في الغلبة، ولكن هذا الاستعمال كما يقول الشنقيطي -رحمه الله- في بعض المناسبات، هذا اللفظ –الغلبة- يأتي غالباً في القرآن مراداً به الغلبة في ميدان المعركة، مثل: {وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤] يعني: ينتصر، وأيضاً {فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ} [سورة الأعراف:١١٩].

وقوله -تبارك وتعالى-: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب}، الشنقيطي -رحمه الله- تكلم على هذه الآية قال: إنه قابل القتل بالغلبة، فدل على أن المقتول مغلوب؛ لأن الذي يقابله غالب، يعني هذا مستند للذين يقولون: إن الغلبة بالحجة، قالوا: إن بعض الأنبياء قُتل، والمقتول مغلوب، {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤]، وأجاب عن هذا وحاصل ذلك أن الغلبة قد لا تكون على يده هو، وإنما تكون باعتبار العاقبة، وأن العبرة ليست بنقص البدايات وإنما بكمال النهايات، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- دعوتهم واحدة، والظهور الذي وعد الله -عز وجل- به المسيح -عليه الصلاة والسلام- ودينه وأتباعه، {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف:١٤]، فإن هذا التأييد لعيسى -عليه الصلاة والسلام-، وأتباعه من أهل التوحيد من النصارى كانوا مستضعفين مقهورين من قبل اليهود، ثم بعد ذلك لما جاء قسطنطين وأظهر الدخول في النصرانية وأقر عقيدة التثليث صاروا يستضعفون أهل التوحيد وهم قلة، فأين كان هذا الظهور، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}؟ ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، هذا على الأقرب -والله أعلم-، وفيها قول آخر وهو الذي مال إليه ابن القيم -رحمه الله- من أن المراد لما كان لهم شائبة من اتباع المسيح كانوا أقرب إليه من اليهود وإن كانوا على انحراف، فصار النصارى ومن ينتسبون للمسيح قاهرين لليهود، وينادون عليهم في ممالكهم حيناً بعد حين بالقتل، كما هو معروف في التاريخ.

وهذا التعقيب: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}؛ لأنه مقام غلبة، وهذا يؤيد أن تكون هذه الغلبة أيضاً في ميدان المعركة.

ثم قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [سورة آل عمران:٢٨] الآية، وقال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٢٤].

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتَل أباه يوم بدر؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حين جعل الأمر شورى بعده في أولائك الستة -رضي الله عنهم-: "ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته".

وقيل في قوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ}: نزلت في أبي عبيده قتل أباه يوم بدر {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} في الصديق هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} في عمر قتل قريبا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأقتله، وتمكن عليًا من عقيل، وتمكن فلانًا من فلان؟، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين... القصة بكاملها.

قوله -تبارك وتعالى-: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، مثل هذا الأسلوب يدل على التحريم، كما ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في بدائع الفوائد في صيغ الإيجاب، وصيغ التحريم، والصيغ الدالة على الإباحة، مثل هذا لا يكون {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ} إلى آخره، فهنا وجه الارتباط بين هذه الآية وما قبلها: لما تجلى مما سبق وظهر جلياً أن حزب الله هم الغالبون، وهم الفائزون، وهم المفلحون، وأن من عداه كان خاسراً كان نتيجة ذلك التحذير من موالاة أعداء الله، وجاء ذلك في سياق النفي {لَا تَجِدُ قَوْمًا} مبالغة في النهي عنه، {يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يوادون الود والمودة هي أخذ من مطلق المحبة، يعني: محبة خاصة فيها ميل إلى هذا المحبوب، فيها إيثار له على غيره، فيها تقديم له على غيره، {يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} كما قال الله -عز وجل- في سورة الممتحنة: {تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} [سورة الممتحنة:١]، فالود خالص المحبة، هو من المحبة بمنزلة الرأفة من الرحمة، الرأفة رحمة رقيقة، والود خالص المحبة، وخالص المحبة هذا لا يعطى للكافرين، لكن يبقى هل للكفار من مطلق المحبة من غير مودة؟، هل يسوغ هذا أو لا يسوغ؟ محبة وليست مودة، بعض أهل العلم يمنع من هذا مطلقاً، وقيل: إن المودة هي الموالاة وهي المحرمة، وأما مطلق المحبة -وليست المحبة المطلقة- فهذا لا إشكال فيه، باعتبار أن المحبة تكون طبيعية بين الأب والولد، المحبة العادية، المحبة الطبيعية، يعني الآن يجوز أن يتزوج الإنسان بالكتابية أليس كذلك؟، وهذه التي يتزوجها يحبها أو ما يحبها؟ نقول له: تزوّجها ولا تحبها، انتبه، ما يجوز، يمكن هذا؟! لكن إن كان يؤثرها على غيرها، يطلعها على أسرار المسلمين، يؤثرها عليهم، يحب لها الظهور، والتقدم وما إلى ذلك، هذه مودة، هذا لا يجوز، هنا قال: {وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ} إلى آخره، فهنا ابتدأ بالآباء الأصول ثم هم سبب وجودهم، ثم الأبناء الذين هم امتداد لهم، وفرع عنهم، وهم أعلق بالقلب، محبة الآباء فيها شيء من الإجلال والتعظيم، محبة الأبناء شفقة، فهم يعلقون بالقلب، ثم ثلّثَ بالإخوان؛ لأنهم بمنزلة العضد والناصر، ثم بعد ذلك ربّعَ بالعشيرة؛ لأنه جرت العادة أنه يستغاث بهم ويستنصر بهم، ولاحظ هذا الترتيب بهذه الطريقة، لكن في اليوم الآخر {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} [سورة عبس:٣٤-٣٥]، فذكر الأخ قبل الأب والأم في سورة عبس، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إنه ذكر الأخ قبل الأم والأب بأي باعتبار؟ باعتبار أنه لو ذكر الأم والأب قبل "يوم يفر المرء من أخيه" عرف أنه سيفر من البقية، من الإخوان وأبناء العم والعشيرة

من باب أولى، فهنا {وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}، لكن مثل هذه الملاحظ أو النكات البلاغية لماذا قدمّ هذا على هذا هي احتمالات، ولا يقطع بها، وإلا لو تأملتها من موضع لآخر لربما يطرأ بعض الإشكال على ما يذكر أو ما قد يذكر من التعليل والتوجيه، والله تعالى أعلم، هكذا يقول بعض أهل العلم، ما ظهر وجهه من هذا قُبل، وما لم يظهر لم يقبل.

العشيرة {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}، العشيرة هم جماعة الرجل وأهله الذين يتكثر بهم، يعني كأنهم يصيرون بالنسبة إليه كالعدد الكامل، فالعشرة عدد كامل، فتقال العشيرة لكل قرابة الرجل الذين يتكثر بهم، وأصل هذه المادة تدل على معاشرة ومخالطة، فالقبيلة أوسع من العشيرة، القبيلة ما يخالطهم، لكن العشيرة أدنى وأقرب إليه من القبيلة، هم جزء من القبيلة، فهؤلاء الذين يحصل بينهم مخالطة ومعاشرة، يعاشر بعضهم بعضاً، يقال لهم ذلك، يعني عندنا التقسيم مثلاً: شعب وقبيلة وعمارة، العمائر، والبطن، الفخذ، وبعد ذلك تجيء العشيرة، فهي بهذا الترتيب، لمداخلة ومعاشرة، وقد تقال العشيرة لمن أمرهم واحد، {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.

وقال السدي: {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ} جعل في قلوبهم الإيمان.

هنا {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ} لما كان لا يَحمل على هذا أي مقاطعة الأهل والعشيرة والقرابات والأب والأم إلى آخره لله وفي الله إذا كانوا على غير دينه، لا يحمل على هذا إلا الإيمان الثابت القوي، قال: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ}، بعضهم يقول: أثبت الإيمان في قلوبهم ، وبعضهم يقول: جعله، {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [سورة آل عمران:٥٣] يعني: اجعلنا، {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [سورة الأعراف:١٥٩] يعني: سأجعلها مثلاً، وبعضهم يقول: {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} [سورة المجادلة:٢٢] يعني: جمع في قلوبهم الإيمان باعتبار أن أصل مادة "كتب" تدل على جمع، أنهم كتيبة في الجيش، مجموعة من الجند ينضم بعضهم إلى بعض، والكُتبَة التي يربط بها في السقاء، يعني رأس القربة يقال لها: كُتبَة.

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ *** كَأَنَّهُ مِنَ كُلىً مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

يعني الآن لأنها تضم أطراف السقاء، ولهذا يقال في الخياطين لغز:

وكاتبينَ وما خطّتْ أناملُهُمْ *** حرْفاً ولا قرَءوا ما خُطّ في الكُتُبِ

يعني مَن هم؟

يعني الخياطين يجمعون أطراف الثوب يخيطونه، وهم ما يعرفون القراءة والكتابة مثلاً، من هو الكاتب الذي ما يعرف يقرأ ولا يكتب وما خط حرفاً ويقال له كاتب؟ الخياط، فبعضهم يقول: ضمّ، {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} جمعه في قلوبهم، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- فسرها بآية الحجرات {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [سورة الحجرات:٧]، {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} يعني: حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم.

وقال ابن عباس: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} أي: قواهم.

{وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} قواهم بروح منه، وبعضهم فسره بالنصر كما يقول الحسن البصري، وبعضهم قال بالقرآن وحجج القرآن كما يقول الربيع بن أنس، وبعضهم يقول: بنور وإيمان وبرهان وهدى كما يقول ابن جرير، وبعضهم يقول: برحمة، وبعضهم يقول: {بِرُوحٍ مِنْهُ} الذي هو جبريل، هو روح الله، روح القدس، {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} قواهم بنصره وتأييده وأنزل عليهم ألطافه مما يحصل به الثبات واليقين، فربط على قلوبهم وثبت إيمانهم.

وقوله تعالى: {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.

إي نعم، يعني {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ} لما أخبر ما لهم في الدنيا {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} هذا في الدنيا، ذكر ما لهم في الآخرة: {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}، وذكر الخلود، {خَالِدِينَ فِيهَا}، فلما كان النعيم لا يكتمل إلا بالبقاء الدائم بحيث إنه لا يفارقه كان ذلك مذكوراً هنا {خَالِدِينَ فِيهَا}؛ لأن الإنسان إذا تذكر أنه يفارق النعيم تبددت سعادته وراحته، ولم يهنأ بهذا النعيم، فهذا ينغص على أهل النعيم نعيمهم، كما قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يَسبقُ الموتَ شيءٌ *** نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

فإذا تذكر الغني وهو يعيش في القصور والنعيم والملاذ أنه سيفارقه وأن الموت سيأتي تنغص، وإذا كان الناس يهنئون بالاجتماع، اجتماع شمل الأسرة من كل مكان جاءوا فاجتمعوا، فإذا تذكروا اللحظة التي سيفارقون فيها ويتفرقون، ويذهب هذا ويسافر هذا يحزنون، وتذهب وتتبدد هذه السعادة والراحة واللذة، ولهذا كان بعض الشعراء يذكر أنه يحب أيام الفراق علّ الله أن يأذن بعدها بالاجتماع وبالتلاقي، ويكره أيام الاجتماع واللقاء لما يعقبها من الافتراق، فهنا الخلود، ولما كان هذا لا يكتمل إلا بالرضا قال: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، فهذا النعيم لا يكتمل لهم حقيقة إلا برضا مالكها، الإنسان قد يقيم في أحسن الأماكن، وأعظم النعيم، ولكن إذا لم يكن ذلك برضا واضح من مالكها يبقى قلقاً، الآن لو أن الإنسان ذهب وجلس في مكان، جلس في استراحة، في شاليه، في كذا، ولم يؤذن له فيه، وجد الباب مفتوحاً ودخل، فارغة، خاوية، ودخل فيها، يجلس وهو قلق أو يجلس وهو قرير العين؟ قلق، يشعر أنه كل لحظة سيأتيه من يقول له: هذا المكان ليس لك، ولو أنه دخل في مزرعة وفرش البسط وجلس ووضع المراكي، والمزرعة ليست له، وجد الباب مفتوحاً ودخل ورأى هذا الخَضار، وهذه الأماكن الجميلة وجلس فيها في يوم غائم، يجلس قلقاً؛ لأن هذا المكان ليس له إذن فيه، ولا رضا من مالكه، فيقلق، فهنا كذلك، ثم أيضاً {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، لاحظ كلام ابن كثير قال: فيه سر بديع.

وفي قوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما هجر قومه وما يعبدون من دون الله، لما هجر الأهل والوطن والعشيرة عوضه الله -عز وجل- بالذرية الطيبة الصالحة الذين ينسونه ما ترك لله من أهل ووطن وعشيرة، وهذا له

نظائر، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في القواعد الحسان عقد بهذا العنوان ترجمة: أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وذكر شواهد من هذا القرآن، يحسن مراجعته، هو معنى لطيف جيد.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: هؤلاء حزبُ الله، أي: عباد الله وأهل كرامته.

وقوله تعالى: {أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما أخبر عن أولائك بأنهم حزب الشيطان، ثم قال: {أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

آخر تفسير سورة المجادلة، ولله الحمد والمنة.

والفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، {أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ} أولائك خاسرون، وهؤلاء مفلحون، ونفس التركيب {أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، جاء بـــ"هم" وأدخل "ال" يعني كأنه لا مفلح إلا هم، أو أن هؤلاء حصّلوا الوصف الكامل، هم المستحقون للفلاح الحقيقي الكامل وهم حزب الله تعالى، وهم أهل طاعته والإيمان به.

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الحشر (١)

قوله تعالى: "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر".

للشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الحشر:١-٤].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فهذه السورة عرفت واشتهرت بسورة الحشر لذكر الحشر فيها، ولها اسم آخر غير مشهور، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الصحيح[1]، حيث سماها بسورة بني النضير، وهي من السور النازلة في المدينة بعد البينة، وقبل النصر.

وقال بعض أهل العلم: كان نزولها في السنة الرابعة للهجرة، وذلك بحسب ما قيل في تاريخ هذه الغزوة غزوة بني النضير؛ لأنها نزلت تتحدث عنها، فهي نازلة بعدها، وجاء عن عروة بن الزبير -رحمه الله-: أن وقعة النضير كانت بعد ستة أشهر من غزوة بدر، وغزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فمعنى ذلك أنها كانت في أوائل السنة الثالثة من الهجرة، يعني: إذا حسبت شوال وذا القعدة وذا الحجة ومحرم وصفر فهي في ربيع الأول، بعد غزوة بدر بستة أشهر.

وجاء عن ابن إسحاق: أنها كانت بعد أُحد وبئر معونة، فوقعة أُحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة، لما هزم المشركون في وقعة بدر في رمضان أرادوا أن ينتقموا، فعادوا لغزو المسلمين بعد عام، فجاءوا في شهر شوال، وكان مسيرهم من مكة إلى أُحد في اليوم الخامس من شهر شوال، يعني: من السنة الثالثة للهجرة، وكانت وقعة بئر معونة بعد أُحد في صفر، بعد أُحد بأربعة أشهر، يعني: أُحد في شوال، فإذا حسبنا: ذا القعدة وذا الحجة ومحرم وصفر، هذا هو الشهر الرابع، فهذه بئر معونة فهي في أوائل السنة الرابعة للهجرة، وعليه فإذا كانت وقعة النضير بعدها فمعنى ذلك أنها في السنة الرابعة للهجرة، وهذا هو المشهور لا أنها في السنة الثالثة وإنما هي في السنة الرابعة.

١- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، برقم (٤٦٠٠)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، برقم (٣٠٣١).

وحصل للمسلمين من المصيبة والهزيمة في وقعة أحد، والقتل والجراح، ثم خرجوا إلى حمراء الأسد، ثم بعد ذلك وقع ما وقع من أمور مؤلمة، وقعة الرجيع وبئر معونة في أوقات متقاربة جداً، يعني: لم تندمل جراح المسلمين بعدُ في وقعة أُحد وإذا بالمصيبة الثانية تقع بعدها وذلك في بئر معونة، وكذلك في وقعة الرجيع.

ثم بعد ذلك -بعد وقعة بئر معونة- إذا بهؤلاء اليهود يغدرون، على خلاف بين أهل العلم في سبب النزول أو في سبب هذه الوقعة، وبناء عليه يكون سبب النزول، لكن هذه الروايات يذكرها أهل السير وإن كانت في موازين المحدّثين قد لا يصح منها شيء، فحينما نقول: هذا هو سبب النزول نحتاط ونجري على ذلك مقاييس ومعايير المحدّثين.

فمن أشهر ما يذكر في سبب هذه الوقعة: هو أنه بعد وقعة بئر معونة، وبعد أن حصل ما حصل من قتل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من القراء، ووقع بعد ذلك قتل لرجلين من الكلابيين، ظُن أن هؤلاء من أولائك الذين غدروا بالقراء فقتلوا، فلما علم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك وكان بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهد، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتحمل فدية هؤلاء، وكان -صلى الله عليه وسلم- حينما هاجر إلى المدينة قد عاهد اليهود بطوائفهم ألا يكونوا معه، ولا يكونوا عليه، سالمهم، فوقع منهم نقض لهذا العهد، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلب منهم المشاركة في هذه الدية وأقبل عليهم أظهروا الفرح والسرور والاستبشار، ورحبوا به وأخبروه أنه يسرهم ويعجبهم أن يغشى مجالسهم، فجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت حجرة أو جدار فتآمروا على قتله بإلقاء حجر على رأسه -صلى الله عليه وسلم-، فجاءه الوحي فأخبره، فانطلق النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة ولم يشعر به من صَحِبَه من أصحابه -رضي الله تعالى عنهم-، ثم جهز لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الجيش، هذا ملخص لرواية طويلة في هذا المعنى.

وبعضهم يذكر سبباً آخر وهو: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ظهر في يوم بدر، قالت اليهود: هذا هو النبي المنعوت في التوراة بالنصر، فلما انهزم المسلمون في يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة، ويروى في ذلك: أنه لما سألهم المشركون: نحن أهدى أم محمد؟ قالوا: بل أنتم أهدى من محمد، وسجدوا لآلهة المشركين، فأنزل الله -عز وجل-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ...} [سورة النساء:٥١-٥٤] الآيات، فهذا ذكر في سبب النزول وإن كانت الرواية لا تخلو من ضعف.

فالشاهد: أن هؤلاء ألّبوا المشركين وطمعوا باستئصال المسلمين لما هزم المسلمون في يوم أُحد، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- محمد بن مسلمة الأنصاري -رضي الله عنه-، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة فقتله في القصة المعروفة، ثم صبّحهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكتائب، فأمرهم بالخروج من المدينة، فاستمهلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فتحرك المنافقون وضاقوا ذرعاً بهذا القرار، وأرسل إليهم عبد الله بن أبيّ وقال: لا تخرجوا، فإن قاتلوكم فنحن معكم، ولئن خرجتم

لنخرجن معكم، وما شأنهم بهؤلاء اليهود؟ ولماذا يتحركون من أجلهم؟ ولماذا يضيقون ذرعاً؟ ولكنها العداوة للإسلام، فصدقوه، فحصنوا الأزقة، وتهيئوا للقتال، ووضعوا المتاريس، وحاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إحدى وعشرين ليلة، وقيل: أقل من ذلك، وقيل: أكثر من هذا، حتى طلبوا الصلح، فأبى النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا الجلاء على أن يحمل كلُّ ثلاثة بيوت متاعَهم على بعير واحد، يحملون ما شاءوا من متاعهم، فخرجوا إلى الشام وأريحا، أو أطراف الشام أذرعات وأريحا، إلا أهل بيتين منهم ابن أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب، فقد لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم ليست كثيرة بالحيرة، هذا ذكر أيضاً في سبب هذه الغزوة.

وبعضهم يقول: إن السبب فيها هو أن اليهود طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ويخرجوا إليه في ثلاثين من أحبارهم، فيلتقوا في منتصف الطريق من أجل أن يسمعوا منه، فإن سمعوا ما يقبلون صدقوه وآمنوا به هم ومن تبعهم، وإن لم يقبلوا تركوه، ثم بعد ذلك تحدثوا فيما بينهم، وأنه إن خرج مع ثلاثين من أصحابه فسيموتون دونه -وكانوا قد أرادوا قتله-، فقالوا: لا يمكن أن نسمع وتسمع مع ستين رجلاً، فاخرج بثلاثة ونخرج بثلاثة، فأخبرت امرأة منهم رجلاً من قراباتها قد أسلم، فذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الطريق وجهز لهم الجيش، لكن المشهور هو ما ذكرته في قصة الدِّية وما هموا به من إلقاء حجر أو رحى على رأس النبي -صلى الله عليه وسلم-، مع أن هذه الروايات لا تخلو من ضعف.

وهؤلاء حينما قتلهم عمرو بن أمية الضمري، لما جلس معهم وأكل في مكان أو في غار ثم ناموا، فوضع الرمح في عين واحد منهم واتكأ عليه حتى سمع خشخشة عظامه، كان يظن أنه حصّل ثأراً من الذين قتلوا الصحابة في بئر معونة.

الشاهد: هذا أشهر ما ذكر في سبب نزولها، هؤلاء اليهود من بني النضير يقال: لم يُسلم منهم سوى رجلين، واحد يقال له: يامين بن عمير، والثاني: أبو سعد بن وهب.

وافتتح الله -عز وجل- هذه السورة بالتسبيح: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، واختتمها أيضاً بالتسبيح، لما ذكر الله جملة من أسمائه الحسنى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [سورة الحشر:٢٢] إلى آخر ما ذكر، ثم قال: {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الحشر:٢٤]، فاكتنفها التسبيح في أولها وفي آخرها.

ومن تأمل فيما اشتملت عليه هذه السورة عرف علة ذلك -والله تعالى أعلم-، وذلك أن الله -جل جلاله- قد أخرج هؤلاء اليهود وهم في غاية التمكين والقوة كما سيتضح، أخرجهم بقوته وبأسه، وكان ذلك في غاية العدل منه والحكمة، حيث وضع الأمور في مواضعها وأوقعها في مواقعها.

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} كل شيء يسبح لله -جل جلاله-، وهذا التسبيح بمعنى التنزيه وهو على ظاهره، فالله -تبارك وتعالى- لا يمتنع عليه شيء، فهو قادر أن يجعل لهذه الجمادات من الإدراكات ما يكون لها من التنزيه والتسبيح والتقديس لله -عز وجل-، والأدلة على هذا كثيرة، ففي القرآن الله -جل جلاله- يقول: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة

الإسراء:٤٤]، وكذلك أيضاً جاء في قصة داود -صلى الله عليه وسلم-: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠]، فكانت تردد معه تلاوته الزبور، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث))[٢]، وخبر الجذع الذي كان يخطب عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-: "ثم اتخذ المنبر فحن الجذع كحنين العشار -الناقة لولدها-، فنزل النبي -صلى الله عليه وسلم- وسكّنه وأمر بدفنه، وأخبر أنه لو لم يفعل لحن إلى يوم القيامة"[٣]، وفي صحيح مسلم من حديث جابر -رضي الله تعالى عنهما-: لما ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الطريق ليقضي حاجته فلم يجد شيئاً يستتر به، فأخذ بطرف شجرة ثم قال: ((انقادي عليّ بإذن الله))، هو ما أخذ بطرف شجرة ثانية وقال: انقادي عليّ بإذن الله، وإنما جاءت كل شجرة تمشي والتأمتا، ثم بعد ذلك أمر كل واحدة أن تنطلق فرجعت إلى مكانها"[٤]، إلى غير ذلك مما جاء من خبر تسبيح بعض الجمادات، وكان الطعام يسبح بين يديه -صلى الله عليه وسلم- وكانوا يسمعون تسبيحه.

فالمقصود أن هذا التسبيح على ظاهره، حقيقي، كل ما في هذا الكون مسبح لله -عز وجل-، وهو طيّع له خاضع لأمره وإرادته، إن شاء سير الجبال وإن شاء سخر الريح وإن شاء سخر ألواناً أخرى من جنده على أعدائه فتهلكهم، هذه الأرض التي يمشي عليها الأعداء ويحادون الله -عز وجل- هي مسخرة لله إن شاء خسف بهم، وهذا الهواء مسخر لله إن شاء صار عاصفاً فأهلكهم، كما أهلك الله -عز وجل- عاداً بالدبور، وإن شاء الله -تبارك وتعالى- حبسه عنهم فأزهق نفوسهم، فلا يتعاصاه شيء، لكن ينبغي علينا أن نعرفه ونتقرب إليه، وأن تكون صلتنا قوية بربنا ومعبودنا -جل جلاله-، وإلا فكل شيء بيده، النصر بيده، والخلق خلقه والملك ملكه وقلوب العباد بين أصبعين من أصابعه، فتارة ينزل الملائكة، وتارة يهلك بالصيحة، وتارة ترجف الأرض، وتارة يرسل الريح العقيم، وتارة يلقي الرعب، إلى غير ذلك من الأسباب التي يسببها الله -جل جلاله- فيهلك أعداءه ويأخذهم، وفي هذا التسبيح تنزيه لله -عز وجل- عن كل ظن سيئ، وعن كل وصف قبيح، يصفه به من لا يعرف ربه، ولم يقدره حق قدره، ولم يعظمه حق تعظيمه، فالله -عز وجل- لم يسبحه ولم ينزهه من نسب له الصاحبة والولد، أو قال بأن له شريكاً، أو ظن أنه يخذل أولياءه ويسلمهم لعدوهم، أو أن الله -تبارك وتعالى- لا ينصر أهل الإيمان، أو أنه -جل جلاله- يديل الكافرين على أهل الإيمان إدالة دائمة مستمرة، أو أن ما فعله بأهل الكفر من هزيمة وهلاك أن هذا من قبيل الظلم لهم، كل هذا ينفيه هذا التسبيح: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} و"ما" هذه للعموم، وهي -هذه الصيغة- تستعمل لغير العاقل "ما"، وللعاقل "مَن" ويقال للعالِم؛ لربما لأن الأشياء التي لا تعقل أكثر مما يعقل، فمن باب الغلبة {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فالذي قهر هؤلاء وأذلهم وأخزاهم

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٣ - رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه يمسح يده عليه"، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٩٠).

٤ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، برقم (٣٠١٢).

وأخرجهم من حصونهم، هو العزيز الذي لا يغالب ولا يقهر ولا تطاق سطوته، والعزة هي وصف يتحقق من اجتماع جملة من الأوصاف: القوة والغنى والعظمة، إلى غير ذلك من أوصاف الكمالات التي تحصل بها العزة، والعزة وحدها لا تكفي ولكنها تكون كمالاً إذا وجدت معها الحكمة؛ لأن العزة قد تحمل على شيء من العسف والقهر والتسلط بغير حق أو نحو ذلك، والله منزه عن ذلك كله، فهو مع عزته إلا أنه حكيم، أما المخلوق فقد تحمله العزة التي تحصل له في بعض الأحيان على ظلم المخلوقين وقهرهم، كما نرى حينما يشعر الكافر في يوم من دهره أنه قد ملك قوة فتسلط بها على الضعفاء، ويسخر هذه القوة للإفساد في الأرض، كما نرى اليوم في القوة التي لم تهذب بالإيمان، فتكون هذه القوى لتلك النفوس -نفوس السباع- كالمخالب والأنياب للسبع ، فتستعمل للبطش والافتراس، والفتك والقتل، والحكيم هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فأفعاله واقعة في غاية الصواب؛ لأن الحكمة هي الإصابة في القول والعمل، في غاية الصواب، وإذا عرف الإنسان أن ربه عزيز وحكيم وعليم، -والحكمة تتضمن العلم؛ لأنه لا يمكن أن يكون حكيماً إلا إذا كان عالماً-، فإنه يطمئن إلى أحكامه الشرعية وإلى أحكامه القدرية، فيرضى بأحكامه الشرعية إذا أمره الله -عز وجل- بشيء انقاد واستسلم ورضي وعمل بما أمره الله -عز وجل- به، وإذا حصل له أمر كوني من بلاء أو نحوه فإنه يعلم أن الله -عز وجل- حكيم، وأنه ما فعل به ذلك ليكسره، وإنما فعل ذلك ليرفعه ولينقله من طور إلى طور أكمل منه، ومن حال إلى حال أفضل من حاله التي كان عليها، هكذا يكون أهل الإيمان، وانظروا أحداث غزة كيف انزعج أهل الإيمان وضاقوا ذرعاً بما رأوا من قتل إخوانهم، وكيف آلت هذه الأمور إلى خير للمسلمين، جميع المسلمين وليس أولائك الذين في غزة، فهذه وخزة إبرة في جسم هذا العملاق النائم، فاضطرب من أوله إلى آخره، فخاف الأعداء وتنادوا، مباشرة لا يستيقظ فيدمرهم، كانوا يظنون أن القضية هي جولة سهلة ونزهة يقضون فيها على هؤلاء الذين تمردوا على مرادهم، ثم بعد ذلك ينتهي كل شيء، فالذي حصل هو خلاف ما يظنون ويتوقعون، **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}** [سورة الحشر:٢]، فتحرك هذا الجسم العملاق من أوله إلى آخره بدأ يضطرب، وكل المعاني التي كانوا يخدّرونه بها من أجل أن يبقى جثة هامدة لا حراك به، ولا يستطيع أن يدفع عدواً ولا يسترد سليباً، ويصوَّر له أنه لا فرق بين العدو والصديق، وأن الأعداء هؤلاء من ذوي الأنياب والمخالب كلهم في غاية القرب والمحبة والصداقة له، وأن هؤلاء يحبونه، وأنهم يريدون به خيراً، فاضطرب هذا الاضطراب فتداعى هؤلاء من أجل ألا يخرج الأمر من أيديهم، فقالوا: هذه الوخزة دمرت وأفسدت علينا كل ما عملناه عبر السنين، وصار الصغير والكبير الآن تتحرك في نفوسهم والعزة وأمور تشاهدونها وتسمعونها في نشرات الأخبار، الرجال والنساء والأطفال وأمور عجيبة جداً، ما كنا نؤمل هذا ولا نطمح بعشر معشاره، فساق الله -عز وجل- هذا الحدث؛ ليحرك هذه الأمة وينفض هذا التراب وهذا الغبار الذي تراكم عليها، فأفعاله في غاية الحكمة، وخرج أهل الإيمان وقد رفعوا رءوسهم وهم في غاية الاستبشار، قُتل ألف، قتل عشرة آلاف، قتل من النصارى، في الحرب العالمية الثانية ما يزيد على خمسين مليوناً، فإذا قتل ألف أو قتل عشرة آلاف أو نحو ذلك ننظر إلى المصالح التي تحققت، خرج أهل الإيمان في غاية العزة، رفعوا رءوسهم وخنس المنافقون تماماً وذابوا، ولم يعد لهم صوت مسموع، وأما اليهود والنصارى فظهرت

عداوتهم لكل ذي عينين، ولا يشك في هذا أحد، بل حتى المنصفين من اليهود والنصارى خرجوا يحتجون ويتظاهرون على هذه الأفعال، فكيف من كان في قلبه ذرة من إيمان؟ {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [سورة النور:١١]، وظهر هؤلاء على حقيقتهم من الضعف والعجز، ما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً بهذا الجيش الذي يقولون ويزعمون أحياناً أنه من أقوى جيوش العالم، ولم يستطيعوا أن يقضوا على هؤلاء العزّل، فأين ذهبت قوتهم؟

وافتتاح هذه السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السموات والأرض لله -عز وجل- فيه تذكير للمؤمنين بأن يسبحوا الله -عز وجل- تسبيحَ شكر على ما نالهم من هذا النصر العظيم، فكأنه يقول: سبِّحوا له كما سبح له ما في السموات والأرض، مخلوقات تعرف ربها وخالقها -جل جلاله- وتعرف عظمته، فأنتم يا أهل الإيمان سبحوه على ما منحكم ووهبكم من النصر العظيم، حيث كف يد عدوكم وأركسه، ورده خائباً لم ينل خيراً، سبحوه، فأكثروا هذه الأيام من التسبيح، وهذا هو الصحيح، والرسائل التي نشاهدها أحياناً هي من البدع المحدثة في الدين، صيام يوم الإثنين والخميس، يقولون: صيام جماعي، أو الصيام المليون أو القيام المليون! هذا كله من البدع، يتفق الناس هكذا: صوموا جميعاً يوم الخميس القادم من أجل كذا، فهذه بدعة لها قرنان، ينبغي للإنسان ألا يستجيب لمثل هذا، ولا ينشر هذه الرسائل، وإنما يعلّم هؤلاء وينصحهم، فنكثر من شكر الله وتسبيحه وتقديسه، ثم ذكر سبب ذلك.

والذين عناهم الله -عز وجل- بقوله: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} هم بنو النضير من اليهود، وإنّ ذكر الكفر يفهم التعليل، فسبب هذا الإخراج وسبب ما وقع بهم وحل بهم من الخور والضعف والهزيمة إنما هو الكفر بالله -جل جلاله-، وهذا وصف يصدق على طوائف الكفار بأصنافهم من أهل الكتاب ومن غيرهم، فالكافر مخذول، وإذا قام أهل الإيمان بما أمرهم الله -عز وجل- به فإنه كما قال الله -عز وجل-: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} [سورة آل عمران:١١١].

{أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} والديار كما قال الله -عز وجل- في قصة بني قريظة: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [سورة الأحزاب:٢٧]، فهذه الديار تشمل المباني والمساكن والقرية، وتشمل ما حولها مما يلحقها ويتبعها، وكل ذلك يقال له: الديار، فصار ذلك جميعاً للمسلمين.

وقوله -جل جلاله-: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} اللام هذه تدل على الأولية، وهذه الأولية يحتمل أن تكون أولية مكانية، {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} يعني: لأول أرض المحشر، وأرض المحشر في الشام، وأكثر هؤلاء حينما خرجوا إلى خيبر، وخرج قليل منهم إلى الحيرة، وأكثرهم ذهبوا إلى أطراف الشام في مكان يقال له: أذرعات، فمن أهل العلم من يقول: إن الأولية مكانية، أو أن تفسيرهم يصدق عليه هذا الوصف، الأولية فسروها باعتبار الأولية المكانية، فأول الحشر أول أرض المحشر وهي أذرعات، وعامة أهل العلم يفسرون الأولية هنا بأنها أولية زمانية، وإن اختلفوا في تفصيل ذلك، فإذا كانت الأولية زمانية فمنهم من يقول: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} يعني: عند أول حشر للجيش، بمعنى: أنهم تهافتوا بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب لمجرد حشر الجيش لهم سقطوا وأذعنوا واستسلموا، وهذا يدل على سرعة الهزيمة والانكسار والسقوط والاستسلام، وهذا ذكره طائفة من

أهل العلم، ولكن الذي يظهر أن هذا المعنى غير مترجح؛ لأن أقل ما قيل في المدة التي بقي فيها هذا الحصار أنها كانت ستة أيام، وبعضهم يذكر أكثر من هذا.

وهناك أقوال أقوى منه وتندرج تحت هذا المعنى، وهو أن الأولية زمانية، فبعضهم يقول: هذا أول حشر في الدنيا إلى الشام، وهذا صح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- في صحيح البخاري قالت: فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام، {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} الحشر الأول إلى الشام.

وبعضهم يقول: هؤلاء هم أول من حشر من أهل الكتاب، وأخرج من دياره، وقريظة كانوا بعدهم، فهؤلاء بعد بئر معونة قبل الأحزاب، وقريظة كانوا بعد الأحزاب مباشرة، {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} لأول حشرٍ لأهل الكتاب، لأول حشر لليهود، لأول إخراج لليهود.

وبعضهم يقول: إن هؤلاء من بني النضير وهم من نسل هارون -عليه الصلاة والسلام- لم يحصل لهم جلاء في التاريخ، يقولون: الجلاء الذي كان يقع لليهود كان يقع للذين كانوا في الشام وفي نواحٍ أخرى، فكان ملوك الرومان يتسلطون عليهم ويخرجونهم إلى غير ذلك، وهؤلاء كانوا منذ زمن بعيد جاءوا إلى أطراف المدينة ولم يحصل لهم جلاء، وبعضهم يقول: جاءوا في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- وأنه أرسلهم لمهمة لقتال قوم من الكافرين، فلما علموا بموته -عليه الصلاة والسلام- رجعوا ولم يفعلوا ما أمرهم به فالناس نبذوهم وعابوهم ومنعوهم من دخول الأرض المقدسة، فرجعوا وبقوا في هذه الأماكن.

وبعضهم يقول: إن هؤلاء كانوا قد جاءوا واستوطنوا هذه الناحية ينتظرون النبي الذي وعدوا به.

والمقصود: أن من أهل العلم من يقول: إن هذا أول حشر يقع لهؤلاء، ولم يحصل لهم جلاء قبل ذلك، وهذا الجلاء الأول على يد النبي -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم يقول: إن إخراج هؤلاء هو الحشر الأول لهم، وهذا يرجع إلى بعض الأقوال السابقة.

والحشر الثاني: هو إخراج أهل خيبر في عهد عمر -رضي الله تعالى عنه-، أخرجهم إلى الشام؛ ولهذا من أهل العلم من يذكر أن الحشر حشر في الدنيا، فهذا الحشر إلى الشام، وقرب القيامة تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم، يعني: الناس الأحياء الذين لا زالوا على قيد الحياة، تسوقهم إلى محشرهم، يعني: إلى أرض الشام، فـــ لأول الحشر هو إخراج هؤلاء اليهود إلى أرض الشام.

وبعضهم قال: الحشر له أول وأوسط وآخر، فالأول هو إخراج بني النضير، والأوسط إجلاء خيبر، والأخير حشر القيامة.

والقول بأن الأولية زمانية قول له وجه أقوى من القول بأن اللام تدل على الأولية المكانية، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وأقوال أهل العلم تندرج حول القول بأنها زمانية، سواء كان أول إخراج لليهود الذين كانوا حول المدينة أو كان غير ذلك، بغض النظر عن الحشر الثاني ما هو، {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} يمكن أن يقال: هذا الحشر الأول، والحشر الثاني قريظة، لكن لم يحصل لقريظة إجلاء؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قتل المقاتلة وسبى النساء والذرية.

والله -تبارك وتعالى- يقول: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} والحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، لما يقول: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [سورة الشعراء:٣٦] يعني: يجمعون السحرة ويسوقونهم ويأتون بهم إلى فرعون.

ثم قال الله -عز وجل- مصوراً شدة تمكن هؤلاء اليهود، وما كان لهم من المنعة والقوة في نظر أهل الإيمان وفي نظرهم، فكانوا في غاية الوثوق بقوتهم وحصونهم وما عندهم من العدة والسلاح، فقال الله -تبارك وتعالى-: {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا} فهذا أمر لم يكن يتوقعه أهل الإيمان، فالقضية لم تكن مجرد غرور عند اليهود في قوة وهمية مصطنعة، فكانوا قد اغتروا وظنوا أنه لا يمكن أن يخرجوا، حتى أهل الإيمان يقول الله -عز وجل-: {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا} فهذا الانطباع وهذا التصور موجود عند المؤمنين.

وقال: {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ} سياق الكلام لو أردنا أن نرتبه على النسق المعهود فإنه يقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم من الله، لكن الله -عز وجل- قدم في الكلام هنا فقال: {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ} هذه هي الحصون، كانت لهم حصون متعددة الكُتيبة والوطيح والسُلالِم والنطاة والوخدة وشق، هذه حصون كانت لبني النضير، حاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ستة أيام، وقيل: خمس عشرة ليلة، وقيل: قريباً من عشرين، وقيل: ثلاثاً وعشرين ليلة، وقيل: خمساً وعشرين، فهذا يضعف القول الذي سبق أن أشرت إليه وهو أن الأولية زمانية بمعنى: أنه لأول حشر الجيش سقطوا، لم يكن كذلك، وقد وعدهم عبد الله بن أبيّ بالنصر والمدد كما سيتبين فانتظروا، وتترسوا، وحصنوا تلك الديار، واستعدوا للقتال.

وهذا التركيب: {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ} يدل على تقديم الخبر على المبتدأ، {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم} الأصل: وظنوا أن حصونهم مانعتهم، فقال: وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم، ولم يقل: إن حصونهم مانعتهم، فجاء بمانعتهم وقدمها، {أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم} يدل على شدة وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، والضمير المختص بهم في قوله: {وَظَنُّوا أَنَّهُم} صار اسماً لـــ"أنّ"، فهذا أيضاً إسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم أعزة ولا يمكن أن يقهروا، وأن لهم من المنعة ما يحول بينهم وبين أن يغلبوا، {وَظَنُّوا أَنَّهُم} عندهم ثقة كبيرة بأنفسهم، ولم يقل: وظنوا أن حصونهم، {وَظَنُّوا أَنَّهُم} الضمير المتعلق بهم قدمه، وجاء بالخبر هنا {مَّانِعَتُهُمْ}؛ لأن قضية المنعة هي محل الاهتمام، فهم يريدون المنعة بهذه الحصون، {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ} فدل على شدة وثوقهم بهذه الحصون، وأنها تحول بينهم وبين أي اعتداء أو محاولة لحربهم والتغلب عليهم، وكل زمان له ما يناسبه في القوة لكن يكفي هذا التصوير من الله -تبارك وتعالى-، حيث صور لنا حال هؤلاء ونظر أهل الإيمان إلى تلك الحصون، يعني كما نحن ننظر بمعادلات وقوى في هذا العصر إلى قوى معادية، ننظر إلى أن هذه القوة قوية جداً ويصعب أن تغلب أو نحو ذلك، في ذلك الزمان أهل الإيمان يرون أن تلك القوة -قوة اليهود- بمنزلة يصعب دحرها وقهرها والغلبة عليها، ولو جاءت طائرة في هذا الزمن لدمرت تلك الحصون بقذيفة واحدة، لكن في زمانهم الأمر ليس كذلك، ليس عندهم إلا النبال والسيوف والرماح، وهذه الحصون منيعة، في أرض حَرَّة سوداء، إذا قدمت على المدينة انظر من الطائرة قبل ما تصل للمطار بقليل ستجد حَرّة سوداء شديدة السواد، وستجد أنه يسيل فيها -في هذا السواد- سواد حالك، هذا السواد الحالك المنصهر أو الذي هو متعرج هي حرة النار التي كانت في

القرن السابع الهجري شديدة جداً، والباقي هذه حرة لها لربما أكثر من ثلاث آلاف سنة، شديدة التضاريس، يصعب أن يمشي الإنسان فيها على قدميه، أو على الدواب، بل إن بعض الخبراء العسكريين يقول: إن جنازير الدبابات تتقطع حينما تمشي عليها، وهي تحيط بالمدينة من ثلاث جهات: حرة جنوبية، وحرة غربية، وحرة شرقية، فهذه الحصون في وسط الحرار، فكيف بالحياة آنذاك، ولا يوجد هناك جرافات وأشياء تمهد الطرق؟، فالصخور مدببة، صخور بركانية مرتفعة ومنخورة، سوداء ليس فيها نبات، يصعب المشي فيها.

فالشاهد: أنهم كانوا يقيمون في وسط هذه الحَرَّة، فعندهم من التقسيمات الطبيعية وعندهم من التحصينات التي اتخذوها بتلك القلاع والحصون، {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}، ولا يعقل أن أحداً تمنعه قوته مهما بلغت من الله -عز وجل-، وهذه القوى الموجودة على وجه الأرض لا يتعاصى شيء منها على الله -عز وجل-، بل هذه الأرض جميعاً كما قال الله -عز وجل-: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة الزمر:٦٧]، فهذه القوى ليست بشيء بالنسبة لقوة الله -عز وجل-، ولكن ليبلو الناس بعضهم ببعض، فيرى عملهم ويرى صبرهم ويرى بذلهم ويرى إيمانهم ويتبين الصادق من غيره.

فالذي حصل لهؤلاء وهم في هذه المنعة {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}، بعضهم يقول: بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وبعضهم يقول: بنزول النبي -صلى الله عليه وسلم- لساحتهم، وبعضهم يقول: بإلقاء الرعب في قلوبهم، كل ذلك وارد، إذا أتى أمر الله -عز وجل- تهيأت الأسباب وتداعت، فتداعى الخراب والسقوط والهزيمة، ويصير كل عمل يحاول الإنسان أن يرقع به وأن يستدرك يتحول إلى خراب كما سيأتي: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}، فإذا جاء أمر الله -عز وجل- فلا مرد له، لا يستطيع أحد أن يدفعه، {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} ما قال: فأتاهم جيش، أو فأتاهم المؤمنون، لا، أتاهم الله، وإذا أتى الله أحداً فلا مفر، والخلق في غاية الضعف والعجز أمام قوة الله -عز وجل- وبأسه، {مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} لم يظنوا، لم يعلموا، لم يتوقعوا.

وقوله: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} فالقذف هو الرمي بقوة، فألقى الرعب وهو الخوف الشديد الذي تنخلع له القلوب، ألقاه في قلوبهم، وإذا وجد الرعب في القلب فإن المقاتل لا يستطيع أن يتمالك، ولا يثبت بأرض المعركة، رجلاه لا تحملانه، يفر وينهزم، والمسلمون حينما غزاهم التتر، كان الرجل من التتر ربما جاء إلى سرداب أو مكان أو ناحية فيها أكثر من مائة من المسلمين وليس معه سيف فيقول لهم: انتظروا، ويذهب ويأتي بالسيف ولا أحد يتحرك، ثم بعد ذلك يقتلهم، حتى لو كان معه سيف وانطلق عليه هؤلاء يجرح ثلاثة يقتل واحداً أو خمسة والباقي يأخذونه، لكن من شدة الخوف ينتظرون، فأصابهم رعب شديد، وظنوا أن هؤلاء التتار لا يمكن أن يقهروا، وأنهم غير عاديين، عندهم قوة وإمكانات لا يمكن أن تواجه الرعب، بل نقل في التاريخ: أن الرجل التتري أحياناً ربما أضجع المسلم ليذبحه فلم يجد معه ما يذبحه به، فيقول له: انتظر، فيبقى في مكانه، ويذهب ويأتي بالسيف أو السكين وهذا لم يتحرك، {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، نسأل الله العافية.

{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} يخْرِبون فيها قراءتان: هذه القراءة قرأ بها الجمهور، وقرأ أبو عمرو: {يُخَرِّبون}، ومن أهل العلم من يقول: القراءتان بمعنى واحد يُخْربون ويُخَرّبون، وأن الثانية

"يُخَرّبون" تدل على كثرة التخريب؛ لأن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى، زاد حرفٌ فزاد المعنى، كثرة التخريب.

وبعضهم يقول: هناك فرق: {يُخْرِبُونَ} يعني: يتركونها خراباً، ما تسمع الناس أحياناً يقولون للبعيد: يخرب كذا، ويقال للبعيد: يخرب بيتك، يعني: يتركه خراباً، و{يُخَرِّبون} من التخريب بالهدم ونحو ذلك.

كيف يخربون بيوتهم بأيديهم، وكيف يخربونها بأيدي المؤمنين؟ هم تعبوا وبقوا من العقود ربما مئات السنين، وهم يشيدون في هذه الحصون، هذه الحصون فيها آبار، وفي داخلها من المؤن والأقوات ما يمكن أن يُبقي هؤلاء لربما سنوات، فحصن كعب بن الأشرف "جداره" ربما بعرض الطاولة، وأطلاله موجودة إلى الآن، وفي داخله بئر، وكانت الحصون تبقى مدة طويلة متماسكة، فهؤلاء صاروا يخربونها تعبوا في تشييدها وتقويتها وبنائها وتحصينها وصاروا {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} جاء أمر الله.

كل الأقوال التي ذكرت داخلة فيه -والله تعالى أعلم-، نقض العهد كان سبباً لخراب البيوت، وفي وقت الحصار كان المسلمون إذا فتقوا في الحصن شيئاً سارع هؤلاء وأخذوا من دُورهم من الأحجار والأبواب ونحو ذلك وسدوا فيه هذه الثغرة التي فتحها المسلمون {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ}، وحينما أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- صاروا يأخذون ما استحسنوه من هذه البيوت من أخشاب ونوافذ أبواب، ما استحسنوه أخذوه والباقي كانوا يخربونه من أجل ألا ينتفع به المسلمون، فدمروا ديارهم، من أجل إذا دخل المسلمون لا يجدون شيئاً يصلح للانتفاع والاستعمار، تعبوا في تشييدها ثم صاروا يخربونها بأيديهم، لو قيل لهم وهم يشيدونها: سيأتي اليوم الذي تخربونها بأيديكم، قد لا يصدقون.

{وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} فكان المؤمنون يهتكون تلك الحصون ويهدمون فيها، فكانت تتدك أمام جيش أهل الإيمان.

{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} فاعتبروا هذه يحتج بها الأصوليون دائماً على حجية القياس، يقولون: الله قال: {فَاعْتَبِرُوا} فنحن ننتقل من حال إلى حال، من شيء إلى نظيره، هذا هو القياس، ونعتبر بما جرى لهم، وما حصل لهم، وكيف تحولت قوتهم هذه التي كانوا يتفاخرون بها ويعتزون بها وأورثتهم شيئاً من الانتفاش، وهو الغرور، والتعالي، والتعاظم، ونقض العهد، وهم يرون أن عندهم من القوة ما لا يمكن مواجهته ولا مقاومته، ثم تحول ذلك إلى خراب بأيديهم قبل أيدي المؤمنين، بأيديهم وأيدي المؤمنين، فتحولت تلك القوة إلى عبء ثقيل.

وأما الاعتبار فأصله من العبور، وهو المجاوزة من شيء إلى شيء؛ ولهذا يقال: عبّارة، ويقال: معبر ينقلك من ناحية إلى ناحية؛ ولهذا سميت العبرة فيقال: استعبر فلان؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع، وفي الأمثال: السعيد من وُعظ أو من اعتبر بغيره، تقول: جعلته عبرة، صار فلان عبرة، معنى ذلك أنهم ينظرون إليه وينتقلون إلى أنفسهم فيقولون: لا يقع لنا ما وقع لفلان، فالاعتبار الذي يحصل من الإنسان حقيقته أنه ينتقل من حال ذلك الغير الذي اعتبر به إلى نفسه، فهو نظر في حقائق الأشياء وجِهات دلالاتها ليعرف بالنظر فيها شيئاً آخر من جنسها، فإذا أردنا أن نعتبر نقول: كل قوة على وجه الأرض لا تتعاصى ولا تتعاظم ولا تمتنع على الله -جل جلاله-، فالله على كل شيء قدير، هذه القوى وهذه الإمكانات المشيدة يمكن أن تتحول إلى شيء آخر بأيدي أصحابها، وبين

عشية وضحاها، ومن ثَم فاليأس لا يتطرق إلى قلب المؤمن، ولا يخاف المخلوقين كخوفه من الله أو أعظم من خوفه من الله -عز وجل-، وإنما يعطي المخلوقين الحجم اللائق بهم، فالله فوقه وأقوى منه، فيتوكل على الله، ويثق بقوته ومدده وعونه، فيقبل عليه ويجدّ ويجتهد في طلب مرضاته: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [سورة محمد:٧] فهذا شرط، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر نصرنا لله -عز وجل- بالعمل بطاعته وترك معصيته على قدر ما يكون لنا من النصر، وأرانا الله -عز وجل- هذه الأيام هذه الآية في فئة ضعيفة قليلة ليس لها قوة وقفت في وجه هذا العدو الذي لا يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذمة، فما الذي منعهم وحال بينهم من أن يقوموا بعمل خاطف، ويحققوا كل الأهداف التي يريدونها، ولم يستنقذوا أسيرهم، ولم يمنعوا تلك الصواريخ التي تحلق على رءوسهم، ولم يكسروا قوة المجاهدين، ولم يسقطوا حكومة حماس، ولا حققوا شيئاً من هذا، كل هذه أهداف لم يتحقق منها شيء، ما الذي جعلهم يبقون أكثر من عشرين ليلة في هذه القوة الضاربة ويأتون بقواتهم الاحتياطية، ومع ذلك ما استطاعوا أن يحققوا هذا، وكان بالإمكان جولة في يوم واحد؟ ولكن: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} فالله يحفظ عباده، ويدفع عنهم، ويكلؤهم ويحميهم ويحوطهم، وإن وقع فيهم آلام وجراح، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} أتباع كثير، {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ} [سورة آل عمران:١٤٦-١٤٨]، فثواب الدنيا هو النصر، فجمع لهم بين هذا وهذا، فما على أهل الإيمان إلا أن يعرفوا الله معرفة صحيحة، وأن يقبلوا عليه ويثقوا بما عنده وأن يحققوا عبوديته، فعلى قدر تحقيقهم لهذه العبودية على قدر ما يكون من دفع الله وحراسته ونصره وتمكينه لهم، والله أعلم.

أسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بالقرآن العظيم، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وأن يلطف بإخواننا في فلسطين وفي كل مكان، وأن ينصرهم على عدوه وعدوهم، وأن يشفي جرحاهم، ويغنيهم من فضله، وأن يصلح أحوالهم إنه على كل شيء قدير، رءوف رحيم، لطيف بعباده، ونسأل الله -عز وجل- أن يلطف بنا جميعاً، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الحشر (٢)

من قوله تعالى: "ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم".

للشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فلا زال حديثنا عن سورة النضير سورة الحشر، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} [سورة الحشر:٣]، عرفنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخرجهم من المدينة، وأن الله تمدحهم بذلك بقوله: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [سورة الحشر:٢]، فالجلاء هو إخراج خاص، وليس كل إخراج يقال له: جلاء، فالجلاء عادة يكون بالأهل والولد، ويكون للجماعة ولا يكون للواحد، أجلي هؤلاء من بلادهم، أُجلوا من ديارهم، فهو إخراج للجمع للأهل والولد، وهو خروج بلا عودة، أُجلوا رحلوا من هذا المكان وأخرجوا منه، تحولوا، هذا يقولون في تفسيره في كلام العرب: هو الخروج من الوطن بالأهل والولد من غير رجوع إليه، {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ} ومعلوم أن {وَلَوْلَا} تفيد الامتناع للوجود، امتناع أمر، لم يحصل التعذيب؛ لأن الله كتب عليهم الجلاء، يعني: لوجود هذه الكتابة من الله -جل جلاله- وهي كتابة أزلية، كتب الله أن هؤلاء يُجلون، {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ} فظاهره أن ثبوت الجلاء هذا الذي كتبه الله -عز وجل- يلزم منه نفي التعذيب، أن الله لم يعذبهم لأنه كتب عليهم الجلاء، مع أن إخراجهم بهذه الصفة من ديارهم -يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وأهل كل ثلاثة بيوت يخرجون على بعير واحد- هذا تعذيب، والله -عز وجل- قد قرن بين قتل النفوس والإخراج من الديار، ولما ذكر معايب بني إسرائيل قال: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة:٨٥] يعني: يقتل بعضكم بعضاً، {وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} يقول: أنتم تتناقضون؛ اليهودي لا يقتل اليهودي ومع ذلك تقتلون بعضكم؛ لأن بعضهم كان حليفاً للأوس والبعض كان حليفاً للخزرج فتحصل المعارك بين الأوس والخزرج، فاليهودي يقتل أخاه اليهودي؛ لأنه في الفريق المعادي له.

{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، يقول: {وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} يعني: أنتم كتب عليكم أشياء منها فك الأسير، وألّا يقتل اليهودي اليهودي، وألا يخرجه من بلده، يقول: فأنتم تقتلونهم وتخرجونهم ولكنكم تطلقونهم إذا كانوا أسارى، {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}.

فالشاهد: أن هذه الآية قد يَفهم منها بعضُ من قرأها أن الله لم يعذبهم: {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ} فامتنع التعذيب؛ لأن الله كتب الجلاء، والجلاء تعذيب، ولكن المقصود هنا بالتعذيب المنتفي هو تعذيب خاص بالقتل والأسر كما وقع لقريظة، {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ} أما الجلاء فإن أبدانهم ما مُست

بشيء لا بقتل ولا بجراح ولا بضرب ولكنه تعذيب وجداني، كون الإنسان يخرج من بلده هذه نكبة مصيبة، ولكن ليست كالقتل والأسر؛ ولهذا قال: {لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا} وأثبت لهم عذاب الآخرة فقال: {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} فانتفى عنهم القتل والأسر؛ لأن الله لم يكتب عليهم ذلك لا لمكانة لهم عنده، وإنما لحكمة علمها، ولعل من ذلك توفير قوى المسلمين لمعارك يستقبلونها، فإنهم لو دخلوا في حرب معهم سيصيب المسلمين ما يصيبهم من قتل أو جراح أو نحو ذلك، وقد عادوا حديثاً من رباط طويل على الخندق، وأصابهم ما أصابهم من الإنهاك والتعب، وبلغت القلوب الحناجر من الرعب والإرجاف، فكفاهم الله -عز وجل- مؤنة هؤلاء اليهود.

وبعض أهل السير يذكر في صفة خروج بني النضير، وهذا وإن لم يعول عليه من جهة الرواية كما هو معلوم من حال المرويات في السير لكن يُذكر للفائدة والعبرة، وإن كان لا يعتمد، فهم يقولون: إنهم حينما خرجوا حملوا النساء والذرية، وأظهروا تجلداً عظيماً فخرجوا في طريقهم وقد عرفنا موقعهم في المدينة في جنوبها الشرقي، خرجوا وجاءوا من أجل أن يتجهوا إلى ناحية الشمال، أن يتجهوا إلى خيبر، وبعضهم خرج إلى أطراف الشام كما سبق، فمروا على بعض منازل الأنصار مثل أبي الحارث من الخزرج، ثم مروا على نواحٍ كالجبيلة والجسر حتى مروا بالمصلى قريباً من مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم شقوا المدينة وجعلوا النساء في الهوادج، وعليهن الديباج والحرير وقطف الخز، وحلي الذهب والفضة والمعصفر، ونادى أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ورفع جلد جمل وقال: هذا مما نعده لخفض الأرض ورفعها، فإن تكن النخل قد تركناها فإنا نقدم على نخل بخيبر، -يريد أن يتجلد-، ومروا يقال: إنهم كانوا يحملون الدفوف ومعهم القيان يعزفن خلفهم تجلداً، حفلة، وهم قد أخرجوا بهذا الإخراج المذل المهين، وصفّ لهم الناس ينظرون ويتفرجون؛ لأنه يوم يفرح به أهل الإيمان، فجعلوا يمرون قطاراً في إثر قطار، مجموعات الإبل يربط بعضها ببعض فتكون مقطورة، ويتجهون في خط واحد، فتحملوا على ستمائة بعير، كل مجموعة من الإبل مربوط بعضها ببعض، وفي هذا الأثناء ظهر على المنافقين الحزن والكآبة والأسى؛ لخروج هؤلاء اليهود كما يدافع بعض المنافقين الآن عن اليهود، ويحامي عنهم، وينتصر لليهود على إخوانه المسلمين.

وهناك أشياء حدثت لبني قريظة من التجلد، مثل ما وقع للزبير بن باق حيث مَنّ في الجاهلية في حروب بعاث على ثابت بن قيس -رضي الله تعالى عنه-، فجاءه ثابت بن قيس يعرض عليه المكافأة على تلك المنة السابقة، فقال له: هل تعرفني؟ فقال له: وهل يجهل مثلك مثلي؟ قال ثابت: إن لك يداً عندي، وذكر له قدرته على أن يجزيه بها، فقال الزبير هذا ابن باق اليهودي: إن الكريم يجزي الكريم، وأحوج ما كنت إليك اليوم، فجاء ثابت للنبي -صلى الله عليه وسلم- وطلب منه أن يهب له هذا اليهودي، فأعطاه إياه، فجاء إليه وأخبره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وهبه له، فقال له الزبير هذا: شيخ كبير لا أهل لي ولا مال بيثرب ما أصنع بالحياة؟ يعني: كأنه يريد ماله وولده، فاستوهبهم ثابت بن قيس -رضي الله عنه- من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فوهبهم له، فرجع إليه وقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهبني ذلك، فقال له: يا ثابت أما أنت فقد كافأتني، وقد قضيت الذي عليك، ثم قال: يا ثابت ما فُعل بالذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى عذارى الحي في وجهه، يعني: لشدة جماله، وهو كعب بن أسد سيد قريظة؟ قال: قُتل، قال: فما فعل

المجلسان، أي: بنو كعب بن قريظة وبنو عمرو بن قريظة؟ قال: قتلوا، قال: يا ثابت ما في العيش خير بعد هؤلاء، أرجعُ إلى دار قد كانوا حلولاً فيها، فأخلد فيها بعدهم، لا حاجة لي في ذلك، ولكن يا ثابت انظر إلى امرأتي، وولدي فإنهم جزعوا من الموت، فاطلب إلى صاحبك فيهم أن يطلقهم وأن يرد أموالهم، فطلب لهم ذلك ثابت بن قيس -رضي الله تعالى عنه- وأعطاه ما طلب إلا السلاح، قال الزبير هذا اليهودي: يا ثابت أسألك بيدي التي كانت عندك إلا ألحقتني بالقوم، يعني: اقتلني، فما أنا بسائر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، يقول: ما هو إلا وقت يسير -لمجرد ما يستخرج الدلو من البئر ويصب ما فيه ثم يرجع- حتى ألقى الأحبة وهو كعب بن أسد، ومن قتل من اليهود كالمجلسين ونحوهما، فقدم وضربت عنقه، وفي بعض الروايات: أن ثابت قال له: ما كنت لأقتلك بيدي، فقال: لا أبالي من قتلني، فقتله الزبير بن العوام -رضي الله عنه-، وجاء: أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- لما بلغه قوله: ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً مخلداً.

وهكذا حيي بن أخطب لما جيء به عليه حلة قد شققها في كل ناحية قدر أنملة، من أجل ألا يستفيد منها أحد، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يَخذل اللهُ يُخذل، يعني: الذي خذله الله لابد أن يقع له الخذلان، ثم أقبل على الناس وقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

ولو صحت لكان لنا أن نعتبر، فنقول: إذا كان هؤلاء الكفرة شرار الخلق قد يحصل عند الواحد منهم بعض التجلد فإن أهل الإيمان أولى بالتجلد.

وأظهر إخواننا في غزة تجلداً لا نظير له، ما عرفناه في تاريخنا المعاصر، رجل يحمل طفلته تنزف من الدماء ولا تسمع منه إلا الرضا عن الله -عز وجل-، هذا أمر عجيب، ولم يتكدسوا على حدود ولا غير ذلك كما يجري عادة في الحروب، ما صارت أزمة إنسانية على الحدود وكما يحصل عادة.

ويقول الله -تبارك وتعالى- معللاً كل ما سبق: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [سورة الحشر:٤]، فوقع لهم هذا الإخراج، وتخريب البيوت، وأخذ الأموال، وقذف الرعب، والعذاب في الآخرة كل هذا بأنهم شاقوا الله ورسوله، والباء للتعليل، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، والمشاقة هي المخاصمة والمعاداة، مأخوذة من الشق، كأن هذا في شق وهذا في شق، مثل المحادة كأن هذا في حد وهذا في حد، والعداوة كأن هذا في عدوة وهذا في عدوة.

ثم جاء بالحكم العام: **{وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** الذي وقع لهم بسبب المشاقة، ولو وقف هنا لفهمنا من ذلك التعميم بالعلة، بمعنى: أن الذي وقع لهم بسبب المشاقة، فكل من شاق فهو مستحق لهذه العقوبة، ولكن الله -عز وجل- قد صرح بذلك تصريحاً في قوله: **{وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** فهذا الأمر لا يختص بيهود بني النضير لمعنى يختص بهم، وإنما ذلك يعم كل من وقع في هذه المشاقة، كل من شاق الله ورسوله فإن العذاب ينتظره، وهذا أمر يجب أن يكون منا على بال، فهؤلاء الكفار بجميع طوائفهم هم مشاقون لله، ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولن يغني عنهم ما يملكون من القوى، والإمكانات

والقُدر والأسلحة التي يرهبون بها الناس، ويذكرون التصريحات والأرقام، فإن ذلك يتلاشى جميعاً إذا جاء أمر الله -عز وجل- وكان أهل الإيمان بحال يرضاها الله -تبارك وتعالى- عنهم من التوكل عليه، والثقة به وإعداد ما يستطيعون من القوة، ولن يستطيع أحد أن يقهرهم أو أن يغلبهم؛ لأن الذين يشاقون الله ورسوله هم يعادون الله، ومن يعادِ الله -عز وجل- فلن يتمالك، ولن يستطيع أن يصمد إطلاقاً، دعك مما يقع في قلبه من الرعب الذي يزلزله، فهو يفر بمجرد ما يسمع التكبير.

أهل غزة لو كان عندهم طائرات وصواريخ وغواصات ودبابات ماذا سيفعل اليهود ليس الذين في فلسطين فحسب بل الذين في العالم؟ يمكن أن يقبروا أنفسهم وهم أحياء، وربما تأتيه جلطة فيموت، رعب وهلع من أُناس عُزَّل، ما استطاعوا أن يدخلوا عليهم، ولا استطاعوا أن يواجهوهم، ولا يقاتلوهم، حرب ثلاثة أيام تتحول إلى ثلاثة أسابيع أو أكثر، فهذا أمر فيه عبرة عظيمة.

ثم يقول الله -تبارك وتعالى-: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}** [سورة الحشر:٥]، اللينة هي النخلة، على قول عامة أهل العلم، ولا يلتفت إلى غير ذلك من الأقوال، مع صرف النظر عن هذه النخلة هل ذلك يقال لعموم النخل أو يقال لنخل خاص، كما يقول بعضهم: إنه في جميع النخل إلا العجوة، هذا قال به كثير من المفسرين، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري – رحمه الله -، وهو قول الخليل بن أحمد وطائفة من أئمة اللغة والتفسير، وبعضهم يعمم ذلك في جميع النخيل، وبعضهم يخصه في كرام النخل، وبعضهم يقول غير هذا، لكن المقصود هنا: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}** أي: من نخلة.

{أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} يعني: لم تقطعوها، يعني: قائمة على ساقها، يعني: جذعها.

{فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} علاقة هذه القضية أنه في وقت الحصار لبني النضير كانت لهم حوائط خارج القرية المحصنة، حوائط في الخارج، وهذه الحوائط يعني: المزارع فيها النخيل كما هو معلوم، وكان بنو قريظة أهل نخيل، وأهل زرع وحرث، ومعلوم أن أهل النخيل يحبون النخل محبة لربما تعدل محبة الأولاد، وقد تزيد عند بعضهم، وهذا النوع من التعلق يوجد عند بعض الناس إلى يومنا هذا، وقد ذكر الألوسي -رحمه الله- صاحب تفسير روح المعاني -وهو من أهل العراق، والعراق من أكثر البلاد زراعة للنخيل- عن بعض من سمع منه من أهل النخيل: أنه يود لو أن إبهامه شقت ولا يشق عسيب نخلة، يعني: يخاف على عسيب النخلة أعظم مما يخاف على يده وأطرافها من شدة محبته له، ولو نظرتم في حال بعض الذين يعتنون بها عناية كبيرة فإنك تجد عندهم مثل هذا، يحصيها ويعرف ماذا حصل لها من نقص في كل يوم، ومن قطع، فحصل في وقت الحصار أن بعض النخيل -وهو عدد قليل جداً- قطعت؛ من أجل الضغط على اليهود، فهم يرون من فوق الحصون، وهذه من أعز الأموال تعبوا فيها وفي سقيها في كل يوم، فيرونها تقطع، فمن أجل الضغط عليهم قد تكون قطعت في ناحية من أجل توسيع معابر أو للحاجة إلى جذوع من أجل التسلق على الحيطان والقلاع والحصون.

وقد يكون من أجل إيقادٍ ونحو ذلك، المهم أنه قطعت بعض النخيل وهي قليلة من تلك المزارع الواسعة التي كانت تعرف بالبويرة، وفي بعض المرويات في السير: أنه أحرقت بعض النخيل؛ إغاظة لهم، وفي هذا يقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- يذكر ما وقع للمشركين حينما انطلقوا راجعين إلى مكة وتركوا اليهود يواجهون مصيرهم المحتوم:

تفاقدَ معشرٌ نصروا قريشاً *** وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

يقصد النضير.

وهان على سَراة بني لؤي *** حريقٌ بالبُويرة مستطيرُ.

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام الله ذلك من صنيعٍ *** وحرّق في نواحيها السعيرُ

ستعلم أينا منها بنُزْه *** وتعلم أيَّ أراضينا تضيرُ

يقول: نحن في مكة بعداء عن هذا، والحريق هو في أطراف بلدتكم ومدينتكم وفي نواحيكم، فأنتم الذين تتضررون من هذا ونحن متنزهون عنه.

فهذه الآية: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} فلما حصل هذا التقطيع أرجف اليهود، استخدموا سلاح الإعلام وقالوا: أنت يا محمد تدعو إلى الصلاح والإصلاح، وقطع النخيل من الإفساد في الأرض، فالقرآن يعالج هذه القضايا على طريقته الفذة، فرد عليهم بأن الصحابة -رضي الله عنهم- اختلفوا في قطع النخيل: بعضهم قطع، وبعضهم امتنع، بل منع من ذلك، وقالوا: إن هذه ستصير إلى المسلمين، والذين قطعوها يرون أن ذلك لم يحصل للمسلمين بعدُ وأنهم لا زالوا في الحصار وأن ذلك فيه نكاية للعدو، فاختلفوا، واليهود أرجفوا وغاظهم هذا الفعل، فنزلت هذه الآية تعالج هذا الموقف، وترد على اليهود: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} معالجة رفيعة جداً، ولم يجعل اللوم على المسلمين وإنما قال: {فَبِإِذْنِ اللَّهِ}.

كما قال الله -تبارك وتعالى- في نظائره لما قتل ابن الحضرمي في الوقعة المعروفة في السيرة في أول ليلة من الأشهر الحرم وكان الصحابة -رضي الله عنهم- لم يعلموا بدخول الشهر الحرام، فأرجف المشركون فقالوا: هذا يقول على دين إبراهيم ويدعو إلى ملة إبراهيم وهم ينتهكون الشهر الحرام، فرد الله -عز وجل- عليهم: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} [سورة البقرة:٢١٧]، ثم قال رداً على المشركين: {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ} وهي الكفر، {أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} القضية التي تتعلق بالمسلمين من انتهاك حرمة الشهر الحرام رد عليها بكلمتين: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} لم تتحول إلى شناعة استُغرقت فيها كل الجهود والإمكانات، لكن أفعالكم، فأنتم تكفرون بالله -عز وجل- وتصدون عن المسجد الحرام وما إلى ذلك، هذه الطريقة الصحيحة في المعالجة للقضايا التي يثيرها أعداء الإسلام على المسلمين.

يتهمون المسلمين بالإرهاب وهم من يأتي ويرمي الأطنان على رءوس النساء والأطفال، ويرمون المواد المشعة، والمواد الحارقة، وأنواع الأسلحة التي تجرب على رءوس المساكين، ويهدمون عليهم بيوتهم، ويجعلون المساجد قاعاً صفصفاً، وهم أهل ذلك وأخص به وأولى، فالمسلمون ينبغي أن يستفيدوا من طريقة القرآن لمعالجة هذه القضايا لا أن الكفار يجرونهم ويستفزونهم ويستخفونهم ليقعوا فيما أراد الكفار لهم أن يقعوا به، فيتحول كل التفكير والجهد الذهني والبدني إلى اشتغال بعضهم ببعض، فلا نصدق ما يصموننا به وينسبوننا إليه، ثم بعد ذلك نحن نشتغل بأنفسنا.

وهذا الرد: {فَبِإِذْنِ اللَّهِ} الإذن هنا يحتمل أن يكون الإذن الشرعي، وإذا كان هذا الإذن الشرعي استنبط منه الفقهاء كالإمام مالك -رحمه الله- أنه في حال الحصار مع العدو في الحرب يجوز للمسلمين أن يخربوا المرافق الحيوية للعدو، وما كان فيه نكاية وإغاظة، وهذا في حال الحصار والحرب مع المشركين، فلا يتوهمه بعض الناس الآن من أنه يريد أن يضرب المصالح الفلانية، ويضرب المصالح هنا وهناك، فينقل الحرب إلى بلاد المسلمين، فهذا جهل وضرره وفساده عائد إلى المسلمين، والكفار يجيدون الفرص في مثل هذه التصرفات لمزيد من التسلط، وهذا الذي وقع، لكن حينما تكون حرب قائمة بين المسلمين والكفار، وحاصروا بلداً من بلاد الكفار يجوز لهم أن يضربوا المرافق الحيوية للكفار، من طرقات ومحطات كهرباء، إلى غير ذلك من أجل شل حركة العدو، وهذا الذي يفعله الناس في الحصار إلى يومنا هذا، ففي الحروب تضرب المرافق، وتنطفئ الكهرباء، وتضرب المياه، ويضرب كل شيء.

فاستنبط منه الإمام مالك -رحمه الله- وبعض أهل العلم هذا المعنى في حال الحصار، وما كان فيه نكاية بالعدو، وإذا كان الإذن هو من قبيل الإذن الكوني، والإذن الكوني أن هذا أمر وقع قدره الله -عز وجل- وقضاه {فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، وهذا أمر لو شاء الله لم يكن، والأقرب -والله أعلم- أن الإذن في هذه الآية يشمل هذا وهذا، فهو إذن شرعي؛ لأنه لو لم يأذن الله -عز وجل- به لبين حكمه وأنكره، وبما أنه واقع فقد حصل فيه الإذن الكوني، فاجتمع فيه الإذن الكوني والإذن الشرعي.

ثم ذكر تعليلاً قال: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} ليذلهم فيحصل به من إغاظتهم وكسر نفوسهم وإيلامهم، وهذا الفسق المقصود به الفسق الأكبر وهو الكفر بالله -جل جلاله-، وهذا يدل على أن هذا الإذن إذن شرعي؛ لأن الشارع قصده وأراده شرعاً، قال: {وَلِيُخْزِيَ} أي: من أجل أن يخزي الفاسقين، فما يحصل به إغاظتهم فإن الله -عز وجل- يحبه ويأذن به لكن بضوابطه الشرعية.

وسورة الحشر موضوعها الرئيس الذي تتحدث عنه هو وقعة النضير، وما يذكر بعد ذلك ففي غالبه ومجمله مما يتصل بها؛ ولهذا نستطيع أن نقول: إن موضوع هذه السورة هو وقعة النضير وما نتج عنها وما يرتبط بها؛ ولهذا جاء الحديث عن الفيء؛ لأن هذا الفيء هو أول مال صار إلى المسلمين من غير قتال، الغنائم التي حصلت للمسلمين في وقعة بدر ذكر الله -عز وجل- حكمها في سورة الأنفال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [سورة الأنفال:٤١]، فجعل أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين، هذا في الغنائم، والخمس: جعله على خمسة أقسام، وهي هذه التي ذكرها الله

-عز وجل-: {فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} سهم الله، وسهم رسوله -صلى الله عليه وسلم- واحد، وأما الفيء فإن حكمه يختلف عن حكم الغنيمة، فالله ذكر في الآية الأولى قال: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الحشر:٦]، والضمير في قوله: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} يرجع هنا إلى يهود النضير، وإن كان ذلك ليس بقاطع، وهو يحتمل "منهم" يعني من الكفار من أعدائكم من أعداء الإسلام يحتمل، ولكن الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والذي ذكر قبل ذلك هم يهود النضير، فهذه الآية: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} الفيء فيه كلام طويل وتفاصيل كثيرة لأهل العلم، والأرجح أنه يختلف عن مال الغنيمة، وأن مال الغنيمة يقسم كما في آية الأنفال، وأما الفيء فهو المذكور هنا، فاء إلى المسلمين يعني: انتقل إليهم من عدوهم، فاء: تقول: فاء الظل، والفيء هو انتقال الظل من ناحية إلى ناحية، وإذا انتقل بعد الزوال يقال له: فيء، وإذا صار إلى الناحية الأخرى، فهذا المال انتقل من الكفار إلى المسلمين من غير قتال، وهذا هو الفيء، والغنيمة ما حصل عليه المسلمون من أموال الكفار بالقوة بالقتال.

وفي هذه الآية الله -تبارك وتعالى- يقول: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} والإيجاف هو الإسراع، وهو نوع من المشي، أو نوع من الإسراع، يقال: وجف الفرس إذا أسرع بإيقاع، فهو السير السريع بإيقاع، {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} الخيل معروفة، والركاب المقصود بها الإبل التي أعدت للركوب، ولا زال الناس يطلقون عليها هذا إلى اليوم، والخيل -والله تعالى أعلم- ترمز إلى شيء، والركاب ترمز إلى شيء آخر، فالخيل ترمز إلى الإغارة على العدو؛ لأنها تستعمل في الإغارة، وفي قصة أُحد حين أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عليًّا -رضي الله عنه- أن يتبع المشركين وينظر فإن جنبوا الخيل فإنهم يريدون مكة، يعني ركبوا الإبل، وإن ركبوا الخيل فهم يريدون المدينة، فالخيل للهجوم والإغارة؛ لأنها تحسن الكر والفر، وأما الركاب فتستعمل للسفر الطويل، وإذا أدركنا هذا المعنى نستخلص ونخرج بنتيجة وبمعنى: كأن الله -عز وجل- يقول لهم: هذا المال الذي حصل لم يحصل بكدكم ولا تعبكم، فإنه لم يحصل بإغارتكم على عدو ولا بسفر طويل قطعتموه حتى حصل لكم ذلك، لم تبذلوا فيه تعباً.

{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} يعني: لم تقطعوا عليه أو إليه شُقة، ولا لقيتم حرباً ولا مشقة، كأن هذا تمهيد لبيان حكم هذا الفيء أنه ليس كالغنيمة، فلا تنتظروا شيئاً في الفيء، فإنه يختلف عما عهدتم وعرفتم من أحكام الغنائم.

ومن أهل العلم من يقول في قوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: إنها خاصة ببني النضير؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} من بني النضير، فالحكم يختص ببني النضير فقط، فهي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا قال: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء} ليس لكم منها شيء؛ ولهذا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قسمها بين المهاجرين، إذاً لم يراعِ فيها: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [سورة الحشر:٧]،

فمن أهل العلم من يقول: هذه الآية لا تتعلق بموضوع الفيء وأحكام الفيء، وإنما هي خاصة ببني النضير؛ لأن الله -عز وجل- قال لهم: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ} فجعلها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصة؛ ولهذا لم يعط الأنصار، لم يقسمها بين الأنصار قيل: قسمها بين المهاجرين، وقيل: إنه أعطى ثلاثة من الأنصار لحاجة، وإنه أعطى سعدَ بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- سيفَ بن أبي الحقيق.

ويحتمل أن تكون هذه الآية خاصة، وقد صحت بعض الروايات التي تدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقسمها، والطريقة التي ذكرها الله -عز وجل- في الآية التي بعدها، فهذا يؤيد أن هذه الآية خاصة ببني النضير، جعلها الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- يتصرف فيها كما شاء، ويحتمل أن يكون ذلك توطئة لما يذكر بعده، فأراد أن يروض نفوسهم لأجل ألا يتطلعوا إلى شيء من هذا الفيء، فقال: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء} ثم بين حكمها بعد ذلك أنها ليست بحق للمقاتلين وإنما لها طريق آخر في القسمة، وهي الآية التي بعدها، قال: {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} هناك قال: "منهم"، وهنا: {مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} هنا يبين حكم الفيء عموماً، ثم ذكر الأصناف الخمسة المذكورة في خُمس الغنيمة، {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}، والعلماء -رحمهم الله- تكلموا كثيراً على هذه الآية، أولاً: هل هي متعلقة بالآية التي قبلها أو هذا ابتداء كلام جديد؟ فهناك عطف بالواو: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ}، وهنا قال: {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}، فذكر أهل القرى ولم يقل: منهم، ولم يأت بالواو، وقالوا: هذا ابتداء كلام جديد، هكذا قال طائفة من أهل العلم؛ ولهذا اختلفوا فيها اختلافاً كثيراً في أحكامها، وأحكام الفيء، وكيفية أن يقسَّم وما حقيقة الفيء؟، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية مبينة لحكم الفيء، وأنه يختلف عن حكم الغنيمة لما ذكرت، فيقسم إلى أقسام خمسة ليس ذلك بحق مكتسب، كما يقال للمقاتلين، كما هو في الغنيمة لهم أربعة أخماس، هنا لا، جعلها الله -عز وجل- في خمسة أقسام، والشافعي -رحمه الله- يقول: إن الآية السابقة وهذه الآية كل ذلك يتحدث عن الفيء وتلك مثل التوطئة لهذه، وبعضهم يقول: لا، تلك في بني النضير فقط، فجعلها الله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذه تبين عموماً أحكام الفيء، والأمر في هذا يسير، لكن الإشكال في قول من يقول: إن الفيء هو الغنيمة، أو يقول: إن هذه الآية منسوخة بآية الأنفال، أو يخص ذلك بالجزية أو الخراج فقط، فهذه الأقوال على كل حال فيها إشكال، الجمهور يقولون: هذه الآية غير متعلقة بالآية التي سبقت، لكن ما هي التفاصيل؟ يختلفون في ذلك اختلافاً كثيراً، وهذا الذي قال به مالك والأحناف، جعلوا الأولى في بني النضير خاصة، وهذه في أحكام الفيء عموماً أيًّا كانت، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى} سهم الله وسهم النبي -صلى الله عليه وسلم- واحد، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأخذ نفقة أهله سنة، والباقي يجعله في الكراع والسلاح، يعني: في المراكب للحرب، يشترى به الخيل والإبل ليركب الناس عليها، والسلاح، ويمكن أن نقول الآن: يجعل في المصالح العامة للمسلمين، تُبنى به المستشفيات، والمدارس، وتشترى به الآلات الحربية، وتصنع منه الطرق،

إلى غير ذلك من المصالح العامة، هذا سهم الله وسهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فهذا سهم واحد، وتبقى الأسهم الأخرى: {وَلِذِي الْقُرْبَى} المقصود بهم قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأهل العلم اختلفوا هل يختص ذلك بالفقراء منهم لأنهم حرموا من الزكاة؟، والأقرب أن ذلك لا يختص بالفقراء، وإن كان القائل بأن ذلك يختص بهم له حجة، وله مستند من النظر، ولكن لا أريد أن أدخل في هذه التفاصيل، والأقرب أن الفيء يعطى منه الخمس لذوي القرابة، يعني قرابات النبي -صلى الله عليه وسلم- وذوي القربى وإن لم يكونوا فقراء، واليتيم من فقد أباه وهو دون البلوغ، وهذا يختص بالفقراء منهم، وهو موضع إشكال، فهناك قلنا: يشمل الجميع، وهنا نقول: للفقراء، مع أن الله -تبارك وتعالى- أطلق ذوي القربى هناك وهنا، وهذه حجة من يقول: إذا قلتم ذوي القربى يختص بالفقراء فقولوا: إن القرابات أيضاً يُختص بفقرائهم.

فاليتامى الفقراء منهم، أما إذا كان اليتيم غنياً فلا يعطى، وأما المساكين فهم الفقراء؛ لأن الله أفردهم هنا، ومعلوم أن المسكين إذا ذُكر دخل فيه الفقير إلا إذا اجتمع الفقير والمسكين فيكون لكل واحد معنى.

وابن السبيل هو المسافر الذي انقطع في سفره، فقدَ نفقته أو انتهت نفقته أو نحو ذلك، فإنه يعطى ما يكفيه حتى يرجع مما يصلح لمثله، وهذا يختلف باختلاف الناس، فقد يكون هذا في بلده من الأغنياء ويركب الطائرات، ولا يسكن إلا في فنادق على مستوى معين، ولا يأكل إلا طعاماً على مستوى معين، ومع ذلك فيعطى؛ لأنه لا يصلح لمثله أن يهان، فلا يقال له: نحن نعطيك ما يسد الرمق، وتركب في أي مركب يوصلك، لا، بل يعطى ما يصلح لمثله، فمن كانت عادته ركوب الحافلات يعطى تذكرة ركوب حافلة، ومن كانت عادته أن يسكن شققاً مفروشة متواضعة بسيطة يُعطى ما يصلح لمثله، ومن كان لا يسكن إلا بفنادق فخمة يُعطى ما يصلح لمثله، ولو كان غنياً في بلده بحيث لا يحتاج، ولا يكون ذلك على سبيل الإقرار، هذا إذا كان لا يستطيع أن يصل إلى ماله، أما اليوم: البطاقات، والحوالات السريعة، فلا يعتبر هذا ابن سبيل إلا إذا تعذر وصوله إلى ماله، كأن يكون هذا الإنسان فقد كل شيء حتى بطاقته، والمعلومات التعريفية، حتى لو جاءت حوالة ستطلب منه هذه الأشياء، ولا يستطيع أن يأخذ من حسابه ولا غير ذلك مثلاً، فقدَ كل شيء، فالشاهد أنه يعطى ما يصلح لمثله.

ثم علل الله -عز وجل- هذا التقسيم الذي لا يشترط فيه التساوي -على الأرجح- وإنما بحسب حاجاتهم، قد لا يوجد عندنا ابن سبيل ولكن عندنا أيتام كثر بعد الحرب، فهؤلاء من الممكن أن يأخذوا نصيب الأسد من هذه الأموال، وهكذا.

قال: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ} والدُولة بالضم من التداول، فالشيء المتداول ذلك الذي يتداوله المتداولون يقال له: دُولة، والتداول هو التعاقد في التصرف بالشيء، وإن كان في عرف الاستعمال يقال ذلك في خصوص المال، المال الذي يتداوله الناس يقال له: دُولة.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ} فالشارع يفتت الثروة والأموال لتصل إلى أوسع نطاق في المجتمع، فلا تبقى الأموال حكراً بيد الأغنياء فيزدادوا غنى ويزداد الفقراء بؤساً وفقراً؛ ولهذا تلاحظون حتى الميراث، والأموال الخاصة، والممتلكات إذا مات الميت ما تذهب إلى ولده الأكبر مثلاً،

أو إلى أولاده فقط من صلبه، شيء يذهب للأم، وشيء يذهب للأب، وشيء يذهب للبنات والأولاد، وهكذا بالقسمة الشرعية المعروفة يفتت هذا المال ويتوزع، كل من مات يوزع ماله، وقل مثل ذلك فيما يجب من مال الركاز مثلاً، والأموال المشابهة التي تحصل للإنسان، فالشارع قصد أن يصل ذلك إلى آخرين من أجل ألا يبقى المال بأيد مخصوصة محدودة معينة تزداد ثراء والبقية يعيشون في الحرمان.

ثم قال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [سورة الحشر:٧] والسياق هنا في العطاء المالي، وهنا يريد أن يروض نفوسهم ويقول لهم: لا تطلبوا شيئاً ليس لكم، أو تطمح نفوسكم في أموال قد لا تصل إليكم، وإنما ما جاءكم من غير استشراف فخذوه، والأدلة على هذا كثيرة.

فالسياق في قوله: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} يعني: ما أعطاكم من المال، {وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ} يعني: من المال، ويدخل في ذلك ما آتاكم من التشريع والأمر والهدايات فخذوه؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وأن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} فقابله بالنهي، فكأنه يقول: ما أمركم به فافعلوا، تلقوه عنه بالقبول، خذوه، {وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} فالآية سياقها في الأموال، وهي صادقة على هذا المعنى في العطاء المالي، وتشمل أيضاً ما آتاكم من الأمر، والهدايات، والتشريع، وما أشبه ذلك فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا؛ ولهذا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم))[1]، ومما يدل على صحة هذا الفهم الحديث المخرج في الصحيح حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ((لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والنامصات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله...))[2] إلى آخره، فجاءت امرأة يقال لها: أم يعقوب فذكرت أنها قرأت المصحف ولم تجد ذلك فيه، فقال لها: أما إنك لو قرأتيه لوجدتيه، ثم ذكر لها هذه الآية: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}، فهذا في قضايا التشريع، فهكذا فهم ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ثم قال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} كما هي العادة في القرآن حينما يبين لهم أحكام التشريع يذكر لهم ما يحصل به لزوم تلك الأحكام من التذكير بالله -عز وجل-، وما عنده من الثواب، وما عنده من العقاب لتوجد الرقابة الذاتية في نفوسهم، ومن أجل تحقيق الانقياد، والقبول لأمر الله، وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد ذلك قال: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [سورة الحشر:٨]، هذه الآية الأرجح أنها تتعلق بأحكام الفيء، فكما أن الفيء يوزع على هذه الأقسام، فكذلك أيضاً يبين مَن أولى الناس به، ومن أحق الناس به؟ أولائك

---

١ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، برقم (١٣٣٧).

٢ - رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة، والمستوصلة، والواشمة، والمستوشمة، والنامصة، والمتنمصة، والمتفلجات، والمغيرات خلق الله، برقم (٢١٢٥).

الذين هاجروا إلى الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- وتركوا وراءهم كل شيء، كان الرجل يأتي ليس عليه إلا إزار، ما عنده شيء، ترك كل شيء الوطن والأهل والعشيرة والمال، وقد يكون صاحب ثروة، فهؤلاء أولى الناس أن يعوضوا، وأن يعطوا من هذه الأموال التي تصير إلى المسلمين فقال: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}، فخروجهم كان بتسلل وخفية وإلا فإن الكفار لا يريدون منهم الخروج بل يريدون اضطهادهم من أجل ألا ينتشر الإسلام، لكن لما اضطرهم الكفار إلى الخروج كان ذلك بمنزلة الإخراج، فهم الذين تسببوا فيه؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج خفية، فجعلهم هم الذين أخرجوه؛ لأنهم تسببوا في هذا الإخراج بالتضييق الذي فرضوه على المسلمين.

{أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} والديار هي مكان القبيلة أو مكان تسكن فيه القبيلة، أو القرية التي يسكنها الناس، أو نحو ذلك، {أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} والآيات تتعلق بها جملة من الأحكام، مثل أرض مكة هل تُملك البيوت فيها؛ لأن الله قال: {أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ} فنسب الديار إليهم؟، إلى غير ذلك من الأدلة التي يستدل بها.

قال: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} وهذه شهادة من الله -عز وجل- لهم بصحة مقاصدهم وسلامة نياتهم، وأن هجرتهم هذه يريدون بها ما عند الله -عز وجل-، لم يهاجروا من أجل دنيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه))[٣]، هؤلاء شهد الله -عز وجل- لهم بسلامة مقاصدهم وحسن نياتهم، وأنهم يريدون ما عنده، قال: {وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.

ثم قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} جاء باسم الإشارة للبعيد، وجاء بضمير الفصل "هم" بين طرفي الكلام، وهذا يشعر بالحصر، كأنه حصر صفة الصدق بهم، كأنه لا صادق إلا هؤلاء، وهذا فيه من الثناء على المهاجرين -رضي الله تعالى عنهم-، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:٩] الآية، هذا ثناء على الطائفة الثانية وهم الأنصار، فالمجتمع في المدينة كان ينقسم إلى مهاجرين وإلى أنصار، فالذين تبوءوا الدار والإيمان، التبوء بمعنى: النزول والسكنى، تبوءوا الدار، يعني: سكنوا الدار واستوطنوها، لكن هنا يرد إشكال: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} إذا قلنا: إن الإيمان معطوف على الدار فهل الإيمان يُسكن؟ {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} فالدار تسكن، لكن الإيمان ليس وطناً فيُسكن، فكثير من أهل العلم يقولون: هنا محذوف مقدر، والذين تبوءوا الدار واعتقدوا الإيمان، والعرب تحذف من الكلام ما يفهم من السياق، وبعضهم يقول: تبوءوا

---

٣ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، برقم (١٩٠٧).

الدار ولزموا الإيمان، فلفظة لزموا هذه يدل عليها التبوء، السكنى، فكأنهم لزموا الدار ولزموا الإيمان، كما قال الله -عز وجل-: {فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ} [سورة يونس:٧١] أي: وادعوا شركاءكم، والشاعر يقول:

ورأيت زوجَك في الوغى *** متقلداً سيفاً ورمحاً

التقلد للسيف معروف، العرب تربط السيف برباط بالعنق، قلادة يعني يلبس كالقلادة، والعجم يضعونه في السير الذي في الوسط، الحزام الذي في الوسط، هذه طريقة الأعاجم، لكن الرمح ما يُتقلد وإنما يحمل، ورأيت زوجك في الوغى، يعني: في الحرب، متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً، ففيه مقدر محذوف، والعرب تفهم ذلك من خطاب مَن خاطبها.

والتبوء في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} هو النزول والاستقرار والتمكن، وأصله من اتخاذ المباءة وهي المكان أو البقعة التي يبوء إليها صاحبها، يعني: يرجع بعد انتشاره في حاجاته، والمعنى: أنهم آمنوا قبل مجيء المهاجرين إليهم، وهذا يجيب على سؤال معروف أن الله -عز وجل- قال عن الأنصار: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} ومعروف أن المهاجرين أسلموا قبل الأنصار، أليس كذلك؟

ثم انتقل الإسلام المدينة، وبعث إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه-، فالمراد بقوله تعالى: {مِن قَبْلِهِمْ} هو مجموع الأمرين: سكنى المدينة مع الإيمان، كان ذلك قبل المهاجرين، {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ}، المقصود بالدار المدينة، وقد اعتبر أهل العلم من أسماء المدينة: طيبة وطابة والدار والمدينة، وأصل الدار تطلق على البلاد أو موضع، في أصلها موضع القبيلة من الأرض، وصارت تطلق على القرية أو المدينة أو نحو ذلك.

فالأرجح أنها معطوفة على ما قبلها، فهؤلاء لهم حق في الفيء، وهذا الذي مشى عليه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وإن لم يكن هذا محل اتفاق.

ثم أثنى النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء الأنصار بهذه الصفات العجيبة: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} والعادة أن القبائل أو أهل القرى يكرهون نزوح الآخرين إلى ديارهم، وربما حصل قتال إذا نزحت قبيلة إلى ناحيتهم وإلى أرضهم، قاتلوهم على المرعى، وعلى الماء، وعلى مقاربة الديار التي يسكنونها، أما هؤلاء من الأنصار -رضي الله تعالى عنهم- فكانوا يحبون من هاجر إليهم، وهذه شهادة من الله -عز وجل- أن المسألة لم تكن عبارة عن مجاملات ومصانعة كاذبة أو نوع من التملق أو نحو ذلك، وبهذا نعرف ضيق العطاء عند كثير من الناس أصحاب النفوس الصغيرة الذين يضيقون ذرعاً بإخوانهم، لا يقولوا: الذين جاءوا من أجل أن يواسيهم إخوانهم ببعض ما في أيديهم، فأكثرهم جاءوا للعمل بعرق جبينهم، ويقدمون لهم أشياء تنفع المجتمع وتنفع الأمة، ومع ذلك تجد كثيراً من أصحاب النفوس الضيقة يتعامل مع هذه القضايا بأخلاق تدل على لؤم، كأنهم جاءوا ليأخذوا ما في يده، أو كأن رزقه سيتحول إليهم أو نحو ذلك، وللأسف هذه نفوس ما ارتاضت -كما ينبغي- بالإيمان، وما تربت هذه التربية الإيمانية القرآنية التي ذكرها الله -عز وجل- هنا، وينبغي على الإنسان أن يفتش نفسه هل هو كذلك؟، والناس في قراهم وفي

أراضيهم وديارهم ومناطقهم ونحو ذلك لربما يتبرمون إذا جاء آخرون ونزحوا إليها من أماكن أخرى، هذا فضلاً عما لو جاءهم أحدٌ ممن نزلت به ضراء ومشكلة أو حرب أو مجاعة أو نحو ذلك فنزحوا إليهم كيف تكون أخلاقهم وحالهم وأعمالهم؟ والنفوس تحتاج إلى شيء من المراجعة، ولو قام أحد اليوم ببعض ما قام به الأنصار -رضي الله تعالى عنهم- مع إخوانهم من المهاجرين لاتُّهم في عقله، واجلس مع نفسك وفكر قليلاً وانظر ستجد مصداق ذلك، الله يقول: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} هذه صفة أخرى مع المحبة، يحبون هؤلاء الذين جاءوا، ولم يقولوا: هؤلاء جاءوا ليضايقونا، ويضيقوا علينا، وقد صار المهاجرون أكثر من الأنصار في بعض الأوقات في المدينة، والمهاجرون ليسوا فقط هم أولائك الذين جاءوا من مكة، لا، هم الذين جاءوا من سائر النواحي من غير المدينة، بعضهم من الأعراب، وبعض هؤلاء من بني سليم، وبعض هؤلاء من جهينة، كل هؤلاء في عداد المهاجرين.

قال: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} الحاجة من الممكن هنا أن تكون بمعنى الحسد، لا يحسدون المهاجرين إذا اختصهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بشيء من العطاء، وهم بحاجة إلى تعويض، ذلك الذي تركوه، وفاتهم من أموالهم في ديارهم، فالأنصار لا يجدون في نفوسهم شيئاً من دوافع الغيرة أو الطمع، ولا تمتد نفوسهم، حتى لو أردنا أن نفسر الحاجة بمعناها المتبادر، الحاجة، بمعنى أنه يجد في نفسه تطلعاً وتطلباً لهذا الشيء الذي يُدفع للمهاجرين، لا يجدون في نفوسهم حاجة فضلاً عن الحسد.

{مِّمَّا أُوتُوا} يعني: مما أوتيه هؤلاء ممن هاجروا إلى المدينة.

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:٩] هذه صفة أخرى ثالثة، وإن شئت أن تقول رابعة إذا اعتبرت الأولى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}، {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} والإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية وهذا هو الأصل في الإيثار المحمود؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} في العطاء وفي الأموال وفي أرضهم وفي هذه الأشياء، وليس الإيثار بالطاعات؛ لأن ذلك يؤذن بالزهد بما عند الله -جل جلاله-، والعلماء تكلموا على مسألة الإيثار هل يجوز للإنسان أن يؤثر الكبير كالعالم أو الوالد أو الإمام العادل أو نحو ذلك، كأن يقدمه للصف الأول، أو نحو ذلك هذا أمر ذكر النووي -رحمه الله- وبعض أهل العلم أنه سائغ لا إشكال فيه، ومن باب التوقير، لكن ما نفعله نحن أحياناً في أشياء غير مناسبة، فتجد أحياناً ناس فاتتهم الصلاة يريدون أن يصلوا وكل واحد يقول للثاني: تفضل صلِّ أنت، وأحياناً يتقدم إنسان لا يظهر عليه سيما التدين، يعني: تظهر عليه علامات المعاصي والمخالفات، وأحياناً هو الذي يتقدم في النهاية، كل واحد يقول للثاني تقدم أنت، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله..))[٤] إلى آخره، وإذا أراد الإنسان أن يدخل المسجد لا سيما يوم الجمعة كل واحد يقول للثاني: تفضل أنت،... يعني يؤثره بالدخول في قربة وطاعة، وفي الخروج يخرجه قبله على أن ذلك من قبيل الإكرام، وهذا ليس بهذه الصورة التي قد نتوهمها.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟، برقم (٦٧٣).

فالإيثار المحمود هو الذي يكون في الحظوظ الدنيوية، أما الأمور الأخروية فلا إيثار فيها في الأصل، وحديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: لما تَلَّه النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفعه إليه فقال: ((لا أوثر بنصيبي منك أحداً))[٥]، فالأنصار -رضي الله تعالى عنهم- وصفهم الله بهذه الصفة: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، وقد حفظت لنا الروايات جملة من أخبارهم -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، وخبر عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع لما هاجر، أولاً، احتاروا حينما يهاجر الواحد من المهاجرين إلى المدينة يختصم عليه الأنصار، كل واحد يقول عندي، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرع بينهم قرعة لحل المشكلة، وآخى النبي -صلى الله عليه وسلم- بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع لابن عوف: أغلى ما أملك زوجتان وأدنى ما أملك نعلاي، فانظر إلى أيهما شئت أطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجها، وأدنى ما أملك نعلاي خذ واحدة وأنا واحدة، وما بين ذلك هو بيننا، الآن لو أعطى إنسان زميله سيارته ربما يُلام ويعاتب من قبل أهله، ولربما ينتسبون إلى التدين والخير والصلاح، ولو أن هذا الولد جاء من المدرسة وقال: إن المال الذي أُعطي من أجل أن يشتري به شيئاً في نهاره أو في مدرسته قسمه مع أحد زملائه ليس معه شيء ربما يلام ويعاتب، ولو أنه قسم ملابسه مع زميل فقير أو نحو ذلك أو دفع شيئاً، أو إنسان يملك أموالاً فجاء وقسمها مع رجل آخر فقير أو مع جار فقير أو نحو ذلك، أو عنده سيارتان فقال: هذه لك اختر واحدة وأنا واحدة وخذها وكذا، أو عندي أرضيتان خذ إحداهما وأنا الأخرى، عندي فلّتان اختر واحدة وأنا أخرج منها وتسكن فيها، وأنا أسكن في الثانية، فمن فعل هذا الآن ربما يتهم في عقله، وإذا ذهب إنسان إلى معارض السيارات وقال لهم: هذه السيارة فيها العيب الفلاني والعيب الفلاني والعيب الفلاني، فيتغامزون عليه ويقولون إنه مغفل درويش يمكن أن يُضحك عليه، وما علموا أن الغفلة هم أولى بها وأحرى، وللأسف الشديد ضاعت كثير من هذه المعاني، فكيف بالإيثار؟! فالذي يبين العيبَ أصبح في نظر كثير من الناس اليوم نوعاً من الغفلة والدروشة وقلة الخبرة.

وقصة أبي طلحة -رضي الله تعالى عنه- في الصحيح، مع ضيف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، الرجل الذي نزلت به حاجة وجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يجد النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيت أزواجه شيئاً، فأخذه أبو طلحة الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-، فما وجد أبو طلحة إلا طعام الصبية، فأمر امرأته أن تنوّم الصبية، وأن تطفئ السراج إذا وضعت الطعام فيتظاهر بالأكل[٦].

---

٥ - رواه البخاري، كتاب المساقاة -الشرب-، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، برقم (٢٢٣٧)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما عن يمين المبتدئ، برقم (٢٠٣٠).

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، برقم (٤٦٠٧)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، برقم (٢٠٥٤).

وفي الصحيح أيضاً: لما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُقطع الأنصار أموالاً أو أرضاً في البحرين، -والبحرين المقصود بها هو الساحل-، فأبوا وقالوا: إلا أن تُقطع إخواننا من المهاجرين[٧].

بل جاء في بعض الروايات: أنه لما حصل مثل هذا الفيء جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنصار وخيّرهم قال: هذه الأموال، هذا الفيء، إن شئتم خرج المهاجرون من أرضكم وقسمته بينهم دونكم، وإن شئتم بقوا في أرضكم وقسمته بينكم، قالوا: لا يا رسول الله بل يبقون في أرضنا، واقسمه بينهم دوننا، هذه أخلاق عالية في قمة الإيثار، الطمع خرج من النفوس، مع أن الأرض في الأصل هي أرض الأنصار.

ولما هاجر المهاجرون وقاسموهم أموالهم -قاسمهم الأنصار الأموال- النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر للأنصار أن المهاجرين ليسوا بأهل زرع، ما يحسنون هذا، واقترح على الأنصار أن يمسكوا الأرض تبقى ملكاً للأنصار، ويبقى الثمر بينهم على أن يكون العمل للأنصار، فقبلوا، يعني ما قالوا: أصلاً هذه أرضنا والثمر كله لنا، قالوا: نحن قبلنا بهذا أن نكون نحن الذين نعمل ولا يقاسموننا الأرض في التملك يعني وإنما يقاسموننا الثمرة.

وفي فترة وجيزة لما كان الناس يتقاتلون على أتفه الأشياء أصبحوا وتحولوا إلى هذا المستوى، وعندئذ تتأهل الأمة للنصر، ولا زلنا نسمع الآن في أحداث غزة من يتكلم من منطلقات ضيقة جاهلية، ولربما بعضهم يتذكر أشياء حقيرة تافهة تدل على تفاهة تفكيره: أن فلاناً كان معلمٌ فلسطيني لطمه وهو في السنة الأولى الابتدائية، أو قرص أذنه أو نحو ذلك، والنفوس ينبغي أن تكون أكبر من هذا، فتجد هذا يُردد في المجالس ولربما قال بعضهم: أنا أتبرع لليهود ولا أتبرع لفلسطين، وبعضهم قال: أريد أن أتبرع بالدم لليهود، ما في مكان يتبرع بالدم لليهود؟، هذا نوع نفاق، والنفوس أحياناً تظهر بعض كوامنها في مثل هذه المقامات.

ويقول الله -عز وجل-: {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} يعني: هم حينما يقاسمون ويفعلون هذه الأشياء ليس ليس من كثرة مال عندهم بل يفعلون ذلك مع الحاجة، وهذا هو أفضل الصدقة، كما في الصحيح: ((أفضل الصدقة جهد المُقل))، والخصاصة هي الحاجة التي تختل بها الحال، كأن هذا الإنسان قد اختص بحاجته وانفرد بها من بين الناس، وبعضهم يقول: خصاصة من خصاص الدار مثل السقف في السابق كان من الخشب ويظهر فيه شيء من أشعة الشمس في بعض المسام فهي فرجة يقال لها: خلّة، يعني فهنا هذا الرابط وهو الخلة، فهنا خلة بمعنى الحاجة والفقر والمعنى يرجع إلى شيء واحد، لو كان بهم خصاصة، أي: ولو كان بهم فقر وحاجة وشدة، وهذا هو حقيقة الإيثار، أنت حينما تأتي وتجلس في مكان فيه عشرة كراسي فارغة وتقول لإنسان: تعال تفضل اجلس أنا أوثرك بهذا المكان وتجلس على الكرسي الآخر بجانبه، هذا ليس بإيثار، عندك ماء كثير متوفر وتقول لإنسان: تفضل أنا أوثرك بهذا الماء الذي في يدي ثم تأخذ قارورة أخرى، هذا ليس بإيثار، هناك طعام كثير وتقول له: تفضل أنا أوثرك بهذا الطعام الذي استدنيتَه ثم تأخذ ما هو أكثر منه، فهذا ليس بإيثار، إنما الإيثار حيث وُجدت الحاجة، ما في إلا هذا الطعام، ما في إلا هذا الشراب أو نحو ذلك، فهذا

---

٧ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- للأنصار: (اصبروا حتى تلقوني على الحوض)، برقم (٣٥٨٣).

هو حقيقة الإيثار، وكان المهاجرون -رضي الله تعالى عنهم- أهل إيثار أيضاً، وقد حفظت لنا سيرهم أشياء وأشياء من هذا القبيل لا أطول بذكرها.

ثم عقب الله -عز وجل- ذلك بقوله: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الحشر:٩].

أسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في سورة الحشر (٣)

من قوله تعالى: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر: (٩)]، ثم عقب الله -جل جلاله- ذلك بقوله: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الحشر: (٩)]، لما أثنى على هؤلاء وذكرهم بهذه الصفة الحميدة، وهي الإيثار جاء التعقيب بعده بقوله: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، فدل ذلك على هذه الأوصاف التي ذكرهم الله -عز وجل- بها: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} [سورة الحشر: (٩)] فنفوسهم لا تتطلع إلى ما يعطاه المهاجر من إخوانهم دونهم، فلا يحسدونهم ولا يتحاملون عليهم.

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} فهم فوق ذلك يعطون ما في أيديهم، ويقدمون غيرهم على أنفسهم في الحظوظ الدنيوية، وهذا لا يتأتى ولا يحصل إلا لمن وقاه الله - عز وجل - وخلصه من الشح: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} فالشح وصف ذميم، فمن أهل العلم من يقول: إنه أثر من آثار البخل، فالبخل صفة نفسانية والشح أثره، يتأثر عن هذه الصفة وينتج عنها الإمساك.

ومنهم من يقول: البخيل هو الذي يبخل بما في يده، والشحيح أعظم منه فهو يتطلع إلى ما في أيدي الناس ويطمح ويطمع بما في أيديهم، بل لربما ينزعج ويضيق صدره إذا رأى أحداً من الناس يتبرع ويتصدق ويحسن إلى الآخرين، فيضيق وينقبض قلبه قال –تبارك وتعالى-: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} [سورة العلق: (٩-١٢)] فهو لا يكتفي بإمساك بما في يده بل أيضاً لا يريد من الآخرين أن يبذلوا وأن يقدموا.

ومن أهل العلم من يقول: إن الشح هو أن يترك الإنسان ما أوجب الله عليه من النفقات كالزكاة الواجبة، فالذي يبذل ما وجب عليه في المال يكون قد تخلص من الشح.

وعلى كل حال لاشك أن الشح أشد من البخل، يقال: فلان بخيل وفلان شحيح، فالشحيح بخيل وزيادة، فالبخل على درجات أو إن شئت أن تقول دركات؛ لأنه في العد النازل، كما أن الكرم درجات والبذل درجات والإحسان درجات، فالبخل دركات، فمن دركاته الشح، وهو أشده، وشدة الحرص تحمل الإنسان على فعل ما لا يجمل ولا يليق، فيقطع الرحم، ومستعد أن يصارع وأن يعارك وأن يقاتل على أتفه الأشياء، لا يفوت حقاً ولا يعفو عن قليل ولا كثير وإنما ينقر حقه تنقيراً، بل تمتد نفسه وتتطلع إلى ما عند غيره وتتشوف لحيازته، هذا هو الشحيح، فالله -جل جلاله- يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} فاستعمال اسم الإشارة

الذي هو للبعيد لرفعة منزلتهم وعظيم فضلهم، وضمير الفصل بين طرفي الكلام "أولائك المفلحون" وضع بينهما "هم" مما يشعر بالحصر، كأنه لا مفلح إلا هؤلاء، فهؤلاء هم المفلحون الفلاح الحقيقي الذي هو الفلاح الأعظم والأكبر، وحقيقة الفلاح هي إدراك المطلوب والنجاة من المرهوب، وهو مطلب لكل الناس المؤمن والكافر لو فتشت ونظرت في مطالبهم في هذه الحياة الدنيا لماذا يسعون؟ لأن يحصلوا الرغائب الأشياء المرغوبة أو يدفعوا المكاره، كل عمل الناس وكل سعي الناس في الدنيا والآخرة يدور حول هذين الأمرين، لكن كيف يتصورونها هذه مسألة ثانية، الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يظن أن القضية تحصيل المال والشهوات والمتع بدفع الأمراض والأوصاب والعلل التي تصيب الإنسان في هذه الحياة الدنيا والمشكلات وما شابه، أما المؤمن فالفلاح الأكبر والأعظم هو نيل رضا الله -عز وجل- والسعادة الأخروية والجنة والنجاة من النار، فهنا الله -جل جلاله- يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} كيف علق الفلاح بالخلاص من هذه الصفة الذميمة؟

الإنسان إذا ابتلي بالشح يحصل له كل قبيح ومرذول من الأقوال والأفعال، فالشح هذا يحمله على كثير من المشكلات والمشاجرات وقطيعة الرحم والإساءة إلى الجيران والمعارف، هو باب مفتوح للمشكلات من كل ناحية؛ لأنه لا يفوت حظا من حظوظ نفسه، مستعد أن يقاطع الجميع وأن يفاصل بدريهمات قليلة؛ ولهذا حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من الشح وأخبر أنه سبب الهلاك لمن قبلنا، وأنه أمرهم بالقطيعة فقطعوا أرحامهم، فهو سبب للعداوات، وسبب لارتكاب الدنايا والمدنسات فيتلطخ عرضه ويتدنس.

فالدنايا مثل جيفة الكلب تماماً -أعزكم الله-، إذا نزل الإنسان هبط معها، هناك أناس الدنيا هي أعظم مطالبهم، فلربما تعاملت معه بمعاملة فلا تستطيع أن تستخرج حقك منه إلا بارتكاب أمور مدنسة للعرض، لا يليق أن ينزل الإنسان ويدخل مع هؤلاء في مهاترات وأشياء بسبب الشح.

والشح هو الذي يجعل الإنسان يطفف في المكاييل والموازين من أجل أن يربح قليلاً خلسة في بيعه وشرائه، فإذا عرف الناس منه هذا فلن يتعاملوا معه؛ لأنهم لا يحبون التعامل مع من يخدعهم، ولو كان بشيء قليل.

وقد كان عبد الله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين رجل شحيح، وكان له جاريتان أسلمتا، وكان يرغمهما على الزنا، وفيه نزل قول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [سورة النور: (٣٣)] فكان يكرههما من أجل أن يحصل دراهم قليلة، يتاجر بهذه الجواري، وهذا الفعل يفعله من لا خلاق له.

ونسمع هذا واقعاً للأسف عند بعض الناس -نسأل الله العافية للجميع- يقحم بنته فتعمل في مكان فيه رجال وتخبره هذه البنت: أن هؤلاء الرجال يتناوشونها ويبتزونها ويكلمونها ويطلبون منها أموراً مدنسة ويراودونها عن نفسها، ويكتبون لها عن طريق الوسائل المعروفة، وتخبر أباها بهذا، ويصر على أنها تعمل، قد تكون هذه الوظيفة بثلاثة آلاف وتخبره أنها مهددة بعرضها وهو يصر على هذا العمل، المهم عنده العمل، والعرض ليس له أهمية، فأين الدين؟ وأين الرجولة وأين الغيرة التي جعلها الله -عز وجل- حتى في الحيوانات؟

فهذا الشح هو الذي يحمل الإنسان على تضييع عرضه، وعلى بذل كل ما عنده من مقومات الدين والأخلاق، ما له من رصيد في نفوس الناس، ومن أجل تحصيل شيء قليل من عرض الدنيا، ولذلك قال تعالى: **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** فالذي يوق شح نفسه يترفع ويحلق عالياً، لا ينزل مع النازلين، يترفع عن المدنسات، لا يأتي شيئاً مما حرمه الله -عز وجل- لا يقارف عملاً ولو كان مباحاً إذا كان هذا العمل مما يخل بالمروءات ولو كان يكتسب فيه؛ ولهذا كره النبي -صلى الله عليه وسلم- كسب الحجّام وأخبر أنه خبيث، وقل مثل هذا اليوم في أنواع المكاسب في المضاربات والمساهمات وغير ذلك مما يأكله كثيرون ولو كان محرماً.

ثم وصف الله -تبارك وتعالى- المهاجرين والأنصار بأعظم الأوصاف، فقال سبحانه: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا من بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}** [سورة الحشر: (١٠)].

والمقصود هم من أسلم بعد المهاجرين والأنصار، فصارت القسمة في أهل الإيمان ثلاثية: مهاجرون، أنصار، الذين جاءوا من بعدهم، فقد ذكر الله صفة المهاجرين، فقد تركوا كل شيء ابتغاء ما عند الله -جل جلاله-، وصدقهم الله بهذا وأثنى عليهم وأثبت إخلاصهم، ثم ذكر الأنصار -رضي الله عنهم- بهذه الأوصاف، **{يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** [سورة الحشر: (٩)].

بقيت الطائفة الثالثة **{وَالَّذِينَ جَاءُوا من بَعْدِهِمْ}**، جاءوا بعد المهاجرين والأنصار ممن أسلم بعد ذلك، سواء كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا هجرة بعد الفتح، أو ممن جاء بعد ذلك بقرون إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فنحن اليوم ممن جاء من بعدهم، فلسنا من المهاجرين ولا من الأنصار، ووصفهم **{يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}** [سورة الحشر: (١٠)] فهم يستغفرون لهم، ويدعون لهم، ويدعون الله ألا يجعل في صدورهم غلًّا لأولائك الذين سبقوهم بالإيمان.

فهذا الدعاء يدل على أنهم على منهاجهم وطريقتهم، فلو كانوا على غير منهاجهم وطريقتهم ودينهم لما استغفروا لهم ولما أحبوهم، ولما أثنوا عليهم ولما دعوا لهم، فدل على أنهم على الطريق نفسه، وأنهم على منهاجهم وسنتهم وطريقتهم ودينهم، هذا الذي يدل عليه دعاء اللاحق للسابق، فهم متبعون لهم، كما أنه يتضمن تعليماً من الله -جل جلاله- لنا، ولكل من جاء بعدهم أن يكون هذا هو هديه وخلقه وحاله وعمله ودينه مع أولائك الذين سبقوه بالإيمان، يذكرهم بخير، يدعو لهم، يسلم قلبه من الغل لهؤلاء، وقد عبر تبارك وتعالى بفعل المضارع **{يَقُولُونَ}**، الذي يدل على التكرار والاستمرار.

{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} فوجود الغل في قلب المسلم لإخوانه المسلمين أمر لا يجوز، فغل القلب كغل العنق، الرباط الذي يجعل في العنق يقاد به الإنسان، هذا رباط يربط به القلب -نسأل الله العافية- فيقوده إلى المعاطب.

وثقوا أيها الأحبة أن أول من يكتوي بنار الغل هو صاحبه، نار تضطرم في قلبه، كأنه في قِدر يفور يغلي، ولا تسأل عما يصيبه من الآلام، ويشيب قبل أوانه، ويحصل له من أعراض الشيخوخة والأمراض المستعصية بسبب هذا الضغط النفسي، ومن كان في قلبه غل ثقوا أنه لا يمكن أن يسعد ولا يأنس، إذا تذكر هذا الإنسانَ الذي يتحامل عليه حتى ولو كان في أعظم لحظات الأنس بدأ القلب يتحرك مباشرة اشتعلت النار اضطرمت، إذا كان يتهيأ للنوم وجلس يعيد شريط الذكريات، يتنغص وتتنغص حياته كلها.

وسلامة الصدر تحتاج إلى عفو وصفح وتجاوز وإعراض، وألا يرى لنفسه حقاً على الآخرين بحيث إذا خرج حضرتُه يطلب من الآخرين دائماً أن يقدموه ويعظموه ويكرموه ويضعوه في صدر المجلس ويعطوه درعاً، وإلا سيتحامل -أعانهم الله عليه-، سيتخذ من هذا موقفاً، فهذا ما نوّه باسمه، وهذا ما ذكره في كذا، وهذا ما قام وسلم عليه، يعني سلم وهو جالس، وهذا ما وضعه في صدر المجلس، وهذا ما ذكره حينما ذكر المشروع، -حسبنا الله ونعم الوكيل-، تصفيات حسابات، والناس لربما لا يخطر في بالهم هذا الكلام، ويتصرفون بعفوية.

فلا تجعل لنفسك حقاً على أحد، اعرف حقوق الناس واخرج إليهم بهذا القلب، ومن أخطأ عليك التمس له العذر، فإن لم تجد عذراً فتذكر قول الله -عز وجل-: **{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}** [سورة النـــــور: (٢٢)] فما الحاجة لجعل القلب صندوقاً يُملأ بهذه المواد المحرقة؟ تحرق القلب وتحرق البدن وتحرق الروح والنفس، الإنسان إذا امتلأ من الغيظ والغل اسود وجهه ويظهر هذا فيه؛ ولذلك تجد من كانت هذه سجيتهم وأخلاقهم يظهر ذلك في وجوههم، إذا رأيتَ رأيتَ السواد، إذا رأيته انقبضت، اللهم حوالينا ولا علينا، وإذا رأيت الإنسان الذي يحمل مشاعر طيبة للمسلمين تستريح برؤيته وبالجلوس معه وبسماع أحاديثه ورؤية وجهه، لكن صاحب الغل لا، ونسأل الله العافية.

وقد أخذ الإمام مالك –رحمه الله– من قوله تعالى: **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}** [سورة الحشر: (١٠)] أن من كان يبغض أحداً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كالرافضة أو كان في قلبه عليهم غل أو على أحد منهم أنه ليس له حق في فيء المسلمين؛ لأن الكلام في قسمة الفيء، ذكر المهاجرين وذكر الأنصار وذكر الذين جاءوا من بعدهم، وكان عمر -رضي الله عنه- يرى أن هذه الآية أيضاً في الفيء، ويرى أن الذين جاءوا من بعدهم لهم حظ؛ ولهذا كان يقول: إذا عشتُ سيأتي هذا المال إلى راعي الغنم في جبل في صنعاء دون أن يسعى إليه، فيعطى للجميع على قدر بلائهم وسابقتهم ونفعهم في الإسلام، ويعطى لكل واحد، الصغير والكبير والرجل والمرأة، يصرفها من بيت المال كل بحسب بلائه ونفعه، وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يقسمون المال بهذه الطريقة، كل بحسب سابقته.

وجاء عن عائشة -رضي الله عنها-: أُمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية.

وابن أبي ليلى من التابعين يقول: كان الناس على ثلاث منازل: المهاجرون الأولون، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهم الذين جاءوا من بعدهم، وأحسن ما يكون أن نكون بهذه المنزلة.

ولهذا قال بعضهم: كن شمساً، فإن لم تستطع فكن قمراً، فإن لم تستطع فكن كوكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً، ومن جهة النور لا تنقطع، ومعنى هذا الكلام: كن مهاجرياً، فإن قلت: لا أجد -وهذا غير

ممكن- فكن أنصارياً -وهذا غير ممكن-، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله -عز وجل.

وقد قال مصعب بن سعد بن أبي وقاص -رحمه الله-: الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان المهاجرون والأنصار وبقيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت وهي: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [سورة الحشر: (١٠)].

وقال علي بن الحسين زين العابدين من التابعين: لما جاءه رجل قال: يا ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت ممن قال الله فيهم: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ}؟ [سورة الحشر: (٨)] قال: لا، قال: فوالله لئن لم تكن من أهل هذه الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة الحشر: (٩)]، قال: لا، قال: فوالله لئن لم تكن من أهل هذه الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام. يعني: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر: (١٠)] فما بقي إلا المنافقون، لأن أهل الإيمان على هذه الطوائف الثلاث.

وجاء عن علي بن الحسين: أنّ نفراً من أهل العراق جاءوا إليه فسبوا أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- ثم عثمان -رضي الله عنه- فأكثروا، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمن الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم؟ قالوا: لا، فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم ممن قال الله فيهم: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} قوموا فعلَ الله بكم، وأخرجهم من مجلسه.

وعلى كل حال هذه الآية تدل على وجوب محبة أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة، والكلام في هذه المسألة كثير، يجب أن نتولاهم وأن نحبهم وأن نستغفر لهم وأن نقتدي بهم وأن نقدمهم على غيرهم -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

قوله: {رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} في كثير من الأدعية في القرآن -كما تلاحظون-: "ربنا"، وهو دعاء الأنبياء في الغالب، سواء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع، وسر ذلك -والله تعالى أعلم- أن العطاء والمنع والتدبير والتصريف والرزق والهداية كل ذلك هو من معاني الربوبية، فالرب هو الرازق المعطي الهادي، فيحسن إذا دعا أن يقول: ربي.

وقد جمع –تبارك وتعالى- بين الرأفة والرحمة، والرأفة رحمة رقيقة، يعني: هي رحمة لكنها أخص من مطلق الرحمة.

وهذا يدل على أن التخلص من الغل يحتاج إلى جهد ومجاهدة ودعاء واستعانة بالله –عز وجل– وأن مَن لطفَ الله به ورحمه فإنه يخلصه من الغل.

هذه المعاني ألّا نعتبر بها ونحن نسمعها في كتاب الله -عز وجل-؟ فالمرحوم هو الذي خلص من هذا العذاب في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا لما ذكر الله -عز وجل- نعيم أهل الجنة قال: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} [سورة الحجر: (٤٧)]؛ لأن الجنة لو كان فيها غل لتنغص وتكدر النعيم الذي فيها،

لكن يُنزع ذلك وتهذب تلك النفوس ويرتفع ما بها، فالصحابة -رضي الله تعالى عنهم- مع ما وقع بينهم -بسبب اجتهادات اجتهدوها طلباً للحق- كان عليٌّ -رضي الله عنه- يقول: أرجو أن أكون أنا وطلحة وعثمان ممن قال الله فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}.

ثم ذكر هذه الطائفة الرابعة وهي الأسوأ من الطوائف وهم أهل النفاق: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الحشر: (١١)].

الله -جل جلاله- يعجب نبيه -صلى الله عليه وسلم- من فعل هؤلاء المنافقين حيث وقفوا مع اليهود ووعودهم بالنصر، بل قالوا: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} فهذه اللام تدل على قسم محذوف مقدر، والتقدير، والله {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ}.

{وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا} لا نسمع فيكم عذل عاذل ولا لوم لائم، إنما المصير متحد، الدم نشترك فيه معكم، والإخراج نشترك فيه معكم، والهدم نشترك فيه معكم، نتحد معكم في المصير.

وانظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ} فهذه أخوّة في الكفر، فهم يتآخون وهم إخوان لأنهم مشتركون في الكفر بالله -عز وجل- ومعاداة أهل الإيمان، فإذا كان العدو هم أهل الإيمان، فهؤلاء إخوة يتفقون ويتواطئون ويتآمرون، فهم بهذه المثابة، وهذا أمر يثير العجب.

هؤلاء أيها الأحبة مجموعة من المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأصحابه، ويذكر من أصحابه هؤلاء رفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيضي ووديعة بن أبي قوتل وسويد وداعس وغير هؤلاء، فعبد الله بن أبيّ أمرهم أن يثبتوا، وألا يخرجوا، وألا يستجيبوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وألا يتركوا ديارهم وأموالهم، وكانوا في البداية قد مالوا إلى التسليم، ولكنه قوّى قلوبهم ووعدهم بأن يستعين بحلفائه، ووعدهم بنحو أربعة آلاف مقاتل، وأربعةُ آلاف مقاتل في ذلك الوقت يعتبر جيشاً كبيراً، فتحصنوا واستعدوا للقتال، ووضعوا المتاريس وحصنوا الطرق، ورجعوا عما كانوا عزموا عليه من التسليم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فحاصرهم -عليه الصلاة والسلام- وجعلوا ينتظرون المدد، ولما بعثوا -كما يذكر بعض أهل السير- إلى عبد الله بن أبيّ من يذكره بوعده وجده يتعشى، فقال: سأبعث إلى حلفائنا ولم يفعل.

{يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ} عبر بالمضارع عن أمر مضى، استحضارا للصورة كأنك تشاهدها، واللام للتبليغ، {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، ولسنا بحاجة إلى أن ننبه إلى أن أهل الكتاب كفار، والنصوص على هذا متضافرة، ولكننا ابتلينا بهذا الزمان بقوم لا خلاق لهم، يجادلون في كفر أهل الكتاب، ويزعمون أنهم يصيرون إلى الجنة، ويغضب الواحد منهم ويغار على هؤلاء إذا قيل: هؤلاء كفار، فيقول: قل: أهل الكتاب، قل: الآخر، لا تقل: كافر، فالله المستعان.

{لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الحشر: (١١)].

هذه المقولة لم تصدر عن صدق، وإنما قالوا ذلك ووعدوا بهذا الوعد ولكنهم أجبن من أن يفوا به، وهذا يقوله علام الغيوب الذي يعلم ما تكنه الصدور، وهو الذي خلق هذه النفوس فيعلم ما تنطوي عليه، فيخبرنا عن هذه

الحقائق، بل يخبرنا عما لم يكن، وأنه لو كان كيف يكون، فقال الله -تبارك وتعالى-: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر: (١٢)] يعني: ينهزمون.

ثم قال: {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} [سورة الحشر: (١٣)] يعني لأنتم أشد مرهوبية في صدورهم من الله، ويمكن أن يكون ذكر الصدور هنا فيه إشارة إلى معنى الخفاء، وذلك أن هذه الرهبة أمر كامن في صدورهم قد لا يظهر لأهل الإيمان، يُخفونه في صدورهم، ولكن الله -عز وجل- كشفه وبينه، فأنتم أشد إخافة في صدور هؤلاء المنافقين من الله، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}؛ لأنهم لا يعرفون الله حقيقة المعرفة، لو عرفوه معرفة لائقة بجلاله وعظمته لخافوه، وتعاظم هذا الخوف منه -جل جلاله- في قلوبهم وهان المخلوق في أعينهم، لكن هؤلاء لا فقه لهم، وقد عبر بالفقه، فقال: {لَّا يَفْقَهُونَ}، ولم يقل: لا يعلمون، والفرق بين العلم والفقه ظاهر، وهو أن الفقه يقال للأشياء التي من شأنها أن تخفى، ما تقول: أنا والله فقهت أن الشمس طالعة، تقول: علمت أن الشمس طالعة، علمت أن زيداً قد تزوج، ما تقول: فقهت أن زيداً قد تزوج، إنما يكون الفقه للأمور التي من شأنها أن تخفى، وفي الأشياء الدقيقة.

فهؤلاء غفلوا عن قوة الله –تبارك وتعالى- فقلوبهم عامرة بالغفلة والجهالة، ومعرضة عن ربها وخالقها ومعبودها، لا تنظر إلا إلى الأشياء الظاهرة فيتعاظم المخلوق في أعينهم، وتجد رهبة عندهم شديدة من المخلوقين، لا يخافون من الله ولا يراعون حدوده ولا يقفون عند أوامره، وإنما دائماً يلاحظون الخلق؛ لأن المقاييس عندهم مقاييس مادية، ينظر كم عدد الرجال، كم عدد الدبابات، كم عدد الطائرات، فيتعاظم هذا المخلوق في نفسه، فلو كانوا يفقهون لعظموا الله وخافوه وهان عندهم شأن الخلق.

ثم قال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [سورة الحشر: (١٤)] ظاهر السياق أن هذه الآية في المنافقين؛ لأن الحديث عن المنافقين، فلشدة رهبتهم صاروا بهذه المثابة لا يجرءون على المواجهة؛ ولذلك لا يعرف في التاريخ أن المنافقين وقفوا في جيش يحاربون المسلمين، بل هم أذل وأخزى، الكفار الذين عندهم إرادة جازمة وعندهم اعتزاز بمبادئهم الباطلة وقفوا وماتوا دونها، اشتركوا في غزوات ومعارك تلو معارك، أما أهل النفاق فهم مع من غلب، لما انتصر النبي –صلى الله عليه وسلم- في بدر قال عبد الله بن أبيّ لأصحابه: أرى هذا الأمر قد توجّه فادخلوا فيه سرًّا، فدخلوا يكيدون له، فإذا سئلوا عن شيء حلفوا: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة المنافقون: (٢)]؛ ولهذا سبق التعليق على هذه المسألة عند الكلام على آيات الأحزاب عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [سورة الأحزاب: (١٤)].

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}، إذا فسر {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ} أي: مجتمعين كجيش كما هو شأن الجيوش التي تحارب أو الجيوش المتحالفة، فهنا يكون الاستثناء منقطعاً، بمعنى: لكن، والمعنى: لكن في قرى محصنة؛ لأنهم لا يستطيعون المواجهة فهم يقاتلون في بيوتهم، ومن داخل البيوت، من الحصون والرمي من بعيد دون مواجهة للرجال.

ويحتمل أن يكون قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} بمعنى: كلهم، أي: اليهود والمنافقون لما وعدوا اليهود بالنصر والمدد، قال الله -عز وجل-: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ} فهم جبناء؛ ولذلك لم يحصل في كل الغزوات أن اليهود وقفوا في جيش، سواء بانفرادهم أو مع المنافقين، مع أن هذه الآيات تتحدث عن المنافقين، لكن قوله: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} يحتمل أن يكون أراد به اليهود مع المنافقين على هذا المعنى، فيكون الاستثناء متصلاً، يعني: لا يشترکون في قتال إلا في قرى محصنة، لكن هذا قد يكون فيه شيء من البعد؛ لأن الله ذكر أنهم لا ينصرونهم، إلا إذا قال قائل: المقصود به في هذه الغزوة، لأنه قد يكون في بعض الصور -على هذا المعنى- أن يُحاصَر بلد وفيها منافقون ويهود فيشتركون معهم، فهم لا يستطيعون أن يقاتلوا على كل حال معاً إلا بهذه الصفة، وعلى هذا يكون الاستثناء حقيقياً: إلا في قرى محصنة، فيها قلاع وأسوار، {أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} وفي القراءة الأخرى المتواترة: {أو من وراء جدار} والأولى هي قراءة الجمهور: {مِن وَرَاء جُدُرٍ} والمعنى واحد.

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم قال: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [سورة الحشر: (١٤)] افتتحت هذه الجملة بذكر البأس، للاهتمام بالإخبار عنه؛ لأنه بينه بهذه الصفة.

من أهل العلم من قال: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي: أن عداوتهم فيما بينهم شديدة، هم يجتمعون لحربكم ويتعاضدون ويتآمرون، ولكن بينهم من الشر والخلاف ما الله به عليم، يعني: المنافقين واليهود، أو إذا قلنا: إن الحديث لا زال عن المنافقين فيكون {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} يعني: المنافقين أنفسهم لأن المنافق أصلاً ليس من طلاب الآخرة، ولا يمكن أن يتنازل عن حقه، ولا يمكن أن يتأدب، ولا يتخلق بأخلاق، وإنما يُهارش ويقاتل على أتفه الأشياء، فقلوبهم متفرقة متشتتة، ويحتمل أن يكون ذلك مع اليهود بأسهم بينهم، فبينهم خلافات، وبينهم مشاكل، ولكنهم يجتمعون للتآمر على أهل الإسلام.

فقوله: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} يعني: بالكلام والوعيد، فتسمع جعجعة من هؤلاء المنافقين لا حقيقة لها، إذا جاءت الحقيقة فهي كما يقال مثل انتفاشة الهر -أعزكم الله- التي تنتهي ببول، كلام كبير ما تحته شيء، هكذا قال بعض أهل العلم: بالوعيد وبالتهديد، وقال بعض أهل العلم: يعني: لا يتفقون على أمر واحد، وهذا يرجع إلى القول الأول.

وبعضهم يقول: إذا لم يلقوا عدواً نصبوا لأنفسهم البطولات، وهكذا إذا انتهت المعركة كل واحد يضيف إلى نفسه أنه فعل، وتبدأ تظهر البطولات الكاذبة المزيفة، أو حينما لا يكون قتال، كالهر يحكي انتفاضة أو انتفاشة الأسد، يضيفون لأنفسهم، فتجد الواحد منهم لربما يتحدث عن نفسه أنه يستطيع أن يقاتل عشرة معاً ويستطيع، أو أنه يذكر أشياء مفبركة وكاذبة لا حقيقة لها أنه لقي رجلاً فطعنه طعنة قطعته نصفين أو ضربه بالسيف فقطعه أربع قطع، وما أدري كيف تطلع أربع قطع من ضربة واحدة؟!.

فالشاهد: أنه يضيف إلى نفسه بطولات وأشياء وهمية، أشياء كاذبة، لكن إذا جاء الجد كما قال الله -عز وجل- {رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [سورة الأحزاب: (١٩)]، ففي حال السلامة والعافية تسمع أشياء تتبخر إذا جاء الجد.

ويظهر -والله أعلم- أن المراد بقوله: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أنه إخبار من الله -عز وجل- بأن قلوبهم تنطوي على التفرق والاختلاف، وبينهم من العداوات والمشكلات ما لا يقادَر قدره، وهذه حقيقة أخبر الله -عز وجل- بها عن هؤلاء الأعداء، فينبغي على أهل الإيمان أن يدركوا ذلك، وألا يرهبوا حينما يرون هؤلاء الأعداء يجتمعون عليهم، فهم بينهم من الشر ما الله به عليم، كما أنه ينبغي أن يُستغل ذلك في تفكيك تلك القوى وتمزيقها وتفريقها لأنها جاهزة لذلك.

ثم قال: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [سورة الحشر: (١٤)] هم في الظاهر، وهكذا الأعداء، يعني انظروا ما ذكره الله -عز وجل- في خبر موسى والسحرة في سورة طه، لما قال لهم موسى -صلى الله عليه وسلم- تلك الكلمة الصادقة: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} [سورة طـه: (٦١)] هذه الكلمة أثرت فيهم وحصل تشقق في الصف وتصدع، {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} [سورة طـه: (٦٢)] بدأ يدب بينهم الاختلاف، {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} من أجل ألا يطلع موسى -صلى الله عليه وسلم- على ذلك فيتقوى جانبه، ثم ظهروا بشعار واحد اتفقوا عليه وعبارة يقولونها: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [سورة طـه: (٦٣-٦٤)].

كما حاول المشركون أن يتفقوا في شأن النبي -صلى الله عليه وسلم- على أمر ومقولة متحدة، وهكذا الأعداء يحاولون أن يتفقوا بوصم المسلمين مثلاً بالإرهابيين، وأنفقوا المليارات على نشر هذه الدعاية الكاذبة لوصْم الإسلام بهذا، ولكن الله -عز وجل- يبطل كيدهم؛ ولهذا تجد بعض كبار هؤلاء يصرح ويقول: لا يمكن أن يُتغلب على الإسلام ولو اجتمعت جيوش الدول الغربية كلها؛ لأن هذا الإسلام يتجدد، خلال ألف وأربعمائة وثلاثين سنة لا زال يتجدد، وهذا صحيح ومشاهد.

فقوله: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} بعضهم يقول: هذه في اليهود والمنافقين، وبعضهم يقول: في المنافقين؛ لأن السياق في المنافقين، وبعضهم يقول: في المشركين وأهل الكتاب، لكن ينبغي أن يكون المراد بالمشركين هنا أن يعم المنافقين؛ لأنهم مشركون في الباطن، والحديث عن المنافقين؛ فلا يمكن أن ينتزع ذكرهم من هذا السياق.

ثم علل تفرقهم بقوله: {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} [سورة الحشر: (١٤)]، وكذلك لما ذكر الله -عز وجل-: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة المنافقون: (٧)]، لما قال: {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [سورة المنافقون: (٧)] هذا عبد الله بن أبيّ، لا تتبرعوا لا تدفعوا من أجل أن يبحثوا عن بلد آخر ينتقلون إليه.

فهذا أمر يحتاج إلى فقه، فالمحجوب قلبه عن الله -عز وجل- لا يدرك هذا المعنى، فهو يمسك ما في يده؛ ولهذا قال الله -عز وجل- عن المنافقين في سورة براءة في هذا الباب: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [سورة التوبة: (٩٨)] فهو إذا أنفق وهو كاره فإنه يَعتبر هذا مغرماً، يعني: مقطوعاً من قلبه، ذهب بلا رجعة ولا عوض، لا يؤمن بالعوض في الآخرة، ويتربص بكم الدوائر.

فذكر العقل في قوله – تبارك وتعالى - {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}؛ لأن معرفة مآل التشتت والتنازع يدركه كل أحد، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال: (٤٦)]، فعبر بالفاء التي تدل على التعقيب المباشر وتدل على التعليل وتدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالتنازع سبب للضعف والفشل، ولا يخفى ذلك على العقلاء.

ثم قال الله -عز وجل-: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة الحشر: (١٥)] يعني مثل المنافقين، وبعضهم يقول: مثل هؤلاء اليهود من بني النضير وما جرى لهم، وبعضهم يقول: مثل المنافقين مع اليهود من بني النضير؛ لأنهم اشتركوا في هذه القضية وحصلت لهم في النهاية والمآل هذه الهزيمة الساحقة، كمثل أولائك الذين كانوا من قبلهم.

قال: {قَرِيبًا} بعض العلماء يقول: هم بنو قينقاع من اليهود أُخرجوا، وبعضهم يقول: هذه الآيات نزلت بعد النضير، إذن فهذا خطاب لليهود الذين بقوا، والنضير خرجوا، فهذا خطاب يعظ الله -عز وجل- به من بقي، فبنو النضير قبل قريظة، وهذا لا يخلو من البعد.

{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يعني: النضير، وبعضهم يقول: هذه في قريش وما وقع لهم في بدر، وبعضهم يقول: هو عام في كل من انتقم الله منه قبل هذه الوقعة، لكن ليس في كل الأمم وإنما عما قريب؛ لأن الله قال: {قَرِيبًا} وهذا الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله.

{ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} يعني: جزاء كفرهم، يعني: نالهم عقاب الله على كفرهم به، وأصل الوبال هو وخامة المرعى، المرعى المستلذ الذي تطلب له الماشية وتقبل عليه لخضرته وحسنه ونحو ذلك قد يحتوي على نباتات سامة، فترتع فيه هذه المواشي من الإبل وغيرها فيقتلها، فيقال: كلأ وبيل ومرعى وبيل؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن مما أنبت الربيع ليَقتلُ حبَطاً أو يُلِمُّ))[1] والحَبَط هو أن ينتفخ بطن الدابة إذا أكلت كثيراً ثم بعد ذلك تموت، يقتل حبطاً.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٥/٢٣٦٢)، برقم: (٦٠٦٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (٢/٧٢٧)، برقم: (١٠٥٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحشر من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

تفسير سورة الحشر وهي مدنية.

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير.

روى سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: "أنزلت في بني النضير"[١]، ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر عن هشيم به.

ورواه البخاري من حديث أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: "سورة بني النضير"[٢].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسورة الحشر من السور النازلة في المدينة، وفيما ورد من الروايات التي تذكر ترتيب السور -وإن كانت ضعيفة- هي نازلة بعد البينة وقبل النصر، ولها اسمان، سورة الحشر، والاسم الثاني سورة بني النضير، وذلك أنها نازلة في هذه الوقعة، والموضوع الذي تدور عليه هذه السورة في مجمل آياتها هو الحديث عن غزوة بني النضير، وما تبعها وما ترتب عليها من أحكام الفيء تفصيلًا، فمجمل الآيات تحدثت عن موقف المنافقين في هذه السورة، إلى غير ذلك.

يقول: أنزلت في بني النضير، أورد المؤلف -رحمه الله- جملة من الروايات في نزولها تأتي -إن شاء الله-، ومن هذه الروايات أنها نزلت بسبب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أتى هؤلاء اليهود بعدما جاء إلى مسجد قباء، وهم قريب من قباء، هم في الناحية التي تكون إلى جهة اليسار من المسجد وأنت متجه إلى الحَرَّة الشرقية، فهناك تأتي على يمينك أرض النضير في حَرّة من تلك الحِرار، فهي إلى حد ما تعتبر حرة جنوبية وأنت متجه إلى الشرق حتى تأتي على الحرة الشرقية، وهناك كانت أرض قريظة، ولا زال بعض العامة إلى اليوم يسمون الحرة الشرقية قريظة، ويوجد في بعض الخرائط التي تبين منازل الناس في ذلك الوقت من بطون الأنصار وغيرهم، ولا زالت بعض آثارهم موجودة إلى اليوم في تلك الحرة التي يقال لموضعهم فيها: البويرة، وهذه الحرة فيها قصر كعب بن الأشرف، وهو قصر بقيت آثاره، جدرانه وما إلى ذلك لا زالت

---

١ - رواه البخاري، في أوائل كتاب فرض الخمس، برقم (٣٠٩٤)، وبرقم (٤٠٣١)، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

٢ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٠٢٩).

موجودة، وهي جدران ضخمة لربما عرض الجدار أكثر من متر، ومما يذكر في هذه الروايات أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتى قباء، ثم أتى إليهم من أجل طلب الإعانة في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في القصة المعروفة بعد بئر معونة وهو يظن أنهما من أولئك الكفار الذين غدروا بأصحابه، فقتلهم ثم تبين أن بينهما وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهدًا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- تحمل الدية، فمر على هؤلاء اليهود فرحبوا به، وأظهروا له أنهم سيعطونه ما يريد، وأنه جلس تحت حجرة، وأنهم ائتمروا فيما بينهم أن يلقوا عليه صخرة، فأتاه الوحي، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أتى المدينة وجهز لهم الجيش، هذا في سبب وقعة بني النضير، وليس سبب نزول الآيات، وإنما في سبب وقعة بني النضير، وجاء في روايات أخرى أن هؤلاء هددهم المشركون، وتوعدوهم لاسيما بعد بدر إن لم يقاتلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنهم عزموا على الغدر، وأنهم طلبوا منه أن يخرج في نفر من أصحابه -في مجموعة من أصحابه- ويخرجون لهم في أحبار لهم، ويلتقون في منتصف الطريق، يتحاورون وإن كان على حق أو كانوا على حق يسمع منهم ويسمعون منه، يخرج في ثلاثين رجلًا وهم يخرجون في ثلاثين رجلًا، ثم بعد ذلك قال بعضهم لبعض: إنكم لا تستطيعون أن تخلصوا إليه ومعه أصحابه، فقالوا له: إنا لا نستطيع أن نسمع منك وتسمع منا ونحن ستون رجلًا فاخرج في ثلاثة من أصحابك من أجل أن نسمع منك وتسمع منا، فجاءه الوحي وأخبره بما أضمروا من الغدر، فجهز لهم الجيش، ويذكر فيها أشياء أخرى.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قدم المدينة -كما هو معلوم- صالح اليهود بطوائفهم الثلاث قريظة والنضير وقينقاع.

والنضير هؤلاء كانوا من أشرف اليهود، يعني هم ينظرون إلى أنهم أشرف من قريظة، وكانوا كما يقولون من رهط أو من نسل هارون -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لم يحصل لهم في التاريخ جلاء؛ لأن اليهود العادة أنهم يشردون كثيرًا، فهؤلاء لم يحصل لهم جلاء كما يقولون، فالشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صالحهم على أن يكونوا لا له ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي المنعوت في التوراة بالنصر، فلما انهزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة، وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- محمد بن مسلمة -رضي الله عنه- فقتل كعب بن الأشرف، وكان أخاه من الرضاعة.

ثم صبّحهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكتائب، فأمرهم بالخروج من المدينة، فاستمهلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فبعث إليهم عبدُ الله بن أبي وقال: لا تخرجوا، فإن قاتلوكم فنحن معكم، وإن خرجتم لنخرجن معكم، فحصَّنوا الأزقة، فحاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء في بعض الروايات إحدى وعشرين ليلة حتى طلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل أهل ثلاثة بيوت ما شاءوا من متاعهم على بعير واحد، فأجلوا إلى الشام وإلى أريحا وأذرعات، يقولون: إلا أهل بيتين من آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فقد لحقوا بخيبر، وذهبت طائفة إلى الحيرة، هذا أيضاً سبب ثالث في وقوع هذه الغزوة، وهو أنهم هم الذين قاموا بتحريض قريش، وجاء كما سبق في سورة النساء: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً}**

[سورة النساء:٥١] أنهم قالوا لهؤلاء من المشركين: أنتم أهدى من محمد، لما ذهبوا يحرضون على قتاله، وسجدوا لأصنام المشركين، فنزلت هذه الآيات في سورة النساء، والرواية لا تخلو من ضعف.

فهذا يذكر في أسباب هذه الغزوة، وتجدون هذا في كتب السير وفي كتب التفسير، وكان وقت هذه الغزوة التي بسببها نزلت هذه الآيات في السنة الرابعة فيما ذكره بعض أهل العلم، وجاء عن عروة بن الزبير أنها كانت بعد ستة أشهر من بدر، ومعلوم أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فبعد ستة أشهر من بدر متى تكون؟ طبعًا قبل أحد، يعني بين بدر وأحد، بعد ستة أشهر من رمضان: شوال وذي القعدة وذي الحجة ومحرم وصفر وربيع الأول، هذه ستة أشهر، بعد ستة أشهر يعني في ربيع الثاني، بعد ستة أشهر من غزوة بدر يعني أنها في أوائل السنة الثالثة من الهجرة، بدر في السنة الثانية، والنضير في أوائل السنة الثالثة. وصح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- مثل هذا، وابن إسحاق يقول: إنها كانت بعد أحد وبئر معونة، المشركون ساروا من مكة إلى أحد في السنة الثالثة في الخامس من شهر شوال، وبئر معونة كانت في صفر بعد أحد بأربعة أشهر يعني في أوائل السنة الرابعة، وعلى هذا تكون وقعة بني النضير على القول الثاني في أوائل السنة الرابعة، وعلى الأول في أوائل السنة الثالثة من الهجرة.

يعني على القول الأول تكون في ربيع، وعرفنا أن غزوة أُحد كانت في شوال من السنة الثالثة، وهذه في ربيع من السنة الثالثة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [سورة الحشر:١-٥].

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده كقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء:٤٤]، وقوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي: منيع الجناب، {الْحَكِيمُ} في قدره وشرعه.

هذه السورة افتتحت بالتسبيح، وبصيغة الماضي، **{سَبَّحَ لِلَّهِ}**، والتسبيح كما هو معلوم جاء بالصيغ الثلاث سبح لله، يسبح لله، سبح اسم ربك الأعلى، فالله -تبارك وتعالى- مستحق للتنزيه والتسبيح في الأزمنة الثلاثة في الماضي والحاضر والمستقبل، وافتتاح هذه السورة بالتسبيح **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** من أهل العلم كالطاهر بن عاشور من يقول: إن ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار أنه إذا كان كل شيء يسبح لله -عز وجل- مما في السماوات وفي الأرض فهذا تعليم من الله -تبارك وتعالى- لعباده من أهل الإيمان أن

يسبحوه تسبيح شكر على ما امتن به وتفضل عليهم من فتح النضير، ويمكن أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- افتتح هذه السورة بالتسبيح مع ذكر هذين الاسمين الكريمين العزيز الحكيم باعتبار أن ما وقع في هذه الغزوة إنما هو من كمال عدله -سبحانه وتعالى-، وأنه لا يظلم الناس شيئًا، فما حصل لهم ليس بظلم، وإنما هو عدل منه -جل جلاله- وتقدست أسماؤه، وأن الله -تبارك وتعالى- ما كان ليذر هؤلاء يفسدون ويحرضون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويغدرون وينقضون عهوده، ثم بعد ذلك يبقون في حال من العافية والسلامة، فإن من سنته -تبارك وتعالى- أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وهؤلاء يمكرون وهم أهل مكر ودسائس فسبح نفسه -تبارك وتعالى- وذكر هذين الاسمين العزيز الحكيم، فإن إخراج هؤلاء من هذه الحصون التي كانت في غاية القوة والمنعة من مقتضى هذه الأسماء -العزيز الحكيم-؛ فإن عزته قهر بها هؤلاء اليهود وأخرجهم من ديارهم وحصونهم، وما كانوا يظنون أن ذلك يقع، وما كان أهل الإيمان أيضًا يتوقعون ذلك أو يؤملونه لشدة ما لهؤلاء اليهود من المنعة، الأرض حَرّة المشي فيها في غاية الصعوبة، والحصار أصعب، ثم بعد ذلك عندهم هذه القلاع والحصون والأسلحة المكدسة والآبار، وعندهم من التجارة والأموال والزروع ما يمكن أن يصمدوا معه، فالمقصود أن مثل هذا هو من مقتضى عزته -تبارك وتعالى- وحكمته حيث يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فهذه السورة مفتتحة بالتسبيح ومختتمة بالتسبيح، لما ذكر الله أسماءه الحسنى في آخرها قال: {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الحشر:٢٤] في آخر السورة هذا يسمونه المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، افتتحت بالتسبيح واختتمت بالتسبيح.

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} يعني يهود بني النضير، قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد.

هذا بلا شك بالاتفاق {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا} وهنا جاء بالضمير في مقام الاسم المضمر؛ لأن هذا أفخم في هذا المقام {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} وأرى أننا في مثل هذه الأيام بحاجة إلى التنبيه إلى أن قوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} أن اليهود من جملة الكفار الملاعين، لأننا ابتلينا بمن يقول: إن اليهود من المؤمنين، وإنه تجمعنا بهم الرابطة الإيمانية والأخوة الإيمانية، وإن الذين نعاديهم هؤلاء الصهاينة؛ لأنهم احتلوا فلسطين، وهناك من يدعي أنهم يدخلون الجنة، ويحتجون بآيات متشابهات، فإلى الله المشتكى، وبعضهم يسأل يقول: ما الدليل على أن اليهود كفار والنصارى كفار؟، {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}.

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصدّ، فأجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيّرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها

على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر-: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنّه أو لتخرجنّه أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما بلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟ فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلنّ مع صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خَدَمْ نسائكم شيئًا وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبرًا حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالكتائب فحصرهم فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} [سورة الحشر:٦]، يقول تعالى: بغير قتال، فأعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة ولم يقسم للأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي في أيدي بني فاطمة[٣]، ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان.

هذه الرواية عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، والجهالة في الصحابي لا تضر، وهذه الرواية هي رواية صحيحة ثابتة في سبب الغزوة، لكن ما ورد من كونها بسبب الدية، وطلب الدية، وأنهم أرادوا إلقاء حجر ونحو ذلك هذه الرواية فيها ضعف.

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في خبر النضير، برقم (٣٠٠٤).

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعًا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد قتلت رجلين لأدِيَنَّهُما))[٤]، وكان بين بني النضير وبين بني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيّها.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة: ثم خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى جنب جدار من بيوتهم- فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي -رضي الله عنهم- فأتى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخل المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟، وكان رهط من بني عوف من الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استثقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين

---

٤ - انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١٤٥/٣)، والأغصان الندية شرح الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، أبو أسماء محمد بن طه (ص:٢٦٤).

الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقرًا فأعطاهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال ليامين: ((ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك وما همّ به من شأني؟))[٥] فجعل يامين بن عمير لرجل جُعْلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم، فقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} يعني بني النضير.

هذه الرواية بهذا السياق يذكرها أصحاب السير وكثير من المفسرين ولكنها لا تصح من جهة الإسناد، وهنا يقول بهذه الرواية: إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة أعطاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا الفيء، وبعضهم يقول: إنه أعطى ثلاثة أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصِمَّة، وبعضهم يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- سيفَ ابن أبي الحُقيق.

فسبب الغزوة لا شك أنه غدر اليهود، وما هموا به من قتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الراوية التي سبقت عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** ما المقصود بـــ **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}**؟ المفسرون ذكروا أقوالًا في معنى **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** وأقوالهم يمكن في مجملها أن ترجع إلى معنيين، أو إلى اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن الأولية مكانية.

والاعتبار الثاني: أن الأولية زمانية، يعني الأولية إما مكانية وإما زمانية، **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** فإذا أردنا أن نضم الأقوال باعتبار أن الأولية مثلًا زمانية، أو أن الأولية مكانية، فـــ "لأول الحشر" باعتبار أنها مكانية يعني لأول أرض المحشر، وأرض المحشر هي الشام، وأولها أطرافها، وهم ذهبوا إلى أذرعات في أطراف الشام، هذا أول الحشر باعتبار أن الأولية مكانية، يعني أنه كان جلاؤهم أول الحشر في الدنيا إلى الشام، وهذا صح عن عائشة -رضي الله عنها-، تقول: "فكان جلاؤهم ذلك أول الحشر في الدنيا إلى الشام"[٦]، لكن إذا تأملت هذا القول تجد أنه جمع بين الأولية الزمانية والمكانية، أول حشر في الدنيا إلى الشام، الشام التي هي أرض المحشر، وباعتبار أنها زمانية بعضهم يقول: المراد بذلك أول من حُشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره، يعني أهل الكتاب الذين كانوا في المدينة الطوائف الثلاث باعتبار أن قريظة كانت بعدهم؛ ولهذا عندما جاء الأوس إلى سعد بن معاذ -رضي الله عنه- لمّا قَبِل اليهود أن يكون الذي يحكم فيهم هو سعد بن معاذ، فجيء به، وكان جريحًا -رضي الله عنه- كما هو معلوم، فجيء به على حمار فكانوا يطوفون به: اللهَ اللهَ في أحلافك، يريدون أن يكونوا كالخزرج فإن عبد الله بن أبي من الخزرج وقد شفع لهؤلاء من بني النضير فلم

---

٥ - انظر: سيرة ابن هشام، تحقيق السقا (١٩٢/٢)، والسيرة النبوية لابن كثير (١٤٨/٣).

٦ - انظر: تفسير الطبري (٢٦٣/٢٣).

يُقتلوا، وأُخرجوا وأجلوا، فأراد الأوس أن يفعل كفعل الخزرج أن يفعلوا شيئًا لحلفائهم؛ لأن النضير حلفاء للخزرج، وقريظة حلفاء للأوس، فقال سعد بن معاذ –رضي الله عنه– حينها: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعرفوا أنه يريد قتلهم، فحكم فيهم بالحكم المعروف أن تقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذرية، وقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة))[٧]، فالمقصود أن قريظة كانت بعد النضير؛ لأن قريظة كانت بعد الأحزاب، والأحزاب كانت في السنة الخامسة للهجرة، فبعض أهل العلم يقول: "لأول الحشر" هم أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره كما جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، فالأولية هنا باعتبار أنهم أول مجموعة تحشر من هؤلاء الطوائف الذين كانوا في المدينة أو حول المدينة، وبعضهم يقول –باعتبار أن الحشر زماني–: الحشر الأول إخراجهم إلى خيبر، أول الحشر، والحشر الثاني قالوا: إخراج عمر لهم من خيبر إلى أذرعات في الشام؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لأهل خيبر لما فتحها: "نقركم فيها ما نشاء"، فجاء عمر –رضي الله عنه– وأخرجهم منها، أخرج اليهود من خيبر وكان هؤلاء من بني النضير، بعضهم نزل في خيبر، **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** فهذا الحشر الأول، والثاني من خيبر، وبعضهم كالقرطبي يقول: هما حشران في الدنيا وحشران في الآخرة، **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** لا زلنا في الحشر الزماني، في الدنيا حشران وفي الآخرة حشران، فهذا أول حشر في الدنيا إلى الشام، الحشر الثاني في الدنيا أيضاً قرب القيامة النار التي تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم، هذا الحشر الثاني في الدنيا، وابن العربي المالكي يقول: للحشر أول ووسط وآخر، فالأول: إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء يهود خيبر، والآخر حشر يوم القيامة، وبعضهم يذكر قولًا آخر لكنه لا يخلو من بعد –والله أعلم–، وهو داخل في هذا المعنى باعتبار أن الأولية زمانية، يقول: **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}**: لأول حشر الجيش لهم، يعني بمجرد ما حشر لهم الجيش سقطوا واستسلموا، لكن هذا لا يخلو من إشكال، يعني بمجرد ما حشر لهم الجيش تهافتوا لا يخلو من إشكال؛ لأنه كما سيأتي أن هذا الحصار استمر مدة على اختلاف في الروايات، لكن ليس لمجرد مجيء الجيش وحشر الجيش لهم أو وقوع الحصار استسلموا مباشرة، فهم لم يستسلموا مباشرة، وإنما بقوا مدة، وكان عبد الله بن أبي وعدهم بأن ينصرهم وأن يأتيهم بأحلافه، وقال لهم: لا تنزلوا عن أرضكم ولا تخرجوا من دياركم، فهذا رجل يدعي الإسلام الآن، ويقول لهم: لا تخرجوا ولا تنزلوا عن أرضكم، اثبتوا وسوف أدعو لكم أحلافي أربعة آلاف، سيدعو لهم بعض القبائل من غطفان وغيرهم، فصدقوه وكانوا يتفاوضون مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويميلون إلى الجلاء والخروج منذ البداية فثبتهم هذا التثبيت بهذا الوعد الكاذب –أعني عبد الله بن أبي–، ثم حصنوا الأزقة، واستعدوا للحرب، وبعثوا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– من يخبره أنهم لن ينزلوا عن ديارهم، وبقوا ينتظرون، والروايات التي في السير جاء في بعضها أن أحدهم لما أخبر النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– أنهم لن ينزلوا مر على عبد الله بن أبي فوجده يتعشى فقال: أين المدد؟ أين الوعد؟ قال: سأبعث إلى حلفائي، هؤلاء يواجهون الموت وهذا يقول: سأبعث إلى حلفائي وجالس يتعشى وما يفعل من ذلك شيئًا كما سيأتي في الآيات التي أكذبهم الله –عز وجل– بها.

---

٧ – انظر: تفسير الطبري (٢٠/٢٤٨)، ورواه مسلم، بلفظ: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله))، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهلٍ للحكم، برقم (١٧٦٨).

فلا جديد في تحالف المنافقين مع اليهود ومع أعداء الملة، ووفد آخر يذهب إلى الشام من أجل الاستعانة والاستنصار بالروم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبنوا مسجد ضرار من الناحية الشمالية مخرج المدينة من أجل إذا جاء الجيش يكون التجمع هناك في مسجد يصلون، فيكون هذا المكان مكاناً للتجمع ويدخلون مع الجيش، كل واحد يضرب صدره ويقول: أنا أعرف المدينة حجرًا حجرًا، إليّ إليّ أنا أدلكم على الأماكن، وأعرّف لكم الشخصيات واحدًا بعد الآخر من الشخصيات المؤثرة، ويأتون مع الغزاة كما فعلوا في العراق، وكما فعلوا في أفغانستان، كل واحد يقول: أنا أعرف، بعض الذين كانوا للأسف ينتسبون للجهاد قديمًا في أفغانستان في الحرب مع الروس لما جاء الأمريكان ما الذي حصل وكان من قبل يكذب قبلها بمدة يسيرة ويقول: لا يمكن أن نقر وأن نقبل بوجود ذباب أمريكي فضلًا عن جندي أمريكي في أفغانستان ولحيته تتجاوز سرته من طولها، ولما احتلت البلد لم يظفر بشيء، وُضع في وقت من الأوقات في حكومة هزيلة وزيرًا لشئون المقابر والموتى؛ لكثرة الموت والقتل هناك تحتاج وزارة، وزير لشئون المقابر والموتى، قريب من هذا الاسم، والآن الجيل الجديد الشباب لو ذكرنا هذه الأسماء ما يعرفونه، وكانت هذه الأسماء تشرِّق وتغرِّب قادت الجهاد في وقت من الأوقات، ثم انظر -نسأل الله العافية- الحَوْر بعد الكَوْر، والنفاق الذي يحصل لبعض الناس حينما يأتي العدو ويغلب على بلد من بلاد المسلمين، ولذلك تجد مثل هذه العبارة كثيرًا في كتب التواريخ على ألسن المؤرخين "ونَجَمَ النفاقُ"، بدأ التسابق إلى هؤلاء الأعداء والجحافل التي تحتل البلاد يقدم لهم الخدمات ونحو ذلك.

{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} اللام هذه بمعنى عند أول الحشر، {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} والحشر معناه إخراج الجمع من مكان إلى مكان.

وقوله تعالى: {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا} أي: في مدة حصاركم لهم وقِصَرها، وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها.

هو ليس فقط في مدة الحصار والقِصَر {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا} لشدة تمنعهم وتمكنهم وتحصيناتهم.

ولهذا قال تعالى: {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة النحل:٢٦].

{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ} الظن هذا يحتمل أن يكون بمعناه المتبادر، يعني طرف الرجحان من طرفي الاحتمال، يعني لا يصل إلى مرتبة العلم اليقيني، ومعلوم أن الظن يأتي كثيرًا في القرآن بمعنى العلم، {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة البقرة:٤٦] يعني يتيقنون ويعلمون، {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا} [سورة الجن:١٢]، يعني علمنا وتيقنا، ويأتي بمعنى الراجح من طرفي الاحتمال، وفي حال التساوي يقال له: شك، فالشاهد أن الظن هنا يحتمل أنهم ظنوا بمعنى غلب على وهمهم أن حصونهم هذه تمنعهم من الله، وهذه الحصون بعضهم يقول: هي أربعة الكُتيبة والوَطيح والسُّلالم والنَّطاط، هذه أربعة، وبعضهم يزيد الوَخْدة، وشق، فصار المجموع ستة، حاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مدة،

بعضهم يقول: خمسة عشر يومًا –أسبوعين–، وبعضهم يقول: قريب من عشرين ليلة، وبعضهم يقول: في ثلاث وعشرين ليلة، وبعضهم يقول: في خمس وعشرين ليلة، يعني أقل الروايات أن النبي –صلى الله عليه وسلم– حاصرهم أسبوعين، وهذا يضعف القول السابق من أن **{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** معناه لمجرد أول حشر الجيش لهم تهافتوا وسقطوا، هم بقوا هذه المدة التي لا تقل عن أسبوعين ليس شجاعة، وإنما كانوا ينتظرون المدد من هؤلاء الألوف الذين وعدهم بهم عبد الله بن أبي.

التركيب هنا **{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}**، يعني لو أردنا أن نذكر الكلام على ما يتبادر عادة في ترتيبه يكون هكذا: وظنوا أن حصونهم تمنعهم من الله، قال: **{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}** فصار فيه تقديم وتأخير، فتقديم ما حقه التأخير لا يكون إلا لمعنى، إلا لنكتة، إلا لعلة، فهذا التقديم للخبر على المبتدأ يدل على ماذا؟ **{وَظَنُّوا أَنَّهُم}** قدم الضمير المتعلق بهم "أنهم" وبعد ذلك جاء بمانعتهم حصونهم، يعني وظنوا أن حصونهم مانعتهم، فحصونهم هي اسم أنّ، والخبر ما بعده، فقدم الخبر على المبتدأ **{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}**؛ ليدل على شدة وثوقهم بهذه الحصون، **{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ}** أنهم يملكون منعة وقوة، فهم واثقون بهذه الحصون أنها تمنعهم من الله وتقيهم بأسه، كذلك تقديم الضمير المتعلق بهم؛ لشدة الثقة بأنفسهم، فهم واثقون جداً بأنفسهم وواثقون جدًا بحصونهم حتى بلغ بهم الغرور أن ظنوا أن هذه الحصون تمنعهم من بأس الله –تبارك وتعالى–، **{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}** مع أنه لا تُحصن الديار والبلاد إلا بالإيمان وطاعة الله –تبارك وتعالى– وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، هذا يؤخذ من هذا التركيب، –والله تعالى أعلم–.

وقوله –تبارك وتعالى–: **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** يعني لم يتوقعوا، أي وقع بهم أمر لم يحسبوا له حسابًا، يعني لربما كانوا يخططون لأشياء، ويظنون أشياء، ويرسمون كما يقال سيناريوهات للمستقبل وللمواجهة في المستقبل، وللحروب في المستقبل، لكن جاءهم شيء ما توقعوه ولا خطر لهم في بال، الأحداث التي تقع في أيامنا هذه مما شاهده العالم هي تدل على هذا المعنى أن الله قد يأتي الناس من حيث لم يحتسبوا، الذين يتجبرون على الله –تبارك وتعالى– فيحاربون أولياءه، ويفسدون في الأرض، هؤلاء قد يكونون في حال من القوة والتمكن والتسلط على الناس بحيث يظنون أنه لا يمكن أن تقع تحريكة، ولا تسكينة إلا كانت تحت نظرهم، وتحت قهرهم وقدرتهم وتمكنهم، **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}**، كانوا لربما يتخوفون طويلًا عبر عقود من أهل الصلاح والدين والخير وملئوا السجون بهم وحاربوهم وآذوهم غاية الأذى، عقود متطاولة يظنون أنهم سيؤتون من قبل هؤلاء فأُتوا من قبل شباب غير متدينين عبر هذه الوسائل التي تبدو لأول وهلة أنها ضعيفة وهشة تويتر وفيس بوك وما أشبه ذلك، فجاء من قِبَل هؤلاء الذين لطالما اشتغلوا باللهو والشهوات واللعب، وصار نهاية هؤلاء الجبابرة على يد هؤلاء الذين ما كانوا يتوقعون أنهم يُؤتون من قبلهم **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}** انظر إلى أعتى العتاة على الله –عز وجل– في هذه الأوقات في هذه الأيام كيف كان حالهم؟ وكيف كانت نهايتهم؟ ما كانوا يتوقعون هذا، وما كان أحد يظن أن ذلك يمكن أن يحصل، ولكن محادة الله –تبارك وتعالى– لا شك أنها تورث مثل هذه الأحوال من الخزي –نسأل الله

العافية–، والنهايات الأليمة، {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}، لم يظنوا لم يعلموا بأي أمر كان، بنزول النبي –صلى الله عليه وسلم– في ساحتهم، أو بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، فاختلطت الأوراق، هو الذي كان يخطط ويتآمر فقُتل بدم بارد، فبقوا بلا رأس، وذهب تدبيرهم وكيدهم وصاروا كالنعاج تقاد إلى حتفها.

وقوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر –صلوات الله وسلامه عليه؟!.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، القذف هو الإلقاء بقوة، والرعب هو خوف شديد، يعني الخوف مراتب كما أن الحب مراتب، والخوف أنواع هناك خوف، وهناك شفقة وهي خوف مع رقة مثلًا، وخشية أي خوف مع معرفة المخوف منه، وهناك رعب وهو الخوف الذي يملأ القلب، فيضطرب القلب، وهناك هلع وهو خوف يخلع القلب أو تنخلع له القلوب، هلع بحيث يصير الإنسان لا يهتدي لشيء من شدة الخوف، وهناك أيضًا مراتب أخرى متنوعة ومتفاوتة، فهؤلاء قذف الله في قلوبهم الرعب، وهذا هو مبتدأ الهزيمة، فإذا وجد الرعب في القلوب فإن المقاتل لا يثبت في أرض المعركة في حال من الأحوال.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[٨]، يعني احسب مسيرة شهر، مسيرة الجيش على الوسائل القديمة، فالذين يبعدون من موقعه –صلى الله عليه وسلم– على مسيرة شهر هم يعيشون في حال من الرعب، ليس الخوف وإنما الرعب، يعني يكونون في حال الاضطراب الشديد من شدة الخوف، وهذا كما يقول الشاطبي: إن مثل هذه الخصائص للنبي –صلى الله عليه وسلم– لأمته منها نصيب، فهذا الرعب نصر به النبي –صلى الله عليه وسلم– وأمته منصورة به، فهو لا يختص برسول الله –عليه الصلاة والسلام–، فإذا كان على مسيرة شهر يعيشون في حال من الرعب، ونُصر بالرعب، بمجرد ما يأتيهم يتهافتون فكيف بمن كان في طرف المدينة من اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة، وهم أجبن الناس؟!، فمثل هؤلاء إذاً كيف تكون قلوبهم؟ كالريشة في مهب الريح، تُكفئها وتقلبها الرياح، هؤلاء في مرتبة ومنزلة من القرب الشديد في طرف المدينة ويهود، أي أجبن الناس، وأذل الناس، وأحط الناس، ما ظنك بحال مثل هؤلاء؟!.

وقوله: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} قد تقدم تفسير ابن إسحاق بذلك وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وبيوتهم وتَحَمُّلها على الإبل، وكذلك قاله عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} الآية فيها قراءتان {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم} هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى المتواترة قراءة أبي عمرو {يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُم} بعضهم يقول: المعنى واحد، وأن القراءة بالتشديد {يُخَرِّبُونَ} بناء على أن زيادة المبنى لزيادة المعنى تدل على كثرة التخريب.

---

٨ – رواه البخاري، في أوائل كتاب التيمم، برقم (٣٣٥)، ومسلم، في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١).

وبعض أهل العلم يفرق بين القراءتين فيقول: **{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم}** يعني يتركونها خرابًا، و**{يُخَرِّبُونَ}** أي أنهم يقومون بعملية التخريب، يُخْرِبون يعني يتركونها خرابًا، وهذا يمكن أن يتمشى مع قول بعض الناس اليوم للبعيد: "يخْرب بيتَه"، يُخْرِب يعني يتركها خرابًا، ويُخَرِّب يعني يقوم بالتخريب بناء على التفريق بين المعنيين.

فمعنى أنه يُخْرِب يتركه خرابًا عند بعض أهل العلم الذين فرقوا بين القراءتين **{يُخْرِبون بيوتهم}**، و**{يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}** يُخرِّبونها بأيديهم باعتبار أولًا: أنهم نقضوا العهد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكان ذلك سببًا لهذا التخريب الذي حصل.

ثانيًا: أنهم كان إذا حصل في الحصن ثُلْمة أثناء الحصار قاموا بأخذ أبواب أو غير ذلك من بيوتهم يردمون بها هذه الثغرة التي فتحت في الحصن، فهم يقومون بالتخريب لبيوتهم من أجل ترقيع ما هدم أو انثلم من هذه الحصون.

ثالثًا: أنهم حينما أجلاهم النبي –صلى الله عليه وسلم– صاروا يأخذون ما استحسنوا من بيوتهم فيأخذ بابًا، يأخذ نوافذ، يأخذ أشياء بحيث تبقى هذه البيوت بلا أبواب، وتتحول إلى أشبه بالخرائب.

رابعًا: أنهم لشدة حسدهم لا يريدون أن يُنتفع بهذه البيوت من بعدهم فيقومون بالتخريب من أجل ألا ينتفع بها أحد، وهؤلاء كما في قصة قريظة أيضًا سيد قريظة كعب بن أسد لما جيء به للقتل كانوا حشروا في دار ويؤتى بهم مجموعات متتابعة للقتل حفرت لهم خنادق فلما جيء به كان عليه رداء أو بردة، وكان قد شققها ومزقها بقدر الأنامل، يعني ما ترك فيها مكانًا، لاحظ هو الآن مأسور ويعلم أنه يساق للقتل والشيء الذي يهمه الشيء الذي يقلقه أن هذا الرداء أو البردة أنه لا ينتفع بها لا يأخذها أحد ليلبسها، فهذا جالس مربوط للقتل، ويعلم أنه سيقتل؛ لأنهم كانوا يقولون: إلى أين يذهب بهم؟ أي المجموعات التي كانت تخرج، قال: ويحكم والله لا تعقلون، أما ترون الرجال يخرجون ولا يرجعون؟ إنه القتل، فجيء به لتضرب عنقه، هذا الذي عليه الرداء البردة أو نحو ذلك قد مزقها بقدر الأنامل.

الشاهد أننا نتحدث الآن عن النضير والشيء بالشيء يذكر أن من شدة حسدهم جاء كعب بن أسد الذي هو سيد قريظة ومزق هذه البردة التي عليه بهذه الصفة؛ لئلا يستفيد منها أحد، فهؤلاء كانوا يخربون بيوتهم؛ من أجل ألا ينتفع المسلمون بها من بعدهم، يعني هذه البيوت التي بذلوا فيها الأموال وتعبوا في بنائها صاروا يخربونها بأيديهم، فهذا فيه عبرة عظيمة، وهذا يتكرر قد يكون التخريب للبيوت، وقد يكون التخريب لغيرها من القوى والإمكانات والقدر والمفاعلات وغيرها التي بنوها وبذلوا فيها المليارات، قد يقومون بتخريبها لأمر أو لآخر يقيّضه الله –عز وجل–، فيعمدون إلى هذا الذي لطالما بذلوا فيه الأموال فيخربونه بأيديهم، **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [سورة الحشر:٦].

وأقرب مثال لذلك انظر الزلازل التي حصلت في اليابان، عبرة كبيرة مما حصل للمفاعلات النووية هناك، تسربات وأشياء أرعبت العالم، فهذا هو مثال بسيط وصورة مصغرة لما يمكن أن يوقعه الله –عز وجل– بأعدائه، ويمكن لهذه الأشياء التي يرعبون بها العالم ويرهبونه أن تتحول إلى شبح يرعبهم ويخوفهم؛ لأن هذه قد تتحول إلى سبب لهلاكهم هم بما يقيّضه الله –عز وجل– من الأمور التي يقدرها، زلزال أو غير ذلك، فقد

تتحول إلى سبب لإهلاكهم وتدميرهم، وهذه معانٍ داخلة في {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} لكن بأيدي المؤمنين كيف كان هذا بأيدي المؤمنين؟ أخربوها بأيدي المؤمنين بمعنى أنهم حينما نقضوا العهد وامتنعوا من الإيمان كان ذلك سببًا لتخريب المؤمنين لبيوتهم، يعني هم الذين تسببوا في هذا الحصار الذي وقع، والمتسبب ينزّل منزلة الفاعل أو المباشر في كثير من الأحيان، {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} والمؤمنون كانوا يهدمون هذه الحصون من الخارج حينما كانوا يطوقونهم ويحاصرونهم، ولك أن تتخيل اليهودَ محاصَرين والذين يحاصرونهم صحابة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حَرَّة سوداء ليس لهم ناصر ولا ولي، وأسلمهم شياطين الإنس والجن إلى مصيرهم المحتوم، ما حال هؤلاء اليهود البائسين في مثل هذا الحصار؟ لا تسأل عن حالهم.

أنا أظنهم ما ناموا طوال الخمس والعشرين ليلة أبدًا، هؤلاء أرعب الناس، {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [سورة البقرة:٩٦] هل رأيت جنودًا يبكون غير اليهود؟ مقابلة مع شاليط هذا الولد الذي أُسر يذكر أنهم لمّا جاءوه يقول -وهو كان يراهم وفي الدبابة-: لم أستطع أن أفعل شيئًا، معه سلاح، ودخلوا عليه في الدبابة وأخذوه منها وأسروه! يقول: كنت في ذهول! هكذا اليهود، قال: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}، هنا ما فسر هذه الجملة في المختصر.

{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}، العلماء يتكلمون في القياس في أصول الفقه، ويذكرون أول ما يذكرون من أدلة القياس وأنه دليل صحيح: أن الله -عز وجل- قال: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} فالاعتبار فيه نوع مقايسة، يعني تنظر إلى هذا ثم ترجع إلى هذا، فهذا الاعتبار فيه انتقال من شيء إلى آخر، يعني القياس أن تلحق فرعًا بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما، فأنت تريد معرفة حكم هذا الذي لم يرد فيه دليل فتلحقه بأصل ورد فيه دليل، فيه جامع مشترك بين الأمرين، العلة واحدة، يعني عندما نقول مثلًا: ما حكم المشروبات الكحولية التي ليست من عصير العنب، طيب لم يرد فيها دليل، نقول: هذه ملحقة بالأصل وهو الخمر، فهذا فرع وذاك أصل -أي الخمر- والعلة المشتركة "الإسكار"، فإذا وجد الإسكار وجد الحكم، والحكم هو التحريم، {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} أصل مادة الاعتبار العين والباء والراء تدل على عبور ومجاوزة، تعبر من شيء إلى شيء، تنتقل من شيء إلى شيء، ولهذا يقال: عبّارة ومعبر يعني ما ينتقل بواسطته من ناحية إلى ناحية، من طرف إلى طرف، من شيء لآخر، فأصل الاعتبار من العبور والمجاوزة، ولهذا قيل للعَبرة: عَبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد، استعبر: بكى، وبكى عبرة، ويقال أيضًا للألفاظ: عبارات لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع، ويمكن أن نقول: تنقل المعاني من قلب المتكلم إلى لسانه فتَعْبُر، يعني يُعبِّر عنها، ومن الأمثال المعروفة: السعيد من اعتبر بغيره، يقول: جعله عبرة، ليكون عبرة، يعني ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، يعني يرى ما وقع لغيره فيعتبر بذلك فيقول: لا أفعل فعله، ينتقل لنفسه يقول: لا أفعل فعله؛ لئلا أقع، ويحصل لي هذا الأمر الذي حصل له، هذا يسمى اعتبارًا، والعاقل من وعظ بغيره، من اعتبر بغيره، والشقي من اعتبر بنفسه، والاعتبار النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها أشياء أخرى من جنسها، فتقول: هذا الموقف فيه عبرة، هذا فيه عبر، ما حصل فيه عبر، العبر مما وقع، وتعدد هذه العبر، فهنا الله -عز وجل- يقول: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} يعني يا أصحاب العقول والألباب

والبصائر؛ لأن الأبصار هنا ليست أبصار العيون، وإنما أبصار القلوب، أصحاب البصائر، يعني يا أصحاب القلوب الحية التي تبصر وتعقل، أما من كان قلبه ميتًا فإنه لا يتعظ ولا يعتبر لا بما يسمع ولا بما يشاهد، فيكرر الفعل نفسه.

وقوله: {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا} [سورة الحشر:٣] **أي: لولا أن الله كتب عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله الزهري عن عروة والسدي وابن زيد؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم.**

الجلاء يعني الخروج لكنه خروج خاص، يعني الجلاء أخص من مطلق الخروج، ما كل خروج يقال له: جلاء، أنت حينما تخرج الآن من البلد مسافرًا وسترجع هذا يقال له: جلاء؟ لا، ليس بجلاء، إنما هو خروج خاص، وذلك أنهم يقولون: الجلاء لا يكون إلا بالأهل والولد، هذه أولًا، يقول: أجلاهم أُجلوا، جَلَوْا يعني خرجوا بأولادهم وأهلهم ومن ثَمّ فإن الجلاء لا يكون إلا بجماعة، خروج الواحد لا يقال له: جلاء، فالجلاء في اللغة هو الخروج من الوطن، والتحول عنه بنية عدم العودة إليه، يخرج خروجًا نهائيًا، لكن لاحظ هنا أنه قال: **{وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ}** "لولا" تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، أي امتناع لوجود، امتنع العذاب لوجود الكَتْب، أي ما كتب الله عليهم من الجلاء، **{لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}** امتنع التعذيب في الدنيا بسبب وجود التقدير الأزلي وهو أن هؤلاء يُجلون، فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب مع أن الجلاء عذاب، يعني أنه لم يحصل لهم العذاب في الدنيا بسبب أن الله كتب عليهم الجلاء **{وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ}** إذاً لم يعذبهم؛ لأنه كتب عليهم الجلاء، فالسؤال أليس الجلاء الخروج من الدار والوطن أليس عذابًا وقد قرنه الله بالقتل كما مضى في قوله –تبارك وتعالى-: **{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ}** [سورة البقرة:٨٥] فقرن الإخراج من الديار بالقتل فهو ليس بالشيء السهل فكيف قال الله – تبارك وتعالى– إذاً: **{وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}** هذا الجلاء عذاب وظاهر الآية أنه امتنع العذاب لوجود ما كتب الله عليهم من الجلاء، ما الجواب؟.

الجواب أن المقصود بقوله: **{لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}** يعني بالقتل كما وقع لقريظة، أي عذبهم بالقتل، وإلا فالإخراج من الديار لا شك أنه عذاب ومعاناة وخروج في غاية الإهانة، ما يخرجون بسلاح، كل أهل ثلاثة بيوت على بعير واحد، هم يحملون عليه الشيخ الكبير، أو الأطفال، أو المرأة الحامل، أو حديثة الولادة، أو يحملون عليه المتاع، وهم ليسوا ذاهبين لمسافة خمسمائة متر مثلا وإنما سيذهبون مسافة شاسعة تتجاوز الألف كيلو متر إذا كانوا سيذهبون إلى أطراف الشام، في مناطق جبلية وعرة وفيها عقبات، ويذهبون على الأقدام يحملون الأمتعة على ظهورهم، وكل أهل ثلاثة بيوت على جمل، تصور وهم يتقاسمون الحصص في الحمل على هذا الجمل هم يتعاقبون الركوب، أو الأطفال الذين يبكون، أو النساء اللاتي قد أوهنهن المشي، هذا عذاب في غاية الإهانة، إخراج مهين، لكنه مقبول بالنسبة لليهودي ما دام حياة، **{أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}** [سورة البقرة:٩٦] نكرة في سياق الإثبات يعني أقل ما يصدق عليه الحياة يتمسك بأهدابه، أيّ حياة ولو كانت في غاية

الذل والمهانة المهم حياة، والمقصود بالعذاب القتل، فهو ألم محسوس بالأبدان، بعض أهل العلم يقول: إن الإخراج ألم محسوس بالوجدان، يعني فقد الوطن.

قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} أي: حتم لازم لابدّ لهم منه، وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم.

قوله: {ذَلِكَ} الإشارة هنا ترجع إلى جميع ما ذكر، "ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله" من إخراجهم وقذف الرعب في قلوبهم وتخريب البيوت بأيديهم وأيدي المؤمنين وإعداد العذاب لهم في الآخرة؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله، فذكر هنا العلة ثم جاء بالحكم العام كما هي عادة القرآن يذكر قضية خاصة ثم يأتي بالحكم العام ليبين أن ذلك لا يختص بهم، وإنما من فعل فعلهم فإن عاقبته كعاقبتهم {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في القواعد الحسان ذكر قاعدة مثل هذه في مجيء الحكم العام بعد القضية الخاصة، يعني ما قال مثلًا: ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله والله شديد العقاب، لا، وإنما قال: {وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} فهو وعيد لكل المشاقين، والمشاقة بمعنى المخاصمة والمعاداة، هذا كأنه في شق والآخر في شق آخر فهي مشتقة من الشِق كما اشتقت المحادة من الحد، والعداوة من العدوة، وهكذا.

وقوله تعالى: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [سورة الحشر:٥] اللين نوع من التمر وهو جيد.

اللين نوع من التمر وهو جيد، يعني الجيد من التمر، وحينما يقال: الجيد من التمر فإن ذلك يرجع إلى أصله يعني الجيد من النخيل؛ لأن القطع هنا ليس للتمر، وإنما للنخيل، هذا قصدهم، النخيل أنواع منه ما هو جيد باعتبار الثمر، ومنه ما يكون دون ذلك، ومنه ما يكون رديئًا، فالجيد هو الذي يقال له: اللين، والواحدة لِينة، هذا على قول بعض أهل العلم، واختاره ابن كثير -رحمه الله.

قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبَرْنِيّ من التمر.

يعني كل أنواع التمر أنواع النخيل إلا العجوة والبرني، البرني نوع من أنواع التمر معروف إلى اليوم في المدينة.

وقال الكثير من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة، قال ابن جرير: هو جميع النخل.

ابن جرير -رحمه الله- لا يقول: إنها جميع أنواع النخل، وإنما يقول كالقول الذي قبله، يقول: جميع النخل ما لم يكن عجوة، فابن جرير يستثني العجوة.

ونقله عن مجاهد وهو البُوَيرة أيضًا.

البُويرة المقصود بها منازل بني النضير، المكان الذي كانوا فيه يقال له ذلك، كما سيأتي.

فهنا {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ} هنا ذكر بعض الأقوال في اللينة وهي أكثر من هذا، القرطبي ذكر عشرة أقوال في معنى اللينة، فمن قائل بأنها جميع الأنواع سوى العجوة، وهذا قال به كثير من السلف كعكرمة ويزيد بن

رومان وقتادة والزهري ومالك وسعيد بن جبير والخليل بن أحمد الفراهيدي، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يطلق يقول: كل أنواع النخل يقال له: لينة، وهذا منقول عن مجاهد وعن ابن عباس قبله وعن الحسن وعمرو بن ميمون، وبعضهم يقول: كرام النخل، كما يقول ابن كثير: إنه الجيد من التمر، كرام النخل.

وبعضهم عممه في جميع الأشجار لِلِينها بالحياة، وهذا بعيد، وأبعد منه من قال: إن المقصود باللينة الفسيل، يعني الذي نسميه الفرخ من النخل الصغير الذي يغرس؛ لأنه لا يغرس إلا في أوقات الاعتدال لضعفه، ما يحتمل، يعني هناك أوقات معينة، الآن مثل هذه الأوقات قبلها بقليل وقت غرس النخيل، ما يغرس في أي وقت، لو غرسته في الصيف يموت، ما يحتمل، فهو يغرس في وقت الاعتدال في مرتين في السنة في الربيع والخريف، فبعضهم يقول: لضعفه ولينه لا يحتمل الحر، لكن هل الذي قطعوه هو هذا؟ الجواب: لا، إنما الذي قطعوه هو النخل **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}**، والمقصود أنهم قطعوا بعض النخيل، وربما أحرق بعضه.

وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهابًا وإرعابًا لقلوبهم، فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟! فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم وإرغام لأنوفهم.

يعني هذا أمر شديد عليهم، والألوسي ذكر في تفسيره وهو من أهل العراق ذكر أنه سمع من بعض أهل النخيل الناس الذين يحبون النخيل ويعتنون بها غاية العناية يقول: وددت لو أن أنْمُلتي قُطعت ولا يقطع طرف العسيب! يعني من شدة محبته وحرصه على هذا النخيل، وعنايته بها، تقطع أنملته ولا يقطع طرف العسيب، والذين لهم عناية بالنخيل يبلغ بهم الأمر إلى هذا الحد بحيث إنه تجد هذه النخلة لربما تكون مؤذية لهم في البيت بحيث إنها تضيق الطريق، ومع ذلك لا يمكن لأحد أن يقطع منها طرفًا، وتجد هذا المعتني بها قد يكون رجلًا كبيرًا في السن، وهو في غاية الحرص عليها، يعرف ما زاد فيها وما نقص، يصبحها ويمسيها.

فكيف إذا أحرقت أو قطعت وهم ينظرون من فوق الحصون؟!، هذا يتمنى أن أنملته تقطع ولا يقطع طرف العسيب، فهذا يرى النخلة التي يسقيها صباح مساء ويعتني بها يراها تحترق أمامه، وتضطرم النار في هذه النخلة ما الذي يحصل؟ يحصل له غيظ، يعني هذه النخيل قطعت لربما لمصلحة الحصار؛ لأمور احتاجوا إليها، احتاجوا مثلًا لجذوعها لقضايا تتعلق بالحصار لمساحة أو غير ذلك، أو إغاظة، فغاظ ذلك أعداء الله، فيؤخذ منه أنه في حال الحصار للعدو أو الحرب مع أعداء الله يمكن أن تخرب دارهم إذا دعت المصلحة إلى ذلك كما قاله الإمام مالك -رحمه الله.

وكانت حوائطهم -المزارع- خارج القرية، بعضهم يقول: المقصود بالبُويرة هي المكان الذي فيه المزارع، وليست أرض النضير بكاملها، البويرة التي مضت قبل قليل في بعض الروايات، وجاءت في شعر حسان

-رضي الله عنه- لما نظم يهجو قريشاً الذين أغروهم بنقض العهد مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم أسلموهم لهذا المصير البائس، فحسان بن ثابت كان فيما قال:

تفاقَدَ معشرٌ نصروا قريشاً *** وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

وهانَ على سَراةِ بني لؤي *** حريقٌ بالبُويرة مستطيرُ

يقول أسلموهم إلى هذا المصير المحتوم -نسأل الله العافية-، رد عليه أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أكثر الناس شبهًا به، وكان هو الذي يقول القصائد التي يهجو فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، ثم رد عليه حسان في القصيدة المعروفة:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني *** فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ

وقال فيها:

أتَهْجُوهُ، ولَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ *** فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ

هذه قيلت في أبي سفيان ليس ابن حرب والد معاوية وإنما في أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان شديد العداوة له، فكانت هناك مجاوبة بين أبي سفيان بن الحارث هذا، وبين حسان بن ثابت -رضي الله عنه-، فرد أبو سفيان على حسان في قصيدة أخرى، ومن شاء فليراجع كتب السيرة، وكان مما قال:

أدام اللهُ ذلك من صنيعٍ *** وحَرّق في نواحيها السعيرُ

ستعلمُ أيّنا منها بنُزْهٍ *** وتعلمُ أيَّ أرضيْنا تضيرُ

يقول: نحن في مكة بعيد عنكم، هذه عندكم، من الذي يتضرر فيها نحن أو أنتم؟ والنخيل التي قطعت أصلًا كانت قليلة جدًا، بعضهم يقول: ست، وبعضم يقول: قطع نخلتان **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}**، والإذن هنا يحتمل أن يكون الإذن الكوني، أي بقدر الله، ويحتمل أن يكون الإذن الشرعي، وإذا قلنا: إن الإذن شرعي فهذا يقتضي أنه كوني أيضًا؛ لأن هذا شيء وقع فاجتمع فيه الإذن الكوني والإذن الشرعي، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-؛ لأن أهل الإيمان إنما يصدرون عن أمر الله -تبارك وتعالى-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرهم، وهذا طريقة في الرد على الأعداء حينما يستغلون بعض التصرفات في تشويه سمعة المسلمين، والوقيعة بهم وتحريك الآلة الإعلامية في تشويه هذه الصورة، فاليهود استغلوا هذا وقالوا: أين الإصلاح الذي تدعيه؟ ما بال قطع النخيل وأنت تدعي الإصلاح؟، فجاء الرد هكذا محكمًا **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}**، انتهى، لو كان اليوم لاختلفنا وبدأنا نتراشق في التويتر وفي غيره، هذا يؤيد، وهذا لا يؤيد وهذا يقول، وهذا يتهم، كما هي عادتنا في كل شيء، لاحظ الردود القرآنية قطعت عليهم الطريق، **{فَبِإِذْنِ اللَّهِ}**، وأيضًا في قصة السرية التي قتل فيها ابن الحضرمي في نخلة قريبة من مكة بين الطائف ومكة، وكان ذلك أول يوم من الشهر الحرام، وما كانوا يعلمون بدخول الشهر، فتظاهروا أنهم عمار وحلقوا رءوسهم -أي المسلمون-، وتعرضوا لقافلة أو ركب من المشركين، وكان أولئك أمنوا على أنفسهم، ظنوا أنهم عمار، فأراد المسلمون لما هجموا عليهم أرادوا منهم أن يستسلموا، فأبى المشركون فحصلت مناوشة، وقتل هذا الرجل، فاستغلها المشركون وقالوا:

أين الذي يقول: إنه يعظم الأشهر الحرم وعلى ملة إبراهيم؟، فما بال انتهاك الشهر الحرام؟ وجعلوها دعاية كبيرة، فكيف جاء الرد في القرآن؟

جاء الرد محكمًا {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} [سورة البقرة:٢١٧] انتهى.

لكن تعالوا أنتم أيها المجرمون {وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} تحول الهجوم عليهم، ولو كان عندنا كنا تحولنا نحن أيضًا إلى جند من جملة جندهم، وأدخلونا في عباءتهم وصرنا نخرب بيوتنا بأيدينا وأيديهم، وصدقنا ما يقولون واشتغلنا ببعضنا في الرد {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} خلاص لم تتحول القضية إلى مشكلة كبرى، وحرب داخلية ومقاولة ومجاوبات ومهاترات وخصومات وفرقة، لا، {قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} وتعالوا أنتم ماذا سويتم؟، أنتم مجرمون تفعلون أعظم من هذا، وتفسدون في الأرض، وتصدون عن المسجد الحرام، فهذا الفعل ماذا يكون بالنسبة إليكم ولجرائمكم؟، هذه طريقة القرآن في الرد على هؤلاء في دعواهم، وفي دعايتهم في إعلامهم الفاسد، فليت المسلمين وليتنا نتعلم من هذا، {فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} فلم يقل: وليخزيهم، أو وليخزي اليهود، وإنما عدل إلى الوصف بالفاسقين؛ ليؤذن بالعلة، هذا الخزي لماذا؟ لكونهم خارجين عن طاعة الله -عز وجل-، فهذا هو الفسق، بمعنى الخروج عن طاعته -تبارك وتعالى.

وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين البعض عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغانم المسلمين، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه، وقد روي نحو هذا مرفوعًا، فروى النسائي عن ابن عباس في قوله: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأُمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا فلنسألن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل لنا فيما قطعنا من أجر؟، وهل فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}[٩].

هذا ثابت في سبب نزول {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا}.

وروى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قطع نخل بني النضير وحَرّق[١٠]، وأخرج صاحبا الصحيح بنحوه، ولفظ البخاري عن ابن عمر قال: "حاربَتِ النضيرُ وقريظةُ فأَجْلَى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم، حتى حاربتْ قريظةُ، فقَتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فأمّنهم وأسلموا، وأجلوا يهود

---

٩ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} [الحشر:٥]، برقم (٤٨٨٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، برقم (١٧٤٦).

١٠ - رواه أحمد في المسند من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-، برقم (٤٥٣٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

المدينة كلهم: بني قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة[١١]، ولهما أيضًا عن ابن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حرق نخيل بني النضير وقطع -وهي البويرة- فأنزل الله -عز وجل-: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة.

---

١١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٠٢٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، برقم (١٧٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحشر من الآية (٦) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمستمعين ولجميع المسلمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الحشر:٦-٧]**، يقول تعالى مبينًا ما الفيء وما صفته وما حكمه، فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يُوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة بل نزل بأولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه الآيات.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا شروع في بيان أحكام الفيء، وذكرتُ في بداية تفسير هذه السورة أن موضوعها يدور على غزوة بني النضير، وما تبعها، وما تعلق بها من القضايا والأحكام والمواقف.

وهذا الفيء متصل بهذه الغزوة؛ لأن أموال النضير صارت فيئًا للمسلمين، والفيء أصله من فاء الشيء إلى كذا كما تقول: الفيء هو الظل الذي يكون بعد منتصف النهار، بمعنى أن الظل الذي يكون في أول النهار هذا لا يقال له فيء؛ لأنه لم ينتقل، وإنما يقْلُص شيئًا فشيئًا ثم بعد الزوال ينتقل فيتمدد من الناحية الأخرى حتى يمتد وينبسط إلى غياب الشمس، فهذا انتقال للظل، وهذا الانتقال يقال له: فيء، فاء الظل انتقل، فالفيء هو انتقال المال من أيدي الكفار إلى أيدي المسلمين من غير قتال، وهذه الآية هي مقدمة لما بعدها من بيان أحكام الفيء، **{وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**.

حاصل هذا أن الله يقول لهم: إن ما أفاء الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- فذلك لم يكن لكم فيه يد، ولم تقطعوا فيه شُقة، ولم تلقوا فيه مشقة، **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}**، والإيجاف هو الإسراع، **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}** يعني لم يودعوا فيه السير، أوجف الفرس إذا أسرع، هو سير سريع بإيقاع.

{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} الخيل كأنها تشير إلى الإغارة؛ لأنها تستعمل للإغارة، والركاب هي الإبل، وتشير إلى السفر الطويل.

وكما تعرفون في غزوة أحد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخوف من أن يميل المشركون إلى المدينة بعد الغزوة، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عليًّا أن ينظر وأرشده إلى أمر وهو أنهم إن جنّبوا الخيل وركبوا الإبل فهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل فهم يريدون المدينة، فالإبل تستعمل للسفر، والخيل للهجوم للإغارة، {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} يعني لم يحصل لكم ذلك، لم يقع منكم سفر طويل ولا إغارة على العدو، يعني ما لقيتم مشقة ولا بذلتم جهدًا، فهذا شيء امتن الله -عز وجل- به على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، هي مقدمة لنزعه من أيديهم، الأنفال بين الله وجه قسمتها في سورة الأنفال، {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [سورة الأنفال:٤١] فهذه خمسة أقسام، هذه الخمسة في الأنفال يقسم بها أو باعتبارها الخمس من الغنيمة، يعني الغنيمة أربعة الأخماس منها للمقاتلين الذين اشتركوا في المعركة، للفارس سهمان، ولغيره سهم واحد، أربعة الأخماس للمقاتلين، الخمس من الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل هذا في الغنيمة، خمس مقسوم إلى خمسة، أربعة أخماس للمقاتلين، ولا يوجد في الفيء للمقاتلين شيء؛ لأنه {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} ما بذلتم فيه شيئًا، ليس لكم فيه يد، فهذه الآية مقدمة، كيف يقسم الفيء إذاً؟ يقسم إلى خمسة أقسام، ما هذه الأقسام الخمسة؟ هي التي يقسم بها الخمس، يقسم بها الفيء بأجمعه، هذا الفرق بين الفيء والغنيمة على خلاف كثير معروف بين أهل العلم، لكن هذا فيما يبدو -والله أعلم- الأرجح من أقوالهم، وحاصله كأنه يقول: لم تقطعوا إليها شقة ولا لقيتم فيها حربًا ولا مشقة، ليس لكم فيها يد، ثم بيّن قسمتها.

فقال تعالى: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} أي: من بني النضير {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} يعني الإبل {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال تعالى: {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم بني النضير، ولهذا قال تعالى: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}.

{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}: بعضهم يقول: المراد بذلك الجزية والخراج، كما يقوله معمر، وبعضهم يقول: بل هو الغنيمة التي يأخذونها من عدوهم من أهل الحرب والقتال، كما جاء عن يزيد بن رومان ومالك، وبعضهم فسره أيضًا بالغنيمة التي تنتزع بقوة من أيدي الكفار لمن ذُكر في الآية، يعني أن الغنيمة تقسم إلى هذه الأقسام الخمسة، يقولون: وهذا منسوخ بآية الأنفال، وهذا فيه نظر؛ لأن هذه الآية نازلة بعد آية الأنفال، وقعة النضير كانت بعد غزوة بدر، وآية الأنفال نزلت في قصة بدر كما هو معروف، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، فليست منسوخة، والقول المشهور أنه ما نزل عنه الكفار من أموالهم يعني أن {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} هذه بيان للتي قبلها، {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ} إذاً ماذا يُفعل به؟ يقسم بهذه الطريقة: لله

وللرسول إلى آخره، فهذا كأنه الأقرب -والله أعلم- وإن ضعفه ابن جرير -رحمه الله-، هذه بيان للتي قبلها، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير لاحظ يقول: إلى آخرها والتي بعدها، وهذه مصارف أموال الفيء، فهذه الآية بيان للتي قبلها، وهكذا التي بعدها، كل ذلك، حينما يقول الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}، {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ} كل هذا في بيان أحكام الفيء، من أحق الناس بالفيء؟ من الذين يعطون من هذا الفيء؟

ولهذا قال تعالى: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} إلى آخرها والتي بعدها.

هذا قول الشافعي أيضًا -رحمه الله-، يقول: هذه الآية تفسر الآية التي قبلها والمتعلقة بها، يعني ما حصل من أموال الكفار بغير قتال يقسم على خمسة أسهم، وإن اختلفوا في طريقة التقسيم، بعضهم يقول: أربعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والخمس الباقي يقسم على خمسة أسهم وهي المذكورة في هذه الآية.

وفي هذا كلام كثير لأهل العلم في كتب التفسير، وفي كتب الفقه، لكن هذا لعله الأقرب -والله أعلم-، مع أن جمهور المفسرين يقولون: إنها غير متعلقة بالتي قبلها، وبهذا قال الإمام مالك، وقبله أبو حنيفة، يقولون: الأولى في بني النضير، وهذه في عموم الأفياء بعده، يعني كأن بني النضير لها حكم خاص، جعلها الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة النضير جمع الأنصار وخيرهم كما سيأتي في قوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} خيرهم بين أن يبقى المهاجرون في أرضهم وأموالهم فيقسم النضير بين المهاجرين والأنصار، وبين أن يخرج المهاجرون من أموال الأنصار فتكون للمهاجرين خاصة دون الأنصار، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما جاء المهاجرون إلى المدينة كان -صلى الله عليه وسلم- يؤاخي بين الرجل من المهاجرين والرجل من الأنصار فقاسموهم الأموال.

ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- عرض على الأنصار أمرًا وهو أن المهاجرين ليسوا بأهل زرع فعرض عليهم أن يكون الأصل للأنصار -يعني الأرض- وأن يقاسمهم المهاجرون الثمرة على أن يكون العمل للأنصار في مقابل أن يبقى الأصل لهم، طبعًا الأنصار ما قالوا: الأصل والفرع كله لنا، وإنما قبلوا بهذا، فلما جاءت أرض النضير وخُيِّر الأنصار جمعهم وحدهم وقال لهم: اختاروا، فرفضوا هذا العرض، وقالوا: لا نقبل بهذا، بل اقسمها يا رسول الله بينهم دوننا، ويبقون في أموالنا، ومعلوم أن أرض النضير أرض غنية فيها مزارع، وفيها دور وما إلى ذلك، قال الله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} وليس هذا الإيثار من غنى وسعة وكثرة عرض، وإنما {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}.

فهذه مصارف الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد عن عمر -رضي الله عنه- قال: "كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله -عز

وجل-"[١]**، هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصرًا، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجه، وقد رويناه مطولًا.**

وروى أبو داود -رحمه الله- عن مالك بن أوس قال: "أرسل إليّ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالسًا على سرير مفضيًا إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مالك إنه قد دَفّ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم، قلت: لو أمرتَ غيري بذلك فقال: خذه، فجاءه يرفأ فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟

يرفأ: هذا مولى، ليس هذا صفة، يعني هذا اسم رجل مولى.

قال: نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفأ فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم.

هذا المولى، هو الذي يقول له: جاء فلان جاء فلان، يعني يستأذنون فيستأذنه في إدخالهم.

فأذن لهما فدخلا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، اقضِ بيني وبين هذا يعني عليًّا، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين اقضِ بينهما وارحمهما.

النفر الذين هم عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، يعني كأنهم أشاروا على عمر بأن يقضي بينهم بحيث إنهم خشوا أو كأنهم كانوا يخشون أن عمر -رضي الله عنه- يمتنع من الدخول في هذا.

قال مالك بن أوس: خيل إليّ أنهما قد قدّما أولئك النفر لذلك، فقال عمر -رضي الله عنه-: اتئدا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة"؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة"؟ فقالا: نعم، فقال: إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحدًا من الناس، فقال تعالى: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم، ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال...

كلام عمر -رضي الله تعالى عنه- هذا وبحضرة هؤلاء الصحابة وأقروه على ذلك بأن النضير خص الله بها نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فبناءً على ذلك ذهب الجمهور إلى أن الآية الأولى هي خاصة في بني النضير، وأنها لا تقسم هذه القسمة بهذه الطريقة على خلاف في التفاصيل، وأن الله خص بها نبيه -صلى الله عليه وسلم-، لكن كان -عليه الصلاة والسلام- لا يستأثر بذلك، فكان يأخذ نفقة سنة ثم بعد ذلك يجعل الباقي في

---

١ - رواه النسائي، كتاب قسم الفيء، برقم (٤١٤٠)، وأحمد في المسند، برقم (٣٣٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

الكراع والسلاح وما إلى ذلك، فتكون الآية الأولى عند الجمهور خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، والآية التي بعدها في عموم الأفياء، حكم الفيء عمومًا.

ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم.

الآن كون النضير لها هذا الحكم، وأن الله خص بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- هذا لا إشكال فيه، لكن هذا لا يمنع أن تكون الآية الأولى مقدمة لما بعدها باعتبار أن المقاتلين على كل الحالات ليس لهم شيء، يعني في الآية الأولى لم يصرح فيها أن ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة، وإنما بين لهم أن هذا ليس لكم فيه جهد، ولم يكن منكم تعنٍّ وما إلى ذلك، وإن كان ظاهرها يشعر أن ذلك في بني النضير من أي وجه؟ من قوله: **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}** الركاب للسفر البعيد، فقد يكون الفيء الذي حصل في بعض الحالات كخيبر أوجفوا عليه بالركاب، يعني أنهم ساروا إليه مسافة ليست بالقصيرة، فخيبر ليست بذلك القرب من المدينة ففيها سفر، ويمكن أن يجاب عن هذا بأن يقال: إن ذلك باعتبار الغالب من جهة، ومن جهة أخرى لكون المقام يقتضيه، يعني باعتبار أنه يريد أن يقول لهم: ليس لكم في هذا جهد، ما حصل بالقتال وأخذ بالقوة.

وهذا يحتمل، ولو دخلنا في التفاصيل لاحتاج هذا إلى وقت طويل، والله أعلم.

ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم، فلما توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجئتَ أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نورث، ما تركناه صدقة))، والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق، فوليها أبو بكر، فلما توفي قلتُ: أنا ولي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئتَ أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها..

يعني ما كان بينكما اختلاف، الآن جاءا مختلفيْن.

فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يليها، فأخذتماها على ذلك، ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرداها إليّ"[٢]. أخرجاه من حديث الزهري به.

وقوله تعالى: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ} أي: جعلنا هذه المصارف من مال الفيء كي لا يبقى مَأكلةً يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء.

{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً} الدولة ما يتداوله المتداولون، التداول هو التعاقب في التصرف بالشيء، وخصه الاستعمال بنوع من هذا التداول وهو تداول المال، فكل ما تتداوله الأيدي ينتقل من يد إلى يد يقال له: دُولة،

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نورث، ما تركنا صدقة))، برقم (٦٧٢٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، برقم (١٧٥٧).

لكن صار ذلك معناه في النهاية {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً} كي لا يكون حِكرًا على الأغنياء يتداولونه بينهم ولا يصل إلى الفقراء.

فالفيء كما ترون في هذه القسمة لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهذا يصل إلى المحتاجين والفقراء والضعفاء في المجتمع، وهذا طريق لمعالجة الفقر وسد الحاجات، كما أن الشريعة في تقسيمها وتوزيعها للتركات هذه التركة تُكسَّر وتجزَّأ فتجد المال الذي عند واحد يتحول إلى مجموعة، فلا يقال: هذا المال يكون للولد الأكبر مثلًا، أو يكون للأب، أو يكون للزوجة، وإنما يقسم فيصل إلى مجموعة من الناس، وإذا مات الواحد منهم وصل المال إلى مجموعة من الناس، وإذا مات كل واحد وصل ماله إلى مجموعة من الناس، فتجد المال ينتشر، وبهذا يصل المال للمحتاجين ولأبعد مدى بين أفراد المجتمع، لا يتوقف عند طبقة وهم الأغنياء كما هو في النظام الرأسمالي طبقة تتضخم وتنتفش، والطبقة الأخرى لا تزال في انحسار وفقر وإلى فقر يتزايد مع الأيام، وأولئك لا يزيدونهم إلا فقرًا كما أنهم لا يزدادون إلا غنى كما هو مشاهد.

وقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

هذه الآية: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} جاءت في سياق قَسْم الفيء، والفيء مال، فتكون هذه الآية {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} يعني من المال، السياق في هذا، ويستدل العلماء بها من لدن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا على وجوب طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما أمر، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} وهذا الاستدلال صحيح وإن كانت الآية في سياق قَسْم المال، فهي تشمل الإيتاء إعطاء المال، ويدخل في ذلك أيضًا ما آتاكم وما أمركم به فافعلوا وامتثلوا، وفي الآية إشارة إلى هذا المعنى وهو قوله: {وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} فقابله بالنهي، ما قال: وما منعكم ما آتاكم، فالإيتاء يقابله المنع، فهنا قابله بالنهي، والنهي إنما يقابل الأمر في الأصل، فالآية في هذا السياق وهو الإعطاء المادي -الإيتاء المادي-، ولكن يؤخذ من عمومها أنه يدخل فيها الأمر، فإنهم يجب عليهم أن يمتثلوا ذلك، ويدل على هذا أثر ابن مسعود -رضي الله عنه- لما سألته المرأة كما ذكر الحافظ ابن كثير بعده: ((لعن الله الواشمات والمستوشمات))[٣]، فاحتج بهذا نفسه -وهو من علماء الصحابة- {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} فهذه الآية وإن كانت واردة في سياق الإيتاء والإعطاء المادي إلا أن عمومها يؤخذ منه أن ما أمر به فتجب طاعته -عليه الصلاة والسلام.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله -عز وجل-، قال: فبلغ امرأة من بني الأسد في البيت يقال لها: أم يعقوب فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي كتاب الله تعالى؟، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأتيه فقد

---

٣ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب المتفلجات للحسن، برقم (٥٩٣١)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، برقم (٢١٢٥).

وجدتيه أما قرأتي {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}؟ قالت بلى، قال: فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئًا، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئًا، قال: لو كان كذا لم تجامعنا"[٤] أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري.

وقد ثبت في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه))[٥].

العنت الذي يلقاه المفتي ليس بجديد، قضية قديمة، لم تكتفِ بالسؤال وسماع الجواب، وإنما تقول: قرأت القرآن ولم أجده، وتقول أكثر من هذا: أظن أن أهلك يفعلونه، كيف تظن بابن مسعود -رضي الله عنه- أن ينهاها عن شيء ثم بعد ذلك يُقر أهله عليه، هذا ليس من الأدب، وليس من حسن الظن في شيء، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر:٨-١٠].

يقول تعالى مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم "الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا" أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه.

هذه الآية متعلقة بما قبلها، يعني لما ذكر الله الأقسام التي يصير إليها الفيء: **{فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}** فالمساكين: الفقراء، فإنه كما هو معروف إذا ذكر المسكين دخل فيه الفقير، وإذا ذكر مع الفقير افترقا في المعنى، فهنا قوله -تبارك وتعالى- في قسم هذا الفيء: **{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}** كالنضير وخيبر وفدك وهي قريبة من خيبر وأشباه ذلك، **{فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}** وهذا سهم واحد على قول الجمهور، وعامة أهل العلم، يشبه الإجماع، والخلاف فيه أقرب إلى الشذوذ، فسهم الله وسهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- واحد، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأخذ نفقته ونفقة أهله سنة ثم يجعل الباقي في الكراع والسلاح، فسهم الله -تبارك وتعالى- من قال بأنه مستقل قال: يصرف في الكعبة وما إلى ذلك، والأقرب أنهما سهم واحد فيصرف في المصالح العامة مثل: السلاح، الكراع، والكراع يعني المراكب الإبل والخيل، يمكن أن تقول الآن: الأشياء الحديثة من السلاح، بناء الجيوش، وكذلك أيضًا المصالح

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٤١٢٩)، وقال محققوه: "إسناده الأول صحيح على شرط الشيخين".

٥ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧).

العامة مثل التعليم، الجامعات، المدارس، وما أشبه ذلك من مصالح المسلمين العامة، بناء الطرق، وما أشبه هذا.

ثم بعد ذلك قال: {وَلِذِي الْقُرْبَى} والذي عليه الجمهور أن المقصود قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود بهم من لا تحل لهم الصدقة، وهم الذين دخلوا معه في الشعب وليسوا كل القرابة، فالذين يدخلون في هذا هم أهل أربعة بيوت آل عباس، وآل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، هذه أربعة هم المقصودون بالقربى، وهؤلاء لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام، وهنا قال الله -تبارك وتعالى-: {وَالْيَتَامَى} وهو من فقد أباه قبل البلوغ، يقال له: يتيم فإذا بلغ لم يكن يتيمًا، والمقصود باليتامى أن يكون فقيرًا بطبيعة الحال، يعني لو كان اليتيم غنيًا فإنه لا يُعطَى، وإنما يُعطَى لغيره، {وَالْمَسَاكِينِ} وهنا كما سبق يدخل فيها الفقراء، {وَابْنِ السَّبِيلِ} يعني المسافر الذي انقطع في سفره، نفدت نفقته، أو سرقت، أو غير ذلك فلم يبق في يده ما يوصله إلى مبتغاه فيعطى ما يصلح لمثله ولو كان غنيًا في بلده، يعني أن الناس يتفاوتون في هذا فقد يكون ابن السبيل هذا ممن لا يركب إلا الدرجة الأولى في الطائرة وإلا فلا يسافر، ولا يسكن إلا في فنادق من نوع خاص فيعطى ما يصلح لمثله، وآخر يسافر في النقل العام -النقل الجماعي-، ويسكن في أدنى الأماكن فيعطى ما يصلح لمثله، فيتفاوتون ولا يكون ذلك على سبيل القرض، يقول: إذا رجعت إلى بلدك أنت غني تعيد هذا المال، لا، فإنما يعطى له، فالشريعة جاءت تحفظ كرامة المسلم وترعى حرمته، فلا يبقى في محل غربته في حال لربما يلحقه فيها ذل أو معرّة، فيعطى من الفيء ما يكفيه حتى يصل إلى بلده، ونُسب إلى السبيل -السبيل: الطريق تذكر وتؤنث- نسب إليها لملازمته لها كما قيل في الطائر المعروف: ابن الماء؛ لملازمته الماء، {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ}، وهذه الآية: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ} لاحظ هناك ذكر المساكين ويدخل فيها الفقراء عمومًا، وهذه الآية قلنا: إنها متعلقة بما قبلها، يعني أن أحق الناس هم أولئك الفقراء الذين تركوا كل شيء خلفهم، جاءوا يريدون ما عند الله -تبارك وتعالى- فتركوا الأموال والأهل والعشيرة والوطن لله وفي الله، {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ} هم أحق الناس بهذا، وهذه الأقسام المذكورة الخمسة ليس المراد أنه يقسم الفيء بينها بالتساوي، يعني لا يقال: لابدّ من خمس وخمس وخمس وخمس وخمس، وإنما بحسب الحاجات وتفاوتها، فقد يكثر الفقراء في وقت، قد لا يوجد عندنا ابن سبيل، وقد يكثر غيرهم من وجوه المصارف كاليتامى مثلًا فيكون ذلك بحسب الحاجات، ويمكن أن يغلب أحد المصارف إذا عظمت الحاجة واشتد الداعي، لكن هنا يبين الله -عز وجل- أن أحق من أُعطي له هذا الفيء هم أولئك الفقراء من المهاجرين، ولاحظ التزكية من وجوه متعددة بشهادة الله -عز وجل- لهم -رضي الله عنهم وأرضاهم-، {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ} معروف أنهم هم الذين خرجوا كانوا يخرجون يتسللون خفية؛ لأن المشركين كانوا يمنعونهم من الخروج ويضطهدونهم، وكان الواحد منهم يخرج سرًا ليلًا فأضاف الإخراج إلى الكفار "أُخرجوا" هنا بالبناء للمجهول، والله -عز وجل- قال في سورة الممتحنة: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} [سورة الممتحنة:١] فأضاف الإخراج صراحة إلى الكفار؛ وذلك أنهم تسببوا فيه، باعتبار أنهم ألجئوهم إلى الخروج بذلك الاضطهاد والتضييق عليهم فصاروا بمنزلة من باشر إخراجهم، هذا الجمع بين الآيات، وكذلك ما هو معلوم من كون المهاجرين خرجوا بأنفسهم لكن أولئك هم الذين ألجئوهم، ولاحظ التزكية

{يَبْتَغُونَ} يعني يطلبون {فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، يعني أن هجرتهم كانت لله وفي الله، شهادة بالإخلاص من الله -عز وجل-، ومعروف حديث النيات: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها))[٦]، فقد يكون الإنسان في الظاهر مهاجرًا ولكنه في حقيقة الأمر وباطنه ليس بمهاجر لله ورسوله، فهذه شهادة من الله {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} ما هاجروا لدنيا.

وانظر إلى الشهادة الثانية والتزكية الثانية {وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} هذه أوصاف عظيمة.

والصفة الثالثة: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أشار إليهم بإشارة البعيد "أولئك"؛ لعلو منزلتهم ورفيع قدرهم، ثم جاء بضمير الفصل بين طرفي الكلام، وقلنا: هذا يفيد تقوية النسبة، أولئك ما بهم؟ ما قال: أولئك صادقون، قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} ودخلت "ال" على الخبر {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، ما قال: صادقون، وإنما "هم الصادقون" كأنه لا صادق إلا هم، أو أنهم هم الذين حصّلوا الوصف الكامل من الصدق، يعني هذا يشبه الحصر تقول: فلان هو الكريم، فلان هو العالم، فلان هو البار، يعني كأنه لا بار إلا هو، أو كأنه هو الذي حصّل الوصف الكامل من البر، {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} يقول: هؤلاء هم الصادقون حقًّا، هذه ثلاثة أوصاف في تزكية المهاجرين -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأخزى الله من آذاهم ولعنهم وانتقصهم.

{وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أي: هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.

ثم قال تعالى مادحًا الأنصار ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير منهم.

لاحظ الآن {وَالَّذِينَ تبوءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} هنا يرد سؤال: تبوءوا يعني سكنوا استوطنوا الدار وهي المدينة، {تبوءوا الدَّارَ} الدار تُسكن كما هو معروف لكن الإيمان هل يسكن؟ هل الإيمان مكان يسكنون فيه؟ فكيف قال: {تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}؟ الدار يسكنونها ولكن الإيمان لا يسكنونه فكيف عطف الإيمان على الدار؟ العلماء أجابوا على هذا بأجوبة متعددة فبعضهم يقول: هذا منصوب بفعل غير تبوءوا، يعني أن قوله: {وَالْإِيمَانَ} ليس العامل فيه تبوءوا، لكن هناك فعل مقدر يتعلق به، أي تبوءوا الدار واعتقدوا الإيمان، كقوله تعالى: {فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ} [سورة يونس:٧١] ليس معناه فأجمعوا شركاءكم، لا، وإنما فأجمِعوا أمركم وادعوا شركاءكم، فيكون بهذا الاعتبار.

وبعضهم يقول: إنه على حذف مضاف، أي تبوءوا الدار ومواضع الإيمان، والذي قبله أحسن وأوضح، وبعضهم يقول: إن المقدر هو فعل يدل عليه تبوءوا، الآن "والذين تبوءوا الدار" سكنوا الدار، يعني كأنهم لزموها، إذاً تبوءوا الدار لزموا الدار، ولزموا الإيمان، وبعضهم يقول: إن الواو أصلًا للمعية، وإن الإيمان مفعول معه، ولا تقدير، يعني الأقوال السابقة بناء على أن قوله: {وَالْإِيمَانَ} متعلق بمقدر محذوف، وأوضحُ

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى، برقم (٥٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما الأعمال بالنية)) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، برقم (١٩٠٧).

ما هنالك من التقديرات هو {وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ} واعتقدوا الإيمان أو لزموا الإيمان، وبعضهم يقول: الواو واو المعية، وإن الإيمان مفعول معه، والتبوء ما معناه؟ التمكن والاستقرار، أصله من اتخاذ المَبَاءة وهي البقعة التي يبوء إليها صاحبها، يعني يرجع إليها بعد انتشاره في حاجاته وأعماله {فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ} [سورة الأنفال:١٦]، ((فليتبوأ مقعده من النار))[٧]، أصله من اتخاذ المباءة وهي البقعة -المكان- التي يبوء إليها بعد تصرفه وانتقاله وذهابه ومجيئه وما أشبه ذلك، ويرد هنا سؤال وهو من الذي آمن أولًا المهاجرون أو الأنصار؟ المهاجرون آمنوا أولًا فكيف قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} أي من قبل المهاجرين؟، فكيف كانوا بهذه المثابة مع أن المهاجرين آمنوا قبل الأنصار؟ فما الجواب؟

الجواب أنه باعتبار مجموع الأمرين، {وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ}، باعتبار مجموع الأمرين يعني سكنى المدينة بجانب الإيمان، من الذي كان قبلُ باعتبار مجموع الأمرين؟ الأنصار -رضي الله عنهم-، جاءوا وبايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بيعة العقبة الأولى ثم الثانية ثم انتشر الإيمان في بيوت الأنصار -رضي الله عنهم- قبل مهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقبل مجيء المهاجرين إليهم، كان بعث إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مصعب بن عمير -رضي الله عنه- يعملهم القرآن، ثم بعد ذلك بدأ المهاجرون يتوافدون، فالذين سبقوا بهذا الاعتبار -سكنى المدينة مع الإيمان- هم الأنصار -رضي الله عنهم- فباعتبار مجموع الأمرين يكون الجواب عن هذا السؤال، وهو قوله: {مِن قَبْلِهِمْ} لاحظ أنه ذكر الأمرين {تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} قبل المهاجرين، قبل ما يأتي المهاجرون إلى المدينة ويستوطنونها.

والمراد بالدار البلاد، وأصلها موضع القبيلة من الأرض، منازل القبيلة، وصارت بعد ذلك تطلق على البلدة أو القرية أو المدينة يقال: الدار كما تجدون في أشعار العرب، وفي كلام العرب لا يوجد بلدة ولا مدينة غالبًا، وإنما: يا دار ميّة، يا دار عبلة، وأحيانًا هذه الدار قد لا تكون مدينة أو قرية، وإنما تكون أحيانًا بيوتًا من الشَّعر في البرية مثلًا، فـــ "أمرُّ على الديار" وما أشبه ذلك من كلام الشعراء في الآثار التي يشاهدونها تذكرهم بالمحبوب، فهؤلاء لربما ارتحلوا من هذا المكان فيمر الشاعر ويتذكر محبوبته وما إلى ذلك مع أن أولئك قد ظعنوا.

هذه الآية: {وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} هل هذه جملة جديدة يبين الله فيها فضل الأنصار ويمدحهم، أو أنها معطوفة أيضًا على ما قبلها؟ قلنا: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ} هذه متعلقة بما قبها، أنهم أحق من يُعطَى الفيء، فهل هذه الآية أيضًا في الأنصار معطوفة على ما قبلها يعني أن الفيء حق الفقراء من المهاجرين، والأنصار؟ فمن قال: إنها معطوفة عليها قال: هم كذلك لهم حق في الفيء، وهذا مروي عن عمر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وبعضهم يقول: ليست بمعطوفة عليها، وإنما هذه فقط يبين الله فيها فضل الأنصار ويثني عليهم لمّا ذكر المهاجرين، وهذا الذي رجحه القرطبي -رحمه الله-، والأقرب -والله أعلم- أنها معطوفة عليها؛ ولهذا كان عمر -رضي الله عنه- يوصل هذه الأموال إلى جميع المسلمين من الأنصار والمهاجرين بل ولمن جاء

---

٧ - رواه البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تغليظ الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢).

بعدهم كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** أنهم يستحقون الفيء إذا كانوا بالصفة التي ذكرها الله تعالى.

فهذا الفيء يصل إلى الجميع، ولهذا عمر -رضي الله تعالى عنه- كان في آخر حياته يذكر أنه إن مُد له في العمر أن هذا المال سيصل إلى راعي الغنم وهو على جبل في صنعاء أو في اليمن من غير أن يمشي إليه، من غير أن يطلب هذا المال، يعني لا يحتاج أن يقدم طلبًا حتى يصل إليه، إنما يصله ماله ومحفوظة كرامته، لم تكن هناك وسائل ولا تحويلات ولا تسهيلات، ولا طرق الاتصال الموجودة اليوم ومع ذلك يصل إليه ولو كان في جبل يرعى غنمه في أرض اليمن، فكل واحد من هؤلاء له حق في بيت المال فيُقسم بينهم، هل يقسم بينهم بالتساوي؟

الجواب: لا، وإنما بحسب بلاء الرجل وسابقته إلى الإسلام، بلاء الرجل في نفع الإسلام، لكن يُعطَى الناس ما يسد حاجتهم، ما يتركون للفقر، أو تترك المرأة بحيث إنها تذهب تبحث عن عمل فتكون أجيرة، وتترك وتضيع بيتها وأولادها بحكم الحاجة، لا، تُكفَى وهي في بيتها، هذا دين الإسلام الذي يرعى للإنسان المسلم كرامته وحرمته، ويرعى حاجات الناس ولا يضيع هؤلاء من أفراد المجتمع، ويتركهم يضطرون إلى البحث عن لقمة العيش رجالًا ونساءً ولو كان ذلك على حساب رعاية الأولاد والأسرة، ويكثر الطلاق والمشكلات الزوجية، وتتحمل المرأة ما لا تطيق، فالإسلام لا يفتح الآفاق للمرأة من أجل أن يوجد لها فرصًا للعمل خارج المنزل، بل يأمرها بالبقاء في بيتها **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}** [سورة الأحزاب:٣٣] فهذا يكون فيه محافظة على طهارة المجتمع، المرأة تبقى في بيتها، وتُعطَى ما يكفيها من بيت المال، فلا تحتاج إلى أن تخرج وتشتغل كأجيرة عند الغير، بل كانوا العرب يعيرون من كان بهذه المثابة كما يقول جرير يهجو رهط الأخطل النصراني من بني تغلب يقول:

والتغلبيون بئسَ الفحلُ فحلُهُمُ *** فَحلًا وأمُّهُمُ زَلّاء مِنْطِيقُ

يعني أنهم من الفقر تضطر المرأة أن تخرج فتعمل أجيرة، فهذا الخروج وكثرة الخروج والعمل يؤثر على تركيب المرأة وعلى بنيتها، فتكون هزيلة، والهزال صفة غير محمودة عند العرب بالنسبة للمرأة، هزيلة فيذهب رونقها وجمالها، وماذا تفعل حتى تتجمل وتعوض هذا الهزال الذي أصابها وتبدو جميلة؟ "وأمهم زلاء" يعني ليس لها أوراك، ومن أعظم الصفات عند العرب في الجمال أن تكون المرأة ذات لحم، فماذا تفعل هذه؟ زلاء منطيق أي تربط النطاق -الحزام- في الوسط وتضع الخرق على مؤخرتها؛ لتبدو عجيزتها ضخمة بالخرق، وهذا معنى المثل الذي يقوله العامة عندنا اليوم: فلان يكبّر كذا بالخِرق، يعني يتشبع بما لم يعطَ، إذا رأوا شخصًا يتشبع بما لم يعطَ يُظهر الغنى وليس بغني، يركب سيارات فارهة وهو يشتريها بالأقساط أو يستأجر سيارات فخمة ويأتي لمناسبات، ويُظهر أنه غني أو نحو ذلك من ألوان العلل والأدواء التي توجد لدى بعض الناس، يقولون: فلان يكبِّر كذا بالخِرق، يصرحون بالعبارة، هذا معناه، هذا أصله أن المرأة إذا أصابها هزال تربط النطاق وتضخِّم، واليوم تباع عباءات -كما سمعت- فيها شيء من الإسفنج في ذلك الموضع فتبدو كأنها ما شاء الله وليست كذلك، "وأمهم زلاء منطيق" لما كانت تضطر أن تخرج أجيرة

تشتغل يصيبها الهزال فتضطر إلى التجمل بهذه الطريقة، فالشريعة جاءت لمعالجة هذه القضايا حين أمرتها بالبقاء في البيت {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} ما ضيعتها، وإنما أعطتها ما يكفيها، فيُعطَى الناس بحسب سابقتهم وبلائهم ونفعهم وغَنائهم عن المسلمين، فليس الذي له غنى ونفع كالذي ليس له شيء من ذلك، هذا تكريم المرأة، وصيانة المرأة، والمحافظة على حقوق المرأة، ورعاية المرأة، والدفاع عن المرأة، وتبني قضايا المرأة كلها بهذه الطريقة الشرعية، لا أن يزج بها في الأعمال في كل مكان تشتغل مخالطة للرجال، وتذهب وتخرج في أول النهار ولا ترجع إلا منهكة متعبة لا تفيق لولد ولا لزوج ولا لغير ذلك، فالمرأة ضعيفة لا تحتمل هذا، وللأسف الغرب يستفزون المسلمين حينما يجعلون نسب البطالة وما إلى ذلك ويحسبون في هذا النساء، ويقولون: نسبة البطالة كذا، وفي الواقع المرأة تقوم بهذه الوظيفة من تربية الجيل والأولاد إلى آخره فليست في بطالة، فتنتشر هذه الثقافة للأسف، وتجد المرأة الغنية تسابق الفقيرة في البحث عن الوظائف ولو بأجر زهيد وهم أغنياء وتشتغل براتب زهيد قد يكون بـــ (١٢٠٠) ريال، وفي مكان بعيد ناءٍ، وتذهب، ولربما ذهب أبوها وأمها انتقلوا وهم أغنياء من أجل أنها تتوظف، فإذا جلست وهي معها شنطة ماركة، وتحدث الناس أنتِ تشتغلين أو عاطلة؟ تقول: لا أنا موظفة، فهي تفتخر، تشعر أن هذا يعطيها قيمة في المجتمع، وأنها تمثل شيئًا في المجتمع له أهمية، وتذهب وتنتقل مع أبيها وأمها، أو تذهب مع نظيرات لها ومثيلات لربما مئات الكيلو مترات من قبل طلوع الفجر كل يوم ولا ترجع إلا في العشاء أو المغرب، أماكن نائية بعيدة وهي غنية، لا نقول: الفقر الذي حملها على هذا، وإنما هي في غاية الغنى، ولكن هي تريد أن يكون لها عمل ووظيفة تقوم بها، ونسيت وظيفتها الحقيقية كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–: يصورون للمرأة أنها إذا كانت في البيت فهي حبيسة كالدجاجة، يقول: فيضطرون إلى المجيء بخادم وما إلى ذلك فيكون ذلك حبيسًا كالدجاجة، ولهذا في بعض التقارير الصادرة عن الأمم المتحدة يذكرون أن المرأة العاملة تكلف أو تكبد الناتج المحلي والاقتصاد ما لا يقل عن ٤٠% يكون تبعة على هذا الاقتصاد وعلى كاهله، هذه المرأة التي تخرج تحتاج إلى مواصلات، وتحتاج إلى سيارة، وتحتاج إلى سائق، وتحتاج إلى خادمة، وربما مربية للأولاد، أين يذهبون؟ يُدفع لهم في حضانة أو تأتي بمربية، فيقوم مجموعة من الناس يشتغلون على حساب خروج حضرتها كما يقال، يعني تحتاج سائقًا، وتحتاج خادمة في البيت، وتحتاج مربية، وتحتاج طباخة، فكم شغلنا من هؤلاء الناس لتخرج هي؟! لكن لو بقيت كفينا من هذا كله، وصار أوفر.

قال عمر: "وأُوصِي الخليفةَ بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلُ أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم"[٨] رواه البخاري هاهنا أيضًا.

قوله تعالى: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، روى الإمام أحمد عن أنس قال: "قال المهاجرون يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم

---

٨ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ}، برقم (٤٨٨٨).

أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا في كثير فقد كفونا المُؤْنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم"[٩]، لم أره في الكتب من هذا الوجه.

كفونا المُؤْنة بمعنى أنه كما سبق أن المهاجرين لا يعملون في الأرض بالزرع، وشاركونا في المهنأ يعني الثمرة، لاحظ هذه الأوصاف للأنصار **{وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ}** الوصف الأول، **{يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}** هذه شهادة من الله -تبارك وتعالى- لهم، يعني ما استثقلوا هؤلاء **{وَالَّذِينَ جَاءُوا}** جاءوا في غاية الفقر في الغالب، يعني ربما يأتي الرجل ما عليه إلا إزار فقط، ما عليه رداء، فقر مُدقِع، ما قالوا: هؤلاء جاءوا إلينا وكاثرونا كما كان يقول عبد الله بن أبي رئيس المنافقين، كان نصحهم منذ البداية ألا يستقبلوهم من أجل ألا تكون المدينة محلًا لتجمع المهاجرين من مكة ومن غيرها؛ لأن المهاجرين كانوا يأتون من نواحٍ مختلفة ليس من مكة فقط فكان يقول: **{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}** [سورة المنافقون:٧] يعني حتى يطلبوا دارًا وبلدًا آخر غير هذا البلد، فما استثقلوهم وقالوا: هؤلاء صاروا عبئًا علينا، وصاروا في بعض الأوقات أكثر من الأنصار وزاحمونا في بلادنا وأكلوا خيراتنا، وإنما **{يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}** يحبونهم ما ينظرون إليهم بنظرة دونية أنهم طبقة ثانية، ويسمونهم بأسماء قد لا تكون مناسبة، لا، انظروا إلى الأسماء الشريفة الأسماء الشرعية: مهاجرون وأنصار، هؤلاء يحبونهم، وهذه شهادة من الله -عز وجل-، يعني ليست مجاملات أو مشاعر زائفة، يحبون من هاجر إليهم ما ينظرون إليهم باعتبار أنهم يمثلون عبئًا ثقيلًا عليهم.

وروى البخاري عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: "دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنصار أن يُقطِع لهم البحرين...

البحرين: هذا الساحل، الإحساء، وكله يقال له: البحرين، وفد عبد القيس جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من البحرين، كل هذا الساحل يقال له: البحرين.

قالوا: لا، إلا أن تُقطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال: ((إمّا لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة))"[١٠] تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: "قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقال: أتكفونا المُؤْنة ونشرككم في الثمرة؟، قالوا: سمعنا وأطعنا"[١١]، تفرد به دون مسلم.

هذا أين يوجد؟ هم يقولون: اقسم الأصل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقترح عليهم أن تكون الثمرة بينهم والأصل يكون للأنصار، كان بالإمكان أن يقولوا: الجميع أصلًا لنا، لاحظ يقاسمونهم الثمرة ولا يعملون بسقي ولا زرع ولا حرث ولا شيء، لما تأتي الثمرة تكون بينهم هذا إن وُجد، هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون على أتفه الأشياء، وتمتد الحروب إلى أربعين سنة وأكثر على توافه كما هو معروف في الحروب التي كانت بين

---

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٠٧٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

١٠ - رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- للأنصار: ((اصبروا حتى تلقوني على الحوض))، برقم (٣٧٩٤).

١١ - رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مئونة النخل وغيره، وتشركني في الثمر، برقم (٢٣٢٥).

العرب أوس وخزرج، كانت بينهم حروب طويلة، وغير الأوس والخزرج، لربما على سباق بين فرسين أو ناقتين تمتد حرب إلى أربعين سنة، ونهب وسلب، ثم جاء الإسلام وأعادهم صياغة جديدة كاملة، هذه الحال يمكن أن ترجع من جديد، لكن متى ترجع؟ إذا صار القرآن يمثل واقعًا يحياه المسلمون، ولم يعد مجرد كتاب يقرأ في المناسبات، أو في رمضان طلبًا للأجر، وينظر إليه باعتبار أنه كتاب يقرأ للبركة، إنما هو كتاب يعيد صياغة الحياة من جديد، والنفوس والعقول والتفكير والتصورات من جديد، فتتحول إلى شيء آخر، لكن ركام الغفلة بجانب الجهل والبعد عن القرآن، والاشتغال بالماديات، والتهافت على الدنيا، وغلبة الشح على النفوس، وقلة التربية والتهذيب، كل هذا يجتمع فتتحول النفوس إلى نفوس ضئيلة صغيرة حقيرة لا تنظر إلا بعين البهيمة، تناطح وتعارك وتصارع على الحوض الذي يوضع فيه العلف، هي لا تنظر إلا إلى نفسها فقط، فهي مستعدة أن تنطح وأن تدفع بكل مستطاع من أجل أن تصل إلى مبتغاها، هكذا تتحول النفوس، يشعر الإنسان أن رزقه لا يأتي إلا بالصراع والمدافعة للآخرين، كأنهم سيستحوذون على رزقه، فلا تجود النفوس ولا يحصل سخاء ولا بذل، وإنما يكون الشح حاضرًا غالبًا حاكمًا على هذه النفوس مستوليًا عليها -نسأل الله العافية-، ومن ثَمّ تقطع الأرحام وتضيع الحقوق ويحصل المطل وتحصل أنواع المعاملات المحرمة، كل هذا في سبيل تحصيل هذا الحطام، ولا يكتفي الإنسان بما أعطاه الله -عز وجل- بل يتطلع إلى ما في أيدي الآخرين، فيكثر الحسد والبغضاء في المجتمع والتهافت على الدنيا كما هو مشاهد لدى الكثيرين، لكن متى تعود النفوس إلى حالها؟ إذا كانت تتربى على القرآن، وقد تمر أحوال في المجتمعات وشدائد يحصل بها شيء من نسيان الذات، ويحصل بها الإيثار وتسمو النفوس وتزكو، ويشعر الإنسان بالآخرين، وبآلامهم كما هو مشاهد، لو نظرت وسمعت وقرأت واطلعت على أحوال جرت لإخواننا في ليبيا مثلًا في أيام الحرب تجد الناس كانوا حينما ينتقل أهل مدينة إلى أخرى، يفرون من القتل والاغتصاب والتدمير ليس عندهم شيء فيستقبلهم أهل البلد الآخر ويسكنون معهم في بيوتهم ويقاسمونهم أقواتهم فيشعرون بهذه المشاعر وهم يصرحون بها، وقد سمعت في بعض المقابلات التي أجريت لعدد من هؤلاء الناس العوام، كانوا يقولون: سبحان الله! الآن تذكرنا الأنصار، يعني أجريتْ مقابلات للذين انتقلوا وهاجروا، يقولون: تذكرنا وعشنا الأيام التي عاشها الأنصار مع المهاجرين -رضي الله تعالى عنهم- وذقنا هذا المعنى حقيقة في مثل هذه الأوقات والأحوال، والآن إخواننا في سوريا كذلك أيضًا لمن هداه الله -عز وجل- وفتح على قلبه وشرح صدره يحصل هذا الإيثار وتحصل هذه المعاني، ونسأل الله -عز وجل- أن يلهمنا رشدنا.

{وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

هذه الآن صفة أخرى **{وَالَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا}** "لا يجدون في صدورهم" يعني الأنصار، "حاجة" يعني حسدًا مما أُعطي لإخوانهم من المهاجرين دونهم، ما يحسدونهم ويقولون: لماذا يُعطَى هؤلاء ونحن نحرم منه؟! فهذا معنى الحاجة أي الحسد.

وقوله: {مِّمَّا أُوتُوا} قال قتادة: يعني فيما أعطي إخوانهم، وكذا قال ابن زيد.

يعني مما أعطي للمهاجرين دون الأنصار، ما يحسدونهم.

قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} يعني حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} الإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الأخروية، يعني ما يفعل ذلك رياء وسمعة ونحو ذلك، تقديم الغير على النفس في الحظوظ الدنيوية هذا هو الإيثار، ولذلك لا يقال: إن الإيثار يحمد في الحظوظ الدينية والأخروية، فلا يؤثر غيره في أمور فيها طاعة وإلا حجًّ عندنا عدد محدود، يقول: أنا أؤثرك مكاني أن تذهب للحج وأنا أجلس، يقال: هذا ليس زهداً فيما عند الله، كذلك مثلًا الصف الأول يمكن أن يَسْتَهِم الناس تكون قرعة، إذا تشاحّ اثنان على موضع واحد في الصف الأول فإنه يقرع بينهم فهذا من الحظوظ الأخروية، لا يقدم، وإن تكلم العلماء في بعض الاستثناءات والصور هل يقدم العالم؟ هل يقدم الوالد؟ هل يقدم الإمام العادل؟ هل يؤثره على نفسه في الصف الأول أو لا؟ لكن الأصل أنه لا إيثار في الحظوظ الأخروية، وفي الأمور الشرعية، لكن في الأمور الدنيوية لاحظ "يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" يعني إذا كان الإيثار تقديم الغير على النفس في الحظوظ الدنيوية مع الغنى والسعة هذا لا يقال له: إيثار، هنا طعام كثير وعندنا مائة مقعد، مائة كرسي وموائد ويجلس عليها عشرة أو عشرون أو ثلاثون من الناس، وهذا يقول: لا، أنت اجلس هنا، وهذا يقول: أنت اجلس هنا، هذا إيثار؟ هذه مجاملات ليس بإيثار، لكن لو كان الناس في حاجة وجوع ولا يوجد إلا طعام قليل ويقول: لا، أنت تأخذ، أنت تأكل، هذا يأخذ طعامه ويذهب به إلى من هم أحوج منه، إلى من هم أفقر منه، وهو في غاية العطش وليس عنده إلا ماء قليل، فيعطيه أخاه، هذا هو الإيثار، أو هو بحاجة إلى اللباس فيعطيه ويقدمه على نفسه، هذا هو الإيثار، لا يوجد إلا كرسي واحد وهو منهك متعب، لا يوجد إلا هذا المكان فيقول له: أنت اجلس عليه وأنا أظل واقفًا، مرضى في مستشفى هذا متعب وهذا متعب وكذا، ومكان مزدحم ورأى إنسانًا أكبر فيقول: لا، أنت اجلس هنا وأنا أظل واقفًا، فهذا إيثار، رأى إنسانًا يعاني من البرد وعليه معطف فأعطاه إياه وجلس يتحمل هو البرد، فهذا يكون من قبيل الإيثار، أما إذا كان الناس في بحبوحة من العيش والخيرات كثيرة ومتساوية فعند ذلك لا يكون هذا من قبيل الإيثار، {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} قال: **يعني حاجة**، فالخصاصة هي الحاجة التي تختل بها الحال بصرف النظر عما أخذت منه واشتقت منه هذه المادة، يعني بعضهم يقول: أصلها من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر، يعني كأنه انفرد بحاجته، يعني كأنه صار في حال ليس فيها غيره، يقول بعض الناس: نحن في حالة ما فيها أحد، يعني ما في أحد من الناس مثلنا، في مثل الحال التي نحن فيها، في مثل المعاناة التي نعانيها، "ولو كان بهم خصاصة" كأنهم قد فاضوا في هذه الحاجة، واختصوا بها من بين سائر الناس، وبعضهم يقول: "ولو كان بهم خصاصة" أي: خَلّة، فرق بين الخَلّة والخُلّة، الخُلة: درجة عالية في المحبة، والخَلة: هي الفقر والحاجة، كأنه كما يقول بعض أهل العلم: مأخوذ من خَصاص الدار، البيوت في السابق مبنية من اللبِن والطين، والسقف من جريد، فيبقى فيه بعض المسام تسلل منها أشعة الشمس، فهذا يقال له: خَصاص الدار، خَلة بين الجريد تدخل منها الأشعة، هذه الخَلة يقال لها: خصاص الدار، أي فجوات ومسام تدخل منها أشعة الشمس، {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} خَلة، هنا خلة

أي فقر، وأيضًا الخَلة هي تلك المسام الضيقة التي تدخل منها أشعة الشمس، فلو كانوا في هذا الحال من الخَلة والضيق والشدة فكل خرق في المناخل أو الأبواب أو حتى السحاب فهي فجوات يقال لها: خَصاص، والواحد خصاصة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أفضل الصدقة جهد المقل))، يعني **{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** فهذا أعظم فرق بين واحد يملك مليارات وتصدق بمائة ألف وبين واحد كل ما عنده ثلاثة ريالات وتصدق بها، ثلاثة ريالات يشتري بها خبزًا وتصدق بها هذه أعظم من المائة الألف التي تصدق بها هذا الذي يملك مائة مليار، مائة ألف لا شيء، لا تؤثر، هذه مثل حجر رميته في بحر، طائر أخذ بمنقاره من البحر ماذا يؤثر؟!.

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أفضل الصدقة جهد المقل))[١٢]، وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى بقوله: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [سورة الإنسان:٨].

هناك "ويطعمون الطعام على حبه" فهذا قد يكون يحبه، لكن عنده بدائل، عنده غير هذا الطعام، يعني معناه أنه ما يعطي الفضلة من الطعام، أو الأشياء التي بدأ الخراب والتلف يخالطها، تقول: هذه الفاكهة ذبلت الآن أعطوها أحدًا، التمر هذا تغير، اسود، ظهر الرطب، الآن لسنا بحاجة إليه تصدقوا به، لكن هذا لا تعطونه، هذا جيد هذا أحضرناه اليوم، لا يختلط عليكم مع هذا، انتبهوا تتصدقون بهذا تخطئون، هذا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى العذق في المسجد من الشيص علقه الرجل: ((إن صاحب هذا يأكله شيصًا يوم القيامة))[١٣]، فهذا الذي لا يتصدق إلا بالثوب البالي، ويكون في غاية الحرص يقلب ما يشك فيه، هل فيه مدى وصلاحية أو لا؟ فيه نفس أو ما فيه نفس؟ هذا الثوب أتصدق به؟ لا، يمكن أن نحتاجه، هذا لا بأس به جيد، أعطيه هذه، وهكذا الأطعمة، ليس معنى ذلك أن الإنسان يتلف هذه الأشياء ويرميها في النفايات ثم يحرم منها من يحتاجون إليها وينتفعون بها، لا، يعطيها يتصدق بها لكن لا تكون صدقاتنا محصورة بهذا النوع من الصدقات، هذا خطأ، إنما **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}** [سورة آل عمران:٩٢]، فينفق مما يحب، وفي الوقت نفسه لا يضيع شيئًا من هذه الأموال والأعيان التي يمكن أن ينتفع بها غيره إذا فاضت عن حاجته من طعام ولباس وما إلى ذلك، ينتفع بها الفقراء، لكن لا تكون الصدقة هي فقط من هذا كما يفعل بعض الناس يعطي ما لا يريد **{وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}** [سورة البقرة:٢٦٧]، يعني لو أعطاك إياه أحد ما تأخذ هذا إلا على وجه من الإغماض، يعني تأخذه مجاملة ثم بعد ذلك تتخلص منه، وإلا فأنت تترفع عنه لا تريد هذا ولا تقبل أن يُدفع إليك، لو أحد جاء إليكم وقال: هذه هدية، هذه والله

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢١٥٤٦)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف جداً لجهالة عبيد بن الخشخاش، ولضعف أبي عمر الدمشقي، وقال الدارقطني: المسعودي عن أبي عمر الدمشقي متروك، المسعودي: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (١٠١٨).

١٣ - رواه الطبراني في الكبير، برقم (٩٩)، ولفظه: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل المسجد وبيده عصا فرأى أقناء معلقة فطعن في قنو منها فإذا فيه حشف فقال: ((من صاحب هذا؟ لو تصدق بأطيب منه، إن صاحب هذا ليأكل الحشف يوم القيامة)).

فاكهة تفضلوا، هذه أهديناها إليكم فتحتَ الفاكهة وجدتها ذابلة يخالطها العفن ستقول: ما هذا؟ كيف يمكن للإنسان أن يقدم مثل هذا؟، وأنت لماذا تتصدق بهذا؟.

وقوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [سورة البقرة:١٧٧] فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع حاجتهم وخصاصتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدق الصديق -رضي الله عنه- بجميع ماله، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أبقيت لأهلك؟))، فقال -رضي الله عنه-: أبقيت لهم الله ورسوله[١٤].

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرين ولم يشربه أحد منهم -رضي الله عنهم وأرضاهم.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا رجل يضيف هذا الليلة -رحمه الله؟))، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلتْ، ثم غدا الرجل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((لقد عجب الله -عز وجل- أو ضحك- من فلان وفلانة))، وأنزل الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[١٥] وكذا رواه البخاري في موضع آخر ومسلم من طرق عن فضيل بن غزوان به نحوه، وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة -رضي الله تعالى عنه.

وقوله تعالى: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، روى أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم))[١٦] انفرد بإخراجه مسلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، يعني هذا التذييل بعد قوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} يدل على أن هؤلاء لسلامتهم من الشح، وتخلصهم منه حصل منهم هذا الإيثار، {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} هؤلاء بإيثارهم سلموا من الشح، والشح بعضهم يقول: هو مرادف للبخل، وبعضهم يقول: أشد من البخل، وهو عند البعض بخل خاص، أي بخل مع حرص،

---

١٤ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، برقم (١٦٧٨)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كليهما، برقم (٣٦٧٥)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وقال الألباني: "إسناده حسن، وهو على شرط مسلم" في صحيح أبي داود، برقم (١٤٧٣).

١٥ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} الآية، برقم (٤٨٨٩).

١٦ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨).

قد يكون الإنسان بخيلًا، ولكن قد يزداد هذا البخل عنده فيكون عنده حرص زائد، لا تذهب شاردة ولا واردة إلا بشق الأنفس، النفس تذهب معها –نسأل الله العافية–، وبعضهم يقول: إن الفرق بينهما أن البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، وأما الشح فهو أن يتشوف إلى ما في أيدي الناس، وبعضهم يقول: إن أحدهما يتصل بالصفة النفسانية يعني الصفة الداخلية، والثاني يتصل بالممارسة والأثر والنتيجة، وبعضهم يفرق بينهما باعتبار أن أحدهما أن يبخل على الناس، والثاني أن يبخل على نفسه.

وبعضهم يقول غير ذلك في منع الحقوق، ما يتعلق بالله، وما يتعلق بحقوق المخلوقين، فالذي يمنع الحقوق الواجبة هذا أشد، والذي لا يَخرج من يده شيء ولا يتصدق ولا ينفق، ولا، ولا، فهذا إذا كان يعطي الحقوق الواجبة فهو أخف من الأول، يعني بعض الناس يملك أموالًا طائلة يعترف ويقول: لا أستطيع أن أخرج الزكاة! بعضهم يقول: ما استطعت! والمال إذا كثر طبعًا تكثر الزكاة، لكن هي كم النسبة في الأموال في النقود مثلًا؟ اثنان ونصف بالمائة، هذا شيء يسير، فلو كان هذا الإنسان يملك عشرة آلاف ريال ففيه مائتان وخمسون ريالًا، هذا شيء يسير؛ ولذلك الذين يسألون دائمًا عن الزكاة هم الناس الذين زكواتهم قليلة، عندي بعض الذهب، عندي كذا، وهذا يقول: عندي خمسة وعشرون ألفًا، وهذا يقول: عندي خمسة آلاف، هؤلاء الذين دائمًا يسألون، وأنا لساعتي هذه ما سألني أصحاب المليارات قط في حياتي عن الزكاة، أبدًا، ولا سمعته، الذين دائمًا يسألون وأشغلونا إشغالًا يقولون: عندي خمسة آلاف، عندي أربعة آلاف، عندي سبعون ألفًا كيف أخرج الزكاة؟ كيف أحسبها؟ النساء: عندي شيء من الذهب، عندي كذا، عندي خواتم كيف أخرج زكاتها؟ فإذا كان ما عندي مال أخرج من الذهب نفسه أو لا؟ وهل يجوز أن أحسبها وتكون دينًا عليّ إذا جاءني مال أخرجها أو لا؟ هؤلاء الذين يسألون، لكن إذا كانت الأموال كثيرة ثروة ضخمة الزكاة أحيانًا تكون بملايين، قد تكون الزكاة تصل إلى مائة مليون، إلى مائتي مليون وأكثر، يعني يمكن لتاجر واحد ألا يُبقى فقيرًا في البلد لو أخرج زكاته، وهو لمّا يرى أنه يحتاج أن يخرج هذه المبالغ من الملايين يُخرج خمسين مليونًا، يُخرج مائة مليون هذا مبلغ كبير يصدع له رأسه –نسأل الله العافية–، فهو إذا دفع العشرة الريالات للبائع يده تلصق بالعشرة.

فتجد أن الإنسان في الغالب كلما زاد في الثراء ازداد الإنسان شحًا وبخلًا فلا يخرج الزكاة، وأكثر التجار لا يخرجون الزكاة، ولذلك كما ترون المطر لا ينزل، وإذا نزل فهو مطر وليس بغيث، الأرض كأنها لم تمطر ترونها جرداء ما فيها نبات؛ بسبب منع الزكاة يُمنعون القطر من السماء، فهؤلاء يجنون على الأمة، يجنون على المجتمع، يجنون على البهائم، يجنون على الدواب، يجنون على كل الكائنات الحية وغير الحية، فيستسقي الناس ويأتيهم الغبار، هذا يدل على الشح **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**، بعض هؤلاء يقول: أنا لا أستطيع أن أقدم نقودًا لأحد في البيع والشراء، يقول: بالبطاقة أو بشيك، النقود لا أستطيع أن أخرجها من يدي، يعترف بهذا، وآخر يقول: أنا ممكن أن أخرج عشرين مليونًا، خلال العشر السنوات السابقة ما أخرجت شيئًا، وزكاته في السنة الواحدة ملايين كثيرة، يعني زكاته في السنة الواحدة أكثر من عشرين مليونًا، وهو يريد أن يخرج فقط عشرين مليونًا عن السابق كله، هذا حق للفقراء، لهذه المصارف، ليس لك فيه فضل ولا منة، فإذا كان لا يخرج الزكاة فكيف يتصدق؟! –نسأل الله العافية–، فبعض أهل العلم

يقول: إن الشحيح هو الذي يمنع الزكاة، وكذلك صلة الأرحام والضيافة -وإن وسع على نفسه-، وهكذا من يأكل أموال الناس ظلمًا، والبعض يقول: الشح هو الحالة النفسية، والبخل هو ما يترتب عليها وينشأ عنها من المنع، **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}** فهنا أضاف الشح إلى النفس؛ لشدة تمكنه منها، وغلبته عليها -نسأل الله العافية-، شح غالب على النفوس كما قال الله -عز وجل-: **{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ}** [سورة النساء:١٢٨]، فيحتاج إلى مجاهدة، تحتاج النفس إلى تربية، تحتاج إلى ترويض؛ ولهذا قال: **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ}**، أشار إليهم من بعيد "فأولئك" "هم المفلحون" بضمير الفصل ودخول "ال"؛ لتقوية النسبة، والفلاح قلنا: هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، لاحظ ماذا رتب على الوقاية من الشح، الفلاح باعتبار أن الشح كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))، وفي الحديث الآخر: ((إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا))[١٧]، الشح يحمل صاحبه على كل القبائح، قطيعة الأرحام، مستعد أن ينزل ويهبط إلى أسفل سافلين في أخلاقه، في تعامله، في ظلمه، في مطله، تجد بعض الناس يسأل عن أخذ الزكاة، ونساء وشباب يسألون عن أخذ الزكاة وأبوهم من الأغنياء يملك الملايين، يسألون عن أخذ الزكاة، هذه أنا أسمعها، وتأتي أسئلة وترد هل يجوز لنا أخذ الزكاة؟، لأنه لا ينفق، ممسك لا يَخرج من يده شيء، يقولون: توجد أموال ثروة هائلة لكن لا يصل إلينا شيء منها، هل يجوز أخذ الزكاة؟ الولد ما عنده سيارة، الولد يريد أن يتزوج ويطلب زكاة يقول: هل يجوز لي أخذ الزكاة؟ ونساء يقلن: ما عندنا نفقة، ما عندنا شيء نأكله، بعض النساء تقول: لا توجد في البيت ثلاجة، وهذا غالبًا ما يكون مع الزوجة الثانية، لا توجد ثلاجة، لا يوجد فرن، تقول: آخذ من جارتي في الشقة، آخذ ماء لا يوجد طعام، لا يوجد شيء، طيب كيف تأكلين؟ قالت: إذا جاء في آخر النهار أحضر معه شيئًا آكله، كأنها بهيمة، حتى البهيمة تعطى في أول النهار وفي آخر النهار وربما في وسطه، هذا فقط إذا جاء يضاجعها أحضر معه شيئاً لتأكل، لا يوجد في الشقة شيء غير سرير مستعمل اشتراه من الحراج، غرفة نوم مستعملة فقط -نسأل الله العافية-، هذا الشح، لا نفقة ولا كسوة ولا شيء، ربما ذهبت المرأة بعد إلحاح إلى السوق، ثم يقول لها: يكفيك أن تنظري وأن تتفرجي لا داعي للشراء، كل هذه الأمثلة التي أذكرها هي واقعية، لا أذكر أمثلة افتراضية في الدروس وفي المحاضرات وفي غيرها، هي أمور واقعية لكنني لا أذكر التفاصيل؛ لئلا أذكر أموراً تخص الناس، يوجد من يفعل هذا، وأعرف من النماذج ما لا يكاد يصدق، والله المستعان.

وروى ابن أبي حاتم عن الأسود بن هلال قال: "جاء رجل إلى عبد الله فقال: "يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت؟ فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئًا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله

---

١٧ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الشح، برقم (١٦٩٨)، وأحمد في المسند، برقم (٦٧٩٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٤٨٩).

في القرآن، إنما الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل"[١٨].

هذا تفسير للشح بأكل أموال الناس ظلمًا، لكن هذا ليس بأمر متفق عليه؛ لأن الشح أوسع من هذا.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر:١٠].

هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [سورة التوبة:١٠٠]، فالتابعون لهم بإحسان هم التابعون لآثارهم حسب أوصافهم الجميلة الداعون في السر والعلانية؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ} أي: قائلين: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

هذه الآية الثالثة **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** كما ذكر الحافظ ابن كثير أن الراجح أنها ترجع أيضًا إلى ما قبلها ممن يعطون الفيء، **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا}**، مع أن بعض أهل العلم فسر ذلك بالمهاجرين **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** من المهاجرين جاءوا بعد الأنصار، يعني أن الله مدح الأنصار قال: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}** ثم قال: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** يعني بعد الأنصار وهم المهاجرون فهم يستغفرون للأنصار، هذا قال به بعض أهل العلم، لكنه ضعيف، وبعضهم يقول: هم من أسلم بعد الذين تبوءوا الدار والإيمان، كما يقول قتادة ومجاهد، **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** المقصود بعد المهاجرين والأنصار ممن أسلم، ويدخل فيه من أسلم عام الفتح وبعد ذلك، وكذلك من أسلم بعدهم عبر القرون من التابعين وأتباع التابعين، وكذلك من يولد على الإسلام من الأجيال المتعاقبة، فنحن داخلون في هذا، **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ}** بعد المهاجرين والأنصار، وهنا يدعون لهم **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** فدعاء اللاحق للسابق والخلف للسلف يدل على أنهم على طريقتهم، وعلى منهاجهم يسيرون، وأنهم متبعون لهم، وهو تعليم من الله -تبارك وتعالى- لأهل الإيمان الذين جاءوا بعد هؤلاء أن يدعوا لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن يستغفروا لهم.

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك -رحمه الله- من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: "أُمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأتْ هذه الآية: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} الآية"[١٩].

---

١٨ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٧)، برقم (١٨٨٥٥).

١٩ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٧)، برقم (١٨٨٥٦)، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٧١٩)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

الإمام مالك -رحمه الله- كان يقول: من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو كان في قلبه عليه غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: **{وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}**، ومن ثَمّ فإن الرافضي لا يستحق الفيء؛ لأن هؤلاء لا يستغفرون لهم، وليست صدورهم سليمة لأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المهاجرين والأنصار، إذاً هم ليسوا من الفئة الأولى أي المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من هذه الفئة الثالثة وهم الذين جاءوا من بعدهم، وليس هناك فئة رابعة تستحق الفيء، أو تكون ممن أثنى الله -عز وجل- عليهم، وكما قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها- هنا، وجاء عن بعض السلف كابن أبي ليلى: كان الناس على ثلاث منازل المهاجرون الأولون، والذين اتبعوهم بإحسان، والذين جاءوا من بعدهم، وأحسن ما يكون أن نكون بهذه المنزلة، جاء هذا عن مصعب بن سعد، وبعضهم يقول كما ذكر القرطبي -رحمه الله-: كن شمسًا فإن لم تستطع فكن قمرًا، فإن لم تستطع فكن كوكبًا مضيئًا، فإن لم تستطع فكن كوكبًا صغيرًا، ومن جهة النور لا تنقطع، معنى هذا الكلام كن مهاجرًا، فإن قلت: لا أجد، فكن أنصاريًا، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله.

وجاء عن علي بن الحسين زين العابدين -رحمه الله- أنه جاءه رجل فقال: يا ابن بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما تقول في عثمان؟ كأنه يريده أن يتكلم فيه، فقال له: يا أخي، أنت من قوم قال الله فيهم: **{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ}**؟ قال: لا، قال: فأنت من قوم قال الله فيهم: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}**؟ قال: لا، قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام، وهي قوله: **{وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا...}** الآية.

وجاء عنه أن نفرًا من أهل العراق جاءوا إليه فسبوا أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- ثم عثمان -رضي الله عن الجميع- فأكثروا فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: فمن الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم؟ قالوا: لا، فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين، أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله -عز وجل- فيهم: **{وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ}** قوموا فعل الله بكم وفعل.

وهذه الآية تدل على وجوب محبة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المهاجرين والأنصار؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، كما يقول القرطبي -رحمه الله.

وهنا **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}** الغل هو ما يجده المرء في نفسه من التحامل على غيره، وهذا الغل هو عذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا كان من نعيم أهل الجنة **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [سورة الأعراف:٤٣]؛ لأنه لا يمكن أن يستشعر الإنسان الراحة، ويهنأ بالعيش والملاذ إذا كان قلبه يمتلئ من الغل، فالغل يتعاظم في قلب الإنسان فيضيق له الصدر حتى إنه يظلم له القلب ويسود، فيظهر أثر ذلك على الوجه، يعني إذا تعاظم الغل في قلب الإنسان اسود الوجه، السواد المذموم، وليس الذي هو لون من الألوان، يعني ترى صاحب الغل يظهر هذا في وجهه -نسأل الله العافية-، وهنا هذا الختم بهذه الآية: **{وَلَا تَجْعَلْ}** المسألة

تحتاج إلى دعاء حتى يتخلص الإنسان من الغل، **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رءوف رَّحِيمٌ}**، الرأفة رحمة رقيقة، أرق الرحمة، فهذا التخلص من الغل يكون لمن رأف الله به ورحمه، ولا يُسلَم الإنسان -نسأل الله العافية- إلى نفسه فيكون أسيرًا لهذه المشاعر البائسة، ومن ثمّ فإنه يبقى في عذاب وعناء وشقاء يطحنه طحناً، ولا يستطيع أن ينام، يتقلب على فراشه من شدة ما يجد -نسأل الله العافية-، فهذا وصف مذموم، بعض الناس -نسأل الله العافية- هو مثل الجمل يحمل في قلبه الغل ولا ينسى الإساءة، ويتربص بهؤلاء الدوائر، لا ينسى لهم الإساءة مهما اعتذروا ومهما تلطفوا، ومنهم من يحمل الغل ولكنه يبقى زماناً وهو يحمله حتى يتخلص منه بألوان المجاهدات، يعني يحتاج إلى مجاهدة كثيرة، يحتاج إلى وقت حتى يخف ويتلاشى ذلك من نفسه، ومنهم من يحمل الغل ولكنه يقبل الاعتذار ويؤثر فيه الإحسان ويذهب ذلك من نفسه ولا يطول، ومنهم من يكون سليم الصدر، قد أعطاه الله وحباه، فهو نظيف القلب لا يتحامل على أحد من المسلمين، مخموم القلب لا يحمل غلًّا ولا غشًّا على أحد من المسلمين، فهذه نعمة عظيمة جدًا قد ينعم الله -عز وجل- بها على بعض العباد، وقد يدخل الجنة بسبب هذا، وتعرفون حديث عبد الله بن عمرو، وقد جوّد إسناده جمع من أهل العلم كالحافظ ابن كثير، والهيثمي، وآخرين.

مثل هذا يكون من أعظم النعم التي يعطاها العبد، ويكون سبباً لنيل المعالي، والرفعة في الدنيا والآخرة، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحشر من الآية (١١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمستمعين أجمعين يا رب العالمين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} [سورة الحشر:١١-١٧].

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أُبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ}** الآية.

لما ذكر الله -تبارك وتعالى- طوائف المؤمنين الثلاث، وأثنى عليهم ذكر بعد ذلك حال هؤلاء المنافقين معجّبًا نبيه -صلى الله عليه وسلم- من تلك الحال، وكما مضى في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ}** [سورة المجادلة:١٤]، وأن الله عجّب نبيه -صلى الله عليه وسلم- من تلك الحال، وهكذا أيضًا هنا **{أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا}** كعبد الله بن أُبي وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي ورفاعة بن تابوت وأمثال هؤلاء من أهل النفاق، **{يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}**، يعني عندما كان المنافقون كفارًا في الباطن صارت بينهم هذه الأخوّة لإخوانهم من أهل الكتاب، والمقصود اليهود يهود النضير، فإن عبد الله بن أُبي هو الذي قال لهم: اثبتوا ولا تخرجوا من دياركم، وسنقف معكم، ونعينكم وننصركم، ومصيرنا واحد، كما أخبر الله -تبارك وتعالى-، والأخوة كما في سورة الأحزاب **{وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [سورة الأحزاب:١٨] تكون لنوع علاقة، فالأخوة تارة تكون بالنسب، وتارة تكون باعتبار القبيلة، وتارة تكون باعتبار البلد الذي يجمعهم، وتارة تكون باعتبار الاعتقاد، فالمنافقون إخوة لليهود بهذا

الاعتبار أنهم جميعًا كفار في الباطن، والرؤية هنا كما سبق في قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم} يمكن أن تكون بصرية.

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي: لكاذبون فيما وعدوهم به، إما لأنهم قالوا لهم قولا من نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه.

سبق أن الكذب تارة يطلق على هذا، وتارة يطلق على هذا، يعني تارة يطلق على ما يحصل به الخلف بين اللسان والقلب، وهذا هو الذي ورد فيه الذم شرعًا، يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه، التخالف بين قول اللسان وما ينطوي عليه القلب، والإطلاق الآخر وهو أوسع من هذا يقال لكل تخالف بين قول اللسان وما في الخارج، يعني وما يقع أو ما هو واقع، فذلك يقال له: كذب، وابن كثير –رحمه الله– يشير إلى الأمرين، يقول: يحتمل أنهم قالوا ذلك كذبًا وهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك، فيكون التخالف وقع ما بين اللسان وما ينطوي عليه القلب، يعني قالوا لهم بألسنتهم شيئًا لا يريدون أن يحققوه، أو أنهم قالوا شيئًا علم الله أنه لن يحصل، وإن كانوا يريدون في البداية أن يفعلوا حينما قالوا هذا القول، ولكن لن يقع، فهذا الخلف يكون كذبًا، قد مضى الكلام في درس يتصل بقوله تعالى: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [سورة الإسراء:٨٠]، وقلنا هناك: إن الصدق هو الحق الثابت، ويقابله مخرج الكذب، فكل مخرج يكون في باطل فهو مخرج كذب؛ لأن الباطل لا ثبات له فهو ذاهب مضمحل فصح أن يقال عنه: إنه كذب، باطل، ذاهب، زاهق، مضمحل لا حقيقة له، كل ما لا حقيقة له فهو باطل، ويمكن أن يقال عنه: إنه كذب بهذا الاعتبار.

ولهذا قال تعالى: {وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ} أي: لا يقاتلون معهم، {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ} أي: قاتلوا معهم {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} وهذه بشارة مستقلة بنفسها، كقوله تعالى: {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله: {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]؛ **ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} ثم قال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}.**

قوله –تبارك وتعالى–: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} لاحظ عبر هنا بالفعل المضارع {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ} لم يقل: "قالوا" مع أن هذا قد وقع وانتهى؛ لاستحضار الصورة الواقعة كأنك تشاهدها، كأن هذا يحصل الآن أمامك، وهذا كثير في القرآن في قوله –تبارك وتعالى–: {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ} [سورة يوسف:١٦] كأنك تشاهدهم وهم يبكون، وهكذا في قوله: {وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء} [سورة آل عمران:١١٢]، كأنك تشاهد القتل، عبر بالمضارع وهذا أمر كان في الماضي، وهكذا: {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ} اللام للتبليغ، {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} لاحظ هذا قسم باعتبار أن اللام موطئة للقسم، {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ} أي والله لئن أخرجتم لنخرجن معكم، هم يحلفون لهم على هذا الأمر الذي لا حقيقة له، وهو كذب وذاهب ولا يكون، وهذا مثال يذكر كثيرًا على كون الله –تبارك وتعالى– يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، علم ما كان وهو أن هؤلاء أهل النفاق، {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، وعلم ما لا يكون حينما قالوا لهم: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ} هذا أمر لا يقع، ما

كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لاحظ هنا قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ} هذا علم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ} هم لا ينصرونهم لكن لو نصروهم {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}، فاشتملت هذه الآية على هذه الأنواع من علم الله -تبارك وتعالى- للغيوب.

وقوله: {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} الرهبة شدة الخوف كأنه خوف مع تعظيم، خوف شديد مع تعظيم لهذا المرهوب أو لهذا المخوف منه، تقول: هذا الشيء رهيب، هذا الشيء له رهبة، هذا مقام له رهبة، بخلاف حينما تقول: هذا شيء مخيف، وهذا يختلف عن كون الشيء مثلًا مرعبًا، غير رهيب.

فهناك فروقات بين هذه الألفاظ {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} أشد رهبة يعني أشد مرهوبية، فهؤلاء يخشونكم أعظم من خشيتهم لله -تبارك وتعالى-، والسبب في ذلك؛ لأنهم قوم لا يفقهون، والفقه هو علم خاص، يعني ما يحتاج إلى فهم يقال له: فقه، فهؤلاء لو عرفوا الله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته لما تعاظم المخلوق في قلوبهم حتى يصير خوفهم منه أعظم من خوفهم من الله -تبارك وتعالى-؛ ولذلك فإن من أعظم دواعي الخوف من الله -عز وجل- أن يعرف العبد معبوده معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته، فكلما كان العبد بربه أعرف كان له أخوف وأشد تعظيمًا وإجلالًا، فهؤلاء لا يعرفون الله معرفة صحيحة، ولو كانوا يعرفونه ما نافقوا، يقول: {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧] -نسأل الله العافية- هؤلاء بهذه المثابة، وهذه الرهبة في صدورهم؛ لأن القلب هو موضع هذه المعاني من الخوف والرجاء والمحبة وما إلى ذلك، ثم إن هذا من الأمور الخفية الله -تبارك وتعالى- أطلع أهل الإيمان عليها، فكل منافق ففي قلبه من هذه الرهبة لأهل الإيمان بحسب حاله في هذا النفاق، فمن كان نفاقه أعظم كانت الرهبة في قلبه أشدّ؛ ولذلك ينبغي على أهل الإيمان أن يدركوا هذا المعنى، ومن ثمّ فلا يتعاظم المنافق في قلوبهم، ويلقي الشيطان في نفوسهم وقلوبهم المخاوف من هؤلاء المنافقين فيجبنون عن الإنكار عليهم، وعن إقامتهم على أمر الله -تبارك وتعالى-، فذلك كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران:١٧٥] كيف تخاف منه وهو أصلًا إذا دخلت عليه خيل إليه أنه دخل عليه سبع أو أسد وامتلأ قلبه بالرهبة، أما أهل الإيمان الذين عرفوا الله معرفة صحيحة فإن المخلوق لا يتعدى طوره، ولا يتعاظم في نفوسهم فيخافونه كهذا الخوف، فهؤلاء أهل النفاق -نسأل الله العافية- لا يفقهون فوقعوا في هذه المعاطب؛ لأنهم راعوا المُشاهَد وغفلوا عن الغائب، هؤلاء ليس بين أعينهم إلا هذا العالم المادي الذين يشاهدونه، وإذا شاهدوا قوة وشيئًا من الجرأة أو الجيوش أو العتاد أو الآلات الحربية وما إلى ذلك امتلأت قلوبهم من الخوف والرهبة والهلع، فمثل هؤلاء حينما ينظرون في الأمور ويقايسونها فإنهم لا يعول على كلامهم؛ لأن المخلوقين يتعاظمون في نفوسهم، وتقع الرهبة في قلوبهم؛ لأنهم لا ينظرون إلا إلى هذا العالم المشهود ويغفلون عن المغيب.

ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}، ثم قال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}، يعني: أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة.

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} الآيات تتحدث عن المنافقين، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ} يعني المنافقين {قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ} فسياق الآيات في المنافقين، وكثيراً ما تنزّل هذه الآية على اليهود، والسياق في المنافقين لكن قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنهم {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} يعني المنافقين لا يقاتلونكم في جمع، مجتمعين كجيش؛ لأنهم أجبن من ذلك إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر فهم جبناء، وهذا هو الذي سبب لهم هذا النفاق، وصاروا يبيعون المبدأ والدين لكل من غلب بحسب مصالحهم، هذا معنى، وهذا الموضع منها في المنافقين خاصة.

ويحتمل قوله: {جَمِيعًا} معنى آخر {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} يعني مع اليهود، فالمنافقون واليهود لا يقاتلونكم مجتمعين، هم وعدوهم بالنصر وأن المصير واحد، وقالوا لهم هذه الوعود، قالوا لهم: والله {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ} فهنا يحتمل أن يكون المراد لا يقاتلونكم جميعًا يعني المنافقين واليهود، فالسياق في المنافقين لكن قوله: {جَمِيعًا} هو الذي يحتمل معنيين، لكن لا يمكن أن يخرج المنافقون من هذا السياق وتجعل في اليهود خاصة، والأصل أنه مهما أمكن توحيد مرجع الضمائر فهو أولى من تفريقها، وهنا الضمائر متتابعة في المنافقين فكيف يُجعل هذا من بينها في اليهود؟ هذا فيه نظر، والله تعالى أعلم، {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا} يعني على صفة الجيوش التي تجتمع {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} يعني لا يقاتلونكم جميعًا بحال من الأحوال لكن يقاتلونكم في قرى محصنة أو من وراء جدر، وعليه يكون الاستثناء -على قول بعض أهل العلم- من قبيل المنقطع، بمعنى لكن، يعني هم لا يقاتلون جميعًا على صفة جيش يقابل جيشاً، يجتمعون ويقاتلون، وإنما يختبئون خلف الجدران، وخلف الحصون، وباعتبار أنها في المنافقين واليهود معًا يكون الاستثناء متصلًا، يعني أنهم يمكن أن يجتمعوا لكن ليس في ميدان المعركة، فأجبن خلق الله أهل النفاق واليهود، هؤلاء لا يستطيعون أن يجتمعوا في معركة، هؤلاء بنفخة يطيرون، فهذا لابدّ أن يكون قتاله من وراء جدر؛ لأن الجبان لا يستطيع أن يواجه، ولذلك يُذكر عن أول من اكتشف أو اخترع الكلاشنكوف أنه قال: الآن قُتلت الشجاعة بأول رصاصة، يعني كان في السابق الناس الأبطال ينزلون أرض المعركة ويواجهون الأبطال، والقتال ضرب في الحديد، ضرب في الأجسام، وضرب في الرءوس، وضرب بكل مستطاع من سيف ورمح ونبل وفأس وساطور، وإن تكسرت السيوف فالحجارة، هذه كانت الشجاعة في السابق مواجهة، والجبان لا يستطيع؛ لأن أقدامه لا تحمله فبمجرد ما يرى قطرة دم يغمى عليه، هذا إذا جاء، هؤلاء لا يستطيعون هذه المواجهة، فالجبان من بعيد {فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}، والآن عبر الطائرات بحيث يكون في ارتفاع لا تصل إليه المضادات، فيأمن، أو يكون في مكان لا توجد فيه مضادات أصلًا فيضرب من بعيد، أو يكون في غواصة داخل البحر بينه وبين الأعداء ألف ميل، أو بمدافع من بُعد مسافات كيلو مترات بعيدًا لا يراهم ولا يرونه، ما عليه إلا أن يضع هذه الأشياء ثم بعد ذلك لا شأن له بما يقع بعد ذلك، ولا يرى العدو أصلًا، ولا يستطيع أن يواجهه، فإذا حصلت مواجهة مباشرة تخور القوى، فهذا هو حالهم، وهذا هو حالهم اليوم هل رأيتم الأعداء يواجهون وجهًا لوجه؟ أبدًا هم لا يواجهون، وإنما من بعيد بهذه الأسلحة التي وجدت في هذا العصر، وأصبح الشجاع والجبان سواء كما هو الحال في الوسائل الحديثة حيث يسرت للناس أمورًا كثيرة، ففي الأسفار مثلًا كان في السابق لربما لا

يسافر الأسفار البعيدة إلا من كان لديه من الصبر والثبات والقوة ومعرفة الطريق وما إلى ذلك، ويحتاج إلى دليل وما إلى هذا، وأما الآن فأصبح الإنسان يسافر للحج بكل سهولة، في السابق كان من الأسفار المخوفة، والآن لربما حجت بعض النساء مع غير محرم، ويحج الرجل الذي لا يدبر قليلًا ولا كثيرًا، ما عليه إلا أن يركب فقط فإن لم يركب حُمل، ثم بعد ذلك يرجع، ولا حاجة له في أن يدبر قليلًا ولا كثيرًا، لا يحتاج أن يعرف الطرق، وليس خِرِّيتًا ولا صاحب همة وعزيمة، فاستوى أضعف الناس وأقوى الناس وأحسن الناس نظرًا وتدبيرًا في مثل هذه الأمور، فهذان معنيان في قوله: **{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ}**، ومثل ذلك في المصفحات والدبابات يختبئ خلف شيء، الآن لو نظرت إلى إنسان يريد أحد أن يعتدي عليه أو اضطر إلى المدافعة عن نفسه إن دافع عن نفسه لربما خلف الجدار من وراء الجدار، ولا يستطيع أن يقابل الناس، هذا الإنسان حتى في الأشياء العادية البسيطة لو أنه يخاف من دابة أو حشرة أو شيء أو فأرة أو نحو ذلك هذا لا يستطيع، فهو يخاف، وإن اضطر فهو يحتاج إلى أن يكون من وراء الباب بعصا ويغلق الأبواب؛ لأنه يخاف، هذا معلوم، **{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ}**، هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى بالإفراد {أو من وراء جدار} وهذه متواترة لأبي عمرو وابن كثير.

ثم قال تعالى: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} [سورة الأنعام:٦٥].

افتتحت بهذا **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** للاهتمام بالإخبار عن هذا البأس أنه واقع بينهم، وكما سبق في الاحتمالين في قوله: **{جَمِيعًا}** يحتمل أن يكون المراد أن أهل النفاق بأسهم بينهم شديد وكل السياق كما سبق في المنافقين، فإذا قلنا: الآية السابقة في المنافقين **{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا}** أي جبناء، فأيضًا هذه صفة أخرى لهم **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}**، وإذا قلنا: إن قوله: **{جَمِيعًا}** يعني المنافقين واليهود فإن قوله: **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** يعني بينهم عداوة شديدة لكنهم اجتمعوا على حربكم فقط، وإلا فبينهم من الشر والعداوات ما لا يقادر قدره، وقد فُسر بهذا، فبعض أهل العلم يقول: **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** يعني العداوة الواقعة فيما بينهم، وهذا هو المشهور، وهو الأقرب والمناسب للسياق، العداوة عداوة شديدة لكن اجتمعوا لحربكم فقط، وبعضهم يقول: **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** يعني أنهم جبناء عن المواجهة، ولكن إذا كانوا يجلسون مع بعضهم فإنهم يتحدثون عن بطولات وهمية لا حقيقة لها، يعني يذكر أنه فعل وفعل وفعل، هذا في المجالس حينما يأمن، وأنه سيفعل هذا الكلام، وهو بعيد آمن مع أصحابه وأشكاله ونظرائه، يتحدث عن بطولات لا حقيقة لها، وعن أعمال لم تقع وأنه يواجه الأبطال مثل ما يذكر كثير من الشعراء أنه يقطع الفيافي ولا يخاف ولا يجبن ويصبر على المساحات الشاسعة الموحشة التي لا يقطعها إلا الواحد بعد الواحد، وقد لا يكون هذا الكلام له حقيقة، وهذا كثير في كلام الشعراء -والله المستعان- فيكون بهذا الاعتبار أنه **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** يعني في الكلام الذي ينسبونه إلى أنفسهم في الدعاوى الفجة العريضة، يقول لك: أنا لقيت واحدًا وقطعته نصفين وأشياء لا حقيقة لها، وبعضهم يقول: **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** في الملاسنة والكلام، ولكن في ميدان المعركة والمواجهة هم دجاج لها مناقير من حديد، لسان ولكن القلب أجوف، وليس عند هؤلاء شجاعة ولا قوة، وهذا يدل -باعتبار المعنى الذي عليه الأكثر- على اختلاف قلوبهم، وشدة العداوة الواقعة بينهم، فإن قلتَ: هي في المنافقين فهم كذلك بلا

شك؛ لأنه لا يجمعهم جامع إنما كل واحد منهم يحركه هواه، حيثما وجدت مصلحته توجه، فهم لا يرتبطون بعقيدة، وليس لهم مبدأ يجتمعون عليه ويدافعون عنه إطلاقًا، فتجدهم تارة هنا وتارة هناك، وانظر إليهم في مصر على سبيل المثال هؤلاء الذين أشبعوا العالم كلامًا كثيرًا في الليبرالية والحرية في التعبير والحرية في الرأي والحرية في الاقتصاد إلى آخره أنواع الحريات التي تقوم عليها ليبراليتهم، ويطالبون بأن يكون الشعب هو الذي يملك القرار، وأن هذه إرادة الشعب وما إلى ذلك، وانظر إليهم تحولوا إلى بلطجية وباعوا كل هذه الدعاوى العريضة والمبادئ التي كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بها، أحرقوها تمامًا، فهي وإن كانت تحوي كثيرًا من الباطل في منظور الشرع إلا أنهم أيضًا لم يرعوها، ولم يلتفتوا إليها حيث كانت أهواؤهم تخالف ذلك، هم أصحاب هوى ليسوا بأصحاب مبدأ، هؤلاء الذين يقولون: إرادة الشعب وحريته هم من أكثر الناس مخالفة لهذا إذا كانت مصالحهم تقتضي خلافه، أصحاب هوى، أصحاب شهوات، عبيد لهذه النفوس والشهوات، ليسوا أصحاب مبدأ وإن حاولوا أن يرفعوا بعض الشعارات، **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}** هذا المنافق يمكن أن يباع ويشترى، خذها من هذه الآية، يعني لو جاءه أحد وقال له: أنا أدفع لك إما مالًا وإما منصبًا، جاء له هذا الذي يعاديه معاداة شديدة، وجلس معه، وقال: سنعطيك ونوليك وكذا تحول إلى محالف له وترك ما كان يقوله، وتنصل من أصحابه الذين كان متحالفًا معهم، وهكذا فهم عبيد للشهوات.

{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} هذا في المنافقين فكذلك الحال بينهم، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد -رحمه الله-، وإن قلت: إنها في اليهود والمنافقين فهم كذلك اجتمعوا فقط لحربكم، والجامع المشترك هو عداوتكم، وهذا أيضًا يروى عن مجاهد، لكن هناك من قال: إن هذه الآية في المشركين وأهل الكتاب، وهذا وإن قال به مثل سفيان الثوري -رحمه الله- لكنه بعيد، **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}** الآية تتحدث عن المنافقين، فالمقصود أن المنافقين داخلون في الآية قطعًا، ودخول أهل الكتاب تحتمله الآية، لكن تنزيل الآية على اليهود هكذا هذا فيه نظر، يعني أن الآية تتحدث عن اليهود -في صفة اليهود- بهذا الاعتبار لا، وإن كان اليهود فيهم هذه الصفات بلا شك، **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}**، وهناك في رهبتهم من أهل الإيمان التي هي أعظم من خوفهم من الله قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}**.

هناك ذكر الفقه، والفقه علم خاص وهو فهم ما خفي ودق، وهذا يحتاج إلى معرفة تفصيلية بأسماء الله وصفاته وما إلى ذلك، فهؤلاء أبعد الناس عن معرفة الله -جل جلاله-، لكن قضية العقل هنا **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}** في التفرق، فلماذا ذكر العقل هنا والفقه هناك؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن عاقبة التفرق لا تخفى على عاقل، لا تحتاج إلى فقه، فإن التفرق من شأنه أن يورث الفشل والهزيمة، فلو كانوا يعقلون ما حصل بينهم هذا التفرق فإن اجتماعهم هو الشرط الأساس للنصر، والله -عز وجل- يقول: **{وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}** [سورة الأنفال:٤٦] هذه الفاء تدل على التعقيب المباشر، وتدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فهي تدل على التعليل، فالتنازع يكون سببًا للفشل، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، بقدر ما عندنا من التنازع يحصل الفشل، والذين يتنازعون وهم يواجهون الأعداء سواء كانوا في ميدان المعركة الحربية أو في ميدان المعركة الفكرية أو السياسية هؤلاء قوم لا يعقلون، هؤلاء يتربصون بهم الدوائر ثم بعد ذلك يقع هذا التفرق الشديد

والتراشق على الفضائيات، ويعلنون هذا الانقسام وهذه الخلافات يسمعها القريب والبعيد والعدو والصديق، هذا خلاف العقل، وقل مثل ذلك إذا كان في ميدان المعركة، وهذا أخطر، يواجهون عدوًا غاشمًا لا يرقب فيهم إلًّا ولا ذمة ومع ذلك يواجهونه وهم في غاية التفرق، هذا قطعًا خلاف مراد الله –تبارك وتعالى–، لاسيما أنهم لا يختلفون على مبدأ، لا يختلفون على دين، ولكن كيانات، هذا يقول: نحن، وهذا يقول: نحن، –نحن هنا مفخمة من أنا، أعظم وأكبر من أنا–، وهذا يقول: نحن، ولا أحد يريد أن يتنازل عن نحن هذه، ولو كان المبدأ على طريقة شيخ الإسلام ما منِّي شيء ولا لي شيء كانت انتهت كل هذه الأوهام واضمحلت كل تلك الأسماء، واجتمع الناس على الحق، وقالوا: المقصود هو نصر الدين، وإعزاز كلمة الله –عز وجل– فليكن ذلك ولا نُذكَر، ولا يكون لنا شيء، فنحن نريد ما عند الله –تبارك وتعالى–، هذا هو الصحيح، لكن هذا التفرق هو من قلة العقل، يواجهون مصيرًا حتميًّا، يعني إما وجود وإما تلف، وأعداء كثر أنواع، ومع ذلك هذا التفرق في حال الشدة فهم في الرخاء أكثر تفرقًا، ولو لم يكن ربنا –تبارك وتعالى– أمر بالاجتماع **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا}** [سورة آل عمران:١٠٣] –وهذا من المحكمات، والنصوص الواردة فيه كثيرة جدًا، وهي متكررة ومتنوعة– لكان العقل يقضي بالاجتماع، لو لم يرد فيه نص واحد، فكيف بهذه النصوص المتضافرة؟! ولهذا بعضهم يقول: لا توجد أمة عندها من النصوص التي تدعو إلى اجتماع الكلمة كهذه الأمة، وفي الوقت نفسه حالهم تدل على خلاف ذلك تمامًا، كأن هؤلاء قد جاءت هذه النصوص تأمرهم بالتفرق، لا توجد أمة عندها ما يدعو للاجتماع كهذه الأمة، وفي المقابل هم من أكثر الناس تفرقًا وتشرذمًا وانقسامًا، والله المستعان.

ولهذا قال تعالى: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف.

قال إبراهيم النخعي: يعني: أهل الكتاب والمنافقين، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}، ثم قال تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقال ابن عباس: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يعني يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق.

قول الله –تبارك وتعالى–: **{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}** يعني مثل هؤلاء المنافقين ومن تحالفوا معهم من اليهود **{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا}** هنا قيده بقريب، يعني ما يمكن أن نقول: الأمم السابقة التي أهلكت، وإنما هذا في وقت قريب؛ ولهذا قال: حمله بعضهم على بني قينقاع، قال: مصير هؤلاء مثل أولئك اليهود الذين حصل لهم عن وقت قريب ما خُذلوا معه، وأجلاهم النبي –صلى الله عليه وسلم– كما يقوله ابن عباس –رضي الله عنه–، **{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا}** بعضهم يقول: بنو النضير بعد قريظة، لكن كانت وقعة قريظة بعد النضير، في حصار النبي –صلى الله عليه وسلم– للنضير انتقل منه إلى قريظة فصالحوه قبل المرة الثانية التي حصل فيها القتل لهم، يعني النبي –صلى الله عليه وسلم– حاصر النضير ثم انسحب بالجيش إلى قريظة فصالحوه فرجع إلى النضير، **{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}** لكن قريظة في هذه الأثناء ما ذاقوا وبال أمرهم، يعني ماذا حصل لهم؟ حصلت مصالحة، لم يحصل إخراج ولا قتل، وإنما حصل القتل بعد ذلك في السنة الخامسة للهجرة، وبعضهم حمله على بدر، يعني على ما وقع للمشركين في يوم بدر، ونحن عرفنا أن وقعة النضير

كانت بعد غزوة بدر، فهذا أمر قريب، وبعضهم يقول: هذا عام في كل من انتقم الله منه، وهذا لا بأس به مع اعتبار التقييد "قريبًا" فليس لكل من انتقم الله منه ولو منذ زمان بعيد، وإنما منذ وقت وعهد قريب، وابن جرير -رحمه الله- رجح شمولها للفئتين، والله تعالى أعلم.

قال مجاهد، والسدى، ومقاتل بن حيان: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر.

وقال ابن عباس: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يعني: يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة، ومحمد ابن إسحاق.

وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أجلاهم قبل هذا.

هو يشمل هؤلاء اليهود من بني قينقاع وكذلك ما وقع للمشركين في يوم بدر فهي شاملة للفئتين، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، -والله أعلم-؛ لأن الله لم يحدد طائفة فلهم عبرة بما وقع عن قريب، فقد شاهدوه.

{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} "وبال" هذه كلمة واحدة والواو من بنية الكلمة ليست حرف عطف، {ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} يعني جزاء كفرهم، عاقبة كفرهم، يعني نالهم عذاب الله وعقابه على هذا الكفر، وأصل الوبال هو المرعى الوخيم الذي تهش له الدواب، وتستلذ ذلك ثم يقتلها، والمرعى الوخيم يقال له: "وبيل" مرعى وبيل، ويقال: هذا كلأ وبيل، أي وخيم تهش له الدابة لجودته، لجماله، لخضرته، ولكنه يقتلها فيه نباتات سامة قاتلة، يقال: هذا كلأ وبيل، مرعى وبيل، {ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} هذا أخضر حلو تطرب له الدواب ولكن النهاية أنه يحبطها ويقتلها، فشبه هؤلاء في إقدامهم على المسلمين وتحالفهم ضدهم بهذه الدواب والبهائم التي ترتع في مرعى تطرب لرؤيته ولكن نهايتها وحتفها في هذا المرعى، فهنا {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} عاقبة تدبيرهم وفعلهم وكفرهم، ولهذا يمكن أن يقال: {ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ } يعني عاقبة ما دبروه، وأمرهم هو شأنهم.

وقوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ} يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: {وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ} ثم لما حقت الحقائق، وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان -والعياذ بالله- الكفر، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتنصل، وقال: {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}.

هنا أكثر السلف خصوا ذلك بإنسان معين، {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ} يعني باعتبار أن "ال" عهدية، "للإنسان" أي لإنسان معين معهود، وبعضهم كمجاهد يقول: إنها عامة، يعني أن ذلك شأن الشيطان يغري الإنسان بالكفر، ومحادة الله -تبارك وتعالى- ثم يتنصل ويتبرأ منه، كما قال الله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ} [سورة إبراهيم:٢٢] فيتبرأ منهم، وهكذا في يوم بدر كان معهم ولما رأى الملائكة قال: {إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ} [سورة الأنفال:٤٨] فسلمهم إلى مصيرهم المحتوم، فقُتل سراتهم، ومن نجا

من القتل أسر، وهذا هو الراجح، لكن على القول الأول والذي يقوله أكثر السلف هو مبناه على رواية إسرائيلية، لكن لكثرة القائلين بها لا بأس أن يذكر من باب الاعتبار، وخلاصة هذه الرواية أن نفرًا من اليهود أربعة أخوة اكتتبوا في غزوة، وكانت عندهم أخت فتفكروا ونظروا أين يضعونها حينما ينطلقون للغزو، فأتوا راهبًا في صومعته وقالوا له: اكتتبنا في غزوة ونريد أن نضع أختنا عندك حتى نرجع، بحيث يأمنون عليها، فأبى، فقالوا له: نبني لها صومعة قريبة من صومعتك بحيث تكون تحت نظرك وملاحظتك إذا احتاجت أو نابها شيء، فقال: شأنكم، المهم لا تأتي عندي، فبنوا لها صومعة وكانوا إذا ذهبوا للغزو يطيلون لربما جلسوا سنة وأكثر، وخرجوا، فكان هذا الراهب يضع الطعام خارج باب الصومعة ويغلق الباب، وتأتي هي وتأخذ الطعام وتنصرف إلى صومعتها، فجاءه الشيطان فقال له: هذه امرأة وضعيفة وأمانة وعورة وأنت رجل، فلماذا هي التي تخرج من صومعتها وتأتي إلى باب صومعتك من أجل أن تأخذ الطعام؟ لماذا لا تضع أنت الطعام عند باب صومعتها بحيث لا تضطر إلى الخروج، -لاحظ خطوات الشيطان- فصار يضع الطعام عند باب صومعتها ثم ينصرف، فتفتح الباب وتأخذ الطعام، ثم جاءه الشيطان، وقال له: هذه جارية ضعيفة تستوحش من الوحدة في هذه المدة الطويلة ولابدّ لها من مؤانسة، وهي لا تصبر كما تصبر أنت، أنت معتاد على هذا ورجل، وهذه في مكان بعيد عن الناس وخالٍ وتستوحش، لا تجد من يكلمها هذه المدة الطويلة، فلو جلست خارج الباب تسمع صوتك وتأنس بك تحدثها، يعني يحدث عليها، فصار يجلس خارج الباب خارج الصومعة ويحدثها وهي تسمع، -إلى هنا الآن لا إشكال- ثم جاءه الشيطان وقال: لو أنك دخلت داخل الصومعة حتى تراك وتأنس برؤيتك، هي تسمع فقط صوتاً لكن ما ترى أحدًا، فصار يدخل ويحدثها وهو في الصومعة، لاحظ انتقل من كونه يضع الطعام خارج باب صومعته إلى أن صار يدخل في صومعتها، ثم بعد ذلك أغراه الشيطان فوقع بها فحملت ثم قتلها، تخلص منها ودفنها، فجاء إخوتها أين الأمانة؟ فأثنى عليها خيرًا، وقال: رحمها الله أصابها مرض ثم توفيت، فدعوا له وشكروه وانصرفوا، لا يشكون فيه، فأصبحوا ذات يوم متغيرة نفوسهم، فقال أحدهم: لقد رأيت الليلة شيئاً لا أدري ما هو -يعني رأى رؤيا-، ماذا رأيت؟ والثاني يقول: أنا رأيت رؤيا، والثالث والرابع الأربعة كلهم رأوا رؤى، ماذا رأيت؟ فإذا الرؤى متفقة أن الراهب كذب عليهم، وأنه زنا بها، وأنها حملت، وأنه قتلها، وأن المكان الذي أوقفهم عليه على أنه قبر لها ليس قبرها، وقالوا: والله ما هذا إلا لشيء، يعني ما يمكن أن تتفق الرؤى، ثم ذهبوا إلى الملك الذي كان في ذلك العصر وأتوا إلى الراهب وأخذوه ثم بعد ذلك اعترف وأراهم قبرها، وأنه قتلها إلى آخره، فجاءه الشيطان وقال: أنا صاحبك، هذا لا يرجع إليك، يعني هذا الضرر ما يرجع إليك وحدك، هذا يرجع إلى الرهبان وإلى الدين وثقة الناس بالدين وتشويه سمعة رجال الدين، فأخلصك من ذلك كله بسجدة، تسجد لي سجدة وأخلصك من هذا، فهو نظر -في زعمه- إلى المصلحة العامة، ومصلحة الدين، وثقة الناس بالدين، فيقولون: إنه سجد فكان ذهاب نفسه وخاتمته بهذه السجدة، فمات -نسأل الله العافية- بسجدة للشيطان بعدما كان راهباً عابداً، فهذه من خطوات الشيطان، هذه فيها عبرة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حدثوا

عن بني إسرائيل ولا حرج))[1]، وأكثر السلف يذكرون هذه في هذا المقام عند تفسير هذه الآية، وهي مروية عن جمع من الصحابة فمن بعدهم ولا تخلو من عبرة، وهذا مروي عن علي وابن مسعود وابن عباس فضلاً عن بعض التابعين كطاوس وغيرهم، والله المستعان.

{فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} جزاء كل ظالم، بعضهم يقول: مثل هؤلاء في تسببهم لأنفسهم بعذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرأ منه، فلا ينتفع أحدهما بصاحبه، ويقعان معًا في النار، يعني هؤلاء أغرى بعضهم بعضاً، وتحالف بعضهم مع بعض: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ}، ممكن أن يكون في المصير الذي لاقوه في الدنيا وما سيلاقونه في الآخرة، فإن هؤلاء المنافقين قالوا لهم: اثبتوا ولا تستسلموا وحصنوا دياركم وسننصركم، {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} إلى آخره، ثم بعد ذلك خذلوهم {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ} أغروهم بالمواجهة، أو بعدم التسليم للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثم تخلوا عنهم كما يفعل الشيطان بأوليائه.

وقوله تعالى: {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا} أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها، {وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} أي: جزاء كل ظالم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر:١٨-٢٠]، روى الإمام أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار -أو العَباء- متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة النساء:١] إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر: {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بُره من صاع تمره حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))[2]. انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة.

فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} أمرٌ بتقواه وهي تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر.

---

١ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦١).

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٩١٧٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، برقم (١٠١٧)، وفي كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤)، واللفظ لأحمد.

وقوله تعالى: {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، {وَاتَّقُوا اللَّهَ} تأكيد ثان، {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير.

الله -تبارك وتعالى- لما ذكر حال المنافقين وجه الخطاب لأهل الإيمان بتقواه وبمحاسبة النفوس **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}**، ونهاهم عن الغفلة وما يورث الغفلة، وما تؤثره الغفلة، **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}**، **{اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** فإن العبد إذا كان متقيًا لله -تبارك وتعالى- فإن ذلك يقوده إلى الاستجابة لأمر الله -جل جلاله-، وكذلك فإنه يحاسب نفسه، فإن التقي يحاسب نفسه ولا يكون غافلًا بحال من الأحوال، **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** يعني كل نفس، وجاءت النفس منكرة، **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ}** بعضهم يقول: نكرت هنا لبيان أن الأنفس الناظرة في معادها قليلة، كأنه قال: ولتنظر نفس واحدة، وأين تلك النفس؟، هكذا قال بعض المفسرين، ويمكن أن يقال بأن ذلك بمعنى أنه يقع على النفوس كل نفس على حدة، يعني كل أحد ينظر في حاله، وفي عمله، وما يصير إليه، وهنا **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** و"غد" هنا جاء منكراً أيضًا، وهذا قد يشعر بالتعظيم، ذلك اليوم الذي لا تعرفه النفس أو لا تعرف نفس كنه عظمته وأهواله، كما قال الله -عز وجل-: **{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً}** [سورة البقرة:١٢٣] اتقوا أوجال يوم، أهوال يوم، والغد الأصل أنه اليوم الذي يعقب يومك، بينك وبينه ليلة، هذا هو الغد، ويطلق ذلك ويراد به ما هو مستقبل، ويقال له: غد باعتبار القرب، فكل ما هو آت قريب، وكذلك يمكن أن يقال باعتبار قصر الدنيا، وهما معنيان متلازمان، **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** ويوم القيامة يوم قريب، **{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا}** [سورة المعارج:٦-٧]، **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** [سورة الروم:٥٥]، ثم قال: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ}** ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: هذا للتوكيد، ويمكن أن يقال: إنه ليس لمجرد التوكيد وإن التأسيس مقدم على التوكيد، يقول لهم: **{اتَّقُوا اللَّهَ}** أمر عام بالتقوى **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ}**، أي أن المعنى اتقوا الله في محاسبتكم أيضًا هذه لأنفسكم، فإن الإنسان قد يحاسب نفسه ولا يتقي الله في ذلك كمن ينظر إلى من هو دونه في المطالب العالية وأمور الآخرة، فيقول: أنا أفضل من غيري، أنا أحسن من غيري أنا أصلي في المسجد، لكنه لا يأتي إلا في آخر الصلاة، يقول: أنا أصلي في المسجد وغيري لا يصلي في المسجد، والذي لا يصلي في المسجد يقول: أنا أحسن من غيري أصلي في الوقت وغيري لا يصليها إلا إذا خرج الوقت، والذي يصلي خارج الوقت يقول: أنا أحسن من غيري، غيري لا يصلي، كثير من الناس لا يصلون أصلًا، والذي لا يصلي إلا الجمعة يقول: أنا أفضل من غيري، أنا أصلي الجمعة، هنا من لا يعرف لا الجمعة ولا الجماعة، وهكذا حتى يصل إلى الدرك الأسفل من النار، وهو يقول: أنا أحسن من غيري؛ لأنه سيجد تحته في دركات جهنم من هو دونه، فهو لا يزال يقول: أنا أحسن من غيري، أنا أفضل من غيري، فكثير من الناس لا يتذكر، وليس له قلب يتفكر به، ويحاسب نفسه وينتفع ويتعظ ويعتبر، لكن من الناس من إذا ذُكر تذكر، ومنهم من لا يتذكر بل يكابر، إما إنه يأبى النصيحة من أصلها يقول: هذا شأني، أو أنه يسمع النصيحة ولكنه يكابر ويجادل ويقول: أنا لست كما تقولون، لست كما تظنون، فهو يرى أنه مكمّل ليس بحاجة

إلى تكميل، وأنه على حال مرضية، وهو في غاية التقصير، وإذا دُعي له بالهداية قيل: هداك الله غضب، ويرى أنه قد حصّل أكمل الهدايات ليس بحاجة إلى هداية، ولا أن يُدعى له بالهداية، هذا سفه، **{وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ}** بهذه المحاسبة، **{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}**، فمهما كابر الإنسان ومهما حاول أن يظهر نفسه بصورة على غير حقيقته فالله -تبارك وتعالى- خبير يعلم الخفايا والخبايا، وذلك لا ينطلي عليه وإن خفي ذلك على الناس، وإن كابر الإنسان أو ادعى لنفسه ما ليس فيه من الأعمال، وقال: أنا أصلي، أنا ما تفوتني الصلاة، أنا محافظ على الصلاة، أنا الحمد لله حتى صلاة الفجر أصليها مع الجماعة في المسجد، بمجرد ما يؤذن المؤذن أخرج، والناس لا يرونه أبدًا هو حلس داره، مثل هذا ينبغي أن يوقن أن الله خبير بالإنسان، وحاله وعمله، والناس لا يغنون عنه شيئًا، وعليه أن يراقب الله -تبارك وتعالى-، وأن يحاسب نفسه محاسبة صحيحة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} أي: لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل.

النسيان هنا المقصود به الترك، ليس المقصود به الذهول عن المعلوم، وإنما **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** يعني تركوا الإيمان، تركوا طاعة الله -تبارك وتعالى- فكانت النتيجة **{فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** الفاء تدل على التعليل وترتيب ما بعدها على ما قبلها، هذه يسمونها دلالة الإيماء والتنبيه: أن يُقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكن ذلك معيبًا عند العقلاء، **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** يعني أن من نسي الله من ترك الإيمان أو ترك طاعته النتيجة ما هي؟ **{فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، يعني بقدر ما يغفل العبد عن طاعة الله ويترك أمر الله فإن الله ينسيه نفسه، فإذا أنسى الله -عز وجل- العبد نفسه فلا تسأل عن حاله، إذا أنساه نفسه صار شغله وكده وكدحه وعمله وقيامه وقعوده فيما يضره، ويحمل على نفسه الأوزار، ولربما يجد لذلك متعة ولذة فينفق الأموال ليحجز له مقعدًا في النار، جهود متواصلة حثيثة كدح **{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** [سورة الإنشقاق:٦] لكن هذا الكدح في ماذا؟ يكدح من أجل أن يحصّل مقعدًا من النار، **{فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** لا يفكر ولا يحاسب نفسه بعد ذلك، ولا ينظر في عمله ولا يفيق من غفلته، فهو في غفلة دائمة مستمرة حتى يوافي ربه -تبارك وتعالى- فيقدم على الآخرة إقدام المفاليس ليس له بضاعة ولا عمل يسعف، هكذا إذا كان الإنسان في حال من الغفلة عن ربه -تبارك وتعالى- نسي الله ترك طاعته فينسيه نفسه، تقول: هذا ما يفكر؟ هذا ما يؤمن بالآخرة؟ هذا ما يعرف أنه في حساب؟ كيف يأخذ هذه الأموال؟ كيف يفعل هذه الأفاعيل؟ كيف يقارف هذه الجرائم؟ كأنه لا توجد آخرة، وكأن الله لا يراه! ما هذه القلوب؟، ما هؤلاء الناس؟ كيف يفكرون؟، كيف يعيشون؟!

هي هكذا نسوا الله فأنساهم أنفسهم فتجد هذا الإنسان سادرًا في غيه، لا يفكر في حساب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، كما يقول بعضهم: إذا وقعنا في حفرته يفعل فينا قدرته، -نسأل الله العافية-، هذه قالها رجل حينما نُصح وذكر بالله يتعاطى أمورًا محرمة من مخدرات ونحوها فناصحه الذي يبيع له عندما رآه موغلًا في ذلك، قال له: يا فلان ترى هذا لا يصح، ولا يجوز، فقال: إذا وقعنا في حفرته يفعل فينا قدرته، حكى لي هذا من سمعه، هذا ممن **{نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** وصورة هؤلاء أصحاب المخدرات -نسأل الله العافية- هي من

أجلى الصور، طبعًا الكفار لا تسأل عن حالهم، هؤلاء في عالم يذهبون كل يوم إلى أعمالهم يغدون، وفي كد ونكد في هذا العيش، -نسأل الله العافية-، والوحشة والكآبة تملأ قلوبهم، قلوب مظلومة يعيشون للدنيا فقط، ويحصل لهم من الألم بسببها والهم بتحصيلها وجمعها ما الله به عليم، وهم آخر من يفكرون في الآخرة، تلقي عليهم محاضرة طويلة عن الإيمان بالله ثم في النهاية يقول لك بعبارة قصيرة: ولكني لا أعرف، لا أؤمن إلا بالدولار فقط، مثل هذا ليس فيه حيلة، فهذا الآخر صاحب البلاء هذه الأدواء من المخدرات ونحوها تجده -نسأل الله العافية- لا يلوي على شيء، لا أهل ولا عرض ولا دين ولا ذمة ولا عهد ولا شيء، يمكن أن يقدم بنته إن كان عنده بنت من أجل أن يحصّل حبة واحدة، ويقع هو عليها أيضًا ويقتل، والقتل أسهل شيء عنده، فليس عنده شيء يخسره ولا يخاف عليه، ولا يبالي، ليس عنده شرف ولا دين ولا خلق ولا مروءة، في غاية الانحطاط، {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} في غي، سكرة، تنصح، تذكِّر، تعظ:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا *** ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي

كأنك تكلم صخرة، تكلم جلمودًا، وتظن أنه يسمع، {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا} [سورة الاعراف:١٧٩]، وينظر إليك ولكنه لا يبصر الحق أصلًا، ويسمع بأذنه سماع البهيمة، {كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ} [سورة البقرة:١٧١]، لا يعقل ولا يدرك ولا يفهم كالذي ينعق -ينادي، يصوت- بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، هو يسمع صوتًا فقط لكن ماذا يقول؟ لا يفقه، وهنا {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} الخارجون عن طاعته -تبارك وتعالى-، هكذا تكون الغفلة مستحكمة إذا كان العبد معرضًا عن ربه، وعن طاعته؛ ولهذا القضايا هذه متلازمة اعمل بطاعة الله فالإيمان قول وعمل، وجاهد النفس فإن هذه هي الحياة، وبها تحصل اليقظة، فإذا وقع الذنب من العبد تألم وحزن، وبدأت النفس اللوامة لماذا تفعل هذا الفعل؟ فيبادر بالتوبة {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠١]، والمجموعة الثانية من إخوان الشيطان {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف:٢٠٢]، لا يرجع ولا يتوب ولا يرعوي، -والله المستعان-، فهذه أمور يحتاج العبد أنه يعمل بطاعة الله، هذا من الإيمان بحيث يكون قلبه حيًّا وإيمانه نابضًا، فإذا وقع منه الذنب بادر إلى التوبة، أما إذا ترك فإن هذا يورثه غفلة متراكمة متراكبة متتابعة، الذنب على الذنب على الذنب يورث هذه الغفلة {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة المطففين:١٤] ثم بعد ذلك ما لجُرحٍ بميتٍ إيلام، انتهى، قلب مثخن بالجراح، فلمّا يجيء جرح زائد عليه!، لكن القلب السليم لو جاء خدش، وهذا الخدش يعني كما لو وقع في عينه أو في عدسة العين، والله المستعان.

ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة المنافقون:٩].

هذا هو الفسق الأكبر، ولذلك في قوله: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [سورة الحجرات:٦] في مفهوم الموافقة الأولية يقول الأصوليون دائمًا هذا المثال: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} إن جاءكم كافر فهذا من باب أولى، فيقال:

هذا ليس بلازم، هذا المثال فيه نظر على شهرته عند الأصوليين؛ لأن الفاسق يطلق ويراد به أيضًا الكافر، فلا يُحمل على العاصي ثم يقال: الكافر من باب أولى.

وقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة.

هو ليس فقط يوم القيامة، نعم يوم القيامة بلا شك، ولكن نفي الاستواء يحمل على أعم معانيه، لا يستوون في شيء، لا يستوون في أعمالهم، لا يستوون في حالهم، لا يستوون في نعيمهم في الدنيا، لا يستوون في حالهم ونعيمهم في البرزخ، ولا يستوون في المحشر، فهؤلاء يأتون في حال من الأمن، وأولئك يأتون في حال من الخوف الشديد، ولا يستوون في منازلهم في الجنة والنار، {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} وكلمة أصحاب هنا –كما سبق– تدل على الخلود والملازمة، أصحاب النار وأصحاب الجنة.

كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الجاثية:٢١]، وقال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} [سورة غافر:٥٨]، وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [سورة ص:٢٨] في آيات أُخَر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار، ولهذا قال الله تعالى هاهنا: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} أي: الناجون السالمون من عذاب الله –عز وجل.

هذه الآية: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} استدل بها أصحاب الشافعي –رحمه الله– على أن المؤمن لا يقتل بالكافر قصاصًا؛ لأنهم لا يستوون، لا يكافئه، والعلماء يتكلمون على مسائل مثل: لماذا بدأ بأصحاب النار {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ}؟ فيذكرون بعض المعاني قد يكون بعضها صحيحًا وقد يكون بعضها متكلفا، راجع مثلًا تفسير القاسمي تكلم على هذه الجزئية، لماذا قدم هذا على هذا؟

{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الحشر:٢١-٢٤].

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدرته وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه بما فيه من الوعد الحق والوعيد الحق.

يعني المناسبة أن الله –تبارك وتعالى– لما ذكر أهل الجنة وأهل النار وبين عدم التساوي بين هؤلاء وهؤلاء في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه، وأخبر عن جلالته، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب، وترق له الأفئدة.

{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله –عز وجل– فكيف يليق بكم يا أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه؟؛ ولهذا قال

تعالى: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** وقد ثبت في الصحيح المتواتر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما عُمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخطب فجاوزَ الجذعَ إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن لِمَا كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الجذع، وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟.

وقال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}** [سورة الرعد:٣١] الآية، وقد تقدم أن معنى ذلك أي: لكان هذا القرآن، وقد قال تعالى: **{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ}** [سورة البقرة:٧٤].

يعني إذا كانت الأحجار والجبال الصم التي في غاية الصلابة والغلظة لو نزل عليها هذا القرآن لتصدعت، والقلوب تصل في حالة قساوتها إلى حال أشد من الحجارة، فهذا لا شك فيه أعظم العبرة في بيان أحوال هذا القلب وضرورة العناية به، وإزالة العلائق التي تورثه مثل هذه الحال، وبعض أهل العلم يقول في قوله -تبارك وتعالى-: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}** [سورة البقرة:٧٤] لماذا لم يقل كالحديد مثلًا أو النحاس بما هو في بادئ الرأي أقسى من الحجارة وأشد وأقوى؟ فبعض أهل العلم يقول: إن الحديد إذا عرض في النار ذاب وانصهر، أما الحجارة فإذا أحرقت في النار فإنها لا تنصهر، فهكذا القلوب القاسية تكون بهذه المثابة كالأحجار.

ثم قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}.

هنا كيف يُترك هذا المعبود الذي له هذه الأسماء والصفات؟ تُترك عبادته وطاعته والخشوع لذاته -سبحانه وتعالى- وهو بهذه العظمة؟!، أولئك أهل النفاق ما عرفوا الله -تبارك وتعالى- فتعاظم المخلوق في أنفسهم فصارت رهبته في قلوبهم أعظم من رهبتهم من الله -جل جلاله-؛ لأنهم لا يفقهون، فهنا الله -تبارك وتعالى- يذكر أسماءه وصفاته ويختم هذه السورة بهذه الأسماء الحسنى.

أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما عبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات، وقوله تعالى: {هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا، والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، وقد قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [سورة الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس:٥٨].

ذكرنا هناك في أول التفسير في الفرق بين الرحمن والرحيم قلنا: الفرق من جهة اللفظ ومن جهة المعنى، فكان مما ذكر أن الرحمن على وزن فَعْلان، وأن الرحيم على وزن فَعِيل صيغة مبالغة، وذكرنا كلام ابن

جرير أن الرحمن على وزن فعلان عُدل به عن زنة نظائره، يعني رَحِمَ يرحم فهو رحيم، أكرم يكرم فهو كريم، فهنا رَحِمَ يرحم فهو رحمن، فعل يفعل فهو فعيل، هنا فعل يفعل فهو فعلان، عُدل به عن وزن نظائره، الصيغة.

يقول: وهذا يكون في ما كان، ويكون أبلغ في الوصف وأعظم، هذا من حيث الصيغة، وهي تدل على الامتلاء، تقول: عطشان، شبعان، غضبان، زعلان، تدل على الامتلاء صيغة فعلان.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر في الفرق بين الرحمن والرحيم من جهة المعنى معنى حسناً لعله من أحسن ما قيل على كثرة الأقوال في الفرق بينهما، فهو يرى أن الرحمن يتضمن صفة الرحمة، فهو فيما يعود إلى الله من هذه الصفة، ما يعود إلى الله من صفته، يعني وصف الله -عز وجل- بالرحمة، ما يعود إلى الله من هذه الصفة يدل عليها الرحمن، والرحيم يدل على صفة الرحمة يتضمنها وهو دال على القدر المتعدي من هذه الصفة إلى المخلوقين.

رحمن هذا يعود إلى الله، اتصافه بالرحمة، رحيم رحمته تتعدى إلى المخلوقين، القدر المتعدي، هذا ذكره ابن القيم -رحمه الله- وقيل غير هذا.

ثم قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ} أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

المُلْك هو التصرف المطلق، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يتصرف في هذا الكون، في هذا الخلق ويدبر أموره، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [سورة الأنبياء:٢٣].

وقوله تعالى: {الْقُدُّوسُ} قال وهب بن منبه: أي: الطاهر، وقال مجاهد وقتادة: أي: المبارك، وقال ابن جرير: تقدسه الملائكة الكرام.

فسر بهذا، وهذا الطاهر من كل عيب، أو المنزه عن كل نقص، أو المبارك قدوس تقول: هذا مكان مقدس، والتقديس يدل على معنى التطهير -والله أعلم- مع التعظيم، تطهير مع تعظيم، التطهير بمعنى التنزيه وزيادة مع التعظيم.

{السَّلَامُ} أي: من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

فالقدوس مع السلام متقاربان؛ ولهذا تجد العلماء -رحمهم الله- يحاولون أن يفسروا هذا بتفسير وهذا بتفسير؛ بحيث يكون هذا له معنى وهذا له معنى، فالسلام بعضهم يقول: هو السالم من كل عيب ونقص، وهذا قريب من معنى القدوس أي المنزه من كل عيب ونقص، وبعضهم يقول: الذي سَلِم خلقُه أو سلَّم خلقَه من أن يظلمهم، السلام: يسلمون من ظلمه لا يظلم الناس شيئًا، لكن بناء على أن السلام هو السالم من كل عيب ونقص ما الفرق بينه وبين القدوس عند هؤلاء؟

بعضهم يقول: إن السلام والقدوس الفرق بينهما أن القدوس الخالي من كل عيب ونقص، والمنزه من العيوب والنقائص في الماضي والحاضر، هذا القدوس، والسلام: السالم من كل عيب ونقص في المستقبل، ففرقوا من جهة الزمان، يعني ما قالوا: هما بمعنى واحد من كل وجه، قالوا: أصل المعنى واحد السلامة من الآفات والنقائص لكن الفرق من جهة الزمان.

وقوله تعالى: {الْمُؤْمِنُ} قال الضحاك عن ابن عباس: أي: أمَّن خلقَه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمَّن بقوله: {إِنَّهُ لَحَقٌّ} [سورة يونس:٥٣] وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

قوله: {الْمُؤْمِنُ} هذا الاسم هذه المادة أصلها تدل على معنيين: تدل على معنى الأمن، وتدل على معنى التصديق، ومن ثمّ تنوعت عبارات أهل العلم في تفسير هذا الاسم الكريم، فبعضهم يقول: إن المؤمن هو الذي يؤمِّن خلقه من أن يظلمهم، لاحظ هنا ذهبوا إلى معنى الأمن، ومن نظر إلى معنى التصديق قال: المصدق لرسله -عليهم الصلاة والسلام- بإظهار المعجزات على أيديهم، هم يقولون: نحن رسل من عند الله، ما البرهان؟ فيصدقهم بخرق العادات، وإظهار المعجزات على أيديهم، وهو مصدق للمؤمنين أيضًا بما وعدهم من الثواب، وعدهم بالجنة، وعدهم بالنصر في الدنيا، وكذلك الكافرين وعدهم بالعقاب، أو بإنزال السكينة على أهل الإيمان، وكذلك من فزع الآخرة، يؤمنهم من فزع الآخرة، فالمؤمن يشمل هذا وهذا، ففيه معنى الأمن وفيه معنى التصديق، {الْمُؤْمِنُ} فالله -تبارك وتعالى- يؤمِّن عباده من أن يظلمهم، وهو الذي ينزل السكينة على المؤمنين ويربط على قلوبهم، ويؤمنهم من المخاوف في الدنيا والآخرة، وكذلك أيضًا هو الذي يصدق رسله بإظهار المعجزات، وهو الذي صدق عباده فيما وعدهم من الجزاء والثواب، أو العقاب الذي وعدهم إياه.

وقوله تعالى: {الْمُهَيْمِنُ} قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة المجادلة:٦]، وقوله: {ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [سورة يونس:٤٦]، وقوله: {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [سورة الرعد:٣٣] الآية.

وبعضهم فسر المهيمن بمعنى الأمين، وبعضهم فسره بالمصدق، لكن لو قيل: إن المهيمن هو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وهم تحت قدرته وتصرفه وتدبيره ونواصيهم في يده كل هذا، فالهيمنة تدل على معنى التمكن من الشيء والقدرة عليه، ويكون حاكمًا عليه تحت قهره وتصرفه وتدبيره، فالقرآن مهيمن على الكتب السابقة بمعنى أنه حاكم عليها، مصدق لها، ينسخ، يبين ما فيها من تحريف.

وقوله تعالى: {الْعَزِيزُ} أي: الذي قد عز كل شيء فقهر وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ ولهذا قال تعالى: {الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا له كما ثبت في الصحيح: ((العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته))[3].

{الْجَبَّارُ} يأتي لعدة معانٍ، فمن معانيه: الجبار هو المصلح أمور خلقه المصرفهم فيما فيه صلاحهم مصلح أمور الخلق، ومنه جبْر الكسير، جبر الضعيف، جبر القلوب المنكسرة، وهذا معنى صحيح من معاني الجبار، تقول: اللهم اجبر كسرنا، اللهم اجبرنا، اللهم اجبر فلانًا، جبركم الله على مصابكم، هذا من معاني الجبار، فالذي يجبر الكسر معناه أنه يصلح الكسر وهذا العضو الذي تطرق إليه الخلل، وبعضهم يفسره بالعظيم،

---

٣ - رواه أبو داود، بلفظ: ((قال الله -عز وجل-: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار))، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، برقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، برقم (٤١٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (٧٣٨٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٤١)، وفي صحيح الجامع، برقم (١٩٠٨).

وبعضهم يقول: مِن أجبره أي قهره، بمعنى القهر، فالله -تبارك وتعالى- جبار يقهر الجبابرة والمجرمين والظالمين؛ ولهذا فسر أيضًا بالذي لا تطاق سطوته، ويفسر أيضًا بالشيء العالي، معنى العلو يقال: نخلة جبارة يعني لا تنالها الأيدي من طولها، طويلة جدًا، وابن القيم -رحمه الله- يقول:

وكذلك الجبارُ من أوصافه *** والجبرُ في أوصافه قسمانِ

جبرُ الضعيف وكل قلبٍ قد غدا *** ذا كَسْرة فالجبرُ منه دانِ

والثانِ جبرُ القهر بالعز الذي *** لا ينبغي لسواه من إنسانِ

وله مسمى ثالثٌ وهو العلو *** فليس يدنو منه من إنسانِ

من قولهم جبارةٌ للنخلة الــ *** ــعليا التي فاتت لكل بنانِ

يعني ابن القيم جمع هذه المعاني كلها تحت هذا الاسم الكريم الجبار، المتكبر: أصل الكبرياء الامتناع وقلة الانقياد، ولهذا يفسره بعضهم بالذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، وفسره بعضهم بالكبير وبالعالي، وبعضهم يقول: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله كما ذكر ابن كثير -رحمه الله-، وذكر حديث: "العظمة إزاري والكبرياء ردائي"، وبعضهم يقول: المتعظم عن كل سوء، ولكن هذا الاسم -المتكبر- يتضمن وصفًا يدل على التعاظم والتعالي والترفع، فكل شيء يُرى دونه حقيرًا وصغيرًا، فهو العظيم الأعظم -تبارك وتعالى.

ثم قال تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}، الخلق التقدير، والبَرء هو الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئًا ورتبه يقدِر على تنفيذه وإيجاده سوى الله -عز وجل.

فرّق بين هذه الأسماء بهذه المعاني باعتبار أن الله جمعها، وعطف بعضها على بعض في هذا الموضع، فالخالق يأتي بمعنى المقدر، ويأتي بمعنى الموجد من العدم، ويأتي بمعنى المصور الذي يعطي هيئة وشكلًا لهذا المخلوق، ولذلك فإن الخلق بمعنى التقدير يفسر به هذا الموضع هنا باعتبار أنه ذكر بعده **{الْبَارِئُ}** فهذا أحد معاني الخالق، الخلق بمعنى التقدير، يعني هذا المبنى الآن قبل أن يوجد وُجد تصور له، وُجد مخطط له هذا يسمى تقديرًا، وهذه الطاولة قبل أن يصنعها النجار وَضع تصورًا لها بطولها وعرضها وارتفاعها، فهذا يقال له: تقدير، ويكون قبل الخلق والإيجاد، فيفسر هنا الخالق بالمقدر في هذا الموضع فقط، لكن في المواضع الأخرى الخالق يتضمن المقدر والموجد إلى آخره، ويأتي الخالق بمعنى المصور والموجد من العدم أيضًا، يعني **{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}** [سورة المائدة:١١٠] فالخلق هنا بمعنى التصوير والتشكيل، وهو أحد معاني الخالق لكن لما ذكر هنا المصور، وذكر البارئ حُمل الخالق على المقدر، والبارئ على الموجد من العدم، والمصور هو الذي يعطي كل مخلوق صورته اللائقة به، **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** [سورة السجدة:٧]، **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [سورة التين:٤]، **{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}** [سورة التغابن:٣] كل هذا مضى الكلام عليه، والذين يمتهنون التصوير هؤلاء معتدون على هذا الاسم الكريم، والله -تبارك وتعالى- توعدهم، والناس للأسف أسرعوا في ذلك وتساهلوا به كثيرًا.

وقوله تعالى: **{الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}** أي: الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى: **{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ}** [سورة الإنفطار:٨]، ولهذا قال: **{الْمُصَوِّرُ}** أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: **{لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى}** قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف ونذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر))[٤].

{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة الأعراف:١٨٠] يعني البالغة في الحسن غايته، والحسنى جمع للأحسن وليست بجمع للحَسن، **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** فهي حسنى في ألفاظها لا يوجد فيها لفظ موحش، وهي حسنة في معانيها وما تضمنته من الأوصاف، فهي أسماء متضمنة لأوصاف الكمال، أسماء المخلوقين قد تكون فيها أسماء غير جيدة في اللفظ، وقد تكون تحمل معانيَ غير جيدة، وقد لا يكون لها معنى أصلًا، والناس أولعوا بالإغراب يبحثون عن أسماء غريبة يَسبقون إليها، وأحيانًا لو سألتهم عن المعنى لا يوجد لها معنى، وأحيانًا يقول: نبتة في الصحراء، وأحيانًا معنى ركيك، وأحيانًا اسم للقرد، أو اسم لأشياء قبيحة، ولكن هم يرون أن هذا الاسم جديد، وأنه غريب وما سُبقوا إليه، الله أسماؤه حسنى ليس فيها شيء من ذلك **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}**، في ألفاظها وفي معانيها، وتحمل أوصافًا، الإنسان يسمى بأسماء ولا يرجع إليه من هذه الأسماء ما تضمنته معانيها، لا يرجع إليه منها شيء، فهي مجرد أعلام، أما أسماء الله تعالى فهي أعلام وأوصاف تتضمن أوصاف الكمال.

وقوله تعالى: **{يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**، كقوله تعالى: **{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}** [سورة الإسراء:٤٤].

كما قلنا: السورة افتتحت بالتسبيح واختتمت بالتسبيح، وهذا التسبيح حقيقي، **{يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** لا يؤول ويحمل ذلك على الخضوع أو غير ذلك، وإنما هو تسبيح حقيقي، وكما قال الله –عز وجل–: **{وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** فكل شيء يسبح بحمد الله، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((إني لأعرف حجرًا كان يسلم عليّ في مكة))[٥]، والجذع حنّ لفراق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حينما تركه بعد أن كان يخطب عليه[٦]، وكذلك أيضًا تسبيح الطعام[٧]، وما أشبه ذلك، **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}** [سورة سبأ:١٠]، **{عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ}** [سورة النمل:١٦]، **{قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ}** [سورة النمل:١٨].

وقوله تعالى: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ}** أي فلا يرام جنابه، **{الْحَكِيمُ}** في شرعه وقدره.

---

٤ – رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، برقم (٦٤١٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧).

٥ – رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي –صلى الله عليه وسلم– وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٦ – رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٨٣).

٧ – رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٧٩).

آخر تفسير سورة الحشر، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الممتحنة من الآية (1) إلى الآية (4)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمستمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ سورة الممتحنة:1-3.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسورة الممتحنة يُذكر لها أربعة أسماء:

الأول: أنها سورة الممتحِنة بالكسر يعني المختبِرة، أُضيف الفعل إليها، هي التي تَمتحن؛ لأنه جاءت فيها آية امتحان النساء المهاجرات كما سيأتي.

الثاني: هي سورة الممتحَنة بالفتح، يعني المرأة الممتحَنة وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أول امرأة هاجرت بعد كتب الصلح بعام الحديبية، فتكون "ال" بهذا الاعتبار عهدية، يعني المرأة الممتحَنة، فهي أضيفت إليها باعتبار أنها سبب النزول، وأم كلثوم هي امرأة عبد الرحمن بن عوف وكان قد تزوجها زيد بن حارثة مولى النبي –صلى الله عليه وسلم.

وأيضًا يمكن أن تكون "ال" في الممتحَنة جنسية، للجنس وليست عهدية، باعتبار النساء الممتحَنة، المجموع.

الثالث: يقال لها: سورة الامتحان لما فيها من امتحان النساء.

الرابع: يقال لها: سورة المودة تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ، هذه أربعة أسماء.

فالموضوع الذي تدور عليه هذه السورة هو موضوع واحد في الجملة وهو الولاء والبراء ومقتضياته.

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطبًا هذا كان رجلًا من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضًا، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش

أنفسهم بل كان حليفًا لعثمان، فلما عزم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على فتح مكة لمّا نقض أهلها العهد، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: (اللهم عمِّ عليهم خبرنا) فعمد حاطب هذا فكتب كتابًا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غزوهم؛ ليتخذ بذلك عندهم يدًا، فأطلع الله تعالى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ذلك استجابة لدعائه، فبعث في أثَر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بيّن في هذا الحديث المتفق على صحته.
صدر هذه السورة لا شك أنه نازل بسبب كتاب حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله تعالى عنه-، وحاطب -رضي الله تعالى عنه- كان رجلاً ملحقًا بقريش ولم يكن منهم، كان من أهل اليمن، ونزل مكة وله حلف في بني أسد بن عبد العزى رهط الزبير بن العوام-رضي الله تعالى عنه-، وبعضهم يقول: كان حليفًا للزبير ولا إشكال، لا منافاة، وبعضهم يقول: كان حليفًا لعثمان -رضي الله تعالى عنه-، ويُذكر أنه قال لهم في هذا الكتاب: "أما بعد: فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد بعث إليكم جيشًا كالليل، يسير كالسيل، وأنه أقسم أنه لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم"، كتب إليهم هذا الكتاب يخبرهم عن مسيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وكان قد أخفى ذلك وأطلع عليه نفرًا من أصحابه منهم حاطب -رضي الله عنه-، فكتب هذا الكتاب وبعثه مع هذه الظعينة -هذه المرأة- التي ذهبت على بعير إلى مكة واسمها سارة، وهي من موالي قريش، هي مولاة لأبي عمرو بن صيفي بنهشام بن عبد مناف، وهؤلاء مواليها بمكة قتلوا فاحتاجت وافتقرت فجاءت إلى المدينة يعني لمن هم من مواليها تريد المال، والإعانة والإحسان، جاءت لهذا الغرض.
الآن صدر هذه السورة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ كل هذا وما يتلوه من الآيات إلى الآية التاسعة إلى قوله: وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ سورة الممتحنة:9، فهذه الآيات التسع من أول السورة هذه نازلة في قصة حاطب -رضي الله تعالى عنه-، ومن الآية العاشرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ سورة الممتحنة:10هذه نزلت بعد ذلك عندما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة بعد صلح الحديبية.
فكتاب حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- متى كان؟ هل كان عام فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، أو أنه كان قبل مسير النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى مكة في السنة السادسة التي جرى فيها صلح الحديبية؟

قولان معروفان لأهل العلم، فبعضهم يقول: إن هذا الخطاب كان في السنة السادسة، وهذا باعتبار أن هذه الآيات نازلة في السنة السادسة –يعني صدر السورة– كما يقول ابن عطية صاحب "المحرر الوجيز"، باعتبار أن هذا نزل في قصة الحديبية قبل الحديبية، قبل مسير النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مكة بأي اعتبار؟ قالوا: أولاً باعتبار أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان قد ورّى بخيبر، يعني هو يريد أن ينطلق جنوبًا إلى مكة وخيبر في الشمال فورى النبي –صلى الله عليه وسلم– بخيبر، وخيبر فتحت في السنة السابعة للهجرة، يعني لو كان هذا في عام الفتح في السنة الثامنة فخيبر كانت قد فُتحت، فكيف يكون قد ورى بخيبر؟

قالوا: ولأن تلك المرأة قدمت إلى المدينة بعد بدر بسنتين، قالوا: تجلس من أجل أن تحصل على مساعدات إلى السنة الثامنة؟، هي جاءت لغرض فكونها تمشي في السنة السادسة هذا أوفق وأقرب من بقائها إلى السنة الثامنة، فهي ما أتت لتقيم في المدينة.

والقول الثاني: أن هذا كان حينما تجهز النبي –صلى الله عليه وسلم– لفتح المكة، وهي التي سأل ربه –تبارك وتعالى– أن يعمِّي عنهم العيون بحيث لا يتمكنون من معرفة مسيره، قالوا: وأما في السنة السادسة فكان النبي ـصلى الله عليه وسلمـ قد ذهب للعمرة، ولم يذهب لفتح مكة ولا لقتال، ولا يحتاج هذا إلى تورية، ذهبوا عُمّارًا فصدهم المشركون فوقع صلح الحديبية، وكانوا حينما صدهم المشركون محرمين قد قلدوا الهدي؛ لأن الهدي يقدم في العمرة أيضًا وليس في الحج فقط، وهذا من السنن المهجورة

في السنة السادسة فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– قد ذهب للعمرة، ولم يذهب لفتح مكة ولا لقتال، ولا يحتاج هذا إلى تورية، ذهبوا عُمّارًا فصدهم المشركون فوقع صلح الحديبية، وكانوا حينما صدهم المشركون محرمين قد قلدوا الهدي؛ لأن الهدي يقدم في العمرة أيضًا وليس في الحج فقط، وهذا من السنن المهجورة

، حتى إنه في قصة الصلح –كما هو معروف– لما جاء بعض من يفاوض النبي –صلى الله عليه وسلم– وقد تكررت المفاوضة كما هو معلوم– ففي بعضها أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر أن تعرض في طريقهم الإبل المقلدة من لحاء الحرم، وكان الرجل ممن يعظمون الإبل فلما رأى ذلك قال: رأيت قومًا لا يجوز صدهم عن البيت، فهذا له وجه قوي باعتبار أن التورية كانت في فتح مكة، وهذا الذي حصل من أخذ العيون بحيث إن المشركين ما علموا حتى قدم النبي –صلى الله عليه وسلم– وقرب من مكة جدًا، لما بلغ النبي –صلى الله عليه وسلم– مر الظهران

ولقيه العباس وكان معه أبو سفيان، وينظر أبو سفيان في الليل إلى النيران الكثيرة ويقول: ما هذا؟ هو لا يعرف من هؤلاء، وهذا سيد قريش ما علم بمسيرهم، وينظر إلى النيران نيران الجيش لما نزلوا، ويتعجب من هؤلاء ولم يتوقع مجيء النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان بينهم عهد -كما هو معروف- فنقضت قريش العهد فأعانوا كنانة على خزاعة حلفاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء أهل خزاعة يستنصرون بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا له وجه قوي من النظر، وإذا قيل: إنها نازلة في فتح مكة فمعنى ذلك أن صدر السورة إذا قلنا: فتح مكة في السنة الثامنة فيكون أولها نزل في السنة الثامنة، والنصف الثاني في السادسة، فيكون النصف الثاني نزل أولاً ثم نزل صدر السورة، يعني بينهما سنتان، نزل نصفها الثاني ثم نزل نصفها الأول، وعلى القول بأنها نازلة قبل الحديبية قبل السنة السادسة يكون صدر السورة نزل قبل الصلح حينما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- المسير إلى مكة، والنصف الثاني نزل بعد الصلح، يعني ما بينهما إلا مدة يسيرة في السنة نفسها، هذه قبل الصلح وهذه بعد الصلح، ويكون صدر السورة نزل قبل آخرها، ففيها هذا الخلاف بناء على تاريخ الغزوة.

روى الإمام أحمد عن حسن بن محمد بن علي أخبرني عبيد الله بن أبي رافع -وقال مَرّةً: إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره- أنه سمع عليًّا -رضي الله عنه- يقول: "بعثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنا والزبير والمقداد فقال: **(انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها...)**.

الظعينة المقصود بها المرأة التي على بعير.

فانطلقنا تَعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لنلقينّ الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عِقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **(يا حاطب ما هذا؟)**، قال: لا تعجل عليّ إني كنت امرأ ملصَقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **(إنه صدَقَكم)**، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **(إنه قد شهد بدرًا، ما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)**([1])، وهكذا أخرجه الجماعة

إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة به، وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء([2]).

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سأله واعتذر إليه قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنه صدقكم)، ولما قال عمر -رضي الله عنه-: دعني أضرب عنق هذا المنافق قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إنه قد شهد بدرًا)، معنى ذلك أنه لم يكن بهذا الفعل مرتدًّا عن الإسلام؛ لأنه لو كان مرتدًّا عن الإسلام لبطل عمله، لبطل شهوده بدرًا، كما قال الله -عز وجل-: وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ سورة الأنعام:88، لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ سورة الزمر:65فلا يُعتد بحضور وشهود بدر وما نشأ عن ذلك وترتب عليه(اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فإن شهوده بدرًا غير نافعه لو كان ارتد بهذا الفعل، هذا الفعل بنص القرآن يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء هو صورة من صور موالاة المشركين العملية بلا شك، وهذا الموضع -هذا الحديث- يحتج به في الكلام على مسألة موالاة المشركين، وكذلك في الكلام على نواقض الإسلام، فلا تكاد تجد من يتحدث عن هذه القضايا إلا ويورد هذا الحديث.

ولكن هنا قدر واضح في هذه المسألة وهو أن حاطب -رضي الله تعالى عنه- لم يرتد بهذا الفعل، وهذه قضية متفق عليها بلا شك، ويؤخذ منها مسألة واضحة ينبغي أن لا يُختلف فيها، وهي أنه لا يقال بأن كل صور الموالاة للمشركين تكون ردة عن الإسلام، يعني هذه الصورة الواقعة الآن تعتبر بكل المقاييس خيانة عظمى إلى اليوم في الأعراف الدولية، يعني يفشي سر الجيش، وسر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويكتب للعدو التقليدي -كما يقال- قريش بمسير النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم، فهذه صورة من صور الموالاة العملية، وهي خيانة عظمى، ومع ذلك لم يكن ذلك بالنسبة إليه ردة عن الإسلام، فدل هذا القدر على أنه ليس كل صور الموالاة تعد ردة عن الإسلام، بل الموالاة تتفاوت منها ما يكون ردة، ومنها ما لا يكون ردة.

الموالاة بكل صورها محرمة سواء كان هؤلاء من المحاربين أو كانوا من غير المحاربين، لا تجوز موالاة المشركين، وهناك من يقيد الموالاة التي تكون ردة بأن يكون ذلك من أجل دينهم، أمّا إذا كان لأجل دنيا فيقولون: هذا لا يكون ردة مثل فعل حاطب -رضي الله تعالى عنه-، فهو ما فعل ذلك موالاة لهم في دينهم، وإنما لأجل مصلحة دنيوية، هذا يقوله بعض أهل العلم، يقيدون بهذا القيد، هل هذا على إطلاقه أو ليس على إطلاقه؟ هذه المسائل من الصعب أن تجعل فيها حدودًا وأطرًا دقيقة بالمسطرة، يعني لو أردنا أن نناقش هذه القضية هذه الواقعة فقد جاء في بعض الروايات الصحيحة أن حاطبًا -رضي الله تعالى عنه- ذكر في اعتذاره للنبي -صلى الله عليه

وسلم– أنه يعلم أن الله ناصر نبيه –صلى الله عليه وسلم–، يعني أن هذا الخطاب لن يقدم ولن يؤخر، ولن يغير موازين المعركة، هذه قضية معتبرة مهمة، إنما يحصل به مصلحة دنيوية له، هذا في تقديره هو، فإذا كان هذا الفعل من الموالاة يقلب موازين المعركة هل يكون مثل فعل حاطب –رضي الله عنه–؟، هناك من يقول: إن الموالاة مطلقًا إذا كانت لأمر دنيوي لا يكفر بها مطلقًا، مهما كانت ما دامت لأمر دنيوي، نقول: هل هذا على إطلاقه؟ هم يحتجون بحديث حاطب، وحديث حاطب فيه هذا الملحظ لو كان يقلب موازين المعركة هل يقال كذلك؟ لكن نحن نعلم أنه ليس كل صور الموالاة تكون ردة، الجيش الذي يغزو الكعبة قال النبي –صلى الله عليه وسلم– فيه: (يخسف بأولهم وآخرهم)([3])، فعائشة –رضي الله عنها– سألت النبي –صلى الله عليه وسلم– عمن يكون في هذا الجيش، يعني مِن الناس الذين يكونون تبعًا لهم وتجارًا ومن السوقة وما إلى ذلك مثل هؤلاء كيف يخسف بهم؟ فأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم، كونهم يبعثون على نياتهم معناه أنهم جاءوا في هذا الجيش، ما يقال: المقاتل وغير المقاتل كلهم سواء، هذا التاجر والجمّال هو يحمل مؤن الجيش الإمداد والدعم اللوجستي كما يقال وما أشبه ذلك، فهل هؤلاء في حكمهم؟، النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أنهم يبعثون على نياتهم، فدل على أن حكمهم ليس واحدًا، لاحظ مع أنهم في جيش واحد، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– الذين يتكلون في هذه المسائل تارة يوردون كلامًا قويًّا له مثل كلامه في التتر، قال: إذا رأيتموني في صفهم فاقتلوني ولو كان على رأسي المصحف، وقال: من جمز إليهم من التجار أو الأمراء أو الجند فهو مرتد عن الإسلام.

بينما تجد له كلامًا آخر في مواضع أخرى مثلاً في رسالته لما سئل عن أهل قبرص، جيش نصراني وفيهم من المسلمين ما حكمهم؟ جعلهم على أقسام ولم يعطهم حكمًا واحدًا، فهؤلاء الذين يذهبون أقصى اليمين في هذه المسألة يوردون كلامه في التتر، ويتركون الكلام الثاني.

والذين يذهبون إلى أقصى اليسار في هذه المسألة ويُوهنون من مسألة موالاة المشركين يأخذون كلامه في أهل قبرص، وهكذا في رسائل شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب –رحمه الله– ولأئمة الدعوة ولغيرهم من العلماء تجد هذا، يورد هذا بعض أقوالهم، وهذا يورد بعض أقوالهم، فالذي يقرأ وهو خالي الذهن يقرأ عبارات مثل الشمس في ردة من والى المشركين، والذي يقرأ للطائفة الثانية يقرأ عبارات صريحة وواضحة وقوية بأنه لا يكفر إلا في بعض الصور، فهذه المسائل الدقيقة لا يمكن أن تؤخذ بهذه الطريقة من المعالجة، المفروض أن تضم النصوص إلى بعضها، وكلام العالم الواحد يجمع ويقارن بينه ويوضح في أي سياق ومناسبة قيل هذا الكلام، وفرق بين الكلام الذي

يقال كفتوى بواقعة معينة لاسيما في مقام التحذير –وهذا كثير في رسائل أئمة الدعوة في الدرر السنية وغيرها بهذه الطريقة في سياقات معينة في فتاوى– وبين الكلام الذي يقال في مقام التحرير والتقرير، فتجد كلام العالم يختلف، فيأتي من يقرأ هذا النوع من الكلام أو من الفتوى له يقول: ما بعد هذا شيء، لكن هناك كلام آخر له، اجمع هذا وهذا إذا كنت تريد الوصول إلى نتائج صواب أو قريبة من الصواب، لا تأخذ قولاً له وتترك القول الثاني، لا تأخذ دليلاً وتترك الدليل الثاني.

أنا لا أريد أن أصل الآن إلى نتائج، وأقول: إن هذا يحصل به كذا وهذا لا يحصل به كذا، لا، لا أقصد هذا، أنا أريد أن أضع هنا معالم أو إشارات يسيرة، وهي أن نعلم أن هذه المسألة دقيقة، وأنها ليست بهذه السهولة التي يتعامل بها بعضنا فيأخذ دليلاً وينسى بقية الأدلة، أو يأخذ قولاً لعالم أو قولين أو ثلاثة أو عشرة وينسى بقية الأقوال للعالم نفسه، تريد أن تصل إلى نتائج صحيحة اجمع هذا مع هذا ثم بعد ذلك وازن بين هذه الأقوال، واعرف السياقات التي قيلت فيها، فهذا الدليل عندنا واضح هذا مثال على موالاة عملية خيانة عظمى، ومع ذلك ما حكم فيها بالردة، وجيش يغزو الكعبة يبعثون على نياتهم، إذًا هذه الأمور لا يمكن أن تعالج وتحل على طريقتنا في التفكير، دائمًا نريد أن مثل هذه القضايا بمسطرة نأتي بأحكامها بدقة، فإن كان كذا فهو مرتد، إذا تقدم "سنتي" فهو غير مرتد، هناك ملابسات معينة، هناك شروط، هناك موانع، لكن القدر الذي ينبغي أن يعرف هو أن موالاة المشركين محرمة بنص القرآن ونصوص السنة، وأن هذه قضية قطعية، وينبغي الحذر منها، وأن من وقع في ذلك فهو على خطر عظيم، لكن حينما ننظر في أفراد هذه المسائل والواقع هل هذا يكون ردة –هذا الفعل المعين– أو لا يكون ردة؟، ولذلك تجدون في نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب–رحمه الله–: من ظاهر المشركين على المسلمين، هل هذا بإطلاقه أو لا؟ لو أنه ظاهرَ كفارًا على مسلمين بينه وبينهم عداوة، بينهم حروب، بينهم مشاكل، وقد لا يتمكن من التغلب عليهم، فجاء كفار يحاربونهم، فجاء وأعانهم من أجل تحقيق مصلحة له مثلاً، بينه وبينهم عداوة، بينه وبينهم مشاكل، بينه وبينهم حروب فوجد كفارًا يحاربونهم فأعانهم هل يكفر بهذا الفعل هكذا بإطلاق؟.

بعض العلماء يقول: إن كان لأمر دنيوي لا يكفر، أنا أقول: هذا القيد يحتاج إلى تأمل، لكن قصة حاطب هنا هي إعانة وما كفر، الجيش الذي يغزو الكعبة هذه إعانة قوية ومع ذلك يبعثون على نياتهم، نحن نتعامل مع هذه القضية بحساسية مفرطة، ويتكلم فيها أحيانًا بعض من لم يطلب العلم أصلاً، بضاعة قليلة وتجده يلقي الأحكام جزافًا، أحكام واسعة كبيرة يترتب عليها أشياء لا

يستطيع هو أن يضبط حدودها وإلى أي مدى تنتهي، وتجد هذا الشاب الذي يحتاج أن يطلب العلم يحتاج أنه يتبصر يسأل عن هذه القضايا ويلح عليها، وتقول له: الله –عز وجل– سيسأله في القبر عن ثلاث مسائل من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ لن يُسأل عن كل تصرف من قبل الناس فلان هل هذا ردة أو ليس بردة؟ هل تحققت فيه الشروط وانتفت فيه الموانع، أو لم تتحقق الشروط وتنتفِ الموانع؟ لن يُسأل عن هذا، فتجد الإنسان أحيانًا يضغط على نفسه ويعيش بكآبة والنفس تلح عليه في قضايا أحيانًا قد لا يستطيع طرحها، لا يثق بأحد، يخاف أن يناقش هذه القضايا، فتجد أنه يتآكل من الداخل، نقول: الله –عز وجل– لن يسأل الإنسان عن زيد وعمرو هو بفعله هذا مرتد أو ليس مرتدًا، لكن القدر الذي نعرفه أن هذا الأمر وهو موالاة المشركين خطير، وأن من وقع له ذلك فهو على خطر عظيم، وينبغي الحذر من هذا والتحذير منه؛ ولذلك السلف –رضي الله عنهم– طريقتهم يحذرون من هذه الأمور الشنيعة العظيمة ويخوفون منها، فمسألة خلق القرآن أفتى فيها خمسمائة من العلماء الأئمة الكبار بأن من قال بخلق القرآن فهو كافر، لكن السلف حينما قالوا مثل هذا وأفتوا به هل تحول ذلك عندهم إلى معركة يتبادلون فيها الاتهامات والتخوين حينما يناقشون هل زيد الذي يقول بخلق القرآن كافر أو ليس بكافر؟ ما اشتغلوا بهذا، ما تحول هذا عندهم إلى مشكلة وخلافات وردود ومناقشات واتهامات، وكذا هل فلان كفر أو لم يكفر؟، ما اشتغلوا بهذا كانوا يحذرون من القول بخلق القرآن، ويقولون: من قال بخلق القرآن فقد كفر، أما نحن فلا، الوضع يختلف عندنا، والمشكلة أن هذا الخلاف لا يكون بين أئمة وعلماء وإنما يكون بين الذين ما درسوا مبادئ التجويد أحيانًا، يعني حتى الأشياء البسيطة، يمكن ما يحسن أن يقرأ الفاتحة، هذه قضية تقوم معه وتقعد وتأكل وتشرب، يريد أن يحقق هذه المسائل ويصدر فيها الأحكام، أئمة كبار ما اشتغلوا بتحقيق المناط على زيد وعمرو وفعله هذا ما الذي نتج عنه، ما اشتغلوا بهذا فسلموا من شر كثير، واستراحوا، لكن لما تتحول القضية إلى تنزيل هذه القضايا على الأفراد، ونعرف كل واحد ما حكمه، وليس فقط من قام بهذه الموالاة فهذا عنده مفروغ منه، بل ما ترتب على هذا بعد ذلك، فمن لم يكفر الكافر فهو كافر، فهذا بالنسبة إليه كافر، وهؤلاء أهل العلم أو طلاب العلم ما كفروه، هم أيضًا يكفرون بهذا، مصيبة ذات ذيول لا تنتهي، ولولا خشية الإطالة لذكرتُ لكم نماذج من الأدلة التي تتقابل، فالمسألة لا يمكن لهؤلاء الذين يكتبون من هذه الناحية أو الذين يكتبون من تلك الناحية أنهم يأتون بها بحكم دقيق ينطبق على كل أحد، سيختلفون، فهذه القضية لو أخذنا هذا القدر فيها قلنا: إن هذه قضية محرمة بنص القرآن والسنة، وهي قضية عظيمة ينبغي التحذير منها،

فالمؤمن يكون متجافيًا عنها تمامًا، ولا يتولى المشركين بحال من الأحوال، لكن هل بفعله المعين هذا يكفر أو لا يكفر؟، هذه مسائل تحتاج إلى جملة من الأمور هل هذا الفعل أصلاً يكفر به أو لا؟، وإذا كان هذا الفعل كفرًا مخرجًا من الملة -أو هذه الصورة- هذا يحتاج إلى تحقيق الشروط وانتفاء الموانع في المعين، أنا أظن هذا القدر لو بقينا معه لاسترحنا من كثير من العناء، والله أعلم.

مسألة قذف عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر عظيم، ومن هؤلاء الذين قذفوا عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- مِسْطح، فلما قطع أبو بكر عنه النفقة هذه ما هي مسألة موالاة، هذه مسألة ثانية لما قطع عنه أبو بكر -رضى الله عنه- النفقة قال الله تعالى عنه: وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سورةالنور:22مِسطح كان شهد بدرًا، وهو من المهاجرين، لاحظ "والمهاجرين" اعتبر له الهجرة ولو كان فعله ردة لبطلت هجرته؛ ولهذا بعض العلماء يقول: هذه أرجى آية في كتاب الله، يعني أكثر آية ترجية لمغفرة الله وسعة رحمته أن هذا الذي قذف عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- الله يأمر بالإحسان إليه وصلته، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لاحظ هذه واقعة معينة ليست من الموالاة لكنها أمر عظيم، فما كان ردة من قِبَل هؤلاء، مع أنه مَن قذف عائشة -رضي الله عنها- بعد نزول القرآن فهو كافر بهذا؛ لأنه مكذب للقرآن، والله المستعان، والناس في هذه المسألة بين طرفين طرف يطلق الأحكام على عواهنها هكذا بلا خطام ولا زمام، وهذا خطأ، وهناك قسم إرجائي يهون من هذه القضايا، وهذا خطأ، فالمقصود هنا ليس الخروج بنتيجة محددة في حكم الموالاة، وإنما هي تتفاوت، وأنواع ومراتب ودرجات، منها ما يكون ردة، ومنها ما يكون من الكبائر، ومنها ما يكون من الصغائر، والتوسط في هذا الباب هذا هو القدر الذي أريد أن أصل إليه أن المسألة ليست أقصى اليمين وليست أقصى اليسار، والكتابات منها ما ينحو هذا المنحى، ومنها ما ينحو هذا المنحى، والذين يتكلمون فيها ينبغي أن يكون هؤلاء من العلماء الذين يعرفون كيف يُنزِّلون الأدلة وكلام أهل العلم، ويجمعون بين هذا وهذا، والله المستعان.

وقال في كتاب التفسير: قال عمرو: ونزلت فيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء قال: "لا أدري الآية في الحديث أو قال عمرو"، قال البخاري: قال علي -يعني ابن المديني-: قيل لسفيان في هذا نزلت:لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء؟ فقال سفيان: هذا في حديث الناس حفظته من عمرو ما تركت منه حرفًا، ولا أدري أحداً حفظه غيري([4]).

قوله: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء "عدو" هنا لفظ مفرد مضاف إلى معرفة وهي ياء المتكلم، ومعلوم أن هذه الإضافة تكسبه العموم عَدُوِّي يعني أعدائي، لا تتخذوا أعدائي، عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ هنا أيضًا مضاف إلى معرفة، يعني وأعداءكم، عدو فعول من عدا، ولكونه على زنة المصدر أُوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد، وهو يصدق على الواحد والجماعة لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ وذكرنا أمثلة في عدد من المناسبات على مثل هذا في أنه يفيد العموم، لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء لاحظ بدأ بعدوه -تبارك وتعالى-؛ لأنه الأهم فإن عداوة أهل الإيمان المعاداة بالنسبة إليهم هي تابعة لمعاداة الله -عز وجل-، فإن عدو الله -تبارك وتعالى- عدو لأهل الإيمان ولابدّ، فبدأ بعدوه عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ هو ينفرهم منهم، ويحذرهم من موالاتهم، فذكر جملة أمور:

أولها: أنهم أعداء لله، كيف تواليهم؟!.

الثاني: أنهم أعداء لكم، كيف توالي عدوك؟!، أَوْلِيَاء جمع ولي، والموالاة تدور على معانٍ: منها: المودة، والمتابعة، والموافقة، والنصرة، كل هذا من الموالاة، فالموالاة أنواع كثيرة، ولها صور، وهي على مراتب كما قلنا: منها ما يكون ردة، ومنها ما يكون من الكبائر، ومنها ما يكون من الصغائر، فالموالاة قد تكون من الصغائر مثل ماذا؟ العلماء تكلموا في مسائل الموالاة تكلموا على بري القلم للكافر، وتعبئة دواة الحبر له، قالوا: هذه من صور الموالاة؛ لأنها إعانة له، فبري القلم هذا لا يعتبر ردة، ولا يعتبر من الكبائر، وإنما من الصغائر.

فقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يعني: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يُتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء

لاحظ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ الود هو خالص الحب، وهو ألطفه وأرقه، هو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، الرأفة رحمة رقيقة، فالمودة هي خالص المحبة، هنا ذكر المودة تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ما قال: تلقون إليهم بالمحبة، لا، بالمودة، فهذه المرتبة لا تصلح لأعداء الله -عز وجل-، لا يجوز للمؤمن أن يوادّ أعداء الله -تبارك وتعالى-، وانظر في الآية قلنا: حذرهم منهم ونفرهم من موالاتهم باعتبار:

أولاً: أنهم أعداء لله.

ثانيًا: هم أعداء لكم.

ثالثًا: وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ هذا الثالث لأنهم يعتبرون النبي -صلى الله عليه وسلم- كذابًا، يعتبرون كتابك هذا وهو القرآن أنه كذب مفترى، وأن دين الإسلام الذي تدين به أنه دين باطل، مثل هؤلاء تحبهم، تكرمهم، تقدمهم، تواليهم؟ كيف يكون هذا وهم يعتبرون أنك لست على شيء، وأنك على باطل؟، فهذه ثلاثة أمور الآن نفَّرهم بها، وسيأتي غيرها.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ سورة المائدة:51وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ سورة المائدة:57، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا سورة النساء:144، وقال تعالى: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ سورة آل عمران:28؛ ولهذا قبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

مع أن قوله -تبارك وتعالى-: إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً فُسر بأن الاستثناء هنا منقطع، لكن إذا كان منقطعًا لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ما هذه التقاة؟ فسر بأنها الملاينة في القول، والمصانعة فيه، والمداراة، يعني تتكلم معهم بكلام لطيف لتتقي شرهم، فهذا الكلام اللطيف معهم ليس من الموالاة، يعني ما استثنى شيئًا من الموالاة من أجل أن يتقي منهم تقاة، ولكن هي بمعنى: لكن يدفع شرهم بشيء من المصانعة بالقول.

وقوله تعالى: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

عبر بالفعل المضارع لتصوير الحال كأنك تشاهدها، وهو يدل على استمرار هذا العمل، والفعل القبيح الصادر منهم يُخْرِجُونَ فإن الفعل المضارع يدل على الاستمرار، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ هذا الأمر الرابع الذي نفرهم به من موالاة المشركين، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ يعني كيف توالونهم وقد أخرجوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟، والخامس: وَإِيَّاكُمْ يعني يخرجونكم، وقدم إخراج النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه أشد، ومضى الكلام على مثل هذا في كونهم أخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأخرجوا المسلمين، قلنا: إن المسلمين خرجوا والنبي -صلى الله عليه وسلم- مستخفين في الغالب، وكان المشركون لا يريدون خروج النبي -صلى الله عليه وسلم-

من مكة؛ لئلا تنتشر دعوته، فنسب الإخراج إلى المشركين باعتبار أنهم اضطروهم إلى ذلك بسبب التضييق عليهم، فكانوا بمنزلة من أخرجهم فأضيف ذلك إليهم، **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**،يعني قد يرد سؤال أنهم ما أخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم- هم ما كانوا يريدونه أن يخرج، كانوا يريدون قتله فكيف أضيف الإخراج إليهم؟ والصحابة كانوا يخرجون من مكة مستخفين لو علم بهم المشركون لمنعوهم، فيقال في الجواب: إنهم تسببوا بإخراجهم عندما ضيقوا عليهم فكانوا بمنزلة من أخرجهم فأضيف الإخراج إليهم.

ولهذا قال تعالى: **أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ** أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين.

"أن" تعليلية، يعني هم لماذا **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**؟ ليس لكم ذنب سوى أنكم آمنتم بالله، وهنا الجمع بين هذين الاسمين الكريمين **أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**، فالله -تبارك وتعالى- هو المألوه المعبود، وهو الرب الذي يستحق العبادة، والملازمة بين التوحيدين معروفة، توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، فأنتم آمنتم بالله الذي هو ربكم وسيدكم وهو خالقكم، وهو الذي يربيكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فهو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر النافع الضار إلى آخره، هذه معاني الربوبية، فإذا كان هو الذي يفعل ذلك جميعًا يخلق ويرزق ويعطي ويمنع فإذاً ينبغي أن يُعبد وحده لا شريك له، وصرف العبادة إلى غيره من أعظم بل هو أعظم الظلم، فأنتم ماذا فعلتم؟ ما هي الجريمة التي صدرت عنكم؟، إنهم يعادونكم ويخرجونكم ويؤذونكم لا لشيء إلا لكونكم آمنتم بالله ربكم خالقكم وسيدكم، وطبيعي أن الإنسان يعبد ربه -تبارك وتعالى- فجمع بين الاسمين يعني ما قال **أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ** يعني ذكر الرب كأنه بيان وإيضاح لكون هذا الفعل الذي فعلتموه -وهو إيمانكم- شيء واجب ولا يمكن العدول عنه؛ لأنكم آمنتم بهذا الرب، بهذا المعبود، بهذا الإله الذي هو السيد المدبر المتصرف الخالق الذي يرزق ويعطي ويمنع، فتُوجه العبادة له دون من سواه، ولا يسع المكلف غير هذا أصلاً، هذا ليس بجرم بل هذا هو أوجب الواجبات.

كقوله تعالى: **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** سورة البروج:8، وكقوله تعالى: **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** سورة الحج:40.

وقوله تعالى: **إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي** أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم.

وقوله تعالى: **تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ** أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، **وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ**.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ أي: لو قدروا عليكم.

ما هي أجلى صور البراءة من المشركين؟

الجهاد والهجرة، يعني كونه يجاهدهم وينتقل من الأهل والوطن والعشيرة لله وفي الله، يعني يضحي بكل شيء، الجهاد تضحية بالنفس والمال، والهجرة تضحية بالأهل والوطن والعشيرة، وغالبًا المال؛ لأن الصحابة -رضي الله عنهم- خرجوا وتركوا أموالهم في مكة، فهذه أجلى صور التضحية، وهي أجلى صور المعاداة والبراءة من المشركين، فالله -تبارك وتعالى- يقول لهم: إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي أنتم خرجتم تركتم الأهل والوطن والعشيرة لله وفي الله، وهذه أجلى صور البراءة منهم ثم بعد ذلك ترجعون وتوالونهم، فإن كان خروجكم هذا لله وفي الله فينبغي أن تكونوا أبعد عن موالاتهم، قال: وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ هذا وعيد، وبعضهم يقول: لما كانت محبة الله -عز وجل- وعبادته لربما تورث شيئًا من الإدلال، يعني يظن أنه بإيمانه ومحبته لله لا يضره ما قد يقارف من الجنايات جاء هذا الوعيد وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ؛ لئلا يتوهم أحد أن مجرد الإيمان أو أن محبة الله لا تضر معها جنايات العبد، نحن مؤمنون إذًا جاوزنا القنطرة، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ سواء السبيل يعني السبيل المستوية المستقيمة، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، السبيل ما صفتها؟ المستوية، فقدم الوصف "سواء" على الموصوف وأضيف الأول إلى الثاني فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ فهذا يفهم بهذا الاعتبار.

أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء الثَّقْف هو الإدراك إدراك الشيء بحذق والتمكن منه، إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء فهذا أصل هذه المادة، الثقْف تقول: رمح مُثقَّف يعني كأنه قد صنع بدقة ومهارة وحذق، وتقول: هذا رجل مثقَّف، فالثقْف هو إدراك الشيء بحذق والتمكن منه، إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء ما معنى هذا؟ هم أعداء أصلاً فكيف قال: إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء؟ العداوة كامنة في صدورهم، وقلوبهم مليئة بالعداوة فكيف قال: إِن يَثْقَفُوكُمْ؟ "إنْ" شرطية، إن يتمكنوا منكم ويظفروا بكم يكونوا لكم أعداء، فهنا الثقْف تُجُوِّز به عن الظفر في إدراك الشيء، بمعنى أنهم إن تمكنوا منكم تُرجمت هذه العداوة الكامنة في النفوس إلى عداوة باليد واللسان، يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء يعني يفعلوا بكم فعل العدو بعدوه، مِن قَبل العداوة جمرة في قلوبهم، قلوبهم منطوية على هذا، العداوة كامنة في هذه النفوس، لكن يترجمون عنها لو تمكنوا منكم، لو حصل هذا لفعلوا بكم الأفاعيل، وأسمعوكم ما تكرهون، وهذا الذي يحصل من الأعداء في كل زمان ومكان، يعني هؤلاء

الباطنية مثلاً في بلاد الشام، أنا لا أتعجب مما يفعلون؛ لأن هذا هو دينهم، وهم أكثر الناس عداوة وحقدًا على المسلمين، هذا معروف في التاريخ، فأنا لا أتعجب، فهذا معدنهم، والشيء من معدنه لا يستغرب، لكن الشيء الذي أستغرب منه هو أن يظن أحد أو يتوهم أحد أن هؤلاء يمكن أن يكون عندهم بقية من مروءة أو عقل أو دين، وأنهم يمكن أن يراعوا المسلمين، أو يكون في قلبهم أدنى رحمة لهم، هذا الذي أستغرب منه خاصة في بدايات الأمر، يعني أحيانًا تجد في ثنايا كلام بعض الناس في البدايات من يظن أن هؤلاء ممكن ألا تصل الأمور إلى ما وصلت، أنا كنت أستغرب من هذا الفهم، يعني هم معدن شر، ماذا ترجِّي منهم؟ لا يصدر منهم إلا كل قبيح من القول والفعل، لا يُنتظر إلا هذا، هؤلاء يمكن أن يمسحوا البلاد يسووها بالأرض على من فيها، بالنسبة إليهم هذا يعتبر إنجازًا كبيرًا؛ لأن عداواتهم عبر التاريخ يحاولون أن يتمكنوا من المسلمين، فكيف إذا وجدت لهم دولة وجيوش ويمدهم إخوانهم في العراق وإيران وحزب الشيطان؟ فرصتهم التاريخية، عندهم دولة، وعندهم جيوش فيفعلون الأفاعيل، هل رأيتم مثل هذه الصور: الرجل وهو حي يطعن بالسكاكين ويتضاحكون ثم يضربونه ويفرغون رأسه بالطوب؟ واحد يرسل صواريخ سكود على شعبه إن صح أن نعبر ونقول: إنهم شعبه، هل يعقل هذا؟ فهم لا يتعاملون مع من يحاربونهم بل كل من يمر بهم من امرأة، من طفل قنص مباشرة، والذي يمر على الحواجز التي يضعونها في كل مكان إن كانت امرأة انتهكوا عرضها، وإن كان رجلًا قتلوه وجرجروه، وهؤلاء ناس عاديون ما يحاربونهم، الناس الذين يصطفون لطوابير الخبز، قصف، ويضربهم هذا.

قد يقال مثلاً: والله المفروض أنهم لا يستعدون الناس، المفروض أنهم يحتوون الناس، المفروض أنهم يقاتلون فقط من يقاتلونهم، ويقولون: نحن نقاتل فئة معينة، ويحسنون إلى الناس من أجل الاحتواء لا، هذا الكلام قله مع غيرهم، لكن هؤلاء لا يفهمون هذا، ولا يتعاملون بهذا، الجميع عندهم أعداء، وإبادة هؤلاء هي من المطالب العظيمة بالنسبة إليهم، دينهم هو هكذا، نحن إلى الآن لم نفهم هؤلاء، ولم نعرف حقيقتهم إلى الآن في تعاملنا معهم، هؤلاء هل سمعتم بالسوء والشر؟ كلمة سوء وشر قليلة عليهم، هؤلاء أسوأ من السوء، وأشر من الشر، وأنجس من النجاسة، وأقذر من القذر، وألعن من الملاعين، يعني كل رزية وردية وبلاء هو موجود فيهم، لا تنتظر منهم نسبة واحد من المليون من خير أو يقظة إطلاقًا، فهم معدن الظلام والشر، ففي العراق كانوا يأتون بالدريل ويخرقون الرءوس، بينما الأمريكان يضعون القيود في اليد، هؤلاء يخرقون اليد من هنا ومن هنا، يخرقونها ويدخلون القيد فيها القيد البلاستيك، ويأخذون الرجل ويدخلونه في التنور وهو حي، والدريل في السيقان وفي الجمجمة والإنسان حي، هذا ما سمعنا

به ولا من الصرب، ويتضاحكون، يأتي الرجل إلى زواج إلى مناسبة ومعه شاب جامعي واضعه بشنطة السيارة ثم يفتحها ويعتذر إليهم يقول: ما وجدت والله شيئًا كرامتكم، لكن جبت لكم هذا، ويجره ودماؤه تنزف شاب لاقيه في الشارع وضاربه ثم واضعه في شنطة السيارة ويحضره وقدامهم بالسكين هذه كرامتكم، هذا في العراق، فماذا تنتظر منهم؟ اليهود أرحم بكثير من هؤلاء على شدة عداوة اليهود، والنصارى أرحم بكثير من هؤلاء على الأقل أولائك يراعون بعض الأشياء يراعون شعوبهم، يراعون جمعيات عندهم وعند غيرهم، أما هؤلاء فلا يراعون شيئًا أبدًا، إلى الآن لم نعرفهم، وكل هذا الذي يجري هو جزء مما تكنه صدورهم **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ** بسط اليد بالضرب الوجيع والقتل وأنواع العدوان العملي، **وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ** يسمعونكم ما تكرهون، اسمع المقاطع الصوتية التي تنشر هنا وهناك، انظر ماذا يقولون من سب الله –عز وجل– وسب الدين إلى غير ذلك من أقبح العبارات، والقذف القبيح في أم هذا الإنسان المضروب وأخته وإلى آخره، عبارات في غاية السوء –نسأل الله العافية–، فيسمعونهم هذا كله، فالمقصود **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء** يعني العداوة التي تترجم بالفعل، العداوة التي يترتب عليها ضرر وأذى عملي وقولي، وهؤلاء كما قال شيخ الإسلام: إنهم من أذل الناس إذا كانوا مقهورين، يعني بعض الناس يقول: طيبة، ويتعاملون مع الناس تعاملًا جيدًا، وتعاملًا طيبًا، وتعاملًا حسنًا، وإذا باع لك صرة نعناع أو صرة جرجير قال: بالعافية، طيبة، وتعامل جيد، ولطيف، هؤلاء كما قال شيخ الإسلام، وبعض الناس يقول: هؤلاء أحسن من السُّنة في التعامل، هؤلاء كذا، هؤلاء كما قال شيخ الإسلام: إن كانوا مقهورين فهم من أذل الناس لمن يقهرهم، وإذا تمكنوا فهم أسوأ الناس وأشرس الناس،نسأل الله العافية.

وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ أي: ويحرصون على ألا تنالوا خيرا، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء؟! وهذا تهييج على عداوتهم أيضًا.

الآن ذكرنا عدة أمور من الآية كلها تنفير منهم وتحريض على ترك موالاتهم، ومنها هذا **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** كيف توالي من كان بهذه المثابة؟ عداوته كامنة ولو تمكن منك لفعل الأفاعيل كيف تتولاه؟!.

وقوله تعالى: **لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** أي: قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءًا، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريبًا إلى نبي من الأنبياء، روى الإمام أحمد عن أنس أن رجلا قال: يا رسول

الله: أين أبي؟ قال: (في النار)، فلما قفَّى دعاه فقال: (إن أبي وأباك في النار)([5]) ورواه مسلم وأبو داود.

قوله -تبارك وتعالى-: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ باعتبار سبب النزول أن حاطب -رضي الله عنه- إنما كتب ذلك من أجل قرابته، فهذا ليس بمبرر لهذا الفعل.

وقوله -تبارك وتعالى-: يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ فيه أربع قراءات متواترة، "يَفصِل بينكم"، و"يُفصَل بينكم"، و"يُفصِّل بينكم"، و"يُفصَّل بينكم" أربع قراءات يفصل بالبناء للمعلوم مخففة ومشددة، يفصل بالبناء للذي لم يسم فاعله مخففة ومشددة، وهنا في الوصل والوقف الآية تحتمل: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يمكن أن يكون الوقف هنا تامًّا، يعني لن ينفعوكم يوم القيامة، ثم قال: ما الذي يحصل يوم القيامة كأن سائلاً سأل، قال:يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ يعني كل أحد يوم القيامة مشغول بنفسه، كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ سورة المدثر:38-39الآيات، ويحتمل هنا أن يكون لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، فيكون يوم القيامة ظرفًا للفصل بينهم، وكلاهما صحيح، هي لن تنفع يوم القيامة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن كل نسب وسبب فهو مقطوع يوم القيامة، يعني غير الإيمان والعمل الصالح "إلا نسبي وسببي" أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-([6])، والله -عز وجل- يقول: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ سورة عبس:34-36، الآيات، فهذه لا تنفع يوم القيامة، وكذلك يوم القيامة يُفصل بين هؤلاء يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ* رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُسورة الممتحنة:4-6.

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه.

الأسوة كالقدوة وهي الحالة التي يكون عليها الغير حسنة كانت أو سيئة، أسوة قال: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فهي كالقدوة، فالأسوة اتباع الغير على الحالة التي هو فيها أو الحالة التي هو عليها حسنة كانت أو سيئة، قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ فهنا قدوة حسنة، لكن الأسوة تأتي لهذا وهذا، اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها أيًّا كان هذا الاتساع: أسوة، قدوة، هنا قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- هاجر من قومه وما آمن به أحد منهم، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي سورة العنكبوت:26، والله -عز وجل- قال: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وهو

ابن أخيه، فالذين معه من هم؟ لم يؤمن قومه فهل يقال: لوط –عليه الصلاة والسلام– وزوجته؟ يحتمل، ومن نظر إلى أن قومه لم يؤمنوا وأنه هاجر من بلده، وهجر قومه، وتبرأ منهم قالوا: وَالَّذِينَ مَعَهُ هم الأنبياء الذين كانوا قبله فهم معه على الطريق بهذا الاعتبار، يعني هذا الذي حمل طائفة من أهل العلم على تفسير هذا الموضع وَالَّذِينَ مَعَهُ قالوا: الأنبياء باعتبار أنه لم يؤمن قومه به فمن الذين معه؟ وبعض أهل العلم قال: إن الذين معه هم من آمن به بعد ذلك، ويدخل في هؤلاء، أيضًا لوط–عليه الصلاة والسلام– وزوجته، ومن آمن به بعد ذلك في مهاجره كان موقفهم كموقفه، أنهم تبرءوا من أعداء الله –تبارك وتعالى–، هذا توجيه لهذه الأقوال، الآن هذه الأسوة أسوة في ماذا في هذا المقام فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هنا الأسوة في ثلاثة أمور بهذه المقام:

الأول: البراءة منهم إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ تبرءوا منهم ومن عبادتهم أو معبوداتهم.

الأمر الثاني: الكفر بهم كَفَرْنَا بِكُمْ.

الأمر الثالث: أنهم أظهروا لهم العداوة، أظهروا لهم ذلك، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ هذا واضح، ومما تعبدون من دون الله هذا واضح، كَفَرْنَا بِكُمْ الكفر لا يتعلق بالذوات، والأحكام لا تتعلق بالذوات، يعني في قوله تعالى مثلاً: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْسورة النساء:23، ليس المقصود ذات الأم، وإنما نكاح أمهاتكم، أو الاستمتاع بأمهاتكم، الآيات في النكاح الآية في الزواج حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ محرمات في النكاح، فهنا فيه مقدر حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ أي: نكاح أمهاتكم، لكن في غير القرآن لو قيل: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ في الاستمتاع، جميع صور الاستمتاع، لكن في الآية هنا النكاح، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ يعني نكاح أخواتكم، فالأحكام لا تتعلق بالذوات، "حرمت عليكم الميتة" يعني أكل الميتة، الأحكام لا تتعلق بالذوات، فهنا "كفرنا بكم" يعني بدينكم، هذا معناه والله –تبارك وتعالى– أعلم، كَفَرْنَا بِكُمْ بما آمنتم به من الأوثان، أو كفرنا بأفعالكم، وما يصدر عنكم من الأباطيل، فهذا أعم من الذي قبله، هنا يقول: أي: بدينكم وطريقتكم.

وقوله: وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا أي: ظهر، هنا قالوا لهم هذا الكلام فهل من شرط إظهار الدين والبراءة من المشركين أن يبدي لهم العداوة أو لا؟ بعض العلماء يقول: إن إظهار الدين يتوقف على هذا، لابدّ منه، أن يقول لهم: أنتم أعدائي، وبعضهم يجعل الشروط في السفر إلى بلاد الكفر تحت القدرة على إظهار الدين، يقولون: إن مقتضى الإظهار أن يقول لهم: أنتم

أعدائي وأنا عدوكم، هكذا قال بعض العلماء، والأقرب أنه ليس بشرط، وليس بلازم في البراءة من المشركين أن يعلمهم بهذا ويقول لهم ذلك، وإنما لا يواليهم بحال من الأحوال، هذا هو القدر الواجب، لكن الله -عز و جل- يقول: **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ** المقصود هو البراءة فهل المراد أن يقول لهم ذلك بلسانه، ليس بالضرورة، قد لا يقتضيه المقام، وقد لا تكون المصلحة فيه، قد يحصل عليه ضرر، وإنما يكفي في إظهار الدين في شرط السفر إلى بلاد المشركين أن يقال: إن المرأة تلبس حجابها كاملاً كما تلبس هنا، فإذا كانت تريد أن تغير، أن تستخفي، تنزع الحجاب بالكلية أو تغير بالحجاب بصور معينة تقول: ألبس ثوبًا واسعًا وأضع شيئًا على شعري ونحو هذا نقول: لا، هذا أول الضعف والهزيمة، مثلكم لا يصلح للسفر إلى بلاد المشركين، أنتم غير مؤهلين لهذا، تجد أول ما يطير بالطائرة، الطائرة تطير ساعات، أربع عشرة ساعة أحيانًا من صلاة الفجر تأتي وتنظر في هذه الأمّة في هذه الطائرة أكثر من ثلاثمائة شخص تقوم وتؤذن وتصلي قد لا يقوم معك ويصلي إلا اثنان أو ثلاثة، الوقت يخرج وهؤلاء في عاشر نومه، لهم غطيط، تُطفأ الأنوار وينامون وصلاة الفجر الشمس تطلع هنا ما يصلون، ما أدري يجمعونها مع العشاء أو أنهم لا يصلون أصلاً، هذا كثير بل ينظرون إليك باستغراب أنك تقوم وتؤذن، هم ما يجترئون أن يصلوا ولو على المقاعد، هذه هزيمة هؤلاء يسافرون؟ هذا غير التي تطوي عباءتها وتضعها في الحقيبة منذ أن تركب في الطائرة، هؤلاء لا يجوز أن يسافروا إلى بلاد الكفار ولا البلاد التي يظهر فيها الفسق والفجور.

فأقول: المحافظة على الحجاب هذا إظهار الدين، إذا جاء وقت الصلاة أذنَ وصلَّى في المطار في أي مكان، هذا الذي يظهر دينه، أما إذا كان يقول: لا، والله أنا أحرج، إحراج، لا أستطيع أن أصلي في المطار، أنا أحرج لا أستطيع أن أصلي في الجامعة، أنا لا أستطيع أن أصلي في الأماكن العامة، أريد أن أجمع الصلوات فإذا رجع بالليل صلى صلوات الظهر والعصر والمغرب، هذا لا يجوز أن يسافر، هذا ضعيف، فإظهار الدين أنه يقوم ويعتز بدينه وإيمانه ويؤذن ويصلي، والمرأة بحجابها الكامل، وتعتز بهذا، لكنها الهزيمة والضعف والخور، هذا الذي يذهب بهذه النفس هذا يكون عرضة لكل آسر وكاسر، ممكن أن يرتد، ممكن أن يتخلى عن إيمانه ودينه، ممكن أن يفعل أي شيء، أما التشبه بهم فحدث ولا حرج للأسف، وما رأيناهم إذا جاءوا إلى بلادنا أو وهم في بلادهم يتذوقون طعامنا ويستحلونه ويلبسون لباسنا ويتزينون بزينا إطلاقًا، ولا يسألون عن هذا ولا يرفعون به رأسًا، رأيتم هذا؟ هؤلاء إذا جاءوا يلبسون الشماغ والثوب وحريمهم تلبس الحجاب؟ أبدًا، فما بالنا نحن إذا ذهبنا نذهب مهزومين؟!.

إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ أي: تبرأنا منكم، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ أي: بدينكم وطريقكم، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم، فنحن أبدا نتبرأ منكم، ونبغضكم حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان.

وقوله تعالى: إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ سورة التوبة:114، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله -عز وجل-: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ سورة التوبة:113-114.

هنا قوله: إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ يقول ابن كثير: فيه أسوة إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، هذا باعتبار أن الاستثناء متصل، والاستثناء المتصل أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، يعني لقد كان لكم فيهم أسوة في كل شيء إلا في شيء واحد وهو استغفار إبراهيم لأبيه، بهذا الاعتبار يكون متصلاً، أسوة في كل شيء إلا في شيء واحد وهو استغفار إبراهيم لأبيه، فهذا لا يجوز لكم الاتساء به فيه كما سيأتي.

وعلى هذا أنه أسوة إلا في شيء واحد، يعني أسوة فيها استثناء، والله لما ذكر في سورة الأحزاب الاتساء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا سورة الأحزاب:21فما استثنى شيئًا، فأخذ منه بعض أهل العلم بهذا الاعتبار تفضيل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأدلة على تفضيل النبي -صلى الله عليه وسلم- معروفة (أنا سيد ولد آدم)([7])،والشفاعة العظمى، وغير ذلك، لكن هذا أحد الأدلة في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، أن الله لما ذكر الاتساء بإبراهيم استثنى منه، ولما ذكر الاتساء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستثنِ، هذا على أحد الاعتبارين أن الاستثناء متصل، أسوة إلا في كذا، يعني إلا في استغفاره؛ لأنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو في أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هجر قومه إلا في الاستغفار، هذا باعتبار أن الاستثناء متصل، ويحتمل أن يكون الاستثناء منفصلاً فيكون بمعنى لكن، قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، لكن قوله لأبيه لأستغفرن لك كان عن موعدة، يكون بمعنى

لكن، يعني تكون الأسوة كاملة، وهنا تكون إلا بمعنى لكن، يعني يبين لهم أمرًا خفي عليهم، ما يكون من قبيل الاستثناء المتصل، وعلى هذا فيكون القول السابق بالاستدلال بهذه الآية على تفضيل النبي -صلى الله عليه وسلم- على إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ما يتأتى على القول بأن الاستثناء منقطع، وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم بأدلة أخرى، رأيتم كيف أن الأدلة يمكن أن يستدل بها على أمر على أحد الاحتمالين على أحد المعنيين، وهذا كثير، على كل حال قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك إنما جرى لأنه ظن أنه يسلم، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ سورة التوبة:114أنه يموت على الكفر تَبَرَّأَ مِنْهُ، وهنا لم يبين سبب هذا الاستثناء، وهل هو خاص بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أو لا، ولكن الله -تبارك وتعالى- بين ذلك في مواضع أخرى، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ هذا يبين السبب لماذا استغفر إبراهيملأبيه؛ لأنه وعده لما قال: أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي سورة مريم:46-47فهذا وعد بالاستغفار، فهذه هي الموعدة التي أشار الله إليها، وقال الله -عز وجل-: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ سورة التوبة:113، فبيّن أن القضية لا تختص بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ونوح -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ سورة هود:45-46، ثم بعد ذلك نوح -عليه الصلاة والسلام- استعاذ بالله من أن يسأله ما ليس له به علم: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ سورة هود:47،هذا نوح -عليه الصلاة والسلام- ونوح ولوط في أزواجهما كما قال الله -عز وجل-: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سورة التحريم:10، فالبراءة من المشركين ليست خاصة بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإنما هي عامة، يجب أن يتبرأ منهم ولو كانوا أقرب قريب، وهنا على القول بأن الاستثناء منقطع احتج به الصحابة -رضي الله عنهم- باستغفار إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لأبيه وقالوا: استغفر إبراهيم لأبيه لنستغفرن لآبائنا الذين ماتوا على الشرك، فأنزل الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى هذا أحد أسباب النزول الصحيحة الواردة في هذه الآية: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ، وكذلك نزلت في استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمه أبي طالب، فنهاهم الله عن ذلك، وكذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر بقبر أمه بطريقه إلى مكة ونزل عند القبر طويلاً، وأخبر أصحابه

أنه استأذن ربه في أن يزور قبرها فأذن له، واستأذنه في أن يستغفر لها فلم يأذن له([8])، فالاستغفار للمشركين لا يجوز بحال من الأحوال، ومن الآية يؤخذ هنا مسألة: شرع من قبلنا فكون الصحابة احتجوا بفعل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ثم نهاهم الله -عز وجل- عن ذلك، من أهل العلم من يقول: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا النهي عنه، يعني أنه نسخ في شرعنا، وبعضهم يقول: شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إلا ما جاء في شرعنا ما يقرره، فإذا جاء في شرعنا ما يقرره انتهى، معناه أنه ليس بشرع لنا، إنما نعمل بمقتضى ما جاء في شرعنا، فيؤخذ من الآية أن وشائج القربى لا تنفع مع اختلاف الدين لا أب ولا ابن ولا قريب، وأن الرابطة المعتبرة هي رابطة الإيمان وليست رابطة القرابة والعشيرة.

بعضهم يقول: شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إلا ما جاء في شرعنا ما يقرره، فإذا جاء في شرعنا ما يقرره انتهى، معناه أنه ليس بشرع لنا، إنما نعمل بمقتضى ما جاء في شرعنا، فيؤخذ من الآية أن وشائج القربى لا تنفع مع اختلاف الدين لا أب ولا ابن ولا قريب، وأن الرابطة المعتبرة هي رابطة الإيمان وليست رابطة القرابة والعشيرة.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إلى قوله: إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ أي: ليس لكم في ذلك أسوة أي: في الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك وغير واحد، ثم قال تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم فلجئوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا: رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ أي: المعاد في الدار الآخرة.

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا يحتمل أن يكون هذا متصلاً بما قبل الاستثناء، وأنه من جملة الأسوة الحسنة يعني الله -تبارك وتعالى- يقول: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ يعني هذا من جملة الأسوة، فاستثنى في ثنايا ذلك استغفارإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه، فيكون هذا من جملة كلامإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- والذين معه، في جملة ما قالوا رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ أن هذا من قولهم، فيكون من قبيل الكلام المتصل الذي يرتبط بما قبله، يعني من قول قائل واحد، ويحتمل أن يكون من الموصول لفظًا المفصول معنى، يعني أن يكون هذا من

كلام الله تعليمًا لعباده المؤمنين كيف يقولون، لأنه يُتوقع إذا فاصلوا قومهم وحصلت البراءة منهم أن يكون ذلك لربما سببًا لمحاربتهم، أو يكون ذلك سببًا لوحشة تقع في قلوبهم، لربما يقع في وهمهم أو في وهم بعضهم أنهم ينفردون بأمورهم وحاجاتهم، ومواجهة الحياة، وتكاليف الحياة وما إلى ذلك، وليس لهم أعوان ولا ناصر بعد الله -عز وجل-، قاطعوا الأهل والعشيرة، والناس كانت حياتهم في السابق العشيرة هي التي تحمي الرجل، والقبيلة ونحو ذلك، فسيبقون بعيدًا عن أهلهم وقراباتهم وعشيرتهم فيكونون لربما عرضة للمخاوف والأخطار كما أنهم أيضًا عرضة لأذى هؤلاء ولابدّ فعلّمهم كيف يقولون، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا رجعنا إليك، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ مصيرنا إليك، فنواصي الخلق بيده -تبارك وتعالى-، فيفوضون أمرهم إليه، ويتكلون عليه ويثقون به فهو ناصرهم، وأزمّة الأمور بيده -تبارك وتعالى-.

هذا يحتمل أن يكون من قبيل التعليم من الله -تبارك وتعالى-: رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، ويمكن أن يكون من جملة كلامهم وما قالوه لقومهم.

---

[1]- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، برقم (4274)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (2494).

[2]- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، برقم (4274).

[3]- رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، برقم (2118).

[4]- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ الممتحنة:1، برقم (4890).

[5] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين، برقم (203)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، برقم (4718).

[6] - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (13174)، عن المسور بن مخرمة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ينقطع كل نسب إلا نسبي وسببي وصهري)، والحاكم في المستدرك، برقم (4684)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وصححه

الألباني في صحيح الجامع، برقم (4564)، وقال في سلسلة الأحاديث الصحيحة (58/5): "وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح، والله أعلم".

[7] - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق، برقم (2278).

[8] - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل- في زيارة قبر أمه، برقم (976).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الممتحنة من الآية (5) إلى نهاية السورة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا، ولوالدينا، وللمستمعين، ولجميع المسلمين.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواسورة الممتحنة:5، قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا قول مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك.

هذان قولان كما ترون وذلك أن هذه اللفظة "فتنة" هي مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل، وبمعنى المفعول، فقوله: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً يحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، أي: لا تجعلنا فاتنين، وعلى هذا يتخرج قول مجاهد، والضحاك، لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

لا تجعلنا فاتنين، يعني: لا تسلطهم علينا، فيكون ذلك فتنة لهم فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما صاروا بهذه المثابة من الضعف والمهانة، تحت قهرنا وسلطتنا، هذا معنى، وهو معنى صحيح، يعني: لا تجعلنا فاتنين لهم، واضح المعنى؟ هذا بمعنى فاعل، فاتن، كيف نكون فاتنين لهم؟

حينما نكون بحالة سيئة -تحت قهرهم وتسلطهم- من الضعف والمهانة والعجز، كما هو حال الأمة اليوم، فيقول هؤلاء: لو كان هؤلاء على الحق لما صاروا بهذه المثابة، من المحيط غربًا إلى حدود الصين هذه هي الأمة التي تسمى بالعالم الثالث، والعالم الصناعي عن يمينهم وشمالهم، بمجرد ما تتعدى هذا الحد يمينًا وشمالاً يأتيك العالم الذي يسمونه العالم الصناعي، والعالم الأول، والفقر والحروب والجهل والعلل والأمراض والتخلف كله في بحر هذا العالم الذي يسمونه بالعالم الإسلامي.

فهذا المعنى الأول، ويدخل فيه أيضًا كل ما يصدر عنا، مما يكون فتنة لغيرنا، ويحول ذلك بينهم وبين الدخول في الإسلام، بسوء الحال، وسوء العمل، وسوء التطبيق، وسوء الامتثال، بما يرونه من الفرقة والاختلاف، بما يرونه من الفجور الذي للأسف يكون من أبناء المسلمين، لاسيما أولئك الذين يأتون إلى بلادهم، فيرون منهم من الفجور ما لا يرونه في أنفسهم.

يقولون: أين الحق الذي معهم؟، وقل مثل ذلك فيما يفعله المسلمون من ألوان الحيل والكذب مما يُحتاج معه إلى سن قوانين جديدة في بلادهم، ويعللون بهذا أنهم ابتلوا بهؤلاء من المسلمين الذين يحتالون بشتى الحيل، فهذه حال بائسة.

المعنى الثاني: وهو الذي يتخرج عليه قول قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يعني لا تسلطهم علينا فنُفتن في ديننا، يفتنوننا في ديننا، يقهروننا، ويكون تسلطهم هذا سببًا لفتن المسلم في دينه، وهذا واضح، أنهم إذا تسلطوا على المسلمين نحَّوْا شرع الله، وعملوا على كل ما يؤدي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم، فهذا هو الحال الواقع دائمًا إذا غلب الكفار على المسلمين.

القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً أي: فاتنين، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً، أي: مفتونين لهؤلاء الكفار، وإذا كان هذا مما يدعو به أهل الإيمان مما علمهم الله -تبارك وتعالى- فإن ذلك يتوجه أيضًا إلى حالهم مع أهل الإيمان، يعني: إذا كان رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا فكذلك للذين آمنوا، من باب أولى، لا تجعلنا فتنة للمؤمنين، ليس معناه لا تسلطهم علينا على هذا الاعتبار، وإن كانت الآية ليست في فتن المؤمنين لكن يقال من باب أولى، يعني: لا تجعلنا فتنة لأهل الإيمان، بسوء حالنا، بسوء تصرفنا، بسوء فعالنا، لاسيما من يُنتظر منه الإحسان، أو من يكون بمنزلة يقتدي به الناس، كالعالم، والقاضي، والذي يعلم الناس، وما إلى ذلك، فهذا الذي يكون في محل القدوة، فيرون منه حالاً أخرى غير الحالة التي يتعلمونها ويقرؤونها، فيكون ذلك سببًا لفتنهم عن دينهم، ويقولون: انظروا هؤلاء الذين ينسبون إلى العلم،

أو ينسبون إلى التعليم، أو نحو ذلك، يدرِّس العلوم الشرعية وهو حليق، ومسبل، ولربما يدخن، وحالة سيئة، هؤلاء التلاميذ، فما ظنكم بغيرهم؟! سيكون فتنة لهم.

وهكذا حينما يكون الناس -نسأل الله العافية- في حال من التنابذ، والتفرق، والاختلاف، وتبادل التهم فيما بينهم، ونحو ذلك، كما هو الحال في مشارق الأرض ومغاربها، فهؤلاء الذين يثق الناس بهم ويعطونهم أصواتًا في الانتخابات، وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك يفاجئون أنهم في غاية التناحر والاختلاف، وأنهم لربما يصل الأمر بهم إلى تحويل هذا الاختلاف ليكون على الملأ في القنوات الفضائية، ويشاهده الملايين، يراه العدو والصديق، فالناس سيفتنون، ويقولون: هؤلاء الذين كنا نثق بهم، ونحسن الظن بهم هذه حالهم.

فإذا رأوا أيضًا منهم تصرفات غير لائقة، من سوء التطبيق، وسوء العمل، وسوء الامتثال فهذا يزيدهم فتنة، الناس سيكرهون الدين، ويكرهون هؤلاء.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا، هذا ظاهره أنه من جملة كلامهم، من جملة دعائهم، ويحتمل أن يكون من تعليم الله -عز وجل- لأهل الإيمان، كيف يقولون، أمرهم بالتأسي بإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ومن معه، ونهاهم عن موالاة المشركين، وبين لهم خطر ذلك، وذكر لهم هذه الأسوة، قال: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بحيث يقولون: انظروا هؤلاء لو كانوا يثقون بما عندهم من حق لما كاتبونا في حال كهذه، مما يعد من قبيل الخيانة العظمى، لو كان هؤلاء يثقون بما عندهم، وأنهم على حق، لما حصلت هذه المكاتبة سرًّا، وهذا يدل على أن القناعات ضعيفة.

مع أن الأمر ليس كذلك، فحاطب -رضي الله عنه- اعتذر بعذره، وقبله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على كل حال، لكن هم سيقولون: لو كان هؤلاء على قناعة حقيقية لما صاروا يكاتبوننا سرًّا، والله المستعان.

وقوله تعالى: وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعفُ عنها فيما بيننا وبينك.

هذا يمكن أن يتخرج على أنه لا يخلو الإنسان من حال من التقصير، مهما بذل، ومهما اجتهد، وقد يجتهد ويخطئ، وقد يتأول، فيكون بعض تصرفه سببًا لفتنة، والناس قد لا يعرفون خلفيات هذه التصرفات، وما وراءها، فيكون فتنة للناس، وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

فانظر لمثل هذه التربية القرآنية، يعلمهم ويربيهم ويذكر لهم الأسوة والقدوة، بعدما ينهاهم عن موالاة المشركين، ويبين لهم مخاطر الإقدام على عمل كهذا، ثم بعد ذلك لا يخلو الإنسان مهما بذل ومهما اجتهد من تأول، أو تقصير، أو ذهول، أو تفريط، فيسأل ربه أن يغفر له.

فانظر لمثل هذه التربية القرآنية، يعلمهم ويربيهم ويذكر لهم الأسوة والقدوة، بعدما ينهاهم عن موالاة المشركين، ويبين لهم مخاطر الإقدام على عمل كهذا، ثم بعد ذلك لا يخلو الإنسان مهما بذل ومهما اجتهد من تأول، أو تقصير، أو ذهول، أو تفريط، فيسأل ربه أن يغفر له.

ولاحظ هنا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، يعني: لم يقل: واغفر لنا ربنا إنك أنت الغفور الرحيم، نحن عرفنا أنه في حال الدعاء يدعو بكل مقام بما يناسبه من الأسماء الحسنى، فقد يقول قائل: إن المتبادر هنا أن يقول: اغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم، يا غفور اغفر لي، وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا سورة الأعراف:180، لكنه قال: إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مقتضى الدعاء ما هو؟

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا قلنا: بمعنى لا تسلطهم علينا فيُفْتَنوا، أو لا تسلطهم علينا فيَفْتِنوا أهل الإيمان، والذي بيده القوة والقدرة على أن يحول بين الكفار والتسلط على المسلمين من هو؟

هو العزيز الحكيم، فالعزة تكون من مجموع أوصاف من القوة القدرة، والقهر والغلبة، فيكون عزيزًا، والحكيم هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فهذان الاسمان في غاية المناسبة هنا بناء على مقتضى هذا الدعاء، فالذي يملك أن يحول بين الكفار والتسلط على المسلمين هو العزيز الحكيم.

إِنَّك أَنتَ الْعَزِيزُ أي: الذي لا يضام من لاذ بجانبك، الْحَكِيمُ في أقوالك، وأفعالك، وشرعك، وقدرك.

ثم قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ... سورة الممتحنة:6، وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضًا؛ لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هي الأولى بعينها.

يعني: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وقبل ذلك الله -تبارك وتعالى- يقول: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ... سورة الممتحنة:4، فهذا التكرار كما قال ابن كثير: كرره مبالغة في الاتساء، للتحريض على هذا الاتساء، ولتأكيده.

"لقد"، تدل على القسم، موطئة له، فهنا قسم مقدر محذوف، كأنه يقول: والله لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة، وعرفنا ما معنى الأسوة.

وقوله تعالى: لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...، تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد.

قوله: لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ... بعضهم يقول: هذا بدل اشتمال، وبعضهم يقول: هذا بدل بعض من كل، بدل من الكاف، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ...، يعني: البدل إما أن يكون بدل كل من كل، تقول: جاء أبو **حفص عمر**، فعمر هو أبو **حفص**، وإما أن يكون بدل بعض من كل، تقول: أعجبني زيدٌ وجهُه، فالوجه بعض، أو بدل اشتمال بمعنى: خَلّة، صفة، تقول: أعجبني زيد علمه، أعجبني زيد خُلقه، فهذا بدل اشتمال.

فهنا يحتمل، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...، فهذه صفة، من كان يرجو الله، وهي صفة معنوية، فهي بهذا الاعتبار بدل اشتمال.

ويحتمل أن يكون بدل بعض من كل، باعتبار أن هذا يكون أسوة ليس للجميع، وإنما لمن كان متحققًا بهذه الصفة، فإذا قلت: إن كل المؤمنين يرجون الله واليوم الآخر فهي بدل اشتمال، وإذا قلت: لا؛ لأن بعض هؤلاء قد يكون يريد الدنيا -مثلاً- فتقول: هي بدل بعض من كل، أو قلت: إن هذا المجموع المخاطب يدخل فيهم أهل النفاق -مثلاً- فتكون بدل بعض من كل.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ... قيدت الأسوة بالحسنة، قلنا: لأن الأسوة تأتي بمعنى القدوة أيًّا كانت، حسنة أو سيئة، لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ... يعني: ليس لأصحاب ما يسمى بالعقل المعيشي، فإن أصحاب العقل المعيشي يسلكون الأحوال بحسب مقتضي تلك العقول التي هي من هذه الصفة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ [سورة المائدة:52]، يعني: في موالاتهم واتخاذ اليد عندهم، يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، فهذا لا يتصور من أهل الإيمان؛ ولهذا قال الله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَسورة المائدة:53، هذا يدل على أنهم ليسوا من أهل الإيمان، هؤلاء من المنافقين.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ المرض هنا هو مرض النفاق، وهو غير الذي في سورة الأحزاب، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ سورة الأحزاب:32وهو الميل المحرم إلى النساء.

فأصحاب العقل المعيشي بزعمهم أنهم يريدون أن يتخذوا خط رجعة، فتبقى الحبال بينهم وبين أعداء الله -عز وجل- لا يقطعونها، لا يصرمونها؛ لأنهم قد يحتاجون في زعمهم إليهم في يوم من الدهر، نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ يخافون من هؤلاء الأعداء أن تكون الغلبة لهم، فتكون هناك علاقات، وروابط وأيدٍ سابقة، تكون سببًا لاستبقائهم، هذا اسمه عقل معيشي، هذا العقل المعيشي يوجد على صور عليا كهذه، وهو منبئ عن تعلق بالدنيا، وقلة ثقة بما عند الله -عز وجل- وإعراض عن الآخرة، ويكون في مثل هذه الحالات في قضايا الأمة الكبرى، ويكون فيما دون ذلك، وكلٌّ بحسبه.

البلاد التي يضطهد فيها أهل الإيمان، ومن ظهر عليه الاستقامة، المرأة التي تتحجب، الشاب الذي يطلق لحيته، ففي مصر -مثلاً- قبل أن يزيل الله -عز وجل- الغمة، ويهلك هؤلاء من المجرمين، كان الشاب إذا أطلق لحيته، أو المرأة إذا لبست الحجاب لا يؤذى هو فقط، بل يؤذى قراباته، فالأسرة إذا فيها امرأة تحجبت فمعنى ذلك أن إخوتها بل أبناء العم يؤذون، هذا الشاب مهما كان متفوقًا لا يكون معيدًا -مثلاً- في الجامعة، إذا كان أستاذًا متميزًا لا يكون رئيس قسم فضلاً عن أن يكون عميدًا؛ لأن ابنة عمه محجبة، ومن ثمّ إخوتها لا يمكن أن يدخل الواحد منهم في الشرطة -مثلاً- وإن كان يعمل فيها لا يمكن أن يترقى؛ لأن أخاه قد أطلق لحيته، فتجد بعض ضعاف النفوس يقول: لا حاجة للاستقامة على أمر الله، ولا طاعة الله، أهم شيء أكل العيش.

فهذا عقل معيشي، يعني: يقدم الدنيا على الآخرة، وهكذا قد تجد الرجل لا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، ولا ينصح، ولا يقدم، ولا يبذل، ولا ينفع، ولا يكون به نفع إطلاقًا، وقد يكون عنده من العلم الشيء الكثير، هو بزعمه يقول لنفسه:

قد هيّئوكَ لأمرٍ لو فطنتَ لهُ *** فاربأ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَلِ

يعني: يهيئ نفسه ليكون له ولاية، يكون له شيء، يكون له المستقبل، بحيث لا يكون في تاريخه أبدًا أنه أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو أزعج أحدًا، أو نصح أحدًا، مثل هذا صاحب عقل معيشي، ولو كان من المشتغلين بالعلم.

وقوله تعالى: وَمَن يَتَوَلَّ أي: عما أمر الله به، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ كقوله تعالى: إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ سورةإبراهيم:8.

هذا كثير في القرآن فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ سورةالتغابن:6، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ سورة آل عمران:97وهكذا وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ سورةالعنكبوت:6يعني: ليس بحاجة إلى مجاهدته ولا إلى عمله ولا إلى طاعته ولا شيء من ذلك، وفي الحديث: (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا)([1]).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {لَغَنِيٌّ}: الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

فهو محمود في غناه، وكما سبق من أن هذه الأسماء الحسنى كل اسم متضمن لصفة، فإذا اقترن اسمان ظهر وصف ثالث، فالله غني والغِنى معروف، وحميد من الحمد، واقتران الاسمين أي: أنه محمود في غناه، بمعنى أن الغنى كثيرًا ما يحمل على الطغيان كما قال الله -عز وجل-

: كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى سورةالعلق:6-7فإذا وجد الحمد مع الغنى فهذا هو الكمال من اجتماع الأمرين.

الْحَمِيدُ المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه.

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ سورةالممتحنة:7-9.

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً أي: محبة بعد البَغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، وَاللَّهُ قَدِيرٌ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة، والمتباينة، والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتنًّا على الأنصار: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا سورة آل عمران:103الآية.

هنا عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً عسى -كما هو معروف- من الله واجبة، يعني إذا كانت من قول الله وكلامه، هو الذي يعد بذلك، هو الذي يخاطب بذلك، وقال في كلامه عسى أن نفعل كذا، عسى أن يكون كذا، يقولون: هي من الله واجبة، واجبة يعني متحققة الوقوع، هذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره، وذلك يقولون مخرج على ما كانت تعهده العرب في كلامها ومخاطباتها، فإن العظيم منهم يخرج كلامه هذا بهذه الصفة، يعني حينما يريد أن يعد يقول: عسى أن نفعل لك ذلك، عسى أن يتحقق لك ما أردت، فيكون ذلك وعدًا جازمًا، ومعلوم أن عسى بمعنى الترجي، لكن هذا لا يكون من الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الترجي إنما يكون ممن لا يعلم العواقب، تقول: عسى أن يقدم زيد، عسى أن ينزل المطر، أما الله فهو عالم بما كان وما يكون، ومن ثم قالوا: إن عسى من الله واجبة، عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وهذا حصل، فأبو سفيان الذين كان يقود جيوش المشركين تحول إلى الإيمان، وصار يجاهد في سبيل الله، وهو أول من قاتل أهل الردة، فقد كان قافلاً من اليمن، وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق، فارتد بعض العرب فلقي ذا الخمار مرتدًا عن الإسلام فقاتله، فكان أول من قاتل أهل الردة هو أبو سفيان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً بمعنى أنهم يتحولون إلى الإيمان فتتحول العداوة إلى مودة؛ لأن هذه العداوة إنما هي بسبب الكفر، هذا هو الراجح من أقوال المفسرين، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الأصل نقل قول مقاتل من أن ذلك نزل في أبي سفيانعندما تزوج النبي -

صلى الله عليه وسلم- ابنته **أم حبيبة** فانكسرت حدة العداوة بهذه المصاهرة، **ابن كثير**عندما أورد هذا اعترضه بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تزوجها قبل الفتح، وأبو **سفيان** أسلم ليلة الفتح، ثم ذكر **ابن كثير** -رحمه الله- ما يرى أنه أحسن من هذا، وهو ما جاء عن **الزهري** أن النبي -صلى الله عليه وسلم- استعمل **أبا سفيان** على بعض اليمن، وحصل منه قتال أهل الردة، وابن شهاب يقول: وهو ممن أنزل الله فيه **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ابن شهاب يعني يفسر الآية بهذا، لا يذكر سبب النزول، يقول: وهو ممن أنزل الله فيه، وهذه الرواية توضح أن هذه العبارة ليست صريحة في سبب النزول فهو يقول: فهو ممن أنزل الله فيه هذه الآية، وذكرت ذلك؛ لأنه يتكرر في كثير من كتب التفسير من أن ذلك بتزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- بأم حبيبة، لكن يشكل على هذا أيضًا ما جاء عن **ابن عباس** في صحيح **مسلم** أن **أبا سفيان** عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما أسلم بعد فتح مكة، قال: "يا رسول الله ثلاث أعْطِنيهنّ -يطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعطيه ثلاثًا- قال: (نعم)، قال: تأمرني أن أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: (نعم)، قال: ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك، والثالثة عندي أحسن العرب **أم حبيبة**"([2])، لاحظ هذا بعد إسلامه والنبي -صلى الله عليه وسلم- تزوجها قبل الفتح، فالعلماء أجابوا عن هذا بإجابات متعددة، فبعضهم يقول: إنه لربما أراد أن يكون ذلك بيده هو؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتزوجها عن طريقه كما هو معروف قبل إسلامه، فكأنه أراد أن يكون ذلك عن طريقه، لكن هذا فيه بُعد؛ كيف تكون عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وتحت عصمته، ويقول: عندي أجمل العرب أزوجك إياها، وأجيب عن هذا بأجوبة، والحديث في صحيح **مسلم** تكلم عليه الإمام النووي كلاماً جيدًا على هذه القضية، ولكن من أحسن ما قيل: إن **أم حبيبة** التي قصدها أبو **سفيان** هي أخت أخرى لأم المؤمنين، أيضًا يقال لها: **أم حبيبة،** لكن يرد على هذا إشكال أنه لا يجوز الجمع بين المرأة وأختها، فكيف يعرض على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟، فأجابوا عنه أن الرجل حديث عهد بالإسلام، يعني بعدما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة عرض عليه أبو **سفيان** فلم يكن قد تفقه بهذه الأحكام وتعلم هذه المعاني، راجعوا شرح صحيح مسلم للنووي تكلم على هذا، وذكر وجه الجمع في ذلك، **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** المودة هي كما قال **ابن القيم**-رحمه الله- في "المدارج": خالص المحبة، وسبق أنها من المحبة كالرأفة من الرحمة، الرأفة أرق الرحمة، والمودة خالص المحبة **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً**، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، والله -عز وجل-

يقول: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، فحوّل هذه القلوب المتعادية إلى قلوب متحابة، كما قال الله –عز وجل–: وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ سورةالأنفال:63، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي)([3])،

وقد يجمعُ اللهُ الشتيتيْن بعدما *** يظنان كلَّ الظن أن لا تلاقيا.

وكذا قال لهم النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي)، وقال الله تعالى: هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ سورةالأنفال:62-63، وفي الحديث: (أحبب حبيبك هونًا ما فعسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما فعسى أن يكون حبيبك يومًا ما)([4]).

وقوله تعالى: وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ سورةالأحقاف:8بكل من تاب إليه من أي ذنب كان.

وقوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أي: يعاونوا على إخراجكم، أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم.

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ لا ينهاكم عن موالاتهم؟، لا، الكافر لا تجوز موالاته بحال من الأحوال سواء كان محاربًا أو لم يكن محاربًا، وإنما قال: أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ما قال: أن تتولوهم، فإن الموالاة لا تجوز، ولو نظرت في كلام أهل العلم من المفسرين في المراد بذلك من هم؟ فبعض أهل العلم يقول: هذه في مؤمنين كانوا بمكة، في من آمن بمكة ولم يهاجر، فهذا هو المراد بذلك كما يقوله **مجاهد**، يعني ليست في الكفار أصلاً، وإنما في المؤمنين، وبعضهم يقول: إن هذه الآية في من لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجهم من ديارهم من أهل مكة، ثم نُسخ بالأمر بقتالهم كما يقوله **قتادة** وابن زيد، والله –تبارك وتعالى– يقول: وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً سورة التوبة:36، وقال: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ [سورة التوبة:5] ما خص ذلك بمن يحاربهم، فبعضهم يقول: إنها منسوخة، ولكن النسخ لا يثبت بالاحتمال، لكن حتى يتبين لك إلى أين ذهب المفسرون من السلف –رضي الله عنهم– في تفسير هذه الآية، وبعضهم يقول: هذه عامة في جميع من لم يقاتل المسلمين من الكفار على اختلاف مللهم وأديانهم، وأنها ليست بمنسوخة، هذا الذي عليه

الجمهور، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: لا، هذه في النساء والصبيان ممن لا يقاتل، ليس من أهل القتال، وهذا ظاهر كلام الحافظ **ابن كثير** -رحمه الله-، لاحظ هنا يقول: كالنساء والضعفة منهم، وبعضهم يقول: هذه فيمن كان بينه وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- عهد كخزاعة، المقصود أنهم تفرقت أقوالهم، لكن انظر إلى المحامل التي حملوها عليه، خلافًا لمن يقول اليوم: إن من لم يحارب المسلمين تجوز موالاته، إنما نُهينا عن موالاة الكفار المحاربين، وهذا غير صحيح، والأقرب في تفسير الآية -والله تعالى أعلم- هو ما ذهب إليه الجمهور من أن المراد كل من كان بهذه الصفة، ولا يختص بالنساء والصبيان، أو من لم يهاجر أو نحو ذلك، كل من كان بهذه الصفة ممن لم يحارب المسلمين، ولم يُعنْ على ذلك، أو على إخراجهم من ديارهم بأي نوع من أنواع الإعانة، فنقول: هؤلاء لا ينهاكم الله عنهم، عن ماذا؟ عن موالاتهم؟، لا، وإنما قال: أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ لاحظ هنا قال: أَن تَبَرُّوهُمْ أي: تحسنوا إليهم، الإحسان بكل كبد رطبة أجر، ودخلت امرأة من بني إسرائيل بغيٌّ الجنة أو غُفر لها بسبب شربة ماء سقتها كلبًا في خفها([5])، فالإحسان غير ممنوع عن هؤلاء الذين لم يحاربوا المسلمين، وما أعانوا على حربهم أو إخراجهم من ديارهم، والله المستعان.

أَن تَبَرُّوهُمْ أي: تحسنوا إليهم.

يعني البر حسن المعاملة وما أشبه ذلك من إيصال الإحسان إليهم، أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ والإقساط هو العدل، لكن هنا معدى بـ"إلى" وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، لم يقل: تقسطوا معهم أو تقسطوا فيهم، قال: تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ والأصل أن هذا الفعل أقسط لا يتعدى بـ"إلى"، فدل على أنه مضمن معنى فعل آخر يصح أن يعدى بهذا الحرف، وقلنا لكم مرارًا: إنه قد يضمن الحرف معنى حرف تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ أي: تقسطوا معهم أو فيهم كما يقول الكوفيون، وأما على مذهب البصريين فيقولون بتضمين الفعل أو ما يقوم مقامه معنى فعل آخر يصح أن يعدى بهذا الحرف، وقلنا: إن هذا أبلغ؛ لأنه يكثِّر المعاني فيكون هنا الإقساط مضمنًا معنى الإفضاء، تفضوا إليهم، يعني يكون بينكم وبينهم مصالح متبادلة وعلاقات مشتركة، هذا الإفضاء، تفضوا إليهم فيكون بينكم مصالح وما أشبه ذلك، هذا لا إشكال فيه مع هؤلاء من غير المحاربين، ولم يقل مثلاً: تقسطوا لهم، تعدلوا لهم، فعدي بـ"إلى" تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ.

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ أي: تعدلوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ روى الإمام **أحمد** عن **أسماء بنت أبي بكر** -رضي الله عنهما- قالت: "قدمتْ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي -صلى

الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: (نعم، صلي أمك)"([6])، أخرجاه.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير قال: "قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضِباب وأقِط وسمن وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها"([7]).

يعني هي جاءت بشيء تحف من البادية ضِباب يعني جمع ضب، وأقِط معروف لبن يجفف، وسمن، قال هنا:قدمت أمي وهي راغبة أفأصلها؟ راغبة يعني في الصلة أن أعطيها شيئًا.

وقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات، وأورد الحديث الصحيح:(المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)([8]).

وقوله تعالى: إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْأي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم، وأعانوا على إخراجكم، ينهاكم الله -عز وجل- عن موالاتهم، ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ سورةالمائدة:51.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ سورةالممتحنة:10-11.

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين كفار قريش فكان فيه: "على ألا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا"، وفي رواية: "على أنه لا يأتيك منا أحد -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا"، وهذا قول عروة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد، والزهري، ومقاتل بن حيان، والسدي، فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسُّنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله -عز وجل- أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن.

وقد ذكرنا في ترجمة عبد الله بن أبي أحمد بن جحش من المسند الكبير، عن عبد الله بن أبي أحمد قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة، فخرج أخواها عمارة، والوليد حتى قدما على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكلماه فيها أن يردها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة، ومنعهن أن يُرَدَدْنَ إلى المشركين، وأنزل الله آية الامتحان.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله.

وقال مجاهد: فَامْتَحِنُوهُنَّ: فاسألوهن عما جاء بهن؟ فإن كان بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ هنا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه جاء في الصلح: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، انتبهوا اللفظة الآن على هذه الرواية: على أن لا يأتيك منا رجل، قلنا: من هذه الآية من آية رقم عشرة هذه نازلة بعد صلح الحديبية عندما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة فجاء أخواها يطلبانها بمقتضى الصلح -العهد- فالآن إذا كانت الصيغة على أن لا يأتيك منا رجل تكون النساء غير داخلات في ذلك، فالجواب بكل بساطة أن هذه ليست برجل هذه امرأة هي غير داخلة أصلاً في الموضوع إذًا لا تعاد، لكن على الرواية الثانية: على أنه لا يأتيك منا أحد، فأحد هنا يشمل الرجل والمرأة فالنساء داخلات في ذلك، فهنا بعض أهل العلم قال: إن هذه منسوخة، هذا الذي حصل وهو ما كتب في العهد نسخ بعضه، النسخ أحيانًا يكون رفعًا لكل الحكم، وأحيانًا يكون لجزء منه، فهذا نسخ البعض دون الكل، نسخ جزئي، ما يتعلق بالنساء، العهد ثابت بالقرآن أو بالسنة؟ العهد في صلح الحديبية في السنة فتكون الآية ناسخة لما ثبت في السنة، يكون هذا مثالًا لنسخ القرآن للسنة، أما مسألة نسخ السنة للقرآن ففيها خلاف بين الأصوليين هل السنة تنسخ القرآن أو لا؟ فبعضهم يمنع باعتبار أن السنة شارحة فكيف تكون ناسخة، السنة مبينة والنسخ رفع، فلا تكون ناسخة، والأقرب أنه لا مانع من أن تكون ناسخة؛ لأن أحوال السنة مع القرآن معروفة، فقد تأتي بأحكام زائدة، والرد على هذا معروف والإجابة عنه، وكون السنة مبينة لا يمنع أنها تكون رافعة؛ لأن التخصيص أصلاً هو رفع لبعض الواقع لبعض الأفراد الداخلة تحت العموم، والتخصيص يقولون: بيان، والتقييد يقولون: بيان، والنسخ رفع، والواقع أنهم يقولون: التخصيص رفع لبعض الأفراد، والنسخ رفع في الأزمان، فهذا رفع وهذا رفع، فلا مانع منه، لكن هل عندنا وقائع أو أمثلة صحيحة سالمة عن معارضة

قوية؟ ما عندنا، هذا مثال من أوضح الأمثلة التي يوردونها، وهذا المثال احتمال على أحد الروايتين إن كانت الرواية: لا يأتيك منا أحد، فبعضهم يقول: هذا مخصَّص بالسنة، وبعضهم يقول: هذا مخصِّص لما ثبت في السنة، وبعضهم يقول: هذا ناسخ لما ثبت في السنة، على أحد الاحتمالين في الرواية يكون على أحد الاحتمالين في التوجيه، أمّا وجود مثال لا إشكال فيه فلا أعلمه، يعني هذا من أوضح الأمثلة وأحسنها، ولكن فيه ما ترون، هذه البيعة التي يسمونها بيعة النساء.

وقوله تعالى: **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا.

فإن علمتموهن: يعني بحسب الظاهر، والباطن إلى الله -تبارك وتعالى-، وهنا صفة الامتحان ذكرها الحافظ **ابن كثير** قال هنا عن العوفي عن **ابن عباس**: "كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله"، قال **مجاهد**: فامتحنوهن: فاسألوهن عما جاء بهن، يعني: لماذا جاءت هل هو بسبب الغضب على زوج أو غير ذلك؟، هذه أقوال في الامتحان امتحنوهن تُمتحن بماذا؟ **عائشة** -رضي الله تعالى عنها- تذكر أن الامتحان إنما يكون بهذه بآية الامتحان، وهي التي بعدها **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ...** سورة الممتحنة:12.

فهذا الذي تمتحن به المرأة، وأنه لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يمتحنهن إلا بما في الآية فقط، وهذا مخرَّج في **البخاري**، تمتحن بما في الآية، وهذا هو الأقرب-والله تعالى أعلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأخذ هذه البيعة التي تسمى بيعة النساء على الرجال، كما في حديث **عبادة بن الصامت** في الصحيحين: كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- في مجلس فقال: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم -وقرأ الآية-، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

وقوله تعالى: **لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزًا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة; ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي -صلى الله عليه وسلم- زينب -رضي الله عنها-، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رق لها رقة شديدة، وقال

للمسلمين: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا)([9])، ففعلوا، فأطلقه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع زيد بن حارثة -رضي الله عنه-، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر -وكانت سنة اثنتين- إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقا.

هذا تكلم العلماء على توجيهه بعضهم يقول: هذا خاص بها؛ لأنه إذا أسلمت الزوجة لا يجوز لها البقاء مع الزوج مطلقًا هكذا تبقى معه دائمًا، والعلماء اختلفوا في تحديد المدة، بعضهم يقول: مدة العدة، وبعضهم يقول: غير ذلك، لكنها لا تبقى معه دائمًا وهو مشرك، ولذلك العلماء لما رأوا هذه من بعد غزوة بدر إلى عام الفتح؛ الأن أبو العاص بن الربيع أسر في غزوة بدر فأطلقه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يأخذ الفدية؛ لأنزينب -رضي الله تعالى عنها- بعثت بالفداء بعقد كانت أعطتها إياه خديجة أمها، المعنيّة هنا زوجة أبي العاص التي هي زينب، بنتها هي أمامة بنت أبي العاص بن الربيع التي كان يحملها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما ردها بعد صلح الحديبية، وإنما ردها بعد سنتين أو نحو ذلك أو أقل من هذا، المهم أنها بقيت مدة، وليست القضية في الرد إنما أسلم هو عام الفتح فردها إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه سنوات فكيف ردها إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنكاح الأول بالعقد الأول، كيف ردها إليه بعد هذه السنوات بالعقد الأول نفسه؟ فبعضهم يقول: هذا خاص وإلا فكلام الفقهاء في تحديد المدة كما سبق هم مختلفون فيها هل هي مدة العقد لكن ليست المدة مطلقة، البنت زينب بنت النبي -صلى الله عليه وسلم- وابنتها أمامة.

وقوله تعالى: وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا يعني: أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصْدِقة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وغير واحد.

وقوله تعالى: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة، والولي، وغير ذلك.

وقوله تعالى: وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ تحريم من الله-عز وجل- على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن.

وفي الصحيح، عن المسور، ومروان بن الحكم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله -عز وجل-: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إلى قوله: وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية([10]).

وقال ابن ثور عن معمر عن الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن، وقال: وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ.

وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ يعني بعقودهن التي يتمسك بها في الاستحلال، وأبو جعفر بن جرير -رحمه الله- يقول: لا تمسكوا بحبال النساء الكوافر وأسبابهن، والعِصَم جمع عِصمة، وهي ما يستعصم به أو ما يعتصم به من العقد والسبب، فلما كان العقد سببًا لاستحلال النساء، فيقال: فلانة في عصمة زوج، في عصمة فلان، هذه العصمة تنحل بالطلاق، فإذا كانت المرأة على ذمته يعني في حباله فإنها تكون في عصمته، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وكما في الصحيح: أنها لما نزلت طلق **عمر** -رضي الله عنه- تلك الزوجتين تلك المرأتين، وفي رواية عند **ابن إسحاق عن الزهري** أن زوجات **عمر** -رضي الله عنه- إحداهن يقال لها: قريبة بنت أبي أمية بن**المغيرة**، وهذه يقولون تزوجها أبو **سفيان**، والثانية **أم كلثوم** بنت عمرو بن جرول الخزاعية، هذه أم عبيد الله بن **عمر**، عبيد الله وليست أمًّا لعبد الله، فهذه تزوجها أبو جهم بن **حذيفة**، وكذلك **طلحة بن عبيد الله** -رضي الله عنه- طلق أروى بنت **ربيعة** بن الحارث بن **عبد المطلب** فتزوجها **خالد** بن سعيد بن العاص وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ يعني فارقوهن، لا تبقى في ذمته، وهذا من أجلى صور البراءة من المشركين.

وقوله: وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله: ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك.

ثم قال تعالى: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا، قال**المجاهد** وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئًا، فإذا جاءت امرأةٌ لا يُدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليه مثل نفقته عليها.

وروى **ابن جرير** عن **الزهري** قال: أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين فقال الله تعالى للمؤمنين: **وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنّ وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن.

هنا الله -تبارك وتعالى- يقول: **وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ** هل هذا من العقب أو من العقوبة؟ هذا فيه خلاف بين أهل العلم، وكذلك الكفار **وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ** من المقصود بهؤلاء الكفار؟ بعضهم يقول: من ليس بينهم وبين المسلمين عهد، قال به **مجاهد** وقتادة، وبعضهم يقول: يعني كفار قريش هؤلاء الذين بينكم وبينهم هدنة، كما يقوله **الزهري**، بمعنى أن "ال" هذه عهدية، إلى الكفار الذين كان الحديث عنهم وهم كفار قريش.

فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم عاقبتم هنا إذا قلنا: إنها من العقوبة فهذا يحتمل معاني، وإذا قلنا: إنها من العقب فهذا كما قال **ابن كثير** -رحمه الله-، ولهذا اختلفت أقوال أهل العلم في ذلك: من أي الأموال يعطى هذا المشرك الذي يطالب بصداق امرأته التي ذهبت إلى المسلمين؟ فبعضهم يقول: يعطى من صداق من لحق بهم من نساء المشركين، كما يقوله **الزهري**، يعني هذه امرأة هاجرت إلى المسلمين لها زوج كافر يطالب بمهرها، وهذه امرأة كافرة ذهبت من المسلمين إلى المشركين، فهنا ماذا نعطي هذا المشرك؟ **الزهري** يقول: نعطيه صداق من لحق بهم من نساء المشركين، فيكون كأن ذلك على سبيل المقاصّة، يعني الآن هذه امرأة مسلمة ذهبت إلى المسلمين جاء الزوج يطالب يقول: أنا أعطيتها خمسين ألفًا مهرًا، أعطوني هذا المهر، وهذه امرأة ذهبت إلى المشركين من المسلمين ما كانت مسلمة فذهبت إلى مكة مثلاً فزوجها يقول للمشركين: أعطوني المهر خمسين ألفًا، فهذا المشرك الذي يطالب المسلمين يعطى من ماذا؟ فإذا امتنعوا عن إعطاء أحد من المسلمين المهر فإنه يكون هذه بتلك، انتقل إلى المسلمين عشر من نساء المشركين مسلمات كل واحدة مهرها كان خمسين ألفًا، وانتقل إلى المشركين عشر مشركات كن عند المسلمين هؤلاء يطالبون وهؤلاء يطالبون، المشركون أعطوا مهور تسع مثلاً وبقيت واحدة ما دفعوا لها المهر، هذا زوجها الذي يطالِب يعطى مما بقي من مهور هؤلاء المشركات اللاتي يطالِب

أزواجهن بإعطائه، يعني يكون على سبيل المقاصّة لاحظ عبارة **ابن كثير** يقول: فلو أنها ذهبت بعد هذا، يقول عن **الزهري**: أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين فقال الله تعالى للمؤمنين: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ... فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن.

ما في أيدي المسلمين يرد إليهم، فإذا امتنعوا من إعطاء أحد من المسلمين المهر فإن ذلك يرد إلى ذلك المسلم الذي ذهبت زوجته، وأيضًا هذا الرجل الذي يطالب المسلمين وقد ذهبت زوجته إلى المسلمين وهو مشرك فهذا الاستحقاق استحقاق المهر في الأصل ثابت له، فهذا يمكن أن يقال له: عقب، فهو في ذمّة المسلمين فيرد إلى هؤلاء المشركين، بعضهم يقول: فَعَاقَبْتُمْ يعني يُعطَى من الغنيمة، ويعطى من الفيء فإذا حصل للمسلمين نصر على الكفار، وغلبة لأحد من طوائف الشرك فإن الأموال التي تحصل لهم من الغنيمة والفيء يمكن أن تعطى كمهور يطالب بها هؤلاء من المشركين كما يقوله **مجاهد** وقتادة ومسروق وإبراهيم **النخعي** والزهري أيضًا وهو رواية عنه، وبعضهم يقول: فَعَاقَبْتُمْ يكون هذا بتزويج من ذهبت زوجته امرأةً ممن قدمن من عند المشركين، يعوض، يعني هذا ذهبت عليه زوجته ورفض المشركون أن يردوا إليه المهر وجاءت امرأة من المشركين وهي مسلمة نزوجها لهذا، ويكون هذا في مقابل ذاك، هكذا قال بعضهم.

ابن جرير -رحمه الله- يحمل الآية على العموم أي يُعطَى من الغنيمة، يعطى مما بقي بأيدي المسلمين من مهور المشركين.

قال في الأصل: فَعَاقَبْتُمْ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم، فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوايعني: المهر مثل هذا، وهكذا قال **إبراهيم** ومسروق وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضًا، وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه أن أمكن الأول فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع، وهو اختيار **ابن جرير**، ولله الحمد والمنة.

هذا توجيه جيد.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ سورة الممتحنة:12.

روى **البخاري** عن عروة أن **عائشة** زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرته أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ...** إلى قوله: **غَفُورٌ رَّحِيمٌ**، قال عروة: قالت **عائشة**: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله: "قد بايعتك كلامًا، والله ما مست يده يد امرأة في مبايعة قط، وما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك"([11])، هذا لفظ **البخاري**.

وروى الإمام **أحمد** عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نساء نبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك به شيئًا الآية، وقال: **(وفيما استطعتنّ وأطقتنّ)**، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا، قال: **(إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة)**([12])، هذا إسناده صحيح قد رواه **الترمذي** والنسائي وابن ماجه.

وروى **البخاري** عن **أم عطية** قالت: بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقرأ علينا: **أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا** ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها قالت: أسعدتني فلانة فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئًا، فانطلقت ورجعت فبايعها([13])، ورواه **مسلم**.

أسعدتني يعني ناحت في مناسبة سابقة في عزاء فتريد أن تكافئها، فعندهم وفاة فتقول: أريد أن أذهب وأنوح وأجيء وأبايع.

وروى الإمام **أحمد** عن **عبادة بن الصامت** قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مجلس فقال:**(تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم -قرأ الآية التي أُخذت على النساء "إذا جاءك المؤمنات"-، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه)**([14])، أخرجاه في الصحيحين.

فقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ**، أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصرًا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن **أبا سفيان** رجل شحيح لا يعطينا من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، فهل **عليّ** جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **(خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك)**([15]) أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: وَلَا يَزْنِينَ كقوله تعالى: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً الإسراء:32، وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخذ عليها أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها؛ حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرِّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذًا، فبايعها بالآية([16]).

يعني: هي مستكثرة، كيف يصدر هذا؟ كيف يتخيل؟ كيف يذكر؟ امرأة تبايع على أنها لا تزني؟ وهل يخطر في بال الحرة مثل هذا؟ فوضعت يدها على رأسها، يعني: كأنها تقول: يا لطيف، أي: مثل هذا أمر لا يتصور من الحرة، الله يصلح الحال.

وقوله تعالى: وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

تطرح نفسها، يعني: كأن تلقي نفسها من مكان مرتفع، أو نحو ذلك، تقفز، تقوم بأعمال فيها إرهاق شديد؛ من أجل أن يسقط الولد، فهنا ابن كثير يقول: يشمل الصورتين، قتله بعد الولادة، كما كانوا يفعلون في الوأد، وقتل الولد وهو جنين بممارسات، بأدوية وعقاقير تأخذها المرأة من أجل الإجهاض، إما لغرض فاسد، أو ما أشبهه، لا يريدون أولادًا كثيرين، يخافون من الفقر، أو لغير ذلك من العلل والأسباب الفاسدة، فقوله: وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ يشمل هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، قال ابن عباس: يعني: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، وكذا قال مقاتل.

قوله: وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ بعضهم يقول: الزنا، يفترينه بين أيديهن، لكن هذا فيه بعد –والله أعلم–، وبعضهم يقول: وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، يعني: الولد أنه منه، أي أنها تنسب إليه ولدًا ليس له، والذي بين يديها وبين رجليها بطنها، فهذا يكون لأغراض، فتارة يمكن أن يحمل على المعنى السابق، وهو الزنا، فتزني فيكون الحمل من غير زوجها، ثم تدعي أنه لزوجها، وهذا قد يحصل أيضًا بغير المباشرة للزنا، كأن تكون المرأة ما يحصل لها حمل، فيمكن أن تأخذ من ماء رجل آخر، فالآن في بعض دول الكفر يوجد خزائن للحيوانات المنوية، بنوك تختار المرأة المواصفات التي تريد، هيئة الرجل وصفة

الرجل، إلى آخره، من أجل أن يكون الولد بهذه الصفة، إما لأن زوجها لا ينجب، أو لأنها تريد صفات معينة، فتختار، فيكون تلقيح البويضة من غير مباشرة للزنا، فهذا من البهتان، فقد تذهب المرأة وتفعل هذا، وتوهم الزوج أنها قد حملت منه، وقد يكون بموافقته هو، هذا لا يجوز، ويدخل في هذا من الصور **يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ** أن تنسب إليه ولدًا ليس له، باعتبار أنه يحصل تبديل بعد الولادة، كأن تكون هذه المرأة تنجب بنات، أو يتوعدها زوجها أنها إن أنجبت بنتًا أنه يطلقها أو أنها تريد أن تحظى عنده وأن تنجب ولدًا، فتتفق مع القابلة مع كثرة هذه الولادات في المستشفيات اليوم أنه إن كانت المولودة بنتًا أن تبدلها، والقضية لا تحتاج أكثر من أن تضع سوارًا في يد هذا المولود، وتكتب عليه هذه القابلة، فإذا أعطتها مالاً فقد تفعل ذلك من لا ذمة لها، فتأتي هذه المرأة، وتقول لزوجها: هذا ولدي أنجبت ذكرًا، فهذا داخل في البهتان، **وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ**.

ويعضهم يقول: الذي بين أيديهن وأرجلهن هي النفس، نفس الإنسان، يعني: تنسب ذلك إلى نفسها، والواقع أنه ليس كذلك، وقد ذكر العلماء في هذه الآية أقوالًا، من شاء فليطالع مثل تفسير القاسمي عند هذه الآية.

الذي بين أيديهن وأرجلهن هي النفس، نفس الإنسان، يعني: تنسب ذلك إلى نفسها، والواقع أنه ليس كذلك، وقد ذكر العلماء في هذه الآية أقوالًا، من شاء فليطالع مثل تفسير القاسمي عند هذه الآية.

وقوله تعالى: **وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** **الممتحنة: 12**يعني: فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عن منكر، روى **البخاري** عن **ابن عباس**في قوله تعالى: **وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء([17]).

وقال **ميمون بن مهران**: لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف، والمعروف الطاعة، وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف.

وروى **ابن جرير** عن **أم عطية** الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المعروف حين بايعناه أن لا ننوح، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها وغير **أم سليم** ابنة ملحان أم **أنس بن مالك**.

وقد روى **البخاري** هذا الحديث من طريق **حفصة** بنت سيرين عن **أم عطية** نسيبة الأنصارية -رضي الله عنها.

وروى **ابن أبي حاتم** عن أسيد بن أبي أسيد البراد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن لا نعصيه في معروف، أن لا نخمش وجهًا، ولا ننشر شعرًا، ولا نشق جيبًا ولا ندعو ويلاً.

يعني: أنه فسر بالنياحة، واللفظ عام وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فهذا يشمل كل ما يدخل تحته من المعاني، ومن ذلك: أنه نهاهن عن النياحة، فالنياحة داخلة في هذا المعنى، فحمله على العموم يكون من قبيل عطف العام على الخاص، يعني: أنه هنا ذكر أشياء محددة معينة، التوحيد، والنهي عن أشياء من الجرائم، كالسرقة، والزنا، ونحو ذلك، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ مما أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- مطلقًا سواء كان في هذه الأشياء المذكورة، أو في غيرها، فإن طاعته -صلى الله عليه وسلم- واجبة.

والمعروف هنا يمكن أن يكون من قبيل الصفة الكاشفة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يأمر إلا بمعروف، كما في قوله: وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ الأنعام: 38الطائر يطير بجناحيه، وقوله: يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم آل عمران:167، وقوله: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ البقرة:79، وقوله: وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ آل عمران:112، ولا يكون قتل الأنبياء بحق.

فالذين فسروه بالنياحة هنا جماعة من السلف **ابن عباس**-رضي الله عنهما- وابن زيد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وأبو **صالح**، وأبو الجعد.

وهذه الروايات واضحة في هذا، لكن لا شك أنه داخل فيه، والمعنى بناء على ظاهر اللفظ أعم من ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ الممتحنة:13.

ينهى -تبارك وتعالى- عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يعني: اليهود والنصارى، وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله -عز وجل.

وقوله تعالى: كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، فيه قولان:

أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه.

والقول الثاني: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير، قال **الأعمش** عن أبي الضحى عن مسروق عن **ابن مسعود** كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه، وهذا قول ومجاهد، وعكرمة، ومقاتل، وابن زيد، والكلبي، ومنصور، وهو اختيار **ابن جرير** -رحمه الله-.

آخر تفسير سورة الممتحنة، ولله الحمد والمنة.

قوله: لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، هذه الجملة تحتمل المعنيين اللذيْن ذكرهما الحافظ **ابن كثير** -رحمه الله-.

المعنى الأول: يئسوا من الآخرة كيأس الكفار الأحياء من أصحاب القبور أن يلتقوا بهم، أو أن يرجعوا إليهم ثانية، أن من مات فهذا هو المثوى الأخير في اعتقادهم، فلا التقاء بعد ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً، فالذين قالوا بهذا القول حملوه على هذا بهذا الاعتبار.

والمعنى الثاني: كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ يئسوا من الآخرة يأسًا كيأس أولئك الذين ماتوا وهم كفار، فعاينوا الحقائق، فعرفوا أنهم لا نصيب لهم عند الله، ويئسوا من ثوابه؛ لأنهم يرون مقاعدهم من النار، ويقول: ربي لا تقم الساعة، فهؤلاء الأحياء الكفار اليائسون من ثواب الآخرة، ومن العطاء، والنعيم في الآخرة قد يئسوا من الآخرة كيأس أولئك الذين ماتوا وعاينوا الحقائق، وعرفوا أنهم لا نصيب لهم عند الله -تبارك وتعالى-.

فهذان معنيان، الأول: قال به بعض السلف كقتادة والضحاك، والقول الثاني الذي رجحه **ابن جرير** قال به جماعة كمنصور، ومجاهد، وعكرمة، وابن زيد، يقولون: يئسوا من الآخرة كيأس المقبورين من ثواب الآخرة، يعني: أنه استوى اليائسان، كون الحي يصل به اليأس من ثواب الله من الآخرة، يعرف أنه لا نصيب له عند الله؛ لأنه يعرف الحق، فيكون بمنزلة ذاك الذي مات، وعاين الحقائق، ورأى مقعده من النار فهو يائس من ثواب الله في الآخرة، فهؤلاء الأحياء هم بهذه المثابة، وصل بهم الحال إلى أنهم قد تيقنوا أن لا نصيب لهم عند الله، توالونهم لماذا؟ بحيث كانوا بمنزلة من مات وشاهد الحقائق، هذا على القول الثاني الذي رجحه **ابن جرير**،ورَدّ القول الأول باعتبار أن جميع الناس المسلم والكافر قد يئسوا من رجوع الموتى إليهم، يقول: هذا لا يختص بالكافرين، قد يئسوا من الآخرة -يعني بناء على القول الأول- كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

ابن جرير يقول: هذا ليس فقط في الكفار، حتى المسلمين، لكن إذا قيدناه بهذا القيد أنهم قصدوا -أصحاب القول الأول- بذلك أنهم لا يلتقون بهم أبدًا، وليس المقصود لا يرجعون إليهم في الدنيا، أنه لا لقاء، لا لقيا بعد ذلك اليوم الذي تفارق فيه الروح الجسد، هذا نهاية المطاف، المثوى الأخير، إذا قيدناه بهذا القيد يكون اعتراض ابن جرير غير متجه، وكأن الأولين قصدوا هذا، إذًا يكون المعنى هكذا على القول الأول: لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما صفتهم؟ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ من ثواب الله في الآخرة، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُالأحياء من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم ثانية، أو أن يلتقوا بهم في يوم من الدهر.

كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ الكفار الأحياء -هذا القول الأول- يئسوا من أصحاب القبور أن يلقوهم ثانية، لكن لو فهم على أنه كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم فهنا يقال: هذا لا يختص بالكفار أنهم يئسوا من الموتى أن يرجعوا، وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ الأنبياء: 95، فكل من مات لا يرجع، مسلم أو كافر، فالمسلمون يئسوا من الموتى المسلمين أن يرجعوا إلى الدنيا ثانية، لو كان أصحاب القول الأول يقصدون هذا فيتجه اعتراض ابن جرير، لكنهم -والله أعلم- لا يقصدون هذا، يقصدون أنه لا تلاقي.

المعنى الثاني: قد يئسوا من الآخرة، كيأس الكفار الموتى، لاحظ المعنى الأول: الكفار الأحياء، كيأس الأحياء هنا لا، يأس الكفار الموتى، فتكون مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ بيانية، كيأس موتى الكفار الذين في القبور من ثواب الله لما عاينوا من الحقائق.

القرآن يحتمل، حمّال، ذو وجوه، يعني: يحتمل هذا المعنى، ويحتمل هذا المعنى، لربما تقرأ هذه الآية، ولا يرد في بالك مثل هذه الأشياء، وبهذا تعرف لماذا يختلف العلماء.

أحيانًا اللفظ نفسه يحتمل هذه المعاني، فالعالم تكون أمامه معانٍ، فتجده يتوقف، ويتمهل، ويتريث، وعنده حسابات كثيرة واحتمالات، الجاهل يبادر إلى الجواب، ويغضب، لماذا يختلفون؟, والقرآن واحد، والسنة واحدة، لماذا هذا يقول كذا، وهذا يقول كذا؟ لماذا هذا يفتي بكذا، وهذا يفتي بكذا؟ فهذا أحد الأسباب العائدة إلى النص.

بهذا نكون انتهينا من تفسير هذه السورة.

---

[1]- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (2577).

[2]- رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي سفيان بن حرب -رضي الله عنه-، برقم (2501).

[3]- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (4330)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (1061).

[4]- رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض، برقم (1997)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (178).

[5]- رواه مسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (2245).

[6]- رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين، برقم (2620)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم (1003).

[7]- رواه أحمد في المسند، برقم (16111)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف مصعب بن ثابت".

[8]- رواه أحمد في المسند، برقم (6492)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

[9]- رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال، برقم (2692)، والحاكم في المستدرك، برقم (4306)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه"، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (43/5)، برقم (1216).

[10]- انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (13/8).

[11]- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ سورة الممتحنة:10، برقم (4891).

[12]- رواه النسائي، كتاب البيعة، باب بيعة النساء، برقم (4181)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب بيعة النساء، برقم (2874)، وأحمد في المسند، برقم (27006)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (529).

[13]- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ سورة الممتحنة:12، برقم (4892).

[14] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، برقم (18)، ومسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، برقم (1709)، وأحمد في المسند، برقم (22678)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

[15] - رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، برقم (1714).

[16] – رواه أحمد في المسند، برقم (25175)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين".

[17] – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إِذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ سورة الممتحنة:12، برقم (4893).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصف كاملة

الشيخ / خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمستمعين أجمعين، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: "تذاكرنا أيكم يأتي رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فيسأله أي: الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها"[1]، هكذا رواه الإمام أحمد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة "سورة الصف" من السور النازلة في المدينة، وتدور مجمل آياتها على موضوع واحد، وهو الاستجابة لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا عن عبد الله بن سلام، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- جمعهم وقرأ عليهم هذه السورة ليس هذا بصريح في سبب النزول، قرأ عليهم السورة، يعني قد تكون السورة نزلت قبل ذلك، وجاء في روايات متعددة منها روايات عن بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، ومنها مراسيل في أنهم تمنوا لو عرفوا أحب الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى-، فأنزل الله -عز وجل-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف:٢-٣] الآيات، هذه الروايات لا تخلو من ضعف، ولكنها كثيرة، فيمكن من مجموعها أن يتقوى هذا الحديث، ويكون بذلك من قبيل الصحيح أو المقبول، يعني أنه يكون من قبيل الحسن -والله تعالى أعلم-، وإن كانت كل رواية على حدة لا تخلو من ضعف، وظاهرٌ من الآيات **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا}** [الصف:٢-٤]، أنهم قالوا شيئاً، وأن هذا الذي قالوه لربما يتصل بالجهاد، أو أحب الأعمال إلى الله **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}** [الصف:٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:١-٤]، **قد تقدم الكلام على قوله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} غير مرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}**

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٧٨٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

إنكار على مَن يعِدُ عِدةً أو يقول قولاً لا يفي به؛ ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعود أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان))[٢].

وفي الحديث الآخر في الصحيح: ((أربع من كان فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها))[٣].

فذكر منها إخلاف الوعد، وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}** يقول: **إنكار على مَن يعِدُ عِدةً أو يقول قولاً لا يفي به**، فهذا يدخل فيه ما ذُكر في سبب النزول أنهم تمنوا لو عرفوا أحب الأعمال إلى الله؛ ليعملوا به، فهذا من قبيل العِدة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فيه كل عِدة بين العبد وبين ربه، وكذلك كل عِدة بينه وبين الناس، فمن العِدة التي تكون بينه وبين ربه كما قال الله -عز وجل-: **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ}** [التوبة:٧٥]، فهذا من قبيل العِدة وإن لم يكن من قبيل النذر، كما أن النذر من قبيل العِدة، فالعِدة أوسع من النذر، فقد تكون نذراً، وقد تكون مجرد عِدة، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن السلف استدلوا بها على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه غرم للموعود أم لا، هذا صحيح، إذ يجب الوفاء به سواء كان كما ذُكر أو لم يكن، ترتب عليه غرم للموعود مثل لو أنه قال: تزوجْ وأُعطيك المهر، فتزوج فلم يعطه فصار غريماً، مثل لو أنه قال: اشترِ هذه السلعة وسأقرضك الثمن، فاشترى هذه السلعة ثم بعد ذلك جاء إليه، وقال: أقرضني الثمن، قال: ما عندي، مثل هذا أوقعه في حرج وضرر فيجب عليه الوفاء به، كذلك لو لم يترتب عليه شيء من ذلك مثل لو أنه وعده أن يبيعه أرضه أو داره أو نحو هذا، وتواعد معه في الغد على أن يوقع العقد فجاءه آخر وأعطاه ثمناً أكثر من الأول، فهنا لا يترتب غُرم على الأول لكنه وعده أن يبيعه هذه الدار، أو هذه السيارة أو نحو ذلك، فليس له أن يعدل عن هذا، وإن لم يكن البيع قد وقع، إذا كان أعطاه وعده بذلك، وكذلك العِدة، وعده بأن يزوره فإنه يفي بهذا وإن لم يترتب عليه غُرم؛ لأن هذا من الخلف، يعد كذباً، وهذه صفات المنافقين المذكورة في الحديث، كل ذلك يرجع إلى الكذب، يعني لو حدث كذب، لو وعد أخلف، هذا كذب في مواعيده.

وقوله: ((إذا اؤتمن خان)) في الواقع يرجع إلى الكذب بمفهومه الواسع؛ ولذلك كان الصدق بمعنى الحق الثابت، فكل ما يلج فيه الإنسان فإن ذلك إما أن يكون صدقًا، أو يكون كذباً، فإذا خرج إلى شيء يحبه الله ورسوله هذا مخرج صدق إن كانت له فيه نية، وإن لم يكن له فيه نية فهذا مخرج كذب، يعني خرج مخرج رياء وسمعة مثلاً، أو خرج إلى باطل.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا صبي فذهبت لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطك، فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما أردت أن تعطيه؟))، قالت: تمراً، فقال: ((أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة))[٤]، قال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلّهم الله على أحب الأعمال إليه.

هذا الصبي أمه وعدته أن تعطيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكتبت عليك كذبة))، فهو ظاهر في هذا -والله تعالى أعلم-، وهنا لا يترتب عليه غرم، وهذا مما يتساهل به الناس.

فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا} فبين لهم، فابتُلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مدبرين، فأنزل الله في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}[٥]، وقال: أحبكم إليّ من قاتل في سبيلي.

ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر، وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: قَتلنا، وضربنا، وطعنا، وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك.

هذه روايات مراسيل لا تصح، ولا يُبنى عليها القول بسبب النزول، وهذا نظيره في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الحشر: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر:١٤]، وقلنا: إن من الأقوال التي ذكرت في تفسيرها {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أنهم ينسبون إلى أنفسهم أعمالاً في القتال لا حقيقة لها، يقول: قتلت وفعلت وكذا، فإذا جلسوا فيما بينهم فيذكرون بأساً شديداً، وقوة وفتكاً في العدو من غير أن يكون لذلك حقيقة، لكن المعنى المشهور {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} يعني: في العداوة الواقعة بينهم.

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا}: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يقاتل العدو إلا أن يُصافّهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين.

يعني بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية، كانوا يقاتلون أوزاعاً من غير اصطفاف ولا تنظيم لهذه الصفوف، فعلمهم الله -عز وجل- هذا الأدب.

وقوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} أي: ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} مُثبَّت لا يزول...

قوله: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} يحتمل معنيين:

المعنى المشهور هو الذي ذكره هنا واقتصر عليه، {بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} يعني يشد بعضه بعضاً، وهو المعنى الذي عليه الجمهور.

المعنى الثاني: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} يعني أنه قد أحكم بالرصاص، يعني أن الذي يكون بين اللبِن أو الحجارة هو الرصاص، المادة التي تمسكه ويبنى عليها هي الرصاص، لكن المعنى الأول هو الأشهر، وهو

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، برقم (٤٩٩١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٧٤٨).

٥ - أسباب النزول للواحدي (ص: ٤٤٧)، تحقيق: زغلول.

المتبادر، وهو الأكثر في الاستعمال، والمعنى الثاني وإن كان يحتمله اللفظ من جهة اللغة إلا أن المعنى المتبادر أولى، ولا زال الناس يقولون: بنيان مرصوص ويقصدون أنه يشد بعضه بعضاً، بالطريقة المعروفة في البناء.

{كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} مُثبَّت لا يزول ملصق بعضه ببعض، {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف:٥-٦].

الموضوع الذي تدور عليه مجمل آيات السورة هو الاستجابة لله، ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، في الآية الأولى ظاهر، **{لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** في هاتين الآيتين الله -تبارك وتعالى- يُبين لهم حال اليهود والنصارى مع أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-، فاليهود تلكئوا في طاعة موسى -صلى الله عليه وسلم-، وآذوه، ولقي منهم عنتاً كثيراً، ولم يكن لهم تلك الاستجابة، وأما عيسى -صلى الله عليه وسلم- فإن الحواريين بادروا إلى الاستجابة وقالوا: نحن أنصار الله، والله يخاطب أهل الإيمان ويأمرهم بالمبادرة والاستجابة وألا يكونوا كهؤلاء اليهود.

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام- أنه قال لقومه: {لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} أي: لمَ توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وفي هذا تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر، ولهذا قال: ((رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر))[٦]، وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [الأحزاب:٦٩].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** ما هذا الأذى الذي أذوه به؟ وهناك في قوله -تبارك وتعالى- : **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}** وصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أنهم قالوا في موسى -صلى الله عليه وسلم-: إنه آدر، أو أبرص، وأنهم كانوا يغتسلون عراة، وكان -عليه الصلاة والسلام- حييًا، فكان يغتسل وحده، ووضع ثوبه على حجر فانطلق الحجر بالثوب[٧]، الحديث.

فالحاصل أنهم رأوا موسى -عليه الصلاة والسلام- فعرفوا أنه ليس به بأس، يعني ليس بآدر، ولا أبرص، فبرأه الله مما قالوا، والحديث صحيح ثابت.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، برقم (٣١٥٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، برقم (١٠٦٢).

٧ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام-، برقم (٣٤٠٤)، ومسلم، كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، برقم (٣٣٩)، وفي كتاب الحيض، باب من فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم يقول: {فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا} أي أن بني إسرائيل كانوا يميلون إلى هارون –عليه الصلاة والسلام– لمَا فيه من اللين معهم، وأنه لما مات اتهموا موسى –صلى الله عليه وسلم– بأنه قتله، أو دبر له غيرةً؛ بسبب محبة بني إسرائيل، وأن هذا من أذاهم لأنبيائهم –عليهم الصلاة والسلام–، وكذبهم، وافترائهم، وأن الله –عز وجل– أحيا هارون وأخبرهم بأنه قد مات، وأنه لم يقتل.

وقوله هنا: {لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} هذا لا يختص بنوع من الأذى، فإنهم آذوه كثيراً بألوان من الأذى، لمّا قال لهم: {ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة:٢١]، قالوا: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة:٢٤] إلى غير ذلك من صنوف الأذى الذي لقيه منهم، فكل ذلك داخل فيه، ويدخل في ذلك افتراء هؤلاء اليهود على أنبيائهم، كقولهم: إنه مثلا آدر، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف:٥] أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف:٥].

هذه الآيات يحتج بها أهل السنة في باب القدر، في مسألة الهدى والضلال، فإن الله –تبارك وتعالى– حكَمٌ عدلٌ، فهنا: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} وأولئك قلب أفئدتهم وأبصارهم عن الحق جزاء وفاقاً، كما في قوله: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} باعتبار أن هذا من قبيل التعليل، يعني لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة حرمهم التوفيق والهدى، كما قال الله –عز وجل–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال:٢٤]، بمعنى أنه يحول بينه وبين الإيمان، ويحول بينه وبين التوبة.

وقوله: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الفسق هنا المقصود به المصر على فسقه، والفسق يقال للأكبر والأصغر، فالكافر فاسق، والمثال المعروف عند الأصوليين في {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ} [الحجرات:٦] في مفهوم الموافقة الأولوي، يقولون: يعني إن جاءكم كافر فمن باب أولى تثبتوا، وهذا فيه نظر، باعتبار أن الفاسق يدخل فيه الكافر، فهنا {لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} السؤال الذي يرد في مثل هذا وهو أن كثيراً من الفاسقين والظالمين والكافرين هداهم الله –عز وجل–، والجواب: يعني المصرين على فسقهم وظلمهم.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف:٦]، يعني التوراة قد بشرتْ بي، وأنا مصداق ما أخبرتْ عنه، وأنا مبشِّر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد، فعيسى –عليه السلام– هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده و لا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي روى فيه عن جبير بن مطعم قال: سمعت

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب))[٨].

ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه، وروى محمد بن إسحاق عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ قال: ((دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام))[٩]، وهذا إسناد جيد.

دعوة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ} [البقرة:١٢٩] الآية.

ورُوي له شواهد من وجوه أخر، فروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمُنجَدِل في طينته، وسأنبئك بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يريْنَ))[١٠].

وروى أحمد أيضاً عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بَدْء أمرك؟ قال: ((دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[١١].

وروى أحمد -أيضاً- عن عبد الله بن مسعود قال: "بعثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى النجاشي ونحن نحواً من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا، وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قالا: هم في أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله -عز وجل-، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله -عز وجل-، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله -عز وجل-: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يعترضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا، مرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت حتى أكون أنا أحمل نعليه

---

٨ – رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٣٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٥٤).

٩ – رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٤١٧٤).

١٠ – رواه أحمد في المسند، برقم (١٧١٥٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٢٠٩١).

١١ – رواه أحمد في المسند، برقم (١٧١٦٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٢٤).

وأُوَضِّئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً، وزعم أن النبي – صلى الله عليه وسلم– استغفر له حين بلغه موته"[١٢].

"زعم" هنا ليس المقصود بها التوهين، وإنما بمعنى قال، أو ذكر، وتأتي في الاستعمال تارة لما يُوهَّن من الكلام، كقوله –تبارك وتعالى–: **{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا}** [التغابن:٧]، وتارة بمعنى قال، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف:٦] **قال ابن جريج وابن جرير: فلما جاءهم أحمد أي: المبشَّر به في الأعصار المتقادمة، المنوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}.**

هنا قوله: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}** عيسى –صلى الله عليه وسلم– إذا ذكر في القرآن في عامة المواضع فإنه يأتي مضافاً إلى أمه، وهذا –والله تعالى أعلم– فيه تنويه بأمه التي رُميت بما هي منزهة عنه، فذكرت في أشرف كتاب، يعني الأنبياء يذكرون بأسمائهم من غير نسبة: إبراهيم، وموسى، وصالح، وهود، وشعيب، ومحمد – عليهم الصلاة والسلام–، فالحاصل أن عيسى لا يكاد يذكر إلا منسوباً لأمه، هذا غالباً، فهذا فيه تشريف وتنويه لأمه حيث ذكرت في أشرف كتاب وهو القرآن، وكذلك أيضاً فيه تذكير بالمعجزة أنه خلق من غير أب.

وقوله –تبارك وتعالى– عن عيسى –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: **{إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** قد يفهم منه أن رسالة عيسى –صلى الله عليه وسلم– موجهة لبني إسرائيل خاصة، وفي كتابهم: "إني بعثت إلى هداية خراف بني إسرائيل الضالة"، فهذا ممكن أن يحتج به عليهم مالكم وللأفارقة تدعونهم إلى النصرانية؟، التنصير في إفريقية، التنصير في آسيا، في بلاد المسلمين، تنصير بين الوثنيين، فإنما جاء عيسى –عليه الصلاة والسلام– لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، وشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– ذكر أن عيسى –صلى الله عليه وسلم– أُرسل إلى بني إسرائيل، وكذلك إلى الكفرة من اليونانيين ونحوهم، لكن لم تكن دعوة عيسى –صلى الله عليه وسلم– دعوة عامة للثقلين كما هي دعوة محمد –صلى الله عليه وسلم–، وهذا بناء على تعريف شيخ الإسلام –رحمه الله– والتفريق عنده بين النبي والرسول وقد مضى هذا في بعض المناسبات، فشيخ الإسلام يرى أن النبي هو من بُعث مقرراً لشريعة نبي قبله بعث في قومه، وأما الرسول فيكون قد بعث إلى قوم من الكفار يدعوهم إلى الإيمان، فعيسى –عليه الصلاة والسلام– قطعاً كان رسولاً، ويوسف –عليه الصلاة والسلام– كان رسولاً، والله –عز وجل– قال عن يوسف كما في قول مؤمن آل فرعون: **{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ}** [غافر:٣٤]، وكذلك أيضاً عيسى –صلى الله عليه وسلم– باعتبار أنه بعث في بني إسرائيل ولليونانيين، وما أشبه ذلك.

قوله –تبارك وتعالى–: **{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ}** باعتبار أن عيسى –صلى الله عليه وسلم– لم يكن كتابه ناسخاً للتوراة، وإنما التوراة هي كتاب الشريعة، فكان بنو إسرائيل مأمورين بالعمل بها، وإنما جاء مخففاً عنهم، وضعَ بعض الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل، التكاليف الشاقة، قال: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**، و"أحمد" كما في الروايات المتقدمة من أسماء النبي –صلى الله عليه وسلم–،

---

١٢ – رواه أحمد في المسند، برقم (٤٤٠٠)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وقال الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص:١٦٦): "وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن".

والفرق بين أحمد ومحمد أن أحمد يدل على التفضيل، ومحمد يدل على التكثير في الكمية، هذا ذكره الحافظ ابن القيم –رحمه الله– في (جلاء الأفهام).

{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} من أراد أن ينظر فيما ينقل في كتبهم من المرويات في البشارة بالنبي –صلى الله عليه وسلم– فيمكن أن يراجع في ذلك كتاب (التفسير الكبير) أورد جملة من هذه النقولات، وكذلك تفسير صديق حسن خان اسمه (فتح البيان)، وهذه من الزيادات القليلة على تفسير الشوكاني؛ لأنه أخذ تفسير الشوكاني وكَتَبه، وزاد فيه زيادات يسيرة، وأخذ الآثار التي يذكرها الشوكاني عادة من كتاب (الدر المنثور)، وفرقها في مواضعها، وإلا فهو فتح القدير بعبارته، لكنه إذا قال الشوكاني: وقد حررنا هذا وبيناه غاية البيان في كتابنا (شرح المنتقى نيل الأوطار)، يقول: حرره الشوكاني في (نيل الأوطار) وإلا فهو هو، وفيه زيادات قليلة مفيدة منها هذه الأخبار والمرويات، وكذلك في كتاب (إظهار الحق) وهو كتاب نافع جداً للعالم الهندي الكرواني في مجلدين مطبوع في الرد على النصارى، كتاب جيد في بابه، وكذلك في (تفسير القاسمي)، هنا ينقل عن الرازي يقول: في إنجيل يوحنا في الباب الرابع عشر: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر، ليثبت معكم إلى الأبد"، يعني يعطيكم عهداً كتابًا أو نبيًّا، وذكر أرقام الصفحات والطبعة، ويقول: "الفارقليط كلمة يونانية، ولفظها الأصلي بيركلوط"، ومعناه محمد أو أحمد كما بينه صاحب (إظهار الحق)، ثم نقل هنا كلامًا منشورًا في (صحيفة المؤيد) قال مسيو مرسيه –من مدرسة اللغات الشرقية–: "إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامي، واسم محمد جاء من مادة حَمِدَ، ومن غريب الاتفاق أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسماً من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد، وهو أحمد، لتسمية البراكلية به، ومعنى أحمد صاحب الحمد، وهذا ما دعا علماء الدين الإسلامي أن يثبتوا أن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيء النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**"، وهذا آخر اسمه "سبرانجيه" يقول: "إن هذه الآيات تشير إشارة خاصة إلى عبارة إنجيل يوحنا حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم"، ويقول: "أما إنجيل برنابا ففيه العبارات الصحيحة المتكررة، بل الفصول الضافية الذيول التي يذكر فيها اسم محمد ذكرًا صريحاً" ويقول: "إنه رسول"، يقول: وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخًا من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحِمْيري قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– وفيها يقول المسيح: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**، وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف، وقد بدل الرهبان نُقط الفارقليط في المطبوعات الأخيرة بالمُعزّى، قال بعضهم: "ولا عجب من هذه التحريفات" إلى آخره.

وقوله: **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** [الصف:٦] هنا الحافظ ابن كثير يقول: **فلما جاءهم أحمد** أي: **المبشر به في الأعصار المتقادمة**، يعني قال الكفار: **{هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**، فهنا: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [الصف:٦]، **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ}** إذا نظرت إلى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور فهو أحمد، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير –رحمه الله–، فلما جاءهم أحمد، جاءهم الرسول –صلى الله عليه وسلم– الذي بشروا به كفروا.

ومن أهل العلم من يقول: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ} يعني عيسى، فالله -تبارك وتعالى- يخبر عن جرائم بني إسرائيل وأذيتهم للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فآذوا نبيهم كبير أنبياء بني إسرائيل وهو موسى -عليه الصلاة والسلام-، آذوه كثيراً، فالله -عز وجل- يقول عن موسى -صلى الله عليه وسلم- إنه قال لهم: {لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} [الصف:٥]، هذا موسى -عليه السلام-، فلما جاءهم عيسى -صلى الله عليه وسلم- وكان من شأنه أنه كان مصدقاً لما بين يديه من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، فلما جاءهم عيسى -أيضاً- آذوه وكذبوه، واتهموه، واتهموا أمه، وقالوا عنهم ما هم مبرءون منه، فيكون {فَلَمَّا جَاءَهُمْ} أي: عيسى -صلى الله عليه وسلم- جاء بني إسرائيل باعتبار أن الكلام كله في بيان حال عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فيكون المقصود بذلك ما واجهوه به، هل قبلوا منه؟ هل آمنوا؟ هل انقادوا أو لا؟ ويمكن لو أن قائلاً قال: إن الضمير إذا احتمل معنيين وكلاهما يدل عليه دليل أنه يحمل على ذلك جميعاً، باعتبار أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فلما جاءهم عيسى ولما جاءهم أيضاً محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت هذه حالهم {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} أي: بيّن ظاهر.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٧-٩]، **يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ} أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.**

"من أظلم" استفهام مضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، وهذا مع قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [البقرة:١١٤]، وكذلك: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} [السجدة:٢٢] قد يفهم منه التعارض، يعني: لا أحد أظلم من هذا، ويجاب عن هذا بجوابين:

الجواب الأول: إما أن يقال: كل واحدة مختصة ببابها، لا أحد أظلم في المانعين {مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ}، ولا أحد أظلم في المعرضين {مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، ولا أحد من المفترين أعظم {مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}.

والجواب الثاني: أن أفعل التفضيل في مثل هذا السياق لا تمنع التساوي، ولكنها تمنع الزيادة، فكلهم قد بلغ في الظلم غايته.

ثم قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل.

يعني أن هذه الشمس مخلوق كما نراها من بُعد صغيرة، فمثل هؤلاء الذين يريدون أن يطفئوا نور الله -تبارك وتعالى- وهو هُداه كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، لو اجتمع أهل الأرض جميعاً قاطبة في صعيد واحد وجعلوا ينفخون على الشمس فإن ذلك يدل على أن عقولهم قد ذهبت، وهذا النفخ لا يؤثر في الشمس قليلاً ولا كثيراً، فهي لا تتأثر ولا يصلها من ذلك شيء، وإنما نفخ هؤلاء لا يجاوزهم، فهو لا يصل إلى

الشمس، فنور الله -عز وجل- أعظم من الشمس، وهؤلاء في محاولاتهم لإطفاء الحق وإخماده ورده، **{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}**، فهذا وعد من الله -جل جلاله- فهم لا يضرون إلا أنفسهم، والشاهد على ذلك ظاهر فعلى كثرة ما يكاد للإسلام ويحارب في مشارق الأرض ومغاربها إلا أنه أكثر انتشاراً في العالم بشهادة ألد أعدائه، كل هؤلاء قد صرحوا بأن الديانة الأكثر انتشاراً في العالم هي الإسلام، مع محاربة الجمعيات الخيرية، والتبرعات، رأوا أمراً لا قِبل لهم به؛ لذلك اضطروا لخوض الحروب، وتمزيق جميع الشعارات التي كانوا يتغنون بها، وأذية المسلمين، وقمع الحريات التي كانوا يتشدقون بها في بلادهم، الأذان، الصلاة في الأماكن العامة، الحجاب، وهم يتسابقون في إصدار القوانين لمنع الحجاب في الأماكن الخاصة في المكاتب والشركات في فرنسا بعدما منعته في الأماكن العامة، ومع ذلك هو الأكثر انتشاراً في العالم.

وإذا قرأت عن الإحصاءات التي يملكها المُنصِّرون من الأموال، ومن أعداد المنصرين من الأطباء وغيرهم فإنك تخطئ بالأرقام، فمنصر واحد يتابعه أكثر من مائتين وخمسين مليونًا من النصارى، هذا قبل أكثر من عشر سنوات، مجمع تابع لمنصر واحد، مدرسة نصرانية فكرية، منصر واحد عنده قاعة للاجتماعات حضرها من أنحاء العالم من المنصرين أكثر من ثلاثين ألفًا، كأنها ملعب رياضي، ونحن إذا حضر من الدعاة ثلاثون قلنا: ما شاء الله! حضور كبير ومشرف، والدعوة الإسلامية في آسيا وفي إفريقية والجهود بسيطة شخصية، وليس لهم ميزانيات إطلاقاً ومع ذلك الأكثر انتشاراً في العالم، هذا هو دين الفطرة، هذا نور الله، وبوش الأب كان يقول: نحن لن نستطيع إيقاف هذا المد، يقصد المد الإسلامي الذي حاربوه غاية المحاربة، ثم بعد ذلك رفعوا شعار حرب الإرهاب، كل هذا من أجل حرب الإسلام، يقول: لن نستطيع إيقاف هذا المد، ولكن سنحاول أن نغير مجراه، كيف يغير مجراه؟

يُغير مجراه بدعم الفكر التنويري، وبدعم بعض الشخصيات المنحرفة التي تمثل إسلاماً خاوياً، إسلاماً لا يكون على منهاج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كالصوفية مثلاً؛ لأن النفوس فيها نزعة للتدين، عُقدت اجتماعات في مصر مدعومة من دول غربية على مستوى العالم للصوفية، وأوجدوا لهم منظمة أو رابطة على مستوى العالم، ولا زالت أعمالهم ومحاولاتهم من أجل تقديم التصوف كبديل، من أراد أن يتدين فبهذا التصوف الذي لا يعارض مصالح الغرب، ولا يمكن أن ينهض بهذه الأمة، وكذلك بعض الدعاة الذين لا يمثلون حقيقة الإسلام، فهم يدعمون مثل هذا النوع ورأيتم في تقرير راند أشياء من هذا القبيل، مثل هذه الشخصيات يروج لها؛ لتكون هي النموذج الذي يقدم الإسلام للناس، ولكن الله -عز وجل- يخيب آمالهم، حرب على الإسلام، تونس حاربوا كل شيء، حاربوا الصلاة، وحاربوا الحجاب، وحاربوا كل مظاهر الدين، وماذا كانت النتيجة؟، محاضرة في ملعب رياضي، ما في مكان يسع الناس! هذه الحرب كلها ثم هذه هي النتيجة، هذا نور الله، ينبغي على الجميع أن يعتبر، وأن يدرك أنه يحارب رب العالمين، يريد أن يطفئ نور الله بفيه، الشمس لا تُغطى بغربال، هم يحاولون أن يفعلوا شيئاً ولكنهم لا يستطيعون مهما عملوا، وكل من كذب على الله -تبارك وتعالى- ممن ينتسب إلى العلم فإنه لا يضر إلا نفسه فقط، ويبقى الحق ثابتاً لا يتأثر، ولا يتزعزع، والسعيد من سار في ركابه.

ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف:٨] {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٩] وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه الكفاية، ولله الحمد والمنة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف:١٠-١٣]، تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة -رضي الله عنهم- أرادوا أن يسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود، ومزيلة للمحذور، فقال تعالى: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها.

الله سمى المعاملة معه تجارة، {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ} والتنكير هنا يدل على التعظيم، يعني تجارة عظيمة، وكما في سورة البقرة: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ} [البقرة:١٦]، وسمى ذلك شراء، وسماه تجارة، {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة:١١١]، فهذه هي التجارة، هذه الصفقة، اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ووعدهم بالجنة، فهذا في التعامل معه؛ ولذلك في النهاية حينما يَقْدم الناس عليه يحصل بينهم التباين الكبير والغبن؛ ولهذا سمي يوم القيامة بيوم التغابن، فهذا من المعاني الداخلة في ذلك.

وهنا قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس مع أن الجهاد بالنفس أعظم وأشرف، وتقديم المُهج أعظم من تقديم الأموال، فإن المُهج تحفظ ويدفع عنها بالمال، ولكن لما كان الجهاد لا يقوم إلا بالمال قُدم -والله تعالى أعلم-؛ ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥]، ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: "أنفقوا في سبيله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، فإنهم إن امتنعوا من الإنفاق في سبيل الله قوي عدوهم، وضعفوا فاجتاحهم عدوهم، وغلب عليهم، وأخذ ما بأيديهم، وقتل، وأزهق نفوسهم".

ثم قال تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات.

هنا يرد سؤال {يَغْفِرْ} مجزومة بأي اعتبار؟

هنا الله -عز وجل- يقول لهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ}، هذه الصيغة خبرية، وليست شرطية، لكنها مضمنة معنى الشرط، يعني إن آمنتم وجاهدتم، "يغفر" مضمن معنى الشرط، فجاء الجواب مجزوماً مع أنه لا يوجد صيغة شرط.

ولهذا قال تعالى: {وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف:١٢].

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} يعني من تحت أشجارها، وقصورها، والمساكن الطيبة هي طيبة باعتبار أنها واسعة الأرجاء، طيبة المُقام، والهواء، والمرأى، والجار، ليس فيها شيء من المكدرات التي تكون في دور الدنيا، في دور الدنيا مهما تعاظمت وكانت واسعة كبيرة إلى آخره فإن الإنسان يمل ذلك، ويحصل له ما يتأذى به، أما هذه فهي في غاية البهجة، والراحة ليس فيها ما ينغص ولا يكدر، لا حر، ولا برد، ولا ما يكرهه من المناظر، ولا جار يؤذي، ولا يصل إليه شيء يكرهه، مساكن طيبة، و{جَنَّاتِ عَدْنٍ} يعني الإقامة.

ثم قال تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} [الصف:١٣]، **أي: إذا قاتلتم في سبيله، ونصرتم دينه تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}** [محمد:٧]، **وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [الحج:٤٠]، **قال تعالى: {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}** [الصف:١٣] **أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.**

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف:١٤]، **يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم، وأفعالهم، وأنفسهم، وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}** [آل عمران:٥٢] **أي: من مُعيني في الدعوة إلى الله –عز وجل؟.**

يعني باعتبار هذا التفسير –المعين في الدعوة إلى الله– {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} كيف عدي بـ"إلى"، ما قال: من أنصاري في الله، وإنما قال: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}؟

العلماء –رحمهم الله– ذكروا أن هذا من باب التضمين، وعلى طريقة الكوفيين حروف الجر تتناوب {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} يعني من أنصاري مع الله؟، ولكن مذهب البصريين أدق وأوفى بالمعنى، بتضمين الفعل معنى فعل آخر، أو فعلٍ ما يقوم مقامه، وهنا {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} يعني: في سيري إلى الله، في دعوتي إلى الله، هنا يقول: **من معيني في الدعوة إلى الله؟**، فإن هذه النصرة مضمنة معنى ماذا؟، "من أنصاري؟"، يعني يدعو معه، يسير معه إلى الله، {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} والحواريون هم خاصة أو خلاصة أصحاب المسيح –عليه الصلاة والسلام–، وأصل الحَوَر شدة البياض، يقولون: منه الخبز الحَوراني باعتبار أنه أبيض نقي، فبعضهم يقول: إن ذلك مأخوذ من هذا المعنى، الحواريون هم خلاصة أصحاب المسيح –عليه الصلاة والسلام–، وبعض أهل العلم يعزون ذلك لصنعة أو مهنة كانوا يقومون بها، يعني أنهم كانوا من القَصّارين، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((لكل نبي حواري وحواريي الزبير))[١٣].

{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} وهم أتباع عيسى –عليه السلام–، {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاةً إلى بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول في أيام الحج: ((مَن رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني

---

١٣ – رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة، برقم (٢٨٤٦).

أن أبلغ رسالة ربي؟))[١٤]، حتى قيض الله -عز وجل- له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه وشاطروه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفّوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم -رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقوله تعالى: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} أي: لما بلّغ عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة-، وغلت فيه طائفة ممن اتبعوه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقًا وشيعًا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة، الأب والابن وروح القدس، ومن قائل: إنه الله، وكل هذا الأقوال مفصلة في سورة النساء.

وقوله تعالى: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى، {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} أي: عليهم، وذلك ببعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "لما أراد الله -عز وجل- أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه -وهم في بيتٍ اثنا عشر رجلاً- من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يُلقَى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟"[١٥].

هذه الراوية عن ابن عباس لا تقال من جهة الرأي، ولكن ابن عباس -رضي الله عنهما- يروي عن بني إسرائيل، ولهذا لا نجزم برفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا فإن قوله هنا: "**أيكم يُلقَى عليه شبهي فيقتل مكاني**"، هذا يفسر قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}** [النساء:١٥٧]، وهذا أحد الأقوال أنه ألقي الشبه على غيره فصلبوه، وقتلوه، وظنوا أنهم قتلوا عيسى -صلى الله عليه وسلم.

والمعنى الثاني: **{شُبِّهَ لَهُمْ}** يعني لُبِّس عليهم فراج ذلك، يعني زعموا أنهم قتلوه فلم يتحققوا من هذا، ولم يكونوا على يقين منه، ولكن شبه لهم.

قال: "فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم أنت ذاك، قال: فأُلقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى -عليه السلام- من رَوْزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة من بعد أن آمن به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء الله، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء يعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رُفع

---

١٤ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، برقم (٤٧٣٤)، والترمذي، في أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه، أبواب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، برقم (٢٠١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٩٤٧).

١٥ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/ ٦٢٣).

إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف:١٤] يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين بإظهار محمد -صلى الله عليه وسلم- دينهم على دين الكفار.

على هذه الرواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} أنه لم يزل أهل الإيمان من أتباع عيسى -عليه الصلاة والسلام- في ضعف وتسلط من قبل الكفار، وذلك أنه لم يكن لهم ظهور في التاريخ إلى أن بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فكان بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- هو إظهار أو ظهور الحق والتوحيد، فهذا هو التأييد {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}، فظهر المسلمون على اليهود والنصارى من المشركين أصحاب التثليث، وصار اليهود أذلاء، وحصل لهم ما حصل كما هو معروف في قريظة والنضير وخيبر وبني قينقاع، فكان ذلك ظهورًا للإيمان والتوحيد، وأن العبرة بالعواقب، كمال النهايات لا نقص البدايات، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، تاريخيًّا لم يكن لهم ظهور، متى كان الظهور للنصارى -على شركهم- على اليهود؟، النصارى كانوا يستضعفون من قبل اليهود، واليهود يسومونهم الخسف والذل حتى دخل قسطنطين في النصرانية، وهو رجل وثني، وجرّ النصرانية إلى الوثنية، وحصل مجْمع نِيقيا الشهير، وبعد ذلك اتفقوا على عقيدة التثليث، فصار أهل التوحيد وهم قلة صاروا في حال من الاستضعاف من قبل النصارى، وتحت بطشهم، وتهديدهم، وقتلهم، وتنكيلهم إلى أن بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن قوله: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} يعني: النصارى صاروا قاهرين لليهود، وصار اليهود في ممالك النصارى كما هو معروف في التاريخ يُنادَى عليهم، يعني تارة مثلاً في حلب، وتارة في حماة، وتارة في حمص، يُنادَى عليهم في هذه الممالك فيُخرجون ويقتلون جميعاً؛ لأنهم كانوا يفسدون، فيتأذى منهم الناس، فكانوا آفة في تلك المجتمعات، فيُنادى عليهم في كل مرة، ويقتلون قتلا ذريعاً، فابن القيم يرى أن ظهور النصارى على اليهود هو المراد بقوله: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}، لكن هو يعرف هذا الإيراد: أن هؤلاء الذين ظهروا كانوا مع قسطنطين وهذا رجل وثني، وأقروا عقيدة التثليث، فكيف هؤلاء هم الذين قُصدوا بهذه الآية: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}؟ ابن القيم -رحمه الله- يقول: "لمّا كان لهؤلاء -وإن كانوا على التثليث- شائبة في اتباع المسيح، كانوا بذلك أرجح من اليهود، فكان لهم من التأييد بسبب هذا الاتصال بالمسيح، والاتباع له، وإن كانوا على غير الدين الصحيح والإيمان والتوحيد"، هذا كلام ابن القيم، وما اختاره ابن كثير هنا لعله هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك بظهور محمد -صلى الله عليه وسلم- وإلا فأولئك لا يستحقون أن يوصفوا بالإيمان.

هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه، فأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم -عليه السلام-، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الصف، ولله الحمد والمنة.

الآيات في مجملها تدور حول موضوع الاستجابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجمعة (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال صاحب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير: تفسير سورة الجمعة وهي مدنية.

فضل سورة الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة الجمعة:

الجمعة: تقرأ بالحركات الثلاث، يقال: الجمُعة بالضم، وبالفتح: الجمَعة، وبالإسكان: الجمْعة، ليس في القراءة في الآية، وإنما هكذا تنطق لفظة الجمعة، والموضوع الذي تدور حوله هذه السورة يتعلق بالاصطفاء والاجتباء، إذا لاحظتم الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه السورة فإنها ترتبط بهذا المعنى الاصطفاء والاجتباء، اصطفاء الأميين، اصطفاء هذه الأمة، واصطفاء يوم الجمعة لهذه الأمة بعد أن ضل عنه اليهود والنصارى وما أشبه ذلك.

عن ابن عباس وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهم-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[1]. رواه مسلم في صحيحه.

وكان -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بسبح والغاشية[2]، ووجه ذكر هذا في الفضل -مع أن مثل هذا العنوان هو من المختصر وليس من ابن كثير- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اختصها بهذا لمعنى.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة الجمعة:١-٤].

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السماوات وما الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء:٤٤].

هذا التسبيح الذي ورد في هذه الآية، وورد في الآيات الأخرى بصيغ تدل على وقوعه في الماضي والحاضر والمستقبل، {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة الحديد:١] في الماضي، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١] والأمر للمستقبل، والله -عز وجل- مستحق للتنزيه والتسبيح والتقديس في

---

١ - رواه الإمام مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، برقم (٨٧٩).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، برقم (٨٧٨)، من حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه.

الأزمنة الثلاثة: الماضي الحاضر والمستقبل، ومعنى التسبيح معروف وهو: التنزيه، وهنا جاء بلفظ "ما" التي تستعمل عادة في غير العالِم، كما أن "مَن" تستعمل في العالِم، فيمن يوصف بالعلم، وهذا لربما -والله تعالى أعلم- من باب التغليب باعتبار أن الأشياء التي لا توصف بالعلم من الجمادات أكثر من الأشياء الموصوفة بالعلم كالملائكة والإنس والجن، ويقول: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} يعني كل من في السماوات ومن في الأرض فهو مسبح لله -عز وجل-، وهو تسبيح على حقيقته وظاهره، والآيات والأحاديث تدل على هذا المعنى، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} وإن هنا نافية، {وَإِن مِّن شَيْءٍ} أي: وما من شيء، {إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء:٤٤]، ولا مانع من أن يجعل الله -عز وجل- للجمادات إدراكاً يصلح لمثلها، ولكننا لا نعرف كنهه وحقيقته، فالله -تبارك وتعالى- قال للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت:١١]، وقال في ما ذكر -عليه الصلاة والسلام-: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سورة سبأ:١٠]، وهكذا أيضاً ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث))[٣]، إلى غير هذا من الأدلة التي تدل على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ} أي: هو مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدَّس أي: المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال.

{الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ} القدوس: هو المنزه، وبعضهم يفسره بالطاهر، وهو يرجع إلى المعنى الأول، وما ذكره الحافظ ابن كثير هو المشهور، {الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ} قال: "**أي المنزه عن النقائص**"، فصار التقديس بمعنى التسبيح؛ لأن التسبيح هو التنزيه بهذا الاعتبار، فهو يرجع إليه وهما متقاربان ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [سورة الحشر:٢٣]، وبعضهم قال: إن القدوس هو المنزه عن كل عيب في الماضي والحاضر، والسلام: هو السالم من كل عيب في المستقبل، وبعضهم يفسر القدوس بغير هذا، كقولهم: المبارك، ولكن التقديس في التنزيه أظهر، والله تعالى أعلم.

{الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} تقدم تفسيرهما غير مرة.

العزيز: هو الذي لا يغالب، والعزة إنما تكون من مجتمع أوصاف، إذا اجتمعت هذه الأوصاف من القوة والقهر والغلبة وما أشبه ذلك من صفات الكمال كان ذلك عزة، والحكيم هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، وقد ذكرنا هذا مراراً، وأصلها ترجع إلى المنع، وإذا نظرت إلى كل لون من ألوان الاستعمال لهذه اللفظة وجدت أن الحكْم يرجع إلى المنع، فالقاضي يمنع أحد الخصمين من أخذ حق الآخر، يقال له: حاكم وحكَم، والحكمة تمنع من اتصف بها من الشطط والخطل في الرأي، أو الخطأ في التصرف والفعل، فتكون أفعاله واقعة على وجه الصواب وأقواله أيضاً كذلك.

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة -رضي الله عنه.

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} الأميون هم العرب، كما قال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [سورة آل عمران:٢٠].

هذا لا شك فيه، أي أن الأميين هم العرب، قيل لهم ذلك، بناء على أميتهم، والأمي هو الذي يرجع إلى وصف -كما يقال- مأخوذ من الأمِّ، يعني كأنه على خلقته الأولى حينما خرج من بطن أمه، لا يعلم شيئاً فهو منسوب إلى الأم بهذا الاعتبار، والأمي بعضهم يقول: هو الذي لا يكتب، يقرأ ولكنه لا يكتب، مثل قريش وقيل: الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، والمقصود: أن الأميين العرب من عرف منهم القراءة أو الكتابة ومن لم يعرف، فهم أمة أمية، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنا أمة أمية لا نكتب...))[٤]، وهذا صادق على الأمة بعمومها، من عرف الكتابة منها أو القراءة ومن لم يعرف، وكانوا حينما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- أو قبل مبعثه بوقت ليس بالبعيد لا تُعرف القراءة فيهم، لا يُعرف في مكة وما حولها -كالطائف- أحدٌ، وقريش كانت تعتبر أكثر قبائل العرب تحضراً، وكان الذين يعرفون فيهم بالقراءة والكتابة نفر لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، ولو نظرتم في تاريخ الكتابة العربية، لوجدتم أن هؤلاء قد ذكروا بأسمائهم، والذي علمهم هذا هو واحد، رجل واحد أخذ ذلك من الحيرة أو بعض نواحي العراق ثم جاء به إليهم، فهم أمة أمية، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ثم بعد ذلك فشا ذلك فيهم أعني القراءة والكتابة، ولم يرفع ذلك وصف الأمية، باعتبار أن ذلك صار علماً بالغلبة أو كالعلم بالغلبة إذا أطلق توجه إليهم، فهي صفة قد عرفوا بها، والله تعالى أعلم، فالمقصود بهم العرب {بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}.

وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما في قوله: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤]، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]، وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [سورة الأعراف:١٥٨]، وقوله: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [سورة الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود:١٧].

قوله: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} لا يعني هذا أنه لم يبعث لبقية قريش مثلاً، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بدأ بالجد العاشر: ((يا بني عبد مناف))، ثم بعد ذلك نزل إلى بطون قريش أو إلى الأقرب فالأقرب، ثم قال: ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت))[٥]، فكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قيل له: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} لا يعني أن بقية القوم لم توجه إليهم بعثته -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك ما جاء في أن هذا {لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، مَن حولها فسره بعض أهل العلم بالعالم، وبعضهم قال:

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا نكتب ولا نحسب)، برقم (١٨١٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، برقم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما.

٥ - رواه النسائي، كتاب الوصايا، باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، برقم (٣٦٤٦)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٥٤٩)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٨٢).

بالنواحي القريبة {وَمَنْ حَوْلَهَا} باعتبار أن هذا هو المتاح في ذلك الوقت، أو أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب فلا يذهب إلى الأبعدين ويترك الأقربين، ولهذا قال الله -عز وجل-: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ} [سورة التوبة:١٢٣]، فهكذا علمنا الله -تبارك وتعالى-، والمقصود بهذا أن الأدلة إذا جمعت في هذا فإنها تدل دلالة صريحة قوية لا مرية فيها بأن بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- عامة للأحمر والأسود؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٦]، وكتابه -صلى الله عليه وسلم- للملوك، يدعوهم إلى الإسلام كل هذا يدل على عموم بعثته -عليه الصلاة والسلام-، {بعث في الأميين رسولاً منهم}، وهذا القدر من الآية يدل على امتنان خاص على الأميين {رَسُولاً مِّنْهُمْ} [سورة البقرة:١٢٩]، يمتن عليهم بأنه بعث منهم رسولاً أمياً، ووجه الامتنان بهذا من وجوه متعددة: ليكون مشاكلاً لأحوالهم، فهم أمة أمية، لو أرسل عليهم فيلسوفاً مثلاً لم يفهموا عنه شيئاً، هذه واحدة، والثانية: أنه أظهر في الإعجاز، لو أرسل إنساناً متعلماً عالماً لقيل: هذا الذي يأتي به من التشريع وكذا هو مما عرف وتعلم ودرس، والأمر الثالث: ليكون تصديقاً بما أخبر به الرسل قبله، وما جاء في الكتب من صفته {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [سورة الأعراف:١٥٧]، فهذا تصديق لما جاء في صفته -عليه الصلاة والسلام-، وهذه ثلاثة أمور يمكن أن تذكر في وجه الامتنان ببعثه -صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفة.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام، بالآيات وبالأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم -عليه السلام- حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله -سبحانه وتعالى- وله الحمد والمنة- على حين فترة من الرسل وطُموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، أي نزراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم -عليه السلام-، ولهذا قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل -عليه السلام- فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها فبعث الله محمداً -صلوات الله وسلامه عليه- بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، برقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

والفروع، وجمع له تعالى -وله الحمد والمنة- جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

في قوله -تبارك وتعالى-: {رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}، لم يتعرض لها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيما ذكره هنا {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}، يعني آيات القرآن، {وَيُزَكِّيهِمْ} كل المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- في معنى التزكية داخلة في هذا، فالتزكية يدخل فيها هنا تزكية النفوس، والدعوة إلى الإيمان من تزكية النفوس، إلى غير ذلك من العبارات {وَيُزَكِّيهِمْ}، إلا أن قول من قال: إنّ يزكيهم أي يزكي الأموال بالزكاة المعروفة يطهرها، فيه بعد وتوجيهه يحتاج إلى شيء من التكلف، باعتبار أن قوله: {وَيُزَكِّيهِمْ} أي يطهرهم، فنقول: التطهير هنا يكون عامًّا، فيكون هذا التطهير للنفوس وللأموال، فيكون ذلك من قبيل المثال بهذا الاعتبار، ولا حاجة للجوء إلى مثل هذا، لكنه يقال: {يُزَكِّيهِمْ} أي: يطهر نفوسهم من الأدناس والأرجاس، والشرك والمعاصي وما إلى ذلك من الأوضار التي كانوا يتلوثون بها في جاهليتهم، {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} في غالب الاستعمال، وحينما يرد مثل هذا -الكتاب والحكمة- الكتاب: هو القرآن، والحكمة: هي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن فسر الحكمة بأنها الفقه في الدين فإن هذا لا يعارض أنها السنة؛ لأن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- مفسرة للقرآن، ومن ذلك يؤخذ الفقه في الدين باستشراح القرآن ومعرفة ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي شارحة ومبينة له، وفي بعض المواضع تفسر الحكمة بالنبوة، في بعض المواضع من القرآن، ويمكن أن يرجع المعنى فيها أو أن يربط بالفقه في الدين، كما ذكر ذلك جماعة من المحققين كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-، فلا تعارض بين هذه المعاني؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أعلم الناس بدين الله -عز وجل-، وحينما نقول: إن الحكمة هي الإصابة في القول والعمل فإن أعظم من يتصف بذلك، وأولى من يوسم به هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهكذا الأمثل فالأمثل، ومن أهل العلم من فسر الكتاب هنا {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} قال: يعني الخط بالقلم، وقالوا: في الآية قرينة تدل على هذا، وهو قول له وجه من النظر، إلا أن الذي يمكن أن يشكل عليه أن غالب الاستعمال في القرآن إذا ذكر الكتاب والحكمة هو الكتاب والسنة، القرآن والسنة، فبعضهم قال: الكتاب خاصة في هذه الآية هو الخط بالقلم، قالوا: والقرينة على ذلك من وجهين في الآية، الأول: أن هذا في معرض ذكر الأميين والامتنان عليهم، فكانت بعثته -عليه الصلاة والسلام- سبباً لفُشُوّ القراءة والكتابة فيهم، انتشر هذا كثيراً، وتعرفون ما حصل مع أسارى بدر حيث إن النبي -صلى الله عليه وسلم- جعل الفداء لمن يعرف الكتابة منهم أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين، وأمر آخر في نفس الآية وهو أن الله -عز وجل- ذكر قبله {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} والآيات هي القرآن، {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} فإذا قيل الكتاب هو القرآن قد يكون ذلك من قبيل التكرار، والقاعدة: أن التأسيس مقدم على التوكيد، فهاتان قرينتان دالتان على أن المراد بالكتاب هنا هو الكتابة، لكن الذي يشكل عليه هو ما ذكرت، والمقصود أن هذا القول ليس ببعيد، وهو محتمل.

وقوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، روى الإمام أبو عبد الله البخاري -رحمه الله- تعالى عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: كنا جلوساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فأنزلت عليه سورة الجمعة {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى

سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه-، فوضع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يده على سلمان الفارسي ثم قال: ((لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء))[٧]. ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

العطف في قوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ} هل هو على الأميين، فيكون معنى الكلام هكذا {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} وبعث في آخرين؟، إذا قلنا: إن قوله: {وَآخَرِينَ} معطوف على الأميين، يكون المعنى هكذا، هو الذي بعث في الأميين وفي آخرين، {بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} يعني في الأميين وفي آخرين، وإذا قيل: إنه عائد إلى الهاء {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}، {وَيُزَكِّيهِمْ} فيكون المعنى هكذا {بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} وعلى آخرين، {وَيُزَكِّيهِمْ} ويزكي آخرين، وهذان تحتملهما الآية، والاحتمال الأول أقرب، ويكون ذلك بهذا الاعتبار أوضح في الدلالة على عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- إلى عموم الناس، مع أن القول الآخر لا يعارضه فإذا كان يزكي آخرين فمعنى ذلك أنه يكون من باب الملازمة، يكون القولان بينهما تلازم، فإذا كان بعث إلى آخرين، إذا كان معطوفاً على الأميين {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ} وفي آخرين، فمعنى ذلك أنه سيحصل لهم النتيجة المذكورة بعده {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ}، وإذا قلنا: إنها معطوفة على الضمير الهاء {يَتْلُو عَلَيْهِمْ} وعلى آخرين، {وَيُزَكِّيهِمْ} ويزكي آخرين، فمعنى ذلك أنه بعث إليهم إذا تلا عليهم الآيات، وزكاهم فإن التزكية لا تحصل إلا بدخولهم في الإسلام، فالقولان متلازمان وبهذا الاعتبار إذا قلنا بأنهما متلازمان لا نحتاج إلى الترجيح بينهما؛ لأنهما في المآل يرجعان إلى شيء واحد، والله تعالى أعلم.

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ} بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله -عز وجل- وإلى اتباع ما جاء به؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} قال: هم الأعاجم، وكل من صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- من غير العرب.

قوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} "الآخرين" معناها أنهم غير المذكورين أولاً، والذين ذكروا أولاً من هم؟ قلنا: هم العرب {بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ} يعني هم العرب، {وَآخَرِينَ} إذاً هم غير الأولين، فلهذا فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن أشار إلى سلمان وإلى قومه، ففسره بعض أهل العلم بالفرس، ومنهم من نظر إلى المعنى، قال: هذا لا يختص بالفرس {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} فهم الأعاجم، فالأولى في العرب، هم الأميون وبعث في آخرين وهم الأعاجم، وهو قول جيد، وبناء عليه يمكن أن يحمل قوله: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} على المرتبة والمنزلة والفضل {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} أي: في المرتبة والفضل والمنزلة؛ لأن العرب أشرف من حيث الجنس من الأعاجم، وهذا الفضل المشار إليه، أو على هذا المعنى مما تحتمله الآية {ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ} بإلحاق الأعاجم بالعرب طَفّ الصاعِ، لا فضل لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، فيتفاضلون

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [سورة الجمعة:٣]، برقم (٤٦١٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، برقم (٢٥٤٦)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

بالتقوى، فإن استووا بالتقوى، فإن العرب أفضل من غيرهم، كما أن قريشاً أفضل العرب، و بنو هاشم أفضل قريش، فالمقصود هنا أن قوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} فسر بالأعاجم، {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} يمكن أن يكون في الفضل والمنزلة والمرتبة، ويحتمل أن يكون ذلك {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} من جاء بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- ودخل في الإسلام من العرب والعجم، ويكون تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- من قبيل ذكر بعض الأفراد الداخلين تحت معنى الآية، وهذا له نظائر من تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فيكون المقصود كل من دخل في الإسلام بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، أنه كل من دخل في الإسلام بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}، ولذا عبر بعضهم عن هذا فقال: هم التابعون، {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا} فيكون {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} هنا من جهة الزمان، ما أدركوهم، وهذان القولان بينهما ملازمة ظاهرة، فإن هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم من جهة الزمان لم يحلقوا بهم أيضاً من جهة المرتبة، وإذا فسر هذا بالأعاجم أيضاً قيل: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} لمّا يدخلوا في الإسلام بعد، ما دخل الفرس في الإسلام أو الروم أو بقية الأعاجم في ذلك الوقت إنما هم أفراد، ومعنى ذلك أنهم لم يلحقوا بهم أيضاً في المرتبة، فبين القولين ملازمة، وبناء عليه لا نحتاج أن نرجح بين هذين القولين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجمعة (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[سورة الجمعة:٣] أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[سورة الجمعة: ٤] يعني ما أعطاه الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته -صلى الله عليه وسلم- إليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ} الإشارة هنا للبعيد وأقرب ما تتوجه إليه -وهو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الإسلام وما أعطاه الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- من النبوة والوحي، وبعض أهل العلم يفسره بغير ذلك وهي معاني متفرعة عن هذا المعنى، كقول بعضهم: إن المراد بفضل الله هنا لحوق العجم للعرب، وذلك بدخولهم في الإسلام فيستوون معهم ((لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى))[1]، وهذا المعنى مما يستلزمه المعنى الأصلي، الذي هو المعنى المتبادر {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ} هو ما ذكره الله -عز وجل- {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، فهذا الفضل الذي أعطاهم الله إياه هو الإسلام، ومن قال: إنه النبوة فهو داخل في هذا؛ لأن الإسلام إنما عرف من طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما ذكره هؤلاء من أن المقصود به أن الأعاجم يلحقون بالعرب، إنما بفضل الله -تبارك وتعالى- عليهم حيث إن دخولهم في الإسلام أوصلهم إلى هذه المراتب، فهذا مما يستلزمه المعنى المختار، والله تعالى أعلم.

ولو أردنا أن نرجح ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معنى الآية فيمكن أن توجَّه بقية الأقوال بهذه الطريقة فهي إما أن تكون مما دلت عليه الآية دلالة أولية، أو يكون ذلك من باب الملازمة، دلالة الالتزام.

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجمعة:٥-٨].

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٣٤٨٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٠٠).

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩]، **وقال تعالى هاهنا: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.**

أسوأ الأمثال المضروبة في القرآن مثلان كلاهما في أهل العلم الذين لا يعملون بعلمهم، الأول: هو قوله -تبارك وتعالى-: في ذلك الذي انسلخ من آياته بعد أن آتاه الله إياها، قال: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**[سورة الأعراف:١٧٦]، يعني حينما تطارده وتزجره، **{تَحْمِلْ عَلَيْهِ}** ليس معناه تحمل عليه المتاع، وإنما كما تقول: حملتُ على العدو بمعنى هجمت عليه، **{إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}** فذكره في أبشع صوره وأسوأ حالاته، فهذا مثل للعالم الذي ينسلخ من مقتضى العلم، ويعمل بخلاف ما علم، ويبدل ويغير فيَضل ويُضل.

والمثل الثاني: هو مثل هؤلاء اليهود مثل الحمار الذي حمل أسفاراً، ليس له من حملها إلا التعب، فهذا مثل من يتعلم ولكنه لا يعمل بمقتضى هذا العلم، يتعلم من أجل الدنيا، يتعلم من أجل أمر يريده، لكنه لا ينتفع بعلمه ولا يظهر ذلك في سمته، وهديه، وعمله، وحاله، وهذا المثل الذي ذكره الله -عز وجل- **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ}** يعني: كلفوا بالعلم بها، **{ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا}** أي: لم يقوموا بما فرض الله -عز وجل- عليهم، وما تضمنته هذه التوراة **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}**، الحمار يضرب به المثل عند الأمم -وليس العرب فقط- في البلادة والمذلة، فهذا المثل تضمن هذا، إذا نظرت إلى ما ذكره الله -عز وجل- من الدواب مرتباً **{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}** [سورة النحل:٨]، لوجدتها جاءت مرتبة بالتدريج من ناحية الجمال من الأعلى إلى الأدنى، ومن ناحية القوة على الحمل من الأدنى إلى الأعلى، من ناحية الجمال: الخيل أجمل من البغال، والبغال أجمل من الحمير، ومن ناحية القوة: أقواها على الحمل هي الحمير، ومن ناحية أيضاً المذلة: الخيل شعار من شعارات العز، وقيل لها ذلك؛ لما فيها من الخيلاء والاختيال في مشيتها، ولذلك ذكروا في أخلاق الأمم والطوائف بسبب المخالطات، ذكروا أن أوصاف أهل الخيل فيهم من العزة، بخلاف أهل الإبل ففيهم من الرعونة والجفاء، بخلاف من يخالطون الغنم ففيهم من السكينة، فالمقصود أن الحمار يضرب به المثل في البلادة والمذلة، وهو أقوى هذه الدواب على الحمل، فمثّلهم الله -عز وجل- بالحمار، يحمل أشياء ثقيلة ترهقه وتثقله، ولكن ليس له من ذلك إطلاقاً سوى التعب لا ينتفع بما فيها، فكذلك من يحمل علماً ولا يظهر ذلك عليه، ولا يعمل بمقتضاه فإنه بهذه المثابة، وإذا كان هذا المثل قد وجه أو ضرب لهؤلاء اليهود فإن هذه الأمة أشرف منهم، فإذا وقع أبناؤها فيما وقع فيه اليهود فهم أولى باستحقاق هذا المثل، فليس ذلك مما يختص باليهود وليس بين الله -عز وجل- وبين أحد من الناس نسب، والله لا يحابي أحداً، **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}**، والأسفار: جمع سفر، ويطلق على الكتاب الكبير الذي يسفر عما يحتويه، عما يتضمنه

من المعاني.

ثم قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي: فيما تزعمونه.

الله -عز وجل- تحداهم بذلك، ولم يتمنوا الموت، ولهذا جاء في حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- -كما سبق- لما قال أبو جهل ما قال، قال: لئن لقيت محمداً أو رأيته يصلي لأطأن على عنقه، فالحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولو أن النصارى باهلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً))[٢]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فالحاصل: أنهم لم يتمنوا الموت، {إِن زَعَمْتُمْ} وكلمة زعم تطلق تارة على معنى زعم فلان أي قال، وتطلق تارة على ما يراد توهينه من الكلام، وتارة تطلق على ما يكذب منه، {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا} [سورة التغابن:٧]، والله -عز وجل- هنا يقول: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ}، فلم يتمنوه؛ لأنهم يعلمون أن الآخرة ليست لهم، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا} كما سبق أيضاً في بعض الدروس أن أصل الهود بمعنى الرجوع، هاد يهود أي رجع، وقيل: إن اليهود قيل لهم ذلك لهذا المعنى، فإنهم قالوا: {هُدْنَا إِلَيْكَ} [سورة الأعراف:١٥٦] أي: رجعنا إليك، كما قيل: يا أيها المذنب هُدْ، هُدْ، يعني ارجع، ارجع، واسجد كأنك هدهد، فهذا معنى معروف في كلام العرب، ولكن هل هذه التسمية {الَّذِينَ هَادُوا} هل هذه اللفظة عربية أصلاً حتى يقال: إنها مأخوذة من هذا المعنى، مشتقة، أو أنها لفظة أعجمية؟، فإن قيل: إنها أعجمية فإنه لا يذكر في معناها هذا الاشتقاق، والله أعلم.

قال الله تعالى: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي: بما يعملون لهم من الكفر، والظلم، والفجور، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى: {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [سورة البقرة:٩٤-٩٦].

يعني أحرص الناس وأحرص من الذين أشركوا، {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} يعني وأحرص من الذين أشركوا، والمعنى الآخر {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} يكون ذلك مرتبطاً بما بعده، يعني ذكر صفة اليهود وذكر صفة المشركين، والأقرب هو المعنى الأول، أنهم أحرص الناس وأحرص من أهل الإشراك الذين لا يؤمنون بالآخرة أصلاً، فاليهود أحرص منهم على البقاء في هذه الحياة؛ لأنهم يعلمون أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}[سورة الممتحنة:١٣]، على أحد المعنيين في الآية {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ}[سورة الممتحنة:١٣]، من إخوانهم المقبورين من أن يرجعوا إليهم، والمعنى الثاني: كما يئس المقبورون الكفارُ من ثواب الله لما عاينوا

---

٢ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٢٢٥)، وقال محققوه: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٢٢٩٦).

بعد الموت، فهؤلاء يئسوا من الآخرة كيأس الكفار الذين عاينوا ما عاينوا بعد موتهم، يئسوا من ثواب الله -عز وجل- ومرضاته وجنته، وهذا المعنى أقرب وهو المتبادر؛ لأن الأول لا يختص بالكفار بل كل من مات فإنه لا يرجع إلى الدنيا مرة ثانية في الأصل، ولا يختص ذلك بهؤلاء.

وقد أسلفنا الكلام هناك وبيّنا أن المراد أن يدعوا على الضُّلال من أنفسهم أو خصومهم كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران، {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [سورة آل عمران:٦١]، **ومباهلة المشركين في سورة مريم:** {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [سورة مريم:٧٥].

تمني الموت ليس بالضرورة أن يكون ذلك بالمباهلة، ولا يشكل على هذا أن الإحصاءات تظهر أن كثيراً من اليهود ينتحرون مرة بعد مرة، فهم لا يفعلونه، لأنهم يرجون ثواب الله، فالمنتحر لا يرجو مزيد فضل عند الله -عز وجل- حينما يقدم على هذا، وإنما يغلب عليه اليأس وتظلم الدنيا في عينه، فيقدم على هذا الفعل الشنيع لأنه قد شعر أن الأبواب قد أغلقت في وجهه وأن الموت خير له من الحياة، لغلبة هذا الشعور عنده، وكثير من هؤلاء أصلاً ملاحدة، ولا يرفع رأساً لدين، ولا يعبد الله -عز وجل- بأي طريقة من الطرق، وإنما يعبد شهوته فقط، فإذا عرض له ما يحزنه جزع غاية الجزع ولم يجد خلاصاً من ذلك إلا الموت.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً))**[٣]**. رواه البخاري والترمذي والنسائي.**

وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**، كقوله تعالى في سورة النساء:** {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [سورة النساء:٧٨].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الجمعة:٩-١٠].

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمُل جميع الخلائق؛ فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السماوات

---

٣ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٢٢٥)، وقال محققوه: صحيح، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [سورة آل عمران:٦١]، برقم (١١٠٦١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٩٦)، وعند البخاري بلفظ: "لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطَأن على عنقه، فبلغ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: (لو فعله لأخذته الملائكة)" برقم (٤٦٧٥)، والترمذي برقم (٣٣٤٨).

والأرض، وفيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع في سبب التسمية بين معنيين، ذكر أنها مأخوذة من معنى الاجتماع، وذكر معنيين مما يذكره أهل العلم لسبب تسميتها بالجمعة، من هذا الاجتماع الذي اشتقت منه هذه التسمية، أو الجمع: أنه اجتمع فيه خلق آدم -صلى الله عليه وسلم-، ومن ذلك أنه اكتمل فيه خلق السماوات، والأرض، والجبال، إلى أن خلق آدم في آخر ساعة من الجمعة، فهذا من معنى الاجتماع، وفيه أيضاً اجتماع المسلمين في المساجد يوم الجمعة للخطبة، والصلاة، وفيه أيضاً يقوم يوم القيامة، ولهذا سمى الله -عز وجل- يوم القيامة بيوم الجَمْع؛ لاجتماع الأولين، والآخرين، وأهل السماوات، والأرضين،، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- أراد أن يجمع بين هذه المعاني؛ لأنه ليس عندنا دليل يدل على تخصيص واحد منها، فكل هذه المعاني تدل على معنى الجمع، اجتماع الناس للصلاة، واجتماع الخلق، واجتماع خلق آدم -صلى الله عليه وسلم-، فقيل لها الجمعة، إلا على قول من قال: إن أول من سماها بذلك كعب بن لؤي؛ لأن بطون قريش قد اجتمعت إليه، فيكون بهذا الاعتبار اسماً قديماً، قبل الإسلام، ومن قال: إن ذلك لاجتماع الناس للصلاة فمعنى ذلك أنه -كما يعبر بعضهم- من مبتكرات الإسلام، يعني ليس اسماً معروفاً في الجاهلية، ولذلك يقولون: إن الأسماء في اللغة القديمة الجمعة كان اسمها عروبة في اللغة القديمة العربية، وتبدأ الأيام من يوم الأحد بطبيعة الحال كما هو معروف، ولهذا فإنه يقال له "أول" -اسم يوم الأحد-؛ لأنه أول يوم وقع فيه الخلق، وأهون ليوم الإثنين، وجبار ليوم الثلاثاء... إلى يوم الجمعة الذي يقال له: يوم العروبة، وبعضهم يقول: الأنصار هم أول من سماها بهذا، على أنه من مبتكرات الإسلام، باعتبار أن أول جمعة أقيمت كانت في المدينة، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يهاجر ما أقام جمعة في مكة، وأقامها مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه-، وقيل: أسعد بن زرارة، ولا منافاة بين القولين باعتبار أن مصعب بن عمير -رضي الله عنه- كان هو الداعي وهو الإمام، وأسعد بن زرارة كان بمثابة الأمير على المسلمين، قبل أن يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم.

وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العَروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أُمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق.

هذا وجه من وجوه ضلال النصارى، أنهم جعلوا الأجازة في أول يوم بدأ فيه الخلق، يعني هذا لا وجه له أصلاً.

واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ))[٤]. لفظ البخاري.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم (٨٣٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٨٥٥).

وفي لفظ لمسلم: ((أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق))[٥]، وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} أي: اقصدوا، واعمدوا، واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة الإسراء:١٩] وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- يقرأانها {فامضوا إلى ذكر الله}، فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه، لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الله وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا))[٦] لفظ البخاري.

وعن أبي قتادة -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما نحن نصلي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ سمع جلبة رجال فلما صلى قال: ((ما شأنكم؟))، قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: ((فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا))[٧] أخرجاه.

قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنيات والخشوع.

وقال قتادة في قوله: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} يعني: أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [سورة الصافات:١٠٢]، أي: المشي معه، وروي عن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وغيرهما نحو ذلك.

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أولاً: أي بمعنى اقصدوا، القصد والعمد والاهتمام بها، وليس المقصود الإسراع، هذا المعنى هو المتعين في هذه الآية للنهي الذي سمعتم؛ لأن السعي يأتي بمعنى الإسراع في المشي، ومنه {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص:٢٠] أي يسرع في المشي ليدرك موسى -صلى الله عليه وسلم-؛ لكي يقول له: {إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ}، وقال: {وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [سورة يس:٢٠]، -وليست هذه في قصة موسى -صلى الله عليه وسلم-، فالحاصل: أن السعي يأتي بمعنى الإسراع في المشي، ويأتي بمعنى العمل {بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [سورة الصافات:١٠٢]، يعني صار قادراً على العمل، وكذلك هنا {فَاسْعَوْا} فسر بمعنى اقصدوا، يعني بالنية، وفسر بمعنى أحسن من هذا وأكمل منه، وهو ما ذكره الحافظ ابن كثير {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} يعني

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٦)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

٦ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار، برقم (٦١٠)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

٧ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، برقم (٦٠٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار (٦٠٣).

العمل على حضور الجمعة، والتهيؤ لها، وترك التشاغل عنها، وذلك بالاغتسال والتطيب وما أشبه ذلك، وقوله: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} المقصود بالذكر يعني حضور الخطبة والصلاة، والمقصود بالنداء في هذه الآية: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ} النداء الثاني الذي يكون بين يدي الخطبة، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجمعة (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل))[١].

ولهما عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم))[٢].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده))[٣] رواه مسلم.

وعن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم وهو يوم الجمعة))[٤]، رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأحاديث التي أوردها المؤلف -رحمه الله- للتدليل على أن غسل الجمعة مستحب هي من أقوى ما يستدل به من قال بالوجوب، ولا شك أن ظاهرها الوجوب؛ كقوله: ((غسل الجمعة واجب على كل محتلم))، أو الأمر بذلك صراحة في بعض الأحاديث، مثل: ((حق لله على كل مسلم))، كذلك في الحديث الآخر: ((على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام)) فالتعبير بمثل: على فلان، على المسلم، عليك أن تفعل كذا يستعمل عادة في الوجوب، والقول بالوجوب بناء على هذه الأدلة وغيرها لا شك أن له وجهاً قوياً من النظر، ولكن هذا الوجوب قد تصرفه بعض الأحاديث الأخرى، إذ إن في بعض ما يدل على الوجوب في ظاهره ما قرن معه ما ليس بواجب، كما جاء في بعض الأحاديث: ((وأن يمس من طيبه))[٥]، وذكر السواك، وطيب أهله، فمثل

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة وهل على الصبي شهود يوم الجمعة أو النساء؟، برقم (٨٣٧)، ومسلم، في بداية كتاب الجمعة، برقم (٨٤٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة وهل على الصبي شهود يوم الجمعة أو النساء؟، برقم (٨٣٩)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، برقم (٨٤٦).

٣ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، برقم (٨٤٩).

٤ - رواه النسائي، كتاب الجمعة، باب إيجاب الغسل يوم الجمعة، برقم (١٣٧٨)، وابن خزيمة برقم (١٧٤٦)، وابن حبان في صحيحه برقم (١٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤٨٢)، ولم أجده عند الإمام أحمد.

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر -رضي الله عنه برقم (٢١٥٦٩) وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٧٣٩٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١٧٥٥).

هذه الأمور ليست بواجبة، وكذلك أيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الآخر: ((من توضأ فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل))[٦]، وكذلك أيضاً الأحاديث التي جاء فيها الترغيب في الاغتسال، وأيضاً ابن عباس -رضي الله عنهما- جاءه قوم من العراق وسألوه عن غسل الجمعة، فذكر لهم أنه ليس بواجب وبيّن لهم مبدأ الأمر، أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أمرهم بذلك أمراً صريحاً، وهو ما ذكر مما هو معروف أن المسجد كان صغيرا، وكان سقفه منخفضاً، وكان الناس يزاولون أعمالهم بأنفسهم فيجتمعون في الجمعة، فتنبعث روائح، ويتأذى بعضهم من بعض، وكانوا يلبسون الصوف، ثم بعد ذلك وسع الله عليهم، فما عادوا يلبسون ذلك اللباس، وما عادوا يزاولون أعمالهم بأنفسهم، ووُسع المسجد، وكذلك أيضاً عائشة -رضي الله تعالى عنها-، جاء عنها ما يدل على هذا المعنى، فالمقصود أن هذه الأدلة الصريحة التي قد يفهم منها الوجوب، قد تصرفها تلك الأحاديث التي تدل على الاستحباب، والله تعالى أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من غَسَّل واغتسل يوم الجمعة، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع ولم يلغُ كان له في كل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها))[٧]، وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة، وحسنه الترمذي.

قوله في هذا الحديث -حديث أوس بن أوس- رضي الله عنه-: ((من غَسَّل واغتسل))، وجاء في بعض روايات هذا الحديث عن أوس -رضي الله تعالى عنه- عند أبي داود بإسناد صحيح: ((من غسَل رأسه يوم الجمعة واغتسل))[٨]، فيكون غَسَّل أي غسَل رأسه، واغتسل أي في سائر جسده، وبهذا فسره جماعة من أهل العلم من التابعين وغيرهم، وقد يدل عليه الحديث السابق حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده))، وقوله: ((غسَّل واغتسل)) فسره الإمام أحمد -رحمه الله- وآخرون بأن المراد: غسَّل أي تسبب في غسل غيره، واغتسل هو، وإنما يكون متسبباً في غسل غيره بالجماع، فبناء على ذلك قالوا: يستحب له قبل أن يأتي الجمعة أن يجامع أهله، وذلك أدعى لحضور الذهن فإن وفور الشهوة سبب لشتاته وتفرقه، فإذا قضى الإنسان وطره كان ذهنه أجمع ما يكون، فلا

---

٦ - رواه النسائي، كتاب الجمعة، باب الرخصة في ترك الغسل يوم الجمعة، برقم (١٣٨٠)، والترمذي، أبواب الجمعة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الوضوء يوم الجمعة، برقم (٤٩٧)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الرخصة في ذلك، برقم (١٠٩١)، وأحمد في المسند برقم (٢٠١٧٧)، وقال محققوه: حسن لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦١٨٢)، من حديث سمرة بن جندب -رضي الله عنه.

٧ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، برقم (٣٤٥)، والنسائي، كتاب الجمعة، فضل غسل يوم الجمعة، برقم (١٣٨١)، والترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة، برقم (٤٩٦)، وأحمد في المسند برقم (١٦١٧٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وبرقم (١٦٩٦٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، غير أن صحابيّه لم يخرج له سوى أصحاب السنن، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (١٣٨٨).

٨ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، برقم (٣٤٦)، من حديث أوس الثقفي -رضي الله عنه-، وقال الشيخ الألباني: "إسناده صحيح" في صحيح أبي داود برقم (٣٧٤).

يوجد فيه ما يشوشه من هذه الحيثية، فالمقصود أن هذا الفهم قال به جماعة من أهل العلم، وبناء عليه قالوا: إن ذلك مستحب، وقد يستدل لهذا القول بالحديث الآخر حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة))[9]، فهذه الجملة تحتمل أن يكون المراد بها غسل الجنابة أي الغسل المتسبب عن الجنابة، ويحتمل أن يكون المراد أنه اغتسل غسلاً كاملاً بصفة غسل الجنابة، حيث إنه يتوضأ -كما هو معلوم- قبله ثم يفيض الماء على رأسه ثلاث حثيات، ويفيض الماء على سائر جسده، فهذه أكمل صور الاغتسال، مع أنه يجزئ الإنسان في الغسل أن يفيض الماء على سائر جسده ويتمضمض ويستنشق، فقد يفهم من هذا، ولكن حديث أبي هريرة لا يدل على ذلك صراحة؛ لأنه محتمل لهذا المعنى والمعنى الآخر، والشريعة عامة لجميع الناس، ويُظن في مثل هذه الفضائل أن جميعهم -جميع المكلفين- يمكنهم أن يحصلوها، وإلا فلو حمل هذا على غسل الجنابة، لبقي من لم يتزوج محروماً من هذا الفضل والأجر، والعلم عند الله -عز وجل.

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضر الملائكة يستمعون الذكر))[10] أخرجاه.

بمعنى أنهم يطوون الصحف، وإلا فهم يقفون على أبواب المسجد يكتبون الأول فالأول، وما ذكر هنا في صفة الكبش من أنه أقرن؛ لأنه أكمل من الأجلح، وهذه الفضائل غفل عنها أكثر الناس اليوم، وإلا فانظر إلى الحديث الذي قبله وهو حديث صحيح، ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الأمور التي يطلب تحصيلها: ((كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها))، هذا إذا فعل ما ذكر من التبكير، والاغتسال والمشي، وعدم الركوب ((مشى ولم يركب)).

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر، وفي حديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- المتقدم: ((غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله))[11].

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، برقم (٨٤١)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال وباب الطيب والسواك يوم الجمعة، برقم (٨٥٠).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، برقم (٨٤١)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال وباب الطيب والسواك يوم الجمعة، برقم (٨٥٠).

١١ - رواه ابن خزيمة في صحيحه بلفظ ((غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ويمس طيبا إن عنده)) برقم (١٧٤٤)، ولفظة: ((غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم)) رواها البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة وهل على الصبي شهود يوم الجمعة أو النساء؟، برقم (٨٣٩)، وبرقم (٨٥٥)، في باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟.

لكن السواك ليس بواجب، ومس الطيب ليس بواجب، فذكره في سياق واحد ((غسل الجمعة واجب)) يعني والسواك واجب، وأن يمس من طيب، فلعل المراد بذلك: أنه يطلب طلباً مؤكداً.

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى))[12].

وفي بعض الروايات ((وزيادة ثلاثة أيام))[13]، باعتبار الحسنة بعشر أمثالها، فالأسبوع سبعة أيام وزيادة ثلاثة فتصير عشرة، فالحسنة بعشر أمثالها، ويوخذ من قوله: ((ومس من طيب أهله إن كان عنده)) فائدة وهي أنه يدل على أن التطيب بطيب النساء ليس من التشبه بهن.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه-: أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول على المنبر: ((ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته))[14].

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال: ((ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته))[15] رواه ابن ماجه.

أي في أول الأمر حينما رأى عليهم تلك الثياب، وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- يوضحه، فلما وُسّع عليهم ما عادوا يلبسون تلك الثياب التي تنبعث منها تلك الرائحة، ثم إن قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((ما على أحدكم إن وجد))** يدل على أن ذلك لا يجب.

وقوله تعالى: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ} [سورة الجمعة:٩] المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله تعالى

---

١٢ - رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما-، كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، برقم (٣٤٣)، وابن ماجه من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، برقم (١٠٩٧)، وأحمد في المسند برقم (٢٣٥٧١)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٦٨٨).

١٣ - رواه مسلم، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة، برقم (٨٥٧)، وأبو داود من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما-، كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، برقم (٣٤٣).

١٤ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب اللبس للجمعة، برقم (١٠٧٨)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، برقم (١٠٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٦٣٥).

١٥ - رواه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، برقم (١٠٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٦٣٥).

عنه- فإنما كان هذا لكثرة الناس كما رواه البخاري -رحمه الله- عن السائب بن يزيد -رضي الله تعالى عنه- قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء[١٦]، يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد.

وقوله تعالى: {وَذَرُوا الْبَيْعَ} أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلماء -رضي الله تعالى عنهم- على تحريم البيع بعد النداء الثاني.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

قوله: {وَذَرُوا الْبَيْعَ} ذكر البيع؛ لأنه غالب تعامل الناس، أغلب تعامل الناس بالبيع والشراء، ولكن يدخل فيه سائر العقود مثل الإجارة، ويدخل فيه أيضاً عقود الشركات، وعقد النكاح، {وَذَرُوا الْبَيْعَ} وهذا بمعنى النهي وهو صريح في ذلك، والأصل أن النهي يقتضي الفساد، ولذلك فإن ما يحصل من المبايعة بين من تجب عليهم الجمعة، أو من العقد كعقد النكاح أو نحو ذلك الأقرب والأرجح -والله أعلم- أنه باطل لا يصح، كل عقد يكون بعد النداء الثاني للجمعة فإنه باطل، لا يحق لهذا أن ينتفع بالثمن، ولا يحق للآخر أن ينتفع بالمثمن، -والله أعلم-، فإن كان عقد نكاح فإنه لا يصح، لا يستحل به البضع.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم، أي في الدنيا والآخرة {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

وقوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} [سورة الجمعة:١٠].

طريقة احتساب الساعات في يوم الجمعة، من جاء في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، والثانية بقرة، والثالثة كبشاً أقرن، والرابعة دجاجة، والخامسة بيضة، تحسب من شروق الشمس إلى وقت الزوال، ويقسم على خمس، فالساعة ليس المقصود بها الساعة المعروفة الآن، وإنما هي مدة من الزمن، فإذا قسمته على خمس فإنه يزيد وينقص في الشتاء والصيف، الشتاء يمكن أن تذهب في حدود الساعة السابعة إلا ربعا، وتدرك الساعة الأولى، بخلاف الصيف فإن الوقت يختلف كما هو معروف.

{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} أي: فُرغ منها، {فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله، كما كان عراك بن مالك -رضي الله تعالى عنه- إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين[١٧]. رواه ابن أبي حاتم.

قوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} هذا أمر بعد النهي، والقاعدة في هذا الباب أن يقال، ما هي القاعدة؟، هذا بعضهم يقول: الأمر بعد النهي للإباحة، وبعضهم يقول: للاستحباب، والراجح: أن الأمر بعد الحظر يرجع فيه إلى ما كان عليه قبله، فإن كان مستحباً صار للاستحباب، وإن كان مباحاً صار للإباحة

---

١٦ - رواه البخاري من حديث السائب بن يزيد -رضي الله عنه-، كتاب الجمعة، باب الأذان يوم الجمعة، برقم (٨٧٠).

١٧ - انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣١٣/١٢)، برقم (١٨٨٩٧).

وهكذا، فهنا البيع والشراء مباح، فنهاهم عنه ثم بعد ذلك قال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} فهذا للإباحة، فلا يجب على الإنسان أن يخرج، خلافاً لمن قال ذلك كبعض الظاهرية، قالوا: لا يبقى في المسجد بعد صلاة الجمعة {فَانتَشِرُوا} الفاء تدل على التعقيب المباشر فيخرج، وهذا القول في غاية البعد، فهذا الأمر للإباحة، والسياق يبيّن ذلك، وهذه القاعدة أيضاً بالاستقراء، وأما قوله: {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} يعني التجارة كما يدل عليه السياق، هذا هو الأقرب -والله أعلم-، ومن أهل العلم من حمل ذلك على أمور يحصل بها التقرب إلى الله -عز وجل-، قال: {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} بعيادة المريض، وصلة الأرحام جاء هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- وغيره، والله -عز وجل- قال: {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}، و {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} [سورة البقرة:١٩٨]، في الحج {أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} يعني بالتجارة في الحج، فهنا نهاهم عن البيع والشراء ثم قال: لا حرج عليكم أن تبتغوا من فضل الله بالاتّجار والتكسب وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي: في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: ((من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة))[18].

وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

لما كان السوق مضنة للغفلة والاشتغال بالبيع والشراء وهو مكان يضع فيه الشيطان رايته، وهو أبغض الأماكن إلى الله كما في الحديث: ((أبغض البقاع إلى الله أسواقها، وأحب البقاع إلى الله مساجدها))[19]، فهو ينتقل من أحب البقاع إلى شر البقاع، وذلك مظنة لغفلته، فالله -عز وجل- أمر بذكره كثيراً، والذكر إذا أمر الله -عز وجل- به في القرآن فإنه يأتي غالباً مقروناً بالكثرة؛ وذلك لعظم منزلته، وأيضاً لأنه ليس فيه كلفة، لا يشترط فيه الطهارة ولا استقبال القبلة، ولا في هيئة معينة، ولذلك قال الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الأحزاب:٤١-٤٢]، وكذلك قال: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء:١٠٣]، والحديث: ((سبق المفردون))[20]، وفسره بـ: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [سورة الأحزاب:٣٥] إلى غير هذا، فهذا أمر لا يتطلب من الإنسان كلفة وجهداً زائداً، ومشقة، مع عظيم فضله.

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة الجمعة:١١].

---

١٨ - رواه البزار في مسنده برقم (١٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٣٩).

١٩ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، برقم (٦٧١).

٢٠ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٦).

يعاتب -تبارك وتعالى- على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} أي: على المنبر تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائماً على المنبر، إلا القليل منهم، وقد صح في ذلك الخبرُ، فروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي الجعد عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قدمت عير مرة المدينة، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}[21]. أخرجاه في الصحيحين من حديث سالم به.

هذا هو سبب النزول، وكانت هذه التجارة أو العير جاءت في وقت حاجة، فبدأ الناس ينسلون ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب، الواحد بعد الواحد، حتى ما بقي إلا هذا العدد القليل، فعاتبهم الله -عز وجل- هذه المعاتبة: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} التجارة هي هذه العير، واللهو فسره بعضهم بالطبل الذي كان يضرب بين يدي العير إعلاماً بقدومها، وقد يفعل ذلك أهلُه، يعني صاحب العير، فرحاً بقدومه واستبشاراً بذلك، وهذا يمكن أن يكون قبل تحريم المعازف، على هذا التفسير، ويمكن أن يكون فعل ذلك دحية قبل إسلامه كما هو معروف، وفعله له لا يؤخذ منه أن ذلك يجوز، وقد سماه الله -عز وجل- لهواً {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} والأحاديث في تحريم المعازف معروفة، وقول الله -عز وجل-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} [سورة لقمان:٦]، فالمعازف بجميع أنواعها محرمة، سواء كانت بالدف أو بغير الدف، وحتى ما يؤدي مؤداها، مما يعرف بالمؤثرات الصوتية، التي تقوم مقام المعازف بهذا القيد، بحيث تكون مطربة بهذا القيد، وإلا فإن الصدى من المؤثرات الصوتية، ولا يقال: إنه من المعازف، لكن التي تقوم مقامها، أو يكون ذلك بما يفعله الإنسان بفمه أحياناً، أو نحو هذا، فكل هذا حرام، مما يؤدي مؤداها، ولو أن ما يستثنى من ذلك الدف فقط في حالتين اثنتين لا ثالث لهما، وهي في الزواج: ((أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف))[22]، وكذلك في العيد، وإنما يكون ذلك في الحالتين للنساء فقط، وأما الرجال فلا يحل لهم لا في العيد ولا في الزواج، ويسأل كثير من النساء في الأعراس عن وضع شريط أناشيد فيه دف في الزواج، فيقال: ليس هذا من شأن الرجال وإنما هو منكر.

وقوله هنا: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} من السلف من فسر اللهو بمعنى آخر، قالوا: المقصود باللهو هو التشاغل بالدنيا، فذهابهم إلى هذه التجارة هو من جملة اللهو، وما ذكروا الطبل أصلاً، وإذا فسر بالطبل فهنا

---

٢١ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٤٣٥٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ومسلم، كتاب الجمعة، باب في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [سورة الجمعة:١١]، برقم (٨٦٣).

٢٢ - رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، برقم (١٠٨٩)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب حسن في هذا الباب وعيسى بن ميمون الأنصاري يضعف في الحديث وعيسى بن ميمون الذي يروي عن ابن أبي نجيح التفسير هو ثقة، وأحمد بلفظ: ((أعلنوا النكاح)) برقم (١٦١٣)، وقال محققوه: حسن لغيره، والألباني -رحمه الله- صحح لفظة: ((أعلنوا النكاح))، وضعف تمام الحديث كما في ضعيف الجامع برقم (٩٦٧).

يرد سؤال معروف وهو أن الله -عز وجل- قال: {انفَضُّوا إِلَيْهَا}، فأعاد الضمير مفرداً مع أنه ذكر أمرين اثنين، ووُجّه ذلك بأنها هي المقصودة، هم ما ذهبوا للطبل، وإنما ذهبوا للتجارة، يريدون التجارة {انفَضُّوا إِلَيْهَا} وهذا أسلوب معروف، أن يُذكر شيئان فأكثر فيعود الضمير إلى واحد منهما لاعتبارات متعددة، منها: أن يكون هو المقصود، وأحياناً يعود الضمير إلى أحدهما ليدل على الآخر، {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [سورة التوبة:٦٢] أي أن يرضوهما، لا أن يرضوه وحده، {أَن يُرْضُوهُ} فأعاد الضمير مفرداً، فطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضاه داخل وتبع لرضا الله -عز وجل-.

وفي قوله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [سورة الجمعة:١١] **دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً، وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة -رضي الله تعالى عنه- قال: كانت للنبي -صلى الله عليه وسلم- خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكّر الناس**[٢٣]**.**

وقوله تعالى: {قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ} أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة، {خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} أي: لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.

آخر تفسير سورة الجمعة ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

---

٢٣ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة، برقم (٨٦٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المنافقون (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: **تفسير سورة المنافقون وهي مدنية.**

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [سورة المنافقون:١-٤].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} أي: إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مُخبِرة أنه رسول الله فقال: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، ثم قال تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من السور التي تتحدث عن موضوع واحد، وموضوعها الذي تتحدث عنه هو المنافقون، والله -عز وجل- يقول: **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}**، هنا هذه الجملة تدل على التكرار؛ لأن المعلق على شرط يتكرر بتكرره، يعني من حيث الأصل، وكل شيء بحسبه، فهم كلما جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له ذلك، ولم ينقل عن أحد من أهل الإيمان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى رأسهم أمثال العشرة وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان أنهم كانوا إذا جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له ذلك، ولكن هؤلاء لِما في قلوبهم من الريبة، وهم يعلمون أن أصابع الاتهام توجه إليهم، فكلما دخلوا قالوا: **{نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}**، فجاءوا بهذه المؤكدات بلفظ الشهادة، و"إنّ" المؤكدة التي تقوم مقام إعادة الجملة مرة ثانية، واللام الدالة على القسم **{نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}**، ثم قال الله -عز وجل-: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}**، فهذه جملة معترضة احترازاً من فهمٍ قد يطرأ على السامع إذا طرق سمعه ما بعدها، وهو قوله تعالى: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**، والمحترزات في القرآن تقع في كل موضع بحسبه، حسب ما يحتاج إليه، فهنا لدفع فهم فاسد، فلو قال الله -عز وجل-: **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ**

{إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} لو قال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} لربما يفهم السامع أن ما قالوه غير صحيح من حيث هو، ولكن الله -عز وجل- بيّن المراد غاية البيان، فهم كاذبون مع أن ما قالوه مطابق للواقع وصحيح، لكنهم كَذَبة، والرد الذي رد الله به عليهم مطابق أيضاً لما قالوه من جهة المؤكدات {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} فجاء بهذه المؤكدات الثلاثة رداً عليهم، وقوله تعالى هنا: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} -مع أن ما قالوه مطابق للواقع لكنه مخالف لما في قلوبهم- يدل على أن الكذب ليس مرتبطاً بمطابقة الواقع فحسب، بل إذا وجد فيه التخالف بين ما في النفس وبين ما ظهر في الإنسان بلسانه أو بحاله، هذا هو الكذب، ولذلك فإن الإنسان إذا قال بلسانه: زيد مسافر وهو يعتقد أنه موجود، وفي واقع الأمر أن زيداً قد سافر، ولكنه لم يعلم بذلك، فقال: زيد مسافر وفي اعتقاده أنه موجود فهذا يعتبر كذباً، مع أنه مطابق للواقع، وهكذا لو قال: زيد مقيم، ووافق ذلك الواقع ولكنه يعتقد أنه مسافر، فالمقصود: أن هذا يكون من الكذب، الكذب بالمقال، هناك كذب أيضاً في الحال والعمل أيضاً، فالمقصود: أن أهل النفاق هنا صاروا كذبة، وقد يطلق الكذب أيضاً على ما خالف الواقع ولو كان اعتقاد الإنسان يوافق ما قال، وهذا مستعمل في كلام العرب، ولكنه لا يقصد به الكذب المذموم الذي يؤاخذ الإنسان عليه، وهذا تجدونه في كلام بعض الصحابة -رضي الله عنهم- يعبرون عن الخطأ بالكذب، أحياناً يقصدون به مخالفة الواقع، ما خالف الواقع يقولون له: كذب، لكن الكذب الذي فيه الإثم ويلحقه في الذم هو النوع الأول، سواء كان ذلك باللسان ككذب المنافقين هنا، أو كان ذلك بالعمل والحال كحال المنافقين يُظهرون شيئاً ويبطنون شيئاً آخر، يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهم كذبة في عملهم وكذبة في حالهم، يُظهر الصلاح والتقوى وهو فاسد.

وقوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الآثمة ليُصدَّقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

في قوله: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ} الاتخاذ يدل على عناية بهذا المتخذ، فهذا صار ديدناً لهم وعادة وحرفة، والأيمان جمع يمين بمعنى الحلف، وقيل له يمين؛ لأنه في الأصل كان الرجل يأخذ بيمين صاحبه تأكيداً بالفعل كما أكد له بالقول حينما حلف بلسانه، ثم صار ذلك يطلق على الحلف وإن لم يكن فيه أخذ باليمين {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ} أصبح ذلك ديدناً وعادة لهم، {جُنَّةً} والجنة هي الوقاية، وذلك كالترس مثلاً، والمِجَنّ الذي يتقي به الإنسان ضرب السلاح، فهؤلاء اتخذوا هذه الأيمان شيئاً يدفعون به ما يوجه إليهم من التهم، ما يقال عنهم، فيردون ذلك بالحلف {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا} والفاء هنا تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهي تدل على التعليل، فصدوا عن سبيل الله؛ لأنهم اتخذوا أيمانهم جنة، أصبحت القضية عندهم مغرية، يقولون ما شاءوا ويفعلون ما شاءوا، وإذا ووجهوا بذلك أنكروا وحلفوا، {فَصَدُّوا}، وصد تأتي لازمة وتأتي متعدية، فهنا تحتمل أن تكون لازمة، صدوا أي في أنفسهم، أي صاروا في حال من الصدود والإعراض عن الله والدار الآخرة والعلم الصالح بسبب هذه الأيمان، استروحوا لها وصاروا على حال من السوء والنفاق والكفر بهذه الصفة،

أنهم صادون عن سبيل الله -عز وجل- في أنفسهم، أي أنهم مقيمون على الكفر وعلى الضلال {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} وسبيله يمكن أن يفسر بأنه طريقه التي رسمها لعباده من أجل سلوكها، وهي الصراط المستقيم، يعني الإسلام، {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} صدوا في أنفسهم، صاروا على ضلال وإذا ووجهوا حلفوا فبقوا على ضلالهم، قالوا: نبقى على هذه الحال، والقضية سهلة، هذا معنى أنها لازمة، وإذا فسرت بأنها متعدية {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} يعني: صدوا غيرهم، فتحتاج إلى مفعول، صدوا المسلمين عن الإسلام، صدوا المؤمنين عن الجهاد {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [سورة الأحزاب:١٨]، {وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [سورة التوبة:٨١]، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} [سورة الأحزاب:١٣]، و{لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} [سورة آل عمران:١٥٦]، {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [سورة آل عمران:١٦٨] وما أشبه ذلك من التخذيل والتثبيط، صدوا غيرهم عن الإسلام، وعن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعن الجهاد في سبيل الله، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وكل هذه المعاني يمكن أن تجتمع في الآية، والمنافقون بهذه الصفة هم صادون في أنفسهم وهم أيضاً يصدون غيرهم عن الإسلام وعن اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، لا يألون جهداً في الصد، فكل ذلك متحقق فيهم، ولا حاجة إلى الترجيح بين هذه المعاني، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} يحتمل أن الضمير في ذلك يعود إلى الحالة التي كانوا عليها من النفاق، ومن الحلف بالباطل، من الصد عن سبيل الله من وصْفهم بما ذكر {إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، والذنب الذي عملوه وكان سبباً في الذم من الله لهم قوله سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}.

وقوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} أي: كانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخَوَر والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف...

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} الطبع والختم بمعنى متقارب، فيكون القلب في حال لا يدخل إليه موعظة ولا تذكير ولا ينتفع بآيات الله، ولذلك يجلسون في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- وتتنزل الآيات وإذا خرجوا قالوا: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد:١٦]، ويتساءلون فيما بينهم عن تأثير آيات الله -عز وجل- وزيادة الإيمان الحاصل بسماعها، {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [سورة التوبة:١٢٤]، فلا ينتفعون بشيء من ذلك بحال من الأحوال لوجود هذا الطبع على القلوب، ووصفهم هنا أيضاً بعدم الفقه {لَا يَفْقَهُونَ} وهم عند أنفسهم أن المسلمين هم الذين لا يفقهون، وأن العقل المعيشي يقتضي تصليح الأمور على أي وجه كان من أجل أن تبقى للإنسان مصالحه الدنيوية العاجلة، هذا إذا كان الإنسان لا يجاوز نظرُه أنفَه، فالمهم عنده أن يبقى حيًّا على أي وجه من الذل كان، وعلى أي ملة، يتلون مع من غلب، ويسلك حاله مع

الناس من أجل أن يحفظ ماله وأن يحفظ دمه، فهذا مقتضى العقل عندهم، وأن المسلمين يتهورون ولا يفقهون ولا يحسنون التعامل مع الناس، وإنما في نظرهم أنهم غير ناضجين، وأنهم في حال من ضعف العقل والتفكير في الأمور، فلا يزنون الأمر بطريقة صحيحة، ما يفهمون، هو الذي يفهم، والله -عز وجل- يقول: {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} والفقه هو الفهم، وإنما يقال ذلك لما يحتاج إلى استنباط ودقة نظر بخلاف نفي العلم، قال: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} وهذا أمر لا يستغرب؛ لأنهم إنما ارتكبوا هذه الشنائع من النفاق والتلون وبذل الدين مع من غلب، كل ذلك إحرازاً لدنياهم، فهذه الأجسام هي غاية مطلوبهم، فصارت هذه الأجسام بهذه الصفة منعمة مترفة، فإذا رأيت الواحد منهم طولاً وعافية أعجبك بهيئته وقامته، وهو ممتلئ نفاقاً من أخمص قدمه إلى مفرق رأسه، {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} تسمع كلاماً جميلاً يدل على الإيمان ونصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما أشبه ذلك، وهم بمنأى عن ذلك كله، كلام يستهوي السامعين، تقول: ما شاء الله، ماذا بقي لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهم-، {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ}، {وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} هذا التشبيه حاول جماعة من أهل العلم أن يبيّنوا وجهه، فمن قائل: هؤلاء {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} الخُشب إنما ينتفع بها كعمود أو سقف أو نحو ذلك في شيء، أما إذا كانت مسنّدة فهي تحجز مكاناً من غير فائدة، أعداد وأرقام وتضيق المجلس، ولكنه لا يَنتفع إطلاقاً لأنه لم يكن مقصوده الانتفاع، {خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} وأيضاً مما يمكن أن يوجه إليه هذا التشبيه {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} أنها تعتمد في قيامها على غيرها، لا تقوم بنفسها، وهكذا أهل النفاق هم متكئون مستندون إلى غيرهم من أهل الإيمان الذين يذبون عن حياض الدين وعن أعراض المسلمين وعن بلادهم، وهؤلاء عالة عليهم مثل الطفيليات، ويمكن أن يقال: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} -وهذا من أحسن ما يقال فيه-: أنهم صور وهيئات أشباح بلا أرواح، وجسوم بلا فهوم، ولا زالت العرب تعبر بذلك عن البليد الذي لا ينتفع، فهؤلاء في الصورة إذا رأيتهم تغتر، ما شاء الله على هذه المخرجات التي تستهوي الناظرين! وفي الواقع أنه لوح، فهو من الداخل منخور لا ينتفع ولا يفقه، نسأل الله العافية، هذا التشبيه في غاية الدقة {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} ثم ذكر صفتهم الباطنة، المشاعر التي تعتلج في نفوسهم، {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} كلما نزلت آيات خافوا أن تكون فيهم، وإذا سمعوا صائحاً يصيح للجهاد أو نحو ذلك ظنوا أنهم المقصودون بذلك، وهذا يدل على كثرة التوجس والترقب في داخلهم، وهذا شأن من لا يكون على حالة مستقرة، فهو خائف يترقب دائماً، وكلما رأى شبح إنسان من بعيد ظن أنه أحد يطارده، كما قال جرير يهجو الأخطل النصراني يقول:

ما زلتَ تحسبُ كلَّ شيء بعدهم *** خيلاً تكر عليهمُ ورجالا

لما انهزموا هزيمة منكرة صاروا يظنون كل شجرة وكل شيء من بعيد يظنون أنها خيل تكر عليهم، وكما قال المتنبي أيضاً:

وضاقت الأرضُ حتى ظن هاربُهم *** إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنه رجلاً

هذا حال الإنسان الذي دائماً يتوجس، يخاف من كل شيء.

ولهذا قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى

عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [سورة الأحزاب: ١٩]، **فهم جهامات وصور بلا معانٍ، ولهذا قال تعالى:** {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} أي: **كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، لا يقربون المساجد إلا هجراً[١]، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً[٢]، مستكبرين لا يَألفون ولا يُؤلفون، خشب بالليل صُخُب بالنهار))، وقال زيد بن مرة: ((سُخُب بالنهار))[٣].**

هذه يحصل بينها التناوب، على كل حال هذا الحديث فيه ضعف لجهالة بعض رواة الإسناد، وضعف آخر، والله -عز وجل- يقول: {هم العدو فاحذرهم} هم العدو هذا يشبه الحصر، كأنه يقول: لا عدو إلا هم، والمراد هنا التنبيه على شدة عداوتهم وشدة خطرهم لأنهم عدو يتحرك في الداخل ويعرف عورات المسلمين، وما يدور في داخل المجتمع الإسلامي، فيستطيع أن يفتك، بخلاف العدو الخارجي، ولذلك تجدون العدو الخارجي لا يكاد يتغلب على المسلمين إلا على هذه الجسور، يبدأ تحرك أهل النفاق، فيعطونه ما يحتاج إليه من معلومات عن المسلمين وكل ما يتطلبه انتصاره عليهم، وظفره بهم، نسأل الله العافية.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة المنافقون:٥-٨].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين -عليهم لعائن الله- أنهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ} **أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال تعالى:** {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}، **ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى:** {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} **كما قال في سورة براءة وقد تقدم الكلام على ذلك وإيراد الأحاديث المروية هنالك، وقد ذكر غير واحد من السلف: أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبيّ بن سلول كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان، وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة يعني مرجعه من أُحد وكان عبد الله بن أبي بن سلول -كما حدثنا ابن شهاب الزهري- له مقام يقومه كل جمعة لا يُنكَر شرفاً له من**

---

١ - يعني إلا تركاً وإعراضا، ليسوا من عمار المساجد.

٢ - أي هذا إذا صلوا، ففي آخر الوقت صلاة المنافق، يرقب الشمس كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم.

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٧٩٢٦)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف عبد الملك بن قدامة، وجهالة إسحاق بن بكر بن أبي الفرات، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٩٦٣)، والبزار في مسنده برقم (٨٤٤٤)، وقال الألباني: "ضعيف الإسناد" في السلسلة الضعيفة برقم (٥٨٧٢).

نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع -يعني مرجعه بثلث الجيش- ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعتَ ما صنعتَ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجراً، أن قمت أشدد أمره!، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره!، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

فبعض هذه الروايات هي مراسيل، لكن صح أنها نزلت من غير هذه الروايات في عبد الله بن أبي، ولعل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يورد بعضها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

نهاية سورة المنافقون

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقال قتادة والسدي: أُنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذلوه، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجعل يلوي برأسه أي لست فاعلاً.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة في قصة بني المصطلق: فبينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقيم هناك اقتتل على الماء جَهْجاه بن سعيد الغفاري -وكان أجيراً لعمر بن الخطاب- وسنان بن وبر -رضي الله تعالى عن الجميع.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي، فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبَك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها زيد بن أرقم -رضي الله تعالى عنه- فذهب بها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو غليم عنده عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-، فأخبره الخبر فقال عمر -رضي الله تعالى عنه-: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن نادِ يا عمر الرحيل))، فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم، وكان عند قومه بمكان فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يَثبت ما قال الرجل، وراح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مُهجراً في ساعة لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير -رضي الله تعالى عنه- فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل)) قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال: ارفق به يا رسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً، فسار رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بال دعوى الجاهلية؟!، دعوها فإنها منتنة))، وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال جابر -رضي الله تعالى عنه-: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر -رضي الله تعالى عنه-: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه))[1] ورواه الإمام أحمد، ورواه البخاري ومسلم.

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول هذا على المدينة، واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجُزْ الآن.

وروى أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده عن أبي هارون المدني، قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الأعز وأنا الأذل، قال: وجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الروايات التي ذكرها في سبب النزول أراد أن يقول: إن مجموع هذه الروايات وعامة ما ذكر من المراسيل يقوي بعضها بعضاً، والمراسيل كما يقول بعض أهل العلم: إذا تعددت وجاءت من أكثر من وجه فإنها تقوى بذلك، وما جاء من أن ابنه منعه من دخول المدينة لا يصح من جهة الرواية، وأيضاً الرواية الطويلة التي ساقها من طريق ابن إسحاق هي من المراسيل عن قتادة، ويُكتفى بالروايات الصحيحة المسندة في هذا، وأما قوله: عذلوه -أو عزلوه- فمعناه كما في القاموس العذل الملامة، وإذا فسرت بهذا عذلوه بالذال

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة المنافقون:٦]، برقم (٤٦٢٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤)، وأحمد في المسند برقم (١٥٢٢٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فيكون بمعنى اللوم، وبالزاي عزلوه يمكن أن يأتي بمعنى ضعّفوه مثلاً، يعني ضعفوا قوله ورأيه، وردوا تصرفه، أنكروا عليه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة المنافقون:٩-١١].

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وجه الارتباط بين هذه الآية وموضوع السورة الذي يتحدث عن المنافقين: أن المنافين إنما أوقعهم في هذا النفاق إنما هو الحرص على إحراز أموالهم وحقن دمائهم، والاشتغال بمتاع الحياة الدنيا، وهم من أجلها ركبوا هذه الشنائع، وصار النفاق مطية يتوصلون بها إلى تحقيق هذه المطالب، فالله -عز وجل- نهى أهل الإيمان {لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}، ولا غير الأموال ولا الأولاد كالزوجات، لكنه ذكر الأموال والأولاد؛ لأن غالب الاشتغال يكون بهما، {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة التغابن:١٥] فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، وإلا فهناك أشياء غير الأموال والأولاد أيضاً مما يشتغل به الناس، والناس في هذا على صنوف شتى، منهم من يكون شغله حب الرئاسة والشرف والوجاهة، ويبذل من أجلها الأموال ويبذل من أجلها كل شيء، ويقاتل عليها، ومن الناس من يجد لذته في الشهوات الأخرى من الزوجات وغير ذلك، فهذا كله مما يشغله عن طاعة الله -عز وجل- إذا كان اشتغاله به ونظره إليه واقعاً على وجه يصرفه عن طاعة ربه، والله أعلم.

ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ}، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال تعالى: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} [سورة إبراهيم:٤٤]، وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [سورة المؤمنون:٩٩-١٠٠]، ثم قال تعالى: {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي: لا يُنظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رُد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه ما من أحد يموت وعليه حق في مال من زكاة ما أخرجه، أو كان على الحج ولم يحج إلا تمنى الرجعة وهو الإمهال، وقالوا لابن عباس -رضي الله عنه-: اتق الله فإنه لا يتمنى الرجعة أحد له عند الله نصيب، فقرأ عليهم هذه الآية، وكان يقول: هذه الآية هي الأشد على أهل التوحيد؛ لأنهم فهموا منها أن ذلك في الكفار، لما دلت عليه الآيات الأخرى من تمنيهم الرجعة والإمهال، فبيّن

لهم أن ذلك يكون لغيرهم من المفرطين، ولا يختص بالكفار، ولذلك الفقهاء -رحمهم الله- ذكروا بل ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن أفضل الصدقة: ((أن تتصدق وأنت صحيح شحيح))[٢]، وأما الصدقة في حال النزع أو عند الموت أو في مرض الموت حينما تكون الدنيا قد أقفلت وراء ظهره فلا تكون بمنزلة من الأجر والثواب، كما لو كانت هذه الصدقة في حال القوة والصحة والعافية، ولذلك فإن الكثيرين يتصدقون أو يوفون في مرض موتهم ولو أنهم أخرجوا ذلك في حياتهم وقوتهم لكان أعظم أجراً.

آخر تفسير سورة المنافقين، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح، برقم (١٣٥٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، برقم (١٠٣٢)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التغابن ١ من الآية ١ إلى الآية ١٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

تفسير سورة التغابن، وهي مدنية وقيل: مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة التغابن: ١-٤].

هذه السورة هي آخر المسبحات[١]، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ} أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره.

سورة التغابن يمكن أن يقال بأنها تدور على موضوع واحد، وهو المبادرة إلى طاعة الله -عز وجل- من أجل أن يغنم الإنسان ويفلح، ولا يفرط في ذلك، فيكون من المغبونين الخاسرين، والغبن في التجارة: أصله الخسارة، كأن يبيع الإنسان السلعة بأقل مما تستحق بأن يكون الفرق بين ما تستحقه وبين ما باعها به فرقاً معتبراً يصل إلى الربع عند بعضهم أو الثلث، فيندم الإنسان، أو أنه يشتري السلعة بأكثر مما تستحق، ويكون فرقاً بيّناً مؤثراً فهذا هو الغبن، لكن أصله في التجارة، والغبن الحقيقي هو ما يذكره الله -عز وجل- في هذه السورة.

وقوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك فلابد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا مشى على أحد القولين مما تحتمله الآية، المعنى الأول: {خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} الفاء تدل على التعقيب المباشر، بمعنى أنه خلق قوماً للجنة وقوماً للنار، وهذا دلت عليه أدلة في الكتاب والسنة، خلق قوماً أشقياء، وقوماً سعداء، وذلك راجع إلى قدرته الأزلية التي مبناها على العلم التام المحيط، {خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} أي: منذ خلقكم قوم للجنة وقوم للنار، وهذا معنى صحيح، فالله -تبارك وتعالى- حينما خلق الخلق كما هو معلوم قبض قبضة، وقال: هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا

---

١ - أي المبتدئة بالتسبيح.

أبالي[٢]، ويبعث إليه الملك وهو في بطن أمة فيؤمر بأربع كلمات ومنها عمله، شقي أو سعيد[٣]، فهذا معنىً دلت عليه النصوص، وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والمعنى الثاني أنه خلقكم وبيّن طريق الهدى والضلال، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، فمنكم من سلك طريق الهداية ومنكم من سلك طريق الضلال، والتعقيب المباشر بالفاء لا يعارضه؛ لأن التعقيب بها في كل شيء بحسبه مثل قوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [سورة الحج:٦٣] {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}، مع أنها لا تصبح مخضرة مباشرة بنزول الماء، فتعقيب كل شيء بحسبه، وكذلك في أطوار خلق الجنين، قال الله -عز وجل-: {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤]، ثم قال: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا} [سورة المؤمنون:١٤]، وهذا يحصل بعد مدة، يكون أربعين يوماً نطفة ثم أربعين علقة، كما في حديث الصادق المصدوق، وهذا لا يعارض القول الأول، فإن هذا القول يقوله اثنان، يقوله رجل من القدرية الذين لا يثبتون القدر، فيحمل الآية على هذا المعنى، ويريد بها معنىً باطلاً أنه لم يقدّر في الأزل على الإنسان العمل، فيقولون: هو الذي يختار الهدى والضلال، وبناء عليه يقع الحساب، والله لم يقدر عليه شيء، ويقولون: إن الإنسان يخلق فعله، وهذا في غاية الضلال، كما أن القول الأول يقول به الطائفة المقابلة وهي الجبرية، الذين يقولون: كتب عليه عمله ولابد أن يفعله، فهؤلاء خُلقوا على الكفر والظلم والمعاصي، وهؤلاء خلقوا على الإيمان، وأهل السنة يقولون: إن الله -عز وجل- قدر مقادير الخلق، وعلمه نافذ وبصره نافذ لا يخفى عليه خافية، فمن هداه الله -عز وجل- فهذا فضل منه، ومن أضله فهو عدل، وأرسل الرسل وبيّن الكتب، وأعطى الإنسان إرادة وقدرة لا تخرج عن إرادته وقدرته -سبحانه وتعالى- {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الإنسان:٣٠]، وليس للإنسان أن ينقّر وراء ذلك ولا أن يبحث في سر الله -عز وجل- الذي حجبه عن عباده وهو القدر، فهذا مقام تزل به الأقدام وهو متاهة للأفهام؛ لأن العقول لها حد محدود لا تتجاوزه، ولكن يكفي أن يعتبر العاقل بحاله فيما يتعاطاه ويعافسه من الدنيا، فالناس لا يتركون الطعام والشراب بحجة أن الله قدر لهم الآجال، وما يأتيهم من الأرزاق، فلو أن أحداً ترك الأكل أو الشرب ولم يرفع اللقمة إلى فمه اتكالاً على القدر فإن هذا أليق أن يلحق بالمجانين، فهو مطالب بالتسبب، فكذلك في الأعمال الصالحة والتوبة والمبادرة إلى طاعة الله -عز وجل-، الإنسان لم يطلع على الكتاب الأول، وما قدر له فيه، وهو مأمور ومتعبد بتعاطي الأسباب، هذا القدْر إذا لزمه العبد ومشى عليه فهو طريق الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وطريق أهل الهدى، ومن ثقل عليه العلم وأراد أن يبحث عن أمور يبرر فيها قعوده وكسله عن طاعة الله -تبارك وتعالى- فلن يعجز عن هذا، لكنه لا يضر إلا نفسه، فالحاصل أن الآية تحتمل المعنيين، الله -عز وجل- يقول: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ

---

٢ - إشارة إلى حديث رواه الإمام أحمد من حديث أبي نضرة -رضي الله عنه-، برقم (١٧٥٩٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح قد اتفقا على الاحتجاج برواته عن آخرهم إلى الصحابة، وأبو يعلى في مسنده بإسناد ضعيف، والبزار في مسنده برقم (٣٠٣٢)، وقال الألباني: صحيح لغيره، في تحقيق ظلال الجنة برقم (٣٤٧).

٣ - إشارة إلى حديث رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه.

بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل:٥-١٠] فالعبد عليه أن يجتهد في طاعة ربه ويجدّ في هذا، ولا يقول: قد قدر علي العمل، وحديث سراقة بن مالك لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن العمل، هل هو في أمر قد فرغ منه؟ فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كذلك، ولكن بيّن له أمراً آخر وهو أنه عليه أن يعمل: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))[٤].

ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، **ثم قال تعالى:** {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} أي: **بالعدل والحكمة،** {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}.

قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} يعني: خلقاً متلبساً بالحق يفسره قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [سورة الأنبياء:١٦]، وكذلك في الآية الأخرى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة ص:٢٧]، فهذا معنى خلقهما بالحق، أي خلقاً متلبساً بالحق ليس عبثاً ولا لعباً {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [سورة المؤمنون:١٤].

{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} أي: **أحسن أشكالكم، كقوله تعالى:** {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} **[سورة الانفطار:٦-٨]، وقوله تعالى:** {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} **[سورة غافر:٦٤] الآية.**

{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} يعني: أنه أعطاكم الصور اللائقة الحسنة التي تصلح لأمثالكم كما قال الله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، فيدخل فيه الصورة الظاهرة، في الآية هذه {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} جعل رأسه إلى أعلى، وكذلك أيضاً في الصورة الباطنة أعطاه عقلاً يميز ويفكر، ميزه به عن البهائم، فهنا في قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} لا يرد على هذا أن من الناس من لا تكون صورته حسنة، وإنما المراد أن هذه الصورة في أحسن تقويم، بمعنى أنها لائقة به كإنسان بغض النظر عن التفاوت بين زيد وعمرو، يبقى أن الإنسان له هيئته وصورته المكرمة التي تميزه عن غيره من الحيوانات، يعني هذا الإنسان الذي قد لا يكون جميلاً لو قارنته بالبعير أو بالشاة أو نحو ذلك فلا وجه للمقارنة، قال الله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} وهذا المراد، والله تعالى أعلم.

وحينما يقال: إن الله -تبارك وتعالى- أعطى كل شيء خلقه، وصوره بأحسن صورة فيكون ذلك بحسب ما يليق به بمثله، فالقرد شكله غير جميل لو قارنته بالإنسان، لكن حينما تنظر إليه على أنه قرد بهذا الاعتبار، فإنه يستلطف ويستملح، فالنظر إليه بهذا الاعتبار، والطائر شكله في غاية الجمال، لكن لو تُخيل أنه إنسان، أو وجه إنسان لا يكون جميلاً، لكن بالنظر إلى ما يصلح لمثله هو في غاية الجمال، وهكذا لو نظرت إلى وجه الفرس مثلاً فهو من المخلوقات الجميلة، ولو جئت بأجمل فرس في الدنيا يعجب الناس بالنظر إليه ومرآه لكن

---

٤ - رواه البخاري، عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كتاب التفسير، باب {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل:١٠]، برقم (٤٦٦٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٧).

تصورت بعد ذلك أنه إنسان، أن وجه الفرس هذا أعطي لإنسان فإنه لا يكون جميلاً، فالله -تبارك وتعالى- أحسن خلق الأشياء وصورها بأبدع صورة، ولا يرد على هذا أن بعضها غير جميل بالمقارنة بغيره، لكن إذا نظرت إليه باعتبار جنسه وما يصلح له فهو جميل، وهكذا يقال في التفاوت الواقع بين الناس، فيبقى جنس الآدمي في أحسن صورة، مقارنة بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالى: {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة التغابن:٥-٦].

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق فقال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ} أي: خبرهم وما كان من أمرهم {فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي.

الوبال: مصدر {فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} وهو عاقبة فعلهم، يقال: مرعى وبيل، أو كلأ وبيل وهو الذي يستهوي الماشية فترتع فيه، وتأكل منه فيهلكها، كالذي يكون فيه نباتات سامة، لكنه في غاية النضارة والخضرة فإذا رأته الدواب والبهائم هشت له، وأقبلت عليه، فأكلت منه فصرعها، كلأ وبيل، وهنا {فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} يعني: ذاقوا عاقبة فعلهم القبيح وهو ما وقع لهم في الدنيا من العقوبات المعجلة من القتل والأسر، وما سيقع لهم في الآخرة، لكن الكلام الآن في هذه الآية عما وقع لهم في الدنيا، {فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} ذاقوا عاقبة فعلهم مما أنزله الله -عز وجل- بهم من العقوبات العامة والخاصة، الإهلاك بالغرق وبالريح، وما أشبه ذلك.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي، ثم علل ذلك فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} [سورة التغابن:٦] **أي: بالحجج والدلائل والبراهين فقالوا: {أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يد بشر مثلهم، {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا} أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، {وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ} أي: عنهم، {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}.**

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة التغابن:٧-١٠].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ} أي: لتخبرنّ بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها، {وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقسم بربه -عز وجل- على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى: في سورة يونس {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ

لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [سورة يونس:٥٣] والثانية: في سورة سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سورة سبأ:٣] الآية، والثالثة: هي هذه {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، ثم قال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا} يعني القرآن، {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

وقوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود:١٠٣]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة:٤٩-٥٠].

هذا من أوضح التفسيرات لوجه تسميته بيوم الجمع، يجمع الله -عز وجل- فيه الأولين والآخرين كما دلت عليه الآية {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ} [سورة هود:١٠٣]، والأقوال الأخرى أيضاً لا منافاة بينها وبين هذا القول، كقول من قال: يجمع الله فيه بين أهل السماوات والأرض، فالله -عز وجل- يقول: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [سورة الفرقان:٢٥]، ويجمع فيه بين العامل وعمله {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} [سورة الكهف:٤٩]، {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [سورة الانشقاق:٧] وغير ذلك من الآيات، وكذلك قول من قال: إنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم، فهذا كله مما يدخل تحت هذا الاسم العام، يوم الجمع، يجمع الله -عز وجل- فيه الخلائق، حتى البهائم والوحوش تجمع في ذلك اليوم، والله أعلم.

كما قال تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود:١٠٣]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة:٤٩-٥٠]، وقوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وكذا قال قتادة ومجاهد.

وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يُدخل هؤلاء إلى الجنة، ويُذهب بأولائك إلى النار.

الغبن الواقع في الآخرة هذه صورة من صوره، ومما يدخل تحت تفصيل هذا ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة من أن لكل إنسان مقعدين، مقعد في الجنة، ومقعد في النار، فإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ودخل أهل النارِ النارَ قيل لمن في الجنة: هذا مقعدك من النار لو أنك عملت بغير طاعة الله -عز وجل-، ويقال للآخر: هذا مقعدك من الجنة لو أنك عملت بطاعة الله -عز وجل-[٥]، فأهل الجنة يتوارثون مقاعد أهل النار من الجنة، وأهل النار زيادة على مقاعدهم يتوارثون مقاعد أهل الجنة في النار، فكون هذا الإنسان يفقد منزله في الجنة، ويرث منزل غيره من النار فلا شك أن هذا من أعظم الغبن، لو أن أحداً من الناس أُخذ منه العسل وأُعطي العلقم فهذا من الغبن، وقل مثل ذلك لو أنه استبدل من المحل الذي يجد فيه السعة والبرودة -وهذا من أخص صفات الجنة- بمكان يجد فيه الضيق والحر، وأُعطي مكانه الأول لإنسان آخر وقيل له: امكث في هذا

---

٥ - إشارة إلى حديث رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، برقم (١٣١٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٦٦)، عن ابن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما.

المكان، ضيّق وحار فهذا من الغبن بلا شك، وكذلك ما ذكره الحسن البصري -رحمه الله- قال: "الغبن في ثلاث: رجل علَّم علماً، علم غيره فانتفع من تعلم منه وعمل بهذا العلم فنجا ودخل الجنة، ولم يعمل هو بعلمه فدخل النار، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها ثم تركه لوارث فأنفقه وارثه في طاعة الله -عز وجل- فدخل الجنة، وأما هو فحوسب على عمله وعذب على ماله؛ لأنه اكتسبه من غير وجه يحل، ورجل مملوك عمل بطاعة الله -عز وجل- وقام بحق سيده فدخل الجنة، وأما سيده فضيع حق الله فدخل النار". هذه من الأمثلة، ويمكن أن يزاد على هذا كثير، فالمقصود أن هذا جميعاً من التغابن الذي يحصل بين الناس في ذلك اليوم، وهكذا ما يمكن أن يقال بأن الله -عز وجل- أعطى كل إنسان رأس مال، وهو هذه الأنفاس والدقائق واللحظات التي تذهب ولا تعود، كل إنسان أعطاه الله رأس مال، أعطى ستين سنة وهذا سبعين سنة وهذا خمساً وعشرين سنة، فيأتون يوم القيامة، هذا كد وعمل وجد واجتهد في تحصيل منزل في النار، وذلك عمل وجد واجتهد في تحصيل منزل في الجنة، وهكذا أهل الجنة يتفاوتون غاية التفاوت، ولما ينظر الناس في صحائف الأعمال، ينظرون في صحائف الأعمال حتى في الأمور المباحة غير المحرمة، فمنهم من لا يجد خلاصة العمر من ستين سنة إلا ما يعادل خمس سنوات أو نحو ذلك من العمل الذي ينفعه، أو أقل من هذا، وباقي العمر خمسة وخمسون سنة ضائعة، صحف يمر على أوراق كثيرة منها لا يرى فيها شيئاً، يمر عليه اليوم والأسبوع والشهر وهو مضيع مفرط بين نوم ولهو وعبث لا يجدي له نفعاً، وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذا فانظر في يومك، وفي أمسك القريب الذي مضى بماذا قضيته وما انتفعت؟، الوقت الذي انتفعت به فعلاً بما يقربك إلى الله -عز وجل- كم يعادل إلى بقية اليوم، إلى الأربع والعشرين ساعة؟، قد لا تجد إلا ساعتين أو ثلاث ساعات، والباقي اثنتان وعشرون ساعة ضائعة، وبهذا تستطيع أن تعرف أن نسبة الاستفادة من العمر أنها تصل إلى خمسة بالمائة أو اثنين بالمائة أو عشرة بالمائة بهذا الاعتبار، يعرف من الآن الإنسان هل هو مغبون أو غير مغبون، المال في ماذا ينفقه يسلطه في ماذا؟ يسلطه في لهو، يسلطه في محرمات فيشتري مقعداً في النار، أو تكون منزلته في أدنى المنازل في الجنة، وآخرون في أعلى المنازل بهذا العمل، فينظر الإنسان حتى في نيته، قد يكون في طاعة وفي عمل صالح في علم أو صلاة أو نحو هذا، ولكن نيته مدخولة، فيكون هذا مما يبعده عن الله -عز وجل-، فيجلس اثنان في مجلس واحد مجلس العلم مثلاً، أو يقوم اثنان للصلاة فهذا يتعب وهذا يتعب وهذا يترك شهوات وهذا يترك شهوات، لكن هذا أول من تسعر به النار وهذا في أعلى المنازل في الجنة، والمجلس واحد والعمل واحد في صورته الظاهرة، فهذا من أعظم التغابن، هذا أنفق مليوناً وهذا أنفق مليوناً ولكن هذا اشترى به مقعداً في النار وهذا مقعداً في الجنة، إما أنه أنفقه في معصية ظاهرة أو أنه أنفقه على وجه الرياء والسمعة، فيحاسب على هذا، ويعذب عليه، فنفس العمل الواحد يتغابن الناس فيه غاية التغابن، وهكذا، والله أعلم.

قلت: وقد فُسر ذلك بقوله تعالى: { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}. وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

{مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التغابن:١١-١٣].

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحديد:٢٢]، وهكذا قال هاهنا: {مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: بأمر الله، يعني عن قدره ومشيئته.

{وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هُدىً في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يُخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} يعني يهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

هذه المعاني لا منافاة بينها {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ} قال: {مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} هو شيء قدره الله -عز وجل- وقضاه، {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}، {يُؤْمِن بِاللَّهِ}: أي يعلم أنها –أي المصيبة- من عند الله، {يَهْدِ قَلْبَهُ} للرضا، والتسليم، والإذعان، فلا تذهب نفسه حسرات كحال أولائك الذين يتحسرون على ما فاتهم، ويتسخطون على القدر، كقول من أخبر الله -عز وجل- عنهم حينما قالوا في حق إخوانهم: {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [سورة آل عمران:١٦٨]، {لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [سورة آل عمران:١٥٦] فهذه أمور قدرها الله -عز وجل-، {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [سورة آل عمران:١٥٤] فما قدره لابد أن يقع، وهذا أصل كبير في القدر، وهو من أعظم أسباب الصبر والرضا عن الله -جل جلاله.

وفي الحديث المتفق عليه: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن))[٦].

وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترْك ما عنه نهى وزجر، ثم قال تعالى: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمل من البلاغ وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة.

قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، فقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [سورة المزمل:٩].

---

٦ - رواه مسلم عن صهيب بن سنان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩).

الله أخبرنا أنه واحد، وهذا الإخبار من أجل أن نوحده، وهذا معناه الطلب، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

نهاية سورة التغابن

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة التغابن:١٤-١٨].

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو، الزوج والوالد[١] بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة المنافقون:٩]، ولهذا قال تعالى هاهنا: {فَاحْذَرُوهُمْ} قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ} قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسأله رجل عن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} وكذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة تدور حول موضوع واحد في الجملة، وهو المبادرة إلى طاعة الله -عز وجل- والتقرب إليه، ولما كان الأزواج والأولاد كثيراً ما يقعدونه عن هذا ويصرفونه عنه حذر من فتنتهم، وبيّن أن هؤلاء الذين يقعدونه أنهم عدو له، وهذه العداوة كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: عداوةٌ الجالب لها المحبة، ليست عدواة بسبب البغض، وإنما عداوة جلبتها المحبة، ذلك أن الإنسان حينما تسمو نفسه إلى معالي الأمور من طاعة الله -عز وجل- أو العلم النافع، أو نحو ذلك من المطالب العالية فإن عدوه يقعده ويثبطه، ويتمنى أن لا يحصل له مطلوب، ويفرح إذا سمع بعائق قد عاقه، هذا عدوه المبغض له، وكما قال الحكماء: إنك ما أغظت

---

١ - الولد وليس الوالد.

عدوك بشيء كما تغيظه بالعلم؛ لأنه من أعظم ما يرتفع به الإنسان وتكمل فيه نفسه وتسمو، ويرتفع مراتب عالية في الدار الآخرة، فالمقصود: أن عدوه المبغض يقعده ويثبطه ولا يألو جهداً في صرفه عن ذلك، ويفرح غاية الفرح إذا علم بانصرافه عنه، وهذا المحب يعني الآخر الذي عداوته من جهة المحبة كذلك يصل معه إلى هذه النهاية، لكن بسبب المحبة، فإذا أراد أن يتعلم قال له: اقعد عندنا لا تخرج من عندنا، اجلس بيننا، وإذا أراد أن يجاهد تعلقوا بثوبه، وإذا أراد أن يذهب إلى حج قالوا: شاركنا في العيد لا تذهب وتتركنا، لا يصلح العيد من غير مشاركتك، فيجلس لا يحج ولا يعتمر ولا يجاهد ولا يطلب العلم، ولا يفعل شيئاً من معالي الأمور، يريد أن يذهب إلى بلد يجد فيها علماء يتعلم العلم منهم، أو يدرس في جامعة يتعلم منها علماً صحيحاً جيداً متيناً، فيقولون: كن بجوارنا ادرس هاهنا قريباً من أجل أن نراك وتجلس بيننا وما أشبه ذلك، فتكون -في النهاية والنظر البعيد- عاقبة هذا الإنسان أنه يكون صغيراً لم يخرج بكبير طائل لا من علم ولا من عمل، عدوه المبغض ماذا يفعل به أكثر من هذا؟، فهذه العداوة أيضاً التي جلبتها المحبة تفعل به نفس فعل العدو المبغض، وإن كانت المنطلقات شتى، هؤلاء أقعدوه عن معالي الأمور، وعدوه المبغض أيضاً أقعده عن معالي الأمور، فهذا هو المعنى، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} وأدخل "مِن" هنا؛ لأنه ليس كل الأزواج والأولاد بهذه المثابة، بالعكس أحياناً تكون الزوجة هي التي تدعوه إلى طاعة الله وتحمله على ذلك، تحثه عليه دائماً تذكره إذا غفل، وكذلك الولد لا يألو جهداً في نصحه وتذكيره ودعوته إلى الله والدار الآخرة، لكن الغالب أنهم يُقعدون الوالد عن المطالب العالية، فهؤلاء قوم أقعدهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذا أراد الرجل أن يهاجر أخذوا بثوبه وذرفوا الدموع وقالوا: إلى من تتركنا؟ فيرق ويقعد، ثم هاجروا بعد حين فوجدوا أن الذين سبقوهم بالهجرة قد حصلوا علماً كثيراً، فهموا بمعاقبتهم، كما جاء في أسباب النزول أن ذلك وقع لعوف بن مالك الأشجعي -رضي الله تعالى عنه-، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآيات: {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا} نهي عن معاقبتهم، وأمر بالعفو والصفح عنهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: **{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}**.

قوله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ} فجاء بأقوى صيغة للحصر، {إِنَّمَا} أو من أقوى الصيغ، المرتبة الثانية في القوة، {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، جعلهم جميعاً فتنة، الأموال والأولاد، والفرق بين هذه الآية وقوله: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا} أنه في هذه الآية ذكر أن هؤلاء ليسوا كلهم أعداء، أما الفتنة في الآية الأخرى فلا تخلو منهم بحال من الأحوال، مهما كان صلاحهم، بل لو كان الطفل رضيعاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يتكلم لكن يبقى القلب مشغوفاً به، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الولد مجبنة مبخلة محزنة))[٢]، مجبنة يجبنه، ومبخلة إذا أراد أن يُنفق، ولذلك يقولون: إن الرجل إذا تزوج بدأ يفكر في النفقات وما يصرف من المال، حتى في الأمور الطيبة، مثل النفقة في سبيل الله شراء الكتب، وقبل الزواج قد لا يبالي كثيراً؛ لأنه بعد ذلك يبدأ يحسب حساب هؤلاء، والمسئوليات التي عليه، فيبقى القلب مشغوفاً، فهؤلاء الأولاد، فلا يخلو القلب من تعلق بهم،

---

٢ - رواه أبو يعلى في مسنده برقم (١٠٣٢)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠١٤٣)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٦٤).

وهذه هي الفتنة، والفتنة أنواع، ولهذا كان ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يستعيذ بالله من مضلات الفتن، لا يستعيذ من الفتن بإطلاق، باعتبار أن الأموال والأولاد فتنة، لا تخلو من فتنة، ولكن من مضلات الفتن، أعوذ بالله من مضلات الفتن، والاستعاذة من الفتن مطلقاً أمر معلوم، وجاء في كثير من النقول، وهو أمر لا ينكر.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ عِندَهُ} أي: يوم القيامة، {أَجْرٌ عَظِيمٌ} كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [سورة آل عمران:١٤] **والتي بعدها.**

وروى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله تعالى عنه- يقول: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب فجاء الحسن والحسين -رضي الله تعالى عنهما-، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: ((صدق الله ورسوله {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما))[٣] ورواه أهل السنن و قال الترمذي: حسن غريب.

وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} أي: جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه))[٤].

هذه الآية كثير من أهل العلم يقولون: إنها ناسخة للآية الأخرى وهي قوله تعالى: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران:١٠٢] والأقرب -والله تعالى أعلم- أنها ليست بناسخة وإنما مبينة، ومعنى: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، ومعلوم أن المأمورات يأتي منها الإنسان ما استطاع، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم))، وأما المنهيات فيجب عليه الكف عنها جميعاً؛ لأن الكف لا يتطلب من الإنسان كلفة ولا جهداً ولا بذلاً ولا عملاً، الكف أمر سلبي، لا يكاد يعجز عنه أحد، بخلاف المأمور قد لا يستطيع أن يقوم في الصلاة، تقيمه ويسقط، لكن حينما تقول: لا تأكل ولا تشرب، صُم، فما عليه إلا أن يعرض عن الطعام والشراب، حينما تقول لإنسان: لا تسرق، لا تشرب الخمر، لا تزنِ، لا تسمع المعازف ما عليه إلا أن يكف، لا يتطلب ذلك منه جهداً واقعياً عملياً يقوم به،

---

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٢٩٩٥)، وقال محققوه: إسناده قوي، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٥٦١٠)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٠٣٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٢٠٥).

٤ - رواه البخاري، بلفظ: ((دعوني ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٨٥٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧)، وفي كتاب الفضائل، باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك.

فالمقصود هنا: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} أنّ تقوى الله -عز وجل- تكون على قدر الطاقة، ولا يبعد من هذا قول من قال من أهل العلم: إن ذلك مرتبط بما قبله، لمّا حذرهم من فتنة الأولاد والأموال وبيّن أنها فتنة، وقبل ذلك أن كثيراً من الأولاد والأزواج أعداء باعتبار ما ذكرنا، قال لهم: اتقوا الله ما استطعتم، أي فيما تحت أيديكم وقدرتكم مما لا تعجزون عنه كالهجرة فلا يقعدكم عنها الأولاد والأزواج، والجهاد والصدقة في سبيل الله وما أشبه ذلك مما تحت أيديكم، يعني أنتم باستطاعتكم أن تفعلوه فلا تتخلوا عنه بسبب إقعاد هؤلاء الزوجات أو الأولاد فيثبطوكم عن طاعة الله -تبارك وتعالى- {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} وهي تماماً بمعنى الحديث: ((إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)).

وقوله تعالى: {وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتم.

وقوله تعالى: {وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ} أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإلا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة.

كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [سورة البقرة:٢٧٢]، أنفقوا خيراً لأنفسكم، ما تبذلونه وتقدمونه فهو عائد إليكم.

وقوله تعالى: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} تقدم تفسيره في سورة الحشر وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

ومن ذلك حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- المشهور المخرج في الصحيحين حيث ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً للبخيل وللمنفق برجلين عليهما درعان من حديد، فإذا أراد البخيل أن يتصدق ضاقت عليه هذه الدرع، وبقيت كل حلقة في مكانها، فهو يريد أن يوسعها ولا تتسع، أبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: "كأني أنظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويده في جيبه وهو يريد أن يوسعها فلا تتسع"[٥]، ما يستطيع أن يمد يده بالنفقة، هذا الشحيح، وأما الجواد فإنه إذا أراد أن يتصدق صارت سابغةً هذه الدرعُ واتسعت فجاد وبذل، وكذلك أيضاً قوله: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ} الشح قيل: هو بمعنى البخل، وقيل بالفرق بينهما فمن أهل العلم من فرق بينهما بأن أحد هذين يرجع إلى الصفة النفسانية، والآخر إلى الفعل الناشئ عنه السلوك الخارجي، ومنهم من قال: إن الشح أشد من البخل، لأن البخل أن يبخل بما في يده، والشح: أن تطمح نفسه إلى ما في أيدي الناس، وأضاف الشح إلى النفس لشدة تعلقه بها، ولما كان خلاصها منه -لشدة الملازمة- من الصعوبة بمكان قال: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وجاء بالإشارة إلى البعيد، وجاء بالفصل بين طرفي الكلام بالضمير المنفصل "هم" ليقوي المعنى، فهذا الأسلوب يشعر بالحصر {فَأُوْلَئِكَ

---

٥ - رواه البخاري، ولفظه: ((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا مادت على جلده حتى تُجِنَّ بنانَه وتعفوَ أثره، أما البخيل فلا يريد إلا لزمت كل حلقة موضعها فهو يوسعها فلا تتسع))، ويشير بإصبعه إلى حلقه، كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، برقم (٤٩٩٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل، برقم (١٠٢١).

{هُمُ الْمُفْلِحُونَ} كأنه لا مفلح إلا هؤلاء، وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع الشح حمله على قطيعة الرحم وعلى عقوق الوالدين، وعلى ارتكاب الدنايا، ولم يترفع عما لا يليق، ووقع في أكل الحرام، ومنع ما أوجب الله -عز وجل- عليه من الزكاة، والحقوق المالية، والنفقات الواجبة، ويقع بسبب ذلك من أمور تدنس الأعراض وما لا يخفى من المفاسد الكثيرة جداً التي تفسد على الإنسان دنياه وآخرته، وإذا صار الإنسان يبذل ما في يده وينفق في سبيل الله -عز وجل- انشرح صدره وتسمو النفس عالياً وتكون مهيأة لفعل الخيرات عموماً، ويعيش الإنسان محلقاً مرتبطاً بالله -عز وجل- والدار الآخرة، وهذا شيء مشاهد، الإنسان حينما يبذل ويعطي وينفق تسمو نفسه وترتفع، ويشعر بارتفاع كبير، وحينما يمسك ما في يده نفسه تتسفل وتضيق، ويضيق صدره، ويقع في ألوان من الحرج النفسي، وأيضاً الحرج فيما يلحقه في ذمته من جهة الله -تبارك وتعالى- ومن قِبَل المخلوقين.

وقوله تعالى: {إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزّل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: ((من يقرض غير ظلوم ولا عديم))[٦]، ولهذا قال تعالى: {يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} كما تقدم في سورة البقرة، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} أي: ويكفر عنكم السيئات ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ شَكُورٌ} أي: يجزي على القليل بالكثير، {حَلِيمٌ} أي: يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات.

ولا يعاجل بالعقوبة، وقوله: {وَاللَّهُ شَكُورٌ} قال: يجزي على القليل بالكثير، وأصل معنى الشكر الظهور، وهو ظهور أثر النعمة على المنعم عليه، هذا شكر العبد لربه، ولهذا يقال: شَكَرت الأرضُ بمعنى أخرجت النبات بعدما نزل عليها المطر، ويقال: شكرت الدابة إذا ظهر عليها أثر السمن من العلف أو المرعى، ويقال للعُسلوج: وهو الغصن أو الفرع الصغير الذي يخرج من الشجرة إذا قُطعت يقال له: شكير؛ لأنه ظهر وخرج بعد أن لم يكن، فهذا هو أصل معنى الشكر، وشكر العبد للرب ظهور أثر النعمة عليه بيده وقلبه ولسانه، فالله تفضل وأنعم فيظهر أثر ذلك على لسان العبد باللهج بحمده والثناء عليه، والاعتراف بنعمته، وبقلبه باستحضار النعمة، وبجوارحه بالعمل في طاعته، والشكر يكون من الله -عز وجل- للعبد كما قال: {وَاللَّهُ شَكُورٌ} بمعنى أنه يجازي على الحسنات إحساناً، ويضاعف ذلك ولا يُنقص من أجره شيئاً.

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} تقدم تفسيره غير مرة.

آخر تفسير سورة التغابن ولله الحمد والمنة.

العزيز الذي لا يغالب، والحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، والجمع بين الاسمين يفيد وصفاً ثالثاً وهو أن عزته مقرونة بالحكمة؛ لأن العزة كثيراً ما تحمل صاحبها على الطيش والسفه، والظلم والتعالي على الخلق، وأما الله -تبارك وتعالى- فإن عزته مقرونة بحكمة، يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها،

---

٦ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، برقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

كما جاء في قوله مثلاً: {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة التغابن:٦]، الغِنَى يحمل كثيراً على البطر والطغيان والإفساد وأما الله -تبارك وتعالى- فإنه محمود في غناه، وهكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطلاق

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير صدر سورة الطلاق: خوطب النبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا مما يورده الأصوليون عادة للتدليل على أن الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- خطاب لأمته، فقال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} ثم قال: {إِذَا طَلَّقْتُمُ} بالجمع، {فَطَلِّقُوهُنَّ} {وَأَحْصُوا}، {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ}، {لَا تُخْرِجُوهُنَّ}، ولا يظهر من ذلك أن الخطاب للمفرد الذي يراد تعظيمه؛ لأن المفرد إذا خوطب على وجه التعظيم يقال له: أنتم ويخاطب خطاب الجمع، لكن هنا ما يظهر من كل هذه الضمائر والصيغ التي للجمع {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء:١٩] إلى غير ذلك، والخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- الأصل أنه خطاب للأمة، إلا لدليل يدل على الاختصاص كقوله: {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأحزاب:٥٠]، وأحياناً يأتي معه ما يدل على العموم مثل هذه هنا في سورة الطلاق، وأحياناً يخلو من القرينة، كقوله تعالى في أول سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [سورة الأحزاب:١-٢]، فالحاصل أن هذا الذي يخلو من القرينة يكون متوجهاً إلى الأمة، فصار على ثلاث صور: ما وجد معه ما يدل على الاختصاص به فهو خاص، ما وجدت قرينة تدل على التعميم فهو عام، ما لم توجد فيه قرينة فالأصل أنه متوجه لعموم الأمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- داخل معها، والله أعلم.

وروى البخاري أن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتغير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: ((ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله -عز وجل))[1].

يقول: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} يعني طلقوهن مستقبلات لعدتهن، ومعنى ذلك أن المرأة لا يجوز أن تُطلّق إلا في حالين، إما أن تكون طاهراً في طهر لم يجامعها فيه، والحال الثانية أن تكون حاملاً قد تبيّن

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، برقم (٤٦٢٥)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها، برقم (١٤٧١).

حملها، وما عدا ذلك فهو طلاق بدعة، ويأتي على حال كونها قد طلقت وهي حائض فهذا لا يجوز، والخلاف فيه مشهور هل يقع أو لا يقع؟ والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[٢]، والصورة الثانية المحرمة: أن يطلقها في طهر جامعها فيه، فهذا لا يجوز أيضاً {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} وهنا في حديث ابن عمر -رضي الله عنه- وهو مدار خلاف كثير في هذه المسألة، فعامة هذا الخلاف يرجع إلى هذا الحديث، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمره أن يراجعها، هل حسبت تطليقة أو لم تحسب تطليقة؟، وليس هذا محل البحث في هذه المسألة، ولكن الإشارة إلى هذه الأحكام؛ لأن هذا هو منهج الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فمن أهل العلم من يقول: حسبت تطليقة، فالطلاق البدعي يقع مع الإثم، ومنهم من يقول: لم تحسب تطليقة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) فهذا لا يقع، فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- غضب وقال: ((مُره فليراجعها)) أو قال: ((ليراجعها)) كما في الرواية هنا، ((ثم يمسكها حتى تطهر))، ثم قال: ((ثم تحيض فتطهر)) بمعنى أن من طلقت في حال الحيض مثلاً يجب عليه أن يراجعها حتى تطهر، ولا يجوز أن يطلقها في الطهر الذي يلي الحيض الذي طلقت فيه، بل تحيض مرة أخرى ثم تطهر، ولهذا كان من شرطه أيضاً –أي الطلاق الصحيح- أن لا يكون في طهر قد سبقه حيض وقع فيه طلاق، يعني على الإنسان ابتداءً أن يطلق في طهر لم يجامع فيه، أو وهي حامل، وأن يكون الطلاق واحدة، لا يطلق ثلاثاً أو اثنتين في عدة واحدة، لا بلفظ واحد ولا بألفاظ متعددة، العدة الواحدة طلقة واحدة، وإن وقع منه تطليق بدعي في الحيض الذي جامعها فيها، فإنه لا يجوز أن يوقع الطلاق في طهر سبقه حيض قد طلق فيه، فهذه أمور يجب أن تراعى في الطلاق، وأكثر الناس بمنأى عن هذا، فإذا غضب طلق، وأغلب الحالات لا يخلو إما أن يكون طلقها في طهر جامعها فيه، أو وهي حائض، والمشكلة أن هؤلاء لا يسأل أكثرهم فضلاً عن أن يذهب إلى القاضي ويحكم له في هذه المسألة، ورأينا بعض من طلق تسع مرات في سنين، وهي عنده ولا يسأل، ومنهم من يقول: سألت إمام المسجد، فقال لي: هذا غير محسوب، وبعضهم يقول: قال لي أطعم عشرة مساكين، وأشياء في غاية الغرابة، ويبقى على امرأته يعاشرها بالحرام، والناس يتساهلون في هذا كثيراً، وأحياناً يردها أهلها عليه، يقولون: معكِ منه عيال نحن لا نستقبلك، حتى ولو طلقها ست مرات متفرقة، فتبقى معه كلما جاءت ردوها عليه، وهو ليس عنده أي استعداد أن يذهب إلى القاضي، وإذا فحصت في تاريخ هذا الطلاق منه ما وقع في حيض، وأكثره وقع في طهر جامع فيه، ولا يوجد أحد وإلى ساعتي هذه يسأل قبل أن يطلق إلا واحداً -إلى يومي هذا- قبل نحو عشر سنوات، أما الذين يسألون عادة فهم يسألون بعدما طلقوا {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، ولو أن الناس مشوا على هذا لتخلصوا من كثير كما ذكرنا؛ لأن المرأة غالباً إما حائض وإما في طهر قد جامع فيه، حينما يغضب فلا يجوز له أن يطلقها في هذه الحال، فلابد أن ينتهي هذا الطهر، ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها، وإذا بالغضب قد زال.

---

٢ - رواه مسلم، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

هكذا رواه البخاري هاهنا، وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم ولفظه: "فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء"، وأمَسُّ لفظ يورد هاهنا ما رواه مسلم في صحيحه من طريق ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- وأبو الزبير يسمع: كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً، فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليراجعها)) فردها وقال: ((إذا طهرت فليطلق أو يمسك)) قال ابن عمر: وقرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قُبُل عدتهن}[٣].

{قُبُل عدتهن} يعني: مستقبلات لعدتهن.

وعن عبد الله في قوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلكن وهو رواية عن عكرمة والضحاك.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} قال: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة.

وقال عكرمة: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} العدة الطهر، والقُرء الحيضة أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها قد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا، ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعة: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولابدعة، وهو طلاق الصغيرة، والآيسة، وغير المدخول بها.

وقوله تعالى: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج، {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} أي: في ذلك.

من أهل العلم من يقول: إن الخطاب في قوله: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} متوجه للأزواج، ومنهم من يقول: متوجه للأمة عموماً، ولا منافاة، الرجل يجب عليه أن يحصي العدة، من أجل أن يعرف إذا أراد أن يراجع، وكذلك المرأة عليها أن تحسب من أجل أن تعرف حالها، والرجل يسألها هل حضتِ أو طهرت، فلا يمكن أن يكون الجواب بأنها لم تحسب ذلك مثلاً أو لم تتفطن له، فقد تنتهي عدة المرأة في حالات قليلة أو نادرة في شهر واحد، تحيض ثلاث مرات، وإذا ادعت المرأة هذا وجاءت بما يدل عليه أو يثبته أو سُئلت قريباتها فوُجدن كذلك يحضن في الشهر ثلاث مرات، فإنه يقبل قولها؛ لأن المرأة كما قال الله -عز وجل-: {وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [سورة البقرة:٢٢٨]، قد تستعجل المرأة الخلاص من الرجل إما لأنها تريد أن تتزوج آخر أو غير ذلك، فقد تدعي أنها حاضت ثم طهرت، ثم حاضت

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها، برقم (١٤٧١).

ثم طهرت، ثم حاضت ثم طهرت، تخفي وتكتم ما خلق الله في رحمها من الحيض مثلاً، من الأقراء، وقد تكتم ما خلق الله في رحمها من الحمل -يتبيّن حملها-، وتكتم ذلك عن الرجل لأنها تعرف أن العدة معه ستطول فتكتم هذا الحمل من أجل الخلاص منه، تقول: إنها حاضت -وهي ما حاضت- ثم طهرت ثم حاضت حتى تتخلص، وهذا لا يجوز.

وفي قوله تعالى: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ} أي: في مدة العدة، لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه.

البيت لو كان ملكاً لها فهذا لا يحتاج إلى تنبيه، ولكنه للزوج، ونسب إليها لكونها المنتفعة به، كما قال الله -عز وجل- في أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}** [سورة الأحزاب:٣٤]، وهي بيوت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنسبها إليهن لكونهن المنتفعات بهذه البيوت، بهذا الاعتبار، فهنا قال الله تعالى: **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ}** أي: بيوتكم، فنسبها إليهن لأنهن ساكنات في هذه البيوت، فلا يجوز له أن يخرجها من هذا البيت بالطلاق، أي: الطلاق الرجعي، فيَخرجُ من هذا الطلاق البائن سواء كان ذلك وقع على امرأة قبل الدخول؛ لأن الرجل بمجرد ما يطلق المرأة قبل الدخول تبين منه، وليس عليها عدة، والفرق بين عدة الوفاة والطلاق واضح، فلو أن رجلاً تزوج امرأة عقد على امرأة ومات قبل أن يدخل بها فعليها العدة، ولها الميراث، هذا في الوفاة، كما يقول الفقهاء رحمهم الله: لو تزوج مشرقي بمغربية، يمكن ما رآها تزوجها في التلفون أو بوكالة، فمات فعليها العدة أربعة أشهر وعشر، ولها الميراث، أما في الطلاق فإن طلق قبل الدخول، فبمجرد ما يتلفظ بالطلاق انتهى كل شيء، وتصير أجنبية فإذا أرادها لابد أن يخطبها من جديد، وأن يعقد عليها ويدفع مهراً، ولابد من شهود وولي، وكذلك إذا كان هذا الطلاق بائناً -هذه الطلقة الثالثة- فإنها تعتد في بيت أهلها أو في مكان آخر، ولا يلزمه في حقها لا سكنى ولا نفقة إلا أن تكون حاملاً فإنه ينفق عليها كما يأتي في قوله تعالى: **{وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [سورة الطلاق:٦]، فالمطلقة البائنة لا سكنى ولا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً فلها النفقة، فقوله: **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ}** يحمل على الطلاق الرجعي، الطلقة الأولى والثانية في المدخول بها، وبهذا نعرف أن عامة ما عليه الناس اليوم من التفريط في هذا أنه خطأ، فإذا طلقها ذهب بها إلى بيت أهلها، وهذا لا يجوز؛ لأن ذلك أدعى لعدم المراجعة، لكن إن بقيت عنده تتزين له هذه المدة كلها، فإن كانت المسألة غضبة فستنتهي قطعاً، إلا أن تكون عند الرجل قناعة راسخة رسوخ الجبال أن هذه المرأة لا تصلح له، وإلا فإن الرجل لا يمكن أن يصبر عن امرأته هذه المدة كلها وهي عنده في البيت، فهناك فرق بين الذي لم يتزوج وبين المتزوج، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله- في علة الرجم للزاني المحصن، قالوا: من اعتاد النساء لا يستطيع أن يصبر عنهن، بخلاف الذي ما تزوج أصلاً يصبر الدهر كله، وفطام النفس عن المألوف أمر في غاية الصعوبة، فالرجل هذا إذا كان غاضباً لا يمكن أن يستطيع الجلوس هذه المدة كلها أبداً إلا بقناعة أن هذه المرأة لا تصلح له.

فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً.

من أهل العلم من قال: إن عدة الطلاق أشد من عدة الوفاة، فعدة المطلقة طلاقاً رجعياً لا يجوز فيها أن تخرج ليلاً ولا نهاراً، كما قال أبو حنيفة -رحمه الله-، وعدة الوفاة تخرج لحوائجها نهاراً فيما لا يقوم غيرها مقامها فيها، العدة الرجعية بعض العلماء قال: لا تخرج لا ليلاً ولا نهاراً، والأقرب: أنها تخرج فيما لابد لها منه، ولكنها تبيت في بيتها، ومنهم من قال: تخرج نهاراً ولا تخرج ليلاً، وهي أسهل من البائن، مع أن البائن تعتد ولا تخرج إلا لما لابد منه، لكن الرجعية هي معتدة عن الزوج، ولعله يراجعها، فإذا كانت كل النهار خارجة أو تخرج في الليل فتكون احتمالات الرجعة أقل، لكنها تجلس عنده تقابله، كلما دخل وجدها في البيت، ففي هذه الحالة لعله كما قال الله -عز وجل-: {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} وهو الرجعة، هذه من حكمة الشارع في تقليل نسب الطلاق ولم الشمل، بدلاً من هذا الشتات والتفرق.

وقوله تعالى: {إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتُخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وأبو قلابة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخرساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم.

معناها أنها إذا زنت تخرج من هذا البيت لإقامة الحد.

وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بَذّت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وعكرمة وغيرهم.

وقد يدل على هذا قراءة أبيّ {إلا أن يَفحُشن عليكم} ليست متواترة، والقراءة الأحادية كما ذكرنا مراراً تفسر المتواترة، ولهذا حمله كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- على العموم {إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} يعني يدخل فيه معصية الله -عز وجل- بالزنا أو البذاء والتطاول على الزوج أو الأحماء، بحيث تكون المرأة في حال من الهيجان وسوء الأدب فتؤذيهم وتتطاول عليهم بلسانها فتسبهم، فتقلب حياتهم إلى شيء من الضيق والنكد وما أشبه ذلك، فيتخلص منها، يقول لها: اذهبي إلى أهلك، في هذه الحالة، أما من غير هذا فلا، وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

ويدخل في قوله: {إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} النشوز والتطاول والإساءة للزوج والأحماء، ويدخل فيه الزنا، وما إلى ذلك مما قد يضطر معه الزوج إلى إبعادها إلى أهلها، والحالات كثيرة جداً التي نسمع عنها من كلام الأزواج وسؤالهم، يعني تكون المرأة أحياناً لا تلتزم بأمره في العدة فتقول: أنا أخرج كما أريد، وتخرج إلى أين؟ تتصل بالتاكسي وتركب معه، مرة تذهب إلى السوق، ومرة تذهب إلى معرض، ومرة تذهب إلى صديقاتها كما تزعم، ومرة تذهب إلى نزهة، ومرة تقول ما تدري أين تذهب، وأنا مسئول عنها ولا أستطيع أن أسيطر، وهي تقول: ما تستطيع أن تمنعني من شيء، فكل ما بوسعك افعله، وكل وسيلة أستطيع استخراج حقي فيها لو مددت يدك عليّ فسأفعلها، ولن أسكت ولن أتنازل، خاصة إذا كان في بلد يمكّنها النظام من هذا، تتصل بالشرطة ويعتقلونه؛ لأنه ضربها، وبعضهم يقول: إنه يعرف أنها تخرج لتعاشر الرجال وتخرج تواعدهم يقول: إنْ ضربتُها اتصلت على الشرطة، وإن سكتُّ سكتُّ على أمر عظيم، وهي تتحداني وتقول للأولاد: هاتوا السكين من المطبخ، خلوه يذبحني يقطعني، الشيء الذي أنا أقتنع فيه والطريق الذي أريد

سلوكه سأسلكه، ولن تستطيع أن تقف في وجهي، هذا الرجل يسأل بهذه الطريقة عن امرأته قبل فترة قريبة، ماذا أصنع لها؟ النظام يحميها في ذلك البلد، الأنظمة المضيعة للأعراض، أعراض الناس ودمائهم بهذه الطريقة، زوج يتفرج على امرأته تزني، تفعل ما تريد ومحمية.

وقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} أي: شرائعه ومحارمه، {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ} أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه أي بفعل ذلك.

وقوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها، ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل.

قال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن فاطمة بنت قيس -رضي الله تعالى عنها- في قوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} قالت: هي الرجعة، وكذا قال الشعبي وعطاء وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والثوري.

بعض أهل العلم يقول بأن الفاحشة المبينة: هي عقوق الزوج والنشوز وما أشبه ذلك من المعاني، ومن أهل العلم من جعلها على ثلاثة أنواع: فإذا عُرفت "بأل" فهي الزنا وما في معناه {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ} [سورة النساء:١٥]، وإذا ذكرت منكّرة فهي الذنب العظيم، وإذا ذكرت مقيدة بالبيان، كما في قول الله -عز وجل- عن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣٠] قالوا: معناه النشوز والتطاول على الزوج وما أشبه ذلك، وهذا لا دليل عليه، فالفاحشة هي الذنب العظيم، وكثيراً ما تطلق في عرف الاستعمال على الزنا وما في معناه، وهنا {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} يدخل فيها هذا ويدخل فيها الذنوب العظام الأخرى، وأما قوله: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} فلا شك أنه الرجعة.

ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة.

لا تجب السكنى للمبتوتة؛ لأنه لا سبيل إلى مراجعتها أصلاً، ولهذا الله -تبارك وتعالى- لم يوجب عليه أن يبقيها في بيته أو البيت الذي هي ساكنة فيه: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} لأنه لا سبيل إلى الرجعة، والعلة من بقائها عنده الرجعة، فالمبتوتة لا سبيل إليها فلا سكنى لها، سواء كانت طلقة ثالثة أو حتى التي طلقت طلقة واحدة تبين منه بمجرد الطلاق، ولا عدة عليها أصلاً، فهذه لا يقال: إنها تسكن عنده مدة من الزمان مثلاً؛ لأن هذا لا معنى له.

واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية -رضي الله تعالى عنها- حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص -رضي الله تعالى عنه- آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فتسخّطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ليس لك عليه نفقة))[٤]، ولمسلم: ((ولا سكنى))، وأمرها أن تعتد في بيت

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، برقم (١٤٨٠).

أم شريك ثم قال: ((تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدِّي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك))[٥] الحديث، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ فقال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((انظري يا بنت آل قيس إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى، اخرجي فانزلي على فلانة))، ثم قال: ((إنه يُتحدث إليها، انزلي على ابن أم مكتوم فإنه أعمى لا يراك))[٦] وذكر تمام الحديث.

وهذا نص صريح واضح بأن النفقة والسكنى تجب على الزوج إذا كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن كذلك فلا سكنى ولا رجعة إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى: **{وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ}** [سورة الطلاق:٦].

وروى أبو القاسم الطبراني عن عامر الشعبي أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليّ وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي فسألت أولياءه النفقة عليّ والسكنى فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليّ بطلاقي فسألت أولياءه السكنى والنفقة عليّ فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى))[٧]، وكذا رواه النسائي.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب**{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [سورة البقرة:٢٣٤]، برقم (٥٠٢٩)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، برقم (١٤٨٠)، من حديث فاطمة بنت قيس -رضي الله عنها-.

٦ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٧١٠٠)، وقال محققوه: حديث صحيح بطرقه.

٧ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٩٤٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطلاق[٢] من الآية ٢ إلى الآية ٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [سورة الطلاق:٢-٣].

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده، {بِمَعْرُوفٍ} أي: محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن.

وقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} أي على الرجعة إذا عزمت عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: "طلقتَ لغير سنة وراجعتَ لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد"[1].

وقال ابن جريج: وكان عطاء يقول: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل، كما قال الله -عز وجل-، إلا أن يكون من عذر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -عز وجل- يقول في حق المطلقات: إنها إن قاربت الأجل فإما أن تُمسَك بمعروف بمعنى أنه يعاشرها معاشرة طيبة، بحيث لا يسيء إليها، وهذا يدل على أنه لا يجوز له أن يمسكها ضراراً كما قال الله تعالى: {وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ} [سورة البقرة:٢٣١]، يعني من أجل أن يطول عليها العدة مثلاً، كلما قاربت عدتها الانتهاء راجعها، مضارة بها من أجل أن لا تتزوج، أو من أجل أن تفتدي منه بشيء مما دفعه إليها فهذا لا يجوز، والرجل لا يجوز له أن يطالب المرأة بعوض، يعني أن تطلب الخلع منه إن كان لا رغبة له فيها، فهو إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يفارق بمعروف، ومن المفارقة بالمعروف أن يعطيها المتعة، كما قال الله -عز وجل-: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة البقرة:٢٤١]، وأن يحفظ كرامتها، فلا يجرح مشاعرها؛ لأنه يكفي في كسر قلبها الطلاق -ولهذا جعلت المتعة جبراً لخاطرها- فهي لا تحتاج معه إلى

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الطلاق، باب الرجل يراجع ولا يشهد، برقم (٢١٨٦)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الرجعة، برقم (٢٠٢٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٨٩٩).

شيء من المشاتمة، شتمها وشتم أهلها وانتقاصها وما أشبه ذلك مما يقع كثيراً للناس، ثم قال الله -عز وجل-: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} يعني: من المسلمين، ويؤخذ من هذا أن شهادة النساء في هذا لا تصلح، {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} نشهد على ماذا؟ من أهل العلم من يقول: على الطلاق والرجعة، ومنهم من يقول: على الرجعة خاصة؛ لأن الله لما ذكر الطلاق أولاً ثم ذكر هذا آخراً وهو الرجعة فقال:{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} وهناك في الطلاق قال: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} [سورة الطلاق:١] إلى آخرها، ما قال: وأشهدوا على الطلاق، وهنا قال: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} فهو متعلق بما قبله من ذكر الرجعة، وعلى كل حال المفارقة بالمعروف المذكورة هنا ليس المقصود بها تطليقاً جديداً، وإنما هو الطلاق الأول، تنتهي العدة فتبين منه المرأة فيكون الإشهاد ليس على الطلاق وإنما على الرجعة، مع أن الآية تحتمل الأمرين، لكنها أظهر في هذا المعنى -والله تعالى أعلم-، ولا شك أن الإشهاد على الرجعة آكد لهذه الآية، ومن جهة المعنى أيضاً، وذلك أن الرجعة يترتب عليها ما يترتب مما هو معلوم؛ فقد تأتي هذه المرأة تطالب بالميراث لو أنه مات، وتقول: إنه راجعني، هم يعرفون أنه طلقها، فتقول: إنه راجعني، وليس عندها ما يثبت ذلك، وقد يكون هذا الميراث كبيراً فكيف لها أن تثبت هذا؟ وقد يموت الرجل وتأتي بحمل والمعروف أنه طلقها من مدة، ثم إذا مات تبين أنها حامل وتدعي أن هذا الحمل من زوجها، وأنه قد راجعها، فيحتاج إلى إشهاد في الرجعة، ولهذا قال بعض أهل العلم كالإمام الشافعي وهو إحدى الروايتين عن أحمد: إن الإشهاد على الرجعة واجب، والإشهاد على الطلاق ليس كذلك بل هو مندوب، وكثير من أهل العلم قالوا: إنه مندوب في الطلاق وفي الرجعة لكنه في الرجعة آكد، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحد القولين لأحمد -رحمه الله-، أقول: إذا عرف الناس أنه طلقها، كأن يكون ذلك معلوماً لديهم إما بالإشهاد أشهدهم على طلاقها، أو أثبت ذلك بطريقة رسمية في المحكمة، أو أنهم علموا بأن سمعوا منه هذا التطليق أو أخبرهم، فعندئذ إذا راجعها لا يراجعها بصمت -يعني سراً- وإنما يشهد على ذلك حفظاً لحقه وحقها، وعرضه وعرضها، والله تعالى أعلم.

الطلاق يمكن أن يكون بالكتابة، ويمكن أن يكون بالقول مشافهة، ويمكن بما يدل عليه مما هو معلوم من ألفاظه الصريحة أو كناياته إذا قصد بها الطلاق، وأما الرجعة فيمكن أن يوجه ذلك إليها مباشرة كتابة أومشافهة، يقول لها: قد راجعتك مثلاً، أو أنه يقول ذلك بغير حضرتها، كأن يقول: راجعت امرأتي، أو يقول عند الناس مثل هذا الكلام، ولا يشترط أن يعلمها به ليكون ذلك رجعة، يعني ليس من شرط الرجعة إخبار المرأة بهذا، قد يراجعها ويسكت حتى تنتهي العدة في ظنها مثلاً من أجل أمر يريده، كأن يريد أن يخوفها أو يؤدبها، أو غير ذلك من الأمور، فهل يقال: إن هذه ليست برجعة -إن كان قد راجع- لأنه ما أعلمها؟، فالرجعة تكون بالقول، وتكون بالفعل إما مطلقاً عند بعض أهل العلم كأبي حنيفة حيث يقول: لو أنه لمسها بشهوة أو جامعها أو قبّلها فإن ذلك يكون رجعة قصد أو لم يقصد، وهذا فيه إشكال -والله تعالى أعلم-، وأحسن منه قول من قال: إنه إن قصد بذلك الرجعة فهي رجعة، قبّل أو باشر أو وطأ يقصد بها الرجعة فهي رجعة، فتكون بالفعل بهذا الاعتبار، والله أعلم.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله وباليوم الآخر، وأنه شرع هذا ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترْكه ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: من جهة لا تخطر بباله.

وروى ابن أبي حاتم أن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: إن أجمع آية في القرآن {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [سورة النحل:٩٠]، وإن أكبر آية في القرآن فرجاً {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}.

وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً، وكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ومسروق: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع، {مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: من حيث لا يدري.

وقال قتادة: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} من حيث لا يرجو ولا يأمل.

في قول ابن مسعود -رضي الله عنه- أجمع آية {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} يأمر بالعدل في كل شيء، العدل في القول والعدل في الحكم، ويدخل في هذا الكلام الناس، ويدخل فيه أيضاً العدل في الحكم بينهم، وفي القسمة بين الرعية والأولاد وما إلى ذلك من الأمور الكثيرة التي لا تحصى، والإحسان عام يدخل فيه كل خير ومعروف متعدٍّ، ولربما دخل فيه أشياء من الأمور القاصرة مما يعد من الإحسان، فيدخل فيه جميع أنواع البر والمعروف، فالله -تبارك وتعالى- يأمر به، وفي مقابله ينهى عن الفحشاء والمنكر، كل ذنب كبير وكل ذنب صغير، وهنا قال: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} ولم يحدد هذا المخرج من أي شيء، فتحمل الآية على العموم، ومن أخص ما يتعلق بها ويدخل تحتها ما يتصل بموضوع الطلاق، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} هذا المخرج الذي وعد الله -عز وجل- به مرتب على شرط وهو التقوى، وكما هو معلوم أن الحكم -وهو المخرج هنا- المرتب على وصف -وهو التقوى هنا- يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر تقوى الإنسان لربه على قدر ما يجعل الله -عز وجل- له من الفرج والمخرج، {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} [سورة الأنفال:٢٩] يعني: تفرقون به بين الحق والباطل، ومعدن الحق ومعدن الشبهات، فما يتعلق بالطلاق هنا في المخرج، من يتق الله في تطليقه يجعل له مخرجاً، بمعنى أن الإنسان إن طلق على الوجه الشرعي طلقة واحدة لم يزد عليها في العدة، فالله تعالى يجعل له مخرجاً فيمكنه الرجعة، لكن حينما يأتي الرجل ويقول: طلقت امرأتي مائة طلقة، كما جاء رجل لابن مسعود وقال كلاماً نحو هذا، وهو على المنبر، فقال: هو كما قلت، لا والله لا تلبسون على أنفسكم، وتأتون إلينا لنخرجكم منه، أو كما قال، ولذلك عمر -رضي الله تعالى عنه- أوقع الثلاث على من طلق، عدها ثلاثاً؛ لأن الناس توسعوا في هذا، ما اتقوا الله

-تبارك وتعالى- في تطليقهم، ثم بعد ذلك يندم الإنسان غاية الندم، ويبدأ يبحث عمن يفتيه برجعتها، إذا طلقها ثلاثاً، يذهب من محل إلى محل وقد تكون نثرتْ له بطنها، وامتلأ بيته بالصبية منها، ولا يدري كيف يصنع ولا يتصرف، ولربما فعل أشياء تدل على حال يرثى لها؛ لأن الأمر قد بلغ به مبلغاً عظيماً، إما لأنه لا يستطيع فراقها لمحبته لها، أو لأنه لا يستغني عنها لقيامها بهؤلاء الأولاد، ويدخل في قوله: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} سائر الأمور، من يتق الله في المكاسب يجعل له مخرجاً، من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} فالعبد إذا حقق معنى هذه الآية حصل له هذا وهذا، الانفراج في الأمور وينجيه الله من الكربات، ومن الضيق والشدائد، ويوسع له في ألوان الرزق من جهات لا يظن أنه يرزق منها، وقوله: {مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: من حيث لا يظن ولا يتوقع، والناس بحاجة إلى معرفة هذا المعنى، فليس جدهم وسعيهم في تحصيل الدنيا وطلبها سبباً للغنى والثروة وإنما الله -تبارك وتعالى- هو الذي بيده خزائن السماوات والأرض، فهو يعطي ويمنع بناء على علم وحكمة لا يخفى عليه شيء، "إن من عبادي مَن لا يصلحه إلا الغنى"، فلا يظن الإنسان أنه بجهده وذكائه وسعيه سيحصّل الثروة والمال، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))[2]، اتقوه لا تأخذوا هذا المال إلا من حله، ودعوا الشبهات وأجملوا في الطلب لا تتهافتوا على الدنيا، خذوا منها أخذاً لا يستعبدكم، ولا تكون غاية الإنسان الدنيا التي من أجلها يقوم ويقعد، ويضيّع بسبب ذلك كثيراً من الحقوق والواجبات والمروءات، ويقع الإنسان في كثير من الدنايا والدناءة بسبب تهافته، وتنقيره في طلبها وتحصيلها وجمعها، فليس الجري وراء الأسهم هنا وهنا -بطريقة أحياناً مزرية تخل بالمروءة، يعرق منها الجبين- سبباً لتحصيل الثروات، ((أجملوا في الطلب))، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}، وإن تنافس المتنافسون على أمور مشتبهة، وحصّلوا في بادئ الرأي أو في ظاهر الأمر حصلوا شيئاً من الربح إلا أن ذلك لا يعني الثروة والغنى إطلاقاً.

وقوله تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) وقد رواه الترمذي وقال: حسن صحيح[3].

---

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، برقم (٢١٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٠٧).

٣ - رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٥١٦)، وأحمد في المسند برقم (٢٦٦٩)، وقال محققوه: إسناده قوي، وبرقم (٢٧٦٤)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٥٣٠٢).

الله -عز وجل- جعل جزاء التوكل الكفاية التي يطلبها المتوكل، ومن أجلها يتوكل، هو لماذا يفوض أمره إلى الله؟، من أجل أن يكفيه كل ما أهمه من المخاوف وما إلى ذلك مما يحاذره، فالله -عز وجل- جعل الجزاء هو الكفاية مباشرة، ولم يقل: ومن يتوكل على الله يجزيه أجراً يدخله الجنة، أو يكون محبوباً لله -عز وجل- أو نحو ذلك، لا، بل قال: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} أي: كافيه.

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه.

{إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} من القراءات الواردة في هذا وهي قراءة متواترة {إن الله بالغٌ أمرَه} فما قدره الله -عز وجل- كائن لا محالة، فعلى الإنسان أن يتقيه في الطلاق، وأن يفوض أمره إليه، يفعل ما أمره به، وما قضاه الله -عز وجل- لابد أن يكون، فإذا كان ما قضاه الله وقدره لابد من وقوعه وكونه فمعنى ذلك أن الإنسان لا سبيل له إلا أن يفوض أمره إليه، وأن يتقيه، فإن تقواه سبب للانفراج والسعة، وليس احتياله على الأحكام، ووقوعه في الحرام والشبهات ليس ذلك طريقاً للخروج عن المضائق وعن الأمور التي يكرهها ويحذرها، فما قدره الله كائن، فليس عليك إلا أن تتقي الله -تبارك وتعالى- تفوض أمرك إليه، وتفعل ما أمرك به، وقد يكون في ظاهر الأمر هذا الشيء المأمور به مُراً، يرى الإنسان أو يظن أنه يُضيَّق عليه كثيراً، ولكنه في الواقع سبب للتفريج والسعة والرزق العظيم، وما قضاه الله كائن لا محالة، في باب الطلاق وفي غير باب الطلاق، إن كان الله قدر التلاقي والرجعة فسترجع، وإن كان الله لم يقدر الرجعة فمهما احتال فلن ترجع، وإن كان الله -عز وجل- قدر له الرزق فسيأتيه بأدنى سبب، وإن كان لم يقدر له الرزق فمهما تهافت على الدنيا لن يأتيه، والإنسان إذا كان في بطن أمه يُبعث إليه الملَك ويؤمر بأربع كلمات ومنها رزقه[٤]، وليس عمله في الأربع والعشرين ساعة هو سبب الرزق، ولا ذكاء الإنسان ولا مهاراته وخبراته والدورات التي درسها وما أشبه ذلك، ولذلك تجد الكثيرين لربما ليس عندهم كثير ذكاء ولا مهارات ولا دراسة ولا دورات ولا شيء، والرزق يأتيهم من كل ناحية، وتجد آخرين لا يفتئون من التفكير كيف يحصِّلون قليلها وكثيرها، ولا يأتيهم -كما يقال- إلا من ثقب إبرة النزرُ اليسير بالكد الكثير، فهذه أمور الله قدرها، ويرضى الإنسان بما قدر الله له وقسمه، ولا يدري الخير في أي ذلك.

{قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، **كقوله تعالى:** {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} [سورة الرعد:٨].

---

٤ - إشارة إلى حديث في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق-: ((إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار)) البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠]، برقم (٣١٥٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٣).

{وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [سورة الطلاق:٤-٥].

هذه الآية {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ} من أهل العلم كأبي عبد الله القرطبي -رحمه الله- يقول: إنه متصل بأولها، بأول السورة، يعني {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} فإن ارتبتم في العدة فلتمكث ثلاثة أشهر، وهذا القول فيه بعد، ومن أهل العلم من يقول: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ} فطلقتموهن، ووقع لكم ريب لنزول الدم عليها بعد اليأس هي آيسة، لا ينزل عليها الدم كبيرة أو صغيرة لا تحيض، فنزل دم في غير سن الحيض مثلاً فهذه المرأة الآيسة مثلاً إن نزل عليها دم ولم تدروا هل هو دم حيض أو ليس بحيض، فإنها تبقى ثلاثة أشهر، أو كانت ممن يحضن فلما طلقها توقف عنها الحيض، فلا يُدرى هل حصل لها يأس أو أن ذلك عارض، فماذا نصنع؟ قال: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} لا تدرون هل هذا الانقطاع لأنها بلغت سن اليأس أو لعلة أخرى؟ فإنها تبقى ثلاثة أشهر، {إِنِ ارْتَبْتُمْ} ارتبتم في انقطاع الدم، أو بسبب نزول دم لا تدرون ما هو بعد أن كانت آيسة، وأحسن من هذا كله -وهو اختيار ابن جرير وابن كثير وعليه كثير من المحققين-: أن المعنى أن الله لما بيّن لهم أحكام النساء في الطلاق، ذات الأقراء والحامل، ذات الأقراء أنها تتربص ثلاثة قروء، والحامل: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، بقي الصغيرة التي لم تحض، والكبيرة الآيسة، فإنها ليست بحامل وليست ذات أقراء حتى يقال: اجلسي ثلاثة قروء، فلما أشكل عليهم هذا بين لهم حكمها وأنها تتربص ثلاثة أشهر، فقوله: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} بهذا الاعتبار جملة اعتراضية، والمعنى هكذا: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ} لمّا وقع لكم فيهن ارتياب، كأنه يقول: هذا فاعلموا أن عدتهن ثلاثة أشهر، واللائي لم يحضن كذلك، هذا أحسن ما تفسر به، والله أعلم، حتى قول الله -عز وجل-: {وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} يعني المقدر: من أهل العلم من قدر فيه كلاماً كثيراً، والأصل أن يكون المقدر كما هي القاعدة: أنه يتخير من المقدرات أحسنها وأوجزها وأليقها بالسياق وبلاغة القرآن، فالأنسب هنا: {وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} يعني الصغيرات كذلك، يعني لو أن إنساناً تزوج طفلة عمرها سبع سنوات ثم طلقها فإنها تجلس ثلاثة أشهر هلالية، فإن لم يحسب ذلك بالأهلة فإنها تجلس تسعين يوماً -ثلاثة أشهر-، وهكذا إذا طلق الكبيرة التي انقطع حيضها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطلاق من الآية ٤ إلى الآية ١٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة -وهي التي انقطع عنها المحيض لكبرها- أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة القروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: {وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} [سورة الطلاق (٤)].

وقوله تعالى: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} [سورة الطلاق (٤)] فيه قولان، أحدهما: وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد: أي إن رأين دماً، وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه، والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير، وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: يا رسول الله إن عِدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فأنزل الله -عز وجل-: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [سورة الطلاق(٤)] ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق، عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء، قالوا: لقد بقي من عدة النساء عِدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار اللائي قد انقطع منهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي في النساء القُصْرى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} [سورة الطلاق(٤)].

في هذه الآية ثلاثة أقوال، قلنا: إن أضعفها هو قول من قال: إن ذلك يرجع إلى أول السورة، فالله يقول في أولها: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} [سورة الطلاق (١)]، والمعنى على هذا: فإن حصل لكم ريب فالعدة ثلاثة أشهر، وقلنا: هذا اختيار القرطبي -رحمه الله.

وأما القولان الآخران فهما ما سمعتم، والذي اختاره ابن كثير هو اختيار ابن جرير أيضاً، فعلى قول ابن كثير وابن جرير ومن وافقهما تكون هذه الجملة اعتراضية {إِنِ ارْتَبْتُمْ} [سورة الطلاق (٤)] وسبب النزول يوضح ذلك، وعلى القول الآخر: {إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ} [سورة الطلاق (٤)] يكون شرطاً، والجواب: {فَعِدَّتُهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق] يعني إن حصل لكم ريب في الدم النازل بعد اليأس، أو انقطاع الدم بعد الطلاق، لو انقطع دمها فعدتها ثلاثة أشهر.

وقوله تعالى: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [سورة الطلاق (٤)] يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بِفوَاق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية.

روى البخاري عن أبي سلمة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- جالس، فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت أنا: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق] قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي -يعني أبا سلمة-، فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان أبو السنابل فيمن خطبها[١].

هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أُخر.

وروى الإمام أحمد عن المِسْور بن مخرمة -رضي الله تعالى عنه-: أن سبيعة الأسلمية -رضي الله تعالى عنها- توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلَّت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في النكاح، فأذن لها أن تنكح فنكحت[٢]. ورواه البخاري في صحيحه ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عنها.

كما روى مسلم بن الحجاج عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية، فيسألها عن حديثها، وعما قال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنْشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلَّت من نفاسها تجملت للخُطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح؟ إنكِ والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي[٣]. هذا لفظ مسلم، ورواه البخاري مختصراً[٤].

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن، ومن يتق الله يجعل لــه مــن أمره يسراً} [الطلاق: ٤] (٦/ ١٥٥- ٤٩٠٩).

٢ - أخرجه أحمد (٣١/ ٢٣٥- ١٨٩١٨) بهذا اللفظ، وهو في البخاري كما أشار المصنف في كتاب الطــلاق بــاب {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} [الطلاق: ٤] (٧/ ٥٧-٥٣٢٠) وفي مسلم في كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل (٢/١١٢٢- ١٤٨٥).

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل (٢/ ١١٢٢- ١٤٨٤).

٤ - أخرجه البخاري في كتاب المغازي (٥/ ٨٠- ٣٩٩١).

هذه الآية فيها القولان المشهوران {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق] هل هي في عموم المطلقات والمتوفى عنهن، أو أنها في خصوص المطلقة؟

فالذي ذهب إليه علي -رضي الله عنه- وابن عباس -كما هو مشهور عنهما- أن المتوفى عنها زوجها تبقى أطول الأجلين، فإذا كان بقي عليها من الحمل تسعة أشهر مثلاً، وقد توفي عنها زوجها، فإنها تبقى تسعة أشهر تعتد بالحمل، وإذا كان الباقي عليها أقل من أربعة أشهر وعشر فإنها تبقى أربعة أشهر وعشراً، خلافاً لأبي هريرة وجماعة.

والمسألة معروفة مشهورة في كلام أهل العلم، والذي عليه كثير من السلف والخلف أنها تنقضي عدتها بوضع الحمل، سواء كان متوفى عنها زوجها، أو كانت مطلقة، وهذه الأدلة تدل على ذلك، والله أعلم.

فلو أنه توفي زوجها فوضعت الحمل بعد لحظة من وفاته فإنها تكون قد خرجت من عدتها.

قوله تعالى: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [سورة الطلاق (٤)] أي: يسهل له أمره وييسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً، ومخرجاً عاجلاً، ثم قال تعالى: {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ} [سورة الطلاق (٥)] أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [سورة الطلاق (٥)] أي: يُذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [سورة الطلاق (٦-٧)].

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم} [سورة الطلاق (٦)] أي: عندكم {مِّن وُجْدِكُمْ} [سورة الطلاق (٦)] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: يعني سعتكم، حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه.

وقوله تعالى: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} [سورة الطلاق (٦)] قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها، أو تخرج من مسكنه.

وقال الثوري عن منصور عن أبي الضحى: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} [سورة الطلاق (٦)] قال: يطلقها فإذا بقي يومان راجعها.

هذا كله من المضارة، يعني بأي وجه كانت الأذية، ولأي سبب، فإنه منهي عنه، {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} [سورة الطلاق (٦)] من أجل أن تفتدي، أو من أجل أن يتخلص من هذه التبعة في السكنى، أو غير ذلك، فهذا لا يجوز له، والكلام هنا طبعاً في السكنى في المطلقة الرجعية كما سبق؛ لأن البائن لا سكنى لها ولا نفقة.

وقوله تعالى: {وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [سورة الطلاق (٦)] هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً.

طالب: في فرق بين الحامل والحائل يا شيخ؟.

نعم الحائل هي التي لا حمل في بطنها، يقال: حائل.

وقوله تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ} [سورة الطلاق (٦)] أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذٍ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللّبأ -وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به- فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [سورة الطلاق (٦)].

سبق الكلام على هذا المعنى في قوله تعالى في سورة البقرة: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ} [سورة البقرة (٢٣٣)] فالحاصل: أنه لا يجب عليها أن ترضع ولدها إلا في حالة واحدة وهي إذا رفض المراضع، أبى أن يُرضَع، فخيف عليه الضرر فإنه يجب عليها إرضاعه، وإلا فلها أن تشترط أجرة على والده لإرضاعه، والله -عز وجل- يقول: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [سورة الطلاق (٦)].

ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [سورة الطلاق (٦)] وقوله تعالى: {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ} [سورة الطلاق (٦)] أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة البقرة: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ} [سورة البقرة (٢٣٣)].

لمن يوجه هذا الخطاب {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ} [سورة الطلاق (٦)]؟ الأقرب أنه موجه للزوجين الرجل والمرأة، أن يكون بنيهما تشاور ونظر في مصلحة الولد، بعيداً عن حظوظ النفس، أو قصد المغالبة ونحو ذلك، فإنه قد تتضافر دواعي المرأة بعد الطلاق على أذية الرجل، أو مضادة رغباته، أو نحو ذلك، فالله -عز وجل- يأمرهم أن ينظروا بنظر صحيح، ويتشاوروا فيما تكون فيه مصلحة هذا الولد، فهو خطاب موجه للجميع.

قوله تعالى: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [سورة الطلاق (٦)] أي: وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها.

وقوله تعالى: {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ} [سورة الطلاق (٧)] أي: لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [سورة الطلاق (٧)] كقوله تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [سورة البقرة (٢٨٦)].

وقوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [سورة الطلاق (٧)] وعد منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [سورة الشرح (٥-٦)].

وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره هاهنا، فروى عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما رجل وامرأة من السلف الخالي، لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعاً، قد أصابته مسغبة شديدة، فقال لامرأته: عندك شيء؟ قالت: نعم، أبشر أتانا رزق الله، فاستحثها فقال: ويحكِ ابتغي إن كان عندك شيء، قالت: نعم هُنيهة، ترجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه الطَّوْل، قال: ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء، فأتيني به، فإني قد بلغت وجهدت، فقالت: نعم، الآن نفتح التنور فلا تعجل، فلما أن سكت عنها ساعة، وتحينت أن يقول لها قالت من عند نفسها: لو قمت فنظرت إلى

تنوري، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جُنُوب الغنم، ورحيَيْها تطحنان، فقامت إلى الرحى فنفضتها، واستخرجت ما في تنورها من جُنوب الغنم، قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده، هو قول محمد -صلى الله عليه وسلم-: ((لو أخذت ما في رحييها ولم تنفضها لطحنتا إلى يوم القيامة))[٥].

{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [سورة الطلاق (٨-١١)].

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ} [سورة الطلاق (٨)] أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله، ومتابعة رسله، {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا} [سورة الطلاق (٨)] أي: منكراً فظيعاً، {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا} [سورة الطلاق(٩)] أي: غِبّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم {وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} [سورة الطلاق (٩-١٠)] أي: في الدار الآخرة، مع ما عجل لهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعدما قص من خبر هؤلاء: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ} [سورة الطلاق(١٠)] أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم، فيصيبكم ما أصابهم {يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: صدقوا بالله ورسله {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق (١٠)] يعني: القرآن، كقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر (٩)].

وقوله تعالى: {رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ} [سورة الطلاق (١١)] قال بعضهم: "رسولاً" منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، قال ابن جرير: الصواب: أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني تفسيراً له؛ ولهذا قال تعالى: {رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ} [سورة الطلاق (١١)] أي: في حال كونها بينة واضحة جلية.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا} [سورة الطلاق (١٠-١١)] فعلى قول ابن جرير -رحمه الله-: يكون الرسول بدلاً من الذكر، يعني أنه مفسر له، بمعنى أن الذكر فسر بالرسول، وبعضهم يعبر بالرسالة {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا} [سورة الطلاق (١٠-١١)] ما هذا الذكر؟ هو الرسول، ويقدره بعضهم هكذا: {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق (١٠)] أرسل رسولاً، وبعضهم يفسر الرسول بالرسالة، يقول: {رسولاً} أي: بمعنى رسالة، {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق(١٠)] هذا الذكر هو الرسالة.

وكل هذا على اعتبار أنه بمعنى الأول، يعني الرسول بمعنى الذكر، أي أن الرسول والذكر شيء واحد، وهذا قول ابن جرير -رحمه الله- عموماً وإن اختلف العلماء في توجيه ذلك.

---

٥ - أخرجه أحمد (١٥/ ٢٧٦ – ٩٤٦٤) وفي سنده شهر بن حوشب، قال الألباني: "وشهر بن حوشب ضعيف، وفي حديثه زيادات منكرة" انظر الضعيفة (٥٤٠٦).

والقول الآخر الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أولاً هو أن الرسول يختلف عن الذكر {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق (١٠)] هو هذا القرآن، وبعضهم يقول: الذكر هنا بمعنى الشرف، وهذا لازم من القول الذي قبله، يعني أن القول بأنه الشرف لازم من القول بأنه القرآن؛ لأن إنزال القرآن عليهم فيه تشريف لهم، لكنه لا يفسر به استقلالاً، ولكن لو عطف عليه عند التفسير وعند ذكر المعنى فالأمر يمكن أن يوجه بهذه الطريقة.

وكأنهم تأولوا قوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} [سورة الأنبياء (١٠)] يعني: شرفكم، على أحد المعاني المذكورة في الآية، والمعنى الآخر: {فِيهِ ذِكْرُكُمْ} أي: ما يحصل به التذكير، وطرد الغفلة، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

فعلى كل حال الذكر يأتي بمعنى الشرف، ويأتي بمعنى التذكر، فالأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير الآية: {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق (١٠)] هو هذا القرآن أو الوحي، ثم قال: {رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ} [سورة الطلاق (١١)] هنا وجه ارتباط بين الذكر وبين الرسول؛ لأن الذي يأتي بالذكر هو الرسول، وكأنه أشار إلى هذا المعنى حينما قال: بدل اشتمال لنوع ملابسة، يعني بين الذكر والرسول.

فالحاصل إذا قلنا: إن الذكر غير الرسول، وهو المعنى المشار إليه أولاً، الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [سورة الطلاق (١٠)] فيعني: القرآن {رَّسُولًا} [سورة الطلاق (١١)] يعني: وأرسل رسولاً يتلو عليكم، والعلم عند الله -عز وجل.

{لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [سورة الطلاق (١١)] كقوله تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [سورة إبراهيم (١)] وقال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ} [سورة البقرة (٢٥٧)] أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الشورى (٥٢)].

وقوله تعالى: {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [سورة الطلاق (١١)]، قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد والمنة.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق (١٢)].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم؛ ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [سورة الطلاق (١٢)] كقوله تعالى إخباراً عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [سورة نوح (١٥)] وقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} [سورة الإسراء (٤٤)] وقوله تعالى: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [سورة الطلاق (١٢)] أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: ((من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع

أرضين))[٦] وفي صحيح البخاري: ((خسف به إلى سبع أرضين))[٧] وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة، ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النُّجْعة، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند.

آخر تفسير سورة الطلاق، ولله الحمد والمنة.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [سورة الطلاق (١٢)] خلق سبع سماوات، السماوات إذا ذكرت في القرآن لا تكاد تذكر إلا مجموعة، وأما الأرض فإنها تذكر مفردة (السماوات والأرض) وبعض أهل العلم يوجه هذا باعتبار أنه إن كان المراد بذلك ذكر العلو والسفل فإنه تذكر السماء والأرض مفردة (السماء والأرض) وإذا كان المراد بذلك العدد فإنه تذكر السماوات مجموعة، ويذكر ما يدل على جمع الأرض، كقوله هنا: **{وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** [سورة الطلاق (١٢)].

وكذلك في السنة: ((طوقه من سبع أرضين))[٨] فإن المقصود العدد وليس المقصود العلو والسفل، وإذا قال: **{فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ}** [سورة الذاريات (٢٣)] يعني ما علا، ولكن السماوات إذا ذكرت مجموعة، وذكرت الأرض مفردة فمن أهل العلم من يقول: لشرفها وشرف ساكنها، يعني السماء تجمع، ومنهم من يقول: إن الأرض لما كان الإنسان إنما يرتبط بسطحها وظاهرها وليس لديه من المعرفة والتفاصيل عن بقية الطبقات، وكذلك أيضاً التكليف أو أهل التكليف كانوا على سطحها، وأما السماوات فقد ذكر الله -عز وجل- بعض الأمور عنها، وجاء في السنة، فالسماوات تذكر مجموعة، والأرض تذكر مفردة، وبعضهم يقول: لما كانت الأرض صغيرة جداً بالنسبة للسماء ذكرت مفردة، وذكرت السماوات مجموعة، وعلى كل حال الأرض جنس يصدق على الواحد وعلى العدد، فإذا قال: **{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [سورة الرعد (١٦)] فإن الأرض تصدق على الجميع، والله تعالى أعلم.

---

٦ - أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٣/ ١٣٠- ٢٤٥٣).

٧ - أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٣/ ١٣٠- ٢٤٥٤).

٨ - أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٣/ ١٣٠- ٢٤٥٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التحريم من الآية ١ إلى الآية ٥

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة التحريم وهي مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [(١-٥) سورة التحريم].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسورة التحريم سميت بذلك للسبب الذي نزل صدرها من أجله، وهو ما وقع من النبي -صلى الله عليه وسلم- من التحريم، تحريم العسل أو تحريم الجارية، وليس فيها لفظة بهذه الصيغة –أي المصدر: التحريم- وإنما في أولها: {لِمَ تُحَرِّمُ} [(١) سورة التحريم].

وذكرنا مراراً أن أسماء السور تتنوع، فمنها ما يسمى باسم أول السورة {قَدْ سَمِعَ} [(١) سورة المجادلة] مثلاً، أو موضوعها مثل: الإخلاص، أو بواقعة حصلت فيها مثل: البقرة، أو نحو ذلك.

فالحاصل أن هذه السورة قطعاً من السور المدنية، والموضوع الذي تتحدث عنه يمكن أن نقول: إنها تتحدث في صدرها عن قضية التحريم التي وقعت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، بسبب ما وقع من أزواجه -رضي الله عنهن-، ومَن نظرَ وجدَ أن آخرها مرتبط بأولها، فالله -عز وجل- لما ذكر التحريم وجه الخطاب إلى أمهات المؤمنين، ودعاهن إلى التوبة وخيّرهن.

فالحاصل أنه في آخرها ضرب مثلين، مثلاً لأهل الإيمان ومثلاً للكافرين، أما أهل الإيمان فضرب لهم مثلاً يبين فيه أن الإنسان إذا كان صالحاً تقياً فإنه لا يضره عمل غيره ولو كان مقترناً أو مرتبطاً أو مبتلىً من جهة قرابته بأسوأ الخلق، كحالة امرأة فرعون.

وضرب مثلاً للكفار بامرأتين سيئتين، اقترنتا وارتبطتا بأصلح أهل زمانهما، هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- نوح ولوط، فلم ينفعهما ذلك، ووجه الارتباط بين آخرها وأولها كأنه يقول لأمهات المؤمنين: ليس هناك إلا العمل الصالح، فإن القرب من النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يكفي وحده لتحقيق الفوز والنجاة، بل

لابد من الجد والاجتهاد في طاعة الله -عز وجل-، وبهذا الاعتبار كأن السورة تتحدث عن موضوع واحد في الجملة، وبين ذلك خطاب للكافرين، ووعيد لهم كما ترون في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [(٩) سورة التحريم] وقبله قال: {لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} [(٧) سورة التحريم] وخاطب المؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ} [(٦) سورة التحريم] وهذا يمكن أن يرجع إلى الموضوع الأصلي، أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- وقع منهن هذا، فالله يحث أهل الإيمان على حمل من تحت ولايتهم على طاعة الله -عز وجل-، ثم قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} [(٧) سورة التحريم] والله تعالى أعلم.

روى البخاري في كتاب الإيمان والنذور عن عبيد بن عمير قال: سمعت عائشة -رضي الله تعالى عنها- تزعم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة أنّ أيَّتَنا دخل عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟

يشرع الآن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في بيان ذكر سبب النزول، عامة الروايات الصحيحة سواء كانت في الصحيحين أو في غيرهما على أن صدر هذه السورة قضية التحريم، هذه الآيات المتعلقة بالتحريم {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ} [(١) سورة التحريم] أنها نزلت بسبب تحريم النبي -صلى الله عليه وسلم- على نفسه العسل، بسبب تواطؤ بعض أزواجه.

هنا في هذه الرواية -كما ترون- عائشة وحفصة، وفي بعض الروايات دخل معهن في ذلك بعض أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم.

المقصود أن الأمر يرجع إلى تحريم العسل، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وقد جاءت فيه أصح الروايات، وهناك روايات أخرى متعددة تدل على أن السبب في ذلك هو تحريم الجارية، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وطأ جاريته، فعلم بذلك بعض نسائه كعائشة وحفصة، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعْد ذلك إرضاءً لهما قال ما قال من تحريم الجارية.

فعلى كل حال من أهل العلم من سلك مسلك الترجيح، وأخذ بمثل هذه الروايات المشهورة في الصحيح وفي غيره، فقالوا: إن السبب هو تحريم النبي -صلى الله عليه وسلم- العسل، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبه قال جمع غفير من أهل العلم من السلف والخلف -رضي الله تعالى عنهم.

ومن أهل العلم من قال: نزلت بسبب تحريمه الجارية، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن الآية نزلت بسبب هذه الأمور مجتمعة؛ لأنه صحت الروايات بمجموعها في أن ذلك نزل بسبب تحريمه الجارية، ونحن ذكرنا في قواعد التفسير في بعض المناسبات أن أسباب النزول قد تتعدد، وتكون صحيحة صريحة، عندئذٍ يُنظر إن كان النزول متقارباً: قيل: إن هذه الآية أو الآيات نزلت بعد هذه الوقائع، وإن كان متباعداً: قلنا: إن الآية نزلت أكثر من مرة، هنا قد لا يمكن أن يقال: إن الآية نزلت أكثر من مرة؛ لأن الله نهى نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن أن يحرم ما أحل الله له، عاتبه على هذا، فهل يتصور أنه يتكرر منه؟! حاشا وكلا، والروايات صحت في هذا وهذا، فماذا عسى أن يقال؟

إما أن نسلك مسلك الترجيح وفيه إهدار لبعض الروايات، أو أننا نقول: إن الآية أو الآيات نزلت بسبب هذه الأمور مجتمعة، حصلت في أوقات متقاربة، فأنزل الله هذه الآيات التي تتحدث عنها {لِمَ تُحَرِّمُ} [(١) سورة التحريم] كالعسل والجارية، ولا شك أننا لو أردنا أن نرجح لرجحنا؛ لأن الروايات التي وردت في هذا أصح وأقوى، وهو أحد طرق الترجيح، من جهة الثبوت والصحة، كالمخرج في الصحيحين ونحو ذلك يُرجح ويقدم على غيره إذا احتيج إلى الترجيح، والقاعدة: أن الجمع مطلوب ما أمكن، فهو قبل الترجيح، هذه خلاصة فيما يتعلق بسبب النزول.

فتواطأت أنا وحفصة أنّ أيَّتنا دخل عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت ذلك له، فقال: ((لا)).

المغافير معروفة، ما هي المغافير؟ صمغة، رائحة غير جيدة، مثل العسل الأسود، هي صمغة لها رائحة، يعني هي أكلة –صمغة- لها رائحة غير جيدة، غير مستساغة.

أكلت مغافير؟ واحدها: مغفور، قلن ذلك من باب الغيرة، وكان يطوف على نسائه بعد صلاة العصر، وهذا مما يستدل به على أن النهار لا تملكه من كانت ليلتها، لا تملك إلا المبيت، أما النهار فليس لها أن تحجر عليه، أو أن تطالبه بالبقاء عندها نهاراً، وإنما له أن يطوف على نسائه نهاراً من غير محاباة.

فقالت ذلك له، فقال: **((لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له))**...

زينب بنت جحش -رضي الله عنها- هي في الفريق الثاني، فأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم كنّ على حزبين، كما جاء في بعض الروايات، بينهن مغايرة ومنافسة، فزينب كانت تمثل الفريق الآخر، بل هي التي كانت تسامي عائشة كما جاء عن عائشة -رضي الله عنها-، يعني تنافسها في الشرف والمنزلة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتي إليها بعد العصر، ويشرب عندها العسل، فغِرنَ منها ففعلن ذلك.

لكن على كل حال كما قلت لكم: أصل الآية نازلة في هذا، بغض النظر عن التفاصيل، من التي كان يشرب عندها العسل؟ من اللاتي اشتركن في هذا وتواطأن عليه؟ تجد في بعض الروايات شيئاً من التفاوت، لكنه لا يضر.

فنزلت: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [(١) سورة التحريم] **إلى قوله تعالى:** {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] **لعائشة وحفصة.**

لاحظ الآن أن هذه الرواية إلى هذا الحد ليس فيها قَسَم، ما حلف النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا في هذه الرواية، وقول الله -عز وجل-: {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] يعني: إن تتوبا إلى الله فقد أتيتما ما يستوجب التوبة، ويدعو إليها.

{فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] هذا ذكر ما يوجب عليهما التوبة، ذكر الإساءة.

صغت: أي زاغت ومالت، والمقصود بالزيغ والميل هاهنا هو أنهن هوين وأحببن ما كرهه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وفارقنه فيما يميل إليه، فحصل منهن ما حصل، فكان ذلك سبباً لحرمانه -عليه

الصلاة والسلام- من هذا العسل، ووقوعه في هذا التحريم، هذا معنى {صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] أي: مالت وزاغت، وليس المقصود به الضلال، وإنما المقصود ما ذكرتُ، والله تعالى أعلم.

فقوله: {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] يعني: هذا موجب التوبة، حصل منكن ما يوجبها.

{وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} [(٣) سورة التحريم] لقوله: ((بل شربت عسلاً)) وقال إبراهيم بن موسى عن هشام...

((بل شربت عسلاً)) ويأتي في بعض الروايات أنه قال لها: ((لا تخبري بذلك)) أو أنه في قصة الجارية قال: ((لا تخبري فلانة)) {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} [(٣) سورة التحريم] والله أعلم.

وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: ((ولن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً))[1].

لاحظ الآن قوله: ((وقد حلفت)) هذه مهمة جداً في الموضوع، فالكلام على حكم التحريم، فهذا التحريم يتوجه إلى ماذا؟ من أهل العلم من يقول: إن التحريم لا يتوجه إلا إلى المرأة فقط، فلو حرم على نفسه طعاماً، أو متاعاً أو مركباً أو نحو ذلك فهو لغو، لا يجوز لكنه لا يترتب عليه شيء، وإنما يتوجه ذلك إلى المرأة فحسب.

ومن أهل العلم من يقول: إنه يقع على المرأة وعلى غيرها، كما وقع هنا بسبب العسل، وقول من قال: إنه هنا بسبب العسل يؤخذ منه أمران، الأمر الأول: أن التحريم يقع في غير المرأة، والأمر الثاني: أن ما يتعلق بتحريم المرأة، وما ذُكر فيه من أنه طلاق أو ظهار أو غير ذلك -على القول بأنها نزلت في العسل- ليس في الآية ما يدل على حكمه إلا من جهة واحدة أن التحريم لا يجوز؛ لأن الله عاتبه على هذا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [(١) سورة التحريم].

لكن الرواية الأخرى من أن ذلك نزل بسبب الجارية فعندئذٍ يقال: من حرم امرأته عليه فما الذي يترتب على هذا؟ وهذا كثير من الناس يسألون عنه، لا يكاد يمر يوم إلا وسائل يسأل قال لامرأته: عليّ الحرام، أنتِ حرام عليّ، وما أشبه ذلك من العبارات، وبعضهم يجمع بين تحريم وظهار وطلاق، ولا يدري ما قال، ولو سألته في بعض العبارات التي قالها وأدخل بعضها في بعض ما يعرف شيئاً.

فالمقصود على القول بأنه نزل بسبب الجارية، فهنا يأتي الكلام على مسألة تحريم المرأة ما الذي يوجبه؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- ما نُقل عنه إطلاقاً أنه كفر كفارة الظهار، وما أمره الله -عز وجل- بذلك، وإنما قال: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] والقرطبي -رحمه الله- في التفسير ذكر في هذه المسألة عن أهل العلم من السلف وعلماء الأمصار ثمانية عشر قولاً، مسألة التحريم إذا حرم امرأته ما الذي يترتب عليه؟ ما حكم هذا الخلاف؟ هم متفقون على أن التحريم لا يجوز، لكن ما الذي يترتب عليه؟ هذا الخلاف الطويل الواسع.

والعجيب كما يقول الشنقيطي -رحمه الله-: إن أقوى الأقوال في هذه المسألة ثلاثة متناقضة، وهذا له وجه قوي من النظر -الكلام الذي ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله-، فعلاً هي من أقوى الأقوال، هذه الأقوال أحدها: أنه لغو لا كفارة فيه، لكنه لا يجوز طبعاً، لغو، لا يترتب عليه شيء.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حرم طعامه (٨/ ١٤١- ٦٦٩١).

طيب {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- حلف هنا إن كان في قضية العسل، أو هناك حلف أن لا يطأها فهذه الجملة {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] بسبب أنه حلف، لكن لو ما حلف؟ قالوا: هذا لغو، حرم ما أحل الله، وهذا لا يتغير في حقيقة الحكم، في حقيقة الأمر، فهو لغو، لا يترتب عليه شيء ولكنه لا يجوز، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فعله لم يكن عاصياً لله -عز وجل- حاشا وكلا، ولكن قبل أن ينزل الحكم، نزل الحكم بعد هذا.

القول الثاني: وهو الذي ذهب إليه الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، وهذه الأقوال تجد فيها أئمة كباراً من الصحابة فمن بعدهم، أحياناً تجد في قول من الأقوال: قال به أبو بكر وعمر وجماعة من الصحابة، وقول آخر قال به عثمان، وقول آخر تجد فيه: قال علي -رضي الله عنه-، وقول تجد فيه ابن عباس وعائشة وابن مسعود، فالمسألة بهذه الطريقة، منذ عهد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ابتداءً من العشرة فمن بعدهم، ومنشأ الخلاف هو هذا، القضية النبي -صلى الله عليه وسلم- حرم، والآية: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] هل التحريم بسبب العسل أو الجارية؟ إن كان بسبب العسل فلا يؤخذ من الآيات حكم تحريم المرأة أنه حرام، إلا أن أجرينا الجميع على وزان واحد، وقلنا: لا فرق بين تحريم العسل وتحريم المرأة، المطعوم والملبوس والمنكوح، وكل شيء يمكن أن يحرمه الإنسان فالجزاء فيه واحد، فالمقصود هنا: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سواء حرم هذا أو هذا، فعلى أنه الجارية قال الله: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] من نظروا إلى الحلف الوارد في الرواية قالوا: هذا بسبب أنه حلف، لكن لو ما حلف ليس فيه شيء، لغو.

والقول الآخر: قال به إسحاق وأحمد وأئمة كبار، قالوا: فيه كفارة الظهار، من حرم امرأته فعليه كفارة ظهار، الكفارة المغلظة، عتق، فإن لم يستطع فصيام شهرين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، قالوا: هذا بمثابة الظهار باعتبار أنه جعل هذه المرأة محرمة عليه، والتي تحرم عليه هي أمه أو أخته أو المرأة الأجنبية أيضاً؛ لأن الراجح في الظهار -والله تعالى أعلم- أنه لا يختص بالأم، ولا يختص بالظهر، ولا يختص بالمحارم اللاتي يحرمن عليه تحريماً مؤبداً، وإنما كل امرأة تحرم عليه، فلو قال: أنت علي كأم الجيران، أو كبنت فلان ممن تحرم عليه تحريماً مؤقتاً، أو قال: كزوجة فلان أو نحو ذلك، أو تحريماً مؤبداً قال: كعمتي وخالتي وابنتي كل ذلك ظهار، الآن هنا على هذا القول يكون ظهاراً، وهذا من أقوى الأقوال، لاحظ الآن هذا لغو، وهذا ظهار، تناقض.

والقول الآخر الثالث: أن فيه كفارة اليمين، وهذا قال به جمع كبير من الصحابة فمن بعدهم، كفارة يمين؛ لماذا كفارة يمين؟ قالوا: لأن الله قال: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم] فأياً كان السبب الجارية أو العسل فهذا الجزاء مذكور في الآية، ولكن إذا نظرنا إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حلف، فنقول: من لم يحلف ليس عليه، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه بحسب نيته، إن قصد اليمين فعليه كفارة يمين، وإن قصد الظهار فهو ظهار، وإن قصد الطلاق فهو طلاق، وبعضهم يقول: هو ثلاث تطليقات، وبعضهم يقول: طلقة واحدة بائنة، وبعضهم يقول: طلقة واحدة رجعية، وتفاصيل كثيرة جداً، واضح؟

لكن كثير من هذه الأقوال لا دليل عليه، إنما الذي له تعلق بسبب النزول، أو بظاهر الآية قد يكون أقرب ذلك، هذه الأقوال الثلاثة.

فإذا أراد أن يحتاط الإنسان فيخرج كفارة ظهار، ومن قال: إنه كفارة يمين عرفتم وجه هذا، والجواب عنه، ومن قال: إنه لغو لكنه يحرم، كلامه له وجه ظاهر، باعتبار أنه إن لم يحلف يكون قد حرم شيئاً لم يحرمه الله -عز وجل- فلا يترتب عليه شيء، على كل حال الروايات هذه تفسر الآية {وَإِذْ أَسَرَّ} [(٣) سورة التحريم] هنا قال: ((فلا تخبري بذلك أحداً)) يعني موضوع العسل، وإن كان موضوع الجارية قال: ((لا تخبري فلانة)).

وهكذا رواه في كتاب الطلاق بهذا الإسناد، ولفظه قريب منه، ثم قال: المغافير: شبيه بالصمغ، يكون في الرِّمث فيه حلاوة، أغفر به الرمث إذا ظهر فيه.

يعني هذا النوع من النبات –الرمث- معروف إلى اليوم، تعرفونه، يفرز هذه الصمغة، يفرزها هذا النبت، ما تلاحظون بعض النباتات يفيض صمغاً أياً كان نوعه؟ فهذا النبات يفرز هذه الصمغة التي لها رائحة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتأذى -وهذا من شمائله وكريم أخلاقه -عليه الصلاة والسلام- أن توجد منه الرائحة يعني التي يكرهها الناس، يأكل شيئاً أو نحو ذلك، لا سيما أنه يناجي الملك.

واحدها مغفور، ويقال: مغافير، وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعُشر والثُّمام والسَّلَم والطلح.

هذه أنواع من الأشجار معروفة في الحجاز، قد يؤخذ منها هذا، تفرز هذه الصمغة.

قال: والرِّمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحَمْض، قال: والعُرْفط: شجر من العضاه، ينضح المغفور.

شجر من العضاه الشجر الذي له شوك، وهذا كثير في أرض الحجاز.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق من صحيحه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- به، ولفظه كما أورده البخاري في الأيمان والنذور، ثم روى البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي -صلى الله عليه وسلم- شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة...

لاحظ الآن الروايات عائشة غارت من حفصة هنا، فكلمت سودة، هذا لا يضر، هذا التفصيل لا حاجة إليه، يعني لا نستفيد إذا عرفنا أن هذا بالضبط وقع من حفصة وعائشة، وشاركت في ذلك سودة، في مقابل زينب مثلاً، لا يترتب على هذا عمل، فليس ذلك من صلب العلم، بل ولا من ملح العلم، وإنما هو من فضول العلم، لكن يبقى أصل الموضوع هو الذي يترتب عليه فائدة، ما الذي حرمه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ لأنه ينشأ من ذلك أحكام.

فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟، فإنه سيقول لك: ((لا)) فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟، فإنه سيقول لك: ((سقتني حفصة شربة عسل)) فقولي: جرَسَتْ نحلُه العُرْفُط، وسأقول ذلك...

يعني في النتيجة في المآل واحد، ما أكلت مغافير، إذاً النحل امتص هذه الصمغة، أو هذا النبات الذي يكون بهذه الرائحة، وهذا ينتج في رائحة العسل وطعمه، بحسب ما أخذ.

فقولي: جرَسَتْ نحلُه العرفط، وسأقول ذلك، وقولي له: أنتِ يا صفية ذلك، قالت: تقول سودة: فو الله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتِني...

خافت منها، فهي مستوفزة تنتظر متى يدخل حتى تلقي هذا عن كاهلها، وتقول: قلت له ذلك، بمجرد ما رأته أرادت أن تقول من بعيد: أكلت مغافير؟ قبل أن يقترب منها، وتجد هذه الرائحة.

فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: ((لا)) قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: ((سقتني حفصة شربة عسل)) قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إليّ قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه، قال: ((لا حاجة لي فيه)) قالت: تقول سودة: والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي[٢] هذا لفظ البخاري.

يعني كأن سودة ندمت، فخافت عائشة أن يظهر الأمر وتعتذر إليه، وتنكشف هذه القضية، فقالت لها: اسكتي، لا تتكلمي بهذا.

وقد رواه مسلم، وعنده قالت: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشتد عليه أن يوجد منه الريح[٣].

يعني: الريح الخبيثة، ولهذا قلن له: أكلت مغافير؟ لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: ((بل شربت عسلاً)) قلن: جرست نحله العرفط، أي: رعت نحله شجر العرفط، الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته، قال الجوهري: جرست النحل العرفط تجرس إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس، قال الشاعر:

تَظَلُّ على الثمراءِ منها جوارسٌ

وقال: الجَرْس والجِرْس الصوت الخفي، ويقال: سمعت جرس الطير إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وفي الحديث: ((فيسمعون جرس طير الجنة))[٤] قال الأصمعي: كنت في مجلس شعبة، قال: "فيسمعون جرش طير الجنة" -بالشين-، فقلت: جرس، فنظر إلي فقال: خذوها عنه، فإنه أعلم بهذا منا[٥]، والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل.

على كل حال مثل هذا أمر يقع بين الأزواج بسبب المغايرة، والله -عز وجل- جبلهن على هذه المغايرة، فتصدر منهن أمور قد لا تستطيع الواحدة أن تسيطر على مشاعرها وعلى تصرفاتها الناتجة عن هذا، فيصدر

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب: {لم تحرم ما أحل الله لك} [التحريم: ١] (٧/ ٤٤- ٥٢٦٨) وفي كتاب الحيل، باب ما يكره من احتيال المرأة مع الزوج والضرائر، وما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك (٩/ ٢٦- ٦٩٧٢).

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق (٢/١١٠١- ٢١) (١٤٧٤).

٤ - لم أعثر على هذا الأثر بهذا اللفظ بعد البحث والتتبع.

٥ - انظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ٢٥٦).

منها ويبدر منها هذا، والله -عز وجل- له حكمة في هذا كله، ولا ينقص ذلك من أقدارهن، فكُنّ بتلك المنزلة عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع هذا، وكان يقع بينهن -مثل عائشة وزينب- من المنافسة والمنافرة والمجاوبة أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو لا يزيد على أن يتبسم، بل لربما من لطفه -عليه الصلاة والسلام- يقول للأخرى: أجيبي فلانة، ولما تأخذ الواحدة القصعة وتكسرها أمام الضيف -ترسل جاريتها وتكسرها- يأخذ الطعام ويضعه في القصعة الأخرى، ويقول: ((طعام بطعام))[٦] ولم يترتب على هذا شيء. واجتمعن عليه يطالبنه بالزيادة في النفقة، ونزلت الآيات المعروفة: **{إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}** [(٢٨) سورة الأحزاب] و**{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ}** [(٥) سورة التحريم]... إلى آخره.

فاخترن الله ورسوله، والإنسان إذا كان شريفاً عظيماً، كثير الحسنات، كثير البر والمعروف والخير والطاعة فإن مثل هذه الهنّات تنغمر في بحر حسناته، أما ترى أن الماء إذا بلغ القلّتين لم يحمل الخبث؟! وهؤلاء بحور في الفضل والدين والتقى والصلاح، وهن أزواجه -عليه الصلاة والسلام- في الجنة، وكل الناس عندهم من التقصير والضعف الذي ينتابهم في بعض الأحيان مما هو شأن البشر، ولكن العبرة بما غلب على الإنسان من الفضائل والحسنات.

لكن حينما تصدر بعض الأفعال من المفاليس فهنا تكون المشكلة، ممن ليس له فضل، ولا حسنات عظيمة، فهنا يكون الإشكال، حاطب بن أبي بلتعة أفشى سر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المشركين، ومع ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر: ((أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، قد غفرت لكم))[٧] إلى غير هذا لمن أراد أن يتتبعه، ولكن من مرض قلبه، فوقع على مثل هذه الأشياء، وجعلها هي السمة لمثل هؤلاء الكبراء والفضلاء والعظماء، ولمزهم وغمزهم بسبب ذلك، فلا شك أنه ضال مضل منحرف.

وهؤلاء أمهات المؤمنين **{وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** [(٦) سورة الأحزاب] -رضي الله عنهن وأرضاهن-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[٨].

---

٦ - أخرجه الترمذي في أبواب الأحكام، باب ما جاء فيمن يكسر له الشيء ما يحكم له من مال الكاسر (٣/ ٦٣٢- ١٣٥٩) وغيره، وصححه الألباني في الروض النضير (٩٣) والإرواء (١٥٢٣). وهو في البخاري في كتاب النكاح، باب الغيرة (ج١٦/ص٢٤٦- ٤٨٢٤).

٧ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس(٤/ ٥٩- ٣٠٠٧) وفي كتاب الجهاد والسير، باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة، والمؤمنات إذا عصين الله، وتجريدهن (٤/ ٧٦- ٣٠٨١) وفي كتاب تفسير القرآن، باب: {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} [الممتحنة:١] (٦/ ١٤٩- ٤٨٩٠) وفي كتاب الاستئذان، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره (٨/ ٥٧- ٦٢٥٩). ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة (١٦١ - ٢٤٩٤- ١٩٤١).

٨ - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة -رضي الله عنها- (١٣٧٥/٣- ٣٥٥٩) ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- رقم (٢٤٣١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة التحريم تكملة الآية ٣ إلى الآية ٨

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عائشة، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة: أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم.

وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُعد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا شك أن القول بأن ذلك مما تعدد في أسباب النزول: في غاية البعد، أعني مثل هذه الروايات في شرب العسل خاصة، وذلك أنه لا يمكن أن تنزل الآيات في هذه القضية تنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن تحريم ما أحل الله له، ثم بعد ذلك يقع فيه مرة ثانية، من هذه الحيثية.

وأيضاً يبعد أن يكون ذلك أيضاً قد تكرر -وإن لم يكن سبباً للنزول- يعني في كل مرة، والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، وهذه الأسماء المشتركة أن التواطؤ كان على زينب، ومرة كان التواطؤ على حفصة يبعد أن يكون بهذه الصورة؛ لأن القضية ستكون مدركة، فسواء كانت حفصة -رضي الله عنها- في إحدى المرات متواطئة، وفي مرة أخرى متواطأ عليها، فهي ستعرف القضية، وعلى كل حال وبنفس السياق، وبنفس الطريقة، وبنفس الكلام في شرب العسل: إني أجد منك ريح مغافير، فالأمر غير طبيعي، ففيه بُعد، لكن ربما يكون ذلك من باب اختلاف الرواة في تسمية من وقع منهن ذلك، وسيأتي حينما سأل ابن عباس عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن اللتين تظاهرتا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: هما حفصة وعائشة، وأما ما يتعلق بسبب النزول فيمكن أن يقال كما سبق: إن سبب النزول هو شربه للعسل، وما حصل من بعض أزواجه في ذلك، إضافة إلى سبب آخر وهو تحريم الجارية، فيكون ذلك جميعاً هو سبب نزول الآية، وعرفنا أن الأسباب قد تتعدد، ويكون النازل واحداً.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة -رضي الله تعالى عنهما- هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- اللتين قال الله تعالى: {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] **حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرّز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج**

النبي -صلى الله عليه وسلم- اللتان قال الله تعالى: {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم]؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي عائشة وحفصة، قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليراجعنه، ولتهجره إحداهن اليوم إلى الليل...

معنى: تراجعه أنها ترد عليه، وتناقش، وتبدي وجهة نظرها ورأيها، ولا تسكت وتنقاد وتنصاع لما يأمرها به، كما كان الشأن بالنسبة للقرشيات، لشدة طاعتها وإذعانها لزوجها لا ترد عليه كلامه، بخلاف نساء المدينة في ذلك الوقت.

فوالله إن أزواج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا تسأليه شيئاً، واسأليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم -أي أجمل- وأحب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منكِ -يريد عائشة-، قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاءً...

معنى: تُنعل الخيل يعني ماذا؟

طالب: تُهيئها.

وتضع لها النعل، حديدة في أسفل الحافر.

ثم أتى عشاءً فضرب بابي، ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك...

غسان مما يلي الروم من العرب، وكان المنافقون -كما هو معلوم- قد ذهب بعضهم إلى أبي عامر الراهب من المشركين من أهل المدينة، ذهب إلى الروم يستنجد بهم، ويدعوهم إلى غزو المدينة، غزو النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لتخليصهم منه، والمنافقون متواطئون على هذا، وبنوا مسجد الضرار في شمال المدينة، يعني المكان الذي هو مدخل المدينة، مما يلي بلاد الشام، من الشمال، ينتظرون قدوم الروم من أجل أن ينخرطوا في جيشهم، ويدلوهم على المداخل والأماكن، ويدلوهم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى أبي بكر وعمر، كما هو الشأن في حال المنافقين في كل زمان ومكان، فكانوا ينتظرون مجيء الروم، فإذا سمعوا شيئاً، أو حدث شيء، قالوا: جاءت الروم، جاءت غسان.

بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة

وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عندهم قليلاً، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا هو متكئ على رمال حصير، وقد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: ((لا)) فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبتُ علي امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟، فو الله إن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله، فإذا هي قد هلكت، فتبسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقلت: يا رسول الله قد دخلتُ على حفصة فقلت: لا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنسُ يا رسول الله...

أستأنس يا رسول الله، يقول: أكملُ أتحدث معك وأجلس؟ كره أن يثقل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني: هل أسترسل بالحديث؟

قال: ((نعم)) فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أُهُباً ثلاثةً...

أُهُباً ثلاثة: جمع إهاب، والإهاب ما هو؟ الجلد، وبعضهم يقول: الجلد الذي لم يدبغ؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيما إهاب دبغ فقد طهر))[1] فقبل الدباغ يقال له: إهاب، وبعضهم يقول: الجلد مطلقاً سواء كان مدبوغاً أو غير مدبوغ، يعني هذا البيت ليس فيه شيء، جاء في هذه الرواية قال: "في مشربة" غرفة فوق، في الأعلى، وجاء في بعض الروايات: أن الدرج جذع نخل قد نُقر.

فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، وقال: ((أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولائك قوم عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا)) فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة مَوجِدته عليهن حتى عاتبه الله -عز وجل-[2].

---

١ - أخرجه الترمذي في أبواب اللباس باب ما جاء في جلود الميتة إذا دبغت (٤/٢٢١- ١٧٢٨) وابن ماجه في كتاب اللباس، باب لبس جلود الميتة إذا دبغت (٢/ ١١٩٣- ٣٦٠٩) والنسائي في كتاب الفَرَع والعتيرة، باب جلود الميتة (٧/ ١٧٣- ٤٢٤١) وأحمد (٣/ ٣٨٢- ١٨٩٥). وهو في صحيح مسلم في كتاب الحيض، باب طهارة جلود الميتة بالدباغ (١/ ٢٧٧- ١٠٥) (٣٦٦) بلفظ: ((إذا دبغ الإهاب فقد طهر)).

٢ - أخرجه أحمد (١/٣٤٦- ٢٢٢).

وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق، وأخرجه الشيخان عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه، فقلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ هذا لفظ البخاري[٣].

ولمسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [(٤) سورة التحريم] قال: عائشة وحفصة، ثم ساق الحديث بطوله، ومنهم من اختصره[٤].

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه، وذلك قبل أن يُؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمنّ ذلك اليوم.. فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعْظِه إياهما إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أسكُفَّة المشربة...

يعني: على العتبة، على المدخل.

على أسكُفَّة المشربة، فناديت، فقلت: يا رباح استأذن لي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذكر نحو ما تقدم... إلى أن قال: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت -وأحمد الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت هذه الآية -آية التخيير-: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [(٥) سورة التحريم] فقلت: أطلقتهن؟ قال: ((لا)) فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [(٨٣) سورة النساء] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر[٥].

وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومقاتل بن حيان والضحاك وغيرهم: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [(٤) سورة التحريم] أبو بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما-، زاد الحسن البصري: وعثمان -رضي الله تعالى عنه-. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [(٤) سورة التحريم] قال: علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب الغرفة والعُلِّية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (٣/ ١٣٣-٢٤٦٨).

٤ - أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى: {وإن تظاهرا عليه} [التحريم: ٤] (٢/ ١١١١- ٣٤) (١٤٧٩).

٥ - أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى: {وإن تظاهرا عليه} [التحريم: ٤] (٢/ ١١٠٥- ٣٠) (١٤٧٩).

على كل حال هذا يصدق على كل من اتصف بهذه الصفة، ومِن أولى مَن يدخل بذلك هؤلاء الخلفاء الأربعة -رضي الله تعالى عنهم-، ولا يختص بواحد منهم، وقد يذكر هذا على سبيل المثال، وقد يذكره بعضهم على سبيل المقابلة، بمعنى أن بعض من يتشيع قد قول: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [(٤) سورة التحريم] أي: عليٌّ، ويأتي من يقابله فيقول: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [(٤) سورة التحريم] أي: أبو بكر وعمر وعثمان، وكل هؤلاء لا شك أنهم ممن ينطبق عليهم هذا الوصف.

وروى البخاري عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية[٦].

ذكر السيوطي في كتاب الإتقان -حينما تحدث عن أبواب تتعلق بالنزول- باباً خاصاً فيما نزل على لسان بعض الصحابة، أو ما وافق بعض الصحابة مثل هذا، ومثل: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] لما قال عمر -رضي الله عنه- ذلك.

وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة].

وروى ابن أبي حاتم عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين، وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستقريتُهن أقول: لتكفنّ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-...

استقريتهن يعني: دخل عليهن واحدة بعد الأخرى.

أو ليبدلنّه الله أزواجاً خيراً منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين، فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟، فأمسكتُ، فأنزل الله -عز وجل-: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [(٥) سورة التحريم].

وهذه المرأة التي ردته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- كما ثبت ذلك في صحيح البخاري[٧].

ومعنى قوله: {مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ} [(٥) سورة التحريم] ظاهر، وقوله تعالى: {سَائِحَاتٍ} [(٥) سورة التحريم] أي: صائمات، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب القرظي وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مالك وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وغيرهم.

هذا الذي عليه عامة السلف -رضي الله عنهم-، السائحات يعني الصائمات، وبعضهم يقول غير هذا، ولكنه قول فيه بُعد، وقوله هنا: {مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ} [(٥) سورة التحريم] عرفنا أن القنوت دوام الطاعة {وَمَن

---

٦ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً) (٦/ ١٥٨ – ٤٩١٦).

٧ - أخرجه في كتاب تفسير القرآن، باب: {تبتغي مرضاة أزواجك} (٦/ ١٥٦ - ٤٩١٣).

يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [(٣١) سورة الأحزاب] كما في سورة الأحزاب، فالحاصل أن القنوت هو دوام الطاعة.

وقوله تعالى: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [(٥) سورة التحريم] أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً؛ ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس؛ ولهذا قال: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [(٥) سورة التحريم].

قد يكون هذا المراد، وقد يكون ذكر ذلك على سبيل -أو في مقام- التوسعة، يعني أن الله لم يضيق على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فإذا طلقكن فإن الله -عز وجل- سيعوضه تعويضاً واسعاً من صنوف النساء.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٦-٨) سورة التحريم].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [(٦) سورة التحريم] يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار.

وقال مجاهد: {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [(٦) سورة التحريم] قال: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله.

وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتَهم عنها، وزجرتَهم عنها.

وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وجه الارتباط بين هذه الآية وبين ما قبلها أشرت إليه فيما سبق، وهو أن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- اجتمعن عليه يطالبن بالتوسعة في النفقة، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وخيرهن بين إرادة الحياة الدنيا وبين أن يخترن الله ورسوله فاخترن الله ورسوله، بعد أن آلى منهن شهراً -عليه الصلاة والسلام-، آلى: أي حلف أن لا يقربهن شهراً، أن لا يطأهن شهراً.

فالحاصل أن ذلك ناسب أن يوجه بعده هذا الخطاب بالقيام على الأهل، ورعايتهم رعاية تكون سبباً لتجنيبهم مساخط الله -عز وجل-، والانغماس في الحياة الدنيا ولذاتها، وشهواتها وما أشبه هذا، وهذه الأقاويل التي ذكرها هنا في معنى: {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [(٦) سورة التحريم] هذا الذي يسمونه باختلاف التنوع، يعني لا يحتاج إلى ترجيح، كل هذا يرجع إلى معنى واحد {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [(٦) سورة التحريم] أي: بطاعة الله -عز وجل-، واجتناب معصيته، فكل الأقوال تدور حول هذا المعنى، ولا يحتاج أن يقال: القول الأول، والقول الثاني، والثالث، والرابع.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن الربيع بن سبرة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها))[٨] هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقوله تعالى: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٦) سورة التحريم] وقودها أي: حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم، والحجارة، قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد؛ لقوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء].

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي: هي حجارة من كبريت.

زاد مجاهد: أنتن من الجيفة.

على كل حال الله -عز وجل- لم يحدد شيئاً {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٦) سورة التحريم] ودل القرآن على أن الأصنام تلقى فيها: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] كذلك أيضاً ما جاء في بعض الآثار من أنها حجارة الكبريت، ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي، وحجارة الكبريت لها في ذلك مزيتان، المزية الأولى: شدة الحرارة والإحراق، فهي شديدة الحرارة، والأمر الثاني: الرائحة النتنة.

وقوله تعالى: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ} [(٦) سورة التحريم] أي: طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، شداد: أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج.

وقوله: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [(٦) سورة التحريم] أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية -عياذاً بالله منهم.

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٧) سورة التحريم] أي: يقال للكفرة يوم القيامة: {لَا تَعْتَذِرُوا} [(٧) سورة التحريم] فإنه لا يقبل منكم {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٧) سورة التحريم] وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا} [(٨) سورة التحريم] أي: توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب، وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

على كل حال التوبة النصوح: هي التوبة الصحيحة الصادقة التي تستوفي الشروط المطلوبة في التوبة، التوبة النصوح أن يقلع عن الذنب، وأن يعزم على أن لا يرجع إليه، وأن يندم على ذلك، وأن يرد المظالم إلى أصحابها، وأن لا يستروح للذنب، أو يحدث نفسه به تلذذاً وتشهياً، أو يكون متردداً في فعله ثانيةً، أو نحو ذلك مما قيل في معنى التوبة النصوح.

فهو يترك ذلك تركاً صحيحاً جازماً لا تردد فيه، من الناس من يحدث نفسه بالتوبة، ومن الناس من يقول: إنه تاب، ولكنه يحدث نفسه بالذنب وإن لم يفعله، فليست هذه هي التوبة النصوح، ومنهم من يتوب ويعزم أن لا يرجع لكنه لا يندم على فعله.

---

٨ - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (١/ ١٣٣- ٤٩٤) والترمذي في أبواب الصلاة، باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة (٢/ ٢٥٩- ٤٠٧). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٨).

وقوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [(٨) سورة التحريم] **وعسى من الله موجبة.**

وسبق الكلام على معنى كون عسى من الله موجبة، وأن ذلك جاء من كلام ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، وجاء عن غيره من السلف، معنى موجبة أي: أن ذلك متحقق الوقوع؛ لأن أصل عسى في كلام العرب تدل على الترجي، والترجي إنما يكون ممن لا يعلم عواقب الأمور، فهو يرجو أن يحصل هذا الأمر، أما الله -عز وجل- فعلمه محيط، فإذا قال: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا}** [(٥) سورة التحريم] فهو سيبدله، وإذا قال: **{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ}** [(٨) سورة التحريم] فإن هذا وعد منه -سبحانه وتعالى-، وليس ذلك كما لو قاله الإنسان، تقول: عسى أن ينزل المطر، بمعنى أنك ترجو، عسى زيدٌ أن يقدم من السفر، فهذا من باب الترجي، يقولون: هذا جاء على طريقة العرب في الكلام والخطاب، فإن العظيم من الناس كالملوك ونحوهم إذا أراد أن يعد بشيء فإنه يخرجه بهذه الطريقة، يقول للواحد من رعيته من أصحاب الحاجات: عسى أن يتحقق لك ما أردتَ، وهو يقصد وعده بهذا.

{يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [(٨) سورة التحريم] أي: **ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}** [(٨) سورة التحريم] **كما تقدم في سورة الحديد {يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(٨) سورة التحريم] **قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفِئ.**

وروى الإمام أحمد عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح فسمعته يقول: ((اللهم لا تخزني يوم القيامة))[٩].

---

٩ - أخرجه أحمد (٢٩/ ٥٩٦- ١٨٠٥٦) والطبراني في الكبير (٢٥٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التحريم من الآية ٩ إلى الآية ١٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [(٩-١٠) سورة التحريم].

يقول تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم.

{وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [(٩) سورة التحريم] **أي: في الدنيا {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(٩) سورة التحريم] **أي: في الآخرة، ثم قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}** [(١٠) سورة التحريم] **أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: {امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ}** [(١٠) سورة التحريم] **أي: نبيين رسولين، عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، {فَخَانَتَاهُمَا}** [(١٠) سورة التحريم] **أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدّقاهما في الرسالة، فلم يجدِ ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً؛ ولهذا قال تعالى: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}** [(١٠) سورة التحريم] **أي: لكفرهما {وَقِيلَ} أي: للمرأتين {ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}** [(١٠) سورة التحريم] **وليس المراد بقوله: {فَخَانَتَاهُمَا}** [(١٠) سورة التحريم] **في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، كما قدمنا في سورة النور.**

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين.

وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن هذه الآيات كما أشرت في أول هذه السورة ترتبط بموضوعها الأول الذي نزل صدرها من أجله، وهو أن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- لما وقع منهن ما وقع، فغضب رسول -صلى الله عليه وسلم- وآلى منهن شهراً، وحرم ما حرم، فلما حرم النبي -صلى الله عليه وسلم- بسببهن هذا، وقال الله -عز وجل-: {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [(٤) سورة التحريم] بيّن في آخر هذه السورة أن القرابة وحدها لا تنفع، فالقرب من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو من غيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يكفي وحده لتحقيق النجاة، فهذه امرأة نوح وامرأة لوط لم تنتفعا بقربهما من هؤلاء الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه.

وهكذا في المقابل: {لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] إذا كان الإنسان مؤمناً وكفرَ مَن كفر من أهل الأرض ولو كان أقرب قريب إليه فإن ذلك لا يضره.

أما ما يتعلق بقوله: {فَخَانَتَاهُمَا} [(١٠) سورة التحريم] فهذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو الذي لا يجوز العدول عنه، وما عداه فإنه من الأقوال الساقطة التي تؤخذ عن كفار بني إسرائيل، وإذا وقعت الفاحشة من امرأة نبي فإن ذلك يعود إليه بتدنيس شرفه، ويؤثر في مرتبته، وما إلى ذلك من الأمور المعلومة، وحاشا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من هذا، فهو أمر لا يختص بها، وإنما يرجع أثره إليه، فنساء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مصونات من هذا، وإن كان يقع منهن الكفر كحال هؤلاء النسوة، والله أعلم.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [(١١-١٢) سورة التحريم].

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [(٢٨) سورة آل عمران] **قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأتَه كفرُ زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.**

وروى ابن جرير عن سلمان -رضي الله تعالى عنه- قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

ثم روى ابن جرير عن القاسم بن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون، فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتُزعت روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح، فقولها: {رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} [(١١) سورة التحريم] **أي: خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله، {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [(١١) سورة التحريم] **وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم -رضي الله تعالى عنها.**

وقوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [(١٢) سورة التحريم] أي: حفظته وصانته، والإحصان هو العفاف والحرية {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا} [(١٢) سورة التحريم].

ما يتعلق بامرأة فرعون كونها تحت فرعون هذا لا يقال الآن على أنه حُكم في هذه الشريعة، شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن المرأة المسلمة لا تحل للكافر، وإذا كان زوجها على غير الإيمان فإنه لا يجوز لها البقاء معه، بل إذا كان فاجراً فاسقاً يقارف الفواحش وما أشبه ذلك فإنها تؤمر بمفارقته إذا لم يُجدِ معه النصح، ولم تصلح حاله.

فعلى كل حال تعرفون أن هذه الشريعة لها أحكام تختص بها، فما يتعلق بأحكام القرآن حينما ينظر في القصص قصص الأنبياء أو القصص التي ذكرها القرآن فإنه يؤخذ من شرع من قبلنا ما يوافق شرعنا، أو على الأقل ما لا يخالفه على القول الآخر، وهذه مسألة معروفة على كل حال.

وفي قوله تعالى هنا: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [(١٢) سورة التحريم] قال: الإحصان هو العفاف والحرية، هذه بعض معاني الإحصان {أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [(١٢) سورة التحريم] أي: حفظته وصانته من مقارفة ما لا يليق، وإلا فالإحصان يأتي أيضاً بمعنى -كما سبق في الكلام على سورة النساء- الزواج، {فَإِذَا أُحْصِنَّ} [(٢٥) سورة النساء] أي: تزوجن {فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ} [(٢٥) سورة النساء] يعني: الحرائر.

{فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا} [(١٢) سورة التحريم] أي: بواسطة الملَك، وهو جبريل -عليه السلام-، فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في سورة بشر سويٍّ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى -عليه السلام-؛ ولهذا قال تعالى: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [(١٢) سورة التحريم] أي: بقدره و شرعه {وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [(١٢) سورة التحريم].

{بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [(١٢) سورة التحريم] قال: بقدره وشرعه، باعتبار أن الكلمات هي الكلمات الكونية ((أعوذ بكلمات الله التامات))[١] فهي التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، وهي التي يحصل بها التكوين، وأما الكلمات الشرعية فهي مثل القرآن، وكلام الله -عز وجل- في كتبه، يقال لها: الكلمات الشرعية {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [(١٢) سورة التحريم].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الأرض أربعة خطوط، وقال: ((أتدرون ما هذا؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون))[٢].

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٤/ ٢٠٨٠-٥٤) (٢٧٠٨).

٢ - أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩- ٢٦٦٨) وأخرجه أبو يعلى (٢٧٢٢)، والحاكم ١٨٥/٣ من طريق يونس بن محمد المؤدب، بهذا الإسناد. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة.

وأخرجه عبد بن حميد (٥٩٧)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٤٨)، وابن حبان (٧٠١٠)، والطبراني (١١٩٢٨) من طرق عن داود بن أبي الفرات، به. وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٠٨).

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[٣] وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها، والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم -عليهما السلام- في كتابنا البداية والنهاية، ولله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة التحريم، ولله الحمد والمنة.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى {وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون} [التحريم: ١١]إلى قوله: {وكانت من القانتين} [التحريم: ١٢] (٤/ ١٥٨-٣٤١١) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- (٤/ ١٨٨٦- ٧٠) (٢٤٣١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الملك

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}))[1].

ورواه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن".

وقد روى الطبراني، والحافظ الضياء المقدسي عن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}))[2].

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [سورة الملك:١-٥].

يمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة -سورة الملك- من السور النازلة بمكة واشتهرت بهذا الاسم، وأيضا تسمى سورة تبارك، وسماها بعضهم بالواقية، والمنجية، والمانعة، هذه الأسماء الثلاثة هي أوصاف أخذت من بعض الروايات الواردة في السورة، سواء كانت هذه الروايات صحيحة أو غير ذلك، لكنها بالصفات أشبه.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** تبارك: كما مضى في بعض المناسبات تفاعل من البركة، وعرفنا أن البركة تأتي بمعني: النماء، والزيادة، وتأتي بكثرة الخير، ودوامه، وهذه تكررت في القرآن نحو تسع مرات، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم عن هذا المعني، وابن جرير -رحمه الله- يقول: تبارك يعني: تعاظم وتعالى.

---

١ - رواه أبو داود، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب في عدد الآي، برقم (١٤٠٠)، والترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل سورة الملك، برقم (٢٨٩١)، وابن ماجه، أبواب الأدب، باب ثواب القرآن، برقم (٣٧٨٦)، وأحمد في المسند، برقم (٧٩٧٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره"، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٢٦٥)، وفي صحيح الجامع، برقم (٢٠٩١).

٢ - رواه الطبراني في المعجم الصغير، برقم (٤٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٤٤).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قولة تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}**: "البركة نوعان:

أحدهما: بركةٌ هي فعله سبحانه، والفعل فيها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة "على"، وبأداة "في" تارة، والمفعول منها مبارَك.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها: تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له -عز وجل-، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ}** [سورة مريم:٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلق على نفسه بقوله: **{تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [سورة الأعراف:٥٤] ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك تقدس، والقدس الطهارة، وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء، وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه -تبارك وتعالى"[٣].

يعني يقال: بارك الله، هذا الفعل للتعدية، بارك المتعدية، حينما يكون ذلك في المخلوق يقال: بارك الله فيه وله وعليه، ونحو ذلك.

أما تبارك فهذا يختص بالله -عز وجل-، عظمتْ بركته، عظمت خيراته وكثرت، وما إلى ذلك، هذا هو المراد، ولهذا لا يقال للمخلوق: تباركتَ، أو تباركتَ علينا، أو نحو ذلك مما قد يقوله بعضهم: تباركتَ علينا يا فلان، هذا لا يصح، وأما ما قد يقال من إضافة البركة إلى مجيء فلان أو نحو ذلك كأن يقال: حلت البركة بمجيئك، أو نحو ذلك فمثل هذا لا يخلو من تزكية، وإخبار عما لا علم للقائل به، وأن البركة من الله -تبارك وتعالى-، وهو لا يعلم أن هذا المجيء هو بركة، مع أنه قد يكون كذلك في واقع الأمر.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا}** قال بعض السلف يعني: معلمًا للخير، وهذا من معاني البركة، فقد يكون مجيء بعض الذوات -بعض الأشخاص- سببًا لتعلم الخير، وتفقيه الناس في دينهم، أو نحو ذلك، فيكثر الخير في البلد أو في تلك الناحية، فيكون ذلك سببًا للبركة.

فيقال: مجيء فلان بركة أو نحو هذا، وقد تكون أيضًا مقاربة بعض الذوات التي جعل الله فيها بركة سبباً لكثير من الخير، فقد يتزوج رجل امرأة وتكثّر ماله وولده وتلائمهم، ونحو ذلك، فتكون سبباً لبركات على هذا الإنسان، هذا قد يحصل، لكن استعمال الناس بتوسع لهذه الفظة إذا زارهم أحد، وكذا: حلت البركة وجاءتنا البركة، هذه -كما ترون- تزكية، وإخبار عما لا علم للإنسان به.

ثم قال: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم، ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟ كما قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} [سورة البقرة:٢٨] **فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتًا، وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** [سورة البقرة:٢٨]**.**

قال: **فسمى الحال الأول: وهو العدم موتًا** يعني: هنا أيضا هذه الجملة هي متضمنة لمعنى وجواب على سؤال مقدر، وهو ما وجه تقديم الموت على الحياة؟ **{خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** قد يقول قائل:

---

٣ - بدائع الفوائد (٢/١٨٥)، بتصرف يسير.

إن المتبادر أن الموت يكون بعد الحياة فلماذا لم يقل مثلا: هو الذي خلق الحياة والموت؟ لماذا قدم الموت على الحياة؟ كلام الحافظ ابن كثير هنا: **فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتًا** يعني: حينما كان الإنسان في عالم العدم هذا موت، هذا على أحد الأقوال.

وكذلك أيضا يقرب منه قول من قال: إنه حينما كان في عالم النطفة، أو نحو ذلك قبل نفخ الروح كان كذلك، يعني: أنه من الموتى، أنه كان ميتًا، والعرب تطلق ذلك -يعني الموت- على ما خلا عن الروح، فلا يقال: إن الحيوان المنوي يبقى نشطاً وحيًّا إلى آخره، يلقح البويضة.

ثم بعد ذلك هذا كله عندهم لا يعطي حكم الحياة الشرعية، الحياة شرعاً تكون بنفخ الروح، فما قبل الحياة من مضغة ونحو هذا يقال له: مضغة ميتة، نطفة ميتة، ونحو ذلك، فهذا كله موت قبل الحياة، فبعض أهل العلم يجيب بهذا الجواب: إنه قدم الموت على الحياة بهذا الاعتبار.

قريب من هذا قول من قال: إنه باعتبار أن الأصل عدم الحياة، وأن الحياة عارضة وطارئة، يعني: إذا نُفخ فيه الروح صار حيًّا، قبل ذلك ليس بهذه المثابة، وبعضهم يقول: قدّمه باعتبار أن الموت أقرب إلى القهر، وهنا يبين دلائل القدرة، وهذه السورة مشتملة على دلائل القدرة، وإحاطة الله -تبارك وتعالى- بالخلق، وما يكون لهم من الجزاء المُحسن منهم والمسيء.

آيات السورة تدور حول هذا المعني، وبعضهم كمقاتل يقول: إن خلْق الموت يعني: النطفة، والعلقة، والمضغة، {خَلَقَ الْمَوْتَ}، وهذا قريب مما ذكرت أيضاً، فذلك عندهم بحكم الموت {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}، فكل هؤلاء عدا القول قبل الأخير الذي يقول: إن ذلك أقرب إلى القهر ما عدا ذلك هم يقولون: قدم الموت باعتبار أنه هو حال الإنسان قبل نفخ الروح، فتكون الروح طارئة بعد ذلك فينفخ في هذا المخلوق بهذا الجسد، تنفخ فيه الروح فتكون الحياة، خلق الموت والحياة بهذا الاعتبار، فيكون ذلك جوابًا لهذا السؤال في وجه التقديم {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

وقوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} أي: خيرٌ عملا كما قال محمد بن عجلان، ولم يقل أكثر عملا.

يعني خلقكم {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ} أي: ليختبركم فإن الابتلاء هو الاختبار "ليبلوكم أيكم أحسن عملا" يعني: أن الله -تبارك وتعالى- خلق الموت والحياة من أجل أن يختبر الخلق كيف يعملون، فإذا أوجدهم ونُفخت فيهم الأرواح وصاروا إلى حال من التمييز والإدراك بعد ذلك يتجرون برءوس الأموال هذه التي هي الأنفاس -الأعمار- فيبتليهم الله -عز وجل- أيهم أحسن عملا، فيتفاضلون في ذلك ويتفاوتون غاية التفاوت، سواء منهم من يعمل الطاعات بإقباله على ربه وجده في العمل الصالح، أو فيما يقابل ذلك ممن يجد ويجتهد في المنكرات، والذنوب، والمعاصي، والكفر.

فالله خلق الموت والحياة يعني: أوجدهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات:٥٦]، فإن إحسان العمل كل ذلك يرجع إلى عبادته -تبارك وتعالى-، ولكنه في هذا الآية ذكر ما هو أخص من ذلك.

ذكر "الأحسن" أفعل تفضيل فالعبرة بإحسان العمل، وليس بكثرته، ليس بكثرته سواء كان ذلك بما يتقرب به الناس من أعمال العبادات القاصرة، أو من العبادات المتعدية، وهذا يدخل فيه أشياء وصور كثيرة جدًّا، يدخل فيه ما يتعلق بالإنتاج العلمي، والتأليف، وما إلى ذلك.

ليس العبرة بكثرة الكتب، وكثرة المؤلفات، وكثرة الدروس، أو المحاضرات، أو البرامج التي يقوم عليها الإنسان، وإنما العبرة بالإتقان، وإحسان العمل، وإرادة ما عند الله -تبارك وتعالى-، وأن يأتي بذلك على الوجه الصحيح، وهكذا في عبادته، ليست العبرة بكثرة صلاته، وسجوده، ونحو ذلك، وإنما العبرة بما يكون مع ذلك من استحضار النية، والخشوع، والإتيان بالعمل على الوجه المشروع، ليست العبرة بكثرة الحج، وكثرة العمرة، وكثرة الجهاد، وإما ينظر إلى تصحيح الأعمال، والنيات، والإتيان بذلك على وجه يرضاه الله -جل جلاله.

ثم قال تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} أي: هو العزيز العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزًا هو مع ذلك يغفر، ويرحم، ويصفح، ويتجاوز.

يعني: الجمع بين هذين الاسمين: العزة، والمغفرة يفيد معنى إضافيًّا، وهو أنه مع عزته كثير الغفر، فإنه قد يفهم من ذكر العزة القهر، وما إلى ذلك من الأخذ بالعقوبة؛ لأنه عزيز فإذ ذكر معه "الغفور" عُرف أنه قد اتصف بهذا وهذا، فهو غفور مع عزته، كما أنه عزيز مع اتصافه بكثرة الغفر، الغفور قد يكون مع عزة، وقد لا يكون بالنسبة للمخلوقين، فقد يكون ذلك ضعفاً عن المؤاخذة، لكن حينما يكون ذلك في صفة الله -عز وجل- فهو عزيز ومع هذه العزة غفور يعني: أنه حينما يغفر لا يكون ذلك عن عجز عن المؤاخذة، وبهذا الجمع بين هذين الاسمين يحصل الكمال الثالث من مجموعهما وأنه -تبارك وتعالى- لا يقنط العبد من رحمته ولا ييأس من فضله، وإن تعاظمت ذنوبه، ومع عزته فهو كثير الغفر.

ثم قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا} أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهم على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان، أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

هذا بالنسبة للسموات هذا ظاهر، كل سماء لها عمّار، وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا} طبقة بعد طبقة، وعبارات المفسرين في هذا متقاربة كقول ابن جرير: طبقاً فوق طبق يعني: متطابقة يعني: أن بعضها فوق بعض.

وقوله تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} أي: بل هو مصطَحب مستوٍ، ليس فيه اختلاف، ولا تنافر، ولا مخالفة، ولا نقص، ولا عيب، ولا خلل؛ ولهذا قال تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبًا، أو نقصًا، أو خللا، أو فطورا؟.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والثوري، وغيرهم في قوله تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} أي: شقوق.

وقال السدي: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} أي: من خروق، وقال ابن عباس في رواية: {مِنْ فُطُورٍ} أي: من وُهيّ، وقال قتادة: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} أي: هل ترى خللا يا ابن آدم؟.

كل هذا بمعنى متقارب يرجع إلى شيء واحد **{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}**.

وقوله: **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** هذه قراءة الجمهور، وفي قراءة حمزة والكسائي **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّت}**، تفوّت وتفاوت بمعنى واحد، هما لغتان.

وقوله تعالى: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} قال قتادة: مرتين.

هنا "ثم ارجع البصر كرتين"، **قال قتادة: مرتين** هل المقصود أنه ينظر المرة الأولى ثم الثانية؟ أو المقصود التكثير؟ المقصود التكثير، والعرب تعبر بمثل هذا وتريد به الكثرة، يعني: انظر مرة بعد مرة، وقد مضى في بعض المناسبات نظائر لهذا، تذكرون شيئًا من هذا؟، لبيك وسعديك، لبيك اللهم لبيك أيضا، وهذا الذي يأتي بمعنى: التثنية لبيك يعني: إجابة لك بعد إجابة مثلاً على أحد التفسيرات، ليس المقصود أن الإجابة محصورة بمرتين، وذكرنا هناك من شواهده، ونظائره **{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}** هذا يدل على التكثير يعني: كرة بعد كره، يعني كرات **{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}**؟ ليكون ذلك أدعى لمزيد من النظر والتأمل.

فإنك مهما نظرت فإنك لن تجد خللاً في بناء هذه السماء على سعتها، وقيامها هكذا من دون أعمدة، وعبر هذه المدة الطويلة جدًّا، أما بناء الإنسان فمهما كانت قوته فإنه ما يلبث حتى يتفطر، ويتشقق ثم يئول إلى السقوط، ثم بعد ذلك يتهاوى، أين الأبنية عبر القرون؟، تذهب.

إذا سألت أهل الاختصاص عن الأبنية على قوتها، وحداثتها وما استحدث من المواد التي تركب منها، يقول أحسنهم حالاً: إن العمر الافتراضي لها لا يتجاوز ثلاثمائة سنة، قد يزيد بحسب المواصفات، لكن إلى متى؟ أما هذه السماء فمنذ متى خلقها الله -عز وجل- وهي على حالها؟.

{يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا} قال ابن عباس: ذليلا، وقال مجاهد، وقتادة: صاغرًا.

{يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا} وذليلاً وصاغراً كل ذلك بمعنى متقارب، يرجع إلى شيء واحد؛ ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: أي: صاغرًا مبعداً، باعتبار أن لفظ الخاسئ وهذه المادة الخاء، والسين، والهمزة تدل على إبعاد أيضاً، ولهذا يقول الشاعر وهو ينسب للشافعي -رحمه الله-:

أمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وهْي صَامِتةٌ *** والْكَلْبُ يُخْسَى لَعَمْري وهْوَ نَبّاحُ

يُخسى فسر بأنه يطرد ويبعد، وفيها معنى الطرد والإبعاد، هذا بالإضافة إلى الصغار.

{وَهُوَ حَسِيرٌ} قال ابن عباس: يعني: وهو كليل، وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء.

كل هذا يرجع إلى شيء واحد، يعني: أصل هذه المادة قد مضى الكلام عليه وهو الانقطاع، ولهذا يقال: حسرت الدابة يعني: انقطعت من طول السير والكلالة فيه، يعني: من طول السفر، وذكرنا شواهد من هذا كقول الشاعر يصف فلاةً:

بها جِيفُ الحَسرى فأما عظامُها *** فبيضٌ وأمّا جلدُها فصليبُ

جيف الحسرى يعني: الإبل الرواحل التي انقطعت مع طول السفر فكلت، وحرنت، وخلأت، ثم بعد ذلك تركها أصحابها حتى هلكت، وماتت بهذه الصحراء، فتفسخت أبعاضها وأجسامها فصارت عظامها تلوح، وجلدها جافًا يابساً.

بها جِيفُ الحَسرى فأما عظامُها *** فبيضٌ وأمّا جلدُها فصليبُ

فهنا الحسير قال: الكليل، وكذلك المنقطع من الإعياء كل هذا بمعنى واحد، يقال: دابة حسرت يعني: انقطعت، كلّت من الإعياء.

ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر، مهما كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر، {خَاسِئًا} عن أن يرى عيبًا أو خللا، {وَهُوَ حَسِيرٌ} أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصًا.

ولما نفى عنها في خلقها النقص بيّن كمالها وزينتها فقال: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت.

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} عاد الضمير في قوله: {وَجَعَلْنَاهَا} على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم.

ولهذا فإن بعضهم فسر الرجوم هنا: **{وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا}** قالوا: جمع رجْم، وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، **{وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** أو على تقدير محذوف: ذات رجوم، يعني: ليست هذه المصابيح هي التي يرجم بها، وإنما ما يكون منها -ما ينفصل منها- من شهب تُرجم بها الشياطين، ترسل هذه الشهب على هؤلاء الشياطين، فتكون منفصلة من هذه النجوم.

وقوله: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى، كما قال تعالى في أول الصافات: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [سورة الصافات:٦-١٠].

قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

قوله هنا: **إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال،** هذا باعتبار الاستقراء من القرآن، فالقرآن دل على هذه الأمور الثلاثة، لكن ما ذكر في القرآن من هذه الأمور الثلاثة ليس حاصراً لمنافع النجوم، قد يكون هناك منافع أخرى لم يذكرها الله -عز وجل- لنا، ولكنه قصد ما ظهر لنا، وما أخبرنا الله -تبارك وتعالى- عنه.

فمن طلب غير ذلك، طلب غير ذلك يعني: الاستدلال مثلاً بهذه النجوم على أحوال أرضية يعني: ادعاء علم الغيب أو ما يتعلق بذلك مما يفعله المنجمون، أو السحرة، أو نحو هذا.

فمثل هذا كله باطل، هذا هو المقصود، وإلا فهو لا يقصد نفي أن تكون لها منافع، وفوائد يعلمها الله -تبارك وتعالى-، ولم يخبرنا عن ذلك، لكن الذي علمناه هي هذه الأمور الثلاثة، فمن ادعى غير هذا مما يدعيه أهل التنجيم، ونحو ذلك فهذا لا أساس له.

قال تعالى: {وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٦-١١].

يقول تعالى: وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير أي: بئس المآل والمنقلب.

{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} قال ابن جرير: يعني الصياح.

هنا لاحظ وجه الارتباط فيما يتعلق بموضوع السورة، وهذا الذي يقال له: حُسن التخلص، يعني: لاحظ أن هذه الآيات آخذٌ بعضها بحُجز بعض، لما ذكر الله –تبارك وتعالى– دلائل القدرة، وما زين به السماء من هذه المصابيح، أخبر أنه جعلها رجومًا للشياطين، هذا في الدنيا، ثم ذكر ما يكون لهؤلاء الشياطين في الآخرة فقال: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} يعذب هؤلاء الشياطين بعذاب السعير.

فلما ذكر جزاء الشياطين في الآخرة ذكر جزاء الكفار كذلك في الآخرة قال: {وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} إلى آخر ما قال، {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} فهؤلاء الشياطين من الجن لهم عذاب السعير، وهؤلاء الكفار أيضا لهم عذاب السعير، فانتقل من هذا إلى هذا، ثم بعد ذلك جاء جزاء أهل الإيمان بعده.

وهذا كله يرجع إلى ما ذكر في صدر هذه السورة: أنه خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ثم بعد ذلك يحصل التفاضل والتمايز بينهم، والاختلاف، والافتراق في جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة، فهؤلاء إلى السعير، وهؤلاء إلى النعيم والجنة.

وهنا قوله –تبارك وتعالى–: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} هنا فسره بالصياح، هذا التفسير هو تفسير على المعنى كما يقال وليس على اللفظ؛ لأن الشهيق في أصل معناه لا يفسر بالصياح، وإنما أصل الشهيق هو مثل –أكرمكم الله– صوت نهيق الحمار، الصوت الذي يخرج من الجوف بشدة يقال له: الشهيق.

كما يقول ابن جرير –رحمه الله–: الذي يخرج من الجوف بشدة، وفسر بهذا، وقد مضى الكلام على ذلك في قوله –تبارك وتعالى–: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [سورة هود:١٠٦] وذكرنا هناك الفرق بين الزفير، والشهيق، ففسر بهذا، الزفير: النفس الداخل، والخارج بقوة يقال له: الشهيق، هكذا فسروه، هكذا قال ابن جرير، وغيره، بخلاف ما هو شائع في الاستعمال عندنا أن الشهيق: هو أخذ النفس مع صوت بقوة.

{وَهِيَ تَفُورُ} قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير.

هو يقول: الحب القليل في الماء الكثير؛ لأنه يكثر اضطرابه، وحركته بخلاف ما إذا كان –يعني: الحب هذا كالبُر، أو الأرز، أو نحو ذلك– كثيرًا في الإناء مع ماء قليل، فيبقى في حالة من الاستقرار، لكن إذا كان الحب قليلا، والماء كثيرًا فإن هذا الماء إذا غلا هذا الحب يدور، ويعلو ويسفل بشدة، فهنا هذا الفوران، فهي تفور يعني: النار لها زفير وشهيق –أعاذنا الله وإياكم ووالدينا، وإخواننا المسلمين منها–، وتفور وأيضا تتغيض على هؤلاء، فهي تعرفهم.

{سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [سورة الفرقان:١٢] فهي حانقة على هؤلاء الكفار، وليست مجرد آلة للعذاب، أو موضعٍ للعذاب لا إدراك لها، ولا تشعر بهؤلاء الكفار، وكما هو معلوم لما اختصمت الجنة والنار فهذه تقول: فيّ الكبراء، وما إلى ذلك، وكذلك تقول: هل من مزيد؟! هل من مزيد؟! إلى أن تقول: قط، قط.

هذا كله أخبر الله -عز وجل- به عن حالة هذه النار فهي تطلب المزيد ممن يلقون فيها.

وقوله تعالى: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} [سورة الملك:٨-٩]**، يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}** [سورة الإسراء:١٥]**، وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}** [سورة الزمر:٧١].

وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} أي: **لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم.**

قال الله تعالى: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ}.

روى الإمام أحمد عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم))[٤].

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا} هذا وما قبله وما بعده لا شك أن من عقِلَه فإنه يهون عليه كل ما يلقى في هذه الدنيا من الأذى، والبلاء، والعلل، والأوصاب، والأمراض، والفقر، وما إلى ذلك.

فالعذاب الحقيقي، والألم الحقيقي هناك في هذه الأفواج، حينما تقاد فوجًا بعد فوج إلى النار، وهي تتغيض، ولها هذا الصوت المفزع {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} ثم بعد ذلك يلقون فيها بعد أن يعترفوا بذنوبهم، هذا هو المقام الذي ينبغي أن يخشاه العبد، وأن يفكر فيه طويلاً، فهو حري بأن يزهده بحطام الدنيا، وعرضها الزائل، وأن تتقاصر همته، ونفسه عن طلب الشهوات المحرمة، وأن يكون هذا اليوم نصب عينيه يحسب له حسابه، ويستعد له غاية الاستعداد؛ لأن ذلك هو المصير النهائي المحتوم الذي لا طعم للسعادة بعده إذا كان الإنسان من أهل الشقاء، نسأل الله العافية.

وقوله هنا: **روى الإمام أحمد: عن أبي البختري الطائي** -اسمه سعيد بن فيروز- **((لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم))**، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}**، فالله -تبارك وتعالى-

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم (٤٣٤٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٢٨٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه، وإبهامه لا يضر"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٢٣١).

أخذ على الخلق -على العباد- ميثاقاً -كما هو معلوم- وهم في أصلاب أبيهم آدم {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [سورة الأعراف:١٧٢].

ولم يكن ذلك فحسب يعني: لم يؤاخذهم بالميثاق الأول، بل جعل فيهم الفطرة، وخلقهم على الفطرة، ((خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين))[٥]، ولم يؤاخذهم بهذا حتى جعل لهم عقولاً يدركون بها، ويميزون، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فاجتمعت هذه جميعًا.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [سورة الملك:١٢-١٥].

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: تكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: ((سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله))، فذكر منهم رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه [٦].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} الخشية عرفنا أنها أخص من مطلق الخوف، فهي خوف مع علم بالمخوف منه، أما الخوف هكذا بإطلاق فإنه قد لا يكون كذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {بِالْغَيْبِ} هذا يحتمل معنيين، {يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} ما المراد بذلك؟

يحتمل أن يكون قوله بالغيب أن يكون حالا من الفاعل، أو أن يكون حالا من المفعول، أن يكون حالا من الفاعل، أو من المفعول كيف يكون المعنى؟ يتغير تماماً.

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} حال من الفاعل يعني: حال كونهم غائبين عنه، يعني: حينما يكون الواحد منهم غائباً عن الناس يعني: في حال خلوته.

فهذا يدل على مراقبته لله -عز وجل-، فإذا خلا بمحارم الله -عز وجل- لم يجرؤ عليها، ولم ينتهكها، فهذا حال المؤمن، بخلاف المنافق فإنه يكون على حالة من مراعاة الناس في حال الجلوة، فإذا خلا لا يبالي، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [سورة ق:٣٣] من خشي الرحمن بالغيب ما المعنى؟.

على هذا التفسير يعني: إذا غاب عن الناس، فهذا المعنى يتصل بمراقبة الله -عز وجل- في حال الخلوة وهو المعنى المشهور، وهو المتبادر.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

٦ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} إذا غابوا، حال كونهم غائبين، هذا حال من الفاعل؛ لأنهم يخشون، مَن الفاعل؟، هم، أليس كذلك؟ فالواو هنا فاعل، يخشون حال كونهم غائبين، بالغيب يكون حالاً من الفاعل يعني: إذا غابوا، أو أن يكون حالا من المفعول "يخشون ربهم"، فــ"رب" هنا في الإعراب يكون مفعولاً، {يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} حال كونه غائباً عنهم يعني: لا يرونه، ومع ذلك يخشونه، فهذا يدل على عظم إيمانهم، آمنوا به، وخافوه مع أنهم لم يروه، فهذا يحتمل، يعني: كما يقول ابن جرير، وغيره: يخشون عذابه ولم يروه، يعني: ابن جرير فسرها بالثاني أنه حال من المفعول، حال كونه غائبًا عنهم فهم يخشون عذابه، ولم يروه.

هكذا قال، يخشون عذابه، أو يخشون الله -عز وجل-، ولم يروه، هذه عبارات متقاربة للمفسرين، يخشون عذابه ولم يروه، أو يخشون ربهم -تبارك وتعالى-، وهذا يكون حالا من المفعول يعني "بالغيب"، {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ}، {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} إذا غاب عن الناس، ويحتمل المعنى الآخر.

ثم قال منبهًا على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: بما يخطر في القلوب.

ذات الصدور هنا هذه كلمة تدل على ما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات، والإرادات، والخواطر، والنيات، والحب، والبغض، والخوف، والرجاء، وما إلى ذلك مما ينطوي عليه القلب، وما يقوم به، فهي نُسبت إلى الصدور "ذات الصدور" نسبة الصحبة، والملازمة.

ذات الصدور، فهي ملازمة لها تختص بها، وتنطوي هذه الصدور عليها، لا يطلع عليها إلا الله -تبارك وتعالى-، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} بدواخلها، وما يعتلج فيها، وما تنطوي عليه من أعمال قلبية، ونيات، وإرادات، وخواطر، وعقائد، وما إلى ذلك، كل ذلك يعلمه الله -تبارك وتعالى.

فمثل هذا يجعل العبد يتعامل مع ربه تعاملاً آخر غير ما يتعامل به مع المخلوقين، الله مطلع على خواطره، فيكون ظاهره، وباطنه على حال سواء، إذا كان الظاهر أحسن من الباطن فهذا يدل على وجود خلل في إيمان العبد، وعلاجُه من جهات متعددة هذا من أعظمها، وما يقال فإنه عند التأمل، والنظر يرجع إليه.

يعني: حينما نقول: النظر في معاني الأسماء الحسنى: العليم، والخبير، واللطيف، ونحو ذلك مما ينمي المراقبة في قلب العبد، هذا يرجع إلى هذا المعنى في الواقع: أن يعلم أن الله عليم بذات الصدور، والعليم هنا: صيغة مبالغة يعني: أنه عظيم العلم، بالغ العلم بدواخل النفوس، وما يتحرك فيها لا يكون له أدنى إرادة تكون مخالفة لمراد الله -تبارك وتعالى.

فإذا تكلم يصحح نيته بهذا الكلام، وقد يخطر له أثناء الكلام مقاصد فاسدة من حب الثناء، والرياء، والسمعة، وما إلى ذلك، وإذا كتب يحتاج أن يصحح نيته في الكتابة، وإذا رأى أن النية ليست كما ينبغي لا ينشر، سواء كانت مقالة، أو كتابًا، أو كان ذلك بهذه التغريدات التي يكتبها، ماذا يريد بذلك؟، فإن رأى أن النية فيها خلل، وأن القصد ليس كما ينبغي فلا داعي للكتابة؛ لأن الإنسان سيحاسب على هذا، والله عليم بذات الصدور.

وهكذا في كل عمل يزاوله ما الذي ينبعث في داخله؟، حتى حينما يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر الله يعلم ما يدور في نفسه، حينما ينصح الآخرين ماذا يقصد؟ حينما يفتيهم، أو يجيب على سؤالاتهم ما الذي يدور في نفسه؟ هل يدور في نفسه مراقبة الله -عز وجل-، وإرادة ما عنده؟.

فهذا لا يمكن أن يجيب عن شيء يكون عنده فيه أدنى تردد، فيتوقف، ويقول: أنظر، أراجع، نبحث، وأما إذا ضعف هذا الجانب فقد يكون بالتزين بالكلام، والجواب، وما إلى ذلك هو المقدم فيقول على الله بلا علم، فيكون الوزر عليه من الجهتين: سوء القصد، وأيضا هذه الجرأة، والقول على الله بلا علم.

إذا لاحظ العبد هذا دائما بحركاته، وسكناته، وألفاظه، وأحواله كلها تصلح أحواله تماماً من أولها إلى آخرها، ومن ثم يتلاشى عنه الرياء والمقاصد السيئة، فلا يكون للخلق أدنى التفات في قبله حينما يقول أو يعمل، هو يريد ما عند الله -عز وجل- فيستوي المادح، والذام عنده، فيكون همه طلب مرضات الله -جل جلاله وتقدست أسماؤه.

هذه التربية القرآنية، حينما نقول: إن علاج المشكلات، والجوانب النفسية، والاجتماعية، وما إلى ذلك بأمور وقضايا نقررها، ونرتبها، ونتكلم فيها كثيراً، ونطيل، حينما نقول: هذا المعين الذي لا ينضب، أو بهذه الطريقة التي تُعجز الخلق عن أن يأتوا بمثلها، حينما يذكر دلائل القدرة، ويذكر جزاء هؤلاء.

ثم بعد ذلك ينقّل النفس بين هذه المعاني الكبار، فإن النفس تكون في حال من الاعتدال، والاستقامة على أمر الله -تبارك وتعالى-، راجية، خائفة، مراقبة له -تبارك وتعالى-، محبة لهذا المنعم المتفضل العظيم الأعظم، الذي يتصف بهذه الصفات العظيمة.

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}؟ أي: **ألا يعلم الخالق**؟! **{وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}**.

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} هنا أيضا يحتمل معنيين، يقول: **ألا يعلم الخالق**؟! ألا يعلم من خلق؟! يعني: من خلق الخلق ألا يكون عالما؟! هو الذي خلق ينبغي أن يكون عالماً **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**؟! فمن هنا تكون مفسرة بهذا يعني: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**؟! ألا يكون الذي خلق متصفاً بالعلم حريًّا به؟، واضح المعنى هذا؟.

المعنى الثاني: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**؟! يعني: ألا يعلم الله حال خلقه؟ يعني: كيف يخفى عليه حال الخلق، وهو الذي خلقهم؟! الفرق بين المعنيين واضح، المعنى الأول: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**؟! هذا الذي مشى عليه ابن كثير يعني: الذي خلق -سبحانه وتعالى- ألا يكون متصفاً بالعلم؟! لابد، هذا من لوازم الخلق، وقلنا في الكلام عن الأسماء الحسنى: الخالق يدل بالمطابقة، يدل بالتضمن، ويدل بالالتزام.

فمما يدل عليه بالالتزام العلم، لابد للذي خلق أن يكون متصفاً بالعلم، والإحاطة بأحوال هؤلاء الخلق، فهنا **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}** ألا يعلم الخالق -سبحانه وتعالى-؟! ألا يكون الخالق متصفاً بالعلم حريًّا به؟، هذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير.

المعنى الذي رجحه ابن جرير **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}** ألا يعلم الله -سبحانه وتعالى- أحوال خلقه؟! ألا يعلم ربنا -تبارك وتعالى- حال المخلوقين؟! فيكون على الأول **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**؟ "مَن" في محل رفع فاعل، ألا يعلم الخالق أحوال خلقه؟، ألا يعلم كل شيء؟!.

المعنى الثاني: "مَن" هذه في محل نصب مفعول به، والفاعل مستتر، ألا يعلم يعني: الله مَن خلق أي حال هؤلاء الخلق؟، واضح؟، فهذا المعنى الثاني رجحه ابن جرير، ولو قال قائل: إن الآية يمكن أن تحمل على المعنيين: الخالق يعلم وهذا دلائله كثيرة في القرآن، وهو يعلم أحوال الخلق، ما يسرون، وما يعلنون، عليم بذات الصدور إلى آخره.

المختصِر ذكر المعنيين وقال: الأول أولى، لا بأس في الاختصار، وأن يقتصر على ما رجحه.

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم؛ ولهذا قال: {وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} فالسعي في السبب لا ينافي التوكل كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: إنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا))[٧].

رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فأثبت لها رواحًا وغدوًّا لطلب الرزق، مع توكلها على الله -عز وجل-، وهو المسخر المسير المسبب.

{وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} أي: المرجع يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: {مَنَاكِبِهَا} أطرافها، وفجاجها، ونواحيها.

هي معانٍ متقاربة، في قوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا}** يعني: مذللة، والذلول يقال للمنقاد السهل بحيث تتقلبون فيها لا تميد بكم، ولا تضطرب **{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}** فالمناكب فسرت بهذه المعاني من قولهم مثلاً: أطراف الأرض، والنواحي، والفجاج، وفسرت بالجبال، وفسرت بالجوانب، منكب الشيء، منكب الإنسان، ونحو ذلك، وهي معانٍ متقاربة **{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}** في نواحيها وفجاجها، وجوانبها، وأطرافها، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا المعنى فقال -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}**، أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهادًا، وفراشًا، وبساطًا، وقرارًا، وكفاتًا، وأخبر أنه دحاها، وطحاها، وأخرج منها ماءها، ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج، والطرق، وأجرى فيها الأنهار، والعيون، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها.

ومن بركتها أن الحيوانات، وأرزاقها، وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرج لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها، وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح، وتخرج له كل مليح، ومن بركتها أن تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها، وتضمه، وتؤويه، وتخرج له طعامه، وشرابه فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه، والمقصود أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد، وحسُن التعبير بمناكبها عن طرقها، وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولا.

---

٧ - رواه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في التوكل على الله، برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، برقم (٤١٦٤)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٥)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن هبيرة، فمن رجال مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٢٥٤).

فالماشي عليها يطأ على مناكبها، وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، وهي أعاليه قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر، وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب، والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه"[٨].

يعني: إذا كانت مناكبها المرتفِعات مذللة فسهولها من باب أولى، يعني: هذا يشير إلى وجه التعبير هنا، المرتفعات أصعب فإذا كانت مذللة فالسهول أكثر تذليلا.

وقال –رحمه الله–: "والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول، ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم، ووطّأها، وفتق فيها السبل، والطرق التي يمشون فيها، وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع، والتقلب فيه بالذهاب، والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

ثم نبه بقوله: **{وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}** على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين، ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطنًا، ومستقرًّا، وإنما دخلنا لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن، فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته، ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا، واتخاذها وطنًا، ومستقرًّا.

بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته، وتوحيده، والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه، والاستعداد للقائه، والقدوم عليه، والإعلان بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور"[٩].

مثل هذا لا تجد نحوه في كتب التفسير، هذا الربط، **{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ}** لكن لا يكون ذلك على سبيل الإغراق والتعلق بها فليس ذلك على سبيل الدوام فيذكرهم بالانتقال منها **{وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}**.

قال تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [سورة الملك:١٦-١٩].

وهذا أيضا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به، وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [سورة فاطر:٤٥].

وقال هاهنا: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} أي: تذهب وتجيء وتضطرب.

---

٨ – الفوائد لابن القيم (ص: ١٧– ١٨).

٩ – المصدر السابق (ص: ١٨).

{أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} أي: ريحًا فيها حصباء تدمغكم، كما قال تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا} [سورة الإسراء:٦٨]**، وهكذا توعدهم هاهنا بقوله: {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به.**

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}** المور حركة مع اضطراب، وقوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}** ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: **أي: ريحًا فيها حصباء تدمغكم،** وبعضهم يقول: المقصود **{أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}** أي: حجارة من السماء، كما أرسل على قوم لوط، وكذلك أيضا على أصحاب الفيل يعني: من غير ريح، فالحاصب تارة يكون محمولا بالريح، تحمل الحصباء حجارة صغيرة، وقد يكون ذلك منزلا من السماء، ومن أهل العلم من فسره بهذا، وابن جرير -رحمه الله- فسر الحاصب بالتراب الذي فيه حصباء، حجارة صغيرة.

والآية تحتمل أن يكون المقصود بذلك حجارة من السماء، وتحتمل أن يكون ذلك بريح فيها الحصباء.

أما قوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}** فالمقصود أن "في" هنا بمعنى "على"، "من في السماء" أي على السماء، **{لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}** [سورة طه:٧١] ليس المقصود: أن يدخلهم وسط الجذع، وإنما المقصود على جذوع النخل، حروف الجر تتناوب، فـ"في" تأتي بمعنى "على"، فالله -عز وجل-، ليس في داخل السموات.

فالله فوق العالم، فوق عرشه، فوق سماواته، فـ"في" هنا بمعنى "على"، فرعون يقول: **{لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}** يعني: على جذوع النخل، وهناك معنى بلاغي ذكره بعض المفسرين قالوا: لشدة الربط على الجذع كأنه يدخله فيه، هذا معنى زائد، لكن قطعًا ليس المقصود أن يكون داخل الجذع قالوا: لأن جذع النخل هو أكثر إيلاماً ليس كجذع الشجرة، فإذا ربط فيه بقوة، فإن ذلك يؤذيه، ويؤلمه غاية الإيلام، فلذلك اختار لهم جذوع النخل يعني: طريقة في التعذيب.

قال هنا: **{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** قال: **أي: كيف يكون إنذاري، {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** كيف إنذاري يكون، وما يقع بسببه لكم من العذاب وما إلى ذلك، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله.

مع أن بعضهم فسره بغير هذا، يعني بعضهم قال: **{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** المقصود: الرسول الذي أرسل إليهم والنذارة التي جاء بها، يعني "كيف نذير": نذيري الرسول الذي أرسلته إليكم، وقابلتم ذلك بالتكذيب، لكن هذا الذي مشى عليه ابن جرير، وابن كثير قال: "كيف نذير" **كيف يكون إنذاري.**

ثم قال تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم السالفة والقرون الخالية، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيمًا شديدًا أليمًا.

هنا قوله: **{فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}** يمكن أن يكون قرينة ترجح ما قاله ابن جرير، وابن كثير، كيف يكون إنكاري على من كذب، وهكذا الذي من قبله كيف يكون إنذاري للمكذبين.

ثم قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا} الهمزة للاستفهام، والواو للعطف يقولون: عطفٌ هنا على مقدر يعني: أغَفلوا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن؟، قال: **تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً.**

يعني: هنا تجمع جناحًا وتنشر جناحًا، تفسير يقبض قد لا يكون ظاهراً -والله أعلم-، وأوضح من هذا، وأبين، والعلم عند الله -عز وجل- قول من قال: يعني يضممن أجنحتهن فهي بين البسط حينما تبسط هذه الأجنحة، أو حينما تقبضها، فهي تبسط تارة وتقبض تارة، كما يقول ابن جرير: تصفّها أحيانًا وتقبض أحيانًا، فهذا حال هذه الطير يكون بين قبض للأجنحة وبسط، وطيرانها أيضا يكون بهذا الاعتبار، فتكون في حالتيها كل ذلك يدل على قدرة الله -تبارك وتعالى- أن جعلها في هذا الهواء لا تسقط لا تقع، فكل ذلك من دلائل قدرته -سبحانه وتعالى.

{ مَا يُمْسِكُهُنَّ} أي: في الجو، {إِلَّا الرَّحْمَنُ} أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه.

يمسكهن ليس المقصود القبض، وإنما المقصود يمسكها في الهواء، يعني كما قال: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ} [سورة فاطر:٤١] ما معنى ذلك؟ يعني: تبقى على حالها في الارتفاع لا تسقط، فهنا كذلك أيضا "ما يمسكهن" يعني: ما يبقيها هكذا في الهواء محلقة لا تسقط إلا الله.

{إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النحل:٧٩].

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ} [سورة الملك:٢٠-٢٧].

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا، منكرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومخبرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ} أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واقٍ، ولا ناصر لكم غيره.

قال ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ} الآية: "جمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلابد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق فهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه"[١٠].

---

١٠ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٣٤/١).

يعني: هذا في وجه ذكر النصر، والرزق {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ}، {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} حاجة العبد إلى هذا وهذا.

ولهذا قال تعالى: {إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}.

ثم قال تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله -عز وجل-، وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره؛ ولهذا قال تعالى: {بَلْ لَجُّوا} أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم {فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} أي: في معاندة، واستكبار، ونفور على إدبارهم عن الحق، أي لا يسمعون له ولا يتبعونه.

ثم قال تعالى: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًّا على وجهه، أي: يمشي منحنياً لا مستوياً، على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى {أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا} أي: منتصب القامة، {عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة.

فالمؤمن يحشر يمشي سويًّا على صراط مستقيم مفضٍ به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٢-٢٣] **الآيات.**

هنا ابن كثير -رحمه الله- جمع بين قولين في تفسير هذا الموضع بهذه الطريقة التي سمعتم، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ} المُكِب والمُنكَب هو الساقط على وجهه، "قُل أكَبَّ باكيًا"، ويقول قتادة: والكافر يكون مُكباً على معاصي الله -تبارك وتعالى- في الدنيا فيحشره الله -عز وجل- على وجهه، {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا} فسره قتادة هنا بالانكباب على المعاصي، ويكون عاقبة ذلك أن يحشر على وجهه.

وابن جرير -رحمه الله- فسره بكونه لا يبصر يعني: يسير في هذه الحياة الدنيا على غير اهتداء فهو لا يبصر ما عن يمينه وشماله، فهو كالذي قد حنى رأسه كما يقول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **كمثل من يمشي مكبًّا على وجهه أي: يمشي منحنياً لا مستويًا على وجهه**، يعني: يمشي ولا يرى طريقه، يمشي مكبًّا على وجهه يسقط ويقع؛ لأنه لا يرى الطريق، وفي الآخرة يحشر هؤلاء على وجوههم.

{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٢-٢٣] **الآيات، أزواجهم: أشباههم.**

روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: ((أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادرًا على أن يمشيهم على وجوههم))[١١] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} أي: العقول والإدراك، {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} أي: قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم، في طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

{قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ} أي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وأشكالكم وصوركم، {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم.

ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟.

{قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ} أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله -عز وجل-، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} وإنما عليّ البلاغ، وقد أديته إليكم.

قال الله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبًا؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الزمر:٤٧-٤٨]، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} أي: تستعجلون.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً} أصل هذه المادة يدل على القرب، وهنا: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً} زلفة هنا: مصدر يحتمل أن يكون بمعنى: الفاعل أي: مزدلفاً، رأوا العذاب قريباً منهم وعرفوا أنه واقع بهم لا محاله، أو أنه حال من المفعول مفعول رأوا، {رَأَوْهُ زُلْفَةً} رأوه، الهاء هنا: مفعول لرأوا، فيكون حالاً من مفعول رأوا من "الهاء" {رَأَوْهُ زُلْفَةً} بتقدير مضاف.

رأوه الهاء ترجع إلى العذاب، ذا زلفة، فيكون زلفة عائدًا إلى المفعول، وهو حال منه، أو ظرف، يعني: رأوه في مكان ذي زلفة، لكن كأن الأول أقرب، والله أعلم.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً} يعني: مزدلفاً قريباً، عرفوا أنه حالٌ وواقع بهم لا محالة، {وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} قال: أي تستعجلون.

---

١١ - رواه الترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٤٢)، وأحمد في المسند، واللفظ له، برقم (١٢٧٠٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، (٦٤١٧).

والفراء يقول: إنه من الدعاء، يعني: هذا الذي كنتم تطلبون، وهو قريب مما قاله ابن كثير –رحمه الله-، فهم كانوا يستعجلون، يقولون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} فهم كانوا يطلبونه ويتعجلونه {عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص:١٦] فكانوا يطلبون ذلك ففسر بهذا المعنى: كنتم تتمنون وتسألون، هذا هو، جاء.

{هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} من الدعاء وهذا قول الأكثر من المفسرين، هذا الذي كنتم تطلبونه وتستعجلونه، وتطالبون بوقوعه وتسألون عنه متى يقع.

وبعضهم كالزجاج يقول: {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} من الدعوى، وليس من الدعاء الطلب، لا، تدّعون تقولون فيه الدعوى الكثيرة، أن هذا كذب، ولا حقيقة له {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [سورة ق:٣] فتدعون فيه الأباطيل، وكذلك قول من قال: إن تدّعون بمعنى: تكذبون، هذا كله يرجع إلى الدعوى، فيصدر عنهم من دعاوى باطلة، بما يتصل بيوم القيامة.

قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ} [سورة الملك:٢٨-٣٠].

يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [سورة هود:١٢٣]، ولهذا قال تعالى: {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى إظهارا للرحمة في خلقه: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} أي: ذاهبا في الأرض إلى أسفل، فلا يُنال بالفئوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع؛ ولهذا قال تعالى: {فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} أي: نابع سائح جارٍ على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلا الله –عز وجل-، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة " الملك" ولله الحمد.

{فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ} الماء المعين قال هنا: **الجاري على وجه الأرض**، ولهذا فُسر بما تراه العيون، الماء المعين يعنى: الذي تراه العيون، وإنما تراه إذا كان جارياً على الأرض، فهذا يرجع إلى معنى واحد، {بِمَاءٍ مَّعِينٍ} تراه العيون يعني: أنه جارٍ على وجه الأرض، وكل ذلك كما قال قتادة، والضحاك يعني: الماء المعين هو: الجاري فكذلك أيضا إذا كان جارياً فإن العيون تراه.

سؤال يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}** إن هذا مما يكون به رقية المصاب بالعين، فهل هذا له أصل؟ وهل هذا من باب التحدي؟

أما الأصل فلا أعلم له أصلاً في كلام الله، ولا كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- من جهة أن ذلك يرقى به من العين، لكن الرُّقى هي من باب الطب، والأصل بالطب الإباحة مالم تشتمل على محرم، فإذا دلت التجربة على أن بعض الآيات يكون لها الأثر البالغ في علاج بعض العلل فلا إشكال في جمعها، واستعمالها في هذا.

كما يذكر الحافظ ابن القيم مثلا في آيات السكينة مثلاً، وهكذا كما يقال في الآيات التي يرقى بها من به مس، أو الآيات التي يقال لها: آيات الإحياء مثلا لمن كان في غيبوبة، أو نحو هذا، فهذا لا إشكال فيه.

وإذا كان الإنسان يرقِي فرأى الأثر على هذا المرقِي عند المرور في بعض الآيات فيمكن أن يرددها هذا لا إشكال فيه؛ لأن مبناه على الإباحة، فإذا ثبت أن هذا يفيد فلا إشكال في ذلك.

أما هل هذا من باب التحدي؟ فأنا لا أعلم، لكن للمناسبة، **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ}** تتعلق بالبصر وكونه يرجع بهذه المثابة وهو خاسئ وهو حسير، فهذا يناسب في رد العين بهذا الاعتبار، كما يقال في من به مس مثلا: يُقرأ عليه صدر سورة الصافات وفيها قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [سورة الصافات:٨-١٠] فهذا مناسب، ولذلك من به مس إذا قُرئت عليه مثل هذه الآيات في صدر السورة، إذا بلغ القارئ هذه صاح، وولول وطلب الخلاص؛ لأن ذلك يؤذيه، وقد يتأذى بعضهم بغير هذا.

وأحيانا سماع بعض الآيات **{لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ}** [سورة النور:٢٧] بعضهم يتأثر بهذا جدًّا، مع أن هؤلاء قد يتلاعبون بالراقي، وقد لا يكون به مس أصلاً، وإنما هو شيء يتوهمه، قد يكون في بعض الحالات، وقد يكون هذا الجني الذي تلبس به يتلاعب بالراقي فيُظهر له شيئاً ولا يكون كذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القلم من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القلم:١-٧].

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول "سورة البقرة"، وأن قوله تعالى: {ن} كقوله: {ص}، {ق} ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة، سورة {ن} قال: إنها مكية، وهذا على قول طائفة من السلف -رضي الله عنهم-، وهو مروي عن عائشة، وجابر، والحسن وعكرمة، ولكن جاء عن ابن عباس القول: إنها مكية، هكذا بإطلاق.

وروي عنه أيضًا: أن منها ما نزل بمكة، ومنها ما نزل بالمدينة، وقد جاء أيضًا مثل هذا الأخير عن قتادة، يعني: أنها من أولها إلى قوله: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم:١٦] مما نزل بمكة، ومن بعد ذلك إلى أواخر السورة إلى الآية رقم ٥٠ إلى قوله: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم:٥٠] أن هذا نازل في المدينة، والباقي مكي، يعني أن وسط السورة نازلة بالمدينة.

والسورة يقال لها: مكية، باعتبار صدر السورة على الأرجح -والله أعلم-، إذا نزل صدرها بمكة، أو بالمدينة قيل لها: مكي، أو مدني وإن نزل باقيها في موضع آخر.

والأصل أن السورة النازلة في مكة أن جميع الآيات كذلك، هذا الأصل، إلا بدليل، وعكسه أيضًا، ولا يُنظر في هذا إلى المعاني، لا ينظر إلى المعنى، ثم يلجأ إلى القول بأن هذه الآية أو هذه الآيات نزلت بموضع آخر، والله أعلم.

وقد مضى الكلام على مثل هذا.

أما ما يتعلق بالحروف المقطعة فقد مضى الكلام عليها، وأن الأقرب أنها حروف تهجٍّ لا معنى لها في نفسها، ولكنها تشير إلى الإعجاز؛ لأنها لا تكاد تذكر إلا ويذكر القرآن، أو الوحي، أو ما يدل على ذلك بعدها، إلا في مواضع يسيرة جدًّا، وقد تكلف بعض أهل العلم لربطها بالوحي.

فهنا لما ذكر الله -تبارك وتعالى- ذلك: {ن} قال: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} وهذه النعمة هي: الوحي والنبوة، وكذلك على قول من فسر القلم: {وَمَا يَسْطُرُونَ} -كما سيأتي- بأنه القلم الذي يكتب فيه مقادير

الخلائق، الذي كتب فيه أول ما خلق الله القلم، فهذا وحي، ويكون: {وَمَا يَسْطُرُونَ} على أحد الأقوال يعني الملائكة، هذا على أحد الأقوال.

الحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام مفيد جدًّا، قال -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}: "الصحيح أن {ن} و{ق} و{ص}، من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية، ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين: سورة: {كهيعص} و{ن}؛ كقوله: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة:١-٢]، {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [آل عمران:١-٣]، {المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف:١-٢]، {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس:١].

وهكذا إلى آخره، ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها، إذ هي مباني كلامه، وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرّفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه وصفاته، وأفعاله وأمره ونهيه، ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه، وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته، ولهذا امتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم، فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات، فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين: أعني القرآن، ونطق اللسان، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه؛ كما قال: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:١-٤].

فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدي بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل، فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب، فسبحان مَن هذا صنعُه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه وآخره وأعلاه وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم، فيُسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني أمراً ونهياً، وخبراً واستخباراً، ونفياً وإثباتاً، وإقراراً وإنكاراً، وتصديقاً وتكذيباً، وإيجابًا واستحبابًا، وسؤالاً وجواباً، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب نظمه ونثره، ووجيزه ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعه -تبارك وتعالى- في هواء مجرد

خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره في مجارٍ قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات، فشأنه أعلى وأجل.

وإذا كان هذا شأن الحروف، فحقيق أن تفتتح بها السور، كما افتتحت بالأقسام، لما فيها من آيات الربوبية، وأدلة الوحدانية، فهي دالة على كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه، وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحياً، وبلغه كما أوحي إليه صدقاً، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها، وبالله التوفيق"[١].

هذا كلام في غاية الإفادة، ولا يخرج عما سبق من أن هذه الحروف لا معنى لها في نفسها، ولكنها تشير إلى معنى، وهو الإعجاز، القرآن مكون مركب من هذه الحروف، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، ثم أضاف معنى، وهو: أن كلام الناس مركب من هذه الحروف، فلها شأن، فهي حقيقة بأن يفتتح بها كما افتتح بالأقسام، من هذا الباب، هذا حاصل الكلام الذي ذكره.

وفيما يتعلق بموضوع السورة فهي في مجملها تدور حول موضوع واحد، وهو ما يتعلق بوحي الله –عز وجل– لنبيه –صلى الله عليه وسلم–، فهي نعمة أنعم بها عليه، وكانت هذه النعمة حرية بأن تُتلقى بالقبول، ولكن قومه كذبوا وكفروا بهذه النعمة، فتوعدهم وضرب لهم مثلاً بأصحاب الجنة الذين كفروا بنعمة الله –عز وجل– عليهم بتلك الجنة، وما فيها من الثمار.

وكذلك أيضًا ذكر ما للمؤمنين المصدقين بذلك.

موضوع السورة في مجمله يدور حول هذا، وذكْرُ أصحاب الجنة هو من باب ذكر نظير فعل هؤلاء من الكفر بهذه النعمة.

وقوله: {وَالْقَلَمِ} الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:٣ – ٥].

فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: {وَمَا يَسْطُرُونَ} قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون.

وقال السدي: {وَمَا يَسْطُرُونَ} يعني الملائكة، وما تكتب من أعمال العباد.

وقال آخرون: بل المراد هاهنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر، حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة.

وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم.

---

١ – التبيان في أقسام القرآن، ص (٢٠٣– ٢٠٦).

روى ابن أبي حاتم عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت، فقال: إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، وما هو كائن إلى الأبد)) وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق، وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي به، وقال: "حسن صحيح غريب"[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}** أقسم بشيئين: الأول: القلم، وأقوال السلف تبين المراد به.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على الجنس، جنس القلم الذي يكتب به، وعلى هذا القول يدخل فيه ما عداه، يعني هذا القول أشمل الأقوال، يدخل فيه القلم الذي جاء في الحديث، كتب فيه مقادير الأشياء: ((أول ما خلق الله القلم)) فهو من جملة الأقلام، بل هو أجل هذه الأقلام.

ويدخل فيه الأقلام التي بأيدي الملائكة التي يكتبون فيها أقدار الله -عز وجل-، وكذلك ما يكتب فيه أعمال العباد، ويدخل في ذلك أيضًا سائر الأقلام، كالأقلام التي يكتب فيها وحي الله -تعالى- إلى أنبيائه -صلى الله عليهم وسلم-، والأقلام التي يكتب بها العلم، والأقلام التي يكتب بها ما ينفع الناس في أمورهم الدنيوية، كالطب والحساب، وما إلى ذلك.

كل هذه الأقلام داخلة فيه، ما يكتب به، فهذا القلم شأنه عجيب، به حفظت العلوم، وبه بلغت الأجيال، ولولا فضل الله ورحمته بالناس لضاعت علومهم وأموالهم وحقوقهم، ولم يصل إليهم من ذلك شيء يذكر، هذه العلوم التي كانت عبر الأجيال تصل من الأولين للآخرين عن طريق هذه الكتابة، وهذا القلم، فهذا القول أشمل الأقوال، وهو الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم، وفصله تفصيلاً نفيسًا، لعلنا نأتي عليه -إن شاء الله- بعد قليل.

وكذلك هنا قال: وقال آخرون: بل المراد هنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر، حين كتب مقادير الخلائق، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-: أنه القلم الأول.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا يَسْطُرُونَ}** هذا القسم الثاني: **{وَمَا يَسْطُرُونَ}** "ما" هذه تحتمل أن تكون موصولة، أي والذي يسطرون، أقسم بالقلم، وبالذي يكتبون، هؤلاء الذين يكتبون من هم؟.

إذا قلنا: إنها الأقلام التي بأيدي الملائكة فهم الملائكة.

وإذا قلنا: إن القسم بجنس القلم، فيدخل فيه الملائكة وغير الملائكة من الكاتبين.

ويحتمل أن تكون "ما" هذه مصدرية: **{وَمَا يَسْطُرُونَ}** أي: وسطرهم، فيكون أقسم بالقلم وبالكتابة، أو المكتوب.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ثم أقسم سبحانه بالقلم وَمَا يَسطرُونَ، فأقسم بالكتاب وآلته، وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأُثبتت به

---

٢ - رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم (١٨٩٣٦) وأبو داود، كتاب أحاديث أبي موسى الأشعري -رحمه الله-، باب أحاديث عبادة بن الصامت -رحمه الله-، رقم (٥٧٨)، والترمذي، أبواب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٣٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوُطدت به الممالك، وأُمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفى مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم، وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فنسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام الأفهام، وكما أن اللسان يريد القلب فالقلم يريد اللسان، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولّد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم يريد القلب ورسوله، وترجمانه، ولسانه الصامت.

والأقلام متفاوتة في الرتب فأعلاها وأجلها قدراً: قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق"[٣].

وقال -رحمه الله-: "فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

القلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله -تبارك وتعالى- من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق، وأصحابه مُخبِرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام، وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام، بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم وسُيّاس المُلك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل، الذي تضبط به المقادير، وما بينها من التفاوت والتناسب، ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذب هذ القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية، فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به الإنسان، وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع

---

٣ - التبيان في أقسام القرآن، ص (٢٠٦-٢٠٧).

عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم، وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تُحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويُصدق الصادق، ويُكذب الكاذب، ويُشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله، وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم، ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين ...

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه، وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب، فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال، فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها، وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جدًّا بحسب سعة الألفاظ، وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه، وتعرّف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بُعث به نبينا بواسطة القلم"[٤]، ثم ذكر أبياتًا لأبي تمام في القلم.

وبعد هذا يتكلم عن جواب القسم: **{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}** فيقول –أي ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: **{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}**"، تأمل سيتكلم عن المطابقة بين المقسم به، والمقسم عليه، وابن القيم يعتني بهذا كثيرًا، "وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب

---

٤ – المصدر السابق ص (٢٠٨– ٢١٢).

بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولاسيما من أميٍّ لا يقرأ كتاباً، ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، بريًّا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان، وأظهر الإفك؟!.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء، يصدّق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتاباً كذلك لشهد له العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان -بل وقوع- معارضتها ومشاكلتها، والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرّفهم من الحق مالا تهتدي عقولهم إليه، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي، ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون، إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها، ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى، فكيف يكون متبوعهم مجنوناً، وهذا حال كتابه وهديه وسيرته، وحال أتباعه، وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه"[٥].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: **وقوله: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} أي: لست ولله الحمد بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{بِنِعْمَةِ رَبِّكَ}** هذا كلام في الوسط، يعني ما أنت بمجنون، قال: **{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}** بعضهم يقول: أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما تقول: أنت بفضل الله في عافية، أنت بنعمة الله عليك في عافية.

{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} يعني بما أنعم الله عليك أنت في كامل العقل، لستَ بمجنون وهذا بفضل الله عليك ونعمته.

وبعضهم يقول: إن هذه "الباء": **{بِنِعْمَةِ رَبِّكَ}** متعلقة بمضمر وهو حال، يعني يكون المعنى: أنت بريء من الجنون متلبسًا بنعمة الله التي هي النبوة.

{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} يكون هذا يتعلق بمقدر محذوف، أعني "الباء" تتعلق بمقدر محذوف يعرب حالاً، أنت برئ من الجنون حال كونك متلبسًا بنعمة الله عليك بالوحي والنبوة.

---

٥ - المصدر السابق ص (٢١٣- ٢١٥).

وبعضهم يقول: إن هذه "الباء" للقسم، وهذا فيه بعد، يعني أن الله يقسم بنعمته على نبيه –صلى الله عليه وسلم– أنه ليس بمجنون: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} كأنه يقول: ما أنت ونعمةِ ربك بمجنون، أنه قسم، هذا لا يخلو من بعد، وليس هذا هو المتبادر.

وبعضهم –وكأن هذا هو المتبادر، ويدل عليه القرآن والله تعالى أعلم– يقول: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} من الوحي والنبوة بمجنون، فإنهم اتهموه بالجنون، لما جاءهم بهذا الوحي وأخبرهم أن الله أرسله إليهم قالوا: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: ٦].

طبعًا هم لا يعتقدون أنه نزل عليه الذكر، لكن يقولون هذا بحسب قوله ودعواه، أو على سبيل الاستهزاء، وهذه أحد وجوه ورود الخطاب في القرآن –كما ذكرنا في بعض المناسبات– أنه قد يرد مراعى فيه حال المخاطب –السامع– كما في قوله: {إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧] على أحد المعاني في توجيهه، يعني بحسب اعتقادك.

فالشاهد: أن هذا المعنى كأنه هو المتبادر، ما أنت بهذا الوحي الذي أوحاه الله إليك والنبوة بمجنون، كما يقولون؛ لأنه لما جاءهم به اتهموه بالجنون، فالله ينزه نبيه –صلى الله عليه وسلم– عن هذا كله.

فهذا هو جواب القسم: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}.

{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم.

ومعنى: {غَيْرَ مَمْنُونٍ} أي: غير مقطوع كقوله: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:١٠٨] {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين:٦] أي: غير مقطوع عنهم.

وقال مجاهد: {غَيْرَ مَمْنُونٍ} أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه.

هو يرجع إلى هذا بأي اعتبار؟ المقطوع بخلاف ما ذُكر: غير محسوب.

إذا كان غير محسوب فهذا كثير متتابع، وإنما الذي يحسب هو الشيء القليل المحصور، ولهذا مضى الكلام في عدد من المناسبات حينما يذكر الله –عز وجل– جزاء المؤمنين، وأنه يوفيهم أجورهم بغير حساب.

وذكرنا أن ذلك يدل على الكثرة، وأن الذي يحسب ويحصى هو القليل، وأما الكثير، فهو يكون كما قيل: حثوًا بلا كيل ولا ميزان لكثرته: {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: ٣٨] على أحد المعاني في تفسيره.

فهنا حينما يقول: غير محسوب، يعني معناه كثير متتابع، فهذا غير مقطوع، فيرجع إلى معنى ما سبق.

وبعضهم يقول غير هذا، يعني بعضهم يقول مثلاً: غير ممنون: لا منة فيه.

لكن بعض أهل العلم يعترض على هذا، يقول: المنة لله –عز وجل–، والله يمن على عباده بما يعطيهم في الدنيا والآخرة، ومنته لا يلحقهم فيها معرة أو نقيصة، فكيف يقال: غير ممنون من المن، فالله يمن على العباد بما أعطاهم وحباهم؟

لكن هؤلاء لا يقصدون هذا، وتجد عند التتبع في ثنايا كلامهم ما يدل على مرادهم، يقصدون غير ممنون من الناس، لا منة فيه لأحد من الخلق، فيحصل بذلك التأذي، يعني أجراً لا تنغيص فيه، ليس معه ما يكدره، يقصدون هذا، ففسروه بالمن المعروف.

لكن الأشهر هو تفسيره بما سبق: غير مقطوع {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} أي أجرًا كثيرًا متتابعًا، لا انقطاع فيه، غير محسوب.

وقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} قال العوفي، عن ابن عباس: أي: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام.

وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة قوله: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ذكر لنا: أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خُلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان القرآن.

وروى نحوه عبد الرزاق، وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث قتادة بطوله[٦].

ومعنى هذا: أنه -عليه السلام- صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له، وخلقًا تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه.

هذا مع ما جَبَلَه الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل؛ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: "خدمتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين فما قال لي: "أف" قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟[٧].

وكان -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقًا، ولا مَسِسْتُ خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا شَمَمْتُ مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عَرَق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"[٨].

وروى البخاري عن البراء يقول: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير[٩].

والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب: "الشمائل".

روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ما ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا

---

٦ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦).

٧ - كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، رقم (٦٠٣٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقا، رقم (٢٣٠٩).

٨ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٣٥٦١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولين مسه، رقم (٢٣٣٠).

٩ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٣٥٤٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه كان أحسن الناس وجهًا، رقم (٢٣٣٧).

كان أحبهما إليه أيسرهما، حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله -عز وجل(١٠).

وروى الإمام أحمد: عن أبي هُرَيرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما بُعِثتُ لأتمم صالح الأخلاق))(١١) **تفرد به.**

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** هذا الخلق كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: **لعلى دين عظيم، وهو الإسلام.**

ثم ذكر من قال بهذا من السلف، وهذا الذي عزاه الواحدي لأكثر المفسرين: على دين عظيم، وهو دين الإسلام.

وحقيقة الخُلق هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب، هذا هو الخلق بما يقرب معناه، ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب.

هذا القول: إنه على دين عظيم هو الإسلام، وقول عائشة -رضي الله عنها-: إن خلقه القرآن، وهكذا قول قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عما نهاه الله -عز وجل- عنه.

كل هذه الأقوال بالإضافة إلى قول من قال: إنه طبع على الطبع الكريم، كما يقوله بعض المفسرين، واختاره الماوردي.

هذه الأقوال غير متنافية، يعني من يقول: إن ذلك يعني الإسلام، أو القرآن، فإن القرآن هو الذي فيه تفاصيل وأحكام شرائع الدين.

وهكذا قول من قال: ما كان يأتمر به مما أمره الله به، وينتهي عما نهاه الله عنه، فهذا هو الامتثال للقرآن، والتطبيق لشرائع الإسلام، فكل هذا يرجع إلى شيء واحد، فإذا تخلق بهذا وامتثل فإنه لا يصدر عنه إلا كل فعل جميل، وكل قول جميل، لا يصدر عنه إلا هذا، فهذا لا يخرج عن معنى الخُلق المعروف، وحينما تجد أن ذلك يعني القرآن، أو شرائع الإسلام، أو نحو هذا فهذا هو الخلق، الخلق من أين يؤخذ؟.

يؤخذ من الإسلام، وشرائع الإسلام، من القرآن، فهذا لا إشكال فيه، فهذه الأقوال ليست خارجة عن هذا المعنى، ولهذا عبارة ابن كثير -رحمه الله- واضحة، يقول: ومعنى هذا: أنه -عليه الصلاة والسلام- صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيًا -تأمل العبارة كيف تنتظم الأقوال- قال: صار سجيةً له وخلقًا تطبَّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، إلى آخره، فهذا الخلق الذي يتبادر إلى الذهن هو المراد، لكن حينما يقال: هو الإسلام؛ فلأن الخلق إنما هو ما قرره الإسلام وشرعه، فيكون بفعل ما أمره به، وترك ما نهاه عنه، وهذا هو امتثال القرآن، العمل به واتباعه.

---

١٠ - رواه أحمد، رقم (٢٥٩٥٦) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

١١ - رواه أحمد، رقم (٨٩٥٢) وقال محققو المسند: "صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث".

الحافظ ابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا المعنى كلامًا جيدًا، وربطه بموضوع القسم، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله فهمًا، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه -صلى الله عليه وسلم-، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: "كان خلقه القرآن" فهمّ سائلها أن يقوم لا يسألها شيئًا بعد ذلك، ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمي الدين خلقًا؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإيرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإيرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقًا، هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها، فهذه كانت أخلاق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلاً له وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول -صلى الله عليه وسلم-، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: "كان خلقه القرآن" وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد وعلومهم وإراداتهم وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم، وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم والأعمال والإرادات التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟، فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته، وشواهد صدق رسالته؟.

وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيّهم المفتون هو أم هم؟.

وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

وقوله: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم.

وهذا كقوله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} [القمر:٢٦]، وكقوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤].

قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: {بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ} أي: المجنون.

وكذا قال مجاهد، وغيره.

ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق، وضل عنه، وإنما دخلت "الباء" في قوله: {بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ} لتدل على تضمين الفعل في قوله: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو: فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتون، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} أي ستعلم ويعلمون.

تعلمون ذلك متى؟.

بما يظهره الله -عز وجل- من دلائل صدقه، حينما تتجلى، وتتبين حقيقة ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-.

هنا ما نقله عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن ذلك يكون يوم القيامة، حينما تحق الحقائق، ويصير الغيب شهادة، عند ذلك يعلمون؛ كما قال: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} [القمر:٢٦].

وقوله: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} هذا كأنه من باب التنزل، يعني معلوم أنهم المفتونون بلا مرية، لكن كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤] ومعلوم أنهم هم على ضلال، وهو -صلى الله عليه وسلم- على هدى.

فهنا يقول: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} ونقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن المفتون بأي اعتبار؟.

باعتبار أنهم رموه بالجنون، فبرأه الله -عز وجل- عن ذلك.

{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} من هو الأحق بهذا الوصف، ومن ضيع آخرته وأطاع عدوه، فهذا الذي لا عقل له، قال: وكذا قال مجاهد وغيره، وبه قال الأخفش من أصحاب المعاني وأبو عبيدة معمر بن المثنى، واختاره ابن جرير.

كأنهم نظروا إلى هذه القرينة، اتهموه بالجنون فبرأه الله، قال: وستعلمون غدًا من الأحق بهذا الوصف.

وهذا يدل على أن المفتون يأتي بمعنى المجنون، فإن ذلك من الفتْن، حينما يصاب الإنسان في عقله.

ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي: الذي قد افتتن عن الحق، وضل عنه، وهذا هو المتبادر من إطلاق هذه اللفظة.

لكن كأن أولئك نظروا إلى السياق والقرينة، فالمفتون هو الذي فتن باتباعه هواه، فأعرض عن الحق وتركه، يقول: وإنما دخلت "الباء" في قوله: {بِأَييِّكُمُ} التي تدل على تضمين الفعل في قوله: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} يعني تضمين ماذا؟

بالعلم، أو ستخبَر ويخبَرون، فــ"علم وأخبر" تتعديان بـــ"الباء" علمت بكذا، أخبرته بكذا، أخبرني بكذا، تعدية، يعني بدلاً من أن يقال: إن "الباء" هذه زائدة.

هنا يقول: لا، جاءت التعدية بـــ"الباء"؛ لأن قوله: {فَسَتُبْصِرُ} مضمن معنى فعل آخر يتعدى بـــ"الباء"، "فستبصر" مضمن معنى أنك ستخبَر: {بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} ستعلم ويعلمون: {بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ}.

فـــ"علم" و"أخبر" تتعديان بـــ"الباء" فعدي تبصر بـــ"الباء" لهذا التضمين، وإلا فإن "ستبصر" لا تتعدى بـــ"الباء" تقول: أبصرت كذا، تتعدى بنفسها، أبصرت الحق، ولا تقول: أبصرت بالحق، إلا إذا ضمنته معنى فعل آخر.

فهذا توجيه جيد لهذا الموضع، بعيد عن التكلف، والمفسرون والمعربون ذكروا في هذا أشياء، لكن هذا من أوضحها وأحسنها، وإلا فإن بعض أصحاب المعاني -مثل الفراء- قال: إن التضمين هو في الحرف، يعني بدلاً من أن يكون في الفعل، وقد ذكرنا من قبل في مناسبات شتى: أن تضمين معنى الفعل أبلغ وأكثر في المعاني، وأن هذا كما يقول ابن القيم: "طريقة فقهاء النحاة" وهذا الذي يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فتضمين الحرف معنى الحرف أسهل، ولكن لا جديد فيه من جهة المعنى.

فالفراء يقول: إن "الباء" بمعنى "في" {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} {بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} يعني في أي الفريقين الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر، {بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} في أيكم المفتون.

وكأنهم يحتجون على هذا بقراءة شاذة: "في أيكم المفتون" يعني في أي الفريقين يكون هذا الوصف، "فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون"، في أي الفريقين يكون المفتون.

وكما سبق أن ابن عباس -رضي الله عنهما- حمل ذلك على يوم القيامة: أن هذا الإبصار يتجلى يوم القيامة.

وجاء عن قتادة: أن هذا يوم بدر، حينما قتل من قتل منهم، وأسر من أسر، وهزموا شر هزيمة.

لكن الأول أشهر.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة؟.

والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر.

والجمهور على خلاف هذا التقدير، وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن "الباء" زائدة، والمعنى: أيكم المفتون، وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

الثاني: أن المفتون بمعنى الفتنة، أي: ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة، و"الباء" على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

الثالث: أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فُتون المفتون، وليست "الباء" زائدة. قاله الأخفش أيضاً.

الرابع: أن "الباء" بمعنى: في، والتقدير: في أي فريق منكم النوع المفتون، و"الباء" على هذا ظرفية.

وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر، لا حاجة إلى شيء منه.

و{فَسَتُبْصِرُ} مضمن معنى: تشعر وتعلم -تأمل كما ذكر الحافظ ابن كثير أي مضمن معنى فعل يصح تعديته بـــ"الباء" تشعر، تعلم- فعدى بـــ"الباء" كما تقول: ستشعر بكذا، وتعلم به، قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق:١٤].

وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد"[١٢].

قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} أي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

قال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم: ٨- ١٦].

---

[١٢]- التبيان في أقسام القرآن، ص (٢١٨- ٢١٩).

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، قال ابن عباس: لو تُرَخِّص لهم فَيُرَخِّصون.

وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ}** من هؤلاء؟.

الكفار يدخلون في ذلك دخولاً أوليًّا أصليًّا، لا تطع الكفار، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}** [الأحزاب:١] فالكفار في الظاهر والباطن، والكفار في الباطن -وهم أهل النفاق- لا تطعهم: **{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ}** لا تطعهم فيما يشيرون به، ولا تطعهم فيما يطلبون من التنازل عن الحق، والتخلي عنه، أو عن بعضه، فهم لا يفتئون يحاربون من دعا إلى الحق، أو اتبعه، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [البقرة:١٢٠]، وقال: **{وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ}** [البقرة:٢١٧].

فالقتال جعله لغاية: **{حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ}** القتال إلى الردة.

وأما الرضا فلا يتحقق إلا باتباع ملة هؤلاء الكفار، فهما غايتان: ترك القتال بأن يرتد المسلمون عن دينهم، ولا يتحقق بهذا رضاهم حتى تتبع ملة هؤلاء، يتبع ملة من؟.

اليهود والنصارى.

إذا اتبع ملة اليهود لن ترضى النصارى، وإذا اتبع ملة النصارى لن ترضى اليهود.

فقوله: **{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}** هذا يشير إلى قرينة تدل على معنى ما ذكر من قول مجاهد: "تركن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق" وهكذا ما نقله عن ابن عباس: "لو ترخص لهم فيرخصون" يعني تتنازل عن بعض الحق، وهم بالمقابل يقدمون تنازلاً، تلتقون معه في منتصف الطريق، فيترك المؤمن ما أمره الله -عز وجل- به طلبًا لرضاهم، وللالتقاء معهم.

وهذه طريقة أهل النفاق، فهم يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، ويزعمون في هذا الإفساد أنهم يريدون الإصلاح **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** [البقرة:١١] يقولون: **{إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}** [النساء: ٦٢] نوفق بين هؤلاء وهؤلاء، نلتقي في حل وسط.

والوسط ليس دائمًا يكون محمودًا، وإنما لزوم الحق هو الوسط، وإلا فالوسط قضية نسبية، لا يقال دائمًا: إن الوسط هو الصواب والحق، فالتوسط بين المؤمنين والكافرين هذا سبيل المنافقين، فهم يأخذون من هذا بطرف، ومن هذا بطرف، فيكونون كالغنم العائرة بين الغنمين.

فهذا المعنى الذي ذكر هنا في "تدهن" لا منافاة فيه.

وأصل الإدهان هو الملاينة.

وابن جرير -رحمه الله- لما تكلم على معناه ربط ذلك بالدهن؛ لأن الدهن يلين الشيء: **{لَوْ تُدْهِنُ}** تلين معهم.

ولهذا فسر بالمسامحة والمداراة، ويقصدون بها التنازل، والتغاضي عن الحق، وعباراتهم تدور حول هذا، كقول الفراء: "لو تلين، فيلينوا لك".

وقول الضحاك والسدي: "ودوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر فيدهنون".

وقول الربيع: "لو تكذّب فيكذِّبون".

وقول قتادة: "لو تذهب عن هذا الأمر، فيذهبون معك".

وقول الحسن: "لو تصانعهم في دينك، فيصانعوك".

وقول مجاهد: لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمالونك".

وهكذا قول ابن قتيبة: "أرادوه أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة".

وبنحوه قال ابن جرير -رحمه الله.

هذا كله يرجع إلى شيء واحد، ولهذا جاءت سورة التوحيد والإخلاص: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** [الكافرون: ١- ٢] هذه في توحيد الإلهية، تبرأ منهم، ومن آلهتهم، ومن معبوداتهم وعباداتهم: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: ٣- ٦].

هذه مفاصلة كما ذكرنا في الكلام على هذه السورة، قول من قال: إن الجملتين الأوليين: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** أي: في الحاضر الآن، ولا أنا في المستقبل سأتحول إلى عبادة آلهتكم: **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**.

وبعضهم عكس المعنى، قال: إن الأُوليين في المستقبل، والأُخريين في الحاضر.

وقد سبق الكلام على هذا.

فالمقصود: أن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}** يعني تترك ما أنت عليه، تتنازل، تركن إليهم، فهم أيضًا في المقابل يمالئونك، بمعنى أنهم عندها سيقابلونك بالقبول والممالأة والموافقة، فيكون ذلك من الطرفين، يعني تكون مقبولاً عندهم إذا تركت الحق، أو بعض الحق الذي دعوتهم إليه.

ممكن أن تتنازل وتقدم لهم دعوة لا تضايقهم، ليس فيها دعوة إلى توحيد الله -عز وجل- والإيمان، وليس فيها إبطال للشرك، ولمعبوداتهم، فهذا الذي أقامهم وأقعدهم، ممكن أن تدعوهم إلى أمور مشتركة يوافقونك عليها، من الكلام على قضايا من الكرم، وصلة الرحم، وترك الفواحش، وما إلى ذلك؛ مثل الآن ما يسمى بـــ"دعوة القيم"، القضية مشتركة بين الجميع، لا تنبع من التوحيد والإيمان، يمكن أن تقدَّم في البلاد الشيوعية، تقدم عند اليهود، عند النصارى، والطوائف، عند الوثنيين، سيتقبلون هذا، ويرفعون هذا الشعار، لكن حينما يُدعون إلى التوحيد الذي ينبع منه كل قول كريم، وكل فعل كريم، هذه هي دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

لكن هؤلاء الذين يدعون إلى القيم يزعمون أن التوحيد من القيم، هم يقولون هذا.

و"القيم" أصلاً ليس لها أصل في اللغة، اجرد كتب القواميس والمعاجم لن تجد لها أصلاً، ولا في كلام أهل العلم المعتبرين، وإنما هي لفظة كأنها مولدة في العصر الحديث، غير واضحة المعنى.

فالقيم ما هي؟.

فكل أناس لهم قيم، كل أمة لها قيم، كل ديانة، كل أهل ملة لهم قيم تخصهم، فإذا قالوا: إن التوحيد هذا من القيم، الإيمان من القيم، فتكون غاية ما هنالك أننا استبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير ((الإيمان بضع وسبعون شعبة))[١٣]، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله –تعالى–، واستعمالها في كل وقت في غير محلها.

قال ابن عباس: المهين: الكاذب.

تأمل هنا لما قال: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} من الكفار والمنافقين، قال: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ}.

الحلاف هو كثير الحلف، وإنما يُكثر الحلف؛ لأنه مهزوز، ضعيف، لا يثق بنفسه، ولا أنه يصدق، ولا يقبل ما يقول، فيضطر إلى تأكيد كل ما يقول بالحلف، فهو كثير الحلف، وهذا لا شك أنه يؤدي إلى ابتذال اسم المعبود –جل جلاله–، ولهذا جاء في كتاب التوحيد: "باب ما جاء في كثرة الحلف"؛ لأن كثرة الحلف فيه نوع استخفاف وابتذال.

فهنا لما ابتذل اسمَ الله –عز وجل–، وجعله على طرف لسانه جوزي بعقوبة تليق بمثله، أو وُصف بما يليق بمثله: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ}.

ووصفه هنا بذلك: {مَّهِينٍ}؛ لأنه أهان اسم الله بكثرة جريه على لسانه، يحلف على ما يستحق وما لا يستحق: قسمًا بالله، والله، في لحظات، وليس في الساعة الواحدة، في لحظات تحسب له أيمانًا متتابعة متعاقبة على قضايا تافهة، بين كل جملة وجملة قسم وهو يتكلم مع الناس، فهذا ابتذال لاسم الله –عز وجل.

وكما جاء عن النخعي: أنهم كانوا يؤدبون الصبيان على الحلف.

يؤدب الصبي، ويضرب، ليعظم اسم الله –عز وجل–، ولا يكون ذلك خفيفًا على لسانه.

والذين يكثرون الحلف في القرآن، يعني ما جاء من ذكر قوم يكثرون الأيمان في القرآن إنما كان ذلك في صفة المنافقين: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ} [المنافقون:١] هنا الشهادة هذه بمعنى القسم {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}.

وكذلك: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [المنافقون:٢] فصار ذلك عادة متكررة لهم، راسخة فيهم، حتى إنهم يبعثون يوم القيامة يحلفون: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [المجادلة:١٨] استمرءوا هذا الأمر، فيقومون من قبورهم يوم القيامة يحلفون، وهذا في غاية القبح.

كيف صار هؤلاء بهذه المثابة؟، ويحسبون أن هذه الأيمان الكاذبة تنفعهم، وتُنَفِّقهم عند الله –عز وجل– في الآخرة؟!

فهذا يؤخذ منه عبرة وعظة: أن لا يكثر الإنسان الحلف، وأن لا يحلف إلا على شيء يستحق، ولا يستخف باسم الله –عز وجل.

---

١٣ – رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٥).

وكثير الحلف فعله هذا مؤذن بأنه غير مطمئن لما يقول، وغير مطمئن إلى تصديق الناس لكلامه، فيضطر إلى توكيده بالحلف.

{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ}، {مهِينٍ} من المهانة، وبعضهم يفسرها بالقلة في الرأي، وضعف الرأي، والتمييز.

وبعضهم -كمجاهد- يقول: الكذاب هو المهين.

وبعضهم يقول: المكثار من الشر" كما يقوله قتادة والحسن.

وبعضهم يقول: هو العاجز الفاجر.

وبعضهم يقول: هو الحقير عند الله.

وقول من قال: الذليل بمعناه.

وبعضهم يقول: الوضيع.

وهذا يرجع إلى معنى متقارب، فإن الكذاب وضيع.

كثير الحلف بالكذب هذا مكثار من الشر، فعله هذا مؤذن بأنه لا عقل له ولا قدر، ولا تمييز ولا رأي، فهو ذليل فاجر عاجز، يلجأ إلى الحلف.

وقوله: {هَمَّازٍ} قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب.

{مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي: الحالقة.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس قال: مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقبرين، فقال: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة))[14] الحديث.

وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم، من طرق عن مجاهد، به.

روى الإمام أحمد أن حُذَيفة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يدخل الجنة قَتَّات))[15] رواه الجماعة، إلا ابن ماجه.

قوله -تبارك وتعالى- في صفة هذا الحلاف المهين: **{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيم}.**

{هَمَّازٍ} قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب، وإلى هذا ذهب ابن جرير -رحمه الله.

وقد سبق الحديث عن الهمز وعن اللمز في مواضع من آخرها: قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}** [الحجرات: ١١]، وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}** [الهمزة: ١].

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

١٥ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٦٠٥٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

وذكرنا أن الهمز يدل على فعل، ولهذا فسره بعضهم بالفعل، وأن اللمز يكون بالقول، وهذا ليس محل اتفاق، فبعضهم يعكس هذا.

وهنا تفسير الهماز بالمغتاب، وهو قول قريب.

{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ} فذكَرَه مع النميمة، فهو غيّاب يغتاب الناس، ويسعى في الإفساد.

وبعضهم يقول: إن الهماز -كثير الهمز- الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز هو الذي يذكرهم في غيبتهم، يلمزهم، ولكن هذا وإن قال به جماعة من السلف كأبي العالية والحسن وعطاء بن أبي رباح فإنه ليس محل اتفاق، بل بعضهم عكس هذا، كما قال مقاتل، والله -عز وجل- يقول: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة:٧٩] هنا لا يشترط أن يكون ذلك في غيبتهم، فإذا جاءوا بالصدقة -وهؤلاء حضور- وكانت كثيرة قالوا: هذا مُراءٍ، وإن كانت قليلة قالوا: الله غني عن هذا وعن صدقته.

{وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: ٥٨] يعيب عطاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقسْمه بين الناس.

{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} يمشي بين الناس بالنميمة على سبيل الإفساد، هذا النمام، فذكْرُ المغتاب مع النمام لا شك أنهما مقترنان، فهذا الذي يغتاب الناس ويتكلم في أعراضهم هو أيضًا حينما يكون مقارفًا للنميمة هو يفعل ذلك أيضًا من باب الغيبة وزيادة، يعني يذكرهم بما يكرهون على سبيل السعي فيهم وبينهم في الإفساد، فيسعى في الإفساد.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء:٣٦] ذكرنا هناك أن القفو الاتباع، ففسرها بعضهم بالغيبة أو بالنميمة؛ لأنها تقال من خلف الإنسان، من القفا، في قفاه، ليس في وجهه.

وذكرنا أن هذا من المعاني الداخلة في الآية، فهذا الذي يغتاب الناس يقفو ما ليس له به علم، وهذا الذي يسعى بالنميمة يقفو ما ليس له به علم، وهكذا كل من اشتغل بالباطل اعتقادًا أو قولاً أو عملاً، فهو ممن قفا ما ليس له به علم، فهؤلاء الذين يقعون في أعراض الناس، ويسعون بينهم في الإفساد، يحرشون بينهم، وهي سوق مستعرة لها ضرام، عبر هذا الإعلام الجديد، الوقيعة في أعراض الناس، لا يترك أحداً إلا يُوسم بأقبح الأوصاف، بالكذب والبهت البين، فالله حسيبهم.

هؤلاء كم فرقوا من شمل، وكم هدموا من بناء، وكم أوقدوا من فتنة وشر بين الناس، وكم أفقدوا من ثقة بأهل الصلاح والخير وأهل العلم، فلا يتركون أحدًا إلا بهتوه.

فهؤلاء من يُنشئون هذا البهتان والكذب والغيبة، ومن يسعون فيه، ومن ينشرونه، كل هؤلاء يشتركون في هذا.

وهؤلاء أبعد ما يكونون عن التربية القرآنية، وعن الأخلاق الإسلامية، فضلاً عن أن يكون مثل هؤلاء يشتغلون أو يصلحون لإقامة دنيا، أو دين، مثل هؤلاء الكذبة، هؤلاء السعاة والدعاة إلى الفتن والشرور، الذين لا يسلم أحد من كتاباتهم وألسنتهم -عليهم من الله ما يستحقون- هؤلاء لا يمكن أن يقيموا عدلاً، ولا دينًا، ما أقاموه في أنفسهم، فكيف يقيمونه لغيرهم؟!.

فهؤلاء لا شك أنهم أغواهم الشيطان واستزلهم، وصاروا بهذه المثابة، أسوأ الأخلاق، وأسوأ الكلام، وأسوأ العبارات، وأسوأ الأفعال تصدر عنهم، والله المستعان.

وقوله: {مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [القلم:١٢] أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير.

{مُعْتَدٍ} في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع.

{أَثِيمٍ} أي: يتناول المحرمات.

{مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ} يقول هنا: يمنع ما عليه وما لديه من الخير، يعني من حقوق الله، وحقوق الناس.

والخير يأتي بمعنى: المال: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:٨] يعني المال، كما قال الله -عز وجل-: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ٢٠].

فهذا كثير المنع للخير، بخيل بالمال، لا ينفقه في وجهه.

وبعضهم فسر الخير هنا بالمعنوي، يقول: هو الذي يمنع الناس من الدخول في الإسلام، يمنع أهله وقومه وعشيرته من الإيمان، يصدهم عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، واتباع الحق {مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ}.

والآية عامة، فيدخل فيها هذا، ويدخل فيها منع الحقوق المالية لله ولخلقه: {مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ}.

ويدخل في ذلك أيضًا منع الخير من الدعوة إلى الله، وتعليم الناس العلم، نشر الخير بين الناس، دخول الناس في دين الله -تبارك وتعالى-، إلى غير ذلك مما تحتمله الآية، والله تعالى أعلم.

{مُعْتَدٍ} يقول: في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع.

{مُعْتَدٍ} في هذا، يعني ما يتعلق بأخذ المال، يأخذه من غير حله.

{مُعْتَدٍ} على الناس في حقوقهم وأموالهم وأعراضهم؛ لأنه نمام هماز مغتاب، معتدٍ لحدود الله -عز وجل.

{مُعْتَدٍ} كثير الآثام، لا شك أن صاحب هذه المقارفات هذا الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم، هو يحمل أوزارًا على ظهره، كثير الآثام؛ لأنه لا يبالي، قد خفت عليه المعصية، فهو مجترئ على الله -جل جلاله.

{مُعْتَدٍ} على حدوده، صاحب عدوان على الخلق.

وقوله: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} أما العتل فهو الفظ الغليظ الصحيح الجَموع المَنُوعُ.

وروى الإمام أحمد: عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتل جَوّاظ مستكبر)) وقال وَكِيع: ((كل جَوَّاظ جَعْظَرِيّ مستكبر))[١٦]، أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث سفيان الثوري وشعبة، كلاهما عن معبد بن خالد، به.

قال أهل اللغة: الجَعْظَرِيّ: الفَظُّ الغَلِيظ.

والجَوّاظ: الجَمُوع المَنُوع.

{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} "العتل" فسره ابن كثير -رحمه الله- بالفظ الغليظ، الصحيح، الجموع المنوع.

يقصد "بالصحيح" يعني معافى، صاحب عافية، نحن عندنا لا زال الناس يقولون ذلك، أحياناً عندما تشتط الأم في الدعاء لولدها تقول: اللهم أعطه عافية كافر؛ لأن المؤمن يبتلى، وتكثر علله؛ لأن الله إذا أحب قومًا

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}، رقم (٤٩١٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٥٣).

ابتلاهم، فتقول: اللهم أعطه عافية كافر، هذا قصْده بأنه صحيح، يعني أنه مكتمل العافية، وصحة البدن، والله -تبارك وتعالى- يمتعهم بهذا قليلاً، وكلام عامة المفسرين في معنى هذه اللفظة "العتل" يقولون: هو الشديد الخَلق، الفاحش الخُلق.

{عُتُلٍّ} وما ذُكر كأنه يرجع إليه، كما قال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل، فهذا بمعنى شديد الخُلق، أي إنسان صعب المراس، صعب الخلُق، يصعب التفاهم والتعامل معه.

ولهذا قال الزجاج: هو الغليظ الجافي، ويقال: عتلتُ الرجل أعتله إذا جذبته جذبًا عنيفًا.

فاللفظة تدل على الشدة، ولهذا فسره ابن جرير -رحمه الله- بالجافي الشديد في كفره، يقول: كل شديد قوي فالعرب تسميه بذلك، يقولون له: "عتل" فهذا إذًا عتل، يعني أنه شديد جافٍ قاسٍ صلف.

المؤمن يألف ويؤلف، ومثل من كان بهذه المثابة لا يألف ولا يؤلف، وشر الناس من أحسن الناس إليه اتقاء شره.

هذا العتل الجواظ المستكبر، هذه صفات أهل النار.

وأما الزنيم فروى البخاري: عن ابن عباس: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} قال: رجلٌ من قريش له زَنَمة مثل زَنَمة الشاة.

ومعنى هذا: أنه كان مشهورًا بالشر، كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها.

وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدّعِيُّ في القوم، قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة.

{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ} يعني هو بعد ما فيه من هذه المعايب: حلاف، مهين، هماز، مشاء بالنميمة، وهو فوق ذلك: **{زَنِيمٍ}** يعني "حشفة وسوء كيل"، على هذه الأوصاف القبيحة، منظومة من القبائح، وفوق ذلك هو زنيم.

فالزنيم على المشهور من كلام المفسرين وأهل اللغة في معناه: أنه الدعي الملصق بالقوم، وليس منهم.

الذين ذكروا الزّنَمة وهي تكون في رقبة الشاة، أو المعز، يعني بمعنى أن في بعض الشياه أو المعز شيئًا متدليًا في رقبتها، أليس كذلك؟.

هنا تتدلى كالأصبعين، لكن لا عظم فيها، من رقبة الشاة، أو المعز، وليس في كلها، يقال لها: زنمة، لأنها زائدة، فهذا المعنى مشهور، ومنه قول حسان -رضي الله تعالى عنه-:

زنيمٌ تداعاه الرجالُ زيادةً *** كما زِيد في عَرض الأديمِ الأكارعُ

هذا معنى صحيح، وهو ثابت في اللغة.

ولهذا فإن قول من قال: هو رجل من قريش كانت له زنمة كزنمة الشاة، هذا فسره بمعنى حسي، وهذا يحتاج إلى دليل.

وبعضهم فسره: بالمعروف بالشر، أو بالظلوم، لكن المشهور هو الأول.

{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في الأخير لما ذكر قول من قال: إنه رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة، وجه هذا القول توجيهًا آخر، فقال: ومعنى هذا أنه كان مشهورًا بالسوء، كشهرة الشاة ذات الزنمة.

يعني ابن كثير يوجه ذلك أنه لم تكن له زنمة حقيقية، وإنما عرف واشتهر بهذا، وتميز به.

ثم ذكر: أن الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وأظن هذه اللفظة مستعملة إلى اليوم، يقولون: الزلمة، وهذه اللفظة يقولها أهل الشام: زلمة، ويقصدون بها الرجل.

لكن "زنمة" بالنون، هذه تعتبر سبة، "زنمة" فهذا معناه قذف لهذا الإنسان أنه دعي، قذف له في عرضه، أنه ابن زنا مثلاً، أو نحو ذلك.

وقوله: {أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}.

يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله -عز وجل- وأعرض عنها، وزعم أنها كَذب مأخوذ من أساطير الأولين؛ كقوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [المدثر:١١-٣٠].

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ}** يقول: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين أن كفر بآيات الله -عز وجل-، وأعرض عنها.

{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} بعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ}** متعلق بقوله: **{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ}** يعني لا تطع من كانت هذه أوصافه لكونه ذا مال وبنين، لكونه صاحب مال، لا تطعه وهو يحمل هذه الأوصاف القبيحة لكونه يملك مالاً، وله بنون، فإن هذا لا يرفع صاحبه، ولا يستحق معه الاستجابة والطاعة والقبول لما يدعو إليه، فهو يحمل أحط الأوصاف.

{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} يعني لا تطعه لماله وبنيه، لئن كان ذا مال وبنين، لا تطعه لأن هذا هو مؤهله، غاية ما هنالك هذا التحصيل الدنيوي الفاني الذي لا يقرب صاحبه عند الله، ولا يرفعه، لا تطعه لمجرد كونه يملك أموالاً، وعنده أبناء، وهو يحمل تلك القبائح، والأوصاف الوضيعة، وهذا الذي ذهب إليه الفراء والزجاج، واختاره ابن جرير -رحمه الله-، لا تطعه لكونه بهذه المؤهلات.

وهذا الموضع فيه قراءات متواترة: **{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ}**: "آن كان ذا مال وبنيين" في قراءة ابن عامر همزة واحدة بالمد.

والقراءة الأخرى قراءة حمزة: "أأن كان ذا مال وبنين".

وقراءة الباقين بهمزة واحدة على الخبر: "أن كان ذا مال وبنين".

على قراءة الاستفهام: "آن كان ذا مال وبنين" أو "أأن كان ذا مال وبنين" بعض أهل العلم حمل ذلك على أنه على معنى التوبيخ له، يعني أن كان كذلك حمله هذا على التكذيب ومقابلة نعمة الله -عز وجل- بالكفران؟، حمله هذا التحصيل على الكفر بنعمة الله -عز وجل-: "آن كان ذا مال وبنين" "أأن كان ذا مال وبنين".

وعلى قراءة الجمهور: **{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ}** أي لا تطعه لكونه يملك مالاً، وله أبناء.

وتأمل هنا في هذا الموضع -وفي كثير من المواضع- يُذكر البنون الأبناء دون البنات؛ لأنه يتقوى بهم، ويتعزز بهم {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا}.

وقال تعالى هاهنا: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} قال ابن جرير: سنبين أمره بيانًا واضحًا، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخراطيم.

وقال آخرون: {سَنَسِمُهُ} سمةَ أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم.

تأمل في هذين المعنيين، فسر ذلك بأمر معنوي لا حسي: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ}.

{سَنَسِمُهُ} بعضهم يقول: إن ذلك بشيء حسي في الدنيا.

بعضهم قال: بالكي على الخرطوم.

وبعضهم يقول: بالسيف يضرب على أنفه، فيقطع أنفه، أو يكون عليه سمة من أثر السيف.

والخرطوم: الذي عليه الجمهور هنا: أن المراد به الأنف، هكذا قال جماعة، كأبي عبيدة والمبرد، وبه قال أبو زيد، وكثيرون في ثنايا كلامهم وتفسيرهم ما يدل على أنهم فسروه بهذا الأنف، بصرف النظر عما ذكروا في هذه السمة ما المراد بها، فإن بعضهم فسره بأمر معنوي، كما ذكر ابن كثير هنا في القولين السابقين، ولهذا جاء عن مقاتل: سنسمه بالسواد على الأنف.

هنا الخرطوم هو الأنف، ولكن بعضهم يقول: إنه عُبر بالبعض عن الكل، يعني الوجه، ولهذا نفس قول مقاتل يبينه، يقول: وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار، يعني بسواد الوجه، ولهذا فإن الفراء يقول: إن الخرطوم هنا وإن خُص بالسمة: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} فإنه في مذهبِ الوجه؛ لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض، وهكذا قول الزجاج أيضًا بأنه سيجعل له في الآخرة علامة، العلامة التي يعرف بها أهل النار وهي سواد الوجوه، جعلوا ذلك في الآخرة.

وبعضهم قال قولا عامًا مطلقًا، كقول قتادة: سنُلحق به شيئًا لا يفارقه، وهذا اختاره ابن قتيبة، يقول: باعتبار أن العرب تقول: قد وسمَه مَيْسم سوء، يعني ألحق به عارًا لا يفارقه، قالوا: المعنى أن الله ألحق به عارًا لا يفارقه كالوسم على الخرطوم، يعني العلامة التي تكون على الأنف تلوح، لا يخطئها النظر، بخلاف ما لو كانت باليد مثلاً، أو الرجل.

ابن جرير ذكر هذه الأقوال، والذي رجحه: أن المعني سنبين أمره بيانًا واضحًا، حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخرطوم.

ابن جرير يميل إلى هذا القول، مثل قول قتادة: سنلحق به شيئًا لا يفارقه، فنبين أمره بيانًا واضحًا.

ثم لمّا ذكر هذا القول وذكر الأقوال قال: ويمكن أن يكون ذلك أيضا بسمة تكون عليه حسية على أنفه، كجدع أنفه أو نحو ذلك بالسيف، يقول: لا مانع من هذا، أن يجتمع عليه هذا وهذا، هذا ذكره احتمالا، ما قاله مرجحًا له، قال: "ويمكن" لمّا ذكر هذا القول الذي تشير إليه الآية.

وطبعا تكلم المفسرون من المراد بهذا، ولا حاجة إليه؛ لأن الله تعالى يقول: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ}، فيشمل كل من هذه صفته: {هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} إلخ، ولهذا قول من قال: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} علامة لا

تفارقه بمعنى سواد الوجه، أو نحو ذلك يوم القيامة، هذا يصدق على من كان بهذه المثابة، يعني ليس شخصًا معينًا، فيجدع أنفه مثلاً، أو تحصل له علامة على الأنف.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القلم من الآية (١٧) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، والحاضرين والمستمعين.

يقول الله -تعالى-: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} **[القلم: ١٧-٣٣].**

قال المفسر -رحمه الله-: **هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثُهُ محمدًا -صلى الله عليه وسلم- إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ} أي: اختبرناهم {كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} أي: حلفوا فيما بينهم ليجُذنّ ثمرها ليلا؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشيء {وَلَا يَسْتَثْنُونَ} أي فيما حلفوا به، ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم، فقال تعالى: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ} أي: أصابتها آفة سماوية.**

{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}، قال ابن عباس: أي كالليل الأسود.

وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حُصد، أي هشيمًا يبسًا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}.

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ} أي: هؤلاء الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من كفار قريش.

وهذا الذي ابتلاهم الله -تبارك وتعالى- به: الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، يعني أنْ بعث فيهم نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وقابلوا ذلك بالتكذيب.

وبعض أهل العلم يقول: المراد بذلك ما وقع من دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– عليهم، فجعلها الله – تبارك وتعالى– عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم الجهد والقحط والمشقة والمجاعة.

وهذا من توابع ذاك، ومن آثاره، يعني لما قابلوا بالتكذيب حصل لهم هذه العقوبة.

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} هنا ليس هناك حاجة لتحديد المبهم مَن هؤلاء؟ وأين وجدوا؟ أين توجد هذه الجنة؟.

وإذا نظرت إلى الأقوال الواردة في ذلك كل هذا يرجع إلى ما تلقاه المفسرون عن بني إسرائيل، وهي أقوال متنافية، يعني من يقول: إنها في اليمن، ثم يختلفون في تحديد هذا الموضع من أرض اليمن، ومنهم من يبعد جدًّا، فيذكر نواحيَ أخرى غير اليمن، هذا لا فائدة فيه، وكما بينا مرارًا أن تتبع مثل هذه المبهمات هو قليل الفائدة، وأنه لو كان في ذلك مصلحة لذكرها الله –عز وجل–، فلا يُشتغل بهذا، يقول: **{إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}** يقول: أي: **حلفوا فيما بينهم ليجُذنّ ثمرها ليلا.**

الصرم هو القطع، والمقصود به قطع الثمر، يعني جذ الثمر.

{مُصْبِحِينَ} قال: **ليلاً**، وهذا قد لا يخلو من إشكال؛ لأن قوله: **{مُصْبِحِينَ}** أي: داخلين في وقت الصباح، ولهذا قالوا: **{أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ}** والغدو هو الوقت الذي يكون في أول النهار قبل طلوع الشمس، فيذهبون إليها قبل انتشار الناس؛ لئلا يراهم أحد، فيجذونها وهم داخلون في وقت الصباح، يعني في الصباح الباكر، يقول: **{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}** الأخبار الواردة في هذا وهي من الأخبار الإسرائيلية وإن لم يصرح بذلك، يقولون: إن هذه الأرض، هذا الحرث، هذه المزرعة كانت لأبيهم، وكان أبوهم صالحًا، وكان يجعل جزءًا مما خرج من هذه الأرض للمساكين، فإذا جاء وقت الحصاد والجذاذ جعل هذا للمساكين خاصة، فيأتون ويجدون ذلك موفرًا لهم، فهؤلاء قالوا: إن الناتج والحاصل من هذه الأرض قليل، والورثة كثير، فأرادوا أن يوفروا هذا الجزء لأنفسهم، وبصرف النظر: هل كان الأمر كما قيل أو لا لكن واضح أن هؤلاء أرادوا أن يمنعوا حق هؤلاء المساكين، ولا شك أنهم أرادوا بذلك أن يوفروا القدر الأكبر لأنفسهم، وأن يستأثروا بناتج الثمر الذي خرج من هذه الأرض، والله المستعان.

فهذا في مقاييس البشر المحضة قد يرون أنه من التوفير، وأن ذلك مما يكثرون به المال، ولكنه بالمقاييس الشرعية بخلاف ذلك، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر: أنه ((ما نقص مال عبد من صدقة))[1].

فالمعايير في الشرع تختلف عن المعايير القاصرة عند البشر حينما تلوح الأطماع، فهذا الذي يُعطَى لهؤلاء المساكين يدفع الله –عز وجل– به من البلاء ما لا يقادر قدره، ويحصل فيه من البركة، وتكثير المال، والزرع والثمر، والعبرة إنما هي بالبركة، وليست بكثرة العدد من هذه الثمار، أو الأشجار، أو نحو ذلك، العبرة بالبركة، فكم من محصل لكثير ولكنه في النتيجة وفي النهاية لا يكاد يبقى في يده منه شيء، فهؤلاء أرادوا هذا، فحصل لهم خلاف مقصودهم.

---

[1] – رواه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (١٦).

إذًا على العبد أن يراعي حق الله، وأن يحفظ حدوده، وأن يعلم أن هذا هو الطريق دون ما سواه، يقول: **{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}** أي: فيما حلفوا به، يعني ما قالوا: "إن شاء الله" بل هم واثقون من أنفسهم، يدفعهم هذا الطمع، فغلب على نفوسهم، فنسوا هذا الاستثناء، يقول: **ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم**، هذا هو ظاهر الآية -والله تعالى أعلم-: **{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}** يعني حينما أقسموا.

مع أن من أهل العلم من قال كعكرمة: **{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}** يعني ما للمساكين من جملة هذا الثمر، أو الزرع الذي يستحصد، يعني أنهم عزموا على أخذه كله، ولم يستثنوا، ولا يريدون أن يستثنوا من ذلك شيئًا للمحتاجين والفقراء والمساكين.

{وَلَا يَسْتَثْنُونَ} لا يستثنون منه شيئًا، هكذا جاء عن عكرمة.

والذي عليه عامة أهل العلم: أن المراد بذلك: **{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}** يعني في اليمين.

يقول: **{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ}** يقول: **أي: أصابتها آفة سماوية**، هذا الطائف الذي أصابها الظاهر أنه ليلاً؛ لأنهم لما غدوا عليها، فرأوها في هذه الحال: **{قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ}**، وهنا قوله: **{وَهُمْ نَائِمُونَ}** يدل كل ذلك على أنه كان في الليل، ولهذا قال بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله-: إن الطائف في لغة العرب لا يكون إلا ليلاً، لا يقع إلا ليلاً.

{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ} ما هذا الطائف الذي حل بها؟

هي آفة سماوية، نزل بها أمر الله، صاعقة، نزل بها عقوبة، فأصبحت بهذه المثابة، احترقت، وأَصبحَتْ **{كَالصَّرِيمِ}** يقول: قال ابن عباس: كالليل الأسود، وهذا قال به أيضًا من أصحاب المعاني الفراء.

يقول وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حصد، أي: هشيمًا يابسًا.

الهشيم اليابس يكون متغيرًا.

وهذا اللفظ "الصريم" بعضهم يقول: إنه الرماد الأسود **{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}** وهذا قريب من قول من قال: هشيمًا مثل الزرع إذا حصد، أي: هشيمًا يابسًا، فبعض أهل العلم يقول: الرماد الأسود بلغة خزيمة يقال له: الصريم.

وبعض أصحاب المعاني كالأخفش يقول: كالصبح إذا انصرم من الليل.

تأمل ذاك يقول: الليل، وهذا يقول: كالصبح إذا انصرم من الليل، يعني صارت يابسة بيضاء بعد أن كانت غنَّاء شديدة الخضرة **{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}**.

وظاهر من هذا -وهؤلاء أهل لغة-: أن الصريم يأتي لمعنيين متضادين، فهو من الأضداد، الصريم يقال: الليل، سوداء كالليل، وكذلك أيضًا: النهار، بيضاء كالصبح، فالنهار والليل، كل ذلك يقال له: صريم، فهذا ينصرم عن هذا، وهذا ينصرم عن هذا، كما يقول الفراء.

وبعضهم يقول: قيل لليل صريم؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرف والتنقل والاشتغال بطلب المعاش والرزق، فيقال له: صريم.

ويمكن الجمع بين هذين القولين المتقابلين: أنها أصبحت كالصريم، يعني سوداء محترقة، أو أنها بيضاء، والسواد والبياض ضدان، النسبة بينهما التضاد، والضدان هما ما لا يجتمعان في موضع واحد -في محل

واحد- في وقت واحد، ويمكن ارتفاعهما، يعني قد لا تكون سوداء ولا بيضاء، ولكن حمراء مثلاً، لكن لا يمكن أن تكون سوداء بيضاء في نفس الوقت، في نفس الموضع، إما أسود، وإما أبيض، هذان الضدان لا يجتمعان، ويمكن ارتفاعهما، يقال: لا أسود ولا أبيض، بخلاف النقيضين، فإنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، مثل الليل والنهار، والحياة والموت، لا يمكن أن تقول: لا ليل ولا نهار، لا حي ولا ميت، ولا يمكن أن تقول: حي ميت، ليل نهار، إما هذا، وإما هذا، ولا ثالث لهما.

فالمقصود: أن الصريم هنا من الأضداد، فقول من قال: إنها صارت سوداء محترقة، ومن قال: إنها صارت بيضاء كل ذلك يمكن أن يجتمع، فيكون حاصله: أنه لم يبق فيها شيء، فمن قال: إنها بيضاء يقصد أن الزرع الذي فيها، أو الثمر والشجر، كل ذلك قد انقشع وزال، ولم يبق منه شيء، صارت أرض جرداء، ومن قال: إن ذلك بمعنى الليل، فالصريم يعني سوداء محترقة، فهذا بمعنى قول من قال أيضًا: إن ذلك كله قد ترحل، وزال وتقشع، فلم يبق فيها شيء.

المقصود: أنها أصابها التلف، ولم يبق فيها زرع، ولا شجر -الله المستعان- صارت بهذه المثابة.

وحمله بعضهم كالحسن "كالصريم" على معني صرم منها الخير، لكن هذا يمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم.

{فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ} أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ، أي: القطع: {أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ} أي: تريدون الصرام {فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ} أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحدًا كلامهم.

ثم فسر الله -سبحانه وتعالى- عالِم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: {فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ} أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم.

قال الله -تعالى-: {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} أي: قوة وشدة، {قَادِرِينَ} أَيْ: عَلَيْهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ وَيَرُومُونَ.

قوله: **{فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ}** "أن" هذه مفسرة لهذا التخافت، ماذا يقولون؟ **{أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ}**، **{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ}** يقول: أي: قوة وشدة **{قادرين}** أي عليها فيما يزعمون ويرومون.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} الحرد هنا فسره بعضهم: بالمنع والقصد.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} يعني أنهم قصدوا منع الفقراء، أن لا يدخل عليهم أحد من هؤلاء، فيمنعوهم حقهم، وجاء عن جماعة من السلف -كقتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد- تفسير: الحرد: بالقصد، وهؤلاء أهل لغة يحتج بكلامهم وتفسيرهم اللغوي؛ لأنهم في وقت الاحتجاج، ففسروا الحرد: بالقصد، قالوا؛ لأن القاصد إلى شيء حارد.

{حَرْدٍ} أي قصد، حردتُ حردَك، يعني قصدت قصدك.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} يعني على قصد بيتوه.

وجاء عن بعض أصحاب المعاني كأبي عبيدة والمبرد، وبه قال ابن قتيبة أيضًا: أن الحرد بمعنى: المنع.

تأمل هناك القصد، وهنا المنع.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} أي منع، فيقولون: الحارد من النوق هي قليلة اللبن، وإذا حاردت الإبل يعني منعت لبنها، يعني لم يوجد فيها شيء، أو قلت ألبانها.

وفسره بعضهم: بالغضب {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} يعني على غضب، كما جاء عن السدي وسفيان والشعبي، وهذا أيضًا له ما يدل عليه من كلام العرب.

تفسير الحرد بالغضب جاء في كلام العرب شعرًا ونثرًا، العرب يقولون: أسد حارد، يعني غاضب، وحرد الأسد إذا غضب.

وجاء عن جماعة أيضًا من السلف تفسير ذلك: بالحسد {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} يعني على حسد، وهذا قال به قتادة ومجاهد أيضًا، على حسد.

وفعلهم هذا لا شك أنه يدل على نفوس ضعيفة، وعلى لؤم، وعلى حسد، وعلى أمراض وعلل في هذه النفوس التي لا تجود بنفع، ولا خير للناس، ولا ترق قلوبهم للمحتاجين والضعفاء والمساكين، فكيف بالأقوياء والأغنياء؟!.

وجاء أيضًا تفسير ذلك عن الحسن بأن الحرد يعني: الحاجة والفاقة {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ}.

وبعضهم فسر ذلك: بالانفراد، قال: حرد عن قومه، يعني انفرد واعتزل، تنحى عنهم، لم يخالطهم، وهذا قال به كبير من أئمة اللغة كالأصمعي -رحمه الله-، وهذه الأقوال لا يستهان بها، والأصمعي -رحمه الله- خزانة من خزائن العرب، فهو من أحفظ الناس لكلامهم وشعرهم ونثرهم، ففسره بالانفراد، وهذا أيضًا قال به الإمام الآخر صاحب تهذيب اللغة الأزهري، فهؤلاء جبال، أئمة كبار.

وتأمل هذه المعاني التي قالوها.

لكن قد يكون أبعدَ من فسر ذلك: بالجنة {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} يعني اسم هذه الجنة التي كانت لهم.

أو قول من قال بأن ذلك بمعنى: القرية، أو هو اسم للقرية التي كان فيها ذلك البستان، فهذا قد لا يخلو من بعد، والله تعالى أعلم.

وعبارة ابن جرير -رحمه الله- في هذا يقول -تأملوا عبارة ابن كثير وابن جرير- ابن جرير يقول: وغدوا على أمر قد قصدوه واعتمدوه، واستسرّوه بينهم، قادرين عليه في أنفسهم، ففسر ذلك بالقصد، على أمر قد قصدوه.

ابن كثير يقول: {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ}: **أي: قوة وشدة**، فما دامت هذه الأقوال صحيحة في اللغة: أن الحرد بمعنى القصد، وأنه أيضًا بمعنى: المنع، وأيضًا الغضب، ونحو ذلك من المعاني التي ذكروها، فيكون هؤلاء قد غدوا على حرد يعني على قصد للمنع، وهم في غاية التصميم، حتى إنهم لم يستثنوا، وفي حال من الانفعال، نفوسهم قد شُحنت ومُلئت بالحنق؛ لئلا يدخل عليهم أحد من المحتاجين، النفوس حينما تضيق يحصل فيها مثل هذا، حينما يريد الإنسان أن يستأثر بشيء دون الآخرين، يذهب تدفعه نفس ضعيفة صغيرة، دفعًا للأثرة، أو الاستئثار بهذا، ولو كان من الأمور الصغيرة التافهة، لو أراد الإنسان أن ينافس على شيء تافه، في الطريق يمنع الناس من أن يجتازه أحد، أو أن يفسح لأحد بحاجة إلى أن يقف، سيارة قادمة في زحام

شديد، يريد صاحبها أن يعبر من طريق فرعي، إذا كانت النفس ضعيفة تجد هذا الإنسان يعارك، ويستعد من مدة قبل أن يصل إليها، ليضع السيارة في مؤخرة السيارة الثانية مباشرة، لئلا يعطيه فرصة، وتجد النفس تضيق، هكذا يفعل اللؤم بأصحابه، ولهذا قال الله –عز وجل-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}** [المجادلة:١١]، وذكرنا هناك أن الفسح في المجالس يجازي الله –عز وجل- عليه بهذا الفسح الذي أطلقه: **{يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}** بماذا؟.

بالصدر يجد انشراحًا، وسعة في الصدر، وكذلك في الرزق، وكذلك في القبر، وكذلك في الآخرة.

وأما إذا كان الإنسان ضيق النفس، ضيق العطن، لا يفسح للآخرين، فإن مثل هذا حتى في المجالس حينما لا يفسح والناس بحاجة في يوم الجمعة، أو في المجامع الكبار، كالعيد، أو في الحرم، أو نحو ذلك، تجد أن نفسه تنقبض انقباضًا شديدًا، فيبقى في هذا الوقت كله إلى أن تنقضي الصلاة، وهو يشرع بالانقباض؛ لئلا يأتي أحد هنا أو هنا، فيضيق عليه المكان بزعمه، هذه أمور ناتجة عن هذه الممارسات والنفوس الضعيفة.

{قَادِرِينَ} أي: عليها فيما يزعمون ويرومون، **{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ}**، **{قَادِرِينَ}** هنا النصب بعضهم يقول: على الحال، يعني حال كونهم كذلك.

وبعضهم كالفراء فسر: **{قَادِرِينَ}** يعني أنهم قد قدّروا أمرهم، ليس من القدرة، وإنما من التقدير: **{قَادِرِينَ}** قدّروا أمرهم، بنوا عليه.

لكن جاء عن بعض السلف كقتادة أن المراد "قادرين" يعني على هذه الجنة، وتحصيل الثمر، والاستئثار به دون الفقراء.

وبعضهم فسره بتفسير لا يبعد من هذا، كقول الشعبي "قادرين" يعني على المساكين، يعني على منعهم.

فقول من قال: قادرين على الثمر، قادرين على المساكين على منعهم، جاءوا فلم يجدوا شجرًا ولا ثمرًا.

{فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} أَيْ: فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللَّه –عز وجل-، قَدْ اِسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّضَارَة وَالزَّهْرَة، وَكَثْرَة الثِّمَار إِلَى أَنْ صَارَتْ سَوْدَاء مُدْلَهِمَّة لَا يُنْتَفَع بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيق، وَلِهَذَا قَالُوا: {إِنَّا لَضَالُّونَ} أَيْ: قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْر الطَّرِيق فَتُهْنَا عَنْهَا، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره.

ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ فَقَالُوا: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أَيْ: بَلْ هِيَ هَذِهِ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظّ لَنَا وَلَا نَصِيب.

يعني أن هؤلاء لم يخطر ببالهم أن تتحول إلى هذه الحال، فلما رأوها حكموا بأنهم قد أضلوا الطريق، وأن هذه ليست هي المزرعة، أو البستان الذي كان لهم، ثم استدركوا، فقالوا: **{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}** يعني هي لكن وقع بنا الحرمان من هذا الحصاد الذي قصدناه، والزرع والثمر، فلم يحصل لنا من ذلك قليل ولا كثير.

{قَالَ أَوْسَطُهُمْ} قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَعِكْرِمَة وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَالرَّبِيع بْن أَنَس وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة: أَيْ: أَعْدَلهمْ وَخَيْرهمْ.

الأوسط يعني العدل، قال الله –تبارك وتعالى-: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** [البقرة:١٤٣] أي: عدولاً خيارًا.

الأوسط هو الأعدل.

{أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} قَالَ مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ وَابْن جُرَيْج: {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} أَيْ لَوْلَا تَسْتَثْنُونَ. قَالَ السُّدِّيّ: وَكَانَ اِسْتِثْنَاؤُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَان تَسْبِيحًا.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: هُوَ قَوْل الْقَائِل: إِنْ شَاءَ اللَّه.

يعني أن ابن جرير أيضًا فسره بهذا، يعني هذا يقوله لهم أوسطهم أعدلهم: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}.

تأمل على هذا المعنى، الآن هذا الأعدل، والأفضل فيهم، ما قال: لا، أعطوا الفقراء {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} قال: قولوا: إن شاء الله، يعني أنه موافق لهم على هذا القصد الفاسد، لكن يقول: قولوا: إن شاء الله، من أجل أن يتحقق هذا المطلوب.

لكن هم لشدة اندفاعهم وحنقهم لم يصدر منهم هذا، ما قالوا: "إن شاء الله" فهذا يلومهم ويذكرهم: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}؟

{لَوْلَا} هنا بمعنى: هلا.

فهي إذا كانت على أمر لا يمكن استدراكه فهي للتبكيت، تقول لمن وقع به المكروه: لولا فعلت كذا، يعني قبل أن يقع، تقول لإنسان مفرط مضيع، فأخفق في دراسته مثلاً، تقول له بعد الإخفاق: لولا اجتهدت، فهذا يكون للتبكيت {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [هود:١١٦] هنا انتهى، هلكوا، فهذا للتبكيت.

وإذا كان في أمر يمكن استدراكه فتكون للتحضيض: لولا اجتهدت، لولا تسببت فتكتسب، ونحو ذلك.

فهنا يقول: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}؟ يعني لولا تستثنون، هكذا فسروه، قالوا: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا، يمكن أن يكون هذا أي أن يكون استثناؤهم بالتسبيح: سبحان الله، وقد لا يكون بمعنى التسبيح، أي قصد به الاستثناء؛ لأنه من ذكر الله -تبارك وتعالى-، وأنه لا يقع إلا ما أراد، والناس لا زالوا إلى اليوم حينما يقول الواحد منهم شيئًا، ويريد أن يؤكد هذا مع الاستثناء، يقول: هذا أمر سأفعله، هذا لابد من فعله، لابد أن أصنع ذلك، لكن سبحان الله! هذا مستعمل في كلام الناس إلى الآن، سبحان الله! يعني أن الله قد لا يريد هذا، فلا يحصل، يعني إلا ما شاء الله، يقول: أنا سأفعل هذا الشيء، لكن سبحان الله، يقصد به الاستثناء، قد يكون هذا هو المراد: {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} بمعنى أن هذا الإنسان لا يقطع بأمر دون أن يستثني: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [الكهف:٢٣-٢٤].

فهذا الذي تفسيره بالاستثناء هو قول عامة أهل العلم.

قال: وقيل معناه: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} أي: هلا تسبحون الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وأنعم به عليكم.

فيكون هنا التسبيح ليس الاستثناء، وإنما الشكر على هذا الإنعام، فيكون هذا الأوسط قد قال لهم قولاً يثنيهم به عن قصدهم ومرادهم، فإنّ شكر ذلك يقتضي إعطاء هؤلاء المحتاجين والفقراء، أن يعطيهم حقهم.

وبعضهم يقول: سماه تسبيحًا، يعني الاستثناء؛ لأنه تعظيم لله -عز وجل-، وإقرار به.

ومعلوم أن أصل التسبيح هو التنزيه، يقول النحاس: فجعله في موضع إن شاء الله.

وبعضهم قال: {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} يعني تستغفرون الله، يعني بعدما وقع لهم ذلك، فهذا الأعدل فيهم يقول: استغفروا الله من هذا القصد الذي قصدتموه، والعزم على صرمها، دون إعطاء المحتاجين.

لكن ابن جرير فسره بالاستثناء، يقول: {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} يعني لولا تستثنون، تقولون: إن شاء الله، هذا تفسير ابن جرير.

{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَع، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْجع، وَلِهَذَا قَالُوا: {إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} أَيْ: يَلُوم بَعْضهمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ مَنْع الْمَسَاكِين مِنْ حَقّ الْجِذَاذ، فَمَا كَانَ جَوَاب بَعْضهمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الِاعْتِرَاف بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْب.

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} أَيْ: اِعْتَدَيْنَا وَبَغَيْنَا وَطَغَيْنَا، وَجَاوَزْنَا الْحَدّ، حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا.

{عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} قِيلَ: رَغِبُوا فِي بَذْلهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: اِحْتَسَبُوا ثَوَابهَا فِي الدَّار الْآخِرَة، وَاَللَّه أَعْلَم.

بعضهم يقول: {إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} أي: طالبون فيه الخير، راجون لعفوه.

وعدي هنا بـــ"إلى": {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} دون "عن"، ما قال: إنا عن ربنا راغبون، لتضمينه معنى الرجوع، ما عداه بـــ "عن" ولا عداه بـــ "في"، ما قال: إنا في ربنا راغبون مثلاً، أو عن ربنا؛ لأن رغب تتعدى بـــ"إلى" {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} فقدمه، فبعضهم يقول: لتضمين رغب معنى الرجوع، يعني التوبة والرجوع إليه: {إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ}.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْض السَّلَف: أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْل الْيَمَن، قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: كَانُوا مِنْ قَرْيَة، يُقَال لَهَا: ضَرَوان عَلَى سِتَّة أَمْيَال مِنْ صَنْعَاء.

وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْل الْحَبَشَة، وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَّفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّة، وَكَانُوا مِنْ أَهْل الْكِتَاب، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِير فِيهَا سِيرَة حَسَنَة، فَكَانَ مَا يَسْتَغِلّ مِنْهَا يَرُدّ فِيه مَا تَحْتَاج إِلَيْهِ، وَيَدَّخِر لِعِيَالِهِ قُوت سَنَتهمْ، وَيَتَصَدَّق بِالْفَاضِلِ، فَلَمَّا مَاتَ وَوَرِثَهُ بَنُوهُ، قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أَحْمَق، إِذْ كَانَ يَصْرِف مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّا مَنَعْنَاهُمْ لَتَوَفَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ عُوقِبُوا بِنَقِيضِ قَصْدهمْ، فَأَذْهَبَ اللَّه مَا بِأَيْدِيهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ، رَأْس الْمَال وَالرِّبْح وَالصَّدَقَة، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْء.

قَالَ اللَّه -تَعَالَى-: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ} أَيْ: هَكَذَا عَذَاب مَنْ خَالَفَ أَمْر اللَّه، وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللَّه، وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنَعَ حَقّ الْمِسْكِين وَالْفَقِير، وَذَوِي الْحَاجَات، وَبَدَّلَ نِعْمَة اللَّه كُفْرًا: {وَلَعَذَاب الْآخِرَة أَكْبَر لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أَيْ: هَذِهِ عُقُوبَة الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ، وَعَذَاب الْآخِرَة أَشَقّ.

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ} [القلم:٣٤-٤١].

لَمَّا ذَكَرَ الله -تَعَالَى- حَال أَهْل الْجَنَّة الدُّنْيَوِيَّة، وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنْ النِّقْمَة حِين عَصَوْا اللَّه -عز وجل-، وَخَالَفُوا أَمْره، بَيَّنَ أَنَّ لِمَنْ اِتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّار الْآخِرَة جَنَّات النَّعِيم، الَّتِي لَا تَبِيد وَلَا تَفْرُغ، وَلَا يَنْقَضِي نَعِيمهَا.

هذا يقال له: المناسبة، يعني وجه الارتباط بين هذه الآيات وما قبلها، لما ذكر أصحاب الجنة، وما حصل لهم، ذكر ما لأهل الإيمان والتقوى عنده في الآخرة، ما وجه الارتباط؟

لما ذكر حال أولئك في الجنة الدنيوية، وما أصابهم لما عصوا الله -عز وجل-، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تفنى ولا تنقضي.

ثم قال تعالى: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} أَيْ: أَفَنُسَاوِي بَيْن هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاء؟، كَلَّا وَرَبّ الْأَرْض وَالسَّمَاء.

ولهذا قال: {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أَيْ: كَيْف تَظُنُّونَ ذَلِكَ؟.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تخيَّرُونَ}.

يَقُول تَعَالَى: أَفَبِأَيْدِيكُمْ كِتَاب مُنَزَّل مِنْ السَّمَاء تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ بِنَقْلِ الْخَلَف عَنْ السَّلَف، مُتَضَمِّن حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدْعُونَهُ؟.

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَان عَلَيْنَا بَالِغَة إِلَى يَوْم الْقِيَامَة إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} أَيْ: أَمَعَكُمْ عُهُود مِنَّا وَمَوَاثِيق مُؤَكَّدَة؟.

{إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} أَيْ: أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ.

{سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ} أَيْ: قُلْ لَهُمْ مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّن الْمُتَكَفِّل بِهَذَا؟، قَالَ اِبْن عَبَّاس: يَقُول: أَيّهمْ بِذَلِكَ كَفِيل؟.

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء} أَيْ مِنْ الْأَصْنَام وَالْأَنْدَاد {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}** كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ}** [السجدة: ١٨] فالتسوية بين هؤلاء أمر لا يمكن أن يقع، ولهذا أنكره عليهم: **{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}**؟ فهذا الحكم الجائر من أين لكم به؟ **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}**.

يقول: أفي أيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه يقرر هذا: أن يسوى بين المؤمنين والكافرين في الجزاء، بين الأخيار والأشرار؟، هل عندكم كتاب في هذا منزل؟.

هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من المعنى هو الذي قال به أيضًا ابن جرير: **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ}** هل عندكم شيء من الله منزل -كتاب- يقرر هذا الحكم الجائر؟!

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} يعني يحتمل أن "إنّ" هنا معمولة لتدرسون: **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ}** تدرسون ماذا؟، **{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}** وكسرت الهمزة هنا لدخول اللام: **{لَمَا تَخَيَّرُونَ}** لوجود اللام، يعني لو أن اللام كانت غير موجودة لكان: تدرسون أنّ لكم فيه ما تخيرون، فهذا قال به بعض أهل العلم.

أو أن ذلك على سبيل الحكاية للمدروس، يعني جاءت الهمزة مكسورة على سبيل الحكاية: **{تَدْرُسُونَ}** تدرسون ماذا؟

فنقل النص الذي يدرسونه: **{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}**.

وبعضهم يقول: هذا ابتداء كلام جديد **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ}** ثم قال: **{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}** ما تدّعونه وتزعمون أن لكم عند الله -تبارك وتعالى- حظوة ومنزلة وجزاء.

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} يقول: هل عندكم من الله عهد بأن تكون لكم العاقبة والجزاء الحسن في الآخرة {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} أن ذلك سيقع لكم ويتحقق.

فهنا هذه الأيمان البالغة جوابها: أيْ أيمانٌ بأن لكم ما تحكمون، فيكون هذا هو جواب هذه الأيمان، أو القسم.

{سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ} يعني مَن الكفيل والضمين الضامن الذي يضمن لكم بذلك؟ {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء} يعني من الأصنام والأنداد {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ}.

وبعضهم يقول: يعني يشاركونهم في هذا القول، ويوافقونهم فيه، الدعوى العريضة.

وبعضهم يقول: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء} يجعلونهم بهذه المثابة كالمسلمين في الآخرة، يتصرفون مع الله -تبارك وتعالى-، فيدخلونهم الجنة.

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} [القلم: ٤٢- ٤٧].

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ بَيَّنَ مَتَى ذَلِكَ كَائِن وَوَاقِع، فَقَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} يَعْنِي يَوْم الْقِيَامَة، وَمَا يَكُون فِيهِ مِنْ الْأَهْوَال وَالزَّلَازِل وَالْبَلَاء وَالِامْتِحَان، وَالْأُمُور الْعِظَام.

وَقَدْ روى الْبُخَارِيّ هَهُنَا عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ قَالَ: سَمِعْت النَّبِيّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُول: ((يَكْشِف رَبّنَا عَنْ سَاقه، فَيَسْجُد لَهُ كُلّ مُؤْمِن وَمُؤْمِنَة، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُد فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَة، فَيَذْهَب لِيَسْجُد فَيَعُود ظَهْره طَبَقًا وَاحِدًا))[٢]، وَهَذَا الْحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِي غَيْرهمَا مِنْ طُرُق، وَلَهُ أَلْفَاظ، وَهُوَ حَدِيث طَوِيل مَشْهُور.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} فسره جماعة من السلف: بالشدة، والعرب تعبر بذلك عن الشدة، وهو استعمال صحيح، تقول: كشفت الحرب عن ساق، يعني عن شدة، وهذا موجود في كلام العرب، في شعرهم ونثرهم، فهذا حينما تفسر الآية به من غير نظر إلى الحديث فغاية ما هنالك عند المخالف، يعني عند من فسره بالصفة، أي صفة الله -عز وجل- الساق، يعني يكشف عن ساقه، كما دل عليه هذا الحديث، فغاية ما هنالك أن يقال: هذا من قبيل الخطأ في التفسير، يعني ليس ذلك من قبيل الخطأ في الاعتقاد، إذا كان يثبت الصفة لكن بدليل آخر، يعني لا يجعل هذه الآية من أدلة إثبات هذه الصفة، فهذا قال به جماعة من السلف، ولكن هذا الحديث حديث أبي سعيد -رضي الله عنه-: ((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا))[٣].

---

٢ - رواه مسلم، كتاب تفسير القرآن، باب: {يوم يكشف عن ساق}، رقم (٤٩١٩).

٣ - المصدر السابق.

هنا لم يذكر الآية، لكن وجه الارتباط بين الحديث والآية واضح، قال: {وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}. فهنا: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}.

فهذا الحديث تفسر به الآية، فيكون: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} أي: يكشف الرب -تبارك وتعالى- عن ساقه، فيسجد أهل الإيمان، ولا يستطيع السجودَ الكفار والمنافقون، هذا مقتضى دلالة هذا الحديث، والله أعلم.

وَقَوْله تَعَالَى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أَيْ: فِي الدَّار الْآخِرَة بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكَبُّرهمْ فِي الدُّنْيَا، فَعُوقِبُوا بِنَقِيضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَلَمَّا دُعُوا إِلَى السُّجُود فِي الدُّنْيَا فَامْتَنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتهمْ وَسَلَامَتهمْ، كَذَلِكَ عُوقِبُوا بِعَدَمِ قُدْرَتهمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَة، إِذَا تَجَلَّى الرَّبّ -عز وجل-، فَيَسْجُد لَهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا يَسْتَطِيع أَحَد مِنْ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُد، بَلْ يَعُود ظَهْر أَحَدهمْ طَبَقًا وَاحِدًا، كُلَّمَا أَرَادَ أَحَدهمْ أَنْ يَسْجُد خَرَّ لِقَفَاهُ، عَكْس السُّجُود، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِخِلَاف مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ.

قوله -تبارك وتعالى-: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} يعني ساكنة ذليلة {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} تعلوهم، {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ}.

بعضهم يقول: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} يعني في الدنيا شرعًا أنهم أمروا بذلك، أنهم مأمورون به.

وبعض السلف كإبراهيم التيمي، قال: يُدعون بالآذان والإقامة، فيأبون، وجاء عن سعيد بن جبير: يسمعون حي على الفلاح، فلا يجيبون {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} والمقصود الصلاة.

وجاء عن كعب الأحبار قال: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات، وأثر ابن مسعود -رضي الله عنه- الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: ((من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا، فليحافظ على هؤلاء الصلوات، حيث ينادى بهن))[٤]، إنما ينادى بهن في المسجد.

{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} وبعضهم يقول: "يدعون" أمروا به شرعًا، فلم يمتثلوا.

وبعضهم يقول: بـــ"حي على الفلاح" فلم يجيبوا المنادي.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} يَعْنِي الْقُرْآن، وَهَذَا تَهْدِيد شَدِيد، أَيْ دَعْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنْهُ أَنَا أَعْلَم بِهِ كَيْف أَسْتَدْرِجهُ، وَأَمُدّهُ فِي غَيّه، وَأُنْظِرهُ ثُمَّ آخُذهُ: {أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر:٤٢].

{فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} يعني القرآن.

وبعضهم فسره: بالقيامة، وما يحصل فيها.

تفسيره بالقرآن يتضمن ذلك؛ لأن القرآن يتحدث عن القيامة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} يعني كما يقول الزجاج: معناه لا يشتغل قلبك به، كِله إليّ، فأنا أكفيك أمره، وهذا فيه وعيد وتهديد.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، رقم (٦٥٤).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} أَيْ: وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ كَرَامَةٌ، وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِهَانَةٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام:٤٤].

ولهذا قال هاهنا: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} أَيْ وَأُؤَخِّرهُم، وَأُنْظِرهُم، وَأُمِدّهُم، وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي، وَمَكْرِي بِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} أَيْ عَظِيم لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَكَذَّبَ رُسُلِي، وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي.

قوله -تبارك وتعالى-: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} الاستدراج ترك المعاجلة بالعقوبة.

بعضهم يقول: أصله النقل من حال إلى حال، هذا الاستدراج بما يعطيهم الله -عز وجل- من النعم، ويدر عليهم من الأرزاق، مع ما هم فيه من الكفر والتكذيب، ولهذا كما قال بعض السلف: إن نعم الله -عز وجل- حينما تتتابع على العبد وهو في حال من الإعراض، فإن ذلك يكون استدراجًا.

يقول: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أصل الملاوة المُدة من الدهر، يعني أملى الله له أطال له في المدة.

{وَأُمْلِي لَهُمْ} يعني أن الله -تبارك وتعالى- يطول لهم في الأعمار، ونحو ذلك، لا يعاجلهم بالعقوبة، من أجل أن تكثر ذنوبهم وجرائمهم، فيلقون الله -عز وجل- على أسوأ حال.

وقوله: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} هذا تعليل، "إنّ" تفيد التعليل هنا، فهذا من كيده -تبارك وتعالى- بهم، فالإيقاع بهؤلاء بطرق خفية يقال له: كيد.

إيصال المكروه بطرق تخفى عليه، فيكون ذلك من قبيل الكيد.

وكيده -تبارك وتعالى- وصفه هنا بأنه: {مَتِينٌ}.

وهذه الآية ذكر فيها الكيد مفردًا، يعني من غير مقابلة، الله -عز وجل- يقول: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق:١٥-١٦].

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الصفات تأتي للمقابلة، هكذا قيدوه، وهذا فيه نظر، والله تعالى أعلم.

فهنا جاء من غير مقابلة، يعني لم يقابله بكيدهم، فهذا لا يشترط فيه المقابلة، وإنما يكون صفة كمال إذا كان ذلك فيمن يستحق ذلك، ولهذا فإن صفة "الكيد" ثابتة لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، لكن حيث يكون ذلك كمالاً، فيثبت له من الصفات التي تقع على الوجهين، يعني ما يقع على وجه الكمال، وعلى وجه النقص، يثبت له من ذلك الأكمل والأتم، وهكذا "المكر": {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [الأعراف:٩٩] فلم يذكره على سبيل المقابلة، بينما قال: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [الأنفال:٣٠] فتقييد هذا بأنه إنما يكون بمقابلة مكرهم وكيدهم هذا ليس بشرط.

وأما تفسير من فسر ذلك بالمشاكلة فهذا غير صحيح، يعني المشاكلة اللفظية، أنه عبر به من باب التعبير بلفظ مشاكل لما عبر به عنهم: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ}، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}.

فسماه: {كَيْدًا} من باب المشاكلة، والمشاكلة نوع من المجاز، يعني أنه لا حقيقة لهذه الصفة، وهذا كلام غير صحيح، فليس هذا من باب المشاكلة.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ اللَّه –تَعَالَى– لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ)) ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:١٠٢](٥).

وَقَوْله تَعَالَى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ}، تَقَدَّمَ تَفْسِيرهمَا فِي سُورَة الطُّور.

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّك يَا مُحَمَّد تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّه –عز وجل– بِلَا أَجْر تَأْخُذهُ مِنْهُمْ، بَلْ تَرْجُو ثَوَاب ذَلِكَ عِنْد اللَّه –تَعَالَى–، وَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتهمْ بِهِ بِمُجَرَّدِ الْجَهْل وَالْكُفْر وَالْعِنَاد.

قوله –تبارك وتعالى–: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} تسألهم أجرًا يعني في مقابل دعوتهم، فيثقلهم ذلك الأجر وبذله {أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ}، ثم قال: {أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ}.

{أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ} بعضهم فسره باللوح المحفوظ، فهم يكتبون من ذلك الغيب ما يريدون مما يخاصمونك به، أو يدّعونه.

وبعضهم فسر الغيب بكل ما غاب عنهم، يعني أنهم اطلعوا على الغيب، فجاءوا بهذه الدعاوى والخصومات التي يخاصمونك بها.

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [القلم:٤٨–٥٢].

يَقُول تَعَالَى: {فَاصْبِرْ} يَا مُحَمَّد عَلَى أَذَى قَوْمك لَك وَتَكْذِيبهمْ، فَإِنَّ اللَّه سَيَحْكُمُ لَك عَلَيْهِمْ، وَيَجْعَل الْعَاقِبَة لَك وَلِأَتْبَاعِك فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

هنا أمرٌ للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالصبر لحكم ربه، يعني لقضائه الذي قضاه، وهذا القضاء الذي قضاه في سابق علمه: من أهل العلم من حمله على الإمهال، أنه يمهل هؤلاء، قد يتأخر النصر والظفر، فهو مأمور بالصبر.

وبعضهم يقول: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} يعني بما حكم به عليك من تبليغ الرسالة، ومقتضيات ذلك.

وبعضهم فسره: بما يلحقه وينااله من الأذى.

وهذا أمر من الله –عز وجل– لنبيه –صلى الله عليه وسلم– بأن يصبر على حكم الله، وقضائه وقدره، فلا يحصل منه استعجال ولا ضيق، ولا ينكسر، أو يتراجع أمام هذه التبعات والعقبات، والأذى الذي يلقاه من الناس، فإن هذا أمر لابد منه، وما قضاه الله –تبارك وتعالى– لابد أن يقع ويتحقق، والجزع لا يرده، ولكن إذا جزع الإنسان فإن ذلك يذهب أجره، وما قضاه الله –عز وجل– لابدّ أن يكون، ومن ثَمّ فإن هذا الأمر للنبي –صلى الله عليه وسلم– هو أمر أيضًا لأمته بالصبر والتحمل.

{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} يَعْنِي ذَا النُّون وَهُوَ يُونُس بْن مَتَّى –عليه السلام– حِين ذَهَبَ مُغَاضِبًا عَلَى قَوْمه، فَكَانَ مِنْ أَمْره مَا كَانَ مِنْ رُكُوبه فِي الْبَحْر، وَالْتِقَام الْحُوت لَهُ، وَشُرُود الْحُوت بِهِ فِي الْبِحَار،

---

٥ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} رقم (٤٦٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

وَظُلُمَات غَمرَات الْيَمّ، وَسَمَاعه تَسْبِيح الْبَحْر بِمَا فِيهِ لِلْعَلِيِّ الْقَدِير الَّذِي لَا يُرَدّ مَا أَنْفَذَهُ مِنْ التَّقْدِير، فَحِينَئِذٍ نَادَى فِي الظُّلُمَات: {أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٨٧].

قَالَ اللَّه تَعَالَى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِين} [الأنبياء: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون} [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وَقَالَ هَهُنَا: {إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}، قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالسُّدِّيّ: وَهُوَ مَغْمُوم.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِين}، وَقَدْ روى الْإِمَام أَحْمَد عَنْ عَبْد اللَّه -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم-: ((لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُول: أَنَا خَيْر مِنْ يُونُس بْن مَتَّى))[٦]، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة.

وقال تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} يعني أنه امتنع بقاؤه إلى يوم البعث في بطن الحوت لوجود التسبيح.

{فَلَوْلَا} هذه حرف امتناع لوجود، فهذا التسبيح كان لتفريج هذا الغم: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} و"الفاء" تدل على التعقيب المباشر، ولهذا فإن مثل هذا الذكر: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} هو مما يحصل به الفرج، وزوال الكرب.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} نقل هنا عن ابن عباس والسدي قال: مغموم.

وبعضهم فسره بقريب من هذا، يقول: المكظوم هو المملوء غيظاً وكربًا.

{فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} فسره بعضهم بالكاملين في الصلاح.

وبعضهم يقول: إن الله -تبارك وتعالى- اجتباه وقربه، وأعاد إرساله، فبعثه: {إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا} [الصافات:١٤٧-١٤٨].

وابن جرير -رحمه الله- يقول: اصطفاه واختاره لنبوته، فجعله من المرسلين، يعني الذين يمتثلون أمر الله، ويجتنبون نهيه {فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}.

فهنا: {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ} هذه النعمة ما المراد بها؟.

بعضهم يقول: النبوة، كما جاء عن الضحاك.

وبعضهم يقول: هي عبادته التي سلفت: {تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ} كما يقول سعيد بن جبير: يعني من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))[٧].

---

٦ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وهل أتاك حديث موسى} [طه: ٩] {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: ١٦٤] رقم (٣٣٩٥) ومسلم، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس -عليه السلام-، رقم (٢٣٧٧) وأحمد، رقم (٢١٦٧).

٧ - رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٢٥١٦) وأحمد، رقم (٢٧٦٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٥٣٠٢).

وبعضهم يقول: هذه النعمة هي هذا السؤال، هذا النداء: **{لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** [الأنبياء:٨٧] قاله ابن زيد.

فالله –تبارك وتعالى– يسمع دعاء عباده ونجواهم، ولو كان هذا الداعي في مثل هذا الموضع في بطن الحوت، في قعر البحر، في الظلمات، والحافظ ابن القيم –رحمه الله– له كلام في هذا الموضع.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "قوله –تعالى–: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}** وهاهنا سؤال نافع، وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: **{إِذْ نَادَى}** ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه"[٨].

يعني قوله –تبارك وتعالى–: **{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}**، يقول ابن القيم بأن الله أثنى على يونس –عليه السلام– بهذا النداء، فليس بنهي للنبي –صلى الله عليه وسلم– أن يكون مثله في تضرعه إلى الله، فالمنهي عنه هنا ما هو؟ **{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ}** في ماذا؟ في ندائه؟ هذا السؤال الذي أورده.

وقال –رحمه الله–: "فأخبر أنه نجاه به، فقال: **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}** [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وفي الترمذي وغيره عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((دعوة أخي ذي النون اذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: **{لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**))[٩].

فلا يمكن أن يُنهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه، وإنما ينهى عن التشبه به في السبب الذى أفضى به إلى هذه المناداة، وهى مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم.

والكظيم والكاظم الذى قد امتلأ غيظًا وغضبًا وهمًّا وحزنًا، وكظم عليه، فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟.

قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل: فالسؤال بعدُ قائم، فإنه إذا قيد المنهى بقيد أو زمن كان داخلا في حيز النهى، فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال، أو هذا الوقت، كان نهيا عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسببًا عن كونه صاحب الحوت، فنهى أن يتشبه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء، وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبًا فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر واكتفي بغايتها، وما انتهت اليه.

---

٨ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (٣٤/١).

٩ – رواه الترمذي، كتاب أبواب الدعوات عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، رقم (٣٥٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (١٨٢٦).

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه؟ أي: لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظاً، وهمًّا وغمًّا، بل يكون نداؤك نداء راضٍ بما قُضي عليه، قد تلقّاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر، لا نداء كظيم.

قيل: هذا المعنى، وإن كان صحيحاً إلا أن النهى لم يقع عن التشبه به في مجرده، وإنما نهى عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً، حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله –تعالى–: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}**، ثم قال: **{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ}** أي: في ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التي نُهى عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذى يقدره عليه **{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ}** حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه، فلم يصبر على احتماله والسكون تحته.

قيل: منع من ذلك أن الله –سبحانه– أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: **{وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}** [الأنبياء:٨٧–٨٨].

فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به؟!.

وكذلك أثنى على أيوب بقوله: **{مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [الأنبياء: ٨٣].

وعلى يعقوب بقوله: **{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ}** [يوسف: ٨٦].

وعلى موسى بقوله: **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله، بقوله: ((اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي))[١٠].

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة، وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر، والله –تعالى– يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع اليه، ولم يستكن له وقت البلاء؛ كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}** [المؤمنون: ٧٦].

والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب –تعالى– لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به اليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكى اليه ما ليس يخفي عليه؟ فقال: ربى يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود: أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"[١١].

---

١٠ – رواه الطبراني في الكبير، رقم (١٨١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، رقم (١١٨٢).

١١ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١/٣٤–٣٦)

هذا جواب على سؤال، وهو أن **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}** أمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- **{ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}** فهنا النهي عن التشبه به هل هو في تضرعه وسؤاله ولجوئه إلى الله؟.

الجواب: لا، ولكن فيما أوجب له هذه الحال، وهو قلة الصبر، فيقول: اختصر الكلام وطواه، فذكر هذه النتيجة وما صار إليه حاله من هذا التضرع، والدعاء، لمّا صار في بطن الحوت، هذا حاصل كلام ابن القيم.

وَقَوْله تَعَالَى: {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْرهمَا: {لَيُزْلِقُونَكَ} لَيُنْفِذُونَك {بِأَبْصَارِهِمْ} أَيْ يُعِينُونَك بِأَبْصَارِهِمْ، بِمَعْنَى يَحْسُدُونَك لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ، لَوْلَا وِقَايَة اللَّه لَك، وَحِمَايَته إِيَّاكَ مِنْهُمْ.

قوله: **{لَيُزْلِقُونَكَ}** هنا فسره بالحسد، يعني الإصابة بالعين **{لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ}** وهذا المعنى قال به جماعة من السلف فمن بعدهم.

{لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} يعني الإصابة بالعين، ولكن ليس هذا محل اتفاق، أعني تفسيره بالعين، فقد جاء عن جماعة من السلف كسعيد بن جبير والسدي والكلبي يعني يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة.

وبعض أصحاب المعاني كالأخفش يقول: يفتنونك.

وجاء عن الحسن: يقتلونك بأبصارهم.

وقال الزجاج: يكادون لشدة بغضهم وعداوتهم أن يصرعوك بنظرهم، وبنحو هذا قال ابن قتيبة واختاره ابن جرير، يعني من شدة العداوة أن النظر إليه الذي يتطاير منه الشرر لمّا يسمعون القرآن، ينظرون إليه نظرًا يكاد أن يسقطه لشدة هذا النظر، النظر حينما يكون قويًّا موجهًا باعثه شدة العداوة فإن هذا النظر يكاد يسقط المنظور إليه، هذا الذي اختاره ابن جرير، وقال به الزجاج وابن قتيبة.

والمشهور: أن هذه الآية في العين، فهي تحتمل هذا وهذا **{لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ}** من شدة عداوتهم، وقد يكون ذلك مرادًا به -والله تعالى أعلم- الإصابة بالعين، حسدًا، وأيضًا أنهم ينظرون إليه لشدة عدواتهم نظرًا قويًّا يكاد يسقط المنظور إليه، هذا يحتمل، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية يقرؤها كثير من الناس على من أصيب في العين، وقد ذكرنا في عدد من المناسبات: أن الرقى من باب الطب، وأن الأصل فيه الإباحة، ما لم يشتمل على محرم، فإذا دلت التجربة على أن هذه الآية تنفع بإذن الله في رقية العين فلا إشكال في هذا، تُردد عليه.

وفي قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{لَيُزْلِقُونَكَ}** هذه قراءة الجمهور، بضم الياء، من أزلقه أي: أزل رجله، وفي قراءة نافع: **{لَيَزْلِقُونَكَ}** انزلق عن موضعه إذا تنحى.

وَفِي هَذِهِ الْآيَة: دَلِيل عَلَى أَنَّ الْعَيْن إِصَابَتهَا، وَتَأْثِيرهَا حَقّ بِأَمْرِ اللَّه -عز وجل-، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيث الْمَرْوِيَّة مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة كَثِيرَة.

حَدِيث بُرَيْدَة بْن الْحُصَيْب -رضي الله عنه-: رَوَى أَبُو عَبْد اللَّه اِبْن مَاجَه عَنْ بُرَيْدَة بْن الْحُصَيْب -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم-: ((لَا رُقْيَة إِلَّا مِنْ عَيْن أَوْ حُمَة)).

الحُمَة هي ذوات السموم.

وقوله هنا: ((لا رقية إلا)) هذا أسلوب حصر، وحمله أهل العلم على الأنجع والأنفع في الرقية؛ لأن الرقية تنفع من الأشياء الأخرى، من الأمراض والعلل التي تصيب الإنسان، ولكنها أبلغ ما تكون في الفائدة والنفع في العين والحُمَة، يعني ذوات السموم.

إذا لُدغ الإنسان، لدغته عقرب أو حية، أو نحو ذلك يرقى، فيقوم كما لو أنه لم يصب بأذى.

هَكَذَا رَوَاهُ اِبْن مَاجَه، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِم فِي صَحِيحه عَنْ بُرَيْدَة مَوْقُوفًا، وَفِيهِ قِصَّة، وكذا رواه التِّرْمِذِي، وَرَوَى هَذَا الْحَدِيث الْإِمَام الْبُخَارِيّ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن مَوْقُوفًا: ((لَا رُقْيَة إِلَّا مِنْ عَيْن أَوْ حُمَة))[١٢].

ورواه مُسْلِم فِي صَحِيحه عَنْ اِبْن عَبَّاس -رضي الله عنهما-، عَنْ النَّبِيّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((الْعَيْن حَقّ، وَلَوْ كَانَ شَيْء سَابَقَ الْقَدَر سَبَقَتْ الْعَيْن، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا)) اِنْفَرَدَ بِهِ دُون الْبُخَارِيّ[١٣].

وعَنْ اِبْن عَبَّاس -رضي الله عنهما- قَالَ: كَانَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- يُعَوِّذ الْحَسَن وَالْحُسَيْن، يَقُول: ((أُعِيذكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّة مِنْ كُلّ شَيْطَان وَهَامَة، وَمِنْ كُلّ عَيْن لَامَّة))[١٤].

((من كل شيطان وهامة)) الهوام فسرت بذوات السموم، وبعضهم قيد ذلك بما يقتل منها، وما لا يقتل بعضهم يقول: سوام، أي هوام وسوام، وبعضهم فسره بما هو أوسع من هذا، كل ما يدب من هذه الحشرات يقال له ذلك، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لكعب بن عجرة: ((أيؤذيك هوامُّ رأسك؟))[١٥]، يعني القمل، سماه هوامًّا، فالحشرات ونحوها تسمى هوامًّا.

((ومن كل عين لامة)) يعني العين التي تصيب بالسوء بإذن الله تعالى.

وَيَقُول: هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيم يُعَوِّذ إِسْحَاق وَإِسْمَاعِيل -عَلَيْهِمَا السَّلَام- أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ، وَأَهْل السُّنَن[١٦].

---

١٢ - رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب ما رخص فيه من الرقى، رقم (٣٥١٣)، وأصله في البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتوِ، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

١٣ - رواه مسلم، كتاب الآداب، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٨).

١٤ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، رقم (٤٧٣٧)، والترمذي، أبواب الطب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٢٠٦٠)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما عَوّذ به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما عُوّذ به، رقم (٣٥٢٥)، وأحمد (٢١١٢) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط البخاري"، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب، رقم (١٤٦).

١٥ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٩٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، رقم (١٢٠١).

١٦ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٧١)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، رقم (٤٧٣٧) والترمذي، أبواب الطب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٢٠٦٠)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما عَوّذ به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما عُوّذ به، رقم (٣٥٢٥).

حَدِيث أَبِي أُمَامَة أَسْعَد بْن سَهْل بْن حُنَيْف -رضي الله عنه-: روى اِبْن مَاجَه عَنْ أَبِي أُمَامَة أَسْعَد بْن سَهْل بْن حُنَيْف قَالَ: مَرَّ عَامِر بْن رَبِيعَة بِسَهْل بْن حُنَيْف وَهُوَ يَغْتَسِل، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْد مُخَبَّأَة، فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا، قَالَ: ((مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟)) قَالُوا: عَامِر بْن رَبِيعَة، قَالَ: ((عَلَامَ يَقْتُل أَحَدكُمْ أَخَاهُ؟ إِذَا رَأَى أَحَدكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ)) ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَأَمَرَ عَامِرًا: أَنْ يَتَوَضَّأ، فَيَغْسِل وَجْهه، وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَدَاخِلَة إِزَاره، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبّ عَلَيْهِ، قَالَ سُفْيَان: قَالَ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ: وَأَمَرَ أَنْ يُكْفَأ الْإِنَاء مِنْ خَلْفه، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ طرق عَنْ أَبِي أُمَامَة: وَيُكْفَأ الْإِنَاء مِنْ خَلْفه[١٧].

قوله: "ولا جلد مخبّأة" يعني العذراء التي لم ترها الشمس، فتجدها في غاية الصفاء والنقاء، والبياض والرقة "ولا جلد مخبأة"، وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة))، يعني يقول: بارك الله لك، وبارك عليك، ونحو ذلك.

كثير من الناس يقول: قل: ما شاء الله، الصحيح أن يدعو له بالبركة: بارك الله لك، الله يبارك لك، الله يبارك عليك، أو نحو هذا، أو يقولون: قل ما شاء الله، تبارك الله، ليس هذا هو الذي يقال في هذا الموضع، وقد مضى الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}** [الكهف:٣٩] هل هذا يقال لدفع العين، أو أنه قصد بذلك أنه يخرج من حوله وطوله، ويظهر فقره إلى الله -تبارك وتعالى-، فلا يتعزز بهذه الجنة، مضى الكلام على هذا هل قصد بذلك أنه لا يصيب هذه الجنة التي يملكها بالعين، وذكرنا هناك: أن بعض أهل العلم قال بهذا إلا أن الأقرب أن ذلك للخروج عن الحول والقوة، فالله -تبارك وتعالى- هو المعطي المانع.

فالمقصود أنه يدعو بالبركة، يقول: اللهم بارك له، ونحو ذلك.

فيكون ذلك مانعًا من وصول السوء إلى الغير.

وأما قوله: "وداخلة إزاره" فالمقصود كما قال ابن القيم -رحمه الله-: إن ذلك من المغابن، يعني المواضع الرقيقة في الجسد، يقول ابن القيم -رحمه الله-: تتكيف النفس بكيفية معينة غيبية، فينبعث منها ذلك، فيصل إلى المعيون بإذن الله، هو يقول: يخرج من مَراقّ الجسد، المواضع الرقيقة، مثل هذه المواضع والمفاصل: باطن الركبتين، ونحو ذلك، وملتقى نهاية الفخذ، هذه المراق، الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنها تنبعث منها، والعلم عند الله -عز وجل-، لذلك يقول: أمر بغسل داخلة الإزار، وغسل المغابن، وهذه هي المغابن هذه المواضع الرقيقة.

---

١٧ - رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب العين، رقم (٣٥٠٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الضحايا، باب الاستغسال للمعين، (١٩٦١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٤٥٦٢).

حَدِيث أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ: روى اِبْن مَاجَه عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ قَالَ: "كَانَ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– يَتَعَوَّذ مِنْ أَعْيُن الْجَانّ، وَأَعْيُن الْإِنْس، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَك مَا سِوَى ذَلِكَ"(١٨). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن.

حَدِيث آخَر عَنْهُ: روىَ الْإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي سَعِيد أَنَّ جِبْرِيل أَتَى النَّبِيّ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ: اِشْتَكَيْت يَا مُحَمَّد؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) قَالَ: ((بِسْمِ اللَّه أَرْقِيك مِنْ كُلّ شَيْء يُؤْذِيك، وَمِنْ شَرّ كُلّ نَفْس، أَوْ عَيْن حَاسِد اللَّه يَشْفِيك، بِسْمِ اللَّه أَرْقِيك))(١٩)، وَرَوَاهُ مُسْلِم، وَأَهْل السُّنَن إِلَّا أَبَا دَاوُد.

وروى الْإِمَام أَحْمَد أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيد أَوْ جَابِر بْن عَبْد اللَّه: أَنَّ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– اِشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيل، فَقَالَ: ((بِسْمِ اللَّه أَرْقِيك مِنْ كُلّ شَيْء يُؤْذِيك، مِنْ كُلّ حَاسِد وَعَيْن، وَاَللَّه يَشْفِيك))(٢٠).

حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة –رضي الله عنه–: روى الْإِمَام أَحْمَد عن أَبِي هُرَيْرَة عَنْ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: ((إن العين حق)) أَخْرَجَاهُ(٢١).

وروىَ اِبْن مَاجَه عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم–: ((الْعَيْن حَقّ)) تَفَرَّدَ بِهِ(٢٢).

حَدِيث أَسْمَاء بِنْت عُمَيْس: روى الْإِمَام أَحْمَد عَنْ عُبَيْد بْن رِفَاعَة الزُّرَقِيّ قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاء يَا رَسُول اللَّه، إِنَّ بَنِي جَعْفَر تُصِيبهُمْ الْعَيْن أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْء يَسْبِق الْقَدَر لَسَبَقَتْهُ الْعَيْن))(٢٣)، وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجه وَالنَّسَائِيّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح".

حَدِيث عَائِشَة –رضي الله عنها–: روى اِبْن مَاجَه عَنْ عَائِشَة –رضي الله عنها–: "أَنَّ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَرْقِي مِنْ الْعَيْن" وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِم(٢٤).

حَدِيث سَهْل بْن حُنَيْف: روىَ الْإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي أُمَامَة بْن سَهْل بْن حُنَيْف: أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُول اللَّه –صلى الله عليه وسلم– خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْو مَكَّة، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَرَّار مِنْ الْجُحْفَة اِغْتَسَلَ

---

١٨ – رواه النسائي، كِتَابُ الاستِعَاذةِ، باب الاستِعاذَة مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، رقم (٥٤٩٤) وابن ماجه، كتاب الطب، باب العين، رقم (٣٥١١) وصححه الألباني.

١٩ – رواه مسلم، كتاب الآداب باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦) والترمذي، كتاب أبواب الجنائز عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في التعوذ للمريض، رقم (٩٧٢) وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما عَوّذ به النبي –صلى الله عليه وسلم–، وما عُوّذ به، رقم (٣٥٢٣) وأحمد، رقم (١١٢٢٥)

٢٠ – رواه أحمد، رقم (١١٧١٠)، وقال محققو المسند: "حديث صحيح".

٢١ – رواه البخاري، كتاب الطب، باب العين حق، رقم (٥٧٤٠) ومسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٧).

٢٢ – رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب العين، رقم (٣٥٠٦)، وأصله في البخاري، كتاب الطب، باب: العين حق، رقم (٥٧٤٠) ومسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٧).

٢٣ – رواه الترمذي، كتاب أبواب الطب عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في الرقية من العين، رقم (٢٠٥٩) وصححه الألباني، رقم (٤٥٦٠).

٢٤ – رواه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحُمَة والنظرة، رقم (٢١٩٥).

سَهْل بْن حُنَيْف، وكَانَ رَجُلًا أَبْيَض حَسَن الْجِسْمِ وَالْجِلْد، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِر بْن رَبِيعَة أَخُو بَنِي عَدِيّ بْن كَعْب وَهُوَ يَغْتَسِل، فَقَالَ: مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ ولَا جِلْد مُخَبَّأَة، فَلُبِطَ سَهْل، فَأُتِيَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم-، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُول اللَّه هَلْ لَك فِي سَهْل؟ وَاَللَّه مَا يَرْفَع رَأْسه ولَا يُفِيق، قَالَ: **((هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَد؟))** قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِر بْن رَبِيعَة، فَدَعَا رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: **((عَلَامَ يَقْتُل أَحَدكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْت مَا يُعْجِبك بَرَّكْت، ثُمَّ قَالَ: اِغْتَسِلْ لَهُ))** فَغَسَلَ وَجْهه وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَاف رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَة إِزَاره فِي قَدَح، ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاء عَلَيْهِ، فَصَبَّهُ رَجُل عَلَى رَأْسه، وَظَهْره مِنْ خَلْفه، ثُمَّ يُكْفَأ الْقَدَح وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْل مَعَ النَّاس لَيْسَ بِهِ بَأْس[٢٥].

حَدِيث عَامِر بْن رَبِيعَة: روى الْإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده عَنْ عُبَيْد اللَّه بْن عَامِر قَالَ: اِنْطَلَقَ عَامِر بْن رَبِيعَة وَسَهْل بْن حُنَيْف يُرِيدَانِ الْغُسْل، قَالَ: فَانْطَلَقَا يَلْتَمِسَانِ الْخَمَر -الخَمَر يعني الموضع الذي يُستتر به من شجر أو جدار أو بناء أو شيء، يعني سيضعون ثيابهم- **قَالَ: فَوَضَعَ عَامِر جُبَّة كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ صُوف، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَأَصَبْتُه بِعَيْنِي** -من المصاب؟ عامر على هذه الرواية عند أحمد، وأن الذي أصابه بالعين هو سهل بن حنيف عكس ما في الروايات الأخرى، ولهذا حكم أهل العلم على أن هذا من قبيل الوهم في هذه الرواية- **فَنَزَلَ الْمَاء يَغْتَسِل، قَالَ: فَسَمِعْت لَهُ فِي الْمَاء فَرْقَعَة** -وضبطه بعضهم بالقاف قَرقعة يعني كأنه صوت من هو في موت ونزع- **فَنَادَيْته ثَلَاثًا، فَلَمْ يُجِبْنِي، فَأَتَيْت النَّبِيّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرْته، قَالَ: فَجَاءَ يَمْشِي فَخَاضَ الْمَاء، فَكَأَنِّي أَنْظُر إِلَى بَيَاض سَاقَيْهِ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْره بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((اللَّهُمَّ اِصْرِفْ عَنْهُ حَرّهَا وَبَرْدهَا وَوَصَبهَا)) قَالَ: فَقَامَ، فَقَالَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم-: ((إِذَا رَأَى أَحَدكُمْ مِنْ أَخِيهِ أَوْ مِنْ نَفْسه أَوْ مِنْ مَاله مَا يُعْجِبهُ فَلْيُبَرِّكْ، فَإِنَّ الْعَيْن حَقّ))**[٢٦].

تأمل هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا له، وما أمر الآخر بأن يتوضأ له، بعض أهل العلم قال: ربما يكون ذلك في واقعتين، أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك وأمره بأن يتوضأ، لكن هنا لم يذكر الوضوء، وإنما ذكر فقط ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا الدعاء.

وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} أَيْ يَزْدَرُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْذُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ: {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُون} أَيْ: لِمَجِيئِهِ بِالْقُرْآنِ.

قال الله -تعالى-: {وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}.

آخر تفسير سورة نون، ولله الحمد والمنة.

تأمل في أول السورة -في صدرها- قال: **{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}** وفي آخرها: **{وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}** فهذا نوع من المناسبات، يعني وجه الارتباط بين صدر السورة وخاتمتها، فالمناسبات أنواع، هناك مناسبات بين الآية والآية، ومناسبة بين المقطع والمقطع، هناك مناسبة بين الجملة والجملة، وهناك مناسبة

---

٢٥ - رواه أحمد، رقم (١٥٩٨٠).

٢٦ - رواه أحمد، رقم (١٥٧٠٠) وصححه الذهبي في تعليقه على تلخيص الحبير، رقم (٧٥٠٠) وقال محقق المسند: "صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، مع وهم فيه".

-عند من يقول بأن ترتيب السور توقيفي، يعني عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين السورة والسورة، وهذا فيه نظر، وهناك مناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، مثل هنا، وفي سورة البقرة: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [البقرة:٢-٣].

ما هذا الغيب؟

في آخرها: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}** [البقرة:٢٨٥] إلى آخره، فهذا من الإيمان بالغيب، وقد ألف فيه بعض أهل العلم مصنفات مستقلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحاقة من الآية (١) إلى الآية (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [سورة الحاقة:١-١٢].

الحاقة من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم الله أمرها فقال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة "سورة الحاقة" تتحدث في مجملها عن موضوع واحد في الجملة وهو القيامة، وهي ثلاثة أجزاء منها ما يتحدث عن القيامة مباشرة، وأحوال الناس فيها، ومنها ما يتحدث عن حال المكذبين بها، وما فعل بهم من العقوبات، وما أنزل بهم من المَثُلات، وقسمها الثالث يتحدث عن أحقية ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من هذا الوحي والقرآن، وأنه حق من عند الله -تبارك وتعالى-، هذه هي الأجزاء أو الأقسام الثلاثة التي اشتملت عليها هذه السورة، وهي ترجع إلى الموضوع الأساس -والله أعلم- القيامة؛ وذلك أنها افتتحت بذلك ثم ذكر ما فعل بالمكذبين بها، ثم ذكر أحوال الناس فيها، ثم ذكر صدق المُخبِر عنها "إنه لقول رسول كريم".

هذه السورة من السور النازلة في مكة بالاتفاق، كل آياتها، **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ}** يقول: **والحاقة اسم من أسماء يوم القيامة**، ثم ذكر لماذا سميت بذلك؛ **قال: لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد**، هذا توجيه من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لهذه التسمية، الحاقة يتحقق فيها ما أخبر الله -عز وجل- به على ألسن رسله -عليهم الصلاة والسلام-، فيكون ذلك بمعنى وقوع وحصول ما أخبر عنه، وبعضهم يقول: لأن الأمر يحق فيها، وهي أيضًا تحق في نفسها، يعني تقع بلا شك، فهي واقعة، وما فيها حاصل وواقع ومتحقق، وبعض أهل العلم ذهب في هذا كصاحب تهذيب اللغة الأزهري -رحمه الله- إلى أن ذلك من حاققتُه -بمعنى غالبتُه- مُحاقّة وهي المغالبة، أو الخصومة أو نحو ذلك، فالقيامة حاقة؛ لأنها تحق كل مُحاقٍّ في دين الله -عز وجل- بالباطل، كل مجادل فهي تخصمه، تخصم هؤلاء المخاصمين، هكذا فسرها، أما كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- فذهب بذلك إلى نحو مما سبق، يعني بالقول الذي ذكرناه أولًا أي التي تحق فيها الأمور، ابن كثير يقول: يتحقق فيها الوعد والوعيد، وابن جرير يقول: تحق فيها الأمور، فهذا قريب من هذا، ومن

أهل العلم مع اتفاقهم على أن الحاقة هي القيامة منهم من يقول سميت بذلك؛ لأنها من ذوات الحَواقّ، يعني الحواق من الأمور، أي أنها صادقة، يعني من الحق، حاقة صادقة واجبة وواقعة لا خُلف في وقوعها، وهذا المعنى قريب من بعض ما ذكر وإن اختلفت فيه العبارات، وهكذا أيضًا قول من قال: إنها سميت بذلك باعتبار أنها تكون في يوم الحق الذي هو يوم القيامة، تقع في يوم الحق، وهذا الذي قال به بعض أصحاب المعاني "معاني القرآن" مثل: الكسائي يقول: باعتبار أنها تكون في يوم الحق، ولو قيل ما هو يوم الحق؟ الحق هو الشيء الثابت في نفسه، والقيامة لا شك أنها حق، وبعضهم يقول: سميت بهذا لكون الإنسان فيها حقيقًا بأن يُجزى بعمله، وبعضهم يقول: لأنها أحقت لقوم الجنة ولآخرين النار، إلى غير ذلك مما قيل في توجيه هذه التسمية، وكأن المتبادر -والله تعالى أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير وابن جرير: حاقة يتحقق فيها الوعد والوعيد، أو تحق فيها الأمور، وبعبارة أشمل من ذلك أنها واقعة وحاصلة وكائنة لا مرية في وقوعها، ولا خُلف فيه، وهذا يتضمن ما يكون فيها مما أخبر الله -عز وجل- عنه من وقوع الحساب والجزاء والأهوال والأوجال التي قص الله -تبارك وتعالى- علينا خبرها **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ}** قال: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** "الحاقة ما الحاقة" هنا "ما" إذا قلنا: إنها استفهامية يمكن أن تكون **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ}** الحاقة مبتدأ، وما مبتدأ ثانٍ، والحاقة خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول، يعني أي شيء حالها أو صفاتها؟ هذه الصيغة والجملة لفظها لفظ الاستفهام، ولكنها تدل على التعظيم والتفخيم؛ لأن مثل هذا الاستفهام مع الإبهام في مقامات الوعد والوعيد يدل على التفخيم والتهويل، **{الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ}** [سورة القارعة:١-٢]، فهذا كله يفهم منه ذلك، كما تقول: الحرب ما الحرب؟، زيد ما زيد؟ تريد أن تعظم شأنه وتفخم حاله، **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ}** فهي تحق في نفسها من غير شك، وهي واقعة لا مرية في وقوعها، وكل ما أخبر الله -عز وجل- عنه فيها فهو حاصل لا محالة، وهي صادقة الوقوع، كل هذه العبارات التي يذكرونها صحيحة لا إشكال فيها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} [سورة الحاقة:٥] وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية الصيحة، وقال مجاهد: الطاغية الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس وابن زيد: إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [سورة الشمس:١١].

قوله -تبارك وتعالى- في الجملة الثانية: **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** هذا زيادة في التفخيم لشأنها وأمرها، يعني الأول يدل على التفخيم، والثاني أيضًا زيادة فيه **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}**، يعني أي شيء أعلمك ما الحاقة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعاينها فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين، وبعض أهل العلم يقول: إن كل ما قيل فيه في القرآن "وما أدراك" فقد أدراه الله وأعلمه، وما قيل فيه: **{وَمَا يُدْرِيكَ}** [سورة الأحزاب:٦٣]، فإن الله لم يعلمه، **{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}**، وهذا قال به بعض أهل العلم، وهو منقول عن سفيان بن عيينة بنحوه، وبه قال يحيى بن سلام، صاحب التفسير المعروف، توفي سنة ٢٠٠ للهجرة هكذا قال، والله تعالى أعلم، وقوله -تبارك وتعالى-: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}** ثمود قوم

صالح -عليه الصلاة والسلام-، وعاد قوم هود -صلى الله عليه وسلم-، **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}** ثمود وعاد كذبوا بالقارعة، والقارعة اسم من أسماء القيامة، ولماذا قيل لها القارعة؟

بعض أهل العلم كابن جرير يقول: لأنها تقرع القلوب؛ لما فيها من الأهوال والأجوال، وحينما تقع -**{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** [سورة النحل:٧٧]، يعني هي سريعة الوقوع- تفاجئهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن الرجل الذي قد حلب ناقته، والآخر الذي يصلح حوضه، أو الرجلان يتبايعان الثوب بينهما كل هذا تقع الساعة وهم لا يمضون ذلك، فهي كلمح البصر أو هي أقرب، ما الذي يكون أقرب من لمح البصر؟، ولهذا قال بعض أهل العلم: لأنها تقرع الناس بأهوالها، وهذا يمكن أن يرجع إلى ما ذكره ابن جرير، فهي حينما تقرع الناس بأهوالها تقرع قلوبهم؛ لأن القلوب هي محل الإدراك، لكن من البعد بمكان -والله تعالى أعلم- أن يفسر ذلك بالقرآن، يعني أن المراد بالقارعة القرآن الذي يخوَّف به الناس، ويخوَّف به الكفار، ويكذبون بذلك، لكن هذا بعيد **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}**، يعني بالقرآن، يقصد القائل بالقرآن، يعني الكتب المنزلة على هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، كذبوا بذلك بالكتب التي أنزلها الله عليهم، فهذا بعيد وإن قال به مثل المبرد -رحمه الله-، والمشهور الذي عليه السواد الأعظم من المفسرين سلفاً وخلفاً لا يكاد يختلف قولهم في هذا هو أن القارعة من أسماء القيامة، وإن اختلفوا في تعليل ذلك، لماذا سميت بالقارعة؟ فإن بعضهم يقول: من القُرعة ترفع أقوامًا وتخفض آخرين، لكن هذا أيضًا بعيد، فهي تقرع القلوب، تقرع الناس بأهوالها، أي أنها تقرع قلوبهم.

يقول: **ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} قال: وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة**، الصيحة والزلزلة يعني أن الله جمع لهم بين هذا وهذا، ويكون قد صاح بهم الملك صيحة شديدة قوية، وزلزلت بهم الأرض رجفت بهم فأهلكوا بهذين الأمرين، والطاغية الصيحة التي جاوزت الحد، وابن جرير فسره بهذا أن الطاغية هي الصيحة الموصوفة بهذه الصفة؛ لدلالة السياق، لأن القول الآخر وهو قول مجاهد: إن الطاغية هي الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس وابن زيد: إنها الطغيان، وهذا يرجع إلى قول مجاهد: إنها الذنوب، وقرأ ابن زيد **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}** [سورة الشمس:١١] يعني فسره به؛ لأن ابن زيد يفسر القرآن بالقرآن، يعني فسر هذه الآية **{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}** بقوله: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}**، إذاً الطاغية قالوا: يعني الطغيان أنهم جاوزا الحد في طغيانهم وكفرهم وعتوهم على الله -تبارك وتعالى- فهذا بمعنى قول مجاهد: الذنوب، وقول الربيع بن أنس وابن زيد: إنها الطغيان، فبعضهم فسره على اللفظ، وبعضهم فسره على المعنى، وكل ذلك يرجع إلى مجاوزة الحد وإلى الخروج عن طاعة الله -تبارك وتعالى- بالكفر، ومحادة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، هذا معناها، يعني حاصل ذلك يرجع إلى قولين:

القول الأول: أن المقصود بالطاغية الصيحة القوية التي أسكتتهم، وابن كثير زاد عليها الزلزلة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، والذي اختاره ابن جرير؛ لدلالة السياق ما هي دلالة السياق؟ هنا علله بدلالة سياق الآيات أنه لما ذكر عادًا قال: **{فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}** ذكر ما عاقبهم به، ولم يذكر ذنبهم، فهذه قرينة تدل على أن المذكور قبله فيما يتصل بثمود؛ لأنه ذكر ثمود وعاداً قال: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}**

ثم ذكر عقوبة كل طائفة كل قوم من هؤلاء، {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}، هل المقصود الطغيان بذنوبهم وبإجرامهم، أو المقصود العقوبة التي حلت بهم وهي الصيحة مثلًا؟، هذا يحتمل، ولما ذكر عادًا لم يذكر ذنبهم، وإنما ذكر نوع العقوبة {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} فدل على أن الأول يقصد به نوع العقوبة أي الطاغية هي الصيحة، وابن كثير من أين جاء بالزيادة هذه التي ذكرها وهي الزلزلة؟ هل جاء به من اللفظ؟ جاء به مما ذكره الله في عقوبتهم، فالله ماذا قال عن ثمود في مواضع أخرى في نوع العقوبة التي حصلت بهم أخذهم بماذا؟ بالرجفة، وما هي الرجفة؟ الهزة، الزلزلة، فابن كثير لاحظ هذا، وكأنه جواب على سؤال مقدر أن هنا ذكَرَ الطاغية، فالله عاقبهم بعقوبتين معاً بالصيحة والرجفة؛ ولهذا قال العلماء: إن الملك صاح بهم، وهُزت بهم واهتزت واضطربت وتزلزلت الأرض من تحتهم، مثل قوم لوط –عليه السلام- {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا} [سورة هود:٨٢] فحصل لهم هذا وهذا.

هناك {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} يعني بطغيانهم وكفرهم، فالطغيان هو مجاوزة الحد، {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء} يعني تجاوز الحد وارتفع فأغرق من على الأرض.

{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} أي: باردة، قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري: عاتية أي شديدة الهبوب، قال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك: صرصر: باردة، عاتية: عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب.

هنا ذكر لهذه الريح صفتين صرصر وعاتية فهنا قال: {صَرْصَرٍ} **أي باردة**، ونقل ذلك عن الضحاك، وهذا قال به جماعة من المفسرين قالوا: إن ذلك مأخوذ من الصِّر وهو البرد، {رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} [سورة آل عمران:١١٧] أي برد، فهي ريح باردة، وبعضهم فسر ذلك بالصوت من الصرصرة؛ لشدة هذا الصوت الناتج عن هبوب هذه الريح، وابن جرير –رحمه الله- ذكر أن هذه الريح شديدة العصوف، عاصفة مع شدة بردها، "بريح صرصر" فهنا أيضًا لفظ الصرصر يدل على الصوت، والريح إذا اشتدت كان لها صوت، فهي ريح بهذه المثابة شديدة العصوف لها صوت، وهي باردة شديدة البرد، مع أن مجاهد –رحمه الله- قال: شديدة السموم.

هنا في قوله –تبارك وتعالى-: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} لعله يطرق أسماعكم أن الريح إذا جاءت في القرآن فهي للعذاب بخلاف الرياح، لكن هذا ليس على هذا الإطلاق، هي التي يسمونها الكليات في القرآن، فهذا ليس على إطلاقه بدليل أن الله –عز وجل- لما ذكر {جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ} [سورة يونس:٢٢] قال قبله: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} فوصفها بأنها طيبة، ثم قال بعده: {جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ} فهنا ذكر الريح بهذا اللفظ في الموضعين: الموضع الأول ريح طيبة تطيب بها نفوسهم ويطيب بها سيرهم، ثم جاءت بعد ذلك الريح الأخرى، فليس كل ريح في القرآن للعذاب.

في قوله: {عَاتِيَةٍ} هنا قال: **أي شديدة الهبوب**، فيكون "صرصر" يعني باردة إذاً على قول هؤلاء، شديدة البرد وعاتية شديدة الهبوب، قال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك: {عَاتِيَةٍ} عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، الشيء العاتي هو الخارج عن الطاعة، فبعضهم وجه ذلك إلى كونها قد عتت عليهم يعني لم يستطيعوا التحفظ منها، ولا الالتجاء إلى ما يتحصنون به، فهي عتت عليهم ما استطاعوا

الاحتراز والنجاة منها، وبعضهم وجه ذلك إلى كونها قد عتت على الخزنة من الملائكة -خزنة الريح-، وهذا منقول عن جمع من السلف -رحمهم الله.

يقول: {عَاتِيَةٍ} **قال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب،** وهذا هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- لكن مثل هذا يحتاج إلى دليل، هذا من الأمور الغيبية، عتت على الخزنة الملائكة الموكلين بالريح، لكنها عاتية قوية شديدة العصوف والهبوب لا يستطيعون ردها ولا الاحتراز عنها باعتبار أصل المعنى "عتا" إذا كان خرج عن الطاعة، يعني أنه خرجت هذه الريح كما يقال عن السيطرة وما أهون الخلق على الله، وما أضعف هؤلاء إذا عصوا أمره، فهؤلاء العتاة عاد الذين أعطاهم هذه القامات الممتدة، والأجسام القوية حتى صاروا بهذه المثابة لما أهلكهم الله -عز وجل- كأنهم أعجاز النخل، يعني أصول النخل التي ليس فيها العُسُب، أجسام ممتدة طويلة ضخمة هلكى صرعى، وقد قالوا قبل ذلك: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [سورة فصلت:١٥]، والله -عز وجل- قد زادهم في الخلق بسطة، فكانوا بهذه المثابة، ما احتاجوا إلا هذا الهواء فلما صار عاصفاً أهلكهم الله -عز وجل- به، والذين قبلهم أهلكهم الله -عز وجل- بالصوت، صيحة صاح بها الملك فماتوا وهلكوا لم يحتملوا ذلك، وقوم نوح قبلهم أهلكهم الله -عز وجل- بهذا الماء، فهذه ثلاثة أشياء أهلك بها هؤلاء الأمم المكذبة: الصوت والماء والهواء، ما احتاجوا إلى أكثر من هذا، صوت قوي يكفي لإهلاكهم وإبادتهم، أو هذه الريح اللطيفة يشتد هبوبها ثم بعد ذلك يكونون خبرًا بعد عين، أو هذا الماء حينما يحصل له اندفاع قوي فيتفجر من كل ناحية فإنه يدمر كل شيء أمامه كما هو مشاهد، ففي هذا العصر أصبحت هذه الأشياء تُصور ويراها الناس، هذا الماء يحطم كل ما في طريقه من المدن وما فيها، والله المستعان.

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ} أي سلطها عليهم {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} أي كوامل متتابعات مشائيم، قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري وغيرهم: حسومًا: متتابعات، وعن عكرمة والربيع بن خُثيم: مشائيم عليهم كقوله تعالى: {فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ} [سورة فصلت:١٦]**، ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ} قال: **أي سلطها عليهم،** هذا هو الذي أيضًا فسرها به بعض السلف كمقاتل، ولفظ التسخير هنا فسره بالتسليط، وبعضهم فسر ذلك بالإرسال، أرسلها عليهم، وبعض أصحاب المعاني الذين ينظرون إلى اللفظ مثل الزجاج قال: سخرها عليهم بمعنى أنه أقامها عليهم كما شاء، يعني نظر إلى لفظ التسخير أنه استعمال الشيء بالاقتدار، التصرف به، فهذا التسخير من الله -عز وجل-، هو الذي يملك هذه الريح، وهو الذي يرسلها عذابًا على من يشاء ويرسلها رحمة، فسلطها عليهم هذه المدة التي ذكرها، هذا معنى سخرها عليهم، وهذه الأقوال متقاربة يعني قول من قال: إنه أرسلها، أو هنا يعني أنه سلطها كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، والله تعالى أعلم.

{سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} يقول: **كوامل متتابعات مشائيم،** لاحظ هنا ذكر في تفسير الحسوم ثلاثة أشياء: أنها كاملة لا نقص فيها، ومتتابعة، وأنها مشائيم، ثم ذكر قول هؤلاء من السلف: إنها متتابعات، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير، قال: لإجماع الحجة، والإجماع عند ابن جرير هو قول أكثر المفسرين، يعني

يطلق الإجماع على قول الجمهور، يقول: لا نستجيز مخالفته لإجماع الحجة مع أنه ينقل الخلاف فيه، فهنا أكثر أهل العلم يقولون: متتابعات، لكن هنا عن عكرمة والربيع: مشائيم، كقوله: **{فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}**، الآن ابن كثير لما عرض أقوال السلف انظروا إلى المعنى الذي فسرها هو به **كوامل متتابعات مشائيم**، فإن الحسوم يأتي بمعنى التتابع، الشيء الذي يتتابع أوله وآخره، أو آخره مع أوله بانتظام من غير انقطاع يقال له ذلك، هذا في أصل هذه المادة في كلام العرب، فهذا المعنى الذي هو التتابع صحيح، وهو الذي فسره به الجمهور، مع أن بعضهم يقول: إنها حسوم بمعنى تحسمهم أي تفنيهم، كما يقوله الزجاج: "حسومًا" أنها حاسمة لهم تفنيهم وتذهبهم وتهلكهم، وقريب من هذا قول من قال: إنها مأخوذة من قولك: حسمت الشيء، يعني إذا قطعته وفصلته عن غيره، وأن الحسم هو الاستئصال، وأن السيف قيل له: حُسام؛ لأنه يقطع الخصم ويحسمه وينهي العدو، يحسم عداوته وما يريد أن يصل إليه بهذه العداوة، يعني أنها حسمتهم أي أذهبتهم، هذا –مثل قول الزجاج– قال به المبرد من أصحاب المعاني، فذهبوا بها إلى هذا من المعنى، الأولون قالوا: متتابعات وهو قول عامة أهل العلم، وأصحاب المعاني قالوا: إنها تحسمهم، تقول: حسمت الجرح، يعني قطعت الدم بما يكون ذلك به من نوع معالجة بشيء يوضع عليه مما يحرق أو غير ذلك من خياطة ونحوها فينقطع الدم، جعلوها قاطعة لهؤلاء، ومُذهبة لهم، ومفنية، وهذا القول الذي ذهب إليه أصحاب المعاني قد سُبقوا إليه، يعني ابن زيد من التابعين فسر "حسومًا" بأنها حسمتهم لم تُبق منهم أحدًا، قطعت دابرهم، فهذا منقول عن السلف، مع أنه جاء عن ابن زيد –أيضا– أنها حَسمت الأيامَ والليالي حتى استوفتها، ولهم كلام كثير في هذا لكن مرجع ذلك إلى الإسرائيليات، متى بدأت؟ ومتى انتهت؟ لكن هنا حسمت الأيام والليالي: أنها بدأت من أول يوم من طلوع الشمس، وانتهت بغروب الشمس من آخر يوم.

وأما قول من قال: إن ذلك بمعنى الشؤم، أن "حسومًا" بمعنى مشئومة فهذا أيضًا قال به جماعة كالليث، لكن يمكن أن يُرجع هذا إلى ما ذُكر قبل من أنها قطعت الخير عنهم، يعني يرجع إلى معنى القطع لكنه قطع الخير، وقع بهم الشرّ، حَسمت الخيرَ عن هؤلاء كما قال الله –عز وجل–: **{فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}** فسروا الحسوم بهذا، ولا بأس إذا كان ذلك على سبيل الإخبار لا سب الدهر، يعني وصف اليوم أو الليلة أو الساعة أو السنة بأن ذلك اليوم نحس أي أنه يوم عصيب وأنها ساعة عصيبة هذا لا إشكال فيه على سبيل الخبر، فالله هنا أخبر عن هذه الأيام والليالي بأنها نحسات، ولوط –صلى الله عليه وسلم– لما جاءه قومه يهرعون إليه قال: **{هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}** [سورة هود:٧٧] فلا بأس بهذا على سبيل الإخبار والوصف، أما إذا قيل ذلك على سبيل سب الدهر فهذا لا يجوز، هذا الفرق بين المقامين، الفرق بين الإخبار وبين سب الدهر.

هنا "حسومًا" جاءت منصوبة باعتبار أنها نصبت على الحال أي ذات حسوم، مع أنه يحتمل أن تكون منصوبة على المصدر بفعل مقدر: "سبع ليال وثمانية أيام حسومًا" يعني تحسمهم حسومًا، والله أعلم.

وابن كثير –رحمه الله– حاول أن يجمع بعض هذه المعاني التي قيلت في تفسير "حسومًا"، قال: **ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** هذا احتمال، وليس بشيء ثابت أن الأيام التي يقال لها: الأعجاز بناء على ما ذكره الله –عز وجل– "كأنهم أعجاز نخل خاوية".

{فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى} الخطاب هنا "ترى" لكل من يصلح له على تقدير لو أنه كان موجودًا وحاضرًا حينها لرأى ذلك، {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى} -نسأل الله العافية- صرعى يعني موتى، {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} أعجاز النخل يعني أصول النخل، هل رأيتم أصول النخل الجذوع حينما تكون ملقاة هكذا من غير عُسُب؟ أعني الجذع نفسه، هؤلاء في طولهم وضخامتهم بهذه المثابة، وصفهم الله بهذا {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} لضخامتهم، فما أغنت عنهم تلك القوة، وما دفعت عنهم بأس الله -تبارك وتعالى.

قال ابن عباس: {خَاوِيَةٍ} خربة، وقال غيره: بالية أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة، كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((نُصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور))[1].

هنا قوله: {خَاوِيَةٍ} عن ابن عباس: **خربة، وقال غيره: بالية** المعنى واحد، خربة وبالية كل ذلك يرجع إلى معنى واحد، {خَاوِيَةٍ} يعني أنها يابسة ميتة، فهؤلاء قد فارقت أرواحهم أجسادهم فصاروا بمثابة النخل التي قد صارت بالية، ويقول هنا: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور))، الصبا هي الريح التي تهب من المشرق، والدبور هي الريح التي تهب من الغرب، والتي نُصر بها النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب -الصبا-، وأهلكت عاد بالدبور، فهذه رياح يصرفها الله -عز وجل-، سخرها عليهم فتكون نصرًا لأهل الإيمان، تهب من جهة وناحية كالمشرق، وتكون عذابًا على أقوام، يصرفها الله كما شاء في العذاب والرحمة، وتكون لهؤلاء رحمة وعلى هؤلاء عذابًا.

{فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ} أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفًا.

هل ترى لهم من باقية، أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن ينتسب إليهم؟، بعضهم يقول: باقية، كأنه نظر إلى تأنيث اللفظ، قال: أي فرقة باقية، أو نفس باقية، أو بقية باقية، كل هؤلاء حاولوا أن يأتوا بشيء مؤنث ليتطابق معه لفظ هذا المؤنث الذي ذكره الله -عز وجل-، وابن جرير قال: {فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ} أي بقاء، وهذا قريب مما ذكره ابن كثير **هل تحس منهم من أحد من بقاياهم**، يعني لم تُبق منهم أحدًا، لم تُبق منهم باقية، لم تبق منهم باقياً وإنما أهلكتهم عن آخرهم.

ثم قال تعالى: {وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ} قرئ بكسر القاف، أي ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط.

لاحظ على هذه القراءة -وهي قراءة متواترة- قراءة أبي عمرو والكسائي {وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُ} قال: يعني **ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه**، يعني جاء بمن معه من الأتباع والجند، يشهد لهذه القراءة ما جاء من قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب {وجاء فرعون ومن معه}، وقراءة أبي موسى {ومن يلقاه} يعني من معه ومن يلقاه من مكانه في زمانه جاء بهم، جاء بمن استطاع، أي يحشد ويجمع من الجموع، فهذه القراءة تدل على هذا المعنى "ومن قِبَله".

---

١ - رواه البخاري، أبواب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالصبا))، برقم (١٠٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، برقم (٩٠٠).

القراءة الثانية التي نقرأ بها قراءة الجمهور {وَمَن قَبْلَهُ} -بفتح القاف- يعني من الأمم، لاحظ هذا معنى، وهذا معنى مختلف تمامًا، "ومن قِبَله" يعني من أهل زمانه من أتباعه وجنده، والمعنى الثاني "ومن قَبْله" من الأمم المكذبة كل هؤلاء جاءوا بالخاطئة، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، يعني كأنه عندنا الآن آية دلت على أن فرعون جاء بمن استطاع من جنده وأتباعه، حشد الحشود بمن يقدر عليه، والثانية أنه جاء فرعون ومن قبله من الأمم المكذبة بجرمهم وكفرهم ومحادتهم لله -تبارك وتعالى-، فالقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين.

وقرأ آخرون بفتحها أي: ومن قَبله من الأمم المشبهين له، وقوله تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} وهم الأمم المكذبون بالرسل.

ابن كثير حمله على هذا المؤتفكات: الأمم المكذبون، ذهب به إلى معنى الإفك الذي هو أبين الكذب وأوضح الكذب، "ومن قَبله والمؤتفكات" قال: **الأمم المكذبون بالرسل**، وأحسن منه -والله تعالى أعلم- ما قاله عامة أهل العلم -الجمهور-، ومنهم ابن جرير -رحمه الله- من أن المقصود قرى قوم لوط، فإن الله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك في مواضع من كتابه تارة بالإفراد "المؤتفكة"، وتارة بالجمع "المؤتفكات"، فبالإفراد باعتبار الجنس، هي مجموعة من القرى لقوم لوط، جنس هذه القرى يقال له: المؤتفكة، وبالجمع يقال: المؤتفكات، فتفسر بذلك أولى وهذا هو الاستعمال المعروف في القرآن {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣].

{بِالْخَاطِئَةِ} وهي التكذيب بما أنزل الله، قال الربيع: بالخاطئة أي بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا، ولهذا قال تعالى: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ} وهذا جنس أي كلٌّ كذب رسول الله إليهم.

هنا الخاطئة هذه الأقوال التي نقلها عن هؤلاء السلف -رحمهم الله-: المعصية والخطايا كل هذا بمعنى واحد، الخاطئة يعني الفعلة الخاطئة، والفرق بين المخطئ والخاطئ أن المخطئ هو الذي يقع على الخطأ من غير قصد، والخاطئ من يقع بقصد، يقع في المعصية بقصد، هنا جاءوا بالخاطئة، يعني بالخطايا، المعاصي، بالفعلة الخاطئة.

كما قال تعالى: {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ} [سورة ق:١٤] ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع.

هذا بالإضافة: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ} يعني عصوا رسله، عصوا رسول ربهم يعني يجاب عن إفراد الرسول هنا بجوابين:

أولًا: أن الرسول مفرد مضاف وهذا يفيد العموم، يعني عصوا رسل ربهم.

ثانياً: أن من كذب برسول فهو مكذب بجميع الرسل، ويكون ذلك في كل قوم مع رسولهم، فمعني "فعصوا رسول ربهم" أن قوم نوح عصوا رسول ربهم، وهكذا ثمود، وقوم لوط، كل هؤلاء عصوا الرسول الذي أرسل إليهم.

كما قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٠٥].

مع أن نوحاً -عليه الصلاة والسلام- هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، فقال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}؛ لأن من كذب رسولًا فهو مكذب لجميع الرسل.

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٢٣]، **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة الشعراء:١٤١] **وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال هاهنا: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً} أي: عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد: رابية: شديدة، وقال السدي: مهلكة.**

هنا هذا التفسير أن رابية: شديدة، أو أنها عظيمة شديدة أليمة، أو أنها مهلكة كل هذا تفسير على المعنى؛ لأن أصل هذه المادة ربَا والرِّبا كل ذلك يدل على الزيادة، ولذلك تجد من يدققون في مثل هذه الأشياء، ومن ينظرون إلى الألفاظ مثل أصحاب معاني القرآن يفسرون ذلك بما يتفق مع اللفظ، أو يراعون فيه اللفظ، ولهذا نجد أن الزجاج مثلًا يقول: **{أَخْذَةً رَّابِيَةً}** تزيد بمعنى أنها تزيد على الأخذات، زائدة، وابن جرير قال: زائدة شديدة نامية، ذكر زائدة ونامية ربَا يربو ربْوة، هذا يربو على كذا أي يزيد، والرِّبا؛ لأنه زيادة من غير وجه مشروع، فالذين فسروها أنها عظيمة أو أنها شديدة أو مهلكة كل هذا صحيح، لكن هو ليس من قبيل التفسير على اللفظ، لكن رابية يعني أنها أخذة زائدة، هذه الزائدة هي العظيمة، هي الشديدة، هي المهلكة.

ثم قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء} أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود، وقال ابن عباس وغيره: {طَغَى الْمَاء} كثر، وذلك بسبب دعوة نوح -عليه السلام- على قومه حين كذبوه وخالفوه وعبدوا غير الله، فاستجاب الله له، وعمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

يعني هنا **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء}** قال: **زاد على الحد**، هنا الطغيان هو مجاوزة الحد، وقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: **{طَغَى الْمَاء}** **كثر** وهكذا أيضًا من فسره بما يرجع إلى هذا فإن ذلك من قبيل التفسير على المعنى، كثر، هو حينما يتجاوز الحد فهذا يعني أنه كثر.

ولهذا قال تعالى ممتنًا على الناس: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} وهي السفينة الجارية على وجه الماء، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} عاد الضمير على الجنس؛ لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار المياه في البحار كما قال: {وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [سورة الزخرف:١٢-١٣].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}** الذين حُملوا هم الأجداد الذين كانوا في زمن نوح -عليه الصلاة والسلام-، فكيف جاء الخطاب إلى من بعدهم، من نزل عليهم القرآن؟، باعتبار أنهم الذرية ففي ذلك حمل لهم ضمناً وهم في أصلاب آبائهم، **{حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}**، وفيه أيضًا ما هو معروف من أن المنة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء، **{حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}**؛ ولهذا تجد الخطاب كثيراً في القرآن لبني إسرائيل **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** [سورة البقرة:٤٩]، **{وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}** [سورة البقرة:٥٧] وما إلى ذلك مع أن ذلك وقع لأجدادهم، لكن هذه المنة التي تكون لاحقة للآباء تلحق الأبناء، كما أن المذمة التي تكون للآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [سورة البقرة:٥٥]، الذين قالوا هم الأجداد لا هؤلاء، **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا}** [سورة البقرة:٧٢]،

فلما كان هؤلاء الذين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذه الحال القبيحة كان ذلك الذم متصلًا بهم.

هنا في قوله: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}** "لنجعلها" الضمير يرجع إلى ماذا؟ لنجعلها لكم تذكرة أي السفينة، ابن كثير يقول: **عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه**، أي وأبقينا لكم من جنسها، يعني أن السفينة التي كانت في زمن نوح -صلى الله عليه وسلم- وركبوها لم يعد لها وجود، ما شاهدها الناس في زمن نزول القرآن، وما جاء عن بعضهم من أن ذلك كان موجودًا يعني بقية من بقاياها هذا الكلام لا صحة له، وهكذا ما يذكر اليوم من كلام لا قيمة له في هذا الموضوع من أنهم وجدوا بقايا في مكان كذا في تركيا إلخ هو كلام غير صحيح، وعجبًا لقوم يبحثون عن بقايا سفينة ويتركون الأصل الكبير الذي من أجله صنعت هذه السفينة، ونجّى الله -عز وجل- راكبيها وأغرق أهل الأرض، وهو الكفر والإيمان، يعرضون عن هذا كله ويبحثون عن أخشاب وبقايا السفينة، وهنا ابن كثير حمله على هذا المعنى أي أبقى جنس السفينة، يعني السفن التي نشاهدها هي تذكّر بتلك السفينة **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}**، وابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على تلك السفينة لا على أنها كانت موجودة في زمن نزول القرآن، أو يوجد بقية منها فإن الناس لا عهد لهم بذلك إطلاقًا، ولكنه حمل ذلك على سفينة نوح، أي لنجعل السفينة الجارية التي حملناكم فيها تذكرة، فالله ذكر خبرها صنْع نوح -صلى الله عليه وسلم- وركوب من معه فيها، ونجاتهم، كل هذا؛ ليكون ذلك تذكرة لهم، يتذكرون فيها بأس الله -تبارك وتعالى- وعقوبته لأهل الكفر والطغيان، ويذكرون فضله ونعمته ومنته على أهل الإيمان حيث نجاهم، فهذه عبرة كبيرة، والعجيب أنه لم يطل بالناس زمان حتى رجعوا إلى الكفر والمحادة والإصرار على ذلك غاية الإصرار، وانظروا ما قص -تبارك وتعالى- مفصلًا في خبر صالح -عليه الصلاة والسلام- وهود، هؤلاء العهد بينهم وبين قوم نوح لم يكن طويلًا، يعني المؤرخون يذكرون مددًا ليست بتلك في الطول نسبيًا، لا أقصد أنها عشر سنين، لكن أثر ابن عباس أن الناس بقوا على التوحيد عشرة قرون ثم بعد ذلك وقع الشرك في زمن نوح -صلى الله عليه وسلم-، لكن بعد نوح حتى جاء الشرك مرة أخرى المدة لم تكن طويلة نسبيًا، إذا أردت أن تحصي من خلق آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى يومنا هذا في ما ذكره المؤرخون من المدد -على اختلاف كثير فيما بينهم- وأخذت أعلى ما قيل فتجد أن ذلك لا يتجاوز ١٢٠٠٠ سنة على أقصى تقدير، والله أعلم، لكن نحن نقول في المدد التي ذكرها المؤرخون ذكروا مددًا متفاوتة ليست محل اتفاق أصلًا، ولكن إذا أخذت بالأعلى دائمًا وجبرت الكسر المدد هذه كلها من آدم إلى يومنا هذا لا تتجاوز ١٢٠٠٠ سنة، أنا لا أقول: إنها ١٢٠٠٠ سنة الله يعلم، لكن أقول: فيما يذكره المؤرخون لا تتجاوز هذا القدر، فأين الذين يقولون: من ملايين السنين، والعصر البرونزي والعصر الحجري، والكذب الكثير الذي يلفقونه ويرجمون بالغيب من مكان بعيد، يأتي بقطعة خزف ويقول: هذه قبل أربعة ملايين سنة وستمائة وخمسة وعشرين يوماً، قطعة خزف! هذا كذب.

نوح -عليه الصلاة والسلام- إلى يومنا هذا لا يتجاوز ١٢٠٠٠ سنة بأعلى ما قاله المؤرخون في المدد التي بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، حتى ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الأمم، وما يمثل ذلك من النهار بأجزائه، وما تمثله بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- فكأن الدنيا كلها يوم واحد، فإذا قست ما

بقي منها بما تمثله بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ما قبله تجد أنها قليلة، والله أعلم، لأنا لا نعلم متى تكون الساعة، وكم يكون بين النبي -صلى الله عليه وسلم- والساعة، لكنه يقول: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[٢]، فلا شك أنها قريبة، وأن بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- من أشراطها، وهذه المدة لآخر النهار فيما بين بعثته والساعة يدل على أن ذلك قريب.

قبل هذا لا زال الكلام في قوله: {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} إما جنس السفن كما يقول ابن كثير، أو تلك السفينة كما يقول ابن جرير، وهذا ليس محل اتفاق بين أهل العلم في عود الضمير، بعضهم يقول: لا يعود إلى السفينة، وإنما {لِنَجْعَلَهَا} يعني نجعل هذه الأمور المذكورة عبرة وعظة للمعتبرين، لنجعلها لكم عبرة وعظة تعتبرون بها، وتستدلون بها على عظيم قدرة الله -تبارك وتعالى.

هذا السياق {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ} الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والجارية مؤنث، والضمير جاء مؤنثًا، فرجوعه إلى الجارية سواء قلنا: جنس السفن أو السفينة التي ركبوا فيها هذا أقرب من هذا القول وهو حمل ذلك على هذه الأمور، وبعضهم يقول: {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ} يعني هذه الفعلة التي حصلت وهي إنجاء نوح -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المؤمنين، وإغراق هؤلاء المجرمين، وهذا أقرب ممن جعل ذلك عائدًا إلى الأمور المذكورة قبله، يعني هنا {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} يعني هذا الإنجاء والإهلاك تذكرة، هذا له وجه، لكن رجوع ذلك إلى السفينة باعتبار أنها أقرب مذكور هو أقرب الأقوال، والله تعالى أعلم.

وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

هذا الكلام غير صحيح، لا يوجد لها أثر ولم يدركها أحد، وكل ما ينقل في هذا غير صحيح، هذا لا أساس له.

ولهذا قال تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة، سامعة، وقال قتادة: {أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وقال الضحاك: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} سمعتها أذن ووعت، أي من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعى.

هذه المعاني كلها متقاربة وترجع إلى شيء واحد، وأصل ذلك يرجع إلى حفظ الشيء، ومنه قيل: الوعاء؛ لأنه يحوي ما في داخله، وما يوضع فيه، وهكذا قال: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [سورة المعارج:١٨]، يعني حفظ هذا الذي جمعه وأمسكه من المال؛ ولهذا أصحاب المعاني كالزجاج والفراء يفسرونه بالحفظ، فهذا الذي حفظه وعاه، لكن مجرد الحفظ لا يغني عنه فلابدّ من استيعاب ذلك، لابدّ من تعقله؛ ولهذا فسروه هنا **قال قتادة: عقلت عن الله فانتفعت**، فحفظه وسيلة -لأن الحفظ يقابله النسيان فإذا نسيه لم يعقل ذلك- فيبقى ذلك حاضرًا في الأذهان قد عقلته القلوب.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {إِنَّا لما طَغى المَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَة * لنجعلها لكم تذكرة وَتَعِيهَا أذن وَاعِيَة} قَالَ قَتَادَة: أذن سَمِعت وعقلت عَن الله مَا سَمِعت، وَقَالَ الْفراء: لتحفظها كل أذن فَتكون

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))، برقم (٦٥٠٤)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥١).

عظة لمن يَأْتِي بعدُ، فالوعي تُوصَف بِهِ الأذن كَمَا يُوصف بِهِ الْقلب، يُقَال: قلب واعٍ، وَأذن وَاعِيَة لما بَين الأذن وَالْقلب من الارتباط، فالعلم يدْخل من الأذن الى الْقلب، فَهِيَ بَابه وَالرَّسُول الْموصل إِلَيْهِ الْعلمَ، كَمَا أَن اللِّسَان رَسُوله الْمُؤَدِي عَنهُ، وَمن عرف ارتباط الْجَوَارِح بِالْقَلْبِ علم أَن الأذن أَحَقّهَا أَن تُوصَف بالوعي، وَأَنَّهَا إِذا وعت وعي الْقلب"(٣).

قال –رحمه الله–: قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٣-١٨].

يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة، وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله لا يُخالَف ولا يُمانَع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد.

هنا قوله –تبارك وتعالى–: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}** كما ترون الحافظ ابن كثير كما مضى في بعض المناسبات أنه يرى أن النفخ في الصور ثلاث مرات، ذكرها هنا: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث، يعني نفخة الصعق هي النفخة الأولى عند الجمهور التي يصعق فيها الخلق يعني يموتون جميعًا –أي الأحياء– إذا نفخ في الصور، والنفخة الثانية عندهم هي التي يقومون فيها أحياء من قبورهم، فهما نفختان عند الجمهور، وبعضهم كابن كثير يرى أنها ثلاث، وبعضهم يرى أنها أربع، وقد مضى الكلام على هذا جميعًا، وكل ذلك إنما فهموه من آيات من القرآن –والآيات تحتمل– على اختلاف بينهم في بعض ذلك، يعني نفخة الفزع متى تكون؟ هل تكون قبل النفخة الأولى كما يقول ابن كثير، أو أنها تكون بعد ذلك فتكون بعد الثانية بعدما يقومون من قبورهم؟ هذا خلاف بين أهل العلم، كذلك الصعق متى يكون؟

هنا يقول: **وهي هذه النفخة**، يعني أن ابن كثير –رحمه الله– يرى أن قوله: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}** أن هذه هي نفخة البعث والنشور، يعني عنده أنها النفخة الثالثة، وعند الجمهور أنها النفخة الثانية التي يقومون بها من قبورهم، فالآيات تحتمل **{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ}** متى يكون هذا العرض؟ ومتى تنزل الملائكة؟ ومتى ينزلون وتشقق السماء بالغمام؟، وينزل ربنا –تبارك وتعالى– لفصل القضاء بين الخلائق؟، هذا يكون بعد النفخة الثانية، العرض لا شك أنه لا يكون إلا بعد النفخة الثانية، فهذه الأمور المذكورة مجتمعة كلها ذُكرت بعد هذه النفخة على أنها واقعة بعدها ومن جملة ذلك العرض الذي لا شك أنه بعد النفخة الثانية، فدلّ على أنها النفخة الثانية التي اعتبرها ابن كثير النفخة الثالثة، المقصود أنها نفخة القيام من القبور، أو أن هذه هي النفخة الثانية عند ابن كثير والأولى عند غيره التي يموت فيها الخلائق، هذا خلاف بين أهل العلم، هذه الأمور التي تحصل في العالم العلوي والسفلي

---

٣ – مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٥).

في القيامة هل تحصل بعد النفخة الأولى؟ تشقق السماء، و{تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم:٤٨] هذا بعد النفخة الثانية، فهل هذا التشقق وانكدار النجوم إلى آخره يحصل بعد الثانية أو بعد الأولى؟ {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:١-٢] متى تكون الزلزلة؟

بعضهم يقول: في النفخة الأولى، وبعضهم يقول: في النفخة الثانية ويدل عليه {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} أي ما فيها، وقلنا: هناك من الأموات مما حوته مما أراد الله أن تخرجه، فهذا يحتمل، فابن كثير نظر إلى هذه المذكورات جميعًا أنها كلها بعد هذه النفخة فاعتبرها النفخة الأخيرة، هو يسميها الثالثة، والجمهور أنها الثانية، بصرف النظر عن هذا فهذا احتمال، وبعض السلف ذهب إلى أنها الأولى، لاحظ: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}، هل هذا يقع بعد الأولى أو بعد الثانية؟ بعضهم يقول: بعد الأولى وهذا ذهب إليه عطاء، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، أن هذا بعد النفخة الأولى.

والقول الآخر الذي ذهب إليه ابن كثير -بصرف النظر عن تسميتها بالثالثة أو الثانية- ذهب إليه جماعة من السلف أيضًا كمقاتل والكلبي، أنها النفخة الثانية، فإذا نظرت إلى هذه المذكورات تجد أنها مما يقع قطعًا بعد النفخة الثانية، مثل العرض، ومنها ما فيه الخلاف، يعني العرض بلا خلاف، ومنها ما فيه الخلاف ومنشأ هذا الاختلاف أن هذه الأمور المذكورات من أهل العلم من يرى أنها أصلًا تقع بعد النفخة الأولى، تَغيَّر حالُ هذا العالم، ومنهم من يرى أن ذلك بعد النفخة الثانية، لاحظ هنا: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} وقعت الواقعة يعني القيامة، فهل القيامة تكون بالنفخة الأولى؟ هنا يموت الناس، أو أن المقصود أن القيامة هي أن يقوم الناس من قبورهم، {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة المطففين:٦] سميت بالقيامة لهذا؛ فهي بعد النفخة الأخيرة، بعد النفخة الثانية، فهذا يوجد له ما يؤيده من أن المقصود النفخة الثانية وهي التي تحصل بها هذه الأمور والأهوال والأوجال؛ ولهذا قيل لها: القارعة؛ لأنها تقرع القلوب كما سبق، وهي التي عليها مدار الجزاء والحساب والنعيم والعذاب وما إلى ذلك التي كذب بها الكفار، فهم كذبوا بالبعث والنشور وما بعده من الحساب والجزاء والجنة والنار، استبعدوا وقوع ذلك، لن تكون هناك حياة بعد هذه الحياة، فهذه القيامة، وما يذكره الله من دلائلها كل هذا يرجع إلى التي تكون بعد النفخة الأخيرة، يقومون من قبورهم، هذه التي كان فيها الجدال الكثير وهي التي تنوعت أدلة القرآن على تقريرها، في سورة البقرة فقط خمسة أنواع أو خمسة مواضع من الأدلة، في سورة البقرة وحدها فضلًا عن غيرها.

ولهذا قال هاهنا: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} أي فمُدت مد الأديم العكاظي، وتبدلت الأرض غير الأرض.

"وحملت الأرض والجبال" قال: **فمُدت مد الأديم العكاظي**، نسبة إلى عكاظ السوق المعروفة بين نخلة والطائف، وهنا {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} هنا فسره بأنها مُدت، وبعضهم فسرها بأنها قُلعت ورفعت من أماكنها، أزيلت عن مقارها، {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} هنا لم يفسر الدَّك -مضى الكلام عليه- وفسره بعضهم بالكسر، {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} كُسرتا أو ضربتا، الدك بمعنى أنها ضربت حتى صارت

كثيبًا مهيلًا، وذكرنا أحوال الجبال في مناسبات سابقة من دكها حتى تتحول وتصير كالكثيب المهيل إلى أن تصير كالهباء المنبث هذا الذي يتطاير في شعاع الشمس، ثم تسير، فلها أطوار وأحوال ذكرها الله -عز وجل- في كتابه، وبعضهم فسر ذلك بالبسط، {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} وهل هذا من قبيل التفسير باللازم، يعني أنها إذا دكت وضربت إلى آخره صارت منبسطة؟، نعم تكون منبسطة، يقولون: هذا من قولهم: اندك سنام البعير إذا استوى، اندك يعني استوى، إذا وضع عليه الرحل وطال ذلك عليه مع الركوب فإن هذا يؤثر فيه فيكون منبسطًا مستويًا {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}، بينما ابن جرير -رحمه الله- يفسر ذلك بالزلزلة، أي فزلزلتا زلزلة واحدة، وهذا الدك ليس معناه الزلزلة، لكن كأنه نظر إلى المعنى باعتبار أن ذلك قيل في حق الجبال والأرض، فالأرض ما الذي يحصل لها؟ الجبال تدك بمعنى أنها تكسر، بمعنى أنها تقلع من أماكنها وتتحول إلى هباء إلى كثيب، كل هذا يحصل لهذه الجبال لكن الأرض تُبسط تُسوى {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [سورة طه:١٠٧] هذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، ابن جرير كأنه نظر إلى الأرض من كونها يحصل لها زلزلة {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} زلزلتا زلزلة واحدة، وهو لا يقصد أن الزلزلة تحصل حركة واحدة؛ لأن كلمة زلزل فيها تكرر في الحروف، وهذا يدل على تكرر في حركتها مثل أي لفظة، هذا التكرار مثل يتجلجل يدل على تردد في الشيء، الجلجلة، الصلصلة، والله أعلم.

{فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} أي: قامت القيامة، {وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}، وقال ابن جريج: هي كقوله: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [سورة النبأ:١٩]**، وقال ابن عباس: متخرِّقة، والعرش بحذائها، {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء.**

هو هذا، الجنس حينما يأتي منفردًا فإنه يكون بمعنى الجمع مثل: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [سورة النور:٣٠]، يعني الأطفال، سواء كان مفردًا هكذا من غير إضافة أو بالإضافة مثل: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١]، أي أصدقائكم، و"لا تتخذوا عدوي وعدوكم" هنا مضاف "عدوي" يعني أعدائي، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} **قال ابن عباس: متخرِّقة**، وابن جريج فسرها بقوله: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا}، وهذان القولان متقاربان، يعني حينما تشققت وفتحت أبوابًا لم تعد على حالها التي كانت عليها من القوة والإحكام، والوَهاء يدل على الضعف، {فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}؛ ولهذا فُسرت بالضعيفة المسترخية، وفسرها بعضهم بالمتشققة، والمتشققة واهية، وهكذا ابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمتصدعة المتشققة، فهذا كله يرجع إلى معنى الوَهاء الذي هو الضعف، ومن فسرها بأنها ضعيفة، أو متشققة فإن هذا يرجع إلى معنى واحد، وإلا فإنه ليس الواهي بمعنى المتشقق من حيث مطابقة اللفظ، ولكن ذلك يعرف لزومًا، والله تعالى أعلم.

وقال الربيع بن أنس في قوله: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} يقول: على ما استَدَقّ من السماء ينظرون إلى أهل الأرض.

هذا أحد الأقوال فيه، لكن المشهور {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} يعني على أطرافها ونواحيها وجوانبها كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم يقول كالضحاك: تكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الله -عز وجل- بالنزول فيحيطون بأهل الأرض، وبعضهم كسعيد بن جبير أعاد الضمير إلى الأرض مع أن المذكور قبله السماء فهو يقول: الملك على حافات الدنيا، يعني ينزلون إلى الأرض.

وقوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} أي: يوم القيامة يحمل العرشَ ثمانيةٌ من الملائكة، وقد رواه أبو دواد في كتاب السنة من سننه عن جابر بن عبد الله أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أُذِن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[٤]، هذا لفظ أبي داود

"ثمانية" بعضهم يقول: ثمانية من الملائكة، وهذا هو المتبادر، وهؤلاء في خلقهم وقوتهم لا يقادر ذلك إلا الله -تبارك وتعالى-، وإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر صفة هذا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام في لفظ: ((تَخفْق الطير))، سرعة طيران الطائر فإذا حُسب فقط هذا الجزء من خلقه فما طول هذا الملك إذاً؟

وبعضهم يقول: ليس المراد ثمانية من الملائكة، وإنما ثمانية صفوف من الملائكة تحمل العرش، وبعضهم يقول: إن الملائكة تسعة أجزاء يعني تسع مجموعات، يحمل العرش يوم القيامة ثمانية يعني ثماني مجموعات من تسع، يعني أكثر الملائكة، لكن هذا القول لا دليل عليه، والمتبادر أنهم ثمانية من الملائكة لا يقدر خلقهم إلا الله -تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} أي: تعرضون على عالِم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: {لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}.

هنا {يَوْمَئِذٍ} يعني في ذلك اليوم الذي وصفه الله -عز وجل- بقوله: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} فهذا قرينة على أن المراد النفخة الثانية {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ} وكما قلت: إن هذا الموضع محل اتفاق، يعني أن هذا العرض يكون بعد النفخة الثانية، لكن الذين قالوا: النفخة الأولى ماذا يمكن أن يجيبوا عن مثل هذا؟ يقولون: إن الله أجمل هذه الأمور التي تقع، فمنها ما يكون عند النفخة الأولى، ومنها ما يكون عند النفخة الثانية، فذكرها مجملة هنا، لكن ظاهر السياق -والله تعالى أعلم- سرْدُها هكذا، ثم بعد ذلك قال: {يَوْمَئِذٍ} يعني {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} يومئذ تعرضون، فدل على أنها النفخة الثانية، فهذا الذي يحصل من هذا التبديل وهذا التغيير لأحوال هذا العالم يكون بعد النفخة الثانية -القيامة-، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} يعني لا يخفى منكم حال ولا عمل ولا نفس، كل ذلك يكون باديًا ظاهرًا لله -تبارك وتعالى-، يعلم ما تكنه الصدور، وما يخفيه العبد من أعماله، وما يظهره، كل ذلك قد أحصاه وعلمه وسيحاسبهم عليه، {لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}، {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الكهف:٤٨]، {تُعْرَضُونَ} يعرض الجميع على الله -تبارك وتعالى- هذا العرض

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية والمعتزلة، برقم (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٥١)، وفي صحيح الجامع برقم (٨٥٤).

الذي فيه لا تخفى عليه حال من أحوالهم، وهذا الذي ينبغي أن يعمل الإنسان ويستعد لمثله، وأن يجتهد في قطع هذه الأنفاس والاشتغال بما يقربه وينفعه عند العرض، ويُعد لكل حركة من حركاته أو سكناته يُعد لذلك جوابًا بين يدي الله –تبارك وتعالى–، فإذا أراد أن يتكلم بكلام أو يتصرف بلون من التصرفات فينبغي عليه أن يكون قد هيّأ الجواب حينما يسأله ربه –تبارك وتعالى– عن هذا، سواء كان ذلك في مزاولته وأعماله في الطاعات والعبادات، أو كان ذلك في أموره الدنيوية مما يتصل بالمعاش، أو كان ذلك ما يتعلق بشهواته وذنوبه ومعاصيه، أو كان ذلك فيما يقوله عن ربه –تبارك وتعالى– من الفتيا والعلم والكلام بمعاني القرآن وما أشبه ذلك، كل هذا حينما يتفوه به الإنسان الجواب ينبغي أن يكون حاضرًا في ذهنه فيزن الحرف، ويكون له مخرج عندما يسأل عن هذا، يقول: أنا قلت كذا، ومن ثَمّ فإنه لا يتجرأ على الله فيقطع بأمور لا يستطيع القطع فيها ليس عنده فيها من الله برهان، أو يقول: الله أحل كذا، أو حرم كذا وليس عنده فيه من الله برهان، أو كذلك فيما يقدم عليه مما يترخص به من أمور اللهو وهوَى فيها وهو سيُسأل عنها، كذلك في مكاسبه من أين جمع هذا المال، وفيم أنفقه، وعن العمر فيم أبلاه إلى آخره، وهذه الكتابات التي يكتبها هل أراد وجه الله فيها، أو أنه أراد الناس الرياء والسمعة؟، وهذه المؤلفات التي ألفها، وهذه المقالات التي سطرها، وهذه التغريدات التي كتبها وما في مضامينها من حق وباطل وبهتان وكذب وسباب وفحش وقبح وأخلاق ذميمة وإن كان ذلك بأسماء مستعارة **{لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}**، فالتعامل مع مَن هذه صفتُه لا ينفع عنده لا اسم مستعار ولا ينفع عنده احترازات، ولا تشفير ولا غير ذلك **{لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}** نكرة في سياق النفي فهي للعموم، لا يخفى شيء.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله))[٥] ورواه ابن ماجه، ورواه الترمذي.

هذا الحديث جاء من حديث أبي موسى الأشعري، وأبي هريرة –رضي الله عنهما–، والذي يرويه عنهما هو الحسن البصري ولم يلق أبا موسى الأشعري، ولم يلق أبا هريرة –رضي الله عنهما–، أو لم يسمع منهما، ومن ثَمّ ضعفه بعض أهل العلم؛ لكونه لم يسمع منهما، ضعفوا هذا الحديث مع أن محقق المسند حسنه، ولا أدري لماذا حسنه، والشيخ ناصر الدين الألباني ضعفه.

---

٥ – رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر البعث، برقم (٤٢٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٧١٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لانقطاعه، الحسن البصري لم يسمع من أبي موسى".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحاقة من الآية (١٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [سورة الحاقة:١٩-٢٤].

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، أي: خذوا اقرءوا كتابيه؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات، قال عبد الرحمن بن زيد: معنى {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} أي: ها اقرءوا كتابيه، و"ؤُمُ" زائدة، كذا قال، والظاهر أنها بمعنى هاكم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}** يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي: **خذوا اقرءوا كتابيه**، هاؤم بمعنى خذوا، وبهذا قال النحاة، فهو اسم فعل بمعنى خذوا، وبعضهم قال: هو بمعنى هاؤم أي: تعالوا كما جاء عن ابن زيد، وبعضهم قال: إن معناه هلمَّ، والمقصود أنه اسم فعل أمر أي خذوا، تعالوا، هلم، ونحو ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال: ((إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيُبدي -أي يظهر- سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم، أي رب، فيقول له: إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك، فيقول عند ذلك: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} حين نجا من فضيحته يوم القيامة))[1].

والهاء في قوله: "كتابيه" و"حسابيه" ونحو ذلك هي للسكت.

وفي الصحيح من حديث ابن عمر أنه سئل عن النجوى فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يدني الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطَى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول: {الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة هود:١٨]))[2].

---

١ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٧١).

٢ - رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: **{أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [هود:١٨]، برقم (٢٤٤١)، وبرقم (٤٦٨٥)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [هود:١٨].

هذا يشهد للذي قبله، والذي قبله لم يصرح برفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو لا يقال بالرأي فله حكم الرفع، لكن ليس في حديث ابن عمر -رضي الله عنه- أنه حينها يقول: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} لكن الآية واضحة في أنه إذا أخذ كتابه بيمينه قال ذلك، فهذا القدر تشهد له الآية -هذا الجزء- أنه يقوله حينما يعطى الكتاب بيمينه، والمقصود بالكتاب هو كتاب الأعمال، صحيفة الأعمال، اقرءوها فهي تتطاير، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله.

وقوله تعالى: {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} أي: قد كنت موقنًا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة البقرة:٤٦].

هنا قوله: {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} المعنى هنا يقول: **كنت موقنًا في الدنيا**، فإن ظن تأتي بمعنى العلم واليقين، كقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} يعني يوقنون، وليس ذلك من قبيل الظن الذي هو طرف الرجحان، أو الطرف الآخر الذي هو المرجوح، أو ما بينهما مما يقال له الشك، يعني مما لا يقين معه، فإن الإيمان بالله -تبارك وتعالى- لا يصلح فيه هذا، الإيمان باليوم الآخر لا يصلح فيه هذا، بل لابدّ من الجزم واليقين، فالظن يأتي بمعنى اليقين؛ ولهذا يقول الضحاك -رحمه الله-: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين بخلاف الكافر فإنه شك، الكفار يقولون: {إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [سورة الجاثية:٣٢]، فهذا بمعنى الشك، أما أهل الإيمان فإن ذلك يكون على سبيل اليقين، وبعض أهل العلم ذهب به إلى معنى آخر {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} يعني ظننت أني أُؤخَذُ بسيئاتي، أي لمّا عُرضت عليه هذه السيئات ظن أنه يؤخذ بها، ولكن الله -تبارك وتعالى- قابل ذلك بالعفو {أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ}، يعني سأحاسب على هذه السيئات وأُؤخَذُ عليها، ولكن الذي عليه الجمهور وهو الأقرب -والله أعلم- أنه يخبر عن نفسه أنه استعد لهذا اليوم وآمن، فهو حينما علم أنه سيلاقي هذا الحساب لم يكن يخبر عن مجرد العلم واليقين بذلك، وإنما أيضًا ما يتبعه من الاستعداد لهذا اليوم، فهو عمل لهذا اليوم يقول: أنا كنت أعلم أني سألاقي هذا الحساب، وهذا يقتضي أنه يعمل لآخرته ويجدّ ويجتهد، ويكف نفسه عن مساخط الله -تبارك وتعالى-، يعني هو يتقين الحساب ويعمل لذلك اليوم، قد استعد له.

قال الله تعالى: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أي: مرضية، {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} قال هنا: **أي: مرضية**، هذا الذي فسره به أيضًا بعض أصحاب معاني القرآن مثل الزجاج والفراء، راضية **أي مرضية**، مثل {مَّاء دَافِقٍ} [سورة الطارق:٦] أي مدفوق.

العيشة نسب إليها الرضا، أضاف إليها الرضا والواقع أنها عيشة مرضية، وبعض أهل العلم يقول: عيشة راضية أي ذات رضا، وابن جرير -رحمه الله- يذكر قاعدة في هذا الباب يقول: وصفت العيشة بالرضا وهي مرضية؛ لأن ذلك مدح للعيشة، مدحها فأضاف ذلك إليها فقال: راضية، يقول: والعرب تفعل ذلك في المدح والذم، يعني في هذين المقامين في المدح والذم، فيقولون: هي عيشة راضية يقصدون بذلك إضافة هذا

إليها، إذا كانت العيشة راضية فذلك يرجع إلى صاحبها أنه يكون في حال من الرضا عما جازاه الله -عز وجل- به.

وقد ثبت في الصحيح أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض[٣]، وقوله تعالى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ}، قال البراء بن عازب: أي: قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غير واحد.

القطوف جمع قِطْف وهو ما يقطف من الثمار، {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} يعني يأخذون منها من غير كلفة، يتناولونها وهم رقود، أو وهم مضطجعون، أو قائمون، على أي حال كانوا، لا تحتاج إلى صعود ومشقة وآلة، ولا يوجد ما يحول دون هذه القطاف من شوك ونحوه {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ}، والله -تبارك وتعالى- عندما ذكر النخيل وصفها بصفتين في موضعين:

الصفة الأولى قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} [سورة ق:١٠] باسقات أي طوال.

وفي الموضع الثاني: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [سورة الأنعام:٩٩]، يعني قريبة، ما وجه وصف الأولى بأنها طويلة، والثانية بأنها قريبة ما وجه هذا؟ هل توصف وتمدح بالقرب أو بالطول؟، في موضع ذكر الطول، وفي الموضع الثاني ذكر القرب، ما الفرق بين الموضعين؟

الموضع الأول "باسقات" هذا في بيان أو مقام بيان قدرة الله -عز وجل- وعظمته، فهو يذكر صنوف هذا الخلق، وما فيه من العجائب والغرائب فهي دعوة إلى التفكر، فالنخل إذا كانت بهذه المثابة من الطول فهذا أليق في هذا المقام، مقام تفكر وذكر ما يدل على قدرة الله وعظمته، وفي مقام الامتنان لا شك أن ما كان قريب التناول وسهل التناول أوقع في هذا الباب وأبلغ في الامتنان، امتن عليهم بهذه الثمرات القريبة التي في متناول أيديهم، لا يحتاجون إلى كلفة للوصول إليها، هذا الفرق بين المقامين.

وقوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} أي يقال لهم ذلك تفضلًا عليهم وامتنانًا وإنعامًا وإحسانًا، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحدًا منكم لن يدخله عملُه الجنة))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))[٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا} الهنيء هو الذي لا تكدير فيه أو معه ولا تنغيص، يكون سائغًا من غير تكدير، هنيء، وقوله: {بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} الباء هنا تدل على السببية، بما كنتم تعملون، بما أسلفتم في الأيام الخالية ونحو ذلك، هذا يدل على أن الأعمال سبب وهو لا ينافي قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي أورده المؤلف: ((واعلموا أن أحدًا منكم لن يدخله عمله الجنة)) يعني لا يكون ذلك على سبيل الاستقلال، أي لا يدخل الجنة بسبب العمل مستقلًا به من غير رحمة الله -عز وجل-؛ لأن

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، برقم (٢٧٩٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات، برقم (١٨٨٤).

٤ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم (٦٤٦٧)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٨).

العمل لا يمكن أن يكافئ نعمة من نعم الله -عز وجل- عليه، وهذا العمل لا يمكن أن يكافئ هذا النعيم المقيم في الجنة، ولكن الله -تبارك وتعالى- يمن على عباده ويرحمهم فيدخلون الجنة، فالعمل سبب ولكنه سبب غير مستقل، فالمؤمن يعمل ولكنه لا يتكل على هذا العمل، ولا يغتر به، ولا يحصل له شيء من العجب، ولا يظن أنه إنما يدخل الجنة بسبب هذا الاجتهاد والعمل الذي عمله في الدنيا، وإنما هو أحوج ما يكون إلى رحمة الله -تبارك وتعالى-، وهذه الآيات -هذا الموضع- من هذه السورة وكل ما في هذه السورة وكل ما في كتاب الله -تبارك وتعالى- فهو عبرة وعظة، ولكن الله -تبارك وتعالى- يخبرنا عن حقائق الآخرة، وما يكون فيها على سبيل التفصيل، وما يقوله الإنسان، وما يقال له، وما يصدر عنه في وقت غمرة من الفرح حينما يعطى الكتاب بيمينه، أو ما يقوله حينما يكون في غاية الحسرة إذا أخذ كتابه بشماله، فهذا يحتاج إلى تدبر وطول نظر واعتبار، فإن كل أحد سيأتي عليه ذلك اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله -عز وجل- ويأخذ كتابه إما بيمينه وإما بشماله فلابدّ أن يكون واحداً من هؤلاء، إما أن يقول: **{هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ}**، وإما أن يقول: **{يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}**، فهذا الذي يأخذ كتابه بيمينه يطير فرحًا يقول: **{هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ}**، يقول للناس: **{هَاؤُمُ}** هذا يدل على الجمع، خذوا اقرءوا كتابيه، إني ظننت أني ملاق حسابي، وأنا أعمل لهذا اليوم، وكنت متيقناً بحصوله، فلا تسأل عن حاله من تلك العيشة الطيبة الكريمة التي لا كدر فيها ولا مرض ولا اعتلال ولا حزن ولا همّ ولا خوف ولا موت، وإنما هو نعيم متجدد لا ينقضي ولا ينقطع، هذه فرحة لا شك وفوز عظيم **{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ}** [سورة الصافات:٦١]، وكل ما يلقاه الإنسان من أنواع الاعتلال في هذه الحياة الدنيا هو ليس بشيء، إنما الاعتلال هناك في الآخرة، وكل ما يلقاه الإنسان من اللذات في هذه الحياة الدنيا هو لا شيء إنما اللذة الحقيقية الكاملة هناك في الآخرة، وكلنا يعرف الحديث في أنعم أهل الدنيا حينما يغمس في النار غمسة فيقال له: هل رأيت نعيمًا قط؟ يقول: لا والله يا رب، ما رأيت نعيمًا قط[٥]، ينسى كل هذا النعيم، أنعم إنسان يتقلب في ماذا؟ يسكن في ماذا؟ يأكل ماذا؟ أنعم إنسان لا يمد يده على شيء، يُخدم، يُحمل عن الأرض، لربما كان كنيفه من الذهب -أعزكم الله-، وسريره من الذهب، ويتمتع بألوان الطيبات المطعومات والمشروبات، والخدم، والحشم، والمراكب الفارهة، والقصور، والحدائق، والإماء وما إلى ذلك، والزوجات، أنعم إنسان يملك الأحمر والأصفر غمسة واحدة تنسيه ذلك ويحلف أنه ما رأى نعيمًا قط، وأبأس إنسان تصور من هو أبأس إنسان في الدنيا من أولها إلى آخرها ما حاله في عافيته؟ أنواع الأسقام والأمراض والأذى، وأنواع الهموم، أنواع المشكلات، أنواع المعاناة الفقر ما يجد شيئًا يأكله، بائس لا يملك مقومات الحياة، تصور أبأس ما يمكن أن يتصوره العقل، انظر إلى صور البؤساء، مهما تصورت فهذا أكثر بؤسًا منهم، يغمس في الجنة غمسة واحدة فيقول الله له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا، والله ما رأيت بؤسًا قط، إذاً البؤس والنعيم الذي في الدنيا ليس بشيء، الحياة هناك.

---

٥ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة، برقم (٢٨٠٧).

فإذا أخذ الإنسان كتابه بيمينه فهذه الفرحة التي لا تقادر، لا تسأل عن حاله، والله لا يمكن أن يتصور هذا المقام والموقف، وما يكون فيه، والآخر الذي أخذ بالشمال لا يمكن أن تحصل هناك مراجعة أو شفاعة، أو محاولات ينتج عنها أن يعاد أخذ الكتاب باليمين، انتهى، أخذ الكتاب بالشمال يعني هو من أهل الشمال، فهو عرف نفسه، وعرف مصيره في هذا الاعتبار، إذا كان الأمر كذلك فنحن منذ خرجنا من بطون أمهاتنا ونحن أيها الأحبة مثل الرصاصة إذا انطلقت بلا توقف، هذه الأنفاس لا تتوقف، والعمر يتناقص، العمر المحدود يبدأ بالعد التنازلي حتى تأتي لحظة النهاية ويموت الإنسان، فنحن منطلقون هكذا، نسير كأن الإنسان يجري مسرعًا ليأخذ كتابه بيمينه أو ليأخذ كتابه بشماله، هي هكذا، وما السبب الذي يجعل هذا الإنسان يأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال بعد لطف الله ورحمته، وفضله عليه؟ هي هذه الأكساب، والأعمال التي يزاولها، هي أعماله، كلامه، ما يصدر عنه من صلاة وصيام ونحو ذلك، هؤلاء يقول لهم: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}**، ولهذا مجاهد فسر "بما أسلفتم في الأيام الخالية" بأيام الصيام، وهو تفسير بالمثال، الصوم شاق فالناس حوله يأكلون ويشربون وهو حبس نفسه عن ذلك يرجِّي الجزاء في ذلك اليوم عند الله -تبارك وتعالى-، فالصيام، والصلاة، الفرائض، ثم بعد ذلك النوافل كف الأذى عن الناس، أذى اللسان أكثر ما يدخل الناس النار، أكثر ما يورد الناس الموارد، ويكبهم على مناخرهم في النار حصائد الألسن، فهذا كله يحتاج إلى أن يستعد له العبد ويعمل لذلك اليوم الذي هو آتٍ لا محالة، فمن تيقن هذا أيها الأحبة هان عليه كل ما يلقى من فقر، ومن حاجة، ومن هم، ومما يفوته من هذه الدنيا، ومما يحصل له من أمراض أو لولده أو نحو ذلك، كل ذلك يهون، قد يخفق الإنسان في عمل، قد يخفق في تجارة، قد يخفق في الجامعة لكنه يتوجه إلى باب آخر ويفتح عليه، يدرس في جامعة أخرى، يبقى بلا دراسة، ليس هذا هو نهاية المطاف، لكن هناك الإخفاق الحقيقي الذي لا يمكن أن يتوجه معه إلا إلى النار، مثل هذه يقصها الله -عز وجل- كأننا نراها بهذا التفصيل، نسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين ممن يأخذ كتابه بيمينه.

قال الله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [سورة الحاقة:٢٥-٣٧].

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أُعطي أحدهم كتابه في العَرَصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم فيقول: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} قال الضحاك: يعني موتة لا حياة بعدها، وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي، وقال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه.

القاضية يقول: يعني موتة لا حياة بعدها **{يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}** يعني القاطعة للحياة، يعني أنه تمنى الموت

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيًا *** وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمانِيَا.

يكفي في بيان حال هذا الإنسان أنه يرى أن شفاءه في المنايا، في الموت، ويتمنى ذلك **{يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}** تمنى دوام الموت، أنه لم يبعث، وأنه حينما مات كان ذلك مستمرًا لما شاهد من سوء عمله، وما

يصير إليه من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن الضمير في "يا ليتها كانت القاضية" يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، يعني يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليه {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} لما رأى حسابه قال: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} يعني هذه الحال التي شاهدها، والأول على أنه {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} يعني الموتة التي ماتها كانت القاضية النهاية الدائمة المستمرة ولم يبعث، وهنا {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} يقول: **قال الضحاك: موتة لا حياة بعدها**، هو المعنى الأول نفسه، ونقله عن جماعة، **وقال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شيء**... إلخ، هذا كله يرجع إلى شيء واحد، لكن القول الآخر {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} يعني حينما شاهد هذا تمنى لو كان ذلك موتاً وفناء حصل له، فيكون الضمير لا يرجع إلى الموتة الأولى التي ماتها، وإنما يرجع إلى الحالة التي شاهدها، {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}.

{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليّ وحدي فلا معين لي ولا مجير، فعندها يقول الله -عز وجل-: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عُنفاً من المحشر فتَغُله، أي تضع الأغلال في عنقه ثم توردِه إلى جهنم فتصليه إياها، أي: تغمره فيها.

قوله هنا: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} الهاء هذه للسكت، يعني ما أغني عني مالي، هلك عني سلطاني، يعني الإنسان يعتز بماله وسلطانه، فهو يقول هنا: لم يحصل بذلك غناء ولا انتفاع ولا دفع فحل به عذاب الله -تبارك وتعالى-، "هلك عني سلطانيه"، وبعضهم فسر هذا بالحجة، السلطان يأتي بمعنى الحجة لكن هل هذا هو المراد؟ بعضهم فسره به يعني يقول: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} يعني حجتي ضلت عني، هذا منقول عن جماعة من السلف مجاهد وعكرمة والضحاك والسدي، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} ذهبت حجتي وتلاشت واضمحلت، والقول الآخر: أن المقصود به سلطاني وملكي في الدنيا، {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} وهذا منقول عن ابن زيد، وهناك قول آخر منقول عن مقاتل: أن المراد {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} أي: تسلطي على جوارحي حينما شهدت عليّ، يعني أن جوارحه صارت تشهد عليه ولا سلطان له عليها، يُختم على فيه ثم تنطق جوارحه، فهنا ثلاثة أقوال، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمله على المعنى الثاني وهو السلطان قال: **ولا جاهي عذاب الله وبأسه**، يعني هذا قول ابن زيد، ملكي وسلطاني في الدنيا، وهذا هو المتبادر {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} ذكر المال والسلطان وهما اللذان يترفع بهما في الدنيا ويدفع عن نفسه أو يجلب لها، وكل ذلك لا ينفعه في الآخرة، وقول الحافظ ابن كثير: **لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه** هذا باعتبار أن ما نافية، يعني هو يخبر أن ذلك لم ينفعه {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}، يقول: لم يغنِ عني مالي ولا سلطاني، ويحتمل أن ما هذه تكون استفهامية، يعني كأنه يستفهم يقول: أنا ماذا استفدت من مالي ومن سلطاني؟ ما فائدة مالي وسلطاني؟ {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ} ماذا نفعني مالي وسلطاني لمّا صرت إلى هذه الحال؟، لا شيء، لكن المتبادر والأقرب -والله أعلم- أنها نافية، فهو ينفي الانتفاع بذلك مع أن تفسيرها بالاستفهامية يتضمن هذا المعنى، وهو حينما يستفهم ويقول: ماذا أغني عني؟ فإنّ في ضمن ذلك أنه مقر أن ذلك لم ينفعه، والله المستعان، {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} قال: **يأمر الزبانية أن تأخذه**، يأخذونه أخذاً

عنيفًا من المحشر فيُغلّ، والغُل هو ما يوضع في العنق، وهنا يُغلّ بسلسلة طويلة عظيمة توضع في عنقه فتكون غُلًّا له يغُل بها -نسأل الله العافية-، وبعضهم يعبر عن ذلك بأن يديه تُغل إلى عنقه بهذه السلسلة، مغلولة يداه إلى عنقه، والغُل في الأصل ما يوضع في العنق، {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} الجحيم اسم من أسماء النار -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-، والجحيم تقال للنار العظيمة، {ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ}، يقول: **ثم توردِه إلى جهنم**، وقد مضى في عدد من المناسبات أن التصلية {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [سورة الليل:١٥] تدل على معنيين: الورود وهو الدخول يقاسي حرها يدخلها ويقاسي حرها، يقال: صليت اللحم صليت الشاة إذا عرضتها على النار، و"لا يصلاها" يعني لا يدخل النار، فُسر بالدخول، وفسر بالتعذيب والحرق بها، والله المستعان، والأحنف بن قيس -رحمه الله- كان يضع أصبعه على السراج يذكر نفسه ويحاسبها، فإذا كان الإنسان لا يحتمل لحظات أن يضع أصبعاً واحداً في هذا السراج، وما مقدار حرارة السراج؟، وما قيمة هذه النار الصغيرة التي في الفتيل؟ ومع ذلك الإنسان لا يطيق فكيف بهذه النار العظيمة؟!، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وقال العوفي عن ابن عباس وابن جريج: بذراع الملَك، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: "فاسلكوه" تدخل من استه ثم تخرج من فيه، ثم يُنظَمون فيها كما يُنظَم الجراد في العود حين يُشوى، وقال العوفي عن ابن عباس: يُسلَك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو أن رصاصة مثل هذه -وأشار إلى جمجمة- أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها، أو أصلها))[٦]، وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} السلسلة معروفة {ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا} هذا الذراع ما مقداره؟ هل هو ذراع الإنسان الذي يبلغ ما يقرب من نصف متر يعني خمسة وثلاثين متراً؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن مقعد الكافر في النار كما بين مكة والمدينة، يعني ما يقرب من أربعمائة وخمسين كيلو متراً، وأن ضرسه مثل جبل أحد[٧]، فهنا {فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا} فكعب الأحبار يقول: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، يعني ليس هذه بذراع الإنسان، **وقال العوفي عن ابن عباس وابن جريج: بذراع الملَك**، ما مقدار ذراع الملَك؟ الله أعلم، والحسن البصري -رحمه الله- يقول: الله أعلم بأي ذراع هو، يعني هل هو ذراع الملك أو غيره؟ الله أعلم، "سبعون ذراعًا" ومن المعلوم أن العرب تعبر بالسبعين وتقصد أيضًا الكثرة، فهذا يحتمل، وابن جرير قال بنحو قول الحسن البصري، يعني الله أعلم بأي ذراع، هذا الذراع بأي اعتبار؟ ملك أو غير ذلك؟ "سبعون ذراعًا فاسلكوه"، أما الحديث الذي ذكره عن عبد

---

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٦٨٥٦)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٤٨٠٥).

٧ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥١).

الله بن عمرو فضعفه بعض أهل العلم، وبعضهم حسنه، محقق المسند حسن هذا الحديث، والشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- ضعفه.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقُبض النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: ((الصلاةَ وما ملكت أيمانكم))[8]، وقوله تعالى: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم -وهو القريب-، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين، قال قتادة: هو شر طعام أهل النار، وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء يسيل من لحومهم، وقال علي بن أبي طلحة عنه: الغسلين صديد أهل النار.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ}** يعني القريب الذي تكون صلته به قريبة، ومن يكون بهذه المثابة من قرابته، وأصحابه الخلص وما إلى ذلك فكل هذا يتلاشى في ذلك اليوم، **{وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ}** فهو ينفرد بهذه الحال ليس هناك من يواسيه أو من يدفع عنه، أو يشفع، أو يقدم له الفداء، أو يقف معه أو يشتغل به بنوع من الاشتغال، كل إنسان مشغول بنفسه، فهذا ينفرد بمصيبته وبليته وشقائه وعذابه، **{وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ}** هذا الغسلين هنا ذكر فيه هذه الأقوال: قتادة يقول: هو شر طعام أهل النار، والربيع: شجرة في جهنم، وابن عباس -رضي الله عنهما-: الغسلين الماء والدم يسيل من لحومهم، أيضًا الغسلين صديد أهل النار وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، صديد أهل النار، يعني ما ينغسل من أبدانهم من القيح ونحو ذلك، فإن النار إذا أحرقت تلك الأجساد -نسأل الله العافية- سال منها القيح والصديد وما إلى ذلك، ويصدر عن تلك الأجسام من الإفرازات، وينشأ عن هذا الإحراق مثل هذه المواد التي تسيل منها، غسلين على وزن فِعْلين من الغَسل، هذا هو المعنى الذي اختاره ابن جرير، وقال به من قال من السلف، والآخرون كالضحاك والربيع ونحو هؤلاء قالوا: هو شجر يأكله أهل النار، وما جاء عن قتادة من أنه شر الطعام هذا يصلح مع قول من قال: إنه صديد أهل النار، ومن قال: إنه الشجر، وجاء عن ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله -تبارك وتعالى-، والله -تبارك وتعالى- قال: **{لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ}** [سورة الغاشية:٦-٧]، بعض أهل العلم يقول: يحتمل أن يكون الضريع هو الغسلين؛ لأنه جاء بأسلوب الحصر "ليس لهم طعام إلا

---

٨ - رواه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٢٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٢١٦٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أن سليمان التيمي اختلف عليه وخولف فيه"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٦٨).

من ضريع"، وهنا قال: {وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ}، ويحتمل أن يكون ذلك تفسيرًا له، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

الشاهد أنه شر الطعام كما قال قتادة -رحمه الله-، {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} يعني أصحاب الخطايا، وهذا بمعنى قول من قال كالكلبي: يعني الكفر والشرك؛ لأن ذلك إنما يكون لأهل النار الذين هم أهلها، وأصحاب الخطايا يعني من أهل الخلود فيها وهم أهل الإشراك، ونحن تكلمنا على الخاطئ، والفرق بينه وبين المخطئ، الخاطئ اسم فاعل من خطِئ، وهو مَن فعل الخطيئة قصدًا، بخلاف من وقع منه من غير قصد فإنه يكون مخطئًا {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [سورة البقرة:٢٨٦]، قال الله: قد فعلت.

قال الله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الحاقة:٣٨-٤٣].

يقول تعالى مقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة فقال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} يعني محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:١٩-٢١] وهذا جبريل -عليه السلام.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ} "لا" هذه قد مضى الكلام على نظائرها في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة القيامة:١]، {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [سورة البلد:١]، فمن أهل العلم من يقول: إن دخول "لا" هذه في القسم إنما يكون لتقويته -لتقوية القسم-، يعني هذا الذي يعبر عنه بعضهم بأنها زائدة إعرابًا، وإن كان لا يليق التعبير بمثل هذا في القرآن، يعني يقال: زائد لكنهم يقصدون إعرابًا، وإلا فالقرآن ليس فيه زيادة؛ لأن الزيادة حشو والقرآن منزه عن هذا، فيكون ذلك إثباتًا للقسم وتقوية له وتأكيدًا، {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ} يعني أقسم بما تبصرون، وبعض أهل العلم يقول: إنها على بابها في النفي، ففي بعض المواضع يقولون: إن ذلك يتعلق بمقدر محذوف، لكن هنا مما يقوله من قال: إنها على بابها في النفي: إن ذلك لكونه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} وكون هذه للقسم -والله تعالى أعلم- أقرب وأنها كنظائرها، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أُقْسِمُ} يعني أقسم بما تبصرون، {وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}، يعني أقسم الله -تبارك وتعالى- بهذا القسم الذي يحوي هذا المعنى الواسع، وهو أوسع قسمٍ في القرآن فإن قوله: {بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} يدخل فيه كل شيء من عالم الغيب والشهادة، أقسم بهذا القسم العظيم على أن هذا القرآن قول رسول كريم، أضافه إلى الرسول هنا بأي اعتبار؟ "إنه لقول رسول كريم" من هذا الرسول؟، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: هو محمد -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} وهذا تحتمله الآية، ويحتمل أن يكون المراد جبريل -صلى الله عليه وسلم- وبهذا قال جمع من السلف كالحسن ومقاتل والكلبي، قالوا: الرسول هو الرسول الملائكي جبريل -صلى الله عليه وسلم-، فسروه بالآية الأخرى ما هي؟ {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} ما صفته؟

{ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:٢٠-٢١] هذه صفة من؟ صفة جبريل -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: هذه الآية تفسرها تلك، فأضاف ذلك إلى الملَك باعتبار أنه مبلغ له، وسواء كان ذلك يقصد به النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو يقصد به جبريل فهؤلاء كلهم من المخلوقين، والقرآن كلام الله غير مخلوق، فلفظه ومعناه من الله تكلم به حقيقة، وليس بكلام مخلوق، ولكنه يضاف إلى جبريل أو إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه المبلغ عن الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [سورة التكوير:٢٢] يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-، والصحبة تقال لأدنى ملابسة، يعني هذه الصحبة التي أضافها إليهم بأي اعتبار؟ باعتبار أنه أرسل إليهم، وهو منهم أي من هؤلاء الذين بعث فيهم، فالصحبة تقال لأدنى ملابسة، قد تكون لصلة وشيجة {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} [سورة التوبة:٤٠]، وقد تكون لغير ذلك، صاحب الجنة الذي ذكر الله خبره في سورة الكهف جاء فيه هذا الوصف، {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} [سورة الكهف:٣٥] فاغتر وأعجب بها، وقال: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} فالشاهد أنه: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} [سورة الكهف:٣٧] فالصحبة تقال لأدنى ملابسة، قد تكون بينهما خصومة ويقال: هذا صاحبك، قد يحضر عند القاضي خصمان فيقول للآخر: هذا صاحبك قد حضر.

{وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [سورة التكوير:٢٢] المقصود به محمد -صلى الله عليه وسلم- بلا إشكال، لكن ما قبله {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} هذا لا شك أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وكل هذا قد مضى الكلام عليه.

ثم قال تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-، {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [سورة التكوير:٢٣] يعني أن محمدًا قد رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤] أي: بمتهم

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [سورة التكوير:٢٥] وهكذا قال هاهنا: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلًّا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ولهذا قال تعالى: {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ} هم تفرقت أقوالهم في النبي -صلى الله عليه وسلم- فتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، فهم في قول مضطرب ولا يثبتون فيه على شيء، هذا القول كما وصفه الله -عز وجل- مختلف؛ لأنه لا حقيقة له، {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ} بعضهم يقول: إن "ما" هذه زائدة إعرابًا، فالمعنى يكون في {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ} وهكذا ما بعده من قوله: {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}: أنكم تؤمنون قليلًا، تذكّرون قليلًا، أو زمانًا قليلًا، والقلة هنا بمعنى النفي، والعرب تعبر بمثل هذا وتقصد به النفي، {قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} الكاهن معروف الذي يدعي علم الغيب، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق ومالا تبصرون منه، وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يُبصَر منها ومالا يبصر، وقال الكلبي: تبصرون من شيء، ولا تبصرون من شيء، وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة وما

يُرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن، والإنس، والعرش، والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يُرى ومالا يرى آية ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه لا كلام شاعر، ولا مجنون ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يُرى منها ومالا يُرى حق، كما قال تعالى: **{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}** [سورة الذاريات:٢٣] أي: إن كان نطقكم حقيقة -وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون- فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق ومالا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق، ويكفي الإنسانَ من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه مبدأُ خلقه ونشأتُه وما يشاهده"[٩].

الآن هو يتكلم على الربط بين المقسم به والمقسم عليه، وجه المناسبة بينهما.

وقال -رحمه الله-: "وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** وهذا رسوله البشري محمد"[١٠].

الآن هو يوافق ابن كثير أن الرسول هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، وابن جرير يقول: هو جبريل -عليه السلام.

وقال -رحمه الله-: "وهذا رسوله البشري محمد -صلى الله عليه وسلم-، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقضَ ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير"[١١].

وقال -رحمه الله-: "ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده"[١٢].

هذا باعتبار أن النزول لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، وهذا دليل على علو الله -عز وجل-، وأن القرآن منزل من الله، والتنزيل في القرآن جاء على ثلاث صور:

الصورة الأولى: إخبار بأن بعض الأشياء أنزلها -تبارك وتعالى- من عنده، هذا لم يرد إلا في القرآن **{تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}** وهذه إحدى الآيات والأمثلة على هذا النوع.

الصورة الثانية: الإخبار بالإنزال مطلقاً **{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}** [سورة الحديد:٢٥]، ما قال: من السماء ولا غير ذلك.

---

٩ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٧٥)

١٠ - المصدر السابق (ص: ١٧٦)

١١ - المصدر السابق.

١٢ - المصدر السابق (ص: ١٧٦-١٧٧)

الصورة الثالثة: تقييد المنزل بقيد لكن ليس منه -تبارك وتعالى-، {وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [سورة البقرة:٢٢]، {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر:٦] من الأنعام، من السماء، وهذه الصور الثلاث كلها تدل على أن النزول من أعلى إلى أسفل، نزول حقيقي، إنزال الحديد مثلًا يقولون: أجود أنواع الحديد إنما يؤخذ من أعالي الجبال، {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ} يقولون: باعتبار أن أصولها أنزلت من السماء، أصول الأنعام، أو باعتبار أن ذكورها تنزو على إناثها فيقع ذلك منها في الأرحام وهو نزول وإنزال، أو باعتبار أن الولد حينما يخرج ينزل منها إلى الأرض، فالنزول حاصل وواقع، المقصود أن كل استعمالات النزول تدل على نزول من أعلى إلى أسفل، لكن تقييد ذلك بأنه من الله هذا لم يرد إلا في القرآن.

قال ابن القيم -رحمه الله-: " والثاني: أنه تكلم به حقيقة لقوله: {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير، ونظير هذا قوله: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} [سورة السجدة:١٣]، ونظيره قوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل:١٠٢]، وقوله: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [سورة الزمر:١]، وقوله: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢] وما كان من الله فليس بمخلوق، ....

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [سورة التوبة:٦] فإن الرسول يقول للمرسَل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا، وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ} [سورة المائدة:١١٧]، والمرسِل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا كما قال تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ} [سورة إبراهيم:٣١]، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة الإسراء:٥٣]، {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [سورة النور:٣٠] ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول أي: قاله مبلِّغاً، وهذا قوله مبلِّغاً عن مرسِله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق -وقد تلى آية-: هذا كلامك وكلام صاحبك، فقال: ليس بكلامي، ولا كلام صاحبي، هذا كلام الله.

الأمر الثالث: ما تضمنه قوله {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أن ربوبيته الكاملة لخلقة تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره، ونسبه إلى مالا يليق به تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [سورة المؤمنون:١١٦].

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد، والجور والكذب، وخالف الخلق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق يسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟! بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر، ثم يصدقه بأنواعها كلها على

اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها، ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله؟!، فمن أعظم المحال وأبطل الباطل وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مُسْكة من عقل وحكمة وحجا، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ونادى على جهله"[١٣].

قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [سورة الحاقة:٤٤-٥٢].

يقول تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا} أي: محمد –صلى الله عليه وسلم– لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة؛ ولهذا قال تعالى "لأخذنا منه باليمين" قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين لأن هذه أشد في البطش.

قوله –تبارك وتعالى–: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} يقول: إنه محمد –صلى الله عليه وسلم–، وفي الموضع الذي قبله أيضًا لما قال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} قال: هو محمد –صلى الله عليه وسلم–، وذكرنا أن من أهل العلم من قال: إنه جبريل –عليه الصلاة والسلام–، وهنا أيضًا في قوله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} منهم من قال: إنه جبريل –عليه الصلاة والسلام–، لكن بهذا الموضع كأن الأقرب –والله أعلم– أن المقصود به هو محمد –صلى الله عليه وسلم–، يعني هناك قرينة في الأول يمكن أن يحتج بها من قال: إنه جبريل –عليه الصلاة والسلام– وهي ما في آية التكوير، وهنا قال بهذا السياق: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}، فهذا يشعر أن المراد هو النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولقائل أن يقول: إن ذلك في الموضعين واحد، فيكون ذلك قرينة على أن الأول أيضًا هو النبي –صلى الله عليه وسلم–، فكأن ذلك –والله أعلم– هو الأقرب إلى نظر إلى السياق، ولا مانع من أن يكون في هذا الموضع يراد به النبي –صلى الله عليه وسلم– وفي سورة التكوير أنه جبريل –عليه الصلاة والسلام–، فكلاهما مبلغ عن الله –تبارك وتعالى–، يقول: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} التقول هو التكلف، لو تقوَّل يعني لو تكلف ذلك وجاء به من عند نفسه، بمعنى أنه اختلقه، ونسبه إلى الله –تبارك وتعالى– فإن الله لا يقره على هذا؛ ولهذا فإن ما يُستدل به –كما هو معلوم– على صحة نبوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– غير المعجزات أنه يضيف ذلك جميعاً إلى الله ويقول: هذا كلامه، وهذا وحيه، وهذا أمره، وهذا نهيه، وهذا شرعه، وهو الذي أمرني بقتال الكفار والمخالفين، ثم الله –تبارك وتعالى– ينصره ويؤيده ويبقى على ذلك هذه المدة الطويلة، ثم تكون العاقبة له، هذا لا يكون، ولهذا قال: {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} قيل: معناه لانتقمنا منه

---

١٣ – التبيان في أقسام القرآن (ص:١٧٧–١٨٠).

باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وكما يقول ابن جرير -رحمه الله-: إن ذلك خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقَب، بمعنى **{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}** أي: بيمينه هو يعني على عادة العرب في أخذ من يريدون معاقبته، وعلى المعنى الأول أن ذلك عبر به؛ لأن اليمين هي الأقوى، وإذا كان ذلك في مكان العقوبة فهذا أشد في البطش، وبعض أهل العلم كأصحاب معاني القرآن فسروا ذلك بالقوة والقدرة، **{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}** فاليمين تأتي مرادًا بها هذا المعنى، هذا الذي ذهب إليه الفراء والزجاج، وكذلك المبرد، وابن قتيبة، قالوا: المراد بذلك القوة والقدرة؛ لكون القوة كامنة في اليمين، فقوة كل شيء في ميامنه، ولهذا يقال لليد الأخرى الشمال يقال لها: يسار من باب التيمن، وفي صفة الله -تبارك وتعالى- قال: ((وبيده الأخرى))[١٤]، ما قال: الشمال، معنى ذلك جاء في رواية عند مسلم لكن تكلم العلماء عليها، فمنهم من قال: إن هذه اللفظة شاذة، "بيده الأخرى"، ((وكلتا يديه يمين))[١٥]، على توجيهات ذكرها أهل العلم هناك، فالشاهد أن قوة كل شيء في ميامنه ففُسر هذا بالقوة والقدرة، يعني يؤخذ أخذًا قويًا شديدًا، وهذا المعنى لم يقل به أصحاب المعاني هؤلاء فقط ومعهم ابن قتيبة من أهل السنة كما هو معروف، ولكن نقل عن بعض السلف تفسير اليمين، وهنا ليست هذه من آيات الصفات **{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}** يقول هنا: **لأنها أشد في البطش.**

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: " **{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}** يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه، هذا أحد القولين، قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه، قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقَب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم، خذ بيده، واسفَع بيده، فكأنه قال: لو كذب علينا في شيء مما بلّغ إليكم عنا لأخذنا بيمينه ثم عاقبناه بقطع الوتين، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ا.هـ.

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة فإنّ كذباً على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

وقوله: **{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}** والوتين نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة، قال ابن قتيبة: ولم يُرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه،

---

١٤ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣).

١٥ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم (١٨٢٧).

ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه، أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه، قال: ومثله قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني وهذا أوانُ قَطعتْ أبْهَري))[١٦].

والأبْهَر عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتَلَني السمُّ فكنت كمن انقطع أبْهَره.

ثم قال تعالى: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} أي: لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني"[١٧].

{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} قال ابن عباس: وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقتادة والضحاك ومسلم البَطين وأبو صخر حميد بن زياد، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقُّه وما يليه.

يعني هم يقولون: هو العرق الأعظم في القلب، وما أشار إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- مما نقله عن ابن قتيبة: عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، {لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}، بمعنى الإهلاك المحقق؛ لأن ذلك إذا قطع فإن ذلك يعني الهلاك.

ابن جرير -رحمه الله- قال كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه، هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقوله تعالى: {فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [سورة الحاقة:٤٧] أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله -عز وجل- مُقرِّر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات.

ثم قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}، يعني القرآن، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [سورة فصلت:٤٤]، ثم قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ} أي: مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن، ثم قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ}، قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله.

ابن جرير يقول: وإن التكذيب يعني بالقرآن، لا يقصد مطلق التكذيب، وإن كان التكذيب مطلقاً حسرة على الكافرين، لكن الكلام في القرآن، وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة، يعني إن التكذيب به حسرة على الكافرين بالقرآن.

ويحتمل عود الضمير على القرآن أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال تعالى: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ} [سورة الشعراء:٢٠٠-٢٠١]، وقال تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سورة سبأ:٥٤]؛ ولهذا قال هاهنا: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} أي الخبر الصدق

---

١٦ - رواه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سُما أو أطعمه فمات أيقاد منه؟، برقم (٤٥١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٩٤٩٩)، وقال الألباني: حسن صحيح.

١٧ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٨٣-١٨٥).

الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، ثم قال تعالى: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة الحاقة، ولله الحمد والمنة.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} "فسبح باسم ربك" ابن جرير –رحمه الله- يقول: المعنى بذكر ربك وتسمية العظيم، يعني هذا مثل قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [سورة الأعلى:١] المعنى الذي ذكره ابن جرير يعني سبحه ذاكرًا اسمه العظيم، تقول: سبحان ربي العظيم تذكر هذا الاسم؛ لأن قوله –تبارك وتعالى-: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ}** سبِّح باسمه يعني سبِّح اللهَ –تبارك وتعالى- ذاكرًا اسمه، فهنا جاء بـــ"الباء" سبح باسم، لكن في مثل قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** هل المقصود تنزيه الاسم أي نزِّه اسم ربك الأعلى، أو المقصود تنزيه الرب –تبارك وتعالى- بذكر اسمه؟، النبي –صلى الله عليه وسلم- كان إذا قرأ **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: سبحان ربي الأعلى، فسبَّحَ ربَّه ولم يسبح الاسم، فهذا تفسير من النبي –صلى الله عليه وسلم- لهذا الموضع فيكون ذلك بمعنى سبِّح ربك ذاكرًا اسمه، فيكون ذكر الاسم مقصودًا.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى-: "ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين، يتذكر به المتقى فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه، ونفسه وما يزكيها وما يطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها، ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر، فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين ومنفعة وهداية للمتعلمين"[١٨].

يعني هذه الأشياء الداخلة تحت قوله: **{وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ}**، فهو تذكرة في كل هذه الأشياء.

قال ابن القيم –رحمه الله-: " ثم قال سبحانه: **{وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ}** أي: لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق، وصدق بباطل، فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه، وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل: هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع وصلاة الأولى، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول وبالله التوفيق:

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: **{كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}** [سورة العاديات:٥-٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين، أولها: علمه وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم

---

١٨ – التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٩٠).

اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى: **{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}**، وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: ((ليس الخبر كالمعاينة))[19]"[20].

بمعنى أنه إذا تيقن صدق ما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- وما أخبر به القرآن فهذا علم اليقين، فإذا شاهده شاهد الجنة أو النار فهذا عين اليقين، فإذا دخل في الجنة فهذا حق اليقين، وابن القيم -رحمه الله- في مواضع أخرى مثل لهذا بأمثلة يقول: إذا وُصف لإنسان مثلًا عسل واستيقن خبر المخبر فهذا علم اليقين، فإذا رآه هذا عين اليقين، فإذا ذاقه فهذا حق اليقين، هذه المراتب الثلاث، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما قال: **{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}** [سورة البقرة:260] كان قد بلغ الكمال في اليقين والإيمان، ولكنه أراد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها في الكمال، والكمال يتفاوت، أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- في بعض كتبه يقول: إن المساحة بين علم اليقين وعين اليقين يقال لها: شك ليس من باب التردد، وإنما فقط من باب التسمية، يقول: لهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))[21]، وإلا فإبراهيم لم يكن شاكًا -عليه الصلاة والسلام- بل كان من أئمة أهل اليقين، أئمة الموقنين.

وقال -رحمه الله-: "**{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظمة ملكه، وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقوَّلاً عليه مفترى عليه"[22].

هو يتكلم عن المناسبة مناسبة ختم السورة لموضوعها أو مضمونها، هذا النوع في الكلام على المناسبات لا يكاد يذكر إطلاقًا، المناسبات التي تُذكر هي المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، المناسبة بين الآية والآية، بين الجملة والجملة، والكلمة والكلمة، المناسبة بين السورة والسورة عند القائلين بأن ترتيب السور توقيفي، المناسبة بين المقطع والمقطع، لكن المناسبة بين ختم السورة ومضمون السورة أو موضوعها هذا لا يكاد يتكلم عنه أحد، فهم يتكلمون عن ختم الآية مناسبة ختم الآية بمضمونها هذا موجود وكثير، يعني مثلًا حينما قال عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [سورة

---

19 - رواه أحمد في المسند، برقم (1842)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (5373).

20 - التبيان في أقسام القرآن (ص:190-192).

21 - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله -عز وجل-: {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ} [الحجر:52]، برقم (3372)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، برقم (151).

22 - التبيان في أقسام القرآن (ص:193).

المائدة:١١٨] ما مناسبة ذكر العزيز الحكيم في هذا المقام مثلًا؟ هذا في الأشياء التي قد تشكل أما الواضحات فهي أكثر من أن تحصى.

لكن هذا نوع لا يكاد يذكر عند المشتغلين بالمناسبات.

قال –رحمه الله تعالى–: "وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه مفترى عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ويعلي ذكره، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علوا كبيرا"[٢٣].

---

٢٣ – التبيان في أقسام القرآن (ص:١٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المعارج من الآية (١) إلى الآية (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج:١-٧].

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} فيه تضمين دل عليه حرف الباء، كأنه مقدر: استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الحج: ٤٧] أي: وعذابه واقع لا محالة.

وقال العوفي عن ابن عباس: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} قال: "ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله"، وهو واقع بهم.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ} دعا داعٍ {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} يقع في الآخرة قال: وهو قولهم: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة يقال لها: سورة المعارج.

ويقال لها: سورة **{سَأَلَ سَائِلٌ}**.

وهي سورة مكية باتفاق أهل العلم.

وقوله -تبارك وتعالى- في صدر هذه السورة: **{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}**، **{سَأَلَ سَائِلٌ}** قراءة الجمهور هكذا بالهمز: **{سَأَلَ}**.

وهذا من السؤال، وما أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من التفسير فإنما يرجع إلى هذه القراءة، هذه الأقوال التي ذكرها، قال: "فيه تضمين دل عليه حرف الباء، كأنه مقدر: استعجل سائل بعذاب واقع" يعني طلبَ وقوعَه.

السؤال هنا يعني طلب الوقوع: **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}** [الحج:٤٧].

وليس على هذا المعنى السؤال: متى يكون العذاب؟ متى يقع العذاب، على هذا المعنى ليس كذلك، وإنما **{سَأَلَ}** بمعنى استعجل، طلب وقوعه: **{عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا}** نصيبنا يعني **{قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}** [ص: ١٦].

وهكذا أيضًا قول من قال: إن ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع بهم، متى يقع ذلك؟ متى يحصل ما تعدنا به؟

وهنا سواء كان ذلك السؤال بمعنى الطلب، أو كان ذلك بمعنى الاستفهام عن هذا العذاب عن وقت مجيئه، متى يقع؟ متى يحصل لهؤلاء الموعودين به؟ فكل ذلك الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا يرجع إلى هذه القراءة، بالهمز: {سَأَلَ سَائِلٌ} ويكون ذلك على هذا: دعا داعٍ {سَأَلَ} بمعنى دعا، طلب، أو استفسر واستفهم عن وقت مجيء هذا العذاب.

وبعضهم على هذا يقول: إن "الباء" بمعنى "عن" {سَأَلَ سَائِلٌ} عن عذاب واقع.

وكما هو معلوم أن حروف الجر يحصل فيها التضمين، يضمن بعضها معنى بعض {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ} أي: عن عذاب واقع.

إذا قلنا: هذا بمعنى الاستفهام، السؤال بمعنى الاستفهام، أو يكون ذلك لتضمين {سَأَلَ} معنى طلب، دعا، والأفعال أيضًا فيها التضمين، كما ذكرنا ذلك في مناسبات سابقة.

القراءة الأخرى، وهي قراءة متواترة، قراءة نافع وابن عامر: "سال" بدون همز.

فما معنى هذه القراءة؟

يحتمل أنها تكون بمعنى القراءة السابقة على التخفيف "سال" تخفيف الهمزة، فتكون بمعنى القراءة السابقة، وهذا معروف في اللغة أن الهمزة تنقلب ألفًا، للتسهيل والتخفيف في النطق، وهذا كثير، أو يكون من السيلان كما يقول بعضهم.

ما هذا السيلان؟ ما المراد به؟

بعضهم يقول: سال وادٍ في جهنم، بعذاب واقع.

طيب سائل؟

قالوا: هذا الوادي يقال له: سائل، سال سائل، هذا جاء عن زيد بن ثابت، وقد يبدو هذا القول بعيدًا لأول وهلة، ولكن يؤيده قراءة ليست متواترة مروية عن ابن عباس، وكما هو معلوم أن القراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة، هذه القراءة الشاذة: "سال سيل" هذه لا يمكن أن تفسر بتسهيل الهمز، "سال سيل بعذاب واقع". وبعضهم يفسر: "سال" بمعنى التمس، يعني التمس ملتمس بعذاب أو عذابًا للكفار، لكن هذا يرجع إلى معنى قراءة الهمز: {سَأَلَ} بمعنى طلب، هل هو طلبه لنفسه كما سبق في القراءة الأولى أنهم يستعجلون: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} [ص: ١٦]، {إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]، فهذا يرجع إليه، والله أعلم.

و{سَأَلَ سَائِلٌ} عذابًا للكفار، هؤلاء يقولون: "الباء" زائدة {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}.

والأولون يقولون: إن ذلك بمعنى "عن"، يعني "الباء" بمعنى "عن"، مضمنة "عن"، أو أن الفعل {سَأَلَ} مضمن معنى الطلب، وقد بينا أن تضمين الفعل معنى الفعل أولى وأكمل بالمعنى.

فهؤلاء الذين يقولون: إنها زائدة، يقولون كقوله تعالى: {تَنبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون:٢٠] -كما سبق- يعني تُخرِج الدهن، فإنه يعصر منها.

ولكن هذا أحد الأقوال في الآية، والأصل عدم الزيادة، والله أعلم.

وهناك قراءة شاذة أخرى، عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: "سال سال" يعني من غير همزة في الأولى والثانية.

وبعض أهل العلم يقولون: إن حذف الهمزة من قوله: {سَأَلَ} من باب التخفيف، وله نظائر أيضًا في اللغة.

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} هذا السائل هنا مبهم، ولا حاجة لتحديده، وقد روي عن السلف روايات كثيرة في هذا السائل من هو، لكن ظاهر الآية أن هذا السائل من الكفار، وقد أخبر الله -تبارك وتعالى- عن سؤالهم عن العذاب متى يقع، تارة على سبيل الاستهزاء، أو الاستبعاد.

وأيضًا صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- تحديد هذا السائل، ولكن لا حاجة إلى هذا.

ابن جرير -رحمه الله- ذهب إلى أن المعنى: {سَأَلَ سَائِلٌ} من الكفار عن عذاب الله بمن هو واقع.

وسؤالهم كانت مقاصده متفاوتة، كما هو معلوم، لكن الغالب أنهم كانوا يسألون استبعادًا لهذا العذاب.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} قال: فيه تضمين دل عليه حرف "الباء".

وقد ذكرنا: أن التضمين أن يشرب الفعل، أو ما يقوم مقامه معنى فعل آخر، أو ينوب حرف في المعنى عن معنى حرف آخر، فهنا يقول: "فيه تضمين دل عليه حرف "الباء" {سَأَلَ} مضمن معنى فعل آخر يصح أن يعدى بـــ"الباء".

ما الذي يصح أن يعدى بـــ"الباء"؟

"دعا" دعا داع بعذاب واقع، دعا بعذاب، لكن {سَأَلَ} إذا قلنا: إن التضمين بالحرف، يكون بمعنى "عن"، الباء بمعنى "عن" {سَأَلَ سَائِلٌ} عن عذاب واقع، وقلنا: إن تضمين الفعل معنى الفعل أبلغ؛ لأنه يكون أوفر في المعنى، فيحصل معنى الفعل المصرح به، والفعل الآخر المشرب بهذا الفعل المضمن فيه، الذي دلت عليه التعدية، الحرف المعدى به.

و{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} أي حاصل لا محالة.

وقوله تعالى: {وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ} أي: مُرصَد معد للكافرين.

وقال ابن عباس: {وَاقِعٍ} جاءٍ {لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال تعالى: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ}.

في قوله -تبارك وتعالى-: {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} هنا قال: {وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ} أي مرصد معد للكافرين.

وقال ابن عباس: {وَاقِعٍ} جاءٍ، أي آت {لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ}.

قوله: {لِّلْكَافِرينَ} هذه صفة أخرى لهذا العذاب، الصفة الأولى: أنه واقع.

الصفة الثانية: أنه {وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ} أي كائن لهم لا محالة.

ويحتمل أنه متعلق بـــ {وَاقِعٍ} وأن اللام للعلة، وعلى هذا وصْلُ هذا الموضع بقوله: {وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ} يعني يكون قوله: {لِّلْكَافِرينَ} مرتبطًا بـــ{وَاقِعٍ}، واضح الفرق؟

الفرق الأول: أنه يرتبط بقوله: {بِعَذَابٍ} ما هذا العذاب؟ {وَاقِعٍ} هذه صفته الأولى.

هذا العذاب للكافرين، وهو واقع بهم لا محالة، فأوصاف هذا العذاب: أنه واقع، وأنه معد للكافرين.

المعنى الثاني: أنه متعلق بقوله: {وَاقِعٍ} سأل سائل بعذاب واقع للكافرين.

ويحتمل أنه متعلق بـــ{سَأَلَ} على تضمينه معنى: دعا، يعني: دعا للكافرين بعذاب واقع.

على هذا من الذي دعا؟.

بعضهم يقول: يحتمل أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي سأل بعذاب واقع، يعني طلب عذابًا يقع للكفار، سأل للكافرين، دعا للكافرين، طلب للكافرين عذابًا يقع بهم.

ويحتمل أن تكون "اللام" في {لِّلْكَافِرينَ} بمعنى "على"، مضمنة معنى "على"، سأل سائل بعذاب واقع على الكافرين، وهذا تؤيده قراءة أُبيّ، وهي قراءة غير متواترة، يقول: بعذاب واقع على الكافرين.

والفراء يقول: التقدير: بعذاب للكافرين واقع بهم.

وهذه كلها احتمالات.

وإذا تأملتَ في هذه الجملة القصيرة رأيت هذه الاحتمالات القريبة -وإنما تركتُ الاحتمالات البعيدة قصدًا- فتدرك أن هذا القرآن أولاً يحتاج إلى عناية، وأن يقبل العبد عليه بكليته، فإنه قد لا يخطر بباله من هذا الموضع إلا معنى واحدًا لا يحتمل، هذا إذا فهم ظاهر الآية، لكن حينما يتفتق الذهن عن هذه المعاني يدرك الإنسان تقصيره مع كتاب الله -عز وجل-، وإن لم يكن المكلف مطالبًا بالتعرف على هذه المعاني والتفاصيل، لكن يدرك أنه لم يعرف من معاني القرآن إلا النزر الأقل، وليس القليل.

{لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ}.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {ذِي الْمَعَارِجِ} يعني العلو والفواضل.

وقال مجاهد: {ذِي الْمَعَارِجِ} معارج السماء.

هنا {ذِي الْمَعَارِجِ} عن ابن عباس: "يعني العلو والفواضل" يعني فسره بأمر معنوي، أنه رفيع الدرجات.

وقول مجاهد: {الْمَعَارِجِ} معارج السماء، يعني فسره بأمر حسي {ذِي الْمَعَارِجِ} **معارج السماء**، يعني الدرجات التي تصعد فيها الملائكة.

وبعضهم فسر هذه بالسموات، كما جاء عن الكلبي، باعتبار أن الملائكة تصعد فيها {ذِي الْمَعَارِجِ} تعرج فيها.

وبعضهم يقول غير ذلك كمن فسره بما سبق من الفضائل والمراتب، أو الدرجات، أو العظمة.

وقوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {تَعْرُجُ} تصعد.

وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناسًا.

قلت: ويحتمل: أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام.

ويحتمل: أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء.

قوله -تبارك وتعالى-: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ} ابن جرير -رحمه الله- فسره بذي العلو والدرجات، والفواضل والنعم، يعني فسره بهذا الذي يرجع إليه -تبارك وتعالى-، ولهذا فإن بعض السلف فسر: {ذِي الْمَعَارِجِ} بمراتب النعم.

وابن جرير جمع هذا النوع من المعاني، وترك الآخر: أن ذلك معارج الملائكة: {مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}.

هذا يمكن أن يكون قرينة للقول الآخر: أنها معارج الملائكة، ولا يبعد أيضًا أن تكون الآية منتظمة للنوعين من المعنى، أنه ذو المراتب والدرجات العالية: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} [غافر: ١٥] فذكر رفعة الدرجات مع العرش، العلو، وهنا قال: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} فهذا قد يكون قرينة على أن المراد بهذه المعارج معارج الملائكة، وكل هذا يدل على العلو، فإن من أنواع الأدلة الدالة على علو الله -عز وجل- على خلقه: الإخبار بعروج الملائكة والروح إليه، تعرج إليه، صعود بعض الأشياء إليه، هذا أحد الأنواع، وتحته أفراد من الأدلة.

والحافظ الذهبي في كتابه: "العلو" لما ذكر الأنواع، كذلك في شرح الطحاوية، وهو مأخوذ من كلام الحافظ ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ذكروا من أنواع الأدلة الدالة على العلو هذا، الإخبار بعروج بعض الأشياء، صعود بعض الأشياء إليه، فهذا يدل على علو الله -عز وجل-، فالله -تبارك وتعالى- رفيع الدرجات، له العلو المطلق، علو الذات، وعلو القدر والمنزلة، وعلو القهر، وكل ذلك حاصل له مع علو الذات، وكذلك هنا هذه الآية تحتمل هذا وهذا، وقد تكون دالة على المعنيين، والله أعلم.

{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} فذكْرُ عروج الروح والملائكة قد يكون قرينة تدل على المعنى الآخر أن المعارج: معارج الملائكة، هنا: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} الملائكة تصعد، {وَالرُّوحُ}، ما المراد بالروح؟ وسيأتي الكلام على هذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [النبأ: ٣٨] ما المراد بالروح؟

هنا قال: قال أبو صالح: هم خلق من خلق الله، يشبهون الناس وليسوا ناسًا، وهذا لا دليل عليه.

يقول ابن كثير: **ويحتمل أن يكون المراد به جبريل -عليه السلام.**

وهذا هو الأقرب، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، أن الروح هو جبريل -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن القرآن يفسر بالقرآن، وجبريل -صلى الله عليه وسلم- سماه الله بذلك: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [النحل: ١٠٢].

ويكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} فخص جبريل -صلى الله عليه وسلم- لكونه بمنزلة عند الله -تبارك وتعالى-، لعظم منزلته، لعظم شرفه ومكانته، ولهذا قال الله -عز وجل-: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: ٩٨] مع أن جبريل وميكال -عليهما السلام- من جملة الملائكة، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام، وهذا يكون لغرض -كما هو معلوم- من التشريف والاهتمام، ونحو ذلك.

يقول: **ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، كما يدل عليه حديث البراء.**

وهذا بمعنى قول من قال: إن الروح أرواح الموتى، يصعد بها، هذا معنى كلام ابن كثير -رحمه الله.

وبعضهم يقول: الروح ملك عظيم من الملائكة، يقال له: الروح.

يعني هؤلاء لا يقولون: إنه جبريل –عليه السلام–، وإنما يقولون: ملك يقال له: الروح.

لكن أقوى هذه الأقوال قول من قال: إنه جبريل –صلى الله عليه وسلم–؛ لأن الله سماه روحًا.

وأيضًا لا يبعد قول من قال: إن المراد به أرواح بني آدم؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أنها تصعد، كما يدل عليه حديث البراء، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

وقوله تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} المراد بذلك يوم القيامة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} قال: "يوم القيامة" وإسناده صحيح، ورواه الثوري عن سماك بن حرب عن عكرمة: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} يوم القيامة، وكذا قال الضحاك وابن زيد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} قال: هو يوم القيامة، جعله الله –تعالى– على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة[١].

وقد وردت أحاديث في معنى ذلك.

هنا هذا اليوم الذي **{كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** هذا قول الأكثر، أنه يوم القيامة، يوم طويل، عسير على الكافرين، ويخفف على المؤمنين، لكن هذا ليس محل اتفاق بين أهل العلم، فإن بعضهم يقول: إن هذه المدة المذكورة ليست يوم القيامة، وإنما هي مدة الصعود بالنسبة لغيرهم، يعني عروج الملائكة إلى المكان، أو عروجها إلى ربها –تبارك وتعالى– في وقت، يعني بعضهم يقول: إلى المكان الذي هي فيه، يعني منازلها، من السماء، لكن هنا قال: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** فمقدار ذلك بالنسبة لغيرهم لو تهيأ له الصعود يحتاج خمسين ألف سنة، هذا قال به جماعة من السلف، وروي عن مجاهد والكلبي ووهب بن منبه وابن إسحاق.

وجاء عن بعض السلف كمجاهد أيضًا رواية وعكرمة: أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار، فلا يدري أحد كم مضى، ولا كم بقي، لا يعلم ذلك إلا الله، ولكن هذا بعيد.

هنا الكلام عن العروج: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** فالأكثر أن المراد به يوم القيامة، يوم طويل، وبعضهم يقول: المراد أن مقدار الأمر فيه –يعني يوم القيامة– لو تولاه أحد من المخلوقين، فإنه يحتاج إلى خمسين ألف سنة **{كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** بالنسبة لغير الله –عز وجل–، وأنه يفرغ من حساب الخلق في ساعة.

لكن هذا لا يخلو من إشكال، بالنسبة ليوم القيامة، ومدة يوم القيامة يعني لو تولاه غيره، بل هو يوم القيامة يوم طويل، ولكنه يخفف على المؤمن، ولهذا قال بعضهم: إن مدة الوقوف للحساب هي بهذا المقدار، ثم يصير أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

وقيده بعضهم بالنسبة للكافرين؛ لأنه يطول عليهم.

لكن على كل حال هو مدة ذلك اليوم، لكن يخفف على المؤمن، وهذا هو الأشهر والأقرب.

---

١ – شعب الإيمان (١/٥٥٥).

وهذه الآية فيها سؤال معروف عند أهل العلم، وهو وجه الجمع بينها وبين الآية الأخرى في سورة السجدة: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [السجدة: ٥] الله –تبارك وتعالى– يقول: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [السجدة:٣– ٥].

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ} هنا لم يذكر يوم القيامة، هذه الآية لا تعلق لها بيوم القيامة، وإنما في تدبير الأمر، وعروج ذلك إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما يعده الخلق، فبعض أهل العلم ممن لم يفسر اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة بيوم القيامة يقولون: إن مدة العروج من الأرض السابعة إلى السماء السابعة بخمسين ألف سنة، والنزول من أعلى من السماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة مع العروج، يعني يقولون: إن ما بين السماء الدنيا والأرض خمسمائة عام، فينزل ويصعد، فالمجموع ألف سنة: **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** فهذا من السماء إلى الأرض، نزولاً وعروجًا، يقولون: خمسمائة سنة نزول، وخمسمائة سنة عروج.

لكنّ الخمسين ألفًا المذكورة هنا في سورة المعارج، يقولون: إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش فهذا يكون خمسين ألف سنة.

وبعضهم يقول غير ذلك.

وابن عباس –رضي الله عنهما– سئل عن هذا، قال: "هما يومان أخبر الله عنهما"، وتوقف عن الجواب، تورع عن الجواب.

وعلى كل حال هما يومان: المشهور: أن الأول هو يوم القيامة: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}**.

وبعض أهل العلم قال: كلاهما في الصعود والعروج، لكن هو صعود وعروج متفاوت، فما كان من الأرض السابعة إلى العرش هذا في خمسين ألف سنة، وما كان دون ذلك من الأرض إلى السماء نزولاً وصعودًا، هذا في ألف سنة.

وهذه السنوات هل هي بالسنوات التي عند الخلق؟

"خمسين ألف سنة"، هذا ظاهره –والله أعلم–؛ لأنه قال: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ}** يعني مقداره في حسابكم، وهو يوم واحد، وكذلك أيضًا في قوله في الآية الأخرى: **{مِمَّا تَعُدُّونَ}** فهذا اليوم عند الله –تبارك وتعالى– بألف سنة: **{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ}** [الحج: ٤٧] فهذا بحساب الله –تبارك وتعالى– اليوم الواحد، لكن يوم القيامة يوم طويل، بخمسين ألف سنة.

صعود الملائكة وعروجها في غير يوم القيامة تصعد وتنزل في يوم من أيام الله –تبارك وتعالى–، هذا اليوم من أيام الله بمقدار ألف سنة عند المخلوقين.

وإذا كانت هذه التقديرات هي بحساب المخلوقين يعني: **{مِمَّا تَعُدُّونَ}** فهذا يكذب ما يقوله أهل الفلك من المعاصرين، مما يذكرونه من السنوات الضوئية، فهم يتكلمون ليس على السماء ولا على العرش، وإنما يتكلمون عن النجوم، فيتحدثون عن مئات السنوات الضوئية، ومعروف سرعة الضوء، وأنها لا تقاس بغيرها،

ولهذا يتكلمون عن هذه النجوم التي نشاهدها، ويذكرون أن بعضها قد زال منذ زمن طويل جدًّا، وإنما بقي ما نشاهده فقط؛ لأن ذلك لم يصل إلينا؛ لأنه يحتاج إلى مدة طويلة، حتى نرى الأثر، وأن بعض النجوم تذهب وتضمحل وتتلاشى، لكن نبقى نشاهدها سنوات طويلة؛ لبعدها، فهي تلاشت لكن متى يصل إلينا بسرعة الضوء؟، هذا يحتاج إلى وقت طويل، سنين طويلة عند هؤلاء، **{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}** [الذاريات:١٠] هؤلاء يرمون: **{بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}** [سبأ:٥٣].

وللأسف يجدون من يصدقهم، فكل ذلك إنما هو أشياء يفترضونها، وظنون يظنونها، ولكن الذي أخبر عن هذا الخلق يخبرنا عن هذه الأمور في الصعود والعروج، والله تعالى أعلم.

الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله– في الخمسين ألفًا: أن ذلك مقدار صعود الملائكة، وليس يوم القيامة، مقدار صعود الملائكة في يوم لغيرهم من الخلق، لغير الملائكة لو صعدوا يحتاجون خمسين ألف سنة، يصعدون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، يعني فيما لو أراد أحد أن يصعد يحتاج خمسين ألف سنة حتى يصعد، حتى يقطع هذا الذي يقطعونه في يوم.

وروي الإمام أحمد عن أبي عمر الغُدَاني قال: "كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة، فقيل له: هذا أكثر عامري مالا، فقال أبو هريرة: ردوه إليّ، فردوه، فقال: نبئت أنك ذو مال كثير؟ فقال العامري: إي والله إن لي لمائة حُمرًا ومائة أُدْمًا.

يعني بالحمر والأدم الإبل بألوانها، فهي أشرف أموال العرب، حمر النعم.

حتى عد من ألوان الإبل، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل، فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير، فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجدتها ورِسْلها)) قلنا: يا رسول الله ما نجدتها ورسلها؟ قال: ((في عسرها ويسرها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذّ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره، ثم يُبطح لها بقاع قَرقر)) –أي مستو–.

وقوله: **((في عسرها))** يعني في حال كونها هزيلة، **((ويسرها))** في كون هذه الدواب ممتدة الخواصر متصفة بالسمن، فهو يخرج حق الله فيها، **((..فتطؤه بأخفافها، فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله...))**.

تأمل في هذا الحديث يفسر الآية: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** وإن لم يكن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد تطرق لها، فهذا من تفسير القرآن بالسنة، من النوع الآخر الذي يربط فيه المفسر بين الآية والحديث، مع كون النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يتطرق للآية، فهذا نوعان: نوع منه في غاية الوضوح، مثل هذا، ومثل: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** [الفجر: ٢٣] مع قوله: **((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع**

كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها))[2]، ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** لكن واضح الارتباط.

وتارة يكون هذا الارتباط بين الآية والحديث ليس بذلك الوضوح، فقد يخطئ المفسر، حيث يجتهد في الربط بينهما، ولا يوجد ارتباط، ولهذا ذكرنا في بعض المناسبات: أن تفسير القرآن بالسنة على نوعين: نوع لا يدخله الاجتهاد -اجتهاد المفسر-، وهو ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية، مثل: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [الأنعام:٨٢] فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالآية الأخرى في سورة لقمان: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [لقمان: ١٣] فهذا لا مجال للاجتهاد فيه، فإذا صح سنده فإنه يوقف عنده.

النوع الثاني: ما لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فهذا نوعان من جهة الوضوح، هذا يجتهد فيه المفسر، لكن منه ما يكون في غاية الوضوح، ومنه ما لا يكون كذلك، وقد يقع فيه الخطأ للمفسر من كونه يجتهد في الربط بين الآية والحديث، فإذا قيل: التفسير في السنة هل يدخله الاجتهاد؟ هل للاجتهاد فيه مدخل؟ يقال: فيه تفصيل.

((وإذا كانت له بقر لا يعطي حقها في نجدتها ورِسلها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذّ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره، ثم يُبطح لها بقاعٍ قَرقر فتطؤه كل ذات ظِلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله، وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذّ ما كانت وأسمنه وآشره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطؤه كل ذات ظِلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله)) فقال العامري: وما حق الإبل يا أبا هريرة؟ قال: ((أن تُعطي الكريمة، وتمنح الغزيرة، وتُفقر الظهر، وتسقي الإبل، وتُطرق الفحل)) وقد رواه أبو داود والنسائي[3].

قوله: ((في عسرها ويسرها فإنها تأتي يوم القيامة))، ((في عسرها ويسرها)) قلنا: إذا كانت هزيلة أو كانت في حال من السمن، في حال من السمن يشتد عليه إخراجها، يصعب عليه إخراجها؛ لأنها تكون في حال تنجذب إليها النفوس، ويحرص عليها صاحبها، بخلاف ما إذا كانت في حال من الهزال والضعف، فهنا قوله: ((فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت)) فسر ((أغذ)) بأسرع ما كانت.

وقوله -عليه الصلاة والسلام- عن الغنم: ((تنطحه كل ذات قرن بقرنها ليس فيها عقصاء ولا عضباء)).

---

٢ - رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم (٢٨٤٢).

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، رقم (١٠٣٥٠)، وابن خزيمة (٢٣٢٢) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب في حقوق المال، رقم (١٦٥٨، ١٦٥٩،١٦٦٠)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف" وقال الألباني: "صحيح" كما في صحيح أبي داود (١٤٦٣)

"العقصاء" ملتوية القرنين.

و"العضباء" التي انكسر قرنها الداخل.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعطي الكريمة، وتمنح الغزيرة)) يغني غزيرة اللبن، يعطيها لآخر، من أجل أن ينتفع بلبنها، ((وتُفقر الظهر)) يعني تمنحه للركوب والحمل، يُحمل عليه لمن ليس عنده ذلك.

والمقصود بالظهر الدابة، تعير الدابة لمن يركب، أو لمن يحمل عليها متاعه، ((وتُطرق الفحل)) يعني تعطيه لمن له نوق من أجل الضِّراب، لا يمنع من ذلك، ولا يكون ذلك بأجرة، بمقابل، لا يجوز بيع عسْب الفحل، هذا حرام لا يجوز، أيًّا كانت صفته، لا من الإبل، ولا من البقر، ولا من غيرها، وهذا الآن يباع، وأحياناً بالملايين، البقر مثلا يقال: الثور الهولندي ضخم جدًّا، منذ أن يخرج من هناك يبدأ العد بالساعة، إلى أن يصل إلى أقاصي الدنيا، من أجل الضراب، بالساعة إلى أن يرجع إلى مكانه، كل هذه مدة محسوبة، هذا لا يجوز، وكذلك ما يباع من أمصال فيها من ماء هذا الثور أو الحيوان، يعني بدلاً من أن يخرج هذه المسافة إلى الشرق تباع أمصال فيها حيوانات منوية من هذا الحيوان، فهذا لا يجوز.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جُعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)) وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل -كما تقدم- وفيه: ((الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر)) إلى آخره، ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفردًا به دون البخاري، والغرض من إيراده هاهنا قوله: ((حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)) [٤].

هذا هو المشهور الذي عليه الجمهور، أن المراد بـــ"خمسين ألف سنة" هو يوم القيامة، والأحاديث تدل على هذا، وأن المراد بـــ"ألف سنة" هو يوم الصعود والعروج غير يوم القيامة.

وقوله تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه؛ كقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: ١٨] ولهذا قال: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} أي: وقوع العذاب.

وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريبًا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب، وواقع لا محالة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}** الصبر الجميل هو الذي لا جزع معه ولا تسخط.

والهجر الجميل الذي لا أذى معه.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا}** يعني يرون العذاب الذي سألوا عنه الواقع بهم لا محالة، يرون ذلك بعيدًا، المقصود به عذاب يوم القيامة، لكونهم ينكرون البعث، وقيام الساعة.

---

٤ - رواه أحمد، رقم (٧٥٦٣)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على المخلوقين: "نراه" يعني أهل الإيمان، يعني يعتقدونه قريبًا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

لكن هذا قد يقال: إنه خلاف الظاهر؛ لأن ذلك جاء بضمير المتكلم: {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} جاء بصيغة المتكلم: نراه قريبًا، نراه نحن قريبًا، فكون ذلك يحمل على المؤمنين ولم يكن لهم ذكر، قد يقال: إنه خلاف الظاهر، لكن الذي حمله على هذا هو باعتبار أن ما كان في علم الله -تبارك وتعالى- فهو جزم، وليس من قبيل الشيء الذي يكون مرجحًا، أو نحو ذلك، مع أن هذا ليس فيه ما يدل على هذا، نراه قريبًا، يعني الرؤيا هنا علمية، يعني نعلمه قريبًا، فهذا علم وليس بظن ولا توقع، ولهذا فإن بعض أهل العلم فسره بهذا، قال: نعلمه كائناً قريبًا، أن الله يقول: {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} أي: نعلمه واقعًا كائنًا قريبًا، في الوقت الذي حدده وعلمه -تبارك وتعالى-، وجهله خلقه.

وبعضهم فسر ذلك أيضًا بما يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، ولكنه ذهب به إلى معنى آخر: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} مستبعد الوقوع، كيف إذا ماتوا وصاروا ترابًا يبعثون من جديد، ويحاسبون، {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} أي: سهلاً هينًا علينا.

ولكن الأول أظهر، الأول أعني به أنه كائن وواقع لا محالة: "نراه" نعلمه واقعًا، فيكون ذلك عائدًا إلى الله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، والله أعلم.

{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [المعارج:٨- ١٨].

يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وغير واحد: أي: كدردي الزيت.

"دُرْدِيّ الزيت" هذا مضى الكلام عليه.

و"دُرْدِيّ الزيت" هو كما يقول بعضهم: ما يبقى من أسفله: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} دُرديّ الزيت، ما يبقى في أسفله، يعني مثل الحثالة، ما يكون متخثرًا ثقيلاً ثخينًا في أسفل الزيت.

وبعضهم يقول: المهل ما أذيب من النحاس، أو الرصاص، أو الفضة.

وبعضهم يقول: إن ذلك -كما يقول مجاهد- هو القيح والصديد، الدم الذي يخرج: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ}.

ابن جرير فسره بمعنى أعم، وكأن هذا أسلم: أن الشيء المذاب يقال له: "المهل" {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} فيشمل ذلك قول من قال: إنه دُرْدِيّ الزيت، أو ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة، كل هذا يقال له: المهل، الشيء المذاب.

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} أي: كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة والسدي، وهذه الآية كقوله تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة: ٥].

وبعضهم قيد هذا، يعني هي: تكون كالعهن كالصوف، {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} قال الله: {كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} والقرآن يفسر بالقرآن.

وبعض أهل العلم قيده بقيد زائد من جهة اللغة -إن صح ذلك- يعني بعضهم يقول: إن العرب لا تقول للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغًا، يصبغون الصوف، فيكون ألوانًا، كما هو معلوم، فيقول: العرب لا تقول له عهن إلا إذا كان مصبوغًا، فيكون المعنى كالصوف المصبوغ، بهذه الزيادة، هذا القيد عرف من جهة اللغة -إن صح ذلك- إن ثبت أنه لا يقال إلا إذا كان مصبوغًا.

وعلى هذا يحمل قول من قال من السلف: إنه كالصوف الأحمر، يعني ذكروا ألوانًا، هذه الألوان بأي اعتبار، من أين جاء بالأحمر؟، يعني قد يقول قائل: الله قال: {كَالْعِهْنِ} كالصوف من أين للحسن البصري مثلاً -رحمه الله- أنه قال: كالصوف الأحمر؟ بأي اعتبار؟

قالوا: بهذا الاعتبار، أنه الصوف المصبوغ.

لماذا الأحمر؟

قال: هو أضعف الصوف، أي تكون الجبال في غاية الوهاء، ولهذا تكون هباء، ثم تذهب وتزول وتتلاشى، فتكون سرابًا، تكون أثرًا بعد عين.

وبعضهم يقول: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} الصوف الملون.

وبعضهم يقول: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} يعني ذهب به إلى قوله -تبارك وتعالى- عن الجبال وتكوينها وأشكالها: {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ} [فاطر: ٢٧] الجدد البيض مضى الكلام عليها، والحمر ألوان الجبال، بعضهم يقول: هي الخطوط، ونحن نرى الجبال يكون فيها خطوط، طبقات، وإذا قطع ظهر ذلك جليًّا، طبقات سوداء، وأحيانًا بيضاء، وحمراء.

وبعضهم يقول: لا، هي نفس الكتل، نفس الجبال، منها أبيض، ومنها ما هو أحمر، ومنها ما هو أسود، فهي متفاوتة الألوان، فبعضهم يقول: {كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} أي ذي الألوان، فإذا بُست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

لكن ابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك بالصوف مطلقًا: {كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} كالصوف، العهن هو الصوف، لكن هل في اللغة لابدّ فيه من هذا القيد، أنه بألوان أو لا؟.

وقوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ} أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره.

قال العوفي عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧] وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [لقمان: ٣٣]، وكقوله تعالى: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [غافر: ١٨]، وكقوله تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله

تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [المعارج: ٣٤ – ٣٧].

قوله –تبارك وتعالى–: {يُبَصَّرُونَهُمْ} هنا نقل عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم.

لكن لا يغني أحد عن أحد، ولا يقف أحد مع أحد، يفر بعضهم من بعض، هو يراه، لكن كل هذه المعاني المذكورة، قال: أي: **لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، تشغله نفسه عن غيره،** بالعادة الناس إذا تقابلوا خاصة بعد طول عهد فإنه يقف معه، يسأله عن حاله، وهو لا يرى به بأسًا، فكيف إذا كان يراه في حال من الشدة والبؤس؟!، ومع ذلك يراه ولا يقف معه، ولا يسأل عن حاله، فضلاً عن أن يعرض عليه مساعدة، أو نحو ذلك.

{يُبَصَّرُونَهُمْ} فهو يرى هؤلاء القرابات.

{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} السؤال هنا يشمل السؤال عن حاله، وكذلك أيضًا: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} يعني ماذا تريد؟ ماذا تحتاج؟ ليس هناك مجال لوقوف أحد مع أحد، أو مساعدة أحد لأحد، أو نحو ذلك، كل إنسان إنما يطلب نجاة نفسه، في الحياة الدنيا نجد أن الإنسان قد يفدي غيره بنفسه، ومعروف من حال الوالدين أنهما يقدمان أنفسهما في سبيل حفظ هؤلاء الأولاد، وعافيتهم وسلامتهم، وما إلى ذلك، فيتمنون وقوع المرض والأوصاب بهما، على أن لا يقع ذلك أو شيء منه لهؤلاء الأولاد، هذا معروف، يتمنى أنه هو الذي يمرض ولا يمرض هذا الولد، أنه هو الذي يتعب ولا يتعب هذا الولد، ومن جاءه أولاد فإنه يجد مثل هذا، يتألم لما يقع لهم، ويسألهم صباح مساء عن حالهم، وينظر إلى وجوههم، إذا دخلوا وإذا خرجوا، هناك: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} بدأ بهؤلاء الذين هم أعلق بالكبد والقلب، يود، يتمنى أن يلقوا في النار، لكنه ينجو، فكيف يقف معه، ويسأل عنه؟، فهذا يدل على شدة هذا الهول والموقف، أقرب الناس إليه!، في حال الحرب في حال الشدة في حال الذهول، الأسارى، في قصة المرأة التي رآها النبي –صلى الله عليه وسلم– في سبي أوطاس تبحث هنا وهناك، حتى لقيت صبيًّا فأخذته وضمته وأرضعته، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أترون هذه طارحة ولدها في النار؟)) قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه"[٥].

فالمقصود أن هذا في حال شدة وذهول، أسارى يساقون كما تساق الأنعام، وهذه المرأة تجري هنا وهناك، تبحث عن الصبي، ولا تسأل عن حال الناس، في وقت حرب وشدة وأسر، وهم يساقون ويُذادون كما تذاد البهائم، وهذه المرأة تبحث هنا وهناك عن ولدها، ما أصابها ذهول عنه، لكن في القيامة يصيبها الذهول، ويكفي في هذا ما مضى في قوله –تبارك وتعالى– في صدر سورة الحج: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} يعني القيامة والساعة: {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [الحج:٢] وذكرنا هناك: أن المرضعة بـــ"التاء" هكذا فيما كان من أوصاف الإناث، أنه إذا جاء بـــ"التاء" فإن ذلك يعني المباشرة بالفعل {مُرْضِعَةٍ} يعني تباشر الآن الإرضاع،

---

٥ – رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٤).

وإذا جاء من غير "تاء" مرضع، فإن ذلك يعني مطلق الاتصاف، أن من شأنها الإرضاع، ولو كانت في لحظتها لا ترضع، يقال: هذه امرأة مرضع، يعني لها ولد ترضع، لكن **{مُرْضِعَةٍ}** يعني الآن، فهذه أجلى صورة يتدفق فيها الحنان، لا نعرف أبدًا صورة يتدفق فيها العطف والحنان أعظم من هذه الحال، واسألوا النساء، هي بمجرد ما تضمه إلى صدرها، هكذا، قبل أن ترضع، يبدأ الحليب يخرج من تلقاء نفسه، هذا معروف، والولد يجد من الحنان المتدفق من الأم مع حليبها ما لا يخفى، ولهذه عملية الإرضاع ليست مجرد إرضاع فقط، بل إرضاع وإشباع لهذا الصغير بعواطف الأم ومشاعر الأم والأمومة والحنان والرعاية، وما إلى ذلك.

فالمقصود إذا كانت تذهل عن صغيرها في حال إرضاعه، إذا رأت يوم القيامة، فما بالك إذًا بما هو دون هذه الحال؟ لقيه هكذا، الأب لقي ولده، الولد لقي أباه، يراه، يشاهده، لكن هو في شغل شاغل عنه، فهذا يدل على شدة هول ذلك اليوم الذي يحتاج إلى عمل، الناس في الدنيا يتواصلون ويواسي بعضهم بعضًا، فيتحمل بعضهم عن بعضٍ ما ينوبه، أو بعض ما ينوبه، لكن في الآخرة ليس من ذلك شيء، فلابدّ من الجد والاجتهاد من أجل أن يخف ذلك اليوم، وتخف وطأته على الناس، فالأمر ليس بالسهل، فلا يصح بحال من الأحوال أن يضيع الإنسان نفسه لشهوة عابرة، وعبث في حطام زائل، يذهب ويجيء صباح مساء مضيعًا لحقوق ربه -تبارك وتعالى-، في صَفْقٍ سرعان ما يتلاشى ويذهب، مع ما يحتفّ به من أذى ومنغصات وأكدار في هذه التعاملات، وما يحصل فيها من كساد في الأسواق، وغبن وغش، وتعليق وتعطيل، وكف يد عن التصرف فيها، وما إلى ذلك من تأخر وبطء في هذه المعاملات والمساهمات، والتحالفات التجارية، وما إلى ذلك، تتعطل على أصحابها سنين طويلة، ويبقون في ألم وحسرات وهمٍّ، يرونها في ليلهم إذا ناموا، ويتقلبون في نهارهم في طلب فك أسرها، وإطلاق عَوْقها، وكل هذا عما قريب حينما يفتح الإنسان عينيه بعد الموت، يبصر الحقائق، ويعرف أنه كان مضيعًا غافلاً، اشتغل بدنياه في شيء يجمعه لأحفاد أحفاد أحفاده، وعنده ما يكفيه ويدفنه من المال، لو جلس في وسطه اندفن، ومع ذلك كدٌّ وكدحٌ في الصباح وفي المساء، ولربما يكون قد بلغ من الكبر عتيًّا، ومع ذلك مثل الساعة في الصباح الباكر في المكتب لا يتأخر دقيقة واحدة إلى الليل، إما بعمل متواصل، أو يصلي العصر عند المكتب -إذا كان يصلي العصر-، لا يؤخره ترفُّهٌ ولا تنزه، ولا تباطؤ ولا تلكؤ، ولا شاي العصر، أبدًا، يفتخر الواحد منهم أنه من خمس وعشرين سنة ما جلس على وجبة مع أولاده في مقابلة يقرؤها الناس كلهم، خمس وعشرون سنة، على ماذا؟ رأسه أبيض، ليس فيه شعرة سوداء، على ماذا؟ ينبغي العمل لهذا اليوم، والله المستعان.

وقوله تعالى: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا} أي: لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يُقبل منه.

قوله -تبارك وتعالى-: **{يُبَصَّرُونَهُمْ}** هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يعني أنه يراه، يبصره، ونقله عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضًا، فيتعارفون بينهم.

وهذا يرجع إلى المعنى الذي قبله، فهو يتعارفون حينما يراه، وهذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله-: {يُبَصَّرُونَهُمْ} يعرف بعضهم بعضًا، يتعارفون، ثم يفر منه، لماذا؟

لأنه كما قال الله –عز وجل-: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧].

وقوله –تبارك وتعالى-: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ}، {ثُمَّ يُنْجِيهِ} ماذا؟

{ثُمَّ يُنْجِيهِ} هذا الافتداء، {وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} يعني يفتدي بكل ما يمكن الافتداء به، ابتداء من أقرب الناس إليه، الأم، والأب، والأولاد والزوجة، هل يوجد أقرب من هؤلاء؟!، يُلْقَى أبوه وأمه في النار، وزوجته وأولاده على أساس أن ينجو هو {ثُمَّ يُنْجِيهِ} أي ثم ينجيه هذا الافتداء، والعطف بـــ"ثم" يدل على استبعاد النجاة، لا فكاك ولا خلاص {كَلَّا} أي لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجد من المال، هذا الذي سيفتدي بأمه وأبيه، وزوجته وأولاده الذين من أجلهم هذا الكد، وإذا سئل عن هذا التعب والعناء ومواصلة الليل والنهار، قال: "عيش العيال"، "عيش العيال" عند ربهم، وليس عنده، وسيأتي في الكلام على اسم الله "الرزاق" –إن شاء الله تعالى- أشياء من هذا القبيل، إحداهن ذُكر لها زوجها وأنه المُعيل، فقالت: ليس بالمُعيل، بل هو الأكّال، الذي يرزق الأقوات، ويعيل الخلائق، ويرزقهم ويعافيهم ويعطيهم هو الله –تبارك وتعالى-، هذه امرأة تقول: إن زوجها هو الأكّال، وليس المُعيل.

يقول: إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه.

قال مجاهد والسدي: {وَفَصِيلَتِهِ} قبيلته وعشيرته.

وقال عكرمة: فخِذه الذي هو منهم.

وقال أشهب عن مالك: {وَفَصِيلَتِهِ} أمه.

نحن ذكرنا الكلام على الفصيلة فيما سبق، في الكلام على الشَّعْب: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:١٣] والقبيلة والفخذ والعشيرة والفصيلة، {وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} قال هنا: **قال مجاهد والسدي: قبيلته وعشيرته.**

أبو عبيد القاسم بن سلام –رحمه الله- فسر الفصيلة بأنها دون القبيلة، وهذا صحيح، وقد مضى الكلام على هذا.

ويقول الإمام ثعلب –رحمه الله-: إن الفصيلة هم الآباء الأدنون، يعني الأقرب إليه.

وابن جرير –رحمه الله- فسره: بالعشيرة.

وعكرمة قال: فخِذه الذي هو منهم.

وقال أشهب عن مالك: "فصيلته" هي أمه، يعني التي تربيه، أي فصيلته هي التي ترضعه، وفصاله فطامه.

فالفصيلة هم قرابته الأقربون.

الفصيلة إذا فسر بالعشيرة، أو ما هو أقرب من العشيرة فلكونه يأوي إليهم، ويضمونه في النسب، وعند الشدائد الإنسان يأوي إلى العشيرة، العشيرة قيل لها: عشيرة بعضهم –كما سبق- في قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ

{عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤] يقول: "عشيرة" من المعاشرة، لكثرة المخالطة، فهؤلاء القرابة القريبة يعني، ليسوا القبيلة، فإنه لا يلتقي بالأبعدين، وإنما بالقريبين.

هؤلاء القريبون يعاشرهم ويخالطهم، فهم أقرب إليه.

وبعض أهل العلم فسر ذلك -يعني كونهم القرابة القريبة-: أن الله -تبارك وتعالى- لما قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصفا، فماذا قال؟

اختلفت الروايات في قوله -صلى الله عليه وسلم-، ومن هنا اختلف العلماء في الاستدلال بهذا على المراد بالعشيرة، ففي بعضها: أنه ذكر الجد الرابع، فقالوا: هم الأدنون.

وبعضهم يقول: ذكر الجد العاشر، فقال بعضهم: إن العشيرة هم من يرتبطون به إلى الجد العاشر، يتفرعون من الجد العاشر.

وقوله تعالى: {إِنَّهَا لَظَى} يصف النار وشدة حرها.

{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} قال ابن عباس ومجاهد: "جلدة الرأس".

وقال الحسن البصري وثابت البناني: {نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} أي مكارم وجهه.

وقال قتادة: {نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} أي نزاعة لهامته ومكارم وجهه، وخَلقه وأطرافه.

وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئًا.

وقال ابن زيد: الشَّوَى الآراب العظام.

فقوله: {نَزَّاعَةً} قال: تقطع عظامهم، ثم تُبدَّل جلودهم وخَلقهم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{كَلَّا}** هذه كلمة ردع وزجر، ردع للمجرم عن تلك الودادة، وبيان امتناع ما وده: **{يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي}** ما وده من الافتداء: **{كَلَّا إِنَّهَا لَظَى}**، **{لَظَى}** هذا اسم من أسماء جهنم -أعاذنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منها.

{إِنَّهَا لَظَى} بعضهم يقول: مشتق من التلظِّي في النار، وهو التلهب.

{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} نقل هنا عن ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، يعني أن جلدة الرأس تسقط لشدة حرها.

بعضهم يقول: إذا أراد أن يشرب من الحميم سقطت فيه جلدة رأسه، من شدة الحر.

وقال الحسن وثابت البناني: **{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى}** أي: مكارم وجهه، وهذا قال به جماعة كأبي العالية وقتادة.

وأيضًا عن قتادة: نزاعة لهامته ومكارم وجهه، وخلقه وأطرافه.

وقال الضحاك وهو مروي أيضًا عن قتادة: تبري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئًا.

وعن ابن زيد: الشوَى الآراب العظام، الآراب يعني الأعضاء، يعني أنها تقطع عظامهم، وتفري لحومهم، وتحرق وتنزع ما في وجههم من اللحم والجلد.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا، يقول -رحمه الله تعالى- معلقًا على قوله تعالى: **{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى}**: "في الآية تفسيران مشهوران:

أحدهما: أن الشَّوَى الأطراف التي ليست مَقاتِل كاليدين والرجلين تنزعها عن أماكنها، ومنه قولهم: "رمى الصيد فأشواه" إذا أصاب أطرافه دون مقاتله، فإن أصاب مقتله فمات موضعه قيل: رماه فأصماه، فإن حمل السهم وفر به ثم مات في موضع آخر قيل: رماه فأنحاه.

والتفسير الثاني: أن الشوَى جمع شواة، وهي جلدة الرأس وفروته"[٦].

الشوى جمع شواة، وقد فسر الشوى بالأطراف، أو جلدة الرأس.

وبعضهم فسره: بالمفاصل، كالكسائي، أو أطراف اليدين والرجلين -كما سبق-، وبه قال أبو صالح.

وابن جرير -رحمه الله- جمع بين بعض هذه المعاني، وفسر الشوى بجلدة الرأس وأطراف البدن، أي المعنيين اللذين ذكرهما الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، أن الشوى يأتي لهذا وهذا، فابن جرير -رحمه الله- على عادته حينما يكون المعنى ثابتًا في اللغة، ولا يوجد ما يدل على أحد هذين المعنيين أنه هو المراد، يقول: ليس عندنا دليل، وأخبر أنها نزاعة للشوى، والشوى يقال لهذا وهذا، ومن ثَم قال: إنها -نسأل الله العافية- تنزع جلدة الرأس، وأطراف البدن، اليدين والرجلين، يعني غير المَقاتِل، يقول: جمع شواة، وهي جوارح الإنسان، ما لم يكن مقتلاً "رمى فأشوى إذا لم يصب مقتلا".

يعني رمى الصيد في موضع برجله، أو نحو ذلك في عضده، ما أصابه في مقتل.

وقوله تعالى: {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى} أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلْق ذَلْق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كما قال الله -عز وجل-: "كانوا ممن: {أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي أوْكاه، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد في الحديث: ((لا تُوعِي فيُوعِيَ الله عليكِ)) [٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى} هذه النار تدعو، كما أخبر الله -عز وجل- عنها أنها ترى: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢] فهي تتغيظ عليهم، تكون في غاية الغيظ على هؤلاء الكفار، فهي ترى وتتغيظ، وكذلك: {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى} أعرض عن الحق، وتولى عنه، وجمع المال فأوعى، لم يَخرج من يده شيء، لم يُخرج حق الله -عز وجل- منه، جمع فأوعى، هذا معنى: أوعى، أوعاه يعني أوكاه، منع الحق الواجب لله ولخلقه.

وبعضهم فسر قوله -تبارك وتعالى-: {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} بعضهم قال: يعني تُهلك، تقول العرب: دعاك الله أي: أهلكك {تَدْعُو} أي تُهلك.

وبعضهم قال: المراد أنها تتمكن، يعني تصوير تمكن النار من عذابهم.

---

٦ - بدائع الفوائد (٣/١١٤- ١١٥).

٧ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة فيما استطاع، رقم (١٤٣٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء، رقم (١٠٢٩).

وقيل: إن الذين يدعون هم خزنتها.

كل هذا صرف للفظ عن ظاهره، باعتبار أن النار لا إدراك لها، لكن الله -عز وجل- يقول: **{إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}** فهي ترى، فهنا أخبر، وأخبر هناك أنهم: **{سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}**.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن النار بقوله: ((لا يزال يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد))[8].

والله -عز وجل- قد ذكر هذا في كتابه: **{وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}**؟، **{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ}** [ق: ٣٠] فأضاف القول إليها: **{هَلْ مِن مَّزِيدٍ}**؟.

ولا يقال: إن القائل هنا هم الخزنة، فالأصل حمل الكلام على ظاهره، تقول: ((هَلْ مِن مَّزِيدٍ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قط، قط))[9].

وكذلك لما: ((اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربِّ أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف)) [10].

وكذلك: ((احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون، والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء، والمساكين، فقال الله -عز وجل- لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء -وربما قال: أصيب بك من أشاء- وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها)) [11]، فالنار تشتكي وتتكلم.

وكذلك ما جاء من الاستجارة من عذاب النار، وسؤال الجنة، الذي يقول: ((اللهم أجرني من النار)) في بعض ألفاظه ثلاثًا، وفي بعضها سبعًا، وكذلك يسأل الجنة، تقول النار: ((اللهم أجره مني))[12] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-.

فهذا كله على ظاهره، والله أعلم.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [إبراهيم: ٤] **{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [الصافات: ١٨٠] **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}** [المنافقون: ٨]، ومن حلف بعزة الله وصفاته، رقم (٧٣٨٤).

٩ - المصدر السابق.

١٠ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، رقم (٥٣٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر، رقم (٦١٥، ٦١٧).

١١ - رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

١٢ - رواه أحمد، رقم (١٢١٧٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٧٩)، والنسائي في السنن الكبرى، كِتَابُ عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَوْنُكَ يَا رَبِّ عَلَى مَا بَقِيَ، ثَوَابُ مَنِ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، رقم (٩٨٥٩)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المعارج من الآية (١٩) إلى آخر السورة

الشيخ /خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المعارج:١٩-٣٥].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} لما ذكر الله -تبارك وتعالى- النار، وما فيها من العذاب، وأنها {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} وتوعد هؤلاء المكذبين بها، وباليوم الآخر {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج:١] ذكر حال هذا الإنسان المكذب الكافر، على قول بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله-: {إِنَّ الْإِنْسَانَ} يقول: يعني الكافر، أن هذه صفة الكافر، واستثنى أهل الإيمان، يعني أن قوله: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} إلى آخره يقول: يعني أهل الإيمان، فهم متصفون بهذه الأوصاف.

وعلى القول الآخر، وهو الذي اختاره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو الأقرب -والله أعلم-: أن ذلك وصف الإنسان من حيث هو، ما لم تتروض نفسه بالإيمان، وتتهذب بطاعة الله -تبارك وتعالى-، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١-٢]، وكما قال: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق:٦- ٧].

وكل ذلك في الإنسان من حيث هو، هكذا طبيعته الغالبة، فتحتاج إلى ترويض وتهذيب، فيتخلص من هذه الأوصاف: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر:١٥-١٦].

{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} هنا فسر الهلوع بما بعده: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}.

هذا تفسير له بأوصاف وأحوال قد اتصف بها، لكن ما أصل المعنى؟ يعني ما معنى الهلوع في كلام العرب؟ الهلوع، الهلع، يقال: فلان فيه هلع، صاحب هلع، موصوف بالهلع: فسر بأشد الحرص، حريص، مع أسوأ الجزع، الذي في يده لا يخرج، وهو حريص على زيادته غاية الحرص، وهو أيضًا يتصف بأسوأ الجزع، وأفحشه.

وعبارات السلف -رضي الله عنهم- متقاربة، يعني كما يقول عكرمة: هو الضَّجور، كثير الضجر، ولكن هذا تفسير له ببعض معناه -والله تعالى أعلم- كون الإنسان إذا مسه الشر جزوعًا، فهو يتضجر ويتسخط، قليل الصبر.

وذكر الواحدي عن المفسرين: أنهم يقولون: إن الهلع مفسر بما بعده، وهذا لا إشكال فيه، لكن الكلام على أصل معناه، بمعنى أنه إذا أصابه الشدة، الفقر، المرض، ونحو ذلك فهو كثير الجزع، وإذا أصابه الغنى والخصب فهو كثير المنع، والحرص، يمنع حق الله، وحق المخلوقين، ولا يشكر هذه النعمة، فهو قليل صبره، وقليل شكره، في حالتيه، الشدة والرخاء، ويُظهر أشد الجزع في الشدة، ويَظهر منه البخل، ومنع الحقوق في حال الرخاء.

{وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله -تعالى- فيها.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((شر ما في رجل: شحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خالعٌ)) ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح عن أبي عبد الرحمن المقرئ به، وليس لعبد العزيز عنده سواه[1].

ابن جرير -رحمه الله- فسر الهلع بشدة الجزع مع شدة الحرص والضجر، هذا تفسير له لا يعارض قول من قال: إنه مفسر بما بعده، بمعنى أن الله ذكر أبرز خصال هذا الإنسان الهلوع.

وهؤلاء فسروه في أصل معناه، يقول: إذا حصل له، إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيسَ أن يحصل له بعد ذلك خير، هذا الهلوع، هذا الإنسان إذا قل توكله على الله -عز وجل-، وقل يقينه فإنه يقل صبره وشكره في حالتيه، فيصير هذا الإنسان في حال من الاضطراب والقلق الدائم، والضعف أمام ما يعرض له من السراء والضراء، فيكون بين جزع وبطر، ويكون بين ضعف وانكسار تارة، ومنع للحقوق وحرص على هذا الحطام تارة أخرى، ينسى سريعًا، إذا حصلت له العافية والغنى صار في حال من التيه، ونسي شكر الله -عز وجل- على هذه النعم، وأنه قد يسلب ذلك في أي لحظة، وإذا ترحل عنه شيء من هذا فإن الدنيا تظلم في عينه، ويظن أن هذا نهاية المطاف، فيظن أن هذا هو المرض، هو النهاية، هي القاضية، فييأس، ويبتئس، ويحصل له الجزع والضعف، فيتلاشى ذلك التعاظم والترفع والقوة التي كان يتوهمها، ثم بعد ذلك أفضى الحال إلى قلق وضعف وعجز ومسكنة، وتجد الواحد من هؤلاء بعدما كان في حال يرى نفسه فيها أنه غير مسبوق ولا مدفوع عن هذه النعم التي حصلت له، يصير -نسأل الله العافية- إلى حال من الانهيار النفسي، فيبكي كما يبكي الصغير، يقول: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((شر ما في رجل: شحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خالعٌ)) [2].

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الجرأة والجبن، رقم (٢٥١١)، وأحمد (٨٠٠٩)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح"، وقال الألباني: "إسناده صحيح، وصححه ابن حبان" كما في صحيح أبي داود، رقم (٢٢٦٨).

٢ - المصدر السابق.

الشح الهالع، هالع أي موصوف بأشد الجزع والضجر.

والجبن الخالع يعني الشديد، كأنه يخلع فؤاده من شدته، يعني كما يقال: ينقطع قلبه من شدة الخوف.

هنا قال: رواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح عن أبي عبد الرحمن المقرئ به، وليس لعبد العزيز عنده سواه، عبد العزيز المقصود به ابن مروان بن الحكم، هو الراوي عن أبي هريرة –رضي الله عنه.

الحافظ ابن القيم له كلام على هذا، يقول –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا}** الآيات: "فأخبر تعالى أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها، فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه"[٣].

وقال –رحمه الله–: "وتفسير الهلوع: قال الجوهري: الهلَع أفحش الجزع، وقد هلِع بالكسر فهو هلِعٌ وهلوع، وفى الحديث: ((شر ما في العبد: شحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خالعٌ)) [٤].

قلت: هنا أمران: أمر لفظي، وأمر معنوي.

فأما اللفظي: فإنه وصف الشح بكونه هالعًا، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعًا، ولا يقال: هالع له، فإنه لا يتعدى، ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليلٌ نائم، وسرٌّ كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا، كما قالوا: تامر، ولابن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع "خالع" وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد، ولاسيما اذا كان شحه هالعًا أي: مُلقٍ له في الهلع، وجبنه خالعًا أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، ولا نفع بماله ولا ببدنه، كما يقال: لا طعْنة ولا جَفْنة –لا طعنة ولا جفنة يعني لا هو شجاع ولا هو بكريم– ولا يَطْرد ولا يَشْرد، بل قد قمَعَه وصغَّره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستكانة وباء بها سريعًا، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن، وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان"[٥].

يشير إلى قوله تعالى: **{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** [الشمس:١٠].

---

٣ – طريق الهجرتين، ص (١٠٧).

٤ – رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الجرأة والجبن، رقم (٢٥١١)، وأحمد (٨٠٠٩)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح"، وقال الألباني: "إسناده صحيح، وصححه ابن حبان" كما في صحيح أبي داود، رقم (٢٢٦٨).

٥ – عدة الصابرين، ص (٢٧٤– ٢٧٥).

ثم قال تعالى: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير، ويسر له أسبابه، وهم المصلون.

هنا كما أشرت قبل قليل: أن من أهل العلم من فسر المصلين بأهل الإيمان والتوحيد، يعني إلا الموحد، ونظروا إلى أن طبيعة الإنسان إنما تكون مغالبتها وتحويلها عما هي عليه بالإيمان، فأهل الإيمان ليسوا كذلك، يعني هم قالوا: إن هذه طبيعة الإنسان، هذا ابن جرير يقول: هذا وصف الإنسان الكافر، قال: إلا المصلين، يعني إلا أهل الإيمان، ولكن القول بأن ذلك على ظاهره يعني أن الله استثنى المصلين، فهذا في ضمنه ذكر الإيمان؛ لأن هؤلاء المصلين هم على حال من الإيمان، فاتصفوا بهذه الأوصاف من ملازمة الصلاة، والمداومة عليها، إلى غير ذلك من الأوصاف المذكورة، فهؤلاء من المؤمنين الكمل، وكلما كان الإيمان أتم كانت هذه الصفة أضعف وأقل: **{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}** تضعف، فطبائع الإنسان مما جبل عليه من الغرائز وحب التملك والطمع والشح، كما قال الله -عز وجل-: **{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ}** [النساء:١٢٨] فهو شيء حاضر في النفوس.

وقال: **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}** [الحشر:٩] فأضاف الشح إليها، لشدة ملازمته لها، هو ملازم لها: **{شُحَّ نَفْسِهِ}** فهذه إنما يكون الخلاص منها بترويض النفس على الإيمان وشرائعه، فإذا صار متحققًا بالتقوى والتوكل على الله -عز وجل-، واليقين، وحسن الظن بربه -تبارك وتعالى-، وأن عوائد الله عليه غادية ورائحة، وأن الله حينما يبتليه فإن ذلك ليس لهوانه عليه، أو ليضيعه، أو ليكسره، وإنما فعل ذلك به ليرفعه، فإذا تحقق من هذه الأمور، وأن الله أرحم به من أمه وأبيه، ومن أرفق الناس به فإنه يطمئن إلى قضاء الله -عز وجل-، وإذا حصلت بيده النعم فإنه يذكر تحولها عن غيره، وأن ذلك أيضًا عما قريب ستتحول عنه النعم المادية، فإنه إن لم تفارقه في هذه الحياة الدنيا، في أيام حياته، فإنه سيفارقها بعد موته، فهو لا يبطر بالنعمة، ويذكر أنها عارية في يده، وأن ذلك إفضال من الله وابتلاء، لينظر عمله، فلا يحصل له البطر بحال من الأحوال، وأنه يتعاطى النعمة وهو وجِل من الله، قد امتلأ قلبه حياءً من ربه -تبارك وتعالى-، حيث لا يؤدي شكر هذه النعم، وأن الله ساقها إليه من غير حول منه ولا قوة، وأنه قد حُرم منها الكثيرون، والله -تبارك وتعالى- ناظر إلى شكره وعمله وحاله، فهو بين وجل وحياء، فمثل هذا لا يصلح له التعاظم وأن ينسى نفسه، ويبطر، ويكون في حال من الغفلة بسبب هذه النعمة، وإذا جاء المكروه فهو أيضًا على حال من الرضا، أو الشكر، أو الصبر، فهو يتقلب بين هذه المراتب الثلاث، لكنه لا يجزع؛ لأنه يعلم أن الله اختار له ذلك، وأن الله عليم حكيم، فهو يرضى بما اختاره الله -عز وجل- له، ويعلم أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، هكذا تتروض النفس، فقال: **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** وهذا يدل على أن هذه الأوصاف المذكورة هي المخرج، وأن لها تأثيرًا بليغًا لعلاج هذه الجوانب في نفس الإنسان، بعيدًا عن كثير من الفلسفة، وما قد يقوله القائلون في هذا الباب في معالجة طبائع الإنسان، وما يحصل له في حياته من مخاوف وقلق يفتك بكثير من النفوس، ويحول عافيتها وسعادتها إلى علل وأوصاب موهمة، أو يتوقعها ويتخوفها في المستقبل، أو أن ذلك يكون في حال من التخوف والقلق على مستقبله، وماله وما يصير إليه في الأمور المادية الدنيوية، فهذا عامة ما يعصف بالنفوس، ويورثها القلق، فتجد الذي لا زال في أيام دراسته، ومقتبل العمر يفكر كثيرًا أين سيذهب، وأين

سيعمل، وإذا تخرج هل سيجد ما يكفيه أو يغنيه، ومن يعمل فهو أيضًا يتوقع أمورًا، ومن كان في عافية يتوقع المرض، ومن كان مريضًا فهو يتوقع العطب، وهكذا تجد هذه المخاوف تنتاب الإنسان، وتتوارد على نفسه، فيكون ذلك على حساب عافيته وراحته، وطمأنينته وسكينته، فإذا كان الإنسان بهذه الأوصاف من أهل الصلاة الذين يداومون عليها، وكذلك أيضًا يكون من أهل الإنفاق لاسيما الزكاة، ومع يقينه بالآخرة، وخوفه من عذاب الله -عز وجل-، مع صيانةٍ وعفاف وحفظ للفرج، فإن هؤلاء مع ما ذُكر من الأوصاف التي تدل على كمال التقوى والإيمان، فمثل هذا لا مكان للقلق في نفسه، ولا للجزع ولا للطمع، والشح والحرص والمنع، كل ذلك يزول ويذهب بحسب إيمان العبد، فإذا رأى العبد من نفسه اتصافًا بشيء من هذه الأوصاف المذمومة فليعلم أن ذلك لنقص في تحقيق هذه الأوصاف المذكورة من أحوال أهل الإيمان، هي هكذا، ولا يحتاج الإنسان إلى كلام كثير يقال له من توصيف لربما يفتقد العلاج الحقيقي، ولربما أدوية قد لا تزيده إلا وهنًا، فلربما تضع من قوته ونشاطه وعافيته، فيصير في حال من الخمول والضعف البدني، بسبب تعاطي هذه الأدوية التي تعالج جانبًا -إن عالجته- أو تسكن ذلك، ولكنها أيضًا تهدم جوانب أخرى، يرفع العبد رأسه عاليًا، ويتوكل على الله -عز وجل-، ويقبل عليه بكليته، وإذا ذكره بقلبه قبل أن يذكره بلسانه، ويكون قلبه منكسرًا لله -عز وجل-، مخبتًا، وتكون يده تجود بالنفقة فمثل هذا لا مكان لهذه المخاوف والقلق والأوصاب والعلل النفسية بحال من الأحوال إلى نفسه، وإلا فما نقص من هذه الأوصاف -أوصاف أهل الإيمان- لابد أن يكون في المقابل هذه المخاوف والقلق والضيق والضجر، ويكون في حال من الاضطراب في أيام العافية وفي أيام البلاء، هو يكون هكذا -نسأل الله العافية-، وهذا حال كثير من الخلق وإن لم يفصح الكثيرون عنه، يعتري هذه النفوس ما يعتريها مما يدرى سببه أو لا يدرى سببه، والسبب هو يرجع إلى هذا، السبب الحقيقي يرجع إلى هذا، مما علم سببه يقول: عندي صفقة خسرت، عندي كذا، انخفاض كذا، الأسواق، كساد، أمراض، في كذا، أو مما لا يعرف سببه، سواء عرف أو لم يعرف، هي قضية اليقين هذا، والإيمان ضعُفَ فقويت الجوانب الأخرى، وإذا قوي تلاشت الجوانب الأخرى، حتى يكون العبد في جنة قبل جنة الآخرة.

{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} قيل: معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي.

وقيل: المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:١-٢] قاله عقبة بن عامر، ومنه الماء الدائم، وهو الساكن الراكد، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته.

وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))[٦].

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٤)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٨).

قوله -تبارك وتعالى-: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} هنا قال: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} ما قال: "إلا الذين يصلون" فإن ذكر هذا الوصف بهذه الصيغة: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} "فلان من المصلين" هذا يدل على لزوم هذه الصفة، وجاء ما يكشف عن ذلك ويبينه، بقوله: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}.

وأقوال السلف هنا افترقت على هذه المناحي الثلاث، باعتبار: أن بعضهم نظر إلى أن هذا الوصف هو في حال الصلاة: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} فسره بالسكون، يعني هو حينما يصلي يكون متصفاً بهذا الوصف: {دَائِمُونَ} أي ساكنون، بلا حركة، يعني من السكون، ففسر بالخشوع، فإن الحركة تنافي الخشوع.

ومن نظر إلى معنى أعم من هذا، لكنه يتصل بالصلاة نفسها: {عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} قال: "يحافظون" يحافظون على أوقاتها وأركانها وشروطها، فهؤلاء هم الذين يقيمونها: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت:٤٥].

{دَائِمُونَ} هل هو دائم في نفس الصلاة حينما يكبر؟ أو المقصود دائم على هذه الصلوات بمعنى أنه يحافظ عليها غاية المحافظة، لا يضيعها: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون:٤-٥].

ومنهم من نظر إلى معنى أوسع، باعتبار: أن المقصود بالصلاة العبادة، فقالوا: إنهم إذا عملوا عملاً داوموا عليه.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك يتعلق بالصلاة.

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين الأولين باعتبار: أنهم في حال من السكون، والدوام فيها، فهم أهل خشوع، وكذلك أيضًا هم محافظون عليها: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}، لكنه -والله تعالى أعلم- أعلق بالمداومة، بمعنى المحافظة عليها؛ لأنه عبر بـــ"على" ما قال: "الذين هم في صلاتهم دائمون" وإنما قال: {عَلَى صَلَاتِهِمْ} فهذا يشعر بمعنى المحافظة على أوقاتها، وعدم تضييع شيء منها.

ابن جرير يقول: وهم على أداء ذلك مقيمون، لا يضيعون منها شيئًا.

وهذا هو المعنى نفسه الذي أشرت إليه آنفاً قول من قال: يحافظون على أوقاتها وواجبتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي.

لكنّ الأولين الذين قالوا: بمعنى السكون في الصلاة، القرينة التي لربما نظروا إليها فحملتهم على هذا القول، يعني نحن أحياناً نستغرب لربما يكون القول في نظرنا أن غيره أوضح منه، وأكثر تبادرًا إلى الأذهان، لكن انظر لمّا ذكر هذه الأوصاف، ذكر في أواخر الأوصاف المذكورة: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} المحافظة هنا المحافظة على أوقاتها وشرائطها وواجباتها وأركانها، أليس كذلك؟

فمن أجل أن لا يكون ذلك من قبيل التكرار، هذه صفة وهذه صفة: {عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} يقال: ساكنون، الأول في الخشوع، والثاني في المحافظة على الأوقات والشرائط والأركان.

فهذا له وجه قوي، وقد يكون ذلك من المرجحات.

في كثير من الأحيان ننظر إلى القول أحياناً لأول وهلة، فنقول: إن غيره أوضح، من جهة اللفظ، أو السياق، أو التبادر إلى الذهن، ولكن إذا نظرت إلى التعليل فإنك قد تقول: إن الراجح هو غير هذا، وهذا كثير في مسائل الفقه، بل حتى في أمور الناس وقضاياهم، لربما تستهجن التصرف، أو الرأي، وإذا سمعت علته عند

صاحبه، تقول: له وجه، فلا يستعجل الإنسان في تهجين الأقوال، أو في رمي أصحابها بالغفلة، أو الجهل، وإنما يتأنى ويسمع، فقد يكون لهم من النظر ما يحوله إلى قولهم ورأيهم.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}**: "السكون في الصلاة هو الدوام، قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن حبيب أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** أهم الذين يصلون دائمًا؟ قال: لا، ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران:

الدوام عليها، والمداومة عليها.

فهذا الدوام، والمداومة في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}**، وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة"[٧].

تأمل هذا التعليق في الطبعة الجديدة "ثلاث مجلدات" غير موجود في هذه ذات المجلدات الخمس، والفرق بين النسختين من بدائع التفسير الذي جُمع لابن القيم أن الطبعة الجديدة حذف فيها أشياء لا تعلق لها بالتفسير، استطرادات وأشياء، هذا من جهة.

من جهة أخرى في الطبعة هذه ذات المجلدات الخمس أشياء مبتورة، يبدأ الكلام مبتورًا، أو يترك في آخره مبتورًا، فروجعت هذه المواضع.

الأمر الثالث: هو أنه توجد نقولات عن ابن القيم، ومواضع لم تذكر في الطبعة ذات المجلدات الخمس، فأضيف ما أضيف، وربما بقيت أيضًا أشياء، لكن على كل حال الشامي –حفظه الله– أدرى بكتب ابن القيم، وأعرف، وأكثر ممارسة، فالمقصود ألا يهولنّك أن هذه ذات خمسة مجلدات، فتقول: ذهب اثنان، فصارت ثلاثة مجلدات، فتحرص على الطبعة القديمة، الطبعة الجديدة أفضل وأكمل، فيها مواضع ليست في القديمة مثل هذا.

في قوله –تبارك وتعالى–: **{فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ}** هذا الحق ما هو؟.

يقول: **نصيب مقرر لذوي الحاجات.**

هذا الحق المعلوم ذهب جماعة من السلف كقتادة وابن سيرين إلى أنه: الزكاة، وهو الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله–، ويدل على ذلك أمران، يعني يدل على ذلك قرينتان في هذا الموضع:

الأول: أنه وصفه بقوله: **{مَّعْلُومٌ}** وأنه: **{حَقٌّ}** فهذا الحق المعلوم هو الزكاة، وليس مطلق النفقات أو الصدقات هي الحق المعلوم.

والقرينة الثانية: هو أنه قرنه بالصلاة، والغالب في القرآن أن يقرن بين الصلاة والزكاة: **{يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}** [المائدة:٥٥].

---

٧ – مدارج السالكين (٢/٣٦٥).

وقد مضى الكلام على تعليل ذلك -يعني الاقتران بين الصلاة والزكاة كثيرًا في القرآن-، فهذا كله يدل على أن هذا الحق المعلوم: هو الزكاة، خلافًا لمجاهد -رحمه الله.

وهذا الحق المعلوم "للسائل والمحروم" هنا قال: "لذوي الحاجات".

السائل: ابن جرير يقول: السائل الذي يسأل المال، والمحروم، يقول: من حرم الغنى، فهو فقير.

وبعضهم يفسر المحروم بغير هذا، وقد مضى الكلام على ذلك.

وبعضهم يقول: المحروم هو الذي يعمل ويذهب ويتسبب، ولكنه لا يعود بطائل، يعني ليس بعاجز عن العمل، ولكنه يذهب ولا يرجع بشيء.

وبعضهم يقول: إن المحروم هو الذي لا يسأل، فقير ولا يسأل، ولا يتفطن له الناس، فيتصدقون عليه، أما الأول فهو الذي يسأل، وهذا الثاني يتعفف، مع أنه نقل عن بعض السلف كعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أن المحروم هو الكلب، لكن هذا التفسير المقصود به التنبيه على معنى قد يغفل عنه بعض الناس، أو يغفل عنه الكثيرون، هو لا يفسر المحروم بالكلب، هو يعرف المقصود بالمحروم، ولكنه ذكر صورة من صور الحرمان، أو فردًا من أفراد المحرومين، وإلا فإن المحروم هو الإنسان الذي يتصف بهذه الصفة، لكن هذا مثل: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [النساء:٤٣] ما جاء عن ابن عباس: أي في حال النعاس، هو يعرف معنى السكر، وأنه ليس النعاس، ولكنه ذكر حالاً قد يغفل الناس عنها، وهو أن الإنسان في حال مغالبة النعاس يكون مثل السكران، يريد أن يدعو لنفسه فيدعو عليها، يقرأ الفاتحة في التشهد، أو في السجود، فهذا يخلط كما يخلط السكران، فأشار إلى هذا المعنى الذي قد يُغفل عنه، وإلا فهو يعرف معنى السكر، وهو من علماء الصحابة، وأئمة التفسير، ومن أهل اللغة، فهنا المحروم حينما فسره بالكلب قصد بذلك أن الكلب يُزجر عادة ويطرد، وهو مشهور بهذا: {إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ} يعني تطارده: {يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} [الأعراف:١٧٦] فمثل هذا إطعامه لا يستهان به، امرأة -كما هو معلوم- غُفر لها -بغي من بغايا بني إسرائيل- بسبب شربة سقتها ذلك الكلب.

ليس هذا هو تفسير الآية، لكن المقصود أنك قد تسمع قولاً يكون في غاية الاستبعاد بالنسبة إليك، لكن هو معلل بهذا، موجه بهذا.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب، ويخاف العقاب، ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} أي: خائفون وجلون.

تأمل هنا في تفسيره: {يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} فجعل هذا التصديق بالقلوب والأعمال.

قد تقول: كيف يكون التصديق بالأعمال؟

{يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} هنا: يعملون عمل من يرجو الثواب، ويخاف العقاب، فحالهم وعملهم وواقعهم واقع المصدقين، لكن الإنسان قد يصدق بلسانه، ويعلم أن الآخرة حق، ولكنه في عمله يكون على حال من لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو حسابًا، فيقع في ما حرم الله عليه، ويأخذ ما لا يحل، ويتخوض في مال الله وفي أموال

الناس، وما إلى ذلك، كأنه لا يحاسَب، فهذا في واقعه وعمله على حال بعيدة عما يكون عليه أهل الإيمان والتصديق.

{وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} أي: خائفون وجلون.

سبق أن بينا أن الإشفاق خوف خاص، الإشفاق، والخشية، الخشية خوف مع علم بالمخوف منه، بخلاف الخوف المطلق، والإشفاق خوف مع رقة.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله -تبارك وتعالى.

يعني لا يكونون في حال من الأمن، بحيث إن الواحد منهم يكون قد اعتقد النجاة والسلامة، وأنه عند الله -تبارك وتعالى- بمكان، فضمن الثواب والجزاء الحسن والجنة، بل المؤمن في خوف دائم، ولهذا ذكر الله -عز وجل- عن أهل الجنة قولهم إذا دخلوا الجنة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** [فاطر:٣٤].

وفسر الحزن في هذا الموضع بالخوف؛ لأن الحزن في الأصل هو من جراء أمر فائت، أما الخوف فهو في أمر مستقبل.

فهذا الحزن الذي ذكروه في الدنيا فسر بالخوف، والإشفاق من الآخرة.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} أي: يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، ولهذا قال تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} أي من الإماء {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}.

وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون:١] بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وهذا استدل به على أن كل استفراغ للشهوة في غير هذين السبيلين: الأزواج والإماء، فإن ذلك مما حرمه الله -تبارك وتعالى.

كل استفراغ للشهوة بأي شيء كان، فإنه يحرم إذا كان في غير هذين الأمرين: الزوجة والأمة؛ لأنه هنا وصفهم بهذا الوصف وأطلقه: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}** وجاء بالاسم هنا الدال على الثبوت، فهذا وصف ثابت لهم، ثم استثنى وقال: **{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}** فدل على أن من استفرغ شهوته في غير هذا فهو من الملومين، يلحقه اللوم والمؤاخذة، قال: **{فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}** يعني الذين تجاوزوا حد الله -تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[٨].

وفي رواية: ((إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[٩].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ}** هكذا قراءة الجمهور بالجمع.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق رقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩).

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق رقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨).

وعلى قراءة ابن كثير بالإفراد: {لأَمَانَتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} هنا يشمل الأمانات التي ائتمنهم الله -عز وجل- عليها، فهي داخلة في هذا، والدين كله بهذا الاعتبار داخل فيه، فإن الله -تبارك وتعالى- يقول: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** [الأحزاب:٧٢].

وقد مضى الكلام على هذا، وأن ذلك يشمل الدين ابتداء من الاعتقاد، وكذلك شرائع الإيمان، وهذا لا ينافي ما يذكره بعض أهل العلم من تقسيم للبيان والتوضيح، من أن الدين منه ما هو شعائر، ومنه ما هو أمانات، الشعائر الأشياء الظاهرة كالأذان، وإطلاق اللحية، والحجاب للمرأة، وصلاة الجماعة، وما إلى ذلك، والأمانات هي الأشياء التي لا يطلع الناس عليها مثل الطهارة، كون الإنسان يصلي بطهارة، الناس لا يعرفون، فهذا مما يؤتمن عليه الإنسان، وكذلك أيضًا الصيام من الأمانات، ونحو هذا، فهذا كله داخل في الأمانات، فحقوق الله -عز وجل- ما ائتمن الله العبد عليه، ويدخل في ذلك هذه النفس، وهذا الجسد، فإن الله ائتمنه على ذلك، فليس له أن يتصرف فيه تصرفًا لا يحل، ومن ثَمّ فإنه ليس له أن يقتل نفسه، أو أن يعرضها للتلف، أو أن يتبرع بشيء من أبعاضه وأجزائه -التبرع بالأعضاء-، فإنه لا يملكها حتى يتبرع بها، فضلاً عن أن يبيعها، فإن الذي يبيع هو الذي يملك، والذي يتبرع هو الذي يملك، وإنما يملك هذه الأجساد ربُّها -تبارك وتعالى-، فأما الإنسان فهو مؤتمن عليها، يجب عليه أن يحافظ عليها، لذلك هؤلاء الذين يغرر بهم، ويُعطَون هذه الأوراق يملئونها، وهم لربما طالبات أو طلاب يأتيهم من يستدر عواطفهم في المدرسة، ويقول لهم: هذا بعد موتك، ويكون لك ذخرًا إلخ، فيملأ هذه الورقة وتبقى، فإذا حصل له شيء أو جيء به منقولاً في حادث أو نحو ذلك -هو لم يمت أحيانًا، وإنما قد يكون مما يسمى بالموت الدماغي، يعني لا زال في حكم الحياة شرعًا- جزروه، فقطعوه أوصالاً، وسلخوا جلده، وأخذوا منه كل عضو، حتى العظام وهو حي، يجزر وهو حي، يقطع وهو حي، تؤخذ أعضاؤه وهو حي، هذه جريمة، وقتل لنفس -والله المستعان-، فليس للإنسان أن يتبرع لا في حياته ولا بعد موته؛ لأنه لا يملك هذا، لكن الشيء الذي لا يتضرر به وينتفع به غيره، بل قد ينتفع هو ببذله، مثل الدم، إن كان لا يضره، فإن ذلك يحصل به فائدة للمتبرع، ويحصل به فائدة لغيره، لكن لا يجوز بيعه، ولا أخذ المكافأة عليه، يقال: نعطيك خمسمائة ريال، ليس له هذا.

هذا ما يتعلق بالأمانات التي ائتمنهم الله عليها، بقي الأمانات المتعلقة بالمخلوقين، مثل الودائع، فإنه يردها على أصحابها، وهكذا الديون، وحفظ الحقوق، حفظ الأولاد هؤلاء أمانة، الزوجة إذا تزوج امرأة -عقد عليها- فهذه أمانة في يده انتقلت إليه، يجب عليه صيانة هذه المرأة، والمحافظة عليها، والقيام عليها، بما يجب، فيأمرها بالحجاب، والعفاف، والستر، ويحملها على الفضائل، وترك الرذائل، كل هذا من القيام بهذه الأمانة، فلا يكون مضيعًا لها، فكل هذا داخل فيه، كذلك العهود والعقود التي تكون بين العبد وربه وبين العبد والمخلوقين، النذر أمانة، الكفارات أمانة بأنواعها، كذلك ما يعاهد به العبد ربه، وقل مثل ذلك في عقود وعهود المخلوقين، عهود الحرب والسلم، ما يحصل من حلف، وما إلى ذلك، وكذلك أيضًا في العقود بين الناس في المبايعات والشركات والأعمال مما يكون من قبيل الصناعات، وغيرها، فحينما يلتزم لهم بمدة

معينة، أو بصفة معينة، يؤديها لهذا العمل، أو بوقت يقضيه في عمله، أو في أحوال وأمور شارطوه عليها، فيجب عليه أن يؤدي ذلك، ولا يحتاج إلى من يتابعه ويراقبه، وينقب في أحواله، هل قام بذلك أو لا، هذه صفات أهل الإيمان، وما عدا ذلك فهو من صفات المنافقين: ((إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[١٠].

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} أي: محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها: {وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة:٢٨٣].

{وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} قراءة الجمهور في هذا الموضع بالإفراد: "بشهادتهم"، والقراءة التي نقرأ بها هي قراءة حفص، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع: **{بِشَهَادَاتِهِمْ}.**

الحافظ ابن القيم –رحمه الله– له تعليق في هذا، يقول –رحمه الله تعالى– معلقاً على قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ}**: "فيكون قائمًا بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة، إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعةً، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه –صلى الله عليه وسلم–: ((إنّي لأعلم كلمةً لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدتْ روحُه لها رَوحًا))[١١].

فحياة هذه الروح بهذه الكلمة، فكما أنّ حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أنّ من مات على هذه الكلمة فهو في الجنّة يتقلّب فيها، فمن عاش على تحقيقها، والقيام بها، فروحه تتقلّب في جنة المأوى، وعيشها أطيب عيش، قال تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات:٤٠-٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنةُ المعرفةِ والمحبة والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح والرضا به وعنه مأوى روحه في هذه الدار"[١٢].

هذا الموضع أيضًا في كلام ابن القيم غير موجود في هذه الطبعة ذات المجلدات الخمس، وإنما موجود في الطبعة الجديدة في ثلاثة مجلدات، مما يبين لك فضل هذه الطبعة المختصرة، وهي ليست مختصرة، لكن –كما سبق– حذف منها ما لا تعلق له بالتفسير.

ثم قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة، واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها، والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون:١] سواء، ولهذا قال هناك: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ

---

١٠ – المصدر السابق.

١١ – رواه أحمد، رقم (١٨٧)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح بطرقه".

١٢ – الجواب الكافي (١٩٦– ١٩٧).

الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:١٠-١١]، **وقال هاهنا: {أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسارّ.**

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر ذلك بما سبق: **{يُحَافِظُونَ}** يعني على مواقيتها وأركانها وواجباتها، وبنحو هذا قال ابن جرير -رحمه الله-، فيكون ذلك التكرار من أجل الاعتناء، إذا قلنا: إن الأول بمعنى الثاني، أي أن قوله: **{دَائِمُونَ}** هو بمعنى ما ذكر بعده في آخر هذه الأوصاف: **{يُحَافِظُونَ}**، **{دَائِمُونَ}** يعني في المحافظة على أوقاتها وشروطها، على هذا القول، فيكون ذلك لمزيد من الاعتناء، وهذا ترجع إليه عبارات السلف، كقول قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها... إلى آخره، كل هذا داخل فيه، إلا أن بعضهم حمله على التطوع في هذا الموضع، ولا دليل عليه، إلا أن يكون أراد التفريق بين الموضعين، يعني أن الأول في الفرائض، والثاني في التطوع، كما جاء عن ابن جريج -رحمه الله-، ولكن الذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك لا يختص بالتطوع.

وبعضهم يقول: إن الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل، لا يشتغل عنها بشيء، وأن المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون الصلاة إلا بها، شرائطها وأركانها وواجباتها، ونحو ذلك.

وبعضهم حمل المحافظة على حال تكون بعدها، بمعنى أنه لا يأتي بعدها بما يبطلها ويحبطها، ويحبط ثوابها، وهذا كأنهم نظروا إلى لفظ المحافظة من جهة، وأيضًا طلب المفارقة في المعنى بين الأول والثاني، فهنا في الموضع الأول: **{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}**.

وفي الموضع الأخير: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** فكأن هؤلاء نظروا إلى هذا، فقالوا: يحافظون عليها، فلا يذهب أجرها وثوابها بما يبطلها بعد أدائها.

وهذا -والله أعلم- لا حاجة إليه.

فكما سبق أن هذه الأخيرة: أن قوله: **{عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** قرينة احتج بها من قال: إن الموضع الأول الذي وصفوا فيه بالمداومة: أن ذلك المقصود به السكون في حال الصلاة، يعني الخشوع، ففرقوا بين الموضعين بهذا.

ويمكن التفريق بينهما: بأن المداومة تعني المحافظة، لا يصلي أحيانًا، ويترك أحيانًا، وقد يتضمن ذلك السكون فيها، الدوام بمعنى: السكون.

وأما الموضع الآخر: آخر هذه الأوصاف: **{هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** المحافظة عليها أن يأتي بما لا تكون الصلاة إلا به، ويدخل في ذلك الوقت والشرائط والأركان والواجبات، مع عدم تركها، والسهو عنها، لا يشتغل عنها بشاغل، فهو محافظ عليها.

فالمقصود أنهم وصفوا بوصفين فيما يتصل بالصلاة: الدوام، والمحافظة، فلان متصف بالدوام على هذه الصلاة، أو في هذه الصلاة، وكذلك المحافظة.

وقلنا: إن "على" في الموضع الأول: **{عَلَى صَلَاتِهِمْ}** يشعر بالمداومة على هذه الصلاة، أن يحفظ الوقت، ويداوم عليها بأن لا ينقطع ولا يترك فرضًا منها، وأن ذلك لو كان المراد به السكون في نفس الصلاة لقيل: في صلاتهم، ولكن هذه قرينة، وتلك قرينة، ولا شك أن التأسيس مقدم على التوكيد، كون الآية الثانية تؤسس

معنى جديدًا أولى من القول بأنها تؤكد المعنى السابق، لأهمية الصلاة، وكون الصلاة تذكر بوصفين لحال المصلين، في أول أوصاف أهل الإيمان وفي آخرها، لا شك أن هذا يدل على أهمية هذه الصلاة، وأنها ذات أثر بليغ في ترويض النفوس، ومداواة عللها، فيحصل لها السكون والطمأنينة، فلا تذهب بها المخاوف والعلل النفسية، فيكون العبد في حال من القلق والضيق والكآبة، بسبب هذه المكابدات: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد:٤] ولا يحصل له طغيان حينما تحصل له النعمة.

وهذه الموصولات مكررة لهذه الأوصاف، قال: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}.

كرر هذه الموصولات، فهذا يدل على أن كل وصف من هذه الأوصاف المذكورة بمنزلة، وأنه لجلالته يستحق أن يوصف، أو أن يستقل بموصوف منفرد، يعني كان يصح الكلام من جهة اللغة أن يقال: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}، وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وهم يصدقون بيوم الدين، وهم من عذاب ربهم مشفقون، وهم لفروجهم حافظون، وهم لأماناتهم وعهدهم راعون، وهم بشهاداتهم قائمون، وهم على صلاتهم يحافظون، لكن في كل وصف من هذه الأوصاف جاء بالموصول: "والذين هم" "والذين" "والذين" "والذين" كل وصف جعله بهذه المثابة، أبرزه، كل وصف من هذه الأوصاف هو بمنزلة، بحيث يستحق أن يستقل بموصوف على سبيل الانفراد.

{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} **[المعارج:٣٦-٤٤].**

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم مشاهدون له، ولِمَا أرسله الله به من الهدى، وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالا، فرقًا فرقًا، وشيعًا شيعًا، كما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} [المدثر:٤٩-٥١] الآية.

وهذه مثلها، فإنه قال تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد {مُهْطِعِينَ} أي مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: {مُهْطِعِينَ} أي: منطلقين.

يعني هنا الإهطاع هو الإسراع، "مهطعين" يعني: مسرعين، هذا استفهام أيّ شيء لهم حواليك مسرعين؟ {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} يعني مسرعين، يسرعون إليك، بماذا؟ ماذا يريدون بهذا الإسراع؟ ما المراد بهذا الإسراع؟ ما الغرض من هذا الإسراع؟.

بعضهم يقول: ما بالهم يسرعون إليك فيجلسون حواليك عن اليمين والشمال، ولا يعلمون بما تطالبهم به، أو بما تأمرهم به.

وبعضهم يقول: هذا الإسراع المراد به التكذيب {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} يعني يسارعون في تكذيبك، ويجلسون عنك يمنة ويسرة، في جماعات متفرقين في صحن الكعبة، وهم في أسوأ حال.

وبعضهم يقول: يسرعون إلى السماع منك، يأتون، تدعوهم ويتهافتون على المجيء، ليستمعوا، ثم بعد ذلك يحصل منهم الاستهزاء والتكذيب: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} يسرعون إليك ثم يكذبونك.

وبعضهم فسر ذلك بالإسراع بالنظر، ينظرون إليك، هذا قاله بعض السلف كالكلبي، ولكن يبدو أنه ليس من قبيل المعنى الظاهر المتبادر، والله تعالى أعلم.

وفسره بعضهم بما يقرب من معناه، فقال كقول قتادة: {مُهْطِعِينَ} أي: عامدين، يعني يقصدونك، لكن ليس هذا بمعنى الإسراع من حيث هو، وهكذا قول من قال: إن ذلك بمعنى مد الأعناق إليك، وهذا بمعنى قول من قال -كالكلبي-: إنهم ينظرون إليك {مُهْطِعِينَ} أي: بأنظارهم.

فما لهؤلاء الكفار يسرعون إليك: {قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} ما لهؤلاء الكفار في حال من الإسراع إليك إما بالتكذيب وإما بأنهم يبادرونه ويقبلون عليه، ولكن من غير جدوى، يعني من غير إيمان، وقبول لما تدعوهم إليه؟.

{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} يعني جماعات متفرقة، فهذا جمع عِزَة، والمقصود بها المجموعة أو العصبة من الناس، يجلسون جماعات متفرقة.

وبعضهم يقول: أصله من العِزْوة، يعني العَزْو، كل مجموعة -كل طائفة- تعتزي إلى غير ما تعتزي إليه الأخرى.

ولكن المشهور هو الأول، يعني جماعات متفرقة، لهذا قال صاحب الصحاح: إن العِزَة هي الفرقة من الناس، وتجمع على "عِزون" و"عِزِيّ".

{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} واحدها عِزَة، أي متفرقين، وهو حال من {مُهْطِعِينَ} أي في حال تفرقهم واختلافهم.

وقال العوفي عن ابن عباس: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} قال: "قبَلك ينظرون".

{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} قال: "العزين العُصب من الناس {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ} معرضين يستهزئون به.

وبنحو هذا قال كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، أي أن هؤلاء يجلسون عن يمين وشمال مع حال من الإعراض والاستهزاء.

وعن جابر بن سمرة: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خرج عليهم وهم حِلَق، فقال: ((ما لي أراكم عزين؟)) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير[١٣].

وقوله تعالى: {أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا} أي: أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟ {كَلَّا} بل مأواهم جهنم.

ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده، مستدلا عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ} أي من المني الضعيف، كما قال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ} [المرسلات:٢٠].

وقال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} [الطارق:٥–١٠].

ثم قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} أي: الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقًا ومغربًا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها.

وتقرير الكلام: ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـــ"لا" في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة.

وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله –تعالى– ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧].

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى في الآية الأخرى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:٨١–٨٢].

وقال هاهنا: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ} أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي بعاجزين؛ كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة:٣–٤].

وقال تعالى: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الواقعة:٦٠–٦١].

---

١٣ – رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، ورفعها عند السلام، وإتمام الصفوف الأُول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، رقم (٤٣٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في التحلق، رقم (٤٨٢٣)، وأحمد، رقم (٢٠٩٦٤).

واختار ابن جرير: **{عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ}** أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا، وجعلها كقوله: **{وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** [محمد:٣٨] والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأُخَر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ}** يعني: من ماء مهين.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسر قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ}** قال: "ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتي بـــ"لا" في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام"، يعني أن "لا" في هذا الموضع: **{فَلَا أُقْسِمُ}** نفي لمضمون كلام لهم من إنكار البعث والإعادة، وهذا قد مضى الكلام عليه في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فيما يتصل بدخول "لا" في القسم، هل هي متعلقة بمقدر، يعني أنها للنفي على بابها، "لا" لما تقولون، "لا" لما تزعمون، ثم أقسم.

أو أنها كما يقول بعضهم: زائدة إعرابًا لتأكيد القسم، أو أنها للنفي على بابها، بمعنى أن هذا الأمر لا يحتاج إلى قسم لوضوحه وظهوره.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}** جمع المشارق والمغارب، هنا الحافظ ابن كثير ذكر أن ذلك -يعني الجمع- باعتبار مشارق الكواكب ومغاربها، وقد مضى الكلام على مثل هذا، وأنه يمكن أن يكون المقصود به مشارق الشمس أيضًا ومغاربها، باعتبار أنها تتحول في سائر العام، فيكون لها في كل يوم مشرق ومغرب، فهي تنحرف في درجة الميل، صيفاً وشتاءً، فذات اليمين وذات الشمال، يعني إلى أقصى نقطة من تحولها في الجنوب إلى أقصى نقطة في تحولها في الشمال، ولذلك نشاهد تحول الظل صيفاً وشتاءً، فهي في طلوعها وغروبها يكون فيها درجة من الميل، كما هو معروف، تتحول هذه الدرجة هكذا في كل حين، حتى تكون إلى منتهى ذلك في الشتاء، ثم بعد ذلك تبدأ ترجع إلى منتهى هذا الميل صيفاً، فهذه كلها مشارق ومغارب باعتبار هذه الدرجات في ميلها، فبعض أهل العلم يفسر المشارق والمغارب: مشارق الشمس ومغاربها، بهذا الاعتبار.

وبعضهم يقول: مشارق الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، فهي تشرق وتغرب.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ}** قال: **أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه.. إلى آخره.**

ويحتمل أن يكون المعنى: أن يكون التبديل: **{أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ}** يعني أن الله -تبارك وتعالى- قادرٌ القدرة المطلقة على إنشاء الخلق، وعلى تبديلهم أيضًا، فهو يخلق ما يشاء، إما أن يكون ذلك بإعادة هذه الأجساد إعادة ثانية، بأتم وأكمل مما كانت عليه، أو أن يكون المراد بذلك أن يبدل الله -تبارك وتعالى- هؤلاء المخلوقين بخلق يخلقهم وينشئهم أتم وأكمل من هؤلاء، فهو على كل شيء قدير.

{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} قال: أي: بعاجزين.

وكذا قول من قال: بمغلوبين، يعني إذا أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا، لا يفوتنا شيء، ولا يعجزنا أمر.

الحافظ ابن القيم -رحمه الله- له تعليق على بعض هذه المواضع، قال -رحمه الله تعالى- معلقًا على قوله تعالى: **{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ}**: "وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزًا عظيمًا من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة، وما بعدها إلى موضع الحجة، والآية الدالة على وجوده ووحدانيته، وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى، لا يرسل إليهم رسولا، ولا ينزل عليهم كتابًا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعدما أماتهم خلقًا جديدًا، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبونني ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم؟.

ويشبه هذا قوله: **{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}** [الواقعة:٥٧] وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته، وصدق رسله، فدعاهم إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده، وصدق رسله، والإيمان بالمعاد"[١٤].

ابن القيم -رحمه الله- يبين وجه الارتباط بين قوله: **{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ}** مع قوله: **{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ}** ما وجه الارتباط بين هذين الأمرين؟، هو يذكر أن الإشارة إلى مبدأ الخلق مما يعلمون من النطفة، وما بعدها إلى موضع الحجة، والآية الدالة على وجوده ووحدانيته، يشير إلى هذا، إلى كماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى، فالذي خلقهم هذا الخلق وأنشأهم بهذه الأطوار لم يكن ذلك عبثًا منه، وإنما هناك أحوال وأطوار أخرى تعقبها، وأنهم يصيرون إليها، فيجازيهم على أعمالهم، فكيف يطمعون في دخول الجنة مع التكذيب؟!.

وقال -رحمه الله تعالى-: في قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ}**: "أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب، وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جَمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنى في موضع آخر، فقال: **{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}** [الرحمن:١٧] فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء في سورة الرحمن: **{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}** لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر، وأبي الجن، والبحرين، والجنة والنار"[١٥].

---

١٤ - شفاء العليل، ص (٣٦).

١٥ - التبيان في أقسام القرآن، ص (١٩٤- ١٩٥).

يعني الآن "المشرقين" مشرق الصيف والشتاء، يقصد أقصى نقطة في الصيف، وأقصى نقطة في الشتاء، فاعتبر الطرفين، فقال: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} أو الشمس والقمر.

وقال –رحمه الله–: "وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين، وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين.

وأما سورة: {سَأَلَ سَائِلٌ} فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتها بعد العدم، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع، إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب بها في مغرب.

وأما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يحب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده، فليس للمشرق والمغرب رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يُتخذ إله، ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:٢٣] فقال: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} [الشعراء:٢٨] وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات، وما حوته من الشمس والقمر والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه، ثم قال: {إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم، وخيراً منهم، كما قال تعالى: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء:١٣٣].

وقوله: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي لا يفوتني ذلك إذا أردته، ولا يمتنع مني، وعبر عن هذا المعنى بقوله: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده، فيفوت عليه، ولهذا عَدّى بـــ"على" دون "إلى" كما في قوله: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} [الواقعة:٦٠-٦١] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين، عداه بـــ"على" بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقتُه إليه، وسبقتُه عليه، فالأول: بمعنى غلبتُه، وقهرتُه عليه، والثاني: بمعنى وصلتُ إليه قبله"[١٦].

تأمل هنا: {لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ} يقول: أي: لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم، يعني خلقاً آخر.

والذي مشى عليه ابن كثير أن نفس الخلق يعاد بأتم مما كان.

وابن القيم يذهب إلى أنه خلقٌ آخر أطوع لله –عز وجل– منهم: {نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ}.

وهذا هو المتبادر أي الذي ذكره ابن القيم –رحمه الله–، هذا غير المعنى الذي ذكره ابن كثير، لكن كأن ابن كثير نظر إلى أن الكلام في الاحتجاج عليهم بقدرته على بعثهم، فيقول: قادر على إعادتهم بحال أتم، حيث

---

١٦ – المصدر السابق (١٩٥-١٩٦).

تستبعدون إعادة الأجساد، فالله يعيدها بحال أتم مما كانت عليه، وليس فقط بحالها التي كانت عليه، أو دون ذلك، يعني نظر إلى أن هذا من باب الرد عليهم.

لكن أيضًا هذا المعنى: أن الله قادر على أن ينشئ أيضًا خلقًا أكمل من هؤلاء، وأحسن حالاً، وأطوع لله منهم.

قال ابن القيم: "وقد وقع الإخبار عن قدرته سبحانه على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق، فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم، ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا، وذلك قوله: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** يعني بل يكونوا خيراً منكم.

قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده، فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله، فلم يستبدل بهم، وأما ذكره تبديل أمثالهم ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان، فقال في الواقعة: **{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [الواقعة:٦٠-٦١].

وقال في سورة الإنسان: **{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا}** [الإنسان:٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى: أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: **{وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا}** إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم.

قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل.

ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول، وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: **{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ}** [النساء:١٣٣] فيكون استدلالا بقدرته على إذهابهم، والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا"[١٧].

يعني هذا كأنه من باب اللزوم، إذا كان قادرًا على أن يأتي بأمثالهم فهو قادر على أن يأتي بهم، وهكذا إذا كان قادرًا على أن يخلق خيرًا منهم فهو قادر أيضًا على إعادتهم.

ثم قال تعالى: {فَذَرْهُمْ} أي: يا محمد {يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا} أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} أي: فسيعلمون غِبّ ذلك، ويذوقون وباله.

{فَذَرْهُمْ} أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

وقيل: في خوضهم في باطلهم، ولعبهم في دنياهم.

ذرهم **{يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا}** الخوض بالباطل، واللعب في دنياهم.

وهنا قال: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال ابن القيم -رحمه الله- معلقاً على قوله تعالى: **{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}**: "وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي، فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي، ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي

---

١٧ - المصدر السابق (١٩٦-١٩٧).

الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول، لابد له من هذين الأمرين"[١٨].

{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} أي: يقومون من القبور، إذا دعاهم الرب – تبارك وتعالى– لموقف الحساب ينهضون {سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون.

وقال أبو العالية ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها.

وقد قرأ الجمهور: "إلى نَصْب" بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب.

وقرأ الحسن البصري: {نُصُبٍ} بضم النون والصاد، وهو الصنم، أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النُّصُب إذا عاينوه.

{يُوفِضُونَ} يبتدرون أيهم يستلمه أول، وهذا مروي عن مجاهد ويحيى بن أبي كثير ومسلم البطين وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وأبي صالح وعاصم بن بهدلة وابن زيد، وغيرهم.

هنا قوله –تبارك وتعالى–: **{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ}**، **{الْأَجْدَاثِ}** يعني القبور.

{سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} يعني يسرعون إلى موضع الحساب.

هنا قال: **لموقف الحساب ينهضون، {سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}** قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون.

وهذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله–، يعني كأنهم يسرعون إلى شيء منصوب لهم، هذا معنى علم، شيء منصوب، نُصبَ لهم، فهم يسرعون إليه، فقراءة الجمهور بفتح النون وسكون الصاد: "نَصْب".

وقراءة ابن عامر وحفص بضم النون والصاد: "نُصُب".

والنُّصُب: **{كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ}** يقال: لما نُصبَ فعبد من دون الله –تبارك وتعالى–، فهذا النُّصْب، وكذلك النُّصُب، والجمع الأنصاب، فمثل هذا يختلف العلماء في محمله، فيما يتصل بكونه جمع نُصُب، يقول: الأنصاب جمع نُصُب، وهو جمع الجمع، نُصُب جمع، وأنصاب جمع الجمع.

وبعضهم يقول: إن النُّصُب جمع نصاب، وهو الحجر، أو الصنم الذي يذبح عليه، ومنه قول الله –تبارك وتعالى–: **{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}** [المائدة:٣].

وبعضهم يقول: كل ذلك بمعنى واحد، بحركاته المتنوعة: نَصْب، ونُصُب، كما يقول النحاس –رحمه الله. **{كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}** إلى غاية، وما يَنصب الإنسان إليه بصره يقال له ذلك أيضًا، فما نُصب للإنسان من راية، أو موضع، أيْ علم، شيء منصوب إلى شيء وضع لهم، يُدعون إليه، كعلم، ونحوه، أو راية تنصب لهم، فيسرعون إليها، فهذا: **{كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}**.

---

١٨ – المصدر السابق ص (٢٠٠).

بعض السلف كالحسن يقول: كانوا إذا طلعت الشمس ابتدروا إلى أصنامهم، يتمسحون بها، يعبدونها من دون الله -تبارك وتعالى-، لا يلوي آخرهم على أولهم.

والمقصود: أن هؤلاء يسرعون غاية الإسراع، {يُوفِضُونَ} الإيفاض هو الإسراع، يخرجون من قبورهم في حال من الإسراع إلى موضع الحساب، بهذه الصفة: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}.

وقوله تعالى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} أي خاضعة {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}.

آخر تفسير سورة: {سَأَلَ سَائِلٌ} ولله الحمد والمنة.

يقول هنا: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} أي: خاضعة {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة، يعني الجزاء من جنس العمل، {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} يعني تغشاهم ذلة، وهذا بمعنى قول قتادة: أي سواد في الوجه، فالرهق يعود إلى هذا، يعني ما يغشى الإنسان: {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}.

الحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا، يقول -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة:٢٤-٢٥]، ونظيره قوله: {وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [يونس:٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} [طه:١١٨] فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن، والعري الذي هو ذل الظاهر، وضده أيضاً قوله: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان:١١] فالنضرة عز الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله، ومثله أيضاً قوله: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان:٢١] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف:٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [الصافات:٦-٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم، ومثله قوله أيضاً: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} [غافر:٦٤] وقريب منه قوله تعالى: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة:١٩٧] ومنه قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران:١٠٦-١٠٧] فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن، ومنه قول امرأة العزيز: {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ} [يوسف:٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال، وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره وباطنه أحسن من ظاهره، وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن، قدرًا وشرعًا، والله أعلم بالصواب"[١٩].

---

١٩ - المصدر السابق، ص (٢٠١ - ٢٠٣).

وقال –رحمه الله–: "ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور، فقال: **{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}** أي يسرعون، والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمُّونها، وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمّون الصوت، لا يُعَرِّجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: **{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ}** [طـه:١٠٨] أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه، قال الفراء: "وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها".
وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده"[٢٠].

٢٠ – المصدر السابق، ص (٢٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة نوح

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح:١-٤].

يقول تعالى مخبرًا عن نوح -عليه السلام- أنه أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: {أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي: بيّن النذارة، ظاهر الأمر واضحه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة نوح -عليه الصلاة والسلام- من السور النازلة في مكة.

وهي تتحدث عن نوح -صلى الله عليه وسلم- وما جرى له مع قومه، ودعوته إياهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ} {أَنْ} هذه {أَنْ أَنذِرْ} أرسلناه إلى قومه: {أَنْ أَنذِرْ} يعني: بأن أنذر: {قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

باعتبار أن {أَنْ} يمكن أن تكون مصدرية، ويمكن أن تكون مفسرة، باعتبار: أنها مفسرة للإرسال، هذا الإرسال ما هو؟

أرسلناه: {أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ} أرسله من أجل النذارة، أرسله لينذرهم.

وإذا قلنا: إنها مصدرية يكون المعنى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} يعني: بإنذارهم.

{أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ} لإنذارهم من عذاب أليم.

وإذا قلنا: إنها مفسرة فهي تفسر الإرسال: {أَرْسَلْنَا نُوحًا}، {أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وهكذا في قوله: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}.

وهنا هذا العذاب الأليم ما هو؟

ابن كثير -رحمه الله- يقول: "أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم".

ما هذا البأس والعذاب الأليم الذي أنذرهم به؟.

عامة المفسرين يقولون: إنه عذاب القيامة، عذاب الآخرة قبل أن يقع ثم بعد ذلك يندمون ولات ساعة مندم.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بــ"العذاب الأليم" هنا: الطوفان، وهذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله-. والآية تحتمل هذا وهذا، فهو أنذرهم هذا العذاب الأليم، وقد يصدق ذلك على عذاب الدنيا والآخرة، ولا شك أن ما وقع لهم من الطوفان أنه من قبيل العذاب الأليم، حيث أغرق الله –عز وجل- الأرض ومن عليها.

{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي: بيّن النذارة، ظاهر الأمر، واضحه.

{مُّبِينٌ} بيّن النذارة، أو {مُّبِينٌ} لما فيه نجاتكم، وسعادتكم.

{نَذِيرٌ مُّبِينٌ} ما فيه صلاحكم وفلاحكم.

فــ{مُّبِينٌ} يحتمل أن يكون بمعنى: البيّن في نفسه، كما في الكتاب المبين، وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات سابقة.

ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى: أنه مبين لغيره.

فــ"بان" تأتي لازمة ومتعدية، تقول: بان الصبح، أي: ظهر، وتقول: القرآن مبين للهدى، وما إلى ذلك.

فــ{مُّبِينٌ} يأتي بمعنى: بيّن، أي: ظاهر، وبمعنى مبين لغيره.

{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} أي: اتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه.

{وَأَطِيعُونِ} فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

{يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ} أي: إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم.

و{مِن} هاهنا قيل: إنها زائدة.

ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل.

وتأمل هنا قوله: {يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ}.

{يَغْفِرْ} هنا جاءت مجزومة، باعتبار أنها جواب لشرط مقدر، هنا يقول: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ}.

أين فعل الشرط الذي هذا جوابه؟ يعني: لماذا جزم الفعل؟

جزم الفعل باعتبار أنه واقع في جواب الشرط.

فأين الشرط؟

الشرط مضمن فيما قبله، يعني: أنكم إن فعلتم ذلك، إن عبدتم الله، وأطعتموني فيما أدعوكم إليه "يغفر"، مثل: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [الصف: ١٠- ١١] إلى أن قال: {يَغْفِرْ لَكُمْ} [الصف: ١٢].

نفس ما يقال هنا يقال هناك، جاء الفعل مجزومًا، فالشرط مقدر: {يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ}.

ولذلك صرح به الحافظ ابن كثير، قال: يعني: إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم" هذا تقدير للشرط.

قال: و{مِن} هاهنا قيل: إنها زائدة، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل.

ماذا يقصد؟ لماذا قالوا: إنها زائدة؟.

قالوا: إنها زائدة؛ لأن هذا موضع إشكال وسؤال، وذلك أن الإيمان يجبُّ ما قبله، فإذا آمنتم غفر لكم جميع الذنوب، فما وجه دخول {مِن} هنا؟

إذا قلنا: إنها تبعيضية، يكون المعنى فإذا آمن الإنسان، فإن ذلك يكون سبباً لغفران جميع الذنوب، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمرو بن العاص -رضي الله عنه- لما بايعه بالإسلام، فلما قبض يده؛ كما في الحديث المعروف.

الشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا عمرو أما علمت أن الهجرة تجبّ ما قبلها من الذنوب؟، يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الذنوب؟))[1].

والجبّ بمعنى: القطع.

فهنا دخول {مِن} مع أن الإسلام يجب ما قبله، هذا باعتبار أنها تبعيضية.

إذا قلنا: إن "من" تفيد التبعيض، فما وجه ذلك؟

هذا موضع السؤال.

فبعضهم يقول: لما كانت ذنوبهم منها ما يقع قبل إيمانهم وإسلامهم، ومنها ما يقع بعده، فهو يخبرهم أنهم إن آمنوا يغفر لهم من ذنوبهم {مِّن} تبعيضية، أي: الذنوب التي كانت قبل الإيمان، ولكن ما يقع لهم بعد ذلك فهذا يحتاج إلى توبة، وهو تحت المشيئة.

وبعضهم يقول: يعني ما استغفرتموه منها، أي من هذه الذنوب.

وبعضهم يقول: {يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ} إن {مِّن} تبعيضية باعتبار أن التي تُغفر ما يتعلق بحقوق الله، وأما حقوق العباد فلابد من أدائها.

لكن القول: إنها تبعيضية، ليس محل اتفاق، فبعضهم يقول: إنها لبيان الجنس، أي أن "مِن" هذه بيانية، وهذا مضى الكلام عليه في مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤].

هل {مِن} تبعيضية؟

باعتبار: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ} طائفة، ليس جميع الأمة، باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله كل هذا من قبيل فرض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، كما هو المشهور الذي عليه الجمهور.

أو أن {مِن} بيانية {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} يعني: كونوا أمة، كما يقول الرجل لأبنائه: "أريد منكم أن تكونوا أبناء بررة" هو لا يريد أن بعضهم يكون بارًّا، وإنما الجميع يكونون بهذه الصفة.

---

١ - رواه أحمد (١٧٨٢٧)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم (١٢١) بلفظ: ".. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ((ما لك يا عمرو؟)) قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: ((تشترط بماذا؟)) قلت: أن يُغفر لي، قال: ((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟)).

فهنا: {يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ} بعضهم يقول: إنها لبيان الجنس، وكل ذلك أولى من القول بزيادتها.

مع أن من أهل العلم من قال: إن {مِنْ} هنا بمعنى: "عن"، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

{يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ} يعني: عن ذنوبكم، يصفح لكم عنها، ويتجاوز عنها، {يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ} هذا موضع السؤال أو الإشكال الذي جعل بعضهم يقول: إنها زائدة.

وجواب الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: أن القول بزيادتها في الإثبات قليل، يعني أنها تكون زائدة بسياق النفي، وقد ذكرنا مراراً: أن {مِنْ} تأتي قبل النكرة في سياق النفي، فتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، مثل: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ} [هود: ٦]، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ} يعني: وما دابة، فجاءت {مِنْ} هنا فزادت المعنى قوة، فالنكرة في سياق النفي للعموم: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} فإذا جاءت {مِنْ} قبلها فهذا يقوي العموم فيها، فيكون نصًّا صريحًا بعد أن كان ظاهرًا في العموم.

{وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم.

وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر، وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: ((صلة الرحم تزيد في العمر))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} يعني: إذا آمنتم وأطعتم رسوله حصل لكم هذا التأخير.

هذا التأخير ما المراد به؟

بعض أهل العلم ذهب إلى أن المراد بذلك: تأخير موت هؤلاء الذين آمنوا.

إلى متى؟

إلى أقصى الأمد الذي قدره الله -عز وجل- لهم.

هل يؤخر الأجل؟

الله -عز وجل- يقول: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ}، {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١]، وهنا: {وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} فما هذا التأخير؟، هل هو تأخير المد في الأعمار فيرد عليه هذا الإشكال؟

هذا الإشكال يجاب عنه بالجواب المعروف وهو: أن ما في علم الله -عز وجل-، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ لا يرد عليه التبديل والتغيير، ولكن الذي يحصل فيه التبديل والتغيير هو الصحف التي بأيدي الملائكة، فإن التقدير أنواع، والله -تبارك وتعالى- يقول: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩] وقد فسر بهذا، يعني: يكون محو الإثبات في الصحف التي بأيدي الملائكة، بمعنى: أن هذا قد

---

٢ – رواه بهذا اللفظ ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، ص (١١٥) رقم (٣٨٦)، والطبراني في الأوسط رقم (٩٤٣)، وثبت عند البخاري من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه)) كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

يكون عمره في الصحف التي بأيدي الملائكة خمسين سنة، ولكن الله -تبارك وتعالى- علم وقدر أن هذا الإنسان يصل الرحم، فينسأ له في أثره، فيزاد في عمره، فيكون سبعين سنة، هذا المحو والإثبات في الصحف التي في أيدي الملائكة.

ومثل هذا يقال أيضا: في القضاء والدعاء، ولا يقال: إن الدعاء ليس له فائدة، والله -عز وجل- قد قدر مقادير الخلائق، فإن الله يرتب بعض ما يقع على أسباب قدرية، أو أسباب شرعية، فمن الأسباب الشرعية: الدعاء، فالدعاء له فائدة، وهذا أمر دلت عليه نصوص الشرع، ودلت عليه المشاهدة.

فهنا الآية تحتمل هذا المعنى، يعني: لو بقوا على هذا العصيان لعاجلتهم العقوبة، ولو آمنوا لبقوا إلى الأمد الأقصى الذي علمه الله في اللوح المحفوظ، وهذا الذي قاله الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قال: "أي يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم".

ولهذا جاء بعده بما يتعلق بالطاعة والبر، وصلة الرحم، وأن ذلك يكون سببًا لزيادة العمر حقيقة.

ومعنى حقيقة: كما ذكرتُ من خمسين سنة إلى سبعين سنة مثلاً، ولكن يقابل ذلك -يعني: مالم يكن زيادة حقيقة- ما قاله بعض أهل العلم: إن المراد البركة، يعني: يحصل للأعمار بركة إن آمنوا، وتنزع البركة منها إن لم يؤمنوا، البركة يطول معها الوقت، ويكثر الإنجاز، فقد يكون اليوم بالنسبة لبعض الناس كأنه ساعة، لا يخرج معه بكبير طائل، ولا ينجز عملا يذكر، ولا يحصّل علمًا، وقد يكون بالنسبة لبعض الناس كثير البركة، فينجز الأعمال الكثيرة، وهذا أمر مشاهد في أول النهار، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم بارك لأمتي في بكورها)) [٣].

لو جلس الإنسان، واستغل وقته إلى حدود الساعة الثامنة، فهذا من الشيء المشاهد الذي نشاهده، ويتكرر، يفوق عمل يوم كامل، لو أن الإنسان نام هذا الوقت، وبدأ بعد ذلك يحاول أن يعالج الوقت، مع أشغال شتى، يبدأ ذلك من الضحى، أو نحو ذلك.

هذا الذي ينام إلى الضحى أو الظهر، تجد الأعمال التي ينجزها إلى أن ينام لا تقابل ولا تقارن مع ما ينجزه في أول النهار، لاسيما إذا افتتح يومه مع كتاب الله -عز وجل- قراءةً، وتلاوةً، وتدبراً، ومدارسةً، أو نحو ذلك، فهذا أعظم ما يكون في البركة.

المقصود أن من السلف من يقول بهذا، ومنهم من يقول بذاك.

مقاتل يقول كما قال ابن كثير وابن جرير: إنهم يؤخرون إلى منتهى الآجال، وكذلك أيضا بعض أصحاب المعاني مثل الزجاج والفراء، هذا مقتضى كلامهم، يعني: أنه يؤخرهم عن العذاب فيموتون غير مستأصلين بالعقوبة، لا يعاجلهم بعقوبة، فلا يموتون غرقًا، ولا حرقًا، ولا قتلا، كما قال الفراء أيضًا.

وكما هو معلوم في هذا المسألة كلام المعتزلة من أن المقتول مقطوع عليه أجله، وهذا الكلام غير صحيح، بل مات بأجله، ولكن هذا الأجل اقترن وارتبط بسبب هذه الجناية، وإلا فلن يموت أحد قبل أجله، لكن ما يقال هنا

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم (٢٦٠٦)، والترمذي، كتاب أبواب البيوع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم (١٢١٢)، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور، رقم (٢٢٣٦).

في صلة الرحم، وما إلى ذلك هو بأجل، وما كان من غير هذا البر والصلة فإنه أيضا يموت لأجله، فالذي في اللوح المحفوظ واحد لا يتغير، ثابت، فهذا أجلهم، ولكن هذا الأجل -كما سبق- من غير بر ولا صلة خمسون سنة في اللوح المحفوظ، فيموت هذا الإنسان وهو قاطع للرحم، وآخر يصل فيكون عمره في اللوح المحفوظ سبعين سنة.

فالذي تغير بالنسبة للثاني هو ما في الصحف التي بأيدي الملائكة، وإلا فكل أحد إنما يموت بأجله، والحافظ ابن كثير يقول: يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، يكون هذا على أحد المعاني التي تحتملها الآية.

فالجمهور يقولون: إن التأخير إلى أجل مسمى، بمعنى: أنه لا يعاجلهم بالعقوبة، فيموتون في منتهى الآجال من غير معاجلة، وكل ذلك بقدر الله.

وقوله: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر الله -تعالى- بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

تأمل في هذه الجملة: **{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ}** كيف يجمع بينها وما بين ما قبلها: **{وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}**؟، يعني: لا يرد ولا يمانع.

فهذا الأجل الذي إذا جاء لا يؤخر ما هو؟

هو الذي كتب في اللوح المحفوظ، فإذا جاء لا يؤخر، وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله.

وذكرنا: أن الذي في صحف الملائكة يحصل له التغيير: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [الرعد: ٣٩]. **{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ}**.

وبعض أهل العلم هنا في هذا السياق فسر: **{أَجَلَ اللَّهِ}** المشار إليه هنا: أي ما قدره لكم -على تقدير بقائكم على الكفر- من العذاب، إذا جاء وأنتم مقيمون على هذا الكفر والمحادة لله -عز وجل- فإن ذلك لا يؤخر عنكم، بل يقع ولابد، فيدعوهم إلى المبادرة إلى الإيمان قبل حلول النقمة.

وبعضهم فسر: **{أَجَلَ اللَّهِ}** هنا بالموت: **{إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ}** يعني: عند ذلك لا يمكنكم تدارك الإيمان، فيحصل لكم الندم.

وهذا الموت كما يقول بعضهم: يعني إذا حل بكم، سواء كان بعذاب ينزل، أو كان من غير عذاب، فإنه: **{لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** يعني: لو كنتم تعلمون شيئًا من العلم الذي ينفعكم لسارعتم وبادرتم لما تؤمرون به، أو يكون متصلا بالجملة التي قبله: لو كنتم تعلمون أن أجله إذا جاء لا يؤخر.

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ

سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} [نوح: ٥ - ٢٠].

يخبر الله -تعالى- عن عبده ورسوله نوح -عليه السلام- أنه اشتكى إلى ربه -عز وجل- ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بيّن لقومه، ووضح لهم، ودعاهم إلى الرشد، والسبيل الأقوم، فقال: {رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا} أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالا لأمرك، وابتغاءً لطاعتك.

{فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه، وحادوا عنه.

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦].

{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} قال ابن جريج عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم.

وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول.

{وَأَصَرُّوا} أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ}** يعني: دعوتهم إلى سبب المغفرة الذي هو الإيمان، هذا المعنى، **{جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}** يعني: لئلا يسمعوا.

{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} هنا استغشوا ثيابهم نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: تنكروا له لئلا يعرفهم، يعني: سد الآذان من أجل عدم السماع.

استغشاء الثياب ماذا يديرون به؟

هنا: تنكروا لئلا يعرفهم، يعني: من أجل أن لا يوجه إليهم الدعوة، ولا يخاطبهم بهذه الدعوة، ولا يستوقفهم.

وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول.

هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، يعني هم يسدون الآذان، لئلا يسمعوا.

لكن ما وجه استغشاء الثياب؟ إذا استغشى ثيابه هل يكون هذا الإنسان لا يسمع؟ استغشاء الثياب حينما يضع الثوب على رأسه أو رأسه ووجهه هذا لا يمنعه من السماع، لكن هؤلاء قالوا: هذا من باب المبالغة، فهو يسد أذنيه، ويستغشي ثيابه، هذا زيادة في سد الآذان.

وبعضهم يقول: فعلوا ذلك من أجل أن لا يروه، لا يطيقون رؤيته.

فهذا حمله بعضهم على أنه من قبيل الحقيقة، وهذا هو الظاهر.

وبعضهم قال: هو من باب الكناية، كناية عن شدة العداوة، فإن العداوة الشديدة تَحمل على ذلك، يعني: تحمل على كراهية النظر إلى البغيض المُعادِي.

وبعضهم يقول: من قبيل الاستعمالات المجازية عند أرباب المجاز، يقولون: مثل هذا "استغشوا ثيابهم" كما يقال: فلان لبس ثياب العداوة، فاستغشوا ثيابهم يعني: أنهم صاروا في حال من العداوة، لبسوا العداوة، كما يُستغشى الثوب، يعني: أصبحت العداوة تغطيهم، فإن الغشيان كما مضى في مناسبات شتى في قوله: **{هَلْ**

{أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١]، وفي قوله: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} [طـه: ٧٨] هو الشيء الذي يغطيه.

وهكذا الغشاوة التي تكون على البصر: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة: ٧] ما يغشيها أي: ما يغطيها.

فهنا ظاهر القرآن على أن ذلك حقيقة، فهم يستغشون الثياب لشدة العداوة، مبالغة في النفور، سواء كان ذلك من أجل أن لا يراهم، أو من أجل أن لا يروه، أو جميعًا، لا يراهم ولا يرونه، ومبالغة في المباعدة، ولئلا يسمعوا منه، أو يروه، فقد يخاطبهم بإشارة، أو نحو ذلك.

فهم سدوا الأسماع والأبصار التي هي طرق التلقي والتعلم، والإنسان جعل الله سمعه وبصره طريقين إلى قلبه: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [الإسراء: ٣٦].

فهما طريقان إلى القلب يحصل بهما التلقي والتعلم.

ولذلك مضى الكلام على مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ} [النمل: ٨١] هذا لا يبصر، ولكنه يأتي مقيدًا أحيانًا بقيد "إذا ولوا مدبرين"، فحينما يقيد بمثل هذا "إذا ولوا مدبرين" فإن توليهم حينما يولون أدبارهم مَن يخاطبهم هذا مبالغة أيضًا، بحيث لا يكون مستجيبًا بحال من الأحوال.

{وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا } أي: واستنكفوا عن اتباع الحق، والانقياد له.

{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا} أي: جهرة بين الناس.

{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ} أي: كلامًا ظاهرًا بصوت عال.

{وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} أي: فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا} يعني: جهرة، {ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ} أي: كلامًا ظاهرًا بصوت عال، يعني: دعاهم سرًّا وجهرًا، دعاهم وقلّب لهم الدعوة ونوّعها على أحوال شتى، وفي كل حين، ليلا ونهارًا، لم يدخر وسعًا في نصحهم.

{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ} يعني: {ثُمَّ} هذه تدل على تباعد الأحوال، وليس المقصود بها الترتيب، ليس المقصود أنه يقول: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ} يعني: بعدما دعوتهم جهارًا، أعلنت لهم بعد ذلك {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}، وإنما تدل على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من الاستقلال بواحد منهما، فهي ليست لترتيب الوقوع، يعني ليست بمعنى: أني فعلت كذا، ثم فعلت كذا، ثم فعلت كذا، يعني بعده، وإنما تدل على تفاوت الأحوال.

وقد مضى الكلام على هذا في مناسبات كقوله: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [البلد: ١٧] ليس المقصود الترتيب؛ لأن الإيمان يطلب أولا، يعني هذا ما يقال له: ترتيب في الرتبة وليس في الوقوع، هذه مراتب.

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} أي: ارجعوا إليه، وارجعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك؛ ولهذا قال: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا} أي: متواصلة الأمطار، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية.

وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا}.

ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر.

وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضًا.

قوله –تبارك وتعالى–: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا}** قال: أي متواصلة الأمطار.

يعني: المدرار السماء حينما تكون مدرارًا يعني: يتحلب منها المطر، من السحاب **{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم}** المطر ينزل من السحاب، متواصلة الأمطار.

المدرار، تقول: "هذه الدابة مدرار للبن" يعني: يتحلب منها اللبن كثيرًا متتابعًا متواصلا، وتقول: "عطاء الله مدرار" أي: متواصل متتابع.

أما ما يتعلق بقراءة هذا السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية فهذا يحتاج إلى دليل خاص.

ودلت هذه الآية على أن الاستغفار يكون سببًا لنزول الخيرات، ونزول الأمطار، وأن الإنسان يرزق بالأموال والبنين، كما أن ذلك يكون سببًا لرفع البلاء الذي ينزل به، حينما يكون الإنسان في شدة، فيحتاج إلى استغفار، وحينما يطلب الولد، فيحتاج إلى كثرة الاستغفار، يطلب المال يحتاج إلى كثرة الاستغفار، يطلب التوفيق في دراسته أو عمله، أو غير ذلك يحتاج إلى كثرة الاستغفار.

الاستغفار هنا كما في هذه الآية: **{اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}** صيغة مبالغة، كثير الغفر.

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا} إذا استغفرتم حصل لكم ذلك.

{وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} ما قال: يمددكم بأموال وأولاد، بأي اعتبار؟ باعتبار أن البنين وهم الذكور، أن ذلك هو المطلب الأكبر بالنسبة إليهم، فهو يخاطبهم بهذا؛ لأن الآباء يتقوون بهم، ويتجملون في المجالس بهؤلاء الأبناء، وهذا كثير في القرآن: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا}** [المدثر:١١-١٣] ما قال: وأولادًا، أو وبنات.

ومذهب الأحناف في مسألة الاستسقاء يحتجون بمثل هذه الآية على أن ذلك يستجلب بالاستغفار، والذي عليه الجمهور –كما هو معلوم– ودلت عليه السنة هو أن تصلى صلاة الاستسقاء.

وقوله تعالى: {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم {بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها.

هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أي: عظمة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك.

وقال ابن عباس: "لا تعظمون الله حق عظمته" أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

هذا يرجع إلى الذي قبله: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أي: عظمة، أي: لا تعظمونه حق عظمته، هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، قال: "أي لا تخافون من بأسه ونقمته".

كل هذا يرجع إلى معنى واحد {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أيّ عذر لكم في ترك هذا الرجاء؟، وفسر هذا الرجاء هنا: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} بالخوف، قال هنا: "أي: لا تخافون من بأسه ونقمته"، يعني {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أي لا تخافونه.

والوقار يأتي بمعنى: العظمة، من التوقير وهو التعظيم: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ} [الفتح:٩] بمعنى: تنصروه، {وَتُوَقِّرُوهُ} يعني: تعظموه.

فالوقار يأتي بمعني: التعظيم، لا تخافون حق عظمته، توحدونه، وتطيعونه: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}؟

وهذا معنى معروف في كلام العرب أن الرجاء يأتي بمعنى: الخوف، وقد مضى الكلام على هذا في الأعمال القلبية.

مع أن الغالب في الرجاء هو ظاهر معناه في الأصل الذي هو ما يؤمَّل من حصول المحبوب والخير، إذا كان ذلك قريبًا في نظر مؤمله، أما إذا كان بعيدًا فإنه يقال له: تمنٍّ.

هذا الفرق بين التمني والرجاء.

التمني للشيء الذي لا يقع، أو بعيد الوقوع، والرجاء للشيء الذي يكون قريبًا، مثل ذلك يقال أيضا في الطمع يكون في الشيء قريب المنال.

ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلي:

إذا لسعتْهُ النحلُ لم يرجُ لسعَها *** ....

يعني: لم يخف، ولكن هذا قليل في الاستعمال، ولكنه معنى صحيح: {لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} لا تخافون الله، لا تخافون له عظمة، لا تخافون عذابه، كل هذا يرجع إلى معنى واحد.

وهذا مثل ما ذكرنا في بعض المناسبات عن الحُزن والخوف، الخوف يكون من قبيل القلق لأمر مستقبل، والحُزن لأمر مضى، لأمر فائت، هذا الفرق بين الحزن والخوف.

وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف، يعني: لأمر مستقبل، وعلى هذا حُمل قوله تعالى عن قول أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر:٣٤]، ما المقصود به؟

فسر بهذا، حيث ذكر بعض أهل العلم أن الحَزن المقصود به الإشفاق والخوف من العاقبة والآخرة، فإذا دخلوا الجنة حصلت لهم الطمأنينة الكاملة.

مع أن من أهل العلم من فسر هذا على معناه الأغلب الأشهر الذي هو ترجية المحبوب، وقد جاء عن مجموعة من السلف كسعيد بن جبير ومعاوية وعطاء بن أبي رباح: مالكم لا ترجون لله ثوابا؟.

لكنهم قالو أيضا: ولا تخافون منه عقابًا، وهذا أيضًا ليس بقاطع أنهم فسروا ذلك بالمحبوب؛ لأنهم ذكروا معه خوف العقاب، لكن كأنهم نظروا إلى الغالب في الاستعمال، في استعمال لفظ الرجاء، أنه فيما يرجيّه ويؤمله من أمر محبوب.

يعني: حينما يقال مثلا: الخوف والرجاء، الخوف يقابل الرجاء، فهنا استعمل الرجاء بمعنى الخوف.

والغالب الذي عليه الأكثر أنهم فسروه بالخوف، وعباراتهم في هذا متقاربة، يقول مجاهد، والضحاك: "مالكم لا تبالون لله عظمة؟!" يعني: لا تخافون.

ويقول قطرب: إن هذه لغة حجازية، يعني: إطلاق الرجاء على الخوف.

ويقولون: إن بعض قبائل العرب يقولون: لم أرجُ أي: لم أبالِ، لكن من فسره بالمعنى المشهور هؤلاء قلة، يعني: قصروا التفسير عليه، فكما سبق في قول سعيد بن جبير وأبي العالية وعطاء أنهم جمعوا بين هذا وهذا.

لكن جاء عن قتادة: "مالكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان؟!، ففسر الرجاء بالمعنى المشهور، عاقبة الإيمان.

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} قيل: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ويحيى بن رافع، والسدي، وابن زيد.

وهذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله.

والطور في كلام العرب هو المرة، هذا طور، ثم طور آخر، وهكذا، فالطور يقال للمرة، يقال للحال، ويجمع على الأطوار: **{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}** نطفة ثم علقة... إلى آخره.

وبعضهم يقول: خلقكم أطفالا صبياناً، يكون غلاماً، ثم بعد ذلك يكون شابًّا، ثم يكون رجلاً، ثم بعد ذلك يكون كهلاً، ثم يكون شيخاً، فهذه أطوار، هكذا فسره بعض أهل العلم.

وبعضهم حمل ذلك على محامل أخرى، كاختلاف الأحوال في الأفعال والأقوال والأخلاق، فهم متباينون متفاوتون في هذا كله.

والمقصود كيف تعرضون عن عبادة من خلقكم بهذه الأحوال أو بهذه الأطوار، من نطفة إلى علقة، إلى غير ذلك، صرف خلقكم هذا التصريف؟

وذلك يدل على كمال علمه، وكمال قدرته –تبارك وتعالى.

وقوله: **{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}** هذا في محل نصب على الحال، **{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}** والحال أنه: **{خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}.**

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}؟ أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط، أو هو من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التسيير والكسوفات؟.

وإنما المقصود: أن الله سبحانه: {خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلا منهما أنموذجًا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستتر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس:٥].

قوله –تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}** هذا خطاب: **{أَلَمْ تَرَوْا}** يعني لمن يصلح له: **{كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}**؟ واحدة فوق واحدة، كما يقول ابن كثير، وهو الذي اختاره

ابن جرير –رحمه الله– **{طِبَاقًا}** يعني: متطابقة، يعني: أن بعضها فوق بعض، كل سماء فوق الأخرى، مطبقة عليها كالقباب.

شيخ الإسلام –رحمه الله– تكلم عن استدارة الأفلاك وعن كرويتها، فذكر أن السموات كذلك، إلى عرش الرحمن: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}** أي: متطابقة: **{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}**.

يقول الحافظ ابن كثير: "وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط، أو هو من الأمور المدركة بالحس؟

ما الذي جعله يورد هذا السؤال؟

الذي جعله يورد هذا السؤال توجيه الخطاب إليهم، بقوله: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}** فهل هذا الشيء يرونه؟ هل الرؤية هنا بصرية بما يدل على ذلك، أو أنه يكفي أن يروا السماء الدنيا فوقهم، وما فوقها فهو من قبيل الخبر، أو الرؤية هنا تفسر بأنها علمية؟.

فهذا منشأ هذا السؤال، هل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟، لماذا قاله ابن كثير؟.

لأن الخطاب **{أَلَمْ تَرَوْا}**، فهل هذا شيء يرونه، أو أنه شيء يتلقونه من جهة السمع فقط؟

وقوله –تبارك وتعالى–: **{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** القمر نور، والشمس ضياء: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا}** وقد ذكرنا في بعض المناسبات الفرق بين النور والضياء.

النور ما يوجد فيه الإنارة من غير حرارة، إشراق بلا إحراق، وأما الضياء فيكون به إنارة مع إحراق، فالشمس ضياء، والقمر نور، الشمس فيها حرارة واحتراق، تشتعل، وكذلك أيضا في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((والصلاة نور ... والصبر ضياء)) [٤].

الصبر لما فيه من الحرارة قيل له: ضياء، والله –عز وجل– يقول في سورة البقرة: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ}** [البقرة: ١٧] هذا الضياء من النار حرارة مع الإشراق والإنارة، قال: **{ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}** ما قال: بنارهم، فذهب النور وبقيت الحرارة والإحراق، هذا وجه التعبير بهذا، والله تعالى أعلم.

{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} باعتبار أنه إذا كان في إحداهن فهو فيهن.

وبعضهم فسر هذا الموضع **{فِيهِنَّ}** "في" بمعنى "مع" أي جعل القمر معهن نورًا، أي: خلقه مع خلقهن.

والأول أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} هذا اسم مصدر، والإتيان به هاهنا أحسن.

{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} هذا اسم مصدر يقصد **{نَبَاتًا}** يعني: أنه ناب عن المصدر، الأصل في تصريف الكلام نقول في المتعدي: أنبت، وفي اللازم: "نبت" فالرباعي أنبت ينبت إنباتاً، فهنا قال: **{نَبَاتًا}**.

فبعضهم يقول: هذا مصدر يعود على المعنى، يعني: ليس على اللفظ، فإنّ أنبت مصدره إنبات، فهنا قال: **{نَبَاتًا}**، الحافظ ابن كثير يقول: هذا اسم مصدر، والإتيان به هاهنا أحسن، فهم ينبتون من الأرض، بأي اعتبار؟

---

٤ – جزء من حديث رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

بعض أهل العلم يقول: باعتبار أن آدم -صلى الله عليه وسلم- خلقه الله من أديم الأرض: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ} [طه:٥٥] فهذا معنى كونهم نبتوا من الأرض، أي: خلقوا منها، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، يعني أنشأكم منها إنشاءً.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {نَبَاتًا} هو مصدر من أنبت، مع حذف الزوائد، أو أنه مصدر من فعل محذوف: {أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ} فنبتم {نَبَاتًا}.

لكن من قال: إنه محمول على المعنى، بمعنى أن {نَبَاتًا} إذا قيل: إنه مصدر، يرجع إلى معنى ما سبق، وليس إلى لفظ "أنبت" كما يقوله الخليل بن أحمد والزجاج.

ومعنى: {أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} يعني: خلقكم منها، أنشأكم منها.

مع أن بعضهم يقول: إن ذلك باعتبار الأطوار، يعني: من الصغر إلى الكبر، كما ينبت النبات، "مَن ثبتَ نبتَ" يعني: الذي يصبر يصل، ويرتفع ويحصّل، يبدأ الإنسان بطلب العلم: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ} [النحل: ٧٨].

فهذه طرق التعلم والتحصيل، فمن ثبت على العلم نبت، يعني يزيد هذا العلم مع الوقت، وينتفع ويحصّل.

{ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا} أي: إذا متم.

{وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} أي: بسطها ومهدها وقررها، وثبتها بالجبال الراسيات، الشم الشامخات.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} هذا لا ينافي كروية الأرض، وهذه قضية مقررة عند أهل العلم، معروفة حتى عند الفلاسفة قبل الإسلام، ولم ينكر المسلمون ذلك.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- له كلام في هذه المسألة معروف، وغير شيخ الإسلام، وهذا لا يخالف ما جاء في القرآن أنه جعل الأرض بساطاً، باعتبار أن الجرم الضخم لا يظهر فيه التدريج في الانحناء، درجة الانحناء في الجسم الكروي الكبير الهائل لا تظهر فيه بالعين الباصرة، هكذا، حينما ينظر الإنسان بنظره الضعيف، لكن هذا يظهر له لو أنه كان ذلك عبر وسائط ووسائل وأجهزة، فلو نظر الإنسان مثلا عبر هذه الصور التي تلتقط في الأرض من الأقمار الصناعية مثلا، أو نحو ذلك، مما يصور من الفضاء، فهذا يظهر فيه جليًّا كروية الأرض، لكنه لا يظهر لأنظارنا الضعيفة هذه حينما نمشي ندب أقل من الذرة، في أنحائها وأرجائها، فلا يظهر هذا التدريج لضآلة الإنسان وضعفه، فماذا عسى أن يرى؟ بضعة كيلو مترات؟ هذه لا تظهر فيها درجة الانحناء.

فهي بساط بأي اعتبار؟

باعتبار ما نشاهده، فخاطبهم بما يشاهدون، وخروج الخطاب هذا المخرج يعني: باعتبار حال المخاطب، هذا كثير في القرآن، وأنواع، وقد ذكرت شيئًا من ذلك في الكلام على قواعد التفسير، أنواع المخاطبات التي روعي فيها حال المخاطب، منها هذا، والله أعلم.

{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} يعني: السبل هي الطرق، الفجاج الواسعة.

وبعضهم يقول: الفج هو الطريق بين الجبلين.

وابن جرير فسره بمطلق الطريق، جمع فج، وهو الطريق، هكذا من غير قيد {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا} لكنه ذكر السبل هنا، فالسبل هي الطرق، الفجاج يُشعر –والله أعلم– أن المقصود يعني: واسعة.

وابن كثير –رحمه الله– قال: لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها، وأرجائها وأقطارها.

يعني: باعتبار أن الفج الناحية.

وقد مضى الكلام على هذا: {يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧] ما المراد بالفج، الطريق بين الجبلين، أو الطريق من غير قيد.

{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} أي: خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها، وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح –عليه السلام– على قدرة الله، وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناءً، والأرض مهادًا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد، ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له، ولا عديل له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– في قوله تعالى: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أي: لا تعاملونه معاملةَ مَن توقرونه، والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالى: {وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح:٩].

قال الحسن: "مالكم لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرونه!"

وقال مجاهد: "لا تبالون عظمة ربكم!".

وقال ابن زيد: "لا ترون لله طاعة!".

وقال ابن عباس: "لا تعظمون الله حق عظمته!".

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله، وعرفوا حق عظمته وحَّدوه، وأطاعوه، وشكروه، فطاعته سبحانه، واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب، ولهذا قال بعض السلف: ليعْظُم وقارُ الله في قلب أحدكم أن يذكره عند ما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به، كما تقول: "قبح الله الكلب، والخنزير والنتن" ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره: أن لا تعدل به شيئًا من خلقه لا في اللفظ، بحيث تقول: "والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد"[٥].

كل هذا من خلاف توقير الله –عز وجل-: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} بعض الناس يقول: أنا أرجع من الجامعة، وأرجع من العمل، وأنام الظهر؟.

فيُسأل هذا يقال: هل تنام على الاختبارات؟.

---

٥ – الفوائد، ص (١٨٧–١٨٨).

الجواب المباشر: لا.

{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} لا تعظمونه حق التعظيم، لماذا إذا أمرك من تعظمه فإنك تستجيب، وإذا أمرك الله -عز وجل- لا تستجيب؟!.

فلا تجعل طاعته فضلة، يعني: أن ذلك إن حصل وإلا فالأمر سهل؛ كأنه شيء زائد، ليس بشيء أساسي، ويجعل طاعة الله، وقراءة كتابه، والاشتغال بذكره من الأمور الفضلة، إذا دخل مسجدًا فتح المصحف، ما حصل ليس بالضروري: **{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}**؟

وهكذا أيضا حينما يقول: إن حق الله مبني على المسامحة، هو صحيح أن حق الله مبني على المسامحة، يقال عند المقارنة مع حقوق المخلوقين؛ من أجل أن تؤدى: إن الأصل فيها المشاحة، وأما حق الله فالأصل فيه المسامحة، لكن ليس ذلك ليتخذ ذريعة لتضييع حقوق الله -عز وجل-، يتخذ ذلك سبيلا للإضاعة والتفريط، فيقال: حقوق الله مبنية على المسامحة.

دخلت امرأة النار في هرة، وأخرج آدم من الجنة من أجل أكلة، وأمر بالقطع بسبب ربع دينار، وكذلك الرجم في إيلاج قدر حشفة.

قال ابن القيم: "فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي الخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته في قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم"[٦].

-نسأل الله العافية- ينظر الناس إليه بنظر يشنئونه به، يحتقرونه ويبغضونه، وإن كانوا يخافونه، ويحسنون إليه، ويتصنعون اتقاءً لشره، لكن ليس في قلوبهم محبة، ولا توقير، ولا تعظيم، ولا يكون له هيبة في قلوب الخلق، فتلك مظاهر مصنوعة لا تؤثر توقيرًا ولا هيبة بحال من الأحوال، هذا كله في غاية الأهمية، لا يوقر الله -عز وجل-، تجده يسعى في توقير المخلوق، وتعظيم المخلوق، وينظر إلى لحظاته، وسكناته، وحركة عينه، وإشارة يده، أو نحو ذلك، ماذا يريد، وماذا يطلب، ويتفانى في هذا، ولكن في حق الله -عز وجل- تجد الإهمال، والتضييع الكامل أحيانًا، ونفس هذا الذي يتفانى في إرضاء مخلوق في المقابل الصلاة مضيعة، والذكر قد جف لسانه منه.

قال ابن القيم: "ومن وقار الله: أن يستحي من اطلاعه على سره وضميره، فيرى فيه ما يكره.

ومن وقاره: أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس" [٧].

إذا خلا لا يجترئ على ربه -تبارك وتعالى- وعلى حدوده ومساخطه: **{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}** لماذا يجعل ربه أهون الناظرين إليه؟.

---

٦ -المصدر السابق، ص (١٨٨).

٧ - المصدر السابق.

قال ابن القيم: "والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟، القرآن والعلم وكلام الرسول صلات من الحق، وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك، فلا ما وردَ إليك وعظَكَ، ولا ما قام بك نصَحَكَ، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبة وعظاً وانزجارًا، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه، فالضرب لم يؤثر فيه زجرًا، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه"[٨].

وقال ابن القيم –أيضا–: "قالوا في تفسيرها –أي: تفسير قوله: **{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}**– ما لكم لا تخافون لله –تعالى– عظمة، وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يُعارَضا بترخص جافٍ، ولا يُعرَّضا لتشديد غالٍ، ولا يُحْمَلا على علة توهن الانقياد"[٩].

"ولا يحملا على علة" هذا في نصوص الوعيد، أحيانا تجد بعض النصوص مثل: **{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ}** [النساء:٩٣] وما إلى ذلك، فتفسر أحياناً بتفسيرات توهن هذا الزجر وتضعفه في قلوب الناس، ((والله لا يؤمن، والله لا يومن، والله لا يؤمن)) قيل: من يا رسول الله؟ قال: ((الذي لا يأمن جاره بوائقه))[١٠].

فيفسر هذا بتفسيرات: لا يؤمن الإيمان الكامل كذا..، وما شابه ذلك من النصوص الواردة في الوعيد، ولهذا كان مثل الإمام أحمد –رحمه الله– لا يرى التعرض لمثل هذا؛ لئلا يذهب مقصود الشارع من الزجر، فتفسر بتفسيرات يقال: "إيه، هذا أصلا محمول على كذا، وهذا أصلا محمول على كذا" ولا يحصل المقصود من زجر الناس، فهذا مهم، لا توهن هذه الزواجر، لكن قد يحتاج إلى بيان ذلك؛ لئلا يحصل غلو، فتحمل النصوص الواردة في مثل هذا على أحكام غير صحيحة، كتكفير من فعل الكبيرة مثلا، فهنا يحتاج أن يبين، يقال: هذا محمله كذا، وهذا محمله كذا، عند الحاجة.

وقال ابن القيم: "ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق –عز وجل– تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه –عز وجل– برسالته التي أرسل بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله –عز وجل– واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله –تعالى– ونهيه دالا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصدق وصحة العقيدة، والبراءة من النفاق الأكبر"[١١].

نحن نورد مثل هذا للفت الأنظار إليه، وإلا فإني أعرف أن هذه القراءة السريعة له لا تكفي، ولا تفي بالمطلوب، ولكن من أجل أن نتفطن لما وراء هذا من المعاني والهدايات.

---

٨ – المصدر السابق.

٩ – الوابل الصيب، ص (١٠).

١٠ – رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦).

١١ – الوابل الصيب، ص (١٠).

قال تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} [نوح:٢١-٢٤].

يقول تعالى مخبرًا عن نوح -عليه السلام- أنه أنهى إليه -وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء- أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة، والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا أبناء الدنيا، ممن غفل عن أمر الله، ومُتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: {وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا} قرئ: {وَوَلَدُهُ} بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب.

وقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} قال مجاهد: {كُبَّارًا} أي عظيمًا.

وقال ابن زيد: {كُبَّارًا} أي: كبيرًا.

والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب، ورجل حُسَان وحُسَّان، وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد.

والمعنى في قوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا} [سبأ:٣٣] ولهذا قال هاهنا: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح:٢٢-٢٣].

وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، روى البخاري عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ.

أما "وَد" فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما "سواع" فكانت لهذيل، وأما "يغوث" فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما "يعوق" فكانت لهمدان، وأما "نسر" فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء لرجال صالحين من قوم نوح -عليه السلام-، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم عبدت.

وكذا روى عن عكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق نحو هذا، وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذه أنام كانت تعبد في زمن نوح.

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس: "ويغوث ويعوق ونسرا" قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق إلى العبادة لنا إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول نوح -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} يعني: مكرًا عظيمًا كبيرًا.

هذا المكر الكبار ما هو؟

بعضهم يقول: هذا المكر الكبار هو أنهم حرضوا سفهاءهم على قتل نوح -صلى الله عليه وسلم-، أو أن ذلك بكونهم غرروا بالناس بما أوتوا من المال والولد، حتى ظن الضعفاء أنهم على الحق؛ لكونهم أوتوا هذه العطايا والهبات الدنيوية.

وبعضهم كالكلبي يقول: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} بما نسبوا لله -عز وجل- من الصاحبة والولد، يعني: والشركاء.

وقول مقاتل: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} أي: أنهم أمروا أتباعهم بقولهم: {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا} إلى آخره.

فهذا المكر الكبار مبهم هنا: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} يمكن أن يقال: هو ما واجهوا به دعوة نوح -صلى الله عليه وسلم-، فكانت هذه النتائج المرة، حيث بقي فيهم هذه المدة الطويلة: ألف سنة إلا خمسين عامًا من غير استجابة، هل كان هكذا والدعوة مسترسلة بينهم لا تجد ممانعة ولا محاربة، ثم بعد ذلك يحصل مثل هذا؟ ما يحصل إيمان في هذه المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عاما؟!

الواقع أن هذا يدل على أن نوحًا -صلى الله عليه وسلم- قد واجه في دعوته أذى كثيرًا، ولهذا فهو من أولي العزم من الرسل، فقد صبر صبرًا طويلا على هؤلاء القوم، فكانوا يواجهون دعوته، ويضللون الناس، ويزيلون كل أثر لمخاطبته، ووعظه لهم.

{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} "مكروا" بتضليل الناس، وإزاغتهم، والحيلولة -إن صح التعبير- بين هؤلاء الناس وبين نوح ودعوته، وما جاء به من ربه -تبارك وتعالى-، كأنهم ضللوا هؤلاء، وحصنوهم -نسأل الله العافية-، فلا يقبلون منه قليلا ولا كثيرًا، حتى صار إلى حال من اليأس، فقال: {إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}.

اتبعوا هؤلاء الملأ والكبراء من الكافرين الضالين العتاة على الله -عز وجل.

وما كان لهؤلاء الكبراء أن يدعوا نوحًا -صلى الله عليه وسلم- ودعوته كما هو معروف، فإن الملأ كما قص الله -تبارك وتعالى- هم أعداء الرسل.

هذا المكر الكبار مبهم هنا، لكنه معلوم في جملته، وإن لم تذكر تفاصيله، ولا حاجة إلى ذلك، فإن هذا المكر واقع مع جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وأتباع الرسل في كل زمان: {وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم:٤٦] فهذا لعظم ودقة هذا المكر، والتخطيط للفساد، ونشر الباطل.

هنا: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} فجاء على هذا الوزن: {كُبَّارًا} ليدل على المبالغة أنه ليس بمكر كبير فقط، بل في غاية الكبر، وهذا المكر الذي يكون في غاية الكبر لا يكون وارداً وصادراً على سبيل البديهة، يعني: من غير روية، وتفكير، وتخطيط، وإنما يكون بعد إعمال النظر، والبحث في كل السبل التي من شأنها أن يحصل بها مطلوبهم بالفساد والإفساد.

وكان هؤلاء أول قوم وقع فيهم الشرك بعد أن كان الناس على التوحيد، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "عشرة قرون على التوحيد"، ثم بعد ذلك وقع الشرك، وكان هذا الشرك أول ما وقع بسبب التصاوير.

صوروا هؤلاء الذين صاروا يعبدونهم -وكانوا قوما صالحين-؛ من أجل أن يتذكروهم، الهدف هو الذكرى التي تنشط للعبادة، هذا الغرض، فهذه الوسيلة -بزعمهم- إلى مطلب صحيح، وهو النشاط في العبادة، ولكنها وسيلة فاسدة.

والوسائل المحرمة لا يمكن أن يتوصل بها إلى مطلوب صحيح، ولذلك كانت الغاية الشريفة لا تبرر الوسيلة، لابد أن تكون الوسائل سليمة صحيحة.

والتصاوير محرمة، وقد حرمت لعلتين اثنتين، هذه هي العلة الأولى، وهي التي جاءت في عدد من الأحاديث: ((إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح -هذه كلها ذرائع- فمات، بنوا على قبره مسجدًا))[١٢] مثلا، فبناء القبور على المساجد وسيلة وذريعة إلى وقوع الشرك، وعبادة غير الله -عز وجل.

تصوير هذه الصور، لما ذكرت أم المؤمنين لما جاءت من الحبشة للنبي -صلى الله عليه وسلم- تلك التصاوير، ذكرت له ذلك في مرض موته -صلى الله عليه وسلم-، يعني: بعد حين من مجيئها، فهي تحكي ما شاهدت في أرض الحبشة من تلك التصاوير في الكنيسة، فماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

وصف هؤلاء بأنهم: ((شرار الخلق عند الله يوم القيامة)) [١٣].

فالذريعة أو العلة الأولى التي من أجلها حرمت التصاوير، هي: أنها ذريعة من ذرائع الشرك.

وإذا كانت كذلك، فإن هذه الذريعة موجودة بجميع أنواع الصور، سواء كانت من قبيل التماثيل، أو كانت من قبيل الرسم باليد، أو كانت من قبيل التصوير الفوتوغرافي، أو كانت من قبيل التصوير بالفيديو.

والقاعدة: أن العلة متى كانت متحققة أكثر في نوع من هذه الأنواع فإن ذلك يكون التحريم والمنع منه أشد.

يعني: هذه التصاوير التي هي رسم باليد محرمة بالإجماع، وهذه التصاوير الفوتوغرافية، أو التي تكون بالفيديو لا شك أن النفوس تنجذب إلى التصوير المطابق للواقع أكثر من انجذابها إلى الرسم باليد.

وهذا أمر مشاهد ومعلوم، فأنت حينما تشاهد رسما باليد لمن تعظمهم، أو لا تعظمهم، صور تعرض في متاحف قبل مائة سنة، أو قبل مائة وخمسين سنة، أحيانًا لا يعظمون، عبارة عن مجموعة من البادية عند بئر معهم حمار -أعزكم الله- وجحش، ومعهم أطفال كبار وصغار، فيجلس الإنسان ينظر طويلا لهذه الصور، يقف أمامها وينسى نفسه، فإذا كانت هذه الصور فوتوغرافية غير ملونة، جلس ينظر إلى كل شيء، تقاطيع الوجوه والعمائم، والطول والقصر، والثياب والدواب، وما حولهم من المتاع وغيره.

فإذا كانت هذه الصورة ملونة كان الانجذاب إليها أكبر، فإذا كان ذلك عرضًا تتحرك فيها هذه الصور، وينطق أصحابها فلا شك أن الانجذاب إلى هذا أكبر، فالعلة متى كانت متحققة في حال من هذه الأحوال، أو صورة

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد، رقم (٤٢٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٢٨).

١٣ - المصدر السابق.

من هذه الصور، أو نوع من هذه الأنواع فإن ذلك يكون أدعى للتحريم، كما هو معلوم، فهذه العلة موجودة، ولا تحتاج إلى أن يقال هنا: إن هذا ليس بمضاهاة، وإن هذا مضاهاة، هذا لا علاقة له بالمضاهاة أصلا، هذه موجودة.

تبقى العلة الثانية، وهي: المضاهاة هل هذا يدخله المضاهاة أو لا يدخله المضاهاة؟

فلو فرض أن هذا تدخله المضاهاة تبقى العلة الأولى، ما الذي أزالها، وهي تكفي لوحدها في التحريم، لكن الناس تتساهلوا كثيرًا في هذا.

ومن يحتجون بفتواه، الواقع أنهم يأخذون جزءًا من هذه الفتوى، ويتركون النصف الثاني منها، الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– يقول: ليست مضاهاة، لكن لا يجوز الاحتفاظ بالصور، ولا يجوز تعليق الصور، يعني: يجب أن تتلف، لكن العملية ليست مضاهاة، فما بالهم يحتفظون بالصور؟.

وما كنا نعرف صدق توبة الإنسان قبل نحو ثلاثين سنة وعشرين سنة إلا إذا جاء بالألبومات وأحرقها، هذا أول عمل يقوم به.

نعرف به أن الرجل جاد وصادق، صور قديمة له ولذويه يتلفها، ويحرقها، والآن يتكاثرون بالصور، ويصورون كل شيء، يصورون أنفسهم وهم يدعون، وهم يقرأون القرآن، وهم يطوفون، وهم يسعون، وهم يصلون، في كل حال من الأحوال، يصورون أنفسهم.

للأسف كنا نعرف عن بعض الشرقيين، ونعجب من فتنة هؤلاء بالتصاوير، وأصبحنا مثلهم، في كثرة الضحك والتنكيت، وخفة الدم الزائدة التي تنبئ عن خفة عقول.

وكثرة التصوير هذا كان يعرف عند بعض الشرقيين، كنا نعجب منهم، من كثرة هذا الضحك عندهم بدون سبب، أو لأتفه الأسباب يتساقطون ضحكًا، وكل واحد معلق "كاميرا" عنده يصور كل شيء، يمشي ويصور خلْق هؤلاء، وأصبحنا اليوم مثلهم في خفة الدم، وفي كثرة التصوير، فهذه العلة الموجودة، أما مسألة المضاهاة هل هي موجودة، أو غير موجودة فأنا لا أناقش الآن في هذا، مع أني أعتقد أنها موجودة، لكن هذا التساؤل والتوسع في أمر يدور بين حالين، أنه من أكبر الكبائر: ((يخرج عنق من النار يوم القيامة)) ويقول: ((وكلت بثلاثة)) وذكر منهم: ((المصورين))[14]، ((إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون))[15] أو أنه مباح؟ أين الورع على الأقل في هذا المقام؟ أين الورع بين شيء من أكبر الكبائر أو أنه مباح؟.

ويتوسع فيه هذا التوسع، فالمسألة تحولت إلى استحلال، حيث صار الذي ينكر التصوير غريبًا في الناس، وصار الناس يضعون صورهم بلا مواربة، يضعها في حسابه على "تويتر"، يضعها في كل مكان، ويصور، وينزل هذه الصور للناس، ويتبجح بهذا، ولا يرى فيها أدنى غضاضة، وإلى الله المشتكى، والله المستعان.

بعض الناس يقول: أيّ عبادة؟ فنقول: "إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل".

---

١٤ – رواه أحمد، رقم (٨٤٣٠) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٣٠٦١).

١٥ – رواه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، رقم (٥٩٥٠)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٩).

هذا شرك وقع عليه الناس بعد آدم -صلى الله عليه وسلم-، مع قرب العهد، وأصروا هذا الإصرار، وبقي نوح فيهم هذه المدة ألف سنة إلا خمسين عاماً، شرك؛ بسبب التصاوير، ويثبتون عليها هذا الثبات، ويغرق الله الأرض ومن عليها.

وإلى اليوم في مشارق الأرض اذهب اليوم إلى الهند، يوجد أسواق كاملة لآلهة الأغنياء، هذه تصنع من أشياء ثمينة، وهناك أسواق كاملة لصناعة الآلهة للفقراء، من أشياء رخيصة، أسواق، وانظر إلى الأسواق في تلك البلاد في الشرق، وفي الغرب أيضًا، وفي المطارات، تدخل محلات كاملة كلها أصنام، أصنام آلهة تعبد، أنواع الآلهة، إله التناسل، وإله... بأوضاع وأحوال قبيحة، وهذه يأخذونها معهم ويتعبدون.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: هؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل" يقول: "فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت".

وتأمل هنا أنه خص هذه: **{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ}** ومنها: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، هذه من ضمن الآلهة، فلماذا خصت: **{لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}** إلى آخره؟

بعض أهل العلم قال: خصت بذلك؛ لأنها أكبر تلك الآلهة، وأعظم تلك الآلهة عندهم.

وتأمل أن هذه الآلهة -هذه المعبودات الباطلة- هي التي عبدتها قبائل العرب، وأهل السير والأخبار يذكرون في هذا عمر بن لُحيّ الخزاعي الذي رآه النبي -صلى لله عليه وسلم- يجر قصبه في النار، فهو أول من غير دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأول من سيب السوائب(١٦).

يقولون: إنه قدم من أرض الشام، ومر بالبلقاء، ووجدهم يعبدون أصنامًا، فأخذ منها، فجاء بها إلى مكة، فعبدتها العرب.

ويقال: إنه كان له رَئِيٌّ من الجن، وإنه جاءه في نومه، وقال: اغد إلى ساحل جدة تجد أصنامًا معدة.. إلى آخره.

يقال: إن هذه الأصنام غمرها الطوفان، واندفنت، دفنت ثم بعد ذلك دل عليها الشيطان، فأخرجت، فجعلت في قبائل العرب، وعبدت من دون الله -عز وجل-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخَلَصة)) (١٧).

صنمهم الذي كان في الجاهلية، وانظروا واعتبروا، بعض الناس لم يزل حتى بعض من فيهم خير وصلاح، إذا ذهب إلى تلك الناحية يسأل: أين الخَلَصة؟ ويذهب إليه من باب الاطلاع.

هذا مكان يُقصد؟!، تذهب إليه؟!

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ، وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ}** [المائدة: ١٠٣]، برقم (٤٦٢٣) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٥٦).

١٧ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان، رقم (٧١١٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، رقم (٢٩٠٦).

ويأتي ويتحدث، ويقول: ذهبت إلى مكان معروف عندهم، ذلك المكان الذي أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهدمه، وسيعود يعبد من دون الله -عز وجل.

وبعض من يتكلمون في الآثار وإحياء الآثار يرون أن هذا من جملة الآثار، وأنه سيأتي اليوم الذي يعاد فيه كأثر من الآثار "خلصة".

النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه ((تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخَلَصة)) ما معناه؟

معناه: أنهن يطفن به، هذا خبر الصادق -صلى الله عليه وسلم-، الذي لا ينطق عن الهوى.

ثم يأتي من يقول: هذا لا يمكن، والعالم اليوم تغير، والعالم اليوم تطور، أين التطور؟!

هؤلاء الذين يصنعون الأقمار الصناعية يعبدون بوذا!.

التطور شيء وهذا شيء.

تجد الرافضي متخصصًا في الفيزياء النووية، أو في أدق العلوم في الطب، أو غيره، فتجده إذا جاءت اللطيمة، أو في تلك المناسبات الكئيبة عندهم، ينسى عقله، ويتصرف تصرفات المجانين، ويمشي على أربع، ويجرح نفسه، ويضرب نفسه بالسلاسل، وهو قد تعلم ودرس!.

فالعلم شيء، والممارسة شيء آخر.

العلوم الدنيوية هذه هل جعلت هؤلاء يدخلون في الإسلام ويعرفون الله -عز وجل- ويؤمنون به؟

هذه العلوم -للأسف- هي أوفر ما تكون، العلوم الدنيوية المادية بين الطرفين: العالم الغربي، والعالم الكافر في الشرق، الدول الشرقية: روسيا والصين وما شابهها، واليابان، هؤلاء أبعد الناس عن الله -عز وجل-، مع أنهم أكثر الناس تحصيلا لهذه العلوم المادية التجريبية، ما دلتهم على الله، ولا عرفوه، بل ما زادتهم إلا كفرًا، فرحوا بما عندهم من العلم.

وقوله تعالى: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم، وسائر صنوف بني آدم.

وقد قال الخليل -عليه السلام- في دعائه: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ} [إبراهيم:٣٥-٣٦].

وتأمل هنا: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} قال: يعني الأصنام..، إذا كانت الأصنام فهنا يرد سؤال أن هذه الصيغة "أضلوا" تستعمل للعقلاء، أما غير العقلاء فيقال: "أضلت كثيرًا"، فأجرى عليه ضمير العقلاء، فهذا بأي اعتبار؟

باعتبار أنهم ما جعلوهم مجرد عقلاء، هم جعلوهم آلهة، فهذا من قبيل ورود خطاب الشارع بالنظر إلى حال المخاطب، يعني: مراعى فيه حال المخاطب، وهذا أحد الصور، أن يكون المخاطب يعتقد في شيء ما عقيدة، فيعامل بمقتضي ذلك في الخطاب، يعني مثلما قال عن ترّهات المشركين، سماها ماذا؟

{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ} [الشورى: ١٦] سماها حجة، وهي ليست بحجة.

وتأمل في هذه المعبودات من دون الله: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥]؟

{يَمْشُونَ} كذلك في الأيدي، قال: {يَبْطِشُونَ} أصل ذلك في غير العاقل أن يقال: تمشي بها، تبطش بها، تعقل بها، فقال: {يَمْشُونَ} {يَبْطِشُونَ} {يَعْقِلُونَ} هذا مما يقال في العاقل، تستعمل هذه الضمائر في العقلاء، هذا وجه ذلك، فإذا كان الخطاب جاريًا معتبرًا فيه حال المخاطب فإنه قد يعبر عما يُذكر بمراعاة ما يعتقده المخاطب، وإن كان المتكلم لا يعتقده، هذه إحدى الصور، سواء كان ذلك في الضمائر والأفعال وما يقوم مقامهما، استعمال ما يكون للعقلاء في غير العقلاء، مثل التعبير عن الترهات بأنها: حجج، ونحو ذلك، أو كان ذلك بغيره مما يكون منسوبًا إلى هذا المعبر عنه، مثل: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤] ما قال: ساجدة، غير العقلاء يقال عنها: ساجدة، قال: {سَاجِدِينَ} لماذا؟

لأنه نسب إليها فعلا من أفعال العقلاء، وهو السجود، السجود من أفعال العقلاء، فنسب ذلك إليها، قال: {سَاجِدِينَ} ما قال: ساجدة، يعني: العاقل وغير العاقل، هذا يعبر عنه بعبارات وضمائر، وهذا يعبر عنه بعبارات وضمائر، فإذا عبر عن غير العاقل بما يعبر به عن العاقل فذلك لعلة، هذا المعنى، ما هذه العلة؟

قد يكون باعتبار كذا، باعتبار اعتقاد المخاطب، باعتبار ما أضيف إليها من الأفعال التي تكون للعقلاء، ونحو هذا.

فهنا: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} ما قال: "أضلت"، {أَضَلُّوا} يعني: الأصنام، فهذه الأصنام عندهم آلهة، فأجرى عليها ما يجري على العقلاء من الضمائر.

مع أن بعض أهل العلم لما نظر إلى هذا الاستعمال: {أَضَلُّوا} قال: المقصود الكبراء والرؤساء، فحينما نجد في كتب التفسير قول من فسر هذا الموضع: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} يعني: الكبراء، لماذا؟ ما توجيه هذا القول؟ باعتبار أن الصيغة مما تقال للعقلاء، فيكف استعملت في الأصنام؟

لكن الجواب هو ما ذكرنا.

طبعا هؤلاء عندهم قرينة أخرى، وهو الكلام عن هؤلاء الكبراء أنهم يتحدثون: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا} إلى آخره... {وَقَدْ أَضَلُّوا} يعني: هؤلاء الكبراء والرؤساء، لكن إذا قيل: إنها الأصنام: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا}، {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، {وَقَدْ أَضَلُّوا} يعني: الأصنام.

كيف أضلت الأصنام وهي جمادات؟

يقول: يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها .. إلى آخره.

يعني: أنه حصل الضرر بسببها، فنسب ذلك إليها، كما قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ} [إبراهيم:٣٥-٣٦].

هذا صريح أن الأصنام أضلت: {أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ} ففتنة الأصنام فتنة عظيمة، لكن من هداه الله -عز وجل- واصطفاه، ونجاه، وطهر قلبه من أدران الشرك يرى أن هذا شيء حقير، لا قيمة له، ولكن لها فتنة، وكل باطل له فتنة، على اختلاف أنواعه وصوره وأشكاله.

هذا الذي يكون له نوع عبودية غير عبادة الأصنام، وليست العبادة التي هي كعبادة الأصنام، لكنه متيم بحب امرأة، قد تستغرب من هذا ما هذه التفاهات؟ وهذه الحماقات؟.

تأمل، لكن هو بالنسبة إليه -ومن جرب- قد واقع أمرًا يخامر عقله ويخالطه، فذهب صوابه ولبه -نسأل الله العافية-، وصار يعيش في حال من الأذى والألم، بسبب هذا العشق.

هكذا، اسأل الذين لربما يتعلقون بمغنٍّ، أو فنان، لما مات أحد المغنيين في القرن الماضي انتحر عدد من الناس، من أجل مغن! فالتافه يعلق بتافه، وهذه النفوس لابد لها من إقبال، ولابد لها من نوع عبادة لهذه القلوب، فإن لم تتعبَّد لله -عز وجل- فإنها تتعبَّد لغيره ولابد، فهي مجبولة على الافتقار.

انظر إلى الذين يتعلقون بالألعاب الرياضية بالنوادي، ويشجعون، إلى آخره .. رجل ينسى صوابه، ويبذل نفسه رخيصة وماله، وولده، وزوجته، والناس أجمعين من أجل هذا النادي الذي يشجعه، فتجده يطلّق، يطيش، بعضهم يقول: أنا لا أستطيع أن أحضر مباراة، ولا أنظر إليها بالتلفزيون، لماذا؟ يقول: ما يستطيع، يضطرب ويرتعش، ويبقى قلبه في حال من الخفقان، يصل إلى حد أنه لا يطيق مشاهدة هذه المباراة.

وبعضهم يحصل له سكتة.

وبعضهم قتل، كما حصل العام الماضي وقد سمعنا الأخبار في هذا، يعني: رجل قتل أباه في مصر، كما تداول الناس، ونشر في وسائل مختلفة، فهؤلاء يتقاتلون، ويطلّقون، ويفعلون الأفاعيل، من أجل نادٍ لا يدري ولا يشعر بهم، ولا يعرف أنهم شجعوه أو لم يشجعوه، أحبوه أو لم يحبوه، آثروه أو لم يؤثروه، ولا ينتفع من فعلهم هذا، قليلا ولا كثيرًا، ولم يشعر بهم أدنى شعور.

ولكن يتهافتون هذا التهافت، ويتعلقون، وإذا وقف أمام صور اللاعبين المختلفة التي يجمعها فإنه يقف أمامها موقف المعظم لهؤلاء، مع أنه قد عُرفت الحال لدى العقلاء، فكيف يعظَّم مثل هؤلاء؟! كيف يعظمون؟! ولكنها النفس، ولكن القلب المجبول على الافتقار إذا وُجه هذا التوجيه الفاسد تعلق بمثل هذه الأشياء تعلقًا شديدًا، فيكون فيه نوع تعبد، والله المستعان.

وإلا فلو سئل هذا المسكين: أنت آثرت هؤلاء على هؤلاء، ورجحت مثلا على مثل بلا رجحان في الواقع، فالصورة الظاهرة أشكالهم مثل بعض، هذا الفريق وهذا الفريق، لا نرى فرقًا في الظاهر، ولا نرى فرقًا في المؤهلات إطلاقًا، الحال مشابهة، والاهتمامات مشابهة، فعلى أي شيء آثرت هؤلاء على هؤلاء؟ لا شيء، هو ليس عنده جواب إلا كلمة واحدة: "بس..." جواب العاجز، إذا قال لك: "بس..." اعرف أن ذلك عنوان الإفلاس، ليس عنده أي شيء، إذا قلت له: ما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء في الشكل في الصورة وفي المضمون؟ ليس عنده شيء، إلا "بس...".

وقوله: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٨٨].

وقد استجاب الله لكل من النبييْن في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

يعني تأمل: هنا دعا عليهم أن لا يُزادوا إلا ضلالا.

والضلال: هو الذهاب عن الحق، كما هو معلوم في مثل هذه المواضع، يعني: في معناه الشرعي، لا اللغوي.

وبعضهم فسر: {إِلَّا ضَلَالًا} يعني عذابًا، كأنه ذهب إلى قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} [القمر: ٤٧] أي: عذاب.

وبعضهم قال: الخسران.

وبعضهم قال: المراد: {إِلَّا ضَلَالًا} إلا فتنة بالمال والولد.

وبعضهم فسره: بالضياع، هذا باعتبار المعنى اللغوي، أصل المعنى اللغوي: أن الضلال هو الذهاب عمومًا عن حقيقة الشيء، تقول: أضلوه يعني: في الأرض: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [السجدة: ١٠] يعني: ماعت أجسامنا واضمحلت وتلاشت.

فآبَ مضلوه بعينٍ جليَّةٍ *** ....

يعني: دافنيه.

وكذلك قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف: ٩٥] يقصدون الذهاب عن حقيقة ما جرى ليوسف، لا الضلال الذي هو بالمعنى الشرعي، وإلا لكفروا بهذا، كيف يقولون للنبي: إنه ضال؟

بعضهم يقول: {إِلَّا ضَلَالًا} يعني في مكرهم.

والمقصود: أنه هنا دعا عليهم أن لا يزيدهم الله -تبارك وتعالى-: {إِلَّا ضَلَالًا}.

وهؤلاء الذين حاولوا أن يفسروه بالعذاب ونحو ذلك، كأنهم استشكلوا: كيف يُدعى عليهم بزيادة الضلال الذي هو الكفر، وهو أمر مكروه بالنسبة لله -عز وجل-، وبغيض، فكيف يريد وقوعه؟!

فيقال: هذا ليس بالضرورة، فهذا دعاء عليهم بالضلال، وليس بدعاء بوقوع الكفر في الخارج، وإن كان ذلك من مقتضياته ولوازمه.

و دعاء نوح -صلى الله عليه وسلم- على قومه، وهو من أولي العزم، بعدما بقي فيهم هذه المدة الطويلة ومن ثَمَّ يقال: إن أحوال الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أكمل الأحوال، فتارة يدعون لقومهم، وتارة يدعون عليهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أرحم الأمة بالأمة، وأكمل الأنبياء صبرًا دعا على قومه قريش أن يجعلها عليهم سنين كسني يوسف[١٨]؛ فأصابهم من الجهد والبلاء والجوع ما هو معلوم.

فهؤلاء الذين يقولون أو ينزعجون من الدعاء على الكافر هؤلاء ليسوا على جادة، فتارة يُدعى على الكافر، ويستحق أن يُدعى عليه، وتارة قد يُدعى لبعضهم، كما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- لأقوام، ودعا على أقوام، بل لعن أقواما في الصلاة في القنوت، حتى نزل عليه قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران: ١٢٨].

هذا في خصوص اللعن والقنوت على أقوام بأعيانهم، ولكن ليس ذلك لمنع الدعاء على الكافر مطلقًا.

---

١٨ - دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- عليهم جاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- وفيه: ((... اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب يهوي بالتكبير حين يسجد، رقم (٨٠٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٦٧٥).

والعجيب أن مثل هؤلاء ينزعجون من الدعاء على الكفار، أو يتأذون حينما يُظهر أهل الإيمان الفرح والاستبشار بما يقع للكفار الأعداء المحاربين لله وأوليائه، ما يقع لهم من النوائب والمصائب من زلازل، ومصائب، وطوفان، ونحو ذلك، فهؤلاء ينكرون غاية الإنكار هذا الفرح والاستبشار.

فهؤلاء في الوقت نفسه تجدهم ألسنة حدادًا على أهل الإيمان، ولربما إذا مات الميت ممن له نفع، وبلاء، وبذل كثير في سبيل هذا الدين، لربما استكثروا الترحم عليه: {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} [المائدة: ٤١].

قال تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} **[نوح: ٢٥ - ٢٨].**

يقول تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ} وقرئ: "مما خطاياهم" {أُغْرِقُوا} أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم.

قوله: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ} بعض أهل العلم يقول: "ما" هذه زائدة: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ} يعني: أصله "من" "ما" فحصل فيه الإدغام، فقيل: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ}.

فبعضهم يقول: إنها زائدة للتأكيد، والمعنى: من خطيئاتهم، يعني: إذا حذفت "ما" فتكون "من" هنا دالة على السببية والتعليل، أي: من أجلها وبسببها: {أُغْرِقُوا}، وهذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-. وهذه القراءة: "خطاياهم" قراءة أبي عمرو -رحمه الله.

وقراءة الجمهور: {خَطِيئَاتِهِمْ} وخطيئاتهم جمع خطيئة، والخطيئة هي ما يقع فيه الإنسان مما يجري فيه المؤاخذة، يعني: قصدًا، أما الوقوع على المخالفة من غير قصد فذاك الخطأ.

{أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار.

تأمل هنا: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} "الفاء" تدل على التعقيب المباشر، ومن ثَمّ فسر بعض أهل العلم هذا الموضع بعذاب القبر، يعني: هو أحد الأدلة التي استدل بها العلماء على إثبات عذاب القبر، يعني: من القرآن، كما في قوله -تبارك وتعالى- عن فرعون وملئه: ماذا قال؟ {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦].

فهذا يدل على عذاب القبر: {يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} يعني: في القبر، عذاب القبر.

هنا: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} "الفاء" تدل على التعقيب المباشر، يعني: بمجرد غرقهم دخلوا النار، هذا قاله بعض أهل العلم.

{فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا} أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله؛ كقوله: {لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ} [هود: ٤٣].

{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا وهذه من صيغ تأكيد النفي.

قال الضحاك: {دَيَّارًا} واحدًا.

وقال السدي: "الديار" الذي يسكن الدار.

فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: {سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح -عليه السلام-، وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

لاحظ هنا أنه قال: **{لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}**.

قال السدي: "الديّار" الذي يسكن الدار.

فهذا بمعنى قول من قال كابن جرير -رحمه الله-: إن الديّار من يدور في الأرض، فيذهب ويجيء؛ لأن الدار قيل لها دار أصلاً؛ لأنه يرجع الناس إليها بعد تفرقهم في حاجاتهم، وشئونهم.

يعني: كأن هؤلاء مدارهم عليها يذهبون ويرجعون إليها: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}** [الحشر: ٩]. "الدار" تقال: لدار الإنسان التي يسكنها، وتقال: للبلد كذلك.

وهنا قال: الديّار الذي يسكن الدار، فيكون المعنى: لا تجعل فيها أحدًا، لا تجعل ساكنًا، لا تجعل فيها من يتحرك، ويذهب ويجيء.

وقوله تعالى: {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ} أي: إنك إن أبقيت منهم أحدًا، أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} أي: فاجرًا في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا} قال الضحاك: يعني: مسجدي.

تأمل هذا التفسير: **{وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}** قال الضحاك: يعني: مسجدي.

وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، مع أن هذا خلاف الظاهر، لكن كأنهم نظروا إلى أن الدخول الذي يكون له معنى هو دخول المسجد، مكان العبادة، لا مجرد دخول البيت؛ لأن دخول البيت يدخل فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كأنهم نظروا إلى هذا، ولكنه خلاف الظاهر.

يقول: ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، يعني: أنه الدار، البيت المعروف، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله، وهو مؤمن.

مع أن بعض أهل العلم قال: **{وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}** قال: السفينة، وهذا فيه بعد.

وكذلك قول من قال: **{دَخَلَ بَيْتِيَ}** يعني: ديني، وهذا بعيد، لكنه البيت المعروف، والله أعلم.

والبيت هنا ينتفي معه كونه يدخله البر والفاجر؛ لأنه قيده بالإيمان، يعني: حتى المسجد قد يدخله البر والفاجر، والمؤمن والكافر، لكنه قيد ذلك بالإيمان.

وقوله تعالى: {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداءً بنوح -عليه السلام-، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة.

هنا دعا أولا لنفسه، هذا الأصل أن يبدأ الإنسان بنفسه، وهكذا في التعريف، يعني: الآن تجد بعض من يتكلمون في الآداب يقول: ابدأ بغيرك، واجعل نفسك الآخر، هذا غير صحيح، وإنما يبدأ بنفسه، وفي الدعاء هنا بدأ بنفسه، ثم بالأقرب بالوالدين، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه يدل على أنهما كانا على الإيمان.

وقد يقال: إن ذلك لربما كان جائزًا في شرعه، لم يمنع منه، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- دعا لأبيه، وعده بالاستغفار، وبين الله وجه ذلك، ولكن نُهينا عن هذا: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** [التوبة: ١١٣].

يحتمل هذا، وإن كان الذي يغلب على الظن أن الدعاء للكفار أن ذلك في شرائع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما: **{تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}** [التوبة:١١٤] فلما احتجوا بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- دعا لأبيه، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا لعمه أبي طالب، قالوا: لندعون لآبائنا الذين ماتوا على الكفر[١٩] ونحو ذلك، بين لهم هذا: **{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ..}** إلى آخره.

وقوله: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}.

قال السدي: "إلا هلاكا".

وقال مجاهد: "إلا خسارًا" أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة نوح -عليه السلام-، ولله الحمد والمنة.

---

١٩ - رواه الترمذي، كِتَابُ الْجَنَائِزِ، باب النَّهْيُ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ، رقم (٢٠٣٦) وأحمد، رقم (١٠٨٤) وقال محققو المسند: "إسناده حسن" ولفظه: عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ، فَقُلْتُ: أَتَسْتَغْفِرُ لَهُمَا وَهُمَا مُشْرِكَانِ؟ فَقَالَ: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ؟ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَنَزَلَتْ: **{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}** [التوبة: ١١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجن من الآية (١) إلى الآية (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى:

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} [الجن: ١-٧].

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ –صلى الله عليه وسلم– أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ: أَنَّ الْجِنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَانْقَادُوا لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} أَيْ: إِلَى السَّدَادِ وَالنَّجَاحِ {فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الْأَحْقَافِ:٢٩] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَاهُنَا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من السور النازلة بمكة في قول الجميع، يعني بالاتفاق، كما ذكر ذلك القرطبي وغيره.

والموضوع الذي تتحدث عنه هذه السورة في الجملة هو ما يتصل بخبر الجن، واستماعهم القرآن، وما كان من مردود ذلك عليهم، وما في ثنايا ذلك مما ذكره الله –تبارك وتعالى– عن دعوة القرآن، وما للمستجيبين والمعرضين عما جاء به.

قوله –تبارك وتعالى–: **{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}** هذا إخبار من الله –تبارك وتعالى– عما جرى من استماع الجن وما قالوه حينما استمعوا هذا القرآن، وعما وقع من إيمانهم، ودعوتهم لقومهم.

واستماع الجن للقرآن هذه الآية مخبرة عنه، بمعنى أن ذلك ليس بكون النبي –صلى الله عليه وسلم– اجتمع بالجن قصدًا، وقرأ عليهم القرآن، وإنما استمعوا قراءته.

والظاهر –والله تعالى أعلم– أن هذا الذي وقع كان في مكة، وقع من استماعهم للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وهو يقرأ في صلاته، حينما كان ذاهبًا إلى الطائف، إلى عكاظ، يدعو إلى الله، وإلى توحيده، فما كان يشعر باستماع الجن حتى أعلمه الله –تبارك وتعالى– بذلك، كما يدل عليه سبب النزول، وهذا كما قال الله –تبارك وتعالى– في سورة الأحقاف، وهي أيضًا مكية: **{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}**.

فهذا وذاك -والله تعالى أعلم- كأنه في واقعة واحدة، فهو إخبار عما حصل من استماعهم، وإن كان استماع الجن للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقع في وقائع متعددة، وقد يقال: إن بعض هذه الوقائع كان بمكة، وإن بعضها كان في المدينة، وإن من هذه الوقائع ما اجتمع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها مع الجن وهو يعلم بذلك، أي ما اجتمع بهم قصدًا، ويدل على هذا ما جاء في حديث جابر قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: ((لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: **{فبأي آلاء ربكما تكذبان}** [الرحمن:١٣] قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد))[1].

فهذا قد سمعه منهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما كان يقرأ عليهم، فهذه قراءة كانت مقصودة، واجتماع مقصود، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجن أنهم سألوه فيما يتصل بالطعام لهم ولدوابهم، وكذلك أيضًا جاء في بعض هذه الأحاديث -كما سيأتي إن شاء الله- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان معه بعض أصحابه، بصرف النظر هل استمعوا وحضروا أو أنهم كانوا دون مجلسه -عليه الصلاة والسلام-، أو أنه كما في بعض الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أراهم آثار ذلك، أراهم نيرانهم، يعني بعد أن اجتمع بهم.

فهذه وقائع متعددة، أوصلها بعض أهل العلم إلى ست في مكة والمدينة، ويأتي -إن شاء الله تعالى- الكلام على هذا، فأترك ذلك لكلام مستقل -إن شاء الله.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}** هذا يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يشعر بهم، وإنما علم ذلك بالوحي.

{نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} النفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة.

{فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} **{عَجَبًا}** يعني في فصاحته، وبيانه وبلاغته، ومواعظه وبركته، وما إلى ذلك، هذه أقوال للسلف في تفسير هذا الموضع.

{قُرْآنًا عَجَبًا} عجبًا: أي كل هذه الأمور المتقدمة، و**{عَجَبًا}** مصدر وصف به القرآن للمبالغة، أو على حذف مضاف، أي قرآنًا ذا عجب، لما فيه من العجائب فيما ذكر، أو أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل: **{قُرْآنًا عَجَبًا}** أي مُعجبًا.

ولكن كأن ما قبله أوضح، والله أعلم.

{يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} أي: السداد والنجاح، يقول: وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: **{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ}**.

وَقَوْلُهُ: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {جَدُّ رَبِّنَا} أَيْ: فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن، رقم (٣٢٩١)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٤٠).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَدُّ اللَّهِ: آلَاؤُهُ وَقُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ عَلَى خَلْقِهِ.

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ: جَلَالُ رَبِّنَا.

وَقَالَ قَتَادَةُ: تَعَالَى جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ وَأَمْرُهُ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَعَالَى أَمْرُ رَبِّنَا.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَمُجَاهِدٍ أَيْضًا وَابْنِ جُرَيْجٍ: تَعَالَى ذِكْرُهُ.

قوله: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} هذا من قول الجن، فهم قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}.

وكان من مقولهم: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} هكذا بفتح الهمزة: {وَأَنَّهُ} في قراءة حمزة والكسائي وابن عامر وحفص: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} وهكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها: {وَأَنَّهُ} {وَأَنَّهُ} وذلك أحد عشر موضعًا، إلى قوله: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن:١٩].

وقرأ الباقون بكسر الهمزة: {وإِنَّهُ} في هذه المواضع، إلا في قوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن:١٨] فهذا اتفقوا على الفتح فيه: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}.

فقراءة الفتح في هذه المواضع يمكن أن يكون ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار: أنه معطوف على محل الجار والمجرور في قوله: {فَآمَنَّا بِهِ} الإيمان -كما بينا- بمعنى الإقرار والتصديق الانقيادي، يعني: أذعنا وأقررنا وصدقنا: أنه تعالى جد ربنا.

فيكون {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} في جملة ما آمنوا به، وحصل لهم الإيمان به: أنه تعالى جده -تبارك وتعالى- عن أن يكون قد اتخذ: {صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}.

أما من قرأ بالكسر فيمكن أن يكون ذلك عطفًا على قولهم: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} مكسورة الهمزة، فيكون ذلك عائدًا عليها.

فَقَالُوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} "وقالوا: إنه" والهمزة تكون مكسورة بعد القول {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} وهكذا، والله تعالى أعلم.

هذا من كلامهم، مما هو محكي عنهم في قوله: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}.

على تفاصيل في بعض القراءات، أو بعض الروايات في بعض المواضع.

وهذا يختلف باعتبار: أنه من كلام الجن، أو أنه من كلام الله، في بعض هذه المواضع، ولعله يأتي إيضاح بعض ذلك في موضعه -إن شاء الله تعالى.

الجمهور يقرءون: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} [الجن:١٩] بالفتح، باعتبار أنه معطوف على قوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}.

وفي القراءة الأخرى، قراءة نافع وابن عامر، وهي رواية أيضًا عن عاصم: بالكسر في هذا الموضع، عطفًا على: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}، -كما سبق-، ويأتي مزيد من الإيضاح -إن شاء الله تعالى- في مواضع أخرى.

يعني مثلاً في قوله: {أَنَّهُ اسْتَمَعَ} هذا متفق على الفتح فيه، وكذلك: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن:١٨]، {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} [الجن:١٦].

كما اتفقوا على الكسر في قوله: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ} [الجن:٢١].

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} فما المراد به؟، كما قال هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي فعله وأمره وقدرته.

وكذلك ما ذكر من الروايات: من آلائه ونعمه على خلقه، أو من ذكر جلاله.

كل هذه المعاني متقاربة، فإن الجَد هو: أبو الأب، أو أبو الأم، في أحد معنييه.

وهذا غير مراد هنا، ولا يعتقده الجن، خلافًا لمن زعم من المفسرين أن الجن قالوا ذلك جهلاً منهم، هذا غير مراد إطلاقًا، وإنما أرادوا المعنى الآخر، فإن الجَد في كلام العرب يفسر بالحظ والعظمة والجلال، وما أشبه ذلك من المعاني، وهذا تفسير له بمعنى واحد، يعني إذا وجدت من يقول: الجد هو الحظ: ((وتعالى جدك))[٢]، مثلاً، ((ولا ينفع ذا الجد))[٣] يعني: الحظ.

فالمقصود: أن عظمة الله -تبارك وتعالى- وجلاله تقتضي تنزهه عن الصاحبة والولد؛ لأنه كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: إنما يفتقر إلى الصاحبة والولد من كان ضعيفًا، وذلك أن ضعفه يقتضي قضاء الوطر، وما يقضي به وطره من الصاحبة، وما ينتج عن ذلك من الولد، فهو نتيجة لقضاء هذا الوطر، هذا ضعف وحاجة، وكذلك أيضًا الولد، فإنه يحتاج إليه ليكون امتدادًا لوجوده، وليكون معيناً له، وليتجمل به في المجالس، ونحو ذلك، فإن مقتضى غنى الله -تبارك وتعالى- وعظمته أن لا يكون له صاحبة ولا ولد.

والمقصود: أن الجد يأتي بهذا المعنى: العظمة والجلالة، تقول: جَدّ في عيني، ومنه قول أنس -رضي الله عنه-: "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا"[٤].

"جد" يعني عظم، صار عظيمًا؛ لأن هاتين السورتين تضمنتا كثيرًا من شرائع الإسلام، والأحكام جملة وتفصيلاً.

{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} يعني ارتفعت عظمة ربنا وجلاله، كما يقوله بعض السلف؛ كعكرمة ومجاهد.

وهكذا قول من قال: غناه، يعني أنه مستغنٍ عن الصاحبة والولد، فهو العظيم الأعظم، وهو أجلّ من أن يفتقر إلى شيء من ذلك، كما يقوله الحسن البصري.

فالحظ يقال له: جد، ويقال: للعظمة، فلا يلتبس، فهو يرجع إلى شيء واحد، بالاعتبار الذي ذكرته آنفًا، وقد مضى الكلام في شرح الأذكار على دعاء الاستفتاح: ((ولا ينفع ذا الجد منك الجد))[٥] كما يقول أبو عبيد والخليل بن أحمد، يعني: صاحب الحظ لا ينفعه حظه عندك، أو يعني الغِنى، لا ينفع صاحب الغنى غناه.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب حُجة من قال لا يجهر بالبسملة، رقم (٣٩٩).

٣ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

٤- رواه أحمد في المسند، برقم (١٢٢١٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

فهذا الحظ هو الغِنى، حظه من الدنيا، حظه من هذا المتاع والحطام، فسره أبو عبيد والخليل بالغنى: ((ولا ينفع ذا الجد))[٦]، يعني الغني، لا ينفع صاحب الغنى غناه.

وما ذكرته هناك من المعاني المذكورة كل ذلك يرجع إلى هذا في مجمله، وابن جرير -رحمه الله- يفسره بنحو من هذا، يقول: تعالت عظمتك، يعني وقدرتك وسلطانك، وذكر هذا الاعتبار الذي أشرت إليه: أنه إنما يحتاج للولد لهذا الضعف والفقر، مع أن من أهل العلم من فسر قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا ينفع ذا الجد))[٧] بمعنى آخر، لكن الذي عليه عامة أهل العلم هو ما ذكرت، فجدُّه -تبارك وتعالى- مفسر بهذا، فمن قال: آلاؤه ونعمه كالضحاك فكل هذا قريب.

وهكذا من قال: ملكه وسلطانه، كما يقوله بعض أصحاب المعاني، كأبي عبيدة والأخفش، وهكذا من قال: جده أي: أمره، فيمكن أن تجمع هذه العبارات، وقول من قال: إنها قدرته، يعني أن الله أعظم وأجل من أن يتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ لأنه الغنيُّ الذي له الغِنى المطلق، فشأنه وأمره أعظم من ذلك، فهو غير مفتقر إلى شيء من هذا، هكذا يمكن أن يعبر عن هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

وما بعده مبين لذلك: {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} فهذا بيان لتعاليه، تعالى جده -جل جلاله-، وتقدست أسماؤه، تعالى جلاله، وتعالت عظمته عن اتخاذ الصاحبة والولد، فهو الغنيُّ الغِنى المطلق.

وَقَوْلُهُ: {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا} أَيْ: تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، أَيْ: قالت الْجِنُّ: تنزه الرب -جل جلاله- حِينَ أَسْلَمُوا وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ- عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، ثُمَّ قَالُوا: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: {سَفِيهُنَا} يَعْنُونَ إِبْلِيسَ {شَطَطًا} قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: {شَطَطًا} أَيْ جَوْرًا.

وَقَالَ ابن زيد: أي ظُلْمًا كَبِيرًا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: {سَفِيهُنَا} اسْمَ جِنْسٍ لِكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا، وَلِهَذَا قَالُوا: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا} أَيْ قَبْلَ إِسْلَامِهِ: {عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} أَيْ: باطلا وزورًا، ولهذا قالوا: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} أَيْ: مَا حَسِبْنَا أَنَّ الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله -تعالى- فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ، وَآمَنَّا بِهِ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يكذبون على الله في ذلك.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول الجن: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} المراد بهذا السفيه الذي أشاروا إليه: هنا قول مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي، قال: يعني إبليس، وهذا القول قال به آخرون من السلف أيضًا، كابن جريج، وهو اختيار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

٦ - المصدر السابق.

٧ - المصدر السابق.

ولكن المعنى –والله تعالى أعلم– أعم من هذا، فإن السفيه هنا مفرد مضاف، وهو للعموم، يعني: يقول سفهاؤنا على الله شططًا، فهو بمعنى الجمع، ولهذا فسره بعض أهل العلم بمشركيهم وعصاتهم، ولا يختص ذلك بإبليس، وإنما يقول بذلك إبليس وأتباع إبليس –والله أعلم–، وكأن هذا أقرب، لكن في الأصل: هل اقتصر على تفسيره بإبليس فقط كما هنا في المختصر؟.

هذا يدل على أن ابن كثير –رحمه الله– اختار هذا القول، وكذلك ابن جرير.

{شَطَطًا} قال: أي: جورًا، عن السدي عن أبي مالك.

وقال ابن زيد: أي: ظلمًا كبيرًا.

وذكر هنا: ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **{سَفِيهُنَا}** اسم جنس.

هذا لو قال: وأنه كان يقول السفيه مثلاً، فتكون "أل" عهدية، لكن: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}** فيمكن هذا أن يكون هو الأكمل في السفه، لكن يقال: إنه يدخل في ذلك دخولاً أوليًّا، لكن تخصيص المعنى به!، يقول: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}** قالوا: لهذا قالوا: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}** أي: قبل إسلامه، كيف يأتي هذا إذا كان المراد إبليس؟

لكن هذا باعتبار الاحتمال الذي ذكره، قال: ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: **{سَفِيهُنَا}** اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدًا، ولهذا قالوا: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}**.

{كَانَ} في الماضي، أي قبل اسلامه: **{يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}** أي: باطلاً وزوراً.

المقصود: الغلو في الكفر، وتجاوز الحد، ففسر الشطط بالجور هنا، كما جاء عن أبي مالك، وفسر: بالكذب أيضًا، كما قال الكلبي.

فهذا تفسير له بالمعنى، يعني ليس ذلك أصل معنى لفظ الشطط في لغة العرب، فإن أصله البعد عن القصد، ومجاوزة الحد، فهذا الذي يقول بأن لله شريكًا، أو أن له صاحبة أو ولدًا يكون قد تجاوز الحد، ويكون كاذبًا في قوله ودعواه، فتفسير من قال بأنه الكذب هو تفسير له بالمعنى، فإن قوله هذا كذب، لكن أصل الكلمة "الشطط" هي بمعنى ما ذكر –والله أعلم– البعد عن القصد والاعتدال بمجاوزة الحد.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} قال: ولهذا قالوا.. إلى آخره.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} هذا عجيب، ويحتاج إلى وقوف عنده، يقف الإنسان يتأمل ويتدبر في هذا الموضع، يعني أن المعنى كما قال ابن كثير وهو الذي قاله المفسرون: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله –تعالى– في نسبة الصاحبة والولد إليه، يعني لما سمعوا القرآن علموا أن ذلك يعني نسبة الصاحبة والولد إلى الله –تبارك وتعالى– أنه كذب، وافتراء على الله، لكن انظر إلى قولهم هذا، وهم صادقون فيه، هؤلاء آمنوا، وذكر الله قولهم.

وكما هو معلوم: أن الحكايات في القرآن إذا لم يأتِ قبلها أو بعدها، أو في أثنائها ما يبطلها فالأصل أنها صحيحة، فهم يقولون هذا، والقرآن أقرهم عليه، يعني أنهم صادقون في قولهم هذا، ما كانوا يظنون أن تتمالأ الجن والإنس في الكذب على الله –تبارك وتعالى– في نسبة الشركاء والأنداد والصاحبة والولد، يعني هذا الإشراك وقع للإنس ووقع للجن، فيقولون: ما كنا نظن، والظن هنا ليس بمعنى اليقين، وإنما بمعنى: غلبة

طرف الرجحان، فليس كل ظن في القرآن بمعنى اليقين، فهو يأتي بمعنى: اليقين، ويأتي بمعنى غيره، فهنا يقولون: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ} بمعنى أنهم لما رأوا هذا التوافق عند الإنس والجن بهذا الباطل ظنوا أن ذلك حق، وأنهم ما اتفقوا على هذا إلا لأنه حق، وهذا فيه عبرة: أن كثيرًا من الناس يغترون بالباطل لما يرون من توافق عليه لدى الكثير من الناس، لاسيما من يحسنون الظن بهم، وفيما يذكره أهل العلم من المناظرات: ما وقع مع رجل من النصارى لمّا انقطعت حجته وبان له وظهر أن ما هو عليه من الدين والإشراك، والتثليث، ونسبة الصاحبة والولد إلى الله –تبارك وتعالى– أن هذا باطل، ثم لم يلبث أن كان جوابه أن قال: إنه يعلم، أو إن ذلك بيّن ظاهر، يعني أن هذا القول لا وجه له، لكن يقول: نظرت في أهل ملتنا من أولهم إلى آخرهم على كثرتهم يقولون بذلك ويقررونه، فعلمت أنه حق، يقول: تتابُعهم عليه وتواطؤهم على هذا دليل على أنه حق، هذا الدليل عنده، بعدما بُين له بطلان ذلك، وأقر ببطلانه، فكان هذا هو الجواب، فالاغترار بما عليه هؤلاء من أهل الباطل لربما يوقع الكثيرين بهذا الإصرار على باطلهم، أو الاغترار بحال هؤلاء، كيف يكون هؤلاء على باطل هؤلاء الذين يحسنون بهم الظن؟

لذلك ذكر المعلمي –رحمه الله– في كتابه: "التنكيل" ذكر أشياء في طُرق الهوى إلى النفوس، ذكر أشياء عجيبة، منها ما يتصل بهذا المعنى أنه إذا أذعن وأقر بالحق، وكذا، فيعني هذا أنه ينسب أهل ملته وقومه، ونحو ذلك إلى الباطل، هذا بالإضافة إلى أن هذه الجهود التي بذلت من قِبله ومن قِبل غيره في دعوته إلى ما هو عليه، كل ذلك ذهب هباء منثورًا، فيشق ذلك عليه، فيؤثر البقاء على باطله.

وابن القيم –رحمه الله– تكلم على تقديم الإنس على الجن هنا في قول الجن: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} وحاصل كلامه –رحمه الله– أنه يقول: قدموا الإنس كأن ذلك باعتبار أنهم قالوه من باب دفع التهمة؛ لئلا يظن قومهم حينما يخاطبونهم بدعوة التوحيد أنهم إنما مالئوا طائفة من الإنس على هذا فجاءوا إلى قومهم بما لا عهد لهم به، فهم ابتدءوا بالإنس قالوا: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} فهم يقولون: الإنس وقعوا في نفس المشكلة، فنحن ننكر على الطائفتين.

وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} أَيْ: كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يعوذون بنا إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُوحِشًا مِنَ البراري، وغيرها، كما كانت عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِشَيْءٍ يَسُوءُهُمْ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جِوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخفَارَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ منهم زادوهم: {رَهَقًا} أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى بقوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّذًا بِهِمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} أَيْ: إِثْمًا، وَازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} أَيِ: ازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ جُرْأَةً.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ بِأَهْلِهِ فَيَأْتِي الْأَرْضَ فَيَنْزِلُهَا، فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنَ الْجِنِّ أَنْ أُضَرَّ أَنَا فِيهِ أَوْ مَالِي أَوْ وَلَدِي أَوْ ماشيتي.

قال قتادة: فإذا عاذ بهم مِنْ دُونِ اللَّهِ رَهِقَتْهُمُ الْجِنُّ الْأَذَى عِنْدَ ذَلِكَ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: كَانَ الْجِنُّ يَفْرَقُونَ مِنَ الْإِنْسِ كَمَا يَفْرَقُ الْإِنْسُ مِنْهُمْ أَوْ أشد، فكان الْإِنْسُ إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا هَرَبَ الْجِنُّ فَيَقُولُ سَيِّدُ الْقَوْمِ: نَعُوذُ بِسَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي، فَقَالَ الْجِنُّ: نَرَاهُمْ يَفْرَقُونَ مِنَّا كَمَا نَفْرَقُ مِنْهُمْ، فَدَنَوْا مِنَ الْإِنْسِ فَأَصَابُوهُمْ بِالْخَبَلِ وَالْجُنُونِ، فذلك قول الله -عز وجل-: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** أي: إثمًا.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: **{رَهَقًا}** أَيْ: خَوْفًا.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **{فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** أَيْ: إِثْمًا، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: زَادَ الْكُفَّارَ طُغْيَانًا.

هذه الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مجملها ترجع إلى معنيين، فالله -تبارك وتعالى- يقول عن قول الجن: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** الضمير يرجع إلى من؟

هذه المعاني المذكورة المنقولة عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- هي عائدة إلى قولين، وذلك باعتبار مرجع الضمير: **{فَزَادُوهُمْ}** من الذي زاد الآخر بهذا الصنيع -بهذه الاستعاذة-؟ هل الجن زادوا الإنس **{رَهَقًا}**؟، وما المقصود بهذا الرهق الذي وقع لهؤلاء المستعيذين حينما استعاذوا بالجن؟ أو أن المقصود أن الإنس زادوا الجن رهقًا حينما استعاذوا بهم؟، هذا في مرجع الضمير.

وحاصل هذه الأقوال لو نظرت إليها وما ينقل عن السلف من غير هذا مما لم يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كل ذلك يرجع إلى هذين المعنيين إلا ما شذ.

المقصود: أن المعنى الأول: أنهم زادوهم رهقًا، يعني زاد رجال الجن مَن تعوذ بهم من رجال الإنس رهقًا، يعني رجال الجن زادوا مَن تعوذ بهم رهقًا، يعني فُسر خوفًا، زادوهم خوفًا، بمعنى أنهم علموا أن الإنس يخافون منهم، فزادوهم خوفًا، وتسلطوا عليهم، لمّا علموا أنهم يحسبون لهم حسابًا، ويخشونهم فعلوا بهم ذلك، زادوهم خوفًا منهم، وتسلطوا عليهم، فهذا أيضًا مع قول من قال: زادوهم كفرًا، باعتبار أن هذه الاستعاذة كفر، فالجن يوقعونهم في هذا كله، وهذا المعنى قريب، وله وجه، فهؤلاء الذين يستعيذون بغير الله -تبارك وتعالى- لا يزيدهم هذا اللجوء إلا ضعفًا، ولا يحصل لهم مطلوبٌ بحال من الأحوال، والجن حينما علمت ذلك من حال هؤلاء، تسلطوا عليهم، وأخافوهم، فلم تزدهم هذه الاستعاذة إلا خوفًا، فلم يحصل لهم الأمن الذي طلبوه، وكذلك هم في فعلهم هذا حينما يستعيذون بغير الله -عز وجل- فهذا من قبيل الإشراك، حينما يقول قائلهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فهذا شرك، وإنما يستعاذ بالله -تبارك وتعالى-، فالجن يتسلطون، الشياطين يتسلطون على النفوس بهذا وهذا، وكلما علموا ضعفًا وخوفًا ازداد هذا الرهق، ولذلك هؤلاء الذين يلجئون إلى الجن والسحرة الذين يتوصلون بهم إلى الجن، ويذهبون إلى الكهنة والعرافين لا يزيدهم ذلك إلا ضعفًا، وما رأيت أحدًا قط ذهب إلى العرافين أو الكهان أو إلى السحرة ممن نزل به بلاء، فأفلح، لم يرجع أحد إلا بخيبة، وازداد عليه بلاؤه وتضاعف، وصار الواحد من هؤلاء يخرج من لون من ألوان هذا البلاء، ويدخل في ألوان أخرى متتابعة، لا تنقضي ولا تنتهي، ويتلاعبون بهم غاية التلاعب، ويدخلونهم في عالم من الأوهام، وقد سمعت أشياء لولا أني أعرف هذا المتكلم المتحدث معرفة تامة، منذ

نعومة أظفاره لقلت: إن هذا من الخيال، يتحدث عن أشياء من أحوال هؤلاء الجن الذين زعموا أنهم جاءوا من أجل حمايته، فأوهموه بأوهام، وأن جسمه مخروق، وأنه عرضة لكل آسر وكاسر ممن يحتفّ به أو يمر به ولو عرضًا من الجن والشياطين، فيدخلون بهذا الجسد، فهو عرضة على الدوام، إذًا لابدّ له من حماية، ويزعم بعض هؤلاء ولربما جاءوا بزعمهم عن طريق بعض من يذهب إليهم ممن يدعون الرقية، فيقولون: أنت تحتاج إلى حماية، وهؤلاء من المسلمين، فيبقون معه سنوات، ويوهمونه بأشياء، ويرى أنه يخوض معارك وقتالا، وأن بيده سيفًا ضاربًا، وأنه يقتل من المردة والكفار من الجن، ويخوض معارك وهو جالس في المسجد، أو جالس في بيته، أو يأكل أو يشرب، قلبه وعقله في عالم آخر تمامًا، معارك يخوضها، ويوهمونه أنه صار عنده من القُدر والإمكانات والقوة ما لا يوجد عند أحد منهم، وأن هذا من نصر الله وفتحه عليه، فيدخل في عالم، وهكذا كلما ذهب إلى واحد من هؤلاء المضللين ممن يدعي الرقية، وأنا لا أعني الذين يرقون أنهم كذلك، لكن يوجد من الناس من يتعامل بهذه الأمور، فلا يزيده هذا إلا ضلالاً، حتى إن أحدهم لما تعب وبقي على هذه الحال أكثر من خمس عشرة سنة، وهو يدخل في بلاء، ويخرج إلى بلاء -نسأل الله العافية- فجاء مرة، وقال: أنا أريد أن أسمع شيئًا أقف عنده، قلت له: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}** [الفرقان:٥٨] ولا تلتفت إلى شيء سواه، قال: هم معي الآن سبعة، ويسمعون، وإن شئت تحدثوا الآن، يزعمون أنهم يحمونه، أو هو هكذا يتصور، وما حصلت له هذه الحماية أصلاً، فهؤلاء الشياطين والجن قد يضللون الناس بأمور كثيرة جدًّا، ويوهمونه أنهم من المسلمين، فيتلاعبون به، فهذا الذي يتعلق بغير الله -عز وجل- من هؤلاء الشياطين، ونحو ذلك، لا يزيده ذلك إلا رهقًا، فهذا المعنى على هذا الوجه، وحينما يستعيذ بهم هو يزداد كفرًا، ولذلك كما سبق في بعض المناسبات أن هؤلاء الشياطين لربما يُسقطون الحمل بإذن الله، حتى تلجأ هذه المرأة إلى الذهاب إلى السحرة والكهنة، ونحو ذلك، وتتعاطى ألوانًا من الشرك، كالذبح لغير الله، أو بعقد التمائم، ونحو ذلك التي لربما يزعمون أنها من القرآن، وقد أريتُ الإخوان -في بعض المناسبات- في دروس التوحيد قديمًا، في حدود سنة ١٤٠٤هـ أو ١٤٠٥هـ، حلًّا، جئنا بتمائم، جميع هذه التمائم تقريبًا -جاء بها الإخوان من بيوتهم، من جداتهم- كانت أسماء شياطين، واستعانة بشياطين، وفي تعليق على فتح المجيد بحدود سنة ١٤٢٣هـ، جئنا بكيس كبير، جاء به أحد الإخوان فيه مئات التمائم، وفتح منها الكثير، كلها أسماء شياطين، فهؤلاء زادوهم رهقًا، حتى إني قلت مرة لأحد هؤلاء وله أخ قد ربط تميمة، قلت له: هذه فيها أسماء الشياطين، وهذا مما يخالف التوحيد، وأعطيته بعض هذه الأوراق التي حُلت من تلك التمائم، وفيها أسماء الشياطين، ورسوم ورموز، قلت من أجل أن يقنع أهله، يقول: ما وقفت عند باب البيت إلا وأخي يصيح ويهرول وينزل جريًا: هات الذي معك، أخرج الذي معك، يعني في هلع، أخوه كان به مس من الجن، فشعر بهذا، وانزعج، وأخوه لم يدخل البيت بعدُ، فجاء إليه يطالبه بإخراجها، أو بإتلافها، وأن لا يدخل بها بيتهم، فزادوهم رهقًا، يتلاعبون بهم.

وكما سبق في أثر ابن مسعود -في بعض المناسبات- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك))، قالت -أي امرأة ابن مسعود-: قلت: لم تقول هذا والله لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيني، فإذا رقاني سكَنَتْ؟ فقال عبد الله: "إنما ذاك عمل الشيطان

كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كَفّ عنها"[٨] هكذا، فهذا باب واسع، الطريق هو التوكل على الله –عز وجل–، والثقة به، والاعتماد عليه: **{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ}** [الأنعام:١٧]، فلا يتعلق الإنسان بالمخلوقين، ولا يلتفت إليهم، فيقوى يقينه، فيفر منه الشيطان، إذا لقيه في طريق سلك فجًّا آخر[٩]؛ كما وقع لعمر –رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وهذا معنى، إذاً قطع الطريق على الشياطين، بحيث لا يلتفت إليهم لا إلى وساوسهم، ولا إلى خواطرهم، حتى الوساوس والخواطر إذا فُتح الباب تلاعبوا به في الطهارة، في صلاته، في طلاقه، في معاملته، في علاقاته، حتى يصير في حال يرثى لها، فلا يُفتح هذا الباب، باب المخاوف وما يلقيه في قلبه من الظنون الكاذبة، كل ذلك ما يحصل به من تعظيم أوليائه في نفوس أهل الإيمان فيخافونهم: **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ}** [آل عمران:١٧٥] يعني يخوفكم من أوليائه، فيضخمهم ويعطيهم هالة كبيرة، فتخافونهم، فهذا كله من عمل الشيطان.

وهذا معنى، والمعنى الآخر عكسه، وهو: أن استعاذة هؤلاء الإنس بهؤلاء الجن زادت الجن طغياناً وتيهًا، وكبرًا وتعاظمًا، فقالوا: سدنا الإنس والجن، ها هم يخافون منا، فالقول الأول: أن الجن زادوا مَن تعوذ بهم من الإنس رهقًا، هذا قال به جماعة، كما نقله الحافظ ابن كثير، وما لم ينقله: هذا حاصل قول أبي العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد وهو اختيار الحافظ ابن القيم –رحمه الله– أن الإنس زادوا الجن الذين استعاذوا بهم تيهًا وكبرًا وتعاظمًا، قالوا: سدنا الإنس والجن.

وعلى القول الآخر: أن الجن زادوا هؤلاء الإنس كفرًا أو خوفاً، فهذا قال به أيضًا جماعة، كمجاهد وقتادة.

من قال: إن المقصود زادوهم كفرًا –يعني زادوا الإنس–، فمعنى ذلك بسبب أنهم استعاذوا بغير الله –عز وجل–، واعتمدوا على غيره، وتوكلوا على غيره.

وخوفًا: هذا واضح.

والرهق في كلام العرب بمعنى: الإثم والغشيان: **{وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ}** [يونس:٢٦] يعني لا يغشاها ذلك.

{تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [المعارج:٤٤] يعني تغشاهم ذلة، فهنا الإثم وغشيان المحارم يقال له: الرهق، هذا الذي أيضًا قاله ابن جرير –رحمه الله–، وابن جرير –رحمه الله– في هذا الموضع يفسر ذلك: **{فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** يعني زاد الجنُّ الإنسَ الذين استعاذوا بهم إثمًا واستحلالاً لمحارم الله –تبارك وتعالى–، يعني أن الجن زادوا الإنس، وذكرنا: أن هذا هو الذي اختاره أيضًا ابن القيم –رحمه الله–، وهذا ظاهر كلام ابن كثير، ولو قيل: إن الآية تحمل على المعنيين، باعتبار أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، ويدخل

---

٨ – رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، رقم (٣٨٨٣)، وأحمد في المسند، برقم (٣٦١٥)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة ابن أخي زينب، لكنه متابع"، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم (٤٥٥٢).

٩ – انظر الحديث في البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر –رضي الله عنه–، رقم (٢٣٩٦).

في ذلك ما يتصل باحتمال عود مرجع الضمير، أي: ليس الأقرب على المعنيين، فهذا له وجه، فيكون ذلك واقعًا من الطرفين، والله -عز وجل- أخبر في سورة الأنعام: **{رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}** [الأنعام:١٢٨].

وذكرنا هناك وجوه الاستمتاع من الطرفين، الجن يزدادون تيهًا وكبرًا وتعاظمًا، ويحصل لهم انتفاع بما يذبح لهم، وما يقدم من القرابين والنذور، ونحو ذلك، والإنس يحصل لهم بسبب هذا أمور من مصالح متوهمة من وجود ضالة، أو نحو ذلك مما يطلبون به حماية حينما يستعيذون من سفهاء الجن، أو نحو ذلك، لكن الثمن الذي يدفعونه أكبر وأعظم: الدين والإيمان، بالإضافة إلى الرهق الذي يحصل لهم؛ كخوف دائم.

ومن فسره بالخوف فهو معنى صحيح أيضًا: **{فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** خوفًا.

هكذا كل من خاف من غير الله -عز وجل-، تبقى هذه المخاوف تلاحقه في كل مكان، ولو كان هذا الشيء الذي يخافه صغيرًا، ولو بقي أحد من الناس منفردًا في مكان خالٍ، أو مظلم، أو نحو ذلك، لو سمع صوتًا، ولو كان صوت صبي يتوقع أنه من الجن لم ينم تلك الليلة، ولوقف من رأسه كل شعرة، أليس كذلك؟!

ولو أنه وجد صبيًّا صغيرًا لم يجاوز السنتين من الإنس، هذا ماذا يمكن أن يفعل؟

فهذا الصغير من الجن أضعف من هذا الذي يراه من الإنس، فلو كانت القضية معكوسة أن الجن والشياطين يخافون من صبياننا الصغار ممن لم يبلغوا العامين إذا سمعوا مجرد صياحه، فتنخلع قلوبهم لذلك، لو علمنا بهذا لتسلط سفهاؤنا لو كانوا يستطيعون إليهم سبيلاً، ولتلاعبوا بهم، أليس كذلك؟

فحينما يَعرفون أو يرون أو يشاهدون -لأنهم يروننا ونحن لا نراهم- هذا الخوف منهم، ولو كان من أصغر صغير فيهم، وأضعف ضعيف، تنخلع القلوب من الخوف، فهذا يزيدهم تعاظمًا وتلاعبًا بالإنس، فهذا الذي يجرئهم، فإذا وجدوه ثابت الإيمان، قويَّ اليقين فإن ذلك لا شك أنه يكون سببًا لفَرقهم، وبعدهم عنه، والله المستعان.

الإنسان أحيانًا يخاف من أشياء صغيرة لا أثر لها ولا قيمة، لا تؤثر، أشياء صغيرة، قد يخاف من حشرة لا تؤذي، فتجده في حال من الرعب منها والهلع ويقوم بتصرفات ويغلق الأبواب؛ لئلا تصل إليه، ولو علمتْ هذه الحشرة أن هذا يخاف منها لفعلت به الأفاعيل، لكن هي في حال من الخوف، ما علمت أنها هي المخوفة.

وقوله تعالى: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً، قاله الكلبي وابن جرير.

في الاستعاذة بالجن يقول مقاتل: إن أول من استعاذ، يعني استعاذة الإنس بالجن إذا نزلوا واديًا قالوا: "أعوذ بسيد هذه الوادي من سفهاء قومه"، يقول: هم قوم من أهل اليمن، ثم انتقل هذا إلى بعض بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب.

وأخبار العرب في هذا كثيرة منها ما هو من قبيل الأساطير، لكن من أراد أن يرى أو يعرف أحوال العرب في هذا فلينظر مثلا في كتاب: "الأصنام" للكلبي، وكذلك كتاب: "الشرك" للميلي، وكذلك أيضًا: "أصنام ومعبودات العرب في الجاهلية" وكذلك الكتاب الكبير لــ"علي جواد" في نحو أحد عشر مجلداً، أو قريبًا من هذا، بعنوان: "المفصل في أحوال العرب قبل الإسلام" هذا فيه كل ما يتعلق بالعرب، فإذا طالعتَه وجدتَ فيه أحوالهم مع الشياطين والجن، أو المعبودات والأصنام، و كل ما يتصل بالعرب تفصيلاً.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً، قاله الكلبي وابن جرير، هذا من قول الجن للإنس: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ}، وبعضهم يقول: معناه: وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن.

هنا يقول: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} فالمحدَّث عنه هم الإنس: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوْا} يعني: الإنس، فالجن هنا يتحدثون عن الإنس، يخاطبون الجن، يتحدثون عن الإنس: أنهم ظنوا كما ظننتم، وبعضهم يقول عكس ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} هذا يدل على أن الجن يقال لهم: رجال، وبعض أهل العلم كابن القيم يقول: لا يقال ذلك بإطلاق، فإذا قيل: رجال فهم: الإنس، لكن بقيد يقال: رجال من الجن، رجل من الجن.

{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} [الجن:٨-١٠].

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم-، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ أَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا، وَحُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا، وَطُرِدَتِ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَسْتَرِقُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَيُلْقُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَهَنَةِ، فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ وَيَخْتَلِطُ، وَلَا يُدْرَى مَنِ الصَّادِقُ، وَهَذَا مِنْ لطف الله -تعالى- بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلِهَذَا قَالَ الْجِنُّ: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً} أَيْ: مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرِقَ السمع يَجِدْ لَهُ شِهَابًا مُرْصِدًا لَهُ لَا يَتَخَطَّاهُ ولا يتعداه، بل يمحقه اليوم وَيُهْلِكُهُ.

قوله: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ} الدنيا، يعني طلبنا خبرها كما هي عادتنا: {لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} الشهب: الشهاب الشعلة من النجم يقذف بها الشياطين.

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} أَيْ: مَا نَدْرِي هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ: {لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} وَهَذَا مِنْ أَدَبِهِمْ فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ أَسْنَدُوا الشَّرَّ إِلَى غَيْرِ فَاعِلٍ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللَّهِ -عز وجل.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: ((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))[10].

مضى الكلام عليه في شرح الأذكار، وأن ذلك من باب الأدب، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء:٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه {فَهُوَ يَشْفِينِ}، {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}، فلما ذكروا الشر جاءوا بالفعل المبني للمجهول، ولما جاءوا بالخير قالوا: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} ومثل هذا في قول الخضر لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}

---

[10] - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

[الكهف:٧٩] فنسب العيب إلى نفسه، **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}** [الكهف:٨٢] فأضاف ذلك إلى الله –تبارك وتعالى.

فهنا هذا من باب الأدب في العبارة، مع أن الله خالق الخير والشر، وقد مضى الكلام على هذا في شرح الأذكار، وأن قوله صلى الله عليه وسلم: ((والشر ليس إليك))[١١] مع أن الله خالق الخير والشر، لكن الشر لا ينسب إليه هكذا استقلالاً، وإنما هو في مفعولاته، وليس في أفعاله، فأفعاله كلها خير، وصفاته كاملة، وإنما يفعل لحكمة، وإنما يقع الشر في مفعولاته، فهذا المطر الذي يقع فتنهدم به بعض البيوت، وتتقطع بعض السبل، ونحو ذلك هو بالنسبة لهذا الذي وقع لهؤلاء هو شر، لكنه في تقدير الله وفي أفعاله خير وحكمة، ونفع عام، وقل مثل ذلك في بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو خير، وإن كان ذلك سببًا لذهاب رئاسات على أقوام، وكذلك أيضًا نفوس مزهقة قتلوا في غزواته –صلى الله عليه وسلم–، ونحو ذلك، مع أن من أهل العلم من يقول: هذا أيضًا خير لهم؛ لأنهم قتلوا وقُطع دابر الكفر الذي يتمادى، ويصدر عنهم، يعني حتى القتل الواقع لهم فيه خير.

وَقَدْ كَانَتِ الْكَوَاكِبُ يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِكَثِيرٍ بَلْ فِي الْأَحْيَانِ بَعْدَ الْأَحْيَانِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– إذا رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: ((مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟)) فَقُلْنَا: كُنَّا نَقُولُ: يُولَدُ عَظِيمٌ، يَمُوتُ عَظِيمٌ، فَقَالَ: ((لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ..))[١٢]، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ، وَقَدْ أَوْرَدْنَاهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ بِتَمَامِهِ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى تَطَلُّبِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ.

سؤال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ما كنتم تقولون في هذا؟))، يعني في الجاهلية، فكان يرمى بها في الجاهلية، لكن حينما رمي بنجم فاستنار، وهم مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، فهذا يدل على أنها وجدت بعد بعثه –عليه الصلاة والسلام–، لكنها كانت قليلة مقارنة بما كان الأمر عليه، كثر الرمي بها بعد بعثه –صلى الله عليه وسلم–، لكن كان يرمى بها في الجاهلية؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((ما كنتم تقولون؟)) يعني في جاهليتكم، فكانت في الجاهلية يرمى بها خلافًا لمن قال: إن ذلك لم يكن، يعني في الجاهلية ما كان يرمى بها.

فكان موجودًا، ولكنه زاد بعد بعثه –صلى الله عليه وسلم–، وقد سأل معمر بن راشد محمد بن شهاب الزهري –رحم الله الجميع– عن هذا: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، فسأله عن هذه الآية: أفرأيت قوله: **{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا}** يعني ما كان ذلك يجدونه قبل مبعثه –صلى الله عليه وسلم–؟، فأجابه بنحو ما سبق: غُلِّظَتْ وشُدد أمرها حين بعث –صلى الله عليه وسلم.

---

[١١] – المصدر السابق.

[١٢] – رواه مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٢٢٢٩).

وهكذا ذكر ابن قتيبة -رحمه الله-: كان يرمى بها، لكن غُلظ ذلك وشدد، فلم يكن قبل بعثه -صلى الله عليه وسلم- من الحراسة ما كان بعد بعثه، فكانوا يسترقون السمع، ولربما رُجموا بالشهب في الجاهلية، ولكن بعد بعثه -صلى الله عليه وسلم- مُنعوا من ذلك تمامًا، وهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم-، إلا ما شاء الله يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن الكهنة، وأخبر عن صعود الشياطين، وكيف يأتون إلى الكهنة، وكيف أنه يكذب معها مائة كذبة.

فهذا معناه أنهم يلتقطون الكلمة بعد الكلمة مما أراد الله -تبارك وتعالى-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما خبّأ لابن صياد وكان يتهم بالكهانة، خبأ له وسأله، قال: هو الدُّخ[١٣] يعني تلقف بعض الكلمة، ولم يستتم له ما أراد، والله أعلم.

فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقْرَأُ بِأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي حُفِظَتْ مِنْ أَجْلِهِ السَّمَاءُ، فَآمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَمَرَّدَ فِي طُغْيَانِهِ مَنْ بَقِيَ، كَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ: {إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف:٢٩] الْآيَةَ.

هؤلاء أعقل من عتاة الإنس، عتاة الإنس حينما يرون مثل هذه الظواهر والمظاهر التي تكون في العالم العلوي، أو في العالم السلفي يعزون ذلك إلى أمور طبيعية، وهم أبعد ما يكونون عن تفسيرها بأمور تتصل بمعنى كهذا، إن وقع زلزال، أو وقع طوفان، أو وقع ما وقع، بل لو طبقت السماء على الأرض فسروا هذا بتفسيرات وتعليلات لا تزيدهم إلا طغيانًا وعتوًّا، بل منهم من لا يرضى أبدًا أن تفسر هذه الأشياء بمعانٍ مما يخوف الله به عباده، ونحو ذلك كما جاء في الحديث، فإذا فسر الزلزال المدمر بأن هذا وقع بسبب ذنوب بني آدم، ونحو ذلك فإن هذا يكون في غاية الإزعاج بالنسبة إلى هؤلاء، فتأتي الآيات والقوارع والعقوبات، ولا يحصل بسبب ذلك لا توبة ولا رجوع، ولا خوف من الله -عز وجل- أبدًا، يقول لي بعض من ذهب إلى بعض البلاد، وحصل في تلك الليلة التي وصل فيها خسوف، ثم حصل زلزال كبير، يقول: بقيت تلك الليلة في المسجد، ولم يأتِ أحد، والناس في الساحات شبه عرايا؛ لأنهم خرجوا في ليلتهم هلعًا، فبقوا في الساحات، حشود من السواح، وعالم من الناس كثير، يقول: بقيت إلى الفجر لم يأتِ أحد يصلي الخسوف، وأذن الفجر، ولم يأت هؤلاء من الساحات، وهم ينتسبون إلى الإسلام في مجملهم، وما جاء أحد يصلي الفجر، يتسكعون، حشود في تلك الساحات المجاورة؛ لأنه كان في مكان فيه مساحات وأماكن، هو ذهب يبحث عن مخطوطة، وكان هذا أول ما استقبله، لاحظ هؤلاء ما تابوا، ولا رجعوا، ولا أنابوا، حتى صلاة الفجر فضلاً عن صلاة الخسوف، مثل البهائم.

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْيُ بِهَا هَالَ ذَلِكَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَانْزَعَجُوا لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِخَرَابِ الْعَالَمِ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ تُحْرَسُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي

---

١٣ - الحديث رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٤) ومسلم، كتاب في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، رقم (٢٩٣٠) (٢٩٣١).

الْأَرْضِ نَبِيٌّ أَوْ دِينٌ لِلَّهِ ظَاهِرٌ، فَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- قَدِ اتَّخَذَتِ الْمَقَاعِدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يَسْتَمِعُونَ مَا يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ مِنْ أَمْرٍ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- نبيًّا رسولا رُجِمُوا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَفَزِعَ لِذَلِكَ أَهْلُ الطَّائِفِ، فَقَالُوا: هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ النَّارِ فِي السَّمَاءِ وَاخْتِلَافِ الشُّهُبِ، فَجَعَلُوا يُعْتِقُونَ أَرِقَّاءَهُمْ وَيُسَيِّبُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ عبد يا ليل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ: وَيْحَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الطَّائِفِ أَمْسِكُوا عَنْ أَمْوَالِكُمْ، وَانْظُرُوا إِلَى مَعَالِمِ النُّجُومِ، فَإِنْ رَأَيْتُمُوهَا مُسْتَقِرَّةً فِي أَمْكِنَتِهَا فَلَمْ يَهْلِكْ أَهْلُ السَّمَاءِ، إِنَّمَا هَذَا مِنْ أَجْلِ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ -يَعْنِي مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم-، وإن نظرتم فلم تَرَوْهَا فَقَدْ هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ.

فَنَظَرُوا فَرَأَوْهَا فكفوا عن أقوالهم وَفَزِعَتِ الشَّيَاطِينُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَأَتَوْا إِبْلِيسَ فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فَقَالَ: ائْتُونِي مِنْ كُلِّ أَرْضٍ بِقَبْضَةٍ مِنْ تُرَابٍ أَشُمُّهَا، فَأَتَوْهُ فَشَمَّ فَقَالَ: صَاحِبُكُمْ بِمَكَّةَ، فَبَعَثَ سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ جِنِّ نَصِيبِين فَقَدِمُوا مَكَّةَ فَوَجَدُوا نبي اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَائِمًا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَدَنَوْا مِنْهُ حِرْصًا عَلَى الْقُرْآنِ حَتَّى كَادَتْ كَلَاكِلُهُمْ تُصِيبُهُ، -الكلكال أي الصدر أو هذه العظام الفقرتان، يعني دنوا منه جدًّا- ثُمَّ أَسْلَمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ عَلَى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْفَصْلَ مُسْتَقْصًى فِي أَوَّلِ الْبَعْثِ مِنْ كِتَابِ السِّيرَةِ الْمُطَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً * وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً} [الجن:١١- ١٧].

يقول تعالى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ: **{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}** أَيْ غَيْرُ ذَلِكَ **{كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً}** أَيْ: طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً، وَآرَاءً مُتَفَرِّقَةً، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: **{كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً}** أَيْ: مِنَّا الْمُؤْمِنُ وَمِنَّا الْكَافِرُ.

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ} فُسر: **{الصَّالِحُونَ}** بالمسلمين العاملين بطاعة الله -تبارك وتعالى-، **{وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}** كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، والحافظ ابن القيم.

ابن القيم -رحمه الله- ذكر أن هذا يتضمن المراتب الثلاث التي ذكرها الله -عز وجل-: **{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}** [فاطر:٣٢] فهؤلاء أهل الاستجابة **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}** أمة الإجابة التي اصطفاها الله -عز وجل-، وهي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- المستجيبون منهم لدعوته هم على هذه الطبقات الثلاث، **{مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}** فهنا: السابق بالخيرات، والمقتصد، والظالم لنفسه في هذه الجملة، ويبقى الآخرون هم الْقَاسِطُونَ: **{فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}**.

هم يتحدثون عن أحوال الجن: أن فيهم الصالح وغير الصالح: **{كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً}** الطرائق جمع طريقة، وهي المذهب الذي يذهب إليه الإنسان، والقِدد يعني الضروب والأجناس المختلفة، كما يقول ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هاتين اللفظتين: **{طَرَائِقَ قِدَداً}** والمقصود جماعات متفرقة، وأصناف مختلفة.

فالقِدَّة هي القطعة من الشيء، تقول: صار القوم قِددًا، يعني تفرقت أحوالهم، يعني طوائف متفرقة، ذوي طرائق قِددًا، أو كانت طرائقنا طرائق قِددًا، أو نحو ذلك، مما يمكن أن يقدَّر.

والمقصود أنهم كانوا أهواء مختلفة وفرقًا شتى، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وابن جرير يفسر الطريقة بالمذهب، وكذلك الحافظ ابن القيم، يعني مذاهب شتى، وأهواء متفرقة، فهم على أديان مختلفة كالإنس، ومذاهب أيضًا وآراء متفرقة متباينة، وأقوال السلف في هذا متقاربة، يعني تجد من السلف من يقول: فيهم نصارى وأهل إسلام ويهود، ونحو ذلك، ومجوس، كما جاء عن سعيد بن المسيب، وهذا تفسير له بما يقربه من المثال، وهكذا قول من قال كمجاهد والحسن: فيهم قدرية ومرجئة، ونحو ذلك، كالرافضة، وهكذا من فسره بتفسير مجمل، قال: أهواء مختلفة وأديان، كالسدي والضحاك، هذا كله يرجع إلى شيء واحد، فهؤلاء الجن كالإنس، فيهم الديانات المختلفة، وفيهم الأهواء، يعني الفرق كالإنس، ففيهم رافضة، وفيهم أشاعرة ومعتزلة وصوفية، وفيهم قدرية، وكل هذه الأهواء موجودة في الجن، فيهم أهل سنة، وغير ذلك، كالإنس تمامًا، والله المستعان.

هذا التفرق إذا كان موجودًا في الإنس فهو في الجن أكثر؛ لأنهم كما قال شيخ الإسلام: هم أهل خفة وظلم، فهذه الخفة والظلم تدفع إلى مزيد من تجاوز الحد والانحراف، ولذلك كان الانحراف فيهم أكثر من الإنس، نظرًا لطبيعتهم، فالنار من طبيعتها الخفة: **{مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}** [الرحمن:١٥] بخلاف الطين، فهو إلى الرصانة والرزانة أقرب، فإذا وجدت في الإنس هذه الحماقات والطوائف والضلالات والأهواء فالجن من باب أولى.

وروى أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّجَادُ فِي أَمَالِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: تَرَوَّحَ إِلَيْنَا جِنِّيٌّ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ: الْأُرْزُ، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُمْ بِهِ، فَجَعَلْتُ أَرَى اللُّقَمَ تُرْفَعُ وَلَا أَرَى أَحَدًا، فَقُلْتُ: فِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي فِينَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فقلت: فما الرافضة فيكم؟ قَالَ: شَرُّنَا"[١٤]، عَرَضْتُ هَذَا الْإِسْنَادَ عَلَى شَيْخِنَا الْحَافِظِ أَبِي الْحَجَّاجِ الْمِزِّيِّ، فَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى الْأَعْمَشِ.

"تروَّح إلينا جني" كأنه استروح، وانبسط، فتكلم، وأنس بهم، وصار يأكل ويتحدث.

الأصل أن الجن لا يصدقون، الكذب فيهم أكثر كما قال شيخ الإسلام -رحمه الله-، لذلك هؤلاء الذين يسألونهم دائمًا من الرقاة، ويأخذون ذلك كأنه وحي منزل، هذا غلط، فيقول: أصابك فلان، فعل بك فلان، وأحيانًا يسألهم أسئلة خارجة عن ذلك كله، فيسألون عن قبائلهم، ولربما قال لهم هذا المتكلم: إنه من ملوك الجن، وعرض عليه خدمات، ونحو هذا، وهذا يصدقه في كل ما يقول، والواقع أنهم أهل كذب، ولو عُكست القضية وكان الإنس هم الذين يرون الجن، ويتلاعبون بهم لفعل بهم سفهاؤنا الأفاعيل، وأضافوا إلى أنفسهم من الملك والعظمة، وبدءوا يقولون: ماذا تريد؟ وماذا تتمنى؟.

فهؤلاء يصدقونهم بكل ما يقولون، ويسجلون هذا في شريط وينشرونه، وقد لا يكون أصلا هذا الذي يتكلم من الجن.

---

١٤ - الأثر أخرجه السخاوي في البلدانيات، ص (١٧٦).

وكلما أوغل العاقل في الرقية أدرك أنه يدخل في متاهات، وفي أمور لا تزيده إلا حيرة: هل هذا فيه جن أو فيه عين؟ الأعراض تتشابه، أو أنه عنده إشكال أصلاً فيما يتعلق بأمور نفسية أحيانًا، فيظهر عليه من التغيرات، ومن الكلام -إلى آخره- أشياء هائلة لا يتصورها الإنسان، دخلتُ مرة المسجد هذا بعد صلاة العشاء، فوجدت أحد الإخوان من طلبة العلم -وهو ليس عنده إشكال أن يأتي ويتحدث في هذا المكان-، ووجدته حاسرًا في حالة يرثى لها، واقفا هنا، لم يصلِّ، فسألته، فقال: أختي هنا في الخارج مع زوجها، ونحن في حالة لا يعلمها إلا الله، فأجلسته: ما الذي حصل؟ فقال: أختي معها أولادها الصغار، معها ولدان، فأغلقتْ باب السيارة، ونحو ذلك، فضَرَب رأس الولد، فأصابها شيء، وشعرت أن شيئًا في جسمها، يقول: فجلست أرقيها، وأنا لا أعرف الرقية، فجلس يتحدث رجل، يقول: فبقيت طول الليل، من بعد العشاء إلى الفجر، يقول: مواصل وأنا على هذه الحال، وأقرأ وأشرب، ثم أمجُّ الماء عليه، ويتكلم، قلت له: كيف عرفت أن هذا من الشياطين؟ قال: هذا مارد، أخبرنا هو، فقلت له: وما يدريك أن كلامه صحيح؟ قال: هو ذكر لنا معلومات دقيقة عن الأسرة، لا أحد يعرفها، فقلت له: لا تعجب، وأعطيته رقم أحد الناس الذين يعرفون هذه الأشياء، وقلت له: تواصل معه، وكان قد ذهب بها من قبل إلى راقٍ، وكواها بالكهرباء، أو آذاها، وقال: هذا يحتاج إلى جلسات طويلة، هذا مارد، فتواصلَ مع هذا الشخص، وبعد اليوم الثاني، وإذا به يضحك، وبِسَمْتِه، ولابس، قلت له: ما الذي حصل؟ قال: الحمد لله، ذهب هذا كله، فلاحِظ: كانوا سيدخلون في نفق لا يخرجون منه إلا أن يشاء الله، قال: هذا كله ذهب، قلت له: ما الذي حصل؟ قال: جلس معنا الشخص الراقي، وسألها بعض الأسئلة، فقال لها: أنت تدركين الكلام الذي كنتِ تقولينه؟ قالت: نعم، قال: أصلاً الذي فيه مس -لا مارد ولا غير مارد- لا يدرك، ولا يعي ما قال، فأنت التي كنت تتكلمين، فقالوا: وهذا الصوت صوت رجل؟، قال: أنت تعانين من بعض الأمراض؟، عندك إشكالات في الغدد؟، فقالت: نعم، عندها غدة تعالج عند طبيب، فقال: اتصلوا بالطبيب، قال: أنت أخذتِ الدواء؟ قالت: لا، من اثني عشر يومًا، فاتصلوا على الطبيب، فسألوه عن ترك الدواء، وعن الآثار، قال: يكون الصوت خشناً جدًّا، ويكون هناك برودة في الأطراف، نفس الأعراض التي فيها، وكانوا يظنون أنه رجل، وكان يقول لهم: الشيخ بيته محصن، اذهبوا بها إلى بيته، هذا المارد يقول لهم هذا، أنت تعقل ما تقول؟ هذا المارد، حريص عليها! ويقول: اذهبوا بها إلى بيت فلان، كيف يدلكم المارد على هذا؟!

المهم، ذهب هذا كله، كل هذه الأوهام ذهبت، وإلا فكان يمكن أن يدخلهم هذا الراقي وغيره -ولا أقصد الجميع- أن يدخلهم في متاهات سنوات، وليست شهورًا ولا أيامًا، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجن من الآية (١٢) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

وقوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن:١٢] أَيْ نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ حَاكِمَةٌ عَلَيْنَا، وَأَنَّا لَا نُعْجِزُهُ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ أَمْعَنَّا فِي الْهَرَبِ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ} [الجن:١٣] يَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ، وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ، وَقَوْلُهُمْ: {فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: فَلَا يَخَافُ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، أَوْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً} [طه:١١٢].

{فَلا يَخافُ بَخْساً} أي: يُنقَص، البخس: النقص من حسناته، والرَّهَق: أن يوضع عليه من غير سيئاته، هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو اختيار ابن جرير، هكذا فسره -رحمه الله-، لا يخاف نقصًا في ثوابه، ولا ظلمًا، فتوضع عليه سيئات غيره، لا يخاف مكروهًا يغشاه، وقد بينا أن الرَّهَق بمعنى: الغشيان، فإذا أردنا أن نربطه بأصل المعنى اللغوي: لا يخاف مكروهًا، أو ظلمًا يغشاه، فالبخس: النقص، والرَّهَق يقال لذلك، ويقال للطغيان، كما سبق.

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} [الجن:١٤] أَيْ: مِنَّا الْمُسْلِمُ وَمِنَّا الْقَاسِطُ، وَهُوَ الْجَائِرُ عَنِ الْحَقِّ النَّاكِبُ عَنْهُ، بِخِلَافِ الْمُقْسِطِ، فَإِنَّهُ الْعَادِلُ: {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً} أَيْ: طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [الجن:١٥] أَيْ وَقُودًا تُسَعَّرُ بِهِمْ.

تأمل هناك قال: **{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}** [الجن:١١] فهؤلاء يتفاوتون في مراتبهم في الصلاح، وغيره، وهنا في الإيمان والكفر: **{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ}** يعني الجائر عن الحق، الناكب له يقال له: قاسط.

{فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} طلبوا لأنفسهم النجاة **{تَحَرَّوْا رَشَدًا}** يعني طلبوا الهدى، هذا معنى كلام ابن كثير -رحمه الله.

وقوله تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} [الجن: ١٦]، اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامَ الْقَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَدَلُوا إِلَيْهَا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا: {لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} أَيْ: كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ: سِعَةُ الرِّزْقِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن:١٧] أَيْ: لِنَخْتَبِرَهُمْ؛ كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: {لِنَفْتِنَهُمْ} لِنَبْتَلِيَهُمْ مَنْ يَسْتَمِرُّ عَلَى الْهِدَايَةِ مِمَّنْ يَرْتَدُّ إِلَى الْغَوَايَةِ.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ:

روى الْعَوْفِيُّ نحوه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وكذا قَالَ مُجَاهِدٌ وسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَطَاءٌ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، وَقَتَادَةُ والضَّحَّاكُ.

وقال مقاتل: نزلت فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، حِينَ مُنِعُوا الْمَطَرَ سَبْعَ سنين.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} أي الضلال: {لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} أَيْ: لَأَوْسَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ استدراجًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الْأَنْعَام:٤٤]، وكَقَوْلِهِ: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ * نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [الْمُؤْمِنُون:٥٥-٥٦].

وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مِجْلَزٍ لَاحِقِ بن حُمَيد، فإنه قال في قوله تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} أَيْ: طَرِيقَةِ الضَّلَالَةِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَحَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالْكَلْبِيِّ وَابْنِ كَيْسَانَ وَلَهُ اتِّجَاهٌ، وَيَتَأَيَّدُ بِقَوْلِهِ: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن:١٧].

قوله تبارك وتعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن:١٦-١٧] هذا ليس من قول الجن، هذا من كلام الله -تبارك وتعالى-، فهذا مما يسمونه: ما ظاهره الاتصال ومعناه منفصل، يعني أنه لمتكلمين، لقائلين، مع أن الظاهر في السياق أن ذلك في سياق كلام الجن: وأنا مِنَّا الْقَاسِطُونَ، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} هنا إذا تبين هذا المعنى: أن هذا من قول الجن، فهو معطوف على قوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} فهذا مما أوحاه الله -تبارك وتعالى- إليه: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} لحصل لهم ما ذكر.

أُوحي إليّ: أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس {عَلَى الطَّرِيقَةِ} أو الإنس والجن.

والمقصود بذلك: {اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} على أحد القولين اللذين ذكرهما ابن كثير: على الإسلام: {لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا}.

{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا} هنا كما سبق أن القراء اتفقوا على فتح الهمزة في هذا الموضع، يعني كأنه على إضمار يمين، قسم: والله {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم} ونحو ذلك.

{أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} وأوحي إليّ: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا}، وبعضهم يقول غير هذا.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} فهذا الموضع هو: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} هو منشأ الخلاف الذي ذكره ابن كثير.

فهل المقصود: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} يعني الإسلام والهدى، والحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ لجازاهم الله بذلك، فإذا كان هذا هو المعنى فكيف قال: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}؟

هذا موضع الإشكال عندهم، فلهذا قال بعضهم: إنه: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} يعني لو بقوا على كفرهم، واستمروا عليه، لاستدرجناهم، فأمددناهم بهذه الأمور التي هي من أجل مطالبهم الدنيوية؛ لأنه يحصل بسببها الخصب، ويكثر المال.

ويروى عن عمر -رضي الله تعالى عنه-: أنه حيث كان الماء كان المال، وحيثما كان المال كانت الفتنة.

فعلى القول بأن ذلك بمعنى: أنه يوسع لهم الأرزاق استدراجًا لهم، فهذا كما قال الله -تعالى-: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام:٤٤] الآية.

وهكذا في الآية الأخرى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥-٥٦] إلى غير هذا من الشواهد؛ كقوله تعالى في سورة الزخرف: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الزخرف:٣٣]، بعضهم يقول: على الكفر -كما مضى- {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف:٣٣-٣٥] يعني: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} على الكفر -على أحد القولين-: {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا} ذهبًا.

فكل هذا يكون من الذهب والفضة.

{وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني على الكفر، فالله رحمة بالمؤمنين جعل بيوت هؤلاء الكفار من الخزف والحجارة والحديد، وما إلى ذلك، ومع ذلك الفتنة عظيمة بهم، كيف مُهدت لهم السبل، وذُللت لهم الحياة، وكانت الأمطار عليهم دارّة، فيُفتن خلق بهذا، أي كيف يكونون على الباطل وهذه حالهم؟، فكيف لو كانت بيوتهم من ذهب وفضة؟!.

فالله رحم عباده، هذا على هذا المعنى.

فالآية تحتمل هذا المعنى: أن يكون ذلك على سبيل استدراج، والقرينة: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}.

وعلى المعنى الآخر: أن ذلك بمعنى الإسلام: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} يعني على الإيمان والهدى الذي بعث به الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأعطاهم الله، وأنزل لهم من البركات: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف:٩٦] فهذه تحصل بسبب الإيمان، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} ما محمله على هذا القول؟.

يكون محمله: يعني لنختبر شكرهم في هذا العطاء الذي نعطيهم، ولا شك أن ما يعطيه الله -عز وجل- لعباده فإن هذا ابتلاء وامتحان: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء:٣٥] فذكر الشر والخير معًا.

هو {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢] فهذه الحياة هي ابتلاء بما فيها، فيكون قوله: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} يعني لنختبرهم: أيشكرون على هذه العطايا والنعم؟ والله أعلم.

على المعنى الأول: أن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام لأعطيناهم وأوليناهم، فيكون: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} اختبارًا لهم.

هذا الذي أيضًا رجحه ابن جرير -رحمه الله- القول الأول، مع أن القول الآخر يحتمل، لكن كأن هذا هو الأقرب -والله أعلم-؛ لأن الاستقامة إذا ذكرت فالمتبادر منها الاستقامة على الحق والطريقة، هكذا بهذا الإطلاق، الظاهر أن "أل" هنا عهدية -والله تعالى أعلم- الطريقة المعهودة التي رسمها الله، ووصفها في كتابه، وأمر عباده بسلوكها: الصراط المستقيم، الإسلام، والله أعلم.

يقول عن القول الثاني: "وله اتجاه، ويتأيد بقوله: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}، هذه هي القرينة.

{لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} والغدق ما المراد به؟.

يعني الكثير الواسع {مَاء غَدَقًا} فهو كثير يتتابع، وهذا يقتضي توسعة عليهم في الدنيا والعطاء؛ لأن هذا الماء إذا تتابع صارت بلادهم كثيرة الخيرات، فهذا يعني السعة في معايشهم وأرزاقهم، وليس مجرد نزول المطر، وإنما ما يتبعه -كما هو معلوم- بل إن بعض أهل العلم -كابن قتيبة- يقول: ضرب ذلك مثلاً، وإلا فالمقصود ما هو أوسع من ذلك، لكن إذا نظرنا إلى هذا الملحظ في الارتباط: أن كثرة الأمطار حينما تصير بهذه المثابة: {غَدَقًا} فإن ذلك يعني كثرة الخيرات، تكون بلادهم كثيرة الأرزاق واسعة، فيحصل بها مطالبهم ومعايشهم، وتكون أقواتهم وأرزاقهم وافرة، والله -عز وجل- يقول: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:٢-٣].

فالتقوى سبب للرزق والبركة والخير، وكما سبق: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح:١٠-١٢].

كل هذا يحصل بسبب: التقوى والإيمان، والله المستعان.

وبعضهم يقول: هذا أصلاً في الجن: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا} يعني لو استقام أبوهم، وسجد لآدم، وأطاع الله -عز وجل- حصل لهم ما ذكر، أن الله ينعم عليهم، وهذا بعيد، مع أن هذا ما قاله واختاره الزجاج -رحمه الله-، لكن ظاهر السياق لا يدل عليه، والله أعلم.

وَقَوْلُهُ: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} أَيْ: عذابا مُشِقًّا شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: {عَذَابًا صَعَدًا} أَيْ: مَشَقَّةً لَا رَاحَةَ مَعَهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: بئر فيها.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ} ما المقصود بذكر ربه -تبارك وتعالى-؟

ابن جرير -رحمه الله- حمله على القرآن، يُعرض عن استماعه، والعمل به.

فهنا يكون "الذكر" من قبيل إضافة المفعول إلى الفاعل؛ لأن الله هو الذي ذكر القرآن، وهو الذي تكلم به، فالرب فاعل، والقرآن مذكوره، تكلم به، فالله هو الفاعل: {عَن ذِكْرِ رَبِّهِ}.

ويحتمل أن يكون من قبيل: إضافة الفاعل إلى المفعول، يعني يكون الرب هنا -هذا اللفظ- في مقام يعرب مفعولاً به، يعني: يعرض عن ذكر ربه، لا يذكر ربه، بلسانه وقلبه وجوارحه.

ولو قيل: إن الآية تُحمل على هذا وهذا، يكون المصدر هنا مضافاً بمعنى إضافة الفاعل إلى المفعول، والعكس، فهنا من يعرض عن ذكر ربه -تبارك وتعالى-، فلا يذكر ربه، بقلبه ولا لسانه ولا جوارحه، وكذلك أيضًا يعرض عن كتابه وكلامه، فلا يؤمن به ولا ينتفع، قال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} [طـه:١٢٤] أيضًا تحتمل المعنيين.

{ذِكْرِي} كتابي، كلامي، أو {ذِكْرِي} يعني لم يذكرني، لم يعبدني، الذكر يشمل هذا وهذا، وقد مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات.

وقوله: {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} قال: مُشِقًّا شديدًا مُوجعًا، هذا الذي فسره به ابن جرير –رحمه الله–، مع أن من أهل العلم من قال غير ذلك.

{عَذَابًا صَعَدًا} يعني شاقاً صعبًا.

و{يَسْلُكْهُ} قرأه بعضهم بالنون، وهي قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى التي نقرأ بها قراءة الكوفيين بالياء: {يَسْلُكْهُ}.

هنا وصف العذاب بهذا: {عَذَابًا} ما صفته؟

{صَعَدًا} فإذا كان أصل الصّعد هو المشقة، فوصف العذاب به بأي اعتبار؟.

كأنه من باب المبالغة، باعتبار أنه يتصعد به المعذب، يلحقه بسبب ذلك ألم ومشقة ومعاناة، فهو يصعب عليه، ويشق ولا يطيقه.

مع أن بعض السلف كما روي عن عكرمة فسر الصعد هنا بصخرة في النار.

وفسر بعضهم ذلك بالصعود: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} فيصعد في النار وينزل، ويتعذب بذلك، فإذا بلغ أعلاها انحدر، وهكذا، ولهذا ابن كثير –رحمه الله– هنا قال عن ابن عباس: جبل في جهنم.

وعن سعيد بن جبير: بئر فيها.

لكن إذا فسر هذا بالمشقة على كل حال هكذا فهو ما يلاقيه من معاناة في النار ومشاق –أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً} [الجن:١٨-٢٤].

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ: أن يوحدوه في محالّ عِبَادَتِهِ، وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرَكُ به، كما قال قتادة في قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ –صلى الله عليه وسلم– أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَحْدَهُ.

وروى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} قَالَ: قَالَتِ الْجِنُّ لِنَبِيِّ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: كَيْفَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَ الْمَسْجِدَ ونحن ناءون –أي بعيدون عنك؟، وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عَنْكَ؟ فَنَزَلَتْ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}.

قوله –تبارك وتعالى–: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} كما بينا سابقا أن القراء اتفقوا في هذا الموضع على فتح الهمزة: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} يعني يكون معطوفاً على قوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} [الجن:١] {وأن المساجد لله} أوحي إليّ: أن المساجد مختصة بالله –تبارك وتعالى–، مع أن بعض أهل العلم –كالخليل– يقول: المعنى هكذا: ولأن {الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}، المساجد ما المراد بها؟.

الظاهر المتبادر: أنها المواضع التي بنيت للصلاة، بهذا فسرها بعض السلف فمن بعدهم.

وبعضهم عمم المعنى: أنها كل البقاع، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا))[1] فعمم المعنى.

فالأرض كلها مسجد بهذا الاعتبار، وهذا الذي فسرها به الحسن البصري، فهذا ليس باختلاف حقيقي، يعني الأرض بهذا الاعتبار كلها مسجد.

المقصود أن المواضع التي يُصلَّى فيها إلى آخره ينبغي أن يكون ذلك مما يوحد به الله –تبارك وتعالى–، ولا يُتخذ شيء من ذلك لعبادة غيره.

وذهب آخرون إلى أن المقصود بالمساجد هي مواضع السجود، أن المساجد يقال لها: مساجد باعتبار أن الإنسان يسجد عليها، فهو يسجد على سبعة أعضاء، أو سبعة أعظم، وهذا الذي قاله سعيد بن المسيب –رحمه الله.

{وأن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} يعني هذه أعضاء الله أنعم بها عليك، فلا توجه ذلك إلى غيره –جل جلاله وتقدست أسماؤه–، فيكون ذلك كفرًا به، وبنعمته على عباده.

وهذا معنى تحتمله الآية.

وبعضهم فسر المساجد بالصلاة نفسها: {وأن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} يعني الصلاة، باعتبار أن السجود من جملة أركان الصلاة، وهذا أبعد هذه الأقوال، فالمتبادر منها: أن المساجد هي المواضع التي بنيت للصلاة، ويلحق ذلك حكمًا كل بقعة من الأرض يصلى فيها، فينبغي أن يكون التوجه في ذلك كله إلى الله –تبارك وتعالى.

وقول من قال: إن المقصود: {وأن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} يعني: مواضع السجود ليس ببعيد، فلو قال قائل: إن ذلك داخل في الآية، فهي تشمل المواضع من الأرض، وتشمل أيضًا ذلك من الإنسان، فكل ذلك ينبغي أن يتوجه به إلى المعبود، دون ما سواه {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}.

وَقَوْلُهُ تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: "لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– يَتْلُو الْقُرْآنَ، كَادُوا يَرْكَبُونَهُ مِنَ الْحِرْصِ لَمَّا سَمِعُوهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَدَنَوْا مِنْهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّى أَتَاهُ الرَّسُولُ، فَجَعَلَ يُقْرِئُهُ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} [الجن:1] يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ"[2] هَذَا قَوْلٌ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ –رضي الله عنه.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ {لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي وَأَصْحَابُهُ يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عَجِبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ، قَالَ: فَقَالُوا لِقَوْمِهِم {لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً}.

وَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَيْضًا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ، كَادَتِ الْعَرَبُ تَلْبُدُ عَلَيْهِ جَمِيعًا.

---

1 – رواه البخاري، في أول كتاب التيمم، رقم (335)، ومسلم، في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (521).

2 – تفسير القرآن العظيم لابن كثير (8/257).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {وأنه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} قَالَ: تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ ينصره ويمضيه، ويظهره على من ناوأه.

وهذا قَوْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ، وهو اختيار ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} أَيْ: قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آذَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ، لِيُبْطِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، واجتمعوا على عداوته: {إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} أَيْ إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ: {وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً}.

هذه الأقوال الثلاثة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ اللَّهِ يَدْعُوهُ}.

{وَأَنَّهُ} كما سبق أن بينا أن قراءة الجمهور بفتح همزة أن: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ} فيكون ذلك عائدًا على أوحي: {أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ} وأوحي إليّ أنه: {لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}.

فـ{عَبْدُ اللَّهِ} هنا المراد به النبي -صلى الله عليه وسلم-، في هذه الأقوال الثلاثة، لكن: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}، مَن هؤلاء الذين كادوا يكونون عليه لبدًا؟

ذكر ثلاثة أقوال:

الأول -من غير نظر إلى ترتيب ابن كثير -رحمه الله-: أن المقصود بذلك: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} يعني أن أصحابه حينما صلى بهم، فكانوا يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، وينقادون خلفه، فيكون ذلك من قول الجن، يصفون ما شاهدوا من صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه.

ولكن هذا قد يشكل عليه ما سبق من مرجع الكلام إلى قوله: {أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ} [الجن: ١]. فأوحي إليه: أنه لما قام عبد الله، كاد أصحابه يكونون عليه لبدًا؟!

لا، وإنما المقصود -والله أعلم- أن ذلك يحتمل أن يكون من قول الله -عز وجل-: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}، فيكون المعنى الثاني: {لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى الله، يدعو إلى التوحيد، إلى شهادة أن لا إله إلا الله تلبّد عليه المشركون، اجتمعوا فرموه عن قوس واحدة، من الإنس، وعلى القول الآخر -وهو أوسع من هذا، ولا ينافيه-: أنه تلبّد عليه الإنس والجن، على سبيل المضادة والمحادة والعداوة والصد عما يدعو إليه.

فهذه ثلاثة أقوال، يمكن أن تُجمع في قولين.

وإذا أردنا أن نجعلها ثلاثة يمكن أن نجعل الثالث: أن هؤلاء الجن اجتمعوا يستمعون من النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى تلبدوا، بمعنى أنهم اقتربوا منه جدًّا، وتقاربوا وتزاحموا، من أجل أن يستمعوا، وذلك ببطن نخلة -كما سبق-، وصاروا يستمعون قراءته، واقتربوا هذا الاقتراب، فهذا تحتمله الآية احتمالاً قريبًا، يعني كاد الجن أن يكونوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه المثابة والصفة: {لِبَدًا} يعني متراكمين من ازدحامهم وتقاربهم، من أجل سماع القرآن، يعني كأنه يركب بعضهم بعضًا.

وعلى المعنيين قبله: أن ذلك باعتبار عداوة الكفار، إما من الإنس أو من الإنس والجن، حَرَدًا على النبي -صلى الله عليه وسلم-، تلبد عليه هؤلاء الأعداء من شياطين الإنس والجن، ليطفئوا نور الله -تبارك وتعالى-، فهذا المعنى الذي مال إليه ورجحه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ولكن قوله لما ذكر القول

الثالث-: تلبدت الإنس والجن، قال: وهو اختيار ابن جرير، الواقع أن عبارة ابن جرير: كادت العرب أن تكون عليه جميعًا في إطفاء نور الله، العرب، فهو لا يتكلم عن الجن، فقول ابن جرير: إن ذلك في عداوة الإنس، وليس الإنس والجن، واضح؟، العبارة التي نقلها ابن كثير أنها الجن والإنس، وعبارة ابن جرير أضيق من هذا، فهو يتكلم عن الإنس، وهذه عبارته.

ابن جرير طبعًا يحتج على هذا المعنى، على هذا الترجيح: أن المقصود في العداوة، وليس المقصود أن أصحابه يسجدون خلفه مثلاً، ويركعون بركوعه، ونحو ذلك، أو أن الجن اقترب بعضهم من بعض، واقتربوا من النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** لماذا قال: العداوة؟

قال: القرينة أنه قبله قال مقررًا للتوحيد: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** فقال: إن المساجد لله، يعني يُوحَّد بها ويعبد، ولا تكن لغيره، والنهي الصريح عن الشرك: **{فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** ثم قال: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}** يعني يدعو إلى توحيده: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** يعني رموه عن قوس واحدة، بالعداوة، يرى أن هذه قرينة، يقول: جاءت هذه الآية بعد هذه، فهي في الدعوة إلى التوحيد، فهؤلاء: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** وليس من أجل أن يستمعوا قراءته، ولا من أجل أنهم يصلون خلفه، ويستجيبون له هذه الاستجابة العظيمة، لا، وإنما نفروا غاية النفور، وواجهوه بالعداوة، هذه القرينة التي جعلت ابن جرير يختار هذا القول، وهي صالحة لقول من قال: إن ذلك في الجن والإنس، كما اختار ابن كثير -رحمه الله- أيضًا.

يعني المقصود العداوة، سواء قيل: الإنس عداوة العرب له مثلاً، أو قيل: الإنس والجن، ما هي القرينة؟

على هذا اختيار ابن جرير وابن كثير، يعني أن ذلك في العداوة، يعني أصل القول واحد، هو ما قبله من ذكر التوحيد والدعوة إلى التوحيد، والأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك، فهذه قرينة على أن المقصود العداوة، لما واجههم بهذا كاشروه بالعداوة: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** وهكذا كل داعية من أتباع الرسل إلى التوحيد، فإن الأعداء يتكالبون عليه، حتى يصير بهذه المثابة، بقدر ما عنده من الدعوة إلى هذا التوحيد، والصبر عليه، والبذل والنفع والانتشار، فيحاربونه ويجتمعون على حربه، بكل سبيل مستطاع: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** فهم لا يتركون أهل الحق، ولكن المخذول من خذله الله، والموفق من وفقه الله -عز وجل-، والناس: ((كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها))[3] فمنهم من يكون في ركاب الشيطان، ومنهم من يكون في حزب الرحمن، والله المستعان.

{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} [الإسراء:٦٤] فكل راكب في مساخط الله -عز وجل- فهو من خيله، وكل ماشٍ في ذلك فهو من رجله، وكل صوت في قناة فضائية، أو غيرها من أصوات اللهو والمعازف، وغير ذلك فهو أيضًا من صوت الشيطان.

واللِّبَد عرفناه، ولا زالت هذه اللفظة مستعملة عندنا إلى اليوم، فالشيء الملبَّد، وتلبّد يقال للشيء الذي التصق بعضه ببعض، تراكم، يقال له ذلك، وكذلك الشعر الكثيف الذي في عنق الأسد يقال له: لُبْدة.

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} أَيْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ، وَعَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غَوَايَتِكُمْ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ -عز وجل.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا: أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ، أَيْ لَوْ عَصَيْتُهُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَاذِي مِنْ عَذَابِهِ: {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: لَا مَلْجَأَ.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} هذه على القراءة التي نقرأ بها: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} قراءة عاصم وحمزة، وفي قراءة الجمهور قال: {إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} بدون "قل" على سبيل الحكاية، والإخبار عنه.

وقوله هنا: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، {قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ.

وهذا الذي قاله ابن جرير أيضًا: إن المُلتَحد هو الملجأ، لن أجد مكانًا ألجأ إليه، ملتجأ ألجأ إليه.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: {لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ} أَيْ: لَا يُجِيرُنِي مِنْهُ، وَيُخَلِّصُنِي، إِلَّا إِبْلَاغِي الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [الْمَائِدَةِ:٦٧].

يعني أن البلاغ هنا: {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} يقول: أنا لا أجد من دون الله ملجأ ألجأ إليه، حينما يريدني بعقوبة {قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} يعني مَمالاً أو موضعًا أميل إليه، وملجأ ألجأ إليه، فهذا الاستثناء هنا: {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} بعض أهل العلم يقول: هذا الاستثناء من قوله -تبارك وتعالى-: {لَا أَمْلِكُ} يعني: لا أملك ضرًّا ولا رشدًا إلا التبليغ عن الله -تبارك وتعالى-، فهذا فيه أعظم الرشد، أو أن يكون هذا الاستثناء من قوله: {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} يعني لن أجد من دونه إلا التبليغ، وذلك الذي يجيرني من عذابه فقط.

وبعضهم يقول غير هذا {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} يقول: لكنْ أبلغكم، يعني أنه من قبيل الاستثناء المنقطع، كما يقول الفراء: أنا لن أجد من دون الله ملجأ ألجأ إليه، لكن أبلغكم ما أرسلت به فقط، يعني هذا غاية ما هنالك، وإلا فالبلاغ لا يوجد، وإنما ينجو من سلّمه الله -تبارك وتعالى-، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقوله تعالى: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أَيْ: أَنَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ، {جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أَيْ: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ منها.

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} أَيْ: حَتَّى إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعِدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} هُمْ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوَحِّدُونَ لله -تعالى-، أي بل المشركون لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا من جنود الله -عز وجل.

قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} يقول: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة، يعني بمعنى: أنهم لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر، والعداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى إذا رأوا الذي يوعدون به، فعندئذ سيعلمون: **{مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا}** فيكونون في حال من الحسرة والخذلان، وتتبين لهم، وتتكشف الحقائق.

{قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً} [الجن:٢٥-٢٨].

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ -صلى الله عليه وسلم-: أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ وَلَا يَدْرِي أَقَرِيبٌ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدٌ: {قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} أَيْ: مُدَّةً طَوِيلَةً.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ كثير من الجهلة من أنه -عليه الصلاة والسلام- "لَا يُؤَلِّفُ تَحْتَ الْأَرْضِ"[٤] كَذِبٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

معنى أنه: "لا يؤلِّف تحت الأرض" أنه لا يكمِّل ولا يتجاوز الألف، يعني هؤلاء يتنبئون أو يخبرون أو يتكلمون بناءً على حساب الجمل، الحروف المقطعة أو غير ذلك مما يزعمونه، مدة عمر الأمة، ويحتجون ببعض الأحاديث المكذوبة في عمر الدنيا: أنه سبعة آلاف سنة، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يتجاوز الألف، يعني في أمته، ومدة بقاء هذه الأمة التي هي آخر الأمم يقولون: لا تتجاوز الألف، لا يؤلِّف تحت الأرض، وهذا معناه، وهذا كذب، ولا يصح فيه شيء، والساعة لا يعلم وقتها إلا الله -تبارك وتعالى-، وقد مضت هذه المدد التي يزعم هؤلاء، ويتخرص بها متخرصون، وللأسف لا زال كثيرون يصدقون مثل هذا الكلام، وبعضهم فيما يسميه بـــ"الإعجاز العددي" وهو باطل، يذكرون أشياء من عمر الأمة، وقيام الساعة لربما، ويذكرون أشياء في نهاية دولة إسرائيل وغير إسرائيل، ولربما تقرأ للواحد من هؤلاء كتابًا كاملاً، طويلاً عريضًا، في عمليات حسابية معقدة، تظن أن تحتها شيئًا، ولربما يغتر بذلك كثيرون، حينما يقرأون مثل هذا الكلام، وقد حدد بعضهم لقيام الساعة سنة ٢٠١٢م، وكتب كتابات رأيت بعض من صدقها؛ لأنه أخذهم من هنا وهناك، وتلاعب بهم، حتى إن بعضهم جاء بهذا، وقال: هذا الكلام الذي يقوله مدعم بأشياء كثيرة، وشواهد، قلت له: هذا كذب من أصله، ما يحتاج أني أقرأه، فلما رأيت إلحاحه، وكيف تأثر بمثل هذا الكلام اضطررت أني أطالع في هذه المذكرة الطويلة، وإذا بالرجل يبني بنايات على أمواج الماء، يبني بنايات كبيرة على الموج، على لا شيء، فذكرت له أشياء قبل قيام الساعة، وأنها لم تحصل، ولن تحصل في سنتين.

المهم أنا أقول: مضت سنة ٢٠١٢م، واتضح أن هذا كذاب كبير له قرون، لكن الناس ينسون، ويأتي كذاب آخر، ويقول لهم: سنة ألفين وكذا، وهكذا، ويأتي ويجد من يصدقه، حدثني بعض طلبة العلم والمشايخ في إندونيسيا، وأروني مجلاتٍ وجرائد، وصورًا وأشياء، وكتابات وكتباً، عندهم من يدعي الألوهية: أنه الله، وله

---

٤ - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص (٦٩٣).

أتباع في كل المحافظات تقريبًا، وعندهم من يدعي أنه رسول، وله أتباع في كل المحافظات، وعندهم من يدعي أنه المهدي، وله أتباع، وعندهم قديانية الذين يسمونهم "الأحمدية" ولهم أتباع في جميع المحافظات، وكل ناعق لباطل يجد من الأتباع، وكل ساقطة -كما قيل- لها لاقطة، القول أحيانًا يكون في غاية الوهاء، ومع ذلك تجد من يصدقه، ويعتنقه، ولله في خلقه شئون، فالحمد لله على نعمة الإسلام والسنة.

وَقَدْ كَانَ -صلى الله عليه وسلم- يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ كَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَخْبِرْنِي عن السَّاعَةُ؟ قَالَ: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ))، وَلَمَّا نَادَاهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: ((وَيْحَكَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟)) قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُعِدَّ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: ((فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)) قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ[٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [الْبَقَرَةِ:٢٢٥].

وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ، وَإِنَّهُ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قَالَ: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} وَهَذَا يَعُمُّ الرسول الملكي والبشري.

ثم قال تعالى: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} أي: يخصه بِمَزِيدِ مُعَقِّبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَيُسَاوِقُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ.

الضمير في قوله: **{وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** [الجن: ٢٧] **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ}** يعني ما يظهره من الغيوب بالوحي **{يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}**، يحتمل أن يكون هذا الوحي الذي يوحي به من الغيوب إلى رسله -عليهم الصلاة والسلام-، ويحتمل أن يكون ذلك عائدًا إلى الرسول.

وبين المعنيين ملازمة، فإذا كان يحوط الرسول: **{مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** مما يحميه الله -عز وجل- به من الشياطين ومن استراقهم، فإن ذلك يقتضي حماية الوحي، وحماية الوحي تقتضي أيضًا حماية حامل الوحي من هؤلاء الشياطين واستراقهم.

هذان المعنيان متلازمان، لا يحتاجان إلى ترجيح.

وَلِهَذَا قَالَ: {لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: {لِيَعْلَمَ} إِلَى مَن يعود؟، فقيل: إنه عائد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم.

قوله: **{رَصَدًا}** الرصد هنا ما المقصود به؟

---

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩).

هنا قال: الرصد من الملائكة، يعني أصل ذلك الرصد يقال لما يرصد من الحرس، أو نحو ذلك، ويستوي فيه الواحد والجمع، والمؤنث والمذكر، فيقال: جعلت له رصدًا، يعني يترصدون به، يرصدونه، ويرقبونه، ونحو ذلك، هذا الرصد: {لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}.

وروى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: {عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} قَالَ: أَرْبَعَةُ حَفَظَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ جِبْرِيلَ {لِيَعْلَمَ} مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- {أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}[٦] وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَهَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ} قَالَ: لِيَعْلَمَ نَبِيُّ اللَّهِ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ عَنِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَفِظَتْهَا، وَدَفَعَتْ عَنْهَا[٧] وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: قَرَأَ يَعْقُوبُ: {لِيُعْلَمَ} بِالضَّمِّ، أي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ -عز وجل-، وَهُوَ قَوْلٌ حَكَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ، لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ أَدَاءِ رسالاته، ويحفظ ما ينزله إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ: {لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رسالات ربهم} ويكون ذلك كقوله تَعَالَى: {وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ} [البقرة: ١٤٣] وكقوله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ} [الْعَنْكَبُوتِ: ١١] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: {وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}.

آخر تفسير سورة الجن، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {لِيَعْلَمَ} "اللام" هذه بعض أهل العلم يقول: متعلقة بقوله: {يَسْلُكُ}، أي {يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ}.

ومن الذي يعلم؟ هل هو الله، أو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، أو الرسل -عليهم الصلاة والسلام؟.

فهذه أقوال لأهل العلم، بعضهم يقول: {لِيَعْلَمَ} أي محمد -صلى الله عليه وسلم-، يعلم ماذا؟ {أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} من الذين أبلغوا؟ الضمير يرجع إلى من؟.

بعضهم يقول: هؤلاء الرصد، يرجع إلى الرصد، جبريل، إذا فسر بجبريل، أو الملائكة معه، {لِيَعْلَمَ} محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه أبلغ إليه رسالات الله محفوظة، لم يحصل فيها تبديل ولا تغيير، أن الله جعل له ذلك ليعلم، وهذا قال به بعض السلف، كسعيد بن جبير، أن ذلك يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: {لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا} يعني هؤلاء الرصد، إذا فسر بجبريل أو الملائكة.

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/٦٧٣)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٠/٣٣٧٨).

٧ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٢٥٩).

أو {لِيَعْلَمَ} النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الرسل قبله حينما يرسلهم الله -تبارك وتعالى- فإنه يحوطهم بهذا الحفظ والرصد، فيعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هؤلاء الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم على الوجه الصحيح، وعلى التمام والكمال، من غير تغيير ولا تبديل، ولا تحريف.

وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الجن، يعني {لِيَعْلَمَ} الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أُنزل إليهم، وليس ما يسترقونه من السمع هو الذي يحصل به، فليسوا هم بالمبلغين لما يسترقونه من السمع، وإنما يأتي الوحي صافيًا نقيًّا من غير شوب؛ لأن الله قد حفظه من هؤلاء الشياطين، فهو يأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وما تنزلت به الشياطين، {لِيَعْلَمَ} يعني الجن، هذا قال به ابن قتيبة، ولكنه دون الأول، وأضعف مما قبله.

وبعضهم لا يخص ذلك بالجن، وإنما يقول: {لِيَعْلَمَ} من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، بما جعل الله لهم من هذا الحفظ والحياطة.

والذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك يرجع إلى الله -عز وجل-: {لِيَعْلَمَ} أي: الله أن رسله قد بلغوا رسالاته، وكأن الأقوال الأخرى مع بُعد بعضها، كقول من قال: {لِيَعْلَمَ} أي: إبليس أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كأن هؤلاء أرادوا أن يتحاشوا هذا المعنى؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، وكيف قال: {لِيَعْلَمَ} والله يعلم كل ما كان؟.

فالمقصود بالعلم هنا: أي علم المشاهدة، وإلا فالله عالم بكل شيء، فهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} [البقرة: ١٤٣].

الله يعلم، لكن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء في آية القبلة، تحقق الوقوع، وهكذا في نظائره، فإنه محمول على هذا المعنى، ونحوه، ولا إشكال، ولا ينافي أن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [التوبة:٤٧] وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- عن المنافقين لما وعدوا اليهود بالنصر، وقالوا: إن قُتلتم سنقاتل معكم، إلى آخره، قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ} [الحشر:١٢] يعني هذا علم ما كان، هو يخبر عن قولهم، وما لم يكن لو كان كيف يكون، علم ما كان وما لا يكون، وما لو كان كيف يكون: {لَا يَنصُرُونَهُمْ} وهذا الذي حصل: {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ} طبعًا هذا لم يكن، فإنه ستكون النتيجة الهزيمة المنكرة، فهذا المعنى الأخير اختاره الزجاج، وهو الذي يُحمل على هذا المعنى الذي ذكرته آنفًا، ونظائره في القرآن واضحة، والله تعالى أعلم.

ابن كثير -رحمه الله- هنا جعل ذلك باعتبار أنه يعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الذي اختاره ابن جرير، ولكن كأن ما ذكر أخيرًا أقرب، والله تعالى أعلم.

{لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} بعضهم يقول: يعني بما عند الرصد من هؤلاء الملائكة، أو بما عند الرسل {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}.

{لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} نقل عن قتادة قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها، ودفعت عنها، يعني على هذا: التقدير أخبرناه بحفظنا الوحي {لِيَعْلَمَ} أن الرسل قد أدت وبلغت البلاغ المبين، وكانوا على حالته، أو على مثل حالته من التبليغ، والله أعلم.

هذا ما يتعلق بهذه السورة، وأسأل الله -عز وجل- أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب أحزاننا، وجلاء همومنا.

اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الجن ٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

المسألة الثانية هي فيما يتعلق بوفادة الجن على النبي -صلى الله عليه وسلم-، في سورة الأحقاف الله -تبارك وتعالى- قال: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف:٢٩].

وفي سورة الجن: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} [الجن:١] هل كان ذلك -يعني ما في سورة الأحقاف، وما في سورة الجن- يتحدث عن واقعة واحدة حصلت: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ} [الأحقاف: ٢٩]، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}؟

فهل الآيات تتحدث عن واقعة معينة واحدة، أو أن كل سورة تتحدث عن واقعة غير الواقعة التي تذكرها السورة الأخرى؟.

وفادة الجن على النبي -صلى الله عليه وسلم-: بعض أهل العلم قال: إن ذلك حصل بمكة وبالمدينة، وذكروا ست مرات، من مجموع المرويات، في بعضها أنه لم يشعر بها أحد من أصحابه، ما علموا بذلك، لكنهم طلبوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يجدوه، حتى أخبرهم بعد ذلك.

والثانية: أن ذلك كان في الحجون.

والثالثة: كان بأعلى مكة في الجبال، وأنه حضرها ابن مسعود -رضي الله عنه.

والرابعة: أن ذلك كان في المدينة في البقيع، وأن ابن مسعود حضر.

والخامسة: أن ذلك كان خارج المدينة مع الزبير.

والسادسة: أن ذلك كان في بعض أسفاره، مع بلال -رضي الله عن الجميع.

وسيأتي المزيد في ذلك.

لكن أيضًا: لماذا وفدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟.

في مكة أول ما جاءوا، يقولون: كان سبب مجيئهم ما سبق من إرسال الشهب: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} [الجن:٨] فطلبوا علة ذلك، جاء هذا في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، وهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن:١-٢] الآية، وأنزل الله -عز وجل- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ

{نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}[1] [الجن:١] هذا في نخلة، هذا مصرح بأن سورة الجن تخبر عن استماع الجن للنبي -صلى الله عليه وسلم- في نخلة.

أيضًا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال الجن لقومهم: **{لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** [الجن:١٩] قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته، فيسجدون بسجوده، قال: تعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}**.

وذكرنا: أن هذا أحد المعاني في الآية، هذه عند الترمذي، وصححها الألباني[2]، وهذا حينما كان يصلي يمكن أن يكون أيضًا في نخلة.

وروى ابن إسحاق وابن سعد كذلك: أن ذلك كان في ذي القعدة سنة ١٠ من المبعث، لما خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف ثم رجع منها، وفيه: أن الجن رأوه يصلي بأصحابه صلاة الفجر.

الصلاة المفروضة معلوم أنها شرعت ليلة المعراج، وأن ذلك كان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث، فتكون هذه الواقعة بعد الإسراء بالنبي -صلى الله عليه وسلم.

يقولون -أيضًا-: العلة الثانية لمجيئهم: أن ذلك كان لقصد الإسلام، ولاستماع القرآن، والرجوع إلى قومهم منذرين، كما أخبر الله -تبارك وتعالى-، يعني: أول مرة جاءوا ليتعرفوا على سبب الرجم بالشهب.

والثاني: أنهم جاءوا يتعرفون على الإسلام.

فأما مجيئهم في المدينة: فللسؤال عن الأحكام، سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الطعام، ويقولون: إن وفد جن نينوى لقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بنخلة، وإن وفد جن نَصِيبين كان ذلك بمكة أيضًا، قبل الهجرة.

هذه الروايات منها ما يدل على أن الصحابة لم يشعروا بذلك، وإنما أخبرهم بعده، يدل على هذا حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: ((أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطلقَ بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد))، قال الشعبي: وكانوا من جن الجزيرة -الجزيرة التي بين العراق والشام-، إلى آخره[3].

رواية أخرى: عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: من كان منكم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة الجن؟ فقال: ما كان معه منا أحد"[4] هذه عند أبي داود، وصححها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله.

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{ودًّا ولا سواعًا ولا يغوثَ ويعوقَ}** [نوح: ٢٣]، رقم (٤٩٢١).

٢ - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الجن، رقم (٣٣٢٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٣٥)، وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب (١٣٩).

٣ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

٤ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بالنبيذ، رقم (٨٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (٧٧).

رواية ثالثة: من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- وفيه: ((وإنه أتاني وفد جن نَصيبين، ونعم الجن، فسألوني الزاد))[٥] هذه عند البخاري.

رواية رابعة: في قوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف:٢٩] عن الزبير قال: بنخلة ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي العشاء الآخرة: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}[٦] [الجن:١٩] هذا أخرجه الإمام أحمد، ويقول الشيخ شعيب الأرنؤوط: "حسن لغيره".

يعني: آية الأحقاف أنه كان بنخلة.

يقولون: المرة الثانية التي جاء بها الجن: كانت بالحجون بمكة؛ فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "بت الليلة اقرأ على الجن، وذكر أن ذلك كان بالحجون"[٧]، هذا عند الإمام أحمد وابن حبان، وأبي يعلى، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني.

يعني هذا موضع آخر غير نخلة.

فالحجون الجبل المعروف بمكة، يعرف الآن بطلعة الحجون.

أيضًا رواية أخرى: عن جابر -رضي الله عنه- قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ((لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن:١٣] قالوا: لا بشيء))[٨]. إلى آخره.

فهذا عن جابر -رضي الله تعالى عنه- عند الترمذي، وحسنه الشيخ ناصر الدين الألباني، قرأ عليهم سورة الرحمن.

هناك في نخلة استمعوا له دون أن يشعر، فأخبره الله -عز وجل- بذلك: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ} [الأحقاف:٢٩].

وفي سورة الجن: أُمر أن يخبر بذلك: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}.

المرة الثالثة: ما جاء من حديث مسروق: لما سئل من آذن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فذكر عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: أنه آذنتْه بهم شجرة[٩]، وهذا في صحيح مسلم.

يعني: أخبرته شجرة.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر الجن، رقم (٣٨٦٠).

٦ - رواه أحمد، رقم (١٤٣٦)، وقال محقق المسند: "حسن لغيره".

٧ - رواه أحمد، رقم (٣٩٥٤) وابن حبان، رقم (٦٣١٨) وأبو يعلى، رقم (٥٠٦٢) وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف" وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٣٢٠٩).

٨ - رواه الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب: ومن سورة الرحمن، رقم (٣٢٩١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٢١٥٠).

٩ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

الثالثة: أن ذلك كان بأعلى مكة في الجبال، وأنه حضرها ابن مسعود -رضي الله عنه- كما جاء عنه: أنه قال: سألت الجنُّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في آخر ليلة لقيهم في بعض شعاب مكة، وسألوه الزاد، إلى آخره.

هذه عند البيهقي والطحاوي في شرح معاني الآثار.

كذلك جاء عن ابن مسعود -رضي الله عنه- في قدوم وفد الجن على النبي -صلى الله عليه وسلم.

وكذلك في ذكر أنهم سألوه الطعام، إلى آخره.

هذه عند أبي داود، وصححها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله.

وجاء أيضًا عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى العشاء، فأقام ببطحاء مكة، فخَطّ عليه -يعني على ابن مسعود- خطًّا، يقول: فإذا أنا برجال إلى آخره، وَصَفَهم، وجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ عليهم.

يعني ابن مسعود بقي ناحية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ على الجن.

وجاء عنه أيضًا في رواية أخرى، لكنها لا تصح.

وجاء في رواية رابعة عنه: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اجتهد ليلة الجن، حتى خرج من البيوت، وهو بمكة، ثم خط، فقال: اجلس ونهاه عن أن يخاف، فقال ابن مسعود: من هؤلاء الذين سمعتهم يكلمونك؟، قال: وفد جن الجزيرة[١٠].

يعني هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- كان قد وعدهم.

فهذه عند الإمام أحمد، وقال الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

وجاء عن ابن مسعود أيضًا رواية: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج قبل الهجرة إلى نواحي مكة، فخط لي خطًّا، وقال: ((لا تحدثن شيئا حتى آتيك)).

الشاهد أنه قال: فتقدم شيئًا ثم جلس، فإذا رجال سود.. إلى آخره، وكانوا كما قال تعالى: **{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}** [الجن: ١٩] قال: ثم إنهم تفرقوا عنه، وبعد ذلك سألوه الزاد، هذه أخرجها أبو نعيم[١١].

والرابعة: أن ذلك وقع بالمدينة في بقيع الغرقد، وأن ابن مسعود -رضي الله عنه- حضر ذلك، كما جاء عنه أنه قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي يده عسيب نخل، فعرض به على صدري، فقال: انطلق أنت معي حيث انطلقت، قال: فانطلقنا حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه، إلى أن قال: ثم قال: اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيك، ثم انطلق يمشي، وأنا انظر إليه.. إلى آخره، وأنه قال له في النهاية في سياق طويل: أولئك وفد جن نصيبين[١٢].

---

١٠ - تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري، (٨٩٢)، رقم (٤٨٦).

١١ - رواه الطبراني في الكبير، رقم (٩٩٦٨).

١٢ - رواه الطبراني في مسند الشاميين، رقم (٩٩٦٨).

وفي رواية أخرى: أنهم تشاجروا في قتيل بينهم، فقضى بينهم بالحق، وأنهم سألوه الزاد، إلى آخره، هذه عند أبي نعيم في دلائل النبوة.

وهناك روايات أخرى في هذا.

مجموع هذه الروايات -بصرف النظر، يعني لو أخذنا ما صح منها- يدل على أن الجن استمعوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الأحوال وهو لم يشعر، والذي يظهر -والله أعلم-: أن قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأحقاف: **{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ}** [الأحقاف: ٢٩] مع ما جاء في سورة الجن: **{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ}** [الجن:١] أن ذلك كان في وقعة واحدة، وأنهم استمعوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يشعر بهم، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك لقيهم.

ومجموع هذه الروايات يدل على ذلك، وأن ذلك قد حصل أكثر من مرة.

وفي بعضها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما صلى الصبح في مسجده في المدينة، فلما انصرف، قال: ((أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟))، إلى آخره، فتبعه الزبير بن العوام -رضي الله عنه-[١٣]، هذه عند الطبراني.

وكذلك أيضًا: ما جاء أن ذلك كان مع بلال بن الحارث، قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره، وخرج لحاجته، وكان إذا خرج لحاجته يبعد، فأتيته بإداوة من ماء، فانطلق، وسمعت عنده خصومة رجال.. إلى آخره، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبره: أنه اختصم عنده الجن، يعني من المسلمين، والجن من المشركين[١٤]، هذه عند الطبراني.

بعض هذه الروايات لا يخلو من ضعف كهذه، ولكن -كما سبق- مجموع هذه الروايات الصحيح منها يدل على تعدد القصة، يعني في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لقيهم أكثر من مرة، أما ما جاء في السورتين فالذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك كان في واقعة واحدة.

القرطبي -رحمه الله- يقول: قد قيل: إن الجن أتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على دفعتين:

الأولى: بمكة، وهي التي ذكرها ابن مسعود.

والثانية: بنخلة، وهي التي ذكرها ابن عباس -رضي الله عنهما.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: هذه الطرق كلها تدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- ذهب إلى الجن قصدًا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت.

الروايات عن ابن مسعود -رضي الله عنه- في بعضها: أنه لم يخرج معه أحد، أي مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي بعضها: أنه خرج معه، ويحتمل أن ذلك قد تعدد.

---

١٣ - رواه ابن أبي عاصم في السنة، رقم (١٣٩٥)، والطبراني في الكبير، رقم (٢٥١)، وقال صاحب مجمع الزوائد: وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ (٢٠٩/١) رقم (١٠٣٨).

١٤ - رواه الطبراني في الكبير، رقم (١١٤٣)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم (٢٠٧٤).

الحافظ ابن حجر -رحمه الله- ذكر أن استماع الجن للقرآن كان بمكة قبل الهجرة، وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- صريح في ذلك، يقول: فيُجمع بين ما نفاه وما أثبته غيره بتعدد وفود الجن على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأما ما وقع في مكة فكان لاستماع القرآن، والرجوع إلى قومهم منذرين، كما وقع في القرآن.

وأما في المدينة فللسؤال عن الأحكام، وذلك في الحديثين المذكورين، ويحتمل أن يكون القدوم الثاني كان أيضًا بمكة، وهو الذي يدل عليه حديث ابن مسعود؛ لأنه في بعض الأحاديث كان ذلك في مكة سألوه الطعام. وتتبع الروايات في هذا يطول.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المزمل من الآية (١) إلى الآية (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فحياكم الله وبياكم في مطلع هذه الدورة في أواخر هذا الصيف، وأسأل الله -عز وجل- أن يجعل أوقاتنا وأوقاتكم عامرة بذكره وشكره وحسن عبادته.

وفي هذه المرة سندرس التفسير بطريقة مغايرة لما درسناه به في أول هذا الصيف، ففي أول الصيف قصدنا أن يكون درس التفسير من غير كتاب، وكان الهدف هو أن يُعرض التفسير بطريقة يُربط فيها مع حياة الناس وتُبيَّن معاني القرآن الكلية والتفصيلية مع ذكر هدايته وأحكامه وما إلى ذلك مما يحتاج إليه العامة والخاصة.

فهو درس يصلح لطلاب العلم ولغيرهم، ولكن لما رأيت من صدود الناس عن درس التفسير وقلة الحضور الذين حضروا فيه مع أن الشيخ الذي قدمه بذل جهداً كبيراً واضحاً في جمع مادته والعناية به، -كنتُ أحضّر الدروس- فكنت أتمنى أن يحضره جميع الشباب؛ لكثرة ما فيه من الفوائد واللطائف والتوجيهات، ووضعناه بعد العصر؛ ليستطيع الحضور فيه الطلاب من المراكز وغيرها، ويستطيع الحضور فيه الموظفون حيث يكون الواحد قد خرج من عمله، فلما كان الأمر بتلك الصفة رأيت أن نجعل درس التفسير بعد الفجر، وأن يكون من كتاب، وأعلم أن بعض الإخوان قد لا يناسبهم هذا الوقت لاسيما ما اعتاد عليه الناس من السهر، ولكن طالب العلم الحريص يروض نفسه بحسب مصالحه.

لماذا هذا الكتاب؟

نحن في مثل هذه الدروس نحتاج إلى كتاب مختصر ولابدّ، والمختصرات في التفسير كثيرة جدًا، منها: ما هو مختصر يحوي كثيرًا من العلم، إلا أنه لا يخلو من إشكالات من جهة الاعتقاد، وبالتالي لسنا بحاجة إن وجدنا البديل أن نشغل الإخوان بدراسة كتاب نتوقف معه كثيراً لبيان العقيدة الصحيحة والرد على العقائد الأخرى.

وهناك مختصرات أخرى قد تكون أقل بكثير من هذه الناحية التي تقع فيها هذه الإشكالات إلا أنه يحتاج إلى فك، فكانت الفكرة في البداية أن أدرس لكم كتاب "التسهيل" لابن جُزَي الكلبي -رحمه الله-، وعزمت على هذا، ولربما وصلت بعض الرسائل في الجوال من الإخوان القائمين على الدورة، ولكن لما تفكرت طلبت من الإخوان أن يحضروا لنا سبورة لأني أحتاج أن أشرح كثيراً من عبارات المؤلف وألفاظه بطريقة ربما تستغرق الوقت أو كثيراً من الوقت، فالكتاب مع عظمته ودقته وما احتواه من العلم الغزير بعبارة قصيرة فهو متن مختصر غاية الاختصار، ولربما تبقى بعض العبارات غامضة ومبهمة، فرأيت أن هذا الاختصار الشديد سيحتاج إلى شرح طويل لعبارة المؤلف ونحن بحاجة إلى فهم نص القرآن أولًا.

فعند ذلك رأيت أن نقرأ في هذا المختصر المبارك وهو "المصباح المنير"، في عباراته بعض الطول فهو ليس على طريقة ابن جُزَي يزن الحرف، ولكن الوقت الذي نحتاج فيه إلى شرح كلام ابن جزي لا نحتاجه إطلاقاً في هذا الكتاب، فلن نتعب في حل العبارات وتفكيكها وبيان المصطلحات، ولكن الذي سيكون بإذن الله –عز وجل– وهو المهم في نظري أننا سنناقش في هذا الدرس التفسير بطريقة أرجو بإذن الله –عز وجل– أن تنمي الملكة، وهذا مهم جداً في دروس التفسير، دروس التفسير قد تكون كلاماً أشبه بالكلام الخطابي يوجه إلى الناس ويبين هداية القرآن فتتربى نفوسهم عليه، وهذا لا شك أنه عمل نافع، ويكفي أن الناس يشتغلون بكتاب الله –تبارك وتعالى– تفهماً وتدبرًا وتفسيرًا، ولكن طلاب العلم يحتاجون إلى أمر زائد على هذا القدر؛ لأن ذلك الكلام غالباً ما يُنسى ويذهب ويتلاشى لو سألتك عما درسته من التفسير أثناء الجامعة، أو في كلامٍ يقال من غير كتاب تدون عليه الفوائد والملحوظات لربما نسيته بعد شهر أو سنة أو سنوات، لكن هذه الطريقة هي تغرس في النفس معانيَ ليست هي معاني التفسير فقط بل طريقة فهم التفسير.

نحن نُدرّس أصول التفسير ولكن هذه الأصول، أو قواعد التفسير، أو علوم القرآن تبقى قضايا نظرية، فإذا قرأنا في التفسير يمر علينا الغث والسمين، لكن حينما نوظف هذه الطريقة بدراسة كتاب من الكتب ونناقش ما نقرأ، ونذكر الأصول والقواعد التي بُني عليها هذا القول، أو القول المختار، أو نرجح بين قولين ونبين لماذا رجحنا هذا القول، ولماذا رددنا ذلك القول، وما أشبه ذلك، بهذه الطريقة تتربى الملكة، وهذا هو المهم لطالب العلم، فلا تبقى دروس التفسير كلاماً يقال ثم ينسى، ونحن لربما كثيرًا ندرس القضايا النظرية من قواعد وأصول التفسير، ولكن طريقة تدريس التفسير فيها خلل كبير بالنسبة لما يطرح ويقدم لطلاب العلم، المفروض إذا دُرّس العلم أن يُبيَّن مأخذ هذا القول، والدليل الذي بني عليه، ولماذا قاله المؤلف –وإن كان قولًا ضعيفًا–، من أجل أن يفهم الطالب، ويستطيع أن يناقش كلام أهل العلم، ويفهم قولهم، ومرادهم، وما إلى ذلك.

وقبل أن أختم هذا التقديم أريد أن أذكّر بأمر، وهو: أن الاشتغال بكتاب الله –عز وجل– كلنا يعلم أنه أعظم ما تقضى به الأوقات، وتعرفون كلام أهل العلم في التفسير كلام ابن جرير الطبري: عجبت لمن يقرأ القرآن ولا يفهم معانيه كيف يلتذ بقراءته؟ ونحن نشاهد أن طلاب العلم يشتطون في البحث عمن يدرسهم أصول الفقه، ومصطلح الحديث وما إلى ذلك من علوم الآلة، ولربما ارتقوا درجة فطلبوا علم الفقه والعقيدة والحديث، وإذا نظرت إلى التفسير وجدت أن العناية به هي الأقل، وإذا نظرت إلى دروس التفسير في أي بلد تذهب إليها تجد أنها الأقل، ولربما كانت معدومة، ولا تكاد تجد أحداً من هؤلاء الطلاب –طلاب العلم– يبحث عمن يقرأ عليه التفسير من أوله إلى آخره، فضلًا عن أن يتدرج فيه، أو يفكر في هذا، بينما نسمع دائمًا التدرج في الأصول، في النحو، في المصطلح، في البلاغة، في الفقه، وغير ذلك.

فهذه العلوم جميعًا شريفة إلا أن علم التفسير لا شك أنه أشرف؛ لأنه يتعلق بالقرآن، وشرف العلم بشرف المعلوم كما لا يخفى.

فليس عندي شيء أفسر به هذه الظاهرة إلا أن هذا من عمل الشيطان، ليس هناك شيء آخر، هذا ما يبدو لي –والله أعلم– ولربما يكون معه أمر آخر وهو أن ما اعتاده الناس في دراسة التفسير لربما لا يشجع كثيرًا من طلاب العلم على دراسته، والكتاب الذي يُختار للدراسة له أثر، ولعلنا ندرس تفسير ابن جزي –إن شاء الله

تعالى– من أوله إلى آخره بإذن الله، فهذه هي النية –إن شاء الله– بعدما ننتهي من هذا المختصر في المسجد أول هذا العام –إن شاء الله تعالى–، فبعدما ننتهي من هذا كاملًا نبدأ بتفسير ابن جزي، فإذا درسنا تفسير ابن جزي أو قرأنا كتابًا قد بُني على أصول وضوابط ودقق فيه المؤلف، أو يذكر فيه الأقوال كفتح القدير مثلًا أو نحو هذا فيكون أمامنا مجال واسع جدًا لتطبيق أصول التفسير بشكل واضح جدًا على ما نقرؤه من كلام المؤلف.

هذا الكتاب المصباح المنير هو أحد المختصرات لهذا التفسير المبارك تفسير الحافظ ابن كثير –رحمه الله–، وهذا الكتاب –أعني تفسير ابن كثير– هو من أعظم كتب التفسير من جهة المنفعة والبركة أيضاً، وقد لا يدرك هذا الكلام إلا من فتش في كتب التفسير، فاقرأ فيما شئت من كتب التفسير الكبار والصغار، ثم اجعل هذا آخراً –أعني تفسير ابن كثير–، فإذا قرأت به عرفت لماذا كُتِبَ لهذا التفسير الاشتهار والانتشار وصار في كل بيت، هذه قضية لا تصل إليها إلا إذا قرأت، اقرأ اجمع كل كتب التفسير التي تستطيع الوصول إليها من مخطوط ومطبوع ثم اقرأ بعدها في تفسير ابن كثير ستجد صدق ما ذكرتُ، وقد جربت ذلك بنفسي حتى إني لربما أقرأ في تفسير الآية أو السورة الكثير لربما لم يبق تفسير مطبوع إلا قرأته فيها، فإذا وصلت إلى تفسير ابن كثير قلت في نفسي: ماذا بقي له؟ فإذا قرأته وجدتُ أنه أكثر الكتب التي قرأت أحتاج أن أدون منها بعض المعلومات، وهو من آخر ما أقرأ، وبهذا أدركت عملياً لماذا ارتفع هذا الكتاب، فحق له هذه المرتبة في نفوس المسلمين، وهذا يدل –والله أعلم– على إخلاص مؤلفه، وتحققه في باب العلم.

أقول: اعتنوا بكتاب الله –عز وجل– يفتح عليكم من العلوم والكنوز والبركات ما لا يقادر قدره، وقد قال بعض أهل العلم: اشتغلنا بكتاب الله فغمرتنا البركات، والله –عز وجل– قد وصف كتابه بأنه مبارك كما وصفه بأنه عزيز، ومن عزته أنه لا يدخل في القلوب المعرضة عنه، لا تفتح معانيه وكنوزه للقلوب المعرضة عنه، ولهذا قيل: إذا كانت القلوب تحمل أخلاق الكلاب فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة، إنّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب أو صورة.

وأقترح عليكم أن تحضروا معكم كتب التفسير، منكم من يحضر تفسير ابن كثير، ومنكم من يحضر شيئًا آخر من المختصرات، وبهذا تستطيعون المقارنة بين هذا المختصر وبين الأصل، وبين هذا المختصر وبين غيره من المختصرات الأخرى، فهذا المختصر أنفع هذه المختصرات، وأدقها، وأحسنها، مختصرات ابن كثير متعددة منها ما لا يصلح للاقتناء، ومنها ما هو بهذه المثابة، ومنها ما بين ذلك، هذا المختصر من قرأه في ظني يكفيه عن قراءة تفسير ابن كثير، أقولها بكل اطمئنان، وقد قارنت أجزاء من هذا المختصر مع تفسير ابن كثير حرفاً حرفاً فوجدت أنه يحافظ على التفسير، يحافظ على عبارة ابن كثير، ويحاول أن يختار الروايات الصحيحة، ويحذف من الروايات الصحيحة المكررات، بالتالي ساغ أن يدرّس في الكليات وفي المساجد، وفي السابق كان تفسير ابن كثير فيه روايات كثيرة جدًا لربما تجعل السامع لا يستطيع المتابعة كثيرًا، والآن حُلت هذه المشكلة، وهو مع اختصار الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله– "عمدة التفسير" في غاية التقارب إلا أن هذا يمتاز ببعض الأمور:

منها: أن الأحاديث أخذت من الأصول وضبطت بالشكل.

ومنها: أن هذا الكتاب يحذف الروايات الصحيحة المكررة فلا يطول الكتاب بذكرها.

ومنها: أن بعض الروايات لربما الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- يرى صحتها فيوردها في كتابه وقد لا تكون كذلك.

فالمقصود أن هذا الكتاب فيما أظن من أنفع المختصرات، سنقرأ فيه ونتعرض لبعض القضايا مما لا يخرجنا عن منهج ابن كثير، فنحافظ على منهجه وأيضًا فيما يسع له الوقت.

ومثل هذه الدورات والدروس التي تقدم فيها ليست هي كل شيء، درستَ الآن كتاباً في التفسير أو في غيره، ليس هذا هو المجلس الأول والأخير لك في هذا العلم، ستدرس كتباً أخرى -إن شاء الله- أوسع من هذا، وستعرض لك من المسائل ما لا تجده في هذا الكتاب أو ذاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول المختصِر، ولو قلنا: يقول المؤلف فلا إشكال؛ لأنها عبارات ابن كثير، لو قلنا: يقول المؤلف، أو: يقول ابن كثير فلا إشكال.

يقول: **تفسير سورة المزمل -عليه السلام- وهي مكية.**

سورة المزمل -عليه السلام-، من هو المزمل؟ هو النبي -صلى الله عليه وسلم.

وهي مكية، يعني: أنها نزلت قبل الهجرة في مكة، وهذا لا شك فيه، وهي من أوائل ما نزل في مكة، أما في الترتيب فروي أنها نزلت بعد سورة القلم، وهذا لا نقطع به؛ لأنه في حد ما أعلم لا تصح رواية من الروايات التي ذكرت سور القرآن في طريقة ترتيبها.

هناك روايتان تقريباً تذكر سور القرآن مرتبة حسب النزول، وقد نظم ذلك بعض أهل العلم، ولكن الروايات فيه لا تصح، ولكن لا شك أن سورة المزمل كانت من أوائل ما نزل في مكة، وحينما نقول كما هنا يقول: إن السورة مكية فيبقى هذا هو الأصل، قد يختلف في السورة هل هي مكية أو مدنية، لكن حينما يقرر أن السورة مكية مثلًا فيبقى هذا هو الأصل فيها وفيما دخل تحتها من الآيات جميعًا.

وما يذكره المفسرون عادة تفاجأ أنهم يقولون: السورة مكية ثم يستثنون عدة آيات كما هنا، بعضهم يقول: سوى آيتين **{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}** [سورة المزمل:١٠] يقولون هذه، أو **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ...}** [سورة المزمل:٢٠]، من أين هذا الاستثناء؟ من أين؟ فيقال: لابدّ من دليلٍ يخرج هذا القدر من عمومِ السورة التي نزلت في مكة، لابدّ من دليل، والمفسرون -رحمهم الله- يتساهلون في ذلك كثيرًا، فتجدون أن المفسر كثيرًا ما يقول: هذه السورة مكية ثم يقول: إلا الآية الفلانية، أو إذا وصل إلى تفسير آيتين قال: هذه نزلت في المدينة، لماذا؟ أحيانًا يكون ذلك بناء على أمر لاح له من جهة المعنى، مثلًا: السورة فيها **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}**، ومعروف أن هذه كما سيأتي نزلت بعد أول السورة باثني عشر شهرًا يعني كم؟ يعني سنة، وهي من أوائل ما نزل في مكة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بقي سنين في مكة، قيل: بقي عشر سنوات، وقيل: ثلاث عشرة سنة وهو المشهور، فهذه نزل آخرها بعد أولها بسنة، فكيف قيل: إنها نزلت في المدينة؟

{وَآتُوا الزَّكَاةُ}، قالوا: الزكاة أين فرضت؟ في المدينة، هكذا قالوا، فإذاً هذه السورة نازلة في المدينة، فكيف نجيب عن هذا؟

أصل فرض الزكاة كان بمكة، والأنصبة والتفاصيل وأنواع الأموال التي تخرج منها الزكاة فرضت في المدينة بعد ذلك، وأوضح ما يدل على ذلك ما جاء في سورة الأنعام، ماذا قال الله -عز وجل- في سورة الأنعام وهي نازلة جملة في ليلة واحدة كما دلت على ذلك كثير من الروايات؟، قال: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١] فبعض العلماء لجأ إلى القول بأن هذه الآية من سورة الأنعام نازلة في المدينة؛ لهذا السبب، مع أن سورة الأنعام تضافرت الأدلة على أنها نزلت في مكة في ليلة واحدة، فاستثنوا هذا بناء على هذا المعنى، {وَآتُواْ حَقَّهُ} ونحن نجيب عن هذا من عدة وجوه:

الأول: أن أصل الزكاة فرض بمكة والتفاصيل فرضت في المدينة، فكان يجب في مكة أن يخرج قدراً غير محدد، فهذا جواب.

الجواب الثاني: وهو أن من القرآن ما ينزل قبل شرع الحكم، كما سيأتي، {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المزمل:٢٠]، وماذا قال الله لأمهات المؤمنين في سورة الأحزاب؟ لمّا قال لهن: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٣] إلى آخره قال: {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ} زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- كن قد اجتمعن عليه يطالبنه بالتوسعة في النفقة لما فتح الله عليه الفتوح ووسع عليه بفتح قريظة والنضير، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- في شظف من العيش، فأي زكاة عندهن؟ فهذا يشير إلى أمر في المستقبل، كما قال الله -عز وجل-: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [سورة القمر:٤٥]، هذه في مكة، أيّ جمع؟ وأي تولية للدبر؟ كما كان عمر -رضي الله عنه- يتساءل عنها، يقول: حتى رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر يثب في الدرع وهو يقرأ: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}، فمن الآيات ما ينزل قبل شرع الحكم، وحينما نقول: الحكم لا نقصد به الحلال والحرام، هذا أصل في التفسير، وإنما المقصود به ما تحدثت الآية عنه، الموضوع الذي تحدثت عنه الآية، ولهذا هنا {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣] قال بعض أهل العلم: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} أي صلاة العيد، {وَآتُواْ الزَّكَاةَ} أي: زكاة الفطر، ليتخلص من الإشكال الذي ذكرناه قبل قليل، يتخلص من هذا الإشكال.

فالجواب الثاني إذاً أن من الآيات ما ينزل قبل شرع الحكم.

وهناك جواب ثالث: وهو ما ذكرتُ -الجواب العام- أن الأصل في السورة المكية أن جميع الآيات فيها نازلة في مكة، والسورة المدنية جميع الآيات نازلة فيها بالمدينة إلا لدليل يجب الرجوع إليه، فهذا الأصل تحتاج إليه في جميع سور القرآن تقريباً، أو عامة سور القرآن، كلما تقرأ في التفسير.

سور القرآن أحياناً تتحدث عن موضوع واحد، وأحيانا تتحدث عن موضوعين، وأحيانا أكثر، فسورة البقرة تتحدث عن موضوعات كثيرة جدًا، وسورة الإخلاص تتحدث عن قضية، عن صفة الله -عز وجل- أنه إله واحد، لا ندّ له، ولا نظير، تصمد له جميع الخلائق، لم يلد ولم يولد، فهذه السورة سورة المزمل تتحدث عن المزمل -صلى الله عليه وسلم-، ولفظ المزمل يُشعر بأمر يتعلق بالنوم، وهو مطالب بأمر آخر يقوم به، تتحدث عن المزمل -صلى الله عليه وسلم- وما شرع الله له من قيام الليل، وأثر هذا القيام المشروع،

وتتحدث عما حصل من التخفيف بعد ذلك للمشقة التي اعترتهم بسبب هذا القيام وسبب هذا التخفيف، هذا الموضوع الأساس الذي تتحدث عنه هذه السورة.

يقول: **سبب نزول سورتي المزمل والمدثر**، السورة أحيانًا يكون لها سبب نزول نزلت جميعًا بسببه، والمقصود بسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أيام وقوعه، يعني الآن سورة **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}** [سورة الفيل:١] تتحدث عن قصة معينة، قصة أبرهة، أليس كذلك؟ لو قلنا لكم: ما سبب نزول سورة الفيل؟، الأخ يقول: سبب النزول هو مجيء أبرهة بالفيل، وأنه قصد مكة فنزلت السورة، الضابط الذي ذكرناه قبل قليل: ما نزلت السورة أو الآية أو الآيات متحدثة عنه أيام وقوعه، فهل هذا يصلح سبب نزول؟ قصة موسى -صلى الله عليه وسلم- مع السحرة، ما سبب النزول؟ هل نقول: إن فرعون جاء بالسحرة فنزلت الآيات؟ لا، وإنما هذا يقال له: قصص القرآن، هو نوع آخر، فن، باب من أبواب القرآن يقال له: قصص القرآن.

لكن إذا كانت الآية تتحدث عن واقعة معينة كما في قوله تعالى: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}** [سورة المجادلة:١]، فالسبب هو الواقعة المشهورة، **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ}** [سورة الأنفال:١]، ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أيام وقوعه من واقعة، أو سؤال، أو حادثة صارت فنزلت الآيات تبين الموقف، أو السؤال سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء فنزلت، هذا هو سبب النزول وبهذا نفرق بين قصص القرآن وبين أسباب النزول، انظروا ماذا يقول، يقول: **سبب نزول سورتي المزمل والمدثر**، لماذا قرن بينهما؟ نقول: من حيث المبدأ لا إشكال أن يتعدد النازل مع اتحاد السبب، والعكس صحيح، أحيانًا تقع أكثر من واقعة ويكون النازل واحداً.

مثال عليه: الآن **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}** [سورة النور:٦] في سورة النور آية اللعان ما سبب النزول؟ جاء هلال بن أمية إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسأله عن الرجل يجد رجلًا مع امرأته، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))[١]، وجاء أيضًا عويمر العجلاني وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أمر وقع له من هذا، فنزلت الآيات، كذلك: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}** [سورة التحريم:١] صححت الروايات في أن ذلك كان بسبب الجارية، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له جارية فوقع عليها فغضبت بعض زوجاته، وحصل ما حصل في القصة المشهورة، فنزلت الآيات، وصح أيضاً أن ذلك بسبب العسل الذي كان يشربه عند زينب بنت جحش، فتآمرت عليه حفصة وعائشة -رضي الله عنهما- فنزلت الآية: "لم تحرِّم"، فيقال: لا مانع من اجتماع هذا وهذا، إذا تقارب الزمان حكم بأن الآية أو السورة أو الآيات نزلت بعد الواقعتين، لكن الإشكال إذا كان هناك تباعد، مثل: صفْ لنا ربك، قاله المشركون في مكة، فأنزل الله: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [سورة الإخلاص:١]، وقاله اليهود في المدينة فأنزل الله: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** هنا نحكم بتعدد النزول، نقول: السورة أو الآية نزلت مرتين، هذا لا إشكال فيه، **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [سورة النحل:١٢٦]، جاءت روايات كثيرة جدًا أنها نزلت في يوم أحد بعدما قتل حمزة بن

---

١ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة، وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٦٧١).

عبد المطلب -رضي الله عنه-، مُثِل به، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينتقم منهم، وأن يفعل بهم كما فعلوا، فنزلت الآية، وأيضًا ثبت أنها نزلت عام الفتح، فهناك في أُحُد، وفي الرواية الأخرى نزلت عام الفتح -فتح مكة-، لما قال سعد بن عبادة -رضي الله عنه- وكانت معه راية الخزرج قال: الآن -أو اليوم- ذهبت قريش، وهم متوجهون إلى مكة، فسمعها بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فعرفوا أن الرجل كان يريد قتلهم وإفناءهم وإراقة دمائهم، فأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- الراية منه وأعطاها لابنه قيس، وأنزل الله -عز وجل-: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [سورة النحل:١٢٦]، لاحظْ سنوات بين يوم أحد وفتح مكة.

يقول: سبب نزول سورتي المزمل والمدثر روى الحافظ أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، صاحب المسند، **عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا يصد الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم.**

الآن هؤلاء الخصوم والأعداء للنبي -صلى الله عليه وسلم- اجتمعوا من أجل أن يتوحد الموقف، وأن يعبِّروا بعبارة تنفر الناس تُنتقى بعناية، ويكون لها وقع في أسماعهم للتنفير من النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو واقع في كل زمان ومكان، الأعداء يعتنون باختيار الوصف الذي يصفون به أهل الحق، فكانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يقولون: ابن أبي كبشة، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهم يعلمون أنه من أوسطهم نسباً، أي أشرفهم، من أين جاء ابن أبي كبشة هذا؟، لا يوجد في نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء من ذلك، ولم يكن ذلك لقباً للنبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن هذه اللفظة اختيرت بعناية، رجل له دعاوى عريضة يعرف الناس أنه مبطل، وإذا ذُكر ضحكوا يقال له: ابن أبي كبشة، فلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال وقال: إنه يوحى إليه، وأنه أرسل إلى الناس، ألصقوا به هذا اللقب الذي له وقع في أسماعهم، فإذا ذُكر تذكروا الكذب والتقول والادعاء، ثم هذا اللقب لا شك أنه بحروفه التي اختيرت لا شك أنه يؤثر تأثيرًا سلبياً وليس تأثيرًا إيجابيًا، ابن أبي كبشة، لاحظْ ما يقولون: محمد بن عبد الله، لا، ابن أبي كبشة، مثل ما يقول الكوثري عن ابن القيم، وابن القيم معروف، يسميه ابن زفيل، ما هذا اللقب؟ فيختارون ألفاظاً بمجرد السماع تنبو الأسماع عنها، وتنقبض النفوس، كما يوصف الإسلام اليوم من قبل أعدائه من الغرب بأنه دين الإرهاب، ورددوا هذا كثيرًا حتى صار يجري على بعض الألسن تنفيرًا من دين الله -عز وجل-، فالمقصود أنهم أرادوا أن يتفقوا على تعبير واحد يعبرون به جميعًا **فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فتزمل في ثيابه وتدثر فيها**، ما معنى تزمل في ثيابه؟ التزمُّل والتدثُّر متقاربان، تزمَّلَ بمعنى التف في ثيابه، تزمل في ثيابه وتدثر فيها، وغالبًا ما يلجأ المغموم إلى النوم، مع أن الأطباء المعاصرين ممن يشتغلون بالطب النفسي يقولون: إن هذا يضر، النوم في حال الغم، ولا أظن هذا يصح، ومعلوم لدى الناس قديماً وحديثاً أن الإنسان إذا اغتم أطفأ ذلك الغم بالنوم، هذا معروف، وما ضر الناس، بل إن ذلك يؤثر في تخفيف الغم ونسيان المصيبة والذهول عنها، فيغيب فترة تستريح أعضاؤه وتعمل الخلايا التي تعمل في حال النوم في جسمه فيجد شيئاً من الراحة، لكن المشكلة حينما لا يجد الإنسان النوم بسبب

المصيبة، هنا تكون القضية أشد وأصعب، فيبدو عليه أثر ذلك من الشحوب والإعياء فيتضاعف ذلك العناء عليه، والعامة معروف من أمثالهم أنهم يقولون: "إذا كثرت همومك فخذ من الأرض طولك"، يعني إذا كان طولك ١٦٠ سم، فمعناها إذا أخذت ١٦٠ سم من الأرض فأنت نائم، يعني تمدد على الأرض ونم، **فتزمَّلَ في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل فقال: "يا أيها المزمل، يا أيها المدثر"، ثم قال البزار: مُعَلَّى بن عبدالرحمن قد حدث عنه جماعة من أهل العلم وتحملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها**، لكن معلى بن عبد الرحمن هذا اتهمه بعضهم بالكذب، وهذه الرواية لو أن المؤلف أعرض عنها لكان ذلك أفضل، وهو قصَدَ ترْك الروايات الضعيفة ومشى على هذا في هذا الكتاب، لكنه لربما استأنس بهذا التعليق، وإلا فإن معلى بن عبد الرحمن قد اتهمه بعض الأئمة بالكذب، فالرواية إذن غير صحيحة، وبالتالي ما بنى عليها من الحكم من أنها نزلت بعد هذه القضية يكون غير مقبول، هو يقول: إن المشركين اجتمعوا فحصل كذا وكذا، وبالتالي نزلت هذه السورة، أو صدر هذه السورة، ولابدّ من البحث عن سبب آخر، فإن وُجِدَ وإلا تكون كعامة القرآن حيث إنه نزل من غير سبب؛ لأن آيات القرآن وسور القرآن على قسمين: منها ما نزل بسبب، ومنها ما نزل ابتداء من غير سبب، فإن لم نجد سببًا صحيحًا -رواية صحيحة- فإننا نحكم بأن هذا مما نزل ابتداءً، سورة المدثر نزلت بسببٍ وهو ما كان يلقاه النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فاجأه الوحي جبريل -عليه الصلاة والسلام- فخاف خوفًا شديدًا فجاء إلى أهله وقال: دثروني، دثروني، أو زملوني، فأنزل الله: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ}** [سورة المدثر:١-٢] فكانت أول سورة نزلت في النبوة صدر اقرأ، ثم نزلت سورة المدثر قبل تمام اقرأ، وذلك بعد أن رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- ترعد فرائصه من الخوف، فنُبئ النبي -صلى الله عليه وسلم- باقرأ، وأرسل بالمدثر.

فلا يبعد أن يكون ذلك نزل يعني **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}** [سورة المزمل:١] في ابتداء الوحي، حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يلقى ما يلقى حتى حصل له الأنس بجبريل -عليه الصلاة والسلام-، ربما تكون نزلت لهذا السبب، ولكن ليس عندنا رواية قاطعة أو صحيحة ثابتة نستطيع أن نعتمد عليها، غاية ما عندنا أن هذه السورة من أوائل السور، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يلقى ما يلقى حينما رأى الملَك وما اعتاد عليه، فربما كان لهذا السبب، وربما نزلت ابتداء، يا أيها المزمل.

في قوله: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا}** [سورة المزمل:١-٣]، قال: **يأمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل**، تحديده بالليل خاصة هل عليه دليل؟ من حيث اللغة: لا، يتزمّل أي يلتحف، يتدثر بغطاء ليلًا أو نهارًا، وخصه الحافظ ابن كثير هنا بالليل؛ لأنه قال: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}**، فمعنى ذلك أنه قال له: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ}** معناه أنه كان متزملًا في الليل.

أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه -عز وجل- كما قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [سورة السجدة:١٦]، **وكذلك كان -صلى الله عليه وسلم- ممتثلاً ما أمره الله به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}** [سورة الإسراء:٧٩]، هذا سيأتي الكلام

عليه، هل نسخ؟ هل كان واجبًا على الأمة جميعًا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كما سيأتي في بعض الروايات أنهم قاموا حولًا كاملًا حتى تورمت أقدامهم، فخفف الله -عز وجل- عنهم في آخر السورة كما سيأتي.

فمن أهل العلم من يقول: كان واجباً على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى الأمة، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} الأصل أن الأمر للوجوب إلا لصارف، والصحابة -رضي الله عنهم- الروايات دلت على أنهم قاموا معه حتى تورمت أقدامهم فخفف عنهم، ثم إنه علّل التخفيف بـــ {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ} [سورة المزمل:٢٠] فدل على أنهم كانوا مشتركين معه -صلى الله عليه وسلم- في الحكم، فبيّن علة التخفيف: فيهم المريض، وفيهم الذي سيجاهد، وبالمناسبة هذا مما له تعلق بما نزل قبل شرع الحكم، وإن كانت هنا في المستقبل، ما كان هناك جهاد في مكة، لكنه يخبر عن أمر الغيوب، وبعض أهل العلم يقول: كان واجباً على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى الأمة، فنسخ الوجوب على الأمة، وبقي على النبي -صلى الله عليه وسلم- بما ذكر، {نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} [سورة المزمل:٤] ثم بعد ذلك جاء التخفيف، وبعض أهل العلم يقول: نسخ في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي حق الأمة، ويستدلون بنفس الآية التي ذكرها ابن كثير هنا، وهي قوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ} [سورة الإسراء:٧٩]، فعلى أحد التفسيرات المشهورة للآية: فتهجد به نافلة أي غير فريضة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبيّن ذلك علة هذا التعبد بقيام الليل بالنسبة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ} [سورة الإسراء:٧٩] وعسى من الله واجبة، يقولون: الكبير العظيم قد لا يقول: سأفعل لك كذا، يقول: عسى أن أحقق مطلوبك، لو قالها معناها أنه سيحقق لك ما أردت، {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} وهو الشفاعة العظمى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فلما سألته عائشة عن ذلك قال: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا؟))[٢]، فقد يقال: إن جواب النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا)) عن قيامه الليل، وقد يكون الجواب ليس عن قيامه الليل وإنما عن هذا الاجتهاد العظيم حتى تتفطر قدماه، سألته كيف يفعل ذلك وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا؟))، أما غيره فإنه كما قال الله -عز وجل-: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [سورة هود:١١٤]، فنحن نقوم الليل لأننا بحاجة إلى رفع الدرجات وزيادة الحسنات، وبحاجة إلى غفران الذنوب.

يقول: **وهاهنا بيّن له مقدار ما يقوم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}، قال ابن عباس والضحاك والسدي: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} يعني يا أيها النائم.**

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} يعني يا أيها النائم، هذا تفسير باللازم، وليس تفسيراً بالمطابق، وعلى توسع في استعمال لفظة اللازم، يعني المطابق أنّ معنى كلمة المزمل يساوي في لغة العرب النائم، هل هذا التفسير في اللغة؟

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب: قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- الليل حتى ترم قدماه، برقم (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم (٢٨٢٠).

كل نائم نسميه مزملاً؟ لا، وإنما هو المدثر بثيابه، الملتف بالثياب، المقصود بالثياب ما هو هذا، الغطاء يقال له: ثوب، فإن من يفعل ذلك عادة النائم، لاسيما أنه في الليل، فالله يقول له: **{قُمِ اللَّيْلَ}**، الإنسان متلفف بثيابه وملتحف وفي الليل معناها أنه نائم غالباً، قال: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}** يعني يا أيها النائم.

وقال قتادة: المزمل في ثيابه، هنا فسرها بالمطابق، المزمل هو الملتف بثيابه، وهكذا المفسرون -رحمهم الله تعالى- من السلف، حيث إنهم يفسرون الآيات تارة بالمطابق، وتارة باللازم كما في التفسير الذي قبله، وتارة بالمثال، وتارة يفسرونها بما يقرب المعنى فقط، وإذا فتشت في أقاويلهم ونظرت فيها تستطيع بإذن الله -عز وجل- أن تتخلص مما يقرب من النصف مما يدخل في هذا الباب، العبارات التي فسروا فيها بالمثال أو بالمطابق أو باللازم مرة، ومرة بعبارة تقرب المعنى، نتخلص من كثير من الخلاف، وإذا نظرنا إلى النصف الثاني من الخلاف في التفسير وهو الخلاف الحقيقي نستطيع أن نجمع نصفه تقريبًا بطريقة أو بأخرى تلتئم فيها الأقوال، وتجتمع تحت الآية، فلا يبقى عندنا من الخلاف الحقيقي إلا القليل، بدلاً من أن يكون الاشتغال بـــ قال فلان، وقال فلان، الآن هذه الأشياء التي نقرأ فيها لو تنظرون في أقوال المفسرين التي يُعنى بها من يشقق الأقوال كتفسير زاد المسير مثلًا، وأمثال هذا الكتاب من الكتب التي تُعنى بتكثير الأقوال ربما يتحير القارئ ما هو القول؟، فالتفسير يحتاج إلى ذوق، ويحتاج إلى نفَس، ويحتاج إلى روية وتأنٍّ، ينظر فيها الإنسان لهذه الأقاويل ويلائم بينها، وينظر المفترق والمتفق، ويحاول أن ينزل الآية على المعاني الصحيحة.

يقول: **المزمل هو المزمل في ثيابه**، هذا تفسير، الحاصل أنه قيل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل ذلك في أول الوحي -في ابتداء الوحي- بسبب الفرَق والخوف حينما كان يأتيه الملك، وذُكرت أقوالٌ أخرى نشير إليها فقط من أجل لفت النظر للفرق.

بعضهم يقول: يا أيها المزمل بالنبوة، وبعضهم يقول: يا أيها المزمل بالقرآن، يا أيها المزمل بالوحي، وهذه الأقوال كقول بعضهم: يا أيها المزمل بالرسالة، هذه أقوال لا يدلّ عليها ظاهر الكلام، والقرآن يجب حمله على ظاهره المتبادر دون معنى خفي بعيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وما الذي ألجأ هؤلاء إلى مثل هذا التكلف في الأقوال؟

الذي ألجأهم هو: العجمة تارة، وتارة ما يتوهمونه من النقص في المعاني السابقة، "تدثر"، والله يقول له: **{قُمِ اللَّيْلَ}** فيقولون: النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس بحاجة إلى هذا، إذاً ما هو المزمل؟ قالوا: المزمل بالرسالة، المزمل بالنبوة، ما كان نائماً -عليه الصلاة والسلام-، قلنا: لا نقص في تلك المعاني، النبي -صلى الله عليه وسلم- بُعث حديثًا، والله -عز وجل- يوجهه إلى أمر يعينه على تحمل أعباء الرسالة {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥] فلا غرابة في هذا، ولا إشكال، فأحيانًا يذهب وهم المفسر إلى معنى يرى أنه غير لائق بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فيتكلف بحمل الآية على غير ما تحتمله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المزمل من الآية (١) إلى الآية (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال ابن عباس والضحاك والسدي: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [سورة المزمل:١] يعني يا أيها النائم، وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقوله تعالى: {نِصْفَهُ} [سورة المزمل:٣] بدل من الليل، {أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} [سورة المزمل:٣-٤] أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -عز وجل- يقول: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢] ثم قال: {نِصْفَهُ} الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، هذه القاعدة، "نصفه" الهاء هنا هي الضمير هل يرجع إلى الليل بمعنى قم الليل ثم قال: نصفه، فيكون بدلاً من الليل، مثل ما تقول: أكلتُ الرغيف نصفه، يكون بدلاً من الرغيف، يعني كأنك تقول: أكلتُ نصف الرغيف، كما تقول: اشتريت المتاع، وبعد ذلك قلت: أجودَه، يعني ما اشتريت الأشياء الأخرى، فيكون هذا بدلاً، فالآن {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ} الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو "قليلًا"، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن قوله: "نصفه" عائد إلى "قليلًا"، فهو بيان لهذا القليل المستثنى، كأنه يقول: قم الليل إلا نصفه أو أكثر من النصف، يعني ربما يصل إلى الثلثين، يصير كم قام إذا ترك الثلثين؟ قام الثلث، أو زد عليه، {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} إذا نقص من النصف صار كم قام ؟ قام الثلثين {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} على النصف، فيكون قد ترك أكثر الليل، ترك لربما الثلثين لم يقمهم، هذا قاله بعض أهل العلم بناء على هذه القاعدة المعروفة، وهي أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، عرفنا لماذا قالوا هذا الكلام، هذا القول مرجوح.

ونحن في هذه الدروس لا نُعنى بذكر الخلاف، وإنما أقصد التمرين وتربية الملكة، ومن أجل أن يتسع الصدر، فقالوا هذا الكلام بناء على هذه النظرة.

الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والآخرون -وهو القول المشهور والذي نظن أنه هو الراجح- قالوا: إن المعنى {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ} الضمير عائد إلى الليل، وقاعدة الضمير يرجع إلى أقرب مذكور؟ قالوا: هنا عندنا مستثنى ومستثنى منه.

قوله: {إِلَّا قَلِيلًا}، من هنا قال بعض أهل العلم: إن قوله: {نِصْفَهُ} يرجع إلى {قَلِيلًا} يعني قم الليل إلا نصفه أو زد عليه على النصف، يعني في المتروك ما تقومه، أو انقص منه قليلًا أو زد عليه، فالحديث كله عن النصف الذي لا يقام بناءً على هذا الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والقول الآخر الذي نظن أنه أرجح هو أن قوله: {نِصْفَهُ} عائد إلى الليل، كيف تعدينا "قليلًا" وخالفنا القاعدة؟ نقول أمامنا هنا شيئان: عندنا

مستثنى ومستثنى منه، المستثنى "قليلًا"، والمستثنى منه "الليل"، والأصل هو المستثنى منه، فهو المحدَّث عنه، تقول مثلًا: اشتريت المتاع إلا مكيِّفًا فاستحسنتُه، يعني استحسنت المتاع، فالمستثنى منه هو الأصل، وهو المحدث عنه؛ ولهذا الضمير يرجع إليه، "نصفه" يرجع إلى المستثنى منه الذي هو "الليل"، يتغير المعنى أو ما يتغير؟ يكون المعنى هكذا، وهو اختيار ابن كثير كما رأيتم.

عبارة ابن كثير يقول: **نصفه بدل من الليل** **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** كأنه قال: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلًا، إذا نقص من النصف قليلًا لربما يصل إلى الثلث، يعني كأنه قال: قم نصف الليل أو ثلث الليل، أو زد عليه أي على النصف، يعني كأنه قال: قم نصف الليل أو أدنى كثلث الليل، أو أكثر كثلثي الليل، يقول له: قم النصف أو دونه أو أكثر منه، هذا هو المعنى، -والله تعالى أعلم.

وهنا يرد سؤال هل هناك فرق من جهة النتيجة؟ على هذا المعنى قم نصف الليل أو أقل أو أكثر، وعلى المعنى الثاني قم الليل إلا نصفه أو أقل أو أكثر، من حيث النتيجة النهائية هل هناك فرق؟ لا، النتيجة النهائية يكون المؤدَّى فيها واحداً، بمعنى أنه يقوم النصف أو أكثر أو أقل على كلا المعنيين.

وهناك سؤال آخر: ألم يقل الله -عز وجل-: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** هل النصف يعتبر قليلًا؟ أليس القليل يقابله الكثير، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((الثلث، والثلث كثير))**[1]، فالنصف يعدل الطرف الآخر من غير زيادة ولا نقصان، هذا الأصل، فكيف يكون قليلاً مقابل النصف الآخر؟، بعض أهل العلم نظروا فيه إلى جانب معنوي قالوا: إن النصف المعمور بالعبادة لا يقاس بالنصف المهجور، فهذا النصف الذي قامه يعتبر عظيماً كثيرًا، والنصف الذي ترك القيام فيه يعتبر ضئيلاً، فالأوقات العامرة بطاعة الله -عز وجل- تعتبر عظيمة ومفخمة وكبيرة، هذا جواب ذكره بعض أهل العلم، قالوا: لا يقاس النصف المعمور بالنصف المتروك أو المهجور، فقالوا: هذا معنى القلة والكثرة، فالبركات والأجور التي تحصل لمن عمر وقته بطاعة الله -عز وجل- أو ساعة من زمانه تجعل هذه الأوقات لا تقاس بغيرها، صلى ساعة ونام ساعة، فالساعة هذه التي أقامها أعظم، هذا جواب.

الجواب الثاني: أجاب بعضهم بجواب ليس بالقوي، وهو أن نصفه لا يقابل النصف الآخر فيكون مساويًا بطبيعة الحال، وإنما يكون بمقابل المجموع، هو يقول: **{قُمِ اللَّيْلَ}** ذكر الليل كاملًا **{إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** أي قم نصف الليل أو زد عليه إلى الثلثين وأكثر أو انقص منه قليلًا، فهذا بمقابل المجموع، ذكر الليل وذكر أكثر من النصف قالوا: يكون ذلك قليلاً بالنظر إلى مجموع الليل مع الثلثين، وهذا جواب ليس فيه قوة، فيه ضعف وتكلف، فالله -عز وجل- يخيره يقول له: قم نصف الليل أو أكثر من النصف، أو أقل، هذا هو المعنى، وبعض أهل العلم يقول: المراد **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** يعني أو نصفه، يقولون: إن "نصفه" لا ترجع إلى الليل أو إلى القليل، وإنما ذلك على سبيل التخيير، فكأن هنا "أو" حذفت، تقول مثلًا: احضر الفجر الظهر العصر العشاء، يعني أو الظهر، أو العصر، أو العشاء، فيكون المعنى على هذا القول قم الليل إلا قليلًا أو

---

١ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، برقم (٢٧٤٤)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

نصفه، وعلى هذا ما في إشكال، {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} يعني قم أكثر الليل أو نصفه أو انقص منه قليلًا أو زد عليه، فأنت مخير بين هذه الأمور، وهذا خلاف الظاهر، إذاً المعنى المستقر عندنا الآن أنت مخير بين قيام أكثر الليل أو النصف أو أقل من النصف، هذا المعنى، والعلم عند الله –عز وجل.

وقوله تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [سورة المزمل:٤] أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونًا على الفهم.

{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} اقرأه على تمهل وتؤدة حرفًا حرفًا بإبانة الحروف ومراعاة الوقوف، وهذا هو الترتيل دون أن يكون هذّاً فيكون همّ الإنسان ختم السورة؛ ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((لا يفقه القرآن من قرأه بأقل من ثلاث))[٢]، لا يفقه؛ لأنه يهذُّه هذّاً بهذه الطريقة، فهنا قال الله –عز وجل-: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} قالها هنا في سياق أمره بقيام الليل، فيكون الأمر بالترتيل أعلق بالموضوع الذي سيقت من أجله وهو قضية قيام الليل وصلاة الليل، وعلى هذا فهو أمر بصلاة الليل مع ترتيل القراءة فيها، ويؤخذ من عموم اللفظ {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} أن الترتيل مطلوب على كل الأحوال في التلاوة في الصلاة، وخارج الصلاة، وفي قراءة صلاة الليل، وفي غير صلاة الليل، تقرأ قراءة مترسلة مع إبانة الحروف، ومراعاة الوقوف كما كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يقرأ حرفًا حرفًا، وقد ثبت عن أربعة أنهم ختموا القرآن في ركعة في ليلة: عثمان –رضي الله عنه-، وسعيد بن جبير، وتميم الداري، وأبو حنيفة، ويوجد غير هؤلاء في أعصار أخرى، لكن هؤلاء الذين اشتهر ونقل ذلك عنهم، ومثل هذا لا يحتج به، كان أمرًا عارضًا.

وأصل الترتيل هو التنضيد وتحسين الكلام.

وكذلك كان يقرأ –صلوات الله وسلامه عليه-، قالت عائشة –رضي الله عنها-: "كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها"[٣].

تطول بسبب هذا الترتيل، قراءة الجزء عند البعض كم تستغرق؟ لربما تصل إلى ربع الساعة هذّاً، فالحاصل أن بعضهم لربما ختم القرآن في قعدة واحدة، يراجع فيختم في مجلس واحد، لا يقوم حتى يختم، هذا موجود عند المهرة في الحفظ، فالحاصل أنه إذا رتل فإن ذلك يطول، ومراتب القراءة معروفة من حدر وترتيل وما إلى ذلك، حيث إنه كلما كانت عنايته أكثر كلما تطلب ذلك مزيدًا من الوقت.

وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: كانت مدًا، ثم قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[٤]، وقال ابن جريج عن ابن أبي مُليكة عن أم سلمة –رضي الله عنها- أنها سئلت عن قراءة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقالت:

---

٢ – رواه أبو داود بلفظ: ((لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث))، كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن ؟، برقم (١٣٩٠)، والترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٩٤٩)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يُستحب يُختم القرآن، برقم (١٣٤٧)، قال الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (١٣٨/٥)، برقم (١٢٦٠): "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٣ – رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً، برقم (٧٣٣).

٤ – رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، برقم (٥٠٤٦).

"كان يقطِّع قراءته آية آية، {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:١-٤]"[٥] رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما جاء في الحديث: ((زينوا القرآن بأصواتكم))[٦]، و((ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن))[٧]، و((لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود))، يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: "لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبّرته لك تحبيرًا"[٨]، وعن ابن مسعود أنه قال: "لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"[٩] رواه البغوي، وروى البخاري عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذّاً كهذّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في كل ركعة"[١٠]

عظمة القرآن:

وقوله تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥] قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقيلًا وقت نزوله.

الآن يقول: **{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} قال الحسن وقتادة: أي العمل به**، هذا القول الثقيل على هذا المعنى -يعني العمل به- أي أنه يتضمن التكاليف الشاقة والأعباء الجسام التي تتطلب منك مزيدًا من الجهد لأجل

---

٥ - رواه أبو داود، أول كتاب الحروف والقراءات، برقم (٤٠٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٦٥٨٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين"، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٩١٠)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح على شرطهما عن أبي هريرة"، والدارقطني في سننه، برقم (٣٧)، وقال: "إسناده صحيح وكلهم ثقات"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٠٠٠).

٦ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم (١٤٦٨)، والنسائي، كتاب صفة الصلاة، باب تزيين القرآن بالصوت، برقم (١٠١٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، برقم (١٣٤٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٤٩٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن عوسجة، فقد روى له البخاري في "الأدب" وروى له أصحاب السنن، وهو ثقة، الأعمش: هو سليمان بن مهران، وطلحة: هو ابن مصرف"، وصححه الألباني في الجامع الصحيح، برقم (٣٥٨٠).

٧ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [سورة الملك: ١٣-١٤]، برقم (٧٥٢٧).

٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٤٤٨٤)، واللفظ له، ورواه البخاري عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((يا أبا موسى، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود))، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، برقم (٥٠٤٨)، ومسلم بلفظ: ((لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود))، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣).

٩ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٨٨٤).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، برقم (٧٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذِّ -وهو الإفراط في السرعة- وإباحة سورتين فأكثر في ركعة، برقم (٨٢٢).

البلاغ، والعمل بما فيه، والتحمل والصبر على ما يعتورك من آفات في هذا الطريق وعوارض تدعو الإنسان عادة إلى الإخلاد وترك التشمير فينقطع، فإن نظرت إلى ما سيواجهه من الطعون والتهم والأذى فإن ذلك يحتاج إلى صبر، وإذا نظرت إلى ما فيه من التكاليف الشاقة فكذلك تحتاج إلى صبر من أجل الامتثال، وكذلك هو ثقيل في وقت نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يتفصد جبينه -صلى الله عليه وسلم- عرقًا في الليلة الشاتية في اليوم الشاتي لثقله في وقت النزول، وكان -صلى الله عليه وسلم- كما في الأحاديث الواردة التي تصف نزول الوحي عليه كان يتربد لذلك وجهه، ولربما كان على الراحلة فبركت حتى تضع جِرانها على الأرض من شدّة الثقل، ولمّا نزل عليه -صلى الله عليه وسلم- وركبته على فخذ زيدٍ -رضي الله عنه- يقول زيد: كادت فخذي أن تُرَضَّ، فهو قول ثقيل في وقت النزول يجد النبي -صلى الله عليه وسلم- مشقة كما في حديث الحارث بن هشام لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الوحي كيف يأتيه، وهو قول ثقيل من حيث إن له تبعات ويتضمن تكاليف، ومَن جاء به سيلقى أذى من الناس، فيحتاج إلى مزيد من الصبر، هذا هو المعنى الذي دلت عليه هذه الآية، وأقاويل السلف تدور في الغالب حول هذه المعاني التي ذكرتها، فأجملتها ولخصتها فيما سمعتم ولا منافاة، إلا أن بعضهم قال: إن القول الثقيل بمعنى الكريم، تقول: فلان ثقلان عليّ، ثقلان على نفسي أي كريم، لكن هذا ليس بالظاهر المتبادر، والقرآن لا يجوز حمله على غير ظاهره المتبادر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، فهذا فيه تكلف، ثقيل بمعنى كريم هذا فيه إشكال. وبعضهم يقول: ثقيل على ظاهره لكنه ثقيل على المنافقين والكافرين لما فيه من تبكيتهم، وفضحهم، وبيان دخائل نفوسهم، وتهديدهم ووعيدهم، فهو يتضمن هذه الأمور فهو ثقيل عليهم، وهذا لا ينافي القول أو الأقاويل التي ذكرها أكثر السلف، فهو ثقيل بهذا الاعتبار على المنافقين، والكافرين، وكذلك أيضًا بعضهم يقول: {سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} ثقيل بمعنى رزين، تقول: فلان ثقيل بمعنى رزين ليس فيه خفة، من الرزانة، وهذا فيه بُعد، والعلم عند الله -عز وجل-، وبعضهم يقول غير هذا.

إذاً ثقيل هنا يقول: أي العمل به، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، هل بين القولين منافاة؟

الجواب: لا يحتاج ترجيحاً، هما قولان مختلفان، هل هذا اختلاف تنوع أو اختلاف تضاد؟ اختلاف تنوع إذا نظرنا إلى ما يئول إليه، وهو يمكن فيه أن نجمع الأقوال لكنه في حقيقته اختلاف تضاد؛ فإن تفسيره بأنه ثقيل وقت النزول غير تفسيره بأنه ثقيل لما فيه من التكاليف الشاقة، أو أنه ثقيل بالنظر إلى المنافقين والكافرين، فهذا من الخلاف الحقيقي، اختلاف التضاد الذي يمكن أن نجمع الأقوال فيه دون أن نحتاج إلى الترجيح.

قال زيد بن ثابت -رضي الله عنه-: "أُنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفخذه على فخذي فكادت تَرُضُّ فخذي"، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلتُ: يا رسول الله، هل تُحِس بالوحي؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض))[١١]، تفرد به أحمد.

---

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٠٧١)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٨٥٧).

يعني هو صوت مثل صوت السلسلة، أو صوت متدارَك لا يتبينه، يعني هذا في أول الأمر ثم بعد ذلك قال: ثم يفصم عني فأعي ما قال، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام.

وهذا لا شك أنه داخل في معنى قوله: "ثقيلًا" أي وقت نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم.

وفي أول صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كيف يأتيك الوحي؟ فقال: ((أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس -وهو أشده عليّ- فيَفصِم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول))[١٢].

هذا سهل ما يشق على النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا جاءه بصورة رجل، لكن حينما يأتيه بمثل هذه الصورة فيسمع صلصلة، ولربما الناس حوله، وهذا يجمع الناس حوله يسمعون دويًّا كدوي النحل.

قالت عائشة: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم الشديد البرد فيَفصِم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقًا"[١٣] هذا لفظه، وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "إنْ كان ليوحى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على راحلته فتضرب بجرانها"[١٤]، والجِران هو باطن العنق، واختار ابن جريج أنه ثقيل من الوجهين معًا، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين.

"قولاً ثقيلاً" يعني يثقل، كما أنه لم ينكر أنه ثقيل في الدنيا بهذا الاعتبار، كما أنه كذلك أيضًا ثقيل في الميزان، من قرأ حرفاً، "لا أقول: ألف لام ميم حرف"، ويقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارقَ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها[١٥]، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((الماهر بالقرآن مع السفرة))[١٦]، وفي زيادة صحيحة ثابتة: "الماهر بالقرآن وهو يحفظه -أو وهو حافظ له- مع السفرة الكرام البررة".

شرف قيام الليل:

وقوله تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا} [سورة المزمل:٦]، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير: الليل كله ناشئة، وكذا قال مجاهد.

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} عامة ما ذكره السلف يمكن أن يجمع في تفسير هذه الآية.

---

١٢ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي -صلى الله عليه وسلم- في البرد وحين يأتيه الوحي، برقم (٢٣٣٣).

١٣ - رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب جامع ما جاء في القرآن، برقم (٩٣٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٦١٩٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وهو في صحيح الجامع، برقم (٢١٤).

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٨٦٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح وهذا سند حسن".

١٥ - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، برقم (٢٩١٤)، وأحمد في المسند، برقم (٦٧٩٩)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم وهو ابن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، عبد الرحمن: هو ابن مهدي، وسفيان: هو الثوري، وزِرّ: هو ابن حبيش"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨١٢٢).

١٦ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، برقم (٧٩٨).

وكان الليل كله ناشئة؛ لأنه ينشأ بعد النهار، ففي أي ساعة صليت على هذا القول سواء كان ذلك بعد نوم أو لم يسبق بنوم صليت العشاء وقمت تصلي فهذا من ناشئة الليل، كل ساعات الليل ناشئة.

يقال: نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء.

الآن **نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء**، ما الفرق بين هذه الأقوال الثلاثة الآن إذا تأملت الأقاويل -كل ما قيل فيها-؟ أرجِعْها إلى أصول فماذا تقول؟ تقول: إما أن يفسر ذلك بالفعل، أو يفسر بالزمان، أو يفسر بالذات، ابحث ما شئت في الأقوال في المطولات، إما أن يفسر بالزمان، وإما أن يفسر بالفعل، وإما أن يفسر بالذات، فانظروا هذه الأقاويل الآن لما يقول: **الليل كله ناشئة** فسره بالزمان، ناشئة الليل أي الساعات التي تنشأ شيئًا بعد شيء فهي آناته وأوقاته ودقائقه وأبعاضه وأجزاؤه، فهذا تفسير اللفظ بالزمان، ناشئة الليل تنشأ ساعته شيئاً بعد شيء، فمن أوله إلى آخره، ومن قال: بين المغرب والعشاء باعتبار أن الليل يبدأ المغرب لكن لا صلاة ليل ولا قيام بعد المغرب، لكن هؤلاء لهم ملحظ آخر **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}**، ومن قال: بعد العشاء لاحظ أول الليل مع وقت القيام الذي يكون من بعد العشاء، فقال: بعد العشاء، أعاده إلى تفسيره بالزمان واعتبر أن الناشئة هي ما ينشأ أولًا، فناشئة الليل هي ابتداؤه، هي أول وقت الليل، ومنه النشأة يعني الابتداء، فلماذا فسروه بما بعد العشاء، وما قالوا: المغرب؟ قالوا: لأن المغرب ليس محل صلاة الليل فنقول: بعد العشاء؛ لأن القضية تتعلق بالقيام، هذا كله تفسير له بالزمان، "إن ناشئة الليل" انظر الأقوال الأخرى: الليل كله ناشئة، نشأ إذا قام من الليل، هذا تفسير بالفعل، فيكون **{نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}** أي: قيام الليل بالفعل، وهؤلاء منهم من جعله القيام بعد النوم قالوا: لا يكون ناشئة إلا إذا كان القيام بعد نوم، فهم فسروه بالفعل، لكن هذا الكلام لا دليل عليه، أي أنه لا يشترط أن يكون بعد نوم، أو قالوا: هو القيام، ومن فسره بالذات قال: إن ناشئة الليل هي النفس التي تقوم وتصلي في الليل، فسره بالذات الإنسان العبد المصلي، ناشئة يعني النفس التي تقوم تصلي، لاحظتم كيف نرجع الأقوال إلى أصولها لنفرع عليها بعد ذلك، وننظر الأقوال التي يمكن أن تجتمع فنجمعها، والأقوال التي الخلاف بينها صوري لفظي فهذه لا نعتبرها أصلًا من الخلاف، بعد ذلك نخرج بنتيجة.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} وأحسن ما يفسر به -والله تعالى أعلم- أن ناشئة الليل هي ساعاته، وأوقاته في أوله ووسطه وآخره، فهي تنشأ شيئاً بعد شيء، ساعة بعد ساعة حتى ينقضي، هذه ناشئة الليل، ومن فسره بالنفس فقوله ليس بعيداً، فالسلف يفسرون تارة بالمطابق، وتارة باللازم، وتارة بالتضمن، وتارة بالإشارة، يستعملون جميع أنواع الدلالة، فمن قال: إن ناشئة الليل هي النفس التي تقوم وتصلي، أو فسره بالفعل فحينما نقول: إن ناشئة الليل هي ساعاته، والقضية المحدث عنها هي القيام، لابدّ فيه من قائم، وهذا القيام عبارة عن فعل، فيتسع الصدر، فلا نحتاج أن نقول: هذا قول بعيد، وقول شاذ، وقول مطرح لا يلتفت إليه، لا نحتاج هذا الكلام، نتعامل مع هذه الأقوال بهذه الطريقة، أمّا أن تُسرد الأقوال: القول الأول، والقول الثاني، والقول الثالث في المسألة وهكذا فهذا ليس درساً في التفسير، هذا نوع من العبث، أمّا درس التفسير فهو الذي تُختبر فيه الأقوال، وتُنظر، ويُجمع النظير مع النظير، ثم بعد ذلك يُنظر في الخلاف بينها، وكيف نستطيع أن نختار

القول الراجح منها، ولماذا قال الآخرون بغيره، وهل يعارض هذا القول؟ التفسير باللازم لا يعارض التفسير بالمطابق، لا يعارض، فهذا كله لا إشكال فيه.

لا شك أن هذا فيه بطء لكن هذه طريقة في التفسير أرى أنها لابدّ أن تزرع في النفوس، لابدّ أن تزرع، وأن يرى الناس طريقة بالتفسير غير الطريقة المعهودة التي يدرسونها في الجامعات وفي المساجد؛ لأن هذه الطريقة هي التي تربي الملكة، ويتسع الصدر، ويستطيع الإنسان أن يتذوق التفسير، وأن التفسير له معنى، وليس كحاطب ليل.

وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر، والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات.

إذن من قالوا: إن الليل كله ناشئة قالوا: لأنه ينشأ بعد النهار، والذين قالوا: بعد العشاء قالوا: لأن الناشئة بمعنى الابتداء فهو أول الليل ومبتدؤه، أوله بعد المغرب قالوا: المغرب ليس وقت صلاة، ولا وقت قيام، والكلام هنا في القيام فأوله بعد العشاء الذي ينشأ منه الليل.

والمقصود أن قيام الليل هو أشدّ مواطأة بين القلب واللسان.

الآن **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا}** أمره بقيام الليل وترتيل القرآن ثم علل ذلك؛ لأن "إنّ" هنا تدل على التوكيد، وتُشعر بالتعليل؛ أي لأن ناشئة الليل فيها مزيتان: **{هِيَ أَشَدُّ وطئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا}**.

والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: {هِيَ أَشَدُّ وطئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا} أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش.

{هِيَ أَشَدُّ وطئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا} قال: **أي أشد مواطأة** -يعني موافقة- **بين القلب واللسان**، هذه الآية فيها قراءتان متواترتان: الأولى: "هي أشد وَطئاً"، والثانية: {هي أشد وِطْئاً} بكسر الواو وتسكين الطاء، وكلاهما قراءة متواترة، وهذا التفسير الذي ذكره ابن كثير هنا يصلح على القراءة الثانية التي هي "وِطْئاً"، تقول: واطأه مواطأة ووِطئًا بمعنى وافقه موافقة، فعلى هذه القراءة {هي أشد وِطْئًا} يعني أشد مواطأة بين القلب واللسان والسمع والبصر، وذلك أن الليل محل السكون، وهدوء الأصوات، وقلة انتشار الناس، هدأة الليل، ففي هذا السكون يرتفع التشويش والإزعاج، فإذا قرأ الإنسان قرأ قراءة يجتمع له فيها القلب مع اللسان مع السمع والبصر، ليس هناك مشوشات تشوش على البصر، ولا أصوات مزعجة، هذا إذا كان الناس ينامون بالليل، فالليل هو وقت الهدوء فيحصل فيه مثل هذا المعنى، فتكون القراءة مؤثرة يخشع فيها الإنسان وينتفع ويلين قلبه، ويكونُ قريباً من الله -عز وجل-، {هي أشد وِطْئًا} وفي القراءة الأخرى "وَطئاً" ((اللهم اشدد وَطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف))[١٧]، ومعنى "أشد وَطئاً" أي أشد ثقلًا على هذه القراءة، ويكون المعنى: أشد وَطئاً أي أن صلاة الليل تتطلب مزيدًا من المجاهدة والمكابدة والصبر؛ لأنه وقت للراحة

---

١٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم (٦٧٥).

والإخلاد والنوم، فلا يستطيع أن يقوم فيه إلا الموفق الذي أعانه الله -عز وجل- على نفسه فجاهدها حتى ارتاضت له واستقامت، وإلا فعامة الناس مأسور، تأسره ذنوبه، وتأسره شهواته فيخلد إلى النوم، ولا يستطيع القيام.

ما يقومُ الليلَ إلا *** مَن له عزمٌ وجدٌّ

فهي ثقيلة إلا بلون من المجاهدات ترتاض فيها النفس وتصبر، فليست سهلة على كل أحد، وهذا معنى صحيح، والقاعدة في هذا الباب أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فكأن عندنا الآن آية تدل على أن صلاة الليل تكون فيها الموافقة بين اللسان والقلب والجوارح، وعندنا آية ثانية تدل على أن صلاة الليل ثقيلة على الإنسان؛ لأن الليل وقت النوم والراحة، فهما قراءتان، كل قراءة أفادتنا معنى جديداً، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{أَشَدُّ وطئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا}، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا}: أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها.. أقوم قيلًا: القيل هو القول، **{وَقِيلِهِ يَارَبِّ}** [سورة الزخرف:٨٨] يعني وقوله، تقول: وفي قيل ابن جريج، وفي قيل بعض أهل العلم يعني وفي قول بعض أهل العلم، هذا معناه.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا}: أي أقوم قولًا، وذلك يعني أن القراءة في وقت هدأة الأصوات والسكون تكون أكثر استقامة حيث لا مشوش ولا مزعج يفسد عليه قراءته فيخطئ، وينسى، ويدخل سورة في سورة، ويختم آية بغير خاتمتها.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا} أي أسدّ وأصوب، أقوم أي أكثر استقامة فيؤدي القراءة على وجهها؛ لأنه يقرأ وهو قد تخلص من سائر المشوشات والمزعجات والمشغلات، إذاً "هي أشد وطئًا" أي مواطأة وموافقة بين القلب واللسان والجوارح، أو ثقيلة، وهي كذلك يذكر فيها هذا وهذا، وأسد وأصوب؛ لعدم وجود المشوشات، هذا معنى "وأقوم قيلًا".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المزمل من الآية (٦) إلى الآية (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَصْوَبُ قِيلًا} [سورة المزمل:٦] فقال له رجل: إنما نقرؤها "وأقوم قيلًا"، فقال له: إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا النص الذي سمعتم يعبر هكذا، ما هي الإشكالات؟ ما في خلاف، فما هو وجهه؟ الرواية ما هي؟.

"وأصوب قيلًا" هكذا الرواية، فلهذا يقول الرجل: إنما نقرؤها "وأقوم قيلًا"، وليست "وأصوب"، فقال له: **إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد.**

ما استوقفكم هذا؟ كيف تقرءون مثل هذه الأشياء؟ كيف تمر عليكم؟ ما تقفون عندها؟ أصوب وأقوم وأهيأ واحد، هي فوضى؟ هل كل من أراد أن يقرأ شيئًا يقرأ على مزاجه؟ هذا قرآن لا يجوز زيادة حرف ولا نقص حرف منه فيبدل كلمة مكان كلمة إذا اعتقد أن المعنى واحد، يجوز لك هذا؟ و**{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** [سورة الفاتحة:٢-٣] تقول: الثناء والشكر مثلًا على تفسير **{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** هل هذا صحيح؟ ما يصح هذا أبدًا، ولا يجوز بحال من الأحوال، هذه الرواية لا تصح، وهي منكرة متنًا وضعيفة إسنادًا، رواية الأعمش عن أنس، ولم يسمع منه، والمتن منكر، لا يجوز لأحد أن يبدل كلمة مكان كلمة، والقراءة سنة متبعة ليس لأحد أن يتصرف فيها.

ولهذا قال تعالى: {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} [سورة المزمل:٧] قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم.

وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري: فراغًا طويلًا.

وقال قتادة: فراغًا وبغية ومتقلبًا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} قال: لحوائجك فأفرغْ لدينك الليل.

الآن أمره الله بقيام الليل ثم قال له: **{إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}** وهذا السبح فُسر بالفراغ والنوم، لك في النهار فراغ ونوم، وبعضهم يفسر السبح بالنوم، ويقول: السبح التمدد، سبح: تمدد، فالسبح هو النوم، هكذا قال بعض أئمة اللغة، إن لك فراغًا ونومًا، ما المقصود إذاً على هذا القول؟ يقول: اشتغل بالليل أحي الليل قراءة وصلاة، ولك في النهار مجال واسع تنام فيه وتستريح، هذا قاله بعض أهل العلم من السلف.

فراغًا طويلًا، فراغًا وبغية ومتقلباً، أو قول من قال: تصرفًا في حوائجك وإقبالًا وإدبارًا في تصريف شئونك وتدبير مصالحك الدنيوية، كل هذه الأقاويل هل بينها تعارض؟

الجواب: لا، {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} السبح أصله في اللغة يطلق على الدوران والحركة والمضي، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، ومنه السباحة فالإنسان الذي يسبح يمضي في الماء ويتحرك فيه، يحرك فيه يديه ورجليه، فالسباحة تعتمد على الحركة، فهذا السبح الطويل المقصود به التصرف في الشئون، وهذا التصرف في الشئون لا شك أنه يتطلب تفرغًا، كيف يتصرف في شئونه وهو مشغول؟ فقول من قال بأن المراد به الفراغ لا يعارض قول من فسره بالتصرف والتقلب في مصالحه وشئونه؛ لأنه إذا انشغل عن ذلك لا يستطيع، كما قال الله -عز وجل- عن فقراء المهاجرين واصفاً إياهم: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ} [سورة البقرة:٢٧٣] بمعنى حصروا أنفسهم على الراجح من المشهور من معناها، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، حصروا أنفسهم فشغلوا بالجهاد فلم يعد لهم وقت للاشتغال بالتجارة، فصاروا بهذه الحالة من الفقر، وقد تركوا كل شيء وراء ظهورهم في مكة ليس للواحد إلا إزار فقط، وليس له رداء، جاهز للجهاد ينتظر متى ينادي المنادي فيخرج يقاتل أعداء الله -عز وجل-، فهذا شُغل عن التجارة.

{إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}: فراغًا طويلًا تتقلب فيه في شئونك ومصالحك وتدبير حوائجك، هذا هو المعنى -والله تعالى أعلم-، وبعضهم ارتقى فوق ذلك درجة -والناس مقامات- ففسرها بشيء آخر قال: إنْ فاتك شيء من ورد الليل فلك وقت في النهار يمكن أن تعوضه فيه، هم يدورون بالعبادة، لك سبحًا طويلًا في النهار تعوض ما فات من ورد الليل، هؤلاء مثل الذين فسروا قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:١٠]، المشهور أن {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} يعني في التجارة، ولهذا ابن حزم ذهب إلى وجوب الخروج من المسجد بعد صلاة الجمعة أخذاً من هذه الآية، لكن بعضهم ذهب إلى أبعد من هذا، فقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} بعيادة المريض واتباع الجنائز وما أشبه ذلك من ألوان العبوديات.

قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله -تبارك وتعالى- منّ على عباده فخففها ووضعها، وقرأ: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢] إلى آخر الآية، ثم قرأ: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ} [سورة المزمل:٢٠].

هذه الرواية عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو يصرح فيها أن الذي نسخ قيام الليل المأمور به في صدرها {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} هو قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ}؛ لأن العلماء -رحمهم الله- مختلفون ما الذي نسخها هل هي الفروض الخمسة حينما فرضت على الناس؟ أو أن الذي نسخها آيات من آخرها؟ وما هو الجزء الذي نُسخت به؟

القول الأول: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ} وهذا هو المشهور، من هنا نُسخ صدر هذه السورة، ولا يُعلم في القرآن أن سورة نُسخ أولها بآخرها سوى هذه.

يبقى الخلاف ما هو الموضع من آخرها الذي نسخ أولها، وهذا لا يؤثر ولا يفترق به الحكم، قال: **حتى بلغ فاقرءوا ما تيسر منه.**

وقال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} [سورة الإسراء:٧٩] وهذا الذي قاله كما قاله.

وبعضهم يقول: إن الذي نسخها هو الفروض الخمسة، وبعضهم يقول: إن القدر الناسخ أو الشاهد هو قوله: **{عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}** [سورة المزمل:٢٠] يعني تحصوا الليل –وسيأتي معناها– قالوا: هذا هو الناسخ.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعيد بن هشام: "أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقارًا له بها، ويجعله في الكراع والسلاح.

يعني هذا الرجل سعيد بن هشام بن عامر طلق الدنيا، وأراد أن يلتحق بالجهاد، فيجاهد الروم حتى يقتل ويموت شهيدًا في سبيل الله، فأول ما بدأ به أن طلق امرأته، ثم ارتحل ليبيع عقارًا في المدينة؛ ليتزود به للجهاد.

والكراع يعني المراكب، يشتري بعيراً، يشتري راحلة، دابة، هذا الكراع.

ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطًا من قومه فحدثوه أن رهطًا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: ((أليس لكم فيّ أسوة حسنة؟))[1]، فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رجعتها.

أي لما أُخبر بهذا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يجاهد، ومع ذلك له تسع زوجات أو مات عن تسع زوجات، وكان –صلى الله عليه وسلم– له مساكن لأزواجه، ولم يُعرض إعراض هذا عن الدنيا فيذهب ليقاتل حتى يموت، فالرجل عندما سمع هذا الكلام راجع امرأته بعد أن طلقها.

ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟ قال: نعم، قال: ائتِ عائشة فسلها ثم ارجع إليّ فأخبرني بردها عليك، قال: فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها.

يعني قال: امشِ معي إلى عائشة، رافقني إلى عائشة.

فقال: ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا.

يعني أهل الشام وعلياً ومن معه –رضي الله عنهم–، يقول لها: لا تدخلي في هذا الموضوع.

فأبت فيهما إلا مضيًا، فأقسمتُ عليه فجاء معي فدخلنا عليها، فقالت: حكيم؟، وعرفته، قالت: من هذا الذي معك؟ قال: سعيد بن هشام، قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر، قال: فترحمت عليه، وقالت: نعم المرء كان عامرًا، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان القرآن، فهممت أن أقوم ثم بدا

---

١ – رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٢٦٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، ويحيى– وهو ابن سعيد القطان– سمع من سعيد بن أبي عروبة قبل الاختلاط".

لي قيام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه حولًا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة.

وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، يعني الآن هذه الرواية من عائشة –رضي الله عنها–، ومصرحة بأنها نسخت بآخرها، وهذا لا يعارض القول الذي قبله.

ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة.

هذه تفيد أنهم قاموا سنة، والفروض الخمسة متى فرضت؟ سورة المزمل من أول ما نزل، متى كان الإسراء؟ لم يكن في أوائل البعثة بل كان في أواخر المدة المكية أُسري برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وبعضهم يقول: قبل الهجرة بسنة، وبعضهم يقول غير ذلك، لكن لا شك أن الإسراء والمعراج في أول البعثة، فكيف يقال: إن الذي نسخ قيام الليل هو الفروض الخمسة؟ هذا بعيد، بقيت سنة واحدة فنسخت بآخرها، وفيها تصريح بأن هذه السورة لم تنزل جملة واحدة، وإنما نزل أولها ثم نزل آخرها، وبعض سور القرآن قد ينعكس فيها هذا الأمر –على الأقل على بعض الأقوال– ينزل آخر السورة ثم ينزل أولها، الآن في قوله –تبارك وتعالى– في سورة الممتحنة: **{فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ}** [سورة الممتحنة:١٠] هذا في آخر السورة، في النصف الثاني من السورة، نزل هذا بعد صلح الحديبية مباشرة بفترة يسيرة، وصلح الحديبية كان في السنة السادسة للهجرة، وأول السورة نزل في قصة حاطب، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء}** [سورة الممتحنة:١]، قصة حاطب كانت والنبي –صلى الله عليه وسلم– يتهيأ لفتح مكة في السنة الثامنة، هذا على الأشهر، فعلى هذا القول يكون النصف الثاني من السورة نزل قبل النصف الأول، وهناك قول غير هذا لبعض أهل العلم ويستدلون عليه بأدلة يقولون: أول السورة وقصة حاطب لم تكن في فتح مكة، وإنما حينما كان –صلى الله عليه وسلم– يتهيأ للذهاب إلى مكة في السنة السادسة التي وقع فيها الصلح، لكن هذا فيه إشكالات.

وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليمًا يُسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما سنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأخذه اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما

يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

بناء على أنه كان يصلي إحدى عشرة ركعة لكنه لا يوتر في النهار.

ولا أعلمُ نبيَّ الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان، فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال: صدقتْ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة[٢]، هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة، والشاهد مضى وهو في فريضة قيام الليل ثم نسخت في آخرها، هذا هو الشاهد، وإلا فحتى قضية المشافهة مسألة تتعلق بعلوم الحديث، بالرواية، وطلب العلو في الإسناد.

وروى ابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} قاموا حولًا حتى ورِمتْ أقدامهم وسُوقهم حتى نزلت: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} قال: فاستراح الناس، وكذا قال الحسن البصري والسدي.

يمر كثيرًا في التفسير عن أبي عبد الرحمن، فمن هو؟ هو السلمي قال: **لما نزلت {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} قاموا حولًا**، هذا يوافق رواية عائشة -رضي الله عنها-: حتى نزلت: **{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}** وعلى هذا يكون الناسخ **{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}** ولا إشكال، هذا جزء من آخرها.

الحسن وابن سيرين يقولان: إن قيام الليل واجب، وعلى قولهما ما الذي نُسخ؟ هو المقدار، قم الليل إلا قليلًا نصفه أو انقص منه قليلًا أو زد عليه، فالله -عز وجل- قال: **{عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}** يعني الليل كما سيأتي، وضبط المواقيت على هذا التفسير، فالحسن وابن سيرين يقولان بوجوب قيام الليل بناء على ماذا؟

يتفقان مع غيرهما في قضية النسخ، لكن قولهما يختلف، ومعناه أن النسخ وقع فقط في تحديد مقدار القيام فصار مفتوحًا، قالوا: لم ينسخ إلى الترك مطلقًا أو إلى غير بدل، وإنما نسخ بهذا القيد **{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ}** فقالوا: يجزئه في قيام الليل قدر حلب شاة، وقت يسير، فمعنى ذلك أنه لو صلى وأوتر بعد العشاء فإن ذلك يجزئه على قول الحسن وابن سيرين أخذًا من قوله: **{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}**، فالنسخ عندهما في المقدار فقط، أي تحديد الذي كان في أول السورة، وهذا خلاف قول الجمهور، ومما يقوي قول الجمهور ما جاء من الروايات، كيف استراح الناس؟، وكيف خفف عنهم؟ معنى ذلك أنه لم يعد واجبًا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢-٣] فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله تعالى عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ} [سورة المزمل:٢٠]، إلى قوله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} فوسع الله تعالى وله الحمد، ولم يضيق.

فهذه الآن رواية رابعة تفيد أن الناسخ هو قوله: **{عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى}**.

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٢٦٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، ويحيى -وهو ابن سعيد القطان- سمع من سعيد بن أبي عروبة قبل الاختلاط".

وقوله تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [سورة المزمل:٨] أي أكثِرْ من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك.

قال: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} هنا ما فسر هذا القدر تحديدًا "واذكر اسم ربك" قال: أكثِرْ من ذكره، وهذا أقرب ما يكون إلى طريقة السلف في التفسير، حيث إنه لا يراعي كل لفظة فيأتي بما هو على وزانها، ويحلل هذه اللفظة، ويشققها، ثم بعد ذلك يقع في إشكالات، "واذكر اسم ربك"، الله يقول: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ} [سورة الأعلى:١] يعني سبح ربك ذاكرًا اسمه، أو نزه اسمه، هذا المقصود، هل المقصود تنزيه الله -عز وجل- أو تنزيه الاسم؟ "سبح اسم ربك"، وهنا: "واذكر اسم ربك"، بعضهم يقول: هذا في ابتداء الصلاة المقصود {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} أي في ابتداء صلاتك، وبعضهم يقول: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} هو أمر بدعائه بأسمائه الحسنى {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف:١٨٠]، "واذكر اسم ربك": أي إذا أردت أن تدعو فادع ربك ذاكرًا اسمه، قل: يا رب، يا الله، يا رحمن، و"اسم" هنا مفرد مضاف، "اسم ربك"، والمفرد إذا أضيف فإن الإضافة تكسبه العموم، كأنه قال: واذكر أسماء ربك في استفتاح الصلاة عند الدعاء والإنسان يدعو أو غير ذلك من المعاني، كقول بعضهم: دُم على ذكره ليلًا ونهارًا، مثل قول ابن كثير هنا: أكثِرْ من ذكره، أو يكون المقصود: "واذكر اسم ربك" المراد الذكر بمعنى الاستحضار الذي ينافي الغفلة في مقامات الوعد والوعيد، أي يكون القلب حاضرًا ذاكرًا لله -عز وجل- غير غافل، فهو في مقامات يرجو ما عند الله، ويحتسب في أعماله الصالحة، وفي مقامات يتذكر عذاب الله -عز وجل- فيرعوي ويكف عما لا يليق، {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} فالله -عز وجل- لم يحدد لونًا من ألوان الذكر، وإنما قال: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} فيدخل فيه الإكثار من اللهج بذكر اسمه -سبحانه وتعالى-، {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ}، وقد يدخل فيه أيضاً تنزيه هذا الاسم، وتنزيه المسمى به -سبحانه وتعالى-، ودعاؤه، فيكون ذكر الله -عز وجل- جاريًا على لسانه: سبحان الله، لا إله إلا الله، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا كله من ذكر اسم الرب -سبحانه وتعالى-، {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} تبتل تبتُّلًا أو تبتيلًا؟، إذا أردت أن تذكر المصدر فإنك تقول: تبتل تبتُّلًا، لكنه عدل عنه هنا، قال: "وتبتل إليه تبتيلًا"، وأصل التبتُّل الانقطاع، ومنه مريم البتول -رحمها الله- إما لأنها منقطعة عن نظائرها من نساء العالمين، ليس لها نظير، {وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ} [سورة آل عمران:٤٢]، أو لأنها منقطعة عن الأزواج، أو لأنها منقطعة لعبادة الله -عز وجل-، {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً} [سورة آل عمران:٣٧]، والمقصود بالمحراب مكان العبادة، فالتبتُّل معناه الانقطاع، نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلًا عن التبتل، يعني الانقطاع عن الدنيا بترك التزوج، وما أشبه ذلك.

{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} كلمة "تبتيلًا" على وزن تفعيلا تدل على الكثرة، فذكر الفعل "تبتل" ليدل على التعمل والتدرج، وربما التكلف، و"تبتيلًا" يدل على المبالغة، فعبر بهذا وهذا، بالفعل وبهذه الصيغة من المصادر "تبتيلًا" الدالة على الكثرة.

قال تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} [سورة الشرح:٧] أي: إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته؛ لتكون فارغ البال، قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه، قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} أي أخلص له العبادة.

فسر التبتيل هنا بمعنى الإخلاص، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنه إذا كان مخلصًا فمعناه أنه لا يلتفت لغير الله -عز وجل-، وإنما ينحصر قصده ووجهته في طلب مرضاة الله -عز وجل- فينقطع عن غيره، هذا وجه تفسيره بالإخلاص، فلا إشكال فيه، تبتيل إليه تبتيلًا: انقطع لعبادته.

وقال الحسن: اجتهد وأَبْتِلْ إليه نفسك.

وأبتلْ إليه نفسك يعني انقطع لعبادته، حينما نقول: التبتل والبتل وما أشبه ذلك يدل على الانقطاع لا نقصد الانقطاع بمعنى الإبانة والبتر، إنما الانقطاع معناه أنه يداوم على هذا ويستمر، ولا يلتفت إلى شيء آخر، أي يعتكف على تحقيق هذا المعنى، هذا معنى الانقطاع، وليس معناه ما قد يتوهم، ولا زال الناس يستعملون مثل هذا المعنى إلى اليوم، أنت إذا أردت أن تصف للإنسان طريقًا وأن يستمر عليه تقول له: بَتِّل، أي لا تلتفت ولا تتوقف ولا تنحرف يمنة ولا يسرة، وإذا أراد الدوام قال: بَتْلة يعني دائمًا، هذا مستعمل، فهذا المقصود بالانقطاع، يقولون: انقطعَ لهذا العمل بمعنى أنه كرس جهده فيه، فلان منقطع لعبادة الله -عز وجل- أي مشمر فيها ومستمر.

ومنه الحديث المروي: نهي عن التبتُّل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج، وقوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو.

هذه فيها قراءتان متواترتان: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} "ربِّ" بالكسر فتكون عائدة إلى "ربِّك"، أي واذكر اسم ربِّك ربِّ المشرق والمغرب، تكون "ربِّ" عائدة إلى "ربِّك"، وقراءة الرفع "ربُّ المشرق والمغرب" أي واذكر اسم ربِّك وتبتل إليه تبتيلًا هو ربُّ المشرق والمغرب، أو ربُّ المشرق والمغرب وخبره لا إله إلا هو، إذاً فيها قراءتان متواترتان بالرفع والجر، وهناك قراءة غير متواترة مروية عن ابن عباس وابن مسعود: {رب المشارق والمغارب فاتخذه وكيلًا}.

سؤال: هل بين القراءتين فرق؟ أعني المشارق والمشرق؟

بعض القراءات من حيث المعنى يكون بينها فروق، وأحيانًا لا يوجد فرق، فهنا من جهة المعنى لا يوجد فرق؛ لأن المشرق جنس والجنس يعبر به عن القليل والكثير، فرب المشرق يمكن أن يُأخذ منه "رب المشارق"؛ ولهذا في بعض المواضع في القرآن {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} كما هنا، وفي بعضها يذكر المشارق والمغارب، وفي بعضها يقول بالتثنية {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [سورة الرحمن:١٧] فذَكَرَ المفرد والمثنى والجمع، فالآن يأتي السؤال لماذا يعبر تارة بالجمع وتارة بالمفرد أو المثنى؟ ما الفرق بين المشرقين والمشرق والمشارق؟ بماذا توجه هذه الصيغ؟

يمكن أن يقال: مشرق الشمس ومغربها مثلًا، أو الجهة جهة المشرق وجهة المغرب، و"رب المشرقين ورب المغربين" المشرقان: يمكن أن يقال: الشمس والقمر، والمغربان: مغرب الشمس والقمر، ويمكن أن يقال:

الشمس لها أقصى جهة في المشرق في الشتاء، وأقصى جهة في الصيف درجة الانحراف، ومعلوم أن الشمس لا تنطلق دائماً من نقطة واحدة من الشرق إلى الغرب، وإنما تتحرك في الشتاء والصيف؛ لتعمّ أكبر قدر من مساحة الأرض، فأقصى نقطة في الصيف وأقصى نقطة في الشتاء فهذان مشرقان، وكذلك في الغروب، فهذا وجه "رب المشرقين ورب المغربين"، ورب المشارق والمغارب يمكن أن يقال: مشارق الكواكب والنجوم، ومغاربها، فيدخل فيها الشمس والقمر وغير ذلك، ويمكن أن يقال باعتبار التعدد، فهي تنتقل درجة درجة من الشتاء إلى الصيف، فهذه المتعددة على الأيام والليالي هي مشارق، وكذلك في الغروب، رب المشارق والمغارب.

وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [سورة المزمل:٩]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [سورة هود:١٢٣]، وكقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة:٥] وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

قوله: {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [سورة المزمل:٩] أي معتمَدًا وملاذًا وملجأ تفوض إليه أمورك، فتركن إليه وحده لا لأحد سواه، {وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ} [سورة المائدة:٢٣]، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [سورة الفرقان:٥٨].

الأمر بالصبر على أذى الكفار، وبيان ما لهم عليه:

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [سورة المزمل:١٠] يقول تعالى آمرًا رسوله –صلى الله عليه وسلم– بالصبر على ما يقوله مَنْ كذّبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الذي لا عتاب معه.

الآن {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} يعني مما تكره كقولهم: كاهن، مجنون، ساحر، كذاب، {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} اهجرهم: الهجر هو الترك والمباعدة، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ولا عتاب فيه، وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، على عادتهم يقولون: إن آية السيف وهي الآية رقم خمسة من سورة التوبة {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [سورة التوبة:٥] يقولون: هذه الآية نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، كل آية تُشعر بالصفح والعفو والمغفرة والإعراض منسوخة بآية السيف، ليس لهم إلا السيف، هذا قال به طوائف من أهل العلم من السلف ولكنه قول مرجوح، {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} هم قالوا: إنه لا مجال لتركهم وهجرهم والإعراض عنهم، والأقرب –والله أعلم– أنها مراحل، فيُعمل بها في أوقات الضعف، وأزمنة الفترة، وفي وقت القوة يعمل بآية السيف، ولم يُنسخ شيء من ذلك، والله تعالى أعلم، وقد بالغوا في دعوى النسخ حتى إن بعضهم قال: إن آية السيف نسخت قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [سورة التين:٨] قالوا: هذه منسوخة بآية السيف، لماذا منسوخة؟ قالوا: إن معنى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}: دعهم لحكم الله –عز وجل– يحكم فيهم ليس عليك إلا بلاغ الدعوة فقط والله يتولاهم، وهذه الدعوى غير صحيحة.

ثم قال له متهددًا لكفار قومه ومتوعدًا –وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء–: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ} [سورة المزمل:١١] أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق ما ليس عند غيرهم.

"وذرني والمكذبين أولي النعمة" ذرني بمعني اتركني ودعني، وهذا يقال للتهديد، دعني معهم أعاقبهم وأحلّ بهم نقمتي، فلا تكترث بهم، **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ}** خلِّ بيني وبينهم فأنا أكفيك أمرهم، وأتولى عقابهم، **{أُولِي النَّعْمَةِ}** بفتح النون، من هم أولي النعمة؟ بعضهم يقول: هم المطعِمون من المشركين في غزوة بدر، وفي سير المشركين من مكة حتى وصلوا إلى المدينة، فالذين تولوا إطعام الجيش يذبحون تسعاً أو عشراً من الإبل في كل يوم، عشرة أشخاص هؤلاء من كبار قريش، ومن وجهائهم ومن أغنيائهم، وكان آخر الأيام على العباس بن عبد المطلب فأُسر ومعه الدراهم التي كان يريد أن ينحر بها الإبل، وأُخذت معه، وانشغلوا عن النحر في ذلك اليوم حيث نُحِروا فلم يأكلوا في ذلك اليوم، فأكلوا في تسعة أيام، فبعض أهل العلم يقول: **{أُولِي النَّعْمَةِ}** هم هؤلاء المطعِمون في بدر، وهذا ليس عليه دليل، ولا حاجة إلى تخصيصه بهم، وإنما المقصود **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ}** يعني المترفين المتنعمين من هؤلاء المكذبين الكفار، وخصهم بالذكر؛ لأنهم الكبراء والسادة والناس تبع لهم، فتوعد هؤلاء الذين كانوا بهذه المثابة، وبعضهم يقول: **{أُولِي النَّعْمَةِ}** هنا هم أبناء المغيرة، الوليد بن المغيرة وإخوته، وهذا لا دليل عليه، فلا يخص به، وإنما يشمل هؤلاء وغيرهم.

سؤال: ما الفرق بين النَّعمة والنِّعمة وإن شئت أن تقول أيضًا: والنُّعمة؟

هنا قال: **{أُولِي النِّعْمَةِ}** فما الفرق بين هذه الأشياء الثلاثة؟

النِّعمة بالكسر هي الحالة الحسنة، كالثياب نعمة، والمراكب نعمة، والمال نعمة، وما يتنعم به الإنسان من ألوان المطعومات والمشروبات يقال له: نعمة.

والنَّعمة بالفتح هي التنعم، أولي النعمة أي أصحاب التنعم.

والنُّعمة: السرور، والسرور متى يكون؟ يكون مع النِّعمة.

وقوله تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان:٢٤] ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا} [سورة المزمل:١٢] وهي القيود، قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب.

بعضهم يقول: مهلهم قليلًا فأعاجلهم بالعقوبة، فوقع لهم ذلك يوم بدر، ولا يختص بهذا؛ لأن الله -عز وجل- قال بعده: **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا}** فيكون مهلهم قليلًا أي أن الدنيا هي مدة يسيرة بالنسبة للآخرة، متاع قليل وبعد ذلك يرتحلون إلى دار الآخرة، مهلهم قليلًا فتأتي الآخرة فيعذبون بهذا العذاب **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا}** هذا التفسير أحسن من تفسير من قال بأنه في يوم بدر، والله أعلم.

{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا} قال: وهي القيود، والأنكال جمع نِكل بكسر النون، وهي القيود التي توضع بالأيدي والأرجل، فهؤلاء يقيدون في النار، وهذا التقييد حينما يقيدون لا يقيدون خشية الهرب، فهم لا يستطيعون الهرب، وإنما يكون ذلك من جهة الإذلال والإهانة لهؤلاء، فإن وضع القيد باليد والرجل لا شك أن فيه من الإذلال والإهانة والأذى النفسي ما فيه، وهو شيء مشاهد، تجد الرجل المتنعم المترف الذي يأمر وينهى بعد مدة يوضع الحديد في يده فهذا لا شك أنه إهانة وإذلال مع أن الذي فعل ذلك له يعلم أنه لن يفر، ومثل هذا لن يفر، فلم يعتد على الهرب وطرق التخلص وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: {وَجَحِيمًا} وهي السعير المضطرمة، {وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} [سورة المزمل:١٣] قال ابن عباس: يَنْشَب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج.

"وطعامًا ذا غصة" يدخل فيه ما قاله السلف: الزقوم وما إلى ذلك، ذا غصة بمعنى أنه يغص به آكله فيتوقف فلا ينزل ولا يخرج أو يرتفع، يتوقف فيكون شجناً في حلوقهم.

والأنكال بعضهم فسرها بألوان العذاب، قال: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا} أي: أنواعًا من العذاب ننكل بهم.

والجحيم قال: **هي السعير المضطرمة**، وبعضهم يقول: كل نار في مَهْواة فهي جحيم، وعلى كلٍّ الجحيم اسم

من أسماء النار، أعاذنا الله وإياكم منها.

{وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} [سورة المزمل:١٣-١٤] أي تزلزل، {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا}.

يقول: {وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} "يوم" تتعلق بماذا مما ذكر من الألفاظ قبلها؟

يمكن أن تعود إلى ذرني، أي ذرني يوم ترجف الأرض والجبال، وهذا فيه بُعد وإن قال به بعض المفسرين، ويمكن أن تكون متعلقة بالاستقرار المفهوم من قوله: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا} إن لدينا في الدنيا أو يوم ترجف الأرض والجبال؟ يوم ترجف الأرض والجبال وهذا بعد النفخة الثانية، متى ترجف الأرض والجبال؟ في النفخة الثانية على المشهور من أقوال المفسرين والراجح، وهناك من قال: إنها النفخة الأولى، ولكن هذا قول بعيد.

وبعضهم يقول غير هذا.

ويمكن أن يكون التقدير: إن لدينا عذابًا واقعًا يوم ترجف الأرض والجبال، والمقصود من هذا كله هل قوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ} متعلق بما قبله أي ذرني يوم ترجف، لدينا عذابًا أليمًا واقعًا يوم ترجف، أو أنه جملة جديدة يخبر الله -عز وجل- فيها عن أهوال يوم القيامة ابتدأ بكلام جديد {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ} أي واذكر يوم ترجف الأرض مثلًا؟ هذا هو المقصود.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} هنا سؤال: ترجف الأرض تضطرب وتتحرك بقوة والجبال أليست ملتصقة بالأرض؟ فإذا رجفت الأرض اقتضى ذلك أن كل ما عليها يضطرب ويتحرك، كالخاتم في الأصبع إذا حركت الأصبع ما الذي يحصل للخاتم؟ يتحرك فإذا رجفت الأرض رجفت الجبال فلماذا خص الجبال؟

يمكن أن يقال: خصّ الجبال؛ لأن الاضطراب في الأجسام العلوية المشاهدة أعظم أو أكثر وقعًا أو وضوحًا من حركة الأرض، الجبال هذه الرواسي الضخمة المرتفعة تتحرك أمام الناس، ترجف الأرض والجبال وهذا يكون في النفخة الثانية.

وقوله تعالى: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا} أي: تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء.

الكثيب معروف، وهو كثيب الرمل فتكون الجبال بدلاً من كونها صخوراً قوية صلبة تكون كثيبًا مهيلًا، رملًا مجتمعًا يقال له: الكثيب الكثير.

عرفتُ ديارَ زينبَ بالكثيبِ *** ....

مهيلًا يعني إذا حركت أسفله انهال أعلاه، بمعنى أنه رمل سائل، السائل ليس معناه السائل الذي فيه رطوبة، وإنما رمل يتهايل، إذا حركت بدأ بالنزول، يتهاوى، غير متلبد وثابت، فهذا هو الكثيب المهيل، تتفتت.

ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض {قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا} [سورة طه:١٠٦-١٠٧] أي واديًا، {وَلَا أَمْتًا} أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المزمل من الآية (١٥) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قال المؤلف: ثم قال تعالى مخاطبًا لكفار قريش -والمراد سائر الناس-: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} [سورة المزمل:١٥].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول المؤلف -رحمه الله-: **ثم قال تعالى مخاطبًا لكفار قريش،** وذلك أنْ أخَذَه من قوله: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ}**، وحينما نزلت هذه السورة نزلت في مكة في أوائل ما نزل، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاطب قريشاً، فبهذا الاعتبار قال من قال من المفسرين ومنهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن هذا الخطاب موجه لقريش، وبعضهم قال: هو موجه للعرب باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حين بعث كان في جزيرة العرب، فكان الذين سمعوا دعوته في أول الأمر هم العرب، فيكون المعنى إنا أرسلنا إليكم أيها العرب بعد الجهالة والانقطاع من الوحي والرسالة **{رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ}**، ولما كانت بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- عامة للأحمر والأسود قال الحافظ ابن كثير وغيره: والمراد سائر الناس، أي: أنه وجه الخطاب بهذه الصيغة التي يخاطب بها قريشاً أو العرب باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرهم، ولما كانت دعوته عامة فالخطاب يشمل الجميع، جميع الناس؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل إليهم جميعًا، فالعرب والعجم كلهم داخلون في أمة الدعوة من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، والأدلة على ذلك كثيرة: ((ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي من هذه الأمة ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[1]، فهذا وجه قول ابن كثير إنه خاطب قريشاً، ومن قالوا: الخطاب للعرب قالوا: لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث من العرب فكان بين أظهرهم، كما قالوا في قريش، وبعضهم قال: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ}** أي إلى الناس عامة، ولا منافاة بين هذه الأقاويل الثلاثة، فكلهم متفقون على أن الخطاب يشمل جميع الناس؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- شاهدٌ عليهم وأرسل إليهم **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ}** فكل ذلك متحقق في سائر الناس من العرب والعجم.

{رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} أي بأعمالكم، {كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} [سورة المزمل:١٥].

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (١٥٣).

كما قال الله –عز وجل–: **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}** [سورة الفتح:٨] يعني يا محمد –عليه الصلاة والسلام– **{شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}**، وقال في حق هذه الأمة: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** عدولًا خيارًا؛ **{لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [سورة البقرة:١٤٣] فالنبي –صلى الله عليه وسلم– شهيد على هذه الأمة، يشهد عليها بالبلاغ، أنه بلغ، **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}** [سورة الأعراف:٦-٧].

وهو شاهد عليهم –عليه الصلاة والسلام– بأعمالهم، كما أن هذه الأمة تشهد على سائر الأمم بما بلغها بطريق الوحي عن بعث الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وما قالوا لقومهم، وما أجابوهم، فهذا طريق ثابت محقق لا شك فيه، ومن ثَمّ فإنهم يشهدون وإن لم يكونوا عاصروا تلك الأمة.

{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [سورة المزمل:١٥-١٦]، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري: {أَخْذًا وَبِيلًا} [سورة المزمل:١٦] أي شديدًا.

قوله: **{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}** يمكن أن يكون المراد بذلك التشبيه، من كاف التشبيه وهي بمعنى مثل، ويمكن أن تكون دالة على التحقيق أرسلنا إليكم رسولًا كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا، فأرسله إرسالًا محققًا، **{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}**، وهنا سؤال وهو أن الله أرسل إلى سائر الأمم الأنبياء والمرسلين، فلماذا خص فرعون؟ لماذا لم يقل: كما أرسلنا إلى الأمم رسلًا؟

يمكن أن يقال: لأن ذلك مشتهر عند المخاطبين، ما أتاهم برسول لم يسمعوا خبره، وإنما جاءهم برسول قد عرفوا خبره وما وقع له مع فرعون، فخطابهم بما يعرفون، وهذا كثير في القرآن؛ ولهذا لما خاطبهم الله –عز وجل– عن دلائل القدرة والتوحيد قال: **{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ}** [سورة الغاشية:١٧-١٨] إلخ، ولم يخاطبهم بأمور قد تكون أعظم من الإبل كالفيل مثلًا، خلْق الفيل أضخم وأكبر من خلق البعير، ولكن الذي ذكره العلماء أن هؤلاء إنما عرفوا البعير ولم يعرفوا الفيل، والقرآن قد خاطب قوماً من الأميين فخطابهم بما يعهدون؛ ولهذا لما ذكر نعيم الجنة ما ذكر لهم ألواناً من الفواكه المستلذة الموجودة في غير بلادهم، هناك فواكه جيدة للغاية في مشارق الأرض ومغاربها، لكن ذكر الله لهم النخيل والأعناب؛ لأنها الموجودة في بيئتهم، وذكر لهم الطلح المنضود، فعلى التفسير المشهور للطلح هو شجر الطلح المعروف في بلاد الحجاز وفي السراة وغيرها، هذا الشجر المليء بالشوك الذي لا يكاد ينتفع به، فذكره الله –عز وجل– في نعيم الجنة، ووجّهه بعض أهل العلم بأن بلاد العرب لما كانت حارة حرارة تصلي الطير لما كانت بهذه المثابة فهم أحوج ما يكونون إلى الظل، ويعرفون قيمته وقدره ذكر لهم الطلح؛ لأنه الشجر الذي كانوا يستظلون به، ولا يستطيع الإنسان أن يجلس تحته حتى يقوم بعملية تنظيف المكان من الشوك ولن يسلم، فذكر لهم طلحًا غير معهود لديهم، فهو منضود قد قطع شوكه، وهذا لا يعهدوه، وإذا سمعوا هذا حركوا أنفسهم، مثلما أن العطشان إذا رأى الماء ولو في الدعاية تحركت نفسه، وإذا رأى الطعامَ الجائعُ تحركت نفسه، وهكذا.

أو أن الطلح هو الموز، منضود أي أنه مركوم بعضه على بعض، فالمقصود أن القرآن خاطبهم بما يعهدون، وهذه القضية تراعى في التفسير، لا تُحمل معاني القرآن على أشياء غير معهودة للعرب، ففي قوله: **{فَمَن**

{يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [سورة الزلزلة:٧] لا تحمل الذرة على الذرة التي في اصطلاح المعاصرين، إنما صغار النمل فقط.

{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} يعني يمكن أن يكون ذكر لهم مثالًا، وهذا جواب آخر لسؤال: لماذا خص فرعون؟، فيمكن أن يذكر لهم مثالًا بارزًا لأعلى درجات العتو والجبروت والكبرياء والظلم والعدوان حتى ادعى الربوبية، ذكر لهم أبرز صورة في الطغيان على الله -عز وجل- وعلى الخلق.

جواب ثالث: يمكن أن يقال: وذرني والمكذبين المترفين أولي النعمة، وفرعون يعتبر رأساً في هؤلاء من أولي النعمة من المتنعمين المترفين، ماذا كان يقول عن موسى -صلى الله عليه وسلم-؟، يحتقره {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} [سورة الزخرف:٥٢]، وكان يقول لهم: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [سورة الزخرف:٥١] تحت قصوره، فبناها في مواضع لا يحتاج معها إلى نقل الماء ثم يكون حولها من الجمال والمناظر والبهاء، تجري الأنهار من تحت قصوره فلا شك أن هذا يتنافس عليه الناس إلى اليوم.

{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [سورة المزمل:١٦] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري: {أَخْذًا وَبِيلًا} أي شديدًا.

الوبيل: الشديد الغليظ الثقيل، على هذا تدور معاني هذه الكلمة، وربما تكاد تنحصر فيها أو ترجع إليها، {أَخْذًا وَبِيلًا} أي شديدًا، ومنه الوابل {أَصَابَهَا وَابِلٌ} [سورة البقرة:٢٦٥]، والوابل هو المطر الشديد، فهذه الأرض من جودتها أنها يكفيها الطلّ، {فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ} يسير جدًا من المطر أو الرطوبة أو الرذاذ أو نحو هذا يكفيها فتخرج ألوان الثمار، فهذا هو الوابل المطر الشديد، وكذلك أيضًا يقال: المرعى الوبيل هو المرعى المستلذ الذي تستلذه الماشية والدواب، ولكنه مرعى وخيم فتهلك، مرعى وبيل يعني يحتوي على نباتات سامة فيهلك الدواب.

أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [سورة النازعات:٢٥]، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران، ويُروى عن ابن عباس ومجاهد، وقوله تعالى: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [سورة المزمل:١٧] يحتمل أن يكون "يومًا" معمولًا لـــ "تتقون" كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود.

إذا قلنا: إنه يكون معمولًا لــ "تتقون" -إذا سمعت هذا مثلًا أو قرأته في التفسير- فإن هذا يعني أن يركب الكلام هكذا: فكيف تتقون يومًا يجعل الولدان شيبًا؟، وجملة {إِن كَفَرْتُمْ} صارت جملة اعتراضية، فيكون تركيب الكلام: فكيف تتقون يومًا؟، واليوم لا يُتقى؛ لأنه ظرف زمان، وإنما يُتقى ما فيه من الأهوال والأوجال، كيف تتقون أهوال يوم يجعل الولدان شيبًا؟، هذا إذا قلنا: إنه معمول لـــ "تتقون"، وإذا قلنا: إنه يرجع إلى "كفرتم" يصير المعنى: فكيف تتقون إن كفرتم يومًا، كفروا ذلك اليوم، كيف تتقون العذاب؟، كيف تكونون محققين للتقوى إن كفرتم يومًا، إن كفرتم الآخرة، إن كفرتم يوم القيامة؟، لكن هذا التقدير الثاني بعيد، وليس هو المتبادر من الآية، فيمكن أن يكون المعنى هكذا -والله أعلم-: فكيف تتقون يومًا إن كفرتم يجعل الولدان شيبًا؟، فتكون إن كفرتم جملة معترضة.

كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس يومًا يجعل الولدان شيبًا.

كيف تتقون يومًا هذا التفسير هو الأجود، ويدل عليه قراءة ابن مسعود فكيف تخافون؛ لأن كلمة تتقون أصلها أن تجعل بينك وبين الشيء وقاية، والسلف كما قلنا لكم يفسرون بالمقارب، وهو فسره بالخوف، بمعنى أن الخوف ليس هو حقيقة معنى التقوى، فقال: **فكيف تخافون أيها الناس يومًا**، والقراءة الأحادية كقراءة ابن مسعود هذه لا يُقرأ بها، ليست متواترة، وإنما القراءة الأحادية يستفاد منها ثلاث فوائد:

- تفسر بها القراءة المتواترة كما هنا.
- ويعمل بها في اللغة.
- ويحتج بها في الأحكام تنزيلًا منزلة الحديث النبوي إذا صح الإسناد، فهذه القراءة الأحادية ترجح أحد القولين، والآية –هذه قاعدة أخرى– قد تحتمل معنيين فأكثر ويكون في الآية أو في خارجها قرينة تدل على رجحان أحدهما فتحمل الآية عليه كما هنا، الآن هذا مرجح من الخارج ليس من الآية، قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس إن كفرتم يومًا.

ويحتمل أن يكون معمولًا لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم الأمان أو كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟.

هذا لأن أهل الإيمان هم من فزع يومئذ آمنون **{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ}** [سورة الأنبياء:١٠٣]، وأما الكفار فإنهم يكونون في غاية الخوف والهلع والذلّ والمهانة.

وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم.

كيف تكونون محققين للتقوى وأنتم تكفرون بيوم القيامة؟ كيف تتقون إن كفرتم يومًا، إن كفرتم يوم القيامة؟، هذا بعيد.

بعض أهل العلم يرى أن المحمل الثاني قبيح، ولا يليق حمل الآية عليه؛ لأنه مستنكر بعيد، لكن عبارة ابن كثير لطيفة يقول: والمعنى الأول أولى.

ومعنى قوله: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار.

الوليد هو حديث العهد بالولادة، من كان حديث العهد بالولادة يقال له: وليد، يعني الصغير جدًا، والصغير جدًا أبعد ما يكون عن الشيب، فإن الشيب لا يحصل عادة إلا بعد التقدم في العمر، وعلى أحد الوجهين في التفسير **{وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ}** [سورة فاطر:٣٧]، يعني الشيب، فإذا لاح الشيب في مفرق الإنسان فمعنى ذلك أنه ينبغي عليه أن يحسب حساباته؛ لأنه بدأ في العد التنازلي، وذلك أن الشيب إنما يحصل لضعف الحرارة الغريزية، وإنما يحصل ذلك بعد ضعف الإنسان، فهذه التحولات التي تحصل في باطن الإنسان يحصل من جرائها العجز والضعف، فتتغير أحواله، فيبدأ لون الجلد يتغير، تذهب النضارة، ويذهب رونق الشباب، ويبدأ يضعف سمعه، وربما بصره، وتضعف قواه، ومداركه حتى لربما صار لا يعقل، يرجع إلى أرذل العمر، وإذا اكتمل الإنسان واستوى في الأربعين بعد ذلك تبدأ القضية تنعكس، هو في طور نمو منذ أن ولد إلى الأربعين، ثم بعد ذلك

يبدأ طور النزول بحسب ما يمتد به العمر، هكذا هذه الحياة، فالشيب إنما ينتج عادة ويحصل بسبب ما ذكرتُ، ومن ثَمّ ما الذي يحصل لهذا الصغير الوليد بسبب شدة الخوف إذا قلنا: إن هذا على ظاهره وهو الذي ينبغي أن يحمل عليه، يتحول الوليد إلى ما ذكر الله من الوصف، يكون شائبًا، رأسه أبيض من شدة الفزع، وذلك أن الإنسان في حالة الفزع الشديد، والخوف الشديد تخور قواه فلا تحمله أقدامه، تخونه فلا يستطيع المشي والحركة، والذهاب والانطلاق من شدة الخوف، هذا معروف، يجثو الإنسان في مكانه إذا اشتد الخوف وعظم، ويحصل له أيضًا من الأمور الباطنة أشياء كثيرة جدًا، فتنطفئ حرارته الغريزية، فينعكس أثر ذلك فيعود الشعر الأسود إلى حال من البياض، والعلماء يشرحون كيف يتحول الشعر الأسود إلى أبيض، ويربطون ذلك بالضعف الذي يحصل في داخل الإنسان؛ ولذلك يقولون: من كثرت همومه وأحزانه كان الشيب إليه أسرع؛ لأن الشيب يحصل بسبب هذا الضعف الذي يكون في باطنه، إذا وجدت عنده الهموم والآلام الكثيرة أو الفزع، وهذا مشهور عند العامة إلى اليوم، **{يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}** [سورة المزمل:١٧] وكما قيل:

والهمُّ يَخترمُ الجسيمَ نحافةً ***

يعني البدين يصبح نحيفًا، أيًّا كان هذا سبب هذا الهم، وكما قيل في الحبّ:

وللحبِّ آياتٌ تَبين في الفتى *** شحوبٌ وتَعْرَى من يديه الأصابعُ

تبدو عظام الأصابع في اليد بعدما كانت ممتلئة، وللحب آيات تَبِين في وجه الفتى، وجهه شاحب، وتعرى من يديه الأصابع، فلا يكون عليها اللحم، ولا تكون ممتلئة، فيكون شاحبًا نحيلًا، وكذلك الهموم والآلام

والهمُّ يَخترمُ الجسيمَ نحافةً *** ويُشيب ناصيةَ الصبيِّ ويُهرمُ

هذا هو الشاهد، كما قال الآخر:

دهتنا أمورٌ تُشيب الوليدَ *** ويَخذل فيها الصديقَ الصديقُ

وسمعت أو قرأت في الحرب التي كانت في البوسنة أشياء عجيبة تشبه هذا، كان الصرب يأخذون الإنسان وهو حي ويضعونه في رافعة ثم يضعون قدرًا كبيرًا مليئًا بالزيت المغلي يغلي على النار ثم يدخلونه فيه، ثم يخرجونه تلوح عظامه، ليس فيه إلا العظام تلوح، ليس فيه جلد ولا لحم ولا عصب، يدخلونه حيًا فيخرج عظاماً، فبعض من شاهد هذا أو بعض من أُخرج أيضًا من الأنقاض ومن الأطفال الصغار شوهد أن أحدهم كان قد تحول رأسه إلى بياض من شدة الهول.

وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة[٢].

---

٢ – رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة الحج، برقم (٣١٦٨)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح قد روي من غير وجه عن عمران بن حصين عن النبي –صلى الله عليه وسلم".

النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا أن الله يقول لآدم: يا آدم أخرجْ بعث النار، وهذا العدد من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون معناه أنه ما ينجو إلا واحد فعند ذلك يشيب الوليد، {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} [سورة الحج:٢] في ذلك الموقف.

{السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ} [سورة المزمل:١٨] قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله.

كما قال الله -عز وجل-: {إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [سورة الإنفطار:١] تنفطر السماء وتتكدر النجوم، وتتفتت الجبال ثم بعد ذلك تكون هباء منبثًا، وتسير الجبال، {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [سورة التكوير:٣]، كل هذه الأمور، {السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ} أي بسبب هوله، فالسماء على قوتها ومتانتها تنفطر وتتشقق لشدة هول ذلك اليوم، فالسماء منفطر به، ويمكن أن تكون "الباء" هنا بمعنى "في" أي السماء منفطر فيه، أي في ذلك اليوم، وهذا الذي يسميه أهل اللغة بالتضمين، حروف الجر هذه تتناوب، فرعون يقول: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [سورة طه:٧١] يدخلهم في وسط الجذع؟ يحفر الجذع ويدخلهم فيه؟ أو على جذوع النخل؟، على جذوع النخل، لأصلبنكم على جذوع النخل، فـــ "في" تأتي بمعنى "على" فتتناوب، ولا شك أن هذا يدل على أنه من شدة ربطهم في الجذع كأنهم يُدخَلون فيه، وهكذا في أمثلة كثيرة تقول مثلًا: نحن نمشي في الأرض، {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [سورة الأنعام:٣٨] يعني على الأرض، نحن نمشي في الأرض يعني نمشي على الأرض.

وقوله تعالى: {كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [سورة المزمل:١٨] أي كان وعد هذا اليوم مفعولًا أي واقعًا لا محالة وكائنًا لا محيد عنه.

هذا يحتمل ما ذُكر، ويحتمل معنى آخر، "كان وعده" "الهاء" هذه يمكن أن تكون عائدة إلى اليوم فكيف تتقون يومًا؛ لأنه هو المحدث عنه، والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} وعد ذلك اليوم كان مفعولًا، فتكون "الهاء" هنا عائدة إلى اليوم، فيكون من باب إضافة المصدر -وعد يعد وعدًا- إلى المفعول "الهاء"، ويحتمل أن يكون المعنى كان وعده أي الله، من الذي وعد بهذا اليوم؟ الله، فيكون من باب إضافة المصدر "وعْد" إلى الفاعل "الهاء"، قد يقال: الله ما له ذكر قبلها، والأصل أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، فيقال: هذا لا إشكال فيه؛ لأنه يمكن أن يعود الضمير إلى غير مذكور اكتفاء بالعلم به، السامع يعلم أن الذي وعد باليوم الآخر هو الله -عز وجل- {كَانَ وَعْدُهُ} أي: وَعَدَ اللهُ -عز وجل- بمجيئ ذلك اليوم، {أَتَى أَمْرُ اللّهِ} [سورة النحل:١]، بمعنى سيأتي أمر الله لكنه عبر بالماضي لتحقق الوقوع {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}، {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ} [سورة غافر:٥٩] فالله وعد به، "كان وعده" أي وعد الله وقوع ذلك.

هذه السورة تذكرة لأولي الألباب:

يقول تعالى: {إِنَّ هَذِهِ} [سورة المزمل:١٩] أي السورة، {تَذْكِرَةٌ} أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} أي ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيده...

قوله: {إِنَّ هَذِهِ} يمكن أن يرجع إلى السورة، فتكون الإشارة المقصود بها السورة، إن هذه السورة، ويمكن أن يعود إلى ما مضى من آيات السورة، ويمكن أن يعود إلى جميع آيات القرآن أي إن هذه الآيات تذكرة،

ويمكن أن يكون ذلك عائدًا إلى الوعيد الذي ذكره قبله من قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا}** [سورة المزمل:١٢-١٤] إلى هنا، يقول: هذه تذكرة أي أهوال ذلك اليوم وما يحصل فيه من الأوجال.

ولهذا قال تعالى: {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} أي ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيده في السورة الأخرى: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [سورة الإنسان:٣٠].

{فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} يقول: نحن وعظناكم وحذرناكم فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا، فمن شاء طلب سبيل النجاة، وذلك بسلوك طريق العبودية لله -عز وجل-، من شاء أن ينجو فعليه أن يبحث عن المخرج، ويسلك الطريق الموصلة إلى النجاة، **{فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}** طبعًا هذه المشيئة مقيدة كما في الآية الأخرى: **{وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ}** وهي تدل على إثبات المشيئة للعبد، ونحن لا نتوسع في الفوائد، وإلا ففي هذه الآيات من العبر والمواعظ والفوائد الشيء الكثير.

نسخ وجوب قيام الليل وذكر أعذاره:

ثم قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ} [سورة المزمل:٢٠] أي: تارة هكذا وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم.

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ} وفي قراءة أخرى متواترة {أدنى من ثلثي الليل ونصفِهِ وثلثِهِ} فعلى القراءة الأولى "أدنى من ثلثي الليل ونصفَهُ وثلثَهُ" كيف يكون المعنى؟ يكون المعنى هكذا: أن الله -عز وجل- يعلم أن نبيه -صلى الله عليه وسلم- يقوم أدنى أي أقل من ثلثي الليل ويقوم نصفَه، فنصفه مفعول به منصوب، أدنى من ثلثي الليل، ويقوم نصفَه، ويقوم ثلثَه، هذا على قراءة النصب، يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل، وتقوم نصفَه، وتقوم ثلثَه، وعلى قراءة الجر: يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفِهِ وثلثِهِ، فيكون المعنى: تقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه، وأقل من ثلثه، لماذا يحصل ذلك؟

لأنه يصعب أن يضبط مقادير الليل؛ لهذا قال: **{عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}** وليس عندهم ساعات، ويختلف هذا من الشتاء إلى الصيف، وكون الإنسان يرقب ساعات الليل بالنظر إلى علامات في السماء مثلًا أمر يصعب على الإنسان خاصة من يصلي في داخل بيته، تصور بين كل مدة وأخرى يخرج وينظر، في الشتاء وفي الصيف تارة يكون الليل طويلاً، وتارة يكون الليل قصيراً، فينكشف الأمر عن أن الإنسان قد لا يقوم إلى حد الثلث، بل يقوم أقل من الثلث، لا يضبط التقدير، وتارة يزيد إلى النصف، وتارة يبلغ الثلثين، وتارة أقل، وكذلك بحسب ما يعتور الإنسان من الأمور العارضة كالسفر، والمرض، والتعب، وغلبة النوم وما أشبه ذلك مما يعتري الإنسان مع ثقل قيام الليل أصلًا، فأنزل الله -عز وجل- في هذه الآيات التخفيف أي تارة هكذا، وتارة هكذا.

والقراءتان إذا كان لكل واحدة معنى، وهنا كل قراءة لها معنى أو المعنى واحد؟ فماذا نقول هنا؟، ما هي القاعدة؟، إذا كان في الآية أكثر من قراءة، وكل قراءة لها معنى فالقراءتان تنزل منزلة الآيتين، فصارت

المعاني: أنه يقوم أدنى -أقل- من ثلثي الليل، ويقوم نصفه ويقوم ثلثه، والقراءة الأخرى: يقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من النصف، وأقل من الثلث، وكل ذلك واقع فلا إشكال.

ولهذا قال: {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا، {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ} أي: الفرض الذي أوجبه عليكم، {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر.

في قوله: {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} يوجد احتمال غير ما ذُكر، يعني هنا قال: يقدر الليل والنهار أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا، يعني أن الله -عز وجل- يجعل ذلك متفاوتًا {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [سورة الزمر:٥] على أحد التفسيرات فيها، فالحاصل أن ذلك يتفاوت في الشتاء والصيف وما إلى ذلك، وتحتمل معنى آخر {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} بمعنى أنه يعلم مقاديرها على الحقيقة، علم أن لن تحصوه أي أنتم لا تطيقون هذا على وجه الدقة في صيفكم وشتائكم وكل أحوالكم في الثلث والنصف وكذا، فيقع منكم مثل هذا النقص والزيادة.

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان...

التوبة أصلها الرجوع، تاب عن كذا أي رجع عنه، {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي: عاد عليكم بالتخفيف، أو عاد عليكم بالعفو والمسامحة ولم يؤاخذكم بسبب هذا التفاوت في قيامكم، وما يحصل فيه من النقص في بعض الحالات أو الأحيان {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}.

{وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} [سورة الإسراء:١١٠]، أي بقراءتك، {وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا}.

الآن {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} سبق أن بعض أهل العلم يقول: هذا هو الناسخ، ومن قالوا: إنه يجب قيام قدر من الليل ولو أن يوتر الإنسان أخذوه من هذا، قالوا: أولاً قال: {قُمِ اللَّيْلَ} [سورة المزمل:٢]، ثم لما خفف قال: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ} فما صار النسخ بالكلية لوجوب قيام الليل بل إلى المقدار السابق، والأرجح أنه نسخ الوجوب عمومًا وبقي مستحبًا، والخلاف معروف في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- هل هو واجب في حقه أو أن ذلك أيضًا نسخ؟، فهم بعض أهل العلم من قوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} [سورة الإسراء:٧٩] أنه ليس بواجب، ليس بفريضة عليه -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم قال: هو فرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- وليس بواجب على الأمة، ولكن الخلاف هل هو واجب على النبي -صلى الله عليه وسلم- أو لا؟ لكن هل يترتب عليه شيء بالنسبة إلينا نحن؟ هل ينبني عليه عمل؟ لا، ولذلك تضييع الوقت به والانشغال به ليس من صلب العلم، والمسائل التي لا ينبني عليها عمل بالنسبة إلينا لسنا مطالبين بالاشتغال بها، وإضاعة الأوقات بمناقشتها وبحثها وما أشبه ذلك؛ لأننا مطالبون بالعمل، فهذه تعتبر بحسبها، تارة تكون من مُلَح العلم كما يقول الشاطبي -رحمه الله-، وتارة تكون من فضول العلم، ما لها فائدة، ولا يترتب على هذا بالنسبة إلينا شيء.

وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} [سورة الإسراء:١١٠] أي بقراءتك {وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا}.

الصلاة تارة يعبر عنها بالقراءة كما قال الله -عز وجل-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [سورة الإسراء:٧٨] المراد بقرآن الفجر القراءة في الصلاة قطعًا، أي في صلاة الفجر، "مشهودًا" أي تشهده الملائكة، هذا معنى قرآن الفجر وليس التلاوة بالمصحف، أو في غير المصحف، وهنا قاعدة وهي أنه إذا عبر عن العبادة بجزء منها فإن ذلك يدل على آكديّته، وأنه ركن فيها، والقراءة في الصلاة ركن، والقدر المجزئ من ذلك هو قراءة سورة الفاتحة.

وقوله تعالى: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ} أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله.

{وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ} الضرب في الأرض بمعنى المشي فيها والتقلب للتجارات وطلب الرزق، هذا معنى الضرب في الأرض، {لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ} [سورة البقرة:٢٧٣] أي: لا يستطيعون تقلبًا فيها وانتقالًا ومشيًا وسفرًا من أجل التجارة، هذا الضرب في الأرض.

هذه الآيات نزلت قبل فرض الجهاد، بل قبل شرع الجهاد، الجهاد شرع على مراحل، كان ذلك في المدينة فكان هذا قبله، ومع ذلك ذكره الله -عز وجل-: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ} كانوا في مكة في وقت استضعاف، وفقراء.

وهذه الآية بل السورة كلها مكية، ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة، ولهذا قال تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} أي فقوموا بما تيسر عليكم منه، وقوله تعالى: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النُّصب والمَخْرج لم تبين إلا بالمدينة، والله أعلم.**

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} السورة مكية فهذا يدل على أن الزكاة كانت واجبة في مكة، وهذا هو الأقرب لكن من غير تقدير، ومن غير تحديد للأموال التي تجب فيها الزكاة، فكان الإنسان يخرج في وقت الحصاد مثلًا شيئًا غير مقدر يعطيه الفقراء، {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام:١٤١] فهذا هو الأقرب ولا داعي لحمله على محامل بعيدة {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} كأن يقال: هذه مدنية، أو أن هذه تتحدث عن أمر لم يقع، مما نزل قبل شرع الحكم، أو أن الزكاة تفسر بمعنى آخر، هذا كله لا حاجة إليه، الزكاة فرض أصلها في مكة، {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} هنا سؤال وهو: لماذا أمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكثيرًا ما يقرن بين الصلاة والزكاة في الأمر بهما أو وعيد من تركهما أو الثناء على أهلهما أو نحو ذلك، {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [سورة النساء:١٦٢]؟ العبادات مالية وبدنية، ورأس العبادات المالية هو الزكاة، ورأس العبادات البدنية هو الصلاة، هذا جواب.

والجواب الثاني: أن سعادة العبد دائرة بين أمرين: حسن الصلة بالله ورأس ذلك الصلاة، والإحسان إلى الخلق ورأس ذلك يكون بالزكاة.

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولًا من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لذلك الرجل: ((خمس صلوات في اليوم والليلة)) قال: هل عليّ غيرها؟ قال: ((لا، إلا أن تطوع))[3].

هذا يدل على أن قيام الليل غير واجب، فالذي سأل النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– عما افترض الله عليه أجابه دون أن يذكر له قيام الليل، والعلماء يحتجون كثيرًا بهذا الحديث على أشياء كثيرة، فمما يقولون: إنه لا تجب تحية المسجد مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((فلا يجلس حتى يصلي ركعتين))[4]، ومع ذلك الجمهور يقولون: إنها غير واجبة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال للرجل أيضًا في يوم الجمعة وهو يخطب: ((أصليت ركعتين؟))[5]، قال: لا، فأمره أن يقوم ويصلي مع أهمية الاستماع والإنصات للخطبة، فالجمهور يقولون: إنها غير واجبة لماذا؟ أوضح حديث يستدلون به هو هذا: هل عليّ غيرها؟ قال: ((لا، إلا أن تطوع))، كذلك صلاة العيدين، والخسوف، والكسوف، والاستسقاء، يقول كثير من أهل العلم: غير واجبة، ولكن الذين يقولون بوجوب بعض ذلك يقولون: ذكر له النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي يتكرر في اليوم والليلة، والمقصود أن الاستدلال بهذا أوضحَ بأن قيام الليل غير واجب؛ لأنه كل ليلة، إذا قالوا: إن العيد يحصل في السنة مرة، وإنما قصد له ما يتكرر فهذا لا يقال في قيام الليل، فهذا من أوضح الأدلة على عدم وجوب قيام الليل.

وليس المقصود بقيام الليل أن ينام الإنسان ثم يقوم، لا، المقصود أن يصلي في الليل في أوله أو في أوسطه أو في آخره، وأدنى ذلك أن يوتر، وكلام أهل العلم معروف في هذا، والحنفية يسمون الوتر واجباً، والإمام أحمد يقول عمن واظب على ترك الوتر: إنه رجل سوء ترد شهادته.

الأمر بالتصدق وعمل الخير:

وقوله تعالى: {وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [سورة البقرة:٢٤٥]، وقوله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟))، قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال:

---

٣ – رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، برقم (٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، برقم (١١).

٤ – رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، برقم (١١٦٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكراهة الجلوس قبل صلاتهما وأنها مشروعة في جميع الأوقات، برقم (٧١٤).

٥ – رواه البخاري بلفظ: ((أصليت يا فلان؟))، قال: لا، قال: ((قم فاركع ركعتين))، كتاب الجمعة، باب إذا رأى الإمام رجلا جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين، برقم (٩٣٠).

((اعلموا ما تقولون))، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: ((إنما مال أحدكم ما قدم، ومال وارثه ما أخر))[٦]، ورواه البخاري، ثم قال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

آخر تفسير سورة المزمل، ولله الحمد والمنة.

٦ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب ما قدم من ماله فهو له، برقم (٦٤٤٢)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٣٣٠)، وقال محققه الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المدثر من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–: تفسير سورة المدثر وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه سورة المدثر، والتدثر معناه: أن يجعل على جسده الدِّثار، والدِّثار هو ما يكون فوق الشِّعار، والفرق بين الدِّثار والشِّعار أن الشعار هو الذي يلي الجسد من الملابس، والدثار هو الذي يكون فوقه، فمثل البشت يقال له –على هذا–: دِثار، والملحفة يقال لها: دِثار، فما يلي الجسد يقال له: شِعار، وما فوقه يقال له: دثار، **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}** [سورة المدثر:١] أي: يا أيها المتدثر، فسميت السورة بما ذكر من هذه اللفظة في صدرها، كما سميت سورة المزمل بالمزمل؛ لأجل هذا الأمر: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}** [سورة المزمل:١]، والسورة تارة تسمى بأولها مثل الحمد –الفاتحة–، وتارة تسمى بلفظة وردت فيها مثل المزمل، البقرة، وتارة تسمى السورة بمعنى تحدثت عنه مثل سورة الإخلاص مع أن لفظة الإخلاص لم ترد فيها، لكن لمّا كان الموضوع هو موضوع الإخلاص وتتحدث السورة –"قل هو الله أحد"– عن قضية الإخلاص سميت بذلك.

الموضوع الذي تدور حوله سورة المدثر يمكن أن يقال: هو الإنذار، من جهة أمْر النبي –صلى الله عليه وسلم– به، ومن جهة ما فيها من الآيات التي تنذر الكافرين والمكذبين بالنار والعذاب، هذا موضوع السورة الأساسي، وهذه السورة من السور النازلة بمكة، حتى إن بعض أهل العلم نقل عليه الإجماع، ومن العجائب أن بعض من نقل الإجماع قال: هي مكية بالإجماع، وقال مقاتل: إلا قوله –تبارك وتعالى–: **{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً}** [سورة المدثر:٣١]، وهنا سؤالان تعرف الجواب عنهما بما سبق –فيما مر علينا–، حينما يقول: بالإجماع وفي السطر الذي يليه يقول: وقال مقاتل، هل هذه غفلة من قائله؟، وهل هذا بالنسبة إليك أمر يوجب الإنكار، ولربما الاستعجال في الحكم على المؤلف أنه غير دقيق أو أنه لا يتفطن لما كتب في السطر قبله، مع أن الإجماع هو اتفاق علماء الأمة بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– على أمر ديني أو على أي أمر كان؟، فبعض أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري يعبر بالإجماع ويقصد به قول الأكثر، وكثير من العلماء الذين ينقلون الإجماع في تفاسيرهم ينقلونه عن ابن جرير، فلا يُستغرب، يقول: بالإجماع، ويقصد قول الأكثر، ثم يقول: وقال مقاتل كذا، لا غرابة، كما يفعل ابن جرير –رحمه الله.

السؤال الثاني: مقاتل يقول: إلا قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً} إلى أن قال: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} إلى آخره، ترى ما هو الأمر الذي دعاه لأن يقول: إنها مدنية؟.

{الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} إذا فسر بالمنافقين كما فسره بعض السلف فالنفاق ما وجد إلا في المدينة، ثم فيها حديث عن أهل الكتاب: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، فبعض العلماء إذا لاح له شيء من ذلك مما كان في المدينة بادر فحكم بأن هذه الآية تستثنى من عموم السورة، والأصل أن السورة المكية جميع الآيات فيها مكية، والسورة المدنية جميع الآيات مدنية إلا لدليل يجب الرجوع إليه، أما الاستثناءات بناء على هذه الأمور التي تلوح من جهة المعنى فهذا فيه نظر.

أول آيات نزلت بعد "اقرأ":

ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه...

حديث جابر هذا المخرج في الصحيحين فيه إشكال معروف؛ لأن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- سئل: "أي القرآن نزل أولاً؟ فقال: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، فقيل له: أو "اقرأ"؟" فذكر هذا الحديث، فهذا الحديث بسياقه التام يتضمن الجواب عن الإشكال الوارد في أن المشهور كما ورد في حديث عائشة -رضي الله عنها-: "أن أول ما نزل هو "اقرأ".

نزل ثم حصل انقطاع بعد ذلك، هذه فترة الوحي، إذن لم يكن هذا أول ما نزل، هناك شيء نزل قبله ثم حصل الانقطاع، هذه أول واحدة.

((فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء...)).

الجواب الثاني من نفس الحديث، ((فإذا الملك الذي جاءني بحراء)) إذن سبق له نزول قبل هذا، نزل بـــ "اقرأ".

((قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجَئِثتُ منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني، فزملوني، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ} إلى: {فَاهْجُرْ} [سورة المدثر:١-٥]**))، قال أبو سلمة: "والرُّجز الأوثان، ثم حَمِيَ الوحيُ وتَتَابع"[١].**

هذا لفظ البخاري، وهذا السياق يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: ((فإذا الملك الذي جاءني بحراء))، وهو جبريل حين أتاه بقوله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [سورة العلق:١-٥]**، ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا.**

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٣٨).

هو هذا؛ لأن أقوى الأقوال أن أول ما نزل سورة اقرأ، ويليه المدثر لهذا الحديث المخرج في الصحيحين، ولكن هذا الحديث يتضمن الجواب عن هذا الإشكال في ثلاثة مواضع منه.

ويزاد في الجواب على هذا أن يقال: مهما يكن من أمر فيمكن أن يقال: إن رأي جابر –رضي الله عنه– هذا اجتهاد إن كان يقصد أنها أول ما نزل مطلقاً، ويمكن أن يكون المراد أول ما نزل من السور الكاملة، أول سورة كاملة نزلت، لكن لا شك أن أول ما طرق سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– من القرآن "اقرأ" إلى قوله: **{عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**.

روى الإمام أحمد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثتُ منه فَرَقًا، حتى هَوَيت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}، ثم حمِيَ الوحي وتتابع))[٢].

يعني: بعض العلماء أخذ من: ((زملوني زملوني)) أنه سبب لنزول سورة المزمل، وهذا فيه نظر، وإنما هو سبب لنزول سورة المدثر، ثم تأملوا في هذه الرواية والتي قبلها قال فيها: ((فأنزل الله تعالى..)) إذن فسبب النزول هو أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أصابه خوف وفزع لما رأى الملك ثانية، ثم بعد ذلك قال لأهله: زملوني، دثروني، فنزلت: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**.

ويمكن أن يقال –والله أعلم–: لا يبعد أن تكون سورة المزمل نزلت لمثل هذا، وهو أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لربما أصابه فزع أيضاً قبل أن يأنس بالملك، فإن هذه المرة الثانية التي ينزل فيها ومع ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يصيبه هذا الخوف الشديد.

وهذه العبارة في سبب النزول –من حضر في مقدمة أصول التفسير– تعد من الصيغ الصريحة في هذا ؛ لأن أسباب النزول على قسمين: قسم صريح كأن يقول: فأنزل الله، يذكر واقعة ويقول: فأنزل الله، أو سؤال ثم يقول: فنزلت الآية، فأنزل الله كذا، أو سبب نزول الآية كذا، هذا يسمى الصريح ويُحتاج إليه في الجمع بين الروايات الواردة في أسباب النزول، يُحتاج إليه جداً، لربما يمر بنا –إن شاء الله– فيما بعد بعض السور ونطبق عملياً كيف نجمع الروايات المتعددة في أسباب النزول، ما الذي يستبعد، وما الذي يبقى، وكيف يجمع بينها، هذه الصيغة: فأنزل الله، أو سبب نزول هذه الآية، هذه تعد من الصيغ الصريحة.

أما الثانية: نزلت هذه الآية في كذا، فهذا قد يكون تفسيراً فقط، مثلما قال ابن عمر لما كان في السوق فرأى الناس يغلقون حوانيتهم لما أذن ويذهبون إلى المسجد، قال: في هؤلاء نزلت: **{رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ}** [سورة النور:٣٧]، يقصد أنهم ممن يدخل في معناها وتصدق عليهم هذه الآية، وإلا لا شك أنها لم تنزل فيهم، لم يكونوا سبب النزول، أولائك الذين أشار إليهم ابن عمر ليسوا هم سبب النزول.

---

٢ – رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، برقم (٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، برقم (١٦١)، وأحمد في مسنده، برقم (١٤٤٨٣).

خرجاه من حديث الزهري به.

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل سحر يُؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فحزنَ وقَنعَ رأسه وتَدَثَّر، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [سورة المدثر:١-٧].

عندنا روايتان في سبب نزول سورة المدثر:

الأولى: أنها نزلت بسبب فزع النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى الملك ثانية.

والثانية: أنها نزلت بسبب ما بلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول المشركين فيه، فما هو سبب النزول؟ كثير من الناس في مثل هذه المقامات يقول: سبب النزول فيه قولان، فيه روايتان، ويذكرهما ويمضي، ويبقى الناس في تساؤل وحيرة: ما هو سبب النزول الحقيقي؟

إذا تعددت عندنا الروايات أول ما ننظر في الصحة والثبوت، فنستبعد الضعيف، فإذا أبقينا الروايات الصحيحة النظر الثاني ننظر إلى الصيغة، فنبعد الروايات غير الصريحة من جهة صيغة سبب النزول، يعني التي فيها: نزلت هذه الآية في كذا، هذه نبعدها لأنها غالباً ما تكون من قبيل التفسير، ما هي سبب نزول، فنبعدها، فالروايات الصريحة هذا مثال عليها روايات صحيحة صريحة، فهذا النظر الثاني، الصحة ثم الصيغة.

ثم ننظر ثالثاً إلى وقت النزول، فإن رأينا أن الوقت متقارب حكمنا بأن الآية نزلت بعد هذه الوقائع جميعاً، ولا إشكال، حصل كذا وفي نفس الوقت حصل كذا فنزلت، وإذا كان هناك تباعد بيّن في الوقت حكمنا بأن السورة نزلت مرتين أو الآية نزلت مرتين، وبعض أهل العلم في مثل هذا يلجأ إلى الترجيح، فهنا ماذا نقول؟ عندنا نقول: إن هذه السورة لا مانع بأن تكون نزلت بعد السببين، رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الملك فتدثر، وفي تلك الأثناء أيضاً بلغه ما قاله المشركون عنه، يمكن أن يقال هذا، مع أنه لا يخلو من إشكال قوي، قد يلجئنا إلى الترجيح.

وقوله تعالى: {قُمْ فَأَنْذِرْ} أي: شمر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

نُبئ النبي -صلى الله عليه وسلم- بـــ "اقرأ"، وأرسل بالمدثر -أول ما نزل-، وهذا أحد الأجوبة على قول من قال واحتج برواية جابر: إن أول سورة نزلت هي سورة المدثر، أحد الأجوبة أن يقال: إن أول ما نزل في الرسالة المدثر، وأول ما نزل في النبوة "اقرأ".

فالمقصود هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُمر بالإنذار، فهذا أول ما نزل عليه في الرسالة، والإنذار حقيقته الإعلام المقترن بالتهديد، الإعلام وحده لا يقال له: إنذار، لما تقول: جاء زيد، ليس هذا بإنذار إلا إذا

كان يتضمن شيئاً على أن زيداً هذا جاء ليعاقبهم، فتقول: جاء زيد، يعني: أنت تهددهم تقول: يا ويلكم جاءكم ما تخافون، فالإنذار الإعلام المقترن بالتهديد، وبهذا يكون كل إنذار إعلاماً وليس كل إعلام إنذاراً.

{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أي: عظم.

وقال العوفي عن ابن عباس: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} يعني لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية.

وقال محمد بن سيرين: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: وكان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} وقلبك ونيتك فطهر.

وقال محمد بن كعب القرظي، والحسن البصري: وخُلُقَك فَحسّن.

هذه الروايات التي بين أيديكم، **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، جعلها في المكسب، وآخر يقول: لا تلبسها على معصية، وآخر يقول: اغسلها بالماء، وآخر يقول: طهر قلبك ونيتك، وآخر يقول: طهر أخلاقك، فكل هذه المعاني معروفة عن السلف -رضي الله عنهم- ومعروفة في اللغة، أما في اللغة فكثير، الآن الجمهور يقولون: إن ذلك يحمل على تطهير القلب والعمل والنفس والنية والأخلاق والأعمال والسلوك، هذا قول الجمهور، والمعنى: أصْلِح النية والعمل والخلق وطهر نفسك؛ لأن أخلاق الإنسان تشتمل على أحواله اشتمال الثياب على النفس، كما قال بعضهم:

ويحيى لا يُلام بسوءِ خُلقٍ *** ويحيى طاهرُ الأثوابِ حُرُّ

ومجانبة الأصنام والأوثان وما عليه أهل الجاهلية من الشرك والعمل الفاسد بجميع صوره وأشكاله هو داخل في هذا المعنى، ومن ذلك مجانبة الأعمال والأخلاق السيئة كالغدر والخيانة، فالغادر دنِسُ النفس، وكذلك يكون قد لبس ثيابه على معصية وفجور، كما قال غيلان بن سلمة:

وإنِّي بحمدِ اللهِ لا ثوبَ غادرٍ *** لبستُ ولا مِن خزيةٍ أتقنَّعُ

وآخر يقول حينما شرع في الإحرام:

لا هُمَّ إنّ عامرَ بنَ جَهمِ *** أوْذَمَ حجًّا في ثيابٍ دُسْمِ

أي: أوجب على نفسه حجا وهو متلطخ بالخطايا، فالعرب تكني بالثياب عن النفس، ومنه قول الشماخ:

رموْها بأثوابٍ خفافٍ فلا تَرى *** لها شَبهاً إلا النعامَ المُنفَّرا

هذه يقصد بها الإبل ركبوا عليها فلسرعتها في السير رموها بثياب: يعني بنفوس أو بأبدان، خفاف: خفيفة.

وآخر يقول لمحبوبته:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنسُلِ

يعني: نفسي من نفسك، ومنه قول عنترة:

فشككتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه *** ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

يعني: شككت ثيابه بالرمح، يعني: شككت نفسه، قتلته، وليس المقصود هو ما يلبسه من الثوب، والناس يقولون لمن كان صالحاً تقياً نقياً موصوفاً بالصدق والوفاء: إنه طاهر الثياب، ومنه قول امرئ القيس:

ثيابُ بني عوفٍ طَهارَى نقيةٌ***

يعني: لا يغدرون.

ومنهم من حمل ذلك على النساء، والنساء يكنّى عنهن بالثياب وبالأُزُر، ومنه قول البراء بن معروف للنبي -صلى الله عليه وسلم- في بيعة العقبة قال له: نمنعك مما نمنع منه أُزُرَنا، يعني نساءنا، ومن ذلك قول الشاعر:

ألَا أبلغْ أبا حفصٍ رسولاً *** فدًى لكَ مِن أخي ثقةٍ إزاري

يعني: أفديك بأهلي، والله -عز وجل- يقول عن النساء: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ}** [سورة البقرة:١٨٧] فيكنى عنهن باللباس، ومنهم من فسر اللباس باللباس فقال: ليكن من مكسب طيب، أو قصِّر ثيابك، أو اغسل ثيابك بالماء ونقها من النجاسات، وما إلى ذلك من العبارات التي عبروا بها، وقد أتيت على عامتها، وما لم أذكره فهو عائد إليها، فهذا العرض لمثل هذه العبارات التي يذكرونها نريد الآن أن نخرج بنتيجة فنقول: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** طهر نفسك، طهر أخلاقك، لا تلبس ثيابك على معصية، لا تلبس ثيابك على غدرة، فهذه الأقوال حينما ننظر إليها -حينما نختبرها- نجد أنها ترجع إلى معنيين اثنين:

الأول: الحمل على الظاهر.

والثاني: حمل اللفظ أو الكلام على غير ظاهره، فالظاهر المتبادر الثياب، ما يلبسه الإنسان، هذا حمل له على الظاهر، انظر الآن نريد أن نفرع جميع الأقوال على هذا ونبين ما كان تفسيراً باللازم وما كان تفسيراً بالمطابق، حتى نعرف كيف ترجع الأقوال إلى هذين القولين.

فصار عندنا مما يرجع إلى الظاهر -مِن حملِ الثياب على المعنى الظاهر المتبادر- الثياب التي يلبسها الإنسان: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}**، فمنهم من حمل ذلك على الطهارة المعروفة مباشرة بمعنى: اغسلها بالماء، ومنهم من قال: قصِّر ثيابك، فتقصير الثياب لا يسمى في اللغة تطهير الثياب، فهذا يرجع إلى التفسير باللازم، قلنا: إن السلف يفسرون تارة بالمطابق وتارة باللازم وتارة بالإشارة وغير ذلك، فهذا يقال له: تفسير باللازم؛ لأن ذلك يقتضي أن ترتفع عن النجاسات، الثوب إذا كان يخط الأرض فهو مظنة أن تعلق به النجاسة، فإذا أردنا أن نطهره فهذا يقتضي رفع الثوب، أن يكون الثوب قصيراً، فهو تفسير ليس بالمطابق وإنما باللازم، والتفسير بالمطابق وباللازم وما إلى ذلك كله من قبيل المنطوق، اجعلها من كسب طيب: حملها على الثياب لكن قضية الكسب في الثياب هي قضية معنوية وليست حسية، اجعلها من كسب طيب، فحمل الثياب على ظاهرها ولكنه حمل الطهارة على أمر معنوي، **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** اجعلها من كسب طيب، هذا مَن حملَه على الظاهر، ومن حمله على غير الظاهر يقول: النفس والقلب والعمل والخلق وما إلى ذلك من المعاني، **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** أي: طهر قلبك وعملك وخلقك وسلوكك، ولا تلبس ثيابك على معصية الله -عز وجل-، ولا تشتمل على شيء من ذلك، ولا تغدر، ولا يقع منك ما لا يليق، فكن على أحسن الأحوال في عملك الظاهر والباطن، تجنب معصية الله -عز وجل- ظاهراً وباطناً، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وإن تفرقت عباراتهم من

قائل: النفس، ومن قائل: القلب، وما إلى ذلك، فهذا تفسير بغير الظاهر، ومن قال: إن الثياب المقصود بها الأهل فهو تفسير بغير الظاهر، والله -عز وجل- قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} [سورة الأحزاب:٣٣]، الرجز والرجس بمعنى الدنس، وهو كل قذر يتنزه منه الإنسان، يقال له: رجز ورجس، ثم قال: {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} ، فهذا التطهير بحيث إن شرفهم يكون محفوظاً، وتكون أعراضهم محفوظة، فلا يلحقهم دنس من هذه الجهة، ولا يقعون في ريبة، ولا يدخلون مداخل الريب.

الآن صار عندنا مجموع هذه الأقوال عائد إلى هذين القولين، فيقال: يعبر بالقرآن بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وبالتالي قوله: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} يدخل فيه ما دلت عليه الآية دلالة أولية بظاهرها، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، فهو أمر بتطهير الثياب من النجاسات، وهذا الأمر متوجه أيضاً إلى المطالبة بما لا يحصل ذلك إلا به كالتقصير -تقصير الثوب-؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو ما لا يتم الوجوب إلا به فهو واجب، ويدخل في معنى الآية تطهير النفس، والعمل، والأخلاق، فلا يشتمل الإنسان على معصية، ولا يقارف ما لا يليق، ولا يكون خائناً أو غادراً أو نحو ذلك.

{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} طهر نفسك وطهر عملك وطهر خلقك، ويمكن أن يقال: وطهر بيتك وأهلك فلا يقعون في مواقع الريب، فيكون كل هذه المعاني، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنها محمولة على النفس والخلق والعمل وما أشبه ذلك، والحافظ ابن القيم قال: تحمل على أعم معانيها، وبهذه الطريقة لسنا بحاجة إلى الترجيح في مثل هذه الآية.

وقوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَالرُّجْزَ} وهو الأصنام فاهجر، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وابن زيد: إنها الأوثان، وقال إبراهيم، والضحاك: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} أي: اترك المعصية.

وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب:١]، {وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢].

الفرق بين الأوثان والأصنام بعض أهل العلم يقول: الأصنام والأوثان معناها واحد، ومن فرّق قال: إن الصنم يكون مصوراً بصورة إنسان مثلاً، والوثن ما عبد من حجر وشجر وقماش أو أي شيء.

وقوله: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}، الرُّجز ويقال: الرِّجز: يدخل فيه الأصنام والأوثان، ومعصية الله -عز وجل- وأعمال الجاهلية، كل عمل من أعمالهم يدخل في ذلك، {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} ولذلك لا يوافقهم في شيء من أعيادهم ولا أعمالهم ولا تلبيتهم، ولا ما كانوا يتعاطونه من المنكرات والفجور التي تدخل فيما يتعلق بعبادتهم وما يتعلق بأخلاقهم وأعمالهم وفجورهم وانحرافاتهم، كل هذا أُمر بمجانبته بالكلية، يعني: هذه حقيقة الهجر، لا يكون بينه وبين هذه الأعمال المشينة صلة بوجه من الوجوه، مقاطع لها، وإلا ما يكون هجرها.

وقوله تعالى: {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} قال ابن عباس: لا تُعطِ العطية تلتمس أكثر منها.

وقال خصيف عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} قال: لا تَضْعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب: تضعف.

تمنن: تضعف، لا تمنن يمكن أن يفسر بالمن، والمن معروف، {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى} [سورة البقرة:٢٦٢]، فالمن بالعطية هو لون من إيذاء المُعطَى، فيذكر ذلك عنده أو عند غيره ويؤذيه به ويذكّره، أو يطالبه بأمور في مقابل ذلك، هذا كله من المن، فهنا الله –عز وجل– يقول: {وَلا تَمْنُنْ} فيمكن أن يفسر بهذا المعنى المتبادر الظاهر، لكن يحمل على معنى لا تمنن أي: لا تُعطِ العطية تنتظر أكثر منها، كما قال ابن عباس، يعطي إنساناً هدية، يرسل إليه طعاماً ثم هو ينتظر الجزاء من هذا الإنسان بأفضل مما أعطاه، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} فتكون بهذا تطلب أكثر مما أعطيت، فلا يكون عطاؤك لله وإنما لأجل المكافأة على هذه العطية، فهذا معنى، وهذا التفسير لا ينافي ظاهر الآية، ويمكن أن يكون المعنى أيضاً {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} أي: لا تستعظم عملك، لا تستكثر عملك أن تعمل بطاعة الله –عز وجل– وتتزود منها، وهذا عائد إلى معنى تَضْعف؛ لأنه بذلك يضعف ويقعد عن العمل، فكثير من الناس يقول: أنا أحسن من غيري، أنا أعمل كذا وأعمل كذا وأنا على الأقل أفعل كذا وأفعل كذا، فهذا الشعور عنده والاعتداد بالعمل بهذه الطريقة يؤدي به إلى الزهد في الازدياد من طاعة الله –عز وجل– والمبادرة إلى الخيرات فيقعد عنها ويتثبط ويسلي نفسه أنه يعمل، وعنده أعمال صالحة، وعلى الأقل هو يقوم بخيرات وطاعات وبر وما أشبه ذلك، فيُقعد نفسه عن العمل الصالح، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} يعظم في عينه عمله فيزهده ذلك في المزيد، ويمكن أيضاً أن يكون ذلك من جهة الإدلاء على الله –عز وجل–، يدلي على ربه بعمله –والعياذ بالله–، ويرى أنه قدّم، كأن الله ينتفع بعمل العبد، فيدلي بهذا العمل على ربه، ولا شك أن هذا من أسباب حبوط الأعمال، فكأنه يمن على الله –عز وجل– بالعمل الصالح، كما جاء أولائك الأعراب وقالوا: آمنا بك وكذبك الناس، آمنا من غير قتال، كأنهم يقولون: احمد ربك يا محمد، الناس قاتلوك ونحن ما قاتلناك، نحن استجبنا لك، وهم المستفيدون، فيمنون على النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال الله –عز وجل–: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ} [سورة الحجرات:١٧]، فهذا من المن، فيكون ذلك باعثاً على الزهد عن الازدياد في الخير والطاعة والعمل الصالح، وفي نفس الوقت هو لون من استكثار العمل، فكل هذه المعاني متوافقة إما من جهة التلازم، وإما من جهة أن العبارات مختلفة، ولكن المؤدى واحد، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}، فإذا فسر بتضعف فهذا أشبه ما يكون بالتفسير باللازم وإن قيل في اللغة: إن تمنن بمعنى تضعف، والعلم عند الله –عز وجل–، وهكذا تفسير من فسرها بأن المراد {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} يعني: لا تمنن على الناس بالنبوة والرسالة، والعلم وما أعطاك الله وحباك من الوحي تطلب الكثرة في الدنيا من العَرَض بحيث إنك تطلب من الناس مقابلاً على ذلك، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} يعني: تكون طالباً للكثرة، وهذا أبعد هذه المعاني، ولكن لا شك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– منهي عن هذا، والله –عز وجل– أمره أن يقول: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص:٨٦]، فالدعوة مجاناً، لا يؤخذ عليها مقابل، والكلمة إذا أُخذ عليها مقابل انطفأ نورها، وذهب رونقها وتأثيرها، وصارت الكلمات تخرج من فم قائلها ميتة لا ينتفع بها، وليس لها تأثير، ولا تصل إلى القلوب، فالدعوة تبذل مجاناً، ولا يصح للدعاة أن يضعوا أنفسهم في مواضع التهم والمواضع غير اللائقة فيتّجر بدعوته، هذا موجود في بعض بلاد العجم، ربما نُبتلى بشيء من هذا، في بعض البلادِ في كل مسجد صندوق، هذا الصندوق للمسجد صندوق تبرعات

تقوم عليه إدارة، فإذا أرادوا أن يستضيفوا أحداً من هؤلاء الوعاظ يعطونه مقابلاً على ذلك –مبالغ-، أحياناً إذا كان هذا الشخص مشهوراً –وهم بلاد فقيرة- لربما أعطوه على الكلمة في المسجد أكثر من ألفي دولار، على كلمة في المسجد وهم فقراء، أكبر رأس في البلد ما يأخذ ربع هذا المبلغ في الشهر، فهذه تجارة بالدعوة. فالمقصود **{وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}** هذا يفيد أن الإنسان ينبغي عليه أن لا يستكثر من عمله، وأن ينظر إلى هذا العمل أنه لا شيء بالنسبة إلى عظمة الله وإنعامه وإفضاله عليه، فهو لا يقوم بالعبودية على الوجه المطلوب، فهو دائماً في ازدياد وتشمير واتهام للنفس بالتقصير، أما الذي ينظر بتلك النظرة ويرى أنه قد عمل أفضل من غيره، وأن له أعمالاً، وله مآثر، وله خدمات، وله برامج دعوية، ويقدم، وكذا وكذا، فهذا مظنة أن يقعد عن الازدياد في العمل الصالح، ويزهد في الخير، وكلما عرض عليه مجال من مجالات الخير صدقة، أو أمر بمعروف أو غير هذا قال: الحمد لله أنا عندي ما يكفيني، لكن أهل الدنيا لا يقولون هذا إذا عُرض عليهم شيء من الطمع في دنياهم.

وقول ابن عباس الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا: **{وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}** لا تعطِ العطية تلتمس أكثر منها، بعض أهل العلم يقول: هذا مختص بالنبي –صلى الله عليه وسلم-، على هذا التفسير، أي: أنه ليس له ذلك لمقامه ورفيع درجته –عليه الصلاة والسلام-، لكن غيره هل يجوز له أو ما يجوز من جهة الجواز والتحريم؟ يجوز أن تهدي إنساناً هدية وأن تنتظر منه أن يقابلك بأكثر منها، وهذا يفعله بعض ضعاف النفوس، ففعلهم ليس بحرام، لا يقال: إنه حرام، يهديه هدية، يقدم له سيارة هدية، يقدم له ساعة هدية، وهو يعلم أنه سيقابله بالملايين مقابل هذه الهدية، فهذا لا يقال: إنه حرام لكنه ليس لائقاً لأهل الكمالات، والنبي –صلى الله عليه وسلم- هو أكمل البشر، فلا يصلح له مثل ذلك؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: إن ذلك مختص بالنبي –صلى الله عليه وسلم-، ولا مانع أن يكون هذا الخطاب موجهاً إلى الجميع من جهة التأديب والتربية وحمل الناس على مكارم الأخلاق، حتى إن بعضهم عُرف أنه إن صنع له أحد وليمة كافأه بالمال، فكان بعضهم يتلاعب، وهذا معروف، فكان بعضهم إذا دعاه أكثَرَ من الرءوس، يعني: إذا كان قد ذبح له مثلاً عشرة من الغنم يضع ثلاثين رأساً؛ لأن مَن مع ذاك يعدون الرءوس، فيعطيه مقابل هذا، فهذا لا يليق، ومثل هذا لا يستحق أن تجاب دعوته.

وقوله تعالى: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك –عز وجل-، قاله مجاهد، وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله تعالى.

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} عام يدخل فيه ما يتعلق بما قبله وبغيره، **{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** أي ترتجي الثواب منه، وتصبر على طاعته، ولا تزهد في شيء من ذلك، هذا من جهة المناسبة، **{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** المناسبة أي: وجه الارتباط بين الآية والتي بعدها، وإذا أردنا أن نربط بين قوله تعالى: **{وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ}**، وقوله بعدها: **{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** نقول: فروِّض نفسك على طلب الثواب من الله –عز وجل- وانتظار عائدته عليك بالأجر والعوض، واصبر على طاعته ولا تزهد في شيء من ذلك بحيث تتثبط عنها اعتداداً ببعض العمل الذي عملته، فهذا وجه الارتباط.

التذكير بيوم القيامة:

هنا قضية الإنذار، أمره بالإنذار ينذر من الآخرة ومن عذاب الله -عز وجل-، ثم بدأ يصف شيئاً من ذلك.

وقوله تعالى: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدثر:٨-١٠] قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد: {النَّاقُورِ} الصور، قال مجاهد: هو كهيئة القرن.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط بن محمد، عن مُطَرِّف، عن عطية العوفي، عن ابن عباس: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ))، فقال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا))[٣].

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به.

يعني أصل النقر هو الصوت، فهذه الآلة التي يصدر منها هذا الصوت العظيم المفزع الهائل: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} قيل لها ناقور، وهي القرن أو على هيئة القرن، كما جاء في هذا الحديث، {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} والمقصود بذلك النفخة، فإذاً نفخة الصعق تكون للأحياء فقط، الأموات قد ماتوا، تكون للأحياء فيموت الجميع إلا ما شاء الله، فنفخة البعث هي التي يرون فيها الأهوال والأوجال والفزع، يبعثر من في القبور.

وقوله تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} أي: شديد.

{عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} أي: غير سهل عليهم.

يعني هنا سؤال وهو أنه قال: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} كان يكفي أن يقال: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} عسير معناها غير يسير، فما وجه ذلك؟

الوجه أن ذلك اليوم يخفف على أهل الإيمان، ويهون عليهم، ويقصر وقته بالنسبة إليهم، مع أنه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فهو يوم عسير على الكافرين؛ لأن الله قال عن أهل الإيمان: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [سورة النمل:٨٩]، فهذا العسر بيّنه بما بعده، قال: {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} ولو لم يقل ذلك لفهم منه أنه عسير على الجميع، وهكذا إذا تأملت المواضع التي يتوهم أنها مكررة في القرآن تجد أنه لا تكرار، والقاعدة: أن التأسيس مقدم على التوكيد، فمهما أمكن حمل الآية الثانية على معنى صحيح جديد فهو أولى من دعوى أنها تأكيد، كما قال هنا بعض المفسرين: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} هذا تأكيد لما قبله، فكل حرف ولفظة في القرآن إنما جاءت لتقرير معنى، وليس في القرآن تطويل لا حاجة إليه؛ ولذلك انظر إلى الأمثلة التي قد تشكل على كثير من الناس: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} [سورة الكافرون:١-٤] أربع آيات، فهذا ليس من التكرار في شيء، {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} لست مقيماً على دينكم وعبادتكم، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شأن الصور، برقم (٢٤٣١)، وأحمد في المسند، برقم (٣٠٠٨)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية وهو ابن سعد بن جُنادة العَوْفي"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٧٩).

أَعْبُدُ} أنتم على غير ديني، لستم على الدين الذي أنا عليه، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} في المستقبل لن أتحول إلى دينكم، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} لن تتحولوا إلى ديني، فـــ {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون:٦] ما فيها تكرار، كل آية لها معنى، ولو الإنسان نظر إليها بهذا الاعتبار وفهمها لما أشكلت عليه، بعض الناس يستشكلون هذا، ولربما يصعب عليهم الحفظ، وأوضح من هذا: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:١٣] تتكرر كثيراً، وليس هذا من التكرار في شيء، كل آية منها تتعلق بالتي قبلها، {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} [سورة الرحمن:٦٦]، ثم يقول: {فَبِأَيِّ آلَاء} يعني مما ذكر، {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاء} [سورة الرحمن:٦٨-٦٩] عائدة للتي قبلها، وهكذا، بل حتى قوله -تبارك وتعالى-: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٣-٤٤] قال بعد ذلك: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} يتبين نعيم الجنة بذكر ضده، وبضدها تتبين الأشياء، وقل مثل ذلك في قوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:١٥]، وقول الجن المتكرر: ما من شيء بآلائك ربنا نكذب فلك الحمد، يقصدون كل ما ذكر، كلما قُرئ عليهم شيء قالوا مثل هذا الكلام، لا يقصدون تكرار هذه الجملة تكراراً مجرداً، فهذا يقال في تكرار الآيات، وأما تكرار القصص قصة موسى -صلى الله عليه وسلم- تكررت في مواضع كثيرة جداً، وهكذا قصة شعيب وصالح ولوط وهود -عليهم الصلاة والسلام-، تكررت، فليس ذلك من التكرار في شيء، وذلك أنه يورد من القصة في كل مناسبة ما يصلح لهذه المناسبة، إذا كان في مقام بيان تأييد الرسل جاء من ذلك بما يصلح لهذا المعنى، وإذا كان في مقام بيان عاقبة الظالمين مثلاً، أو الصبر، أو العلو في الأرض، أو نحو هذا جاء من القصة بما يناسب ذلك؛ ولذلك تجدها متفاوتة في هذه المواضع، فهذا هو السبب، فليس ذلك من تكرار القصص المحض، فإذا عرفت هذا الجواب صرت لست بحاجة إلى الجواب الذي يذكره بعض أهل العلم: أن القرآن نزل في مدد -في ثلاث وعشرين سنة- والوفود تأتي والناس يسمعون، ويذهب هذا بهذه القصة، فيكون هؤلاء وقع لهم قصة موسى في السورة الفلانية وحفظوها وذهبوا بها إلى بلادهم، وهؤلاء وقعت لهم في الآية الفلانية، وهؤلاء وقعت لهم في الآية الفلانية، فكلٌّ حصل له طرف من ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المدثر من الآية (١١) إلى الآية (٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-:

تهديد من قال: إن القرآن سحر:

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليه، وجعلها من قول البشر، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [سورة المدثر:١١] أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى، {مَالًا مَّمْدُودًا} [سورة المدثر:١٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله، وعلى تفسير ابن كثير أي: خرج من بطن أمه منفرداً ليس له ولد وليس له مال، ليس له سلطان، ليس له تجارة، ليس له جاه، خرج من بطن أمه لوحده حتى من غير ثياب، هذا المتحدَّث عنه الوليد بن المغيرة مثلاً خلقته وحده، ذرني ومن خلقت وحيداً أي: خرج من بطن أمه وحيداً، دعني ومن خلقته لوحده ليس معه أحد من أعوانه وأنصاره وأولاده وغير ذلك، وقد يكون المعنى **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ}**، أي: خلقته لوحدي لا يشاركني أحد، ويحتمل أن يكون المراد: ذرني وحدي معه، أي: يكون "وحيداً" يرجع إلى الياء، يعني: ذرني وحدي معه أتكفل به وأؤدبه، اتركني معه، لا شأن لك به، أنا أتولى عذابه، فيكون المعنى: ذرني وحدي معه فأنا أكفيكه، فإذا كانت "وحيداً" عائدة إلى الياء تغير المعنى، أما إذا كانت عائدة للضمير المستتر-الهاء-: ذرني ومن خلقته وحيداً فيكون المعنى: خرج من بطن أمه لا مال ولا ولد، المعنى الثاني: ذرني وحدي، خلّني معه، لا تدخل بيننا، أنا أتولاه، هذا يقال في التهديد، فالآية تحتمل المعنيين، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الأقرب للسياق وظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-، وعليه يكون المعنى هكذا: ذرني ومن خلقته منفرداً وحده، حيث خرج من بطن أمه لا مال ولا ولد، ثم أعطيته وأوليته، **{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا}** [سورة المدثر:١٢-١٣]، خرج من بطن أمه ما معه شيء، ثم تتابعت عليه النعم والعطايا والإفضال وهكذا، والله تعالى أعلم، والذي يدل على هذا ظاهر السياق، فرجحنا بالسياق أحد القولين على الآخر، أحد الاحتمالين.

{مَالًا مَّمْدُودًا} أي: واسعاً كثيراً.

{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا} واسعاً كثيراً، ويحتمل أيضاً أن يكون مالاً ممدوداً أي: ممتداً واسعاً، مالاً ممتداً، هذا تحتمله الآية، ويحتمل أن يكون المعنى {مَالًا مَّمْدُودًا} أي: تأتيه الزيادة شيئاً فشيئاً، ممدوداً: تقول: أعطِنا المدد، مثل ما يقول الصوفية: مدد، يعني: يطلبون المدد، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا} أي: يُمد شيئاً بعد شيء، يأتيه الإمداد –الزيادة–، ما هو بالمال المتوقف، أُعطِي شيئاً من المال ثم انتهى، لا، وإنما يزداد هذا المال، يمد شيئاً بعد شيء، فهو في زيادة دائمة، جعلت له مالاً ممدوداً، لكن أيهما أقرب إلى الظاهر المتبادر؟ جعلت له مالاً يأتيه المدد شيئاً فشيئاً، أو جعلت له مالاً ممدوداً أي: ممتداً واسعاً، فكان له من الأموال من الأرقّاء والبهائم –إبل وغيرها–، والتجارات الأخرى الشيء الكثير، له مال كثير ممتد واسع، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا} الآية تحتمل المعنيين، وهذا هو الأقرب، وهو لا يعارض القول الأول أيضاً، فهذا المال الواسع هو يتكاثر ويزداد.

وجعل له {وَبَنِينَ شُهُودًا} قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضوراً عنده لا يسافرون في التجارات، بل مَواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتَملَّى بهم، وكانوا –فيما ذكره السدي، وأبو مالك، وعاصم...

{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا} الحافظ ابن كثير هنا حملها على أحسن المحامل، وأقربها وهو {وَبَنِينَ شُهُودًا} أي: أنهم حضور عنده، وهذه من نعم الله –عز وجل– على الإنسان؛ لأنه لا يكتمل نعيمه وأنسه وراحته وسعادته إلا بحال الاجتماع بأحبته لاسيما الأولاد؛ لأنه يتقوى بهم ويعتز بهم، وإنما يذل الإنسان ويشعر بالأسى والعجز والضعف –لاسيما قديماً حينما كان الناس يعتمدون على العشيرة– إذا كان لا ولد له، كان الرجل يفتخر بكثرة الأولاد، فالله –عز وجل– يمتن عليه بأن هؤلاء الأولاد لم يتشتتوا في البلاد، في كل بلد واحد وهو جالس لوحده يترقب مجيئهم أو سماع أخبارهم، أبداً، وإنما هم حضور عنده، وإنما يحصل هذا عادة لأهل الغنى والسعة، لا يحتاج أولادهم أن يتفرقوا في الأرض من أجل البحث عن لقمة العيش، فهذا لا شك أنه يكون من المنغصات، وهذا الرجل الله –عز وجل– قد أعطاه وأولاه حتى صار أولاده لا يحتاجون إلى السفر والتنقل من أجل طلب الرزق، فهم حضور عنده، وبهذا يكتمل سروره وبهجته وراحته ولذته وأنسه، وتحتمل الآية معانيَ أُخر ذكرها بعض السلف {وَبَنِينَ شُهُودًا} يعني: إذا ذُكر ذُكروا معه، ولكن الأول أجود من هذا، إذا ذُكر ذُكروا معه هذا لا يتبادر إلى الذهن من الآية، أو المعنى الثالث الذي ذكره بعضهم وتحتمله الآية: {وَبَنِينَ شُهُودًا} أي: يباشرون ما يباشره ويحضرون معه ويقومون بما يقوم به من الأعمال، هذه المعاني وغيرها مما ذكر أجودها وأقواها وأقربها إلى ظاهر القرآن: {وَبَنِينَ شُهُودًا} أي: أنهم حضور عنده ليسوا بُعداء قد فرقتهم الأسفار من أجل طلب لقمة العيش.

أشدُّ الغمِّ عندي في سُرورٍ *** تَيقّنَ عنهُ صاحِبُهُ انْتِقالا

ولهذا قيل في الموت:

لا أرى الموتَ يَسبقُ الموتَ شيءٌ *** نغّص الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

فالحاصل أن الناس إذا اجتمعوا اكتمل أنسهم وراحتهم ولذتهم، وإذا حصل لهم الافتراق بعد ذلك حصل لهم التنغيص، سواء كان هذا الافتراق بسبب الموت يفرقهم، أو كان بسبب عوارض الدنيا وأشغالها وما أشبه ذلك، وبهذا نعرف أن كون أولاد الإنسان عنده بين يديه من النعم التي تستوجب الشكر.

وكانوا -فيما ذكره السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة- ثلاثة عشر، وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة، وهذا أبلغ في النعمة..

كانوا عشرة، وقيل: كانوا خمسة ولدوا في الطائف وسبعة ولدوا في مكة، فيكون المجموع اثني عشر، أسلم منهم ثلاثة، قيل: هشام وعمارة وخالد، وقيل غير ذلك.

وهذا أبلغ في النعمة، وهو إقامتهم عنده.

{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا} [سورة المدثر:١٤]، أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

التمهيد أصله التوطئة؛ ولذلك يقال في مقدمة الكتاب في أوله يقال: تمهيد أو يقال: توطئة، يعني: أنه يجعل كالمدخل إلى الكتاب يمهد له ببيان بعض ما يحتاج إلى بيانه في أوله.

{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا} أي: أن الله وطأ له ما يحتاج إليه من المال والرياش، وما يحتاج إليه من ألوان النعيم، **{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا}**، وبعض أهل العلم يذكر لها معنى آخر -لكن هذا أولى منه- يقول: **{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا}** التمهيد هو أن يكون المال متراكماً عنده بعضه فوق بعض، يقول: مثل مهاد الصبي يوضع له طبقات، فهذا هو التمهيد، لكن الأقرب أنه **{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا}** يعني: هيأت له ما يحتاج إليه ليكتمل نعيمه ولذته، وهذا الوليد بن المغيرة قد كان يقال له: "الوحيد" في مكة، كما كان يقال ذلك لأبيه، ويقال له: ريحانة قريش، فهو من أكثرهم مالاً وشرفاً، ولم يكن يدانيه في ذلك أحد في العز والشرف والغنى والمال.

{ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا} [سورة المدثر:١٥-١٦] أي: معانداً، وهو الكفر على نعمه بعد العلم.

العنيد من العند وهو المخالفة، فهو مخالف لآيات الله -عز وجل-، مخالف لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، مخالف لشرع الله -تبارك وتعالى-، فهذا هو العنيد.

{سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [سورة المدثر:١٧] قال قتادة عن ابن عباس: "صعوداً" صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه.

وقال السدي: "صعوداً" صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها.

وقال مجاهد: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} أي: مشقة من العذاب.

وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه.

حينما يقول بعضهم: إن صعوداً فسروها بالصعود، سواء قيل صخرة ملساء، يصعد على صخرة ملساء يعذب وما جاء في هذا من روايات لا يصح بعضها، مثل أنه إذا وضع يده عليها ذابت يده، وما أشبه ذلك، المهم يصعد صخرة ملساء يكلف بصعود جبل في النار ويعذب بذلك، أو من قال: **{سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}** أي: مشقة بالغة، من أين قالوا هذا، كيف قالوا: مشقة بالغة؟، وأولائك قالوا: يصعد يكلف بالصعود، يعذب بالصعود على أمر يشق الصعود عليه غاية المشقة، مثل الذي يكلف بالعقد بين شعيرتين وهو من ادعى رؤية لم ترها

عينه فيعذب، وأصحاب التصاوير يعذبون بالصور يقال: أحيوا ما خلقتم، وهكذا، فأناس يعذبون بهذا التكليف، ومثل من قتل نفسه بحديدة، ومن قتل نفسه بسم، صاحب الحديدة يَجَأُ بها نفسه في النار، وصاحب السم يتحسّاه في نار جهنم، وهكذا، صاحب الغنم والإبل الذي لم يؤدِّ زكاتها تكون أوفر ما كانت ثم تطؤه، يقول: تفسير باللازم إذا قلنا: إنه مشقة؛ لأن الصعود يحصل منه المشقة، وفيه غير هذا من التوجيه لهذا القول، يقولون: يقال: إنه مشقة وعناء كبير لا طاقة له فيه، يقولون: من شدة التعذيب إذا عذب عذاباً شديداً فإن نفسه تصعد حتى يشم رائحة الموت، ولكنه لا يموت، فيتمنى الموت ولا يجده.

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافياً *** وحسْبُ المنايا أنْ يَكنّ أمانيا

فهذا غاية المشقة والعذاب، يقولون: تصعد روحه، تصعد نفسه للخروج من شدة التعذيب، ولكنها لا تخرج، {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} أي: أنه يعذب حتى تكاد نفسه تخرج ولكنها لا تخرج، وظاهر القرآن يدل على أنه يكلف مشقة بالغة وعناء بصعود شيء لم يحدده الله –عز وجل– هنا، ولم يرد دليل صحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما أعلم– يدل على تحديده، لكن الذي يفهم من لغة العرب وبه قال بعض السلف أنه يكلف بالصعود، حتى تلحقه مشقة بالغة من جراء ذلك، يعذب بهذا التعذيب، وأهل النار يعذبون بألوان العذاب، فهذا الرجل توعده الله –عز وجل– بهذه العقوبة: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} لماذا؟ {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} [سورة المدثر:١٨] فـــ"إنْ" هنا تدل على التعليل والتوكيد في آن واحد، كأنه يقول: سأفعل به هذا؛ لأنه فكر وقدر.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} أي: إنما أرهقناه صعوداً أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر، أي: تَروَّى ماذا يقول في القرآن حين سُئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال، {وَقَدَّرَ} أي: تروى.

فكّر أي: أعمل ذهنه؛ لأن حقيقة التفكير هي حركة الذهن في المعقولات، وحركته في المحسوسات يقال لها: تخيل وتصور، أنت الآن إذا جلست تجيل الذهن في المحسوسات، تجيل الذهن فيمن رأيتهم وقابلتهم وتعرض صورة فلان في ذهنك وكذا، هذا يقال له: تخيل وتصور، وإجالته في المعقولات يقال له: تفكير، هذا طبعاً عند أهل المنطق، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} أي: أعمل ذهنه، أجال ذهنه ماذا يقول في القرآن؟ وقدر، أي: قدر قولاً يحكم به على القرآن، ويضيفه إليه، ففكر بوصف –بحكم– يلصقه بالقرآن هل هو سحر، كهانة، شعر؟، ثم قدر ما يقوله، {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [سورة المدثر:٢٤].

{فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} [سورة المدثر:١٩-٢٠] دعاء عليه.

تأملوا هذه الجملة قال: **دعاء عليه**؛ لأن قُتل تأتي بمعنى لعن، واللعن دعاء، لا إشكال، يعني: من فسرها بأنها لعْن أو من قال: دعاء عليه فإن ذلك المعنى لا إشكال فيه، ليس هناك منافاة، والعرب تقول: قُتل فلان، ولربما قالت: قاتله الله ما أجلده وما أصبره!، تارة لا يعنون المعنى وإنما يقصدون التعجب منه، ولا شك أن هذا السياق هنا فيه معنى التعجب، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}.

{فَقُتِلَ} لعن، دعاء عليه، {كَيْفَ قَدَّرَ} كيف هذه تعليلية، يعني: هل المعنى قُتل ثم يكون الاستفهام: كيف قدر هذا التقدير؟، كيف تجرأ عليه؟.

كن كما شئت فكما تدين تدان، كن كما شئت يعني: كن على أي حال شئت فستلقى جزاءك، كما تدين تدان، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} مثل ما تقول: سأعاقبه بذلك كيف كان، يعني: لا شأن لي بعذره، عنده عذر ما عنده عذر، عذر يتصل به عذر يتصل بغيره، عذر قاهر عذر غير قاهر، مقبول غير مقبول، سائغ غير سائغ، سأعاقبه كيفما اتفق له من العذر، أو سأعاقبه كيف كان عذره، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أي: قتل على أي تقدير أوقعه، سواء قال: ساحر، كاهن، شاعر، مجنون، أو قتل كيف قدر فيكون المعنى على أي حال قدر، كأنك تقول: قتل كيفما قدر، حتى أقرب لكم المعنى، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} يعني: على أي حال، على أي تقدير قدر، لا شأن لنا به، فهو يدعو عليه بجميع أحواله.

{فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} يعني: لُعن وعُذب كيف قدر، على أي حال قدر ما قدر من الكلام، على أي حال كانت منه، على أي حال صنع ما صنع، سواء كان مقتنعاً بهذا أو غير مقتنع -متردد-، سواء قال: ساحر أو كاهن أو شاعر، فهو دعاء عليه على كل أحواله.

{ثُمَّ نَظَرَ} [سورة المدثر:٢١] أي: أعاد النظرة والتروي، {ثُمَّ عَبَسَ} [سورة المدثر:٢٢] أي: قبض بين عينيه وقطّب، {وَبَسَرَ} أي: كلح وكره.

لاحظ هذا تصوير دقيق له، جلس يفكر أولاً، ثم قدر ما يقول ويلمز به القرآن ويضيف إليه، اختار بعناية الوصف الذي قصده؛ لهذا قال: {سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [سورة المدثر:٢٤] سحر يأخذه عن غيره؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما عُرف أنه ساحر، ما هو بساحر لكن أخذ ذلك عن غيره، لو قال: مجنون ما قبلوا منه، كاهن ما يعرف بالكهانة، ولكن سحر يأخذه عن غيره، ففكر وقدر، ثم دعا عليه: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} على أي حال كانت منه، ثم أكمل وصفه بعد ذلك، يعني: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} جملة اعتراضية ويكون سياق الكلام هكذا: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} {ثُمَّ نَظَرَ}، قدر ثم نظر {ثُمَّ عَبَسَ} قطّب، والعبوس معروف، {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} [سورة المدثر:٢٢] بسر: كثير من السلف يقولون: معناها -وهو قول معروف في اللغة-: اسود وكلح، يعني: ازداد في العبوس، في البداية عبس ثم بسر: ازداد عبوساً وكلح واسود وجهه، فهو بعد هذا التفكير والتقدير والنظر اعترته حالة فقال بعد ذلك ما قال، {عَبَسَ وَبَسَرَ}، وبعض أهل العلم يفسرون البسور بظهور الأسنان، وهذا من شدة العبوس، يكون من شدة العبوس أو الألم أو نحو هذا، وهو أحد التفسيرات المشهورة في قوله: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [سورة القيامة:٢٤] بمعنى: أنه إذا احترق وعرض على النار ينشدّ لحم الوجه فينجلي ذلك عن الأسنان فتظهر أسنانه، مثل رأس البهيمة إذا عرض على النار، كانت أسنانها مغطاة حينما ذبحت هذه البهيمة، فإذا عرض الرأس على النار ينشدّ الوجه ثم الأسنان تكون ظاهرة بادية، فهذا فسر به قوله -تبارك وتعالى-: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} أحد التفسيرات المشهورة أنه يقلب على النار -والعياذ بالله- وتظهر أسنانه من احتراق الوجه.

وقوله: {ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} [سورة المدثر:٢٣] أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن.

{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [سورة المدثر:٢٤] أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال: {إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ} [سورة المدثر:٢٥] أي: ليس بكلام الله.

وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش -لعنه الله-، وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبُوَ قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقَدْ تحدَّث به عشيرتي؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [سورة المدثر:١١] **إلى قوله: {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}** [سورة المدثر:٢٨].

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة...

يعني عرف أحقيته في البداية؛ لهذا قال الله -عز وجل-: **{ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}** بعدما عرف، كما قال الله -عز وجل-: **{ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ}** [سورة الأنبياء:٦٥] لما حاجّهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقال لهم: كيف تعبدون هذه الأصنام؟ في البداية وقفوا **{فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ}**، وهكذا هؤلاء الكفرة في كل زمان، موسى -صلى الله عليه وسلم- لما قال لهم في ذلك الموقف الكبير لما اجتمع السحرة، وفي أقل تقدير رأيته في كتب التفسير أنهم بلغوا اثني عشر ألف ساحر من مهرة السحرة، دعنا من الذين قالوا وعددوا أعداداً رهيبة أكثر من هذا، أقل تقدير رأيته اثنا عشر ألف ساحر الذين اجتمعوا؛ لأنه قال: **{ائْتُونِي بِكُلِّ}** [سورة يونس:٧٩] بلد ينتشر فيها السحر، **{بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}** فاجتمعوا، فقال لهم موسى -عليه الصلاة والسلام- كلمة حق: **{وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}** [سورة طه:٦١-٦٢] بدأ التخلّي، فككتهم هذه الكلمة، فأسروا النجوى؛ لئلا يظهر للطرف الآخر أن هناك شرخاً في الصف، وبدأت الآراء ووجهات النظر تختلف، دب الخلاف فأسروا ذلك؛ لئلا يتقوى به الخصم، كما يفعل أعداء الله في كل مكان في أحلافهم فيكون بينهم من الشر والخلاف والنزاع ما يسرون به ولا يظهر إلا إذا ظهرت رائحته، وزكمت الأنوف فعرفه الطرف الآخر، لكن يحاولون دائماً دفنه، فيظهرون بصف واحد قوي متماسك وأنه حلف في غاية القوة والالتئام، **{وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}** ثم حث بعضهم بعضاً على المضي والإقدام، وأن يأتوا صفاً: **{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا}** [سورة طه:٦٤] هذا في فرعون ومن معه، من جمعهم من السحرة.

وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} الآية، {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} قبض ما بين عينيه وكلح.

قال الله تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [سورة المدثر:٢٦] **أي: سأغمره فيها من جميع جهاته.**

كلمة: **{سَأُصْلِيهِ}** تدل على معنيين -والله تعالى أعلم-، تدل على الدخول وتدل على مقاساة حرها -الاحتراق-، مثلما تقول: صليت اللحم، صليت الشاة في النار، شاة مصلية، يعني: مشوية بالنار، فصَلْيُ

النار أي: دخولها ومقاساة حرها، ولا شك أن المعنيين متلازمان، فهم يدخلونها ويقاسون حرها، يعرضون عليها فيصيبهم من لهيبها وإحراقها {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} أُحرِقه بالنار، معنى الصلي هو الإحراق بالنار، وهذا إنما يكون بدخولها.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} [سورة المدثر:٢٧] وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

سقر اسم من أسماء النار، وبعضهم يقول: هي الطبقة السادسة، وبعضهم يقول غير ذلك، لكن {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} سأدخله وأحرقه بسقر وهي النار.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} هذا الأسلوب: الاستفهام الذي يدل على الإبهام يدل في مقامات الوعيد على شدة الهول وشناعته، مثل قوله: {الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} [سورة القارعة:١-٣]، و{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} [سورة الحاقة:١-٣]، وهنا: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ}، فهذا الإبهام بصيغة الاستفهام يدل على تهويل الأمر وعظمه، وفظاعته في مقامات الوعيد، هذه قاعدة، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بوصف النار.

ثم فسر ذلك بقوله تعالى: {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} [سورة المدثر:٢٨] أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم، ثم تُبدل غير ذلك.

{لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} معروف أن أهل النار لا يموتون فيها، فـــ {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} لا يفهم منها أنهم يصيرون إلى العدم وأن النار تفنيهم، الله -عز وجل- أخبر أنه: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا} [سورة النساء:٥٦] فكلام الحافظ ابن كثير في غاية الدقة، هذا الموطن موطن إشكال عند بعض المفسرين، سؤال يطرح، {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} معناها أنها تفنيهم، لا يبقى منهم شيء، ومعلوم أنهم في النار يعذبون أبداً فكيف يجاب عن هذا السؤال؟

عبارة الحافظ ابن كثير فيها الجواب: {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} أي: أنها تحرقهم، تحرق العصب والعظم واللحم ولا تبقي من ذلك شيئاً، لكنه يجدد، كلما أحرقت شيئاً وأتلفته جُدد ذلك لصاحبه، فيعذب هكذا دائماً، وإلا فهي تحطم كل شيء، حُطَمة {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} [سورة الهمزة:٥-٨] تتوقد عليهم، {فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ} [سورة الهمزة:٩] فقوله: {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} الجواب عنه: أن النار تحطمهم وتحرقهم ثم بعد ذلك يحصل لهم تجدد في الجلود وغيرها، {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}.

مثلما يقال: لا يترك له شاردة ولا واردة، فكثير من أهل العلم يقولون: هذا للتوكيد {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}، وبعضهم يقول: لا تبقي شيئاً من أبشارهم أو جلودهم أو كذا، ولا تذر شيئاً من أبعاضهم وأجزائهم إلا أحرقته. فهذا أسلوب عربي معروف يراد به أنها تأتي عليهم بحيث لا يَبقى لهم شيء إلا أحرقته، هذا المراد {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}.

وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيَوْن، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما.

وقوله: {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} [سورة المدثر:٢٩] قال مجاهد: أي للجلد، وقال قتادة: {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} أي: حرّاقة للجلد، وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان.

هذه العبارات: "لوَّاحة"، ولفظة "البشر"، كل هذه العبارات التي ذكرها ترجع إلى معنى واحد: أن لوَّاحة يعني: أنها تغير الجلد، تحرقه فيتغير، هذا معنى لوَّاحة على هذا التفسير، كما قال الشاعر:

وتَعجبُ هندٌ أنْ رأتني شاحباً *** تقول: لَشَيءٌ لوّحتْهُ السمائمُ

يعني: الهواء الحار السموم، فإذا لفح الإنسان وتعرض للهواء الحار فإنه يتغير لونه، فهذه لوَّاحة بمعنى أنها مغيرة للبشرة، البشر ليس الناس على هذا التفسير، وإنما المقصود به الأبشار ظاهر الجلد، يلوح لها ظاهر الجلد، أي: يضرب إلى السواد، يتغير، يسود، ويتنفط وينتفخ، لوَّاحة تغير ظاهر الجلد بسبب الإحراق، وهذا شيء مشاهد في نار الدنيا فما بال نار الآخرة؟! فتكون إذن لواحة معناها: مغيرة تسود بسببها البشر أي: الأبشار وليس البشر يعني الناس على هذا التفسير.

وتحتمل الآية معنى آخر: {لَوَّاحَةٌ} من معنى لاح يلوح أي ظهر، أي: أنها تلوح للبشر ليس الأبشار وإنما للناس {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [سورة الفرقان:١٢]، {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} [سورة الشعراء:٩١]، أو {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} [سورة النازعات:٣٦] فصاروا يشاهدونها، تلوح لهم من بعيد فيرونها، يراها البشر والجن، لكن الخطاب يتوجه غالباً إلى البشر إما لأنهم الأشرف أو لأن الأنبياء منهم فالجن تبع لهم.

{لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، فصار عندنا معنيان: إما لوَّاحة أي: مغيرة للأبشار -ظاهر الجلد-، أو لواحة من لاح أي: ظهر، تظهر لهم فيرونها، {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} [سورة النازعات:٣٦]، والله تعالى أعلم.

وأقرب هذين المعنيين هو المعنى الأول: أنها مغيرة، والمعنى الثاني ليس ببعيد، وكل ذلك واقع؛ لأن النار تحرقهم وتغير أبشارهم وهم يرونها، كما قال الله -عز وجل-: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى}، {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} ولكن المعنى الأول أبلغ وأكثر في الوعيد، هو يصف النار وإحراقها: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} [سورة المدثر:٢٦-٢٩]، فهل قصد أنهم يرونها وتلوح لهم أو قصد أنها تحرقهم وتغير أبشارهم؟ الثاني هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [سورة المدثر:٣٠] أي: من مقدَّمي الزبانية، عظيم خلْقهم، غليظ خلُقهم.

عدد خزنة جهنم وما قاله الكفار حول ذلك:

{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} **من مقدَّمي الزبانية، عظيم خلْقهم، غليظ خلُقهم،** {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} تسعة عشر على ظاهره: تسعة عشر ملكاً، وهذا هو الذي أوقع الاشتباه والإشكال عند المشركين، فقالوا: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} [سورة المدثر:٣١] لماذا تسعة عشر؟ ما كمّل على الأقل الرقم إلى العقود كأن يقول: عشرون، ثلاثون، مائة، فهذه ناحية في الاشتباه، لماذا تسعة عشر بالذات؟ لماذا نقص من العدد الكامل واحداً؟ والاشتباه الثاني: أن تسعة عشر عدد قليل، الجن والإنس منذ آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تسعة عشر!؛ ولهذا قال من قال كأبي الأشد وهو كان من أقوى قريش، كان يقف على جلد البقرة ويأتي عشرة رجال يجرونه من تحته فيتمزق الجلد وهو لا يتحرك من مكانه، صخرة، فكان يتبجح ويقول: تسعة عشر عشرة أضربهم بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر -باعتبار الأيسر أضعف- وينتهي الأمر، وربما

قال غير ذلك، فكان ذلك فتنة لهم {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} الملائكة هؤلاء {إِلَّا فِتْنَةً} يعني هذا العدد، من جهة القلة ومن جهة اختيار الرقم تسعة عشر، لماذا اختارهم؟

نقول: الله -عز وجل- لا يسأل عما يفعل، ولا حاجة لقول من قال: إن هؤلاء هم النقباء، وكل واحد معه جماعة لا يحصيهم إلا الله من الأعوان، كما أن ملك الموت واحد ومعه أعوان {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [سورة السجدة:١١]، {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} [سورة الأعراف:٣٧] جمع رسل، كيف تجمع بين {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} وبين {جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ}؟ يقال: ملك الموت له أعوان.

بعض العلماء هنا قال: الأمر كذلك، هؤلاء هم النقباء، وكل واحد معه مجموعة لا يعلمها إلا الله -عز وجل-، يقال: هذا لا حاجة إليه ولا دليل عليه، وإلا كيف يكون فتنة؟، وبعضهم يقول: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} أي: تسعة عشر صفاً من الملائكة، وهذا بعيد جداً في غاية البعد، وهؤلاء الذين قالوا بهذه الأقوال كأنهم تقالّوا هذا العدد تسعة عشر، والله أخبر أن هذا فتنة للكفار، فالمؤمن يستيقن أن هذا حق وثابت، وأن الملائكة لا يقاسون بالبشر، وأن جنود الله -عز وجل- لا يعلمها ويحصيها إلا هو، ومع ذلك اختار هذا العدد، فملَك واحد يأخذ قرى قوم لوط، ذُكر أن جبريل -صلى الله عليه وسلم- بريشة من جناحه حمل القرى -التراب والأرض وما عليها من البشر والحيوانات والحجارة وكل شيء- ورفعها فوق، ثم قلبها، وأتبعهم بالحجارة، ملك واحد، الملائكة ليس كالبشر، بعضهم يقول: {تِسْعَةَ عَشَرَ} تسعة عشر صنفاً من الملائكة كل صنف عددهم لا يحصيه إلا الله، هذا تكلف لا حاجة إليه، يعني الذي حملهم هو استغراب العدد، ولا يليق هذا بالمؤمن.

عدد خزنة جهنم وما قاله الكفار حول ذلك:

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} [سورة المدثر:٣١] **أي: خُزّانها، {إِلَّا مَلَائِكَةً} زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً}** أي: **شديدي الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل: إن أبا الأشدين...**

المعروف الذي يذكر في عامة الكتب أبو الأشد.

واسمه: كَلَدَة بن أسيد بن خلف قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه.

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: **إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختبارًا منا للناس.**

أصل الفتنة هي الفَتْن وهو عرض الشيء على النار، المعدن الذهب أو غيره، ليخرج بذلك الذهب الخالص ويتميز عن شوائبه، هذا هو أصل الفتن، وهكذا الاختبار تتجلى فيه حقائق الناس فيتبين به من كان منهم صادقاً ومن كان كاذباً، ومن كان ثابتاً ومن كان متردداً، فهذا أصل الفتْن هو العرض على النار {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [سورة البروج:١٠] أي: أحرقوهم بالنار على أحد التفسيرات، أو فتنوهم في دينهم،

ولا معارضة ومنافاة؛ لأنهم عرضوهم على النار –أحرقوهم– في قصة الأخدود: {فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، {إِلا فِتْنَةً} وتطلق الفتنة على نتيجة الاختبار، ومنه: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} [سورة الذاريات:١٤]، أيكم المفتون؟، {إِلا فِتْنَةً} بعضهم يقول: إلا ضلالة أو محنة أو عذاباً، بمعنى المحنة: الاختبار، والضلالة هي نتيجة أنه إذا اختُبِر ضل، فهذا من باب التفسير باللازم، ومن قال عذاباً فكما قلت لكم: الفتْن أصله الإحراق، {إِلا فِتْنَةً} إلا عذاباً، والله أعلم.

{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} أي: يعلمون أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله.

{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} أي: يحصل لهم اليقين؛ لأنهم وجدوا قوله موافقاً ومطابقاً لما في كتبهم، فيعلمون أن ما جاء به –صلى الله عليه وسلم– حق.

{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} إيماناً إلى إيمانهم، أي: بما يشهدون.

أي: بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد –صلى الله عليه وسلم.

{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} يزدادون إيماناً إما من جهة الكمية أو من جهة الكيفية، ويمكن أن يجتمع الأمران، من جهة الكمية فهم كلما آمنوا بحقيقة من حقائق الدين كان ذلك زيادة في الإيمان، فالإيمان يزيد وينقص، فإذا أخبرهم أن أصحاب النار ملائكة وأنهم تسعة عشر فآمنوا بهذه الحقيقة كان ذلك زيادة في الإيمان، كما في أثر ابن عباس –رضي الله عنه– أن الله حينما بعث نبيه –صلى الله عليه وسلم– بعثه بشهادة أن لا إله إلا الله، فآمن من آمن، ثم افترض عليهم الصلاة فزادهم إيماناً، الصلاة صارت زيادة في الإيمان، ثم فرض عليهم الزكاة فكان ذلك زيادة في إيمانهم، ثم فرض عليهم الصيام وهكذا، فهذا كله من باب الزيادة، ومن جهة الكيفية: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} من جهة الكيفية بمعنى: أنهم إذا رأوا أهل الكتاب عندهم في كتبهم مثل هذا –وهم أهل علم– فوافق الذي ذكر وهو رقم تسعة عشر من الملائكة هذا فيكون إيمان أهل الإيمان أوثق، وبعض أهل العلم يقول: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: المؤمنون من أهل الكتاب، والمعنى أعم من هذا، أهل الكتاب يحصل لهم اليقين، وأهل الإيمان يزدادون من جهة الكمية والكيفية.

{وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أي: من المنافقين، {وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا}.

{وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ} الآن لاحظ ماذا قال؟ {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، وبشأن المؤمنين قال: {وَيَزْدَادَ}، ثم قال: {وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} أثبت اليقين لهؤلاء وزيادة الإيمان ثم قال: {وَلا يَرْتَابَ} فيقال: إثبات اليقين وزيادة الإيمان، ونفي الريب هنا إن رجعا إلى شيء واحد وفسر المعنى به يكون من قبيل التوكيد أنه يقين، يكون ذلك مقرِّراً لهذا اليقين ومؤكداً له، فهو يقين لا يداخله ريب، يقين ثابت راسخ لا يداخله الريب {وَلا يَرْتَابَ}؛ لأن العلم إذا رسخ وثبت وكان محققاً فإن صاحبه لا يحصل له التشكيك، إنما يحصل ذلك لمن كان إيمانه ضعيفاً لجهل، أو بطريق الوراثة فقط من غير علم، والله تعالى أعلم.

ويمكن أن يكون ذلك يرجع إلى شيئين: {وَلا يَرْتَابَ} تكون راجعة إلى غير ما يرجع إليه قوله: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} فالخبر عن عدد الملائكة يكون {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}،

وعدم الريب: {وَلا يَرْتَابَ} نفْيُ الريب عن أهل الكتاب بعد ذلك وعن المؤمنين يكون إلى عموم ما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني: حينما ذكر لهم العدد تسعة عشر يحصل اليقين لأهل الكتاب لأنه يوافق العدد الذي عندهم، {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} من جهة الكمية والكيفية، آمنوا بحقيقة جديدة ورأوا ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- موافقاً لما عند أهل الكتاب، أهل الكتاب يقرون به فازدادوا إيماناً، {وَلا يَرْتَابَ} لا يحصل الريب في صدق ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنه مخبر عن الله فيما يقوله ويبلغه من حقائق الدين عموماً، فهذا نموذج حصل لهم بسببه اليقين فانتفى عنهم الريب فيما جاء به محمد -عليه الصلاة والسلام- بشكل عام، والله أعلم.

{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} من المنافقين {وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟ قال الله تعالى...

المثل يطلق بإطلاقات متعددة، فلا تفهمْ منه المثل المتبادر اليوم في أذهان السامعين، وهو الجملة المحكية التي لها مورد ومضرب، قيلت في مناسبة، ثم تقال بعد ذلك في أشباهها، مثل قولك: الصيفَ ضيّعتِ اللبنَ، رجل أراد أن يتزوج امرأة، رجل كبير وعنده مال وغنم وإبل وأراد أن يتزوج امرأة شابة فأبت، فأصابتها حاجة وفقر فجاءت إليه في الشتاء، الشتاء عادة هو وقت القحط والجفاف والفقر والحاجة والجوع، فجاءت إليه وقالت: أعطنا منها، خطبها في الصيف فأبت، فقال: الصيفَ ضيعتِ اللبنَ، الآن آتية تريدين اللبن!، يعني: يوم خطبتك أبيتِ الآن ما عندي شيء، الصيف ضيعت اللبن، فهذا هو المثل المتبادر، لكن هذا نوع مما يطلق عليه المثل، مثَل يأتي بمعنى الصفة: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة الرعد:٣٥] يعني: صفة الجنة التي وعد المتقون، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} [سورة العنكبوت:٤٣]، {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة:١٧] ليس معناه المثل الذي له مورد، هذا ما له وجود في القرآن أصلاً، هذا المثل المعروف عند الأدباء لا وجود له في القرآن، لا يوجد في القرآن هذه الأمثال، إنما يوجد في أشياء سارت سير الأمثال، مثل بعض العبارات التي استعملت استعمال الأمثال في القرآن استعملها الناس بعد ذلك، {وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} [سورة الأنفال:٤٢] ممكن أن بعض الناس يستعمل هذا، وما أشبه ذلك مما تستعمل به العبارة نفسها، أو ما يكون متضمناً لمعنى المثل، مثل: كما تدين تدان، يوافقها من القرآن {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [سورة الشورى:٤٠]، {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [سورة فاطر:٤٣]، {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [سورة الرحمن:٦٠]، {جَزَاء وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦]، وما أشبه ذلك، فهناك أشياء معنى المثل فيها موجود في القرآن، وأشياء وألفاظ استعملت استعمال المثل بعد ذلك، لكن الأمثال التي في القرآن لها مورد وكذا والله -عز وجل- يتمثل بها هذا لا يوجد في القرآن، المثل يأتي أحياناً بمعنى التشبيه وبمعنى الصفة وبمعنى الحال، {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}، وهنا: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} أي: بهذا العدد المستغرَب استغراب المثل؟، والله تعالى أعلم، وفي ذكر هذا واستغراب مستغرب من استغراب المثل قال تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء} كذلك أي: كهذا الإضلال الذي أضل به الكفار.

{كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

هنا ذكر خمس حِكَم واضحة في هذه القضية، قال: {فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} هذه الآية مكية، السورة مكية، وكما سبق أن بعض العلماء قال: هي مدنية بناء على أن المنافقين كانوا في المدينة وأهل الكتاب، وهذا لا يحملنا على القول بأنها مدنية، بناء على القاعدة السابقة، فالذين في قلوبهم مرض: يأتي المرض بمعنى النفاق، {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [سورة البقرة:١٠] مرض النفاق، ويأتي بمعنى ضعف الإيمان والتردد مثل: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢]، الذين في قلوبهم مرض بعض العلماء يقول: هذا من عطف الأوصاف: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤] الموصوف واحد، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد ذكر لهم صفتين، وبعضهم يقول: لا، هم المنافقون المعروفون، والذين في قلوبهم مرض المتشككون المترددون من ضعفاء الإيمان، ويطلق المرض الإطلاق الثالث -في موضع واحد في القرآن- على الميل المحرم للنساء: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢].

فالحاصل هنا يقول: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} يعني سواء أهل النفاق أو ضعفاء الإيمان أو غير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المدثر من الآية (٣١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير لجماعة من العلماء -رحمهم الله تعالى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [سورة المدثر:٣١-٣٧].

عدد خزنة جهنم وما قاله الكفار حول ذلك:

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} أي: خُزَّانها، {إلا مَلائِكَةً}.

وقوله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ} أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط.

وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: ((فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ}** دليل على أن القول الراجح في معنى قوله -تبارك وتعالى-: **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** [سورة المدثر:٣٠] أي: تسعة عشر ملكاً، خلافاً لمن قال بأن هؤلاء التسعة عشر أنهم من الأصناف، تسعة عشر صنفاً أو تسعة عشر صفاً من الملائكة، ومقدار الصف لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، أو من قال بأنهم تسعة عشر نقيباً، ومع كل نقيب جماعة لا يعلمها إلا الله -عز وجل- من الملائكة، إنما هم هذا العدد الذي ذكره الله -عز وجل- من الملائكة، ثم عقب ذلك بقوله: **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ}** أي: أنه اختار هذا العدد لحكمة يعلمها وإلا فإن جنوده من الملائكة وغيرهم لا يحصيهم إلا هو -تبارك

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٢).

وتعالى-، وهذا الحديث يدل على هذا، وهو كثرة من يحج البيت المعمور من الملائكة، يأتيه في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثانية، فكم عدد هؤلاء الملائكة والجنود لله -تبارك وتعالى؟.

وقوله تعالى: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} قال مجاهد وغير واحد: {وَمَا هِيَ} أي: النار التي وصفت، {إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}.

{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى} ذكر ابن كثير -رحمه الله- عن مجاهد أن الضمير هنا يعود إلى النار، أي: نار الآخرة التي وصفها الله -عز وجل- أن عليها تسعة عشر وذكر خبرها، وبعض أهل العلم يقول: إن الذكرى هي نار الدنيا، أنها تذكر بنار الآخرة، وبعض أهل العلم يقول: **{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى}** أي: المواعظ والحجج والبينات التي ذكرها الله -عز وجل- في هذا القرآن، **{وَمَا هِيَ}** أي: مواعظ القرآن وحجج القرآن وبراهين القرآن، هذه كلها، وبعضهم يقول: هذا المراد به ما ذكر في السورة من خبر النار، وما ذكر الله -عز وجل- قبل ذلك، **{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى}** هذه الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- قبل هذه الآية إنما هي ذكرى للبشر، وبعض أهل العلم يقول: **{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى}** أي آيات القرآن، وبعضهم قال: الآيات السابقة التي سبقت هذه الآية، وبعضهم يقول: أقرب مذكور وهو قوله: **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}** أي: أن عدد خزنة جهنم إنما هو ذكرى للبشر، ولعل أقرب هذه الأقوال -والله تعالى أعلم- وهو الملائم للسياق أن النار المحدَّث عنها التي عليها تسعة عشر أنها ذكرى للبشر، أي: أن الله -عز وجل- يخوفهم بذلك، ويعظهم بها فيعتبرون، فيعمل كل إنسان لآخرته ويتقي هذه النار.

وإذا قلنا: إن المراد هم خزنة جهنم على قول من قال بذلك **{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}** قالوا: ليدلل على قدرته -سبحانه وتعالى-، ولكن هذا فيه بُعد، والذي يدل عليه السياق هو ما ذكرت، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {كَلا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} أي: ولى، {وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} أي: أشرق، {إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ}.

يعني هنا في قوله: **{كَلا وَالْقَمَرِ}** هذا رد على من قال: إنه يستطيع أن يقاوم، هؤلاء تسعة عشر كما قال بعض المشركين، فالله -عز وجل- يرد على مثل هؤلاء، أي ليس الأمر كما يقولون.

{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ} أي: العظائم، يعني: النار.

{كَلا وَالْقَمَرِ} أقسم بالقمر، وأقسم بالليل، وبينهما ملازمة ظاهرة إذ إن القمر إنما يخرج ليلاً **{كَلا وَالْقَمَرِ}** فالقمر هو آية الليل، **{كَلا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}** أقسم بالليل حالة إدباره، وذلك مظهر تتجلى فيه عظمة الله -عز وجل- وكمال قدرته، وتصريفه لأحوال هذا العالم، فهذا لا شك أنه يدل على خالق عظيم قدير عليم يدبر شئون هذا الكون، وأقسم الله -عز وجل- به في حال إقباله كما قال: **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [سورة الضحى:٢] **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** [سورة الليل:١]، وأقسم بالأمرين في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** [سورة التكوير:١٧] أي: أقبل وأدبر.

{إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ} أي: العظائم، يعني: النار، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وهذا مما يقوي أن المراد في قوله: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} أنها النار، فهي ذكرى للبشر وهي إحدى الكُبر.

{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} أي: لمن شاء أن يقبل النّذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

هذا يجمع المعاني التي قالها السلف، {نَذِيرًا لِلْبَشَرِ} أي: أن النار للنذارة، ذكر الله خبرها؛ لينذر البشر، { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} يتقدم بالعمل الصالح فيعتق نفسه، أو يتأخر بعمله، أو عكس ذلك أي لمن شاء أن يتقدم بعمله الفاسد فيدخل النار، أو يتأخر عن النار.

{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [سورة المدثر:٣٨-٥٦].

ما يدور بين أهل الجنة والنار من الحوار:

يقول تعالى مخبرًا أن {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} أي: معتقلة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره، {إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} فإنهم {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ} أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولائك في الدركات قائلين لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا.

يقول الله -عز وجل- عن أصحاب اليمين يقول: {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ} ظاهره أنه يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} [سورة الصافات:٥١]، فالحاصل أنهم يتساءلون عن المجرمين، وعن مصيرهم، وما لهم لا يرونهم معهم في نعيم الجنة؟ فهذا ظاهر الآية -والله تعالى أعلم-، ولكن قوله -تبارك وتعالى- بعده: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}، حمل بعض أهل العلم -بعض المفسرين- على القول بأن المراد بيتساءلون عن المجرمين أي: أنهم يسألونهم، يسألون المجرمين، ومن أهل العلم من توسطوا في هذا فقالوا: إنهم يتساءلون عن المجرمين فإذا عرفوا خبرهم ووقفوا عليهم عند ذلك يوجهون هذا السؤال إليهم، وهذا من البلاغة في الاختصار بحذف ما يعلم، والله تعالى أعلم.

أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولائك في الدركات قائلين لهم:

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا.

{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} أي: نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوي غاوٍ غوينا معه.

{فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} ما الذي أدخلكم النار؟ كلمة يتساءلون على وزن يتفاعلون، والمفاعلة كثير من أهل العلم يقولون: إنما تكون بين اثنين فأكثر؛ ولهذا يقولون: من الخطأ

أن تقول، ملاحظة، قل: ملحوظة، إذا أردت أن تستدرك شيئاً تقول: ملحوظة، ولا تقل: ملاحظة؛ لأن الملاحظة إنما تكون بين اثنين، تقول: مناظرة، مشاكسة، مقاتلة، مصارعة، مكالمة وما أشبه ذلك، والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن هذا هو الغالب، ولكن يمكن أن يأتي في كلام العرب ما كان على هذه الزنة وليس بين اثنين ولا أكثر، وإنما يكون في كلام الواحد فيما يكون بينه وبين نفسه؛ ولهذا لا يقال: إنه من الخطأ أن تقول: ملاحظة، فلك أن تقول: ملاحظة، ولك أن تقول: ملحوظة، وله نظائر، فإذا أردنا أن نحمل هذا على هذا المعنى وتخلصنا من ذاك القيد وقلنا: إنه ليس بلازم يكون {يَتَسَاءلُونَ} أي: بمعنى يسألون، {عَنِ الْمُجْرِمِينَ} ما أدخلكم في النار؟ {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} يعني: الخوض بالباطل بالقول والفعل؛ ولذلك لا منافاة بين قول من قال: {نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} أي: أن نتكلم بالباطل، وبين قول: إذا غوى غاوٍ غوينا معه، فهذا كله صحيح، فهم يخوضون بالباطل بقولهم وفعلهم.

{وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} يعني: الموت، كقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر:٩٩]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمّا هو -يعني عثمان بن مظعون- فقد جاءه اليقين من ربه))[٢].

وبعض أهل العلم ينقل الإجماع على أن المراد باليقين الموت.

قال الله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالداً فيها.

النكير على إعراض الكافرين وموقفهم:

ثم قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبَلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين.

{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه حُمُر من حُمُر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الأسد بالعربية، ويقال له بالحبشية: قسورة، وبالفارسية: شير، وبالنبطية: أوبا.

هذه المعاني وغيرها مما يذكره السلف في معنى الآية كلها داخلة فيه -والله تعالى أعلم-، {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} فهذا من المشترك اللفظي، والقاعدة في هذا الباب: أنه يصح حمل المشترك على جميع معانيه ما لم يوجد مانع يمنع من ذلك، {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} فرت مما تفر منه عادة؛ لأنها وحشية، فالمعاني التي يذكرها السلف

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٧٤٥٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي كامل -وهو مظفَّر بن مُدرِك الخراساني- فقد روى له أبو داود في "التفرد" والنسائي، وهو ثقة، يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد الزُّهري".

يقولون: أصوات الناس، ويقولون: عصبة الرجال، ويقولون: النبل، ويقولون: الصياد أو الرامي، ويقولون: الأسد، كل هذه المعاني صحيحة، فهي وحشية لا تألف الناس، تفر منهم، وتبتعد عن مواطن اجتماعهم وأصواتهم، وهي تفر أيضاً من الصياد كما أنها تفر من الأسد، **{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}** أي: أنها فرت مما تفر منه عادة، من هذه الأمور جميعاً أو واحد منها.

{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ} هذا أبلغ مما لو قال: كأنهم حمر نافرة، مستنفرة: أي كأنه ينفر بعضها بعضاً من شدة النفير، **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}** وهذا يدل على شدة نفورها، وكأنه يحض بعضها بعضاً على ذلك، وكذا لو قيل بالفتح: **{مُسْتَنْفَرَةٌ}** -والله تعالى أعلم-، وهي قراءة، يعني: مستنفَرة أنها نفرت، أو نافرة مذعورة خائفة، ومستنفِرة: ينفر بعضها بعضاً من شدة ما تجد من الخوف.

وقوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن يُنزَّل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، قاله مجاهد وغيره، كقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤]، **وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل.**

يعني يريد كل واحد منهم أن يؤتى صحفاً منشرة، أي: صحفٌ فيها براءته وهو لم يعمل ولم يؤمن، لكن المعنى الأول أولى؛ لأن الله -عز وجل- قال في الآية الأخرى: **{وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ}** فالحاصل أن هؤلاء كل واحد منهم يريد أن ينزل عليه كتاب، فهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن.

فقوله تعالى: {كَلا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ} أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها.

القرآن تذكرة:

ثم قال تعالى: {كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ} أي: حقاً إن القرآن تذكرة، {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّه} كقوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الإنسان:٣٠].

وقوله تعالى: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب، قاله قتادة.

آخر تفسير سورة المدثر، ولله الحمد والمنة.

هذه الآيات تضمنت معانيَ كثيرة جداً مما يتعلق بالاعتقاد، والقدر، وما يتعلق بغيره، ولكن ليس المقصود من هذه الدروس الخروج عن منهج ابن كثير -رحمه الله- في التفسير، لا نريد أن نحول هذا التفسير إلى شيء آخر، وإنما المقصود أن يُعلَّق على هذا الكلام، ويجمع بين الأقوال التي يذكرها السلف قدر الإمكان، ويبين وجه القول الذي قال به ابن كثير -رحمه الله- أو غيره، بحيث إنه تتربى الملكة في التفسير، هذا هو المقصود.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القيامة من الآية (١) إلى الآية (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة القيامة وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة:١-١٥].

القسم على وقوع المعاد يوم القيامة والرد على حيل المتحايلين:

هذه السورة يقال لها: سورة القيامة، ويقال لها: سورة لا أقسم، وذكرنا لكم أن السور لربما تسمى بأولها، وأنها لربما تسمى بكلمة -لفظة- أو بالموضوع الذي تتحدث عنه، فهذه السورة نزلت جميعها بمكة لا يُستثنى منها شيء.

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} والموضوع الذي تتحدث عنه يمكن أن يقال باختصار: إنها تتحدث عن القيامة، هذا الموضوع الأساس الذي تدور عليه آياتها، وإذا أردنا أن ندقق ونقرأ ما بين السطور كما يقال فيمكن أن يقال: إنها تتحدث عن القيامة -عن الآخرة-، وتتحدث عن القرآن، وتتحدث عن الرسالة، هذا إذا أردنا أن نقرأ ما بين السطور، ولذلك قال الله -عز وجل-: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** [سورة القيامة:١٦-١٧]، بل حتى في أولها **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ}**، هذه النفس لماذا تلوم صاحبها؟ تلومه على ترك الخير، وعلى فعل الشر مثلاً، أو تلومه في القيامة؛ لأنها تندم، فهذا يتضمن إثبات الرسالة، وأيضاً ما جاء في القرآن من الهدايات والمواعظ فأعرضتْ عن ذلك، وقصرت فيه، ولم تتعظ، فوقعت في ما يجلب لها الندم، والموضوع الواضح الذي تدور حوله هو موضوع القيامة، وبالتالي يمكن أن نقول: إن هذه السورة تدور على موضوع واحد في الأساس، وإن وجد آية أو آيتان تحدثت عن قضية أخرى، ولكن جملتها تتحدث عن هذه القضية.

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي.

المقسم عليه إذا كان منتفياً: يعني أن هناك من نفاه وكذب به ورده، فمثل هذا يقال فيه إذا أقسمتَ لإثباته وتأكيده وتقريره تقول: لا لما تقولون، لا لدعاواكم الباطلة في التكذيب بيوم القيامة، ثم قال: **{أُقْسِمُ بِيَوْمِ}**، لا لما تقولون، لا لما تدعون وتفترون، **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}**، فصار هناك فصل بين "لا" وبين الفعل، فعل

القسم الذي هو أقسم، فـــ"لا" تتعلق بشيء قبلها، وهو تكذيب المكذبين، لما كذبوا -وقع التكذيب منهم- قال: "لا" لِفراكم وتكذيبكم {أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وعلى هذا تكون "لا" نافية، وعلى القول بأنها نافية -كما هو الظاهر- بعض أهل العلم يقول: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، نفي، أي أنه لا يقسم بهذا اليوم؛ لأن الأمر لا يحتاج إلى هذا الإقسام، أي أن النفي على وجهه، نفى أن يقسم بيوم القيامة، لماذا؟ قالوا: الأمر أوضح وأجلى من أن يقسم عليه، فلا حاجة لهذا الإقسام، فهي نفي على بابه.

وبعض أهل العلم يقول: "لا" هذه نافية، ولكنها يؤتى بها للتأكيد، يؤتى بها لتأكيد القسم فقط، وهو أسلوب عربي معروف، ويعبر بعضهم عن هذا يقولون: هي زائدة، ويقصدون بذلك زائدة إعراباً، والقرآن ليس فيه زائد من جهة المعنى.

ولم يكنْ في الوحي حشوٌ يقعُ ***

ولا يليق أصلاً التعبير بهذا، لا يليق أن يعبر عن شيء من القرآن بأنه زائد، تكلم على هذا جماعة من أهل العلم منهم الزركشي في نحو موضعين في كتابه "البرهان"، وكذلك أيضاً في كتابه "البحر المحيط في أصول الفقه"، في أكثر من موضع، فالحاصل أن هذا التعبير لا يليق، ولهذا بعضهم يتأدب ويقول: صلة، والمقصود أن مراد هؤلاء الذين قالوا: إنها زائدة، قالوا: المراد بذلك التوكيد، فزيادة المبنى لزيادة المعنى، لكنه لا يراد بها النفي، لا يراد بها نفي القسم، ولا نفي شيء سبقه، "لا" أصلاً في كلام العرب تأتي نافية لكنها تزاد لتأكيد الكلام، لتأكيد القسم دون أن تدل على معناها من النفي فيه، فكأنها غير موجودة، إنما المقصود بها التوكيد، ولهذا قالوا: زائدة، {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، قالوا: المعنى: أقسم بيوم القيامة، {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [سورة البلد:١] على القول بأنها هنا زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد، لكن على قول من قال: إن البلد مكة، {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [سورة البلد:٢] أي حالٌّ، تكون نفياً للقسم، هذا أحد التفسيرات بغض النظر عن صحته، وأنت حالٌّ في المدينة، لا أقسم بمكة وأنت مقيم في المدينة، هكذا قال بعضهم، {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، فالنفي على بابه على هذا القول، وهذا له نظائر، لكن المقصود هنا {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: أن الله -عز وجل- أقسم بيوم القيامة، وأكد ذلك بالمجيء بلا قبل القسم، وهو أسلوب عربي معروف يؤكد به القسم، وهذا أقرب الأقوال، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وكلام العرب في هذا كثير جداً.

فلا وأبي جليلةَ ما أفأنا *** مِن النَّعمِ المؤبّلِ مِن بعيرِ

ولكنا نهكنا القومَ ضرباً *** على الأثباجِ منهم والنحورِ

تجدهم يؤكدون القسم بمثل هذا، يأتون بلا قبل فعل القسم، والله تعالى أعلم، {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: أقسم بيوم القيامة.

فإذا كان منتفياً يعني منفياً عند المخاطبين الكفار -وهذه السورة مكية- فهو يقول لهم: لا لما تقولون أقسم بيوم القيامة، ورجحنا القول الآخر؛ لأن الأصل في الكلام الاستقلال دون الإضمار، فلا يحتاج إلى تقدير إذا أمكن حمله على وجه صحيح من المعنى، لكن القول الذي ذكره ابن كثير قال به طائفة كثيرة من أهل العلم، وله أيضاً ما يرجحه، فهو من ناحية اللياقة بالقرآن لا شك أن الإتيان بلا على معناها المتبادر وهو النفي أنه أوفق

من القول بأنها لا محل لها، وأنها زائدة كما يعبر بعض أهل العلم، فجعلوها نافية على وجهها لكن لمعنى في الذهن، أو مقدر.

والمقسم عليه هاهنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد.

الآن **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ}** أين المقسم عليه؟

القسم يتكون من: حرف قسم، ومقسم به، ومقسم عليه، وفعل القسم، ففعل القسم هنا **{أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}**، والمقسم به هو يوم القيامة والنفس اللوامة، أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة، والمقسم عليه يقول ابن كثير: **المقسم عليه هاهنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد**، وإذا أردنا أن نقدره في اللفظ على كلام ابن كثير نقول: **{لَا أُقْسِمُ}** أي: أقسم **{بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}**، وأقسم بالنفس اللوامة لتبعثن، وحينما تريد أن تضع النقاط على الحروف، وتعبر بعبارة دقيقة لابد أن تقدر مقدراً، فابن كثير فسر ذلك عموماً وإجمالاً، لكن لابد من تقدير دقيق في الكلام ينتظم به السياق، أو اللفظ، فتقول: أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة لتبعثن، إذن على هذا هو مقدر، مقدر فُهم مما ذكر من قوله –تبارك وتعالى–: **{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}**، ولهذا بعض أهل العلم يقول: إنه مضمن في قوله –تبارك وتعالى–: **{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ}**؛ لأن الهمزة هنا للإنكار، الله ينكر عليه، على هذا الإنسان المكذب الكافر، مثلما تقول لإنسان تنكر عليه: أتفعل كذا وكذا وأنت تعلم أنه حرام،، يعني لماذا تفعل هذا الشيء؟، كيف تفعل هذا الشيء؟، الهمزة للإنكار، **{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ}**، فهذا الإنكار عليه بسبب تكذيبه بيوم القيامة مضمن معنى إقرار وإثبات البعث، ينكر عليه كيف يكذب بيوم القيامة، فهذا يتضمن إثبات ذلك اليوم، وبعض أهل العلم يقول: إنه لا جواب أصلاً هنا، وهذا صحيح من حيث اللغة، وهو موجود في القرآن: ألا يوجد الجواب أصلاً، لا يوجد جواب، تقول: أين جواب القسم؟ نقول: لا جواب أصلاً، إذن ما الفائدة؟ يقال: الفائدة هي تعظيم المقسم به، والقاعدة في هذا الباب أن القسم لا يكون إلا بمعظم، فإذا أقسم الله بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة فهذا فيه لفت للأنظار إلى عظمة هذا المقسم به، وشدته وعظم شأنه، قالوا: إن الله قصد بيان منزلة هذا المقسم به، الذي هو يوم القيامة والنفس اللوامة، ولم يقصد جواباً للقسم، وهذا ليس بمستبعد، فقول من قال: إن المقسم عليه مقدر دل عليه ما ذكر لعله أقرب هذه الأقوال، والعلم عند الله –عز وجل–، **{لَا أُقْسِمُ}** أقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة على أنكم ستبعثون، وتعاد أجسادكم من جديد، وتحاسبون على أعمالكم.

والمقسم عليه هاهنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً.

فمعناه أن "لا" هذه في **{لَا أُقْسِمُ}** أي: أقسم، ليس لنفي القسم.

وهو المروي عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، واختاره ابن جرير.

فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال قرة بن خالد عن الحسن البصري في هذه الآية: إن المؤمن -والله- ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه.

على قول الحسن البصري وهو قول مشهور معروف في التفسير تكون النفس خاصة، والمراد بها نفس المؤمن، فالنفس إما أن تكون مطمئنة ارتاضت على طاعة الله -عز وجل-، وإما أن تكون لوامة، أي أن الإنسان في مجاهدة ولا زال الإيمان نابضاً في قلبه، فلربما غلبته نفسه فعصى الله -عز وجل-، ولكنه ما يلبث أن تلومه نفسه ويستدرك التقصير والخطأ، والنفس الثالثة هي النفس الأمارة بالسوء، وهذه النفوس قد توجد للإنسان الواحد في أحوال شتى، فتارة نفسه تأمره بالسوء، وتارة تلومه، وتارة تكون مطمئنة بطاعة ربها ومليكها -جل جلاله-، فعلى قول الحسن البصري هنا تكون النفس اللوامة المراد بها نفس خاصة وهي نفس المؤمن، أقسم الله بها، والإقسام هنا وجهه ظاهر، والقسم لا يكون إلا بمعظم، والنفس اللوامة نفس عظيمة تستحق أن يقسم بها، تستحق الإقسام بها، والقول الآخر: هو أن النفس المراد بها العموم، {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} كل نفس فهي لوامة، لا يخلو أبداً إما أن تلوم نفسها، وإما أن تلوم غيرها، الإنسان دائماً يلوم، {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} [سورة القلم:٣٠]، فيلوم بعضهم بعضاً، فيلوم غيره، وقد يلوم نفسه، كما هنا مثلاً على تفسيرها بأنها تلوم نفسها على معصية الله، ومخالفة أمره أو التقصير في طاعته، أو تلوم نفسها أنها لم تستكثر من الخير، وسواء كان ذلك في الدنيا أو كان ذلك في الآخرة، ولربما لامت نفسها على فوات أمر مذموم، وهذه نفوس الأشرار، يلوم نفسه أنه لم يستكثر من العمل السيئ، أو أنه فوت عملاً سيئاً لم يعمله، وما أشبه ذلك، فهذا اللوم هو من طبيعة النفس، فيكون بذلك المراد بالنفس العموم، {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}، وهذا قال به كثير من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وابن القيم، أن المراد بالنفس العموم، كل إنسان يلوم نفسه ويلوم غيره أيضاً، يلوم نفسه ويلوم غيره إما بالحق وإما بالباطل، من طبيعته اللوم، من طبيعة النفس اللوم، وسواء كان في الدنيا أو في الآخرة، وبعض أهل العلم يقول: هذا في الآخرة، المؤمن يلوم نفسه أنه لم يتكثر من طاعة الله لما يرى من الخير، والنعيم والمنازل التي هي في غاية التفاوت، والكافر يلوم نفسه على ما ضيع من الأوقات في معصية الله -عز وجل-، فهذا كله واقع في الدنيا وفي الآخرة، {لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}.

وروى ابن جرير عن سعيد بن جُبَير في: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} قال: تلوم على الخير والشر، ونحوه عن عكرمة.

وقال علي بن أبي نجيح عن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.

وقوله: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ} أي: يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟

هنا سؤال: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ}، لماذا حدد العظام ولم يقل: أيحسب الإنسان ألن نبعثه أو نعيده أو نجمع ما تفرق من جسده؟

الكفار ماذا كانوا يقولون: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١١-١٢]، فيقولون: كيف نرجع وقد رَمّتْ عظاماً وفنيت وبادت، وهذا يأتي بالعظم متفتتاً وينفخه في وجه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقول: أتزعم أن الله يعيد هذه بعد أن رَمّتْ؟، فكانوا يكذبون بهذا ويستبعدون، ورد الله -عز وجل- عليهم قولهم: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ}، ثم إن العظام هي التي يكون عليها بناء الجسد، كيف يقوم الجسد إلا بالعظام؟ فهي الأساس، تخيل لو إنسان ما له أي عظم، مخلوق بدون عظم، أين تذهب العين، وأين يذهب الفم، وأين يذهب الرأس؟، قطعة لحم.

{بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فتُجعل بنانه -وهي أطراف أصابعه-مستوية.

هذه العبارة يقصد بها أن الله -عز وجل- خلقه هذا الخلق مفرق الأصابع، هذا البنان: أطراف الأصابع، فهو يمسك بها الأشياء اللطيفة، يمسك بها الإبرة، ويمسك بها سلاحه، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [سورة الأنفال:١٢]، لماذا يضرب منهم كل بنان؟ أرشدهم إلى المواضع التي يحصل فيها الإعاقة عن القتال، ضرب الأعناق، وذلك بإفنائهم، وضرب كل بنان بحيث إنه لا يستطيع أن يحمل السلاح، يتعطل، وإنما ببنانه يمسك هذا السلاح كما قال عنترة:

وإنّ الموتَ طوعُ يدي إذا ما *** وصلتُ بنانَها بالهِندُوانِ

الهِندُوان يعني السيف الهندي، يقول: بمجرد ما أقول هكذا به الموت طوع يدي، فالمقصود أن هذا البنان هو الذي يستطيع فيه أن يصرف -يعد- المال، ويأخذ ويعطي، وينظم الأشياء الدقيقة، ويقبضها، ويمسك الكتاب ويكتب، فإذا قطعتَ هذا البنان يتعطل، فهنا على كلام ابن كثير العبارة التي ذكرها هو يشير بها إلى قول بعض السلف، {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} يعني: أزيد مما كان، هو مفرق الآن، {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} أي: أننا نعيده خلقاً آخر فتستوي هذه الأيدي، الأصابع، تسوي البنان بحيث إنها تكون ملتصقة كخف الجمل أو حافر الفرس أو الحمار فلا يتصرف فيها شيئاً، فإذا كان الله -عز وجل- يقدر على خلقها بصفة أخرى فإن قدرته على إعادتها كما كانت متحققة أيضاً، بالنسبة لإعادة الشيء ثانية لا شك أن المخلوق يكون عليه أقدر وأسهل، وأما الله -عز وجل- فكل ذلك ميسور بالنسبة إليه -جل جلاله-، فالله يقول: ليس ذلك فحسب بل نحن قادرون على أن نعيد يده ملتصقة بهيئة خلق أخرى غير الخلق الذي تعجبون منه، حيث جعلها قادرة على التصرف في هذه الأمور الدقيقة، فهذا يكون أبلغ من هذه الحيثية.

والمعنى الثاني: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}، وهذا هو الظاهر: أن الله -عز وجل- يقول: أنتم تنكرون إعادة هذه الأجساد والعظام بعدما رَمّت، نحن قادرون على إعادتها ثانياً -أي هذه العظام-، بل نحن قادرون على إعادة اللطيف والدقيق منها وهي رءوس الأصابع، إذ أن رءوس الأصابع للطافتها ودقتها وتفاوتها يستطيع الإنسان أن يحرك أصبعاً واحداً ولا يحرك البقية، ويستطيع أن يحرك اثنين، ويستطيع أن يقبض واحداً واثنين وثلاثة، وهكذا، ويتصرف بها هذا التصرف، فالله قادر على إعادة هذه الأجزاء الدقيقة من العظام، أفلا يقدر على إعادة بقية عظام الإنسان؟، وهذا هو المتبادر، وماذا عما يقوله أصحاب الإعجاز

العلمي: إن هذا يؤخذ منه البصمات؛ لأنها تكون برءوس الأصابع، {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ} هذا البنان، فماذا عن هذا القول؟

نقول: لا إشكال فيه؛ لأن هذا التفسير العلمي أو هذا الإعجاز العلمي الذي يقولونه منه ما يدل على معنى صحيح، وهو ثابت ليس نظرية، هذا شيء ثابت وهو هذه البصمات، لا ينكره أحد، والله -عز وجل- قال: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}، والبنان يشمل طرف الأصبع بما فيه العظم، وبما فيه الجلد، وما شده به من الأظفار، كل هذا بهذا التركيب العجيب الذي يدل على قوة خالقه -جل جلاله-، والله يقول: نحن قادرون ثانية أن نعيده بهذه الدقة أيضاً، فيدخل فيه مثل هذه الخطوط التي تسمى بالبصمات، فهذا لا يعارض القول المشهور عن السلف بأن هذه الأجزاء الدقيقة في أطراف الأصابع لدقتها الله قادر على إعادتها فكيف بالأجزاء الكبيرة؟، فيكون هذا من باب زيادة المعنى وزيادة العلم، وهذا ما اكتشف إلا في العصور المتأخرة، فهو معنى صحيح يدخل في ضمن هذا المعنى الكلي العام للآية، أطراف الأصابع شدها بالأظفار، وذلك يكون منعة لها وحماية، أضف إلى ذلك دقة هذه الأطراف، وما يحصل فيها من ألوان التصرفات، أضف إلى ذلك ما يوجد فيها من هذه الخطوط اللطيفة الدقيقة التي توصّل الناس بها إلى معرفة المجرمين وما أشبه ذلك، فهذا الكلام كله صحيح، فهذا من التفسير العلمي المقبول الذي لا يعارض أقوال السلف ويعود عليها بالإبطال، هذا لا إشكال فيه، والله أعلم.

بعض أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} نفي، يعني على القول بأنها نفس الكافر تلومه على ترك طاعة الله، وعلى ترك الإيمان، وما أشبه ذلك، وأن هذا يكون في الآخرة، قالوا: هذا نفي للإقسام "لا أقسم"، قالوا: وهذا يؤيَّد بأن قول من قال: إن "لا" نافية للقسم، "لا أقسم" أي: نفى أن يقسم بيوم القيامة؛ لأن الأمر لا يستحق ذلك، وهو أوضح وأجلى من أن يقسم عليه، فكذلك نفى أيضاً الإقسام بالنفس اللوامة إذا قلنا: إنها نفس الكافر؛ لأنه لا شأن لها، ولا يكترث لها، ولكن هذا خلاف الظاهر، -والله تعالى أعلم-، والمراد بذلك كله القسم لا نفي القسم، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القيامة من الآية (٥) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله: {بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [سورة القيامة:٥]**: قال سعيد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني يمضي قدما.**

وقال مجاهد: {لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} ليمضي أمامه راكباً رأسه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وكذا قال ابن زيد؛ ولهذا قال بعده {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}؟ أي يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} [سورة سبأ:٢٩-٣٠]**.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -عز وجل-: {بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، يمكن أن يكون ذلك من قبيل الاستفهام، كقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ} [سورة القيامة:٣]، {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} يعني: هل يريد ذلك؟ ويمكن أن يكون إيجاباً، وهذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم-، فهو كلام مستأنف يخبر الله -عز وجل- به عن حقيقة هذا الإنسان الذي تحدث عنه في هذه السورة، {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ}، {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، وهنا هذه التفسيرات التي نقلها عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- كقول بعضهم: يمضي قدماً، يعني في معصية الله -عز وجل-، هذا قول ابن عباس يمضي قدماً في معصية الله، وقول مجاهد: ليمضي أمامه راكباً رأسه، هذا بمعنى قول ابن عباس، لا فرق بينهما، وكذلك قول ابن عباس الآخر: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، فإذا نظرت بهذه الأقاويل تجد أنها ترجع إلى قولين في الجملة:

الأول: ما يؤخذ من ظاهر اللفظ، كلمة "يفجر"، والفجور هو العصيان، وتجاوز حدود الله -عز وجل-، ومحادّته بمخالفته، هذا هو الفجور، وإذا أخذت بظاهر هذا اللفظ {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} هنا يدخل فيها على هذا التفسير جملة من الأقاويل التي قال بها بعض السلف مثل أنه يعمل بالمعاصي، وإذا عمل بالمعاصي يؤمل التوبة -طول الأمل-، أو أنه يعمل المعصية ويؤخر التوبة، وهذا بمعنى طول الأمل، أو أنه يمضي راكباً رأسه، أو يمضي قدماً يعني في معصية الله -عز وجل-، كل هذه الأقوال ترجع إلى هذا المعنى، أخذاً من ظاهر اللفظ {لِيَفْجُرَ} الفجور، ومن نظر إليه من جهة المعنى والتركيب قال: {لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} قالوا: ليكذب، قالوا: إن السياق يدل على هذا، بغض النظر عن لفظ {لِيَفْجُرَ}، فيكون هكذا {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ} الكلام في التكذيب بيوم القيامة، ثم قال الله -عز وجل-: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ

{لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} أي: ليكذب بما أمامه، يعني حينما يستبعد إعادة العظام من جديد، {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [سورة القيامة:٣-٥] ثم ماذا قال بعده؟ {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} [سورة القيامة:٦]، فعلى القول بأن المقصود به التكذيب يكون ذلك أخذاً من دلالة السياق؛ لأن الحديث عن اليوم الآخر والقيامة والمكذبين باليوم الآخر، فقالوا: المقصود {لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} أي: ليكذب بما أمامه، فـ"بما"، حرف جر ومعه الموصول "ما" فهذا محذوف، فهذا من جهة المعنى.

المعنى الثاني الذي ترجع إليه الأقاويل الأخرى: أنه يكذب بيوم القيامة، يكذب بالبعث، يكذب بالحساب، يكذب باليوم الآخر بجملته، هذا يؤخذ من السياق، والمعنى الأول يفهم من لفظة يفجر، الفجور، ويقوي المعنى الأول ظاهر اللفظ، والذي يؤيد المعنى الثاني السياق، فالسياق كله في التكذيب باليوم الآخر وليس الكلام في الفجور والمعاصي، وما سيقت الآية من أجل هذا، وبهذا نعلم أن المعاني التي تحتملها الآية قد يتنازعها جملة من المرجحات، فقد يكون بعضها أقرب إلى ظاهر اللفظ، وقد يكون بعضها له مرجح آخر من السياق والموضوع الذي تتحدث عنه الآيات، السياق وما قبله وما بعده، والله تعالى أعلم، فالحاصل أن ظاهر اللفظ أنه يقدم الفجور ويؤخر التوبة، لكن الآيات ما سيقت للكلام على هذا المعنى، وما قبله وما بعده في التكذيب باليوم الآخر، وبهذا يكون المعنى {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} أي: بل يريد الإنسان ليكذب ويكفر بما أمامه، "بما" هذه حرف الجر والموصول، من جهة المعنى والسياق، والمعنى الأول أخذاً من ظاهر اللفظ الذي هو لفظة الفجور، {لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، ومن كذب باليوم الآخر كذب بيوم القيامة؛ ولذلك الله -عز وجل- يعلل كثيراً كفر الكافرين وإعراضهم، ويعلل ما يقع منهم من الجرائم وما أشبه ذلك بأنهم لا يرجون لقاء الله، وإذا خوّف المؤمنين وذكّرهم وما أشبه ذلك قال: {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [سورة الأحزاب:٢١]، فاليوم الآخر هو المحرك الذي يجعل الإنسان يمتثل، وإلا فإن الناس لو تُركوا من غير حساب فإنهم يفعلون ما يحلو لهم.

الحافظ ابن كثير اختار أن المعنى: يكفر بما أمامه، يعني بيوم القيامة، واستشهد لهذا بما بعده، بما يلحقه في اللفظ، بما جاء بعده، بما عقب به، {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}، بمعنى أنه يكذب بيوم القيامة، متى يكون؟ فهذا سؤال استبعاد، يعني: هو لا يسأل عن وقته، وإنما يسأل مستبعداً له مكذباً لوقوعه.

وقال تعالى هاهنا: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} قال أبو عمرو بن العلاء: {بَرِقَ} بكسر الراء أي: حار، وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: {لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} [سورة إبراهيم:٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء؛ من شدة الرعب.

{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} وفي القراءة الأخرى وهي قراءة متواترة {فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ} بالفتح، بَرَق، وأصل البروق يأتي بمعنى اللمعان، تقول: هذا المعدن يبرق، بمعنى أنه يلمع، ومعنى "برِق البصر" على هذه القراءة بعض أهل العلم يقول: المراد به: حار واضطرب، أي: أن الإنسان من شدة الخوف يضطرب بصره فلا يستطيع أن يصوبه نحو الأمور التي يريد رؤيتها، لا يتحكم ببصره، فيضطرب هذا البصر ويحار من شدة الفزع، كما هو معروف إذا اشتد الخوف فإن البصر يضطرب، و"بَرَقَ" بعض أهل العلم يقول: الفرق بينهما أن بَرِق أي: حار واضطرب، وبَرَق أي شَخَصَ، يقولون: هو شخوصه عند الموت، {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ}

ولا يلزم أن يكون ذلك عند الموت؛ لأن الله -عز وجل- ذكر أهوال القيامة، **{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ}** بمعنى: حار واضطرب، ويمكن أن يكون أيضاً بمعنى شَخَص، المقصود أنه يلمع، لمعان البصر لشدة اضطرابه وخوفه، فيحصل له مثل هذا فلا يستطيع أن يصوبه نحو الأمور التي يريد رؤيتها، لا يتحكم ببصره، فكما قال الله -عز وجل- عما وقع لأهل الإيمان في سورة الأحزاب: **{وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}** [سورة الأحزاب:١٠]، ومعنى زاغت أي: مالت، **{وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}**، بمعنى أن الإنسان ما عاد يتحكم ببصره، وهذا شيء مشاهد معروف، في حالات الفزع الشديد يبقى بصر الإنسان في حال من الدهشة والاضطراب، وأما شخوصه عند الموت فإنه لا يكون فيه اضطراب، وإنما يكون فيه هذا الشخوص، إذا خرجت الروح شخص البصر وتبعها، تبع الروح، وليس السياق في هذا، **{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ}** إذا وقعت أهوال القيامة حصل مثل هذا، الآن لو وقعت قنبلة عند ناس، قنبلة لها صوت هائل جداً ويحصل بسببها من الحطام للناس القريبين منها، ويتطايرون كالفراش، وترميهم لربما مائة متر وأكثر، هؤلاء ما أصابتهم وإنما فقط الهواء، فمثل هذه الحالات ما الذي يحصل للناس من شدة الفزع؟ تشخص الأبصار، لا يستطيع أن يركز الإنسان بصره على شيء معين ينظر إليه، **{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ}** فأصله من اللمعان، بمعنى جال وتحرك واضطرب من غير إرادة صاحبه، يضطرب عليه بصره من شدة الفزع، والقراءتان "برِق وبرَق" يمكن أن يكونا بمعنى واحد، وكل ذلك عند وقوع أهوال القيامة، والله أعلم.

وقرأ آخرون: "بَرَقَ" بالفتح، وهو قريب في المعنى من الأول.

إي نعم، هذه قراءة نافع وهي قراءة سبعية، "بَرَقَ البصر".

والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

وقوله: {وَخَسَفَ الْقَمَرُ} أي: ذهب ضوءه.

{وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [سورة القيامة:٩] قال مجاهد: كُوّرا.

وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [سورة التكوير:١-٢] ورُوي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قرأ: "وجُمع بين الشمس والقمر".

قوله: **{وَخَسَفَ الْقَمَرُ}** أي: **ذهب ضوءه**، وبعض أهل العلم يفرق بين الخسوف والكسوف يقول: الخسوف أي يذهب ضوءه، يعني: بالكلية، والكسوف أي يذهب بعضه، فهنا يذهب ضوء القمر تماماً، وبعض أهل العلم يفرق تفريقاً آخر، فيجعل أحدهما مثل الخسوف للقمر، والكسوف للشمس، فهنا قال: **{وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}**، بعض السلف يقولون: جمع بينهما فيما ذكر وهوالخسوف، ويستعمل الخسوف للشمس والقمر أيضاً، وهو معروف ومشهور، جمع بينهما فيما ذكر بمعنى أنهما وقع لهما الخسوف فذهب ضوءهما، كما فسر هنا، ذهب ضوءهما، جمع بينهما في ذهاب الضوء، وبعضهم يقول: إنهما يخرجان من غير ضوء، أي مسودان من جهة المغرب، وأحسن ما يفسر به هذا هو أن "خسف": ذهب ضوءه، وهذا مما يقع في يوم القيامة، وأن الجمع بينهما هو ما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من تفسير القرآن بالسنة، أنهما يكوران ويلقيان في النار، لا كما قال بعض السلف مثل عطاء -رحمه الله- بأنهما يلقيان فيكونان نار الله

الموقدة، أن النار هي عبارة عن الشمس والقمر، فهذا غير صحيح؛ لأن الشمس والقمر يكوران فيلقيان في النار، والنار موجودة الآن، ولا تكون في يوم القيامة باعتبار أن الشمس والقمر هما نار جهنم، والله أعلم.

وقوله تعالى: {يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ} [سورة القيامة:١٠] أي: إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: {كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [سورة القيامة:١١-١٢] قال ابن مسعود، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف: أي لا نجاة.

وهذه كقوله تعالى: {مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ} [سورة الشورى:٤٧] أي: ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا {لا وَزَرَ} أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه؛ ولهذا قال: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [سورة القيامة:١٢] أي: المرجع والمصير.

يعني بمعنى أن الإنسان إذا وقعت له المخاوف إما أن يتنكر فلا يُعرف، وهذا أمر غير متأتٍّ؛ لأن الله -عز وجل- لا يخفى عليه شيء، وإما أن يلجأ إلى معتصم كما كان الناس يلجئون -ولا زالوا- إلى الجبال في الحروب، فيفرون إليها يعتصمون بها، فهنا لا ملجأ، {كَلَّا لَا وَزَرَ}، والوزَر هو ما يلجأ إليه الإنسان ويعتصم به، كالجبل والحصن، أو يلجأ إلى أناس يحمونه لهم قوة وشوكة، وما أشبه ذلك، {كَلَّا لَا وَزَرَ} أي: لا ملتجأ ولا معتصم يعصمكم ويحميكم من بأس الله -عز وجل- وأخذه، والله المستعان.

أعمال الإنسان تكون بين يديه يوم القيامة:

ثم قال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة:١٣] أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٩].

هذا هو المتبادر من ظاهر الآية -والله تعالى أعلم- وهو الذي يشهد له القرآن كما في آية الكهف، بمعنى أن الإنسان ينبأ أي يخبر، والنبأ هو الخبر العظيم الذي له شأن، إذ إن ذلك لا يقال لعامة الأخبار، الأخبار التي ليس لها شأن لا يقال عنها: نبأ في كلام العرب، وإنما يقال ذلك لما له خطب وشأن، كما تقول: جاءنا نبأ الحرب، وجاءنا نبأ الجيش، وجاءنا نبأ الخسف، وما أشبه ذلك، ولا تقول: جاءنا نبأ عن حمار الحجام؛ لأن حمار الحجام ليس له خطب ولا شأن، فينبأ الإنسان بمعنى أن هذه الأمور تهمه غاية الأهمية، فينبأ بها، ينبأ بأخباره التي قدمها وأخرها في حياته، بمعنى أن يُخبَر عن أعماله القديمة، وأعماله المتأخرة في آخر حياته، لا يُخبَر عن المتأخرة فقط؛ لأنها التي حُفظت وما سَبَق نُسي، وإنما يخبر عن كل شيء، ولهذا يقول: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف:٤٩]، كما قال الله -عز وجل-: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة:٦]، نسوه إما لكثرته وتتابعه فينسي بعضه بعضاً، أو لأنه صغار، دقاق، أو أنهم لا يعبئون لفرط فجورهم، أو لبعد العهد، الذنوب القديمة ينسونها فأحصاها الله -عز وجل- لهم، فكل ذلك يخبر عنه الإنسان، هذا هو المعنى المتبادر {بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة:١٣] أي: بأعماله القديمة وأعماله المتأخرة، وبعض السلف يقولون: إن المراد ما قدم لآخرته، وما أخر أي ما ترك لورثته، يخبر عن هذا ما قدم وما أخر، ما أخر لورثته، هل يحرم عليه أن يترك شيئاً لورثته؟ ((إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم

فقراء عالة يتكففون الناس))[1]، فليس هذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم-، وكذلك قول من قال: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} ينبأ بما قدم أي: بما عمل وأنجز من الأعمال الصالحة، وما أخر أي ما أراد أن يعمله فلم يعمله من العمل الصالح، وهذا أيضاً ليس بمراد -والله تعالى أعلم-؛ لأن الحساب لا يجري على هذا إلا إذا كان من قبيل ترك الواجبات، وإلا فمعلوم أن من هم بحسنة فإنه يؤجر على هذا الهم، فلم يعملها، وإنما الظاهر -والله تعالى أعلم- وهو ما يشهد له القرآن- أن المراد ما قدم وما أخر أي من أعماله القديمة وأعماله الجديدة الحديثة، والله تعالى أعلم.

وهكذا قال هاهنا: {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة:١٤-١٥] أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء:١٤].

هذا التفسير الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-: {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} قال: أي **هو شهيد على نفسه**، معنى هذا الكلام أن قوله: {بَصِيرَةٌ} خبر عن الإنسان، بمعنى أن الإنسان شاهد، بصيرة بمعنى شاهد، فتكون "بصيرة" خبراً عن هذا الإنسان المحدث عنه، {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} أي: بل الإنسان شاهد على نفسه، فكلمة {بَصِيرَةٌ} هي: بمنزلة كلمة "شاهد"، تفسر بشاهد، {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} هذا هو المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-، وهو المعنى المشهور، والآية تحتمل غير ذلك، {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}، فالإنسان شاهد على نفسه، والمعنى الآخر الذي ذكره بعض السلف -أي أن جوارحه تشهد عليه- داخل في هذا المعنى، فيكون شاهده من نفسه، ينطق لسانه فيشهد عليه، وتنطق جوارحه فتشهد، فهذه شهادة من نفسه، وكذلك أيضاً يدخل في معناه الأعم -وقد ذكره بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- أن الإنسان عالم بما في نفسه، عالم بحاله، فهو بصير بنفسه وإن خفي أمره على الناس، وإن تزيّا بغير حقيقته وباطنه، فهو يعلم صلاحه من فساده، وإقباله وفتوره وتراجعه وتردده في طاعة الله -تبارك وتعالى-، مهما قال، ومهما اعتذر بالمعاذير، فهذا شيء يدركه من نفسه ولا يخفى عليه بحال من الأحوال، أنت أعلم بحالك مهما قدمت من المعاذير، ولذلك {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة:١٥] الأعذار التي يعتذر بها عن تقصيره أو فجوره أو كفره فهو أدرى بشأنه وحاله، وهذا هو الذي يناسب لظاهر اللفظ، وبعض أهل العلم يقول: المعاذير هنا ليس المقصود بها الأعذار، وإنما المقصود بالمعاذير جمع مِعذار وهو الستر، أي ولو أرخى ستوره فاستتر بفجوره؛ لئلا يظهر للناس، فإنه أدرى بحاله وأبصر بنفسه مهما حاول أن يخفي عيوبه أمام الآخرين، {بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}، وهذا المعنى الثاني الذي ذكروه هو تفسير لها بما تحتمله في كلام العرب، باللغة، وإن لم يكن ذلك هو المتبادر، فهذه الأعذار التي يعتذر بها الإنسان، يعتذر بها عن تقصيره وذنوبه أليست هي كالستور التي يرخيها على عيبه ليستره، أو لا؟ إذا جلس يعتذر عن شيء كأنه يريد أن يستر عيبه ويغطيه فلا يظهر للناس، يقول: لا، أنا لم أقصد كذا، وأنا ما أردت بهذا الفعل كذا؛ ليغطي هذا العيب والسوءة، فـ {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} العذر معروف في كلام

---

١ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، برقم (٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

العرب، المعنى المتبادر ليس هو الستارة، ولا يجوز حمل القرآن على معنى خفي دون المعنى الظاهر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، هذا الأصل، ولذلك يكفي أن يقال: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} يعني ولو اعتذر بألوان الأعذار، فهو يعرف حقيقة نفسه، وبالتالي هو يشهد على نفسه في الآخرة بحاله وعمله، في البداية ينكر ويكذب ثم يختم على فيه، فتشهد جوارحه، ثم بعد ذلك ينطق، وهذا هو الجمع بين الآيات الواردة في هذا، بعض الآيات أخبر الله فيها أنهم يكذبون وينكرون، {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣]، ثم أخبر سبحانه: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة يس:٦٥] وتشهد أرجلهم، ومع ذلك يقول الله –عز وجل–: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} [سورة النور:٢٤]، كيف تشهد الألسنة وقد ختم على الأفواه؟، يقال: هم يكذبون وينكرون في البداية فيختم على الأفواه، ثم بعد ذلك تنطق الجوارح، فإذا نطقت عند ذلك يذمها ويقول: عنكِ كنت أناضل، أو أدافع، ثم بعد ذلك يشهد على نفسه، ويطلب الرجعة إلى الدنيا مرة ثانية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} [سورة القيامة:١٤] يقول: سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه.

هذا لا ينافي القول الأول، فهو يشهد على نفسه، تشهد عليه جوارحه، وهو أعرف بحاله ونفسه، وإنما يشهد على نفسه لأنه عالم بحاله، فهذه الأمور كلها حق، والله أعلم.

وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت –والله– رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم، تُبصر القَذَاة في عين أخيك، وتترك الجِذْل في عينك لا تبصره.

بمعنى أنه عالم بحاله، وإن حصل منه غفلة وإعراض فصار شغله بعيوب الناس –بعيوب الآخرين– مع تجاوز لأخطائه وعيوبه وذنوبه وتقصيره وفجوره.

وقال مجاهد: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} ولو جادل عنها فهو بصير عليها، وقال قتادة: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقال السدي: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} أي: حجته، كقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣].

يعني هذه الأقاويل ليست متنافية، الآن لو جادل عنها فهو بصير عليها، والقول: إنه لو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه أي لو اعتذر وهو أدرى أن هذا غير حق وأنه عذر كاذب وأن حاله غير ما ذكر، وكذلك قول العوفي عن ابن عباس –ما رواه العوفي عن ابن عباس–: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} هي الاعتذار، أخذه من ظاهر اللفظ، {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [سورة غافر:٥٢]، فهذا أحسن من تفسيره بإرخاء الستور.

وكقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [سورة المجادلة:١٨].

وقال العوفي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} هي الاعتذار ألم تسمع أنه قال: {لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [سورة غافر:٥٢]، وقال: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ} [سورة النحل: ٨٧]، {فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [سورة النحل:٢٨]، وقولهم: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}.

هذه الطريقة في الترجيح جيدة، كيف نرجح بين القولين؟، الآن {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} أي: أعذاره، أو أرخى ستوره فعصى الله -عز وجل- في مكان لا يراه فيه الناس؛ ليخفي عيوبه عنهم، فهو أعرف بنفسه، كيف نرجح بين القولين؟ نستطيع أن نقول: إنه يجب حمل القرآن على المعنى المتبادر دون المعنى الخفي، فهذا وجه، كذلك أيضاً نقول: المعنى الأول يوجد ما يشهد له من القرآن، بخلاف المعنى الثاني، {لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ}، فـــ "معذرة" هنا الظاهر أنها العذر وليس المقصود بها الستور.

{لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [سورة القيامة:١٦-٢٥].

هذا تعليم من الله -عز وجل- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله -عز وجل- إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى: جمعه في صدره، والثانية: تلاوته، والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه.

يعني {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} جمعه في صدرك، {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، وأصل مادة "قرأ" عند جمع من أهل العلم، وهو اختيار ابن فارس -رحمه الله-: أنها تعود إلى الضم والجمع، وتدور على هذا المعنى سائر الاستعمالات، وإن قيل غير هذا، فـــ {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} أي: جمعه في صدرك، وقراءته، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} اتبع قرآنه: أي استمع إلى القراءة وأنصت لها، ولا تحمل هم حفظ هذا المتلو أو الموحى به، ويمكن أن يكون {فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي: فاتبع ما تضمنه، اتبع هذه الشرائع والأحكام التي أوحى الله -عز وجل- بها إليك، والأقرب في المعنى -والله تعالى أعلم- هو الأول، فهو يرشده كيف يتلقى الوحي، ما هو في قضية الأحكام والعمل بالأحكام؛ لأنه يوحي إليه ثم يبين له معانيه ثم يطالبون بالعمل بها، فهو يقول: لا تعجل به، لا تحرك شفتيك وتسابق الملك من أجل أن تتلقفه منه وتضبط ذلك وتحفظه، فنحن نكفيك، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}، استمع وأنصت لما يتلو عليك الملك ويوحي إليك، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} أي: توضيح معانيه، فيلهمه الله -عز وجل- ويعلمه ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه))[٢]، وهي السنة شارحة للقرآن، ويبين الله -عز وجل- له معاني القرآن، وبعض السلف يقول: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} أي: أننا نبينه على لسانك، بمعنى أنه بلسان عربي مبين، أي: أنه يبينه على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس معناه تفسير المعاني، وإنما بمعنى أنه يُنطق رسوله -صلى الله عليه وسلم- به، يجريه على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-، يبلغه للناس، ولا شك أن هذا نوع من البيان، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}، فالبيان تارة يكون بمجرد التلاوة على الناس، وتلقينهم للقرآن، وتارة يكون ببيان المعنى وشرحه وما يحتاج إليه، وكل ذلك حاصل من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد ذكرنا لكم قبلُ -في أصول التفسير، أو في شرح مقدمة شيخ الإسلام- أن الأقرب هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يفسر لهم القرآن لفظة لفظة بمعنى يشرحها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى هذا،

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٧١٧٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرَشي فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو ثقة، حريز: هو ابن عثمان الرحبي".

وإنما فسر لهم ما يحتاجون إليه فقط، وما زاد على ذلك فهو غير خارج عن قوله -تبارك وتعالى-: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [سورة النحل:٤٤]، وهو ما احتج به شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر لهم القرآن جميعاً، فيقال: إن قوله: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} بمعنى: يبين لهم المعنى، يشرح لهم ما يحتاجون إليه، وما لا يحتاجون إلى تفسيره فإنه يبلغهم إياه، كما قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- آيات الربا، وكذلك توبة كعب بن مالك وأصحابه، كل ذلك قرأه على الناس -عليه الصلاة والسلام-، و جلس لهم وشرح لهم ما يحتاجون لتفسيره.

ولهذا قال تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} أي: بالقرآن، كما قال تعالى: {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [سورة طه:١١٤].

ثم قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ} أي: في صدرك، {وَقُرْآنَهُ} أي: أن تقرأه، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ} أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله -عز وجل-، {فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك.

إي، ولا تستغربون أن {وَقُرْآنَهُ} بمعنى: قراءته، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [سورة القيامة:١٨] أي: قراءته؛ لأن القرآن يأتي بمعنى القراءة؛ لأنه مصدر، يأتي بمعنى القراءة ويأتي بمعنى المقروء، هذا الكتاب العظيم يقال له: القرآن بناءً على أنه مشتق وهو الراجح، مشتق من القراءة، وقيل غير ذلك، لكنه مشتق على الأرجح، فتأتي لفظة القرآن، القراءة مصدر والقرآن بعضهم يقول: هو اسم مصدر، فالقرآن يأتي بمعنى القراءة، ويأتي بمعنى المقروء كما هو حال المصادر غالباً، فالمقروء هذا الكتاب يقال له: قرآن، والقراءة مثل هنا {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي: قراءته، كما قال حسان في عثمان -رضي الله عنه-:

ضحَّوْا بأشمطَ عُنوانُ السجودِ بهِ *** يُقطِّع الليلَ تسبيحاً وقرآناً

وقرآناً يعني: وقراءة، يمضي ليله في قراءة القرآن.

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه -قال: فقال لي ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنا أحرك شفتيّ كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحرك شفتيه، وقال لي سعيد: وأنا أحرك شفتيّ كما رأيت ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يحرك شفتيه- فأنزل الله -عز وجل-: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} فاستمع له وأنصت، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه.

وقد رواه البخاري ومسلم، ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله -عز وجل.

سبب تكذيب يوم القيامة حب الدنيا والغفلة عن الآخرة:

وقوله: {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ} أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الحق والقرآن العظيم: إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

كلمة "كلا" تدل على الردع والزجر، وبعض أهل العلم يقول: الردع هنا والزجر عن أي شيء؟ عن العجلة، التي هي من طبيعة الإنسان، كما قال الله –عز وجل–: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [سورة الأنبياء:٣٧]، {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء:١١]، فهذا الردع نظراً لهذه الصفة المذمومة في الإنسان، ولكن المعنى المتبادر للآية –والله تعالى أعلم–، {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} يعني: الدنيا، {وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ} يعني: دار المقامة، والمعنى الأول الذي ذكره بعض السلف، {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ}، قالوا: المراد أنهم يستعجلون، هذا مما يؤخذ ويستنبط من هذه الآية وليس ذلك هو معناها الظاهر المتبادر، معنى الآية: {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} يعني: الدنيا، وليس العجلة، وقيل لها عاجلة لسرعة انقضائها، وتحولها، فهي لا شيء بالنسبة للآخرة، {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ}، فقابل هذا بهذا، وبالتالي لا يسوغ بحال من الأحوال أن تفسر العاجلة بغير الدنيا، والمعنى الذي ذكره مَن ذكره أن المقصود به العجلة هو يؤخذ ويستنبط من هذا، هم حينما أرادوا الدنيا لفرط عجلتهم استعجلوا النعيم واللذة قبل أوانها، فعوقبوا بحرمانها، ومن استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، فهؤلاء استعجلوا الخمر واللذات، واستعجلوا معاصي الله –عز وجل– في الدنيا، {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا} [سورة الأحقاف:٢٠]، فالإنسان هذه طبيعته يؤثر الفاني على الباقي، وينظر نظراً قريباً يريد أن يحصل شيئاً قريباً في متناوله، ويترك الأمور العظيمة إذا كانت بعد حين، فهذا من عجلته، إنما أوقعه بذلك هو هذه الطبيعة التي جبل عليها، ولكن لا تفسر الآية {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} بمعنى: العجلة، لكن لا يمنع أن يفهم من الآية أنها تعليم للأناة، كما علم الله –عز وجل– قبلها نبيه –صلى الله عليه وسلم– الأناة بقوله: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} فهذه تعليم له بالأناة في التعلم والتلقي، لا يستعجل، فيسمع ويحسن السماع، ولا يستعجل يبادر بالسؤال أو بتحريك شفتيه أو نحو ذلك قبل أن يقضي الكلام الذي يسمعه، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أنه يؤخذ منها أدب في التعلم أن الإنسان لا يبادر بالسؤال، أو بالاعتراض أو بالرد أو بالمناقشة قبل أن يستمع بقية الكلام، ثم بعد ذلك ينظر فيه فإن كان حقاً قبله وإن كان فيه إشكال ناقش هذا.

رؤية الله في الآخرة:

ثم قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} من النضارة، أي حسنة بهيّة مشرقة مسرورة، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} أي: تراه عيانا، كما رواه البخاري –رحمه الله تعالى– في صحيحه: ((إنكم سترون ربكم عَيَانا))[3].

هو هذا، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تفسر الآية بغير هذا، أبداً، وكل تفسير غير هذا فهو باطل قطعاً، والأحاديث الواردة في الرؤية أحاديث متواترة لا ينازع فيها إلا مكابر، ويمكن أن تؤوّل آيات الوعيد وغيرها، ولربما يكون ذلك أسهل على المتأول من تأويل مثل هذه الآية التي تواترت النصوص بتقرير معناها، انظر إلى قوله –تبارك وتعالى–: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} تحدث عن الوجوه، أي أنها موصوفة بالنضارة والبهاء والحسن والوضاءة، وهي وجوه أهل الفضل والخير والإيمان والصلاح، بخلاف أهل الفجور فهي إلى السواد، فكلما ازدادت معاصيه وأظلم قلبه ازداد كلوحاً وظلمة، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} بها

---

٣ – رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول اللَّهِ تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٥).

نضرة من النعيم، **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** أضاف النظر إلى الوجوه التي فيها الأبصار، ولا يمكن أن يفسر ذلك بالانتظار، منتظرة ثوابه كما يقول أهل التحريف من المعتزلة، أبداً، هو يتحدث عن الوجوه، ونظر الوجوه التي فيها البصر، **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}** حسنة جميلة فيها نضرة النعيم، تنظر إلى ربها -تبارك وتعالى-، وهذا أعظم لذةٍ ونعيمٍ، فلفظ النظر يعدى بنفسه فيكون بمعنى الانتظار، انظرونا بمعنى انتظرونا، كما في قوله تعالى: **{انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ}** [سورة الحديد:١٣] يعني: تمهلوا انتظرونا، وذلك على الصراط، ويعدى بـ"إلى" وإذا عدي بـ"إلى" فهو لا يفسر بحال من الأحوال بغير النظر بالعين، النظر الحقيقي، ويعدي بـ"في"، يقال: نظر في كذا، فيأتي بمعنى التأمل والتفكر وإجالة الذهن في هذا الأمر، تقول: سأنظر في أمرك، نظرت في أمر كذا، نظرت في قول فلان، نظرت في هذه المسألة، بمعنى أجلت الذهن فيها.

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله -عز وجل- في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث.

أحاديث الرؤية رواها أكثر من عشرين صحابياً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، رواها نحو واحد وعشرين صحابياً من طرق مختلفة، ونص على تواترها جماعة من أهل العلم.

من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها؛ كحديث أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- وهما في الصحيحين: ((أن ناسا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم تَرَوْن ربكم كذلك))[٤]، وفي الصحيحين عن جرير -رضي الله تعالى عنه- قال: نظر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى القمر ليلة البدر فقال: ((إنكم تَرَوْن ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا))[٥].

يعني بمعنى أنهم يرون الله -عز وجل- رؤية حقيقية بأبصارهم، بعين رأسه، ولا تضارون في رؤيته أي لا يلحقكم الضرر بسبب هذه الرؤية، تضارون بسبب الزحام مثلاً أو نحو ذلك كما في اللفظ الآخر: ((لا تَضامُّون))، أو ((لا تُضامُون)) أيضاً بمعنى لا يلحقكم الضيم، أو لا تَضامُّون بمعنى لا تزدحمون على رؤيته، كما ترون القمر، القمر يراه كل أحد ولو كان خالياً، لا يحصل تزاحم كما يحصل على رؤية بعض الأشياء التي في الدنيا، لو ازدحم الناس ليروا شخصاً مثلاً أو جوهرة أو نحو هذا فيزدحمون ازدحاماً شديداً عليه، لكن يرون الله -عز وجل- من غير هذا.

وفي أفراد مسلم عن صهيب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا دخل أهلُ الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيضْ وجوهنا؟ ألم تدخلْنا الجنة

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول اللَّهِ تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٣).

٥ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٣).

وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة، ثم تلا هذه الآية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}))[٦] [سورة يونس:٢٦].

وفي أفراد مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- في حديثه: ((إن الله يتجلَّى للمؤمنين يضحك))[٧] يعني في عَرصات القيامة، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم -عز وجل- في العرصات، وفي روضات الجنات.

ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيق، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهُدَاة الأنام.

يدل عليه من القرآن مفهوم المخالفة كما في قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [سورة المطففين:١٥]، كما قال الشافعي: إذا حجب هؤلاء في حال السخط فإن أهل الإيمان يرونه في حال الرضا، هذا مفهوم المخالفة، ولذلك حرمانهم من رؤية الله -عز وجل- وحجبهم عنه أعظم، لا شك أنه أعظم من أعظم العذاب الذي يقع بهم، فيكون من أعظم النعيم الذي يحصل لأهل الجنة هو أنهم يرونه -تبارك وتعالى.

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨١).

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القيامة من الآية (٢٤) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تظن أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [سورة القيامة:٢٤-٢٥] **هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تُغيَّر ألوانها.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -عز وجل- ما أعطى أهل الإيمان من النضارة والبهجة والضياء في وجوههم، وما يظهر عليها من أثر النعيم والسرور ذكر وجوه أعدائه كيف تكون في ذلك اليوم، فقال: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ}**، فما ذكر هنا في تفسيرها من أنها كالحة أو متغيرة هو بمعنى واحد، لأن كلوحها -كون هذه الوجوه كالحة- أي أنها تضرب إلى السواد، مسودة، فهذا معنى متغيرة، وهذا مما يسميه العلماء كما مر في مقدمة أصول التفسير، يسمونه باختلاف التنوع، بمعنى أنا لا نحتاج أن نرجح بين هذه الأقاويل، فكلها حق، هي متغيرة تميل إلى السواد، أو مسودة، وذلك لشدة ما يعانيه أصحابها من المذلة والمهانة، فتسود وجوههم كما قال الله -عز وجل-: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [سورة آل عمران:١٠٦]، أي: يقال لهم: **{أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}**، والعرب تقول لمن وقع في شر فعله يقولون له: اسود وجهه، ويدعون عليه بسواد الوجه، ومن الوجوه التي تذكر في معنى باسرة أنها من شدة إحراقها وتعذيبها في النار تبدو الأسنان لتقلص الشفاه، وذلك شيء مشاهد، إذا أحرق رأس البهيمة على النار مثلاً فإن أسنانها تبدو، تظهر، فبعضهم يقول: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ}** أي: أن أسنانها تظهر من شدة التعذيب أو من شدة الإحراق، أو لِمَا يحصل للوجه من الانقباض بسبب الحرارة والنار والإحراق فتبدو أسنان هذا الإنسان، والقول الأول أقرب -والله تعالى أعلم-؛ لأن الله -عز وجل- يتحدث عن أحوال القيامة، وعن أهوالها، فذكر نظر أهل الإيمان وما يحصل له من الإشراق في ذلك اليوم، وذكر حال هؤلاء بما يحصل لهم من سواد الوجوه، ومعنى **{بَاسِرَةٌ}** أي: أنها كالحة مسودة متغيرة، والله تعالى أعلم.

{تَظُنُّ} أي: تستيقن.

{تَظُنُّ} أي: **تستيقن**؛ لأن الظن يأتي بمعنى اليقين، كما قال الله -عز وجل-: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** [سورة البقرة:٤٦]، فليس المعنى أن هؤلاء غير متيقنين، وكذلك قول الجن: **{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا}** [سورة الجن:١٢]، فالظن هنا ليس معناه الطرف الآخر -وهو طرف الرجحان- الذي يقال له: غلبة الظن، حيث تقسم المعرفة أو تقسم الأمور من هذه الحيثية إلى العلم

الذي يسمونه اليقين، ثم غلبة الظن، يسمونه الظن الغالب أو الظن -إذا أطلق-، ثم بعد ذلك الشك وهو مستوِي الطرفين، ثم الوهم وهو ما دونه -الطرف المرجوح-، فليس الطرف الأعلى هو الظن هنا، وإنما المقصود به اليقين، فالظن يطلق على اليقين، ويطلق على طرف الرجحان في القسمة التي ذكرتها آنفاً، القسمة الرباعية.

{أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أنْ ستدخل النار.

هذه الأقوال كلها مما يسمى بخلاف التنوع، لا نحتاج إلى أن نرجح قولاً على قول، فـ {تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}، الفاقرة: الداهية العظيمة، تقول: هذه فواقر، وتقول: فواقر الدهر أي دواهيه العظام، وما أشبه ذلك، فـ {تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} دخولها للنار فاقرة، وتعذيبها فاقرة، وحصول الداهية وقوع الدواهي والأمور العظيمة لا شك أن هذا منها، والشر دخول النار أعظم الشر، فهي تعلم وتستيقن أنه يفعل بها، وهذا مما يرجح القول الذي ذكرته آنفاً بأن باسرة بمعنى كالحة؛ لأنها تنتظر الدخول في النار، تنتظر العذاب، لم تحرق بالنار بعد.

وهذا المقام كقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [سورة آل عمران:١٠٦] وكقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس:٣٨-٤٢]، وكقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} إلى قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [سورة الغاشية:٢-١٠] في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

{كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [سورة القيامة:٢٦-٤٠].

يحصل اليقين عند الاحتضار:

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال -ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت- فقال تعالى: {كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} إن جعلنا {كَلا} رداعة فمعناها: لست يا ابن آدم تُكذِّب هناك بما أُخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا، وإن جعلناها بمعنى "حقا" فظاهر، أي: حقا إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع تَرقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله تعالى: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الواقعة:٨٣-٨٧]، وهكذا قال هاهنا: {كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ}.

هؤلاء الذين كذبوا بما بعد الموت وكذبوا، فعلى الوجه الأول يقول: عندئذ لا تكذيب؛ لأنهم عند ذلك يعرفون حقيّة ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، إذ إنهم يرون ملائكة العذاب أو يرون ملائكة الرحمة، إذا

بلغت الروح الحلقوم هنا فهذه هي التراقي، هذه ثغرة النحر وهذه هي العظام، هذه التي يقال لها التراقي، فإذا بلغت الروح هنا في هذا المكان فعندئذ يكون الجسد جثة هامدة والروح تغرغر توشك أن تخرج، فعند ذلك لا تنفع التوبة، ولا ينفع الندم، ولا ينفع الإيمان؛ لأن الإنسان يكون قد عاين مصيرة وما يئول إليه، وعرف الحقيقة، فلا تكذيب عندئذ، هذا إذا قلنا: إنها للجحد "كلا"، وإذا قلنا: إنها بمعنى حقاً، حقاً إذا بلغت التراقي عرف الإنسان عندئذ حاله ومآله.

{وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} قال عكرمة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: أي مَن راقٍ يَرقِي؟ وكذا قال أبو قلابة: {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} أي: مَن طبيبٌ شافٍ.

هذا كله لا إشكال فيه؛ لأن الرقية لون من الطب، والطب يقال له: رقية، فالرقية تطلق على الرقية بما يقال من التعاويذ والكلام والأدعية والتلاوة وما أشبه ذلك مما يقال مما اشتهر عند الناس من أنه رقية، وكذلك تطلق الرقية على التطبب، فالرقية لون من ألوان الطب، {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} أي: مَن طبيبٌ؟، هل مِن طبيب يشفيه؟، سواء كان ذلك قيل على سبيل الاستبعاد، يعني مَن يشفي مِن هذا؟ {مَنْ رَاقٍ} من يشفيه؟ من يرفع ما به؟ مثل إذا قيل لك: هذا الإنسان داوِه تقول: من يداوي هذا؟، من يداوي علته؟ لكن هذا أبعد، والمعنى الآخر أقرب، وهو أن المراد {مَنْ رَاقٍ} أي: أنهم يطلبون له من يداويه ويرقيه، وهذا هو الأقرب المتبادر –والله تعالى أعلم– خلافاً لمن قال: {مَنْ رَاقٍ} أي أن هذا السؤال يتوجه في تلك الحال أي: من يَرقَى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟، فهذا سواء قيل: إن القائل به هو ملك الموت أو أن القائل به هم من عند الميت، فهذا أمر بعيد، ولا حاجة لذكره أصلاً هنا على هذا المعنى، الكلام على خروج الروح وما يلاقيه الإنسان عندئذ، ومعاينة الحقائق، وما يعظه الله –عز وجل– به، فالناس عادة في ذلك الموقف يبحثون له عن الرقية، يبحثون له عن العلاج، فيرقونه، ويبحثون عمن يرقيه، هذه العادة الجارية في حياة الناس، وتصرفاتهم، ولكنهم لا يسألون يقولون: يا ترى من سيَرقَى بروحه أملائكة الرحمة أم العذاب؟ الروح لم تخرج أصلاً، وأما إن كان ذلك من قول ملك الموت فهذا أمر لا ندريه ولا نطلع عليه، وهل فعلاً ملك الموت يقول له مثل هذا الكلام؟ فمثل هذا مستبعد في التفسير، وإنما {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} على ظاهره، من يرقيه؟، وقول من قال: هل من طبيب يداويه؟ ليس بخارج عما ذكر، إذ أن الرقية باب من الطب، يبحثون له عن العلاج، يبحثون له عن الشفاء، ولا ينفعه شيء من ذلك، وإذا أردنا أن نتأمل في أوجه رجحان هذا المعنى نجد أنها كثيرة جداً، بل إن الحافظ ابن القيم –رحمه الله– أوصلها إلى عشرة أوجه في ترجيح هذا المعنى، {مَنْ رَاقٍ} أي: أنهم يقولون ذلك عند موته من أجل البحث عن شفاء له، من يرقيه فيرفع ما به من ضر واعتلال؟، ولذلك ذكر بعده قال: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} اجتمعت عليه الأهوال والشدائد والكروب.

وكذا قال قتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} يقول: آخر يوم في الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله.

ما فسر به ابن كثير –رحمه الله– هو المعنى الراجح، الساق بمعنى الشدة، فمن أهل العلم من حمله على ظاهره المتبادر من معنى الساق وهي ساق الإنسان، فهؤلاء منهم من قال: إن المراد {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ} أي:

ساق الميت، وهذا كناية عن كونه صار مواتاً لا حراك فيه فرجلاه كانتا تنقلانه في حياته، وفي ذلك الحين يبقى لا حراك به، ولا تنفعه هذه الأرجل فهو لا يتحرك ويمشي ويخطو بها، ومنهم من قال: إن ذلك يكون في حال الكفن حيث تلف هذه الساق فتلتف مع الأخرى، {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} أي: في حال الكفن، وبعضهم يقول: ساق الميت وساق الغاسل وهذا بعيد، وبعضهم يقول: ساق الميت وساق الكفن، فهؤلاء كلهم أرادوا حمل الساق على معناها الظاهر المتبادر، والمعنى الآخر للساق وهو معنى مشهور في كلام العرب أن الساق تطلق على الشدة والكرب، فالمعنى: اجتمعت عليه الكروب والشدائد، وتنوعت أقاويل السلف في بيان هذه الكروب، فمنهم من قال: ساق الدنيا بساق الآخرة، وبعضهم قال: إنه يجتمع عليه أمران: أهله يفكرون في تجهيزه وكفنه، والناس حوله، والملائكة في نقل روحه وأخذها، ويفعلون بها ما أمر الله -عز وجل-، وهذا فيه بعد، وبعضهم يقول: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}: أي أنه يعاني الموت وسكرات الموت، وخروج الروح وما سيلقاه بعد خروجها من عذاب ونكال، فالمقصود {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} الساق بمعنى: الشدة، {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} أي: الكروب والشدائد اجتمعت على هذا الإنسان، فراق الدنيا والأحبة ومعاناة سكرات الموت وأيضاً ما يلاقيه من الأهوال والأوجال والشدائد العظام التي لم تخطر له على بال ولم يرَ شيئاً منها قبل ذلك، عالم آخر جديد ينتقل إليه.

وقال عكرمة: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} الأمر العظيم بالأمر العظيم.

العرب مثلاً يقولون: شمرت العرب عن الساق، وتقول: فلان شمر عن ساقه، أي: أخذ بالجد وتأهب تأهباً عظيماً، فهذا معروف في كلام العرب، وبعضهم فسر بذلك قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} [سورة القلم:٤٢]، وأخذوا ذلك أيضاً من قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، وهذا المعنى وإن كان معروفاً في اللغة إلا أنه لا تفسر به آية {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} [سورة القلم:٤٢]؛ لأن الحديث يفسرها: ((فيكشف عن ساقه))[1]، لما ذكر سجودهم، ((فيكشف عن ساقه))، فهنا لا يمكن أن يكشف عن شدته فيسجدون، وإنما الساق الذي هو صفة لله -عز وجل- تليق بجلاله وعظمته، فيفرق بين المقامين؛ لأن هناك عندنا قرينة -دليل مرجح- وهنا لا يوجد، بل القرائن تدل على أن المراد هو الشدة والأمر العظيم والكرب وما أشبه ذلك.

وقال مجاهد: بلاء ببلاء، وقال الحسن البصري في قوله: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} هما ساقاك إذا التفتّا.

وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليها جوّالاً.

وقوله: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله -عز وجل-: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء -رضي الله تعالى عنه- الطويل، وقد قال الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [سورة الأنعام:٦١-٦٢].

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:٢٢- ٢٣]، برقم (٧٤٣٩).

ذكر حال المكذب:

وقوله: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه، متوليا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} أي: جَذِلاً، أشِراً، بَطِراً، كسلانا، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [سورة المطففين:٣٤]**، وقال تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ} أي: يرجع {بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [سورة الانشقاق:١٣-١٥].**

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} أي: يختال، وقال قتادة وزيد بن أسلم: يتبختر.

هذه المعاني لا منافاة بينها، {ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} أصل ذلك من التمطّط والتثاقل، {ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ} أي: يمشي مشية متثاقلة، هذه المشية المتثاقلة لها دلالات تدل على التعاظم، تدل على التبختر، تدل على عدم الاكتراث، أنه غير مكترث بما سمع، أو بما هو بصدده، أو بما خوطب به وما دُعي إليه، فيقوم جذِلاً في حال من الأشَر والبطَر والتثاقل وقلة الاكتراث والمبالاة، هذا معنى {ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى}، فلا يمشي المشية التي تدل على همة متوثبة، وتدل على تواضع وسكينة، وإنما يمشي هذه المشية، فالمشية تدل على صاحبها غالباً كما هو معروف، ولهذا ذكرها الله في أول صفات أهل الإيمان في سورة الفرقان {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان:٦٣]، وفي سورة الإسراء {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} [سورة الإسراء:٣٧].

قال الله تعالى: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [سورة الدخان:٤٩].

هذه الكلمة {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} تدل على التخويف والتهديد، قد تقال لمن أشرف على الهلكة؛ من أجل أن يحترز، وتقال لمن وقع في الهلكة فيزجر عن الوقوع، أو يؤنب على وقوعه فيها، فيقال له: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، تقال لهذا، وتقال لهذا، وهي تدل على التخويف والوعيد والتهديد، وغالباً ما تذكر مكررة {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}.

وهي تدل على حثٍّ، أو تُشعر أو تحث على التأمل والنظر والتفكر في العاقبة وما يصير إليه الإنسان {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، قف وتفكر وتأمل ولا تكن مسترسلاً مع غيك وغفلتك وإعراضك، ولهذا قال بعده: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}، هلا تفكر ونظر ويله!.

وكقوله تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [سورة المرسلات:٤٦]، وكقوله تعالى: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [سورة الزمر:١٥]، وكقوله -جل جلاله-: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [سورة فصلت:٤٠]، إلى غير ذلك.

الأقاويل فيها غير هذا كثير، يعني بعضهم يقول: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، أولى لك يعني العذاب والنكال والعاقبة السيئة، وبعضهم يقول: {أَوْلَى لَكَ} بمعنى وَلِيَكَ، يعني: ولِيَكَ ما تكره، وهذا -والله أعلم- فيه بُعد، أو ولِيَك الويل، أو أولاك الله ما تخافه وما تكرهه وتخشاه وما أشبه ذلك على أن اللام زائدة -أي في "أولى لك"-،

وبعض الألفاظ إذا سمعها الإنسان لأول وهلة فهم المراد بها، وإذا أراد أن يفكك هذه اللفظة صارت مشكلة، وهذا له نظائر كثيرة في القرآن، والمقصود بهذه الكلمة {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} أن العرب تستعمل ذلك في الوعيد والتخويف والتهديد، فيفهم ذلك العربي بمجرد الخطاب به، فإذا أردت أن تشق الشعرة والشعيرة ففي هذه المقامات يشكل عليك كثير من الألفاظ.

وروى أبو عبد الرحمن النسائي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}؟ قال: قاله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأبي جهل ثم أنزله الله -عز وجل.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} وعيد على أثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبيُّ الله بمجامع ثيابه، ثم قال: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، فقال عدو الله أبو جهل: أتُوعِدُني يا محمد؟

يمكن أن تكون أتَوَعَّدُني من الوعيد بمعنى الوعد بالمكروه.

فقال عدو الله أبو جهل: أتُوعِدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها.

لا يترك الإنسان هملاً:

وقوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} قال السدي: يعني: لا يبعث.

وقال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يُؤمر ولا يُنهى.

والظاهر أن الآية تعم الحالَيْن، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملا لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة.

الله -عز وجل- يقول: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى}، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [سورة المؤمنون:١١٥]، وكذلك ما ذكر الله -عز وجل- قبل ذلك، أو ما ذكر بعده من أنه خلقه من نطفة ثم من علقة، ثم جعله في هذه الأطوار حتى صار إلى هذا الخلق المركب السوي، المركب هذا التركيب العجيب {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، فهذا يدل على أنه لا يمكن أن يكون الإنسان قد خلق عبثاً من غير حكمة أرادها الله -عز وجل-، وهي أن يُؤمر ويُنهى ويُبتلى كما سيأتي {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان:٢-٣]، ثم يبعث {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا} [سورة الإنسان:٤]، فيجازى على عمله الصالح أو عمله السيئ، فالإنسان لا يترك سدى أي مهملاً في الدنيا من غير خطاب، من غير أمر ونهي وتكليف، كما أنه أيضاً لا يكون أمره في الآخرة كذلك سدى؛ لأنه لابد أن يكون إلى دار النعيم أو إلى دار الجحيم، والله أعلم.

والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد؛ ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى} أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى: يراق من الأصلاب في الأرحام؟.

النطفة هي الماء القليل الذي يكون في الوعاء، ويمنى أي يراق، ولذلك قيل في سبب تسمية "مِنى" لماذا سميت بذلك؟ أحد الأقاويل في وجه تسميتها: إن ذلك لما يُمنى فهيا من الدماء، أي يراق فيها من الدماء –الهدي–، فهو كان من هذه النطفة يعني الماء القليل، يقولون: نطَفَت القربةُ، هذا ينطِف ماءً، فيخرج منه هذا الماء القليل، ويراق في الأرحام، {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى} أي: يراق.

{ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى} أي: فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقا آخر سَوِيًا سليم الأعضاء.

وهذا كما فصله الله –عز وجل– في مواضع أخرى، والعلقة هي قطعة الدم الجامد، قيل لها ذلك لأنها تعلق في جدار الرحم.

فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال تعالى: {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}.

ثم قال تعالى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} أي: أمَا هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧].

والأول أشهر كما تقدم في سورة الروم بيانه وتقريره، والله أعلم.

يعني بمعنى أن {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} أن أهون هنا صيغة تفضيل على وزن أفعل، وصيغة التفضيل تأتي تارة يراد بها التفضيل لاثنين، تقال في اثنين اشتركا في صفة فزاد أحدهما على الآخر، تقول: فلان أكرم من فلان، كلاهما كريم لكنْ فلان أكرم، وفلان أعلم من فلان، ولا يقال ذلك لمن كان عادماً للصفة.

ألم ترَ أنّ السيفَ يَنقُصُ قدرُهُ *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

أقطع من العصا، هل العصا تقطع؟! فإذا قارنت بين السيف والعصا كان ذلك لا وجه له، وإنما يقال ذلك لمن اشتركا في صفة، وأما ما جاء من قول الله –عز وجل– في بعض المواضع أن الله أحكم الحاكمين، وأن الله –عز وجل– أعلم فلا شك أنه لا مقارنة بين ذلك، يعني بين صفة الله وصفة المخلوق إطلاقاً، ولذلك يحمل هذا كثيرٌ من أهل العلم على المعنى الآخر، وهو أن المراد بذلك الاتصاف، وهذا معروف في كلام العرب.

تمنّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ *** فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

أي بواحدِ، وعلى هذا فسر من فسر قول الله –تبارك وتعالى–: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧]، أي: التقي، خلافاً لمن قال: إن المراد بالأتقى أفعل التفضيل، والأتقى بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– هو أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–، فلا شك أن أبا بكر هو أتقى الأمة –رضي الله عنه وأرضاه–، وأنه سيجنب النار، ولكن ذلك لا يختص به، وإنما كل من كان متصفاً بذلك.

فقوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} على أن المراد بها التفضيل هل بالنسبة لله يوجد هين وأهون؟ هل الإعادة أهون بالنسبة لله –عز وجل–؟ كيف والله على كل شيء قدير وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؟

فالجواب عن هذا: أن هذا الخطاب خرج بالنظر إلى حال المخاطبين، وهذا كثير جداً في القرآن، أن يخاطب السامع أو المخاطب، يوجه إليه الخطاب باعتبار نظره هو، كما قال -عز وجل-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، و"لعل" للترجي على أحد المعنيين المشهورين لها، وكيف يترجى الله -عز وجل- وهو عالم أنه يؤمن أو لا يؤمن؟ أبداً، ولكن المراد بذلك {لَّعَلَّهُ} أي: على رجائكما، فوجّه الخطاب بحسب نظر المخاطب، والمعنى الآخر أن "لعل" هنا -وهو المشهور- بمعنى التعليل، أي: من أجل أن يتذكر أو يخشى، وكذلك في وصف الله -عز وجل- لقول المشركين، وما عندهم من الشبهات أحياناً يسميها حجة {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} [سورة الشورى:١٦] وما هي بحجة، من قال: إنها حجة؟!، كيف تكون حجة؟!، لكن الله -عز وجل- وصفها بذلك باعتبار نظر هؤلاء الناس الذين هم أصحابه، هم يقولون: إنها حجة، يزعمون أنها حجة، فقال: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ}، وكذلك سمى هذه المعبودات التي يعبدونها أرباباً وآلهة، وهي ليست بأرباب ولا بآلهة، يوسف -عليه الصلاة والسلام- قال: {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة يوسف:٣٩]، وكذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لحُصين: ((كم إلهاً تعبد؟))[٢]، وهذا أيضاً في القرآن: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ} [سورة طه:٩٧]، وهو ليس بإله ولا يستحق ذلك إطلاقاً لا لفظاً ولا معنى، ولكن بالنظر إلى حال عابديه، فهم جعلوه إلهاً، ولهذا استعمل الله -عز وجل- معها من الصيغ في بعض المواضع ما يصلح للعقلاء، {أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٩٥] ما قال: ألها أيدٍ تبطش بها؟، جمادات أصنام وخشب وحجر، الأصل في التعبير أن يقال: ألها أيدٍ تبطش بها؟، أم لها أرجل تمشي بها؟، أم لها أعين تبصر بها؟، وللعقلاء يقال: يمشون، يبصرون، يبطشون، فاستعمله مع هذه باعتبار أنهم جعلوها آلهة، فلهذا عاملهم القرآن وخاطبهم بحسب اعتقادهم، هذا وجه إذا قيل: إن "أهون" أفعل تفضيل، وإلا فكل ذلك مستوٍ بالنسبة لله -عز وجل-، والمعنى الثاني: أن "أهون" هي صيغة تفضيل من حيث اللفظ، ولكنها في المعنى بمعنى "هين" أي وهو هين، صيغة تفضيل بمعنى الصفة، {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧] بمعنى هين، الله أكرم وأعلى وأجل: الله هو الكريم العالي الجليل، الله أعز من زيد: الله هو العزيز، الله أعز من خلقه، لا مقارنة بين عزة الله وعزة المخلوقين، فيراد بذلك مطلق الاتصاف، هذان الوجهان، والله أعلم.

روى أبو داود -رحمه الله- عن موسى بن أبي عائشة قال: "كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"[٣]، تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي، ولا يضر ذلك.

من السنة إذا قرأ الإنسان {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} أن يقول: سبحانك فبلى، ولا يصح غيره، بمعنى أنه إذا قرأ {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [سورة التين:٨] ما يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، فإن

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٤٨٣)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٣٩٦)، والألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٠٩٨).

٣ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، برقم (٨٨٤)، وقال الألباني: "إسناده صحيح"، في صحيح أبي داود، برقم (٨٢٧).

الحديث لم يصح في هذا، إنما غاية ما صح هو هذه فقط، وكذلك إذا قرأ **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [سورة الأعلى:١] قال: سبحان ربي الأعلى، هذا ثابت.

آخر تفسير سورة القيامة، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإنسان من الآية (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله-: تفسير سورة الإنسان، وهي مكية.

هذا القول قال به بعض السلف كمقاتل وعكرمة، وإذا ذكر مقاتل فالمقصود به مقاتل بن حيان وليس مقاتل بن سليمان، فعلى قول بعض السلف -مقاتل وعكرمة-: إنها مكية، والجمهور على أنها مدنية جميعاً، وبعضهم يقول: فيها مدني، بعضهم يقول: آية واحدة وهي قوله: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}** [سورة الإنسان:٢٤]، وبعضهم يقول: لا، هذه الآية فما بعدها مكي، ونحكم على السورة بأنها مكية أو مدنية إذا وجد فيها المكي والمدني، وكثير من أهل العلم يقولون: باعتبار صدر السورة، فصدر هذه السورة نازل بالمدينة، والأصل أن السورة التي يقال: إنها نازلة في المدينة أن جميع الآيات التي فيها نزلت في المدنية، والعكس بالعكس إلا لدليل يجب الرجوع إليه، أمّا لمجرد ما يلوح من المعاني فهذا غير معتبر، فهذه السورة أكثر أهل العلم على أنها مدنية.

فمعرفة المكي والمدني يكون باعتبار الزمان، ما نزل قبل الهجرة فهو مكي وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، وبعضهم يعتبر في ذلك المكان، لكن هذا المشهور، وهو الأضبط، والله أعلم.

قد تقدم في صحيح مسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة {الم تَنْزِيلُ} السجدة، و{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان:١-٣].

هذه السورة يقال لها: سورة الإنسان، وتتسمى أيضا بأولها يقال: سورة **{هَلْ أَتَى}**، أو **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ}**، ويقال لها: سورة الدهر، هذه الأسماء الثلاثة المشهورة، وبعضهم يزيد على هذا ويقول: سورة الأمشاج، وبعضهم يقول: سورة الأبرار، ولكن مثل هذا لا ينبغي، أي أن يسمي السورةَ المفسرُ من عند نفسه، إنما يرجع في ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وما كان معروفاً في وقت التنزيل، فأسماء هذه السورة هي سورة: **{هَلْ أَتَى}**، أو **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ}**، وسورة الدهر، وسورة الإنسان.

وهذه السورة تتحدث عن الإنسان، وإن شئت أن تقول: ورحلته من بداية الخلق، قبل خلقه حينما كان عدماً، ثم حينما كان نطفة، وصار في هذه الأطوار، ثم بعد ذلك بين الله له طريق الحق وطريق الباطل، فاختار واحداً منها، ثم ما يصير إليه بعد ذلك في آخرته من النعيم أو العذاب، هذا خلاصة ما تحتويه هذه السورة،

وإن وجد في ثناياها بعض ما يتعلق بقضية أخرى، لكن الغالب أن السورة تدور حول هذا المعنى، لكن فيها توجيه للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالصبر وذكر الله -تبارك وتعالى- والصلاة وما أشبه ذلك.

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه، فقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}.

العبارة التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله-: **يقول تعالى مخبراً عن الإنسان**، لكن هذه الآية مبدوءة بالاستفهام، ومعلوم أن الاستفهام ليس خبراً، فالكلام على قسمين: إنشاء وخبر، الإنشاء مثل الاستفهام، تقول: هل أتى زيد؟ لا يحتمل الصدق والكذب، إلا من وجه آخر، بمعنى أنه يسأل سؤال المتجاهل، لكن من حيث هو لا يقال للسائل: أنت تكذب، أو أنت صادق، أين زيد؟ تقول: في الدار، فهذا لا يحتمل الصدق والكذب، كذلك الأمر والنهي، تقول: أعطني قلماً، ما يقال للقائل: إنه يكذب، فهذا يسمونه إنشاء، والقسم الآخر الخبر، فهنا هذه الآية مبدوءة بالاستفهام، فهي إنشاء، فقال ابن كثير -رحمه الله-: **يقول تعالى مخبراً عن الإنسان**، باعتبار أن "هل" هنا بمعنى "قد"، فـــ"هل" تأتي بمعنى الاستفهام وتأتي بمعنى "قد"، و"قد" لها معانٍ منها التحقيق، فإذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التحقيق في الأصل، **{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ}** أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر، فهي تقرر هذا الأمر وتخبر به، فهي خبر وليس المراد بها الاستفهام، قد أتى على الإنسان حين من الدهر، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وأهل المعاني، وأهل اللغة، أنها هنا بمعنى قد، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وهو الذي مشى عليه عامة السلف، وحتى النحاة الكبار أمثال سيبويه -رحمه الله- يقولون: إنها هنا بمعنى "قد"، قد أتى على الإنسان، وهذا يفهم من السياق، فإذا قلت لإنسان مثلاً تريد أن تقرره: هل أكرمتك؟، هل أحسنت إليك؟، فالمعنى: قد أكرمتك، قد أحسنت إليك، أنت لا تريد منه الجواب، وبعض أهل العلم يقول: هي تقرير ولكن يبقى من الاستفهام ما يبقى للدلالة على هذا التقرير، هكذا يقول بعضهم، أجراها بهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم-، أي أنه استفهام تقريري.

ويقول: **أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه**، لم يكن شيئاً يذكر، الذكر يأتي بمعنيين:

- إما أن يكون يذكر أي باللسان، بمعنى أنه لا يذكره أحد.
- وإما أن يكون الذكر المقصود به أنه لم يكن شيئاً يذكر أي: لا قيمة له، تقول: هذا لا ذكر له، هذه أمور لا تذكر، حصلت أحداث قليلة لا تذكر، يعني لا شأن لها ولا أهمية، بمعنى أنه لا قيمة له، ولا اكتراث، لا يُكترث به ولا يُعبأ به.

فكلام ابن كثير هنا: **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** يعني: لم يكن شيئاً يذكر لحقارته، يحتمل أن يكون مقصده أنه لم يذكر أي لا يذكره أحد بلسانه، ويحتمل وهو الظاهر أنه قصد المعنى الآخر، وهو **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** أي: لا قيمة له، وهنا الله -عز وجل- يقول: قد أتى على الإنسان حين من الدهر وقت **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}**، بعض أهل العلم يقول: حينما كان منجدلاً بطينته، والإنسان هو آدم -صلى الله عليه وسلم-، وهو أصل الإنسان، يقولون: حينما كان منجدلاً بطينته، ويعتمدون على بعض الروايات الإسرائيلية أنه كان أربعين سنة حينما كان طيناً، ثم كان حَمَأً أربعين سنة، ثم كان صلصالاً إلى آخره، حتى نفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين سنة، هذه روايات إسرائيلية، فالمقصود بغض النظر عن هذه المدد أنهم يقولون: الحين من الدهر الذي مضى

على الإنسان حينما كان تراباً ثم حمأً ثم صار إلى طين ثم صار إلى صلصال كالفخار، وهذه الطينة متغيرة من حمأ مسنون، يقولون: في تلك الأثناء، بغض النظر عن المدة، وبعضهم يقول: حينما كان في رحم أمه، على القول بأنه لم يذكر أي: لا يُخبَر عنه؛ لأنه لا يعرف باسم، فحينما كان آدم -صلى الله عليه وسلم- قبل الخلق، حينما كان طيناً فإنه لا يعرف، وكذلك الإنسان في بطن أمه لا يذكر، يقال: زيد وكذا لم يكن، فبعدما خرج إلى الدنيا صار الناس ينادونه باسمه، ويذكرونه ويتحدثون عنه، ويخبرون عنه، وما إلى ذلك، هذا إذا قلنا: إن **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** من الذكر باللسان، بالإخبار عنه، وإذا قلنا: إن الذكر هنا بمعنى القيمة والشأن فهو حينما كان طيناً لا قيمة له، وكذلك الإنسان حينما يكون نطفة وعلقة ومضغة لا قيمة له، النطفة **{ مِّن مَّاء مَّهِينٍ}** [سورة المرسلات:٢٠]، فالله يخبر عن الإنسان أنه مضى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، أي: قبل خلقه، قبل خلق جنس الآدميين كانوا في عالم العدم، **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}**، وقبل خلق الإنسان المعين، يقول: أنت أيها المخلوق، أيها الإنسان المتكبر، لماذا تتكبر وقد كنت لا شيء؟!، لم تكن شيئاً يذكر ثم صار حولك هالة، وصرت تعظم نفسك، وتريد من الناس أن يعظموك، وأن يقوموا لك في المجالس، وأن تخضع لك نفوسهم، وتذل رقابهم، لماذا هذا كله وأنت لم تكن شيئاً يُعبأ به أو يُكترث به أو يذكر؟!، **{لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}**، **{حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ}** غير محدد، قبل أن يخلق الإنسان، وحينما كان نطفة، كل ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم ابتدأ الله -عز وجل- خلقه، وأنشأه وسواه حتى تحول من العدم إلى هذا الخلق السوي العجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإنسان من الآية (٢) إلى الآية (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} [سورة الإنسان:٢] أي: أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء الخَليط بعضه في بعض.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون، وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس: الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم، أن الأمشاج هي الأخلاط، بمعنى: أنه خليط من ماء الرجل ومن ماء المرأة، وهذا الذي دلت عليه الأدلة من كتاب الله -عز وجل- ومن سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيما يظهر، وبعض أهل العلم يقول: إن الأمشاج جمع، وبعضهم يقول: إنه مفرد، ومنهم من يقول: إن هذه الأمشاج بمعنى أن ماء الرجل أبيض مع حمرة، فيه شيء من الحمرة، وماء المرأة أصفر، وبعضهم يقول: أصفر ولربما خالطه شيء من الاخضرار، فالمشهور أن ماء الرجل أبيض وأن ماء المرأة أصفر خلافاً لما يزعمه الأطباء قديماً وحديثاً -إلا من رحم الله -عز وجل- حيث يقولون: إن المرأة أصلاً لا علاقة لمائها -إن وجد- بتكوين الإنسان وخلقه، لكن الله -عز وجل- أخبر أنه {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [سورة الطارق:٧]، صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام الصدر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل: هل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال: ((نعم، إذا رأت الماء))، فضحكت أم سلمة، فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فبمَ شبَه الولد؟))[1]، وكذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة))، وكذا قال: ((إذا علا ماءُ المرأة ماءُ الرجل))[2]، فيما ينزع إليه الشبه، ومتى يكون المولود ذكراً ومتى يكون أنثى، كل هذا بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذه الأمشاج بمعنى الأخلاط، خلقه الله -عز وجل- من هذه الأخلاط.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، برقم (٦٠٩١)، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، برقم (٣١٣).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٥١٤)، وقال محققوه: "حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٥٠٠).

وقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ}، والمقصود بذلك ما تناسل من ولد آدم -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا شك فيه، والآية الأولى {لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [سورة الإنسان:١] كثير من السلف قالوا: إن المراد بها آدم -صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {نَّبْتَلِيهِ} أي: نختبره، كقوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢]، {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} أي: جعلنا له سمعا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

أي أن الله -عز وجل- أعطاه السمع والبصر ليتحقق بذلك مقصوده من تكليف هذا الإنسان وابتلائه بهذا التكليف وبغيره، ثم بعد ذلك ينقسم الناس إلى فريقين أهل الجنة وأهل السعير، وبعض أهل العلم يقولون: إن قوله: {نَّبْتَلِيهِ} محمول على معنى آخر غير هذا، وهو ما يحصل في خلقه من نقله من طور إلى طور، ولكن هذا غير ظاهر؛ لأن الابتلاء معناه الاختبار والامتحان، هذا أصله.

وقوله -جل وعلا-: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} [سورة الإنسان:٣] أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله -جل وعلا-: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [سورة فصلت:١٧]، وكقوله -جل وعلا-: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [سورة البلد:١٠].

يعني أن الله -عز وجل- أعطاه السمع والبصر وهما آلتا الاكتساب للعلوم والمعارف بحيث إنه بذلك يستطيع أن يتعلم وأن يعرف عن الله -عز وجل-، وأرسل إليه الرسل، فابتلاه بذلك كله، ثم لما بين له طريق الحق من طريق الباطل صار من الناس من يختار طريق الباطل، ومنهم من يختار طريق الحق والهدى، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان:٣]، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} هديناه: بيّنا له طريق الحق وطريق الباطل، فالهداية هنا هي هداية إرشاد وبيان، وليست هداية توفيق وإلهام.

وكقوله -جل وعلا-: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد -في المشهور عنه- والجمهور.

خلافاً لمن يقول: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} أي طريق الخروج من بطن أمه.

وقوله: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل الناس يَغْدو، فبائع نفسه فمُوبقها أو مُعْتقها))[٣].

{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلا وَأَغْلالا وَسَعِيرًا * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:٤-١٢].

---

٣ – رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق في نار جهنم، كما قال تعالى: {إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [سورة غافر:٧١-٧٢].

{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا} والسلاسل معروفة، وهذه يقيدون بها، بسلسلة **{ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}** [سورة الحاقة:٣٢]، فيُسلك بهذه السلسلة ويقيد بها ويسحب بها في النار، وهذا التقييد -كما ذكر طائفة من أهل العلم- ليس من أجل حفظه ألا يفر، فإنه لا يستطيع الفرار أصلاً، وإنما ذلك لمزيد عذابهم، وإهانتهم، وإذلالهم، والأغلال تتصل بالأعناق فتغل الأيدي، وتشد إلى العنق، وتربط أعناقهم فيقادون بهذه السلاسل، والسعير هو اللهب الشديد المضطرم، شديد الحرارة، شديد التوقد، يقال له: سعير.

ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: {إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} وقد عُلم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة.

{إِنَّ الأَبْرَارَ} بعض أهل العلم يقولون: ما ذكر هنا بعده إنما هو للأبرار، ويجعلون ما سيذكر بعد ذلك للمقربين، فيفرقون بين هذا وهذا، ومشى طوائف من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وتبعهم في ذلك مَن تبعهم من المفسرين على أن ذلك الجزاء كله لهؤلاء العباد المخلصين ممن يوصفون بأنهم من الأبرار، ومن المقربين، أي أنهم طائفة واحدة، **{إِنَّ الأَبْرَارَ}** وهم أهل البر والصدق والديانة والصلاح والإخلاص، **{يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}**، الكأس معروف، وهو الإناء الذي يشرب به، ولا يقال له ذلك إلا إذا كان ممتلئاً بالشراب، فإذا كان فارغاً فإنه لا يقال له ذلك، يعني أن الكأس يطلق على مجموع الأمرين، يطلق على هذا الوعاء إذا كان فيه الشراب، مثل الإنسان يطلق على مجموع الروح والجسد، فإذا كان روحاً مجردة من غير جسد هذا لا يقال له: إنسان، وإذا كان جثة وفارقته الروح فإنه يقال له: جثة، ولا يقال: إنسان، فهو مجموع الأمرين، فالمقصود هنا أن الله -عز وجل- قال: إنهم يشربون من هذه الكأس **{كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}**، وهذه الكأس المراد بها الخمر، وهذا هو الغالب في إطلاقها، حتى قال بعض السلف: كل كأس في القرآن فهو الخمر، وهذا قاله الضحاك، وهذا ما يسمى بالكليات في التفسير، وليس الكليات في القرآن، **{يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ}** قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو الخمر، وهذا يحتاج إلى تتبع واستقراء، وكثيراً ما يطلق الكأس -حتى في كلام العرب- ويراد بها الخمر، كما قال بعض المُجّان:

وكأسٍ شربتُ على لذة ** وأخرى تداويتُ منها بها

يقول: ورُبّ كأسٍ شربت على لذة، شربها ليتلذذ بها، والأخرى شربها من أجل أن يتداوى منها بها؛ لأن الكأس الأولى التي يشربها يصيبه منها الإدمان، فيحتاج أن يشرب مرة بعد مرة، ويصيبه منها الصداع، ويصيبه منها ألوان الأدواء في البطن، فيقول: الأولى شربتها على لذة، والثانية كما قال الآخر:

وداوني بالتي كانت هي الداءُ ***

وقد عُلم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة.

بعض السلف يقولون: الكافور هنا عين، **{إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}**، يقولون: الكافور هو عين في الجنة يقال لها: الكافور، وبعضهم يقول: المقصود بذلك طيب الرائحة، أنها طيبة

الرائحة، فالله -عز وجل- قال: **{كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}**، فينبغي أن يقال: إن ذلك على ظاهره ولكن كافور الجنة ليس ككافور الدنيا، والمقصود: أن الناس في الدنيا لربما مزجوا الخمرة بشيء من الكافور لتحقيق معنيين اثنين: الأول: هو الرائحة؛ لأن رائحة الخمر كريهة، كما أن طعمها كريه، كما أن لونها كريه، فالأمور الثلاثة جميعاً: اللون والطعم والرائحة التي من أجل واحدٍ منها -على الأقل- يُستلذ الشراب، فإذا اجتمعت كان ذلك غاية اللذة، كلها منتفية عن خمر الدنيا، فلونها غير جيد، فهي تضرب إلى السواد أو إلى الحمرة، وربما كان فيها صفرة مع كدرة، ورائحتها بشعة، وإذا أريقت في مكان فإن هذا المكان لربما ظل أسابيع، إذا كانت كميات كبيرة براميل من التي لربما يتلفها أهل الحسبة يبقى ذلك المحل أو الشارع أو الزقاق يبقى في غاية النتن، مدة طويلة، أسابيع، ثم إن طعمها يكون في غاية البشاعة فيما وصفه أهل العلم، طعمها كريه، ويعقب ذلك الصداع، وألم البطن -المغص-، ولذلك تجد كثيراً من هؤلاء الشُّرّاب يتقيئون -أكرمكم الله- بعد شربها، ولربما لعق قيئه؛ لأنه سكران كما هو مشاهد، ويفعلون أقذر من هذا، ذاك الذي توضأ ببوله فجعل يتمضمض ويستنشق ويغسل وجهه ويقول: الحمد لله الذي جعل الصلاة نوراً والماء طهوراً، وفي البلاد التي يوجد فيها حانات تبيع الخمور، وهي الأماكن التي تفتح عادة؛ لأن الأسواق تقفل في عامة البلاد في الساعة الخامسة تقريباً أو عند المغرب، لا تكاد تجد أحداً يمشي ولا تفتح إلا محلات الخمور، ولا ترى إلا هؤلاء الشياطين يجوبون الشوارع على أقدامهم، ولربما يركبون، ويرفعون أصواتهم بغاية البشاعة، ولربما رأيت أحدهم وهو يضرب رأسه بزجاج المحلات، في الأسواق المقفلة ولا يدري ماذا يصنع، وفي تلك البلاد التي يقولون عنها: إنها متطورة متمدنة يعطون هؤلاء أصحاب الحانات، يعطونهم بدلاً مما يلقونه من الأذى والخطر والقذر؛ لأن هؤلاء الذين يسكرون عندهم يتقيئون أيضا عندهم، ولربما أخرج الواحد منهم سلاحاً أو سكيناً أو نحو ذلك وقتل آخر في أوضاع مزرية، فالحاصل أن الله -عز وجل- خاطب بهذا القرآن العرب، والعرب في بلاد حارة، وليس عندهم وسائل تبريد كما هو الآن، فإذا ذكر لهم الظل والبرودة فإن ذلك يلمس أعماق نفوسهم؛ لشدة حاجتهم إلى مثل هذا، فإذا كان الإنسان في مكان حار، وفي شمس في أيام الصيف في الحج فإنه يبحث عن شيء بارد وعن مكان بارد، وكذلك يبحث عن الشيء الذي يشربه، الآن الناس لا يشعرون بشيء من هذا أو بكثير منه لتوفر ما يحتاجون إليه، لكن قديماً حينما كان يعز عليه أن يجد قالب الثلج إلا من مكان بعيد في الحج، ولا يصل إلى مكانه إلا وقد ذاب ثلاثة أرباع هذا، وبقيمة مرتفعة، يذهب من الصباح ولا يرجع إلا الظهر وهو يبحث عن قالب من الثلج، يَمْتَر مِنى من أولها إلى آخرها يبحث عنه، فإذا وجده كأنه ظفر بشيء هائل يأتي به إلى من معه، ولا يصل إلا وقد ذاب أكثره، ففي ذلك الحين كان الناس يعرفون قيمة الماء البارد فضلاً عن الأشياء الأخرى التي يشربونها، حيث لم تكن موجودة، وكل شيء قد تغير الآن، فالناس لا يشعرون بهذا، ولذلك ذكر الله -عز وجل- في نعيم الجنة، قال: **{وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ}** [سورة الواقعة:٢٩]، الطلح فسر بالموز، وفسر بشجر الطلح المعروف في بلاد العرب، وهو من شجر العِضاه، شجر له شوك، ترونه في الحجاز مثلاً، هذه الأشجار المليئة بالشوك يستظل الناس بها، وإذا جاءوا يحتاجون إلى تنظيف المكان؛ لأن لها من الأشواك الصلبة الشيء الكثير المتهايل يسقط تحتها، فإذا قيل لهم: طلح، ومنضود يعني قد خُضب شوكه -قطع شوكه- فهذه أحلام بالنسبة إليهم، أين يوجد هذا الشجر الذي يستظل

به وليس له شوك؟! لا يوجد في تصورهم، وهكذا إذا ذكر البرودة، ولذلك تجد في أشعار العرب يذكرون ما تمزج به الخمر، ويذكرون ما يبرد الشراب سواء كان الخمر أو الماء أو غيره، كما في قصيدة كعب بن زهير:

صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمولُ ***

هنا الآن يصف، خيال الشاعر يسرح به فذهب يصف الماء في مكان مستوٍ، صافٍ بأبطح، أضحى في الضحى لم تشتد عليه حرارة الشمس، وهو مشمول أي تأتيه رياح من الشمال فتبرده، هذا إذا سمعه العرب داخوا، إلى عهد قريب كان آباؤنا يشربون الكدر، يشربون من البئر ويعلوها ألوان الجعلان والحشرات وكأنها نُقاعة الحناء، ومن يسبق إلى هذا الشراب إلى هذا البئر يحصل القتال عليه، إلى عهد قريب قبل خمسين سنة، قتال على الماء من يصل، وتعرفون قصة يا للمهاجرين ويا للأنصار، لما سبق إلى الماء مولى لعمر يقال له: الجهجاه من غفار، ومولى لعبد الله بن أبيّ من جهينة، فازدحموا على الماء، فلطم الجهجاه الرجل الجهني صكه على وجهه، على الماء!، فهذا قال: يا للأنصار وهذا قال: يا للمهاجرين، على الماء!، وإلى عهد قريب كان الناس يتقاتلون على الماء ويشقون القرب، ويحصل بسبب ذلك من القتال والشِّجاج والأشياء التي يعرفها من عاصرها، ولا زالوا أحياء، وكانوا يضعون الرداء أو الثوب أو العمامة أو كذا دون الفم من أجل أن يشرب، هذه صفّاية الآن، يضعها ثم يشرب، وهي ما مدى نظافتها أصلاً؟! فالمقصود أن هذه الأشياء البرودة مع اللذة في الشراب والنكهة الطيبة -الرائحة الطيبة- هي غاية المنى، فالله -عز وجل- يخاطبهم بهذه الأمور التي يعرفون قيمتها، ولهذا ذكر لهم الإبل حيث أرشدهم إلى النظر إليها كيف خلقت، مع أنه يوجد من الحيوانات الهائلة الكبيرة مثل الفيل وهو أعظم من الجمل، لكنه لا يوجد في بلاد العرب، وحينما ذكر لهم ألوان الفواكه امتن عليهم بأشجار الأعناب والنخيل ولم يذكر لهم ألوان الفواكه الأخرى الموجودة في العالم طيبة الطعم، اللذيذة؛ لأنها غير موجودة أصلاً في بلاد العرب، فالقرآن خاطب الأميين بما يعهدون، و يدرك هذا مَن حُرمه.

قال الحسن: بردُ الكافور في طِيب الزنجبيل؛ ولهذا قال: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [سورة الإنسان:٦] أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويَرْوَوْن بها.

ابن كثير مشى على أن ثمّة فرقاً بين نعيم الأبرار وبين نعيم المقربين، جعل القضية منقسمة، فالأبرار دون المقربين على قول ابن كثير، بمعنى أن الأبرار يُمزج لهم من هذا الكافور مع هذا الشراب، والآخرون وهم المقربون -وهم أعلى درجة- يشربون صرفاً من غير مزج، قال: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ}** ثم قال: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}**، قال: **{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا}** [سورة الإنسان:١٧-١٨].

ابن كثير يريد أن يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}** أي: أن الأبرار يخلط لهم من ماء هذه العين مع شرابهم فقط، وهناك آخرون غير هؤلاء يشربون شيئاً آخر، قال: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}** فجعل عباد الله هنا أخص من الأبرار وهم المقربون، فهم يشربون من هذه العين

التي يقال لها: الكافور، يشربون من عين الكافور، **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا}** هذه العين التي يمزج منها شراب أهل الأبرار هي عين يشرب بها من فوقهم وأعلى منهم مرتبة وهم المقربون، يشربون منها صرفاً من غير مزج، هذا على قول ابن كثير، والذي مشى عليه كثير من المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن ذلك كله في طائفة واحدة، فالله -عز وجل- يفسر هذه العين التي يشرب بها هؤلاء الأبرار **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}**، فعباد الله هنا هم الأبرار على قول كثير من المفسرين.

ولهذا ضَمّن يشرب معنى يروى حتى عداه بالباء، ونصب {عَيْنًا} على التمييز.

قول ابن كثير -رحمه الله-: **ولهذا ضمن يشرب معنى يَروى**، حمله على هذا أن يشرب تتعدى بالباء وتتعدى بـــ"من"، وتتعدى بنفسها -يشربها-، فهنا **{يَشْرَبُ بِهَا}**، العين يُشرب منها، العين -عين الماء- يُشرب منها ولا يُشرب بها، ولكن قال الله -عز وجل-: **{يَشْرَبُ بِهَا}**، في مثل هذه المقامات يقول العلماء: هذا من باب التضمين، والتضمين يقصدون به إما تضمين الفعل أو ما يقوم مقامه، أو تضمين الحرف، وكثير من النحاة -ومشى عليه جماعة من المفسرين، وأهل اللغة- يقولون بمثل هذه المقامات: بتضمين الحرف معنى الحرف، أي أن حروف الجر تتناوب كما هو معروف، فـــ "من" تأتي بمعنى "الباء"، فالآن **{يَشْرَبُ بِهَا}** يقولون: أي يشرب منها، فالباء مضمنة معنى "من" واستراحوا بهذا، يقولون: "الباء" **{يَشْرَبُ بِهَا}** بمعنى "من"، هذا تضمين الحرف معنى الحرف، يستعمل الحرف ويراد به معنى حرف آخر من حروف الجر، والذين يقولون بتضمين الفعل لا الحرف مكان الفعل لا شك أن قولهم أوفى في المعنى وأوجه وأدق، لذلك نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وابن القيم يجرون على هذه الطريقة، وابن القيم ينسبها لحذاق النحاة وفقهاء أهل اللغة؛ لأن ذلك يكثر المعاني، فإذا قلت هنا مثلاً: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا}** بدلاً مما تقول: الباء بمعنى "من"، تقول: لا، الباء في محلها لكن الفعل يشرب ضمن معنى فعل آخر يصلح أن يستعمل معه الباء، يعدى بالباء في هذا المقام، فماذا يقال؟ **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا}** أي: عيناً يرتوي بها، أو عيناً يلتذ بها، فيشرب مضمن معنى فعل آخر وهو يلتذ ويرتوي، فالإنسان قد يشرب ولا يحصل له الري، أو ما يحصل له الالتذاذ، فأفادنا هذا التضمين هنا تكثير المعاني في التفسير، فصار هذا الفعل يدل على الشرب -يشرب- ويدل على الالتذاذ والارتواء، هذا إذا قلنا بتضمين الفعل مكان الفعل، وهذا له نظائر كثيرة جداً، كثيرة إذا أردنا أن نتواضع في العدد نقول: بالعشرات، فيمر بكم في كثير من كتب التفسير يقول: وهذا من باب التضمين، هذا هو المقصود.

وقوله تعالى: {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} أي: يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم.

التفجير بمعنى الإسالة والإجراء، فهي عين طيّعة لهم، **{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}** بمعنى: أنهم يجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها كما أرادوا، ليست كالدنيا إذا نبعت العين اتجهت إلى أدنى مكان منخفض وسالت نحوه، هذه العيون التي في الجنة يجرونها حيث شاءوا فهي طيّعة لهم، إن شاءوا جاءت إليهم في محالهم وقصورهم، حيث شاءوها انقادت لهم، فهي طيّعة منقادة يتصرفون فيها ويجرونها كما أرادوا.

والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا} [سورة الإسراء: ٩٠]، وقال: {وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا} [سورة الكهف:٣٣].

وقال مجاهد: {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} يقودونها حيث شاءوا، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وقال الثوري: يصرفونها حيث شاءوا.

وهذا كله بمعنى واحد، التفجير بمعنى: الإنباع، الإجراء، الإسالة، **{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}**، المقصود: أنهم يجرونها حيث شاءوا ويتصرفون بها كما أرادوا.

وقوله: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

هذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- بناء على أن أصل النذر بمعنى الوجوب أو الإيجاب، فالواجبات على المكلفين منها ما وجب ابتداءً أوجبه الشارع عليه، ومنها ما أوجبه المكلف على نفسه على سبيل التقرب إلى الله -عز وجل-، فهذا هو النذر المعروف، فهنا ابن كثير -رحمه الله- حمل قوله تعالى: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** على الأمرين معاً، ما أوجبه الشارع ابتداءً مثل: الصلاة والزكاة...، يوفون به أي يؤدونه ويأتون به على مراد الله -عز وجل-، وكذلك ما أوجبوه هم على أنفسهم، يعني يأتون بالواجبات، هذا معنى **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** على قول ابن كثير، وهذا قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، والقول الآخر: هو حمله على ظاهره المتبادر، وذلك أن لفظة النذر لفظة شرعية لا تفسر بمجرد المعنى اللغوي، والألفاظ الشرعية إنما تحمل على المعاني الشرعية، فإن لم يوجد فالعرفية، فإن لم يوجد فاللغوية، بهذا الترتيب، وهذا معروف في أصول الفقه، وبالتالي فإن قوله تعالى: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** النذر له معنى شرعي ((أوفِ حينما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: نذرتُ، مباشرة أجابه بهذا الجواب، فالمقصود أنه له معنى شرعي وهو إيجاب المكلف على نفسه طاعة يتقرب بها إلى الله -عز وجل- من غير إيجاب الشارع ابتداءً، هو الذي أوجب هذا على نفسه، لا يجب عليه، فهنا **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** تحمل على ظاهرها المتبادر وعلى المعنى الشرعي، ولا تحمل على المعنى اللغوي ولها معنى شرعي، إنما تحمل ويرجع فيها إلى المعنى اللغوي حيث لا يوجد المعنى الشرعي ولا العرفي، يعني عرف المخاطبين وقت نزول القرآن ليس الآن، فهذه بما أن لها معنى شرعياً إذن تفسر به، فيقال: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** مدحهم على الوفاء بالنذر، ولهذا يقال: الوفاء بالنذر أمر واجب ويمدح عليه الإنسان، مع أن إنشاء النذر أمر مكروه، ((إنما يستخرج به من البخيل))[٥].

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، برقم (٢٠٤٣).

٥ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، برقم (٦٦٠٨)، وبرقم (٦٦٩٢) في كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر، ومسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يردّ شيئا، برقم (١٦٣٩).

قال الإمام مالك عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن مالك عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يَعصي الله فلا يَعْصِه))[٦]، رواه البخاري من حديث مالك.

ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فاشيًا، وقال قتادة: استطار والله شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السماوات والأرض.

المستطير بمعنى المنتشر، شره مستطير أي شره عام منتشر، لا يمكن أن يتخلص منه إلا من خلصه الله -عز وجل-، ونسب الشر إلى اليوم ولا إشكال في هذا، والمقصود أن اليوم ظرف من الظروف، وإنما تقع فيه هذه الأهوال والأوجال، ولهذا جاء **{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا}** [سورة المزمل:١٧]، **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ}** [سورة البقرة:٢٨١]، مع أن اليوم ظرف لا يُتقى، ولكن هذا أسلوب عربي معروف، والمقصود اتقوا أوجال يوم، اتقوا أهوال يوم، فهذا اليوم شره مستطير أي الشر الواقع فيه كذلك.

وقوله: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائدًا إلى الله -عز وجل- لدلالة السياق عليه.

لدلالة السياق عليه، والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هنا هو الطعام، وهذا هو المتبادر، **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ}** ليس المتبادر أنهم يفعلون ذلك لمحبتهم لله -عز وجل-، وإن كان هذا أصلاً من لازم فعلهم، أنهم قدموا هؤلاء الفقراء على أنفسهم؛ لأنهم يحبون الله، لأن المتصدقين -هؤلاء المُطعِمين- يحبون الله -عز وجل- فقدموا مرضاته، لكن المعنى، **{عَلَى حُبِّهِ}** أي: على حب هذا الطعام، وهذا هو الذي يُمدح به، أن تكون هذه الصدقة كما جاء في الحديث: ((خير الصدقة جهد المقل))[٧]، وإذا كانت الحاجة داعية وماسة لهذا فهذا هو حقيقة الإيثار، وأما إذا كانت الأشياء مبذولة ومتوفرة ولا يحتاج إليها الإنسان أو يضطر إليها فإن بذله لها قد لا يكون له أثر عليه، فكلما ازدادت الحاجة كان وقع الإيثار أعظم، **{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** [سورة الحشر:٩]، فهم يقدمون هذا الطعام على حبه، هذا

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في النذر في المعصية، برقم (٣٢٨٩)، والنسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، برقم (٣٨٠٦)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان عن -صلى الله عليه وسلم-، باب من نذر أن يطيع الله فليطعه، برقم (١٥٢٦)، وابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النذر في المعصية، برقم (٢١٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٤٧٩)، وفي إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٨/ ٢١٤)، برقم (٢٥٨٩).

٧ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب طول القيام، برقم (١٤٤٩)، بلفظ: ((فأي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل))، والنسائي، كتاب الزكاة، باب جهد المقل، برقم (٢٥٢٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٤٠١)، وقال محققوه: "إسناده قوي"، وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/١٠٥) بعد أن ذكر الحديث برقم (٥٦٦): "هذا إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم غير أبي الجهم هذا"، وقال في صحيح أبي داود (٥/١٩٣): "إسناده صحيح على شرط مسلم"، حديث رقم (١٣٠٣).

الطعام ليس كثيراً عندهم ملوه وفاض في بيوتهم، وإنما تشتاق نفوسهم إليه، ويحبونه، ومع ذلك يتصدقون به ويطعمونه.

والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [سورة البقرة:١٧٧]، وكقوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢].

هذا من تفسير القرآن بالقرآن.

وفي الصحيح: ((أفضل الصدقة أن تَصدّقَ وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى، وتخشى الفقر))[٨] أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه.

وهذا يفسر به أيضاً الحديث الآخر لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أفضل الصدقة وأخبر أن ذلك ما كان عن ظهر غنى، إذا تصدق الإنسان وهو صحيح -ظهر غنى بمعنى: صحيح- شحيح يأمل الغني: أي أنه يتصدق وهو يؤمّل زيادة هذا المال، ومعروف أنه كما في الآية المنسوخة لفظاً: ((لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً))[٩].

ولهذا قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [سورة الإنسان:٨] أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما.

المسكين إذا أطلق دخل فيه الفقير، إلا إذا ذكر معه فالخلاف معروف، من أهل العلم من يقول: الفقير أشد حاجة؛ لأن الله -عز وجل- قال: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [سورة الكهف:٧٩]، قالوا: المساكين عندهم سفينة يشتغلون فيها، لكن ما تكفي لحاجاتهم الضرورية، أما الفقير فما عنده شيء، وبعضهم يقول: المسكين أشد حاجة كما قال الله -عز وجل-: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [سورة البلد:١٦]، فكأنه قد لصق بالتراب، ما عنده شيء، ويحتجون بقول الشاعر:

أمّا الفقيرُ الذي كانت حَلوبتُهُ *** ....

كانت حلوبته، قالوا: عنده حلوبة عنده معز يحلبها، فهو يجد على الأقل شيئاً يتقوت به، وقد لا يكفيه لكنه أفضل من المعدم تماماً، فإذا ذكر المسكين أو ذكر الفقير منفرداً فيدخل فيه الآخر، كما قيل: إذا اجتمعا افترقا، يعني افترقا في المعنى، إذا اجتمعا لفظاً: الفقراء والمساكين، وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، فهنا المسكين يدخل فيه الفقير {مِسْكِينًا وَيَتِيمًا}، واليتيم هو من الآدميين مَن فقد الأب، فقد أباه في حال الصغر يعني قبل البلوغ، فإذا بلغ فليس بيتيم.

وأما الأسير فقال سعيد بن جبير، والحسن، والضحاك: الأسير من أهل القبلة، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان أسراؤهم يومئذ مشركين.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الصدقة عند الموت، برقم (٢٧٤٨).

٩ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ذهاب الصالحين، برقم (٦٤٣٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً، برقم (١٠٤٨).

الأسير هنا الله -عز وجل- أطلقه، بعض السلف كسعيد بن المسيب يقول: من أهل القبلة، وبعضهم يقول: هذه الآية نسخت على القول بأن المراد بذلك أهل الإشراك، بحيث إن الأسرى في ذلك الوقت كانوا من المشركين، فيقولون: إنها نسخت بآية السيف، فالأسير ليس له إلا السيف، لا يُطعم، وهذا الكلام غير صحيح، وذلك أن آية السيف لا يصح أنها نسخت هذا القدر من الآيات مائة وأربعاً وعشرين آية، يقول: كل آية فيها عفو وصفح وإعراض وتفويض الأمر إلى الله -عز وجل- في معاملة هؤلاء الكفار منسوخة بآية السيف، فهي لم تنسخ، وإنما ذلك على أحوال، فإذا كان الناس في حالة ضعف كانت الأمة في حالة ضعف فهنا العفو والإعراض والصفح، وإذا كانت الأمة في حال القوة والتمكن فهنا يأتي إعمال السيف، فالحاصل أن الأسير هنا عام لم يخص به أهل القبلة، والأصل بقاء العام على عمومه إلا لدليل يخصصه، فهم يطعمون الطعام على حبه هؤلاء الفقراء والمساكين والأيتام، ويطعمونه أيضاً الأسرى، فهذا الأسير أنت مأمور بالإحسان إليه ولو كان كافراً، مأمور بالإحسان إليه يعني في حال أسره حتى يقرر في أمره ما يقرر، إما القتل أو الاسترقاق أو الفداء أو يطلق مجاناً -المن-، الله -عز وجل- يقول: **{فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء}** [سورة محمد:٤].

ويشهد لهذا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير، لعموم الآية للمسلم والمشرك، وهكذا قال سعيد بن جبير.

قول عكرمة هنا: هم العبيد هل يمكن أن يوجه؟ أو نرفضه ويرد ويقال: الأسير معروف في كلام العرب وانتهينا؟ يمكن أن يوجه فيقال: إن هؤلاء بمنزلة الأسير في يدك، النبي -صلى الله عليه وسلم- ألم يقل عن النساء: ((عوان عندكم))[١٠]، لهذا بعضهم قال: **{وَأَسِيرًا}** أي النساء، والعوان جمع عانٍ وهو الأسير، فكوا العاني يعني فكوا الأسير، فالمرأة أسيرة عند هذا الزوج، فهو مأمور بالإحسان إليها، وكذلك هذا الرقيق العبد هو أسير عند سيده، بمنزلة الأسير عند سيده، فهو مأمور بالإحسان إليه؛ لأنه لا يستطيع أن يتصرف ويذهب ويترك هذا السيد، فهذه الأقوال يمكن أن توجه بهذه الطريقة، وإن كان معنى الأسير معروفاً لكن يؤخذ من ذلك أن هؤلاء الذين لا يجدون حيلة وهم بمنزلة الأسير عندك أنك مأمور بالإحسان إليهم، والله أعلم.

وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة.

وقد وصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالإحسان إلى الأرقّاء في غير ما حديث.

---

١٠ - رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (١١٦٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم (٢١٥٦).

١١ - رواه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٢٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٢١٦٩)، وقال محققوه: "حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أن سليمان التيمي اختلف عليه وخولف فيه"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٦٨).

قال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن وقتادة، وقد وصى النبي -صلى الله عليه وسلم-...، هنا عام.

فقول سعيد بن جبير وعطاء والحسن: إنه الأسير الذي هو المشرك، وابن جرير يقول: هي عامة في المسلم والكافر، الأسير يدخل فيه المسلم والكافر، يدخل فيه من أسر في الحرب، ويدخل فيه أيضاً المحبوس، وهو كذلك أيضاً بحاجة إلى الإحسان.

وقد وصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: ((الصلاةَ وما ملكت أيمانكم))[11].

قال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} أي: رجاءَ ثواب الله ورضاه {لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا}.

وبعض أهل العلم يقولون: **{ويطعمون الطعام على حبه}** على حب الإطعام، وهذا من أبعد ما يكون في المعنى، على حب الإطعام، هم يحبون الطعام، وبهذا مُدحوا.

{لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً} أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس.

{لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً} الشُّكور هنا يحتمل أن تكون هذه اللفظة مراداً بها الجمع، فالشكر يجمع على الشكران والشكور، ويمكن أن يراد بها المصدر، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، مثل القعود على وزن فُعول، شكور وقعود، وركود وركوب وما أشبه ذلك، فهم يقولون: **{لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً}**، لا نريد منكم مقابلة ذلك بالهدية أو المال أو غير ذلك من الخدمة، ولا نريد منكم الشكران، سواء كان باللسان أو بغيره، ولهذا كان كثير من السلف من أهل الورع لا يأخذون ممن أحسنوا إليه شيئاً، حتى إن الواحد منهم لربما إذا قيل له: جزاك الله خيراً -إذا تصدق على الفقير- رد عليه بمثلها، بادره بالرد، لكن هو لا يريد منه حتى هذه الكلمة.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: أمَا والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب.

بعض السلف كان إذا ذهب يشتري فوجد رجلاً يقول: هذا فلان فاستوصِ به، يغضب ويخرج من المحل، ويقول: إنما نشتري بأموالنا، لا نشتري بديننا، يعني: هو إمام والأمة تنتفع به، فهو لا يريد أن يأخذ مقابلاً على هذا أن الناس يراعونه في البيع والشراء، ويحابونه في ذلك ويكسرون له من الأسعار؛ لأنه فلان، وأكثر من هذا كان بعض أهل العلم إذا احتاج ماءً فجاء له بهذا الماء بعض من يأخذ عنه الحديث كان لا يقبل ذلك منه؛ لئلا يكون ذلك في مقابل ما أخذ عنه، هذه درجات عالية في الورع من أمور مباحة، هذه لا يصل إليها عامة الخلق، فالمقصود أن هذه تكون قاعدة للإنسان في عمله الصالح ودعوته إلى الله -عز وجل-، في تعليمه للعلم، أنه لا ينتظر من الناس أن يقدروه وأن يحترموه، وأن يحسنوا إليه، وأن يوصلوا إليه ألوان المعروف، والهدايا، والعطايا، والهبات وما أشبه ذلك، فيفعل ذلك من أجل الله -عز وجل-، وهذا هو الأدعى أن يستمر الإنسان على عمله، ولذلك تجد من يعمل، قد يكون يعمل في مدرسة، قد يكون في أي مكان آخر ثم لا يجد تقديراً من المدير، من المسئول، من كذا، فينقطع ويضجر، ويقول: هؤلاء لا يقدرون، أنا عملت كثيراً،

قدمت كثيراً، وأنا الذي بنيت هذا المشروع، ولم أسمع كلمة شكر، أو يوجه لي خطاب شكر، **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا}**، لا نريد منكم شيئاً، ولا ننتظر منكم شيئاً، إنما نريد ما عند الله، فإذا كنت تريد ما عند الله فلا تحزن، وكذلك المرأة في بيتها ربما تحزن وتضجر أن هذا الزوج لم يكافئها على عملها، وقيامها على الأولاد، وصبرها على أذاهم، وقيامها على شئون المنزل، تقول: لم أسمع منه كلمة عشرات السنين التي عشت معه، يقال لها: أنت تفعلين هذا من أجل الله فلا عليك، مع أننا نقول: إن هذه الكلمة لها أثر ينبغي للإنسان أن يلاحظ هذا المعنى، لكن نقول للطرف الآخر الذي يضجر وينقطع عن عمله: لا يضرك؛ لأنك تريد ما عند الله -عز وجل-، فإذا جعل الإنسان هذا الأمر بين عينيه وتذكره دائماً فإنه لا ينقطع بإذن الله -عز وجل- من عمله الصالح المتعدي إلى الآخرين، اشتغلْ واعمل وأحسن وقدم، اعمل ما تستطيع، وابذل ما تستطيع ولا تنتظر من الآخرين شيئاً، أنت تريد ما عند الله، وهذه هي حقيقة الإخلاص.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإنسان من الآية (١٠) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [سورة الإنسان:١٠] **أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير.**

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {عَبُوسًا} ضيقا، {قَمْطَرِيرًا} طويلا.

وقال عكرمة وغيره عنه في قوله: {يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطران.

وقال مجاهد: {عَبُوسًا} العابس الشفتين، {قَمْطَرِيرًا} قال: تقبيض الوَجه بالبُسُور.

وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، {قَمْطَرِيرًا} تقليص الجبين وما بين العينين من الهول.

وقال ابن زيد: العبوس: الشر، والقمطرير: الشديد.

هنا هذه الأقوال في **{عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}** منهم من أرجع ذلك إلى صفة اليوم، ومنهم من أرجعه إلى صفة الناس فيه، كل الأقوال ترجع إلى هذين المعنيين، وذلك من حيث اللغة جائز بلا شك، أن يوصف الشيء بما يقع فيه، وقد يوصف الشيء بصفته المختصة به من حيث هو، فالحاصل أن اليوم ظرف من الظروف من حيث هو لا يوصف بالعبوس، ولكن العرب قد تصف الشيء بما يقع فيه، لاسيما الظروف مثل الأيام والسنوات وما أشبه ذلك، فاليوم العبوس من جعله من صفة اليوم فسر ذلك بأنه اليوم الطويل مثلاً، وقول ابن عباس: العبوس الضيق، والقطرير الطويل أو الشديد، ومن جعله من صفة الناس في ذلك اليوم جعل العبوس صفة لأولائك الأشقياء فيه، وأن وجوههم تكون عابسة، والقمطرير أي تكون مقطبة مثلاً من شدة العبوس، يعني: أشد من العبوس، فذلك اليوم لا شك أنه يوم طويل شديد ضيق، فقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- هنا الذي نقله علي بن أبي طلحة عنه **{عَبُوسًا}** أي: ضيقاً، ضيقاً يعني: يقع عليهم فيه ضيق وشدة وكرب، ولا شك أن هذه المعاني متلازمة، هذا المعنى ملازم لمن قال: إنه تعبس فيه الوجوه، لماذا تعبس الوجوه؟ إذا ضاق الإنسان واشتد عليه الأمر، فإنه يحصل له مثل هذا العبوس، بخلاف ما إذا حصل له سرور الباطن فإنه ينبلج وجهه ويستنير، فقال: **{عَبُوسًا}** ضيقاً، **{قَمْطَرِيرًا}** أي: طويلاً، ولا شك أنه جاء في صفة ذلك اليوم في الكتاب والسنة ما يدل على طوله **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** [سورة المعارج:٤]، قيل: هو يوم القيامة، وفي رواية عكرمة وغيره عنه في قوله: **{يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}** جعله من صفة الكافر، قال: يعبس

الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، والقطران معروف، وأحضرناه مرة في درس الفقه.

يقول: وقال مجاهد: {عَبُوسًا} العابس الشفتين، جعله من صفة الإنسان نفسه، فهذه الأقوال لا منافاة بينها، فإن الكفار الآن يكونون في ضيق وشدة يظهر أثرها على وجوههم بالعبوس، والعبوس معروف وهو ضد التبسم والانشراح، ليس الانشراح فقط، فالتبسم والبشاشة وطلاقة الوجه وما أشبه ذلك يقابله العبوس، وهو ما يحصل من قبض الوجه والتقطيب، والعبوس على منازل ومراتب، فقد يشتد هذا العبوس حتى يصل إلى حالة من الكلوح في الوجه، وتجتمع فيه أطراف الجبهة مع شدة في البسور.

فالحاصل إذن {يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} تعبس فيه الوجوه لطوله وشدته، ولذلك من قال: إن القمطرير هو الشديد -وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وكثير من المفسرين- فهذا لا ينافي قول من قال: إنه اليوم الذي يشتد فيه عبوس هؤلاء الكفار، أو من قال: إنه طويل؛ لأن طوله يدل بلا شك أنه شديد، من شدته أنه طويل حتى يعرقون ويحصل فيه ما يحصل.

قال الله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [سورة الإنسان:١١] وهذا من باب التجانس البليغ، {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ} أي: آمنهم مما خافوا منه، {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً} أي: في وجوههم، {وَسُرُورًا} أي: في قلوبهم.

جمع لهم بين الأمرين كما أشرنا من قبل، {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً} أي: بهاءً وجمالاً وحسناً في وجوههم، بخلاف أولائك حصل لهم الضيق في النفوس، وظهر أثره على الوجوه بالبسور والتقطيب وكلوح الوجه -نسأل الله العافية-، يوم شديد لا تراهم إلا في حال من الكلوح والبسور.

وأما هؤلاء فوجوههم مشرقة مضيئة عليها وضاءة الطاعة -البهاء والحسن-، فالمقصود أن الله -عز وجل- جمع لهم بين هذا وهذا، {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً} أي نضارة في وجوههم، فهذا في الظاهر، {وَسُرُورًا} وهو الانشراح في الباطن، ولا شك أن بين الأمرين ملازمة، إذ إن الانشراح في الباطن يظهر أثره على الظاهر، والعكس، ولذلك تجد أن الثكلى يظهر ذلك في وجهها، والمحزون يظهر الحزن في وجهه ولو حاول أن يخفيه، وهكذا المنبسط المسرور منشرح الصدر يظهر ذلك على وجهه، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سُر استنار وجهه -صلى الله عليه وسلم- حتى يكون كفلقة القمر، من إضاءته وإشراقه -عليه الصلاة والسلام-، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة:٢٢-٢٣]، وصفها بالنضارة وما يحصل لها من اللذة والسرور بالنظر إلى وجه الله -جل جلاله-، فهذا كله من هذا الباب، والله -عز وجل- يقول: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا} [سورة الأعراف:٢٦]، هذا في الظاهر، {وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} فجمع لهم بين هذا وهذا، ذكرهم بهذا وهذا، كما قال في السماء -في وصفها-: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [سورة الصافات:٦-٧]، فذكر الزينة الظاهرة للسماء بهذه النجوم، وذكر المعنى الباطن وهو أن ذلك يكون سبباً لحفظها من الشياطين من استراق السمع فلا يصلون إلى ذلك، وكذلك قول امرأة العزيز: {وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} [سورة يوسف:٣١]، فهؤلاء أعجبوا بهيئته

الظاهرة، {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ} [سورة يوسف:٣٢] فهذا يدل على جماله الباطن، أنه عفيف موصوف بالعفاف والطهر والنزاهة، وكذلك في قول الله -عز وجل-: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [سورة طه:١١٨-١١٩]، فقابل بين هذا وهذا، {أَلَّا تَجُوعَ} هذا ذل الباطن، {وَلَا تَعْرَى} ذل الظاهر، و{لَا تَظْمَأُ فِيهَا} هذه حرارة الباطن، {وَلَا تَضْحَى} ضاحين كما في الحج في صفتهم، بمعنى أنه متعرض لحرارة الشمس لا يقيه منها شيء سقف أو شجر أو نحو ذلك، فـــ {وَلَا تَضْحَى} أي: لا تتعرض لحر الشمس، فنفى عنه حرارة الباطن وحرارة الظاهر، وهكذا: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [سورة البقرة:١٩٧]، تزودوا في أسفاركم بالزاد الذي تحتاجون إليه، تقتاتونه من الطعام والشراب، ثم ذكرهم بالزاد الآخر إلى الآخرة، سفر الدنيا يحتاجون القوت، وسفر الآخرة يحتاجون فيه إلى العمل الصالح، جمع بين هذا وهذا، وهذا كثير في القرآن.

قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وهذه كقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [سورة عبس:٣٨-٣٩]، وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- في حديثه الطويل: "وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه فلقة قَمَر".

وقالت عائشةُ -رضي الله تعالى عنها-: ((دخل عَلَيّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مسرورا تَبرُقُ أسَارِيرُ وَجْهه))[1]، الحديث.

وقوله تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا} [سورة الإنسان:١٣] أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونَوّلهم وبوّأهم {جَنَّةً وَحَرِيرًا} أي: منزلا رحباً، وعيشا رَغَدًا، ولباسًا حَسَنًا.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الدّاراني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ} فلما بلغ القارئ إلى قوله: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا.

هذا كله على ترك الشهوات وعلى فعل الطاعات، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلم يحصل لهم الجزع والتسخط، إنما رضوا بما قدر الله -عز وجل- عليهم، و تفسير ذلك بالشهوات يمكن أن يخرج باعتبار أن شهوة الإنسان هي ما يميل إليه بطبعه، ولا شك أن النفس تميل إلى الجزع في حال المصيبة، وتميل إلى الدعة، فيكون ذلك سبباً لترك الطاعة، فإن الداعي إلى ذلك كله إنما هو الهوى الذي يتجارى في نفس الإنسان، ولذلك هنا {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا} يفسر بذلك كله، يقال: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا} على الطاعة، حبسوا النفس على طاعة الله -عز وجل-، وهذا فيه مشقة من جهات عدة، وصبروا على ترك المعصية، وصبروا على ما يقع أيضاً من الأكدار والنصَب فهي دار الكبد، مكابدة، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد:٤]، من كان يظن أنها محل للراحة فهو مخطئ، ومن طال عمره كثرت أحزانه، فالمقصود أنه هنا ذكر الجزاء وأضافه إلى هذا السبب وهو أنهم بسبب صبرهم جازاهم هذا الجزاء، فهم صبروا وفطموا النفوس عن

---

١ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٥٥)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، برقم (١٤٥٩).

مطلوباتها وأهوائها وشهواتها ومحبوباتها، ضيقوا عليها في الدنيا فأفضى بهم ذلك إلى سعة الآخرة، ((الدنيا سجن المؤمن))[٢]، فحبسوا النفوس عن الأهواء، فحصل لهم هذا الانفراج في الآخرة فعوضهم الله -عز وجل- من سعة الجنة وبردها ونعيمها وألوان اللذات التي فطموا النفوس عنها في الدنيا بما لا يقارن ألبته بلذات هذه الدنيا الفانية المنغصة.

{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:١٢]، الجنة تدل على السعة والبرودة، والإمام الزهري حينما زوج غلاماً له لقيه في الغداة وهو ذاهب إلى صلاة الفجر فقال: كيف وجدت أهلك؟ قال: جنة، وجدتها جنة، قال: الحمد لله، فيقول الإمام أحمد -رحمه الله-: فتلطفت به؛ لأبين له المراد، معناها أنها ما لاءمته؛ لأن الجنة تعني السعة والبرودة، وذلك من الصفات المذمومة في معاشرة النساء، وإنما يطلب الضيق والحرارة -السخونة-، فالمقصود أن الجنة تدل على السعة والبرودة، فهُم الصبر يورث لهم شيئاً من الخشونة والضيق، فأفضى ذلك بهم إلى السعة ولين العيش، **{جَنَّةً وَحَرِيرًا}**، الجزاء من جنس العمل.

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [سورة الإنسان:١٣-٢٢].

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ} وقد تقدم الكلام على ذلك في "سورة الصافات"، وذكر الخلاف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي السُّرر تحت الحجال.

يقول: **{مُتَّكِئِينَ فِيهَا}** أي: في هذه الجنة، **{عَلَى الأَرَائِكِ}**، الاتكاء يقول: ذكرنا فيه الاحتمالات، والحافظ ابن القيم فيما أذكره في زاد المعاد أنه جعل ذلك جميعاً من الاتكاء، في الكلام على الاتكاء في الطعام، ((لا آكل متكئاً))[٣]، قوله -عليه الصلاة والسلام-، فسواءً كان التمرفق أي يضع مرفقه على ما يتكئ عليه، أو كان التربع باعتبار أنه يكون متمكناً في جلسته، ويحتاج إلى وضع ذراعيه على فخذيه، فابن القيم -رحمه الله- جعل هذا من الاتكاء في الطعام في الأكل، وكذلك الاتكاء بالظهر، إسناد الظهر إلى شيء وهو يأكل، وكذلك الميل بالجنب، يعني أن يسند جنبه إلى شيء بجانبه، وكل هذا من الاتكاء، والاضطجاع من باب أولى أبلغ في هذا المعنى، فالمقصود أنه يرتفق بشيء ويعتمد عليه في جلوسه مثلاً، فالله -عز وجل- يقول: **{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ}** وهذه الجلسة فيها استرخاء، وأيضاً فيها شيء من الاسترواح، متكئين في الجنة على

---

٢ - رواه مسلم، في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٦).

٣ - رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأكل متكئا، برقم (٥٣٩٨)، وأبو داود، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل متكئا، برقم (٣٧٦٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٧٥٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، أبو نعيم: هو الفضل بن دكين، وسفيان: هو الثوري".

الأرائك، والأرائك جمع أريكة، وبعض أهل العلم يقولون: كل ما يُتكأ عليه فهو أريكة، الوسائد التي يرتفق بها يقال لها: أرائك، إذا اتكأ على فراش يكون ذلك أريكة، كل ما يُتكأ عليه فهو أريكة، وبعض أهل العلم يجعلون ذلك خاصاً بما كان من سرير ونحوه، المقصود بالسرير ما يجلس عليه -كما يقال: سرير الملك الذي نسميه الآن الكنب- من سرير ونحوه ويكون مغطى بداخل ستور أو نحو ذلك، مثل المنصة التي تجلس عليها العروس، يقولون: هذه هي الأريكة، جلوس أهل النعمة والترف قديماً بهذا الشكل، ولذلك لماذا يفعلون هذا للعروس، ويزينون لها المحل ويسمونه الكوشة، وتجده حتى في الصور والدعايات الآن يضعون لها مثل الجلسة كما يقال: سرير الملك، ويتفننون في هذا، ويبالغون في تزيين ذلك بالستور وما شابهه، وبعضهم يقول: لا يقال له أريكة إلا إذا كان بهذه الطريقة مغطى بهذا، وإلا فهو حَجَلة، يعني هذا المقعد -مكان الجلوس- من غير هذه الستور يقال له: حَجَلة في كلام العرب، ومعها يقال له: أريكة، فاجتماع هذا وهذا يقال له: أريكة، هذا القول مشهور جداً عن العلماء من أهل اللغة، ومن المفسرين، بل لو قيل: إنه أشهر الأقوال لكان ذلك القول واقعاً في محله، والله تعالى أعلم، وفي عُرف الناس الأريكة قبل مدة -يعني خمسين سنة أو نحو هذا- لربما أطلقت على ما نسميه الآن بالكنب، وهو المقعد المنجد الذي نسميه الكنب الآن، وفي عرف الناس اليوم الأريكة لون منه، وهي أدعى إلى الاسترخاء والراحة، فليس لها جوانب تحجزها من الناحيتين للاتكاء عليها، وإنما قد يكون لها ناحيتان من أجل التمدد والاسترخاء، أو لها ناحية واحدة في الجنب يسند ظهره إليها في الجنب فقط، مثل الكنب لكن ليس له ظهر، له على الجنب فقط.

في المحلات الراقية يضعون قطعة بهذا الشكل، فهذا يجلس عليه الإنسان يتمدد، الكنب تُتعب بالجلوس، فيحتاج أنه يتمدد، وأنواع منها يتحرك فيه هزاز، أو أحياناً الأقدام نفسها تتحرك، وأنواع يرتفع وينزل على الكهرباء بحسب درجة ارتفاع الرجل الذي يريدها، هذا إذا أراد الإنسان أن ينعم نفسه ويترف نفسه، وهي في غالي الأثمان، هذا في عُرف الناس الآن، لكن هذا كله من الأرائك، في أصل لغة العرب هذا يسمى أريكة، إلا عند من قال: إنه إذا كان في داخل هذه الستور، فهذا حال أهل الجنة أنهم في غاية اللذة والنعيم، يجلسون في حال من الاسترخاء والتنعم في جلوسهم بأنعم الأماكن، بعدما كانوا يقاسون حر الشمس والتعب والكد في دار الكبَد، صاروا في هذه الأماكن التي وصفها الله -عز وجل- في غاية النعيم، هذه الآيات لو أن الإنسان تأملها حقاً لزهد في الدنيا جميعاً بما فيها من أموال ونساء وأثاث ورياش وغير ذلك، لكن القلوب غافلة.

وقوله تعالى: {لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا} أي: ليس عندهم حَرّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سَرمديّ، {لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا} [سورة الكهف:١٠٨].

يعني ليس فيها حرارة، {لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا} لا يكونون ضاحين يجدون حراً، ولا يجدون برداً شديداً يؤذيهم، الناس يتأذون بالبرد، ويتأذون بالحر، ولربما تعطلت كثير من مصالحهم، واعتلت أجسامهم بسبب شدة البرد أو شدة الحر، أما الجنة فهي في غاية الاعتدال، والناس إذا جاء الوقت في حال من الغيم مع شيء من لطافة الجو الناس يستريحون جداً في مثل هذا الجو الذي يعتبر نادراً في بلادنا، فالجنة في غاية الاعتدال، لا تؤذيهم فيها الشمس، ولا حر الشمس، ولا تؤذيهم شدة البرد، {لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا}، لو قال: {لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا}، لربما ظُن أنها شديدة البرودة، فنفى الزمهرير فدل ذلك على الاعتدال، وهذا هو

المشهور عند السلف والخلف، أنهم لا يرون فيها شمساً فليس فيها حرارة تؤذيهم، وليس فيها شدة البرد، بخلاف من قال: إن الزمهرير هو القمر، قالوا: هذا في لغة طئ يسمون القمر بالزمهرير، ويذكرون قول الشاعر: وليلةٍ... أي: قطعتُها، الشعراء كانوا يفتخرون بقطع الليالي المظلمة في الأسفار وأنهم لا يخافون، ويردون الماء قبل الفجر، ويصفون شجاعتهم وبطولتهم، وهم لربما ما مشوا خمسة كيلو مترات على بعضها في وسط النهار، فالحاصل يقول:

وليلةٍ ظلامُها قد اعتكرْ *** قطعتُها والزمهريرُ ما زَهرْ

يعني: القمر ما ظهر، يعني في الليالي التي لا يسري فيها أحد، يعني الناس قديماً يوم كانوا يسافرون بالدواب كانوا يعرفون الليالي التي يمشون بها في الأسفار، فآخر الشهر وفي أوله لا يستطيعون المشي في الليل، فالمقصود أن هذا القول وإن كان لغة لبعض العرب إلا أنه لا يجوز أن يفسر به القرآن هنا في هذه الآية، وذلك أنه لا يجوز العدول عن المعنى المشهور إلى معنى خفي غير متبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا} أي: قريبة إليهم أغصانها.

هؤلاء الذين قالوا -وهم قلة-: الزمهرير هو القمر ما الذي جعلهم يقولون هذا؟ يلجئون إلى لغة طئ؟ أنه ذكر الشمس، فقالوا: إذا فسر الزمهرير بالقمر كان مناسباً، لا يرون فيها شمساً ولا قمراً، لكن هذا القول فيه نظر.

الآن قوله: **{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا}** الجنة ليس فيها شمس، فكيف يكون فيها ظل، نقول: هذا لا يردُ في نعيم الجنة، الأمور الغيبية، هي ليس فيها شمس ولا حر، ولكنها ظلال النعيم، وبعض أهل العلم يلجأ إلى القول بأن المقصود بـــ **{ظِلالُهَا}**: أن غصونها وفروعها قريبة منهم فقط، الله قال: ظلال، **{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا}**، هذه ظلال النعيم، وإن لم يكن في الجنة شمس.

{وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا} أي: متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [سورة الرحمن:٥٤].

الجَنَى: يعني ما يجتنى من الثمار، جناها دانٍ أي: قريب في متناولهم، لا يحتاج أن يأتي بعود طويل أو حديدة ويتعانى قطع هذه الثمار، ويلحقه عناء وتعب بسبب ذلك، ولربما تركه بسبب صعوبة الوصول إليه، الآن كثير من الناس من عندهم مثلاً نخيل مزارع، أو في بيوتهم نخيل كثير، أو حتى نخلة واحدة، لربما تركوه وأهملوه، وإذا سألتهم قالوا: من يجنيه؟، صعب، رأيت بعض أهل المزارع يتركونه ثم يجعلونه للدواب، يقطعونه جميعاً ويعطونه الدواب، يقولون: مكلف جداً استخراج هذا الثمر في وقته أولاً بأول، بينما ثمر الجنة كما وصف الله -عز وجل-، **{وَدَانِيَةً}**، **{وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا}** كما قال في مياهها: **{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}**، بمجرد ما يريد هذه العيون في الجنة تكون طوع إرادته، تأتيه في أي مكان شاء وهو في قصره، وهو في غرفته، وكذلك الثمار ثمار الجنة في متناولهم، بمجرد ما يشتهيها يجد أنها في متناول يده أو تصل إلى فمه، ما يحتاج إلى طلب، أو ينتظر، أو يقوم هو بعملية جنيها.

وقال -جل وعلا-: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [سورة الحاقة:٢٣].

قال مجاهد: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا} إن قام ارتفعت بقَدْره، وإن قعد تَذللتْ له حتى ينالها، وإن اضطجع تَذللت له حتى ينالها، فذلك قوله تعالى: {تَذْلِيلا}.

مذللة كما قال الله -عز وجل-: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ} [سورة يس:٧٢]، أي الأنعام بمعنى أنها طوع إرادتهم، فهذه القطوف والثمار بمجرد ما يشتهيها هي تصل إليه، سواء كان مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً.

وقال قتادة: لا يردّ أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعد.

كل هذا من تذليلها، لا يرد أيديهم عنها شوك، بخلاف التي في الدنيا فهي غير مذللة ممتنعة؛ لأن هذه الأشجار التي فيها الشوك هي بمنزلة ما يحصل من الدواب والبهائم والحيوانات والحشرات من العض أو النطح أو غير ذلك مما تدافع به عن أنفسها، فكذلك الأشجار هذا الشوك يكون حاجزاً بين الإنسان وبين الوصول إلى ما يريده منها إلا بنوع من المعاناة.

وقوله -جلت عظمته-: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ} [سورة الإنسان:١٥] أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عُرى لها ولا خراطيم.

وكثير من أهل العلم يقولون: إن الأكواب المقصود بها الكيزان الكبار التي لا عرى لها ولا خراطيم، يعني أنها تكون مثل هذا، مثل الجرة التي لا يد لها ولا خرطوم بمعنى مكان ينسكب منه الماء مخصص له في رأسها، وإنما هي مستوية الطرف في الأعلى، وكذلك لا عرى لها، الكيزان الكبار.

وقوله: {قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ} [سورة الإنسان:١٦] فالأول منصوب بخبر "كان" أي: كانت قوارير.

والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز؛ لأنه بيّنه بقوله: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}.

يمكن أن يكون هذا تمييزاً لهذه القوارير، ويمكن أن يكون بدلاً، فكأنه قال: {وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا}، أو وأكواب من فضة، وأكواب الفضة؛ لأنه قال: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ} فإذا كانت بدلاً فهي بهذا المعنى، والقوارير: القارورة هي مستقر المائع، وغالباً ما تكون هذه القوارير من الزجاج، فهنا قال الله -عز وجل-: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، فذكْرُ القوارير يدل على الشفافية، وذكرُ الفضة يدل على البياض وجودة المادة والمعدن، بخلاف مادة الزجاج فإنها ليست من الجواهر النفيسة، بل لربما كان أصله من التراب، فالمقصود أن هذه القوارير لمّا ذكرها المعهود لديهم أن القوارير إذا كانت في غاية الشفافية فهي من الزجاج، فهنا بيّن لهم لوناً آخر من القوارير غير معهود، وهي قوارير الفضة التي تشف عما في داخلها، الفضة في الدنيا لا يمكن أن تشف، ولو كانت -كما قال ابن عباس- كجناح الذباب، يعني في رقتها، ما تشف، فهنا بين لهم لوناً آخر؛ ولهذا بعض أهل العلم يقولون: كل ما في الجنة فإن الله -عز وجل- ذكر مما وصف نظيراً له في الدنيا، يعني يقربه، وإن كان هناك فرق كبير شاسع؛ فليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، يقولون: إلا قوارير الفضة هذه ليس لها نظير، لك أن تطلق خيالك.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، والحسن البصري، وغير واحد: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا.

وقوله تعالى: {قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} أي: على قدر رِيّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب رِيّ صاحبها.

يعني سواء قلنا: إن الذين قدروها هم الملائكة، أو إن الذين قدروها لهم هم الخدم، أو قلنا: إن ذلك يعود إليهم، إلى المنعّمين الشاربين، وهذا هو الأقرب، **{قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}** أي: أنها على قدر رِيّهم تماماً من غير زيادة ولا نقص، وذلك أنها إذا كانت ناقصة عن الري فإن النفس يبقى فيها طَمْحٌ وجوعة وافتقار إلى هذا المشروب كما هو مشاهد، إنسان عطشان وتعطيه كأساً صغيراً يشربه فيشعر أنه ما حصل مقصوده من هذا الشراب، وإذا كانت زائدة كثيرة فإن الإنسان يرتوي ثم بعد ذلك تعاف نفسه هذا السؤر الذي بقي، ولا تميل إليه، وتزهد فيه، أما إذا كان على قدر حاجته تماماً فهذا هو الأكمل، ولذلك يمكن أن يستفاد من هذا حتى في الدنيا، أن يكون ما يتعاطاه الإنسان للشراب والطعام على قد حاجته، من غير زيادة ولا نقص، أقصد الآنية.

{قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} أي: أنها على قدر ريهم، فيأتيهم من هذه الآنية بحسب حاجة نفوسهم، هذا **{قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}** فيكون ذلك عائداً إليهم، ما يقع في نفسه يأتيه مباشرة بهذه الكيزان.

هذا معنى قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، وقتادة، وابن أبزى، وعبد الله بن عُبيد الله بن عمير، وقتادة، والشعبي، وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإنسان من الآية (١٧) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا} [سورة الإنسان:١٧] أي: ويسقون -يعني الأبرار أيضا- في هذه الأكواب {كَأْسًا} أي: خمرًا، {كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا} فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفًا، كما قاله قتادة وغير واحد، وقد تقدم قوله -جل وعلا-: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [سورة الإنسان:٦]، وقال هاهنا: {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا} [سورة الإنسان:١٨] أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً.

قال عكرمة: اسم عين في الجنة، وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا} أي: كأساً من الخمرة طيبة الرائحة ليست كخمر الدنيا، وذكر ابن كثير -رحمه الله- أن العلة هنا هي: تحصيل الاعتدال، والمشهور الذي يذكره أهل العلم هو أن العرب كانت تستحسن مزج الخمرة بالزنجبيل؛ لطيب نكهته وطعمه، ومعلوم أن الخمرة سيئة الطعم فكانوا يخلطونها بالزنجبيل؛ ليحصّلوا طعماً طيباً، فالقرآن خاطبهم بما يعهدون من ألوان اللذات التي يعرفونها، وهذه الزنجبيل هي عين في الجنة، يخلط لهم هذا الشراب من عين في الجنة يقال لها: السلسبيل، والسلسبيل بعض أهل العلم يفسره بالمستلذ اللذيذ، والمشهور أن المراد بالسلسبيل هو السائغ السهل، السهل في جريانه ومسيله، والسهل أيضاً في حال تحصيله، فهو طيّع لهم، وهو سهل أيضاً في حال شربه، يشربونه من غير تكدير، لا يحصل لهم في شربه عناء، وإنما يسوغ في حلوقهم وأفواههم، سهل الشراب لا يجدون في ذلك عناء، فهي سهلة في جريها، وفي مسيلها، وانقيادها لهم، وشربها، يقال: ماء سلسبيل.

وقوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} [سورة الإنسان:١٩] أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدانٌ من ولدان الجنة {مُخَلَّدُونَ} أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُون في آذانهم الأقرطة فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير.

انتبهوا لهذه العبارات يقول: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ}، في الآية الآخرى: {غِلْمَانٌ لَّهُمْ} [سورة الطور:٢٤]، فهؤلاء الولدان المخلدون: الولدان جمع وليد، وهذا يعني أنهم صغار، {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ} أي: بالخدمة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الهرة: ((إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم

والطوافات))[1]، فمن الطوافين عليهم الخدم والأرقّاء، ومن في حكمهم، فهؤلاء يطوفون عليهم، أي: بالخدمة، فهم خدم أهل الجنة، وهؤلاء الصغار الذين يخدمونهم عرفنا أنهم صغار من أمرين في هذه الآية الأمر الأول: أن الله -عز وجل- سماهم بالولدان، وهذا صريح في الصغر، والأمر الثاني: أن الله -عز وجل- قال: **{مُّخَلَّدُونَ}**، فعلى أحد التفسيرات أي مُقرَّطون، أي محلون بالأقراط، وهي ما يوضع في الأذن، والذي يحلى من الذكور بالأقراط إنما هم الصغار وليسوا الكبار، وهذا معنى توجيه ابن كثير كما سيأتي بعد قليل -إن شاء الله-، فهؤلاء الصغار بعض أهل العلم يقولون: إن هؤلاء ينشئهم الله في الجنة، يخلقهم فيها لخدمة أهل الجنة، فهم خلق جديد ينشئه الله -عز وجل-، ليسوا من أهل الدنيا، وبعض أهل العلم يقولون: إن هؤلاء هم أبناء المشركين الذين ماتوا وهم صغار فهم خدم أهل الجنة، وبعض أهل العلم يقولون: هؤلاء هم أبناء أهل الإيمان، وهذا فيه نظر، -والله تعالى أعلم-؛ لأن أبناءهم يكونون معهم، وهذا هو غاية النعيم، لا أن يكونوا خدم أهل الجنة، فإن من كمال نعيم المنعَّم في الجنة أن يلحق به بنوه، لا أن يكونوا خدماً لأهل الجنة، فهم وأبناؤهم يُخدمون من قبل هؤلاء الولدان الذين وصفهم الله -عز وجل-، فهؤلاء الولدان هم ممن جعلهم الله -عز وجل- لخدمة أهل الجنة، يقول: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة **{مُّخَلَّدُونَ}**، وكلمة مخلدون في لغة العرب تأتي لمعانٍ متعددة، فمن معانيها: المخلد الذي لا يموت، والله قال عن أهل الجنة: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [سورة البينة:٨] أي: لا يموتون، وهذا معنى مشهور في كلام العرب، بل هو أشهر معاني هذه اللفظة، وهناك معانٍ أخرى صحيحة معروفة في كلام العرب، منها أن المخلدون هم من كانوا على سن واحدة، ومخلدون أي لا يهرمون، والعرب تقول لمن لم يظهر فيه الشيب ولم يسقط له سن: إنه مخلد، فلان مخلد، لم يظهر فيه أثر الأيام والليالي، يقولون عنه ذلك، وبعضهم يقول: المخلدون هنا أي: أنهم محلون بالخَلَد جمع خَلَدة وهي القُرط الذي يوضع في الأذن من الحلي، يزينون بذلك، وإنما يزين بذلك الصغار دون الكبار، فهؤلاء صغار يطوفون عليهم بالخدمة، ولا شك أن ذلك أعظم في النعيم، أن الذين يطوفون عليهم بهذه المثابة، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله-: أي على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم على حالة واحدة لا يزيدون... إلى آخره، يستلزم القول الآخر وهو أنهم لا يموتون، هم لا يهرمون وكذلك أيضاً لا يموتون، فهم باقون، وكل هذه المعاني صحيحة، أعني: أنهم مخلدون بمعنى لا يموتون وكذلك لا يهرمون ولا يتغيرون.

ويقول: ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصون في آذانهم بالأقرطة فإنما عبر عن المعنى بذلك، أنهم صغار، لم يبلغوا من العمر عتياً، ليسوا من أهل الهرم، وإنما هم صغار، فيبقى هذا الوصف فيهم دائماً؛ لأن الله وصفهم بأنهم مخلدون، فيقول: عبر عن المعنى، وذكر صفتهم بهذه الحلية، فهذا تعبير عن المعنى، المعنى أنهم صغار، فهم ملازمون لهذه الصفة لا يهرمون، ولذلك قال: ومن فسرهم... فإنما عبر عن المعنى بذلك، فهذا توجيه كلام ابن كثير -رحمه الله- وحمْلُه لهذا التفسير.

الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير، يعني أنه يحلى بالخَلَد -بالأقراط- في أذنه، كما قال الشاعر:

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، برقم (٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٦٣٦)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٤٣٧).

ومخلداتٌ باللُّجَين كأنما *** أعجازُهنّ رواكدُ الكثبانِ

فالمقصود أن "المخلدون" -والله أعلم- لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون، وإذا قيل: إنهم محلون بالخلَد فهذا يدل على ما تضمنه هذا التفسير من المعنى من أنهم صغار، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤا منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

{حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} اللؤلؤ فيه البياض والحسن والجمال، وإذا نثرته فإن ذلك يكون في غاية الجمال والحسن والبهاء في انتشاره وزهو لونه، ونقائه وصفائه، فكل ذلك حاصل لهم بما فيهم من صباحة الوجوه، وحسن الحلية بالثياب وغيرها، ووصفهم الله -عز وجل- بأنهم كاللؤلؤ المنثور لانتشارهم في الخدمة، فهم ليسوا مجتمعين، وإنما هم منتشرون متفرقون في خدمة أسيادهم، واللؤلؤ إذا نثر كان له من الجمال والحسن ما لا يقادر قدره، {حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا}، فهم متفرقون في خدمة أهل الجنة، يقومون بحوائجهم.

وقوله -جل وعلا-: {وَإِذَا رَأَيْتَ} [سورة الإنسان:٢٠] **أي: وإذا رأيت يا محمد، {ثَمَّ} أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، {رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}** [سورة الإنسان:٢٠] **أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطانًا باهرًا.**

وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: إن لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها.

فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟!.

هنا يقول: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ}، إذا رأيت هناك في الجنة، رأيت هذا النعيم والملك الكبير، هنا ابن كثير -رحمه الله- يقول: **مملكة لله هناك**، لكن يمكن أن يفسر بغير هذا، الله -عز وجل- يصف نعيم أهل الجنة، يقول: {رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} أي: لأهل الجنة، إذا كان الواحد منهم أقل أهل الجنة مرتبة يعطى ما أعطيه عشرة، مثل ما في الدنيا عشر مرات، فلا شك أن هذا ملك عظيم جداً، وغاية النعيم، هذا أدنى أهل الجنة مرتبة، {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ}، إذا رأيت هناك رأيت هذا النعيم الهائل، ورأيت هذا المُلك، الملك لأهل الجنة، أن الله -عز وجل- ملكهم ذلك، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [سورة فاطر:٣٣]، فهم في غاية النعيم والترف والملك، بعد أن حبسوا أنفسهم عن لذات هذه الدنيا وشهواتها عوضهم الله -عز وجل- بذلك، والجزاء من جنس العمل، {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا} [سورة الإنسان:٢٢].

وقوله -جل جلاله-: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} [سورة الإنسان:٢١] **أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس وهو رفيع الحرير.**

{عَالِيَهُمْ} فهم منه بعض أهل العلم أنه يرجع إلى الولدان، هو تحدث عن الولدان، {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ} [سورة الإنسان:١٩-٢١] أي: الولدان، ولكن هذا فيه نظر؛ لأن الله يصف نعيم أهل الجنة بأنهم يطوف عليهم ولدان

مخلدون، وأن أهل الجنة يلبسون من هذا الثياب الفخمة الجميلة {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ} أي: يعلو أجسادهم، {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ}، السندس هنا قال: **هو رفيع الحرير**، ويمكن أن يقال: هو ما رق من الديباج، الحرير الرفيع الثمين الجيد الرقيق الخفيف، فالحرير منه ما هو خفيف، ومنه ما هو متين غليظ، فالإستبرق هو الغليظ، والسندس هو الخفيف، فيلبسون هذا وهذا، يلبسون ثياباً خفيفة، وثياباً غليظة من هذا الحرير عالي الجودة.

ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس {وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ}.

الإستبرق معناه في الأصل هو الغليظ المتين من الديباج والحرير.

وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [سورة الحج:٢٣].

هذا بناءً على ما مشى عليه ابن كثير –رحمه الله– من أن هذه الآيات تتحدث عن نعيم الأبرار، وهناك ما يتحدث عن نعيم المقربين، ومن قال: إنها تتحدث عن طائفة واحدة، وهم أهل الجنة عموماً، أهل البر والوفاء والصدق والإخلاص والعمل الصالح فقوله –تبارك وتعالى– هنا: {وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ} والأساور جمع سوار وهو ما يوضع في المعصم، فـ {وَحُلُّوا أَسَاوِرَ} هذا لا ينافي قوله –تبارك وتعالى–: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}، فهم يحلون إما بهذا تارة وبهذا تارة، فعندهم هذا وهذا كما هو حال أهل النعيم، أو أن ذلك يجتمع لهم جميعاً، يحلون بالأساور التي تكون من فضة، وتكون من ذهب، وتكون من اللؤلؤ، وهذه الأشياء هي أجود الجواهر التي يتعاطاها الناس في زينتهم وحليتهم، فجمع لهم الله –عز وجل– ذلك جميعاً، يلبسون منه ما شاءوا، يجمعون ذلك أو يلبسون هذا تارة وهذا تارة، فكل ذلك يجتمع لهم.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– أنه قال: إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وَجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فَجَرت عليهم نضرةُ النعيم، فأخبر –سبحانه وتعالى– بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن.

الآن الله –عز وجل– ذكر شرابهم هنا بأنه سقاهم شراباً طهوراً، وهذا الشراب الطهور لم يحدده الله –عز وجل– ويبين غايته، ولكن ذلك يُدرك من هذه الصفة، ولهذا بعض أهل العلم قال: إن هذا الشراب الطهور هو الخمر التي ليست بنجسة لا حساً ولا معنى، الله قال عن خمر الدنيا: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ} [سورة المائدة:٩٠]، إلى أن قال: {رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ}، فتلك ليست موصوفة بهذا الوصف، {شَرَابًا طَهُورًا}، ولا شك أن خمر أهل الجنة طهور، وكل ما يشرب في الجنة فهو طهور، ومن أهل العلم من يقول: إن هذا الشراب الطهور يشربونه فيحصل لهم تطهير البواطن من جهتين، ليس في بواطنهم أذى، ومن ثم يدخل فيه قول من قال: إن هذا الشراب الطهور لا يتحول إلى بول وإلى عرق كما هو شراب أهل الدنيا.

تلك المكارمُ لا قَعبانِ مِن لبَنٍ *** شِيبَا بماءٍ فاستحكمنَ أبوالاً

فشراب أهل الدنيا مهما كان في اللذة والحسن والطيب والطهارة والنقاوة فإنه يتحول إلى عرق وإلى بول، بخلاف شراب أهل الجنة شراب طهور لا يستحكم في بطونهم بولاً أو في أجسادهم عرقاً، وإنما يكون كرشح المسك، هذا داخل في هذه الصفة أن الله سقاهم شراباً طهوراً، ويدخل فيه ما ذكره كثير من السلف وهو الذي يشير إليه أثر عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- هنا، وقال به جماعة كمقاتل إن هذا الشراب الطهور يطهر بواطنهم من كل دنس وأذى وغل وحقد وحسد، وهذا غاية النعيم في الجنة، الله -عز وجل- لما ذكر نعيم أهل الجنة قال: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [سورة الحجر:٤٧]، ووصفهم بأنهم **{إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}**، ليس في صدورهم غش ولا غل ولا حقد ولا حسد، والغل هذا أمر لا شك أنه على اسمه فهو كالغل الذي يوضع في العنق، فهو غل في القلب يربطه فلا ينطلق هذا القلب ويحلق، وإنما يقعده، يتمرغ في أوحال ما يعانيه من الأكدار والألم والتنغيص بسبب هذا الغل الذي في قلبه، الإنسان إذا كان يحمل الغل فإنه يتعذب في هذه الدنيا، ولربما يبيت يتقلب على فراشه من شدة ما يجد، -نسأل الله العافية-، فصاحب الغل معذب في الدنيا قبل الآخرة، وقد يكون ذلك الذي حمل الغل عليه لا يدري عنه شيئاً، يسرح ويمرح ويلهو ولا يكترث به، ولا يسأل عنه، ولم يعلم أنه يحمل هذا الغل عليه أصلاً، وهذا تتقطع كبده من شدة ما يجد، فهذا عذاب، فلا يمكن أن يكتمل للإنسان النعيم واللذة وهو يحمل هذا الغل في قلبه، فكان من تمام نعيم أهل الجنة أن ذلك يُنزع من صدورهم، **{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}**، ليس كشراب الدنيا، إن كانت هذه الخمرة فما فيها من نجس، إما حساً وإما معنى على قول من قال: إنها نجسة حساً، وهذا فيه نظر، وكذلك لا تتحول إلى نجاسة، وكذلك هي تطهر بواطنهم حساً ومعنى، **{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}**، فذكر نعيمهم الباطن، فكانت على هذا التفسير أنها تزيح ما في صدورهم من غل وحسد، فصار ذلك من اجتماع النعيم الحسي والمعنوي، هذا على قول ابن كثير كيف نوجهه؟، بناء على أن هذا الشراب الطهور يطهر البواطن من هذه الأمور المعنوية، فجمع لهم بين نعيم الظاهر وهو ما لهم من الحلي، ونعيم الباطن.

وقوله تعالى: {إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً} [سورة الإنسان:٢٢] أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [سورة الحاقة:٢٤].

الذي أسلفوه هو الصيام في أيام الحر والقيام، وطاعة الله -عز وجل-، والقيام بفرائضه، وترك حدوده، وفطام النفس عن أهوائها وشهواتها، والمكابدة والصبر، هذا الذي أسلفوه في الأيام الخالية.

وكقوله تعالى: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:٤٣]، وقوله تعالى: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} أي: جزاكم الله على القليل بالكثير.

يدخل فيه هذا المعنى، ويدخل فيه سائر المعاني التي يدل عليها لفظ الشكر، إذ إن أصل الشكر في كلام العرب بمعنى الظهور، ولهذا يقال للعُسْلُوج الذي يخرج في أصل الشجرة إذا قطعت وهو الفرع الأخضر الصغير يقال له: شَكِير، ويقال: للدابة التي يظهر عليها أثر السمن من العلف لاسيما إذا كانت تأكل من العلف قليلاً، ويظهر أثره عليها كثيراً، يقال: شكرت الدابة، ودابة شكور، فظهور أثر النعمة على المنعم عليه بالقلب واللسان والجوارح يقال له: الشكر.

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثةً *** يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

يعني ظهر أثر النعمة، يلهج بلسانه، ويقر بقلبه، ويقوم ذلك المعنى بقلبه وبجوارحه، شكر المُنعِم، ، فهذا كله من الشكر، فالله –عز وجل– يقول: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}، فيدخل فيه المجازاة على العمل، ويدخل فيه المضاعفة بالجزاء، الحسنة بعشر أمثالها، فهذا كله من شكر الله –عز وجل– لعبده، إذ إن الشكر يطلق من الله لعبده، ومن العبد لربه، {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [سورة إبراهيم:٧] شكرتم، وقوله: {لأَزِيدَنَّكُمْ} هذا من شكر الرب لعبده، فالله شاكر بمعنى أنه يجازي بالإحسان إحساناً، ويضاعف عليه في الجزاء.

يقول تعالى ممتنًا على رسوله –صلى الله عليه وسلم– بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلا {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [سورة الإنسان:٢٤] أي: كما أكرمتُك بما أنزلتُ عليك فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره.

وليس ذلك فحسب، {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، لحكمه الشرعي، ولحكمه الكوني القدري، لحكمه الشرعي بالتزام حدود الله –عز وجل– بفعل طاعته وترك معصيته، {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، وكذلك أحكام الله –عز وجل– الكونية القدرية، فلا يجزع الإنسان ولا يتسخط، وإذا أصابه الأذى يصبر حتى يلقى الله –تبارك وتعالى– غير مبدل.

{وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [سورة الإنسان:٢٤] أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أُنزل إليك بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس.

{وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}، الآثم هو الذي استوجب الإثم لشره وفساده، وعتوه وكفره فهو أثيم، والكفور هو كثير الكفران، فلا تطع هذا ولا هذا، فيدخل فيه هؤلاء الموصوفون بذلك جميعاً، ولا حاجة أن يخص فيقال: فلان وفلان، عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، لا حاجة لمثل هذا التخصيص، ولا دليل عليه، {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}.

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا} [سورة الإنسان:٢٥] أي: أولَ النهار وآخره.

كما قال الله –عز وجل– في أول سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب:١].

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [سورة الإنسان:٢٦]، كقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [سورة الإسراء:٧٩]، وكقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [سورة المزمل: ١–٤].

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، البكرة هي أول النهار، ويدخل في ذلك صلاة الفجر، وما يذكر الله –عز وجل– به هو وقت للذكر في أول النهار، والأصيل هو الطرف الآخر من النهار، وأصل الأصيل يكون حينما تصفر الشمس.

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً[٢] أُسائلها *** عَيَّتْ جواباً وما بالربعِ من أحدِ

---

٢ – أي في وقت الأصيل

فوقت الأصيل هو بعد اصفرار الشمس، الذي نسميه بالعامية المسيان، هذا وقت الأصيل، فالطرف الآخر من النهار وقت لذكر الله -عز وجل-، ولذلك كان أفضل ما تقال فيه أذكار المساء بعد العصر، فإن قيلت في وقت الأصيل فهذا أحسن، وذلك وقت ذبول النهار، في آخره، حينما تذبل الشمس وينكسر ضوءها، وبياضها وتميل إلى الصفرة، فهذا في الأصل وقتل الأصيل، فمن أهل العلم من يقولون: يدخل في هذا صلاة الظهر والعصر، {وَمِنَ اللَّيْلِ} يدخل فيه صلاة المغرب والعشاء وقيام الليل، هذا فيمن أدخل فيه الصلوات الخمس، فالله -عز وجل- أمر بذكره، فيدخل في ذكره الصلاة وغير الصلاة، ولا شك أن طرفي النهار هي أوقات الذكر التي يتأكد فيها ويستحب.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ} صلِّ لله -عز وجل-، {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}، التسبيح هنا يمكن أن يراد به الصلاة، فإنها توصف بالتسبيح وتسمى به، ويدخل فيه ذكر الله -عز وجل- وتنزيهه، الذكر مطلقاً باعتبار أنه أُطلق عليه أو سُمي ببعض أنواعه وهو التنزيه، ولا مانع أن يسمى الشيء ببعضه أو ببعض أنواعه وصوره، وكما أطلق على صلاة الفجر أنها قرآن، {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} [سورة الإسراء:٧٨]، فالمقصود به صلاة الفجر، ويدخل فيه التنزيه لله -عز وجل-، كقولك: سبحان الله، فالعبد مأمور بهذا وهذا، ولهذا قال الله -عز وجل- في وصف هؤلاء الذين يتقربون إليه بألوان القربات، قال: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات:١٨] يطلبون المغفرة في السحر، في وقت السحر يستغفرون، يطلبون ذلك صراحة، يقول: أستغفر الله، اللهم اغفر لي، أو يطلبونه بفعلهم، وذلك بالصلاة والتهجد، هو بهذا الفعل طالب لمغفرة الله -عز وجل.

ثم قال تعالى منكرًا على الكفار ومن أشبههم في حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: {إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} [سورة الإنسان:٢٧] يعني: يوم القيامة.

ثم قال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} [سورة الإنسان:٢٨] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وغير واحد: يعني خَلْقَهم.

{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} أي: خلْقهم، ويدخل فيه كثير من المعاني التي ذكرها السلف، شدهم بالإسار، يقال للأسير ذلك؛ لأنه يربط بالإسار، جلد البعير الطري الرطب، يربط به فإذا يبس فإنه لا يمكن أن يفك إلا بالقطع، يكون قوياً جداً، فالمقصود أن الله شد أسرهم، أي أحكم خلقهم بربط أجزائهم وأبعاضهم ومفاصلهم، أحكم خلقها وأتقنه، فشد هذا الخلق، فصار في غاية الإحكام، {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} أي: أحكمنا هذا الخلق، فكان بهذه الصفة التي ترون، ولو أن ذلك لم يُفعل بهم لكان الإنسان لا يستطيع أن يرفع رأسه، ولا يستطيع أن يرفع يده ولا يستطيع أن يقوم على رجليه، ولا يمشي ولا يتحرك، وإنما هو خلق مشدود قوي أحكم الله -عز وجل- تسويته، وتعديله.

{وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} [سورة الإنسان:٢٨] أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبَدلناهم فأعدناهم خلقا جديداً، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة.

وقال ابن زيد، وابن جرير: {وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله تعالى: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [سورة النساء:١٣٣]، وكقوله

تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [سورة إبراهيم:١٩-٢٠، وسورة فاطر:١٦-١٧].

{وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ}، هنا في المعنى الأول الذي ذكره أنه يعيدهم ثانية، يقول: نحن خلقناهم هذا الخلق المحكم، ونحن قادرون على إعادتهم ثانية بهذا الإحكام، فإن ذلك لا يعجزه، فعلى هذا يكون من الاستدلال بالخلق الأول، {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [سورة ق:١٥]، هل عجزنا عن خلقهم لأول مرة؟ {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي الإعادة، فتكون بهذا المعنى، والمعنى الثاني: {وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ} أي: أن الله يذهبهم ويأتي بآخرين بدلاً منهم، وقد يكون هذا هو الأقرب لظاهر السياق -والله تعالى أعلم-، والمعنى الأول محتمل.

ثم قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ} يعني: هذه السورة، {تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [سورة الإنسان:٢٩] أي طريقاً ومسلكاً، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، كقوله تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا} [سورة النساء:٣٩].

ثم قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الإنسان:٣٠] أي: لا يقدر أحد أن يَهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أي: عليم بمن يستحق الهداية فُييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}، ثم قال تعالى: {يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [سورة الإنسان:٣١] أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

آخر سورة الإنسان، ولله الحمد والمنة.

يعني أن هذه الآية أثبت الله -عز وجل- فيها مشيئة العبد ومشيئة الرب، وبين فيها أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب -تبارك وتعالى- إذ إن العبد لا يستقل بمشيئته وإرادته وقدرته على الفعل استقلالاً تاماً من غير تعلق بمشيئة الرب، فالعبد له مشيئة وإرادة، والله له مشيئة وإرادة، ولا يكون من ذلك شيء إلا بإرادة الله -عز وجل-؛ لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد كوناً، وقد لا يكون مريداً له شرعاً ككفر الكافرين، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} يعلم كل شيء، ومن ذلك أنه يعلم من هو أهل للهداية، وأيضاً حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، والله -عز وجل- يقول: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل:٥-١٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المرسلات من الآية (١) إلى الآية (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة المرسلات، وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الله -هو ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: "بينما نحن مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غار بمنى إذ نزلت عليه والمرسلات، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اقتلوها))، فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وُقِيتْ شرَّكم كما وُقيتم شرَّها))"[١]، وأخرجه مسلم أيضاً من طريق الأعمش.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن أمه أنها سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب بالمرسلات عُرفًا[٢].

وفي رواية مالك عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} [سورة المرسلات:١]، فقالت: "يا بنيّ، أَذْكَرْتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بها في المغرب"[٣]، أخرجاه في الصحيحين من طريق مالك به.

هذه السورة من السور النازلة بمكة، وهذا الحديث -أو الأثر- يدل على ذلك، حينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- في غار بمنى، وابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ممن تقدم إسلامه، والسورة إذا قيل: إنها مكية فالأصل أنه لا يستثنى منها شيء إلا بدليل، وبعض أهل العلم -وهو مروي عن بعض السلف- قالوا: يستثنى من ذلك آية واحدة وهي قوله -تبارك وتعالى- فيها: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ}** [سورة المرسلات:٤٨].

وهو خلاف الأصل، فالسورة نازلة بمكة من أولها إلى آخرها، وهذه السورة -سورة المرسلات- تتحدث عن اليوم الآخر بجملتها، وما يحصل فيه من الأهوال والأوجال وتغير نظام هذا العالم العلوي والسفلي، وما يحصل بعد ذلك من الجزاء الذي يلقاه أهل الإيمان وغيرهم، تتحدث عن هذه القضية، وما ذكر فيها سوى

---

١ - رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، برقم (١٨٣٠)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٤٠٦٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٢ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي -صلى الله عليه وسلم- ووفاته، برقم (٤٤٢٩)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القراءة في صلاة المغرب، برقم (٨٣١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٦٨٦٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٣ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في المغرب، برقم (٧٦٣).

ذلك فإنما هو لتقرير هذا المعنى وإلزامهم، مثل قوله: **{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}** [سورة المرسلات:٢٠-٢١] إلى آخره، فهو يقررهم بهذا، أنّا خلقناكم بهذا الخلق، وأنشأنا خلقكم، ونحن قادرون على البعث والإعادة من جديد، وأنتم لم تُخلقوا هذا الخلق عبثاً وسدى، فهي تتحدث عن هذه القضية قضية البعث وما يحصل فيه.

وذكر هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأها في المغرب، نستفيد من هذا أن القراءة في المغرب ليست دائماً بقصار السور، قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- بالمغرب، وبالطور، وأكثر من هذا قرأ بالأعراف، فملازمة قصار السور في صلاة المغرب دائماً خلاف السنة، لكن لو قيل: إن ذلك هو الغالب كان هذا صواباً.

قال ابن أبي حاتم عن أبي هُرَيرة: {وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا} قال: الملائكة.

ورُوِي عن مسروق، وأبي الضحى، ومجاهد -في إحدى الروايات- والسّدي، والربيع بن أنس مثلُ ذلك.

ورُوِيَ عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل، وفي رواية عنه: أنها الملائكة، وهكذا قال أبو صالح في العَاصِفات والنَّاشِرات والفَارِقات والمُلْقِيات: إنها الملائكة.

الآن انظروا إلى ما ذكره الله -عز وجل-، وكيف كان التعقيب فيه بالفاء أو الواو، فالواو في مبتدئه لا شك أنها للقسم، فالله أقسم بهذه الأمور، فقال: **{وَالْمُرْسَلاتِ}** أقسم بالمرسلات، ثم عقب بالفاء قال: **{فَالْعَاصِفَاتِ}** الأمر الذي يشعر بأن العاصفات تتعلق بالمرسلات.

ثم قال: **{وَالنَّاشِرَاتِ}** فالواو واو قسم، أقسم بالناشرات، ثم قال: **{فَالْفَارِقَاتِ}** [سورة المرسلات:٤] الأمر الذي يشعر أن الفارقات هي متعلقة بالناشرات، ثم قال: **{فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا}** [سورة المرسلات:٥]، وكذلك أيضاً فالفاء تشعر بما سبق، فهذه الأمور المذكورة هنا المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، هل هي شيء واحد أو أنها مختلفة في المعنى؟ هذا فيه كلام كثير للسلف -رضي الله تعالى عنهم-، والحافظ ابن كثير نقل طرفاً من ذلك هنا أو أشار إليه، والمراد بالعُرف في قوله تعالى: **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** يحتمل معنيين: يحتمل أن يكون ذلك بمعنى التتابع، كما يقال في عُرف الفرس وعُرف الديك.

ويحتمل معنى آخر، وهو العرف الذي يقابل المنكر، يعني المعروف يقال له: عرف، ذلك من العرف، أي: من المعروف، لا يذهب العرف بين الله والناس يعني: لا يذهب المعروف، لا يضيع عند الله -عز وجل- وعند الخلق، إذا كان العرف يحتمل المعنيين -المعروف أو التتابع- فانظر كيف تركّب المعاني، المرسلات: منهم من يقول وهو المشهور جداً: المرسلات هي الرياح، فإذا قلنا: إنها الرياح هل يركب معها تفسير العرف بالمعروف؟ هل يتلاءم؟ لا، فالذي يتلاءم معها هو التتابع، **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** أي: أن الرياح تأتي متتابعة، أقسم الله بالرياح، عرفاً أي متتابعة، في حال كونها متتابعة، فإذا فسرناه بالرياح فالعاصفات عصفاً لا شك أنها الرياح تعصف عصفاً، أي: شدة هبوبها فهي تعصف، تكون قوية بحركتها ولها صوت في الكثير الغالب من الأحيان، ولربما حصل بسبب ذلك عصف ببعض الخلق من الناس ودوابهم ودورهم أو غير ذلك، يعني ليدخل فيه من قال: تعصف بالناس، أو بمن تُرسَل عليهم عذاباً.

ومن أهل العلم من قال: إن المرسلات بمعنى الملائكة، هذه يأتي معها معني متتابعة، والأحسن منه أن يقال: عرفاً أي: أرسلت بالعرف بالمعروف، ففي الملائكة أليق أن يفسر بالمعروف، العرف بالمعروف، المرسلات

أي: الملائكة تُرسَل بالمعروف، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فهم الذين ينقلون رسالات الله -عز وجل- ووحيه إلى البشر، **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** الملائكة تنقل رسالات الله -عز وجل- تأتي بهذا العرف بهذا المعروف ضد المنكر، فالعاصفات: بعض أهل العلم نقل الإجماع على أن العاصفات هي الرياح، فيكون المرسلات الملائكة والعاصفات هي الرياح، وبعض أهل العلم قال: لا، العاصفات هي الملائكة، وهذا عجيب بعضهم ينقل الإجماع، وبعضهم يقول: لا، العاصفات ليست هي الرياح وإنما هي الملائكة أيضاً، لشدة سرعتها في النزول والطيران تعصف عصفاً بسرعتها، وسواء قيل: إن المرسلات الملائكة عموماً أو جبريل أو غيره فالمقصود أنهم الملائكة على هذا التفسير، والعرف هو المعروف، تأتي بالعرف بالمعروف، فهذان قولان: الرياح وهو المشهور، والملائكة، ومنهم من يقول: الرسل من الآدميين، وهذا وإن كان يحتمله اللفظ إلا أنه أبعد من سابقيْه، وذلك أنه لم تجر العادة بأن الرسل من الآدميين يجمعون على المرسلات، وإنما يقال: "المرسلين" **{وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}** [سورة الفرقان:٢٠] ولم يجمع على المرسلات قط، ولا حاجة لأن يؤول المرسلات بجماعات الرسل، فهذا تأويل فيه بُعد وتكلف، إذن هذا المعنى وإن كان يمكن أن يحتمله اللفظ لكنه بعيد.

وبعض أهل العلم يقول ككبير المفسرين ابن جرير الطبري: إن الله ما حد شيئاً دون شيء، وأقسم بالمرسلات، فالمرسلات: الرياح مرسلات: **{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}** [سورة الحجر:٢٢] تكون بين يدي المطر، والله -عز وجل- أرسل الملائكة أرسلهم إلى الأنبياء بالوحي، وأرسلهم أيضاً بأمور أخرى فيما أراد الله -عز وجل- أن يكلفهم به في تدبير أمر هذا العالم، هذا المرسلات، ومنهم الذين يسوقون الرياح، ولهذا من قال: إن العاصفات هي الرياح قالوا: أصلاً هذه الرياح تسوقها الملائكة وتدبرها، فالملائكة والرسل من الآدميين كل هذا يدخل على كلام ابن جرير في أن الله أقسم بالمرسلات، لاحظتم أن هذا لا يخص به معنى دون معنى؛ لأنه لا يقوم عليه دليل، فالمرسلات عرفاً يدخل فيه ما يرسله الله من الرياح، والملائكة، والرسل من الآدميين -عليهم الصلاة والسلام-، وإذا أردنا أن نطلق الخيال أو أن نفسر اللفظة بما يمكن في كلام العرب فلك أن تتصور ما هي الأشياء التي يمكن أن تُرسَل: الملائكة، والرسل من الآدميين، والرياح، والصواعق **{وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ}** [سورة الرعد:١٣]، وقال: **{تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}** [سورة مريم:٨٣] الشياطين، فكل هذا يوصف بالإرسال، كله موصوف بالإرسال، لكن ركِّبْه مع ما بعده وهو قوله: **{عُرْفًا}** فالذي يصلح مع هذا شيئان: الملائكة والرسل من الآدميين، ويَبعد القول بأن المراد الرسل، ما الذي يُبعده؟ أنه لم يُعهد أن يجمع ذلك على المرسلات، لكن يمكن أن يقال؛ لدخوله ضمن أمور كثيرة ولم يخص وحده حتى يقال: إنه لم يُعهد جمعه بهذا.

وإذا فسرنا **{عُرْفًا}** بالتتابع فلا شك أن هذه جميعاً ممكن أن تفسر بهذا، الصواعق، وغيرها، والشياطين وكذا، لكن إذا نظرت إلى ملحظ في المعنى وهو أن القسم إنما يكون بمعظم -كما هي القاعدة- فلا يدخل في ذلك الشياطين، ويدخل فيه الرياح، ويدخل فيه الرسل من الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، والرسل من الآدميين، فكل ذلك يمكن أن يدخل فيه، فإذا أردنا أن نرجح معنى من هذه المعاني فأولاها وأقربها إلى ظاهر اللفظ والسياق هو الرياح، لاسيما أن الله ذكر العصف بعده قال: **{فَالْعَاصِفَاتِ}** وهي الرياح قطعاً، وإذا أردنا

أن نوسع المعنى نقول: أقسم الله بالمرسلات فيدخل فيه هذه الأمور، والعاصفات تكون في الرياح الخاصة، **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** يقول: قال -يعني عن أبي هريرة-: الملائكة، وروي عن مسروق وأبي الضحى وغير هؤلاء أيضاً ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس، وقال: وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل، يعني: من الآدميين، وفي رواية عنه: أنها الملائكة، وبعضهم يقول: المرسلات هي السحاب الله يرسلها بالمطر.

قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات: إنها الملائكة، الملائكة تكون عاصفات بسرعة طيرانها وهبوبها وصعودها، بهذا الاعتبار، لكن هذا مستبعد، فالعاصفات هي الرياح.

وقال الثوري عن سلمة بن كُهيل عن مسلم قال: سأل ابنَ مسعود عن {وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا} قال: الريح.

هذا قول الجمهور.

وكذا قال: {فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} [سورة المرسلات:٢-٣] إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقطع ابن جرير بأن العاصفات عصفاً هي الرياح.

وهذا كما قلت: بعض أهل العلم قال: من غير خلاف، مع أنه يوجد فيه خلاف.

كما قاله ابن مسعود ومن تابعه.

بعضهم يقول: الملائكة الموكلون بالريح، يعني العاصفات، يعصفون بها، أو يعصفون بروح الكافر.

وبعضهم يقول: العاصفات هي الآيات المهلكة مثل الزلازل والبراكين، وما أشبه ذلك من هذه الأمور التي يحصل بها هلاك كثير من الخلق، فهذه هي العاصفات.

فتبيّن لكم وجه هذا أو هذا، وما يبنى عليه كل قول من هذه الأقاويل، فتكون **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** كما قلت: إما أن تحمل على العموم أو الرياح، والعاصفات هي الرياح.

ثم قال: **{وَالنَّاشِرَاتِ}** فإذا أعدناه إلى ما سبق أيضاً إذا قلنا: إن المرسلات هي الرياح، يمكن أن يقال: هذه أيضاً هي الرياح تنشر السحاب وتفرقه، ويمكن أن يقال غير هذا كما سيأتي، لكن في قوله: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** جاءت منصوبة كما ترون، وأيضاً منونة، فيمكن أن تكون مفعولاً لأجله بمعنى: والمرسلات لأجل العرف، فهذا لا يمكن إلا أن تكون من العرف بمعنى المعروف، وهذا أي الملائكة أو الرسل من الآدميين -عليهم الصلاة والسلام-، لأجل العرف، **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** لأجل العرف ضد المنكر، وإذا قلنا: إنه حال **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** أي: متتابعة فهذا يصلح بالمعنى الثاني، وهو أوسع من المعنى الذي قبله.

أو إذا قلنا: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** المرسلات إرسالاً يكون مصدراً، والمصدر معروف أنه يكون من غير لفظه أحياناً، فيكون **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** والمرسلات إرسالاً، فهذا يدخل فيه هذا وهذا، يعني: يصلح للمعنيين اللذين ذكرناهما في المرسلات، والله تعالى أعلم.

ويمكن أن يكون أيضاً بنزع الخافض، يعني ينصب بنزع الخافض، الخافض الذي هو حرف الباء هنا مقدر، تقول: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** والمرسلات بالعرف، فإذا حذف حرف الجر "الباء" صار **{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}** انتصب ما يُجر بحرف الباء، والله أعلم.

وتَوقّف في {وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} هل هي الملائكة أو الريح كما تقدم، وعن أبي صالح: أن الناشرات نشراً هي المطر.

والأظهر أن المرسلات هي الرياح كما قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [سورة الحجر:٢٢]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [سورة الأعراف:٥٧].

هنا قال الله -عز وجل-: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ}، {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا} [سورة الأعراف:٥٧] في القراءة الأخرى "نُشراً" بالنون، يعني: أنها تنشر السحاب وتفرقه، أو تفرق المطر، تنشر المطر.

وهكذا العاصفات هي الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبّت بتصويت، وكذا الناشرات هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب -عز وجل.

وقوله تعالى: {فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} [سورة المرسلات:٤-٦] يعني: الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسّدي، والثوري، ولا خلاف هاهنا فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره.

العاصفات هي الرياح، ونقل عليه بعض أهل العلم الإجماع، ولكن يوجد من خالف فيه، لكن إطلاق الإجماع باعتبار قول الأغلب أسلوب معروف عند بعض المتقدمين، هذه هي العاصفات.

ثم الناشرات، قال: **وكذا الناشرات هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء**، هذا هو المشهور، قال: **كما يشاء الرب -عز وجل-**، هذا هو المشهور أن الناشرات هي السحاب، ولكن من أهل العلم من يقول غير ذلك، بعضهم يقول: الناشرات هي المطر، ينشر النبات، وبعضهم يقول: إن الناشرات هم الملائكة، الملائكة تنشر أجنحتها في حال صعودها وهبوطها تطير بأجنحتها، تكون ناشرة لأجنحتها، وينزلون بالوحي أو غير ذلك، فهذا معنى، المعنى الذي قبله أن المراد بها الأمطار؛ لأنها تنشر النبات، وبعضهم يقول: الناشرات ما ينشر من الصحف والأعمال، وذلك في يوم القيامة، وهذا بعيد، وبعضهم يفسر ذلك ببعث الأبدان والأرواح، ينشر الناس، يوم النشور ويوم النشر يعني البعث تنشر فيه الأرواح والأبدان، وابن جرير على طريقته في الآية السابقة كما قال في المرسلات بأن الله لم يخصص شيئاً من هذه المعاني، كذا قال في الناشرات، قال: الله أقسم بالناشرات، وما خص معنى دون معنى، فيدخل في ذلك الرياح، ويدخل في ذلك المطر إذ إنه ينشر النبات، ويدخل فيه الملائكة فهي تنشر أجنحتها، وما إلى ذلك من المعاني التي ذكرها السلف.

إذا أردنا أن نرجح فالأقرب أن الناشرات هي الرياح تنشر السحاب الذي يحمل المطر.

وحمله على العموم أيضاً لا شك أنه غير مستبعد، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} يعني: الملائكة.

الفارقات يعني الملائكة، وبعضهم يقول: جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهذا داخل في الأول، فتخصيص جبريل -عليه الصلاة والسلام- ليس عليه دليل، وإنما نظروا إلى كونه يأتي بالرسالات للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فالفارقات هم الملائكة، وبعض أهل العلم يقول: هي الرسالات أو القرآن باعتبار أنها تكون سبباً للفرق بين الناس، انفراق الناس إلى طائفتين.

وابن جرير على طريقته فيما سبق قال: {فَالْفَارِقَاتِ} يعم ذلك جميعاً، فيدخل فيه ما ذكر من الملائكة والرسالات، وما إلى ذلك مما تحتمله الآية.

{فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} الملقيات ذكراً هنا هم الملائكة، وبعض أهل العلم ينقل على ذلك الإجماع، الملائكة الذين هم الرسل بين الله وخلقه، يلقون الوحي ورسالات الله -عز وجل- على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

قال: **والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره،** ... إلى غير ذلك.

الفارقات يمكن أن تفسر بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- وبالرسالات، وبعضهم يقول: هي الرياح الفارقات تفرق السحاب، فعلى هذا القول يكون كل ما سبق في الرياح، المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات، هذه الأوصاف الأربعة، لكن لا يمكن أن يفسر ما بعده بالرياح، {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} [سورة المرسلات:٥] هم الملائكة قطعاً، ومن قال: إن الثلاثة الأُول في الرياح قال: الرابع والخامس في الملائكة، وهذا القول مشهور جداً، أن المرسلات والعاصفات والناشرات هي الرياح، وأن الفارقات والملقيات هم الملائكة، هذا هو المشهور عند السلف -رضي الله عنهم-، ولا يخفى وجهه، ومن أهل العلم من يقول غير هذا كالذين يقولون: كل ذلك في الملائكة، المرسلات هم الملائكة، والعاصفات هم الملائكة يعصفون بسرعة حركتهم وانتقالهم، أو يعصفون بأرواح الكفار أو غير ذلك مما ذكر، أو لأنهم موكلون بالرياح يعصفون بها، والناشرات هم الملائكة أيضاً، والفارقات، فيكون كل هذا في الملائكة، وابن جرير يعمم.

{فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} "عذراً أو نذراً" منصوب فيمكن أن يكون على أنه مفعول لأجله، بمعنى: لأجل الإعذار والإنذار، أو يكون منصوباً بالمصدر، {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}، بمعنى: أنه مفعول به، ويمكن أن يكون بدلاً، أي ما هو هذا الذكر الذي تلقيه هؤلاء الملائكة؟ {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} هذا الذكر هو إما إعذار وإما أن يكون إنذاراً.

ويمكن أن يكون بمعنى مُعذِرين ومنذِرين، فالمقصود أن الله -عز وجل- أخبر عن هؤلاء الملائكة أنهم يلقون الذكر المشتمل على الإعذار والإنذار، مشتمل على هذا وهذا.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} [سورة المرسلات:٧] هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وُعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إن هذا كله {لَوَاقِع} أي: لكائن لا محالة.

ثم قال تعالى: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ} أي: ذهب ضوءها، كقوله تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [سورة التكوير:٢]، وكقوله تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [سورة الانفطار:٢].

{وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ} أي: انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها، وَوَهَت أطرافها.

كما قال الله -عز وجل-: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [سورة النبأ:١٩-٢٠].

{وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ} أي: ذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا} [سورة طه:١٠٥].

يعني أصل النسف في كلام العرب هو قلب الشيء ظهراً لبطن، أو بطناً لظهر، فهذه الإزالة السريعة يقال لها: نسف، فالله -عز وجل- يزيلها من أماكنها، يفتتها {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ} [سورة الواقعة:٥] أي: فتتت فتكون هباء منبثاً، ثم تسير: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [سورة النبأ:٢٠]، كما قال الله -عز وجل-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل:٨٨]، وذلك في اليوم الآخر لا في الدنيا كما يقولون: يدل على دوران الأرض.

وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٧].

وقوله تعالى: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} قال العوفي عن ابن عباس: جمعت، وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ} [سورة المائدة:١٠٩]، وقال مجاهد: {أُقِّتَتْ} أجلت.

وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم: {أُقِّتَتْ} أُوعِدت، وكأنه يجعلها كقوله: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [سورة الزمر:٦٩].

الآن: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} الهمزة هنا بمعنى الواو، أي: وُقتت، والواو إذا كانت مضمومة ضمة أصلية جاز قلبها إلى الهمزة، فتقول: أقتت ووقتت، ومعنى أقتت: الله -عز وجل- جعل لها ميقاتاً يحصل به الفصل بينها وبين أعدائها، أعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وذلك في يوم الفصل، فهذا أشهر ما فسر به هذا، وهو الأقرب إلى السياق والظاهر، والله تعالى أعلم، {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ}، قيل فيه: جُمعت، وقيل فيه وُعدت، لكن تفسيره بوعدت، أي: جُعل لها ميعاد وميقات محدد يفصل به بينها وبين أعدائها أنْ ناصبُوهم العداوة وحاربوهم، {قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ} [سورة سبأ:٣٠]، فهذا الميعاد هو يوم القيامة، فيجعل ذلك ميقاتاً يفصل الله -عز وجل- بينهم وبين خصومهم، وبعضهم يقول: أرسلت لأوقات معلومة، يعني: في الدنيا، لكن الله يتحدث عن أهوال القيامة، فكيف يقال: أرسلوا لأوقات معلومة؟، فالأظهر -والله أعلم- أن المراد أقتت يعني: جُعل لها ميقات في الفصل بينها وبين أقوامها، ويكونون شهداء على الناس في ذلك اليوم، وكأنه لما فسر قول الثوري عن منصور عن إبراهيم: أقتت أوعدت، كأنه يجعلها من قوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ} [سورة الزمر:٦٩]، فابن كثير -رحمه الله- ربط بين هذا وبين قول إبراهيم: أقتت أي: أوعدت، يعني: أوعدت بأن يجعل الله لها ميقاتاً يفصل به بينها وبين خصومها، كما في هذه الآية أخبرنا الله أن ذلك سيقع: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم}، فهذا وعد من الله -عز وجل- بأن ذلك كائن.

ثم قال تعالى: {لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} [سورة المرسلات:١٢-١٤].

يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأُرجئ أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: {فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم:٤٧-٤٨] وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: {لِيَوْمِ الْفَصْلِ}.

ثم قال تعالى معظما لشأنه: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} أي: ويل لهم من عذاب الله غداً.

يعني كقوله -تبارك وتعالى- في "أقتت" يقول: {قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ} [سورة سبأ:٣٠] هذا هو اليوم الآخر الذي يحصل فيه مثل هذا الفصل بين الناس، وهنا قال الله -عز وجل-: {لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:١٣-١٥]، تكررت هذه الجملة عشر مرات في هذه السورة، ولا يوجد في القرآن تكرار محض، وأوضح الأمثلة في سورة المرسلات وفي سورة الرحمن التي يمكن أن يقال: إنها تكرار، نفس الآية تتكرر بلفظها وحروفها: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:١٣]، و{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}، {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} يعني: مما ذكر قبله، هذه الأمور، حتى في قوله -تبارك وتعالى-: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٤] لما ذكر الحميم والنار قال: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا} أبأي نِعمٍ في الحميم، قال نعم؛ لأنه لا يتبين النعيم على وجهه الكامل إلا بضده وهو الجحيم، فحتى في هذه الأمثلة التي قد تشكل، وأما هنا: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} فكذلك كل واحد منها يعود إلى ما قبله، فهنا: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بهذا اليوم الذي هو يوم الفصل، وهذا أسلوب معروف، حينما تذكر أهوال أمر من الأمور وما يحصل فيه تقول: يا ويل من كذب به، ثم تسترسل وتذكر أوصافاً تقول: يا ويل المكذب، ثم تسترسل تقول: ويل للمكذب، فليس هذا من التكرار المحض.

يقول تعالى: {أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} [سورة المرسلات:١٦] يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاءوهم به. {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ} أي: ممن أشبههم؛ ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:١٨-١٩].

الآن {أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} يعني: الأمم المكذبة الماضية، {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ}، بعض أهل العلم كابن جرير الطبري -رحمه الله- جعل ذلك فيمن وقع به الهلاك، فقوله: {أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} يعني: الأمم القديمة جداً كقوم نوح وعاد وثمود، {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ} وهم قوم إبراهيم وقوم لوط، ومن أهلكهم الله -عز وجل- بعد ذلك، ومن أهل العلم من يجعل الثاني على سبيل الوعد، والأول على سبيل الخبر، {أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} كل الأمم التي وقع فيها الإهلاك، {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ} يعني: أن الله وعد بإهلاك هؤلاء المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا جاء في قراءة شاذة بالسين "سنتبعهم"، فيكون ذلك على سبيل الوعد، والقراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ}.

{ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ} أي: ممن أشبههم؛ ولهذا قال: {كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}، ظاهر كلام ابن كثير أن ذلك على سبيل الوعد لمن أشبههم في الكفر والتكذيب أنه سيفعل به ذلك {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ}.

وقوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} أي: بإهلاك الأولين -قلنا: إن كل واحدة تعود إلى ما ذكرت قبلها- قال ابن جرير: يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاءوهم به، {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ} أي: ممن أشبههم؛ ولهذا قال: {كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ}، ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الأولين هم الأمم القديمة: قوم نوح وعاد وثمود، والآخرين هم أصحاب مدين، وقوم لوط، وقوم إبراهيم، ومن جاء بعدهم، فيفرق ابن جرير بين هذا وهذا، إلا إذا كان مراد ابن كثير -رحمه الله-: أي: بمن أشبههم ممن أهلك، من الأمم المهلكة، فهذا قول ابن جرير، يعني: الذين جاءوا بعدهم، بعد المتقدمين، والله أعلم.

ثم قال ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداءة: {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ} [سورة المرسلات:٢٠]، أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري -عز وجل-، كما في حديث بُسْر بن جِحَاش: ((ابنَ آدم، أنَّى تُعجزُني وقد خلقتك من مثل هذه؟))[٤].

الآن ليس ضعيفاً حقيراً بالنسبة إلى قدرة الباري، بل حتى بالنسبة للناس، فهذا الماء بالنسبة إليهم شيء مستقذر، يتنزهون منه ويغسلونه.

{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [سورة المرسلات:٢١] يعني: جمعناه في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

يعني القرار المكين أي: الحصين، وتعلمون موضع الرحم حيث إنه محاط محمي مستقر في عظام الحوض وهي أقوى العظام في بدن الإنسان أو بدن المرأة، محاط، وبالرحم والمشيمة فهو في قرار مكين، أي: محفوف متمكن.

وقوله تعالى: {إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ} [سورة المرسلات:٢٢] يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر.

يعني مدة الحمل ستة أشهر إلى تسعة أشهر إلى أكثر من هذا، قد يكون الحمل سنتين أو خمس سنوات، وقد يطول ويقصر ببطء النمو، ربيعة حملت به أمه سنتين، وآخر حملت به أمه خمس سنوات، فالحاصل أنه قد يصل الحمل إلى خمس سنوات، وربما أكثر من هذا، ليس معنى هذا أنه يخرج ابن خمس ويمشي ويتحرك بصورة كأنه ابن خمس سنين، فهو صغير مولود، لكن كان النمو بطيئاً، وقد يحصل له شيء من التعثر والتوقف فترة، يسمونه العوام: "العوار"، ثم بعد ذلك يستأنف؛ لذلك ما يفعلونه في المستشفيات إذا جاء الشهر التاسع يجعلون الطلق الصناعي أو العملية هذا كله خطأ، ولا يقرون عليه أصلاً، وإلا خلها تجلس، تجلس تسعة شهور، تجلس تسعة سنين، وما الذي يضر في ذلك؟

ولهذا قال تعالى: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٢٣-٢٤].

الآن **{فَقَدَرْنَا}** وفي القراءة الأخرى المتواترة: (فقدَّرنا)، وكثير من أهل العلم يفسر ذلك بمعنى واحد، فيقول: المقصود به التقدير، "قدَرنا" تفسرها القراءة الأخرى "قدّرنا"، **{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}** أي: فنعم المقدرون، قدَرنا، قدَّرنا مدة الحمل، وقدَّرنا خلقه، وقدَّرنا ولادته، وقدَّرنا ما يتعلق به من طول وقصر وشكل وحسن وبهاء وصحة ومرض، وإيمان وكفر، والشقاوة والسعادة، والرزق والأجل، كل ذلك قدره الله -عز وجل-: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** [سورة القمر:٤٩] على أحد التفسيرات.

وبعض أهل العلم يفرق في المعنى: قدَّرنا من التقدير، وقَدَرنا أي: ملكنا، قدَرنا بمعنى ملكنا، والملْك هو التصرف في الشيء، الله يتصرف في هذا الخلق وينقله من طور إلى طور، ويجعل له أمداً محدوداً.

ثم قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} [سورة المرسلات:٢٥-٢٦] قال ابن عباس: {كِفَاتًا} كِنًّا.

---

٤ - رواه ابن ماجه، كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت، برقم (٢٧٠٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٨٤٢)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩٩).

كِنًّا بمعنى وعاء، ومن فسرها بأنها وعاء على هذا هي تكون وعاء لهم في حال الحياة وحال الموت، كيف تكون لهم وعاء في حال الحياة؟ هم يعيشون فوق ظهرها وتكنهم مساكنُهم، بيوتهم، دورهم، وبعد الموت تكنهم القبور، تكون القبور أوعية لهم، **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا}** أي: تكفتهم، فتكون كالوعاء لهم أو الكِنّ، فهم فوق ظهرها يعيشون في دورهم وبيوتهم، وإذا ماتوا كانوا في داخل قبورهم.

وقال مجاهد: يُكفَتُ الميت فلا يُرَى منه شيء.

معناها تكنه إذا مات، تغطيه.

وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم، وكذا قال مجاهد وقتادة.

هذا بمعنى ما سبق أيضاً، **{أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}** تعيشون على ظهرها وإذا متم صرتم إلى بطنها، كذلك قول من قال: إنه في حال حياتهم فهم على ظهرها تكنهم دورهم، أو يكنون فيها أي: يسترون فيها –يدفنون فيها– ما يخرج منهم من ألوان الأذى أحياء، وأمواتاً: جيفهم تكون في داخل هذه الأرض.

وأصل الكفت في لغة العرب بمعنى الضم والجمع، فهي تجمعهم على ظهرها في حال الحياة، وتجمع أذاهم في داخلها، وتجمع أجسادهم في داخلها بعد موتهم.

{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ} [سورة المرسلات:٢٧] يعني: الجبال، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب.

يعني: "رواسي" بمعنى ثوابت راسخات، و"شامخات" بمعنى الارتفاع، فكل مرتفع فهو شامخ.

{وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا} أي: عذباً زُلالاً من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٢٨] أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المرسلات من الآية (٢٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ -رحمه الله تعالى-: يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة: {انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ} [سورة المرسلات:٢٩-٣٠] يعني: لهَب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، {لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [سورة المرسلات:٣١] أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب يعني: ولا يقيهم حر اللهب.

وقوله تعالى: {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ} [سورة المرسلات:٣٢] أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، ومالك عن زيد بن أسلم وغيرهم: يعني أصول الشجر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل- لهؤلاء المكذبين وما يلاقونه من الجزاء: **{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** أي: أنهم كذبوا بالجزاء والحساب والبعث والقيامة، فيقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: **{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** انطلقوا إلى هذه النار التي كذبتم بها، **{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** أي: له ثلاثة فروع، وذلك أن الدخان إذا قوي واشتد وارتفع فإنه يتفرق في السماء قطعاً، أو يتفرق على أنحاء شتى.

{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ} أي: ظل اللهب أو ظل الدخان، ولكنه ليس كالظل الذي يعهدونه في الدنيا، فإنه لا يقيهم الحر، ولا يجدون تحته برداً أو ما يعرف في الظل المعهود.

{لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [سورة المرسلات:٣١] لا يظلهم ولا يخفف عنهم من حرارة النار.

ثم قال عن هذه النار التي وصف هذا الدخان المتصاعد منها: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}** [سورة المرسلات:٣٢] الشرر معروف هو ما يتطاير من النار من القطع الصغار والكبار، كله يقال له: شرر، ووصف الله -عز وجل- هذا الشرر بأنه كالقصر، والقصر إذا أطلق عند العرب فإن معناه الأشهر المتبادر هو البناء الذي يكون من الحجارة، فما يبنيه الناس من القصور من الدور من الحجر يقال له القصر، وتأتي هذه اللفظة في كلام العرب لمعانٍ أُخَر، ومن ذلك أنها تطلق على حبال السفن، وهي حبال غليظة جداً، وإذا جمع بعضها إلى بعض صارت كأوساط الرجال، ولكن هذا المعنى أقل شهرة من المعنى الأول، وهناك معنى ثالث يتصل بالنار وما توقد فيه، وهو أنه يطلق على الحطب الذي يكون على ذراع ويكون على أكثر من ذلك كثلاثة

أذرع توقد به النار، يقال له: القصر، كما جاء ذلك كله عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، أعني في تقدير القصر، قال: كنا نعد الحطب للشتاء –يعني يوقد به على قدر ذراع– نسميه القصر، يعني: يجمعون الحطب في الشتاء، وفي بعض الروايات أكثر من هذا التقدير، أطول؛ ولهذا قال بعض السلف: كأصول الأشجار، أصول الأشجار لربما تبلغ ثلاثة أذرع، ولربما تبلغ أكثر من ذلك.

فالمقصود أن الشرارة الواحدة ضخمة، ليست كالشرارة المعهودة في الدنيا بقدر رأس الأصبع أو أقل من ذلك، هذا شررها.

{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [سورة المرسلات:٣٣] أي: كالإبل السود، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك، واختاره ابن جرير.

{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} الجِمالة يعني الجمال، وفي القراءة الأخرى المتواترة: "جِمالات"، والجمالات جمع للجمال، جمال وجمالات، {كأنه جمالات صفر} يعني: أن هذا الشرر أسود اللون يضرب إلى الصفرة، وذلك من صفة الجِمال المعروفة، وقد ذكرت هذا في أول هذه الدروس عند مناسبةٍ جاء الاستشهاد بها وهي قوله –تبارك وتعالى–: **{إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء}** وذلك في الكلام على أصول التفسير.

فالمقصود أن الصفرة في البقر إذن لا تقال للسواد، لاسيما إذا قُيدت بالفقوع ووصفت بذلك، **{بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا}** [سورة البقرة:٦٩]، وأما الجمال فإن الصفرة تطلق فيها ويراد بها السواد:

تلك خيلِي منهُ وتلك ركابِي ** هنّ صفرٌ أولادُها كالزبيبِ

والزبيب لونه غامق، كما يقال: بين السواد والصفرة، السواد الذي يضرب إلى الصفرة يقال له: أصفر في كلام العرب، وليس المقصود به الأصفر الذي تعارف الناس على إطلاقه اليوم، وهو ما ترون في هذه اللوحة أصفر، وإنما المقصود هنا السواد، والنار جاء في حديث حسنه بعض أهل العلم: ((أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة))[1] **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}** بشرر كبير أسود اللون يضرب إلى الصفرة، **{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ}** كالإبل السود، هذا معناه، الشرارة الواحدة كالجمل إما باللون كالجمل الأسود، وإما باللون والحجم كقدر الذراع، وإما كالقصر سوداء.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: {جِمَالَتٌ صُفْرٌ} يعني: حبال السفن.

وروى البخاري عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ} قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر، {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٣٤].

يعني **{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}** بما ذكر من صفة النار، فكل واحدة ترجع لما قبلها.

---

١ – رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، برقم (٢٥٩١)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٢٥٨٣)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (١٣٠٥).

ثم قال تعالى: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ} [سورة المرسلات:٣٥] أي: لا يتكلمون.

{وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [سورة المرسلات:٣٦] أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا.

يقول: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ}، كما قال عنهم الله -عز وجل- في ذلك اليوم: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [سورة طه:١٠٨]، والهمس نطق، وكذلك يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٧-١٠٨]، وهذا كلام منهم، وكذلك أخبر أنهم يقولون: {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} [سورة الصافات:٢٠]، ويقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يس:٥٢].

فالحاصل أن الله أخبر عن جملة مما يقولونه مفرقاً في كتابه -عز وجل-، وذلك لا ينافي بعضه بعضاً، وإنما المقصود أن هذا اليوم يوم طويل، فتارة لا يستطيعون النطق فيه، لا يمكّنون من ذلك، في بعض أوقاته -في بعض أحايينه- لا يتمكنون من النطق: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ} هذه ساعة لا ينطقون فيها؛ لأن العرب إذا أضافت اليوم إلى فعل يفعل فإنها تعني بذلك الساعة والوقت المحدد، تقول: هذا يوم مجيء زيد، أي: ساعة مجيء زيد إلى هذا المكان، وتقول: هذا يوم قلت لك فيه كذا وكذا، أي هذه ساعة قولي لك كذا وكذا، هذا يوم مكافأتك، يعني هذه ساعة مكافأتك، {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ} أي: هذا الوقت الذي لا ينطقون فيه، وهم ينطقون في أوقات أخرى بما ذكر: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا} وأشباه ذلك، فهو يوم طويل في بعض أحايينه لا ينطقون، وفي بعضها يتكلمون همساً، يغشاهم الذل، وفي بعض الأحايين يتكلمون يقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا}، وما أشبه هذا، فهذا وجه الجمع بين هذه الآيات.

بل قد قامت عليهم الحجة ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعَرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٣٧].

كلام ابن كثير الآنف هو جواب عن سؤال يتبادر إلى ذهن السامع كيف قال هنا: {لا يَنْطِقُونَ} وفي مواضع أخرى أثبت بعض قولهم؟.

وقوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ} [سورة المرسلات:٣٨-٣٩]، وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ} يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمِعُهم الداعي ويَنفُذُهم البصرُ.

ويَنفُذهم البصرُ، يعني: أن البصر ينفذهم أي أنه يراهم جميعاً على كثرتهم، {جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ} أي: الأمم المتقدمة التي تطاول الزمان على ذهابها واضمحلالها.

وقوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ} تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ} [سورة الرحمن:٣٣]، وقد قال

تعالى: **{وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا}** [سورة هود:٥٧]، وفي الحديث: **((يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني))**[٢].

{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ} يدخل فيه جميع الأقوال التي ذكرها السلف في معنى الآية، والله تعالى أعلم، بمعنى: إن كان لكم ملجأ أو قوة أو حيلة للتخلص من هذا المأزق فافعلوا، ليس لكم خلاص ألبته، ليس لكم مخرج ولا طريق تستطيعون فيه التخلص مما أنتم فيه، فهو محيط بكم، واقع بكم لا محالة، لا تستطيعون النجاة والخلاص؛ ولهذا يقول الله -عز وجل- عما يكون في ذلك اليوم وعن حال هؤلاء الكافرين يقول: **{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}** [سورة المدثر:٤٨]، ويقول: **{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}** [سورة البقرة:٤٨]، فذكَرَ الأمور الثلاثة منفية **{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً}** بمعنى: لا يستطيع أن يغني عنه شيئاً، **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}** لا يقبل منها شفاعة، لا يقبل من الواسطة هذا أن يشفع فيه فيتخلص، ولا عدل يعني الفداء، **{وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}** لا يتمكن أحد من أخذهم وإنجائهم بالقوة، فكل هذه الأمور منفية، لا أحد يغني عنه لا بقليل ولا بكثير، ولا تنفع فيه الواسطة، ولا يقبل فيه الفداء ولا يستطيع أحد أن ينتزعه ويخلصه بالنصرة والقوة، كل هذه الأمور منتقية، فيُخذل الإنسان تماماً، لا يجد له ناصراً، بل أقرب الناس إليه يتمنى أن يفتدي به من العذاب.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [سورة المرسلات:٤١-٤٢] **يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولائك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن.**

وقوله تعالى: {وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} أي: ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا، {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة المرسلات:٤٣] أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم.

ثم قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [سورة المرسلات:٤٤] أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٤٤].

يقول الله -عز وجل-: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ}** [سورة المرسلات:٤١]، وابن كثير -رحمه الله- أشار إلى معنى التقوى هنا، قال: الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا فيه جماع حقيقة التقوى، وما ذكر إنما هو عائد إلى هذا المعنى، أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر وترك ما نهى، وما إلى ذلك مما قيل في هذا المعنى، **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ}**، **{انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}** [سورة المرسلات:٣٠-٣١] وهنا في ظلال واسعة فارهة، الشجرة يسير الراكب تحت ظلها مائة عام لا يقطعها، وعيون فهم في غاية الري، وفواكه مما يشتهون، وهذا يدل على كمال النعيم، إذ إن طعام الجنة لا يقتصر على الأمور الضرورية التي يسد بها الرمق أو يقام بها الأود، وإنما هو نعيم واسع

---

٢ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

يحصل فيه ألوان التفكه: **{وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ}**، **{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** الأكل والشراب الهنيء الذي لا تكدير ولا تنغيص معه، بمعنى: أنه يكون سائغاً في حال أكله ليس كأكل أهل النار **{وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}** [سورة المزمل:١٣]، يقف في حلوقهم، والشراب الحميم الذي يقطع الأمعاء: **{وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ}** [سورة محمد:١٥]، وإنما هذا شراب هنيء وطعام هنيء يسوغ بآكله فلا يجد فيه أذى ولا كدراً في حال تعاطيه، الإنسان قد يأكل ويتأذى أو يتقزز من بعض ما يلابس الطعام، ويحاول التخلص من بعض ما خالطه مما تنفر منه نفسه وطبعه كما هو مشاهد في أكل الدنيا، يُبعد هذا ويقطع هذا ويتخلص من هذا، وإذا نظر إلى بعضه لربما حصل له بعض التنغيص، أما طعام الجنة فهو هنيء ليس فيه هذا، وكذلك لا تنغيص بعده، بحيث لا يحصل بعده من الآلام أو مغص البطن أو ما أشبه ذلك، كل ذلك لا يحصل بطعام الجنة، وقد وصف الله -عز وجل- نعيم الجنة بأنه كريم أيضاً، وذلك ليس فيه تعب في حصول الإنسان عليه كما هو في الدنيا إذا أراد أن يحصل على شيء، تحتاج إلى زرع ثم سقي ثم حصد ثم تنقية ثم طحن ثم عجن ثم خبز ثم إذا أكله لربما يسوغ في فمه، وإذا أكله بعد ذلك يجد أثره، هذا كله ليس في الجنة، فهو لا مشقة في تحصيله، قطوفها دانية، ولا تنغيص في تعاطيه، يسوغه في الفم وفي الحلق، ولا تنغيص بعده لا حساً ولا معنى، هنيء، يحدثني أحد الأشخاص عن حياته القديمة -الرجل الآن في التسعين- وكيف بدأ يعمل، يقول: لم يكن لنا طعام إلا الحليب في الصباح، يقول: كنا نجلس عادة تجتمع الأسرة البنات والأبناء والأب، يقول: فنشرب هذا الحليب مجتمعين، ثم ينطلق كل إنسان بشأنه، يقول: ففي صبيحة يوم وأنا أشرب فإذا بأبي يقول: يا فلان إلى متى وأنا أنفق عليك كما أنفق على الواحدة من أخواتك، فيقول: فتوقف الشراب وصار يخرج من طرفيْ فمي، -هذا عنده كرامة وعزة نفس وأنفة-، قال: فصار يخرج من هنا، يقول: فقمت وقبلت رأسه وقلت: أطلب منك أن تسامحني، يقول: فسافرت بعدها، أظنه قال: أربعين سنة، يسافر يطلب الرزق ويبحث ويعمل، ما رأوه، وليس عندهم وسائل اتصال.

فالمقصود أن التنغيص الذي يحصل في الإنسان بسبب منة لا شك أن هذا يكون في غاية الإذلال، فيأكل الإنسان كأنه يتجرع الحصى، فنعيم الجنة ليس فيه شيء من ذلك، هذا من التنغيص المعنوي، يحصل للإنسان فيه أذية ومنة.

وقوله تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [سورة المرسلات:٤٦] **خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد...**

وأمرهم، أي: يقول لهم: كلوا وتمتعوا، الأمر يأتي لمعانٍ متعددة: للإيجاب، وللندب، وللوعيد والتهديد، وللإباحة، وغير ذلك من المعاني الكثيرة التي يذكرها الأصوليون وأهل اللغة، فهنا يقال لهم: كلوا وتمتعوا، فهذا أمر استحباب أو أمر إباحة، وإلا فهذا أمر وعيد، كقوله: **{ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}** [سورة الدخان:٤٩] هذا أمر فيه الإهانة والتبكيت.

وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا}.

الآن تحول الخطاب للمجرمين بعدما وصف عذابهم ونعيم أهل الجنة، يعني قل لهؤلاء المكذبين: **{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا}**، عما قليل ستتحولون مما أنتم فيه من هذه الحياة إلى هذا العذاب الذي وصف، فيقول لهم: كلوا

وتمتعوا في دنياكم هذه فسوف تتحولون إلى نار تلظى، فهو يتوعدهم في هذا، مثل ما تقول للإنسان الذي تتوعده: افعل ما بدا لك الآن وستجد غبّه بعد ذلك، قل ما شئت وستلقى جزاءك، هذا كله للوعيد، وليس للإباحة.

فقال تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا} [سورة المرسلات:٤٦] أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، {إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٤٧] كما قال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان:٢٤]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [سورة يونس:٦٩-٧٠].

وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} [سورة المرسلات:٤٨] أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه.

هنا {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا} بعض السلف يقول: هذا في الآخرة حيث لا يستطيعون الركوع، وذلك مستبعد، ليس هذا هو المقصود، وإنما السياق يدل على أن هذا في الدنيا، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا} ليس المقصود هو وصف ما يقع لهم في الآخرة حيث يكشف الله -عز وجل- عن ساقه فيسجد أهل الإيمان، ويبقى غيرهم لا يتمكنون من هذا السجود، ليس هنا وصف الآخرة، وإنما يذكر ما أوجب لهم دخول النار، وما أوجب لهم هذا الوعيد، ما أوجب لهم هذا الشقاء، يقول: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، كقوله: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [سورة المدثر:٤٣]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا} والمقصود بعدم الركوع أنهم لا يصلون، اسجدوا، صلوا، لا يصلون، والصلاة يعبر عنها بالركوع كما يعبر عنها بالسجود، كل ذلك معروف في الشرع وفي كلام العرب، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} أي: أنهم لا يصلون، فهذا هو المشهور أن ذلك في الدنيا، وهو الذي عليه كبار المفسرين ومنهم كبيرهم ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وهو الذي يدل عليه السياق، يقول: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا، من أين أخذ "مع الجماعة"؟ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} ليس في الآية ما يدل على هذا، لا يوجد ما يدل صراحة على أن الأمر به مع الجماعة؛ لأن قوله: {ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} أي: في جملتهم، وإن لم يكن ذلك في حال واحدة خلف إمام واحد، مع أنه كثيراً ما يستدل العلماء بمثل هذه الآية على وجوب صلاة الجماعة: {ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ}، ولكن هذا ليس بمستبعد، مع أن ظاهره أن هذا الركوع أو هذه الصلاة المأمور بها أي: في جملتهم، والدليل على هذا أن الله -عز وجل- قال: {ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} فهل هذا أمر لها بصلاة الجماعة؟

الجواب: لا، وإنما أمرها أن تكون مصلية في جملة المصلين.

ثم قال تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [سورة المرسلات:٥٠] أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [سورة الجاثية:٦].

يعني الآن في هذا القرآن في هذه السورة التي ختمت بهذه الآية: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ} ذكر الله -عز وجل- فيها ما رأيتم، أقسم هذه الأقسام المتتالية على البعث، وهو العظيم الأعظم، وهو أصدق من يقول، فأقسم بالمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، هذه خمسة أقسام على أن ما نوعد به واقع، ثم ذكر ما يجري

في ذلك اليوم من الأهوال: **{فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ}** [سورة المرسلات:٨-١٠]، ثم ذكر إهلاك الأمم المتقدمة وما توعد به المكذبين بعدهم، ثم ذكر الله -عز وجل- بعد ذلك قدرته وما حصل من مظاهر ذلك من خلق هذا الإنسان في هذه الأطوار من نطفة مهينة ضعيفة، ثم نقله من طور إلى طور حتى خرج إلى هذه الحياة، وذكر إنزال المطر من السماء، وخلق الجبال، وما أشبه ذلك من هذه الأمور، ثم ذكر بعد ذلك عذاب أهل النار، ونعيم أهل الجنة بهذا التفصيل، يقول الله -عز وجل- بعده: **{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}** هؤلاء إذا لم يؤمنوا بهذا ولم يخافوا من هذا الوعيد ولم يكن ذلك زاجراً لهم وواعظاً لهم، فهؤلاء لا تنفعهم المواعظ، هذا هو المقصود، ولو أن قلوب الناس كانت حية كما ينبغي وذهب عنها الصدأ والران الذي غلفها -فما عادت تتأثر كثيراً بالقرآن- فإنها لا تتمالك عند سماعه، ولا حتى في حال التسميع حينما يسمع الإنسان لغيره، لو كان قلبه حياً، ولكن أعظم طريق لتحصيل هذا يكون بأمرين اثنين، هناك تفاصيل داخلة تحته كثيرة، لكن أعظم ذلك يكون بأمرين اثنين: الأمر الأول: فهم معانيه، يقول ابن جرير: عجبت لمن يقرأ القرآن ولا يعرف معانيه كيف يلتذ بقراءته؟!، هذا التفسير المختصر، انظر حينما تسمع الآيات بعده هل تسمعها كما كنت تسمعها من قبل؟ أبداً، تعيش معها، فكيف لو كان بتفصيل، وذكر المعاني، والاستنباطات المنطوية تحتها، ولذلك تجد أن الأعاجم لا يفقهون شيئاً مما في هذا القرآن أبداً، إنما يقرءونه للبركة، يقرأ آيات الوعيد ويقرأ آيات الوعد ولا يحرك ذلك فيه ساكناً؛ ولذلك تجد عندهم المضحكات المبكيات، الأسماء، أيّ اسم في القرآن يسمون به أبناءهم، شخص في كوسوفا اسمه خنزير، مسلم، كيف سميتموه بهذا الاسم؟ لا يجوز هذا، قالوا: هذا موجود في القرآن، أحد الإخوان اسمه زيتون، ما هذا الاسم؟ يفتحون المصحف ينظرون الموجود، نَظر فوجد **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}** [سورة التين:١] قال: إن كان بنتاً فهي تين وإن كان ولداً فهو زيتون، تين وزيتون، وما أدري ما هو الفرق بينهما من حيث التذكير والتأنيث حتى تكون البنت "تين" والولد "زيتون"، وآخر اسمه جهنم، وقل مثل ذلك في الأسماء العجيبة الغريبة: جَاهَدَ **{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا}** [سورة العنكبوت:٦] أقول له: أنت مجاهد، يقول: لا جاهَدَ، اسمه جاهد، فعل ماضٍ مبني على الفتح، فكنا في حفل كما يقال: بناء كلية، فجاءوا بقارئ والمحافظ تبرع بأرض عشرة هكتارات -جزاه الله خيراً-، فإذا القارئ يقرأ -اختاروا هذه الآية-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [سورة الصف:٢-٣] فجلست أضرب أخماساً بأسداس هل يقصدنا أو يقصد المحافظ، وأنا أعرفهم معرفة جيدة وأثق بهم تماماً، أستبعد أن يقصدونا في مثل هذا المجمع، فلما ركبنا في السيارة والقارئ معنا والأخ المشرف على الكلية معنا، قلت: هذه الآيات التي قرأتموها من اختارها؟ قال الأخ الداعية المشرف: أنا الذي اخترتها، قلت: من تقصدون بها؟ قال: كيف من نقصد بها؟ قلت له: من هو المعنِيُّ، الرسالة لمن لنا أو للمحافظ؟ فتعجب ووقف شعره وقال: أنتم هكذا تفكرون؟، قلت: نعم، اختيار هذه الآيات لابد له من معنى مناسب، فتعجب، وقال: أبداً، نحن لا نفكر في هذا أبداً، إنما نختار آيات أيًّا كانت يُفتتح بها، قرآن يُقرأ لا أحد يخطر له شيء من معانيه، فهؤلاء كيف ينتفعون بالقرآن؟ وهذا الذي أريد بهذه الأمة من قبل أعدائها أنهم يقرءون ولا يفهمون؛ ولهذا الله -عز وجل- قال عن بني إسرائيل على أحد التفسيرين: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}** [سورة البقرة:٧٨] يعني: إلا قراءة.

تمنَّى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ

يعني: قرأ القرآن في أول ليله، يعني: عثمان –رضي الله عنه.

فالحاصل: أن هؤلاء ذمهم الله –عز وجل– أنهم لا يعرفون معاني القرآن، معاني كتابهم، لا يعلمون الكتاب إلا أماني، يعني: إلا قراءة على أحد التفسيرين، فأعداء الله –عز وجل– أرادوا أن يحولوا بين هذه الأمة وبين كتابها، تقرأ لكن لا تفهم شيئاً من معانيه، لو كانوا يفهمون شيئاً من معانيه ويعيشونه لتحولوا إلى شيء آخر، وبعث فيهم الحياة، لكنه يُقرأ في المناسبات ويذاع من إذاعة إسرائيل، وليس هناك أي مشكلة، لكن التفسير هو المشكلة، أن يعيش الناس حياتهم مع القرآن، هذه هي المشكلة، وإلا لو نظرت إلى أشد الأمور التي يستنكفون منها في هذا العصر ويأبونها، ويحاربونها غاية المحاربة تجد أنها تمثل أكثر من ثلث القرآن، آيات واضحة وصريحة قوية لا حيلة لهم فيها، لكنْ كثير من الناس لا يفقهون معانيه، وإلا فإن أعداء الله مشكلتهم مع نفس القرآن ليست مع شيء آخر، القرآن نفسه، الآيات التي تقول: **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** [سورة التوبة:٢٨] مهما قلبتها –نجس–، فهذه مهما حاول المتحذلقون والكذابون والمفترون على الله –عز وجل– أن يقولوا غير ذلك فهي واضحة صريحة ما تحتمل معنى آخر، أول سورة: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}** [سورة الفاتحة:٦-٧] مباشرة اليهود والنصارى، في أول كل ركعة تقرأ، وقل مثل ذلك في آيات القرآن: **{إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا}** [سورة التوبة:٣٩]، وغيرها من الآيات الكثيرة في القرآن، فماذا يقولون عنها؟، المشكلة أن المسلمين يقرءون ولا يفهمون معانيها، فالأمر الأول هو فهم المعنى، فهذا من أعظم ما يجعل الإنسان يعيش مع القرآن، وإذا سمع يلتذ بسماعه ويتأثر غاية التأثر، والقضية الثانية هي أن يجلو الصدأ عن قلبه، القلب تمر عليه حالات يكون في غاية الشفافية، وأنفع ما يكون وأحسن ما يكون للقلب في هذا هو الخلوة، الخلوة وترك الفضول في مخالطة الناس، فضول النظر، وفضول الأكل، وفضول النوم، وفضول الضحك التي تقسّي قلبه، جربوا هذا في رمضان، اذهب واخلُ بربك اعتكف في العشر الأواخر، واجلس في مكان لا يعرفه أحد في الحرم، أما هؤلاء الذين يعتكفون ويجلسون يتجمعون حلقاً حلقاً، يتحدثون ويضحكون ويثرثرون، فهؤلاء لا يحصل لهم شيء من معاني الاعتكاف إطلاقاً، هو انقطاع عن الطعام والشراب، الصوم هو انقطاع عن الناس بالاعتكاف، فهذا ليس باعتكاف، وإنما يبقى الإنسان منفرداً، لا يخالط ويقضي وقته معهم، فهؤلاء يجدون من المتعة الزائفة واللذة في المعاشرة والمحادثة أعظم مما يجدونه في بيوتهم –رحلة–، هذا الواقع عند كثير من الناس في اعتكافهم، يجلسون عشرين وثلاثين مع بعض يثرثرون إلى الفجر، بين أكل وشرب وحديث، ليس هذا الاعتكاف، لكن الاعتكاف أن تجلس في مكان لا يعرفه أحد، ولا يراك فيه أحد، وإذا جلست ستجد أثر هذا، قد لا تجده في اليوم الأول والثاني والثالث والرابع لكن بعد ذلك القلب يعود، ويذهب عنه كل ما علق به من أدران وأقذار وقسوة وغير ذلك، فلا تحتمل سماع القرآن أصلاً، حتى لو كنت تمشي في الطريق خارجاً من الحرم وتسمع القارئ يقرأ لا تتمالك، لا تستطيع سماعه لا من الإذاعة ولا من أحد، هذا القلب كان مع فهم معانيه، لكن إذا وجد الفهم مع القسوة لا يحصل المقصود، وإذا وجدت الرقة مع عدم فهم المعاني فقد يتأثر الإنسان بعض التأثر لكنه قليل، والتفاصيل التي تذكر تحت هذا كثيرة، لكن هذا هو أعظم ما يمكن أن

يجعل الإنسان يتأثر بالقرآن وينتفع به، هما ركنا التأثر، رمضان يصوم الإنسان عشرين يوماً ويعيش مع القرآن، اختمها باعتكاف وانقطاع عن الناس وسترى أثر هذا القرآن، فقط افهم معانيه؛ ولذلك أقترح أن يكون لكل واحد ورد من التفسير في رمضان، من تفسير مختصر، كل سنة تختم تفسيراً مع القراءة، لو قرأت مثلاً كل ليلة تفسير جزء من كتاب مختصر مثل التفسير الميسر، أو زبدة التفسير، أو تفسير ابن سعدي، وأشباه هذا من الكتب، كل يوم تقرأ جزءاً قبل أن تسمعه في قراءة الإمام، وانظر أثر ذلك، كل سنة تقرأ تفسيراً، اجعل لك ورداً ثابتاً دائماً بهذه الطريقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [سورة النبأ:١-١٦].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} أي: عن أي شيء يتساءلون من أمر القيامة؟، وهو النبأ العظيم يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ}، التساؤل: عن أي شيء يتساءلون؟، عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً؟، وقد يأتي التساؤل بمعنى التحدث بينهم بالشيء، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} [سورة الصافات:٢٧]، فهذا الموضع أعني قوله: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ}، "عم" هذه موضوعة لطلب معرفة حقائق الأشياء، عن أي شيء، عن ماذا يتساءلون؟، فكأن المطلوب مجهول فيتساءلون عنه، فجعل الشيء العظيم {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} الذي تعجز العقول عن إدراك كنهه بمنزلة المجهول، كأنه مجهول، {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ} عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار؟ {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أن هذا التساؤل عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعه، يتساءلون هل يقع هذا؟، هل يمكن أن تعاد الأجساد ثانية وتبعث؟، يقول: **وهو النبأ العظيم**، وهذا أحد القولين المشهورين في معنى الآية، أن التساؤل عن النبأ العظيم، وهو يوم القيامة، والقرينة التي تدل على ذلك هي أن السورة برمتها تتحدث عن يوم القيامة، عن البعث والجزاء والحساب، تتحدث عن أهوال ذلك اليوم وما يقع فيه من الأوجال، وما يكون لأهل الإيمان وللكفار من النعيم أو العذاب.

فموضوع السورة قرينة تُقوي قول من قال: إن النبأ العظيم الذي يتساءلون عنه هو يوم القيامة، السورة تتحدث عن هذا، والقول الآخر: إنه القرآن، النبأ العظيم هو القرآن، {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، القرينة التي تقوي هذا القول أن البعث والنشور لا خلاف بينهم في أن ذلك غير واقع، وأنه مستبعد غاية الاستبعاد، فهم ينكرون ذلك، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [سورة ق:٣]،

فسيقولون: من يعيدنا؟، يقولونه على سبيل الاستبعاد، وقالوا: {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٢]، فهذا كله يؤيد أن القول الذي هم مختلفون فيه -أو النبأ العظيم الذي اختلفوا فيه- هو القرآن، وقالوا: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، مختلق، أملاه عليه بعض الأعجمين، اختلفت أقاويلهم في القرآن واضطربت، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [سورة الذاريات:٨-١٠]، فهم يتخرصون، ويطلقون مثل هذه الأوصاف على القرآن، وعلى من جاء بالقرآن -صلى الله عليه وسلم.

فهنا النبأ العظيم القول بأنه القرآن يؤيده أن الاختلاف واقع في أقوالهم فيه، بخلاف البعث، {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، والقول بأنه القرآن قد يشمل القول الذي قبله أنه البعث، باعتبار أن البعث قد جاء تقريره في القرآن في مواضع كثيرة متكرراً، فيكون هذا القول أن المراد القرآن يشمل ويتضمن القول الأول، لكن يمكن لأصحاب القول الأول الذين قالوا: إنه القيامة والبعث والنشور أن يقولوا: إن الاختلاف الواقع ليس بين هؤلاء المشركين الذين أنكروه وذَكَرَ القرآن إنكارهم، السورة مكية، لكن في طوائف الكفار يوجد من كان يؤمن بالبعث، بل وجد أيضاً في أهل مكة من كان يؤمن بالبعث، مثلاً شعر أمية بن أبي الصلت مليء بذكر البعث وبتقريره، وهذا جاء في عدد من كلامهم في المنثور والمنظوم، كلام أهل الجاهلية، ولكن السمة الغالبة على هؤلاء هو إنكار البعث، فقد يقال: إن القليل أو النادر لا عبرة به، ومن ثَمّ فهم مطبقون على إنكار البعث بهذا الاعتبار، لكن ليس كل الكفار ينكرون البعث، ليس جميع الكفار، أهل الكتاب مثلاً يثبتونه، لكن لما كانت السورة مكية والخطاب كأنه يتوجه إلى هؤلاء قال من قال إن المقصود: القرآن، {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} يعني: القرآن، ابن كثير -رحمه الله- حمله هنا كما ترون على القيامة، وبعضهم يعبر بالبعث ولا فرق، كما يقول قتادة وابن زيد: البعث والنشور.

وقول ابن كثير -رحمه الله- هنا بأنه القرآن هو مسبوق إليه، قال به بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فهو قول مجاهد، واختلافهم كما وصفت، والأول أظهر، أي أنه البعث، والله أعلم.

قال قتادة وابن زيد: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ}: البعث بعد الموت، وقال مجاهد: هو القرآن، والأظهر الأول لقوله: {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}.

يعني قوله -تبارك وتعالى-: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، النبأ هو الخبر الذي له خطب وشأن، ومن ثم فهو أخص من مطلق الخبر، الخبر عام ينتظم ما له شأن، وما ليس له شأن، كل ذلك يقال له: خبر، وأما النبأ فلا يقال إلا للخبر الذي له أهمية، ولهذا يقال: جاء نبأ الحرب، جاء نبأ الجيش، ولا يقال: جاء نبأ حمار الحجام؛ لأن حمار الحجاب ليس له شأن، وإنما يقال: خبر حمار الحجام.

{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر.

ثم قال تعالى متوعدًا لمنكري القيامة: {كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ} وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد.

فهذه {كَلا} للإنكار، ويعبر بعضهم عنها بأنها للردع والزجر، كلا ليس الأمر كما يقولون، ليس كما يتوهمون، ليس كما يدعون، {كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ}، سيعلمون وعيد الله أعداءه ما هو فاعل بهم، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، أو أنهم يعلمون حقيقة هذا النبأ الذي كذب به من كذب، أو تساءلوا على سبيل الاستبعاد لوقوعه، كلا سيعلمون أنه حق، أنه واقع لا محالة.

ثم شرع -تبارك وتعالى- يُبَيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا}؟ أي: ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم، قارّةً ساكنة ثابتة.

هذا كله مما يقوي أن المراد بذلك البعث والقيامة، فذكر دلائل البعث، دلائل القدرة، ثم ذكر بعد ذلك القيامة، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [سورة النبأ:١٧]، بعدما ذكر هذه الدلائل، فهذا كله يقوي أن المقصود القيامة، لكن الذي يشكل على هذا: هل وقع بينهم اختلاف في القيامة أو لا؟.

قال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا} أي: ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارّة ساكنة ثابتة، كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً} [سورة البقرة:٢٢]، والمهاد ما يوضع للصبي، فهي بهذه المثابة يتقلبون عليها، ويتحولون، ويسافرون، وينامون، ويجلسون، ويبتغون مصالحهم ومعايشهم دون عناء ولا مشقة، فهي ساكنة لا تضطرب ولا تميد بهم، تصور لو كانت الأرض في اضطراب كيف يتنقل الناس؟ كيف ينامون؟، كيف يجلسون، إذا كانت وقعت اهتزازات لمدة ثوانٍ معدودة، لعلكم رأيتم في بعض المقاطع ما الذي يحصل للناس من الاضطراب، فهنا جعلها الله -عز وجل- بمنزلة المهاد الذي يكون للصغير، تتحقق عليها مصالحهم، وتقوم معايشهم، فهذا كله من دلائل قدرته.

{وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} أي: جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها.

ثم قال تعالى: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [سورة الروم:٢١]**، وقوله: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} أي: قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} بمنزلة الوتد وهو ما يثبت به الشيء، المسمار، فهي تثبت الأرض من أجل أن لا تميد ولا تضطرب.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} قال: يعني ذكراً وأنثى يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}، فهذا هو المتبادر في هذا السياق؛ لأنه سياق امتنان، يقول: جعل لكم ما تقوم به مصالحكم ومعايشكم، وما يحصل لكم به السكون والاستقرار، وجعل الأرض ممهدة، وجعل لها رواسي من فوقها، هذه الجبال تثبتها، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً، جعلكم أزواجاً ذكراً وأنثى، كلمة الأزواج كما سبق في بعض المناسبات تأتي بمعنى الأصناف، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] يعني: وأشباههم ونظراءهم، لكن هنا المتبادر أن المقصود الذكر والأنثى، بينما ابن جرير حمله على ما هو أعم من ذلك من الأصناف، قال: ذكراً وأنثى، طوالاً وقصاراً، وكذلك أيضاً ذوي دمامة وجمال، يعني جعلهم على صنفين، جعلهم على حالتين، لكن الأول هو المتبادر، والله أعلم.

قال: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} قال: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش، الآن {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}، السبات ما هو؟ هو يرجع إلى معنى الراحة، وأصل السبت يأتي لمعانٍ متعددة

منها القطع، ولهذا يوم السبت هو يوم انقطاع من الأعمال مثلاً عند اليهود، لا يعملون فيه، لا يزاولون أي عمل، كما قال الله -عز وجل- في خبر القرية الذين قص الله خبرهم، كانوا يعدون في السبت، {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ} [سورة الأعراف:١٦٣] فينقطعون من الأعمال والأشغال فلا يزاولون شيئاً، ولذلك لا يجوز للمسلمين أن يتركوا المزاولات والأعمال والتجارات والاكتساب في يوم من الأيام حتى يوم الجمعة، لكن بقاء الناس في إجازة يوم الجمعة مثلاً، هذا من أجل أن متطلبات الحياة في العصر الحديث، حيث الناس صاروا يزالون وظائف وما إلى ذلك يحتاجون إلى يوم يتفرغون فيه لأشغالهم وشئونهم الخاصة، فاليوم المناسب هو يوم الجمعة، من أجل أنه عيد، ومن أجل أنه فيه صلاة الجمعة، وما إلى ذلك؛ لئلا يُشغل الناس عن الصلاة، لكن لا يجوز للناس أن يجعلوا من يوم الجمعة مثلاً يوماً للانقطاع الكامل عن كل الأعمال، المتاجر لا تفتح، المستشفيات لا تفتح كما هو شأن اليهود إلا ما يدخل في حيز الضرورات، طوارئ يعني، وإلا تقفل الأسواق وما إلى هذا، هذا لا يجوز أن يفعله المسلمون.

فأخبر الله -عز وجل- أنه جعل نومنا سباتاً، قال: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة، فهنا ركب المعنى من هذين، القطع، قطعاً للحركة؛ لتحصل الراحة، وتجد عبارات أهل العلم مقاربة تدور حول هذا المعنى في تفسير هذه الآية، كما يقول ابن جرير: السبات السكون، ولذلك سمي يوم السبت سباتاً؛ لأنه يوم راحة ودعة، فهذا ترجع إليه عبارات أهل العلم، فإن أصل هذه المادة "السين والباء والتاء" يرجع إلى معنى القطع، والمقصود هنا من السياق الانقطاع الذي تحصل به راحة الأبدان، فيستريحون من العناء، من الأعمال، من الأشغال وما إلى ذلك، أي راحة لأبدانكم، وتجد أصحاب المعاني مثل الزجَّاج يقول: أنْ ينقطع عن الحركة والروح في بدنه، أي: جعلنا نومكم راحة لكم، أي: نائم، انقطع عن الحركة، روحه ونفسه يتردد ولكنه ساكن، فهذا يرجع إلى ما قبله، وهكذا قول البعض: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم، كما يقوله ابن الأنباري، فهذا يرجع إلى ما سبق، ولا يبعد منه قول من قال: إن ذلك بمعنى التمدد، رجل مسبوت الخلق، أي ممدوده، ممدود الخلق، الرجل إذا أراد أن يستريح تمدد، فالتمدد يدل على الاسترخاء، فهو يرجع إلى معنى الراحة كذلك {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}، فيحصل للبدن وللنفس الاستجمام، فهذه نعمة يمتن الله -عز وجل- بها، وابن فارس -رحمه الله- أعاد المعنى لهذه المادة "السين، والباء، والتاء" إلى أصل واحد يدل على الراحة والسكون، مع أن العلماء يذكرون لها في كتب اللغة معاني أخرى، فالسبت: الفرس الذي لا يسبق، والعالم الذي لا يجارى، كل هذه تأتي لمعنى، لكن هنا السياق يدل على الراحة والاسترخاء، وهذا يدل على أن قلب الناس للحال فيكون ليلهم نهاراً ونهارهم ليلاً أن هذا عكس للفطرة، وهو قلب لهذه النعمة، ورفض لها، وكلام الأطباء معلوم في أثر السهر، وحاجة الجسد والغدد التي لا تفرز إلا في ساعات الليل أن هذا أمر لابد منه للجسم ولعافيته، وآثار السهر كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى- على أحد الأقوال {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [سورة الفتح:٢٩]، في الكلام على الأمثال في القرآن، فهذه السيما قال بعض السلف: المقصود ما يظهر عليهم من الصفرة والتغير والشحوب بسبب السهر، لكن السهر في قيام الليل، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [سورة السجدة:١٦]، فهذا أحد المعاني هناك، وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله-، ولكن لا شك أن السهر يؤثر، ويعرف ذلك من هيئة صاحبه، ومن وجهه، فهو مضر، ولا يلجأ الإنسان

إليه إلا لضرورة، لكن تحول الحياة اليوم بهذه الطريقة لا شك أنه خطأ، وأنها قضية تحتاج إلى التفات وإلى معالجة، وإعادة نظر، ولذلك تجدون في البيئات الريفية الذين ينامون من بعد صلاة العشاء -والآن قد تغيرت أيضاً حتى أحوال هؤلاء- تجد أن هؤلاء يقومون في غاية النشاط قبل صلاة الفجر، وأن أجسامهم أصح، ونشاطهم أصح، بينما تجد اليوم الواحد منا ينام النهار، ويقوم وهو يتأوه، يشعر أن بدنه في غاية الإنهاك والتعب من النوم، وقد لا يحصل به غناء للبدن، فهذه نعمة يمتن الله -عز وجل- بها على الناس، فاللائق هو أن توضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن ينام الناس في الليل وأن يستيقظوا في النهار، جعل النهار معاشاً؛ ولهذا من أراد الاكتساب والرزق فإن مزاولة ذلك في النهار أدعى لتحصيله، وتحقق مطالبه من الظفر والربح والنجاح في تجارته وأعماله؛ لأن الله جعل النهار معاشاً، وقل مثل ذلك في طلب العلم، فهو من الرزق أيضاً، فجعْلُ ذلك في النهار هو الصحيح، وهو الذي يرجى أن يحصل أثره وعائدته على صاحبه، وهذا الانقلاب سبّب ضموراً في الأوقات، فصار الإنجاز ضعيفاً، وسبّب أيضاً ضعفاً في الأبدان فأنهكها، كما أن ذلك أيضاً يقلق النفوس، والنفس مرتبطة بالبدن غاية الارتباط، فإذا لم يحصل للإنسان الراحة المطلوبة بدأ بعد ذلك تنتابه الآلام والمتاعب النفسية، فهذا أحد أسباب ما يعانيه الناس اليوم من المتاعب النفسية والضيق والقلق إلى آخره، انقلاب الفطرة، انعكاس الفطرة، فالله ركب هذه النفوس وهذه الأبدان تركيباً معيناً، وما يؤثر في الأبدان يؤثر في النفوس غالباً، والعكس صحيح، تعرف الإنسان الذي عنده معاناة نفسية من هيئته، الحزين تعرفه من هيئته، والفَرِح تعرفه من هيئته، وهكذا.

فمثل هذه الأشياء لابد من الالتفات إليها ومراعاتها، واليوم استوى الناس في القرى والمدن من هذه الحيثية، في بعض البلاد قبل عشر سنوات أو أقل إذا جاءت الساعة الخامسة عصراً بالكثير كأقصى حد -يعني أكثرهم الساعة الرابعة- تقفل الأسواق، فإذا جاء المغرب هدأت الحركة، بعد المغرب لا يكاد يخرج أحد في الطرقات على كثرتهم، يصلون إلى أكثر من مائتين وثلاثين مليوناً لا تكاد ترى من يمر في الطرقات، لا تكاد ترى في الطرقات إلا السيارة بعد السيارة نادراً، أو الدراجة النارية، فإذا كان بعد الفجر رأيت الحركة بدأت تدب في أوساط هؤلاء الناس، وبعد الفجر ترى الجموع تخرج، إن كان يوم إجازة رأيت الصغار والكبار يذهبون إلى الملاعب المتفرقة في كل ناحية بعد الفجر، وهذا يذكرك تماماً بمثل هذه الآيات، كيف جعل الله -عز وجل- الليل سكناً، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} [سورة يونس:٦٧]، وجعل النهار بهذه المثابة {مَعَاشًا}، مبصراً، وتغيرت هذه الأحوال أيضاً هناك، وصارت الحال مشابهة لما عندنا، فتأتي في الساعات المتأخرة من الليل وتجد الناس كأنهم في الصباح.

قال هنا: لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش، يعني {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: نُلبسكم ظلمته، يغشاكم كاللباس، {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}، يغشاكم كما يغشاكم اللباس، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فإذا كان يغشاهم بهذه المثابة فهذا يعني أنه يكون محلاً للسكون، فمن فسره بالسكون فإن ذلك يرجع إلى هذا المعنى، يغشاهم بظلامه فتسكن الحركة، فيحصل للنفوس الهدوء والسكون.

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: يغشى الناسَ ظلامُه وسواده، كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [سورة الشمس:٤].

يغشى: يعني يغشى بظلامه، أرخى سدوله، فأقسم الله -عز وجل- به في هذه الحال؛ لأنه مظهر من مظاهر العظمة، فكل هذا من دلائل القدرة، قدرته -تبارك وتعالى- على البعث، صرف هذه النيّرات، وصرف هذه الأفلاك، وصرف هذا الكون بهذا التصريف العجيب، واليوم توجد في بعض المقاطع صور حقيقية لحركة الليل، حيث يغشى النهار، بحيث إنها عُملت لها عمليات تسريع شديدة، فهي صورة حقيقية، تجد الليل على الكرة الأرضية يتبع النهار، {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [سورة الزمر:٥].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} أي: سكنًا.

يعني هذا أيضاً قال به غير قتادة، جماعة مثل سعيد بن جبير، والسدي، سكناً، هذا لا يعارض ما سبق، يعني: كأنه تفسير بالمعنى، فاللباس معروف، يعني: يغشاهم بظلامه فيكون بمنزلة اللباس، يغطيهم بظلامه، وهذا يقتضي السكون، فتهدأ الحركة، فيكون هذا من قبيل التفسير على المعنى، كما قال الله -عز وجل-: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [سورة الأنعام:٩٦]، تسكن فيه النفوس، يغشاهم الظلام كاللباس، فتسكن الحركة، {لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} [سورة يونس:٦٧].

{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} أي: جعلناه مشرقا مُنيرًا مضيئًا، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك.

يعني موضعاً للمعاش، تعيشون، تتقلبون، تطلبون المعايش فيه، فتفسيره هنا: جعلناه مشرقاً نيّراً هذا باعتبار مقتضى ذلك كونه معاشاً، وإلا فليس هذا معنى معاش، لكن كيف جعله معاشاً؟ جعله مبصراً نيّراً من أجل طلب المعايش، وركّب الله هذه الأبدان كما سبق بهذا التركيب، ففي النهار تكون مهيأة للانطلاق والحركة والعمل، لكن بعد أن تنال حظها من الراحة، فيتجدد نشاطها، فتعاود العمل من جديد، لكن إذا عُكست القضية صار النهار محلاً للإرهاق والتعب، والذبول، وضعف النشاط والحركة، الفطرة التي فطر الله -عز وجل- الناس عليها، هو ما ذكره الله -عز وجل- هنا.

وقوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} يعني: السماوات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم.

{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}، هذه الشمس بمنزلة السراج الذي يضيء هذا العالم، والوهاج يقول هنا: يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، الوهج كما يقول مقاتل: هو الذي يجمع بين الإضاءة والحرارة، متوهجة، فالشمس بهذه المثابة، هي سراج وهاج، هي متقدة تتوهج بالحرارة، وأيضاً تضيء وتنير هذا الكون الذي نشاهده.

وابن جرير -رحمه الله- يفسر وهاجاً، يقول: أي وقّاداً مضيئاً، وهذه المعاني متقاربة لا إشكال فيها، سراجاً وهاجاً.

وقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً، وأبو العالية، والضحاك، والحسن، والربيع بن أنس، والثوري، واختاره ابن جرير.

وقال الفراء: هي السحاب التي تَتَحَلَّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ، كما يقال امرأة مُعصِر إذا دنا حيضها ولم تحض، وهذا كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} [سورة الروم:٤٨] **أي: من بينه.**

يعني من ثقوبه، هنا قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، قال: يعني السحاب، وقيده بعضهم كما قال الفراء بالسحاب الذي لم يمطر بعد، يعني هو ممتلئ ولكنه لم يمطر، وهذا المعنى الذي قاله الفراء سبقه إليه جماعة من السلف كالربيع وسفيان وأبي العالية والضحاك.

هنا يقول: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} يعني: السحاب، قال: واختاره ابن جرير، يعني السحاب مطلقاً.

عبارة ابن جرير: هي السحاب، وقيدها: التي قد تحلبت بالماء، يقول: هي السحاب أو هي التي قد تحلبت بالماء من السحاب، يعني ليس مطلق السحاب، وإنما الذي تحلّب بالماء.

والمشهور أن المعصرات هي السحاب، لكن بعضهم يقيدها بالتي قد امتلأت من المطر ولكنها لم تمطر بعد، وبعضهم يطلق ذلك، ولا إشكال في أن المقصود بالمعصرات هي السحاب ذات المطر، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}.

لكن بعض السلف فسره بالرياح، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} قالوا: الرياح، وهذا منقول عن مجاهد ومقاتل، وقتادة، قالوا: الرياح، وأنها تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح إذا أثارت العجاج، وهذا ذكره بعض أهل اللغة كالأزهري، قال: هي الرياح ذوات الأعاصير، بأي اعتبار؟، باعتبار أن هذه الرياح هي التي تستدر المطر، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا}، فالرياح سبب، هي التي تستدر المطر، وهي التي تلقحه، وهي التي تسوقه، وتجمعه، وتؤلف بينه حتى يصير متراكماً متراكباً، هذا باعتبار أن "مِن" في {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} بمعنى الباء، أنزلنا بالمعصرات يعني: السحاب {مَاء ثَجَّاجًا}، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، لكن المتبادر من السياق هو السحاب، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، وليست "من" هنا بمعنى الباء، وإنما هي على بابها، وهذا الأصل في حروف المعاني، أن يبقى الحرف على أصله، فلا يقال بتعاورها إلا إذا لم يمكن حمل ذلك على المعنى المتبادر لكل حرف؛ لأن كل حرف له معنى متبادر، يعني "في" مثلاً للظرفية، "على" للعلو، "من" ابتداء الغاية مثلاً، إلى غير ذلك من معانيها، فهذا باعتبار أنها بمعنى الباء، يعني إذا فسر بالسحاب؛ ولهذا فإن بعض أصحاب المعاني -معاني القرآن- قال: إن هذه المعاني يمكن أن تجتمع وتلتئم، ذكر هذا النحَّاس، قال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} يعني: ذوات المعصرات، {مَاء ثَجَّاجًا}، فهذه المعصرات هي السحب تسوقها الرياح، وتكون سبباً لنزول المطر، وهذا لمن أراد أن يجمع هذه المعاني، ولا شك أن من معاني المعصرات في كلام العرب السحب، ومن معانيها الرياح، فهؤلاء أئمة في اللغة فسروها بالرياح، فصار لها

هذا المعنى وهذا المعنى، {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، السياق هنا يدل على أحد هذين المعنيين وهو السحاب، أنزلنا من السحاب المشحون بالمطر {مَاءً ثَجَّاجًا}.

والمبِّرد يقول: سحاب معصِر أي: ممسك للماء يعتصر منه يعني شيئاً بعد شيء، مثلما تقول: عصرت الثوب، فأنت بذلك تستنطف ما فيه من الماء، وجاء عن أبي بن كعب، والحسن، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان بأنها السماوات، لاحظ هؤلاء جماعة من السلف فسروا المعصرات بالسماء، أو السماوات، هذا يمكن أن يوجه فيقال: باعتبار أن السحاب يقال له: سماء، وكل ما علاك فهو سماء، والشاعر يقول:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناه ولو كانوا غضابا

إذا نزل السماء يعني: السحاب، المطر، وأحاديث استراق السمع إذا تتبعت المرويات الواردة فيها تجد في بعضها أن الملائكة تنزل في العنان، يعني السحاب، مع قول الجن: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [سورة الجن:٩]، يعني السماء، فدل الحديث على أن الملائكة تنزل إلى السحاب، وأنهم مع قولهم: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} [سورة الجن:٨]، {ثَجَّاجًا}، الثجاج هو الكثير المنصب بكثرة المتتابع، فالكثرة مع التتابع هذا هو الثجاج، وعبارات أهل العلم في ذلك متقاربة ترجع إلى هذا المعنى، {مَاءً ثَجَّاجًا} كثيراً متتابعاً، ينصب بكثرة وتتابع، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى.

في الأصل ابن كثير يقول: **والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ...} الآية.**

ما ذكره هنا لا ينافيه، يعني هو اقتصر على هذا، هو ذكر لكنه رجّح السحاب، فكونه في المختصر يقتصر على هذا لا إشكال؛ لأنه هو اختيار ابن كثير.

وقوله -جل وعلا-: {مَاءً ثَجَّاجًا} قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس: {ثَجَّاجًا} منصباً، وقال الثوري: متتابعًا، وقال ابن زيد: كثيراً.

وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنعتُ لك الكُرسُفَ)) -يعني: أن تحتشي بالقطن-: قالت: "يا رسول الله، هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجًا"[1]**، وهذا فيه دَلالة على استعمال الثَّج في الصبّ المتتابع الكثير، والله أعلم.**

فاجتماع هذه المعاني هو معنى الثجاج، الكثرة والتتابع، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، جمعوا هذه العبارات للسلف وعبروا بهذه العبارة، {مَاءً ثَجَّاجًا}، والمطر القليل كذلك نعمة، ولكن المنة تكون أعظم بالأول، الماء الكثير المتتابع، هذا الذي يحصل به رواء الأرض ومن المنافع ما لا يخفى، تسيل منه الأودية

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب من قال: إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، برقم (٢٨٧)، والترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، برقم (١٢٨)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها قبل أن يستمر بها الدم، برقم (٦٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٧٤٧٤)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٢٩٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (١٥١٠).

وما إلى ذلك، لا من المطر اليسير القليل، والناس يستبشرون بكثرة المطر وتتابعه، وليس بالشيء القليل الذي يكون كالدِّيَم.

وقوله تعالى: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} أي: لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارَك {حَبًّا} يدخر للأناسي والأنعام.

فلا حاجة لتقييد الحب بما يأكله الناس؛ لأن من الحبوب ما يأكله الأنعام، الشعير مثلاً فيما سبق كان الناس يأكلونه، ويخبزون منه، واليوم هو طعام للأنعام، فالحب يكون للأناسي والأنعام، **{لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}**، وكذلك النبات، قال: **أي: خضراً يؤكل رطباً**، ابن جرير يقول: الكلأ الذي يرعى من الحشيش والزروع، وهنا النبات لا يختص بهذا، النبات هو خلاف الحب، ما ينبت مما يأكله الناس والأنعام أيضاً.

{وَنَبَاتًا} أي: خضرًا يؤكل رطباً، {وَجَنَّاتٍ} أي: بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا؛ ولهذا قال: {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} قال ابن عباس، وغيره: {أَلْفَافًا} مجتمعة، وهذا كقوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد:٤].

هنا نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير **{أَلْفَافًا}** قال: مجتمعة، وفسره طائفة من السلف بأنها يلتف بعضها على بعض، تتشابك أغصانها، وتلتف لتشعبها، فيكون تفسير ابن عباس -رضي الله عنهما- هنا **{أَلْفَافًا}** قال: مجتمعة، يكون من قبيل التفسير على المعنى، باعتبار أنها إذا كانت ألفافاً تتشابك أغصانها وتلتف.. إلى آخره، يدل على اجتماعها وتقارب أشجارها، **{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}** كثيرة الأشجار، كثيرة الأغصان والفروع المتشابكة، يلتف بعضها على بعض لاجتماعها وقربها، فيكون تفسير ابن عباس من قبيل التفسير على المعنى، يعني مجتمعة، و**{أَلْفَافًا}** يلتف بعضها على بعض ، هذا هو التفسير على الظاهر، معنى كلمة "ألفافاً"، فلا إشكال في هاتين العبارتين، فذلك يرجع إلى معنى واحد بهذا الاعتبار، بهذه الطريقة نستطيع أن نلائم بين الأقوال ونجمع بينها، ولا نحتاج إلى الترجيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (١٧) إلى الآية (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلعلي ألخص ما في المجلس الأول من تفسير سورة النبأ، فأقول: هذه السورة النازلة بمكة تتحدث عن اليوم الآخر، عن البعث والنشور، وأهوال القيامة، وأوجالها، وعن أحوال الناس في ذلك اليوم، فالله -تبارك وتعالى- صدر هذه السورة بهذا الاستفهام، {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ} [سورة النبأ:١] عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار المكذبون بالبعث؟، ثم جاء الجواب بعده {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [سورة النبأ:٢] عن الخبر الذي له خطر وشأن، وهذا النبأ العظيم هو البعث والنشور الذي يكذبون به، وتتحدث عنه هذه السورة، أو عن القرآن الذي تفرقت فيه مقالاتهم، {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [سورة النبأ:٣] اختلافهم في البعث والنشور باعتبار أن البعث آمن به أهل الإيمان وبعضٌ من أهل الجاهلية، وهم قلة، وأكثرهم كان مكذباً بذلك، وأما القرآن فاختلافهم فيه ظاهر، فهم مجمعون على الكفر به، ولكن أقوالهم فيه تنوعت وتفرقت، {كَلَّا} ليس الأمر كما يقولون، بل سيعلمون حقيقة ذلك حينما يعاينونه فيكون بالنسبة إليهم من قبيل عين اليقين، بل من قبيل حق اليقين، حينما يصيرون في ذلك، فإذا مات الإنسان علم حقيقة ما كان عليه، وعلم ما سيصير إليه، وتكشفت أمامه الحقائق التي كان يجادل بها أو يكابر أو يؤمن، ثم إذا جاءت القيامة انتقل إلى حق اليقين فصار في عرصاتها يعايشها لحظة بلحظة، {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [سورة الأعراف:٥٣] يعني: وقوع ما أخبر به، {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف:٥٣]، فعندئذ يعرفون، ولا يبقى للمكابرة مجال.

{ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [سورة النبأ:٥]، سيعرفون حقيقة ذلك، ثم ذكر الدلائل على قدرته -تبارك وتعالى- على بعث الأجسام، وإعادة الناس من جديد، {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا} [سورة النبأ:٦] ممهدة لكم، لا تضطرب، ولا تتحرك، تتقلبون فيها، وتبتغون معايشكم، {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [سورة النبأ:٧] كالأوتاد التي تكون للخيمة، تثبتها، فلا تزعزعها الرياح، {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [سورة النبأ:٨] من ذكر وأنثى، أو جعلكم على أصناف فهذا شقي وهذا سعيد، وهذا طويل وهذا قصير، وهذا مؤمن وهذا كافر، وهذا صحيح وهذا عليل، وهذا أعجمي وهذا عربي، وهذا كريم وهذا بخلافه، إلى غير ذلك من أحوال الناس، {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [سورة النبأ:٩] راحة لأبدانكم، وقطعاً للتعب والعناء والنَّصَب الذي يكون بسبب التقلب والأعمال والمزاولات التي تكون في وقت معاشكم في النهار، {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} [سورة النبأ:١٠] يكسوكم ويغطيكم بظلامه، فعندئذ تهدأ النفوس وتسكن الحركة، ويكون ذلك محلاً صالحاً للنوم، ولراحة الأجسام، {وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [سورة النبأ:١١]، جعلناه بحال وصفةٍ يصلح للتقلب في المعايش، جعله مبصراً، جعل الشمس تشرق في أوله وتغرب في آخره، وذلك أن النهار يبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها، وأما اليوم فيبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فجعل النهار بهذه الصفة من أجل أن تتحقق المصالح، قال: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [سورة النبأ:١٢]، سبع

سماوات قوية، محكمة البناء، ليس فيها خلل، وليس فيها ضعف، {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٣-٤] لا يرى شيئاً من عيب وضعف ونقص وشقوق وتصدع، كما يوجد في الأبنية، كما أنها لا تفنى ولا تبلى على مر الدهور والقرون والأزمان المتطاولة، بخلاف الأبنية في الدنيا مهما كانت قوتها، ولكن هذه السماء تتغير أحوالها حينما يريد الله -عز وجل- ذلك إذا قامت القيامة، {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [سورة النبأ:١٣] بنى هذه السماوات وجعل فيها هذا السراج وهو الشمس، يتوهج بالحرارة والإضاءة، فهو يتوقد، وقّاد يملأ هذا الكون على سعته بهذه الإنارة والإضاءة، فلا يحتاجون معها إلى مولدات كهربائية وأشعة وأنظمة للإضاءة وما إلى ذلك، فإن ذلك جميعاً لا حاجة إليه ولا فائدة فيه إذا طلعت الشمس، فلا نور معها من هذه الأنوار التي يصنعها الناس، {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} سراج واحد يكفي، يملأ هذا الكون على سعة أرجائه بهذا النور، كما نشاهد، وهذه نعمة عظيمة من الله -عز وجل- يمتن بها على عباده، كم يحتاجون لو لم تكن الشمس، كم يحتاجون من أجل عافية الأبدان إذا تعطلت أشعة الشمس، كم يحتاجون من أجل الإبصار، وينفقون الأموال الطائلة من أجل ذلك، كم تتعطل من المصالح والطرق والبلاد والمنافع، وكم يحتاجون من أجل النبات؟ لو أن الشمس لم تطلع فإن النبات يموت، ولا تخرج هذه الثمار التي يقتاتون عليها، إلى غير ذلك من المنافع، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} [سورة النبأ:١٤]، أنزلنا من هذا السحاب المثقل المترع بالمطر، أنزلنا منه ماءً متتابعاً منصباً كثيراً، {ثَجَّاجًا}، من أجل: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا} [سورة النبأ:١٥]، هذه بعض فوائده، وإلا ففوائد المطر كثيرة جداً، والله -تبارك وتعالى- قد يذكر فائدة في مقام وذلك لا ينفي غيرها من المنافع والفوائد، قال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}، الحب بجميع أنواعه مما يطعمه الإنسان ويطعمه الحيوان، {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [سورة النبأ:١٦]، جنات ذات أشجار تُخرج أنواع الثمار من النخيل والأعناب، وسائر الأشجار والفواكه التي نعرفها والتي لا نعرفها، فهذه الأشجار كثيفة، مجتمعة، متقاربة، يلتف بعضها على بعض لكثافتها، وهذا لا شك أدل على القدرة، وأبلغ في الامتنان، بخلاف ما إذا كانت شجرة هناك وشجرة هناك، {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}.

ثم بدأ بالحديث عن يوم الفصل بعد أن ذكر دلائل القدرة على بعث الأجسام، فإن الذي أوجد هذه الأمور وأنزل المطر، وأخرج النبات، فهذا كإحياء الأجسام من جديد، فهو مشهد نشاهده ويتكرر صباح مساء، ينزل المطر ويخرج النبات، هذه الأرض لم يكن فيها نبات، كانت قاحلة، فمن أين جاء هذا النبات؟، فالذي أخرج النبات قادر على أن يخرج الموتى.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً * إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} [سورة النبأ:١٧-٣٠].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يَعلم وقتَه على التعيين إلا الله -عز وجل-، كما قال: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [سورة هود:١٠٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، يوم الفصل قيل له ذلك؛ لأنه يُفصل فيه بين الخلائق، يحكم الله -عز وجل- بينهم فيما هم فيه يختلفون، يفصل بين الظالم والمظلوم، ويفصل بين أهل الإيمان وغيرهم من الطوائف الكافرة المكذبة بالله -تبارك وتعالى-، وبرسله -عليهم الصلاة والسلام-، فالله يفصل في هذا اليوم {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، يفصل بين الخلق، {كَانَ مِيقَاتاً} يعني: ميقاتاً لِمَا جعله الله -عز وجل- لهؤلاء المكذبين بالبعث، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: ميقاتاً لحسابهم وجزائهم وعذابهم.

وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يَعلم وقته على التعيين إلا الله -عز وجل.**

وبعضهم يقول: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً} يعني: للتوقيت، يعني: آخر الدنيا وبداية الآخرة، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، تُوقّت به الدنيا وتنتهي عند هذا الحد، تتوقف، يبدأ فصل جديد، ومرحلة جديدة، أبدية، سرمدية، وقيل: حد للخلائق ينتهون إليه، إلى يوم القيامة، فهم مؤقتون إلى ذلك اليوم، مؤجلون لذلك اليوم، فيحصل فيه النعيم، والعذاب، والحساب، والجزاء، وما إلى ذلك، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، فيوم الفصل يوم مؤقت بأجل معدود، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود:١٠٤-١٠٨]، فالله -تبارك وتعالى- وقّته بوقت لا يتقدم ولا يتأخر، لا يتقدم من أجل مطالبة هؤلاء بمجيء هذا اليوم، متى هذا اليوم الذي تعدنا به؟، ولا يتأخر من أجل قول هؤلاء الكفار الذين صاروا أسرى لأعمالهم في قبورهم، ربّ لا تُقم الساعة، ربّ لا تُقم الساعة، فلا يتقدم ولا يتأخر، {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}، مؤقتاً لا يتغير موعده ولا يعلم وقته إلا الله -تبارك وتعالى-، وكونه مؤقتاً لا ينافي قول من قال: إنه توقيت آخر الدنيا، يعني نهاية الدنيا لأجل، لوقت محدد، فذلك يوم القيامة، وهكذا من قال: ميقاتاً للجزاء والحساب لهؤلاء الناس، فكل ذلك في يوم محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، فهو ذو وقت معلوم محدود، وهم مؤقتون لهذا اليوم الذي هو يوم الفصل.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} قال مجاهد: زُمَراً زُمَراً، قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٣١].

وروى البخاري في تفسير قوله: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بين النفختين أربعون)) قالوا: أربعون يوماً؟ قال: "أبَيْتُ"، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: "أبيتُ"، قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبيتُ"، قال: ((ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة))[1].

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ:١٨]: زُمَرًا، برقم (٤٩٣٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، برقم (٢٩٥٥).

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، الصور: قرن ينفخ فيه الملَك، والمشهور أنهما نفختان: نفخة الصعق، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الزمر:٦٨]، هذه النفخة يموت فيها جميع الخلائق إلا من شاء الله، والنفخة الثانية هي نفخة البعث، يبعثون، وبعض أهل العلم يقول غير هذا، فمنهم من يجعل النفخ في الصور ثلاث مرات بناءً على قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة النمل:٨٧]، فهذه نفخة الفزع، فقالوا: هناك نفخة هي نفخة فزع، واختلفوا في وقتها هل هي قبل نفخة الصعق؟، يعني يحصل لهم الفزع ثم تأتي نفخة الصعق، ثم بعد ذلك تأتي نفخة البعث، وبعضهم يقول: إن نفخة الفزع تكون بعد ذلك، يعني بعد البعث، فيصيبهم الفزع، وبعضهم يزيد في ذلك فيقول: هناك نفخة رابعة، وهي نفخة الصعق، وهي غشية وليست موتة، ويستدلون على هذا بالحديث: ((الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟))[٢]، والمشهور عند جماهير أهل العلم أنهما نفختان، وليس الحديث عن هذا الآن، الله -تبارك وتعالى- هنا يقول: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} هذه النفخة هي نفخة البعث بالاتفاق، ينفخ في هذا القرن نفخة فيقومون من قبورهم، يأتون أفواجاً، يأتون جماعات، هذه الجماعات كما قال الله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [سورة الإسراء:٧١]، والمقصود بإمامهم كما يقوله بعض السلف: يعني بنبيهم، وبعضهم يقول: بكتابهم، فكل ذلك يقال له: إمام، فتأتي كل أمة مع نبيها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد))[٣]، فيأتون أفواجاً، لا يأتي الناس دفعة واحدة، وإنما هؤلاء مع نبيهم، وهؤلاء مع نبيهم، جماعات، يأتون إلى أرض المحشر، هؤلاء الذين تفرقوا في أرجاء المعمورة، قبورهم فيها مبثوثة، يقومون وتبعثر هذه القبور ثم يأتون، كل أمة مع نبيها.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً} أي: **طرقاً ومسالك لنزول الملائكة.**

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير قال به بعض السلف، {أَبْوَاباً} يعني: **طرقاً ومسالك**، وبعض أهل العلم يقول: هي على هيئة الأبواب، هكذا تتراءى للناظرين، ولكن ذلك من أثر التغير الهائل الذي يحصل بهذا الكون، كما ذكر الله -عز وجل- في المواضع الأخرى، يعني صار فيها فروج على هيئة الأبواب، كما قال الله -عز وجل-: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [سورة الفرقان:٢٥]، هذا في يوم القيامة، قال: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [سورة الرحمن:٣٧]، وقال: {وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٦]، وقال: {إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [سورة الإنفطار:١]، و{وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ} [سورة المرسلات:٩]، و{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} [سورة الإنشقاق:١]، فيحصل لها تصدع وتشقق، ولهذا قال: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا}، تتراءى للناظرين أنها أبواب، وهي في الحقيقة الشقوق والصدوع التي حصلت بسبب أهوال ذلك اليوم وما

---

٢ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...} الآيات، برقم (٣٣٩٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٧٣).

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

يحصل فيه من التغير في العالم العلوي والعالم السفلي، ويدل على أن ذلك المراد به التشقق والتصدع ما ذكر بعده، قال: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً} كقوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل:٨٨] وكقوله: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [سورة القارعة:٥].

وقال هاهنا: {فَكَانَتْ سَرَاباً} أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تَذهب بالكلية فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، سيرت الجبال وذلك في يوم القيامة، وذكر هنا تفسيره من قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، وهذا أيضاً يوم القيامة، كل هذا يحصل يوم القيامة، وليس كما يقوله بعض من يتكلم في التفسير العلمي، يقول: إن هذا يدل على أن الأرض تدور، فهذه الجبال تحسبها ساكنة لا تتحرك والواقع أنها تمر مر السحاب، تتحرك، هذا كله ذكره الله -عز وجل- في سياق القيامة، {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، يعني: أن الله يسيرها، فذلك معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، ولم يقل أحد من المفسرين قط بأن هذا في الدنيا، أبداً، وكل قول يعود على أقوال السلف بالإبطال فهو أولى بالبطلان، لا يمكن أن تتفق الأمة عبر هذه القرون بما فيها من الصحابة أعلم الناس بالقرآن، لا يمكن أن يتفقوا على معنى غير صحيح، أن يفهموا الآية فهماً خاطئاً، ثم يأتي في هذا العصر -لاسيما من غير المتخصصين في التفسير والعلوم الشرعية- ثم يقول: هؤلاء جميعاً أخطئوا والمعنى كذا وكذا، هذا لا يمكن.

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} يعني: صارت كَلَا شيء، هكذا بعض أهل العلم يقول، باعتبار أن السراب ليس بشيء، فهذه الجبال تزول وتتفتت، وتكون كالهباء، قالوا: أراد بقوله: {فَكَانَتْ سَرَابًا} أي: لا شيء؛ لأن السراب ليس بشيء.

وبعضهم يقول كابن جرير: صارت هباءً منبثاً لعين الناظر كالسراب، يعني هو يراها مثل السراب، كما قال الله -عز وجل-، يعني أولائك فسروه بالمقتضى، قالوا: مقتضى ذلك -يعني كونها سراباً- أنها لا شيء، قالوا: المقصود لا شيء، صارت لا شيء، ولا يلزم من ذلك أنه يرى سراباً، الآخرون كابن جرير قالوا: لا، هي صارت لا شيء، فصار يهيأ للناظر إليها أنها سراب، والله -تبارك وتعالى- ذكر للجبال أحوالاً في القرآن فمن ذلك الاندكاك، كما قال الله -عز وجل-: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [سورة الحاقة:١٤]، هذه مرحلة، الدك لهذه الصخور والجبال التي هي في غاية الصلابة، وحالة ثانية أنها تكون كالعهن، كالصوف المنفوش، بعدما تدك، {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [سورة القارعة:٥]، وحالة ثالثة أنها تصير كالهباء، الهباء الذي يتطاير {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا} [سورة الواقعة:٥-٦]، الهباء هو هذا الذي نشاهده حينما تكون أشعة الشمس تدخل إلى الحجرة ثم بعد ذلك نرى أشياء تتطاير دقيقة في غاية الدقة تتطاير في الهواء كالغبار، لا يمكن أن تقبض باليد، فهذه ليست بشيء، فتكون الجبال كالهباء، فتنسف

هذه الجبال وتحملها الرياح، {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، فتزول ثم بعد ذلك تصير سراباً كلا شيء، إما أن الناظر إليها يتراءى إليه أنها سراب، أو أن المقصود أنها تذهب بالكلية كالسراب الذي هو في حقيقته لا شيء، تكون سراباً، تكون أثراً بعد عين، فهذه أحوال هذه الجبال كما قص الله -تبارك وتعالى- في كتابه.

وقوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} أي: مُرصَدة مُعَدّة، {لِلطَّاغِينَ} وهم: المَرَدة العصاة المخالفون للرسل، {مَآباً} أي: مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} قال: أي مرصدة معدة، {جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} -أعاذنا الله وإياكم منها-، المرصاد هو المكان الذي يرصد فيه الشيء، يعني المرصاد مكان يرصد فيه العدو، يرصد فيه الصيد مثلاً، يرصد فيه الشيء، يعني المراصد مثلاً التي تكون مثلاً للنجوم، والأفلاك، فكل ما يرصد فيه الشيء يقال له: مرصاد، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، بعضهم يقول: يرصدون به، أي مُعد لهم، أي أن خزنة النار يرصدون الكفار فيها، يرصدون هؤلاء الكفار، كما يقوله المبرِّد وغيره.

وبعضهم يقول: {كَانَتْ مِرْصَاداً} يعني: مكاناً لحبسهم، كما يقوله مقاتل، وبعضهم يقول: طريقاً وممراً، يعني: النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن الجسر يضرب على متن جهنم، فيمر الناس فيه أرسالاً، فيتفاوت سيرهم، وعليه كلاليب تخطف الناس، فبعض السلف يقول: {كَانَتْ مِرْصَاداً} ممراً تتخطف هؤلاء الكافرين، فيتهاوون بها، فهي في طريقهم، ممراً لهم، {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [سورة مريم:٧١]، وهؤلاء خزنة النار يترقبون هؤلاء الكفار.

وبعضهم يقول: هذا باعتبار أو بمعنى أن النار نفسها تتطلع إليهم وترصد لهم، تنتظر من يأتي وتقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ كما يتطلع الرصد والراصد لمن يمر به.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: معنى {مِرْصَاداً} أي: ذات ارتقاب، ترقب من يجتازها وترصدهم.

الحاصل من هذا كله أن هذه الأقوال متقاربة، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، هي معدة لهم، وهي مخلوقة موجودة، وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورأى بعض من يعذبون بها، رأى عمرو بن لحي الخزاعي الذي غير دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأول من سيب السائبة، رآه يعذب يجر قصبه في النار، يجر أمعاءه، ورأى فيها المرأة التي حبست الهرة.

وهذه النار هي معدَّة لهؤلاء، الآن موجودة، وتنتظر هؤلاء الكافرين، وقد رصدت وتهيأت لهم، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً}، وهي لهم بالرصد حيث يمر الناس عليها، وعليها كلاليب، على الصراط كلاليب، فيتهاوى بها من كتب الله -عز وجل- له دخولها، وكذلك أيضاً هؤلاء الخزنة -خزنة النار- هم يترقبون ويرصدون من يساق إلى النار، ومن هو بداخلها، كل هذا متقارب، فجهنم مرصاد لهؤلاء الكافرين، {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران:١٣١]، ومعنى {أُعِدَّتْ} الإعداد يدل على تهيئة الشيء بعناية، تقول: أعددت لك كذا، أعددت لك متكأً، أعددت لك طعاماً، أعددت لك مجلساً، أعددت لك مقالة، يعني بعناية، فالنار أعدت لهم بعناية وهُيئت، جاهزة، {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً} [سورة الفرقان:١٢-١٣] يقولون: وا ثبوراه، وا ثبوراه، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ

مَآباً}، للطاغين الذين جاوزوا الحد، كفروا بالله -عز وجل-، كذبوا رسله، حاربوا أولياءه، كل ما جاوز الحد فهو موصوف بالطغيان، **{لِلطَّاغِينَ مَآباً}**، والمآب هو المرجع، يعني أنها مرجعهم ومصيرهم، لكنها مسألة وقت، مع أنهم في هذه الحياة الدنيا وإن ظن الظان أنهم منعمون يتمتعون إلا أن لهم حظاً من هذا العذاب، وهو يمزق نفوسهم، يعيشون في بؤس، إذا كان الواحد من أهل الإيمان إذا غفل عن ذكر الله بعض الغفلة يجد أثر ذلك في نفسه، فكيف بالذين لا يعرفون الله أصلاً، ولا يذكرونه، ولا يعبدونه، ولا يصلون، ولا يتطهرون؟ هؤلاء لا شك أنهم في عذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، هذا بالإضافة إلى أنهم يعذبون بأموالهم وأولادهم، وبهذا النعيم الذي يتقلبون فيه، وبقدر ما يكون لهم من النعيم يكون لهم من العذاب، كما هو مشاهد، انظر إلى أتعس أهل الأرض هم أكثر أهل الأرض رفاهية، أكثر حالات الانتحار في أكثر البلاد رفاهية.

كفى بك داءً أنْ ترى الموتَ شافياً *** وحسبُ المنايا أنْ يكنّ أمانيا

فهؤلاء بلغ بهم الشقاء مبلغه حتى ضاقت بهم نفوسهم، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا ملاذاً إلا الموت، فهم في شقاء في الدنيا، وعذاب في البرزخ، وهم في عذاب أيضاً في الآخرة. **{لِلطَّاغِينَ مَآباً}**.

وقوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} أي: ماكثين فيها أحقابا، وهي جمع "حُقب"، وهو: المدة من الزمان.

الحُقب: **المدة من الزمان**، وردت عن بعض السلف أقاويل في تحديد الحقب، واختلفت أقوالهم في ذلك وتباينت تبايناً كثيراً، ولا حاجة للاشتغال بها، ولكن إذا جاء ذلك في شيء من كتب التفسير وقرأته فيه فيمكن أن يقال: إن ذلك محمول على الأحقاب غير المتناهية، بصرف النظر عن تحديد الحقب، فهي أحقاب غير متناهية، أو أنها أحقاب في نوع من العذاب الذي هو الحميم والغساق، يبقون فيها أحقاباً، ولهم جزاء آخر غير هذا، **{وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}** [سورة ص:٥٨]، وليس معنى ذلك أن للنار مدة ثم تفنى بعدها، فإن الذي عليه أهل السنة أن النار لا تفنى.

.... *** كذلك جنة المأوى وما فيها من الولدانِ

حور لا تفنى، والنار لا تفنى، الجنة لا تفنى، بل هي باقية أبداً، وقول من قال: إن ذلك له انقضاء قول غير صحيح، وخلاف الأدلة التي نصت على الخلود، وأما التعليق في آية هود في قوله -تبارك وتعالى-: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** [سورة هود:١٠٧]، فالمقصود بذلك التعليق على المشيئة: أن ذلك من قبيل التحقيق لا التعليق، كقوله تعالى: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ}** [سورة الفتح:٢٧]، وهم داخلوه قطعاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في ما يقال من السلام على أهل المقابر: ((وإنا -إن شاء الله- بكم لاحقون))[٤]، وهو يعلم أنه لاحق بهم قطعاً، **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}** [سورة الزمر:٣٠]، فالتعليق بالمشيئة على نوعين:

الأول: ما كان من قبيل التحقيق.

والثاني: ما كان من قبيل التعليق على المشيئة، يعني إنْ حصل ذلك، فكل شيء بمشيئته -سبحانه وتعالى.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، برقم (٢٤٩).

وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله تعالى: {إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [سورة هود:١٠٧] **في أهل التوحيد، رواهما ابن جرير.**

وروى ابن جرير عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} قال: أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحُقُبَ سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون.

وقال سعيد عن قتادة: قال الله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضى حُقُب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحُقُب ثمانون سنة.

وقال الربيع بن أنس: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله -عز وجل-، وذكر لنا أن الحُقُب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون. رواهما أيضاً ابن جرير.

الأحقاب: جمع حُقُب كما سمعتم، ولكن هذه الأقاويل هي متباينة، وبعضهم يقول: الحقب ثلاثون سنة، وقيل غير هذا، ولا حاجة إليه، ولكن يمكن أن يقال: إن هذه الأحقاب هي الدهور، يعني أنهم يمكثون في النار ما دامت هذه الأحقاب، -وهي لا تنقضي- يبقون فيها على مدى الدهور، لا يخرجون منها، وبعضهم يقول: إن الأحقاب المذكورة هي مدة وقت شرب الحميم والغساق المذكور هنا، **{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}**، فإذا انقضت كان لهم نوع آخر من العذاب، هذا ذكره ابن جرير احتمالاً، ذكره احتمالاً، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}** [سورة ص:٥٥-٥٨]، وبعضهم يقول: هذه محمولة على -يعني أن الأحقاب مدد معينة- عصاة الموحدين، والواقع أن السياق في الكفار، وليس في هؤلاء، ولا حاجة لهذا التقييد، والحسن البصري يقول: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حُقُب دخل آخر، ثم آخر، ثم كذلك إلى الأبد، إذاً **{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}** يعني: دهوراً لا تنقضي.

النظر الصحيح، والتفكير المثمر، والتدبر النافع في مثل هذه المقامات أن يعتبر الإنسان بذلك فيعمل، وأن يلتفت إلى الحياة الدنيا بهذا الاعتبار فتتضاءل في عينه، مهما طال البقاء فيها، مهما عُمّر، يعني إذا كان الإنسان سيعيش ستين أو سبعين أو ثمانين أو تسعين أو مائة سنة، لا تساوي هذه شيئاً أمام المليارات، وأمام شيء بلا انقضاء، إذاً هذه اللذات التي في لحظات، ثم تتصرم، ويقسم المجرمون يوم القيامة أنهم ما لبثوا شيئاً يذكر، **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** [سورة الروم:٥٥]، فإذا كان الأمر كذلك، المسألة مسألة ساعة، فإذاً هذه الحياة الدنيا هي لا تستحق أن يتهافت الناس عليها، وأن يشتغلوا بها، لا تستحق هذا الانكباب، وإنما ينبغي أن تكون زاداً يتزود به إلى الآخرة، يشغل الإنسان هذه الأوقات وهذه الأنفاس في مرضاة الله -عز وجل-، والتقرب إليه وطاعته، هذا هو النظر الصحيح، تمضي الأوقات بسرعة لا نشعر بها، فلذلك ينبغي أن تستغل الأعمار فيما ينفع، فيما يرفع، ولا يشتغل الإنسان بلذة عابرة، تذهب وتزول وتضمحل، وتتلاشى، الآخرة تحتاج إلى عمل، **{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}**، بلا انقضاء، فهذا كما يقول ابن حزم

الأندلسي: لو أن العاقل خير بين أمرين:
الأول: له طريق واسع فيه من الثمار والأزهار.. طريق واسع يفضي إلى مكان ضيق.
والثاني: طريق ضيق يفضي إلى بحبوحة من العيش وسعة، يقول: العاقل يؤثر الطريق الضيق، ((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))[٥]، الطريق ضيق في هذه الدنيا، يحبس نفسه عما حرم الله -عز وجل- حتى يصل إلى بحبوحة، وسعادة، وراحة.
والحافظ ابن حجر -رحمه الله- ذكر أشياء من هذا القبيل في الفتح، نقل بعضها عن ابن الجوزي، وذكر عن غيره أشياء تُصور حقيقة ما نحن فيه في هذا المعبر وهذا الممر، مما ذكره ذكر أمثالاً لحال الناس في هذه الحياة الدنيا، من ذلك أن هؤلاء الناس كقوم ركبوا في سفينة، فأرفأتهم هذه السفينة إلى جزيرة في البحر، فلما أرادوا النزول قال لهم قائد السفينة: ليقضِ كل امرئ حاجته ثم يرجع -الغرض من النزول هو قضاء الحاجة-، فنزلوا، فكانت الجزيرة غنّاء، كثيرة الأزهار والثمار والأشجار والمياه، فمنهم من نسي الغرض الذي نزل من أجله أصلاً، فصار يسبح في الأنهار، ويقطف من الأزهار والثمار، والقسم الثاني اشتغل بشيء من جمع الأزهار والثمار، لكنه أدرك السفينة حينما نادى المنادي بالرحيل، وقسم بادر قضى حاجته ثم رجع، فالذين بادروا حصّلوا أرفع الأماكن وأوسع الأماكن، والذين أبطئوا بعض الشيء حصلوا أماكن دونها وأضيق، ورحلت هذه السفينة، وذبل ما بأيديهم من الأزهار والثمار وضَيَّق عليهم ثم ألقوه ولم ينتفعوا به، وأما أولائك الذين نسوا ما جاءوا من أجله فكانت الجزيرة مليئة بالسباع والهوام وما إلى ذلك، فما أمسوا حتى هلكوا، هذا حال الناس، أقسام الناس، أصناف الناس في هذه الحياة الدنيا.
وذكر مثلاً آخر أيضاً يقول: هذا مثل إنسان يطارده تنين، أو يطارده سبع، فتعلق بغصن شجرة، فبينما هو كذلك نظر تحته وإذا حفرة، هذه الحفرة فيها تنين قد فغر فاه، وإذا بهذا الغصن في أصله فأران أسود وأبيض يقرضانه بلا توقف، يعني سينكسر هذا الغصن الذي تعلق فيه، وسيسقط في هذه الحفرة، وإذا بجواره خلية فيها عسل، فذاقه فأعجبه، فصار يلعق من هذا العسل، ونسي الحفرة والتنين، ونسي الفأرين، فالذي يطارده هو الموت، والذي تحته هو القبر، والغصن هو العمر، والفأر الأسود والأبيض الليل والنهار يقرضان العمر، سينكسر يوماً ما، والخلية هذه هي الدنيا ولذات الدنيا، جعل يلعق وهو ناسٍ، ناسٍ حتى ينكسر به ويلاقي مصيره.
فهذا هو التفكير الصحيح، هناك تفكير سلبي أن الإنسان يلح على ذهنه ليدرك أموراً لا يطيقها العقل، أحقاباً مدة طويلة جداً، فيضغط على الذهن ثم بعد ذلك يجد أنه قد وصل إلى حال لا يستطيع أن يعقلها، يقف الذهن عاجزاً دون تصورها، فيصيبه بسبب ذلك انزعاج، وقلق وضيق، لمّا ضاق عَطَنُه بذلك، إنسان لا يستطيع أن يتصور هذا، وأن هذا يحصل، والسبب هو التفكير السلبي، كل الأشياء هذه فيها تفكير إيجابي وسلبي، نحن لما ندعو الناس إلى شيء نافع من الناس من يأخذ، وعندما نذكر عبادة السلف مثلاً بعض الناس يقول: إذا كان كذلك -بهذه المثابة- أين نحن؟! إذاً ما في فائدة للعمل.

---

٥ - رواه مسلم، في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٢).

وعندما نذكر نصوص الرجاء يتشبث بها بعض الناس يقول: إذاً الله غفور رحيم، نعمل ما نشاء، وتُذكر نصوص الخوف فيقول: إذاً ما في فائدة، يحصل عنده إحباط ويأس، هذا كله تفكير سلبي، ولذلك الإنسان يخاف أحياناً، تتكلم عن الرياء، حُب الظهور والمحمدة وما إلى ذلك، بعض الناس يفكر تفكيراً سلبياً بهذه القضية، فيقول: إذا كان الأمر كذلك إذاً لماذا ندعو؟ ولماذا نعلم؟ ولماذا نعمل؟ نترك كل شيء ولا نقع في هذه المخاطر، هذا غلط، فوجهوا أفكاركم إلى التفكير الصحيح، التفكير هذا إذا وجه لشيء ينفع أثمر، وإذا وجه إلى شيء يضر حصل بسبب ذلك أمور سلبية.

وقوله تعالى: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً} أي: لا يجدون في جَهنَّم برداً لقلوبهم، ولا شرابا طيبا يتغذون به. ولهذا قال تعالى: {إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}.

{لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً}، البرد يعني ما يبرد الأجسام، هذا هو المتبادر، والشراب شيء يبرد بواطنهم، الإنسان إذا صار في حال من العطش والشدة والحر الشديد يريد شيئاً يبرد داخله وهو الشراب، ويريد شيئاً يبرد ظاهره، فهم لا يجدون هذا، ولا يجدون هذا، هذا هو المشهور، مع أن طائفة من السلف كمجاهد، والسدي، وأبي عبيدة، والفضل بن خالد، وأبي معاذ النحوي قالوا: البرد: هو النوم، **{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا}** أي: نوماً، لكن هذا خلاف المتبادر الظاهر، فإن النوم وإن كان معنى صحيحاً من جهة اللغة إلا أنه قليل في الاستعمال، والقرآن يُحمل على المعنى المتبادر الظاهر، ولا يحمل على معنى مغمور إلا لدليل يجب الرجوع أو الوقوف عنده، فكون النوم يقال له: برد هذا صحيح، والإنسان إذا أصابه العطش في رمضان أو الجوع أو نحو ذلك احتر باطنه، فيلجأ إلى النوم، فإذا نام هدأت حرارة الباطن، وسكن عطشه، وارتاح بهذا الاعتبار، **{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا}**، لكن الراجح الذي عليه الجمهور أن المقصود: لا يذوقون برداً أي ما يبرد ظواهر الأجسام، ولا شراباً يبرد بواطنها، **{إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}**، فهذا الاستثناء بهذا الاعتبار إذا قلنا: إنه يرجع إلى البرد والشراب يكون استثناءً منقطعاً؛ لأنه ليس من مطلوبهم، فإن الحميم **{يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}** [سورة الحج:١٩-٢١] يعني: يضربون بمقامع: حديدة في رأسها شيء يضرب بها الواحد منهم، وكلما أرادوا الخروج أو فارت النار بهم وارتفعت بهم ضربوا بهذه المقامع، **{كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا}** [سورة الحج:٢٢]، فهذا حال هؤلاء في النار، **{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا}**، أجسامهم يصب عليها الحميم، وكذلك في داخل الأجواف، **{يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}**، فيحصل الانصهار للظاهر والباطن، تذوب، **{إِلا حَمِيماً}** أي الذي انتهى حره، فهو في غاية الحرارة -نسأل الله العافية-، إذا كان البخار يقشر الوجه ويزيل جلدته، فكيف إذا صب على الإنسان -نسأل الله العافية- الحميم، والغساق؟، قال: **{إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}**، هنا يقول: **قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم فهو الحار الذي انتهى حره وحُمُوّه، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه**، فابن كثير جمع المعنيين اللذين ذكرهما السلف، وهذه عادة ابن كثير في هذا الكتاب

وهي من مزايا هذا الكتاب.

بعضهم يقول: الغساق هو النتن الذي يخرج من أهل النار من الصديد ونحو ذلك، يعني ما يسيل منهم، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، وبعضهم يقول: هذا الذي يخرج من أهل النار ويسيل منهم نتن، وبعضهم يقول: هو الذي اشتد برده، فالعذاب في النار على نوعين: الحميم والحرارة -الإحراق-، والثاني: الزمهرير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير))[6]، فهم يعذبون بالبرد الشديد، وبالحر الشديد، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، فابن كثير -رحمه الله- هنا جمع بين هذين المعنيين {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، وابن جرير يقول: إن الغساق أصله الشيء السائل الذي يسيل، هو الشيء الذي يسيل، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، هذا الذي يسيل منهم، يسيل من حروقهم، وأجسامهم، وجروحهم، وعيونهم، وآنافهم وما إلى ذلك من الصديد المنتن، يخرج من فروجهم، ومسام الجسد، وما إلى ذلك، وهو في منتهى البرودة، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، فهذا يعني البارد الذي قد اشتدت برودته، هذا هو المعنى، والله تعالى أعلم.

وهنا لما ذكر الله -تبارك وتعالى- أنهم {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا}، قد يتوهم أنهم لا يذوقون فيها شيئا، فبيّن أنهم يذوقون، قال: {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، يعني: هم لا يبقون هكذا يعذبون ولا يطعمون شيئاً، وإنما يسقون الحميم، ويأكلون الزقوم، ويشربون الغسلين، ويشربون الغساق، {وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} [سورة الحاقة:٣٦]، الغسلين البارد الذي اشتدت برودته، والطعام يقال لكل ما يُطعَم مما يشرب أو يؤكل، ويدل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} [سورة البقرة:٢٤٩]، قال: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ}، مع أنه مشروب، فالمشروب يقال له: مطعوم، تقول: فلان لم يطعم، يعني: ما أكل ولا شرب.

ولهذا قال تعالى: {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحُمُوّه، والغَسَّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه، أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

قوله: {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، غسقُ الليل يعني برودة الليل، فالغساق هو البارد، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً}، غَسَقَ الجرح يعني سال منه الصديد، والقيح، وما إلى ذلك، {إلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاء وِفَاقًا} قال: أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة، يعني: الجزاء من جنس العمل، جزاءً موافقاً لحالهم وأعمالهم وما كانوا عليه.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة، ويناله الحر في طريقه، برقم (٦١٧).

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا}: لم يكونوا يعتقدون أن ثَمّ داراً يجازون فيها ويحاسبون، {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} بعضهم يقول: {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} لا يرجون ثواباً في الآخرة، ثواب الحساب، هنا: أنه ليست هناك دار يجازون فيها ويحاسبون فيرجون الحساب، كما يقوله الزجَّاج.

وبعضهم فسره بالخوف، ومعروف أن الرجاء في أصله هو توقع المحبوب، فكيف صار هنا بمعنى الخوف؟، بعضهم يقول: إذا جاء الرجاء منفياً فهو بمعنى الخوف، {لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} يعني: لا يخافون حساباً، وبهذا فسره مجاهد وقتادة، وبعضهم يوجه ذلك بأن الرجاء أمل قد يُخاف أن لا يتم، كما ذكر هذا الفراء والزجَّاج.

وقوله تعالى: {جَزَاءً وِفَاقاً} أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

ثم قال: {إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً} أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً} أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله -عليهم الصلاة والسلام-، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة.

وقوله: {كِذَّاباً} أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

يعني: كذبوا تكذيباً، هذا مصدر، كذبوا تكذيباً، وكذبوا كذاباً يعني: تكذيباً، كما يقوله أيضاً ابن جرير -رحمه الله.

وقوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} أي: وقد علِمنا أعمالَ العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، بعضهم يقول: هذا منصوب على المصدرية، كل شيء أحصيناه كتاباً، ويكون بهذا الاعتبار منصوباً على المصدرية لأحصيناه، يعني: أحصيناه إحصاءً، أحصيناه كتاباً، من الفعل "أحصى"؛ لأن الإحصاء هنا بمعنى الكتابة، {أَحْصَيْنَاهُ} كل ذلك قد كتب، فقال: {كِتَاباً}، فيكون المصدر من معنى الفعل لا من لفظه، وبعضهم يقول: منصوب على الحال، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ} الحال: أن الله كتبه، كتب ذلك فهو مكتوب، يعني: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} أي: مكتوباً، بعضهم يقول: {كُلُّ شَيْءٍ} هنا العموم يدل على أن المقصود ما كتب في اللوح المحفوظ، الله كتب فيه كل شيء، ومن ذلك عذاب أهل النار، ومن ذلك الأعمال التي عملوها، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، أي ما كتبه في اللوح المحفوظ.

وابن جرير -رحمه الله- كأن هذا هو ظاهر كلامه؛ لأن عبارته: أحصيناه فكتبناه كتاباً، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فظاهر هذا أن المقصود بكلامه ما في اللوح المحفوظ.

وبعضهم يقول: {أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} يعني: ما كتبه الملائكة من أعمال هؤلاء، كل هذا محصى عليهم بالكتابة، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨]، {بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [سورة الزخرف:٨٠]، {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية:٢٩]، فكل هذه الأشياء مكتوبة، أحصاها الله -تبارك وتعالى- وجعل هؤلاء الحفظة الكاتبين.

الذين قالوا: المقصود ما يكتب من أعمالهم، قالوا: لأن المقام مقام حساب، فهو يجازيهم ويتوعدهم، ويقول: كل ذلك مرصود، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}، كل هذه الأعمال -الدقيق والجليل- مسطورة ومكتوبة على هؤلاء.

ولا شك أن الله -عز وجل- كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد، وما لهم من الجزاء، وكذلك الملائكة يكتبون، فالله أحصى كل ذلك كتاباً في اللوح المحفوظ، وأحصاه كتاباً أيضاً مما يتصل بأعمالهم حيث الملائكة تكتب، كل ذلك يُكتب، هذا يدعو الإنسان إلى محاسبة النفس، وأنه حينما يتلفظ ويتكلم وما إلى ذلك هو يملي على الملَك، كل هذه الأشياء تكتب، وهذه الغيبة، وهذا الكلام، والملك يكتب، هو لا يكتبها لك، وإنما يكتبها عليك، وستعطى هذا الكتاب، وسيوضع هذا الكتاب في الميزان، بدلاً من أن يتكلم الإنسان ويخوض أو يشتغل بما لا ينفعه، يجعل مكان ذلك تسبيحاً، فيذكر الله -عز وجل- ويشتغل بما يعود عليه بالنفع، وإذا أراد أن ينظر إلى الحرام أو يشتغل بالحرام، أو يفعل الحرام، أو يخطو إلى الحرام فيتذكر أن الله -عز وجل- يحصي عليه ذلك جميعاً، وأن الملك يكتب هذه الأعمال، فهي أرصدة يتحملها الإنسان، ويحملها على ظهره يوم القيامة، ثم يجازيه الله -عز وجل- عليها، المؤمن الذي يؤمن بهذه الأشياء كل ذلك يحمله على التقوى والمراقبة والمحاسبة، فيتخفف من السيئات، ويكثر من الحسنات، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [سورة يونس:٦١]، كل هذا الله شاهد وشهيد، والملك يكتب، فأين يذهب الإنسان إذا أراد أن يعصي الله -عز وجل-؟، وأين يذهب بقلبه ويتوجه بنظره وفكره إذا أراد أن يرائي الناس؟ والشيطان ما يترك أحداً، يتأمل الإنسان في أحوالنا وأحوال الخلق، ما يترك أحداً، إن كان من أهل العبث والمجون واللهو أغرقه بذلك، وإذا كان فيه ميل للصلاح أشغله بالباب الذي يميل إليه، إن كان أُعطي صوتاً حسناً لربما يتحول إلى قارئ يجعل القرآن سبيلاً إلى التكسب أو سبيلاً للرياء والسمعة وطلب المنزلة في قلوب الناس، فيتحول إلى متاجر بالقرآن، يطلب به الأموال، أو يطلب أشياء من الثناء والمدح والشهرة، الأصوات الجميلة فتنة، الشيطان ما يترك أحداً، فتجد هذا الإنسان يتغنى ويصدح في هذه المحاريب، وقد يكون لا خلاق له عند الله، ولا تزيده صلاته وقراءته من الله إلا بُعداً، -نسأل الله العافية-، يذهب ويجيء، وإذا كان عنده فضل علم أو نحو ذلك يأتيه الشيطان من هذا الباب، فيتولد عنده من الأوصاف من الكبر ورؤية النفس والعجب واحتقار الخلق، وحب الثناء والإطراء والمحمدة والأضواء ما يجعله مفتوناً -نسأل الله العافية-، فيكون العلم هذا وبالاً عليه، وهكذا إذا كان فيه ميل إلى الكرم أو البذل أو الإنفاق، أو الشجاعة والجهاد في سبيل الله -عز وجل- قد يُبطل عليه أعماله كلها، نسأل الله العافية.

{فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٨].

قال قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً} قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

الذوق يقال لما يجده الإنسان من مطعوم ومشروب، وهذا هو الأصل، ولكن لما كان ذلك يدرك بالحاسة قيل لكل ما يدرك بالحواس، فيقال: الإنسان ذاق الحر، ذاق البرد، ذاق الحلوة والمرة، ذاق الألم، ذاق المرض، كل ذلك يقال له: ذوق، فهذا الإنسان الذي قد يعذب أو يضرب، ويقال له: ذق، مع أنه لم يذق بلسانه، فكل ما يتناهى ويشتد أثره فيدركه بحواسه يقال له: ذوق، وقد يتناهى الأمر النفسي من جهة الألم فيكون بمنزلة الذي يحس فيقال: ذاق من التعب، ذاق من المعاناة، ذاق من الحزن، وما إلى ذلك، والله أعلم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النبأ من الآية (٣١) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ: ١٧]، إن يوم القيامة الذي يفصل الله -عز وجل- فيه بين الخلق، يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويفصل بين الظالم والمظلوم، ويجازي كل واحد على عمله.

{كَانَ مِيقَاتًا} مؤقتاً بوقت حدده الله -عز وجل- لا يتقدم ولا يتأخر، ذلك الوقت هو نهاية الدنيا، وابتداء الآخرة، يبتدئ ذلك بالنفخ في الصور حيث يموت من على الأرض من الأحياء إلا من شاء الله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك ينفخ النفخة الثانية فيقومون أحياء، وذلك قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ: ١٨]، يُنفخ في القرن، ينفخ فيه الملك فيقومون من قبورهم، ويأتون جماعات تلو جماعات، كل جماعة يتقدمهم نبيهم.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: ١٩] تتغير أحوال هذا العالم العلوي والسفلي، فتتشقق السماء وتتصدع وتنفطر فتبدو للناظر تلك الصدوع والشقوق على أنها أبواب.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ٢٠] تدك الجبال حتى تصير كالعهن المنفوش، ثم بعد ذلك ينسفها الله -تبارك وتعالى- فتصير هباءً، فتكون خبراً بعد عين، لا أثر لها، وإنما تصير كالسراب الذي لا حقيقة له.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} [النبأ: ٢١]، جهنم: اسم من أسماء النار، إما لسوادها وظلمتها، أو لغير ذلك، {كَانَتْ مِرْصَادًا} تترقب من يلقى فيها، قد هُيئت وأعدت للكافرين، فهي موجودة، خلقها الله -تبارك وتعالى- تنتظر هؤلاء الكفار وتترقب مجيئهم، كما أن الله -تبارك وتعالى- جعل طريق الناس عليها في الجسر الذي يضرب على النار، فتترقب هؤلاء الذين يمرون، فمِن ناجٍ ومِن هاوٍ ومُكَرْدَس، كما أن هؤلاء الملائكة الغلاظ الشداد الذين جعلهم الله -عز وجل- خزنة للنار يرصدونها، ويرصدون من فيها من هؤلاء الكافرين.

{لِلْطَّاغِينَ مَآبًا} [النبأ: ٢٢]، هي مرجع ومصير لهؤلاء الذين جاوزوا الحد، وتعدوا على حقوق الله -عز وجل- وطاعته، وصاروا محادين له.

{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣] يبقون فيها الدهور الطويلة المتتابعة التي لا انقضاء لها.

{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} [النبأ: ٢٤] لا يجدون ما يخفف عنهم حرها مما يبرد الأجسام في ظاهرها من الهواء ونحوه، ولا يجدون أيضاً شراباً يبرد بواطنهم، إنما يجدون الحميم والغساق، فالحميم {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} [الحج: ٢٠] يصب على ظواهرهم، ويشربونه ويتجرعونه فيصهر أجوافهم، كما

يعذبون بالنوع الآخر من العذاب المتناهي في برده، المتناهي في نتنه، مما لا تستسيغه النفوس بحال من الأحوال مما يسيل من عصارة أهل النار.

{جَزَاء وِفَاقًا} [النبأ: ٢٦] هذا كله ليس بظلم من الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء، إنما هو جزاء يوافق ما جنوا، وما قارفوا، وما كانوا عليه في دنياهم من العمل.

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ: ٢٧] كانوا لا يخافون الحساب، ولا يرتقبون الجزاء، ولا ينتظرون ثواب الله -تبارك وتعالى- لأهل طاعته، فهم على أسوأ الأحوال في أعمالهم وأحوالهم.

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا} [النبأ:٢٨]، كذبوا بآيات الله -تبارك وتعالى- المتلوة والمشاهدة، مما أظهره الله -عز وجل- على أيدي الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، الذين جاءوا لدعوتهم بالمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فكذبوا بذلك جميعاً، وكذبوا بالقرآن، وبكتب الله -عز وجل-، كما كذبوا أيضاً بما ظهر على أيدي الرسل مصدقاً لهم ولدعواهم النبوة من البراهين الساطعة التي لا تدع في الحق لبساً.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} [النبأ: ٢٩]، كل شيء قد أثبته الله -عز وجل- وكتبه في اللوح المحفوظ، ويدخل في ذلك أعمال العباد، كما أن الله -عز وجل- جعل عليهم الحفظة الكاتبين، الذين يكتبون الدقيق والجليل، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨].

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً} [النبأ: ٣١- ٣٦].

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١] قال ابن عباس والضحاك: متنزها، وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار، والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس؛ لأنه قال بعده: {حَدَائِقَ}، والحدائق البساتين من النخيل وغيرها.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١] هذا على عادة القرآن في الجمع بين ما يوجب الخوف والرجاء، فإذا ذكر العذاب وحال أهل النار ذكر معه الجزاء لأهل الطاعة والإيمان، ذكر ما يرغب بطاعته، فيكون العبد في حال بين الخوف والرجاء، وهما كالجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما، فقال هنا: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}، قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً، والمفاز ليس معناه في اللغة المتنزه، ولكن معناه الحقيقي أنه مصدر، فاز مفازاً وفوزاً بمعنى الفوز، مفازاً بمعنى الفوز، والفوز في حقيقته هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، تقول: فلان فاز، الفائز هو فلان، كالفلاح فإن الفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، تقول: المفلحون، فلان مفلح، أفلح فلان، بمعنى حصّل مطلوبه، ونجا مما يخاف ويحاذر.

فالمفاز: هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، كما يقول أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وهذا معناه في الأصل، ويمكن أن يكون كما يقول بعضهم: مكاناً للفوز، وهو الجنة التي ذكر الله -عز وجل- صفة بعض النعيم الذي يكون فيها، {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [النبأ: ٣٢]، فالحدائق التي ذكرها الله -عز وجل- والأعناب تفسير لهذا المفاز، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والضحاك: متنزهاً، وهذا تفسير بالمعنى، ولم يفسر على اللفظ، والتفسير يأتي على المعنى، ويأتي على اللفظ، ولا إشكال في هذا، وابن عباس -رضي الله

عنهما- والضحاك هم أهل لغة، ويفهمون معنى المفاز والفوز، ولكنه يطوي لك المعنى الظاهر ليوصلك إلى المعنى المراد مباشرة.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}، فالحدائق والأعناب هذا هو المتنزه، تكون بهجة للنفوس، تطرب لرؤيتها والنظر فيها، فتنفسح النفس، وينشرح الصدر، كما هو معلوم، فالناس إذا أرادوا الترويح فإنهم يذهبون للمتنزهات، الأماكن التي يكون فيها من الجمال والخضرة، والمياه السارحة وما إلى ذلك، فهذه أشياء تجلب النفوس كما هو معلوم، والناس إذا تسامعوا بها قصدوها من أقاصي الدنيا، مع أنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لما أعد الله -عز وجل- لأهل النعيم، فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب))[1]، وقال -صلى الله عليه وسلم –: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضمَّر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها))[2]، فالجنة شيء لا يُقادَر في عظمته وسعته وبهجته.

فقوله: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً}، الحدائق بدل من المفاز، أي بدل اشتمال باعتبار أن هذا المفاز مشتمل على أشياء منها الحدائق والأعناب، ويمكن أن يكون بدل كل من كل على سبيل المبالغة، وإلا فلا شك أن الجنة ليست فقط حدائق وأعناباً وإنما فيها أشياء أخرى من الأنهار والقصور والحور والولدان، وما لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى-، فإذا قلنا: إن ذلك من قبيل بدل الكل من الكل فيكون ذلك على سبيل المبالغة، يعني بجعل نفس هذه الأشياء مفازاً.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: كأنه قيل: إن للمتقين ظفراً بما طلبوا من حدائق وأعناب، باعتبار أنه فسر المفاز بالظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً} يقول ابن كثير: البساتين من النخيل وغيرها، وليس كل بستان يقال له: حديقة، إنما البستان الذي عليه حائط يحدق به، لإحداق الحيطان بها يقال لها: حديقة، البستان لا يلزم أن يكون عليه حائط، والحديقة لابد من وجود ما يحيط بها، فلهذه الإحاطة سميت حديقة.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}، وذكر الأعناب وهي من جملة الحدائق؛ لأنها من أطيب الثمار والأشجار، وأنفعها وأحسنها، وإلا ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والله -عز وجل- يقول -كما مضى في سورة البقرة-: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} [البقرة: ٢٥]. على القولين: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} يشبه بعضه بعضاً، وبعضهم يقول: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} يشبه الثمر الذي في الدنيا من حيث الهيئة، لا الحجم ولا الطعم ولا الحقيقة، يعني: يعرف أن هذه رمانة، وأن هذا عنب، لكن لا تكون بحال من الأحوال بحجم التي في الدنيا، فالتي في الدنيا لا شيء.

والحدائق والأعناب تعتبر بعض نعيم أهل الجنة، ولهذا لا تجد في القرآن تكراراً، نعيم الجنة ذكره الله -عز وجل- في مواضع كثيرة من القرآن، ولكنه في كل موضع يذكر طرفاً منه مما يناسب المقام، فذكر الطلح

---

١ - أخرجه الترمذي، أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة شجر الجنة (٤/٦٧١)، برقم: (٢٥٢٥)، وصححه الألباني.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/١١٤)، رقم: (٦٥٥٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤/٢١٧٦)، رقم: (٢٨٢٨).

المنضود، والماء المسكوب، والفاكهة الكثيرة التي لا يحصل لها انقطاع، {لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٣]، فليس لها مواسم معينة فيقال: هذا بالصيف، وهذا بالشتاء، وهذا النوع انتهى، ولا يُمنع منهم شيء من هذا النعيم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١]، كل ما تشتهيه النفوس، ولهم فيها أيضاً أكثر من هذا، كما في الآية الأخرى {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} [يـــس: ٥٧]، كلما ادعى شيئاً فهو له، وبعضهم يقول: كل ما يطلبون يأتيهم.

{وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [النبأ: ٣٣]، أي: وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: {وَكَوَاعِبَ} أي: نواهد، يعنون أن ثُديَّهن نواهد لم يتدلين؛ لأنهن أبكار عُرُب أتراب، أي: في سن واحد، كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.

{وَكَوَاعِبَ} نواهد، يعني أن ثُديَّهن نواهد لم يتدلين، هذا أيضاً الذي قاله ابن جرير، يقال امرأة كَعَاب يعني قد تَفَلّك ثديها، وصار ذلك كالكعب في صدرها، والعرب تشبه ذلك كثيراً بالكعب، كما تشبهه أيضاً بأمور أخرى يذكرونها كثيراً في أشعارهم، وذلك من أبلغ الأوصاف في الجمال عند العرب والعجم، والضحاك فسر الكواعب بالعذارى، وليس ذلك من قبيل التفسير على اللفظ، والعذارى مظنة لذلك ففسره به، ولكن المعنى {وَكَوَاعِبَ} أي: قد تَفَلّك ثديها، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

{أَتْرَابًا} يعني: في سن واحدة متقاربة، أو في سن واحدة من الشباب، ليست مترهلة كبيرة قد ذبلت، وترهلت، حتى صارت في هيئة وحال لا تنجذب إليها النفوس وهي في هذا السن، هن في هذا السن المتقارب وذلك أبلغ بالنعيم؛ لأن التفاوت في السن لا شك أنه يظهر شيئاً من النقص، فالتي أصغر تكون النفوس إليها أكثر جاذبية، وتلك التي هي أكبر لربما أيضاً تتأذى بذلك، ويكون نقيصة في حقها، المرأة في الدنيا تعد الأيام -وإن كانت غير متزوجة الناس يعدون لها الأيام- وتتمنى أن لا تتجاوز الثامنة والعشرين بحال من الأحوال على أقصى وأسوأ الاحتمالات، ولكن الشمس لا تتوقف، وانظر إلى أجمل نساء الدنيا قبل قرن من الزمان، إما أنها -وهو الغالب- تحت التراب، قد تفسخ عظامها من لحمها، وتلاشت واضمحلت، أو أنها في حال من الهرم والشيخوخة لا يمكن أن تُقبل عليها النفوس أو أن تنجذب إليها، هذه هي الحياة، ولهذا الله -تبارك وتعالى- ذكر القواعد من النساء، هؤلاء لم يكنّ كذلك في مقتبل العمر، وإنما صرن إليه، فهي قعدت عن النكاح وعن الولادة والحمل، فهي لا ترجو نكاحاً، ولا ينظر إليها أحد من هذه الجهة، فهذه رفع الله عنها الحرج أن تضع ثيابها غير متبرجة بزينة، يعني: تلبس ثياباً واسعة، ولا يلزم أن تلبس العباءة {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} [النور:٦٠]؛ لأن النفوس لا تلتفت ولا تتطلع إلى نكاحها.

قال ابن القيم –رحمه الله-: "قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً}، الكواعب: جمع كاعب وهي الناهد، قال قتادة ومجاهد والمفسرون: قال الكلبي: هن الفلِكات اللواتي تكعب ثُديُّهن وتفلكْنَ، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثُديَّهن نواهد كالرمان، ليست متدلية إلى أسفل ويسمين نواهد وكواعب"[٣]

---

٣ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٢٨)

لا تحتاج عمليات تجميل، ولا شيء، دائماً في سن الشباب وفي سن النضارة، فهذا هو النعيم الذي ينبغي أن تسمو الهمم لطلبه، ويجدّ العاملون في تحصيله، لا متاع الحياة الدنيا وحطامها، ولو تأملت سعي الناس عامة الناس في هذه الدنيا من الدراسة من أولها إلى آخرها، والعمل، وسألتهم: لماذا تعملون؟ لا يذكرون سوى شيئين، الأول: أن يعيش ويأكل، الثاني: يتزوج. يعني: بين البطن والفرج، كل هذا الذي ترون من الأعمال والمصانع والورش والعمال والدارسة إلا من رحم الله -عز وجل-، وقليل ما هم، الحياة لم توجد من أجل هذا، وإنما {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، لا أن تتهافت النفوس ويكون الهدف والغاية هو تحصيل هذين الأمرين الفانيين المتكدرين المتغيرين، وهما أسرع الأشياء تغيراً وتكدراً، ولو تأمل العاقل في هذا لعرف حقيقة ذلك، قضاء الأرب يتلاشى ويضمحل بلحظات، والطعام إنما يستسيغه بلحظات، حينما يأكل، يمضغه فقط، وقت المضغ، ثم لا يجد له بعد ذلك طعماً إذا أكله، أنتم لا تجدون الآن لذة مما أكلتم في البارحة، أو تسحرتم عليه، أصحاب أعظم اللذات من هذه اللذات الفانية لا يجدون منها الآن شيئاً.

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها*** من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقبُ سوء من مغبّتها*** لا خيرَ في لذة من بعدها النارُ

تفنى اللذات من المطعوم والمشروب والمنكوح والملبوس، وكل شيء، ويبقى العمل.

وقوله تعالى: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤] قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: {دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤] المَلأى المُتْرعة.

هذا من ألوان النعيم: حدائق وبساتين في غاية النضارة والحسن، بأحسن رونق، وأجمل صورة، وزوجات في غاية الجمال، كواعب في سن متقاربة، وكأس صافية متتابعة مملوءة، هذه الكأس وصفها هنا بقوله: {دِهَاقًا}.

الكأس بعض أهل العلم يقول: لا يقال لها: كأس إلا إذا كان فيها الشراب، وبعضهم يقيده يقول: إنما يقال لها: كأس هكذا إذا كان فيها شراب الخمر، يقال: على أهل الكئوس أن يأمر بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول:

وكأسٍ شربتُ على لذّة *** وأخرى تداويتُ منها بها

يقصد كأساً من الخمر، فالكأس إذا أطلقت عند العرب فالغالب أنهم يقصدون بها الخمر؛ ولهذا فسره بعض السلف بالخمر.

{دِهَاقًا}، عن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: مَلأى مُتْرعة، وقال ابن عباس: مملوءة متتابعة.

ونقل عن عكرمة هنا وقال به زيد بن أسلم: صافية، وإن كان التفسير بهذا ليس من معنى {دِهَاقًا}، ولكن كأنه ذكره من جملة الأوصاف التي تكون معلومة في خمر الجنة، وإلا فليس هذا معنى {دِهَاقًا}، إنما معنى "دهاقاً" مملوءة متتابعة، بهذين الوصفين.

وقوله تعالى: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، كقوله: {لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور:٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

الضمير في: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا} الأرجح أنه يعود إلى الجنة، وبعضهم يقول: يعود إلى الخمر؛ لأن مجالس الخمر في الدنيا –نسأل الله العافية- مليئة باللغو والسب والشتم والهذيان؛ لأن العقول تذهب، وذكرتُ قديماً في بعض المناسبات كيف أن بعض أهل الجاهلية حرم على نفسه الخمر لهذه الآثار، وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- عند تفسير قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠] رجلا كان يسكر، ثم صار يتوضأ ببوله، يتمضمض ويستنشق ويغسل وجهه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل الصلاة نوراً والماء طهوراً.

وآخر أفاق وهو ساقط واقع على الأرض فسأل أهله: ما الذي أوقعني هنا؟ قالوا: طول الليل وأنت تقفز تريد أن تمسك القمر، فتعب ثم سقط، فلما أفاق عرف حاله.

فهذه آثار الخمر، وحمزة -رضي الله عنه- تعرفون لما سكر ونحر الجزور وشق كُلاها وتركها للناس يأخذون من لحمها، وكانت لعلي – رضي الله عنه -، وقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولعلي -رضي الله عنه-: هل أنتم إلا أعبد لأبي؟ وهو في حال السكر.

وفي عصرنا هذا أحد الذين تابوا من شرب الخمر صوّرته امرأته وهو يستفرغ، بعدما شرب الخمر، ويلعق -أعزكم الله- هذا الأذى، فلما رآه تاب وعرف أن هذه لا تجر إلى خير.

فقوله: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، بعضهم يقول: في الخمر، يعني في مجالسها عند شربها. والأرجح: أنهم لا يسمعون في الجنة، وهذا أعم من الذي قبله، ويتضمنه، يعني: لا يسمعون في اللجنة لغواً، لا في مجالس الخمر، ولا في غيرها، هم لا يسمعون فيها اللغو؛ لأن الجنة بعيدة عن اللغو، وهذا ذكره الله -عز وجل- في سياق ذكر نعيم الجنة، فدل على أن اللغو خلاف النعيم، وأن مجالس اللغو من الشقاء، ينبغي للعاقل أن يحترز منها، وأن يتجنبها، وأن يتجنب أهلها، واللغو هو الكلام الباطل، فكل كلام باطل فهو لغو، فالجنة لا تسمع فيها إلا أطايب الكلام، فمن أراد السعادة والراحة والنعيم في الدنيا فإن من موجبات هذا النعيم أن يراعي ويلاحظ المجالس التي يجلس فيها، والمجلس إذا طال كان للشيطان نصيب فيه؛ ولهذا لا داعي للمجالس الطويلة، أو المجالس الكثيرة التي يجتمع فيها الناس، لربما بعضهم يجتمعون كل ليلة، ويفتخرون أنهم منذ خمس وعشرين سنة وهم يجتمعون كل ليلة، فالمجلس يكون بقدر الحاجة، ثم بعد ذلك يتفرقون، وإلا بعد ذلك يبدأ يحضر الشيطان، فيبحثون عن شيء يقولونه لا يجدون، فيبدأ بعضهم يعلق على بعض ليقضي الوقت، ويتكلم بكلام لا حقيقة له، أو يبحث عن أمور لا تعنيه فيتكلم بها، ومن ثَمّ فإن اللغو سواءً كان مكتوباً، يعني كان مقروءاً أو كان مسموعاً لا شك أن هذا من المنغصات، وينبغي على المؤمن أن يحترز من ذلك جميعاً، ونحن في كثير من الأحيان نجني على أنفسنا، بحيث إن الإنسان أحياناً يعمد إلى بؤر اللغو فيذهب إليها، يقول: أريد أن أعرف، إما أنه يرغب بسماع كلامهم، أو يقول: لأعرف ماذا يقولون، ثم يتنغص ويتكدر، يعني هذه الأماكن أو هؤلاء الذين يكتبون -لا سيما اللغو الذي يكون بأسوأ صوره وأشكاله- ممن يقدحون في الدين، في ثوابته وبأهل الإيمان، هذه جيفة منتنة، فيعمد إلى صفحة هذا أو يضيفه عنده، فيكون كالجيفة التي يُقلّبها، ويزداد النتن.

{وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، يعني لا يُكذّب بعضهم بعضاً كما يقول ابن جرير، يعني: لا يسمعون تكذيباً، وليس في الجنة إلا الصدق والحسن بجميع صوره وأشكاله، مما يتصل بالمسموع أو المرئي أو المطعوم أو المشموم، أو غير ذلك من أنواع الحسن والكمال واللذة والنعيم والسرور والحبور والسعادة.

إذا كان الإنسان في مجلس كلما قال شيئاً كُذِّب وشُكك في كلامه، أو كلما كتب تغريدة تصدى له سفيه وقذفه بحجر، وكلما قدم لهم نفيسة من هذه النفائس، وفائدة من هذه الفوائد، ونصيحة من هذه النصائح تصدى له السفهاء، فما الحاجة لمثل هذا كله، وهذا العناء لقوم بهذه المثابة؟، أرح نفسك، وأقبل على ما ينفعك، فهنا في الجنة {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥] ما في أحد يشكك في كلامه، أو أحد يكذبه، وهذا لا شك من أعظم النعيم.

وقوله: {جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: ٣٦] أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ {عَطَاءً حِسَابًا} أي: كافياً وافياً شاملاً كثيراً؛ تقول العرب: "أعطاني فأحسبني" أي: كفاني، ومنه "حسبي الله"، أي: الله كافيّ.

ابن كثير -رحمه الله- جمع المعاني التي يذكرها أهل العلم في تفسير {حِسَاباً}، قال: هذا النعيم الذي أعطاهم إياه جزاءً منه على أعمالهم، وهو أيضاً كما قال الله: {عَطَاء حِسَابًا} أعطاهموه بفضله، ومنّه، وإحسانه، ورحمته، ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))[4]، فالعمل مجرد سبب، وإلا فإن رحمة الله -عز وجل- هي الأصل في ذلك، فإن الأعمال لا تؤهل لدخول الجنة بمجردها، ولكن مع رحمة الله تعالى.

قال: {عَطَاء حِسَابًا} أي: كافياً وافياً شاملاً كثيراً، فكرر الكفاية، وذكر الكثرة، ولهذا تجد أن بعضهم كابن قتيبة فسره بالكثرة {عطاءً حساباً} أي: كثيراً، وابن جرير يقول: {عطاءً حساباً} أي: محاسبة لهم على أعمالهم.

فأعطاهم الله هذا العطاء الكثير الذي كفاهم به، أعطاهم عطاءً كثيراً فكفاهم وأرضاهم، {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [المائدة: ١١٩].

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَن لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً}. [النبأ: ٣٧- ٤٠].

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء.

قوله: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النبأ: ٣٧] يعود إلى قوله: {جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: ٣٦]، فالأولى مجرورة، وجاءت الثانية تابعة لها، وهذا العطاء والجزاء هو من معاني الربوبية.

---

[4] - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٩٨/٨)، رقم: (٦٤٦٤).

وقوله تعالى: {لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} [النبأ: ٣٧] **أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ}** [البقرة: ٢٥٥]**، وكقوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ}** [هود: ١٠٥].

{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧] قال: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، وهذا هو المتبادر، وبعضهم يقول: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم الله -تبارك وتعالى-، وحمله الكسائي على الشفاعة، {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧] لا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، وهذا كله صحيح، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] يعني: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وكذلك أيضاً لا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥].

وابن جرير -رحمه الله- قال بهذا الذي قال به ابن كثير: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، وهذا يشمل الشفاعة والسؤال، وغير ذلك مما ذكر.

وقوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [النبأ: ٣٨]**. المراد بالروح هاهنا هو جبريل، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك، كما قال -عز وجل-: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}** [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]**، وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب -عز وجل-، وصاحب الوحي.**

على كل حال الأقوال في الروح كثيرة، بعضهم ذكر فيه ثمانية أقوال، وابن كثير هنا مضى على أن المقصود بالروح هو جبريل -صلى الله عليه وسلم-، وهو هنا مذكور مع الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [النبأ: ٣٨]، فيكون باعتبار أن جبريل -صلى الله عليه وسلم- هو واحد من الملائكة، وهو الأشرف، فيكون من قبيل عطف العام على الخاص، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ}، فإفراد جبريل -صلى الله عليه وسلم- لكونه الأشرف من الملائكة -عليهم السلام-، وهذا يدل على عظمة هذا اليوم، فهؤلاء الملائكة الذين لا يذنبون ولا يعصون الله ما أمرهم، وهم من القرب من الله -عز وجل- بتلك المثابة فكيف بأهل الذنوب؟!، وإذا كان الملائكة العظام وهم بهذه القوة لا يستطيعون الكلام فكيف بغيرهم؟!، عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[٥]، فهذا ملك واحد، ومع ذلك لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، والله المستعان.

وقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ} [النبأ: ٣٨] **كقوله: {لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ}** [هود: ١٠٥]**. وكما ثبت في الصحيح: ((ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل))**[٦].

وقوله تعالى: {وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨] **أي: حقاً، ومن الحق: "لا إله إلا الله"، كما قاله أبو صالح، وعكرمة.**

---

٥ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية (٢٣٢/٤)، رقم (٤٧٢٧).

٦ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة: ٢٣] (١٢٨/٩)، رقم (٧٤٣٧)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٦٣/١)، رقم: (١٨٢).

السلف يفسرون بالمثال، تجدون في كتب التفسير، {وَقَالَ صَوَابًا} قال: لا إله إلا الله، يعني: قال حقاً، ومن هذا الحق (لا إله إلا الله)، لكن هل المقصود أنه قاله في الآخرة، أذن له وقال صواباً، أو المقصود في الدنيا، يعني أنه يأذن لأهل الإيمان، وأما الكفار فيقول لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] ؟

يحتمل أن يكون من يؤذن لهم هم أهل لا إله إلا الله وأهل الإيمان بهذا الاعتبار، وليس المقصود أنه قال صواباً يعني قال يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولهذا قال: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، فلا يشفع للكافر، وهذا كأنه أقرب إلى السياق -والله أعلم-، فلا يجترئ أحد على الكلام لا الملائكة ولا غير الملائكة، ولا يتكلم أحد عنده إلا بما يكون حقاً وصواباً، ويرضاه الله -عز وجل-، وهذا كله يدل على عظمة الله -عز وجل-، ويدل على عظمة ذلك اليوم، وشدة ما فيه من الأهوال والأوجال.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [النبأ:٣٩] أي: الكائن لا محالة، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [النبأ:٣٩] أي: مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه.

هذا يوم ثابت، حق، واقع لا محالة، فليختر الإنسان لنفسه، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}، جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين المعنيين، فبعضهم يقول: {مَآبًا}، أي: مرجعاً؛ لأن الأوب بمعنى الرجوع، وبعضهم يقول: طريقاً إلى الله، يسلكه ليصل إلى ربه -تبارك وتعالى-، فجمع الحافظ بين هذين المعنيين، وهما متلازمان على كل حال.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} [النبأ:٤٠] يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت آت.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا}، قتادة يقول: عذاب الدنيا، ومقاتل يقول: يوم بدر؛ لأنه ذكر القرب، وابن كثير يقول: يوم القيامة؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب، وهذا هو الأقرب؛ ولهذا قال بعده -وهي القرينة التي ترجح هذا القول-: {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ: ٤٠] بعضهم يقول: الكافر، وبعضهم يقول: كل أحد، {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، فهذا اليوم ينبأ فيه الإنسان بكل شيء، {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، أعماله التي عملها في الماضي، والأعمال التي تركها بعد موته يُستنّ بها، أو مما كان يريد أن يعملها.

{يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ:٤٠] أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً} [الكهف: ٤٩]، وكقوله تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣].

{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠] أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً} أي: كنت حيواناً

فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصُّور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما.

{يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، هنا العلماء ذكروا فيها أقوالاً ثلاثة، بعضهم يقول: حينما ينظر إلى الحيوانات بعدما يقتص بعضها من بعض، فيقول الله لها: كوني تراباً، فيتمنى لو أنه يصير إلى هذه الحال، وهذا هو الأرجح الذي دل عليه الحديث، والقرآن يفسر بالسنة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وبعضهم يقول: هذا في البرزخ، يعني: يتمنى لو كان تراباً في قبره ولم يبعث، وهذا لا يخلو من بعد.

وبعضٌ يقول: يتمنى لو أنه بقي على أصله؛ لأن أصل الإنسان من تراب، يعني: أني لم أخلق أصلاً، الله خلق بني آدم من تراب، فيقول: يا ليتني كنت تراباً.

فهنا أسوأ حالات الكافر حينما يتمنى أنه كان تراباً، لو كان بمنزلة هذه الحيوانات التي تصير تراباً، فتتقشع عنه تلك الحجب، وتترحل عنه تلك السكرة التي كان فيها في الدنيا، قد كان في حال من البغي والعتو على الله -عز وجل-، والتمتع بأنواع اللذات، والأذى لأهل الإيمان، عند ذلك يتمنى لو كان تراباً، هذه أمور يقصها الله -عز وجل-، ويصفها بأوصاف دقيقة، في غاية الدقة، يبين فيها ما يصير إليه الناس، وماذا يقولون، فحري بالعاقل أن يتبصر ويتأمل، ويقف عندها، وينظر ويعرض نفسه على هذه الأوصاف، فهذا حقيقة التدبر للقرآن، وليس من لازم التدبر أن الإنسان يبحث عن معانٍ غريبة يرفع الناس إليها أبصارهم، ويستنتج استنتاجات، فليس التدبر محصوراً في هذا كما يظنه بعض الناس، فيتتبعون ويبحثون عن أشياء غريبة، ثم أحياناً يأتون بأشياء غير صحيحة، متكلفة لا يحتملها اللفظ، بل التدبر أن يقرأ الإنسان هذا، ويعرض نفسه على هذه الأمور، كيف سيكون حاله، ماذا يتمنى في الآخرة، على أي وصف سيكون قدومه على الله -عز وجل.

آخر تفسير سورة النبأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (١) إلى الآية (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأعقب الله -تبارك وتعالى- بعد أن ذكر ما للمكذبين الكافرين من العذاب- بذكر نعيم أهل الجنة كما هي عادة القرآن؛ ليجمع العبد بين الخوف والرجاء، فقال: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [سورة النبأ:٣١] الذين اتقوا الله -عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه لهم مفاز، فوز وظفر عظيم بتحصيل المطلوب، والنجاة من المرغوب، فأدخلهم الله -عز وجل- الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والحور العين، والولدان، وأعتقهم من النار، ثم ذكر بعض ما في هذا النعيم قال: {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [سورة النبأ:٣٢]، فلهم بساتين محاطة، فيها من ألوان الثمار والأشجار ما لا يُقادَر قدره، وفيها من الأعناب وغير الأعناب مما تلذ له الأنفس، ويكون بهجة للناظرين، ومتعة للنفوس، قال: {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [سورة النبأ:٣٣] مع هذه المحالّ الواسعة الباردة الجميلة ذات الثمار والأشجار الأنيقة لهم أيضاً أجمل النساء، وهن الكواعب اللاتي قد امتلأن شباباً فلا يتطرق إليهن أدنى ترهل، قد صرن بهذه المثابة تفلّكتْ ثُديُّهن، وذلك لكمال شبابهن ونضارتهن، وهن في سن متقاربة، {أَتْرَابًا}، أو في سن متحدة، وهي اكتمال سن الشباب، قال: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [سورة النبأ:٣٤]، فهم مع هذه الثمار والأشجار والبساتين وهؤلاء النساء الحسان كذلك أيضاً يشربون من كأس مَلأى مُتْرعة متتابعة، يشربون خمرة صافية، لا أذى فيها ولا كدر، وليس فيها ما يذهب العقول ويستنزفها، ومع ذلك فلا يطرق مسامعهم ما يكدر نفوسهم، فالجنة ليس فيها لغو حتى تلك المجالس التي يشربون فيها هذه الكأس، لا يحصل معها تخليط ولا هذيان، ولا يسمعون سباً ولا فحشاً، كما لا يسمعون أيضاً تكذيباً؛ لأن الجنة أصلاً ليس فيها كذب.

{جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [سورة النبأ:٣٦]، هذا كله مما وصفه الله -عز وجل- هو جزاء من الله على أعمالهم، وأعطاهم فوق أعمالهم، حيث إن الله -تبارك وتعالى- أعطاهم عطاءً جزلاً كثيراً، هذا الرب الذي من معاني ربوبيته العطاء والجزاء والثواب، هو رب السماوات والأرض، الذي بيده كل شيء، فخزائن السماوات والأرض بيده، ويدخل في ذلك الجنة والنار، {وَمَا بَيْنَهُمَا} [سورة النبأ:٣٧] من الهواء، وسائر المخلوقات التي تكون بين السماء والأرض كالسحاب، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، هو الرحمن، فإن ذلك صادر عن رحمته، ورحمته وسعت كل شيء، فكما أنه استوى على العرش الذي هو أوسع المخلوقات كذلك أيضاً اتصف بصفة الرحمة، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [سورة الفرقان:٥٩]، الرحمة التي لا يخرج عنها مخلوق، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة الأعراف:١٥٦]، فالجنة وما فيها من النعيم كل ذلك من آثار رحمته، وهداية هؤلاء ابتداءً وما وفقهم إليه كل ذلك من آثار رحمته، بل إن وجود النار وتعذيب أهل النار بالنار كل ذلك يتصل برحمته، وذلك أنه لا يتبين حقيقة النعيم إلا بضده، ثم تأمل ما ذكره الله -عز وجل- في سورة الرحمن، فإن الله لما ذكر أنواع النعيم الذي يكون لأهل الجنة كان

يعقب ذلك بقوله: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن] يعني: النعم، ولما ذكر طرفاً من العذاب عقبه بمثل ذلك، والقرآن لا يوجد فيه تكرار محض، وكل جملة من هذه الجمل في سورة الرحمن، {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فهي متصلة بالذي قبلها مباشرة، {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٤٤-٤٥]، وبهذا يتميز نعيم أهل الجنة ويظهر، وبضدها تتميز الأشياء، هذا الرب العظيم الأعظم {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [سورة النبأ:٣٧] لا يجترئ أحد على مخاطبته بأي لون من المخاطبة، سواءً كان ذلك بالشفاعة، والتقدم بها بين يديه إلا بإذنه -تبارك وتعالى-، أو كان بغيرها، وهذا يدل على كمال ملكه، وكمال عظمته، فإن أهل الدنيا يُجترَأ عليهم، ويُتقدم بالشفاعة بين يديهم من غير استئذان لهم، وهكذا يخاطبون من غير استئذان، أما الله -تبارك وتعالى- فكما قال: {يَوْمَ يَأْتِ} يعني: يوم القيامة، {لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة هود:١٠٥]، ولذلك ذلك اليوم هو اليوم الحقيقي وما بعده كأنه أوهام، ولهذا قيل له: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤] مع أنه مالك للدنيا والآخرة، لكن ذلك اليوم الحقيقي الذي لا يدعي فيه أحد شيئاً، {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٦]، فهنا قال: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ} [سورة النبأ:٣٨] في ذلك اليوم يقوم الروح جبريل -صلى الله عليه وسلم-، كما يقوم الملائكة هؤلاء العظام {صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} من خوف الله -عز وجل- وعظمته، فالله -تبارك وتعالى- يغضب في ذلك اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فيكون الجميع في غاية الوَجَل، {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} أن يتكلم، {وَقَالَ صَوَابًا}، في هذا الكلام، فليس هناك مجال لمُبطِل أن يتفوه بباطله، {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [سورة النبأ:٣٩]، ذلك اليوم العظيم الذي تتجلى فيه الحقائق، ويلقى كل أحد جزاءه، هو اليوم الحق، الثابت، الواقع لا محالة، وما عداه فكأنما هو أحلام وأوهام، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [سورة النبأ:٣٩]، هذا اليوم الذي وصف بهذه الأوصاف قد عرفتموه بصفته التي لا يلتبس بها، هو يوم لابد من حصوله ووقوعه بما فيه من الأهوال والأوجال، فليختر المرء لنفسه، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} مرجعاً بسبيل يسلكها توصله إلى المعبود -جل جلاله-، وذلك لا يتأتى إلا باتباع نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الاتباع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في السبيل يمكن أن يكون بالتميّز بشيء من الأعمال الصالحة التي يُفتح على العبد بها، فهذا قد يكون طريقه إلى الله -تبارك وتعالى- بالذكر والقراءة والإكثار من ذلك، وهذا بالصلاة، وهذا بالصدقة، وهذا بالقيام على الضعفاء والمساكين، والأرملة، واليتيم، وما إلى ذلك، فهذا يعيش مع القرآن، وهذا يعيش مع الصلاة، وهذا يعيش مع الصدقة، فيستغرق أنفاسه في ذلك، المهم أن يبحث له عن مزرعة لآخرته، فلا يبقى بطّالاً، والآخرة دار لا تصلح للمفاليس، كل إنسان يبحث عن مزرعة، يبحث عن شيء، يبحث عن عمل، يبحث عما أعطاه الله -عز وجل- من المواهب والقُدَر والإمكانات، فيستغل ذلك فيما يجد نفسه فيه، ولا يكون شغله بما لا يعنيه من القيل والقال، والوقيعة في أعراض الناس، بئس الزاد إلى المعاد أعراض العباد، من الناس من ليس له هم ولا شغل إلا هذا -نسأل الله العافية-، والله يقول: {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} [سورة النبأ:٤٠]، كل ما هو آتٍ فهو قريب، والقيامة قريبة، والأيام تنقضي سراعاً، وهذه الدنيا سماها الله -عز وجل- بالعاجلة، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ} [سورة الإسراء:١٨]، إلى أن قال الله: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

{كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [سورة الإسراء:١٩]، فالأولى وهي الدنيا سماها بالعاجلة، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ} فهي سريعة تنقضي، وقيل لها دنيا قيل: لدنو مرتبتها وانحطاطها وسفولها، فعلى أي شيء يكون التعلق بها؟

عند ذلك اليوم {يَنظُرُ الْمَرْءُ} [سورة النبأ:٤٠] كل أحد ينظر فيعرف موطئ قدمه وحقيقة ما كان عليه، {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}، عندها {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة:١٣]، تعرض عليه جميع الأعمال، فينظر في هذه الصحف وما مُلئت به، فالمبطل والكافر يتحسر ويندم حيث لا ينفعه الندم، ويقول: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}، حينما يرى البهائم يقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً، فتتحول إلى تراب، يتمنى لو أنه صار بهذه المثابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ}

[سورة النازعات:١-١٤].

هذه السورة سورة النازعات هي من السور المكية، وهذه السورة أيضاً تسمى بالطامة، وبالساهرة، ولكن الاسم المشهور هو النازعات، ويقال أيضاً: والنازعات.

وموضوع هذه السورة: هي تتحدث أيضاً عن البعث والنشور، وعن قدرة الله -عز وجل- على ذلك، وعن تكذيب هؤلاء الكافرين بهذه العقيدة، وما ذكره الله -عز وجل- فيها من خبر موسى -صلى الله عليه وسلم-: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [سورة النازعات:١٧]، فإن ذلك -والله أعلم- من أجل أن هؤلاء الذين كذبوا بالبعث من الذين بُعث فيهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، متوعَّدون ببأس الله وبطشه، وعقوبته ونكاله، كما فعل بفرعون حيث أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فموضوع السورة هو البعث والنشور.

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسُّدي: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعُسر فَتُغرِق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط، وهو قوله: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} قاله ابن عباس.

قوله: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، ما نقله هنا عن هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعين من أن المراد بذلك الملائكة هذا هو قول الجمهور، لكن بعضهم يورده مطلقاً، يقول: الملائكة تنزع الأرواح، وبعضهم يقيده في الأول {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} يقول: تنزع أرواح الكفار، يقيد ذلك بالكفار، وفي الثاني {وَالنَّاشِطَاتِ} يقيده بالمؤمنين كما سيأتي، وذلك أن النزع كما يقول أهل اللغة -وذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: هو جذب

الشيء بشدة، نزعه من يده: أخذه وجذبه جذباً قوياً، هذا هو حقيقة النزع، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، ومن ثَمّ قال من قال: إن المراد الملائكة تنزع أرواح الكافرين؛ لأنها تتفرق في أجسادهم، فتنزعها الملائكة نزعاً كما يُنزع السَّفُود -كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- من الصوف المبلول، تُنزع من أقاصي الجسد، ولا يبعد أن يكون قول من قال: إنها الملائكة بإطلاق أنهم يقصدون في الأول يعني تنزع أرواح الكافرين، وفي الثاني تَنشِط أرواح المؤمنين، من أجل أن لا يكون هناك تكرار، لا يكون الثاني هو عين الأول، وذلك أن النشط كما سيأتي أخف من النزع، وهؤلاء أهل لغة ويميزون بين هذه المعاني، فقالوا: تنزع أرواح الكافرين وتجذبها بقوة جذباً شديداً، كما يشد الرامي بالقوس السهم إلى آخر مداه، كيف يكون القوس؟، يجذبه إلى آخر المدى إذا أراد أن يرمي، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} تجذبها جذباً قوياً من أقاصي الجسد، وهذا قول الجمهور، وبعضهم يقول كالسدي: إنها النفوس، النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور، وبهذا الاعتبار يكون النازعات من قبيل اللازم وليس المتعدي، يعني إذا قلنا: الملائكة تنزع الأرواح فهذا متعدٍّ، أما إذا قيل: هي النفوس تغرق في الأجساد فيكون من قبيل اللازم، الفعل بمعنى الفعل اللازم، بمعناه وإن لم يكن لفظ النازعات فعلاً، هذا قول السدي وفيه بُعد، وهو خلاف قول عامة أهل العلم على تفرق أقوالهم.

ومنهم من يقول كمجاهد: هو الموت ينزع النفوس، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، الموت ينزع النفوس هذا يمكن أن يُربط بالمعنى الأول بوجه من الوجوه، باعتبار أن الملائكة تستخرج النفوس من الأجسام، تنزعها نزعاً قوياً عند الموت، فيكون عبّر بالموت بهذا الاعتبار، لكن الموت أن يأتي الملك وينتزع الروح، {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [سورة السجدة:11]، ولي الموت بنفسه هو الذي يخرج الروح، {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [سورة الأنعام:61]، أعوان ملك الموت، على أحد القولين، أو أن المقصود بالمجموع واحد وهو ملك الموت، والأقرب: أنه ملك موكل بذلك وله أعوان.

وبعضهم كقتادة والحسن يقول: {وَالنَّازِعَاتِ} هي النجوم، تنزع من ناحية إلى ناحية، من المشرق إلى المغرب، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، فيكون معنى ذلك حينما تتهيأ للمغيب فإن ذلك يكون، تنزع من أفق إلى أفق، فغرقا يعني: غروب هذه النجوم، فهي تغرب وتغيب وتطلع من أفق لآخر، وهذا قال به جمع من أصحاب المعاني كأبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مجاز القرآن، وكذلك قال به الأخفش، وغير هؤلاء.

وبعضهم يقول كعطاء وعكرمة: إن النازعات هي القِسِيّ، ويقال: القَسِي بلغة أهل مصر قديماً قَسِي، والمشهور عند المحدثين القِسِي، هي القِسِي حينما تنزع بالسهام، فهو الرامي يبلغ بها إلى المنتهى إذا أراد الرمي، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، باعتبار أنها تنزع بالسهام، القسي تنزع بالسهام، فنسب ذلك إليها، قيل: والنازعات، مع أن بعض أهل العلم يقول: هنا لابد من تقدير إضافة إليها، يعني: ذوات النزع، يعني ينزع بها، لكن إذا قيل: تنزع بالقسي، يكون ذلك من صفتها، ولا يحتاج إلى تقدير.

وبعضهم يقول: المراد بالنازعات الغزاة والرماة، أقسم الله بهم، ((ألا إن القوة الرمي))[1]، {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [سورة الأنفال:60]، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، عند الرمي والشد للقوس والوتر.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، برقم (١٩١٧).

وهذه أقاويل، والمشهور أن الأقسام هذه في هذه المواضع الخمسة أنها جميعاً في الملائكة، هذا قول الجمهور من السلف فمن بعدهم، وهو قول المحققين، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، وهنا حذف المفعول في جميع هذه المواضع، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، أنها تنزع ما ذكر، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}، بماذا؟، وهكذا {وَالسَّابِحَاتِ} و{فَالسَّابِقَاتِ} لم يُذكر مفعول.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: العلة في ذلك هي أن المقصود هو هذا الفعل لا المفعول، فلم يذكر من أجل أن لا تتوجه الأذهان إلى المفعول فيظن أنه هو المقصود، وإنما المقصود هذا الفعل الذي هو النزع والنشط والسبح والسبق والتدبير، وما إلى ذلك مما يكون هو المراد بهذا الموضع، يعني: المقصود الأفعال وليس المفعول، فقال الله: {وَالنَّازِعَاتِ} ما قال: والنازعات لأرواح الكافرين، والناشطات لأرواح المؤمنين، وإنما اكتفى بالفعل.

وابن القيم -رحمه الله- رجح أن المقصود الملائكة، والقرينة على ذلك أن ما بعده في الآخر وهو قوله: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} المقصود به الملائكة بالإجماع، قالوا: هذا كله جاء على نسق واحد، ثم جاء أيضاً بعضه بالعطف بالفاء مما يدل على أنه يرجع لما قبله، فكل ذلك واحد له أفعال وأوصاف متعددة، فيكون من قبيل عطف الأوصاف، والأوصاف تعطف تارة بإسقاط حرف العطف، وتارة بذكر حرف العطف، إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ، ولم يقل: والقرم، وإنما قال:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ *** وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَم

أتى بالعطف وبدون العطف، مثل {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى:١-٢] بدون حرف عطف، {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:٣-٤]، فتارة يُسقَط حرف العطف، وتارة يذكر، فيكون هذا من قبيل الأوصاف المتنوعة للملائكة، مع أن ابن القيم -رحمه الله- وجه الأقوال الأخرى توجيهاً حاصله: أن هؤلاء الذين فسروا كأنهم أرادوا المثال -التفسير بالمثال-، وهو توجيه لا بأس به حسن، مع أن المقصود الملائكة.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا، إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه، وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء، أو الميل عنه"[٢].

بدأ يمهد للمعنى الذي سيذكره في الجمع.

وقال -رحمه الله-: "وأحق ما صدق عليه الوصف الملائكة"[٣].

قوله: "أحق" يعني: ليس للحصر، أحق يعني: أولى به الملائكة، ولكن لا ينفي عما عداه، العبارة دقيقة.

وقال -رحمه الله-: "ولأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم، فهي التي تُغرِق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة، والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق"[٤].

---

٢ - التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص:١٣٤).

٣ - المرجع السابق.

٤ - المرجع السابق.

فقول السدي: النفس الإنسانية تنزع في الجسد تغرق فيه.

وقال -رحمه الله-: "فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها، المنايا تنزع النفوس، والقِسِيّ تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وُكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنّتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها، فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل"[٥].

يعني ما ألغى الأقوال الأخرى، قال: هذا كله يصدق عليه النزع، فكأن هؤلاء فسروا بالمثال، يعني جعله من قبيل اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فما احتاج إلى الترجيح بين هذه الأقوال، وإن كان يقول: إن الملائكة أحق بهذا الوصف وأولى به.

وابن جرير لما ذكر هذه الأقوال كعادته قال: الله لم يحدد واحداً منها، فيمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، يعني كأنه يرى أن تحديد أحد هذه المعاني من قبيل التحكم بغير دليل، ما عندنا دليل على أن المراد كذا، فيقول: يجوز كذا، ويجوز كذا، وطريقة ابن القيم أدق، حيث وجهها هذا التوجيه، وجعل ذلك من قبيل التفسير بالمثال، وكلام ابن القيم لا تجدونه في شيء من كتب التفسير أبداً، حتى الكلام على النفوس، يعني الذي يذكره المفسرون عادة ويناقشونه حتى الذين يُضعفون ويردون قول السدي، ويذكرون وجوهاً في تضعيفه هم يتكلمون عن أن النفس تتفرق في الجسد، ويقولون: المعنى قاصر، غير متعدٍّ، وابن القيم ذكر شيئاً آخر، انتقال النفوس، حركة النفوس، انتقال النفوس إلى ربها، كل ذلك جعله أوصافاً للنفس، لم يجعل ذلك في وصف واحد كما يقول المفسرون عادة، وهذا كثير في كلام ابن القيم -رحمه الله.

قوله تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، الملائكة تنزع أرواح الكفار، وعلى كلام ابن القيم في الجمع بين هذه الأقوال أن ذلك يصدق على كل ما يمكن أن يتصف بذلك، وسيأتي لهذا نظائر كثيرة، {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [سورة البلد:٣]، {وَالْفَجْرِ} [سورة الفجر:١]، {وَالْعَصْرِ} [سورة العصر:١]، فالحاصل أن هنا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، غرقاً هنا بعضهم يقول: مصدر، وابن القيم يقول: اسم مصدر، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، مصدر، أو اسم مصدر أقيم مقام المصدر، يعني إغراقاً، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: إغراقاً، إغراقاً في النزع، إذا قلنا: الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، أو أرواح الكفار يكون إغراقاً في النزع، حيث تنزعها، تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد، أو أنه حال يعني: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: ذوات إغراق، معنى أغْرَقَ في الشيء: أوغل فيه، وبلغ مداه وغايته ونهايته، وهذا الإغراق، تقول: أغرق في هذه المسألة، أغرق في هذه القضية، أغرق في هذا الموضوع، يعني بلغ مداه، بلغ المنتهى، ومن ثَمّ فسره من فسره بنزع القِسِيّ، باعتبار أن الرامي يشد الوتر ويجذب القوس إلى المنتهى، وهكذا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} يعني: الملائكة تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد فتستوفيها، ولذلك إذا الإنسان بدأ بالموت تبدأ أطرافه السفلية تتلاشى منها الحياة شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الروح التراقي –الحلقوم-، فيكون الجسد

---

٥ - المرجع السابق (ص:١٣٥).

انتهى، تتوقف وظائف الكبد والكلى، ثم تتوقف الرئتان، ثم بعد ذلك يبدأ يغرغر ويحشرج، ثم بعد ذلك يزيغ البصر لا يتحكم فيه صاحبه، فتخرج روحه، فهذا معنى تستخرج الروح من أقاصي الجسد، وهنا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: إغراقاً في النزع، حيث تنزعها من أقاصي البدن، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}.

وأما قوله تعالى: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} فقال ابن مسعود: هي الملائكة.

ورُوِي عن علي، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي صالح مثلُ ذلك.

{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} قال ابن عباس: يعني الملائكة تنزع الأرواح، يعني: تَنشط النفوس، يعني: تخرجها من الأجساد، كما يُنشَط العقال الذي يربط بيد البعير، فإذا حُلّ نهض البعير، يقال: فلان كأنما نشِط من عقال، يعني: كأنما أُطلق وثاقه فقام ليس به بأس، فإذا حُل هذا القيد نشِط صاحبه، أو نشِط البعير، ويقال: نَشَطَ الرجلُ الدلوَ، يعني: أخرجها من البئر، والنشاط هو الجذب بسرعة.

فالنازعات الملائكة، والناشطات أيضاً الملائكة تنزع الأراوح، تجذب الأرواح من الأجساد، والفرق بين الأول والثاني: أن النزع جذب بقوة وشدة، والنشط دونه كما يقول الواحدي في الفرق بينهما، فنزع أرواح الكفار يكون بشدة وعنف وقسوة، وأما أهل الإيمان فإن ذلك يكون برفق، وسهولة، ولين، إذاً الله أقسم بالنازعات وبالناشطات، فالملائكة تنزع الأرواح بشدة تناسب الكفار، وبرفق ولين يناسب أهل الإيمان، والذين يقولون: الملائكة تَنشط النفوس تخرجها من الأجساد، كما يُنشَط العقال من يد البعير إذا حُلّ عنه، ونَشَطَ الرجلُ الدلوَ من البئر، يعني: أخرجها، هذا الجذب هذا معنى النشط.

بعضهم كمجاهد يقول: هو الموت يَنشِط نفس الإنسان، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}، الموت، ووجهتُ لكم هذا من قبل في النازعات، باعتبار أننا إذا قلنا: الناشطات هي الملائكة تستخرج الأرواح، فإذا استخرجت الأرواح ما الذي يحصل نتيجة ذلك؟، هو الموت، فالموت ليس هو الذي يستخرجها، إنما الذي يستخرجها الملَك، فعبارة مجاهد لا تخرج عن هذا القول في مؤداها وحقيقتها، وإن كان اللفظ يختلف، فمجاهد -رحمه الله- لا يقول: إن الموت هو الذي يخرج الأرواح، وإنما الذي يخرجها الملَك، كما قال الله -عز وجل.

السُّدي جرى على قوله السابق في النازعات، فقال: {وَالنَّاشِطَاتِ} هي: النفوس، حيث تُنشَط من القدمين يعني: تبدأ الحياة تنسل من القدمين، لا أن الروح تخرج من القدمين، فروحه تخرج من فمه، لكنها تبدأ من القدمين، تبدأ الحياة تنسل، تخرج ابتداءً من القدمين إلى أعلى، وهكذا.

عكرمة وعطاء يقولون: هي الأوْهاق.

قتادة والحسن ومن أصحاب المعاني الأخفش يقولون: هي النجوم، النجوم حيث تنشط من أفق إلى أفق، مثلما قالوا في النازعات، وهذا سيكون على هذا الاعتبار تكراراً.

أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن، وقبله قتادة يقولون: هي الوحوش، حيث تنشط من بلد إلى بلد، ومن ناحية إلى ناحية، تنتقل، ترتحل، تهاجر، وبعضهم يقول: هي أرواح المؤمنين حينما تُستخرج، فذلك إخراج الملائكة لها -كما سبق-، بخلاف الكافرين فإنها تُنزع فيناسبها ما سبق، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن الناشطات هي الملائكة، وصفت بهذا في متعلق خاص وهو استخراجها لأرواح المؤمنين، حيث تستخرجها برفق، فتنسل الروح كما تنسل القطرة من فِي السِّقاء، بسهولة، ورفق، ولين.

وقوله تعالى: {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} رُوي عن عليٍّ، ومسروق، ومجاهد، وأبي صالح، والحسن البصري: يعني الملائكة.

هذا جميعاً في الملائكة، {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} يعني: الملائكة، باعتبار أنها تسبح في الفضاء، تحلق في الفضاء، لما أمرها الله -عز وجل- به، يعني: أنها تأتمر بأمره، فتسبح في هذا الفضاء الواسع الهائل امتثالاً لأمر الله -تبارك وتعالى-، فأقسم بالملائكة بهذه الصفة، وبعضهم يقول: الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح، كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وهذا قد لا يكون، السبح هو من صفة الملائكة، لكن هل الملائكة تدخل في داخل البدن حتى تستخرج الروح؟ هذا أمر غيبي الله أعلم به، فلا حاجة لهذا الإيغال في معنى لم يرد عليه دليل، وإنما ذلك من صفة الملائكة، والذي يذكره عادةً أهل العلم يقولون: تسبح في الفضاء، تنزل وتصعد امتثالاً لأمر الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال مجاهد وأبو صالح: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله -عز وجل.

وبعضهم يقول: هي الخيل تسبح في الغزو، فأقسم الله -عز وجل- بها.

وبعضهم كقتادة والحسن يقولون: النجوم تسبح في أفلاكها، وبعضهم يقول: هي السفن، كل هذه أقوال على طريقة ابن القيم في توجيه النازعات، ولو أردنا أن نسير على هذا المهيع فنقول: إن ذلك يصدق على كل ما يتصف بهذه الصفة –السبح- من السفن، والخيل في الغزو، والأفلاك والنجوم هذه التي تسبح بهذا الفضاء، وأحق من وصف بذلك، وأحق من يصدق عليه هذا على أتم الوجوه وأكملها الملائكة -عليهم السلام-؛ ولهذا ابن جرير -رحمه الله- لما ذكر هذه المعاني فعل كما فعل في النازعات، ذكر المعاني وقال: الله لم يحدد معنى، يجوز أن يكون كذا، ويجوز أن يكون كذا، ويجوز أن يكون كذا، لكن الذي عليه الجمهور أنها الملائكة في خصوص نزع الأرواح، وإذا قلنا: إن التأسيس مقدم على التوكيد كما هي القاعدة يكون النزع أقوى، فيكون مناسباً لأرواح الكفار، والنشط أسهل فيكون ذلك في أرواح المؤمنين، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}.

وقوله: {فَالسَّابِقَاتِ}، قال: **رُوي عن عليٍّ ومسروق ومجاهد وأبي صالح، والحسن البصري، يعني: الملائكة**، هذا أيضاً قول الجمهور، {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} بعضهم يقول كمسروق ومجاهد: الملائكة تسبق الشياطين بالوحي، وهذا رده المحققون من أهل العلم، قالوا: لا يمكن؛ لأن الشياطين كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٢]، لا يمكن أن يسترقوا الوحي الذي ينزل على الرسل، لكن يمكن أن يسترقوا الخبر الذي يكون في أمور كائنة، أو نحو ذلك، يتخطفون السمع فينزلون به على الكاهن، لكن الوحي الذي ينزل على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتأتى للشياطين، فهذا المعنى بعيد.

وبعضهم كأبي رَوْق يقول: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وهو مروي أيضاً -أو قريب منه- عن غيره كمجاهد، ومقاتل يقول: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا}، تسبق بأرواحهم، تسرع بها إلى الجنة، فلا يمهلونها بيد ملك الموت، فيأخذونها ويجعلونها في حنوط من حنوط الجنة، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم كالربيع يقول: هي نفوس أهل الإيمان تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله -عز وجل-، يعني هي تريد أن تخرج بسرعة من أجل شوقها إلى ربها -تبارك وتعالى.

وبعضهم يقول: هو الموت يسبق الإنسان، وهذا مروي عن مجاهد.

وبعضهم يقول: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، وهو مروي عن قتادة والحسن ومعمر بن راشد.

وبعضهم يقول: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد، كما يقوله عطاء.

وبعضهم يقول: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار وتعذب قبل الأجساد.

وهذه أقاويل، وقيل غيرها أيضاً، والمشهور الذي عليه الجمهور أنها الملائكة، {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} تسبق في امتثال أمر الله -عز وجل- وتحقيق مراده، تمتثل مسرعة، مُسابقة بلا تأخر ولا تباطؤ، ولا تردد، ولاحظْ هنا أن الله عطف بالواو، قال: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}، ثم بالفاء {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}، فبعضهم يقول: وعطف السابقات بالفاء؛ لأنها مسبَّبة من التي قبلها، يعني: الملائكة تسبح فتسبق إلى أمر الله -تبارك وتعالى-، {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ}، تسبح فتسبق فتكون الفاء كأنها للتعليل أو السببية، يعني كأن الذي بعدها مرتب على الذي قبلها، سبحت فسبقت، هكذا قال بعضهم، ولكن اعترض على هذا بالمدبرات، قالوا: هل المدبرات مرتب على ما قبله؟ هل السبق للتدبير؟ وبعضهم قال: نعم، سبقت امتثالاً لأمر الله -عز وجل-، سبحت فسبقت فدبّرت ما أُمرت به، ووُكل إليها تدبير.

وبصرف النظر عن العطف بالفاء فإن الجمهور على أن السابحات هي الملائكة، وأن السابقات أيضاً هي الملائكة، وكل ذلك في الملائكة، أما المدبرات فبالإجماع أنها الملائكة.

ويقول هؤلاء: إن السبق يكون من أجل التدبير، هذا للأرواح، وهذا للقطر، وهذا للوحي، وهذا لغير ذلك من الأعمال التي أناطهم الله -عز وجل- بها، وأناطها بهم.

وقوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقتادة...

إذا كنتم تريدون أن أُكمل شيئاً على الأقل أكمل الكلام على جواب القسم، أين جواب القسم؟.

يعني هذه الأقسام كما ترون، أو نكمل في المدبرات أمراً، ثم نتكلم على جواب القسم.

وقوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني: بأمر ربها -عز وجل.

هذا بالإجماع، ونقل الإجماع جماعة مثل ابن القيم والسمعاني، يعني وبعضهم مثل ابن عطية يقول: لم أقف على خلاف فيه، يعني كأنه يقول: إجماع، أن المدبرات هم الملائكة، تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني: بأمر ربها -تبارك وتعالى-، تدبر ما أُمرت بتدبيره.

يبقى جواب القسم عن هذه المذكورات، الآن أقسم الله -عز وجل- بهذه جميعاً، بالنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، خمسة أقسام، والقسم لا يكون إلا بمعظم، هذه القاعدة، فهذه الأقسام الخمسة أين جوابها؟ بعضهم يقول: الجواب محذوف، وتقديره: لتبعثنّ، والسورة تتحدث عن البعث، وهؤلاء يكذبون بالبعث، فجاء لهم بأشياء تتعلق بنزع الأرواح، وتدبير الأمور والمقادير، فأقسم بالنازعات التي تنزع أرواح الكافرين، والناشطات التي تَنشِط أرواح أهل الإيمان، والسابقات التي تبادر لأمر الله وتنفيذه،

والسابحات التي تسبح، والملائكة تسبح في الفضاء... إلى آخره، وأنهم سيبعثون، أن البعث أمر واقع لا محالة كما يقول الفراء: لمعرفة السامعين به، فهو أمر مدرك معلوم، والسياق يدل عليه، ويدل عليه أيضاً قرينة، وهي قوله: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}، فالسياق كله في قضية البعث، وجدال هؤلاء فيه.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [سورة النازعات:٢٦] يعني: في يوم القيامة، وذكر موسى وفرعون، {لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}، لكن هذا فيه بُعد، الفاصل طويل، والذهن لا يربط بهذه الطريقة، والقرآن أوضح الكلام وأبين الكلام، فيكون المقسم عليه حاضراً في أذهان السامعين.

وبعضهم يقول: {هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة النازعات:١٥] هذا هو الجواب، {هَلْ أتَاكَ} يعني: قد أتاك، باعتبار أن الاستفهام تقريري، قد أتاك حديث موسى، وهذا أيضاً لا يخلو من بعد.

وبعضهم يقول: الجواب: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ}، وهذا كذلك أيضاً لا يخلو من بعد.

وبعضهم يقول: يحتمل أن يكون هناك تقديم وتأخير، يعني كأنه قال: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ}، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، وهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل في الكلام الترتيب، ومهما أمكن حمل الكلام على الترتيب فلا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير، وهنا يمكن حمله.

ابن القيم -رحمه الله- في كتابه التبيان في أقسام القرآن، في عدد من المواضع، يقول: لا يوجد جواب أصلاً، وإنما المقصود التنويه بهذه الأمور ولفت النظر إليها، ويكفي هذا عن الجواب؛ لأنه يشعر به.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة"[٦].

يعني ما دل عليه المذكور.

وقال "رحمه الله-: "والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً"[٧].

يعني على الطريقة التي يذكرها الآن ابن القيم بكلامه الأخير، أنه ما يحتاج إلى تقدير، يعني: ما يحتاج أن يقال: الجواب محذوف مقدر بـــ لتبعثن، ابن القيم يقول: ما يحتاج، فإن ذلك يُستشف من هذه الأمور المقسم بها، فيصل المعنى إلى قلب السامع فيفهمه دون أن نقدّر.

وقال "رحمه الله-: " فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره، وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء وحذف المضاف، فإن معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله"[٨].

---

٦ - التبيان في أقسام القرآن (ص:١٣٩).

٧ - المصدر السابق.

٨ - المصدر السابق.

يعني ابن القيم يقول: إن السامع حينما يسمع هذه الأقسام يصل إلى فهمه المراد من هذه الأمور التي ذكرها الله على سبيل التعيين والتخصيص، **{وَالنَّازِعَاتِ} {وَالنَّاشِطَاتِ}** إلى آخره، فيكون الكلام مشعراً بالمراد وهو قدرة الله -عز وجل-، وعظمته، قدرته على بعث الأجساد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٥) إلى الآية (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فسورة النازعات -ويقال: الساهرة والطامة- تتحدث عن البعث والنشور في مجملها، وقد صدرها الله -عز وجل- بهذه الأقسام الخمسة التي تتصل بهذا الموضوع اتصالاً وثيقاً، فأقسم بالنازعات وهي الملائكة التي تنزع أرواح الكفار بشدة وغلظة، أو أنها أحق ما يصدق عليه هذا الوصف.

كما أقسم بعد ذلك بالناشطات وهي الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين فتستخرجها بلين وسهولة ورفق، ثم أقسم أيضاً بالسابحات وهي الملائكة التي تسبح في الفضاء محقِّقة ومنفذة ومنقادة ومستجيبة لما أمرها الله -عز وجل- به، ثم أقسم -تبارك وتعالى- بالسابقات وهي الملائكة تسبق إلى الوصول إلى ما أُمرت بفعله امتثالاً لأمر الله -جل جلاله.

ثم أقسم بالملائكة التي تدبر ما وكل الله -عز جل- إليها تدبيراً، فتقوم بذلك طواعية، منقادة طائعة بلا تباطؤ ولا تأخر، هذه خمسة أقسام كلها في الملائكة بوظائفها المتنوعة سواء قلنا ذلك على سبيل الحصر -يعني أن ذلك يراد به الملائكة فحسب- أو قلنا ذلك باعتبار أن الملائكة أحق ما يصدق عليه هذا الوصف، ويدخل في مجمله أمور أخرى لكنها دون ما ذُكر.

أقسم بهذه الأقسام الخمسة على البعث والنشور، وأنه أمر حاصل وواقع ومتحقق سواء قلنا: إن هذا الجواب -جواب القسم- مقدر، أو قلنا: إنه اكتفي بما ذكر من هذه الأقسام حيث إن ذلك يُشعر به ويدل عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [سورة النازعات:٥] **قال علي ومجاهد وعطاء والحسن والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها -عز وجل-، ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلا أنه حكى في المدبرات أنها الملائكة ولا أثبتَ ولا نفى.**

هذه الزيادة من الأصل تركها المختصر وهي مهمة لابد من إضافتها.

وقوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} [سورة النازعات:٦-٧] **قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد: أما الأولى وهي**

قوله -جل وعلا-: "يوم ترجف الراجفة" فكقوله -جلت عظمته-: "يوم ترجف الأرض والجبال"، والثانية وهي الرادفة فهي كقوله: {وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [سورة الحاقة:١٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} الرجفان يعني الاضطراب، يوم ترجف الراجفة المضطربة يعني الصيحة العظيمة التي تتردد أو فيها تردد واضطراب كالرعد، ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة المقصود بها النفخة الأولى، والرادفة؛ لأنها أردفتها، في قوله -تبارك وتعالى-: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال:٩] مردفين يعني أن بعضهم يردف بعضاً، يعني يتبع بعضاً، فالألف يكون بعدهم مدد إلى ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف؛ ولهذا قال: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} [سورة آل عمران:١٢٥]، بهذه القيود {يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} على أحد القولين يعني: يأتيكم مدد الكفار الذين وعُدوا بهم، الكفار وُعدوا بمدد فخاف المسلمون فقال: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} أيضاً يأتيكم مدد آخر من الملائكة ألف يتبعهم آلاف إلى ثلاثة إلى خمسة، هذا على أحد القولين المشهورين في الآية.

فهذه ردفت النفخة الأولى فقيل لها: الرادفة، هنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: **قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية وهكذا قال مجاهد** إلى آخره، **وعن مجاهد: أما الأولى وهي قوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} فكقوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} [سورة المزمل:١٤]، والثانية هي الرادفة،** "وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة"، لكن هذا على خلاف قول عامة أهل العلم، بل إنه خلاف المتبادر، فالنفختان: الأولى هي الراجفة، والثانية هي الرادفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} هذا الظرف "يوم ترجف الراجفة" إما أنه متعلق بجواب القسم المقدر، باعتبار أنه مقدر يعني لتبعثن يوم ترجف الراجفة، فيكون منصوباً بجواب القسم المقدر، أو أن ذلك المتعلق فعل مقدر محذوف، أي واذكر يوم ترجف الراجفة، وهذا كثير قبل الظرف.

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ} [سورة آل عمران:١٢٤]، أي واذكر إذ تقول، {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [سورة آل عمران:١٢١]، واذكر إذ غدوت من أهلك تبوئ، فإما أن يربط بما قبله من مذكور، أو محذوف مقدر، أو يقال: إنه معمول لفعل مقدر محذوف، وهذا هو الغالب وهو أسهل، واذكر كذا.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} اذكر يوم ترجف الراجفة، يعني ذات الصوت الهائل العظيم الذي فيه اضطراب لا يُقادَر قدره في تردد صوت هائل لا يطيق الناس سماعه ولا يحتملونه، فهذه هي النفخة الأولى التي يموت فيها جميع الخلائق، ثم تكون الرادفة عند البعث قد ردفت التي قبلها.

وسميت بهذا -والله تعالى أعلم-، وهذا قول عامة أهل العلم وإن قال بعضهم خلاف ذلك، كقول ابن زيد: الراجفة هي الأرض، والرادفة هي الساعة، {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} الأرض تضطرب وتهتز، تتبعها الرادفة يعني تتبعها الساعة، تتبعها القيامة، تضطرب الأرض فتقوم القيامة، "إذا زلزلت الأرض زلزالها"، فجعل الرجفان للأرض، ويتبع ذلك قيام الساعة، وهكذا ما جاء عن مجاهد من أن الراجفة هي الزلزلة تتبعها الرادفة يعني الصيحة، ابن زيد قال: القيامة، وهذا قال: الصيحة، وهما بمعنى واحد، فإن القيامة تقوم بالصيحة، بالنفخ في الصور.

وبعضهم يقول: الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة، وكأن ذلك يرجع إلى معنى واحد في قول هذا القائل، يعني الراجفة ترجف الأرض تتبعها الرادفة يعني الزلزلة، والرجْف هو بمعنى الزلزلة والاضطراب.

والمشهور أن المقصود بالراجفة النفخة الأولى، والرادفة النفخة الثانية، في الأولى يموتون، وفي الثانية يبعثون.

وقوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [سورة النازعات:٨] **قال ابن عباس: يعني خائفة، وكذا قال مجاهد وقتادة.**

قوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} يعني خائفة، وجَفَ قلبه بمعنى خاف واضطرب، فالقلوب الواجفة هي المضطربة القلقة الخائفة لما عاينت من أهوال القيامة، هذا قول الجمهور، والأقوال الأخرى التي قالها السلف هي في الواقع ترجع إلى هذا المعنى ولا تخالفه وإن اختلفت عباراتهم كقول السدي مثلاً: زائلة عن أماكنها، ما الذي أزالها عن أماكنها؟ شدة الخوف، فإن الله -عز وجل- قال عن المؤمنين في يوم الأحزاب: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} على المعنيين اللذين ذكرناهما هناك، إما أن الرئة تنتفخ كما يقال: انتفخ سحره أي رئته من شدة الخوف، فالعرب تقول: إن الرئة تنتفخ من شدة الخوف ولا أعرف هل هي الرئة التي تنتفخ أو ما يسميه الأطباء اليوم القولون يضغط على الحاجز فيضغط على القلب؛ لذلك بعض الناس قد يتألم ويظن أن ذلك لوجع في قلبه والواقع أنه يعاني من القولون فيضغط على الحاجز، أنا لا أعرف هل العرب تقصد هذا المعنى أو لا؟، لكن العرب يقولون: إذا خاف الإنسان وتعاظم خوفه انتفخ سحره، يعني رئته، فيرتفع معها القلب إلى أعلى بحيث لا يكون القلب في حال طبيعية.

وبعضهم يقول: هذا كناية عن شدة الخوف، كأن القلوب أرادت أن تخرج ولم يمكنها ذلك فبقيت، بلغت الحناجر كأنها من شدة الخوف ستخرج من أماكنها، فالقلب من شدة الخوف يحصل له مثل هذا.

وهنا قال السدي: زائلة عن أماكنها، هذا يرجع إلى شدة الخوف، فهو لا ينافي ما سبق، وهكذا قول من قال كالمُؤرِّج: قلقة مستوفزة، يعني خائفة خوفا شديداً تترقب، وقول المبرد: يعني مضطربة، هذا كله يرجع إلى شيء واحد.

هذه القلوب في غاية الخوف والاضطراب والقلق الذي يكاد أن يقلبها، أو أن يزيلها من أماكنها.

{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [سورة النازعات:٩]، **أي أبصار أصحابها، وإنما أضيفت إليها للملابسة، فهي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.**

البصر في حال الشدة والخوف الشديد يكون في حال من الضعف بحيث لا يستطيع صاحبه أن يتحكم به، فيشخص البصر تارة فيوصف بذلك، فالأبصار شاخصة بمعنى أنها تزيغ وتميل من شدة الخوف، "وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر" هذا في يوم الأحزاب، الزيغ هو الميل، مالت بمعنى أن النظر لم يعد صاحبه يستطيع التحكم به، أي أن الإنسان يصوب نظره بطريقة غير إرادية إلى جهة ما، فهنا لم يعد صاحبه قادراً على تصويب النظر إلى حيث شاء.

وتوصف أيضاً بالذل والخشوع؛ لأن من معاني الخشوع الذل، الخشوع صفة مركبة من مجموع أوصاف منها الذل فتكون هذه الأبصار خاشعة، هنا قال: **أي أبصار أصحابها**، هم تشخص أبصارهم فتكون تلك النفوس -أولائك الناس- في حال من الذل بسبب ما عاينوا من الأهوال والأوجال؛ لأنه أضاف الأبصار هنا

إلى القلوب، والقلب له البصيرة وليس له البصر، البصر للعين وبصيرته لا توصف بالخشوع فقال: {أَبْصَارُهَا}، إذاً ليس المقصود بصر القلب هنا، وإنما المقصود أبصار أصحابها.

فلما كان الكلام على الخوف الشديد والذي موضعه القلب؛ لأن الخوف منشؤه ومنبعه وموضعه ومستقره ابتداء وانتهاءً القلب، فيظهر أثره على الجوارح مثل باقي الأوصاف الأخرى القلبية كالفرح واللذة والسرور والرجاء والمحبة كل ذلك موضعه القلب، فهو مستقر هذه الأمور، فهنا أبصارها يعني أبصار هؤلاء الذين عاينوا هذه الأهوال خاشعة في حال من الذل.

وقوله تعالى: {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} [سورة النازعات:١٠] **يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور قاله مجاهد، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونُخورها.**

الحافرة يقول: **وهي القبور قاله مجاهد،** أصل الحافرة {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} أصل ذلك من قولهم: رجع فلان إلى حافرته، بمعنى رجع إلى حاله الأولى التي كان عليها، كما يقولون: عادت حليمة إلى عادتها القديمة، يعني عاد إلى ما كان عليه.

ويقال: غلب الطبع التطبع، فهنا {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} رجع فلان إلى حافرته يعني إلى حاله الأولى، ويمكن أن يقال هذا في الأمور الحسية، رجع في حافرته أي الموضع الذي جاء منه، فالحافرة عند العرب اسم لأول الشيء، وابتداء الأمر، هذا أصله إذاً {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يكون بهذا الاعتبار، والقرآن جاء بلغة العرب، وهم يعبرون بهذا، كأنه يتبع حفر قدميه في الأرض، هذا الذي رجع من حيث أتى، فهنا جاءت لفظة الحفر من ابن جرير -رحمه الله-، ومن ثَمّ لا حاجة إلى القول بأنه القبر –الحفرة-، هذا الذي رجع من حيث جاء قيل: رجع في حافرته، رجع من حيث أتى كأنه يتبع حفر قدميه، الحافرة.

يعني نعود إلى ما كنا عليه، يعني {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ} أحياء بعد موتنا وتفرق أبعاضنا وأجسامنا في التراب؟ هل نرجع من جديد إلى الحياة؟ هذا معناه، وهذا الذي قاله ابن جرير، وقال به كثير من أهل العلم من السلف ومن بعدهم.

وبعضهم نظر إلى لفظ الحفر فقال -كما جاء عن مجاهد-: نرجع يعني إلى القبور أحياء في قبورنا، وبعضهم يقول: {لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يعني الأرض، و قيل لها: حافرة؛ قيل: لأنها تُحفر بها قبورهم، سميت حافرة بهذا الاعتبار، يعني نرجع في قبورنا أحياء بعدما تفتتت وتفرقت أجزاؤنا في التراب، وفارقنا الحياة، ليس المقصود أنه يبقى حيًّا وهو في القبر، لا يقصدون ترجع إلينا الحياة وقد صرنا إلى تلك الحال في القبور، فهم أين هم حتى ترجع إليهم الحياة، فيقولون: هل ترجع لنا الحياة في قبورنا بعد أن صرنا رميما أو رماداً؟ هذا مقصود من قال: ترجع لنا في القبور، لا يقصدون حياة برزخية، وإنما يقصدون الحياة التي يحصل بها الجزاء والحساب، الحياة الأخروية يعني البعث، هذا مرادهم، وهذا يرجع للمعنى الأول، يعني قول مجاهد: ترجع لنا الحياة في القبور، بهذا الاعتبار، وهذا قال به آخرون من أصحاب المعاني، قال به الخليل بن أحمد، وقال به الفراء في معاني القرآن، كل هذا نظروا فيه باعتبار الحافرة، الحفر يعني الحفرة التي دُفنِّا بها،

القبور التي انْمَاعت أجسامنا وتحللت أبعاضنا وأجزاؤنا فيها فصرنا تراباً، هل ترجع لنا الحياة بعد هذه الحال فنقوم من قبورنا أحياء؟، إذاً يرجع إلى المعنى السابق.

لكن منهم من قال كابن زيد: الحافرة هي النار، {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} وهذا خلاف قول عامة أهل العلم، وفيه بُعد.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون بعد الموت {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ} إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء قبل مماتنا، وقبل هلاكنا؟ هذا هو المعنى الظاهر -والله تعالى أعلم- وهو مروي عن ابن عباس وقتادة والسدي، ولا يخالفه من قال: القبور، فهذا كله بمعنى واحد.

إذاً {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يعني نرجع أحياء كما كنا بعد أن صرنا إلى تلك الحال من الموت والفناء؟.

ولهذا قالوا {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} وقرئ ناخرة، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي بالية، قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه.

هم يستبعدون البعث من جديد {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} قال هنا: **قرئ ناخرة** قراءة الجمهور ناخرة، والقراءة الأخرى أيضا متواترة سبعية لحمزة والكسائي، وأيضا لأبي بكر عن عاصم هاتان القراءتان الآن {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} وناخرة، وبعض أهل العلم يقول: هما بمعنى واحد، نخرة وناخرة يعني بالية، وبعضهم يفرق بينهما في المعنى فيقول: إن معنى نخرة يعني بالية أصابها البِلاء فتفتتت وتلاشت، هذا معنى نخرة عندهم.

والناخرة: قالوا هي المجوفة التي تنخر الرياح في جوفها إذا مرت بها، أنتم تعرفون عوامل التعرية كيف تؤثر في الصخور فإذا جاء الهواء صار لها أصوات وصفير، العظام بعد مدة طويلة إذا ألقيت في الفلاة مثلا صارت مُخرّقة.

فهنا يقولون: ناخرة يعني مجوفة تنخر فيها الرياح، نخرة في جوفها، وهذا هو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: نخرة بالية، ناخرة يعني قد نخرتها أو مجوفة تنخر الرياح في جوفها، وبعضهم يقول: إن الناخرة التي لم تُنخر بعد، ناخرة يعني سيكون لها ذلك، ستصير إلى ذلك، لم يحصل لها البِلاء بعد، ولكنها في الطريق، هذه الناخرة.

وأما النخرة فهي التي قد بليت، هذا قاله أبو عمرو بن العلاء، وبعض أهل العلم يقول: هما بمعنى واحد نخرة وناخرة.

وأما قولهم {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٢] **فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن.**

قبل هذا قالوا: تلك إذاً كرة خاسرة يعني إذا رجعنا من جديد أحياء بعد أن نموت لنخسرن، هذا يقوله الكفار المكذبون بالبعث، يعني تلك الرجعة إن حصلت فالخسارة بها متحققة، يعني هي رجعة خاسرة، أي ذات خسران؛ لأن مصيرهم سيكون البوار والهلاك.

ولهذا يقول ابن جرير: خاسرة أي غابنة، وغابنة بمعنى خاسرة؛ لأن الخسران والغبن هو الذي يكون في البيع والتجارة، والله سمى المعاملة معه تجارة وبيعاً وشراء؛ ولهذا سمى يوم القيامة بيوم التغابن لما يحصل فيه من الغبن الشديد والتفاوت العظيم بين الناس، فهذا يأتي بأعماله، وهذا يأتي بأعماله، هذا قد استغرق الأنفاس والليالي والأيام حيث اشترى بذلك منزلاً في النار، ولم يكن الأمر على ذلك فحسب بل ورث منزل ذاك الذي في الجنة من النار، وهذا قد استغل الأوقات والأنفاس في مرضات الله -عز وجل-، وجاء بالأرباح والأعمال الطيبة الزاكية فأورثه ذلك دار النعيم المقيم، وليس ذلك فحسب بل إنه ورث منزل ذاك الذي في النار من الجنة.

هذا غبْن، هذا يرث منزله في النار وذاك يرث منزله في الجنة، هذا غبْن عظيم جداً، فهذا من معاني التغابن الواقع في ذلك اليوم، والمعنى أن هؤلاء الكفار يقولون: إنْ رُددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا مما يقوله محمد من الجزاء والجنة والنار والحساب... الخ، صفقتنا ستكون خاسرة، هذا هو المعنى المشهور الذي عليه أهل العلم.

وبعضهم فسر خاسرة يعني كاذبة، قال: إن ذلك قالوه إمعاناً في التكذيب "تلك إذاً كرة خاسرة" قالوا: كاذبة لا وقوع لها بحال من الأحوال، وهو منقول عن الحسن، وبعضهم يقول: "تلك إذاً كرة خاسرة" يعني على من كذب بها، وهذا يرجع إلى المعنى الأول الذي ذكرناه.

وهذا فيه زيادة بيان فقط، أنها ليست خاسرة على الجميع وإنما خاسرة على المكذبين، وهذا أمر بيّن لا خفاء فيه، هذه عبارة الربيع بن أنس، وعبارات السلف في هذا متقاربة.

يعني قول من قال: لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار يرجع إلى المعنى الأول، وهذا منقول عن قتادة ومحمد بن كعب القرظي.

فإنما هي زجرة يعني الأمر يسير ما هي إلا زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة، وبعضهم يقول: فإنما هي زجرة واحدة هذا يرجع إلى الرادفة التي هي النفخة الثانية، بمجرد زجرة واحدة صيحة واحدة نفخة واحدة يرجع الناس إلى الحياة من جديد.

قال الله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤] أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب -عز وجل- ينظرون كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [سورة النحل:٧٧].

هذه الآيات تفسر "فإنما هي زجرة واحدة".

القارئ: قوله تعالى: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح، وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة وجه الأرض، وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأُخرجوا إلى أعلاها، قال: والساهرة المكان المستوي.

هذا كله يرجع إلى معنى واحد {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} يعني: إذا هم على وجه الأرض أحياء، وظهر الأرض تسميه العرب الساهرة، وسبب هذه التسمية بعض أهل العلم يقول: لأنه يكون عليها السهر والنوم، فعُبر بأحدهما، الساهرة يعني الأرض يكون عليها السهر، ساهرة فيها نوم الحيوان وسهره، الحيوان يعني كل الأحياء ينامون ويسهرون، فسميت بالساهرة فوصفت بصفة مَن عليها من الأحياء، بأحد أوصافهم.

وبعضهم يقيد ذلك بما يتصل بالسهر، يقولون: إن ساهرة هنا -كقول من قال بأنها الأرض المستوية- المراد بها الأرض الفلاة الواسعة، يقال لها: ساهرة قالوا: لأن العين تسهر فيها ترقباً وخوفاً، يكون الإنسان خائفاً، فلاة ما حوله أحد، فلاة واسعة تحتاج إلى مدة حتى يقطعها، فعادة من يمر بهذه الأماكن الخالية القفر أنه يكون في حال من الترقب والخوف، فإذا جاء الليل ازداد خوفه فيسهر يخاف من العوارض والآفات، ولهذا تجدون كثيراً في كلام الشعراء يمدحون أنفسهم بالشجاعة، فيذكرون أنهم يقطعون الفلاة الشاسعة الواسعة التي لا يقطعها إلا الأبطال أصحاب القلوب القوية الثابتة، كثيراً ما يمدحون أنفسهم بقطع الفلوات الواسعة، ومن هذا ما ذكرته في عدد من المناسبات وهو البيت الذي يقوله صاحبه عن تلك الفلاة في وصفها:

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا *** فَبِيضٌ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

يقول: تنقطع فيها الدواب من طولها وسعتها، أو من بُعد المسافة يحصل للدواب انقطاع –كلال- من طول السير فتُترك فتموت فتتفسخ الجلود عن عظام بيضاء في هذه الصحراء، الجلد يكون يابساً كأنه من المعادن، كأنه قطعة حديد أو خشب أو نحو ذلك.

بعضهم يقول: الساهرة قيل لها ذلك باعتبار أن الأرض المستوية الواسعة الفلاة تَسهر فيها العين مترقبة لِمَا أَلمّ بالقلب من الخوف، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أن الساهرة: وجه الأرض، ابن جرير يقول: لنوم الحيوان وسهره عليها فوصفت بصفة مَن عليها، فإذا هم بالساهرة: إذا هم على وجه الأرض الأعلى.

وقال الربيع بن أنس: "فإذا هم بالساهرة" يقول الله -عز وجل-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم:٤٨]**، ويقول تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا}** [سورة طه:١٠٥-١٠٧]**، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}** [سورة الكهف:٤٧] **وبَرَزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يُعمل عليها خطيئة، ولم يهرق عليها دم.**

ولهذا قال بعضهم كما جاء عن سفيان الثوري -رحمه الله-: إن الساهرة هي الأرض التي بُدلت، التي حصل عليها التغيير والتبديل، يعني سفيان الثوري يقول: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} أرض مخصوصة هي الشام أرض المحشر، وإن كان هو ما قال: أرض المحشر، لكن هو قال: الشام والشام هي أرض المحشر، وبعضهم عبارته مغايرة لهذا يقول: ليست كل الأرض يقال لها: الساهرة، وإنما الساهرة هي الأرض التي بدلت فينتقلون بعد ذلك إلى هذه الأرض المبدلة {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ}، فالله أعلم.

الساهرة هي وجه الأرض، وتقييد ذلك بالشام كأنه أخذه باعتبار آخر هو أن الشام هي أرض المحشر وإلا فالأصل أن الساهرة هي وجه الأرض، فالله يتحدث ليس عن مكان محشرهم وإنما يتحدث عن إحيائهم بعد موتهم، يعني يقومون أحياء على وجه الأرض ينظرون.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [سورة النازعات:١٥-٢٦]، **يخبر تعالى رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- عن عبده ورسوله موسى -عليه السلام- أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر بطغيانه وكفره حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}.**

إذاً هنا يشير إلى المناسبة التي ذكرتها من قبل على موضوع السورة قلنا: إن السورة تتحدث عن الحشر والنشور والبعث فما مناسبة ذكر قصة موسى؟، هؤلاء الذين يكابرون ويكذبون مُتوعَّدون بعقوبة وعذاب ينزل بهم كما أنزل الله بأسه على إمام المكذبين وكبير العتاة وهو فرعون، بهذا الاعتبار.

يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}، ذلك: يعني ما ذكر من أخبار القيامة وذكْر موسى وفرعون، أو أن ذلك يرجع إلى ما ذكر مما جرى لفرعون وحل به فيكون ذلك عبرة للمكذبين، يعني إما أن يرجع لكل ما سبق مما ذكر، أو يكون ذلك بقصة موسى مع فرعون.

فقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} أي هل سمعت بخبره؟.

بأسلوب الاستفهام وذلك للتشويق، وفيه أن المعلّم هو الله -تبارك وتعالى- وعلمك ما لم تكن تعلم، وأن أحداً لا يعلم الغيب وإنما الذي يعلمه هو الله -تبارك وتعالى-، فالله يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الخطاب أيضاً يتوجه إلى أمته، فإنما سيق ذلك من أجل الاعتبار.

{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ} أي كلمه نداء.

النداء يكون أخص من مطلق الخطاب أو الكلام، يعني النداء يكون بصوت يُسمع، يسمعه المنادَى.

{بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ} أي المطهر.

الوادي المقدس: المطهر المبارك كما يقول ابن جرير، فإن التقديس يعني التطهير، ومن أسماء الله القدوس، فسر بالطاهر من كل عيب السالم من كل نقص؛ لهذا قال: {الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [سورة الحشر:٢٣] فهنا القدوس فسر بالطاهر، والسلام السالم من كل عيب ونقص.

وبعضهم جعل ذلك في أزمان وأوقات قال: القدوس المطهر في الزمن الماضي السالم من كل عيب ونقص، والسلام هو السالم في الحاضر والمستقبل.

{طُوًى} وهو اسم الوادي على الصحيح كما تقدم في سورة طه.

اسم الوادي ولا حاجة للأقاويل الأخرى وهي أقوال بعيدة وضعيفة لكن هو اسم الوادي، والفراء يقول: هذا الوادي بين المدينة ومصر {بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} ولا حاجة للاشتغال بالتعيين والتحديد ونحو ذلك، فهذا ليس عليه دليل بيّن، ولا فائدة من ذلك.

والقول بأنه الوادي هذا قول الجمهور.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} أي تجبر وتكبر وعتا.

يعني الله -تبارك وتعالى- يقول: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ} فيكون هذا على تقدير: أن اذهب إلى فرعون إنه طغى، أو على تقدير القول أي: ناداه ربه بالواد المقدس طوى قال: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أو أن هذا تفسير للنداء ناداه اذهب، الذي يؤيد تقدير أن اذهب قراءة غير متواترة عن ابن مسعود "إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى أن اذهب إلى فرعون".

{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [سورة النازعات:١٨]، أي قل له: هل لك إلى أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به أي تسلم وتطيع؟.

يعني قل له: هل لديك رغبة، هل لك إلى أن تزكى، هل ترغب في التزكية؟، وأصل هذه المادة "الزكو" يدل على تطهير، ويدل على نماء، ولذلك الزكاة تطهر النفس والمال وفيها نماء للمال، "ما نقص مال من صدقة"، فهذا أصلها، وتزكية النفوس تكون على شقين:

الأول: الذي يسمى بالتخلية.

والثاني: الذي يسمى بالتحلية، فالنفوس بحاجة إلى إزالة ما يعلق بها من الأكدار، وهي بحاجة إلى بناء بالمعاني الطيبة والكمالات، فالتزكية تقوم على هذين الفصلين، وهنا هل لك إلى أن تزكى؟ فهنا يدخل فيه التطهر من الشرك والمعاصي، والتحلي بالإيمان والعمل الصالح، فالتزكية تشمل الأمرين: تتطهر من الشرك والمعاصي والكفر، وتتحلى بالإيمان والعمل الصالح.

وهنا قراءة الجمهور {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} وفي قراءة نافع وابن كثير "تزْكَّى" والذي يظهر -والله أعلم- أن معنى القراءتين واحد، كل ذلك من التزكية، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، إلا أن بعضهم كأبي عمرو بن العلاء وهو من أئمة اللغة يقول: إن قراءة التخفيف تكون بمعنى تزكية النفس، والتشديد "تزَكّى" تكون بمعنى الصدقة، لكن هذا فيه بُعد؛ لأن موسى -صلى الله عليه وسلم- ما ذهب إليه يقول له: تصدق، وإنما يقول له: آمِنْ بالله -عز وجل- وتخلَّ عن الإشراك والكفر ومحادة الله وادعاء الربوبية والإلهية {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤]، و{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨].

ما ترك شيئاً فيقول له: {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} والتزكية في القرآن يعني غير الزكاة، فالزكاة معروفة {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣] هي المال المقدر الذي أوجبه الله -عز وجل- في الأموال الخ... لكن "قد أفلح من تزكى" وأشباه ذلك في القرآن المراد بها تزكية النفوس {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠] كل ذلك يراد به تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح والتخلي عن أضداد ذلك، هذا هو المراد، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} [سورة الجمعة:٢]، يعني يطهرهم بالإيمان ويبني نفوسهم بالعمل الصالح ويخلصهم من الشرك وأدناسه، هذا المراد في

جميع المواضع إلا أن من المواضع ما اختلف فيه أهل العلم اختلافاً لربما له ما يبرره وله وجه من النظر، وإلا فالأصل أن التزكية تكون بهذا المعنى.

{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ} [سورة النازعات:١٩] **أي أدلك إلى عبادة ربك، {فَتَخْشَى} أي فيصير قلبك خاضعاً له خاشعاً مطيعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى}** [سورة النازعات:٢٠]**، يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجةً قوية ودليلاً واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله.**

{فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} هل هي العصا؟ أو يقال -وهو الذي عليه عامة أهل العلم-: العصا واليد وهي من أكبر الآيات وهي التي ابتدأ الله -عز وجل- بها حينما أمره بذلك؟.

قال الله -عز وجل-: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} [سورة القصص:٣١] هذه الأولى لما خاطبه الله -عز وجل- وأوحى إليه، وقال: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} [سورة طه:٢٢-٢٣]، فهنا {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [سورة النازعات:٢٠] أراه الآية تكون الآية بهذا الاعتبار جنساً، ليست مفردة، فتكون العصا واليد هي أكبر الآيات؛ أن يضع يده في جيبه هذه آية لموسى، من الرهب يضع تحت عضده مثلاً هذه آية لموسى، لكن هناك آيات لآل فرعون كالجراد والقمّل والضفادع والدم، لكن إذا قرنت هذه بالعصا فهذه بيده تلوح لكن تلك قد يقولون: هذه طبيعية هذه بسبب رياح قادمة من جهة الشرق غرب المحيط الأطلنطي كما يقولون اليوم، ويحصل زلزال فيقولون: هذا فيه انصهار تحت الطبقة الصلبة من المنطقة المنصهرة فأوجد حركة واضطراباً وهذا شيء طبيعي وليس ذلك بسبب عذاب الله وسخطه ولا آية من آياته ولا شيء.

هكذا يقال اليوم، مهما تأتِ الآيات فهذه أشياء طبيعية، فهذه الجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان الفراعنة -وهم الفراعنة- ما قالوا هذا الكلام! {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ} [سورة الزخرف:٤٩] مباشرة ذهبوا إلى موسى، وعرفوا أن ذلك عقوبة من الله -تبارك وتعالى-، فكفْر الكافرين اليوم قد يكون أغلظ من كفر آل فرعون من بعض الوجوه، فهنا فأراه الآية الكبرى إذا قلنا: الآيات التسع فيكون المقصود الجنس، وإذا قلنا: العصا واليد وهذا هو الأقرب لعامة أهل العلم يكون المقصود الجنس، ليست مفردة.

وإذا قلنا: المقصود بها العصا مثلا تكون مفردة، لكن الله بم أمره حين يأتي إلى فرعون؟، وماذا فعل هو حينما جاء بالعصا؟ ألقاها فإذا هي ثعبان، وأيضاً أراهم يده بيضاء، فهذا هو المقصود، والله أعلم.

{فَكَذَّبَ وَعَصَى} [سورة النازعات:٢١] **أي فكذب بالحق وخالف ما أمر به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلْمُه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له.**

هذا القدر وهو قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} هذا الخطاب بهذه الطريقة بهذا الرفق يؤخذ منه الرفق في الدعوة لا سيما في مخاطبة الكبراء، وذلك يكون أدعى للقبول، مع أن الله -عز وجل- علم أن فرعون لن يستجيب، والله قال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤] لعله يتذكر فدل ذلك على أن

القول اللين يكون علة للانقياد والاستجابة والقبول، ومن ثَمّ فإنه لابد من تحديد المراد والهدف ابتداء في الدعوة والخطاب فيمن تخاطبه، هل تريد هدايته أن يستجيب وينقاد؟

فلابد من اختيار العبارة والأسلوب والطريقة المناسبة هذا سواء كان في كتابة مقال في تغريدة كما يقال، أو في رد في كتاب أو في قناة فضائية لابد من تحديد هدف، هذا الهدف يتوجه لمن؟ وما الهدف منه؟ هل هو كسر العظام؟ إذاً شرد بهم من خلفهم وهات أوحش العبارات وأوحش أسلوب.

وإذا كنت تقول: لا، المقصود هو دعوة هؤلاء الناس وهداية هؤلاء الناس واستمالة قلوب هؤلاء المخاطبين إذا لا داعي للعبارات الموحشة، لا داعي لاستعمال بعض الألفاظ والكلمات المنفرة، فإذا كنت تخاطب إنساناً أو تنشئ قناة فضائية وتخاطب طائفة من الناس، ولو كانت ضالة إذا كان المقصود هداية هؤلاء الناس لابد أن يكون بالأسلوب الذي يقبلونه لا أن تصكهم صك الجندل، وتنشقهم الخردل، وتقول: استجيبوا راغمين، لا، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}.

فهنا علمه القول اللين، هل لك؟ أسلوب العرض والاستفهام، ثم أضاف ذلك إليه "لك" الاختيار بيدك، أنت صاحب القرار، إلى أن تزكى ما قال أزكيك، قال: تَزكى أنت، اختر لنفسك، تتطهر ثم قال: {وَأَهْدِيَكَ}؛ لأن موسى هو الهادي والرسول ولم يقل: وأهديك إليّ، أو: أهديك إلى الحق الذي لا تعرفه، قال: {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ} فهو سيدك وخالقك أدلك عليه تحصل لك الخشية إذا عرفته بأسمائه وصفاته، فهذا الأسلوب ينبغي أن يراعى فيمن نخاطبه فيمن ندعوه لكن النفس أحيانا لربما يحصل لها نوع انفعال وانبعاث بسبب الغيرة فيتصرف الإنسان تصرفات لو نوقش فيها وروجع فيها لقال: لم يكن لي أن أفعل هذا الفعل، إن كان عاقلاً.

لكن يقول: في لحظة انفعال في لحظة غيرة تكلمت بهذه الطريقة، أو كتبت بهذا الأسلوب، ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يكتب وهو منفعل، لا تكتب مناصحة لا تكتب احتسابا لا تتصل بأحد وأنت منفعل؛ لأنك ستتكلم بطريقة في الغالب لن تكون هي الأدعى للقبول، قد تتحول القضية إلى نوع من التحدي.

من أنت حتى تخاطبني بهذه الطريقة؟ من أنت حتى تكتب لي بهذا الأسلوب؟ لكن لو أنه تكلم بكلام جيد بكلام طيب أقل ما هنالك أنه يقول: أشكرك على هذه النصيحة، لكن الإنسان أحياناً ينسى، وأحياناً تختلط عليه الأوراق بمعنى أن الإنسان أحياناً -والله المستعان- يظن أن هذا فيه من الحق والثبات وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، لكن إذا كان المقصود القبول والاستجابة والإذعان وتكثير الخير وتقليل الشر إذاً عليك أن تبحث عن أفضل الأساليب.

فموسى -عليه السلام- الله يأمره بهذا، ويعلمه كيف يقول: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} بعض الناس يظن أن هذا نوع من الضعف والخنوع، ويأنف من ذلك، وقد تختلط أحياناً حظوظ النفس بدعوة الخلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٢٢) إلى الآية (٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فبعد أن أقسم الله -عز وجل- هذه الأقسام الخمسة على قضية البعث أخبر عن حال المكذبين حينما تقوم الساعة وينفخ في الصور، {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [النازعات:٨] فتكون في حال من الاضطراب والقلق، والخوف المزعج، ويحصل لهم من الذل ما يبدو على ظواهرهم، فتخشع أبصارهم، وهؤلاء المكذبون بالبعث يتساءلون على سبيل الاستبعاد {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} [النازعات:١١] أي: بالية قد صارت بها ثقوب وتجاويف، وهذا يذكرونه من صفتها إمعاناً في استبعاد البعث، فلم تكن تلك العظام سوية على حالها، بل تغيرت.

{يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} [النازعات: ١٠]، نرجع إلى ما كنا عليه من الحياة بعد أن متنا وصارت عظامنا بهذه المثابة؟!، {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [النازعات:١٢] يعني: إن كان ثمّة بعث، وإن كان ما يقوله محمد – صلى الله عليه وسلم - حقاً فهذه رجعة خاسرة؛ لأنهم كذبوا بها، ولم يؤمنوا، ولم يكن لهم رصيد من الإيمان والعمل الصالح، فهم إلى خسران، والله -تبارك وتعالى- يقول: الأمر في غاية اليسر {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} [النازعات:١٣]، نفخة في الصور، صيحة واحدة ثم بعد ذلك يقومون أحياء، {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤] بعد أن كانوا في بطن الأرض، في قبورهم ولحودهم أصبحوا أحياء على ظاهرها.

ثم ذكر الله -عز وجل- خبر فرعون لما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- فكذب به ولم يؤمن، {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [النازعات:١٥-١٦]، ناداه الله -عز وجل- بصوت يسمعه بالوادِ المسمى بطوى، قال له: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [النازعات:١٧]، وفرعون لقب على كل من ملك مصر، {إِنَّهُ طَغَى} تجاوز الحد في الطغيان والعتو على ربه -تبارك وتعالى-، فقل له على سبيل العرض والتلطف في العبارة: {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [النازعات: ١٨]، تؤمن فتتطهر نفسك من أدناس الشرك والكفر والمعاصي، وتزكو وتطيب بالإيمان، {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٨-١٩] أدلك على الله فتؤمن وتعرف ربك معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته فتخشاه، ثم بين له البرهان الساطع على نبوته وحقيّة ما جاء به، {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [النازعات: ٢٠]، أراه العصا حيث تنقلب حية، وأراه يده تخرج بيضاء من غير سوء، {فَكَذَّبَ وَعَصَى* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات:٢١].

وقوله تعالى: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢] أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جَمْعُهُ السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى -عليه السلام- من المعجزات الباهرات.

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢] بعد أن كذب وعصى، {أَدْبَرَ يَسْعَى}، في مقابلة الحق بالباطل، وجَمَعَ السحرة، وسعى في الكيد، ليبطل ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، هذا حاصل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله.

وابن جرير –رحمه الله- يقول: يسعى: يعني في معصية الله -عز وجل-، وفيما يسخطه عليه، كلام ابن جرير أعم من كلام ابن كثير.

ومن أعظم معصية الله تعالى ومما يسخط الله عليه هو الكيد والسعي في إبطال ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، فيكون ما ذكره ابن كثير أخص.

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات:٢٢-٢٣] الفاء تدل على التعليل، وترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهذا يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء، {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} فدل على أن هذا السعي يطلق ويراد به العمل، {فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:٩] يعني: اعملوا على حضور الجمعة، وترك الاشتغال عنها بالبيع والشراء وما إلى ذلك، وهذا كثيراً ما يأتي بهذا المعنى في كتاب الله -عز وجل-، وأصل السعي هو ضرب من المشي بإسراع؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تأتوها وأنتم تسعون))[1] يعني: تسرعون، مع قوله في الجمعة: {فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة:٩]، يقول ابن كثير: أي: اعملوا على حضورها، وبادروا، وليس المراد هو الإسراع في المشي، فالمقصود أن أصل كلمة السعي فيه معنى الإسراع.

فلما سمع فرعون هذه الدعوة من موسى -صلى الله عليه وسلم- يدعوه إلى توحيد الله والإيمان به، ويقول: إنما أنت عبد لله -عز وجل-، فأدلك عليه من أجل أن تخشاه، ذهب فرعون وجمع قومه وقال هذه المقالة التي هي في غاية الشناعة، {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، لكن هذا فيما يظهر كان قبل تحديد الموعد الذي تواعد به مع موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طــه:٥٩]، فعندها دعا فرعون الناس من أجل الحضور، وحَشَرَ السحرة من أجل المضادة والعمل على إبطال ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا يقول ابن جرير – رحمه الله - {فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢٣] يعني: جمع قومه وأتباعه فقال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}.

{فَحَشَرَ فَنَادَى}[النازعات:٢٣] أي: في قومه، {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات:٢٤] قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨] بأربعين سنة.

هذا مأخوذ من الإسرائيليات -والله أعلم-، وهذا صريح في أنه ادعى الربوبية، وفي الآية الأخرى {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨]، فادعى الإلهية والربوبية -قبحه الله-، وهذا يرد على من قال من المفسرين: إن فرعون قصد حينما قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:٢٤]: أنا الملك، فمن معاني الرب: الملك، والسيد، أي: أنا سيدكم، أنا ملككم الأعظم، ومنه قوله سبحانه: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف:٧٦]، وقوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ} [يوسف:٤٣]، ولا منافاة، هو ملك، وفي عهد إبراهيم

---

[1] - أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا (٤٢١/١)، رقم (٦٠٢).

-صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في خبره لما أراد أن يأخذ امرأة إبراهيم جاء في تسميته بالملك، فهؤلاء الفراعنة هم ملوك، ومؤمن آل فرعون قال: {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} [غافر:٢٩]، فكان ذلك من قبيل الملك، ويدل على أنهم امتداد للأولين الذين كانوا في زمن إبراهيم، ثم في زمن يوسف -عليهما الصلاة والسلام- أن مؤمن آل فرعون قال مخاطباً لهؤلاء الفراعنة لما أرادوا قتل موسى -عليه الصلاة والسلام-، قال: {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا} [غافر:٣٤]، فدل على أن هؤلاء امتداد له، فهذا الخطاب لا يتوجه إليهم إلا إذا كان أولائك من أسلافهم وأجدادهم وآبائهم قطعاً، فإن الأبناء يخاطبون بخطاب الآباء إذا كانوا على طريقتهم في المذمة، وأما النعمة اللاحقة للآباء فهي لاحقة للأبناء، ولهذا تجد الخطاب كثيراً في بني إسرائيل {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ} [الأعراف: ١٤١]، والذين أنجاهم هم أجدادهم، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ} [البقرة:٦١]، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]، فهذا خطاب للمعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين فعلوا ذلك هم أسلافهم، وأجدادهم، فكل هذا بناءً على أن الأبناء يخاطبون بخطاب الآباء إذا كانوا على طريقتهم في المذمة.

فالمقصود أن هؤلاء المفسرين يقولون: إن فرعون ما كان يدعي الربوبية؛ لأنه يوجد من كبار السن من كانوا يعرفون أن هذه الأكوان مخلوقة، وفرعون ما ولد، فكيف يكون هو الرب الأعلى؟ قالوا: بمعنى أن قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} أنا سيدكم، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه هنا قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، وفعل بالسحرة ما فعل؛ لأنهم توجهوا بالعبادة إلى غيره، ويمكن أن يصل الغرور والجنون ببعض الناس إلى أن يدعي هذا، ويجد من يصفق له، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: ٥٤]، والله المستعان.

وأما قوله -تبارك وتعالى- عن قيل الملأ لفرعون: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧] فهذا لا إشكال فيه، فهو له آلهة يعبدها، ولكنه كان أيضاً يخاطب قومه بهذا {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، فهو يعبد آلهة، لكنه يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، ويقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والله المستعان.

قال الله تعالى: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [النازعات:٢٤] أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود:٩٩]، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ} [القصص:٤١].

الآن ظاهر كلام ابن كثير أن الآخرة هي يوم القيامة واليوم الآخر، والأولى هي الدنيا، وهذا في الواقع معنًى ذكره جماعة من السلف، النكال: مصدر، ويمكن أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، يعني: أخذه أخْذَ نكال.

ونكال الآخرة هو عذاب النار، قال سبحانه: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:٤٦]، فهذا نكال الآخرة، ونكال الدنيا الغرق، وهذا قال به جمع من السلف، وهو الذي مشى عليه ابن كثير، وقال به قتادة، والحسن.

وبعضهم يقول: {نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} ليس الآخرة يوم القيامة، وإنما في أول حياته وآخرها، {نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} عذاب أول عمره وآخر عمره، وهذا قاله مجاهد، لكن الذي قبله هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: المراد بالآخرة والأولى من الكلمتين، فالآخرة حينما قال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والأولى: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، هذا يقوله ابن جرير -رحمه الله- وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك.

وبعضهم يقول: الآخرة: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والأولى: هي تكذيبه لموسى -صلى الله عليه وسلم-، يعني: أن الله -عز وجل- نكّل به لسوء صنيعه، وقبح مقاله أولاً وآخراً.

والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الأقرب وهو المتبادر، وهو الذي سبقه إليه ابن عباس، وطائفة من التابعين كما سمعتم.

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات:٢٦] أي: لمن يتعظ وينزجر.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً} يعني: فيما ذكره الله -عز وجل- من خبر الآخرة والقيامة، وما ذكره من خبر موسى وفرعون.

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} [النازعات:٢٧-٣٣].

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه: {أَأَنْتُمْ} أيها الناس {أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ}؟ يعني: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر:٥٧]، **وقال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ}** [يس:٨١].

الاحتجاج على منكري البعث بهذه السماء، وهذه الأجرام العظيمة التي هي أشد خلقاً من الإنسان هو واحد من الأدلة التي احتج الله -عز وجل- بها عليهم.

وقوله تعالى: {بَنَاهَا} فسره بقوله: {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مُكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

قوله -تبارك وتعالى-: {رَفَعَ سَمْكَهَا}، رفعه يعني: أعلاه في الهواء، وجعله عالياً، لا يصل إليه الناس، وهذا معنى رفْع السَّمْك، أي إعلاؤه، إعلاء البناء، {رَفَعَ سَمْكَهَا}، يقال: هذا بناء مسموك، أي: مرتفع، وعلى هذا قول الفرزدق:

إنّ الذي سمكَ السماءَ بنى لنا *** بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ

إن الذي سمك السماء، يعني: رفع السماء.

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا}، وهذا لا يعارض قول من قال كالبغوي: {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: سقفها، والمعنى واحد؛ لأن الرفع مذكور قبله، {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: رفع السماء، رفع سقفها، {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، فهي سقف، وهذا كله يرد على أهل الفلك من القدماء الذين يقولون: إن السماء ليست بسقف، وإنما غازات، وللأسف الكثير من المسلمين ممن يشتغلون بعلوم الفلك فضلاً عن غيرهم يتابعونهم في هذا، حتى بعض الذين يتكلمون عن الإعجاز العلمي ظاهر كلامهم أنهم لا يثبتون سقفاً، فمن ثنايا الكلام واضحٌ أنهم يتحدثون عن غازات ويقولون: هذه هي السماء، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا

السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، ويقول: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات: ٧]، أي: متقنة الصنع، ومحكمة البناء، أو التي فيها تمويج مثل الرمال إذا جاء عليها الهواء يكون فيها نوع من التمويج.

{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٧-٢٨]، جعلها الله في حال من الاستواء، واكتمال الخلق، واعتداله، وقوته، ليس فيها تفاوت، ولا تصدع، وليس فيها ضعف في البناء كما يحصل في البناء الذي يبنيه الناس، فجعلها مستوية معتدلة، لا اعوجاج فيها ولا فطور.

وقوله تعالى: {{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩] أي: **جعل ليلها مظلماً أسودَ حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيّراً واضحاً.**

ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن معنى {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: سوّى السماء فلا شيء أرفع من شيء، وجعلها في حال من الاستواء، ليس فيها تضاريس ومرتفعات ومنخفضات كما هي في الأرض، {فَسَوَّاهَا}، فجميعها مستوٍ في ارتفاعها وامتدادها، فهي مستوية الأرجاء والأبعاد.

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩]، **قال: جعل ليلها مظلماً أسودَ حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً، قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه.**

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} أظلمه، الله -عز وجل-يقول: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} يعني: القمر، {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ١٢]، هي الشمس.

وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الشمس تشرق وتغرب في السماء، فإذا أشرقت الشمس طلع النهار، وإذا غربت جاء الليل، فأضاف ذلك إليها، فالليل هو غروب الشمس، وطلوعها يساوي طلوع النهار، فأضيف إليها، كما قيل: نجوم الليل؛ لأنها تطلع في الليل، والنهار عبر عنه بالضحى مع أن الضحى هو جزء من أجزاء النهار، ووقته من بعد أن ترتفع الشمس قدر رمح، وله أول، وله أوسط، وهناك الضحى الكبير أو الأكبر الذي يكون في آخره؛ ولهذا جاء في صلاة الأوابين ((حين تَرْمَض الفِصال))[٢]، الإبل الصغار لا تحتمل حرارة الشمس، فتصيبها الرمضاء فتحرك قوائمها، إذا رمضت الفصال.

قال بعض أهل العلم: عبر بالضحى؛ لأنه أشرف أوقات النهار من حيث البركة، والنشاط، والانطلاق، والعمل، والسعي، ((بورك لأمتي في بكورها))[٣]، ولا زال الناس من أمثالهم: أمير النهار أوله.

فقوله: {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} يعني: أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس، هذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- على بعث الأجسام وإعادتها من جديد.

قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وجماعة كثيرون.

{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} أي: **أنار نهارها.**

---

[٢] - أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الأوابين حين ترمض الفصال (٥١٥/١) رقم: (٧٤٨)

[٣] - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٢٩/١)، رقم: (٧٥٤)، وأخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر (٣٥/٣)، رقم: (٢٦٠٦)، والترمذي، أبواب البيوع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التبكير بالتجارة (٥٠٩/٣)، رقم: (١٢١٢)، بلفظ: ((اللهم بارك لأمتي في بكورها)).

وقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] **فسره بقوله تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}** [النازعات:٣١] **وقد تقدم في سورة "حم السجدة" أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير.**

{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠]، أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}** [النازعات: ٣١]، يعني: كان ذلك مهيأً فيها، قد جعلها الله -عز وجل- بهذه المثابة، فيها ماء، وهي أيضاً قابلة للنبات، فإذا فُجرت العيون وجرت على ظهرها فهذا إخراج بالفعل، **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}**، فجعله الله كامناً فيها، **{دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}**، خلقها خلقاً مهيأً لذلك، وهذه الأوصاف كامنة فيها، فخروجها هذا هو الخروج بالفعل.

بعض أهل العلم قال: الدحو هو ما ذكره الله في قوله: **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}**، والواقع أن هذا من الدحو ومما يدخل فيه.

وقوله: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات:٣٢] **أي: قررها وأثبتها وأكَّدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرءوف بخلقه الرحيم.**

وقوله {مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} [النازعات:٣٣] **أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعا لخلقه ولِمَا يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٣٣) إلى الآية (٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن فرعون لما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- بأمر الله ودعاه إلى الإيمان بألطف عبارة، وأراه المعجزة الباهرة {فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢١-٢٣]، بدلاً من أن يذعن ويؤمن وينقاد انقلب يجمع أتباعه وقومه وجنده لتقرير باطله وكفره، ونادى بهم بهذه العبارة الفجّة، التي هي في غاية النكارة، {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، فعاقبه الله -عز وجل- على ذلك {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [النازعات: ٢٥]، ونكّل به في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بعذاب النار.

ويحتمل أن يكون ذلك يرجع إلى كلمتيه، يعني أن الله -تبارك وتعالى- عاقبه بمقالتيه: بقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، وبقوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨].

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [النازعات: ٢٦] في خبر موسى مع فرعون وما جرى له، وما عاقبه الله -عز وجل- به، أو فيما ذكر في صدر هذه السورة مع خبر موسى وفرعون {لَعِبْرَةً} عظة {لِّمَن يَخْشَى}، ينتفع بها ويعتبر من كان يخشى الله والدار الآخرة.

ثم قال الله -تبارك وتعالى- مخاطباً هؤلاء المكذبين: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧]، يا من تنكرون البعث خلْقُ السماوات أعظم وأكبر من خلقكم، والله -تبارك وتعالى- قد خلقها، بناها، {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٨] أعلى بناء السماء، وسوى خلقها فصار في غاية الاعتدال، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} [النازعات: ٢٩] فجعله مظلماً، {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩] يعني: صار ضحاها منيراً بطلوع الشمس، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} ليل السماء؛ لأن الليل إنما يكون بغروب الشمس، والشمس في السماء، والنهار بطلوعها، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩]، فأضاف ذلك إليها، وذكر الضحى؛ لأنه أجلّ وأشرف أوقات اليوم.

قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] يعني: بعد خلق السماء دحا الأرض، وفسره بما بعده، {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: ٣١].

قال: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات: ٣٢] يعني: أثبتها، فصارت راسية، وأرسى الأرض بها أيضاً وثبتها، فلا تميد بأهلها، كل ذلك فعله {مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات: ٣٣]، من أجل أن تتمتعوا بهذه الأرض، وما بث فيها من الأرزاق والأقوات، أنتم وأنعامكم.

{فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٣٣ - ٤٦].

يقول تعالى: {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤] وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تَطُمّ على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦].

{فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤]، الطامة: هي الداهية العظمى، التي تطم على سائر الطامات، تقول: هذا جاء الوادي الذي طم القرى، فهذه أعظم واقعة، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}، وذلك يوم القيامة، وهي النفخة الثانية، فلعظم هولها قيل لها: الطامة، ووصفت بالكبرى، فالطامات تقع للناس -الحوادث الكبار- ولكن هذه هي الطامة الكبرى، وكل داهية لا تستطاع يقال لها: طامة عند العرب، كما يقوله المُبرِّد.

لكن الطامة الكبرى هي التي تطغى على سائر الطوام والطامات، فهي لا يُقادَر قدرها، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} والجواب قوله سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٣٩]الآيات، فهذا هو الجواب، إذا جاءت يكون الناس على حالين، فالطغاة إلى الجحيم، وأهل الخوف والخشية، وإيثار مرضاة الله -تبارك وتعالى- هؤلاء إلى الجنة.

وبعضهم يقول: الجواب مقدر محذوف، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} فإن الأمر كذلك، أو إذا جاءت الطامة الكبرى عاينوا عندها الحقائق التي كانوا يكابرون بها، وينكرونها، فرأوا ذلك عياناً، أو إذا جاءت الطامة الكبرى علموا حقيقة ذلك، فهذه معانٍ متقاربة، وبعضهم يقول: {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، والله تعالى أعلم.

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} [النازعات: ٣٥] أي: حينئذٍ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣].

إذا جاءت الطامة الكبرى، {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى}، ذلك اليوم يوم القيامة الذي هو يوم الطامة الكبرى، هو اليوم الذي يتذكر الإنسان فيه عمله، إن خيراً فخير وإن شرا فشر.

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} جنس الإنسان، كل الناس ينظر فيما عمل وما قدَّم، وهنا عُبر بالسعي، وقد مضى أن السعي يقال للعمل، وسواءً كان ذلك العمل بطاعة الله أو العمل بمعصيته، {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢٢، ٢٣]، وهو يدل على المبادرة، والله -عز وجل- يقول: {وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} [النجم: ٤٠] يعني: عمله، فهنا يتذكر ما سعى، يبدأ يعيد الأعمال، ويراجع سعيه، وما صدر عنه، فمثل هذا يحتاج من العبد إلى تذكر قبل ذلك اليوم من أجل أن لا تتحقق خسارته فيندم، ولا ينفعه عندها الندم، كل أحد سيتذكر في ذلك اليوم ما سعى، إذن فليقدم بين يدي هذا السعي في الدنيا حساباً، وليقدم أيضاً معه وبعده حساباً، فيكون الحساب قبل العمل وفي أثنائه وبعده، قبل العمل بالنظر في الوجهة، وموضع هذا العمل هل هو من محابّ الله، أو من مساخطه؟، ومعه فهو يلاحظ استصحاب النية الصحيحة كي لا تتحول، مع النظر المستمر الدائم في ملاحظة هذا العمل أن يأتي به على الوجه المشروع، وليس القضية أن يؤدي الإنسان أي عمل، وإنما كيف عَمِل؟ كيف أدى هذه الأعمال والعبادات؟ والله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢]، ما قال: أيكم أكثر عملاً، فإذا قرأ القرآن قبل أن يقرأ يكون له محاسبة، وأثناء القراءة يكون له محاسبة، هل هذه القراءة على الوجه المطلوب؟، وهل هو مستصحب للنية الصالحة فيها؟، وكذلك أيضاً بعد العمل من صلاة وغير ذلك، هل هذا العمل جاء على

الوجه المشروع؟ هل هذا العمل يقربني إلى الله أو أنه يحتاج إلى توبة؟؛ ولهذا الإنسان يستغفر بعد الصلاة، وبعدما يقضي النسك، {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: ٢٠٠]، هذه مقامات للذكر، والمراجعة، والإخبات بعد العمل، لا أن يبقى في غفلة تامة، فإذا وافَى القيامة عند ذلك نظر في عمله فتذكر ما قدَّم وأخَّر، ثم بعد ذلك يندم، فهذه الأنفاس هي خزائن للأعمال، وسيجد الإنسان خزائن كثيرة فارغة ما استغلها بشيء يعود عليه بطائلة، وهناك خزائن فيها أعمال قد تكون ناقصة، وهناك خزائن مليئة باللغو، وما لا فائدة فيه، وهناك خزائن مليئة بالشرور والمعاصي، وبعضها في أثواب طاعات، وصور قربات، يعني عبادات لم يكن له فيها نية، أو لم يأتِ بها على الوجه المطلوب المشروع فرُدّت، وكل هذا يكون في كفة السيئات.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} [النازعات: ٣٦] أي: أُظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ} يراها الناس، ويشاهدونها، وعندئذ يصيبهم ما يصيبهم من الهول والخوف والشدة مخافة أن يكونوا من أهلها، وهم يعلمون أنهم سيمرون عليها، {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، فإذا كان الناس يعلمون ذلك ويشاهدون هذه النار العظيمة التي الأرض كلها لا تساوي شيئاً لو رميت فيها، ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢]، لها سبعون ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، لو كان هذا في شيء في الدنيا له سبعون ألف زمام، يجر كلَّ زمام سبعون ألف رجل لكان شيئاً هائلاً، فكيف بملائكة أقوياء في غاية القوة والشدة يجرونها ويقودونها؟!، فهذه حقاً لا تبقي ولا تذر، هذه التي من أجلها ينبغي أن يحاسب الإنسان نفسه كثيراً طويلاً، في حاله.

{فَأَمَّا مَن طَغَى} [النازعات: ٣٧]، أي: تَمَرّد وعتا، {وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النازعات: ٣٨] أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[النازعات: ٣٩] أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم.

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠] أي: خاف القيام بين يدي الله -عز وجل-، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها، {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤١] أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

قوله: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}، أي: الحساب بين يدي الله -تبارك وتعالى- {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٣٠]، فهم يوقفون هناك، ويوقفون على النار، {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧]، فهذه مقامات للناس في ذلك اليوم، {خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي: يوم الحساب، كما يقوله بعض السلف كالربيع، ويقول قتادة: إن لله -عز وجل- مقاماً قد خافه المؤمنون، وقال مجاهد: هذا في الدنيا، يخاف في الدنيا من الله عند مواقعة الذنب، فيقلع عنه، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، ليس المقصود خاف مقام الحساب، وإنما خاف في الدنيا، لكن هذا -والله أعلم- لا يعارض ولا ينافي ما ذكر من أنه القيام بين يديه للحساب، فهو يخاف في الدنيا، خاف ذلك اليوم وصار يحسب له حساباً في وقت مبكر وهو في الدنيا، حيث تنفعه المراجعة والتوبة والمحاسبة والخوف، {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠].

وابن كثير –رحمه الله– لا يقصد أن هذا الخوف يكون في الآخرة، إنما يقصد أنه في الدنيا، يعني يحسب حساباً لذلك اليوم.

{وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} هذا يوافق ما اشتهر من أن الهوى إذا أطلق فالأصل أنه للذم؛ ولهذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الله ما ذكر الهوى إلا مذموماً، ولكن السياق قد يدل على استعمال الهوى أحياناً في غير موضع الذم، مثل قول عائشة -رضي الله عنها- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك[1].

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠ - ٤٢] قال: أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء، هذا كله يرجع إلى أن المعتبر هو الإيثار، بمعنى أن داعِيَ الله -عز وجل- يدعوه، والنفس والهوى والشيطان كل ذلك يدعوه أيضاً، فداعي الله يدعوه إلى الإيمان والعمل الصالح، والنفس والهوى والشيطان كل ذلك يدعوه إلى خلاف ذلك، وكما هو معلوم في الحديث لما خلق النار وخلق الجنة أرسل جبريل -عليه الصلاة والسلام- فنظر إلى النار، فرآها في حال يحطم بعضها بعضاً، فقال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها))[2]، فحُفت بالشهوات، الصور المحرمة الجميلة، الأموال المحرمة، الكسل عن طاعة الله -عز وجل-، كل هذه الأشياء من النظر الحرام، والأكل الحرام، والكسب الحرام، والأصوات المحرمة، فلما رآها جبريل قال: ((وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد)) ، ولما خلق الجنة وبعث إليها جبريل -عليه الصلاة والسلام- ونظر إليها في حال، قال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها))، فلما حُفت بالمكاره، صيام، صلاة، إذا أذن ذهب إلى المسجد، قام من فراشه، يحفظ لسانه عن الحرام، يحفظ نظره عن الحرام، يحتاج إلى مكابدة وصبر، ومجاهدة، وعمل صالح، ويوجد في أعماق الإنسان دواعٍ، توجد النفس المطمئنة وتدعوه إلى الله، والتوبة، والمراجعة، والعمل الصالح، والإيمان، كما توجد النفس اللوامة، تلومه على فعل المعصية، والتقصير، ويوجد داعي الله في قلب المؤمن، والملك له أيضاً لمة بالقلب، هذه كلها من الداخل، مع الفطرة ((خلقت عبادي حنفاء))[3]، ويوجد في الخارج شياطين الإنس من الصامتين والناطقين، فالناطق يدعوه مباشرة للمنكر، وإذا ما استجاب أنكر عليه عدم الاستجابة، وعابه بذلك، كما يعيبه على طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويوجد أيضاً الدعوة الصامتة للمنكر، فكل ممارسة للمنكر هي دعوة صامتة إليه، مثل هذه الأمور تدعو إلى الشر، والمنكر، كلها دواعٍ تسهل عليه مواقعة المنكر، خذ مثالاً على ذلك: التصوير، كان الناس يستوحشون منه، وما كنا نعرف صدق توبة الإنسان إلا إذا أتلف ألبومات الصور التي عنده، اليوم تريد النهي عن التصوير وتقول: لا يصورْ أحدٌ، ثم تُفاجأ بواحد يثني ركبته ويجلس أمامك ويصورك، ويستغرب إذا قلت له: لا تصور اتق الله؛ لأن هذا كثر، ونُسيت

---

[1] - أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد؟ (١٢/٧)، رقم: (٥١١٣).

[2] - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار (٢٣٦/٤)، رقم (٤٧٤٤)، والترمذي (٦٩٣/٤) رقم: (٢٥٦٠) أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

[3] - مسلم (٢١٩٧/٤) رقم (٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

النصوص الواردة فيه، وصار الذي ينكر هذا غريباً في الناس، تبرج المرأة يبدأ بواحدة، تعرفون ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي: واحدة في دمشق وكيلة مدرسة خرجت سافرة عن وجهها، فأضربت دمشق عن آخرها، وأغلقت المحال التجارية حتى فصلت هذه الوكيلة من عملها؛ لأنها فقط كشفت الوجه، هذا في بلاد الشام يوم كان الناس ناساً، أسأل الله أن يفرج عنهم، ولعل هذه الحرب تعيد الناس إلى معادنهم، وتزيل عنهم هذا الركام.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، النفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهْي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعييْن يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠] وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق القلبَ إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه"[٤].

لاحظْ، يعني هذا ليس المقام بين يدي الحساب، وإنما {خاف مقام ربه} يعني: باطلاعه عليه، يعني مقام المراقبة الذي يبعث على مرتبة الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، {ولمن خاف مقام ربه جنتان}، هذا المعنى الأول.

"والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه، فعلى الأول يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل، وعلى الثاني -وهو أليق بالآية- يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف، والله أعلم"[٥].

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} [الرحمن:٤٦]، يعني: يوم الحساب، خاف ذلك الموضع، خاف قيامه بين يدي ربه، أضيف إلى المفعول.

ثم قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٢ - ٤٥] أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مَردها ومَرجعها إلى الله -عز وجل-، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف: ١٨٧].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ}، هؤلاء الذين يسألون على نوعين، النوع الأول: من يسأل استبعاداً، واستهزاءً، وتكذيباً، وكفراً، هذا كان سؤال الكفار، يقولون: متى هي؟ متى تقوم الساعة؟ ويستعجلونه بها -عليه الصلاة والسلام-، {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨]، فهذا نوع من سؤال السائلين، والنوع الثاني: هو سؤال أهل الإيمان، متى الساعة؟؛ من أجل أن نستعد، وأن نعمل لها، فالأول مذموم، والثاني غير مذموم،

---

[٤] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٥١٨- ٥١٩.

[٥] - المصدر السابق ١/٥١٩.

إلا أن جوابه غير معلوم لدى من يوجَّه إليه السؤال، وفي حديث جبريل: ((متى الساعة؟))، لو كـان الـسؤال مذموماً لما وجهه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[٦].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات: ٤٢]، يعني: منتهى قيام الساعة، مثل رسو السفينة، لمّا ينتهي سيرها وإبحارها ترسو على الشاطئ أو في الميناء، فهذا منتهى إبحارها، أو سيرها، {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} يعني: منتهى قيام الساعة، كرسو السفينة، كما يقوله الفرَّاء.

{فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣]، ابن جرير – رحمه الله – يقول: وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر ذكر الساعة حتى نزلت الآية، وبعضهم يقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا}، أيّ شيء أعلمك بوقت وقوعها؟، كأنه يقول: ما شأنك وهذا؟، هذا السؤال لا يوجه إليك، ليس علمها إليك، وإنما إلى الله -جل جلاله.

وقال هاهنا: {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤] ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن وقت الساعة قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)).

يعني {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} أي: أن الذي ينتهي علمها إليه هو الله وحده، وأما الناس فلا يعرفون ذلك، لا يعلم وقتها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥]، أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ} هنا جاء بأسلوب الحصر، حَصَرَ مهمته -صلى الله عليه وسلم- بالإنذار، مع أن الله -تبارك وتعالى- أخبر في مواضع أنه بعثه بشيراً ونذيراً، فهو يجمع بين البشارة والنذارة.

وقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦] أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم.

قال جُويْبر عن الضحاك، عن ابن عباس: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} أما عَشِيَّةً: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، {أَوْ ضُحَاهَا} ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة "النازعات"، ولله الحمد والمنة.

---

[٦] - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة (١/١٩)، رقم: (٥٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقبل الشروع في تفسير سورة عبس نسمع الآيات من سورة النازعات، عبد الرحمن خُذ المصحف.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، [سورة النازعات].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

يقول الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء المكذبين بالبعث: **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}** [النازعات: ٣٤]، إذا جاءت الداهية العظمى التي تطم على سائر الدواهي والوقائع العظام، **{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى}** [النازعات: ٣٥] عندها يعلم الإنسان ما كان عليه من العمل، ويتذكر تقصيره وتفريطه، **{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}** [النازعات: ٣٦] أُظهرت حتى صارت بادية للعيان يراها كل أحد، **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى}** [النازعات: ٣٧] جاوز حده في الطغيان فكذب الرسل، وكفر بالله -عز وجل-، **{وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** قدمها، واشتغل بلذاتها وشهواتها، وأعرض عن الإيمان والعمل الذي ينفعه ويرفعه، **{فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات: ٣٩] فإن مصيره الذي يصير إليه هو النار، **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}** [النازعات: ٤٠]، **{خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}** أي: مستحضراً رقابته ونظره إليه، وقيامه عليه، يُحصي عليه أعماله، ولا يفوته شيء من أحواله وأقواله، أو خاف قيامه بين يدي الله -عز وجل- للحساب، ونهى نفسه عن هواها، وحملها على طاعة مولاها، **{فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات: ٤١]، فإن مصيره إلى الجنة، هذه هي المعادلة، وهذا هو الذي يترتب عليه الفوز أو الهلاك، بهذا الإيثار إيثار الهوى، أو إيثار الإيمان وطاعة الله -عز وجل.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات: ٤٢]، يتساءل هؤلاء، منهم من يسأل سؤال مكذب مستبعد لوقوعها، ومنهم من يسأل سؤال مستفسر يطلب معرفة وقت الساعة، {فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣]، ما أنت والساعة؟، ما أنت وذكر الساعة؟، وما أنت وعلم وقت وقوع الساعة؟، فذلك لا يرجع إليك، فلا تشتغل به، ومثل هذا السؤال لا يعلم جوابه إلا الله -تبارك وتعالى.

{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤] فإن علمها إنما ينتهي إلى الله -تبارك وتعالى- دون ما سواه، {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥] ما عليك إلا الإنذار والبلاغ، فهذه مهمتك، لا أن تخبر عن وقت مجيئها.

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦] هذه التي يستبعدها هؤلاء من بعض أصحاب هذه السؤالات، أو الذين يستطيلون هذا البقاء في هذه الحياة الدنيا أو يتساءلون متى تقع الساعة، ليعرفوا ذلك: كل ذلك إذا نُظر إليه باعتبار قصر الحياة الدنيا فإن ذلك يقتضي أن الساعة قريبة، هي في غاية القرب، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، فلا يستطيل الإنسان مدة هذه الحياة، أو يستبعد قيام الساعة، أو يفرط في العمل الصالح، هذه الحياة قصيرة في غاية القصر.

بعد ذلك نبدأ بسورة عبس، وهذه السورة افتتحت بمعاتبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في واقعة حصلت، وصح ذلك في عدد من المرويات، وحاصله يرجع إلى أن ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، وهو قرشي من أهل مكة، ابن خال خديجة -رضي الله تعالى عنها-، وكان رجلاً قد كف بصره، فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يسترشد، وكان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض الكبراء من قريش، في بعض الروايات الصحيحة أبي بن خلف، وفي بعضها عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وفي بعضها على الإبهام، فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان حينها مشتغلاً بهؤلاء في دعوتهم رجاء أن يسلموا فيكون ذلك سبباً لإسلام قومهم، فجاء ابن أم مكتوم في هذه اللحظات، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عبس في وجهه -وهو لا يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعرض عنه فلم يجبه، وأقبل على هؤلاء يدعوهم، فعاتبه الله -عز وجل- في صدر هذه السورة {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١- ٢] إلى آخر الآيات.

هذا صدر السورة، وباقي السورة يتحدث عن قدرة الله -عز وجل-، ودلائل القدرة على البعث والنشور، وأن هذا الذي بهذه الصفة هو الذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه.

وبين الله – تبارك وتعالى – أن الذين استغنوا عن الإيمان والتوحيد والهدى من كبراء المشركين كان أولهم نطفة، وآخرهم جيفة، ثم بعد ذلك الله يبعثهم الله -عز وجل-، ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، وهم فيما بين ذلك يتقلبون بنعمه وأفضاله حيث ذكر لهم انصباب الماء من السماء، وانصداع الأرض وانشقاقها بالنبات، وما يخرج فيها من ألوان الثمار والزروع والنباتات لهم ولأنعامهم، فهذا الذي بهذه الصفة وهو القادر على هذه الأمور أحق أن يعبد ويوحد، وأن تصرف العبادة له وحده دون ما سواه، وأيضاً هو القادر على إعادة الأجسام من جديد.

{عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلا إِنَّهَا

تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ}. [عبس: ١-١٦].

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش وقد طَمِع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم -وكان ممن أسلم قديماً- فجعل يسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أنْ لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} أي: أما الغنيّ فأنت تتعرض له لعله يهتدي، {وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى} أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى} أي: يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له، {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} أي: تتشاغل، ومن هاهنا أمر الله -عز وجل- رسوله -صلى الله عليه وسلم- ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت: أنزلت: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجعل يقول: أرشدني، قالت: وكان عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجل من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: ((أترى بما أقول بأساً؟))[1]. فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}. وقد روى الترمذي هذا الحديث، ولم يذكر فيه عن عائشة، قلت: كذلك هو في الموطأ.

هذه السورة سورة عبس، هذا هو الاسم المشهور لها، وبعضهم ذكر لها أسماء أخرى، بعضهم قال: سورة الأعمى، وبعضهم قال: سورة ابن أم مكتوم، وبعضهم قال: سورة الصاخة، وبعضهم يقول: سورة السَّفَرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}، لاحظ أنه جاء بهذا بصيغة الغائب، ما قال: عبستَ وتوليتَ، ولهذا بعض أهل العلم يشير هنا إلى معنىً يتصل بالأدب في الخطاب، يعني: أنه ما وجه ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن في مثل هذه الألفاظ ثقلاً على السامع، فما واجهه بها، وإنما قال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف، لما ذكر خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- مع الخضر، قال: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، نسب العيب إلى نفسه، ولم ينسبه إلى الله، ما قال: فأراد ربك عيبها، وإنما قال: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}، ولما ذكر الغلام الذي قتله قال: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}

---

[1] - أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة عبس (٥/٤٣٢)، رقم: (٣٣٣١).

[الكهف: ٨٠-٨١]، ثم لما ذكر الجدار قال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [الكهف: ٨٢]، وفي العيب نسبه إلى نفسه، هذا من الأدب في المخاطبة، مثل قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠] فنسب المرض إلى نفسه، وأضاف الشفاء إلى الله -عز وجل-، {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١ - ٣]، فلم يقل وما قلاك؛ لأنها ثقيلة، فالأدب بالخطاب مطلوب، ولذلك لا يحسن بالمحاضر أو الخطيب أن يواجه الناس بعبارات تثقل على أسماعهم، لكن يمكن أن يتكلم بطريقة أخرى، كأن يقول: نحن، فلا يقول: أنتم تفعلون كذا، وتفعلون كذا، وتفعلون كذا.

وقد أعطاني أحد الفضلاء مرة محاضرة قبل أن ينشرها مسجلة عن تربية الأطفال، فقال: ما رأيك فيها؟ وهو رجل من أهل العلم، ولكن لفت نظري أن عبارة تتكرر كثيراً، يخاطب الموجودين بعبارة خطاب، يقول لهم كثيراً، وسمعت آخر يخطب ويقول: أنتم شابهتم النصارى، واتبعتم سبيلهم، فاحتفلوا بالمسيح واحتفلتم بالمولد النبوي، وذكر أشياء من وجوه المشابهة للنصارى، يخاطبهم بها، ويقررهم بها، كان الأولى أن يقال: وقع بعض الناس، بعض المسلمين، أو يقول: نحن نفعل كذا، نحن وقعنا في كذا، نحن في كذا، ما يكون بأسلوب يخاطب الناس بطريقة تزعج.

ففي قوله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} لم يقل: عبستَ وتوليتَ، وعبس: بمعنى كلح وقطَّب وجهه، والعبوس معروف: قبض وجهه تكرهاً، يعني: لما جاءه الأعمى في هذا التوقيت تغيرت معالم وجهه – صلى الله عليه وسلم -، قطّب.

والأعمى لم يكن يراه فلا يتأثر بذلك، ومع ذلك عاتبه الله-عز وجل-، فكيف لو كان يراه فيتأذى به؟!، فإن مثل هذا التصرف لا يوجه لمن يأتي طالباً للهدى، ولو كان التوقيت غير مناسب، ولو كنت منشغلاً في غاية الأهمية، فهذا تعليم من الله -عز وجل-، إذا كان يعاتب أفضل الخلق، ويقول له: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى}.

فالمشاعر الجيدة تجاه الآخرين والتعامل معهم بالأسلوب الأمثل والأرقى حتى لو كان ذلك لا يشعرون به هو المطلوب من المسلم، فهذا تعليم من الله -عز وجل- بأمرين:

الأول: الإقبال على من ينتفع، وعلى من يحرص على العلم، فالعلم يُبذل لمن يرغب فيه، ويطلبه، ولا يبذل لمن يكون زاهداً فيه، ومن مساوئ التعليم الإجباري أنك تلقي العلم لقوم هم أزهد الخلق فيه، إلا من رحم الله -عز وجل-، فهذا من أصعب الأشياء، يموت الإنسان مراراً وهو يرى صرعى لا يرفعون رأساً بالعلم، ولا يحفلون به، وإذا غاب عنهم من يعلّمهم فذلك عيد، وإذا أعطاهم من العلم وفاض عليهم من الفوائد والمسائل ضاقوا ذرعاً بذلك، وهذه مشكلة كبيرة، وبلاء عظيم، أن يبذل العلم لمن يزهد فيه، فهو من أصعب الأشياء على النفس.

الأمر الثاني: هو أن هؤلاء الذين يطلبون العلم أو يسألون عنه، أو يستفتون أو نحو ذلك قد لا يوفقون، إما في اختيار الوقت المناسب، أو في الطريقة، في طريقة السؤال عن العلم، قد يبادرك بمجرد ما تسلّم من الصلاة، ويأتيك مباشرة يريد أن يسأل، أو يكون بطريقة غير مناسبة، فأحياناً يسأل بمقدمة استفزازية، كأن يقول: "أنت

فاضي"؟ فمقدمة السؤال بهذه الطريقة تستفز النفس، "كيف فاضي"؟!، فالمؤمن في شغل شاغل، لكن هذا من الشغل، فلو أنه تلطف بالسؤال وقال: هل أستطيع أن أسأل الآن؟، هل الآن الوقت مناسب؟، وأحياناً يبدأ بطريقة: جاوِبْ، ضروري الآن، وهذا الأسلوب ممكن أن يستخدم مع واحد من أصغر أولادك، أو واحد يشتغل عندك، لكن تأتي وتخاطب الناس بهذه الطريقة، أو أخرى ترفع صوتها غاضبة: اتقوا الله، أو تكتب رسالة: أنتم تأخذون رواتب، وجالسون في بيوتكم، ما تردون على أسئلتنا، وثالث يقول: أنت لماذا تنشر رقمك إذا كنت لا ترد؟، فهؤلاء تصدر منهم تصرفات تحتاج إلى صبر وتحمل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو قدوتنا ومعلم الناس يأتيه من يقول له: أعطني فإنك لا تعطي من مال أبيك ولا مال أمك، يخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا، فكل ذلك ينبغي أن يكون موطّناً للنفوس على الصبر.

{أَن جَاءهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢] أي: لأجل أن جاءه الأعمى يسأل في هذا الوقت الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه مشغولاً.

قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣] وما يشعرك لعله يحصل له زكاة وطهارة في نفسه؟، فإن كان ابن أم مكتوم -رضي الله عنه- في ذلك الوقت لم يسلم بعد فيكون المراد {يَزَّكَّى} يعني: يدخل في الإسلام، يحصل له الزكاء بالإيمان، وبعض أهل العلم كابن العربي يقول: لا يُعلم بالتحديد متى كان وقت دخول ابن أم مكتوم في الإسلام،

{لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} فإن النفوس تتزكى بالإيمان والعمل الصالح، وشرائع الإيمان هي إيمان، فإذا كان قد دخل في الإسلام فيحصل له تزكية بهذا العلم.

ابن زيد يقول في قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣] أي: ينتفع، لكن من أهل العلم من قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يعني: الكافر، يعني لا ينتفع، وأنت مقبل عليه، قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يحصل له زكاة وطهارة في نفسه {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يحصل له اتعاظ أو انزجار عن المحارم، بمعنى أنه بين أمرين: إما أن يحصل له تزكية، إن كان لم يسلم بعد فيدخل في الإسلام، أو يحصل له ذكرى فينتفع بها في يوم من الدهر، وإن كان قد أسلم فإنه إما أن يزكى يتعلم من شرائع الإيمان أشياء جديدة تحصل له بها تزكية، أو يحصل له بذلك اتعاظ وتذكر واعتبار فينتفع {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، هذا الذي ينبغي الإقبال عليه.

قال: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٦- ٥]، استغنى عن الإيمان، استغنى عن دعوتك، عما تخاطبه به، ويحتمل أن يكون {اسْتَغْنَى} يعني: صار ذا غنى، من هؤلاء الكبراء، كانوا من الأغنياء، وكما يقول ابن جرير: استغنى بماله، يعني: هؤلاء الذين استغنوا عن دعوتك وعن الإيمان بما صار لهم من المال والجاه والقوة والولد وما إلى ذلك، فهؤلاء ليسوا أصحاب أولوية في توجيه الخطاب إليهم على حساب من يحرص على هذا الإيمان وهذا العلم، لكن أن يسوي بين الناس، أو يقدم هؤلاء أهل الحرص، وهم في الغالب الضعفاء والفقراء.

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٥-٦]، ابن كثير يقول: أما الغنيّ فأنت تتعرض له لعله يهتدي، {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} التصدي يقال للإقبال على الشيء والإصغاء، فأنت له تصدى، هذا تُعرض عنه وهذا تصغي إليه وتقبل عليه.

يقول: {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧] ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة؛ وهذا يدل على أن المراد والمقصود بقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} الأعمى، وهنا {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} يعني: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، فهنا "ما" على قول ابن كثير نافية، يعني: أن هذا لا يضرك، لن تحاسب على هذا، لن تلحقك تبعة لكون هذا الإنسان أعرض وكفر، فإن كفره يرجع عليه، وابن جرير يقول: أي شيء عليك ألا يتطهر من كفره فيسلم، يعني: لا شيء عليك، هذا بمعنى قول ابن كثير: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة.

ومن أهل العلم من يقول: إن "ما" استفهامية، وكلام ابن جرير يحتمل هذا، {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى}، ما يضرك إذا لم يتزكَّ؟، ما الذي يلحقك في ذلك؟.

{وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٨-٩] أي يقصدك ويؤمك، والتزكية -كما قلنا في السابق- بالإيمان والعمل الصالح، والسعي، {وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى} [عبس: ٨] هل المقصود به السعي المعروف وهو الإسراع في المشي أو المقصود به الناحية العملية الانتفاع والاهتداء وما إلى ذلك؟، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [القصص:٢٠] المراد به الإسراع بالمشي.

فهذا جاء يسعى وهو يخشى، جاء يسعى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك بالسير إليه سيراً حثيثاً، وأيضاً فإن ذلك منه عملٌ وجدٌّ على طلب الهداية.

قال: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، {فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١٠] أي تتشاغل، ومن هنا أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يخص بالإنذار أحداً بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف إلى آخره.

وإقبال النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء الكبراء لم يكن من أجل دنياهم، ففعلُ النبي -صلى الله عليه وسلم- لا غضاضة فيه من جهة حرصه -صلى الله عليه وسلم- على اهتداء هؤلاء؛ لأن هؤلاء سيهتدي مَن وراءهم، من هذا المنطلق، لكن ذلك يكون مذموماً إذا كان على حساب الضعفاء الطالبين للهداية، الراغبين فيها، ويكون الذم فيه أعظم إذا كان ذلك على سبيل المصانعة والمحاباة لهم، ويكون ذلك أعظم في الذم إذا كان من أجل الملق والتقرب إليهم لنيل دنياهم والحظوة عندهم وما إلى ذلك، هذه مراتب، يعني: من الناس من يقبل عليهم لعلهم يهتدون فينفع الله بهم، ومن الناس من يقبل عليهم مجاملة لهم ومصانعة لهم؛ لأنهم لهم منزلة في المجتمع ولهم.. إلى آخره، فهو يداريهم ويجاريهم، ومنهم من يفعل ذلك من باب الملق، وطلب دنياهم أو حصول الجاه عندهم وما أشبه ذلك، هذا أعظم في الذم وأقبح، ولا يليق بطالب العلم أن يصير بهذه المنزلة؛ ولهذا قالوا عن الفقيه الذي يتردد على أبواب الأغنياء: لص، فإذا رأيت الفقيه يتردد على أبواب الأغنياء فمعنى ذلك أنه لص، يعني هو لماذا يتردد على أبوابهم؟ من أجل دنياهم، لماذا لا يتردد على أبواب الضعفاء والفقراء؟ فهذا أسوأ الحالات، ودونه أن يكون من أجل أن الله ينفع بهم، لكن لا يكون على حساب المحتاجين للعلم، وإلى آخره، فقد تجد أحياناً طالب العلم لربما يكثر من مجالسة هؤلاء الذين هم أزهد ما

يكونون بالعلم الذي عنده، ويكون الحديث كله أحياناً في قضايا بعيدة عن العلم، أو يتقصد أن يأتي لهم بأشياء من المُلَح مما يطيب لهم من الشهوتين، لعلهم يعجبهم كلامه ويضحكون ويأنسون، ويأتي لهم بنوادر ولطائف وحكايات وأشياء جميلة، سواءً من كتب الأدب أو من غيرها فيطربون لذلك ويأنسون به، ويعجبون به وبمجالسه، ويبحثون عنه في أوقات سمرهم، فإن المجلس لا يطيب ولا يعلو الضحك إلا إذا حضر، فإنه يأتيهم بأشياء ما عرفوها ولا اطلعوا عليها من بطون الكتب، وهذا قبيح، لا يليق أبداً بطالب العلم، قد يكون طالب العلم يعتذر من طلاب العلم، لا يجلس لهم ولا بأدنى ما يمكن بأن يقدم ساعة في الأسبوع، بينما الأوقات مصروفة لغيرهم من أمثال هؤلاء أهل الدنيا في كل يوم، كل يوم مجلس لا يتحدث فيه عن العلم، وإنما يتحدث فيه عن أمور أخرى، ولا يخرج فيه الإنسان إلا بقلب قاسٍ ونفس مظلمة.

هذا غير صحيح، العلم يبذل لمن يحرص عليه، ومن يرغب فيه، وعظم الرغبة يكون سبباً للمزيد منه، وإنما يقدم الإنسان لنفسه، وينبغي أن يعلم الناس لا سيما هؤلاء الذين في المدارس، والجامعات وما أشبه ذلك أنهم هم الصورة التي تنعكس على من يعلمهم، فإذا لم ير فيهم الرغبة فإن نفسه تنقبض من بذل شيء يذكر؛ لأنه لا يرى المحل القابل، وفي مجالس العلم في المساجد قد يأتي من الراغبين لكن قد تبدو بعض المظاهر التي تدل أحياناً على انصراف، مكالمة في الجوال أثناء الدرس، أو النوم، وما أشبه ذلك، فكأن الإنسان جالس يتحدث لمن؟، هذا الكلام يصرف لمن؟، هذه الأنفاس تصرف لمن؟ فينبغي أن يكون الإنسان في غاية الحرص والإقبال والاستفادة، ولا يظهر منه شيء يدل على انشغاله أو زهده أو انصرافه فيكون ذلك سبباً لانتفاعه من الجهتين، يصغي لما يسمع، ويكون ذلك باعثاً للإفادة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١] أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من شريفهم ووضيعهم.

وقال قتادة والسدي: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} يعني: القرآن.

قوله: {كَلَّا} يعني: ما الأمر كما تفعل، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، {إِنَّهَا} الضمير يرجع إلى ماذا؟ بعضهم يقول: إلى الآيات المذكورة هذه، وبعضهم يقول: السورة، كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، يقول: أو الوصية بالمساواة بين الناس، يعني: مضمون الآيات.

وقول قتادة والسدي: يعني القرآن، لا شك أن القرآن كله تذكرة وموعظة، لكن هنا الإشارة إلى شيء مذكور كأنه قريب العهد، فهذا الذي ذكر في هذه السورة أو في هذه الآيات تذكرة، يحصل بها التذكير والتذكر.

{فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢] أي: فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره.

{فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} أي ذكر ربه، ذكر الله.

ويحتمل عود الضمير إلى الوحي؛ لدلالة الكلام عليه.

ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يقول: {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} أي: ذكر تنزيل الله ووحيه، وبعضهم يقول: هذه تذكرة فمن رغب فيها اتعظ بها وعمل بموجبها، {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ}، اتعظ بمضامينه وهداياته، واعتبر بما فيه من العبر، فإن هذا القرآن ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢]، من شاء اتعظ واعتبر بما فيه وانتفع.

وقوله تعالى: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} [عبس:١٣-١٤] أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} أي: معظمة موقرة.

هذه التذكرة في صحف مكرمة؛ ولهذا قال: هذه السورة أو العظة، وهما متلازمان، {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} أي: معظمة، والكريم هو الشريف من جنسه، يقال له كريم، تقول: هذا نبات كريم، وهذا كلام وقول كريم، وهذا جوهر كريم، وهذا رجل كريم، وهذا شهر كريم.

فهذه الصحف معظمة، مرفوعة، عالية القدر، الرفع هنا يشمل الأمرين يعني قال: عالية القدر والذكر {مَّرْفُوعَةٍ} [عبس: ١٤]، لا تصل إليها الشياطين، ولا تتنزل بها.

{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} ابن جرير يقول: اللوح المحفوظ، وبعضهم يقول: الصحف التي في أيدي الملائكة؛ لأنه قال: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس : ١٣ - ١٥]، والسفرة: هم الرسل السفراء بين الله -عز وجل- وخلقه، حملة الرسالات، {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحـج: ٧٥]، فالملائكة فيهم رسل، ولهم مهام متنوعة، من هؤلاء الملائكة من يكونون سفراء، قال - صلى الله عليه وسلم -: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة))[٢]، فلما كان مشتغلاً بالوحي ماهراً به صار مع هؤلاء مرافقاً، وصارت مرتبته عالية، وهو أعظم وأرفع من ذاك الذي يتتعتع فيه فله أجران، لكن المزية لا تقتضي الأفضلية، ذاك مرتبته أعلى وأعظم.

ابن جرير يقول: اللوح المحفوظ، والله -عز وجل- أخبر عن القرآن بأنه في لوح محفوظ، لا شك أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، ولكن القرآن أيضاً له تنزلات أخرى، نزل في اللوح المحفوظ، ونزل في بيت العزة من سماء الدنيا، وهو صحف بأيدي الملائكة، كأن الآية هنا تشير إلى ذلك، مع أنه يحتمل أن يكون اللوح المحفوظ، لكن لما قال الله -عز وجل-: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٥-١٦] دل على أن المقصود الصحف التي بأيدي الرسل الذين ينزلون بالوحي ويبلغون رسالات الله -عز وجل- إلى من شاء من البشر، جبريل -صلى الله عليه وسلم.

{فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ} [عبس: ١٣] ليس المقصود به أنه هذا المصحف الذي بأيدينا، وكذلك في قوله: {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٨-٧٩]، هناك الكتاب المكنون المقصود به اللوح المحفوظ، {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩] يعني: الملائكة، لكن يؤخذ من هذا الموضع، يؤخذ من هذه الآية أنه إذا كان في صحف مكرمة فينبغي أن يكرم هذا القرآن الذي بين أيدينا، فلا يوضع في مقام، أو في مكان يمتهن فيه، ولا يكون التعامل معه بحيث يصير إلى حال من الامتهان، فبعض الناس يجعل المصحف مثلاً صندوقاً أو بوقاً، بوقاً كأنْ يثنيه إذا كان جزءاً، يجعله كالبوق، أو يجعله صندوقاً يضع فيه أشياء، أوراقاً، يضع فيه ملفاً، يضع فيه أشياء، هذا خطأ، أو يضع المصحف حيث يمتهن، وللأسف هذا كثير اليوم، انظر عندما تذهب لتصلي في الحرم مثلاً، تجد بعض الناس أحياناً يضع نعليه فوق بعض ويضع المصحف فوقها، أو يضع المصحف على الأرض وهو يعلم أن المارة كثير، هذا يضربه برجله، وهذا يطوه دون أن يشعر، وهذا يقفز

---

[٢] - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً} [النبأ: ١٨]: زمراً (١٦٦/٦)، رقم (٤٩٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه (٥٤٩/١)، رقم (٧٩٨).

فوقه، ويعلم أن الذين يمرون كثير وأنه سيكون عرضة لكل ذلك، بل رأيت بعض من يدخل مستعجلاً في بعض المساجد حتى يدرك الدرس، ويضع كتبه بما فيها التفسير في دروج الأحذية، هكذا يتعامل مع العلم وكتب العلم، عند الأقدام، هذا ما يليق، فإذا كان هذا القرآن الله سماه كريماً وعزيزاً وصفه بالعزيز والكريم، فينبغي أن يكون التعامل معه بإكرام.

وإذا كان الذي في السماء {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩]، فينبغي أن يكون هذا الذي بين أيدينا لا يمسه أيضا إلا المطهرون، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وذكره ابن القيم، وسيأتي -إن شاء الله- في تطبيقات التدبر، في قسم منه اسمه التفسير الإشاري، في الأنواع الصحيحة من التفسير الإشاري وهي قليلة جداً، هذا منها، ما ذكره العلماء هنا {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} الذين فسروا الكتاب المكنون باللوح المحفوظ قالوا: ويؤخذ منه إذا كان الذي في السماء، إذا كان اللوح المحفوظ، إذا كان لا يسمه إلا المطهرون فينبغي أن يكون هذا أيضاً كذلك، هذا اسمه التفسير الإشاري، يعني: من باب أن الشيء بالشيء يذكر، أو من باب الاعتبار، أو أشبه ما يكون بالقياس أو نحو ذلك، يعني لا يخضع لقاعدة من قواعد الاستنباط المعروفة بطرق الاستدلال.

وإذا كان القرآن {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس : ١٣ - ١٦]، فينبغي لحملة القرآن أن يكونوا كراماً بررة، هذا وصف الذين في السماء، فينبغي أن يكون حملة القرآن، وأن يكون المشتغلون بالقرآن، وأن يكون الحفاظ والقراء، والمعلمون كذلك، أن يتخلقوا بهذه الأخلاق، والآجري -رحمه الله- تكلم بكلام شديد على الذين يكونون من حملة القرآن، ولكنهم لهم ممارسات وسلوكيات لا تتفق مع ما يحملون، فذكر الإقبال على إقراء الأغنياء، والكبراء، والإعراض عن الفقراء، وكيف إذا جاءه ضعيف فقير زجره ونهره، وإذا جاء غني أكرمه، وذكر التكسب بالدنيا، وطلب الدنيا بالقرآن، وما أشبه ذلك، هذه الأشياء يعني ينبغي أن تكون حاضرة، حامل القرآن من أعز الناس نفساً، لا يمد يده.

رأيت مرة رجلاً يحمل مؤهلاً من أعلى المؤهلات، ويقول: أنا متفرغ لتعليم القرآن في بلدي، فقلت له: وأين تعمل؟ قال: ما أعمل، ويحمل دكتوراه، يقول: أنا فقط متفرغ لتدريس القرآن، قلت: ومن أين تكتسب؟ قال: الطلاب بعدما يخرجون من الحلقة يذهبون في الطرقات ويسألون الناس، ثم يعطونني، قلت: يعني أنت تأخذ أوساخ الأوساخ، كيف تأخذ هذا الذي يسألونه ويعطونك إياه؟! قال: نعم، من أين نأكل؟ قلت: تعمل بيدك وتشتغل، قال: هكذا أدركنا الناس منذ قرون في بلدنا، قلت: بئس ما أدركتموهم عليه، تربون هؤلاء حملة القرآن على الشحاذة، والسؤال، ثم يعطونك هذا؟ فهذا لا يورث إلا المهانة والذل؛ ولذلك المفترض أن حامل القرآن يكون من أعز الناس وله هيبة، وتجد الوجه المشرق، وتجد أنوار القرآن عليه، لكن لماذا هذه المهانة أحياناً تحصل لدى بعض الناس ممن يحمل القرآن، مع أنه كتاب عزيز؟، السبب هو هذه الممارسات، ومن قديم كان في بعض البلدان قراء كبار أحياناً تجدهم يذهبون للمآتم وغيرها يقرءون من أجل أن يأخذوا الأموال، ويحضرون في حفلات وفي مجالس كبراء وكذا، يقرءون ويأخذون الأموال، ورأيتهم في المسجد الحرام قبل حوالي ثلاثين سنة، يصفّون صفوفاً، عُميان ويقرءون قراءة من أجمل ما يكون، يقرءون قراءة مع بعض، كل واحد يقرأ لوحده، جالسون وكل واحد مادٌّ يده عند مداخل الصحن، هكذا يكون القرآن! والموضة

الجديدة الآن لدى بعض القراء يسميها استضافات، يذهب دول غنية، عند هؤلاء خمسة أيام، وعند هؤلاء ثلاثة أيام، وعند هؤلاء أسبوع، وهذا يعطيه كذا، وهؤلاء يعطونه كذا، وهؤلاء يعطونه كذا، وهو مشغول طول الشهر، والآن أيضاً أثناء السنة، أربعاء وخميس وجمعة، أنا أرى أن لا يُصلى خلف هؤلاء، أنا لا أصلي خلفهم؛ لأن هذا متكسب بالقرآن، يتكلف ويتصنع من أجل الدنيا، وطلب المال، سواء حدّد أو لم يحدد، هو ما جاء إلا من أجل هذا، نسأل الله العافية والهداية للجميع.

انتهى الوقت.

{مَرْفُوعَةٍ} أي: عالية القدر، {مُطَهَّرَةٍ} أي: من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة.

السفرة جمع سافر؛ لأنهم يُسفِرون ويَسفرون بالوحي، هكذا يقول أهل اللغة، وذكر هذا ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم قال كمجاهد: هم الملائكة الكاتبون لأعمال العباد، لكن هذا يتعلق بالوحي فهذا فيه بُعد، وقال البخاري: سفرة: الملائكة، يقال: سفرتْ يعني: أصلحتْ بينهم، جُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، والسفراء هم الواسطة بين هؤلاء وهؤلاء، الذي يصلح بين الناس ونحو ذلك يقال له سفير، فهؤلاء سفرة يسفرون بالوحي، الملائكة -عليهم الصلاة والسلام.

وقال البخاري: سَفَرَةٌ: الملائكة، سَفرتْ: أصلحتْ بينهم، وجُعلت الملائكةُ إذا نزلت بوَحْي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم.

وقوله تعالى: {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦] **أي: خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.**

روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران)) [٣]**. أخرجه الجماعة.**

---

٣ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} [النبأ: ١٨]: زمرا (١٦٦/٦)، رقم: (٤٩٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه (٥٤٩/١)، رقم (٧٩٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (٣١) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

يقول الله -تبارك وتعالى- معاتباً نبيه -صلى الله عليه وسلم- حينما جاءه ابن أم مكتوم وهو مشتغل بدعوة كبراء قريش إلى الإسلام: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس: ١] كلح وقطّب بوجهه وأعرض عن الأعمى، {أَن جَاءهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢]، فعل ذلك لأنْ جاءه الأعمى وهو في هذه الحال وبهذا الاشتغال، {وَمَا يُدْرِيكَ} [عبس: ٣] وما يشعرك، وما يعلمك لعله ينتفع، وتحصل له تزكية بالإيمان والعمل الصالح، أو تحصل له ذكرى فيتعظ ويعتبر.

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى} [عبس: ٥] استغنى بما في يده من المال، واستغنى بجاهه، واستغنى عن دعوتك، واستغنى عن الهدى الذي تحمله وتدعو الناس إليه، {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٦] تقبل عليه وتصغي إليه وهو زاهد فيما عندك.

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧] وما يلحقك وما يضيرك؟، أيّ شيء عليك ألا يسلم وألا يهتدي؟، {وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى} [عبس: ٨] جاء وهو مُجد مجتهد في غاية الحرص يريد أن ينتفع ويستمع، {وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٩] والخشية هي خوف مع علم بالمخوف منه، فهي خوف خاص، وهذا كله يشعر بأن ابن أم مكتوم -رضي الله عنه- في ذلك الوقت كان مسلماً، وصفه بأنه من أهل الخشية، {فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١٠] تتشاغل عنه، تنصرف عنه، {كَلَّا} ليس الأمر كما صنعت، {إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١] هذه الآيات، هذه السورة تذكرة، {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢] فمن شاء تذكر واعتبر وانتفع بمضامينها، أو من شاء تذكر ربه -تبارك وتعالى- فخافه ورجاه، وأقبل عليه.

{فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ} [عبس: ١٣] هذه السورة، وهذه الآيات ولا شك أنها في اللوح المحفوظ، والصحف المكرمة هنا يمكن أن تكون أيضاً الصحف التي في أيدي الملائكة، هذه الصحف مكرمة لا ينالها رجس ولا دنس، ولهذا وصفها بأنها: {مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ} [عبس: ١٤]، فهي لا تنالها أيدي العابثين، ولا تصل إليها الشياطين، مرفوعة، وهي أيضاً مطهرة من كل دنس.

{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس: ١٥] وهم هؤلاء الملائكة السفراء بين الله -تبارك وتعالى- ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦] هم متصفون بذلك، والكريم هو كل شريف من جنسه، وهم أيضاً بررة، يعني أنهم في صفاتهم في غاية الطهارة والكمال والبر.

قال – تبارك وتعالى -: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}. [عبس: ١٧-٣٢].

يقول تعالى ذامًّا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: {قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧] قال الضحاك عن ابن عباس: {قُتِلَ الإنْسَانُ} لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك، وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم.

يعني هنا أمران، الأمر الأول: وهو المراد بقوله: {قُتِلَ}، والأمر الثاني: المراد بالإنسان، فقوله: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧] نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لعن الإنسان.

وظاهر لفظ {قُتِلَ} أنه دعاء عليه بالقتل، وتفسيره باللعن كأنه تفسير بالمعنى، يعني بمعنى أنه إذا دُعي عليه بمثل هذا فهذا يقتضي طرده وإبعاده من رحمة الله -تبارك وتعالى-؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، ففسر بـــ "لُعن" باعتبار أن هذا من لازمه، هذا معنى "قُتل".

والإنسان هنا هو جنس الإنسان المكذب بالبعث، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

وأما الآيات الأخرى كقوله -تبارك وتعالى-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: ٦]، {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: ١٩]، وما أشبه ذلك فهذا في جنس الإنسان، فإذا هُذبت نفسه بالتقوى والإيمان ارتفع ذلك بحسب ما لابسه من الإيمان والتقوى، فيحصل له التهذيب بحسب حاله وإيمانه، لكن جنس الإنسان من طبيعته أنه يطغى إذا حصل له الغنى، جنس الإنسان أنه بهذه الصفة، {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ١٩-٢١]، ولهذا قال: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج: ٢٢].

{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢]، هذا في جنس الإنسان إلا من استثني {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

قال ابن جريج {مَا أَكْفَرَهُ} [عبس:١٧] ما أشد كفره.

وقال قتادة: {مَا أَكْفَرَهُ} ما ألعنه.

"ما" يحتمل أن تكون استفهامية، والمعنى يتغير، ما الذي جعله كذلك وقد أحسن الله إليه؟ ما الذي حمله على ذلك وقد أعطاه الله وأولاه؟ ويحتمل أن تكون تعجبية، يعني: ما أشد كفره، ما أعظم كفره!.

ثم بيّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٨-١٩] أي: قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد.

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٨-١٩]، يعني: يتكبر ويتعاظم على أي شيء؟

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} قدَّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد، وهذا المعنى صحيح يدل عليه حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- لما ذكر بعْثَ الملَك إليه إذا كان له أربعة أشهر، فيؤمر بأربع كلمات[1]، فهذا من جملة التقدير، وبعضهم يقول: {فَقَدَّرَهُ} أي: فسواه وهيأه لمصالح نفسه، وهذا داخل في جملة التقدير، فخلق له اليدين، والرجلين، والعينين، وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: المقصود بالتقدير {خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} يعني: أطواراً، وكل هذا داخل في التقدير، فالله -تبارك وتعالى- أطلق في هذا الموضع، {خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}، قدّر كل ما يتعلق به، هيئته وصورته وأطواره وأجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد.

١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (١١١/٤)، رقم: (٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٣٨/٤)، رقم: (٢٦٤٦).

والخلق يأتي بمعنى التقدير كما مضى عند تفسير قوله تعالى: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر: ٢٤]، الخلق بمعنى الإيجاد، لكن يأتي بمعنى التقدير، فالخالق في سورة الحشر يعني: المقدِّر؛ لأنه ذكر بعده البارئ، فالبارئ هو الموجد من العدم، والمصور أعطاه هيئة وصورة تليق به، فهذه ثلاثة معانٍ كلها داخلة في الخلق، ولكن لما ذكر الله هذه الأسماء الثلاثة من أجل أن لا يكون ذلك من قبيل التكرار في المعنى صار لكل منها معنى، فالخالق بمعنى المقدر، والبارئ الموجد من العدم، والمصور أعطاه الصورة الظاهرة، والتصوير يأتي بمعنى الخلق، كقوله تعالى: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [المائدة:١١٠].

والله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} [الانفطار:٧-٨]، فهذا كله داخل في الخلق.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [عبس: ٢٠] قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}، ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه؛ لأن السياق من أوله يذكر خلق الإنسان، فحينما يكون الإنسان نطفة يكون خروجه سهلاً، فالمرأة لا تشعر بخروج النطفة، بل إن ذلك يخرج منها عادة بعد الجماع، وإنما يبقى ما يحصل به تلقيح البويضة، وكذلك لما يكون علقة، لكن حينما يُنشئه الله خلقاً آخر -وقد يكون أكثر من ولد- إذا حان موعد خروجه انقلب بإذن الله، فصار رأسه إلى أسفل، ويتهيأ للخروج، ثم يخرج بعد ذلك بالطريقة التي يسرها الله -عز وجل.

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٩]، فجاء بالفاء في التقدير، والفاء للتعقيب المباشر، وفي قوله: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} جاء بـــ "ثم" التي تدل على التعقيب مع التراخي، فالجنين يجلس تسعة أشهر في بطن أمه.

وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣] أي: بيّناه له ووضحناه وسهلنا عليه عمله، وهكذا قال الحسن، وابن زيد، وهذا هو الأرجح والله أعلم.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} كقوله: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]، وقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} وهذا هو القول الثاني، فالسبيل -تذكر وتؤنث- بمعنى الطريق، طريق الهداية أو طريق الغواية، بيّن له الخير والشر، أرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، فبعدما خلقه وقدره قال: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} بيّن له طريق الهدى، وطريق الغواية، فهذه بمعنى هداية الإرشاد، وفي بعض المواضع قد يراد بها هداية التوفيق، يعني ما يتصل بخلق الإنسان وهدايته.

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] أي: إنه بعد خلقه له {أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] أي: جعله ذا قبر، والعرب تقول: "قبرتُ الرجل" إذا وَلِيَ ذلك منه.

هذا كلام العرب، ذكره الفرّاء وذكره ابن جرير -رحمه الله-، كثيراً ما ينقل عن الفرّاء، قد يسميه وقد لا يسميه، كما ينقل البخاري -رحمه الله- في تراجم الأبواب كثيراً معاني الغريب هذه، غير مرويات علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وأقبره الله.

يعني هنا الفرق بين قَبَره وأقبره، ومعنى وأقبره: جعله ذا قبر، وليس معناه قبره، تقول العرب: قبرتُ الرجل إذا وَلِيَ ذلك منه، يعني: إذا قام هو بدفنه بقبره، وأقبره الله: يعني جعله ذا قبر.

وعضبتُ قرن الثور، وأعضبه الله، وبترتُ ذَنَبَ البعير وأبتره الله، وطردتُ عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً.

أعضبتُ قرنه يعني: كسرت قرنه، وأعضبه جعله أعضبَ، وبترتُ ذنب البعير وأبتره الله، يعني: جعله أبترَ.

هذا الفرق بين قبره وأقبره، {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] يعني: جعله ذا قبر، المراد الامتنان عليه بأن الله تصرف في خلقه بهذه الأطوار، وأيضاً إكراماً له بعد الموت جعله ذا قبر، فدفن الميت لا شك أنه إكرام له، تصور لو أن الناس إذا ماتوا أُخذ الواحد ورُمي في المزبلة، فهذا فيه غاية الامتهان، وفيه أذى له ولأهله، لو كان هكذا ما في دفن -قبر-، لكن يؤخذ ويغسل ويكفن ويصلى عليه، ويذهب معه الناس يشيعونه، ولهم أعظم الأجور في ذلك، في صلاتهم وفي تشييعهم، ثم بعد ذلك يتسارعون في دفنه، وهم أيضاً يؤجرون على هذا، ويقفون على القبر يستغفرون له، فهذا في غاية الإكرام، لكن لو أن الإنسان يؤخذ ويرمى إذا مات فهذا خلاف الإكرام، والله -تبارك وتعالى- قد أنعم على هذا الإنسان بهذه النعم المتوالية ابتداءً وانتهاءً، فعلى أي شيء يكفر؟ ما الموجب للكفر؟ لماذا يتمرد على ربه -تبارك وتعالى-، ويعرض عن الإيمان؟

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ} [عبس: ٢٢] أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠]، {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً} [البقرة: ٢٥٩].

في الصحيحين من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة: ((كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلق وفيه يُركَّب))[٢].

عجبُ الذَّنب معروف هو آخر ما يكون في العمود الفقري، في آخره.

وقوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] قال ابن جرير: يقول -جل ثناؤه-: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، {لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس:٢٣] يقول: لم يُؤدِ ما فُرض عليه من الفرائض لربه -عز وجل.

والذي يقع لي في معنى ذلك -والله أعلم- أن المعنى: {ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ} [عبس: ٢٢] أي: بعثه، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدَر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجدُ منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} يعني: أن الله -تبارك وتعالى- لن يبعثه الآن، {ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ} بعثه من قبره، لكن يقول: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أنه سيوجد، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}، لم يحصل، لم يتحقق بعد ما

٢- أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} [النبأ: ١٨]: زمرا (٦/١٦٥)، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين (٤/٢٢٧٠)، رقم (٢٩٥٥).

قدّره الله -عز وجل- مما سيكون ويقع، فلابد من استتمام ذلك، هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الإنسان، وبعضهم يقول: إن ذلك للعموم.

{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] يعني: فعل الله به هذه النعم، وأولاه، وخلقه، وحباه، وأعطاه، وأكرمه، ولم يفِ بحق الله -عز وجل- عليه، ولم يأتِ بالعبودية على الوجه الأكمل، وإنما هو ذو تقصير، هذا إذا حُمل على جنس الإنسان المؤمن والكافر، وإذا قيل: هذا في الكافر، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} لم يحقق أمر الله، ولم يمتثل لإيمان فبقي على الكفر، والمعنى الذي ذكره ابن كثير يختلف عن هذا.

وقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤] فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً.

هذه دلائل للبعث، {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤]، وما قبله كذلك: الذي خلقه من نطفه، ثم صار بهذه الهيئة، هذا الإنسان الذي يتصف بهذه الأوصاف من العلم والعقل، ويمشي ويتحرك ويذهب، هذا كله دليل قدرة الله -عز وجل- على البعث.

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [عبس: ٢٥] أي: أنزلناه من السماء على الأرض.

قال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}، فيكون هذا كأنه بدل من الذي قبله، بدل من الطعام، {فلينظر الإنسان إلى طعامه}، فالمطر ينزل، ثم تنشق الأرض عن النبات، ثم ينبت هذا النبات حتى يستتم، ثم بعد ذلك يكون منه الحب أو نحو ذلك، أو الثمر، حتى يصل إلى الإنسان بهذه العملية المركبة..

{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [عبس: ٢٦] أي: أسكناه فيها فدخل في تُخُومها، وتَخَلَّل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض.

انظر حينما يكون النبات داخل الأرض، قال تعالى: {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [فصلت:٣٩] فالنبات في البداية يكون داخل الأرض، ثم بعد ذلك تنتفخ الأرض بالنبات، ثم تنشق الأرض عن مسمار النبات، ضئيلاً ضعيفاً ثم ما يلبث أن يستتم، حتى بعد ذلك يصير منه الحب، سواء فيما يضعه الإنسان من البذور أو كان ذلك مما أودعه الله -عز وجل- في التربة.

فالتربة تحتفظ بالبذور مثل النباتات الصحراوية، فإذا ما نزل المطر خرجت النباتات والأزهار.

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [عبس:٢٧-٢٨] فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو: الفِصْفِصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القَتّ أيضا.

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} [عبس: ٢٧] جميع أنواع الحبوب، البر والشعير والأرز وغيره، "حبـا"، {وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [عبس: ٢٨]، القضب: الفِصفِصة -بالكسر- التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القت أيضاً، ويقال: إنه يقال لها ذلك إذا يبست، وبعضهم يقول: القت هو الرطب، "قضباً" يقضب مرة بعد مرة، فسمي بالقضب الذي هو القطع، فكأنه لتكرر قطعه يقضب، فقيل له: قضب، كأن نفس القضب القطع، سُمي قضبا.

وهو نوع من النبات الذي تأكله البهائم؛ لأنه يُقضب مرة بعد مرة، يعني يُحصد أو يُحَش، ثم يظهر مرة ثانية، ويقال له: القت في نجد وهي لغة عربية فصحى، ويقال له في الحجاز: القضب، هذا يصدق على البرسيم، وهي من أنواع النبات كلما قُضب -قطع- يرجع من جديد، يجلس سنوات، فيكون علفاً لهذه الدواب.

ويقال لها: القتّ أيضاً، قال ذلك ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

يعني أن الخليل الفراهيدي يقول: يقال لها القت إذا كانت يابسة، الفِصفِصة رطبة، والقت يابس.

وقال الحسن البصري: القضب العلف.

هذا تفسير له بالمعنى، أصل القضب القطع فأطلق على هذا النوع من النبات الذي يُقطع مرة بعد مرة ثم يرجع.

{وَزَيْتُونًا} [عبس: ٢٩] وهو معروف، وهو أدْمٌ، وعصيره أدْمٌ، ويستصبح به، ويدهن به.

يعني يستفاد من زيته في إيقاد السُّرُج، {زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} [النور:٣٥].

{وَنَخْلًا} [عبس: ٢٩] يؤكل بلحاً بسراً، ورطباً، وتمراً، ونيئاً، ومطبوخاً، ويعتصر منه رُبٌّ وخل.

الرُّب: عصارة التمر المطبوخة، يقال لها: رُب، فالتمر يعمل منه أشياء كثيرة جداً، أو ثمر النخيل على اختلاف مراحله يعمل منه أشياء كثيرة جداً من العصير وغير ذلك من الأشياء التي يعرفها الناس، وتوجد كتب خاصة في هذا فيما يمكن أن يستخرج من هذا الثمر ويعمل منه، والآن تعمل أشياء كثيرة تركب من هذا الثمر، مما يكون من قبيل الحلوى أو غير ذلك.

{وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [عبس: ٣٠] أي: بساتين، قال الحسن وقتادة: {غُلْباً} نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس، ومجاهد: كل ما التف واجتمع.

{وَحَدَائِقَ} الحدائق هي البساتين التي عليها سور أو حائط يحدق بها، قال الحسن وقتادة: {غُلْباً} نخل غلاظ كرام، هذا ذكره جماعة من السلف، وأصل هذه المادة يدل على الشدة والغِلَظ، يقال: فلان أغلب الرقبة، يعني: أن رقبته عريضة، فهنا قال: نخل غلاظ كرام، كأنه من قبيل التفسير بالمثال؛ لأن الله قال: {وَحَدَائِقَ} والحدائق تضم أنواع الأشجار بما فيها النخيل، فهذه النخيل الغلاظ الكرام أدل على العظمة ولا شك أن هذا يعتبر أجود وأكمل في حال النخل إذا كان الجذع غليظاً، بخلاف الجذع الدقيق، فإن هذا يكون لضعف النخلة غالباً، أما الجذع الغليظ فهذا إذا كانت تُسمد بصورة منتظمة، وتسقى بصورة منتظمة، فإن جذوعها تكون عريضة، هذه كرام النخل.

وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: "غلبا" كل ما التف واجتمع، وروي عن ابن عباس أنه قال: طوالاً، والله تعالى يقول: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} [ق: ١٠]، فذكر لها ثلاثة أوصاف، وقال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [الأنعام: ٩٩] يعني: قريبة، لا تحتاج إلى تسلق حتى يجنى منها الثمر، ويبحث عن أحد يصعد، ولربما فسد فيها التمر في أعلاها، والعالية يكون ثمرها أضعف من الدانية؛ لأن الماء لا يصل إليها مثل ما يصل إلى الدانية، فالامتنان بالدانية أعظم، لكن في المقام الآخر في سورة (ق) قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}، فلكل مقام مقال، ففي مقام الامتنان على العباد امتن عليهم بالقريبة، يجنونها من غير تعب، الطفل يجنيها وهو جالس، وفي مقام العظمة -عظمة الخلق- ذكر الطوال، فأخرج الله بهذا المطر هذه النخيل التي تراها باسقة طويلة.

ورواية ابن عباس {غُلْباً} أي طوالاً يكمن أن يجمع بينها وبين كلام أهل العلم، وهي أنها عريــضة الأصــول طويلة، وهذا أوقع في نفس السامع، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (٣١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [سورة عبس:١٧]، يقول الله -تبارك وتعالى- عن هذا الإنسان المكذب: {قُتِلَ الْإِنسَانُ} دعاء عليه، وذلك بمعنى اللعن، {مَا أَكْفَرَهُ}، ما أشد كفره مع ظهور ووضوح دلائل وحدانية الله -عز وجل- وقدرته على بعث الأجسام، أو قُتل الإنسان ما الذي أكفره مع ظهور ما سبق؟، ثم لفت نظره إلى ذلك فقال: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [سورة عبس:١٨] ما مبدؤه، ما مادته التي خلق منها؟ {مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [سورة عبس:١٩]، هذه النطفة اليسيرة، قطرة من الماء المهين خلقه الله -تبارك وتعالى- منها، {فَقَدَّرَهُ} جعله أطواراً يصير إلى علقة ثم مضغة ثم بعد ذلك يتحول إلى شيء آخر، وينفخ فيه الروح حتى يستتمّ، ثم إلى الدنيا إلى أن يموت، ثم بعد ذلك يكون في البرزخ ثم يبعث يوم القيامة، وقد قدر الله -عز وجل- عليه رزقه وأجله وعمله، {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [سورة عبس:٢٠]، هداه النجدين، هداه طريق الخير وطريق الشر، أو يسره إلى سبيل الخروج من بطن أمه، {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [سورة عبس:٢١]، بعد ذلك كله يموت، ثم إن الله -تبارك وتعالى- قد أكرم هذا الإنسان فأقبره، جعله ذا قبر، لا يُلقى في العراء بعد الموت فيكون ذلك شيناً فيه ومهانة، {ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ} [سورة عبس:٢٢]، إذا شاء بعثه من جديد كما خلقه من العدم، ثم قال: {كَلَّا} أي: أن ذلك لم يحن بعد {لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [سورة عبس:٢٣]، على قول ابن كثير، حيث بقي مما قدره الله -تبارك وتعالى- مما هو كائن قبل النشور والبعث لابد أن يقع.

وعلى قول الجمهور {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [سورة عبس:٢٣] هذا الكافر لم يحقق ما أمره الله -عز وجل- به من الإيمان، أو أن جنس الإنسان لم يقم بما أوجب الله عليه من وظائف العبودية على الوجه اللائق، فلا يخلو العبد من تقصير.

{فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [سورة عبس:٢٤] هذا الطعام كيف جاء إليه، كيف يصل إليه؟، {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا} [سورة عبس:٢٥]، وفي القراءة الأخرى {إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا}، ينزل المطر منصباً من السماء ثم بعد ذلك تنشق الأرض عن النبات، {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} [سورة عبس:٢٦-٢٧] أنواع الحبوب، {وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [سورة عبس:٢٨] الأعناب، والقضب قلنا: يقال لِمَا يحصد ثم يعود ثانياً من الزرع الذي تأكله الدواب، {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [سورة عبس:٢٩-٣٠] هذه الأشجار ذوات الثمار والحدائق المسوّرة التي تستهوي الناظرين بجمالها وكمالها وجودتها، وامتلاء أشجارها، وضخامة سيقانها، وجذوعها، مع كثرتها وتقاربها والتفاف أغصانها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين، يا رب العالمين.

وقوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [سورة عبس:٣١]، **أما الفاكهة فكل ما يُتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطباً، والأبّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم.**

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التَّيمي قال: سُئِلَ أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً} فقال: أيّ سماء تظلني، وأيّ أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم.

فأما ما رواه ابن جرير عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [سورة عبس:١] **فلما أتي على هذه الآية: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأبّ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف، فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلا * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً}** [سورة عبس:٢٧-٣١].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَفَاكِهَةً} الفاكهة معروفة، وأما الأبّ فهنا يقول: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، وأصل المادة يدل على الرجوع، على العوْد، أصل المادة، تقول: آب يئوب، والأوْب، وما إلى ذلك، كل هذا يرجع إلى معنى الرجوع، فالأبّ يقول في رواية: الحشيش للبهائم، رواية عن ابن عباس، الأول قال: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، والرواية الأخرى: الحشيش للبهائم، وهما بمعنى واحد، مع أن الضحاك قال ما هو أعم من هذا، قال: كل ما ينبت على وجه الأرض فهو الأبّ، والله قال: {مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [سورة عبس:٣٢]، فهذا يُشعر -والله أعلم- أن ما ذكر منه ما يكون للناس، ومنه ما يكون للدواب والأنعام، فالحدائق والأعناب والفواكه وما إلى ذلك هذا للناس، وأما الأبّ فهو لدوابهم وبهائمهم، -والله تعالى أعلم-، وأما تحرج أبي بكر -رضي الله عنه- وكذلك ما جاء عن عمر فهذا كما قال ابن كثير -رحمه الله-: كأنه –يعني عمر– أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه. يعني: عين النبات، نبات معين اسمه الأبّ، لكن حينما يقال: الأبّ هو نبات، هذا لا إشكال فيه، أو يقال: ما تأكله الدواب والبهائم، هذا لا إشكال فيه، لكن هل هو نبت بعينه يقال له: الأبّ؟، هذا الذي وقع فيه التحرج، ومثل هذه المرويات عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- تارة لكونه لم يبلغه المعنى، لم يظهر له المعنى، وتارة يفعل ذلك تورعاً، يعني ما جاء عنهم من التوقف أو التحرز في بعض المعاني أو نحو ذلك يكون على سبيل التورع، يتهيبون، الأصمعي إمام في اللغة، والمفردة التي جاءت في القرآن كان لا يجيب فيها ويقول: هذا مما جاء في القرآن؛ لشدة تحرزه، مع حذقه وعلمه وإمامته، والله المستعان.

قال: وعن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: الأبّ للبهائم كالفاكهة لبني آدم.

وقوله تعالى: {مَتَاعاً لَكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ} أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

يعني تتمتعون به في هذه الحياة إلى أن يأذن الله -عز وجل- بانقضائها.

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس:٣٣-٤٢].

قال ابن عباس: {الصَّاخَّةُ} اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحَذّره عباده، قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور، وقال البَغَويّ: {الصَّاخَّةُ} يعني صيحة القيامة؛ سميت بذلك؛ لأنها تَصُخّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصمّها.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} "إذا" هذه ما جوابها؟ بعضهم يقول: الجواب محذوف، ولكنه يفهم من قوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، إذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه؛ لشدة الهول وعظم المصاب.

يقول: {الصَّاخَّةُ} قال ابن عباس: اسم من أسماء القيامة، وقال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور، فيقال لها: الصاخة باعتبار أن ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الصوت هو الصاخّ، فهذه النفخة صاخة، صخ أذنه يعني: الصوت الشديد، بهذا الاعتبار؛ ولهذا يقول البغوي: الصاخة يعني صيحة يوم القيامة، وهذا بمعنى ما سبق، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في الإسماع حتى تكاد تصمها، يعني: أنها صوت شديد يصدم الأسماع، فيقال: صخّ هذا الصوتُ الأسماع، صخ الآذانَ لشدة وقعه عليها، كاد أن يصمها، والأذن فيها جزء خلفها يقال له القوقعة لها مثل الخيوط المتدلية، هذه الخيوط إذا جاء الصوت يصدمها فيسمع الإنسان، فإذا جاء ما يصخ سمعه أتلف هذه الخيوط المتدلية، ثم بعد ذلك أتلف السمع، أي الأصوات القوية جداً؛ ولذلك تجد الناس الذين يعملون أحياناً على سماعات أوقاتاً طويلة قد يذهب سمعهم، والسبب أن هذه تتضرر فتتلف، فإذا جاء الصوت لم يعد هناك ما يصطدم به فيترجم عن هذا الصوت فيسمعه.

هذا معروف عند العرب، من شدة الصوت تصخ الآذان، وقد تُذهب السمع بالكلية، وأصلها من الصك الشديد، الصاخة: الصك الشديد، صخّه بكذا.

ولهذا {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} أي: يراهم، ويفر منهم، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل.

وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: أنه إذا طلب إلى كلٍّ من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: ((نفسي نفسي، لا أسأله اليومَ إلا نفسي)) حتى إن عيسى ابن مريم يقول: ((لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني))[1]؛ ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}.

قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم.

---

١ - هو في الصحيحين لكن ليس بهذا اللفظ، وإنما يقول عيسى -عليه السلام- حين يطلب منه الشفاعة: ((إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبا، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد))، رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٣]، برقم (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

قوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} ليس هذا هو جواب {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}، من جهة الإعراب يحتمل أن يكون بدلاً منه، {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} يعني: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، أو أنه منصوب بمقدر {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} أعني: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}، فيكون تفسيراً للصاخة، أو بدلاً منها، لكن يكون الجواب مقدراً، والله أعلم.

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، يفر من أخيه وأمه وأبيه لماذا؟ {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [سورة عبس:٣٧]، فبعض السلف -واختاره ابن جرير- يقول: يفر منهم؛ لئلا يطالبوه بالحقوق والمظالم، يعني يكون قصّر في حقوقهم، قصر في واجبه نحوهم، فيطالبونه به، فيفر منهم إذا رآهم، وهذا يدل على أنه يفر من غيرهم من باب أولى، فهذا قال به طائفة من السلف، وهو اختيار ابن جرير، ويحتمل غير ذلك، بعضهم يقول: يفر من أخيه وأمه... كراهية أن يروا ما به من الشدة -نسأل الله العافية-؛ لئلا يروه في حال يكرهونها، أو يكره أن يراه الناس عليها، أو لعلمه أنهم لا ينفعونه، ويمكن أن يقال -والله أعلم-: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}؛ لأنه مشغول بنفسه، ليس لديه أي اقتدار على سماع ما بالآخرين أو الشكوى، أو المطالبة بحق، أو المطالبة بحسنة، فهو حينما يراهم يفر منهم؛ لأنه مشغول بنفسه ليس عنده قدرة على نفعهم بشيء، لا يستطيع أن يقدم لهم نافعة، فإذا رآهم فر منهم؛ لئلا يطالبوه بحسنات، أو لئلا يطالبوه بحقوق، كل ذلك وارد، فهو مشغول بنفسه عنهم، فإذا ذكر هؤلاء الذين يسمون الدائرة الأولى في القرابات، القرابة دوائر، فهذه الدائرة رقم واحد، الأصول والفروع، يعني الإخوة والأخوات، الأب والأم، الزوجة والأولاد، الدائرة الأولى، الذين هم أقرب الناس إليه، ومع ذلك يفر منهم، يعني الأخ هو العاضد، يعني الناصر، والأب محل تعظيم وتقدير، والأبناء القلوب بهم أعلق؛ لأنهم بضعة منه، فالقلب يتفرق بين هؤلاء عادة، الإخوة ينتظر منهم العون والنصر، يتقوى بهم، والأب والأم لا يرد لهم طلباً، والأولاد يموت دونهم، ويود لو أنهم لم يطئوا على الأرض؛ لئلا يلحقهم بذلك مشقة، ويوم القيامة: نفسي نفسي، لن يجد أحداً يقف معه، لن يجد معيناً ولا مؤازراً، أقرب الناس إليه، فكيف بالأصدقاء الأصحاب؟!، أما الأشرار فكما قال الله: {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف:٦٧]، فلن يجد من زملاء ومعارف وجيران وقرابات، لن يجد من أحد رفداً ولا عوناً إطلاقاً، وإنما يعتقه أو يوبقه عمله، فاللائق بالإنسان إذا كان الأمر بهذه المثابة أن يبحث عما يحصل به الخلاص في ذلك اليوم، وعما يؤنسه وهو العمل الصالح والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، فإذا كان حظه من ذلك وافراً كانت حاله آنذاك أفضل وأكمل وأطيب، وإذا كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يأتيهم الناس وكل واحد منهم يقول: نفسي نفسي، فكيف بما دون الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟ في الدنيا الناس يتعاونون ويتوانسون، ويتسلى بعضهم بما يقع لبعض من الآلام والعلل والمصائب، وهناك كل أحد يجد أن مصيبته قد انفرد بها واختص بها، لا يشاركه في ذلك أحد، والمقصود أن مثل هذه تدفع الإنسان إلى مراجعة النفس، والتوبة إلى الله -عز وجل-، والجد والاجتهاد، والعمل الصالح، فذلك اليومُ الحق، وما عداه هذه الدنيا بما فيها، كل ما يجري فيها من اللذات والأتعاب إنما هي أحلام نائم سرعان ما تنقشع، وتبقى في النهاية ذكريات، لا يدوم شيء منها على حال، لا أوقات العافية، ولا أوقات المرض والشدة، كل ذلك يزول، ولكن الحياة التي لا تزول هي تلك الحياة التي علة العليل فيها لا تبرأ، ولا

يمكن الإمهال أو الرجوع إلى الدنيا أو إعطاء فرص جديدة، يبقى الإنسان أسيراً من عمله، والأمر قريب جداً، يمكن أن يموت الإنسان الآن وهو في مكانه، ثم يعاين الحقائق ويكون أسيراً لعمله، لا يستطيع أن يتزود، ولا ينفعه ندم، ولا تُرجي توبة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه} أي: **هو في شُغُل شاغل عن غيره.**

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً)) **قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، ننظر أوْ يرى بعضنا عورة بعض؟ قال:** (({لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه})) **أو قال:** ((ما أشغله عن النظر))[٢].

وعن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تُحشَرون حُفاة عُرَاة غُرْلا))، **فقالت امرأة: أيبصر -أو: يرى- بعضنا عورة بعض؟ قال:** ((يا فلانة، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه}))[٣]، **ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.**

{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ} هذا يبين لك لماذا يشتغل كل أحد بنفسه ويفر من أقرب الناس إليه، قال: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه}.

فقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه}، كما يقول ابن قتيبة: يصرفه عن قرابته، له شأن، التنكير في "الشأن" هنا يدل على التهويل والتعظيم، شأن كبير {يُغْنِيه} يصرفه عن قرابته وعن الاشتغال بهم، أو الوقوف معهم أو مجرد الاستماع إليهم، والعرب تقول: أغنِ عني وجهَك، يعني: اصرفه عني، فيكون هذا من معناه، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه} يصرفه عن غيره، ويغنيه أيضاً، يعني فيه ما يكفيه، نزل به ما يكفيه مما لا يحتمل معه بلاءً من غيره، أن يدفع عن أحد أو يسمع من أحد أو يعطي أحداً شيئاً من حسناته، لكن إذا بدأ الحساب، والمقاصّة بين الخلق، وبدأت خزائن أعماله -لاسيما إذا كانت قليلة- تستخرج الحسنات، وينتثلها من وقعت عليهم مظالمه، فعند ذلك يرى الحسرات بعينه، يقتص الناس منه، يأخذون من الحسنات، فإذا فنيت حسناته ألقوا عليه من سيئاتهم، هذا الذي ما يقف مع أبيه ولا أمه ولا أولاده من أجل أن يعطيهم حسنة واحدة، يجد هذه الحسنات تؤخذ من بين يديه وهو يشاهد بسبب مظالم ظلمها هؤلاء في الدنيا، إما في عرضهم -تكلم فيهم-، أو كان ذلك في أموالهم، أو غير ذلك.

وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [سورة عبس:٣٨-٣٩] أي: **يكون الناس هنالك فريقين:** {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ} أي: مستنيرة، {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} أي: **مسرورة فرحة، من سرور قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة.**

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} في ذلك اليوم {مُسْفِرَةٌ} مستنيرة، مضيئة، حسنة، {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}، مع شدة الموقف إلا أن الناس ينقسمون إلى قسمين بحسب أعمالهم.

---

٢ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٠٠)، برقم (١٩١٢٩)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، سنة النشر:١٤١٩ هـ.

٣ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة عبس، برقم (٣٣٣٢).

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [سورة عبس:٤٠-٤١] أي: **يعلوها ويغشاها قترة، أي: سواد.**

وقال ابن عباس: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} أي: يغشاها سواد الوجوه.

غبرة يعني: غبار وكُدورة، وما زال الناس يقولون على سبيل الذم للبعير: أغبر، **{عَلَيْهَا غَبَرَةٌ}**، يعني: هذه الوجوه كدِرة متغيرة، **{تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}** يقول: **يعلوها ويغشاها قترة: سواد** الوجوه.

وابن جرير وقبله أبو عبيدة معمر بن المثنى يقولون: القَتَر هو الغبار، **{عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}**، وزيد بن أسلم يقول: إن القترة ما ارتفع إلى السماء من الغبار، المرتفع يقال له: قترة، والغبرة ما انحط إلى الأرض؛ لأن الغبار يكون نازلاً، والقتَر يكون عالياً، وهنا قال: **{عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}** يعلوها سواد، تغير لون هذه الوجوه، بخلاف تلك الوجوه المضيئة، الحسنة المشرقة، يعني كما قال الله -عز وجل-: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [سورة آل عمران:١٠٦] هذا معناه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس:٤٢] **أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: {وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً}** [سورة نوح:٢٧].

آخر تفسير سورة "عبس" ولله الحمد والمنة.

يعني هذه وجوه الكفار، مع أن بعض السلف قالوا في قوله تعالى: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** قالوا: وجوه أهل البدع تسوّد، وقال الله تعالى: **{أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}** وهناك قال: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}** [سورة آل عمران:١٠٦]، فدل على أن المراد بذلك الكفار، لكن يكون للإنسان من التغير بحسب حاله من الإيمان والفجور والطاعة والمعصية، يكون له من الإشراق ووضاءة الوجه بحسب ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فالناس يتفاوتون في هذا كله، كما ترى هذا التفاوت بينهم في الدنيا في أعمالهم، وكما قال ابن القيم -رحمه الله-: يكون سيرهم على الصراط في الآخرة كسيرهم على الصراط في الدنيا، وقالوا أيضاً: للعبد موقفان بين يدي الله -عز وجل-، الأول في الصلاة، والثاني للحساب، فمن حسن موقفه في الصلاة حسن موقفه عند الحساب، والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [سورة التحريم:٧]، فهذه أعمالهم، ((إنما هي أعمالكم أحصيها ثم أوفيكم إياها))[٤].

---

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [سورة التكوير:١]، و{إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [سورة الانفطار:١]، و{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} [سورة الانشقاق:١]))[1]، وهكذا رواه الترمذي.

سورة التكوير {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} تتحدث عن يوم القيامة، وأهواله وأوجاله، وفي شقها الآخر أقسم الله -تبارك وتعالى- فيها على أن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحي من الله، وأنه حق ثابت، وأنه ليس كما يقولون من أنه مجنون -عليه الصلاة والسلام-، وما إلى ذلك من الأقاويل الباطلة التي ينسبونها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو لهذا الوحي، وهذا -والله أعلم- لا يخرج عن موضوع السورة الذي ذكره الله -عز وجل- في صدرها من الحديث عن اليوم الآخر، فلما ذكر لهم طرفاً من مشاهد اليوم الآخر أخبر أن هذا أمر حق وأنه ليس بالتخرصات والأباطيل، إنما هو قول رسول كريم جاء به من عند الله -تبارك وتعالى-، وليس ذلك من قبيل الاختلاق والافتراء والكذب على الله -عز وجل-، ولهذا قال بعده: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير:١-١٤].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} يعني: أظلمت، وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبير: {كُوِّرَتْ} غُوِّرت.

وقال أبو صالح: {كُوِّرَتْ} ألقيت.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة "إذا الشمس كورت"، برقم (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند، برقم (٤٨٠٦)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٣).

والتكوير جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: {كُوِّرَتْ} جُمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها.

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الشمس والقمر يكوران يوم القيامة))[٢]، انفرد به البخاري وهذا لفظه.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} هذه العبارات عن السلف: أظلمت، ذهبت، ذهب ضوءها، غُورت، كل ذلك يرجع إلى معنى واحد، وهو أثر ونتيجة للمعنى الآخر الذي ذكروه، قال: **والتكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض،** هذا أصله، **ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض،** فيكون المعنى: **جُمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها،** يعني أن التكوير: أن يُجمع بعضها إلى بعض، فبهذا تكون غورّت، صارت مظلمة، ذهب ضوءها، انطفأ نورها، كل هذه المعاني نتيجة لكونها لفت وجمع بعضها إلى بعض.

وهنا جاء عن أبي صالح قال: ألقيت، {كُوِّرَتْ} يعني: ألقيت، وجاء عن الربيع: رُمي بها، قال: كورتُه فتكور يعني: سقط، كل هذه المعاني تحصل للشمس، تُكور، يضم بعضها إلى بعض، فينطفئ نورها، ويلقى بها في النار كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، هناك من الناس من عبد الشمس، والله -عز وجل- قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [سورة الأنبياء:٩٨]، فتلقى هذه الشمس في النار، وفي الحديث: ((الشمس والقمر يكوران يوم القيامة))، وما ذكره هنا قال: **جُمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل..** هنا جمع بين المعاني والأقوال التي ذكرها السلف، وهذا عزاه الواحدي للمفسرين واختاره ابن جرير، وذكر ابن جرير أن المعاني الأخرى لا تنافيه، فكأنها نتيجة وأثر لهذا التكوير.

قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض.

وهو نفس المعنى الذي ذكره ابن كثير.

وقوله تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} أي: انتثرت، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ} [سورة الانفطار:٢]، وأصل الانكدار: الانصباب.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة.

قوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} قال: **انتثرت**، وفسرها بالآية الأخرى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ}، أصل الانكدار قال: **الانصباب**، أصله الانصباب، يقال: انكدر الطائر في الهواء يعني: انصب وانقض وانحدر، وكما يقول الخليل بن أحمد: انكدر القوم، يعني انكدر عليهم القوم، يعني: جاءوا أرسالاً فانصبوا عليهم، ويقول عطاء: تمطر السماء يومئذٍ نجوماً، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض، وبعضهم يقول: انطمس نورها، فهذا كأنه أثر لهذا الانكدار؛ لأنه تغيُّر، فابن جرير -رحمه الله- ذكر المعنيين: تناثرت فتساقطت، باعتبار أن أصل الانكدار الانصباب، والله تعالى يقول: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ} فيقول: تناثرت فتساقطت، وهذه الآيات

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، برقم (٣٢٠٠).

أبيّ بن كعب -رضي الله عنه- يقول: منها ما يكون قبل يوم القيامة، ست، ومنها ما يكون بعد قيام الساعة، هذه الأشياء المذكورة.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: اختلطت، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال: أهملها أهلها، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[٣]، رواه ابن جرير وهذا لفظه.

فهذه الست التي تكون قبل النفخ في الصور، تكوير الشمس، انكدار النجوم، تسيير الجبال، تعطل العشار، الوحوش تحشر، والبحار تسجر، إلى هنا، فإذا قامت القيامة زُوجت النفوس، أُلحق كل إنسان بمن يشاكله، مَن كان على دينه وملته وعمله وحاله، وتُسأل الموءودة، وتتطاير الصحف، وتكشط السماء، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة، وعندئذٍ يعلم الإنسان -كل إنسان- ما قدم وما عمل في دنياه، هذا قول أُبيّ -رضي الله تعالى عنه-، يعني هذه الأشياء تكون بعد النفخة الأولى، أو تكون قبلها، بينما الناس في أسواقهم، يعني قبل النفخة الأولى، قال: قبل يوم القيامة، ويوم القيامة يكون حينما ينفخ في الصور، طبعاً هنا على تفسير بعض المواضع مثل قوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [سورة التكوير:٥] قال: اختلطت، يعني هنا على أساس أنه يفسر أن الوحوش تختلط بحيث ما يفر بعضها من بعض، ولا يخاف بعضها من بعض، وكما يقول بعضهم أيضاً: تأتي عند الإنس لا تخافهم ولا يخافونها، هذا قبل يوم القيامة، ولكن على المعنى الآخر أنها تحشر يوم القيامة، فيقتص بعضها من بعض، ثم يقال لها: كوني تراباً، فهذا على أحد المعنيين، ويأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً.

وقوله: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال عكرمة، ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد: {عُطِّلَتْ} تُركت وسُيِّبت.

وقال أبي بن كعب، والضحاك: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خُثَيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها.

وقال الضحاك: تركت لا راعي لها.

والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود: أن العشار من الإبل -وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عُشَراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع- قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعدما كانوا أرغب شيء فيها، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها.

يعني العشار جمع، والواحدة منه يقال لها: عُشراء، فهذه التي قد استتم لها عشرة أشهر في حملها، يعني هي قريبة الولادة، وهذه أنفس الأموال عند العرب، وأصحابها يُعنون بها غاية العناية، بل إن بعضهم يقدمها

---

٣ - رواه ابن جرير في تفسيره، في تفسير سورة التكوير، (٢٣٧/٢٤).

ويفضلها على ولده، ويقدم إطعامها والنفقة عليها على طعام أولاده، ويسميها، ويحصل له من المؤانسة لها والمخالطة أعظم مما يحصل مع أولاده، حتى تألفه، ولربما دعاها فأجابته؛ لكثرة مخالطته لها تعرفه من بين الناس، وأهل الإبل يعرفون هذا جيداً، ولها عندهم من المنزلة والمكانة ما لا يُقادَر قدره، حتى إن بعضهم يأبى كل الإباء أن يبيع شيئاً منها، وبعضهم يأبى كل الإباء أن ترحل في سيارة أو نحو ذلك، فيمشي على قدميه معها مئات الكيلومترات؛ لأنه يرى أن حملها ورفعها ووضعها في نقالة أن هذا نقيصة في حقها وإزراء بها، هذا كله واقع وموجود، تجد الرجل الكبير يمشي معها مئات الكيلومترات حتى ينقلها إلى المكان الآخر، فلربما ركبته الديون وكثرت المطالبات وعنده هذه الإبل التي يمكن أن تباع بالملايين ويأبى أن يبيع واحدة منها، لا يمكن أن يفرط بها، يرى أن نفسه أرخص منها بكثير، هذا واقع، ومن سأل أصحاب الإبل يخبرونه من هذا بعجائب، فهذه كلها تترك ولا يلتفت الناس إليها، فكيف بالأشياء الأخرى من المزارع والسيارات، أو الناطحات، أو غير ذلك؟!، الناس يشتغلون، والله خاطب العرب بما يعهدون، بما هو في بيئتهم، الإبل عندهم هي أنفس الأموال، فيمكن أن تقول: يتركون نفائس ما يملكون وينشغلون بما رأوا من الأهوال والأوجال، فيشغلهم ذلك عما سواه، إذا كان الإنسان يترك أعظم الأشياء وأنفس الأشياء عنده فما دونه من باب أولى، فينبغي أن يشتغل لذلك اليوم لا أن يشتغل عنه، وأن يستعد المرء حتى يكون آمناً يوم القيامة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} أي: **جمعت، كما قال تعالى:** {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام:٣٨]، **قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، رواه ابن أبي حاتم.**

قال الله تعالى: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} [سورة ص:١٩]، أي: **مجموعة.**

هنا {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} جاء به من أجل بيان معنى الجمع، {مَحْشُورَةً} يعني: مجموعة، لكن ليس المراد يوم القيامة هنا في الآية، وإنما ذلك لما أعطى الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص:١٩]، فهذه من الأشياء التي خصه الله -عز وجل- بها، أعني سليمان -عليه الصلاة والسلام.

لكن الآية الأخرى التي ذكرها في سورة الأنعام {وَمَا من دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [سورة الأنعام:٣٨] إلى أن قال: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، هذا الحشر يوم القيامة، فهذا دليل من القرآن على حشر هذه الدواب والبهائم، وهنا {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} هل المقصود به حشر يوم القيامة أو أن ذلك في الدنيا؟ الرواية السابقة عن أبي بن كعب أن ذلك في الدنيا، أنها تختلط مع الناس، تختلط مع بعضها، لا يفر بعضها من بعض، والوحش يقال لكل ما لم يأنس من الحيوان، سواء كان ذلك من الصيود أو كان من غيرها، يعني السباع، كله يقال له: وحش، يعني: آكلة اللحوم، وكذلك أيضاً التي تأكل النباتات: الظباء وغيرها، كل ذلك يقال له: وحش، الحُمر الوحشية، السباع؛ لأنها لا تأنس، فهي تفر من الناس ومن مجامعهم، فعند ذلك على قول أُبيّ: تختلط، والمعنى الآخر أنها تحشر يوم القيامة، تبعث حتى يقتص بعضها من بعض، وبعضهم يقول: حشْرُها موتُها، وجاء هذا عن ابن عباس -رضي الله عنه-، وبعضهم يقول: تضم في ذلك اليوم إلى الناس، تختلط بالناس، تكون يعني أليفة، لا تستوحش من مخالطتهم.

والربيع يقول: أتى عليها أمر الله، ما هو أمر الله؟ ابن عباس يقول: ماتت، لكن كلمة الربيع مبهمة -أتى عليها أمر الله-، يحتمل أن يكون الموت، ويحتمل أن يكون أنها تختلط مع الناس ويذهب ما بها من الاستيحاش أو غير ذلك.

ابن جرير جمع بين معنيين، الجمع والإماتة، قال: جُمعت فأميتت، وهذا يمكن أن يحمل على أنها تجمع –تحشر- يوم القيامة، فيقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً، هذا الذي دل عليه الحديث، {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}، فتبقى هذه الآية محتملة أن يكون هذا الحشر في الدنيا، ولها حشر في الآخرة، ثم يقال لها: كوني تراباً، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الحشر يوم القيامة يقتص بعضها من بعض، لكن الحشر يوم القيامة -ولو حملت هذه على الدنيا كما جاء عن أبيّ -رضي الله عنه- ثابت لهذه الوحوش أو الحيوانات، هنا ذكر الوحوش مع أن كل الحيوانات تحشر حتى غير الوحوش، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حتى تقتص الشاة الجَلحاء))[٤]، يعني التي ليس لها قرون ((من الشاة القرناء))، هذه ليست من الوحوش، ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض السلف كأُبيّ يقول: هذا في الدنيا، أي أنها تختلط؛ لأنه خص الوحوش، وإلا فيوم القيامة كل الحيوانات تحشر فلماذا خص الوحش؟

يمكن لقائل أن يقول: إنه إذا كان المراد يوم القيامة خصت الوحوش لأنها نافرة لا تأنس، ومع ذلك فإن الله قادر على جمعها وحشرها مع تفرقها وشدة نفورها، ولذلك الشيء بالشيء يذكر، الله -تبارك وتعالى- لما ذكر الحجيج وذكر التعجل والتأخر قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة البقرة:٢٠٣]، مناسبة ذكر الحشر هنا في نفور الحجيج كما لفت بعض أهل العلم قال: الناس يتفرقون من كل ناحية بعد الحج، لا يلتقون إلا يوم القيامة، كيف تجمع هؤلاء الحجيج الذين جاءوا من أصقاع الدنيا بعدما يتفرقون في اليوم الثاني عشر والثالث عشر؟، ما الذي يجمعهم؟ {وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة البقرة:٢٠٣]، يجمعهم يوم الحشر، هؤلاء الذين يذهبون بعضهم يموت، وهذا في المشرق، وهذا في المغرب، وهذا لا يحج غير هذه الحجة، لا يمكن أن يجتمعوا جميعاً في سنة واحدة، ويحج كل هؤلاء الذين حجوا، ولذلك هذا المشهد في تفرق الناس –الحجيج- في اليوم الثاني، وفي اليوم... هو يذكِّر بأشياء من الآخرة لا تخفى على ذي لُب.

---

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٨٤٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (٦) إلى الآية (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير: ١] يعني: لُفت، فذهب ضوءها، وألقيت في النار، وجمع بعضها إلى بعض فانكسف ضوءها وصارت مظلمة.

{وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} [التكوير: ٢] حصل لها تغير فتساقطت وانتثرت، {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير: ٣] حركت من أماكنها، فسيرها الله -تبارك وتعالى- واندكت حتى صارت هباءً منثوراً، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} [التكوير: ٤] هي النوق الحوامل التي بلغ حملها عشرة أشهر، هذه الأموال النفيسة ينشغل أصحابها عنها وينصرفون عن ملاحظتها لِمَا نزل بهم من الأهوال العظام، {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥] هذه الوحوش التي في البرية لا تَأنس تتحول إلى شيء آخر، تحشر إما في الدنيا بمعنى أنه يجتمع بعضها إلى بعض، فتختلط بالناس دون نفور، أو أن ذلك يكون في القيامة، ولا شك أنه واقع في القيامة، يحشرها الله كما يحشر سائر البهائم، فيقتص بعضها من بعض، والآية تحتمل هذا وهذا.

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] ألحق النظير بنظيره، فصار المؤمن مع المؤمن، والكافر مع الكافر، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني.

وقوله: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦]، روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: قال علي -رضي الله عنه- لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً، {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}. وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}.

هذا الأثر مبناه على أن التسجير بمعنى الإيقاد، أنها تستعر وتضطرم بالنار، بصرف النظر عن موضع النار، فإن النار موجودة ومخلوقة الآن، وليست هي هذا البحر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى النار، ولما خلق الله النار أيضاً بعث إليها جبريل -عليه السلام- ونظر إليها، كما في الحديث المعروف، وكذلك أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى أقواماً يعذبون في النار، وأخبر عن حال عمرو بن لحي، والمرأة التي حبست في هرة، فالنار ليست هي هذا البحر إذا سُعر، وإنما هي مخلوقة وموجودة الآن، وهي أعظم من الأرض ومن البحر، ولا يمكن أن تقاس النار بحجم الأرض، بدليل أن الشمس والقمر يكوران ويلقيان في النار، وأهل الفلك يزعمون أن الشمس أكبر من الأرض بمئات الأضعاف، فكيف يقال: إن النار في البحر، وهو جزء من الأرض في أقصى حالاته قد لا يجاوز ثلاثة أرباع حجم مساحة الكرة الأرضية؟!.

فنأخذ من هذا الأثر معنى: سُعرت، أوقدت، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦]، السجر يقال في اللغة لثلاثة معانٍ، والسلف -رضي الله عنهم- ينبغي أن نقدر أقوالهم، وأن ندرك في الوقت نفسه أن هؤلاء أهل لغة، فلا نلغي أقوالهم، ونهدرها مسارعين في استبعادها مع أنهم أهل لغة، فننظر في عباراتهم.

فمادة السجر تقال لثلاثة معانٍ، الأول: الامتلاء والسيلان، والمعنى الثاني: الذي هو الإيقاد، سنلاحظ عبارات السلف والثالث: اليبس، أما المعنى الأول الذي هو الامتلاء والسيلان فهذا لا يزال موجوداً إلى اليوم يستعمله الناس، تقول: الماء يَسجر، يعني امتلأ وسال، صار يفيض ويسيل، ومن كلمات العامة التي يستعملونها في الدعاء إلى اليوم ولربما المرأة تدعو على صغيرها إذا لوث المكان ببوله – أعزكم الله – فتقول: "فَرَنْج يَسْجِر"، دعوة معروفة عند العوام، يعنون: مرض الزهري، يسمونه السيلان، والعوام ما يعرفون هذا الكلام، لكون الأمراض الجنسية عرفت من الغرب، ولم تكن معروفة عند المسلمين، وانتقلت من الغرب إلى المسلمين.

الحسن يقول: {سُجِّرَتْ} يبست، وقتادة يقول: ذهب ماؤها، والفراء يقول: مُلئت وهذا القول قال به جماعة من السلف كالربيع والكلبي ومقاتل، وهو أيضاً مروي عن الحسن والضحاك، يعني: ملئت.

وبعضهم يقول: أرسل عذبها على مالحها، قال تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [الرحمن:١٩-٢٠]، وقال: {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} [النمل:٦١]، هذا الحاجز وهذا البرزخ بعض العلماء يقول: إنه حاجز من اليابسة بين الأنهار والبحار فلا تختلط، هنا على هذا القول الكل يتحد فتسجّر بمعنى تفجر، ينفجر بعضها على بعض وتصير بحراً واحداً،

فبعضهم يقول: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت وفاضت، وبعضهم كالضحاك يقول: {سُجِّرَتْ} يعني: فجرت بأن صارت بحراً واحداً، وهذا يشبه الذي قبله، لكنه يحتمل أن يكون المراد أن البحار الملِح أيضاً فجر بعضها على بعض فصارت بحراً واحداً، ومن الأقوال في قوله تعالى: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [الرحمن: ٢٠] بعضهم يقول: بين البحر والبحر حاجز، هذا له طبيعة وخصائص، وهذا له طبيعة وخصائص، وهذا شيء مشاهد وموجود، فالبحار تتفاوت في الكائنات التي تعيش فيها، كما أنها تتفاوت أيضاً في نسبة الملوحة، إلى غير ذلك، وبعض البحار تستطيع أن تسبح فيها وأنت لا تغمض عينيك، ولا تتأذى مما يصل إليها ولا ما يصل إلى الجوف تماماً، وهذا الشيء مشاهد، لكن هنا في المياه شديدة الملوحة كالخليج لا تكاد تطيق ذلك، الكائنات تختلف، والنباتات تختلف، فهنا يفتح بعضها على بعض، وتكون بحراً واحداً، هذا على قول بعض أهل العلم.

وبعضهم يقول: سعرت وأوقدت حتى صارت ناراً، كما جاء عن أبيّ بن كعب، وابن عباس، وسفيان الثوري، وابن زيد، وعطية، ووهب.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: ملئت حتى فاضت فانفجرت، فذكر معنى الامتلاء، والانفجار، والسيلان.

وقوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] **أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}** [الصافات: ٢٢].

وروى ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] **قال: الضُّرَباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله))[1]، وذلك بأن الله**

---

[1] - تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٠٧/١٠)، رقم: (١٩١٦٧).

-عز وجل- يقول: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٧ -١٠]، **قال: هم الضرباء.**

معنى الضرباء أي: النظراء، كل إنسان مع أضرابه، مع نظرائه، ومع من يشاكله في دينه وحاله وعمله، وبعضهم يقول: قرن بينهم في الجنة، وقرن بين أهل السوء في النار، والله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، وقال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} [الصافات: ٢٢]، وقال عطاء: زوجت النفوس -نفوس أهل الإيمان- بالحور العين، وقرنت نفوس الكفار بالشياطين في النار، وقال عكرمة والشعبي: قرنت الأرواح بالأجسام، ولكن الذي عليه الجمهور أن المراد أن يحشر المرء مع ضربائه ونظرائه، اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس مع المجوس، وهكذا من يعبد شيئاً يلحق معه، وهكذا أهل الإيمان، وهذا مروي عن عمر -رضي الله عنه-، وقال به كثير من السلف، الحسن ومجاهد وقتادة والربيع، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} [الواقعة: ٧]، وبعضهم يقول: قرنت النفوس بأعمالها، لكن القول الذي عليه المعوَّل هو أنه يحشر مع ضربائه.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} [التكوير٨-٩] هكذا قراءة الجمهور: {سُئِلَتْ} والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تُسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذن؟!

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} أي: سَألت، وكذا قال أبو الضحى: سألت أي: طالبت بدمها، وعن السدي، وقتادة مثله.

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة، فروى الإمام أحمد عن عائشة عن جُدَامة بنت وهب -أخت عكاشة- قالت: حضرتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- في ناس وهو يقول: ((لقد هممت أن أنهى عن الغِيلَة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغيلُون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً))، ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك الوأد الخفي، وهو الموءودة سئلت))[٢]. ورواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذي والنسائي.

الغيلة المقصود بها وطء المرأة وهي ترضع، وكانت العرب تسميه الغيلة، وكان العرب يظنون أن ذلك يوهن عظم الولد، ويكون ضعيفاً، وقال شاعرهم:

فوارس لم يغالوا في رضاعٍ *** فتنبوا في أكفِّهم السيوفُ

لم يغالوا في رضاع يعني: ما وطُئت أمه وهو يرضع، فتنبوا في أكفهم السيوف ينبوا عن الضريبة يزايلها لا يصيبها لضعفه، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن فارس والروم يفعلونه فلا يضر الأولاد، فلم ينهَ عنه. الوأد بعضهم يقول: أصله من الثقل، وأن هذه البنت حينما توضع في حفرة ويهال عليها التراب فيثقلها فتموت، أن هذا أصل هذا الإطلاق.

---

[٢] - أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب جواز الغيلة -وهي وطء المرضع- وكراهة العزل (٢/١٠٦٦)، رقم (١٤٤٢).

والسؤال يكون تبكيتاً لمن وأدها، لماذا فعلوا بكِ ذلك؟ ما الجرم الذي قارفتيه؟ فهذه عادة كانت عند بعض العرب، وإن شئتم ارجعوا إلى تاريخ العرب مثل كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، وهو من أوسع الكتب التي تذكر تفاصيل -أدق التفاصيل- في حياة العرب، فلو رجعتم إلى الوأد مثلاً يُسمي لكم القبائل التي تئد، ولم يكن كل العرب يفعلون ذلك، وقد مضى الكلام على هذا عند قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [الأنعام:١٥١] .

وإذا كانت تُسأل تبكيتاً لمن وأدها فكيف بمن قام بوأدها؟!، وهنا نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: يعني طالبت بدمها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سمَاك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ}، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: ((أعتق عن كل واحدة منهن رقبة))، قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل، قال: ((فانحر عن كل واحدة منهن بدنة))[3].

وقوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠] **قال الضحاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم، تُملِي فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.**

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} هذه الصحف التي طويت، هي لا تطوى في نهاية العام كما يقول بعض الناس: طويت صحائف عام، فتحت صحائف عام جديد، بل هي تطوى بموت الإنسان، هذه الصحيفة تنشر يوم القيامة، {كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [الإسراء:١٣]، مفتوحاً، {اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، فهذه الصحف هي عبارة عن إملاءات الإنسان التي كان يمليها في حياته من أقواله وأفعاله، فمثل هذا ينبغي أن يكون زاجراً وواعظاً للإنسان إذا أراد أن يطلق لسانه أن يتكلم بما لا يعنيه أو ما لا ينفعه.

وقوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ} [التكوير: ١١] **قال مجاهد: اجتذبت، وقال السدي: كشفت.**

أصل الكشط قلعٌ عن شدة والتزاق، كشَطَ الجلد، كشطتُ جلد البعير قلعته عن شدة والتزاق، شيء ليس بالسهولة يرفع ويقلع، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الشاة أو البعير؛ ولهذا قال الزجّاج: قُلعت كما يقلع السقف، والفراء يقول: نزعت فطويت، الواحدي يقول: الكشط رفعك شيئاً عن شيءٍ قد غطاه، مثلما قال الزجّاج: قُلعت كما يقلع السقف، وكما قالوا في قلع أو سلخ أو كشط الجلد، فكل ذلك بمعنىً متقارب.

عن مجاهد قال: اجتذبت، كأنه من لازمه، يعني: إذا قلعت قلعاً شديداً فيلزم من ذلك أنها جذبت، فهذا يشبه التفسير باللازم، ابن جرير يقول كما قال الفرّاء: نزعت فطويت، السدي يقول: كشفت.

---

[3] - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الديات، باب ما جاء في الكفارة في الجنين وغير ذلك قال الله تعالى: "فتحرير رقبة مؤمنة" (١١٦/٨)، رقم (١٦٢٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣٧/١٨)، رقم (٨٦٣)، والبزار (٣٥٥/١)، رقم (٢٣٨).

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [التكوير:١٢] قال السدي: أحميت، وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [التكوير: ١٣] قال الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خُثَيم: أي: قربت إلى أهلها.
وقوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [التكوير:١٤] هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران:٣٠]. وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣].
يعني أن الإنسان عند ذلك يتجلى له وهو يعرف حاله ومصيره معرفة إجمالية إذا مات وشاهد وعاين من الأمور الغائبة عنه، ثم بعد ذلك إذا صار البعث عرف من ذلك أعظم مما عرف قبله، فإذا قرأ صحيفته عرف ذلك بالتفصيل، {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}، فـــ "ما" تدل على العموم يعني: يعلم كل ما أحضر، كل ما عمل، كل ما قدم؛ ولهذا يقولون: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩]، وسيأتي عن بعض السلف في الكلام على التدبر -إن شاء الله- أنهم ضجوا من الصغائر قبل الكبائر، فقدم ذكر الصغائر، كما قال الله تعالى: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: ٦]، هم نسوه إما لكثرة المعاصي، أو لقلة المبالاة، أو لتقادم الزمان، نسوا ذلك كله، ولكن الله أحصاه عليهم.
{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ١٥- ٢٩].
روى مسلم في صحيحه، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية عن عمرو بن حُرَيث قال: صليت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- الصبح، فسمعته يقرأ: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}.
وروى ابن جرير عن خالد بن عرعرة سمعت عليًّا وسئل عن: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل.
{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} جاء الربط بالفاء بين هذين المقطعين، كأنه -والله أعلم- يقول: لو أنهم آمنوا بالقرآن الذي جاء القسم عليه لصدَّقوا بما هو من أعظم أخباره، وهو البعث، فهذه السورة تتحدث عن البعث والنشور واليوم الآخر، وأن ما ذكر في آخرها مما يتصل بالقرآن والقسم بأنه حق من عند الله -عز وجل- ووحي، أن ذلك يمكن أن يرجع إلى ما سبق، باعتبار أن هذا القرآن مخبر عن قضية البعث والنشور.
عن علي -رضي الله عنه- في قوله: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} أي: النجوم تخنِس بالنهار، وتكنِس بالليل، وهذا القول مروي عن كثير من السلف، كالحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، فيكون القسم بالخنس.
سميت بالخنس من خَنس إذا تأخر؛ لأنها تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وبعضهم يحددها بخمسة، وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، وبعضهم يقول: كل الكواكب؛ لأن هذه صفتها، تخنس في النهار

إذا غابت، تخنس في مغيبها، والفراء يقول: هي الخمسة؛ لأنها تخنس في مجراها، وتكنس يعني: تستتر، كما تكنس الظباء في المغار، والأماكن التي تأوي إليها.

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [التكوير: ١٦] لأنها تجري مع الشمس والقمر في الفلك، وبعضهم يقول: اختفاؤها تحت ضوئها، وبعضهم يقول: الخنوس: خفاؤها بالنهار، والكنوس هو غروبها، وجاء عن ابن مسعود ومجاهد والنخعي: أن المراد بها بقر الوحش، قالوا: لأنها تتصف بالخنس، وبالجوار، وبالكنس، فإذا رأت الإنسان انقبضت واختفت، فتدخل في كِناسها، الأماكن التي تأوي وتختفي فيها، فالكنس يقولون: مأخوذ من الكِناس الذي يختفي فيه الوحش، وبعضهم يقول: الظباء، كما جاء عن سعيد بن جبير، ومجاهد والضحاك، وهذا يشبه الذي قبله، لا ينافيه.

والراجح: أنها الكواكب، فهذا أليق بالسياق، فقد جاء في الآيات أشياء تناسب هذا، قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٧-١٨] فأقسم بهذه الكواكب التي تجري في الفلك وتغيب، وتختفي، كما أقسم بالليل إذا أقبل أو إذا أدبر كما سيأتي، وبالصبح في حال إقباله.

ويمكن أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- أقسم بالخنس، وهذا يصدق على كل ما يقال فيه ذلك، فيدخل فيه الكواكب، ويدخل فيه بقر الوحش، فيكون اللفظ حُمل على أعم معانيه، ولم يخص به معنىً دون معنى، هذه الطريقة هي التي يمشي عليها ابن جرير غالباً؛ ولهذا يقول: وأرجح الأقوال عنده أن يقال: إن الله أقسم بأشياء تخنس أحيانا -أي تغيب- وتجري أحياناً، وتكنس أخرى، وكنوسها أن تأوي في مكانسها، والمكانس عند العرب هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء، يقول: وغير منكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، يعني عبر كما يعبر عن الأماكن التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء.

يقول: فإذا كان ذلك كذلك ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء فالصواب أن يُعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحياناً، والجري أخرى، والكنوس بآنات - يعني أوقات- على ما وصف -جل ثناؤه- من صفتها.

وابن جرير -رحمه الله- عبارته واضحة، فيرى حمل ذلك على هذه المعاني جميعاً، وأحياناً ابن جرير يذكر المعنى في البداية، فعادة إذا ذكر آية يذكر بعدها سطراً أو سطرين أو ثلاثة، يسمى المعنى الإجمالي المعنى العام، وهذا الذي جمعه بشار عواد في المختصر لابن جرير، فجمع عبارات ابن جرير، وهذا يصلح أن يقرأ في المساجد، ويقرأ للعامة، وهذه طريقة مهمة، بحيث لا يضيع المعنى المقصود ويتفرق بالكلام على الجزئيات والتفصيلات، ولهذا الشاطبي -رحمه الله- وبعض العلماء ينكر الاشتغال باللطائف والدقائق، يقول: هذا يفوت المعنى الذي نزلت من أجله الآية.

والأولى التوسط في هذا الباب، فيذكر المعنى العام كما يفعل ابن جرير، ثم بعد ذلك تذكر المعاني، والتفاصيل والدقائق، واللطائف بما لا يفضي إلى القول على الله بلا علم، من التكلفات والمحامل البعيدة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: ١٧] **فيه قولان:**

أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غَشي الناس، وكذا قال عطية العوفي.

وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس: {إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: {إِذَا عَسْعَسَ} أي: إذا ذهب فتولى.

وعندي أن المراد بقوله: {عَسْعَسَ} إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١، ٢]، وقال: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١، ٢]، وقال {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً} [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، لفظ "عسعس" مشترك يحمل معنيين متضادين، الأول: أقبل، والثاني: أدبر، وهذا سبب الاختلاف بين المفسرين من السلف فمن بعدهم، وهذا المعنى -أقبل وأدبر- كل واحد منها يشهد له القرآن، أقبل: يشهد له {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، بظلامه، {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ٢] يعني: أرخى سدوله، وأدبر: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}

فأقسم الله بالليل في حال إقباله، وفي حال إدباره؛ لأنهما مظهران تتجلى بهما عظمة الله وقدرته، وهذا الذي جوزه ابن كثير، قال: "وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما".

الذين قالوا: إن معنى عَسْعَسَ: أقبل، قالوا: أقسم الله بالصبح في حال ابتدائه في قوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٨]، فناسب أن يكون الإقسام بالليل في حال ابتدائه، فيكون الإقسام بالليل وبالنهار كليهما، وهذا هو الذي يشير إليه ابن كثير -رحمه الله.

وابن جرير –رحمه الله- يرجح أن المقصود به: أدبر، والقرينة عنده الترتيب الطبيعي، {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} بمعنى: أدبر، ويعقبه مباشرة تنفس الصباح.

ولو قيل: أقسم الله بالليل في حال إقباله، وبالليل في حال إدباره لم يكن ذلك بعيداً، ويكون اللفظ مشتركاً، وكل واحد من المعنيين جاء في القرآن القسم به صراحة؛ لأن ذلك كله مما تتجلى به عظمة الله -عز وجل.

المبرِّد يقول: كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، وهو: ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره، يعني: حمله على المعنيين.

بينما الفرَّاء ينقل إجماع المفسرين على أن معنى عسعس: أدبر، وهذا الإجماع غير صحيح كما ترون.

وقوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٨] قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل.

التنفس هو خروج النسيم من الجوف، تنفسَ الصباحُ؛ لأنه يقبل بروح ونسيم، فجعل بمثابة التنفس.

بعضهم كالواحدي يقول: امتد ضوءه حتى يصير نهاراً، وبعضهم يقول: انشق وانفلق، كل ذلك يرجع إلى معنىً واحد.

{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} يعني: ظهرت بوادره، وطلائعه، وأوائله، ومبادئه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (١٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [سورة التكوير:٦] بمعنى أوقدت، مُلئت، فجرت، هذه عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وبعضهم يقول: صارت يابسة، ومن أهل العلم من يجمع بين هذه المعاني فيقولون: فُجرت ففتحت على بعضها فملئت، وسالت وسعرت واضطرمت ناراً، ومن أدخل المعنى الأخير قال: حصل لها الجفاف بذلك، والله تعالى أعلم.

قال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧]، إلحاق النظير بنظيره، فأهل الإيمان مع أهل الإيمان، وأهل الكفر مع أهل الكفر، على اختلاف طوائفهم ومللهم ونحلهم، وهذا يكون في محشرهم، كما أنه يكون أيضاً في عاقبة أمرهم في الجنة أو في النار كما جاء عن السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وتُزوج نفوس أهل الإيمان، فيكون المؤمن مع المؤمنين في الجنة، والكافر مع الكافرين في النار، وقول من قال: زوجت نفوس أهل الإيمان بالحور العين فهذا مما يرجع إليه كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وهكذا قول من قال: زوجت نفوس الكافرين بالشياطين في النار فهذا يرجع إليه.

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ} [سورة التكوير:٧-٨]، البنت التي دفنت وهي حية تُسأل ما ذنبك ما جنايتك؟!

تُسأل تبكيتاً لمن وأدها بأي ذنب قتلت؟.

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [سورة التكوير:١٠]، صحائف الأعمال تطوى حينما يموت الإنسان، ثم تنشر، فيجد كل أحد كتاباً بين يديه يلقاه منشوراً {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء:١٤].

{وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ} [سورة التكوير:١١] جذبت ونزعت بشدة وقوة، قلعت كما يكشط الجلد، نُزعت فطُويت، {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [سورة التكوير:١٢]، تضرم النار، وهي متوقدة ولكنه يزاد في وقودها.

{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [سورة التكوير:١٣] قربت لأهلها، {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير:١٤]، في هذه الحال يعلم كل أحد ما قدم وما هو عليه من العمل؛ لأنه شاهد صحيفة عمله وقرأها، فعرف حاله معرفة تامة على سبيل التفصيل بعد أن عرف ذلك معرفة مجملة حينما عاين ما عاين بعد الموت، وبعد البعث، وهذا هو الجواب لما قبله، يعني إذا حصلت هذه الأمور علمت نفس ما أحضرت.

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [سورة التكوير:١٥] أقسم، و"لا" هذه لتأكيد القسم، الخنس الجواري الكنس، أقسَمَ بالنجوم أو الكواكب التي تخنِس، وذكر أحوالها الثلاث: الخنس، والجواري، والكنس، فتغيب تحت ضوء الشمس وتختفي، هذا هو المشهور الذي عليه الجمهور، وبعضهم يقول: هي بقر الوحش أو الظباء، وبعضهم جعل المعنى يشمل ذلك جميعا، كل ما يتصل بهذا، مع أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- اختار أنها النجوم، ورد

على من قال: إنها الظباء، أو بقر الوحش من أوجه كثيرة وضعّفه، من هذه الأوجه: أنه لم تجرِ العادة في القرآن بالقسم بالظباء، ولا ببقر الوحش، كذلك أيضاً أن النجوم آية أعظم وأبلغ، وكذلك النجوم يشاهدها الجميع أما الظباء وبقر الوحش فلا تُعرف هذه التفاصيل من أحوالها لدى كل الناس، ولا يشاهدونها، وذَكَرَ بالخنس معنى الخنس في الظباء وبقر الوحش أن آنافها تكون إلى الأعلى، يعني ليست قائمة، ترون الأبقار كيف تكون آنافها إلى الأعلى، يعني ليست قائمة كأنف الإنسان، فيقول: هكذا الظباء أيضاً، ويقول: هذا هو المراد، لهذا الخنساء يقال لها: الخنساء؛ لارتفاع في أنفها، فيقول: إن هذه الصفة لا يعرفها أكثر الناس عن بقر الوحش والظباء فكيف يقسم بشيء خفيٍّ؟ ما جَعل ذلك باعتبار أنها تختفي، يقول: لأنها لا تختفي دائماً هي في الفلوات.

ويقول: "الخنّس" ليس ذلك جمعاً لما قيل من أنها الظباء، وإنما الظباء يقال: الخُنْس؛ باعتبار هذه الصفة فيها، والمؤنث يقال: خنساء، الواحدة، والجمع يقال: خُنْس، يقال: أخنس وخنساء، ويجمع ذلك جميعاً على الخُنْس، قال: هنا قال: "الخنّس" إذاً هي ليست بمعنى أنها تخنِس، أي ليس معنى ذلك أن الظباء أو بقر الوحش كونها خنساء بهذه الصفة فيها، وإلا لقال: الخُنْس، وإنما قال: "الخُنّس" ذكر هذه وذكر غيرها يرجح بذلك أن المراد النجوم أو الكواكب، وكما سبق أن ابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على كل ما يتصف بهذا.

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [سورة التكوير:١٦] هاتان صفتان أخريان لها: جوارٍ وكنس، تكنِس والكِناس هو غروبها، أو المحال التي تأوي إليها بقر الوحش أو نحو ذلك، فذلك كِناسها، ابن القيم يقول: ليست بقر الوحش والظباء هي التي لها كِناس حتى يقال لها: الجوار الكنس، يقول: حتى الطيور وبقية الحيوانات فلماذا خصها؟.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧]، يأتي بمعنى أقبل ويأتي بمعنى أدبر، وحمل المشترك على معنيين -لاسيما إذا دل الدليل على أن كل واحد صحيح- ثابت لا إشكال فيه، ومن هنا قال بعض أهل العلم: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} أقسم به في حال إقباله وفي حال إدباره، ومن أهل العلم من قال: المراد أقبل قال: لأنه قابله بتنفس الصباح، فأقسم بكل واحد منهما في حال إقباله، والذين قالوا: أدبر قالوا: هذا المناسب لما بعده، فإذا أدبر تنفس الصباح، وابن القيم ينتصر لهذا بقوة، ويقول: هذا هو القول؛ للبعد ما بين ظلام الليل في حال إقباله وطلوع الصبح فناسب أن يكون ذلك بعده مباشرة كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [سورة المدثر:٣٣-٣٤].

وتنفُّسُ الصباح معروف بضيائه ونسيمه، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [سورة التكوير:١٩] هذا المقسم عليه.

وسنقرأ بعض العبارات المهمة في نظري من كلام ابن القيم لما فيها من فائدة، أو تفصيل، أو طريقة قوية في الترجيح، أو لفتة جميلة، ولا نقرأ كل كلامه ولكن مختارات من كلامه، فابن القيم يرى أن {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [سورة التكوير:٥] أنه في يوم القيامة، ذكره من جملة الأدلة على أن الوحوش والحيوانات تحشر يوم القيامة، وليس كما جاء عن أُبي -رضي الله عنه- في الرواية التي سبقت أنها تختلط في الدنيا وتذهب منها الوحشة أو الاستيحاش، تخالط الناس أو يخالط بعضها بعضاً عند أهوال القيامة في آخر الزمان، هذا كلام ابن القيم لكن ممكن أن نترك هذا، هذا حاصله الذي ذكرته آنفاً.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ولما كان للنجوم حال ظهور وحال اختفاء وحال جريان وحال غروب أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها، ونبه بخُنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخُنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس، فذكر سبحانه جريانها، وغروبها صريحاً"[1].

هنا يُلفت النظر إلى مسألة الطلوع أنه على طريق التنبيه بالخنوس.

وقال -رحمه الله-: "وخنوسها، وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها، فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته، وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر؛ لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء، قال الواحدي: هو من الخَنَس في الأنف وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خُنْس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس، ومنه سميت الخنساء؛ لخَنَس أنفها"[2].

هذه الوجوه ذكرت لكم حاصلها فلتراجع في موضعها.

وقال -رحمه الله-: "واختلف في عسعسة الليل هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر هذا قول علي وابن عباس وأصحابه، قال الحسن: أقبل بظلامه وهو إحدى الروايتين عن مجاهد

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله -سبحانه وتعالى- بإقبال الليل وإقبال النهار فقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} مقابل لليل إذا عسعس، قالوا: ولهذا أقسم الله بـــ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [سورة الليل:١-٢] وبالضحى، قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى {كَلاّ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [سورة المدثر:٣٢-٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح وذلك نظير عسعسة الليل وتنفس الصبح، قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار فإنه عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمناً طويلاً، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ، فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وإدباره وحالة قوة هذا وتنفسه، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وهذا هو القول، والله أعلم"[3].

---

١ - التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ١١٦).

٢ - المصدر السابق.

٣ - المصدر السابق (ص: ١١٨-١١٩).

وهذا الكلام الذي يذكره ابن القيم -رحمه الله- يقول: قالوا، وقالوا، في كثير من الأحيان -والله أعلم- فيما أطالعه من كتب التفسير، ومراجعة كلام المفسرين وكذا لا أجد لذلك أثراً، يعني كلام ابن القيم لا تجده في كتب التفسير، لكن هو -رحمه الله- يحتج لهؤلاء بما يمكن أن يحتجوا به، فيذكر ذلك على سبيل المناظرة، فيستقصي لهم الأدلة ويبدع في هذا -رحمه الله- غاية الإبداع، وإلا فمثل هذا الكلام في مواضع كثيرة كما اعتدنا في دروس التفسير لا تجد له نظيراً إطلاقاً في كتب التفسير، ولا في طريقة الترجيح، ولا بالمقارنة بين الأقوال، ولا بطريقة الجمع بينها في بعض المناقشات في عبارة عذبة سلسة واضحة، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧] كما سبق يمكن أن تحمل على المعنيين، باعتبار أن كل واحد منهما شهد له القرآن.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [سورة التكوير:١٩]، يعني أن هذا القرآن لَتبليغُ رسول كريم، أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مهران، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم.

هذا هو جواب القسم، أقسم بالخنس الجواري الكنس، وأقسم أيضاً بالليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، قال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}، وهذا الرسول الكريم المقصود به جبريل -عليه الصلاة والسلام- بالإجماع؛ لأن الله -عز وجل- وصفه هنا قال: {ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:٢٠-٢١] هذا كله في جبريل -صلى الله عليه وسلم- كما قال الله -عز وجل-: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [سورة النجم:٥].

أما الذي في سورة الحاقة {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الحاقة:٤٠-٤٢]، فهذا الرسول هو الرسول البشري محمد -صلى الله عليه وسلم- بناء على الصفة، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} فأضافه إلى الرسول الكريم في الموضعين، والكريم هو الشريف من جنسه كما سبق، فهذه الإضافة باعتبار التبليغ، فهي وظيفة الرسول الملائكي، وهي وظيفة الرسول البشري -عليهم الصلاة والسلام-، يبلغون عن الله.

وصحة الإضافة بهذا الاعتبار، وإلا فهو كلام الله -عز وجل- قول الله-، فالقرآن هو كلام الله بلفظه ومعناه، {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [سورة التوبة:٦] فأضافه إلى الرسول الملائكي تارة، وإلى الرسول البشري تارة باعتبار أنهما مبلغان عن الله.

{ذِي قُوَّةٍ} كقوله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} أي شديد الخلْق، شديد البطش والفعل، {عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} أي له مكانة عند الله -عز وجل- ومنزلة رفيعة، {مُطَاعٍ ثَمَّ} أي له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة: {مُطَاعٍ ثَمَّ} أي: في السماوات يعني هو ليس من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

مطاع ثم: أي مطاع بين الملائكة، مطاع في الملأ الأعلى -صلى الله عليه وسلم-، وقوله هنا: **هو ليس من أفناد الملائكة**، الأفناد جمع الفَنَد، هذه المادة تدل على القوة والشدة، الشديد القوي، ولكن السياق الذي ذكرها فيه ابن كثير -رحمه الله- كأنه يقصد بذلك: **ليس من أفناد الملائكة**، يعني ليس من آحاد الملائكة، ليس من

أفراد الملائكة، إنما هو أعظم الملائكة وأشرف الملائكة، وليس من أفراد الملائكة، هكذا أراد، والله تعالى أعلم.

وفي بعض الطبعات: **من أفناء** يعني لا يُعلم من هو، يعني هو ليس مجهولاً، وليس ممن لا يعرف؛ لأن أفناد هنا تحتاج إلى تخريج كما ذكرت أن السياق يدل على أنه استعملها يريد ليس من أفراد الملائكة، وإلا فأصل المادة يدل على الشدة والقوة، فكنت أعجب من استعمال ابن كثير -رحمه الله- لهذه اللفظة هنا **ليس من أفناد الملائكة** ليس من أشداء الملائكة وأقوياء الملائكة، هكذا لو أردنا أن نفسرها بمعناها، لكن وجدت لذلك مساغاً أنه لربما استعملت هذه الكلمة بهذا السياق ليس من آحاد الناس، ليس من أفراد الناس أو نحو ذلك، لكن ليس هو معناها الأصلي، فكونها أفناء هذا هو المناسب، يعني هو من رؤساء الملائكة، ليس من أفناء، بالهمزة وليس بالدال.

وقوله: {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:٢١] "ثَمّ" هذه ظرف مكان للبعيد، {مُطَاعٍ ثَمَّ} مطاع في السماوات، أمين فيها أي على ما ائتمنه الله -عز وجل- عليه من الوحي، وما جعله أميناً عليه {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} ليست هذه "ثُم"، وإنما "ثَم" بمعنى هناك، وابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا الموضع بكلام جيد فيه إشارات جميلة وهذه الصفات التي ذكرها الله، وما تدل عليه، فقال -رحمه الله تعالى-: "ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة قولُ الله –سبحانه- بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد كريماً، ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم، والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- كريم جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين، وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}، وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موالٍ لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومُوادٌّ له وناصر، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [سورة التحريم:٤]، ومن كان هذا القوي وليه ومن أنصاره وأعوانه، ومعلمه فهو المهدي المنصور، والله هاديه وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدٍّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب له القوي

عليه الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً، معظماً، ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات، وهذا يدل على عظمة شأن المرسِل والرسول والرسالة والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي، المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مُهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية"[٤].

هذا الكلام الذي ترونه كل صفة استخرج منها معاني، وربط ذلك بحال النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: إذا كان الذي يأتيه بالوحي بهذه المثابة فينبغي أن يكون هذا الرسول الذي اختير لذلك أن يكون أيضاً بهذه الأمانة والشرف وما إلى ذلك، وهذا الجزء هو الذي يسمونه بالتفسير الإشاري -هذا الجزء الأخير-، والتفسير الإشاري غالبه وعامته لا يصح -كلام الصوفية وما أشبه ذلك-؛ لأنه لا يستند إلى قاعدة، أو طريقة من طُرق الاستنباط، ولكن يوجد منه أشياء من قبيل الشيء بالشيء يذكر، النظير بالنظير، الاعتبار، المقايسة، يذكره ابن كثير، وابن القيم، وابن تيمية، والسعدي وأمثال هؤلاء، دعنا من الصوفية، هذه أمثلة قليلة جداً جميلة مفيدة، وذكرت لكم منها قول شيخ الإسلام وابن القيم في وصف القرآن بأنه {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٤] قالوا: ينبغي إذا كان الذي في السماء بهذه المثابة أن يكون الذي في الأرض بهذه المثابة، لا يمسه إلا المطهرون.

بل قال شيخ الإسلام وابن القيم: إذا كان هذا القرآن بهذه المثابة أنه {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١٥-١٦]، و{لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [سورة الواقعة:٧٩]: فكذلك معانيه لا تدخل إلا في القلوب الطيبة، لا تدخل إلا في القلوب الزاكية، هذا كله من قبيل التفسير الإشاري وليس من قبيل التفسير بإشارة النص.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وهذا يدل على عظمة شأن المرسِل والرسول والرسالة والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي، المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مُهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية"[٥].

يعني هذا يعتبر من دلالة الاقتضاء، يقتضي كذا، وهي دلالة معروفة من أنواع المنطوق، لا إشكال فيها.

وقوله تعالى: {أَمِينٍ} صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب -عز وجل- يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً -صلى الله عليه وسلم- بقوله تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ}.

قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم.

هنا ذكرُ الصاحب يدل على معنى وهو أنهم يعرفونه تمام المعرفة، وهو أبعد ما يكون عن الجنون، وهذا الذي جاء به لا يمكن أن يصدر عن مجنون.

---

٤ - المصدر السابق (ص: ١٢٠-١٢٢).

٥ - المصدر السابق (ص: ١٢٢).

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [سورة التكوير:٢٣]، **يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله -عز وجل- على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، {بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} أي البين وهي الرؤيا الأولى التي كانت في البطحاء والمذكورة في قوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}** [سورة النجم:٥-١٠] **كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريرُه والدليلُ أن المراد بذلك جبريل -عليه السلام.**

والظاهر -والله أعلم- أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤيا وهي الأولى.

وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [سورة النجم:١٣-١٦] **فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} يعني مطلع الشمس من جهة المشرق هذا هو الأفق المبين، وإلا فإن الأفق يقال على المشرق، كما يقال أيضاً على المغرب، كل ذلك يقال له: الأفق، لكن لما قال: "المبين" دل على أنه من جهة المشرق، فهذا هو المبين الذي تُرى به الأشياء، وبعضهم يقول: بالأفق المبين يعني أقطار السماء ونواحيها كل ذلك يصدق عليه، وبنحوه قال ابن جرير -رحمه الله-، يعني لم يقيد ذلك بناحية المشرق.

وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤] **أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين أي بمتهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد أي: ببخيل بل يبذله لكل أحد، قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر، والظنين المتهم، والضنين البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد فما ضنّ به على الناس، بل نشره، وبلغه، وبذله لكل من أراده، وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد، واختار ابن جرير قراءة الضاد، قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم.**

قوله: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} بالضاد هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى بالظاء -أخت الطاء- فهذه قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، ومعنى "بضنين": ببخيل، ضن بماله، ضن بما في يده، ضن بعلمه، يعني بخل، وظنين من الظن يعني أنه متهم، ليس على علم وبينة ويقين من أمره، فالسلف فسروا هذا، وهذا كله حق، والقاعدة أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فهذه دلت على معنى، وهذه دلت على معنى، وهذا من إعجاز القرآن حيث يصرّفه الله -عز وجل- بهذه الألفاظ التي يركب الناس كلامهم من حروفها، ومع ذلك يتحداهم أن يأتوا بمثله على أي وجه كان، وكذلك أيضاً تكثُر المعاني وتتوارد، ويكون ذلك زيادة في الأحكام بتنوع هذه القراءات.

وهنا في قول قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- فما ضن به على الناس، بمعنى أن الإنسان إذا كان عنده شيء نادر، أو شيء لا وجود له عند الآخرين أنه يمسكه، يكون عزيزاً على نفسه، لا يبذله للناس، لا يسهل ذلك على نفسه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- الله أنزل عليه هذا الوحي الذي فيه السعادة في الدنيا والآخرة، ومع ذلك كان في غاية البذل والجود، فبلغ البلاغ المبين -عليه الصلاة

والسلام-، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: "ثم نزه رسوليه كليهما -أحدهما: بطريق النطق، والثاني: بطريق اللزوم- عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة، والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}، فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أداؤها من غير كتمان، وأداؤها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان، والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما -وهي قراءة الضاد- تنزيهه عن البخل، فإن الضنين هو البخيل، يقال: ضنِنتُ به أضنّ بوزن بخلتُ به أبخل"[٦].

من باب ضنِنتُ فهو أضَنّ الوصف بالضاد -أخت الصاد-، يقال: فلان أضن، وهو ضنين، يعني بخيل، أما بالظاء -أخت الطاء- فتقول: ظنَنْت كذا أظُنه، الذي هو الشك أو الريبة، أو عدم التيقن من الشيء، ظننت أظن فهو ظان يظن.

وقال -رحمه الله-: "يقال ضنِنت به أضن بوزن بخلت به أبخل ومعناه، ومنه قول جميل بن معمر:

أجودُ بمضمونِ التِّلادِ وإنني *** بسرِّكِ عمن سألني لضنينُ

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ليس بخيلاً بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم، وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا القرآن والوحي، وقال الفراء: يقول تعالى يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم"[٧].

لاحظ وهو منفوس فيه، وهو على الغيب يعني على الوحى، يعني هذا الشيء خُص به، نفيس جداً، غاية النفاسة، مع ذلك ينقله ويجود به.

وقال أيضاً -رحمه الله-: "وهذا معنى حسن جداً فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه، ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حُلواناً.

وفي معنى آخر وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن يَنتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به مقيماً عليه، مبدياً له في كل مجمع، ومعيداً منادياً به على صدقه، مُجلباً به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ بظنين بالظاء فمعناه المتهم، يقال: ظننتُ زيداً بمعنى اتهمته وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أمَا وكتابُ اللهِ لا عن شناءةٍ *** هجرتُ ولكنّ المحبَّ ظنينُ

---

٦ - المصدر السابق (ص: ١٢٤).

٧ - المصدر السابق (ص: ١٢٤-١٢٥).

المعنى وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص، وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ}، ثم قال: {وَمَا هُوَ} أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل، واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين.
أحدهما: أن الكفار لم يُبخِّلوه وإنما اتهموه"[8].

ضن يضن: يبخل، لكن العبارة التي نقلها هنا ابن القيم -رحمه الله- باعتبار أن الظنين ليس من الظن الذي هو دون اليقين، وإنما هو للتهمة، يعني معنى آخر فظنه: اتهمه، الظنين: المتهم، يعني غير الظن الذي خلاف اليقين.

وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [سورة التكوير:٢٥] أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٠-٢١٢].

وقوله تعالى: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} [سورة التكوير:٢٦] أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله -عز وجل-، كما قال الصديق -رضي الله عنه- لوفد بني حنيفة حينما قدموا مسلمين وأمرَهم فتلَوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم؟!، والله إن هذا الكلام لم يخرج من "إلٍّ" أي من إله.
وقال قتادة: فأين تذهبون أي عن كتاب الله وعن طاعته.

هكذا، فأين تذهبون يعني بعد هذا البيان أين تذهبون؟ أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما يقول الزجاج: أي مسلك تسلكون بعد هذا البيان؟.

وقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٧] أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون، {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٩]، أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

يعني هذا القرآن ذكر للعالمين، ذكر لجميع الناس، فهو مذكر لهم ثم قال: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} فهذا بدل بعض من كل، أي: ذكر للعالمين قال: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} يعني هم بعض العالمين وهم الذين آمنوا بهذا القرآن وانتفعوا به، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢]؛ لأنهم الذين ينتفعون به، فصح تخصيصهم بذلك باعتبار الانتفاع.

والأول: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}: يعني كما يقال: بالقوة مشتمل على الذكر، متضمن له، {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ}: هذا بالفعل، هو ذكرٌ بالفعل لهم؛ لأنهم عملوا بمقتضاه وانتفعوا بهداه، قال ابن القيم -رحمه الله-: "ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر مبارك، وفي موضع آخر

---

٨ - المصدر السابق (ص: ١٢٥-١٢٦).

وصفه بأنه ذو الذكر، وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكّر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب -تعالى- وأسمائه وصفاته، وأفعاله وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، وبأي الأبواب والطرق يأتي إليهم، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسَه وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه، ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه كما قال: {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:٦٣]، و[سورة الأعراف:١٧١].

وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له مَن أُنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خص به المتقين؛ فلأنهم الذين انتفعوا بذكره، وأما وصفه بأنه ذو الذكر؛ فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة"[٩].

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩] أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله -تعالى- رب العالمين.

روى سفيان الثوري عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} آخر تفسير سورة التكوير، ولله الحمد والمنة.

هذه الآية فيها إثبات المشيئة للعبد، والمشيئة للرب -تبارك وتعالى-، وأن مشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الرب -جل جلاله- {وَمَا تَشَاءُونَ} أثبت لهم المشيئة، {إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فلا يقع في ملكه إلا ما أراد وشاء خلافاً لمن نفى مشيئة العبد، وأثبت مشيئة الرب أو عكَسَ ذلك، العلماء من أهل السنة وغير أهل السنة يتكلمون على أنواع المشيئة في هذا الموضع بالكلام المعروف لكن ابن القيم له تعليق على هذه.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وقوله تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} بدل من العالمين، وهو بدل بعض من كل، وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكراً للعالم كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنصر، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه، ولابد من هذا فتأمله.

وقوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ} رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

---

٩ - المصدر السابق (ص: ١٢٨-١٢٩).

قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وُجد.

ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله تعالى بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله، فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين"[١٠].

وقال -رحمه الله-: "وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختصة بها، فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي، وعبودية الثانية: الاستعانة بالله والتوكل عليه، واللجوء إليه، واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم أن العبد لا يمكن أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: {رَبُّ الْعَالَمِينَ} ينتظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق"[١١].

العلماء كابن جرير وغيره كثير يرجحون بين القراءات ويختارون، باعتبار أن هذه القراءة مثلاً تتضمن معنى أكبر أو أوسع أو أبلغ أو يناسب السياق، أو نحو ذلك، يعني مما يجري فيه اختيار القراءة، هذا كثير في كتب التفسير، وفي غيرها أيضاً، ولا بأس به، لا إشكال بقيد وهو أن لا يكون هذا الترجيح بين القراءات بطريقة يفهم منها الحط أو الوضع أو الإزراء أو التنقص من القراءة الأخرى، وأحياناً توجد في بعض العبارات بعض المفسرين لما يرجح قراءة على قراءة أحياناً تشعر بأن هذا الترجيح يفضي إلى شيء من تنقص القراءة الأخرى، وهذا لا يجوز؛ لأنها متواترة وهذا كلام الله -عز جل-، لكن لا بأس أن يختار كأن يقول: والله أنا أختار قراءة {ملِك يوم الدين} باعتبار أن الملِك يكون ملِكاً ومالكاً، فهو أبلغ من المالك، أرجّح هذه القراءة، لا إشكال.

لكن تبقى القراءة الثانية قراءة متواترة، والأحسن عند التفسير أن يذكر معنى هذا وهذا، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، يكون هذا من جملة التفسير على أوجه القراءات، فلو أنه اختار إحدى القراءات وقال: أنا أرجح هذه وهي تدل على المعنى الفلاني لا إشكال، لكن بحيث لا يكون ذلك يفهم منه انتقاص القراءة الأخرى.

فما تجدونه في كتب التفسير أحياناً من ترجيح لإحدى القراءات بما يشعر بالحط من الأخرى هذا لا يصح، أما مجرد الترجيح فلا إشكال لاعتبارات معينة في المعنى، هكذا يُفهم مما ذَكر مما قرأت هنا أنه يأتي لهذا المعنى وهذا المعنى، اقرأه كاملاً يعني كأنها مادة أخرى، يمكن أن يرجع في هذا إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس، فهو الذي يبين أصل المادة هل ترجع إلى أصل واحد أو إلى أصلين.

معنى {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} يعني بعد هذا البيان والإيضاح أي طريق تسلكون؟ ماذا عسى أن تقولوا؟ كما تقول لمن توضح له، وتبين بياناً يجلّي الحق، ولا يدع فيه لبساً أو غموضاً، تقول له: فأين تذهب؟ فأين تذهبون بعد هذا

---

١٠ - المصدر السابق (ص: ١٢٩-١٣٠).

١١ - المصدر السابق (ص:١٣٠).

البيان؟، ماذا عسى أن تقولوا؟، ماذا عسى أن تجيبوا؟، تورد الأدلة التي لا مجال معها للمكابرة، وتقول: فأين تذهب بعد ذلك؟، أين تذهبون بعد هذه الأدلة؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الانفطار

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [سورة التكوير:١٥-١٨]، أي: أُقسمُ بالخنس وهي -كما سبق- النجوم أو الكواكب، أو كل ما يصدق عليه ذلك، فيدخل فيه بقر الوحش والظباء، وإن كان السياق بالنجوم.

فهي الموصوفة بهذه الأوصاف، الجوار الكنس التي تجري، لا تتوقف، وهي أيضاً كنس بمعنى أنها تكنِس وتذهب، لا تُرى ولا تُشاهد، يذهب ضوءها لغلبة ضوء الشمس.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، يعني أقبل أو أدبر، أو أقسم به بإحدى حالتيه الإقبال أو الإدبار، {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} ظهر وبدأت أنواره.

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [سورة التكوير:١٩] هذا هو المقسم عليه، وهذا الرسول الكريم هو الرسول الملائكي، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وصفه الله بهذه الأوصاف، كريم في نفسه، كريم في خلقته، حسن المنظر، حسن الهيئة، جامع لأوصاف الكمالات الظاهرة والباطنة.

{ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [سورة التكوير:٢٠]، وهو قوي ممكّن عند الله -تبارك وتعالى-، تطيعه الملائكة، مطاع ثم أمين.

{وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [سورة التكوير:٢٢]، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو نبي مرسل يوحى إليه، أبعد ما يكون عن أوصاف المجانين.

{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [سورة التكوير:٢٣] رأى الملك بالأفق المبين ناحية المشرق مطلع الشمس {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤] يعني لا يبخل في البلاغ فهو يجد ويجتهد ويبذل العلم والوحي، وما علمه الله -تبارك وتعالى-، {وما هو على الغيبب بظنين} يعني بمتهم، على القراءتين.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [سورة التكوير:٢٥]، يعني هذا الذي جاء به هذا الملك الذي هو بهذه الصفة أبعد ما يكون عن الشياطين وعن مختلقاتهم، فأين تذهبون بعد هذا كله، وماذا عسى أن تقولوا فيه؟.

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٧] فهو تذكير لكل أحد، ولكن لما كان الذين ينتفعون به هم فئة من الناس وهم المتقون كما قال الله -عز وجل-: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢] قال: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٨]، فهو ذكر لمن شاء أن يستقيم من الناس، لمن أقبل عليه، وهذا ظاهر في أن الذي ينتفع بالقرآن ويعتبر ويتعظ هو من يقبل على هذا القرآن، وكلما كان إقبال العبد عليه أعظم وأكثر كان ذلك أدعى لفتح مغاليقه وكنوزه وخزائنه، وهذا أمر مشاهد.

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩]، لما قال: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} أخبر أن هذه المشيئة لا تخرج عن مشيئة الله -تبارك وتعالى- فهو ولي التوفيق، ومن حرم التوفيق والهداية لم تزده هذه الآيات إلا فساداً ورجساً وكفراً، والله أعلم.

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير].

سورة الانفطار من السور النازلة في مكة، وهي أيضاً تتحدث عن يوم القيامة ومشاهده، وما يحصل فيه من الأهوال والأوجال، وتخاطب الكافرين، تخاطب هذا الإنسان المعرض الكافر المكذب الغافل، تخاطبه بخطاب يقول الله –عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [سورة الإنفطار:٦] هذا الرب الذي صرفك بهذا التصريف، وخلقك هذا الخلق هو القادر الذي لا يعجز عن إعادتك من جديد وعن مؤاخذتك ومحاسبتك، فكل ذلك يرجع إلى أصل هذا الموضوع الذي هو اليوم الآخر.

روى النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أفتان أنت يا معاذ، أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟))[1]، وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، و لكن ذكر "إذا السماء انفطرت" في أفراد النسائي، وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت))[2].

هنا إذا أردنا أن نقسم السورة إلى موضوعات ونقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} هذا ابتداء موضوع جديد، وكذلك ما يتعلق بقوله: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ} الخ يكون محمل ذلك على الآيات الأولى التي فيها مشاهد القيامة كما يقوله بعضهم، لكن إذا قيل باعتبار ما سبق: إن ذلك يرتبط جميعاً بيوم القيامة فالسورة كلها تدور حول هذا الموضوع، لكن المشاهد الواضحة الصريحة هي في الآيات الخمس الأولى.

---

١ - رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب القراءة في العشاء الآخرة بسبح اسم ربك الأعلى، برقم (٩٩٧).

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة إذا الشمس كورت، برقم (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند، برقم (٤٩٣٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٣).

{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الانفطار:١-١٢].

يقول تعالى: إذا السماء انفطرت أي انشقت كما قال تعالى: {السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ} [سورة المزمل:١٨].

كما في الآيات السابقة إذا السماء انشقت، فالانشقاق فسر بالانفطار، وهكذا الانفطار بالانشقاق، انفطرت أي انشقت، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ}، **أي تساقطت.**

هكذا أيضاً عبر ابن جرير -رحمه الله-، بعضهم يقول: تساقطت متفرقة؛ لأن لفظة انتثرت تدل على هذا، تدل على التفرق.

{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها.**

وهكذا كما سبق أيضاً بحيث إن هذه البحار يفجر بعضها على بعض فتصير بحراً واحداً، تمتلئ بهذا الاعتبار كما يقول ابن جرير: فَجّر الله بعضها في بعض فمَلأ جميعها، يعني صارت بحراً واحداً ممتلئاً

{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} **قال ابن عباس: بحثت، وقال السدي: تُبعثَر تُحرك فيخرج من فيها.**

بعثرت هنا يقول: **قال ابن عباس: بحثت، والسدي: تُبعثَر تُحرك فيخرج من فيها،** فكلمة البعثرة: بعثر المتاع، بعثر القبر يعني قلبه، بعثر ترابه، بعثر المتاع قلبه جعل أعلاه أسفله فهذا أصل معناها، يعني أثيرت هذه القبور كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، هذا الذي عليه الجمهور تبعثر هذه القبور: تحرك، تقلب، يستخرج ما فيها من الموتى.

وبعضهم يقول كالفراء: أخرج ما فيها من الذهب والفضة وما إلى ذلك، وأن هذا من أشراط الساعة، وهذا بعيد، وهو يقصد بذلك أن هذه القبور فيها دفائن من الذهب والفضة مما كان يوصي به الميت أو يضعه أهل الميت معه في قبره إما اعتقاداً أو لوصية أو لعادة جارية لدى بعض الطوائف أو الأمم، ولكن هذا بعيد أن يكون هو المراد ببعثرة القبور.

ولكن لو أنه قيل: إن هذا من جملة ما يستخرج، يعني يستخرج كل ما فيها من الموتى والدفائن لكان له وجه، أما أن يحمل المعنى على هذا فهذا فيه بعد، والله أعلم.

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}، **أي إذا كان هذا حصل هذا.**

يعني هذا جواب ما سبق، جواب إذا في المذكورات {إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} ما الذي يحصل {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}، هنا "علمت نفس" جاء بصيغة التنكير لإفادة العموم الذي يؤخذ من الإطلاق، لأن الإطلاق فيه نوع عموم من جهة شموله، فيه شمول بحيث يصدق على هذا أو هذا أو هذا أو هذا، فكل نفس ستعلم ذلك، تعلم ما قدمت وأخرت، وما الذي قدمته وأخرته، بعض أهل العلم يقول: ما قدمت وأخرت من خير وشر، ما قدمت من خير وشر، وما أخرت

يعني بعد الموت ما الذي أخره من بعده؟ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن سن بالإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فهذا يكون مما أخره هذا الإنسان الذي ابتدع بدعة فصار الناس يعملون بها، فأسس ضلالة، أسس غواية، فصار ذلك سارياً وجارياً في الناس بعد موته، فهذا مما أخره، فلا يزال الإثم يتصل به حيناً بعد حين، فلهذا له رجحان بهذا الاعتبار، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وقال به قبله من التابعين محمد بن كعب القرظي، مع أن بعض السلف يقولون: علمت نفس ما قدمت وأخرت يعني مما فعله الإنسان في سالف أيامه من المعاصي، وما أخر لآخرته من الطاعات التي يبتغي بها وجه الله -تبارك وتعالى- هكذا قال قتادة، والواقع أن ذلك يمكن أن يصدق عليه جميعاً مما قدم، وإن نظر إلى الجزاء فكل ذلك مما أخر بهذا الاعتبار ولا يختص بالحسنة فيفرق بينهما.

وبعض السلف يقولون -كعكرمة وقتادة وابن زيد-: ما قدم من فرض وأخر من فرض، وهذا يمكن أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، وهكذا قول قتادة يمكن أن يحمل على أنه من قبيل التفسير بالمثال، وبعضهم يقول: ما قدمت وأخرت: يعني يعلم أعماله جميعاً المتقدمة والمتأخرة، المتقدمة أي القديمة، والمتأخرة يعني الجديدة، كل ذلك يعلمه، لكن يمكن أن يصدق على هذا جميعا أنه مما قدم، وقول ابن جرير أقرب هذه الأقوال -والله تعالى أعلم-، ولا يبعد أن يكون المراد سواء ما قدم أو أخر يعني أوائل الأعمال وأواخر الأعمال، بمعنى أنه ذكر الطرفين لينتظم ذلك جميع الأعمال، كما هو معلوم أن العرب من عادتها أن تذكر طرفي الشيء وتريد الجميع، كما يقال: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [سورة الشعراء:٢٨] يعني: جميع الخلق والكون، وهكذا ما كان من نظائر ذلك {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى} [سورة النجم:٢٥] يعني الأمر كله لله، والخلق كله لله، وهذا كثير.

هنا قال: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} أي: إذا كان هذا حصل هذا، يقصد هذا هو الجواب، لكن في الأصل ما ذكر معنى قدمت وأخرت، وهذا العلم يحصل عند العلم التفصيلي، يحصل عند نشر الصحف، يعلم ما قدم وأخر وعندها يقولون: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} [سورة الكهف:٤٩]، ويكون بهذا الاعتبار كل الأعمال، ما قدمت وأخرت، أوائل الأعمال وأواخر الأعمال، الصغائر والكبائر، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة:٦]، {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً} الصغار والكبار كل ذلك أحصاه الله على عباده.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [سورة الإنفطار:٦] هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم: غره كرمه، بل المعنى في هذه الآية ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟، كما جاء في الحديث: يقول الله تعالى يوم القيامة: ((يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟))[٣]، وقد

---

٣ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٨٩٩)، وفي المعجم الأوسط، برقم (٤٤٩).

حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ} قلنا: ظاهره العموم، وكذلك في هذا الحديث: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ فهذا ظاهره العموم، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: المقصود به الإنسان الكافر، حمله ابن جرير على هذا، ويمكن أن يقال باعتبار أن هذه الآيات المكية إذا ذكر فيها الإنسان فإن ذلك يتوجه إلى الكافر {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}، وقول من قال: إن هذا تلقين من الله لعبده الحجة غير صحيح، يعني يقولون: لقنه حجته بحيث يكون الجواب غرني كرمك وحلمك، وهذا ليس بمراد كما فهمه هؤلاء.

هنا ما غرك بي يا ابن آدم؟، ماذا أجبت المرسلين؟ هذا يقوله على سبيل الحساب، ما الذي غرك بربك -تبارك وتعالى- وقد أرسل إليك الرسل، وأنزل عليك الكتب، وبين لك بياناً لا يبقى معه في الحق لبس، وهذه مشاهد القيامة كل ذلك والحساب وصحائف الأعمال كل هذا قد قصه الله -تبارك وتعالى- في سورة مفصلة، فما الذي غرك؟.

أما هذه الرواية التي ذكرها البغوي عن الكلبي ومقاتل بسبب النزول أنه في الأسود بن شُريق بالضم، وبعضهم يضبطه بالفتح، ويبدو لي أن هذا الضبط أنه مما ينقله بعضهم عن بعض، يعني الذين ينقلون الكتب لا تعتمد على ضبطهم كثيراً، ما تُضبط الأسماء والمواضع وحتى الأفعال وما إلى ذلك، تضبط بطريقة غير صحيحة، هذا كثير، ولذلك المخرج في هذا أنك تنظر في الكتب التي تُعنى بالضبط، بحيث يضبط ذلك بالحروف، فإن لم تجد فانظر قارن وانظر إلى الكتب التي حققها علماء ضابطون متقنون وانظر في ضبطهم لها، تتبّع الواحد بعد الواحد، وانظر ما الذي يتواطئون عليه.

أما الكتب التي بإشراف الناشر والطبعات التجارية وما إلى ذلك هذا الكثير أن الضبط يكون فيها غير صحيح، وهذا يحتاج إلى المقارنة والتتبع والتريث فيها، لا تعجل بمجرد ما تراه في كتاب أو تراه في كتابين أو نحو ذلك تقول: هذا هو الضبط لهذه الكلمة، وإنما يُرجع إلى الأصول في البداية التي تُعنى بضبط أسماء الأعلام، وبالنسبة لأسماء المواضع إذا أشكلت عليك ممكن أن ترجع لكتب معجم البلدان تضبطها.

وبالنسبة للأفعال ترجع إلى أصولها في اللغة ومواد الاشتقاق والتصريف وما إلى ذلك، فتجد ضبطها لأنك في كثير من الأحيان للأسف ستجد الكتاب قد وُضعت علامات الشكل من أوله إلى آخره، على كل حرف فيه، والأخطاء تكاد توجد في كل سطر في بعض الكتب.

وقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [سورة الإنفطار:٧] **أي: ما غرك بالرب الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال؟ روى الإمام أحمد عن بُسر بن جحاش القرشي.**

بعضهم يضبطها جِحاش بالكسر، لكن الصحيح بسر بن جَحّاش بفتح الجيم وتشديد الحاء.

روى الإمام أحمد عن بُسر بن جحاش القرشي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: ((قال الله -عز وجل-: يا ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى

إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنّى أوان الصدقة؟))[٤]، **وكذا رواه ابن ماجه.**

الحديث صحيح، وبعض أهل العلم يحسنه، والشيخ ناصر الدين الألباني صححه، **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}** هنا قال: **{خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}** أي: جعلك سوياً مستقيماً معتدل القائمة يعني منتصب القامة في أحسن الهيئات والأشكال، خلقك: أوجدك، فسواك: يعني جعلك مخلوقاً سوياً -بعد أن كنت نطفة- تسمع وتبصر وتعقل، فعدلك: جعلك معتدلاً، يقول عطاء: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة، ومقاتل يقول: عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين، يعني جعل لك كل عضو في موضعه بصفته التي تصلح لمثلك، والتي تناسب، ويحصل بها المقصود.

يعني انظر مثلا هذه اليد، انظر إلى أطرافها البنان، انظر إلى الأصابع ومواضعها لو كان هذا الإبهام في غير هذا الموضع كيف يستطيع الإنسان أن يأخذ ويعطي ويربط الحبل وما إلى ذلك؟، فجعل كل شيء في موضعه، كل أصبع في موضعه المناسب، وهذه شد أطرافها بالأظفار لو كانت من غير أظفار تكون عرضة، وتكون ضعيفة، وانظر إلى ما يحصل للإنسان إذا قص أظفاره قصاً يستأصلها به إلى حد المنابت أو اللحم يبقى يعاني، وربما يستعين بغيره بالأشياء الدقيقة، وانظر إلى العينين أين وضعهما، وكيف عدلها، وكيف جعلها غائرة في هذا التجويف العظمي لحمايتها، وانظر إلى الأنف كيف جعل الموضع الذي ينفذ منه النفس إلى أسفل بحيث لا يتلقى الأتربة والغبار مباشرة، وكيف جعله قائماً بهذه الصفة، وجعل له منخرين، وانظر إلى الآذان جعلها في الناحيتين؛ ليسمع الأصوات من جميع النواحي، لم يجعلها في الأمام، وجعل هذه الحواس الأساسية المهمة كلها في الرأس الذي هو مثل الرادار الذي هو أعلى شيء؛ من أجل أن يرى، لو كانت هذه في ركبته مثلا أو نحو ذلك تكون عرضة للتلف، وكذلك هو لا يبصر بها كما يبصر الآن، كيف جعل رأسه إلى أعلى وجعله منتصب القامة، كيف جعل القدمين أطول من اليدين، وجعل القدمين بصفة بحيث تصلح للمشي، وكيف صوّر القدم من نواحيها بطريقة يمكن معها الجري والمشي بسهولة ومزاولة الأعمال والحركة، وهكذا الركب في انثنائها إلى ناحية واحدة، لو جعلها تنثني من جميع الجهات تجد الإنسان إذا مشى ينطرح ويسقط، لا يستطيع أن يمشي مشي وئيداً فضلاً عن مشيه بسرعة، وكل هذا، خلقك فسواك: سوى خلقك، فعدلك: جعلك معتدلاً في الهيئة، في الخلقة، بهذه الصورة، فاوت بينه و بين سائر الحيوانات، وجعل لكلٍّ ما يصلح لمثله.

يعني هذه السباع جعل لها في أيديها مخالب وفي أرجلها، وجعلها بطريقة الماعز بحيث تستطيع صعود الجبال والمشي عليها كأنما تمشي على الأرض المستوية، فلا تسقط، وهكذا في تركيب الإنسان وأسنانه وفمه وما إلى ذلك، واللسان هذه القطعة اللحمية العضلية، سهلة الحركة بحيث يستطيع الإنسان أن يمضغ الطعام، لو كانت قطعة عظم كيف يستطيع أن يتكلم وأن يفصح عما في نفسه؟، الغدد اللعابية في نواحي الفم وجميع

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٧٨٤٢)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨١٤٤).

اللسان بحيث تفرز هذا اللعاب فيستطيع مضغ الطعام وتليينه، ولا تفرز دائماً، فتجمد إذا لم يكن ثمة حاجة إليها، ولكن تفرز بقدر يسير، فيبقى الفم مبتلاً ولا يجف اللسان فلا يستطيع الإنسان الكلام، فإذا جاء الطعام بدأت تلقائياً بالإفراز.

خلقك فسواك فعدلك فهذا كله عدل خلقك بهذه الطريقة، وهذا الموضع به قراءتان "عدَلك"، و"عدّلك" قراءة الجمهور بالتشديد، وقراءة عاصم وحمزة والكسائي كما نقرأ بالتخفيف، "فعدّلك" -على قراءة التشديد- معناه جعل أعضاءك متعادلة، اليد في الموضع المناسب بالقدر المناسب في طيها وحركتها وبسطها وقبضها ومفاصلها، والرأس في الموضع المناسب، والحجم المناسب، وهكذا الرجل وما إلى ذلك.

انظر هذه المخلوقات مثلاً عندما تنظر إلى رأس الفيل هو يناسب حجمه، رأس الظبي يناسب حجمه، رأس الإنسان، فهنا جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها فيتناسب في الخلقة.

والقراءة الثانية "فعدَلك" يعني صرفك، أو أمالك إلى أي هيئة أراد أن يجعلك عليها، هذا طويل، هذا قصير، هذا جميل، هذا ذميم، هذا ينزع إلى أخواله، هذا ينزع إلى أعمامه، هذا ينزع إلى أمه، هذا ينزع إلى أبيه في الشبه، فالله -تبارك وتعالى- عدَله إلى الصورة التي يريدها، ويختارها، فالإنسان لا يختار صورته، ولذلك لا يُمدح الإنسان بما لا يد له فيه بما يتصل بالشكر، الذي يشكر هو الخالق لا يقال: نشكرك على جمالك وحسن صورتك، الله -تبارك وتعالى- هو الذي يُشكر، ولا يذم الإنسان بهذا؛ لأن ذم الصنعة هو ذم للصانع، ولكن إنما يثنى على الإنسان ويشكر وما إلى ذلك على الأمور الاختيارية، الكمالات الاختيارية، وهي التي ينبغي أن تتوجه العناية إليها.

إذاً الله -تبارك وتعالى- صرفه بهذه الطريقة، هاتان قراءتان كل قراءة لها معنى، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، يعني ما جعلوهما بمعنى واحد، يعني ما قالوا مثلاً: التشديد هنا لمجرد التكثير "عدّلك" لا، قالوا: هذه لها معنى، وهذه لها معنى، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله- فرّق بين المعنيين، والقراءتان بمنزلة الآيتين إذا كان لكل قراءة معنى يخصها.

وقوله: والأرض لها وئيدُ، يعني تصوير حال الإنسان حينما يمشي بقوة بثقة بنفسه ويضرب الأرض، وربما يتعاظم ويتبختر أو يغتر بقوته وعافيته وبناء جسده، وللأرض منك وئيد، والإنسان إذا مشى قد لا نسمع إذا مشى على أرض دون أرض، لكن يُسمع في ممشاه على أرض تصدر صوتاً، ولكن لو أردنا أن نسمع بمكبرات دقيقة حتى على المشي على الأرض اللينة سيكون له صوت بلا شك، لكن المقصود هنا تصوير حال الإنسان حينما يتعاظم، ويثق بنفسه، ويمشي وينسى أن الله –عز وجل- هو الذي صرفه هذا التصريف، وإلا كان بلا أرجل، كان مُقعداً، خُلق وهو ذو عاهة، كان قطعة من اللحم بلا عظام لا يستطيع الحركة، ولا الانتقال من جانب إلى جانب، وهذا شيء يصادفك أحياناً، تشاهده وأنت تمشي في الطريق، تمر بممشى سترى بعض الهيئات، تتذكر هذه الهيئات، تتذكر **{وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}** [سورة الإسراء:٣٧] أحياناً ترى إنساناً قد امتلأ جسده عافية، وفُتلت عضلاته، ولبس لباساً يكشف عن هذه العضلات، وتجده يمشي يقابل الآخرين في الممشى، يقولون: هناك طريقة معينة تَجعل ناحية الجدار أو نحو ذلك على يسارك وتمشي، وأن هذا هو المناسب للقانون والحركة وما إلى ذلك.

تجد البعض يخالف، يمشي معاكساً للناس، ويمشي بطريقة معينة، إذا رأيته تتذكر قول الله تعالى: **{وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}** [سورة الإسراء:٣٧].

يعني أنا لما أرى مثل هذا الإنسان أتذكر حينما كان نطفة، وأتذكر حينما يشيب ويضعف، كما أرى في بعض الصور في مقابلات أحياناً يذكر تاريخ الإنسان وصوراً له في أيام الشباب تقول: ما هذه القوة؟!، وتنظره أيام الشيخوخة، وهو في غاية الذبول، والضعف والمسكنة.

ولهذا نقل عن علي بن الحسين زين العابدين -رحمه الله- أنه كان إذا مشى لا يَخطِر بيديه، يعني كان إذا مشى لا يحرك يديه، وإنما يكاد يلصقهما بجنبيه من تواضعه في المشية.

والعجيب أن بعض المتعاظمين تراه في حال من القوة ولو أصابه أدنى الأشياء لكان في غاية الهلع والجزع والضعف والانكسار، فالقوة ليست قوة البدن، القوة قوة القلب، فإذا وجد معها قوة البدن وجُعل ذلك في محابّ الله -عز وجل- فهذا هو المحمود، أما إذا جُعل للتكبر والتعاظم يمشي الإنسان يستعرض ويقصد بهذا معاني فاسدة أحياناً كجذب أنظار النساء، أو التغرير بهن، بعض هؤلاء قد يذهب إلى بعض الأسواق وقد سمعت من بعض من يعرف بعض هؤلاء الناس -كان معهم وتاب- يقول: بعضهم يتدرب في صالات من أجل أن يكون مفتول العضلات، ويتعاطى بعض الأشياء من الأدوية وكذا تجعل عضلاته تتفتق، ثم يلبس ملابس تبدي هذا كله ويذهب إلى الأسواق، ويمشي ليس له حاجة، لا يشتري ولا يبيع، فقط من أجل التغرير بالنساء، يغرر بهن أنه مفتول العضلات، والله خلقه من نطفة ثم من علقة!.

وقوله تعالى: {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} [سورة الإنفطار:٨] **قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة "أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟، قال: حمر، قال: فهل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنّى أتاها ذلك، قال: ((عسى أن يكون نزعه عرق))، قال: ((وهذا عسى أن يكون نزعه عرق))"**[٥].

جمل أورق: الوُرْقة لون معروف يقال: مثل حمام الحرم، جمل أورق ضرب إلى السواد، فهنا **{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ}** **قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم**، هذا متعلق بقوله: **{رَكَّبَكَ}** يعني ركبك في أي صورة شاء من الصور المختلفة، فتكون هذه الجملة كالبيان لقوله: "عدَلك" أو "عدّلك" في أي صورة ما شاء ركبك، صرفك هذا التصريف، عدلك بهذه الطريقة، وركبك في أي صورة شاءها.

يحتمل أن يتعلق قوله: "في أي صورة" بمحذوف على أنه حال، أي ركبك حاصلاً في أي صورة، في أي هيئة، والصورة هي الهيئة الظاهرة، وجاء عن مكحول: ذكر أو أنثى في صورة رجل أو امرأة، لكن هذا قد يقال فيما يدخل في المعنى لكنه يكون كالتفسير بالمثال، على أي هيئة ظاهرة شاء أن يخلقك عليها.

---

٥ - رواه مسلم، في أوائل كتاب اللعان، برقم (١٥٠٠).

ولذلك الإنسان يحمد الله –عز وجل- على أن جعله في هذه الهيئة التي كرمه بها، وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [سورة السجدة:٧] كل خلق الله حسن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى هذا الإنسان هذا الرجل الذي يقول: إني أحمش الساقين، فقال: كل خلق الله حسن.

فإذا نظرت إلى الإنسان الذميم نحن نقول: كل خلق الله حسن، لو قيل لهذا الإنسان الذميم: هل لك أن تبدل صورتك بأجمل صورة من الظباء أو المها التي يضرب بها المثل كما سبق عند قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} [سورة ص:٢٣]، قول من قال: النعجة هي المرأة، قلنا هناك: ليس المقصود العرب عند من قال هذا.

بعضهم يقول: نعاج حقيقية، لكن الذين قالوا: النعجة هي المرأة ما قصدوا بهذا النعاج التي من الضأن إطلاقاً، وإنما المعروف في كلام العرب في شعرهم ونثرهم ومدحهم للنساء الجميلات أنهم يقصدون بها المها، يسمونها نعجة، واقرءوا أدب العرب وأشعار العرب وكلام العرب في مدح النساء، وعيون النساء، عيون المها، فالمها عند العرب يسمونها نعجة، وجاء هذا في أشعارهم شعر عنترة وغيره، فلا يقصدون أنها من الضأن.

لذلك بعض الناس يستنكر أو يستنكف إذا رأى أقوال بعض السلف في تفسير الآية: النعجة هي المرأة الزوجة، يقول: ما هذا التفسير؟ هم يقصدون مدحاً ولم يقصدوا بذلك الذم، فهنا لو قيل لهذا الإنسان الذميم في خلقته: هل لك في أن تكون في أجمل صورة مها؟ نضع لك رأس المها ويكون رأساً لك؟، لا أحد يقبل.

فصورة الإنسان لا يمكن أن تقاس بغيره، لو قيل: أضع لك رأس أسد، ما يمكن أن يقبل وسيكون في غاية القبح، لكن الأسد رأسه بالنسبة إليه في غاية الجمال، الطاووس رأسه بالنسبة إليه في غاية الجمال.

أحسنَ كلَّ شيء خلَقَه، القرد وهو القرد هذا القبيح في هيئته مناسب له كقرد؛ ولذلك تجد الناس يتجمهرون يقفون بسياراتهم إذا رأوا شيئاً من ذلك، ويعطونه طعامهم وطعام الأطفال، ولا يملون من النظر إليه والتعجب منه، هو جميل في نظرهم كقرد، ولهذا قال الشاعر:

قد يُكرَم القردُ إعجاباً بخسّتهِ *** وقد يُهان لفرْطِ النخوةِ الأسدُ

الأسد إذا تسامع الناس فيه أخذتهم الحمية والنخوة كل واحد يبحث عن حصى، والثاني عصا، والثالث بندقية، ويجرون كل واحد يريد أن يفتك به، وأن يقتله شر قتلة، لكن القرد يعطونه الطعام، ويشترون طعاماً ويعطونه، حتى يستنفذوا ما بأيديهم وما بجيوبهم، والأسد هذا ما يفعل به!.

وقوله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} [سورة الإنفطار:٩]، أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب.

يعني "كلا" هذه عرفنا أنها للردع والزجر "كلا"، قال ذلك ردعاً لهم وزجراً للاغترار بكرم الله تعالى، وجعلِ ذلك ذريعة للكفر والجراءة عليه والمعصية، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ليس الأمر أيها الكافرون كما تقولون من أنكم على الحق في عبادتكم لغير الله –عز وجل-، ولكنكم تكذبون، مثل هذه الأشياء هي مقدرة

يعني يقدرها العلماء، كلا ليس الأمر كما زعمتم، اغتررتم بكرم الله -عز وجل-، أو ليس الأمر كما تقولون من أنكم على حق، فهي أمورٌ محتملة، يعني مقدرة، يعني هي ردعٌ وزجرٌ.

لكن هنا قال: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} هذا يشعر أن المقصود بالإنسان {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} أنه الكافر، فأعقبه بهذا {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} فهذا من القرآن المكي الذي يخاطب هؤلاء المكذبين.

يعني هذه قرينة على أن المراد الإنسان الكافر.

قوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الإنفطار:١٠-١٢] **يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم.**

ابن القيم -رحمه الله- علق على احترام هؤلاء الملائكة، {كِرَامًا كَاتِبِينَ} على الأقل إذا كان الإنسان يتحاشى أن يفعل هذا أمام من يعظمه ويقدره ويحترمه فلقدر هؤلاء الكرام الكاتبين يفعل القبائح إذا خلا.

قال ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}: "أَيِ اسْتَحْيُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظِينَ الْكِرَامِ وَأَكْرِمُوهُمْ، وَأَجِلُّوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ، وَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَأَذَّى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدَيْهِ -وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ- فَمَا الظَّنُّ بِأَذَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ"[٦].

بعض أهل العلم يأخذ من هذا مسائل، هل يجوز للإنسان النوم عارياً؟ ما الحكم؟ ينام وحده عارياً هذا موجود عند بعض الكفار في العصر الحديث، موجود أيضاً قديماً، وبعضهم يفعل ذلك لتوفير اللباس بحيث لا يبلى، هذا موجود في أفريقيا، وأيضا هو عادة قديمة عند الروس سرت عند بعض المسلمين في الجمهوريات التي احتلتها روسيا، عادات سيئة، فبعض أهل العلم يقول: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ} يستحي من هؤلاء الملائكة.

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [سورة الانفطار:١٣-١٩]، **يخبر الله تعالى عما يصير إليه الأبرار من النعيم، وهم الذي أطاعوا الله -عز وجل- ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم لهذا قال:** {يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ} **أي يوم الحساب والجزاء والقيامة.**

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}، جيء بـــ في الدالة على الظرفية يعني هم في نعيم أو في جحيم موغلون به، وهذا يكون في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة في عرصات القيامة، وفي المآل النهائي في الجنة أو في النار، إما نعيم وإما عذاب، وابن القيم له تعليق جيد في هذا حول هذا المعنى الذي ذكرته آنفاً.

---

٦ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:١٠٨-١٠٩).

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وَلَا تَحْسَب أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ"[٧].

باعتبار إطلاق ما قال: إن الأبرار لفي نعيم في الدنيا أو في الجنة، وإن الفجار لفي جحيم في النار، وإنما أطلق والأصل بقاء ذلك على أعم معانيه.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وَلَا تَحْسَب أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ كَذَلِكَ -أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ- فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ، وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟"[٨].

ليس بالضرورة أن يكون في أماكن جميلة، وأماكن ترف ورغد من العيش، النعيم نعيم القلب، قد يكون في حال من بحبوحة العيش لكنه في قلق دائم وشقاء ونكد وضيق.

وقال أيضاً -رحمه الله-: "وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَضِيقِ الصَّدْرِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ؟، بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ"[٩].

وهذا جزاء وفاقا، هذا القلب متى ما انصرف عن الله -عز وجل- عذب بقدر هذا الانصراف، متى ما اشتغل بغير الله من درهم أو دينار أو صورة أو غير ذلك كامرأة عذب بهذا الاشتغال بقدره ولابد، وإذا أبحر في الدنيا وغفل وانشغل بها فإنه يصيبه من الوحشة والضيق بقدر ذلك، فإذا أراد أن يجلي ذلك عنه فعليه أن يرجع إلى موطنه الذي لا يصلح إلا به ولا يسكن إلا فيه.

والمقصود بيوم الدين يعني يوم الجزاء، تقول: كما تدين تدان: تُجازَى، يعني دناهم كما دانوا: جازيناهم، فهذا يقال له: يوم الدين، يوم الجزاء هكذا أطبق المفسرون مع أن بعض المعاصرين قال: لا يمنع أن يكون المراد الدين، يعني مع يوم القيامة أن يُقصد به المعنيان الدين الذي يُكذَّب هنا، قال: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} هناك بعض المعاصرين قال: {تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} الذي بعث الله به رسوله، وتكذبون بالدين الذي هو يوم القيامة، قال تحتمل المعنيين، لكن المقصود به حتى في تلك الآية هو الجزاء {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}.

وقوله في الآية الأخرى: {يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ} يعني يوم الجزاء بلا إشكال، لكن الآية التي معنا هنا في سورة الانفطار {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} الشيخ العثيمين -رحمه الله- يقول: ما يمنع أن يكون المراد الدين الذي شرعه الله مع إثباته للمعنى الأصل الذي هو الجزاء، لكن ما رأيت هذا لغيره، وهو بناه باعتبار أن اللفظ يحتمل، ولا مانع من حمله على هذا، وهذا.

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} [سورة الإنفطار:١٦]، أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحدا.

---

٧ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:٧٦).

٨ - المرجع نفسه.

٩ - المرجع نفسه.

يعني أن عذابهم دائم مستمر، لا يخرجون من النار، لا يغيبون عنها بحال من الأحوال، ليس هناك تنفيس.

وقوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [سورة الإنفطار:١٧]، تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [سورة الإنفطار:١٨] ثم فسره بقوله: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا} [سورة الإنفطار:١٩] أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

ونذكر هاهنا حديث: ((يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئا))[١٠]، وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء، ولهذا قال: {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} كقوله: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٦]، وكقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} [سورة الفرقان:٢٦]، وكقوله: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤].

قال قتادة: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} والأمر –والله- لله ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

آخر تفسير سورة الانفطار.

ذاك اليوم لا يدعي فيه أحد شيئاً من الأمر من الملك ونحو ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا} يعني لا يستطيع أن ينفعه بنافعة ولا أن يدفع عنه ضراً قل أو كثر، الناس في الدنيا إذا أصاب أحداً منهم مكروه تداعى الناس من قراباته وأحبته، إما مسلياً وإما باذلاً لجاهه أو ماله أو نحو ذلك، يريدون التخفيف عنه ومواساته، أصابته جائحة، أصابه مرض، أمّا في الآخرة فلا تملك نفس لنفس شيئاً، لا أحد يستطيع أن يقدم لأحد شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، الأمر كله لله -تبارك وتعالى-، فإذا كان الناس بعضهم ينهض وتسمو همته للوقوف مع غيره وما أشبه ذلك ولربما يتحرى الإنسان هذا إذا كان له عشيرة وقوم، أو علائق، بعض الناس يقوّي روابط وعلائق وصلات يدخرها لحاجته، ويتصل بهذا ويتصل بذاك، أما في الآخرة فلا يوجد شيء من هذا، لا تملك نفس -أيُّ نفس- لنفس شيئاً، أيُّ نفس لا ولد ولا والد ولا قريب ولا حبيب، والأمر كله بيد الله -تبارك وتعالى-، فينبغي أن تكون الوجهة إليه، وتكون الصلة قوية به، والعمل في سبيله، والله المستعان .

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين}، برقم (٢٠٤)، وبرقم (٢٠٥).

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المطففين من الآية (1) إلى الآية (6)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ سورة الإنفطار:1-2تساقطت وانفرط نظامها وحصل لها التفرق والاندثار، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ سورة الإنفطار:3فتح بعض هذه البحار على بعض فصارت بحرًا واحدًا فامتلأت وفاضت، يقول: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ سورة الإنفطار:4يعني هذه القبور تبعثر تحرك فتُقلب، يقلب ما فيها، ويقلب ترابها فيستخرج ما فيها من الأموات، وبعضهم يقول: والدفائن من الأموال والكنوز ونحو ذلك، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ سورة الإنفطار:5هذا جواب ما سبق، أي إذا حصلت الأمور السابقة عندها تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، ما عملت في دنياها من خير وشر، وما تركت بعد موتها من سنة حسنة أو سيئة يصلها بعد موتها ثوابها أو عقابها، ويحتمل أن يكون المعنى عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ يعلم جميع أعماله المتقدم والمتأخر، أوائل الأعمال وأواخر الأعمال وما بين ذلك، يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ سورة الإنفطار:6ما الذي غرك بهذا الرب المتصف بهذه الصفة؟ ما الذي صرفك عن عبادته وأقعدك عن طاعته؟ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ الإنفطار:7أوجدك من العدم فَسَوَّاكَجعلك في هذا الخلق السوي، فَعَدَلَكَ جعلك معتدلاً في خلقتك وهيئتك وأبعاضك وأعضائك، وعدلك فجعلك كيف شاء من الأشباه والأشكال والهيئات؛ ولهذا قال: فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَسورة الإنفطار:8،اختار لك الصورة التي قضى بها عن علم وحكمة ولم يكن لك اختيار في شيء من ذلك قلّ أو كثر.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ سورة الإنفطار:9ليس الأمر كما تقولون بأنه لا بعث ولا جزاء بل الأمر بخلاف ذلك، تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ يعني بيوم الجزاء والحساب، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ سورة الإنفطار:10وهم الملائكة الكرام الذين جاء تفسيرهم فيما بعده بقوله: كِرَامًا كَاتِبِينَ سورة الإنفطار:11يكتبون ويحصون مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ سورة ق:18، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ سورة الإنفطار:12كل ما يصدر عنكم من الأقوال والأفعال لا يخفى عليهم منه شيء، فهم لا يغفلون عن ذلك، ولا ينصرفون عنه، ولا يشتغلون بغيره، ولا يذهلهم عمل عن عمل، ولا يحتاجون إلى نوم كما يحتاجه البشر بل هم راصدون لمن كلفوا بحفظه لا يصدر عنه شيء إلا كتبوه، قد جاء في الحديث: أن الملَك يمهل العبد إذا وقع الخطأ ست ساعات لا يكتب ذلك عليه، فإن تاب ورجع لم يُكتب عليه شيء، وإن لم يتب كتبت عليه خطيئة([1]).

سورة المطففين من السور التي اختلف السلف فمن بعدهم في موضع نزولها هل نزلت في مكة أو نزلت في المدينة؟، وهنا يقول: هي مدينة، ولكن هذا ليس محل اتفاق، وبعض أهل العلم يقول بأنها نازلة في المدينة، وهو مروي عن جماعة من السلف كالحسن وعكرمة، بل جاء عن مقاتل وفي رواية عن ابن عباس أنها أول سورة نزلت في المدينة

سورة المطففين من السور التي اختلف السلف فمن بعدهم في موضع نزولها هل نزلت في مكة أو نزلت في المدينة؟، وهنا يقول: هي مدينة، ولكن هذا ليس محل اتفاق، وبعض أهل العلم يقول بأنها نازلة في المدينة، وهو مروي عن جماعة من السلف كالحسن وعكرمة، بل جاء عن مقاتل وفي رواية عن ابن عباس أنها أول سورة نزلت في المدينة

، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو مروي عن قتادة أيضًا: أنها نازلة في المدينة إلا ثماني آيات من قوله: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ سورة المطففين:29-30إلى آخر السورة، وكأن هذا لوحظ فيه المعنى، يعني باعتبار أن هذه الأشياء من الاستهزاء والسخرية كانت تحصل في مكة في وقت الاستضعاف، ومسألة النزول يعني مكان النزول والحكم بأنها نزلت بالمدينة أو مكة أو يستثنى كذا هذا لا ينظر فيه إلى المعنى، وإنما ينظر فيه إلى الرواية فقط، ويوجد كثيرًا في كتب التفسير: هذه السورة نازلة بمكة مثلاً إلا كذا، لماذا؟ بناء على معنى فهمه كأن يكون مثلاً في هذه السورة المكية ذكرٌ للمنافقين مثلاً، يقول: المنافقون وُجدوا في المدينة إذًا هذه الآية مستثناة، نقول: هذا فيه نظر، ويجاب عنه بجوابين:

الجواب الأول: وهو جواب عام أن يقال: قد تنزل الآية قبل تقرير حكمها -الحكم ليس مقصودًا به الأمر والنهي والحلال والحرام- يعني مقتضاها، فتكون نازلة سابقة للحدث، وهذا له أمثلة.

والجواب الثاني: خاص وهو أن يقال مثلاً: إن القول بأن النفاق ما وجد إلا في المدينة فيه نظر، ليس بدقيق، صحيح هذا المشهور، لكنه فيه نظر، فعندنا ما يدل على أن النفاق وجد من وقت مبكر، ما الدليل على هذا؟

أدلة من القرآن يغفل أكثر الناس عنها في سورة الابتلاء سورة العنكبوت، وهي سورة مكية قال الله فيها من ذكر المنافقين: وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ سورة العنكبوت:11فهي سورة مكية، وعندنا سورة مدنية تذكر أمرًا يشبه هذا، يعني المشهور أن النفاق ما وجد إلا بعد غزوة بدر أليس كذلك؟ لما قوي المسلمون بعد غزوة بدر دخل عبد الله بن أبي ومن معه في الإسلام ظاهرًا، قال: ما أرى هذا

إلا أمرًا قد توجّه، فأرى أن تدخلوا فيه ظاهرًا، لكن عندنا في قوله تعالى في سورة الأنفال وهي سورة مدنية: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ سورة الأحزاب:12يتحدث عن غزوة بدر إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ سورة الأنفال:49، يعني هم ذهبوا لمواجهة المشركين في بدر، فمَن هؤلاء في ذلك الوقت الذي يقولون: غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ مثلما قال المنافقون في آخر الغزوات –غزوة تبوك–: تظنون جلاد بني الأصفر كجلاد العرب، كأنّا نراكم موثقين بالحبال، قد يقول قائل: وكيف يوجد النفاق في وقت الاستضعاف؟، ما حاجة هذا في وقت الأذى في مكة أو أوائل الهجرة قبل غزوة بدر ما حاجته إلى النفاق؟ يقال: فيه حاجة، هناك من يفسد، هناك من يتربص، هناك ضعفاء إيمان، لو تتبعتم الروايات: نافق فلان، دعني أضرب عنق هذا المنافق، إنه منافق، كلمات قيلت في ناس من المسلمين، كل هذا، والأحاديث الأخرى: (يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه لعرض من الدنيا)([2])، فدل على أن النفوس لها أحوال وتقلبات، ولذلك تجدون في التاريخ بعد الهزائم أو دخول العدو بلاد المسلمين يقولون: ونَجَمَ النفاق، يعني الآن مرحلة ضعف فيبدأ التلون وتغير المواقف كما قال الله –عز وجل– عن المنافقين: وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ سورة الأحزاب:14يعني الكفر، لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا هؤلاء منافقون لكن أيضًا يوجد من ضعفاء الإيمان من تتحول مواقفهم وتتغير بحسب المقام من الشدة والضعف والقوة والنصر والهزيمة، فتجد الرجل لربما في أول النهار من أهل الإيمان الصادقين غير متهم، وفي آخر النهار تحول إلى شيء من النفاق إما الكلي وإما الجزئي، ولذلك النفاق له شعب وهو أنواع، منه ما هو عملي، ومنه ما هو اعتقادي، فقد يحصل عند بعض الناس شك، قد يحصل عندهم انتكاسة، يقول: لم نرَ شيئًا مما وُعدنا به من النصر والتمكين، فينتكس ويركب مركبًا آخر، ولربما تحول إلى داعية إلى هذه الضلالة التي قد تكون إلحادًا، وقد تكون مذهبًا كفرياً يرتكبه الإنسان ويتبجح به ويسخر من أهل الإيمان، ويحمد الشيطان الذي أنقذه مما كان عليه من الهدى، فيرى أنه الآن عرف، والآن تبصّر، والآن فتّح، والآن فهم، وقبل ذلك ما كان يفهم ولا يبصر، فيحصل للشخص الواحد تحولات، وهناك مساحة رمادية بين المؤمن والكافر، تجد بعض الناس يقترب منها، وبعض الناس يلج فيها، واعتبرْ هذا في كل زمان، ترى التحولات في هذا الإنسان نقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فالإنسان قد يزيغ قلبه، فالمقصود أنه لا يلزم أن يكون هذا المنافق متربصًا وعدوًّا منذ البداية، لا، قد يكون من الصادقين الضعفاء فيحصل له شيء من التحول والتغير إما تدريجًا وإما دفعة واحدة لضعفه، ولهذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يتألف أقوامًا فيعطيهم ما لا يعطي

غيرهم، لماذا؟ حفظًا لإيمانهم، ويكل آخرين إلى ما عرف عنهم من ثبات الإيمان وقوته وصدقه، فليس بالضرورة أن يكون النفاق إنما وجد في المدينة في مرحلة القوة، لا، ليس كذلك بل الضعف مراحل لها نفاق ولها منافقون، فالقول بأن الآية نازلة في كذا بناء على المعنى أو هذا الموضوع كان موجودًا في المدينة، أو ذكر الأساطير كان موجودًا في مكة، نسبة القرآن إلى الأساطير هذا من قول المشركين في مكة، إذًا سورة المطففين من السور النازلة في مكة لذكر الأساطير فيها، نقول: ليس بالضرورة، ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أنها مكية وهو مروي عن ابن مسعود -رضي الله عنه- والضحاك ومقاتل، واختاره القرطبي.

وبعضهم يقول: نزلت بين مكة والمدينة كما جاء عن جابر بن زيد والكلبي، وابن عاشور استحسن هذا القول، وقال: هذا جيد؛ لأن التطفيف كان فاشيًا في مكة والمدينة فنزوله بين القريتين -بين البلدتين- أمر مقبول، وأضاف إلى ذلك كون النبي -صلى الله عليه وسلم- يهاجر إلى المدينة من مكة فيكون تهيئة لها لتكون محلا صالحًا لهجرته فتتنقى وتتطهر من هذا، لكن هذا الكلام ليس بذاك، وليست هذه تعليلات، ويكفينا الرواية الثابتة الصحيحة في سبب النزول التي تدل على أنها نزلت بعد مهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة لمّا كانوا أسوأ الناس كيلاً فنزلت الآية، إذًا سبب النزول يدل على أنها نازلة في المدينة، أما باقي التعليلات مراعاة للمعنى فمثل هذا لا يقال، ولا يعتبر، وله أمثلة كثيرة جدًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ سورة المطففين:1-6.

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك([3]).

هذه الراوية ثابتة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومبنى القول بأن السورة نازلة بمكة أو المدينة على الرواية، فهذا سبب نزول، وأسباب النزول لها حكم الرفع، يقول: لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، إذًا لا حاجة أن يقال: إنها نازلة بمكة بناء على المعنى، أو نزلت بين مكة والمدينة باعتبار كذا، فهي نازلة في المدينة.

والمراد بالتطفيف هاهنا: البَخْس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قَضَاهم؛ ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلَاك وهو الويل بقوله: الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ أي: من الناس، يَسْتَوْفُونَ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَأي: يُنقصون، والأحسن أن يجعل "كالوا" و "وزنوا" متعديًا، ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر في قوله: "كالوا"، و"وزنوا"، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ويل هذه كلمة للوعيد والتهديد هذا هو المشهور، وابن جرير يفسرها عادة بأنها وادٍ في جهنم.

قوله: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ المطفِّف هو المنقص، وحقيقة التطفيف هو الإنقاص من الوزن أو الكيل شيئًا طفيفًا، يعني شيئًا نزرًا يسيرًا، ما يقال للكثير، وإنما يقال لليسير، للقليل، هذا هو التطفيف؛ لأنه مأخوذ من الطَّفِّ وهو القليل، فهذا المطفف هو المقلل المنقص حق صاحبه إذا وزن له أو كاله، وهذا كما يقول الزجاج: إنه عُبر عنه بذلك؛ لأنه لا يكاد يُنقص إلا شيئًا يسيرًا لا يذكر -نسأل الله العافية-، هذا نوع من السرقة، والاختلاس، لكن هذا التصرف جمع ثلاث خصال، هذه يقال: إنها أول سورة نازلة في المدينة، وبعضهم يقول: آخر سورة نازلة في مكة، وعرفنا أنها نازلة في المدينة وهي من أوائل ما نزل في المدينة، لكن الرواية في سبب النزول تدل على أنها نزلت حينما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- فذلك يدل على أنها مبدأ الهجرة، يكون التعليم والتوجيه والتربية في أول هجرته -صلى الله عليه وسلم- "ويل للمطففين" فدل هذا على أن هذا الأمر مع أنه إنما يطفف شيئًا يسيرًا لكن هذا ليس بالشيء السهل، هذه قضية في غاية الأهمية، فهذا الصنيع فيه ظلم للناس، وأكل لأموال الناس بالباطل، وفيه تدليس وفيه لؤم؛ لأنه لا يفعل ذلك -يعني يطفف حبات ويطفف كذا- إلا إنسان بهذه المثابة، مهين، فهو خلاف المروءة وخلاف العدل وخلاف الأمانة وخلاف الصدق في هذا الصنيع، ولذلك لمّا يذكر العلماء مسألة وقوع المعصية من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هل تقع أو لا تقع؟ فالجمهور الذين يقولون: تقع منهم الصغائر يستثنون ما يسمى بصغائر الخسة، وما المقصود بها؟ قالوا كالتطفيف؛ لأن هذا ما يصدر إلا من نفس مهينة، ما يمكن أن يصدر من النفوس الكريمة أبدًا، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أكرم الناس نفسًا، هذا التصرف فيه هذه المفاسد مجتمعة، إضافة إلى أن هذا التصرف في المكاييل والموازين التي ذُكرت هذا أمر يهدد الاقتصاد برمته؛ لأن مبنى الاقتصاد في معايش الناس الضرورية فيما يتصل بالمكاييل والموازين، ابدأ من الذهب إلى آخر الأقوات أليست

الدنانير توزن، والأقوات تكال؟ فهذا مبنى اقتصاد الناس على هذا الوزن والكيل، فإذا حصل به التلاعب فهذا يؤذن بخراب وفساد الذمم، وفقد الثقة بحيث لا يثق أحد بأحد، هو يشعر بأنه يُخدع وأن الذي أمامه يريد أن يتلاعب به دون أن يشعر، والإنسان قد يُعطِي زيادة على الثمن ولكنه لا يحتمل أبدًا أن يخدع ويستغفل، فهذا الذي يطفف هو يستغفل الناس، والإنسان إذا عرف من هذا البائع أنه قد استغفله ولو بشيء يسير أحيانًا بالحساب يعطيه رقمًا غير الذي ظهر في الشاشة، حينما يحسب عليه من أجل أن يدخل المبلغ عن طريق الآلة فيكتشف أنه زاد ريالًا واحدًا لربما يفوت له هذا لكن لا يذهب إليه ثانية؛ لأنه لا يثق به، ولا يقبل الناس أبدا الاستغفال، فهذا التصرف يجعل الناس يفقدون الثقة ببعضهم، وللأسف هذا التطفيف لا يقتصر لا اليوم ولا في السابق على ما يكال ويوزن بل حتى فيما يُذرع ويُعد، لكن ذكر المكاييل والموازين باعتبار أنها هي الغالب، وعليها أقوات الناس وأساس المعايش فهنا ذكر المكيال والميزان، وإلا فلو أنه الآن البنّاء أو الصباغ أو المساح أو غير ذلك يقول: أنا أبني لك المتر بسعر كذا، أو أصبغ لك هذا الجدار المتر بسعر كذا، وقد يعطيك بسعر أقل من الناس لكنه يزيد في التمتير والذرع، ويعطيك مساحة غير حقيقية، أنت ما بجالس معه تعد بالسنتيمتر، وتظن أنك كاسب ورابح وأنك وجدت سعرًا أقل من السوق، وأنت مغلوب في الواقع بكثير، وهكذا تذهب إلى مكان لشراء سجاد مثلاً، تذهب إلى مكان بسيط، ومتواضع، والصنف نفسه يقول لك: هذا المتر بمائة وثلاثين ريالًا مثلاً، وتذهب إلى مكان فاخر ويقول لك: المتر بمائتين وعشرين، الصنف نفسه، وقد سألت أحد هؤلاء أصحاب الأماكن الفاخرة صاحب المحل سألته -المالك-: هذا الصنف يوجد عند الأماكن الثانية البسيطة بأقل من هذا بكثير، فأجابني بثلاث إجابات أذكر واحدة منها وهي التي يتعلق بها الموضوع قال: هذا يعطيك بهذا السعر ويذهب ويمتِّر ويزيد عليك في التمتير، لكن نحن نحسب لك بالسنتي ما يحتاج أن تكون موجودًا، وقد جربتُ هذا مرة مع أحد هؤلاء الذين يعطون أسعارًا أقل من غيرهم حينما يقوم بدهان طلاء أو نحو ذلك، فلما انتهى من العمل قلت للمهندس: متِّر لأجل أن نحاسب الرجل هذا، فأبى الدهان كل الإباء، وغضب أشد الغضب، لماذا تغضب؟! نحن نريد أن نعطيك حقك، الآن، انتهيتَ من عملك خلاص قبل أن تذهب، قال: لا، أنا عندي التمتير، وأخرج ورقة، هذا تمتيرك أنت لكن عندنا هذا المهندس سيمتر وأنت واقف معه لماذا أنت منزعج؟ فغضب ورفض رفضًا قاطعًا، فقلت للمهندس: متر ونعطي الرجل حقه، فلمّا متَّر إذا الفرق شاسع جدًا يعني يبلغ الآلاف، وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، فيعطيك سعرًا أقل من الآخرين ولكنه في الواقع يأخذ لربما ضعف ما يأخذه الآخرون، تطفيف وغش بطرق عجيبة وخفية بحيث الإنسان لا يشعر بهذا،

ويحتاج إلى معرفة وحذق، وهذا في غاية الكذب والتدليس، فن في التدليس والغش وأخذ حقوق الناس بطرق لا يشعرون بها، التمر تجد سيارة واقفة في زاوية أو ركن أو نحو ذلك تنظر إلى التاريخ في موسم التمر في بدايته، تاريخ هذا الأسبوع مطبوع مختوم ختم المصنع تقرأ وأنت مطمئن ما بعد هذا شيء، أنا ليس لي شأن بكلامه هو متى هذا قديم أو جديد، حق العام أو حق هذه السنة، أنا أقرأ وأعرف، تقرأ تاريخ هذا الأسبوع ما تكلمه ولا بحرف، ويبيع لك الكرتون بمائة وعشرين، مائة وثلاثين، الواقع أنه من تعبئة الأسبوع هذا، والمصنع وضع التاريخ لكن الثمرة حق العام، ويباع هذا التمر عند المصنع الكرتون بخمسين ريالًا، فيأخذه هذا ويقف في الطرقات وغيرها، وهو موجود بكثرة، فالشاهد أن هذا يكتشفه الإنسان؟ هذا ما يكتشفه إلا من يعرف مصنعًا أو صاحب مصانع أو يزور معارض المصانع فيخبرونه يقولون له: اختر، كله تاريخ هذا الأسبوع لكن هذا ثمرة العام الماضي، وهذا ثمرة هذه السنة، هذا بخمسين وهذا بمائة وعشرين عند المصنع، سعر الجملة، يعني لو أخذ هذا سعر الجملة حق هذه السنة ما يمكن أن يبيعها بمائة وعشرين، سيبيعها بمائة وثمانين بمائتين، ثمرة هذه السنة، والكل مكتوب عليه تاريخ الأسبوع نفسه، لكن أصحاب المصانع في المعارض التي عندهم يبيعون في الجملة يقول لك: هذه ثمرة العام، وهذه ثمرة هذه السنة، نصف القيمة، يقول لك: نحن خزنّاها في مبردات هي ثمرة العام، طيب ما الفرق؟ الفرق أن هذه بعد مدة بسيطة تسود وتتغير، لكن الآن جميلة جدًا ويشتري الإنسان وهو مطمئن، تاريخ هذا الأسبوع، وهو من العام الماضي، كيف يكتشف هذا؟ ولو شئتم لأعطيتكم من الأمثلة فيها العجائب من هذا العالم، إن جئت في عالم الأدوية، إن جئت في عالم الطيب، إن جئت في عالم البناء، وغير ذلك..، أنا أسمع من الناس من هؤلاء الذين يأتون، أحيانًا يكون أجيرًا أو كذا يقول: نحن نزاول عملًا، وأنا مضغوط عليّ أنا لابدّ أن أقوم بهذا وإلا صاحب العمل سيقول لي: اذهب، فيذكر أشياء عجيبة جدًا في الدواء هذا الذي نشتريه أو في أي شأن، تذهب إلى أماكن المواد الصحية أو الخلاطات أو غير ذلك تكون حافظًا اسم نوعية ممتازة يقول لك: نعم هذا هو وفعلاً مكتوب عليه لكن يتبين أنه ليس الأمر كذلك، بل هذا صار يصنع بأماكن أخرى بجودة أقل، وأمور كثيرة جدًا، فمسألة التطفيف حينما يأتي الوعيد في سورة في أوائل ما نزل بالمدينة وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ المسألة ليست سهلة؛ ولذلك انظروا: هذه القضايا قد تبدو دقيقة في نظر بعض الناس، لكن جاءت العناية بها في القرآن، وفي أوائل ما نزل، تأسيس، تشريع في المدينة، أول ما ينزل هذا، قضايا تطفيف، تهتمون بأمور يسيرة، بأمور تافهة!، هي تافهة في نظرك أنت، لكن الله عليم حكيم؛ ولهذا نحن نأخذ الشريعة من مأخذها الصحيح، انظروا إلى قول

النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفَنَّ الله بين وجوهكم)([4])، يعني بين قلوبكم، في مسألة تسوية صفوف، هي قضية سهلة يقول لك: أنت تهتم بهذه الأشياء؟ انظر إلى مصالح الناس الكلية، هموم المجتمع، هكذا يقول بعض الشباب، معاوية -رضي الله عنه- لما أخذ خصلة من شعر على المنبر عندما جاء إلى المدينة أخذها من يد حارس معه -شرطي- أخذها وقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ أين فقهاؤكم؟ وذكر الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هلاك بني إسرائيل بمثل هذه، هلاك بني إسرائيل لما تساهلوا في وصل الشعر -شعر النساء-، فبعض الناس يقول: أنتم ما عندكم إلا كشف الوجه والحجاب وتاركون الهموم الكبرى للمجتمع، ويسخرون ممن يتكلم على المسائل الشرعية في الطهارة والعبادة وما إلى ذلك، وهؤلاء ما فهموا حقيقة الدين، إذا كان (لتسونّ صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم) وخصلة شعر سبب هلاك لبني إسرائيل، فهذه الأمور التي يظن أنها حقيرة قد تكون هي سببًا لمصائب تقع للأمة، لغلبة العدو، لهلاك، لعقوبات عامة، فالدين يؤخذ كاملاً كما أنزله الله -عز وجل-، وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ثم هذا التطفيف ليس فقط في حبوب وكذا، أيضًا التطفيف المعنوي الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، يطالب الآخرين بحقوقه ولا يعطي الآخرين حقهم، الرجل يستنطف ويستنظف حقه من المرأة، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لا يفوت ولا يتنازل ولا يغضي ولا يسامح، ولكنه مضيع لحقوقها، فيحاسبها حسابًا عسيرًا على أدنى تقصير، وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ هذا لا يجوز، قد يطالِب الأولاد بأن يؤدوا حقوقه كاملة، ولكنه مضيع لهم، وقل مثل ذلك في المرأة التي قد يحصل منها هذا، تطالب الزوج وهي مضيعة، وقل مثل هذا في علاقة الناس ببعضهم، يطالب بحقوقه وأن يقوموا بواجبه وما إلى ذلك وهو مضيع حقوقهم، الإنسان ينظر إلى نفسه قبل أن ينظر إلى الآخرين، كذلك في المدح والذم إذا كان الإنسان يتكلم عمن يحبه أو نحو ذلك أطراه وأعطاه الأوصاف الكبار العظام وجعله الإمام الأوحد، وإذا تكلم فيمن يبغض بخسه تمامًا وجعله في أسفل سافلين، لا علم ولا دين ولا عمل، مسخه مسخًا كاملاً، وقد يكون أثنى عليه قبل ذلك، لكن لما اختلف معه أعوذ بالله، يعني هذه الصفة من صفات اليهود كما حدث لابن سلام -رضي الله تعالى عنه- عندما جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأراد أن يسلم، فأسلم وطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكتم ذلك عليه حتى يسأل اليهود عنه، فسألهم عنه فقالوا: هو خيرنا وابن خيرنا، وحبرنا، فلما قال: أرأيتم إن أسلم؟ قالوا: معاذ الله، فلما رأوه أسلم قالوا: شرُّنا وابن شرنا([5])، في مجلس واحد! فهذا من التطفيف، بخس الناس أشياءهم وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ سورة الشعراء:183الإنسان يتكلم بعلم وعدل، ويتقي الله فيما يقوله مع من يحب ومن يكره بحال الرضا والغضب، كلمة الحق يلزمها دائمًا ولا يجوز أن

يبخس أحدًا؛ لأنه لا يحبه، فيقول: فلان ليس عنده علم، فلان فاجر، فلان منافق، فهذا لا يجوز -نسأل الله العافية-، وهو من التطفيف.

الإنسان يتكلم بعلم وعدل، ويتقي الله فيما يقوله مع من يحب ومن يكره بحال الرضا والغضب، كلمة الحق يلزمها دائمًا ولا يجوز أن يبخس أحدًا؛ لأنه لا يحبه، فيقول: فلان ليس عنده علم، فلان فاجر، فلان منافق، فهذا لا يجوز -نسأل الله العافية-، وهو من التطفيف.

هنا وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ لاحظ كلام ابن كثير هنا الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ أي: من الناس يَسْتَوْفُونَ يأخذ حقه كاملاً، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَيعني يُنقصون، يقول: والأحسن أن يجعل "كالوا" و"وزنوا" متعديًا ويكون هم في محل نصب، يعني تكون كلمة واحدة كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ تكون هم في محل نصب يعني هي مفعول به، يكون الضمير في محل نصب على أنه مفعول به "كالوهم" كالَه، "كالوهم" كلمة واحدة تكتب كما هي في الرسم، فهذا هو الأحسن، كلمة واحدة فيكون هم مفعولاً به، ويقول:ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر، يعني ما في مفعول به هنا، غير مذكور، مؤكدًا للمستتر في قوله: كَالُوهُمْ أي: واو الجماعة، وواو الجماعة في محل رفع فاعل "كال"، فهنا يقول: ضميرًا مؤكدًا للمستتر في قوله: "كالوا ووزنوا" يعني يصير للتوكيد، "كالوا" من الذي كال؟ هم، "أو وزنوا هم"، هذا قال به بعض أهل العلم، يقول: ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه وكلاهما متقارب، يعني يصير الوقف على "كالوا"، وهذا يصلح للذين يبحثون عن الإغراب في قضايا الوقف من بعض القراء، يبتكرون أحيانًا أشياء لا وجه لها إطلاقًا، خطأ تُفسد المعنى، على الأقل هذا قيل وإن كان خلاف الراجح، ويدل على أنه خلاف الراجح الرسم العثماني، فهو أحد المرجحات، فهي جاءت على أساس أنها متصلة "كالوهم"، وهو مفعول به، لكن الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ، "وإذا كالوا" ويقف "هم يُخسرون" يعني فتنة، وابن جرير يقول: هذه لغة الحجاز، يعني يقولون: كلتك الطعام، ما يحتاج أن يقوله معدى بحرف، ما يقول: كلت لك، وزنت لك، أهل الحجاز يقولون: كلتك الطعام ووزنتك الطعام، وَإِذَا كَالُوهُمْ عداه بنفسه، أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، ومعنى يُخْسِرُونَ يعني يُنقصون.

وقد أمر الله- تعالى- بالوفاء في الكيل والميزان، فقال تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا سورة الإسراء:35، وقال: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا سورة الأنعام:152، وقال: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ سورة الرحمن:9.

وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

أمة عوقبت، وكان من أبرز جرائمهم التطفيف.

ثم قال تعالى متوعدا لهم: أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ أي: ما يخافُ أولائك من البعث والقيام بين يَدَي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل نارًا حامية؟

هنا كما ذكرنا في التدبر في التعليل أو الربط بين الجنايات والتضييع لحقوق الله وما إلى ذلك بمسألة التكذيب أو عدم الإيمان بالآخرة، وقلنا: الإيمان باليوم الآخر هو المحرك الذي يحمل الإنسان على الامتثال، فهنا الله –تبارك وتعالى– يقول: أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ كيف يجترئون على هذا؟ ألا يعلمون أن الله سيحاسبهم ويجازيهم على هذا العمل؟.

يظنون: يعلمون ويوقنون، مع أن بعض المفسرين يقول: ألا يدور في خلدهم؟.

وقوله تعالى: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ أي: يقومون حفاة عراة غُرْلا في موقف صعب حَرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَحتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه) رواه البخاري([6])، من حديث مالك وعبد الله بن عون، كلاهما عن نافع، به، ورواه مسلم([7])

روى الإمام أحمد عن المقداد –يعني ابن الأسود الكندي– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (إذا كان يومُ القيامة أدنِيَت الشمس من العباد، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العَرق كقَدْر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه، ومنهم من يلجمه إلجامًا)([8])، رواه مسلم والترمذي.

وفي سنن أبي داود: "أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة".

وعن ابن مسعود: "يقومون أربعين سنة رافعي رءوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد، قد ألجم العرق بَرّهم وفاجرهم";([9]).

وعن ابن عمر: "يقومون مائة سنة"([10])، رواهما ابن جرير.

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يفتتح قيام الليل يكبر عشرًا، ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: (اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني)، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة([11])

هذه الأحاديث هي تفسر قوله -تبارك وتعالى-: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ يعني يقومون للجزاء والحساب، لحكمه وقضائه في ذلك اليوم الذي يحشر الناس فيه حفاة عراة غُرْلاً، ويحصل لهم من الشدة والعرق وتدنو الشمس يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وهذا أولى وأقرب من قول من قال: إنهم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين، فهذا فيه بُعد، وإنما يقومون لحكمه وقضائه، لفصله، أو للحساب، وقوله هنا: في سنن أبي داود أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يتعوذ من ضيق المُقام يوم القيامة الحديث الذي ورد فيه هو الحديث الذي ذكره عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، ومثل هذا يستفتح به الصلاة، يعني مثل الآن صلاة التراويح يمكن أن يدعو الإنسان دعاء الاستفتاح بهذا، والحديث ثابت صحيح، يكبر عشرًا ويحمد عشرًا ويسبح عشرًا ويستغفر عشرًا، ويقول: اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة، وجاء في بعض الروايات صريحًا: (وأعوذ بك من ضيق المقام يوم القيامة).

---

[1][1] - رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي أمامة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة)، برقم (7765)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (1209).

[2] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (118).

[3] - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب التوقي في الكيل والوزن، برقم (2223)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (11654).

[4] – رواه البخاري، كتاب الأذان، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، برقم (717)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، برقم (436).

[5] – رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم –صلوات الله عليه– وذريته، برقم (3329)، وأحمد في المسند، برقم (12057)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

[6] – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ المطففين:6، برقم (4938).

[7] – رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، برقم (2862).

[8] – رواه أحمد في المسند، برقم (23813)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، برقم (2864)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، برقم (2421).

[9] – تفسير الطبري (281/24).

[10] – المصدر السابق.

[11] – رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، برقم (766)، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب ذكر ما يستفتح به القيام، برقم (1617)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل، برقم (1356)، وقال الشيخ الألباني: "إسناده حسن صحيح"، صحيح أبي داود، برقم (742).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المطففين من الآية (7) إلى الآية (17)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ فتوعد الله -عز وجل- المطففين الذين وصفهم بقوله: الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ سورة المطففين:2-3فهؤلاء الذين يبخسون في المكاييل والموازين وينقصون حقوق الناس، وإذا كان الكيل أو الوزن لهم استوفوا وأخذوا ذلك على وجه التمام والكمال، فلا يقبلون النقص لأنفسهم مع أنهم يفعلون ذلك مع غيرهم، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ سورة المطففين:4ألا يعلم هؤلاء أنهم سيبعثون فيحاسبون ويجازون على هذه الأعمال لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ليوم شديد الأهوال والأوجال، يجزي الله -عز وجل- فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، هذا اليوم يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ سورة المطففين:6في ذلك اليوم العظيم يقف الناس وقوفًا طويلاً في أرض المحشر، أو يقفون للحساب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين، ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ سورة المطففين:7-17.

يقول تعالى: حقًّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فِعِّيل من السَّجن، وهو الضيق.

السِّجن هو الموضع والمكان الذي يُسجن فيه، والسَّجن هو المصدر، فكتابهم في سجين، هنا قال: فِعِّيل من السَّجن وهو الضيق، فهل السَّجن هو الضيق؟ أصل هذه المادة يرجع إلى الضيق، فالسِّجن هو الموضع، والسَّجن هو المصدر يعني الذي هو الفعل نفسه من السَّجن، فهل هنا قال: من السِّجن أو من السَّجن؟ مأواهم لفي سجين فِعِّيل من السَّجن وهو الضيق أو السِّجن؟.

الأصل في رد الكلمات إلى أصولها أن يُرجع إلى المصادر، وبعضهم يرجعها إلى أصل الفعل ثلاثيًا أو رباعيًا أو غير ذلك، فهنا إذا أردنا أن نرجعها إلى الأصل وهو المصدر نقول: سجين من السَّجن فِعِّيل صيغة مبالغة من السَّجن، لكن هل السَّجن هو الضيق؟ السَّجن هو المصدر يراد به الفعل فعل السَّجن، لكن أصل مادة السَّجن ترجع إلى الضيق، والله أعلم.

الأصل في رد الكلمات إلى أصولها أن يُرجع إلى المصادر، وبعضهم يرجعها إلى أصل الفعل ثلاثيًا أو رباعيًا أو غير ذلك، فهنا إذا أردنا أن نرجعها إلى الأصل وهو المصدر نقول: سجين من السَّجن فِعِّيل صيغة مبالغة من السَّجن، لكن هل السَّجن هو الضيق؟ السَّجن هو المصدر يراد به الفعل فعل السَّجن، لكن أصل مادة السَّجن ترجع إلى الضيق، والله أعلم.

كما يقال: فسِّيق وشرِّيب وخمِّير وسكِّير، ونحو ذلك.
وبنحو هذا يقول ابن جرير -رحمه الله.
ولهذا عظَّم أمره فقال تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ؟ أي: هو أمر عظيم، وسِجن مقيم وعذاب أليم.
ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل: يقول الله -عز وجل- في روح الكافر:(اكتبوا كتابه في سجين)[1].
وسجين: هي تحت الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سورة التين:5-6، وقال هاهنا: كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا سورة الفرقان:13.
هنا قوله -تبارك وتعالى-: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وسيأتي أيضًا في كتاب الأبرار "لفي عليين" فهنا قابل بين الكتابين كتاب الأبرار وكتاب الفجار، فهل المراد بسجين موضع مكان، أو المراد أن هذا اسم للكتاب أو للديوان كما يقال أيضًا في عليين يرِد هذا السؤال هل عليون موضع أو أنه ديوان مسمى بهذا الاسم؟، فإذا تأملت عبارات المفسرين تجد هنا يقول ابن كثير: أي: أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ثم ذكر قول من قال:تحت الأرض السابعة إلى آخره، وهذا الذي اختاره ابن جرير، ويستدل لهذا بحديث البراء: (اكتبوا كتابه في سجين) وهو تحت الأرض السابعة، يعني أن سجين تحت الأرض السابعة، أي أنه موضع يقال له: سجين على هذا القول، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك، لكن الآن هذا هو الاحتمال والقول الأول، لكن هذا ليس محل اتفاق، فبعض أهل العلم يقول: هذا اسم للكتاب الذي يدون فيه هؤلاء الفجار وأهل النار اسمه سجين، كما أن الكتاب الآخر الذي دون فيه الأبرار يسمى بعليين، يعني أن عليين علم على ذلك الكتاب، اسم علم، يقال له: عليون، وهذا يقال له: سجين، اسم للكتاب، فالله -عز وجل- قال: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ فالذين فهموا من قوله: كِتَابٌ مَرْقُومٌ أن هذا تفسير لسجين أنه كتاب، وهناك في عليين أيضًا كِتَابٌ مَرْقُومٌ ومرقوم أي مسطور، مكتوب من الرقْم الكتابة، فبعضهم يقول: هذا كتاب

جامع لأعمال أهل الشر الصادرة عنهم إلى آخره، هؤلاء الكفرة والشياطين فهذا علَم لهذا الكتاب، لكن كثيرًا من السلف فمن بعدهم يقولون: هذا موضع، ويفسرونه بنحو ما قال ابن كثير -رحمه الله- ضيق، حبس، شدة، مكان ضيق، لفي سجين، وهذا الذي مشى عليه كثير من أصحاب المعاني كالأخفش، والمبرد، والزجاج، وأيضًا قال به أبو عبيدة معمر بن المثنى، والآية تحتمل هذا وهذا، تحتمل المعنيين، وهذه الاحتمالات ستأتي في "عليين"، فقوله هنا: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ أي: مكتوب، كما يقول قتادة: رُقم لهم بشرٍّ، يعني كأنه عُلِّم بعلامة يعرف بها أنه كافر، وحتى أصل هذه المادة "سجين" اختلفوا فيها، هل النون هذه أصلية فيكون مشتقًا من السَّجن -وهو الحبس-، ويكون ذلك على سبيل المبالغة مثل ما ذكر هنا خِمِّير وسِكِّير ونحو ذلك، أو أنها بدل من اللام أي "سجيل" مشتق من السِّجل يعني الكتاب الذي يدون ويكتب به، هكذا بعضهم يقول، وهو خلاف الأصل، يعني كأن هؤلاء الذين يقولون: إن النون مبدلة من اللام، يقولون: أصل مادة سجين كتاب اسمه سجين هكذا، كأنهم يقولون: إنها غير معهودة، والواقع أنها إذا كانت من السَّجن فهي صيغة مبالغة "سِجين" ولا إشكال في هذا، وتأملوا العبارات التي نقلها ابن كثير أو بعض ما أورد كل ذلك يرجع إلى أن هذا اسم للكتاب فسره بقوله: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ هذا الكتاب اسمه سجين، دونت أسماء هؤلاء وأعمالهم في كتاب أهل الشقاء، المسمى "سجين" أو أن المقصود أن هؤلاء في موضع يقال له: سجين، يعني كُتبوا في سجين، هذا معنى كتاب الفجار، ليس هو اسم الكتاب أنهم كتبوا في سجين، وأين تقع سجين هذه؟ أكثر السلف يقولون: الأرض السابعة على اختلاف في العبارات، بعضهم يقول: تحت خد إبليس، وبعضهم يقول: تحت صخرة، لكن هؤلاء القائلين يختلفون أيضًا، منهم من يقول: هذا الكتاب موضعه هناك، وبعضهم يقول: لا، أرواحهم؛ لأن العلماء من السلف فمن بعدهم اختلفوا في أرواح الكفار أين تكون إذا ماتوا؟ يعني قبل دخول الجنة والنار، أهل الجنة، والنار لأهلها، أين تكون أرواح الكفار؟ أقوال كثيرة معروفة، ومن أكثر من تكلم بهذا وأوسع من تكلم فيه ابن القيم -رحمه الله-، فمما ذكره السلف في ذلك أن أرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة، وعليه هنا حينما قال الله -عز وجل-: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ يحتمل أن يكون سجين اسمًا لهذا الكتاب، هذا القول الأول، والقول الثاني: إن "كتاب" بمعنى أن هؤلاء كتبوا في أهل الشقاء، أين أهل الشقاء؟ في سجين، يعني أن مصيرهم سجين، هذا سجن مكان ضيق إلى آخره تكون فيه أرواح الكفار، أو أن الكتاب هذا "في سجين" موضعه في سجين، كما أن كتاب الأبرار موضعه في عليين، اتضحت الآن المناحي الثلاثة، وذلك يرجع إلى الأصل، إلى قولين في الأصل هل المراد أن "سجين" اسم للكتاب أو أنه موضع؟، الذين قالوا:

موضع هم على منحيين، طائفة يقولون: كتاب يعني كُتبوا، سيئولون، هناك مآلهم، مصيرهم، وبعضهم يقول: إن هذا الكتاب الذي كتبت فيه أعمال أهل الشقاء وأسماء أهل الشقاء موضعه في مكان يقال له: سجين تحت الأرض السابعة.

في الأصل يقول: والصحيح أن سجينًا مأخوذ من السَّجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، ثم ذكر كلاماً ثم قال أيضًا: وقوله تعالى: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ليس تفسيرًا لقوله وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد، قاله محمد بن كعب القرظي.

هذا الكلام يرجع للمعنى الذي ذكرته آنفًا أن قوله: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ليس تفسيراً لسجين.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ شيء هائل عظيم، ثم قال: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ليس بتفسير له، يعني أن هذا كُتب وفرغ منه، هذا الموضوع انتهى، يعني أن هذا المصير محتوم فكِتَابٌ مَّرْقُومٌأي: قضية فُرغ منها، كتبت، لا تبدل ولا تغير، حكم نافذ، كتاب يمضي على هؤلاء ولابدّ، هذا يسير معنا، والذين قالوا: اسم الكتاب قالوا: ما بعده يكون تفسيرًا له، كِتَابٌ مَّرْقُومٌ، ابن كثير يقول: ليس تفسيرًا لقوله: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي: مرقوم مكتوب مفروغ منهإلى آخر الكلام الذي نقل عن محمد بن كعب.

ابن جرير يقول: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ أي: مكتوب.

ثم قال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: وَيْلٌ بما أغنى عن إعادته، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار، كما يقال: ويل لفلان، وكما جاء في المسند والسنن من رواية بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (ويل للذي يُحَدِّث فيكذب ليُضحِكَ الناس، ويل له، ويل له)([2]).

وَيْلٌ كلمة تقال: للوعيد.

كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ يتوعدهم، أي كلا، ليس الأمر كما يزعمون من أنه لا بعث، إن كتابهم الذي كتبت فيه أعمالهم لَفِي سِجِّينٍ على أحد المعاني السابقة.

ثم قال تعالى مفسرًا للمكذبين الفجار الكفرة: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ أي: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ أي: معتدٍ في

أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

هكذا بعضهم يقول: إن المعتدي يعني في أفعاله، والأثيم في أقواله، والمعتدي هو كل من تجاوز ما حده الله -تبارك وتعالى- فتعدى حدود الله، أو كان متعديًا على حقوق الخلق، والأثيم كثير الآثام، قال: فلان أثيم يعني كثير الإثم، والإثم تارة يقال للفعل الذي هو سبب للإثم، وقد يقال للخمر خاصة، وقد سبق في بعض المناسبات قول الشاعر:

شربتُ الإثمَ حتى ضلَّ عقلي *** كذاك الإثمُ تذهب بالعقولِ

ويقال لنتيجة الذنب والمعصية من المؤاخذة: إثم، يقال: من يفعل كذا يأثم، هذا فيه إثم على الإنسان المؤاخذ.

وقوله: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ أي: إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ سورة النحل:24، وقال تعالى: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا سورة الفرقان:5.

يقال: أسطورة وإسطارة ويقصدون بذلك الأخبار والحكايات التي هي من جملة المختلقات، أساطير الأولين: يعني مختلقات الأولين من الأقاصيص والحكايات والأخبار التي لا سند لها ولا ثبوت، يقولون: هذا أساطير الأولين، قرآن فيه قصص، فيه أخبار.

قال الله تعالى: كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالى: كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ والرين يعتري قلوبَ الكافرين، والغَيم للأبرار، والغَين للمقربين.

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)([3])، وقال الترمذي: حسن صحيح.

إذًا هذا تفسير نبوي لـ"الران" فلا يعدل عنه إلى غيره، فهنا هؤلاء الذين كذبوا وقالوا في القرآن ما قالوا رد الله عليهم قال: كَلا يعني ليس الأمر كما يقولون في القرآن بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فالذي

حجب قلوبهم عن الإيمان هو هذا الران حيث لم يؤمنوا به مع ظهور صدقه، وهذا الران يقول: كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يعني كثرة الذنوب والخطايا غلبت على قلوبهم غمرتها وأحاطت بها فغطتها، فالذنب كما جاء في الحديث نكتة سوداء فيتكاثر ذلك على القلب حتى يسود، ومجاهد -رحمه الله- بسط كفه وقال: إذا أذنب ذنبًا انقبض القلب، فقَبض الخنصر، وإذا أذنب آخر انقبض، وإذا أذنب ذنبًا آخر انقبض، ثم بعد ذلك يُختم عليه، فمجاهد هكذا يفسر الران، أن القلب بسبب هذه الذنوب يحصل له هذا، ينقبض فلا يصل إليه شيء، لا يدخل إلى هذا القلب شيء، يختم على قلبه كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَالرَّيْنُ، وَالرَّانُ هُوَ الْحِجَابُ الْكَثِيفُ الْمَانِعُ لِلْقَلْبِ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَالِانْقِيَادِ لَهُ"([4]).

لاحظ: حجاب كثيف حيث لا يصل إليه شيء، ولاحظ كلام ابن كثير يقول: والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار والغين للمقربين فجعل ذلك على ثلاث مراتب، هذا قاله بعضهم، وهكذا فُسر به ما جاء في الحديث: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله) ليغان على قلبي يعني مع كثرة الاستغفار، (وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)، فيجد هذا الأثر من الغين، "ليغان على قلبي" يجد أثرًا مع كثرة الاستغفار، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أكمل الناس حالاً ومع ذلك يجد هذا الأثر مع كثرة الاستغفار، فكيف بمن عطل الذكر والاستغفار لا يكاد يذكر الله -عز وجل- فكيف يكون حاله؟!.

فهذه أحوال تعرض للقلب فيجد الإنسان أحيانًا شيئًا من الضيق، أو التغير أو نحو ذلك، والعلماء -رحمهم الله- يقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يشتغل بطاعات وأعمال في أمور الجهاد وأمور مصالح الأمة وما إلى ذلك فكيف بمن يشتغل بأمور من الغفلة؟ كيف بمن يشتغل بأمور من المعاصي؟، ابن القيم لا يفسر ذلك بمثل ما ذكره ابن كثير، وغالب من يذكر هذا هم من المتأخرين من المتأثرين بالتصوف من شراح الحديث أو الذين يتكلمون في السلوك، وكأنهم إنما يدندنون حول هذا المعنى عند الكلام على الحديث، وما يعرض للقلوب (وإنه ليغان على قلبي) فكيف يقال: النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرض له شيء من التغير أو الضيق أو نحو ذلك وهو أكمل الناس معرفة بربه -تبارك وتعالى-؟، فمن هنا قالوا: الغين إلى آخره، فسروه بتفسيرات أخرى قالوا: هذا يحصل للأبرار، وهذا يحصل للمقربين على خلاف ظاهر الحديث، لكنه ليس الران قطعًا.

وقال -رحمه الله-: "وقال معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب"([5]).

ابن القيم ذكر كل الأشياء التي تحصل للقلب في بعض كتبه، وما يعرض للقلب وموانع التدبر حينما يكون الإنسان قد ختم على قلبه، فالطبع والختم والران والأغلفة التي تكون على القلوب كل هذه نحو عشرة ذكرها ابن القيم وبين معانيها.

وقال -رحمه الله-: "وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها، وقال أبو إسحاق: ران: غطى، يقال: ران على قلبه الذنب رينًا أي: غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب، ومثله الغين.

قلت: أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (وإنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)([6])، وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها.

وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه، فيموت القلب.

وقال مقاتل: غمرت القلوبَ أعمالُهم الخبيثة.

وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء...)([7]).

وقال عبد الله بن مسعود: كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله، فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسبَّبه، لكن السبب اختيار العبد، والمسبَّب خارج عن قدرته واختياره"([8]).

وقال -رحمه الله-: "وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبْعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ"([9]).

وقال -رحمه الله-: "فَمَنَعَتْهُمُ الذُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَبيْنَ قُلُوبِهِمْ فَيَصِلُوا إِلَيْهَا فَيَرَوْا مَا يُصْلِحُهَا وَيُزَكِّيهَا، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قلوبِهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، فَتَصِلَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ فَتَفُوزَ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَتَطِيبَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ كَانَتِ الذُّنُوبُ حجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ"([10]).

وقوله تعالى: كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ أي: لهم يوم القيامة مَنزِلٌ ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم.

قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: و في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه -عز وجل- يومئذ.

كلّا، ما الأمر كما يقولون من أن لهم منزلة عند الله -عز وجل- كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، بل هم على خلاف ذلك كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ، فلما حجب هؤلاء من أهل الغضب والكفر دل ذلك بمفهوم المخالفة على أن أهل الرضا يرونه، فلو كان الجميع يحجبون عن رؤيته ـتبارك وتعالىـ لما كان لتخصيص هؤلاء وجه ـوالله أعلمـ، ومن هنا استنبط الشافعي ـرحمه اللهـ من هذا الموضع أن المؤمنين يرون ربهم، فهذا بدلالة المفهوم

فلما حجب هؤلاء من أهل الغضب والكفر دل ذلك بمفهوم المخالفة على أن أهل الرضا يرونه، فلو كان الجميع يحجبون عن رؤيته -تبارك وتعالى- لما كان لتخصيص هؤلاء وجه -والله أعلم-، ومن هنا استنبط الشافعي -رحمه الله- من هذا الموضع أن المؤمنين يرون ربهم، فهذا بدلالة المفهوم

، وجاء بدلالة المنطوق بقوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ سورة القيامة:22-23، فهذا بدلالة المنطوق، فالرؤيا لله -عز وجل- ثابتة بدلالة المنطوق وبدلالة المفهوم.

وبعض أهل العلم يقول: لمحجوبون يعني عن كرامته، عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ محجوبون عن ماذا؟

ابن جرير يقول أخذًا من عموم المقتضى هو ما صرح بالتعليل لكن هذا من حيث القاعدة الأصولية وهي أن: "المقتضى له عموم" يعني المحذوف المقدر يحمل على أعم معانيه، فهنا محجوبون عن رؤيته، محجوبون عن كرامته كل ذلك داخل فيه، فابن جرير يحمله على ذلك جميعًا، عن رؤيته وعن كرامته، ومثل هذا لا إشكال فيه، المهم إثبات الرؤية لأهل الإيمان وأن الكفار لا يرونه -تبارك وتعالى-، وأهل السنة يوردون هذا من أدلة رؤية المؤمنين لربهم -تبارك وتعالى-، ويكون ذلك أيضًا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن حينما يذكر معه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ فضلاً عن النصوص الواردة الصريحة: (إنكم سترون ربكم...)([11])، ومسألة الرؤية متواترة.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: " قوله تعالى: كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِفجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار وعذاب الحجاب عنه –سبحانه"([12]).

فهذا من جملة ما يعاقبهم به.

وقال –رحمه الله–: "كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما جاء في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته، وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ سورة المطففين:22-35"([13]).

وسيأتي هناك أنهم ينظرون إلى وجه الله –عز وجل– وهو أعظم النعيم، وينظرون إلى هذا النعيم الذي في الجنة، ويتمتعون برؤيته، كل ذلك.

وقال –رحمه الله–: "وجه الاستدلال بها أنه –سبحانه وتعالى– جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه"([14]).

يعني لو لم يره المؤمنون لكانوا في هذا مع الكفار سواء، يعني حجبوا عن رؤيته

وقال –رحمه الله–: "وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله –عز وجل–: كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة"([15]).

وقوله تعالى: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع، والتوبيخ، والتصغير، والتحقير.

وكما سبق في قوله: لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى سورة الليل:15، لَصَالُوا الْجَحِيمِ، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِمن أن ابن جرير يفسره بمعنييه: الدخول ومقاساة حر النار، يصلونها يحرقون بها، يشوون بها ويدخلونها، وهم إذا دخلوها فإن ذلك أيضًا من لازمه.

---

[1][1] – رواه أحمد في المسند، برقم (18534)، وقال محققوه: " إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح"، والحاكم في المستدرك، برقم (107)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (1676).

[2] – رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، برقم (4990)، وأحمد في المسند، برقم (20046)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (7136).

[3] – رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (4244)، وأحمد في المسند، برقم (7952)، وقال محققوه: "إسناده قوي، محمد بن عجلان صدوق قوي الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح"، والحاكم في المستدرك، برقم (3908)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

[4] – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (150/1).

[5] – شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:94).

[6] – رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، برقم (2702).

[7] – رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة ويل للمطففين، برقم (3334)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (10251)، وابن حبان في صحيحه، برقم (2787)، وقال محققه الأرناؤوط: "إسناده قوي".

[8] – شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:94).

[9] – الجواب الكافي (ص:60).

[10] – المصدر نفسه (ص:119).

[11] – رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (554).

[12] – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (32/1).

[13] – المصدر نفسه.

[14] – حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص:292).

[15] – المصدر نفسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المطففين من الآية (18) إلى الآية (28)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: كَلَّا ليس الأمر كما يظن هؤلاء الكفار من أنهم غير مبعوثين، أو أن لهم منزلة عند الله إن بعثوا، إن كتابهم الذي كتبت فيه أعمالهم أو إن هؤلاء قد قضي عليهم وكتب أنهم في سجين، وذلك اسم لهذا الكتاب والديوان الذي فيه أعمال الأشرار والفجار، أو أنه الموضع الذي وضع فيه هذا الكتاب، أو أنه الموضع الذي تصير إليه أرواحهم، وسجين هذه في الأرض السفلى كما صح ذلك في الحديث، وعليه فلا يكون ذلك اسمًا لهذا الكتاب وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ سورة المطففين:8-9يعني أن ذلك قد كتب وفرغ منه، أن هؤلاء يكونون في ذلك الموضع، أو كتابهم يكون في ذلك الموضع، ثم توعدهم بقوله: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ سورة المطففين:10-11بيوم الجزاء والحساب، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ سورة المطففين:12إلا كل مجترئ على الله -تبارك وتعالى- وعلى حدوده وشرائعه وعلى رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين.

أَثِيمٍ كثير الآثام.

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سورة المطففين:13، وهذا من تكذيبه أنه لا يؤمن بآيات الله -عز وجل- ووحيه وكتابه، وإنما يقول: هذه أساطير الأولين، أي: مختلقات الغابرين، مختلقات السابقين، وما يُحكى ويذكر مما لا حقيقة له،

هذا من تكذيبه أنه لا يؤمن بآيات الله -عز وجل- ووحيه وكتابه، وإنما يقول: هذه أساطير الأولين، أي: مختلقات الغابرين، مختلقات السابقين، وما يُحكى ويذكر مما لا حقيقة له،

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم سورة المطففين:14كلا، ليس الأمر كما قالوا، بل ران على قلوبهم، أي: إن حقيقة الأمر أن هؤلاء صارت قلوبهم بمنزلة وحالة لا يصل إليها الإيمان، ولا تؤثر فيها آيات القرآن وذلك لِمَا غطاها من الذنوب والمقارفات والجرائر والجرائم والأعمال القبيحة التي قارفوها، رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ سورة المطففين:14-15فهؤلاء لا يرونه، وبمفهوم مخالفته دل ذلك على أن أهل الإيمان وأهل الرضا يرون ربهم -تبارك وتعالى- كما دلت على ذلك النصوص صراحة، قال: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ سورة المطففين:16يُحجبون عن رؤيته عقوبة لهم وهذا من أعظم الحرمان، ثم بعد ذلك أيضًا يدخلون النار ويقاسون حرها لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ سورة المطففين:16-17، تقولون: لا بعث أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ سورة ق:3، هذا هو الذي كنتم تكذبون به، وهذا ما أخبر عنه القرآن كما قال الله -عز وجل-: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ سورة

الأعراف:53يعني وقوع ما أخبر به، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ سورة الأعراف:53.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين، يقول الله تعالى: كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ سورة المطففين:18-28.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: يقول تعالى: حقًّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ وهم بخلاف الفجار، لَفِي عِلِّيِّينَأي: مصيرهم إلى عليين، وهو بخلاف سجين.

عن هلال بن يَسَاف قال: سأل ابن عباس كعبًا -وأنا حاضر- عن سجين، قال: هي الأرض السابعة، وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عِلّيين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين.

وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ يعني: الجنة.

وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى.

والظاهر: أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع؛ ولهذا قال تعالى معظمًا أمره ومفخمًا شأنه: وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّون.

قوله -تبارك وتعالى-: كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ يقول هنا: حقًّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ وهم بخلاف الفجار، وهم المطيعون أهل الإيمان والعمل الصالح الذين بروا الله بأداء فرائضه واتقاء محارمه، وهذا على طريقة القرآن حيث ينوع فيما يتصل بالترغيب والترهيب؛ ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء، فلما ذكر ما للكفار والفجار أعقبه بذكر ما للأبرار إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ، كتاب الأبرار ما المراد به؟

هنا يقول: إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ وهم بخلاف الفجار، لَفِي عِلِّيِّينَ أي: مصيرهم... إلخ، هذا -كما سبق- كتاب الأبرار، بعضهم يقول: إن عليين كتاب الأبرار، لَفِي عِلِّيِّينَ أي أن هذا الكتاب الذي كتب فيه الأبرار وأعمال الأبرار اسمه هكذا لَفِي عِلِّيِّينَ لفي هذا الكتاب المسمى بعليين، كتاب الأبرار يعني أن أعمال الأبرار مكتوبة، كتاب هنا بمعنى مكتوب لَفِي عِلِّيِّينَ لفي هذا الكتاب المسمى بعليين،

كما يقول بعض المفسرين، وذلك من العلو والارتفاع كما سبق في سجين، فهذا يقابله تمامًا، فأصل هذه المادة يدل على الارتفاع، يدل على العلو **لَفِي عِلِّيِّينَ** ارتفاع بعد ارتفاع، لا غاية له، ولهذا بعض أصحاب المعاني كالزجاج يقول: أعلى الأمكنة، **لَفِي عِلِّيِّينَ** في أعلى الأمكنة وأرفعها، وهو يرجع إلى هذا المعنى، وابن جرير يقول: كتاب أعمال الأبرار كتاب الأعمال هذا لفي ارتفاع، لا علم لنا بغايته، لكنه يقول: غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة، يعني أن مرجع أقوال السلف على تنوعها تدور حول هذا المعنى، أن عليين فوق السماء السابعة على تفاصيل يذكرونها، بعضهم يقول: معلق بالعرش بناء على أنه اسم للكتاب، وحتى من قال: إن المراد العلو فذلك يعني غاية في الارتفاع، وهكذا من يقول: **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** سورة النجم:14فإن سدرة المنتهى في السماء السابعة.

فأقوالهم ترجع إلى هذا على اختلاف عباراتهم؛ ولهذا ابن جرير يقول: هو في غاية الارتفاع، في ارتفاع لا يكون دون السماء السابعة **لَفِي عِلِّيِّينَ** يكون في علو وارتفاع، يكون غاية في ذلك، وابن جرير يعلل هذا بالإجماع، والإجماع عند ابن جرير كما هو معلوم يقصد به قول عامة المفسرين، قول الجمهور يسميه إجماعًا، فإذا رأيت ابن جرير يقول: غير أنا لا نستجيز مثلاً مخالفة إجماع الحجة، أو نقول ذلك لإجماع الحجة، أو لا نرتضي خلافه لإجماع الحجة فهو يقصد به قول عامة المفسرين، وهو يريد هذا تمامًا؛ لأنه يعلم بوجود الأقوال الأخرى والخلاف، وأحيانًا يذكر هذه الجملة والسطر الذي قبلها يذكر قولاً مخالفًا، فدل هذا قطعًا على أنه يريد قول الأكثر، يسميه إجماعًا، وهذا مهم في فهم عبارات العلماء، فإن العلماء في إطلاق الإجماع ليسوا على رتبة واحدة، بعضهم يقصد به ابتداء قول الأكثر كابن جرير، وبعضهم يذكر الإجماع ولكنه يتساهل في إطلاقه فينقل الإجماع والواقع أنه لا يوجد فيه إجماع، وهذا تجده في إجماعات ابن المنذر، وتجده في كثير من كلام المتأخرين يذكرون الإجماع والواقع أنه لا يوجد إجماع، ويمر بنا هذا كثيرًا في التفسير وفي غيره، والذي حكاه الواحدي أيضًا عن المفسرين -يقصد عامة المفسرين- أن **لَفِي عِلِّيِّينَ** أي: السماء السابعة،وعبارات بعض السلف مثل الضحاك ومجاهد وقتادة يقولون: السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين، يعني جعلوا عليين ليس ذلك الكتاب، يعني ليس بكتاب يسمى بعليين، وإنما كما سبق في سجين أنه موضع تكون فيه أرواح الكفار، تصير إليه أرواح الكفار، وأرواح المؤمنين تكون في السماء السابعة، طبعًا يقصدون بهذا في البرزخ يعني بعد الموت وقبل البعث أين تكون أرواح أهل الإيمان، فهنا قوله -تبارك وتعالى-: **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ** يحتمل أنهم كُتبوا وقضي لهم أنهم في عليين يعني يصيرون إلى ذلك، وهذا تجده حتى في كلام الناس يقول:

أسأل الله أن يجعلك في عليين، فيفهم المقول له ذلك أن روحه تصير ثمَّة بهذا العلو والمنزلة وما إلى ذلك، فهو يحتمل من حيث اللفظ أن يراد به اسم هذا الكتاب الذي دونت فيه الأعمال كما قلنا في سجين، ولكن نحن نستبعد هذا الاحتمال كما استبعدناه في سجين بناء على الرواية؛ ففي حديث البراء أن سجين في الأرض السابعة السفلى، وهنا عندنا أيضًا في عليين أنه في السماء السابعة، فحتى قول من قال: سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىكالضحاك هو أيضًا يعود إلى هذا القول أنه السماء السابعة، وبعضهم يقول: في عليين يعني الجنة، والذي عليه أهل العلم وهو المشهور الذي نقل عليه ابن جرير الإجماع –بالمعنى الذي ذكرنا– أن المقصود به السماء السابعة.

هنا يقول ابن كثير: والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع، وفي حديث البراء الذي أشرتُ إليه في ذكر الروح حينما يموت الإنسان وتأخذ روحَه ملائكةُ الرحمة فيصعدون بها، وفيه حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، لاحظ الروح ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول: (اكتبوا كتاب عبدي في عليين)([1])، هنا لما تنتهي إلى السماء السابعة فهل هذا يعني أن عليين هو الكتاب الذي كتبت فيه أعمالهم؟ والله يقول حينها حين يبلغون بها إلى السماء السابعة: (اكتبوا كتاب عبدي في عليين)، ليس باسم للكتاب، وجاء في رواية: (اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة) فما معناه؟ يعني أنه يصير إلى ذلك –والله تعالى أعلم–، يعني أنه يكتب له، يحكم له، فلان في عليين، الروح يبقى لها اتصال بالجسد، ولكن كما سبق النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى الأنبياء في السماوات، ورأى إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– وعنده الولدان، وهؤلاء الولدان في قبورهم، فالأرواح لها أحوال –كما سبق– غيبية الله أعلم بها، ولكن نحن نقول بقدر ما جاء به النقل، –والله تعالى أعلم–.

قال: وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ قال: كِتَابٌ مَرْقُومٌ أي مكتوب، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ قال: وهم الملائكة، قالهقتادة، وقال العوفي عن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها، يعني أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب، هذا إذا قلنا: إن عليين بمعنى الكتاب، اسم للكتاب، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ بمعنى يحضرون، وإذا قيل: مكتوب فـ "يشهده القربون" أي يشهدون على ما فيه، الشهود هم الملائكة، ويحتمل أن يفسر بما في حديث البراء –رضي الله عنه– ثم يشيعه مقربو كل سماء، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ لكن ذاك في الروح روح المؤمن، والكلام هنا في الكتاب سواء قلنا: الكتاب الذي يسمى بذلك يحضره المقربون، أو أن هذه الكتابة أنه كتب أن فلانًا في عليين من الذي يشهد؟ المقربون من الملائكة –عليهم الصلاة والسلام–، ابن جرير–رحمه الله– يقول: يشهد ذلك الكتاب المكتوب بأمان الله للبَرِّ من عباده، لاحظ شهادة على الكتابة التي فيها كُتب

الأمان له أنه في عليين، أمان له من النار والفوز بالجنة، يشهد ذلك المقربون من الملائكة من كل سماء، هذا كلام ابن جرير، ولا شك أن في كل سماء من يوصف بذلك من الملائكة، ويدل عليه حديث البراء الذي ذكرته آنفًا "ثم يشيعه مقربو كل سماء" يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ من أهل كل سماء، -والله تعالى أعلم-.

ثم قال تعالى مؤكدًا لما كتب لهم: كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ وهم الملائكة، قاله قتادة.

وقال العوفي عن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها.

ثم قال تعالى: إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم.

وهذا كما سبق في كلام ابن القيم: هذا يوم القيامة، ولكن ابن القيم أيضًا قال: لَفِي نَعِيمٍ في القيامة، وفي البرزخ، وفي الدنيا، وإن كان السياق هنا بلا شك في القيامة.

يعني هنا يصف النعيم، هناك في صِلِيِّ النار، وهنا في نعيم الجنة، هذا هو النعيم على الأرائك.

عَلَى الأَرَائِكِ وهي: السرر تحت الحِجَال.

العرب تقول: الأريكة والمقصود بها السرر تحت الحجال، يعني لا تقول العرب للسرير مطلقًا أريكة، وإنما يقولون للسرير الذي يكون عليه مثل المظلة، سقف، ليس سقف الغرفة، وإنما سقف خاص به، فهذا يكون أكثر جمالاً وتنعمًا وزينة وبهاء وما إلى ذلك، يقال له: أريكة، فلا يقال: أريكة لسرير ليس فيه ذلك، السرر تحت الحجال هذه هي الأرائك.

أما اصطلاح الناس اليوم على أن الأريكة تقال لمكان الجلوس الذي لربما لا يكون له ظهر فضلاً عن سقف فهذا ليس بمراد، وإنما هو شيء حادث، يعني التسمية هذه.

يَنْظُرُونَ قيل: معناه: ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل: معناه عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ إلى الله -عز وجل-، وهذا مقابل لما وُصف به أولئك الفجاركَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ فذكر عن هؤلاء أنهم يُباحون النظر إلى الله -عز وجل- وهم على سررهم وفرشهم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هنا حذف المتعلق، ما قال: ينظرون إلى كذا، وكما سبق أن حذف المتعلق يقتضي العموم، فهنا ينظرون إلى النعيم، ينظرون إلى ملكهم، ينظرون إلى الزوجات الحسان، الحور العين، ينظرون إلى وجه الله الكريم الذي هو أعظم نعيم، وقد دلت النصوص على أن المؤمنين يرون ربهم -تبارك وتعالى-، فذلك أعظم نعيم يعطونه، وبعض أهل العلم يقول: أيضًا ينظرون إلى أهل النار قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ سورة الصافات:51إلى أن قال: قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ سورة

الصافات:54-55، فالله -تبارك وتعالى- لم يقيد هذا النظر بنوع من النعيم، وإنما ينظرون إلى أنواع الملاذ، وما يبهج النفوس، نسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منهم.

وقوله تعالى: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة التَّرافة والحشمة والسرور والدّعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم.

بمعنى أن النعيم يظهر على وجه الإنسان كما أن البؤس والفقر وشظف العيش يظهر على وجهه؛ ولذلك قال الله -عز وجل- عن فقراء المهاجرين: تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا سورة البقرة:273وذكرنا هناك قول من قال كابن جرير: تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ أي: ما يظهر عليهم من شحوب الوجه، الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم أولئك الذين يجهدون ويكدحون في طلب الأقوات يظهر ذلك على وجوههم، ويظهر على هيئتهم وعلى لباسهم، يظهر عليهم الشحوب، فمن رآه عرف أنه فقير مع أنه لم يسأل، يكون متعففًا، فهكذا أهل النعيم والترف يظهر ذلك في وجوههم، فإذا رأيته عرفت أنه غني من تقاسيم وجهه، ومما يظهر عليه من النعمة والنعيم، فلا شك أن هذه الأمور تؤثر في الإنسان، ولذلك انظروا أحيانًا تجد بعض العمال أو الخدم في البيوت حينما يسافر إلى بلده في أجازة يجلس شهرين أو نحو ذلك في بلد فقر شديد يرجع بحال غير التي ذهب بها، يظهر عليه أثر شظف العيش، والمعاناة، والفقر، فهذه أمور تظهر على الإنسان، الإنسان الذي يكابد لقمة العيش ويعمل كل يوم، ويذهب صباح مساء وفي الشمس إلى آخره يظهر عليه، ولذلك يستغرب الناس أحيانًا حينما يعلمون ويكتشفون أن فلانًا يملك أموالاً طائلة وهم يظنونه حينما يرونه من أفقر الناس؛ لكون هذا الإنسان يزاول أعمالاً مما يزاولها الفقراء، ويشح بهذا المال ولا ينفق منه على نفسه، ولا عياله، فلا يظهر عليه سِيما الغنى والنعيم؛ لأنه لم يتنعم بهذا المال، وإنما كان حارسًا فقط عليه، فالشاهد أنهم يتعجبون؛ لأنهم لا يرون سيما ذلك عليه، ما يظهر الأثر، الهيئة هيئة فقير، وهذا شيء مشاهد، يأتي أحيانًا بعض الناس تظن أنه يطلب صدقة ثم تكتشف أنه يريد أن يسأل عن قضية أو يسأل عن حساب عند الصرافة، وهو لا يعرف كيف يستعمل البطاقة، ويظن أن معرفة الرقم الذي في الحساب يعني الرصيد المالي له يظن أنه لابدّ أن يسحب مبلغًا فيقول: اسحب لي مائة ريال ببطاقته هو وأنت تظن أنه يسأل عند الصرافة، ثم يخرج الرقم -نسأل الله أن يبارك للجميع ويزيد الجميع من فضله- لا تستطيع أن تقرأه، وهذا حصل، قيل لهذا الإنسان: عفوًا الرقم ما نعرف أن نقرأه، أنت تريد مائة؟ قال: لا، أنا أريد فقط أن أعرف الرقم، فقيل له: هذا يخرج لك الرصيد بدون ما تسحب مائة، والذي ينظر إلى هيئته كأنه خرج من قبر

يبدو أنه يعمل في كسّارة أو شيء من هذا القبيل، يعني عنده كسارة وجالس مع العمال، هذا يحصل وموجود، والله المستعان.

على كل حال نضرة النعيم هذه لأهل الجنة، أهل الجنة الذين أكثر الناس أمراضًا في الدنيا، ففي الجنة شيء آخر، نضرة النعيم، أفقر الناس أبأس الناس، يذهب الذي في الدنيا هذا كله البؤس والشحوب والتعب والمعاناة والأمراض والأوجاع والعلل والسرطانات والوباء الكبدي إلى آخره كل هذا يذهب، نَضْرَةَ النَّعِيمِ الجميع تراهم في صور في غاية البهاء، كما يقول بعض المفسرين: وجهه يتلألأ، فهذا في الجنة، هذا الذي يحتاج إلى عمل، أكثر أهل الجنة الضعفاء المساكين الفقراء ضعفاء الناس، هؤلاء هم أكثر أهل الجنة، القضية لا تحتاج إلى وقت وجهد حتى يأكل ويشرب من الجنة يحتاج لشهور حتى يظهر عليه أثر هذا، لا، لا، هذا كله ينتهي بأقل من لحظة، أبأس أهل الدنيا يغمس في الجنة غمسة واحدة ثم يخرج يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ يقول: لا، والله، ويحلف ما مر بي بؤس قط، تخيل أبأس إنسان أي مليء بالأمراض مليء، بالهموم، مليء بالمشاكل، مليء بالفقر، أبأس إنسان المصائب تطوف به من كل ناحية غمسة واحدة فقط فكيف إذا بقي في النعيم أبد الآبد، يقول: لا، والله ما رأيت بؤسًا قط، وأنعم واحد تخيل من بعد آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام الساعة، يكون ساكنًا في ذهب، وحمامه -أعزكم الله- من ذهب، وما بقي إلا أن يأكل ذهبًا، أنعم إنسان مركبه ذهب لا يتنزل للفضة، يغمس غمسة واحدة في النار ويقال له: هل مر بك نعيم قط؟ يقول: لا، والله يا رب ما مر بي نعيم قط.

فالدار التي تستحق الجد والاجتهاد والعمل وإخلاص النية هي الدار الآخرة، أما هذه فلا تكترث إن جاء مرض، إن جاء تعب، إن جاء مصيبة، إن جاء غم، هذا مثل الحر والرطوبة والصيف، اليوم رطوبة وغدًا الجو أبرد، هو متاع قليل ثم يمضي على الجميع ولكن هناك الناس يصيرون إلى ماذا؟.

وقوله تعالى: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ أي: يسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري -أُراه قد رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أيَّما مؤمنٍ سقى مؤمنًا شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوبًا على عُري كساه الله من خُضر الجنة)([2]).

وقال ابن مسعود في قوله: خِتَامُهُ مِسْكٌ أي: خلطه مسك.

وقال العوفي، عن ابن عباس: طيَّب الله لهم الخمر، فكان آخرَ شيء جُعل فيها مسك، خُتِم بمسك، وكذا قال قتادة والضحاك.

هنا قال: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ كما ذكر ابن كثير -رحمه الله- وهو قول السلف -رضي الله عنهم- أن الرحيق اسم من أسماء الخمر يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ يعني: من خمر، لكن وصفها هنا بقوله: مَخْتُومٍ ثم قال: خِتَامُهُ مِسْكٌ هذا تفسير لمختوم لكن ما المراد بذلك خِتَامُهُ مِسْكٌ؟، أقوال السلف فيه ترجع إلى ثلاثة أقوال:

الرحيق اسم من أسماء الخمر يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍيعني: من خمر، لكن وصفها هنا بقوله: مَخْتُومٍ ثم قال: خِتَامُهُ مِسْكٌ هذا تفسير لمختوم لكن ما المراد بذلك خِتَامُهُ مِسْكٌ؟، أقوال السلف فيه ترجع إلى ثلاثة أقوال:

أكثرهم على قولين ولكن إذا أردنا الاستقراء لو قال به قائل واحد نقول: ثلاثة، وإلا فالمشهور عند السلف في قوله: خِتَامُهُ مِسْكٌ قولان:

القول الأول: الختام بمعنى ما يختم به، يعني أن أغطيته مسك، كما يقول ذلك مجاهد وابن زيد، أي: مُطيَّن، يعني كأنه خُتم بالطين، فخمر الدنان في الدنيا تختم من أجل أنها لا يدخلها غش، وأنها كما يقال مختومة بالشمع، قديمًا كانت تطين رءوسها بحيث إنها تكون مضمونة كما يقال، معتق كما يقول ابن جرير، هو لا يختار هذا القول لكن يرد على القائلين فيستعمل مثل هذه العبارة -معتق-، فهذا التطيين قديمًا لها هذا مثل هذه القوارير التي نشرب بها، أو قوارير المشروبات عمومًا تجد أنها عندما تفتح يكون ذلك أشبه بنوع كسر باعتبار أنها ما فتحت قبل ذلك، ما غُير الشراب، ما بدل، ما خلط، ما صب عليه ماء، ما جاء أحد عبث فيه، في السابق ما عندهم هذه الآلات التي تجعلها بهذه المثابة بحيث كما تفتح القوارير الآن بضغطة معينة ثم بعد ذلك يكون هنا فصل لطرفيها إلى آخره، لا، أول الطين بحيث لو جاء أحد يريد تنكسر، فهنا من أجل أن يطمئن إلى أنها من المصنع مباشرة، ما مستها الأيدي، ولهذا يقول بعضهم مثل السندي في بعض حواشيه على كتب الحديث يفسر بالمعنى هذا اسمه تفسير بالمعنى يقول: المختوم: المصون الذي لم يتبدل لأجل ختامه، يعني فسرها هنا بالمعنى، مختوم أي مصون، كما أنهم يطينون رءوس هذه الدنان -أفواه الدنان- هنا فهم منه أن المقصود مختوم أي مصون لم يتبدل

من أجل ختامه، فهذا معنى، وقال به قائلون من السلف؛ ولهذا يقولون: معنى ذلك أنه ممنوع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختامه الأبرار، الأبرار هم الذين يقومون بذلك، هذا قول.

القول الثاني: وهو لجماعة من السلف كسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي، وهو اختيار ابن جرير أن المقصود بختامه آخر الطعم، آخر طعم هذا الخمر المسك، لمّا يشرب يكون ختامه مسكًا، فيكون هذا أطيب، الخمر رائحتها قبيحة جدًا، وهكذا هذه البلايا المحرمة التي يتعاطاها هؤلاء الناس- نسأل الله العافية للجميع-، الآن عندما تقرأ تقريرًا -أعزكم الله- عن الشيشة هذه التي فيها روائح ويقولون: هذه رائحة الفراولة، وهذه نكهة الفراولة تستهوي بعض الناس السذج، ويظن هذا فعلاً، بينما هي سموم ممتلئة، وطريقة عمل هذه الأشياء وطريقة إنتاجها لو اطلعوا عليها لنفروا منها غاية النفور، خمر الجنة ختامها مسك، يعني أن آخرها يكون مسكًا فليس فيها رائحة سيئة، وليس فيها من الطعوم ما يكون سيئًا كما هو الحال في خمر الدنيا، وابن جرير -رحمه الله- يرجح هذا القول؛ لأن خمر الجنة كما أخبر الله -عز وجل- أنهار، فليس فيه دنان حتى يحتاج إلى ختم بطين، بمعنى أنه يوضع المسك في أفواهها لتغطيتها وتغليفها، يقول: ليس بحاجة إلى هذا هي أنهار جارية، واضح وجه ترجيح ابن جرير؟ لكن لو ثبت أنه يوجد في الجنة دنان من الخمر مثلاً لكان هذا مشكلاً على قول ابن جرير، لكن الذي ذكر في الجنة: الكأس، الأباريق، الأكواب، هذه ذكرت وهذه ليست الدنان، فآخر طعم الخمر مسك، إذا رفع الشارب الإناء عن فيه وجد طعم المسك ورائحة المسك، وهذا أطيب ما يكون في الشراب، ترون الآن تباع أنواع من الأشياء التي توضع مع الشراب، وأحيانًا توضع في الأوعية وما هذه الأشياء التي توضع؟ إما ماء الورد أو يوضع ما يسمونه اللقاح، أو يوضع أشياء مما يسميه بعضهم القطران يوضع في الأسقية نفسها، في الأوعية نفسها أحيانًا، يعني الوعاء في تصنيعه توضع فيه مادة يسمونها القطران تشبه القار، كلها طعم يستسيغه بعض الناس، ومن الناس من يرى أن هذا في غاية السوء في الطعم.

كذلك اللقاح يستسيغه بعضهم، وبعضهم لا يستسيغه أبدًا، الجنة شأن آخر، أقصد أن الناس في الدنيا يحتالون على تطييب أسقيتهم بهذه الأشياء التي يضعونها، أما في الجنة فشأن آخر مع أن بعض أهل العلم يقول: إن هذا الختام للمسك أنه للأواني، الأكواب، الأباريق إلى آخره، هي مغلفة بالمسك، يعني ابن جرير يقول: أنهار فلا يوجد دنان للخمر حتى تختم وتطين بالمسك مثلاً، إذًا المقصود بالختام آخر ما يصل إلى الشارب المسك، فالختام يحتمل هذا، ويحتمل هذا، مع أن

بعض أهل العلم يقول: إن الختام المقصود به أنه مخلوط بالمسك، وهذا نقله ابن كثير كما ترون هنا.

والثالث: هو الذي أشرت إليه أنه مخلوط بالمسك، نقله عن ابن مسعود-رضي الله عنه-، فهذا بعض أهل العلم يقول: هذا لا يعرف في لغة العرب، يعني أن لفظة الختام بمعنى الخلط، ما تأتي بمعنى الخلط إنما آخر الشيء ختام الشيء أو ما يختم به على هذا الشيء، لكن نقول: لو صح هذا الأثر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- وهو عربي قح فكيف يقال: لا يعرف عند العرب؟ إلا إن قصد التوسع في العبارة بمعنى أنه مخلوط بالمسك، يعني لما كان آخره بطعم المسك كان ذلك نوع خلط له، بمعنى أنه فيه ممازجة بالمسك لكن في آخره، تظهر في آخره، يعني ليس بخمر صرف، وإنما معه مسك، لكن هذا المسك في الآخر فيكون عبّر بالخلط بهذا الاعتبار، وإلا فالممازِج بعض أهل العلم يقول: لا يقال له ختامه كذا، وإنما يقال: ممازِجه كذا، فيمكن أن يوجه قول ابن مسعود -رضي الله عنه- بهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم-، لكن الأثر المذكور هنا الحديث وهو حديث أبي سعيد الخدري: (أيما مؤمن سقى مؤمنًا شربة...) الحديث في إسناده ضعف.

وقوله: وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ أي: وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهَ ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله تعالى: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ سورة الصافات:61.

كلام ابن مسعود -رضي الله عنه- الذي سبق في أنه خلْطُه مسك أيضًا قال به غيره، فقال به علقمة من أصحاب ابن مسعود، علقمة النخعي، وابن جرير -رحمه الله- يقول: هذا لا يعرف في لغة العرب، لكن كما سمعتم.

خاتَم، ختامه مسك، خاتَمه مسك هذه ليست بالضرورة فإن خاتَم الشيء قد يكون أيضًا آخر الشيء، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين لا نبي بعده، يعني هو آخر الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، "ومزاجه من تسنيم" هذا الخلط، فرَّق بين العبارتين، كلام ابن جرير يمكن أن يوجه بالطريقة التي ذكرتُ: لما كان معه مسك عبر عن ذلك على سبيل التوسع بالخلط، وقراءة الجمهور هي التي نقرأ بها، خِتَامُهُ مِسْكٌ، والقراءة الأخرى متواترة قرأ بها الكسائي: خاتَمُه مسك والمعنى واحد -والله أعلم-، الختام والخاتَم بمعنى واحد.

قال: وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ، أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، ويتباهَ ويكاثر، ويستبق إلى مثله المستبقون، يعني فليرغب الراغبون، هذا كله قريب من المعنى، "في ذلك" أي هذا النعيم، أو إلى هذا الرحيق الموصوف بهذه الصفة، فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ، وبعضهم

يقول: إن "وفي ذلك" بمعنى إلى ذلك فليتنافس المتنافسون، يتبادر المتبادرون في العمل كما قال الله -عز وجل-: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ سورة الصافات:61، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ هذه التفسيرات هي تقرب المعنى، لكن أصل التنافس بمعنى التشاجر، أصله التشاجر على الشيء التنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون غيره، يقال: نفِستُ الشيء عليه، يعني أنه ضن به وأحب أن يكون إليه ويختص به دون سواه، والبغوي -رحمه الله- يُرجع ذلك إلى أن أصله من الشيء النفيس، والشيء النفيس تضن به النفوس، وتحرص عليه غاية الحرص بخلاف الشيء المبتذل، فكل واحد يريد هذا الشيء النفيس لنفسه، ويَنْفَس به على غيره: يضن به على غيره، كما يقول ابن جرير أيضًا، وهذا هو المجال الحقيقي للمنافسة والمسارعة، ولهذا يقولون: لا مجال للإيثار في القُرب؛ لأن ذلك مؤذن بالزهد فيما عند الله -تبارك وتعالى-، ولهذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الأذان والصف الأول، وذكر فيهما المنافسة (ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا..)([3])، فهذا الاستهام للمنافسة الشديدة بحيث لا يتنازل أحد عن حقه، كل واحد يريد أن يستأثر بذلك، إلى منتهى النَّفَس يحتمل -والله أعلم-، البغويذكر أنه من الشيء النفيس يتسابق الناس عليه.

وقوله تعالى: وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، قاله أبو صالح والضحاك؛ ولهذا قال: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَأي: يشربها المقربون صِرْفًا، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجًا، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم.

تَسْنِيمٍ قال: هو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، وقال: أعلاه؛ لأن أصل التسنيم في اللغة أصل هذه المادة يدل على الارتفاع والعلو، ولهذا يقال لسنام البعير؛ لأنه أرفع شيء فيه، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:(وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)([4])، فالشيء الرفيع الشيء العالي هو مأخوذ من العلو والارتفاع، هذا التسنيم عين ماء تجري من أعلى إلى أسفل، أعلى الجنة، وبنحو هذا يقول ابن جرير -رحمه الله-، هذا الذي قال الله عنه: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ يعني أن هذا الخمر مخلوط بالتسنيم، وهذا التسنيم هو عين في أعلى الجنة يشرب بها المقربون، هي شرابهم صرفًا لا يخلط ولا يمزج بشيء، ويمزج منها خمر أهل الجنة، أمّا مَن دون المقربين فإنه يمزج لهم في شرابهم من التسنيم

هذا الخمر مخلوط بالتسنيم، وهذا التسنيم هو عين في أعلى الجنة يشرب بها المقربون، هي شرابهم صرفًا لا يخلط ولا يمزج بشيء، ويمزج منها خمر أهل الجنة، أمّا مَن دون المقربين فإنه يمزج لهم في شرابهم من التسنيم

، يقول: وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا، فالمقربون أعلى مرتبة فيشربون منها صرفًا بلا خلط، ومَن دونهم يشربون ذلك مخلوطًا بغيره.

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَأخبر تعالى أن كتابهم مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقية، وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين"([5]).

لاحظ فما جعله اسمًا للكتاب، وإنما كتاب الأبرار يعني ما يكتب لهم ويحكم لهم به من السعادة يشهده الملائكة، يشهدون هذه الكتابة.

وقال -رحمه الله-: "بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويهًا بكتاب الأبرار، وما وقع لهم به وإشهارًا له، وإظهارًا بيْن خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة، تنويهًا باسم المكتوب له، وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله -سبحانه وتعالى- وملائكته على عبده"([6]).

وقال -رحمه الله-: "فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم أي يُكتب بحضرتهم ومشهدهم لا يغيبون عنه، اعتناء به وإظهارًا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه"([7]).

وقال -رحمه الله-: "قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين مزجًا، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أُخلص شرابه ومن مزج مُزج شرابه"([8]).

فهذه من اللفتات الجميلة في التدبر التي يرفع الناس إليها أبصارهم، هذا النوع الراقي الذي أشرت إليه في الكلام على التدبر في المجلس الأول.

[1]- رواه أحمد في المسند، برقم (18534)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (1676).

[2]- رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في فضل سقي الماء، برقم (1682)، والترمذي، في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (2449)، وأحمد في المسند، برقم (11101)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف عطية بن سعد العوفي، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير سعد أبي المجاهد الطائي، فمن رجال البخاري، وروى له أصحاب السنن غير النسائي، وهو ثقة، حسن: هو ابن موسى الأشيب، زهير: هو ابن معاوية الجُعْفي، وروي موقوفاً وهو الصحيح"، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (300)، وفي ضعيف الجامع، برقم (2249).

[3]- رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، برقم (615)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل، وتقريبهم من الإمام، برقم (437).

[4]- رواه الترمذي، أبواب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (2616)، وابن ماجه، أبواب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (3973)، وأحمد في المسند، برقم (22016)، وقال محققوه: "صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع"، وصححه الألباني في إرواء الغليل، (138/2)، برقم (413).

[5]- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص:70).

[6]- المصدر نفسه.

[7]- طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:194).

[8]- المصدر نفسه.

<

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المطففين من الآية (29) إلى آخر السورة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ سورة المطففين:18، كتاب الأبرار الأخيار أهل الإيمان والعمل الصالح، أخبر أن كتابهم في عليين، أي: أنهم كُتبوا هنالك، أو أن موضع كتاب الأبرار الذي كتبت فيه أعمالهم، أو كتبت فيه سعادتهم في عليين من العلو والارتفاع، فذلك موضع فوق السماء السابعة، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ سورة المطففين:19-20يعني أن ذلك قد كتب، يعني كتب وحكم لهم فيه بالسعادة، أو أن ذلك كتاب -على قول بعض المفسرين- يسمى بعليين أو أن موضعه في عليين، ومن ثَمّ فالشهادة هنا يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ سورة المطففين:21إذ قيل بأنه موضع فمعنى ذلك أنه يشهده ويحضره ويأتيه المقربون من الملائكة، وإذا كان المقصود الكتابة فيعني أنه يشهد على ذلك المقربون من الملائكة.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ سورة المطففين:22هذا النعيم فسره بما بعده وهو قوله: عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ سورة المطففين:23، ومضى كلام ابن القيم -رحمه الله- في تعميم ذلك، ولكن السياق في الآخرة، ولا شك أنهم في نعيم في الدنيا والبرزخ، ويُعرف ذلك من أمور أخرى.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ على السرر تحت الحجال، والسرير إذا كان في الحَجَلة يقال له: أريكة، يعني أنها عليها مثل المظلة في أعلاها، ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى ما أعطاهم الله -عز وجل- من النعيم، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ سورة المطففين:24فهذا النعيم يلوح عليهم ويظهر أثره على وجوههم.

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ سورة المطففين:25يسقون من خمر يجدون في آخرها طعم المسك ورائحته، وبعضهم كما سبق يقول: إنّ أفواه تلك الآنية أو الدنان ختمت بالمسك فلا يفتحها إلا هم.

يسقون من خمر يجدون في آخرها طعم المسك ورائحته، وبعضهم كما سبق يقول: إنّ أفواه تلك الآنية أو الدنان ختمت بالمسك فلا يفتحها إلا هم.

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ سورة المطففين:26ختامه خاتَمه مسك، وَفِي ذَلِكَ يعني هذا الخمر أو هذا النعيم، فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ فيبذل كل أحد جهده ووسعه في طلبه وتحصيله، وأن لا يُسبق إليه، وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ سورة المطففين:27يمزج لهم ويخلط من هذه العين التي هي في أعلى الجنة، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ سورة المطففين:28وهذا تفسير للتسنيم، يشرب بها المقربون صِرفًا، ويُمزج ماؤها مع شراب غيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين وللمسلمين أجمعين.

يقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ سورة المطففين:29-36.

يقول المؤلف –رحمه الله تعالى-: يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم.

قوله –تبارك وتعالى-: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا يعني الكفار، كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ في الدنيا، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ يعني هؤلاء الذين حصّلوا هذا النعيم المقيم، هذه الجنات، هذه الملاذ بأنواعها كان المجرمون يسخرون منهم في الدنيا، ويحتقرونهم ويستضعفون عقولهم وآراءهم ويضحكون منهم، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ يشير بعينه أو بشيء في تعابير وجهه أو بيده أو غير ذلك مما يقصد به لمزهم وعيبهم، فإذا مر أهل الإيمان تغامز أهل الإجرام، يعني على سبيل السخرية والاستهزاء، انظر إليه، انظر إلى هذا يرى أنه مهتدٍ وأنه على حق، وأنه تكون له العاقبة والآخرة والنصر وما إلى ذلك، كل هذا يذكرونه على سبيل الاستهزاء والسخرية في الدنيا، وهذه عادة أهل الإجرام يسخرون من أهل الإيمان، ونوح –صلى الله عليه وسلم- لما أمره الله –تبارك وتعالى- أن يصنع السفينة فكان الحال كلما مر به ملأ من قومه سخروا منه، يسخرون من نبي الله –عز وجل- والعذابُ والعقاب أقرب إليهم من اليد للفم ومع ذلك يسخرون منه، لكن ماذا كان جوابه؟ قال: إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ سورة هود:38فماذا كانت النتيجة وماذا كانت العاقبة؟ ولو تتبعت النصوص الواردة في القرآن في السخرية والاستهزاء الصادرة من البشر –من الناس- لوجدت ذلك إنما يكون من الكفار والمنافقين هذه هي عادتهم، وإلا فموسى –صلى الله عليه وسلم- لما أمر بني إسرائيل في القصة المعروفة أن يذبحوا بقرة من أجل أن يحيا القتيل فيخبر عن قاتله قالوا له: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ سورة البقرة:67فدل على أن الذي يستهزئ بالناس من الجاهلين، فالعاقل لا يستهزئ ولا يشمت.

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ أي: وإذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم.

قوله: وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ على قول ابن كثير هنا إذا رجعوا إلى منازلهم انقلبوا إليها فكهين أي: مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا، يعني أن هذه الجملة أو هذه الصفة لا علاقة لها بالاستهزاء يعني غير مرتبطة به، هم يستهزئون ويسخرون وإذا انقلبوا إلى أهلهم وجدوا الملاذ والنعم التي يتفكهون بها، ومع ذلك لم يشكروا الله على ذلك، فتكون صفة أخرى لهم لا ترتبط بموضوع الاستهزاء ارتباطًا مباشرًا، ولكن من جهة الشكر لله -عز وجل- على هذه النعم، هنا فسر الفكهين أو الفاكهين قال: مهما طلبوا وجدوا، فكهين، وابن جرير يقول: ناعمين معجبين، بعض أهل العلم من المفسرين يربط هذا بما قبله، يقول: إذا رأوهم استهزءوا بهم، وإذا انقلبوا إلى أهلهم إذا رجعوا إلى أهلهم انْقَلَبُوا فَكِهِينَ يعني معجبين بما هم فيه من الحال والمقام يتلذذون بذكر أهل الإيمان، ويقعون في أعراضهم فيتفكهون بذكرهم والطعن فيهم، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ فيكونون في حال رؤيتهم لهم يستهزئون بهم، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا أيضًا يتفكهون ويتندرون بذكرهم والسخرية منهم، والاستهزاء بهم، وقراءة الجمهور وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين وفي قراءة حفص التي نقرأ بها فَكِهِينَ، والفاكِه والفكِه هل هما بمعنى واحد؟ بعض أهل العلم يفرق بين القراءتين يقول: الفكِه هو الأشِر البطِر، يعني فإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا في حال من الأشَر والبطَر، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى سورة القيامة:33، والفاكِه الناعم المتنعم المترف، فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ سورة الواقعة:65يعني: تطرحون التنعم، هكذا فسره بعض أهل العلم لِمَا نزل بكم وحل بكم، فالفكِه هو البطِر، والفاكِه المتنعم الناعم المترف، فهم متصفون بهذه الأوصاف، وهذه الصفة هي صفة أعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن أتباع الرسل في الغالب هم الضعفاء ضعفاء الناس، أما هؤلاء الأعداء فهم أهل البطَر، وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ سورة المزمل:11، والله المستعان.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّون أي: لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينأي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كُلِّفوا بهم، فلمَ اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟، كما قال تعالى: قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ سورة المؤمنون:108-111.

ولهذا قال هاهنا: فَالْيَوْمَ يعني: يوم القيامة الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك.

قوله -تبارك وتعالى-: وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِين أي: يحفظون أعمالهم ومن ثمّ يشتغلون بغير ما كلفوا به من قولهم: إن هؤلاء على ضلال، كما قال الله -تبارك وتعالى- في هذه: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا الاتخاذ أخص من مطلق الفعل يعني الاتخاذ يدل على مزيد عناية بهذا الشيء المتخَذ، تقول: اتخذت فلانًا جليسًا، اتخذت الكتاب جليسًا، اتخذت المسجد مجلسًا وما أشبه ذلك، "فاتخذتموهم" وهو يدل على أنهم جعلوا هذا ديدنهم الذي اشتغلوا به "سخريًا حتى أنسوكم ذكري" اشتغلتم بهم وأعرضتم عما أُمرتم به من الإيمان والعمل الصالح، فهذا الاشتغال بهؤلاء حيث صويتم النظر والفكر إليهم فلم يعد لكم اهتمام واشتغال إلا بهؤلاء من أهل الإيمان تسخرون منهم، وتستهزئون بهم، وتصدرون هذه الأحكام عليهم بالضلالة، حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي سورة المؤمنون:110ذكر الله -تبارك وتعالى-، أنسوهم عبادته، أنسوهم كلامه وكتابه الذي أنزله عليهم يأمرهم به وينهاهم، فلم يذكروا الله -تبارك وتعالى-، وأعرضوا عن كتابه، لم يذكروا ربهم بألسنتهم، ولا بقلوبهم، ولا بجوارحهم.

ذكر الله -تبارك وتعالى-، أنسوهم عبادته، أنسوهم كلامه وكتابه الذي أنزله عليهم يأمرهم به وينهاهم، فلم يذكروا الله -تبارك وتعالى-، وأعرضوا عن كتابه، لم يذكروا ربهم بألسنتهم، ولا بقلوبهم، ولا بجوارحهم.

وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ هذا قابله الله -عز وجل- بما ذكر بعده، وهنا في هذه الآيات في سورة المطففين: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ.

وشتان بين من كان يضحك في الدنيا ومن يضحك في الآخرة، ورجوع أولائك إلى أهلهم أعني أهل الإجرام فكهين وفاكهين انظر كيف قابله هنا بقوله: عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ، فأهل الإيمان يضحكون منهم وهم على أرائك الجنة، وأولائك في دركات الجحيم.

عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ أي: إلى الله -عز وجل-، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، وليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته.

يؤخذ من هذا أن الإنسان لا يشتغل بالناس يسخر منهم ويستهزئ بهم ويقع في أعراضهم، يشتغل بقالة السوء والحكم على زيد وعمرو، هذا فعل وهذا ترك وهذا ضال، إنما إذا مُكر بالعبد صار

شغله بغيره وأنساه الله -تبارك وتعالى- نفسه والعمل لآخرته، فالموفق من جد واجتهد في طاعة الله -عز وجل- وعبادته، وأشغل قلبه ولسانه وجوارحه في التقرب إلى الله -عز وجل-، والمخذول من أعرض عن ذلك وصار شغله بالناس، والله المستعان.

فالآخرة دار لا تصلح للمفاليس، وبئس الزاد إلى المعاد أعراض العباد.

وقوله تعالى: هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة المطففين.

هَلْ ثُوِّبَ هذا الاستفهام للتقرير، يعني هل حصل لهم الجزاء الرادع اللائق بأمثالهم؟.

الجواب: نعم حيث صاروا إلى النار، وصار أهل الإيمان عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ إليهم، ويضحكون منهم هَلْ ثُوِّبَ فثُوب فعل من الثواب والجزاء، يعني: هل جوزي؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الانشقاق من الآية (١) إلى الآية (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية.

عن أبي سلمة "أن أبا هريرة قرأ بهم: {إِذَا السَّمَاء اِنْشَقَّتْ} فَسَجَدَ فِيهَا، فَلَمَّا اِنْصَرَفَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- سَجَدَ فِيهَا"[١]، رَوَاهُ مُسْلِم، وَالنسَائي مِنْ طَرِيق مَالِك، وروى الْبُخَارِي عَنْ أَبِي رَافِع قَالَ: "صَلَّيْت مَعَ أَبِي هُرَيْرَة الْعَتَمَة فَقَرَأَ: {إِذَا السَّمَاء اِنْشَقَّتْ} فَسَجَدَ، فَقُلْت لَهُ، فَقَالَ: سَجَدْتُ خَلْف أَبِي الْقَاسِمِ -صلى الله عليه وسلم- فَلَا أَزَالُ أَسْجُد بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ"[٢].

سورة الانشقاق من السور المكية التي تتحدث عن يوم القيامة، كما تتحدث عن مسير الإنسان منذ نشأته، وما يمر به من أحوال وأطوار حتى يصير إلى ملاقاة ربه -تبارك وتعالى-، وإلى منزله النهائي إما في الجنة وإما في النار، فهنا هذه الأطوار كما سيأتي يدخل فيها موقف القيامة والحساب والجزاء، وما يلاقيه الإنسان من الأهوال والشدائد، ثم بعد ذلك في آخرها يَنْعَى على هؤلاء الذين مازالوا يكذبون ويكفرون ولا تؤثر فيهم آيات القرآن، ولا يحصل منهم الإذعان والإيمان.

فنستطيع أن نقول: إن السورة في الجملة تتحدث عن اليوم الآخر، وتتحدث عن رحلة الإنسان كاملة من أولها إلى آخرها -كما سيتضح عند تفسير الآيات-، وهذا قد يكون أولى من تجزئة الموضوعات فيقال: الآيات الأولى تتحدث عن القيامة مثلاً، والآيات التي بعدها تتحدث عن الإنسان، والآيات التي بعدها تتحدث عن الحساب والجزاء، وهكذا ختمت الآيات بالحديث عن الكفار وإعراضهم وما توعدهم الله -عز وجل- به.

{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}

[سورة الإنشقاق:١-١٥].

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} وذلك يوم القيامة، {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} أَيْ: اِسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْره فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنْ الِانْشِقَاق، وَذَلِكَ يَوْم الْقِيَامَة {وَحُقَّتْ} أَيْ: وَحُقّ لَهَا أَنْ تُطِيع أَمْره لِأَنَّهُ الْعَظِيم الَّذِي لَا يُمَانَع وَلَا يُغَالَب بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلّ شَيْء وَذَلّ لَهُ كُلّ شَيْء.

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}** مضى الكلام على هذا، وقلنا: انفطرت، كما جاء في الآية الأخرى، تصدعت، صارت أبوابًا، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**

---

١ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، برقم (٥٧٨).

٢ - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في العشاء، برقم (٧٣٢).

{وَحُقَّتْ} يقول هنا: أي: **استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق**، أذنت من الأَذَن وهو الاستماع، ما أذِن الله لشيء ما أذِن لنبي حسن الصوت يقرأ القرآن يتغنى به، فهذا بمعنى الاستماع، وبعضهم فسره بالإذن المعروف، وهنا يقول: {وَحُقّتْ} أي: **حق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب**، -سبحانه وتعالى.

وقوله: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} استمعت أي: سماع إجابة وانقياد، وحق لها ذلك، الله -تبارك وتعالى- قال للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت:11] فلا يسع هذه المخلوقات والأجرام العظيمة على قوتها وشدتها إلا الانقياد والسماع والطاعة، وحق لها ذلك فهو العظيم الأعظم، وبعضهم يقول: إن معنى "حُقت" يعني حقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق، يعني جعلها حقيقة لذلك، "أذنت لربها وحقت" جعلها الله حقيقة بذلك، وبنحو هذا قال ابن جرير -رحمه الله-، وكأن الأول هو المتبادر "حقت" أي حق لها أن تستجيب ولا تمانع؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لا يمانع ولا يغالب.

{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} أي: بسطت وفرشت ووسعت.

هنا قال: **بسطت وفرشت ووسعت** كما قال ابن جرير، يعني هذه أشبه ما تكون بعبارات ابن جرير، وهذه العبارة عند ابن جرير وابن كثير هي في الواقع جمعٌ بين قول من قال: مدت يعني بسطت، وقول من قال: مدت يعني زيد في سعتها من المدد، أمده بكذا أي زاده، {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ} [سورة آل عمران:125] هذا مدد على الثلاثة، زيادة على الثلاثة، فهنا {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} قال: **بسطت وفرشت ووسعت**، وسعت يعني هذه الزيادة، زيد فيها، فجمعوا بين هذه الأقوال وهذه العبارات؛ لأن لفظ "مدت" المد يعني البسط وفيه معنى الزيادة، بمعنى أنها توسع وتكون في حال من الانبساط؛ لتتسع لهؤلاء الخلائق.

وقوله تعالى: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} أَيْ: أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنْ الْأَمْوَات وَتَخَلّتْ مِنْهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِد وَسَعِيد وَقَتَادَة.

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلّتْ} يعني من الأموات، وبعضهم يقول: من الأموات وغير الأموات، الكنوز "أسطوانات الذهب" كما يعبر بعضهم، فهي تخرج ما في جوفها من الخزائن، من الكنوز كما تخرج الأموات، هذه باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا} فهذه صيغة عموم، وسعيد بن جبير -رحمه الله- يقول: ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء، وهنا: **ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم**، كأن هذا الأقرب للسياق -والله أعلم-، يقول: **قاله مجاهد وسعيد**، يعني سعيد بن جبير، لكن سعيد بن جبير يقول: تخلت عن الأحياء الذين على ظهرها، **قَالَهُ مُجَاهِد وَسَعِيد وَقَتَادَة**، وهذا القول الذي ذكره هنا ابن كثير هو الذي اختاره أيضًا ابن جرير، ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم، {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} يقول: كما تقدم.

والجملة هنا أو الآية مكررة مرتان، والأصل أنه لا يوجد تكرار محض في القرآن، بناء على ذلك فكل جملة ترجع إلى ما قبلها، يعني في الأولى لما أمرها الله -تبارك وتعالى- بالانشقاق انشقت {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} حُق لها أن تستجيب وأن تنقاد وأن تنشق، وأن تطيع؛ لأن الله أمرها بذلك، وهنا الأرض تمد وتبسط وتوسع وتلقي ما فيها وتتخلى عنهم؛ لأن الله أمرها بذلك، وحق لها أن تستجيب، وأن تسمع، وأن تنقاد، فتلقي ما في

جوفها، وتستجيب لأمر ربها، فتكون الأولى متعلقة بما قبلها، وهذه متعلقة بما قبلها، وذكرنا في بعض المناسبات أمثلة لذلك أخرى مثل: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن] كل واحدة تتعلق بما ذكر قبلها، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات] كل واحدة تتعلق بالتي قبلها، لا يوجد تكرار محض، بعض الناس قد يصعب عليه حفظ بعض السور كسورة الكافرون، وسورة الكافرون ليس فيها تكرار، {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [سورة الكافرون:١-٢]، الآن لست مقيمًا على عبادتكم ودينكم، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [سورة الكافرون:٣]، لستم على ديني ولا تعبدون إلهي الذي أعبده، فأنتم تعبدون الأصنام ونحن نعبد الله الواحد القهار، {وَلَا أَنَا} في المستقبل، هو الآن ابتدأ بتقرير ما يعبد في البداية، لا أعبد الآن حاليًا ما تعبدون، ثم ذكر حالهم أيضًا فقال: وأنتم كذلك، أنتم تعبدون الأصنام وأنا أعبد الله، ولا أنتم عابدون ما أعبد الآن، الواقع يختلف، في المستقبل بدأ بنفسه قال: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ} في المستقبل لن أتحول إلى عبادة آلهتكم الباطلة، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [سورة الكافرون:٤-٥] لن تتحولوا إلى عبادة إلهي الذي أعبده، {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون:٦] فلا يوجد فيها تكرار، بعض الناس يظن هذه الأشياء مكررة، والواقع أن كل آية لها معنى آخر.

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} كما تقدم.

وقوله: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا} أَيْ: إِنَّك سَاعٍ إِلَى رَبّك سَعْيًا وَعَامِل عَمَلًا، {فَمُلَاقِيه} ثُمَّ إِنَّك سَتَلْقَى مَا عَمِلْت مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ، وَيَشْهَد لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ عَنْ جَابِر -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه -صلى الله عليه وسلم-: ((قَالَ جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد عِشْ مَا شِئْت فَإِنَّك مَيِّت، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْت فَإِنَّك مُفَارِقه، وَاعْمَلْ مَا شِئْت فَإِنَّك مُلَاقِيه))[3]، وَمِنْ النَّاس مَنْ يُعِيد الضَّمِير عَلَى قَوْله: {رَبّك} أَيْ: فَمُلَاقٍ رَبّك، وَمَعْنَاهُ فَيُجَازِيك بِعَمَلِك وَيُكَافِئك عَلَى سَعْيك، وَعَلَى هَذَا فَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَلَازِم، قَالَ الْعَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس: {يَا أَيّهَا الْإِنْسَان إِنَّك كَادِح إِلَى رَبّك كَدْحًا}" يَقُول: تَعْمَل عَمَلًا تَلْقَى اللَّه بِهِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ} ما المقصود بالإنسان هنا؟ لاحظ السورة مكية، بعضهم يقول: جنس الإنسان، وما مضى من أن الغالب في السورة المكية أنه يراد بالإنسان الكافر هذا قبل أن يحكم به ينبغي النظر إلى السياق، فهنا السياق عام في جنس الإنسان {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}، ثم ينقسم الناس بعد ذلك إلى آخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، فلا يمكن هنا أن يقال: الإنسان الكافر {يَا أَيّهَا الْإِنْسَان إِنَّك كَادِح إِلَى رَبّك كَدْحًا} الكدح في اللغة: هو السعي في الشيء بجهد، بصرف النظر هل هذا الجهد في خير أو شر، أو مستوي الطرفين يعني لا خير ولا شر، هذا الكدح السعي بجهد، كمن يكدح في طلب العيش، والمعنى يا أيها الإنسان إنك ساعٍ إلى ربك في عملك، وبعضهم يقول: ساع إلى لقائه، إلى لقاء ربك، وإن أريد بهذا المعنى -في لقاء ربك- أن هذا يتضمن العمل الذي يصدر من الإنسان فإن الإنسان حارث وهمام، فهو لا ينفك عن عمل ولا عن هم وإرادة، وإنما تصدر الأعمال ابتداء من الهم والإرادة، وبعضهم كقتادة والضحاك يقول: "كادح إلى ربك" يقول: عامل لربك عملاً فملاقٍ عملك، ابن قتيبة يقول: عامل ناصب في معيشتك إلى

---

٣ - رواه أبو داود الطيالسي، برقم (١٨٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٥٥).

لقاء ربك، أي: تلقى ربك بعملك، وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **ساعٍ إلى ربك سعيًا وعامل عملاً**، السعي في اللغة يأتي بمعنى العمل -أيضًا-، كما يأتي بمعنى المشي أو ضرب من المشي، فالسعي هنا يمكن أن يفسر بالعمل، ساعٍ إلى ربك، ابن كثير يقول: **ساع إلى ربك** بمعنى عامل، هكذا قال بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فهنا السعي هذا الذي بمعنى أن الإنسان منذ أن يولد يخرج من بطن أمه والساعة لا تتوقف فهو منطلق مثل الرصاصة حتى تبلغ مداها، يعني كل يوم العمر ينقص، فهو ليس في زيادة، هو يظن أنه يكبر وينمو، نعم هو يكبر في الصورة وينمو لكن الواقع أنه منذ أن ولد وعمره في نقص إلى أن يموت، فهذا الإنسان في هذه الحياة في هذا المسير في هذه الرحلة تصدر منه أعمال كثيرة، وأقوال وممارسات، فهو يعمل ولم يزل يعمل **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ}** أي ساعٍ، يفسر السعي هنا بالسير إلى الله، هذا السير إلى الله ما هو؟، ما طبيعته؟ المشي على الأقدام؛ لأن السعي يأتي بمعنى الضرب من المشي، لا السعي بمعنى العمل، ساعٍ إلى ربك، فيكون الكدح هنا بمعنى العمل، فابن كثير يقول: **ساعٍ إلى ربك سعيًا** أي عامل يعمل فملاقيه، والضمير في قوله: **{فَمُلَاقِيهِ}** إذا تبين أن الكدح هو العمل بجهد فكل إنسان يعمل كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا من أحسن ما يفسر به-: **((كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))**[٤]، يعني كل الناس في كدح وعمل، فلم تزل خواطره وفؤاده كل ذلك يتوقد بالإرادات والأفكار والخواطر، وجوارحه لا تكاد تتوقف، فهو يعمل لكن هذا العمل إما أن يقربه، وإما أن يبعده، إما أن يوبقه، وإما أن يخلصه، كل الناس يغدو، فهذا معنى **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}**، الكدح هنا آخر ما ذُكر، "فملاقيه" الضمير يرجع إلى ماذا؟.

كادح إلى ربك فملاقيه: ملاقٍ ربك، أو كادح إلى ربك كدحًا كما قال الله -عز وجل-: **{فَمُلَاقِيهِ}** أي: ملاق الكدح باعتبار أنه آخر مذكور، فإلى أي شيء يرجع الضمير؟، إذا عملنا على قاعدة الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو "كدحًا" فيكون ملاق كدحك، ستلقى عملك، وهذا دل عليه القرآن، والله -عز وجل- يقول: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}** [سورة الكهف:٤٩]، و**{يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [سورة النبأ:٤٠] فهو يلاقي عمله، فهذا المعنى صحيح، **{فَمُلَاقِيهِ}** أي: فملاق عملك، ستجد نفس العمل الذي عملته، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الرب -تبارك وتعالى- **{كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** فملاق ربك، وهذا المعنى صحيح، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ}** [سورة الأنعام:٣٠]، فالله -عز وجل- يحاسب عبده، والعبد يلقى ربه للحساب والجزاء، فهذه المعاني صحيحة، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة لاسيما إذا كان بين هذه المعاني ملازمة، فإذا كان العبد سيلقى ربه فإنه يجازيه على عمله، فهذا يقتضي أنه يلاقي عمله، فالعبد يلقى عمله ويلقى ربه، وهذا مما يمكن أن تجمع فيه الأقوال لاحتمال مرجع الضمير، وله نظائر كثيرة في القرآن، وذكرنا في مناسبات شتى أمثلة لذلك منها آية الكرسي **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}** [سورة البقرة:٢٥٥] علم ماذا؟، من علم الله، أو من علم ما بين أيديهم وما خلفهم؟.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).

هنا أحد القولين يتضمن الآخر، فعلم الله -عز وجل- من ضمنه علم ما بين أيديهم وما خلفهم، فهو بعض علم الله -عز وجل-، فمثل هذا لا إشكال في أن يقال: يرجع الضمير إلى هذا وهذا، والله أعلم.

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ} عامل إلى ربك فملاقيه، فملاق ربك وأنت أيضًا ستلاقي عملك، بعضهم يقول: ملاق كتاب عملك، الكتاب دونت فيه الأعمال، وبعضهم يقول: تلاقي ربك بعملك، يعني جمع بين القولين، هذه عبارة ابن قتيبة -رحمه الله-، هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير قال: وعلى هذا فكلا القولين متلازم، قال العوفي عن ابن عباس: يقول: تعمل عملاً تلقى الله به خيرًا كان أو شرًّا، لاحظ هذه العبارة لو ثبتت عن ابن عباس، لكن المعنى جيد، إذا تأملت العبارة فهي تتضمن القولين، تلقى الله بعملك، ورواية العوفي عن ابن عباس ضعيفة، لكن المعنى حسن، وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله-، تلقى ربك بعملك، فيكون الضمير يرجع إلى الرب -تبارك وتعالى- وإلى العمل.

ثم قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} أي: سهلاً بلا تعسير، أي لا يُحقِّق عليه جميع دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من نوقش الحساب عذب))، قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قال: ((ليس ذاكِ بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب))[٥] وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير.

هذا تفسير ظاهر واضح ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأن هذا الحساب هو العرض فقط، يعني أنه تعرض عليه أعماله عرضًا مجملاً دون أن يناقَش الحساب ويدقق معه في ذلك.

وقوله تعالى: {وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} أي: ويرجع إلى أهله في الجنة، قاله قتادة والضحاك، {مَسْرُورًا} أي: فرحًا مغتبطًا بما أعطاه الله -عز وجل.

{وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ} أهله هنا يقول: **يرجع إلى أهله في الجنة، قاله قتادة**، إلى أهله في الجنة من هم؟ يحتمل أن يكون الأهل بمعنى الذين هم من عشيرته في الجنة، كما يقول بعض أهل العلم، ويحتمل أن يكون الزوجات والأولاد والذين سبقوه إلى الجنة ينقلب إليهم مسرورًا، ويحتمل أن يكون المراد بذلك ما أعد له في الجنة من الحور والولدان ينقلب إليهم مسرورًا، أو أن المراد جميع ذلك، يرجع إلى أهله مسرورًا، وجاء عن قتادة أنهم أهل أعدهم الله له في الجنة، ولكن هذا يحتمل، ومن سبقه من أهله في الجنة فإنه لا شك يصير إليهم ويلحق بهم، ويكون في غاية السرور، وهذا أيها الإخوان هو السرور الحقيقي، وهذه الغبطة الحقيقية، وهذا هو النجاح الحقيقي أن الإنسان في ذلك اليوم لمّا تعطى الصحف لأصحابها يأخذ كتابه بيمينه، فهذا هو الذي يطير فرحًا، ويقول بأعلى صوته أمام الخلائق: "هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية" هذا هو الفوز الأعظم، الفوز الأكبر، هذا هو الفوز الكبير، وأما من أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره -نسأل الله العافية- فهذا هو الذي يخسر الخسارة التي ليس بعدها خسارة، فهذا

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، برقم (٦١٧١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، برقم (٢٨٧٦)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب عيادة النساء، برقم (٣٠٩٣)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٢٦).

الذي يكون في حسرة {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ} [سورة الحاقة:٢٥-٢٦]، هذا الذي لا يستطيع أحد أن يتوسط، ولا يتدخل، ولا يشفع، ولا يدفع، ولا يعاوض، ولا يساوم، ولا بالقوة، إنما الهلاك المحقق هو مصيره -نسأل الله العافية-، وهذا الفراق الذي ليس بعده لقاء، والعذاب الذي ليس بعده راحة، فما يحصله الإنسان في الدنيا من نجاح في دراسة أو نجاح في عمل أو وظيفة أو مال أو كسب في تجارة أو غير ذلك مما يفرح به الناس هذا فرح لا يذكر، ونجاح لا يذكر بالنسبة للنجاح الحقيقي، قد يتعثر الإنسان في الدنيا في مشروعات، في تجارة، يتعثر في عمل، يتعثر في دراسة، يتعثر ثم ماذا؟.

يعيد الكرة ثانية وثالثة، وما مات هؤلاء الذين تعثروا من الجوع، بل لربما صرفهم ذلك إلى ما هو أجدى وأنفع، فترى الرجل الذي تعرفه ولم يفلح في دراسة إذا لقيته بعد سنين إذا هو في حال قد فتح الله عليه، لو أعطيته ما أعطيته من الأموال على أن يرجع إلى دراسته التي أخفق فيها لا يرجع، ورأينا هذا، لكن الإخفاق الحقيقي هناك إذا أخذ الكتاب بشماله، النجاح الحقيقي هناك إذا أخذ الكتاب باليمين، فهذا الذي ينبغي أن تتوجه إليه الهمم والأعمال، وأن يشتغل الإنسان في تحقيقه، وتحقيق هذا المطلب هو العمل في هذه الحياة الدنيا، امتداد الحياة من أولها إلى آخرها، أن يسخر ذلك في طاعة الله والعبودية له من أجل أن يفوز هذا الفوز الحقيقي، وإلا فالدنيا قصيرة، لا شيء، والذين ماتوا هم أسرى في القبور ينتظرون البعث من أجل أن يأخذ الواحد كتابه في هذا أو في هذا، ليس هناك مجال للتوبة في القبر ولا أعمال صالحة، ولا استدراك، ولا مراجعة، هو ينتظر فقط، هذا يقول: ربي أقم الساعة، وهذا يقول: ربي لا تقم الساعة، إذاً الواحد لا يدري متى يموت، ونحن كل يوم في كل فرض يُصلَّى على جنائز، فيحتاج الإنسان أن يفكر وأن ينظر ويطرد أسباب الغفلة ويجدّ ويجتهد؛ من أجل أن يفلح، ويأخذ كتابه بيمينه، هذا هو الفوز الحقيقي الذي ليس بعده كدر، ولا تنغيص، ولا مرض، ولا صداع، ولا ألم، ولا مشكلات، ولا إزعاج، ولا لغو، ولا تأثيم، الراحة الكاملة، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الانشقاق من الآية (١٠) إلى الآية (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى- بعدما ذكر نعيم أهل الإيمان -على عادة القرآن في الجمع بين ما يحصل به الخوف والرجاء-: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [سورة المطففين:٢٩]، أهل الإجرام في الدنيا يسخرون ويستهزئون ويتندرون بأهل الإيمان، فهذا الضحك إنما منشؤه الاستخفاف والازدراء والسخرية لاحتقارهم إياهم، فهم لا يرونهم شيئًا، لا قيمة لهم، يرون أنهم لا يمثلون حقًّا، {وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [سورة المطففين:٣٠] بأي لون من ألوان الإشارة بالعين أو بتعابير الوجه أو باليد أو غير ذلك، وهذا الغمز معروف، بمعنى أنه يشير إلى صاحبه، انظر إلى هذا، يفعل ذلك احتقارًا له وسخرية منه، {وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ} [سورة المطففين:٣١] في القراءة الأخرى {فاكهين} يعني إذا رجع هؤلاء من أهل الإجرام إلى أهلهم رجعوا في حال مشابهة حيث يتندرون بهؤلاء المؤمنين، ويتضاحكون منهم، ويتفكهون في أعراضهم، وفي الوقت نفسه هم أيضًا في حال من الترهل في العيش والتوسع في الملاذ، فهم منغمسون في ملذاتهم وشهواتهم مع اشتغالهم بأهل الإيمان يسخرون منهم ويؤذونهم، {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ} [سورة المطففين:٣٢] يحكمون عليهم بالضلال وهم لم يعرفوا الحق أصلاً حتى يميزوا في ذلك، فيحكمون على الناس بجهل، يقولون: هذا ضال وهذا مهتدٍ بمعاييرهم ومقاييسهم الفاسدة التي لا تقوم على أصل صحيح، {وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} [سورة المطففين:٣٣] هذا ليس من شأنهم وما كُلفوا بهذا، يحفظون عليهم أعمالهم ويحصون ما صدر منهم، {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [سورة المطففين:٣٤] يوم القيامة في اليوم الآخر في الجنة أهل الإيمان يضحكون من الكفار الذين كانت أنظارهم لا تجاوز آنافهم، يعتقدون في أنفسهم بُعد النظر وحسن النظر في الأمور، ومعرفة المقاييس والمعايير الصحيحة للحق والباطل، ويوم القيامة يصيحون ويضجون ويدعون على أنفسهم بالويل والثبور في نار جهنم، وأهل الإيمان يتفرجون ويضحكون وينظرون، انظر إلى هذا، انظر إلى ذاك، الذين كانوا يسخرون منا ويؤذوننا في الدنيا، وشتان بين من سخر في هذه الدنيا الفانية القصيرة وبين من يسخر في اليوم الحق الذي يجزى الناس فيه بمثاقيل الذر، شتان بين من حصل له الفوز الأكبر وتلقى كتابه بيمينه، ودخل الجنة، ومن تلقى كتابه بشماله من وراء ظهره ثم سحب إلى النار، قال: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} [سورة المطففين:٣٥] فهذا الضحك الذي يكون من أهل الإيمان يكون حينما يصيرون إلى الجنة ويجلسون على الأرائك، وعرفنا أنها السرر ذوات الحجال التي عليها ما يكون كالمظلة فوق السرير، فهذه هي الأرائك {يَنظُرُونَ} يتنعمون ينظرون إلى الله -تبارك وتعالى-، ينظرون إلى أنواع النعيم، {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [سورة المطففين:٣٦] هل جوزوا؟، هل هذا جزاء لهم؟.

الجواب: نعم، وأيّ جزاء، هذا جزاء لا شك أنه هائل، ومصير سيئ صاروا إليه بسبب سوء أعمالهم وكثرة إجرامهم، وكفرهم بالله -جل جلاله.

ثم قال الله -عز وجل- في هذه السورة "سورة الانشقاق" التي تتحدث أيضًا عن اليوم الآخر، وتتحدث عن سير الإنسان منذ مبدئه ونشأته إلى أن يصل ويصير إلى الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة: **{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ}** [سورة الإنشقاق:١] يعني انفطرت وتصدعت، **{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}** [سورة الإنشقاق:٢] استمعت أمرها فأجابت وحُق لها أن تستجيب، **{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ}** [سورة الإنشقاق:٣] بسطت ووسعت وأزيل ما عليها من جبال، وصارت مستوية تتسع للناس من الأولين والآخرين يحشرون في صعيد واحد، هذه الأرض استجابت لأمر الله حيث ألقت ما فيها وتخلت، ألقت ما فيها من الموتى، ألقت ما فيها من أساطين الذهب من الكنوز، أخرجت ما بأجوافها وتخلت عنهم، **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** [سورة الإنشقاق:٦] هذا مسير الإنسان في هذه الحياة حتى يصير إلى ذلك اليوم الذي تحصل فيه هذه الأهوال والأوجال، **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ}** خطاب لجنس الإنسان المؤمن والكافر **{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ}** تعمل وتكدح بجد بعمل دءوب، هذا العمل يفضي في النهاية إلى حجز مقعد في الجنة أو حجز مقعد في النار، فهذا العمر هو الأنفاس، فهي صناديق للعمل فإما أن تملأ هذه الخزائن بالطاعات، وإما أن تملأ بالمعاصي، ثم يفضي الناس إلى القيامة والحساب فتفتح هذه الخزائن -صحف الأعمال-، ثم بعد ذلك يحصل التغابن الكثير بين الناس، فهذا اشترى منزلاً في الجنة، وهذا اشترى منزلاً في النار، الكل يغدو، كل الناس يغدو، كلهم يعمل **{كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** فملاقٍ هذا الكدح حيث يعرض على الإنسان العمل، ويرى ما قدم وأخر، وكذلك هو سيلاقي ربه -تبارك وتعالى- فيحاسبه على أعماله، فالضمير يرجع إلى الله -إلى الرب-، ويرجع أيضًا إلى العمل.

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [سورة الإنشقاق:٧] فهذا الذي يعطى الكتاب بيمينه هم أهل السعادة، وهذه أمارة الفلاح والنجاة والفوز الأكبر، أخْذُ الكتاب باليمين، فهنا "فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا" تعرض عليه أعماله عرضًا جُمْليًّا، يعني من غير استغراق في التفاصيل، ومحاسبة على الصغير والكبير، وإنما يعرض ذلك عليه مجرد عرض، فهذا هو الذي **{يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** [سورة الإنشقاق:٨-٩] ينقلب يرجع إلى أهله ممن سبقه منهم في الجنة، يرجع إليهم مسرورًا يبشرهم يخبرهم، أو يرجع إلى ما أعد الله له في الجنة من أهلين.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا، وللحاضرين، وللمسلمين أجمعين.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ} [سورة الإنشقاق:١٠] أي: بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه، ويعطى كتابه بها كذلك.

يعني هنا **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ}** هذا لا يخالف ما جاء من أخذ كتابه بشماله فإنه يأخذ الكتاب بشماله ويكون -والله تعالى أعلم- بهذه الصفة تلوى يده من وراء الظهر جزاء وفاقًا، كما أنه أعرض عن ربه -تبارك وتعالى- وجعل كلامه وراء ظهره، **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** [سورة الحشر:١٩] الجزاء من جنس العمل، تركوا العمل بطاعته والإيمان به فأنساهم أنفسهم، صار شغلهم فيما

يضرهم، أنساهم العمل بما ينفعهم، بما يرفعهم، صار اشتغالهم والتذاذهم بما يعود عليهم بالعطب والهلاك، وهنا جعلوا كتاب الله وراءهم ظِهريًا فأخذوا كتاب الأعمال من وراء ظهورهم، والله -تبارك وتعالى- حكَمٌ عدل، هؤلاء الفريق الذين يأخذون الكتاب بالشمال هم أهل الشمال -نسأل الله العافية-، هذا حينما يأخذ كتابه بشماله انظروا ماذا يكون.

{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا} [سورة الإنشقاق:١١] أي: خسارًا وهلاكًا.

{يَدْعُو ثُبُورًا} يعني يصيح بأعلى صوته واثبوراه، يدعو بالثبور، يدعو بالويل، يدعو بالهلاك، واثبوراه، واويلاه، واويلتاه، لكن لو صاح حتى ينشق حلقه ما كان ذلك يغني عنه شيئًا، تجلَّدَ، صبرَ **{اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا}** [سورة الطور:١٦] لا ينفعكم ذلك، تجلدوا أو لا تتجلدوا، أظهروا الجزع أو لا تظهروا الجزع كل هذا لا يغني، كما قالوا: **{سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ}** [سورة إبراهيم:٢١].

{وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [سورة الإنشقاق:١٢-١٣] أي: فرحًا لا يفكر في العواقب ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل.

هنا قوله: **{وَيَصْلَى سَعِيرًا}** كما سبق من أن صلْي النار يكون بدخولها وبمقاساة حرها، "ويصلى سعيرًا" نارًا تتسعر، والسعير من أسماء النار -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-، **{وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** "إنّ" هذه تفيد التعليل، وهذا الذي يسمونه بدلالة الإيماء والتنبيه، **{وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ}** لماذا يصلى سعيرًا؟ "إنه.." فـ"إنه" هنا تفيد التوكيد، وتفيد التعليل كأنه يقول: لأنه كان في أهله مسرورًا، والسرور هل هو مذموم؟ سرور هؤلاء مذموم، السرور الذي يكون بالرضا بالحياة الدنيا والتنعم بها بعيدًا عن الله -عز وجل- والدار الآخرة، وبعيدًا عن الإيمان هذا سرور مذموم؛ ولهذا أهل الجنة حينما يدخلون الجنة ماذا يقولون؟ **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** [سورة فاطر:٣٤]، ولهذا جاء عن بعض السلف كالحسن: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأن أهل الجنة يقولون: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** معروف أن الحزَن يكون على أمر مضى **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** هم في الدنيا في حزن؟، يحزنون على شيء مضى؟، الجواب: لا، الحزَن قد يعبر به عن الخوف، الخوف هو قلق من أمر مستقبل، والحزَن لأمر ماضٍ، هذا الأصل، لكن قد يستعمل الحُزْن والحَزَن في أمر مما يتخوفه الإنسان، فهو يرجع إلى قلق قد يكون في الماضي وقد يكون في المستقبل، والغالب في الاستعمال أنه يكون للماضي، هذا بالنسبة للحزن، فهم يقولون: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** هذا الحزن مفسَّر، الذي قالوه مفسر بأنه الحزن للدار الآخرة الإشفاق، وإلا فالحزن في الدنيا غير مطلوب أيضًا كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن الحزن إذا تتابع على القلب أفسده وأعطبه وأضعفه، يضعف قوى القلب فلا ينتفع بعمل دنيا ولا عمل آخرة، -نسأل الله العافية-؛ ولهذا استعاذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من الحزن، فهو غير مراد إلا أن يكون ذلك من جراء الخوف من الله في الدار الآخرة، إن المؤمن ليصبح حزينًا، ويمسي حزينًا، وما يسعه إلا الحزن، هذه عبارات بعض السلف، ماذا يقصدون به؟ الحزن من الآخرة، أما الحزن على الدنيا وعلى ما فعل إلى آخره فهذا غير مطلوب، ما فاته من لذات، ما فاته من تجارات، ما فاته من هذا غير مطلوب، ولهذا كان الله -عز وجل- ينهى نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن على هؤلاء المكذبين الذين لا يؤمنون ولا

يستجيبون، فنهاه عن ذلك، لا تحزن عليهم، فهؤلاء ممن وصف الله من أهل النار **{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** [سورة الإنشقاق:١٣] ما كان يشفق من الآخرة، ولا كان يحسب لهذا حسابًا، وإذا صدرت منه الأعمال السيئة ما يندم، ولا يحرك ذلك فيه عرقًا؛ لموت قلبه، أما المؤمن فإنه يشعر أن ذنوبه كالجبل يكاد يسقط عليه، فهو خائف، ويتوب، ولهذا من شروط قبول التوبة وصحتها الندم، وهذا الندم هو حزن يستقر في القلب، أما هؤلاء فإنهم لا يعرفون الله فلا يحصل لهم هذا الندم إطلاقًا على أعمالهم السيئة القبيحة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يراجع نفسه، وأن ينظر هل قلبه يتحرك إذا عصى الله، هل هو مشفق من الدار الآخرة؟، أو أنه يضحك بملء فيه؟، تفوته الصلاة ويضحك بملء فيه، ويضيع حقوق الله، ويفعل المعاصي والجرائم، ويضحك بملء فيه، يخرج من المعصية ويضحك، هذا يكون القلب قد وصل إلى حالة من الضعف وربما الموت فلا يتأثر.

{إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ} [سورة الإنشقاق:١٤] **أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحَوْر هو الرجوع.**

ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- استعاذ من الحَوْر بعد الكَوْر[1]، يعني الرجوع بعد أن يكون أمر الإنسان على حال سوية وينتظم، **{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا}** [سورة النحل:٩٢]، بعدما صار على حالة من الاتساق، صار على حال مرضية، صار على حالة طيبة من الإيمان والعمل الصالح، يتراجع، الحَوْر بعد الكَوْر، من كَوْر العمامة حينما تلف العمامة على الرأس، فالحوْر بمعنى الرجوع، تقول: حار الماء، يأتي الماء يأتي السيل إلى مكان لا يستطيع أن يعبر، يأتي ما يحجزه فيحُور أي يرجع.

قال الله: {بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [سورة الإنشقاق:١٥]**، يعني بلى سيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها {إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} أي: عليمًا خبيرًا.**

لا يخفى عليه منه خافية، فالله -تبارك وتعالى- بصير بعباده، وإن ظن العبد أن أعماله قد لا يجازَى عليها لكفره، أو لغلبة غفلته، أو لم يحسب لذلك حسابًا، لكن حينما تعرض عليه الصغار والكبار يدرك ذلك، فالله بصره نافذ بعبده يراه في كل أحواله وتقلباته، كما قال الله -تبارك وتعالى- على أحد المعاني في التفسير في أولائك الذين كانوا في الجاهلية على الشرك حيث الواحد منهم يتصرف تصرفًا بزعمه أنه يستحي من الله -تبارك وتعالى-: **{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}** [سورة هود:٥]، بعدما قال: **{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}** يثنون صدورهم ليستخفوا منه على أحد المعاني، يعني أن الواحد منهم إذا جلس لقضاء حاجته انحنى بظهره ليكون ظهره بين عورته والسماء حياء من الله على أحد المعاني، فالله -عز وجل- يقول: **{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ}** الواحد منهم يلتحف بلحافه لينام الله يعلم ما يدور في نفسه، هذا المعنى أنه ظن أن لا يحور: أن لا يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- بنحوه أيضًا قال ابن جرير -رحم الله الجميع.

---

١ - رواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الحور بعد الكور، برقم (٥٤٩٨)، والترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول إذا خرج مسافرا، برقم (٣٤٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٧٨١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّــهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [سورة الانشقاق:١٦-٢٥].

قبل هذا "إذا" في قوله: {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} أين جوابها؟ الآن بدأ بقسم جديد فأين الجواب؟ بعضهم كالفراء يقول: إن الجواب {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} هذا الجواب أذنت وألقت، طيب والواو؟ يعني الجواب لا تكون الواو داخلة عليه، يعني يكون هكذا {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} يعني إذا السماء انشقت أذنت لربها وحقت، يقول: الواو زائدة، وذكرنا أن هذا التعبير لا يحسن، لكن هم يقصدون زائدة إعرابًا، وعليه فلا تكون عاطفة {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا} يكون "ألقت" جوابًا لما قبله {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} [سورة الإنشقاق:٣]، وهذا ليس بظاهر -والله أعلم-، فقد رده عليه بعض أهل العلم كابن الأنباري قال: غلط، وعللوا ذلك بتعليلات لا حاجة للتوسع في مثل هذا في هذا المقام، وبعضهم يقول: الجواب هو قوله: {فَمُلَاقِيهِ} يعني فأنت ملاقيه، هذا قول الأخفش، وبعضهم يقول: في الكلام تقديم وتأخير، وهذا خلاف الأصل أيضًا؛ لأنه مهما أمكن حمل الكلام على وجه صحيح من الترتيب الذي ذكره الله تعالى فهو مقدم على دعوى التقديم والتأخير؛ لأن الأصل أن الكلام على النسق المذكور في الآيات، فالمبرد يذكر هذا يقول: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ}، متى تلاقيه؟، إذا السماء انشقت، وهذا بعيد، والله -تبارك وتعالى- لا يخاطب الناس بخطابات تكون محاملها على معانٍ لا تخطر في بال السامع فضلاً عن أن تكون هي المتبادرة أو غير المتبادرة -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: إن الجواب {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} يعني {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ} فيحصل انقسام الناس، تفاوت الناس، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، وهذا قول الكسائي، وهذا من حيث النظر -والله أعلم- لا يكون ذلك بعيدًا متكلفًا فهو محتمل، {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وبعضهم يقول: إن الجواب هو "يا أيها الإنسان"، "إذا السماء انشقت يا أيها الإنسان" قالوا: مع إضمار الفاء أي فيا أيها الإنسان، وكأن قول الكسائي أقرب للسياق، والله أعلم.

رُوِيَ عَنْ عَلِيّ وَابْن عَبَّاس وَعُبَادَة بْن الصَّامِت وَأَبِي هُرَيْرَة وَشَدَّاد بْن أَوْس وَابْن عُمَر وَمُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الْحُسَيْن وَمَكْحُول وَبَكْر بْن عَبْد اللَّه الْمُزَنِيّ وَبُكَيْر بْن الْأَشَجّ وَمَالِك وَابْن أَبِي ذِئْب وَعَبْد الْعَزِيز بْن أَبِي سَلَمَة الْمَاجِشُون أَنَّهُمْ قَالُوا: الشَّفَق الْحُمْرَة، وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: الشَّفَق الْبَيَاض، فَالشَّفَق هُوَ حُمْرَة الْأُفُق، إِمَّا قَبْل طُلُوع الشَّمْس كَمَا قَالَهُ مُجَاهِد، وَإِمَّا بَعْد غُرُوبهَا كَمَا هُوَ مَعْرُوف عِنْدَ أَهْل اللُّغَة، قَالَ الْخَلِيل بْن أَحْمَد: الشَّفَق الْحُمْرَة مِنْ غُرُوب الشَّمْس إِلَى وَقْت الْعِشَاء الْآخِرَة فَإِذَا ذَهَبَ قِيلَ: غَابَ الشَّفَق، وَقَالَ الْجَوْهَرِيّ: الشَّفَق بَقِيَّة ضَوْء الشَّمْس وَحُمْرَتهَا فِي أَوَّل اللَّيْل إِلَى قَرِيب مِنْ الْعَتَمَة، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة: الشَّفَق الَّذِي يَكُون بَيْن الْمَغْرِب وَالْعِشَاء، وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَبْد اللَّه بْن عَمْرو -رضي الله

عنهما- عَنْ رَسُول اللّه -صلى الله عليه وسلم- أَنّهُ قَالَ: ((وَقْت الْمَغْرِب مَا لَمْ يَغِب الشّفَق))[٢]، فَفِي هَذَا كُلّه دَلِيل عَلَى أَنّ الشّفَق هُوَ كَمَا قَالَهُ الْجَوْهَرِيّ وَالْخَلِيل.

وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، والحديث يدل على هذا، وإليه يتوجه الذهن عند الإطلاق، إذا قيل: الشفق فالمقصود به الحمرة، والمقصود به أيضًا الشفق الذي يكون مع مغيب الشمس، بعد غياب الشمس إلى دخول وقت العشاء، فهذا كله وقت الشفق، فهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم من أهل اللغة، ومن المفسرين، ومن الفقهاء، وهو الذي أضافه الواحدي إلى المفسرين قال: هذا قول المفسرين: الشفق الذي يكون بعد غياب الشمس، بل الواحدي يقول: وهذا قول أهل اللغة جميعًا، مع أنك لو تتبعت كلام أهل اللغة تجد من يذكر أشياء لكن يمكن أن تُوجَّه، لكن هذا الذي يكاد يطبق عليه أهل العلم، وعامة أهل العلم، ولذلك حكاه القرطبي -رحمه الله- عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء، {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ} فأقسمَ بالشفق ثم أقسمَ بالليل، فالشفق يكون مقدمة لليل، والذين عبروا عن ذلك بالنهار كأنهم قابلوا ذلك بالليل، {وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} ولكن هذا بعيد، وهكذا من عبر عنه بالبياض كأنه نظر إلى هذا إلى ذكر الليل، ولكن الشفق هو مقدمة الليل، والله -عز وجل- أقسم بالليل في حال إقباله كما سبق، {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [سورة الضحى:٢]، {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١] يعني أقبل، وكذلك في قوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} يحتمل هذا وهذا؛ لأنه من الأضداد أقبل وأدبر، فهذه كلها مظاهر تدل على عظمة الله -عز وجل- وقدرته الباهرة، فأقسم بالشفق {وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ} فهذه كلها تكون في الليل، فالشفق مقدمته والقمر آيته {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:١٢]، يعني الشمس، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق:١-٣] فالغاسق فسر بالقمر في أحد المعاني المشهورة في تفسيره، وأشهر الأقوال في قوله: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} أشهر الأقوال -على تعددها-: أنه الليل أو القمر، وبين القولين ملازمة باعتبار أن القمر هو آية الليل، فهنا ذكر هذا جميعًا ذكر الليل وذكر القمر، وذكر الشفق، وعرفنا أن "لا" هذه لتأكيد القسم، وبعضهم يقول: نافية لأمر مقدر سابقًا أي لا لما تقولون مثلاً أقسم بالشفق، أو أنها نافية يراد بها نفي القسم، أي أن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قسم. والأقرب أنها لتوكيد القسم.

قَالَ اِبْن عَبّاس وَمُجَاهِد وَالْحَسَن وَقَتَادَة: {وَمَا وَسَقَ} وَمَا جَمَعَ، قَالَ قَتَادَة: وَمَا جَمَعَ مِنْ نَجْم وَدَابّة، وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَة: {وَاللّيْل وَمَا وَسَقَ} يَقُول: مَا سَاقَ مِنْ ظُلْمَة، إِذَا كَانَ اللّيْل ذَهَبَ كُلّ شَيْء إِلَى مَأْوَاهُ.

هذا مفيد، يراجع الأصل

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاللّيْلِ وَمَا وَسَقَ} أقسم بالليل وما وسق، وسق أصله ضم الشيء بعضه إلى بعض، يعني {وَاللّيْلِ وَمَا وَسَقَ} أي: حوى وجمع ولف كما يعبر المفسرون، وهي عبارات متقاربة، اللهم إلا ما جاء عن عكرمة أنه فسر وسق قال: **وما ساق**، فسره بالسوق، ساق، يعني جعله من السوق لا من الجمع، ما ساق من ماذا؟ ما ساق من ظلمة، ما ساق من الذوات والمخلوقات التي تأوي إلى أماكنها ومحالها وبيوتها أو ما

---

٢ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، برقم (٦١٢).

ساق من شرور شياطين وما إلى ذلك، فإن الليل يكون مظنة لانتشار الشياطين، شياطين الإنس والجن، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بكف الصبيان عند إقبال الليل حتى تذهب فحمة العشاء؛ لأنهم ينتشرون، -وقت الانتشار الآن- وتنتشر الهوام والسباع في الليل، ولهذا جاء في الاستعاذة في سورة الفلق، قال: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} قلنا: الليل، أو قلنا: القمر وهما متلازمان، لماذا الاستعاذة؟، لأنه في الليل تنتشر هذه الشرور في الظلام أكثر من النهار، عكرمة فسره بالسوق، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أنه بمعنى الضم والجمع واللف، جمع ولف وضم كل ما جنه وستره، "وما وسق"، انظر إلى قول الشاعر البائس المسكين الذي يبحث عن أدنى سبب يربطه بمحبوبته فلم يجد شيئاً من قرابة ولا صلة ولا نسب فقال:

أليس الليلُ يجمع أمَّ عمرو *** وإيّانا فذاك بنا تدانِي

هذا قرْب، يعني هناك عامل مشترك شيء يجمع بيني وبينها، ما هذا الذي يجمع بينك وبينها؟ قال: الليل يجمع بيننا، هي عندها ليل وأنا عندي ليل

وتَرى الهلالَ كما أراه *** ويعلوها النهارُ كما علانِي

هو يبحث عن أي شيء، أي وجه من الاشتراك والجمع بينه وبين محبوبته، فما وجد إلا الليل، وأنها ترى الهلال، وأن النهار يعلوهما معًا فهذا نوع اشتراك وارتباط مع أن الليل -الظلام- يجمع الشياطين ويجمع الأشرار، ويعلو الجميع.

فهنا {وما وسق} فُسر بما جنّ وستر، أو ما حمل، كل هذه معانٍ متقاربة، كل شيء حملتَه فقد وسقتَه، فهذا الليل ينتشر بظلامه فيغطي ناحية المعمورة، في الوقت نفسه الذي يحمل فيه الظلمة أو يحمل ما يحمل من كواكب تخرج في الليل وما إلى ذلك، كما يقول طائفة من السلف كقتادة والضحاك ومقاتل: تسكن فيه الأرواح، ويرجع الناس إلى بيوتهم، والطير وما إلى ذلك، الكل يأوي إلى ناحيته، نحن قد لا نشاهد الآن الحياة على طبيعتها التي فطرها الله -عز وجل- عليها؛ لأن الناس تحول ليلهم إلى نهار، لكن إلى عهد قريب إلى وقت قريب كان الناس يشاهدون ذلك فإذا جاء الغروب بدأ كل شيء يرجع، رجع أهل الزراعة والفلاحة والصناعة وأقفرت المتاجر والأسواق حتى الدواب والبهائم ترجع من نفسها، يعني لا تحتاج إلى سائق، إذا جاء وقت الغروب رجعت هذه الدواب مستقبلة دور أهلها كل واحدة تعرف، حتى إنه إلى عهد قريب في القرى والنواحي والأرياف ونحو هذا تجد القرية لها راعٍ واحد، فهؤلاء عندهم شاة، وهؤلاء عندهم ثلاث، وهؤلاء عندهم خمس، فإذا جاء وقت ما بعد الفجر سرّحوها، فتذهب ترتع مسرعة تستقبل تلك الناحية التي تنطلق منها مع الراعي، ثم تذهب سائر اليوم فإذا جاء وقت الغروب أقبلت وقد امتدت خواصرها وامتلأت ضروعها مسرعة لا تلوي على شيء، كل واحدة من هذه البهائم تستقبل دار أهلها فتلج، هذا شيء مشاهد معروف يعرفه الناس، ولهذا يقول ابن جرير: "والليل وما وسق" وما جمع مما سكن فيه من ذي روح، الناس يرجعون إلى بيوتهم، الطيور ترجع، البهائم ترجع فتهدأ، هذا الذي يطير يذهب إلى وكره، وما يدب يرجع إلى موضعه، فهذا معنى وسق -والله تعالى أعلم-، فيحمل على هذه المعاني كلها، وما وسق: ما حمل من ظلمة، وما جمع.

وقوله تعالى: {وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ} قَالَ اِبْن عَبّاس: إِذَا اِجْتَمَعَ وَاسْتَوَى، وَقَالَ الْحَسَن: إِذَا اِجْتَمَعَ، إِذَا اِمْتَلَأَ، وَقَالَ قَتَادَة: إِذَا اِسْتَدَارَ، وَمَعْنَى كَلَامهمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُوره وَأَبْدَرَ، جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ.

يعني هنا الليل وما حوى بظلمته وما حمل فيها، وكذلك أقسم بالقمر في أكمل حالاته، وذلك إذا استدار معناه إذا استتم، المعنى واحد لكن هذا عبر باستدار وهذا قال: استتم.

فإنه لا يكون مستديرًا ولا تتم استدارته إلا إذا كان بحال الاكتمال؛ ولهذا يعبرون يقولون: امتلأ، اجتمع، لا يمتلئ ويجتمع إلا في حال الاكتمال، وذلك في ليلة الرابع عشر، وليلة الخامس عشر، هذه الليالي تجد بعض أهل العلم يقول: ليلة الثالث عشر، وليلة الرابع عشر، وليلة الخامس عشر يكون القمر في أكمل حالاته إلى السادس عشر، الليلة السادسة عشرة يكون القمر مكتملاً، فيكون ذلك معنى الوسق الذي هو الاكتمال أو الجمع، واتسق له هذا الأمر يعني اكتمل، أمر فلان متسق أي منتظم مكتمل مستقيم، اتسقت له الأمور يعني استتمت، فالقمر إذا اتسق معنى ذلك أنه اكتمل، فأقسم به في هذه الحال؛ لأن ذلك أحسن أحوال القمر، وأكمل أحوال القمر، وأجمل ما يكون عليه القمر، ولهذا يشبَّه به في الجمال، وجهه كالقمر في الحسن.

وقوله تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} روى الْبُخَارِيّ عَنْ مُجَاهِد قَالَ: قَالَ اِبْن عَبَّاس: "{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} حَالًا بَعْد حَال، قَالَ هَذَا نَبِيّكُمْ -صلى الله عليه وسلم-"[٣]، وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ بِهَذَا اللَّفْظ.

وَقَالَ عِكْرِمَة: {طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} حَالًا بَعْد حَال، فَطِيمًا بَعْدَمَا كَانَ رَضِيعًا، وَشَيْخًا بَعْدَمَا كَانَ شَابًّا، وَقَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ: {طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} يَقُول: حَالًا بَعْد حَال، رَخَاء بَعْد شِدَّة، وَشِدَّة بَعْد رَخَاء، وَغِنًى بَعْد فَقْر، وَفَقْرًا بَعْد غِنًى، وَصِحَّة بَعْد سَقَم، وَسَقَمًا بَعْد صِحَّة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** هذا جواب القسم، الآن **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}** قلنا: هذا قسم، يعني أقسم بالشفق، وبالليل وما وسق، وبالقمر إذا اتسق، ثلاثة أقسام أو أكثر؛ لأن القسم هنا بالشفق وبالليل وبما وسق -يعني جمع- وبالقمر صارت أربعة، هذه الأقسام الأربعة على ماذا؟ **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** هذا جواب القسم، ما معنى **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**؟ الآن عندنا القراءة بالفتح **{لَتركبَنَّ}** وهي قراءة متواترة لحمزة والكسائي وابن كثير وأبي عمرو، هذا الآن "لتركبَنَّ" خطاب للواحد في ظاهره، وهو يحتمل أن يكون المراد به واحدًا وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني حالاً بعد حال من الشدة والرخاء، والضعف والقوة حتى التمكين، ومضى قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، لكن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على شدائد القيامة، يعني هنا ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما قيده، ماذا قال؟ قال: حالاً بعد حال، ابن جرير يقول: حالاً بعد حال من شدائد القيامة، والآية أطلق الله -عز وجل- فيها ذلك فلم يقيده بالقيامة، والأصل بقاء ما أطلقه الله -عز وجل- على إطلاقه، كما يبقى العام على عمومه حتى يرد المخصِّص أو المقيِّد، ولا يوجد عندنا ما يقيد ذلك، فهنا على هذه القراءة المتواترة "لتركبَنَّ" بعضهم قال: أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، حالاً بعد حال، هل هذا في الدنيا أو في الآخرة؟ مقتضى الإطلاق أن يبقى عامًّا، وبعضهم

---

٣ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**، برقم (٤٩٤٠).

يقول: إن ذلك يرجع إلى السماء، يعني السماء ستمر بأطوار وأحوال من الانفطار والانشقاق حتى تصير وردة كالدهان، ولكن هذا بعيد، والله أعلم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه القراءة "لتركبَنَّ طبقًا عن طبق" خوطب بها واحد غير معين، فتكون بمعنى العموم، يصلح الخطاب لكل مخاطب، يعني يا أيها الإنسان، أو أن الله أقسم بهذه الأمور -أربعة أقسام- على هذه القضية "لتركبَنَّ طبقًا عن طبق" حالاً بعد حال، القراءة الثانية **{لَتَرْكَبُنَّ}** هذه واضح أنها للجمع وهو الناس، والذين حملوا ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعضهم خصه بأمر حصل له في الدنيا وذلك ليلة المعراج، **{طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** يعني في عروجه في السماوات -صلى الله عليه وسلم- كما جاء عن الشعبي ومجاهد، لتركبَنَّ يا محمد طبقًا عن طبق، يعني يعرج الله به فيصعد من سماء إلى سماء، وبعضهم يقول: درجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة من رتب العبودية، والقرب من الله -تبارك وتعالى-، ورفعة المنزلة، وبعضهم يقول: هذا في الشدائد، وابن جرير يحمله على الشدائد كما سبق لكنه حمله على شدائد الآخرة، وبعضهم أطلق الشدائد باعتبار أن مثل هذا التعبير عادة يقال في الشدائد، يقولون: أصابته بنات طبق، وقع في بنات طبق، يعني في مصائب، في شدائد، فمن هنا حمله ابن جرير -رحمه الله- على الشدائد، ولكنْ كثير من أهل العلم حملوه على ما هو أعم من هذا **{طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** قالوا: حالاً بعد حال، يبدأ نطفة ثم علقة ثم يتخلق ثم تنفخ فيه الروح ثم يخرج طفلاً، ثم يكون يافعًا يشب، ثم بعد ذلك يصير كهلاً، ثم يصير شيخًا، ثم يموت ويصير إلى البرزخ، ثم يصير إلى القيامة، أو إلى الحشر، ثم بعد ذلك يصير إلى الجنة، طبعًا مع ما يجري في القيامة من حساب ووزن الأعمال، ونصب الموازين للناس، ثم الاجتياز على الصراط، والجنة أو النار.

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} حالاً بعد حال فهذا يكون الخطاب للإنسان **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** كما أشرت في أول السورة فيكون هذا بيانًا لحال هذا الإنسان وما يصير إليه، ولابدّ من أنه سينتقل من حال إلى حال، وأنه سيلقى من الشدة والأحوال والأطوار والرخاء أحوالاً متنوعة، **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** فهذه حقيقة أقسم الله -عز وجل- عليها أربعة أقسام، وبناء على هذا المعنى يكون الإنسان قد وطن نفسه لتحمل الشدائد والصبر عليها؛ لأن هذا أمر لا مفر منه، والله -عز وجل- يقول: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}** [سورة البلد:٤] فمن ظن أن الدنيا هي محل الراحة فهو مخطئ، وإنما الراحة حينما يضع أول قدم له في الجنة، فتجد الإنسان اليوم مرتاحًا، وغدًا مشوش الذهن، يصبح الإنسان في حال من الانشراح والسرور والنشاط، نفسه متألقة، وفي يوم آخر يصبح في حال من الضيق والفتور، تمر به اليوم أمور تنشط قلبه وتقويه، ويفرح ويسر، ثم بعد ذلك تمر به أحوال يضيق بها الصدر، **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** فهذه طبيعة الحياة، مثل هذه الأجواء التي نراها: اليوم هواء، غدًا غبار، بعد غد رطوبة، بعد ذلك يأتي شتاء، بعده يأتي ربيع، صيف، خريف، كما تتقلب هذه الأجواء التي نشاهدها كذلك الحياة، هكذا طبيعتها لا تصفو لأحد لا كبير ولا صغير ولا قوي ولا ضعيف ولا غني، ولكن الإنسان في حال الابتلاء في حال الشدة في حال ما يكدر عليه صفو العيش يظن أنه هو الوحيد بمصيبته، فتضيق به الدنيا؛ ولذلك يتعزى في الدنيا بما يجري للآخرين، فإذا قيل له: فلان حصل له كذا، فلان حصل له مثلك، فلان حصل له كذا يتسلى، لذلك الخنساء تقول:

ولولا كثرةُ الباكين حولي *** على إخوانهم لقتلتُ نفسي

فإذا كثر المصاب وعم خف أثره على الناس، لكن حينما ينفرد الإنسان ببلية في مصيبة يظن أنه الوحيد، فيتعاظم ذلك في نفسه، فيغلب عليه الغم والحزن والهم، ولكن من عرف أن هذه هي طبيعة الحياة، وأن الله أقسم على هذا، {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} حالاً بعد حال فإنه لا يعجب، والحياة لا تدوم على حال واحدة ، وإنما تتغير وتتقلب بأهلها، وتجد هذا الإنسان الذي في غاية العافية صار مريضًا، وتجد هذا الإنسان الذي كان في نضارة الشباب بعد مدة تراه قد أصابه الشَّمَط وشاخ وذبل وضعف، ومثل هذا تجد هذا الغني صار فقيرًا، وبعدما كان هؤلاء بحال اجتماعهم واكتمال أمرهم وأحوالهم تفرقوا، -والله المستعان-، {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}.

ونسأل الله -عز وجل- أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يلطف بهم، وأن يجعل العاقبة لهم، وأن ينصرهم على عدوه وعدوهم، وأن يحقن دماءهم ويحفظ أعراضهم، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الانشقاق من الآية (٢٠) إلى نهاية السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ}** [سورة الإنشقاق:١٠] فهذا الذي يؤتى كتابه بشماله فتُدار يده وتلوى من وراء ظهره فيأخذ كتابه، **{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا}** [سورة الإنشقاق:١١] فهذا يدعو بالثبور والهلاك حينئذ، **{وَيَصْلَى سَعِيرًا}** [سورة الإنشقاق:١٢] يدخل النار التي تستعر، ويقاسي حرها، يصلى: يُشوى بها، ثم ذكر حاله وعلة مآله: **{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** [سورة الإنشقاق:١٣] بمعنى أنه لم يكن يخاف ويشفق من هذا اليوم ومن لقاء الله -تبارك وتعالى-، ومن الجزاء والحساب، فكان في حال من السرور والتفكه والفرح الذي يحمل صاحبه على الأشَر والبطَر والغفلة والترك، **{إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ}** [سورة الإنشقاق:١٤] أن لن يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، ولن يبعث، ويعاد من جديد، **{بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}** [سورة الإنشقاق:١٥] فالله هو الذي خلقه، وأحصى عليه الأنفاس، ودُونت أعماله جميعًا، وبصر الله نافذ فيه في جميع حالاته، وسيجازيه على ما فرط منه، ثم قال: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}** [سورة الإنشقاق:١٦] "لا" هذه لتأكيد القسم كما سبق، "أقسم بالشفق"، قلنا: إن الشفق هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس، **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}** [سورة الإنشقاق:١٧] أقسم بالليل وبما حواه ولفه وغطاه، وجمعه بظلامه، **{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}** [سورة الإنشقاق:١٨] أقسم بالقمر حال اكتماله واستوائه واستدارته وتمامه، ثم ذكر جواب القسم **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}** [سورة الإنشقاق:١٩] يعني أن الإنسان سينتقل من حال إلى حال سواء كان ذلك في نشأته والأطوار المتعاقبة التي يمر بها من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصور في صورة إنسان، ثم يولد فالطفولة فالصبا، ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة وهكذا، ثم الموت، والبرزخ، ثم المحشر، وعَرَصات القيامة وما يلاقيه من الأهوال والمواقف، والحساب والجزاء، ثم بعد ذلك إما إلى الجنة وإما إلى النار، كذلك يركب الناس طبقاً عن طبق فيتنقلون ويتحولون في هذه الحياة الدنيا من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى شدة، ومن عافية إلى مرض، ومن غنى إلى فقر، وأضداد ذلك، هكذا ركبت هذه الحياة **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** ما الذي يحول بينهم وبين الإيمان؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا، وللحاضرين، وللمسلمين أجمعين.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [سورة الإنشقاق:٢٠-٢١] أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟، ومالهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا؟.

هذا السجود الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا**، فظاهر كلامه أن المقصود بهذا السجود السجود الحقيقي، إعظامًا لهذا القرآن واحترامًا وإكرامًا يعني السجود على الأرض، وهذا أصل معناه في الشرع، وضع الجبهة على الأرض، وقد يستعمل في معنى الركوع، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا}** [سورة الأعراف:١٦١] يعني: رُكّعًا، أمرهم أن يدخلوا في حال الانحناء تعظيمًا وتواضعًا وإخباتًا لله -تبارك وتعالى-، والسياق هو الذي يبين ذلك، فهؤلاء كفار يَنعَى عليهم ربنا -تبارك وتعالى- عدم الإيمان وترك السجود عند سماع القرآن، فهذا المعنى السجود الحقيقي هو الذي حمله عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعض السلف كالحسن وعطاء ومقاتل حملوا ذلك على الصلاة، لا يسجدون يعني لا يصلون، والصلاة قد يعبر عنها بأحد أركانها، من ذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** [سورة الإسراء:٧٨]، والمقصود به الصلاة صلاة الفجر، ولما كانت القراءة مقصودة في صلاة الفجر وأن يطول فيها ويجهر عبر عنها بذلك، **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}**، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [سورة آل عمران:٤٣] المعنى أنها تصلي وليس المقصود أنها تصلي مع الجماعة، إنما تكون في جملة المصلين، **{ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ}** [سورة الحج:٧٧] أمرٌ لهم بالصلاة التي هذه من أركانها، فحمله بعضهم هنا على الصلاة، لكن هذا -والله أعلم- لا يخلو من بعد؛ لأنه قرنه هنا بقراءة القرآن **{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}**، هل معنى ذلك أنهم لا يصلون؟ وهل إذا قرئ عليهم القرآن يكون ذلك مطالبة لهم بالصلاة؟ هم مطالبون بالإيمان قبل كل شيء، قبل الصلاة، ولهذا فسره بعضهم بالخضوع؛ لأن هؤلاء ليسوا بأهل صلاة ولا تقبل ولا تصح منهم إلا بالإيمان، ففُسر بالخضوع، والسجود قد يعبر به عن الخضوع، وطوائف من أهل العلم يفسرون سجود الظلال أو سجود الأشياء لله -تبارك وتعالى- يعني ما لا يعقل بعضهم يفسره بالخضوع، يقولون: الخضوع والاستكانة، وهذا الذي اختاره ابن جرير، لا يخضعون لبراهينه وحججه ودلائله الدالة على صدقه، وبعضهم يقول: المقصود بذلك سجود التلاوة، **{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}**، وابن كثير مشى على هذا، والآية -والله أعلم- يدور المعنى فيها بينهما، يعني القول بأن المراد يصلون فيه بُعد، فإما أن يكون المراد بالسجود الخضوع، وإما أن يكون المراد به السجود الذي يكون للتلاوة تعظيمًا لهذا القرآن، وهذا السجود الذي يكون للتلاوة يتضمن الخضوع؛ فإن هذا الذي يسجد يتواضع ويخضع لربه -تبارك وتعالى-، وهم لا يفعلون هذا ولا هذا، لا يحصل منهم لا السجود ولا الخضوع، بل لا تزيدهم آيات القرآن المنزلة إلا رجسًا على رجسهم كما أخبر الله -تبارك وتعالى- عنهم.

وقوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ} [سورة الإنشقاق:٢٢] أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق.

يعني بدلاً من الإذعان والإيمان يقابلون ذلك بالكفر، هذا يمكن أن يكون قرينة تقوي قول من قال: إن المقصود بذلك الخضوع، فهم بدلاً من أن يخضعوا لهذا القرآن وينقادوا قابلوا ذلك بالتكذيب، يكذبون.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [سورة الإنشقاق:٢٣]، قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم.

يعني ما تنطوي عليه صدورهم، ما تكون صدورهم أوعية له، ما الذي تحويه هذه الصدور.

هنا قال قتادة ومجاهد: **يكتمون في صدورهم،** مقاتل يقول: يكتمون من أفعالهم، وهذا الذي يكتمونه في صدورهم يدخل فيه ما يكتمون من أفعالهم، ويدخل فيه ما يكتمونه من المقاصد السيئة، ويدخل فيه الكفر، كل ذلك داخل فيه، وابن زيد وسع المعنى، وفسره بما يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة، "يوعون" يعني لم يقيد ذلك بالصدور، أو بما يُكتم فيها، وإنما بما يجمعون، مأخوذ من الوعاء، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ما يوعون يعني ما تُوعيه صدورهم من التكذيب، وقريب من هذا ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- حيث فسره بما يضمرونه في صدورهم، ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم إلا أنه زاد عليه المعنى الآخر وهو ما يجمعونه من الأعمال فيجازيهم عليه بعلمه وعدله، فإن الله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} بكل ما يجمعون، سواء كان ذلك في صدورهم، في نفوسهم ويكنونه، أو كان ذلك من الأعمال التي تصدر عنهم، فالله قد أحصى ذلك وعلمه.

{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الإنشقاق:٢٤] أي: فأخبرهم يا محمد بأن الله -عز وجل- قد أعد لهم عذابًا أليمًا.

هنا البشارة استعملت فيما يسوء، والمشهور في الاستعمال والغالب أنها تقال فيما يسر، وأن ذلك لظهور أثر البشارة على الأبشار على البشرة بحيث يظهر أثر ذلك من السرور مثلاً ونحو ذلك، فقيل لها: بشارة، فالمشهور أن البشارة هي الإخبار بما يسر خاصة، وهذا ليس محل اتفاق، لكن هذا الذي عليه الأكثر من أهل العلم، وبعضهم يقول: تستعمل في هذا وهذا، وبعضهم يقول: تستعمل فيما يسوء مجازًا، وبعضهم يقول: هذا على سبيل التهكم، يعني حينما يعبر بالبشارة عن الأمر الذي لا يسر، وجاء هذا في كلام العرب، وهو معروف استعمال البشارة فيما يسوء، كما قال الشاعر:

يُبشرني الغرابُ ببيْنِ أهلي *** فقلتُ له ثكلتُك مِن بشيرِ

ببين أهلي يعني بفراقهم، فهذا استعمله فيما يسوء، فيما يكره.

أبشرتَني يا عمرو أنّ أحبتي *** جفونّي وقالوا الودُّ موعدُه القبرُ

بشره بأمر يسوءه فهذا معروف، لكن الغالب أنها تستعمل فيما يسر، وفي القرآن جاء استعمالها فيما يسوء، والبشارة فيما يسر وبما يسوء كل ذلك يظهر أثره على بشرة الإنسان.

وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [سورة الإنشقاق:٢٥] هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا أي: بقلوبهم، {وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} أي: بجوارحهم، {لَهُمْ أَجْرٌ} أي: في الدار الآخرة، {غَيْرُ مَمْنُونٍ}، قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود:١٠٨] وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون غير منقوص.

آخر تفسير سورة الانشقاق، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} قال: **استثناء منقطع،** باعتبار أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات غير داخلين فيما وصف به هؤلاء الكفار الذين يكذبون، وأمر بتبشيرهم بالعذاب الأليم، فيكون {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} بمعنى لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون، يعني غير منقوص أو مقطوع، كما قال الله -عز وجل-: {عَطَاء غَيْرَ

مَجْذُوذٍ}، وبعضهم فسره بالمحسوب، والمحسوب مظنة للانقطاع، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين {غَيْرُ مَمْنُونٍ} فسره غير محسوب ولا منقوص، وبعضهم يفسر ذلك بالمنة يعني لا يحصل به منة عليهم يتأذون بها، فالعطاء إذا كان فيه نقص وهكذا الذي يحسب فإن الذي يحسب إنما يكون قليلاً، ولهذا أخبر الله -عز وجل- عن جزاء أهل الإيمان أنه بغير حساب، يعني حثوًا بلا كيل ولا ميزان، وإنما يعد ويحصى ويحسب الشيء القليل، والذي يحصل به منة يحصل به تأذٍّ، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [سورة البقرة:٢٦٤] فهذه العطية إذا حصل معها منة فإن ذلك يؤذي، لكن الله -تبارك وتعالى- يمتن على عباده بما أعطاهم وأنعم عليهم، ومنته ليست من ذلك في شيء، يعني ليس ذلك مما يحصل به التأذي، لكن المقصود أنه عطاء لا تنغيص فيه، ولا كدر معه، فهو كثير لا ينقطع، ولا يحصل معه تأذٍّ بحال من الأحوال.

قال في الأصل: **وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد، فإن الله -عز وجل- له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، ويُلهمون تحميده كما يلهمون النَّفَس، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.**

القول الآخر يقصد به المنة، فالمنة يحصل بها التأذي، لكن يرِد على هذا أن الله يمتن على عباده {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} [سورة الحجرات:١٧] فهذه لا يحصل بها التأذي، فمن فسره بالمنة في العطاء أو نحو ذلك هو لا يقصد بذلك أنه يخلو من منة الله -عز وجل- على عباده، هذا لا ينفك العبد منه، وإنما المقصود بذلك -والله أعلم- أنه لا يحصل به المنة التي يحصل بها التأذي كما في الدنيا -عطية الناس-، وإلا فالله يمن على عباده فيما حباهم وأعطاهم أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، فالفضل له وحده -سبحانه وتعالى-، والحافظ ابن القيم له تعليقات على بعض المواضع في هذه السورة في قوله مثلاً: {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [سورة المدثر:٣٣-٣٤] وهو يقابل إقسامه بالشفق ونظيره إقسامه بـــ {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [سورة التكوير:١٧-١٨]"[١].

الآن يقول: إن الشفق هو الذي يكون في إقبال الليل بعد غروب الشمس، يعني ليس الحمرة التي تكون عند طلوع الشمس.

ثم قال -رحمه الله-: "ولما كان الرب -تبارك وتعالى- يُحْدِث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيُحدث هذا الانتشار في العالم أثره، شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى

---

١ - التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص:١١٠).

حكم، وذلك مبدأٌ ومعادٌ يوميٌّ مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد، **{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** [سورة العنكبوت:١٩]"[٢].

ويقول -رحمه الله-: وقوله **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ}** الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، و"لتركبن" وما بعده مستأنف، وقرئ: **{ولتركبن}** بضم الباء للجمع وبفتحها، فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي: لتركبَن أيها الإنسان، وقيل: هو النبي خاصة، وقيل: ليست التاء للخطاب، ولكنها للغيبة، أي: لتركبَن السماءُ طبقاً عن طبق، ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا، فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى لتركبَن السماءُ حالاً بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار والطي وكونها كالمُهل مرة وكالدهان مرة ومورانها وتفتُّحها وغير ذلك من حالاتها وهذا قول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، ودل على السماء ذكر الشفق والقمر"[٣].

هنا يرجع إلى غير مذكور **{لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ}** السماء ليس لها ذكر فكيف يرجع إليها؟ قال: دل عليها الشفق **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}**؛ لأن ذلك يكون من السماء.

وقال -رحمه الله-: "وعلى هذا فيكون قسماً على المعاد وتغيير العالم.

ومن قال الخطاب للنبي فله ثلاث معانٍ: لتركبَن سماء بعد سماء حتى تنتهي إلى حيث يُصعدك الله"[٤].

هذا في المعراج.

وقال -رحمه الله-: "هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد، وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسموات السبع: الطباق.

والمعنى الثاني: لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

والمعنى الثالث: لتركبَن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

ومن قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالا بعد حال من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال، وقيل: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى كونه حيًّا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشُد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في

---

٢ - المصدر السابق (ص:١١٠-١١١).

٣ - المصدر السابق (ص:١١١-١١٢).

٤ - المصدر السابق (ص:١١٢).

أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار، فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله"(٥).

أيضًا في قوله: {فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} يقول -رحمه الله-: "وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية"(٦).

الآن يربط بين هذه الأشياء المقسم بها إلى أن قال: {فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}.

وقال -رحمه الله-: وتغيير الله سبحانه للعالم وتصريفه له كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له، ومحال أن يكون فاعله غير قادر ولا حي ولا مريد ولا حكيم ولا عليم، وكلاهما في الامتناع سواء، فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته وتوحيده وصفات كماله وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: {فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام، وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها، فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة، غاية الحق بغاية البيان والفصاحة"(٧).

هذا آخر ما في هذه السورة.

---

٥ - المصدر السابق (ص:١١٢-١١٣).

٦ - المصدر السابق (ص:١١٣).

٧ - المصدر السابق (ص:١١٣-١١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البروج من الآية (١) إلى الآية (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة البروج، وهي: مكية.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج:١-١٠].

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: يقسم -تعالى- بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} [الفرقان:٦١]، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي: البروج: النجوم، وقال المنهال بن عمرو: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}: الخَلْق الحسن، واختار ابن جرير: أنها منازل الشمس والقمر، وهي: اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثًا، فذلك ثمانية وعشرون منزلا، ويستتر ليلتين.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}**، أقسم بالسماء التي وصفها بذات البروج، وأصل هذه المادة: الباء والراء والجيم، أصلها: من الظهور والانكشاف؛ ولهذا يقال للشيء البادي للعيان المرتفع: برج، وقال الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}** [الأحزاب:٣٣]، بمعنى: أن المرأة لا تظهر متكشفة بادية لأنظار الرجال، فهذا أصل هذه المادة، ومن هنا فسره بعضهم: بالمنازل، منازل الشمس والقمر، وفسره بعضهم: بالقصور؛ لأن القصور تكون مرتفعة عالية، فهي: بروج، والقلاع والحصون يقال لها: بروج، كل ذلك يقال له: بروج، وهذه القصور التي فسر بها بعض السلف: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}** بعضهم يقول: شبهت بالقصور، أو كأنها قصور، يعني: هذه المنازل للشمس والقمر، وبعضهم يقول: هي: قصور للحرس من الملائكة الذين يحرسون السماء، لكن هذا لا دليل عليه، فلو نظرنا إلى هذه الأقوال، وقول من قال: أبواب السماء هي: البروج، مع أن ابن جرير -رحمه الله- فسر آية الفرقان، وهي: قوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا}** [الفرقان:٦١]، هناك فسرها بالقصور، لكنه لم يفسر الآية بهذا، وإنما فسرها بمنازل الشمس والقمر، لو نظرت إلى هذه الأقوال، قول هؤلاء من السلف -رضي الله عنهم-: إن البروج هي: النجوم، الذين قالوا: منازل الشمس والقمر قولهم في الواقع يمكن أن يرجع إلى هذا، يعني: أن يكون القولان يرجعان إلى شيء واحد -والله أعلم-، بأي اعتبار؟ الذين قالوا: منازل الشمس والقمر يعتبرون أن البروج هي: عبارة

عن تشكيلات من النجوم، تنزل الشمس في كل واحد منها شهرًا، وينزل القمر في كل ليلة كما ذكر هنا، يسير يومين وثلث اليوم، يعني: هي: تشكيلات من النجوم، لها صور، وتأخذ هيئات معينة؛ ولهذا سموها بهذه الأسماء: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت، فالشمس في كل شهر في واحد، فهي بالنسبة للشمس: اثنا عشر، ويكون بناء على ذلك تغير الفصول بإذن الله -تبارك وتعالى-، يعني: مثل عقارب الساعة، فثلاثة للشتاء، وثلاثة للصيف، وثلاثة للربيع، وثلاثة للخريف، هذا بالنسبة للشمس، أما القمر ففي ثمانية وعشرين منزلاً، ويختفي القمر في ليلتين، الطاهر بن عاشور -رحمه الله- ذكر كلامًا يقرب لك هذا، ويصوره، يعني: حينما يقال: البروج مثلاً هي: النجوم، أو نحو ذلك، أهل الفلك كلامهم في هذا كثير جدًّا، ولا حاجة للتطويل فيه، لكن هنا كلام قريب وجيد للطاهر بن عاشور -رحمه الله- في التحرير والتنوير، يقول ما حاصله: "والبروج تطلق على علامات.."[١].

يعني: هذه النجوم والتشكيلات التي يراها الناس.

"من قبة الجو، يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سمتها مدة شهر من أشهر السنة الشمسية، فالبرج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى: القصر؛ لأن الشمس تَنزله، أو منقول من البرج بمعنى: الحصن.."[٢].

أي: كأنها تنتقل من حصن إلى حصن.

"والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم، قريب بعضها من بعض، لا تختلف أبعادها أبداً، وإنما سمي برجًا؛ لأن المُصطلِحين.."[٣].

يعني: الذين سموه بهذا، واصطلحوا عليه.

"تخيلوا أن الشمس تحل فيه مدة، فهو كالبرج، أي: القصر، أو الحصن، ولما وجدوا كل مجموعة منها يُخال منها شكل لو أحيط بإطار لخطٍّ مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات.."[٤].

كالحوت، والسنبلة، والدلو، والحمل.

"ميزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريبًا، فقالوا: برج الثور، برج الدلو، برج السنبلة مثلاً، وهذه البروج هي في التحقيق: سُمُوت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية، يوقتون بها الأشهر والفصول، بموقع الشمس نهارًا في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً.."[٥]، إلى آخر ما ذكر.

---

١ - التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٨).

٢ - المصدر السابق.

٣ - المصدر السابق.

٤ - المصدر السابق.

٥ - المصدر السابق.

هذا يقرب لك الصورة، ولماذا قيل لها بروج، و{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} ما المقصود بها، وهذه النجوم ذات التشكيلات المعينة لا تتغير، لا تنتقل، لا يحصل لها تغير أبدًا، فهي ثابتة، والعرب تسمي هذه الأشكال المتخيلة بأسماء حتى في الأشياء الأرضية؛ ولذلك تجد العرب يسمون الجبال مثلا، يعني: سموا جبل "عَيْر" في المدينة عند الميقات، وحدود حرم المدينة من جبل عير إلى جبل ثور، فإذا نظرت إلى جبل عير، العير هو: الحمار، فهيئته هيئة حمار، وثور كذلك جبل صغير أحمر، فبهذه الصفة العرب تسمي هذه الأشياء بما تتخيله وتتصوره من هذه التشكيلات، فهذا معنى البروج، فمن سماها بالقصور فهذا هو المراد: المنازل التي تنزل بها الشمس، فهي: بمثابة القصر بهذا الاعتبار، وأصل البرج -كما قلت- من البروج، وهو: الظهور، والانكشاف، والارتفاع، كل هذا.

ابن القيم له تعليق على هذه الآية: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "البروج: التي تنزلها الشمس والقمر، وفسرت بالنجوم أو نوع منها، وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته، وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكروي لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب، فجعْلُ هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل.."[٦].

يعني: هي دالة على قدرة الله، وعلى أنه هو الخالق وحده العليم، فهذه السماء مستديرة، فكيف يتميز جانب من جانب، وناحية من ناحية؟ فجعل فيها هذه العلامات في غاية الدقة، وسير فيها الشمس بهذا التسيير الدقيق الذي تتغير معه الفصول، وسار فيها القمر، وتتعاقب الشهور والليالي والأيام بدقة متناهية، فهذا يدل على أنه هو الخالق وحده سبحانه، وأنه مستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

وقال -رحمه الله-: "ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًّا بائناً قادراً فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله، حكيماً مدبراً له.

فبروج السماء هي: منازلها، أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته سبحانه، فلهذا أقسم بها مع السماء.."[٧].

وسيأتي -إن شاء الله- أن ابن القيم -رحمه الله- لا يرى أن هذه الأقسام لها جواب مذكور، وإنما يرى: أن المقصود هو: التنبيه والتنويه على ما تضمنته هذه الأقسام، فاكتفي به.

وقوله تعالى: {وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}، روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((واليوم الموعود: يوم القيامة، وشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله

---

٦ - التبيان في أقسام القرآن (ص:٨٨).

٧ - المصدر السابق (ص: ٨٨- ٨٩).

فيها خيرًا إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه، ومشهود: يوم عرفة))، وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه[٨].

وعن أبي هريرة وابن عباس والحسن بن علي والحسن البصري وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة والضحاك: المشهود يوم القيامة.

قال البغوي: الأكثرون على أن: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

قول الله –تبارك وتعالى–: **{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}**، هذا بالاتفاق هو: يوم القيامة، لكن قوله: **{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}** هذا وقع فيه اختلاف كثير، والأقوال التي تذكر في هذا كثيرة، تزيد على العشرة، وهذا الحديث الذي أورده ابن كثير –رحمه الله–، حديث أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– حيث فسر فيه: الشاهد بيوم الجمعة، والمشهود بيوم عرفة، هذا لو صح لما احتيج إلى ذكر الأقوال، ولا إلى النظر في كلام أحد بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، فهو أعلم الناس بالقرآن، لكن الحديث في صحته نظر، وفي رفعه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ولذلك الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يرجح الوقف على أبي هريرة –رضي الله عنه–، هذا بالإضافة إلى أن ألفاظ الحديث مختلفة، يعني: ليست ألفاظه متواطئة على أن الشاهد هو: يوم الجمعة، وأن المشهود هو: يوم عرفة، بل إذا نظرت في رواياته المختلفة وجدت تبيانًا واختلافًا في تحديد المراد بالشاهد والمشهود، فالأقوال التي ذكرها السلف –رضي الله تعالى عنهم– في الشاهد والمشهود كثيرة، فكما ذكر هنا عن طائفة من السلف قالوا: المشهود هو: يوم القيامة، وبعضهم يقول: الشاهد: من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق، أي: في يوم القيامة، قال تعالى: **{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}** فربطوه باليوم الموعود، فقالوا: من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق، والمقصود بالشهود هنا: الحضور، يعني: من يحضر يوم القيامة من الخلائق، وقالوا: المشهود: ما يشاهَد فيه من الأهوال والأوجال، وما إلى ذلك مما يشاهده الناس في ذلك اليوم من العجائب، هكذا ذكر بعض المفسرين، وذهب بعض السلف إلى أن الشاهد هو: يوم الجمعة، يشهد على كل عامل بما عمل فيه، وأن المشهود هو: يوم عرفة؛ لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، فهو: عيد مكاني، يجتمعون فيه في صعيد عرفة، والواحدي يقول: هذا قول الأكثر، أن الشاهد هو: يوم الجمعة، والمشهود هو: يوم عرفة، وجاء عن بعض السلف كابن عمر وابن الزبير –رضي الله عنهم– أن الشاهد هو: يوم النحر، وجاء عن سعيد بن المسيب أنه: يوم التروية، اليوم الثامن من ذي الحجة، وأن المشهود هو: يوم عرفة، وجاء عن إبراهيم النخعي أن الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم النحر، وبعضهم يقول: الشاهد هو: الله، قال تعالى: **{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}** [النساء: ١٦٦]، فنظروا إلى هذا المعنى: أن الله يشهد، وهذا قال به الحسن

---

٨ – أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤١٣)، رقم: (١٩٢٠٤)، وأخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة البروج، رقم: (٣٣٣٩)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٣٦٣)، رقم: (٨٢٠١)، وأحمد موقوفا ومرفوعا، رقم: (٧٩٧٢)، وقال محققو المسند: المرفوع منه ضعيف لضعف علي بن زيد –وهو ابن جدعان–، والموقوف لا بأس به رجاله رجال الصحيح، ولم أجده في ابن خزيمة.

البصري وسعيد بن جبير، والله -عز وجل- يقول: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [الأنعام: ١٩]، وبعضهم يقول: الشاهد هو: النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالله يقول: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}** [النساء: ٤١]، وقال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}** [الأحزاب: ٤٥]، فهؤلاء يقولون: هذا هو الشاهد، والمشهود: إما الأمة، وبعضهم يقول: يوم القيامة هو المشهود، مع أنه إذا قيل: إن المشهود هو: يوم القيامة فينبغي ألا يحمل على مثل هذا؛ لأنه يشكل عليه أن الله أقسم بيوم القيامة، قال: **{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}**، فيكون ذلك من قبيل التكرار، وبعضهم يقول: الشاهد: هم جميع الأنبياء، يشهدون على أممهم، قال الله: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}** [النساء: ٤١]، وعلى هذا يكون **{وَمَشْهُودٍ}**، هو: المشهود عليه، يعني: الأمم، وعلى القول بأنه النبي -صلى الله عليه وسلم- بعضهم يقول: **{وَمَشْهُودٍ}** هو: يوم القيامة، وبعضهم يقول: أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: الشاهد هو: آدم، والمشهود هو: الذرية، أي: ذرية آدم، وبعضهم يقول: الشاهد هو: الإنسان، قال تعالى: **{اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء: ١٤]، كما يقوله محمد بن كعب القرظي، وبعضهم يقول: الشاهد هي الأعضاء، قال تعالى: **{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [النور: ٢٤]، فأعضاء الإنسان تشهد عليه، والمشهود الذي يُشهَد عليه: هو هذا الإنسان، فكل هذه الأقوال نستطيع أن نقول: إنها من باب التفسير بالمثال، كما قال بعض أهل العلم، كابن جرير وابن القيم، فيقولون: إن ذلك يحمل على العموم، فهذا كله من قبيل التفسير بالمثال، فكل ذلك يصدق عليه أنه شاهد، أو مشهود، وأن الله -تبارك وتعالى- لم يحدد واحدًا من هذه المذكورات المفسر بها، وإنما أطلق ذلك، فيدخل فيه جميع هذه الأمور، فالأنبياء يشهدون، والله يشهد، وهذه الأمة تشهد على الأمم، قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}** [البقرة:١٤٣]، وكذلك أيضًا يوم عرفة، ويوم الجمعة، وما قيل من هذه الأقوال فيمكن أن يكون ذلك جميعًا من قبيل التفسير بالمثال، فتكون الآية تشمل ذلك جميعًا، هذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وهو قول ابن القيم، وقد تكلم ابن القيم عليها من ناحيتين: من ناحية التحديد، ومن ناحية وجه الارتباط بين هذه المذكورات في هذه الأقسام.

ثم إن من المهم معرفة موضوع سورة البروج، فإذا نظرت إلى سورة البروج والموضوع الذي تتحدث عنه هذه السورة، فإنها تدور في مضامينها على الوعد والوعيد، أي: على التهديد والترغيب، فالله -تبارك وتعالى- يخوف المكذبين لرسوله -صلى الله عليه وسلم-، المنكرين للبعث، المكذبين بالقرآن، يخوفهم من مغبة هذا التكذيب، ويضرب لهم الأمثال بحال من قبلهم ممن آذوا عباد الله المؤمنين، وكذبوا المرسلين، فذكر خبر أصحاب الأخدود، وذكر أيضًا فرعون وثمود، وكيف أن الله -تبارك وتعالى- عاقبهم وجازاهم، وما يكون عنده لأهل الإيمان، وانظر كيف ختمت هذه السورة بقوله: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}** [البروج:١٩-٢٢]، فهي تتحدث عن هؤلاء المكذبين بالقرآن وبالوحي وبالنبوة وبالإيمان، وما توعدهم الله به، وما يكون لأهل الإيمان من الجزاء، والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

يقول ابن القيم -رحمه الله- على هذه الآية من ناحية التحديد: "ثم أقسم باليوم الموعود وهو: يوم القيامة، وهو: المقسم به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه، ودل على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثاً، وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة، فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.
ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقيْن غير معينين، وأعم المعاني فيه: أنه المُدْرِك والمُدْرَك، والعالم والمعلوم.."[9].

يعني: هو هنا حمله على أوسع المعاني: المُدْرِك والمُدْرَك.

"والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.."[10].

وأما كلامه من ناحية وجه الارتباط بين هذه المذكورات في هذه الأقسام فيقول: "فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي: السماء، وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام، وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء، وجوارحهم تشهد به عليهم، وأيضاً فالشاهد هو: المطلِّع والرقيب والمخبِر، والمشهود هو: المطلع عليه المخبر به المشاهد.

فمَن نوّع الخليقة إلى شاهد ومشهود، وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}** [الحاقة:٣٨-٣٩]، كما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه، كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو: أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهدًا رقيبًا حفيظًا على غيره، ولا يكون الخالق -تبارك وتعالى- شاهداً على عباده مطلعاً عليهم رقيباً؟!.

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القَسَم بملائكته، وأنبيائه، ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو: المقسم به وعليه، وأيضا فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: **{ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ}** [هود:١٠٣]، يشهده الله، وملائكته، والإنس، والجن، والوحش من آياته، والمشهود من آياته.

---

٩ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٩).

١٠ - المصدر السابق.

وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى: **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** [الإسراء:٧٨]، تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار، فالمشهود من أعظم آياته، وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل.

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون، فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن: أن يكون هذا القَسم مستغنياً عن الجواب؛ لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة، ويبعد أن يكون الجواب: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}**، الذين فتنوا أولياءه، وعذبوهم بالنار ذات الوقود"[١١].

يعني: هو لا يرى هنا أن الجواب مذكور، وقد أشرت من قبل في بداية تفسير هذا الجزء: أن من أقسام القرآن ما يقول بعض أهل العلم: إنه لا يوجد له جواب القسم، وإنما المقصود التنبيه على ما تضمنته هذه الأشياء المقسم بها، والله أعلم.

---

١١ - المصدر السابق (ص: ٨٩-٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البروج من الآية (٤) إلى الآية (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الانشقاق:٢٠]، أي: بعد هذا البيان الواضح الذي لا يترك في الحق لبسًا، وما يشاهدون من دلائل عظمة الله وقدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢١] أي: لا يخضعون، ولا ينقادون، أو لا يخرون سجدًا؛ تعظيمًا للقرآن، واحترامًا له، وهذا يتضمن ما قبله فإن من سجد فقد خضع، فهو خضوع ينتظم الخضوع بنوعيه: خضوع القلب، وخضوع الجوارح، فإن أجلى صور هذا الخضوع إنما هو السجود، ووضع الجبهة التي هي أشرف موضع في جسد الإنسان، أن يضع ذلك على الأرض، فهم لا يفعلون، لا تخضع قلوبهم، ولا تسجد جباههم، وهذا فعل أهل الكبر والإعراض، كما يقال: فلان عفيف الجبهة، يعني: لا يسجد.

قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الانشقاق:٢٢-٢٣]، بما تكنّه قلوبهم، وما يجمعون من الأعمال: أعمال الجوارح وأعمال القلوب، فالله محيط بذلك بصير به عليم، لا يخفى عليه من ذلك قليل ولا كثير.

قال: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الانشقاق:٢٤]، وهذا أطلق فيه البشارة -كما سبق-: باعتبار أنها تأتي فيما يسر وما يسوء، وإن كان الغالب أنها تكون فيما يسر.

قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [الانشقاق:٢٥]، فهذا الاستثناء: استثناء منقطع، يعني: توعد الله هؤلاء المكذبين بالعذاب الأليم، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون، غير مقطوع، ولا منقوص.

سورة البروج.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج:١] أي: النجوم التي عرفت عند الناس قديمًا وحديثًا، تتخذ صورًا وأشكالاً محددة ومواقع لا تتعداها، عرفت بأسماء تنزل فيها الشمس في كل منزل شهرًا في السنة، وينزل فيها القمر في كل منزل يومين وثلث اليوم، فالقمر يتنقل فيها في الشهر، والشمس تتنقل فيها في العام.

قال: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ} [البروج:١-٢] أي: يوم القيامة.

قال: {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} [البروج:٣]، أقسم الله بالشاهد والمشهود وأطلق، فالله -تبارك وتعالى- شاهد، والأنبياء شهود، والملائكة شهود، وكذلك أيضًا يوم الجمعة شاهد، والخلق مشهود، وكذلك أيضًا جوارح الإنسان مشهود، وهي: شاهد، تشهد عليه، فالمقصود: أن ذلك يدخل فيه ما يصدق عليه عند الإطلاق، وأقوال السلف وعباراتهم يمكن أن تكون من قبيل التفسير بالمثال.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا، وللحاضرين، وللمسلمين أجمعين.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} [البروج:٤] أي: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي: الحُفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله -عز وجل- فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا، وأججوا فيه نارًا، وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} [البروج:٤-٧] أي: مشاهدون لما يُفعل بأولئك المؤمنين.

قوله -تبارك وتعالى- {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، "قتل": هنا قال أي: **لعن أصحاب الأخدود**، وظاهر من هذا أن المقصود به: القَتَلَة، يعني: الكفار الذين أوقدوا النار للمؤمنين، وأحرقوهم.

وقوله: {أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} يعني: ليسوا الذين عُذبوا بها، وإنما أصحاب الأخدود هم الذين أقاموا الأخاديد، وحفروها، وأوقدوا النيران، فهم المقصودون بذلك، وليس المقصود الخبر عن أولئك الذين قُتلوا في الأخدود حرقًا، لا، وإنما هذا -بإطباق المفسرين فيما وقفت عليه- المقصود به: من قاموا بهذا العمل الشنيع.

وهنا قال: أي: لُعن -كما سبق-، كقوله: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧]، ففسر بلعن، وقُتل تأتي بمعنى: لُعن، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وكما سبق أن بعضهم فسره بغير ذلك، أي: بغير لُعن، واللعن: الطرد والإبعاد من -رحمه الله-، والمعنى الثاني: أنه دعاء عليهم بالقتل، {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، فيكون من قبيل الدعاء، وهما متقاربان، يعني: إذا دعي عليه بذلك فهذا إبعاد له.

قوله: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، بعضهم يقول: هذا هو جواب القسم في قوله: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}، فالجواب: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، فبعضهم يقول: هذا هو الجواب، واللام فيه مضمرة، وبعضهم يقول: الجواب مقدر محذوف، يعني: الجواب موجود، لكنه محذوف، ليس هذا هو الجواب: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} عند هؤلاء الذين قالوا: مقدر، يقولون: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} لتبعثن، من أي شيء جاء هذا التقدير؟ يعني: لماذا قدر لتبعثن؟ باعتبار مضامين القسم، أقسم بالسماء ذات البروج، وباليوم الموعود، وبالشاهد، والمشهود، فهذا يشعر بأن جواب القسم يتعلق بالبعث، ونحن تحدثنا عن موضوع هذه السورة، وذكرنا أن هذه السورة تتحدث عن وعيد المكذبين بالبعث والوحي، فالكفار المعرضون عن الإيمان يتوعدهم ربنا -تبارك وتعالى- بأن يفعل بهم فعله بمن ضرب لهم الأمثال بهم كأصحاب الأخدود، وفرعون، وثمود، فهذا هو موضوع السورة، ومن ثَمَّ تقدير لتبعثن يتفق مع هذا، وكما سبق أن ابن القيم -رحمه الله- يرى: أنه لا يوجد جواب أصلاً، ليس هناك جواب قسم، لا مقدر، ولا مصرح به، فأين الجواب؟ يقول: لا يوجد جواب، طيب، وهذا القسم على أي شيء؟ قال: هذا للتنويه، وبيان عظمة وشأن هذه الأمور التي أقسم الله بها، فالسماء ذات البروج مظهر من مظاهر عظمة الله -عز وجل- وقدرته، وأنه الخالق وحده، وأنه القادر على بعث الموتى، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة

قادر على بعث الأجساد، **{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}** أي: الذي يبعثون فيه، **{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}** فيدخل في ذلك الشاهد والمشهود -كما سبق-، الله يشهد، والأنبياء يشهدون، وهذه الأمة تشهد، **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** أي: لعن أصحاب الأخدود، يعني: يا أيها المكذبون المحادون لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- اعتبروا بما جرى لمن قبلكم، واحذروا نكاية الله وغضبه وعذابه للمكذبين، كما فعل بهؤلاء من أصحاب الأخدود.

يقول ابن كثير: "الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي: الحفر في الأرض"، هذا معنى الأخدود، مثل الحفرة المستطيلة، يقال لها: أخدود، فحفروا الأحافير، فحفروا حفرًا في أفواه السكك، كما يدل عليه الحديث الآتي، يعني: في مدخل كل طريق وضعوا فيه أخدودًا، كمثل ما يفعل هؤلاء الآن أهل الإجرام في بلاد الشام، يضعون لهم ما يسمى: بالحواجز في مداخل الأحياء أو نحو ذلك، ومن مر بهم أخذوه وفتكوا به، وإن كانت امرأة هتكوا عرضها، فهؤلاء تسلطوا على عباد الله من أهل الإيمان، وحفروا هذه الحفر المستطيلة التي يقال لها: الأخاديد، وصاروا يسعرونها نارًا، ثم يلقون الناس فيها.

هذا الأخدود في قوله: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** هل هو أخدود معين؟ أو أن المقصود بذلك الجنس يعني: كل من فعل ذلك بالناس؛ لأنهم يذكرون في التاريخ أن الأخاديد التي خُدت، وأُلقي الناس فيها، وأضمرت نارًا: أنها متعددة، وقع شيء من هذا بالشام، ووقع شيء من هذا في أرض فارس، ووقع شيء من هذا بأرض اليمن في نجران، فبعض أهل العلم يقول: ليس المقصود أخدوداً معيناً، فالله -تبارك وتعالى- لم يذكر أخدودًا معيناً، ومن ثم يقولون: يدخل فيه ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الغلام والراهب والساحر[1]، يقولون: هذا بعض ما يدخل فيه، ولكن الآية لا تتحدث عن هذا بخصوصه، هكذا يقول بعض أهل العلم، ونحن نعرف أن التفسير النبوي على نوعين: نوع يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- تطرق فيه لنفس الآية، فهذا إذا صح إسناده فلا كلام بعد ذلك لأحد، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، والنوع الثاني: ما لم يتطرق فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فيعمد بعض المفسرين إلى الحديث ويجعله تفسيرًا للآية، فهذا لون من الاجتهاد، الربط بين الآية والحديث نوع من الاجتهاد من المفسر، قد يصيب، وقد يخطئ، إلا أنه في بعض الصور يكون ظاهرًا لا خفاء فيه، يعني: الربط واضح، مثل قول الله -عز وجل-: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** [الفجر:٢٣]، مع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، لكل زمام سبعون ألف ملك))[2]، يعني: يقودونها، فهذا واضح أنه تفسير لقوله: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** [الفجر:٢٣]، لا إشكال أن يربط بين الحديث والآية، كيف يجاء بها؟ تقاد، أما حديث الأخدود: الغلام والراهب والساحر فهل هو تفسير لهذه الآية **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** الذين كانوا في تلك الواقعة المعينة أو لا؟ بعض أهل العلم يقول: ليس ذلك بخصوصه، وإنما هو واحد مما يدخل فيه، وإنما أصحاب الأخدود: كل من خد للناس الأخاديد، وأحرقهم بالنار، وامتحنهم في إيمانهم ودينهم، والأقرب -والله أعلم-: أن الآيات تتحدث عما

---

١ - أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم: (٣٠٠٥).

٢ - أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم: (٢٨٤٢).

ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث، فالسياق يدل على هذا -والله أعلم-، قال الله تعالى: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}**، فكأن "أل" هنا عهدية، أي: الأخدود المعهود الذي يعرفونه، ووقع في بلاد العرب، أما ما وقع في الشام، أو وقع في بلاد فارس فهو بمنأى عنهم، وليس في بلاد العرب.

هذا الأخدود الذي في أرض اليمن جاء في التواريخ وبعض كتب التفسير في مرويات إسرائيلية: أنه في نجران، ولا زال إلى اليوم يوجد مكان في نجران كبير واسع جدًّا، مسوَّر، عليه شبك، يعني: هو أشبه بحي كامل، أكبر من هذا الحي المترامي من أوله إلى آخره، من الطريق هذا إلى الطريق ذاك، هناك منطقة واسعة جدًّا مترامية، يعني: إن أردت أن تمشي فيها على قدميك تحتاج إلى وقت طويل، كما لو تمشي في هذا الحي من أوله إلى آخره طولاً وعرضًا، بل أكبر من هذا، يعني: كأنه بقايا من مدينة، لكن لا مظاهر للبناء فيها، فهل هو الأخدود المقصود أو لا؟ هذه المنطقة اجترفتها السيول، بحيث إنك ترى فيها أماكن مثل الجدار صائرة في التراب، يعني: السيل يمر بها بحيث قطعها تقطيعًا، فصارت كأن جرافات قد قطعتها، هذا التراب أو النواحي التي جرفها السيل ماذا تشاهد في جدارها؟ هي: ليست جدارًا، هي: تربة، لكنها مشقوقة شقًّا، ماذا تلاحظ في جدرانها؟ ترى العظام بكثرة، وترى زَهَم الناس، يعني: بقايا الأجساد والزَّهَم -بقايا الدهون- واضحة في التربة، بل ترى أحيانًا زهمًا ممتدًا بقامة إنسان، يعني: كأنه قبر أو لحد كله زهم، لكن توجد كِسَر عظام، يعني: ليست هياكل كاملة، إنما هي كسر من أصابع، ومن سواعد، إلى غير ذلك، بل أنا رأيت بنفسي، ولست أتوهم، ولا أنقل عن أحد، رأيته بنفسي، رأيت بعض العظام محروقة أطرافها، وهممت أن آخذ عظمًا من هذه العظام من أجل أن يحلل، أي: يرسل إلى بعض الأماكن التي يعرفون تواريخ هذه الأشياء، متى هي، لكن خشيت أن يكون العظام لأناس مسلمين، ولهم حرمة، فلا يحل هذا، لكن في النفس شيء من ذلك، من جهتين:

الجهة الأولى: أنه جاء في الخبر أنه خد الأخاديد في أفواه السكك، وهذا أشبه ما تكون بمقبرة ضخمة كبيرة، يعني: أشبه بمدينة كبيرة كلها مقبرة، يعني: لم تجرِ العادة في الأولين أنهم بهذه الأعداد يضعون مقابر، وبهذا الحجم، مقابر الناس قديماً صغيرة، فهذا الشيء يجعل هذا الأمر في شك، أي: أن هذه هي الأخدود فعلاً، فهذا هو الأمر الأول: أنه جاء في الخبر أنه في أفواه السكك خد الأخاديد، وهذا منطقة شاسعة كلها عظام، الجهة الثانية أو الأمر الثاني: أن واقعة أصحاب الأخدود قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- بمدة طويلة، يعني: متى كان هذا؟ كان قبل أكثر من ألف وأربعمائة، أو ألف وخمسمائة، أو ألف وستمائة سنة، أو أكثر، الله أعلم، لكنه بعد بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم-، يعني: بين عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-، فلو روجعت كتب التواريخ يمكن أن يعرف وقت ذلك؛ لأنه في وقت ملك معين، الشاهد: هل تبقى العظام منذ ذلك الحين إلى الآن؟ لا تبقى؛ لأن العظام كم تبقى؟ تبقى ستة أشهر ثم تتحول إلى تراب، لكن قد يقول قائل: هذه كرامة من الله، نقول: كيف تكون كرامة من الله وما بقيت أجسادهم، وما حفظت من البلى؟، إنما هي كِسر عظام! يعني: الكرامة من الله أن الأرض لا تأكل الجسد، وهذا يحصل لبعض الناس، وليس بالضرورة أن يحصل لكل أولياء الله أو الشهداء، وإنما يحصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قطعًا؛ لأن النبي -

صلى الله عليه وسلم- أخبر: ((أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء))[٣]، لكن هل يحصل لغير الأنبياء كالصحابة والشهداء؟ هل يحصل لهم هذا الحفظ؟.

الجواب: ليس هناك ما يدل عليه من جهة النقل، لكن قد يحصل كرامة من الله لبعضهم، كما وقع لبعض شهداء أحد، فقد حفروا بعد مدة طويلة عندما أجريت عين في عهد معاوية بعد نحو أربعين سنة، فاستُخرجوا كأنهم ماتوا للتو، ودماؤهم طرية، وجابر -رضي الله عنهما- لما أخرج أباه أيضًا حين دفن مع آخر من الشهداء، فاستخرجه ووضعه في قبر وحده، وذلك بعد مدة، فوجده لم يتغير بل كان طريًّا، ولما احترق المسجد النبوي، وتساقطت سقوف الحجرة النبوية، وأرادوا إزالة ذلك، فلما حفروا وكانوا يزيلون ذلك: خرجت لهم رِجْل، ففزعوا أن تكون رِجْل النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني: مع الحفر، ثم عرفوا أنها رجل عمر -رضي الله عنه-، هذا بعد متى؟ كان في زمن التابعين، فلم تتغير، فالمقصود: أن هذه العظام الموجودة كيف بقيت من ذلك الزمان، وليست كاملة، هي قطع وكسر؟ فإذا قال قائل: هذه كرامة من الله، نقول: لو كانت هكذا لحفظت الأجسام، ولم تأكلها الأرض، لكنها أكلتها الأرض، وذهبت، فلا ترى أثرًا للجماجم، وإنما هي بقايا عظام، حتى إنه كان المزارعون في السابق ثم منعوا من الوصول إليها، كان المزارعون وأهل الفلاحة يأخذون من هذا التراب ويضعونه في مزارعهم، لماذا؟ لأنه خصوبة، فهذه أشياء عضوية، وبقايا آدميين، وهذا ظاهر فيها، ثم هل الزهم يبقى إلى الآن من ذلك الحين، أي: قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة؟ هل يبقى الزهم إلى الآن، فترى شقًّا كبيراً جرفه السيل، ثم ترى زهمًا بقدر قامة إنسان كامل، هل يبقى إلى الآن؟ لا يبقى، نحن نعرف أن المقابر إذا مر عليها سنوات في عصرنا هذا، ثم حفرت لحاجة أو لسبب، أو لعذر، لا يرون فيها أثرًا، بل القبور التي تفتح في الأماكن التي لا يوجد فيها إمكان لاستيعاب أعداد كثيرة، فهي تفتح ويوضع فيها موتى من جديد بعد مدة من الزمن، وهي أشهر غالباً، غاية ما يجدون كِسرًا من العظام، فكيف بهذه المدة الطويلة؟ ففي النفس من هذا شيء، لكن يمكن أن يعرف هذا من خلال تحاليل المختبرات التي يعرفون التواريخ بها، كما ذكرت في بعض المناسبات عن الحَرَّة الشرقية والغربية في المدينة، وحرة النار، فهذا الحِرار أُخذ منها قطع وحللت، والذين ذهبوا بها لا يعرفون ما الغرض، ومن أين أخذت، والذين حللوها لا يعرفون، وظهرت التواريخ، أتوا بالتواريخ: الحرة الغربية لها أكثر من أربعة آلاف عام وكسر، والحرة الشرقية ثلاثة آلاف تقريبًا وخمسمائة وكذا، وحَرَّة النار جاءوا بالقرون، يعني: وضعوها في التاريخ الذي وقعت فيه يعني: سنة ستمائة وأربعة وخمسين هجرية، فكان الذي ذهب بها رجع وهو يقول: هؤلاء لا يفقهون، يقولون: هذه أربعة آلاف وحوالي خمسمائة سنة، وهذه ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وهذه مئات السنين، وذكروا له العدد، فقيل له: هذه حرة النار كانت سنة ستمائة وأربعة وخمسين هجرية، وهذه كانت الحَرَّة الغربية، وهذه الحَرَّة الشرقية، والحرة الغربية أقدم؛ ولذلك ترى

---

٣ - أخرجه أبو داود، تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم: (١٠٤٧)، والنسائي، كتاب الجمعة، إكثار الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة، رقم: (١٣٧٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم: (١٠٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٤٠)، رقم: (٢٢١٢).

حجارة الحرة الغربية تميل إلى اللون الأشهب تقريباً، لكن حرة النار فاحمة السواد، فإذا جئت في الطائرة تنزل إلى مطار المدينة انظر إلى الأسفل على يسارك تراها مثل الوادي، تصل إلى جهة المطار، إلى قريب من أُحُد، الآن وصل العمران إلى تلك النواحي، وذهبت بعض المعالم، لكن موجودة، فإذا جئت تطير في الطيارة وهي ترتفع انظر إلى الأسفل ستجد حرة النار فاحمة السواد، مع أن المنطقة كلها حرار، لكن سواد هذه أقوى وأوضح؛ لأنها جديدة، والله أعلم.

والذي يظهر: أن هذا الأخدود هو المقصود في الحديث.

يقول ابن كثير: **وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله -عز وجل- فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا، وأججوا فيه نارًا.**

يعني: امتحنوهم في إيمانهم، وقتلوهم بهذه الطريقة التي هي في غاية النكارة والبشاعة، فالإنسان لا يطيق أن يفعل هذا ببهيمة، أن يحرقها وهي حية، لا يطيق هذا، ولا يحتمل، ولا يستطيع، ولكن القلوب تتحول إلى حال تصير فيها أقسى من الحجارة، فتفعل هذه العظائم ولا تبالي، وهذا أيضاً يؤخذ منه أنه -كما قال بعض السلف-: مَن خالف عقده عقدك خالف قلبه قلبك، إذا خالف اعتقاده اعتقادك خالف قلبه قلبك، وبعد ذلك لا يبالي، فتوقع منه كل شيء، وهذا مشاهد اليوم، انظر إلى ما يجري في بلاد الشام مثلاً، وغيرها، في بلاد الشام يحرقونهم وهم أحياء، ويتفرجون عليهم، مع أنهم نساء وأطفال، فيوقدون النار بهم وهم أحياء، وفي العراق يوقدون بهم النار وهم أحياء، ويضحكون، فيُدخلون رجلا خبازاً، لأن اسمه عمر، يدخلونه في التنور، في الفرن الذي يخبز فيه، يعني: من يطيق يفعل هذا؟ ولكن حينما تتحول نفوس الناس إلى نفوس بهيمية سَبُعِيَّة بسبب العقائد الفاسدة فإن ذلك يكون وزيادة، يكون مع أقرب الناس، مع القرابات من أبناء العم والعشيرة، يتلذذ بالتنكيل به، والتشويه، والقتل، والتمثيل، انظر أهل بلد واحد ماذا يفعلون، وانظر إلى ما حصل من المشركين، مع ما عندهم من الحمية، والنخوة، والعصبية القبلية، انظر إلى ما فعلوا في أحد بقتل المسلمين، وبحمزة -رضي الله عنه-، وبمن معه من بني العمومة، والعشيرة، وأبناء القبيلة الذين عُرفوا بالحمية، والعصبية القبلية، لقد كانوا يبقرون البطون، ويقطعون الأنوف، ويقطعون الآذان، ويتلذذون بهذا، ما الذي سوغ لهم مثل هذه الأفعال القبيحة؟ هو الاختلاف في الاعتقاد؛ ولهذا امتن الله -عز وجل- على هذه الأمة بقوله: **{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}** [الأنفال:٦٣]، فتأليف القلوب لا يكون بالأموال، لا يكون بأمور مادية، ولا أمور دنيوية، إنما يكون جمع القلوب على الإيمان، والاعتقاد الصحيح، وإلا فهيهات هيهات هيهات، ولنا عبر فيما نشاهد، فتجد هؤلاء لربما يعيشون في بلد واحد، ويحصل بينهم من التعايش ما يتوهمون به أن هذه الأمور قد انتهت وانقضت مما يسببه اختلاف العقائد، فإذا حانت الفرصة، وأمكنهم البطش والانتقام، فإنه يظهر منهم ما لا يخطر على بال، فيتحول هذا الذي كان جارًا وديعًا إلى سبع بهيمي، يفتك ويقتل بأبشع الطرق التي لا تجري على بال، ولا تدور في خيال، فالذي يخالف في الاعتقاد يصدر منه مثل هذا، أيًّا كان اعتقاده، سواء كان هذا الاعتقاد الذي يخالفك به في مذهب قديم أو مذهب جديد، فكل هؤلاء من المحادين لله ولرسله -عليهم الصلاة والسلام- لا يمكن أن يقر لهم قرار وهم يرون أهل الإيمان، ويتركونهم في سبيلهم، يعني: هؤلاء ماذا فعلوا بهم؟ قال الله:

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج:٨]، ما فعلوا لهم شيئًا، ومع ذلك قتلوهم بهذه الطريقة التي هي في غاية الفظاعة والبشاعة، وما صدر منهم جرم، كيف لو صدر منهم شيء؟! وقوم لوط كانوا يقولون: **{أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [الأعراف:٨٢]، فصار الطهر تهمة تستوجب النفي والإخراج من البلد، فهم يريدونهم أن يواقعوا الفاحشة؛ ولهذا جاء عن عثمان -رضي الله عنه-: أن المرأة الزانية تود أن كل النساء زوان، حتى لا يتميز أحد بالشرف والفضيلة.

قال الله تعالى: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}**، **{النَّارِ}** هنا مجرورة، فبعضهم يقول: إن النار هنا مجرورة باعتبار: أنه بدل اشتمال، فالأخدود حفرة ومشتملة على نار، فالنار هي: بضع ما في الأخدود، فهو: بدل اشتمال من الأخدود، حيث إنه مشتمل عليها، لكن بعض أهل العلم رد هذا القول -وإن قال به مثل أبي علي الفارسي- قالوا: هذا ليس ببدل اشتمال، فابن القيم يرد عليه، ويقول: هذا يمكن أن يكون على حذف مضاف، يعني: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** أخدود النارِ ذات الوقود، فيكون بدل كل من كل: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** أخدود النار، فحذف المضاف، ويكون الجر هنا على اعتبار: أنه مضاف إليه، وليس لأنه بدل اشتمال، فالجر على أنه: أخدود النار، وهذا يحتمل، والأصل: عدم التقدير، لكن هكذا قال ابن القيم -رحمه الله.

قوله تعالى: **{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}**، الوَقود بالفتح يعني: ما توقد به، يعني: ذات الحطب الجزل الذي تسعر به النار، أما الوُقود بالضم فهو التوقد، أي: الفعل نفسه، مثلما نقول: سَحور وسُحور، فالسَّحور هو: ما نأكله، والسُّحور هو: نفس العملية، ونقول: وَضوء ووُضوء، فالوَضوء هو: الذي نتوضأ به، وهو: الماء، والوُضوء هو: الفعل، فهل هي هنا: النار ذات الوُقود بالضم أو الوَقود بالفتح؟ هي: الوَقود بالفتح، أي: ما توقد به النار.

قوله: **{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}**، من هم الذين عليها قعود، هل هم من حُرقوا بالنار، أو من قاموا بالحرق؟ أي: هل هم الكفار أو المؤمنون؟ هم الكفار، ماذا يفعلون؟ يتفرجون، ويلقون الناس، فهم يجلسون على حافة الأخدود ينظرون، ويتمتعون بهذه الأعمال المنكرة، وتعذيب هؤلاء المؤمنين، وهم أهل بلد كامل ألقوهم في النار، ففي الروايات وهي مأخوذة من بني إسرائيل: أن العدد بلغ عشرين ألفًا، والعشرون ألفاً في ذاك الوقت كثيرة جدًّا، فهم أهل البلد الذين آمنوا في قصة الغلام، فقد آمن الناس جميعًا، فلم يكن عند هذا الملك وجنوده أي تردد في إحراق أهل البلد بكاملهم، مع أنهم ما فعلوا له شيئًا، آمنوا فقط، فأحرق البلد بكاملها، وألقاهم في حفر، فبهذه الطريقة أحرقوهم، وهم يتفرجون عليهم، وجالسون على الأخدود ينظرون إليهم.

قال الله تعالى: **{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}** أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، يعني: إذا كانوا يشاهدون هذا أبلغ؛ لأنه قد يأمر بذلك ولا يشاهده، ولو شاهده لتراجع من فظاعة المشهد، يُحرَق واحدٌ، ثلاثة، خمسة ثم بعد ذلك يرى شيئًا لا صبر عليه، لكن لا يُحرق أهل البلد بكاملها وهو يتفرج، ولا يحرك ذلك فيه عرقاً؛ لذلك لا يرجى من أهل الإجرام، ومن أعداء الله -عز وجل-، لا يرجى منهم رحمة، ومن الخطأ أن ينتظر المسلمون من أعدائهم النصر، والرحمة، وأن يلتفتوا إليهم، وأن يقفوا معهم، وأن يرفعوا ما بهم من بلاء، هؤلاء يفعلون بهم أعظم من هذا، فلا يرجى، ولا ينتظر منهم إطلاقًا أدنى عون، أو مدد، أو دفع، أو نفع، وأنا أستغرب غاية الاستغراب ممن ينتظر من أعدائه أن يعينوه، وأن ينصروه، وأن يمدوه،

والعجيب: أن بعض هؤلاء الناس وإن تطاول الزمان على البلاء، ورأوا من الأعداء ما رأوا، إلا أن آمالهم لا تنقطع، بينما قد تنقطع آمال بعض الذين يبتلون ولم يكن لهم من الإيمان ما يحصل لهم معه به الصبر، قد تنقطع آمالهم من الله، وييأسون، ويقولون: أين النصر؟ لماذا ينزل هذا كله بنا؟ ولا ييأسون من أعداء الله أن ينصروهم، فقوله تعالى: {إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين.

على كل حال، من أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} أي: أنهم يشهدون بذلك يوم القيامة، أي: أنه من الشهادة، وفسره ابن كثير -رحمه الله- بالحضور، وهذا في الواقع يتضمن الشهادة، فهو شيء شاهدوه، ولا يستطيعون إنكاره، والتنصل منه.

فيما يتعلق بهذه الجملة: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} الواحدي يعزو للمفسرين أن قول جميعهم: إن "قتل" بمعنى: لُعن، مع أن هذا ليس محل اتفاق، لكن من قالوا بذلك كأنهم بنوه على أن الجملة الدعائية لا تكون جواب قسم، وهذا ليس محل اتفاق أيضاً، مع أن ابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذا ليس بجواب للقسم أصلاً، فتفسيره باللعن ليس محل اتفاق، ولا يوجد ما يلجئ إليه، مع أن بعض أهل العلم قال: إن الجواب غير هذا تمامًا، وإنه مذكور أيضاً، وهو قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [البروج: ١٠]، بعضهم يقول: هذا هو جواب القسم، وبعضهم يقول: جواب القسم: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: ١٢]، وهذا قول المبرد، لكن هذا فيه بعد؛ لطول الفصل -والله أعلم-، لكن تقديره: لتبعثن هذا قال به بعض الأئمة مثل ابن الأنباري، فقال: إنه موجود ومقدر، وآخرون مثله كأبي حاتم السجستاني صاحب الغريب، وبعضهم يقول: الكلام فيه تقديم وتأخير، أي: قُتل أصحاب الأخدود، والسماء ذات البروج، وهذا خلاف الأصل، فإن الأصل في الكلام الترتيب، والله أعلم.

هنا في قوله تعالى: {إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ} قعود هنا فسر بالحضور، كما يقوله ابن كثير، وابن جرير، أي: قعود على حافة الأخدود، وقوله: {وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}، يقول هنا: شهود أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، وبعضهم أيضاً يفسر هذا بالحضور، لأن المشاهدة تقتضي الحضور، فهو بمعنى: الحضور؛ لأنه لا يشاهِد إلا إذا كان حاضرًا، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: شهود يعني: يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه فعل وفعل وفعل، يعني: كل واحد يشهد للآخر، فيشهد بعضهم لبعض على ما فعلوا من هذا الإجرام، أي: يفتخرون به، ويتقربون، ويعتزون بهذا، ولكن هذا فيه بعد، يعني: هؤلاء يقولون: إنهم يريدون أن يبينوا له أنهم لم يقصروا فيما أمرهم به.

قال الله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس.

انظر إلى الجمع بين العزة والحمد في هذا المقام، يعني: هؤلاء أحرقوا أولياءه، والله قادر على استنقاذهم، والله -تبارك وتعالى- محمود على أفعاله وأحكامه الشرعية والقدرية، وقدر عليهم هذا، فالله -تبارك وتعالى-

لا يصدر عنه إلا ما يحمد عليه، أو ما يقتضي الحمد، ولكن الله يمهل ولا يهمل، والحياة هذه حياة قصيرة، معاييرنا فيها ناقصة، معايير البشرية، فقد يقول قائل: لماذا الله -عز وجل- يمكّن هؤلاء المجرمين من أهل الإيمان، يفعلون بهم كل هذا، ينتهكون الأعراض، ويسفكون الدماء، ويتطاول البلاء، ولا ينزل العذاب بهؤلاء، بل قد لا يزدادون إلا قوة وتمكيناً؟ نقول: المقاييس عند الله -عز وجل- ليست كالمقاييس التي عند البشر، نحن نحسب ونقيس الأمور بالمدد القصيرة التي نعايشها، وما عمر الإنسان بالنسبة لهذا السجل الطويل في التاريخ؟! فالذي عاش في أيام الحروب الصليبية، وحين دخلوا المسجد الأقصى، وخاضت الخيل إلى الركب في الدماء، والذين عاشوا أيام التتار لما قتلوا الخليفة في بغداد، وقتلوا في ذلك الوقت في بعض التقديرات ما يزيد على المليون، وفي بعضها أكثر، وفعلوا الأفاعيل، ولما جاءوا إلى بلاد الشام فعلوا الأفاعيل، استباحوا دمشق، وجمعوا النساء والأطفال في المساجد، فكانوا ينتهكون الأعراض في الجوامع، ويفجرون بالصبيان وبالنساء أمام ذويهم، وقتلوا الرجال، ثم أباحوها لعبيدهم، يعني: الشبيحة كما يقال الآن للناس الذين يأتون مع الجيش، أباحوها لهم ثلاثة أيام، فعاثوا بها فسادًا، فلا ترى إلا صبيًّا يسير في الطرقات ليس له أحد، يهيم على وجهه، ثم أحرقوا دمشق، فضلاً عن حلب، وما فعلوا بها، وبغيرها، هذا حصل أيام التتار، فالذي عاش تلك الأيام يقول: كيف يمكّن هؤلاء التتر من هذا كله؟ أنا أقول لك الان: ائتني بتتري واحد، من منكم يعرف تتريًّا؟ من منكم رأى تتريًّا؟ هؤلاء الذين في تترستان سألت كثيرين منهم، فقد كانوا يأتوننا في الجامعة الإسلامية طلاباً، فكانوا ينفضون ثيابهم ويقولون: لسنا التتر، يقولون: والذي سمانا بذلك -أظن قالوا-: ستالين أو لينين، قالوا: أراد أن يشوه سمعتنا، فقال: أنتم تترستان، أنتم التتر، يقولون: ولسنا التتر، وهم مسلمون، فالتتر الذين غزوا بلاد المسلمين من منكم رأى تتريًّا واحدًا منهم؟ هل فيكم أحد رأى تتريًّا واحدًا؟ أين هم الآن؟ تبخروا، أين قوتهم؟ من منكم رأى سيفاً لأحد منهم، أو رمحًا، أو جملاً، أو فرسًا؟ لا شيء، انتهوا، بعضهم دخلوا في الإسلام وصاروا يجاهدون في سبيل الله، وبعضهم بقوا على الوثنية، وبعضهم خلطوا بين الإسلام ووثنياتهم، فالمقصود أنهم انتهوا، وبقي دين الله -عز وجل-، لكن الذين عاشوا تلك الفترة لربما انقطع صبر بعضهم، وقل مثل ذلك في زمن فرعون، أين فرعون الآن؟، من يأتي بخاتم، أو بقطعة من حلي، أو بأدنى شيء، ولو قطعة من خزف من بقايا فرعون؟، أين قصور فرعون؟ لا شيء، لا شيء أبداً، وكذلك ثمود وعاد، أين ثمود؟ أين عاد؟ أين هؤلاء جميعًا؟ ذهبوا، وبقي الحق، وبقي دين الله، فالمعيار هو هذا، قال الله تعالى: **{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** [الأعراف:١٢٨]، والله -عز وجل- قال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [آل عمران:٥٥]، هذا الظهور متى؟ قال الله: **{فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** [الصف:١٤]، متى كان هذا الظهور للذين آمنوا؟ الراجح من أقوال المفسرين: أن هذا كان بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإلا فالنصارى منذ عهد المسيح -عليه الصلاة والسلام- ما كان لهم قوة وتمكين، لكن العاقبة للتقوى وللإيمان، فلا يقاس هذا بسنة وسنتين وثلاث وسبع وعشر وعشرين وثلاثين، لا يقاس بهذه الطريقة، العاقبة لأهل الإيمان، والعاقبة للتقوى، فنصر الله ووعده لا يتخلف، لكن صبر الناس يقل ويضعف.

على كل حال، انظر إلى ذكر هذين الاسمين: "العزيز الحميد"، فعزته تقتضي القدرة، والقوة، ومنع هؤلاء المعتدين، وإنزال العذاب بهم، ولكن الله مكنهم من المؤمنين لحكمة، فهذه الحياة التي عاشوها، ودخلوا فيها في هذه النار، وفي هذا الأخدود لا تساوي شيئًا أمام ما انتقلوا إليه؛ لأنهم مباشرة انتقلوا إلى جنات ونهر، لكن ما حال الذين حفروا لهم هذه الأخاديد؟ بعض المؤرخين وبعض المفسرين يقولون: إنهم تساقطوا أصلاً فيها، كما سيأتي عند قوله: **{فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** [البروج:١٠]، يقول: الحريق في الدنيا؛ لأنهم سقطوا في الأخدود، واحترقوا، هكذا يقول بعضهم، ونهايتهم مهما طالت أيامهم، ومهما عاشوا بعدها، نهايتهم النار، والعذاب، فأي الفريقين يحكم لهم فعلاً بالسعادة الحقيقية؟ من هم: الذين أُحْرِقوا، أو الذين أَحْرَقوا؟ الجواب: قطعًا الذين أُحْرِقُوا هم السعداء، والذين أحرقوهم هم في عذاب في البرزخ، وعذاب في النار، ويصيحون كل يوم: ربِّ لا تقم الساعة، ربِّ لا تقم الساعة، مع ما هم فيه، -نسأل الله العافية-، فهذه المعايير الصحيحة الحقيقية، وليست معايير قصيرة مادية ينقطع عندها الصبر، هذا في كل شيء.

وانظر إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، وما أعطاه الله -تبارك وتعالى-، نعمْ قبل أن يوحى إليه، لكن أيضاً الله يختار أفضل أهل ذلك القرن، يصطفيه للنبوة، فموسى -صلى الله عليه وسلم- يذهب إلى مدين شريدًا طريدًا، ويبقى عشر سنين يرعى غنماً مهراً لامرأة، يبقى عشر سنوات يرعى غنمًا، إنسان بهذه المثابة، وبهذه الأوصاف، وبهذه الكمالات، ولكن المعايير عند الله تختلف.

وانظر إلى يوسف -صلى الله عليه وسلم- يدخل في السجن، ويجلس بضع سنين بتهمة، ويباع قبل ذلك، لا شك أنه أعطاه الله من أنواع الكمالات ما لا يقادر قدره، ومع ذلك يبقى في السجن مع مجرمين هذه المدة الطويلة، والناس أحوج ما يكونون إليه، فالمقاييس والمعايير عند الله تختلف عن المعايير عند أهل الدنيا من النظرة المادية المحضة؛ ولهذا فإن الله عليم حكيم، وما يقدره لأهل الإيمان فهو خير لهم، وأعظم تهمة وأبشع وأقبح تهمة وجهت لأهل الإيمان كانت في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- هي: قصة الإفك[٤]، ومع ذلك قال الله فيها: **{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [النور:١١]، فهذه إذا قال الله فيها: **{بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}** فما دونها كذلك، فما يجريه الله -عز وجل-: تظهر به حقائق الأشياء، ويعرف المحق من المبطل، ويكون فيه رفع الدرجات وتكفير السيئات، والله المستعان.

ثم قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}، من تمام الصفة: أنه المالك لجميع السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

يعني: إذا كان بهذه المثابة: **{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}**، فنواصيهم بيده، سواء كانوا من أهل الإجرام، كهؤلاء الذين أحرقوهم بالنار، أو كانوا من أهل الإيمان، كالذين استضعفوا وأحرقوا، فالنواصي بيده، وهو

---

٤ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}** [النور:١٢] إلى قوله: **{الْكَاذِبُونَ}** [النور:١٣]، رقم: (٤٧٥٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم: (٢٧٧٠).

قادر على إنقاذهم، فله ملك السموات والأرض، والمُلك يدخل فيه التصرف المطلق، وكل شيء هو يملكه -سبحانه وتعالى-.

ثم هو أيضاً لا يغفل، ولا يغيب، **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**.

إذًا: لماذا الأذهان تتفرق، ويضعف صبر المؤمن، وكل شيء بيده، وهو حاضر لا يغيب عما يفعله خلقه، وهو فوق عرشه وسماواته -سبحانه وتعالى-، يعلم أعمالهم، ويطلع عليهم، فبصره نافذ فيهم، وهو عزيز وحميد؟! فهذه الأوصاف كافية لبناء القلب بناء إيمانيًّا صحيحًا، فيفوض العبد أموره إلى ربه -تبارك وتعالى-، ويعلم أنه لن يضيعه، وأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البروج من الآية (١٠) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** [البروج:٤]، بمعنى: لُعن، أو أنه دعاء عليهم بذلك، وأصحاب الأخدود هم: الذين خَدُّوا الأخاديد، أي: حفروها، وأضرموا فيها النار، وأحرقوا أهل الإيمان، والأخدود: حَفير في الأرض.

قوله: **{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}** [البروج:٥] هذا يرجع إلى الأخدود، أي: أخدود النار، أو أنه ذكر بعض ما اشتمل عليه الأخدود، وهو: النار.

قوله: **{ذَاتِ الْوَقُودِ}** [البروج:٥] أي: الحطب الجزل الذي تسعر به.

قوله: **{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}** [البروج:٦]، المقصود بذلك: أهل الإجرام ينظرون إلى هؤلاء الضحايا من المؤمنين ممن يحترقون في هذه النار.

قوله: **{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}** [البروج:٧]، أي: حضور يشاهدون ذلك، أو أنهم يشهدون على أنفسهم بفعلهم هذا، ولا يستطيعون جحده وإنكاره.

قوله: **{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [البروج:٨]، يعني: لم يكن لهؤلاء جناية إلا أنهم آمنوا، فما نقموا منهم جناية وفعلاً يعاقبونهم عليه بهذه العقوبة سوى أن هؤلاء آمنوا بالله، العزيز: الذي لا يغالب، ولا يمانع، وهو الحميد: المحمود على أوصافه الكاملة، وفي هذا تطمين للنفوس، وجواب عن سؤالات المتعجلين: لماذا لم ينزل الله -عز وجل- بطشه بهؤلاء المجرمين؟ ولماذا لم يخلص هؤلاء المؤمنين حتى صاروا لقمة سهلة سائغة يحرقون بالنار ويقتلون بهذه الطريقة البشعة؟ فالله عزيز قادر على أخذ هؤلاء، وعلى تخليص هؤلاء، وأفعاله جارية على سنن الحمد، فليس فيها ما يعاب، ولكنه عليم حكيم.

قوله: **{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [البروج:٩] أي: كل نواصي الخلق بيده، وما في هذا الكون تحت تصرفه.

قوله: **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** [البروج:٩] أي: مشاهِد، لا يغيب عنه شيء، يرى جرم هؤلاء المجرمين، ويرى حال أولئك المستضعفين، فلم يغفل عنهم، وما حصل ذلك في لحظة اشتغال عن هؤلاء، أو نحو ذلك مما يحصل للمخلوقين، ولكن الله مطلع على ذلك كله، حاضر لا يغيب، وهو فوق سماواته، على عرشه -سبحانه وتعالى-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا، وللحاضرين، وللمسلمين أجمعين.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقد روى الإمام أحمد، عن صهيب -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إليّ غلامًا؛ لأعلمه السحر، فدفع إليه غلامًا، فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها، فقتلها، ومر الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء، ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما هاهنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله -عز وجل-، فإن آمنتَ به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملكَ، فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه، فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟، قال: ما أشفي أحدًا، إنما يشفي الله -عز وجل-، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أوَلك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضًا بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فدُهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله -تعالى-، فبعث به مع نفر في قُرْقُور، فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله -تعالى-، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل، ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضمرت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها، ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها

تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق))، وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح[1]، وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة في السيرة بسياق آخر فيها مخالفة لما تقدم، ثم قال ابن إسحاق بعد أن بين أن أهل نجران صاروا بعد قتل الغلام على دينه، دين النصرانية، قال: فسار إليهم ذو نُوَاس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخد الأخدود، فحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ففي ذي نواس وجنده أنزل الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم-: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [البروج:٤-٩]، هكذا ذكر محمد بن إسحاق في السيرة: أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو: ذو نُواس، واسمه: زُرْعة، ويسمى في زمان مملكته: بيوسف، وهو: ابن تبان أسعد أبي كرب، وهو: تُبَّع الذي غزا المدينة، وكسا الكعبة، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان تهوُّد مَن تهود من أهل اليمن على يديهما، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطًا، فقتل ذو نواس في غداة واحدة في الأخدود عشرين ألفًا، ولم ينجُ منهم سوى رجل واحد، يقال له: دوس ذو ثعلبان، ذهب فارسًا، وطردوا وراءه، فلم يقدروا عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فأرسل معه جيشًا مع نصارى الحبشة، يقدمهم أرياط وأبرهة، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود، وذهب ذو نواس هاربًا، فلجج في البحر، فغرق، واستمر ملك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنقذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى، لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه من في السجون، فكانوا قريبًا من سبعمائة، ففتح بهم اليمن، ورجع الملك إلى حمير، وسنذكر طرفًا من ذلك - إن شاء الله- في تفسير سورة: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل:١].

هذه الواقعة وتفاصيلها من أولها تدل على حكمة الله -عز وجل-، وإحاطته، وتدبيره، فانظر كيف بدأ هذا الأمر بهذه البداية، وهو: طلب الساحر من يخلفه في تعلم السحر، فجيء بهذا الغلام، فكانت البداية مكروهة، وهي: إمعان في الضلالة والغواية، ولكن الله -تبارك وتعالى- عليم حكيم، فالناظر لأول وهلة يكره مثل هذا، ولربما يصيبه اليأس؛ لتطاول ليل هذا الساحر وذلك الملك الذي كان يسترقّ الناس بسحر هذا الساحر، ثم ما قيضه الله -عز وجل- من وجود هذا الراهب، ثم بعد ذلك تحول هذا الأمر في حال هذا الغلام إلى إيمان ودعوة، بخلاف ما كانوا يعدونه له من الكفر والضلال والإضلال، فصار ذلك بعكس مقصودهم، والله عليم حكيم، فكانت بداية ذلك ما قيضه الله -عز وجل- من هذه الدابة التي قتلها هذا الغلام لما دعا بهذا الدعاء، فكان ذلك تثبيتًا ليقينه، بحيث لا يصبح عنده أدنى تردد، ثم بعد ذلك ما حصل لهذا الأعمى من رد الله -عز وجل- بصره بسبب دعاء هذا الغلام.

هذا الابتلاء الذي وقع لهؤلاء هو في ظاهره مكروه، ولكن في مضامينه العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، فهؤلاء بمجرد ما يقتل الواحد منهم ينتقل إلى جنات ونهر، وأما في الدنيا فإن ذلك لا يقاس بحياة زيد أو

---

١ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٣٩٣١)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم: (٣٠٠٥).

عمرو، فقُتل الأعمى، وقتل الراهب، ثم بعد ذلك هذا الغلام قدم نفسه أيضًا، وعلّم الملك كيف يستطيع قتله، لكن بهذه الطريقة التي أعمى الله -عز وجل- بها هؤلاء الكفار عما تتضمنه من إغراء الناس بالإيمان، وهكذا شدة البغض، والعداوة، وكراهية الحق تعمي الإنسان، وتصمه، يعني: هؤلاء رأوا هذه الآيات، ورأوا كيف يحصل على يد هذا الغلام من إبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، ويضيف ذلك إلى الله، وما حصل ابتداء من قتل الدابة بعد هذا الدعاء، كل ذلك لم يؤمنوا معه، ثم بعد ذلك لما ذهبوا به إلى رأس جبل، فسقطوا، فلم يكن ذلك سببًا للرجوع، أو التفكير في الحق الذي معه، ثم بعد ذلك في هذه السفينة العظيمة القُرقور، فغرقوا، ونجاه الله -عز وجل-، وجاء يمشي، فما كان ذلك داعيًا لهم إلى مجرد التفكير، فضلاً عن الإيمان، ولكن الإصرار إلى النهاية، ثم بعد ذلك أعلمهم بهذه الطريقة التي يستطيعون قتله فيها، فلم يتفطنوا لما في مضامينه من خلاف مقصودهم، ولكنهم ممعنون في غوايتهم، وضلالتهم، فوضع السهم، وقال: بسم الله رب الغلام، فقتله، وقبل ذلك لم يستطع هؤلاء الجنود أن يلقوه من رأس الجبل، ولا أن يغرقوه في البحر، فالناس جميعًا آمنوا، ثم هذا الإيمان كان في حال من القوة والثبات حتى آثروا الموت والقتل بهذه الطريقة: الإحراق بالنار على الحياة، فكانوا يتدافعون فيها، يعني: يأتون طواعية، ويلقون أنفسهم في غاية الصبر والثبات، وانظر كم مضى على إيمانهم؟ ساعات أو أيام، ومع ذلك كانوا في غاية الصبر، ما تلقوا دروسًا كثيرة، وما قرأوا كتبًا كثيرة، فكانوا يتدافعون كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساء، وأنطق الله -عز وجل- هذا الغلام الرضيع، ولم يكن هذا سببًا لرجوع المجرمين، أو إلى تحرك قلوبهم؛ لأنهم لا يبحثون عن الحق أصلا، وهكذا إذا طمست البصائر، وأعمى الله القلوب، وختم عليها وطبع، عند ذلك لا تنتظر إفاقة، ولا تنتظر تراجعًا، إنما هو إمعان في الغي إلى الهلاك، فهؤلاء كانوا يتدافعون في النار.

هذا الثبات يُذكِّر بثبات السحرة الذين جاء بهم فرعون، فكانوا في البداية في حال طمع، يسألونه: **{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}** [الشعراء:٤١]، فيعدهم بذلك، ويقول: نعم، ويعدهم بأن يكونوا من المقربين أيضاً منه، ثم في لحظة حينما تبين لهم وتكشف أن هذا ليس من قبيل السحر، مباشرة ألقوا ساجدين، والإلقاء يعني: السجود بقوة، قال الله: **{وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** [الأعراف:١٢٠-١٢٢]، قالوا هذا أمام فرعون الذي يخافون منه، ولربما ما رأوه قبل ذلك، وما يجترئون على مجرد النظر إليه، ويقولون بهذه الجرأة والقوة، وهو يقول: أنا رب العالمين، فهذا من أعظم الثبات، فلما هددهم وتوعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل، وأن يصلبهم في جذوع النخل، قال: "في جذوع النخل"، كأنه لشدة الربط يدخل الواحد منهم في باطن الجذوع؛ ولذلك عبر بـــ"في"، ولم يقل: على جذوع النخل، والنخل جذوعها معروفة، فالصلب عليها آلمُ ما يكون، ليست كبقية الأشجار، فاختار لهم جذوع النخل، فماذا قالوا؟ لم يبالوا بهذا التهديد، قالوا: **{إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [طه:٧٣]، وقالوا له: افعل ما شئت، **{فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [طه:٧٢]، يعني: هذه المخاطبة لا تحصل إلا من ثبات عظيم، ما تراجعوا، أو تلمسوا الرخص، كان بالإمكان لهؤلاء وهم في حال من الإكراه أن يتكلموا بكلام يكون لهم فيه مخرج، ولكن لا، فثبتوا هذا الثبات العظيم مع أنهم سحرة، أحط الناس وأسفل الناس؛ لأنه أتى بكل سحار عليم، أي: ممعن في السحر، عالم بالسحر، ولا يصل الإنسان إلى

هذه المستويات السفلى جدًّا في السحر إلا أن يكون قد انخلع من الإنسانية، والكرامة، والدين، والإيمان، فصار في أسفل سافلين، فالساحر يكون حذقه وقدراته في السحر أعظم إذا كان أبعد وأحط مرتبة، ومع ذلك انظر إلى هذا الثبات، وهذا الجواب الذي لا ينقضي منه العجب، من أين تعلموا هذه المعلومات، ومصير المجرمين، ومصير المؤمنين؟ فهذا ما يفعله الإيمان بالنفوس، حينما يتمحض فيها فهو يفعل هذا الفعل.
المقصود: أن هذا التدبير، أعني: تدبير الله –تبارك وتعالى– أفضى إلى إيمان الناس جميعًا، فالله عليم حكيم، ثم بعد ذلك إلى قتل هؤلاء بهذه الطريقة، فهذا الذي استجاب للغلام في قتل دابة، واستجاب له لما دعا للأعمى، واستجاب له حينما كان يدعو للناس، فيبرئ الأعمى والأبرص إلى آخره، واستجاب له حينما وضعوه في ذروة الجبل، واستجاب له وهو في لجة البحر، ألم يستجب لهؤلاء الذين يحرقون؟! الله لم يكن غائبًا عن ذلك كله، ولكن له حكمة بالغة عظيمة، تتقاصر دونها أنظار المتعجلين، فالله عليم حكيم، فبعض الناس يقول: ندعو ولا يستجاب، يقال: الله عليم حكيم، وتدبيره خير من تدبير العبد لنفسه.
يقول: "فبعث به مع نفر في قُرقور"، القرقور هي: السفينة العظيمة، وحينما وقع السهم في صدغه، الصدغ هو: جانب الوجه، ما بين العين والأذن هذا يقال له: الصدغ، صدغ الإنسان هذا، فوضعه فيه فقتله.
بصرف النظر عن اسم هذا الملك، هل هو زرعة أو غير ذلك هنا يقول: إنه هو: تُبَّع الذي كان قد جاء إلى المدينة، وتُبَّع الذي يذكر في التاريخ أنه جاء إلى المدينة قد مضى الكلام عليه، حيث كان هذا يطوف في البلاد، فلما قاومه أهل المدينة حينها أراد أن ينتقم منهم، فكلمه حبران من اليهود أن هذه مهاجر نبي، وأنه لن يقدر عليها، فأعرض عنها، وانصرف، وأخذ الحبرين معه، ثم بعد ذلك توجه إلى مكة، وفي طريقه مر على نواحٍ من البلدان، الآن لمّا تقرءون في معجم البلدان مثلا، وتقرءون طريق مكة، هناك مكان يبعد عن المدينة بأربعين كِيلاً على طريق مكة اسمه: وادي مَلل، كل مسمى له من اسمه نصيب، إذا بقيت في هذا الوادي تشعر بالملل، فرجعت إلى معجم البلدان، ونظرت لماذا سمي بوادي ملل، وهو يصدق فعلاً عليه أنه هكذا، يقولون: إن تُبَّعًا نزل فيه، فمل، فقيل له: وادي ملل –والله أعلم–، فانطلق إلى مكة، فقال له الحبران: هذه البلدة فيها كعبة الله، وبيته، وإنك لا تسلط عليها، فكساه، ثم بعد ذلك رجع إلى اليمن، وأخذ معه هذين الحبرين، وأن ذلك كان سببًا لدخول اليهودية في بلاد اليمن، هكذا يقول المؤرخون، وقد مضى الكلام على تُبَّع، وما ورد فيه من الأحاديث، وتوقُّف النبي –صلى الله عليه وسلم– فيه في أول الأمر، ثم بعد ذلك ذكر حكمه.

يقول: "لم ينج سوى رجل واحد يقال له: ذو ثعلبان، ذهب فارسًا"، يعني: ركب على فرس، فلم يقدروا عليه، يقولون: سلك طريق الرمل، وذهب إلى قيصر، باعتبار أنه من النصارى، وهو: ملك الروم، وأن قيصر قد اعتذر إليه ببعد هؤلاء عن مملكته، وقال: لكن سأكتب إلى ملك الحبشة –لأن الأحباش في ذلك الوقت على النصرانية–، فكتب إلى ملك الحبشة، وحصل بعد ذلك ما حصل من إرسال جيش من الحبشة، يقول هنا: يقدمهم أرياط وأبرهة، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود، فظاهره هنا: أن هؤلاء كانوا على دين اليهودية، وأن هذا الملك كان من اليهود، لكن هذه أخبار في التواريخ الله أعلم بصحتها، لاسيما أنه كان يقول لهم: ألك رب غيري؟ واليهود يؤمنون بالله، فهذا ظاهر أنه كان يدعي الربوبية، فالله أعلم.

يقول: ثم استنقذه سيف بن ذي يزن.

على كل حال، قصة الغلام والراهب، وقصة أصحاب الأخدود فيها عبر كثيرة لابد أن يستفاد منها.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [البروج:١٠]، أي: حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبزى.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، قال: "حرقوا، قاله ابن عباس.." إلى آخره، الفَتْن: يطلق على الاختبار؛ ولهذا يقال للإحراق بالنار، وعرض المعادن على النار؛ ليتبين خالصها من زيوفها، يقال له: فتن، يقال: فتنتُ الذهب على النار، يعني: امتحنته، واختبرته؛ لأخلصه، أي: ليميز الخالص من الشائب، فهذا يقال له: فتن، إذًا الحرق بالنار هو: فتن بهذا الاعتبار، والاختبار فتن، ويقال لنتيجة الاختبار أيضًا فتن، قال الله: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات:١٤]، فهذا في النتيجة، فهنا قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} يعني: أحرقوهم بالنار، فهم فعلاً أحرقوهم حرقًا حسيًّا بالنار، وهذا الحرق هو فتن من الناحيتين: الحرق بالنار يقال له: فتن، ونتيجته أي: ما يحصل فيه من التميز أيضًا يقال له: فتن؛ ولهذا ابن جرير عبر عنه بقوله: إن الذين ابتَلَوا، يعني: اختبروا، فالابتلاء يقال له: فتنة، قال الله: {وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت:٢]، أي: لا يمتحنون، ولا يختبرون، فهنا ابن جرير يقول: إن الذين ابتلوا المؤمنين والمؤمنات بالله بتعذيبهم بالنار، فهم امتحنوهم في إيمانهم، والله يقول: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١]، وهنا يقول: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، فإذا قلت: أحرقوهم بالنار فلا إشكال، وإذا قلت: أنزلوا بهم هذا الابتلاء فلا إشكال، فهذا كله صحيح.

مَن هؤلاء الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات؟ هم أصحاب الأخدود، هذا الذي عليه عامة المفسرين سلفًا وخلفًا، مع أن ابن عاشور حمل ذلك على قريش، فيقول: بعدما ذكر الله -تبارك وتعالى- أصحاب الأخدود توعد قريشًا الذين يمتحنون ويفتنون أهل الإيمان بمكة، فعذبوا بلالاً وعمارًا وياسرًا وسمية وغير هؤلاء -رضي الله عنهم وأرضاهم- فيقول: هذا الخطاب موجه إلى قريش، والصحيح أنه لا زال الخبر متصلاً بأصحاب الأخدود، ويدخل في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} يدخل فيه: كل من كان بهذه المثابة، لكن كأن الذي حمل ابن عاشور -رحمه الله- على هذا القول: أنه قال: {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}، وهذا خطاب لهم، فأولئك من أصحاب الأخدود قد انقضوا وماتوا وهلكوا، فليس للتوبة مجال بالنسبة لأولئك، فهو نظر إلى أن هذا خطاب لأهل مكة، وأن الله -تبارك وتعالى- يرجيهم بالتوبة، ويوجههم إليها، فقال ذلك بهذا الاعتبار.

ويمكن أن نقول: لا يلزم من {ثُمَّ} هذه أن يكونوا أحياء، وأن هذا ترغيب لهم بالتوبة، أو توجيه إلى التوبة، وإنما ذلك عطف خبر على خبر، فهو يخبر عنهم أنهم فعلوا هذا، ثم لم يتوبوا بعدها، وهذا هو الأقرب، والله أعلم.

قوله: {فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج:١٠]، يقول ابن كثير: وذلك أن الجزاء من جنس العمل، أحرقوهم بالنار، فقال: {فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}، والذي عليه عامة المفسرين: أن عذاب جهنم وعذاب الحريق هو: عذاب النار، فهذا وعيد لهم في الآخرة، إلا أن بعض المفسرين -واختاره ابن جرير- قالوا: لهم عذاب جهنم في الآخرة، وعذاب الحريق في الدنيا، من أجل ألا يكون ذلك من قبيل التكرار، باعتبار القاعدة وهي: أن التأسيس مقدم على التوكيد، فابن جرير مثلاً يقول: هذا في الدنيا، وبهذا يقول الربيع

بن أنس، على أي أساس؟ وعلى أي: اعتبار؟ على اعتبار أنهم بعدما أحرقوا أهل الإيمان سقطوا هم في النار، وأحرقتهم، فالله تعالى أعلم، نحن ليس عندنا شيء يثبت هذا: أنهم فعلاً احترقوا في تلك النار التي أوقدوها، والعلم عند الله -عز وجل-، وبعض العلماء الذين يقولون: في الآخرة، يقولون: هذا ليس من قبيل التكرار المحض، وليس من قبيل التوكيد، فقوله: **{فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ}** أي: عذاب النار المعروف، وقوله: **{وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** أي: عذاب زائد على كفرهم، وهو: عذاب الحريق الذي وقع منهم، فيكون عذاب الحريق يعني: الذي فعلوه هم بأهل الإيمان، يعني: لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب آخر في الآخرة جزاء الحريق الذي صدر منهم، فيكون عذاب الحريق ليس اسمًا لعذابهم في النار، ولكن لهم عذاب في النار جزاء عذاب الحريق الذي عذبوا به أهل الإيمان، ومعروف أن أهل النار يتفاوتون في العذاب بحسب جناياتهم، فالنار دركات، قال الله: **{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}** [الحجر:٤٤]، أعاذنا الله وإياكم، ووالدينا، وإخواننا، والمسلمين منها. وبعضهم يقول: هذا اسم من أسماء النار، أي: الحريق، كجهنم، ولظى، وغير ذلك، وأما الربيع وابن جرير والكلبي فقالوا: هذا الحريق وقع لهم في الدنيا، أُحْرِقوا بالنار التي في الأخدود، قالوا: هذه النار ارتفعت لما أحرقوا فيها أهل الإيمان فأحرقتهم، فالله أعلم.

قوله: {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} أي: لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا.

{فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}، وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

هذه من آيات الرجاء بلا شك، والعلماء تكلموا في أرجى آية في القرآن، ولا شك أن هذه الآية من أعظم الآيات ترجية، قوله: **{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}**، يعني: فعلوا هذا الفعل الشنيع ومع ذلك يقول: **{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}**، وقد لا تكون هذه دعوة للتوبة، وإنما هو مجرد خبر عنهم، ولكن لا شك أن التوبة تتوجه إلى أعتى العتاة، وأكثر الناس إجرامًا، ففرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، أرسل الله إليه موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، وأمرهما بالرفق به؛ لعله يتذكر أو يخشى، فلو حصل له هذا التذكر والخشية والإيمان فإن الله يقبل توبة من تاب وآمن، فإن الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج:١١-٢٢].

يخبر -تعالى- عن عباده المؤمنين أن {لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}.

هذا الوعد عام لأهل الإيمان الذين عملوا الصالحات، ويدخل في ضمن هؤلاء أهل الإيمان الذين أُحرقوا في الأخدود، لكن هذه الآية لا تختص بهم، وكثيرًا ما تورد هذه الآية على أن ذلك يتعلق بأصحاب الأخدود، فيقال: انظروا أُحرقوا بالنار ثم عاقبة ذلك: الفوز الكبير، يعني: كأن هذا الإحراق بالنار هو الفوز الكبير، أقول: لا شك أن القتل في سبيل الله فوز كبير، ونحن كلنا نعرف ذلك، وفي السيرة قال أحدهم: فزت ورب

الكعبة، لما دخل الرمح من ظهره، وخرج من بين ثدييه، فتلقى الدم، وقال: فزت ورب الكعبة، فهذا فوز عظيم، وشهادة في سبيل الله، ولكن الآية هنا هي وعد لأهل الإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلا تختص بهؤلاء الذين أُحرقوا، ولكنهم من جملة من يدخل فيها، فكثيرًا ما نسمع هذا الإيراد والاستشهاد، فيقولون: انظروا أُحرقوا في النار ثم عاقبة ذلك: الفوز الكبير، فالإحراق بالنار فوز كبير، فيقال: نعم، ولكن الآية ليست بهذه الصفة أو المعنى الذي فهمته.

ثم قال: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر، أو هو أقرب.

البطش هو: الأخذ بعنف وشدة، قال الله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:١٠٢].

ولهذا قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} أي: من قوته وقدرته التامة: يبدئ الخلق، ويعيده كما بدأه، بلا ممانع، ولا مدافع.

قوله: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} يبدئ ماذا؟ ويعيد ماذا؟ قال: "يبدئ الخلق، ويعيده كما بدأه، بلا ممانع، ولا مدافع"، هذا قول الجمهور، وهذا هو الشائع كثيرًا في القرآن: الاحتجاج ببدء الخلق، وإيجاد الخلق ابتداء على الإعادة، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فابن جرير يقول: يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا، باعتبار أن ابن جرير يرى: أنهم احترقوا، أي: هؤلاء أصحاب الأخدود، ثم يعيده لهم في الآخرة، والقرينة عند ابن جرير: أن القضية لا زالت متصلة بأصحاب الأخدود، قال تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}، أي: يبدئ لهم العقوبة في الدنيا، ويعيدها في الآخرة، ففي الدنيا أحرقهم، وفي الآخرة يحرقهم، فهو يرى: أن الآيات هذه متصلة، مع أن هذا ظاهره العموم، فهو مشى على أن الله أحرقهم في الدنيا، ولكن -والله أعلم- هذا ليس هو المتبادر من السياق.

فقوله: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} أي: يبدئ الخلق، ويعيدهم، فهو قوي قادر على ذلك، لا يتعاصى عليه شيء، ولا يمتنع، هذا الذي ذكره ابن كثير، وبه قال الجمهور، والعلم عند الله -عز وجل.

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} أي: يغفر ذنب من تاب إليه، وخَضَع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان.

والودود: قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب.

الودود يعني: الواد لأوليائه، الواد لأهل الإيمان، قال الأزهري في التهذيب، وهو من الكتب التي لم تتلوث باللوثات الكلامية في اللغة ككثير من كتب المتأخرين، فالأزهري -رحمه الله- يقول: بمعنى: المودود، ففسره بعضهم: بالوادّ، يعني: أن الود يصدر منه، والود مرتبة من مراتب المحبة العالية، والود من خالص مراتب المحبة، فالأزهري يقول: بمعنى: المودود، يعني: أن عباده المؤمنين يودونه، يعني: يحبونه محبة خالصة، ومحبة عظيمة، قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة:٢٢]، فالمودة أخص من مطلق المحبة، وابن جرير -رحمه الله- يقول: الودود هو: ذو المحبة له، يعني: الذي يُحَب؛ لأن بعض أهل البدع يقولون: الله لا يُحَب، ولا يُحِب، ولا يوصف بشيء من هذا، وهؤلاء الذين يجحدون هذه الأوصاف، ويقولون: لا يضحك، ولا يرضى، ولا يغضب كيف يتعبدون الله -عز وجل-،

وهو في نظرهم عادم لهذه الأوصاف، لا يُحِب، ولا يُحَب؟ وبعضهم يقول: يُحَب، ولكنه لا يُحِب، والله -عز وجل- يقول: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}، وقال في حق موسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} [طه:٣٩]، وقد مضى الكلام على هذا، أي: على القولين، وكلاهما صحيح -إن شاء الله-: الأول: أن الله أحبه، وهذا لا إشكال فيه، المعنى الثاني: أنه لا يراه أحد إلا أحبه، فجعل له المحبة في قلوب الخلق.

ويبعد جدًّا ما قاله إسماعيل القاضي -رحمه الله- على إمامته وفضله وعلمه، في قوله تعالى: {الْوَدُودُ} فقال: الذي لا ولد له، وهذا بعيد، والله أعلم.

على كل حال، الله ودود، وادٌّ لأوليائه، محب لهم، وهو أيضًا: محبوب، يحبه أهل الإيمان، فكل ذلك صحيح، ولابن القيم -رحمه الله- تعليق على هذا، يقول -رحمه الله تعالى-: "ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبتدئ المعيد، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه.."[٢].

انظر إلى الجمع بين الخوف والرجاء في قلب المؤمن.

يقول: "يغفر لمن تاب إليه، ويوده، ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه، وأقبل عليه، وهو الودود أيضًا أي: المحبوب، قال البخاري في صحيحه: "الودود: الحبيب"[٣]، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين: على كونه وادًّا لأوليائه، ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه، يحبهم ويحبونه، قال شعيب -عليه السلام-: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود:٩٠]، وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور.."[٤].

انظر: هذه لفتة أخرى، تبين وجه الاقتران بين الاسمين.

يقول: "وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان"[٥].

يقول المؤلف -رحمه الله-: {ذُو الْعَرْشِ} أي: صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق.

و{الْمَجِيدُ} فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب -عز وجل-، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح.

ونحن عرفنا أن القراءتين إن كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فالقراءة الأولى: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}، برفع {الْمَجِيْدُ}، فـ{الْعَرْشِ} هنا مضاف إليه مجرور، و{الْمَجِيدُ} مرفوع، فهو يرجع إلى الرب -تبارك وتعالى-؛ لأن {ذُو} يعود إليه، فـ{ذُو الْعَرْشِ} يعني: صاحب العرش، فيكون {الْمَجِيدُ} هو: الله -تبارك وتعالى-، وهذه قراءة الجمهور، والقراءة الثانية: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ}، بجر {الْمَجِيْدِ}، فـ{الْمَجِيْدِ}

---

٢ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٣).

٣ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧]، {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩].

٤ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٣).

٥ - المصدر السابق.

يرجع إلى العرش، فيكون العرش موصوفاً بالمجد، وهذه الصفة هي من الأوصاف الجامعة، كما سيأتي -إن شاء الله- في الكلام على الأسماء الحسنى.

والصفات الجامعة يعني: هناك مجموعة من الصفات ليس لها معنى واحد فقط، وإنما تكون من مجموع أوصاف، تدل على السعة، كالمجد يعني: السعة في الكمالات، فقراءة الجر هذه هي: قراءة الكوفيين عدا عاصم.

ولابن القيم -رحمه الله- تعليق على هذا، وقد أُكثرُ أحيانا في بعض المواضع من نقل كلام ابن القيم؛ لأنه متميز، يعني: أنا أنظر في كلام المفسرين فأجد هذا مثل الشامات، فأنقله، وإلا فكلام المفسرين كثير جدًّا، ولكن هذا مثل الشامات فيه، تأبى نفسي أن أتجاوزها دون أن أنقلها، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره، ودوامه، وأما من ليس له صفات كمال، ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصير مجيدًا بأوصافه، وأفعاله، فكيف يكون الرب -تبارك وتعالى- مجيدًا وهو معطل عن الأوصاف والأفعال -تعالى الله عما يقول المعطلون علوًّا كبيرًا-؟ بل هو المجيد، الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل -عليه السلام-: **{رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}** [هود:٧٣]، وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب -تعالى- بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد، فالحمد والمجد على الإطلاق لله، الحميد المجيد، فالحميد: الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال، والمجيد: العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ "المجيد" بالكسر فهو: صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشه مجيدًا فهو سبحانه أحق بالمجد.."[٦].

وهذا القول خلافاً لمن قال: إن هذه القراءة مشكلة، وحاول أن يوجه ذلك بتكلفات، وقال: لم يعهد أصلا وصف العرش بالمجد، فانظر إلى الفهم، وكيف تقرر مثل هذه المعاني عند المحققين.

يقول: "وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها على أحد الوجهين: إما على الجوار، وإما أن يكون صفة لربك.."[٧].

أي: مجرور بالمجاورة، أي: أن هذا من صفة الرب أصلاً، لكن هي مجرد حركة إعرابية؛ لأنها جاورت العرش وهو مجرور، وإلا فهي في الأصل في محل رفع عند هذا القائل.

يقول: "وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فوصفُه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك؛ لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات، وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله، ومجدُه مستفاد من

---

٦ - المصدر السابق (ص:٩٤-٩٥).

٧ - المصدر السابق (ص:٩٥).

مجد خالقه ومبدعه، والسموات السبع، والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديه كحلقة ملقاة في أرض فلاة"[٨].

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} أي: مهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

وقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} أي: هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردّها عنهم أحد؟، وهذا تقرير لقوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} أي: إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا، أخذ عزيز مقتدر.

يعني: أنزل الله على هؤلاء الجنود الذين تجندوا على الله ورسله وأوليائه، أنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

فهذه السورة ينبغي أن تكون محل عناية ودراسة، لاسيما في هذه الأوقات التي لربما يحصل فيها لبعض النفوس شيء من اليأس أو الإحباط أو الشك في وعد الله -عز وجل- بالنصر لأهل الإيمان؛ نظرًا لما يرون من الفظائع والجرائم في بلاد الشام وغيرها، فيقولون: أين نصر الله الذي وعد أهل الإيمان؟، فالله -تبارك وتعالى- بطشه شديد، وأخذه أليم، ولا تطاق سطوته، وهو فعال لما يريد، وقد فعل بأمثال هؤلاء وبأسلافهم الأفاعيل، وأنزل بهم ألوان المثُلات والعقوبات، فيقول تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ}** أي: هل أتاك خبر هؤلاء الذين تجندوا على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعلى أهل الإيمان، وماذا فعل الله بهم؟.

قال: **{فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}** أي: كهؤلاء أصحاب القوى والقدرة، والإمكانات العالية، ففرعون يدعي الإلهية والربوبية، ليس من ضعف وفقر ومسكنة وقلة ذات يد، إنما الذي أوصله إلى هذا هو لما رأى ما وصل إليه الحال بالنسبة إليه من القوة والتمكين والغنى والجنود والجيوش الجرارة وما إلى ذلك، فأصابه الغرور، فادعى هذه الدعاوى الفجة، وكذلك ثمود هؤلاء الذين استطاعوا أن ينحتوا الجبال بهذه الطريقة التي هي مثار للعجب على مر الأجيال، وواضح أنه لم يكن مجرد نحت حاجة، وبطريقة لربما يحصل بها بعض المقصود، إنما هو في غاية الدقة والنقش والإتقان حتى يبقى على طول هذه المدة الطويلة، نقوش وزخارف على الصخر، كأنه قُص بآلات، لا يستطيع الناس اليوم فعل ذلك، كيف ينحت هذا الصخر بهذه الطريقة، وهو أملس، ثم بعد ذلك يترك منه أشياء تجعل على شكل طيور ونقوش وإلى آخره، في واد طويل يصعب على الإنسان أن يقطعه على قدميه؟ كيف فعلوا هذا في الجبال؟ فهذا لا شك أنه يدل على أن عندهم من الإمكانات والقُدر ما لا يمكن أن يقاس معه ما كان عند أولئك من القرشيين الذين لربما أحسن أحوال الواحد منهم أن يكون عنده شيء من عُكّةٍ من السمن، أو لربما زنبيل من الرطب، وناقة، أو فرس، وسيف، فما الذي كان عند هؤلاء المساكين في مكة من المشركين الذين آذوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة لما عند أولئك؟ ولا زال الناس يقفون على أشياء تدل على التمكين الذي كان في أولئك الأقوام، أيًّا كانوا، يعني: انظر

---

٨ - المصدر السابق.

الآن إلى الأشياء التي تخرج من تحت الرمال، في مثل الربع الخالي، سواء قيل: هذه إرم، أو ليست بإرم، الله أعلم، لكن لا شك أنها تدل على إمكانات هائلة، قصور تحت الرمال مبنية بطريقة عجيبة، والأفيال من حولها، وتماثيل، وكثير من الناس يظن أن الأولين لم يكن عندهم شيء، ولم يكن عندهم إمكانات، وأنهم يبنون على قدر الحاجة بيوتًا من الطين والسعف، ويذكرون العصر الحجري، والعصر البرونزي، وما علموا أن الأولين عندهم من الإمكانات ما ليس عند الناس اليوم، فتلك القصور التي تحت الرمال لا يمكن أن تبنى من قبل قوم من البدائيين، فهؤلاء وصلوا بالقوة والقدرة والإمكانات والعلم إلى أن استطاعوا أن يصلوا إلى هذه الأشياء، ولا يمكن أن يصل الناس إلى هذا النوع من الزخرفة، والبناء المشيد بهذه الطريقة الذي يبقى على هذه الدهور إلا أن يكون هؤلاء الناس قد وصلوا إلى مرحلة من البطر والغنى والتفوق المادي ما لا يقادر قدره، وإلا فالأصل أن الناس تكون مساكنهم بقدر الحاجة، والله أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- يتوعد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وآذوهم أو عذبوهم أو قتلوهم أو أحرقوهم بالنار، أو امتحنوهم في إيمانهم، يتوعدهم إن لم يتوبوا بعذاب جهنم، وهو اسم من أسماء النار، ويتوعدهم بعذاب الحريق الذي يكون في النار، فإن النار تشتمل على أنواع من العذاب، ومنه الحريق.

ثم ذكر ما لأهل الإيمان: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار.

{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}، فهذا هو الفوز العظيم، والسعادة الكبرى في هذا النعيم الأبدي السرمدي.

ثم بين -تبارك وتعالى- قدرته وشدة بأسه بقوله: **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}**، فإذا أخذ -تبارك وتعالى- فإنه يأخذ بقوة وشدة.

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} أي: هو الذي يبدئ الخلق، وينشئه، وهو الذي يعيده ثانية.

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} فالله -تبارك وتعالى- جعل هذا القرآن مثاني، ومن ذلك: أنه يثني فيه الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فهو الغفور، أي: الذي يستر الذنب، ويقي جرائره وتبعته، فإن الغفر يشمل هذا وهذا، فمن غفر الله له فإنه لا يعذبه، وكذا لا يفضحه، فهو مأخوذ من المغْفر الذي يستر الرأس، وأيضًا يقي لابسه الضرب بالسلاح، وهو الودود، أي: المحب الوادُّ لأوليائه، وهو المحبوب، فهو يحبهم ويحبونه، وتبين وجه الجمع بين الغفور والودود، وما يؤخذ من ذلك من وصف ثالث، فهو -تبارك وتعالى- يغفر مع محبة، وأنه قد يحصل الغفر من الإنسان، لكن من غير محبة.

{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} العرش أكبر المخلوقات، استوى عليه -تبارك وتعالى- استواء يليق بجلاله وعظمته، و"المجيد" بالرفع على هذه القراءة: يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، فهو ذو المجد، وهو: ذو الصفات الكاملة، فإن هذا الاسم وما تضمنه من الوصف يدل على السعة في الكمالات، وأوصاف الكمال، و"المجيدِ" بالكسر على القراءة الأخرى: يكون ذلك من صفة العرش، أن العرش مجيد.

{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}، فعال يعني: كثير الفعل لما يريد، فلا يتعاصى عليه شيء، ولا يمتنع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد -سبحانه وتعالى.

ثم قال: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} أي: هل بلغك نبأ هؤلاء الذين تجندوا على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وعلى أتباعهم؟.

قوله: {فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}، هذا تفسير للجنود، أي: فرعون، وقوم فرعون، وهكذا ثمود.

قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} يعني: هل بلغك ما فعل ربك -تبارك وتعالى- بهؤلاء العتاة المكذبين؟

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله -تعالى-: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} أي: هم في شك وريب وكفر وعناد.

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} أي: هو قادر عليهم، قاهر، لا يفوتونه ولا يعجزونه.

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ} أي: عظيم كريم.

{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

آخر تفسير سورة البروج، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ}، قال ابن كثير: "هم في شك، وريب، وعناد"، وقد جاء هنا بـــ{فِي} التي تدل على الظرفية، فقال: {فِي تَكْذِيبٍ}، يعني: أنهم منغمسون في الكفر والتكذيب.

قال: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}، أي: قادر عليهم، لا يفوتونه، ولا يعجزونه، ومحيط بأعمالهم، محصٍ لها، لا يخفى عليه منها شيء، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-: وهو محيط بهم أيضًا، بذواتهم، يحصي أعمالهم، وهو قادر عليهم، إن شاء أخذهم وعاقبهم وأهلكهم، لكن كأن ابن جرير -رحمه الله- راعى ما قبله، وهو قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} يعني: يعلم حالهم، وكفرهم، وتكذيبهم، وإعراضهم، وما يصدر عنهم.

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ}، قال: "أي: عظيم كريم"، وعرفنا أن المجد يأتي بمعنى: السعة، وكثرة الخير، وهو اجتماع صفات الكمال، فالله وصف القرآن هنا بأنه مجيد؛ لكثرة خيراته التي لا يعلمها إلا من تكلم به، فهو كثير الخيرات، كثير البركات، كثير الهدايات، والعبر، والعظات، فلا يحيط بذلك إلا من تكلم به -سبحانه وتعالى.

قال: {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، قال: "أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص"، هنا قرأ الجمهور {مَحْفُوظٍ} بالجر، باعتبار أنه نعت لـــ"لوح"، أي: هذا اللوح محفوظ، والقراءة الأخرى وهي قراءة متواترة: قراءة نافع بالرفع، يعني: القرآن، فهو يرجع إلى القرآن، وكما ترون أن بين القراءتين ملازمة، فالقرآن في اللوح، واللوح محفوظ، أو هذا القرآن محفوظ، كل ذلك يؤدي إلى هذا المعنى، إلا أن قراءة الجر أشمل في المعنى، باعتبار أن اللوح فيه القرآن وغير القرآن، وهو: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه ربنا -تبارك وتعالى-

المقادير، وقال للقلم: ((اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة))[٩]، فكل ذلك محفوظ في هذا اللوح، واللوح محفوظ لا تصل إليه الشياطين، ولا تصل إليه أيدي العابثين، ولا يستطع أحد أن يطلع عليه، أو أن يسطو عليه، فهو محفوظ، وفي ضمن ذلك القرآن، وعلى القراءة الأخرى التي بالرفع: أن القرآن محفوظ، فيكون بذلك محفوظًا بخصوصه، وهو أيضاً محفوظ بعينه كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر:٩].

ولابن القيم تعليق على هذا، يقول -رحمه الله تعالى-: "وقد اشتملت هذه السورة -على اختصارها- من التوحيد: على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته، وملكه السموات والأرض المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه، وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها، وسمعه بمسموعاتها، وعلمه بمعلوماتها، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته، وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة، وانقيادها لقدرته، فلا يستعصى عليه منها شيء، ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده محباً لهم، ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوى عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله، فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين تكفي مَن فهمها، فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده.."[١٠].

يعني: هذا ما تضمنته هذه السورة مما يتصل بصفات الله -عز وجل- وكمالاته.

يقول: "وقوله تعالى: **{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}** أكثر القراء على الجر: صفة لــ"لوح"، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به؛ لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر:٩]، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف، كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير"[١١].

---

٩ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم: (٤٧٠٠)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ن، رقم: (٣٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤٠٥/١)، رقم: (٨٨٩).

١٠ - التبيان في أقسام القرآن (ص:٩٧-٩٨).

١١ - المصدر السابق (ص:٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطارق من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال المؤلف –رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الطارق، وهي: مكية.

هذه السورة سورة الطارق تتحدث بعد الأقسام التي أقسم الله –تبارك وتعالى- في أولها على قضية وهي: أن كل نفس عليها حافظ، فهذه السورة تتحدث عن إحاطة الله –تبارك وتعالى- بهذا الإنسان، وإحصائه لعمله، وما يصدر عنه، وأن الله قادر عليه، فهو الذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة المهينة، فهو قادر على أن يعيده ثانية، هذا موضوع هذه السورة.

وروى النسائي عن جابر –رضي الله عنه-، قال: صلى معاذ –رضي الله عنه- المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((أفتان أنت يا معاذ؟، ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحوها؟))[1].

هذه الرواية عند النسائي في السنن الكبرى، وليست في الصغرى، قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((أفتان أنت يا معاذ؟))، والروايات المشهورة في قصة معاذ –رضي الله عنه- أنه كان يصلي لهم العشاء، وفي سائر الروايات أيضاً الصحيحة الثابتة أن النبي –صلى الله عليه وسلم- لم يذكر له الطارق[2]، كما مضى، وكما سيأتي أيضاً، فهذه الرواية مخالفة للروايات الأخرى الثابتة المشهورة في الصلاة التي كان يصليها معاذ لأصحابه، فهو كان يصلي مع النبي –صلى الله عليه وسلم- العشاء، ثم ينصرف إلى قومه فيصلي لهم، وليس فيها ذكر المغرب، كذلك ليس فيها ذكر الطارق، والله أعلم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} [الطارق:١-١٠].

قال المؤلف –رحمه الله تعالى-: يقسم –تبارك وتعالى- بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، ثم قال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}، ثم فسره بقوله: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ}.

---

١ – أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الطارق، رقم: (١١٦٠٠).

٢ – أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم: (٧٠٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم: (٤٦٥).

قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل، ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: ((نَهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً))[٣]، أي: يأتيهم فجأة بالليل.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}** هذان قَسَمان: أقسم بالسماء، وأقسم بالطارق، ثم فسر الطارق بقوله: **{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}**، إذًا هذا تفسير للقرآن بالقرآن بلفظ يتصل به، فمثل هذا لا مجال لاجتهاد المفسر فيه؛ لأن تفسير القرآن بالقرآن منه ما يدخله اجتهاد المفسر، فقد يفسر آية بآية يربط بينهما وتكون تلك الآية في موضع آخر لا ترتبط بهذه؛ فيخطئ المفسر بهذا الاعتبار، وهذا ذكرناه في مناسبات سابقة في الكلام على أنواع التفسير، وأن قولهم: إن تفسير القرآن بالقرآن هو أعلى أنواع التفسير، وأفضل أنواع التفسير، أن المقصود بذلك: الجنس، أما الأفراد والأمثلة فهذه يتطرق إليها الخطأ من جهة المفسر، لكن إذا جاء تفسيره في القرآن بعده كقوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ}** فهذا لا إشكال فيه، فلا يحتاج بعد ذلك إلى غيره، لكن هذا النجم هل هو نجم معين، أو المقصود بذلك كل ما يصدق عليه هذا؟ وما وجه هذه التسمية بالطارق، أو لماذا النجم سمي بالطارق؟ الواحدي ينقل عن المفسرين: أن المراد بذلك: الكواكب التي تطرق بالليل وتختفي بالنهار، يعني: النجوم، قيل له: طارق؛ لكونه يظهر ليلاً ويختفي نهارًا، باعتبار أن ما أتاك ليلاً فهو طارق، يعني: العرب تقول لمن يطرق أو يأتي أو يظهر أو يرد ليلاً: طارق، من إنسان أو حيوان أو نجم أو غير ذلك، لكن المقصود هنا النجوم؛ لأن الله فسره به، وإلا فالطارق في لغة العرب يشمل كل ما يطرق ليلاً، هكذا قال العلماء من المفسرين، وأصحاب المعاني، وأهل اللغة كالفراء والزجاج والمبرد، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، وكلام ابن القيم في هذا، فهذه النجوم قيل لها ذلك؛ لكونها تظهر ليلاً وتختفي نهارًا، لكن بقي الخلاف بينهم: هل هو نجم معين أو لا في قوله: **{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}**؟ هذا النجم الذي سمي بالطارق ما هو؟ هل هو النجوم عمومًا أو نجم معين؟ فبعضهم يقول: إنه نجم معين، بعضهم يقول: زحل، وبعضهم يقول: الثريا، وبعضهم يقول: هي النجوم التي ترمى بها الشياطين، وبعضهم يقول: هي جنس النجوم، وهذا الذي اختاره ابن القيم -رحمه الله-، فالنجوم التي تظهر ليلاً وتختفي نهارًا هي **{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}**، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- ألا يحدَّ ذلك بنجم بعينه.

وهناك من فهم أن المقصود والمراد بذلك النجم الطارق هو: ما يصدر عنه صوت يشبه الطرق، هذا قاله بعض المعاصرين ممن يتكلمون على الإعجاز العلمي، فالطارق لم يفسروه بالذي يطرق ليلاً، كما هي لغة العرب، وكما هو المعروف من كلامهم، وإنما فهموا من كلمة الطارق أنه هو الذي يطرق الباب مثلاً، وأصل هذه المادة في لغة العرب: أن ذلك يكون في حق ما يطرق ليلاً، وإن لم يحصل صوت، أو طرق، أو نحو ذلك، فالعرب لا تقيده بهذا، فقوله: ((إلا طارقاً يطرق بخير))[٤] ليس معناه يطرق الباب، وإنما يرِد أو يأتي،

---

٣ - أخرجه البخاري، أبواب العمرة، باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة، رقم: (١٨٠١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلا لمن ورد من سفر، رقم: (١٩٢٨).

٤ - أخرجه أحمد، رقم: (١٥٤٦٠)، وقال محققو المسند: "إسناده ضعيف"، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٤٩٥)، رقم: (٨٤٠).

فكل ما ظهر ليلاً أو وردك ليلاً أو جاءك ليلاً فهو طارق، ولهذا نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يطرق الرجل أهله طروقًا، ومعنى يطرقهم: أن يأتيهم ليلاً، ليس المقصود: النهي عن طرق الباب، فإذا كان الباب مفتوحًا دخل، أو معه مفتاح دخل، لا، إنما المقصود: ألا يرِد عليهم، أو ألا يدخل عليهم ليلاً وقد قدم من سفر، هذا الحكم قبل وجود أجهزة الاتصال، وكونهم يعرفون أنه سيأتي، وينتظرونه.

فهذا المجيء ليلاً يقال له: طروق، وهؤلاء ماذا فهموا؟ هم فهموا الدَّق من قول الناس اليوم: طرق الباب، يعني: دق الباب، وهذا غير مراد إطلاقًا، فهذا الطرق الذي بمعنى دق الباب يكون في الليل وفي النهار، فيقول: إنه اكتُشف نجم له صوت يطرق أي: يدق، فهذا هو الطارق، يعني: أن السلف وأهل اللغة هؤلاء جميعًا ما فهموا الآية، هم ذهبوا على أنه الطروق بالليل من غير صوت ولا تصويت، وهو فهمه على هذا الفهم الذي لا تتوجه إليه أذهان العرب عند ذكر الطروق، فهذا الكلام غير صحيح، ولا يُفرح بمثل هذه الأشياء.

هذه الأيام أشغلنا الناس بالسؤال حتى إنه بمجرد ما يبدأ الشخص يذكر قوله تعالى: **{حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** [الأعراف:٤٠] يقاطعه ويقول له: هذا غير صحيح، ويقول: هناك من يقول: لا يُعرف في لغة القرآن وكلام العرب أن الجمل هو البعير، وإنما الجمل هو: حبل السفينة، وينكر أن يكون البعير، ويقول: ليس هناك علاقة بين البعير وبين سم الخياط حتى يُذكر في الآية، وهذا كلام كبير جدًّا لا يقبل إطلاقًا، ويستحي الإنسان أن يسمعه، بالسماع فقط يجد الإنسان حرجًا، لا يمكن أن يقال هذا، حتى الصغار والأطفال يدركون أن الجمل هو البعير، وأنا كنت أتعجب من بعض الأشياء التي تذكر في بعض كتب اللغة وغيرها، يعني: بعض أئمة اللغة يُذكر في ترجمته أنه كان هناك من يتمحلون في سؤاله، فقال له: ما الجمل؟ قال: البعير، قال: ما البعير؟ قال: ذو القوائم الأربع، قال: وما هو؟ فصار هذا عالم اللغة في المسجد في أثناء الدرس يمشي على أربع أمام الناس، ويقول: الذي يقول هكذا، يعني: الذي يمشي بهذه الطريقة، ابن مسعود يقول لمن سأله: ولد الناقة، يعني: أما تعرف الجمل؟

فهذه السؤالات تفضي إلى ضجر هؤلاء الأئمة، فإذا رأى الإنسان مثل هذه الدعوى الكبيرة من أن الجمل ليس هو البعير يقول: هؤلاء معذورون بهذا الضيق من هذه الدعاوى الفجة.

فالجمل هو البعير، والعلاقة واضحة: **{حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** فالعرب لا زالوا إلى اليوم يقولون: الباب يسع جملا، يعني: واسعًا، لكن سم الخياط ما يدخل منه الجمل، وهذه طريقة العرب، وهذه لغتهم؛ ولهذا يقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب

إذا شابَ الغرابُ أتيتُ أهلي *** وعاد القارُ كاللبنِ الحليبِ

الغراب ما يمكن أن يشيب، يقولون: حتى تشيب مفارق الغربان، لا يمكن أن يشيب مفرق الغراب، ولا يعود القار الأسود إلى بياض كالحليب، وكما يقولون أيضاً: حتى يعود اللبن في الضرع، فهذا كله جارٍ على لغتهم، ومعروف في مخاطباتهم، فلا يمكن أن يرِد مثل هذا الكلام، ولا أن يقبل، وكلام أهل العلم من المفسرين سلفاً وخلفاً في تفسير الجمل بأنه البعير هو الأشهر، وهو معروف عند أهل اللغة، ومتبادر عند الإطلاق في

القرآن، فلابد أن يُترك هذا كله، وينكر من أصله، فالمسألة ليست مجرد ترجيح أيضاً، والناس يروجون هذه الأشياء، ويقلبونها، وتنتشر انتشار النار في الهشيم.

وقوله تعالى: {الثَّاقِبُ} قال ابن عباس: المضيء، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

عبارات السلف تجد مثل هذا: مضيء ومحرق، مجاهد يقول: متوهج، ابن جرير يقول: يتوقد ضياؤه، ويتوهج، فالثاقب: شديد التوقد، أو شديد التوهج، أو شديد الإضاءة، ابن القيم يقول: يثقب ضوءُه، يعني: له ضياء قوي متوهج شديد.

وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد:١١].

هذا جواب القسم: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، أقسم قسمين على هذه القضية: أن كل نفس عليها حافظ، وهذه الآية فيها قراءتان متواترتان كل قراءة لها معنى، ونحن عرفنا أن القراءتين إن كان لكلٍّ معنى فهما بمنزلة الآيتين.

القراءة الأولى: وهي هذه التي نقرأ بها: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، {لَمَّا} بالتشديد، فهذه قراءة عاصم، وبها أيضاً قرأ ابن عامر وحمزة، فعلى هذه القراءة بالتشديد {لَمَّا} تكون {إِنْ} نافية، بمعنى: ما، أي: ليست المخففة من الثقيلة، وإنما هي نافية بمعنى: ما، يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وتكون {لَمَّا} للاستثناء، بمعنى: إلا، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، يعني كأنك تقول: ما من نفس إلا عليها حافظ، فهذه القراءة الأولى.

القراءة الثانية: وهي قراءة الجمهور بالتخفيف: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، يعني: أن الشأن كل نفس لعليها حافظ، فتكون {إِنْ} هنا على هذه القراءة مخففة من الثقيلة، وعلى الأولى نافية، ومع {إن} النافية تكون اللام في {لَمَا} فارقة، و{مَا} يقولون: مزيدة للتوكيد، يعني: كل نفس عليها حافظ.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} أي: حافظ يحفظ هذه النفس، ما المراد به؟ هل حافظ يحفظ الأعمال أو يحفظ هذا الإنسان؟ ابن كثير هنا أورد هذه الآية: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، وقد مضى الكلام على هذه الآية، وأن هؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان حتى إذا جاء القدر خُلي عنه، يعني: يحفظونه من الشياطين أن تتخطفه، يحفظونه من العوارض والأخطار والآفات حتى يأتي قدر الله النافذ إلى هذا الإنسان فيُخلّى عنه عندئذ، فابن كثير -رحمه الله- فسرها بهذا؛ لذلك ذكر هذه الآية: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} يعني: أن حفظهم ناتج أو صادر عن أمر الله لهم، أمرهم الله بذلك، لكن ابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على حفظ الأعمال، فقوله: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} يعني: يحفظ ما يصدر عنه من عمل، ويحصي ذلك عليه، فقد وكل الله -عز وجل- الملائكة الكرام الكاتبين، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار:١٠-١١]، فيفسر الحافظ بهذا، وكما قال الله -عز وجل-: {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام: ٦١]، فهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن الله -تبارك وتعالى- هو الحافظ {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، أخذاً من أن الله هو المطلع على أحوال العباد، شهيد على أعمالهم، وهو الذي يحفظهم ويكلؤهم، بهذا الاعتبار.

وقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:٢٧].

وقوله تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} يعني: المني، يخرج دفقاً من الرجل والمرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله -عز وجل-؛ ولهذا قال: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} يعني: صلب الرجل، وترائب المرأة وهو: صدرها.

وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} صلب الرجل وترائب المرأة، أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما.

قوله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}، الله قادر على هذا الإنسان، هو الذي خلقه من هذه المادة الضعيفة، وهو قادر على إعادته ثانيًا، كما أنه محيط به من كل وجه.

قوله: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} يعني: يخرج دفقًا، الدفق هو: صب الماء، تقول: دفقَه يعني: صبه، فهذا الصب هو الذي يقال له: الدفق، وما دونه لا يكون دفقًا، يعني: إذا كان مجرد إفراز مثلاً لا يقال له: دفق، يعني: خروج المذي مثلاً شيئًا بعد شيء أشبه ما يكون بالإفراز، فمثل هذا لا يقال له: دفق؛ ولذلك ما يوجب الغسل من خروج الماء مقيد بهذا القيد مع القيد الآخر: خروج الماء دفقًا بلذة، فلو خرج من مرض لا يوجب الغسل، ولو أنه خرج من غير دفق، يعني: بمعنى أن الوطر واللذة لم تستتم فخرج شيء يسير لا يكون دفقًا، فمثل هذا لا يوجب الغسل.

{دَافِقٍ} قيل: بمعنى فاعل، أي ذو دفق من النسبة، أو مفعول أي مدفوق.

يقول: "**من الرجل والمرأة، فيتولد منهما الولد**، قال: **ولهذا قال: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} يعني: صلب الرجل، وترائب المرأة وهو: صدرها**".

هذا القول هو الذي عليه عامة المفسرين، أن المقصود بقوله: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}، أن الصلب: صلب الرجل، الترائب: ترائب المرأة، أي: أن ذلك يرجع إلى الرجل والمرأة معًا، وليس ذلك من صفة الرجل وحده، هذا الذي عليه عامة السلف، ومن بعدهم، ومن تأمل كلامهم وأقوالهم رأى ذلك، فالضحاك يقول: ترائب المرأة، وإن اختلفوا في معنى الترائب، فالضحاك يفسر ترائب المرأة باليدين والرجلين والعينين، يعني: كأنه يخرج من جميع أجزاء الجسد، الرأس والأطراف وما بين ذلك، وسعيد بن جبير يقول: الجِّيد، والجيد: العنق، وهو بمعنى قول من قال: موضع القلادة، ومجاهد يقول: ما بين المنكبين والصدر، ما الذي بين المنكبين والصدر؟ هو موضع القلادة، وجاء عنه: الترائب يعني: الصدر، وجاء عنه: التراقي، ما هي التراقي؟ العظم الممتد ما بين الكتف إلى الثغرة التي في النحر، العظم الناتئ يقال له: ترقوة، قال تعالى: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} [القيامة:٢٦]، فجاء عن مجاهد: أن الترائب هي: التراقي، وهذا كله يرجع إلى الصدر، وعظام الصدر، والنحر، هذه هي الترائب، وبعضهم يقيد ذلك يقول: أربعة أضلاع عن يمين الصدر، وأربعة عن يساره، يعني: في الأعلى، وبعضهم يقيد ذلك بضلعين عن اليمين وعن الشمال تحت الترقوتين، وبعضهم يقول: ما بين الثديين، والترائب: جمع تريبة، فهم يقولون: موضع القلادة.

إذاً الترائب هي: الصدر، أو عظام الصدر، أو نحو ذلك، يعني: هذا الموضع، فعامة هؤلاء يقولون: إن الترائب هي: عظام الصدر، أو الصدر، أو موضع القلادة من المرأة، إذًا الترائب ترجع إلى المرأة، والصلب إلى الرجل، فيكون من مجموع الماءين، ويدل على هذا الأحاديث: لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن اغتسال المرأة إذا احتلمت، فلما واجه هذا السؤالُ شيئًا من الحرج بقولها: أوتحتلم المرأة؟ لما قالت أم المؤمنين: فضحت النساء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ففيم يشبهها الولد؟)) أي: تحتلم المرأة، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا رأت الماء))[٥]، فدل على أنها تحتلم، وأن لها ماء، وأن هذا الماء يُخَلَّق منه الولد أيضاً، لقوله: ((ففيم يشبهها الولد؟))، مع الحديث الآخر: ((إذا علا ماء الرجل ماء المرأة))[٦]، وفي قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة))[٧]، فذكر -صلى الله عليه وسلم- في الحديثين: الإذكار والإيناث، وذكر الشبه، ويأتي -إن شاء الله- الكلام على هذا، لكن كل هذا يرجع إلى أنه يخلق من مجموع الماءين، لكن من أهل العلم من يقول: إن الصلب والترائب كل ذلك يرجع إلى الرجل، أي: صلب الرجل، وترائب الرجل، والمقصود بالصلب: العمود الفقري، هذا هو الصلب، والترائب: عظام الصدر، وبعض هؤلاء يقولون: إن الذي ذكر من موضع القلادة وما أشبه ذلك باعتبار أن هذا يرد كثيرًا، يعني: هذا اللفظ، أو هذه العبارة، وهي: الترائب في أوصاف النساء شعرًا ونثرًا، يقولون: فحينما يذكر أهل اللغة أو السلف الترائب ويقولون: ترائب المرأة، أو موضع القلادة، يقصدون: تحديد المكان فقط، لا أنها ترائب المرأة في الآية، وهذا الكلام فيه نظر، فإنهم يقصدون أنها ترائب المرأة فعلاً، وليس البيان للمعنى اللغوي أين الترائب.

إذًا الأكثر على أنه صلب الرجل، وترائب المرأة، لكنه ليس محل اتفاق، فبعضهم يقول: صلب الرجل، وترائب الرجل، لكن حتى على هذا القول تبقى الأحاديث تدل على أن ماء المرأة يخلّق منه أيضاً الجنين، إلا أن الأطباء من المعاصرين لا يقرون هذا ولا يذكرونه، وإنما يقولون: إنه يخلق من ماء الرجل، فيلقح الحيوان المنوي، ولا يثبتون أن المرأة لها ماء أصلاً، ما رأيت أحدًا منهم يثبت هذا على كثرة تتبع كلامهم، فماذا يقولون في هذه الأحاديث؟ نقول: الآية تحتمل القولين، لكن الأحاديث واضحة، فماذا يقولون؟ يقولون: هو تلقيح البويضة، فإذا لقحت البويضة حصل الحمل، لكن ماذا يقولون في ماء المرأة والنبي -صلى الله عليه وسلم- وصفه بدقة؟، وانظر إلى عبارة ابن كثير هنا يقول: "**يخرج دفقًا من الرجل والمرأة، فيتولد منهما بإذن الله -عز وجل-... إلى آخره، قال: قال ابن عباس: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} صلب الرجل،**

---

٥ - أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، رقم: (١٣٠)، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٣).

٦ - أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٤).

٧ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ} [البقرة: ٩٧]، رقم: (٤٤٨٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١١).

وترائب المرأة، **أصفر رقيق**"، يقصد: هذا وصف ما كان بالنسبة للمرأة: أصفر رقيق، هكذا يصفه الفقهاء: أصفر رقيق.

فكلام الأطباء المعاصرين مردود، وإن كانت الآية تحتمل؛ لكنه مردود بالأحاديث، وما رأيت لأحد من المعاصرين كلامًا يشفي في هذا الموضوع، بحيث يكون مبناه على الجمع بين النصوص، الطاهر بن عاشور –رحمه الله– له كلام جيد في هذه القضية، ومفيد، وفيه تفاصيل ما رأيته لغيره، يقرب لك شيئاً من هذا، يقول في جملة كلامه: "الترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء؛ لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال.."[٨].

يعني: الآية تحتمل في الترائب، هل القصود الرجل أو المرأة؟

يقول: "وقوله: **{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}** الضمير عائد إلى الماء الدافق، وهو: المتبادر، فتكون جملة **{يَخْرُجُ}** حالاً من قوله: **{مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ}**، أي: يمر ذلك الماء بعد أن يفرز من بين صلب الرجل وترائبه..."[٩].

فهو هنا مشى على أن ذلك يرجع إلى الرجل، لكنه لم ينكر الأمر الآخر بالنسبة للمرأة.

يقول: "وبهذا قال سفيان والحسن، أي: أن أصل تَكَوُّن ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وليس المعنى: أنه يمر بين الصلب والترائب..."[١٠].

ابن عاشور يقول: يتكون، وليس ذلك مجراه وطريقه فقط، لا، هو يقول: يتكون ما بين الصلب والترائب.

يقول: "إذ لا يتصور ممر بين الصلب والترائب؛ لأن الذي بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلوع من قلب ورئتين، فجعل الإنسان مخلوقًا من ماء الرجل؛ لأنه لا يتكون جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل، فإذا اختلط ماء الرجل بما يسمى ماء المرأة، وهو: شيء رطب كالماء يحتوي على بويضات دقيقة يثبت منها ما يتكون منه الجنين، ويطرح ما عداه..."[١١].

فهو يقول: ماء رقيق يحتوي على بويضات، يعني: ليس هو البويضة.

يقول: "وهذا مخاطبة للناس بما يعرفون يومئذ بكلام مجمل، مع التنبيه على أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة بذكر الترائب؛ لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة، ولا شك أن النسل يتكون من الرجل والمرأة، فيتكون من ماء الرجل، وهو سائل فيه أجسام صغيرة..."[١٢].

ثم ذكر الأوصاف المعروفة التي يقولها أهل العصر الحديث، وذكر مقرها واندفاعها إلى آخره.

---

٨ – التحرير والتنوير: (٣٠/ ٢٦٣).

٩ – المصدر السابق.

١٠ – المصدر السابق.

١١ – المصدر السابق.

١٢ – المصدر السابق.

يقول: "ومِن ماءٍ هو للمرأة كالمني للرجل، ويسمى: ماء المرأة -انظر هو ما أنكره- وهو: بويضات دقيقة كروية الشكل، تكون في سائل مقره حويصلة من حويصلات يشتمل عليها مبيضان للمرأة، وهما بمنزلة الأنثيين للرجل، فهما غدتان تكونان في جانبي رحم المرأة، وكل مبيض يشتمل على عدد من الحويصلات يتراوح من عشر إلى عشرين، وخروج البويضة من الحويصلة يكون عند انتهاء نمو الحويصلة، فإذا انتهى نموها انفجرت، فخرجت البويضة في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم، وإنما يتم بلوغ البويضة النمو وخروجها من الحويصلة في وقت حيض المرأة؛ فلذلك يكثر العُلوق -يعني: الحمل- إذا باشر الرجل المرأة بقرب انتهاء حيضها..."[١٣].

يعني: إذا اغتسلت من الحيض طهرت، فهذه المدة القريبة من الحيض هي أكثر احتمالاً للحمل.

يقول: "وأصل مادة كلا الماءين مادة دموية -أي: بالنسبة للرجل والمرأة- تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، وهو: الصلب، ثم ينتهي إلى عرق ما يسمى الحبل المنوي، مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الأنثيين، وهما الغدتان اللتان تفرزان المني، فيتكون هنالك بكيفية دهنية، وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دهنية شحمية، وذلك عند دغدغة ولذع القضيب المتصل بالأنثيين، فيندفق في رحم المرأة، وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة، وهو: الترائب؛ لأن فيه موضع الثديين، وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل، والحيض يسيل من فوهات عروق في الرحم، وهي: عروق تنفتح عند حلول إبان المحيض، وتنقبض عقب الطهر، والرحم يأتيها عصب من الدماغ، يقول: وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن..."[١٤] إلى آخره.

هذا كلام فيه تفصيل غير ما يذكره الأطباء، يعني: فيه زيادة على كلام الأطباء، فهو يتكلم عن نزوله، ومجراه، وإلى آخره، أي: ما بين الصلب والترائب، وتكوُّن ماء الرجل، وتكوُّن ماء المرأة، وهذا شيء مشاهد، فإن هذا الماء ينسل من أجزاء الجسد؛ ولذلك بعض السلف يقول عما ينزل مما بين الصلب والترائب: عصارة القلب، هكذا فسره، فهو ينسل من أجزاء الجسد؛ ولهذا يحصل بعده الفتور، فيعوض ذلك بالاغتسال، فيتجدد النشاط ويعود، وابن القيم له كلام جيد في الطرق الحكمية في هذا الموضوع، وهو ذكره في عدد من كتبه، فذكره في زاد المعاد، وذكره أيضاً في مفتاح دار السعادة، وفي بدائع الفوائد، لكن نحن ننظر في الطرق الحكمية ففيه حاصل ما ذكره في المواضع الأخرى.

---

١٣ - المصدر السابق (٣٠/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

١٤ - المصدر السابق (٣٠/ ٢٦٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الطارق من الآية (١١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ}** [البروج: ١٩]، بعد أن توعد الله المكذبين الكافرين مع ما نوّع لهم من العِبر، وما ذكر من المَثُلات، قال: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ}**، فهم منغمسون في التكذيب، وليس بهم أنهم لم يأتهم ما تقوم عليهم به الحجة.

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج:٢٠] أي: محيط بأعمالهم محصيها عليهم، محيط بهم من كل وجه، لا يفوتونه، ولا يعجزونه، فهو قادر على أخذهم في الدنيا -كما وقع لمن قبلهم من أصحاب الأخدود، وغيرهم-، وعلى محاسبتهم، وعقابهم في الآخرة.

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ} [البروج:٢١] أي: قرآن كثير البركات، كامل الصفات، لا تنقضي عجائبه، كله هدى وعظات، فهو أصل العلوم، ونبع الهداية، وعرفنا أن المجد يدل على السعة، وكثرة الأوصاف الكاملة.

{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج:٢٢] أي: هذا القرآن في لوح محفوظ، وهو: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء، وعلى القراءة الأخرى: **{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٌ}** يعني: أن القرآن محفوظ في لوح، فالمحفوظ على القراءة الأولى يرجع إلى اللوح، أي: هذا اللوح محفوظ، وعلى القراءة الثانية يرجع إلى القرآن، أي: هذا قرآن مجيد محفوظ.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}** [الطارق:١] يقسم الله -عز وجل- بالسماء، هذا المخلوق الهائل الكبير الذي يدل على قدرة الله -عز وجل-، وبالطارق، وهي: النجوم التي تظهر ليلاً، وتختفي نهارًا.

قال: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ}** [الطارق:٢-٣]، أي: الذي يضيء إضاءة قوية، فهو: شديد الإضاءة.

{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق:٤]، هذا هو جواب القسم، يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ، على هذه القراءة، يعني: لا تخلو نفس من حافظ، **{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا}** يعني: إلا **{عَلَيْهَا حَافِظٌ}**، وعلى القراءة الأخرى **{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ}** يعني: أن الشأن أن كل نفس عليها حافظ، والمعنى في القراءتين في النهاية واحد، وهو إثبات وجود الحافظ على النفس، كل نفس لا تخلو من حافظ يحفظ عليها، ويحصي أعمالها، قال تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق:١٨]، وقال: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ}** [الانفطار:١٠-١١].

قوله: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}** [الطارق:٥]، أي: هذا الإنسان المخلوق الضعيف المُكَذِّب بالآيات عليه أن ينظر مما خلق، حتى يعرف قدرة الله -تبارك وتعالى- عليه، وكيف صرفه هذا التصريف حتى صار خلقاً سويًّا، فالذي فعل به ذلك قادر على إعادته ثانيًا.

{خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} [الطارق:٦] يعني: أنه ذو دفق، أو أنه مدفوق، والدفق قلنا: هو صب الماء.

{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق:٧] فيه قولين على ما ذكرنا: أن ذلك يرجع إلى الرجل، يخرج من بين صلبه، وهو: العمود الفقري، وترائبه، وهي: عظام الصدر، أو موضع القلادة منه، وعلى القول الآخر أنه يخرج ما بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي: عظام الصدر، أو العظام العليا من الصدر.

وهذا كلام ابن القيم –رحمه الله– في الطرق الحكمية الذي أشرنا إليه سابقاً:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، يقول الحافظ ابن القيم –رحمه الله تعالى-: "وأما قولهم إنه يَعتمد الشبه، فنعم، وهو حق..."[١].

هنا يتكلم ابن القيم عن حديثين: الحديث الأول وهو: ((إذا علا ماء الرجل ماء المرأة))[٢]، والثاني: ((إذا سبق))[٣]، هذان الحديثان جاء فيهما: مسألة الشبه، ومسألة الإذكار والإيناث، فعندنا: سبْق، وعندنا: علوّ، وعندنا: إذكار، وعندنا: إيناث.

وهو يتكلم على موضوع القافة، ومعرفة الشبه، والحكم بها من ناحية الحكم والقضاء وإلحاق الولد بالشبه.

قال: "قالت أم سلمة: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: ((تربت يداك، فبم يشبهها ولدها؟))، متفق هنا أثبت الشبه من أنه يخلق مما يكون منها أيضاً.

قال: "ولمسلم من حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن أم سليم –رضي الله عنها– قالت: وهل يكون هذا يعنى: الماء؟، فقال نبي الله –صلى الله عليه وسلم-: ((نعم، فمن أين يكون الشبه؟، إن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمِن أيِّهما علا أو سبق يكون منه الشبه))[٦].

وعن عائشة –رضي الله عنها-: أن امرأة قالت لرسول الله –صلى الله عليه وسلم-: هل تغتسل المرأة إذا هي احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال: ((نعم)) فقالت لها عائشة: تربت يداك، فقال لها رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((دعيها، وهل يكون الشبه إلا من قِبل ذاك؟)) رواه مسلم[٧].

وله أيضا من حديث أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان قال: كنت قائمًا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك –الحديث بطوله– إلى أن قال: جئت أسألك عن الولد، فقال:

---

١ – الطرق الحكمية (ص: ١٨٤).

٢ – أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٤).

٣ – أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ}** [البقرة: ٩٧]، رقم: (٤٤٨٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١١).

٤ – أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، رقم: (١٣٠)، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٣).

٥ – الطرق الحكمية (ص: ١٨٤).

٦ – أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١١).

٧ – أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٤).

((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله))[٨].."[٩].

يعني: يأتي المولود ذكرًا أو أنثى، ((إذا علا)) يعني: صار هو الأعلى.

قال: "وسمعت شيخنا -رحمه الله-.."[١٠].

أي: شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال: "يقول: في صحة هذا اللفظ نظر.."[١١].

يعني: ((إذا علا ... أذكرا)).

قال: "قلت: لأن المعروف المحفوظ في ذلك إنما هو تأثير سبق الماء في الشبه، وهو الذي ذكره البخاري من حديث أنس: أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فأتاه فسأله أشياء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد))[١٢].."[١٣].

قوله: ((نزع)) يعني: في الشبه.

قال: "فهذا السؤال الذي سأل عنه عبد الله بن سلام، والجواب الذي أجابه به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو نظير السؤال الذي سأل عنه الحبر، والجواب واحد، ولاسيما إن كانت القصة واحدة، والحبر هو: عبد الله بن سلام، فإنه سأله وهو على دين اليهود، فأُنسي اسمه، وثوبان قال: "جاء حبر من اليهود"، وإن كانتا قصتين والسؤال واحد فلابد أن يكون الجواب كذلك، وهذا يدل على أنهم إنما سألوا عن الشبه؛ ولهذا وقع الجواب به، وقامت به الحجة، وزالت به الشبهة.

وأما الإذكار والإيناث فليس بسبب طبيعي، وإنما سببه الفاعل المختار الذي يأمر الملك به، مع تقدير الشقاوة والسعادة والرزق والأجل؛ ولذلك جمع بين هذه الأربع في الحديث: فيقول الملك: يا رب ذكر، يا رب أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك[١٤]، وقد رد سبحانه ذلك إلى محض مشيئته في قوله تعالى: **{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا}** [الشورى:٤٩-٥٠].

---

٨ - أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم: (٣١٥).

٩ - الطرق الحكمية (ص:١٨٤-١٨٥).

١٠ - المصدر السابق (ص:١٨٥).

١١ - المصدر السابق.

١٢ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ}** [البقرة: ٩٧]، رقم: (٤٤٨٠).

١٣ - الطرق الحكمية (ص:١٨٥).

١٤ - أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم: (٢٦٤٥).

والتعليق بالمشيئة -وإن كان لا ينافي ثبوت السبب بذلك- إذا عَلم كون الشيء سببًا دل على سببيته بالعقل وبالنص، وقد قال -صلى الله عليه وسلم- في حديث أم سليم: ((ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر فمِن أيِّهما علا أو سبق يكون الشبه))، فجعل للشبه سببين: علو الماء وسبقه.

وبالجملة: فعامة الأحاديث إنما هي في تأثير سبق الماء وعلوه في الشبه، وإنما جاء تأثير ذلك في الإذكار والإيناث في حديث ثوبان وحده، وهو فرد بإسناده، فيحتمل أنه اشتبه على الراوي فيه الشبه بالإذكار والإيناث، وإن كان قد قاله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو الحق الذي لا شك فيه، ولا ينافي سائر الأحاديث، فإن الشبه من السبق، والإذكار والإيناث من العلو، وبينهما فرق، وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقات بالمشيئة، وحاصلة بالسبب، والله أعلم.."[١٥].

خلاصة هذا الكلام: أن شيخ الإسلام وابن القيم يرون أن المحفوظ هو لفظ: ((إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد))، يعني: صار يشبهه، والعكس بالعكس، يعني: في مسألة الشبه، وأن اللفظ الآخر وهو: ((إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرا)): غير محفوظ، ثم الحافظ ابن القيم بعد ذلك يقول: إن الله -تبارك وتعالى- يبعث الملك فيؤمر بأربع كلمات، منها: هل هو ذكر أو أنثى؟ وقال: **{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}** [الشورى:٤٩]، قال: هذا يرجع إلى مشيئته، وغير معلق على سبب مادي كهذا، يقول: ولو كان ذلك اللفظ محفوظًا فهذا لا ينافي التعليق على المشيئة: **{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}** لكون هذا المعلق على المشيئة قد ربط بسبب، وهذه الأسباب كما هو معلوم لا تخرج عن مشيئته -تبارك وتعالى-، ولكن الله -عز وجل- أجرى هذا الكون على سنن، وكل ذلك يرجع إلى مشيئته، وإرادته -سبحانه وتعالى-.

فكل هذه الأحاديث تدل على أن ذلك يحصل من مجموع الأمرين، سواء كانت مسألة الإذكار والإيناث إن كان ذلك محفوظًا، أو كان مما يتعلق بالشبه، والأكثر على أن قوله: **{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}**: صلب الرجل، وترائب المرأة، والآية تحتمل المعنيين: تحتمل أن يرجع ذلك إلى الرجل جميعًا، فإن الترائب توجد في الرجل، وتوجد في المرأة، لكن إنما اشتهرت الترائب لدى المرأة؛ لكثرة ما يرِد ذلك في كلام العرب شعرًا ونثرًا؛ لأن ذلك موضع الجِيد أو القلادة منها، فيرد في الأشعار، وإلا فالرجل له ترائب أيضاً، وتحتمل الآية أن ذلك يرجع إلى الرجل والمرأة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا، وللحاضرين، وللمسلمين أجمعين.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة، وقد ذكر الله -عز وجل- هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع.

{إِنَّهُ} أي: الله -تبارك وتعالى-، فالله هو الخالق، **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ}** يعني: الذي خلقه، **{عَلَى رَجْعِهِ}** هذا الضمير يرجع إلى الإنسان، أي: على

---

١٥ - الطرق الحكمية (ص:١٨٥-١٨٦).

رجع الإنسان مرة ثانية، فهذا احتجاج على البعث، وقدرة الله -عز وجل- على بعثه، فالذي خلقه من هذه النطفة ثم جعله إنساناً سويًّا قادر على إعادته ثانيًا، {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} يعني: البعث بعد الموت، والفناء، والاضمحلال، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، هو الذي عليه الجمهور من السلف فمن بعدهم، والسياق يدل عليه؛ لأن السياق إنما هو في بيان قدرة الله -عز وجل-، انظر ماذا قال في هذا السياق؟ قال: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} يعني: يوم القيامة، فإن هذا الظرف متعلق بما قبله، فهذا يوم القيامة بلا إشكال، مع أن بعض أهل العلم قال بخلاف ذلك، لكن الجمهور على هذا، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- بهذه القرينة: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، وهو الذي رجحه ابن القيم أيضاً، مع أنه جاء عن مجاهد في قوله: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ} يعني: هذا الماء، على رجع الماء، إلى أين؟، مجاهد يقول: في الإحليل، وهذا وإن كان يحتمله اللفظ -يرد الماء في الإحليل- لكنه بعيد؛ لأن الآية في قدرة الله -عز وجل- على بعث هذا الإنسان، وعلى إحاطته به، وقد رد ابن القيم على هذا القول من أوجه كثيرة، يقول: ولم تجرِ العادة في القرآن على بيان القدرة في مثل هذا، وإنما يُحتج بنشأة الإنسان من نطفة أو بخلقه من تراب على أن الله قادر على إعادته ثانيًا، أي: أن الذي خلق أولاً قادر على الإعادة، ولا يعجزه ذلك، وراجعوا كلام ابن القيم -رحمه الله- في رده على هذا من أوجه متنوعة، ومنها: السياق {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، فهذا يدل على المراد وهو: أن ذلك يوم القيامة، وجاء عن عكرمة والضحاك: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ} أي: الماء، لكن إلى أين؟ إلى الصلب، إلى موضعه: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ} أي: إلى موضعه الذي خرج منه، لكن هذا أيضاً كالذي قبله.

ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية، والمكنون مشهورًا.

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يُرفع لكل غادر لواء عند استه، يقال: هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان))[١٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}: هذا يوم القيامة، تبلى السرائر، والسرائر هي: ما يسر في القلوب من العقائد والنيات والمقاصد والأعمال، كل ذلك يظهر، وكذلك الشرك والرياء والنفاق والتعلق بغير الله -عز وجل-، وما إلى ذلك، كل هذا يظهر، وتبلى السرائر، وبعضهم يقول: الأعمال، ونشر الصحف؛ لأنها سرائر، فتظهر يوم القيامة، وتكون بادية، فيفتضح من يفتضح، مع أنه قد يكون على حال أمام الناس في الدنيا مواتية، ولكن يوم القيامة تظهر المخبآت من أعمال الناس، وما كانوا يخفونه، فهذا القول أعم من الذي قبله، فقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} على الأول: أنه تظهر مخبآت النفوس، ومكنونات القلوب، والثاني: أن الجميع يظهر يوم القيامة، فلا يخفى من ذلك شيء، كل شيء يكون باديًا ظاهرًا، فيفتضح هذا الإنسان الغادر مثلاً، يجعل له هذا اللواء تشهيرًا، وتشنيعًا عليه، وفضيحة؛ ولهذا يقول ابن كثير هنا: "**تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية، والمكنون مشهوراً**"، وظاهر كلام ابن كثير مع الحديث الذي ذكره: أن السرائر هي كل

---

١٦ - أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم: (٣١٨٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم: (١٧٣٥).

المكنونات، والأعمال، والمخبآت، والتي قد تخفى على الناس، سواء كانت مما يكنه في نفسه وصدره، أو كانت من مزاولاته وأعماله.

وقوله: {فَمَا لَهُ} أي: الإنسان يوم القيامة، {مِنْ قُوَّةٍ} أي: في نفسه، {وَلا نَاصِرٍ} أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

وهو كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} [البقرة:٤٨]، أي: لا يستطيع أحد أن يقدم لأحد نافعة، {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة:٤٨]، أي: لا يوجد وساطات، يأتي أحد فيتكلم في حقه ويشفع له، {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}، لا يقبل الفداء، لا بمال، ولا بذوات، يقول: أنا أدخل مكانه، {وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}، لا أحد يستطيع أن يخلصه بالقوة، فكل هذه الطرق التي يحصل بها الخلاص، أو يُرجى فيها الخلاص قد قُطع الطريق دونها، وأغلق الباب، فلا أحد يستطيع أن ينفع أحداً، ولا يستطيع أن يقدم في ذلك فدية، ولا يستطيع أن يشفع فيه، ولا أن يخلصه بالقوة، إنما يكون مأسورًا بعمله، فيطلقه عمله، أو يعتقه، بخلاف الدنيا فالناس تحصل منهم مثل هذه الأمور، أن يتخلص الإنسان من بعض ما ينزل به بهذا أو ذاك، أما في الآخرة فليس الأمر على هذا.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق:١١-١٧].

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: قال ابن عباس: الرجع: المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وعنه: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} تمطر ثم تمطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم.

ابن القيم -رحمه الله- له كلام على قوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، يقول -رحمه الله تعالى-: "ونبه على هذا بقوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} أي: تُختبر، وقال مقاتل: تظهر، وتبدو، وبلوت الشيء: إذا اختبرته؛ ليظهر لك باطنه، وما خفي منه، والسرائر: جمع سريرة، وهي: سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له.

وقال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: يبدي الله يوم القيامة كل سر، فيكون زيناً في الوجوه، وشيناً فيها، والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو: أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا..."[١٧].

هو تكلم عن السرائر بأنها مخبآت النفوس، ثم وسع المعنى، قال: "وفي التعبير عن الأعمال بالسرائر"، يعني: ليست فقط هي مخبآت النفوس ومكنوناتها مما لا يطلع عليه، وإنما أيضاً الأعمال، فقوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} أي: تبلى مخبآت النفوس، وأعمال الناس، فالتعبير عن الأعمال بالسرائر يقول: لأنها ناتجة عنها.

---

١٧ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٠٥).

يقول: "فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها، قال الشاعر:

فإنّ لها في مضمرِ القلبِ والحشا *** سريرةَ حبٍّ يوم تُبلى السرائرُ "[١٨].

لا شك أن السر خلاف العلانية، وأن ذلك ما يخفى على الناس، وإنما يكون هذا أول ما يكون في المقاصد، والنيات، وما يضمره الإنسان من نفاق وإيمان، وما إلى ذلك، هذه كلها مما لا يطلع عليه الناس، ولكن تبدو لهم العلانية في الآخرة، ويظهر كل شيء، ويبدو، ولا يخفى، وتبتلى سرائر الناس، فيظهر ما كان خافيًا، ويلقى العبد جزاءه على ما كان عليه من حقيقة ينطوي عليها قلبه في الدنيا، وهذا يدعو إلى تصحيح النيات، وتصحيح المقاصد، فلربما إذا عمل الإنسان عملاً يفني فيه عمره ونيته فيه مدخولة، فيكون ذلك نقصًا، وشيناً، ويورثه ذلك أيضاً حسرة، وعذابًا؛ لأن الإنسان يحاسب ويعذب على هذه الأعمال، والمقاصد الفاسدة، كالرياء والسمعة، فهي من الشرك، فيحاسب عليها، ولا يخرج الإنسان كفافًا لا له ولا عليه، فينقضي عمر الإنسان، وتذهب جهوده وأعماله وسعيه وتعبه من جراء ما يتحدث عنه، ويبديه بطريقة أو بأخرى للناس، كصيام أو قيام أو اعتكاف أو قراءة أو طلب علم أو جهاد أو غير ذلك، فيكون ذلك نقصًا في حقه، فلا يكون كمالاً، ولا يكون كفافًا لا له ولا عليه، فمثل هذه الآيات تدعو إلى المحاسبة الشديدة للنفس؛ لئلا تضيع الأعمال، ثم تتقلب إلى حسرات وجرائم يحاسب عليها العبد، وهي في لبوس طاعات في الدنيا، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}**، يقسم بالسماء الموصوفة بهذه الصفة.

يقول ابن كثير هنا: "قال ابن عباس: الرجع: المطر"، وهذا قال به كثيرون من أهل اللغة، وأصحاب المعاني، والمفسرين كالزجاج، وقال به الخليل بن أحمد أيضاً، وعزاه الواحدي إلى المفسرين جميعًا، مع أن هذا ليس محل اتفاق بين المفسرين، لكن قال به كثيرون، وهذا قول الجمهور، **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}** يعني: المطر، لماذا قيل له: الرجع؟ بعض العلماء يقولون: لأنه يرجع ثانية، يعني: يقولون: لكون المطر في أصله -وهو السحاب- يتبخر من البحار، ثم يرجع إلى الأرض ثانية، هذا ليس من الاكتشافات الجديدة التي عرفها الناس اليوم، هذا يعرفونه في الجاهلية، كما يقول أبو ذؤيب الهذلي:

شربنَ بماءِ البحر ثم ترفَّعتْ *** متى لُجَجٍ خُضرٍ لهنّ نئيجُ

وهي: السحب الثقيلة المليئة بالماء، من أين شربن؟ شربن بماء البحر، هذا شاعر جاهلي.

فإذاً: المطر يسمى: رجعًا باعتبار أنه يرجع ثانية بعد أن كان مصدره من هذه الأبخرة بإذن الله -عز وجل-، أو أنه يرجع مرة بعد مرة، يعني: المطر يتكرر، وهذا هو الأشهر من أقوال أهل العلم، فقيل له: رجع من الرجوع، فهو ينزل مرة بعد مرة، ويتكرر نزوله.

---

١٨ - المصدر السابق (ص: ١٠٥ - ١٠٦).

وقال ابن كثير أيضا: **وعنه: هو السحاب فيه المطر**، وهذا ليس ببعيد، يعني: هذا قريب من الذي قبله، بأي اعتبار؟ باعتبار ما سبق: أنه يتكون من الأبخرة الصاعدة من البحر، ثم يرجع، أي: السحاب يتكون من البخار، ثم بعد ذلك ينزل المطر.

وقال: "وعنه: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}**: تمطر ثم تمطر"، يعني: هذا تفسير للتسمية، وهكذا علل بذلك بعض أصحاب معاني القرآن، مثل الزجاج: أن ذلك لتكرار المطر، ولرجوعه ثانية، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- قريبة من هذا، باعتبار أن السماء ترجع بالغيوم، وأرزاق العباد كل عام، يعني: هذا بمعنى قول من قال: إن المطر يرجع مرة بعد مرة، وابن جرير يقول: هذا وصف للسماء: أنها ذات الرجع، أي: ترجع بالغيوم، وترجع بأرزاق العباد كل عام، ويلاحظ أن قول ابن جرير يشبه قول قتادة، وابن القيم -رحمه الله- له تعليق على هذا المعنى.

يقول -رحمه الله تعالى-: "والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل..."[١٩].

يقصد بالتمثيل: أنه حينما يقال: المطر مثلاً، والآخر يقول: السحاب.

يقول: "ورجْع السماء هو: إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، على مرور الأزمان، ترجعه رجعاً أي: تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجيء، ولمّا كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فُسر الرجع به، وحسن تفسيره به، ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات؛ لأنه يصدع الأرض أي: يشقها، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكلٌّ من ذلك آية من آيات الله -تعالى- الدالة على ربوبيته"[٢٠].

يعني: ابن القيم -رحمه الله- عمم المعنى في قوله: **{ذَاتِ الرَّجْعِ}**، فإن ما ينزل على العباد من الخيرات والبركات إنما هو من قِبل ما ينزله الله -عز وجل- من السماء، ومن ذلك المطر، فيرى ابن القيم أن هذا من قبيل التفسير بالمثال، وأنه أحد الصور الداخلة تحت هذا المعنى الكبير.

{وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات، وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد.

أيضاً هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، فهو: ما تتصدع عنه الأرض من الأشجار والنباتات والثمار، وهذا مقابل للرجع، فإذا نزل المطر انشقت الأرض بالنبات، وأصل الصدع هو: الشق؛ لأن الأرض تنشق عن مسمار النبات، فقيل لها ذلك، وبعضهم كمجاهد يقول: **{ذَاتِ الصَّدْعِ}**: ذات الطرق التي تشقها وتصدعها المياه، وبعضهم يقول: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم عند البعث، والمشهور هو الأول.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "قال ابن عباس: انصداعها عن النبات"، وقد يعبر بذلك عن النبات نفسه، كأنه يقول: والأرض ذات النبات، أو عن الشق الذي يكون نتيجة لخروج النبات، وبينهما ملازمة، أي: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات.

---

١٩ - المصدر السابق (ص:١٠٦).

٢٠ - المصدر السابق (ص:١٠٦-١٠٧).

هذا قسم أقسم الله -عز وجل- به، بالسماء ذات الرجع، وبالأرض ذات الصدع، وعلى ماذا أقسم؟ على: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} هذا هو جواب القسم.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} قال ابن عباس: حق، وكذا قال قتادة، وقال آخر: حكم عدل.

{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} أي: بل هو جد حق.

قوله: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} أي: حق، وهكذا أيضاً: عدل، فهو يفصل بين الحق والباطل، وحق ثابت في نفسه، كل هذا من معناه، والله أعلم.

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن.

قوله: **يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن** هذا معنى عام، أي: يكيدون لإبطال القرآن، ولتكذيبه، ولصد الناس عنه، يكيدون للإسلام، يكيدون للمسلمين، فهم يفعلون كل ما من شأنه إضعاف هذا الدين، وإضعاف أهله، فيمكرون بكل مستطاع.

قوله: {يَكِيدُونَ كَيْدًا} الكيد: يكون بكل ما يكون من المزاولات والأفعال التي يتوصل بها إلى إلحاق الأذى والضرر بطرق مختلفة متنوعة قد تخفى، قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}، فهؤلاء يمكرون، ويكيدون، ويخططون، ويتآمرون، ويفعلون كل ما استطاعوا من أجل القضاء على هذا الدين، أو من أجل إضعافه، أو من أجل الكيد بأتباعه، ويقابل هذا الكيد ليس كيد أهل الإيمان، ما قال: إنهم يكيدون كيدًا وتكيدون كيدًا، إنما قال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}، فالذي يقابل كيد هؤلاء الكُبَّار كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم:٤٦]، فهو مكر كبير، وقال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} [نوح:٢٢]، فهذا المكر نُكّر هنا، فهو مكر عظيم، ومكر الله -عز وجل- أعظم، وأفعل التفضيل ليس على بابه، فالمقصود: أن الذي يقابل مكر هؤلاء هو: مكر الله -تبارك وتعالى-، وليس مكر أهل الإيمان، والذي يقابل كيدهم هو: كيد الله، فهل يعلم الكائدون لهذا الدين ولأهله أنهم إنما يقابلون ويواجهون كيد الله ومكره؟ وهل يطيقون هذا؟ لو حبس عنهم النفس فقط لصاروا كذر ألقيته على صاج محماة بلحظة، فهذا الذي يكيد لدين الله -عز وجل- ولأوليائه إنما يضر نفسه، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:١٢٣]، فمكرهم في الواقع إنما هو بأنفسهم، والله -عز وجل- كما قال: {يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:٣٨]، فمن كان يدافع عنه ربه -تبارك وتعالى- فكيف يضره كيد العبيد؟ وأما حقيقة هذا الكيد وأثره فلا شيء، كما قال الله -عز وجل-: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [التوبة:٣٢]، فنور الله لا يمكن لمخلوق أن يطفئه، وبماذا؟ بفيه، وماذا عسى أن يفعل فوه؟ وما أثره حتى يطفئ نور الله؟ فلو أن هذه الأفواه للخلائق من أولهم إلى آخرهم وقفوا في صعيد واحد ينفخون على مخلوق وهو الشمس لمَا تحرك لها وهج، فضلاً عن أن تنطفئ، ما تحرك وهج، لو جلسوا ينفخون من أولهم إلى آخرهم حتى تنقطع أنفاسهم ما يتحرك لها وهج فقط حركة، ولا يتأثر، ولا يصل إليها، ولا إلى قريب منها، وهذا مخلوق، فكيف بنور الله -تبارك وتعالى-؟!، قال الله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

{الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣]، فهذا حُكمٌ حَكَم الله به لابدّ أن يتحقق، لكن المسكين كل المسكين هو من كان في الجهة المقابلة، من جند إبليس وحزبه، فهذا يجني على نفسه، ويسعى في هلكته، والله المستعان.

ثم قال تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ} أي: أنظرهم، ولا تستعجل لهم.

{أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} أي: قليلا، أي: وسترى ماذا أُحِل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان:٢٤].

آخر تفسير سورة الطارق، ولله الحمد والمنة.

قوله: {أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} أي: أمهلهم قليلاً، يكفي هذا القدر، ومن أراد أن ينظر فيما يحتمله هذا اللفظ من وجوه الإعراب فيمكن أن يرجع إلى كلام ابن القيم –رحمه الله–، أو إلى غيره.

والكيد صفة ثابتة لله –عز وجل–، ولا يشترط فيها ما يقوله بعض أهل العلم: إن ذلك لا يكون إلا بمقابل، يعني: مقابل كيد الكائدين أو الكافرين، بعض العلماء يقولون: الكيد لا يكون إلا مقابل كيد، يعني: يكيدون وأكيد، وهذا ليس بلازم، يعني هنا قال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا}، فقابل كيدهم بكيده فقال: {وَأَكِيدُ كَيْدًا}، ولكن هذا ليس بشرط، قال الله –عز وجل–: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم:٤٥]، فما ذكر كيدهم، فتجدون بعض أهل العلم من أهل السنة إذا تكلموا عن مثل هذه الصفة قالوا: هذا لا يكون إلا بمقابل، وهذا ليس بلازم، فالكيد صفة ثابتة تكون كمالاً حيث كان هذا الكيد محمودًا، وهذا هو الذي يثبت لله –عز وجل– منها، فالكيد صفة لا تكون من صفات المدح والكمال بإطلاق، وإنما قد تكون صفة كمال، وقد تكون صفة نقص، فيرجع إلى الله –عز وجل– منها ما كان كمالاً، يعني: الكيد بمن يستحق ذلك، فبعض أهل العلم كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– يقول: لو أن مفسدًا يتعدى على دماء الناس، وعلى أموالهم، وعلى أعراضهم، ولا يسلم منه أحد، وتأذى الناس منه غاية الأذية، فجاء من توصل بطرق خفية حتى أوقعه في مغبة فعله، فإن هذا يكون محمودًا، فهذا الكيد الذي يكون محمودًا.

وانظر إلى قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم:٤٥]، فهذا يوضح لك المراد بالكيد، يعني: هذا الكيد يكون بأمور منها: الإملاء لهؤلاء، يعني: يعطيهم المال، ويعطيهم الصحة، ويطيل في أعمارهم؛ ليزدادوا إثمًا، فيأتي الواحد منهم إلى الله –تبارك وتعالى– وقد حمل الأحمال التي تكون زادًا له إلى النار، فهو حينما يرى العطاء متتابعًا، والعمر مديدًا يغتر بذلك، ويمعن في غيه، وما علم أنه بهذا مثل القط الذي يلحس مِسن الجزار، فهو يجد فيه بعض بغيته من بقايا اللحم، وبقايا الدم، ثم ما يلبث أن يتشقق لسانه فينزف على هذا المسن ويلعقه حتى يهلك، وهو يظن أن هذه هي البقايا التي كانت في المسن، فحال هؤلاء كهذا تمامًا، ويكون هذا العطاء مثل الطعم لهم، فيمعنوا ويرتعوا فيه المرعى الوخيم، حيث يستهويهم، ويستلذونه، وما علموا أنه السم الفتاك، وهذا مثل الذي يقدِّم لشيء من المؤذيات طعامًا فيه السم مما تحبه هذه الهوام، أو الدواب، فتقبل عليه بشراهة، وهو حتفها، فهؤلاء كهذه الهوام، فهذا العطاء الذي يكون لهذه النفوس العليلة التي تريد أن تطفئ نور الله –تبارك وتعالى– هو مجرد كيد وإملاء لهم، قال الله –عز وجل–: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آل عمران:١٧٨]، قوله: {لِيَزْدَادُوا} اللام للتعليل، وقد يستغرب الإنسان ويقول: هؤلاء يفعلون هذه الأفاعيل، ومع ذلك هم في عافية، أقول: هي عافية مؤقتة

يعقبها ليل طويل بلا انقضاء، وحسرات ما تنتهي، فهذا هو الطعم الذي يلعقونه الآن، وهذا الطعم قد تكون مدته عشر سنوات، عشرين سنة، فهذه المدة -أي: مدة اللعق- بالنسبة إلى مدة الحياة المديدة الطويلة من أول ما خلق الله الدنيا إلى ما لا نهاية في الجنة أو النار، مدة اللعق هذه ولا شيء، فيقومون يوم القيامة ويُقسمون: **{يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** [الروم:٥٥]، فهذه المتع والعطاء لمثل هؤلاء هو إملاء وكيد لهم.

وأما ما يقوله بعضهم من أن ذلك من قبيل المشاكلة في اللفظ، فالواقع أن هذا غير صحيح، وأن المشاكلة نوع من أنواع المجاز، يعني يقول: عبّر بالكيد مشاكلة للعبارة الأخرى، وهي: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا}** [الطارق:١٥]، فأضاف الكيد إليهم، فسمى ما أضاف إلى نفسه كيدًا، من باب المشاكلة اللفظية فقط، وهذا غير صحيح؛ لأن المشاكلة نوع من المجاز، يعني: أنه لا حقيقة لهذه الصفة بالنسبة لله -عز وجل-، والله لا يوصف بهذا، وإنما هي فقط تعبير لفظي لمشاكلة اللفظ الذي قبله، مثلما قال الشاعر:

قالوا اقترحْ شيئًا نُجدْ لك طبخَه *** قلتُ اطبخوا لي جُبّةً وقميصًا.

فالجبة والقميص لا يطبخان، لكن هم لمّا سألوه عن طعام يصنعونه له، وقالوا: اقترح شيئًا نجد لك طبخه، وهو بحاجة إلى لباس، ولم يكن بحاجة إلى طعام، قال: قلت: اطبخوا لي جبة وقميصًا، فهذه مشاكلة، فهذه الصفات التي يذكرها الله -عز وجل- ليست كذلك، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعلى من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}** [سورة الطارق:٦-٨] يعني على رجعه ثانية بعد الموت والفناء، وليس كما قيل: على رجعه إلى الصلب أو نحو ذلك، بقرينة قوله: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}** [سورة الطارق:٩] وذلك يوم القيامة تَخرج مخبّآتُ النفوس وتظهر، وتبلى وتختبر كما قال الله -عز وجل-: **{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ}** [سورة يونس:٣٠]، فهنا تظهر الأعمال، ويعرف الإنسان ما هو عليه من حق وباطل، ومقاصد صحيحة ومقاصد فاسدة، قال: **{فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}** [سورة الطارق:١٠] يعني في ذلك اليوم لا يجد من يخلصه، وليس به قوة لدفع ما نزل به.

وقوله: **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ}** [سورة الطارق:١١] هو المطر، أو ما هو أعم من ذلك مما يكون من قبل السماء بأمر الله -تبارك وتعالى-، وقيل له: الرجع؛ لتكرره مرة بعد مرة.

وقوله: **{وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}** [سورة الطارق:١٢] حيث تنشق بالنبات، **{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}** [سورة الطارق:١٣] هذا القرآن حق لا مرية فيه، وهو يفصل بين الحق والباطل والهدى والضلال، **{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}** [سورة الطارق:١٤] بل هو جد، **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا}** [سورة الطارق:١٥] لإبطاله، لإبطال دين الله -عز وجل-، **{وَأَكِيدُ كَيْدًا}** [سورة الطارق:١٦] والله -تبارك وتعالى- يمهلهم ويستدرجهم؛ ليقعوا في مغبة كيدهم وسوء فعالهم، **{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}** [سورة الطارق:١٧] فالله -تبارك وتعالى- يتوعدهم بهذا أنه سيؤخذهم ويعذبهم ويعاقبهم على كيدهم وكفرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين.

قال المصنف -رحمه الله-: تفسير سورة الأعلى، هي مكية، نزلت قبل الهجرة، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: "أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَجَعَلَا يُقْرِئَانِنَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ

حَتَّى رَأَيْتُ الْوَلَائِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ، فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأْتُ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا"(١).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ لِمُعَاذٍ: ((هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، {والشَّمْسِ وَضُحاها}، {واللَّيْلِ إذا يَغْشى}))(٢)، وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَرَأَ فِي الْعِيدَيْنِ بِـ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، {وهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ} [سورة الغاشية:١] وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرَأَهُمَا جَمِيعًا(٣).

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ ورواه ابْنُ مَاجَهْ، ولفظ مسلم وأهل السنن: "كان يقرأ في العيدين وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ بِـ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، {وهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ}، وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَقَرَأَهُمَا"(٤).

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عباس وعبد الرّحمن ابن أَبْزَى وَعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– كَانَ يَقْرَأُ فِي الوتر بِـ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، {وقُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ} [سورة الكافرون:١]، {وقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص:١](٥)، زَادَتْ عَائِشَةُ: وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ.

هذه السورة "سورة سبح" هكذا يقال اختصارًا، ويقال: سبح اسم ربك الأعلى، وتسمى أيضًا بسورة الأعلى كما هو مشهور في كتب التفسير، هذه السورة من السور المكية كما قال ابن كثير –رحمه الله–، واستدل عليه بحديث البراء، يعني أن أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– الذين هاجروا قبله يُقرئون الناس كمصعب بن عمير –رضي الله عنه– أقرءوهم فيما أقرءوهم هذه السورة قبل مهاجر النبي –صلى الله عليه وسلم–، فهي من أوائل السور النازلة في مكة، بل جاء في بعض الروايات في ترتيب النزول، والروايات في ترتيب النزول التي فيها سرد سور القرآن بحسب نزولها لا يصح منها شيء، جاء أنها الثامنة في الترتيب في النزول، ويكفي أن نعرف أنها من السور المكية خلافًا لما قاله الضحاك من أنها نازلة في المدينة، وجاء عن بعض السلف أن السورة مكية، واستثنوا من ذلك قوله –تبارك وتعالى–: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ

---

١ – رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} [الانشقاق:١٩]، برقم (٤٩٤١).

٢ – رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، برقم (٧٠٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، برقم (٤٦٥).

٣ – رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٣٨٣)، وقال محققوه: "حديث صحيح".

٤ – رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، برقم (٨٧٨)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقرأ به في الجمعة، برقم (١١٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٤٠٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير حبيب بن سالم، فمن رجال مسلم، عفان: هو ابن مسلم الصفار، وأبو عوانة: هو الوضاح بن عبد الله اليشكري"، وقال الشيخ الألباني: "إسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه في "صحيحه"، في صحيح أبي داود برقم (١٠٢٧).

٥ – رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧٢٥)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وبرقم (٢٧٧٦)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وبرقم (١٥٣٥٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى:١٤-١٥] باعتبار المعنى، يعني هم حملوا هذا {تَزَكَّى} على زكاة الفطر، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ} على تكبير العيد، عيد الفطر {فَصَلَّى} يعني صلاة العيد، ومكة لم يكن فيها صلاة عيد، ولا زكاة فطر.

إذًا قالوا: هذا في المدينة، هاتان الآيتان نازلتان في المدينة، وهذا فيه نظر؛ لأن الآية قد تنزل قبل تقرير حكمها -يعني مقتضاها- أيًّا كان، سواء كان أمرًا أو نهيًا، حلالا أو حرامًا، أو كان قضية تحدثت عنها حصلت في المدينة، قد تنزل قبل تقرير الحكم، وهذا له أمثلة، هذا لو فرضنا أن المعنى كما قيل.

الأمر الثاني: وهو أن هذه الزكاة المذكورة في الآية: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} ليس المقصود بها زكاة الفطر أصلاً، ولا الصلاة صلاة العيد، وإنما المقصود من زكى نفسه بالإيمان وطاعة الله -عز وجل-، وجانبَ مساخطه من الكفر والشرك والنفاق والمعاصي، والذكر يشمل ذكر القلب واللسان والجوارح، وليست تكبيرات العيد، وليست الصلاة بصلاة العيد، ومن ثم يقال: هذه السورة هي سورة مكية، وهذا الذي عليه الجمهور من أهل العلم، هذه الروايات التي جاء فيها أن العيد إن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعًا المقصود أنه يقرأ في صلاة العيد بهاتين السورتين، ويقرأ بصلاة الجمعة بهاتين السورتين، هذا هو المراد.

موضوع السورة: هذه السورة افتتحت بالأمر بتنزيه الله -تبارك وتعالى- ذي القدرة الباهرة والصفات الكاملة، وبعد ذلك فيها وعد من الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يقرئه ولا ينسى ما أقرأه، ثم بعدها أمره بالتذكير، وذكَرَ الوعد والوعيد لمن استجاب ولمن امتنع، ثم بعد ذلك ذكر في آخرها أن هذا في صحف إبراهيم وموسى بعدما قرر محبة الناس، وإيثار الناس للحياة الدنيا مع أن الآخرة خير وأبقى، هذا مجمل ما تدور عليه آيات السورة، ولو أردنا أن نصوغ ذلك بموضوع واحد فيمكن أن يقال: هذه السورة تنزيه لله -تبارك وتعالى- الذي أعطى هذا العطاء لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بالوحي، وهذه العِدة بأن لا ينسى، وهذا الوحي أو هذه الرسالة أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يبلغها فوعد الله من استجاب وأوعد من لم يستجب، وذكر علة ترك الاستجابة، هذه يمكن أن تكون خلاصة ما تدور عليه السورة، والله أعلم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [سورة الأعلى:١-١٣].

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ إِذَا قَرَأَ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قَالَ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى))[٦]، وروى ابْنُ جَرِيرٍ عن أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّ ابْنَ

---

٦ - رواه أبو داود، باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب الدعاء في الصلاة، برقم (٨٨٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٦٦)، وقال الألباني: "حديث صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي"، في صحيح أبي داود، برقم (٨٢٦).

عَبَّاسٍ كَانَ إِذَا قَرَأَ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، وَإِذَا قرأ: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ} [سورة القيامة:١] فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا: {أَلَيْسَ ذلكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى} [سورة القيامة:٤٠] يَقُولُ: سُبْحَانَكَ وَبَلَى[٧]، وقَالَ قَتَادَةُ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى))[٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} يعني نزّهه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، هذا هو المشهور في معنى التسبيح، وهو الغالب في الاستعمال، ولكن ورد في عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- تفسير التسبيح بالتعظيم كما جاء ذلك عن السدي مثلاً، سبح بمعنى عظم.

فالتسبيح يأتي بمعنى التنزيه، التقديس، التعظيم وما شابه ذلك، هنا {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} هذا في مقام ذكر الكمالات، يعني لا يوجد هنا تنزيه عن نقيصة ذُكرت، يعني في قوله مثلاً: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا} [سورة البقرة:١١٦] ماذا قال؟، قال: "سبحانه" فهذا في مقابل ذكر نقيصة، فالتسبيح الوارد في القرآن تارة يكون في سياق ذكر صفات الكمال، وتارة يكون لدفع النقائص، ومن هنا نعلم أن قول القائل حينما تذكر صفات الكمال ويثنى على الله بما هو أهله في دعاء القنوت، فيقول القائل: سبحانك، أن هذا لا إشكال فيه، فهذه صفات كمال متتابعة، والله يفتتح ذلك بالتسبيح، وكما في قوله -تبارك وتعالى- في مقام الإسراء والمعراج: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [سورة الإسراء:١] فهذا مقام ثناء على الله -عز وجل- وتعظيم، وليس ثمّة ما ينزه ربنا -تبارك وتعالى- عنه، وهكذا في أوائل المسبحات، إلى غير هذا، وقد تكلمت على هذا المعنى في السنة الماضية في الكلام على آيات الصيام.

ولا بأس أن يقول الإنسان: سبحانك إذا سمع أوصاف الكمال أو الثناء على الله -عز وجل-، الأمر في ذلك يسير، ومن سكت فلا إشكال، الأمر فيه سعة.

قوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} هل المقصود تسبيح الاسم -تنزيه الاسم، تعظيم الاسم- أو المسمى؟، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ} أو سبح ربك، الأمر هنا بتنزيه الاسم أو تنزيه المسمى وهو الرب -تبارك وتعالى؟.

بعضهم يقول: الاسم هنا مقحم؛ لقصد التعظيم، يعني أن التسبيح متوجه إلى الرب -جل جلاله-، فيكون المقصود به تسبيح الله -عز وجل-، يعني سبح ربك الأعلى، وكما يقول بعض أهل العلم كشيخ الإسلام -رحمه الله-، وغيره من أن المراد سبح ربك ذاكرًا اسمه، وأن المقصود ليس التنزيه في القلب، وإنما المقصود أن يجري ذلك على اللسان ذاكرًا اسمه، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: إن المراد تنزيه الاسم، نزه اسم ربك تعالى أن يُسمَّى به أحد سواه، يعني أن يسمى به معبود من هذه المعبودات

---

٧ - انظر: تفسير الطبري (٥٢٨/٢٣).

٨ - انظر: تفسير الطبري (٣١٠/٢٤)، ورواه أبو داود، باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب الدعاء في الصلاة، برقم (٨٨٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٦٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٨٢٦)، وفي صحيح الجامع، برقم (٤٧٦٦).

الباطلة، أو أن يُسمَّى بشيء من الأسماء المختصة بالله أحدٌ من خلقه، الأسماء المختصة بالله مثل "الله" لا يسمى به المخلوق، "الرحمن"، "الحكم" إذا لوحظت فيه الصفة، الأسماء الأخرى لو سمي أحد بالعزيز أو نحو ذلك لا بأس، لكن أن يُسمَّى بذلك شيء من المعبودات الباطلة فهذا من الكفر، ومن العظائم والمنكرات الشنيعة، كما يقال: إن اللات اشتقت من الله، وإن العزى من العزيز، هكذا يقول بعضهم، وهذا ليس محل اتفاق في الاشتقاق -أصل التسمية-، وقيل غير هذا، فابن جرير -رحمه الله- على قوله هذا لا يكون ذكر الاسم مقحمًا، بل هو مقصود أن ينزه الاسم فلا يُسمَّى به أحد سواه، وهذا من الأسماء كما ذكرت، وبعضهم يقول: نزه تسميه ربك، "سبح اسم ربك": نزه تسميته، وذكره من أن تذكره إلا وأنت معظم له، خاشع، تقدسه وتحترمه، هذا الاسم، وابن القيم -رحمه الله- له تعليق على هذا مفيد قال -رحمه الله-: "بل الجواب الصحيح أن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيها على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبَّح دون ما يدل عليه من المعنى، وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية -قدس الله روحه- عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال: "المعنى سبح ناطقًا باسم ربك متكلمًا به"، سبح ربك ذاكرًا اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته"[٩].

يعني حاصل كلام شيخ الإسلام وابن القيم التوسط بين القولين: من قال: إن الاسم مقحم، والمقصود سبح ربك، وقول من قال: المقصود الاسم نزه اسم ربك من أن يسمى به غيره، فهذا القول وسط أي يكون المقصود بالتسبيح هو الرب -تبارك وتعالى- على قول شيخ الإسلام وابن القيم، ولكن ذكْر الاسم هنا مقصود بأي اعتبار؟، سبح ربك ذاكرًا اسمه؛ ليكون ذلك مما يجري على اللسان، فلا يكون ذكر ذلك كما يقال: إنها مقحمة هكذا والمقصود للتعظيم مثلاً، يعني هم حينما يقولون: مقحمة، أو يقولون: زائدة هم لا ينكرون أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، لكن يقولون: هذا لزيادة التعظيم، لكن شيخ الإسلام وابن القيم يقولون: لا، من أجل أن يذكر اسمه، سبحه ليس بقلبك بل ذاكرًا اسمه.

وقال -رحمه الله-: "فإن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** [سورة الواقعة:٧٤] ولم تدخل في قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**؟.

قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر، ويراد به مع ذلك الصلاة، وهو ذكر وتنزيه مع عمل"[١٠].

---

٩ - بدائع الفوائد (١/١٩).

١٠ - المصدر السابق (١/٢٠).

نفس الصلاة يقال لها: تسبيح، وفي بعض المواضع في كتاب الله -تبارك وتعالى- فسر ذلك بالصلاة، بل فسر بأوقات الصلوات، ولذلك أيضًا يقال: سُبْحة الضحى، وقول ابن عمر -رضي الله عنهما- في صلاة السنة الراتبة في السفر: "لو كنت مسبِّحًا لأتممت"[11]، فالصلاة يقال لها ذلك.

وقال -رحمه الله-: "ولهذا تسمى الصلاة تسبيحًا، فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله، وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيها على ذلك المراد كأنك قلت: سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقًا باسم ربك، كما تقول: صلِّ مفتتحاً أو ناطقا باسمه؛ ولهذا السر -والله أعلم- دخلت اللام في قوله تعالى: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [سورة الحديد:١]، والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة، ولم يقل في موضع سبَّحَ اللهَ ما في السموات والأرض، كما قال: **{وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [سورة الرعد:١٥]، وتأمل قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}** [سورة الأعراف:٢٠٦] فكيف قال: ويسبحونه لمّا ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه"[12].

يعني يقصد أنه إذا عُدي بنفسه يكون المقصود به الذكر باللسان، التسبيح باللسان، وإذا عدي بالحرف بالباء مثلاً أو باللام فالمقصود به ما يكون في الصلاة.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** هنا الروايات التي ذكرها من أنه كان إذا قرأ: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: ((سبحان ربي الأعلى))، "كان إذا قرأ" هذا ظاهره العموم، بمعنى أن ذلك يكون في الصلاة وفي خارج الصلاة ولا فرق، فإذا قرأ الإنسان هذا الموضع فإنه يقول ذلك ولو كان في الفريضة، وإذا قرأ خارج الصلاة فإنه يقول ذلك أيضًا، وهذه اللفظة تدل على هذا "كان إذا قرأ"، فيدل على أن ذلك يتكرر بتكرر القراءة، و"كان" تدل على الدوام والاستمرار، وهنا في الرواية الأخرى يقول: إذا قرأ: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: ((سبحان ربي الأعلى))، وإذا قرأ: لا أقسم بيوم القيامة، **{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}** [سورة القيامة:٤٠] قال: سبحانك فبلى، هذا هو الثابت أن يقول مثل هذا، أما المواضع الأخرى فلا تصح مثل "أليس الله بأحكم الحاكمين" يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، هذا لا يصح، لكن ثبت من قول الجن لما قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- عليهم سورة الرحمن فكان إذا قرأ: **{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** [سورة الرحمن] يقولون: ما من شيء بآلائك ربنا نكذب فلك الحمد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أصحابه بأن الجن كانوا أحسن مردودًا منهم لما قرأها عليهم؛ لأنهم سكتوا، ومن هنا يؤخذ منه أنه إذا قرأ: **{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** أنه يقول مثل هذا، أو إذا قُرئت عليه أنه يقول ذلك، لكن كانت هذه القراءة خارج الصلاة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذا لأصحابه لما سكتوا فما أجابوا بجواب الجن.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** الأعلى هل هذه صفة للاسم أو للرب؟.

---

١١ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٩).

١٢ - بدائع الفوائد (١/٢٠).

الأرجح أنها صفة للرب –تبارك وتعالى- لاسيما على ما سبق من التفسير من أن المقصود تسبيح الرب –تبارك وتعالى-، ويدل على هذا المعنى –أن المقصود تسبيح الرب- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- كان إذا قرأ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قال: ((سبحان ربي الأعلى)) فهذا تفسير للمراد بقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} فكان يقول: ((سبحان ربي الأعلى))، إذًا "سبح اسم ربك" يعني سبح ربك، وذكر الاسم يمكن أن يكون كما قال شيخ الإسلام وابن القيم: ذاكرًا اسمه، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول: ((سبحان ربي الأعلى))، وعلى هذا يكون الأعلى من صفة الرب –تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الاسم، يعني من فسر قوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ} نزه اسمه وأن الاسم هو المقصود قالوا: إن هذه الصفة –الأعلى- تعود إليه.

وَقَوْلُهُ تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} أَيْ: خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وَسَوَّى كل مخلوق في أحسن الهيئات.

{خَلَقَ فَسَوَّى} خلق هذه المخلوقات، خلق الإنسان مستويًا، عدّل قامته كما يقول الزجاج، وهذا من التفسير بالمثال؛ لأن الله أطلق في الخلق، ما خص نوعًا كالإنسان، وإنما خلق كل ما خلق فسوى خلقه، ولهذا قال الضحاك: فسوى خلقه سوى هذا الخلق فجعله باعتدال، وفي حال صالحة لمثل هذا المخلوق، فخلق الحيوان على ما يليق به، وخلق الإنسان على ما يليق به، وسوى خلقه وأبعاضه، وأعضاءه ظاهرًا وباطنًا، وخلق هذه الجبال وهذه السماوات وما إلى ذلك وسوى خلقها، فالخلق يعني الإيجاد، والتسوية معنى زائد، سوّى هذه المخلوقات.

وقوله تعالى: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} قَالَ مُجَاهِدٌ: هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [سورة طه:٥٠] أَيْ: قَدَّرَ قَدرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء))[١٣].

قوله –تبارك وتعالى-: {قَدَّرَ فَهَدَى} هكذا على قراءة الجمهور "قدّر"، وعلى القراءة الأخرى المتواترة قراءة الكسائي {قدَر فهدى} وما المراد بـــ"قدّر فهدى"؟ هنا قال مجاهد: **هدى الإنسان للشقاوة وَالسَّعَادَةِ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا**، والله –تبارك وتعالى- قد أطلق ذلك، فيدخل فيه كل المعاني التي يحتملها، وإن قال من قال من المفسرين وهذا قال به كثيرون، والظاهر أنهم يقصدون بذلك التفسير بالمثال، فالواحدي يعزو للمفسرين: "قدّر فهدى" يعني خلق الذكر والأنثى وهداه –يعني من الدواب الآدميين وما إلى ذلك- فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، هذا من قبيل التفسير بالمثال، وإن قال به كثير من المفسرين، فإن المعنى لا يحصر بهذا إطلاقًا، وليس في اللفظ ما يدل على التحديد، وهكذا أيضًا ما جاء عن بعضهم وهو رواية عن مجاهد أيضًا غير الرواية السابقة: قدر السعادة والشقاوة والرشد والضلال، وهدى الأنعام لمراعيها، هذه عبارة مشابهة للعبارة

١٣ – رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى –عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣).

السابقة لكن في بعض حروفها ما يوضح بعض ما سبق، وبعضهم يقول: قدر الأرزاق والأقوات وهداهم للمعايش سواء كانوا من الآدميين أو الحيوانات، والمراعي إذا كانوا من البهائم السائمة، وجاء عن عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له، وبعضهم يقول: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان إلى أوجه استخراجها منها، وبعضهم كالسدي يقول: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ثم هداه للخروج من الرحم، هذه كلها تصلح أن تكون من قبيل التفسير بالمثال، السلف يفسرون بالمثال وببعض المعنى للتوضيح، ولهذا ذهب ابن جرير وابن القيم إلى حمل ذلك على أعم معانيه، فكل هذه المعاني المذكورة داخلة في ذلك، قدر أجناس الأشياء وأنواعها، قدر صفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ويسّره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه، **{قَدَّرَ فَهَدَى}** فيدخل فيها هداية التوفيق، ويدخل فيها هداية الإرشاد، ويدخل فيها الهداية الغريزية الفطرية، يعني الله -تبارك وتعالى- ألهم النحل: **{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}** [سورة النحل:٦٨] فهذه النحل في أي مكان ذهبت بها هي تقيم المحال التي تأوي إليها، وتضع فيها العسل بنفس الطريقة، وبنفس التشكيل، وهذا المولود البهيمة حينما يخرج من بطن أمه حتى الآدمي فإنه يلتقم الثدي من غير تعليم، تجده يسقط على الأرض ثم بعد ذلك يحاول التحرك ليصل إلى ثدي أمه وهو ما رآه من قبل ولا عُرّف بهذا، تجد هذه السباع من آكلة اللحوم هي تنشأ على هذا، وتطلبه، وتجد غيرها من بهيمة الأنعام ونحوها تأكل وتطلب ما يصلح لمثلها، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي هدى هذه الأشياء في مآكلها ومحالها التي تأوي إليها، وفي طرق تكاثرها على تنوع هذه الطرق، يعني في تزاوجها هي تختلف في طرقها وأحوالها، وكذلك أيضًا فيما يتعلق بالأماكن التي تأوي إليها تجد أنها أيضًا تختلف، وقد ركبها الله -عز وجل- تركيبًا يصلح لذلك، ومن نظر في أحوال المخلوقات وما يصدر عنها عرف هذا المعنى معرفة مشاهدة، "والذي قدر فهدى" ابن القيم -رحمه الله- لما ذكر أنواع الهداية في كتاب "شفاء العليل لمسائل القضاء والقدر والتنزيل" ذكر أنواع الهداية، ومنها هذه الأنواع النوع الفطري الغريزي، الهداية العامة للمخلوقات لمعايشها وما تقوم به مصالحها وما إلى ذلك، فذكر عجائب من أحوال المخلوقات، وكنت ذكرت أشياء من هذا مفرقة في مواضع في الكلام على الأسماء الحسنى، الرب، والخالق، والبارئ، والمصور، والعليم، والحكيم، والقدير، وما إلى ذلك من الأسماء ذكرت أشياء من هذا القبيل، وغير ابن القيم يذكرون أشياء عجيبة انظروا مثلاً كتاب "غريزة أم تقدير إلهي"، وانظروا كتاب "النحلة تسبح الله"، وانظروا "التبيان في أقسام القرآن" لابن القيم، وانظروا "مفتاح دار السعادة" لابن القيم، يذكرون أشياء عجيبة: رجل يضع العسل في طست فيه ماء من أجل ألا يصل إليه النمل، فتتسلق النملة حتى تصل إلى السقف وتوازي هذا الإناء ثم تلقي نفسها، والقط إذا رأى في السقف الفأرة -السقوف في السابق خشب وسعف وجريد ففيه حشرات وفئران- يستلقي على ظهره ويبدأ يحرك قوائمه يديه ورجليه، فما تلبث الفأرة أن تسقط عليه، من الذي علمه هذا؟!.

وذكروا من هذه الأشياء: الثعلب إذا أراد أن يصيد الطيور التي في النهر مثلاً يذهب إلى الناحية التي يأتي منها الماء فيأخذ من الحشائش والقش والأعشاب ويلقيها، فيمر بها الماء بجانب الطيور فتفزع في البداية ثم

تطمئن، ثم يرسل ثانية ثم يرسل ثالثةً، ثم يرسل بعدها ويكون كامنًا تحتها فتأتي هذه الحشائش والقش وتطمئن هذه الطيور، تقول: إنها كسابقتها، فيأخذ منها ما أراد، من الذي علمه هذا التحيل؟!.

وقوله تعالى: {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى} أَيْ: مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزُّرُوعِ، {فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا، وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوُهُ.

الغثاء يعني اليابس، بحيث إنه يابس يتفتت يتطاير في الهواء بعد أن كان في حال من الخضرة والطراوة، "فجعله غثاء" وهذا الغثاء حينما يذهب يابسًا يتطاير هو الذي يحمله السيل ويكون غثاء فوقه، والأحوى يعني متغيرًا إلى السواد، يسود الزرع بعد أن كان في حال من الخضرة، هكذا فسره ابن جرير وغيره.

"فجعله غثاء" بعد أن كان أخضر صار يابسًا يضرب إلى السواد، صار مسودًّا، فهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- بخلاف قول من قال: **{فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى}** يعني من شدة الخضرة تميل إلى السواد، يعني إذا كان الماء متتابعًا عليه تجد أن لونه الأخضر يميل إلى السواد، فهذا ليس بمراد هنا، والذي عليه عامة المفسرين خلاف هذا، والله أعلم، وإن كانت شدة الخضرة هي كذلك يعني تجعل هذا اللون الأخضر يميل إلى السواد، إن كان شديدًا، ولكن ليس هو المراد هنا، وإلا فإنك إذا أتيت في الطائرة مسافات مرتفعة على البلاد التي كلها أشجار خضراء تراها كأنها حَرَّة سوداء، تظن أنها سوداء حَرَّة، ولكنها تميل إلى السواد من شدة الخضرة.

وقوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ} أَيْ يَا مُحَمَّدُ {فَلا تَنْسى} وَهَذَا إِخبار من الله تعالى وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ بِأَنَّهُ سَيُقْرِئُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا {إِلَّا مَا شاءَ اللَّهُ} وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَا يَنْسَى شَيْئًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: "فَلا تَنْسى" طلب، و مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى هَذَا مَا يَقَعُ مِنَ النسخ، أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء اللَّهُ رَفْعَهُ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَهُ.

يعني كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في الحديث: يقرأ مع جبريل أثناء الوحي يخاف أن ينسى شيئًا منه، فوعده الله -عز وجل- بهذا: **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ}** فهل الاستثناء هنا متصل أنه ينسى شيئًا مما أقرأه إياه؟ أو أنه استثناء منقطع؟

بعض أهل العلم يقول: إن هذا الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال **{إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ}** من أعم المفاعيل **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ}**، يعني لا تنسى مما تقرؤه شيئًا إلا ما شاء الله أن تنساه، هل شاء الله أو يشاء أن ينسى شيئًا؟، بعض أهل العلم يقولون: الله لم يشأ أن ينسى شيئًا لكن التعليق هنا على المشيئة من باب أن كل شيء لا يكون إلا بمشيئة الله -عز وجل-، كقوله -تبارك وتعالى- عن أهل الجنة: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [سورة هود:١٠٨]، وقال عن أهل النار: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [سورة هود:١٠٧]، فهنا هم خالدون فيها قال: **{إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** فكل شيء بمشيئته، لكنه لم يشأ -تبارك وتعالى- أن يخرجوا بل حكم بخلودهم وبقائهم، فهنا على قول بعض أهل العلم كالفراء جعلوها كآية هود أن كل شيء بمشيئته لكنه لم يشأ أن ينسى شيئًا مما أُقرئ، وبعضهم يقول: الاستثناء هنا مراد، يعني إلا ما شاء ربك أن تنساه فتذكره بعد ذلك، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يوحى إليه لا ينسى شيئًا من ذلك إطلاقًا قبل البلاغ، لكنه

إذا بلّغ الأمة وحفظت الأمة هذا الوحي قد يعرض له النسيان؛ ولهذا صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأسقط آية وقال: ((هلا أذكرتَنيها))[١٤]، فهذا يرِد قد ينسى بعد البلاغ ولكنه يتذكر، ولكن كثير من أهل العلم حملوا هذا قالوا: {إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ} يعني ما شاء أن تنساه مما نسخ ورفع، فهذا لا حكم له، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقريب من هذا قول من قال: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ}: لا تترك العمل به إلا ما شاء الله مما نسخ، فسروه هنا بالعمل، ولكن هذا الذي استُثني يكون من قبيل ما نسخ، وبعضهم يقول: إلا ما شاء الله أن يؤخر {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ} أن يؤخر إنزاله، وهذا بعيد، وأبعد من هذا -والله أعلم- قول من قال: إن "لا" ناهية ينهاه أن ينسى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى} لكن هذا بعيد؛ لأنه إذا نظرت إلى الرسم تجد أن حرف العلة مثبت، ولو كان الفعل مجزومًا لحذف حرف العلة، فـــ "لا" هذه ليست ناهية؛ لأنها لم تجزم الفعل، والذين فسروا النسيان بما لا يملكه الإنسان -ليس بيده- قالوا: لا تغفل عن قراءته، فسروه بهذا، لكن هذا بعيد، والله أعلم، والذي عليه كثير من أهل العلم، واختيار ابن جرير أن المقصود {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ} مما رفع ونسخ، ويلي هذا القول قول من قال كالفراء: إن {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ} كقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} فالله لم يشأ أن يقع شيء من النسيان، والله أعلم.

وَقَوْلُهُ تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى} أَيْ: يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى} ما يجهر به العباد وما يخفونه، أي محيط بذلك كله فيدخل فيه ما قيل من الجهر بالقراءة أو الصدقة أو نحو ذلك، يعني السلف يفسرون كما سبق بالمثال، {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى} من القراءة أو الصدقة أو الأعمال أو الأقوال، أو كل ذلك، فالله -تبارك وتعالى- قد عمم ذلك فلا يحمل على بعض المعنى، وكما سبق في تطبيقات التدبر في ذكر الجهر من كلام ابن هبيرة -رحمه الله- من أن الأصوات إذا تعالت واختلطت فإن ذلك مظنة أن لا يفهم ولا يعي السامع ما يقال، والله يعلم ذلك جميعًا، هكذا قال، والله -تبارك وتعالى- يخبر أنه يعلم ذلك جميعًا فهو عنده سواء، بمعنى لا يخفى عليه شيء من الجهر والإسرار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى} أَيْ نُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ وَأَقْوَالَهُ، وَنُشَرِّعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمْحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ ولا حرج ولا عسر.

هذا وعد آخر لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بالتيسير لليسرى، يسهل عليه أفعال الخير وأقوال الخير، وينزل عليه شرعًا سهلاً لا حرج فيه، ويدخل في هذا قول من قال: نهون عليك عمل الجنة، أو نوفقك للشريعة اليسرى، أو الوحي، كل هذا داخل فيه، فاليسرى فُعلى من اليسر، {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى} فهنا اليسرى في كل شيء بما شرع عليه ويسر له ابتداء من حفظ الوحي الذي ينزل عليه فلا يشق عليه ذلك حتى يحتاج إلى أن

---

١٤ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٣٢١٦)، عن سالم عن أبيه: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى صلاة فأُلبس عليه فيها، فلما انصرف قال لأبي بن كعب: ((أصليت معنا؟))، قال: نعم، قال: ((فما منعك أن تفتح عليّ؟))".

يردد مع الملَك، ويقرأ مع التنزيل في وقت الإيحاء، فهذا من تيسير الله -عز وجل- أن يسر عليه حفظه، ويسر عليه العمل، وأنزل عليه شريعة ميسرة، ويسره لكل بر، وفضل وإحسان، وخير، ومعروف، وكان -صلى الله عليه وسلم- ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا[١٥]، فيسَّره إلى الهدى، إلى طريق الجنة، يسره إلى كل فضيلة ومعروف، وهون عليه ذلك.

وقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى} أَيْ: ذَكِّرْ حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِرَةُ، وَمِنْ هَاهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ فَلَا يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ -رضي الله عنه-: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ"، وَقَالَ: "حَدِّثِ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ الله ورسوله؟!".

هذا الموضع فيه كلام معروف لأهل العلم حيث إن الله -تبارك وتعالى- أمر بالتذكير، وجعله مقيدًا بهذا، **{إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى}** فما المراد بذلك؟ ابن كثير يقول: **ذكِّر حيث تنفع التذكرة**، كلام ابن كثير -رحمه الله- فيه نوع من الإجمال هل المقصود حيث تنفع فإن لم تنفع أو غلب على الظن أنها لا تنفع فإنك لا تذكر؟ هذا فهمه بعض أهل العلم، لماذا خص هذه الحال **{إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى}**؟، هل هذا مراد؟

فبعضهم قال: نعم إذا نفعت يذكر، وإن كانت لا تنفع فإنه لا يذكر، ومن ثم قالوا: لا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يوجه الخطاب والدعوة إلى من يظن أنه لا يقبل، **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى}** قالوا: إذا ظننت أنه لا يقبل ولا ينتفع لا يجب عليك أن تأمره وأن تنهاه وأن تعلمه وأن تنصحه وأن تكلمه وأن تخاطبه، لا يجب عليك، هذا قال به بعض أهل العلم، والأرجح خلاف ذلك، ولهذا قال جمع من أهل العلم وذكر هذا الواحدي والجرجاني والفراء والنحاس وصاحب التفسير الكبير وغير هؤلاء، قالوا: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى}** يعني أو لم تنفع، طيب لماذا اقتصر على **{إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى}**؟ قالوا: اقتصر على الأشرف، يعني لاحتمال الأكمل وهو إن نفعت لكن وإن لم تنفع فيذكر؛ ولهذا أمر الله موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- أن يذهبا إلى فرعون **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طــه:٤٤] مع أن الله يعلم أنه لا يتذكر ولا يخشى، والله قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [سورة الشعراء:٢١٤] مع أن بعض هذه العشيرة لا يقبلون، وكان منهم أبو لهب عم النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يؤذيه، ويسير معه في بعض أسواق العرب يسير خلفه فيقول: لا تصدقوه فإنه كذاب، ومع ذلك أمر بأن ينذر هؤلاء، فالأمر والنهي والإنذار والدعوة توجه للجميع من يقبل ومن لا يقبل، فمن يقبل فإنه ينتفع ويهتدي، ومن لا يقبل تكون الحجة قد أقيمت عليه، ويكون الإنسان قد أبرأ ذمته وألقى التبعة عن كاهله؛ لأنه سيحاسب على عدم البلاغ، ثم هذا الباطل أو المنكر إنما يفشو حيث يجهل هؤلاء الناس، لم يعد من يذّكر ولا يأمر ولا ينهى، يقول: ما يقبلون، كيف يعرفون إذًا الحق من الباطل؟، وكيف تقوم عليهم الحجة؟، ولهذا في قصة القرية التي قص الله فيها خبر بني إسرائيل الذين كانوا يعدون في السبت فانقسموا إلى هذه الأقسام الذين يأمرون وينهون، الطائفة الأخرى **{لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}** [سورة الأعراف:١٦٤] فأجابت الطائفة الأولى:

---

١٥ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٦٠)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته -صلى الله عليه وسلم- للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، برقم (٢٣٢٧).

{قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} نحن نفعل ذلك إعذارًا إلى الله -تبارك وتعالى-، ولما حصل بعد ذلك مسْخ هؤلاء، وحصلت العقوبة لهم ماذا قال: **{أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}** [سورة الأعراف:١٦٥]، والطائفة الثالثة التي سكتت ما كانت تشارك سكت عنهم، العلماء يقولون: سكت عنهم؛ لأنهم لا يستحقون الذكر أصلاً مع اختلافهم هل نجوا أو أنهم ما نجوا، ابن عباس كان يرى أنهم مسخوا، يقول عكرمة: فما زلت به حتى تبين له أنهم نجوا، لكن ترك ذكرهم؛ لأنهم لا يستحقون التنويه بالذكر -الذين سكتوا- فالمقصود أن هؤلاء كانوا في حال من اليأس **{لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}** لا يقبلون، فالمراد **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}** أن ذلك يعني حيث نفعت أو لم تنفع، وبعض أهل العلم يقول: هذا مخصوص بقوم معينين، ولا دليل عليه، بل هي عامة، **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}** وقد يكتفى بالأشرف أو بأحد النوعين ليدل على الآخر، وهذا أنواع وكثير كقوله تعالى: **{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ}** [سورة النحل:٨١] ما ذكر البرد، هي تقيهم البرد، ذكر أحد النوعين ليدل على الآخر، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعلى من الآية (١٠) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١] أي: سبح ربك ذاكرًا اسمه، والأعلى يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، سبح ربك الأعلى ذاكرًا اسمه، {الَّذِي خَلَقَ} أوجد من العدم، {فَسَوَّى} ما خلق، خلق هذا الخلق خلقًا معتدلاً مستويًا، {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [سورة الأعلى:٣] قدر مقادير الأشياء والخلائق، وهدى كل مخلوق إلى ما قدر له، ويدخل في ذلك هداية التوفيق وهداية الإرشاد، {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:٤] الذي تأكله الدواب والبهائم، {فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [سورة الأعلى:٥] أخرجه فصار إلى حال من الخضرة، ثم بعد ذلك ما يلبث أن ييبس حتى يصير متفتتًا متكسرًا هشيمًا يتحول إلى السواد بعد أن ييبس {أَحْوَى}، {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى} [سورة الأعلى:٦] هذا وعد من الله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يقرئه القرآن فلا ينسى، بل يثبت ذلك في قلبه ولا يحتاج معه إلى أن يكرره مع الملَك، {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [سورة الأعلى:٦-٧] أن تنساه مما نسخ ورفع، أو أن ذلك "سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله" على سبيل التحقيق بذكر المشيئة، كقوله: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [سورة الفتح:٢٧]، وهم داخلوه قطعًا، فيكون المعنى على هذا {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} لكن الله لم يشأ أن تنسى شيئًا من القرآن، {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} علمه محيط يسمع ويعلم جميع الأصوات المجهور منها والخفي فهي مهما تكاثرت وتغالبت وارتفعت وضج الناس فإن الله -تبارك وتعالى- يميز ذلك، ولا يفوته منه شيء، ويعلم مقال كل أحد من هؤلاء الرافعين أصواتهم، كما أنه -تبارك وتعالى- يعلم ما يخفى من السر، {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [سورة الأعلى:٨] هذا أيضًا وعد من الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن ييسره لليسرى، لليسرى في كل شيء، وذلك للأيسر فييسره لطريق الجنة لعمل الجنة، ييسر له حفظ القرآن، ييسر له كل أمر من أموره، {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩] ذكر الناس بهذا القرآن، ذكرهم بالإيمان، ذكرهم بالآخرة {إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} هنا قال: {إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} ومعلوم أن الذكرى أو أن التذكير يجب إقامةً للحجة، وبيانًا للحق، ولكن كأنه ذكر -والله أعلم- أشرف النتيجتين أو الاحتمالين ذكر إن نفعت الذكرى، يعني وإن لم تنفع فإنه أيضًا مأمور بالتذكير {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} [سورة الأعلى:١٠-١١].

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين.

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله تعالى: {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} أي: سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يَخْشَى اللَّهَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ، {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}

أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حَيَاةً تَنْفَعُهُ، بَلْ هِيَ مُضِرَّةٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ بِسَبَبِهَا يَشْعُرُ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ.

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا أُنَاسٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضِّبَارَةَ فَيُنْبِتُهُمْ -أَوْ قَالَ: يَنبتون- فِي نهر الحيا- أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانِ أَوْ قَالَ: نَهَرِ الْجَنَّةِ- فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ))، قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ ثم تَكُونُ صَفْرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ؟))، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَأَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ بِالْبَادِيَةِ[١].

وروى أَحْمَدُ أَيْضًا عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أُنَاسٌ -أَوْ كَمَا قَالَ- تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ -أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ- فَيُمِيتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ))، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ حِينَئِذٍ: كَأَنّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كان بالبادية، ورواه مسلم[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} وهذا يدل على أن الذي ينتفع بالتذكرة هم أهل الخشية، وأن الذين لا ينتفعون ولا يتعظون ولا يعتبرون هم الأشقياء، فهذه علامة أهل السعادة وعلامة أهل الشقاوة، ولذلك ينبغي على المؤمن أن يحرص غاية الحرص على الانتفاع بما يسمع، وأن يعمل بما علم، وأن يظهر أثر ذلك عليه في سمته وهديه ودلّه وعمله وحاله في ظاهره وباطنه، {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} وعرفنا أن الخشية أخص من مطلق الخوف، فهي خوف مع علم بالمخوف منه، بخلاف الخوف المطلق فإنه قد لا يكون مع علم، فقد يخاف الإنسان من أمور لا يعرفها، لكن إذا كان على علم بالمخوف منه فهذه هي الخشية، {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} الأشقى هنا هل المقصود به أفعل التفضيل يعني الأكثر شقاء؟، أو أن المقصود بأفعل التفضيل هنا مطلق الاتصاف، يعني ليس على بابه، أي أن المراد يتجنبها الشقي؟، هذا -والله تعالى أعلم- هو الذي يظهر، أي أن أفعل التفضيل غير مراد هنا، وإنما مطلق الاتصاف، وهذا يأتي ويرد، وسبق الكلام على هذا وذكر أمثلة له كقول الشاعر:

تمنى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ *** فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

يعني لست فيها بواحد، {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} النار الكبرى هذه هي نار جهنم -أعاذنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منها-، والنار الصغرى هي نار الدنيا، بالنسبة لنار الآخرة كما قال

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١٠١٦)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١٠٧٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي نضرة -وهو المنذر بن مالك العبدي- فمن رجال مسلم، سعيد بن يزيد: هو أبو مسلمة الأزدي البصري".

الحسن البصري -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن المقصود بالنار الكبرى هي النار السفلى، الطبقة السفلى من النار كما يقوله الزجاج، وهذا فيه بُعد؛ لأن الأشقياء هؤلاء من الكفار ليسوا في النار السفلى، النار على دركات، وإنما الذين في السفلى منها -في الدرك الأسفل- هم أهل النفاق، والذين لا ينتفعون بالذكرى من هؤلاء الكفار ليسوا فقط محصورين بأهل النفاق، وإنما بمختلف طوائفهم -أعني الكفار- قال: **{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيها وَلَا يَحْيى}** "ثم" هنا ليست للتراخي في المدة الزمانية، وإنما التراخي في مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الموت والحياة هذه الحال فوق دخول النار، يعني أشد وأعظم، يعني ليس مجرد دخول النار فقط بل يكون في حال فيها لا يموت ولا يحيا، يعني قد يدخل النار ويموت بلحظات، لكن هذا لا يموت ولا يحيا يبقى أبد الآباد، نسأل الله العافية، **{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيها وَلَا يَحْيى}** هنا قد يقول قائل: كيف نفى عنه النقيضين، الموت والحياة نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، يعني الموت والحياة لا يجتمعان في ذات واحدة فيقال: حي ميت في وقت واحد، ولا يرتفعان في وقت واحد فيقال: لا حي ولا ميت، إما حي وإما ميت، مثل الليل والنهار، الوجود والعدم، ما تقول: نحن الآن في ليل نهار، أو تقول: لا ليل ولا نهار، فهذان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فكيف نفى الله ذلك عنه، كيف نفى النقيضين؟، يقال: المقصود هنا ليس نفي أصل الحياة، وإنما المقصود أنه لا يموت فيستريح، فهو حي يحس ويتألم، ويُعذب ولا يحيا حياة نافعة، هذا هو المراد، والله أعلم.

وهنا ذكر الحديث: أما أهل النار الذين هم أهلها -يعني أهل الخلود- فلا يموتون ولا يحيون، كما قال الله -عز وجل- ثم ذكر من يخرجون منها، يعني من غير أهل الخلود، وذكر الشفعاء يدخل عليهم الشفعاء فيأخذ الرجل الضِّبارة فينبتهم، أو قال: ينبتون في نهر الحياة، يأخذ الضبارة يعني الرجل الشفيع أو الشافع يدخل على هؤلاء المعذبين من أهل التوحيد فيأخذ الضبارة يأخذ الجماعة منهم يشفع في جماعة فيخرجون من النار فيلقون في نهر الحياة، فينبتون بهذه الطريقة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- نبات الحِبّة -والحِبّة يعني بذور البقل ونحو ذلك- في حميل السيل، يعني الحبة هذه تنبت في حميل السيل، وحميل السيل ما يحمله السيل من بقايا أشجار، فتات، هشيم، طين فيكون على ضفافه، ضفاف مجرى السيل، أو يلقيه في ناحية، فتنبت هذه الحِبة نبتة صغيرة ضعيفة تميل إلى الصفرة، ثم بعد ذلك تخرج شيئًا فشيئًا، ولهذا قال: **((أما ترون الشجرة تكون خضراء ثم تكون صفراء ثم تكون خضراء؟))**، يعني في بدايتها وهي صغيرة هكذا، ولهذا قال بعضهم: كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في البادية، يعني يشاهد هذا النبات وما يخرج في حميل السيل، ما يحمله السيل، وهنا قال: **((فجيء بهم ضبائرَ ضبائرَ فبُثوا على أنهار الجنة، فيقال لأهل الجنة: أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحِبة تكون في حميل السيل))**.

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى * صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى} [سورة الأعلى:١٤-١٩]، **يَقُولُ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} أَيْ: طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ وتابع ما أنزل الله على الرسول -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.**

وهذا غالب الاستعمال في مثل هذا، تزكية النفس بالإيمان وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وسبقت الإشارة إلى قول من قال: إن المقصود بذلك "تزكى" يعني أخرج زكاة الفطر، وأن زكاة الفطر لم

تشرع بمكة، ولهذا عمد بعض هؤلاء إلى القول بأن هذه الآية نازلة في المدينة، ولكن الأقرب ما ذكره ابن كثير، وهذا الذي عليه الجمهور من السلف فمن بعدهم أن التزكية المقصود بها هنا تزكية النفس، كما قال الله -عز وجل-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠]، فهنا {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} فتلك الآية تفسر هذه، لكن في بعض المواضع -كما ذكرت سابقًا- يكون ذلك محتملاً للمعنيين، يعني زكاة المال، أو تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح وتخليصها من أضداد ذلك، هذا يوجد في بعض المواضع كقوله -تبارك وتعالى-: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [سورة فصلت:٦-٧]، فهل المقصود بها زكاة المال؟، وكقوله -تبارك وتعالى-: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [سورة المدثر:٤٢-٤٥]، مسألة توجه الخطاب خطاب الشارع إلى الكفار بفروع الشريعة هنا هل هم مطالبون بهذه الأشياء؟

هي لا تصح منهم قطعًا، {لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} فهذا زيادة في التعذيب عليهم يوم القيامة، على أن بعض الأصوليين ذكروا معنى آخر غير العذاب، أو مضاعفة العذاب الأخروي.

وهنا {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} يحتمل أنهم لا يخرجون الزكاة زكاة المال، ويحتمل أنهم لا يؤتون الزكاة، يعني تزكية النفوس، الإيمان، وهذا لعله الأقرب -والله أعلم- مع أن الآية تحتمل المعنيين.

وقال تعالى: {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} أَيْ: أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ وَامْتِثَالًا لِشَرْعِ اللَّهِ.

إذًا {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} **أقام الصلاة في أوقاتها** امتثالاً لشرع الله -تبارك وتعالى-، أولائك يقولون: ذكر اسم ربه يعني في ذكر العيد، وصلى صلاة العيد، كما قالوا في قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [سورة الكوثر:٢]: صلاة العيد، والنحر الذي هو الأضاحي، وهذا أيضًا بعيد، والله تعالى أعلم.

وبعض أهل العلم يقول: "وذكر اسم ربه فصلى" يعني ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له.

وبعضهم يقول: ذكر اسم ربه بلسانه فصلى لله تعالى أي أقام الصلوات.

وبعضهم يقول: الذكر هنا ذكر القلب، يعني ذكر موقفه ومعاده فعبده -تبارك وتعالى-، وهنا قد أفلح من تزكى بالإيمان والعمل الصالح، وذكر اسم ربه يعني ذكر ربه -تبارك وتعالى- باسمه، فهذا يشمل ذكر القلب وذكر اللسان، كما قال: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١] هنا {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} فيكون من الذاكرين المصلين، فهنا حكَمَ بالفلاح لأهل الذكر والصلاة بعد الإيمان، {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}.

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِإِخْرَاجِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}، وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَصِ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ سَائِلٌ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَلْيُقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ صَلَاتِهِ زَكَاةً، فَإِنَّ الله تعالى يَقُولُ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} زَكَّى مَالَهُ وَأَرْضَى خَالِقَهُ.

هذه أقوال لهؤلاء السلف ترجع إلى خلاف المعنى المشهور الذي عليه الجمهور من أن المقصود بالتزكية هنا تزكية النفوس بالإيمان، فيكون ذلك بزكاة يعني من المال، والذين قالوا: إنها نزلت في صدقة الفطر جماعة

كقتادة وعطاء وأبي العالية، وبعضهم يقول: في زكاة الأموال كلها وهذا مروي عن أبي الأحوص وأيضًا هو رواية عن قتادة.

وبعضهم يقول: المقصود هنا بالتزكية تزكية الأعمال كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهذا يرجع إلى تزكية النفوس، وهذا مروي عن ابن عباس، وقال به جمع من التابعين كالحسن، وهو رواية عن قتادة، وقال به عكرمة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أَيْ: تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ وَتُبْدُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم.

يعني لما ذكر لمن يكون الفلاح -والفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب- ذكر الحال التي عليها من لم يوفق لمثل هذا من الأعمال الطيبة الزاكية فقال: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**، العاجلة القريبة، تؤثرونها على الآخرة، **{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**، وإنما يكون هذا لضعف اليقين، فإذا انعدم اليقين تكالب الناس على الدنيا، وإذا ضعف يقينهم في الآخرة فإن ذلك يكون ضعفًا في إقبالهم على عملهم، ويكون الحرص والجد في تحصيل متاع الحياة الدنيا، ومن ثم فإن الإنسان قد يشق عليه العمل ويثقل البذل في سبيل آخرته؛ لضعف يقينه.

قال الله تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} أَيْ: ثَوَابُ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَنِيَّةٌ فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةَ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا وَيَتْرُكُ الِاهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ؟!.

على أن هنا أيضًا أفعل التفضيل ليست على بابها؛ لأنه لا مقارنة بين الدنيا والآخرة، لا مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، لا مقارنة بين مدة الدنيا ومدة الآخرة، دار البقاء ودار الفناء، وإنما يكون التفضيل بين شيئين بينهما قدر مشترك بحيث يمكن أن تقارن بين هذا وهذا، أو بأن تفاضل بين هذا وهذا، وإلا فإذا كان ذلك لا يتأتى فيكون كما قيل:

ألم ترَ أنّ السيفَ يَنقُص قدرُه *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

فما يقارن بين السيف والعصا فيقال: والله هذا السيف أقطع من العصا، هذا أحدّ من العصا، يكون هذا من قبيل الاستخفاف بالسيف والازدراء به، وعلى هذا يحمل ما جاء من أفعل التفضيل بين أمور الدنيا وأمور الآخرة **{أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا}** [سورة الصافات:٦٢] "خير" هنا تأتي بمعنى أفعل التفضيل "خير" بمعنى أخير، وتأتي مرادًا بها مطلق الاتصاف، وكذلك **{آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}** [سورة النمل:٥٩] هنا لا وجه للمقارنة.

وقد روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى))[٣]، تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٩٦٩٧)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٣٤٠).

الحديث في إسناده ضعف، والشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- ضعف هذا الحديث أولاً ثم بعد ذلك صححه لغيره، يعني صححه لشاهد آخر.

وقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى * صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى} هذه الآية كقوله تعالى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى * وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى * ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى * وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى} [سورة النجم:٣٦-٤٢] الْآيَاتِ إِلَى آخِرِهِنَّ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّ هَذَا} إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى} ثم قال تعالى: {إِنَّ هَذَا} أَيْ مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ، {لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى * صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى} وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبِّحْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

{إِنَّ هَذَا} الإشارة هنا إلى قريب فيكون ذلك متوجهًا كما قال ابن جرير -رحمه الله- إلى قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** يعني هذا الحكم الذي حكم الله -تبارك وتعالى- به، وما ذكر بعده **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى}**، وهذا قال به جماعة من السلف كقتادة وابن زيد، ويقولون: تتابعت هذه الكتب -كتب الله -تبارك وتعالى- على أن الآخرة خير وأبقى من الأولى، وجاء عن الحسن البصري نحو هذا إلا أنه حدد البداية، قول ابن زيد وقتادة: **{إِنَّ هَذَا}** يعني الآخرة خير وأبقى، والحسن البصري يقول كما قال ابن جرير: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** إلى قوله: **{وَأَبْقى}** هو المراد، يعني الإشارة هنا ترجع إلى أي موضع من هذه الآيات؟، عند ابن جرير والحسن البصري من قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** إلى قوله: **{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى}**، وعند الآخرين كقتادة وابن زيد أن ذلك يرجع إلى قوله: **{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى}** أن هذه الكتب متتابعة على تقرير هذا المعنى، يقول: **قال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى،** فقوله: **{لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى * صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى}** يعني أن هذا المذكور ثابت في هذه الصحف.

قال -رحمه الله-: قد تقدم عن النعمان بن بشير أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كَانَ يَقْرَأُ بِـ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [سورة الأعلى:١]، وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ سَأَلَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ: بِمَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ مَعَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ قال: {هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ}[٤]، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ.

سورة الغاشية هي من السور المكية باتفاق، وهذه السورة تتحدث أيضًا عن القيامة، عن الآخرة، تتحدث عن النار وعن حال أهلها، وتتحدث أيضًا عن أهل النعيم وما لهم في الجنة، وهذه السورة حينما تتحدث عن هذه القضايا تنعى على الناس الغفلة والإعراض عن آخرتهم، وعن الإيمان مع قيام الشواهد والدلائل والبراهين

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٣٨١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

الدالة على وحدانية الله -عز وجل- وقدرته، فكيف يحصل منهم هذا الإعراض والكفر والتكذيب بالآخرة ولا يؤمنون بأن الله -تبارك وتعالى- يعيد بعث هذه الأجساد ثانية بعد أن تفنى؟!، ومن هنا يأمر الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يقوم بمهمته وهي التذكير فحسب، ثم الله -تبارك وتعالى- يتولى عباده، خوّفهم ورغّبهم وعجب من إعراضهم وتكذيبهم مع قيام الدلائل الظاهرة على وحدانيته وقدرته على بعثهم، ثم قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم- قولاً مبطناً بالتهديد: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ}** [سورة الغاشية:٢١] يعني نحن سنتولاهم، ثم صرح بذلك بعده: **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}** [سورة الغاشية:٢٥-٢٦] هذا ما تدور عليه هذه السورة، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الغاشية من الآية (١) إلى الآية (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [سورة الغاشية:١-٧].

الغاشية: من أسماء يوم القيامة، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، لأنها تغشى الناس وتعمهم.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} يعني قد أتاك كما يقوله بعضهم كقطرب، وبعضهم يقول: هو على بابه، يعني للاستفهام، **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}** هنا الغاشية ما المراد بها؟.

ذكر هنا قول ابن عباس وقتادة وابن زيد أنها من أسماء القيامة؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم، وهذا قول الأكثر من السلف فمن بعدهم، قول الجمهور، أنها اسم من أسماء القيامة، وقال بعض السلف كمحمد بن كعب القرظي وسعيد بن جبير: تغشى النارُ وجوهَ الكفار، يعني أن الغاشية هي النار تغشى وجوه الكفار، **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}** وكما قال الله -عز وجل-: **{وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ}** [سورة إبراهيم:٥٠] فجعلوا ذلك تفسيرًا للغاشية، وبعضهم يقول: الغاشية هم أهل النار يغشونها **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}** فهم يغشون النار وكأنهم أخذوا هذا والله أعلم مما بعده، **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}**، فيكون ذلك من صفتهم، يكون الغاشية الناس الذين يغشون النار، فذكر وصفهم في وجوههم قال: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}**، والقول الأول: أنها اسم من أسماء القيامة هو الذي عليه الجمهور، والقول الآخر: أن المقصود بها النار قال به بعض السلف، وابن جرير -رحمه الله- ذكر القولين الأول والثاني، أنها اسم للقيامة، أو النار لكونها تغشى وجوه هؤلاء الكفار، وعمم المعنى، يعني قال: كل ذلك داخل في معناها، فالقيامة من أسمائها الغاشية؛ لأنها تغشى الناس، وكذلك النار تغشى وجوه الكفار، **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}** الجمهور حينما قالوا: اسم من أسماء القيامة، قالوا: إن قوله: **{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}** يدل على أنه لم يحصل ذلك لها بعد، فهم في القيامة يكونون في هذه الحال من الذل يعرضون على النار **{خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}** [سورة الشورى:٤٥] فهذه حالهم قبل دخول النار، قالوا: هذه قرينة في الآية نفسها **{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}** فتكون اسمًا من أسماء القيامة، وابن جرير يقول: والنار أيضاً تغشى وجوه هؤلاء فهي غاشية أيضاً.

وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ} أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها.

هذا بمعنى ما قبله أيضاً **تخشع ولا ينفعها عملها**، الخشوع في معنى التذلل والخضوع والانكسار إلا إن كان المراد بذلك معنى آخر، إنْ حُمل كلام ابن عباس على أن المقصود بذلك أنه في الدنيا، أي أن هذه صفة لهم في الدنيا، وسيأتي -إن شاء الله- أن هذه الأوصاف متى تكون.

وقوله تعالى: {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} أي: قد عملت عملا كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية.

كلام ابن كثير هنا: **عملت عملاً كثيرًا ونصبت فيه** هذا متى؟ في الدنيا، **وصليت يوم القيامة نارًا حامية.**

روى الحافظ أبو بكر البرقاني عن أبي عمران الجوني يقول: مر عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- بدير راهب، قال: فناداه يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله -عز وجل- في كتابه: {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} فذاك الذي أبكاني[1].

وقال البخاري: قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} النصارى[2]**، وعن عكرمة والسدي: "عاملة في الدنيا بالمعاصي، وناصبة في النار بالعذاب والأغلال".**

الآن انظر هذه الأقوال للسلف -رضي الله عنهم- تتجه إلى معنيين:

المعنى الأول: أن هذه الأوصاف لهم في الدنيا.

والقول الآخر: أن ذلك في الآخرة، فهنا في تفسير "خاشعة" قول ابن عباس: **تخشع ولا ينفعها عملها**، يمكن أن يحمل على أن المراد بذلك أنه في الدنيا، يعني تجد هؤلاء من الرهبان والعبّاد ممن هم على غير الحق، ودين الإسلام لربما عندهم من الخشوع والخضوع ما يكون زادًا إلى النار، وكما قال بعض السلف: فما يفعل الشيطان بالبيت الخرب؟، يعني هؤلاء قد يحصل لهم خشوع مع ضلالهم وكفرهم، وانظر إلى مزاولات الرافضة في معابدهم وما لهم من البكاء في ذلك لا ندري هل هم يتصنعونه أو هو حق، لكن لا يستبعد أن هذا البكاء يكون حقيقيًّا، لكن على ماذا؟ على ضلال.

هنا يقول: **{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}** أي: **عملت عملاً كثيرًا ونصبت فيه**، هذا كلام ابن كثير على أن هذه الأوصاف في الدنيا، وما ذكره عن عمر -رضي الله عنه- لما رأى هذا الراهب وبكى إلى آخره هذا أيضًا حمله على أنه في الدنيا مع أن هذا الأثر فيه انقطاع، لا يثبت، يحتمل أن تكون هذه الأوصاف في الدنيا **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}** هذا وصفهم في الدنيا، كأن الذي حمل هؤلاء على هذا القول أن الآخرة ليس فيها عمل، وإنما هي دار جزاء، فقالوا: العمل في الدنيا، فهي تعمل "عاملة ناصبة"، لكن ما هو الذي تعمله؟ تعمل في عبادات غير مشروعة يتعبدون الله -عز وجل- على غير دين الإسلام، على غير الحق، أو عاملة ناصبة في المعاصي ومحادة الله -تبارك وتعالى-، فكأن هذا هو الذي حملهم على هذا القول، أن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل، فكيف قال: **{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}**؟ إذًا هذا في الدنيا، ولكن الذين قالوا: إن ذلك في الآخرة من قاله من السلف بينوا المراد، قتادة مثلاً يقول: أعملها الله وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في أرض المحشر، لكن إذا قيل: إن قوله: **{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}** هذا قبل دخول النار باعتبار أنه قال بعده: **{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}** فهذا قبل دخول النار، فيمكن أن يحمل ذلك على ما يكون لهم في أرض المحشر، وجاء عن الحسن وسعيد بن جبير أن هؤلاء لم يعملوا وينصبوا في طاعة الله -تبارك وتعالى- فأعملهم وأنصبهم في نار جهنم، والقول بأن ذلك في الآخرة، أن كل هذه الأوصاف **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ**

---

1 - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٣٩٢٥).

2 - صحيح البخاري، (٦/١٦٨)، معلقاً، كتاب تفسير القرآن، باب **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** [الانشقاق: ١٩].

خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} أن هذا في الآخرة هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحم الله الجميع- يقولون: عاملة في النار ناصبة فيها، ورد بعضُ العلماء الذين قالوا: إن ذلك في الآخرة، قالوا: نحن لا نسلم أن يقال أو أن يطلق القول بأن الآخرة ليس فيها عمل، بل الآخرة فيها عمل؛ فهم يدعون إلى السجود، وهذه المسألة يتكلم عليها الأصوليون في مسألة التكليف وهل يختص بالدنيا أو يكون شيء منه في الآخرة، وما يتعلق ببلوغ الخطاب -خطاب الشارع- للمكلفين، ومن لم يبلغه الخطاب فما حكمه، يسمونهم أهل الفترة، فمن قال: إنهم يمتحنون في عرصات الآخرة، بعضهم يقول: الآخرة ليس فيها عمل، لكن ثبت النص بأنهم يمتحنون، فيقال: لا يقال بإطلاق: إن الآخرة ليست دار عمل، الدنيا نعم هي دار عمل واستثمار يترتب عليه الثواب والعقاب، أما الآخرة فقد يكون ذلك لإقامة وإظهار عدل الله -عز وجل- كما يحصل لأهل الفترة، وقد يكون ذلك زيادة في العذاب أو التبكيت، أو يكون ذلك على سبيل الاستثناء، يعني مثلاً الأمر بالسجود فأهل الإيمان يسجدون، فهذا تكليف، والكفار لا يستطيعون السجود، أهل الإيمان يلهمون التسبيح في الجنة كما يلهمون النفس، فمثل هذه الأمور ثابتة، ولهذا لا يقال بإطلاق: إن الآخرة ليس فيها تكليف مطلق، يقال: نعم هي ليست دار تكليف وإنما هي دار جزاء، لكن ثبت في النصوص أن هناك أعمالا محددة وأمورًا معينة الناس يخاطبون بها.

وهنا **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ}** "يومئذ" هنا ترجع إلى "الغاشية" فدل على أن هذا الوصف **{خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}** أن هذا كله في الآخرة، وهذا الذي يحتج به ابن جرير وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على أن هذا وصف لهم في الآخرة وليس في الدنيا، ومن هنا لا يصح الاحتجاج بهذا على أعمال الكفار التي يريدون بها التقرب إلى الله -عز وجل- مثلاً في الدنيا، أن يحتج بهذه الآية، أو أن تذكر الآية في هذا المقام فيقال: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}** هذا وصفهم في الآخرة، والله تعالى أعلم.

قال: **قول ابن عباس: {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} يعني: النصارى** هذا من باب التمثيل وإلا فهو لا يختص بهم، لكن لما كان النصارى يظهر فيهم التعبد والرهبانية أكثر من اليهود ذكر النصارى، يعني الرهبان عند النصارى عندهم تعذيب الجسد، الإغراق في العبادة بوجه لا يكاد الإنسان يحتمله ويطيقه، هذا موجود عند النصارى، لربما بقي الواحد في بئر -كما يقولون- واقفًا في مدة تطول جدًّا حتى تصل إلى أكثر من أربعين سنة، يعذب نفسه بهذا، فأخبار النصارى أخبار الرهبان وما لهم من العجائب في ذلك ومن التقلل من الطعام إلى حد يعني البقاء على قيد الحياة فقط أشياء لا يكاد يصدقها الإنسان، لكن على ماذا؟ على ضلالة، الكتب التي تذكر تاريخ هذه الديانات في الهند تقول: إن بوذا بقي لا يأكل إلا حبة واحدة من الرز في اليوم، هكذا يقولون، لكن هل يمكن أن يعيش الإنسان بهذه الطريقة؟ يمكن أن يعيش على الماء مدة، لكن حبة رز في اليوم؟، وما تغني عنه؟ لو كان نملة لربما، الله أعلم.

قال ابن عباس والحسن وقتادة: {تصلى نارا حامية} أي: حارة شديدة الحر، {تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} أي: قد انتهى حرها وغليانها، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي.

هو هذا، "آنية" يعني شديدة قد بلغت من الحرارة والغليان الغاية، وما روي عن بعض السلف يمكن أن يرجع إلى هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: شجر من النار، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشِّبْرِق، قال قتادة: قريش تسميه في الربيع الشِّبْرِق، وفي الصيف الضريع.

يعني إذا كان أخضر يقال له: الشِّبرق، وإذا صار يابسًا يقال له: الضريع، شوك.

قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض.

وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له الشِّبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سُم.

وهذا الذي قاله ابن جرير –رحمه الله–، يعني الآن هذه الأقوال كلها ترجع إلى أن هذا الضريع المقصود به شجر له شوك يابس قاسٍ شديد، وهذا الذي عليه الجمهور من المفسرين، وأهل اللغة، خلافًا لما جاء عن الخليل بن أحمد –رحمه الله– من أن ذلك نبات أخضر منتن يلقيه البحر، هذا خلاف قول عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم.

وقال معمر عن قتادة: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ} هو الشِّبرِق إذا يبس سمي الضريع، وقال سعيد عن قتادة: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ} من شر الطعام وأبشعه وأخبثه.

يعني الآن القول الذي ذكره عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أولاً: شجر من النار، هنا مطلق، وكذلك هنا: **من شر الطعام وأبشعه وأخبثه** هذا أيضًا مطلق، ما بيْن ذلك هو تفسير له، تحديد أنه شجر له شوك يابس، لكن مهما يكن القرآن خاطبهم بما يعرفون بلغتهم، وهم يعرفون الضريع، ولكن شتان بين الضريع الذي يعرفون مما لا تطيقه البهائم، والضريع الذي يكون في النار، كما أن الله –تبارك وتعالى– ذكر النار، وشتان بين النار التي في الدنيا ونار جهنم.

قوله: **{لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}** قال: **يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الغاشية من الآية (٨) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}** [سورة الأعلى:٩] أمره بالتذكير وذكر أشرف الاحتمالين من التذكير وهو النفع، والذكرى واجبة، فهي تنفع من وفقه الله -عز وجل- وهداه، كما أنها إقامة للحجة على المعاندين والمكذبين، قال: **{سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}** [سورة الأعلى:١٠] فهذا هو الذي ينتفع بالذكرى -التذكير- وهم أهل الخشية، من يخشى الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة، **{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}** [سورة الأعلى:١١] يعني أنه يُعرض عنها ولا ينتفع بها الأشقياء من الناس **{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}** [سورة الأعلى:١٢] هذا الشقي يدخل النار ويقاسي حرها، وهي نار الآخرة، فهي نار كبرى بالنسبة لنار الدنيا، ثم يكون فيها بحال لا يحيا حياة نافعة، ولا يموت فيستريح، **{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}** [سورة الأعلى:١٣] بل هو في عذاب دائم وشقاء مستمر، **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [سورة الأعلى:١٤-١٥] "قد" هذه تفيد التحقيق، دخلت على الفعل الماضي، "قد أفلح" يعني حصّل المطلوب ونجا من المرهوب "من تزكى" زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح وخلصها من أضداد ذلك، **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** ذكر ربه -تبارك وتعالى- باسمه ذاكرًا اسمه فصلى لله -عز وجل-، فجمع بين الذكر والصلاة، قال: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [سورة الأعلى:١٦-١٧] فهذا حال الكفار وضعفاء أهل الإيمان، هذا الإنسان بما جُبل عليه من محبة الدنيا والتعلق بها **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** تقدمونها على الآخرة وتؤثرونها عليها، والآخرة خير من الدنيا وأبقى منها، فالدنيا فانية، ثم قال: **{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى}** [سورة الأعلى:١٨] يعني أن ما ذكره قبله من قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى}** [سورة الأعلى:١٤-١٨] مثبت، **{صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}** [سورة الأعلى:١٩] -عليهما الصلاة والسلام-، وأما سورة الغاشية فذكرنا أنها تتحدث عن الآخرة عن القيامة، وما فيها من العذاب والنعيم، وما إلى ذلك مع التعجيب من حال المكذبين المنكرين لها الكافرين بالله -عز وجل- مع ظهور دلائل قدرته ووحدانيته، وعظمته، وفيها تهديد مبطن لهؤلاء وما سيكون لمن أعرض وكذب من العذاب والحساب الذي ينتظره.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين.

قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [سورة الغاشية:٨-١٦].

لما ذكر حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء فقال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} أي: يوم القيامة، {نَاعِمَةٌ} أي: يُعرف النعيم فيها، وإنما حصل لها ذلك بسعيها، وقال سفيان: {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} قد رضيت عملها، وقوله تعالى: {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون، {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} أي: لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو كما قال تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا} [سورة مريم:٦٢]، وقال تعالى: {لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [سورة الطور:٢٣]، وقال تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة:٢٥-٢٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} هذا كما سبق أنه يؤيد قول من قال: إن قوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} [سورة الغاشية:٢-٣] ذلك من صفتهم في الآخرة وليس ذلك في الدنيا، وهكذا ما يقابله {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}، وقوله: {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} قد يكون ذلك أيضًا قرينة على أن قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [سورة الغاشية:١] المقصود بها النار، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} يعني كل ذلك في النار؛ لأن ما يقابله في جنة عالية، فهذا يحتمل.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ} هكذا الله -تبارك وتعالى- جعل هذا القرآن مثانِيَ فيذكر الوعد والوعيد ويعقب هذا بهذا من أجل أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، يذكر صفات أهل النار وصفات أهل الجنة {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ} لما كان هؤلاء يعملون في الدنيا ويجهدون ويتعبون في طاعة الله -عز وجل- جازاهم الله -عز وجل- بمقابل ذلك بهذه النعم والنعيم الذي يظهر على وجوههم "وجوه يومئذ ناعمة" يُعرف النعيم فيها، قال: {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} هذا السعي وهذا العمل الذي عملوه في الدنيا وتعبوا فيه وما إلى ذلك كل هذا جازاهم الله -عز وجل- به بهذا النعيم، والنعيم يظهر أثره على وجه الإنسان، {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} وعرفنا أن السعي يأتي بمعنى العمل، وقد يُشعر ذلك بالإسراع والمبادرة قال: قد رضيت عملها، وبعضهم يقول: رضيت ثواب العمل، {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ}.

وقوله تعالى: {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} هذه فيها ثلاث قراءات، هذه التي نقرأ بها {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} أصحاب الوجوه الناعمة لا تسمع في الجنة لاغية، وفي القراءة الأخرى أيضًا وهي متواترة لابن كثير وأبي عمرو {لَا يُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَة}، وفي قراءة نافع {لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَة} بالتاء، واللغو هو الكلام الساقط الذي لا قيمة له ولا فائدة فيه.

وقوله: {لَاغِيَةً} يحتمل أن يكون ذلك مصدرًا {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} يعني لغواً، لا تسمع فيها لغوًا، أو صفة لموصوف محذوف، يعني لا تسمع فيها كلمةً لاغية، أو لا تسمع فيها نفسًا لاغية، فالجنة ليس فيها لغو، وهذا يدل على أن من الشقاء والعناء سماع اللغو وحضور مجالس اللغو، كيف بالذي يقصده ويطلبه ويبحث عنه هنا وهناك في حسابات في تويتر، أو في مواقع في الإنترنت أو في مقالات أو في تعليقات هو يبحث عن هذه

الأشياء ويتطلبها، هؤلاء الذي يتكلمون بكلام لا فائدة منه كلام يضر ولا ينفع، هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويتكلمون فيما لا يعنيهم فكلامهم مجلبة للهم، مفسدة للقلب، مشوش للفكر، ثم بعد ذلك يذهب ويبحث عن هذه الأشياء، ويطلبها ويقرأ ويتابع أو يحضر المجالس التي فيها اللغو، فمن النعيم أن ينزه الإنسان نفسه من سماع اللغو، ومن تتبعه وقراءته ومجالسة أهله، وبذلك يحصل له راحة القلب، وقوله هنا: **لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو** يعني كلمة لاغية باعتبار أنه صفة لموصوف محذوف، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، قال الله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا}، {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا} فهذا كله بمعنى لا تسمع فيها لاغية، {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}.

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} أي: سارحة، وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنهار الجنة تفجر من تحت تلال -أو من تحت جبال- المسك))[1].

قوله هنا: **{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} أي: سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات**، النكرة التي في سياق الإثبات لا تعم بل ذلك هو المطلق، لكن نحن نعلم أن الجنة فيها عيون وليست عيناً واحدة، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فهذا جنس أي عيون جاريات، وهذه في جريها لا تجري في أخاديد كما هو حال العيون التي في الدنيا، وإنما تجري سارحة على ظهر الأرض من غير أخاديد.

{فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ} أي: عالية ناعمة كثيرة الفرش مرتفعة السمك، عليها الحور العين، قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له.

هنا السرر معروفة، وصفها بأنها مرفوعة، والارتفاع يحتمل أن يكون الارتفاع الحسي، وهذا هو ظاهر اللفظ، ويحتمل أن يكون الارتفاع المعنوي بمعنى أنها عالية القدر مرفوعة، وأنها منزهة عن كل المدنسات بجميع أنواعها، سواء كانت هذه المدنسات حسية أو كانت هذه المدنسات معنوية مما يقارف من الفواحش وما إلى ذلك، فهذه سرر مرفوعة تشمل الرفعة في المكان، وكذلك من جهة المعنى عالية القدر، نفيسة، نظيفة، شريفة، طيبة، يقول: **عليها الحور العين** باعتبار أنه ذكر السرر، ويمكن أن يكون ذلك إشارة أيضًا إلى الحور معها.

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} يعني: أواني الشرب معدة مُرصَدَة لمن أرادها من أربابها.

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} يعني أواني الشرب، وعرفنا من قبل الفرق بين الأكواب والكئوس، فالقداح التي لا عُرى لها هي الأكواب، أكواب موضوعة بين أيديهم يشربون منها، ويحتمل أنه كما قال ابن جرير لما ذكر العين الجارية: إن هذه الأكواب على حافة العين يجدونها ملأى، فالجنة فيها أكواب سواء كان ذلك كما قال ابن جرير على حافة العين، أو في غيره، فأكواب الجنة أعم وأوسع من أن تقيد بهذا، لكن كأن ابن جرير

---

١ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، (١٠/٣٤٢١)، برقم (١٩٢٦٧).

-رحمه الله- هنا راعى ما قبله، ولكنه ذكر بعد العين السرر فلا حاجة -والله أعلم- لربط هذه الأكواب بما قبله من ذكر العين فهي موضوعة قريبة منهم معدة مرصدة كما يقول ابن كثير لمن أرادها.

{وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: النمارق الوسائد، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي والثوري وغيرهم.

النمارق هي الوسائد، وهذا الذي اختاره ابن جرير، وعزاه الواحدي للمفسرين، جميع المفسرين: أن النمارق هي الوسائد، هذه النمارق مصفوفة.

وقوله تعالى: {وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: الزرابي البُسُط، وكذا قال الضحاك وغير واحد.

البسط هذه هي الزرابي، هذا الذي قاله كثير من السلف، وبعضهم يقول كأبي عبيدة والفراء واختاره ابن جرير: إنها الطنافس التي لها خَمَل رقيق، وتكون جمعًا لزِرْبيّة، الزرابي جمع لزِرْبيّة، وهنا وصف هذه الزرابي بأنها مبثوثة.

ومعنى مبثوثة أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها.

يعني هذا يدل على كثرتها، يعني لكثرتها قيل: مبثوثة، هذه البسط، ولهذا قال بعضهم: مبثوثة يعني مبسوطة كما يقول قتادة، وبعضهم كعكرمة يقول: بعضها فوق بعض، وبعضهم يقول: مفرقة في المجالس كما يقول ابن قتيبة، المقصود أنه كما قال ابن كثير -رحمه الله-: أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها، يعني هم في مكان من النعيم على سرر مرفوعة وعندهم الوسائد لمن أراد الجلوس والاتكاء، والبسط التي لا يمكن أن تقاس بما في الدنيا بأجمعها مبثوثة بكثرة هنا وهناك يجلسون حيث شاءوا، فهذا لا شك أنه مما يبعث البهجة في النفوس، ويكون محلا للاسترواح وللذة وللنعيم، إذا أتيت مكانًا متنزهًا ووجدت الوسائد والسرر ووجدت البسط مبثوثة في كل ناحية مما يمكن أن يتنقل إليه الإنسان مما يقلب فيه بصره وتبتهج به نفسه فلا شك أن هذا من صور النعيم التي يعرفها الناس.

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [سورة الغاشية:١٧-٢٦].

يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتُؤكل وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونُبِّهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت، أي: كيف رفعها الله -عز وجل- عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [سورة ق:٦].

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} هؤلاء الذين يكذبون ولا يؤمنون بالآخرة كيف يعمون عن دلائل قدرة الله -عز وجل-؟، فهذه الإبل التي يعافسونها ويركبونها ويشاهدونها صباح مساء

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} يعني هذا النظر يكون من هذه الجهة، كيف خلقت هذا الخلق بهذه الصفة حيث جعل الله -عز وجل- لها هذا الجرم الكبير مع امتداد العنق، وجعل الله -عز وجل- قوائمها طويلة، وذلك أدعى لقطع المسافات، فهي بحركات يسيرة في هذه القوائم تقطع ما لا يقطعه ذو القوائم القصيرة كما هو معلوم، ولهذا إذا مشى الكبير مع الصغير الكبير يمشي على رسله والصغير يشتد ولا يدرك، فهذه الإبل جعل الله لها هذه القوائم الطويلة لمّا كانت معدة للأسفار، ولما كانت في الأماكن التي تكثر فيها الرمال جعل لها هذه الخفاف العريضة، وجعلها مبطنة لينة، وكذلك أيضاً جعل لها هذه الأعناق الطويلة بحيث تستطيع الوصول إلى الأرض، فلم تكن أعناقها كأعناق البقر أو الخيل أو الغنم فلا تستطيع الوصول إلى النبات إلا بأن تكون باركة أو نحو ذلك، فجعل لها أعناقًا طويلة تستطيع أن تمد هذه الأعناق وتأكل من الشجر، وجعل لها هذه الخزائن فوق ظهورها -السنام- بحيث إنها تستطيع الصبر على السير الطويل فتبقى مدة لا تأكل ولا تشرب بحيث تكون معدة صالحة لأسفارهم، فلو كانت مثل الإنسان إذا مشى بضعة كيلو مترات فإنه لا يكاد يستطيع السير إلا بأن يشرب، أو لربما يأكل فلو كانت بهذه المثابة لم تكن صالحة لما أعدت له من الأسفار، وهكذا في قوتها، وتحملها فيحمل عليها الأحمال الثقيلة وهي باركة ثم تقوم، ولهذا ذكر جمع من أهل العلم كأبي عمرو بن العلاء وابن جرير والزجاج ذكروا هذا الملحظ أنها الوحيدة من الدواب والبهائم التي تُحمل الأحمال عليها وهي باركة، أما البقية فإنها لو حمل عليها وهي رابضة فإنها لن تستطيع النهوض، لو حمل على الحمير أو البغال مع قوتها فإنها لا تستطيع النهوض، أما هذه فيحمل عليها وهي باركة عادة ثم بعد ذلك تقوم بهذه الأحمال الثقيلة، فهذه من آيات الله -تبارك وتعالى- إضافة إلى أشياء كثيرة في خلقها ذكرنا بعض ذلك في الكلام على الأسماء الحسنى.

ولم يذكر لهم الفيل مثلاً أو الزرافة أو نحو هذا؛ لأنها ليست ببلادهم، والقرآن خاطب العرب بما يعهدون سواء في دلائل القدرة أو في نعيم الجنة أو عذاب النار، ولذلك ذكر لهم الفواكه التي يعرفون، وذكر لهم الطلح المنضود على القول المشهور بأنه شجر الشوك، فيكون قد قُطع شوكه، وخُضد، طلح لا شوك فيه هذا أمنية عندهم، هذه أحلام أن يوجد شجر له ظل في بلادهم الحارة وليس له شوك؛ لأن العضاه من الشجر في بلاد العرب في بلاد الحجاز خاصة هذا كثير الشوك بحيث لا يستطيع الإنسان الجلوس والانتفاع تحته في هذا الظل إلا بعمل شاق، بإزالة هذه الأشواك العالقة تحته، وهي أشواك كبيرة جدًّا لربما تكون بقدر المُسبِّحة وقوية وجافة -يابسة-، أمّا طلح ليس فيه شوك فهذا شيء يتخيلونه ويتمنونه، فهذا يُلفت -تبارك وتعالى- أنظارهم فيه إلى قدرته -جل جلاله-، ومن الأقوال الغريبة المستبعدة جدًّا ما قاله المبرد من أن المقصود بالإبل في **{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}** قال: قطع السحاب العظيمة، هذا في غاية الغرابة، وهو خلاف قول المفسرين وأهل اللغة مع إمامته في اللغة، لكن على كل حال ذكر لهم الإبل والعلماء يتكلمون في مثل هذا لماذا ابتدأ بالإبل، ثم بعد ذلك ثنى بالسماء، ثم ثلث بذكر الجبال، ثم ربع بعد ذلك بذكر الأرض؟ يتكلمون في هذا -والله تعالى أعلم بمراده-، يقولون: أول ما يعافس، أول ما يخالط، أول ما يركب الإبل، والسماء فوقه يراها فإذا رفع رأسه فالسماء في كل ناحية، والجبال منتصبة أمام ناظره، والأرض تحته.

قال تعالى: {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} أي: جعلت منصوبة فإنها قائمة ثابتة راسية؛ لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

فهذه الجبال في خلقها تدل على عظمة الله -عز وجل-، ولكن الإلف هو الذي يقطع على الناظر ذلك إذا ألفها، ولذلك لو ذهب الإنسان إلى بيئة جديدة -أعني في بعض المحال والنواحي- ونظر إلى بعض الجبال الغريبة التي لا عهد له بها في ألوانها وأشكالها فإنه يقف مندهشًا أمام عظمة الله -عز وجل- وقدرته، الجبال التي يعهدها قد يألف ذلك، ولا يحرك فيه ساكنًا، لكن إذا ذهب إلى جبال أخرى لا عهد له بها بتشكيلها وألوانها والتفافها وما فيها من الآثار الغريبة العجيبة والتشكلات في صخورها ونحو ذلك يراها شاهقة بارزة فيقف أمامها متذكرًا عظمة الله -عز وجل.

قال الله تعالى: {وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

هنا ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى الترتيب وإن لم يصرح بوجه ذلك، لكن كلامه هذا هو الذي يذكرونه، لماذا ذكر هذا أولاً ثم ثانيًا ثم ثالثًا، فهو يقول: هذا الناظر أو البدوي بما يشاهده من بعيره الذي هو أقرب شيء إليه، والسماء التي فوقه، والجبل الذي يكون مقابلاً له، والأرض التي تحته، فمثل هذه الأشياء الإلف يحول دونها، يعني نحن لكثرة ما نشاهد من الإبل الأمر عادي لكن الناس الذين لا عهد لهم بالإبل، فإذا رأوا بعيرًا فهذا عندهم شيء هائل يقفون وينظرون ويتفرجون ويتأملون في ملامحه وتقاطيعه وخلقه وتفاصيله، رأيتم هذا، بل هم لربما في بلاد الغرب إذا عرفوا أنك من أهل هذه البلاد كما يقول لي أحد المشايخ الذين عندهم مواقع للفتيا ومواقع للإجابة على الأسئلة ويردهم من هناك أشياء كثيرة من الطرائف أن بعض الأطفال والصغار هناك يقول: أرسل لي صورة جمل، يريد أن يرى صورة الجمل، وهؤلاء إذا جاءوا إلى حديقة حيوان أو إلى مكان فيه جمل اجتمعوا عليه ينظرون ويتعجبون، فهذا السبب هو الإلف نحن ألفنا هذه الأشياء فلا نعجب منها، لكن لما جيء بفيل إلى المدينة في فتوح العراق خرج النساء والصبيان -خرج أهل المدينة- ينظرون إلى الفيل، لكن في بلاد فارس، أو بلاد الهند الأفيال تمشي في الهند في الشوارع، وفي أماكن تجمّع الناس، ولا يتوقف أحد ولا ينظر أحد، شيء عادي بالنسبة إليهم، لكن هنا لو جيء بفيل يطوف في الشوارع لخرج أهل البلد يتفرجون عليه؛ لأنه غير معهود بالنسبة إليهم، ولهذا بعض أهل العلم يقول: لو أن أحدًا من الناس ولد في مكان لا يرى فيه شمسًا ولا قمرًا ولا أرضًا ولا بحرًا ولا سماء ولا ليلاً ولا نهارًا منذ أن ولد حتى شب ما رأى شيئًا، جالس في بيت لا يرى فيه نوافذ ثم بعد ذلك خرج وقت طلوع الشمس مثلاً، أو خرج في الليل فهو طول الوقت لا يمكن أن ينام، ينظر إلى هذه النجوم، وينظر إلى القمر ويتأمل ثم بعد ذلك طلوع الفجر، طلوع الشمس يرقبها حتى تغيب، فإذا قدر له أنه رأى البحر فهذا أمر بالنسبة إليه هائل يملأ قلبه من الإيمان، وتعظيم الله -عز وجل-، والخوف منه، لذلك انظر إلى الناس الذين ما رأوا البحرَ البحرُ يشدهم، ويستهويهم ويقفون أمامه منبهرين، الناس الذين ما رأوا الأنهار قط إذا رأوا نهرًا فهذا بالنسبة إليهم أمر

عظيم، أما الذين يعيشون على الأنهار فهذا لا يحرك فيهم ساكنًا، الإلف، ولذلك لكسر هذا الإلف يمكن للإنسان أن يقلب النظر، وينظر إلى أشياء أخرى غير معهودة بالنسبة إليه، وهذا اليوم متاح جدًّا المقاطع التي توجد الآن في الإنترنت من عجائب خلق الله ما شئت من أشياء غير معهودة بالنسبة لك، صور جبال، أشياء تتعلق بالأنهار، بالأشجار أشجار غريبة عجيبة جدًّا، انظر على سبيل المثال بلاد قريبة عندنا هنا اليمن فيها جزيرة اسمها سقَطرى، هذه الجزيرة من أعجب الجزر في العالم، افتح في النت واكتب في جوجل سِقطرى وطالع هذه المخلوقات العجيبة التي فيها، طالع أنواع الأشجار النادرة في العالم التي بعضها يشبه الحيوانات، يعني أحيانًا ما تدري هذه شجرة أو حيوان، أشياء عجيبة غريبة، فإذا جلست تنظر إليها تقف مندهشاً، لكن الذين يعيشون في تلك الجزيرة بالنسبة إليهم هذا عادي لا غرابة فيه، ولا يحرك ساكنًا، وقل مثل ذلك في أشياء تشاهدها أحيانًا: عيون في أماكن، عيون في الجبال، عين في وسط الجبل، العين تخرج من الجبل هكذا ما هو من الأرض، من الجبل، وعجائب وغرائب، فهذا يمكن أن يحرك قلب الإنسان من جهة دلائل القدرة لله –عز وجل–، هذا غير المخلوقات الدقيقة جدًّا، غير الصور التي لربما تكون عولجت بالتسريع الهائل فترى الليل وهو يعقب النهار وكيف يكور الليل على النهار والنهار على الليل، صورة حقيقية، كذلك الصور التي تبين لك الأرض من بعيد صورة حقيقية تقربها حتى تصل إلى بيتك، أما صور الكواكب الحقيقية والنجوم والأشياء فهذه أشياء هائلة موجودة في حركتها.

وهكذا أقسم ضِمام في سؤاله على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كما رواه الإمام أحمد عن ثابت عن أنس –رضي الله عنه–، قال: كنا نُهينا أن نسأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك،...

كلمة زعم تأتي لعدة استعمالات، أحيانًا للقول الذي يُوهَّن للتكذيب، {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} [سورة التغابن:٧]، وأحيانًا تأتي بمعنى قال وهذا منه.

...قال: ((صدق))، قال: فمن خلق السماء؟ قال: ((الله))، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: ((الله))، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: ((الله)) قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: ((نعم))، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: ((صدق))، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: ((نعم))، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا، قال ((صدق))، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: ((نعم))، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا، قال: ((صدق))، قال: ثم ولى فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((إن صدق ليدخلن الجنة))[2].

ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

---

٢ – رواه النسائي، كتاب الصلاة، باب كم فرضت في اليوم والليلة، برقم (٤٥٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٧٩٤).

وقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار، أي: لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وقال ابن زيد: لست بالذي تُكرههم على الإيمان.

روى الإمام أحمد: عن جابر -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله -عز وجل))، ثم قرأ: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[3]، وهكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} يعني مهمتك هي التذكير، وليس الإكراه والإجبار لهؤلاء على الإيمان فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} قال ابن عباس ومجاهد: بجبار، يعني لست تخلق الإيمان في قلوبهم، أو كما قال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان، يعني المصيطر هو المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعاهد أحواله، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- الله أخبر أنه ليس على الخلق بهذه المثابة، كما أنه ليس بوكيل ولا بحفيظ {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [سورة النساء:80]، إنما مهمته -عليه الصلاة والسلام- البلاغ المبين.

قال: وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم...))، هنا لم يقل: أمرت أن أقتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وإنما قال: أمرت أن أقاتل الناس، وفرق بين القتل وبين القتال، فهو يقاتلهم حتى يذعنوا للإسلام وينقادوا له، أما أهل الكتاب فإنهم يخيرون بين الإسلام ودفع الجزية لكنه لا يوضع السيف على رأس الواحد من هؤلاء فيقال له: تُسلم أو تقتل، أما أهل الإشراك من غير أهل الكتاب -على خلاف في المجوس- فإن هؤلاء يمكن أن يقتل الواحد منهم إذا أسر، ويمكن أن يسترق أو أن يترك مجاناً تؤخذ منه الفدية، المقصود أنه بعينه لا يكره بالقتل فيقال: ادخل في الإسلام وإلا قتلناك، هذا لا يوجد، وما جاء عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في القوم الذين يدخلون الجنة بالسلاسل فُسر بهذا، أي الأسرى يؤخذون فيهدي الله قلوبهم فيدخلون في الإسلام، فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أمرت أن أقاتل الناس))، ما قال: أمرت أن أقتل الناس، ومن ثم قال الله -عز وجل-: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [سورة البقرة:256] فلا يُكرَه أحد على الدخول في الإسلام، ولكن يُقاتَل الناس على الإسلام فتكون بلادهم خاضعة لحكم الإسلام، لحكم الله -عز وجل-، أن تكون كلمة الله هي العليا، فيبقى هؤلاء إن كانوا من أهل الكتاب من أهل الذمة؛ فإن أهل الذمة هم أهل البلاد الأصليون إذا دفعوا الجزية وعاقدوا المسلمين على هذا فيبقون ولا يكرهون على الدخول في الإسلام، وقد بقي هؤلاء منذ ذلك الحين، النبي -صلى الله عليه وسلم- فتح خيبر وأقر اليهود فيها، إلى غير ذلك من البلاد الكثيرة التي فتحها المسلمون وما

---

3 - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:5]، برقم (25)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، برقم (21)، واللفظ له.

كانوا يأخذون الواحد ويقولون له: تُسلم وإلا ضربنا رأسك بالسيف، إطلاقًا، فهنا قوله: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}** لا منافاة مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)).

وقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ} أي: تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة:٣١-٣٢]**، ولهذا قال: {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}.**

لاحظ الاستثناء هنا **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ}** الاستثناء هنا هل هو متصل يعني **{إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ}** فأنت مسلط عليه تقتله مثلاً؟، لا، ليس كذلك، هذا الاستثناء منقطع أي فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر لكن من تولى وكفر فالله يعذبه العذاب الأكبر، هكذا يكون المعنى حتى من قالوا: إنه استثناء متصل قالوا: إنه يرجع إلى قوله: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ}** يعني أنت مذكر لمن أقبل على الذكرى وانتفع بها لكن من تولى وكفر ممن ينقطع طمعك في إيمانه وهدايته فلا شأن لك به، أو ذكِّر من تطمع في إيمانه كما سبق في **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}** هكذا قال بعض أهل العلم، والأول أقرب: أن الاستثناء منقطع، أي لكن من تولى وكفر فالله يعذبه العذاب الأكبر ولست أنت.

وقوله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} أي: مرجعهم ومنقلبهم، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفجر من الآية (١) إلى الآية (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة الفجر الموضوع الذي تتحدث عنه هو: الجزاء، فهؤلاء الذين لربما يغترون بقوتهم، ويغترون بأموالهم، ويغترون بكثرة ما عندهم من الجموع، ويغترون بما عندهم من الإمكانات الهائلة الله -تبارك وتعالى- قادر على أخذهم، فقد أخذ هؤلاء الذين قبلهم من قوم عاد، وكذلك أيضاً ثمود، وفرعون، فهؤلاء أهلكهم الله -تبارك وتعالى-، وهو بالمرصاد لمن كان على طريقهم، ومشاكلاً لهم، كما قال الله -عز وجل- بعدما ذكر عقوبة قوم لوط: **{وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}** [هود: ٨٣]، فمن فعل فعلهم فإن عذاب الله -عز وجل- ينزل به، ونقمته تحل بهؤلاء المجرمين، فيمكن أن يقال: هذا هو مجمل ما تدور عليه السورة، حيث ذكر الله -عز وجل- هذه الأقسام، وبعدها ذكر هذه الأمم القوية المكذبة، وما حصل لهم من العقوبات، ثم توعد بعدها من كان على شاكلتهم، وما ذكر من الآيات بعد ذلك من حال الإنسان في حالة الابتلاء بالنعمة أو بالمكروه كل ذلك يرجع إلى ما سبق من أن هذه المعايير: القوة والضعف والحاجة والمسكنة والفقر وإلى آخر هذه الأشياء، كل هذه يغتر بها الإنسان، ويترفع بها، ويظن أن ذلك لمنزلة له عند الله، أو نحو ذلك، فهذا كله غير صحيح، والله يبتلي الناس بهذا وهذا، وسيجازي الجميع، وسيحاسبهم، كما حاسب الذين من قبلهم، وجازاهم في الدنيا بالعذاب المستأصل.

قال -رحمه الله-: روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطول، فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذًا، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه فطول عليّ، فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفتان يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والفجر، والليل إذا يغشى؟))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١-١٤].

---

١ - أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: **{وَالشَّفْعِ}** [الفجر:٣]، رقم: (١١٦٠٩).

قال المصنف -رحمه الله-: أما الفجر فمعروف، وهو: الصبح، قاله عليٌّ وابن عباس -رضي الله عنهم- وعكرمة ومجاهد والسدي.

وعن مسروق ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو: خاتمة الليالي العشر.

والليالي العشر المراد بها: عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعا: ((ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام)) يعني: عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء))[٢].

وروى الإمام أحمد: عن جابر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر))، ورواه النسائي، وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة[٣]، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالْفَجْرِ}** هنا لم يحدد فجر يوم بعينه، فأطلقه، والأصل: بقاء المطلق على إطلاقه، والعام على عمومه، حتى يرد ما يقيد أو يخصص، فالله أقسم بالفجر كما أقسم بالعصر، كما سيأتي، ولم يقيد ذلك بعصر يوم معين، فهذا الفجر يحمل على هذا الإطلاق: أن الله أقسم بالوقت المعروف، الذي هو وقت الفجر، الذي يبدأ من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس، فهذه المدة تصل إلى ما يقرب من ساعة ونصف، تزيد قليلاً وتنقص قليلاً بحسب المواسم، فهذا يقال له: الفجر، وهذا وقت لصلاة الفجر، كما قال ربنا -تبارك وتعالى-: **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** [الإسراء: ٧٨] يعني: صلاة الفجر، **{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** [الإسراء: ٧٨]، أي: تشهده ملائكة الليل والنهار، بل من تتبع الروايات الصحيحة الواردة في هذا المعنى فإنه سيجد في بعضها -أي في بعض الروايات الصحيحة-: أن الله -تبارك وتعالى- حينما ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الآخر كل ليلة، أن هذا النزول يمتد، ويبقى إلى صلاة الفجر، وأن ذلك يمكن أن يدخل تحت قوله: **{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** [الإسراء: ٧٨]، أي: يشهده الله وملائكته، ولكن المشهور: أن ذلك بشهادة الملائكة.

فهذا وقت لهذه الصلاة الشريفة، وهو وقت شريف، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((بورك لأمتي في بكورها))[٤]، وذلك أشرف أوقات اليوم، وأجل أوقات اليوم، ومبعث النشاط والحركة والانتشار، فأقسم الله -عز وجل- به.

---

٢ - أخرجه البخاري، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم: (٩٦٩).

٣ - أخرجه أحمد، رقم: (١٤٥١١)، وقال محققو المسند: هذا إسناد لا بأس برجاله، وأبو الزبير لم يصرح بسماعه من جابر، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الفجر، رقم: (١١٦٠٧)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٨/٤٠٨)، رقم: (٣٩٣٨)، وقال: منكر، وهذا إسناد رجاله ثقات؛ إلا أنه معلول بعنعنة أبي الزبير؛ فإنه مدلس.

وأما قول من قال كما يقول هنا: **الفجر: معروف، وهو الصبح** فهذا الذي اختاره ابن جرير، وسمى هؤلاء الذين قالوا بذلك، يقول: **وهو: الصبح، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي**، وهو اختيار ابن جرير.

القول الآخر الذي هو قول مسروق ومحمد بن كعب، وأيضاً قال به مجاهد في رواية عنه: إن المراد: فجر يوم النحر خاصة، لماذا قالوا ذلك؟ قالوا: خاتمة الليالي العشر، وذكر بعده الليالي العشر، فقال: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، لكن هذا فيه نظر -والله أعلم-؛ لأنه لا دليل عليه، فالله -عز وجل- أطلقه، ونحن نطلق ما أطلقه الله، فالله أطلق ذلك فنحن نطلق ما أطلقه؛ ولهذا يقال: الفجر هو: الوقت المعروف.

وأما قتادة فحمل ذلك على فجر أول يوم من شهر محرم؛ لأنه منه تنفجر السنة، وهذا بعيد جدًّا، بل هو غلط؛ لأن ابتداء السنة الهجرية من شهر محرم إنما كان بتوقيت الصحابة، فهذا كله بتوقيت الصحابة -رضي الله عنهم- في زمن خلافة عمر -رضي الله عنه-، فاعتبار الفجر هو فجر أول يوم من شهر محرم غير صحيح، والله تعالى أعلم.

وأما الضحاك فيقول: فجر ذي الحجة، يعني: لاقتران قوله: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، وبهذا قال السدي.

وبعضهم يقول: فيه تقدير: ورب الفجر، وهذا لا حاجة إليه؛ لأن الله -عز وجل- يقسم بما شاء من مخلوقاته، وهذه التقديرات: وربِّ كذا، تجدونها في أقوال بعضهم عند تفسير مثل هذه المواضع التي يقسم الله -عز وجل- بها بشيء من المخلوقات.

والقاعدة: أن القسم لا يكون إلا بمعظم، فإذا رأيت الله -عز وجل- أقسم بشيء فهذا يدل على أن هذا الشيء معظم، فهذا الوقت وقت الفجر وقت له مزية، وله شرف، وهو أشرف أوقات اليوم.

قوله: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، الليالي العشر هنا قال: "**المراد بها: عشر ذي الحجة**"، هكذا قال عامة أهل العلم، فهم يقولون: العشر من ذي الحجة، وهذا قول الجمهور، واختاره ابن جرير، ولم يُجِز مخالفة هذا القول لإجماع الحجة، وعرفنا أن الحجة عند ابن جرير تعني: قول الجمهور، وإلا فهناك أقوال أخرى، فالضحاك يقول: العشر هي: العشر الأواخر من رمضان، وكأن الذي حمله على هذا: أن الله ذكر الليالي، فقال: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، والعشر الأواخر من رمضان فيها ليلة القدر، وهي: ليلة خير من ألف شهر، ولهذا العلماء يختلفون في الأفضل: هل هي العشر الأواخر من رمضان أو العشر الأول من ذي الحجة؟ فبعض أهل العلم كما مشى على ذلك ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن أيام عشر ذي الحجة أفضل، وإن ليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل، وعلل ذلك بأن عشر ذي الحجة قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- كما سبق: ((ما من أيام...))، والعشر الليالي الأواخر من رمضان فيها ليلة القدر، وهي: خير من ألف شهر، ولكن هذا أيضاً لا يخلو من

---

٤ - أخرجه الترمذي، أبواب البيوع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم: (١٢١٢)، وقال: حديث حسن، وأبو داود، أول كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم: (٢٦٠٦)، وابن ماجه، أبواب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور، رقم: (٢٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧/ ٣٦٠)، رقم: (٢٣٤٥)، وقال: حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، وقوّاه ابن عبد البر والمنذري والحافظ ابن حجر والسخاوي.

إشكال، وذلك: أن العرب تطلق الأيام وتقصد معها الليالي تبعًا لها، وتطلق الليلة وتقصد ما يتبعها من اليوم؛ لذلك ذكرنا في الكلام على الاعتكاف: أنه لو نذر أن يعتكف ليلة فهل يلزمه أن يعتكف ليلة في الليل فقط، أي: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، أو أنه يعتكف ليلة مع يومها؟ ذكرنا هناك أن ذلك بحسب نيته، فالأصل: أن الليلة يتبعها اليوم، لكن العرب قد تطلق الليلة وتريد بها الليلة فقط، وقد تطلق اليوم وتريد اليوم فقط، وقد تطلق ذلك وتريد به الليلة مع يومها، فكل هذه الإطلاقات معروفة في كلام العرب؛ ولهذا يُرجع إلى نيته، يقال: ماذا نويت؟ ما الذي قام بقلبك؟ هل أنت تريد أن تعتكف ليلة مع يومها أو الليل فقط؟.

العشر الأواخر من رمضان فيها ليلة القدر، وهنا الله -عز وجل- قال: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، فكأن من قال كالضحاك: إن المقصود بالليالي العشر التي أقسم بها هي: العشر الأواخر من رمضان، كأنه نظر إلى اللفظ: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**، والمعنى: من جهة أن فيها ليلة القدر، والذين قالوا: العشر الأول من شهر ذي الحجة قالوا: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من أيام..))، قيل لهم: ولكن الله ذكر هنا الليالي، قالوا: العرب تذكر اليوم وتقصد ليلته، وهذا الكلام صحيح؛ ولهذا عامة العلماء سلفًا وخلفًا يقولون: عشر ذي الحجة.

والذي يظهر -والله أعلم-: أن ليالي عشر ذي الحجة أفضل من ليالي العشر الأواخر من رمضان إلا ليلة القدر، وأما التفصيل الذي ذكره ابن القيم فقال: إلا الليالي؛ لأن فيها ليلة القدر، فيقال له: إن ليلة القدر مستثناة، لكن ليست جميع ليالي العشر فيها ليلة القدر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام)) فقال: ما من أيام، وهذه صيغة عموم، فإذا قلنا: الليلة تابعة لليوم إذًا ما من ليالٍ، ولم يستثنِ النبي -صلى الله عليه وسلم- ليالي العشر الأواخر من رمضان، لكن لما كانت ليلة القدر خيرًا من ألف شهر استثنيناها، فهذه مزية لها، فلهذا تكون هذه الليلة مستثناة، فالذي يظهر: أن أيام وليالي العشر الأول من شهر ذي الحجة أفضل؛ بناء على ظاهر الحديث، أي: أفضل من أيام وليالي العشر الأواخر من رمضان إلا ليلة القدر، وأما الذين استثنوا الليالي فقالوا: من أجل ليلة القدر، فيقال لهم: ليلة القدر مستثناة، وهي ليلة واحدة، وأما الليالي الأخرى التي ليست فيها ليلة القدر فتكون ليالي العشر الأول من شهر ذي الحجة أفضل؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل وقالوا له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ -والجهاد هو أعظم وأفضل وأجل الأعمال-، فقال: ((ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء))، وهذا الفضل ما ذكر في العشر الأواخر من رمضان، لا في لياليها، ولا في أيامها؛ ولهذا ما قالوا له: ولا العمل في العشر الأواخر من رمضان.

وعامة أهل العلم على أنها عشر ذي الحجة، فهي أفضل عشر في العام.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفجر من الآية (٣) إلى الآية (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ} [الغاشية: ٨]، يعني: في الجنة يظهر عليها أثر النعيم.

وقوله: {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} [الغاشية:٩]، أي: قد رضيت عملها الذي عملته في الدنيا، وهذا يقتضي رضاها بثواب هذا العمل، فمن فسره بالثواب فهو: تفسير باللازم.

وقوله: {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الغاشية:١٠]، أي: مرتفعة، وأعالي الأمكنة هي: الأشرف، وكذلك أيضاً هي: عالية القدر.

وقوله: {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} [الغاشية:١١]، أي: من هذا النعيم أنه لا يُسمع في هذه الجنة شيء من اللغو، وهو: الكلام الباطل الساقط الذي لا عائدة فيه، ولا فائدة.

وقوله: {فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} [الغاشية:١٢] أي: في هذه الجنة عين جارية، أي: عيون تجري، والماء الجاري لا شك أنه أنقى وأطيب؛ إذ إن جريه ينقيه ويطيبه، بخلاف الماء إذا كان قارًّا راكدًا، فإن ذلك يكون مظنة للتغير فيأسن، والجنة ليس فيها ماء آسن.

وقوله: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ} [الغاشية:١٣]، السرر المرفوعة يعني: في مواضعها، وهي أيضاً مرفوعة في قدرها، وهي أيضاً مرفوعة من كل دنس.

وقوله: {وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} [الغاشية:١٤] أي: هذه الأكواب قريبة المتناول من أيدي آخذها.

وقوله: {وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} [الغاشية:١٥] هي: الوسائد.

وقوله: {وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [الغاشية:١٦] أي: البسط الكثيرة في كل ناحية، حيث سرّحوا أنظارهم، فهم يتقلبون في النعيم حيث شاءوا.

ثم يلفت الأنظار إلى دلائل القدرة، فيقول: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية:١٧]، أي: خلقت بهذا الخلق الممتد بهيئتها وضخامتها وقوائمها وما يتصل بها من ألوان العجائب في خلقها.

ويقول: {وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} [الغاشية:١٨]، أي: هذا البناء الضخم الهائل من غير أعمدة، ولا حاجة إلى رافعة.

ويقول: {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} [الغاشية:١٩]، أي: كيف صارت بهذه الهيئة شاهقة في قممها، ولو اجتمع الناس على أن يخلقوا مثلها لما استطاعوا.

ويقول: {وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية:٢٠]، فصارت مبسوطة يسير الناس عليها من غير كلفة ولا مشقة، ويزرعون، ويحصل لهم بذلك أنواع المنافع.

ثم قال بعد ذلك: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} [الغاشية:٢١]، أي: هذه هي مهمتك، والشواهد والدلائل والحجج والبراهين قائمة على هؤلاء، والله -عز وجل- سيتولى جزاءهم وحسابهم.

ثم قال: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢٢] أي: فأنت لا تكرههم ولا تجبرهم ولا تقهرهم على الإيمان.

قال: {إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ} [الغاشية:٢٣]، أي: لكن من تولى وكفر فالله -تبارك وتعالى- يعذبه، كما قال: {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} [الغاشية:٢٤]، وذلك في نار جهنم.

ثم قال: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} [الغاشية:٢٥] أي: فهم يرجعون إليه، ثم يحاسبهم بعد ذلك؛ فلذلك قال: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية:٢٦].

وأما سورة الفجر فقلنا: إنها تتحدث في مجملها عن الجزاء.

وأما قوله: {وَالْفَجْرِ} [الفجر:١] فيقسم بالفجر بإطلاق، فيدخل فيه فجر عرفة، وفجر يوم النحر، وغير ذلك، فالفجر وقت شريف، وهو: أجل أوقات اليوم.

وقوله: {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر:٢]، يقسم بالليالي العشر، والليالي العشر هي: العشر من ذي الحجة، وهي أفضل عشر في العام، وفيها أعمال الحج.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله تعالى: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [الفجر:٣]، قد تقدم في هذا الحديث[1] أن الوتر: يوم عرفة؛ لكونه التاسع، وأن الشفع: يوم النحر؛ لكونه العاشر، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً، وفي تفسيرهما أقوال أخرى.

هذا التفسير على اعتبار الحديث السابق من أن الوتر هو: يوم عرفة، وأن الشفع هو: يوم النحر، ولكن الحديث ضعيف؛ فبسبب ذلك اختلفت أقوال أهل العلم في المراد بالشفع والوتر، والظاهر -والله تعالى أعلم-: أنه مطلق في كل شفع وفي كل وتر، وذلك لأن الله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، كما سبق في الفجر، فلم يخص شيئاً بعينه مما يصدق عليه أنه شفع، أو يصدق عليه أنه وتر، فيعم ذلك كل شفع ووتر، فيدخل في ذلك أقوال السلف التي قالوها في الشفع والوتر، فإن ذلك يصدق عليه، ويتناوله كما يتناول غيره مما يحتمله المعنى، -والله تعالى أعلم-، فهذا يعم كل الأشياء شفعها ووترها، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: شفع الليالي ووترها، وهذا مما يدخل في المعنى كما سبق،

---

١ - إشارة إلى الحديث المتقدم -في الدرس السابق- الذي رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٤٥١١): عن جابر -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر))، وقال عقبه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "ورواه النسائي، وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة"، وقال محققو المسند: "هذا إسناد لا بأس برجاله، وأبو الزبير لم يصرح بسماعه من جابر"، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الفجر، رقم: (١١٦٠٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٨/ ٤٠٨)، رقم: (٣٩٣٨)، وقال: "منكر، وهذا إسناد رجاله ثقات؛ إلا أنه معلول بعنعنة أبي الزبير؛ فإنه مدلس".

وهكذا ما جاء عن قتادة: شفع الصلاة ووترها، فهذا كله مما يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، فالصلاة منها شفع ومنها وتر، سواء كان ذلك في الفريضة، كالمغرب فهي: وتر، والصلوات الأخرى هي: شفع، وكذلك في غير الفريضة، وبعضهم يقول: الشفع هم الخلق، والوتر هو الله -تبارك وتعالى-، فهو أحد فرد صمد، وهذا قال به طائفة من السلف، كمحمد بن سيرين ومسروق وأبي صالح وقتادة، وبعضهم يقول غير ذلك، كقول من قال: الشفع هي: عشر ذي الحجة، والوتر هي: أيام منى الثلاثة، فالعشر شفع، والثلاثة وتر، وبعضهم يقول: الشفع هو: اليومان من الثلاثة، أي: من أيام منى، والوتر هو: اليوم الثالث، وكل هذا مما يمكن أن يكون من قبيل التفسير بالمثال.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}** هكذا بفتح الواو، هذه قراءة الجمهور، وهي: لغة لقريش، وأهل الحجاز، تقول: نصلي الوَتر، بفتح الواو، وتقول: هذا عدد وَتر، وهذا عدد شفع، وهؤلاء وَتر، وهؤلاء شفع، يعني: لا يختص بالآية، فهي لغة بالفتح.

والقراءة الأخرى، وهي أيضا: لغة، لكنها ليست لقريش، وإنما لتميم، وهي: بكسر الواو: **{وَالشَّفْعِ وَالْوِتْرِ}**، فهي: قراءة متواترة لحمزة والكسائي، فمن قرأ بهذا أو بهذا فالأمر واسع، أي: **{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}** أو **{وَالشَّفْعِ وَالْوِتْرِ}**، فهاتان لغتان، وقراءتان متواترتان.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} [الفجر:٤]، قال العوفي عن ابن عباس: أي: إذا ذهب، وقال عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما-: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} حتى يذهب بعضه بعضًا، وقال مجاهد وأبو العالية وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} إذا سار.

قوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** فيه ثلاثة أقوال: الأول: إذا ذهب، والثاني: حتى يُذهب بعضه بعضاً، والقول الثالث: إذا سار، أي: والليل إذا سار، كما يقول ابن جرير: سار فذهب، يعني: أقسم بالليل في حال سريانه، فأقسم بالفجر، وأقسم بالليل في هذه الحال؛ ولهذا بعضهم قال -وهو قول روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الفجر فُسر بالنهار، وهذا استبعده المفسرون، باعتبار أن الفجر ليس هو النهار، لكن لو أردنا أن نوجه هذا القول لو صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- يقال: إنه قابله بالليل، فالنهار ليس الفجر فقط، وإنما عبر عن النهار بأشرف أوقاته وهو: الفجر، هذا لو أردنا أن نوجه هذا القول، لكني تركته؛ لأن المشهور والذي عليه عامة أهل العلم خلاف ذلك، وهناك أيضا رواية أخرى عن ابن عباس، وإلا فيمكن توجيهه بهذه الطريقة، لكن هذه هي القرينة على ذاك القول الذي أغفلت ذكره، وهي: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**، أي: أنه قابل هذا بهذا، والله تعالى أعلم.

ونلاحظ هنا: أن هذا الفعل: **{يَسْرِ}** حذفت منه الياء، فما قال الله: والليل إذا يسري، بل حذفت في الرسم، وحذفت أيضاً في اللفظ، أي: في القراءة، فنقرأ: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**، وما نقرأ: يسري، فما علة ذلك؟ ولماذا حذفت هذه الياء؟ انظر إلى همم العلماء في البحث عن خبايا القرآن، وإن كان الجواب لا يخلو من إشكال -أي: فيما سأورده الآن- فالأخفش إمام في اللغة يقول: سألت المُؤرِّج عن هذه العلة: لماذا حذفت الياء؟ فماذا قال له؟ وبماذا طالبه؟ قال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، انظر إلى هذا، فبعض الإخوان يستكثر إذا قيل له: تعال بعد الصلاة، في حال إذا كان عنده سؤال بعدما يجلس الواحد هنا ويجيب على جميع الأسئلة

وينتهي الوقت، فإذا قيل له: انتظر، أو بعد الصلاة، أو نحو ذلك يستطيل هذا، ويستكثر، وبعض الإخوان يوافق، ولكن يأتيك قبل الأذكار، فأول ما نسلم يأتي ويسألك، فإذا قيل له: انتظر نكمل الأذكار يذهب ولا يحتمل، وهذا يقول له: حتى تبيت على بابي سنة، ونحن نعتكف عشرة أيام ونرى أنه تطاولَ الليلُ والنهار، متى تنتهي هذه العشر؟، وانظر إلى الحال ليلة العيد إذا أعلن انتهاء الشهر، كأننا ننفر من أيام منى، فالناس يسرعون إلى أمتعتهم وكأنهم سيدركون ماذا -وأنا منهم-، يقول الله: **{خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}** [الأنبياء:٣٧]، وتأمل هذا في ليلة العيد، وانظر كيف ينفر المعتكفون أسرع ما يكونون، تمامًا كما ينفرون من منى في اليوم الثاني عشر، فهم في غاية الإسراع.

يقول: حتى تبيت على بابي سنة كاملة، فبات على بابه سنة، يقول: بت على باب داره سنة؛ من أجل أن يحصل على هذا الجواب المبارك، هذا هو الصبر والهمم، ماذا قال له في الجواب بعد سنة؟ الجواب فيه نظر أصلاً، قال له: الليل لا يسري، الله -عز وجل- قال: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**، ولكن هو قال له: الليل لا يسري، وإنما يُسرَى فيه، فهو مصروف عن جهته، يعني: أضيف الفعل إليه، يقول: وكل ما صرفتَه عن جهته بخستَه من إعرابه، فسقطت الياء؛ لأنه مصروف عن وجهه، هذا جواب غلّطه فيه العلماء من أهل اللغة ومن المفسرين، وقالوا: هذا كلام غير مقبول، وغير صحيح، وليس كل ما صرف عن وجهه بخس من إعرابه، وذكروا أمثلة لذلك مما صرف عن وجهه ولم يبخس من إعرابه، وردوا عليه، وقالوا: الأصل هنا إثبات الياء؛ لأنه لا يوجد موجب لحذفها، وهي حرف علة، وحرف العلة يحذف في حالة الجزم إذا كان الفعل مجزومًا، وهنا لا يوجد، فالأصل إثبات الياء، فهي لام الفعل المضارع المرفوع: يسري، وهذا ليس بمجزوم، فلم تحذف لعلة، وهي: الجزم، إذًا قالوا: هذا لاتباع رسم المصحف، ومراعاة رءوس الآيات فقط، وإلا فالفعل مرفوع، فقال: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**؛ اتباعا للرسم، ومراعاة لرءوس الآيات: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** [الفجر: ١ - ٤] فلو قيل: والليل إذا يسري لصار ذلك مباينًا لرءوس الآيات، غير موافق لها.

على كل حال إنما ذكرت قول المؤرج لمّا سأله الأخفش؛ للعبرة، ففيه فائدة فيما يتصل بالهمة في طلب العلم.

وقوله تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر:٥] أي: لذي عقل ولبٍّ وحِجا ودين، وإنما سمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت؛ لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حجر اليمامة، وحَجَر الحاكمُ على فلان إذا منعه التصرف.

حجر البيت معروف أنه يمنع الطائف؛ لأن بعضه جزء من الكعبة، فلا يصح الطواف دونه، وأما حجر اليمامة فاليمامة معروفة، وهي: التي في نجد، وحجر اليمامة ناحية هناك، وبعضهم يقول: إنها تضم قرى، بعضهم يقول: خمس قرى أو نحو ذلك.

على كل حال هي المنطقة القريبة من الرياض عند الخرج، فهناك موضع اليمامة، وتجدونهم في كتب اللغة ومعاجم البلدان يذكرون هذا، مع أنك إذا نظرت إلى ضبطهم للفظة تجدهم يضبطونها -كما سبق-: حَجَر اليمامة، حِجْر اليمامة، حَجْر اليمامة، من غير ضبط بالحروف، وإنما فقط بالحركات، والحركات هذه يحصل فيها الخطأ كثيرًا، ومن لطائف الحموي صاحب معجم البلدان المتوفى سنة ستمائة وست وعشرين هجرية أنه

ذكر الوشم أيضاً، وذكر القرى التابعة للوشم، وذكر منها أشيقر وشقراء، وهذا قبل عام ستمائة وستة وعشرين، وذكر ثرمداء، هذه البلاد المعروفة اليوم، لكن ما ذكر القصب، ربما ذكرها في موضع آخر، فهذه بلاد تاريخية قديمة جدًّا، سبحان الله! مع أنها صغيرة، إلا أنها لا زالت باقية، وبنفس الأسماء، فهي كانت إلى عهد قريب يعني: قبل أقل من خمسين سنة، أو خمسين سنة، أو نحو ذلك كانت قرى صغيرة جدًّا، وأهلها إذا خرجوا منها وذهبوا إلى الناحية القريبة القديمة منها يتعجبون: كيف كانوا يعيشون فيها، وما هذه التي كانوا يسكنونها، وكيف كانوا فيها قبل أن يتفرقوا منها، وتجمعهم مع صغرها!، ومع ذلك بقيت هذه المدد الطويلة، وهكذا إذا قرأت في كتب البلدان تجد بلادًا تظن أنها طارئة جديدة من صغرها، وهي في الواقع قديمة جدًّا، وتجد كثيرًا من البلدان التي كانت مشتهرة، وتسمى هناك، ويقولون: هي معروفة، ولا يُحتاج أن يؤكد على موضعها تمامًا بدقة، تجدها مندثرة لا تعرف اليوم، فالله –تبارك وتعالى– يقضي ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقد رأيت في بعض النواحي قرى وأشياء مندفنة لا أعرف كيف استخرجوها وعرفوها، فسألتهم، فقالوا: عرفوا بصور جوية أن تحت الأرض هذه الأشياء كلها، أشياء من قصور وأماكن مثل المَسبح وغيرها، مبنية من حجر وكاملة، فحفروا عنها فخرجت من تحت الأرض أي: من تحت التراب، وليس هناك كثبان رمال، ولا زحف رمال، ولا شيء، أرض أشبه بالأرض الصخرية، ومع ذلك مندثرة تحتها، وصارت ظاهرة يأتيها الناس ويدخلونها ويرونها.

والفِرق، عندما تقرأ في تاريخ الفرق تجد أشياء عجيبة، فبعض الفرق في أماكنها منذ ذلك الحين، فهي في نفس الأماكن إلى الآن، وهي منذ أكثر من ألف سنة، وبعضها أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، وهي: بنفس المكان، وبعض الفرق أخذت أماكن كثيرة، وقد لا يحسن ذكر ذلك، فأخذت أماكن لا نتوقعها، كالرافضة مثلاً، فلو نظرت في تاريخ الفرق وأماكن وجودها قديمًا في بعض كتب التواريخ وما أخذوا من أماكن قد لا تخطر على بال، ثم زالت آثارهم ولم يبق لهم فيها أثر، دعك من العبيديين، وما أخذوا من مصر، ومن بلاد المغرب، دعك منها لا أتحدث عن هذا، فهذا مشهور في التاريخ، هناك أشياء غير مشهورة، وأماكن في غاية الأهمية، والآن لا ذكر لهم، فليس هذا هو نهاية المطاف، يعني: ما تشاهده من تحولات وتغيرات، وما إلى ذلك ليس هو نهاية المطاف، انظر إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت، وبقيت دولهم التي كانت تقوم على هذه المذاهب الفاسدة لربما أكثر من مائتي سنة أو ثلاثمائة سنة انظر كيف انتهوا، لربما الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت يظنون أن هذا نهاية المطاف، ولكن زالوا تمامًا ولم يبق لهم أثر، قال الله: **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}** [الرعد: ١٧].

قال –رحمه الله–: ومنه حجر اليمامة، وحَجَر الحاكمُ على فلان إذا منعه التصرف.

يعني: أن أصل هذه المادة الحاء والجيم والراء: يدل على المنع، مثلما يقال في الحاء والكاف والميم "حكَم": تدل على المنع أيضاً.

وقوله: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان:٢٢]، فكل هذا من قبيل واحد، ومعنىً متقارب، وهذا القَسَم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القُرب التي يتقرب بها إليه عبادُه المتقون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم.

هذه العبارة دقيقة، يقول: "**وهذا القسَم هو بأوقات العبادة**"، أي: قوله تعالى: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**، فالفجر والليالي العشر والشفع والوتر عرفنا وقتها، وأما الليل ففيه: صلاة المغرب والعشاء، وفيه: قيام الليل، وهو من دلائل قدرة الله -عز وجل-، وعظمته، ووحدانيته.

يقول: "**بأوقات العبادة، وبنفس العبادة**"، يعني: حينما ذكر هذه الأوقات فإن فيها إشارة إلى العبادات التي في ضمنها، فأقسم بالليالي العشر لماذا؟ لأن فيها أعمال الحج، وهي: أفضل أيام العام، فيكون القسم بالوقت وبالعبادة نفسها، هذا كلام ابن كثير، فهو جمع بينهما، وابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا سيأتي، فهو تكلم على هذا، لكن بتفصيل أوضح.

على كل حال القسَم في قوله تعالى: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** أين جوابه؟ ليس قوله: **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}**، ليس هذا هو الجواب، ولكن بعضهم يقول: إنه مذكور، ويذكرون أشياء، وبعضهم يقول: لا جواب، وإنما كان المقصود التنويه بهذه المذكورات، وبيان شأنها، وما تضمنته من العبادات، والبعض يقول: الجواب مقدر محذوف، يعني: لتجازنَّ على أعمالكم، ونحن قلنا: إن هذه السورة تتحدث عن الجزاء، والله أعلم.

أما كلام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في هذا فيقول: "قوله تعالى: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}** قيل: جوابه: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** [الفجر: ١٤]، وهذا ضعيف؛ لوجهين: أحدهما: طول الكلام، والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة..."[٢].

يعني: بحيث إن هذا لا يخطر على البال، يعني: في وقت القسم السامع ينتظر الجواب، فإذا طال هذا وذكر أشياء بين القسم وجواب القسم فإن ذهْن السامع لا يربط، فيكون ذلك بعيدًا.

يقول: "والثاني: قوله: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** ذُكِرَ لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي: عاد، وثمود وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحذرًا: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}**، فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.."[٣].

يعني: ذكر اعتراضين: الأول: طول الفصل، والثاني: أن هذا يتعلق بالأمم المكذبة، ولا يتعلق بالقسم، والآن انظر إلى هذا التفصيل فإنه تفصيل للذي ذكره ابن كثير.

يقول: "وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالا معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي: محلها، وذلك من شعائر الله المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عادًا وثمود وفرعون من العتو والتكبر والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر))، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((ولا الجهاد في سبيل الله، إلا

---

٢ - التبيان في أقسام القرآن (ص:٢٧- ٢٨).

٣ - المصدر السابق (ص:٢٨).

رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء))[٤]، فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهلٌ أن يقسم الرب -عز وجل- به.

{وَالْفَجْرِ} إن أريد به جنس الفجر كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** المتضمن لآخر الصلوات، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو: فجر يوم النحر وليلته التي هي: ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رُؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أفضل الأيام عند الله يوم النحر)) رواه أبو داود بإسناد صحيح[٥]، وهو آخر أيام العشر، وهو يوم الحج الأكبر كما ثبت في صحيح البخاري وغيره[٦]، وهو اليوم الذي أذَّن فيه مؤذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}** [التوبة: ٣]، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[٧]، ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له، والتواضع لعظمته؛ ولهذا قال الخليل -عليه السلام-: **{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأنعام: ١٦٢]، وقيل لخاتم الرسل -صلى الله عليه وسلم-: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** [الكوثر: ٢]، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون.

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام: **{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}**؛ إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر.

وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبعٌ سبع، وهو الأصل، فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يُوتِر الشفعَ فتكون كلها وترًا، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة، توتر لك ما قد صليت))[٨].

---

٤ - أخرجه البخاري، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم: (٩٦٩).

٥ - أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ، رقم: (١٧٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/٢٤٢)، رقم: (١٠٦٤).

٦ - أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم: (١٧٤٢).

٧ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [التوبة: ٤]، رقم: (٤٦٥٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وبيان يوم الحج الأكبر، رقم: (١٣٤٧).

٨ - أخرجه البخاري، أبواب الوتر، باب ما جاء في الوتر، رقم: (٩٩٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة من آخر الليل، رقم: (٧٤٩).

وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين، وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشُفع بزوجته حواء، وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده، وعنه رواية ثالثة: الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث، وقال عمران بن حصين وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثًا مرفوعًا، وقال عطية العوفي: الشفع الخلق، قال الله تعالى: **{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً}** [النبأ:٨]، والوتر هو الله، وهذا قول الحَكَم، قال: كل شيء شفع، والله وتر، وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد، وهذا قول مجاهد ومسروق، وقال الحسن: الشفع والوتر: العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر: الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو: يوم القيامة.

وذُكرت أقوال أخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر: الخالق، والشفع: المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** [الشمس:١]، ونظير ما ذكر في قوله: **{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}** [البروج:٣]، وما ذكر في قوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}** [الليل:١-٣].

وقال ههنا: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}**، وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر، وفي سورة التكوير أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر، فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي: حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

وعرّف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكّر الليالي العشر؛ لأنها إنما تعرف بالعلم، وأيضا فإن التنكير تعظيم لها، فإن التنكير يكون للتعظيم، وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد، ولا يجهله.

فلمّا تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد -صلى الله عليهما وسلم- كان في ذلك ما دل على المقسم عليه؛ ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}**، فإن عظمة هذا المقسم به يُعرف بالنبوة، وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل؛ لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود.."[٩].

هنا في الجملة التي قبل قليل تكلم عن: لماذا عرّف الفجر في قوله: **{وَالْفَجْرِ}**، ونكّر الليالي العشر في قوله: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}**؟ قال: الفجر مشهور معروف معهود لهم، والليالي العشر نكرها للتعظيم، ولا يعرفها كل أحد، فقيدها بهذه العشر.

وهنا أيضًا ذكر ما تضمنه هذا القسم مما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وقبله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- من مضمون القسم، ولماذا قال بعده: **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}**.

---

٩ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٨ - ٣٢).

والآن سيتحدث عن مضمون السورة في هذه الجملة الآتية، أي: عن ماذا تتحدث هذه السورة.

يقول: "وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله، وهم هؤلاء الأمم الثلاث، فقوم عاد اغتروا بقوتهم، وثمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم، وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا.."[١٠].

فابن القيم –رحمه الله– يذهب إلى أن الفجر مطلق، والليالي العشر: عشر ذي الحجة، وأن الشفع والوتر عام، وأن الذي ذكر إنما هو من قبيل التمثيل.

قال ابن كثير –رحمه الله–: ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} [الفجر: ٦]، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبرًا، فقال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر : ٦ – ٧]، وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا –عليه السلام– فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة : ٦ – ٨]، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع؛ ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله تعالى: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} عطف بيان، زيادة تعريف بهم.

هنا ابن كثير يقول: إن عادًا هذه في قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} هي: عاد الأولى، وذكر نسبهم هنا بقوله: **وهم أولاد عاد بن إرم**، فبينهم وبين نوح –صلى الله عليه وسلم– ثلاثة آباء، أي: أن العهد قريب، والمؤرخون والمفسرون والعلماء مختلفون: هل يوجد عاد الأولى، وعاد الثانية، أو أن عادًا واحدة؟ ستجدون الكلام على هذا في كتب التفسير عند قوله –تبارك وتعالى–: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} [النجم: ٥٠]، فبعضهم يقول: "عاداً الأولى" هي: عاد إرم هذه، وأن هناك عادًا الثانية، مع أن الآية لا تقتضي ذلك بالضرورة، أي: لا تقتضي وجود ثانية، فمعنى قوله: {عَادًا الْأُولَى} [النجم: ٥٠] يحتمل أن يكون المعنى: القديمة، وهذا الخلاف موجود أيضاً في قوله –تبارك وتعالى–: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣]، يعني: هل يوجد جاهلية أولى، وجاهلية ثانية؟ فتجد أقوال المفسرين مختلفة بناء على ذلك، يعني: بعضهم يقول: الجاهلية الأولى هي: التي كانت في زمن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–، الذين بعث فيهم إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–، والجاهلية الثانية هي: التي كانت في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، الذين بعث فيهم، وبعضهم يقول غير ذلك، كل هذا بناءً على أساس أن هناك جاهلية أولى وجاهلية ثانية، ولكن على القول الآخر وهو: أن الجاهلية الأولى يعني: المتقدمة، وأن عادًا الأولى يعني: المتقدمة، أي: السابقة القديمة، فلا إشكال، ولا خلاف، والمؤرخون يقولون: إن عاداً بادوا وانقرضوا؛ لأن الله عذبهم وعاقبهم وأهلكهم عن آخرهم.

وقوله: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} يقول: "**عطف بيان، زيادة تعريف بهم**".

---

١٠ – المصدر السابق (ص: ٣٣).

وقوله هنا: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، على قراءة الجمهور: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} بالتنوين، {إِرَمَ} بالفتح، فيكون "إرم" عطف بيان، كما قال ابن كثير –رحمه الله-: "**عطف بيان، زيادة تعريف بهم**"، يقصد: أن قوله: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} هي: عاد، وعاد عرفنا أنها قبيلة، لكن قوله: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} هل إرم هذه هي نفس عاد، أو هي قبيلة من عاد، أو أنها مدينة لهم يقال لها: إرم، أو أن معنى إرم شيء آخر مثل: البالية، أو نحو ذلك؟ هذه اختلفت فيها أقوال المفسرين، لكن المشهور: أن ذلك قبيلٌ من الناس، والقول الآخر: أنها البلدة التي كانوا فيها، فعاد هذا اسم لأبيهم، كما ذكر هنا ابن كثير: عاد بن إرم، والله –عز وجل- قال: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}؛ لأن هذا سيترتب عليه: ما معنى: {ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}؟ هل هي مدينة؟ هل هي خيام؟ هل هي قبيلة أجسامهم قوية طويلة ممتدة لهم قامات عظيمة؟ فالآن عاد اسم الأب، وأما إرم فبعضهم يقول: إرم هي: القبيلة، فقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} يعني: قبيلة عاد، فيكون هذا بدلا منه، يعني: إرم بدل من عاد، ويحتمل أن يكون بدل كل من كل، أي: أنها هي يقال لها: إرم، أي: القبيلة هذه –قبيلة عاد- هي: قبيلة إرم، أو أن إرمَ هي قبيلة من عاد، ليس كل عاد يقال لهم ذلك، وإنما هي قبيلة من قبائل عاد، وهي التي أهلكت، وهناك من يقول: عاد هو الأب، وإرم هي القبيلة، وبعضهم يقول: لا، ولكن عاد هي القبيلة، وإرم هي جزء وفرع من القبيلة، وهو: عطف بيان أو بدل من عاد؛ للدلالة على أنها عاد الأولى، وليست عادًا الأخرى.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} يعني: أهل عاد، أو أهل إرم، أو سبط إرم الذي هو أيضاً جد، فهو أبو عاد؛ لأنه عاد بن إرم، وبعضهم يقول: عاد بن عوص بن إرم، وهذه الأسماء إذا رجعت لكتب التاريخ تجد أنها ليست محل اتفاق في ترتيبها، وفي ضبطها أيضاً، ليس الضبط بالحركات فقط بل حتى الحروف.

والذي رجحه ابن جرير –رحمه الله- وهو اختيار قتادة: أن إرمَ قبيلة من عاد، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ}، وابن جرير يقول: إن هذه الإضافة توضح وتقيد "عاد إرم"، كما سبق حينما يقال: حجر اليمامة، سواء كان ذلك في المواضع، أو كان في الأسماء والقبائل، أي: حتى تميز قبيلة من قبيلة، وهنا قال: عاد إرم، ويحتج ابن جرير لهذا بتفاصيل ذكرها في تفسيره، وعلى هذا القول هما عادان: الأولى هي: إرم التي أهلكها الله –عز وجل-، وهنا عطف بيان أو بدل، ولا يقال: لماذا لم يأتِ مجرورًا؟ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، فقال: إرم بالفتح، وما قال: إرمِ بالكسر؛ لأنه لا تتأتى الكسرة هنا.

وقوله تعالى: {ذَاتِ الْعِمَادِ}؛ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعْر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشًا؛ ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت:١٥]، وقال هاهنا: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم؛ لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم.

قال مجاهد: إرم: أمة قديمة، يعني: عاداً الأولى، وقال قتادة بن دعامة والسدي: إن إرمَ بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد وقوي.

وقوله تعالى: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: ٨]**، أعاد ابن زيد الضمير على العماد؛ لارتفاعها، وقال: بنوا عُمدًا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني: في زمانهم، وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: لم يخلق مثلها في البلاد.**

الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- هنا: أن إرمَ هي: القبيلة، وهذه القبيلة هي: عاد الأولى، ومن ثَمَّ فإن قوله: **{ذَاتِ الْعِمَادِ}** قال: "**لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعْر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وكانوا أشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشًا**"، يعني: أنها ليست اسمًا للمدينة، وإنما اسم للقبيلة التي عرفت بهذا حيث ينتجعون المطر، ويترحلون ويتنقلون يطلبون الكلأ، فكانت لهم عمد رفيعة طويلة لهذه الخيام الكبيرة، هذا الذي مشى عليه ابن كثير، وذكره جماعة من المفسرين: أن إرم ذات العماد يعني: التي عرفت ببيوت الشعر ذات العماد، أو بالخيام ذات العماد الرفيعة، إذًا هي ليست اسمًا للمدينة، هذا الذي مشى عليه ابن كثير، وذكر دلائل قوتهم من القرآن، ثم بعد ذلك ما نقله عن قتادة والسدي: من أن إرمَ بيت مملكة عاد، قال: "**وهذا قول حسن جيد وقوي**"، فهو استحسن هذا القول وقواه، لكن الذي مشى عليه الأول، يعني: كأنه يقول: هذا له وجه قوي، لكنه ليس هو اختياره، إذا كان في التفسير الأصل كما عندنا في المختصر، فيكون اختيار ابن كثير إذًا هو القبيلة، يعني: فيكون الكلام كله على القبيلة وليست مدينة عاد.

وبعضهم يقول: **{ذَاتِ الْعِمَادِ}** يعني: ذات القوة والشدة، مأخوذة من قوة الأعمدة، يعني: إرم القبيلة هذه ذات العماد، أي: ذات القوة والشدة، وهذا مروي عن الضحاك -رحمه الله-، لكن هذا القول الذي مشى عليه ابن كثير من أنهم أصحاب عمد سيارة يترحلون إلى آخره هذا هو الذي اختاره ابن جرير، وقال به جماعة من السلف، كقتادة ومجاهد، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم، يعني: كانت لهم مساكن يرجعون إليها كما هي حال كثير من الناس ممن يخرجون إلى البادية وقت ظهور الربيع والنبات، فإذا هاج النبات وصار يابسًا رجعوا، فكانوا أهل عمد يتنقلون يطلبون الكلأ، وبعضهم كمقاتل يقول: ذات العماد يعني: قاماتهم طويلة جدًّا، فيكون هذا صفة لهم، تعود إلى ذواتهم وأجسامهم وتركيبهم، يقول: كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعًا، يعني: ستة أمتار، والآيات تدل على طولهم قال تعالى: **{وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}** [الأعراف: ٦٩]، وهم اغتروا وقالوا: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [فصلت: ١٥] ويوجد في بعض المقاطع صور في حفريات وأنا لا أثق بالصور التي توجد؛ لأنها يعبث بها، وترى الشيء الصغير كبيرًا، وترى الشيء الكبير صغيرًا، فيعبث بها، لكن إن صحت هذه الصور التي رأيناها فإننا رأينا الجثة ممتدة تصل إلى أكثر من ستة أمتار، يعني: الجثث التي رأيناها تصل إلى أكثر من ستة أمتار، أو اثني عشر مترًا أو أكثر، فتجد الناس يتحلقون حوله وجاءوا بصور وهو محفور حينما استخرجوه ووقفوا عليه في الحفر -في القبر-، وجاءوا بالصور بعدما استخرجوه ووضعوه على مثل الطاولة الطويلة جدًّا، والناس حوله أمثال النمل، وجاءوا به وقد أقاموه ووضعوا سُلمًا

بجانبه فتجد الرجل كأنه نملة تصعد بجواره، فإن صح هذا -والله أعلم- فقد يكونون هؤلاء، فهم وجودهم مصادفة، شركة أرامكو كانوا يحفرون ووجدوهم في الربع الخالي، هكذا قالوا، فإن كان كذلك فهذا هو المشهور في منازل عاد، قال تعالى: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}** [الأحقاف: ٢١]، والأحقاف على المشهور: أنها حبال الرمل، هذه الموجودة في الربع الخالي، وهذا يدل على أن المعالم ما تغيرت خلافاً لما يقوله أهل علوم الأرض، حيث يقولون: هذه كلها تتغير، وتغيرت، يقال: ليس بهذه المدة، انظر من متى قوم عاد ومعالمها باقية، فهذه تعتبر قريبة نسبيًّا، بالنسبة لتغير معالم الأرض، فهذه الأحقاف موجودة من ذلك الحين، وهي: حبال الرمل، وفي هذه المنطقة، محصورة في الربع الخالي، فلم تنتقل إلى مكان آخر.

والمشهور عند المؤرخين والمفسرين: أن عادًا كانت منازلهم بالأحقاف، كما قال الله -عز وجل-: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}**، لكن اختلفوا ما معنى الأحقاف؟ والمشهور: أنها حبال الرمل، في هذه المنطقة التي هي الآن الربع الخالي، وأما ما يذكر من أن هذا قبر هود -عليه الصلاة والسلام- في أكثر من موضع، ومنها في حضرموت، فإن هذا لا يصح، ولا يثبت شيء من قبور الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أبداً إلا قبر محمد -صلى الله عليه وسلم-، فكل ما ينسب إلى الأنبياء فهذا غير ثابت من مواضع مدافنهم.

فعلى قول مقاتل: إنهم طوال، يقال: رجل طويل العماد، يعني: طويل القامة، وهكذا أيضًا قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، قال: رجل معمَّد أي: طويل، وقامته طويلة، فتكون إرم قبيلة، وصفهم أنهم طوال الأجسام، وجاء عن مجاهد وقتادة: أنهم كانوا عمادًا لقومهم، يقال: فلان عميد الأسرة، وفلان عميد آل فلان، وفلان عميد الكلية، ونحو هذا، فيكون بمعنى: أنه مثل السيد والرئيس ونحو ذلك، وهذا معنى العميد، يعني: كبير هؤلاء، وجاء عن ابن زيد ما يدل على أنها المدينة، يقول: ذات العماد، يعني: أنها مشيدة قوية البنيان محكمة، هذا قول لابن زيد، ولا شك أن الأبنية المحكمة يقال لها ذلك، وهذا موجود في كتب اللغة، فالعماد تقال للأبنية القوية الرفيعة المشيدة، كما ذكره صاحب الصحاح، وتذكّر وتؤنث، يقال: هذا بناء ذو عماد، وأبنية ذات عماد؛ ولهذا فسرها بعضهم بالمدينة، مدينة هؤلاء أنها كانت بهذه الصفة.

وأما ما يذكر من أنها من ذهب وأشياء من هذا القبيل فهذا كله من الإسرائيليات، لا تثبت إطلاقًا، ويبعد غاية البعد أن تكون كذلك، بل هي من المبالغات، أنها مبنية بلبن من ذهب إلى آخره، ويوجد صور الآن أن هناك مدينة، أو قصورًا مستخرجة من تحت الرمال في الربع الخالي عجيبة جدًّا هائلة، لكن هل هذه هي أبنية عاد؟ الناس ينشرونها على أنها إرم، مع أن إرمَ المشهور أنها قبيلة، وأن ذات العماد هي الخيام، أو أجسامهم الممتدة، إلى غير ذلك، وليست هي المدينة إلا على قول، وعلى هذا القول هل هي هذه؟ نقول: لا نستطيع أن نجزم بهذا إطلاقًا، فالله أعلم، ولكن لا شك أن أجسامهم ضخمة، قال الله: **{وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}** [الأعراف: ٦٩]، مع أن القرطبي يقول: هي في الإسكندرية، فعاد ما الذي ذهب بهم للإسكندرية؟ هذا بعيد جدًّا، وهكذا قول المقبري من أنها دمشق، فهذا يقول: الإسكندرية، وهذا يقول: دمشق، وهذا أيضاً بعيد غاية البعد.

أما من قال: إنها في الأحقاف، وإنهم بنوها هناك، وإنها مدينة فهذا قال به ابن زيد، لكن في مثل هذا لا يمكن الجزم بأن إرم هي: اسم المدينة، فأنا أقول: هذا واحد من الأقوال، والأشهر -على اختلاف في العبارات وهو قول الجمهور-: أنها ليست اسم المدينة، وإنما هي القبيلة، أو جزء من القبيلة، أو أن المقصود أنهم أقوياء

وأصحاب أجسام ممتدة إلى آخره، أو ذات العماد: أعمدة الخيام التي كانوا يتنقلون ويترحلون بها، يعني: إذا جمعت هذه الأقاويل جميعًا يبقى قول من قال: إرم هي المدينة، وهذا خلاف قول الجمهور، فلا يكاد أن يقول به قائل إلا ما جاء عن ابن زيد، أو نحو ذلك، فحينما يُجعل هذا هو القول المعتد، ويُبنى عليه أشياء، وأن هذه هي منازلهم، وهذه المدينة إذا كانت بهذه الصفة، أو نحو ذلك، هذا فيه مصادرة لأقوال أهل العلم في المسألة، ولا يحسن ذلك، والله أعلم.

طبعًا أصحاب التفسير العلمي لهم في هذا أشياء، ويربطونه بأمور، يقولون الآن: إرم هذه المدينة التي هي مبنية من لبنة من ذهب ولبنة من فضة، يقال لهم: من قال لكم ذلك؟ فيقولون: أكيد أنها ما كانت في صحراء مثل الربع الخالي، يا أخي، الله يقول: **{إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}**، والأحقاف: حبال الرمل، يقول: ليس معقولا أنها في صحراء، وهذا يؤكد قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((**لن تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا**))**[11]، نقول له: يا أخي، كل الكلام الذي تقوله يحتاج إلى مناقشة، حتى قوله: **((**حتى تعود**))** كلمة تعود في اللغة من الأضداد، لها معنيان: تعود بمعنى: ترجع إلى حالها الأولى، مثل: حتى يعود اللبن في الضرع، وتعود بمعنى: تصير، عاد الصبي شيخًا، ما كان من قبل ذلك شيخًا، ولكن المعنى: يصير شيخًا، فهنا قوله: **((**حتى تعود جزيرة العرب..**))** هل كانت جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا قبل ذلك؟ نقول: هذا احتمال، على أحد المعنيين في الحديث، احتمال، ولا نستطيع أن نجزم، فيُبنى على هذا أشياء، واستنتاجات، ولوازم، كيف مدينة من لبن ذهب وفضة وكذا وتكون في صحراء قاحلة، وفي صحراء الربع الخالي، في هذه المنطقة القاحلة التي لا يمكن العيش فيها؟، أكيد كانت هذه المنطقة كلها مروجًا وأنهارًا، نقول: أول شيء أثبِت الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، فكل هذا مبني على أمور ليست ثابتة، ويطرح هذا بقوة، وبثقة كاملة، والكلام من أصله ليس بثابت، وتجد من الحضور من يحصل عندهم نشوة، ينتشون بمثل هذا الكلام ويقولون: هذا إعجاز.

---

١١ - أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم: (١٥٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفجر من الآية (٨) إلى الآية (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- أقسم بالفجر المعروف، وبالليالي العشر، وهي: عشر ذي الحجة، وبالشفع والوتر، وهذا يدخل فيه ما قاله السلف من كل شفع ووتر، والوَتر بفتح الواو والوِتر بكسرها لغتان وقراءتان، وأقسم بالليل حال سريانه حينما يمضي في ساعاته وآنائه، فهذه الأمور المقسم بها تتضمن معانيَ وأمورًا وأشياء شريفة:

فقوله: {وَالْفَجْرِ} أي: هذا الوقت الشريف الذي فيه هذه الصلاة صلاة الفجر التي تشهدها ملائكة الرحمن.

وقوله: {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} أي: الليالي العشر التي فيها أعمال الحج، وهي: أفضل ليالي وأيام العام إلا ليلة القدر.

وقوله: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} الله وتر والخلق شفع، وكذلك أيضاً الصلوات شفع ووتر، إلى غير ذلك مما يدخل فيه هذا من الذوات والأعمال والعبادات وسائر الموجودات.

وقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} والليل فيه صلاة المغرب والعشاء، وفيه قيام الليل، وفي ثلثه الأخير ينزل الرب -تبارك وتعالى-، وهو مظهر من مظاهر عظمة الله -عز وجل.

وقوله: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} أي: هل هذا القسم فيه كفاية وإقناع لصاحب عقل، فالحِجر هو: العقل؛ لأنه يحجز صاحبه عن كل ما لا يليق.

قال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}، فيكون جواب القسم على قول أهل العلم مقدرًا: لتجازنّ، أو أن المقصود: ما تضمنته هذه الآيات من هذه الأمور التي أقسم الله -عز وجل- بها.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}، عاد: القبيلة المعروفة حيث أهلكها الله -عز وجل- هلاكًا مستأصلاً.

وقوله: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} فإرم على المشهور من أقوال المفسرين: أنها القبيلة -قبيلة عاد-، أو قبيلة من عاد، وما بعده وصف لها، أي: قوله: {ذَاتِ الْعِمَادِ}، وهي: إما القامات الطويلة والأجسام الممتدة، أو أنهم أصحاب عُمُد يتنقلون ويرحلون وينتجعون المطر ويطلبون النبات والربيع، فذلك يرجع إليهم، وقد تكون صفة لهم، لأجسامهم، أو أن المقصود: القوة، وهذا يرجع إلى هذا المعنى، أي: الشرف والسؤدد، والقول بأن ذلك اسم للمدينة قال به بعض السلف، إلا أن عامة أهل العلم والجمهور على خلافه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله تعالى: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [الفجر:٨] أعاد ابن زيد الضمير على العماد؛ لارتفاعها، وقال: بنوا عُمدا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني: في زمانهم، وهذا القول هو الصواب،

وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: لم يخلق مثلها في البلاد.

إذًا قوله: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** هذه صفة لعاد، يعني: لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، فهم الذين قالوا: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [فصلت: ١٥]، ومن قالوا بأنها القرية في قوله: **{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}** قالوا: هذا يعود إليها، فوصفها بأنها لم يخلق مثلها في البلاد.

وهنا قوله: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}**، التعبير بالخلق هذه قرينة تدل على أن المراد: القبيلة، ما قال: لم يُعمل، لم يُبنَ مثلها في البلاد، بل قال: لم يخلق، والعادة أن التعبير بالخلق يكون في خلق الناس، وفي خلق المخلوقات هذه التي خلقها الله، يعني: فيما يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، وإن في كان في اللغة يصح أن يقال للتشكيل والتصوير: خلق، وجاء ذلك في القرآن، في قوله الله -عز وجل- لعيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}** [المائدة:١١٠]، فليس هو الذي يُوجِد الطين وينشئه من العدم، وإنما يشكله ويصوره، هذا في الذوات، وأما في المعاني فقال: **{وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}** [العنكبوت: ١٧] يعني: تختلقونه، فيصح التعبير بمثل هذه العبارة في التشكيل والتصوير، فبناء مدينة لو قال قائل: هذا خَلَقَ مدينة في المكان الفلاني، فالعبارة صحيحة إذا كان المقصود البناء، فهذا يضاف إلى المخلوق، ولكن النفوس تستوحش من مثل هذه العبارة؛ لأنها غير مألوفة، ولا يتناولها الناس ويتداولونها بكثرة؛ ولهذا بعض الناس يقول: نخلق أفكارًا مثلاً من أجل كذا، يعني: نولّد أفكارًا، فليس المقصود الإيجاد من العدم، فالله هو الخالق، فمن فسر إرمَ بأنها المدينة التي لم يخلق مثلها، يعني: لم يُبنَ، فيكون أضاف الخلق إلى هذا المعنى، ويكون من عمل المخلوقين، من عمل الناس، ولكن الأشهر والأكثر استعمالاً في القرآن: استعمال الخلق فيما يضاف إلى الله -تبارك وتعالى-، فهذه قرينة تدل على أن المقصود: القبيلة في صفتهم وخلقهم وأجسامهم وقوتهم وما إلى ذلك، ويدل على هذا قراءة أبي بن كعب، وهي غير متواترة: **{الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهُم فِي الْبِلَادِ}**، فهنا يرجع للقبيلة بلا شك، فإن من يعقل يعاد إليهم من الضمائر ويعبر عنهم بالصيغ التي تكون للعقلاء، وقد ينزّل غير العقلاء منزلة العقلاء، فيعبر عنهم بما يعبر به للعقلاء، كقول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** [يوسف:٤]، قال: "رأيتهم"، وما قال: رأيتها، فإنه يقال لغير العاقل: رأيتها، وقال: "ساجدين"، والأصل أن يقال: ساجدة لما لا يعقل، فهنا جمعها جمع مذكر سالمًا: "ساجدين"، وهذا يستعمل مع العقلاء، وله نظائر كقوله: **{أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا}** [الأعراف:١٩٥]، قال عن الأصنام: يبطشون، وما قال: تبطش بها؛ لأن هؤلاء المشركين الذين عبدوهم لم ينزلوهم فقط منزلة العقلاء، بل جعلوهم آلهة، فعاملهم معاملة العقلاء، وهذا كثير في القرآن، وهو أنواع، فأحيانًا يكون من باب التنزّل مع المخاطب؛ لأنه يعتقد ذلك، وأحيانًا لأنه أضاف إليها فعلاً من أفعال العقلاء، كقوله: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** [يوسف: ٤]، فالسجود من أفعال العقلاء في الأصل، فلما أضافه إلى الشمس والقمر عاملهما معاملة العقلاء.

هنا في عاد على هذه القراءة: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهُم فِي الْبِلَادِ}**، يكون ذلك راجعًا إلى عاد، إلى القبيلة، والله تعالى أعلم.

قال –رحمه الله تعالى–: وقوله: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ} [الفجر:٩] يعني: يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: ينحتونها ويخرقونها، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، ومنه يقال: مُجتابي النمار إذا خرقوها، واجتاب الثوب إذا فتحه، ومنه الجيب أيضًا، وقال الله تعالى: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء:١٤٩].

هؤلاء ثمود نسبوا إلى جدهم: ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، يعني: العهد قريب بعاد، ومع ذلك انظر إلى ردهم وجوابهم لنبيهم، وإلى تكذيبهم له، وإلى إصرارهم على الكفر، فهذا من أعجب الأشياء: أن هذه العقوبات التي أنزلها الله –عز وجل– بهؤلاء المكذبين لم ينتفع بها أولئك الذين جاءوا بعدهم، فوقعوا في نفس التكذيب، فأنزل الله –عز وجل– بهم عذابه المستأصل، والله المستعان.

فقوله: **{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}**، الوادي معروف، وهو: وادي القرى الذي فيه حجر ثمود، ولا زال معروفًا وقائمًا إلى اليوم.

قوله: **{جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}**، ذكر هذه المزية التي عرفوا بها، وهي تدل على بأس وشدة وقوة، ومعنى: **{جَابُوا الصَّخْرَ}** يعني: خرقوه، ومن عبارات السلف: قطعوه، ولا إشكال في هذا، فهؤلاء كما هو معلوم يخرقون صخور الجبل، وينحتون كما قال الله –عز وجل– **{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}** [الشعراء:١٤٩]، فيخرقونها ويتخذون البيوت في داخلها، فهذا يدل على أنهم عندهم من القوة والإمكانات الشيء الكثير، والجَوْب بمعنى: الخرق، تقول: جاب الفيافي وجاب الفلاة وجاب الأرض يعني: قطعها، أو خرقها، ويجوب البلاد يعني: يقطعها طولاً وعرضًا، وإن شئت قل: خرقها؛ ولهذا يقال: المخترَق ذلك الموضع الذي يُجاب، والذي يُقطع ويخترق، ومن ذلك قيل للجيب جيب، وهو: الفتحة التي في أعلى الثوب، يدخل منها الرأس، ومنه الحديث في الفقراء الذين جاءوا إلى المدينة، ومن صفتهم أنهم مجتابو النمار[١]، جمع نمرة، يعني: ما عندهم شيء يلبسونه سوى نمرة ليست مفصلة، وإنما يخرقون خرقًا في وسطها فيدخلون منه الرأس، فهذا غاية ما عندهم من اللباس، مجتابو النمار، أي: خرقوها وأدخلوا رءوسهم، فكأنها ثوب، فهنا قوله: **{جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}** يعني: خرقوه، وهكذا الأقوال والآثار التي نقلها عن ابن عباس وغيره: ينحتونها ويخرقونها، وهكذا قال السلف، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير –رحمه الله.

قال –رحمه الله–: وقوله تعالى: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} [الفجر:١٠]، قال العوفي عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي.

هذه الأوتاد ما المراد بها؟ هنا ابن عباس بهذا الإسناد الضعيف يروى عنه: "**الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره**"، وبعضهم يقول: الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، والوتد عمومًا معروف، فهو: الذي تثبت به الخيام، فهذا يقال له: وتد، والذين يطرق في الجدار من المسامير يقال له: وتد، كل هذا يقال له: وتد،

---

١ – أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، رقم: (١٠١٧).

والله -عز وجل- وصف الجبال بأنها أوتاد، أو سماها بالأوتاد؛ لأنها تثبت الأرض؛ لئلا تميد وتضطرب وتتحرك، فهنا باعتبار الجنود إما لكثرة الخيام التي يشدونها بالأوتاد، وهذا قد لا يخلو من بعد -والله تعالى أعلم-، أو أن هؤلاء الجنود هم أوتاد يثبت بهم ملكه، فيكون هذا عند القائلين بالمجاز من الاستعمال المجازي، يعني: اعتبر هؤلاء الذين يثبت بهم الملك أنهم أوتاد كأوتاد الخيمة التي تثبتها.

والقول الآخر قال: "**كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها**"، يعني: يعذب الناس بهذه الطريقة، "**قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد**" والله أعلم، فهذا يحتمل، وابن جرير -رحمه الله- جوز أيضًا أن تكون هذه الأوتاد مما يلعب به، سواء كانت أوتادًا من حديد، أو أوتادًا من خشب، أو نحو ذلك، وإذا كان الله -تبارك وتعالى- سمى الجبال أوتادًا فلو قال قائل: إن هذه الأوتاد هي أمثال الجبال لكان هذا له وجه، لكني ما رأيت أحدًا من السلف قال هذا، بمعنى أنه ما قال أحد من السلف مثلاً: إنها هذه الأهرام التي كالجبال، وهي من أعجب ما تكون في بنائها وضخامتها، ما رأيت أحدًا فسر هذا بهذا، ولا ذكره، والسبب في هذا -والله أعلم-: أن العلماء ما كانوا يقولون بأن الأهرام بناها الفراعنة، ما كانوا يقولون هذا، وتكلم العلماء عليها قديمًا، ووصفوها، وفُتح بعضها، ورأوا ما فيها من الموجودات، والتوابيت، كل هذا رأوه وشاهدوه وكتبوا عنه، ولكنهم لا يعرفون من أول من بناها، ويرجحون ويغلبون الظن أنها كانت قبل الطوفان، يقولون: لو كانت بعد الطوفان لعرف من بناها، فيرجحون أنها قبل الطوفان، وبعضهم يقول: إن الذي بناها إدريس، باعتبار أن إدريس -عليه السلام- كان قبل نوح، هذا على قول بعض المؤرخين، وعلى القول الآخر: إنه بعد نوح -عليه السلام-، فالشاهد أن بعضهم يقول: إن إدريس هو الذي بناها، والعلم عند الله، فهذه الأمور لا نعلمها، لكن ما كانوا يقولون أبداً: إن الفراعنة هم الذين بنوها.

وبعضهم يقول: العماليق هم الذين بنوها، لكن كل هذا ليس عليه دليل، ولا مستند، ولا أعلم أن أحدًا قال: إن الفراعنة هم الذين بنوها، حتى جاءت الحملة الفرنسية، ومعها علماء آثار نحو مائة وستة وأربعين عالمًا من علماء الآثار، فنبشوا بعض هذه الأهرام التي كانت مطمورة بالرمال، وبعضها كانت الأهالي يأخذون منها الحجارة، وحاول بعض الخلفاء العباسيين هدمها، وما استطاعوا، وهي كانت بعيدة، ولم يكن أحد يلتفت إليها، كأنها جبال في الصحراء، فجاء الفرنسيون ونبشوا وحفروا واستخرجوا هذا الصنم أبا الهول، حفروه بعد أن كان مطمورًا في الرمال ومغطى، لا يظهر للناس، فالذين يقولون: لماذا لم يكسره الصحابة؟ نقول: لأنه كان مغطى بالرمال، فالفرنسيون حفروا وأخرجوه، وأخرجوا غيره، وقالوا للناس: هذه آثار فراعنة، وجاءوا بكتابات، وجاءوا بأشياء أخرى، وفتحوا عليهم باب الشر، وأرادوا ربط المصريين بما قبل الإسلام، وقالوا لهم: أنتم فراعنة، ما شأنكم بالإسلام؟، ارجعوا إلى فرعونيتكم، ودعوا الإسلام، حتى إن العداوة كانت شديدة بين الإنجليز والفرنسيين، فلما احتل الإنجليز مصر بعد فرنسا لشدة عداوتهم لهم أزالوا كل ما يذكّر بالفرنسيين، كل شيء يذكّر بالفرنسيين أزالوه إلا شيئًا واحدًا: معهد الآثار الذي يقوم عليه علماء آثار من فرنسا، هو الوحيد الذي أبقوه، فهذا هدف مشترك بينهم، وهذا معروف في تاريخ مصر، ومن أحسن من تكلم عن تلك المرحلة الجبرتي في تاريخه: عجائب الآثار، فهو رجل منصف وعالم، وأبوه عالم، وشمولي في جميع العلوم، حتى العلوم المادية: الهندسة والزراعة والطب وما إلى ذلك، وأبوه يقال عنه: لا يوجد علم إلا

تعلمه، ولا توجد آلة لتلك العلوم إلا وهي في بيته، هذا أبو الجبرتي، فالجبرتي ألف هذا الكتاب، وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات، أشياء ينقلها عمن رآها، وأشياء شاهدها هو بنفسه.

ولم يقل أحد: إن هذه الأوتاد هي الأهرام مثلاً؛ لأنهم لا يعتقدون أن الذين بنوها هم الفراعنة، فهذه الأوتاد يحتمل أن تكون جنودًا كثيرين يثبت بهم ملكه، ويحتمل أنه يعذب بها الناس، والله أعلم.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} [الفجر:١١-١٢] أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر:١٣] أي: أنزل عليهم رجزًا من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين.

هنا قوله: **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ}** هذا يرجع إلى كل ما ذكر قبله من هؤلاء الأقوام، يعني: لا يرجع إلى فرعون فقط، بل ما ذكره الله -تبارك وتعالى- من عاد وثمود وفرعون وقومه، فهم **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}**، فهذه صفة أوجبت لهم العذاب، وهذا الذي يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه، يعني: لما ذكر الطغيان، وتجاوز الحد، والإكثار من الفساد كانت النتيجة: **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}**، فدل على أن وقوع هذا العذاب هو بسبب الطغيان في الأرض، والإكثار من الفساد، يعني: هذه العقوبة بسبب هذا الذنب المشترك بين هؤلاء الأقوام -نسأل الله العافية-، فمن أكثر الفساد، وطغى في البلاد فهو مستوجب للعقوبة المستأصلة في الدنيا، لكن العقوبات المستأصلة -كما يذكر شيخ الإسلام وغيره- لم ينزل منها بعد موسى -صلى الله عليه وسلم- عقوبة مستأصلة، يعني: كالعقوبات السابقة لثمود وعاد وما إلى ذلك، ما نزلت، يعني: آخر من أُهلك من هؤلاء بعقوبة مستأصلة فرعون، فغرق هو وجنوده في البحر، الباقي كان لربما يصيبهم شيء من الجوع، ويصيبهم شيء من القتال مع المؤمنين فيُدالون عليهم، أو نحو ذلك، لكن كعقوبة تمحقهم وتستأصلهم لم تنزل، آخر ما هنالك في عهد موسى -صلى الله عليه وسلم.

قوله هنا: **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}**، الفاء هذه هي التي تدل على التعليل، وربط ما بعدها بما قبلها، الذي يعرف بدلالة الإيماء والتنبيه، **{فَصَبَّ}** لماذا صب؟ بناء على ما سبق؛ لأنهم **{طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}**.

ومعنى قوله: **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}** يعني: أفرغ عليهم، وألقى عليهم سوط عذاب وهو: ما عذبهم به، وهي: العقوبة التي نزلت بهم من الريح والصيحة والغرق، فهذه العقوبات المستأصلة التي نزلت بهؤلاء الأقوام المكذبين هي: سوط العذاب الذي عذبهم الله -عز وجل- به، فسوط العذاب هو: نصيبهم من هذا العذاب، لكن التعبير بالسوط في قوله هنا: **{سَوْطَ عَذَابٍ}**، فيه إشارة إلى هذا العذاب الذي حصل لهم في الدنيا، فبعض العلماء يقول: هو بالنسبة لما ينتظرهم في الآخرة كالسوط، أي: الذي في الدنيا كالسوط بالنسبة للعذاب الأليم في الآخرة، وبعضهم كالفراء يقول: هذا على طريقة العرب، تسمي العذاب والعقوبة مهما كان نوعها سوطاً، وتعبر عنها بالسوط لأي نوع من أنواع العذاب، لماذا؟ لأن السوط أشبه ما يكون برمز للعقوبة؛ ولهذا يقال: العصا والجزرة، إذا جمع بين الترغيب والترهيب، فالعصا رمز للعقوبة، وإلا فهو لا يعني أنه يعاقب بالعصا، لكن قد يعاقب بالقتل، وقد يعاقب بالحصار، وقد يعاقب بغيره، فقال: **{سَوْطَ عَذَابٍ}**؛

لأن العرب تعبر بالسوط عن العذاب وعن العقوبة، لهذا المعنى قال ذلك، وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١٤]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يسمع ويرى، يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والآخرة، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلًّا بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور.

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} يعني: من فعل فعلهم فإن عقوبتهم قد تنزل به، فليس ذلك بمختص بهم، كما قال الله -تبارك وتعالى- لما ذكر عقوبة قوم لوط: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود:٨٣]، والحسن وعكرمة يقولون: {لَبِالْمِرْصَادِ} يعني: عليه طريق العباد، لا يفوته أحد منهم؛ لأن الأصل أن الذي يكون بالرصَد ويرصد ونحو ذلك يكون على مدرجة الناس، وعلى طريقهم، وعلى ممرهم، وعلى مسالكهم، فيأخذهم، وتقول: يرصد الصيد، وتقول: هذه مراصد ترصد بها النجوم مثلاً والأفلاك، ونحو ذلك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: يرصدهم بأعمالهم في الدنيا، وكذلك في الآخرة على قناطر جهنم؛ ليكردسهم فيها إذا وردوها يوم القيامة، فجعله ابن جرير في الدنيا والآخرة.

الله -تبارك وتعالى- يحصي عليهم أعمالهم، وهو -تبارك وتعالى- قادر عليهم، ويأخذهم متى شاء، ويعاقبهم كيف شاء.

وبعضهم كابن الأنباري يقول: إن قوله هذا: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} هو جواب القسم: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} والجواب: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، وذكرنا أن بعض أهل العلم يقول: محذوف تقديره: ليجازنّ، أو لتجازنّ، أو نحو ذلك، وبعضهم كأبي حيان صاحب البحر قدّره بما تدل عليه خاتمة السورة التي قبلها، أي: ربطه بالسورة التي قبلها: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية:٢٥-٢٦]، أي: إياب ورجوع هؤلاء إلينا، وحسابهم علينا، {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، يعني: أن حسابهم علينا، وإيابهم إلينا، وهذا بعيد، وإذا قلنا: إن ترتيب السور غير توقيفي، وإنما شيء رآه الصحابة، واستأنسوا بما عهدوا من قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن هذا يزيده بعداً.

وأما قول من قال: إن جواب القسم قوله: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} فهذا أبعد ما يكون، يعني: يقولون: إن هل هذه بمعنى: قد، أي: "قد في ذلك"، وهذا بعيد، والعلم عند الله -عز وجل.

{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر:١٥-٢٠].

قال -رحمه الله-: يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق؛ ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: {كَلَّا} أي: ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب،

ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** هذا في الإنسان، وكثير من أهل العلم يقولون: هذه صفة الكفار، وليست بصفة أهل الإيمان، وبعضهم يلمح كابن عطية، وكذلك ابن عاشور، يقول: وهذا قد يقع أيضاً من بعض ضعفاء الإيمان، فيحصل عندهم مثل هذا الوهن، والله -تبارك وتعالى- ذكر أوصاف الإنسان في القرآن من حيث هو، ما لم تتروض نفسه بالإيمان، فالإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان قد تكون المعايير عنده ضعيفة، فإذا حصل له الابتلاء بالنعمة، وأعطاه الله -عز وجل-، يظن أن ذلك لحظوة ومنزلة له عند الله، وإذا حصل له أضداد ذلك من ضيق في الرزق، أو بلاء، أو مرض، أو نحو ذلك ظن أن هذا لهوانه على ربه -تبارك وتعالى-، أو ينظر إلى الآخرين بهذا الاعتبار، ويقيس بهذه المقاييس، فالله ينكر هذا، ويقول: **{كَلَّا}** أي: ليس الأمر كذلك، فالعطاء والمنع لا يدل على محبة الله للعبد، ولا على سخطه، فقد يكون العبد في حال من الغنى والعافية وهو عدو لله، فهو يعطي الكافر إملاء له واستدراجًا، وكذلك قد يكون المؤمن في حال من البلاء والمرض والفقر وليس ذلك لهوانه على ربه -تبارك وتعالى-، بل قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))[٢]، فإذا كان في دين الرجل رقة خفف عنه، وهذا من رحمة الله -عز وجل-، فإذا نظرت إلى الناس في أحوالهم وفي بلائهم تجد أنهم يتفاوتون هذا التفاوت، فالأنبياء يضاعف لهم، حتى في الأمراض العادية، كالحمى، ونحو ذلك، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن هذا: إنك لتوعك؟ قال: ((نعم))[٣]، وذكر أنه يوعك كما يوعك الرجلان، وأنه يضاعف لهم في الجزاء، فمع عظم البلاء يكون الجزاء، حتى الشوكة يشاكها المؤمن يكفر بها من خطاياه[٤]، فهذا بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يعني: من كان دونهم أو من كان قريبًا منهم يكون بلاؤه عظيمًا شديدًا، فبعض الناس يتساءل يقول: أنا مثلاً من بين قراباتي، أنا من بين إخواني، امرأة تقول: أنا من بين أخواتي وقريباتي، أنا الوحيدة المتدينة، والبلاء يتتابع عليّ، وينصب صبًّا، لا أكاد أخرج من بلاء حتى أدخل في بلاء آخر، لماذا وهؤلاء لا يصيبهم شيء؟ يقال: أنتِ ما عرفتِ المقياس الصحيح الذي قد قرره الله -عز وجل- في مواضع من كتابه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))، وهذه الآيات في هذه السورة تنكر على من ظن أن العطاء إنما هو لكرامة العبد

---

٢ - أخرجه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: (٢٣٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، أبواب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم: (٤٠٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٣٠)، رقم: (٩٩٢).

٣ - أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، رقم: (٥٦٤٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم: (٢٥٧١).

٤ - أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم: (٥٦٤٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم: (٢٥٧٢).

على ربه -تبارك وتعالى-؛ ولذلك إذا نظرت مصداق هذا الحديث: ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))، فإنك تنزل وتتدرج حتى تصل إلى مراتب متدنية في البلاء، بمعنى: أن هذه الدنيا هي أصلاً دار ابتلاء، فالإنسان -كما سبق- خلق في كبد، فهو يكابد العيش كما ذكر السلف، ويكابد الدنيا، ويكابد ما فيها، فهذه طبيعتها، وهذا مما يبعث النفس ويروضها على الصبر، فهو يعرف طبيعة هذه الحياة، فلا يجزع، ولا ينكسر، ولا يضيق ذرعًا بذلك، إنما هي أمور يسوقها الله -عز وجل- إلى العبد فيرفعه بذلك.

وإذا نزل الإنسان لكي ينظر في البلاء يجد أن البعض لربما يكون بلاؤه في أمور مختلفة، يعني: تجد امرأة تريد أن تنتحر، ما هي المشكلة؟ المشكلة أن عندها طفلا له سنتان أو ثلاث مزعج في نظرها، أزعجها وما عندها غير هذا الطفل، وملت من الحياة، وملت من العيش، ولا تريد البقاء مع زوجها، ولا تريد أن تبقى في الحياة كلها، بسبب هذا الطفل، يعني: الآن هذا الولد الذي هو نعمة عليها هو بلاؤها، وكم من امرأة ما تزوجت تتمنى أنها تتزوج، وكم سمعتُ من النساء -وما أدري من أين جئن بهذا- يقمن كل ليلة بسورة البقرة؛ اعتقادًا منهن أن هذا يجلب لهن زوجًا، باعتبار أنْ أخذها بركة، فهن كل ليلة يقمن، وعلى طول السنة، يقمن بسورة البقرة؛ لأنها تتمنى زوجًا، هذا حال التي ما تزوجت، فهي في بلاء، دائمًا تفكر في هذا الموضوع، يقوم معها ويقعد، ويأكل ويشرب، والتي تزوجت قد ما تنجب، أو تتأخر سنوات، فتكون هذه مشكلة المشكلات، ومصيبة المصائب، ومن مستشفى إلى طبيبة إلى تحاليل إلى فحوصات، وإلى هنا وهناك؛ لأنه ما عندها أولاد، فتبقى في قلق دائم، وهاجس مستمر، هذا بلاؤها الآن، يا سبحان الله! مع أن الأولاد زيادة، وليس عيبًا، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لم يولد له إلا بعد الشيخوخة، وزكريا قال: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} [الأنبياء:٨٩]، فهذا ليس بعيب أي كون الإنسان لا يولد له، وليس بنقص، ومع ذلك تجد من الناس من تكون هذه عنده غاية البلاء والمصاب، مع أنه بلاء يسير، بل يقال له: احمد الله -عز وجل- أنت معافى في بدنك، وأرزاقك دارّة، ليس عندك مشاكل وأمراض، والأولاد زيادة، وما تدري ما حجز الله عنك، قد تكون تعاستك بسبب أولادك، أنا أعرف شخصًا كانت نهايته على يد ولده بساطور، قتله في حظيرة غنم عند الأبِّ، يذهب ويجلس فيها في الظهيرة، وولده هو الذي قتله بساطور، ضربه حتى مات، نهايته على يد هذا الولد، -نسأل الله العافية-، فالقضية ليست أن يأتيه ولد، فنحن نعرف أناساً عندهم أولاد، ولكنهم يتمنون هلاك هؤلاء الأولاد؛ لأنهم رأوا منهم الشيء الكثير من الشر والفساد والإفساد والتهديد بالقتل صباحاً ومساءً، يأتي إلينا أناس أحيانًا يقول: ولده يهدده بالقتل صباحاً ومساءً، ويطلب منه أموالا، لأن ولده مبتلى بالمخدرات، فهل وجود هذا الولد خير له أو عدمه؟ فتجد الذي لا يولد له في بلاء وكرب وشدة، والذي ولد له في كرب، انظر هذه ماذا تقول؟ تريد أن تنتحر لأجل طفل عمره سنتان أو ثلاث، فهذه عندها طفل، وكم من واحدة تتمنى هذا الطفل، وتتمنى هذا الإزعاج في البيت ومن يردّ الصوت، تتمنى أن تسمع صوت طفل، ولكن ما حصل، فهذه بلاؤها في طفلها، تجد هذا كثيراً في النساء، عندها أطفال صغار ملئوا الدنيا عليها غمًّا، لماذا؟ قالت: مزعجون، واحدة أرسلت لي قبل يومين: أنا في كرب وشدة ادع الله أن يفرج عني، ما هذا الكرب؟ عندها طفلان بالنسبة لها مزعجان، فهي في كرب، تطلب الفرج، فهذا ابتلاء بالنسبة إليها، والناس يتفاوتون في البلاء.

لقد رأيت مرة رجلاً يبكي كما يبكي الطفل، وهو رجل ذو هيئة، ورجل مرموق، ورجل معروف في ناحيته، يبكي كما يبكي الطفل ويشكو، فلما ذكر البنت ظننت أنه حصل لها مكروه، أي: أنه انتُهك عرضها أو شيء، فالبنت صغيرة في الابتدائي، فتبين أن المشكلة هي: أنها تدرس في مدرسة مع بنت الأستاذة، والأستاذة التي تدرس بنته مع بنتها في نفس المستوى زادت بنتها ربع درجة، فصارت بنت الأستاذة هي الأولى، وبنت هذا هي الثانية، فيتكلم بحرقة يقول: أنا ما أريد أن أطور الموضوع، وأذهب به إلى الجهات المختصة، والشكاوى، وكذا، فبماذا تشير عليّ؟ أنا لما قال هذا لي كأنه صب عليّ خزانًا من الماء البارد، أنا كنت أترقب وأنتظر ماذا سيقول؟، ما الذي وقع للبنت من البلاء؟ وإذا الذي فيها زيادة ربع درجة، فصارت بنت تلك هي الأولى، وهذه هي الثانية، فيتكلم، وينعصر من الألم، ويبكي، ويمسح دموعه، والمسألة هي أولى وثانية، وربع درجة، يا أخي، تكون الثانية أو الثالثة أو الرابعة، ما المشكلة؟ ما يدريك لعل ربع الدرجة هذه تدفع عنها من الشر الكثير، وما يدريك لعلها تدفع عنها حسدًا، وتدفع عنها شرورًا، وتدفع عنها كلام ناس، وتدفع عنها أذى، دعها تنزل مرتبة، وما يدريك أين العاقبة الحسنة، وأين الخير، لعل الله دفع عنها شرًّا كثيرًا بهذا، فهذا الرجل بلاؤه هذا، فهو يبكي.

هناك أشياء عجيبة يشاهدها الإنسان في الحياة، يعني: هناك ناس عيالهم لا يستطيعون الالتحاق بالمدارس، وهناك ناس أولادهم لا يصلحون للتعليم؛ لأن عندهم ضعفًا، وصعوبات في التعلم، وعندهم تخلف، وهناك ناس عندهم أولاد يدرسون لكن نتائجهم دائمًا رسوب في كل المواد، أو ما عنده دور ثانٍ -إن كان يوجد دور ثانٍ-، وهذه ربع درجة بينها وبين الأولى وصارت مصيبة بالنسبة إليه، فالإنسان يبتلى على قدر إيمانه، فإذا كان في الإيمان رقة خفف عنه، يعني: لا يأتيه بلاء ومصائب على مستوى الأنبياء والأمثل فالأمثل، لا، ولكن تأتيه أشياء بسيطة وخفيفة هي بالنسبة إليه القيامة كلها، وهي بالنسبة للآخرين أمنية الأماني، فكثير يتمنى أنه ما نقص عليه من الدرجة الكاملة إلا ربع الدرجة هذه، فهي أمنية لدى آلاف الملايين، وهذا الذي لربما مصيبته وبلاؤه أو مصيبتها وبلاؤها في طفل أو طفلين هي أمنية لغيره، فهذه نعمة، وهذا الصوت أجمل تغريد لدى المرأة التي لم ترزق بالأولاد، لكن ما يعرف قدر النعمة إلا من فقدها.

إن هناك نِعمًا أسديت إلى أناس يراها من وقعت لهم أنها نقم ومصائب وبلايا، بينما يتمناها أكثر الخلق، يتمنونها، ويغبطونه، وينظرون إليه أنه منعم عليه، وأن الله فاض عليه بهذه النعم، ولكن العبد قد يضعف شكره لله -عز وجل-، ولا يتبصر بنعم الله، فيقع منه مثل هذا الضعف والجزع، ونسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم من الشاكرين لنعمه، وألا يحولها عنا بذنوبنا، وأن يزيدنا وإياكم من فضله، وأن يغني المسلمين من فضله، وألا يحوجهم لأحد من خلقه، ويصلح أحوالهم، ويجمعهم على الحق، والله المستعان.

فهذه السورة تتحدث عن الجزاء في موضوعها الأصلي، فهذه المعايير من العطاء والمنع والغنى والفقر إلى آخره، هذه ليست هي المعايير الحقيقية لقرب العبد من ربه، وأسوأ ما تسمع من سؤال أن يقول: لماذا أنا؟ لماذا يا رب؟ لماذا أعطيت فلانا؟ فلان ما يستحق، أعوذ بالله! هذا هو التسخط على القدر، هذا لا يقوله إلا من لا يعرف ربه -تبارك وتعالى-، فالله عليم حكيم، وإذا عرف العبد أن ربه عليم حكيم رضي بتدبيره، وقال: تدبيره خير من تدبيري، لاسيما إذا استخار في أمر يقصده.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية جيد، في قوله: "**قال الله تعالى: {كَلَّا} أي: ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب..**" إلى آخره، ومدار ذلك على الطاعة والمعصية، وحال العبد من الصلاح والاستقامة، وبنحو هذا ذكر ابن جرير –رحمه الله.

قال –رحمه الله–: وروى أبو داود عن سهل –يعني: ابن سعد– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة))، وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام(٥).

{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر:١٨]، يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك.

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ} [الفجر:١٩] يعني: الميراث، {أَكْلًا لَمًّا} أي: من أي جهة حصل لهم ذلك، من حلال أو حرام.

{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر:٢٠] أي: كثيرًا، زاد بعضهم: فاحشًا.

يعني: قوله –تبارك وتعالى– بعدما ذكر حال هذا الإنسان الذي قد اختلت عنده المعايير قال: **{كَلَّا}** أي: ليس الأمر كما تقولون، وليس الأمر كما تعتقدون، **{بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**، ابن جرير –رحمه الله– يقول في قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**، أي: بل إنما أهنتُ من أهنتُ؛ من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فهنا يقول: إنه أخرج الكلام مخرج الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، بعدما تكلم عن جنس الإنسان، أو عن الإنسان المكذب، فقوله: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ}** هذا غائب، ونحن تكلمنا في التدبر عن الالتفات، فهنا يتكلم عن غائب: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ}** يعني: هو، قال: ثم خاطبهم بقوله: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**، قال: فوجهه إلى الخطاب، فقال: لستم تكرمون اليتيم **{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}**؛ فلذلك أهنتكم، يعني: خاطب هؤلاء المعتقدين أن العطاء والمنع دليل على القرب أو البعد من الله –تبارك وتعالى–، يعني: محبة الله للعبد أو بغضه له.

فالحاصل: أن من أهل العلم كابن جرير من يربط بين هذا: **{بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}** وبين ما ذكر قبله من طبيعة هذا الإنسان، ومعاييره الفاسدة، يعني: يقول: هذا هو الذي يوجب هوان العبد على ربه –تبارك وتعالى–، وذكر هذه الأصناف وإلا فالمعنى أعم من ذلك، يعني: البعد عن الله بإطلاق، وترك عبادة الله، وترك الإحسان إلى الخلق أيًّا كان، لكن ذكر هؤلاء: اليتيم؛ لأنه منكسر القلب، وضعيف، ولا كاسب له، فهو يحتاج إلى إكرام، وإحسان، فضلاً عن أن يُعتدى عليه، ويؤخذ ماله، ولهذا جاء كثيرًا الوعيد الشديد على أكل مال اليتيم، مع أنه لا يجوز أكل أموال الناس عمومًا، لكن اليتيم لما كان لا كاسب له فهو بحاجة، وهو أيضاً صغير، فقد يُستغل صغره، ويؤخذ ماله، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فجاء هذا التشديد والوعيد في حقه، فذكر اليتيم هنا، وذكر المسكين: **{وَلَا تَحَاضُّونَ}** يعني: يحض بعضكم بعضًا، وهذا يدل على أن هذا مطلب شرعي، يحض الناس بعضهم بعضاً على إطعام المساكين والفقراء، فهذا له شأن عند الله، كما في قوله

---

٥ – أخرجه أبو داود، أول كتاب الأدب، باب في ضَمِّ اليتيم، رقم: (٥١٥٠)، وهو في البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم: (٦٠٠٥)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم: (٢٩٨٣).

-تبارك وتعالى-: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد:١١-١٦]، فهذه قضايا لها شأن عند الله -عز وجل-، وهي أعمال جليلة قد يغفل الكثيرون عنها.

قال: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} هنا قال: "{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ} **يعني: الميراث**"، فالتراث هو: الميراث، هذا الذي فسره به أكثر أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير: أنه الميراث، ويقولون: أصله: الوُراث، فأبدلت التاء من الواو المضمومة، فصار التراث، مثل: تُجَاه، أصلها: وُجاه، أي: تُجاه كذا.

وهذا التراث الذي يأكلونه يدخل فيه أخذ أموال اليتامى وميراثهم، وأخذ أموال النساء وميراثهن، فهم لا يورثون المرأة والطفل، ويقولون: المرأة لا شأن لها، ولا تدفع، وكذلك هذا الطفل ليس فيه غناء، فيأخذون ميراثه، فلا يورثون هذا الصغير، فيأكلون أموالهم {أَكْلًا لَمًّا} يعني: أكلاً شديدًا، فقوله: {لَمًّا} تأتي بمعنى: الشدة، وتأتي بمعنى: جمعًا، يعني: كأنه يحوي ويلف ما وصلت إليه يده، يقولون: فلان يده طويلة، يعني: يأخذ كل شيء، ويجمع كل شيء، فهذا الذي يده طويلة معناه: أن كل ما وصلت إليه اليد أخذه؛ ولهذا فسر بعضهم قوله: {أَكْلًا لَمًّا} بالشديد، أي: أكلاً شديدًا، وبعضهم: بالجمع، من قولهم: لممت الطعام يعني: إذا أكلته جميعًا، وابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمعنيين: الشديد والجمع، فهم يأخذون أموالهم وأموال النساء والأطفال، أي: المواريث التي يستطيعون أخذها، كما قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم، وأصل اللمّ في لغة العرب بمعنى: الجمع، يقال: لَمَّ القومَ، ولَمَّ القبيلةَ، ولَمَّ المالَ، بمعنى: جمعه، وأما الليث فيقيد ذلك بالجمع الشديد، ولا زالت هذه الكلمة مستعملة إلى اليوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفجر من الآية (٢٠) إلى آخرها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [الفجر:٨] يعني: هذه القبيلة من عاد، أو قبيلة عاد **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}**، بما أعطاهم الله -عز وجل- من بسطة في الأجسام، وقوة فيها، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}** [الأعراف:٦٩].

وقوله: **{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}** [الفجر:٩] يعني: الذين خرقوا الصخر، والوادي هو: وادي القرى الذي فيه الحِجر.

وقوله: **{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}** [الفجر: ١٠] يعني: فرعون صاحب الأوتاد، يحتمل أن تكون هذه الأوتاد بمعنى: الأجناد، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى: أوتاد يتخذها؛ إما لتعذيب الناس، أو غير ذلك من الأغراض، والوتد معروف في الأصل.

وقوله: **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ}** [الفجر:١١] يعني: أن هؤلاء الأمم الذين ذكرهم الله -تبارك وتعالى- حصل منهم الطغيان، وتجاوز الحد، والاستكبار في الأرض بغير الحق.

وقوله: **{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}** [الفجر:١٢] يعني: من الشرك بالله -عز وجل-، ومحادة رسله، ومقارفة المعاصي والفواحش والجرائم والمنكرات.

وقوله: **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}** [الفجر:١٣] يعني: أنزل الله بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وسوط العذاب بمعنى: نوع العذاب الذي وقع بهم، فالعذاب يعبر عنه بالسوط، فالسوط يشير إلى العقوبة.

وقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** [الفجر: ١٤] فالله -تبارك وتعالى- يحصي على العباد أعمالهم، ويحاسبهم عليها، ويأخذهم متى شاء، لا يفوتونه، ولا يخفى عليه من أحوالهم وأعمالهم خافية.

ثم ذكر أحوال الإنسان والمعايير الفاسدة التي يتوهمها غير أهل الإيمان أو بعض ضعفاء الإيمان، فقال: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** [الفجر:١٥]، يفرح بالنعمة، ويعتقد أن ذلك لمنزلة له عند الله -تبارك وتعالى.

وقال: **{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}** [الفجر:١٦] أي: إذا أصابته الضراء ظن أن ذلك لهوانه على الله -تبارك وتعالى-، وهكذا إذا رأى الناسَ في حال من النعمة، أو حال من الضر فإنه يحكم بمقتضى ذلك على حالهم مع ربهم -عز وجل.

قال الله: **{كَلَّا}** [الفجر:١٧] أي: ليس الأمر كما تقولون، **{بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}** [الفجر:١٧] ذكر حالهم السيئة التي توجب مقت الله حقيقة، وليس قلة الأرزاق، أو كثرة الأرزاق، فقال: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا**

تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر:١٧-١٨]، أي: لا يحض بعضكم بعضًا، وقال: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} [الفجر:١٩] أي: تأكلون المواريث التي للضعفاء من النساء والأيتام والصغار، {أَكْلًا لَمًّا} أي: تأكلونها وتأخذونها وتلمُّونها إلى مواريثكم وتضمونها إلى أموالكم بشرهٍ وحرص وتهافت عليها.

هذه الأوصاف المذكورة مع قوله: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ٢٠] كلها تدور على معنى واحد في هؤلاء، وهو: التهافت على الدنيا، والحرص على جمعها بأي طريق كان، وهذه حال من لا يؤمن بالله -عز وجل-، ولا باليوم الآخر؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١]، فذكر صفة من كان بهذه المثابة ولا يؤمن بالآخرة، فقال: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون:٢-٣]، فمن كان لا يرجو لقاء الله -عز وجل-، ولا يخاف الدار الآخرة فمثل هذا لا يترفع عن كل الدنايا والمدنسات والقبائح من أن يقارفها، ولو كان ذلك بدفع هؤلاء الضعفاء الذين حالهم تجلب الشفقة والرحمة لما هم فيه من الضعف والإعواز، إلا أن هذا قد قُدَّ قلبه من حجر، فهو يدعّ اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فهذه هي النفس التي يحملها هذا الإنسان المكذب بالآخرة، فهو لا يعرف إلا ما حل باليد؛ لأن ذلك هو منتهى البغية التي يبتغيها، وليس له رجاء بما عند الله -جل جلاله.

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

قال الله تعالى: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر:٢١-٣٠].

قبل أن نبدأ بتفسير هذه الآيات: ما معنى قوله في هذه الآية: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر:٢٠] ما معنى جمًا؟ يعني: كثيرًا، والجم بمعنى: الكثير، أي: تحبون المال حبًّا كثيرًا، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:٨]؛ ولهذا فسره بعضهم: بالشديد، أي: تحبون المال حبًّا شديدًا، والمعنى واحد، وقوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ} المقصود بالخير هنا في هذه الآية هو: المال، وليس محبة الخير الذي هو: البر والمعروف والطاعة، وإنما المقصود به المال؛ لأن الله -عز وجل- إذا ذكر الخير في القرآن فإن الغالب أنه المال كما قال تعالى: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة:١٨٠]، ما معنى: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا}؟ يعني: مالاً، فهنا قوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} يعني: يحب المال محبة شديدة، وليس محبة البر؛ لأن الإنسان الكافر والمعرض لا يحب الخير الذي هو المعروف والبر، بل يكرهه ويشنؤه، ويعادي أهله، هذا هو المعروف، وللأسف هذا يُذَكِّر ببعض أصحاب الدعوة الرمادية الملساء الذين لا يريدون أن يزعجوا أحدًا أبدًا، ولو بتغيير حقائق القرآن، يتحدث في قناة فضائية سيئة ويقول: كل الناس يحبون الخير، كل الناس فيهم خير، بدليل أن الله قال: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:٨]، يقصد: البر، والمعروف، فهو يريد أن يقول للعصاة وللفساق وللمجرمين ولغيرهم يقول: أنتم على خير، وأنتم فيكم خير، وأنتم أخيار، الله يقول: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}، أما أنا فلا أعرف إن كان هو هكذا يفهم المعنى فهذا لا يصلح أن يتكلم، هذا جهل شديد،

وإذا كان يعرف ويغير من أجل أن يسترضي هذا الجمهور الفاسد الذي يشاهد هذه القناة فالمصيبة أعظم، فالخير هو: المال.

بعض الناس يسأل عن حكم إمام يدعو بقوله: اللهم هيئ أسباب الهداية للمشركين، أقول: هذا يحتاج إلى تفصيل في هذا الدعاء، ماذا يقصد؟ إن كان يقصد: هداية الإرشاد، فالله قد هيأها، وما يحتاج إلى هذا الدعاء، فالله -عز وجل- جعل هذا القرآن هدى، والنبي هادٍ، قال تعالى: **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}** [الإسراء: ٩]، وإذا كان يقصد: هداية التوفيق، أي: أن يهدي المشركين هداية توفيق، هكذا بإطلاق كل المشركين فهذا خلاف السنة الكونية، فبعض ألفاظ الدعاء أحياناً تحتاج إلى مناقشة وتفصيل، ماذا تقصد؟ وما الذي لا تقصده؟ وما الحاجة لمثل هذا؟ والأفضل: اللهم أصلح من بصلاحه صلاح للإسلام والمسلمين، وأهلك من بهلاكه صلاح للإسلام والمسلمين، فهذا دعاء جزل، والحمد لله.

قال -رحمه الله-: يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال تعالى: {كَلَّا} أي: حقًّا، {إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} أي: وُطئت، ومهدت، وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

قوله هنا في ذكر أهوال القيامة: **{كَلَّا}** قال: "**أي: حقًّا**"، ابن جرير يقول: يعني: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، أي: بحالكم من دفع اليتيم عن حقه، وأكل ماله، ومحبة المال هذه المحبة، ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، أو ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم.

أما ابن كثير هنا ففسر **{كَلَّا}** بمعنى: حقًّا، ثم استأنف هذا الاستئناف، يعني: قال: كلا، أي: ليس الأمر كما تزاولون وتعملون، ما هكذا يكون العمل والحال، ثم استأنف فقال: **{إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** يعني: بعد هذا الردع بكلا جاء هذا الوعيد: **{إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}**، والدك هو: الكسر والدق، تقول: دك العدوَّ، بمعنى: أنه كسرهم ودقهم وأباد خضراءهم.

وهنا هذا الدك ما المراد به؟، فسر بالزلزلة، زلزلت وحركت تحريكًا بعد تحريك، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فقوله: **{إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** أي: تحريكًا بعد تحريك، وابن قتيبة يقيد ذلك بجبالها، أي: الدك للجبال، فيكون ذلك من الأحوال الواقعة للجبال، لكن هنا أضيف إلى الأرض، فابن قتيبة يقول: دكت جبالها حتى استوت بالأرض، وليس بممتنع في اللغة أن يعبر بالكل عن البعض، أي: أن يعبر عن الجبال بالأرض، ليس ذلك بممتنع، لكنه خلاف المتبادر.

فقوله: **{دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** يعني: تزلزلت، هذا الذي يقوله ابن جرير والزجاج وعامة المفسرين، أما المبرد فيفسره بتفسيرٍ هو في الواقع يرجع إلى قول ابن قتيبة، يقول في قوله: **{دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** يعني: سُوِّيت، فهذه التسوية كيف تكون الجبال فيها؟ تدك الجبال وتتفتت حتى تستوي مع الأرض، فالمبرد يقول: سويت، وذهبت المرتفعات التي فيها، فهو يفسر الدك بحط المرتفع، أي: بالبسط، والله -عز وجل- لما تجلى للجبل قال: **{جَعَلَهُ دَكًّا}** [الأعراف:١٤٣]، يعني: مستويًا بالأرض، فحطم هذا الجبل، واندق، وتفتت.

والمشهور من أقوال المفسرين: أن ذلك يكون بزلزلتها، وتحريكها مرة بعد مرة، وكلمة **{دَكًّا}** الأولى مصدر مؤكد للفعل **{دُكَّتِ}**، و**{دَكًّا}** الثانية تأكيد له، كرر تأكيدًا.

إذاً حاصل كلام المفسرين أو أهل المعاني يرجع إلى شيئين:

الأول: أنه الزلزلة والتحريك.

المعنى الثاني: أنه بدك الجبال وببسطها وتسويتها بالأرض، فتزول المرتفعات، وتبقى الأرض في حال من الاستواء والانبساط.

قوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ} يعني: لفصل القضاء بين خلقه، ظاهر هذا أن هذا الدك يكون بعد النفخة الثانية، فقوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ} يعني: لفصل القضاء، جاء مجيئًا يليق بجلاله وعظمته، {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان:٢٥-٢٦]، في ذلك اليوم تتنزل الملائكة، ويجيء الرب -تبارك وتعالى-، وكما قال الله -عز وجل-: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة:١٧]، وعندها يحصل ما ذكره الله -عز وجل- من إشراق الأرض: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [الزمر:٦٩]، هذا كله بمجيئه -تبارك وتعالى- للفصل والقضاء بين العباد.

{وَجَاءَ رَبُّكَ} يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، فيقول: ((أنا لها، أنا لها)) فيذهب، فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك[1]، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان.

يعني: عند قوله تعالى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:٧٩]، يعني: الشفاعة العظمى، مع أنك إذا تأملت مجموع الروايات الصحيحة الواردة في الشفاعة تجد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في كلها: أمتي، أمتي، فهذا قد يشكل: كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قيل له: اشفع تشفع، فيقول: أمتي أمتي، يعني: ليس فيها ذكر الفصل بين أهل الموقف! كل الروايات الصحيحة التي وقفت عليها يقول فيها: أمتي، أمتي، يعني: ليس فيها رواية واحدة يطلب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً الفصل بين أهل الموقف، مع أن هذه هي الشفاعة العظمى، فما الجواب عن هذا؟.

الجواب: أن هذا هو البداية: أمتي أمتي، فعند ذلك يأمر الله -تبارك وتعالى- بأن يدخلوا من الباب الأيمن من الجنة، وهم شركاء للناس في غيره من الأبواب، فهنا هذه بداية الفصل الآن، يعني: بدأ الفصل بين الخلائق في الموقف، هذا هو الجواب.

قال -رحمه الله-: فيجيء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

---

١ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب -عز وجل- يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم: (٧٥١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: (١٩٣).

مجيء الملائكة، وإحاطتهم بالخلائق أيضاً هذا كله لبيان عظمة هذا الموقف، وشدة الهول الواقع فيه، وتعظيمًا لهذا المجيء للرب –تبارك وتعالى–، وإلا فإن الخلق لا يفوتون الله –عز وجل–، ولا يستطيعون أن ينفذوا من بين يديه.

وقوله تعالى: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عبد الله –هو: ابن مسعود– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها))، وهكذا رواه الترمذي[٢].

هذا الحديث لم يذكر فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– الآية: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، ونحن قلنا في مناسبات سابقة: إن التفسير النبوي على نوعين:

النوع الأول: أن يذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– الآية، فهذا إذا صح إسناده فلا يجوز العدول عنه.

والنوع الثاني: أن يذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث معنى، أو يخبر خبرًا، ولا يتطرق للآية، فيعمد المفسر إلى هذا الحديث ويربط بينه وبين الآية، فقد يصيب، وقد يخطئ، قد يكون الحديث لا ارتباط له بالآية، فيجتهد المفسر، ويظن أنه يرتبط بها، فيفسر الآية بالحديث، ومن هنا كان دخول الاجتهاد في التفسير النبوي من هذه الجهة على نوعين:

النوع الأول: ما لا مجال للاجتهاد فيه، وهو: ما صرح به النبي –صلى الله عليه وسلم– بذكر الآية.

النوع الثاني: يدخله الاجتهاد، وهو: هذا النوع، وهذا النوع الثاني على مراتب: منه ما يظهر ذلك فيه غاية الظهور، يعني: وجه الارتباط، مثل هذا المثال: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، كيف يجاء بها؟ كيف تأتي؟ هل تمشي بنفسها، أو أنها يأتي بها ملك، أو أن الله يأمرها فتنزل في المكان الذي يريد؟ لا، بل ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها))، واضرب الرقم –لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك– سيكون عددًا هائلا، فهذا العدد من الملائكة يجرون النار، وما قوة الملك؟ إذا كان الملك الواحد يقلب قرى قوم لوط، {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [النجم:٥٣]، واحد فقط يقلب هذه القرى، فكيف بهذه التي يقودها هذا العدد الهائل من الملائكة؟ ويكفيك لكي تتصور حجم هذه النار أن تعلم أن الشمس والقمر يكوران ويلقيان في النار، ولا تضيق بهما، بل هي تقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ ويلقى فيها الخلائق كما جاء في الحديث: ((يا آدم أخرج بعث النار، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين...))، فالناجي واحد من كل ألف، ((عند ذلك يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها))[٣]، فمن هذا الذي سينجو من الألف؟ لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أن يأجوج ومأجوج من هذه الأمة، من أمة الدعوة، وأنها ما

---

٢ – أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم: (٢٨٤٢).

٣ – أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم: (٣٣٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، رقم: (٢٢٢).

كانت في أمة إلا كثرتها[٤]، فرب ضارة نافعة، فهم يخرجون في آخر الزمان، ويفسدون إفسادًا عظيمًا، ومن كل حدب ينسلون، ولكن العاقبة لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة.

فالمقصود: أن قوله هنا: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} أي: يؤتى بها بهذه الصفة العظيمة الهائلة، فيشاهدونها، {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان:١٢]، وهم كما قال الله -عز وجل-: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى:٤٥]، مثل هذا الإنسان الذليل الذي قد وضع للذبح، فهو ينظر إلى السكين أو السيف، ينظر إليها من طرف خفي، يعني: وهو ذليل بائس منكسر، وينظر بطريقة خفية إلى هذا السيف أو الآلة التي سيقتل بها، فهكذا هؤلاء، نسأل الله العافية.

فمثل هذا اليوم يحتاج إلى عمل، ويحتاج إلى استعداد، ويحتاج إلى إخلاص ونيات صحيحة، ويحتاج إلى حفظ اللسان وغير اللسان، ويحتاج إلى مجاهدة لهذه النفس في الأعمال الصالحة، فبعد رمضان لا ينسى الإنسان ربه -تبارك وتعالى-، والأعمال الصالحة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان أحب العمل إليه ما داوم عليه صاحبه[٥].

كان أبو صالح وأخوه وأمه يحيون الليل كل واحد يقوم ثلثه، فماتت الأم فتقاسم أبو صالح مع أخيه الليل إلى نصفين؛ لئلا تنقطع عادة في البيت؛ ولكيلا تكون ساعة من الليل إلا ويصلى فيها، فأخذوا نصيب الأم، فمات أخوه، فصار يقوم الليل كله، ما أرادوا أن يتركوا شيئًا كانوا عليه حتى بعد وفاة هؤلاء، يحيون الليل بهذه الطريقة، ثلث وثلث وثلث، فمن يفعل هذا والبيت قد يكون فيه سبعة أو ثمانية أو تسعة أو عشرة؟ لو أخذ كل واحد نصف ساعة، أو ساعة إلا الربع في مثل هذه الليالي القصيرة، أو ساعة، أو نحو ذلك من بعد العشاء إلى الفجر لأحيوا الليل كله، نحن لا نقول هذا في هذه الأيام، نحن نقول: حافظ على الفرائض، والسنن الرواتب، فإذا أَذَّن اترك ما بيدك واذهب إلى المسجد، ولا تترك وردك من القرآن، وأن تكون لك عادة من صيام، كأن يكون لك في الشهر صيام ثلاثة أيام، أو نحو هذا، فهذا بصيام الدهر.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ} أي: عمله، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} أي: وكيف تنفعه الذكرى؟، {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيًا، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا، كما روى الإمام أحمد بن حنبل، عن محمد بن أبي عميرة، وكان من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((لو أن عبدًا خر على

---

٤ - أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب: ومن سورة الحج، رقم: (٣١٦٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} [الحج: ٢]، رقم: (١١٢٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

٥ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله -عز وجل- أدومه، رقم: (٤٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذكر بأن يرقد، أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك، رقم: (٧٨٥).

وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب))[٦].

قوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَئِذٍ}** يعني: في ذلك الحين، في يوم القيامة، حينما تدك الأرض، ويجيء الرب لفصل القضاء، وتنزل الملائكة، وتكون صفوفًا، ويجاء بنار جهنم بهذه الصفة، عندها **{يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}** يعني: من أين له التذكر والاتعاظ حينها حيث لا ينفع الندم؟ فقد فات الأوان الذي ينفعه فيه التذكر والاتعاظ والاعتبار، فندمه ذلك إنما هو نوع من العذاب، وليس بنافعه شيئًا.

قال الله تعالى: **{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}** هنا يبدأ ينطق ويتفوه بحسراته، فماذا يتمنى؟ يقول: ليتني أكملت المشاريع التجارية؟، ليتني حصلت الأموال الفلانية؟، ليتني ازددت من الزروع والحرث، وما إلى ذلك؟، لا، أبداً، بل **{يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}**، أي: لحياتي الحقيقية، فهذه هي الحياة الحقيقية، وليست هي التي نحن فيها الآن، هذه أحلام وأوهام، سرعان ما تنقضي وتزول، وكل شيء فيها يفنى، وأقرب ما هنالك وأدناه الأطيبان: الطعام والنكاح، وانظر كيف يتحول تحولاً سريعًا، ويضمحل، ويتلاشى، فهي أحلام، وأما الآخرة فهي الحياة الحقيقية **{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}** يتمنى، يعني: لأجل حياتي الأخروية، أو أن اللام بمعنى: في، فقوله: **{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}** يعني: في وقت حياتي الدنيوية، والأظهر: أنه يقصد الحياة الأخروية، فهذه هي التي يصح أن يقال لها: حياة؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}** [العنكبوت:٦٤] فالحيوان هنا تدل على المبالغة، بحيث إن المقصود أن الحياة الآخرة هي: الحياة الحقيقية التي يصدق عليها أنها حياة، أما هذه الحياة فهي ليست بحياة، فهي عابرة على الجميع، الصحيح والمريض، والفقير والغني، وهي: معبر، كراكب استظل تحت ظل شجرة، ثم ذهب وتركها.

قال الله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذابًا من تعذيب الله من عصاه، {وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} أي: وليس أحد أشد قبضًا ووثقًا من الزبانية لمن كفر بربهم -عز وجل-، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين.

قوله: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}** يعني: ليس أحدٌ أشد عذابًا من الله -تبارك وتعالى-، فقوله: **{لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ}** أي: عذاب الرب -تبارك وتعالى.

وقوله: **{وَلَا يُوثِقُ}** يعني: وضع الوثاق، وهو: الرباط والقيود والأغلال؛ لأن هؤلاء من المجرمين والعتاة على الله -عز وجل-، فلا يتركون هكذا، إنما توضع الأغلال في الأعناق، تربط الرقبة بسلاسل، والأيدي تغل إلى الأعناق، والأرجل كذلك، كما قال الله -عز وجل-: **{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}** [الحاقة:٣٢]، فيقيد بالسلاسل الطوال، وهذه السلاسل تصطلي بالنار، ويزيد ذلك في عذابه، فهو مربط وفي النار.

---

٦ – أخرجه أحمد في المسند، رقم: (١٧٦٥٠)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير علي بن إسحاق -وهو السلمي مولاهم- فمن رجال الترمذي، وهو ثقة.

فقوله هنا: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}** أي: الله، **{وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}** أي: الله، وهذا على هذه القراءة أي: قراءة الجمهور: **{لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ}** الضمير يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، فعذاب الله لا يقادر، ولا يطاق، ولا يحتمل، ولا يمكن لأحد أن يعذِّب مثل هذا العذاب، ولا يمكن لأحد أن يوثِق ويربط مثل هذا الوثاق.

أما على القراءة الأخرى المتواترة، وهي قراءة الكسائي، فهي: بالبناء للمجهول، **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذَّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثَقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ}** فهذا يعود إلى الإنسان المعذب والموثق، أي: المربوط بالأغلال والسلاسل، فقوله: **{لَا يُعَذَّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثَقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ}** أي: لا أحد يعذَّب مثله، ولا يربَط مثله، والقراءتان ترجعان إلى معنى متحد مع اختلاف الضمير، فهذا يرجع إلى الله، وهذا يرجع إلى المعذَّب والموثَق، فالمقصود: أن هذا العذاب الواقع من الله لا يستطيع أحد أن يعذبه، وأن هذا الوثاق الذي يوثقه الله -عز وجل- لهؤلاء الكفار لا يستطيع أحد أن يوثقه، وهكذا فإن وثاقهم وعذابهم يكون كذلك، أي: منقطع النظير، ليس له نظير، ولا ما يقاربه.

قال -رحمه الله تعالى-: فأما النفس الزكية المطمئنة، وهي: الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ} أي: إلى جواره وثوابه، وما أعد لعباده في جنته، {رَاضِيَةً} أي: في نفسها، {مَرْضِيَّةً} أي: قد رضيت عن الله، ورضي عنها، وأرضاها.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}** لما ذكر حال الكفار، وما لهم من الأغلال والعذاب الشديد عقب ذلك بذكر أهل الإيمان، أهل النفوس المطمئنة، فهذه النفس المطمئنة يقول ابن كثير عنها هنا: "**النفس الزكية المطمئنة، وهي: الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق**"، وهذا صحيح، فهي: اطمأنت بالحق واطمأنت بالإيمان.

أما عبارات المفسرين فمقاربة لهذا، فابن جرير يقول: التي اطمأنت إلى وعد الله -عز وجل- الذي وعد أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة، يعني: آمنت، فهذا من الإيمان، فقوله: اطمأنت بوعد الله -عز وجل- أي: اطمأنت بالإيمان بالله -تبارك وتعالى-، والإيمان بالدار الآخرة، واطمأنت بالقبول عن الله -عز وجل-، وبالعمل الصالح الذي يرضيه، بخلاف تلك النفوس المشوشة، فهذه نفس ساكنة موقنة بالإيمان وبتوحيد الله -عز وجل- وبوعده لأوليائه، كل هذه المعاني فوصلت إلى حال الطمأنينة، وصارت إلى حال من اليقين لا يخالطه ريب يقلقها ويشوشها ويزعجها، والحسن البصري فسر ذلك: بالمؤمنة الموقنة، وهذا يرجع إلى ما سبق، ومجاهد قال: الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وهذا كله من قبيل التفسير بالمثال، أو بجزء المعنى، فهذا بعض الاطمئنان، يعني: النفس المطمئنة إذا أصابها المكروه لم يحصل لها الجزع، والتسخط على أقدار الله -تبارك وتعالى-، فهذا من صور وأحوال النفس المطمئنة.

هذه النفس المطمئنة يقال لها: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** يقول: "**إلى جواره وثوابه، وما أعد لعباده في جنته، {رَاضِيَةً} أي: في نفسها، {مَرْضِيَّةً} أي: قد رضيت عن الله، ورضي عنها، وأرضاها**".

قوله هنا: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ}** أي: ارجعي إلى الله، يعني: راضية بالثواب، مرضية يعني: عند الله -تبارك وتعالى-، هذا هو المشهور الذي عليه الجمهور، وهو المتبادر أصلاً، مع أن بعض السلف يقول كما جاء عن

عكرمة وعطاء: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ} يعني: الجسد، بمعنى: أن الرب هو: الصاحب والسيد، يعني: ارجعي إلى الجسد الذي كنتِ فيه، فإلى ربك يعني: إلى جسدك، والعجيب أن هذا هو اختيار ابن جرير، ابن جرير بماذا يحتج على هذا القول الذي قد يبدو لنا أنه لا يخلو من غرابة؟ يحتج بحديث البراء وفيه: أنه يقال لهذه الروح الطيبة: ((ارجعي إلى الجسد الذي كنت تعمرينه))[7]، فقال: هذا معنى قوله: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ}، ويحتج على هذا أيضاً بقراءة غير متواترة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عَبْدِي} فقال: {فَادْخُلِي فِي عَبْدِي} بينما القراءة المتواترة قال: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} يعني: عبادي الصالحين، أي: ادخلي في جملة الصالحين، وأما في هذه القراءة التي هي غير متواترة فقال: {فَادْخُلِي فِي عَبْدِي}.

فمثل هذا القول حينما تسمع توجيهه ودلائله يزول عنك الإشكال والاستغراب والاستبعاد الشديد، كيف يقال: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ} يعني: إلى جسدك؟! وهكذا أقوال الأئمة حينما تنظر إليها وتتأمل وتوجه هذه الأقوال لربما السامع بعد أن كان يعجب من هذا القول لربما يتحول إلى تبنيه، فلا تستعجل في استهجان كلام أهل العلم واستبعاده، أو الاستخفاف به، فإنك لو تأملته، وعرفت أدلتهم، ومأخذ هذا القول لربما غيرت رأيك، فهؤلاء أئمة وعلماء وأذكياء، فلو عرفته لربما غيرت رأيك، فإن العلماء يتناظرون أحيانًا، وكل واحد يتبنى رأيًا، ثم يتحول إلى رأي الثاني، فهذا يتحول عن رأيه إلى رأي مناظره، والمناظر يتحول إلى رأي الآخر، وقد حصل هذا مع الشافعي والليث أو مع الشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام، وهذا موجود، يتناظر العلماء ثم بعد ذلك هذا يأخذ بقول ذاك، وذاك يأخذ بقول هذا.

{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} أي: في جملتهم.

يعني: كما قال الله -تعالى-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [العنكبوت: ٩].

في قوله -تبارك تعالى-: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} متى يقال لها هذا الكلام؟ هناك قولان:

القول الأول: يقال لها ذلك عند الاحتضار، فتبشر عند الموت، وعند مفارقة الروح الجسد، أي: يقال لها ذلك في الدنيا، يعني: قبل يوم القيامة، ويدل لهذا حديث البراء، فمن قالوا: إن هذا يكون قبل القيامة، أي: أنها تبشر، ويقال لهذه الروح هذا الكلام إذا خرجت استدلوا عليه بحديث البراء.

القول الآخر: أن هذا في الآخرة، فكما ذكر حال أهل النار، وأنه يجاء بجهنم، وتكون حالهم هناك الندم، وتمني العمل الصالح، وصلاح الحال، ذكر أيضاً حال أهل النفوس المطمئنة هناك، وأنه يقال لهم خلاف ذلك: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}.

أما ابن جرير فيقول: إن قوله: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}، إن هذا يقال عند رد الأرواح إلى الأجساد يوم القيامة، مع أن حديث البراء الذي احتج به هؤلاء من أن المراد بالرب هنا: الجسد هو قبل

---

٧ - أخرجه أحمد، رقم: (١٨٥٣٤)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح. أبو معاوية: هو محمد بن خازم الضرير، والأعمش: هو سليمان بن مهران، وزاذان: هو أبو عبد الله، ويقال: أبو عمر الكندي، مولاهم.

القيامة، فهو: حديث الروح إذا خرجت، وأخذها الملائكة، وصعدوا بها، فهذا قبل القيامة، لكن ابن جرير -رحمه الله- يرى أنه يقال لها ذلك حينما ترد الأرواح في الأجساد يوم القيامة، فيقال لها: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ}** أي: إلى الجسد الذي كنتِ تعمرينه، والله تعالى أعلم.

لكن الظاهر المتبادر من قوله تعالى: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** يعني: إلى الله -تبارك وتعالى-، والمعنى الثاني الاحتمال فيه قوي، من أنه يقال: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** يعني: إلى جسدك؛ لحديث البراء، وللقراءة الأخرى الشاذة؛ لأن القراءة الشاذة تفسر بها القراءة المتواترة، وهي قوله: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبْدِي}**، مع أن قوله: **{فَادْخُلِي فِي عِبْدِي}** يمكن أن يكون بمعنى الجمع أيضاً كقوله: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}**؛ لأن "عبد" هنا مفرد مضاف، وقد يقول قائل: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}** يعني: ارجعي إلى أجسادهم، باعتبار المجموع، ويكون المخاطب جنس النفس المطمئنة، وليست واحدة، فقد يقول قائل هذا، ولا يبعد.

لكن المتبادر -والله أعلم- أنها ترجع إلى ربها، وهو الله -تبارك وتعالى-، وحتى على القراءة الأخرى الشاذة إذا صح سندها: **{فَادْخُلِي فِي عِبْدِي}** لا يعني: أن هذا تفسير للرب في قوله: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ}**، مع أن إطلاق الرب على المخلوق موجود في اللغة، وموجود في القرآن، ففي القرآن في قوله تعالى في سورة يوسف -عليه السلام-: **{قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}** [يوسف:٢٣] على أحد القولين، فبعضهم يقول: المقصود به: العزيز، أي: أنه أكرمني وأحسن نزلي ومثواي في قصره هذا، أيضاً أوضح من هذه الآية فإن هذه الآية فيها قولان **{إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}**، أوضح منها التي في نفس السورة في المواضع الأخرى كقوله: **{قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}** [يوسف:٥٠]، فهنا هذا لا يحتمل، فقوله: **{ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ}** يعني: إلى سيدك، وكقوله: **{اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}** [يوسف:٤٢] يعني: عند الملِك.

وقوله: **{فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}** [يوسف:٤٢] هذه فيها قولان، بحسب مرجع الضمير، فبعضهم يقول: فأنساه الشيطان أي: أنسى ذاك الطليق الذي خرج من السجن، وهو: الساقي للملك، أي: نسي أن يذكر يوسف عند ربه، **{فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}**، فبقي يوسف في السجن، وهذا ناس، **{فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}** [يوسف:٤٢]، لكن هذا فيه اختلاف الضمائر، والأصل أن مرجع الضمائر يكون متحدًا، فقوله: **{اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ}**، من أنسى؟ فيه قولان:

الأول: أنسى الشيطان الساقي ذكر ربه، **{فَلَبِثَ}** يعني: يوسف، فصار الضمير يرجع إلى يوسف، فتفرقت الضمائر، والأصل توحيد مرجع الضمائر ما أمكن، فهذه طريقة في الترجيح وقاعدة.

والثاني: **{فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ}** أي: أنسى يوسف ذكر ربه باللجأ إليه، فلا يؤمل في مخلوق، فكان نتيجة ذلك أنه لبث في السجن بضع سنين، فالقلب لا يكون فيه أدنى التفات إلى مخلوق.

{وَادْخُلِي جَنَّتِي} وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضًا، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره؛ فكذلك هاهنا.

ابن كثير هنا جمع المعنيين: "**عند الاحتضار**" باعتبار حديث البراء، "**وفي يوم القيامة**" باعتبار أن ابن كثير فسر هذه الآية بأنها في القيامة، فيقال لها ذلك، وهذا محمل حسن، وجمع بين هذه النصوص.

قال -رحمه الله-: وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا، فقال: ((أمَا إنه سيقال لك هذا))[8].

آخر تفسير سورة الفجر، ولله الحمد والمنة.

قوله تعالى: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، مخاطبة هذه النفس تكون كما ذكر ابن كثير: أن هذا يكون عند الاحتضار، ويكون بعد البعث، جمعاً بين النصوص، مع أن طوائف من أهل العلم يقولون: هذا عند خروج الروح، وهذا قال به من التابعين: أبو صالح، وزيد بن أسلم، واحتجوا بحديث البراء أنه يقال لها: ((اخرجي راضية مرضيًّا عنك))، فهذا يصلح أن يكون تفسيرًا للآية، فاقتصروا على هذا: أنها عند الاحتضار، ومن نظر إلى السياق في ذكر حال أهل النار، ثم توجيه الخطاب للنفس المطمئنة قالوا: هذا في الآخرة، في القيامة، فصار عندنا حديث البراء يدل على أنه يحصل لها عند الاحتضار، والآية في سياقها أن هذا في القيامة، فقال ابن كثير: يكون ذلك في مقامين.

وأمّا ابن القيم فله تعليق على هذا فيقول: "قوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٢٧ - ٣٠] وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك، فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء، فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن، وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله في حديث البراء وغيره: فيقال لها: ((اخرجي راضية مرضيًّا عنك)).

وقوله تعالى: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} مطابق لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم الرفيق الأعلى))[9]"[10].

وقال: "فالنفس المطمئنة هي: التي اطمأنت إلى ربها، وسكنت إلى حبه، واطمأنت بذكره، وأيقنت بوعده، ورضيت بقضائه، وهي: ضد النفس الأمارة بالسوءِ، فلم تكن طمأنينتها بمجرد إسقاط تدبيرها، بل بالقيام بحقه، والطمأنينة بحبه وبذكره"[11].

وقال: "وإن المراد من الآية رضاها بما حصل لها من كرامته، وبما نالته منها عند الرجوع إليه، فحصل لها رضاها، والرضا عنها، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا، وقدومها على الله.

قال ابن عمرو -رضي الله عنهما-: "إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان، ورب عنك راضٍ.

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

---

٨ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، رقم: (١٩٢٨٧).

٩ - أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم الرفيق الأعلى))، رقم: (٦٣٤٨)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها-، رقم: (٢٤٤٤).

١٠ - الروح لابن القيم: (ص: ٧٦).

١١ - طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص: ٣٤١).

أحدها: أنه عند الموت، وهو الأشهر، قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها، ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

الثاني: وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث، وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

الثالث: وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** تقال لها عند الموت، والكلمة الثانية وهي: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}** تقال لها يوم القيامة، قال أبو صالح: قوله: **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** هذا عند خروجها من الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}**.

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة، فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا، وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت مطمئنة إلى الله، وفي جنته، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة"[١٢].

يعني: كلام ابن القيم هنا كقول ابن كثير: يقال لها عند خروج الروح، يقال لها أيضاً في القيامة، انتهى الكلام على هذه السورة، والحمد لله رب العالمين.

---

١٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/١٧٦- ١٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البلد من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين.

تفسير سورة البلد.

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [سورة البلد:١-١٠]

هذا قسم من الله -تبارك وتعالى- بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، قال خُصيف عن مجاهد: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} "لا" رَدٌّ عليهم، {أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} يعني مكة، {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وعطية والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد، وقال الحسن البصري: أحلها الله لك ساعة من نهار، وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شجره، ولا يُختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب))[1]، وفي لفظ آخر: ((فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم))[2].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة البلد من السور المكية، وهي تتحدث عن الإنسان، الإنسان في جنسه حيث خلقه الله -تبارك وتعالى- في كبد، وعن بعض هذا الجنس وهو الإنسان المكذب الكافر بالله -تبارك وتعالى- الذي يحارب ويحاد ربه ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، يظن أنه يستطيع أن يفلت من عذاب الله، وأن الله لا يقدر عليه، فالله -تبارك وتعالى- يذكر قدرته على هذا المخلوق، ويذكر حاله من أن الله بين له طريق الخير

---

١ - رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم، برقم (١٨٣٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، برقم (١٣٥٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلِّغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ، برقم (١٠٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، برقم (١٣٥٤).

وطريق الشر وأحاط به إحاطة كاملة، وأنه لم يُقبل على الأعمال التي يحصل بها النجاة، وما يحصل به فكاك رقبته يوم القيامة من الإيمان والأعمال الصالحة كالعتق أو الإطعام وما إلى ذلك، هذا ما تدور عليه هذه السورة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} قد مضى نظائره في دخول "لا" هذه في القسم، فيقول هنا: **هذا قسم من الله -تبارك وتعالى- بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها** إلى آخره، ثم نقل عن مجاهد: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} **"لا" ردٌّ عليهم، أقسم بهذا البلد**، معنى ذلك أن "لا" هذه نافية على قول مجاهد، يعني أنها تتعلق بمقدر محذوف لا لما تزعمون، لا لما تقولون، ثم نقطة، {أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} فتكون على بابها من النفي، وبعضهم يقول: إنها على بابها من النفي، نفي القسم {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، يعني ينفي القسم ومثل هذا إما لوضوح الأمر أنه لا يحتاج إلى قسم، أو لأمر آخر كما في هذه السورة على قول بعضهم، بحسب المعنى في الذي بعده، {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} ما هو البلد؟، سيأتي إيضاحه -إن شاء الله-، فعلى القول بأنه مكة، وأن البلد الآخر {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} يعني المدينة، وأن "حل" بمعنى حالّ نازل، يعني لا أقسم بمكة وأنت خارج عنها، أو لا أقسم بهذا البلد وأنت حال فيه، يعني مكة، البلد الأول والثاني كله مكة، فأنت أعظم حرمة فالقسم بك أولى وأحق، أو {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} يعني مكة وأنت حل يعني يُستحل به عرضك، ويصل إليك الأذى من هؤلاء المشركين، يستحلون أذاك، فلا أقسم بهذا البلد وأنت مُستحَل فيه تُؤذى، كل هذا على أن "لا" نافية على بابها.

والقول الآخر: هو أن "لا" هذه تدخل على القسم؛ لتقويته، وأنها ليست على بابها في النفي، يعني يسمونها صلة، أي أنها تزاد في القسم لتقوية القسم مثل: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة القيامة:1] وقد مضى الكلام على نظائر ذلك، والواحدي نقل الإجماع على أنه قسم بالبلد الحرام، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- قال: **هذا قسم من الله -تبارك وتعالى- بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالًّا لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها.**

"حالًّا" في هذا التركيب في هذه الجملة قد لا يكون مقصودًا، يعني الذي يبدو -والله أعلم- أن اللائق بهذا السياق "حلالاً" لماذا؟ ابن كثير يقصد معنى دقيقًا، وهو ظاهر من السياق لا يتأتى معه لفظة "حالًّا" يعني يقول: **هذا قسم من الله تعالى بمكة في حال كون الساكن فيها حلالاً لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها** يعني إذا كان القسم فيها في حال كون الساكن حلالا يعني غير محرم، فكونه مُحرمًا يكون ذلك أعظم وأشد في تحريم مكة، يعني اجتمع عليه حرمة المكان البقعة، وحرمة أيضًا الإحرام، الحال التلبس بالإحرام، {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} هذا كلام ابن كثير -رحمه الله-، لكن لو قلنا: هذا قسم من الله بمكة في حال كون الساكن فيها حالًّا؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها سيكون الكلام الذي بعده ما له معنى، لكن يريد أن يقول: أقسم بها في حال كون هذا الساكن حلالاً، يعني غير محرم، فكيف بالساكن فيها إذا كان في حال الإحرام؟، فهذا أشد وأعظم في الحرمة.

وهنا نقل عن ابن عباس {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} **يعني مكة** {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} قال: **أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه**، هنا هذا يوافق ما ذكره ابن كثير من أنه فسر الحل بالحلال، يعني الذي هو ضد الحرمة؛ لأن هذه

اللفظة يدور كلام المفسرين فيها على معنيين على اختلاف في تنزيلهم لهذين المعنيين، لكن كل الكلام يدور على معنيين:

المعنى الأول: حل بمعنى حلال الذي هو ضد الحَرَم، تقول: الحل والحرم يعني المكان الذي هو حلال والمكان الذي هو حرام، تقول: عرفة حل ومزدلفة حرم.

والمعنى الثاني: أن حل بمعنى حالّ أي: نازل، حل بالمكان إذا نزل فيه، أقام فيه، هذا حل، فكلام المفسرين يدور على هذا، فهنا ما ذكره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: **أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه، قال: وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وعطية والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد، وقال الحسن: أحلها الله له ساعة من النهار**، هذا بنفس المعنى، نفس قول هؤلاء، يعني قول الحسن: **{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}**: يعني أنت حلال، يعني أحلت لك ساعة من نهار، هذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، وابن كثير كما نرى مشى على هذا، هذه السورة مكية، وهذه الآية مكية، فهي تتحدث عن أمر لم يقع، **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** أُقسم بهذا البلد، هذا المعنى **{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** هذه جملة ثانية، وليس هذا هو جواب القسم، سيأتي جواب القسم، لكن هنا يخبر عن هذا البلد لما ذكره وأقسم به لعظمه وحرمته أنه أحله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ساعة من نهار، هذا الذي عليه الجمهور أن "حِل" من الحلال وليس من حَلَّ بمعنى أقام بالمكان، فتكون الآية تتحدث عن أمر مستقبلي، هذا الذي يسمونه ما نزل قبل وقوع حكمه، يعني آية تتحدث عن أمر لم يقع مثل: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [سورة القمر:٤٥] وقد مضى الكلام على بعض الأمثلة على فرض أنها مفسَّرة بما قيل مما يقتضي ذلك، مثل: **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [سورة الأعلى:١٥] عند من قال أو على قول من قال: ذكر اسم ربه يعني بالتكبير ليلة العيد ويوم العيد قبل الصلاة، ذكر اسم ربه فصلى، صلى العيد، يعني وإن كان هذا القول ضعيفاً لكن على صحة فرضه ذكرنا أنه لا حاجة للقول بأن هذه الآية نازلة بالمدينة، وإنما يكون مما نزل قبل تقرير حكمه، مع أن الراجح أنه ليس في صلاة العيد أصلا، ولا في تكبير العيد، ومثل: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** [سورة الكوثر:٢] كل هذا من المكي، وصلاة العيد والفطر والأضحى والنحر الذي هو الأضاحي كل هذا لم يتقرر ولم يشرع إلا في المدينة، فعلى ذلك القول وعلى فرض صحته يكون مما نزل قبل تقرير حكمه، يعني هذا جواب على هذا الافتراض، فالرد على الذين يسارعون بالقول بأن الآية مستثناة من السورة المكية، وأنها نازلة في المدينة بما لاح لهم من معنى، وقلنا: إن هذه الطريقة غير صحيحة، وإن الحكم بأن هذا مكي أو مدني مبناه على النقل، **{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** لاحظ يقول: **وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث** يعني: ((وإنما أحلت لي ساعة من نهار)) إلى آخر ما ذكر.

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} هذا القول الذي ذكره ابن كثير واختاره ابن جرير هو المشهور، أُقسمُ بهذا البلد الذي هو مكة، وأنت حل به على عظمته، يعني أحل له ساعة من نهار، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فبعضهم كما سبق يقول: إن ذلك لنفي القسم، كأنه يقول: مِن المكابد أن مثلك يُستحل بهذا البلد كما يستحل الصيد، يعني يستحل أذاه، إيصال الأذى له على حرمة هذا البلد، فيستحل أذى هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- كما يستحل الصيد في غير الحرم، لكن هذا وإن قال به بعض أهل العلم ليس المتبادر -والله

تعالى أعلم-، فالحِل والحلال والمُحَل كل ذلك واحد هو ضد المُحرَّم، حِل بمعنى حلال، فالله -تبارك وتعالى- لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها، والقاعدة أن القسم لا يكون إلا بمعظم، يعني عند المقسِم سواء كانت عظمته حقيقية أو غير حقيقية، فالله إذا أقسم بشيء فإن ذلك يدل على منزلته وعظمته حقيقة، لكن الحالف بغير الله -تبارك وتعالى- الذي يحلف باللات أو العزى أو بغير ذلك هو لا يحلف إلا بما هو معظم عنده، فالقسم لا يكون إلا بمعظم حقيقية أو حكمًا، يعني بحسب اعتقاده وإن لم يكن في الواقع كذلك، والمقصود أنه على هذا المعنى المشهور يكون ذلك من قبيل العِدة من الله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه يحل له هذا البلد في المستقبل، كما يقول مجاهد: ما صنعت فيه من شيء فأنت في حل، بمعنى أنه ترتفع حرمة القتال فيه لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، يكون ذلك مباحًا إباحة مؤقتة، يعني لست بآثم، غير منتهك لحرمة هذا البلد، وبعضهم فسر الحل بمعنى الحالّ، يعني المقيم، وهذا إذا قلنا أو على القول بأن "لا" هذه على حقيقتها في النفي، يعني يراد بها النفي، وأنها ليست زائدة، كما يقولون: يعبر عن الزيادة بالصلة، يعني تأدبًا، فعلى القول بأن ذلك على بابه في النفي **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}** نفيٌ للإقسام به، **{وَأَنتَ حِلٌّ}** هنا تكون بمعنى حالّ بمعنى نازل، يعني يقول: أنت أولى بالقسم من هذا البلد طالما أنك فيه، يعني أن الساكن أعظم من البقعة، الساكن الذي هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، الحالّ النازل أولى بالقسم من هذه البقعة على حرمتها، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أعظم حرمة، فأنت أحق بالإقسام طالما أنك نازل في هذا البلد، هذا قال به بعض المفسرين كما سبق، لكن هذا يحتاج إلى إثبات، أن حل بمعنى حالّ؛ لأن هذه المسألة ليست محل تسليم من قبل أهل العلم من أهل اللغة والمفسرين، بعضهم يقول: إن هذه المادة "حِل" معناها حلال الذي هو ضد الحرمة، وليس معناها "حالّ" إطلاقًا ولا تأتي بهذا المعنى فتلك مادة أخرى، لاحظ فيردون عليهم من هذه الحيثية يقولون: من ناحية اللغة لا تأتي حِل بمعنى الحلال الذي هو بمعنى الإقامة حَلّ بالموقع، حَلّ بالموضع، حل بالبلد، حل بالمكان، حل بالبقعة وإنما هو ضد الحرام، فهذه مسألة فيها كلام لأهل العلم، لذلك ذهب عامتهم إلى ما ذكر هنا من أن ذلك بمعنى الحل الذي هو ضد الحرمة، فيبقى عندنا على هذا معنيان من خلال ما سبق: المعنى الأول الذي عليه الجمهور وهو اختيار ابن كثير وابن جرير أُقسمُ بهذا البلد **{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** وعد من الله -عز وجل- أن يجعلها حلالاً له، يعني عند فتحها، "أحلت لي ساعة من نهار"، الحل ضد الحرمة.

المعنى الثاني: أن تكون "لا" نافية -هنا "لا" على المعنى الأول لتقوية القسم، ليست نافية- على بابها، لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل يُستحل به أذاك، يستحل به عرضك، كما يستحل الصيد خارج الحرم، كل هذا يرجع إلى معنى حل الذي هو يقابل الحرمة، والله أعلم.

لكن البون بين القولين شاسع، فهذا القول الأخير ليس هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:" قوله تعالى: **{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظغن، فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد، بخلاف المُحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع؛ ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام فهو

في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان، والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن"(٣).

لاحظ هذا يمشي على كلام ابن كثير: هذا قسم من الله تعالى بمكة في حال كون الساكن فيها حلالاً لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، يعني أَقسمَ بها في حال الحرمة، أو أَقسمَ بها في حال الحل، أُقسمُ بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد باعتبار أن هذه جملة ثانية، وأنت حل بهذا البلد مرتبطة بالقسم، أُقسمُ به حال كونك حلالاً فيه، فإذا كان القسم يدل على التعظيم حال كونه حلالاً، فكيف به إذا كان محرمًا؟!، فيكون اجتمع فيه أمران: التحريم المتعلق بالبقعة، والتحريم المتعلق بالحال وهي الإحرام، يعني هذا مثل كلام ابن كثير.

وقال –رحمه الله-: "وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول فهو متضمن لهذا التعظيم مع تضمنه أمرًا آخر وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا، وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية، وفي الآية قول ثالث وهو أن المعنى وأنت مُستحَلٌ قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجان، وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون بها شجرة، ولا ينفرون به صيدًا، وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد، وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه، فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله"(٤).

وقوله تعالى: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والضحاك وسفيان الثوري وسعيد بن جبير والسدي والحسن البصري وخصيف وشرحبيل بن سعد وغيرهم: يعني بالوالد: آدم، وما ولد: ولده، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي؛ لأنه –تعالى- لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده، وقال أبو عمران الجوني: "هو إبراهيم وذريته" رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده، وهو محتمل أيضًا.

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} هؤلاء الذين ذكرهم من السلف –رضي الله عنهم- فسروا الوالد بآدم، {وَمَا وَلَدَ} يعني وولد آدم، {وَمَا وَلَدَ} "ما" هذه بمعنى "مَن"، ومعلوم أن "ما" تستعمل لغير العاقل، أو لغير من يوصف بالعلم، و"مَن" تستعمل للعاقل أو لمن يوصف بالعلم، يعني أحيانًا ما يعبرون بالعاقل يتحرزون يقولون مثلاً: الملائكة يوصفون بالعلم، ولا يقال: عقلاء، لأنه لم يرد هذا الوصف، فالغيبيات إنما يوقف في أوصافها على ما ورد من النقل، فهنا استعملت "ما" بمعنى "مَن" "وما ولد"، وعلى التفسير بأنه آدم مثلاً أو غير ذلك ممن يوصف بالعقل –يعني من العقلاء- فيكون ذلك دليلاً على جواز استعمال "ما" للعاقل وله نظائر في القرآن، وسيأتي –إن شاء الله-: {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} "السماء وما بناها": ومَن

---

٣ – التبيان في أقسام القرآن (ص:٣٦).

٤ – المصدر السابق (ص:٣٦-٣٧).

بناها، يعني الله على أحد القولين المشهورين، بل هو الأشهر كما سيأتي -إن شاء الله-، ومَن بناها يعني الله، "والأرض وما طحاها" يعني ومن طحاها أي الله، "ونفس وما سواها": ومن سواها.

القول الآخر فيها: أن "ما" مصدرية، **{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}**، وهكذا في الألفاظ التي بعده.

فهنا **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** بمعنى ومَن ولد، يعني أقسم بالوالد وبولده أيضًا، فهنا هؤلاء من السلف قالوا: الوالد آدم، "وما ولد" يعني ومن ولد، يعني وأولاده، أقسم بآدم وولده.

وابن كثير قال: **هذا حسن قوي** وعلل ذلك بأنه أقسم بأم القرى وهي المساكن فأقسم بعده بالساكن وهم بنو آدم، وهذا مثلما أشار ابن القيم -رحمه الله-، إلا أن ابن القيم هناك يتحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه لم يكن يتحدث عن هذا، على كل حال هذا قول وليس ذلك محل اتفاق، لكن الذين قالوا: إنه آدم ومن ولد قالوا: لأنه يعني ليس الحيوانات مثلا وإنما آدم وولده، أقسم الله بهم لأنهم أعجب ما خلق الله في الأرض، وهم الأشرف، لما فيهم من الأوصاف التي تميزوا بها من العقل والبيان **{خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** [سورة الرحمن:٣-٤] فميّزه بهذه الأمور عن جملة هذه المخلوقات، ميزه بالتدبير، هذه المخلوقات لا عقل لها، ولا بيان، فهي لا تبين عما في نفسها، وليس لها تدبير، وإنما يدبرها أربابها، والبشر فيهم الأنبياء، والعلماء، والصالحون، وهذا لا يوجد في غيرهم من هذه المخلوقات التي بثها الله -عز وجل- في هذه الأرض إلا أنه يوجد في الجن من أهل الصلاح، لكن لا يوجد فيهم أنبياء، فهذا توجيه لتفسيره بآدم وأولاد آدم، والولد يشمل الذكر والأنثى كما هو معلوم، فالذكر يقال له: ابن، والأنثى يقال لها: بنت، وبعضهم حمل قوله: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** على هذا النوع من المخلوقات -بني آدم- لكنه خصه بشيء أعلق بالبيت الحرام، قالوا: الوالد إبراهيم -عليه السلام-، والولد إسماعيل -عليه السلام-، وبعضهم يقول: الولد هو إسماعيل، ومحمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم الذين كانوا بمكة، فإسماعيل -عليه الصلاة والسلام- كان بمكة، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- أيضًا كان بها.

وبعضهم كعكرمة وسعيد بن جبير يقولون: **{وَوَالِدٍ}** يعني الذي يولد له، **{وَمَا وَلَدَ}** يعني العاقر، جعلوا "ما" نافية، حملوا الآية على النوعين من يولد له، ومن هو عقيم **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** لكن التركيب على هذا المعنى يكون قلقًا، هذا قسم فيكون أقسم بالوالد هل الوالد يعني من له ولد، "وما ولد" من لم يولد له؟ أقسم بمن يولد له ومن لا يولد له؟ هذا فيه بُعد، والله تعالى أعلم.

وأحسن من هذا كله ما قاله ابن جرير -رحمه الله- من أن ذلك يحمل على العموم، فإن الله -تبارك وتعالى- لم يقيد ذلك بمعنى خاص، لم يقيده بآدم، لم يقيده بفرد من الأفراد، ولم يقيده بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإنما قال: **{وَوَالِدٍ}** فيشمل كل والد، **{وَمَا وَلَدَ}** يشمل كل من كان منه من الأولاد.

وعلى هذا الإطلاق فإن ذلك يشمل الآدميين وغير الآدميين، ومن هنا يمكن تخريج استعمال "ما" هنا في كونها جاءت واستعملت في موضع "مَن" يعني إذا كان آدم وإبراهيم والناس فهذا يستعمل معه في الأصل "مَن"، فاستعملت "ما"، فهنا يقال: هذه من الحالات الثلاث التي تستعمل فيها "ما" في موضع "مَن" أنه إذا اشترك العاقل وغير العاقل فعبر عن ذلك فقد تستعمل "ما" التي لغير العاقل لكون غير العاقل أكثر، يعني يسمونه التغليب، غلّب غير العاقل على العاقل؛ لكون غير العاقل أكثر يدخل فيه بهيمة الأنعام، يدخل فيه الوحوش،

يدخل فيه الحشرات، يدخل فيه الأسماك، يدخل فيه خلائق لا يحصيها إلا الله -عز وجل-، أما العاقل فيدخل فيه الإنس والجن فقط، فيكون من باب التغليب استعملت "ما" في موضع "مَن".

وقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} وقال ابن أبي نجيح وجريج وعطاء عن ابن عباس: {فِي كَبَدٍ} قال: في شدة خلق، ألم ترَ إليه وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: "في كبد" نطفة ثم علقة ثم مضغة يتكبد في الخلق، قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} [سورة الأحقاف:١٥] وأرضعته كرهًا، ومعيشته كره، فهو يكابد ذلك، وقال سعيد بن جبير: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} في شدة وطلب معيشة، وقال عكرمة: في شدة وطول، وقال قتادة: في مشقة، وعن الحسن: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

نعم هذه المعاني التي ذكرت هي جميعًا ترجع إلى شيء واحد، يعني هذا الذي يسمى باختلاف التنوع الذي مضى الكلام عليه في شرح مقدمة أصول التفسير، اختلاف التنوع كل هذا يرجع إلى شيء واحد، فكل واحد عبر بعبارة هي في نفس المؤدى وتدور حول المعنى الذي عبر عنه الآخر، كل ذلك يرجع إلى معنى متحد، فهنا قوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} هذا جواب القسم، أُقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد، أقسم بالوالد وما ولد، على ماذا؟ {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}، هذا هو المُقسم عليه، فهنا هذه الأقاويل في شدة خلقه وذكر مولده ونبات أسنانه، هؤلاء الذين نقلوا هذا المعنى عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهكذا أيضًا نطفة ثم علقة ثم مضغة يتكبد في الخلق، وحملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا وأرضعته كرهًا ومعيشته كره فهو يكابد ذلك، وفي شدة وطلب معيشة إلى آخر ما ذُكر، هنا كلام الحسن أعم وأوسع **يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة**، وجاء عنه: يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء، هذا عن الحسن أيضًا، ابن جرير فسره بمعنى عام كعادته {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} حذف المقتضى ما قال: في كبد في كذا في خلقه ونشأته وولادته مثلاً، {فِي كَبَدٍ} في طلب معيشته، وإنما ذلك على العموم "في كبد" يعني في شدة يكابد الأمور ويعالجها، خُلق الإنسان فكان ذلك سمة له حينما خُلق فهو يكابد، {خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [سورة طه:١١٧] الجنة لا كبد فيها ولا شقاء ولا معاناة ولا تعب، أما هذه الحياة الدنيا فهي معاناة منذ أن يكون الإنسان حملاً في بطن أمه، فأمه تكابد، والله أعلم بحاله حينما ينتقل في هذه الأطوار، فيثقل حملها ثم تعاني من الولادة، فيخرج إلى الدنيا باكيًا، يستقبلها باكيًا، فيخرج إلى عالم جديد لم يألفه، ثم بعد ذلك يبدأ في مكابدة من أجل أن يتعرف على ما حوله، يكابد في طعامه وشرابه، يكابد في مزاولاته كلها، في مراحله المختلفة منذ نشأته وطفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته وهو في كبد، يطلب الرزق في كبد، يعاني من الآلام والأمراض في كبد، يعاني من الهموم في كبد، يعاني من المشكلات في كبد، يعاني من الحر والبرد هو في كبد، يعاني من أذى الناس فهو في كبد، يكابد مع النفس في مجاهدتها فهي تدعوه إلى الشهوات وهو يحجزها فهو في كبد، في كل أحواله يكابد، في كبد مع الشيطان، وما يدعوه إليه وما يوسوس به، كل هذا كبد، فهذا دل على أن السمة البارزة التي خلق عليها هذا الإنسان هي المكابدة، هذا هو الأصل وما يعرض له من الراحة فإن ذلك أيضًا لا يخلو من مكابدة، وهو لا ينفي هذا الوصف المستمر الثابت الراسخ فيه، وهذا أمر في غاية الأهمية إذا عرفه الإنسان، ووطن نفسه عليه فإنه يخف عليه هذا الكبد،

يعني يعرف أن هذه هي طبيعة الحياة، وأن هذا هو الأصل فيها، وأن الراحة إنما هي في الجنة، وليست في الدنيا، وأن الدنيا محل مكابدة، معاناة مستمرة يعاني مع الأولاد، والذي ليس عنده أولاد يعاني، الأولاد يعانون، الفقير يعاني، والغني يعاني، والصحيح يعاني، والمريض يعاني، والطبيب يعاني، والمطبَّب يعاني، الكل يعاني، الكل في معاناة، فإذا لقي الشدائد وحصل له ما يكرهه في هذه الحياة الدنيا تذكر أن هذه جبلتها وطبيعتها، وأنها خلقت على هذا وهكذا ركبت، وركب هذا الإنسان، فعلاقته معها مبنية على هذا الأصل والأساس، فلا يحصل له تعجب واستغراب ويستنكف أو يستنكر ما يعرض له من الشدائد في هذه الحياة الدنيا، الأصل فيها المكابدة، والله قال: {لَتُبْلَوُنَّ} [سورة آل عمران:١٨٦] فهذا لابدّ منه، ولهذا لما ذكر الله -تبارك وتعالى- الأحزاب: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ} [سورة الأحزاب:٢٢] مباشرة قالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} هم ماذا رأوا؟ رأوا الابتلاء، رأوا الأعداء يحيطون بهم قد نزلوا بساحتهم، رأوا الخوف وموجبات الخوف الذي بلغت منه القلوب الحناجر، ومع ذلك كان الجواب {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} تذكروا أن الله وعدهم بالابتلاء {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [سورة آل عمران:١٨٦]، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ} [سورة التوبة:١٦]، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ} [سورة البقرة:٢١٤] تذكروا هذا المعنى وأنه أمر لابدّ منه، فلما لاح لهم البلاء {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} فكان ذلك سببًا للثبات، فإذا تذكر الإنسان هذا الأصل كان ذلك من أعظم ما يعينه على الثبات وملاقاة الشدائد والأهوال بالصبر واليقين، فلا ينكسر، أو يسوء ظنه بربه -تبارك وتعالى-، أو يتسخط على القدر كما قال المنافقون: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب:١٢] يعني وعودًا لا حقيقة لها، أين النصر وهؤلاء الأعداء يحيطون بنا، والواحد لا يستطيع أن يقضي حاجته من شدة الخوف لا يأمن، فأين الوعد الذي وعدنا به من النصر والتمكين؟ الصحابة مباشرة قالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} كما قال ابن كثير -رحمه الله-: الابتلاء الذي يعقبه النصر، جمع بين المعنيين؛ لأن المفسرين بعضهم قال: النصر، وبعضهم قال: الابتلاء، الابتلاء الذي يعقبه النصر، فإن النصر والتمكين لا يحصل إلا بعد الابتلاء، لا يحصل إلا بعد التمحيص، فإذا كان الناس يُمكَّنون من غير تمحيص ولا ابتلاء هرول معهم من يصبر ومن لا يصبر، هرول معهم صحيح الإيمان وسقيم الإيمان، المؤمن والمنافق، والله المستعان.

فالحسن يقول: يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما، يعني هو في حال النعمة يكابد، في حال الضر يكابد، وابن جرير يقول: يكابد يعني في شدة يكابد الأمور ويعالجها، هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}، فهذا من أهم الأشياء التي تروض النفوس في سيرها في هذه الحياة الدنيا من أجل أن توطن على لون من الصبر لا يحصل معه انكسار وجزع وتراجع في مطالب الدنيا أو في مطالب الآخرة، قد تأتيه المصائب في دنياه في أمواله، يموت أحد، يموت الأولاد، يموت الأب ويبقى الأولاد صغارًا ما عندهم أحد إلى غير ذلك، وفي أمور الآخرة أيضًا يبتلى في دينه، في إيمانه.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "فذكر فيه جواب القسم، وهو قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}، وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة، قال ابن عباس في رواية مُقسِم: منتصبًا على قدميه، وهذا قول أبي

صالح والضحاك، وإبراهيم وعكرمة وعبد الله بن شداد، قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة.

وفُسر بالنصَب، وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ورواية عن علي وعن ابن عباس، قال الحسن: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم، وقال سعيد بن أبي الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة، وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه وفصاله، ونبت أسنانه وحياته ومعاشه ومماته وكل ذلك شدة، قال مجاهد: حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا ومعيشته في شدة فهو يكابد ذلك.

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته، والكبد شدة الأمر، ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد، ومنه الكبِد؛ لأنه دم يغلظ ويشتد، وانتصاب القامة والاستواء من ذلك؛ لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة بكونه في الرحم ثم في القِماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة العيش، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار، ولا راحة له إلا في الجنة.

وفُسر الكبد بشدة الخلق، وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عينُ هلّا بكيتِ أرْبَدَ إذ *** قمنا وقام الخصومُ في كبدِ؟

أي: في شدة وعناء، وهذا يشبه قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} [سورة الإنسان:٢٨]، قال ابن عباس: أي: خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر، قال: وكل شيء شددته من قتب أو غيره فهو مأسور، وقال المبرد: الأسر القُوى كلها، وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال.

وشد الله أسر فلان، أي: قوى خلقه، وكل شيء جُمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر، وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، وقال مجاهد: هو الشرج يعني موضع البول والغائط إذ خرج الأذى تقبَّرًا.

والمقصود أنه –سبحانه– أقسم في سورة البلد على حال الإنسان، وأقسم –سبحانه– بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى، ثم أقسم بالوالد وما ولد وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكن، فمرجع البلاد إلى مكة ومرجع العباد إلى آدم"(٥).

وقوله: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} قال الحسن البصري: يعني أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله؟.

وقال قتادة: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} قال: ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} يعني الله –عز وجل– يقول إنه خلق هذا الإنسان بهذه الصفة في كبد فكيف يتوهم ألا يقدر عليه أحد، الله –تبارك وتعالى– هو الذي خلقه، وهو الذي جعله بهذه المثابة فكيف يتطاول

---

٥ – المصدر السابق (ص:٢٤).

ويتعاظم فيتوهم أنه ممتنع من ربه -تبارك وتعالى-؟، وذلك كما قال الله -عز وجل-: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}** [سورة العلق:٦-٧]، وصاحب الجنة لما دخلها قال: **{مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}** [سورة الكهف:٣٥-٣٦]، فهذه حال للإنسان الذي لم ترتضِ نفسه بالإيمان أنه إذا وجد من نفسه قوة وعافية أو غنى فإنه سرعان ما ينسى ما هو فيه من الضعف، وما جُبل عليه من الكبد والشدة وما إلى ذلك، وإذا لاقى هذه الشدة سرعان ما ينكسر ويجزع كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** [سورة المعارج:١٩-٢٢] وذكر أوصاف هؤلاء الذين يثبتون في هذه الأحوال في حال الرخاء والنعمة، وفي حال الشدة، وإلا فأكثر الخلق هم بمنأى عن ذلك، إذا أصابته النعم صارت حاله إلى الطغيان، وشمخ بأنفه، وتعاظم وظن أنه لا يقدر عليه أحد، وإذا أصابته شدة حصل له الضعف والخور واليأس وظن أنها هي النهاية.

والحافظ ابن القيم هنا له تعليق، وأنا أقول: أرى أنه من المفيد جدًّا الوقوف على بعض النقولات والاطلاع عليها، نحن لا ننقل كل شيء من كلام ابن القيم ولا من غيره من المفسرين، يعني للمفسرين كلام كثير، ولكن في كلام ابن القيم ما لا يوجد في غيره، فيقول -رحمه الله تعالى-: "ثم أنكر -سبحانه- على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور، فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً في نفسه؟!، فهذا برهان مستقل بنفسه مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}**، وبقوله: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}** فيحصى عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟.

ثم أنكر -سبحانه- على الإنسان قوله: **{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً}** وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أُمر بإنفاقه فيها ووضعه مواضعه لم يكن ذلك إهلاكا له بل تقربًا به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه، وذلك ليس بإهلاك له، فأنكر -سبحانه- افتخاره وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}** وأتى ههنا بلم الدالة على المضي في مقابلة قوله: **{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً}** فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟.

ثم ذكر برهانا مقدرًا أنه -سبحانه- أحق بالرؤية، وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره؟، وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يُكلِّم، ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى؟، وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟، ومن جعل غيره عالمًا بنجدي الخير والشر -وهما طريقهما- أليس هو أولى وأحق بالعلم منه؟، ومن هداه إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدى لا يُعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه، والرسل بعثوا مذكرين بما في

الفطر والعقول مكملين له؛ لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته، ومع هذا فقامت عليه حجته، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق؛ ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه، وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه، وهو تصديق خبره، وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها فيكون صابراً رحيمًا في نفسه معيناً لغيره على الصبر والرحمة، فمن لم يقتحم هذه العقبة وهلك دونها هلك منقطعاً عن ربه غير واصل إليه بل محجوباً عنه، والناس قسمان: ناجٍ وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المُضمَّرون، فإنها عقبة كئود شاقة لا يقطعها إلا خفيف الظهر، وهم أصحاب الميمنة، والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا الأمر فهم **{أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}** قد أطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها، كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق"[٦].

وقوله تعالى: {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا} أي: يقول ابن آدم أنفقت مالاً لبدًا أي كثيرًا، قاله مجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا} كما ذكر هنا، وكما ذكر الحافظ ابن القيم –رحمه الله- "لبدًا" أي: كثيرًا مجتمعًا، يعني أن بعضه على بعض مثلما يقال: هذه أشياء ملبَّدة، يقال: تلبد الأمر أو الشيء الفلاني تلبد، يعني صار بعضه على بعض، فهذا الإنسان يكون مخبرًا عن نفسه بأنه أهلك هذا المال الكثير، الليث يقول: **{مَالًا لُبَدًا}** أي: كثيرًا، لا يخاف فناءه، يقول: أهلكت مالاً كثيرًا، لا يخاف فناءه لكثرته، وابن جرير –رحمه الله- يقول: أهلكت مالاً كثيرًا في عداوة محمد –صلى الله عليه وسلم-، يعني المعنى الذي ذكره هؤلاء من المفسرين غير ابن جرير وهو الذي مشى عليه ابن القيم أن هذا الإنسان يقول: أهلكت مالاً كثيرًا، يقوله على سبيل التبجح والافتخار، أنفق ذلك في شهواته ولذاته، والكلام كما سبق في الإنسان المعرض عن ربه –تبارك وتعالى.

وهو يقول: أهلكت مالاً كثيرًا، فهو يتحدث عن سالف أيامه، وعما صدر منه، فيقول: إنه قد أنفق أموالاً طائلة في هذه الشهوات، ونسي أن الله –تبارك وتعالى- سيحاسبه عليها.

المعنى الذي ذكره ابن جرير أخص من هذا، يقول: أهلكت مالاً لبدًا أي في عداوة محمد –صلى الله عليه وسلم-، وفي حرب الإسلام وفي الكيد لهذا الدين وأهله، أنفق الأموال الطائلة لكن هذه النفقات هو سيحاسب عليها، فالله –تبارك وتعالى- يقول: **{أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ}**؟!، فحينما أنفق هذه النفقات في حرب الإسلام، لحرب الدين، في عداوة أولياء الله –عز وجل- كيف يغفل أو كيف غفل عن مراقبة الله –عز وجل- له؟!، وهنا يقول: **{أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ}** ابن جرير يقول: أن لم يره أحد في حال إنفاقه، يزعم أنه أنفقه، يعني

---

٦ – المصدر السابق.

حينما يخبر عن هذا أيحسب أن لم يره أحد في حال إنفاقه؟، وهكذا ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فيما بعده من قوله: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} أي: يبصر بهما، {وَلِسَانًا} أي: ينطق به فيعبر عما في ضميره، {وَشَفَتَيْنِ} يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه، بمعنى أن الذي أعطاه ذلك قد أحاط به علمًا فهو يراه ويطلع على كل حالاته، وحينما أنفق هذه الأموال فيما أنفقها به من مساخط الله -عز وجل- فالله كان على إطلاع تام عليه، والله -عز وجل- أخبر عن مآل تلك الأموال التي ينفقها هؤلاء من أهل الإجرام في حرب دينه وأوليائه، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [سورة الأنفال:٣٦] ثم حكم حكمًا مبرمًا فهذا أصل كلي لا يتبدل ولا يتحول ولا يتغير، قاعدة مستمرة {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} فالله حكم على هذه الأموال التي تنفق للصد عن سبيل الله دائمًا بأن هذا هو مصيرها ومآلها {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}.

فالعاقبة للمتقين، وهؤلاء مهما أنفقوا من الأموال فلا تكترث بكثرتها، ولا يحصل للإنسان شيء من الانكسار واليأس حينما يرى هذه الأرقام الهائلة تنفق في الصد عن سبيل الله -عز وجل-، وإنما نتيجتها محسومة من البداية كثرت أو قلت، لكن إذا كثرت زادت الحسرة على أصحابها، وكانت الغلبة في حقهم أعظم، "فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة"، هذا حكم الله -عز وجل- الذي بيده مقاليد الأمور، ونواصي الخلق بيده، وما الخلق بالنسبة إلى عظمته وجبروته -تبارك وتعالى-؟، {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً}، فإذا رأيت الإنفاق في الصد عن سبيل الله -عز وجل- فلا يحصل لك أدنى شك في أن مصير هذه النفقات البوار والدمار والهلاك، ليس فيما أنفقت من أجله من الصد عن سبيل الله فيحصل مقصودهم بذلك، وإنما في ضده، وهو {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} لا يخرجون بطائل، فدين الله -تبارك وتعالى- منصور، والله متم نوره، {وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ} [سورة التوبة:٣٢] لا يستطيع أحد أن يقف دون هذا، ولا أن يغير هذا الحكم، ولا أن يغير هذه السنة المستمرة، ولكن الله -عز وجل- يبلو بعض الخلق ببعض، فيكون بعضهم من الأشرار من حزب الشيطان وأوليائه، ويكون بعضهم من أهل الإيمان فتحصل المدافعة، ويبلو ربنا -تبارك وتعالى- الناس بعضهم ببعض فيحصل التمحيص والرفعة لأهل الإيمان، ويحصل لأهل الشر والفساد الكبت، والله المستعان.
فهنا يقول: {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ } يقول مجاهد: أيحسب أن لم يره الله -عز وجل-؟، وكذا قال غيره من السلف.

وقوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} أي: يبصر بهما، {وَلِسَانًا} أي: ينطق به فيعبر عما في ضميره، {وَشَفَتَيْنِ} يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالًا لوجهه وفمه.

يعني بأي شيء يترفع؟، بأي شيء يستكبر؟، بأي شيء يتبجح؟، وبأي شيء يحارب ربه -تبارك وتعالى-، وهو الذي ركب له هذه الأشياء، جعل له ما يبصر به وما يبين به عما في نفسه من لسان وشفتين وما إلى ذلك، فهو تحت قهره وتصرفه وتدبيره، فحينما يتكلم ويتفوه بالباطل فالله -تبارك وتعالى- هو الذي خلق له هاتين الشفتين، وهو عالم بما يصدر عنه، وهكذا حينما يزاول مساخط الله -تبارك وتعالى.

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} الطريقين، قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله -هو ابن مسعود-...

إذا أطلق عبد الله فالمراد به ابن مسعود -رضي الله عنه.

قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله -هو ابن مسعود- {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} قال: الخير والشر.

هذا الذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم أن النجدين يعني الطريقين الخير والشر.

وكذا روي عن علي وابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخرساني في آخرين.

يعني ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخرساني في آخرين.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان:٢-٣].

يعني إذًا {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} يعني طريقي الخير والشر، وهذه الهداية تحتمل أن يكون المراد بها هداية بمعنى الإرشاد بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، وضحها وبينها بيانًا لا يلتبس، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى هداية التوفيق، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [سورة الشمس:٨].

ولكن المعنى الأول -والله تعالى أعلم- كأنه أولى وأقرب، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} بيّنا له طريق الخير والشر؛ لأنه ذكرهما معًا "هديناه النجدين" فيكون ذلك بمعنى الإرشاد والدلالة.

وقريب من هذا في الاحتمال والمعنى ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن:٢] هنا جاء بالفاء التي تدل على التعقيب المباشر، فيحتمل كما سبق: {خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ} يعني بين لكم طريق الخير والشر حتى شب الإنسان، واختار بعضهم طريق الخير، واختار بعضهم طريق الشر، وهذا الذي قال به الجمهور.

وتكون الفاء هنا مع أنها للتعقيب المباشر لكن القاعدة: "أن المباشرة في كل شيء بحسبه" مثل: {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤]، مع أن بينهما مدة، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [سورة الرعد:١٧] فالأودية لا تسيل إلا بعد مدة من نزول المطر واجتماع الماء، فالمباشرة في كل شيء بحسبه.

{فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج: ٦٣] إذا نزل المطر من السماء تصبح الأرض مخضرة بعد مدة، فهناك {فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} لما شب الإنسان وأدرك وصار يميز اختار بعضهم طريق الخير، وبعضهم طريق الشر.

والمعنى الآخر: خلقكم هكذا، خلق خلقًا للجنة، وخلقًا للنار، فهذا معنى صحيح، مع ملاحظة ما يقوله الجبرية في تفسير هذه الآية، لكن أهل السنة يقولون في القدر بخلاف قولهم، فالإنسان له قدرة ومشيئة واختيار، ولكن ذلك لا يخرج عن قدرة الله ومشيئته، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الإنسان:٣٠].

هنا {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} هذا المعنى الذي ذكره يعني الخير والشر، {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان:٣] هذا أيضًا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البلد من الآية (١١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ} [سورة البلد:١١-٢٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللحاضرين، أما بعد:

فيقول ابن كثير -رحمه الله-: وقال ابن زيد: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} أي: أفَلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير؟، ثم بيّنها فقال تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ}، روى الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة أنه سمع أبا هريرة يقول: "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب -أي: عضو- منها إرْبًا منه من النار، حتى إنه ليُعتِق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج))، فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له -أفْرَهَ غلمانه-: ادع مُطرِّفًا، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله"[1]، وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن سعيد بن مرجان به.

روى أحمد عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة قال السُلَمي: قلت له: حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس فيه انتقاص ولا وهم، قال: سمعته يقول: ((من ولد له ثلاث أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنث أدخله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة، ومن أعتق

---

١ - رواه مسلم، كتاب العتق، باب فضل العتق، برقم (١٥٠٩)، وأبو داود، كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل؟، برقم (٣٩٦٦)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ثواب من أعتق رقبة، برقم (١٥٤١)، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (٩٤٤١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير إسماعيل بن أبي حكيم، فمن رجال مسلم، علي بن الحسين المذكور في الحديث هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، زين العابدين".

رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها))[٢]، وروي من طرق، وهذه أسانيد جيدة قوية ولله الحمد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}**، هذا متصل بما قبله من قوله -تبارك وتعالى-: **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** [سورة البلد:١٠] أي: فلم يسلك طريق الخير، وكما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير؟** يعني هذا الذي يقول: **{أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا}** [سورة البلد:٦]، ويفتخر بذلك، وينسى أن الله -تبارك وتعالى- قد خلقه، وأحاط به، وأن الله -تبارك وتعالى- هو الذي أعطاه وأولاه، وأنه مطلع على حاله ومقاله، يقول: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** فهذا كما سبق أن هذه السورة تتحدث عن هذا الإنسان المعرض عن ربه -تبارك وتعالى-، الآبق الخارج عن مقتضى عبوديته، **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ}** الاقتحام أصله الرمي بالنفس في شيء من غير روية، تقول: اقتحم المعركة، الرمي بالنفس في شيء من غير روية، هذا هو الاقتحام، إدخالها في الشيء من غير روية، تقول: فلان يقتحم في نحر العدو ولا يبالي.

والعقبة في الأصل هي الطريق التي في الجبل يقال لها: عقبة، وهذا معروف ومستعمل إلى اليوم، وهذا يكون من الوعورة والشدة والصعوبة بمكان، فسميت بذلك عقبة؛ لصعوبة سلوكها والاجتياز فيها، فهي صعبة المسلك، فهذا كالمثل في تصوير هذا المطلب مما يقتضي مجاهدة النفس مجاهدةً كبيرة، ومجاهدة الهوى والشيطان في النهوض بهذه الأعمال الجليلة؛ وذلك أن النفس تعلق وتتشبث بهذا الحطام فلا تجود به إلا بنوع من المجاهدة يعظم بحسب ما يعظم ذلك في نفس صاحبه؛ ولهذا قيل له: عقبة، يعني كأنه يتكلف صعود العقبة، هنا **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}** إلى آخره، وهنا أفرد "لا"، يعني ذكرها مرة واحدة والغالب أن العرب لا تكاد تفردها في سياق كهذا، كقوله: **{فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى}** [سورة القيامة:٣١] فهم يعيدونها في كلام آخر، في جملة أخرى، وهنا ذكرها مرة واحدة في هذا الموضع كأنه يدل على تكرارها، أو يقوم مقامه في المعنى كلام آخر كقوله: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}**، -والله تعالى أعلم-، هكذا يقول أصحاب المعاني كالفراء والزجاج، يعني كأنه يقول: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}** ولا آمن ثم كان من الذين آمنوا فكأنه كررها، وبعضهم يقول غير ذلك، يعني يقول: إن "لا" هذه بمعنى "لم" **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}** يعني فلم يقتحم العقبة، وهذا مروي عن مجاهد -رحمه الله-، ومن ثم قالوا: إن ذلك لا يقتضي تكريرها، يعني "لا" **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** هذا الاستفهام فيه من استدعاء الانتباه، انتباه السامع، وجذب الأذهان من أجل الإصغاء لما سيذكر بعده لأهميته، يعني هذا من الأمور التي تتعلق بها النجاة التي يحصل بها اقتحام العقبة التي يحصل بها بلوغ المطالب العالية، **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** ما هذه العقبة؟، أي شيء أعلَمَك؟ ما اقتحامها؟ قال: فك رقبة، يعني الإعتاق إعتاق الرقاب وتخليصها من أسر الرق،

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٩٤٣٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح دون قوله: "من ولد له .." و"ومن أنفق زوجين" فصحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف الفرَج، وهو ابن فضالة، وباقي رجال الإسناد ثقات، لقمان: هو ابن عامر الوصابي، وأبو أمامة: هو صدي بن عجلان الباهلي، صحابي سكن الشام"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٦٨١).

هذا فك الرقبة، فكل شيء أطلقته فقد فككته، "فك رقبة"، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هذه الأحاديث في فضل العتق، وأنه يعتق منه بكل عضو ما يقابله، يعتق من النار.

فالعقبة تُجتاز وتقتحم بهذه القرب المذكورة في هذه الآية، فيحصل بذلك النجاة من النار، وقد يفهم من ذلك أن هذا ليس على سبيل الحصر، فهناك من القرب ما يضاهيها بل قد يزيد عليها، ولكل حال من الحالات التي تكون من الشدة وتكون الحاجة ماسة إليها في بعض الأحوال أو الأوقات أو النوازل ما قد يكون هذا العمل يبلغ به صاحبه في الدرجات العالية، وقد يقال في حقه أو يقال له: ما على فلان ما فعل بعد اليوم، فهذا في الأعمال الكبار التي تحصل بها النجاة، وهي تحتاج إلى كثير من البذل والتضحية والصبر والإيثار، ومجاهدة النفس، والخروج من رقها وأسرها لصاحبها بشهواتها، ومطالبها الدنية، والله -عز وجل- يقول: **{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ}** [سورة النساء:١٢٨]، فهنا هذه الأشياء التي ذكرها من فك الرقبة أو إطعام المسكين في مثل هذه الحال -الشدة والمسغبة- كل ذلك من البذل المالي، ولا شك أن بذل النفوس أعظم وأولى وأقرب في بلوغ المراتب العالية من بذل الأموال، فالمهجة أغلى وأنفس؛ ولهذا الذي يُقتل في سبيل الله -تبارك وتعالى- يقال له: شهيد، فهذه شهادة على صدق الإيمان، كما أن بذل المال والصدقة هذا يكون تصديقًا لدعوى الإيمان، الصدقة برهان، فهو يبرهن على صدق هذه الدعوى التي ادعاها من الإيمان، فالإيمان دعوى قد يدعيها الكثيرون ولكنه لا يبذل في سبيلها شيئًا يذكر.

هذه العقبة ما هي؟، جاء عن بعض السلف كالحسن وقتادة بأنها عقبة شديدة في النار، يعني أن ذلك ليس من قبيل التصوير والتقريب وضرب المثل بأمر محسوس يقرب لك أمرًا معقولاً، فعند هؤلاء أنها عقبة حقيقية في النار دون الجسر، فتقتحم بطاعة الله -تبارك وتعالى-، وقريب من هذا قول بعض السلف -وهو منقول عن مجاهد والضحاك-: إنه الصراط الذي يضرب على متن جهنم، وإنه إنما يقتحم بالأعمال الصالحات فيكون سير العبد عليه بحسب عمله، هذا يحتمل، ويحتمل أن يكون من قبيل التقريب وتصوير الأمر المعقول بالأمر المحسوس.

المقصود بذلك أن الإنسان لا يبلغ إلا بمزيد من البذل والمجاهدة، ودعوى الإيمان وحدها لا تكفي، بل لابد من أن يبرهن عليها، وأن يبذل في سبيلها، وقوله: **{فَكُّ رَقَبَةٍ}** هكذا نقرأ، وفي قراءة أخرى متواترة لأبي عمرو وابن كثير والكسائي: **{فَكَّ رَقَبَةً}** فيكون على أن "فَكَّ" فعل ماضٍ، و"رقبة" تكون هنا مفعولا به، وما بعده أيضًا كذلك: **{أو أطعَمَ}** -بدل "إطعام"- **{فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}** على أنه فعل ماضٍ، فهذه قراءة متواترة لهؤلاء الثلاثة من القراء السبعة، وقرأ الباقون كما نقرأ: **{فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ}** على المصدر، وعلى القراءة الأولى **{فَكَّ رَقَبَةً * أو أطعَمَ}** فيكون "فكَّ" و"أطعَمَ" هذان الفعلان الماضيان يكونان بدلاً من "اقتحم" أي فلا اقتحم فكَّ رقبةً أو أطعَمَ في يوم ذي مسغبة يتيمًا ذا مقربة، والله تعالى أعلم.

يعني كأنه يقول: فلا فكَّ رقبةً ولا أطعمَ مسكينًا إلى آخره، والفك أصله حل القيد.

فالرق أسر، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في النساء: ((فإنهن عوان عندكم))[٣]، يعني أسيرات، وذلك أن حبائل هذه المرأة في يد الزوج؛ ولهذا عبر عن ذلك بالعِصَم {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [سورة الممتحنة:١٠] في تطليق المرأة الكافرة المشركة؛ لأنها لا تحل للمؤمن.

وهذا الرقيق كالأسير الذي قد ربط في رقبته، مربوط مأسور موثق لا يستطيع الفكاك والخلاص والتصرف كما يتصرف الأحرار، فهو مقيد، ولهذا لم يجب عليه من التكاليف الشرعية ما يجب على الأحرار؛ لأن تصرفه ناقص، {فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}، فهنا قوله: {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} يعني ذي شدة وحاجة، وهذا يدل على أن الصدقة تعظم بحسب متعلقها من الجهات المعروفة، يعني بحسب ما يقوم بقلب صاحبها {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [سورة المؤمنون:٦٠] فهذا ليس كالذي يتصدق ولا يقوم بقلبه ذلك، يعني يخشى أن لا يقبل منه، أو كالذي يكون مُدلًّا على ربه -تبارك وتعالى- بهذه الصدقة، يعني كأنه قدم شيئًا يعجبه ذلك في نفسه ويتعاظم به، مثل هذا لا يكون كذاك الوَجِل، وهكذا بحسب متعلقها من جهة المكان فالصدقة في الحرم ليست كالصدقة في غيره، وبحسب الزمان -أيضًا- فالصدقة في الأشهر الحرم أو في رمضان أو في العشر من ذي الحجة ليست كسائر الأوقات، وقل مثل ذلك أيضًا بحسب متعلقها فيما يتعلق بالحال أيضًا كهذا، {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} يعني لو أنه أطعم والناس في غنى وسعة فإن هذا لا يكون كالذي يطعم في يوم تشتد الحاجة فيه، يعني انظر الآن إلى أحوال إخواننا في بلاد الشام، محاصرون، ويقتلون، وتنتهك الأعراض، ورغيف الخبز يساوي الشيء الكثير، طوابير تصطف وقتًا طويلاً من أجل الحصول على هذا، ثم بعد ذلك قد يصيبهم في سبيله ما تعلمون، فهذا الإطعام له شأن عظيم، فهذا من اقتحام العقبة، الذي ينفق في مثل هذا، ويطعم ويكفي هؤلاء هذه الحاجات، وبذل فإن هذا من أعظم القرب التي يتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى.

{يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} يعني صاحب قرابة، فالقريب الصدقة تكون إليه صدقة وصلة، فهذا مما يرجحها، وقد لا يكون من ذوي القرابات، وإنما كما قال: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} ويدخل فيه أيضًا اليتيم الذي ليس له قرابة، وإن كان اليُتم قد نُص عليه في الذي قبله لكن قد يكون اليتيم ليس له قرابة بهذا، وهنا قال: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} يعني ليس عنده شيء، ما بقي له شيء، كأنه قد التصق بالتراب، يقولون: تربت يداه، هذا مما لا يقصد به ظاهره، كقولهم: قاتلهم الله على سبيل الإعجاب، فهذا لأنه لم يبق له شيء صار كالملتصق بالتراب، ما عنده إلا التراب، ليس دونه شيء يقيه، فهذا في شدة الحاجة، ولهذا بعضهم يرجح المسكين على الفقير بهذا الاعتبار، يقول: الفقير عنده شيء والمسكين ليس عنده شيء، وبعضهم يقول: العكس -كما هو معروف- لقوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [سورة الكهف:٧٩] فعندهم سفينة، قالوا: فالمسكين يجد شيئًا إلا أنه لا يبلغ كفايته، والفقير ليس عنده شيء، وغيرهم يستدلون بالبيت المعروف:

أمّا الفقيرُ الذي كانت حلوبتُه ... إلى آخر ما قال

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (١١٦٣)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على زوجها، برقم (١٨٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٨٨٠)، وصححه في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (٢١٥٦).

يقولون: عنده حلوبة لكنها لا تفي بحاجته الضرورية، لا تكفيه، فهذا المسكين صار بهذه الحال ليس عنده فراش، ولا لباس، ولا لحاف، ولا متاع، وإنما صار لا يقيه من التراب شيء.

فهذا التفسير على اللفظ، وأما التفسير على المعنى فكقول بعض السلف: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} يعني ذا عيال، هذا مثال على التفسير على المعنى باعتبار أن الآية لم يذكر فيها العيال، وليس في اللفظ ما يدل عليه، ولكن كأن هذا القائل نظر إلى أن حاجته تشتد وتعظم إذا كان له عيال، فتكون الحاجة مضاعفة، ولهذا قال الله –عز وجل– في المثل المضروب في النفقات التي لا يُحصّل من ورائها عائدة لما يعرض فيها من فساد القصد وما إلى ذلك: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} [سورة البقرة:٢٦٦] يعني بعدما صار إلى هذا الحال.

فقوله: {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ} ما يستطيع الآن أن يعمل وينشط ويغرس من جديد، زرعها وغرسها وتعب فيها أيام الشباب فلما صار إلى حال الشيخوخة والعجز والضعف، وله ذرية أيضًا ضعفاء هم لا يستطيعون النهوض بذلك والقيام بهذه التكاليف من غرسها وما إلى هذا له ذرية ضعفاء هم بحاجة إلى من يعيلهم {فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ}، فهذا تكون مصيبته مضاعفة عليه؛ لوجود هؤلاء العيال، والسلف أحيانًا يفسرون على المعنى، وأحيانًا يفسرون على اللفظ.

كقول بعضهم: هو ذو الزَّمانة، الزَّمِن، يعني مثل المشلول والمقعد، وما إلى ذلك ممن لا يستطيع العمل والتصرف، ونحو هذا.

أو قول البعض: الذي ليس له أحد {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}، المقصود أنه كلما كانت الحاجة أعظم وأشد كان الأجر المرتب على هذا أكثر، وهذه قاعدة شرعية، ولذلك لما ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– السبع الموبقات ذكر العلماء في الكلام على الحديث أن هذه السبع ليس المقصود بها الحصر، فهناك أشياء أخرى تضاهيها، وهناك أشياء أخرى قد تفوق على بعضها، قد ذكرنا في بعض المناسبات أمثلة لذلك لما ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– الفرار من الزحف فهذا من السبع الموبقات، ولكن هذا الذي قد فر؛ لأنه أصابه الخوف والهلع حين رأى العدو يفتك ويقتل ليس كذاك الذي جاء إلى العدو فأخبرهم عن عورات المسلمين، وعن أخص شئونهم، وعن مكامن القوة والضعف، ودلهم على مواقعهم ومواضع أقواتهم وأسلحتهم، وقدم لهم أسماء ذوي النجدة والشجاعة والقوة والبأس في المسلمين، وما إلى هذا مما يحصل به غلبة العدو، والفتك بأهل الإسلام، هذا أعظم بكثير من هذا الذي لم تحمله رجلاه لما رأى العدو بهذه المثابة، أين هذا من هذا مع أن هذا لم يُذكر؟، ملاحظة مثل هذه المعاني لا شك أنها معتبرة، والله أعلم.

هنا ذكر حديثًا رواه الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة أنه سمع أبا هريرة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((من أعتق رقبة مؤمنة..))[٤] إلى آخره، هنا يوجد تعليق للعلامة ابن القيم –رحمه الله– عند قوله تعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}: حيث يقول: "هو فعل ماضٍ ولم يكرر معه "لا" إما استعمالاً لأداة "لا" كاستعمال

---

٤ – رواه مسلم، كتاب العتق، باب فضل العتق، برقم (١٥٠٩)، وأحمد في المسند، برقم (٩٤٤١).

"ما"، وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء نحو فلا سلم ولا عاش ونحو ذلك، وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور، فاقتحامها فعلُ كل واحد منها، فأغنى ذلك عن تكريرها، فكأنه قال: فلا فكَّ رقبةً ولا أطعم ولا كان من الذين آمنوا، وقراءة من قرأ: {فكَّ رقبةً} بالفعل كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** على حد قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** [سورة الحاقة:٣]، **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}** [سورة الإنفطار:١٧]، **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}** [سورة القارعة:١٠-١١]، ونظائره تعظيمًا لشأن العقبة وتفخيمًا لأمرها هي جملة اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، فإن قوله: **{فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}** تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كئود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور فمن فعلها فقد اقتحم العقبة، ويدل على ذلك قوله تعالى: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** وهذا عطف على قوله: **{فَكُّ رَقَبَةٍ}**، والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً.

وأيضًا فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلابد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة، واقتحامها فك رقبة، وأيضًا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسَّر وما فسره"[٥].

اقتحمَ، فكَّ، أطعمَ، والمصدر المضاف **{فَكُّ رَقَبَةٍ}**.

وقال -رحمه الله-: "ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسَّر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: "اقتحم" طابقه بقوله: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** وما بعده، دون **{فَكُّ رَقَبَةٍ}**، وما يليه، وإن كان لقوله: "العقبة" طابقة **{فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ}**، دون قوله: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى فحصولها لفظًا ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة الناس والشيطان في أعمال البر، وحكوا ذلك عن الحسن، ومقاتل، وقال الحسن: عقبةٌ واللهِ شديدةٌ: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان، وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله يريد أن المعتق رقبة والمطعم اليتيم والمسكين يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقية يصعدها الناس، قال عطاء: هي عقبة جهنم، وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار، وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم، وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط يضرب على جهنم، وهذا لعله قول الكلبي، وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة"[٦].

لاحظ كل قول هؤلاء أنها عقبة حسية، وليس من قبيل التقريب.

وقال -رحمه الله-: "قال قتادة: فإنها عقبة شديدة فاقتحِموها بطاعة الله، وفي أثر معروف "إن بين أيديكم عقبة كئودًا لا يقتحمها إلا المُخِفُّون" أو نحو هذا، وأن الله سمى الإيمانَ به وفِعلَ ما أمر وتركَ ما نهى عقبة، فكثيرًا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتَضمُّر لاقتحام العقبة"[٧].

---

٥ - التبيان في أقسام القرآن (٢٤).

٦ - المصدر السابق.

المُخفون بمعنى أنه خفيف الظهر من الأوزار، والعقبة الحسية يصعب اجتيازها على الذي يكون ثقيلاً محملاً بالمتاع، فهكذا العقبة التي تكون بالآخرة، أو في ما ذُكر له ذلك أو ضُرب له المثل به، على هذا القول المُخفون هم الذين يجتازونها، المُضَمَّرون: المُضَمَّر الفرس أو نحو ذلك الدابة البعير يعلف أفضل العلف ثم بعد ذلك يترك في مكان حار ويوضع عليه من الأغطية ما يكون سببًا لذهاب الزهم بحيث لا يبقى فيه إلا ما يكون قوة له، يعد هكذا للسفر الطويل.

وقال –رحمه الله–: "وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول: ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة كئود أهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى نار، فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله "وما أدراك" في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم، والله أعلم"[^8].

يعني هذه مرجحات ترجح هذا القول أنها عقبة حقيقية حسية، ما هذه المرجحات؟ قال: آثار السلف، وعادة القرآن أنه إذا قال في الأمور الغائبة: {وَمَا أَدْرَاكَ} فإنه يكشف عن أمر حقيقي قد غاب عن الأنظار عن الحس، هذا بالإضافة إلى ما أشار إليه هنا مما يرجح ذلك أن الحقيقة مقدمة على غيرها، الأصل في الكلام الحقيقة أنها عقبة حقيقية، وليس ذلك من قبيل التقريب والتوسع بالألفاظ مما يدخل في المجاز.

وقوله تعالى: {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} قال ابن عباس: ذي مجاعة، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد، والسَّغَب هو الجوع.

وهذا الذي اختاره ابن جرير أيضًا مسغبة: مجاعة، شدة.

وقوله تعالى: {يَتِيمًا} أي: أطعمَ في مثل هذا اليوم يتيمًا، {ذَا مَقْرَبَةٍ} أي: ذا قرابة منه، قال ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسدي كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة))[^9].

لاحظ الآن قوة المتعلق {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ}.

وقد رواه الترمذي والنسائي، وهذا إسناد صحيح، وقوله تعالى: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} أي: فقيرًا مُدْقعًا لاصقًا بالتراب، وهو الدَّقْعاء أيضًا، قال ابن عباس: "ذا متربة" هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب.

وقوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمنٌ بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله –عز وجل–، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [سورة الإسراء:١٩].

---

٧ – المصدر السابق.

[^8]: ٨ – المصدر السابق.

[^9]: ٩ – رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، برقم (٦٥٨)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، برقم (٢٥٨٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٢٣٣)، وقال محققوه: "حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه"، وحسنه الألباني في إرواء الغليل، برقم (٨٨٣).

هذا هو الشرط الثالث من شروط قبول الأعمال.

شروط قبول العمل ثلاثة: الأول: الإيمان، والثاني: الإخلاص، والثالث: المتابعة.

فالله -تبارك وتعالى- يقول في أول سورة الكهف: {وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [سورة الإسراء:9] فذكر الإيمان والعمل الصالح، والعمل لا يكون صالحًا إلا بالإخلاص والمتابعة، وقال في آخرها: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:110] فهنا ذكر العمل الصالح، وذكر أيضًا السلامة من الشرك، صارت شروط قبول العمل هذه الشروط الثلاثة، ولهذا لما ذكر هذه الأعمال العظيمة الكبيرة هنا قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} فهنا "ثم" ليست للمهلة والترتيب في الوقوع الزمني، ليس المراد ذلك؛ لأن الإيمان لابدّ منه قبل هذا، يعني هو لا يعتق رقبة إلى آخره ثم بعد ذلك يكون مؤمنًا، لا، وإنما ذلك كأنه بمعنى إضافة إلى كذا، كما تقول: أنت فعلت كذا وكذا، ثم أنت تقول: كذا ومع هذا كله تقول: كذا وكذا، فليس المقصود فيه الترتيب في الوقوع في الزمان هنا؛ لأنه لا يصح أن يكون الإيمان بعد هذا، بل الإيمان يكون سابقًا له، أي ثم هو مع هذه الأوصاف.

وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة النحل:97] الآية، وقوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} أي: كان من المؤمنين العاملين صالحًا المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[10]، وفي الحديث الآخر: ((لا يرحم الله من لا يرحم الناس))[11]، وقال أبو داود: عن عبد الله بن عمرو يرويه قال: ((من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا))[12]، وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

يعني انظر إلى هذا الموضع لما ذكر الله اقتحام العقبة، وذكر هذه الأعمال الجليلة العظيمة ذكر أن ذلك إنما يكون مع الإيمان، وأيضًا ذكر مع الإيمان التواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة التواصي بالصبر على طاعة الله -عز وجل-، فالنفس تحتاج إلى مجاهدة، وتصبير، الصبر عن معصيته، الصبر على أقداره المؤلمة، الصبر على إطعام المسكين، الصبر على بذل المال، يتواصون بهذا، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}، يتواصون بالرحمة، فدل على أن هذا التواصي بمنزلةٍ عند الله -تبارك وتعالى-، وهو بمنزلة من الإيمان، وهو بمنزلة من أسباب النجاة، فذكره مع هذه الأمور التي يحصل بها اقتحام العقبة، فالتواصي ليس

---

10 - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4941)، والترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (1924)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (925)، وفي صحيح الجامع، برقم (3522).

11 - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله -تبارك وتعالى-: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} [الإسراء:110]، برقم (7376).

12 - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4943)، والترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في رحمة الصبيان، برقم (1920)، وأحمد في المسند، برقم (6733)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم (271).

بالشيء الهين السهل بحيث يغفل عنه كثير من الناس، والتواصى بالمرحمة كما قال الله -تبارك وتعالى-: {كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [سورة الفجر:١٧-١٨] فهذا ليس من صفات أهل الإيمان، ولما ذكر الذي يكذب بالدين قال: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [سورة الماعون:٢-٣] فهذا لا يرجو عائدة عند الله -عز وجل- ولا حسابًا ولا بعثًا ولا نشورًا، فهو في حال من قسوة القلب بحيث يدفع هذا اليتيم، "يَدُعّ اليتيم" يدفعه عن حقه، "ولا يحض على طعام المسكين" فالتواصي برحمة ذوي الحاجات والإحسان إليهم هو بمنزلة عند الله -عز وجل-، والغفلة عن هذا كبيرة كما هو مشاهد، هذه أسباب النجاة والخلاص، أما قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} يعني أنهم أصحاب اليمين، أو أصحاب اليُمن، أو الذين يعطون كتابهم بأيمانهم، وهذا كله متقارب، والعرب قالت لهذه اليد: اليمين؛ لأنها أعظم عائدة على صاحبها من الأخرى، هذه اليد هي التي يتعاطى فيها الأشياء، وهي الأقوى، ولهذا يعبر عنه حتى في القوة {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} [سورة الحاقة:٤٥] أَخْذُ اليمين أقوى، واليد الأخرى يقال لها: اليسار من باب التفاؤل، من باب إطلاق الأسماء الحسنة، من اليسر، فلما كانت أضعف وأقل عائدة قيل لها: يسار، كما يقال للديغ: سليم، ويقال للبيداء: مفازة؛ لأنه يفوز بقطعها وينجو ولا يحصل له الهلاك فيها، فالعرب عندها أدب في الألفاظ تراعي مثل هذه المعاني، فيتجنبون الاسم المكروه، ويعبرون بغيره تيمناً.

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} اليَمَن مع أن يمين الكعبة كله يَمَن، فهذا إذا استقبلت باب الكعبة وهو إلى المشرق، وإذا استقبلت المشرق الآن يكون الجنوب على يمينك، فما عن يمين الكعبة يقال له: يَمن من اليُمن، أو باعتبار يمين الكعبة، والشام على يسار الداخل إلى الكعبة، الشام كانت العرب لربما تربط بين ذلك والشؤم، ولكن الإسلام أبطل هذا كله، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اللهم بارك لنا في يمننا، اللهم بارك لنا في شامنا))[١٣]، وجاءت فضائل الشام.

ثم قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} أي: أصحاب الشمال، {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ}.

الآيات هنا {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا} هؤلاء أضداد أهل الإيمان، كفروا بآياتنا التنزيلية التي أنزلها أو يحتمل أن يكون ذلك يشمل هذا وهذا، الآيات التنزيلية وأيضًا الآيات الكونية، {هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} يعني أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتابهم بشمالهم.

أي أصحاب الشمال، {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ} أي: مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وعطية العوفي والحسن وقتادة والسدي: مؤصدة أي: مطبقة، قال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال الضحاك: مؤصدة حَيْط لا باب له.

حَيْط أي حائط جدار.

وقال قتادة: مؤصدة مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد.

آخر تفسير سورة البلد، ولله الحمد والمنة.

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الفتنة من قبل المشرق))، برقم (٧٠٩٤).

هذه المعاني المذكورة ترجع إلى شيء واحد مؤصدة بمعنى أنه لا مخرج لهم منها، يعني هذا المعنى في النهاية سواء قول من قال: مطبقة، أو مغلقة الأبواب، أو أنه لا باب لها أصلاً، فالمقصود أنه لا مخرج لهم منها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشمس من الآية (١) إلى الآية (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:١-١٠].

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. [١]

هذه السورة من السور النازلة بمكة، والموضوع الذي تدور عليه في مجملها هو ما يتصل بالنفس من جهة تزكيتها وتدسيتها، **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** وما ذكر بعده من ضرب المثل بثمود في قوله: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}** [سورة الشمس:١١]، وما وقع منهم من عقر الناقة، فهذا نموذج ومثال لتدسية هذه النفس لقوم لم تزكُ نفوسهم بل حصل ضد ذلك من تدسيتها وإفسادها، وهذه السورة سورة الشمس يقال لها: **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** تمييزًا لها من سورة التكوير، **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** فهذه السورة تدور على موضوع النفس من جهة التزكية والتردية -التدسية-، والله أعلم.

قال مجاهد: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} أي: وضوئها، وقال قتادة: وضحاها النهار كله، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار.

الآن أقسم الله -عز وجل- بالشمس **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** بعض العلماء تجدهم في ثنايا كلامهم في التفسير -وهذا يذكره غير واحد من المفسرين، ويبدو أن بعضهم لم يطلع على كلام بعض- يربطون هذه الأشياء المقسم بها **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا}** إلى آخره وما ذكره في مضامين السورة، يعني مثلاً تكذيب ثمود مع ما جاءهم من الآية الواضحة التي لا لبس فيها ولا خفاء من هذه الناقة التي كانت آية لهم، أن هذا في غاية الوضوح، ومع ذلك حصل منهم هذا الكفر والتكذيب فعقروا الناقة لا عن لبس وإنما كان ذلك مع وضوح هذا البرهان والدليل، فلم يكن تكذيبهم عن خفاء للحجة.

قال: **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** فهنا أضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه يكون عند ارتفاعها، إذا ارتفعت الشمس، فالضحى مراتب فحينما ترتفع الشمس بقدر رمح فإن هذا يكون وقتًا لدخول الضحى، ولكن هذا أول الضحى، فالضحى له أول وأوسط وأعلى، الضحى الكبير هو حينما ترتفع الشمس ارتفاعًا كثيرًا ويشتد حرها، ولهذا جاء: ((صلاة الأوابين حين تَرمَض الفصال))[٢]، فتكون الأرض حارة، فأضاف الضحى إليها هنا؛ لأنه إنما

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، برقم (٧٠٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، برقم (٤٦٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الأوابين حين ترمض الفصال، برقم (٧٤٨).

يكون عند ارتفاعها، {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}، هنا قول من قال: **أي: وضوئها**، وضحاها أي وضوئها؛ لأنها في الضحى تكون في غاية الإضاءة، فهذا كأنه تفسير على المعنى وليس من قبيل التفسير على اللفظ؛ لأن الضحى هو الوقت المعروف فحينما يفسر بهذا قال: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} الضحى جزء من اليوم، جزء من النهار، فما فسره به، وإنما فسرها بالضوء، وقول قتادة أيضًا: النهار كله باعتبار أن هؤلاء نظروا إلى أنه في حال الضحى يكون النهار جليًّا في غاية الإضاءة، فكأنهم نظروا إلى أنه عبر به للدلالة على معنى أوسع وهو النهار، ولكنه عُبر عن النهار بأجلى حالاته وهو الضحى، والله -تبارك وتعالى- أقسم بالضحى، والضحى هو الوقت المعروف، وإن كان بعضهم يفسره بالنهار كله، ولكن تفسيره بذلك على المعنى أيضًا وليس على اللفظ، فهنا {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} إذا فسرناه على اللفظ يكون للوقت -للجزء- المعروف من النهار، وهذا هو المتبادر، وابن جرير يرجح أن يكون ذلك بمعنى النهار، يعني يرجح قول قتادة، وذكر العلة قال: لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار، يعني عبر عن النهار بأجلى حالاته، وهو حينما ترتفع الشمس، والنهار يبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها، ولكنه في طرفيه يكون النهار ضعيفًا، أو ضوء الشمس يكون ضعيفًا، بخلاف الضحى.

{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} قال مجاهد: تبعها، وقال العوفي عن ابن عباس: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال.

إذا تأملت في هذه الأقوال تجد أن بعضها محمول على عود الضمير الهاء إلى الشمس، وأن بعضها محمله على عود الضمير على النهار، {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} إذا فُسر هذا بالنهار {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} فهنا قال: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} قال مجاهد: تبعها، تبع ماذا؟ هذا يرجع إلى الشمس يعني تبع الشمس، وابن عباس من طريق العوفي قال: يتلو النهار {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} القمر يتلو النهار، والقمر هو آية الليل {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:١٢]، فالشمس آية النهار، والقمر آية الليل، تلاها أي: تلا النهار، وقول قتادة مقيد وهو على أن الضمير يرجع إلى الشمس لكن ليس ذلك بإطلاق، يعني أن القمر يكون بالليل، يكون بعد غروب الشمس مثلاً، وإنما قال: **إذا تلاها ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال** هنا هذا تفسير محمله على اللفظ لكن في أدق وأخص معانيه، يعني هنا فسرت على اللفظ لكن بمعانٍ متفاوتة، فهنا هذا أدق معانيه، متى يكون القمر يتلو الشمس مباشرة؟ هو لاحَظَ لفظة "تلاها" هذا في الليلة الأولى من الشهر يسقط قرص الشمس فيبدو الهلال، هذا لا يكون في وسط الشهر، ولا يكون بعد ولادة الهلال بأيام، ولا يكون ذلك في آخر الشهر بحال من الأحوال كما هو معروف، فهنا هذا لاحظ لفظة "تلاها"، متى يتلوها مباشرة؟ في أول ليلة يسقط قرص الشمس مباشرة يُرى الهلال في وقت يسير بعد غروب الشمس كما هو معلوم حينما يتراءاه الناس في أول ليلة.

لاحظ الآن هذا المعنى، ابن جرير لاحظ تفسيره على اللفظ لكنه وسعه قليلاً، يعني ما قيده بأول ليلة، وإنما قيده في النصف الأول من الشهر، النصف الأول من الشهر إذا غابت الشمس يتلوها الهلال وفي كل يوم يكون طلوعه متفاوتًا عن اليوم الذي قبله، بهذا يقول ابن زيد من السلف.

النصف الثاني العكس يكون القمر أمامها فهنا حينما لاحظ هؤلاء اللفظ، **{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}** لما لاحظوا اللفظ نظروا إلى أن القمر يتلو الشمس إما مباشرة كقول من قيد ذلك في أول ليلة، أو في النصف الأول من الشهر، بمعنى أنه بعد غيابها هنا يكون طلوع القمر، والذين نظروا إلى المعنى حملوه على ما هو أوسع من ذلك، بمعنى أن القمر يكون طلوعه ليلاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} قال مجاهد: أضاء.

هذا الذي اختاره أيضًا ابن جرير -رحمه الله-، **{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا}** يعني أضاء، وبعضهم يقول: أظهر الشمسَ وضوءَها، "جلاها" يعني الضمير يعود إلى الشمس، وبعضهم يقول: الضمير في "جلاها" يعود إلى الظلمة، جلّى الظلمة، والذين قالوا: يعود إلى الشمس نظروا إلى اتحاد مرجع الضمائر قالوا: هو أولى من تفريقها، يعني **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** الضمير يرجع إلى الشمس، **{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}** تلا الشمس، **{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا}** جلّى الشمس، النهار يُجلي الشمسَ وضوءَها، أو يجلي الظلمة فيكون ذلك من عود الضمير إلى غير مذكور يفهم من السياق، وهذا لا إشكال فيه، ومن أوضح الأمثلة على ذلك **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** [سورة القدر:١] يعني القرآن ولم يكن له ذكر قبل هذا.

ولهذا قال مجاهد: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} إنه كقوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [سورة الليل:٢]، وقالوا في قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

وهذا الذي اختاره ابن جرير، **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}** لاحظ الآن كل الضمائر على هذا ترجع إلى الشمس، الليل يغشى الشمس، وبعضهم يقول: يرجع إلى الآفاق فيكون رجوعه إلى غير مذكور لكنه يفهم من السياق، **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}**، يعني يغشى الآفاق، وبعضهم يقول: يرجع إلى الأرض، وهو أيضًا يكون الضمير فيه قد عاد إلى غير مذكور لكن يفهم من السياق، يغشى الأرض يعني يغطيها بظلامه.

وقوله: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} يحتمل أن تكون "ما" هاهنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى "مَن" يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد.

الآن قال: **{وَالسَّمَاءِ}** أقسم بالسماء السقف والبناء المحفوظ، **{وَمَا بَنَاهَا}** فإذا قلنا: إن "ما" بمعنى "مَن" كما ذكرت في الأمس أن "ما" تستعمل لغير موصوف بالعلم، يقولون: لغير العاقل، وأن "مَن" لمن يوصف بالعلم يعني يقولون: للعاقل، فهنا "والسماء وما بناها" على هذا المعنى أن "ما" بمعنى "مَن" فيكون القسم بالبناء والباني، المصنوع والصانع، فالسماء آية عظيمة دالة على قدرة الله -عز وجل- حيث رفعها بلا عمد، وجعلها بناء وسقفًا محفوظًا محكمًا لا يتشقق ولا يتصدع مع مضي الدهور والأزمان الطويلة، ولا يسقط، **{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}** فأقسم بها وأقسم بنفسه يعني ومَن بناها على هذا المعنى، هذا الذي قاله مجاهد، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

والمعنى الآخر على أن "ما" مصدرية يكون هكذا: **{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}** أقسم بالسماء وببنائها، وهذا الذي اختاره بعض أصحاب المعاني كالفراء والزجاج، وابن كثير يقول: **وكلاهما متلازم**، كيف يكون متلازمًا؟ أقسم بالسماء قال: ومَن بناها، فإذا قلنا: ومَن بناها فإن الإقسام بالسماء هو إقسام ببنائها، فبين القولين ملازمة، والآية إذا احتملت معنيين فأكثر وبينهما ملازمة ولم يقم مانع يمنع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل

عليها، فإذا أقسم الله -عز وجل- بالسماء فإن ذلك إقسام ببنائها ومن بناها، "وما بناها" يعني ومن بناها، وإذا فسر بالبناء أن "ما" مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وببنائها وهكذا.

وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [سورة الذاريات:٤٧] أي: بقوة، {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} [سورة الذاريات:٤٧-٤٨]، وهكذا قوله: {وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا} [سورة الشمس:٦]، قال مجاهد: طحاها: دحاها.

لاحظ هنا "والأرض وما طحاها" يقال فيها كما سبق في "والسماء وما بناها"، يعني أقسم بالأرض وما طحاها والأرض ومن طحاها، أو تكون "ما" مصدرية، قال مجاهد: **طحاها دحاها** تفسير الطحو بالدحو.

وقال العوفي عن ابن عباس: {وَمَا طَحَاهَا} أي: خلق فيها، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: طحاها: قسمها، وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري، وأبو صالح، وابن زيد: طحاها: بسطها.

وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، هذا قول الجمهور، بسطها، وقد مضى في بعض المناسبات السابقة أن طحا بمعنى بسط، وابن القيم -رحمه الله- يفسر الطحو بمد الأرض وبسطها وتوسيعها؛ ليستقر عليها الناس والحيوانات، ويمكن البناء عليها والغرس والحرث والزرع، طحاها: بسطها.

وهذا الذي اختاره ابن جرير في تفسيرها بالبسط، الطحو البسط، وإذا فُسر ذلك بالبسط فيكون بمعنى الدحو؛ لأنه سبق تفسير ذلك بالبسط، {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [سورة النازعات:٣٠] أي: بسطها وهو أحد المعاني المشهورة في تفسيره.

وقوله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [سورة الروم:٣٠]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟))[٣]، أخرجاه من رواية أبي هريرة، وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله -عز وجل-: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))[٤].

الآن في قوله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}، كما سبق أقسم بالنفس ومن سواها، أو تكون "ما" مصدرية يعني أقسم بالنفس وتسويتها، وتسوية النفس ما المراد بها؟ قال هنا: أي: **خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة،** فهذه التسوية تنتظم التسوية في الباطن على الفطرة، كما تنتظم -والله تعالى أعلم- التسوية في الظاهر، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} ولكن لو قيل: إن ذلك يحمل على التسوية في الباطن لكان لذلك قرينة تدل عليه

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، برقم (١٣٥٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٨).

٤ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

وترجحه، وهو أولاً: أنه ذكر النفس، والثاني أنه ذكر بعده **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** فالكلام في النفس والنفس غير الجسد، هنا قال: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}** **خلقها سوية مستقيمة على الفطرة** مع أن بعضهم كما سبق حمله على هذا وهذا كقول من قال: خلقها وأنشأها وسوى أعضاءها، باعتبار أنه قد تطلق النفس ويراد بها الإنسان، **{أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ}** [سورة المائدة:٣٢]، والله أعلم.

وقوله: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بيّن لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها.

قال ابن عباس: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} بين لها الخير والشر، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري .

وهذا اختيار ابن جرير، فيكون هنا **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** بين لها طريق الخير وطريق الشر كما قال: **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** [سورة البلد:١٠] هذا اختيار ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر.

هذه العبارة مجملة يحتمل أن يكون المراد بها علمها وبين لها، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أخص من هذا، قال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها، هذا كله كأنه تفسير على المعنى، جعل فيها بمعنى أنه إذا بين له طريق الخير وطريق الشر يكون قد جعل ذلك فيه، -والله أعلم-، والإلهام يقولون: إنه يعبر به عن حدوث علم في النفس من غير اكتساب، يعني حدوث علم في النفس من غير تعليم ولا تجربة ولا تفكير، فهو حاصل بغير دليل، ألهمها فجورها وتقواها فهذا بمعنى قول من قال: جعل ذلك فيها ونحو هذا.

وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

وروى ابن جرير عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم -صلى الله عليه وسلم- وأُكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قُضي عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلما؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، قال: سددك الله، إنما سألت لأخبُر عقلك، إن رجلا من مُزينة -أو جهينة- أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم -صلى الله عليه وسلم-، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: ((بل شيء قد قضي عليهم))، قال: ففيم نعمل؟ قال: ((من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}))[٥] رواه أحمد ومسلم.

ظاهر هذا الحديث أن الإلهام هنا ليس بمجرد الإرشاد والبيان، بل ما هو أخص من هذا، وذلك بما يجبل أو يخلق عليه العبد من الهدى والضلال، **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** فالله -تبارك وتعالى- يوفق قومًا للهدى

---

٥ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٠٠٨٨).

فيكونون مهتدين، ويخذل آخرين فيكونون ضالين، والقرينة الدالة على هذا أيضًا من الآيات لاحظ هنا **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** سيأتي في الكلام على عود الضمير أن من أهل العلم من يقول: إنه يعود إلى الله -عز وجل- زكاها الله، زكى نفسه، وقول من قال وهو الأشهر الذي عليه الجمهور: زكاها أي: زكى نفسه، فعلى هذا القول يكون الجزء الأول **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** يكون في الهدى والضلال الذي هو بمعنى التوفيق والحرمان، فهذا فعل الرب -تبارك وتعالى- عن علم وحكمة، والجزء الثاني **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** على المعنى الذي ذكرنا المعنى الآخر أن الضمير يرجع إلى صاحبها إلى الإنسان **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** يكون ذلك في إثبات الاختيار والمشيئة للعبد، وأن ذلك لا يخرج عن مشيئة الله -عز وجل-، **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}** [سورة التكوير:٢٩] فمشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الله -تبارك وتعالى-، فالعبد له مشيئة واختيار وفعل، والرب -تبارك وتعالى- له مشيئة واختيار، ومشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الرب، فالحديث يدل على هذا المعنى **{فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}**، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشمس من الآية (٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمسلمين، أما بعد:

فيقول ابن كثير -رحمه الله- عند قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠]: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله -كما قال قتادة- وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويُروَى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير.

{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} أي: دسَّسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله -عز وجل.

وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا مر بهذه الآية: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} وقف، ثم قال: ((اللهم آتِ نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها))[1].

روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسَل والهرم، والجُبن والبخل وعذاب القبر، اللهم، آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قَلْب لا يخشع، ومن نَفْس لا تشبع، وعِلْم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها))، قال زيد: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعلمُناهنّ ونحن نعلمكموهنّ[2]، رواه مسلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** هذا هو جواب القسم، فهذه الأقسام المتتابعة التي تبلغ سبعة أو ثمانية هذا جوابها، فأقسم الله -تبارك وتعالى- بـــ **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}** [سورة الشمس:١-٥] -هذان اثنان-، **{وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}** [سورة الشمس:٦-٧] كم صارت؟ أحد عشر قَسَمًا على قضية واحدة وهي **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}**، وإن شئت أن تجعلهما قضيتين، فهذا لا يخفى ما فيه من أهمية تزكية النفس، ولا شك في هذا؛ لأنه يتوقف عليه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، فتزكية النفس أول ما يكون ذلك

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١١٩١).

٢ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢٢).

بالإيمان بالله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك بطاعته وتقواه بامتثال أوامره، ثم باجتناب نواهيه، وأعظم هذه النواهي الإشراك، فتزكية النفس هو الأمر الذي يترتب عليه الفلاح، {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} و"قد" تفيد التحقيق، فهذا هو جواب القسم، {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}، والفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، فهنا ذكر احتمالين في المعنى:

الأول: أن يكون قوله: {زَكَّاهَا} أي: مَن زكى نفسه {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} زكى نفسه بالإيمان وطاعة الله -عز وجل-، واجتناب مساخطه من الإشراك فما دونه فهذا معنى، قال: **ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير**، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

المعنى الثاني: في التدسية أيضًا {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} أي: دسّى نفسه على المعنى الأول بأن ذلك يعود إلى صاحب النفس، "دساها"، قال: **دسّسها أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله** فهذا معنى التدسية وأصله في كلام العرب من التدسيس إخفاء الشيء في الشيء، ولا زالت هذه اللفظة مستعملة إلى اليوم في هذا المعنى، تقول: دسّ كذا، يعني أخفاه، يَدُسُّه يخفيه، فهذا الذي قد أخمل نفسه بمعصية الله -تبارك وتعالى- يكون قد دساها يعني أخملها من التدسية كأنه هبط بها وانسفل، فالتزكية فيها المعنيان المعروفان النماء والتطهير ولهذا قال هنا: **زكى نفسه أي: بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل** وهذه هي حقيقة التربية إذ إنها تعنى تكميل النفس بالكمالات، ومن الإيمان والعمل الصالح، فهذا ما تبنى به النفوس وهو المقصود بالقصد الأول، والشق الثاني: هو تطهير النفس من الشرك والرذائل والمعاصي وهذا مقصود لغيره من باب التخلية، فإن المحل لا يكون قابلاً ولا يحصل النماء حتى يكون خاليًا نقيًّا من الرذائل والمدنسات، وذلك كالأرض لا تكون صالحة للزرع حتى تكون التخلية -حتى تقع التخلية- قبل ذلك من النباتات الطفيلية وما إلى ذلك، فيكون المحل صالحًا للبذر والزرع والغرس، فهذه هي التزكية من الزكاء وهو النماء، زكَا بمعنى نمَا تقول: زكَا الزرعُ، بمعنى نما، وكذلك أيضًا هي تعني التطهير، فهذه المادة تتضمن هذين المعنيين، {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} من زكّى نفسه هذا المعنى الأول، {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} أي: دسّى نفسه هبط بها؛ لأن المعاصي تهبط بالنفس وبصاحبها، والطاعات ترتفع بها؛ ولهذا كانت العزة لأهل الإيمان، وبقدر ما يكون عندهم من الإيمان والطاعة، والتقوى تكون لهم العزة، والعلماء كابن قتيبة وغيره يتكلمون على تدسية النفس، واستعمالات هذه المادة، ويذكرون في ذلك أن الطاعة ترفع النفس، وأعمال البر والخير، ولهذا يقولون: تجد الأجواد والكرام يسكنون أعالي الأرض علّ أحدًا أن يأتيهم من عابر سبيل ونحوه، وأما أهل اللؤم يقول: فيسكنون في المهابط في الأماكن المتدنية الهابطة النازلة من أجل أن لا يراهم أحد، فلا يرِد عليهم ضيف ولا عابر سبيل، فهذا الذي عمل بطاعة الله كأنه قد ارتفع بل هو قد ارتفع وسما بنفسه، حلق عاليًا، وذاك الذي أتبع نفسه هواه يكون قد انسفل وهبط فهو يحوم حول الجيف، ويتنقل في الوهاد، ولا يكاد يسمو ويرتفع بفضيلة.

ثم ذكر المعنى الثاني: قال: **وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه** {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} زكاها الله يعني زكى نفسه، وقد خاب من دسّى الله نفسه، وهذا قال به طائفة أيضًا من السلف، وهو مروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومقاتل والكلبي، وهو اختيار ابن جرير، هذا المعنى الذي ذكره ابن

كثير بقوله: وقد يحتمل.. اختاره ابن جرير باعتبار أن التزكية إنما تكون بفعل الله -تبارك وتعالى- وهدايته وتوفيقه، بهذا الاعتبار، يقولون: فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}** [سورة النجم:٣٢] فنهى عن تزكية النفس، لكن المنهي عنه تزكية النفس بالنسبة وليس بالفعل، فإن التزكية تقال لهذا وهذا، فالمنهي عنه هو ما يكون من قبيل النسبة يعني لا ينسب نفسه إلى الزكاء يزكيها، وكذلك أيضًا لا يزكي بعضهم بعضًا؛ ولهذا إذا كان ولابدّ فيقول: أحسبه، والله حسيبه، ولهذا نهينا أن يقال: فلان شهيد، كما جاء عن عمر -رضي الله عنه-: تقولون لقتلاكم: فلان شهيد، فلان شهيد، الله أعلم بمن يقاتل في سبيله، ولهذا لا نستطيع أن نحكم لأحد بأنه في الجنة مثلاً إلا لمن شهد الله له ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، كل هذا يدخل في باب التزكية بالنسبة، يعني ينسبه إلى الزكاء، أمّا ما يتعلق بالفعل كون الإنسان يعمل على طاعة الله وعلى تزكية نفسه وعلى إصلاحها وتهذيبها وتشذيبها وتقويمها وترويضها على الطاعة فهذا العمل هو تزكية، فهذا هو المطلوب الذي لا يتأتى إلا بالمجاهدة، فهذا واجب على كل مكلف، فالمنهي عنه بقوله: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}** هو ما كان من قبيل النسبة لا من قبيل الفعل، فالحاصل أن أصحاب القول الثاني يقولون: إن التزكية إنما تكون من الله، فالله هو الذي يهب ذلك، ويتفضل به على من شاء من عباده، ولو نظرنا في المعنيين **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** فهذا الذي يعمل بطاعة ربه -تبارك وتعالى- ويجاهدها على ذلك، ويكفها ويزجرها عما حرم الله -عز وجل- لا يتحقق له مطلوبه إلا بتوفيق الله -تبارك وتعالى-، فالمعنيان يلتئمان بهذا الاعتبار، **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** حملها على طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولا يمكن أن يحصل له ذلك إلا بتوفيق الله، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، ومن ثمّ يمكن أن يجتمع المعنيان، والله أعلم.

وهذا الحديث الذي ذكره عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا مر بهذه الآية: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}**، قال: ((اللهم آتِ نفسي تقواها))، هذا في سنده ابن لهيعة، وهنا يمكن أن يَحتج بمثله من يقول: إن ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، يعني هنا **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** فيقول: اللهم آتِ نفسي تقواها، إذًا الذي يزكيها هو ربها -تبارك وتعالى-، كذلك الحديث الآخر في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها))، فهذا يحتج به أيضًا من يقول بالمعنى الثاني كابن جرير أن الذي يزكي النفوس هو الله؛ ولهذا يُسأل ذلك، ((اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها))، إذًا **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** أي: من زكى الله نفسه بهذا الاعتبار، لكن إذا جمعنا بين المعنيين قلنا: إن ذلك يكون بفعل العبد الذي أُمر به، ولكن الوصول إلى المطلوب لا يكون إلا بتوفيق الرب -سبحانه وتعالى.

وللإمام ابن القيم -رحمه الله- كلام نفيس في الجمع بين المعاني والتفنن في إبراز المعنى، والتعامل مع أقوال المفسرين، فمن الضروري أن تُقرأ بعض المقاطع، لا يكفي أن نقول: اختار ابن القيم هذا، أو احتج له بكذا، اسمعوا كلامه فيكون عندنا قدرة على التعامل مع أقوال المفسرين من السلف فمن بعدهم.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها، ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى، فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها، وذكر

لفظ التسوية كما ذكره في قوله: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [سورة الانفطار:٦-٧]، وفي قوله: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [سورة الحجر:٢٩، وسورة ص:٧٢] إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس كقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة الأعراف:١٨٩]، وقوله: {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [سورة النور:٦١]، وقوله: {وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم} [سورة النساء:٢٩]، وقوله: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً} [سورة النور:١٢] ونظائره، وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

وقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} الضمير مرفوع في "زكاها" عائد على "مَن"، وكذلك هو في "دساها" المعنى قد أفلح من زكى نفسه وقد خاب من دساها هذا القول هو الصحيح، وهو نظير قوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [سورة الأعلى:١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح"[٣].

احتجاج أصحاب القول الأول: زكى نفسه.

وقال -رحمه الله-: "كقوله: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون:١-٢] إلى آخر الآيات"[٤].

يعني في مقام الثناء إنما هو فعل العبد بمجاهدته وعمله بطاعة الله.

وقال -رحمه الله-: "قال الحسن -رحمه الله-: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله، وقاله قتادة، وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكّى نفسه أي: نمّاها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبدًا خفيُّ المكان زَمِنُ المروءة غامض الشخص ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربُى، و يفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتُخفى أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

وبَوّأتَ بيتَكَ في مَعْلَمٍ *** رحيبِ المَباءةِ والمَسرحِ

كَفيتَ العُفاةَ طِلابَ القِرى *** ونبحَ الكلابِ لمُستنبحِ

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} فقال: دسّى معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين يُرِى الناس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون، وقال طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس في رواية عطاء: قد أفلحت نفسٌ زكاها الله وأصلحها، وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي وسعيد بن جبير ومقاتل، قالوا: سعدت نفسٌ وأفلحت نفسٌ أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس

---

٣ - التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٠).

٤ - المصدر السابق (ص: ٢١).

أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها، قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها لأنها تدل على وحدانيته وعلى فلاح مَن طهّره وخسارة من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه، وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم، قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة، قالوا: ويدل عليه قوله: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو يقول: ((ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها))[٥]، قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر أن النبي –صلى الله عليه و سلم– كان إذا قرأ **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** وقف ثم قال: ((اللهم آتِ نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها))، قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى، وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا، قال أرباب القول الأول: هذا القول وإن كان جائزًا في العربية حاملًا للضمير المنصوب على معنى "مَن"، وإن كان لفظها مذكرا كما في قوله: **{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ}** [سورة يونس:٤٢] جمعَ الضمير وإن كان لفظ "مَن" مفردًا حملا على نظمها، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وهاهنا قد تقدم لفظ "مَن"، والضمير المرفوع في **{زَكَّاهَا}** يستحقه لفظاً ومعنى فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظًا ومعنى، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه، وأما عود الضمير الذي يلي "مَن" على الموصول السابق وهو قوله: **{وَمَا سَوَّاهَا}** وإخلاء جاره الملاصق له وهو "مَن" ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على "مَن" ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه، ولم تدعُ الضرورة إليه فالحمل عليه ممتنع، قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** إثبات القضاء والقدر السابق، فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله: **{كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** [سورة المدثر:٥٤-٥٦]، وقوله: **{لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [سورة التكوير:٢٨-٢٩] فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم دون العكس فإن العبد إذا زكّى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبته"[٦].

---

٥ – رواه أحمد في المسند، برقم (٢٥٧٥٧)، وقال محققوه: "رجاله ثقات رجال الشيخين غير صالح بن سعيد فقد روى عنه نافع ابن عمر الجمحي، وذكره ابن حبان في "الثقات".

٦ – التبيان في أقسام القرآن (ص:٢١-٢٥).

فالوجوه والاستدلال لكل قول ومناقشة هذه الأقوال، وما خرج به من أن القول بأن ذلك يرجع إلى فعل العبد أنه يستلزم القول الآخر ويقتضيه، فإنه لا يتوصل إلى هذا إلا بتوفيق الله -عز وجل-، هذه المناقشة وهذا العرض والاستدلال لكل قول لا تجد مثل هذا في شيء من كتب التفسير أبدًا، ولا تجد قريبًا منه.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [سورة الشمس:١١-١٥].

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم -عليه الصلاة والسلام- من الهدى واليقين.

{إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} أي: أشقى القبيلة، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [سورة القمر:٢٩]**، وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم، شريفًا في قومه، نسيبًا رئيسًا مطاعًا، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال: "خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} انبعث لها رجل عارِم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة"[٧].**

ورواه البخاري في التفسير، ومسلم في صفة النار، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما.

هنا الله -عز وجل- لما علق الفلاح على تزكية النفوس وتطهيرها، وأن الخيبة تكون بتدسيتها، ذكر نموذجًا ومثالاً على من لم يوفق ودسّى نفسه وهم ثمود، فهؤلاء كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن جرمهم بالنسبة لغيرهم ممن ذكر الله -عز وجل- ممن وقع لهم العذاب المستأصل مثل فرعون الذي ادعى الإلهية والربوبية، وكذلك قوم عاد الذين قالوا: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [سورة فصلت:١٥]، وكذلك قوم لوط حيث أشركوا بالله -تبارك وتعالى- وفعلوا هذه الفاحشة التي لم يسبقوا إليها، وقوم شعيب الذين أشركوا، وكانوا يطففون المكاييل والموازين، ويقعدون للناس يقطعون الطريق وما إلى ذلك، فثمود كان جرمهم وهو عقر الناقة أخف من جرم أولئك، فذكرهم الله -عز وجل- مثلاً لتدسية النفوس، وغيرهم من أولئك الذين وقع بهم العذاب المستأصل من باب أولى أنهم دسوا نفوسهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}** هنا فسره الحافظ ابن كثير: **أنهم كذبوا بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي** وعزا ذلك إلى مجاهد وقتادة وغيرهما، وهذا هو المشهور من أقوال المفسرين أن ذلك بسبب طغيانهم وتجاوزهم الحد وبغيهم، وابن جرير -رحمه الله- ذكر معنى آخر ورجحه على هذا المعنى: أن قوله: **{بِطَغْوَاهَا}** أي: بعذابها العذاب الذي خوفهم منه نبيهم -صلى الله عليه وسلم- قال: **{وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [سورة الأعراف:٧٣] فهنا كذبوا بهذا العذاب فعقروا الناقة، **{وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}** [سورة الأعراف:٧٧] فهم استخفوا بذلك ولم يصدقوا به، فابن جرير يفسر قوله: **{بِطَغْوَاهَا}** يعني

---

٧ - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة والشمس وضحاها، برقم (٣٣٤٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٢٢٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

بعذابها الذي وعدهم به نبيهم صالح -عليه الصلاة والسلام-، فكان ذلك العذاب طاغيًا عليهم كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}** [سورة الحاقة:٥]، فابن جرير يفسر الآية بهذا، والمشهور هو الأول، وكأنه -والله أعلم- هو الأقرب، كذبت بطغواها، فتكون الباء للسببية يعني بسبب طغيانهم وبغيهم، يقول: **فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم -عليه الصلاة والسلام- من الهدى واليقين،** **{إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}** العامل في الظرف "إذ" هو "كذبت" كذبت إذ انبعث يعني تكذيبهم مفسر بهذا **{إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}**، أو "بطغواها" **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ}** ببغيهم وطغيانهم إذ انبعث، فيكون الظرف هنا متعلقًا بقوله: **{بِطَغْوَاهَا}**، **{إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}** ما هذا الطغيان الذي حصل؟ انبعث أشقى القوم أشقى القبيلة وهو عاقر الناقة "قُدَار بن سالف" وهو أحيمر ثمود، رجل أحيمر يعني في صفته، في هيئته، في شكله، فيه حُمرة، **{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** [سورة القمر:٢٩] يقول: **وكان هذا الرجل عزيزًا**، والنبي -صلى الله عليه وسلم- شبهه من هذه الحيثية أنه في قومه بهذه المنزلة بأبي زمعة وهو الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأهل التواريخ وفي بعض كتب التفسير يذكرون تفاصيل وأشياء مرجعها إلى الإسرائيليات كيف وقع ذلك، ومن الذي اشترك معه، وما سببه.

وقوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ} يعني: صالحًا -عليه السلام-: {نَاقَةَ اللَّهِ} أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، {وَسُقْيَاهَا} أي: لا تعتدوا عليها في سقياها.

هنا قوله: **{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}** يعني هذا على النصب على سبيل التحذير، فهذا كما يقول الفراء: كل تحذير فهو نصب، يعني النصب أحيانًا يكون على الإغراء، وأحيانًا يكون على سبيل التحذير، وبعضهم كالزجاج يقول: إنها منصوبة على معنى ذروا، يعني فيه مقدر محذوف ذروا ناقةَ الله، **{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ}** فنصب على التحذير، احذروا ناقة الله، هذا هو التقدير، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، يعني كما قال ابن كثير، وكما ترون في طول هذا التفسير وعرضه نذكر أقوال ابن جرير، ونجد أن أقواله مع أقوال ابن كثير تارة تتفق وتارة تختلف، وأن المواضع التي يختلف فيها ابن جرير مع ابن كثير ليست قليلة، فما قد يتوهمه بعض طلبة العلم من أن ابن جرير وابن كثير أن أقوالهم وأن هذه الكتب أو أن ذلك من مدرسة واحدة، فإن قُصد به أنه يرجع إلى التفسير بالمأثور فهذا لا إشكال فيه، أما أن يظن أن أقوالهم متوافقة فهذا غير صحيح، وأبعد من هذا كله قول من يظن أو يتوهم أن تفسير ابن كثير هو تهذيب أو اختصار لابن جرير، هذا لا أصل له إطلاقًا، هذا كتاب، وهذا كتاب، وليس هذا الكتاب مقتبسًا من تفسير ابن جرير بحال من الأحوال، لكنه استفاد من تفسير ابن جرير ومن غيره، كنت أبحث عن طبعة الشيخ أحمد شاكر تحقيق محمود شاكر -رحم الله الجميع- قديماً في حدود سنة ١٤٠٢هـ، وأذهب إلى المكاتب هنا وهناك فرآني شخص وقال: ماذا تريد بتفسير ابن جرير؟! تفسير ابن كثير يكفيك، ابن كثير تهذيب لابن جرير، فلا زلت أعجب من هذه الكلمة إلى اليوم، ابن كثير تهذيب لابن جرير! هذا غير صحيح.

أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، قال الله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} أي: كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم.

هنا قوله: {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} يحذرهم من الاعتداء على هذه الناقة أن يمسوها بسوء، وكذلك أيضًا من سقياها؛ لأنها تشرب في يوم ويشربون في يوم، وهنا قال: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} كذبوه فيما جاءهم به، عبارة ابن جرير: كذبوه في خبره من أن الله جعل لها شربًا في يوم، ولهم شربًا في يوم، وأن الله يحل بهم عقوبته إذا عقروها، كذبوه، وهذا التكذيب يشمل ذلك جميعًا كذبوه فعقروها، كذبوه أنها آية، كذبوه فيما أخبرهم به وما حذرهم منه من نزول العقاب بهم إذا تعرضوا لها بسوء، كذبوه من أن ذلك كان بأمر الله –تبارك وتعالى– {لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الشعراء:١٥٥].

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ} أي: غضب عليهم، فدمر عليهم، {فَسَوَّاهَا} أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء.

قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها.

هنا الدمدمة {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ} قال: **أي غضب عليهم فدمر عليهم** فالدمدمة تعني التدمير، وهذا الذي قاله ابن جرير –رحمه الله.

وقوله: {فَسَوَّاهَا} يعني فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء، يعني استووا في ذلك، جاءهم العذاب العام المستأصل، هنا قال: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} وهو أحيمر ثمود، الذي عقرها واحد "فتعاطى فعقر" فكيف وقع العذاب على الجميع؟

الجواب: لأنهم تواطئوا على ذلك ورضوا به، فصاروا بمنزلة العاقر لها، ولهذا نسب ذلك الفعل إليهم جميعًا، {فَعَقَرُوهَا} مع أن الذي عقرها واحد، ولكن لمّا توافق هؤلاء على هذا العدوان والشر والإجرام كان العذاب واقعًا بالجميع، فجعل العقوبة نازلة عليهم، وهكذا القوم إذا رضوا بالمنكر وإن لم يصدر من جميعهم فإن العقوبة تنزل بالجميع، بل إذا سكتوا عنه، ولم يأخذوا على يد الظالم وهم يستطيعون ذلك فإن العذاب ينزل على الجميع، فهنا قوله: {فَسَوَّاهَا} يعني أن العقوبة نزلت على السواء فعمت القوم جميعًا.

وقوله تعالى: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} وقرئ: {فلا يخاف عقباها}.

قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعةً، وكذا قال مجاهد، والحسن، وبكر بن عبد الله المزني، وغيرهم.

آخر تفسير {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}.

"ولا يخاف عقباها" هذا هو المشهور الذي نقله عن هؤلاء السلف –رضي الله عنهم–، أي أن الله –تبارك وتعالى– لما فعل بهم ما فعل من العقوبة فإنه لا يخاف عقباها، عقبى ذلك يعني عاقبته، وذلك بخلاف البشر الضعفاء فإنهم قد يُعاقِبون ثم بعد ذلك يتخوفون الغوائل بسبب عقوبتهم، فالقاضي قد يحكم أو الأمير قد ينفذ أو يعاقب أو الجيش قد يغزو قومًا أو نحو ذلك، ولكنه يبقى على حال من التخوف في جرائر هذا الفعل وما يعقبه وما ينتج عنه من الآثار والعواقب السيئة التي قد ترجع إليه، فيبقى في حال من الترقب والتخوف.

أما الله –تبارك وتعالى– فهو العظيم الأعظم، فلمّا فعل بهم ما فعل وعاقبهم بهذه العقوبة فإنه –تبارك وتعالى– لا يتخوف من جراء ذلك أحدًا من خلقه، فهو رب الخلق ونواصيهم بيده، {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} مع أن بعضهم قال: إن ذلك يرجع إلى العاقر، هذا الذي تعاطى فعقر لم يخف عاقبة فعله من العقر بنزول العذاب

الذي خوفهم نبيهم -عليه الصلاة والسلام- منه، ولكن الأول أرجح، والله -تبارك وتعالى- ذكر فعله بهم **{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}** فهذا الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الرب -عز وجل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: قوله تعالى: **{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}** فنفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه بخلاف المخلوق فإنه إذا انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك إما من الله، وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك على الله محال، والخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة"[٨].

فالخوف منشؤه نقصان العلم أو القدرة أو الإرادة.

وقال -رحمه الله-: "فإن العالِم بأن الشيء لا يكون لا يخافه، والعالم بأنه يكون ولابد قد يئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي، وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه، فإذا تيقن أنه قادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره، وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته -سبحانه- وبغضه وغضبه فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصًا لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى، ولهذا يشتد غضبه -سبحانه- على من قتل نبيَّه أو قتله نبيُّه"[٩].

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

---

٨ - الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٤٤٥).

٩ - المصدر نفسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الليل من الآية (١) إلى الآية (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة الليل، وهي مكية.

تقدم قوله -عليه الصلاة والسلام- لمعاذ: ((فهلا صليت بـ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى:١] {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}[الشمس: ١] {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}))[1][الليل:١].

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل:١-١١].

سورة الليل، يمكن أن يقال: إنها تدور على موضوع واحد، وذلك فيما يتصل بسعي الإنسان بنوعيه: السعي المحمود، والسعي المذموم، وما ينشأ عن ذلك ويعقبه من الجزاء، فتتفاوت أحوال الناس بناء على ذلك في المآل والمصير.

والله -تبارك وتعالى- يذكر في آخرها الهُدى وأنه هو الذي يبيِّن ذلك على المعنى المشهور -كما سيأتي-، وأنه مالك الدنيا والآخرة، ويحذرهم من النار التي هي مصير الأشقياء.

هذا كله يرجع إلى هذا الموضوع الأساس، ويرتبط به، فإن حال هؤلاء الناس الذين قد تفاوتت أعمالهم إنما كان بعد البيان، فلم يكن ذلك لخفاء الحق، كما أن ذلك أيضًا إنما هو ما يحصل لهم من هدى وضلال، وما ينشأ عن ذلك من النعيم والشقاء؛ فإن الله -تبارك وتعالى- هو مالك الدنيا والآخرة، فهو الذي يوفق من شاء للهدى، ويضل من يشاء، وينعِّم عباده من أهل الإيمان في الدنيا، ويعجل لهم من ثواب الطاعات، مع ما يدخر لهم في الآخرة من النعيم.

كما أن الله -تبارك وتعالى- يعجل من العقوبات والشقاء لأهل الكفر، مع ما يدخره لهم من العذاب في الآخرة، فهو مالك الدنيا والآخرة.

وهذه السورة، كما قال: هي سورة مكية، في قول الجمهور، مع أن بعضهم قال: مدنية.

وبعضهم استثنى بعض الآيات بناءً على ما لاح له من معنى، كقوله: **{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}**، وقوله: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى}**.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم (٧٠٥).

باعتبار أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، ولا شك أن أبا بكر -رضي الله عنه- داخل في هذه الآيات، ولكن المعنى أعم من ذلك.

فالسورة مكية.

وفيما يتعلق بموضوع السورة، فقد لخص ابن عباس موضوعها في كلمتين: أنها نزلت في السماحة والبخل. {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}، فالسورة تتحدث عما سبق، وهذا جزء من المعنى، والله تعالى أعلم.

وتتحدث عن أعمال العباد وما ينشأ عن ذلك من العاقبة الحميدة، أو العاقبة السيئة.

أقسم الله -تعالى- بـ{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} أي إذا غشّى الخليقة بظلامه.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} غشى الأرض بظلامه، وإذا غشى الأرض فهو غشى الخليقة، وعبر ابن جرير عن هذا، فيقول: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} أي يغشى النهار بظلامه.

{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} وهذه أقوال متقاربة.

فالليل إذا يغشى، فهو يغشى الأرض، ويغشى الخلق، كما أنه يغشى النهار، أي يغطيه بظلامه؛ لأن المعمول هنا محذوف: {يغشى} فلم يقل: يغشى النهار، أو يغشى.. فكل ذلك يغشاه الليل.

{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} أي: بضيائه وإشراقه.

فأنار وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته، كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} ظهر واتضح، اتضحت به الأشياء، وظهر ما كان خافيًا في الليل.

هنا ذكر الليل والنهار في أقوى أحوالهما، أقسم بهما في أقوى حالتيهما.

الليل إذا يغشى، يغطي بظلامه، وهنا عبر بالفعل المضارع: {يَغشى} فهو يغشى شيئًا فشيئًا، حتى يشتد.

وأقسم بالنهار في أكمل حالاته، وذلك إذا تجلى، اتضح وظهر، وانكشفت الأشياء التي غطاها الليل بظلامه.

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} كقوله: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبأ:٨]، وكقوله: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩].

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} "ما" هنا يقال فيها -كما سبق- في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس:٥-٧].

فقد ذكرنا فيها القولين، أو الاحتمالين: أن "ما" بمعنى "مَن" فيكون القسم هنا: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} أي ومَن خلق الذكر والأنثى، فيكون الله -عز وجل- قد أقسم بنفسه.

أو تكون "ما" هذه مصدرية، فيكون الله -تبارك وتعالى- قد أقسم بخلق الذكر والأنثى.

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادًا، ولهذا قال: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة، فمِن فاعلٍ خيرًا، ومن فاعلٍ شرًّا.

الليل والنهار متضادان، الذكر والأنثى، كذلك، فهذه أشياء متضادة، هنا أيضًا المقسم عليه جواب القسم: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} فأقسم بالليل في أكمل حالاته، وبالنهار في أكمل حالاته، وقال: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}.

فهذا جواب القسم، فسعيهم متفاوت، وهذه الأشياء المقسم بها متقابلة.

وبعض العلماء يذكرون أشياء أخرى هنا في ارتباط هذه الأمور بالمقسم عليه.

بل يذكرون أشياء أدق من هذا أيضًا، فيقولون: هنا ابتدأ بالليل: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}، وفي سورة الضحى ابتدأ بالشمس التي هي آية النهار: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} [الشمس:١- ٣].

ثم ذكر الليل: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس:٤] يتحدثون هنا، لماذا ابتدأ بالليل وهناك ابتدأ بالنهار والشمس؟

فيذكرون تعليلات قد تكون من قبيل التكلفات -والله تعالى أعلم- يقولون: هذه السورة من أوائل ما نزل -سورة الليل-، فكان الشرك هو الغالب، وتجلى ذلك شيئًا فشيئًا، فذكر النهار بعده.

أما سورة الضحى فنزلت بعد مدة من بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان الإسلام قد انتشر، فابتدأ بهذا.

وهذا قد يكون فيه شيء من التكلف، وإن ذكره بعضهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} هذا جواب القسم، و"شتى" جمع شتيت، وهذا يقال للمختلف لتباعد ما بين بعضه وبعض، تقول: شتان بين فلان وفلان، شتان بين هذا وهذا.

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} أي مختلف غاية الاختلاف.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئا بعد شيء.

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار.

وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى.

وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوِّ بين الليل والنهار، والذكر والأنثى"[٢].

وإذا ذُكر السعي في كتاب الله -تبارك وتعالى-، أو أمر به فما المراد به في القرآن؟.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "ولفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه، ويجتهد فيه، بحسب الإمكان"[٣].

---

٢ - التبيان في أقسام القرآن (٥٥-٥٦).

٣ - المصدر السابق (٦-٧)

فتأمل، هنا عمل خاص: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة: ٩] ما المراد به؟.

قال ابن القيم: "فإن كان يفتقر إلى عَدْوِ بدنِه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمْع أعوانه جمَع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له، وترك غيره.."(٤).

تأمل هذه المعاني: إذا كان يفتقر إلى إسراع في المشي أسرع، تقول: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [القصص: ٢٠].

العمل الذي يعتني به صاحبه، ويوليه اهتمامه، إن كان يقتضي إسراعًا في المشي أسرع، وإن كان يقتضي جمعًا جمع، فذلك سعي؛ كما قال الله عن فرعون: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢].

هل المقصود يشتد بالمشي أو المقصود يجمع جنده وأعوانه كما سبق؟.

وإذا كان يقتضي عملاً يعمله من جهة التهيؤ للصلاة مثلاً، والتطهر، أو الاغتسال: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة: ٩].

اعملوا على حضورها بالتطهر والاغتسال، وما إلى ذلك، والمشي إليها: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، في كل مقام بحسبه، لكن كل ذلك يقتضي عملاً خاصًّا.

قال ابن القيم: "وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفًا للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه، ويجتهد فيه، ولهذا قال في الجمعة: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}[الجمعة: ٩].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا))(٥).

فلم ينهَ عن السعي إلى الصلاة –فإن الله أمر بالسعي إليها–، بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن وسعيه عدْو البدن، وهو منهي عنه، وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها، والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره، والإقبال بالقلب على السعي إليها"(٦).

قال الله –تعالى–: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى} أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أي: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة.

وقال خصيف: بالثواب.

قوله تبارك وتعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى} تأمل هنا، قال: أي أعطى ما أمر بإخراجه.

---

٤ – المصدر السابق (٧).

٥ – رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم (٩٠٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيًا رقم (٦٠٢).

٦ – التبيان في أقسام القرآن (٧).

{أَعْطَى} لم يذكر هنا المقتضى، لم يذكر المعمول، أعطى ماذا؟ لم يقل: أعطى المال للمستحقين، وإنما قال: {أَعْطَى} فبعض المفسرين قال: أعطى المال، وبعضهم أطلق ذلك كما أطلق الله -تبارك وتعالى-، فيكون باذلاً، إن كان عنده علم بذل علمه، وإذا كان المقام يقتضي عملاً باللسان من أمر بمعروف ونهي عن منكر، ونحو ذلك فإنه يبذل، وإذا كان ذلك يقتضي عملاً بالبدن عمل ببدنه، وهكذا في كل لون من الأعمال والمزاولات.

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى} ويدخل فيه العطاء المالي دخولاً أوليًّا؛ لأنه قابله بالبخل، وغالب ما يقال ذلك للبخل بالمال، والعطاء يكون بالمال.

قال: {وَاتَّقَى} أي اتقى الله في أموره، اتقى كل ما يجب اتقاؤه، مما يسخطه الله -تبارك وتعالى.

{وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} قال: أي بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة.

يعني {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أي بالخَلف من الله -تبارك وتعالى-، والعوض، وأن الله يعطيه ويجازيه على هذا العطاء، وهذا الإحسان والبذل، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة: ٩٨].

فهو لا يرجو الخلف، ولا يرجو عائدة على هذا البذل والإنفاق، لكنه يجد أنه يضطر أحيانًا لإخراجه، كأنه قد قطع من قلبه {مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا} فهو شيء كالغرم الذي يثقله ويرهقه، ولا يرجو عائدته، بخلاف الفريق الآخر: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ}[التوبة: ٩٩]، فهؤلاء كما قال الله -تبارك وتعالى-: {سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ} [التوبة: ٩٩].

فهنا: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أي بعائدة ذلك، والعوض والمجازاة على ذلك بالثواب، هذا روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعكرمة ومجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقال خصيف: بالثواب، وهو قريب من الأول.

وقال آخرون كما يروي عن الضحاك وأبي عبد الرحمن السلمي: إن "الْحُسْنَى" لا إله إلا الله.

وروي عن مجاهد أن "الحسنى": الجنة.

وجاء عن زيد بن أسلم أن "الحسنى" الصلاة والزكاة والصوم.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن "الحسنى": الثواب.

فمن صدق بالحسنى أي بالعوض فإن الله يعطيه، ويجزيه على ذلك.

هذا قول الجمهور، وهو المتبادر، والله تعالى أعلم.

وقول من قال: إن المقصود: لا إله إلا الله، أو إن المقصود: الجنة، يمكن أن يلتئم مع هذا المعنى المشهور، وذلك أن: لا إله إلا الله هي رأس البر والمعروف، وهي الأصل الذي يتفرع عنه جميع أعمال البر والطاعات، فهي داخلة تحتها، فإذا صدق بها، وآمن بها، وأيقن فإن ذلك يتفرع عنه البذل المالي، والعمل بطاعة الله -عز وجل-، فيثمر ذلك كل خير.

ومن قال: الجنة، فإن من صدق بالجنة، وآمن بها، فهو يعمل من أجل ذلك، وينفق في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ويبذل كل مستطاع.

فهذه الأقوال بهذا الاعتبار يمكن أن تلتئم جميعًا، ولا يكون بينها منافاة.

وقوله: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} قال ابن عباس: يعني للخير.

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} قال: يعني للخير، يعني سنهيئه للخصلة الحسنى التي هي عمل الخير، نيسره، نهيئه، نيسر له عمل الخير، ونجريه على يده، كما يقول ابن جرير -رحمه الله- أيضًا.

ولهذا قال تعالى: {وَأَمَّا مَن بَخِلَ} أي بما عنده: {وَاسْتَغْنَى} قال عكرمة عن ابن عباس: "أي بخل بماله، واستغنى عن ربه -عز وجل-"[7]، [رواه ابن أبي حاتم].

وهذا الذي اختاره ابن جرير، وقال به من السلف أيضًا قتادة -رحمه الله-، يعني: استغنى عن ربه.

وهكذا قول من قال: زهد في الأجر والثواب، فهذا يرجع إلى ما سبق، استغنى عن الجزاء.

وبعضهم يقول: "اسْتَغْنَى" يعني بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة.

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} أي: بالجزاء في الدار الآخرة، {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}.

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} كما سبق: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}، {وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} الجمهور على أنه الجزاء والعائدة التي تعود عليه، والخلَف الذي يكون له.

وبعضهم يقول: الجنة، وبعضهم، يقول: لا إله إلا الله.

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} أي: بالجزاء في الدار الآخرة: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١١٠].

والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله -عز وجل- يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} يعني نهيئه للشر، والعسرى يعني: طريق الشر، كما قال ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله تعالى.

هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- هو من المواضع المهمة التي تجلي مسألة القضاء والقدر.

فينبغي أن يكون العبد عاملاً بطاعة الله -عز وجل- مجاهدًا للنفس، كما قال -تبارك وتعالى- في هذا الموضع: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}، فيعمل العبد بطاعة الله -عز وجل- ويجد ويجتهد، ولم يطلع على ما في القدر، كما هو حاله أيضًا في أعماله ومصالحه الدنيوية، فإنه لا يترك ذلك اتكالاً على القدر، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها))[8].

---

٧ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٤٠) (١٩٣٦٠).

٨ - رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (٢١٤٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (١٦٩٨).

فالرزق مكتوب، ومع ذلك هؤلاء الذين يحتجون بالقدر فيما يتعلق بأعمال البر، والأعمال الصالحة، وأعمال الآخرة، يقول: إن هذا قد كتب عليّ، إذا عمل السيئات، ويحتج بالقدر، ويترك طاعة الله -عز وجل-، ويذكر أن ذلك مقدر عليه، وينسى أن يحتج بذلك في أمور دنياه، فهو لا يقعد عن الكسب، ولا يقعد عن الدراسة، ولا يقعد عن الأكل والشرب، ولا يقعد عن دفع ما ينزل به من أذى الناس وضررهم، أو غير ذلك مما يحل به من المرض مثلاً، فهو يتداوى، ويدفع ذلك عنه بالأسباب التي يستطيع التوصل إليها، ولا يبقى يواجه الأمراض والأخطار بحجة أنه قد قُدر عليه ما قدر، وأن ذلك لا ينفعه.

فلماذا يكون الاحتجاج بالقدر في أعمال الطاعات أو المعاصي دون الشهوات والمصالح الدنيوية، فتجد الناس يجدّون ويجتهدون في تحصيلها، ولا يقعدون اتكالاً على القدر؟!.

روى الإمام أحمد عن أبي بكر قال: قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، أنعمل على ما فُرغ منه أو على أمر مُؤتَنَف؟ قال: ((بل على أمر قد فُرغ منه)) قال: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: ((كل ميسر لما خلق له))[9].

روى البخاري عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: كنا في جنازة في بقيع الغَرقد، فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصرة -مِخصرة يعني عصا صغيرة- **فنكّس** -نكّس يعني نكس رأسه- **فجعل ينكت بمِخصرته، ثم قال: ((ما منكم من أحد -أو ما من نفس منفوسة- إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة)) فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: ((أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء)) ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}**[10]**، وقد أخرجه بقية الجماعة.**

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه أفي أمر قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: ((فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإنّ كلًّا ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء))[11]**[ورواه الترمذي في القدر، وقال: حسن صحيح].**

---

٩ - رواه أحمد في المسند، رقم (١٩)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة الراوي عن طلحة بن عبد الله"، والطبراني في الكبير، كتاب نسبة أبي بكر الصديق، باب ومما أسند أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٤٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٣٣).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، وقعود أصحابه حوله، رقم (١٣٦٢)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

١١ - رواه الترمذي، كتاب أبواب القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة، رقم (٢١٣٥) وأحمد في المسند، رقم (٥١٤٠)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين".

روى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: ((لأمر قد فرغ منه)) فقال سراقة: ففيم العمل إذًا؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل عامل ميسر لعمله))[١٢] [ورواه مسلم].

وروى ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: "كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناسًا ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟! فقال: أيْ أبت، إنما أريد -أظنه قال- ما عند الله: قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}[١٣]".

وقوله: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} قال مجاهد: أي إذا مات.

وقال أبو صالح، ومالك عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

قوله تبارك وتعالى: **{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}** "ما" هذه تحتمل أن تكون نافية، يعني أن ماله لا يغني عنه إذا تردى، هذا الذي بخل واستغنى عن ربه -تبارك وتعالى- وعن جزائه وثوابه.

ويحتمل أن تكون: "ما" هذه استفهامية، "وما يغني عنه ماله إذا تردى" ماذا يغني عنه ماله إذا تردى؟.

هذا يحتمل، والأول كأنه الأقرب والمتبادر، والله أعلم.

{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} فذلك نفي لإغناء ماله عنه إذا تردى.

قال مجاهد: إذا مات.

وقال أبو صالح ومالك عن زيد بن أسلم: إذًا تردّى في النار.

وهذا الذي اختاره ابن جرير، وعلل ذلك بأن هذه اللفظة، هذه المادة: **{تَرَدَّى}** إنما تقال لمن وقع أو سقط، أو نحو ذلك، فهذا معناه تردى في النار.

أما الذي يكون بمعنى: الموت، فذلك يرجع إلى مادة أخرى تقاربها، يقول: لا يكاد يستعمل **{تَرَدَّى}** إلا في السقوط والوقوع، تردّى في النار.

ومن يقول: إنه مات قريب منه من يعبر يقول: هلك، إذا هلك.

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ١٢-٢١].

قال قتادة: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} أي نبين الحلال والحرام.

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، رقم (١٤٥٩٩)، وأصله في مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٨).

١٣ - جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤/٤٧١).

وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، حكاه ابن جرير.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} ذكر ابن كثير هذين القولين: الأول: أي نبين الحلال والحرام، كما قال قتادة: على الله البيان، يعني: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} يعني بيان الحرام والطاعة والمعصية، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

أي علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني كالزجاج.

وقوله هنا: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} لم يذكر الضلال، قالوا: إن ذلك من باب الاكتفاء، يعني كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل:٨١] يعني: والبرد.

فذكر أحد القبيلين -يعني المتقابلين- ليدل على الآخر.

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} يعني: والضلال، كقوله -كما سبق- في أحد القولين: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} أي: وإن لم تنفع.

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} قال: وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل: ٩]، **حكاه ابن جرير.**

وقال غيره -ممن اختار هذا القول الثاني الفراء-: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} يعني: أن طريق الهدى يوصل إلى الله، من سلك طريق الهدى فإنه يصل إلى الله -تبارك وتعالى-، وهذا الذي اختاره ابن القيم -رحمه الله.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى}

قيل: معناه: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، قال قتادة: على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، اختاره أبو إسحاق -يعني الزجاج-، وهو قول مقاتل وجماعة، وهذا المعنى حق، ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل المعنى: إن علينا للهدى والإضلال.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في رواية عطاء: يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي.

قال الفراء: فترك ذكر الإضلال كما قال: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل:٨١] أي والبرد، وهذا أضعف من القول الأول، وإن كان معناه صحيحًا، فليس هو معنى الآية"[١٤].

هذا يتأتى أصلاً على القول الأول: إن علينا البيان، بيان الحق: {لَلْهُدَى} [الليل:١٢] يعني: والضلال أيضًا، يبين الحق من الباطل.

لكن على القول الآخر: "إن علينا للهدى" أي طريق الهدى يوصل إلى الله -تبارك وتعالى- لا يكون هنا يعني: والضلال.

---

١٤ - التبيان في أقسام القرآن (٦٩).

قال ابن القيم: "وقيل المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} وهذا قول مجاهد وهو أصح الأقوال في الآية.

قال الواحدي: علينا للهدى، أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: هاهنا، وفي النحل في قوله: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} وفي الحجر في قوله: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر:٤١].

وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولابد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى والغاية الوصول إلى الله، فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات، ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا، وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع مطلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده، فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه، وأقرب الطرق والوسائل إليه وهي طريقة الهدى، وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها، وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب، وتوحيد الطرق الموصلة، والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة، فتأمله، فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة"[١٥].

لو قال قائل: إن ذلك جميعًا يدخل تحت قوله: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} يعني: بيان الهدى من الضلال، لو قال قائل: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} أي بيان ذلك، وأن طريق الهدى يوصل إلى الله -تبارك وتعالى-، لكن إذا أردنا أن نجمع بين القولين فلا يقال: إن قوله: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} أي بيان الحق من الباطل والهدى من الضلال وإنه قد سكت عن الآخر اكتفاء بذكر مقابله، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله تعالى: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} أي الجميع ملكنا، وأنا المتصرف فيهما.

لما بين -تبارك وتعالى- أنه يبين الهدى ويجليه ويوضحه، أو أن الهدى يوصل إليه -من سلك هذا الطريق فإنه يصل إلى ربه -تبارك وتعالى-، وينجو ويسلم- قال: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} الجميع ملكنا، فمن أرادهما -أي الآخرة والأولى- أو أراد إحداهما فليطلب ذلك منا.

وبعضهم يقول: لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا.

---

١٥ - المصدر السابق (٦٩- ٧٠).

فهذا الذي كذب وتولى يتولى الله -عز وجل- عقابه في الدنيا والآخرة.

وهكذا الأتقى يتولى الله جزاءه في الدنيا والآخرة، فإن ثواب الدنيا والآخرة عند الله -تبارك وتعالى.

وبنحو هذا قال ابن جرير -رحمه الله-، أي أن الله يوفقه للطاعة، يوفق للطاعة من شاء، ويكرمه بثواب الدنيا ونعيم الآخرة، والعكس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الليل من الآية (١٣) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى} [الليل: ١٤] قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ تَوَهَّجُ.

روى الإمام أَحْمَدُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَخْطُبُ يَقُولُ: ((أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ)) حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِالسُّوقِ لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا، قَالَ: حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ[١].

روى الإمام أَحْمَدُ عن أبي إسحاق: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ وَيَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: ((إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تُوضَعُ فِي أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دِمَاغُهُ))[٢][رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

وَروى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لأهونُهم عذابا))[٣].

وقوله تعالى: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [الليل: ١٥] أَيْ لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ: {الَّذِي كَذَّبَ} أَيْ بِقَلْبِهِ: {وَتَوَلَّى} [الليل: ١٦] أَيْ عَنِ الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ.

روى الإمام أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى)) قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((مَنْ أَطَاعَنِي دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))[٤][ورَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

---

١ - رواه أحمد، كتاب مسند الكوفيين، باب حديث النعمان بن بشير عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (١٨٣٩٨)، والدارمي، كتاب وَمِنْ كِتَابِ الرِّقَاقِ، بَابٌ فِي تَحْذِيرِ النَّارِ، رقم (٢٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٣٦٥٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣).

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (٧٢٨٠)، وأحمد، كتاب المكثرين من الصحابة، باب مسند أبي هريرة -رضي الله عنه-، رقم (٨٧٢٨).

وقوله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [الليل:١٧] أَيْ وَسَيُزَحْزَحُ عَنِ النَّارِ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل:١٨] أَيْ يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، لِيُزَكِّيَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ، وَمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} [الليل:١٩] أي ليس بذله ماله فِي مُكَافَأَةِ مَنْ أَسْدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ: {ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل:٢٠] أَيْ طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: {وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل:٢١] أَيْ وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى} قال مجاهد: أي توهج، واختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقوله -تبارك وتعالى-: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} ذكرنا -من قبل- أن الصلِي -صلي النار- ينتظم معنيين:

الأول: الدخول.

والمعنى الثاني: الاحتراق فيها، يعني أن يقاسي حرها.

{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} والأشقى أفعل تفضيل، والمراد به مطلق الاتصاف -والله تعالى أعلم-، يعني: لا يصلاها إلا الشقي، وقد مضى نظائره في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وقد بينا أن "أفعل" التفضيل قد يأتي مرادًا به التفضيل: {الْأَشْقَى} يعني الأكثر شقاءً، فإن "أفعل" التفضيل يكون بين مشتركين في صفة زاد أحدهما على الآخر فيها، فتقول: فلان أتقى من فلان، فلان أقوى من فلان، فلان أغنى من فلان، وقد اشتركا في هذه الصفة، وقد يراد به مطلق الاتصاف، وذكرنا شاهد ذلك، كقول الشاعر:

تَمَنَّى رِجالٌ أنْ أمُوتَ وإنْ أمتْ *** فَتِلْكَ طَرِيقٌ لَسْتُ فِيها بأوْحَدِ

يعني ليس فيها بواحد.

وهنا: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} يعني الشقي.

يقول: "أي لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا {الْأَشْقَى} قال: {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}" إلى آخره، يعني قد يدخل أحد من أهل الإيمان والتوحيد، ولكنه يخرج، فلا يخلد فيها.

{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى}.

ولو أن أحدًا من الناس حمله على ظاهره، يعني أن: {الْأَشْقَى} "أفعل" تفضيل، فهل يمكن أن يخرَّج هذا؟.

الجواب: نعم، باعتبار أن "أفعل" التفضيل لا تمنع من التساوي، ولكنها تمنع من أن يزيد أحد على هذه الصفة، وهذا الجواب ذكرناه في الآيات التي قد يفهم منها أنها لربما يخالف بعضها بعضًا في الظاهر؛ كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [البقرة: ١١٤] يعني: لا أحد أظلم.

"مَن" هنا استفهامية، مضمنة معنى النفي، لا أحد أظلم.

وفي موضع آخر: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}[السجدة: ٢٢] لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه، ثم أعرض عنها، إلى غير ذلك من الآيات.

وذكرنا جوابين أحدهما هو الذي يعنينا هنا، وهو: أن هؤلاء جميعًا قد اشتركوا في الصفة العليا من الظلم، كلهم قد بلغ في الظلم غايته، فإن "أفعل" التفضيل لا تمنع التساوي، ولكنها تمنع الزيادة، أن يزيد أحد منهم على هؤلاء بهذه الصفة.

كلهم بلغ في الظلم غايته، تقول في مناسبة: "فلان أظلم الناس"، وفي مناسبة أخرى تذكر آخر، وتقول: "فلان أظلم الناس" لا تعارض، كلهم قد بلغ الغاية في الظلم.

فهنا: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} فيمكن أن يقال: هؤلاء الذين قد بلغوا في الشقاء غايته، وهم الكفار.

ولكن الأول أقرب وأسهل، ولا يحتاج إلى هذا التخريج، يعني حينما نقول: إن ذلك المراد به مطلق الاتصاف، يعني الشقي.

{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} كذب فلم يؤمن بما جاءت به الرسل –عليهم الصلاة والسلام.

{وَتَوَلَّى} يعني أعرض، ولم يرفع بذلك رأسًا.

ثم قال الله –تعالى–: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} هنا نفس الكلام: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}، ولا شك أن أبا بكر –رضي الله تعالى عنه– هو أولى من يدخل في هذه الآية بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– من هذه الأمة.

وتجد في كثير من الآثار المنقولة عن السلف –رضي الله عنهم–، وفي كتب التفسير: أن المراد بـــ{الْأَتْقَى} أبو بكر –رضي الله عنه.

ولا شك في دخوله فيها، لكن كأنهم نظروا إلى أن: {الْأَتْقَى} "أفعل" تفضيل، يعني أكثر تقوى، والذين يجنبون النار هنا ليس أكثرهم تقوى، وإنما المقصود –والله أعلم– مطلق الاتصاف، يعني: سيجنبها التقي، يعني أن "أفعل" التفضيل غير مراد.

{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} تأمل عبارة ابن كثير –رحمه الله– قال: "يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله، وما وهبه الله من دين ودنيا".

يعني تزكية النفس تزكية لدينه، وتزكية المال؛ لينمو ويتطهر، فابن كثير –رحمه الله– جمع بين المعنيين.

بمعنى: أن قوله: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن ذلك يرجع إلى المال، يعني: يؤتي ماله، وينفقه، ويخرجه في سبيل الله، ليتزكى هذا المال.

{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} يزكيه بذلك.

والمعنى الثاني: أن ذلك يرجع إليه، إلى المنفق، يخرج ماله، ويبذله؛ ليزكي نفسه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣].

فهذه الصدقات تُزكِّي، يحصل بها تزكية النفوس، ويحصل بها تزكية المال في آن واحد.

ولذلك فإن هذين المعنيين داخلان في هذه الآية –والله أعلم– {يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} فإنه يزكي نفسه بذلك، وهو أيضًا يزكي هذا المال ويطهره.

فالزكاة والصدقة يحصل فيها التزكيتان، فهي تزكي النفوس، وتزكي الأموال.

تطهر النفوس من الشح والبخل، وكذلك أيضًا تطهر المال مما داخله من الشوائب والمكاسب التي قد يكون عليه فيها تبعة.

فابن كثير هنا جمع المعنيين، قال: **{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}** "**أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك**"، يعني هنا قوله: **{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى}** المشهور الذي عبر به أكثر المفسرين، وهو الذي مشى عليه ابن كثير: ما لأحد عنده من نعمة تجزى في الماضي، يعني ليس لأحد عليه يد فهو يكافئه بها حينما يعطي وينفق.

يعني هذا العطاء ليس بمكافأة على أيادٍ سابقة، وإفضال من قِبَل هؤلاء المُعطَيْن، وإنما كل ذلك طلبًا لما عند الله –تبارك وتعالى.

يعني ليس هو على سبيل المجازاة والمكافأة، هذا معنى.

والمعنى الثاني الذي ذكره بعض أهل العلم: أن ذلك في المستقبل: **{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}**، يعني هو حينما يعطي لا ينتظر عائدة من هذا المُعطَى في المستقبل أن يكافئه على هذا، أو يرجِّي منه نفعًا، أو أن يدفع عنه ضرًّا، وإنما يريد ما عند الله –تبارك وتعالى.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى}.

الكثيرون حملوه على الماضي، ما لأحد عنده شيء متحقق وحاصل، لكن من قال: إن ذلك في المستقبل فإن ظاهر اللفظ –والله تعالى أعلم– لا يمنع منه، ما لأحد عنده يعني في نفسه وقصده ونيته.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى}[الليل: ١٩] حينما يعطي هو لا ينتظر، ليس في نفسه أن يكافَأ على هذا الإحسان، والإفضال والعطاء.

والفرق واضح بين المعنيين.

لكن المشهور هو الأول: أن هذا العطاء ليس بمقابل نفع سابق، ويد سابقة يريد أن يكافِئ عليها، إنما هو لوجه الله.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه يحسن للإنسان أن يكون أمره لله من أوله إلى آخره، وهذا لا يتأتى إلا أن لا يكون لأحد عليه يد.

بمعنى أنه إن كان لأحد عليه يد هذا قدم له مساعدة، وهذا أحسن إليه، وهذا شفع له، وهذا كذا، وهذا.. فهو مأسور بهذه الأيادي.

فهو حينما يقدم الإحسان إلى الناس ويبذل فكأنه يكافئ هؤلاء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد يقول قائل: إنه يعطي من ليس له يد عنده، يعطي هؤلاء الفقراء وليس لهم يد، فنظروا إلى ملحظ أدق من هذا، وهو النفي المطلق، قالوا: هذا الإنسان ليس لأحد عنده نعمة تجزى مطلقًا، فـــ"أحد" هنا نكرة في سياق النفي، فتعم، ليس لأحد: أيّ أحد، عنده من نعمة تجزى: أيّ نعمة، سواء كانت حسية أو معنوية.

{مِن نِّعْمَةٍ} [الليل: ١٩] فإن "نعمة" هنا نكرة مسبوقة أيضًا بـــ"من" وهذا نص صريح في العموم.

ليس لأحد: أيّ أحد، نعمة: أيّ نعمة دقت أو جلت، ليس عنده نعمة تجزى، قالوا: هنا قيدت بالإجزاء.

فكل نعمة يمكن أن تجزى إلا نعمة الإيمان والإسلام، يقولون: أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- أخبر النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- عنه بقوله: ((مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إلا كَافَأْنَاهُ مَا خَلا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٥].

فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في حقه هذا!، قالوا: وأما غيره كعليٍّ -رضي الله تعالى عنه- مثلاً فقد تربى في حجر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- له نعمة عليه غير نعمة الإيمان والإسلام، وهداية الإرشاد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- له نعمة.

فالشاهد هنا أنهم نظروا إلى القيد "ما لأحد عنده من نعمة تجزى"، ما هي النعمة التي تجزى؟.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إِلا كَافَأْنَاهُ مَا خَلا أَبَا بَكْرٍ)) يعني: كل واحد له يد جوزي عليها، إلا الصديق -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

فالنعمة الوحيدة التي لا يمكن أن يجازي عليها نعمة الإيمان والإسلام، فهنا قيدت النعمة بأنها تجزى، "وما لأحد عنده من نعمة تجزى"، نظروا إليها بهذا القيد، **{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}** [الليل: ٢٠].

قالوا: وهذا لا يتحقق إلا في أبي بكر -رضي الله تعالى عنه.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ١٩ - ٢٠] فهذه النعمة التي لا تجزى هي نعمة الإيمان، فنفى أي نعمة أخرى.

يعني الذين قالوا: هو أبو بكر قالوا: أبو بكر -رضي الله عنه- ليس لأحد عليه يد أو نعمة أسداها إليه يمكن أن يجزى عليها، إنما كان هو الذي يعطي، هو الذي كان ينفق، هو الذي كذا.

وهناك نعمة لا تجزى، لا يستطيع أن يجزي عليها هي الإسلام والإيمان، فهذه من النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر -رضي الله عنه-، هو الذي دعاه، وهو الذي أرشده، والله وفقه، فقالوا: والنعمة المنفية هنا هي النعمة التي تجزى.

كل هذا توجيه لقول من قال: إن المقصود به أبو بكر -رضي الله تعالى عنه.

بعض أهل العلم قال في هذا الموضع: إنه ينبغي للإنسان أن لا يكون لأحد عنده نعمة تجزى، وإنما تكون اليد العليا خيرًا من اليد السفلى، بحيث يكون هذا الإنسان في إحسانه، وعطائه، وبذله، وفي كذا، لا يكون للناس أيادٍ تطوقه، وإفضال وإحسان يحتاج أن يرد ذلك، وإنما ينعتق من هذا كله، فيكون عطاؤه لله، ومنعه لله، ويكون أمره كله لله.

لكن الآخر تطوقه الأيادي، فهذا أحسنَ إليه بنوع من الإحسان، وهذا، والثالث، والرابع، والعاشر، وهكذا..

فهذه الأمور التي ذكروها يحتاج لربما استيعابها وفهمها إلى إعمال للذهن، وشيء من الجهد الذهني، ومثل هذا غير متبادر ولا ظاهر، لكن لو بقينا مع الظاهر: أن هذا الذي ينفق ويعطي إنما يعطي لوجه الله -عز وجل-، وليس في مقابل إحسان سابق يكافئ عليه، هذا القدر الذي دل عليه ظاهر الآية.

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، رقم (٣٦٦١) وصححه الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، رقم (١٣).

وقوله: {إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ٢٠] يعني إلا طلبًا لوجه ربه، هذا الاستثناء منقطع، والاستثناء المنقطع -كما هو معلوم- أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه.

فهنا: {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ١٩- ٢٠].

فهل المستثنى: {ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} من جنس النعمة التي تجزى؟.

الجواب: لا، ليس منه.

فإذًا هو استثناء منقطع بمعنى: "لكن".

{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} لكن إنما يبتغي وجه الله بهذا الإنفاق والإحسان.

وأجاز الفراء النصب على التأويل، يعني كقولهم: ما أعطيتك ابتغاء جزائك، بل ابتغاء وجه الله -تعالى.

{إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} هنا "إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" قال: أي طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات.

{إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} يعني هنا فسر ابتغاء وجه الله بالنظر إلى وجهه.

وهذا يحتمل، لكن الذي يعبر به كثيرًا في مثل هذا أن يقال: إلا ابتغاء وجه الله، أن يكون المقصود إلا طلبًا لما عند الله -تبارك وتعالى- من الجزاء والثواب، ويدخل في هذا الجزاء والثواب وهو أعظمه: النظر إلى وجهه الكريم، قال الله -تعالى-: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} [البقرة: ٢٧٢]، يعني طلب ما عنده، يعني أنك لا تفعل ذلك لغرض آخر كأن تريد من هؤلاء الناس أن يردوا هذا الإحسان في يوم من الدهر، كما يفعله بعض الناس، ولهذا ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- أن صاحب الإحسان، أو الهدية، أو الصدقة، أو الهبة إذا كان ينتظر من الناس الشكر فقط فإن هذا لا يكون عمله خالصًا، وإنما هو يبتغي أمرًا يعود عليه من هؤلاء الناس.

وذكرنا في بعض المناسبات: حديث عائشة -رضي الله عنها-: أُهديتْ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاة، فقال: ((اقسميها))، فكانت عائشة إذا رجعت الخادم، تقول: ما قالوا؟ تقول الخادم: قالوا: بارك الله فيكم، فتقول عائشة: "وفيهم بارك الله، نرد عليهم مثل ما قالوا، ويبقى أجرنا لنا"[٦].

بمعنى: أن هذا الذي قال لك: بارك الله فيك، أو جزاك الله خيرًا يكون قد أوفى في الجزاء والمكافأة: ((ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه))[٧].

فإذا عجزنا عن هذه المكافأة فمثل هذا الدعاء له بالجزاء بالخير، حتى نرى أننا قد كافأناه، فإن هذا يكون في مقابل هذا الإحسان، يُقابَل بهذا الرد الذي تحصل به المكافأة، فكانوا يتحرجون حتى من هذا؛ من أجل أن لا يكافَئوا على إحسانهم.

---

٦ - رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، باب مَا يَقُولُ لِمَنْ أَهْدَى لَهُ، رقم (١٠٠٦٢)، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب، رقم (٢٣٩).

٧ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، رقم (١٦٧٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (١٤٦٩).

فهنا: **{إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}** فالذي ينتظر من الناس أن يشكروه على الإحسان لا يكون كذلك: **{إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}**.

فالذي ينتظر من الناس الذين يحسن إليهم ويعطيهم أن يلهجوا بالدعاء له، ويفرح بذلك ويسر، أو يقول لهم ذلك بلسان المقال: ادعوا لنا! نحن نحتاج إلى دعائكم! فإذا رآهم يرفعون أيديهم ويدعون فإنه يسر بذلك ويطرب، هذا ليس بمحرم أي مسألة الدعاء، أنهم يدعون له، الإنسان بحاجة إلى الدعاء.

لكن الأكمل أن لا يكافأ على هذه النعمة بأي وجه من الوجوه، فإن هذا الدعاء قد يكون مكافأة له، كما دل عليه الحديث.

ومن ثمّ فإنه ينبغي للإنسان أن لا ينتظر منهم لا دعاءً ولا ثناءً: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا}** [الإنسان: ٩].

{نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} هل المقصود نطعمكم من أجل أن نرى وجه الله؟.

الجواب: لا، وإنما ذلك الإخلاص، يعني ابتغاء ما عند الله -تبارك وتعالى-، وليس لعائدة تعود عليه من هؤلاء الناس، سواء كان ذلك من الأمور المادية، كما يفعل بعض الناس، قد يعطي وينتظر الرد، الهدية مثلاً، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- همَّ أن لا يقبل من أحد هدية إلا من قرشي، لمّا أعطاه الأعرابي وتأذى النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، يعني هذا الرجل كان ينتظر أن ترد هذه الهدية بمثلها، كما يفعل بعضهم، فإنه قد يهب، قد يعطي في مناسبة، أو في غير مناسبة، بعض الناس يعطون في الزواجات، ولربما يشعر أنها من قبيل المغرم، فهو يأتي لهذا الإنسان الذي عنده هذا الزواج، فيعطيه شاة، أو شاتين، أو ثلاثا، أو أكثر، ثم يُقيِّد هذا بسجل: فلان جاء بكذا، فإذا صار عنده مناسبة يرد عليه بالمثل، وذاك ينتظر المثل، فلو لم يرد عليه هو يشعر أنها مغرم، وأن هذا لم يرد، وأنها كالدين، وهو لم يعطهم لإرادة ما عند الله، وللإحسان المجرد، وإنما هو ينتظر في مقابل ذلك، والله المستعان.

هذا أصل في هذا الباب كبير، وهو أن يكون الإحسان بجميع أنواعه، سواء كان هذا الإحسان ماديًّا في النفقة في الصدقة، وما إلى ذلك، أو كان هذا الإحسان معنويًّا، أرشدَ إنسانًا إلى الطريق، أو علمه، أو أنه دعاه إلى الله، فاهتدى، أو غير ذلك مما يصنعه من المعروف، فهو لا ينتظر من هؤلاء أن يعرفوا له قدره، وحرمته، ومنزلته، وفضله، وإحسانه السالف، وإلا فهم جاحدون في نظره، متنكرون للمعروف، سواء كانوا من قراباته، أو من غيرهم.

الشعار الكبير الذي ينبغي أن يكون عليه المرء: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا}**، اجعل هذه منهجًا لك في الحياة، تريح وتستريح، تريح الناس من مطالبات وكُلَف تطالبهم بها، وتكلفهم عنتاً أن يردوا لك هذه الجمايل، وكذلك أيضًا ترتاح أنت من التعب النفسي: فلان ما شكر، فلان ما قدر، فلان ما صنع كما صنعت له، فلان أحسنت إليه، ولم يكن منه إلا النكران، اليوم لا تحسن لأحد، وعبارات وجمل كل ذلك يدور حول هذا الأصل الفاسد في نفوس الكثيرين، وهو انتظار العائدة على هذا الإحسان، فعملهم هذا لا يكون خالصًا على الوجه المطلوب، فقد يذهب ثوابه بالكلية، وقد ينقص بحسب ما داخله، وهذا يغفل عنه الكثيرون.

{وَلَسَوْفَ يَرْضَى} هذه "اللام" موطئة للقسم {وَلَسَوْفَ يَرْضَى} من اتصف بهذه الصفات.

والرضا هنا يدخل فيه الرضا الأخروي، كما قال الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- كما سيأتي في السورة التي بعدها-: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥] فعامة المفسرين يحملونه على الرضا الأخروي.

{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [البينة: ٨] ويقول لهم: ((هل رضيتم؟)) بعدما يدخلون الجنة[٨].

فالله -تبارك وتعالى- يُرضي هؤلاء من أهل الإيمان والبر والإحسان بما يكون لهم من الجزاء في الآخرة.

وهكذا هذا الرضا أيضًا يلحقهم في الدنيا، فيحصل لهم من الرضا مما يتنزل عليهم من ألطاف الله -تبارك وتعالى-، ولذلك تجد الذي يحسن إلى الناس وينفعهم، ويبذل لهم، يريد بذلك ما عند الله -عز وجل- تجده من أكثر الناس رضا، ومن أكثر الناس راحة، ومن أكثر الناس انشراحًا وسعادة.

وكما ذكرت في بعض المناسبات: أن أسرع الأمور المسببة للانشراح، ودفع الضيق، الذي قد يعرض للإنسان فيجده في نفسه: الإحسان المتعدي، هذا علاج مباشر، أنا أقول: ليس كالذي يأكل المهدئات -البنادول أو نحو هذا- إذا أصابه صداع، بل هو أبلغ من هذا، لكنه علاج وقتي سريع، يعني أريد شيئًا الآن.

هناك علاج طويل المدى: الارتباط بالله -عز وجل-، كثرة ذكره، الإقبال على كلامه، التدبر، إلى آخره، تكون صلته بربه قوية: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [البقرة: ٤٥] فيروض النفس على هذا.

لكن هناك علاجات سريعة، هذه العلاجات السريعة مثل: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حزَبَه أمر صلى"[٩] فزع إلى الصلاة.

الإحسان المتعدي للناس: خذ شيئًا واذهب إلى هذا الفقير بنفسك وأعطه، إما تعطيهم نقودًا، وإما توزع على العمال ماءً باردًا في الشمس في الحر، أو أنك تقف مع إنسان قد تعطل في الطريق، وتشتغل معه في سيارته، ونحو هذا، وتدفعها معه، هذا يسبب الانشراح المباشر، هذا في الضيق العارض، الذي يحصل للإنسان، وجد في نفسه انقباضًا، وجد في قلبه عصرة، أو نحو ذلك، يذهب ويحسن إلى الناس، ولا يدري به أحد، لا يشعر به أحد، يأخذ لهم شيئًا من الصدقة، أو نحو ذلك، ويذهب إلى بيوتهم، ويعطيهم، فإذا رأى هؤلاء الأطفال يتقافزون، ويفرحون، ويسرون، يعطيهم أشياء جيدة، ولو كانت رخيصة، يعني لا يعطيهم بقايا طعام، ويطلب الانشراح بسبب هذا، فمثل هذا هو بقدر ما ينفق بقدر ما يحصل له من اللذة والسعادة والسرور والانشراح.

وهنا تعليق لابن القيم يقول -رحمه الله-: "ونبه سبحانه بقوله: {إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ٢٠] على أن مَن ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله {إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ٢٠] بخلاف من تَطَوَّقَ نِعمَ المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجه، وطلب مرضاته،

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا، رقم (٢٨٢٩).

٩ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- من الليل، رقم (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٧٠٣).

فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات، وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها، وبالله التوفيق"(١٠).

يعني لاحظ أحياناً الإنسان يفعل معروفاً لأحد من الناس، فإذا شكره ذلك الإنسان، قال له: لا، هذا رد لبعض جميلكم، لبعض معروفكم، لبعض إحسانكم، أليس كذلك؟.

فهنا يكون فعله كأنه مكافأة، هذا حسن وجيد أن الإنسان يكافئ، لكن أين هذا من ذاك الذي لا يوجد لأحد عليه يد أصلاً؟، فليست المسألة مقايضة.

قال رحمه الله: وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رضي الله عنه-، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حكَى الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا، وَأَوْلَى الْأُمَّةِ بِعُمُومِهَا، فَإِنَّ لَفْظَهَا لَفْظُ الْعُمُومِ.

لاحظ: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}** [الليل: ١٧] أين العموم؟.

إذا قلنا: إن هذا "أفعل" تفضيل يتوهم كثيرون -كما سبق- أنه أتقى واحد، الأكثر تقوى من هو؟ أبو بكر -رضي الله عنه-، ولكن -كما سبق- أن "أفعل" التفضيل لا تمنع التساوي.

وإذا قلنا: المقصود مطلق الاتصاف، فهذا أوضح: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}** فالتقي هنا عام، يدخل فيه أبو بكر -رضي الله عنه- دخولاً أوليًّا.

قال -رحمه الله-: وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى} [الليل: ١٧-١٨] وَلَكِنَّهُ مُقَدَّمُ الْأُمَّةِ وَسَابِقُهُمْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ، وَسَائِرِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا تَقِيًا كَرِيمًا جَوَادًا بَذَّالًا لِأَمْوَالِهِ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ وَنُصْرَةِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فَكَمْ مِنْ دَرَاهِمَ وَدَنَانِيرَ بَذَلَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَهُ مِنَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكَافِئَهُ بِهَا، وَلَكِنْ كَانَ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ عَلَى السَّادَاتِ وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ سَائِرِ الْقَبَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ -وَهُوَ سَيِّدُ ثَقِيفٍ- يَوْمَ صُلْحِ الحديبية: "أما والله لولا يد لك كَانَتْ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ. وكَانَ الصديق قد أغلظ له في المقالة.

أي قال عروة بن مسعود للنبي -صلى الله عليه وسلم: "ما أرى حولك إلا أوباشاً" يقصد الصحابة، يعني يقول: اقبل بما نملي عليك، فما أرى حولك إلا أوباشاً، يعني أناسًا ليسوا بشيء، يعني إذا جاء الجد فروا وتركوك، فقال له أبو بكر -رضي الله عنه-: "امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟!"(١١)

قال -رحمه الله-: فإن كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ سَادَاتِ الْعَرَبِ وَرُؤَسَاءِ القبائل فكيف بمن عداهم؟!.

ولهذا قال تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى وَلَسَوْفَ يَرْضى} [الليل: ١٩-٢٠].

---

١٠ - التبيان في أقسام القرآن، ص (٧٢).

١١ - رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ)) -من أنفق زوجين يعني صنفين من الصدقة- فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْهَا ضَرُورَةٌ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ))[١٢].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

إن أبا بكر -رضي الله عنه- جمع من خصال الخير والبر والإيمان ما لم يجمعه غيره بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد وُزن بالأمة، فوزَنها -صلى الله عليه وسلم-، فرجح، ومن أراد أن يعرف شيئًا أو طرفًا من فضائل أبي بكر -رضي الله عنه- فلينظر في جزئية واحدة مثلاً، انظر في العشرة المبشرين بالجنة، كم منهم من دخل في الإسلام على يد أبي بكر حتى تعرف قدر هذا الخليفة الراشد -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فقط انظر في ترجمته من الذين أسلموا على يده، وانظر في العشرة المبشرين بالجنة من الذين دخلوا على يده في الإسلام منهم.

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

تعليق لابن القيم على قوله: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٥- ١٠].

قال ابن القيم: "فتضمنت الآيتان ذكر شرعه وذكر الأعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩].

وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

-هذا كلام مهم في القدر- أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادةً للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر.."[١٣].

لاحظ، تعميم المعنى وتوسيعه {أَعْطَى} فهنا حذف المقتضى، أعطى ماذا؟

أعطى المال، الصدقة، هذا الذي يذكره أكثر المفسرين، لكن هنا يقول: أعطى الإيمان، أعطى العمل الصالح، أعطى الصدقة -المال يعني-، أعطى من نفسه، من وقته، من بدنه، من جهده، كل هذا داخل في الإعطاء {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل: ٥].

وكذلك: "اتقى" هنا محمول على هذا الإطلاق، أو العموم، بمعنى: ما قال: اتقى الكبائر مثلاً.

اتقى كل ما يُتقى.

قال رحمه الله: "وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده، فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعُها الإحسان، وإعطاء الخير اللازم والمتعدي،

---

١٢ - رواه البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

١٣ - التبيان في أقسام القرآن، ص (٥٦).

فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها"[١٤].

اللازم: العائد إليها مثل الإيمان، والخير المتعدي: الصدقة مثلاً.

قال: "فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسَّرةٌ عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يُسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى"[١٥].

لاحظ هنا حملها على هذا، وهذا يعني ليس فقط تيسير اليسرى في الآخرة، وإنما أيضًا في الدنيا: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** [الطلاق: ٢- ٣].

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤].

وقال -رحمه الله-: "وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى.

فإن طيب العيش ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجلّ من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، قال تعالى: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}** [الطلاق: ٤]. فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره.

وقال تعالى: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه.

وقال تعالى: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}** [الطلاق: ٥]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

وقال: **{يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}** [الأنفال: ٢٩].

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير.

وقال تعالى: **{وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [آل عمران: ٢٠٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}** [الحديد: ٢٨].

فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة، فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

---

١٤ - المصدر السابق ص (٥٦-٧٥).

١٥ - المصدر السابق ص (٧٥).

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بـــ"لا إله إلا الله"، وفسرت بـــ"الجنة"، وفسرت بـــ"الخَلَف"، وهي أقوال السلف.

واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي الحالة والخَلّة اليسرى، وهي فُعْلى من اليسرى.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء، فمن فسرها بـــ"لا إله إلا الله" فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع، فإن التصديق الحقيقي بـــ"لا إله إلا الله" يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة، فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله، ونعوت كماله"[١٦].

لاحظ يجمع الأقوال: مَن قال: إن **{وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}** [الليل: ٦] يعني: "لا إله إلا الله"، ومن قال: الجنة، ومن قال: العوض والخلف والثواب، هنا يقول: هذه يمكن أن تلتئم في المعنى، فمن صدق بـــ"لا إله إلا الله" فإن ذلك يقتضي أنه صدق بالجنة، وبأسماء الله وصفاته -فهذه وحدانيته وربوبيته-، وبالجزاء والعوض، كل هذا داخل فيه.

قال -رحمه الله-: "ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يُرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم.

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلك التصديق بها يقتضي: الإذعان، والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ هو تفصيل "لا إله إلا الله"، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله.

وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها، وبالقيام بحقها.

وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

---

١٦ - المصدر السابق ص (٥٧-٥٩).

ومن فسر الحسنى بـــ"الجنة" فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله".

-لاحظ كيف يوجه الأقوال- ومن فسرها بالخَلَف ذكر نوعًا من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيق: أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث -وهي: الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى- من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق، فإن النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم، ففيها قوة العلم والشعور، ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة، فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها، ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى، وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء، وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر.

وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك.

فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله، وأكمل الناس من كملت له هذه التقوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الاعطاء، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية، وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها.

ومن كملت له هذه القوى يُسر لكل يسرى، قال ابن عباس: **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}** [الليل: ٧] أي نهيئه لعمل الخير، نيسر عليه أعمال الخير، وقال مقاتل والكلبي والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى: أنها الخَلّة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيدري الخير، وييسر على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، ولا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللا، وتقاد له علمًا وعملًا، فإذا خاللتَه قلت: هو الذي قيل فيه:

مباركُ الطلعةِ ميمونُها *** يَصلح للدنيا وللدين

{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى} فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به **{واسْتَغْنَى}** بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه، **{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى}**[الليل:٩] فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}** [الليل: ١٠].

قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيرًا.

وقال عكرمة عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: نيسره للشر.

قال الواحدي: وهذا هو القول؛ لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخَلة العسرى، والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة، فهو الخَلة اليسرى، يقول: سنهيئه للشر بأن يجريه على يديه.

قال الفراء: العرب تقول: قد يسّرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي يسرت ذلك على أصحابها. انتهى كلامه.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه، فإن قيل: كيف قابل: **{اتَّقَى}** بـــ**{اسْتَغْنَى}**؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟.

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته، وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره، فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأنْ فَعل فِعل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين.

فلله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها، فسبحان من تعرّف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق باليمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بيّن بحمد الله لمن وفق لفهمه، ولهذا أجاب بها النبي –صلى الله عليه وسلم– من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب، وأزال الإشكال، ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار)) قيل: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ثم قرأ: **{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}**[١٧][الليل: ٥– ٧].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله –سبحانه– الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

---

١٧ – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}** [الليل:١٠] رقم (٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

والنبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر بمثل ما أخبر به الرب –تعالى– أن العبد ميسر لما خلق له، لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين، فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقًّا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين، ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث: استدلال النبي –صلى الله عليه وسلم– على مسائل أصول الدين بالقرآن وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث: بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه: إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه: دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له، فتأمل قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))[١٨]، ومطابقته لقوله تعالى: **{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}** [الليل: ٥- ٧] كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبّب، وهذا الذي أرشد إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد: إنْ قُدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك لعُدّ من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدًا، وإن أتى به في أمر معين فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه، ولباسه ومسكنه وهروبه مما يضاد بقاءه، وينافي مصالحه أم يجد نفسه غير منفكةٍ ألبته عن قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))؟

فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد؟.

فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟!.

وهل هذا إلا محض الظلم والجهل؟، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه، فهذا الذي أرشد إليه النبي –صلى الله عليه وسلم–، وتلا عنده هاتين الآيتين موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه، ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين.

وإنما يستروح إلى ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله –سبحانه– ذلك عنهم

---

١٨ – المصدر السابق.

في غير موضع من كتابه، فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى مَن يسّرها للعبد أولا، وكذلك أضدادها؟

قيل: الله –سبحانه– هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر، وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة، فيسّرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك، ومن جعل محل المسك والرجيع واحدًا فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟.

قيل: هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟!.

فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفى من جهله؟.

قيل: نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم، ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات، وظهور أحكامها وآثارها لابد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام، وإذا أعطيت اسم الملِك حقه –ولن تستطيع– علمت أن الخلق والأمر والثواب والعقاب، والعطاء والحرمان أمر لازم لصفة المُلك، وأن صفة المُلك تقتضي ذلك ولابد"[١٩].

فهنا يقول: تتجلى معاني أسمائه وصفاته بهذه الأمور، يهدي قومًا، ويضل آخرين، يغني قومًا، ويفقر آخرين، يعذب أقوامًا، وينعِّم آخرين، وهكذا..

"وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع، فالمُلك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم وثوابهم، وعقابهم وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة الملِك علمه وإرادته وقدرته، وسمعه وبصره، وكلامه ورحمته، ورضاه وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده، وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونِقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق"[٢٠].

---

١٩ – التبيان في أقسام القرآن، ص (٥٧–٦٨).

٢٠ – المصدر السابق (٦٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الضحى

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسورة الضحى هي من السور النازلة بمكة، والموضوع الذي تدور عليه هذه السورة يمكن أن يُجمل بموضوع واحد وهو الألطاف والمنن والعطايا التي حبا الله -عز وجل- بها نبيه -صلى الله عليه وسلم-، هذا في الجملة .

قال -رحمه الله-: تفسير سورة الضحى وهي مكية.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [سورة الضحى:١-١١].

روى الإمام أحمد عن جُنْدُب قال: اشتكى النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله -عز وجل-: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[(١)].

رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير عن جُنْدُب هو ابن عبد الله البَجلي، ثم العَلَقي به.

هذه الرواية المخرجة في الصحيحين هي سبب النزول، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- انقطع عنه الوحي مدة ثم بعد ذلك جاءت هذه المرأة من المشركين، وقالت: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله، هذا كان سبب النزول، والوحي حصل له انقطاع وفتور بعدما نزل أوله: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [سورة العلق:١] ثم حصلت فترة انقطاع فأنزل الله -عز وجل- سورة المدثر، فهي أول سورة بعد انقطاع الوحي، وهذا أيضًا فتور آخر، انقطاع آخر دون الأول، وقد جاء في بعض الروايات لكنها لا تصح أن ذلك كان بسبب جرو كان في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كلب صغير قد مات تحت السرير، لكن الرواية في هذا لا تصح، وهي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ما بال جبريل لا يأتيني؟، فلما كنست الخادم أو الجارية الدار،

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، برقم (٤٩٨٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذى المشركين والمنافقين، برقم (١٧٩٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٨٠٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

وأهوت بالمكنسة تحت السرير وجدت هذا الكلب وأخرجته، فنزل الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا لا يصح، وجاء في بعض الروايات أن هذا بسبب قول المشركين: وَدَّعَه ربُّه وقلاه، فأنزل الله: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} وهذه الرواية فيها ضعف، ولكن هذه التي في الصحيحين أن ذلك بسبب قول هذه المرأة فهذا هو سبب النزول.

وفي رواية عن الأسود بن قيس: سمع جندبًا قال: أبطأ جبريل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال المشركون: وَدَّع محمدًا ربُّه، فأنزل الله: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[٢].

{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} قال العوفي عن ابن عباس: "لمّا نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- القرآن أبطأ عنه جبريل أيامًا، فتغير بذلك، فقال المشركون: وَدَّعَه ربُّه وقلاه، فأنزل الله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء.

الضحى هو الوقت المعروف في أول النهار بعد ارتفاع الشمس، وكما سبق عند قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** [سورة الشمس:١] أن الضحى له أول وأوسط وأعلى، يعني الضحى الأكبر، والضحى الأوسط، وأول الضحى، فيكون ذلك من ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال كل هذا وقت للضحى، هنا الظاهر المتبادر أن المراد هذا الوقت، والقسم لا يكون إلا بمعظم، فهذا يدل على شرفه، وهو أجلى أوقات النهار، وأعظمها خيرًا وبركة، يعني أول النهار، فهو أكثر بركة من آخره، وبعضهم يقول: المراد بالضحى هنا ليس الوقت المعروف الذي يكون في أول النهار كهذا الوقت الذي نحن فيه الآن، فإنه قد ابتدأ الضحى، وإنما المقصود كل النهار، وأنه عبر عن النهار بالضحى، يعني كأنه عبر عنه بجزء من أجزائه هو من أجلاها وأوضحها، عبر عن النهار بجزء هو من أوضح وأجلى أجزاء النهار، قالوا: ويدل على هذا أنه قابله بالليل **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** فالذي يقابل الليل ليس الضحى وإنما النهار، قالوا: هذه قرينة تدل على هذا المراد، وأن العرب تقول: ضَحَى فلان يعني إذا تعرض للشمس، وظهر وبدا لها، في قوله -تبارك وتعالى- لآدم -صلى الله عليه وسلم-: **{وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى}** [سورة طه:١١٩] يعني لا تكون ضاحيًا، وإنما يَضْحَى الإنسان حينما يتعرض للشمس فيتأذى بشدتها وحرها، يعني لا تصيبك الشمس، فابن جرير -رحمه الله- اختار هذا المعنى أن المقصود بالضحى النهار بهذا الاعتبار على طريقة العرب في التعبير بمثل هذا، والأمر الثاني هو أنه قابله بالليل، وكثير من المفسرين يقولون: المراد بالضحى هو الوقت المعروف **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** فأقسم الله بالضحى وأقسم بالليل إذا سجى، هنا قال: بالضحى وما جعل فيه من الضياء، فابن كثير حمله هنا على الوقت المعروف، فيكون بذلك قد خالف ابن جرير.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}، برقم (٤٩٥٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذى المشركين والمنافقين، برقم (١٧٩٧).

{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} أي: سكن فأظلم وادلَهَمّ، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، وقال تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام:٩٦].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** هنا قال: **أي: سكن فأظلم وادلهم، قاله مجاهد وقتادة والضحاك،** يقول: سكن واستوى، وهذا أشهر معانيه، وبهذا قال آخرون أيضًا غير من ذَكر كعكرمة -رحمه الله-، واختاره ابن جرير -رحم الله الجميع-، **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** من قولهم: "بحر ساجٍ" البحر الساجي يعني الساكن، لا تتلاطم أمواجه، هادئ، **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** يعني إذا سكن، كما يقول ابن جرير: سكن بأهله، وثبت بظلامه، **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}**، وجاء عن ابن عباس في رواية في إسنادها ضعف وبذلك قال الحسن: يعني أقبل **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** يعني أقبل، فهو حينما يسكن بظلامه يكون قد أقبل، لكنه جاء عنه -رضي الله عنه- من رواية علي بن أبي طلحة أنه قال: ذهب، فيكون كقوله: **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}** [سورة المدثر:٣٣]، لكن المشهور أن سجى بمعنى سكن، ومن فسره بأقبل فإن ذلك من مقتضياته، يعني هو حينما يسكن بظلامه، حينما يعم الظلام، حينما تحصل هدأة الليل وسكونه فإن ذلك يكون إذا أقبل الليل، فهذه معانٍ متلازمة، ويكون بهذا الاعتبار معنى سجى أرخى سدوله، سكن بظلامه، عم بظلامه، سكن بأهله، والمقصود عموم الظلام وما يحصل من ذلك وبسببه من هدأة الليل، تهدأ فيه النفوس، تهدأ فيه الحركة.

وقوله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} أي: ما تركك.

وهذا جواب القسم **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** ما ودعك أي: **ما تركك**، ما قطعك قطع المودع كما قالت هذه المرأة، **{وَمَا قَلَى}** أي: وما أبغضك، قلاه يعني أبغضه، وهنا **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** هنا ما قال: وما قلاك، مراعاة للفاصلة، أواخر الآيات، **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** بعض أصحاب كتب التفسير التي تُعني بالجوانب البلاغية يذكرون هنا أمرًا من اللطائف التي قد تصح وقد لا تصح، يقولون: هذا من باب الأدب في الخطاب، ما وجه إليه مثل هذه العبارة: قلاك، وإنما قال: "قلى"، كقوله -تبارك وتعالى- تأديبًا مثلاً: **{لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا}** [سورة البقرة:١٠٤]، وقول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** [سورة الشعراء:٨٠] "مرضت" فنسب المرض إلى نفسه، ونسب الشفاء إلى الله -عز وجل-، إلى غير هذا من أمثلة، فبعضهم يذكر هذا من هذا القبيل **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** يعني وما قلاك، **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}** [سورة الكهف:٧٩] نسب العيب إلى نفسه، وهناك في الجدار قال: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا}** [سورة الكهف:٨٢] أراد ربك فهنا نفع، إيصال النفع لهم، فنسبه إلى الله -عز وجل-، والعيب قال: **{فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}** ما قال: فأراد ربك أن يعيبها.

{وَمَا قَلَى} أي: وما أبغضك، {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى}.

هذا أيضًا جواب قسم محذوف، "وللآخرة" كأنه يقول: والله للآخرة خير لك من الأولى.

أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطِّراحًا، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خُيِّرَ -عليه السلام- في آخر

عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله -عز وجل- اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

روى الإمام أحمد عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: اضطجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلٍّ تحت شجرة، ثم راح وتركها))[٣]، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر كما سيأتي.

أذفر يعني شديد الرائحة الذكية، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} بعضهم يقول: اللام هذه في "لسوف" هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى، وبعضهم يقول: هي -كالتي قبلها- للقسم، {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى} ووالله لسوف يعطيك ربك فترضى.

روى الإمام أبو عمر الأوزاعي عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: "عُرِض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا، فسُر بذلك، فأنزل الله: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم"[٤]، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف.

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} وذلك أن أباه تُوفّي وهو حَملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره ويُوقّره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل، فلما وصل إليهم آوَوه ونَصَرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه -رضي الله عنهم أجمعين-، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

---

٣ - رواه الترمذي، في أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٤٢٠٨)، وقال محققوه: "صحيح، وهذا إسناد حسن"، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٨٥٨)، وقال محققوه: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٦٨)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٤٣٨).

٤ - تفسير الطبري (٢٤/ ٤٨٧).

قوله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا} اليتيم معروف هو من مات أبوه وهو دون البلوغ في بني آدم، {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} يعني فآواك، فهنا ما قال: فآواك؛ لمراعاة الفواصل، وبعضهم يقول: من أجل أن يعم ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيره، هكذا قال بعض أهل العلم، قالوا: فإن الله آواه وآوى به أيضًا.

وقوله: {وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى} كقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [سورة الشورى:٥٢] الآية.

لاحظ الآن {وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى} هنا فسره بهذه الآية: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ}، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَوَجَدَكَ ضَالا} أصل الضلال وحقيقته في كلام العرب: الذهاب عن حقيقة الشيء، ومن ذلك قول أبناء يعقوب له -صلى الله عليه وسلم-: {تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥]، هم لا يقصدون الضلال في الدين وإلا لكانوا كافرين في ذلك حينما يوجهون هذا إلى نبي من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، ولكن قصدوا الذهاب عن حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، يعني نحن نقول لك: أكله الذئب وأنت تقول: اطلبوا يوسف، تحسسوا، ابحثوا عنه {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} [سورة يوسف:٩٤]، فلا زلت تُرجِّي مجيئه وأنه حي وقد يرجع، هنا الضلال أي الذهاب عن حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، فلهذا: {وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى}، يعني ذاهبًا عن حقيقة الوحي والنبوة لا تدري ما الكتاب والوحي، وليس ذلك يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان على دين قومه، وهذه مسألة معروفة فيها كلام لأهل العلم في الأنبياء هل كانوا على دين قومهم أو لا، والعلماء يتكلمون على هذه المسألة في مواضع: من ذلك في الكلام على المناظرة التي جرت بين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقومه من عبدة الكواكب حينما رأى كوكبًا فقال: {هَذَا رَبِّي} [سورة الأنعام:٧٦]، والراجح أنه قال ذلك مناظرًا لا ناظرًا، يعني قال ذلك على سبيل التنزل في المناظرة فقط لا أنه كان يعتقد ربوبية الكوكب، وإن قال بهذا بعض أهل العلم، إلا أن الراجح أنه قاله مناظرًا لا ناظرًا، من باب التنزل ليلزمهم في نهاية المطاف، وكذلك في قول المشركين لأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-: {لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سورة إبراهيم:١٣] "لتعودن" فالذين قالوا: إنهم كانوا على دين قومهم قالوا: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} أي أنهم كانوا عليها فيرجعون إليها ثانية، والجواب عن هذا أن العود في كلام العرب يأتي بمعنى الرجوع إلى الشيء ثانيًا، يعني مثل أن تقول: حتى يعود اللبن في الضرع، فاللبن كان في الضرع، وتقول: عاد فلان إلى عادته، إلى سيرته، يعني السابقة التي كان عليها، وقد يأتي بمعنى مطلق الصيرورة مثل أن تقول: عاد الصبي شيخًا، وهو لم يكن كذلك، وعاد الطين خزفًا، وهو لم يكن كذلك، وعاد الماء ثلجًا، وهو لم يكن كذلك، يعني صار، وتقول مثلاً: عاد الثوب قميصًا، الثوب القماش يعني صار قميصًا بعدما قُص وفصل وخيط، فهذا المعنى الآخر للعود، والاحتمالان في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لن تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهاراً))[٥]، يحتمل أنها كانت قبل ذلك كذلك فترجع، أو أنها تصير إلى هذا وإن لم تكن عليه في السابق، فهنا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هل كانوا على دين قومهم {وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى}، {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}؟، الأقرب -والله أعلم- أن الأنبياء لم

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، برقم (١٠١٣).

يكونوا على دين قومهم، لم يكونوا على الشرك، وإنما كانوا على الفطرة، وعلى أصل التوحيد، لكن التفاصيل التي جاءت عن طريق الوحي ما كانوا على علم بها حتى أوحى الله إليهم.

وقوله: {وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى} أي: كنت فقيرًا ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر –صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس))[٦].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه))[٧].

الآن هذه الفاء للتفريع على ما قبلها، فلما ذكر له هذه المنن الثلاث فرّع على ذلك هذه التوجيهات والأوامر والأحكام، **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ}** يعني كنت يتيمًا وذقت مرارة اليتم فلا تقهر اليتيم، لا تقهره، لا تدفعه عن حقه، ولا تنهره، فإن اليتم وذل اليتم يكفيه، يعني هو مَهِيض الجناح، كسير القلب، يحتاج إلى رعاية، يحتاج إلى مواساة، ولهذا جاء في الشرع الحث على حفظ مال اليتيم، والتحذير الشديد من أكل ماله؛ وذلك أنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن حقه، فلا يُستغل لضعفه، وهكذا إذا أردت أن يرق قلبك كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– فامسح رأس اليتيم[٨]، فمسح رأس اليتيم هذا له معنى في الشرع، وهو مطلوب، كل هذا من أجل أن يشعر بالأمان، فإذا مُسح رأسه هدأت نفسه وسكنت، فهو في قلق وخوف وترقب يتخوف غوائل الناس، ويترقب منهم أنواع المكاره، فإذا مُسح رأسه سكنت نفسه، وهدأت واطمأنت، هذا الفعل اليسير البسيط تجد أن الشارع علق فيه هذا الحكم الكبير، إذا أردت أن يرق قلبك فامسح رأس اليتيم، وأطعمه من طعامك أو كما قال –عليه الصلاة والسلام.

فهنا **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ}** يكفيه ما هو فيه من الذل والمسكنة والضعف والكسر الذي في قلبه، يكفيه عن الزيادة على ذلك من القهر، فإن هذا القهر يجرحه ويؤذيه ويضعضع نفسه ويهدم ما تبقى فيها، فمثل هذا يحتاج إلى رعاية وأمان، والله المستعان.

ثم قال: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ} أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتُهنه، ولكن أحسِنْ إليه، وتلطف به.

---

٦ – رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، برقم (٦٤٤٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، برقم (١٠٥١).

٧ – رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب الغنى غنى النفس، برقم (٦٤٤٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، برقم (١٠٥١).

٨ – رواه أحمد في المسند، برقم (٧٥٧٦)، وقال محققوه: " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي كامل –وهو مظفر بن مدرك الخراساني– فقد روى له أبو داود في "التفرد" والنسائي، وهو ثقة"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٥٤)، وحسنه في صحيح الجامع، برقم (١٤١٠).

قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم.

{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ} أي: وكما كنت ضالا فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشِد.

السائل يحتمل معنيين: السائل الذي يسأل عن العلم، وهنا ابن كثير ذكر هذا المعنى بأي اعتبار؟

هنا كل واحدة تقابل واحدة مما سبق من الأوصاف الثلاثة التي امتن الله بها على النبي –صلى الله عليه وسلم–، فهنا الله –تبارك وتعالى– قال له: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}، إذًا {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ}، {وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى} فهذا الضال يحتاج إلى العلم والتبصير فيكون ذلك بالسؤال والتعليم، فهنا قال: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}، فهذا السائل الذي يسأل عن العلم، ويدخل فيه أيضًا المعنى الآخر وهو السائل الذي يسأل المال، يعني الفقير الذي يطلب، وكلاهما بحاجة إلى اللطف؛ لأن هذا الذي يسأل عن العلم هو أيضًا يحتاج إلى رعاية ويحتاج إلى لطف به؛ لأنه يكون في حال من التوجس والترقب لا يدري ماذا سيقال له، فقد يُسخر منه، قد يُستهزأ به، قد يطرد، يعني من الناس –نسأل الله العافية– من إذا جاءه طالب العلم أو جاءه السائل أو جاء إنسان يريد أن يستفسر أو نحو ذلك زجره زجرًا شديدًا، وعنفه من غير سبب، أنتم تضيعون أوقات العلماء، اذهب أو نحو ذلك من العبارات، وبعض طلبة العلم ألف رسالة مستقلة في الآداب والأخلاق وما إلى ذلك بسبب موقف مع بعض هؤلاء، فالمقصود أن هذا الإنسان الذي يسأل عن العلم أو نحو ذلك هو بحاجة إلى تلطف، لا أن يقابَل بإساءة وأشياء غير لائقة، يعني أحيانًا هذا يَسأل والسماعة أحيانًا تُضرب وهو يتكلم، وما صدر منه شيء، هو تلكأ في السؤال أو ما عرف ماذا يقصد حينما رد عليه هذا الشيخ أو العالم، يستفهم منه قضية فذاك ما فهم كلمتين، –نسأل الله العافية–، فظاظة وغلظة وجفاء وصلف وأخلاق صحراوية.

فالناس يحتاجون إلى شيء من التلطف، وليس بهذه الطريقة –نسأل الله العافية–، فالرد على الناس بالإساءة إليهم وجرح مشاعرهم فيصبح الناس إذا أرادوا الاتصال على هذا لا يتصلون أصلاً، وإذا اتصلوا فهم لا يدرون ما سيأتيهم تُغلق السماعة بقوة في وجوههم، أو أنه سيزجرهم ويتكلم بعبارات تجرحهم ويرفع صوته عليهم، أو نحو هذا، كذلك السائل الذي يحتاج للمال يكفيه ذل السؤال والفقر والحاجة، فهو يتوجس حينما يسأل هؤلاء الناس ويطلب منهم ماذا سيقال له؛ ولهذا قال الله –عز وجل–: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى} [سورة البقرة:٢٦٣]، فالكلام الطيب الحسن أفضل من العطاء الذي يكون معه أذى يؤذيه بكلام يجرحه فيه، فيدخل في هذا المعنيان {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ} السائل عن العلم، والسائل عن المال.

قال ابن إسحاق: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ} أي: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فَحَّاشا، ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله.

وقال قتادة: يعني رَد المسكين برحمة ولين.

{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} أي: وكما كنت عائلا فقيرًا فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك.

وروى أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))[٩]، ورواه الترمذي وقال: صحيح.

وروى أبو داود عن جابر -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مَن أُبلِي بلاء فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره))[١٠] تفرد به أبو داود.

آخر تفسير سورة الضحى، ولله الحمد.

قوله تبارك وتعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} الآن هذه النعم التي أنعم الله -عز وجل- بها عليه من الإيواء بعد اليتم، والهدى بعد الضلال، والغنى بعد العيلة والفقر، وأعظم من ذلك جميعًا النبوة، قال: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} بعضهم قال: النعمة هنا هي الوحي، أو النبوة حدِّثْ بها: علم الناس، بلغ، وبعضهم يقول: بالدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، والنعمة هنا أعم من ذلك كله، والنعم التي يعطاها الإنسان يكون التحديث بها على نوعين:

النوع الأول: المجمل كأن يقول: أنا في نعمة، أنا بخير، أنا بعافية، الله -عز وجل- حباني، وأعطاني وهداني وآواني وكفاني ونحو ذلك، فهذا مطلوب من العبد، يجب عليه أن يحدث بنعمة الله -تبارك وتعالى- ولا يكون جاحدًا لها، وذلك إما أن لا يتكلم بهذا أصلا كأن الله لم ينعم عليه قط، أو يكون جاحدًا لذلك بلسانه ومقاله -نسأل الله العافية- مثل بعض الناس قد يكون لخوف العين أو نحو هذا، قد تقول المرأة دائمًا: هؤلاء الأولاد دائمًا في أوصاب وعلل، ودائمًا مرضى، ما يكاد هذا الولد يفيق من العلة، من المرض، هو ضعيف، هو مريض، وليس به بأس لكنها تقول هذا خوفًا عليه من العين، فدائمًا تتحدث عند الآخرين بهذا، وقد تتحدث عن دراسته عن كذا فتقول: هذا الولد لا يكاد يفلح في دراسته، دائمًا هو في تعثر، والولد هو الأول فهي تقول هذا خوفًا عليه من العين، وقد يقول هو هذا عن نفسه يقول: أنا مثلاً لم أستعد لهذا الاختبار، لم أؤدِّ فيه الأداء الجيد، بينما هو لا تراه الشمس لمدة أسابيع قبل الاختبار، وقد حفظه عن ظهر قلب، ويأتي بأعلى درجة، وزملاؤه هؤلاء الذين يرثون له، ويتكلمون في مواساته، ولماذا فعلت هذا بنفسك؟، وإن شاء الله تتجاوز هذا المقرر ما علموا أنه بينهم من البون الشاسع الشيء الكثير، هذا للأسف يحصل ويتكرر كثيرًا لدى بعض الجاحدين لنعم الله -تبارك وتعالى.

وهذا في صور وأشكال كلٌّ بحسب حاله، والله المستعان.

النوع الثاني من التحديث بالنعم: أن يكون على سبيل التفصيل، وهذا ليس بلازم، فهؤلاء الذين يخشون على أنفسهم من العين لا يشترط أنه يتحدث عن التفاصيل، يكفي أن يقول: أنا بخير، أنا بعافية، أحمد الله -عز

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، برقم (٤٨١١)، والترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٦٠١)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٤١٦).

١٠ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، برقم (٤٨١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦١٨).

وجل-، ولا يشترط أن يذكر كل التفاصيل في حياته مما هو فيه من نعمة إذا كان يتخوف الضرر، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشرح

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "إقسامه سبحانه -عز وجل- على إنعامه على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وإكرامه وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم -وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل- للمقسم عليه -وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودَّع محمداً ربُّه-، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه"[1].

الآن الربط من قِبل بعض المفسرين منهم ابن القيم بين المقسم به وبين موضوع الآيات أو الآية أو سبب النزول، يعني يربط بين الضحى ومجيء الوحي للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الانقطاع.

وقال -رحمه الله-: "وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل، وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به والمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة، والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها، ونفى سبحانه أن يكون ودَّع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقِلَى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع، ورفع ذكره وإعلاء كلمته"[2].

لاحظ كيف عمم العطاء **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ}** [سورة الضحى:5] يعني ما قال: في الآخرة فقط، وإنما ما يعطيه من كثرة الأتباع، ما يعطيه من انشراح الصدر، ما يعطيه من النصر، ما يعطيه من الذكر الجميل، ما يعطيه من الفتوح في البلاد، إضافة إلى الآخرة.

وقال -رحمه الله-: "وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة، وأمّا ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار..."[3].

1- التبيان في أقسام القرآن (ص:72).

2- المصدر نفسه (ص: 73).

3- المصدر نفسه.

يعني بعض الناس يقول: **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}** النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يرضى أن يدخل أحد من أمته في النار، فهو الآن يردّ عليهم.

وقال -رحمه الله-: "وأمّا ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- يرضى بما يرضى به ربه -تبارك وتعالى"[٤].

يعني هذه خلاصة الرد، العلماء يردون بهذا سواء ابن القيم أو غيره، يرضى بما يرضى به الله، ليس له إرادة تخالف إرادة الله -تبارك وتعالى-.

وقال -رحمه الله-: "وهو -سبحانه- يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه -تبارك وتعالى- يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أُذن له فيه ورضيه. ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجًا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين"[٥].

قوله: "والمتعلمين" يعني السؤال حمله أيضًا على السائل عن العلم.

وقال -رحمه الله-: " قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيما، وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم، فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين"[٦].

وقال -رحمه الله-: " قوله تعالى: **{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}** وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يَعيل إذا افتقر، وأعال يُعيل إذا صار ذا عيال، مثل: لَبِنَ وأثمرَ وأثرى.."[٧].

لاحظ الآن هو يبين معنى عائل؛ لأن بعضهم فسره مع أنه هنا نقل الإجماع لكن الواقع أن بعضهم فسره أن العائل ذو العيال، يعني من له عيال، ومن له عيال يكون بحاجة إلى ما يكون به قوام عيشهم، ولكن المقصود به هنا الفقير، فرق بين عال وأعال، أعال متعدٍّ، أي أعال غيره، أعال فهو ذو عيال، يعول، وعال يَعيل افتقر، وهذا فائدة التصريف في الترجيح بين الأقوال، ومعرفة أصل المعنى، وهذا كثير في التفسير.

وقال -رحمه الله-: "وأعال يُعيل إذا صار ذا عيال مثل: لَبِنَ وأثمرَ وأثرى إذا صار ذا لبنٍ وثمرٍ وثروةٍ، وعال يعول إذا جار، وفي الآية ثلاثة أقوال:

٤- المصدر نفسه.

٥- المصدر نفسه (ص: ٧٣-٧٤).

٦- المصدر نفسه (ص:٧٤).

٧- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٥٥).

أحدها: إنه أغناه بعد فقره، وهذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه قابله بقوله: **{عَائِلاً}**، والعائل هو المحتاج ليس ذا العَيلة.

والثاني: إنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غِنِى قلب ونفس لا غِنِى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث: وهو الصحيح، إنه يعم النوعين، نوعي الغنى فأغنى قلبه به، وأغناه من المال"[٨].

وهنا قال: **{فَأَغْنَى}** فحذف المتعلق، والأصل أن حذف المتعلق يفيد العموم النسبي "فأغنى"، ما قال: أغناك من الفقر، أو أغنى النفس، فيدخل فيه غنى النفس، وغنى القلب، والغنى من الفقر.

وقال –رحمه الله–: "**{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ}** قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن ترده ردًّا ليناً، قال الحسن: أمَا إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم، وهذا قول يحيى بن آدم، قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

وقوله: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** [سورة الضحى:١١] قال مجاهد: بالقرآن، وقال الكلبي: بمعنى أظْهِرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يُقرئه ويعلمه، وروى أبو بشر عن مجاهد: حدِّثْ بالنبوة التي أعطاك الله، وقال الزجاج: بلغْ ما أرسلت به وحدثْ بالنبوة التي آتاك وهي أجلّ النعم، وقال مقاتل: اشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة"[٩].

الجمع بين هذه الأقوال النبوة والقرآن وسائر ما أنعم الله به عليه.

وقال –رحمه الله–: "والتحقيق أن النعم تعم هذا كله، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا"[١٠].

وقال –رحمه الله–: "وَفِي هَذَا التَّحْدِيثِ الْمَأْمُورِ بِهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذِكْرُ النِّعْمَةِ، وَالْإِخْبَارُ بِهَا، وَقَوْلُهُ: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِكَذَا وَكَذَا، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي اشْكُرْ مَا ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جَبْرِ الْيُتْمِ، وَالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ، وَالْإِغْنَاءِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ.

وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ مَرْفُوعًا: ((مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَجْزِي بِهِ فَلْيُثْنِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَثْنَى عَلَيْهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ))[١١].

فَذَكَرَ أَقْسَامَ الْخَلْقِ الثَّلَاثَةَ: شَاكِرُ النِّعْمَةِ الْمُثْنِي بِهَا، وَالْجَاحِدُ لَهَا وَالْكَاتِمُ لَهَا، وَالْمُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، فَهُوَ مُتَحَلٍّ بِمَا لَمْ يُعْطَهُ.

٨- مدارج السالكين (٢/٤٤٩).

٩- التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٥-٧٦).

١٠- المصدر نفسه (ص:٩٥).

١١- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، برقم (٤٨١٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٠٥٦).

وَفِي أَثَرٍ آخَرَ مَرْفُوعٍ: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهُ كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ".

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ التَّحَدُّثَ بِالنِّعْمَةِ الْمَأْمُورَ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، وَتَبْلِيغُ رِسَالَتِهِ، وَتَعْلِيمُ الْأُمَّةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ النُّبُوَّةُ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ بَلِّغْ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ، وَحَدِّثْ بِالنُّبُوَّةِ الَّتِي آتَاكَ اللَّهُ.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ الْقُرْآنُ، أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَهُ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ يَعُمُّ النَّوْعَيْنِ، إِذْ كَلٌّ مِنْهُمَا نِعْمَةٌ مَأْمُورٌ بِشُكْرِهَا وَالتَّحَدُّثِ بِهَا، وَإِظْهَارُهَا مِنْ شُكْرِهَا"[١٢].

قال ابن كثير -رحمه الله-: تفسير سورة ألم نشرح وهي مكية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [سورة الشرح:١-٨].

يقول تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} يعني: أمَا شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من السور المكية، والموضوع الذي تتحدث عنه وتدور حوله الآيات هو ما أعطاه الله، وأولاه، وأنعم به على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وأن ذلك متحقق له في الماضي والمستقبل، فالذي شرح صدره ووضع وزره، ورفع ذكره فإنه ييسر له كل عسير، وييسر عليه تحمل أعباء الدعوة، وييسر عليه الأثقال التي يلقاها بسبب البلاغ وبسبب ما يلاقيه من عنت وأذى المشركين، إلى غير ذلك من ألوان التيسير كحفظ الوحي، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى}** [سورة الأعلى:٦]، **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** [سورة القيامة:١٦-١٧] وهكذا في كل أمر يشتد عليه فإن الله -تبارك وتعالى- ييسره ويهونه، وإنما عليه أن يشتغل بمقابلة ذلك كله بالشكر حيث يكون في طاعة وعبادة على حالة مستمرة، إذا فرغ من عمل شرع في العمل الآخر، وهكذا، وتكون رغبته ورهبته كل ذلك متوجهًا إلى الله وحده دونما سواه، فالذي أعطاه وحباه وأولاه هو الذي ينبغي أن يكون محل الرغبة والرهبة، هذا موضوع السورة، وحاصله وخلاصته في أول الكلام الذي ذكرته: ما أعطى الله نبيه وما سيعطيه ويوليه، هذا موضوع السورة.

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} سورة ألم نشرح، ويقال لها: سورة الشرح، ويسميها بعضهم بسورة الانشراح، وقوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** هنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **يعني: أمَا شرحنا لك صدرك**، لاحظ هنا استفهام، وهذا الاستفهام دخل على النفي، الهمزة للاستفهام و"لم" للنفي **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}**، فالاستفهام إذا دخل على النفي قرره يعني صار بمعنى الإثبات، ولهذا يفسرونه يقولون: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** شرحنا لك صدرك، فهذا استفهام تقريري، **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** يقول هنا: **نورناه وجعلناه**

١٢- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٢٣٨-٢٣٩).

فسيحًا رحيبًا واسعًا، شرْح الصدر يعني أن الله يوسعه ويفتحه بإذهاب ما يحصل به الضيق، ويصد عن كمال الإدراك؛ لأن الإنسان إذا حصل له الضيق في الصدر لم يعد في حال يتهيأ فيها للتلقي بصورة كاملة، فيبقى ذهنه منقبضًا، إذا كان الإنسان في حال من الضيق فإنه قد يزداد ذلك عليه حتى إنه لا يكاد يعقل شيئًا، إذا اغتم الإنسان، إذا صار في شدة الغم، ولهذا فإن بعض الفقهاء يذكرون أن ذلك من المشوشات للفكر، يعني كما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان قالوا: فكذلك في حال الغم الشديد وفي حال الفرح الشديد، فهذه تشوش فكره، فإذا كان الإنسان في حال غم كبير فإنه يقرأ ولا يكاد يعقل، سواء كان ذلك في قراءته للعلم والكتب أو في سماعه له أو غير ذلك، وهنا خص الصدر **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}**؛ لأنه محل القلب، فالقلب هو الذي يحصل به الانشراح، ويحصل به الضيق والانقباض، وهو محل الإدراك، وبه يعقل الإنسان، وأحوال النفس ترتبط به ارتباطًا وثيقًا، فإذا انفسح القلب انفسح الصدر، انشرح، ومن ثَمّ فإن هذا الانشراح الذي ذكره الله -عز وجل- هنا ممتنًّا به على النبي -صلى الله عليه وسلم- فسره بعضهم بالإسلام كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}**، وبعضهم يفسره بما يقرب من هذا أو بغيره مما يدخل في معناه، فابن جرير -رحمه الله- يقول: للهدى والإيمان، **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** شرحه للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحق، فهذا كله مما يدخل في معناه، فشرح الصدر يكون بالإيمان في أجلى صوره وأكمل حالاته، **{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}** [سورة الزمر:٢٢]، فإذا حصل له الإيمان التام -والإسلام هنا في الآية يدخل فيه الإيمان كما هو معلوم، فإن الإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان- فهذا الانشراح الذي يكون للإيمان يحصل معه ما يستتبعه ذلك من أنواع الانشراح، ما نسميه باتساع الصدر، والراحة القلبية، والأنس الذي تحصل به سعادة العبد، يعني أن قلبه يكون منفسحًا، وهذه قضية مُدركَة يعرفها كل أحد، وذلك يكون بالإيمان والعمل الصالح والتقوى بطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وترك المعاصي؛ لأن المخالفات والمعاصي يحصل بها الانقباض، فكل معصية يحصل بها انقباض كانقباض هذه الأصابع في الكف حتى ينقبض القلب، فيجد من الحرج والضيق، فإذا كان في حال من الكفر والتكذيب فهذا لا تسأل عن حاله، ولو كان البدن منعمًا، فالمقصود أن شرح الصدر للإيمان وما يستتبعه ذلك من ألوان الانشراح نعمة عظيمة لا تقادَر، فهي أجلّ النعم فمن حرم الإيمان حرم كل شيء، ومن ذلك ما يتصل بآثاره مما يتعلق بالصدر والقلب من الراحة والطمأنينة، والسعادة، وانفساح الصدر الذي يكون فيه الإنسان، يكون قلبه حرًّا طليقًا لا تأسره شهوة ولا معصية، فلا يبقى في حبس، وضيق، فإن الحبس الحقيقي والسجن الحقيقي كما قال شيخ الإسلام: هو سجن القلب، وليس سجن البدن، والبدن تبع لهذا القلب، فإن كان القلب منعمًا فإن ذلك يسري إلى البدن فيظهر أثر ذلك على الوجه، ولو كان الإنسان يعيش في فقر أو يعيش في شدائد وأذى من الخلق، وبهذا ذكر ابن القيم -رحمه الله- حال شيخ الإسلام مع ما هو فيه من البلاء والشدة والأذى، فكانت نضرة النعيم تلوح على وجهه، يقول: إذا اشتدت بنا الخطوب وأرجف بنا الخصوم وساءت بنا الظنون فما أن نأتيه ونرى وجهه حتى ينجلي ذلك جميعًا، فكان يذكر ما كانوا يرون على وجهه من نضرة النعيم، والطمأنينة، والثبات مع ما هو فيه من الشدة، لكن حينما تنظر إلى أهل الفجور تنظر إلى وجوههم ولو كانوا من المنعمين أو الممكنين أو نحو

ذلك ترى البؤس في تلك الوجوه، ومن فتح الله -عز وجل- بصيرته فقد لا يطيق النظر إلى وجه الكافر؛ لأن البؤس بأكمل أحواله وأوصافه وصوره وأشكاله يلوح على وجهه، لاسيما من كان إيمانه حيًّا ولم يعتد رؤية الكفار، فإذا رأى وجه الواحد منهم ولو كان هؤلاء الكفار في غاية القوة، وهم لربما عندهم من أسباب التمكين ما يظنون أنهم يديرون به الدنيا بأكملها، إذا نظر إلى وجه الواحد منهم في شاشة أو في لقطة من الأخبار أو نحو هذا رأى أنواع البؤس على هذا الوجه -والله المستعان-، فهذا الانشراح -هذا الشرح- يشمل هذه الأمور جميعًا، يقول: وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلاً، لا حرج فيه، ولا إصر، ولا ضيق، لكن لاحظ هذه أول منة يمتن بها عليه، وهذا لا شك أنه يدعو المكلف إلى الالتفات إلى هذا المعنى والعناية به، والنظر في أسبابه، والتمسك بأهدابه التي لا شك أن الإيمان هو مدارها وقطب رحاها فيزداد من الإيمان والعمل الصالح، وتقوى الله -تبارك وتعالى- فيحصل له من ألوان الانشراح ما لا يخطر على بال، بخلاف الآخر ضعيف الإيمان، وفي قلق حتى لو أنه استخار في ظاهر الأمر إلا أنه في غاية القلق مع استخارته، وإذا حصل له خلاف مطلوبه فهو في غاية الضجر والضيق، بينما الآخر هو دائمًا كما قال شيخ الإسلام: المؤمن مثل الغنمة حيثما انقلب فعلى صوف، وكان يقول: ما يصنع بي أعدائي؟! إنّ جنتي وبستاني في صدري، قتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وسجني خلوة، فمن كان بهذه المثابة لا يصل إليه عدوه بمكروه، وإذا كان الإيمان منعدمًا فهذا هو القلق الكامل، والريب الذي يزعجه ويقلقه.

يقول تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} يعني: أمَا شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فَسيحًا رحيبًا واسعًا، كقوله: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

وقوله: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} بمعنى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [سورة الفتح:٢]**، {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} الإنقاض: الصوت، وقال غير واحد من السلف في قوله: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} أي: أثقلك حمله.**

هنا قوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}** فسره بهذه الآية: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** وهذا الوزر ما هو؟ هنا قال: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ}**، وكثير من السلف فمن بعدهم يقولون: وذلك ما كان عليه حال الجاهلية، وليس مقصودهم بالضرورة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان على دين أهل الجاهلية، جاء عن الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل وغير هؤلاء، وابن جرير -رحمه الله- يقول: غفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية.

{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} ما معنى قول الله -تبارك وتعالى-: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**؟ فالوزر هو الذنب، **{لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ}** [سورة النحل:٢٥] يعني الذنوب وما تستتبعه من الآثام، هذه المسألة مبناها على المعاصي هل تقع من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؟، فالذين يقولون: إن المعاصي لا تقع من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وإنهم عصموا من الصغائر والكبائر، هنا يقولون: إن ذلك ما كان في الجاهلية، أمر الجاهلية، وبعضهم يفسره بمعانٍ بعيدة متكلفة أو مبنية على قراءات شاذة، فيذهب به إلى غير الذنب وهو المعنى للوزر، فهذا لا حاجة إليه إذا تقرر أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم الذنوب،

والله –تبارك وتعالى– يقول عن آدم –صلى الله عليه وسلم– وهو نبي: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** [سورة طــه:١٢١]، وموسى –صلى الله عليه وسلم– لما قتل القبطي وهو لم يقصد قتله لكنه قصد ضربه، **{فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}** [سورة القصص:١٥] ضربه بقبضة يده فقتله، فموسى –صلى الله عليه وسلم– استغفر من ذلك ربه، وتاب من هذا، وكان ذلك قبل نبوته لكنه كان على شريعة يعقوب –صلى الله عليه وسلم– كما كان بنو إسرائيل، فالأنبياء تقع منهم الذنوب والمعاصي ولكن بقيد، تقع منهم الصغائر، ولكن يستثنى من ذلك ما يسمى بالمدنسات، أو صغائر الخسة، وهي التي تسقط المروءات، يقولون: كسرقة بيضة وحبل، وتطفيف مكيال أو نحو ذلك مما يسقط المروءة، فهذا لا يكون.

الأمر الثاني: أنهم لا يصرون عليها، وإنما يبادرون إلى التوبة، وحال العبد بعد الذنب قد تكون أكمل من حاله قبله، وهذا حال آدم –صلى الله عليه وسلم– بعدما تاب اجتباه ربه وهداه، فإذا عرفنا هذا المعنى فيقال: إن الله –تبارك وتعالى– قد حط الأوزار عن نبيه –صلى الله عليه وسلم–، فغفر الله ما سلف، كما غفر له ما يكون في المستقبل **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [سورة الفتح:٢]، ولو لم يكن الأمر على ما سبق فما معنى هذه المغفرة؟ ولا حاجة لأن يقال: إن ذلك باعتبار أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ويفسر الذنب بهذا الاعتبار، يعني يقول لك: إذا كان الأبرار مثلاً يصلون الفرض فإن المقربين يقومون الليل، ويصلون الفرض، والنوافل والرواتب وما إلى ذلك، فلو فاته قيامه ووورده من الليل فيكون ذلك سيئة في حقه، بينما الواحد من الأبرار إذا صلى ركعات من الليل أو أوتر فهذه حسنة، يعني لكن هي بالنسبة للمقربين كونه يقتصر على هذا تكون سيئة في حقه، هكذا يقولون، لكن ما ذكر أولى، والله أعلم.

قال: **{الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}** أي: **أثقلك حمله**، أصل ذلك النقيض –أنقض– قال: **الإنقاض هو الصوت**، هذا أصل ذلك، فلما أضيف إلى الظهر، وذكر قبله الوزر كان معنى ذلك أنه أثقل ظهرك، أو حتى كأنه سُمع له نقيض، أيْ صوت أثقله، والبعير إذا وضع عليه أحمال فوق طاقته سمع لظهره صوت، هذا الصوت يقال له: نقيض، فكأن هذا الوزر لشدة ثقله يُسمع لظهر حامله نقيض، فأضيف ذلك إلى الظهر **{الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}**، فالأوزار كأن الإنسان يحملها على ظهره فتثقله، هذا معنى **{أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}** أثقله حتى سُمع له صوت، هذا الصوت يقال له: نقيض.

وقوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} قال مجاهد: لا أُذْكرُ إلا ذُكِرتَ معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

هكذا قال كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير –رحمه الله–، رفْع الذكر: **لا أُذكر إلا ذكرتَ معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله** في الأذان، في النطق في الشهادتين، وهكذا في الصلاة، وفي غير ذلك، فهذا من رفع الذكر.

وقال قتادة: رفعَ اللهُ ذكرَه في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

لاحظ هذا المعنى أعم من الذي قبله، الذي قبله ذكر الشهادتين، هنا: **رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة**، يعني هذه الأشياء التي ذكرها بعده هي من قبيل التمثيل، الخطيب لابدّ أن يصلي على النبي –صلى الله عليه

وسلم-، تعرفون كلام الفقهاء في هذا، واشتراط ذلك في الخطبة، كثير من الفقهاء يقولون: من شروط الخطبة أن تشتمل على الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك المتشهد أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولا صاحب صلاة كذلك، هو بصلاته يقول هذا في تشهده، وصلاته على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد، قال: **إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**، هذا بهذه الأعمال والأقوال، وفي الآخرة رفع له ذكره بأمور وأحوال من أعظمها الشفاعة العظمى فهو مقام يحمده عليه الأولون والآخرون، فرفع له ذكره بهذا، كل الأنبياء يعتذرون من هذا، ويحيلون إلى غيرهم حتى يحال الناس إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهذا من رفع الذكر في الدنيا والآخرة، كذلك ما جعل الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا من الذكر الجميل، والصلاة عليه -صلى الله عليه وسلم-، فإذا ذُكر يُصلَّى عليه، والله يقول: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}** [سورة الأحزاب:٥٦] فرفع ذكره في الملأ الأعلى، **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}** فرفْعُ الذكر في السماوات وفي الأرض **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}**، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((البخيل من ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليّ))[١٣]، فهذا من رفع الذكر، فرفْع ذكره يشمل ذلك جميعًا في السماوات وفي الأرض، في الدنيا وفي الآخرة، وما يذكر في تفسير هذه الآية هو أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، فإنّ رفع ذكره -صلى الله عليه وسلم- يكون بذلك وبغيره، ولهذا بعضهم يقول: المراد أنه ذُكر في الكتب السابقة والأنبياء بشروا به، فهذا من جملة رفع ذكره -صلى الله عليه وسلم- لكنه لا ينحصر بذلك، فالله أمرهم بهذا، ولكن المعنى أوسع، وهكذا قول من قال: عند الملائكة في السماء والمؤمنين في الأرض، كما أمر بطاعته، فإن طاعته من طاعة الله -عز وجل-: **{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}** [سورة المائدة:٩٢]، قال: **{وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}** [سورة النور:٥٤]، **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}** [سورة الحشر:٧] ويشمل نوعي الإيتاء، الإيتاء بمعنى الهدايات والعلم والأمر والنهي، والإيتاء المادي يعني ما أعطاكم من مال من الفيء والغنيمة أو نحو ذلك فخذوه ولا تستشرف نفوسكم إلى غيره، يعني ما لم تُعطَوْه، وكل هذه المعاني تدخل في "ورفعنا لك ذكرك" فهذه القضايا متلازمة، يعني الآن الانشراح ورفع الذكر، الانشراح يكون بالإيمان وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيحصل بذلك اتساع الصدر وانشراحه بهذه الأمور، ويحصل به السعادة والراحة وانفساح الصدر، ولا يكون ضيقًا حرجًا، فهنا هذا مرتبط بوضع الأوزار، فإن الأوزار تُدسِّيه كما سبق في قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** [سورة الشمس:٩-١٠] فالذنوب تهبط بالإنسان فينسفل، لا يرتفع، فيكون له الذكر السيئ، طالب العلم إذا كانت له مزاولات في الخلوات أو في غير الخلوات من المدنسات والذنوب والمعاصي فإن ذلك يُدسِّي نفسه، فيهبط، فلا يكون له من القبول أو النفع، ولا يرتفع عند الله -تبارك وتعالى- وعند أهل الإيمان، فلا يكون له الذكر الجميل، وإنما تستوحش منه النفوس

١٣- رواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٥٤٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٣٦)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الصحيح غيرَ عبد الله بن علي بن حسين، فمن رجال الترمذي والنسائي، روى عنه جمع، ووثقه ابنُ حبان وابن خلفون والذهبي، وقول الحافظ عنه في "التقريب": مقبول: غيرُ مقبول، أبو سعيد: هو عبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٨٧٨).

وتنقبض، الذنوب تهبط بالإنسان، وعرفنا معنى الدسِّ والتدسيس والتدسية **{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**، فهنا لاحظ أنه وضع وزره فهذا أمر مرتبط برفع الذكر قال: **{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}**، وهذا كله مرتبط بالانشراح واتساع الصدر، والإنسان إذا كان مشتغلاً بالذنوب والمعاصي ضاق صدره فلم يعد مهيأً للارتفاع والانشراح والعطاء والبذل والتحمل وما إلى ذلك، فسرعان ما ينقطع، يعني لا يستمر في دعوته، لا يستمر في نفعه، ولا يكون له ذلك القبول والنفع كما هو معلوم، فهذه قضايا مرتبطة، وهذا يجلب له ما بعده أيضًا **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** "فإن" هذه الفاء للتفريع أو كأنها للتفريع، تفريع ما بعدها على ما قبلها، فعلنا بك ذلك كله ومن ثَمّ فإن ما تستقبل فإنه إلى انفراج وسعة ويسر، **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}**، وهذا اليسر إنما يكون بقدر ما يكون عند العبد من الإيمان وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله تعالى: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}** [سورة الطلاق:٢]، وفي الأمور المشتبهة: **{إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}** [سورة الأنفال:٢٩] تفرقون فيه بين الحق والباطل فإن الإنسان حينما يلتبس الحق بالباطل عنده فإن ذلك يقلق نفسه ويزعجه فيضيق الصدر بسبب ذلك، فهنا **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** فبقدر ما يكون عند العبد من التقوى والإيمان يكون له من اليسر والفرج، **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}** قال: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}**.

وقوله: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر، ثم أكد هذا الخبر.

قوله: **{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** مع الضيقة سعة، ومع الشدة رخاء، ومع الكرب الفرج، والذي عليه عامة المفسرين وهو ظاهر الحديث الذي يفسر هذه الآية وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لن يغلب عسر يسرين))[١٤]، فما توجيه ذلك؟، لاحظ وتأمل لفظ الآية: **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** العسر كُرر مرتين معرفاً بأل، واليسر كرر مرتين منكَّرًا، والقاعدة التي يذكرها العلماء في هذا وهي التي يؤيدها الحديث المفسر لهذه الآية أنه إذا أعيد المعرَّف -العسر العسر- يكون الثاني عين الأول، **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ}** هو عسر واحد، إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول، بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير للأول، لو أمامنا سبورة الآن وكتبنا الجملتين بجانب بعضهما **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** وحذفنا العسر الثانية كم يبقى عندنا؟، يبقى عسر واحد ويسران؛ لأن العسر الثاني هو نفس الأول، واليسر المذكور مرتين كل واحد يختلف عن الآخر، فهذا معنى هذه القاعدة التي يذكرها عامة أهل العلم، والحديث يؤيدها "لن يغلب عسر يسرين"، كيف اعتبره عسرًا واحدًا واعتبر اليسر اثنين؟ بهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم-: إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول، وإذا أعيد المنكر يكون الثاني مغايرًا للأول، فعندنا اليسر هنا منكر أعيد مرتين، والعسر معرف أعيد مرتين، فالعسر واحد واليسر اثنان، ولهذا فلن يغلب عسر يسرين، هذا الذي مشى عليه أهل العلم، وهو الذي اختاره ابن القيم -رحمه الله-، وابن عاشور صاحب "التحرير والتنوير" رفض هذه القاعدة وقال: إنها غير صحيحة، ونقل عن بعضهم

١٤- رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٣١٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٩٥٣٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٤٣٤٢).

كصاحب "الكشاف" وغيره ما يؤيد قوله من عدم صحة هذه القاعدة، وأنه لا فرق، لكنه عند قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لن يغلب عسر يسرين)) حاول أن يحمل ذلك على معنى ولكن يبدو –والله أعلم– أنه لا يتضح كل الوضوح إذ إن المعاني إذا كانت لا تخلو من تكلف فإنه يعسر فهمها وتصورها، فحاولَ أن يبين كيف كان ذلك بمثابة اليسرين فقال: إن التثنية هنا يعبر بها عن الكثرة فلما كرر اليسر فالمقصود به الكثرة، **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}** [سورة الملك:٣-٤] قال: ليس المقصود أن يرجع البصر مرتين، وإنما المقصود أن يكرر النظر مرة بعد مرة، قال: العرب تعبر بالثنية وتقصد بها التكثير، ولكن يأتي سؤال هنا: هذا التكثير من أين جاء في اليسر ولم يأت في العسر إن لم نقل بأن العسر الثاني هو العسر الأول، بخلاف اليسر **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}**؟، قال: فالنبي –صلى الله عليه وسلم– عبر عن ذلك بهذه العبارة: ((لن يغلب عسر يسرين)) باعتبار أن اليسر يراد به الكثرة فجاء ذلك بصيغة التثنية "يسرين"، هكذا قال، ويراجع كلامه ويتأمل، لكن المشهور الذي عليه عامة أهل العلم هو ما سبق بناء على هذا القاعدة، ويكفينا قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لن يغلب عسر يسرين))، بمعنى أن الآية الثانية ليست لمجرد التوكيد، يعني الجملة الثانية ليست لمجرد التوكيد، والقاعدة أنه لا يوجد في القرآن تكرار محض، الجملة الثانية غير الأولى، ليست مؤكدة لها بل فيها زيادة في المعنى.

وقوله: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} أي: إذا فَرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطا فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قوله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث المتفق على صحته: ((لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان))[١٥]، وقوله –صلى الله عليه وسلم–: ((إذا أقيمت الصلاة وحضر العَشَاء فابدءوا بالعَشَاء))[١٦].

قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك.

آخر تفسير سورة ألم نشرح، ولله الحمد.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو معنى قريب، ولعله مما يدخل في معنى الآية، **يعني إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال**، يعني أن الفراغ لا يكون مدعاة للبطالة والقعود عن طاعة الله –عز وجل–، وعما يحصل به رفع العبد ونفعه، وإنما يكون سببًا للإقبال على الله –تبارك وتعالى–، والاشتغال بطاعته وعبادته، هذا المعنى الذي نقله عن مجاهد –رحمه الله–: **إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك**، كلام مجاهد يقول: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في صلاتك هذا موافق لكلام ابن كثير –رحم الله الجميع–، وبعضهم يقول: إذا فرغت من عمل، يعني من صلاة أو من غزو وجهاد، فرغت من غزوة، فرغت من صلاة أو نحو ذلك فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}**، أو فانصب في العبادة يعني اشتغل بعبادة أخرى، فأنت حينما تخرج من عبادة فإنك تقبل على عبادة أخرى، فبعض هؤلاء فسره بالدعاء إذا فرغت من العبادة، جاء هذا أيضًا عن جماعة كقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي، فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في

١٥- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان، برقم (٥٦٠).

١٦- رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب إذا حضر العَشاء فلا يعجل عن عَشائه، برقم (٥٤٦٥).

الدعاء، وهذا أيضًا جاء نحوه عن مجاهد في رواية أخرى غير ما ذكره ابن كثير، وأخص منه في المعنى –يعني إذا فرغت من صلاتك– ما جاء عن الشعبي يقول: إذا فرغت من التشهد، يعني أن هذا موضع للدعاء، فرغت من صلاتك بقي عليك التسليم، فهنا كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه))[١٧]، فيكون ذلك من محال الدعاء في الصلاة بعدما ينتهي من التشهد والصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– والتعوذ من الأربع التعوذ من المأثم والمغرم عند ذلك يدعو فهذا معنى، وجاء عن ابن مسعود –رضي الله عنه–: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، هذه الأقوال في ظاهرها أنها أقوال مختلفة ولكن لو قيل: إن ذلك جميعًا يدخل في معنى الآية، وإن هذه أشبه ما تكون بالأمثلة التي تصدق عليها هذه الآية، فيحمل ذلك على العموم، فهنا لم يحدد أمرًا يفرغ منه، وإنما حذف المتعلق، قال: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} فرغت من ماذا؟ ما قال: من الصلاة، ما قال: من الغزو، ما قال: من العبادة، {فَإِذَا فَرَغْتَ} والفراغ "فإذا فرغت" يقتضي أنه كان في شغل، هذا الشغل يحتمل أن يكون صلاة، ويحتمل أن يكون عبادة أخرى كالغزو مثلاً أو نحو هذا "فانصب"، ولهذا فإن الآية تحمل على العموم؛ لأن حذف المقتضى يدل على العموم، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} ما قال: فانصب في الدعاء أيضًا، ولا قال: انصب في قيام الليل، فيحمل أيضًا على أعم معانيه مما يصلح لهذا، وهكذا رجح ابن جرير –رحمه الله– أن المقصود العموم، إذا فرغت من عمل من الأعمال فانصب بالشروع في غيره، وعلى هذا مشى ابن عاشور، يعني إذا فرغ من عمل شرع في آخر، يكون المؤمن دائمًا ليس عنده وقت فراغ، هو دائمًا مشغول إما في صلاة أو جهاد أو غزو أو في علم أو في ذكر ودعاء أو غير ذلك، ليس عنده فراغ لا يحط رحله إلا في الجنة، ولا يتوقف ولا يفتر، فهو دائم العبادة والاشتغال، وهو على فراشه مأمور أن يذكر الله –تبارك وتعالى–: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ} [سورة النساء:١٠٣] ما ينتهي من شيء وإلا ويدخل في غيره {فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ} دائمًا هكذا أعمال متتابعة فلا يوجد وقت فراغ وعطلة من الأعمال الصالحة من الدعوة إلى الله، من أعمال البر القاصرة أو المتعدية، المؤمن في شغل دائم حتى يلقى الله –عز وجل–: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [سورة الإنشقاق:٦] فالكل يغدو، ولكن هذا الغدوّ يختلف ويتفاوت غاية التفاوت، فهذا يوبق نفسه، وهذا يعتقها بحسب عمله، وهؤلاء الناس يكدحون ويعملون في سيرهم إلى الله –تبارك وتعالى– هذا بالمعاصي وهذا بالطاعات، هذا بالتفريط وهذا بالجد والاجتهاد، ثم يلاقونه فيوافيهم بأعمالهم، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} هذه حال المؤمن دائمًا، وهذا شعاره، وهذا ديدنه، وهذه صفته التي يكون عليها في ليله ونهاره، في حال الصحة وحال المرض، والنشاط والفتور، لا ينقطع، قد يضعف العمل ويكون له فترة ولكنها لا تفضي به إلى التضييع والانقطاع والترك والإهمال.

لاحظ أنه قال: إذا فرغت ولم يقل: فاعمل، قال: فانصب، وهنا قال: **وأخلص لربك النية والرغبة** {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} أخلص لربك النية، يعني لا ترغب إلا إليه، فلا تكون رغبتك لأحد سوى الله –تبارك وتعالى–، ولا تطلب حاجتك إلا منه، ولا تعلق قلبك ولا تعول في جميع الأمور إلا عليه، لا تعلق قلبك بالمخلوقين أن

١٧– رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، برقم (٨٣٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، برقم (٤٠٢).

يعطوك، أن يمنحوك، أن ينفعوك، أن يدفعوا عنك، اجعل الرغبة إلى الله، فإذا كان المؤمن بهذه المثابة يعمل دائمًا وينتقل من عمل لآخر كلما فرغ من عمل اشتغل بآخر فهو دائم العمل، وراغب في الوقت نفسه إلى الله لا يلتفت إلى المخلوقين فهذا عنوان السعادة، إذا كان العبد بهذه المثابة ووصل إلى هذه المنزلة فهو أسعد الناس، وأكثر الناس طمأنينة وراحة، ويكون يملك كنزًا لا يقادر بثمن من الرضا، والقناعة، والإقبال على الله، وعدم تعلق القلب بالمخلوقين، فلا يتشتت قلبه ولا يتشوش، فإنّ تعلق القلب بالمخلوق يشوش فكره، ولا يعود منه إلا بالخيبة -والله المستعان-، والقرآن مليء بالهدايات في هذا المعنى الكبير في هذه الجملة اليسيرة القصيرة، وهي تحمل منهجًا في الحياة يكون عليه أهل الإيمان **{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}**، فأمّا من كان في تفريط وضعف وقلبه معلق بهذا وذاك، يرجوهم وينتظر عائدة هؤلاء الناس هذا يعطيه وهذا يدفع عنه، ويحاول أن يصل إلى مطلوبه عن طريق هؤلاء الناس بكل طريق مستطاع، فلا يترك سبيلاً ولا أحدًا ولا صغيرًا ولا كبيرًا إلا كلمه فيكون فقره إلى الخلق وليس إلى الخالق، فهذا ذل، والله المستعان.

وأحيانًا يكون مع هذا وهو الغالب اتكال على هؤلاء المخلوقين، وكأن النفع والدفع والضر كله بأيديهم، وأكثر من هذا أن بعض الناس يخطط لهذا من وقت مبكر، وما علم أنه يخطط للذل الأكبر، يعني بعض الناس قد يدخل أولاده وهم صغار في أولى ابتدائي في مدارس فيها أولاد الكبراء ويدفع الأموال، ولربما يقترض ويتحمل شططًا، لماذا تفعل ذلك؟، هو بزعمه من أجل أن هؤلاء الأولاد في المستقبل سيكون لهم شأن، وإذا كانوا زملاء دراسة لولده فسيذكرونه في يوم من الدهر، بعض الناس هكذا يخطط، هذا أمر حقيقي واقع، فيدخل ولده مدرسة تكاليفها بالغة، ويضعه فيها من أجل أن يكون هؤلاء في المستقبل زملاء دراسة، فيُذكر **{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}** [سورة يوسف:٤٢] وهؤلاء ما علموا أنهم بذلك حينما يفعلون بأولادهم هذا فهم يتسببون لهم بأنواع العلل، والأوصاب والأمراض النفسية والاجتماعية فهم مهما حاولوا لن يستطيعوا أن يجاروا هؤلاء، ولو أعطاهم ما عنده كل ما عنده وما عند قراباته، وأهله لن يستطيعوا أن يجاروا هؤلاء أصلاً في نفقاتهم وفي تصرفهم في الأموال، فهو لن يستطيع وهو يحاول أن يحاكيهم وأن يجاريهم لن يستطيع أن يأتي بمثل ما يأتون به من المظاهر والمراكب، ولن يستطيع أن يسكن مثل ما يسكنون فيه من الدور والقصور وما إلى ذلك، لن يستطيع، فهو يبقى في حرج دائم، فيشعر بأنه صغير ضئيل فيبدأ يتحسر مع ضعف الإيمان وقلة الثقة بالله -عز وجل-، وقلة معرفة الرب -تبارك وتعالى-، ويظن أن كل شيء هو هذا الأمر الدنيوي، فيتحسر على حاله قد يكون أبوه بالنسبة للآخرين في حال من الغنى إلى آخره لكن بالنسبة لهؤلاء قد يكون فقيرًا، فتجد هذا الولد دائم التحسر دائم الشعور بالدون والنقص، فهذا قد يحمله على أمور إما كسب المال بطرق غير مشروعة، فهو يتلهف على هذا المال، ويحرص عليه، أو اللجوء إلى أمور أخرى من الكذب والتشبع بما لم يُعطَ، فيتحدث عن أمور لا حقيقة لها، أنه يسكن في قصر وصفه كذا وكذا، وفيه كذا وكذا، وعندهم من الخدم كذا وكذا، وأنهم يملكون من السيارات والمراكب كذا وكذا، وعندهم من الأموال كذا، وأن أباه يعمل في كذا وكذا، وعنده من الشركات والمؤسسات والعقارات وما إلى ذلك، ويوقعه في حرج، وهذه من الأخطاء التربوية القاتلة التي يظن صاحبها أنه يحسن التدبير وهو في غاية السوء في تدبيره، فيقتل هؤلاء الأولاد ويجني عليهم -والله المستعان-، وذكرت في بعض المناسبات مثالاً تشكو منه امرأة بعد سنين من

التشبع بما لم تعطه، زميلاتها صديقاتها ممن لهم شأن وأهل جدة وغنى، وهي امرأة تعيش على الكفاف فهي تدرس مع هؤلاء في الجامعة، وتصاحب وتخالط وتصادق هؤلاء، ولا تجد ما يجدون فكانت تتشبع دائمًا بما لم تعط، وتكذب، وامتهنت ذلك حتى كادت أن تصدق نفسها، المشكلة التي وقعت تقول: إن هؤلاء صارت إحداهن تصر على طلب تحديد موعد من أجل خطبتها لأخيها، ويريدون أن يأتوا بالبيت، تقول: وبيتنا في حي شعبي، وأبي بائع خضار، ونحن نحرج كثيرًا أنا وإخوتي من هذه المهنة لأبي، ولكننا لا نجد سبيلاً إلى ما نحتاج إليه من دنيانا إلا بهذا الطريق -هذه المهنة-، وإلا لمنعناه من ذلك، فتقول: الآن إذا جاءوا كيف سيأتون بهذا الحي الشعبي، وهذا البيت الصغير، وإذا عرفوا مهنة أبي وأني في هذا العمر -في هذه السنين- أقول لهم شيئًا آخر تمامًا؟، هذه نهاية الكذب، والتشبع بما لم يعط، وكون الإنسان يبحث عن مثل هذا اللون من المعاشرة، وهو لا يستطيع المحاكاة، والله المستعان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: قوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}**، فقال: "شرح الله صدر رسوله أتم الشرح، ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجعل لأتباعه حظًّا من ذلك".

لاحظ الكلام هنا الآن "وجعل لأتباعه حظًّا من ذلك" هذا بناء على أصل، الشاطبي -رحمه الله- ذكر قاعدة في الموافقات بأن كل ما أعطاه الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- فالأصل أن لأتباعه حظًّا ونصيبًا من ذلك بقدر اتباعهم، يعني حينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[١٨]، يقول: هذا ليس له فقط بل أيضًا لأتباعه بقدر متابعتهم له.

وقال -رحمه الله-: "وجعل لأتباعه حظًّا من ذلك، إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب اتباعهم له، فأتبعُ الناس لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أشرحهم صدرًا وأوضعهم وزرًا وأرفعهم ذكرًا، وكلما قويت متابعته علمًا وعملاً وحالاً وجهادًا قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدرًا، وأرفعهم في العالمين ذكرًا، وأمّا وضع وزره فكيف لا يوضع عنه ومن في السماوات والأرض ودواب البر والبحر يستغفرون له؟، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، كما أن أضدادها متلازمة، فالأوزار والخطايا تقبض الصدر وتضيقه، وتخمل الذكر وتضعه، وكذلك ضيق الصدر يضع الذكر ويجلب الوزر، فما وقع أحد في الذنوب والأوزار إلا من ضيق صدره وعدم انشراحه، وكلما ازداد الصدر ضيقًا كان أدعى إلى الذنوب والأوزار؛ لأن مرتكبها إنما يقصد بها شرح صدره، ودفع ما هو فيه من الضيق والحرج، وإلا فلو اتسع بالتوحيد والإيمان ومحبة الله ومعرفته وانشرح بذلك لاستغنى عن شرحه بالأوزار، ولهذا أكثر من يواقع المحظور إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهم والغم والضيق".

يعني أنه مثلاً يشرب الخمر أو يتعاطى المخدرات أو يفجر أو نحو ذلك يبحث عن الراحة والانشراح والسعادة.

١٨- رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا))، برقم (٤٣٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، برقم (٥٢١).

وقال -رحمه الله-: "ولهذا أكثر من يواقع المحظور إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهم والغم والضيق، وكثيرًا ما تبرد شهوته وإرادته ومع هذا يحرص على المعاودة تداويًا منه بزعمه كما أفصح عن هذا شيخ الفسوق أبو نواس بقوله:

وكأسًا شربتُ على لذةٍ *** وأخرى تداويتُ منها بها".

يعني بعدما يشرب يلتذ، ويشرب ويلتذ، ثم بعد ذلك يعقبه ألم وضيق وصداع وتأذٍّ، فيشرب أخرى فيقول: فداوني بالتي كانت هي الداء.

وقال -رحمه الله-: "فإذا حمل العبد الأوزار أوجب له ذلك ضيق الصدر وخمول الذكر، ثم خمول الذكر يوجب له ضيق الصدر فلا يزال المعرض عن طاعة الله ورسوله مترددًا بين هذه المنازل الثلاث، كما لا يزال المطيع لله ورسوله الذي باشر قلبه روح التوحيد وتجريده ومحبة الله ورسوله وامتثال أمره دائرًا بين تلك المنازل الثلاث، وإذا ثقل الظهر بالأوزار مُنع القلب من السير إلى الله والجوارحُ من النهوض في طاعته، وكيف يقطع مسافة السفر مثقلٌ بالحمل على ظهره، وكيف ينهض إلى الله قلب قد أثقلته الأوزار، فلو وضعت عنه أوزاره لنهض وطار شوقًا إلى ربه، ولانقلب عسره يسرًا، فإن ضيق الصدور وحمل الوزر وخمول الذكر من أعظم العسر.

وقال -رحمه الله-: "قوله تعالى: **{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}** قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي، فيقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله في كلمة الإسلام وفي الأذان وفي الخطب وفي التشهدات، وغير ذلك.

وفي هذا الدليل نظر؛ لأن ذكره -صلى الله عليه وسلم- مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسِله بالوحدانية، وهذا هو الواجب في الخطبة قطعًا بل هو ركنها الأعظم"(١٩).

وقال -رحمه الله-: "وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون: قوله تعالى: **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** فالعسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظة المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين، يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين".

هذا موافق لما سبق، والقاعدة هنا أشار إليها.

وقال -رحمه الله-: "وقوله تعالى: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}** فالنَّصَب التفرغ للعبادة والطاعة والرغبة إلى الله وحده وتجريد توحيده، فمتى قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به، وبدل عسره يسرًا".

سورة الضحى وسورة الانشراح يقول الشيخ: كأنهما سورة واحدة في الارتباط، طبعًا مسألة المناسبات بين السور هذه إنما يعتد بها إذا قيل: إن ترتيب السور توقيفي، بمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي دلهم على هذا وأرشدهم إليه، فإذا قلنا: إن الراجح أن ترتيب السور ليس بتوقيف، وإن كانوا استأنسوا بما كانوا يرون من قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- في غالب حالاته -عليه الصلاة والسلام-، لكن بناء

١٩- جلاء الأفهام، لابن القيم (ص:٣٦٨)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة - الكويت، ط٢، سنة النشر: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

أحكام على هذا مثل **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ}** [سورة الفيل:١-٤]، **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ}** [سورة قريش:١-٢] يعني فعلنا ذلك لكذا، هذا بناء على المناسبات بين السور فهذا فيه نظر -والله أعلم-، حتى قول من قال: وإن لم يكن ترتيب السور توقيفيًّا لكن الصحابة حينما راعوا هذا الترتيب لابد لمناسبات وارتباط معين، نقول: لكن لا يبنى عليه حكم، لا يقال: الله مثلاً فعل بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، لا نبني عليه مثل هذه الأشياء، هنا لاحظ الآن الآيات في السورتين **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [سورة الضحى:١-٢] قلنا: الموضوع لما ذكرنا موضوع سورة الضحى: ما أعطاه الله -عز وجل- وأولاه لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وما سيعطيه ويوليه، **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}** [سورة الضحى:٥]، فسورة الشرح في موضوعها مشابهة لسورة الضحى، فهنا يمتن الله -عز وجل- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}** [سورة الضحى:٦-٧]، ثم قال: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ}** فالموضوع الذي تدور عليه كل واحدة من السورتين متشابه، جاء عن بعض السلف كعمر بن عبد العزيز أنه عدهما -إن صح ذلك عنه- سورة واحدة، يعني كان يقرأ السورتين على أنهما سورة واحدة سورة الضحى وسورة الشرح، وهذا خلاف ما عليه العمل وما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما جاء عن الصحابة وسلف الأمة، وهكذا ما عليه الأمة عبر القرون والعصور، والصحابة -رضي الله عنهم- حينما أجمعوا على هذا المكتوب الذي كتبوه في المصاحف جعلوا سورة الضحى مستقلة، وسورة الشرح مستقلة، فهذا يشبه الإطباق، فمثل هذا المنقول إن صح فإن ذلك بعد اتفاقهم ولا عبرة به، لكن لا شك أن هناك تشابهًا في الموضوع، ومناسبة بين السورتين من جهة المضمون.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمسلمين.

يقول ابن كثير -رحمه الله-:

تفسير سورة والتين والزيتون، وهي مكية.

قال مالك وشعبة عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بـــ"التين والزيتون"، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه"[1] [أخرجه الجماعة في كتبهم].

بسم الله الرحمن الرحيم.

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين:١- ٨].

المراد بالتين: روى العوفي عن ابن عباس: "أنه مسجد نوح الذي على الجودي".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة من السور النازلة بمكة، وموضوعها الذي تتحدث عنه هو: الإنسان، حيث خلقه الله -عز وجل- خلقًا سويًّا، ثم بعد ذلك يتحول هذا الخلق السوي إلى حال أخرى، إلا من شاء الله.

فهذا الذي خلقه وصرفه هذا التصريف كل ذلك دال على قدرته وإحاطته بهذا المخلوق، وأن حكمه ماضٍ فيه، وأن قضاءه عدل فيه، وأن مرجعه إليه، وسيجازيه على أعماله.

إذا نظرت مثلاً في سورة الطارق: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}** [الطارق: ١-٤].

الله -تبارك وتعالى- محيط بهذا الإنسان، محيط بأعماله.

ثم بين له كيف كان مبدأ خلقه من ضعف: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}** [الطارق: ٥-١٠]، كل هذا يرجع إلى هذا المعنى.

١- رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الجهر في العشاء (٧٦٧) ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٤).

هذا الذي خلقه هذا الخلق، محيط به إحاطة كاملة، فهو قادر على إعادته ومجازاته، هنا: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}.

هذه الرواية التي ذكرها: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بـــ"التين والزيتون" فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا، أو قراءة منه"[٢].

في لفظ: "فصلى العشاء"[٣] هذا في سفر "فقرأ".

وفي بعض الروايات: أنه قرأ بها في الركعة الأولى في صلاة العشاء[٤] تخفيفًا على الناس.

وفي بعض الروايات: أنه قرأ بها في المغرب في الركعة الثانية[٥].

ومعلوم: أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في المغرب كثيرًا من قصار السور، وربما قرأ من قصار المفصل.

وربما قرأ من أواسط المفصل أو من طوال المفصل.

فعلى كل حال إن كان ذلك في صلاة العشاء فهذا فعله -صلى الله عليه وسلم- تخفيفًا؛ كما قرأ في الفجر في سفر: "إذا زلزلت" أعادها في الركعتين[٦].

وقال مجاهد: هو تينكم هذا.

{وَالزَّيْتُونِ} قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس.

وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون.

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} هنا يقول: عن ابن عباس من طريق العوفي: أنه مسجد نوح الذي علي الجودي.

هذه الرواية لا تصح عن ابن عباس -رضي الله عنه.

والجودي باعتبار أنه جبل رست عليه سفينة نوح، وهذا الجبل لا يعرف، وإنما يذكر في أخبار بني إسرائيل، ولو صح ذلك فإن مكانه غير معلوم، ولا يعرف جبل في الدنيا اسمه: " جبل التين"، وهذا خلاف المتبادر.

يقول: **وقال مجاهد**: "**هو تينكم هذا**"، وهذا القول لم يتفرد به مجاهد، بل قال به جماعة، كالحسن وعكرمة وإبراهيم النخعي والكلبي، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وهو الظاهر المتبادر، فالله خاطبنا بما نعهد وبما نعرف: "هو تينكم هذا".

---

٢ - المصدر نفسه.

٣ - رواه البخاري كتاب التوحيد، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، رقم (٧٥٤٦) ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٤).

٤ - رواه الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في القراءة في صلاة العشاء، رقم (٣٠٩).

٥ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلاة، باب ما يقرأ به في المغرب، رقم (٣٥٩٢).

٦ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين، رقم (٨١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٨٦٢).

والزيتون، **قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس.**

وقال مجاهد وعكرمة والآخرون –الذين ذكرت آنفًا-: إن التين هو التين المعروف، فكذلك الزيتون.

كل هؤلاء كالحسن والنخعي والكلبي، وهو اختيار ابن جرير: أنه هو الزيتون الذي نعرفه، الزيتون الذي تعصرون.

وهذا قول الأكثر من أهل العلم.

وينبغي حمل القرآن على الظاهر المتبادر.

والقَسم –كما هي القاعدة- لا يكون إلا بمعظم، فإذا أقسم الله –عز وجل- بالتين والزيتون؛ فهذا يدل على شرفهما من بين سائر الثمار، وكثرة المنافع لهما.

يعني التين إذا نظرت إليه، وما فيه من كثرة المنافع، يؤكل رطبًا، ويؤكل مجففًا، وليس فيه نوى، وهو سهل الهضم، سهل المضغ، بقدر المضغة، وسهل النبات أيضًا، ويوجد في محال ومواضع كثيرة من الأرض.

فهو يوجد في بلاد حارة، ويوجد في بلاد باردة، وله صنوف وأشكال وألوان، فهو كثير النفع.

وكذلك الزيتون لا يخفى، والله –تبارك وتعالى- وصف شجرته بأنها مباركة: **{يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ}** [سورة النور:٣٥]، وهذه البركة جعلها الله –عز وجل- في هذه الثمار، كما جعلها في بعض البقاع، وجعلها في بعض الأوقات، وجعلها في بعض الذوات.

والبركة من الله –تبارك وتعالى-، فتطلب منه، وأيضًا يحصل لمن لابس هذه المواضع من البركة ما شاء الله، ولذلك ماء زمزم ماء مبارك، فيشرب الإنسان منه.

وهكذا التين والزيتون، وهكذا إذا سكن الإنسان في بقعة مباركة، مثل أرض الشام، فإنها كثيرة الخيرات، كثيرة البركات.

وبعضهم يفسره بغير ذلك، جاء عن بعض السلف كالضحاك أن التين هو المسجد الحرام، والزيتون الأقصى، وهذا لا دليل عليه.

وابن زيد يقول: إن التين هو مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس.

وقتادة يقول: التين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس.

وكل هذا لا دليل عليه، وهو خلاف الظاهر المتبادر، لكن يحتمل أن يكون المراد: أن الله –تبارك وتعالى- أقسم بالتين والزيتون فقط، ويحتمل أن يكون المراد أيضًا مع الثمر الشجر، شجر التين والزيتون.

ويحتمل أن يكون المراد بذلك المنابت، أو أن تكون المنابت داخلة فيه، يعني يكون الإقسام بالتين والزيتون مع متعلقه من المحل الذي ينبت فيه.

فالتين والزيتون هذه يمكن أن تشير إلى مواضع، فيكون هنا لو قلنا مثلاً لو صححنا أو أردنا أن نوجه هذه الرواية المروية عن ابن عباس –ولا تصح- فبعضهم يقول: هذا إشارة، أو إقسام بمواضع الشرائع الأربع، فالتين باعتبار –هذا لو صححنا الرواية عن ابن عباس- أن موضع الجودي إشارة إلى شريعة نوح –صلى الله عليه وسلم-، وهو أول رسول إلى أهل الأرض، وأول نبي هو آدم –صلى الله عليه وسلم-، فيكون هذا إشارة إلى هذه الشريعة.

والزيتون شريعة موسى –صلى الله عليه وسلم–، وأما عيسى –صلى الله عليه وسلم–، فجاء مكملاً لها، ولم يبعث بشريعة خاصة، كما هو معلوم.

وعلى هذا التقسيم: يكون الزيتون إشارة لعيسى –صلى الله عليه وسلم–، والطور لموسى –عليه الصلاة والسلام–، وهذا البلد الأمين للنبي –عليه الصلاة والسلام.

وكثيرون يجعلون ذلك على ثلاثة أنحاء وليست أربعة، يقولون: "والتين والزيتون" هذا إشارة إلى الشام التي هي مبعث الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–، ومنهم عيسى –صلى الله عليه وسلم.

"وطور سينين" هذا إشارة إلى موسى –عليه الصلاة والسلام.

"وهذا البلد الأمين" مكة إشارة إلى محمد –عليه الصلاة والسلام.

فيقولون: هذه الآيات تشير إلى ذلك.

وإذا حملنا هذا على المعاني المتبادرة المعروفة، وقلنا: والتين والزيتون: النبات المعروف أو الثمر المعروف، فلا يمنع بعد ذلك أن تكون هذه الأقسام مشيرة إلى هذه المحال، ولكن ليس هذا هو المعنى لهذه الألفاظ، وإنما يفسر القرآن بالظاهر المتبادر، ولا يجوز العدول عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه، هذا أصل وقاعدة.

{وَطُورِ سِينِينَ} قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى –عليه السلام.

{وَطُورِ سِينِينَ} الطور هو: الجبل، هذا معروف، لكن ما ذكر بعده "سِينِينَ"، هل هذه اللفظة عربية في أصلها أو أعجمية بناء على أنه يوجد في القرآن ما يسمى بالمعرَّب، يعني كلمات أصلها أعجمية؟

وهذه ألفاظ ادُّعي فيها ذلك، والدعاوى فيها متفرقة، تجد في اللفظة الواحدة غالبًا من يقول: هذه حبشية، والآخر يقول: رومية، والثالث يقول: فارسية، وهي لفظة واحدة.

والعلماء لهم كلام في هذا قد مضى في بعض المناسبات، فمنهم من ينكر وجود المعرَّب أصلاً، وذكرت من قبل القسمة الثلاثية في هذه المسألة، وأن القرآن بالاتفاق لا يوجد فيه شيء من التراكيب بغير اللغة العربية.

والله –عز وجل– أخبر أن هذا القرآن: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [الشعراء: ١٩٥].

فلا يوجد فيه تركيب، يعني لا يوجد جملة مثلاً، أو شبه جملة، لا لفظًا ولا تقديرًا باللغة الأعجمية، لا يوجد، هذا القسم متفق عليه.

القسم الثاني: وهو الأعلام، أسماء الأعلام، فهي ينطق بها بحسب الألفاظ التي عُبر بها عن هذا العلَم بأي لغة كانت، هذا الأصل، فأكثر أسماء الأنبياء الموجودة في القرآن ليست عربية، كما هو معلوم، ولكن العرب تتصرف في الأسماء الأعجمية بما يتفق مع ألسنتها، فتتصرف فيها بما يليق بلغاتها، لغات العرب وألسنتها، فلا ينطقون به نطق الأعاجم، وإنما القاعدة عندهم: "أعجمي فالعَبْ به" فيتصرفون فيه.

القسم الثالث: هو الذي فيه الخلاف، وهو: المنكَّر، ألفاظ النكرة إستبرق، سندس، مشكاة، وما شابه ذلك من الألفاظ المنكَّرة، ليست أعلامًا مثل أسماء: إسماعيل، أو داود، أو إبراهيم، أو نحو ذلك، وليست تراكيب مثل: جاء زيد، أو نحو هذا، ولكنها ألفاظ منكَّرة، فهذه هل توجد أو لا توجد؟

بعضهم يقول: ليست الأعجمية أولى بها، الله أخبر بأن القرآن بلسان عربي مبين، فنحكم أنها عربية، فأولائك إن وجدت في لغتهم فقد أخذوها من العرب، فلماذا نعكس القضية؟!، أو أنها مشتركة بين اللغات، بين أكثر من لغة، إلى غير ذلك مما يقولون.

وهذه اللفظة: "طور" هو الجبل، و"سينين" هل هي عربية أو غير عربية؟ وما المراد بها؟

هنا يقول: قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى -صلى الله عليه وسلم.

الطور هو الجبل، أضافه لهذا الموضع، مثلاً "طور سيناء"، وبعضهم يقول غير هذا، ولا يظهر كل الظهور، والله أعلم.

لكن الطور هو الجبل، ولكن هل هو الجبل بإطلاق أو بقيد؟.

بعضهم كابن جرير يقول: هو الجبل ذو الشجر، هو الذي يقال له: الطور، وليس كل جبل، فلما أضافه هنا إلى "سينين" عرف أنه جبل خاص، يعني ليس أي جبل فيه شجر، وإنما هو جبل خاص، هو الذي كلم الله -عز وجل- عنده موسى -صلى الله عليه وسلم-، الجبل الذي في سيناء، وهذه لغة فيها: "سينين".

وإن كان بعضهم يقول: إن "سينين" تعني الحَسَن بلغة الحبشة، وهو جبل جميل، إما صورة؛ لما فيه من الشجر، وإما معنى؛ باعتبار أن الله كلم عنده موسى -صلى الله عليه وسلم- فصار له من المنزلة والشرف ما جمّله، إلى غير ذلك مما يقولون.

لهذا كان ذلك في البقعة المباركة، فأثبت الله -عز وجل- البركة لهذا الموضع.

وبعضهم يقول: إن هذه اللغة سريانية، بمعنى المبارك.

وهذه دعاوى تحتاج إلى إثبات، وإذا أُثبتت يُنظر هل يسلَّم بها أو لا.

فمن أهل العلم من يقول: لغة العرب أولى، فهم أخذوها، أو أنها مشتركة بين اللغات.

وكنت أسأل الطلاب في الجامعة الإسلامية الذين جاءوا من بلاد كثيرة عما يُذكر أحيانًا: هذه رومية، وهذه فارسية، وهذه حبشية، فكنت أسأل الأحابيش، وأسأل الفرس، وأسأل: هل تعرفون هذا في لغتكم؟

يقولون: هذا لا يُعرف، ما وجدت لفظة عرفوها في لغتهم.

لكن طبعًا يرِد على هذا واردات: أن هناك لغات قديمة لهم، وهناك لغات جديدة، الآن الفارسية القديمة، والفارسية الجديدة، الرومية القديمة، والجديدة، العبرية القديمة، والجديدة، هذا موجود.

وبعضهم يقول: ربما هذا كان في اللغة القديمة التي اندثرت، والآن تغيرت بعض الألفاظ في اللغة الجديدة.

وبعضهم يقيد هذا بقيد إضافة إلى ما ذكره ابن جرير، يعني ابن جرير قال: الجبل ذو الشجر، وبعضهم قيده بقيد آخر قال: الجبل ذو الشجر المثمر، وهذا منقول أيضًا عن بعض السلف، كمجاهد، وبعضهم يقول: هذه اللغة أصلاً لغة نبطية، هذه دعوى ثالثة، على القول بأنها غير عربية، وأن "سينين" معناه الشجر في لغتهم، كل هذا يحتاج إلى إثبات، ولكن على كل حال "طور سينين" قيده هنا بهذا القيد الذي دلت عليه الإضافة: **{طُورِ سَيْنَاء}** [المؤمنون:٢٠].

فهذا في موضع معروف، فصار ذلك محددًا معلومًا.

جاء في قراءة غير متواترة عن بعض السلف، تُروى عن بعض الصحابة والتابعين كعمر وغيره -رضي الله تعالى عنهم- أنهم قرءوا: {طور سيناء}.

وهنا انتهت هذه الاحتمالات من أنها لغة غير عربية، إلى آخره.

أولائك يقولون: "سينين" يعني الحَسَن، مع أن الحَسَن في لغة الحبشة يقال: سَنَاه، وسَنَه، جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أم خالد، هذا سَنَاه))[7] في لغة الحبشة؛ لأنها جاءت من الحبشة وهي صغيرة، ولما كساها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هذا سناه)) يعني هذا جيد، يخاطبها ويداعبها بلغة لربما عرفتها، أو عرفت بعضها: ((هذا سناه)) وليس "سينين".

{وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}[التين: ٣] يعني: مكة، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النخعي وابن زيد وكعب الأحبار، ولا خلاف في ذلك.

وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيًّا مرسلا من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي: بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم.

والثاني: طور سينين، وهي: طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران.

والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم.

قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء -يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران -وأشرق من ساعير- يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى-، واستعلن من جبال فاران -يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، فذكرهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

{وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ} [التين: ٣].

الأمين فعيل، وفعيل تأتي مرادًا بها معنى: فاعل، وتأتي مرادًا بها معنى: مفعول.

هنا يحتمل هذا البلد الأمين يعني الآمن، جعلنا حرمًا آمنًا، يأمن الناس فيه، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** [الحج:٢٥].

ويحتمل أن يكون بمعنى: مفعول، يعني أنه مأمون.

وابن جرير -رحمه الله- يفسره بالآمن، يعني من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم: **{أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا}** [القصص:٥٧].

فالله -تبارك وتعالى- امتن عليهم بهذا، **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}** [قريش:٣- ٤].

وقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤] **هذا هو المقسم عليه.**

---

٧ - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب الخميصة السوداء، رقم (٥٨٢٣).

يذكر ابن القيم -رحمه الله- وجوهًا في الترجيح ومناقشات، فيذكر معانيَ لطيفة وجميلة، يصعب اختصارها، وقد ذكرت لكم من قبل أن من الأمور التي تنمي الملكة في التفسير النظر في كلام شيخ الإسلام، وابن القيم، وكثرة القراءة في تفسير ابن جرير والشنقيطي وابن كثير.

يقول ابن القيم -رحمه الله- معلقًا على قوله تعالى: **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}** [التين:١- ٣]: "فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة"[٨].

تأمل ابن القيم -رحمه الله- يشير إلى هذه المحال والمواضع.

وقال -رحمه الله-: "فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما، وهو أرض بيته المقدس؛ فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً"[٩].

فتأمل الجمع بين هذه المعاني، حمله على الظاهر المتبادر: الثمرتين، وأن الشجرتين داخلتان فيه للملازمة، الثمر والشجر، وأن ذلك يقتضي محلا توجد فيه هذه الأشجار، فهنا هذه مواضع هؤلاء الأنبياء الثلاثة -عليهم الصلاة والسلام- أو الشرائع الثلاث.

وقال -رحمه الله-: "وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار، لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، لا عَجْم له، وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم، ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة، الحرارة والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المُفرِّحات"[١٠].

يقصد ابن القيم -رحمه الله- أن التين من المفرِّحات؛ فهناك أشياء يسمونها: "المفرحات" وقد ذكرتها في درس بعنوان: "وصيتي لكل محزون".

فهناك أشياء تؤكل "مفرحات" تسبب الإجمام؛ مثل التلبينة لأهل الميت، فهي تخفف الحزن، وهناك أيضًا التُّرُنْج، والتين، فهذه الأشياء يقال لها: مفرحات، كذلك: رائحة الطيب، من جملة المفرحات، فيحصل بها انشراح وسرور، وإجمام بالنفس.

وقال -رحمه الله-: "وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبًا ويابسًا.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يُخرج ثمرًا يَعصر هذا الدهن، الذي هو مادة النور، وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باق على مر السنين

---

٨ - التبيان في أقسام القرآن (٤٣).

٩ - المصدر السابق.

١٠ - المصدر السابق (٤٣-٤٤).

المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما"[١١].

فتأمل توجُّه القَسم إلى ثلاثة أشياء: الثمر توجه إليه القسم ابتداءً، والشجر، والمنبت.

وقال -رحمه الله-: "وهو مَظْهَر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة، مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم، وترقى في هذا القَسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه"[١٢].

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء، حسنها.

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أي: إلى النار، قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد، وغيرهم.

ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

وقال بعضهم: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أي: إلى أرذل العمر.

وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: "من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر" واختار ذلك ابن جرير.

ولو كان هذا هو المراد لما حسُن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه؛ كقوله تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:١- ٣].

قوله -تبارك وتعالى-: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** اللام هذه داخلة على جواب القسم، أكده بـــ"اللام" وبـــ"قد".

و"قد" إذا دخلت على الفعل الماضي فإن ذلك يفيد التحقيق: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}.**

وكلام أهل العلم في هذا الخلق بهذه الصفة: **{فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** يدور على معنيين: هل المراد به في الصورة الظاهرة؟

وهذا الذي عليه الأكثر سلفاً وخلفاً: **{فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** في الصورة الظاهرة.

المعنى الآخر: قال به قلة من المفسرين -مع أنه معنى معتبر- وهو: أن المراد بذلك الصورة الباطنة، أو الحال الباطنة، أي خلقه الله على هذه الفطرة، خلقه الله -عز وجل- بهذه الصفة: يعقل؛ وعلى الفطرة.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} التقويم هو جعل الشيء ذا قوام.

---

١١ - المصدر السابق (٤٤).

١٢ - المصدر السابق.

يعني جعْله مستقيمًا معتدلاً، خلقه الله بهذه الصفة، فهو ذو اعتدال واستواء.

هذا الاعتدال وهذا الاستواء هل هو في صورته الظاهرة أو في صورته الباطنة؟

يقول ابن كثير -رحمه الله-: إن الله خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء، حسن الأعضاء، ويقصد بذلك الأمر الظاهر، رأسه إلى أعلى، منتصب القامة.

الحيوانات رأسها إلى الأرض، تأكل بفمها مباشرة، هذا الإنسان رأسه -أشرف الأشياء فيه- إلى أعلى، مرتفع، يأكل بيده.

فهو أحسن هذه المخلوقات التي نشاهدها، أحسنها هيئة وصورة وخلقة، جعله الله -عز وجل- بهذه الصفة، فكرمه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}.

فابن كثير -رحمه الله- يرى أنها الصورة الظاهرة.

وهذا -كما سبق- قول الأكثر؛ يقولون: هذه الحيوانات مُكبّة على وجوهها، وجوهها إلى الأرض، بخلاف هذا الإنسان، تأكل بأفواهها، ويأكل بيده.

خلقه خلقًا مستويًا معتدلاً، هذا المعنى الذي يذكرونه هو معنى صحيح، يعني في صورته الظاهرة، فميزه الله -تبارك وتعالى- بهذا.

{خَلَقْنَا الْإِنسَانَ} فهذا الخلق يدخل فيه خلق الصورة؛ فإن الخلق يأتي بمعنى: الإيجاد، ويأتي بمعنى: التصوير، ويأتي بمعنى: التقدير.

فأعطاه الله -عز وجل- صورة لم يعطها شيئًا من هذه المخلوقات، وجعله في حال من التكريم، مازَ هذه الدواب والبهائم، فشرفه الله -تبارك وتعالى- عليها.

والمعنى الآخر: وهو الجانب المعنوي يدخل فيه -والله تعالى أعلم-، فقد أشار إلى ذلك بعض أهل العلم، كابن العربي وابن عاشور.

وخصه ابن عاشور بهذا، أي بالأمر المعنوي.

ولكن الآية أعم من ذلك: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} فلم يقل: في صورته الظاهرة، ولم يقل: في الصورة الباطنة، وإنما أطلق ذلك.

فخلقه في أحسن تقويم ظاهرًا وباطنًا.

فالله -تبارك وتعالى- جعل فيه من هذه الأوصاف؛ من العلم والعقل والإرادة، ويتكلم، وجعله يسمع ويبصر، وأعطاه من التدبير والتعقل في الأمور ما لم يعطِ هذه المخلوقات.

ولو قيل: إن هذا يشمل الظاهر والباطن، أي خلقه في صورة ظاهرة خلقًا سويًّا معتدلاً، كما وصف، وفي الباطن على الفطرة؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)) [١٣].

فهو في أحسن تقويم، خلقًا مستويًا معتدلاً، ثم بعد ذلك يحصل التحول.

---

١٣ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥).

تأمل ما ذكر بعد ذلك: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} قال: أي: إلى النار، قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم.

وهذا قال به آخرون؛ كما ذكر ابن كثير –رحمه الله–، وممن قال به قتادة، وهو الذي اختاره ابن القيم –رحمه الله.

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أي إلى النار، بعد هذا الخلق السوي يكون أسفل سافلين، هذا بالنسبة للكافر الذي لم يهتدِ بهدى الله –تبارك وتعالى–، فكان مرده بعد هذا الخلق الذي كرمه الله –عز وجل– به إلى حال في غاية السوء، وهي النار، وهي: {أَسْفَلَ سَافِلِينَ}.

وهنا يوردون سؤالاً، وهو: إذا كان المقصود بـــ{أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أسفل النار؛ فإن المنافقين هم الذين في الدرك الأسفل من النار؟

فبعضهم يقول: النار هي أسفل سافلين، وليس المقصود بالضرورة الطبقة السفلى منها.

وبعضهم يقول: لا مانع أن يدخل مع المنافقين غيرُ المنافقين من الكفار، الذين عظم كفرهم، فالنار دركات –أعاذنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منها.

فهذا الذي قالوه: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أي إلى النار، أو أن بعض الأفراد من هؤلاء يصل إلى أسفل النار كالمنافقين مثلاً، يقول ابن كثير: "ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار، إن لم يطع الله ويتبع الرسل".

فتأمل: ولهذا قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فهو يعلل، يعني هؤلاء لماذا قالوا: {رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} إلى النار؟

قالوا: لأن القرينة هي ما بعده: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فلو كان المعنى رددناه إلى أرذل العمر –الهرم– فالكل يصير إلى ذلك المؤمن والكافر على حد سواء، إذا كان ممن طال عمره، إذا أراد الله له البقاء، فقالوا: ما في فرق بين المسلم والكافر، يرد إلى أرذل العمر، فكيف استثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

فالعلماء إزاء هذا الاستثناء توجهت أقوالهم إلى قولين: فبعضهم لجأ إلى هذا، قالوا: إلى النار، من أجل الاستثناء.

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} إلى النار، إلا أهل الإيمان، والعمل الصالح، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً؛ أي يرد الإنسان إلى أسفل سافلين أي إلى النار، إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، فالاستثناء متصل.

وآخرون قالوا: إن "أسفل سافلين" ليس المقصود به النار، وإنما المقصود به أرذل العمر.

كيف أجابوا عن: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}؟.

بعضهم يقول: الاستثناء متصل أيضًا.

كيف يكون متصلاً: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}؟.

قالوا: هذا الإنسان في وقت قوته وشبابه يعمل ويكتسب، وفي أحسن تقويم، ثم يرد إلى أرذل العمر، إلا أهل الإيمان {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} بمعنى أن ما كانوا يعملونه حينما كانوا في حال القوة والجلد يجري لهم

حينما يصيرون إلى حال العجز والضعف عن العمل في أرذل العمر، الهرم والشيخوخة، فأعمالهم تجري بخلاف غيرهم، فابن مسعود -رضي الله عنه- مرض فبكى، فسئل عن سبب بكائه، فأخبر أن هذا المرض قد حل به في وقت هو في حال من الفتور، يعني جاءه المرض وهو في حال فتور من العمل الصالح، يعني ما كان في وقت ذروة ونشاط، فكان يتمنى أن هذا المرض جاءه وهو في وقت قوة ونشاط في العمل الصالح، بحيث يجري له وقتَ المرض ما كان يعمله، فلو واحد جاءه المرض وهو فقط مقتصر على الفرائض والسنن الرواتب يجري له هذا فقط، لكن لو واحد جاءه المرض وهو يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويقوم الليل، ويقرأ كل يوم سبع القرآن، وجاءه مرض، فمثل هذا ولو طال مرضه لسنين، ولا يستطيع أن يعمل حتى مات يجري له ما كان يعمله.

فهؤلاء يقولون: إذا صار إلى حال الهرم والضعف والعجز والقعود عن العمل فإن عمله يجري: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قالوا: فهنا استثنى، قال: {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} باعتبار أنه غير مقطوع، أو منقوص -كما سيأتي.

وبعضهم قال -ممن قالوا: إن المقصود الهرم وأرذل العمر-: الاستثناء منقطع، يعني المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، وإنما هو بمعنى: لكن، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون، فسروه بهذا، أنه استثناء منقطع.

وقال بعضهم: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} إلى أرذل العمر، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة، وأيضًا قال به آخرون كالنخعي -إبراهيم النخعي-، حتى قال عكرمة: "من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر".

جمع القرآن يعني حفظه.

وهذا منقول عن بعض السلف، نُقل عن ابن عباس -رضي الله عنه-، فمن حفظ القرآن لم يصبه الخرف.

وبعض أهل العلم يقول: هذا معروف أيضًا بالتتبع والاستقراء، أي: لا يُعرف أن أحدًا من أهل القرآن صار إلى فقد العقل والخرف الذي يصيب الإنسان حينما يتقادم به العمر.

وهذا يصيب الإنسان أحيانًا في أوقات مبكرة، الداء الذي يسمونه: "الزهايمر" قد يصيبه وهو ابن ستين، أليس كذلك؟

والإنسان حينما يتقادم به العمر تضعف قواه، ويضعف تجدُّد الخلايا في الجسم في الجلد وفي غير الجلد، لا يكون كالشباب، ولذلك تجد الجلد يبدأ بالذبول والضعف، والتغير، يتغير لونه، يتغير ملمسه، يتغير.. وهكذا يضعف البصر، ويضعف السمع، وتضعف قواه، والله المستعان.

وما جعل الله -عز وجل- فيه من الغدد والإفرازات، وحرارة الغريزة كل هذا يضعف ويتلاشى شيئًا فشيئًا، وخلايا المخ حينما تتلف وتموت فإنها لا تتجدد، فتجد أن بعض هذه الخلايا يصيبها التلف، ثم بعد ذلك يُخلِّط الإنسان شيئًا فشيئًا، ثم بعد ذلك يبدأ يَسأل لا يعرف زوجته، ولا يعرف أولاده، فيصبح كالطفل الصغير أو أشد، كالطفل الذي له سنة، أو سنتان، لا يخرج، ويقفلون الأبواب، فإذا خرج فهو لا يعرف الطريق، ولا يعرف أهله، ولربما كان كالطفل يحتاج إلى رعاية، كالطفل تمامًا، ولا يميز ولا يدرك، ولا يستطيع الذهاب إلى الخلاء، ولا يعرف الخلاء، والله المستعان.

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} يقول ابن كثير: واختار ذلك ابن جرير، أي أنه يرد إلى حال أرذل العمر.

فابن القيم -رحمه الله- يوافق ابن كثير، وابن جرير يخالف هذا القول، وابن كثير يرد على هذا، فيقول: ولو كان هذا هو المراد لما حسُن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر:١-٣].

لكن ابن جرير يوجه هذا القول، ويوضح السر في اختياره له -أي أنه يرد إلى أرذل العمر- فيقول: هذا كله جاء في سياق معين، في سياق بيان قدرة الله -عز وجل- في الخلق، خلق هذا الإنسان، والتصرف فيه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}.

ويقول: إن الله -تبارك وتعالى- حينما يذكر ذلك فهو يحتج على هؤلاء المخاطبين بأمر يعرفونه، ويلزمهم بمقتضاه.

يقول: الذي تصرف في هذا الإنسان هذا التصرف، وهو محيط به، قادر عليه، جعله في أحسن تقويم، ثم يرد إلى أرذل العمر، هو الذي له الحكم المطلق، والتصرف المطلق، والملك، ونواصي الخلق بيده، وهو القادر على إعادته ثانيًا، فكيف يكذبون بيوم الجزاء والحساب، والله يتصرف في هذا الإنسان يخلقه هذا الخلق العجيب السوي المعتدل، ثم يرده إلى هذه الحال من الضعف؟، فالذي يتصرف فيه هذا التصرف قادر على مجازاته ومحاسبته وإعادته.

فابن جرير يقول: يحتج عليهم بأمر يعرفونه، ولو كان المعنى ثم رددناه إلى النار، فهم يكذبون بالنار، وما رأوا النار، يقول: فما يحصل لهم بذلك الإلزام، خلقه في أحسن تقويم ثم يرد إلى النار، وإنما يخاطبهم بشيء يشاهدونه ويعترفون به، ويقرون، ويرون هذه التحولات، مهما كان الإنسان في حال من القوة والشدة، أو مزاولة الرياضة، والمحافظة على قوام البدن وعافيته، فإن هذه هي النتيجة، وهي المصير، فهذا أمر يشاهده كل أحد ويعرفه كل أحد، بعد النضارة تتحول إلى شيء آخر، فهذا توجيه ابن جرير -رحمه الله-، وهو توجيه وجيه، فليس ذلك بمستبعد في المعنى، كما قالوا.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "وقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال، معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته -تبارك وتعالى- في قبضة من تراب، وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه، وصفات كماله، ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن، لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه، وعلى علمه وحكمته وعنايته بخلقه، بأن أرسل منها رسلا، أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه، ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين: منهم من أجاب، ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين، فذكر حال

الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين، والصحيح: أنه النار، قاله مجاهد والحسن وأبو العالية، قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "هي النار بعضها أسفل من بعض".

وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلبي وإبراهيم: إنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس، والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصًا بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: **{وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}** [الحج: ٥].

فجعلهم قسمين: قسمًا متوفى قبل الكبر، وقسمًا مردودًا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو -سبحانه- قابل بين جزاء هؤلاء، وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار، وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس، فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين، أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته، والاستدلال عليه.

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره، والتكلف البعيد له، فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس، وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة، فهذا -وإن كان حقًّا-، فإن الاستثناء إنما وقع من الرد، لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة، فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر.

وهذا ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئِهم وأميِّهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه -سبحانه- ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به وعصى رسله نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه، وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: **{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** [الانشقاق: ٢٤- ٢٥].

فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم"[١٤].

فابن القيم من عشرة أوجه يرجح هذا القول، والجواب عن هذه الأشياء التي يوردها لا يعجزون عنه، وتوجيه ابن جرير -كما سبق- هو توجيه قوي.

الآن في هذا المثال مثلاً، وفي أمثلة كثيرة: الذي يترجم معاني القرآن هو في الواقع يفسر، ثم ينقل ما فهم، فإذا جاء يترجم مثل هذا الموضع **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}**، ماذا سيقول؟.

سيقول: رددناه إلى النار؟ أو سيقول: رددناه إلى أرذل العمر؟

فهذا يحتاج إلى معرفة باللغتين المنقول منها وإليها، ويحتاج إلى بصر بالتفسير، ومهما يكن، فهذا الذي ينقله إنما هو فهمه، قد يصيب وقد يخطئ، هنا تأتي خطورة الترجمة، لو أتيت بعالم أو أتيت بلجنة من علماء، وأرادوا أن يمحصوا وأن يرجحوا فإن غاية ما هنالك أن هذا على أحد هذه الأقوال، يعني إن قالوا بهذا، أو قالوا بهذا.

والآخرون يرون أن القول هذا خطأ، ولذلك كانت الفكرة في القرن الماضي في أوائله لما كان الجدل الكبير في الترجمة، والردود والمناقشات، وكذا، الذين رجحوا القيام بأعمال ترجمة لمعاني القرآن ذكروا طريقة يخففون فيها من الأضرار، بحيث يُجعل القرآن في الأعلى، ثم يُجعل تفسير مختصر، عملوا تفسيرًا مثل التفسير الميسر باللغة العربية، ثم تُجعل الترجمة في أسفل ذلك، ويكتب عليها أنها ترجمة تفسير معاني القرآن، تكون الترجمة للتفسير، بحيث يفهم أن هذه الترجمة لهذا التفسير، وهذا هو فهم هذا المفسر، ترجمنا لك هذا التفسير، أي لا تقرأ على أن هذا هو كلام الله قطعًا، وأن هذا هو مراد الله بهذه الترجمة المنقولة، هذا فهم المفسر.

فكيف إذا كان الذي ينقل ويترجم أصلاً هو ضعيف علميًا، لا يفقه في التفسير شيئًا كما هو الغالب؟ كيف لو كان عنده ضعف في اللغتين والعجمة غالبة؟!.

وقوله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦] **أي: غير مقطوع -كما تقدم-.**

---

١٤ - التبيان في أقسام القرآن (٤٥- ٤٨).

الممنون هنا فسره بالمقطوع، أي أن أجرهم غير مقطوع، فعلى قول ابن كثير ومن وافقه: إن أسفل سافلين يعني إلى النار، أما أهل الإيمان فلهم أجر غير ممنون، يعني غير مقطوع في الجنة.

والآخرون الذين قالوا: إلى أرذل العمر، بالتوجيه الذي ذكرناه سابقا: أنه إلا الذين آمنوا بحيث يجري لهم العمل الذي كانوا يعملونه في وقت شبابهم ونشاطهم وقوتهم، فذلك لا ينقطع عنهم.

والممنون يأتي بمعنى: المقطوع، ويأتي بمعنى: المنقوص أيضًا، وهذا الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله- باعتبار أن ذلك هو الأكثر في الاستعمال، وأنه هو المتبادر، يقال: حبل مَنِين أي ضعيف، بهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، أي أجر غير منقوص.

وبعضهم كمجاهد والنخعي قالوا: غير محسوب، أي أجر كثير.

أما من فسر ذلك بالمنّة، أي من غير منٍّ فقالوا: إن المنّ تنغيص وتكدير، فهم يأتيهم أجر غير ممنون، فهذا وإن كان لفظ ممنون من حيث هو يحتمله إلا أن المنّة هنا هي منة الله -تبارك وتعالى- على عباده.

وهذه المنّة حاصلة، وليس فيها أدنى تكدير ولا تنغيص، **{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}** [الحجرات: ١٧]، ومنته -تبارك وتعالى- على أهل الإيمان في الدنيا وفي الآخرة واقعة لا إشكال في ذلك، لكنهم قصدوا أنه لا يحصل به المنّ الذي يتأذون به، وذلك إنما يكون بمنّ المخلوقين، قصدوا هذا، ولم يقصدوا منة الله، ولذلك الذين ردوا عليهم أحيانًا يردون بقوة وعنف بأن منّة الله حاصلة، وكيف يفسر بهذا المعنى؟!.

وهم لم يقصدوا أن الله لا يمنّ عليهم، هم يثبتون هذا، لكن قصدوا أنه لا يحصل به منّ، لا يحصل به تأذٍّ، وهذا من المخلوقين: **{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى}** [البقرة:٢٦٣].

ومن الأذى: المنّ: **{ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى}** [البقرة: ٢٦٢] هنا فرّق بينهما.

يقول: **{فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** فهو غير منقوص ولا مقطوع.

يقول ابن القيم: "قوله تعالى: **{فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب.

وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم، ويُذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية، قال هؤلاء: إن المنّة تكدر النعمة، فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه، وهذا القول خطأ قطعًا، أُتي أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل، فإن المنّة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق، وأما منّة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة، ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقية، قال تعالى: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [الحجرات: ١٧].

وقال تعالى: **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}**[الصافات: ١١٤-١١٥].

فتكون منَّة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة.

وقال لموسى: **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}**[طــه: ٣٧].

وقال أهل الجنة: **{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}**[الطور: ٢٧].

وقال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ}**[آل عمران: ١٦٤] الآية.

وقال: **{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ}**[القصص: ٥] الآية.

وفي الصحيح: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للأنصار: ((ألم أجدكم ضُلالًا فهداكم الله بي؟، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟))[١٥] فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمنّ.

فهذا جواب العارفين بالله ورسوله، وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منه، وإنما قبحت منة المخلوق؛ لأنها منة بما ليس منه، وهي منّة يتأذى بها الممنون عليه، وأما منّة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منّة يمنّ بها على من أنعم عليه..."[١٦].

ليس كل هؤلاء من القدرية، يعني الذين فسروا المنّ بالمن المعروف، فهم لا يقصدون منّ الله، وإنما يقصدون غير مكدر -كما في الدنيا- بمنّ المخلوقين، وإلا فالشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- مثلا من المعاصرين فسر ذلك بالمنّ المعروف، فهذا لا يمكن أن يقصد به منّة الله على عباده، لكن هذا النعيم كامل من كل وجه، ليس فيه تكدير، ومن ثَمّ لا يحصل لهم فيه التأذي، كما في الدنيا يكون عطاء المخلوق مع المنّ بصورة، أو بأخرى، فقوله: **{فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}**[التين: ٦] غير مقطوع، أو غير منقوص، وكما سبق ابن جرير حمله على معنى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير منقوص أيام هرمهم.

وأولائك قالوا: في الآخرة، في الجنة.

ثم قال: {فَمَا يُكَذِّبُكَ} يعني: يا ابن آدم، {بَعْدُ بِالدِّينِ} أي: بالجزاء في المعاد.

تأمل هنا قال: يا ابن آدم، ما يكذبك؟، الخطاب عممه لابن آدم، وبعضهم خصه بالكافر، فما يكذبك أيها الكافر بالدين؟.

وبعضهم وجه ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال بعض أصحاب كتب المعاني، كالأخفش والفراء، واختاره ابن جرير، باعتبار أن "ما" بمعنى: "مَن"، يعني فمن يكذبك بعد بالدين؟ من يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين؟

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} من يكذبك بعد هذا بالدين؟

قال: أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمتَ البداءة وعرفتَ أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟!.

وهنا "الدين" يفسر: بالجزاء، ويفسر: بالحساب، وهذا منقول عن جماعة من السلف، وهو اختيار ابن جرير.

تقول: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [الفاتحة: ٤] يوم الجزاء، والحساب، دِنَّاهم كما دانوا، جازيناهم كما فعلوا، كما تدين تدان، الجزاء من جنس العمل، كما تفعل، كما تعمل، كما تُجازِي تُجازَى.

١٥- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١).

١٦ - التبيان في أقسام القرآن (٤٨-٤٩).

وبعضهم فسر الدين هنا: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} [التين: ٧] بحكم الله، كما نقل عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما.

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} [التين: ٧] تأمل أنه قال بعدها: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين: ٨].

على قول ابن عباس: فما يكذبك بعد بحكم الله –تبارك وتعالى–؟، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين: ٨] الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: "قوله تعالى: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} [التين: ٧] أصح القولين: أن هذا خطاب للإنسان، أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب؟ ولو تفكرت في مبدأ خلقك وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك، وينشئك خلقًا جديدًا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

وأيضا فإن الذي كمّل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمِّل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تُنقل لدار هي أكمل من هذه، ويَجعل هذه الدار طريقًا لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك، وتقضي خلافه، قال منصور: قلت لمجاهد: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} [التين: ٧] عنى به محمدًا؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان!"(١٧).

تأمل الذين قالوا: عنى به محمدًا –صلى الله عليه وسلم– يمكن أن يوجه هذا باعتبار أن "ما" بمعنى "مَن"، فمن يكذبك بعدُ بالدين؟.

قال ابن القيم: "وقال قتادة: الضمير للنبي –صلى الله عليه وسلم–، واختاره الفراء، وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان، يقال: كذَب الرجل إذا قال الكذب، وكذّبتُه أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه، وكذّبتُه إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقًا، قال تعالى: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ} [آل عمران: ١٨٤].

وقال: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} [الأنعام: ٣٣].

فالأول: بمعنى: وإن ينسبوك إلى الكذب.

والثاني: بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته جحودًا وعنادًا.

وهذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بـــ"الباء"، وبـــ "في" فيقال: كذّبته بكذا، وكذّبته فيه، والأول أكثر استعمالا، ومنه قوله: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ} [ق: ٥]، وقوله: {وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [البقرة: ٣٩].

إذا عُرف هذا، فقوله: {فَمَا يُكَذِّبُكَ} اختلف في "ما" هل هي بمعنى: أيّ شيء يكذبك؟ أو بمعنى: من الذي يكذبك؟

فمن جعلها بمعنى: أيّ شيء؟، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أيْ فأيّ شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبًا بالدين وقد وضحتْ لك دلائل الصدق والتصديق؟.

ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك؟، جعل الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم.

---

١٧ – المصدر السابق (٥١).

قال الفراء: كأنه يقول: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له مِن خلْق الإنسان ما وصفناه؟.

وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟.

وعلى هذا قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة: "ما" مقام "مَن" وأمره سهل.

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقًا، وهو يكذبك، أي فمن يكذبك بالدين؟

فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذبًا بالدين، أو مكذبًا به؟، ولا يصح واحد منهما، أما الثاني والثالث فظاهر، فإنّ كذّبته ليس معناه جعلته مكذِّبًا، أو مكذَّبًا، وإنما معناه نسبته إلى الكذب.

فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعدُ كاذبًا بالدين؟، وهذا إنما يَتعدى إليه بـــ"الباء"..." [١٨].

كذَبتُه: أكذبتُ قوله، جعلت قوله كذبًا.

وكذَّبتُه: نسبته إلى الكذب.

الكذب في اللغة يأتي بمعنيين:

المعنى الأول: هو مخالفة الظاهر للباطن في القول والفعل، فالنفاق كذب، إذا حدث كذب، ولو كان موافقًا للواقع، موافقًا للخارج، يعني لكنه يخالف ما فيه باطنه، **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**[المنافقون: ١].

فهم قالوا قولاً يوافق الواقع: إنه رسول الله، لكن يخالف ما في بواطنهم، فصاروا مكذبين بهذا، صاروا كاذبين، فهذا هو الكذب المذموم شرعًا الذي جاء ذمه: "إذا حدث كذب"، وما إلى ذلك من الذنب.

النوع الثاني: هو ما كان يخالف الواقع، هكذا بإطلاق، بصرف النظر عما في داخل هذا القائل، هذا المتكلم، فهذا الذي جاء في بعض النصوص: كذَب فلان، يعني النبي –صلى الله عليه وسلم– قد يقوله في بعض أصحابه: ((كذَب أبو السنابل))[١٩] يعني أخطأ.

وكذلك تجد الصحابة –رضي الله عنهم– يقولون: كذَب فلان، ينسبونه إلى الكذب، يعني أخطأ، وهذا لا يلحقه الذم شرعًا، ليس هذا هو المذموم شرعًا، فكل ما خالف الخارج والواقع قيل له: كذب بهذا الاعتبار، وإن كانت هذه اللغة غير ذائعة وشائعة، وإنما الأشهر هو الأول.

هنا يقال: كذَبْتُه، وأكذبتُه، متعدٍّ، أكذبتُه وكذّبتُه إذا نسبته للكذب، وكذَبتُه يعني الخطأ.

يقول ابن القيم: "وإنما معناه نسبته إلى الكذب، فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعدُ كاذبًا بالدين؟، وهذا إنما يتعدى إليه بـــ "الباء" الفعلُ المضعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذّب كذا، وإنما يقال: كذّب به.

وجواب هذا الإشكال: أن قوله: كذّب بكذا، معناه كذّب المخبرَ به، ثم حذف المفعول به، لظهور العلم به، حتى كأنه نُسي، وعدّوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل من يكذِّبك بكذا؟ فهو بمعنى كذَّبوك بكذا، سواء، أي نسبوك

---

١٨ – المصدر السابق (٥١–٥٣).

١٩ – رواه أحمد، كتاب المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود، رقم (٤٢٧٣)، وهو في سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٣٢٧٤).

إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور؛ فإن الخطاب إذا كان للإنسان وهو المكذِّب، أي فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذِّبا، والمعروف: كذّبه إذا جعله كاذبًا، لا مكذِّبا، ومثل فسّقه إذا جعله فاسقًا، لا مفسِّقًا لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن صدّق وكذّب بالتشديد يراد به معنيان:

أحدهما: النسبة، وهي إنما تكون للمفعول...

والثاني: الداعي والحامل على ذلك وهو يكون للفاعل"[٢٠].

وقال ابن القيم أيضا: "وقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين: ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة والتوحيد والمعاد، بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالًا بعد حال، إلى أكمل الأحوال.

فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟!.

وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟.

فلله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها، والله أعلم"[٢١].

{فَمَا يُكَذِّبُكَ} يعني: يا ابن آدم، {بَعْدُ بِالدِّينِ} أي: بالجزاء في المعاد ولقد علمتَ البداءة، وعرفتَ أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟.

وقوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين: ٨] أي: أمَا هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، ومن عدله: أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعًا: ((فإذا قرأ أحدكم: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}[التين: ١] فأتى على آخرها: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين))[٢٢].

آخر تفسير سورة "والتين والزيتون" ولله الحمد والمنة.

الحديث هذا ضعيف، فلا يقول القارئ إذا قرأها شيئًا، وإنما صح أنه إذا قرأ في آخر القيامة: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[القيامة: ٤٠] يقول: سبحانك، فبلى،[٢٣] في هذا الموضع.

---

٢٠ - التبيان في أقسام القرآن (٥٣-٥٤).

٢١ - المصدر السابق (٥٤).

٢٢ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم (٨٨٧)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم (٨٨٧) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٥٦)، وفي ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٥٧٨٤).

٢٣ - الحديث رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم (٨٢٧).

وعلى كلام ابن جرير السابق من أن "أسفل سافلين" يعني أرذل العمر يكون الكلام الذي بعده -كما ترون- كأنه أقرب، وأليق بالمعنى-والله أعلم-، أن الله احتج عليهم بهذا، فهو يُردّ بعد هذا الكمال إلى حال من الضعف والعجز، فالذي صرفه هذا التصريف قادر على مجازاته ومحاسبته، وعلى إعادته ثانيًا، **{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}** بعد هذا كله؟ **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}**؟ [التين: ٨].

والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العلق

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله-: **تفسير سورة اقرأ، وهي أول شيء نزل من القرآن.**

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [القلم:١-٥].

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ)) قَالَ: ((فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي)) فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ((مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي)) فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ((مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فغطني الثالثة حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي)) فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} حَتَّى بَلَغَ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} قَالَ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: ((زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي)) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: ((يَا خَدِيجَةُ ما لي؟)) وأخبرها الخبر، وقال: ((قد خشيت على نفسي)).

فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-بِمَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ على موسى، ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((أَوَمُخْرِجِيّ هُمْ؟)) فقال وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِيمَا بَلَغَنَا- حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كي يتردى من رءوس شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ له مثل ذَلِكَ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ[(١)].

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ جِهَةِ سَنَدِهِ وَمَتْنِهِ وَمَعَانِيهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِنَا لِلْبُخَارِيِّ مُسْتَقْصًى، فَمَنْ أَرَادَهُ فَهُوَ هُنَاكَ مُحَرَّرٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ، وَهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة العلق، ويقال لها أيضًا: سورة اقرأ، وكذلك أيضًا سماها بعضهم بـــ"سورة القلم".

وهذه السورة صدرها هو أول ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- من الوحي، إلى قوله: **{عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**.

ثم كانت تلك الأولية بإطلاق، يعني أول ما نزل مطلقًا، أول ما طرق سمع النبي -صلى الله عليه وسلم-، أول ما رأى الملك على صورته الحقيقية كان في ذلك الموقف، وهو في غار حراء -صلى الله عليه وسلم-، ولم تنزل السورة كاملة، ثم بعد ذلك حصل انقطاع مؤقت للوحي، ثم نزلت عليه سورة المدثر.

وما جاء من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- من أن سورة "اقرأ" هي أول سورة نزلت من القرآن، هذا الذي عليه الجماهير من أهل العلم من السلف والخلف.

يليه في القوة -يعني من الأقوال في أول ما نزل- أن أول ما نزل هو سورة المدثر، وحديث جابر -رضي الله تعالى عنه- في هذا معروف، ولكن الروايات في حديث جابر -رضي الله عنه- إذا جمعت فإن ذلك يدل على أن جابرًا -رضي الله تعالى عنه- كان يعلم أن سورة: **{اقْرَأْ}** نزلت قبل ذلك، فكأنه كان يحدث عن فترة الوحي، يعني أول ما نزل بعد فترة الوحي؛ لأن في ألفاظه أنه جاء الملَك الذي جاءه بحراء، إذًا هناك مجيء سابق، إلى غير ذلك من الألفاظ التي تجدها في حديث جابر -رضي الله عنه- تدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له عهد بالملك قبل ذلك، مع ما قد يقال من أن هذا قد يكون من قبيل الاجتهاد من جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، أو أن سورة المدثر هي أول ما نزل في الرسالة، وأول ما نزل في النبوة: اقرأ، يعني ما نزل بإطلاق، نُبئ بـــ"اقرأ"، وأرسل بـــ"المدثر".

الموضوع الذي تتحدث عنه: هذه السورة ابتدأت بالأمر بالقراءة، أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقراءة، وهذه القراءة: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}**.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم(٦٩٨٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم (١٦٠) وهذا لفظ البخاري.

فذكر فيها ما يستوجب حمده -تبارك وتعالى-، والإذعان له، والإقرار بربوبيته وقدرته، فهو الخالق الذي خلق هذا الإنسان من هذه العلقة، مخلوق ضعيف، خلقه من هذا الشيء الذي لا شأن له، ثم علمه بالقلم، حيث صار بذلك يثبت العلوم ويدونها، وصار بذلك -يعني بالكتابة- قادرًا على جمع ما لم يكن يستطيعه بحفظه وإمكاناته من غير كتابة، فصارت منته -تبارك وتعالى- على الإنسان بتعليمه الكتابة بالقلم منة عظيمة، ومع ذلك هذا الإنسان إذا حصل له العطاء، وشعر أنه استغنى يحصل له الترفع والطغيان، فتوعد الله هذا الصنف من الناس وتهددهم، وذكر نموذجًا من هؤلاء، وهي الآيات التي نزلت في أبي جهل: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}.

يعني هذا بلغ به الطغيان أنْ صار ينهى غيره، يعني هو لا يستنكف من عبادة الله -تبارك وتعالى- ويأنف من ذلك فقط، بل صار أيضًا ينهى غيره عن هذه العبادة.

وحديث عائشة -رضي الله عنها-: "أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح" يعني في الوضوح، بحيث لا تلتبس، وليس ذلك يختلط مع أضغاث الأحلام، أو نحو ذلك.

"ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد" هذا تفسير للتحنث، يعني التعبد، لكن لا يقال هكذا في القراءة، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، ليس هذا معنى التحنث، التحنث هو التعبد، فهذه جملة اعتراضية، وإلا فسياق الكلام هكذا: "فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد" الليالي ذوات العدد يعني كأنه يتحنث ليالي متتابعة، ثم يرجع ويتزود لمثل ذلك، وهكذا، حتى فجَأه الوحي، فجاءه الملك فيه، فقال: "اقرأ" فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقلت: ((ما أنا بقارئ)) ما أنا بقارئ هنا ليس معناه: لن أقرأ، وإنما يخبر عن نفسه أن ذلك ليس من شأنه، وأنه لا يحسن القراءة، قال: ((فأخذني فغطني)) الغط هو الضغط الشديد، والضم بقوة، ضمه، يقول: ((حتى بلغ مني الجهد)) الجهد يعني المشقة والغاية: ((ثم أرسلني)) فقال: اقرأ، إلى آخره، إلى أن قال: فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف.

"تحمل الكل" الكل هو الضعيف، العاجز، فسر باليتيم، وفسر بالضعيف، وفسر بالمسافر.

المقصود: أنه الإنسان الذي يكون عاجزًا عن النهوض بحاجاته وشئونه.

لكن هنا في هذه الرواية: "ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغنا" من القائل: "فيما بلغنا؟".

هو الزهري، أحد رواة الحديث محمد بن شهاب الزهري، فهنا: "فيما بلغنا" هذا ليس من متصل الإسناد، الحديث في الصحيحين، لكن هذا الجزء ليس بالإسناد الذي جاء به الحديث -الإسناد المتصل-، وإنما هذا القدر من بلاغات الزهري، يعني أنه لا يثبت، ولا يصح من جهة الإسناد، فالبخاري هكذا أورده، لكن هذه اللفظة تبين وتوضح أن ذلك ليس بالإسناد المتصل الذي ذكره في أول الحديث، فهذا القدر لا يثبت، وحاشا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يصدر منه هذا، ولا داعي للتكلف بحمله على محامل، وإنما يقال: هذا لا يصح، يقول: "فيما بلغنا، حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال".

وهذا لا يليق ولا يصح أن ينسب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}.

{اقْرَأْ} هنا هذا أمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالقراءة.

{اقْرَأْ} ماذا؟

هذا يقتضي مقروءًا.

{اقْرَأْ} ما أوحي إليك {اقْرَأْ} ما يوحى إليك، أو ما أنزل، أو ما ينزل عليك من الوحي، أو {اقْرَأْ} يعني ما تسمع، أو ما أمرت بقراءته.

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} الباء هذه يحتمل أن تكون للاستعانة، اقرأ مستعينًا، أو للابتداء، مبتدئًا باسم ربك، أو متلبسًا باسم ربك، الكلام في هذا معروف، ومضى في البسملة حينما يقول الإنسان: "بسم الله" الباء هذه ما موضعها، وابن جرير -رحمه الله- يفسره يقول: اقرأ بذكر ربك.

وَفِيهَا: التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ، وَهُوَ الْقَدْرُ الذي امتاز به أبو البرية آدَمُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَالْعِلْمُ تَارَةً يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي اللِّسَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَنَانِ، ذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَلِهَذَا قَالَ: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}.

وَفِي الْأَثَرِ: "قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ".

وَفِيهِ أَيْضًا: "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ورثه الله علم ما لم يكن يعلم".

قوله: "والعلم تارة يكون في الأذهان" يعني أن يكون محفوظًا للإنسان "وتارة يكون في اللسان" يعني مذكورًا يتكلم به، "وتارة يكون في الكتابة بالبنان" فهذا هو الذي أشارت إليه الآية: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}.

يقول: "وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي" يعني هو يعيد الأشياء السابقة بمسميات مختصرة، ما يكون بالذهن يقال له: ذهني، وما يكون ملفوظًا يقال له: لفظي.

يقول: "ورسمي" الرسم يعني الكتابة، يكون مرسومًا، يعني مكتوبًا.

"والرسمي يستلزمهما، من غير عكس" يعني أن الذي يكتب يقتضي أن يكون محفوظًا في الأذهان، إنما يكتب الإنسان ما في ذهنه، ويكون أيضًا مما يتكلم الناس به فيمليه، أو نحو ذلك، يقول: "من غير عكس" يعني قد يكون الشيء في الذهن ولا يكتب، ولا ينطق به، وقد يكون ملفوظًا، ولكنه لا يكتب، فلهذا قال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}.

فالحاصل: أن قوله -تبارك وتعالى-: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} هذا فيه إشارة إلى منة الله -عز وجل- على هذا الإنسان، وأيضًا إلى ضعفه، ثم يصير أمره إلى ما قد ذكر من الطغيان في حال الاستغناء، ثم بعد ذلك العدوان على عباد الله -تبارك وتعالى-، وهذا المخلوق من علقة، والله هو الذي أعطاه وأولاه، وامتن عليه وعلمه ما لم يكن يعلم، فهنا يقول: فلهذا قال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}.

{عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} فسره بما بعده: {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} فعلمه بالقلم الكتابة التي تتضمن علومًا يتعلمها، فكما علمه الكتابة فإن هذا أيضًا كان سبيلاً إلى سائر العلوم أن تُحفظ وتضبط، ثم بعد ذلك يجد الإنسان بغيته منها، فلا تضيع العلوم وتذهب، فلو بقي ذلك للحفظ وحده لذهب كثير من العلم، سواء كان ذلك من العلم الشرعي، أو كان ذلك من العلوم الأخرى، لكن تتعاقب الأجيال، ويدونون العلوم، ثم بعد ذلك يجد من بعدهم بغيته في ذلك.

أما حديث: ((من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم))[٢] فهذا فيه ضعف.

وهنا تعليق للحافظ ابن القيم –رحمه الله– في هذا الموضع، قال –رحمه الله–: "فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا، فَقَالَ: {الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} وَخص الانسان من بَين الْمَخْلُوقات لما أودعه من عجائبه، وآياته الدَّالَّة على ربوبيته وَقدرته وَعلمه وحكمته وَكَمَال رَحمته، وأنه لَا إِلَه غيره وَلَا رب سواهُ.

وَذكر هُنَا مبدأ خلقه من علق، لكَون الْعلقَة مبدأ الأطوار الَّتِي انْتَقَلت إليها النُّطْفَة، فَهِيَ مبدأ تعلق التخليق، ثمَّ أعاد الْأَمر بِالْقِرَاءَةِ مخبرًا عَن نَفسه بِأَنَّهُ الأكرم، وَهُوَ الأفعل من الْكَرم، وَهُوَ كَثْرَة الْخَيْر، وَلَا أحْدُ أولى بذلك مِنْهُ –سُبْحَانَهُ–، فَإِن الْخَيْر كله بيدَيْهِ، وَالْخَيْر كُله مِنْهُ، وَالنعَم كلهَا هُوَ موليها، والكمال كُله، وَالْمجد كله لَهُ، فَهُوَ الأكرم حَقًّا، ثمَّ ذكر تَعْلِيمه عُمُومًا وخصوصًا، فَقَالَ: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} هَذَا يدْخل فِيهِ تَعْلِيم الْمَلَائِكَة وَالنَّاس، ثمَّ ذكر تَعْلِيم الإنسان خُصُوصًا، فَقَالَ: {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}.

وَالْمَقْصُود أنه –سُبْحَانَهُ– تعرّف إِلَى عباده بِمَا علمهمْ إِيَّاه بحِكْمَتِهِ من الْخط وَاللَّفْظ وَالْمعْنَى، فَكَانَ الْعلم أحْد الأدلة الدَّالَّة عَلَيْهِ، بل من أعظمها وأظهرها، وَكفى بِهَذَا شرفًا وفضلا لَهُ"[٣].

قوله –تبارك وتعالى–: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}.

العلق جمع علقة، وهي الدم الجامد، هذا معروف.

{كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق:٦-١٩].

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ ذُو فَرَحٍ وَأَشَرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدِ اسْتَغْنَى، وَكَثُرَ مَالُهُ، ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَظَهُ، فَقَالَ: {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} أَيْ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وَالْمَرْجِعُ، وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَالِكِ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ، وَفِيمَ صَرَفْتَهُ.

قوله –تبارك وتعالى–: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى}.

---

٢ – بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي (١/٩٩)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، رقم (٤٢٢).

٣ – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٥٨).

{كَلَّا} هذه مضى الكلام عليها بأنها تأتي بمعنى: الردع والزجر، وتأتي بمعنى: حقًّا، فإن كان ذلك لكلام قبله فهي للردع والزجر، وإلا كانت بمعنى حقًّا، وهي هنا تحتمل، فمن نظر إلى أنه لم يأتِ قبلها ما يستوجب الردع والزجر قال: هي بمعنى حقًّا، حقًّا إن الإنسان ليطغى، فإنه ذكر قبله منته -تبارك وتعالى- على الإنسان بخلقه، وبتعليمه بالقلم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين، البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما -سبحانه- في جملة ما اعْتد بِهِ من نعمه على العَبْد، فَقَالَ فِي أول سُورَة أنزلت على رَسُول الله -صلى الله عليه وسلم-: **{اقْرَأ باسم رَبك الَّذِي خلق * خلق الْإِنْسَان من علق * اقْرَأ وَربك الأكرم * الَّذِي علم بالقلم * علم الْإِنْسَان مَا لم يعلم}**.

فَتَأمل كَيفَ جمع فِي هَذِه الْكَلِمَات مَرَاتِب الْخلق كلهَا، وَكَيف تَضَمَّنت مَرَاتِب الوجودات الأربعة، بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فَذكر أَولا: عُمُوم الْخلق، وَهُوَ إعطاء الوجود الْخَارِجِي.

ثمَّ ذكر ثَانِيًا: خُصُوص خلق الانسان؛ لأنه مَوضِع الْعبْرَة، والآية فِيهِ عَظِيمَة، وَمن شُهُوده عَمَّا فِيهِ مَحْض تعدد النعم، وَذكر مَادَّة خلقه هَاهُنَا من الْعلقَة، وَفِي سَائِر الْمَوَاضِع يذكر مَا هُوَ سَابق عَلَيْهَا، إِمَّا مَادَّة الأصل، وَهُوَ التُّرَاب والطين، أوْ الصلصال الَّذِي كالفخار، اَوْ مَادَّة الْفَرْع، وَهُوَ المَاء المهين، وَذكر فِي هَذَا الْموضع أول مبادئ تعلّق التخليق وَهُوَ الْعلقَة، فَإِنَّهُ كَانَ قبلهَا نُطْفَة، فَأول انتقالها إِنَّمَا هُوَ إِلَى الْعلقَة.

ثمَّ ذكر ثَالِثا: التَّعْلِيم بالقلم الَّذِي هُوَ من أعظم نعمه على عباده، إِذْ بِهِ تخلّد الْعُلُوم، وَتثبت الْحُقُوق، وَتعلم الْوَصَايَا، وَتحفظ الشَّهَادَات، ويضبط حِسَاب الْمُعَامَلَات الْوَاقِعَة بَين النَّاس، وَبِه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، وَلَوْلَا الْكِتَابَة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عَن بعض، ودرست السّنَن، وتخبطت الأحكام، وَلم يعرف الْخلف مَذَاهِب السّلف، وَكَانَ مُعظم الْخلَل الدَّاخِل على النَّاس فِي دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسْيَان الَّذِي يمحو صور الْعلم من قُلُوبهم، فَجعل لَهُم الْكتاب وعَاءً حَافِظًا للْعلم من الضّيَاع، كالأوعية الَّتِي تحفظ الأمتعة من الذّهاب والبطلان، فنعمة الله -عز وجل- بتعليم الْقَلَم بعد الْقُرْآن من أجل النعم، والتعليم بِهِ وَإِن كَانَ مِمَّا يخلص إليه الإنسان بالفطنة وَالْحِيلَة فَإِنَّ الَّذِي بلغ بِهِ ذَلِك وأوصله اليه عَطِيَّةٌ وَهبهَا الله مِنْهُ، وَفضل أعطاه الله إِيَّاه، وَزِيَادَة فِي خلقه وفضله، فَهُوَ الَّذِي علمه الْكِتَابَة وَإِن كَانَ هُوَ المتعلم، فَفعله فعل مُطَاوع لتعليم الَّذِي علم بالقلم، فَإِنه علّمه فتعلم، كَمَا أنه علمه الْكَلَام فَتكلم، هَذَا، وَمَن أعطاه الذِّهْن الَّذِي يعي بِهِ، وَاللِّسَان الَّذِي يترجم بِهِ، والبنان الَّذِي يخط بِهِ، وَمن هيأ ذهنه لقبُول هَذَا التَّعْلِيم دون سَائِر الْحَيَوَانَات، وَمن الَّذِي أنطق لِسَانه، وحرك بنانه، وَمن الَّذِي دعم البنان بالكف، ودعم الْكَفّ بالساعد؟، فكم لله من آيَة نَحن غافلون عَنْهَا فِي التَّعَلُّم بالقلم، فقف وَقْفَة فِي حَال الْكِتَابَة، وَتَأمل حالك وَقد أمسكت الْقَلَم وَهُوَ جماد، وَضعته على القرطاس وَهُوَ جماد، فتولد من بَينهمَا أنواع الحكم، وأصناف الْعُلُوم، وفنون المراسلات والخطب، وَالنّظم والنثر، وجوابات الْمسَائِل، فَمن الَّذِي أجرى فلك الْمعَانِي على قَلْبك، ورسمها فِي ذهنك، ثمَّ أجرى الْعبارَات الدَّالَّة عَلَيْهَا على لسَانك، ثمَّ حرك بهَا بنانك، حَتَّى صَارَت نقشًا عجيبًا، مَعْنَاهُ أعْجَبْ من صورته، فتقضى بِهِ مآربك، وتبلغ بِهِ حَاجَة فِي صدرك، وترسله الى الأقطار النائية، والجهات المتباعدة، فَيقوم مقامك

ويترجم عَنْك، وَيَتَكَلَّم على لسَانك، وَيقوم مقَام رَسُولك، ويجدي عَلَيْك مَالا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم: {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}؟.

والتعليم بالقلم يستلزم الْمَرَاتِب الثَّلَاثَة: مرتبَة الْوُجُود الذهْنِي، والوجود اللَّفْظِيّ، والوجود الرسمي، فقد دلّ التَّعْلِيم بالقلم على أنه سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُعْطِي لهَذِهِ الْمَرَاتِب، وَدلّ قَوْله: {خلق} على أنه يعْطى الْوُجُود الْعَيْنِيّ.

فدلت هَذِه الآيات مَعَ اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مَرَاتِب الْوُجُود بأسرها مُسندَة إليه تَعَالَى خلقاً وتعليمًا، وَذكر خلقين وتعليمين، خلقًا عَامًّا وخلقًا خَاصًّا، وتعليما خَاصّا وتعليما عَاما، وَذكر من صِفَاته هَاهُنَا اسْم الأكرم الَّذِي فِيهِ كل خير، وكل كَمَال، فَلهُ كل كَمَال وَصفاً، وَمِنْه كل خير فعلا، فَهُوَ الأكرم فِي ذَاته وأوصافه وأفعاله، وَهَذَا الْخلق والتعليم إِنَّمَا نَشأ من كرمه وبره وإحسانه، لَا من حَاجَة دَعَتْهُ الى ذَلِك، وَهُوَ الْغَنِيّ الحميد"[٤].

وقال –رحمه الله–: "قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} ولم يقل: أن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:٨–١٠].

وهذا –والله أعلم– لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه، وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أَمره من طاعته فعْلَ المملوك الذى لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بُدًّا من امتثال أَوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إِعطاء ما وجب عليه من الأَقوال والأَعمال، وأداءِ المال، وجمع إِلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهى التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس:٢٦].

ومن فسرها بشهادة: أَن لا إِله إِلا الله، فلأَنها أَصل الإِحسان، وبها تنال الحسنى.

ومن فسرها بالخلف في الإِنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أَكبر من ذلك، وإِن كان الخلف جزءاً من أَجزاءِ الْحسنى.

والمقصود أَن الاستغناءَ عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية"[٥].

واضح الفرق بين المقامين، فالاستغناء يكون سببًا لتيسيره للعسرى، التكذيب والاستغناء، وإذا رأى نفسه أنه استغنى كان ذلك سببًا لطغيانه.

ثم قال تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى} نزلت في أبي جهل –لعنه الله– تَوَعَّدَ النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ البيت، فوعظه تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا، فَقَالَ: {أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى} أَيْ: فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيق المستقيمة في فعله، {أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} بقوله،

---

٤ – المصدر السابق (١/٢٧٨–٢٧٩).

٥ – طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٤).

وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صِلَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} أَيْ: أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ؟.

يعني الكلام الآن صرفه على هذا التصريف، فأوله: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}** هذه نزلت في أبي جهل وهذا أيضًا يصدق على كل من كان بهذه الصفة، إذ إن الناس على مراتب، فمنهم من يكون على الإيمان والعمل الصالح، ويأمر بذلك، يعني يدعو إليه، فهذه أعلى المراتب، وينهى عما يخالفه.

يليه في المرتبة من كان على الإيمان، ولكنه لا يدعو إليه، ولا ينهى عن خلافه، لا ينهى عن المنكر، لا ينهى عن الشرك والكفر، لا يدعو إلى الإيمان والمعروف.

ثم بعد ذلك تأتي المرتبة الثالثة وهي: من كان على المنكر والضلال، لكنه لا يدعو إلى ضلاله وباطله، ولا ينهى من كان على الهدى.

تأتي مرتبة بعدها وهي شر المراتب: أن يكون الإنسان على ضلالة، ثم هو يدعو إليها، وينهى من كان مهتديًا، عن الهدى، فهذا يكون بمنزلة الشياطين، بل هو شيطان، هذا فعل الشياطين، والشياطين يكونون من الإنس والجن، كما هو معروف، فكل ضال يدعو إلى الضلالة، أو ينهى عن المعروف والفضيلة، وينفر الناس منها فهو شيطان، فهنا: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}** الذي ينهى هو أبو جهل، ينهى النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى}** هنا هذا في النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني هذا الذي تنهاه: **{أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى}**.

فهو يدعو إلى خشية الله وطاعته، ولم يصدر منه ما يوجب نهيه.

ثم يقول: **{أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}** هذا في الذي ينهى، فصار الكلام بينهما في صفة المنهي وهو النبي - صلى الله عليه وسلم-، ثم رجع إلى صفة ذاك الذي ينهى.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُتَهَدِّدًا: {كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ} أَيْ لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عما هو فيه من الشقاق والعناد: {لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ} أَيْ: لَنَسِمَنَّهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

{كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ} هذه **{كَلَّا}** للردع هنا والزجر، فقد وجد قبلها ما يستوجب، أو ما يفهم منه ذلك: **{كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ}** هذه اللام موطئة للقسم، لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد وأيضًا النهي لمن كان على الإيمان، قال: **{لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ}** قال: لنسمنها سوادًا يوم القيامة، عبارات المفسرين تكاد ترجع إلى معنيين في هذا الموضع، إذا جمعت عبارات السلف فمن بعدهم فهي تكاد ترجع إلى معنيين اثنين، وذلك لأن أصل هذه المادة -السفع- يدل على معنيين:

الأول: لون، وهو السواد، فالسفعة التي تكون في الوجه تكون سوادًا، فهذه بمعنى اللون، وهو السواد.

والثاني: التناول والأخذ، وهو تناول الشيء باليد، إذًا السفع يأتي مرادًا به اللون السواد، ويأتي مرادًا به تناول الشيء باليد.

ومن هنا جاءت عبارات المفسرين متفرعة في هذا الموضع من هذين المعنيين.

فالله يتهدد هذا الذي ينهى عبدًا إذا صلى بالسفع بناصيته، والناصية هي مقدم الرأس، فهنا بعضهم فسره بالتناول والأخذ والجذب الشديد، أن يأخذه الله -تبارك وتعالى- من ناصيته، وإلى النار، كما قال الله -عز

وجل-: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} [الرحمن: ٤١] يجمع ما بين الناصية والأقدام، ثم بعد ذلك يطرح في النار، فتكون الآية الأخرى مفسرة لهذا الموضع: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} فيكون بمعنى الأخذ والقبض، ونحو ذلك.

والمعنى الثاني: أنه يكون باعتبار اللون، يعني ما قاله ابن كثير -رحمه الله- هنا: {لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ} لنسمنّها سوادًا يوم القيامة، يعني كما أن أهل الإيمان يُعرفون بالغرة والتحجيل، يُعرف هؤلاء بالسواد.

ابن جرير -رحمه الله- حمله على الأول: لنأخذن بمقدم رأسه فلنضمنّه ولنذلنّه، نضمنه، يعني يؤخذ بالنواصي والأقدام يجمع، فيؤخذ بهذا الأخذ الشديد القوي، هذا الإنسان المتجبر الطاغي المتكبر المتعاظم الذي يعتدي على عباده، وعلى أهل الإيمان، فينهى هذا عن الطاعة، ويؤذي هذا، يؤخذ هكذا، بناصيته وأقدامه، ثم يطرح في النار.

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [آل عمران: ١٧٥] يخوفكم أولياءه، يجعل لهم هالة، ولكن في النهاية هم أقل من الهباء في حقيقة الأمر، وكثيرًا ما أذكر ما يرشد الأذهان إلى هذا المعنى مما نشاهده، الصور التي نشاهدها، صغر الإنسان، انظر إلى الحرم، الصور التي تكون من علو شديد، الناس مثل الذر، يتحركون، فهذا لا يصلح له الكِبْر، سيأتي الكلام على هذا -إن شاء الله تعالى- في الأسماء الحسنى، عند الكلام على الكبير والمتكبر.

فهذا الإنسان الصغير الهباءة هو لا شيء بالنسبة لهذا الكون الكبير، وتجدون في بعض المقاطع بعضَ الأشياء أحيانًا تصور الإنسان وما حوله، وتصور الأشياء القريبة منه، ثم بعد ذلك يبدأ يتضاءل يتضاءل وتصور أعلى وأعلى حتى تصل به إلى العالم العلوي والأفلاك، فتظهر الأرض بكاملها مثل حبة الرمل، فهنا حينما ينتفش الإنسان ويتضخم، ثم يحسب له ألف حساب على طغيانه، وعتوه على الله -عز وجل-، إذا كانت الأرض كلها بهذه المثابة، مثل حبة الرمل، فهنا يأتي: {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ} [المائدة:٣]، {فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ} [التوبة:١٣].

فالأرض ومن عليها بهذه المثابة صغيرة جدًّا، لا شيء، فلا يستحق الخلق أن يُعطَوا أكبر من قدرهم الذي يليق بهم.

{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} يؤخذ المتجبر العاتي من النواصي والأقدام، من ناصيته وقدميه، ويقذف في النار، أصغر من الذرة.

{كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ} قال هنا: لنسمنّها سوادًا يوم القيامة.

{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها.

{كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} يعني أخبر عنه بأنه بهذه المثابة، فاجر خاطئ.

والمقصود صاحب الناصية، وهذا الذي مشى عليه المفسرون، وبه قال ابن جرير، ومن هنا فلا حاجة لئن يقال كما يذكر بعض من يتكلم في الإعجاز: إن موضع الكذب في هذا الموضع، قال: فأضاف إليها الكذب، فقال: {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} من يتكلم في القرآن يجب أن يعرف معهود العرب في الخطاب، فالعرب يضيفون الشيء إلى الناصية، يقولون: هذه ناصية مباركة، ولا زال العوام عندنا إلى اليوم، يقولون -وإن

كانت العبارة عليها تحفظ-: تباركوا بالنواصي والبقاع، يعني إذا جئت تتزوج امرأة، تشتري مملوكًا، ابحث عن ما كان مظنة للبركة، والبقاع: تشتري عقارًا، أرضًا، بيتًا تسكن فيه، تحرَّ المواضع التي تكون محال البركة، لكن التحفظ هنا على قولهم: "تباركوا" فإن التبارك إنما يكون لله -تبارك وتعالى-، فهو مختص به، والبركة منه وحده، ولكن الله قد جعل البركة في من شاء من خلقه من الذوات والبقاع، والأزمنة، وما إلى ذلك.

فالمقصود أن الناس حينما يقولون هذا قديمًا وحديثًا: هذه ناصية مباركة، هل يقصدون أن البركة في الإنسان هي في هذا الموضع، في مقدم الرأس في هذا الجزء من الدماغ؟.

لا يقصدون هذا، ولا يخطر لهم على بال، ولا يدور في خيال، ولا يعرفونه، وإنما يقصدون صاحب الناصية، وكذلك حينما يقولون: هذه ناصية كاذبة، هذه ناصية خاطئة، يعني هنا في قوله: **{نَاصِيَةٍ}** في صفته: **{لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}** هل يقال أيضًا: إن الموضع من الدماغ الذي يصدر منه الإجرام هو في مقدم الرأس، في هذا الموضع؟، قد أضاف إليها أمرين: **{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}** هل هذا هو الموضع من الدماغ الذي يحتاج إلى معالجة حتى يصير الإنسان على حال مستقيمة؟ هل مصدر الكذب هنا، ومصدر الإجرام والانحراف؟ -"خاطئة" لأن الخاطئ هنا غير المخطئ، المخطئ من وقع في الخطأ من غير قصد، والخاطئ هو من وقع فيه بقصد-، فهل هذا هو الموضع الذي يكون لهذه الأمور؟

ليس هذا هو المراد، بصرف النظر عن كون العلم الحديث -إن صح ذلك- اكتشف أن موضع الكذب في هذا، نحن لا ندري عن هذا إن كان صحيحًا، فالآية لا تتحدث عنه، إن صح هذا علميًا، فالآية لا تتحدث عنه، وإنما تتحدث عن معهود العرب في الخطاب: **{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}** يعني صاحب الناصية، فهذه طريقة العرب في مخاطباتها، ولذلك كان من الأسس، من الأشياء المهمة، بل الشاطبي جعل شروط الاجتهاد ترجع إلى اثنين، وألغى جميع الشروط الأخرى وقال: ممكن أن يرجع فيها إلى أهل الاختصاص، جعل هذا يرجع إلى اثنين أساسيين، مع كثرة ما يذكره الأصوليون من شروط الاجتهاد حتى جعلوه بمنزلة الممتنع، الشاطبي قال: يكفي أن يُعتبر في ذلك أمران: الأمر الأول: اللغة، فهم اللغة، ومعهود العرب في مخاطباتها، قال: بحيث يصير الذي يكون مجتهدًا، أو يتكلم على الأحكام، ويستنبط يكون عربيًّا، أو بمنزلة العربي في فهمه ومعرفته بلغة العرب ووجوه المخاطبات، عربي أو بمنزلة العربي، هذا الشرط الأول.

الثاني: معرفة مقاصد الشريعة، وركز على هذين، معرفة لغة العرب ووجوه المخاطبات في غاية الأهمية، ولهذا كانوا يقولون: أهلكتهم العجمة، فإذا عرف معهود العرب في مثل هذه المخاطبات فإننا نسلم من كثير من التكلفات، وحمل الكلام على غير مراد الله -تبارك وتعالى-، والله تعالى أعلم.

ثُمَّ قَالَ: {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} يَعْنِي نَاصِيَةَ أَبِي جهل كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها.

وهذا الوعيد لأبي جهل؛ لأنه سبب النزول، وقد صح هذا، هو لا يختص به، فمن فعل فعله فإنه أيضًا متوعد بذلك، كل من نهى عن الإيمان، عن طاعة الله -عز وجل-، عن طاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ينهى عن الخير، يحارب الفضيلة، فهو متوعد بهذا: **{لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ}** تلك الناصية الكاذبة الخاطئة، وهذا الكلام

يتوجه إلى كل الأشرار من صحفيين وغيرهم، ممن يفترون الكذب، ويشوهون الحقائق، ويقلبونها ويزوّرون كثيرًا، فهذا الوعيد يلحق كل هؤلاء الذين هم بهذه المثابة.

{فَلْيَدْعُ نَادِيَه} أَيْ: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ أَيْ لِيَدعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ

{فَلْيَدْعُ نَادِيَه} النادي هو المجلس الذي يجلس الناس فيه، ويلتقون، منتدى لهم، يجتمعون فيه، القرابات أو الأهل والعشيرة، وما إلى ذلك، الذين يتكثر بهم، يفتخر بأنه خير وأفضل ناديًا من غيره، فهو يترفع بهؤلاء الذين يغشون مجلسه، ويخالطونه ويعاشرونه، يستنصر بهم، ويتقوى بهم، يقول: **{فَلْيَدْعُ نَادِيَه}** ليدعُ هؤلاء الذين يتقوى بهم، وهذا أيضًا يشمل ما هو أوسع من هذا في المعنى، فإذا كان الناس في السابق يتقوى الواحد منهم بعشيرته، وكثرة الأولاد، فإن الناس اليوم قد لا يتكثرون بهذا، يعني قد لا يتقوى الإنسان اليوم بكثرة الأولاد، أو نحو ذلك، وإنما قد يتقوى بأمور أخرى، فكل مبطل يتقوى بالباطل، وبأهل الباطل فإنه أيضًا يدخل في ذلك حكمًا، **{فَلْيَدْعُ نَادِيَه}** يدعو هؤلاء الذين يترفع بهم، ويتقوى بهم، ويستكبر.

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} ليستنصر بمن شاء ممن يظن أنهم ينصرونه ويقوونه، ويقفون معه، الله يقول: **{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}** وهم ملائكة العذاب، يقول قتادة: الزبانية هم الشُّرَط في لغة العرب، وأصل الزبن هو الدفع، والعرب تطلق ذلك على من اشتد بطشه.

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} والمقصود ملائكة العذاب، فهم كما وصف الله خزنةَ النار: **{عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}** [التحريم: ٦].

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ أَحِزْبُنَا أَوْ حِزْبُهُ.

روى الْبُخَارِيُّ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: ((لئن فعل لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ))، وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِمَا، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ[٦].

وروى أحمد وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ -وَهَذَا لَفْظُهُ- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي عِنْدَ الْمَقَامِ، فَمَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟ وَتَوَعَّدَهُ، فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، وَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ بِأَيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْثَرُ هَذَا الْوَادِي نَادِيًا، فَأَنْزَلَ الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}.

وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ سَاعَتِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: "حَسَنٌ صَحِيحٌ"[٧].

وروى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَلَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ،

---

[٦] - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة}**، رقم (٤٩٥٧).

[٧] - رواه الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة اقرأ باسم ربك، رقم (٣٣٤٩) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (٢٧٥).

وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا)) قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ -لَا أَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَمْ لَا-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[٨].

وقوله تعالى: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ} يَعْنِي: يَا مُحَمَّدُ لَا تُطِعْهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَصَلِّ حَيْثُ شِئْتَ، وَلَا تُبَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))[٩].

وَتَقَدَّمَ أَيْضًا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ يَسْجُدُ فِي: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} و{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[١٠].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اقرأ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

قوله -تبارك وتعالى-: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} بمعنى أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا مهما تعاظم، ومهما توعد وتهدد فإنه لا يطاع، بل الواجب هو الإقبال على الله -تبارك وتعالى-، وطاعته وعبادته.

وقوله: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} هنا ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -كما هو واضح من كلامه- أنه حمله على السجود: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض، فإن هذا هو الأصل في معناه الشرعي، ويأتي مرادًا به ما هو أوسع من ذلك، فالانحناء مثلاً -الركوع- يقال له: سجود، كما قال الله -عز وجل-: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف:١٦١] يعني في حال الركوع، وكذلك يقال للصلاة: إنها سجود، تسمية لها بركن من أشرف أركانها.

ومن هنا قال بعض أهل العلم: إن المراد هنا: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} يعني الصلاة، صلِّ وتقرب إلى الله -تبارك وتعالى.

وبعضهم فسره بسجود التلاوة، باعتبار أن هذا موضع سجدة.

وابن كثير هنا ذكر الحديث: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))[١١] {وَاقْتَرِبْ} التقرب إليه -تبارك وتعالى- بالسجود والدعاء في هذه الحال فحري ذلك بالإجابة.

---

٨ - رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: {إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} [العلق: ٧]، رقم (٢٧٩٧).

٩ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

١٠ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، رقم (٥٧٨).

١١ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

وحينما يفسر ذلك بأنه المراد به السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض فإن هذا يقتضي الصلاة، ما لم يفسر بسجود التلاوة، فإذا كان الإنسان يسجد ((أعني على نفسك بكثرة السجود))[١٢]، فهذا يقتضي صلاة كثيرة، يُكثر فيها من السجود.

فهذا أمر بطاعة الله -عز وجل-، والتقرب إليه، وهذا أبو جهل كان يتوعد النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا عفّر وجهه بالتراب -سجد- أنه يضع قدمه على عنق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالله قال: **{كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}** لا تبالِ به، وأقبل على ربك بصلاتك وسجودك، فهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن.

---

١٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، رقم (٤٨٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القدر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال –رحمه الله–: تفسير سورة القدر، وهي مكية.

قوله: سورة القدر مكية، ليس هذا محل اتفاق، فبعضهم يقول: على قول الأكثر –يعني قول الجمهور–: إنها مكية، هذا ذكره بعض أهل العلم كالماوردي، مع أن بعضهم عكس ذلك، يعني: الثعلبي مثلاً يقول: إنها مدنية على قول الأكثر، وكذلك القرطبي أيضًا نسب هذا –يعني: أنها مكية– إلى الأكثر.

هذه السورة يقال لها: سورة القدر، وسماها بعضهم: بسورة ليلة القدر.

هذه السورة تتحدث عن إنزال القرآن في ليلة شريفة ذكر الله أوصافها في هذه السورة، هذا الموضوع الذي تدور عليه هذه السورة، فهذا يدل على شرف هذا القرآن؛ حيث أُنزل في هذا الوقت الشريف، كما يدل أيضاً على شرف هذه الليلة، ليلة القدر هذه.

قوله: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** [القدر:١]، ما المراد بالقدر؟ بعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى معنى الحكم، يعني: سميت بذلك؛ لأن الله –تبارك وتعالى– يقدر فيها، ويقضي، ويحكم فيها، كما قال تعالى: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [الدخان:٤]، فالمقادير التي تكون أثناء العام تقدر في هذه الليلة، وليس في ليلة النصف من شعبان، قال الله –عز وجل–: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}** [الدخان: ٣]، ووصف هذه الليلة بقوله: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}**، ويحتمل أن يكون كما قال بعض أهل العلم: إن المقصود بالقدر يعني: الشرف والمنزلة، تقول: فلان له قدر أي: مكانة وشرف ومنزلة، فهي لعظيم قدرها وشرفها قيل لها: ليلة القدر، وهذا قال به الزهري، وإلى هذا ذهب ابن عاشور من المعاصرين، أي أن المقصود بها: المنزلة والشرف؛ فلشرفها قيل لها ذلك، وبعضهم ذهب إلى أن هذا من الضيق، مَن قُدر عليه رزقه يعني: ضُيق، فقيل لها: ليلة القدر؛ لكثرة من ينزل من الملائكة، فيضيق بهم الفضاء، وتضيق بهم الأرض، كما يقوله الخليل بن أحمد –رحمه الله–، وهذا أبعد الأقوال، ولكن لا يبعد أن يكون المعنى الأول والثاني كلاهما مراد، فهما يصدقان عليها، فهي: الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، أي: ليلة الحكم، والقضاء، والتقدير، وهي أيضاً: ليلة شريفة، كما وصفها الله –تبارك وتعالى–: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** [القدر: ١]، فهي: ليلة مباركة، ومن بركتها أنها خير من ألف شهر، ومن بركتها تنزُّل الملائكة والروح فيها، ومن بركتها أنها سلام حتى مطلع الفجر.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر:١–٥].

قال –رحمه الله–: يخبر –تعالى– أنه أنزل القرآن ليلة القدر.

انظر هنا لم يفسر ابن كثير المراد بالقدر، وقد مضت الأقوال في تفسيره، وابن جرير -رحمه الله- يفسر ذلك بأنه الحكم، وهو قول مجاهد، أن ليلة القدر يعني: الحكم.

وهي: الليلة المباركة التي قال الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان:٣]، وهي: ليلة القدر، وهي: من شهر رمضان، كما قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة:١٨٥]، قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

هذا القول من ابن عباس -رضي الله عنهما- مما لا يقال من جهة الرأي، وهو ثابت عنه من طرق متعددة، فمثل هذا يكون له حكم الرفع، وابن عباس -رضي الله عنهما- وإن كان يروي شيئًا من الروايات عن بني إسرائيل إلا أن مثل هذا الموضع مما يبعد فيه جدًّا أن يكون ذلك مما أخذ عن بني إسرائيل، فالراوي وإن كان عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل فإذا ذكر أمرًا من الأمور الغيبية فإنه ينظر أيضاً إلى مضمون هذا الخبر، فقد يحكم معه بأن ذلك مما له حكم الرفع، وأن هذا لا يُتلقى عن بني إسرائيل، فهو هنا يتحدث عن نزول القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، فالله حكم بإنزاله في ليلة القدر: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} يعني: القرآن، قال: {فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان:٣]، فهي الليلة المباركة، وقال: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة:١٨٥]، فدل على أن ليلة القدر في رمضان، مع أن العلماء اختلفوا في ليلة القدر على أربعين قولاً، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح، وذكره غيره، فاختلفوا على أربعين قولاً مع أن الشهر لا يزيد على ثلاثين يومًا، وإن من هذه الأقوال: قول من يقول: إنها في سائر العام، فكيف يجيبون عن هذا: أنه في ليلة مباركة، وفي ليلة القدر، وأنه في شهر رمضان؟ فهؤلاء لا يعجزهم الجواب، يقولون: هي في تلك السنة كانت في رمضان، ولكنها تتنقل في سائر العام، وهذا قول في غاية الضعف، ولا عبرة به، بل هي في رمضان، بل هي في العشر الأواخر من رمضان، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

والراجح: أنها متنقلة فيها، في ليالي الوتر، لكن هل ذلك فيما يبقى أو باعتبار ما مضى -يعني: الوتر-؟، فيه خلاف.

يقول: "أنزل إلى بيت العزة" يعني: الله -عز وجل- حكم بإنزال القرآن جملة في ليلة القدر، وهو لم ينزل في الواقع على النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا منجمًا، فكيف يجمع بينها؟ من هنا كانت أقوال العلماء في تفسير هذا الموضع: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، أي: كيف أنزله في ليلة القدر وهو نزل في أوقات مختلفة؟ فهذه الرواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- التي لها حكم الرفع تبين ذلك، يعني: أنه نزل جملة إلى السماء الدنيا، وهذا الذي عليه الجمهور، وذهب بعض السلف إلى أن المراد بقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} يعني: ابتدأنا إنزاله، فنزل أوله، وهو: {اقْرَأْ} [العلق:١]، على النبي -صلى الله عليه وسلم- في رمضان، في ليلة القدر، وبعضهم يقول -وهذا أيضًا مروي عن بعض السلف، ولكن القائل بذلك قليل جدًّا-: إن المقصود بقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}: أنه كان يَنزل ما سينزل أثناء العام -أي كل سنة- في ليلة القدر، ثم بعد ذلك ينزل منجمًا على النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن هذا لا دليل عليه.

ثم يمكن الجمع بين القولين الأول والثاني -ولا إشكال في ذلك- بأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا، كما دل عليه حديث ابن عباس هذا -رضي الله عنهما- في ليلة القدر، كما أنه أيضًا ابتُدئ إنزاله على النبي -صلى الله عليه وسلم- في ليلة القدر، فيكون ذلك متحققًا فيه من الجهتين؛ لأن أول ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في رمضان، والله أعلم.

قوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} الضمير هنا يرجع إلى غير مذكور، أي: أنزلنا ماذا؟ يعني: القرآن، والضمير يمكن أن يرجع إلى غير مذكور، لكنه يعرف ويفهم من السياق، فهذا مثال من أوضح أمثلة عود الضمير على غير مذكور.

قوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} أي: أن كل القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وهذا يدل على عناية الله بهذا القرآن، فهو في اللوح المحفوظ، قال سبحانه: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج:٢١-٢٢]، وهو {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس:١٣-١٦]، وهو أيضًا في بيت العزة.

قال ابن كثير -رحمه الله-: ثم قال تعالى معظمًا لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}.

قوله: {خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} ألف شهر تزيد على ثلاث وثمانين سنة، فهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، ولا شك أن مثل هذا حينما يدرك الإنسان خمسين رمضان مثلاً يدرك فيه ليلة القدر ويقومها فإن مثل هذا إذا جمعته يكون نماء وزيادة في الأعمار.

قال سبحانه: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}، ثم أعلمه وأخبره بأنها: {خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، فالاستفهام قبله لجذب الأذهان، وللاهتمام بهذا الذي جاء الاستفهام فيه، وجاء عن سفيان -رحمه الله-: أن كل شيء قال الله فيه: {وَمَا أَدْرَاكَ} فقد أعلمه، -فهنا قال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ} ثم أعلمه بقوله: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}-، وكل شيء قال الله فيه: {وَمَا يُدْرِيكَ} فإنه لم يعلمه به، قال الله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣].

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: لما حضر رمضان قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حرم)) ورواه النسائي[١].

---

١ – أخرجه أحمد، رقم: (٧١٤٨)، وقال محقق المسند: "صحيح"، والنسائي، كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه، رقم: (٢١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٧٢)، رقم: (٢٣).

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه))[2].

وقوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة؛ لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له.

يعني: الذي يطلب العلم بصدق، أي: بنية صحيحة.

قول ابن كثير: "يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة" أخذ ذلك من قوله: {تَنَزَّلُ} على وزن "تَفَعَّل"، فإن ذلك يقتضي كثرة؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، يعني: ما قال تَنْزل، بل قال: {تَنَزَّلُ}، فيدل على كثرة النزول، ويدل أيضاً على أنه نزول متتابع، فقوله: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ} أي: تتنزل نزولاً متتابعًا كثيرًا.

وأما الروح فقيل: المراد به هاهنا: جبريل -عليه السلام-، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

دليل ذلك: قول الله -عز وجل-: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣]، وهو: جبريل، وقال: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ} [النحل:١٠٢]، يعني: جبريل -صلى الله عليه وسلم-، وقال: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} [مريم:١٧]، يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فهذا هو المشهور، والذي عليه الجمهور، وبعضهم يقول: الروح: صنف من الملائكة، وهم من أشراف الملائكة، وبعضهم يفسره بغير هذا، كقول من قال: إن المراد: الرحمة، لكن المشهور: أنه جبريل، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام يدل على أهميته، وعلى منزلته، وعلى شرفه.

وقوله تعالى: {مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} قال مجاهد: سلام هي من كل أمر.

يقول تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} يقول: "قال مجاهد: سلام هي من كل أمر"، وبعضهم يقول: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة، وهذا غير قول مجاهد، يعني: مجاهد يقول: سلام هي من كل أمر، يعني: من كل أمر مخوف، وما إلى ذلك، والقول الآخر: أن تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر يعني: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله -تبارك وتعالى- بها في تلك السنة، يتنزلون بإذن ربهم من كل أمر، يعني: أن يكون هذا التنزل من أجل هذه الأمور، أي: من كل أمر قضاه الله وقدره بذلك العام، وبعضهم يقول: إن "مِن" بمعنى: اللام، أي: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} أي: لكل أمر، يعني: أمرهم الله به أو نزلوا من أجله، وبعضهم يقول: إن "من" هذه بمعنى الباء، ونحن نعرف أن حروف الجر تتناوب، {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، يعني: بكل أمر أمرهم الله بالنزول به، فهذا يقارب ما قبله من أنها بمعنى اللام مثلاً، لكل أمر، أو

---

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان، رقم: (٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم: (٧٦٠).

بكل أمر، وإن كان يفترق في المعنى، لكن المقصود: أنهم ينزلون لأجل كذا، أو بكذا، وهكذا قول من قال: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله في تلك السنة.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} أي: قضاه الله في تلك السنة من رزق، وأجل، إلى غير ذلك، يعني: المواليد الذين يولدون في ذلك العام، والناس الذين يحجون في تلك السنة، ومن يموتون، الآجال، والأرزاق، والأعمال، فهم ينزلون بأمر الله -عز وجل- الذي قضاه وقدره.

قال -رحمه الله-: وقال سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا الأعمش، عن مجاهد في قوله: {سَلَامٌ هِيَ} أي: سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا، أو يعمل فيها أذى.

وقال قتادة وغيره: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان:٤].

قوله: {سَلَامٌ} إما أن يتعلق بما قبله، يعني: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ}، هذا تفسير مجاهد الذي ذكره ابن كثير، يقول: سلام هي من كل أمر، فربطه بما قبله، والجمهور على خلاف ذلك، يعني: الجمهور يقولون: إن هذا وصف آخر لها، أي: أن الملائكة تنزل فيها وجبريل -صلى الله عليه وسلم-، ومن صفتها أيضاً: أنها سلام حتى مطلع الفجر، لكن ما معنى "سلام"؟، هنا قال مجاهد: سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا، أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة وغيره: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان:٤].

وقوله تعالى: {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، قال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم، عن أبي إسحاق، عن الشعبي في قوله تعالى: {مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر.

وقال قتادة وابن زيد في قوله: {سَلَامٌ هِيَ} يعني: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر.

وبعضهم يقول: إن هذا السلام هو: سلام الملائكة على بعضهم، يعني: غير الذي قبله -وهو قول الشعبي: تسليم الملائكة على أهل المساجد-، فهل المقصود أو الذي يفهم من السياق: أن ليلة القدر تسلم فيها الملائكة على أهل المساجد، أو يسلم بعضهم على بعض، أو أن المقصود: وصف هذه الليلة بأنها سلام، أي: سالمة؟، المقصود أنها سالمة، لكن سالمة من ماذا؟ بعضهم يقول: سالمة من هذا الشيطان، وتسويله، وتزيينه، وإضلاله، وتلبيسه، وبعضهم يقول -كما هنا قول قتادة وابن زيد-: سالمة يعني: خير كلها، ليس فيها شر، فيدخل فيه القول الذي قبله: أنها سالمة، أي: يسلم فيها الإنسان، أو يسلم فيها المكلف، أو يسلم فيها الثقلان من إضلال الشيطان، وتسويله، وتزيينه المنكر.

وابن جرير -رحمه الله- فسرها بقول قتادة وابن زيد: سالمة يعني: خير كلها، ليس فيها شر، {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، وبهذا نعرف أن هذه الاحتمالات في قوله: {سَلَامٌ} إما أن يكون من الشيطان، وإما بأن يكون ما هو أعم من هذا، أي: أنها سالمة من الشرور والآفات، أو أن ذلك يتعلق بما قبله، فالملائكة والروح يتنزلون فيها بكل أمر هو سلام حتى مطلع الفجر، والأقرب -والله أعلم-: أن هذا وصف منفصل لها، لا

يتعلق بما قبله، فهذه صفة ثالثة لها، ومن ثَمَّ فليس بالضرورة أن لا يقع في ليلة القدر منكر، سواء كان ذلك من قبيل العدوان على الناس، أو التعدي على حقوق الله وحدوده، فبعض الناس يتساءل ويستغرب، ويقول: ليلة القدر سلام، فكيف تقع فيها منكرات وفواحش وعدوان وظلم، ولربما يُقتل أناس، ولربما يحصل فيها فجور، ولربما يُسرق فيها أموال؟ يقال: ليس هذا هو المراد -والله أعلم-، فذات مرة خرج أحدهم من المسجد في ليلة السابع والعشرين بعد القيام، فلم يجد نعليه -أعزكم الله-، فجزم أنها ليست ليلة القدر؛ لأن الله قال: **{سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}**، فهذا فهم غير صحيح.

قال -رحمه الله-: ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة...)).

انظر قال هنا: العشر البواقي.

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجة...)).

بلجة يعني: مضيئة مشرقة.

((كأن فيها قمرًا ساطعًا، ساكنة ساجية...)).

ساجية يعني: هادئة ساكنة، هذه أوصاف ثابتة، وهناك أوصاف أخرى تذكر فيها ليس عليها دليل.

قال: ((لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمى به فيها حتى يصبح، وإن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر...)).

هذا يحتاج أن يكون من يشاهدها ممن اعتاد على أن ينظر إلى الشمس في وقت الشروق، أما من لا عهد له بذلك ثم ينظر في ذلك اليوم فقط يتحرى فإن الأمر قد يلتبس عليه، ولا يميز، ولو نظر الإنسان في مثل هذه الساعة، ونظر إلى الشمس بعد شروقها قد يلتبس عليه، ولا يفرق، ولا يميز، فلابد من تمييز مثل هذه الأشياء؛ لذلك تجد الناس لربما في كل يوم ينظرون في العشر الأواخر صبيحة ليالي الوتر مثلاً، وقد لا يخرج بعضهم بنتيجة، يعني: يلتبس الأمر عليه، والسبب: أنه لا عهد له بذلك، رأيت في بعض الصور في بعض السنوات صور في نفس الدقيقة والثانية للشمس في كل ليالي العشر، فإن صح هذا أنه ليس فيه عبث، ولا تغيير، فنحن ما نثق بهذه الصور التي تنشر في هذه الوسائل، إن صح هذا فواضح في أحد الليالي أن الشمس تختلف تمامًا عن بقية الأيام، إن لم يكن هذا عبثًا بهذه الصور، وهذا يمكن أن يتميز فيه إذا كان بأمانة فعلاً، لكن ما الفائدة من هذا؟ يعني: تكون قد انتهت، والسنة التي بعدها تكون في ليلة أخرى، يعني: لا يترتب عليه عمل.

قال: ((ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ))، وهذا إسناد حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة[٣]**.**

---

٣ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٢٧٦٥)، وقال محقق المسند: الشطر الأول من الحديث حسن، وأما الشطر الثاني فمحتمل للتحسين لشواهده، وإسناد هذا الحديث ضعيف.

قوله: ((ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ))، يؤيد قول من قال: إنها سالمة، يعني: يسلمون فيها من الشيطان، وكذلك حينما قال: ((ولا يحل لكوكب يرمى به فيها حتى يصبح))، فمعنى ذلك: أن الشياطين لا تسترق السمع، أما وقوع المعاصي والفجور والظلم والعدوان فإن النفوس أمارة، وبعض الناس تحولوا أصلاً إلى شياطين، فمثل هؤلاء لا يحصل لهم تصفيد، لا في ليلة القدر ولا في غيرها من ليالي الشهر، هم شياطين، بل بعضهم صار الشيطان من تلامذته.

قال -رحمه الله-: وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: "باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان" ثم روى عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا أسمع- عن ليلة القدر فقال: ((هي في كل رمضان))، وهذا إسناد رجاله ثقات، إلا أن أبا داود قال: رواه شعبة وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه[٤].

يعني: أنه موقوف، ولا يصح رفعه.

قال -رحمه الله-: وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: اعتكف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكفَ العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان فقال: ((من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء))، وكان سقف المسجد جريدًا من النخل، وما نرى في السماء شيئًا، فجاءت قَزَعة فمُطرنا، فصلى بنا النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تصديق رؤياه، وفي لفظ: في صبح إحدى وعشرين، أخرجاه في الصحيحين[٥].

قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات، وقيل: ليلة ثلاث وعشرين؛ لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم[٦].

حينما تنظر في الأحاديث الصحيحة الواردة فيها، كل حديث لربما تقول: هذه هي ليلة القدر جزمًا؛ مما يدل على أنها متنقلة، ففي سنة كانت في ليلة إحدى وعشرين، وفي سنة ليلة ثلاث وعشرين، وفي سنة ليلة سبع وعشرين، وهكذا.

---

٤ - رواه أبو داود، تفريع أبواب شهر رمضان، باب من قال: هي في كل رمضان، رقم: (١٣٨٧)، وقال الألباني في ضعيف أبي داود (٢/ ٦٧): "قلت: وهذا هو الصواب -أنه موقوف غير مرفوع-؛ لأن أبا إسحاق -وهو السبيعي- كان اختلط؛ كما سبق، وقد روى عنه سفيان وشعبة قبل الاختلاط؛ فالظاهر: أنه رفعه بعد الاختلاط؛ فتلقاه عنه موسى بن عقبة -وهو ثقة- مرفوعاً، وهو واهم في رفعه".

٥ - أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، والسجود على الطين، رقم: (٨١٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان، رقم: (١١٦٧).

٦ - أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان، رقم: (١١٦٨).

وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين؛ لما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى))**[٧].

هذا معناه: أنها تبقى، يعني: ليس باعتبار ما مضى، فباعتبار ما مضى تكون في الليالي الأشفاع، وباعتبار ما بقي تكون في ليالي الوتر، معنى ذلك: أننا نتحراها في ليالي الشفع، وفي ليالي الوتر؛ لأنها وتر باعتبار وشفع باعتبار، فإذا نظرنا إلى ما تبقى من الشهر فتكون في ليالي الشفع بالنسبة لما مضى، يعني: ليلة إحدى وعشرين كم تكون فيما بقي؟ تكون ليلة شفع فيما تبقى من الليالي، فتكون هذه أشفاع، وليالي الشفع ليلة اثنين وعشرين كم تكون باعتبار ما بقي؟، بحسب الشهر إذا كان تامًّا أو ناقصًا، فلذلك تُتحرى في هذا وهذا، في ليالي الشفع وفي ليالي الوتر، فهي وتر باعتبار وشفع باعتبار.

قال -رحمه الله-: فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر.

وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((أنها ليلة سبع وعشرين))**[٨].

وروى الإمام أحمد عن زر، سألت أبي بن كعب قلت: "أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر..".

يعني: باعتبار أنها في السنة، وليست في رمضان فقط.

قال: فقال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين...

يعني: قد يكون قال هذا باعتبار أنه قصد: أن يجتهد الإنسان في العبادة، وألا تكون عبادته هي فقط في ليالٍ معدودة، بل يقوم الليل في سائر العام، وإن كان بعض أهل العلم قال: إنها في سائر العام.

قال: ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة، أو بالآية التي أُخْبِرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها، يعني: الشمس، وقد رواه مسلم[٩].

يعني: كأنه نظر إليها واستقرأ، فعرف علامتها أنها في ليلة سبع وعشرين.

قال -رحمه الله-: وقيل إنها تكون في ليلة تسع وعشرين.

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ليلة القدر، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في**

---

٧ - أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، رقم: (٢٠٢١).

٨ - أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم: (٧٦٢).

٩ - أخرجه أحمد، رقم: (٢١١٩٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم: (٧٦٢).

وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو في آخر ليلة))[١٠].

هذا الحديث حسن، لكن الجملة الأخيرة: ((أو في آخر ليلة)) هذه الزيادة فيه لا تصح.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في ليلة القدر: ((إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى)) تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به[١١].

وروى الترمذي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر[١٢].

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور والمزني وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي نقله القاضي عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

والمستحب: الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر.

والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني؛ لما رواه الإمام أحمد أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: ((قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني))، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين، ورواه النسائي أيضًا من طريق أخرى[١٣].

آخر تفسير سورة ليلة القدر، ولله الحمد والمنة.

---

١٠ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٢٧١٣)، وقال محققو المسند: حديث حسن دون قوله: "أو في آخر ليلة" ودون قوله: "وما تأخر"، والترمذي، أبواب الصوم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ليلة القدر، رقم: (٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

١١ - أخرجه أحمد، (١٠٧٣٤)، وقال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٢٤٠)، رقم: (٢٢٠٥).

١٢ - أخرجه الترمذي، أبواب الصوم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في ليلة القدر، رقم: (٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

١٣ - أخرجه أحمد، رقم: (٢٥٤٩٥)، والترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رقم: (٣٥١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، أبواب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم: (٣٨٥٠)، والنسائي في الكبرى، من طريقين، الأولى: في كتاب النعوت، باب العفو، رقم: (٧٦٦٥)، والثانية: في كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا وافق ليلة القدر، ذكر الاختلاف على سفيان في هذا الحديث، رقم: (١٠٦٤٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر، رقم: (١٩٤٢)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٧)، رقم: (٣٣٩١).

هنا في هذه السورة وفي جميع المواضع التي ذكرت فيها ليلة القدر لم يذكر فيها الدعاء واستجابته، قال الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، فما ذكر الدعاء، وهذا المستفيض المستقر عند المسلمين أن الدعاء يستجاب في تلك الليلة، ويتحرون الدعاء فيها، من أين يؤخذ؟ من حديث عائشة، فهو يدل على أن ذلك كان مستقرًّا عندهم، فهي تسأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ فدل على أن ذلك مما تُرجى فيه الإجابة، قال: ((قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني))، وهذا فيه من التواضع تواضع العبد لربه -تبارك وتعالى-، يعني: كأنه يطلب العفو فقط، وهو مذنب مقصر، والعفو لا شك أنه لا يستغني عنه أحد، وكذلك أيضًا يدل على تواضع العبد لربه، وأيضاً كون هذه الليلة هي ليلة مباركة وبهذه المنزلة فهذا تُرجى معه إجابة الدعاء؛ ولهذا قال ابن كثير: والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، بأي اعتبار؟ باعتبار أن الله ذكر في ثنايا وفي وسط آيات الصيام قوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، فدل على أن الدعاء في رمضان له مزية، وأن الدعاء في حال الصيام له مزية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أيضاً أن للصائم دعوة مستجابة، فهي في وقت صومه أي: حال صومه من أوله إلى آخره، ولا يختص هذا بوقت الفطر، فإن ذلك لا يصح، أي: رواية: "عند فطره"[١٤]، لا تصح، وإنما في وقت الصوم أي: حال الصوم، في الظهر، في العصر، في الصباح، في أي وقت، فإذا اجتمع مع هذا -أي: الصوم- سجود، أو بين الأذان والإقامة، أو نحو ذلك مما يكون مظنة للإجابة فإن ذلك أحرى للإجابة.

---

١٤ - أخرجه ابن ماجه، أبواب الصيام، باب في "الصائم لا ترد دعوته"، رقم: (١٧٥٣) بلفظ: ((إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد))، وضعفه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٤١)، (٩٢١)، وأبو داود الطيالسي، رقم: (٢٣٧٦)، بلفظ: ((للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة))، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: ٦٨٤)، رقم: (٤٧٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البينة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله-: تفسير سورة لم يكن، وهي: مدنية.

روى الإمام أحمد: أن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأبي بن كعب: ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: ١]**))، قال: وسماني لك؟ قال: ((نعم))، فبكى، ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث شعبة به[١].**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة يقال لها: سورة البينة، ويقال لها: لم يكن، ويقال لها: سورة القيمة أيضاً، وفي مصحف أبي بن كعب -رضي الله عنه- سميت بسورة أهل الكتاب، وذكرت لها أسماء أخرى: كسورة البرية، وسورة الانفكاك، وأما نزولها فالحافظ ابن كثير هنا يقول: هي: مدنية، وهذا هو الذي ذكره البغوي، واقتصر عليه، وكذلك الطاهر بن عاشور، وهذا قول الجمهور، كما نقل ذلك القرطبي، مع أن ابن عطية صاحب كتاب: المحرر الوجيز عكس هذا، يعني: اعتبر أن القول بأنها مكية هو قول الجمهور.

هذه السورة تتحدث عن المشركين، وأهل الكتاب، وعن انتهائهم من الشرك، وما هم فيه من الكفر، وأن تفرقهم واختلافهم إنما كان بعد مجيء البينة الواضحة، وبعْثِ الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهم مأمورون بعبادة الله وحده لا شريك له، وتوعَّدَ هؤلاء الذين بقوا على كفرهم، ووعد أهل الإيمان ومن دخل في الإسلام، واستجاب، واهتدى بهذا الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-، هذا الموضوع الذي تتحدث عنه السورة بصرف النظر عن محمل ذلك، يعني: في قوله -تبارك وتعالى- **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}** [البينة:١]، ما المراد بهذا؟ يأتي الكلام عليه -إن شاء الله-، لكن السورة في مجملها تتحدث عما ذكرت، يعني: هي تتحدث عن موضوع واحد، تتحدث عن هؤلاء، وما هم عليه، وعن استجابتهم للحق، وقبولهم من عدمه.

---

١ - أخرجه أحمد، رقم: (١٢٣٢٠)، والبخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب -رضي الله عنه-، رقم: (٣٨٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بن كعب، وجماعة من الأنصار -رضي الله تعالى عنهم-، رقم: (٧٩٩)، والترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبيٍّ، وأبي عبيدة بن الجراح -رضي الله عنهم-، رقم: (٣٧٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة البينة، رقم: (١١٦٢٧).

هذه الرواية التي ذكرها هنا من حديث أنس –رضي الله عنه–: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لأبي بن كعب: ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: ١])) قال: وسماني لك؟ قال: ((نعم))، فبكى، رواه البخاري ومسلم، هذا الحديث فيه منقبة عظيمة لأُبيٍّ–رضي الله عنه– بلا شك، لكن هل يستدل بمثل هذا على أن السورة مدنية باعتبار أن أبي بن كعب –رضي الله عنه– من الأنصار؟ بهذه الرواية على هذا اللفظ لا يكون ذلك صريحًا؛ لأنها قد تكون نزلت بمكة والله أمره أن يقرأ على أبيٍّ –رضي الله عنه–، ولكن جاء في بعض رواياته في غير الصحيحين ما يدل على أن نزولها كان في ذلك الحين، لكن من حديث أبي حبة، وليس من حديث أنس –رضي الله تعالى عنه–، وحديث أبي حبة البدري –رضي الله عنه– يقول: "لما نزلت: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا} قال جبريل –عليه السلام–: يا محمد، إن ربك يأمرك أن تُقرئ هذه السورة أبي بن كعب"[٢]، فقال: ""لما نزلت"، فهذا يدل على أن نزولها كان في المدينة، وكون ابن عطية يعزو للجمهور: أنها نازلة في مكة يبدو أنه وقع له وهم في هذا، أو سبق قلم.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة:١-٥].

قال –رحمه الله–: أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، وقال مجاهد: لم يكونوا منفكين، يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق، وهكذا قال قتادة.

{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}، ثم فسر البينة بقوله: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}، يعني: محمداً –صلى الله عليه وسلم– وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس:١٣-١٦].

قوله –تبارك وتعالى–: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} ما المراد بذلك؟ الحافظ ابن كثير –رحمه الله– نقل هنا عن مجاهد: "**لم يكونوا منفكين، يعني: منتهين**"، منتهين عن ماذا؟ منتهين عن كفرهم وضلالهم، فهم لا ينفكون عنه، ولا يبرحون حتى تأتيهم البينة، فالانفكاك يحتمل معانيَ متعددة، بحسب مدلوله في اللغة، ومن هنا تفرقت أقوال المفسرين، فالانفكاك يأتي بمعنى: الانفصال، فك عن كذا: انفصل عنه، وقريب من هذا من يفسره بمبارحة الشيء، وبعضهم يفسره بمعنى: الانتهاء، وهذا أيضاً له نوع اتصال بما قبله –يعني: منتهين–، والمعني: أنهم لا ينتهون عن كفرهم وشركهم وضلالهم، لكن ما معنى هذا الانتهاء؟ وما المراد به؟ هل المقصود بذلك: أنهم لم يكونوا ليبلغوا نهاية الأعمار فيموتوا حتى تأتيهم البينة، وهي هذا الرسول –صلى الله عليه وسلم– على أحد القولين المشهورين في الآية؟، أو أن

---

٢ – أخرجه أحمد، رقم: (١٦٠٠١)، وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره.

المقصود بذلك: لم يكونوا منفكين، يعني: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم؟ وهذا لا يخلو من بعد.

هذه الآية: هل هي خبر عن قيلهم الذي قالوه قبل بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وما كانوا عليه، وما كانوا يقولونه من أنهم لن يتركوا دينهم الذي هو الكفر حتى يأتيهم الرسول الموعود به، ونحن نعرف أن اليهود في المدينة كانوا يتوعدون الأوس والخزرج ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنهم يقتلونهم معه قتل عاد، يتوعدونهم بهذا، وينتظرون بعثه، فهل هذا هو المراد بلم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة؛ فقد كانوا يقولون وينتظرون بعثه من أجل أن يصيروا أنصارًا له، هل هذا إخبار عنهم؟، أو أن هذا خبر عن حالهم أنهم لن يزالوا على ما هم عليه حتى يبعث الله هذا الرسول، وحتى تأتيهم البينة، فيهتدوا بها؟ فيكون الخبر عمن اهتدى من المشركين، ومن أهل الكتاب، يعني: أنهم لن يزالوا على ضلالهم، وعلى كفرهم، وعلى شركهم حتى يأتي ما يخلصهم منه، وهو: بعث هذا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلما بعثه كان ذلك سببًا لهداية من شاء الله منهم، هذا معنى أيضاً يذكره بعض المفسرين، لكن ابن جرير -رحمه الله- يحملها على معنى آخر، وهو: أن قوله: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ}** أي: مفترقين في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- حتى تأتيهم البينة، وهي: إرسال الله -تبارك وتعالى- إياه إليهم رسولاً، يعني: أن تفرقهم في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- إنما كان بعد بعثه، يعني: لم يكونوا متفرقين فيه، فكلهم يقولون: إذا بعث فسنكون من أتباعه، إذًا لم يحصل لهم الافتراق والانفكاك عن الحق الذي جاء به حتى بُعث، فتركوا اتباعه حسدًا، أو غير ذلك من الأسباب، فقبل بعثه كانوا يتفقون على أنهم سيكونون من أتباعه، ومن أنصاره، وأنه رسول جاء بأوصاف محددة يعرفونها، فهذا كلام ابن جرير، فلما بعث حصل منهم ما حصل، فعادوه، وكذبوه، ورموه بأقبح الأوصاف، وآمن آخرون، فحصل بذلك افتراق، وكانوا قبل بعثته غير مفترقين في أمره، وافترقوا بعد بعثته، فآمنت طائفة، وكفرت طائفة، كما حصل الافتراق في عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ}** [الصف: ١٤]، هذه الآية بعضهم كالواحدي يذكر أنها من المعضلات في التفسير، وأنها من أصعب المواضع في القرآن نظمًا وتفسيرًا، هكذا ذكر، وأشار إلى أن العلماء الكبار تخبطوا فيها، وقد مضى في الكلام على سورة المائدة أن أصعب آية في القرآن من جهة النظم والمعنى والتفسير والإعراب هي قوله في الوصية في السفر: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ}** [المائدة: ١٠٦]، هذا هو المشهور.

على كل حال الأقوال فيها كثيرة، تبلغ بضعة عشر قولاً، ذكر أكثرها الألوسي في روح المعاني، وكذلك أيضاً القرطبي ذكر كثيرًا منها، أما الواحدي فيرى أنها من قبيل الإخبار عن المشركين وأهل الكتاب أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم وضلالهم حتى أتاهم محمد -صلى الله عليه وسلم- فبين لهم ضلالتهم، وما هم عليه من الانحراف، ودعاهم إلى الإيمان، ومن ثَمَّ تكون هذه فيمن آمن من الفريقين، يعني: أنهم لن يزالوا على ضلالة حتى يأتيهم ما يخلصهم منها، فقوله: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ}**

يعني: مفارقين لما هم عليه من الكفر والضلال حتى تأتيهم البنية فتخلصهم، فبعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- فبين لهم الحق، ودعاهم إليه، فهدى الله به العباد من الضلالة، وأنعم الله به نعمة بالغة على عباده، واهتدى بهذا النور من شاء الله هدايته.

على كل حال هذه البينة في قوله: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}** فسرت بقوله: **{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ}**، فهو البينة، وكون النبي -صلى الله عليه وسلم- يتلو صحفاً مطهرة وهو أميٌّ -عليه الصلاة والسلام- يعني: يتلو ما في مضامينها عن ظهر قلب، وهذا القرآن في اللوح المحفوظ، وهو **{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ}** [عبس: ١٣ - ١٥]، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، أعني: أن البينة هذه هي: محمد -صلى الله عليه وسلم-، مع أن بعضهم فسر البينة بغير ذلك، فبعضهم يقول: هي: القرآن، ولكن الأول هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، فقال: **{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}**.

الطاهر بن عاشور -رحمه الله- أرجع هذه الأقوال الكثيرة في الآية إلى خمسة، فهو يرى: أنها ترجع إليها، وتدور عليها، وهذه هي الأقوال الخمسة، يقول: "الأول: تأويل الجملة بأسرها، بأن يؤول الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب..."[٣].

يعني: هي صيغة خبرية المراد منها: التوبيخ والتعجيب.

يقول: "وإلى هذا ذهب الفراء ونفطويه والزمخشري.

الثاني: تأويل معنى منفكين بمعنى: الخروج عن إمهال الله إياهم، ومصيرهم إلى مؤاخذتهم، وهو لابن عطية..."[٤].

يعني: بتعذيبهم وإهلاكهم.

يقول: "الثالث: تأويل متعلق منفكين: بأنه عن الكفر، أو عن الاتفاق على الكفر، وهو للفخر وأبي حيان، أو منفكين عن الشهادة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالصدق قبل بعثته...، أو منفكين عن الحياة، أي: هالكين.."[٥].

يعني: لا تنقضي أعمارهم.

يقول: "الرابع: تأويل "حتى" أنها بمعنى: إن الاتصالية، والتقدير: وإن جاءتهم البينة..."[٦].

يعني: هم يقيمون على كفرهم وإن رأوا ما يدل على خلافه.

يقول: "الخامس: تأويل "رسول" بأنه رسول من الملائكة يتلو عليهم صحفاً من عند الله، فهو في معنى قوله تعالى: **{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ}** [النساء : ١٥٣]"[٧].

---

٣ - التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٠).

٤ - المصدر السابق.

٥ - المصدر السابق.

٦ - المصدر السابق (٣٠/ ٤٧١).

٧ - المصدر السابق.

يعني: فيكون هذا كأنه من قبيل التهكم بهم؛ لشدة تنطعهم وإعراضهم، لكن هذه الأقوال -كما يبدو- عدد منها لا يخلو من بعد، وكأن الأقرب من هذه الأقوال -والله أعلم-: أن هذا: إما إخبار عنهم قبل بعثه -صلى الله عليه وسلم- حيث كانوا متفقين على صفته، وأنه رسول، فلما بعث افترقوا في أمره، كما يقول ابن جرير، أو أن ذلك بمعنى: أنهم لن يزالوا على ما هم عليه حتى يأتيهم ما يخلصهم، وذلك ببعثته -صلى الله عليه وسلم- ، فهدى الله به من الضلالة، وأبان عن الحق، وفصل في كثير مما اختلف فيه أهل الكتاب قبل بعثته -صلى الله عليه وسلم-، فجاء هذا الكتاب مهيمناً على سائر الكتب، والله تعالى أعلم.

على كل حال ابن كثير هنا يقول: "**قال مجاهد: لم يكونوا منفكين أي: منتهين حتى يتبين لهم الحق**"، يعني معناه: أنهم لا يفارقون كفرهم، ولا يتركونه حتى يأتي ما يقيم الحجة، وذلك ببعثه -صلى الله عليه وسلم-، يقول: "**وهكذا قال قتادة**" وبه قال آخرون كابن زيد.

ويقول ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "**قوله: {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}، ثم فسر البينة بقوله: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}**".

انظر: قول ابن كثير هنا غير قول ابن جرير، وعلى كلٍّ فقول ابن جرير وقول ابن كثير هما أقرب الأقوال في تفسير الآية، فهذه الأقوال الكثيرة أقربها قولان: ما ذكره ابن كثير، وما ذكره ابن جرير، وما ذكره ابن كثير كأنه أقرب من قول ابن جرير، والله أعلم، أي: أنهم لن يبرحوا ولن يزالوا على هذا الكفر والضلال حتى يأتي ما يخلصهم منه، ويوضح لهم الحق، ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، والعلم عند الله.

قال: "**ثم فسر البينة بقوله: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}**"، ثم قال: **كقوله: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٣ - ١٦]**، يعني: هذا باعتبار: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يتلو كتابًا، أي: لم ينزل عليه كما نزل على الأنبياء قبله كتاب يُقْرَأ، أي: صحف، ولم يكن يقرأ -عليه الصلاة والسلام-، إذاً فالمعنى: يتلو مضامين الصحف المطهرة بما أوحاه الله -عز وجل- إليه، فهذه الصحف المطهرة هي التي وصفها الله -عز وجل- بقوله: **{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ}** وكونها مطهرة يعني: من كل دنس، فلا تصل إليها الشياطين، ولا يتطرق إليها الباطل بوجه من الوجوه.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}، قال ابن جرير: أي: في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله -عز وجل.

الكتب القيمة يفسرها ابن جرير -رحمه الله- بقوله: "**كتب من عند الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله -عز وجل-**"، فهذه هي الكتب القيمة.

القيم ما معناه؟ القيم يعني: المستقيم، قال الله تعالى: **{دِينًا قِيَمًا}** [الأنعام:١٦١] يعني: مستقيمًا، وليس المقصود به: ما يطلقه الناس اليوم على ما يسمى: بالقِيَم: قيمة الصدق، وقيمة الأمانة، وقيمة الوفاء، فهذا الإطلاق لا يكاد يعرف، أو على الأقل: لا يكاد يوجد في كتب القواميس والمعاجم اللغوية، والمعاني التي يذكرها أهل اللغة في أصل هذه المادة لا تتصل بهذا الذي يذكرونه، اللهم إلا صاحب المعجم الوسيط، وهو معاصر،

ويذكر المعاني التي قد لا تذكر في كتب المتقدمين، وإنما يذكرها المعاصرون، لكن لابدّ أن يكون لهذا أصل في لغة العرب، فصاحب المعجم الوسيط هو الوحيد –فيمن وقفت عليه– الذي ذكر القِيَم بالمعنى الذي يريده المتحدثون عن القِيَم في هذا العصر؛ ولذلك هذا الإطلاق بمعنى: الشيء الذي له قيمة، أو نحو ذلك من الأخلاق، أو كليات الشريعة، أو نحو هذا، هذا الإطلاق إنما شاع في هذا العصر، كقولك: المحافظة على القيم والمبادئ، ونحو ذلك، فهذا لا يكاد يوجد في كلام المتقدمين، وفي استعمالات أهل العلم، وفي كتب اللغة، ولا مشاحّة في الاصطلاح إذا فهم المعنى، لكن الشيء الذي ننكره في هذا الباب –أي: الإبراز للدعوة إلى القيم– هو: أن يكون التركيز على هذه الأشياء، والإبراز للدعوة بهذا الثوب، وبهذا القالب، وهو: القيم، فهذا –فيما يظهر– خلاف دعوة الرسل –عليهم الصلاة والسلام–، فالأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– دعوا بقولهم: **{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** [الأعراف:٥٩]، فنحن حينما نقدم الدعوة على أنها دعوة إلى القيم، كالأخلاق والصدق والأمانة سيقبلها البوذي، وسيقبلها شارون، وسيقبلها كل كافر على وجه الأرض، والمشركون كانوا يعترفون أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يدعو إلى مكارم الأخلاق، ونحو ذلك، فهذه يقبلونها، لكن كانت المشكلة عندهم: **{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا}** [ص:٥]؛ ولذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– يذكر أنه لو دعاهم إلى تحريم الزنا، أو العفاف، وطالبهم بهذه الأمور، ونحو ذلك لوافقوه، فهذه أمور يوافق عليها الجميع، فحينما تأتي وتتحدث أمام العالم جميعًا من أوله إلى آخره، وتقول له: إنه لابدّ أن نحافظ على الأمانة، والوفاء، والصدق، وما إلى ذلك، فإن الكل سيوافق، ولن تجد معارضًا لهذه الدعوة، لكن حينما تدعوهم إلى الإيمان والتوحيد فهنا سيأتي الخلاف والعداوة والشقاق؛ ولذلك كانت بعثته –صلى الله عليه وسلم– فرقًا بين الناس، والقرآن سماه الله بالفرقان؛ لهذا الاعتبار، فاستنكفوا من هذا، وقالوا: **{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا}** [ص: ٥]، هذا من وجه، ومن وجه آخر نقول: هذه الأمور التي تذكر هي حق، ولكنها من شعب الإيمان، فإذا دُعي إليها منفصلة والإيمان واهن في النفوس، فمهما تزين بها الناس فإن ذلك سرعان ما يتلاشى إذا لاح الطمع، فتظهر الحقائق وتتكشف على ما هي به، لكن حينما يربى في نفوس الناس الإيمان، ويُدعون إلى ذلك، فتكون الدعوة إلى الإيمان، والتربية على الإيمان، كما كان الصحابة –رضي الله عنهم– يتربون على هذا؛ ولهذا لما تعلموا القرآن انتفعوا به، واستجابوا، وأثر فيهم، لكن حينما تدعوهم إلى مثل هذه الأمور الجميلة والحسنة إلى آخره قد يتخلقون بها، ولكن لا يكون ذلك انبعاثًا من إيمان وعبودية لله –عز وجل–، فهذا قد لا يطول من جهة، وقد لا يكون له ذلك الأثر، وتضعف الاستجابة فيه، لكن إذا زَكَا الإيمان في النفوس فإن ذلك يثمر كل قول جميل، وكل فعل جميل، فيتغير الإنسان يحفظ لسانه، ويصلح حاله، ويصدق، ويفي، وتتغير أفعاله؛ ولهذا أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الأمانة، وأنها نزلت بجذر قلوب الرجال، ثم ذكر ما تصير إليه، وتحوُّل الناس، وما يبقى من أثرها[٨]؛ فهذا مثل الناس الذين يعيشون في بلد مثل اليابان، هذه الدولة التي أشغلونا بها، يتكلمون عليها دائمًا، ويضربون بها المثل، فيتكلمون عن حالهم،

---

٨ – أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم: (٦٤٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب، رقم: (١٤٣).

وعما هم عليه من الانضباط والعمل والأمانة والدقة والمواعيد وحفظ الأوقات، وكيف أن الصغير يربى على كذا، وعامل النظافة كذا، ومن هذا الكلام الكثير الذي يصل إلينا في رسائل، ووسائط، فنحن نقول: هؤلاء ما عرفوا أكبر الأشياء، وأهم الأشياء، الذي هو: معرفة المعبود -سبحانه وتعالى-، هؤلاء يعبدون الأوثان، هؤلاء من الوثنيين، هم أحط الناس؛ لأنهم ما عرفوا ربهم، فيكفي هذا في بيان حقيقة ما هم عليه، وحقيقة حالهم، مع أنهم في هذه القضايا كما ذكر، فإن الدعاة هناك يجدون صعوبة في توجيه الدعوة إليهم، وفي قبولهم لها، يقولون: لأن العادة إنما تقدم الدعوة بذكر محاسن الإسلام، وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وما إلى ذلك، يقولون: إذا وجهنا إلى هؤلاء ذلك قالوا: نحن هذه الأشياء موجودة عندنا، لكن المشكلة تأتينا منكم، يعنون الوافدين إليهم من الجاليات مثل البنغال والإندونيسيين، وغيرهم ممن يأتي من القارة الهندية وغيرها كبلاد جنوب شرق آسيا، فيقولون: هؤلاء هم الذين يقع منهم ما يقع من الكذب وإخلاف المواعيد والسرقة، فاستجابتهم ضعيفة جدًّا، وانتشار الإسلام عندهم في غاية الضعف، وحتى الذين يدرسون هناك اللغة العربية في فرع الجامعة ليس كل هؤلاء من المسلمين، كثير منهم من غير المسلمين، إنما يدرسون من أجل معرفة اللغة، -والله المستعان-.

يقول الله -تبارك وتعالى-: **{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}** أي: هذا القرآن.

يقول: **{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}**، قوله: **{كُتُبٌ}** أي: مكتوب، يعني: ما في مضامينها؛ ولهذا فسر بالآيات، وفسر بالأحكام باعتبار أصل المادة: الكَتْبُ، فهي: الأحكام التي في مضامينها، والآيات.

وقوله: **{قَيِّمَةٌ}** يعني: مستقيمة، قال الله تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا}** [الكهف:١-٢] يعني: مستقيمًا، فهذا يدل على الاستواء والاستقامة -والله أعلم-، ومن فسر **{كُتُبٌ}** بالأحكام فمأخوذ من قوله: **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}** [المجادلة:٢١]، يعني: حكم، فالكَتْبُ يأتي بمعنى هذا، وإنما قالوا ذلك؛ لكون النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقرأ، لكن لا ضرورة إليه، وإن كان هذا صحيحًا في اللغة، ثم إنهم راعوا أيضاً أمرًا آخر، وهو: ما يتعلق بالتكرار، يعني في قوله: **{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}**، فكلمة: "صحف" هي بمعنى: "كتب"، قالوا: فهذا يكون تكرارًا إذا فسرت الكتب بالمعنى المتبادر وهو: الصحف، لكن إذا فسر بمضامين الكتب من الآيات -يعني: الكتب بمعنى: المكتوب فيها- فلا إشكال في ذلك، والله أعلم.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} كقوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥]، يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعدما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافا كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: ((إن اليهود اختلفوا

على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة))، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))[٩].

لهذا ابن جرير -كما سبق- يربط هذه الآية بالتي قبلها، فيفسر التي قبلها بما سبق: أنهم كانوا مجتمعين في أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلما بعث افترقوا، فكان هذا الافتراق إنما هو بعد العلم، واتضاح الحق، وهذا كثير، وهو واقع أيضاً في هذه الأمة، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن افتراق أهل الكتاب، وعن اختلافهم، وأن ذلك إنما كان من بعد ما جاءهم العلم، فيقع هذا الافتراق والاختلاف بسبب البغي والظلم والحسد وغير ذلك من الآفات، وهذا أكثر الاختلاف الواقع في طوائف هذه الأمة، ولا أعني به الخلاف الذي يقع بين الفقهاء مما يختلف فيه الرأي والاجتهاد ونحو هذا، فهذا لا إشكال فيه، فالصحابة -رضي الله عنهم- وقع بينهم الاختلاف والاجتهاد، بل وقع بينهم القتال أيضاً، لكن لم يتحولوا إلى طوائف متفرقة متناحرة متدابرة، يضلل بعضهم بعضًا، لم يحصل هذا بين أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مع اختلاف اجتهاداتهم، ووقع القتال بينهم، ولكن الذي حصل من هذا إنما كان لمن بعدهم، وإنما كان ذلك بسبب الظلم والبغي غالبًا، مع دخول الأهواء، فإن هذه الأهواء هي التي تفرق، وتكون سببًا لكثير من الشرور، وتتحول الأمة إلى طوائف يضلل بعضها بعضًا، كما هو واقع ويتجدد إلى يومنا هذا، ولربما كان الأمر لا يستدعي هذا، وأهل العلم يذكرون أن من خصائص أهل السنة والجماعة: أنهم لم يفترقوا عبر التاريخ، وأنهم يصدرون عن قول واحد على اختلاف الأمصار وتباعدها، وعبر القرون المتطاولة، من غير توافق بينهم باجتماع أو نحو ذلك في مكان معين حتى يصدروا بياناً واحدًا بعبارة متحدة، ولكن لما كانوا يبنون أمر الدين على ما يُتلقى من مشكاة الوحي نتج عنه هذا التوافق، فإذا وقع هذا الاختلاف الذي يدعو إلى التدابر والتقاطع والتناحر ممن يدعون أنهم جميعًا يرجعون إلى مشكاة الوحي فهذا يدل على أنه قد دخل الهوى والبغي والظلم، فوقع بينهم هذا التفرق، وتصير الطائفة الواحدة طوائف متعادية متنافرة للأسف، وربما يقع من قبل البعض بسبب الجهل، فيظن أن هذه الأمور توجب التفرق، فهذا قد يوجد، ولكن الغالب في هذا إنما هو الهوى والبغي والظلم، وإلا لو رجع هؤلاء إلى أنفسهم، ونظروا فيما يختلفون فيه فقط لاتفقوا واجتمعوا، فهم يتفقون على اعتقاد أهل السنة والجماعة، وأن الوحي الكتاب والسنة هو المصدر الرئيس، ثم ما يكمل ذلك وهو الإجماع، فكل هذه الأشياء يتفقون عليها، والكتب التي يَدْرُسونها ويُدَرِّسونها واحدة، إذاً فما هذا التنازع والتفرق والتدابر؟ إنما هو البغي والظلم والهوى، فهذا المثلث هو: السبب الحقيقي، وإلا فأهل السنة لا توجد بينهم اختلافات إلا في أمور اجتهادية، لكن حينما تتحول هذه الأمور الاجتهادية إلى سبب للتضليل والرمي بالعظائم فهذا معناه: أنه دخل الهوى، والدليل على هذا: أن هذا الأمر نفسه قد يصدر من آخر ولا يُرمى بهذه

---

٩ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم: (٤٥٩٧)، والترمذي، أبواب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم: (٢٦٤١)، وقال: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم: (٣٩٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/٢٤٥)، رقم: (٥٠٩).

العظائم، ويصدر من هذا فيرمى بالزندقة، فالهوى والبغي والظلم هو الذي يحكم به، وإلا فنفس هذا الكلام ونفس هذا الرأي قد يصدر من ذلك الآخر فلا يقال عنه شيء، بل قد يقال عنه: إنه إمام أهل السنة والجماعة، ويصدر من هذا ويقال عنه: زنديق، وهل للهوى معنى غير هذا؟ لذلك يجعلون أمورًا واشتراطات وأشياء أخرى من لا يحققها فإن كل ما يعمله في هذا السبيل إنما هو باطل، وفي المقابل قد يعمل نفس العمل آخرون وتضاف إليهم أبلغ الأوصاف، وأحسن الصفات، ذلك العمل نفسه الذي لم تتحقق فيه تلك الاشتراطات التي ذكرت، ولا وجود لشيء منها في كلام أهل العلم، لماذا هذا؟!.

قال -رحمه الله-: وقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، كقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥]؛ ولهذا قال: {حُنَفَاءَ} أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦]، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وهناك ذكرنا أن أصل الحَنَف كما يقولون هو: الميل؛ لذلك يقال: فلان أحنف الساقين، وروي: أن أم الأحنف بن قيس كانت ترقصه وهو صغير، وتقول:

واللهِ لولا حَنَفٌ في رجلهِ *** ما كان في فتيانكم مِن مثلهِ

فهذا الحَنَف، ومعناه هنا: أنه مائل عن سائر الأديان إلى دين الإسلام، ومائل عن الشرك إلى التوحيد.

قال -رحمه الله-: {وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} وهي: أشرف عبادات البدن، {وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} وهي: الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} أي: الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

يعني: {دِينُ الْقَيِّمَةِ} صار بهذا الاعتبار: صفة لموصوف محذوف، أي: دين الأمة القائمة المعتدلة مثلاً، أو دين الملة القائمة، وهو هنا ذكر هذا وهذا، وعرفنا أن القيمة يعني: المستقيمة، وتأتي بمعنى: القائمة، والقائمة يعني: بالعدل والحق والشهادة على الخلق، فيكون صفة لموصوف محذوف، ولكن هذا الموصوف المحذوف هل هو الملة مثلاً، الملة القائمة العادلة كما يقوله الخليل بن أحمد؟ انظر إلى قوله تعالى: {دِينُ الْقَيِّمَةِ} ترى أنه هنا أضاف الدين إلى القيمة، أي: أضافه إلى صفته، يعني: هذا من قبيل الإضافة إلى الصفة، أي: الدين المستقيم، فهو أضافه إلى صفته لاختلاف اللفظين، فهل هذا من إضافة الشيء إلى نفسه مثلاً لاختلاف الألفاظ؟ هو في الواقع من إضافة الشيء إلى نفسه، لكن لما اختلف اللفظ جاءت هذه الإضافة؛ للإيضاح، والهاء في قوله: {الْقَيِّمَةِ} هنا دخلت هذه الهاء للمبالغة والمدح، وبنحو هذا قول ابن جرير -رحمه الله-، أعني: أن ذلك من قبيل الإضافة إلى الصفة لمّا اختلفت الألفاظ، فقوله: {دِينُ الْقَيِّمَةِ} يعني: الدين المستقيم، أي: دين الاستقامة، وما عداه فهو الضلال والانحراف.

هذه السورة لربما يستصعب حفظها بعض الناس، كما يستصعبون مثلاً سورة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون:١]، لكن مما يعين على الحفظ والضبط وعدم الالتباس الربط في المعاني، واتضاح ذلك، يعني: مثلاً سورة الكافرون ليس فيها تكرار، فهو يخاطبهم: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون:٢]، أي: الآن، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون:٣]، أي: الآن أيضاً، فلستم على ديني تقيمون، ولست بمقيم على دينكم، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [الكافرون:٤]، أي: في المستقبل، فلن أتحول إلى دينكم، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}

[الكافرون:٥]، أي: لن تتحولوا إلى ديني في المستقبل، فهذه الجمل تنقسم إلى قسمين: الجملتان الأوليان في الحال، والأخريان في الاستقبال، فإذا فهم هذا سهل عليك الأمر، ولم يحصل التباس، كما يقول بعض الناس؛ لأنه يعجز عن حفظها.

هنا في سورة لم يكن، أخبر الله -تبارك وتعالى- عنهم في البداية: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}، ثم وضح هذه البنية، وفسرها بالرسول -صلى الله عليه وسلم-: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}، وذكر صفة هذه الصحف: {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}، ثم ذكر حالهم بعد بعثه: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}، ثم ذكر حقيقة ما دُعوا إليه، أي: ما يدعوهم إليه هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام- أنهم لم يُدعوا إلى شيء يوجب النفرة، قال: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}، ثم توعدهم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} فذكر أهل الكفر وأهل الإيمان، يعني: توعد من آمن ومن كفر، وقد قلنا في تفسيرها: إن ذلك إخبار من الله -عز وجل- عن حالهم، وما كانوا عليه من الاتفاق في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم-، فلما بعث افترقوا فيه، أو أنهم لن يزالوا على ما هم فيه حتى يأتي ما يخلصهم، فبعث الله هذا النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-، فاستجاب له من استجاب، وآمنوا، واهتدوا، وبقي بعضهم على الكفر، فذكر جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة:٦-٨].

قال -رحمه الله-: يخبر -تعالى- عن مآل الفجار من أهل كفرة الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة: أنهم يوم القيامة {فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون، {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها.

ثم أخبر -تعالى- عن حال الأبرار {الَّذِينَ آمَنُوا} بقلوبهم، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بأبدانهم، بأنهم {خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}.

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}.

قوله -تبارك وتعالى- عن الكفار بطوائفهم: {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، قال هنا: "**شر الخليقة التي برأها الله وذرأها**"، يعني: أوجدها، أي: شر مَن خلق الله، أي: من أوجد، وبرأ، وذرأ، فقال: {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، وأما أهل الإيمان فقال عنهم: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}، فهذا يقابل هذا، يعني: شر مَن خلق الله -عز وجل- هم هؤلاء الكفار، فقوله: {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} يعني: شر الخليقة، يعني: هم أسوأ حالاً من البهائم على تفاوتها واختلاف أحوالها، يعني: حتى تلك البهائم التي هي من قبيل السباع أو الهوام والحيات ونحو هذا الكفار شر منها؛ لأن ذلك جميعًا يدخل في البرية، فكل ما كان من هذه المخلوقات فإن هؤلاء الكفار أسوأ

حالاً، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال:٥٥]، وقال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال:٢٢]، فهذه حال الكفار، وهذه صفة الكفار، فإذا عرف مثل هذا فإن هذا يكون أعظم الأسباب أو من أعظم الأسباب التي تدعو إلى مباينتهم، وألا يتشبه الإنسان بهم في مظهر، أو يتشبه بهم في خلق، أو نحو ذلك، بل يتميز عنهم، ويباينهم، فهؤلاء شر من كل ذي شر، فهم الأشرار حقًّا، والعجب أن الأمة الكاملة، والأمة التي جعلها الله وسطًا، وجعلها شهداء على الناس، والأمة التي اصطفاها فقال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [فاطر:٣٢]، العجب أنهم يتشبهون بالمغضوب عليهم، أو بالضالين، وأكثر ما هنالك من التشبه إنما هو بالضالين من النصارى، واليوم بدأنا نرى أشياء أعجب من هذا، وهي: التشبه بالوثنيين من الأمم الشرقية، وهذا من عجائب الدهر، فقد بدأ الآن ينتشر بين الفتيات ألبسة وأزياء كورية، هل ما بقي إلا أهل الأوثان يُتشبه بهم؟!، وهل هؤلاء عندهم ذوق، أو عندهم أزياء، أو عندهم شيء يستحق أن يُتشبه بهم فيه؟ ولكنه الفراغ الذي -للأسف- أصبح في كثير من النفوس، فهؤلاء شر الخليقة، فإذا كانوا شر الخليقة، وأهل الإيمان خير الخليقة، فإذًا يكون بغضهم والعداوة والبراءة منهم هي: المتعينة، فهم أشر المخلوقات، وأسوأ المخلوقات، والإنسان يكره ذوي الشر، ويبغضهم، ويبتعد عنهم.

وكلمة: {شَرُّ} هنا بمعنى أفعل التفضيل -كما سبق في مناسبات متعددة-، فشر يعني: أشَرّ، كما يقول ابن مالك:

وغالبًا أغناهم خيرٌ وشر *** عن قولهم أخيرُ منه وأشَرُّ.

يعني: هم أشر البرية، وأكثرها شرًّا.

وأما أهل الإيمان فوصفهم الله بوصف يقابل وصف الكافرين هذا، فقال: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}، وإنما كان ذلك بسبب الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فتكون الخيرية بقدر ما يتحقق من هذه الأوصاف: الإيمان والعمل الصالح، فيتفاوتون بهذا الاعتبار، وفي الجملة: أهل الإيمان هم خير البرية؛ ولهذا فإن الذي يوجد في طوائف الأمة، أو فيمن ينتسب إلى هذه الشريعة، أو هذا الدين، من أتباع محمد -صلى الله عليه وسلم-، ومن أمة الإجابة، إن الذي يوجد عندهم من الشر والنقص والمخالفات وما إلى ذلك يوجد عند أولئك الكفار من أهل الكتاب وغيرهم أضعاف أضعاف ذلك، وهذا المعنى ذكره شيخ الإسلام -رحمه الله- وغيره، فنقول للذين ينظرون إلى ما يوجد من نقص وتقصير وأخطاء وانحرافات في هذه الأمة نقول لهم: يوجد عند غيرهم أضعاف ذلك، كما يقال في أهل السنة: إن الذي يوجد فيهم من تقصير، وما يوجد فيهم من نقص، وما يوجد فيهم من مخالفات يوجد عند غيرهم من الطوائف أضعاف ذلك.

وعند قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} ذكر ابن كثير -رحمه الله- قول من قال: إن ذلك يؤخذ منه أن المؤمنين من البشر أفضل من الملائكة، هذا الموضع وهناك مواضع أخرى من كتاب الله -عز وجل- فَهِم منها بعض أهل العلم هذا، وهذه المسألة لا يترتب عليها عمل؛ ولهذا فإن الاشتغال بها هو: اشتغال بالفضول من العلم، يعني: ليست من صلب العلم، وليست من ملح العلم، بل هي من فضول العلم، أي: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، يعني: أيهما أفضل؟ فهذا لا يترتب عليه عمل، والمؤمن إنما يُقبل

ويشتغل بما يترتب عليه عمل، وبما ينفع، وبما يكون له أثر، أما هذه القضايا التي تئول إلى جدل فحسب فلا خير في الاشتغال فيها، مع أن قوله هنا: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} إذا قيل: إن البرية هنا مأخوذة من البراء الذي هو: التراب، فهنا لا يدخل الملائكة، وإنما يكون ذلك فيمن خلق من تراب، مع أن هذا فيه بعد، والأقرب: أنه مأخوذ من غيره، كما يقال مثلاً: إن البرية مأخوذة من برأ الخليقة أي: أوجدها، وقد تسهّل الهمزة فتكون: براه أي: خلقه؛ لهذا يقولون: بريت القلم، يعني: قَدَّرْتُه، فالهمزة هي الأصل، لكن قد تخفف، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، يعني: خير الخليقة، وهو قول ابن جرير، فالله هو البارئ يعني: الخالق، الموجد من العدم.

قوله: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ} يعني: جنات إقامة، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها، فذكر هنا جنات العدن يعني: الإقامة، وذكر الخلود، وهذا من أعظم أسباب النعيم، ثم ذكر أيضاً الرضا الذي يكتبه الله -عز وجل- لهم فلا يسخط عليهم أبداً، وهذا أيضاً من أعظم النعيم، فقال: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، فإن هذا النعيم الذي يكون لهم لا يستتم إلا بالبقاء الأبدي السرمدي، والرضا من مالكه، وهو: الله -تبارك وتعالى-، فإن الإنسان مهما كان الذي فيه من لذة وحبور ونعيم إذا علم أنه سيفارق ذلك فإن هذا مما ينغص عليه لذته وراحته، فلا يهنأ، سواء كان سيفارقه إلى غيره في هذه الدنيا، أو كان سيفارقه إلى الموت؛ ولهذا كانت لذات الدنيا منغصة، يذهب الناس فيها إلى أمكان يطربون فيها، ويأنسون، ويتنعمون، ولكن في نفوسهم ما لا يستطيعون دفعه من هذا الشعور: أنهم سيفارقون هذا، فيتنغص ذلك عليهم، أما الفراق الأكبر وهو: الانتقال من هذه الدنيا فمهما كان الإنسان فيه من النعيم، والمكان الوثير، والراحة، والقصور، وما إلى ذلك، إذا علم أنه سيفارقها، ويوضع في هذا اللحد والقبر -وهو أغبر الجوانب- فإنه نعيمه يتنغص؛ ولهذا قيل:

لا أرى الموتَ يَسبقُ الموتَ شيءٌ *** نغّص الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

فإذا ذكروا الموت تنغصت حياتهم؛ ولهذا بعض الناس لا يحب ذكره؛ لأنه تتكدر عليه راحته، ويذهب أنسه، فهنا ذكر رضاه -تبارك وتعالى- عنهم، وذكر الخلود، وذكر رضاهم فقال: {وَرَضُوا عَنْهُ} يعني: بما أعطاهم، فإنه أعطاهم ما يرضيهم، ثم يقول لهم: هل رضيتم؟ كما جاء في الحديث[١٠].

ثم قال تعالى: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ} أي: يوم القيامة، {جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي: بلا انفصال، ولا انقضاء، ولا فراغ، {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، {وَرَضُوا عَنْهُ} فيما منحهم من الفضل العميم.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

---

١٠ – أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، رقم: (٧٥١٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا، رقم: (٢٨٢٩).

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أخبركم بخير البرية؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هَيْعة استوى عليه، ألا أخبركم بالذي يليه؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية؟)) قالوا: بلى، قال: ((الذي يُسأل بالله ولا يعطي به))[١١].

آخر تفسير سورة لم يكن، ولله الحمد والمنة.

يعني: هذا النعيم المقيم في جنات عدن، أي: جنات الإقامة، والرضا، والخلود، كل ذلك لمن هي؟ **{ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}**، يعني: لأهل الخشية، والخشية عرفنا أنها: خوف خاص، وهو: خوف بعلم من المخوف منه، فدل ذلك على عظم شأن الخشية، وأنها بمنزلة في الإيمان، وأنها من أعظم شعبه، فهذه الخشية هي التي تبعث على فعل الخيرات، وتحول دونه وتحجزه عن الشر، ومقارفة المنكرات، وهي التي تجعل الإنسان يراقب ربه، ويمتنع عما تميل إليه نفسه من مواقعة الآثام ولو كان الدافع إلى ذلك قويًّا جاذبًا، وهذا الأمر الحاجة إليه في مثل هذه الأوقات أكثر وأشد؛ لكثرة المغريات والصوارف والملهيات، فحينما يبقى الإنسان لا يطلع عليه إلا الله -عز وجل- قد يبتلى بأنواع من المقارفات، من أمور تتصل بالنظر الحرام، أو غير ذلك مما صار أقرب ما يكون إلى الناس وهم في بيوتهم، فلا يحتاجون إلى تعنٍّ، ولا إلى غيره، فهذه الخشية إذا وجدت في قلب الإنسان قام بما أمره الله -عز وجل- به، وحفظ حدوده حيثما حل وانتقل، فإنه لا يبارح التقوى، والملازمة على طاعة الله، وحفظ الإيمان ظاهرًا وباطنًا، فإذا غاب عن الناس أو سافر أو انتقل إلى بلد لا يعرفه فيه أحد فإن حاله لا يتغير، فهو في بيته، وأمام الناس، وأمام من يعرفه، وأمام من لا يعرفه على حالة واحدة، -والله أعلم-.

---

١١ - أخرجه أحمد، رقم: (٩١٤٢)، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الزلزلة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لي ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **تفسير سورة: إذا زلزلت، وهي مكية.**

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: أتى رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: ((اقرأ ثلاثًا من ذوات ألف لام راء)) فقال له الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: ((فاقرأ من ذوات حم)) فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: ((اقْرَأْ ثَلَاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ)) فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةً جَامِعَةً، فَأَقْرَأَهُ: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [الزلزلة:١] **حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحق نبيًّا لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، ثُمَّ قَالَ: عَلَيَّ بِهِ)) فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: ((أُمِرْتُ بِيَوْمِ الْأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ)) فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا مَنِيحَةَ أُنْثَى فَأُضَحِّي بِهَا؟ قَالَ: ((لَا، وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ من شعرك، وتقلم أظافرك، وَتَقُصُّ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ، فَذَاكَ تَمَامُ أُضْحِيَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ -عز وجل-))[1]، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ والنسائي.**

هذا الحديث فيه ضعف في إسناده، وبعض أهل العلم حسنه، وبهذا الاعتبار أدخله المختصِر لهذا التفسير.

هذه السورة سورة إذا زلزلت، ابن كثير -رحمه الله- يقول: "هي مكية" وهذا ليس محل اتفاق، هذا مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وقال به جماعة، وهو مروي أيضًا عن ابن مسعود وعطاء ومجاهد والضحاك، وهذا الذي اقتصر عليه أيضًا البغوي والواحدي، وهو الذي رجحه ابن عاشور.

لكن أيضًا يروى عن ابن عباس أنها: مدنية، وبهذا قال أيضًا قتادة ومقاتل.

هذه السورة تتحدث عن الأرض وعن شأنها وأهلها عند قيام الساعة، حيث يحصل لها من الزلزلة، وتحدث أخبارها، وما يكون عليه الناس بعد أن تلقي ما في بطنها من الأموات، وغير ذلك، فيصدرون مصادر شتى، ويجازون على أعمالهم.

---

١ - رواه أحمد، في المسند، رقم (٦٥٧٥)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم (١٣٩٩)، والنسائي، باب كتابة القرآن، باب إِذَا زُلْزِلَتْ، رقم (٧٩٧٣) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، رقم (٢٤٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها * وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:١- ٨].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها} أَيْ تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا.

{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها} يَعْنِي أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الْحَج:١].

وَكَقَوْلِهِ: {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [الِانْشِقَاق:٣-٤].

وروى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((تلقي الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [الزلزلة: ١]، قال عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "تحركت من أسفلها".

الزلزلة: هذه المواد التي تتكرر فيها الحروف: الجلجلة، الصلصلة، الزلزلة، ونحو ذلك.

هذا يدل على تكرر، فإنّ تكرر الحروف يدل على تكرر في المضمون، فحينما تتزلزل الأرض معنى ذلك: أنها تتحرك وتضطرب.

فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة: يهوي.

الصلصلة: صوت يتكرر، صوت كصوت السلسلة، يقال له: "صلصلة".

لاحظ: تكرر الحروف: الصاد واللام، صَلْصَلَ، زَلْزَلَ، جَلْجَلَ، وما إلى ذلك.

فهذا يدل على تكرر، فهذه الحركة المتكررة الشديدة هي الزلزلة، وهي معروفة.

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} هذه الزلزلة التي أخبر الله -تبارك وتعالى- عنها ذهب بعض أهل العلم إلى أنها في النفخة إبان قيام الساعة، تحصل زلزلة واضطراب للأرض، حمله مجاهد -وهو ظاهر كلام ابن جرير- على أن ذلك عند النفخة الأولى، حيث تتغير أحوال هذا العالم العلوي والسفلي، وتحصل هذه الزلزلة.

وقد مضى الكلام على قوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}.

وباعتبار: أن الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة الثانية.

و{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} أكد هذه الزلزلة بالمصدر، فدل ذلك على أنها زلزلة حقيقية، وليست معنوية، يعني ليست مثلاً من قبيل الخوف الكثير الذي يحصل في نفوس الناس، فهذا زلزلة، يقال: حصل للناس

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم (١٠١٣).

زلزلة، الخبر زلزل النفوس، لكن هنا زلزلة حقيقية، وليست بمعنى الخوف العظيم الذي يقع مثلاً في نفوس الناس، هذا واقع، لكن التأكيد بالمصدر ينفي احتمال المجاز.

هذه قاعدة: التأكيد بالمصدر ينفي احتمال المجاز.

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} زلزلت زلزلة حقيقية، وأضاف هذا إلى الأرض {زِلْزَالَهَا} من قبيل إضافة المصدر إلى فاعله.

وهنا قال الله -تبارك وتعالى-: {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} هذا يكون بعد النفخة الثانية، حيث يقوم الناس من قبورهم.

ويحتمل أن تكون الأولى وهي قوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} هي النفخة الثانية، فيحصل بعد ذلك من بعث الموتى، فتخرج الأرض أثقالها.

وهذه الأثقال هنا ابن كثير قال: "ألقت ما فيها من الموتى" قاله غير واحد من السلف، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبه قال ابن عباس ومجاهد: أنها الموتى.

ولا يبعد أن يكون هذا من قبيل التفسير ببعض المعنى، يعني أن ذلك لا يقتصر على الموتى، بل تخرج ما في جوفها من الأموات، ومن الدفائن، فتخرج كنوزها.

{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} ما في جوفها من الأموات والخزائن، أو الكنوز والدفائن، ونحو ذلك.

هذه الأثقال: بعض أهل اللغة ومنهم ابن جرير -رحمه الله- يقولون: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها وهو حي -يعني الإنسان- فهو ثقل عليها.

والجن والإنس يقال لهم: الثقلان.

{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} فلا شك أن الموتى أول ما يتبادر من ذلك.

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} لاحظ هنا: أظهر في مقام الإضمار، يعني لم يقل: إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت أثقالها، لو قال ذلك لكان واضحًا، فهذا الذي يسمونه: "الإظهار في موضع الإضمار" وهذا لا يكون إلا لنكتة؛ كأن يكون هذا مثلاً أفخم، أو للعناية بهذا المذكور، أو نحو ذلك، ولزيادة التقرير أنها تخرجهم فعلاً.

{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}، وعند ذلك يحصل التساؤل: {وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا} .

فقوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا} أين الجواب؟.

{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} يعني إذا زلزلت هذا الزلزال، وأخرجت الأثقال عندئذ تحدث أخبارها.

وَقَوْلُهُ -عز وجل-: {وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا} أَيْ اسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً وَهُوَ مُسْتَقِرٌّ عَلَى ظَهْرِهَا، أَيْ: تَقَلَّبَتِ الْحَالُ فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ -تعالى- ما قد أعده لَهَا مِنَ الزِّلْزَالِ الَّذِي لَا مَحِيدَ لَهَا عَنْهُ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَحِينَئِذٍ اسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَبَرَزُوا لله الواحد القهار.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} أَيْ تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا.

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- هَذِهِ الْآيَةَ: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها} قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنَّ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وكَذَا، يَوْمَ كَذَا وكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا)) ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ"[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَئِذٍ} في ذلك الحين: {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}.

هذا التحديث جاء مفسرًا بهذا الحديث: أنها تتكلم، وتشهد، وهذا على ظاهره حقيقة، تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، مشى إلى كذا، قارف كذا.

تشهد الأرض كما تشهد عليهم الجوارح.

هذا الحديث لو صح فهو نص في تفسير هذه الآية، ولا يلتفت معه إلى غيره، لكن الحديث لا يخلو من ضعف، وبعض أهل العلم حسنه.

وظاهر الآية يدل على هذا، والأصل حمل الكلام على ظاهره: أنها تحدث حقيقة، وما المانع من هذا والله -تبارك وتعالى- أخبر بقوله: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ}؟ [الإسراء:٤٤].

فهذا التسبيح على ظاهره كما مضى الكلام على هذا في أوائل المسبحات، وفي غيرها أن تسبيح هذه المخلوقات حقيقي، وأن الله يجعل لها من الإدراك ما يصلح لمثلها، فتكون مسبحة لله -عز وجل-، وقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن))[٤].

والجذع حنَّ إليه -صلى الله عليه وسلم-، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان يخطب إلى جذع نخلة، فلما اتخذ المنبر -تحول إلى المنبر- حن الجذع حتى أتاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاحتضنه فسكن، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة))[٥].

هذا جذع، وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: "سرنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى نزلنا وادياً أفْيح واسعاً، فذهب رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستَتِرُ به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: ((انقادي عليَّ بإذن الله)) فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائدَه، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب منه، رقم (٢٤٢٩) والنسائي، كِتَابُ التَّفْسِيرِ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، رقم (١١٦٢٩)، وأحمد في المسند، رقم (٨٨٦٧)، وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف" وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم (٤٨٣٤).

٤ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢٢٧٧).

٥ - رواه أحمد في المسند، رقم (٢٤٠٠)، وصححه الألباني في بداية السول في تفضيل الرسول -صلى الله عليه وسلم- (٤٠).

بغصنٍ من أغصانها، فقال: ((انقادي عليَّ بإذن الله))، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمَنْصف -الوسط- مما بينهما، قال: ((التئما عليّ بإذن الله)) فالتأمتا، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتةٌ، فإذا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقبلاً، وإذا بالشجرتين قد افترقتا، فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ"[٦].

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن نطق الحجر والشجر في آخر الزمان في القتال مع اليهود: ((يا مسلم، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله))[٧].

فتتكلم هذه الأشياء، فما المانع أن الأرض تحدث أخبارها؟

وبهذا نعرف ضعف قول من فسره بأن ذلك بلسان الحال، وليس بلسان المقال، فبعضهم يقول: إن إخراج هذه الأثقال هو تحديث منها بأخبارها، تخرج ما في جوفها، ولكن هذا خلاف الظاهر المتبادر، فهي تتحدث، وجوارح الإنسان تشهد، وتتحدث بما عمل عليها، والله -تبارك وتعالى- قد وكل بابن آدم من الملائكة من يحفظون عليه ما يصدر عنه: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق:١٨].

والله فوق ذلك يراه ويشاهده، لا يخفى عليه شيء من حاله.

فإذا كان الإنسان بهذه المثابة مأسورًا مكشوفًا ظاهر الحال باديَ العورة والضعف في حالاته كلها، فكيف يعصي الله -عز وجل- إذا كان في خلوة حيث لا يراه الناس؟!

هذه الأرض ستشهد، وهذه الأنامل ستشهد، والأرجل ستشهد، والأعين ستشهد، والأذن ستشهد، والأرض تتكلم، والملك يكتب هذه الأشياء التي يفعلها ويتصرفها، يكتبها والناس لا يدرون بأسماء مجهولة، الملك يدون كل ما يكتب.

ومن العبر حينما ينظر الإنسان في رسائل "الواتس آب" ويستعرض الرسائل الماضية، ماذا قال، وماذا رد عليه فلان، وماذا قال لفلان، وماذا حاور فلانًا، وماذا.

رسائل نتحاور بها، مع أهلنا، مع من حولنا، يجد سلسلة طويلة مكتوبة بالدقائق وبالثواني، فهذا نموذج مصغر لسجل الأعمال، أشياء ينساها الإنسان، وحينما يستعرض في الدقيقة والثانية، قال كذا، وقلت كذا، سأل عن كذا، وأجبته بكذا، ذكر الطرفة الفلانية، ضحك فلان، أجاب فلان، تندر فلان، كل هذا مكتوب وبالثواني.

نموذج يذكرنا بصحيفة الأعمال التي كتب فيها كل الأشياء التي عملناها، والأقوال التي قلناها، فإذا أراد الإنسان أن يتكلم أو يكتب أو يعمل فليتذكر أن ذلك يدون عليه، وسيخرج له في صحيفة، كل هذا اللغو موجود فيها، كل هذه المقارفات موجودة فيها.

وعند ذلك ينبغي أن لا يقول الإنسان، ولا يفعل، ولا يكتب إلا ما يسره حينما ينظر في صحيفته، و((طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا))[٨] كما جاء في الحديث.

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠١٢).

٧ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، رقم (٢٩٢٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم (٢٩٢١) وهذا لفظ مسلم.

فبدلاً من هذا اللغو الكثير، والكلام في الباطل، والوقيعة في الأعراض، يشتغل الإنسان بالاستغفار: أستغفر الله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويترك الاشتغال بالقيل والقال: فلان فعل، وفلان ترك، وفلان سوى، فلان فيه، وفلان ما فيه، وما إلى ذلك من الباطل الذي لا ينفعه ولا يرفعه، بل لا تبرأ ذمته به، والله المستعان.

هذه آية نقرؤها كثيرًا، ونسمعها ونرددها، ولكن أين الواعظ في النفوس، وما يؤثره ذلك في سلوكنا وأعمالنا؟ فهذا التحديث: **{تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}** تحديث حقيقي على ظاهره، وعلى هذا مشى جماعة من السلف فمن بعدهم، وهو منقول عن ابن مسعود –رضي الله عنه– ومجاهد والثوري وابن زيد.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} أَيْ: تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا.

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– هَذِهِ الْآيَةَ: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنَّ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا، يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا))، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".

وقوله تعالى: {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} قَالَ الْبُخَارِيُّ: "أَوْحَى لَهَا، وَأَوْحَى إِلَيْهَا، وَوَحَى لَهَا، وَوَحَى إِلَيْهَا وَاحِدٌ".

وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {أَوْحَى لَهَا} أَيْ أَوْحَى إِلَيْهَا.

وَالظَّاهِرُ: أَنَّ هَذَا مُضَمَّنٌ بِمَعْنَى: أَذِنَ لَهَا.

وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ بِشْرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} قَالَ: قَالَ لَهَا رَبُّهَا: قُولِي، فَقَالَتْ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {أَوْحَى لَهَا} أَيْ أَمَرَهَا.

وَقَالَ القرظي: أمرها أن تنشق عنهم.

قوله –تبارك وتعالى–: **{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ}** الأرض **{أَخْبَارَهَا}** هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– من أن المعنى: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها.

هذا هو ظاهر القرآن، ظاهر الآية، وهو الذي عليه عامة المفسرين، فالجمهور من السلف فمن بعدهم فسروه بهذا.

وهذا الحديث الذي أورده ابن كثير –رحمه الله– حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–: ((أتدرون ما أخبارها؟)) ثم فسر ذلك بقوله: ((أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها)) إلى آخره.

هذا لو صح لكان نصًّا في تفسير الآية لا يعدل عنه إلى غيره، والحديث لا يخلو من ضعف.

وهذا هو ظاهر الآية، مع أن بعضهم يقول: إن ذلك ليس بالنطق، وإنما يكون ذلك بمقتضى الحال.

وهذا بعيد.

---

٨ – رواه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب الاستغفار، رقم (٣٨١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (١٦١٨).

يعني بعضهم يقول: إن فعلها بأن تخرج ما في بطنها من الأموات والدفائن: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} ففعلها هذا الذي هو إخراج هذه الأثقال من الموتى والدفائن، وما إلى ذلك هو تحديث منها بأخبارها.

ولكنه خلاف الظاهر، ولا حاجة إليه.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير قال به جماعة كابن مسعود -رضي الله عنه- ومجاهد والثوري وابن زيد، وغير هؤلاء.

قال: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}.

{بِأَنَّ رَبَّكَ} يمكن أن يكون متعلقاً بـ{تُحَدِّثُ}، تحدث بأن ربك أوحى لها.

وما سبق من المعنى الذي ذكره ابن كثير: هي تحدث بما عُمل عليها، وليست تحدث بـ{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}.

ولهذا قال بعضهم: إن "الباء" هذه سببية، تحدث بسبب، تحدث بما عمل عليها بسبب أن ربك أوحى لها.

وبعضهم يقول -كالفراء-: {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} بوحي الله وإذنه لها.

هنا -كما سبق- فيما ذكره ابن كثير -رحمه الله- قال: **والظاهر أن هذا مضمن بمعنى: أذِن لها.**

هذا باعتبار التعدية بـ"اللام" {أَوْحَى لَهَا} فالفعل: "أوحى" يتعدى بالحرف، فيتعدى بـ"إلى" تقول: أوحى الله إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم.

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} [الجن:١] فيعدى بـ"إلى".

وهنا عدي بـ"اللام": {أَوْحَى لَهَا} أوحى له.

وذكر قول البخاري: "أوحى لها، وأوحى إليها..." إلى آخره.

البخاري في تراجم الأبواب يذكر هذه المعاني، وعامة ذلك -أو كثير منه- الواقع أنه من كلام أبي عبيدة معمر بن المثنى.

فهنا يقول: "أوحى لها، وأوحى إليها، ووَحى لها، ووَحى إليها، واحد".

فلا إشكال أن يعدى بـ"اللام" أو يعدى بـ"إلى".

وابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: إن هذا مضمن بمعنى: أذن لها، باعتبار أن: "أذن" يعدى بـ"اللام"، أذنت له، وأوحيت إليه.

أوحيت إليه: ليس الوحي الذي يكون من الله للأنبياء، وإنما على حد قول الشاعر:

فأوحَى إليها الطرْفُ أني أحبُّها *** فأثّر ذاك الوحيُ في وجناتِها

أوحى إليها.

والوحي يأتي بمعانٍ، منها: الأمر.

أَوحَى لها القرارَ فاستقرتِ *** وشدَّها بالراسياتِ الثُّبَّتِ

أوحى لها القرار، يعني أمرها.

ويأتي بمعنى: الإلقاء السريع الخفي، ويأتي بمعنى: الإلهام، ويأتي بمعنى: الإشارة والرمز: {آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا} [آل عمران:٤١].

هنا المقصود بالرمز: الوحي، ولهذا قال: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم:١١] هذا هو الرمز: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} بمعنى: الإشارة، يعني لا يكلمهم بلسانه، وإنما يشير إليهم، يكلمهم بلغة الإشارة.

{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} بأن تحدث بأخبارها، بمعنى: أمرها.

وقريب من هذا قول ابن كثير: أذن لها.

ولاحظ هنا عن ابن عباس: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} قال: قال لها ربها: قولي، يعني معناه: أمرها.

وأصرح منه عبارة مجاهد: أمرها.

وقال القرطبي: أمرها أن تنشق عنهم.

لاحظ: {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}، {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} هذا كأنه على المعنى الذي ذكرته سابقًا من أن تحديثها بأخبارها إنما هو بفعلها، حيث تنشق عن هؤلاء الأموات.

وهنا قول القرطبي: أمرها أن تنشق عنهم، هذا تفسير لـــ"تحدث أخبارها": {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}.

{أَوْحَى لَهَا} أن تحدث.

ولا يفسر –والله تعالى أعلم– بهذا الجزء من المعنى: أنه أمرها أن تنشق عنهم.

نعم، هي انشقت عنهم بأمر الله –عز وجل–، وكذلك أيضًا تحدث أخبارها بما عمل عليها بأمر الله –تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا} أَيْ: يَرْجِعُونَ عَنْ موقف الْحِسَابِ، {أَشْتَاتًا} أَيْ: أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، مَأْمُورٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَى النَّارِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: {أَشْتَاتًا} فِرَقًا.

{يَوْمَئِذٍ} يعني حينما يكون ذلك اليوم، حينما تنشق الأرض عنهم، ويذهبون للحساب والجزاء، مسرعين: {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [المعارج:٤٣] عندئذ يصدرون مصادر شتى: {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} على أحوال شتى، يصدرون على أنحاء شتى، يصدرون مصادر مختلفة متباينة.

والصدر هو الرجوع، يقابل الورود، تقول: ورد الماء، وصدر عنه: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ} [القصص:٢٣] فإذا رجع عنه يقال له: الصدْر، صدَر، هذا الرجوع، يصدر الناس: يرجعون، يرجعون من ماذا؟ {أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} يرجعون من موقف الحساب، ليروا جزاء الأعمال، ليروا ثمرة ما كانوا عليه في الدنيا من الجزاء، إما بالجنة، وإما بالنار: {لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} ثواب هذه الأعمال، أو الجزاء المترتب عليها، فينطلقون من الحساب؛ هؤلاء إلى الجنة، وهؤلاء إلى النار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} أي ليعلموا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

روى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه–: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: ((الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ

طِيَلَهَا فِي مَرْجٍ، أَوْ رَوْضَةٍ -طيلها يعني الحبل الذي تربط به بحيث إنها تذهب شوطًا هاهنا، وشوطًا هاهنا، تتحرك تتنقل- فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ -استنت يعني ذهبت إلى مكان مرتفع، الشرف المكان المرتفع من الأرض، أو أنها ذهبت طلقًا، أو طلقين، يعني كما يقال: شوطًا، أو شوطين؛ لأن الخيل كما هو معلوم تتحرك وتجري وتدور، لا تكاد تتوقف، فإذا أطال لها هذا الحبل فإن ذلك يكون أجرًا له في كل حركة لها وانتقال، ((كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أن تسقى بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ))، لاحظ النية، كيف صارت حركاتها وخطواتها وأرواثها حسنات؛ لأنه ربطها في سبيل الله، ((وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا، وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا ورياءً وَنِوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ)) نواء يعني معاداة، للتربص بالإسلام وأهله، **فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَنِ الْحُمُرِ، فَقَالَ:** ((مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ})) رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٩].

هذا هو الشاهد، وهذا يمكن أن يورد في كل موضع لم يرد فيه ثواب خاص، فقد يسأل عن أعمال ما هو جزاؤها؟ ما أجر من عمل كذا؟ ما أجر من صلى في حجر الكعبة؟، فلم يرد فيه شيء معين، وهكذا في أعمال متنوعة من العبادات القاصرة أو المتعدية، فما أجرها؟

فيقال: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} لم يرد فيه شيء خاص، ولكن ذلك عند الله لا يضيع.

وهذا كما سبق في بعض المناسبات من أن الوزن عند الله -تبارك وتعالى- ليس كما في الدنيا.

الناس في الدنيا يزنون بأدق الموازين، يزنون بموازين الذهب، يزنون بالكيلو، والجرام، وما أشبه ذلك، وبالأوقية، وما دونها، ولكن عند الله -تبارك وتعالى- بمثاقيل الذر، هذا لا وجود له ولا ما يقاربه في الدنيا، ولا يمكن أن تفي موازين الناس مهما دقت بهذا المقدار.

وذكرت -في بعض المناسبات- عن معاوية بن قُرَّة: أنه قد أهدي إليه طعام، فأكل منه في الليل، ثم ترك بعضه، فلما أصبح، وإذا هو قد اسودَّ من كثرة الذر، فوزنه بالذر، ثم نحَّى عنه الذر، فلما وزنه وجده لم يتغير الوزن!.

إذا كان هذا السواد من كثرة الذر لم يغير الوزن؛ فكيف بذرة؟.

وهكذا أبو العباس الخطاب وزن خمسًا وعشرين ذرة بحبةٍ من خردل، فكانت حبة الخردل أثقل من خمسٍ وعشرين ذرة.

فذرة واحدة ما وزنها؟ ما مقدارها؟.

ليس لها وزن يذكر، فالله -تبارك وتعالى- لا يضيع عنده شيء.

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: الخيل لثلاثة، رقم (٢٨٦٠)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

ومن هنا: فإن الإنسان لا يحتقر من المعروف شيئًا، وفي المقابل أيضًا لا يستخف بشيء من المعاصي.

وقد جاء في حديث عائشة قالت: قلت للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "حسبك من صفية كذا وكذا، -قال غير مسدد: تعني قصيرة-، فقال: ((لقد قلتِ كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته))[١٠].

بإشارة، فكيف بمن يفري أعراض الناس في تويتر، أو في غيره، فلا شغل له إلا ذلك؟!

لسان الحال أو صفته:

فالبُهتُ عندكم رخيصٌ سعرُه *** حثوًا بلا كيلٍ ولا ميزانِ

لا يترك أحدًا إلا بهته.

فكيف بالذي يتساهل بدماء الناس، ويترخص في هذا؟!.

هذا كله عظيم عند الله -تبارك وتعالى.

ولو علم الإنسان أن حقيقة الحال هي ما ذكر هنا وما تحت هذه الآية من العظة العظيمة لحاسب نفسه حسابًا عسيرًا قبل أن يكتب، وقبل أن يتكلم، وقبل أن يمشي، وقبل أن يأكل، وقبل أن يخالط الناس، وقبل أن يكبر في الصلاة، ما نيته؟ ما قصده؟ ما حاله مع ربه في كل حركة يتحركها؟، فلا ينطلق بصره إلى ريبة، فضلاً عن الحرام الصريح الذي لا شبهة فيه، ولا ينطلق لسانه فيما لا يعنيه، فضلاً عن الخوض الواضح الذي لا عذر فيه في أعراض الناس، وإن تأول لنفسه بتأويلات ساقطة فاسدة، فإن ذلك لا يغني عنه، ولكن الغفلة غالبة، والله المستعان.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَدِيٍّ مَرْفُوعًا: ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ))[١١].

وله أيضا في الصَّحِيحِ: ((لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ))[١٢].

وفي الصحيح أيضا: ((يا معشر نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ: لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ))[١٣]، يَعْنِي ظِلْفَهَا.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: ((رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحَرَّقٍ))[١٤].

---

١٠ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٨٣٤).

١١ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم (٦٠٢٣)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (١٠١٦).

١٢ - رواه أحمد في المسند، رقم (٢٠٦٣٣)، وأصله في مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم (٢٦٢٦).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، رقم (٢٥٦٦) ومسلم، كتاب الكسوف، باب الحث على الصدقة، ولو بالقليل ولا تمتنع من القليل لاحتقاره، رقم (١٠٣٠).

١٤ - رواه النسائي، كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ رَدِّ السَّائِلِ، رقم (٢٥٦٥)، وأحمد في المسند، رقم (١٦٦٤٨) وقال محقق المسند: "حديث حسن" وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٣٥٠٢).

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِعِنَبَةٍ، وَقَالَتْ: كَمْ فِيهَا مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ؟.

وَرَوى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عن عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الطُّفَيْلِ: أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ يَقُولُ: ((يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقِّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا))[١٥]، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنَ مَاجَه.

وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ)) وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ -يعني طعامهم- فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا[١٦].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزلزلة، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

---

١٥ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٣). وأحمد في المسند، رقم (٢٤٤١٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٤٧٢).

١٦ - رواه أحمد في المسند، رقم (٣٨١٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٤٧٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العاديات

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ} [سورة العاديات:١-١١].

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت.

سورة العاديات هذه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إنها مكية، وهذا قول الأكثر، وهو مروي عن جماعة من الصحابة فمن بعدهم، كابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس -رضي الله عنهما.

والقول الآخر: إن هذه السورة مدنية، وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبه قال أنس بن مالك -رضي الله عنه-، وقتادة من التابعين.

ومنشأ ذلك الاختلاف فيها -والله أعلم- ومِن ثَمّ سيأتي الكلام على المعنى المراد بالعاديات- أنه إن قيل: إنها مكية على أن المراد بالعاديات هي الخيل على قول الجمهور، كما سيتضح -إن شاء الله- فلم يكن جهاد في المرحلة المكية **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}** قالوا: هذه الخيل تضبح، تسرع، تنطلق، تغير، **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}** الإغارة على الأعداء، فهي تثير الغبار وتأثيراته، **{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}** جمْع الأعداء على أحد المعاني، كما سيأتي -إن شاء الله.

فهنا قالوا: مكة لم يكن فيها جهاد، وبناء على ذلك هذه السورة مدينة، وقد ذكرت في بعض المناسبات أن الحكم على السورة أو الآية بأنها مكية أو مدنية باعتبار ما يلوح أو ما قد يلوح من المعنى أن هذا غير صحيح، وأن مرجع ذلك -يعني الحكم بأنها مكية أو مدينة- إنما هو النقل، وإلا فهذه المعاني التي تذكر يجاب عنها بأجوبة، سيأتي الكلام على قول من قال: إن العاديات هي الإبل مثلا وتعليل ذلك.

لكن على قول الجمهور: إنها الخيل يمكن الإجابة على ما سبق بأجوبة، منها ما ذكره بعض أهل العلم أن العرب الذين خوطبوا بهذا حينما أقسم الله -عز وجل- بها كانوا يعرفون الخيل، ويعرفون أثرها ودورها في الحروب، ويشاهدون هذا، وإن لم يكن الجهاد قد فرض، ثم أيضاً هذه الخيل التي تعدو في سبيل الله لا يشترط أن ذلك كان في المرحلة المكية، بل كان ذلك قد حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأتباع الأنبياء.

فالله يقسم بها وهم يعرفون دورها وأثرها وفَرْيها، كذلك أيضاً يمكن أن يقال: إن هذا فيه إشارة لما يكون في المستقبل من أمر الجهاد الذي فرض بعد الهجرة في المدينة، فالله -تبارك وتعالى- أقسم بالخيل بالعاديات

ضبحا، فليس فيه فرض الجهاد، فما المانع أن يقسم بالخيل التي كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة))[1]؟، فهي هكذا قبل فرض الجهاد، هكذا جعلها الله -عز وجل- وخلقها "معقود بنواصيها الخير".

والقسم لا يكون إلا بمعظم كما سبق، فهذه الخيل بهذه المثابة وبهذه الصفة التي هي من أكمل أوصافها أقسم الله -تبارك وتعالى- بها، لا إشكال ولا حاجة لأن يُلجأ إلى القول بأن السورة مدنية؛ لأنها تحدثت عن الخيل العادية في سبل الله، كما لا حاجة لحملها على الإبل كما سيأتي.

وتأويل تضبح بمعني: تضبع، قالوا: لأن الإبل لا تضبح، وإنما الذي يضبح الخيل، والإبل تضبع تمد قوائمها الأمامية وعنقها إذا أسرعت في المشي، وأن هذا من باب الإبدال، والعرب تبدل الحرف بغيره، تضبح وتضبع، وهذا وإن قال به بعض أصحاب المعاني إلا أنه لا دليل عليه.

أما الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة المصدرة بهذه الأقسام الثلاثة فإن ذلك هو حال الإنسان من حيث هذه الصفة السيئة، وهي الكنود والجحد والكفران لنعمة الله -تبارك وتعالي- عليه، فهذه طبيعته وصفته ما لم تهذب، وتروض نفسه بالإيمان، وهذا مضى له نظائر في صفة الإنسان **{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}** [سورة المعارج:١٩-٢١]، ثم يأتي التهذيب **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** [سورة المعارج:٢٢] إلى آخر ما ذكر الله تعالى.

هنا: **{إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}**، بعضهم يقول: الكافر كما سيأتي، وبعضهم يقول: الإنسان، جنس الإنسان باعتبار الغالب، فهذه السورة تدور حول هذا المعنى، صفة الإنسان هذه الصفة السيئة من الجحد لنعم الله -تبارك وتعالى- وكفرانها، مع ما يصاحب ذلك من الحرص الشديد على المال، كفرانٌ للنعمة وحرص على المال.

والله يخبره بأنه محيط به، عالم بأحواله، ومكنونات نفسه، وما يصدر عنه، وما انطوت عليه هذه النفس من الحرص والشح والجشع إلى غير ذلك.

هذا الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة.

يقسم الله تعالي بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو.

هنا يقسم بالخيل، هذا قول الجمهور أن المقصود بذلك العاديات، يعني الخيل، فإنها تعدو في سبيل الله، جمع عادية، العاديات الجارية بسرعة، تجري بسرعة شديدة، فأقسم الله -عز وجل- بها بهذه الصفة أو الحال، وذلك أكمل أوصافها كما سبق، فإن ذلك هو المأمول منها من قبل أصحابها، فهم إنما يعدونها لهذا، أن تعدو وتسرع، وإنما كانت الخيل بهذه المنزلة عن الإبل، وعن الحمر، والبغال لشدة عدوها، فهي تدرك مالا تدركه سائر الدواب، هذا بالإضافة إلى أمور أخرى ومميزات تتفاوت فيها الخيل، بحسب ما هي عليه في أصولها، وسلالاتها، وتربيتها، وتضميرها، وتدريبها.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، برقم (١٨٧٢).

فالخيل العربية ليست كغيرها كما هو معلوم، ولها من القُدر والامكانات القتالية ما ليس للخيل الأخرى -الخيول الأعجمية-، ولهذا اختلف الصحابة -رضي الله عنهم- لما فتحت بلاد فارس والشام في تلك الخيول التي وجدوها، هل يُجرون لها السُّهمان التي تكون للخيل أو لا، لأن الخيل التي كانت عند العرب لها أثر بالغ في القتال، وهذا معروف، تعرفه الأمم.

ولا زالت الخيول العربية في كل أقطار الدنيا، ولها شهادات ولها سلالات، وهناك كتب في أوصافها، وفي تفاصيلها، وفي أنسابها، كتب في أنساب الخيل منذ القدم، وتكلم العرب على كل التفاصيل فيها.

الأصمعي -من أوعية اللغة- في خبره المعروف مع أبي عبيدة معمر بن المثنى، وذلك أن كل واحد منهما وضع كتاباً في الخيل، وأوصافها، وتسمية كل عضو، ومفصل منها، من هامتها إلى حوافرها، فلما سئل كل واحد منهما عما في كتابه بخيل عربي أصيل أن يصف ذلك عليه، فأبو عبيدة معمر بن المثنى قال: لست بيطاراً، يعني كأنه يقول: أنا لست طبيباً بيطرياً حتى أصف هذا على الطبيعة، يعني يعرف هذا نظريًّا.

أما الأصمعي فوثب على ظهره وجلس يفصله من هامته إلى حوافره، كل جزء ما اسمه عند العرب، فالوزير أعطاه هذا الفرس، فكان إذا أراد أن يغيظ أبا عبيدة ركب الفرس وأتى إليه به.

فالشاهد أن العرب اعتنوا بهذا عناية كبيرة، والخيل في القتال -الخيل العربية- معروف أن لها طرقاً وفنوناً في القتال، بحيث إنها تنطلق مسرعة، وبلحظة تنقلب وتدير وجهها فيستقبل راكبُها مَن خلفه بالرمح، يعني هذا الذي يطارده ويظهر له أنه قد فر منه، ينطلق مسرعاً أمامه، وبلحظة وحركة تقلب وجهها، وإذا بالرمح يستقبل هذا الفارس الذي خلفه، إلى غير ذلك، بحركة كلمح البصر تنخفض وتنزل، فيطير السيف الذي ضرب به خصمه في الهواء فيبتدره بضربة.

لها فنون في القتال وكذا ليست لغيرها من أنواع الخيول، فالله -تبارك وتعالى- أقسم بها **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}** ولهذا مضى الكلام في قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}** [سورة الحشر:٦] وقلنا هناك: إن الإيجاف بمعنى الإسراع، وإن الخيل تشير إلى الإغارة على العدو، وإن الركاب تشير إلى السفر الطويل.

فالإبل تتخذ للسفر للمسافات الطويلة، والخيل للإغارة **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}**، قلنا هناك: إن المعنى أنه لم يكن فيه جهد يذكر، فما أغاروا على العدو، ولا قطعوا فيه المسافات الشاسعة، وإنما هو شيء أفاءه الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، من غير كدٍّ ولا تعب منكم.

هنا قوله: **يقسم الله تعالى بالخيل**، هذا التفسير تفسير العاديات بالخيل قال به جماعة من السلف -رضي الله عنهم-، رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، وسالم، والضحاك، وبعضهم يقول: إنها الإبل، وهذا مروي عن ابن مسعود، وعليٍّ، وأيضاً مروي عن بعض التابعين، كالنخعي وعبيد بن عمير.

والسبب في ذلك -والله أعلم- كما أشرت أولا: أن مكة لم يكن فيها جهاد، ومن ثم إذا قيل: إن هذه السورة مكية، قالوا: هذه **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}** الإبل تضبح.

وبعضهم قال: تضبع، وإنّ هذا حصل فيه إبدال، إبدال حرف بحرف، تضبع بمعنى تمد عنقها وقوائمها مسرعة، إلى أين تسرع وهي ليست بذات كر ولا فر في القتال؟.

قالوا: إن ذلك حينما تنطلق من عرفة إلى مزدلفة، أو من مزدلفة إلى منى.

لاحظ هنا: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} فسروه بهذا، يعني: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} سيأتي على قولين –والأقوال فيها أكثر، لكن فيما يتعلق هنا بالإبل-: أن ذلك يرجع إلى أصحابها، يعني: يورون يوقدون النيران لطعامهم، أو أنها هي حينما تضرب بخفها بالحجارة، فتصطك هذه الحجارة، فيظهر الشرر؛ لأن خفاف الإبل لينة، وحينما تصطك بالحجارة لا يخرج شرر، وهذا موضع إشكال، وهو أحد وجوه الرد على أصحاب هذا القول، وسيأتي إن شاء الله.

فالمقصود أنهم قالوا: إن الحجارة يضرب بعضها بعضًا من شدة جري هذه الإبل، وقد مدت أعناقها منطلقة إلى مزدلفة مسرعة، {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} هنا قال بعضهم: إنها تذهب من مزدلفة إلى منى، ويكون ذلك في الصبح بعد الإسفار.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} تثير الغبار بانطلاقها هذا، {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} قالوا: هذه مزدلفة، يقال لها جمع، وكما تلاحظون المعنى يكون قلقًا، يعني: هنا تذهب صبحًا إلى منى، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} مزدلفة، ومزدلفة قبلُ، أو يقال: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} جمع الناس في منى مثلا، لكن –والله أعلم– هذا خلاف الظاهر المتبادر.

هنا يقول: **يقسم بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت**، {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} "ضبحًا" بعضهم يقول: هذا مصدر مؤكد لاسم الفاعل، يعني: تضبح ضبحًا، ضابحةً ضبحًا.

بعضهم يقول: الضبح هذا هو ضرب من السير، إسراع، ويقال: ضبح الفرس إذا عدا بسرعة، وبعضهم يقول: هذا صوت الحوافر، صوت حوافر هذه الخيل حينما تضرب بقوة في الأرض، والفراء يقول: هو صوت أنفاسها، نفَس الخيل حينما يشتد، ويعدو بسرعة.

ومن قال: إن ذلك يراد به الإبل قالوا: حينما تنسف بمناسنها الحجارة –الحصى–، تسمع صوت الحصى.

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} هنا يقول: هو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تعدو، هذا الذي قاله ابن جرير –رحمه الله–، هذا الصوت في حنجرتها، وبعضهم يقول: يصدر من صدرها بمعنى: الحمحمة، ومثله ابن عباس –رضي الله عنهما– بقوله: "أُح أُح"، يعني: يكون لها صوت بهذه الطريقة.

وبعضهم يقول: إنهم كانوا يلجمونها عند الإغارة؛ لئلا يسمع العدو صوت الصهيل؛ فيستعد، أي من أجل المباغتة، لأن الخيل تنطلق مسرعة فيباغتون العدو، لهذا قال: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}، ذكر هذا الوقت باعتبار أنه أشرف اليوم، وهو مبدأ القتال، وبه تستبين الأشياء، وتتضح.

وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا غزا كان يتربص ويستمع الأذان –أذان الصبح– فإن سمع أذانًا وإلا أغار، ويكون الناس في غِرّة لم ينتشروا بعد، فهم غارُّون في بيوتهم مع أهليهم، فلا يكاد يخرج منهم أحد في وقت الفجر، يعني كما قال الله –عز وجل–: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [سورة التكوير:١٨]، فهذا يكون بطلوع الفجر، والناس غارُّون، فهنا تكون الإغارة في هذا الوقت مباغتة لهم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لما غزا خيبر ورآه الفلاحون قالوا: "محمد والخميس"، ومعهم مساحيهم يعني: بدءوا يخرجون لأعمالهم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين))[٢].

فهنا قال: **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}** هو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو، هذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، ليس ذلك صوت الحوافر ولا خفاف الإبل، وإنما هو صوت يصدر عن الخيل يقال له: الحمحمة، مع أن بعضهم قال: ليس بالحمحمة، يعني: هو صوت غير الحمحمة.

أما القول: إنهم كانوا يلجمونها من أجل ألا يصدر منها صهيل فهذا بعيد؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أقسم بشيء هو من صفتها **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}**.

قال: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} يعني: اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار.

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} هنا فسره بهذا المعنى وهو المشهور الذي عليه الجمهور، والخيل معروف أنه يوضع تحت حوافرها النعل -قطع معدنية-، فحينما تعدو بسرعة فهذا يحتك بالحجارة فيخرج منه شرر.

فهنا قال: **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}** تقدح منه النار، الموريات يعنى: هذه الخيل توري يعني: يخرج الشرر من اصطكاك حوافرها بالحصى والصخر.

والقدح: أصله الصك، فجُعل ذلك منها كالقدح في الزناد، تقدح في الزناد يعني: يوقد المَرْخ والعِفار -نوعان من الشجر يوقد بهما-، وكذلك حينما تضرب الحصى من صفوان ونحوه ببعضه، فإنه ينقدح منه الشرر.

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} القدح: الصك، فصار ذلك منها بمنزلة القدح في الزناد، هنا قوله: "قدحًا" كما سبق في قوله: "ضبحًا" يعني: أنه على قول بعضهم مصدر مؤكد لاسم الفاعل، قادحة قدحًا للصخر فتُقدح منه النار.

قال: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} يعنى: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يغير صباحًا ويتسمع الأذان، فإن سمع أذانًا وإلا أغار[٣].

قوله: **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}** ذكرت أن هذا قول الجمهور، لكن هناك من فسروا بمعانٍ دون هذا، بل لا يخلو بعضها من بُعد، **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}** قالوا: هذه الخيل أوقدت الحرب، أشعلت الحرب، أثارت الحرب؛ لأنها لما نزلت في مجتمع القوم ثارت ثائرة الحرب فأشعلتها **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}**، أشعلت الحرب وأورتها بهذه الإغارة، وهذا بعيد -والله أعلم- وإن قال به بعض السلف كقتادة وسعيد.

وبعضهم لا يحمل ذلك على الخيل أصلا، سواء قيل: إنها الإبل أو الخيل، يعني: لا يحمل ذلك على ما يكون مِن ضرْب قوائمها بالأرض سواء كانت إبلا أو خيلا.

وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى أصحابها **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}**، أنهم بعدما يرجعون من هذا، بعد انصرافهم من الحرب يوقدون النار ليصطلوا بها وليصنعوا طعامهم، وهنا كما تلاحظون هذا يقتضي تفريق الضمائر،

---

٢ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم (٤١٩٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، برقم (١٣٦٥).

٣ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان، برقم (٣٨٢).

يعني: هذه في الخيل {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} هؤلاء أصحابها حينما يوقدون النار، وهل هذا شيء عظيم بحيث يستحق أن يقسم به حينما يوقدون نارهم؟.

الجواب: لا، ليس كذلك، بل إن بعضهم قال: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} يعني: الرجال بدهائهم وفكرهم في الحرب، وتدبيرهم فيها، وهذا منقول عن مجاهد، وهو مروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما.

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} أنها أفكار الرجال والدهاء الذي يكون به قوام الحرب، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((الحرب خدعة))[٤]، وبعضهم يحمل ذلك على الألسنة، كما جاء عن عكرمة، بمعنى: أن هذه الألسن هي مشاعل حرب، يعني: ممكن أن يكون بسببها فتنة وحروب لكلمة تقال؛ لشدة خطرها، وهذا بعيد.

ابن جرير –رحمه الله– حمل هذا على جميع هذه المعاني، بأي اعتبار؟، قال: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، كل ما يحصل به ذلك فهو داخل فيه، وأن الله لم يخص معنى دون معنى، فهذه الخيل يحصل في قوائمها هذا، وكذلك هؤلاء يوقدون نيرانهم، وكذلك أيضاً هذه الألسن تثير الفتنة، وكذلك آراء الرجال والدهاء في الحرب، إلى آخره.

في الواقع أن ذلك ليس بسبب اشتراك في اللفظ –يعني: أن اللفظ يأتي لعدة معانٍ–، وإنما هو باعتبار ما ذكرت سابقًا مِن المراد بالعاديات ابتداءً، فكثير من هذا الاختلاف يرجع إليه، وإن لم يكن جميع الاختلاف فيه يرجع إلى هذا المعنى.

فهل هنا القسم أو الإقسام بهذه النار التي يوقدونها أو بهؤلاء الذين يوقدون النار له شأن؟

الجواب: لا.

هل الإقسام بهذه الألسن التي تثير فتنة، وتقوم بسببها الحرب له شأن؟.

الجواب: لا، فالسياق هو الذي يبين المراد، فهذه الفاءات الأربع {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} هذه الفاءات الأربع بهذه المواضع الأربع كلها تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فهي مترابطة، السياق يبين هذا ويوضحه، ومن ثَمّ فإن ذلك جميعًا –والله تعالى أعلم– في موصوف واحد له أوصاف متعددة.

فالعاديات: هي الخيل، تضبح ضبحاً، حينما تسرع في الإغارة والغزو، وتُخرج هذا الصوت منها، هذه صفتها فيما يُسمع من الصوت، وفيما يحصل من قوائمها وحوافرها ينقدح الشرر، وفي مهامها التي أُنيطت بها، وتُنتظر من مثلها الإغارة {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}، وأثر خارجي وهو: الغبار المنبعث من هذه القوائم، وهذه السرعة، والنزول والجولان بأرض أو بساحة المعركة {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}.

قال هنا: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} **يعني: الإغارة وقت الصباح**، والذين قالوا: الإبل قالوا: تنطلق إلى منى من مزدلفة، {فَالْمُغِيرَاتِ}، لكن هل هذا يقال له: إغارة؟

الإغارة تستعمل في الهجوم على العدو، فانطلاقها إلى منى هل هو إغارة على منى؟، يعني هذا لا يخلو من بُعد، والله أعلم.

---

٤ – رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، برقم (٣٠٢٩)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، برقم (١٧٣٩).

{فَالْمُغِيرَاتِ} سبق في بعض المناسبات أن ذكرت كلام بعض المبالغين في التفسير العلمي أو ما يسمى "بالإعجاز العلمي" أنه حمل هذه جميعاً على السيارات، وأن الضبح هو: صوت "البساتم"، وعملية حركة "البساتم" والاحتراق.

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، تقدح هذه البساتم في عملها حينما تتحرك، {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} هنا فسر "المغيرات" بالمُغيِّرات، يقول: بدأ الصبح وظهر كسيفاً؛ لأن أنوار السيارات أغنت عنه، فصار الناس يستوي الليل والنهار في تنقلهم عليها، وانتقالهم، لا يحتاجون إلى انتظار للصباح، فصار الصبح كسيف البال؛ لأنه وُجد ما أغنى عنه فتغير، {فَالْمُغِيرَاتِ} فسرها بالمُغيِّرات صبحًا، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، فهذا من التلاعب بكتاب الله -تبارك وتعالى.

ابن جرير حمله على المعنيين، {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} باعتبار أن ذلك في الخيل حال الإغارة، وفي الإبل حينما تنطلق من مزدلفة إلى منى، كما روي عن عليٍّ، وابن مسعود -رضي الله عنهما-، فالله -عز وجل- لم يقيد ذلك، فهذا وهذا كله يصدق عليه قوله: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}.

وقوله تعالى: {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول.

قوله هنا: {فَأَثَرْنَ بِهِ} الضمير يرجع إلى ماذا؟.

هنا يقول: **في مكان معترك الخيول** {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} المكان الذي تجول فيه الخيل، أو تجري فيه، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} في هذا المكان الذي تعدو فيه الخيل، فيكون الضمير يرجع إلى المكان بهذا الاعتبار.

وبعضهم يقول: إنه يرجع إلى الصبح {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} فالضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وإن المكان لا ذكر له {فَأَثَرْنَ بِهِ} يعني: الصباح، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}.

وبعضهم يقول: أثرن به يعني: بقوائمها وحوافرها، أثرن بها الغبار، والنقع: هو الغبار، وبعضهم يقول: أثرن به بعَدْوها.

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} بهذا العَدْو، وهذه المعاني بعضها متقاربة أو متلازمة، فحينما يقال مثلا: بعدوها فإن ذلك إنما يكون ويقع بحوافرها وبقوائمها، وإنما يكون ذلك بالمكان الذي تجول فيه {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}، أثرن بهذا العدو بواسطة هذه القوائم في المكان الذي تجري فيه، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}.

والذين قالوا: هي الإبل قالوا: إن الإبل لا تثير الغبار، كما تثير الخيل؛ لأن قوائمها عريضة، وخفافها لينة ليست كالخيل.

وبعضهم يقول: إن "نقعًا" هذا مكان بين منى ومزدلفة، يعني: وادي مُحسِّر، وهذا رُد عليه بأن المكان ذاك أصلا فيه صلابة، وليس به غبار، والإبل إذا أتت عليه لا تثير الغبار، وأن هذا فيه بُعد -والله أعلم-؛ إذ إن المراد بذلك -والعلم عند الله- هي الخيل حينما تغير على الأعداء.

قال: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، أي توسطن ذلك المكان كلهن جَمْع.

يعني: اجتمعت، فوسطن به مجتمعات، {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، وسط ذلك المكان فيكون "جمعًا" يعود إليهن، يعني: من صفتهن، أو {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} الضمير يرجع إلى ذلك الوقت، {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} بذلك الوقت.

أو أن المراد {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، يعني: جموع الأعداء، {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} جمع العدو في ميدان المعركة، وبعضهم يقول: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} يعني بذلك الغبار، إذا حلت في ساحة المعركة ثار الغبار، فوسطن بذلك النقع، الغبار.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: فوسطن بركبانهن، الركبان: جمع القوم يعني الأعداء، أي نزلن بساحتهم في أرض المعركة.

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} الكلام على الضمير إلى أين يرجع هل هو الغبار؟، أو هؤلاء الذين يركبونها؟، أو وسطن به بعَدوهن، وإسراعهن، فبهذا العَدو والجري السريع توسطن جمعًا، أو وسطن به يعني: وسطن بذلك الصباح جمعاً من الأعداء؟ هذا كله يحتمل، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني إغارة الخيل صبحًا في سبيل الله.

وقوله: {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} هو: المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}، أثرن به يعني: بالمكان الذي نزلن فيه، ابن جرير -رحمه الله- يقول: فرفعن بالوادي غبارًا، نفس كلام ابن كثير، "فأثرن به نقعا"، والنقع: هو الغبار.

وقوله تعالى: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} قال العوفي عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والضحاك: يعني: جمع الكفار من العدو.

وقوله تعالى: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لِنِعم ربه لكفورٌ جحود.

قال ابن عباس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الكنود: الكفور.

نعم هذا هو المشهور، وبعضهم يقيده بالكفور بالنعمة، ولا منافاة، من طبيعته "إن الإنسان"، فالإنسان جنس، بعضهم يقول: الكافر، لكنها طبيعة الإنسان ما لم تروض نفسه وتهذب بالإيمان، وطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا المعنى: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، هذا قول الجمهور بمعنى: الكفور، وبعضهم يقول: هذه بلغة ربيعة ومضر كنود بمعني: كفور.

قال: الحسن: الكنود هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم الله عليه.

وهذا بنفس المعنى السابق، لاحظ في السابق قال: والضحاك والحسن وقتادة. فقول الحسن ما هو؟

قال: **الذي يعد المصائب وينسى النعم**، فهذا الذي يعد المصائب وينسى النعم هذا كنود؛ لأنه لو أنه ذكر المصائب والنعم لكان لربما، لكن يذكر الأمور التي تسوء، وينسى الأمور التي هي من قبيل النعم هذا النكران، يعني: لو تعامل أحد مع الناس بهذه الطريقة.

المرأة حينما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وتكفرن))[٥]، هنا كفر النعمة، نعمة الزوج، بين ذلك بقوله: ((لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيرًا قط))، يعني: سرعان ما تنكر، وتجحد فضله، وإحسانه إليها المتتابع.

ولهذا الإنسان إذا ابتلى، إذا مرض، إذا اعتل، هو بحاجة إلى التذكير، كأن يقال له: إن أيام العافية أطول من أيام البلاء، كم بلغت من العمر؟ ٧٠ سنة، كم عوفيت فيها؟ فحينما جاءك عارض من العوارض لمدة أسبوع، أو شهر، أو سنة، أو أكثر، فإن أيام العافية أكثر من أيام البلاء.

حينما يمرض الإنسان لأيام أو لأسبوع يقال له: أيام العافية أكثر، تنسى أيام العافية هذه كلها؟، هنا يحصل عنده شيء من الاعتدال، ويتماسك فلا يحصل له الجزع، ولا يحصل التسخط، ولا يسوء ظنه بربه -تبارك وتعالى.

وبعضهم يقول: الكنود هو الجاحد للحق، {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} جحود، وبعضهم يقول: هو الحسود، لكن هذا فيه بُعد، والله أعلم.

وبعضهم يقول: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} أي: بخيل، ما ينفق في مرضات الله -تبارك وتعالى-، ويقولون: هذا بلغة كنانة.

وبعضهم يقول: الكنود يعني: العاصي بلغة حضرموت، وكِندة، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم أن المقصود به الكفور كثير الكفران لنعم الله -تبارك وتعالى- المتتابعة عليه، يغفل عنها وينساها، وهذه صفة في الإنسان غالبة.

ولذلك يلاحظ الإنسان نفسه دائمًا ويحاسبها، ويتذكر نعم الله عليه، فذكر النعم مطلب شرعي، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [سورة الأحزاب:٩]، وهذا في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى.

ولذلك قال الله -عز وجل-: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [سورة الضحى:١١] فيكون ذلك تذكيراً للنفس، وتذكيراً للآخرين، وإقراراً بالنعمة، واعترافًا، وإذعاناً، وتواضعًا لربه -جل جلاله-، بخلاف هذا الذي لا يكاد يخرج منه.

يعني: الآن في تعاملات الناس، امرأة أو آخر أو غير ذلك يُحسَن إليه، ولربما كان هذا الإحسان ذا تكاليف بالغة، رجل يحج بامرأته، ويتحمل الأعباء المالية، والنفسية، والبدنية، العبء النفسي لوحده هذا في كفة، والأعباء الأخرى في كفة أخرى.

الرجل إذا كان معه امرأة واحدة أو عشر سواء في الحج، خلاص هو الهم؛ لأنه يحمل همها، تمرض، تحيض، لا تستطيع أن تواصل النسك، تضيع، تتعرض لأذى الزحام حينما يتدافع الناس في الطواف، أو يتدافعون عند القطار، أو يتدافعون عند الجمار، فهو يحمل همًّا كبيراً، ثم لا يسمع منها كلمة واحدة تعبر عن مشاعر، أو دعاء، أو اعتراف بالجميل أو نحو ذلك.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم (٣٠٤)، وبرقم (١٤٦٢)، في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق، برقم (١٧٣٩).

فكيف إذا قالت له في يوم من الدهر: ما رأيت منك خيرًا قط؟! هذه تثقل على كثير من النفوس.
هنا: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} فكيف مع الله -عز وجل- الذي قال: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}؟ [سورة التوبة:٥١] ذكرنا في رمضان قوله: "إلا ما كتب الله لنا"، ما قال: علينا، ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير))[٦] حتى البلاء والمصائب هي خير له، فتكون رفعة، تكفير السيئات كل ذلك خير له، ثم بعد ذلك يحصل منه هذا النكران، والجحود لنعم الله -عز وجل.
هذه صيغة مبالغة "كنود" يعني: كثير الكفران، وهذا لا يختص بالكفار، يعني: الإنسان حينما يتذكر الآن أشياء مرت عليه، ولربما كان يلهج بالدعاء، ويتضرع إلى الله، ويطيل رفع يديه، يا رب يا رب، ولو ذُكِّر الآن بها لربما نسيها، تَذْكُر حينما كنتَ تعاني من كذا؟، لربما لا يتذكر إذا ذُكِّر، وقد يتذكر، لكنه نسي، وغفل عن هذا.
وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد، ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي: ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [سورة التوبة:١٧].
نعم، هنا الضمير {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وهو {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ}، فهنا أقرب مذكور هو الرب، "لربه" يعني: الرب على ذلك لشهيد.
فإذا نظرت إلى المُحدَّث عنه وهو الإنسان، وما يتصل بأوصافه المذكورة هنا فهو كنود، {وَإِنَّهُ} أي: الإنسان، واضح؟ أي: الإنسان.
{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}، إذا قلنا: إن ذلك بالنسبة للرب -تبارك وتعالى-، وهو قول الجمهور، اختاره ابن جرير، وفي قراءة غير متواترة شاذة، هذه التي ذكرها، {وإن الله على ذلك لشهيد} لمّا قال: قال قتادة وسفيان الثوري، القراءة ذكرها قتادة: {وإن الله على ذلك لشهيد}، هذا لفظ القراءة الشاذة، هي صريحة بهذا الاعتبار.
والقراءة الشاذة إذا صح سندها فإنها تفسر القراءة المتواترة.
إذا: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}، هنا صار يؤيده أمران:
الأمر الأول: عود الضمير إلى أقرب مذكور، هذه القاعدة.
والثاني: القراءة الشاذة.
كما أنه أيضاً قول الأكثر؛ لأن من أهل العلم من يرى حال التساوي والاحتمال الترجيح بقول الأكثر في الفقه، وفي غيره، وهذا ليس محل اتفاق، ليس دائماً.
لكن من ضمن المرجحات الكثيرة، وطرق الترجيح التي تبلغ المائة، هي حالات لا يوجد فيها مرجح، فقد يرجح بقول الأكثر.

---

٦ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩).

ويحتمل -كما قال ابن كثير- أنه يرجع إلى الإنسان المُحدَّث عنه، الموصوف **{إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}**، يقول: **قاله محمد بن كعب القرظي**، قال به غيره كالحسن، وأيضاً هو مروي عن آخرين.

يؤيد هذا القول: أولاً: أن ذلك يرجع إلى المحدَّث عنه **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}**.

ثم أيضا: أن ذلك يجري على قاعدة "توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها".

يعني الآن إذا قلنا: **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** أي: الإنسان، **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}**، هذا بالإجماع أن المقصود به الإنسان، فصار ذلك يرجع إلى الإنسان.

{أَفَلَا يَعْلَمُ} من؟ الإنسان.

{إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ} يعني: الناس، فهذا كله يرجع إلى الناس، فيكون بهذا الاعتبار إذا قيل: **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** إنه الإنسان، فهذا يجري على قاعدة: "توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها"، فلا يقال بتفريقها إلا لموجب، بحيث إنه لا يستقيم المعنى، وربما لا يستقيم إلا بضرب من التكلف، ودعاوى في التقديم والتأخير لا حاجة إليها، وهنا يمكن أن يستقيم المعنى من غير تكلف.

وقوله: **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** ابن كثير بين هذه الشهادة قال: **بلسان حاله، أي: ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله كما قال: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}**، لكنهم لا يشهدون بلسان المقال، ولكن بلسان الحال بأفعالهم هذه الشركية.

لو قيل: إن ذلك يرجع إلى الله، ويرجع إلى الإنسان، باعتبار الاختلاف في مفسر الضمير، يحتمل هذا، وهذا. فالله شهيد عليه، وحاله شاهدة أيضاً عليه، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، لو قيل ذلك لم يكن بعيداً، فيكون جمعنا بين القولين؛ لاحتمال مفسر الضمير.

كما ذكرنا في مناسبات مشابهة تارة يكون بين المعنيين ملازمة، وتارة لا يكون بينهما ملازمة، مثل قوله: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}** [سورة البقرة:٢٥٥] هل هو مِن علم أقرب مذكور وهو: **{مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}**، أو من علم الله: يعلم أي: الله؟، فبين المعنيين ملازمة، فإن علم **{مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** هو جزء من علم الله -تبارك وتعالى-، فإذا كانوا لا يحيطون به فإنه باب أولى أنهم لا يحيطون بعلم الله -تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} أي: وإنه لحب الخير -وهو المال- لشديد، وفيه مذهبان:

أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال، وكلاهما صحيح.

جمع بين المعنيين، بالإجماع أن قوله: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ}** أن الخير: هو المال، هنا كما قال الله -عز وجل-: **{إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ}** [سورة البقرة:١٨٠] يعني: إن ترك مالاً، فهنا المقصود بالخير: المال، وليس البر، والمعروف، والطاعة، والعمل الصالح.

وذكرت في بعض المناسبات قول بعض من يتكلم في بعض القنوات بطريقة لا يريد أن يزعج بها أحد، يقول: الإنسان الأصل فيه الخير، وهو مجبول على الخير، والناس يحبون الخير، مهما كانوا في الفساد، والغي، والشر، والدليل على هذا **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}**.

فالإنسان يحب الخير، هذا أخبر به الله، الإنسان يحب الخير، شديد المحبة للخير!، وهناك ناس شياطين، صارت الشياطين من الجن تتلمذ على أيديهم، أشرار لا يحبون الخير، ولا يحبون المعروف، بل يحاربون الفضيلة بكل طريق مستطاع، فكيف يقال للناس مثل هذا الكلام في قناة فاسدة؟!، ولكنها فتنة الإعلام، وفتنة الخروج في القنوات الفاسدة.

فهو يتخيل جمهوراً معيناً من أصحاب الأهواء، والشهوات، فيريد أن يقول لهم قولاً لا يزعج خواطرهم، هذا بالإجماع حب الخير يعني: المال، {لَشَدِيدٌ} فيه القولان:

الأول: شديد المحبة، وهذا هو الظاهر المتبادر {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}.

والثاني: شديد أي بخيل، تقول: فلان شديد، ويقول الناس: لا زال فلان شديدًا، يعني: ممسكًا يده، ما يَخرج من يده شيء، بخيل من محبة المال، وهذا من لازم ما سبق، يعني: إذا كان يحب المال حبًّا شديدًا، كما قال الله تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [سورة الفجر:٢٠] هذا تفسير لهذه الآية، فإذا كان يحبه هذه المحبة الشديدة فإنه لا يكاد يفرط به، فيودي به ذلك إلى الحرص، والله المستعان، كما قال الله -عز وجل-: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ} [سورة النساء:١٢٨]، {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} [سورة محمد:٣٦-٣٧] النفوس تتحرك إذا طُلبت المال، إذا سُئلت المال، ولهذا كثرت الآيات جدًّا في فضل النفقة، والأمر بها، وما للمنفقين في مواضع كثيرة في كتاب الله -عز وجل-، -والسبب في هذا هو أن النفوس مجبولة على محبة المال-، وما لإخراج المال في سبيل الله -عز وجل- من الآثار النفسية، والخارجية على المجتمع والأمة، فلا جهاد إلا بمال، ولا دعوة إلا بمال، ولا مصالح تقوم، ولا حياة إلا بالمال، فهنا أن يخرجه هكذا يعطيه للفقراء، والمحتاجين، وغيرهم، هكذا بعد أن تعب فيه وجمعه، هذا يحتاج إلى نفس قوية ثابتة، وقد مضى الكلام في الأمثال في قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [سورة البقرة:٢٦٥] على المعاني المذكورة في الآية، فإن بعضهم قال: {وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} يعني: النفس لربما لا تنقاد لإخراج المال فتحتاج إلى تثبيت وإلى ترويض إلى أن تُحمل على هذه الخلال، والخصال حملا فتثبت؛ لأنها تضطرب ويحصل لها نفور، وتنتابها الخواطر والوساوس والأفكار التي تصرفها عن ذلك {وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، الله المستعان.

ثم قال الله -تبارك وتعالى- مزهّداً في الدنيا ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} أي: أُخرج ما فيها من الأموات {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}.

{أَفَلَا يَعْلَمُ} الهمزة هنا استفهامية للإنكار، أفلا يعلم هذا الإنسان الذي هو بهذه المثابة من الكفران، والحرص الشديد، ومحبة المال؟، {أَفَلَا} و"الفاء" للعطف على مقدر يقتضيه المقام، يعني: يفعل ما يفعل من القبائح، ويتصف بهذه الأوصاف.

فلا يعلم ما سيكون حينما تبعثر القبور، ويحصل ما في الصدور، فتخرج الدفائن من القبور، ومن النفوس في الصدور، تخرج المخبآت في القبور من الأجساد، والمخبآت في الصدور من العقائد، والأعمال، وما تنطوي

عليه النفس، وما قد يخفى على الناس، فيكون بادياً علانية ظاهراً لا يخفي، وإن حاول صاحبه أن يواريه على الناس مدة حياته.

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} فكل ما أسر الإنسان في نفسه وخبأ من الإرادات، والمقاصد والنيات، أو العقائد والأفكار فإن ذلك يخرج جميعاً، والله -تبارك وتعالى- لا يخفى عليه منه، فلا يُكنّ الإنسان في نفسه إلا الخير، والإيمان، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، وما إلى ذلك من الأعمال القلبية التي يرضاها الله ويحبها، وجنسها أفضل من جنس الأعمال البدنية.

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} كل ما في الصدور من إيمان وكفران، وما يتفرع عنهما، ولهذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله-: إنه ينبغي على الإنسان أن يقصد الخير، وينويه دائماً، فإن حصل له -فعَله- فهو على بر وطاعة من جهة العمل، والامتثال، فإن لم يحصل له فإنه يُبلَّغ بهذه النية.

{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ} بُعثر بمعني: نُثر، تقول: بعثرت المتاع يعني: جعلت أسفله أعلاه، وتقول: أغراض مبعثرة يعني كما نقول في العامية: "محيوسة"، فالقبور تبعثر، تنبش، فيجعل أسفلها أعلاها، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} [سورة الانفطار:٤]، وقد مضى الكلام على هذا.

قال: {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} قال ابن عباس وغيره: يعني: أُبرز وأُظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم.

يعني قول الأكثرين، لاحظ هنا قال: **أبرز وأظهر**، الأكثرون يقولون: {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}: التحصيل هو التمييز، مُيز ما في الصدور، وما تُكنّ من خير وشر، وفُصل ذلك عنها بمعنى: أُخرج وأُبرز، {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [سورة يس:٥٩] يعني: من المَيْز وهو الانفصال، فهنا قال ابن جرير -رحمه الله-: أي: مُيز، {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}، مُيز وبُين فأبرز ما في الصدور، إذا امتاز عن غيره يعني: انفصل عنه وبان، فهنا فسر بأبرز.

فالذين فسروا {حُصِّلَ} بمُيز هذا لا يخالف قول من قال: أُبرز.

قوله: {إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ} أي لعالمٌ بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

آخر تفسير سورة العاديات، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة القارعة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ} [سورة القارعة:١-١١].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير: القارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة الكريمة سورة القارعة هي من السور المكية بالإجماع، وتتحدث عن موضوع واحد وهو القيامة وأحوال الناس فيها، وقوله: **{الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ}** يقول: **القارعة من أسماء يوم القيامة**، قيل: سميت بذلك؛ لأنها تقرع القلوب لهولها كما قاله جماعة من أهل العلم، واختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: سميت بذلك؛ لأنها تقرع أعداء الله -عز وجل- بالعذاب، والأمرُ الفظيع والداهية والمصيبة يقال لها: قارعة، يقال: فلان نزلت به قارعة، نزلت بالقوم قوارع، وما شابه ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولا لشأنها: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}.

يعني هذا الاستفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل من شأنها.

ثم فسر ذلك بقوله: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} أي: في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [سورة القمر:٧].

الفراش هو هذا الطير الصغير الذي يتساقط ويتهاوى في النار، يجتمع على السراج، ويجتمع على ضوء النار، فيتهافت فيها، وبعضهم كالفراء يقول: هو الطائر من بعوض وغيره، يعني ما هو أعم من القول الذي قبله بل إنه يدخل الجراد فيه، وعلى هذا -على قول الفراء- فإن قوله: **{كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ}** موافق لقوله: **{كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}**، **{كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ}**، وهذا الفراش يضرب به المثل في الخفة والتهافت والهوج، يقال:

أطيش من فراشة، فهي لا تهتدي في طيرانها وحركاتها واضطرابها، ولا تهتدي إلى ما ينفعها بل تسقط في النار، {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}، {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} بمعنى أنهم يتفرقون لشدة الهول.

وقوله تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وعطاء الخرساني والضحاك والسدي: العهن: الصوف.

وبعضهم يقيده بالصوف الملون بالألوان المختلفة كما يقول ذلك ابن جرير، وقاله غيره أيضًا من أهل اللغة، فكما سبق هذه الجبال تكون كالعهن المنفوش وهذه حالة من أحوال الجبال، وقد مضى الكلام على أحوالها، فهي تُدك، وتفتت، وتصير كالعهن، وتُسيَّر، إلى غير ذلك مما ذكر الله -تبارك وتعالى- حتى لا يبقى لها أثر فتكون كالسراب.

ثم أخبر تعالى عما يئول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} أي: رجحت حسناته على سيئاته {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} يعني في الجنة.

يعني هنا: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} هنا يحتمل أن يكون المراد بها الآلة، آلة الوزن، جمع ميزان وهو الآلة، والموازين في اليوم الآخر موازين حقيقية توزن بها الأعمال، وتوزن بها السجلات، وتوزن بها الذوات -الأشخاص-، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الرجل السمين يوضع في الميزان يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة[1]، وحديث البطاقة والسجلات لما طاشت البطاقة التي كتب بها لا إله إلا الله بتلك السجلات[2] يدل على أن السجلات توزن، وأما الأعمال فهذا ظاهر في نصوص كثيرة في وزن الأعمال، وأن ذلك كما سبق بموازين أو بمثاقيل الذر {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة:٧-٨]، وهنا يحتمل أيضاً {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} أن يكون جمع موزون وهو العمل، يعني ثقلت موزوناته، الأعمال التي توزن، والمقصود: موازين حسناته تكون راجحة، وإنما النجاة والظفر والفوز بهذا الاعتبار أن تكون موازين الحسنات راجحة على السيئات، ولهذا يقولون: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، أو رجحت آحاده على عشراته، بمعنى أن السيئة بواحدة والحسنة بعشر، فإذا وضعت في الميزان فصارت السيئات راجحة على هذه الحسنات التي تضاعف إلى عشرة أضعاف فمعنى هذا أن هذا الإنسان في غاية التضييع والتفريط، فهذا الذي ثقلت موازينه يكون كما قال الله -عز وجل-: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}، يكون في حالة من العيش مرضية، يعني يرضاها صاحبها، وبعض أصحاب المعاني كالزجاج يقول: ذات رضا، يرضاها صاحبها، يعني "راضية" أي مرضية، فإن "فاعل" قد يأتي مرادًا به معنى المفعول،

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [الكهف:١٠٥] الآية، برقم (٤٧٢٩)، ومسلم، في أوائل كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥).

٢ - رواه الترمذي، أبواب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، برقم (٤٣٠٠)، وأحمد في المسند، برقم (٦٩٩٤)، وقال محققوه: "إسناده قوي"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٠٩٥).

عيشة راضية يعني مرضية، يرضاها أهلها، أو يرضاها صاحبها لما فيها من النعيم واللذات، وبعضهم يقول، هي فاعلة على ظاهره، "راضية" يعني فاعلة للرضا، يعني منقادة لأهلها، الحياة ذات اللين والانقياد، ما شاء حصلَ له من أنواع المتع واللذات، حياة مذللة لهم، والمشهور هو الأول أن الراضية يعني المرضية، {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} يعني مرضية لدى هؤلاء من أهل الجنة، -جعلنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منهم-، والعيشة الراضية كلمة تجمع أنواع النعيم والمتع واللذات في الجنة.

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} أي: رجحت سيئاته على حسناته.

وقوله تعالى: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} قيل: معناه فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه يعني دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة، وقال قتادة: يهوي في النار على رأسه، وكذا قال أبو صالح: يهوون في النار على رءوسهم، وقيل: معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية، وهي اسم من أسماء النار، قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: {وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ} [سورة النور:٥٧]، قال ابن أبي حاتم: وروي عن قتادة أنه قال: هي النار، وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسرًا للهاوية: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}.

يعني هنا كما نلاحظ أن ابن كثير -رحمه الله- جمع بين معنيين في تفسير الهاوية، فهو يقول: **قيل: معناه ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم**، يعني يسقط على أم رأسه، يهوي على أم رأسه في نار جهنم، هذه الأقوال التي سمعتم مما نقله عن السلف وغير ذلك أيضاً من المرويات كل ذلك يرجع إلى معنى متقارب، بل لو قيل: إنه يرجع إلى شيء واحد لكان ذلك قريبًا، ومنشأ ذلك يعني تنوع هذه الأقوال التي قد يظن أنها من قبيل الاختلاف وليست كذلك، يعني من يقول: هاوية يعني أم الرأس، أو من يقول: مأواه جهنم، أو يهوي في جهنم، أو مأواه النار باعتبار أنها هاوية، منشأ ذلك أن هذه المادة -هذه اللفظة- كلمة "أم" أصلاً هي لها أصل واحد كما يقول ابن فارس يتفرع منه أبواب، يعني في المعنى الأصل واحد يتفرع منه أبواب، الأصل ذكر منها المرجع، الجماعة، والدين، يقول: وهذه الأربعة متقاربة، يعني كأن مجمع الشيء ومجتمعه يقال له: أم، وبهذا الاعتبار لو نظرت إلى جميع الاستعمالات حتى ما ذكره ابن فارس من أصول تتفرع عن ذلك أيضًا من القامة، والحين، والقصد فإنه يدور حول هذا المعنى، فالخليل بن أحمد يقول: كل شيء يضم إليه ما سواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أمًّا، ومن ذلك أم الرأس، ولهذا يقال للضربة التي تصل إلى الدماغ: مأمومة تصيب أم الرأس فهذا مجمعه، وهكذا يقال للراية التي يجتمع حولها الجند في الجيش يقال لها: أم، وقد مضى الكلام على شيء من هذا في أول تفسير سورة الفاتحة في الكلام على أسمائها: أم القرآن، فالراية هذه التي يجتمعون حولها يقال لها: أم، وهذا سبق ذكر بعض الشواهد له، وكذلك أيضًا يقال ذلك للقامة إنسان طويل القامة مثلًا يقال: طويل الأمّة، وكذلك أيضًا يذكر الخليل أن الأمَم هو القصد، ونقلوا عن يونس أن هذا أمر مأموم، يعني يأخذ به الناس، والرئيس للقوم رئيس الجماعة الذي يجتمعون حوله أو يجتمعون على رأيه أو يرجعون إليه يقال له: أم، كبير القوم يقال له: أم، هذا أم القوم، أم القبيلة يؤمه الناس، ويقصدونه فهو أمهم، إلى غير ذلك مما يقال.

إذًا {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} من قال: إنه يهوي على أم رأسه {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} يعني أم رأسه تهوي أو يهوي عليها في النار، يهوي على أم رأسه بهذا الاعتبار أمه هاوية، فيكون المحدث عنه هو أم رأسه، فإذا هوت أم رأسه ماذا بقي له؟! ومن نظر إلى أن النار هي مرجعه ومستقره التي يأوي إليها ويصير إليها كما يقول الأخفش: أمه هي مستقره، {وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [سورة المائدة:٧٢] فصارت له بمنزلة الأم لا مأوى له إلا إليها، فأمه ما هي؟، هاوية، هي هذه النار، مرجعه هاوية، مستقره هاوية ليس له محيد عنها، ولهذا يقول ابن جرير: وأما من خف وزن حسناته فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في جهنم، جمع بين المعنيين، أمه يعني أم الرأس، هاوية يعني أنها مأواه فهي كالأم له لا مرجع له إلا إليها، فكل ذلك يرجع إلى شيء متقارب، وابن جرير وابن كثير جمعوا بين المعنيين اللذين يدور حولهما كلام السلف، هل هو أم الرأس، أمه تهوي أي يهوي على أم رأسه، أو أنه يخبر عن مأواه الذي هو أمه وهو النار، أمه هاوية؟، والله المستعان.

ولا زال يستعمل عندنا إلى اليوم "الهاوية" في الهوة والحفرة العميقة، ولهذا العرب تقول للمنخفض بين جبلين: هاوية، فالنار –نسأل الله أن يعيذنا وإياكم وإخواننا المسلمين منها– هي كذلك، ولهذا ((يهوي بها في النار سبعين خريفًا))[٣]، فهي بعيدة القعر، ولما سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– وجبة قال: ((هذا حجر ألقي في النار منذ سبعين خريفًا))[٤]، فلا زال يهوي، فإذًا {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} هي هذه النار التي يهوي فيها ويسقط فيها.

فالنار ليست شيئًا كما يوقد الناس على وجه الأرض، وإنما هي ذات قعر بعيد، فهم حينما يلقون بها يلقون فيها إلقاءً، ويقرَّن هؤلاء أهل الإجرام من الكفار فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقون مقرنين، ويكبكبون فيها دفعة بعد دفعة، القادة والكبراء والرؤساء ثم بعد ذلك الأتباع.

وقوله تعالى: {نَارٌ حَامِيَةٌ} أي: حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم))، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟.

فقال: ((إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا))[٥] ورواه البخاري ومسلم، وفي بعض ألفاظه: ((إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها))[٦].

وجاء في الحديث عند الإمام أحمد عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–

---

٣ – رواه أحمد في المسند، برقم (٨٦٥٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وقال الشيخ الألباني في كلامه على الحديث رقم (٥٤٠): "وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن الحسن مدلس وقد قيل: إنه لم يسمع من أبي هريرة" في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/٧٨).

٤ – رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٤).

٥ – رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٥)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٣).

٦ – المصدر السابق.

أنه قال: ((إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه))[٧].

وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها))[٨]، وفي الصحيحين: ((إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم))[٩].

آخر تفسير سورة القارعة، ولله الحمد والمنة.

وهذا يدل على أن النار موجودة، هذا أحد الأدلة على هذا، الأدلة على ذلك متعددة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- رآها في قبلة المسجد[١٠]، وكذلك أيضاً أخبر عما رأى -عليه الصلاة والسلام- في الحديث المشهور الذي رأى فيه الرجل الذي يحشّ النار[١١]، وأخبر أنه مالك خازن جهنم، وأخبر أنه رأى عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار -يعني أمعاءه-[١٢]، وأنه أيضاً رأى صاحب المحجن في النار[١٣]، وأخبر عن أناس أنهم دخلوها وأنهم يعذبون فيها، وهذا الدخول هو دخول جزئي بمعنى أن الدخول الأكبر يكون في يوم القيامة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر مثلاً أنه دخلت امرأة النار بهرة حبستها[١٤]، فهذا كله يدل على أنها موجودة، والحديث الآخر لما خلق الله النار وفيه خلق الجنة أيضًا أرسل إليها جبريل فنظر إليها فقال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد -يعني الجنة- إلا دخلها))، فحفت بالمكاره فنظر إليها، وقال: ((لقد خشيت ألا يدخلها أحد))، وكذلك في النار لما نظر إليها قال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها)) ولما حفت

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، برقم (٢١٢).

٨ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه، برقم (٦١٧).

٩ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، برقم (٥٣٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه، برقم (٦١٥).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، برقم (٧٤٩).

١١ - رواه البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (٧٠٤٧).

١٢ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ}** [المائدة:١٠٣]، برقم (٤٦٢٣)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (٩٠٤).

١٣ - رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (٩٠٤).

١٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم، برقم (٣٣١٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٦١٩).

بالشهوات قال: ((وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد))[١٥]، فهذا كله يدل على أن النار والجنة موجودتان، والنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى أشياء أخبر عنها في الجنة، ورأى قصرًا لعمر بن الخطاب، ورأى جارية[١٦]، وسمع صوت نعل بلال في الجنة[١٧] إلى غير ذلك.

---

١٥ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، برقم (٤٧٤٤)، والترمذي، أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، برقم (٢٥٦٠)، والنسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله تعالى، برقم (٣٧٦٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٢١٠).

١٦ - رواه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، برقم (٣٦٧٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل عمر -رضي الله تعالى عنه-، برقم (٢٣٩٤).

١٧ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، برقم (١١٤٩)، وفي كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، برقم (٣٦٧٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل بلال -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٥٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكاثر كاملة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [سورة التكاثر].

هذه السورة من السور المكية، سورة التكاثر، ويقال لها: سورة ألهاكم، ونُقل أن الصحابة كانوا يسمونها بالمَقبرة، وهذا يحتاج إلى مراجعة وتثبت، لكن نقله بعضهم عن الصحابة أنهم هكذا كانوا يسمونها باعتبار **{حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ}**.

والموضوع الذي تدور حوله هذه السورة: هو موضوع واحد، وهو هذا الاشتغال المُلهي الذي يتكاثر به المتكاثرون من متاع الحياة الدنيا وزينتها مما لا يقرب إلى الله -تبارك وتعالى- ولا ينفع في الدار الآخرة.

يقول تعالى: أشغلكم حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ} ألهاكم يعني: أشغلكم، واللهو بعض أهل العلم يفرق بينه وبين اللعب فيقول: اللهو يكون في القلب، واللعب يكون بالجوارح، فهذا الاشتغال لم يكن بجوارحهم بل دخل قلوبهم حتى أشغلهم عما هم بصدده من طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والإقبال على ما يقرب إلى الله وينفع في الدار الآخرة.

{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ} وبهذا الاعتبار يكون هذا الاشتغال مذمومًا، والدنيا كما سبق في الكلام على "طريق الوصول إلى العلم المأمول" من كلام شيخ الإسلام في العبودية ((تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم))[(١)]، وأن هذه الأمور من أعراض الدنيا مما يحتاج إليه الإنسان ينبغي أن يستعمله استعمال الكنيف -أعزكم الله- الذي يجلس عليه لقضاء الحاجة فقط، لا أن يدخل قلبه، فهو لابدّ له منه، ولكنه إذا دخل قلبه أشغله وأفسده وصرفه عن طاعة الله -تبارك وتعالى-، ويحصل من جراء ذلك من الأمور المذمومة من التنافس على الدنيا ثم بعد ذلك التدابر والتقاطع، هذا إذا دخلت الدنيا القلوب قلَّ ذلك أو كثُر، يعني قلَّتِ الدنيا في يده أو كثُرت، إذا دخلت قلبه ولو كان من المفاليس فإنه يكون الشح عليه غالبًا، والله يقول: **{وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر:٩]، قد يكون الإنسان ما عنده شيء من الدنيا ولكنه شحيح حريص يفكر بها ليلاً ونهاراً، وتشغله وتؤرقه كيف يحصّل، وكيف يكتسب، وكيف يكون مثل فلان، وكيف يجمع الأموال، وكيف يثمرها، وهو ما عنده شيء، ومن بيده عرض منها كثير فهو مشغول بها، كيف يحوطها ويحفظها ويحرزها ولا يحصل له فوت شيء منها، وكيف يثمرها، وهكذا لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب[(٢)]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم (٢٨٨٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب ما يتقى من فتنة المال، برقم (٦٤٣٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين

فصاحب الألف يريد عشرة آلاف، وصاحب العشرة الآلاف يريد مائة ألف، وصاحب المائة الألف يريد مائتين، وصاحب المائتين يريد أن ينميها إلى ثلاثمائة ثم ذاك إلى مليون، وصاحب المليون يريد مليونًا آخر، وصاحب الملايين يطمح إلى أن يكون صاحب مليار، وأصحاب المليارات ما توقفوا يعملون ويكتسبون ويشيب الواحد منهم ويهرم ولربما جاوز المائة وهو في شغل شاغل في قلبه وبدنه في جمعها والاشتغال بها وتدبيرها وتثميرها وتصريفها، وما ينضاف إلى ذلك من ألوان القلق الذي يساوره إذا حصل اضطراب في السوق أو خسائر أو ما إلى ذلك، فهذا هو الإلهاء في صورة من صوره وذلك في الأموال وجمعها **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُر}** والمعنى أوسع من ذلك على ما قاله المفسرون، ولم يقصروا ذلك على المال وإنما يدخل فيه سائر ما يتكاثر به الناس مما لا يقرب إلى الله والدار الآخرة، هكذا قال كبار المفسرين، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير وابن كثير وابن القيم وغير هؤلاء، وهو معنى صحيح لا إشكال فيه، كل ما يتكاثر به الناس مما لا يقرب إلى الله -عز وجل- ويشغلهم عن ذكره وطاعته وعبادته والإقبال عليه فهو داخل في هذا المعنى، ويكون مذمومًا **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}**.

وبعض العلماء من أهل الحديث جمع لحديث واحد مائة طريق، وفرح بذلك فرحًا شديدًا ثم رأى تلك الرؤيا وأنه عرض ذلك على أحد أئمة هذا الشأن في المنام فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه فقال: أخشى أن يدخل ذلك في قوله: **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}**، وهذا صحيح، يعني بحيث إن الحديث إذا جاوز القنطرة وكان صحيحًا فما الحاجة لئن يجمع له مائة طريق هذا في العلم.

ويدخل في هذا جمع الكتب التي لا يحتاج إليها، وإنما تكون هوايته جمع الكتب والتكاثر في الكتب، أكبر مكتبة في البلد عنده، أكبر مكتبة مخطوطات عنده، أكبر مكتبة فيها طبعات قديمة، طبعات جيدة، طبعات نفيسة، طبعات مفقودة، فيتكاثر بها ولا ينتفع بهذه الكتب، ولا يقرأ بها، وإنما يجمعها فقط، وقل مثل ذلك في جمع الإجازات والأسانيد التي لا تنفعه فليس له شغل وليس له إقبال على العلم، وإنما يجمع هذه الأسانيد ويسافر شرقًا وغربًا ولا يسمع بأحد عنده إسناد إلا أتاه فيأخذ منه هذه الأسانيد وهو لا يقرأ على هؤلاء شيئًا، وقد يحضر مجالس السماع وهو نائم أو مشتغل بجواله وفي عالم آخر، وتجده يصبر على حضور يوم كامل أو يومين أو ثلاثة أو خمسة من أجل أن يحصل على هذا الإسناد، وليس له اشتغال بالعلم ولا يفهم ولا يفقه منه قليلاً ولا كثيرًا، **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}**، هذا داخل فيه.

ويدخل فيه أيضًا هذا التنافس على تحصيل الألقاب، فتجد الناس أصبحوا اليوم كل واحد يضع الألقاب، يضع من الألقاب ما شاء لنفسه، تقرأ في الحسابات في تويتر مستشار أُسري، ومدرب، ومفكر، ومستشار شرعي، وباحث إسلامي، وكاتب، وضع لنفسك ما شئت من هذه الألقاب ما يغني عنك، وعضو في جمعية كذا، وعضو في جمعية كذا، وعضو في جمعية كذا، وما تغني عنه تلك الجمعيات، لا تحتاج إلى علم كثير حتى ينتسب إليها، وانتسابه إليها لا يعني شيئًا، ينتسب إليها كل أحد، فكونه يضع: أنا عضو في الجمعية الفلانية، وعضو في الجمعية الفلانية يظن من لا بصر له أن دخوله في هذه الجمعية التي لربما تتصل بعلم من العلوم أو نحو هذا أن هذا يعطيه قيمة علمية، أو يعطيه منزلة، أو يعطيه شرفًا وهو لا يعطيه ولا شيء، فتجد سرد هذه الألقاب

لابتغى ثالثا، برقم (١٠٤٨).

والتكثر بها، فإذا قرأت أحيانًا في ما يكتبه الإنسان عن نفسه يكثر من هذه النسب والألقاب وكان رئيس كذا سابقًا، وعميد كذا سابقًا، وكان وكان سابقًا وسابقًا وسابقًا، تاريخ طويل متى ترأس لجنة، ومتى ترأس قسمًا، ومتى ترأس عمادة كلية، وصار عميدًا ونحو هذا، وما يغني عنه؟! **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}** كذلك تجميع الشهادات التي لا قيمة لها، أصبح الآن الناس بإقبال غير عادي وغير معقول على تحصيل شهادات أشبه ما تكون بالوهمية، بل هي وهمية، يعني شهادة مع أنه لم يدرس هذا العلم، ولا يُعرف له تحقيق له ولا اشتغال إطلاقًا، كيف جاءت هذه الشهادة؟، لا يُعرف، وتفاجأ بهذا الإنسان الذي لربما لم يدرس في الكلية أصلاً لم يُعرف أنه درس في جامعة ثم بعد ذلك تجد أنه أستاذ ألف نقطة دال، متى جاءت هذه؟ تحتاج إلى عمر في الجامعات والعالم، السلم الأكاديمي كما يقال، والتكثر من هذه الألقاب ولربما ينزعج بعض الناس ويغضب إذا لم يذكر بهذه الألقاب!، فذُكر بكنيته أو باسمه المجرد، بل بعضهم يغضب إذا قيل له: يا شيخ فلان، يقول: قدِّم اللقب، يقصد هذه الألقاب التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وقل مثل ذلك التكاثر في المتابعين، وأعداد المتابعين كم عنده؟، كم يتابعه في هذا الحساب؟، فهو دائمًا ينظر هل زاد هؤلاء الناس أو ما زادوا، وهذه قضية خطيرة تقدح في إخلاص الإنسان، يعني غير الإلهاء هذا موضوع آخر الآن، وهو حب الظهور والشهرة والرئاسة وأن يُعرف وأن يُذكر، والسلف كانوا يخافون من هذا أشد الخوف، لمّا يمر أيوب على مجموعة من الناس ويسلم فيردون بصوت بنبرة قوية يحزن ويخاف يقول: قد عرفوني، وكان الإمام أحمد لما يقال له: إن الناس في البلدان يدعون لك، وإنهم في الثغور يرمون العدو ويقولون: هذا عن الإمام أحمد، كان يقول: "أخشى أن يكون هذا استدراجًا"[1]، فكيف بنا معاشر المساكين الضعفاء مع قلة البضاعة من العلم والعمل، ونفرح بأعداد المتابعين؟!، بل سمعت أن هناك طرقًا تُشترى فيها المتابعات، يعني يتابعه كثيرون بطرق ما أدري ما هي لكن يقولون: إنه يشتري هذه الأشياء، كيف يشتري هذه الأشياء؟، وما ينفعه؟! ومن أراد أن يعرف قيمة هذا فلينظر إلى أكثر الناس متابعة يجد أنه من أفجر الناس، لا أقصد من المسلمين ولا أقصد من الأخيار ولا من الدعاة إلى الله -عز وجل- فهؤلاء ينفعون، ينفع الله بهم، لكن أنا سألت عن الأكثر في العالم على مستوى العالم فذُكر أناس من أهل الطرب، ومن المغنيين والعازفين وما أشبه ذلك أعمارهم تسع عشرة سنة وعشرون سنة من الغربيين، ويتابعهم أعداد هائلة ملايين البشر لربما يزيدون على عشرين مليونًا أو أكثر، ولربما كان أكثر أهل الخير والصلاح ممن يتابعه متابعون لربما لا يتجاوزون ربع هذا العدد، فما قيمة هؤلاء الذين يشتغلون بالطرب والعزف وهم لا يعرفون الله أصلاً ويتابعهم عشرات الملايين؟! ما قيمته؟، وما يغني عنهم هذا؟، وتجد العالم الراسخ إذا نظرت لربما بضعة آلاف، فأين هذا من هذا؟! ليست العبرة في هذا، فهذا يدخل في قوله: **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}**، كذلك حينما يكون ديدن الإنسان وشغله وحرصه على كثرة الأسفار تجد الرجل لا يلقي كلمة واحدة في المسجد ولا ينتفع به أقرب الناس إليه، لا ينتفعون، أعني أهله أو جيرانه أو جماعة مسجده في البلد، لا يوجد له كلمة واحدة، ولا محاضرة، ولا درس ثم

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (١٨/ ٧٦).

كلما جلس في مجلس وتكابر المجلس بدأ يتحدث أنه زار خمسين دولة، ستين دولة، تستغرب ستين دولة، لماذا يذهب؟.

يذهب للدعوة إلى الله، طيب الأقربون أولى بالمعروف، كلمة واحدة ما سمعناها في مسجد، محاضرة واحدة في مسجد لا توجد، فعلى أي شيء التكاثر بزيارة الدول والأسفار؟، وهذا موجود، وقل مثل ذلك في التكاثر في عدد القنوات التي يخرج فيها، فيتحدث أنه يخرج في عشرين قناة، أو التي تبث دروسه ومحاضراته، أو الأشياء التي يقدمها في كذا وكذا من القنوات، هذا كله لا يغني عن الإنسان شيئًا، إنما التكاثر المحمود هو في الطاعات في القربات التي يخفيها العبد، ويحرص على إخفائها ألا يطلع عليها أحد، وإلا فإن الكثيرين في سكرة وفي غفلة عن هذا تمامًا، فينساق الناس للأسف مع هذه الأمور دون أن يفيقوا ودون أن يشعروا بحالهم حتى يوافوا المقابر، حتى يصيروا إلى الموت، "حتى زرتم المقابر" فهذا كله من التكاثر، بعض الناس قد لا يتكاثر بالمال، ولا يعنيه هذا كثيرًا، ولكنه يتكاثر بأمور أعظم من المال كما سبق الشهرة، يتكاثر بالمتابعين لبرامجه في القنوات الفضائية وما أشبه ذلك، وأسوأ من هذا أن يجعل هذا معيارًا على صحة وسلامة ما هو عليه وهذا خطأ غير صحيح، الذين يتابعون برامج لبعض النصارى يبلغون أكثر مما يتابع لأكثر الدعاة إلى الله –تبارك وتعالى– وهذا معروف ومن زمن طويل، فليست العبرة بالكثرة **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [يوسف : ١٠٣]، **{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}** [الأنعام:١١٦] العبرة أن يكون الإنسان على الحق، على الجادة، ويأتي النبي وليس معه أحد، ويأتي النبي معه الرجل[(١)]، وهذا لا يضره إطلاقًا، والغبطة الحقيقية التي أَغبِط بها حينما أنظر في هذه الوسائط والوسائل لا أغبط إلا هؤلاء الذين لا يتابعهم إلا سبعة أو ثمانية أو عشرة أو سبعون أغبطهم كثيرًا، وأقف وأتأمل أقول: هنيئًا لهم، هم قد لا يقصدون هذا بل يتمنون الكثرة أو يتمنى ذلك بعضهم، ولكن هؤلاء في عافية عظيمة لو يشعرون، والكلام في هذا كثير، وتكلمت عليه في دروس متعددة.

وهذه أمور يحتاج العبد أن يلاحظها، وأن لا يغفل مع الغافلين، وينسى حتى يفجأه الموت، ثم بعد ذلك يعلم أنه كان متشاغلاً بأمور لا ترفعه ولا تنفعه عند الله –عز وجل–، أعطيكم مثالاً وإن كان هذا من قبيل الاستطراد مثال وهو فيه من العبرة ما فيه: طفل صغير نحسبه من الأخيار تربى تربية صالحة، في السنة الأولى الابتدائية الذين يتابعونه لا يتجاوزن خمسة وخمسين، كلما زاد واحد من المتابعين قال: انتظروا سأسجد سجدة شكر، ومرة الذين يتابعونه زادوا خمسة دفعة واحدة، فقال: انتظروا سأصلي هذه المرة ركعتين، فلما بلغوا هذا العدد خمسة وخمسين ذكر أنه سأل زميلاً له من أقرانه، وقال: لماذا بعض الناس يتابعهم أعداد كبيرة، وأنا لا يتجاوزون هذا العدد –الخمسة والخمسين–، فماذا قال له ذاك؟ قال له: إذا أردت أن يتابعك الكثيرون فسب العلماء، ولا تسب الأحياء، سب الأموات فيتابعك كثير، لاحظ هذا طفل يوصيه بهذا، إذًا هذه القضية حاضرة بفرعيها: طلب الكثرة، الأمر الثاني الطريق إليها، طبعًا هذا الطفل ينقل أقوال السلف من كتاب ويذكرها، فذاك يقول له: أنت تنقل أقوال السلف والناس لا يريدون هذا، سب العلماء الأموات ويتابعك الكثيرون، فهذا رفض وقال: هذا لا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، برقم (٥٧٠٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

يجوز، فظهر أثر تربيته على صغر سنه، لكن انظر إلى هذا الملحظ، هذا طفل يوصيه بهذا يقول: سب العلماء والأموات، يعني لا تسب هؤلاء الأحياء الذين سبهم الناس حتى استوى ذلك في نفوسهم لكن سب الأموات، إذًا هذا طريق للمفاليس ممن نرى بعضهم يجترئ فيسب الله –عز وجل-، بعضهم كان لا يتجاوز عدد المتابعين له السبعين فلما سب الله –عز وجل- زاد العدد على مائتين وخمسين ألفًا، هذا طريق سهل ورخيص إلى الهاوية، فهو يحسب أنه يرتفع، والواقع أنها هاوية، نسأل الله العافية.

فالعاقل المؤمن لا يكترث ولا يلتفت إلى هذا، وقل مثل ذلك في التكاثر بعدد الحضور في المحاضرات والدروس العلمية، وهذا لا يغني عنه شيئا، هو فتنة وأخطاؤه تنتشر، وإذا أراد أن يستدرك كيف يستدرك هؤلاء الناس على كثرتهم وتفرقهم؟، وعلماء من الراسخين ما كان يحضر لهم إلا العدد القليل، الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله- كانت دروسه لا يحضرها إلا عدد قليل، وما ضره مقارنة بغيره، الشيخ كان له درس في المسجد النبوي فقال له الشيخ صالح العراقي –رحمه الله-: يا شيخ، فلان وفلان يحضر عندهم أعداد كبيرة وأنت لا يحضر عندك إلا عدد قليل، قال: كم يحضر؟ قال: نحو عشرة، فأطرق قليلاً ثم قال: بركة.

وبعض السلف كان إذا اجتمع إليه أكثر من ثلاثة قام، وبعضهم ما كان يأتيه إلا الواحد، وبعض طلبة العلم يغضب ويتضايق إن لم يمتلئ المسجد ويحتشد الناس للحضور عنده، وهذه فتنة ينبغي للإنسان أن يحذر منها، والله المستعان، هذا كله من التكاثر، وقد يزينه الشيطان يقول: إنك تنشر العلم، تنشر الخير، وينتشر على يدك، وما علم أنه مفتون؛ لأن قلبه متعلق بهذا، **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** [البقرة:٢٢٠]، وقل مثل ذلك في كثرة المصلين خلف الأئمة من ذوي الأصوات الحسنة فهي فتنة، فقد يجتهد في تزيين صوته لهم أو إظهار الخشوع والبكاء والتباكي، ولربما جلب آلات التصوير يصور نفسه وهو يصلي وهو يتباكى، ويصور هذه الحشود التي تصلي خلفه، فهذه فتنة لهم كيف يستطيعون الصلاة وهذه الكاميرات تعرض وجوههم وهم يصلون؟، الإنسان بدون كاميرات ويرجو من الله السلامة والعافية، فكيف بكاميرات وأضواء وبلاء؟، والله المستعان.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ في الرقاق منه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: "كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ"، يَعْنِي: ((لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ))[1].

يعني: لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى آخر، ولو كان له واديان من ذهب لابتغى ثالثًا، هذا كان مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، يعني المعنى ثابت وهو خبر لم ينسخ ولكن اللفظ نسخ.

وَروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الشِّخِّيرِ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقُولُ: (({أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟))[2]**، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ والنسائي.**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب ما يتقى من فتنة المال، برقم (٦٤٣٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا، برقم (١٠٤٨).

(٢) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٨)، والترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، برقم (٢٣٤٢)، والنسائي، كتاب الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية، برقم (٣٦١٣)، وأحمد في

وروى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ))[1]، تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَروى الْبُخَارِيُّ عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ))[2]، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

وَروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يهرم ابن آدم ويبقى مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ))[3]، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

يعني: أن الإنسان ليس له من ماله إلا ما أبقاه لآخرته فتصدق به، أو ما أكله أو لبسه وأفناه في حياته، الباقي الواقع أنه ليس له، هو حارس على هذا المال ويحاسَب عليه، يحاسب على هذا المال من أين اكتسبه، وهل أدى حق الله فيه، وما أنفقه منه يحاسب عليه فيم أنفقه، فهذه الأموال لو قيل للواحد منكم، ولن أقول هذه المرة منا، لو قيل للواحد منكم -من أجل أن يدرك كل إنسان أنه مخاطب متوجه إليه هذا الخطاب بنفسه- لو قيل: كل ما ترى من هذا الحي الذي لا تقل الأرض الواحدة فيه عن مليون، كل المساحات الفضاء في هذا الحي والأحياء المجاورة وهي من أغلى الأحياء لو قيل له: كلها لك، وأراضٍ أخرى بالكيلومترات كلها لك، وهذه العقارات من العمائر والأسواق كلها لك، لك ألف دكان تؤجَّر لكن لا تتعرض لها، كلها تدخل في حساباتك وهي في أرصدتك دعها، تأكل كما يأكل الناس لو أكلت أكلتين في ليلتين لربما تمرض، وإذا لبست ثوبين لعابك الناس ولضقت ذرعًا بهذا اللباس، لو لبست عمامتين، ولا تستطيع أن تركب سيارتين في آن واحد، فهو كما قال الإمام أحمد: طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإلا فكل الناس لابسون، وكل الناس يأكلون مع أن الكثيرين ممن يملكون الأموال الطائلة حال كثير من هؤلاء في الواقع وما يتعاطونه إما بسبب مرض لا يستطيع أن يهنأ بطعام وشراب أو سفر أو غير ذلك، أو بسبب آخر طبيعة أو بسبب حرص تجد أنه يركب من المراكب دون المتوسط، ويسكن أو يأكل ويلبس دون المتوسط، وإذا تأملت ونظرت رأيت هذا كثيرًا مع كثرة ما يملك، وترى أناسًا لا يبلغون ما أقول: عشر معشار ما يملك، ليست هناك نسبة أصلاً ليست هناك نسبة، إنسان يملك مليارات، وإنسان كل ما يملكه من رصيد ثلاثة آلاف وخمسمائة ريال، وتجد لباس هذا أفضل من لباس ذاك، هذا أقوله بالمشاهدة.

أقول لطلابي في الكلية: أنتم غاية ما يصل للواحد منكم ثمانمائة ريال أو ثمانمائة وخمسين ريالا، ولباسكم الذي أراه أفضل بكثير من كثير ممن يملكون المليارات، وتأكلون أفضل مما يأكلون، الشباب هؤلاء يتمتعون ويذهبون إلى أحسن المطاعم في الخُبر والدمام أشياء وأكلات فيها، وأسماء وأشياء متنوعة في الشرق والغرب يذهبون لها

المسند، برقم (١٦٣٠٥).

(١) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب سكرات الموت، برقم (٦٥١٤)، ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٠).

(٣) رواه أحمد في المسند، برقم (١٢١٤٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، برقم (١٠٤٧).

بصورة لربما كل أسبوع، وهؤلاء لا يعرفونها أبدًا، هذا حارس على هذه المليارات يملك عقارات كبيرة جدًّا ولكن النهاية هو حارس فقط، فلو حسب المصروفات التي أنفقها في حياته قد تجد أنها أقل أو مماثلة لمتوسطي الحال، بل إن البعض من هؤلاء تكون حاله ونفقاته أشبه ما تكون بحال الفقراء، وهي أمثلة أعرفها ولا أريد أن أفيض في ذلك؛ لأن مثل هذا يكون مما يشبه التعيين لكن أعرف أمثلة كثيرة أخبرني أصحابها نفس هؤلاء الناس ولربما أولادهم عما يعانونه من الضيق في العيش وآباؤهم يملكون المليارات فما تغني عنهم هذه الأموال؟! لا شيء، فكون الإنسان ينام قرير العين ينام مرتاحًا ليس عنده ما يؤرقه إذا ارتفعت البورصة أو الأسهم أو كذا، هو يأكل وهو هنيء ومع أولاده وزوجته ويربيهم ويأكل معهم بخلاف ذاك الذي يفتخر في مقابلة في مجلة أنه منذ خمس وعشرين سنة ما جلس مع أولاده على طعام، ما قيمة هذا المال؟، ثم إذا نظرت في النهاية المغسلة واحدة، والكفن واحد، والحنوط واحد، ما في مغسلة خاصة لكبار الشخصيات، ولا كفن لكبار الشخصيات، ولا حنوط لكبار الشخصيات، الحمد لله أن النهاية هذه يستوون فيها، ولكن لا يستوي الناس فيما بعدها من النعيم والعذاب، وإنما ذلك بأعمالهم وتقواهم، وليست هناك مقابر لفئة، مقابر مخملية، إطلاقًا، وإنما هي حفرة جوانبها غُبر يهال عليه التراب، يهيله أقرب الناس إليه، وأقرب الناس إليه هو الذي ينزل في القبر، ويضعه في هذا اللحد هذه عبرة، وإذا نظرت إلى البقايا حينما يوضع في لحده نظرت إلى النعش والبطانية التي عليه، أو البشت الذي هو للمغسلة أيضًا، ما هو له، أو إن كانت امرأة عباءة قد اغبرت حينما ألقيت على الأرض تجد عبرًا عظيمة، هذه هي النهاية، فذهب النعيم، وذهبت اللذات، وذهبت الأموال، وذهبت المليارات التي جمعها طول عمره، واشتغل فيها عن طاعة الله وطاعة رسوله، وعن ذكره وقراءة كلامه، وعن الإنفاق في سبيل الله، آخرها هذه، وإسعاف البلدية أيضًا، يعني ما ينقل بسيارة خاصة، أبدًا، حاله حال أفقر الخلق بهذه النهاية، ثم ماذا؟! طي النسيان، يبقى أسيرًا لعمله، لكن مَن الذين يذكرهم الناس ويدعون لهم دائمًا؟! هم الذين لهم نفع متعدٍّ ينفعون الناس في دينهم، أو ينفعونهم في دنياهم يتصدقون ويبذلون ويفيضون على الناس من هذا المال الذي أعطاهم الله -تبارك وتعالى-، وإلا فعبر القرون المتطاولة القرون الماضية كم عدد الأغنياء في التاريخ من الجيل الماضي والذي قبله والذي قبله؟، هاتوا أسماء، ما تحفظون أحدًا، وهذا الجيل نفس الشيء، إنما هو اشتغال وتكاثر وهكذا جيل بعد جيل، والموفق من وفقه الله -عز وجل-، ومن أبصر حقيقة الحال ولم ينظر إلى ظاهر يغر الكثيرين، ثم بعد ذلك تتكشف له الحقائق حينما يوافي ربه حينما يموت فيعرف أنه كان مشتغلا عما كان يجب أن يقبل عليه.

وقوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ.

هذا قاله الحسن، وقال مجاهد: "كلا" هذه كلمة ردع وزجر، هنا: كلا ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر **{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** تعلمون إذا متم وصرتم إلى المقابر أن هذا الاشتغال ليس بشيء، ستعلمون الحقائق، وستعلمون أن العمل للآخرة هو المتعين، **{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** أن اشتغالكم هذا لم يكن بشيء.

وقال الضحاك: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} يعني: أيها الْكُفَّارَ، {ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} يَعْنِي: أَيُّهَا المؤمنون.

بعض أهل العلم من السلف وغيرهم يقولون: إن هذا الخطاب **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}** للك-*فار؛ لأنه قال: **{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** في آخرها، وهذا ليس بلازم، والظاهر أنه خطاب للجميع، ويخرج من ذلك من سلمه الله ونجاه، وإلا

فأكثر الخلق مشتغلون بهذا التكاثر وألهاهم عما هم بصدده، فالخطاب للجميع، ورؤية الجحيم لا تقتضي دخولها، والله -عز وجل- يقول: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم:٧١]، ابن جرير -رحمه الله- يقول: كرر هنا قال: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}؛ لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كررت الكلام مرتين تقول له مثلاً: سترى، سترى، أو تقول له: اصبر، اصبر، يعني سيأتيك كذا، ويكررونه في هذا المقام، وهذا بمعنى قول من قال: إن المقصود بذلك التأكيد، {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، ولا حاجة لأن يقال: إن الأول هو عند الموت، {ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} إذا صرتم إلى البرزخ مثلاً.

وقوله تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} أَيْ: لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ.

يعني {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} العلم المجرد قد لا يحمل على الامتثال، يعلم، كما جاء عن علي -رضي الله عنه- أنه يقول: ما رأيت يقينًا أشبه بالشك من الموت، الإنسان يعلم أنه سيموت ويؤمن بالدار الآخرة وأنه سيحاسب، ومع ذلك إذا رأيتَ العمل رأيت الحال في الغالب لا تدل على مَن علِمَ بذلك، وهذا يرجع إلى ضعف اليقين، فإذا ضعف اليقين عند الإنسان فإن ذلك لا يكون باعثًا له على الامتثال والعمل؛ ولهذا تجد الناس في دنياهم إذا عُرض عليهم مساهمة في المال رابحة في نظرهم تسارعوا إليها، ولو اقترضوا، يقترض من أجل أنه سيساهم في هذه التجارة، وإذا دُعوا إلى الصدقة تجد التباطؤ والتأخر ويحسب حسابات، ويفكر فقد يُخرج القليل وقد لا يخرج، السبب ما هو مع أن ذلك يضاعف إلى عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}؟ [البقرة:٢٦١] هذا لا يوجد في تجارات الدنيا وأرباحها ومع ذلك تجد هذه القضايا يحسب لها ألف حساب؛ لأن اليقين ضعيف، وإلا فهذه هي التجارة الرابحة.

ثُمَّ قَالَ: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}.

هذا الآن جواب قسم محذوف كأنه يقول: أقسم لترون، يقول: والله لترون، هذه "اللام" داخلة على جواب القسم وليس ذلك مما يتصل بما قبله، يعني ليس المعنى هكذا {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} يعني علم اليقين أنكم ترون الجحيم هكذا ليس هو المعنى، وإنما كلا لو تعلمون علم اليقين لما اشتغلتم بالتكاثر، ثم أقسم والله لترون الجحيم، إذًا لا نصل هذا هكذا، لا نقول: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} فيفهم منه أن ذلك يتصل بالمعنى.

هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمُعَايَنَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} أَيْ: ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعَمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ.

وروى ابْنُ جَرِيرٍ قال: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الصَّدَائِيُّ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ الْقَاسِمِ عَنْ يَزِيدُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ جَالِسَانِ إِذْ جَاءَهُمَا النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: ((مَا أَجْلَسَكُمَا هَاهُنَا؟)) قَالَا: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنَا مِنْ بُيُوتِنَا إِلَّا الْجُوعُ، قَالَ: ((وَالَّذِي

بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ))، فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَرْأَةُ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَيْنَ فُلَانٌ؟))، فَقَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مَاءً، فَجَاءَ صَاحِبُهُمْ يَحْمِلُ قِرْبَتَهُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا، مَا زار العبادَ شيء أفضل من نبي زَارَنِي الْيَوْمَ، فَعَلَّقَ قِرْبَتَهُ بِكَرَبِ نَخْلَةٍ وَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَلَا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ؟))، فَقَالَ: أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونُوا الَّذِينَ تَخْتَارُونَ عَلَى أَعْيُنِكُمْ، ثُمَّ أَخَذَ الشفرة فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ))، فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَأَكَلُوا، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: ((لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هَذَا، فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ))[1]، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنُ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))[2]، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُمْ مُقَصِّرُونَ فِي شُكْرِ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ لَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمَا، وَمَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ.

وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: ((يَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قَالَ عَفَّانُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ-: يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ وَتَرْأَسُ فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ؟))[3]، تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكَاثُرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

قوله -تبارك وتعالى-: {كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} يعني: مشاهدة عين اليقين، وقال بعده: {ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، فيدخل في النعيم ما جاء في الحديث لمّا أكل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر وعمر... الحديث الآنف الذكر، فهذا من النعيم، المآكل المطاعم التي يأكلها الإنسان، وكذلك الماء البارد قد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أول ما يسأل عنه الإنسان من النعيم: ألم نُروِّك من الماء البارد[4]، وكذلك يدخل فيه ما ذكر هنا أيضًا في الحديث: "يا ابن آدم حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تربع وترأس"، فهذا كله من النعيم، المراكب، المساكن، الهواء البارد، النوم الهنيء، الفرش -إن شئت أن تقول-: الوثيرة، وكذلك أيضًا سائر ما يتنعم به الناس، وكله داخل في هذا النعيم، فيحاسب الإنسان على هذه الأمور من أين اكتسبها، ((لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره "جامع البيان" (٢٤/ ٦٠٦)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، وبتحققه تحققا تاما، واستحباب الاجتماع على الطعام، برقم (٢٠٣٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، برقم (٦٤١٢).

(٣) رواه أحمد في المسند، برقم (١٠٣٧٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم".

(٤) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، برقم (٣٣٥٨)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٧٣٦٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠٢٢).

أربع، وذكر منها عن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟))[١] فيسأل من أين اكتسب؟، من أين لك هذا؟، من أين حصلته؟ من أين طريقة الاكتساب؟ بمثاقيل الذر، وكذلك أيضًا عن كيفية التعاطي معه كيف أنفقته؟ فيم أنفقته؟ في سرف في مفاخرة في معاصٍ في محرمات؟، كل هذا يسأل عنه الإنسان يوم القيامة، هذا كله داخل في قوله: **{ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** فهذا النعيم محفوف بسؤالين، إذًا هذه النعم تحتاج إلى رعاية، يحتاج الإنسان إلى محاسبة لنفسه كيف يحصّل ما يحصّل، وكيف يتعامل معه؛ لأن الله سائله عن ذلك.

وهنا كلام جيد لابن القيم في هذه السورة:

قال الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "سورة التكاثر، بسم الله الرحمن الرحيم، وذكر السورة، ثم قال: أخلصت هذه السورة الوعد والوعيد والتهديد وكفى بها موعظة لمن عقلها، فقوله تعالى: **{أَلْهاكُمُ}** أي: شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله –صلى الله عليه وسلم– في الخميصة: "إنها ألهتني عن صلاتي"[٢]، كان صاحبه معذورًا"[٣].

يعني يقصد أن الإشغال على نوعين:

نوع يؤاخذ عليه الإنسان.

ونوع لا يؤاخذ عليه، وأن هذه السورة فيما يؤاخذ عليه الإنسان.

قال: "وهو نوع من النسيان، وفي الحديث: فلها –صلى الله عليه وسلم– عن الصبي، أي: ذهل عنه، ويقال: لَهَا بالشيء أي اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح؛ ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}** أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي: مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرضَ عن ذكر المتكاثَر به إرادة لإطلاقه وعمومه"[٤].

فهنا **{أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}** يعني ما عين المتكاثَر به فيدخل فيه التكاثر في الأموال، في الأولاد، التكاثر بالعشيرة والقبيلة، التكاثر كما سبق بعدد المتابعين، التكاثر بالكتب.

وقال –رحمه الله–: ".. وأنّ كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذه التكاثر"[٥].

---

(١) رواه البزار في مسنده، برقم (٢٦٤٠)، والطبراني في الأوسط، برقم (٤٧١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣٠١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، برقم (٣٧٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، برقم (٥٥٦).

(٣) الفوائد لابن القيم (ص: ٣٠).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

هو هذا، بل حتى الأعمال التي ظاهرها أنها تكاثر في طاعة الله، وقد تكون النية فيها فاسدة أو يكون العمل فيها على غير الوجه المشروع فيدخل هذا التكاثر في عدد الحجات كم مرة حج، ويأتي بالحج بطريقة ممسوخة، يضيع حدود الله -عز وجل- فيه، القضية أنه يحج كل سنة، فيقول: أنا منذ ثلاثين سنة وأنا أحج، هذا من التكاثر {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك:٢] ما قال: أيكم أكثر عملاً.

وقال -رحمه الله-: "أخبر -سبحانه وتعالى- أن التكاثر أشغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانا بأنهم غير مستوطنين، ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها"[١].

نعم، يعني لفظة الزيارة لا تدل على الإقامة {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}؛ ولهذا الأعرابي لما سمع هذه الآية: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} قال: لابد للزائر من انتقال، وعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- جاء عنه نحو هذا، فدل هذا على أن البقاء في المقابر هو مدة يسيرة، فإذا كان البقاء في المقابر مدة يسيرة زيارة فقط مع أن من الناس من مات منذ زمن نوح -صلى الله عليه وسلم- أو قبله أو بعده وتعتبر زيارة، إذًا كيف بالدنيا ومدة بقاء الإنسان فيها سبعون أو ستون سنة أو أقل أو أكثر، البرزخ زيارة فكيف بالدنيا؟!.

وقال -رحمه الله-: "ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار"[٢].

نعم، مع أن البعض يقول: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} هذا بالنسبة للأحياء، يقول: تكاثرتم في المال والأولاد وما اكتفيتم بهذا حتى تكاثرتم في الأموات فقلتم: فلان منا، وفلان منا من الموتى، وفلان منا، تتفاخرون فيهم لوجاهتهم ومكانتهم ورئاستهم، أو لكثرتهم يقول: نحن أكثر منكم منا فلان وفلان وفلان وفلان، ويكثّر قومه أو عشيرته أو أسرته أو قبيلته، فبعض أهل العلم يقول: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} المقصود به هذا المعنى، يعني ما اكتفيتم بما تحت أيديكم بل أيضًا عددتم الأموات، وبعضهم يقول: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} أنهم فعلاً ذهبوا إلى المقابر، وكانوا يقولون: هذا منا هل عندكم مثل هذا؟، هل فيكم مثل فلان؟ لكن الروايات التي في هذا لا تصح، والجمهور على أن المقصود {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} يعني: متم.

وقال -رحمه الله-: "ولم يعين سبحانه المتكاثَر به، بل ترك ذكره إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب، ويلهو به، واما إرادة الإطلاق، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله، أو عمل لا يقربه الى الله"[٣].

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٨٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (ص: ١٨٣-١٨٤).

علم لا يبتغى به وجه الله، لاحظ مع أن العلم في الأصل يقرب إلى الله والدار الآخرة، لكن إذا كان لا يبتغى به وجه الله يقول: أنا أحفظ كذا وكذا.

وقال –رحمه الله–: "أو عمل لا يقربه الى الله، فكل هذا من التكاثر المُلهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو يقرأ: "ألهاكم التكاثر" قال: ((يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟)) ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدا مؤكداً إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعُذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظَ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين، فياله تكاثراً ما أثقله وزرًا، وما أجلبه مِن غنًى جالباً لكل فقر، وخيراً تُوصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: **{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}** [الفجر:٢٤]، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي **{رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا}** [المؤمنون:٩٩-١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها، وتأمل قوله أولاً: "رب" استغاث بربه، ثم التفت الى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه –تبارك وتعالى– فقال: "ارجعون"، ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له: "كلا" لا سبيل لك إلى الرجعة وقد عمرتَ **{مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ}** [فاطر:٣٧]، ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة؛ ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رُد لعاد لما نُهي عنه وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رُد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** [الأنعام:٢٧-٢٨].

وقوله: **{كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}** جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أي: لمَا ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لمّا فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم الى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه ولترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت –رضي الله عنه– في أهل بدر:

سِرنا وساروا إلى بدرٍ لحتفهمُ *** لو يعلمون يقينَ العلمِ ما ساروا

وقوله: {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [النبأ:٤-٥]، وقيل: ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، وهذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس"(١).

لاحظ ابن القيم يرجح هذا باعتبار القاعدة: أن التأسيس مقدم على التوكيد.

وقال -رحمه الله-: "ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة، والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط "ثم" بين العِلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المُرتَّبيْن زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع؛ فان المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقينًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر، قال الترمذى: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن على -رضى الله عنه- قال: "ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: {أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ}"(٢).

قال الواحدي: يعنى أن معنى قوله: {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ} في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم فكل أحد يُسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟، فإذا تخلص من هذا السؤال سُئل سؤالا آخر هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟، فالأول سؤال عن سبب استخراجه، والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه، وعن ماذا عمل فيما علم))(٣).

وفيه أيضا عن أبى برزة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أبلاه))(٤)، وقال الترمذي: "هذا حديث صحيح".

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٨٤-١٨٨).

(٢) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، برقم (٣٣٥٥).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٧٧٢)، وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٤٦).

(٤) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في القيامة، برقم (٢٤١٧)، والبزار في مسنده، برقم (١٤٣٥).

وفيه أيضا من حديث أبي هريرة –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة –يعنى من النعيم– أن يقال له: ألم نصحَّ جسمك ونرويك من الماء البارد))(١).

وفيه أيضا من حديث الزبير بن العوام –رضى الله عنه– لما نزلت "لتسألن يومئذ عن النعيم" قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نُسأل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء؟ قال: ((أمَا إنه سيكون))(٢)، وقال: هذا حديث حسن، وعن أبي هريرة ذكر نحوه، وقال: "إنما هو الأسودان العدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا"، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((إن ذلك سيكون))(٣)، وقوله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن ذلك سيكون))، إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون، ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال أي: إن السؤال يقع عن ذلك وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم، ويدل عليه قوله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد ((هذا من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة))(٤)، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفى الترمذي من حديث أنس –رضى الله عنه–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب، جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعني آتيك به، فإذا أعيد لم يقدم خيرًا فيمضى به إلى النار))(٥).

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة –رضى الله عنهما– قالا: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع، أفكنت تظن أنك ملاقٍ يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني))(٦)، قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسئولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن، ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية: قال لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أرأيتَ أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التَّيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذَنّب وماء عذب

---

(١) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، برقم (٣٣٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠٢٢).

(٢) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، برقم (٣٣٥٦).

(٣) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، برقم (٣٣٥٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٠٥)، وقال محققوه: "إسناده حسن".

(٤) رواه أحمد في المسند، برقم (١٤٦٣٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، برقم (٣٤٠٢).

(٥) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في العرض، برقم (٢٤٢٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٦٤١٣).

(٦) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في العرض، برقم (٢٤٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٩٩٧).

أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((إنما ذلك للكفار ثم قرأ: {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ:١٧]، قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين، وتهديد لهم، والمعنى أيضا يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به، وعبدوا غيره فاستحقوا أن يُسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: "لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار"[١].

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك، ويدل على ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم- عند قراءة هذه السورة: ((يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟))[٢]، الحديث وهو في صحيح مسلم، وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً، ويدل عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي –صلى الله عليه وسلم- وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نسئل عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار، فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح، والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: "خرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ((ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟))، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: ((وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما))، فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله: ((وأين فلان؟))، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله وصاحبيه فقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المُدية، فقال له رسول الله: ((إياك والحلوبة))، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله لأبي بكر وعمر: ((والذي نفسي بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم))[٣] فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الالهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أولَ من دخل فيه المعاصرون لرسول الله، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا

---

(١) عدة الصابرين (ص: ١٨٨-١٩٠).

(٢) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٥٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، وبتحققه تحققا تاما، واستحباب الاجتماع على الطعام، برقم (٢٠٣٨).

معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [سورة البقرة:١٨٣] ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر؛ ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه، قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار؛ لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: {وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء:١١]، {وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً} [سورة الإسراء:١٠٠]، {إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [سورة العاديات:٦]، {وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [سورة الأحزاب:٧٢]، {إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج:٦٦] ونظائره كثيرة فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو مُلتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولابد.

وأما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً لهم في الدنيا وليس في قوله: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} ما يقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب –تبارك وتعالى– أنه لابد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم:٧١] فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها، وأما ما ذكروه عن الحسن أنه لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعاً، إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر المُلهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثَر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضا فإن التكاثر تفاعل، وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكاثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر، كما قيل:

ولستُ بالأكثرِ منهمْ *** غِنًى وإنما العزةُ للكاثرِ

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر مُلهٍ عن الله والدار الاخرة، وهو جارٌّ إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قِلٌّ وفقر وحرمان، والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكِّر بالله ونعمه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علما، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى وهو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات، وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج –رضي الله عنهم– في تصاولهم بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر –رضي الله عنهما–، فلما تبين له مدى سبقه له قال: "والله لا أسابقك إلى شيء أبداً"[(١)].

ومن تأمل حسن موقع "كلا" في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم، وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لابد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيم صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة! وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيراً وأشدها ترغيباً في الآخرة وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها، وحُسن نظمها! فتبارك من تكلم بها حقًّا وبلغها رسوله عنه وحياً.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم الى الغاية زائرين فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار؟! فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار"[(٢)].

نعم، يعني الدنيا ممر والبرزخ زيارة والآخرة مقر.

وقال –رحمه الله–: "ثم قال تعالى: **{ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** قال محمد بن جرير –رحمه الله–: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله –عز وجل– عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا، ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، برقم (١٦٧٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٥١٠)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، وقال الألباني: "إسناده حسن، وهو على شرط مسلم"، صحيح أبي داود، برقم (١٤٧٣).

(٢) عدة الصابرين (ص: ١٨٨–١٩٤).

وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به؟، وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه، والنعيم المسئول عنه نوعان:

نوع أخذ من حله وصرف في حقه فيُسأل عن شكره.

ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه فيُسأل عن مستخرجه ومصرفه، والله أعلم"[(١)].

هذا كلام نفيس يستحق أن يقرأ، ولا تجدون غيرًا له ولا ما يقاربه في كتب التفسير، ومن قرأ في كتب التفسير ثم قرأ هذا أسره هذا الكلام، وهذا التفسير الذي قد سمعتم، فرحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العصر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد: فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: تفسير سورة العصر، وهي مكية.

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:١-٣]**، ففكر مسيلمة هُنيهة ثم قال: وقد أُنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبْر يا وبْر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفْر نقْر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.**

وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف بـ"مساوئ الأخلاق" في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريبا منه.

والوبْر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره، وباقيه دميم، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرجْ ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان.

وروى الطبراني عن عبد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

وقال الشافعي -رحمه الله-: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة العصر كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: مكية، وهذا على قول الجمهور، وجاء عن بعض السلف كقتادة ومقاتل أنها مدنية.

والموضوع الذي تتحدث عنه هذه السورة هو: موضوع واحد، وذلك ما ذكره الله -تبارك وتعالى- من وصف الخسارة لبني الإنسان إلا من استثنى الله -تبارك وتعالى- من أصحاب تلك الأوصاف: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**.

وهذا الأثر المروي عن عبد الله بن عمرو مروي عنه وهو كان في مكة، وهو مما يدل على أنها نازلة في مكة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:١-٣].

العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو العشيّ، والمشهور الأول.

يقول ابن كثير: "**العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم**"، يعني: أنه ظرف، والمقصود به: الدهر على هذا القول، أن العصر هو: الدهر، يعني: الزمان، ولا يقيد ذلك بالوقت المعروف، وبعضهم يقول: إن العصر هو: السَّنة، والسنة أيضاً يقال لها: الدهر، لكن الإقسام بالعصر باعتبار أنه الزمان، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، إذا أردنا أن نربط بينه وبين المقسم عليه، أي: من وجه الارتباط بين المقسم به والمقسم عليه: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}**، وقد تكلمنا في مناسبات سابقة عن التغابن في تفسير سورة التغابن أيضاً من أن الله -تبارك وتعالى- أعطى كل واحد رأس مال، وهي: هذه الأنفاس، وأمره أن يتّجر بها حتى يلقى ربه -تبارك وتعالى-، فاشتغل بعض الناس بما ينفعهم ويرفعهم، وبادروا بالأعمال الصالحات، ثم قدموا على الله -تبارك وتعالى- بأعظم التجارات، فدخلوا الجنة، واشتغل قوم بما يضرهم، فسخروا أعمارهم وأوقاتهم وأموالهم فيما يسخط الله -تبارك وتعالى-، فدخلوا النار، وأهل الجنة يتوارثون منازل أهل النار في الجنة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنة في النار، فذلك من أعظم التغابن.

يقول ابن كثير: "**العصر هو: الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم**"، فإذا قلنا: إنه الدهر فيمكن أن يقال لما يقع فيه من العبر والعظات، وتعاقب الليل والنهار، والظلام والضياء، مما يدل على قدرة الله -تبارك وتعالى-، وكذلك أيضاً هذا الزمان الذي يعمل فيه العاملون، ويتقرب فيه المتقربون، ويفرط فيه المفرطون، ويضيع فيه المضيعون، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ))[1]، بهذا الاعتبار، وبعضهم جعل ذلك بمعنى أخص وهو: الوقت المعروف، كما قال هنا: العشي، نقله عن زيد بن أسلم، وقال به غيره أيضاً، كقتادة والحسن، والعشي يعني: الوقت الذي نعرفه، يكون من بعد دخول وقت العصر إلى غروب الشمس، هذا الوقت يقال له: العشي، كما أن العشي يقال لما هو أوسع من هذا، من بعد الزوال إلى غروب الشمس؛ لذلك يقال للصلاتين -صلاة الظهر والعصر-: صلاتي العشي، وابن جرير -رحمه الله- حمله على الجميع، وهذا محمل حسن، باعتبار أن العصر يصدق على هذا وهذا، يصدق على الزمان أي: الدهر، ويصدق أيضاً على الوقت المعروف، ولا شك أنه وقت شريف عظيم، ومما يدل على عظمته وشرفه ومنزلته ما جاء في تعظيمه في قوله -تبارك وتعالى- مثلاً عن صلاة العصر: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى}** [البقرة: ٢٣٨]، وهي: صلاة العصر، وكذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: **{تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ}** [المائدة: ١٠٦]، الراجح كما سبق في تفسير الآية: أنها صلاة العصر؛

---

١ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم: (٦٤١٢).

لما في اليمين والقسم بعد العصر من عظمة ومنزلة، وكذلك أيضًا يدل عليه الحديث في الرجل الذي حلف على يمين بعد العصر وهو كاذب، أي: يمين فاجرة على سلعة[٢]، فالشاهد: أن العصر ليس كغيره، يعني: هذا الوقت، فهو داخل في القسم، والله تعالى أعلم.

فأقسم -تعالى- بذلك على: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، أي: في خسارة وهلاك، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** قال: "**أي: في خسارة وهلاك**"، فسرت الخسارة بالهلكة وهو معنى مقارب للخسارة، وبعضهم يقول: في شر، كما جاء عن ابن زيد: أنه في شر، وبعضهم كالفراء يقول: يعني: في عقوبة.

وأصل الخسران يقال: للنقصان وذهاب رأس المال، وذلك في الأصل يستعمل في البيع والشراء والتجارة، والله -تبارك وتعالى- قد أورد من هذا أشياء، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ}** [البقرة:١٦]، فسمى المعاملة معه: تجارة، وسماها: بيعًا وشراء فقال: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}** [التوبة: ١١١]، إلى أن قال: **{فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ}** [التوبة:١١١]، وقال: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** [التغابن:٩]، والغبن في الأصل يكون في البيع والشراء، وما في معناهما، فكل هذا يذكره الله -تبارك وتعالى- في المعاملة معه، وهكذا الخسارة تقال: للنقصان، فإذا اشترى الإنسان سلعة بمائة ثم باعها بخمسين يكون قد خسر، وإذا اشترى سلعة بمائة فذهبت فإنه يكون قد خسر، فتقال للنقصان، وذهاب رأس المال، فالناس في هذه الحياة الدنيا وما يزاولونه ويتعاطونه فيها في خسارة، وذلك لتضييع حظهم من الله -تبارك وتعالى-، فيقع منهم التفريط والاشتغال بما يضرهم، والإعراض عما ينفعهم، ولو علموا قيمة هذه الأنفاس التي تذهب ولا تعود، وأن العبد يمكن أن يرتقي بها، ويمكن أن يتزود من الأعمال الصالحات، وأن يصل إلى الدرجات العالية في سلم العبودية، لما فرطوا بلحظة، ولهذا كان بعضهم إذا جاء من يضيع وقته أو يكلمه بما لا طائل تحته يقول له: أمسك الشمس، فهذه الأنفاس في كل نفس منها يمكن أن تتزود بتسبيحة أو تهليلة أو تكبيرة أو بشيء يقرّب أو بشيء ينفع أو بشيء يرفع، وإذا هان على الإنسان ما يطلب فإنه يضيع الأوقات بالجملة، فتكون كما قيل:

والوقتُ عندكم رخيصٌ سعرهُ *** حثوًا بلا كيلٍ ولا ميزانِ

يعني: هو يعطي الوقت جزافًا، ومن الناس من يرى أن من التكلف الشح بالوقت، وأن ذلك غير محمود، وأن التفريط والتضييع هو المحمود عندهم، وهؤلاء إنما يقولون ذلك؛ لكدر في بصائرهم، فهم لم يعرفوا قدر الأعمار، وقدر ما يسعون إليه، وما يطلبون، فصار منهم هذا التضييع والتفريط، حتى صار ضياع الزمان

---

٢ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم: (٧٤٤٦)، بلفظ: عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك)).

عندهم غنيمةً ومطلبًا، ونحن اليوم نسمع بعض من يفرح ويبدي انشراحاً وسرورًا أن الأسبوع صار يمضي سريعًا لمّا صارت الدراسة تبدأ يوم الأحد، أي: لا يشعر بالأسبوع، وهو في الواقع يفرح بمضي الأعمار، وانقضاء الأوقات، وهو لا يعلم بعد ذلك أن كل لحظة إنما هي تقربه إلى أجله، فيقدم على الله –تبارك وتعالى– إقدام المفاليس، ببضاعة قليلة، وعمل قليل، فالله المستعان.

قال: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} وهو: أداء الطاعات، وترك المحرمات.

{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} أي: على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

آخر تفسير سورة العصر، ولله الحمد والمنة.

قوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ}** يعني: جنس الإنسان، وهذا كثير في القرآن، كقوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** [المعارج:١٩-٢٢]، فهذا له نظائر، وقد مضى كثير من هذا، فالمقصود به: جنس الإنسان، أي: هكذا هو، إلا من تهذبت نفسه بالإيمان، وطاعة الله، وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، وإلا فالخسارة واقعة لهذا الجنس، والناس فيها بين مقل ومكثر، ومن الناس من تكون خسارته محققة، وهم أولئك الذين لم يعرفوا الله أصلاً، ولا الدار الآخرة، وما كانوا يرجون لله وقارًا، مهما بلغوا من العلم بالأمور المادية الدنيوية، ومهما عرفوا، ومهما صنعوا، ومهما بلغوا من أسباب القوة والتمكين المادي، فإن هؤلاء في خسارة عظيمة محققة، لا يعرفون ما هم فيه من الخسران حتى يوافوه.

ثم ذكر لنا وصف هؤلاء الذين استثناهم الله –تبارك وتعالى–: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**، فاستثنى هؤلاء المؤمنين العاملين الصالحات، وذكر أيضاً وصفاً آخر، وهو: التواصي بالحق، إذًا لا يكفي الإيمان وحده الذي يكون بالقلب، بل لابدّ من العمل، وأيضاً لابدّ من أمر آخر وهو: التواصي بالحق، والتواصي مأخوذ من التفاعل، والأصل أن هذا يكون بين طرفين فأكثر، فالحق لما كان ثقيلاً يحتاج إلى شيء من التواصي، والتعاهد بالعمل به، والنهوض بما أمر الله –تبارك وتعالى– به، وأن يسدد الناس بعضهم بعضًا، وأن ينصح بعضهم بعضًا، وأن يكمل بعضهم بعضًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لابدّ من التواصي بالحق، ولا يكون الإنسان مكملاً للإيمان، أي: محققًا للإيمان الواجب إلا بهذا؛ ولهذا قال الله –عز وجل–: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران:١١٠]، فجعله مقدمًا على الإيمان بالله؛ إذ هو من أعظم خصائص هذه الأمة، ومزاياها، ولما ذكر أهل الكتاب قال: **{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}** [آل عمران:١١٣-١١٤]، فذكر الإيمان أولاً، ثم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانيًا، وذلك –والله أعلم– لأن أولئك وإن كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكنه ليس من أعظم خصائصهم، بخلاف هذه الأمة، فلما كان هذا من أعظم خصائصهم، ومن أعظم مزاياهم قدمه على الإيمان، فهم يشتركون في الإيمان مع سائر الأمم، فأهل الكتاب الذين كانوا على دين الأنبياء دون تحريف أو تبديل هم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وكذلك أيضاً هذه الأمة يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكن هذه الأمة تميزت على غيرها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو فيها أثبت،

فذكره مقدمًا على الإيمان؛ وهكذا في اللعن، قال –عز وجل-: **{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ}** [المائدة:٧٨-٧٩]، وكذلك أيضاً قال في أحبارهم ورهبانهم: **{لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ}** [المائدة:٦٣] فهنا في حق الأحبار والرهبان قال: **{لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}** [المائدة:٦٣]، فهذا أعظم وأشد وأشنع: أن يُترك ذلك من قبل الربانيين والأحبار والرهبان.

على كل حال، كل هذا يدخل في التواصي بالحق، المناصحة بين أهل العلم، والمناصحة بين الدعاة إلى الله –عز وجل–، والمناصحة بين طوائف الأمة، مناصحة المخطئ، والأخذ بيده، أما الترك أو التشنيع فإن ذلك ليس من سبيل أهل الإيمان.

قوله: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}** **وهو: أداء الطاعات، وترك المحرمات**، أي: كل ما جاء عن الله وعن رسوله –صلى الله عليه وسلم– فهو داخل في هذا، فيدخل فيه الإيمان، ويدخل فيه ما يتفرع عنه.

وقوله: **{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** **أي: على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر**، التواصي بالصبر يكون فيما هو أعم من ذلك، يتواصون بالصبر على طاعة الله، ويتواصون بالصبر عن معصية الله وعن الشهوات، ويتواصون بالصبر على أقدار الله المؤلمة، فإن الصبر ينتظم هذه الأمور جميعًا، وليس فقط على المصائب والأقدار المؤلمة، فكل ذلك يتواصون عليه؛ لأنه يحتاج إلى تواصٍ، وذلك لثقله وشدته، فإن الإنسان قد يتعبد مدة من الزمان ثم بعد ذلك يفتر، فيحتاج ذلك إلى تواصٍ، وإلى تعاهد، وإلى أن يشد بعضهم بعضًا، ويقوي بعضهم بعضاً حتى يصلوا ويبلغوا، وكذلك أيضاً في ترك المعاصي، فيحتاج هذا إلى تواصٍ، وإلا فإن الشهوات والأهواء غلابة، والشيطان متربص، وأما الأقدار المؤلمة فهذا ظاهر، والله أعلم.

وهذه السورة هي التي قال فيها الإمام الشافعي –رحمه الله–: "لو لم ينزل على الناس إلا هذه السورة لكفتهم، ووجه ذلك: أن الله –تبارك وتعالى– ذكر فيها ما يتحقق فيه الفلاح والنجاة والسعادة والصلاح في الدنيا والآخرة، فإنه إذا تحقق الإيمان والعمل الصالح، وصار التواصي على الحق والصبر فإن هذا يكون مشتملاً ومنتظمًا لجميع شرائع الإيمان، لا يخرج من هذا شيء، وهذه السورة انتظمت أيضًا فيها القواعد الأربع، ففي قول الله تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**، هذا فيه الاحتياج إلى العلم والمعرفة بالإيمان والعمل الصالح، ثم أيضاً الاحتياج إلى العمل، وكذلك أيضًا في قوله: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فالتواصي بالحق يعني: الدعوة إلى ذلك، والتواصي بالصبر يعني: الصبر على الأذى في سبيله، وبعض أهل العلم يقول: قوله: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}** هو الذي يدل على العلم، وقوله: **{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** يدل على العمل، والذي يظهر –والله أعلم–: أن المعنى أعم من هذا، كما ذكرت.

ولابن القيم في ذلك كلام قيم، يقول –رحمه الله–: "قال الشافعي –رضي الله عنه–: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم، وَبَيَان ذَلِك: أن الْمَرَاتِب أربعة، وباستكمالها يحصل للشَّخْص غَايَة كَمَاله، إحداها: معرفَة الْحق، الثَّانِيَة: عمله بِهِ، الثَّالِثَة: تَعْلِيمه من لَا يُحسنهُ، الرَّابِعَة: صبره على تعلمه، وَالْعَمَل بِهِ، وتعليمه، فَذكر تَعَالَى الْمَرَاتِب الأربعة فِي هَذِه السُّورَة، وأقسم سُبْحَانَهُ فِي هَذِه السُّورَة بالعصر: أن كل أحْد فِي خسر: **{إِلَّا**

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وهم الَّذين عرفُوا الْحق، وَصَدقُوا بِهِ، فَهَذِهِ مرتبَة، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وهم الَّذين عمِلُوا بِمَا علموه من الْحق، فَهَذِهِ مرتبَة أُخْرَى، {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} وصّى بِهِ بَعضهم بَعْضًا تَعْلِيمًا وإرشادًا، فَهَذِهِ مرتبَة ثَالِثَة، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} صَبَرُوا على الْحق، ووصى بَعضهم بَعْضًا بِالصبرِ عَلَيْهِ والثبات، فَهَذِهِ مرتبَة رَابِعَة، وهذا نهاية الْكَمَال، فَإِن الْكَمَال: أَن يكون الشَّخْص كَامِلا فِي نَفسه مكملا لغيره، وكماله بإصلاح قوّتيْه العلمية والعملية، فصلاح الْقُوَّة العلمية بالإيمان، وَصَلَاح الْقُوَّة العملية بِعَمَل الصَّالِحَات، وتكميله غَيره بتعليمه إياه، وَصَبره عَلَيْهِ، وتوصيته بِالصبرِ على الْعلم وَالْعَمَل، فَهَذِهِ السُّورَة على اختصارها هِيَ من أجْمَعْ سور الْقُرْآن للخير بحذافيره، وَالْحَمْد لله الَّذِي جعل كِتَابه كَافِيًا عَن كل مَا سواهُ، شافيًا من كل دَاء، هاديًا إِلَى كل خير.."[٣].

قال: "ولم يكتفِ منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا فمعلوم أن المعاصي والذنوب تُعمي بصيرةَ القلب فلا يدرك الحقّ كما ينبغي، وتُضعِفُ قوتَه وعزيمتَه فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيرُه، فيدرك الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروفَ منكرًا، والمنكرَ معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقرّ النفوس المُبْطِلَة التي رضيَتْ بالحياة الدنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت كافيةً داعيةً إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.."[٤].

وقال: "وإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين: خاسرًا، ورابحًا، فالرابح: من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضًا، فتضمنت السورة النصيحتين والتكميلتين وغاية كمال القوتين، بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجة، وألطفه موقعًا، أما النصيحتان فنصيحة العبد نفسه ونصيحة أخاه بالوصية بالحق والصبر عليه، وأما التكميلان فهو تكميله نفسه وتكميله أخاه، وأما كمال القوتين فإن النفس لها قوتان: قوة العلم والنظر، وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب والعلم، وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر، فصار هاهنا ستة أمور، ثلاثة يفعلها في نفسه ويأمر بها غيره: تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام على ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره بهذه الثلاثة، فيكون مؤتمرًا بها، متصفًا بها، معلمًا لها، داعيًا إليها، فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع من الخسران، والله تعالى المستعان، وعليه التكلان.."[٥].

---

٣ – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٥٦–٥٧).

٤ – الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٩٣–٩٤).

٥ – لم أجده في كُتب ابن القيم.

قال: "وإقسامه -سبحانه وتعالى- بالعصر على حال الإنسان في الآخرة، والعصر المقسم به قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار، وقيل: هو: آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة العصر، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم، قال الشاعر:

ولن يلبثَ العصران يومٌ وليلةٌ *** إذا طلبا أنْ يُدرِكا ما تيمّما

ويوم وليلة بدل من العصر، فأقسم سبحانه بالعصر؛ لمكان العبرة والآية فيه.."[٦].

يعني: هذا مثال على الربط بين المقسم به والمقسم عليه، وقد ذكرت أن بعض المفسرين وبعض العلماء يربط هذا الربط، ولكن ذلك قد لا يخلو من تكلف في بعض المواضع.

قال: "فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء والظلام، والحر والبرد، وانتشار الحيوان وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو: زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ، وهو: خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان، وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًا، تأبى أن يسوي بينهم، وألا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمْرِ غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**، ولما قال: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}** [التين:٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** [التين:٦]، ولم يقل: وتواصوا، فإن التواصي هو: أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضًا على الأعيان، وقد تكون فرضًا على الكفاية، وقد تكون مستحبة، والتواصي بالحق يدخل فيه: الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب، والصبر يدخل فيه: الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب، فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء، وهو سبحانه إنما قال: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}**، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر، وأنه ذو

---

٦ - التبيان في أقسام القرآن (ص:٨٣-٨٤).

خسر، كما قال عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما-: "لقد فرطنا في قراريط كثيرة"، فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصّل ربح ذلك.."[7].

قال: "وقوله تعالى: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل، فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي –صلى الله عليه وسلم- في حق ابنته: ((مرها فلتصبر ولتحتسب))[8]، وقال تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}** [هود: ١١]، وقال تعالى: **{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}** [آل عمران:١٢٥]، وقال: **{وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}** [آل عمران: ١٨٦]، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}** [الروم:٦٠]، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عُدم صبرهم، وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن صابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان"[9].

---

٧ – المصدر السابق (ص: ٨٤ – ٨٦).

٨ – أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله –تبارك وتعالى-: **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء : ١١٠]، رقم: (٧٣٧٧)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم: (٩٢٣).

٩ – التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٧ – ٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الهمزة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، قال: تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة، وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}

[سورة الهمزة:١-٩].

هذه السورة سورة الهمزة هي مكية بالإجماع، وهذا اسمها المشهور "ويل لكل همزة"، ويقال لها: الهمزة أيضًا، وهو من أسمائها المشهورة اختصارًا، وبعضهم سماها بالحطمة.

الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة: هي صفة سيئة بائسة من صفات بعض أهل الخسران، وهي الهمز واللمز مع ما يقارن ذلك من الحرص والشح على المال وجمعه وحياطته، هذا توعده الله -تبارك وتعالى- بأن ينبذ في النار.

الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل، يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم، وقد تقدم بيان ذلك في قوله: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [سورة القلم:١١].

قال ابن عباس: {هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} طعّان مِعياب، وقال مجاهد: الهُمزة: باليد والعين، واللمزةُ: باللسان.

وقوله: {الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [سورة المعارج:١٨] قاله السدي، وابن جرير.

وقال محمد بن كعب في قوله: {جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة.

وقوله: {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، {كَلا} أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} يقول: **الهماز بالقول: واللماز بالفعل، يعني يزدري الناس وينتقص بهم**، ونقل عن ابن عباس **طعّان مِعياب، وعن مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان،** يعني: عكس الأول، عكس الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله.

والعلماء يذكرون في ذلك أقوالاً ولكن إذا تتبعت هذه الأقوال على كثرتها تجد أن عامتها يشترك في صفة واحدة، وإن اختلفوا في تنزيلها على الهماز أو اللماز، هذه الصفة هي الغيبة، عامة الأقوال تشترك في ذكر هذا المعنى وإن اختلفوا في تنزيله، هل هو الهمزة أو اللمزة؟ فبعض أصحاب المعاني كالزجاج وأبي عبيدة

جعلوا ذلك بمعنى واحد قالوا: الهمزة اللمزة هو الذي يغتاب الناس، لا فرق في المعنى، فالهمزة هو الذي يغتاب، واللمزة هو الذي يغتاب، ولكن على سبيل الذم والعيب، وبيان قبح هذا الفعل، تقول: فلان همزة لمزة، وهذه الصيغة كما هو ظاهر هي صيغة مبالغة تدل على أنه كثير الهمز، وكثير اللمز، فعلى هذا يكون المعنى واحدًا، وطائفة من السلف فرقوا بينهما، وهذا قول الأكثر أعني التفريق بين الهمزة واللمزة، حتى أصحاب المعاني، وأهل اللغة أكثرهم على التفريق بين الهمزة واللمزة، هذا له معنى، وهذا له معنى، وإن اختلفوا في تنزيل كل واحد منهما، فبعضهم كأبي العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح يقول: الهمزة الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة هو الذي يغتابه في قفاه، يعني من وراء ظهره، وكيف يغتاب الرجل في وجهه؟. النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر الغيبة قال: ((ذكرك أخاك بما يكره))[1]، ولم يقيد ذلك بغيبته، لكن أصل المادة يدل على الغيبة، ولهذا قالوا في قوله تعالى: **{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}** [سورة الإسراء:٣٦] قال بعض السلف -كما سبق في الكلام-: إن المراد به الغيبة، وقلنا هناك: إن المعنى أعم من هذا، لكن كان توجيه قول من قال: إن المراد الغيبة **{وَلَا تَقْفُ}** قالوا: لأنها تقال في القفا، فالذي يواجه الناس بما يكرهون هذا هو الهمزة، واللمزة هو الذي يلمزهم في حال غيبتهم، أي بمعنى الغيبة المعروف المشهور الشائع في الاستعمال الكثير الغالب.

وبعضهم عكس هذا كقتادة فقال: اللمزة هو الذي يواجههم بما يكرهون، والهمزة هو الذي يقوله بغيبتهم، وجاء أيضاً عن قتادة ومجاهد في رواية أن الهمزة هو الذي يغتابهم في أمر خاص وهو الأنساب، يتكلم في أنسابهم هذا لا يثبت نسبه، وهذا يرجع إلى كذا، وهذا قبيلته كذا، فيعيبهم في هذه الأمور، وجاء عنه أيضاً -أعني مجاهدًا- أن الهمزة هو الذي يهمز الناس باليد، ولا يقصد بذلك -والله أعلم- تخصيص اليد، وإنما بالفعل يعني اليد وما يقوم مقامها كأن يقول مثلاً -يعني يشير- أنه قصير، أو يقول: إنه مخلط فيشير بيده، أو غير ذلك مما يحصل من الإشارة التي تعبر عن معنى يعيب به الناس، كأن يشير بيده أو بجبينه أو بشفته أو بعينه أو نحو ذلك، فهذا يكون من قبيل الفعل، وهذا المعنى له وجه قريب، وذلك أن الهمز في أصله كأنه يدل -والله أعلم- على ما يكون بالجارحة، هذا القول أن الذي يهمز بيده مثلاً يعيبهم بالإشارة، وليس المقصود أنه يهمزهم بيده أنه يضربهم بيده مثلاً أو نحو ذلك، فهؤلاء على قول مجاهد هنا في هذه الرواية: الهمزة الذي يهمزهم بيده، وإن شئت أن تقول بما هو أعم من هذا، يعني بإشارة أو حركة، واللمزة هو الذي يلزمهم باللسان.

وسفيان الثوري يقول: الهمزة هو الذي يهمزهم باللسان، واللمزة يشير بعينه، طبعًا هم لا يقصدون خصوص الإشارة بالعين، وإنما لأن ذلك كان كثيرًا، فهو يشير بعينه إشارة معينة تدل على أن هذا الإنسان مغفل، أو أن هذا الإنسان لا يؤخذ منه شيء أو غير ذلك مما قد يفهم من إشارته بحسب المقام، وبعضهم يقول: إن الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، وهذا يرجع إلى أحد المعاني السابقة، وهو منقول عن جماعة من السلف كما سبق: الذي يغتاب الرجل في وجهه، يعني يواجه الناس يكاشرهم بما يكرهون، وأن اللمزة هو الذي يشير بيده

---

١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، برقم (٢٥٨٩).

أو حاجبه أو برأسه أو بعينه، وجاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: هو المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع، المغري بين الإخوان، ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن ذلك يقال لكل مغتاب للناس همزة يغتابهم ويغضبهم، يغضبهم معنى ذلك أنه يتصرف بحضرتهم بما يكرهون، يعني بما يكرهون مما يكون من قبيل الإساءة إليهم، كذاك الذي قال: إنه يواجههم بما يكرهون، أو ما يؤدي هذا المعنى من عباراتهم، وبعضهم يقول: الهمز هو عيب الناس بالإشارة سواء كان باليد أو بغيرها، هذا الهمز سواء كان بحضرة المهموز أو بغيبته، واللمز هو الطعن عليهم كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ}** [سورة التوبة:٧٩]، فهذا سماه لمزًا، ماذا كانوا يفعلون؟ إذا جاء أحد بصدقة كثيرة، قالوا: هذا مُراءٍ، وإذا جاء بصدقة قليلة قالوا: الله غني عنه، وعن صدقته، قال: **{وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ}**، ويشهد لقول من قال -أول ما ذكرنا-: إن الهمزة هو الذي يذكرهم في غيبتهم فقط: قول الشاعر:

تُدلي بودٍّ إذا لاقيتَني كذبًا *** وإنْ أغبْ فأنت الهامزُ اللمزة

وقول الآخر:

إذا لقيتُك عن سُخط تكاشرني *** وإنْ تغيبتُ كنتَ الهامزَ اللمزة

الأصل أن التأسيس مقدم على التوكيد، وأن الهمز غير اللمز، وإن كان يقرب من معناه، فكل ذلك من قبيل الإساءة إلى الناس، ولكن أحدهما يكون مغايرًا للآخر، ولو قيل: إن الهمزة هو الذي يعيبهم بفعل أو بإشارة أو نحو ذلك هو كثير الهمز **{هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}** [سورة القلم:١١]، لاحظ ذكرَ النميمة هناك: يمشي بالنميمة، **{هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}**، وإن اللمزة هو الذي يعيبهم أيًّا كان هذا العيب في أشكالهم أو أنسابهم أو في أعمالهم، وما هم عليه وما إلى ذلك، هنا هذا الوعيد **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}** ابن جرير كعادته يقول: إن الويل المقصود به الوادي في جهنم، وبعضهم يقول: هي كلمة وعيد **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}**، فالله -تبارك وتعالى- توعد هذا النوع من الناس كثير الهمز، كثير اللمز، كثير العيب للناس، ينتقصهم، ويتتبع عيوبهم، ويتتبع عثراتهم، يقع في أعراضهم، فمن كان ديدنه هذا وقُوتُه هو أعراض المسلمين لاسيما أعراض أهل الصلاح من العلماء والدعاة إلى الله -عز وجل- ومن طلبة العلم من الصالحين من العاملين في الصلاح والإصلاح، فويل له، ثم ويل، ويل لمن كان قُوتُه الهمز واللمز، بئس الزاد إلى المعاد أعراض العباد، فمثل هذا بضاعة لا تبلغ العبد ولا توصله إلى معالي الأمور لا في الدنيا ولا في الآخرة، فله المقت بكل صوره وأشكاله في الدنيا، وله الخسار في الآخرة، فهذا الذي ليس له شغل إلا الوقيعة في الأعراض فهذا ديدنه، وهذا عمله وهذا شغله، وهذا إنتاجه فهذا خسارته محققة، ويقدم على الله -تبارك وتعالى- بلا عمل صالح، بل بهذه الأوزار والأعمال السيئة، فمثل هذا يوجب الحذر، أولئك الذين لربما يفعلون ذلك تدينًا وتقربًا إلى الله -عز وجل- وهذا أقبح ما يكون، فلا يسلم منهم أحد، يلمزون أهل الإيمان، كل من عُرف بخير وصلاح وتُقى وطلب علم ونحو ذلك صار -نسأل الله العافية- شغلاً لهم، ووقعوا في عرضه، وآذوه، والله -عز وجل-، يقول: ((من عادى لي

وليًّا فقد آذنته بالحرب))[٢]، فهذا يوقع نفسه بهذا الموقف الشديد العظيم ويعرض نفسه لهذه المخاطر في بضاعة كاسدة فاسدة لا تنفع ولا ترفع، وإنما هو عمل المفاليس، فمثل هذا لا تجد له اشتغالا بعمل صالح لا قيام ليل ولا صيام نهار، ولا تقوى لله -عز وجل-، بطال في النهار، وهو جيفة في الليل، ولربما كان ما بين ذلك يقضي فيه هذه الوسائل -وسائل الاتصال- يقع في أعراض هؤلاء من الأخيار ومن المصلحين ومن الصالحين، ومن عباد الله المتقين، فبئس ما صنع، مثل هذا لا تجد له مشروعات نافعة تنفع الناس، تنفع المجتمع لا تجد عنده أعمالا جليلة، وإنما البضاعة هي الوقيعة، قلب أسود، ولسان حاد يسلق به عباد الله المتقين، فهذا ينبغي الحذر منه، هناك أناس يفتحون حسابات خاصة للوقيعة في أعراض هؤلاء، بعض هؤلاء ممن ينتسب إلى اللبراليين وغيرهم، وبعض هؤلاء يفعل هذا تديناً وهم مشتركون بهذا الوصف القبيح -نسأل الله العافية للجميع-، وانظر كلام ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- هنا: هو المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع، المغري بين الإخوان، لا يسلم أحد، الوقيعة في أعراض الجميع، وهذا من أعظم ما يكيد به الشيطان لبعض بني آدم، والله المستعان.

وقوله: {الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [سورة المعارج:١٨] قاله السدي، وابن جرير.

{الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} هذه القراءة المتواترة التي نقرأ بها وهي قراءة الجمهور، وفي قراءة أخرى متواترة لابن عامر وحمزة والكسائي {الَّذِي جَمَّعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} ونحن نعرف أن التشديد للتكثير، وأن زيادة المبنى لزيادة المعنى {الَّذِي جَمَّعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} جمّعه وعدده لماذا؟ هنا قال: **جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} قاله السدي، وابن جرير**، يعني جمعه ولم يؤدِّ حق الله فيه، لم يخرج حق الله من هذا المال، فهو لشدة حرصه على هذا المال مشغول بعدّه، فيحصيه يعده حيناً بعد حيناً، عدّده فهذا يدل على الكثرة، فهو لخوفه على هذا المال لحرصه على هذا المال ألا يضيع منه شيء يعدده، وبعضهم يقول: إن المقصود بتعديده أنه يكثر من ذكره بحضرة الناس، يكثر من تعديده، وبعضهم كالضحاك يقول: أعده لمن يرثه، وبعضهم كالسدي يقول: أحصى عدده، وهو الذي عليه الأكثر وهو لا يخالف قول من قال: عدده مرة بعد مرة، فإنه إنما يحصيه لهذا، والمادة بهذا اللفظ تدل على التكثير كما سبق، وبعضهم يقول: عدده لنوائب الدهر، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد بذلك عدده أي: أكثر من عده، وهذا يدل على حرصه وشحه ألا يضيع منه شيء، والله المستعان.

{الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} هذه صفة مذمومة، الحرص على جمع المال، ألا يؤدي حق الله -تبارك وتعالى- فيه.

وقال محمد بن كعب في قوله: {جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم (٦٥٠٢).

وقوله: {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، {كَلا} أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب.

يعني "كلا" هذه هنا للردع والزجر، ليس الأمر كما توهم، هو يظن أن هذا المال يخلده، يعني أنه يبقيه في هذه الحياة، وبعض أهل العلم يقول: هذا فيه تعريض بالعمل الصالح، بمعنى أنه الذي يبقى ويخلد له بسببه الذكر الجميل {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ}.

ثم قال تعالى: {لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ} أي: ليُلقَينّ هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة، وهي اسم صفة من أسماء النار.

{كَلا لَيُنْبَذَنَّ} هذا جواب قسم محذوف أي والله لينبذن، وهذه القراءة الوحيدة المتواترة، لكن ما الذي ينبذ هل هو الشخص صاحب المال أو المقصود هذا المال الذي فرح به وعدده وتعب في جمعه وإحصائه وحفظه والاحتراز له وحياطته؟

في قراءة غير متواترة: {لَيُنبذانِّ في الحطمة} يعني المال وصاحب المال، وفي قراءة أخرى: {لَيُنبذُنّ في الحطمة} على سبيل الجمع، يعني هو ومن على شاكلته، من كانوا بهذه الصفة، وفي قراءة أخرى: {لَنَنبِذنّه في الحطمة} وهذه القراءة تصلح أن تكون مفسرة للقراءة المتواترة هنا، وهي قوله: {كَلا لَيُنْبَذَنَّ} ما الذي ينبذ هو أو المال؟ القراءة الأخرى تفسرها { لَنَنبِذنّه في الحطمة} يعني صاحب هذا المال، والحطمة هي النار، قيل لها ذلك؛ لأنها تحطم ما يلقى فيها.

ولهذا قال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأفْئِدَةِ} قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي.

بلغ منهم العذاب، يعني أنه وصلت إلى أفئدتهم، يعني الحروق المعروفة في الدنيا حروق من الدرجة الأولى، حروق من الدرجة الثانية، حروق من الدرجة الثالثة -نسأل الله العافية-، هذه أبلغ من هذا كله، الإحراق يصل إلى الفؤاد، يصل إلى القلب، فهنا يبكي يقول: بلغ منهم العذاب يعني وصلت النار إلى قلوبهم.

وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حَذْوَ حلقه ترجع على جسده.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: {تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ} يعني أن ألمها ووهجها يصل إلى الأفئدة، وهذا بمعنى قول ثابت البناني، يعني يخلص حرها إلى القلوب لا تكون فقط تحرق الجلود، وإنما تصل إلى قلبه فيعلو تلك القلوب لهبُ النار فتحترق به، وهذا قول الأكثر، وهو ظاهر أو ما قد يفهم من ظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إنما خصت الأفئدة بهذا -لأنها تطلع على الأفئدة- مع أنها تحرق الأجسام بكاملها وليس فقط الأفئدة، بعضهم يقول: لكون الأفئدة هي محل العقائد الفاسدة التي أوقعت هؤلاء وأشغلت جوارحهم وأبدانهم بمساخط الله -تبارك وتعالى-، أو باعتبار أن النار إذا وصلت إلى هذه المواضع -وصلت إلى القلوب- فإن الموت المحقق هو الذي ينتظر صاحبها، يعني أنه بلغ بالاحتراق غايته، ولكنه في حال لا يموت ولا يحيا، يعني وصل إلى حال شديدة عظيمة من العذاب، وبعضهم يقول: تطّلع على الأفئدة من الاطلاع بمعنى المعرفة، أنها تعرف قدر ما يستحقه كل واحد من هؤلاء بما أطلعها الله -عز وجل- عليه،

والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، ولكن المشهور كما سبق: "تطلع على الأفئدة" أن حرها ولهبها يصل إلى الأفئدة.

وقوله: {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ} أي: مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد.

{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ} قال عطية العوفي: عَمد من حديد، وقال السُّدِّي: من نار.

وقال العوفي عن ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب.

آخر تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة.

يعني أن هذه النار -أعاذنا الله وإياكم وإخواننا المسلمين منها- لشدة حرها تصل إلى الأفئدة، وهم فيها لا يستطيعون الخروج، فهي عليهم مؤصدة، مغلقة الأبواب لا يستطيعون التحول عنها والفرار، والإنسان لو أنه تصور هذا المعنى لاستشعر بعض ما تحته، يعني الإنسان لو كان في مكان مغلق في غرفة أو نحو ذلك واشتعلت فيها النار وهو لا يستطيع الخروج فإنه يكون في حال من الكرب لا يقادر قدره، السيارة إذا احترقت -نسأل الله العافية- أنتم تعرفون أن الغرف والسيارات ونحو ذلك من الأماكن المغلقة حينما تشتعل النار مباشرة يحترق الأكسجين ثم بعد ذلك ينسحب الهواء بطريقة في غاية السرعة، ثم بعد ذلك لا ينفتح الباب ما ينفتح باب الغرفة، ما ينفتح باب السيارة فتجد أن صاحبها وهو حي أمامك ليس به بأس يحاول أن يفتح الباب ما يستطيع، الناس يحاولون يجتمعون على الباب لفتحه لا يستطيعون، وهكذا تجد الإنسان يحاول أن يفتح باب شقته أو باب غرفته أو نحو ذلك التي اشتعلت فيها النار ولا يستطيع، فيبقى الناس يتفرجون على هذا في سيارته وهو يحترق أمامهم، إذا كانت النوافذ مغلقة فاحترقت السيارة ما يستطيع أن يخرج منها إذا وصلت النار إلى الداخل، ثم بعد ذلك يحترق أمامهم حتى يتفحم وهم يتفرجون عليه لا يستطيعون أن يفعلوا له شيئًا، وهذا شيء مشاهد ويتكرر، نسأل الله العافية.

وهذه النار مغلقة عليهم، تصوَّرْ نار الدنيا هذه البسيطة التي لحظات ويموت وينتهي ما يشعر بألم ولا يشعر بشيء، هناك لا يموت، ومغلقة عليه لا يستطيع الخروج هذا شيء هائل، لو ما وصلت إليه النار في غرفته فقيل له: البيت احترق، أخبره أولاده، أخبره أهله، طرقوا عليه الباب فأراد فتح الباب مع الارتباك والعجلة انكسر المفتاح في الباب، هذا حصل، انكسر وهو في الغرفة، والناس -أهله أولاده- يقولون: البيت يحترق وهو لا يشعر هو في الغرفة إنما سمع استغاثتهم فأراد أن يفتح الباب الذي كان مغلقًا فانكسر المفتاح، فبقي في حال يرثى لها، والنار ما وصلت إليه، ولم يشعر بشيء من هذا أصلاً، فكيف لو كانت النار أمامه وتصل إليه شيئًا بعد شيء؟!، **{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** "في عمد ممددة" يتعلق بما قبله كما هو معلوم لكن تقديره من جهة الإعراب يتضح به المعنى، والمعنى والإعراب بينهما ملازمة كما نعلم، فهنا "في عمد ممددة" يحتمل أن يكون ذلك في محل نصب على الحال من الضمير الهاء **{عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}**، يعني كائنين في عمد ممددة، كيف يكونون في عمد ممددة؟، الله أعلم، العَمد: العرب تقول العَمد للشيء المستطيل سواء كان من خشب أو من حديد أو غير ذلك، يعني "في عمد ممددة" هل هم يوثقون بهذه العمد، فيكون أشد في إيلامهم وتعذيبهم، أو أنهم يوثقون بعمد توصد بها أيضاً هذه الأبواب، عمد طويلة فلا

سبيل إلى فتحها ولا سبيل لهم أيضًا إلى محاولة فتح هذه الأبواب، أو أنهم يكونون في داخل هذه العمد كما يقوله بعض السلف؟، يعني مثل الآن لو أردنا أن نقرب المعنى والفرق متحقق لكن لو قلنا: إن هذه العمد بمنزلة الأنابيب فهم يدخلون فيها وتضطرم نارًا عليهم، فهذا أشد في الإحراق والعذاب، أو أن هذه العمد توصد بها الأبواب، لاحظ هنا إذا قلنا: إن قوله: **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** في محل نصب على الحال من الضمير "الهاء" أي: كائنين هم في عمد ممددة، **{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** حال كونهم في عمد ممددة، سواء قلنا: إنهم يوثقون بها، يربطون بها، أو –نسأل الله العافية– في داخلها، ويحتمل أنه في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}**، يعني هم في عمد ممددة، ويرِد فيه المعنى السابق: أي موثقون بها، أو في أجوافها، في داخلها، ويحتمل أن يكون صفة لمؤصدة، فهذا يرجع إلى النار وإلى أبوابها، يعني أنها مؤصدة بماذا؟، من شدة إحكام الإغلاق **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** لا ينفتح الباب ولا سبيل إلى فتحه؛ لأن دون ذلك العمد الممتدة فلا يتوصلون إلى فتحها ولا يمكن أن تفتح أبوابها فيخرجون منها، فهي مؤصدة بعمد ممددة كما يقوله مقاتل، يقول: أطبقت عليهم الأبواب ثم شدت بأوتاد من حديد فلا تفتح، ولا يصل إليهم شيء من روح فيكون ذلك سببًا لتخفيف العذاب عنهم.

إذًا "في عمد ممددة" عمد طويلة ممتدة وهذه أقوى وأثبت وأرسخ من القصيرة، وبعضهم يقول غير هذا؛ لأن العمد الممددة المقصود بها السلاسل أو القيود أو الأغلال التي يغلون بها، ابن جرير –رحمه الله– ذهب إلى ما قاله قتادة، يعني: أنهم في عمد يعذبون بها، ولكن ابن جرير –رحمه الله– يقول: فالله أعلم كيف يكون ذلك، يعني بمعنى هل يكونون في داخلها، أو أنهم يربطون فيها، ما صفة هذا الربط؟، يعني كما يقول بعض السلف: إنه يوثق بهذه العمد وتُشد يداه إلى عنقه بالأغلال، ومربوط بهذه العمد، يعني أن ذلك أبلغ، فهم في النار في السجن، ثم بعد ذلك يكون الواحد منهم موثقًا بعمود ولا يستطيع أن يحرك يدًا، ويكون رأسه مشدودًا إلى يديه، ويداه مشدودتان إلى رأسه، –والله المستعان–.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفيل

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} [سورة الفيل].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ، وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ، وَأَرْغَمَ أنوفهم، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بِشَرِّ خَيْبَةٍ، وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانُ حَالِ الْقَدَرِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلَى الْحَبَشَةِ لخيرتكم عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقبل الشروع في الكلام على سورة الفيل أُذكِّر بما مضى من الكلام على السورة التي قبلها من قوله تعالى: **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}** [الهمزة:1]، وكنت بحثت في كتاب المقاييس في اللغة لابن فارس لنرى ماذا يقول في الهمزة واللمزة، هو يرى أن هذه المادة: الهاء والميم والزاي: أنها كلمة تدل على ضغط وعصر، كما سبق، فالهمز تدل على ضغط وعصر، يعني: كأن ذلك يكون بالفعل، مع أنه قال بعد ذلك: والهمّاز: العياب، وقال عن اللمز: إن اللام والميم والزاي كلمة واحدة، وهي: اللمز، وهو: العيب، وإن الرجل اللمّاز واللمزة هو: العياب، فجعلهما بمعنى واحد بهذا الاعتبار، لكن الأصل الذي ذكره الأول، وهو: الهمز، جعله يرجع إلى معنى واحد، وهو: الضغط والعصر، وعلى هذا يتفق مع قول من قال: إن الهمز هو العيب بالفعل، وإن اللمز هو العيب بالقول.

سورة الفيل، ويقال لها: سورة ألم ترَ، هذه السورة مكية بالاتفاق، وتتحدث عن موضوع واحد، وهو: قصة أصحاب الفيل.

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ: قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاسٍ، وَكَانَ آخِرَ مُلُوكِ حِمْيَرَ، وَكَانَ مشركًا هو الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا

مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْسٌ ذُو ثَعْلَبَانِ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ؛ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ.

يعني: هنا جعل أبرهة وأبا يكسوم شخصًا واحدًا، مع أن بعضهم يقول: إن أبا يكسوم ليس هو أبرهة، فجعلوا أبا يكسوم من خاصة ملك الحبشة، يعني: كأنه من وزرائه، وأنه غير أبرهة، ومثل هذه الأشياء في التاريخ تجدون فيها اختلافًا كثيرًا، في الأسماء، وفي الأحداث أيضًا ، وقد مضى الكلام على شيء من ذلك في سورة البروج.

فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيقًا فِي الْبَحْرِ، وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اصْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنِ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وَخَلْف كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاةٌ، فَحَمَلَ أَرِيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتَوْدَةُ مَوْلَى أَبَرْهَةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبَرْهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ، وَيَحْلِفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجزَّنَّ نَاصِيَتَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبَرْهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ، وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيه مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأْ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبَرّ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ، فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ.

يعني: هو يطلب منه ذلك، ويدعوه، فاللام لام الأمر في "ليطأ الملك".

وَأَرْسَلَ أَبَرْهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا، فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةَ الْبِنَاءِ، عَالِيَةَ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةَ الْأَرْجَاءِ، سَمَّتْهَا الْعَرَبُ: الْقُلَّيْسَ؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا، وَعَزَمَ أَبَرْهَةُ الْأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحَجُّ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا، فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الحدث رفعوا أمره إِلَى مَلِكِهِمْ أَبَرْهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبَرْهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

يعني: هكذا ذُكِر، وقيل: غير ذلك.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَّجُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ، فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك، وسار فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَمٍ؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ.

وبعضهم يقول: إن الحريق الذي حصل من قبل هؤلاء الفتية لم يكن المقصود به هذه الكنيسة، وإنما كان هؤلاء في تجارة، فأوقدوا نارًا من أجل حاجتهم، فكان يومًا شديد الريح، فتطاير من هذه النار ما كان سببًا لإحراق هذه الكنيسة، يعني: أن ذلك لم يكن عن قصد، والله أعلم.

وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ، وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ، وَقِيلَ: اثنا عشر فيلا غيره، فالله أَعْلَمُ.

وقيل: أكثر من هذا بكثير.

ومثل هذا ليس فيه شيء يصح، فالله أعلم، يعني: حتى عام الفيل متى كان؟ بعضهم يقول: قبل مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- بأربعين سنة، وبعضهم يقول دون ذلك، فالله أعلم، لكن المشهور: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولد عام الفيل، يعني: مثل هذه التفاصيل لا تؤثر في ثبوت ذلك؛ لأن الله أثبته، وأخبر به في هذه السورة المستقلة بهذا الخبر، فتبقى بعض التفاصيل لم تثبت، مثال ذلك: كم كان عدد الأفيال، وما هو سبب مجيء هؤلاء -أعني: الحبشة- والباعث لهم على هذا المجيء؟.

يَعْنِي: لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ؛ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ.

يعني: يدافعون عنه، وأبرهة ليس بحاجة إلى أن يأتي بفيل عظيم أو بهذه الأفيال الكثيرة لأجل أن يهدم البيت، لكن أراد أن يأتي بجيش يخافه الناس، ولا يجترئ أحد على مدافعته، حتى قالوا: إنه أراد أن ينقل حجر الكعبة؛ ليبني به بيتًا هناك في اليمن، فالله أعلم.

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَدُّ من أراده بكيد، فخرج إليه رجل مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ: ذُو نَفْرٍ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبَرْهَةَ وَجِهَادِهِ عَنْ بيت الله وما يريده مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ، فَأَجَابُوهُ، وَقَاتَلُوا أَبَرْهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ -عز وجل- مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَأُسِرَ ذُو نَفْرٍ، فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ، ثُمَّ مَضَى لِوَجْهِهِ.

يقال: إنه طلب من أبرهة أن يستبقيه، وألا يقتله، وأن إبقاءه خير له من قتله، فأبقاه.

حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي فِي قَوْمِهِ: شَهْرَان وَنَاهِس، فَقَاتَلُوهُ.

يعني: قبيلة خثعم المعروفة، وشهران القبيلة المعروفة أيضاً، وهي من القبائل المتفرعة عن خثعم، وكذلك ناهس أيضًا هي من القبائل المتفرعة عن خثعم، وبعض أهل الأنساب يقولون: ناهس من قبائل شهران، أي: أنها تتفرع عن شهران، ومن ثَمَّ فهم متفقون على أن هؤلاء جميعًا يرجعون إلى خثعم، وهذا معروف، وقبيلة شهران هي المعروفة اليوم.

فَهَزَمَهُمْ أَبَرْهَةُ، وَأُسِرَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ، ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ؛ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ.

ويقال أيضًا: إن نفيلا طلب من أبرهة أن يستبقيه، وأغراه بذلك؛ لكونه يعرف الطرق في الحجاز الموصلة إلى مكة، أي: يعرف أسهل الطرق، فأبقاه لهذا.

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا: ثَقِيفٌ، وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِمْ الَّذِي عِنْدَهُمْ الَّذِي يُسَمُّونَهُ: اللَّاتَ، فَأَكْرَمَهُمْ، وَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رُغَالٍ دَلِيلًا، فَلَمَّا انْتَهَى أَبَرْهَةُ إِلَى الْمُغَمَّسِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ نَزَلَ بِهِ، وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا فَأَخَذُوهُ، وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبَرْهَةَ أَمِير الْمُقَدِّمَةِ، وَكَانَ يقال له: الأسود بن مقصود، فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَبَعَثَ أَبَرْهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ،

وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَجَاءَ حُنَاطَةُ، فَدُلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يخلِّ بينه وبينه فوالله مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ، فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلا جسيمًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى الْبِسَاطِ، وَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: ما حَاجَتُكَ؟

يقولون: جلس معه على البساط: لم يقصد بذلك التواضع، وإنما كره أن يجلسه معه على السرير، فتركه يجلس على الأرض، ثم جلس معه إكرامًا له.

فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ، قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَى أَبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ، فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، والتحصن في رءوس الْجِبَالِ؛ تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لاهُمَّ إنّ المرءَ يمنعُ * رحلَه فامنع رحالَك**

لا يغلبنّ صليبُهم * ومِحالُهم أبدًا مِحَالَك**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال، وذكر مقاتل بن سلمان: أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ لَعَلَّ بَعْض الْجَيْشِ يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حق فينتقم الله منهم، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ وَهَيَّأَ فِيلَهُ، وَكَانَ اسْمُهُ: مَحْمُودًا، وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ، وَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ، أو ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ، وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أصْعدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفِيلَ؛ لِيَقُومَ فَأَبَى، فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بالطبرزين.

يعني: آلة حديدية مثل الفأس.

وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بِهَا؛ لِيَقُومَ، فَأَبَى.

يعني: صاروا ينخسونه حتى أدموه بهذه المحاجن، والمحجن معروف: عصا لها طرف معكوف.

قوله هنا: إن هذا الفيل برك، والفيل معروف أنه لا يبرك، وإنما البروك يكون للبعير، ولكن المقصود: أنه فَعَل فِعْل البعير من جهة أنه حرن ولزم الأرض بأي صفة كانت.

فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَالْبَلَسَانِ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمُّصِ والعدس، ولا يصيب مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ؛ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيق، هَذَا وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نفيل يقول:

أين المفرُّ والإلهُ الطالبُ *** والأشرمُ المغلوبُ ليس الْغَالبُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذلك أيضا:

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا *** نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الإصباح عينا
رُدينةُ لَوْ رَأَيْتِ وَلَا تَرَيْهِ *** لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذًا لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي *** وَلَمْ تأسِ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا *** وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلُّ القومِ تسأل عَنْ نُفَيْلٍ *** كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

قوله: "ألا حُييتِ عنا يا ردينا"، ردينا يعني: اسم امرأة؛ لأنه من تصغير ردنة، يعني: قطعة من الحرير.

قوله: "نعمناكم مع الإصباح عيناً"، يعني: نعمنا عيناً بكم.

والتفاصيل في الأخبار في صفة هذه الطير، وفي صفة الحجارة التي كانت معها هي أخبار كثيرة غير متفقة، لكن يكفي أن الله -تبارك وتعالى- قال: **{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}** [الفيل:٣]، وما وصف هذه الطير من جهة الهيئة، أو من جهة صورتها، وإنما ذكر تتابعها، وهكذا فيما يذكرونه من قصة الذي خرج معهم من الطائف، وأنه أبو رغال، وأبو رغال بعضهم يقول: هذا مولى، وبعضهم يقول: هو أصلاً ملك من ملوك ثقيف، وبعضهم يقول غير ذلك، فانظر إلى هذا الاختلاف: مولى وملك، وبعضهم يقول: هو الذي خرج معهم، وبعضهم يذكر أنه رجل خرج قبل مدة طويلة سابقة لخبر الفيل.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وهم هاربون.

يعني: أيضًا ما صحة هذه التفاصيل؟ وما أثر هذه الحجارة عليهم؟ الله يقول: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}**، فما صفة موت هؤلاء؟ وماذا كانت تفعل فيهم هذه الحجارة؟ بعضهم يقول: إنها كانت تدخل من رأسه وتخرج من دبره، وكذلك أيضًا بعضهم يقول: لا، ولكنها كانت تصيبه، فيبدأ جسده بالتسلخ، فيتمزق هذ الجسد، ويسقط عضوًا عضوًا، وبعضهم يقول: يصيبه الجدري، أو ما يشبه الجدري، إلى غير ذلك من الأقوال، وأسوأ من هذا كله -يعني: مما لم يثبت فيه شيء على هذا الاختلاف الكثير بين هذه الأقاويل- قول بعض أصحاب المدرسة العقلية في التفسير، كمحمد عبده، ورشيد رضا، قالوا: إن هذه الطير هي البعوض، قالوا: من أجل التقريب للغرب، والعالم المادي؛ إذ لا يؤمنون بالغيب، فقالوا: لعلها بعوض يأخذ من الطين الذي في المستنقعات، فأصابتهم الملاريا، فماتوا بسبب الملاريا، فقالوا: الطير الأبابيل هي: البعوض -والله المستعان- من أجل أن الغرب يقتنعون، ويقبلون.

وكان أبرهة ممن تساقط عضوا عضوا حتى مات ببلاد خثعم.

وقال ابْنُ إسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلَكُونَ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ، وَأُصِيبَ أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ.

انظر: قال هنا: "حتى قدموا به صنعاء"، وهناك يقول: "قدموا خثعم".

قال: وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

هكذا قالوا، مع أن ظاهر القرآن: أن الله أهلكهم في موقعهم، قال الله تعالى: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}** [الفيل:٥]، فهذا يصور الحالة التي آلوا إليها في ذلك الحين لما جاءتهم هذه الطير الأبابيل.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- كَانَ فِيمَا يَعُدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ مَا رَدَّ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الْحَبَشَةِ؛ لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدَّتِهِمْ، فَقَالَ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} [الفيل:١-٥]... **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش:١-٤]، **أَيْ: لِئَلَّا يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؛ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ.**

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْأَبَابِيلُ الْجَمَاعَاتُ، وَلَمْ تَتَكَلَّمُ الْعَرَبُ بِوَاحِدِه.

يعني: هذا فيه اختلاف: هل الأبابيل له واحد، أي: له مفرد أو لا؟

قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}**، هنا بمعنى: ألم يبلغك، وألم تعلم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرَ ذلك، سواء قلنا: إنه ولد -عليه الصلاة والسلام- عام الفيل، أو إن حادثة الفيل كانت قبل هذا، وبالمناسبة مثل هذا الخبر لا يعد سببًا لنزول سورة الفيل، يعني: قصة أصحاب الفيل، وما وقع من مجيء أبرهة ومن معه ليس هو السبب لنزول هذه السورة، فإن ذكر الوقائع التاريخية في القرآن إنما هو من قبيل القصص والأخبار، وأما سبب النزول فإنه -كما مضى في بعض المناسبات-: ما نزلت الآية أو الآيات محدثة عنه أيام وقوعه، سواء كان واقعة أو سؤالا، فهذا ليس مما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه، وإنما نزلت بعد مدة طويلة، فهو من جملة الأخبار والقصص في القرآن.

قال: **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}** قوله: **{فِي تَضْلِيلٍ}** يعني: في ذهاب وضياع، وهذا الكيد الذي جاءوا من أجله هو: هدم الكعبة، ولم يحصّلوا ما طلبوا، وإنما وقع لهم ما لم يحتسبوا.

قوله: **{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}** يقول: "**قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات**".

قَالَ: وَأَمَّا السِّجِّيلُ فَأَخْبَرَنِي يُونُسُ النَّحْوِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الشَّدِيدُ الصُّلْبُ، قَالَ: وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَعَلَتْهُمَا الْعَرَبُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ سَنْجُ وَجِلٌّ.

وبعضهم يقول: بالكاف "سِنك"، وبالكاف "كِل"، -والله أعلم-، وبالأعجمية الكاف والجيم متقاربان: سنك أو سنج، ولربما ينطق بهذا عن هذا، وكذلك الجيم والكاف في الثانية: كِل أو جِل.

قال: يَعْنِي: بِالسَّنْجِ: الْحَجَرَ، وَالْجِل: الطِّينُ.

هذه دعوى، ومضى الكلام على المعرَّب هل هو موجود في القرآن أو لا، وذكرت حينها الكلام في الأنواع الثلاثة، وأن الخلاف إنما هو في نوع واحد منها، وهو: المُنكَّر، ومثل ابن جرير -رحمه الله- لا يثبت ذلك، والعلماء منهم من يقول: إن القرآن نزل **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}** [الشعراء:١٩٥]، وإن لغة العرب أولى به، فيكون أولئك هم الذين أخذوه من لغة العرب، أو مما توافقت به اللغات، وبعضهم يقول غير ذلك، والله أعلم.

يَقُولُ: الْحِجَارَةُ مِنْ هَذَيْنَ الْجِنْسَيْنِ: الْحَجَرِ وَالطِّينِ.

هذه دعوى، وبعضهم لا يثبت هذا، يقول: أصلها عربية؛ ولهذا ذهب بعض أصحاب المعاني كالزجاج إلى أنها مشتقة من السِّجِل، يعني: مما كتب عليهم العذاب به، أي: السجل، حتى إن بعضهم يقول: كل حجر مكتوب عليه اسم من أرسل إليه، هكذا قالوا، وذكروا في صفة هذه الأحجار: أنها سوداء فيها خطوط حمراء، أو نحو ذلك، وكل هذا لا يثبت، وبعضهم يقول: **{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}** يعني: من طين، مطبوخة في نار جهنم عليها أسماء هؤلاء القوم، قال تعالى: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}** [المطففين:٧]، فبعضهم يقول: تتناوب الحروف في مثل هذا عند العرب، وبعضهم يقول: **{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}** يعني: من السماء، وهي: النازلة على قوم لوط، فقوم لوط ماذا قال الله -عز وجل- في حقهم؟ قال: **{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ}** [هود:٨٢]، وفي الآية الأخرى قال: **{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ}** [الذاريات: ٣٣]، فهذا تفسير للسجيل بالطين، وهو من تفسير القرآن بالقرآن، وهو من أوضح ما يكون، فتكون حجارة من طين بهذا الاعتبار، فهذا الذي دل عليه القرآن، وبعضهم يقول: حجارة من جهنم، وأنها هي سجين بالنون، وسجيل وسجين شيء واحد، أي: أن النون أبدلت لامًا، والله أعلم.

قَالَ: وَالْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الَّذِي لَمْ يُقْضَبُ، وَاحِدَتُهُ عَصْفَةٌ، انْتَهَى ما ذكره.

قال سبحانه: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}**، وليس كعصف فقط، بل **{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}**، ما المراد بالعصف؟ عبارات المفسرين وقبلهم أيضًا أهل اللغة متفاوتة في تفسيره، فابن فارس -رحمه الله- يُرجع أصل هذه المادة إلى الخفة والسرعة، والذي يعنينا منها هنا هو: الخفة، أما السرعة فمثل: العواصف والرياح، يعني: ذات الهبوب الشديد، وذكر ابن فارس أن العصف يقال لما على الحب من القشور، فهي خفيفة تتطاير، ومثل -أكرمكم الله- التبن، فهو خفيف؛ ولهذا فسر به، وهكذا ما على ساق الزرع من الورق، فذلك كله إذا صار يابسًا متفتتًا يقال له: العصف، وبعضهم عممه كابن الأعرابي، فقال: ورق كل نابت يقال له: العصف، وبعضهم يقول: هي القشور التي تكون على الحب أو على السنبل أو نحو ذلك، فإذا أكل هذا الحب بقيت هذه البقايا الخفيفة التي تتطاير لا شأن لها ولا قيمة.

وقوله تعالى: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}** كما قال الله -عز وجل-: **{فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً}** [المؤمنون:٤١]، فهكذا شأن هؤلاء الذين ينزل بهم بأس الله ونقمته يصيرون بهذه المثابة، والغثاء هو: الشيء المشابه لهذا من ناحية الخفة والضعف، مثل الذي يطفو على الماء أي: الذي يحمله الماء، قال تعالى: **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}** [الرعد:١٧] فالغثاء مثل الذي يكون من الزبد، والأوراق التي يحملها الماء، ونحو ذلك مما يطفو عليه، فكذلك هذا العصف هو هذه الأوراق الخفيفة التي تسقط من النبات، أو قشور الحب، أو نحو هذا، يعني: جعلهم بهذه المثابة، وهذه الأمور قد لا يتصورها الإنسان حتى يرى شيئًا من ذلك،

–نسأل الله العافية–، يعني: كما في قوله –تبارك وتعالى– عن عاد، شبّههم وصوّرهم بعد إهلاكهم بأعجاز النخل الخاوية: **{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** [الحاقة:٧]، وأعجاز النخل يعني: أصول النخل، فإذا رأيت النخل قد تساقط وصار في حال من اليبس فإن ذلك يصور لك تلك الحال؛ لضخامة أجسام هؤلاء، كذلك أيضًا هنا العصف فحينما ترى مثلاً مثل هذا الذي رأيناه في تسونامي، فترى الناس وبيوتهم والمدينة تحولوا إلى قش، تختلط فيه قطع الأخشاب، وتختلط فيه جثث الموتى، فتطفو على الماء ونحو ذلك، فكأنها غثاء، كأنها مثل الشيء الخفيف الذي يطفو على الماء، فهؤلاء الذين لربما يكون الواحد منهم يشعر بالقوة والتمكين ونحو ذلك يأتي عليهم هذا الماء فيحملهم ويحمل سياراتهم، بل ويحمل السفن التي في البحر، ويجعلها فوق بيوتهم، فتكون هذه الأشياء جميعًا يجري بها الماء كأنها القش، فتختلط تلك الجثث مع تلك القطع من الأخشاب، وتطفو على الماء، ويذهب بها هنا وهناك مع مراكبهم وسياراتهم وكل شيء، والله المستعان.

فهم جاءوا بهذه الأفيال، وبهذه القوة الهائلة، ثم تحولوا إلى هذه الحالة: كالعصف المأكول، والله –عز وجل– يقول: **{وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}** [الرحمن:١٢]، فهذه قشور الحب خفيفة تتطاير.

وَقَدْ قَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ –عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ– وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: {طَيْرًا أَبَابِيلَ} قَالَ: الْفِرَقُ.

يعني: هذا كما قال ابن هشام أولاً: الأبابيل: الجماعات، هذا قال: الفِرَق، يعني: الجماعات.

قال: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: أَبَابِيلُ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

يعني: جماعات متتابعة، يعني: هذا قيده بقيد هنا، أي: ليس مطلق الجماعات، وإنما جماعات يتبع بعضها بعضًا.

قال: وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: الْأَبَابِيلُ: الْكَثِيرَةُ.

وانظر أيضاً: هنا قيد آخر، وهو: الكثرة.

قال: وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَبَابِيلُ: شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ.

يعني: هنا ليس فيه اختلاف، أي: في قول مجاهد: "**أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة**"، بمعنى: أنها تأتي متتابعة، مجموعات يتلوها مجموعات من هذه الطير، فكل مجموعة مجتمعة، وتجتمع أيضًا فوق هؤلاء، فترميهم بهذه الأحجار.

قال: وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَبَابِيلُ: الْمُخْتَلِفَةُ، تَأْتِي مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

انظر إلى هذا: فإن فيه قيدًا ثالثًا، يعني الآن صار عندنا: أنها مجتمعة، وصار عندنا: أنها متتابعة، وهنا: تأتي من أنحاء مختلفة، هذا كله ليس بينه اختلاف حقيقي، وإنما ذلك يمكن أن يكون من صفة مجيئها، والله أعلم.

قال: وَقَالَ الكسائي: سَمِعْتُ بَعْضَ النَّحْوِيِّينَ يَقُولُ: وَاحِدُ الْأَبَابِيلِ إِبِّيل.

هذا أحد الأقوال، فقد سبق أن ابن هشام قال: ولم تتكلم العرب بواحده، يعني: ما له مفرد، وهذا كما سبق ليس محل اتفاق، والذين قالوا: له مفرد اختلفوا فيه، فالكسائي يذكر هذا، وبعضهم يذكر غير ذلك.

النحاس يقول في الأبابيل: حقيقتها أنها جماعات عظام، جماعات كبيرة عظيمة من هذه الطيور، وابن جرير جمع بين هذه الأقوال، فعبر عن ذلك بعبارة تنتظم ما سبق، فقال: "متفرقة، يتبع بعضها بعضًا من نواحٍ شتي"، يعني: مجموعات متفرقة متتابعة، تأتيهم من أكثر من ناحية.

فهذا بناء على أنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، وهؤلاء جميعًا هم من أهل اللغة، ومن ثَمَّ فهذه الأقاويل وهذا التفسير للأبابيل إنما فهموه من لغتهم، فدل على أن هذه المعاني صحيحة، فابن جرير على عادته أنه يحمل ذلك على هذه المعاني جميعًا؛ لأنه لم يرد ما يدل على إرادة واحد منها.

قال: وروى ابن جرير: عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}: هِيَ: الْأَقَاطِيعُ، كَالْإِبِلِ الْمُؤَبَّلَةِ.

وعَنْ ابْنِ عباس: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} قال: لهم خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب.

وعن عكرمة في قوله تعالى: {طَيْرًا أَبَابِيلَ} قال: كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع.

وعن عبيد بن عمير في قوله: {طَيْرًا أَبَابِيلَ} قال: هي طيور سود بحرية، في مناقيرها وأظافرها الحجارة، وهذه أسانيد صحيحة.

لكن انظر إلى الاختلاف فيها، فبعضهم يقول كما جاء عن عكرمة: كانت طيرًا خضرًا، خرجت من البحر، وهنا قال: إنها سود.

قال: وعن عبيد بن عمير قال: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُهْلِكَ أَصْحَابَ الْفِيلِ بَعَثَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أُنْشِئَتْ مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ، كُلُّ طَيْرٍ منها يحمل ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ مُجَزَّعَةٍ حَجَرَيْنِ فِي رِجْلَيْهِ وَحَجَرًا فِي مِنْقَارِهِ.

ومعنى مُجزَّعة يعني: مقطعة، ومجزأة.

قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى صُفَّتْ عَلَى رءوسهم، ثُمَّ صَاحَتْ وَأَلْقَتْ مَا فِي أَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرِهَا، فَمَا يَقَعُ حَجَرٌ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ، وَلَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ من جسده إلا خرج مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا شَدِيدَةً فَضَرَبَتِ الْحِجَارَةَ فَزَادَتْهَا شِدَّةً، فَأُهْلِكُوا جَمِيعًا.

وقوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يعني: التبن الذي تسميه العامة: "هَبّور"، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ سَعِيدٍ: وَرَقُ الْحِنْطَةِ، وَعَنْهُ أَيْضًا: الْعَصْفُ: التِّبْنُ، وَالْمَأْكُولُ: الْقَصِيلُ يُجَزُّ لِلدَّوَابِّ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ.

ومعنى القصيل يعني: ما يُقصل، وهو: ما يجز من الزرع الأخضر لعلف الدواب، فكل هذا يرجع إلى ما سبق من أنه هو: هذا الشيء الخفيف الذي يتطاير.

قال: وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: العصف: القشرة التي على الحبة كالْغُلَافِ عَلَى الْحِنْطَةِ.

وبعضهم يقول: كالزرع المأكول.

قال: وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ وَوَرَقُ الْبَقْلِ إِذَا أَكَلَتْهُ الْبَهَائِمُ فَرَاثَتْهُ فَصَارَ روثًا.

وبنحو هذا قال ابن جرير –رحمه الله–، يعني: كقول ابن زيد.

قال: وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ –سبحانه وتعالى– أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَّتَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخبِر إِلَّا وَهُوَ جَرِيحٌ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، فَإِنَّهُ انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ حِينَ وَصَلَ إِلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جَرَى لَهُمْ، ثُمَّ مَاتَ، فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ مَسْرُوقُ بْنُ أَبْرَهَةَ، ثُمَّ خَرَجَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ الحميري إلى كسرى فاستعانه عَلَى الْحَبَشَةِ، فَأَنْفَذَ مَعَهُ مِنْ جُيُوشِهِ، فَقَاتَلُوا معه، فرد الله إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ، وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَاءَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ لِلتَّهْنِئَةِ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– لَمَّا أَطَلَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ الَّتِي تَهْبِطُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ، فَزَجَرُوهَا فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، أَيْ: حَرَنَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: ((مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا))، ثُمَّ زَجَرَهَا فَقَامَتْ"[1]، وَالْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: ((إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ قَدْ عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب))[2].

آخر تفسير سورة الفيل، ولله الحمد والمنة.

---

١ – أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: (٢٧٣١).

٢ – أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم: (١٣٥٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة قريش

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ١ - ٤].

هذه سورة: لإيلاف قريش، وبعضهم سماها: لإيلاف، وهذا اختصارًا، وبعضهم سماها: قريش، وهي السورة الوحيدة التي ذكر الله فيها هذه القبيلة، وهي من السور المكية عند الجمهور، ونقل عن الضحاك والكلبي: أنها مدنية، ونقل بعضهم الإجماع على أنها سورة مستقلة بدليل نزول البسملة معها، والبسملة علامة الفصل: "ما كنا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم"، وقد ذُكر أن في مصحف أبي بن كعب -رضي الله عنه- أنها مع السورة التي قبلها وهي: سورة الفيل، أي: أنهما سورة واحدة، وثبت عن عمر -رضي الله عنه- أنه قرأ في الركعة الثانية: الفيل ولإيلاف قريش، ففهم بعضهم من ذلك أنه ربما يكون عمر -رضي الله عنه- أيضاً كان يرى أنهما سورة واحدة، ولكن الذي عليه أهل العلم ويشبه الإجماع: أنهما سورتان، والدليل نزول البسملة، ولا شك أن موضوعهما فيه مقاربة، فهناك تحدث الله -عز وجل- عن إهلاك الفيل، وامتن على قريش بذلك، وهنا ذكر منته عليهم برحلتي الشتاء والصيف، وما أنعم عليهم من كونه أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فأصحاب المناسبات، الذين يتكلمون على المناسبات بين السور، ويربطون بين سور القرآن، والذين يقولون: إن ترتيب السور توقيفي: معروف أنهم يربطون بين هذه السورة والتي قبلها بأن الله فعل ما فعل بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، أي: أن ما وقع لأصحاب الفيل إنما هو لإيلاف قريش، وسيأتي مزيد إيضاح لهذا -إن شاء الله.

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله؛ لإيلاف قريش، أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل المراد بذلك: ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس؛ لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم، بل من صُوفِيَ إليهم وسار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم، ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت:٦٧]، ولهذا قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ}.

يعني: من الكلام على قوله: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ} يتبين لك مدار الخلاف بين العلماء في تفسيرها بالنظر إلى أمرين:

الأمر الأول: وهو اللام هذه، ما موقعها؟.

والأمر الثاني: معنى الإيلاف، ما المراد به؟.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- نقل عن محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنها متعلقة بما قبلها، فإذا قلنا بأنها متعلقة بما قبلها، وبه يقول بعض أصحاب المعاني كالفراء والزجاج أيضاً، أي: أنها متعلقة بآخر السورة التي قبلها، يعني: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، فاللام تكون متعلقة بما قبلها، وعليه فهي تعليلية، فاللام للتعليل، أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، هذا معنى ما نقله عن محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال به من أصحاب المعاني -معاني القرآن- الفراء والزجاج، فتكون اللام للتعليل، يعني: لأجل إيلاف قريش، وهذا ليس محل اتفاق، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- كأنه اقتصر في كلامه على هذا، وذكر القول الآخر فقال: "**وقيل: المراد بذلك: ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام..**" إلى آخر ما ذكر.

فالمراد على الأول: فعل ذلك بأصحاب الفيل؛ لإيلاف قريش، يعني: كيف يكون معنى {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}؟ فكما سبق أننا أيضًا بحاجة إلى معرفة المراد بالإيلاف، فابن كثير -رحمه الله- ذكر هنا المعنيين فقال: "**أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين**"، فالإيلاف يعني: الائتلاف لاجتماعهم وعدم تفرقهم، قال: "**وقيل: المراد بذلك: ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء والصيف**" يعني: يكون الإيلاف من الإلف، أي: ما يألفه الإنسان ويعتاده، فيكون المعنى على هذا: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} أي: ليألفوا الخروج، ولا يجترئ عليهم أحد، ذكر نحو هذا ابن قتيبة، يعني: سواء ربطنا ذلك بالسورة التي قبلها أو جعلنا هذه السورة مستقلة غير مرتبطة، والذين قالوا بالارتباط لا يعني هذا أنهم قالوا: إنهما سورة واحدة، ليس هذا هو المراد، ولكن قالوا: باعتبار النظر إلى المناسبة بين السورة والسورة، وسبق الكلام في عدد من المناسبات: أن المناسبات بين السور غير معتبرة إذا قلنا بأن ترتيب السور غير توقيفي، وهذا هو الأقرب.

فيكون المعنى على القول بأن اللام للتعليل، وأنه يرجع إلى ما قبله من السورة السابقة، يكون المعنى: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل؛ {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، والمراد بقوله: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} على المعنيين، يعني: من أجل ائتلافهم وجمعهم، فلا يحصل لهم تفرق وتشتت وتشرذم في البلاد، يعني: لو أن أبرهة غلب على البيت وهدمه؛ لصارت هذه القبيلة كغيرها من القبائل تتفرق في البلاد، وتتطلب معايشها، والمواضع التي تأمن فيها، فهي في وادٍ غير ذي زرع، والله -عز وجل- جعل هذا البيت، جعل الكعبة البيت الحرام، جعله {قِيَامًا لِلنَّاسِ} [المائدة: ٩٧]، ومن المعاني التي ذكرناها هناك عند قوله: {قِيَامًا لِلنَّاسِ} [المائدة:٩٧]، أي: تقوم به مصالحهم ومعايشهم، ويكون أيضاً قياماً لدينهم، فعلى هذا فعلنا ذلك بأصحاب الفيل؛ {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} يعني: لجمعهم وائتلافهم، أو فعلنا ذلك بأصحاب الفيل؛ لأجل قريش أن يألفوا الخروج في رحلتي الشتاء والصيف، بأي اعتبار؟ باعتبار أن قريشاً تبقى وما قد ألفت من رحلة الشتاء والصيف، كما يقول الزجاج: فعلنا ذلك بهم؛ لتبقى قريش وما ألفت من رحلة الشتاء والصيف، فيأمنون إذا خرجوا في أسفارهم، فتعرف لهم العرب ذلك، وتعظمهم وتهابهم ولا يجترئ عليهم مجترئ، ولا يحصل لهم ما يحصل لغيرهم من قبائل العرب من المكاره والمخاوف؛ بسبب الغارات والسلب والنهب الذي كان ذائعًا شائعًا في ذلك الحين، وهذا باعتبار أن اللام هذه

للتعليل، أي: الربط بين هذه السورة والتي قبلها، فالمعنى على هذا يحتمل هذين المعنيين: أنه فعل ذلك بأصحاب الفيل؛ لجمع قريش، وإقرارهم في البيت الحرام، وائتلافهم، أو ليألفوا ما عهدوا من رحلتي الشتاء والصيف.

وبعضهم يقول: إن اللام هنا في قوله: **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}** لا ترتبط ولا ترجع إلى السورة التي قبلها، باعتبار أن هذه سورة مستقلة، وتلك سورة مستقلة، مع أن الأولين يقرون بهذا، لكن هؤلاء يقولون: لا يصح رجوعها إلى تلك السورة، وإنما ذلك يرجع إلى مذكور في السورة نفسها، أي: سورة قريش، فهؤلاء بعضهم يقول كابن عاشور، وسبقه إلى ذلك آخرون كالخليل بن أحمد، وقال به أيضاً صاحب الكشاف: إن اللام هذه متعلقة بقوله: **{فَلْيَعْبُدُوا}**، يعني: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}**؛ لأجل إيلافهم الرحلتين، سواء قلنا: الإيلاف هنا بمعنى: أن يألفوا من الإلف، أو لأجل أن الله أنعم عليهم بأن جمعهم، وألف بينهم، فصاروا مجتمعين في البيت الحرام، قد قُسمت بينهم وظائف البيت من سقاية وحجابة ورفادة وما إلى ذلك، فتكون الفاء الداخلة على قوله: **{فَلْيَعْبُدُوا}** واقعة في جواب الشرط، بناء على ما في الكلام من معنى الشرط، فيكون المعنى: إن لم يعبدوه لسائر إنعامه عليهم، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم؛ فليعبدوه لأجل هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، أي: فليعبدوه على هذه النعمة الظاهرة الجليلة التي تميزوا بها على غيرهم من العرب، فانظر كيف يكون المعنى الآن، فقوله: **{فَلْيَعْبُدُوا}** يعني: لتعبد قريش رب هذا البيت؛ لأجل أنه أنعم عليهم بهذا الإيلاف، سواء قلنا: إن معناه: الاجتماع، أو قلنا: إن معناه أنه أنعم عليهم بهاتين الرحلتين اللتين ألفوهما، وصاروا يذهبون إلى الشام واليمن آمنين مما يخافه الناس، فتكون اللام على هذا للتعليل.

ولماذا التقديم؟ أي: لماذا قدم **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}**؟ قالوا: للاهتمام به، أن هذا المطلب، هذا الإنعام، هذا الإفضال الذي تميزوا به ينبغي أن يعبدوا الله -تبارك وتعالى- شكرًا على هذه النعمة؛ **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}** [قريش:١-٣]؛ لأنه أنعم عليهم بذلك.

وبعضهم يقول: إن هذه اللام للتعجب، يعني: اعجبوا لإيلاف قريش، وبعضهم يقول: إنها بمعنى إلى، فبهذا يتضح المعنى.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: "والصواب: أن اللام لام التعجب"، وهذا سبقه إليه الكسائي والأخفش، وقال به بعض المعاصرين، يقول: "كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف"، يعني: ابن جرير يقول، وهؤلاء أيضاً يقولون في هذا: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، يعني: اعجبوا لإلفهم رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، يعني: اعجبوا لهذه النعمة التي أعطاهم الله وحباهم في الوقت الذي تركوا فيه عبادة رب هذا البيت، فابن جرير يعلل هذا القول بقاعدة، وهي: أن العرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجب، يعني: عن التصريح بالفعل الذي يجلبها، يعني: لا يحتاجون أن يقولوا: اعجبوا لإيلاف قريش، يقول: فإذا جاءوا باللام عرف المراد، ولا يحتاجون أن يأتوا بالفعل قبلها، هكذا قال، وبهذا يكون المعنى في هذه السورة بالنسبة إلى اللام: أنه يمكن أن تكون للتعليل، ويمكن أن تكون للتعجب، ويمكن أن تكون بمعنى إلى، والله أعلم.

وقوله: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} هذه قراءة الجمهور: بالياء مع الهمز {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، ومعناه: إما أن يكون بمعنى: الإلف، أو الإيلاف، الذي هو: الائتلاف والاجتماع، ونحو ذلك.

وأما قراءة ابن عامر فالأولى: همزة بدون ياء: {لِإِلَافِ قُرَيْشٍ} والثانية بالياء: {إِيلَافِهِمْ}.

وفي قراءة لأبي جعفر، وهي قراءة متواترة، لكن ليست سبعية: بياء ساكنة من غير همز: {لِيلَافِ قُرَيْشٍ}، وأما الثانية فقرأها بهمزة مكسورة من غير ياء: {إِلَافِهِمْ}.

وعليه: فإذا قرأ القارئ: {لِإِلَافِ قُرَيْشٍ * إِلَافِهِمْ}، هكذا من غير ياء أيضاً الثانية فهذا لا إشكال فيه، وإذا قرأ: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِلَافِهِمْ}، فلا إشكال في ذلك، وإذا قرأ: {لِإِلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ}، فلا إشكال في ذلك؛ لأنه يجوز الخلط بين القراءات بضوابط وشروط ثلاثة ذكرناها في مناسبات سابقة، وهنا لا تترتب إحدى القراءتين على الأخرى، ولا تنبني عليها في المعنى، فلا يحصل إخلال بذلك، فهذه كلها قراءات متواترة.

وقد جاء في قراءة شاذة لربما تفسر بعض هذه القراءات المتواترة، كما جاء عن عكرمة: {لِيألف قُرَيْشٍ}، فهذا يفسر الإيلاف بمعنى: الإلف، لكن تكون اللام: لام الأمر، يقولون: هكذا كان في مصحف ابن مسعود -والله أعلم-، ويقولون: بفتح اللام: لام الأمر، وأنها لغة.

قال: ولهذا قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ}، بدل من الأول، ومفسر له.

وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ}، يعني: هناك قال: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، فصرح باسم القبيلة، قال: {إِيلَافِهِمْ} فجاء بالضمير، فيكون بدلاً تفسيرًا لما قبله، وبعضهم يقول: للتوكيد.

قال: ولهذا قال تعالى: {إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، قال ابن جرير: الصواب: أن اللام لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

ولذلك ابن جرير ينكر على من يربط بين السورتين باعتبار أن اللام تعليلية، أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، وبهذا الاعتبار على هذا المعنى الذي ذكره عن ابن جرير -رحمه الله- هنا في قوله: {إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، يكون قوله: {رِحْلَةَ} مفعولا به للفعل قبله {لِإِيلَافِ}، أي: لإيلاف قريش رحلة، يعني: ليألفوا رحلة الشتاء والصيف، وبعضهم يقول: إن النصب هنا بمصدر مقدر، تقديره: ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف، وبعضهم يقول: منصوب على الظرفية، وهكذا لو فسر بأن المقصود الاجتماع، يعني: لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، بمعنى: أن هذه الرحلة كأنها السبب في هذا الاجتماع، بحيث ما احتاجوا إلى الخروج إلى البلدان، والتفرق في نواحي الأرض، فكانوا يكتفون بهذه الرحلة، رحلة الشتاء والصيف، فهم قارُّون في البلد الحرام، مع أنه كما وصف الله -تبارك وتعالى-: {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} [إبراهيم:٣٧].

قال: ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة، فقال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} أي: فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرمًا آمنًا وبيتًا محرمًا، كما قال تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [النمل:٩١].

وقوله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع.

يعني: هذا الجوع متى كان؟ وما المراد به؟ هل هو جوع كان واقعًا؟ بعضهم يقول: نعم، كان قبل الرحلتين، فأغناهم الله -عز وجل- بذلك، وبعضهم يقول: هو الجوع الذي كان بسبب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- عليهم، والناس جوعى إلا من أطعمه الله -تبارك وتعالى.

وقوله: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، هذا الخوف هل المقصود به خوف وقع لهم؟ المشهور أن المراد بذلك: آمنهم مما كان يخافه غيرهم من السبي والسلب والغارات والنهب، وبعضهم يقول: لا، ولكن المقصود بقوله: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} هو: خوف الفيل وأصحابه، وهذا قال به جماعة، كالضحاك وربيع وسفيان وغيرهم، وبعض السلف قال: الجذام.

ابن جرير -رحمه الله- كعادته يحمل ذلك على هذه المعاني، يقول: ليس عندنا دليل على إرادة أحد هذه المعاني، فالله آمنهم من جميع المخاوف، أي: من كل خوف، سواء كان ذلك من أصحاب الفيل، أو من السلب والنهب والغارات، أو من العلل والأمراض.

قال: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} أي: تفضل عليهم بالأمن والرُّخْص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندًّا ولا وثنًا؛ ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه كما قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [النحل:١١٢-١١٣].

آخر تفسير سورة لإيلاف قريش، ولله الحمد والمنة.

في هذه السورة الله -تبارك وتعالى- يمتن على قريش بهذه النعم العظيمة، حيث هيأ لهم أسباب المعايش، وآمنهم من المخاوف، وأغناهم، وأطعمهم، فصاروا في حالة من الكفاية، فينبغي أن يشكروا هذه النعمة، وأن يعبدوا رب هذا البيت الذي جعله الله -عز وجل- سببًا لأمنهم، وقيام دينهم ودنياهم، فليس لهم عذر في التخلي عن عبادة الله -تبارك وتعالى-، سواء كان ذلك من جهة التخوف من تخطف الناس، كما تعللوا بذلك حين قالوا: {إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص:٥٧]، يعني: أن العرب لا تتركنا، وإنما يرموننا عن قوس واحدة، فالله -تبارك وتعالى- يقول: إن الذي آمنكم من المخاوف جميعًا التي يتخوفها الناس، سواء كان ذلك من جهة الجوع، أو من جهة الأعداء هو الذي يحفظكم ويحوطكم ويرعاكم، ويكف عادية الأعداء عنكم، فهذا فيه عبرة لأهل الإيمان، وعظة لأهل هذه البلاد خاصة، فإن الذي فعل ذلك بهؤلاء وهم على شركهم يكون حفظه أعظم لأهل الإيمان إذا استقاموا على أمره، وعبدوه، وأطاعوه وأطاعوا رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ونواصي الخلق بيد الله -تبارك وتعالى-، فليس لأحد عذر في ترك القيام بما أمر الله -تبارك وتعالى- به خوفاً من الناس، مهما كانت قوتهم، ومهما كان عددهم وعتادهم.

الطاهر بن عاشور -رحمه الله- له كلام جيد في هذا المعنى، قبل أن أذكره أشير إلى كلام له في قوله -تبارك وتعالى-: {رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، وهما رحلتان: الأولى في الشتاء لليمن، والثانية في الصيف للشام، يقول: "والسَّنة بالتحقيق أربعة فصول.."[١].

يعني: أن الله ذكر الشتاء والصيف فقط، فقال: {رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}.

قال: "الصيف: ثلاثة أشهر، وهو الذي يسميه أهل العراق وخرسان: الربيع، ويليه القيظ: ثلاثة أشهر، وهو شدة الحر، ويليه الخريف: ثلاثة أشهر، ويليه الشتاء: ثلاثة أشهر، وهذه الآية صالحة للاصطلاحيْن..."[٢].

بمعنى: أن رحلة الشتاء والصيف لربما يكون المقصود بالصيف: القيظ الذي هو: ثلاثة أشهر، ويحتمل أن يكون المراد به مع الثلاثة الأخرى التي تسمى عند البعض: الربيع، وهي من أشهر الصيف، وهكذا الشتاء يمكن أن يكون المقصود به: الشتاء، يعني: في شدته، ويمكن أن يدخل معه الخريف، أي: يمكن أن يكون ذهابهم في شدة الحر وشدة البرد، ويمكن أن يكون ما هو أوسع من ذلك، فتكون السنة منقسمة إلى قسمين: صيف وشتاء، بإدخال الربيع مع الصيف، والخريف مع الشتاء.

يقول: "واصطلاح علماء الميقات تقسيم السنة إلى: ربيع وصيف وخريف وشتاء، ومبدأ السنة: الربيع هو دخول الشمس في برج الحمل، وهاتان الرحلتان هما رحلة تجارة وميرة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين من السنة، إحداهما: في الشتاء إلى بلاد الحبشة، ثم اليمن، يبلغون بها بلاد حمير، والأخرى: في الصيف إلى الشام، يبلغون بها مدينة بصرى من بلاد الشام..."[٣].

ثم تكلم على المعنى الذي يؤخذ من هذه السورة، فقال: "ومعنى الآية: تذكير قريش بنعمة الله عليهم؛ إذ يسر لهم ما لم يتأتَّ لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلها، بما ييسر لهم من بناء الكعبة، وشرعة الحج، وأنْ جعلهم عمار المسجد الحرام، وجعل لهم مهابة وحرمة في نفوس العرب كلهم في الأشهر الحرم وفي غيرها، وعند القبائل التي تحرم الأشهر الحرم، والقبائل التي لا تحرمها، مثل: طي وقضاعة وخثعم، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحمّلونهم سلعهم، وصارت مكة وسطًا تُجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية، فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة؛ إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع، إذ كانوا بوادٍ غير ذي زرع، وكانوا يجلبون أقواتهم، فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر وشعير وذرة وزبيب وأديم وثياب والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب والسيوف المَشْرفية، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج، وأسواقه، كما يشير إليه قوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله

---

١ - التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥٨).

٢ - المصدر السابق.

٣ - المصدر السابق.

-تبارك وتعالى- بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن لله عليهم نعمًا كثيرة؛ لأن هذا الإيلاف كان سببًا جامعًا لأهم النعم التي بها قوام بقائهم"[٤].

---

٤ - المصدر السابق (٣٠/ ٥٥٩ - ٥٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الماعون

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون:١-٧].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: يقول تعالى: {أَرَأَيْتَ} يا محمد {الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} وهو المعاد والجزاء والثواب {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة، يقال لها: "سورة الماعون".

ويقال لها: "سورة الدين".

وسماها بعضهم بـــ"سورة اليتيم".

وسماها بعضهم بأولها: **{أَرَأَيْتَ}**.

وبعضهم يقول: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي}**.

وسماها آخرون بـــ"سورة التكذيب".

وهذه الأسماء ليست كلها عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

والأصل أن أسماء السور تكون توقيفية، يعني أنها تُتلقى من رسول الله -عليه الصلاة والسلام.

وهذه السورة من السور النازلة بمكة على قول الجمهور، وهو الذي اعتمده الحافظ ابن كثير -رحمه الله-.

وجاء عن بعضهم كقتادة -وهي رواية ثانية عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنها مدنية.

ولعل السبب في ذلك -والله أعلم- هو النظر إلى بعض المعنى الذي تضمنته، يعني أن الله قال فيها: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** وجعل ذلك من صفة بعض المصلين كما سيأتي.

فُسر هذا عند طائفة: أن ذلك من صفة المنافقين، وقالوا: إنما كان النفاق في المدينة، وبناء عليه -والله أعلم- قالوا: إن السورة مدنية، وقد مضى الكلام على هذا، وأن السورة لا يقال بأنها مكية أو مدنية، وكذا الآية، أو الآيات بناءً على ما لاح من معنى، فهذا المعنى يكون له توجيهات، وقد لا يكون هذا المعنى المراد، كما في بعض المواضع، وبناءً على هذا المعنى الذي فهمه بعض المفسرين قال بعضهم: إن بعض هذه السورة مكي، وإن بعضها مدني، والذين قالوا: إن نصفها مكي، أو إلى الآية الثالثة مكي، إلى قوله: **{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** هؤلاء نظروا إلى أولها، وما ورد فيه من أسباب النزول من أنها نزلت في بعض المشركين،

فقالوا: مكي، ونظروا إلى المعنى في قوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} من الآية الرابعة: {الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} قالوا: هذه صفة أهل النفاق، ومن ثَمّ فهي مدني، وهذا مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وهذا القول اختاره الطاهر بن عاشور.

وقول عامة أهل العلم: إن هذه السورة مكية.

والموضوع الذي تتحدث عنه هذه السورة هي صفة هذا المكذب بالدين، ما الذي يوقع به التكذيب بالدين وبالجزاء والحساب؟ ما الذي يوقع به هذا التكذيب من أعمال وأوصاف سيئة؟ فهذا {يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}.

وقوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} هو مرتبط بما سبق، بمعنى أن ذلك مظنة لهذه الصفة، أنه مضيع لصلاته -كما سيأتي-، هذا الإنسان الذي لا يؤمن بالجزاء والحساب، واليوم الآخر فإنه يكون مضيعًا لحقوق الله -عز وجل-، ولحقوق خلقه، تكون صلته بربه -تبارك وتعالى- التي من أعظمها: الصلاة -فهي صلة بين العبد وربه- ضعيفة، فهو مضيع لها، وهو لما سواها أضيع.

وما يتعلق بالصلة بالمخلوقين، والإحسان إلى المخلوقين، فهذا إذا كان يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فكيف بغيرهم؟.

هذا المسكين الذي لا يجد من يدفع عنه، أو يحفظ حقه، فيدفعه دفعًا شديدًا، دفعًا عنيفًا عن حقه، فكيف بالإحسان إليه، بالتصدق، وما إلى ذلك؟ إذا كان حقه يُدفع عنه، فكيف بما كان من قبيل الإحسان والإفضال على هذا اليتيم؟!.

وقد مضى الكلام على وجه الاقتران بين الصلاة والزكاة، وذكرت هناك أوجهًا ذكرها أهل العلم، منها: أن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، وأنها صلة بين العبد وربه، وأن الزكاة هي رأس العبادات المالية، وأن سعادة العبد دائرة بين الأمرين: حسن صلته بربه، والإحسان إلى الخلق، هذا: لا هذا ولا هذا.

هذا الموضوع الذي تتحدث عنه هذه السورة، وهذا وجه الارتباط بين آياتها، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَرَأَيْتَ} يقول هنا: يا محمد {الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} وهو المعاد والجزاء والثواب.

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} يمكن أن يكون الخطاب موجهًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو موجه لأمته؛ لأن الأمة تخاطب بشخصه -صلى الله عليه وسلم-، لأنه الأسوة والقدوة.

ومعلوم أن الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو خطاب لأمته إلا لدليل.

فهنا: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} ابن كثير -رحمه الله- يقول: يا محمد، ويمكن أن يكون الخطاب موجهًا لكل من يصلح أن يوجه إليه هذا الخطاب.

وهذا الخطاب جاء على وجه التعجيب، أن هذا أمر يتعجب منه؛ لأن من كان بهذه المثابة من الحرص والصلف والفظاظة والسوء والتضييع لحقوق الله وحقوق خلقه، لا شك أن مثل هذا أمر يثير العجب، أو التعجب.

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} الرؤية هنا يمكن أن تكون بمعنى المعرفة، أو بمعنى أخبرني، {أَرَأَيْتَ} أي: أخبرني.

ويمكن أن تكون بصرية: هل أبصرت، هل شاهدت {الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}؟

الدين هو المعاد والجزاء والثواب، يعني يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه، كما يقول ابن جرير –رحمه الله–، وقد مضى الكلام على الدين وأنه يأتي لمعانٍ منها هذا، كما يدل عليه السياق، ويوم القيامة هو يوم الدين، والله –عز وجل– هو مالك يوم الدين، فذلك يراد به الجزاء والحساب، كما يقال: كما تدين تدان، كما تجازي تجازَى.

قال: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} أي: هو الذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقه، ولا يطعمه، ولا يحسن إليه.

هذا من قبيل التفسير على المعنى، يعني {يَدُعُّ الْيَتِيمَ} يظلمه ولا يطعمه ولا يحسن إليه.

أما تفسيره المطابق، أو التفسير على اللفظ فهو أن الدعّ هو الدفع بشدة، بمعنى أنه يدفعه عن حقه بقوة، فإذا كان يدفعه عن حقه بقوة فهذا يعني أنه يقهره، ويظلمه، ولا يحسن إليه، ولهذا قال الله –عز وجل–: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [الضحى:٦–٩] مثل هذا يقتضي ثبوت ضده، ليس المراد لا تقهره فقط، بل أحسن إليه، فالمقصود أن هذا يدفعه عن حقه بشدة {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور:١٣] يعني يُدفعون دفعًا قويًّا شديدًا.

{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} كما قال تعالى: {كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر:١٧–١٨] يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

وكما هو معلوم بأن المسكين إذا أفرد فإن الفقير داخل فيه، فهذا لا يحض على طعام المسكين، إذا كان لا يحض على طعام المسكين فمن باب أولى أنه لا يطعم المسكين؛ لأن حضه لغيره على إطعامه هذا أمر لا يكلفه شيئًا، وكثير من الناس قد يحث على الصدقة، وقد لا يتصدق، فهذا لا يحض على طعام المسكين فمن باب أولى أنه لا يقوم بذلك؛ لأنه لا يؤمن بعائدته، لا يؤمن بالجزاء، وإذا تمكن الشح في النفس فإن صاحبه لا يكتفي بمنع الحقوق عن أصحابها، بل إنه يضيق ذرعًا حينما يرى الناس يؤدون هذه الحقوق، إذا رأى أحدًا يتصدق أو يحسن، أو نحو ذلك ضاق بهذا التصرف، وعده من التضييع، والإضاعة، والتفريط، والله المستعان.

هذه الأوصاف: {يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} تدل على تمكن الشح في النفس، فهو يصادر حقوق الضعفاء، ويدفعهم عنها دفعًا عنيفًا، وهم أولى بالإحسان والرحمة والرعاية والرفق، وكذلك أيضًا هو لا يحض على الإحسان، ولا يدعو إليه للمنكسرة قلوبهم، للضعفاء، للمحاويج في المجتمع، فهذا يدل على صلف وقسوة قلب، وتهافت على الدنيا، وحرص عليها، نسأل الله العافية.

فمثل هذا لا يكون من صفة أهل الإيمان، إنما يكون لمن كانت الدنيا هي غايته، ولا يؤمن بالجزاء والحساب، ولهذا جعل الله –عز وجل– ذلك من صفة المكذب بيوم الدين، والحض والحث على إطعام المسكين مطلوب شرعًا، والله –تبارك وتعالى– جعل ترك الحث عليه من صفة المكذبين، وجاء ذلك في مواضع من كتاب الله –تبارك وتعالى– في صفة أهل النار: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحاقة:٣٣–٣٤].

ومن هنا يكون الحث على رعاية الفقراء والمحاويج، والمساكين والأرامل، ومن وقعوا في نكبة، ونحو ذلك من المطالب الشرعية، وأنه يجب أن يقوم به المجتمع، أن يقوم به أهل الإيمان، ولكن هذا لا يعني أن يكون ذلك على وجه التخصيص بالضرورة، بمعنى أنه لا يُفهم أن الشارع قد حث وأمر أن يكون ذلك على وجه التخصيص لبعض الأفراد، يعني يقول: يا فلان تصدق، يا فلان هناك فقراء، يا فلان يوجد أيتام نريد أن تكفلهم، وما أشبه هذا، فإن ذلك يوقع هؤلاء الناس في شيء من الحرج، ومن يفعل ذلك فإنه غالبًا يستثقله هؤلاء الناس، فإذا رأوه تحاشوه، أو قد لا يحبذون لقاءه ومقابلته، والجلوس معه؛ لأن سؤال الناس أموالهم يوقع في مثل هذا **{إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}** [محمد:٣٧] وهذا أمر مشاهد، ولذلك مع ما لهذا من الأجر لمن يفعل ذلك إلا أنه لا يطالب الناس به ضرورة، أو يلام، أو ينسب إلى التقصير من لم يفعل، وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله- عمن يطلب لغيره، فكان الإمام أحمد -رحمه الله- كأنه لم يرَ ذلك لنفسه على الأقل، أو كأنه رأى أن هذا لا يخلو من هذا الإثقال الذي أشرت إليه، أو أن الترفع عنه على الأقل بالنسبة لبعض الناس أنه أولى، مع ما لهؤلاء من الأجر، فهذا كله لا ينافي ما جاء من فضل الساعي على الأرملة واليتيم، وكذلك أيضًا الحث على الإطعام، إلى آخره، فيكون ذلك على سبيل العموم، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقف ويدعو إلى الصدقة، ولما جاءه أولئك الذين كانوا في هيئة رثة، وفي فقر مدقع، واجتَوَوا المدينة، فحث النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصدقة على سبيل العموم، وهكذا في تجهيز جيش العسرة، وغير ذلك من مقاماته -صلى الله عليه وسلم-، فكان يفعل ذلك على سبيل العموم، لكن الكلام في: يا أبا فلان نريد منك كذا وكذا، ويا فلان نريد منك كذا وكذا، ويا فلان تبرع بكذا، ويا فلان... فهذا لا يخلو من إثقال على نفوس هؤلاء، فمن ترفع عن ذلك، وتنزه عنه، وتركه على الأقل نقول: هو غير ملوم، هو يتكلم كلامًا عامًا، ويقول لهم: من أراد فهذا هو الطريق، بلا إحراج لأحد، فإن كان ذلك يتضمن مزيدًا من الحرج فهذا يكون أيضاً مما ينبغي التنزه عنه، أن ذلك أولى، طرق الإحراج المعروفة: يأتيه ويريه بعض الإيصالات، ويقول: فلان تبرع بكذا، وفلان تبرع بكذا، وفلان تبرع بكذا، ويخرج له دفترًا، ويأتيه من كل وجه، بحيث لا يُبقي له طريقًا إلا أن يتبرع، فهذا ثقيل على النفوس، على الأقل أقول: أهل العلم ينبغي أن يترفعوا، أن يتنزهوا عن هذا، من أجل أن يُنتفع بما يقولون، والناس يحتاجون إليهم، وإلى تعليمهم، وإلى نصحهم وإرشادهم، وما إلى ذلك، فلا يتحاشونهم، لكن إذا عُرف بأنه كلما رأى أحدًا من أصحاب الأموال انتهز الفرصة، وأخذه، وقال: تعال يا أبا فلان، يوجد مشروع كذا نريد أن تتبرع، هناك وقف في عمارة نريد أن تشتريها تكون لكذا، والمقصود أن قوله: **{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** لا يعني أنه بالضرورة يُطلب منه أن يكلم الأفراد بأعيانهم، وإنما يتكلم على سبيل العموم، والله المستعان.

{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} قال ابن عباس وغيره: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: {لِّلْمُصَلِّينَ} الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

قوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} "الفاء" هذه جواب لشرط محذوف عند بعضهم، كأنه قيل: إذا كان الأمر ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ}، وبعضهم يقول غير ذلك.

قوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} الحافظ ابن كثير –رحمه الله– هنا يقول عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: يعني المنافقين.

هذا –كما سبق– من أنه حمل بعضَ أهل العلم –وهو مروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– على القول بأن السورة مدنية.

والنفاق: القول أنه لم يوجد إلا في المدينة هذا فيه نظر، وقد سبقت الإشارة إلى هذا، وأن النفاق وجد من وقت مبكر، وذكرت بعض ما يدل على ذلك، ومنه ما جاء في أول سورة العنكبوت، وهي سورة مكية: {وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت:١١] فسورة العنكبوت من السور المكية، وذكر فيها النفاق، ولا حاجة لأن يقال: إن هذه الآية من الآيات المدنية في هذه السورة المكية، ويدل عليه أيضًا قوله –تبارك وتعالى–: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [الأنفال:٤٩].

وهذا كان في خروج المسلمين إلى غزوة بدر، والمشهور أن النفاق لم يظهر إلا بعد غزوة بدر، حيث صار للمسلمين شوكة، وأن عبد الله بن أبيّ قال لأصحابه، وكانوا على الشرك: إني أرى هذا الأمر قد توجه، فادخلوا فيه ظاهرًا، لا شك أن النفاق بصورته الواضحة المكشوفة، أن يدخل قوم في الإسلام ظاهرًا من أجل الكيد له، أو أن يدخلوا خوفًا على أموالهم، وحقنًا لدمائهم، هذا ما وجد إلا بعدما صار للمسلمين شوكة، أما قبل ذلك في وقت الاستضعاف في مكة فلا حاجة لمثل هذا، هم مستخفون ضعفاء، لكن هل يوجد نفاق في مثل هذه الحالات؟.

الجواب: نعم، وهذا معروف، وسورة العنكبوت –كما سبق– سماها ابن القيم –رحمه الله– سورة الابتلاء، فإذا ابتُلي كثير من الناس حصل لهم نوع نفاق، إذا جاءت الشدائد فبعض الناس ليس من المنافقين، لكن فيه ضعف، فيحصل عنده نوع من التلون، لربما يمالئ أهل الباطل، ويظهر لهم شيئًا من الموافقة، ولربما يتراجع بالكلية، فهذا يحصل، والله المستعان.

وقد مضى الكلام على قوله –تبارك وتعالى– أيضاً: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ} [النساء:٩٧] فهؤلاء الذين خرجوا من المسلمين مع المشركين في غزوة أحد، خرجوا في جيش الكفار، بحجة الإكراه، فلم يعذرهم الله –عز وجل–؛ لأنهم كانوا يقدرون على الهجرة أصلاً، أقوياء، فجلسوا فأدى بهم هذا الجلوس إلى الخروج في عسكر المشركين يقاتلون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومن معه، فهذا التصرف أورثهم ما ذكر الله بعده: {فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧] فحكم لهم بالنار.

وهنا كون هذا بهذه المثابة، بهذه الصفة، صفات المنافقين، يرائي إلى آخره، يوجد عند أصحاب النفوس الضعيفة، فهو يتلون، يتبدل، يتغير، ولما ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– الفتن في آخر الزمان ذكر أنه يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، والعكس.

قال: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، بمعنى أنه يترك الصلاة في السر لا يصليها أصلاً، ليس يؤخرها عن وقتها، وإنما يتركها، قال: ولهذا قال: {لِّلْمُصَلِّينَ} الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، يقصد عن فعلها بالكلية يعني ما ذكر قبله، يعني أنه يصلي في العلانية ويترك في السرية، هذا بالنسبة للمنافق، يعني يصلي ظاهرًا، إذا كان بحضرة الناس، ولربما من غير طهارة، لكن هي إثبات حضور، وإذا كان في حال خلوته فإنه لا يصلي، هذا المنافق، وليس المقصود أنه يتركها بالكلية، بمعنى أنه لا يصلي أصلاً، يعني لا يصلي لا في السر ولا في العلانية، هذا غير مراد؛ لأن الله قال: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} فهذا الوعيد للمصلين، يعني هو يصلي، يفعل هذه الصلاة، ولكنه يفعلها بصورة مشوهة مشينة لا تبرأ بها الذمة، ولا يتحقق مقصود الشارع منها، قال: وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعًا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: {عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} ولم يقل: في صلاتهم ساهون.

تأمل قول عطاء: لم يقل: "في صلاتهم" مع أن حروف الجر معروف أنها تتناوب، فتكون "في" و"عن" بهذا الاعتبار تؤدي في النهاية معنى واحداً، يعني لا فرق: في صلاتهم ساهون، أو عن صلاتهم ساهون، بناءً على ما جاء من التفسير عن بعض السلف؛ لأن مما يدخل في معناها مما ذكره بعض أهل العلم، وذكره الحافظ ابن القيم أيضًا: أنه يكون في صلاته في غفلة، لا يقيم خشوعها، ولا يقيم ركوعها، ولا سجودها، فهذا "عن صلاته" أو "في صلاته"؟.

هذا "في صلاته".

فعلى هذا يكون "عن" و "في" يؤديان معنى واحدًا، فهنا {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}، أدخل فيه بعض أهل العلم التضييع لها حال فعلها، لا يقيم ركوعها ولا سجودها، ولا يحضر قلبه فيها، ولا يخشع، وفرقوا بين هذا وبين من يقع له السهو في الصلاة، فهذا لا يسلم منه أحد، حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقع له السهو، وهذا من طبيعة الإنسان، لكن الكلام فيمن كان قلبه في حال من الإعراض عنها، هو يؤدي حركات لا معنى لها، ولا يراعي حدود الله -عز وجل- فيها، ينقرها كنقر الغراب، لا يقيم الركوع ولا السجود، وقلبه مشغول عنها بغيرها، لا يدري ماذا قرأ، وماذا صلى، وكم عدد الركعات التي ركع، وهذا ديدنه، هذا حاله، يعني لا يكون ذلك لعارض، وإنما هو مشغول عنها، لا يعبأ بها.

وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله.

تأمل كلام ابن كثير: "**وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها**" هذا كله "في" في صلاتهم ساهون، هو يسهو فيها، يعني هناك فرق بين سهويْن في الصلاة، فالسهو الذي لا يخلو منه أحد هو ما يقع من الإنسان من شرود ذهن، أو التباس في صلاته، فلا يجزم كم صلى ثلاثًا أم أربعًا، أو يسلم من ركعتين، أو من ثلاث، و نحو هذا، أو يزيد ركعة، هذا لا يسلم منه أحد، لكن الكلام هنا فيمن كان في صلاته مضيعًا لأركانها وواجباتها، لخشوعها، فقلبه بمنأى عنها، هذا حاله في هذه الصلاة، فهو داخل في هذا، هذا الذي ذكره ابن كثير وذكره ابن القيم وآخرون، فعلى هذا {عَن صَلَاتِهِمْ

{سَاهُونَ} لا يفرح بالتعبير بـــ"عن" وأنه لم يقل: بـــ"في" إلا في أمر واحد، وهو السهو الذي لا يخلو منه أحد، وإلا فإن السهو الذي يكون من قبيل التضييع داخل في هذا الوعيد، في: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} هذا ذكرته تعليقاً على ما جاء **عن عطاء بن دينار** قال: "**الحمد لله الذي قال:** {عَن صَلَاتِهِمْ} **ولم يقل: في صلاتهم ساهون**"، فهذا السهو فيها على نوعين، يعني حتى ابن جرير –رحمه الله– حمله على العموم، أي أنه يشمل هذه المعاني المذكورة، فكل ذلك داخل فيه، ومن ثم: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} يشمل حال المنافق، فيدخل فيه دخولاً أوليًّا، هذا المرائي؛ لأن الله قال بعده: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} وبهذا احتج ابن القيم –رحمه الله– وهي الحجة الثانية– على أن ذلك إنما يراد به الذين يصلون، وليس الذي يترك الصلاة بالكلية، لا يصلي أصلاً، لا في السر ولا في العلانية؛ لأنه قال أولاً: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} الأمر الثاني: {يُرَاءُونَ} هذا الذي يرائي إذاً هو يصلي في الظاهر، ولكن قلبه منصرف إلى المخلوقين، يتزين لهم بهذه الصلاة، بمعنى أنه يريد إثبات حضوره، وأنه يصلي، وفرق هنا دقيق في مسألة مراعاة الحضور للصلاة، لتحصيل أمر عاجل، فهذا على نوعين: نوع مشروع، ونوع ممنوع، النوع الممنوع: الذي يصلي يتزين بصلاته من أجل الناس، وكلام الناس، وثناء الناس، ونحو هذا، النوع الثاني –وهو المطلوب–: الذي يحضر الجماعة من أجل أنه يفعل ذلك طاعة لله، وأيضاً لتثبت عدالته، فهذا الذي لا يأتي للمسجد، لا يرى في المسجد لا تثبت عدالته، ولا تقبل شهادته، فالشاطبي –رحمه الله– يقول: "مراعاة هذا المعنى مطلوبة شرعًا"، ثبوت العدالة، فلا يكون ذلك من المقاصد السيئة، لكن لا يكون هو المطلب الأول، وإنما يكون ذلك على سبيل التبع.

تعدية {سَاهُونَ} بـــ"عن" هل يشير إلى وجود التضمين {سَاهُونَ} أي معرضون؟

مع مراعاة أن الحروف تتناوب، يعني هذا المعنى الذي ذكر أنه لا يقيم أركانها ولا شروطها، ولا... إلى آخره، وقلبه في لهو، ولهذا فسر السهو {سَاهُونَ} فسره بعض السلف بقوله: لاهون عنها، فهذا الذي لا يصلي إلا في المناسبات هذا داخل فيها، يصلي رياءً داخل فيها، الذي لا يقيم ركوعها ولا سجودها هو داخل فيها.

فهذا الإعراض يشمل الإعراض عن فعلها بالكلية بالسر مثلًا، ويشمل أيضاً الإعراض بترك ما أوجب الله –عز وجل– عليه فيها، فإذا فسرته بالإعراض دخل فيه هذا، هو يصلي ولكن قلبه معرض عنها تمامًا، فهذا ديدنه، هذا حاله، فالمقصود: أن هذا يدخل فيه الذي يترك بعض الفروض كالمنافق الذي لا يصلي في السر، ويدخل فيه الذي يؤخرها حتى يخرج الوقت، ويدخل فيه الذي يؤخرها إلى آخر الوقت، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس...))[1].

ويدخل فيه الذي يصلي صلاة يضيع حدودها، وحقوقها وشروطها، وواجباتها، كل هؤلاء يدخلون فيه.

وفي قراءة لابن مسعود –رضي الله عنه–: "الذين هم عن صلاتهم لاهون" فهذا يمكن أن يفسر به السهو، لئلا يفهم أن المقصود بالسهو السهوُ العارض للمصلي مما أشرت إليه، وأنه لا يسلم منه أحد.

---

١ – رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالعصر، رقم (٦٢٢).

فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك فله قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي؛ كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا)) [٢]**.**

فهذا أخّرَ صلاة العصر التي هي الوسطى -كما ثبت به النص- إلى آخر وقتها، وهو وقت الكراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن، ولا خشع فيها أيضًا، ولهذا قال: ((لا يذكر الله فيها إلا قليلا)) ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصلِّ بالكلية، قال الله -تعالى-: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء:١٤٢].

وقال تعالى هاهنا: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوسًا عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من سمّع الناسَ بعمله سمّع الله به سامعَ خلْقه، وحقره وصغره)) [٣]**.**

ومما يتعلق بقوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} [الماعون:٦] أن من عمل عملا لله، فأطلع عليه الناس، فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياءً.

يعني أن هذا الرياء هو من فعله {يُرَاءُونَ} فهو عملٌ منه بإظهار ذلك، إظهار الطاعة من أجل رؤية الناس، فهذا هو الرياء، ولهذا قالوا: إن الصيام من مزاياه أنه لا يدخله الرياء، بمعنى أنه لا يُرى، ولكن الواقع أنه يمكن أن يرائِي به، وأن يسمِّع.

يرائي به كيف؟

بأن يُظهر آثار الصوم، ليُعرف أنه صائم.

كيف يُعرف أنه صائم؟

يظهر الذبول، ويتقصد جفاف الشفة، ولربما يتصنع بعض المواقف، مثل ماذا؟، يعطونه يشرب شيئًا، أو يأكل شيئًا، أو نحو ذلك، فيقول: لا، أنا اليوم صائم، وكذلك لو أن هذا الإنسان يَقصِد بذلك، يعني أنه إذا جاء وقت الإفطار تصنّع ذلك علانية، جاء إلى المسجد، ولا يوجد آخرون يفطرون معه، وهو لا يعرف أن هذا اليوم مثلاً ليس مظنة للصوم، فيأتي إلى المسجد بالمغرب، ويجلس أمام الخلائق، في الحرم، أو غير الحرم، أو في مسجد الحي، أو مسجد الجامع، أو نحو هذا، وفي وقت محاضرةٍ الناسُ يجتمعون لها بعد المغرب، ويضع إفطاره ويجلس يفطر، فهذا ماذا يسمى؟

يقال له: رياء.

---

٢ - المصدر السابق.

٣ - رواه أحمد (٦٥٠٩) وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

وأما التسميع فإنه يخبر، يقول: أنا كنت صائمًا، أنا صائم اليوم، كنت بالأمس، كنت في الأسبوع الماضي صائمًا، فهذا كله من التسميع، يخبر عن عمله، يقصد بذلك السمعة.

وقوله تعالى: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما يُنتفع به، ويستعان به، مع بقاء عينه، ورجوعه إليهم.

هنا فسر: **{الْمَاعُونَ}** بالعارية من المتاع، فالعارية لا يخسر صاحبها ولا يبذل شيئًا على سبيل التبرع بعينه، وإنما ذلك يرجع إليه، ومع هذا يمتنع.

فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى.

وقال المسعودي عن سلمة بن كهيل عن أبي العبيدَيْن: أنه سأل ابن مسعود عن الماعون، فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس، والقدر، والدلو، وأشباه ذلك.

آخر تفسير السورة، ولله الحمد والمنة.

هنا على قول ابن مسعود –رضي الله عنه–: أن هذه الأمور لا يتضرر ببذلها، وقد جرت العادة أن الناس يتعاورونها بينهم، فهو يمنع من ذلك، إذًا هو لما سواه أمنع، يعني لو طُلب منه شيء أعظم من هذا، أن يعيره سيارته مثلاً، يمتنع من باب أولى، هذا في الإعارة، وأما في البذل على سبيل التبرع بأعيان هذه الأشياء فهو أمنع وأمنع.

وكلام السلف –رضي الله عنهم– في تفسير الماعون فيه اختلاف، ويمكن أن يلتئم ذلك تحت معنى عام، وابن جرير –رحمه الله– عممه، فقال: أصل الماعون من كل شيء منفعته.

فهم يمنعون الناس منافع ما عندهم، فبذل الفأس، إعارة الفأس، يمنعون منه، بذل الفحل للضراب، هذا لا يتضررون منه، فيمنعونه، وهكذا يمنعون منافع الأشياء، فيدخل في ذلك ما يتعاوره الناس بينهم من القدر، والفأس، والإناء، والقدّاحة –الولاعة– وهذه الأمور اليسيرة التي يحتاج إليها الناس، ولا يتضرر من بذلها، وهكذا ما لا يُمنع، كالملح، وفضل الماء، ونحو ذلك.

وبعض السلف فسره بالزكاة، باعتبار أنها واجب عليه، وحق في المال، وهنا يرِد إشكال: إذا كانت السورة مكية على قول الجمهور فما وجه ذكر الزكاة؟.

وهنا قد يأتي من يقول: السورة إذًا مدنية، لهذا الاعتبار، أو أن آخرها مدني لهذا الاعتبار أيضًا، إضافة إلى ما سبق، وليس بالضرورة: أن المراد بذلك هو الزكاة، ثم أيضاً إذا فسر بالزكاة فالأقرب أن أصل الزكاة فرض بمكة، كما تدل عليه آية الأنعام: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}** [الأنعام:١٤١] مع أن سورة الأنعام نازلة بمكة جملة، ومع هذا على كثرة الروايات الواردة في هذا فإن بعض أهل العلم لما نظر إلى هذا المعنى استثنى هذه الآية، وقال: هذه نازلة في المدنية؛ لأن الزكاة فرضت في المدينة، وهذا يجاب عنه بأحد جوابين:

الأول وهو الأرجح: أن أصل الزكاة فرض بمكة من غير تقدير للأنصبة، والأموال التي تجب فيها الزكاة، ثم بعد ذلك فرض على سبيل التفصيل بالمدينة.

والجواب الثاني: أن الآية قد تنزل قبل تقرير الحكم.

وبعضهم فسرها بمنع الزكاة باعتبار أنه لا فضل له بالزكاة، هي حق في أموالهم، وحق معلوم، للسائل والمحروم، وهذا حق المال.

الزجاج، والمبرد، وبعض أصحاب المعاني يقولون: إن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، ومثلوا لهذا بالفأس، والدلو، والقدر، والقدّاحة، كل ما فيه منفعة سواء كان كثيرًا أم قليلاً.

وابن عاشور –رحمه الله– ذكر أن ذلك يطلق على الإعانة بالمال، يعني يمنعون فضلهم، أو الصدقة على الفقراء، ونَقل عن ابن المسيب وابن شهاب –ونقله غيره والرواية معروفة–: أن الماعون بلغة قريش المال، فالمال داخل فيه.

{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} يعني هذا الحق المتعين في المال.

وهكذا أيضًا لما نقلوا عن الزجاج والمبرد بأنه في الجاهلية كل ما فيه منفعة، قالوا: هو في الإسلام الطاعة والزكاة.

وهم يعتمدون في هذا على بعض ما قيل من الشعر، ولكن ذلك لا يعني التحديد والتقييد بهذا المعنى.

وكذلك أيضًا نقل الفراء أنه سمع من بعض العرب إطلاق الماعون على الماء.

وفضل الماء داخل فيه، ولهذا بعضهم قال: هو الحق على العبد على العموم، كل هذا يقال له: الماعون.

وبعضهم يقول: هو المستغل من منافع الأموال، وقيدوا ذلك بالقليل باعتبار أنه مأخوذ من المَعن، وهو القليل، وذكر قطرب أن أصله من القلة، يعني الشيء اليسير، فهذه الزكاة ولو كثرت، أو الصدقة فإنها قليل من كثير مما أعطاه الله –تبارك وتعالى–، بهذا الاعتبار.

وبعضهم يعبر عن هذا يقول: هو كل ما يبخل به.

الحاصل من هذا كله: أن الماعون: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** يعني مما ينبغي بذله، من عارية، لا يتضرر ببذلها، أو حق لله –تبارك وتعالى– عليه في ماله، مما يجب عليه بذله، وينبغي عليه أن يبذله، أو الأمور التي جرت العادة ببذلها: الماء، فضل الماء، الملح، ونحو ذلك، هذا كله مع عارية المتاع داخل في الماعون.

بمعنى أن هذا إذا كان يمنع هذه الأمور التي هي حق عليه واجب، أو كان ذلك من الأمور اليسيرة، أو من العارية التي لا تضره في هذا المتاع فهو لما سواه أمنع.

بمعنى أن هذا صاحب هذه الصفة الذي لا يؤمن بيوم الدين، لا يؤمن باليوم الآخر لا يَخرج من يده شيء، لا قليل ولا كثير، لا تستطيع أن تتوصل منه إلى منفعة من المنافع، لا بإعارة ولا هبة ولا صدقة، ولا زكاة، ما يَخرج من تحت يده شيء، ممسك، شحيح، الذي يدخل عليه لا يخرج أبدًا، فهذا الذي لا يؤمن بالدين؛ لأنه لا يرجو عائدة، ولهذا قال الله –عز وجل–: **{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا}** [التوبة:٩٨] لماذا يتخذ ذلك مغرمًا؟

هو يشعر أنه من قبيل الغرم؛ لأنه لا يرجو عائدته وثوابه عند الله –تبارك وتعالى–؛ لأنه لا يؤمن باليوم الآخر، هذا في صفة المنافقين من الأعراب.

وذكر صفة أهل الإيمان منهم فقال: **{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ}** [التوبة:٩٩] فهذا حال أهل الإيمان من الأعراب، وغيرهم، لكنه ذكره بصفة الأعراب؛ لأنه ذكر الطائفة الأولى، والله المستعان، هذا قوله: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}**.

إذًا هذه الأوصاف لهذا الجلف الجاف، المضيع لحقوق الضعفاء، بل المستلب لها، يدعّ اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، وهو مضيع لصلاته، فصلته بربه منقطعة، وصلته بخلق الله -تبارك وتعالى- أيضًا منفصلة، لا يحسن إليهم، ولا يوصل معروفًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكوثر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر:١-٣].

هذه السورة تسمى: سورة الكوثر، ويقال لها: إنا أعطيناك الكوثر، ويقال لها: سورة النحر، والمشهور: أنها سورة الكوثر.

وهي سورة كما قال: قيل: مدنية، وهذا قال به جماعة من السلف كالحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة، وقيل: مكية، هذا قول الجمهور، وهو مروي عن عائشة -رضي الله عنها- وابن عباس وابن الزبير، وجماعة من التابعين، بأي اعتبار؟ يعني: لماذا اختلفوا فيها؟ يقول من قال: إنها مكية: لأن المرويات الواردة في سبب النزول فيها أنها نزلت في رجل بعينه في مكة، من أهل مكة، فهذا حملهم على القول بأنها نازلة في مكة، لكن لو صحت تلك الروايات، ولكن حديث أنس -رضي الله عنه- الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: ((لقد أنزلت عليّ آنفا سورة))، وسيأتي قريباً بتمامه، فهو يدل على أنها مدنية، فأنس يقول: بين أظهرنا في المسجد، والمسجد إنما كان في المدينة، وأنس -رضي الله عنه- كان في المدينة، فدل على أن السورة مدنية، ونظروا إلى أشياء من المعنى، كقوله: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}**، ما معنى **{وَانْحَرْ}**؟ هل نحر الهدي أو الأضاحي؟ قالوا: وهذا كله في المدينة، وليس هذا هو العمدة في الحكم بأنها نازلة في المدينة، فالراجح: أنها نازلة في المدينة؛ لحديث أنس -رضي الله تعالى عنه.

قال -رحمه الله-: رَوَى مسلم وأبو داود والنسائي، عَنْ أَنَس، واللفظ لمسلم قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: ((لقد أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ})) ، ثُمَّ قَالَ: ((أتدرون ما هو الْكَوْثَرُ؟))، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي -عز وجل- عَلَيْهِ خَيْرٌ كثير، وهو حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عدد النجوم في السماء، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ))، ورواه أحمد ثلاثيًّا، عن محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلفُل، عن أنس بن مالك[١].

---

١ - أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة، رقم: (٤٠٠)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في الحوض، رقم: (٤٧٤٧)، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب قراءة {بسم الله الرحمن الرحيم}، رقم: (٩٠٤)، وأحمد، رقم: (١١٩٩٦).

هذا تفسير من النبي -صلى الله عليه وسلم- للكوثر، وسيأتي الكلام على هذا -إن شاء الله-، لكن المحور الذي تدور عليه السورة، والموضوع الذي تدور حوله هو: ما حبَا الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأعطاه واختصه به من هذا الكوثر، وما يكون لمبغضيه -عليه الصلاة والسلام.

ومعنى "ثلاثيًّا" يعني: ثلاثة من الرواة، والمسند فيه من هذا أشياء، وقد أفردت بالتأليف.

قال: وَرَوى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أيضًا، عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله -عز وجل))[٢].

أذفر يعني: ذكي الرائحة.

في هذا الحديث قال: ((دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ... قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله -عز وجل))، وهناك: أن ذلك يكون في المحشر، فإنه قال فيه: ((فإنه نهر وعدنيه ربي -عز وجل- عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة))، ويمكن أن يقال -والله أعلم-: إن أصله نهر في الجنة يصب في هذا الحوض.

قال: ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: لما عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى السماء قال: ((أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر))، وهو لفظ البخاري -رحمه الله[٣].

هذه الأحاديث حملت طائفة من أهل العلم -وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- على القول: إن المراد بالكوثر هو: النهر الذي أعطاه الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: وإن كان اللفظ يحتمل ما هو أعم من ذلك فإن هذا الحديث نص في تفسير الكوثر بهذا النهر، قالوا: فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، يعني: لا يلتفت إلى المعنى اللغوي للكوثر، هذا ذكره جماعة، واختاره ابن جرير، وانظر ماذا ذكر في صفته، قال: ((حافتاه خيام اللؤلؤ))، وفي الرواية الأخرى: ((قباب اللؤلؤ))، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما وصف بعض ما يكون للمؤمن فإنه وصف شيئًا لا يمكن أن تبلغه الأفهام على حقيقته، فخيمة اللؤلؤ أو اللؤلؤة المجوفة التي تكون للمؤمن تكون ستين ميلاً في طولها وعرضها[٤]، وجاء في بعض الروايات الصحيحة: وارتفاعها، هذه اللؤلؤة الواحدة ستون ميلاً، فهذا شيء لا يمكن أن يتصوره العقل، وهذا النهر حافتاه قباب اللؤلؤ، يعني: الناس لربما يتطلعون إلى شاليهات نظيفة -كما يقال- يجلسون فيها، ويقضون فيها أوقاتًا قبالة البحر، شاليهات نظيفة يعني: من المفاسد، فهذا شيء بالنسبة إليهم يحصل به بهجة للنفوس، وتستريح به، فما

---

٢ - أخرجه أحمد، رقم: (١٢٠٠٨)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر، رقم: (١١٦٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٣٥/١)، رقم: (٣٣٦٥).

٣ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:٨]، رقم: (٤٩٦٤).

٤ - أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم: (٣٢٤٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، رقم (٢٨٣٨).

قيمة هذا إزاء هذه الأمور المذكورة في هذا الحديث؟ بل أبلغ من هذا ما سيأتي في بعض هذه الأحاديث من ذكر الذهب على حافتيه، فقال: ((الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب))[٥]، والله المستعان.

قال: وروى أحمد، عن أنس: أن رجلا قال: يا رسول الله ما الكوثر؟ قال: ((هو نهر في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر)) قال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟! قال: ((أكلها أنعم منها يا عمر))[٦].

وروى البخاري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[٧].

الكوثر هنا فسر بما هو أعم من ذلك، باعتبار أصل المعنى، فالكوثر من الكثرة، فهذا روعي فيه أصل المعنى اللغوي؛ ولهذا أدخل فيه بهذا الاعتبار النهر الذي أعطاه الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وإلا فإنهم يقولون: إن أصل الكوثر فوعل من الكثرة، مثلما يقال: جوهر للرجل الشجاع المجاهر لأقرانه، فهو لا يخاف ولا يهاب، وإنما يبرز للأقران، فهذا يدل على المبالغة في بناء هذه اللفظة ونظائرها كالكوثر، ونوفل من النفل، ويقولون: إن العرب تسمي كل شيء كثير في العدد، أو القدر، أو الخطر، يعني: له شأن ومنزلة، يقولون له: الكوثر، وعلى هذا فالمعنى: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير الوافر العظيم، ومنه هذا النهر الذي جاءت صفته في هذه الأحاديث، والذي عليه أكثر المفسرين وعليه الجمهور: أنه النهر، بناء على هذه النصوص، وبعضهم قيده بالحوض، ولكن كما سمعتم في بعض هذه الأحاديث الصحيحة: أنه نهر في الجنة، فالذي في الحوض منه، فيدخل فيه هذا وهذا.

وهذه المسألة مبناها على أمر وهو: حينما يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء من التفسير، ويكون ظاهر اللفظ أعم من هذا، فهل يقتصر على ما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو يقال: هذا مما يدخل في المعنى؟ ذكرت في بعض المناسبات أشياء من هذا القبيل، سواء مما يدل عليه السياق، أو مما يؤخذ من ظاهر اللفظ، وقد يكون العكس، فيكون السياق في معنى خاص، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يحمل ذلك على معنى أعم، أو يحمله على معنى آخر باعتبار العموم اللفظي، أي: العموم في اللفظ، فمن الأمثلة التي ذكرناها للأول: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} [التوبة:١٠٨]، ما هو هذا

---

٥ - أخرجه أحمد، رقم: (٥٣٥٥)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الكوثر، رقم: (٣٣٦١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم: (٤٣٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة الكوثر، رقم: (١٩٥٠٧)، وابن جرير في تفسيره "جامع البيان" ت شاكر (٢٤/ ٦٤٥)، تفسير سورة الكوثر، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٨٤٦)، رقم: (٤٦١٥).

٦ - أخرجه أحمد، رقم: (١٣٣٠٦)، والترمذي، أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة طير الجنة، رقم: (٢٥٤٢)، وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٥٦٨)، رقم: (٥٦٤١).

٧ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٨]، رقم: (٤٩٦٦).

المسجد؟ ما المراد به؟ هل هو المسجد النبوي أو مسجد قباء؟ فلما اختصم العوفي والخدري في هذا المسجد، فالعوفي يقول: قباء، والخدري يقول: مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((هو مسجدي هذا))[8]، مع أن السياق في قباء، فبعض أهل العلم قال: إن مسجده يدخل فيه دخولاً أوليًا؛ لأنه أحق بهذا الوصف، ولا ينفي ذلك عن مسجد قباء، ومن أمثلة عكسه قوله –صلى الله عليه وسلم– ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً، قال: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء:١٠٤]))[9]، فالسياق هو في الاحتجاج للبعث بالنشأة الأولى التي يرِد الاحتجاج بها في القرآن كثيرًا، واستعمله النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا المعنى: صفة الحشر حفاة عراة غرلاً، فقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء:١٠٤] ظاهر اللفظ في عمومه يدخل فيه هذا، لكن هل ينفي ذلك عما يدل عليه السياق، أو ما قد يُفهم من السياق؟ الجواب: لا، فالآية يحتج بها على قدرة الله على البعث باعتبار أنه ابتدأ الخلق وأنشأه على غير مثال سابق، وهكذا أيضًا في قوله –صلى الله عليه وسلم–: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف:٥٤] لما أتى عليًّا وفاطمة –رضي الله عنهما– وقال: ((ألا تصليان؟))، وكانا نائمين، فقال عليٌّ –رضي الله عنه–: إن أرواحنا بيد الله... إلى آخره، فرجع النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو يلطخ فخذه، ويقول: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف:٥٤][10]، فهذه الآية الأصل في سياقها أنها في الكافر المكذب الذي يجادل بالنبوة والوحي والإيمان والبعث وما إلى ذلك في القرآن.

على كل حال من نظر إلى هذا الجانب، قال: إن النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر الكوثر وهو داخل في هذا المعنى الكبير العام الذي يدل عليه اللفظ، وهو: كثرة الخير الذي أعطيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأما ما ورد عن السلف من الأقوال الأخرى فهي أشبه ما تكون بالتفسير بالمثال –والله تعالى أعلم–، كقول الحسن: إنه القرآن، وقول الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن، وتخفيف الشرائع، وقول أبي بكر بن عياش: كثرة الأصحاب والأمة، وقول البعض: إنه الإسلام، وآخر يقول: إنه رفعة الذكر، وآخر يقول: نور القلب، وآخر يقول: الشفاعة، وآخر يقول: المعجزات، وآخر يقول: إجابة الدعوة، وآخر يقول: لا إله إلا الله، وآخر يقول: الفقه في الدين، وآخر يقول: الصلوات الخمس، فهذا كله يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، لكن

---

٨ – أخرجه مسلم بلفظ آخر، كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم– بالمدينة، رقم: (١٣٩٨)، وأخرجه الترمذي بهذا اللفظ، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب: ومن سورة التوبة، رقم: (٣٠٩٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي، كتاب المساجد، ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، رقم: (٦٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/١١٣٦)، رقم: (٦٧٠١).

٩ – أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٧]، رقم: (٤٦٢٥)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم: (٢٨٦٠).

١٠ – أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي –صلى الله عليه وسلم– على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، رقم: (١١٢٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم: (٧٧٥).

لا يصح أن يفسر به منفردًا هكذا، ويقال: هذا هو المراد، وعامة أهل العلم -كما سبق- يقولون: الكوثر هو النهر المذكور في هذه الأحاديث.

قال: ورواه أيضًا عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: الكوثر: الخير الكثير[١١]، وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو: الخير الكثير، ومن ذلك النهر.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل))، وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير، وقال الترمذي: حسن صحيح[١٢].

وقوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن: يعني بذلك: نحر البدن ونحوها، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب القرظي والضحاك والربيع وعطاء الخرساني والحكم وإسماعيل بن أبي خالد وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام:١٢١] الآية.

قوله تعالى: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** الفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلما ذكر الله -تبارك وتعالى- ما أعطاه لنبيه -صلى الله عليه وسلم- من هذه النعم الجزيلة، وما تفضل عليه به من إعطائه الكوثر أمره أن يشكر ربه -تبارك وتعالى- بأن يصلي له دونما سواه، وأن يذبح له وأن ينحر له، ولا يتقرب بالنحر أو بالصلاة لغيره، فذكر هاتين العبادتين اللتين هما من أجلّ العبادات، وأفضلها، فالصلاة هي: عمود الإسلام، والصلاة المأمور بها هنا هي الصلاة مطلقة على الراجح، والنحر هو: من أجلّ القرب المالية، بمعنى: أنه يتقرب إلى الله -عز وجل- بنحر هذه النحائر من البُدن، وهي: أفضل وأجل وأعظم وأنفس أموال العرب، وشيخ الإسلام -رحمه الله- تكلم على هذا المعنى، أي: في بيان منزلة هذه العبادة من بين سائر العبادات، فذكر التقرب بهذا وهذا؛ ولهذا فإن من أحسن ما يفسر به هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- هو الآية الأخرى، أعني قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي}** [الأنعام:١٦٢]، يعني: نسيكتي، وهي: الذبيحة، وهذا على سبيل العموم، وهذا العموم هو الذي قال به ابن جرير، وما ذكره عن ابن عباس وعطاء ومجاهد

---

١١ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم: (٦٥٧٨).

١٢ - أخرجه أحمد، رقم: (٥٣٥٥)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الكوثر، رقم: (٣٣٦١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم: (٤٣٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة الكوثر، رقم: (١٩٥٠٧)، وابن جرير في تفسيره "جامع البيان" ت شاكر (٢٤/٦٤٥)، تفسير سورة الكوثر، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/٨٤٦)، رقم: (٤٦١٥).

وعكرمة والحسن قال: يعني بذلك: نحر البدن، بأي اعتبار؟ باعتبار أنه ذكر النحر، لكن هل هذا مقصود؟ بمعنى: هل الآية يقصد بها نحر البُدن فقط، أو التقرب إلى الله بالذبائح مطلقًا؟ المقصود هو الثاني، إذًا لماذا عُبر بالنحر فقال: {وَانْحَرْ}؟ هنا يُذكر أمران:

الأمر الأول: أن النحر وإن كان في الاستعمال الغالب أنه يقال لنحر البُدن إلا أن ذلك من جهة اللغة لا يختص بها، فقد يعبر عن ذبح البقر أو الغنم بالنحر، ولكنه استعمال قليل بالنسبة للاستعمال الكثير الشائع حيث يعبر بالنحر عن نحر البُدن، فهذه واحدة.

الأمر الثاني: هذا يبين ويدل على شرف البدن، يعني: كأنه عبر بالأشرف، وهو: التقرب إلى الله -تبارك وتعالى- بالبدن، وهي أفضل من الغنم بالنسبة للهدي، فهذا أكمل وأفضل بلا شك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في حجته أهدى الإبل، أي: البدن، فأهدى مائة بدنة -عليه الصلاة والسلام-[١٣]، وإن كان الأفضل على الأرجح بالنسبة للأضاحي الغنم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضحى بكبشين[١٤]، كما هو معلوم، على خلاف بين أهل العلم في الأضحية أيهما الأفضل.

فالمقصود: أن التقرب بالبدن أفضل من التقرب بالغنم في الجملة، ومن هنا عبر به لبيان -أو باعتبار- أنه الأشرف والأكمل والأفضل، مثل قوله: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [البقرة:١٩٦]، فقال: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ} والمعنى أي: ولا تقصروا، فالحكم واحد، فلماذا عبر بالحلق؟ باعتبار أنه الأكمل والأشرف، وهذه الآية تدل على أن الحلق أفضل من التقصير، مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اغفر للمحلقين)) قالها ثلاثًا -عليه الصلاة والسلام-[١٥]، فالحلق أكمل من التقصير، فعبر به، لكن التقصير له نفس الحكم، فهنا قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} يدخل فيه سائر أنواع التقربات إلى الله -تبارك وتعالى- بالذبائح، وإن لم تكن من قبيل ما ينحر، فهذان ملحظان يمكن أن يتبين بهما المراد -والله تعالى أعلم-، أي: أنه لا يقيد ذلك بالبُدن باعتبار أنه عبر بالنحر.

فإذا تبين هذا، وأن هذه البدن هي أشرف أموال العرب ومن ثَمَّ عبر بها، وأنه لا يتقيد بذلك، فإنه قد جاء عن بعض السلف التقييد بأمور معينة محددة في العبادتين، ففي الصلاة نحن قلنا: إن الصلاة المأمور بها هي: الصلاة مطلقة، ولكنه جاء عن بعض السلف كقتادة وعطاء وعكرمة: أنها صلاة العيد، فقوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ} يعني: صلاة العيد، وقوله: {وَانْحَرْ} يعني: الأضحية أو الهدي، مع أن هذا لا يخلو من إشكال، يعني: إذا كان حاجًّا فهو لا يصلي العيد، ويتقرب إلى الله بالبدن على سبيل الأفضلية إذا قلنا: إن النحر هنا أريد به البدن مثلاً؛ لأن الأضاحي -كما سبق- الأفضل: أن يكون ذلك بالغنم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- فعل الذي

---

١٣ - أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب: يتصدق بجلال البدن، رقم: (١٧١٨).

١٤ - أخرجه البخاري، كتاب الأضاحي، باب التكبير عند الذبح، رقم: (٥٥٦٥)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية، وذبحها مباشرة بلا توكيل، والتسمية والتكبير، رقم: (١٩٦٦).

١٥ - أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، رقم: (١٧٢٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير، رقم: (١٣٠٢).

هو الأفضل، إذًا إما أن نقول: إن النحر هنا يعبر به عن هذا وهذا، أو ننظر إلى الاستعمال الغالب في النحر، **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** وهو: نحر البدن، إذًا كيف يتأتى النحر مع صلاة العيد، فصلاة العيد بعدها يكون الذبح وليس النحر، ذبح الأضاحي، أما البدن فلا يكون معها صلاة عيد بالنسبة للحاج الذي يشرع في حقه على سبيل الأفضلية أن يقرب أو أن يكون هديه من البدن؟، هذا الموضع بهذا الاعتبار وبهذا المعنى: أنها صلاة العيد ونحر الأضاحي هو الذي حمل بعض أهل العلم إلى القول بأن هذه السورة أيضًا مدنية، هذا من جهة المعنى، ويكفينا في هذا حديث أنس، فإنه يدل على أنها مدنية، لكن هذا لوحظ من جهة المعنى أيضًا، وكما سبق أن مثل هذا غير معتبر في الحكم على السورة، والذين يقولون: إن السورة مكية، ويفسرون بهذا المعنى هنا، سيضطرون غالبًا إلى القول بأن هذه الآية مستثناة، مع أن الآية قد تنزل -كما سبق- سابقة لتقرير الحكم، وجاء عن سعيد بن جبير أن هذه الصلاة هي: صلاة الصبح، صلاة الفجر يوم النحر، انظر لم يقل: صلاة العيد، باعتبار أنها ما تشرع للحاج، فقال: صلِّ صلاة الصبح وانحر البدن في منى، فهذا الذي فسروا به جميعًا النحر: نحر البدن أو ما يهدى ويقرب في يوم النحر.

وذهب آخرون إلى معنى آخر تمامًا، حيث فسروا ذلك بأمر يتصل بالصلاة، فبعضهم يقول: يرفع يديه في الصلاة إذا كبر إلى حذو النحر عند التكبير، وهذا معنى بعيد، لكن هؤلاء الذين يفسرون بمثل هذا هم يعتمدون على روايات وأحاديث مرفوعة، لكن لا يصح منها شيء، هذا هو السبب، يعني: قد تُستغرب بعض الأقوال، ولكن إذا نظرت وتتبعت تجد أن لذلك أصلاً من رواية أو حديث لا يصح، وهكذا قول من قال: وانحر أي: يستقبل القبلة بنحره، وهذا بعيد، ولا يصح فيه شيء، وإن قاله بعض الكبار، كبعض أصحاب المعاني مثل الفراء وغيره، وهم نظروا أيضًا إلى أصل المعنى اللغوي، وهذه مشكلة موجودة في كتب معاني القرآن، باعتبار أنهم ينظرون إلى اللغة، فيفسرون بها، والأصل أن ينظر إلى تفسير القرآن بالقرآن، والسنة، وما نقل عن السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فهم أخذوا هذا من قول العرب: نتناحر يعني نتقابل، وهذا الاستعمال لا زال موجودًا إلى اليوم، فالناس لا يزالون يعبرون بهذا عندنا إلى اليوم، يقولون: انحر فلانًا يعني: قابله، باشره، القَه، فهذا معناه، فإذا قيل: دخل فلان فنحَرَه فلان، يعني: قابله، وقصده، ولقيه، ونحو ذلك، فمثل هذا لا يعتمد عليه في تفسير الآية بعيدًا عن سياقها، وما ورد عن السلف -رضي الله عنهم- في تفسيرها، وهكذا قول ابن الأعرابي: إنه يتوجه بنحره إلى المحراب في الصلاة، يعني: هذا يرجع إلى قول من قال: استقبال القبلة، وهكذا ما جاء عن عطاء: إن ذلك أمر من الله -تبارك وتعالى- بأن يستوي المصلي بين السجدتين جالسًا حتى يبدو نحره، وجاء عن بعضهم كسليمان التيمي أنه قال: هو أن يرفع يديه في الدعاء إلى نحره، فيكون مستوى الرفع إلى النحر، وهذه كلها لا دليل عليها، وفسره بعضهم: بوضع القبضة اليمنى على اليسرى، ووضع ذلك أعلى الصدر عند النحر، وهذا ورد فيه أيضًا بعض المرويات التي لا تصح، فكل هذا لا يصح منه شيء، لكن يقال: النحر المقصود به ما سبق، هذا الذي عليه عامة أهل العلم من السلف فمن بعدهم، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} أي: إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر: الأقل، الأذل، المنقطع ذكره.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: نزلت في العاص بن وائل.

وقال محمد بن إسحاق: عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة.

وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقال ابن عباس -أيضًا- وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش.

وروى البزار: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟، فقال: أنتم خير منه، قال: فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح[16].

وعن عطاء قال: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بُتر محمد الليلة، فأنزل الله في ذلك: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

قال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بُتر، فلما مات أبناء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: بتر محمد، فأنزل الله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد مستمرًّا على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة الكوثر، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى- {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، يقول: "**إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر: الأقل، الأذل، المنقطع ذكره**".

قوله: {شَانِئَكَ}، الشانئ هو: المبغض، قال الله: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ} [المائدة:8]، يعني: بغضهم، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا وسع المعنى، فقال: "**إن مبغضك، ومبغض ما جئت به من الحق**" وهذا صحيح، فإن من أبغض ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الدين والحق فهو داخل في هذا.

وقوله: {هُوَ الْأَبْتَرُ}، الأبتر هنا قال: "**الأقل، الأذل، المنقطع ذكره**"، وأهل اللغة يقولون: إن الأبتر من الرجال: ما لا ولد له، ومن الدواب: ما لا ذنَب له، يقال: هذا فرس أبتر، وجمل أبتر، يعني: قد قطع ذنبه، فلا ذنب له، وهكذا كل منقطع من الخير فهو أبتر، يعني: لا أثر له في الخير؛ لأن أصل هذه المادة يرجع إلى القطع، يقال: بُترت ساقه، يعني: قطعت، وهكذا، فمبغض النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الأبتر، أي: المنقطع عن الخير، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، ومثل هذا تقوله العرب في الذي لا يولد له، أو مات بنوه من الذكور؛ لأنهم كانوا يعتدون بذلك، وهكذا، فكل هذا يقال له عندهم: الأبتر، بمعنى: أنه ينقطع ذكره بعد موته؛

---

16 - أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر:3]، رقم: (11643)، وصاحب كتاب كشف الأستار عن زوائد البزار (3/83)، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر، رقم: (2293)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (9/292)، كتاب التاريخ، باب كتب النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم: (6538).

لأن الولد امتداد للإنسان، وبقاء لذكره وعمله، ومن هنا يقولون لمن انقطع ذكره بعد موته: أبتر؛ ولهذا يقولون: ما مات من خلف مثل فلان، إذا كان هؤلاء على حال مرضية، وكثير من الناس يموتون، وينقطع ذكرهم؛ لأنهم ما خلفوا عملاً يذكرون به، ولا خلفوا ولدًا صالحًا يدعو لهم.

فعلى كل حال هذا حال شانئ النبي -صلى الله عليه وسلم- مطلقًا، وهذه المرويات في أسباب النزول عامتها لا يصح، ولكنه صح ما أورده هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟، فقال: أنتم خير منه، قال: فنزلت: **{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}**، فهذه رواية صحيحة، وهي صريحة في سبب النزول، ولكن لا يعني ذلك الحصر، والعبرة بعموم الألفاظ والمعاني لا بخصوص الأسباب.

إذاً فكل مبغض للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ولما جاء به له نصيب من هذا؛ ولذلك انظر: ما الذي خلفه هؤلاء الذين عادوه وأبغضوه على امتداد التاريخ، ابتداء من الأعداء التقليديين في مكة من قريش، ومن جاء بعدهم؟ ما الذي بقي لهم؟ فإذا ذُكر أهل الإيمان كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وعمار وما أشبه ذلك، فالناس يترضون عليهم إلى قيام الساعة، وإذا ذُكر أبو جهل وأبو لهب، فكأنما ذكر الشيطان الرجيم، وأتبعهم الناس باللعن، وأقبح الأوصاف، ليس لهم ذكر جميل إطلاقًا، مع أن أبا لهب هو عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأبو جهل هو سيد قريش، فهذا هو الانقطاع الحقيقي، حينما ينقطع الإنسان من خيري الدنيا والآخرة، وينقطع ذكره الجميل، ويبقى له الذكر القبيح، أو أنه يمحى أثره تمامًا، وهكذا من جاء بعد هؤلاء إلى يومنا هذا، واعتبِرْ بما جعله الله -عز وجل- لأهل الإيمان، والعمل الصالح، والأثر الجميل في الناس، مع كثرة ما يقال فيهم من شانئيهم من الكلام القبيح، إلا أن ذلك لا يزيدهم إلا رفعة، وأما أولئك الذين يبغضونهم، ويبغضون ما هم عليه من الاتباع والعمل فإن هؤلاء ليس لهم منزلة، وليس لهم قيمة، وإنما هي كتابات يقتاتون بها لا تزيدهم عند الله وعند عباده الصالحين إلا بعدًا، فليس لهم منزلة، وليس لهم ذكر جميل، ولو أنهم يعقلون ويتعظون ويعتبرون لعرفوا ما هم عليه، وما هم فيه من الباطل والخوض في الباطل قبل فوات الأوان.

على كل حال، هنا ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الأبتر هو: الأقل، الأذل، المنقطع دابره، الذي لا عقب له، انظر إلى عبارته، وانظر إلى عبارة ابن كثير، فابن كثير يقول: الأبتر: الأقل، الأذل، المنقطع ذكره، وابن جرير يقول: الأبتر: الأقل، الأذل، المنقطع دابره، الذي لا عقب له، فمثل هذه العبارات تجمع بين الأقوال السابقة، الذي لا عقب له، والذي ليس له ذكر جميل، المنقطع دابره، الأقل، الأذل، كل ذلك داخل فيه.

على كل حال، انظر ما جعله الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- من الذكر الجميل، والرفعة، وانظر ما كان لأعدائه ومبغضيه من المهانة، والمذلة، وخمول الذكر، وهكذا أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعلى قدر اتباعهم يكون لهم من الرفعة، والمنزلة، والذكر الجميل.

وهذه السورة من حيث عدد الآيات والكلمات والحروف هي: أقصر سور القرآن، وأما بالنظر إلى الآيات وكونها ثلاث آيات فهناك ثلاث سور كلها ثلاث آيات، هذه السورة، وسورة النصر، وسورة العصر، لكن

حينما يقال: أقصر سورة هي سورة الكوثر فبالنظر إلى عدد الكلمات والحروف، بالإضافة إلى الآيات، لكنها تستوي مع سورتين في الآيات من حيث إنها ثلاث، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكافرون

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

يقول الإمام ابن كثير: **تفسير سورة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} وهي مكية.**

ثبت في صحيح مسلم عن جابر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ بهذه السورة، وبـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} في ركعتي الطواف[1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ بهما في ركعتي الفجر[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون:١]، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص:١][3].

وروى أحمد أيضًا: عن ابن عمر قال: رمقت النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعًا وعشرين مرة، أو خمسًا وعشرين مرة، يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[4].

وروى أحمد عن ابن عمر قال: رمقت النبي -صلى الله عليه وسلم- شهرًا، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، وأخرجه النسائي من وجه آخر عن أبي إسحاق به، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"[5].

وقد تقدم في الحديث: أنها تعدل ربع القرآن، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن[6].

---

١ - رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم (١٢١٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما، رقم (٧٢٦).

٣ - رواه أحمد، رقم (٤٧٦٣)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

٤ - رواه أحمد، رقم (٥٧٤١)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

٥ - رواه الترمذي، كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في تخفيف ركعتي الفجر والقراءة فيها، رقم (٤١٧)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء فيما يقرأ في الركعتين قبل الفجر، رقم (١١٤٩)، وأحمد، رقم (٥٦٩١)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

٦ - رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في إذا زلزلت، رقم (٢٨٩٥)، وأحمد، رقم (١٢٤٨٨)، وقال محقق المسند: "إسناده ضعيف".

سورة {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} هذه من السور التي اختلفوا فيها هل هي مكية أو مدنية.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إنها مكية، وحكى عليه الاتفاق، كذلك حكى هذا الاتفاق ابن عطية، وقال به جماعة من السلف كابن مسعود، وهو رواية عن ابن عباس، وبه قال الحسن وعكرمة.

ولكن هناك من قال: إنها مدنية، وهو أحد الروايتين عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبه قال قتادة والضحاك وابن الزبير.

هذه السورة تُذكر لها أسماء غير هذا الاسم المشهور: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} فيقال لها اختصارًا: "سورة الكافرون".

ويقال أيضاً: سورة الإخلاص؛ لأنها مع سورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تمثلان الإخلاص للمعبود، كما سيتضح من الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة.

وهكذا سماها بعضهم بـــ"سورة العبادة".

وأيضاً سميت بـــ"سورة الدين".

وتسمى مع سورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} بـــ"المُقشقِشتيْن" بمعنى أنهما تبرئان من الشرك وأوضاره، تقشقشان من الشرك، تبرئان منه، كما يقال لسورة براءة أيضاً: "المُقشقِشة" هذا يذكر في أسمائها المتعددة.

وهذه السورة تتحدث عن موضوع واحد، وهو التوحيد العملي الإرادي، وسورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تتحدث عن التوحيد القولي.

التوحيد القصدي الإرادي العملي: {لَا أَعْبُدُ} [الكافرون:٢] لذلك سميت بسورة العبادة، وسورة الإخلاص، فالإخلاص يكون من العبد لخالقه -جل جلاله.

وأما سورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فهي في صفة المعبود -تبارك وتعالى-، فهذا من التوحيد القولي، ولهذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بهاتين السورتين في هذه المواضع المذكورة، فالأولى في توحيد العبادة: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} فهي تيئيس للمشركين من عبادة معبوداتهم في جميع الأوقات، في الحاضر والمستقبل، كما سيأتي في الكلام على تفسير الآيات.

فيما يتعلق هنا بهذه الرواية الأخيرة يقول: "روى أحمد..." كون النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرؤها كثيرًا كل ذلك ثابت عنه -عليه الصلاة والسلام-، لكن الأخيرة يقول: وقد تقدم في الحديث: أنها تعدل ربع القرآن[٧] هذا فيه ضعف، وبعض أهل العلم حسنه، الشيخ الألباني قال: "حسن لغيره"، لكن دون ما ورد في الزلزلة، كون الزلزلة تعدل ربع القرآن، وفي بعض الروايات: نصف القرآن هذا لا يصح.

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:١-٦].

---

٧ - المصدر السابق.

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكنّ المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش.

وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} السور المفتتحة بالأمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: {قُلْ} خمس سور، ثلاث منها هي أمر له -عليه الصلاة والسلام- بالتبليغ، يعني قل لهم كذا، كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} [الجن:١] وهكذا أيضاً هذه السورة، وكذلك: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فهذه ثلاث النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بأن يبلغ ذلك، وأن يقوله.

والرابعة والخامسة هما المعوذتان، فذلك فيما يقوله هو -عليه الصلاة والسلام-، لتعويذ نفسه: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} يشمل كل كافر على وجه الأرض، باعتبار أن "الألف واللام" للجنس: {الْكَافِرُونَ} فيشمل كل كافر.

لكن ابن كثير -رحمه الله- هنا كغيره من المفسرين يقول: **ولكنّ المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش،** بأي اعتبار؟

يمكن أن يكون ذلك باعتبارين:

الاعتبار الأول: المرويات الواردة في سبب النزول، وهذه المرويات لو ثبتت لكان لهذا مستند.

والأمر الثاني: أن هذا أمر من الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقوله، فإذا قيل: هذه السورة نازلة بمكة، فإن الخطاب يتوجه فيها أول ما يتوجه إلى كفار قريش، يعني كأنهم نظروا إلى هذين الاعتبارين، فيكون هذا بالإضافة إلى إشكال يورده العلماء عادة في هذا الموضع، وهو من جهة المعنى أيضاً، حيث إن الله -عز وجل- أمره أن يقول: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} يعني على تفسيرها بأن ذلك في الماضي والمستقبل أيًّا كان الموضع الذي يراد به الماضي أو المستقبل، سواء الأول أو الثاني، على خلاف، كما سيأتي، فهنا لاسيما مع التعبير بالجملة الاسمية: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} يعني أنتم ملازمون لشرككم، لن تتحولوا عنه بحال من الأحوال، لا في الحاضر ولا في المستقبل.

ومعلوم أن بعضهم قد أسلم، فكيف كان ذلك الخطاب بهذا العموم لهؤلاء المشركين، مع أن بعضهم دخل في الإسلام؟.

فمِن هنا خصه بعض أهل العلم بفئة، ولم يحمله على العموم، تنوعت عباراتهم، واختلفت في ذلك، يعني بعضهم يقول: لما كانت هذه الآية خطابًا لمن سبق في علم الله -تبارك وتعالى- أنه لا يؤمن، قال: "ومن هنا يمكن أن يقال: إنها من قبيل العام المراد به الخصوص".

اللفظ عام، القالب عام، ولكن يراد به فئة من الكافرين التي قضى الله أن تبقى على الكفر، وتموت عليه: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، وعلى هذا مشى ابن جرير -رحمه الله- خروجًا من هذا الإشكال.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- لم ينحُ هذا المنحى في تفسيرها، وضعف هذا القول، مع أن هذا القول له وجه، يعني هو ليس بقول ساقط لا وجه له، أو أنه في غاية الوهاء والضعف، **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}** هذا بحسب المعنى الذي سيذكر بعده، فإذا فهم منه التأبيد -كما سيأتي- على بعض الأقوال: **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** يعني أنكم ستبقون على شرككم وكفركم، إذاً هذا لا يصدق على جميع الكفار بهذا الاعتبار.

لكن شيخ الإسلام -رحمه الله- يرى أن هذه الآية في هذا الخطاب "أل" للجنس، وأنه خطاب لعموم المشركين في كل زمان ومكان، وأن ذلك لا يختص بزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو بقريش وإنما هو عام، وأن من أسلم من هؤلاء خرج من هذا الوصف.

وهذا يتضح في الكلام على التفاصيل المتعلقة بالآيات، فإن هذا يمكن أن يتجه على بعض الأقوال.

"ولكنّ المواجَهين" إذا قرأتها هكذا "ولكنّ"، وإذا قلت: "ولكنْ" فإنها لا تكون عاملة، فيصح هنا: "ولكن المواجهون" ولهذا هنا عندنا مكسورة لالتقاء الساكنين، وإلا فهي ساكنة في الأصل: "ولكنِ المواجهون" فـــ"لكنْ" هنا لا تعمل، وإذا قرأتها "لكنّ" فهنا تكون عاملة، تنصب المبتدأ وترفع الخبر.

فقال: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} يعني من الأصنام والأنداد {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} وهو الله وحده لا شريك له، فـــ "ما" هاهنا بمعنى "مَن".**

هذه المواضع تحتاج إلى مناقشة: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** ما المراد؟ ما المعنى؟ وما موقع "ما" هنا؟

يقول: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} يعني من الأصنام والأنداد**، هم يعبدون الملائكة، أليس كذلك؟ **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}**، وعلى قول شيخ الإسلام أن ذلك لعموم المشركين في أي زمان ومكان، هناك من يعبدون المسيح -عليه الصلاة والسلام-، وهناك من يعبدون عزيرًا، هناك من يعبدون الجن، فهنا قال: **الأصنام والأنداد** بأي اعتبار؟

باعتبار أن "ما" هذه لغير العاقل، أن قريشاً كانوا يعبدون الأصنام في الجملة، ولكن يأتي مناقشة هذا: **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** وهو الله وحده لا شريك له، هنا يرد سؤال: هناك تُحمل على الأصنام، غير العاقل مثلاً، وسيأتي الكلام على هذا، لكن: **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** وهو الله -تبارك وتعالى- فكيف عبر بـــ"ما"؟

باعتبار أنها موصولة، وهذا أحد الأقوال، لكن هنا ابن كثير يقول: **فـــ"ما" هاهنا بمعنى "مَن"** **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** "ما" بمعنى "من" وكما هو معلوم أن "مَن" هي التي تستعمل لمن يوصف بالعلم، أو العقل، لكن هنا يعبر بالعلم باعتبار أن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، فالله موصوف بالعلم، فـــ "مَن" لمن يعلم، و "ما" لمن لا يعلم، هذا الأصل.

وأحسن ما يذكر في الجواب عن هذا -والله أعلم- هنا في هذا المقام: أنه إن أريد صفة من يعلم -من يوصف بالعلم- فإنه يعبر بـــ"ما" **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** فهم يعبدون الله -تبارك وتعالى- بزعمهم، ويعبدون غيره، ولكن الله الذي يعبدونه بشركهم ليس هو الذي يعبده النبي -صلى الله عليه وسلم- بأوصافه الكاملة: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص:١-٤] فهؤلاء يدعون أن الملائكة بنات الله، ويجعلون له الأنداد والشركاء، وهنا يقول: الله الذي تعبدونه ليس هو الذي أعبده،

فجاءت "ما" في هذا الموضع: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} مراعى فيه صفة المعبود، وأما إذا أريد الذات فإنه تأتي "مَن"؛ لأنها تكون لمن يوصف بالعلم، هذا ذكره شيخ الإسلام -رحمه الله-، وذكره أيضاً ابن القيم.

ثم قال: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:٢٣].

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لابد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} هذه أربع جمل، هذه الجمل الأربع هل فيها تكرار أو لا يوجد فيها تكرار؟.

من أهل العلم من يطلق بأنه لا يوجد تكرار في القرآن.

وبعضهم يقيد، مثل شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: لا يوجد جملتان متتابعتان مكررتان في القرآن، ولكنه قد يكون التكرار بعد فاصل.

فالحاصل أن الذين يطلقون، يقولون: لا يوجد تكرار، يحملون كل جملة على معنى آخر، وكما سبق في بعض المناسبات، مثل قوله في سورة المرسلات: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات:١٥] أن هذا كل جملة تتعلق بما قبلها، وكذلك أيضاً في سورة الرحمن: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن:١٣] كل جملة تتعلق بالمذكور قبلها، فلا يكون ذلك من قبيل التكرار، وهنا على قول عامة أهل العلم، الجماهير من السلف والخلف وإن اختلفوا في التفاصيل، فهم يقولون: هنا لا يوجد تكرار، بمعنى أن قوله: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} له محمل ومعنى، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} له محمل ومعنى، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} يقولون: هذه غير الأولى، هذه تدل على معنى آخر، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} هذه أيضاً غير الأخرى، فلها محمل آخر، وإن اختلفوا في تفاصيل ذلك.

مع أن هناك من يقول: إن ذلك كرر للتوكيد، لتيئيسهم من تحول النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى عبادة غير الله -عز وجل-، أن يعبد آلهتهم، فهو يؤيسهم من ذلك، فكرره بهذا الاعتبار.

لكن لو أردنا أن نستعرض الآن بعض ما قيل في معنى الجملتين الأُوليين، مع الجملتين الأخيرتين، فما محمل ذلك؟.

بعضهم يقول: إن الأوليين يعني قوله -تبارك وتعالى-: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} هذا في المستقبل: {لَا أَعْبُدُ} في المستقبل {مَا تَعْبُدُونَ} وإن "لا" هذه مثل "لن" {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}، وقالوا: إنه في الغالب "لا" هذه لا تدخل إلا على المضارع، "لا" النافية التي في معنى الاستقبال: {لَا أَعْبُدُ} أي في

المستقبل، لا أذهب معك يعني في المستقبل، يقولون: كما أن "ما" تدخل على المضارع الذي في معنى الحال، هكذا قالوا.

وهذا ليس محل اتفاق؛ لأن هذه الاختلافات واقعة بين أئمة اللغة، وأصحاب معاني القرآن.

وكذلك أيضاً لو نزلنا الأقوال على هذا أقوال السلف، وهم أهل لغة، فإنهم يفهمون المراد من مثل هذا، ومع ذلك حمله بعضهم على الماضي، وحمله بعضهم على المستقبل، هؤلاء يقولون: إن قوله: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} أعبد يعني في المستقبل، وإن قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} يعني في الماضي، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} يعني كذلك، {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} في المستقبل، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} في الماضي {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} في الماضي.

ويدخل فيه الحاضر ضمناً على هذا، لكن يأتي من صرح بأن ذلك في الحاضر، لكن هذا قول هؤلاء أصحاب القول الأول، شيخ الإسلام -رحمه الله- يرى أن الجملتين الأوليين أنهما للمستقبل، وأن الأخيرتين في الزمن الماضي.

وبعض أهل العلم يقول بعكس هذا، عكس القول الأول، يقول: إن الجملتين الأوليين للحاضر: {لَا أَعْبُدُ} الآن {مَا تَعْبُدُونَ}، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} الآن، {وَلَا أَنَا} في المستقبل {عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ}، {وَلَا أَنتُمْ} في المستقبل {عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} لن تتحولوا إلى عبادة إلهي، ولن أتحول إلى عبادة آلهتكم، فالحال مفترق، ولهذا قال: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} وهؤلاء الذين قالوا بهذا القول قالوا: إن قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} مثل هذا يدل على الاستقبال، تقول: أنا ذاهب إلى الرياض، يعني سأذهب، تقول: أنا ضارب زيداً، يعني تقصد في المستقبل، وهكذا، ولهذا قال مثل الفراء والأخفش: إن معناه: {لَا أَعْبُدُ} الساعة {مَا تَعْبُدُونَ}، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ} الساعة {مَا أَعْبُدُ}، أن الجملتين الأوليين للحاضر، {وَلَا أَنَا عَابِدٌ} في المستقبل: {مَّا عَبَدتُّمْ}، {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ} في المستقبل: {مَا أَعْبُدُ}، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ابن جرير يقول بعكس ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحم الله الجميع-.

ابن جرير يقول: "الأوليين للحاضر، والأخيرتين للمستقبل".

الزجاج يقول: نفى النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال، وفيما يستقبل، ونفى عنهم أيضاً كذلك، الزجاج يقول بهذا أيضاً الذي اختاره ابن جرير.

وبعض أهل العلم يقول: كل واحدة من هذه الجمل -يعني الأوليين أو الأخيرتين- كل ذلك يصلح للحال والمستقبل، ويقولون: لكننا نخص إحداهما بالحال والثانية للاستقبال، أو العكس، رفعًا للتكرار، يعني سواء قلنا بأن الأوليين للمستقبل: {لَا أَعْبُدُ} في المستقبل أو أن هذا في الحال، وأن الأخيرتين في المستقبل، وهذا كله صحيح في اللغة، والآية تحتمله، و التأسيس مقدم على التوكيد، يعني كونك تؤسس معنى جديداً أولى من أن تقول: هذا هو نفس المعنى السابق، وإنما كرر للتوكيد فقط، فإذًا على قول هؤلاء: تُفسَّر الجملتان الأوليان بما يقابل ما تُفسَّر به الأخيرتان، إذا فسرتَ الأوليين للحال، فسر الأخيرتين للاستقبال، وإذا عكستَ فاعكس، يعني هم رأوا أن اللفظ قابل لهذا في جميع هذه الجمل، ولا إشكال عند هؤلاء، مع أن بعض أهل العلم من لا يذهب

إلى شيء من ذلك، ويقول: هذا فيه تكلف، وشيء من التعسف في حمل هذه الآيات وتفسيرها، ويذكرون لهذا تعليلات وردودًا ومناقشات لا حاجة للتطويل بذكرها هنا.

إذًا ماذا يقال فيها؟.

يقولون: هذا جرى على طريقة العرب، أنهم يكررون الكلام للتوكيد، يقولون: يكرر الكلام، كرره هنا توكيدًا لهذا المعنى، وتيئيسًا لهم من عبادة معبوداتهم.

والذي عليه أهل العلم هو التفريق بين الجملتين الأوليين والأخيرتين، وإن اختلفوا في تفاصيل ذلك.

وشيخ الإسلام –رحمه الله– له كلام في هذا، سيأتي ذكره بعد نهاية تفسير السورة.

كما قال تعالى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس:٤١]، وقال: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [الشورى:١٥].

وقال البخاري: يقال: {لَكُمْ دِينُكُمْ} الكفر {وَلِيَ دِينِ} الإسلام، ولم يقل: ديني؛ لأن الآيات بالنون فحذف الياء، كما قال: {فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء:٧٨]، و {يَشْفِينِ} [الشعراء:٨٠].

مراعاةً لفواصل الآيات لتتحد: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} يعني أنتم لكم ملة ودين، وأنا لي ملة ودين، ونحن على خلاف وافتراق، لا يمكن أن نلتئم، وأن نجتمع بحال من الأحوال، فهذا معنى الدين، الدين بمعنى: الملة هنا، وإن كان يأتي لمعانٍ أخر، لكنه لا يفسر بها هذا الموضع من كتاب الله، وإن قال طائفة من أهل العلم: إن المقصود بالدين هنا الجزاء، لكم جزاء على أعمالكم وكفركم وعبادتكم لغير الله –عز وجل–، ولي جزاء آخر على الإيمان والتوحيد، لكم جزاؤكم ولي جزائي، لكم حسابكم ولي حسابي.

والذي عليه عامة أهل العلم هو تفسير الدين بالملة، أنتم على دين وأنا على دين، لا يمكن أن نلتقى، ولا يمكن أن نجتمع.

وهذه السورة أصل في إبطال التقريب، أو الدعوة إلى التقريب بين الأديان، أصل في هذا الباب، لن تتحولوا إلى ديني ولن أتحول إلى دينكم: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} فنحن مفترقون لا يمكن أن نلتقي، ولا يمكن أن نجتمع بحال من الأحوال؛ لأن الحال على ما وصف، وكما قيل: من خالف عقده عقدك –يعني خالف اعتقاده اعتقادك– خالف قلبه قلبك، ولابدّ، والناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم، تقودهم وتأسرهم، وينطلقون بناء على هذه المعتقدات حبًّا وبغضًا، تقريبًا وإبعادًا، موالاة ومعاداة، إلى غير ذلك من التصرفات الواقعية العملية الخارجية، كل هذا بناء على هذه المعتقدات، فلا يمكن أن يتحول ذلك إلى لون من الموادّة، إلا بالتخلي عن هذه العقائد، وهذا أمر غير ممكن، الناس تأسرهم عقائدهم، وانظر إلى كثرة ما يبذل من جهود في هذا السبيل، وإذا حدث أمر كشّر هؤلاء عن أنيابهم، وظهرت الحقائق على ما هي عليه، انظر إلى البوذيين على سبيل المثال الآن ماذا يفعلون في بورما في المسلمين، يحرقونهم حرقًا بقراهم، وهم أحياء، لا يفرقون بين طفل ولا امرأة، وهؤلاء لا يحملون سلاحًا، ولا يقاتلون، وهم أضعف من ذلك، هم في وضعهم الحالي الآن أضعف من أن يفكروا مجرد تفكير في هذا، ما يسمى بالمنظمات الإنسانية،هذه تحارَب غاية المحاربة، ولا يمكن أن تعمل إلا بصورة سرية على بذلٍ في غاية الضعف، في هذه المخيمات البائسة، منتهى البؤس، تجتمع خلائق في خيمة واحدة، من أسر مختلفة، هؤلاء من الوثنيين الذين يعملون هذه الأفاعيل، والأعمال

الشنيعة، ويقودون تلك الجموع البائسة من الوثنيين يحرقون المسلمين حرقًا، في وقت دعاوى حقوق الإنسان تملأ الفضاء، فبماذا يفسر هذا؟.

يفسر أن العقائد هذه تقود أصحابها، ولا يمكن أن يُطمس هذا بدوري كرة قدم، أو غير ذلك، يتبادل فيه الناس الابتسامات والضحكات والمجاملات، وما إلى ذلك، ويصورون مع بعضهم، أو نحو هذا، إذا جاء الجد كشر كل واحد عن أنيابه، الرافضة مهما أنفقتَ، ومهما أعطيت، ومهما بذلت، ومهما حاولت، ومهما قربت، ومهما جلست على طاولة مستديرة أو مستطيلة، ففي النهاية إذا جاء الجد ربط كل واحد عصابته، وبدأ لا أقول بالرصاص، بدأ بالسواطير، والعراق أكبر شاهد، يفعلون الأفاعيل، يجمعون الناس في ميدان عام، يصبون عليهم البنزين، ويشعلون بهم النار، ويتضاحكون، خبّاز لأن اسمه "عمر" فقط، رجل كبير في السن يدخل في النار، ويخرج مشويًّا؛ لأن اسمه "عمر"، وفي سوريا أشياء هائلة، نرى المقاطع، الطعن والضرب بالطابوق على الرأس، حقد ليس له نظير، تتقاصر دونه أفعال اليهود والنصارى، اليهود ما يفعلون هذا، غزة ضربت، لكن ما فعلوا مثل ما فعل بشار، وإذا أراد اليهود أن يقصفوا بيتًا، أو نحو هذا، قبل عشرين دقيقة يأتي اتصال لأهل هذا البيت، يقولون لهم: الآن سيضرب هذا البيت، بعد عشرين دقيقة، اطلعوا، وتأتي طائرة وتوزع منشورات في المحيط قبل مدة كافية، قبل يوم أو يومين، ويقولون: هذا البيت سيضرب، ابتعدوا عنه، هذا فعل اليهود، أما هؤلاء الرافضة، أو أولئك من الوثنيين من البوذيين الذين يقودهم هؤلاء الرهبان بالآلاف فإنهم يحاصرون القرية، ويحرقونها كاملة حرقًا، والرافضة كما رأينا في الصور والمشاهد يأخذون النساء والأطفال، يرمونهم على المزابل بعدما يذبحونهم ذبحًا بالسكاكين، بلا رحمة، يرمون الطفل، ولا كأنه سخلة، يلقيه في المزبلة، وأحيانًا يحرقونهم بعد ذبحهم.

هذه العقائد التي تحمل أصحابها على ذلك، فمهما بُذل في تخفيف، أو إزالة مثل هذه الأمور الكامنة في النفوس فإن ذلك لا يمكن أن يتأتى، وهذه السورة قررت هذا الأصل الكبير، لن تتحولوا إلى ديني، ولن أتحول إلى دينكم: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** تيئيساً لهم، انتهى، أنا أعبد الله، وأنتم تعبدون الشيطان، أنا من أولياء الله، وأنتم من أولياء إبليس، لا التقاء.

ما السبيل؟.

{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠] هؤلاء لا يعرفون إلا منطق القوة، عندك قوة ستحترم، وتقدر، ما عندك قوة سيتضاحكون عليك، ويفتلون شواربهم، وكل واحد يغمز للآخر، فتارة تجد نفسك في ملعب هذا، وتارة تجد نفسك في ملعب الثاني، وتضيع قضاياك في محافلهم الدولية، ويمضي عليها عشرات السنين، وفي كل مرة تقدم مزيدًا من التنازلات، ومزيدًا من الترجي والاستجداء لهم، وهم يتضاحكون، وإذا جاء الواحد منهم وشد نفسه أمام الإعلام، وبدأ يتكلم ويصرح تصريحات، ترى ملامح الكذب جميعًا على تقاطيع وجهه، أنه كذاب، حينما يتحدث عن قضية من قضايا المسلمين، وأنه سيفعل كذا، أو لن يقبل بكذا، والمسلمون يترجون وينتظرون ويأملون ويحاولون أن يحصلوا على مجرد تصريح إدانة، أو شجب، أو إنكار، أو تنديد لجريمة من هذه الجرائم العظام، ومن كان يتصور في هذا العصر- عصر الصورة والنقل المباشر- أن يجري ما يجري الآن في سوريا، أو في بورما؟ من

كان يتصور؟ الناس قد يظنون ويتوهمون قبل ذلك أنه لا، الآن عصر الإعلام، والإعلام سلاح ضارب، وأن هذه الصور التي تنقل مباشرة لا يمكن حصول هذه التجاوزات معها، وأن العالم الحر لا يمكن أن يقبل هذا، وأنا لا تقل شفقتي ورحمتي إذا رأيت هؤلاء من إخواننا الذين يقتلون هذه القتلات البشعة، لا تقل شفقتي بهؤلاء الذين ينقلون صورًا وهم معذورون، هذا الذي بيدهم، ينقلون صور أطفال، هذا طفل على مزبلة، هذا طفل نائم على الرصيف، لعل ضمير العالم الحر يتحرك، هذا عالم ميت، فهو لا يتحرك في قضايا المسلمين صوِّرْ أطفال أو لا تصور، فلا تتعب نفسك، وتنشر هذه الصور عل أحدًا منهم يتعاطف إذا رأى الأطفال في هذه الصورة البائسة، ودماء هؤلاء الصغار تنزف، والواحد منهم ملقى هنا أو هناك، أو يأكل من المزابل، أو نحو ذلك، هذا عالم قد مات ضميره، ولا يمكن أن يرتجى من هؤلاء الكفار الذين هم على دين ونحن على دين أن يقفوا معك، وأن ينصروك؛ لأنهم أعداء، هم فعلوا مثل هذا أيضاً في مواقف ومواطن، ومواقع أخرى، ماذا فعلوا؟

هذه الأمة في كل لحظة ينتاشها عدو من هنا وهناك، تارة وثني، وتارة ملحد، وتارة من السيخ، وتارة من الهندوس، وتارة من اليهود، وتارة من النصارى، وتارة من الرافضة، فإذا نظرت إلى جرائم الرافضة قلت: هؤلاء أشد الأعداء، وإذا سلطت الضوء على جرائم النصارى، وما فعلوا بالمسلمين في مواقع، قلت: هؤلاء أشد الأعداء، وإذا سلطت الضوء على اليهود، وماذا فعلوا، قلت: هؤلاء أشد الأعداء، وإذا نظرت إلى فعل الملاحدة والروس، وما فعلوا بالمسلمين قلت: هؤلاء أشد الأعداء.

"استالين" ماذا فعل؟

أكثَرَ القتلى من المسلمين، كم قُتل؟ من المسلمين أكثر من أربعين مليونًا، هذه أرقام، وقتل من المسلمين ومن غير المسلمين، من المسلمين لا يقل عن أربعين مليونًا، الذين قُتلوا، صور قديمة رأينا بعضًا منها، تحملهم الجرافات، الجثث مثل الجبال، وهكذا إذا نظرت إلى جرائم كل طائفة من هذه الطوائف من الأعداء، قلت: هؤلاء أعدى الأعداء، والنتيجة من هذه الصورة جميعًا إذا ركّبتها صار الأمر جليًّا أن هؤلاء جميعًا هم أعداؤك، فلا تنتظر منهم نصراً، ولكن العجيب أن الكثير من أبناء المسلمين لا زالوا في سكرة في الشهوات، وفي غمرة في الإعجاب بهؤلاء، وفي تقليدهم، والتزيي بأزيائهم، ومحاكاتهم، والإعجاب بأذواقهم، هذا كيف يكون مع ما يشاهد من فعلهم بالمسلمين؟! نسأل الله العافية.

ولعلي أذكر جملاً من كلام شيخ الإسلام –رحمه الله– في تفسير هذه الآية وكلامه طويل جدًّا، لكن سأقتصر على بعض الجمل، هنا عبارة ابن كثير –رحمه الله– نقلها في قوله: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** يقول: "إن المراد نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية: **{لَا أَعْبُدُ}**، **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ}** نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد: **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ}** فكأنه نفى الفعلَ وكونَه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً" وابن كثير يقول: "هذا قول حسن".

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فقوله: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} يتناول شركهم، فإنه ليس بعبادة لله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له، وإن دعوه وصلّوا له"[٨].

تأمل لما جاء هنا الكلام على "ما" والوصف.

ويقول: "وأيضًا فما عبدوا ما يعبده، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص، بل هذا يتناول عبادته وحده، ويتناول الرب الذي أخبر به، بما له من الأسماء والصفات، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه"[٩].

يعني أن هذا مراعى فيه الصفة: {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}.

ويقول: "إذا تبين هذا فنقول: الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم، سوى الماضي، فيعم الحاضر والمستقبل" -يعني: {أَعْبُدُ} هذا مضارع يشمل الحاضر والمستقبل- "كما قال سيبويه: "وبنوْه لما مضى من الزمان ولما هو دائم لم ينقطع ولما لم يأتِ بمعنى الماضي والمضارع وفعل الأمر".

"فجعل المضارع لما هو من الزمان دائمًا لم ينقطع، وقد يتناول الحاضر والمستقبل، فقوله: {لَا أَعْبُدُ} يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله: {مَا تَعْبُدُونَ} يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل، كلاهما مضارع.

وقال في الجملة الثانية عن نفسه: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} فلم يقل: "لا أعبد" بل قال: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ} ولم يقل: "ما تعبدون" بل قال: {مَّا عَبَدتُّمْ} فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى، والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى، فإنه قال: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي؛ لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى".

ويقول -رحمه الله-: "فقوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولا مما عبدوه في الحال والاستقبال.

فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماضٍ وحاضر ومستقبل. وقوله أولا: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} لا يتناول هذا كله".

وتكلم على قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ} يقول: "هذا اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافًا، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضًا، لكنه جملة اسمية، والنفي بـــ"ما" بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله" يقول: "أبلغ من قولك: "ما يفعله أبدًا" فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك: "ما

---

٨ - مجموع الفتاوى (١٦/٥٥٠).

٩ - المصدر السابق.

يفعل هذا" فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له، ولا ينبغي له، بخلاف قوله: "ما هو فاعلا، وما هو بفاعل"[١٠].

يعني: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ هذا يدل على نفي الإمكان أصلاً، وله كلام كثير في هذا المعنى، يمكن مراجعته، يقول مثلا في قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ "أي نفسي لا تقبل، ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأي معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات".

تأمل يعني الجملتين الأوليين عنده في المستقبل، والأخيرتين في الماضي.

ويقول: "ففي هذا –أي في الجمل الأربع– من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه، وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبودًا لهم، ولو في بعض الزمان الماضي فقط، والتقدير: ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبدًا"[١١]، إلى آخر ما ذكر.

ومما قال أيضًا في الكلام على "ما" و"من" يقول هنا: فـــ"ما" هي لما لا يعلم، يعني يقولون لغير العاقل، ولصفات من يعلم، ولهذا تكون للجنس العام؛ لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته، كما قال: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣] أي: الذي طاب، والطيب من النساء، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب وقصد هذه الصفة، دون مجرد العين عبر بـــ"ما" –العين يعني الذات– أي: لم يقصد الذات فقط، ولو عبر بـــ"مَن" كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف، حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة كما إذا قلت: جاءني من يعرف، ومن كان أمس في المسجد، ومن فعل كذا، ونحو ذلك، فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف، وإن كانت تلك الصفة قد ذهبت"[١٢]، إلى آخر ما ذكر.

والقول بأن ذلك قد نسخ، يعني قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ باعتبار أن هذا دل على المتاركة، مع أنه أمر بمجاهدتهم في آخر الأمر، هذا غير صحيح، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، لكنه هنا هذا مقام البراءة من دين المشركين، ومن معبوداتهم، وليس الكلام في ما يتصل بجهادهم وقتالهم.

وفي كلام لابن القيم تفاصيل جيدة، بعدما ذكر الأقوال وناقشها واحداً واحدًا، كلام فيه تفاصيل، وفيه شيء من الطول، لكن نقرؤه قراءة خفيفة، قراءة سريعة، نترك الأقوال ومناقشة الأقوال، ونأتي للمعاني التي قررها والفوائد التي استخرجها، ذكر ما يقرب من إحدى عشرة مسألة وفائدة من هذه السورة، فوائد جميلة، وسؤالات ترد، ثم بعد ذلك بين وجه الجواب عنها.

قال الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا فلنذكر فائدة ثانية: تكرير الأفعال في هذه السورة، ثم فائدة ثالثة: كونه كرر الفعل في حق نفسه"، –تأمل هنا يورد المسائل أو الفوائد والقضايا

---

١٠ – المصدر السابق (١٦/٥٥٢–٥٥٣).

١١ – المصدر السابق (١٦/٥٥٤).

١٢ – المصدر السابق (١٦/٥٩٦).

التي سيتحدث عنها لماذا كذا؟ لماذا كذا؟ بعدما ناقش الأقوال-، "كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين، وأتى في حقهم بالماضي، ثم فائدة رابعة: وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل، ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـــ"لا" دون "لن"، ثم فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة "لا إله إلا الله" فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض؟ وما سر ذلك؟، وفائدة سابعة: وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم، ثم نفي عبادتهم عن معبوده؟، وفائدة ثامنة: وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا، كقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ}** [التحريم:٧]، وقوله: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ}** [الجمعة:٦] ولم يجئ "يا أيها الكافرون" إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟، وفائدة تاسعة: وهي هل في قوله: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كلٍّ بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور؟ وفائدة عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة، وفائدة حادية عشرة: وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار: أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا، الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم، فهل هذا متاركة وسكوت عنهم فيدخله النسخ بالسيف أو التخصيص ببعض الكفار، أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة وقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي: وقوع "ما" فيها بدل "من" فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله، مستعينين بحوله وقوته، متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بريئان منه".

وكلام ابن القيم على "مَن" و "ما" مثل كلام شيخ الإسلام.

"وأما المسألة الثانية، وهي: فائدة تكرار الأفعال فقيل فيه وجوه: أحدها: أن قوله: **{لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** نفي للحال والمستقبل.

وقوله: **{وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** مقابلة، أي: لا تفعلون ذلك.

وقوله: **{وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ}** أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: **{مَا عَبَدْتُمْ}** فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: **{وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** مقابله، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائماً، وعلى هذا فلا تكرار أصلاً، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً -وهذا قول شيخ الإسلام- عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأحضره وأبينه، وهذا -إن شاء الله- أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

وأما المسألة الثالثة: وهي تكريره الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه، وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده، والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام لا يرضي به بدلا، ولا يبغي عنه حولا، بخلاف الكافرين فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم"

باعتبار أن الجملة الاسمية تدل على الثبوت "عابد" لا يتحرك ولا يتزعزع، ولا يتغير ولا يبدل، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، أما هم: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** فهؤلاء لهم معبودات مختلفة متفرقة، في كل حين لهم هوى يتبعونه.

قال: "فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبوداً وغدًا غيره، فقال: **{لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** يعني الآن **{وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** أنا الآن أيضاً، ثم قال: **{وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ}** يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون، وأشبهت "ما" هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها؟ قلنا: لم نقل إنها نفسها شرط، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه، لوقوعها على غير معين وإيهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط بادياً على صفحاته، فإذا قلت لرجلٍ ما تخالفه في كل ما يفعل: أنا لا أفعل ما تفعل، ألست ترى معنى الشرط قائماً في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام: مهما فعلتَ من شيء فإني لا أفعله، وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: **{قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}** [مريم:٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه، حتى وقع الفعل بعد "مَن" بلفظ الماضي والمراد به المستقبل، وأن المعنى من كان في المهد صبيًّا كيف نكلمه؟ وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين: "أن كان نبيًّا"، بمعنى يكون، لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلا من تقدير وتنزيل، وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته، فقالوا: "كان" زائدة، والوجه ما أخبرتك فخذه عفوًا، لك غنمه وعلى سواك غرمه، إلا على مَن في الآية قد عمل فيها الفعل وليس لها جواب، ومعنى الشرطية قائم فيها فكذلك في قوله: **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ}** وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة كالزجاج وغيره، فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله: **{وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ}** بخلاف قوله: **{وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** لبعد ما فيها عن معنى الشرط، تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

أما المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأتِ النفي في حقهم إلا باسم الفاعل وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة، وباسم الفاعل أخرى، فذلك -والله أعلم- لحكمة بديعة، وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل في الثاني، أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً لي، ولا وصفاً، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي، وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت لمن خص اللهَ

وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لما عبدتم غيره، فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله، ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: **{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}** [الكهف:١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [الزمر:٣] فهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره، فلم ينتفِ عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله، موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله، وأنه عبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فلله الحمد والمنة.

وأما المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة "لا" دون "لن" فلما تقدم تحقيقه عن قرب، أن النفي بـــ"لا" أبلغ منه بـــ"لن"، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من "لن" وأنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن "لن" إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحالَ المستمرَّ النفيَ في الاستقبال، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق، فالإتيان بـــ"لا" متعين هنا، والله أعلم.

وأما المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، وهذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً، فقوله: **{لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** براءة محضة **{وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** إثبات أن له معبوداً يعبده وحده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: **{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}** [الزخرف:٢٦-٢٧] وطابقت قول الفئة الموحدة: **{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ}** [الكهف:١٦] فانتظمت حقيقة "لا إله إلا الله"، ولهذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقرنها بسورة: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني: توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}** مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان –صلى الله عليه وسلم– يفتتح بهما النهار في

سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونان خاتمة عمل الليل، كما كانا خاتمة عمل النهار.

ومن هنا تخريج جواب المسألة السابعة، وهي: تقديم براءته من معبودهم ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده، فتأمله.

وأما المسألة الثامنة، وهي: إثباته هنا بلفظ: **{يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}** دون: يا أيها الذين كفروا فسرُّه –والله أعلم– إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفاً ثابتاً له لازماً لا يفارقه فهو حقيق أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضاً بريئاً من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم، ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لي دائما أبداً، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار في مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح.

وأما المسألة التاسعة: وهي ما الفائدة في قوله: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** وهل أفاد هذا معنى زائداً على ما تقدم؟ فيقال: في ذلك من الحكمة –والله أعلم– أن النفي الأول أفاد البراءة، وأنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً، فقال له: لا تدخل في حدي، ولا أدخل في حدك، لك أرضك ولي أرضي، فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به لا نشرككم به، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه، وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبى القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خود تزف إلى ضرير مقعد، فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله إتمام نعمته.

وأما المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة، واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد أبرز النصيبين، وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردأ منه، ولا أدون، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف، والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سُمًّا وشفاءً، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي، فتقدُّم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين، وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به، والنداء على سوء اختياره، وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفطن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثانٍ وهو أن مقصود السورة براءته -صلى الله عليه وسلم- من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبُّها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملاً لبراءته ومحققاً لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء قوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ} مطابقًا لهذا المعنى، أي: لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين باطل تختصون أنتم به ولا أشرككم فيه أبداً، فطابق آخر السورة أولها، فتأمل.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو مخصوصاً أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟، فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يُقَرون على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وعمومها نص محفوظ وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص، كما تقدم، ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: منسوخ.

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص بأهل الكتاب، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم، أو إقراراً على دينهم أبداً، فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه، أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل نادٍ، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضيًّا على الإنكار عليهم، وعيب دينهم، فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟، معاذ الله من هذا الزعم الباطل، وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة، كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدّعوا النسخ أو التخصيص؟ أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}؟، بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده، وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منهم ومن بدعتهم، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان، فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة، والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استجلاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه، والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها، وعسى الله المانُّ بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسيرٍ على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت على

مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته"[١٣].

لو كتب تفسيرًا بهذه الطريقة لأغنى عن كتب التفسير -رحمه الله-، هذا من غير كتاب ولا رجوع إلى مصادر، فكيف لو رجع إلى المصادر؟!.

فلا تستطيلوا هذا الكلام، فهذا لا يوجد في كتب التفسير، ولا قريبٌ منه.

---

١٣ - انظر: بدائع الفوائد (١/١٣٤-١٤٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النصر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير: تفسير سورة: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر:١]، وهي: مدنية.

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، و"إذا زلزلت" تعدل ربع القرآن.

وروى النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، قال: صدقت[١].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة هي: سورة: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، ويقال لها أيضًا: سورة النصر، ويقال لها أيضًا: سورة الفتح، وسماها بعضهم: بسورة التوديع، فهذه أسماء تذكر لهذه السورة، وهي من السور المدنية اتفاقاً، فلا خلاف في ذلك، وحينما يقال: إن هذه السورة آخر ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتجدون أيضًا حينما تذكر سورة المائدة يقال: إنها آخر ما نزل، وحينما تذكر براءة يقال: آخر ما نزل، فهذا كله لا إشكال فيه، فالمقصود: أن آخر سورة نزلت كاملة: سورة {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، وآخر السور النازلة في الأحكام: سورة المائدة، آخر ما نزل، فهم يقصدون: أنه لم ينسخ منها شيء، مع أن هذا ليس على إطلاقه، وآخر ما نزل في الجهاد والقتال: سورة براءة، فهي آخر ما نزل، فهذه تقال في مناسبات، وكل ذلك في موضعه صحيح، لكن آخر سورة نزلت كاملة هي هذه.

وأما حينما يقال: آخر ما نزل من القرآن من الآيات في سورة البقرة: الربا، {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة:٢٨١]، وآية الدين، هي آخر ما نزل، فهذا آخر ما نزل على الإطلاق، أي: آخر ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- من القرآن مطلقًا، يعني: لا يقيد بسورة، لكن سورة كاملة هي: هذه السورة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر:١-٣].

روى البخاري: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم

---

١ - أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة النصر، رقم: (١١٦٤٩)، وهو في مسلم، في أوائل كتاب التفسير، رقم: (٣٠٢٤).

فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم، فقال: ما تقولون في قول الله، -عز وجل-: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلمه له، قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فذلك علامة أجلك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: لا أعلم منها إلا ما تقول، تفرد به البخاري[٢].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نُعِيَتْ إليّ نفسي))، فإنه مقبوض في تلك السنة، تفرد به أحمد[٣].

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن، وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي[٤].

وروى الإمام أحمد: عن مسروق قال: قالت عائشة -رضي الله عنها-: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكثر في آخر أمره من قول: ((سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه))، وقال: ((إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابًا، فقد رأيتها: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا})) رواه مسلم[٥].

والمراد بالفتح هاهنا: فتح مكة قولاً واحدًا.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((نُعيتْ إليّ نفسي)) لما نزلت عليه: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، هذا إسناده فيه ضعف، والشيخ الألباني -رحمه الله- حسن إسناده عند الدارمي، وهو عند الدارمي بلفظ مقارب لما عند الإمام أحمد -رحمه الله-، ولكن أثر ابن عباس السابق، وكذلك أيضًا هذا الحديث بلفظه الآخر -فقد جاء من غير وجه- كل ذلك يدل على هذا المعنى الذي ذكره ابن عباس -رضي الله عنهما-، وأقره عليه عمر الخليفة المُحَدَّث -رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

٢ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر: ٣] "تواب على العباد والتواب من الناس التائب من الذنب"، رقم: (٤٩٧٠).

٣ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (١٨٧٣)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/١٦٨٤)، رقم: (٥٩٦٩)، بلفظ مقارب لهذا.

٤ - أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم: (٨١٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: (٤٨٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود، رقم: (٨٧٧)، والنسائي، كتاب التطبيق، نوع آخر من الذكر في الركوع، رقم: (١٠٤٧)، وابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم: (٨٨٩).

٥ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (٢٤٠٦٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: (٤٨٤).

هذا المعنى الذي ذكره ابن عباس -رضي الله عنهما- يمكن أن يكون قد عرف ذلك من الحديث، ويمكن أن يكون قد عرف ذلك استنباطًا، علمه استنباطًا، وذلك أن هذه السورة مشعرة بانتهاء المهمة التي جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعث من أجلها، فجعل له هذه الأمارة والعلامة: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}، فهنا لم يبقَ عليك في ختم هذا العمل، والقيام بمهام الرسالة والبلاغ إلا أن تشتغل بالتسبيح بحمد ربك والاستغفار، كما هو المشروع في خواتم الأعمال، فإذا قضى المسلم أعمال الحج فإنه يشرع له الذكر والإكثار منه: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة:٢٠٠]، وكذلك حينما يكون الفراغ من الصلاة فإنه يشرع الذكر، إلى غير ذلك من المواضع، فهنا انتهاء الرسالة مناسب معه ما ذكر، وذلك يدل على اقتراب أجله -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك في الحديث الآخر حديث عائشة: ((إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابًا، فقد رأيتها: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ})).

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا حينما كان يطبق ويحقق ما أمره الله -عز وجل- به، يعني: يتأول القرآن، فإن التأول هنا بمعنى: الامتثال والعمل، امتثال ما أمره الله -تبارك وتعالى- به، فذلك يكون تأولاً وتأويلاً، فالتأويل تارة يكون ببيان المعنى، وتارة يكون بأمر عملي، إما بوقوع الشيء، أي بإيقاع الله -عز وجل- له، وإما أن يكون بفعل المكلف وامتثاله، كما في فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما كان يمتثل ويقول ذلك، أما ما يتصل بإيقاع الله -تبارك وتعالى- فهذا مثل ما أخبر به من وقوع القيامة، ونحو ذلك، كقوله: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} [الأعراف:٥٣]، فإذا أوقعها الله -عز وجل- فهذا تأويل للخبر عنها، فيكون التأويل في الجملة بهذا الاعتبار يرجع إلى شيئين:

الأول: من قبيل التفسير، سواء كان تأويل الألفاظ بالكشف عنها والتفسير، أو كان ذلك من قبيل تأويل الرؤى، بمعنى: التعبير والتفسير، كقوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [يوسف:٣٦].

الثاني: يكون ذلك بأمر عملي من المكلف، أو بما يوقعه الله -عز وجل-، ففعل المكلف مثل هذا، وما يوقعه الله -تبارك وتعالى- كقوله: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} [يوسف:١٠٠]، أي: تحققت الرؤيا في نهاية الأمر، وكذلك ما أخبر الله عنه من الأمور الكائنة في الغيوب المستقبلة، فإذا وقع ذلك فهذا من قبيل التأويل.

فقوله هنا: "يتأول القرآن"، أي: يعمل به، ولاحظ أنه كان يقول -صلى الله عليه وسلم-: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن، فيقول: سبحان الله وبحمده، وهذا يدل على تفسير هذا الموضع مهما تكرر في كتاب الله -تبارك وتعالى- من الإخبار عن التسبيح بحمد الله، أو الأمر به، فإنه يكون بمثل هذا: أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، فهذا هو التسبيح بحمد الله، وستجدون في كتب التفسير عبارات كثيرة عن المراد بالتسبيح بحمد الله -عز وجل-، منها: يسبح متلبسًا بحمده، كيف يكون التسبيح متلبسًا بحمده؟ أن يقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل، وهذا أحسن ما يفسر به هذا الموضع، وما شابهه في كتاب الله -تبارك وتعالى.

وأما الموضوع الذي تدور حوله هذه السورة فهو موضوع واحد، وهو: الأمارة التي يَعْرِف بها النبي -صلى الله عليه وسلم- قرب انتهاء أجله، وعندها يشتغل بما أُمِرَ به من التسبيح... إلى آخره؛ ولهذا فإن العلماء

يقولون: إن ذلك يكون مشروعًا ومتأكدًا لمن قارب الأجل، إما بتقدم السن، فإنه يُكثر من هذا، وإما بوقوع مرض الموت المخوف، أي: كأن يكون فيه مرض خطير، مرض يموت منه الإنسان عادة، فإنه يكثر من قول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يكثر منها في سجوده، وفي ركوعه، تأويلا لقوله: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**والمراد بالفتح هاهنا: فتح مكة قولاً واحدًا**"، وأيضًا ممن قال: إن هذا بالاتفاق قبله ابن جرير -رحمه الله-، وقال به بعده الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، ولكن الواقع أن من العلماء من قال بغير ذلك في المراد بالفتح في قوله: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، ولكن هذا هو الظاهر المتبادر الذي لا يصح العدول عنه، ولكن العلماء منهم من قال بغير هذا.

فتفسير الآية على ما ذكره ابن كثير: إذا جاءك نصر الله على هؤلاء المشركين من كفار قريش، وجاءك الفتح الذي هو: فتح مكة، **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**، هو الذي يقوله عامة المفسرين، ولكنه ليس محل اتفاق، فإن بعضهم يقول: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ}** يقولون: هذا مطلق على قريش، فقيدوه من غير فتح مكة، وهذا فيه بعد، وبعضهم جعل الإطلاق فيه أوسع، قالوا: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ}** أي: على الأعداء، على الكفار مطلقًا، ولا يختص ذلك بقريش، ولهذا قالت طائفة: إن المراد بالفتح: فتح سائر البلاد، باعتبار أن الله لم يقيد ذلك بفتح معين، **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ}** أي: نصرَك الله على الأعداء، وتحقق فتح البلاد المختلفة، فعندئذ **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**، وبعضهم ذهب إلى ما هو أبعد من هذا من جهة التفسير والمعنى، فقالوا: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** المقصود: فتح العلوم عليه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا في غاية البعد، وإنما ذكرت ذلك لبيان أن أقوال العلماء وأقوال المفسرين لم تكن متفقة في تفسير هذا الموضع، وبعضهم يقول غير هذا، فبعضهم فسر النصر: بكمال الدين، والفتح: بإقبال الدنيا الذي هو: إتمام النعمة عليه وعلى أمته -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: النصر هو: الظفر، والفتح هو: الجنة، فانظروا إلى هذه الأقوال.

لكن تفسير الآية هو: ما ذكره الحافظ ابن كثير وابن جرير وجمهور المفسرين: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، النصر بمعنى: المعونة، بمعنى: أن الله أعانه على عدوه، وقواه، وأيده، فظفر بهم، والفتح هو: فتح مكة، ومن ثَمّ فإن النصر هنا يكون مقدمة للفتح، فإن هذا الفتح يعد انتصارًا ساحقًا على هذا العدو التقليدي للمسلمين، فإن العرب كانت تترقب وتتلوّم بإسلامها، أي: يتأخرون وينتظرون ما يحصل للنبي -صلى الله عليه وسلم- مع قومه من قريش، حيث إن هذه القبيلة تعتبر بمنزلة القيادة والريادة بالنسبة لسائر القبائل، فهم أهل الحرم، والعرب على ذكر تام لما جرى لأصحاب الفيل، فكانوا ينتظرون: إن ظهر على قومه فإنه نبي، ومن ثَمَّ فإنهم يبايعونه ويتابعونه؛ ولهذا لما فتحت مكة انتهى جل الصراع في جزيرة العرب، يعني: الغزوات التي بعد فتح مكة في جزيرة العرب لا تذكر بالنسبة لما كان قبلها، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك غزا الطائف، ووقعت وقعة حنين، وغزا الروم، لكن وفود العرب من أنحاء الجزيرة كانت بعد الفتح، فقد توافدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنة التاسعة، والفتح كان في السنة الثامنة، ولكثرة تلك الوفود في ذلك العام سمي بعام الوفود، فقد وفد أكثر من سبعين وفدًا، وجاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في تلك

السنة، ولهذا سمي بعام الوفود، وجاءوا مبايعين طائعين مذعنين يمثلون قبائلهم وقومهم، فهذا الفتح هو بهذه المثابة، يعني: هو ليس مجرد فتح مكة فقط، بل إنه فتح على الإسلام، حيث دخلت القبائل في دين الله، ففتح مكة كان أكبر من مجرد فتح بلد بعينه، بل كان سببًا لفتوح، فهو فتح كبير، فأطلق هنا ذكره، فالمقصود به: فتح مكة، ولكن هذا الفتح ليس كالفتوح الأخرى، يعني: هو أشبه ما يكون بإزالة عقبة تفجر منها نهر الإسلام، وتدفق في كل ناحية.

وهنا ذكر النصر **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** ثم ذكر الفتح بعده؛ باعتبار أن النصر مقدمة للفتح، فأعانه الله -عز وجل- عليهم، وقواه، فكانت النتيجة هي: الفتح، فالفتح نتيجة للنصر، وقد يكون النصر من غير فتح، فالفتح غير النصر، فقد يحصل انتصار لكن من غير فتح، يعني: حينما انتصر المسلمون على المشركين في يوم أحد في أول المعركة: هل يعد هذا من الفتح بهذا الاعتبار الذي ذكر؟

الجواب: لا، وإن كان النصر في أصله من قبيل الفتح؛ لأن أصل الفتح كما سبق عند قوله: **{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ}** [الأنفال:١٩]، يقال له: الحُكم، والحُكم يقال له: فتح، والحاكم: فتّاح، ويقال للحُكم: فُتَاحة، وهذا لا إشكال فيه، لكن المقصود هنا بقوله: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** أنه قد يقع نصر من غير فتح، بمعنى: فتح بلد، وقد تفتح البلاد من غير قتال، وانتصار في ميدان المعركة، ولكنه انتصار الدين، وانتصار الإسلام، وانتصار المبادئ كما يقولون اليوم.

قال -رحمه الله تعالى-: والمراد بالفتح هاهنا: فتح مكة قولاً واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة.

معنى يتلومون يعني: ينتظرون.

قال: يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمضِ سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مُظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانت الأحياء تَتَلَوّمُ بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي...، الحديث[٦].

وقد حَرّرنا غزوة الفتح في كتابنا: السيرة، فمن أراده فليراجعه هناك، ولله الحمد والمنة.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي عمار: حدثني جارٌ لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله فسلم عليّ، فجعلت أحدّثهُ عن افتراق الناس، وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون منه أفواجًا))[٧].

آخر تفسير سورة النصر، ولله الحمد والمنة.

---

٦ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، رقم: (٤٣٠٢).

٧ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: (١٤٦٩٦).

هذا الحديث في رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- هكذا: ((إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا))، هو ضعيف، لا يصح من جهة الإسناد.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} ابن جرير يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره على ما أنجز لك من وعده، والصيغة التي تقال في هذا كما جاء في هذه الأحاديث، والله تعالى أعلم.

ولابن القيم كلام قصير في هذا الموضع يحسن إيراده، وذلك لما ذكر كلام ابن عباس، واستنباط ابن عباس: أن ذلك أجلُ النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنه نعيت إليه نفسه، يقول -رحمه الله-: "وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه -سبحانه- لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو -سبحانه- من نعمة فتحه على رسوله، ودخول الناس في دينه"[٨].

قوله: "بعمله"، يعني: مثل الصلاة، فإذا صلى يستغفر، أو إذا انتهى من المناسك يذكر، أو نحو ذلك، فلم يعلقه بعمله هنا، وإنما قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} يعني: بأمر يفعله الله -تبارك وتعالى- ويوقعه.

وقال -رحمه الله-: "بل علقه بما يحدثه هو -سبحانه- من نعمة فتحه على رسوله، ودخول الناس في دينه، وليس هذا بسبب الاستغفار"[٩].

يعني: هو لا يستغفر من شيء فعله الله -عز وجل-، أي: من إيقاع النصر، ودخول الناس في الإسلام أفواجًا، فهذا إنما يكون بهداية الله وتقديره، وليس من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم.

وقال -رحمه الله-: "فعلم أن سبب الاستغفار غيره"[١٠].

يعني: غير ما فعله الله -عز وجل-، فليس هو: الفتح، ولا دخول الناس في دين الله، فإن هذا ليس هو موجب الاستغفار.

يقول في بيان سبب الاستغفار: "وهو حضور الأجل"[١١].

هنا يبين الملحظ الدقيق الذي أشار إليه، وهو: أن ابن عباس -رضي الله عنهما- توصل إلى هذا، أنه لا يستغفر من شيء فعله الله من دخول الناس في دين الله، فهذا ليس من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً فسبب الاستغفار هو: حضور الأجل.

وقال -رحمه الله-: "وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح، والاستغفار بين يديه؛ ليلقى ربه طاهرًا مطهرًا من كل ذنب، فيكون قدومه مسرورًا راضيًا مرضيًّا عنه، ويدل عليه: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، وهو -صلى الله عليه وسلم- كان يسبح بحمده دائمًا، فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح، ودخول الناس في الدين أمرٌ أكبر من ذلك المتقدم"[١٢].

يعني: مما كان يفعله -صلى الله عليه وسلم- في آناء ليله ونهاره قبل الفتح.

---

٨ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٢٦٦).

٩ - المصدر السابق.

١٠ - المصدر السابق.

١١ - المصدر السابق.

١٢ - المصدر السابق.

وقال -رحمه الله-: "وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية، فأمره بتوفيتها"[١٣].

يعني: يكون بصورة أكبر وأكثر.

وقال -رحمه الله-: "ويدل عليه أيضًا أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج، وقيام الليل، ((وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا))[١٤]، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: "اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين"[١٥]، فعلم أن التوبة مشروعة عقب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالاستغفار بعد توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة، والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها"[١٦].

هذا حاصل ما ذكره ابن القيم -رحمه الله-، والله أعلم.

والاستغفار يكون في نهايات الأعمال، وإنما كان استغفاره لأمر يتصل بعمله هو لا بعمل غيره، إذًا سبب الاستغفار هو ليس الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وإنما هو هذه الوظيفة والعمل المتواصل الذي انتهى بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا، فحصل سبب الاستغفار، وأعني بالانتهاء هنا: أنه بلغ التمام والكمال؛ ولهذا قال الله -عز وجل- له: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}** [المائدة:٣]، وقد مضى هناك كلام ابن جرير -رحمه الله-: أن المقصود بإتمام النعمة: أن أقرهم بالبيت الحرام وحدهم دون غيرهم من المشركين، **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}** فهذا إتمام النعمة، وأما إكمال الدين ففسره ابن جرير بإقرار دعائمه العظام، وشرائعه الكبار، وأصوله، وإلا فقد أُنزلت أحكام بعد هذه الآية، فالمقصود: أنه أكمل لهم دعائم الدين، وأركان الدين، وأصول الدين الكبار، وإلا فهذه ليست آخر آية نزلت من القرآن، وإن ظن كثير من العامة ذلك.

---

١٣ - المصدر السابق.

١٤ - أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم: (٥٩١).

١٥ - أخرجه الترمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم: (٥٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٩٥)، رقم: (٢٨٩).

١٦ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المسد

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة تبت، وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد:١-٥].

هذه السورة: "سورة تبت".

ويقال لها أيضًا: "سورة المسد" هذا أشهر ما سميت به.

وبعضهم يسميها بـــ"سورة أبي لهب".

وبعضهم يسميها بـــ"سورة اللهب".

والموضوع الذي تتحدث عنه هو موضوع واحد، وذلك هو ذم أبي لهب وامرأته، تتحدث عن هذا.

هذه السورة مكية اتفاقًا، وذكر أنها نزلت في السنة الرابعة من بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: ((يا صباحاه)) فاجتمعت إليه قريش، فقال: ((أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟)) قالوا: نعم، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبا لك، فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} إلى آخرها[١].

وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

الأول: دعاء عليه.

والثاني: خبر عنه.

فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتيبة، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والبِغْضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه.

---

١ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب} [المسد: ٢]، رقم (٤٩٧٢).

قوله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} كأنه لقب له، بناء على هيئته الظاهرة، يعني أن وجهه كان به وضاءة، فكأنه يتلهب في إشراق، كأنه لهب، فقيل له ذلك، كُني بهذا، فهذه الكنية ليس لولد له بهذا الاسم، وإنما نظرًا لمعنى، أو لهيئة، أو لصفة كانت فيه، فهي أشبه باللقب.

روى الإمام أحمد عن أبي الزناد قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الدِّيْل، وكان جاهليًّا فأسلم، قال: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: ((يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا))[٢] والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

-"ذو غديرتين" يعني ضفيرتين، شعر الرأس.

ثم رواه عن سريج عن ابن أبي الزناد عن أبيه فذكره، قال أبو الزناد: قلت لربيعة كنت يومئذ صغيرا؟ قال: لا والله، إني يومئذ لأعقِل أني أزْفِر القربة" تفرد به أحمد[٣].

"لأعقِل أني أزْفِر القربة" هو يخبر عن نفسه، يقول: "أني لأزفر القربة" يعني أحمل القربة لأهلي، الذي يحمل القربة يكون قد اشتد عوده، فهو فتى يافع يعقل.

ما معنى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}؟

ابن كثير -رحمه الله- يقول: الأول دعاء عليه، والثاني: خبر عنه.

يعني حينما يقال للبعيد: تبًّا لفلان، تبًّا له، هذا دعاء عليه.

دعاء عليه بماذا؟

دعاء عليه بالخسران، فإن معنى: {تَبَّتْ} يعني هلكت، عبارات المفسرين متقاربة في ذلك.

"خسرت" كما يقول ابن جرير.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} بمعنى أنه أضاف ذلك إلى يديه؛ لأنه يكتسب بهما.

إذًا {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} قال ابن جرير: يعني تب عمله {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} هذا معنى قول من قال: "خسرت" أو "هلكت".

وهكذا قول من قال: "خابت".

وقول من قال كعطاء: "ضلت" فإن الضلال يعني الذهاب والاضمحلال في أصل معناه.

وهكذا قول من فسره بعبارات مقاربة لهذا، فلما كان أكثر العمل إنما يزاول باليدين، ويصدر عنهما أضيف ذلك إلى اليدين: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} فضل عمله، وخاب سعيه، ولهذا فإن البعض يقول: إن المقصود باليدين يعني نفسه {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} يعني تب أبو لهب، يعني خسر، فهذا لا يخرج عما سبق؛ لأن الأولين قالوا: أضاف إلى اليدين باعتبار أنهما جارحتان للاكتساب، وقد يعبر باليدين عن الشخص: بما قدمت يداك،

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٠٢٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، عبد الرحمن بن أبي الزناد ينزل عن رتبة الصحيح، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان".

٣ - رواه أحمد، رقم (١٩٠٠٥) وقال محققو المسند: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن".

كما يقال هنا: يعني بما عملت، وما صدر عنك، فأضافه إلى اليدين، مع أن الاكتساب في الأعمال التي يحاسب الإنسان عليها قد يكون باليدين، وقد يكون بغيرهما، لكن عادة عمل الإنسان يضاف إلى يديه، يقال: هذا الذي جنت يداك، كسبت يداك، وما أشبه ذلك، وهذا كله لا إشكال فيه.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} فيكون هذا كما قال ابن كثير: من قبيل الدعاء عليه، والآخر: من قبيل الخبر **{وَتَبَّ}** يعني خسر، وهلك.

وهذا القول: إن الأول: دعاء، والثاني: إخبار، قال به جماعة، وممن قال به من أصحاب المعاني الفراء، كما يقال: أهلكه الله، وقد هلك.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} يعني دعاء عليه بالخسارة، وقد خسر، وضل سعيه.

في قراءة ابن مسعود –وكما سبق أن قراءة الآحاد تفسر القراءة المتواترة-: "وقد تب" هذا واضح في أن الثاني من قبيل الإخبار، مع أن بعض أهل العلم يقول: حتى الأول من قبيل الإخبار، يخبر عنه بذلك، يقول عنه: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}** صار هذا من قبيل التكرار، لكن مثل هؤلاء لا يعجزون عن الجواب، يقولون: أضاف الأول إلى اليدين، والثاني: إلى نفسه، وكأن الثاني من قبيل عطف العام على الخاص، والعلماء يقولون: إن الأوصاف إذا تعددت صح عطف بعضها على بعض.

وبعضهم يقول: كلاهما دعاء عليه، دعا عليه: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}** فيكون مثل قول من قال: إن ذلك فيما يتصل أولاً بيديه، بما كسبت يداه، والثاني: بما يضاف إليه هو، فدعا على ما تكسبه يداه بالخسران: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}** ودعا عليه هو أيضًا بذلك.

وبعضهم يقول: كل هذا دعاء.

فسواء قيل: كلاهما إخبار، أو كلاهما دعاء، فيكون من قبيل عطف العام على الخاص؛ لأنه إذا تبّ هو، فقد تبت يداه، وتب كل شيء يتصل به، ويرجع إليه.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} هو الوحيد المذكور بكنيته في القرآن.

المعروف أن العرب تذكر الكنية للتكريم، إذا أرادت أن تكرم أحدًا ذكرت الكنية، والعرب يكرهون اللقب، يعني أن يُدعى إنسان باللقب فالمراتب عندهم ثلاث: الأولى: أن يُدعى بالكنية، فهذا هو التكريم.

الثاني: أن يدعى باسمه، وهذا هو التوسط.

والثالث: وهو المكروه عند العرب، أن يدعى باللقب.

وهذا معروف ومشهور.

والعجيب أن الشناقطة عندهم اللقب تكريم، ولذلك تجد العلماء الكبار عندهم يُدعون بالألقاب، ولا تكاد تجد عالمًا إلا وله لقب، وهذه الألقاب عجيبة وغريبة في ألفاظها، وقد لا يكون لها معانٍ أصلاً في بعض الأحيان، انظر إلى ألقاب العلماء من المعاصرين مثلاً: "أبَّاه، أبُّوه، عَدُّود" وقد سألت أحد علماء الشناقطة: ما هذه الألقاب والعرب تكره اللقب؟

قال: نحن عندنا اللقب هذا تشريف وتكريم، فيُذكر.

قلت: ما معنى أبُّوه وأبَّاه وأبَّه؟

يتعارفون بهذا يعني هم يميزون فلانًا عن فلان؛ لأن أسماءهم في الغالب كثير هكذا: محمد الأمين، محمد سيدي، محمد المختار، وما أشبه ذلك، فيميزون بهذا، أبَّاه، أبَّه، أبُّوه، وما أشبه هذا.

فذكر لي أن هذه في العادة في الغالب تكون كلمة نطق بها صبي، طفل صغير، فاستملح فكان مثلاً يقول لأبيه: عبد الودود: "عَدُّود" فلقب بهذا "عَدُّود" يدعو أباه: "أبُّوه" فلقب هذا العالم بهذا اللقب، وهكذا، فهذا على خلاف العادة التي كانت عليها العرب، والله المستعان.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} هنا ليس للتكريم، لكن لأنه لا يكاد يعرف إلا بهذا، لأنه لو قيل: عبد العزى فإنه لا يكاد يعرف.

لماذا يذكر؟

يقال: الله عليم حكيم، ولكن العلماء ذكروا توجيهًا لذكره في القرآن، أن هذه الكنية التي هي أشبه باللقب، أنها مناسبة لما ذكر معها من العقوبة والعذاب: **{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}** وكما قيل: "لكل مسمى له من اسمه نصيب" إما على المطابقة، وإما على الضد، فهو أبو لهب **{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}**.

وإذا قلت: "لكل مسمى له من اسمه نصيب" إما على المطابقة، أو الضد، ما بقي شيء، هذا ينقل عن ابن القيم -رحمه الله.

وقوله تعالى: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} قال ابن عباس وغيره: {وَمَا كَسَبَ} يعني ولده.

وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله.

وذكر عن ابن مسعود: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب الأليم بمالي وولدي، فأنزل الله -تعالى-: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}.

{مَا أَغْنَى عَنْهُ} الغَنَاء بمعنى الدفع والنفع، تقول: فلان ليس به غَنَاء، يعني ليس به نفع ولا دفع، والغِنى بالكسر والقصر- قصر الألف- هو كثرة العَرض، كثرة المال، والغَناء أيضًا يقال: **{كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ}** [يونس:٢٤] يعني هو الإقامة والمكث في المكان، غَنِينا بهذا المكان، يعني أقمنا به، ويقال: الغِناء هو المطرب المذموم، المعروف، غِناء، غنّى يغنّي.

{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} يعني ما نفعه، وما دفع عنه ما نزل به، وحل به من الخسار والتباب والعذاب هذا المال الذي جمعه، وما كسب.

{وَمَا كَسَبَ} بعضهم يقول: يعني من الجاه والوجاهة، والمكانة والرئاسة في قريش، ما أغنى عنه شيئًا.

وبعضهم يفسر: **{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ}** المال الذي ورثه، **{وَمَا كَسَبَ}** من المال الذي حصله بكسبه هو، بيده، بعمله، وهذا فيه بعد، ولكن الأشهر هو ما قاله مجاهد، وما ذكره الحافظ ابن كثير هنا ونقله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- المال معروف، والكسب هنا: **{وَمَا كَسَبَ}** يعني بالولد، من أجل أن لا يكون هناك تكرار، والتأسيس مقدم على التوكيد، يعني معنى جديد أولى من أن يقال: هذا كله من قبيل التكرار.

وهذا القول: أي {وَمَا كَسَبَ} يفسر بالولد، هذا الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله-: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} ما أغنى عنه ماله وولده، وهذا يرد في القرآن ويتكرر بنفي الانتفاع، وأن الإنسان لا ينفعه ماله ولا أولاده عند الله –تبارك وتعالى.

و "ما" هذه في {مَا أَغْنَى عَنْهُ} نافية، وبعضهم يقول: إنها استفهامية.

والأقرب أنها نافية، ينفي عنه {مَا أَغْنَى عَنْهُ}.

لكن من فسرها بأنها استفهامية يكون المعنى: {مَا أَغْنَى عَنْهُ} ماذا أغنى عنه ماله؟ وكذلك: {وَمَا كَسَبَ} أي: وأيّ شيء حصل له من الكسب؟.

ويمكن أن تكون مصدرية: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} يعني ما أغنى عنه ماله وكسبه.

وتفسير الأولى بأنها نافية أقرب، وأن الثانية موصولة، ويحتمل أن تكون مصدرية، إن قلنا موصولة: {وَمَا كَسَبَ} لم يغنِ عنه ماله والذي كسبه، أو إذا قلت مصدرية: {وَمَا كَسَبَ} لم يغنِ عنه ماله وكسبه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} أي: ذات لهب وشرر وإحراق شديد.

{سَيَصْلَى} نحن ذكرنا في مناسبات متعددة فيما سبق أن هذه المادة تفسر بدخول النار، ومقاساة حر النار، وهذا الذي فسرها به شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-، بالمعنيين، يعني تجد المفسرين: يفسرها بعضهم بهذا: يصلى: يدخل.

وبعضهم يقول: يحترق.

وهذه اللفظة تأتي لهذا وهذا، يعني كل ذلك داخل في معناها {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}.

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} "الواو" هنا في قوله: {وَامْرَأَتُهُ} بعض أهل العلم يقول: إنها عاطفة، وتكون امرأته معطوفة على الضمير في {سَيَصْلَى} يعني "هو"، فيكون المعنى على هذا: سيصلى وامرأتُه نارًا ذات لهب، سيدخل ويحترق أبو لهب وامرأته في نار ذات لهب، تكون عاطفة على الضمير في قوله: {سَيَصْلَى} يعني هو، يعني وتصلى امرأته نارًا ذات لهب، على هذه القراءة كما سيأتي إيضاحه –إن شاء الله.

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جَميل، واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، وهي مهيأة لذلك، مستعدة له.

{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} قال مجاهد وعروة: من مسد النار.

وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي –عطية الجدلي هو عطية العوفي- **والضحاك وابن زيد** وبه قال الربيع وهو اختيار ابن جرير: كانت تضع الشوك في طرق النبي –صلى الله عليه وسلم.

قال: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.

وقال الجوهري: المسد: الليف.

والمسد أيضا حبل من ليف أو خوص.

وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسَدتُ الحبلَ أمسده مسْدًا إذا أجدتُ فتله.

عندنا أمران: الأول: وهو معنى كون امرأته حمالة الحطب **{حَمَّالَةَ}** يعني كثيرة الحمل، فيبقى النظر في هذا أولاً: هل هذا صفة لها في شيء كانت تزاوله في الدنيا؟ أو أن هذا في الآخرة، في نار جهنم؟.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أن هذا في نار جهنم، أنها تحمل الحطب في النار، وتلقيه على زوجها ليزيد احتراقًا.

بهذه الصيغة، بهذا التفسير قد لا تجد من قال به من المفسرين قبل ابن كثير -رحمه الله-، أن هذا في النار تلقي الحطب على زوجها ليزيد احتراقًا، مع أن اللفظ يحتمله.

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} هل هو في الدنيا أو في الآخرة؟

هذا يحتمل.

وعبارات السلف تجد فيها عبارات لا تؤدي إلى هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير، لكن في العطف أنها معطوفة: **{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}** يعني أنه: **{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}** وأنها تكون معه؛ لأنها كانت عونًا له على الكفر والأذى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بهذا الاعتبار، لكن أن يكون هذا بمعنى أنها تضع الحطب عليه في نار جهنم، بهذا التفسير، لا تكاد تجد من ذكر هذا قبل ابن كثير -رحمه الله.

والذي اختاره ابن جرير، وذهب إليه جمع من السلف: أن المقصود أنها كانت تضع الشوك في طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا وردت فيه روايات، ولكن هذه الروايات قد لا يصح شيء منها، ولكنها من قبيل الروايات الضعيفة، أو المراسيل، ونحو ذلك.

وقد ذكرنا أن هذه السورة نازلة بسبب أبي لهب، لما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "تبًا لك" فهذا لا إشكال فيه، لكن: **{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}** أنها كانت تضع الحطب في طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا مشهور جدًّا في كتب التفسير، وفي السيرة، ولكن من جهة ثبوت ذلك في الرواية قد لا نجد رواية متصلة الإسناد، صحيحة، لا غبار عليها، تدل على هذا، مع شهرته، ولهذا ذهب جماعة من السلف كمجاهد وقتادة والسدي وسفيان الثوري إلى أن المقصود بـــ**{حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}** أنها كانت تمشي بين الناس بالنميمة.

تأمل هنا فُسر بأمر معنوي، باعتبار أنها توقد نيران الفتنة، وأن العرب تقول: فلان يَحطِب على فلان، أو على آل فلان، بمعنى أنه يقوم بالنميمة، يفتن، يفسد.

وهذا قال به جماعة من السلف، وهو استعمال معروف عند العرب:

إنّ بني الأدْرمِ حمالو الحطبْ *** هم الوشاةُ في الرضا وفي الغضبْ

نسأل الله العافية، هم أهل نميمة.

وقول الآخر:

.... *** ولم تمشِ بين الناسِ بالحطَبِ الرَّطْبِ

"الحَطب الرطْب" أردأ؛ لأنه إذا أُوقد عليه يكون له دخان، ويؤذي من حوله، بخلاف الحطب اليابس، فإن اشتعاله أسهل.

وبعض السلف كسعيد بن جبير قال: تحمل الحطب يعني أنها تحمل الخطايا والذنوب والأوزار، فعد ذلك تفسيرًا من قولهم: فلان يحتطب على ظهره؛ كما في قوله: **{وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ}** [الأنعام:٣١] وهذا لا يخلو من بعد، والله أعلم.

والجمهور قرأوا هذا الموضع بالرفع: "وامرأته حمالةُ الحطب" هكذا بالرفع، فهذا إخبار عنها، امرأته حمالةُ الحطب، فتكون من قبيل الخبر، لكن على ما سبق من عطف **{وَامْرَأَتُهُ}** على الضمير في قوله: **{سَيَصْلَى}** سيصلى هو وامرأتُه حمالةُ الحطب، فتكون "حمالة" صفة، أو نعتًا لامرأته، سيصلى هو وتصلى امرأتُه حمالةُ الحطب، التي من صفتها أنها حمالة، امرأته الموصوفة بكونها حمالة الحطب، ويمكن أن تكون "حمالة" على قراءة الرفع هذه خبرًا بمبتدأ محذوف، امرأته هي حمالةُ الحطب.

أما على قراءة عاصم التي نقرأ بها -مع أنه روي عنه الرفع-: **{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}** فيكون النصب هنا على الذم، أو على أنه حال من امرأته، حال على كونها موصوفة بهذه الصفة.

{فِي جِيدِهَا} ما هو الجيد؟ معروف، هو العنق.

وأما المسد فالمشهور أنه الليف **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}** أي حبل من ليف، مع أن بعض أصحاب المعاني يقول: حبل من الصوف.

وبعض السلف كالحسن يقول: حبال من شجر نبات باليمن يقال له: المسد.

الحبال قد تكون من ليف، وقد تكون من صوف، وقد تكون من نباتات، أصلا هذه الحبال توجد نباتات في أفريقيا معروفة، اسمها: شجر الحبال، هكذا، مزارع ضخمة هائلة، ينقطع دونها البصر، هذه مزارع الحبال، نباتات يصنع منها الحبال.

فقد تكون هذه الحبال من جلود الإبل، وقد تكون من الأوبار، وبر الإبل.

هذا المسد **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}** هل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ هي حمالة الحطب هل هذا في الدنيا أو في الآخرة؟ كذلك هنا: **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}** بعض السلف كالضحاك وغيره يقولون: هذا في الدنيا.

ما الذي كانت تفعله في الدنيا؟

بعضهم يقول: **{فِي جِيدِهَا}** حبل من ليف، أو نحو ذلك تحتطب به، هي شريفة غنية، ما الحاجة أنها تحتطب؟.

قالوا: لا، هي من أجل أن تنقل الشوك لتلقيه في طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم يقول: هذا في النار، بل هو أيضًا منقول عن الضحاك، يقول: هو في الدنيا حبل تنقل به الليف، وفي الآخرة حبل من النار تعذب به.

القول بأنه حبل في النار قال به جماعة من السلف كمجاهد وعروة بن الزبير والثوري، قالوا: سلسلة من نار تعذب بها، باعتبار أن السلسلة إذا نظرت إلى هيئتها، إلى شكلها، فهي مجدولة، يعني كفتل الحبل، ومن هنا فسر بعض السلف: الحبل من المسد بالسلسلة، بهذا الاعتبار، نظرًا لصورتها وهيئتها وشكلها.

وبعضهم كقتادة يقول: هي قلادة من وَدَع، خرز كما يقول الحسن: كانت في عنقها، يعني هذا في الدنيا صفة لها، هكذا وصفها الله -عز وجل-: **{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}** لكن ما الفائدة من ذكر أنها كانت تلبس قلادة من خرز مثلاً أو تلبس قلادة من وَدَع؟.

وسعيد بن المسيب يقول: كانت تلبس قلادة فاخرة من الجوهر، فإنها أقسمت أن تبيعها، وأن تنفق ذلك في عداوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون ذلك عذابًا في جسدها يوم القيامة.

والمسْد هو الفتل، يقال: مسَد الحبلَ يمسُده يعني فتله.

وابن جرير -رحمه الله- جمع بين عامة هذه الأقوال بعبارة عجيبة، فهو يقول: حبل جُمع من أنواع مختلفة من ليف وحديد ولِحاء -لِحاء أي شجر، باعتبار أنه نبت- وجُعل في عنقها كالقلادة من وَدع، من خرز، وهذا غريب في الجمع بين الأقوال.

والله أخبر أن **{فِي جِيدِهَا}** يعني في عنقها **{حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}** إما أن يكون الحبل من الليف، ونحوه، حيث كانت تحتطب به لأذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أنه حبل في النار تعذب به، أو أنها كانت تفعل ذلك في الدنيا، وتعذب به في الآخرة، جزاء وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

وقال مجاهد: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكَرة مسدًا؟

والبكَرة معروفة التي يوضع فيها الحبل، ويربط به الدلو على فم البئر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو زرعة قالا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان حدثنا الوليد بن كثير عن ابن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة وفي يدها فِهر، وهي تقول:

مذمَّمًا أبينا، ودينَه قلينا، وأمرَه عصينا

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنها لن تراني)) وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا} [الإسراء:٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم ترَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا، ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فعثرت أم جميل في مِرطها، وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مُذمَّم، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحَصان فما أُكلَّم، وثقَاف فما أُعلَّم، وكلتانا من بني العم، وقريش بعدُ أعلم[٤].

آخر تفسير السورة، ولله الحمد والمنة.

---

٤ - رواه الحاكم في المستدرك، (٣٣٧٦) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وابن حبان في صحيحه، رقم (٦٥١١)، وصححه الذهبي في تعليقه على تلخيص الحبير، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، رقم (٦٤٧٧).

العلماء -رحمهم الله- حينما يؤلفون في أحكام القرآن فإن الغالب في التأليف أنهم يقتصرون على الآيات الصريحة المسوقة لبيان الأحكام، ولهذا يفسرون عادة خمسمائة آية، كما سمى مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ للهجرة كتابه في أحكام القرآن، وهو كتاب مطبوع، سماه: "تفسير خمسمائة آية" باعتبار أنها هي الصريحة في الأحكام.

إذًا القصص التي يؤخذ منها الأحكام، الآيات التي ما سيقت لتقرير حكم ابتداءً، لكنه يُفهم منها أحكام، يستنبط منها أحكام، قصة يوسف -عليه السلام- فيها أحكام، ولهذا القرطبي -رحمه الله- لم يقتصر على خمسمائة آية، وإنما فسر القرآن كاملاً، واستنبط من مواضع لا يكاد يترك موضعًا يمكن أن يستنبط منه إلا استنبط، فهنا لو جئنا إلى هذه السورة هي لم تذكر لبيان الأحكام الفقهية، ماذا يمكن أن يستنبط منها من الأحكام؟

- تصحيح أنكحة المشركين، قال: **{وَامْرَأَتُهُ}** أضافها إليه، ومثله امرأة فرعون، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يصحح أنكحة المشركين بعدما أسلموا، وإنما أقرهم عليها، ما كان يعيد العقد، وصحح أنسابهم، فهنا قال: **{وَامْرَأَتُهُ}** فدل على صحة أنكحة المشركين حال شركهم.

- الدعاء بالهلاك على أعداء الدين، هذا مضى أيضًا في: **{وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** [نوح:٢٦].

- صحة تملكهم العقود التي كانوا يجرونها بينهم والمعاملات والمعاوضات، وما أشبه ذلك، ولهذا من أسلم وهو يتعامل بالربا فإنه يقر على مكاسبه السابقة أيضًا **{فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ}** [البقرة:٢٧٥] لكن لا يأخذ بعد إسلامه شيئًا.

- الولد من كسب أبيه، فيصح له أن يأخذ من ماله من غير إجحاف بماله، ولا ضرر.

- جواز تكنية الكافر، لا على سبيل الإكرام له.

وأخيرا هذا كلام لشيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: "وقوله: **{حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}** إن كان مثلا للنميمة؛ لأنها تُضرم الشر، فيكون حطب القلوب، وقد يقال: ذنبها أعظم، وحمل النميمة لا يوصف بالحبل في الجيد، وإن كان وصفًا لحالها في الآخرة كما وُصف بعلُها وهو يصْلى، وهي تحمل الحطب عليه كما أعانته على الكفر، فيكون من حشر الأزواج، وفيه عبرة لكل متعاونيْن على الإثم، أو على إثم ما، أو عدوان ما"[٥].

وكما سبق أن ذكرت أنه لم يسبق إلى هذا التفسير غير ابن كثير من المفسرين، وشيخ الإسلام هنا كلامه موافق لما ذكره ابن كثير، لكنه ذكره على سبيل الاحتمال: "وقد يقال"، لكن من الذي فسره بهذا؟ من قال: هذا هو المعنى؟.

الآية تحتمل هذا المعنى، لكن تأمل كلام ابن تيمية: "ويكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة في الزوجين، وهي أربعة: إما كإبراهيم وامرأته، وإما هذا وامرأته، وإما فرعون وامرأته، وإما نوح وامرأته، ولوط، ويستقيم أن

---

٥ - مجموع الفتاوى (٦٠٣/١٦).

يُفسَّر حمل الحطب بالنميمة بحمل الوقود في الآخرة؛ كقوله: ((من كان له لسانان))[٦] إلخ، والله أعلم"[٧] يعني أن الجزاء من جنس العمل.

---

٦ – جزء من حديث رواه أبو يعلي في مسنده، رقم (٢٧٧٢) وتتمة الحديث: ((مَنْ كَانَ لَهُ لِسَانَانِ فِي الدُّنْيَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ لِسَانَيْنِ فِي نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) وقال حسين سليم أسد: "إسناده ضعيف" كما في تعليقه على مسند أبي يعلى.

٧ – مجموع الفتاوى (٦٠٣/١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإخلاص كاملة

الشيخ /خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، ولوالدينا، وللحاضرين، وللمستمعين، تفسير سورة الإخلاص وهي مكية، روى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:١-٤][(١)]، وكذا رواه الترمذي، وابن جرير، زاد ابن جرير والترمذي: "الصمد الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء سيولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيُورَث، وإن الله -عز وجل- لا يموت، ولا يُورَث، "ولم يكن له كفوًا أحد" ولم يكن له شبيه، ولا عِدل، وليس كمثله شيء"[(٢)]، ورواه ابن أبي حاتم، والترمذي، فذكره مرسلاً، ثم قال الترمذي: وهذا أصح.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة سورة الإخلاص، ويقال: سورة قل هو الله أحد، ويقال أيضاً: سورة التوحيد، وسورة الصمد، وبعضهم سماها بسورة الأساس، بمعنى أنها تتحدث عن الأساس، وهو التوحيد، فهذه السورة هذا الاسم المشهور لها - سورة الإخلاص- هو تسمية لها بمضمونها، يعني أنه لم يرد فيها لفظ يذكر فيه الإخلاص، هذه اللفظة ما ذكرت، كثير من سورة القرآن قد تسمى بأولها مثل قد سمع، وهذه يقال أيضاً: قل هو الله أحد، وقد تسمى بلفظة وردت فيها، وهذه السورة بهذا الاسم الإخلاص سميت بمضمونها، وهي تتحدث عن توحيد الله -تبارك وتعالى-، الذي هو توحيد المعرفة، التوحيد العلمي الخبري، فهي في صفة المعبود -جل جلاله-، والسورة التي قبلها وهي سورة الكافرون تتحدث عن النوع الآخر من أنواع التوحيد، وهو التوحيد العملي، توحيد القصد والإرادة، فهاتان السورتان بمجموعهما يتحدثان عن التوحيد من جانبيه -بنوعيه-، يقول: **وهي مكية**، هذا ليس محل اتفاق، لكن القول بأنها مكية هو قول الجمهور، وهو مروي عن ابن مسعود، ورواية عن ابن عباس -رضي الله عنهم-، وبه قال جماعة من السلف، كالحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر، لكن القول بأنها مدنية هو رواية عن ابن عباس،

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢١٢١٩)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف أبي سعد محمد بن ميسر وأبي جعفر الرازي - وهو عيسى بن ماهان-، أبو العالية: هو رفيع بن مهران"، وحسنه الألباني دون زيادة الترمذي كما في ضعيف الترمذي، برقم (٦٦٦-٣٦٠٣).

٢ - رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الإخلاص، برقم (٣٣٦٤)، والحاكم في المستدرك، برقم (٣٩٨٧)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وقال الألباني: "حسن دون قوله: "والصمد الذي..."، في ضعيف الترمذي، برقم (٦٦٦ - ٣٦٠٣).

وبه قال أيضاً قتادة، والضحاك، والسدي، وأبو العالية، والقرظي محمد بن كعب، والذين قالوا بأنها مكية باعتبار الرواية هنا في سبب النزول أنها من سؤال المشركين، إذًا السورة مكية، هذا غير الاعتبارات الأخرى التي ينظرون إليها من كون ترتيب السور في الروايات الواردة في نزولها في سردها هذه نزلت بعد هذه، وهذه نزلت قبل هذه، ونحو ذلك، أو بين السورتين، لكن الروايات الواردة في ترتيب نزول سور القرآن لا يصح منها شيء، أن هذه نزلت أولاً ثم هذه، ثم هذه، ثم هذه، وهكذا إلى آخر القرآن، فهم حينما يقولون: هذه مكية أو مدنية ينظرون إلى أمور متعددة: منها سبب النزول، ومنها هذه الروايات في ترتيب السور، ومنها أشياء راجعة إلى معانٍ تضمنتها الآيات كما سبق.

والذين قالوا بأنها مدنية باعتبار أنه ورد في بعض الروايات في أسباب النزول أنها نزلت بسبب سؤال اليهود، سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يصف ربه، فهذه لو صحت لأمكن أن يقال بأن السورة نزلت مرتين مرة بمكة، من سؤال المشركين، ومرة بالمدينة، ولا إشكال في تكرر النزول، لكن هذا لابدّ فيه من صحة هذه الروايات، لكن حينما لا تصح الرواية من كونها من سؤال اليهود فتبقى الراوية الثابتة أنها من سؤال المشركين: انسب لنا ربك.

روى البخاري عن عمرة بنت عبد الرحمن، وكانت في حجر عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم-، عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟))، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أخبروه أن الله تعالى يحبه))[3]، هكذا رواه في كتاب التوحيد، وقد رواه مسلم، والنسائي أيضاً.

روى البخاري في كتاب الصلاة عن أنس -رضي الله عنه- قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبروه الخبر، فقال: ((يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟))، قال: إني أحبها، قال: ((حبك إياها أدخلك الجنة))[4]، هكذا رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته إلى توحيد الله -تبارك وتعالى-، برقم (٧٣٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، برقم (٨١٣).

٤ - ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً مجزومًا به، صحيح البخاري (١/ ١٥٥)، كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، وأخرجه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في سورة الإخلاص، برقم

لاحظوا الآن الحديث الأول: كان الرجل الأمير على هذه السرية، والسُّنة أن الأمراء على السرايا هم الذين يصلون بالناس، ولو كانوا الأقل قراءة، فكان يصلي بهم ويقرأ لهم الفاتحة وسورة ويختم بقل هو الله أحد في كل قراءة.

والثاني: هذا يؤمهم في قباء وكان يفتتح القراءة بعد الفاتحة بسورة قل هو أحد، ثم يقرأ سورة أخرى، يعني عكس الأول، فهنا هاتان حادثتان واقعتان، هذا يفتتح، وهذا يختتم القراءة، النبي –صلى الله عليه وسلم– أقرهما فصارت سنة تقريرية، والله –تبارك وتعالى– أمر أن يُقرأ ما تيسر، فمن قرأ بسورة واحدة بعد الفاتحة أجزأه، ولو أنه اقتصر على الفاتحة صحت صلاته في الفريضة، وفي النافلة، ولو أنه قرأ سورتين في الركعة غير الفاتحة فإن ذلك أيضاً لا إشكال فيه، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– كما هو معلوم– قرأ البقرة والنساء وآل عمران في ركعة[٥]، وذلك في صلاة الليل، وما صح في النافلة صح في الفريضة، هذا هو الأصل.

فالمقصود أن هذا لا إشكال فيه أن يقرأ بسورتين، لكن الكلام في المواظبة على قراءة سورة قل هو الله أحد في مفتتح القراءة، أو في ختمها، أن يواظب على هذا، فهذا محل إشكال، وذلك أنه لم يرد عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ومن ثَمّ فإن الملازمة على هذا هو فعل شيء لم يشرّعه النبي –صلى الله عليه وسلم– لأمته، الملازمة، يقرأ سورة معينة يفتتح بها أو يختتم بها –التكرار– فهذا محل الإشكال، ولهذا سألوا النبي –صلى الله عليه وسلم– عن فعله فأقره النبي –صلى الله عليه وسلم– فصارت سنة تقريرية، لكن يرد السؤال وهو أنه قبل إقرار النبي –صلى الله عليه وسلم– كيف ساغ له ذلك؟ الأول والثاني، كيف ساغ له هذا؟ فيقال: وقع ذلك في زمن التشريع ودلت نصوص الشريعة المتواترة الكثيرة على أنه لا يُعبد الله –عز وجل– إلا بما شرع، قال: ((من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رَد))[٦]، والبدع إما محدثة منشأة من أصلها، فهذه البدع الأصلية، وإما أن تكون بصفتها أو من جهة متعلقها، بمعنى أصل العمل مشروع، ولكنه جعله في زمان أو مكان أو حال قيده بما لم يقيده به الشارع، مثل هنا فهذه في الأصل تسمى: "البدعة الإضافية" هي في أصلها مشروعة لكن من جهة التقييد تكون من قبيل البدعة، لكن هذا ليس ببدعة؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أقره، والسنة إما أن تكون قولية أو فعلية أو تقريرية فهذا من قبيل السنة التقريرية، بل يمكن أن يعد من قبيل السنة القولية؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبره أن الله أحبه، يعني ليس ذلك بالسكوت عنه حينما علم النبي –صلى الله عليه وسلم– فحسب، بل أخبر أن الله أحبه لكونه يحب هذه السورة، وكان يقرؤها بهذه الطريقة ويلازمها هذه الملازمة، كيف ساغ له هذا قبل أن يقره النبي –صلى الله عليه وسلم–؟، كيف قام بهذا الفعل؟ يقال: فعله اجتهادًا منه، لم يبلغه من النصوص ما يجعله يتوقف عند الحد الذي بينه النبي –صلى الله عليه وسلم–، كل ذلك وارد، لكن حينما أقره النبي –صلى الله عليه وسلم– صار ذلك مشروعًا وعليه فليس لأحد أن يقيد ما لم يقيده الشارع أو أن

(٢٩٠١)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٥٣٧)، والحاكم في المستدرك، برقم (٨٧٨)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وقد احتج البخاري أيضا مستشهدا بعبد العزيز بن محمد في مواضع من الكتاب".

٥ – رواه مسلم، عن حذيفة –رضي الله عنه–، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم (٧٧٢).

٦ – رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

يحدث من نفسه عبادة قولية أو فعلية لم ترد عن الشارع يلتزمها فيكون واقعًا في البدع، زمن التشريع وقعت مثل هذه الأمور أشياء أنكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل: الرجل الذي نذر أن يصوم، ولا يستظل، ويقف في الشمس، فأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصيام، ولكنه أمره أن يجلس ويستظل[٧]، فهناك أشياء أنكرها -صلى الله عليه وسلم- من كون الإنسان يحرم على نفسه الطيبات تعبدًا وتقربًا إلى الله -تبارك وتعالى-، وهناك أشياء أقرها: الرجل الذي قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقال: "ربنا ولك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه"، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول))[٨]، أقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا، فهذا يكون من قبيل السنة، لكن ذلك أسهل مما نحن فيه، يعني كون الإنسان يقرأ سورة يفتتح أو يختتم ويلازم هذا، ويقرأ في الصلاة الجهرية مثلاً، أو أن يقول ذكراً من الأذكار في الصلاة على قول طائفة من أهل العلم: إن ذلك ليس على سبيل اللزوم والوجوب، يعني أن يتقيد بما ورد فيما يقال بعد الرفع من الركوع، أو ما يقال بين السجدتين أو نحو ذلك، فبعض أهل العلم يقولون: لا يجب أن يقول ما ورد أن يلتزم به، هذا قول معروف لبعض أهل العلم، أنا لا أقول: إن هذا هو الذي يقال، وإن هذا هو المشروع، أنا أقول: هذا قول معروف لبعض أهل العلم، فله مساغ عند هؤلاء، لكن التزام سورة معينة يفتتح بها ويختتم بها دائماً هنا وجهه واضح، فهذا يحتاج إلى دليل، فيقال: هذا وقع في زمن التشريع، فأقره النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف ساغ له قبل أن يقره؟ نقول: اجتهد الرجل وتصرف هذا التصرف وظن أن هذا لا إشكال فيه، فجاء التقرير، واجتهد آخرون والنبي -صلى الله عليه وسلم- رد اجتهادهم، وبين أن هذا لا يُشرع، فليس لأحد بعد ذلك أن يأتي بشيء من عند نفسه ويجتهد، ثم بعد ذلك يتعبد لربه -تبارك وتعالى- بما لم يشرعه الله، فيكون واقعاً في البدعة، وما يدريه أن الشارع يقره على هذا؟، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال قولاً فصلاً: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد))، والله يقول: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}** [الشورى:٢١]، والنصوص في هذا الباب كثيرة.

فليس لأحد أن يحتج بهذا الموضع على البدع؛ لأن أهل البدع يدندنون حول هذه الأمور المشتبهات؛ لتسويغ الابتداع، ويفتحون الباب على مصراعيه، فيتعبدون لله -تبارك وتعالى- بعبادات لم يشرعها، ويقولون: هذا فعل كذا، وهذا قال كذا، والشاطبي -رحمه الله- في الاعتصام تكلم على هذه القضايا بكلام كثير وطويل، وفصّل، وهو كتاب جدير بالعناية.

روى البخاري عن أبي سعيد: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها.

يعني كأنه يرى أنها قليلة، كيف يقتصر على هذه السورة ليلة كاملة يرددها؟.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٧٠٤).

٨ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد، برقم (٧٩٩)، ومسلم بلفظ: ((لقد رأيت اثني عشر ملكاً يبتدرونها، أيهم يرفعها))، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل قول الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا، برقم (٦٠٠).

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن))[٩]، ورواه أبو داود والنسائي.

روى البخاري عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: ((أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟))، فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟، فقال: ((الله الواحد الصمد ثلث القرآن))، تفرد بإخراجه البخاري.

سورة قل هو الأحد الأحاديث كثيرة في كونها تعدل ثلث القرآن، هذا أمر ثابت لا مطعن فيه، ولكن يبقى السؤال في بيان وجه كونها تعدل ثلث القرآن، ما وجه ذلك؟ فهنا لو أن أحدًا قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات، وآخر قرأ ختمة كاملة هل هما سواء؟ ابن عبد البر -رحمه الله- ذكر أن مثل هذا لا يُتعرض له، بمعنى أن الحديث جاء في بيان فضلها، وتفاصيل هذه الأمور ليس عندنا فيها من الله برهان، والمقصود بيان فضل هذه السورة وشرف هذه السورة، وإلا فالإشكال الذي يذكره العلماء أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن كل حرف بعشر، ثم هل المقصود حرف التهجي -حروف المباني- التي تركب منها الكلمات؟ أو المقصود حروف المعاني أو الألفاظ؟ زيد هذه حرف، عمر حرف، ذهب حرف، يقول حرف، ومن هنا شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما نطق بحروف التهجي إنما نطق بأسمائها، فجاء بثلاثة أحرف تهجٍّ في اسم الحرف الواحد، الحرف الأول ألف هذه ثلاثة أحرف، فقال: نطق باسم الحرف، هذه كلمة، فيقول: إن المقصود بالحرف هو الكلمة، يقول: فرقٌ بين النطق بأسماء الحروف وبين النطق بالحرف الذي هو حرف التهجي نفسه، ونقل كلام الخليل أنه قال لأصحابه: كيف تنطقون هذا الحرف -يعني الزاي-؟ قالوا نقول: زاي، قال: هذا ثلاثة أحرف، وإنما يقال: زَهْ، والهاء للسكت، يعني يُنطق بالحرف بمفرده إذا أردت حرف التهجي، وإذا أردت الاسم تقول: زاي، ثلاثة أحرف، فشيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: لا يعهد في لغة العرب التي كان ينطق بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولغة المخاطبين إطلاق الحرف على حرف التهجي، وإنما يقال للكلمة، فعند شيخ الإسلام -رحمه الله- أن المراد بالحرف هو اللفظة المفردة، كما يقال الحرف أحيانًا للجملة، وأحيانًا يقال للخطبة بكاملها: كلمة

*** وكِلْمةٌ بها كلامٌ قد يُؤم[١٠]

ويقال: ألقى كلمة، فشيخ الإسلام يقول: اللفظة المفردة هي الحرف، وليس المقصود حرف التهجي، مع أن كثيراً من أهل العلم يقولون: المقصود حروف التهجي، فهنا إذا كان كل حرف -سواء كان الحرف المقصود به اللفظ أو حرف التهجي- بعشر ((لا أقول ألف لام ميم حرف))[١١]، فهذا قرأ القرآن كاملاً، وهذا قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات، قل هو الله أحد كم حرفًا؟ فلا نسبة بين حروفها -سواء قلنا: حروف التهجي أو الألفاظ- وبين

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

١٠ - البيت من ألفية ابن مالك -رحمه الله-، وصدر البيت: واحدُه كَلِمةٌ والقولُ عَمّ.

١١ - رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر، برقم (٢٩١٠)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٠٤٠)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٤٦٩).

حروف القرآن، لا نسبة بينهما، فهذا قرأ كثيرًا وهذا قرأ قليلًا، فتعدل ثلث القرآن هذا وجه السؤال والإشكال، شيخ الإسلام -رحمه الله- أجاب بجواب مختصر واضح، وهو أن الحرف بعشر لكن من الحسنات ما هو كبار، ومنها ما هو صغار، فقل هو الله أحد من ذوات الحسنات الكبار، فعلى قلة حروفها إلا أن الحسنات كبار، ومن هنا نظر إلى أن المسألة تتعلق بالثواب، ولكن هذا ليس محل اتفاق، إذ إن من أهل العلم من نظر إلى أن ذلك يرجع إلى المعاني، فقسموا الموضوعات التي يدور عليها القرآن إلى أقسام ثلاثة كقول بعضهم: الأحكام، والقصص والأخبار، والقسم الثالث العقائد، قالوا: هذه السورة تتحدث عن هذا القسم، مع أنه يرد على هذا إشكال؛ لأن الآيات والسور التي تتحدث عن العقيدة ليست فقط هذه السورة، فالتي قبلها سورة الكافرون هي تتحدث أيضاً عن هذا، فلماذا الأحكام جعلت في قسم على كثرتها، والقصص والأخبار على كثرتها في قسم، والعقائد كأنها بهذه السورة فقط صارت تعدل ثلث القرآن كأنه لم يرد إلا هي؟، فيرد عليه إشكال.

وبعض أهل العلم يقولون: إن ذلك في فضلها وثوابها، ولكن لا يعني ذلك أنها بمثابتها من كل وجه، ومثلوا لهذا بأمثلة: قول بعض الأذكار كأنما أعتق رقبة، أو أربع أنفس، أو نحو ذلك، فلو كان عليه كفارة عتق رقبة هل يقول هذا ويكفيه؟، الجواب: لا.

عند من يُحسّن الحديث: يصلي الصبح ثم يجلس يذكر الله -عز وجل-، ثم يصلي ركعتين، إذا ارتفعت الشمس تعدل حجة وعمرة تامتين تامتين، عند من صحح الحديث، هذا هل يقول: إن ذلك يجزئه عن حجة الإسلام؟ هل يجزئه عن العمرة -لأن الراجح أن العمرة واجبة في العمر مرة-؟، قطعاً لا، طيب هل هو مثل ذاك الذي سافر وتعنّى وأنفق أمواله ومشى وتنقل في المشاعر وحج أو اعتمر؟، لا، فرقٌ بين أن يكون له أجر عمرة، وبين أن يكون له نفقات ومشي وخطوات، فهذا الذي قرأ القرآن قضى وقتًا طويلاً في هذه العبادة وتحرك بها لسانه، وحصل له من النفع من الاعتبار والتذكر، والتفكر، والخشوع، والرقة، أمور كثيرة تحصل لقارئ القرآن لم تحصل لهذا الذي اقتصر على قل هو الله أحد فقرأها ثلاث مرات في دقيقة واحدة، وهذا إذا كان يقرأ قراءة سريعة لربما يحتاج إلى ما لا يقل عن ست ساعات القراءة المتواصلة السريعة جدًّا، الذي يقرأ ختمة كاملة سريعة، ففرق بين هذا وهذا، ابن عاشور -رحمه الله- ذكر بعض التوجيهات في هذا المعنى، انظر على سبيل المثال يعني حتى من قرأ القرآن كاملاً من غير أن يقرأ سورة قل هو الله أحد -هي تعدل ثلث القرآن- الأقوال في هذا كثيرة لكن هو يرى أنها ترجع إلى أربعة:

الأول: أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة، يعني إذا قرئ بدونها، حتى لو كررها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله.

الثاني: أنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن، وهذا لا دليل عليه.

الثالث: أنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني؛ لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد، وهذا فيه الإشكال الذي أوردته، يقول ابن عاشور: "إن ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل: آية الكرسي، أو لأنه لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص"[١٢]، كأنه يحاول أن يجيب عن هذا الإيراد والإشكال الذي أوردته.

---

١٢ - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٣٠/ ٦٢١).

الرابع: أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب، مثل التوجيه الأول، ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة، ونقل كلامًا لابن رشد، قال: "أجمع العلماء على أن من قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات لا يساوي في الأجر من أحيا القرآن كله"[١٣]، لكن هذا لا يصح إجماعًا، دعوى الإجماع هنا غير صحيحة، يقول: "فيكون هذا التأويل قيدًا للتأويل الأول"، هذا إجماع غير صحيح، يقول ابن رشد: "واختلافهم في تأويل الحديث لا يرتفع بشيء منه عن الحديث الإشكال، ولا يتخلص عن أن يكون فيه اعتراض، وقال أبو عمر ابن عبد البر: "السكوت على هذه المسألة أفضل من الكلام فيها"[١٤]، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين منزلتها وشرفها لكن ليس هذا يعني أن الإنسان يبقى يقرأ هذه السورة يرددها ثلاث مرات، ويقول: لا داعِيَ أن أقرأ القرآن، أنا سأترك قراءة القرآن والحمد لله، لا في رمضان ولا في غير رمضان، يكفيني أن أردد سورة قل هو الله أحد دقيقة واحدة ثلاث مرات، ولا أحتاج أن أقرأ ختمة، وأضع لي حزبًا يوميًّا من القرآن، نقول: هذا الكلام غير صحيح، هذا الذي يذهب إلى مسجد قباء ويصلي فيه ويقول: ما في داعٍ أن أذهب للعمرة لا في رمضان ولا غير رمضان، الحمد لله، نقول: هذا لبيان شرف هذا المسجد، ومنزلته، والصلاة فيه، ولكن الذهاب إلى العمرة فيه أمور أخرى لا تتحقق بمجرد الذهاب إلى مسجد قباء، هذه عبادة، وهذه عبادة.

روى الإمام مالك بن أنس عن عبيد بن حنين قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمع رجلاً يقرأ: قل هو الله أحد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وجبتْ))، قلت: وما جبت؟، قال: ((الجنة))[١٥]، ورواه الترمذي، والنسائي من حديث مالك، وقال الترمذي: "حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث مالك"، وتقدم حديث: ((حُبُّك إياها أدخلك الجنة)).

يعني قد يكون وجبت لحبه إياها مثلاً، النبي -صلى الله عليه وسلم- علم أنه يحبها مثلاً، أو لكون من قال ذلك فقد حقق التوحيد فوجبت له الجنة، فشهد النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذا الرجل؛ لأنه قرأها خالصًا من قلبه، فمن حقق التوحيد وجبت له الجنة، لكن ليس ذلك يعني أن كل من قرأ سورة قل هو الله أحد وجبت له الجنة، فإنه قد لا يكون مخلصًا في هذه القراءة، قد توجد موانع، أو تنتفي شروط.

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أَصابنا طَشٌّ، وظلمةٌ، فانتظرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: ((قل))، فسكتُّ، قال: ((قل))، قلت: ما أقول؟ قال: ((قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثًا تَكْفِك كل يوم مرتين))[١٦]، ورواه

---

١٣ - المصدر السابق.

١٤ - المصدر السابق.

١٥ - رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في سورة الإخلاص، برقم (٢٨٩٧)، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب الفضل في قراءة قل هو الله أحد، برقم (٩٩٤)، وأحمد في المسند، برقم (٨٠١١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح".

١٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٢٦٦٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن".

أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: "حسن صحيح غريب"، وقد رواه النسائي من طريق أخرى ولفظه: ((تَكْفِك كل شيء))[١٧].

قوله: **((تَكْفِك كل يوم))** هكذا الحديث، ولكن هذه الزيادة "مرتين" في مسند الإمام أحمد في بعض النسخ، أو في نسخة من نسخ المسند، وقد ذكر أهل العلم أن هذه اللفظة مقحمة؛ لأن هنا يرد إشكال مع هذه اللفظة، هنا يقول له: **((قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثًا))**، يعني يقرأ ذلك مرتين في اليوم في الصباح وفي المساء في كلٍّ ثلاث مرات كما نفعل بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب، قال: **((تَكْفِك كل يوم))**، يعني أنك إذا فعلت ذلك كل يوم كفتك، لكن "مرتين" هذا يكون مُشكلاً، ما معنى تكفك كل يوم مرتين؟ أو أن المقصود تكفك كل يوم مرتين تقرؤها في أول النهار وفي آخر النهار؟ لكن يكون تكرارًا والروايات **((تكفك كل شيء))** هذه التي في السنن وغيرها وعليها رواية الإمام أحمد والنسخ الأخرى غير هذه النسخة التي فيها هذه الزيادة.

والمقصود أن مثل هذا كما سيأتي في الكلام على سورتي الفلق والناس قال: **((تَكْفِك كل شيء))** يعني من المخاوف، مما تحاذره من شرور الإنس، ومن شرور الجن، ومن غيرهما من الهوام، والدواب، والسباع، وما إلى ذلك مما يحاذره الإنسان، ويتخوفه، **((تَكْفِك كل شيء))**، وروي في قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((كفتاه))**[١٨]، يحتمل كفتاه عن سائر الأذكار أو كفتاه مما يتخوفه، كفتاه من الشرور، مما يحاذره من شياطين الإنس والجن وما إلى ذلك، هناك يحتمل، لكن هنا **((تَكْفِك كل شيء))** يعني مما تتخوفه وتتوقاه.

في الدعاء بما تضمنته من الأسماء روى النسائي عند تفسيرها عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه دخل مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسجد فإذا رجل يصلي يدعو، يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد ألا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال: ((والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب))[١٩]**، وقد أخرجه بقية أصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن غريب.**

هذا الحديث الثابت صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا الرجل يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد ألا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه سأل الله باسمه الأعظم، ما هو الاسم الأعظم؟ والأحاديث الأخرى الصحيحة الواردة في الاسم الأعظم الجامع المشترك فيها جميعاً الذي أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الاسم الأعظم في ثلاث سور مثلاً، أو قال

---

١٧ - رواه النسائي، في أول كتاب الاستعاذة، برقم (٥٤٢٨).

١٨ - رواه البخاري، عن أبي مسعود -رضي الله عنه-، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، برقم (٥٠٠٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، برقم (٨٠٧).

١٩ - رواه أبو داود، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، برقم (١٤٩٣)، وابن ماجه، أبواب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، برقم (٣٨٥٧)، والنسائي في الكبرى، برقم (١١٦٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (١٣٤١).

في شيء سمعه إنه سأل الله باسمه الأعظم، الاسم المشترك في هذه الأحاديث جميعًا هو لفظ الجلالة، وهنا يقول: اللهم.

وقال جمع من أهل العلم: إن الاسم الأعظم هو الله، يلي ذلك في القوة الحي القيوم؛ لأنه موجود في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران، وفي سورة طه، **{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}** [طه:١١١]، **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** [آل عمران:٢].

القول الثالث: أنه الواحد الأحد؛ لأن هنا في هذا الحديث الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فالأحد الصمد هذا ثالثها، فلو أن الإنسان إذا دعا قال: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الحي القيوم أو قال: يا الله يا حي يا قيوم يا أحد يا صمد يكون قد جاء بها جميعاً، يحرص الإنسان على جمع هذه في دعائه، ولو أنه قال مثل هذه الصيغة التي شهد النبي –صلى الله عليه وسلم– لقائلها بأنه جاء بالاسم الأعظم.

في الاستشفاء بهن روى البخاري عن عائشة: "أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات"[٢٠]، وهكذا رواه أهل السنن.

هنا قال: **للاستشفاء**، الذي يظهر أن النبي –صلى الله عليه وسلم– ما كان يفعل ذلك للاستشفاء، يعني فرقٌ بين الأذكار التي يقولها الإنسان عند النوم، مثلا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا أوى إلى فراشه، فهذا من أذكار النوم، فكأن ذلك يقال من باب التعوذ، يعوذ نفسه بذلك، فهذا من قبيل الأذكار، فيمسح على جسده، ولكن الذي فيه الاستشفاء حديث عائشة –رضي الله تعالى عنها– الآخر لما مرض النبي –صلى الله عليه وسلم– فكانت تقرأ وتنفث عليه، وتمسح بيده –صلى الله عليه وسلم–[٢١]، فهذا يكون للاستشفاء؛ لأن المسح على نوعين –والعلم عند الله –تبارك وتعالى–: الأول يكون من باب الرقية التداوي، فيكون من باب الاستشفاء يقرأ على المريض أو يقرأ الإنسان على نفسه ويمسح على موضع العلة، موضع الألم، أو يقول ما ورد مثلاً: "اللهم رب الناس، أذْهِب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤُك، شفاءً لا يغادر سقماً"[٢٢]، أو يقول مثلاً: "أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك"[٢٣]، ونحو هذا.

---

٢٠ – رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، برقم (٥٠١٧).

٢١ – رواه البخاري، كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات، برقم (٥٧٣٥)، ومسلم، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، برقم (٢١٩٢).

٢٢ – رواه البخاري، كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، برقم (٥٦٧٥)، وبرقم (٥٧٤٢)، كتاب الطب، باب رقية النبي –صلى الله عليه وسلم–، ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، برقم (٢١٩١).

٢٣ – رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب الدعاء للمريض عند العيادة، برقم (٣١٠٦)، والترمذي، في أبواب الطب عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، برقم (٢٠٨٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٣٧)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٧٦٦).

فإذا وضع يده على موضع الداء –موضع العلة–، أو يكون يرقيه بشيء من القرآن ووضع يده على موضع العلة فهذا لا إشكال فيه، يكون من باب الاستشفاء لكن ما نقوله عند النوم هل نقول ذلك من باب الاستشفاء أو من باب الأذكار والتعوذ؟ هو من باب الأذكار والتعوذ، يعوذ نفسه، هو ليس بمريض، ولا يفعل هذا بنية الرقية، وفرق بين القراءة بنية الرقية، والقراءة بنية الذكر، أو التعبد، هذه ثلاثة مواضع.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: "فسورة قل هو الله أحد متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته"[٢٤].

هذا موضوع السورة توحيد المعرفة والإثبات.

"متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال، التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد، والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأحديته ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه، أو مثل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه، وهذه الأصول هي مجاميع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاث: أمر، ونهي، وإباحة، والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه، وصفاته، وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة قل هو الله أحد الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلّصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي كما خلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العملي الإيرادي القصدي، ولما كان العلم قبل العمل –وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه، ومنزله منازله– كانت سورة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن"[٢٥].

ابن القيم يذهب بها إلى جهة المعاني لا الثواب، ولا يمنع هذا أن يكون المراد توجيه ذلك من جهة المعنى وأنها تعدل في الثواب ثلث القرآن.

وقال: "والأحاديث في ذلك تكاد تبلغ مجمع التواتر، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس –رضي الله عنهما– يرفعه: ((إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن))[٢٦]، رواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

ولما كان الشرك العملي الإيرادي أغلب على النفوس؛ لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه؛ لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالتُه وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته؛ لأن هذا يزول بالعلم والحُجة، ولا يمكن صاحبُه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد"[٢٧].

---

٢٤ – زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (١/٣٠٦).

٢٥ – المصدر السابق.

٢٦ – رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في إذا زلزلت، برقم (٢٨٩٤)، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٠٧٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٥٣١).

٢٧ – زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (١/٣٠٦–٣٠٧).

يعني يقصد أن توحيد المعرفة والإثبات أن تبين له ذلك بالحجة والبرهان، تقول له: من صفات الله كذا وكذا، وثبت من أسمائه كذا وثبت من أفعاله كذا وينتهي الإشكال، لكن توحيد القصد والإرادة الذي هو توحيد الإلهية هنا تتعلق به أهواء فقد يُشرب الإنسان في قلبه محبة معبود يتوجه إليه ويعبده، وقد يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، ويكون هذا هو السادن للقبر، قد يكون هذا الإنسان هو المقدم عند قومه، هو القائد، هو الذي يأخذ الأموال، والهبات، والنذور لهذه المعبودات، فإذا تلاشى ذلك، وكان من الباطل فسيبقى هذا الإنسان في مؤخرة الركب تتلاشى عنه هذه الأموال، وتتلاشى عنه هذه الرياسة، والشهرة، فتوحيد الإرادة والقصد توحيد الإلهية للنفس من الأهواء ما ليس لها في غيره من أنواع التوحيد.

وقال: "بخلاف شرك الإرادة والقصد فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه، وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه، فجاء من التأكيد والتكرار في سورة قل يا أيها الكافرون المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجيء مثله في سورة قل هو الله أحد، ولما كان القرآن شطرين شطرًا في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها من أعمال المكلفين وغيرها، وشطرًا في الآخرة وما يقع فيها، وكانت سورة إذا زلزلت قد أُخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يُذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها كانت تعدل نصف القرآن"[٢٨].

لا يصح كون سورة إذا زلزلت تعدل نصف القرآن.

---

٢٨ – المصدر السابق (١/ ٣٠٧).

(١) الحديث عن مقدمة السورة

١٣٨٥٠٧٨٤٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

الحديث عن مقدمة السورة

تفسير سورتي المعوذتين وهما مدنيتان:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا تفسير سورتي المعوذتين "قل أعوذ برب الفلق"، و"قل أعوذ برب الناس"، وهاتان السورتان سماهما البعض كما جاء عند السيوطي " الْمُشقشِقتين"، وذكرنا في "قل يا أيها الكافرون" أنها مع "قل هو الله أحد" سماهما بعضهم بـ" الْمُقشقِشتين"، ترفعان الإشراك، وقلنا: إن سورة براءة سماها بعضهم " الْمُقشقِشة" التي تفضح المنافقين، وهي تصلح أن تكون رقية لكل منافق في كل زمان ومكان، كثير من الناس يحتاج أن يرقى بهذه السورة، من ابتلي بمرض القلب، من فيقلبه مرض يمكن أن يـُقرأ عليه بسورة براءة، وبسورة المنافقين، لو قُرئت عليه ثلاثًا لعل ذلك يكون سببًا لرفع ما به من بلاء، لا يأتي أحد ويقول: من أين الدليل؟ الرُّقى الأصل فيها أنها من باب الطب، والطب الأصل فيه الإباحة، فكل ما كان له تعلق في المعنى أو دلت التجربة على أنه ينفع فلا إشكال في هذا، يعني لا يحتاج إلى دليل خاص ما لم يشتمل على محرم، فهنا سَمَّى هاتين السورتين "الفلق والناس" مع بعضهما بـ" الْمُشقشِقتين" هكذا، وقد يكون هذا حصل فيه شيء من التصحيف أو التحريف، لكن العرب تقول: خطيب مُشقشِق بمعني مسترسل في الكلام، لكن ما وجه هذا هنا في هاتين السورتين؟ أخشى أن يكون من قبيل التصحيف أو التحريف ولا أستبعد هذا، ذكر هذا السيوطي في الإتقان ولعله تَصحَّف، لكن عند غيره كالقرطبي وصاحب الكشاف قالوا: الْمُقشقِشتين، وهذا أدل على أن ذلك وقع فيه شيء من التحريف، وزاد القرطبي أنهما تبرئان من النفاق، وهذا واضح.

هاتان السورتان قال: **هما مدنيتان،** هذه رواية ابن عباس وبه قال قتادة، وهو قول الجمهور باعتبار أنهما نزلتا على النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما سحر، فهذا كان في المدينة، وبعضهم يقول: مكيتان، أي أن سورة الفلق مكية، وكذلك أيضًا سورة الناس، هذا منقول عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ورواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ، والأقرب أن السورتين نزلتا بالمدينة.

روى الإمام أحمد عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: "**إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فقال: أشهد أن رسول الله أخبرني أن جبريل -عليه السلام- قال له: قل أعوذ برب الفلق، فقلتُها قال: قل أعوذ برب الناس، فقلتُها، فنحن نقول ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم**"([1]).

هذا ثابت أن ابن مسعود -رضي الله عنه- لم يكتب المعوذتين في مصحفه، وإن أنكره بعض أهل العلم كابن حزم باعتبار أنه كان يسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ هاتين السورتين في الصلاة وفي خارج الصلاة، فقد يخفى على بعض الصحابة -على فضله ومكانته- بعض الأمور التي قد تكون من الوضوح بمكان، فبعض أهل العلم قال: إن ابن مسعود -رضي الله عنه- لم يكتب المعوذتين في مصحفه باعتبار أنه تحصيل حاصل؛ لأنهما محفوظتان لكل أحد ولا تحتاجان إلى كتابة، وليس ذلك يعني أنه لا يرى أنهما من القرآن، لكن ورد أنه كان يَحُكُّهما، وورد أنه كان يقول: إنهما تعويذة، فالذي يظهر -والله أعلم- أن ابن مسعود -رضي الله عنه- كان يعتقد أن هاتين السورتين تعويذتان كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعوذ بهما وأنهما ليستا من القرآن، هكذا ما بلغه، ولكن الإجماع منعقد على أنهما من القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرؤهما، وهذا أمر لا إشكال فيه ولا مرية، وإن خفي على ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وحديث أبي بن كعب لما قيل له ذلك قال: **أشهد أن رسول الله أخبرني أن جبريل -عليه السلام- قال له: قل أعوذ برب الفلق، فقلتها، قال: قل أعوذ برب الناس، فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم**"، بمعنى أن نقول ذلك نصًا "قل أعوذ برب الفلق" وسورة "قل يا أيها الكافرون" هذه السور الأربع التي تسمى "القواقل الأربع" (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس)، هذا للبلاغ فتقال هكذا: "قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد"، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور أن يبلغ وهو يقرؤها هكذا، فالله يقول: "قل هو الله أحد"، "قل يا أيها الكافرون"، لكن في "قل أعوذ برب الفلق"، و"قل أعوذ برب الناس" هذا للامتثال، يعني يقولهما النبي -صلى الله عليه وسلم- لنفسه، يقوله يرقي به، يقرأ، يتلو، وليس معناه أن الله -تبارك وتعالى- يعوذ برب الفلق واضح؟ يعني الآن لو لم تأتِ "قل" وجاءت هكذا

"أعوذ برب الفلق" كانت تعويذة، مجرد تعويذة، أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس، هذا لا يكون من الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الله لا يتعوذ فهو العظيم الأعظم، إنما يتعوذ من كان يتخوف من شيء، فأبي بن كعب -رضي الله عنه- يقول: فنحن نقول كما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني لو كانت تعويذة ما كان يقول: "قل أعوذ برب الفلق"، كان يقول: أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس إلى آخره، فحينما يقول: "قل أعوذ برب الفلق" -هكذا- يقول: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ذلك فنحن نقول كما قال، هذا هو مراد أبي بن كعب -رضي الله عنه-، هذا القرآن يتلى وجاء هذا بروايات وأوجه عن أبي بن كعب، كل ذلك ثابت وصحيح، ثم أيضًا مما ذكره أهل العلم أن هذه القراءات التي جاءت بالتواتر إنما تلقاها التابعون عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وفيها "قل أعوذ برب الفلق"، "قل أعوذ برب الناس"، ومما قاله ابن حزم في ما ادعاه من أن ذلك لا يثبت عن ابن مسعود قال: كيف يثبت عنه وبعض هذه القراءات المتواترة أصلًا ترجع إلى ابن مسعود، وفيها "قل أعوذ برب الفلق"، "قل أعوذ برب الناس"من القرآن؟ كيف تُلقيت عنه؟ وهذا وجه قوي مما قاله ابن حزم للاحتجاج على أن ذلك لا يثبت عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، يعني كيف تلقوها منه على أن ذلك من القرآن ورويت عنه هذه القراءة بالتواتر؟!، على كل حال هاتان السورتان من القرآن بالإجماع سواء قيل: إن ذلك لم يبلغ ابن مسعود -رضي الله عنه- فيكون معذورًا بهذا، أو كان ابن مسعود لا يثبت عنه هذا، أو كان قد رجع عنه، ظن أنها تعويذة فقط ليست من القرآن ثم تبين له، ولو نظرت إلى الأشياء التي خفيت عن بعض كبار الصحابة -رضي الله عنهم- لوجدت الكثير من هذا القبيل، فعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- خفي عليه أمر التيمم في الجنابة فلما ذكّره عمار لم يتذكر، وعمرو بن العاص صلى بأصحابه وهو جنب، سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فاحتج بقوله تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}** [سورة النساء:٢٩]، كان الجو باردًا وهم في غزوة، عمار يقول: تمرغت كما تتمرغ الدابة، فبين له النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إنما كان يكفيك أن تقول هكذا"[2]، هذا يدل على أن التيمم كان قد نزل، وكان هذا في غزوة المصطلق يعني مقفلهم ورجوعهم من الغزوة، وهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- خفي عليه وضع الكفين على الركبتين في الركوع فكان يطبِّق بين يديه، والتطبيق هذا كان أولًا ثم نُسخ، فهذا خفي على ابن مسعود -رضي الله عنه- مع أنه كان يصلي خلف النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد يخفى على بعض كبار الصحابة أشياء من هذا القبيل، والعلماء ذكروا أمثلة كثيرة مما قد يخفى على كبارهم، ذكر هذا جماعة منهم الشوكاني في بعض المناسبات في كتابه "نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار"، وهذا أمر لا إشكال فيه.

وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس))[3]، ورواه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

((ألم تر آيات)) هذا نص صريح في أنهما من القرآن، وحديث عقبة هذا جاء من غير وجه من طرق وألفاظ متعددة:

روى الإمام عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: ((يا عقبة، ألا تركب؟))، قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وركبت هنية ثم ركب، ثم قال: ((يا عقبة، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟))، قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقرأ بهما ثم مر بي فقال: ((كيف رأيت يا عقيب؟ اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت))[4]، ورواه النسائي وأبو داود.

يا عقيب تصغير لعقبة، يقول: فتقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقرأ بهما، لو كانتا مجرد تعويذة ليستا من القرآن لا يقرأ بهما.

روى النسائي عن عقبة بن عامر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس))[5].

روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا عقبة، قل))، قال: قلت: ماذا أقول؟ فسكت عني ثم قال: ((قل))، قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: ((قل أعوذ برب الفلق))، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال: ((قل))، فقلت: ماذا أقول يا رسول الله؟، فقال: ((قل أعوذ برب الناس)) فقرأتها ثم أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك: ((ما سأل سائل بمثلها، ولا استعاذ مستعيذ بمثلها))[6].

روى النسائي عن ابن عابس الجهني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((يا ابن عابس، ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟))، قال: بلى يا رسول الله، قال: ((قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس هاتان السورتان))[7].

وروى الإمام مالك عن عائشة: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه رجاء بركتها"[8]، ورواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

وعن أبي سعيد أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما"([9])، رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هذه الأحاديث يذكر فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه ما سأل سائل بمثلهما ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما، أفضل ما يتعوذ به المتعوذون، إذاً هذه من الرقى البليغة، والذي لربما يبتلى بشيء من المس أو السحر أو نحو هذا فهذا أبلغ ما يكون في رقيته، وكذلك أيضًا إذا كان يفعل ذلك من باب التوقي والحذر وما أشبه هذا، فإنه يقوله من أجل أن يقيه الله –عز وجل– من المكاره والمخاوف ونحو هذا، فهذه أبلغ ما يكون، يعني قد يكون الإنسان يعّوذ أولاده ونحو هذا يقول: أعيذكم بكلمات الله التامات، أو يقول مثلًا: أعيذكم بالله تعالى من كل شر ونحو ذلك من العبارات، وهذا لا إشكال فيه، لكن أن يعّوذ بهاتين السورتين يعوذ نفسه أو يعلم ولده أن يقول ذلك وهكذا في باب الرقى فهذا أبلغ.

ما جاء عن ابن مسعود –رضي الله عنه– في الكلام على المعوذتين لو قال قائل: ما حكم من أنكر حرفًا من القرآن؟ يكفر، ما حكم من أنكر سورة؟ من باب أولى، ما حكم من أنكر سورتين؟ من باب أولى، إذاً ماذا يمكن أن يقال عن ابن مسعود –رضي الله عنه– وهو من خيار الصحابة، ومن علمائهم، من أعلم الصحابة تلقي القرآن من في رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، سبعين سورة، هل يمكن لأحد أن يقول فيه شيئًا من ذلك؟

حاشا وكلا لا يمكن، إذاً غاية ما هنالك أن يقال: إن ذلك ما بلغه، وانتهى، فهذه تصلح في المحاجة لبعض من يتسرعون في إطلاق العبارات والأحكام الكبرى لمجرد الشبهة دون النظر إلى تحقق شروط أو انتفاء موانع، وللأسف صارت هذه بضاعة رائجة اليوم تجدها تقال بكل سهولة، وتجري بكل خفة على ألسن بعض الناس، لاسيما مع هذه الوسائل في الاتصال والإعلام الجديد وما إلى ذلك، تجد مثل هذه العبارات تقال في حق علماء، في حق طلبة علم، في حق أخيار، في حق صلحاء، في حق دعاة إلى الله، لا يمكن أن يُطعن فيه، ولا يمكن أن يشكك بشبهة، الذي يفتي بكذا، الذي يقول بكذا، الذي يقول: يجوز التصويت للدستور الفلاني أو نحو ذلك هذا كافر، هذا لا يمكن أن يقال، ولا يمكن أن يقول هذا أحد من أهل العلم، وهذه مصيبة ومشكلة إذا تصدر من لم يتأهل، وتكلم في دقائق العلم وفي المسائل الكبار، فالأمر ليس بالشيء السهل اليسير، الأمر خطير، مثل هذا لو أنه سئل لأول وهلة ما تقول فيمن أنكر حرفًا؟، ما تقول فيمن أنكر سورة؟، ما تقول فيمن أنكر سورتين؟ هذا ابن مسعود –رضي الله عنه– إذاً فماذا تقول فيه؟ فإن قال: يكفر فهذا –نسأل الله العافية– يكون في حالة من الجهل والضلال والعمى، بحيث لا يحتاج معه إلى مكالمة، لا يحتاج إلى من يكلمه، أو يرد عليه أو يناقشه، وقد بلغ الأمر في

بعض الناس إلى هذا المستوى، حدثني بعض الإخوان قبل سنين قبل أكثر من خمس عشرة سنة أن هناك من تكلم في حق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في مسألة أهل بدر، وأنه لم يحكم بالحكم الذي أراده الله –عز وجل–، مع أنه لم ينزل عليه في هذا شيء، كان أول لقاء مع المشركين وأول معركة، حكم بذلك على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقال: إنه تاب ورجع، إلى هذا الحد!، يعني هذا المستوى ما قال به كبار وأئمة الخوارج، الخوارج حكموا على أهل العراق والشام بالكفر من الصحابة ومن معهم، وحكموا على أنفسهم قالوا: إنهم كفروا حينما قبلوا بذلك لأول وهلة لكنهم تابوا، هم يقولون عن أنفسهم –نسأل الله العافية–، ولذلك ابن عباس لما ذهب إليهم قال له علي –رضي الله عنه–: إني أتخوف عليك منهم، لماذا؟ لأنه يعرف في ذلك الوقت أنهم من الممكن أن يجترئوا عليه؛ لأنهم يرون كفره، فيمكن أن يقتلوه بدم بارد، يقول: إني أتخوف عليك منهم، يقول ابن عباس –رضي الله عنه– كما في بعض الروايات: وكنت رجلًا سهلًا لينًا، يعني في الخلق والتعامل، لا أوذي أحدًا، ذهب إليهم بحلة جميلة، وجاء إليهم، قُدر عددهم في بعض التقديرات بعشرين ألفًا، وقدر باثني عشر ألفًا، وقدر بغير هذا، تصور هذا العدد الكبير أيام الصحابة!، أين عقولهم؟ أين إيمانهم؟ أين علمهم؟ يتركون كبار الصحابة وما معهم صحابي واحد، ويحكمون عليهم بالردة والكفر، ولما جاءهم ابن عباس قالوا: ما الذي جاء بك، وما هذه الحلة التي عليك؟ فهم أهل عبادة وزهد يقومون الليل، ويصومون النهار، لكن هذا الدين ما كان يحجزهم ويمنعهم لما قل علمهم فكيف بمن لا عبادة ولا علم؟! ثم قال لهم: جئتكم من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من ابن عمه وختنه، يعني زوج ابنته ما تنقمون عليه؟ فقال بعضهم: لا تكلموه الله قال: **{ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}** [سورة الزخرف:٥٨] يعني قريشًا، فكلمه بعضهم، وذكروا له أنه حكّم الرجال في كتاب الله ولا حكم إلا لله؛ لأنه بعدما حصلت قضية الحكمين ضجوا وقالوا: لا حكم إلا لله، هذه كلمة صحيحة، كلمة حق أريد بها باطل، فناظرهم ابن عباس –رضي الله عنهما– وقال لهم: لا حكم إلا لله ما تقولون في رجل وامرأته اختصما قال الله: **{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا}** [سورة النساء:٣٥] ما تقولون في هذا؟ قال في رجل وامرأته اختلفا على شيء، وكذلك في صيد الحرم **{ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ}** [سورة المائدة:٩٥] فهنا رجال يحكمون، فتبين لهم بهذه أنهم قد أخطئوا، ورجعوا عنها، قالوا: إذن هؤلاء الذين قاتلهم لماذا لم يَسْبِ نساءهم؟، قال: أيكم يرضى بأن تكون عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– في سهمه؟ إن قلتم بهذا فقد كفرتم، أقررتم على أنفسكم الكفر فوقعوا في حرج، من منهم يقول: عائشة تكون في سهمي باعتبار أنهم كفار، فالشاهد أنه ناظرهم بهذه الطريقة فرجع منهم ألوف، بعضهم يقول: رجع أربعة آلاف،

وبعضهم يقول: أكثر، لاحظ آلاف في موقف مثل هذا، ولاحظ هذه الحجج التي ظنوا أنها شيء، وليست بشيء، ومن هنا يتضح أن مثل هذه القضايا لا يمكن أن يخلص منها إلا العلم الصحيح الراسخ، هذه لا يمكن أن يتكلم فيها الكل، وإلا يكون قد خاب سعيه وضل عمله، من أصعب الأشياء أيها الإخوان أن الإنسان يركب الأهوال والأخطار، ويقدم نفسه سهلة رخيصة يطلب ما عند الله، ثم في النهاية يكون حاله ممن ضل عمله، **{الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [سورة الكهف:١٠٤] –نسأل الله العافية– **{ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}** كل إنسان يركب الأخطار ويقدم نفسه يريد ما عند الله، يبذل نفسه، ما في أكثر من بذل النفس

يجود بالنَّفس إن ضنَّ البخيلُ بها *** والجودُ بالنَّفس أقصى غايةِ الجودِ

حينما يبذلها الإنسان، ويتحمل في سبيل ذلك أنواع البلاء التي تتنوع معنى ذلك أنه يتحمل أنواع التحمل في سبيل مطلوبه، ويؤذَى غاية الأذى بأنواع الأذى، وهو مع ذلك يصبر ويتحمل، فيأتي بعد هذا بما قد يذهب عمله جميعًا، هذه ورطة ومصيبة ينبغي على المؤمن أن يحذر ويتنزه من هذا كله، إذا كانت عائشة –رضي الله عنها– تقول لصحابي شهد مع النبي –صلى الله عليه وسلم– بدرًا في مسألة فيها شبهة تتصل بمعاملة من معاملات الربا: أخبريه أن جهاده مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد حبط، يعني إن لم يتب، في مسألة كهذه، وكلام العلماء فيه وتوجيه هذا القول من عائشة معروف، ولكن أقول: إذا كان في شبهة مثل هذه –معاملة من المعاملات– فكيف بمسألة كبيرة يطلق فيها عبارات الكفر على خيار الأمة علمائها وصلحائها، وفضائلها الذين لا يتهمون، ولا شك بصدقهم ونزاهتهم وجهادهم وبذلهم، ثم ما يترتب على هذا من استحلال الدماء، ممن ينظر إلى هذا العالم أو المجاهد أو الداعية على أنه مرتد عن الإسلام، فمعنى ذلك أنه حلال الدم والمال، فتتحول التصورات والقلوب، ويحال بين المرء وقلبه – نسأل الله العافية– وقد يُشرب هذه الأمور **{وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ}** [سورة البقرة:٩٣] يُشرب هذه الانحرافات فلا يفارقها ولا يوفق للهدى ولا يوفق للتوبة، ثم يموت شر ميتة –نسأل الله العافية–، فهذا خطير، والله –عز وجل– يقول عن أقوام: **{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [سورة الأنعام:١١٠] هنا تقليب الأفئدة والأبصار، تقليب القلوب والأبصار يعني يقلبها عن الحق لا تهتدي إليه، فإذا صُرف بصر الإنسان صرفت بصيرته وانعكست، وصرف قلبه عن الهدى والحق، فإنه –نسأل الله العافية– يرى الأمور مقلوبة، خيار الناس يتحولون عنده إلى شرار الناس، وقد يكون هو في يوم من الأيام كان يرى هؤلاء هم الأخيار والفضلاء، وأنهم هم القدوة، ثم بعد ذلك يراهم مردة لماذا؟ انظر إلى هذا الذي قتل عليًّا –رضي الله عنه–، وعليٌّ هو أفضل الأمة في زمانه، وأتقى الأمة

وأعلم الأمة وأرجح الأمة في زمانه، هذا الذي قتله ينتسب للإسلام، وقتله تقربًا إلى الله، يرى أنه هو المشكلة، وأن محور الشر يدور على هؤلاء، فيرى أن التخلص منه أفضل للجهاد، ثم ذاك الذي يمدحه

يا ضربةً مِن تقيٍّ ما أراد بها ***إلا ليبلغ َ من ذي العرش رضوانا

يمدحه بهذا، هذا يريد ما عند الله، والثاني ابن جرموز الذي قتل الزبير بن العوام –رضي الله عنه– غيلة في واد السباع، وهو راجع –رضي الله عنه– إلى المدينة قد ترك القتال عندما ذكّره علي –رضي الله عنه– بقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((تقاتله وأنت ظالم له))[[10]]، فرجع، ولحقه هذا الشقي وقتله، وجاء يتقرب إلى علي ويفتخر بأنه قتله فبشره علي –رضي الله عنه– بالنار، هذا الذي اجترأ على قتل الزبير، والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، وحواري النبي –صلى الله عليه وسلم– ما هذا العقل؟! وما هذه اليد التي اجترأت هذه الجرأة؟ ما هذه النفس؟ كيف تحولت أبصار هؤلاء لئنْ يرى الزبير بن العوام أنه شر يجب الخلاص منه، ثم بعد ذلك أكلته الحسرات، فلما ولي عبد الله بن الزبير الحجاز والعراق وخراسان جاء هذا الشقي إلى مصعب بن الزبير وكان واليًا على العراق فأراد أن يقتص منه في قتل الزبير، فكتب مصعب لأخيه عبد الله يسأله في هذا، فرفض عبد الله بن الزبير أن يقتص للزبير منه، رأى أنه أحقر من ذلك، فكان الرجل يتحسر، فهؤلاء الذين سطروا التاريخ لهم بطولات وإقدام في الحروب وشجاعة مفرطة، يبذلون النفوس أرخص ما تكون ولا يبالون في مواجهة الأعداء، ولهم شعر من أصدق الشعر وأنقاه، معروف، تجد هؤلاء عندهم استعداد أن يفترقوا لأتفه الأسباب، وكان بعض الدهاة من الأمراء إذا حصلت مواجهة معهم دس إليهم بعض من يعرض بعض المسائل فينقسم عسكرهم إلى قسمين، يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا فيجتاحهم جميعاً، قابلية عجيبة للانقسام، للتفرق، للاختلاف، للتكفير، في العسكر نفسه، وهم في مقام حرب، والتاريخ مليء بالأحداث، الصحابة –رضي الله عنهم– لهم أخبار في هذا بعضهم لما رأى رءوسًا عند الجامع الأموي أو في الشام بكى وقرأ الآية: **{ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}** [سورة الكهف:١٠٤] أو قرأ نحو ذلك، فلماذا الإنسان يغرر بنفسه؟ لماذا يجترئ على أمور لم يتأهل لها؟ لماذا يركب الإنسان المراكب الصعبة، ويجعل من نفسه مفتيًا في قضايا دماء، وقضايا أحكام كبيرة مثل هذه وهو لم يتأهل، ما عنده رسوخ في العلم لربما عمره في العشرينات، فيتكلم في مسائل لو جمع لها أهل بدر لتوقفوا فيها، ويجترئ عليها، ويطلق الأحكام، ويطلق العبارات الكبار فلان العالم يستتاب، وفلان أتقى من نعرف في هذا الزمان، وأعلم من نعرف، هكذا بهذه السهولة، يجترئ عليهم بهذه السهولة، فهذا خطير، فينبغي على كل من أراد الخلاص

لنفسه أن يتوقى، وأن يحذر وأن يخاف أن يقع في مثل هذه الورطات الكبار، فيقع على رأسه في حفرة من حفر جهنم، العبرة ليست بكثرة ما يبذل الإنسان، ولا العبرة بتاريخ أمضاه الإنسان في عمل صالح، العبرة فيما يموت عليه المرء، العبرة في إحسان العمل، { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢] العبرة بالصواب، والصواب لا يمكن أن يأتي إلا بالعلم الصحيح، والعلم الصحيح لا يحصّل بمزاولات وأعمال أخرى، العلم يحتاج إلى ثني ركب، إلى الأخذ عن العلماء الراسخين، ولا يمكن أن يُؤخذ العلم والأحكام من غير ذلك، نسأل الله الهداية للجميع، وأن يصلح حالنا، وأن يقينا وإياكم ويعيذنا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

[1] – رواه أحمد في المسند، برقم (٢١١٨٦)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم بن بَهْدلة، فهو صدوق حسن الحديث، وقد توبع، عفان: هو ابن مسلم الصفَّار البصري"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٥٢).

[2] – رواه البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، برقم (٣٤٧)، ومسلم، كتاب الحيض، باب التيمم، برقم (٣٦٨).

[3] – رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل قراءة المعوذتين، برقم (٨١٤).

[4] – رواه النسائي، أوائل كتاب الاستعاذة، برقم (٥٤٣٧)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٢٩٦)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير القاسم أبي عبد الرحمن– وهو ابن عبد الرحمن الدمشقي– فقد روى له البخاري في "الأدب" وأصحاب السنن، ووثقه غير واحد من أهل العلم كالبخاري وابن معين وغيرهما، وقد صرح القاسم بسماعه من عقبة بن عامر في رواية ابن المبارك وبشر بن بكر عن ابن جابر، وابن جابر: هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر".

[5] – رواه النسائي في الكبرى، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة أخبرنا أبو القاسم حمزة بن محمد بن علي بن محمد بن العباس الكناني بقراءتي عليه قال أنا أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان النسائي قراءة علّي وأنا أسمع أخبركم قال، برقم (٧٨٥٦).

[6] – رواه النسائي، في أوائل كتاب الاستعاذة، برقم (٥٤٣٨)، وقال الألباني: "حسن صحيح"، في صحيح أبي داود برقم (١٣١٦).

[7] – رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (٧٨١٤).

[8] – رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، برقم (٥٠١٦).

[9] – رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، برقم (٢٠٥٨)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان، برقم (٥٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٩٠٢).

[10] – رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٣٧٨٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٦٥٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفلق

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [سورة الفلق].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتتميمًا لما ذكره ابن كثير -رحمه الله- من الرواية عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، البعض قد يقول: لم يكتبها ليس ذلك يعني أنه لا يعتقد أنها من القرآن، لكن هناك روايات مصرِّحة، انظر هذه الألفاظ في هذه الروايات الصحيحة: عن عبد الرحمن بن يزيد قال: "كان عبد الله يحُكُّ المعوذتين من مصاحفه"، ويقول: "إنهما ليستا من كتاب الله"، وجاء أيضًا عنه أنه قال: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس فيه، فإنما هما معوذتان تعوذ بهما النبي -صلى الله عليه وسلم- **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}** [سورة الناس:١] كان عبد الله يمحوهما من مصحفه، وكذلك أيضًا زر قال: قلت لأبيٍّ: إن أخاك يحكُّهما من المصحف، والرواية التي عندنا هذه أوضح قيل لسفيان بن عيينة: ابن مسعود، فلم ينكر، قال أبيٌّ: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: قيل لي.. فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني هي ليست مجرد تعويذة، قال سفيان: يحكُّهما أي المعوذتين وليستا في مصحف ابن مسعود، يقول: كان يرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعوذ بهما الحسن والحسين، ولم يسمعه يقرؤهما في شيء من صلاته فظن أنهما عُوذتان وأصر على ظنه، وتحقق الباقون كونهما من القرآن فأودعوهما إياه، وجاء أيضًا عن علقمة بن قيس عن ابن مسعود أنه كان يحكُّ المعوذتين من المصاحف، ويقول: إنما أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يتعوذ بهما، ولم يكن عبد الله يقرأ بهما، وكذلك أيضًا في رواية عن أبي بكر بن عياش أن عبدالله يقول في المعوذتين: "لا تلحقوا بالقرآن ما ليس منه"، وأجيب عن هذا بأنه لم يتابعه على هذا أحد من الصحابة -رضي الله عنهم-، وأنه قد انعقد الإجماع بلا شك، وجاءت روايات صحيحة وصريحة كما في حديث عقبة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ بهما في صلاته، وكذلك أثبتهما الصحابة -رضي الله عنهم- في المصاحف، وأجمعوا على هذا، وابن مسعود -رضي الله عنه- كان قد أدرك ذلك ثم أقر به، وأعطاهم مصحفه، كذلك الروايات عنه في القراءة المتواترة القراءة التي نقرأ بها مروية عن ابن مسعود -رضي الله عنه- ترجع أسانيدها إلى ابن مسعود- وفيها المعوذتان، فهذا لا إشكال فيه ألبته، وممن رده وأنكره وقال: إن ذلك لا يثبت عن ابن مسعود -كما سبق- ابن حزم، والباقلاني في كتابه "الانتصار لنقل القرآن" له كلام طويل في الرد على هذا، وبيان أن ذلك لا يثبت عن ابن مسعود، وكتاب "الانتصار لنقل القرآن" هذا كتاب كبير، وقبل سنين طبع مختصر له، أو تهذيب له في نحو ثلاثمائة صفحة أو أكثر، ثم طبع الكتاب الأصل بطبعتين محققتين، والكتاب فيه أشياء كثيرة مفيدة، وهو يرد على الطاعنين في

القرآن، أشياء يُطعن بها سواء الطعون من قبل المعتزلة، أو الرافضة أو غير هؤلاء، هو يرد بردود طويلة، والروايات التي تُنقل أحياناً مُشكِلة عن بعض الصحابة في جمع القرآن، أو في كتابته كل هذا يجيب عنه بإجابات مفصلة، فالكتاب مفيد من هذه الناحية، وإن كان بعض القضايا ترجع إلى العقيدة الأشعرية، النووي -رحمه الله- في شرحه للمهذب يقول: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئًا منه كفر، وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل ليس بصحيح عنه، وتجدون في كتاب "الانتصار" هذا بابًا خاصًا في هذا الموضوع باب المعوذتين، أو باب الكلام في المعوذتين والكشف عن ظهور نقلهما وقيام الحجة بهما، وإبطال ما يدعونه من إنكار عبد الله بن مسعود من كونه قرآناً منزلًا، وتأويل ما روي في إسقاطهما من مصحفه، وحكِّه إياهما، وتركه إثبات فاتحة الكتاب في إمامه يعني في مصحفه، وما يتصل بهذه الفصول، وأطال في الكلام على هذه القضية والرد على هذه الشبهة، وليس المقام مقام توسع في مثل هذه القضايا وإلا لن ننتهي، لكن الأمر واضح، والإجماع منعقد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ بهما في الصلاة، والمصاحف التي كتبها الصحابة -رضي الله عنهم- وأجمعوا عليها كُتبت فيها، والقراءة المنقولة عن ابن مسعود -رضي الله عنه- بالتواتر فيها المعوذتان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين، يقول الحافظ ابن كثير: روى ابن أبي حاتم عن جابر -رضي الله عنهما- قال: الفلق الصبح، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: الفلق الصبح، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن محمد بن عقيل والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وابن زيد ومالك عن زيد بن أسلم مثل هذا، قال القرظي وابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [سورة الأنعام:٩٦].

هذه السورة سورة الفلق تسمى بذلك، وبـــ "قل أعوذ برب الفلق"، وسماها بعضهم بالمعوذة الأولى، والموضوع الذي تدور حوله هذه السورة هو الاستعاذة من الشرور كلها، وخص منها بعد العموم ثلاثة شرور خفية؛ وذلك لصعوبة التحرز منها، ولخفاء مأخذها، وحاجة العبد الماسة إلى الحفظ والتوقي قبل الوقوع، ورفع ذلك ودفعه بعد حصوله، فإن هذه الأمور ليست مما يجدي معه طب الأطباء، أعني الطب المادي، وإنما ذلك يحتاج معه إلى الاستعاذة والطب الرباني، فذكَرَ الاستعاذة من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد، فاستعاذ بشيء واحد هنا برب الفلق، وذكر بعده ثلاثة أشياء هي المستعاذ منه، بخلاف سورة الناس فقد ذكر الأسماء الثلاثة المستعاذ بها: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، والمستعاذ منه شيء واحد وهو الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فهذا هو موضوع هاتين السورتين، وهذا يتضمن الفرق بينهما، فلاحظ: في الأولى استعاذ بشيء واحد برب الفلق، وذكر ثلاثة أشياء بعده، السورة الثانية سورة الناس استعاذ بثلاثة أسماء عظيمة لله -عز وجل- من شيء واحد وهو الوسواس الخناس.

الفلق: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} الله –تبارك وتعالى– يأمر نبيه –صلى الله عليه وسلم– بهذا، وذلك أيضًا يلحق أمته، ويدخلون فيه، والفلق ما المراد به؟

العلماء لهم كلام كثير من أهل اللغة ومن المفسرين، والذي عليه الجمهور أن الفلق هو الصبح، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} الفلق الصبح، يقولون: هو أبين من فلق الصبح، إذا كان الصبح فلماذا قيل له: الفلق؟ قالوا: لأنه يُفلق عن الليل، ينفلق الصبح من ظلام الليل، وبهذا الاعتبار فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول، فلق بمعنى مفلوق، يُفلق، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} فالصبح ينفلق عن الليل، وهذا ذكره كثيرون، هذا قول الجمهور وقال به جماعة من أصحاب المعاني كالزجاج قال: فلَق الصبح، وفرَق الصبح، ابن عاشور يقول: لأن الليل شُبه بشيء مغلق ينفلق عنه الصبح، ويقول: إن الفلق أصله بمعنى الانشقاق عن باطن الشيء، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل، هذا قول عامة أهل العلم، وهناك أقوال أخرى في التحديد بتحديد معنى بعينه، معنى خاص لكن هذه الأقوال منها ما هو بعيد لا دليل عليه، ومنها ما يدخل في معنى أعم سيأتي ذكره.

ومن الأقوال البعيدة التي لا يدل عليها دليل أن الفلق سجن في جهنم، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، أو شجرة في النار، أو أنه الجبال والصخور؛ لأنها تُفلق بالمياه تُشقق يعني، أو هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خشية الله –عز وجل– وتتصدع، فكل هذه الأقوال لا دليل عليها، وبعضهم يذكر معنى أعمّ يقول: الفلق هو الخلق {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، يعني الخلق، وبعضهم يقول: الرحم تنفلق بالحيوان، وبعضهم يقول: كل ما انفلق، كل ما يصدق عليه هذا من جميع ما خلق الله –عز وجل– فيدخل في ذلك الصبح، ويدخل في ذلك النبات {إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [سورة الأنعام:٩٥]، {فَالِقُ الإِصْبَاحِ}، يدخل في ذلك سائر ما يصدق عليه هذا مما خلقه الله –تبارك وتعالى– من الحيوان والنبات كل ذلك داخل فيه، هذا منقول عن الحسن والضحاك، واستظهر القرطبي –رحمه الله– لهذا القول من جهة أن هذه المادة تفسر بمعنى الانشقاق، الفلق بمعنى الشق، الانشقاق، تقول: فلقته يعني شققته، وكل ما انفلق عن شيء بهذا الاعتبار من حيوان وصبح –ينفلق عن الظلام، عن الليل– وهكذا الحب والنوى فهو فلق، فيكون هذا القول يشمل القول المشهور قول الجمهور: إنه الصبح، وزيادة باعتبار أن الله –تبارك وتعالى– لم يحدد معنى بعينه، فهذا يقال له: فلق، وهذا يقال له: فلق، وإن كان الظاهر المتبادر أو الأشهر أن الفلق يقال للصبح، وهو الأكثر في الاستعمال، ومن هنا قال الجمهور: إن المراد به الصبح، ولكن هذا القول أشمل وأعمّ، ووجه الارتباط بين هذه الأمور سواء كان مما جاء به القسم، أو ما يتعلق بالمستعاذ بالله منه، الفلق ما علاقته {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ} ما علاقة الفلق هنا حينما ذُكر في الاستعاذة بالمستعاذ منه {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} لماذا ذكر الفلق؟ أما على القول بتفسيره بالمعنى الأعم فإن كل هذه الأمور التي يستعاذ منها من إنسان وحيوان وإلى آخره، هذه الأمور التي يتخوفها الناس هي داخلة في هذا المعنى، واضح أنه يصدق عليها الفلق، أو أنه حاصل فيها بوجه من الوجوه، أما على تفسيره بمعنى خاص على المشهور من أنه الصبح فلماذا ذكر هذا في الاستعاذة {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}؟ هذه شرور يستعاذ منها فالعلماء ذكروا لذلك أوجهاً: بعضهم مثلًا يقول: خُص الفلق هنا بالذكر إيماء إلى أن الله –تبارك وتعالى– القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أن يدفع

الشرور عنه، يعني الذي يرفع هذه الظلمات قادر على رفع الشر ودفع الشر -أيضاً- قبل وقوعه، والشر عمومًا والظلام بينهما ملازمة؛ ولهذا فإن بعضهم علله بتعليل يتصل بهذه الجهة قضية الشر والظلام والصبح والأمور المحبوبة السارة المرغوب فيها، فيقولون: إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الأمر المحبوب، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظرًا لطلوع الصبح فكذلك الخائف يكون مترقبًا لطلوع صباح النجاة إلى غير ذلك مما قيل، وابن عاشور ذكر أيضًا شيئًا من هذا مما يتصل بالتعليل، فعلى سبيل المثال يقول: رب الفلق هو الله؛ لأنه هو الذي خلق أسباب ظهور الصبح، ويقول: وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شرًّا كثيرًا يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعسر النجاة، وبُعد الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى حتى ظن بعض أهل الضلالة أن الليل إله الشر، والمعنى أعوذ بفالق الصبح مَنْجاة من شرور الليل، يعني فلق الصبح ليكون منجاة من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشرّ كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، يقول: فوصفَ اللهَ بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة، هذا كلام ابن عاشور، وإذا فسر الفلق بالصبح **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** فالفلق لا شك أنه الأمر الذي يُنتظر ويبشِّر سواء كان ذلك حقيقة وحسًّا، أو كان ذلك من باب الكناية عن كون الصبح يعبر به عن الفرج -أيضًا- والانتقال إلى حال مرضية **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}**، الذي فلق الصبح أعوذ به من أجل أن يكون الله -تبارك وتعالى- حافظًا للعبد، منجيًا له من الظلمات والشرور والآفات التي يتخوفها، أو رفع ما حل به من ذلك، فالصبح يشير إلى الخير وينفلق عن الظلام الذي يشير إلى الشر؛ لأن الآفات تكثر بالليل، الإجرام والمجرمون، والفساد والمفسدون، الهوام، الدواب، السباع تكثر في الليل، فإن الليل يستر عن الأعين فتنتشر شياطين الإنس والجن، ولذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بكف الصبيان حتى تذهب فحمة العشاء، والسبب أن الشياطين ينتشرون، فهو وقت انتشار فيتخطفون هؤلاء، وهذا الانتشار إلى أي أمد؟ يعني معناها أنهم يكمنون في النهار فإذا جاء هذا الوقت -بداية الليل- انتشروا فيكون لظهورهم وانتشارهم في هذه الساعة يكون لهم نوع نشاط وتخطف حتى تذهب فحمة العشاء، يعني بعد ذلك يكون انتشارهم كما يقال في حال من الانسياب، فهم يظهرون في الليل وينتشرون ويكثرون، ويكمنون في النهار، وهنا **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}** هذا على تفسير الجمهور بأنه الصبح، ومن فسره بمعنى أعم وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فإن ذلك يكون استعاذة بمن فلق الأشياء، يعني كأنه يستعيذ بمن خلقها إذ إن ذلك يشمل المخلوقات بأنواعها بما في ذلك الصبح، فهو الذي ينجي ويحفظ ويقي عبده من الشرور والآفات التي يحاذرها، ولا يقي من ذلك أحد سواه، ولهذا فإن هذه الأمور المذكورة بعد العموم **{مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}**: **{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ}** فذكْرُ الغاسق لو فسر بالليل أو فسر بالقمر فوجه المناسبة واضح، إذا فسر الفلق بالصبح فالغاسق الليل، وإذا قيل: القمر فهو آية الليل كما سيأتي وهما قولان متلازمان، ولماذا الليل؟؛ لأنه يكثر فيه الإجرام والشر والآفات وشياطين الإنس والجن، غالب ما يحصل من ذلك في الليل، ولذلك فإن المهموم والمخموم والخائف والوجِع والمريض كل هؤلاء ينتظر الصبح، فيكون في الليل بحال من الشدة، فإذا ظهر الصباح طلع الفجر الذي لربما يستطيله هذا المبتلى فإنه يحصل له بذلك سرور وانبلاج وفرح ونشاط، **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** هذه الشرور التي تكون في الليل إذا فسر بالقمر

-يعني الغاسق- فإنما سلطانه بالليل، فالقضية ترجع إلى الليل بهذا الاعتبار، فهذه الشرور فيه، والأشرار ينتشرون بصورة خفية يسترهم الظلام، فمن الذي يقي هذا الإنسان حينما يتسلل إليه ما يتخوفه في الليل من الدواب، من الآفات، من الهوام والسباع إلى آخره في برية في مكان هو لا يدري ما حوله لربما يتوسد أفعى أليس كذلك؟ وإذا أصبح رأى ما حوله لربما نزل في مكان لا يصلح للنزول، ولربما كان بجواره ما يخافه ويحاذره، أو ما فرّ منه -هذا الظلام يستر ذلك- من الذي يحفظ من هذا كله؟ هو الله -تبارك وتعالى- **{مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}** هؤلاء السواحر، هذا السحر يصل بطرق خفية، كيف يستطيع الإنسان التحرز منه؟ فإنه إذا خُلي بين العبد فإنه لا يدري بأي واد هلك، بينما هو في غمرة الفرح والسرور واللذات إذ به ينقلب رأسًا على عقب في لحظة **{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}** هذه الأمور الخفية لا يعرفها الأطباء، ولا يتعاملون معها، ولربما أجروا له العمليات، وأجروا له أنواع المعالجات ولا يصلون معه إلى شيء، فهنا ليس ثمّة ما يحفظ إلا الله، وليس ثمة ما يرفع ويدفع إلا الله **{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** الحسد أعم لكن هنا تخصيص بهذه الحال "إذا حسد" يدخل فيه العين بلا شك، وهذه يصل إلى الإنسان منها الشر بإذن الله -عز وجل- بتكيُّفات غيبية للنفس حال استشرافها النعمة أو صاحب النعمة، فيصل إلى الإنسان بسبب ذلك بإذن الله -عز وجل- وتقديره الضرر الذي يحصل به التلف الموت، ويحصل به ما دونه من ذهاب المال، أو ذهاب الولد أو غير ذلك من الأوجاع والأمراض والأسقام التي لا يدري الأطباء دواءها، لا يعرفون لها علاجاً فيقولون: الفحوصات كلها سليمة ما فيها شيء، وتجد هذا الإنسان في حالة من الشدة والكرب، وهذا من أصعب الأشياء، يعني كثير من الناس الذين يبتلون بهذا أو يبتلون بالمس يتمنون أن العلة التي فيهم من العلل التي تكون مدركَة للأطباء، العلل المادية بأن القضية عنده تتعلق بجهاز من الأجهزة حصل له التعثر في عمله ووظائفه، أو أن ذلك يتعلق بأمر يمكن أن يعالج بدواء أو عملية أو شيء من هذا، كثير ممن يأتون الأطباء يتمنون هذا، وألا يكون ذلك في أمر غامض، والذين يبتلون -نسأل الله العافية للجميع- يدركون مثل هذا، ومن أصعب الأشياء أن ترى أمامك من لا تستطيع أن تصنع له شيئًا من طب الأطباء، تذهب به إلى المستشفى وغير ذلك، يرى الأشياء على غير ما هي به، يخيل إليه أن الناس لربما يكونون في هيئة وفي صورة أخرى تمامًا، فهو يرى أشياء لا تراها تُخيل إليه لربما، ويتكلم بكل ثقة عن هذه الأمور التي يشاهدها، والناس لا يشاهدونها، يرى الناس في غير ما خلقهم الله -عز وجل-، فأنت لا تدري تتحدث مع إنسان يعقل أو لا يعقل، فهذا من أشد الأشياء على النفس، ثم إذا رُقي طرأت عليه من الآثار والمظاهر التي لربما تكون أشد وطأة مما يعانيه من ابتلي بالأمراض الحسية، هذا بالإضافة إلى أن هذه الأمراض المادية الحسية أيضًا قد ترجع إلى هذا، قد يبتلى الإنسان بهذه الأمراض حتى الأمراض الخطيرة بسبب شيء من هذا، من وخز الجن أو من عين الإنسان، أو عين الجان، أو بملابسات غيبية خفية، كل هذه الأمور وغير هذه الأمور من الذي ينجي منها؟ هو الله -تبارك وتعالى- وحده دون ما سواه، فالحاجة إلى الاستعاذة الحاجة إلى ملاحظة ذلك هي في غاية الأهمية، والكلام في هذا يطول، ولكن الحاصل أن عندنا من الكنوز ما لا يقادر قدره؛ ولهذا فإنه ما تعوذ المتعوذون بأفضل من هذا، ومع ذلك تجد التفريط، يعني هذا يكون من باب الوقاية قبل الوقوع، ويكون أيضًا من باب العلاج بعد الوقوع.

قال: وفي قوله تعالى: {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ} أي: من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق.

قول ثابت والحسن: **جهنم وإبليس**، يعني من قال: إن المقصود بالفلق هو جهنم، أو إنه إبليس، أو إنه شجرة في النار أو غير ذلك فهذا داخل بجملة هذه الشرور، **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}**.

قال: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروبُ الشمس، حكاه البخاري عنه.

هنا يقول: قال القرظي وابن زيد وابن جرير: الفلق الصبح، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن محمد بن عقيل والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وابن زيد وابن مالك عن زيد بن أسلم مثل هذا، يعني الصبح، وهي كقوله: **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ}** يعني ابن جرير لم يقل هذا على سبيل الترجيح، وإنما ذكر هذا القول وذكر ما يؤيده أنه قول صحيح **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ}** ذكر ما يشهد له، لكنه حمل الآية على المعنى الأعمّ، يعني يقول: إن الصبح داخل في هذا بلا شك، وكذلك أيضًا **{فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}**، فهذا كله مما يدخل فيه، فابن جرير يصحح هذا المعنى لكنه لا يرجحه باعتبار أنه هو المعنى حصرًا، وإنما يحمل ذلك على معنى أعمّ أن الآية يدخل فيها كل ما يصدق عليه ذلك، يعني الفلق كل ذلك مما خلقه الله –تبارك وتعالى– داخل فيه، هذا قول ابن جرير، وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** فإذا أردنا أن نرجح واحدًا من هذه المعاني فإن الصبح هو الذي عليه الجمهور، والفلق وإن كان هذا هو الأشهر في استعماله لكنه يصدق على ما هو أوسع من ذلك باعتبار أن "ال" هذه للجنس وليست عهدية، تكون للجنس ليشمل كل ما يقال له: هذا فلق.

ابن كثير يقول: وهذا هو الصحيح.

وابن جرير ذكر الصبح واستشهد له بـــ **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ}**، هذا معنى صحيح، لكن في النهاية ابن جرير حمله على المعنى العام: كل ما يصدق عليه أنه فلق.

قال –رحمه الله–: وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخصيف والحسن وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه، وقال الزهري: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} الشمس إذا غربت، وقال أبو المهزم عن أبي هريرة: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} الكوكب، وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها، قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر، قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن الحارث بن أبي سلمة قال: قالت عائشة –رضي الله عنها–: أخذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بيدي، فأراني القمر حين طلع وقال: ((تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب))[1]، ورواه الترمذي، والنسائي في كتابي التفسير من سننهما.

---

١ – رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة المعوذتين، برقم (٣٣٦٦)، وقال أبو عيسى: "هذا حديث حسن صحيح"، وأحمد في المسند، برقم (٢٤٣٢٣)، وحسنه محققو المسند، والنسائي في الكبرى، برقم (١٠١٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٩١٦).

{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} فسر الغاسق بالليل، وهذا قال به طوائف من السلف فمن بعدهم، وهذا من أشهر ما قيل في تفسير الآية، ووجه ذلك أن الشرور وشياطين الإنس والجن تكثر وتنتشر في الليل؛ لظلامه لأنه يسترها، وهذا قال به أيضًا جماعة من أصحاب المعاني كالفراء وآخرين، وهو الذي رجحه ابن عاشور، وعلى هذا {إِذَا وَقَبَ} يعني اشتد ظلامه، وبعض شراح كتب السنة كالسندي يقول: الغاسق المظلم، لاحظ هذا أعم، النبي -صلى الله عليه وسلم- فسره بالقمر، وهذا الحديث حسنه بعض أهل العلم، وصححه آخرون ((استعيذي بالله من شر هذا الغاسق القمر))، فهذا تفسير نبوي، والتفسير النبوي لا يصح العدول عنه، ولكن يبقى هل فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- بأحد أفراده، يعني ببعض ما يصدق عليه فالقمر كذلك، ولهذا القول الآخر المشهور: إن الغاسق هو القمر، والقولان متلازمان، أعني القول بأنه الليل والقول بأنه القمر، وذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره باعتبار أن القمر هو آية الليل، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء:١٢] وهي القمر {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ} وهي الشمس مبصرة، فالقمر إنما يظهر ليلًا، وسلطانه بالليل، ومن ثَمّ فإن من فسره بالقمر فإن ذلك لا ينافي تفسيره بالليل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر القمر ((استعيذي بالله من شر هذا الغاسق))، فهذا لا شك أنه داخل فيه {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ} يعني القمر، وكذلك أيضًا فالله -عز وجل- يقول: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء:٧٨]، وغسق الليل يعني ظلمته، فإذا اشتد ظلامه كثرت الشرور، والأشرار الذين ينتشرون فيه، إذا قيل: إنه الليل إذا وقب يعني اشتد ظلامه، لكن إذا فسر بالقمر {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} بعضهم يقول: إذا وقب يعني غاب، إذا غاب القمر، يقولون: إذا أخذ في الطلوع والغروب يظلم لونه، لماذا يظلم لونه هكذا؟ بعضهم يقول: للأبخرة المتصاعدة من الأرض، والبُعد فيكون ذلك مؤثرًا في نقائه وصفائه وظهوره ووضوح أنواره، فإذا غاب انتشر الفسقة للسرقة، والفجار؛ لفجورهم وما إلى ذلك، {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} هكذا قال بعض من فسره بالقمر، وهذان القولان أقوى الأقوال التي فسرت ذلك بمعنى خاص، هي أقوى الأقوال، وهناك من قال فيه أشياء أخرى بعيدة، كقول الزجاج: إن الغسق يعني البرودة {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} يقول: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، والغاسق هو البارد، وهذا بعيد أن يكون هو المراد لهذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، من فسره بالقمر أيضًا منهم من قال: إنه إذا غسق يعني خسف، وإن خسوف القمر مؤذن بالخطر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده))[٢]، ولهذا شيخ الإسلام لم ينكر هذا المعنى، أنكر بعض التفسيرات المنقولة في الغاسق ولكنه في مثل هذا المعنى ربط بينه وبين المعنى الأعم الذي اختاره، وبعضهم يقول: إذا غسق يعني إذا غاب كما جاء عن قتادة، وبعضهم حاول أن يفسره بمعنى في غاية العموم، ولكن قد لا يكون مناسبًا بهذا الموضع كقول من قال: الغاسق كل هاجم يضر كائنًا ما كان، غسقت القرحة إذا جرى صديدها، وشيخ الإسلام -رحمه الله- له كلام في هذا -يأتي إن شاء الله- حاول فيه أن يربط ذلك بالظلام وأن القمر داخل في هذا التفسير، وذكر كلامًا طويلًا في مواضع من كتبه أو من فتاواه مفاده أن الليل الذي يظهر فيه القمر يرتبط بكثير من الشرور، وأيضًا حاول أن يربط القمر

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، برقم (٩١١).

بكثير من أعمال الأشرار باعتبار أن السحرة الذين لهم أعمال في السحر يربطونها بالقمر، وما لهؤلاء من ضلالات في هذا الباب، وما لهم من مصنفات فيه، فحاول أن يربط بالليل والظلام، وأن يربط أيضًا بالقمر ويأتي كلامه إن شاء الله.

هنا ابن جرير –رحمه الله– يقول: **{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** غسق الليل إذا أظلم، إذا وقب عند ابن جرير: إذا دخل في ظلامه، ثم ذكر أن الليل إذا دخل في ظلامه فهو غاسق، وكذا النجم إذا حصل له الأفول فهو غاسق، وكذا القمر، ثم حمله في النهاية على كل غاسق، يعني كل ما يوصف بأنه غاسق من ليل أو قمر أو كوكب أو نجم إلى آخره، فيقول ابن جرير: كل هذه داخلة فيه؛ لأن الله لم يحدد معنى من هذه المعاني، فكل ما يصدق عليه أنه غاسق فهو مستعاذ منه، ويدخل فيه القمر دخولًا أوليًا؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– فسر بذلك.

سائل يقول: إذا فسر النبي –صلى الله عليه وسلم– ببعض المعنى ألَا يكون من قبيل النص فيه بحيث لا يوسَّع المعنى مثلًا ويقال: إن معانيَ أخرى تدخل في الآية؟

الجواب: لا؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد يفسرها ببعض معناها، كما سبق ذكر أمثلة لهذا، يعني هنا الغاسق والليل بينهما ملازمة، ولذلك من أجلى الأقوال وأوضحها أن الغاسق هنا يفسر بالليل وبالقمر، هذا من أقوى الأقوال ومن أوضحها، فإذا أردت أن توسعه تقول: كل غاسق كما يقول ابن جرير، فهذا له وجه من النظر صحيح، وباعتبار أن الله لم يحدد، وكون النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر معنى لا يعني هذا عدم وجود غيره، وذكرنا لكم أمثلة كقوله –صلى الله عليه وسلم–: **((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا))**[٣]، ثم قرأ: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}** [سورة الأنبياء:١٠٤] معنى الآية وسياقها في الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية كما هو طريق معروف في القرآن من طرق الاحتجاج للبعث بالإيجاد الأول، وكذلك في اختصام العوفي والخدري في أي المسجدين أسس على التقوى أولًا؟ فقال الخدري: هو مسجد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقال العوفي: هو مسجد قباء، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((هو مسجدي هذا))**[٤]، وشيخ الإسلام –رحمه الله– يقول: والسياق في مسجد قباء قطعًا، لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– فسره بما هو الأولى والأحق بهذه الصفة وهو مسجده –صلى الله عليه وسلم–، فهذا لا ينفي ذلك عن مسجد قباء، وهكذا، فقد يفسر النبي –صلى الله عليه وسلم– ببعض المعنى، لكن أحياناً قد يكون التفسير النبوي يحدد المراد بعينه مثل: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [سورة لقمان:١٣] فسر النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذه الآية قوله –تبارك وتعالى–: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [سورة الأنعام:٨٢] فالظلم هنا نكرة في سياق النفي فهي تفيد العموم، ولهذا أشكل على الصحابة؛ لأنهم عرب خلص استشكلوا هذا المعنى **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم**

---

٣ – رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٧)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩).

٤ – رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: "حديث صحيح".

{بِظُلْمٍ} أيّ ظلم يعني قلّ أو كثر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بين أنه الشرك، هنا ليس لأحد أن يقول: إن النجاة تتوقف على السلامة من الظلم مطلقاً **{أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}**، وإن الأمن والاهتداء المطلق أو مطلق الأمن والاهتداء كل ذلك لا يحصل إلا لمن سلم من مطلق الظلم، يعني أدنى ظلم وليس الظلم المطلق الذي هو الكفر -الظلم الكامل الكبير أو الأكبر- مع أن في كلام أهل العلم -وتجدون هذا في تفسير بعض العلماء مثل الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- ما يُشعِر أن الإنسان يكون له من الأمن والاهتداء بقدر ما يكون عنده من السلامة من الظلم قليله وكثيره، لكنهم لا يقولون: إنه يتوقف عليه مطلق الأمن والاهتداء، يعني يحصل له الأمن والاهتداء لا ينعدم في حقه إلا بالشرك -إذا وقع بالشرك- لكن ينقص من أمنه واهتدائه بقدر ما حصل له من الظلم، ظلم النفس، ظلم الخلق، "لم يلبسوا إيمانهم بظلم" لم يخلطوه بظلم، فالمعاصي ظلم، وأخذ حقوق الناس ظلم، فينقص من أمنه واهتدائه، هل هذا يعارض التفسير النبوي بهذه الطريقة؟

الجواب: لا، لكن لو قال قائل: إن ذلك ينعدم معه الأمن والاهتداء، يعني ينتفي في حقه مطلق الأمن والاهتداء، نقول: لا، لكنه ينتفي معه الأمن والاهتداء المطلقان الكاملان، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فيكون له من الأمن والاهتداء بقدر ما عنده من الإيمان والسلامة من الظلم، **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الأنعام:٨٢]، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: {وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر، قال مجاهد: إذا رقَيْنَ ونفثْنَ في العقد.

هنا النفاثات في العقد ما هي النفاثات؟ النفاثات فسرت باعتبار أنها مؤنث فسرت بالسواحر، وهذا هو المتبادر، والذي عليه الأكثر من أهل العلم، وهو قول جماعة من المحققين، وبه قال شيخ الإسلام -رحمه الله- وغيره، وابن كثير يقول: النفاثات نقل عن هؤلاء من السلف قال: السواحر مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، كل هؤلاء يقولون: السواحر، يعني النساء السواحر، وبعضهم يقول: النفوس فيدخل فيها الرجال والنساء، "من شر النفاثات" أي النفوس النفاثات، والأول هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، الآن بأي اعتبار القول: إن المقصود النساء النفاثات وقد رجح هذا شيخ الإسلام وابن جرير قبله، وقال به الجماعة هؤلاء من السلف بأي اعتبار؟ لماذا خص الله النساء مع أن السحر قد يقع في الرجال؟ يكثر في النساء، لماذا يكثر في النساء؟ هؤلاء النساء اللاتي يحصل منهن السحر سيئات طبعًا لكن اسمع عبارة ابن عاشور، ولعل النساء ما يضيقون ذرعًا به فيكرهون كتابه، فكتابه فيه أشياء جيدة، وفيه معانٍ جزلة، وإن كانت فيه أشياء من العقيدة الأشعرية.

فيقول في النفاثات: **النساء الساحرات**، وجاء بصفة المؤنث؛ لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحرَ النساءُ، هذا هو الذي يقوله كثير ممن علل من المفسرين الذين فسروه بالنساء؛ لأنه الأكثر وقوعًا يعني أكثر ما يقع السحر من النساء، لكن لماذا يقع السحر من النساء؟

ابن عاشور يقول: لأن نساءهم يقصد ذاك الزمن يعني قبل عمل المرأة، وخروج المرأة، وانشغال المرأة، وصيرورتها ندًا للرجل يقول: لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة، فلذلك يكثر

انكبابهن على مثل هذه السفاسف من السحر والتكهن ونحو ذلك، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن، هذا كلام ابن عاشور، قد يكون هذا وقد لا يكون، لكن الشيء المشاهد في هذا الخلق عمومًا أن هذا المخلوق الذي قد يكون فيه ضعف في المقابل قد يكون عنده من الأسباب التي يدفع بها أو يوصل بها الضرر والأذى بإذن الله -عز وجل- الذي قد لا تطيقه النفوس القوية من الرجال، المخلوقات هذه التي فيها ضعف انظر إلى السحر الآن أكثر ما يقع مثلًا من هؤلاء الذين لربما يظلمهم كثير من الناس، ويصادرون حقوقهم من العاملات في البيوت، هذه المرأة الضعيفة أو من العاملين، أكثر ما يقع السحر من العاملين هؤلاء أو من العاملات؟ من العاملات والناس يدركون هذا جيدًا، ومن ثم فإنهم في الوقت الذي لا يتقون الله -عز وجل- لا يتقي كثير منهم ربه في هؤلاء الضعفاء إلا أنه يقدر في نفسه من المخاوف ما يمكن أن يفتدي معه بكل ما يملك في سبيل الخلاص منه، ولذلك كثيرًا ما نسمع من سؤلات الناس إذا أرادت أن تسافر يصادرون كل ما معها حتى الثياب التي تلبسها يخشون أنها وضعت فيها شيئًا أو أخذت من ملابسهم أو كذا، ويشترون لها الجديد ما شاءت ابتداء من الحقيبة إلى أنواع اللباس خوفًا، ولا يفعلون مع العاملين من السائقين ونحوهم، لاحظ، فهذه على ضعفها إلا أنهم يتوقعون حصول الضرر والأذى منها، فهم يظلمونها إلا من رحم الله، وهم يتوقعون أن يصل منها من الأذى والضرر ما لا يطيقون، لاحظ بإمكاناتهم ومع ذلك يتخوفون من هذه التي لا يعبأ بها أكثرهم في الوقت نفسه، يتخوفون منها هذا الخوف الشديد الكبير، كثيرًا ما يسأل الناس عن هذه القضايا هل نحن نكون قد ظلمناها إذا أخذنا ما عندها من متاع ولباس؟، ثم يشترون لها ما شاءت في سبيل أن لا يقع لهم ضرر بسبب ذلك، ويفتحون كل رسالة ترسلها ينظرون ما فيها، ويأتون بالترجمان ليترجم، ما يفعلون هذا مع الرجال، فهذه المرأة لضعفها تلجأ إلى هذه الطرق؛ لتحصّل مطالبها، أو تنتصر ممن ظلمها، ولذلك تجد كثيرًا في النساء هذا النوع من السحر الذي هو العطف والصرف، تجلب قلب الزوج، أو تصرف قلب الزوج عنها، والذي يعانون من السحر أو نحو ذلك في كثير من الأحيان لربما أضافوه إلى بعض النساء من ذويهم وقراباتهم، يعني أنها هي التي صرفته عن زوجته مثلًا فنفر منها وكرهها، لا يريد أن يتزوجها مثلًا إلى آخر ما هو معروف في هذا، ولو نظرت إلى المخلوقات الضعيفة الأخرى، يعني انظر إلى هذه الدواب أو الهوام أو الأشياء الضعيفة ماذا يصل منها من أنواع الأذى؟ العقرب صغيرة ولكنها قد تقتل الجمل، فجعل الله لها هذا، انظر إلى أصحاب القامات القصيرة والخَلق الضئيل الصغير، بعض أهل البلاد المشرقية هكذا خلقتهم صغيرة ونحو ذلك لكن عندهم ما عوضهم الله به مما يدفعون عن أنفسهم ما لا يقوم أمامه أطول الناس قامة وأعظمهم بنية، تعرفون هذا عندهم من وسائل الدفاع عن النفس مع أن قاماتهم قصيرة، وفيهم ضآلة ودقة في الأعضاء لكن عندهم من الوسائل التي يدفعون بها عن أنفسهم ما لا يوجد عند غيرهم، وإن تلقاه غيرهم فإنما يتلقونه تطفلًا عليهم منهم، فتجد هذا الضعف يعوض بأشياء قد لا يقف أمامها هؤلاء الأقوياء، فالشاهد أن ذكر النفاثات باعتبار أنها السواحر قول هؤلاء العلماء كابن جرير وشيخ الإسلام وغير هؤلاء من السلف قبلهم باعتبار أن السحر أكثر في النساء مثلًا، فصار كأنه صنعة عرفت بها النساء أكثر من الرجال، فهو وإن وجد في الرجال إلا أنه في النساء أكثر، "النفاثات في العقد" والنفث أصله نفخ مع الريق، يعني النفخ إخراج الهواء من غير ريق فإذا وجد معه ريق فهو النفث؛ ولهذا يقال: إن الرقية على مراتب أعلاها أن تكون الرقية

مباشرة على المريض بنفث يعني بريق، وحديث اللديغ رُقي بالفاتحة فجعل يقرؤها ويتفل، فإخراج الريق معه هذا أبلغ، يليه في المرتبة أن يقرأ وينفخ فقط، وهذا أقل، يليه المرتبة الثالثة أن يقرأ بلا نفخ، فهذه أضعف هذه المراتب الثلاث، أن يقرأ بلا نفخ، يقرأ بنية الرقية، أما القراءة بغير نية الرقية فهذه لها آثار، ولكنها ليست كأثر القراءة بنية الرقية، النية لها أثر في هذا كما أن العزيمة واليقين لهما أثر بالغ في ذلك.

قال: وفي الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: اشتكيتَ يا محمد؟ فقال: ((نعم، فقال: بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر كل حاسد وعين الله يشفيك))[٥].

وروى البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سُحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن"، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال: ((يا عائشة أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقًا، قال: وفيم؟ قال: في مُشط ومُشاطة، قال: وأين؟ قال في جُفِّ طلعةٍ ذكر تحت راعوفةٍ في بئر ذَرْوان، قالت: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أُريتُها وكأنّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين، قال: فاستُخرج، قالت فقلت: أفلا تنشَّرتَ؟ فقال: أمّا الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا))[٦].

{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} العقد المراد بها ما يعقده السحرة، فهؤلاء النفاثات تعقد العقد إما بخيوط، أو بالشعر أو غير ذلك وتنفث فيها مع كلمات تقولها وتتمتم بها، ورقى واستعانة بأسماء الشياطين وما إلى ذلك، فيحصل بذلك السحر، ويقع الضرر إذا أراد الله -تبارك وتعالى-، **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** [سورة البقرة:١٠٢]، وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- سُحر وهذا أمر مقطوع به ثابت لا مطعن فيه، ولكن هذا السحر لم يؤثر في النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يتعلق بالبلاغ، وإنما كان في أمر مما يتعاطاه مما يتصل بالنساء فحسب، فهو في أمر مادي دنيوي، وليس فيما يتعلق بالرسالة والبلاغ عن الله -عز وجل- قطعًا، ولم يؤثر ذلك فيه، والله يعصمه من ذلك، وهذا يدل أيضًا على أن الإنسان مهما كانت صلته مع ربه -تبارك وتعالى- وكذلك أيضًا في المحافظة على الأوراد والأذكار لكنه إذا جاء القدر فإن ذلك لابدّ أن يقع، ولا يقال: ما الفائدة من الأذكار؟

هذه الأذكار هي سبب، ولكن إذا قدر الله أمرًا لابدّ أن يقع، والله قد يدفع ذلك أو بعضه بأمور يقدرها من ذلك أن هذا الإنسان يحافظ على هذه الأذكار، وأثر المحافظة على هذه الأذكار لا ينكر أبدًا بحال من الأحوال، وهو شيء مشاهد، فهي حصن حصين منيع كما يقول بعض أهل العلم، يقول: أعظم من سد يأجوج ومأجوج،

---

٥ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١١٧١٠)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير داود -وهو ابن أبي هند-، وأبي نَضْرة -وهو منذر بن مالك العبدي- فمن رجال مسلم، إلا أنه وهم فيه وُهيب -وهو ابن خالد-، فقال: أو عن جابر بن عبد الله، قال الدارقطني في "العلل" ٤/ ورقة٤: والصحيح عن أبي سعيد، عفان: هو ابن مسلم".

٦ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟، برقم (٥٧٦٥)، ومسلم، كتاب السلام، باب السحر، برقم (٢١٨٩)، واللفظ للبخاري.

وسمعت بعض من صرع ويتكلم على لسانه أحد هؤلاء من الجن فكان مما قال: إن هذا لا يحافظ على الأذكار وكان له أصحاب قد اجتمعوا يرقونه ونحو ذلك، فكان يقول عن هؤلاء: إن دونهم حصناً منيعاً لا يستطيع هؤلاء من الجن الوصول إليهم، وكان سبب هذا أن الرجل جلس على عتبة العمارة التي كانوا قد استأجروا شقة فيها في مكة في رمضان، فجاء هذا وقال: إنه قد جلس على المكان الذي يجلس فيه كبيرهم أو شيخهم أو مرجعهم أو نحو ذلك، جلس عليه ولم يسمّ، فلما جاء هؤلاء وجدوا صاحبهم في هيئة أخرى، يعني لحيته واقف شعرها، أصابع أقدامه في وضع غريب، الإبهام منفرجة بقوة، يعجز الرجال عن تثبيته، يعني يحتاج لرجل يجلس على يد، ورجل آخر على عضد، ورجل آخر على صدره، ورجل آخر يمسك رجله، ولا يستطيعون، يرفعهم، الشاهد أن هذه أمور ما تنكر، وقد يقع هذا بسبب أمور لا يحسب الإنسان لها حسابًا، والآخر لما ذهب مع أصحابه لنزهة إلى البر فذهب -أعزكم الله- قريبًا إلى الخلاء، فكان هذا الموضع مجلساً لهم، فكان سببًا للتلبس به، فرجع إلى أصحابه بهيئة غير التي ذهب بها، إنسان آخر، فلما رُقي صار هذا يتكلم على لسانه، ويقول: إن هذا أساء إليهم وإنه لم يسمّ، والرجل ذهب لقضاء الحاجة، فمن الذي يقي من هذا كله؟ هو الله -تبارك وتعالى-، النبي -صلى الله عليه وسلم- سُحر قال: وفيم؟، قال: ((في مُشط ومُشاطة))، فالمشط معروف، والمشاطة الشعر الذي يعلق في المشط قال: وأين؟ في جُفِّ طلعةٍ، يعني الجف هو قشر الطلع، فالنخيل إذا ظهر الطلع فيها الذي يكون عليها من الأكمام التي تنشق ثم بعد ذلك يحصل لها التأبير، هذا القشر هذا اللحاء الذي يغطيها كالظرف لها هذا جف، فهو قشر الطلع، جف طلعة ذكر، فالنخيل على نوعين: نوع ذكر، ونوع أنثى، فالذكر لا يثمر، وإنما يؤخذ منه ويؤبَّر به النخيل كما هو معروف، والذكر معلوم معروف حتى في هيئته سبحان الله!، الفرق بين الذكر والأنثى حتى في النخيل تجد أن جذوعه أغلظ، وتجد أن الكَرَب أكبر، وإذا رأيت هيئته فهي تخالف هيئة النخيل المعروف، واضح أنه ذكر، فالذين يريدون إذابة الفروق بين الرجل والمرأة الذكر والأنثى، وهؤلاء الذين لا خلاق لهم يريدون أن يسموا الجنس البشري باسم آخر لا يصدق عليه ذكر ولا أنثى، يتناسون هذا تمامًا فيسمونه الجِنْدَر، يقولون: لا تقل: هذا ذكر وأنثى، هذا اسمه الجِنْدر، فيريدون حتى إلغاء كلمة ذكر، وأنثى، جندر! -قبحهم الله-، فهنا حتى النخيل يتميز ذكرها من أنثاها، يقول: تحت راعوفة، الراعوفة عبارة عن صخرة حجر يوضع في أسفل البئر من أجل من أراد أن ينزح البئر أو ينظفه أو يستقي منه إذا كان البئر ماؤه قليلاً أحيانًا ينزل أحد ويجلس، وهذه الصخرة أو الحجر يقف عليها من ينزح البئر أو ينقيه أو ينظفه، فهذا وضعه تحتها؛ لئلا يوصل إليه؛ ولذلك هؤلاء الأشرار يخفون السحر غاية الإمكان، فتجد أنهم -نسأل الله العافية- أحيانًا لربما أعطوه بعض الناس في مغسلة الموتى ممن يقوم على تغسيل الميت أو نحو ذلك يعطونه السحر ويضعه في فكِّ الميت، ثم بعد ذلك يربطونه يعني يربط فك الميت إلى رأسه من أجل أن يغلق الفم، فمن الذي يستطيع أن يكتشف هذا ويعرف؟ يعني حتى لو قيل لهم: إنه في القبر، وبحثوا في القبر ونبشوا فإنهم لا يجدون شيئًا؛ لأنه في فك الميت، ويضعونه في أماكن من الغيران، والأماكن البعيدة، والقبور، كل ذلك مبالغة في الإخفاء، ولربما وضعوه في أشياء ويلقى في قعر البحر، والحملات التي تقام بين حين وآخر لتنظيف البحر يتطوع فيها طلاب مدارس وغيرهم يُستخرج بواسطتها من السحر ما الله به عليم، وقد حدثني كثيرون عن أشياء من هذا

القبيل وجدوها مصادفة حينما يستخرجون أشياء من البحر زجاجات وغيرها، يجدون فيها من العقد والأعمال السحرية، تلقى في البحر؛ لئلا يصل إليها أحد، فهذا وضعه تحت راعوفة في بئر ذَرْوان، قال: فأتى البحر حتى استخرجه، فهنا استخرجه دل على أنه وجده، وفي بعض الروايات أنه أمر بدفنه فظاهره أنه لم يُستخرج، وفي آخر الحديث هنا عائشة -رضي الله عنها- قالت: أفلا تنشرتَ؟ فقال: **((أمّا الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا))**، إذاً العلماء -رحمهم الله- لما نظروا إلى هذه الألفاظ وجدوا أن ذلك لا يخلو من نوع إشكال، هل دُفن من غير استخراج، أو أنه استُخرج؟ كيف قال النبي -صلى الله عليه وسلم- إنه كره أن يثير على الناس شرًّا، وهنا قال: فاستُخرج، بعض الشراح يقول: إنه استُخرج ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فتحه باعتبار أنه انحلت عقده بقراءة الملَك، كان كلما قرأ انحلت عقدة فتحللت هذه العقد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ما فتحه؛ لئلا يثير شرًّا وإلا فالأصل أن السحر إذا وجد وعرف مكانه فإنه تُحل العقد بطريقة معينة، ولا يُترك، يعني من الخطأ أن الإنسان يأخذ هذا السحر، ويرميه في مكان أو يضعه كما يفعل بعض الناس -أعزكم الله- في دورة المياه بزعمه أن يتخلص منه، لا، يحتاج أن يفك هذه العقد، **{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير سواء حصلت للحاسد -انتقلت إليه- أو لم تحصل، يعني بعضهم يتمنى زوال هذه النعمة وانتقالها إليها، وبعضهم يتمنى زوال هذه النعمة بأي طريق كان وإن لم تصل إليه، فهذا حسد وهو داء لا يخلو منه أحد، كما قال شيخ الإسلام: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه، يعني ما يقع من دواعي الحسد في نفس الإنسان إذا دافعه ولم يبدُ منه شيء، يعني دعا لهذا الإنسان بالبركة، وأحب له الخير، ولم يصدر من هذا الإنسان بلسانه، أو جوارحه شيء من مقتضيات هذا الحسد من انتقاصه أو ظلمه أو مصادرة حقه، أو نحو هذا فإنه لا يؤاخذ على ذلك، لكن عليه أن يدافعه، وأن يتذكر أن هذا إنعام من الله، أو ابتلاء، وأن الله يعطي عن علم وحكمة، وأن ذلك اعتراض على قدر الله -عز وجل-، فيكون ذلك من أسباب دفع هذه المواجيد التي يجدها الإنسان في نفسه، لكن هنا قال: **{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** بعض أهل العلم قال: قيده بهذه الحال "إذا حسد" فهذا أشدّ حالات الحسد ويدخل فيه العين، فإنها من الحسد، وذلك أن النفس تتكيف بكيفية غيبية الله أعلم بها حينما تستشرف لنعمة أُعطيت لبعض الناس فيصدر منها أمر غيبي يحصل بسببه الضرر بإذن الله -عز وجل-، فقد يَقتل وقد يُمرض، وقد يذهب المال أو غير ذلك بإذن الله -عز وجل- وإرادته، كل هذا قد يحصل، والنصوص واضحة في هذا وصريحة، وهذا أمر لا ينكر، ولهذا في العلاج فإنه أولًا للوقاية مأمور أن يبرِّك عليه، كما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني يدعو له بالبركة، يقول: اللهم بارك له وبارك عليه ونحو ذلك، لا أن يقول: ما شاء الله، وقد مضى الكلام على هذا في قوله تعالى في سورة الكهف: **{وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}** [سورة الكهف:٣٩] فهل هذا يعني أن الإنسان إذا رأى ما يعجبه من مال غيره يقول ذلك لدفع العين؟ الذي يظهر أنه قد لا يكون ذلك كما سبق، وإنما يقوله دفعًا للإعجاب بنفسه وما أُعطي وخروجًا من حوله وطوله وقوته؛ لأن هذا افتخر على صاحبه بأنه خير منه مالاً وأكثر وأعز نفرًا **{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}** [سورة الكهف:٣٥]، وقال أكثر من ذلك قال: **{مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}** [سورة الكهف:٣٥-٣٦] إلى آخر ما قال، فهنا يقول: ما شاء الله لا قوة إلا

بالله ليخرج من حوله وطوله، هل هذا يقتضي أن الناس يكتبونها ويضعونها على مداخل البيوت؟ لا، ليس كذلك، وإنما يكون ذلك قولًا بألسنتهم، ومعنى في نفوسهم وقلوبهم أن يخرج الإنسان من النظر إلى طاقته وقوته وإمكاناته وعلومه وفهمه وقدراته، ما شاء الله لا قوة إلا بالله إذا أعجبه شيء من إنجازاته ونحو هذا، أو من إنجازات غيره، لكن الذي يُدفع به العين أن يدعو له بالبركة كما أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن الأول وهو ما شاء الله لا قوة إلا بالله خلاف ما تدعو إليه النفس من الترفع ورؤية النفس، أما الدعاء بالبركة فهو خلاف مقتضى العين والحسد، الحسد زوال النعمة فإذا دعا له بالبركة فهذا يكون على الضد، فبعض الناس إذا رأى أحداً تخوَّف منه العينَ قال: قل: ما شاء الله، لا، قل له: ادع لي بالبركة، ادع له بالبركة، قل: الله يبارك له، يبارك عليه، وما أشبه ذلك، هذا هو اللائق في مثل هذا المقام.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الناس

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [سورة الناس].

يقول ابن كثير -رحمه الله-: هذه ثلاث صفات من صفات الرب -عز وجل-: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة: سورة الناس، وأيضًا يقال: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}**، وهي التي يقال لها: المعوِّذة الثانية من المعوِّذتين، وسورة الفلق هي استعاذة من الشرور الخارجية **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** [سورة الفلق]، هذا الذي يذكره أهل العلم، لكن يمكن أن يقال: يلاحظ في ذلك أن قوله: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}** يدخل فيه شرور النفس، فهذا عام ثم بعد ذلك خصّ هذه الشرور الثلاثة -وهي خارجية-؛ لشدة خطرها، وصعوبة التحرز منها، وهو شيء لا يملكه، فيكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام، وسورة الناس تتعلق بالوسواس، فتلك تتعلق بالمخاوف من الشرور التي تصل إليه، الشرور بأنواعها، وهذه تتعلق بنوع من الشرور، وهو الوسوسة، وهذه الوسوسة العلماء -رحمهم الله- يقولون: إنها شيء في داخل النفس، مع ملاحظة أنه على أحد القولين المشهورين كما سيأتي في قوله تعالى: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** أن الموسوس قد يكون من شياطين الإنس، فيكون ذلك مع الشيطان من الجن، الشيطان من الجن يحدث وسوسة في داخل النفس، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، فالوسوسة شيء داخلي بنفس الإنسان، إلا أن الوسوسة من شيطان الإنس هي ما يلقيه على مسامعه ويزينه له من المنكر والمعصية بما يُسمعه، أو ما يقوم مقام الإسماع، فهذا شيء من الخارج، ويمكن أن نقول قولًا يُتلافى فيه هذا الاستثناء بالأولى والثانية من هاتين السورتين، فيقال: إن السورة الأولى تتعلق بالاستعاذة من الشرور، وخص منها ثلاثة وهي خارجية، والسورة الثانية تتعلق بالوسوسة، ويلاحظ أنه في السورة الأولى **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** استعاذ بالله -عز وجل- بصفة

واحدة، وأما هذه التي تتعلق بالوسوسة فذكر ثلاثة أسماء **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}** فذكر الربوبية العامة التي لا يخرج عنها مخلوق، فالكل مربوبون لله -تبارك وتعالى- لا يخرج أحد عن ربوبيته، فنواصيهم بيده، فهو مدبرهم ومصرف أمورهم؛ ولهذا قال بعده: **{مَلِكِ النَّاسِ}**، فإن صفة المُلْك أخص من صفة الربوبية؛ لأن الرب -رب الشيء رب الدار ونحو ذلك- قد لا يكون ملكًا فجاء بالمُلك، والمُلك يعني التصرف المطلق فهو يتصرف فيهم، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أخص من هذا وهو الإلهية؛ لأن الكثيرين من الخلق لا يؤلِّهون الله -عز وجل-، ولا يعبدونه، فهو ليس بإله لهم في مزاولتهم وأعمالهم التي يتقربون بها، ويتعبدون، وإن كان هو الإله الحق للجميع، فذكر الإلهية بعد ذلك، والمستعيذ المستجير إنما يلجأ إلى ربه ليقيه ويحفظه من شرور واقعة أو من شرور متوقعة، فهنا يلجأ به ليرفع عنه ما حلّ به ونزل من هذه الأضرار والعلل فيُرقى الإنسان بمثل هذا، ويستعيذ ويرقي نفسه، ويقرأ هاتين السورتين، وكذلك أيضًا يلجأ إلى ربه ومالكه وإلهه؛ لدفع ما يتخوفه؛ لئلا يقع، فالشرور والمحابّ هي إما أن تكون واقعة، أو متوقعة، فالمحابّ الواقعة يسأل ربه أن يحفظها وأن يبقيها، والتي يرجِّيها ولم تقع يطلب من ربه أن يحققها له، والمخاوف إما أن تكون واقعة أو متوقعة، فالواقعة يطلب رفعها، والمتوقعة يطلب دفعها، فهو يدور بين هذه الأمور الأربعة، عليها تدور مطالب الناس، وما ينتابهم من القلق وما تعلمون، كله يرجع إلى هذا، وكل المحاولات والمزاولات والأعمال التي يعملونها فهي إما لدفع بلاء وقع، أو لدفع ما هو متوقع، أو للإبقاء على ما حصل لهم من الخير والنفع واللذات -يعني المصالح فإنه يعبر عنها باللذات- والمحاب، أو ما كان متوقعًا يرجِّيه فهو يسأل ربه فيلجأ إلى الله -عز وجل- في هذه الأمور الأربعة، وهو يلجأ إلى ربه وخالقه، ويلجأ إلى مالكه وملِكه، هذا الإنسان المربوب يلجأ إلى ربه، والعبد الرقيق يلجأ إلى مالكه ومليكه، وكذلك أيضًا الذي يكون عبدًا لله -عز وجل- فإنه يلجأ إلى إلهه، فهنا لجأ إلى الرب، وإلى الملك، وإلى الإله، هذه الأسماء الثلاثة هي أوقع وأليق وأنسب ما يكون في الاستعاذة في هذا الباب، ليُوقَى العبد من شر المكاره والمخاوف، ومن أجل أن يحافظ على ما أعطاه الله -عز وجل- من المحاب، أو يرفع عنه ما حلّ به من البلاء والشرور والآفات والمكاره، فالله -تبارك وتعالى- هو رب الناس، يعني هو مالك أمرهم ومصلح أحوالهم، هو مربيهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فيلجئون إليه إذا حصل لهم أو نزل بهم المكروه، أو يلجئون إليه إذا تخوفوا شيئًا، وكذلك أيضًا في قوله -تبارك وتعالى-: **{مَلِكِ النَّاسِ}** فهذا مثل عطف البيان، رب الناس هو ملك الناس، فربوبيته -تبارك وتعالى- ليست كربوبية غيره، بل هي ربوبية مع المُلك، فهو ملك لهؤلاء الناس، وملكه كامل، وسلطانه قاهر، أما ملك المخلوق فهو محدود وقاصر، وهو أيضًا إله الناس، وهذا من قبيل عطف البيان بالنسبة لما قبله، فهذه الربوبية والملك انضم إليهما الإلهية ومن هنا يكون العبد ملتجئاً إلى الله -تبارك وتعالى- بهذه الأسماء المتضمنة لهذه الصفات، وبهذا نعرف قدر هذه الاستعاذة، ويمكن أن يقال: إنه ابتدأ بالرب -إضافة إلى ما ذكر من كون الربوبية عامة- لأنه رباه منذ أن كان نطفة ثم علقة ثم مضغة، فهو إذا انتابته المخاوف أو نزل به المكروه يلجأ إليه مباشرة، ولا يلتفت إلى أحد سواه، وهكذا ما بعده، لما ذكر الربوبية ثم بعده ذكر الملك فإن هذا في غاية المناسبة، والله تعالى أعلم.

فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله.

لاحظ الآن {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ} يعني هنا كرر هذه اللفظة "الناس" في هذه المواضع، وبصرف النظر هل الشيطان يوسوس في صدور الجنّ أو لا؟ وسيأتي الكلام أيضًا على المراد بالناس هل يدخل فيهم الجنّ أصلًا في هذه السورة قصدًا أو لا يدخلون باعتبار ما سيأتي في آخرها من قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} ما المراد به؟ وعلى أي شيء يحمل؟ فهنا كرر لفظ "الناس"، وخص الناس مع أنه رب كل شيء {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ} فالله هو رب كل شيء ومليكه، هو الإله المعبود -جل وعلا-، فهنا يمكن أن يقال: إما لشرفهم، أو لكون الاستعاذة قد وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم من الوسواس الخناس، أو لكونهم هم الذين يستعيذون، يعني يعلِّمهم الاستعاذة، علِّم الناس، سواء قلنا: إن الناس هم البشر، أو قلنا: إن ذلك يدخل فيه أيضاً الجن، والله أعلم، لكن لا شك أن القضية تتعلق تعلقاً واضحاً بالناس على كلام كثير في هذه المادة، أصل مادة الناس من أي شيء أخذت، وبصرف النظر عن هذا لكن الذين يستعيذون هم الناس، المستهدف بهذه الوسوسة هم الناس.

وقد ثبت في الصحيح أنه: ((ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه))، قالوا: وأنت يا رسول الله؟، قال: ((نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير))[1]، وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو معتكف وخروجه معها ليلًا ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرعا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((على رسلكما، إنها صفية بنت حيي))، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!، فقال: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا، أو قال: شرًا))[2].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} قال: الشيطان جاثم على ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس، وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذُكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: {الْوَسْوَاسِ} قال: هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس.

هنا قوله -تبارك وتعالى-: {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} لاحظ الآيات الثلاث التي قبلها بهذه الأسماء الثلاثة يستعاذ من شيء واحد، {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} هذا يدل على شدته وخطورته، وعلى صعوبة التحرز من ذلك، فشيطان الجن أو الشيطان من الجن يوسوس في صدور الناس بطريقة لا يشعر بها العبد، وهو يلقي في نفسه الخواطر والوسواس دون أن يراها، أو يشعر به، ويكون بهذه المثابة -بهذه الصفة- التي ذكرها

---

١ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأنّ مع كل إنسان قريناً، برقم (٢٨١٤).

٢ - رواه مسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، برقم (٢١٧٥).

النبي -صلى الله عليه وسلم-: يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، فيختلط عليه الأمر هل هذا من الدوافع النفسية، النفس الأمارة بالسوء، أو أن ذلك هو من قبيل الشيطان الذي يغريه بالمنكر؟، وهذا الإغراء يكون على خطوات، وعلى مراحل، فهو في البداية يلقي الخاطرة في قلبه، ثم بعد ذلك يزين له هذا الفعل، ثم يقيم صورته في نفسه فتتعلق بها وتتبعها، وهو في كل هذا لا يشعر، ثم بعد ذلك ينسيه العواقب السيئة، ويعميه عنها، ثم بعد ذلك يتحول إلى عزم مصمم فيواقع الفعل، فإذا قضى نهمته أفاق بعد ذلك، وأدرك أنه وقع في أمر يضره، ثم قد يندم بعد ذلك، وقد يكون هذا الفعل مما لا يستدرك، فقد يقتل، وقد يطلق طلاقاً بائنًا، وقد يقع في معصية من المعاصي فيوفق للتوبة وقد لا يوفق لها، وقد يتوب ثم يعود إلى ذلك من جديد بعد أن ظن أنه لا يمكن أن يقع في هذا الفعل ثانية، فيزين له ذلك، ثم يقيم صورته أمام ناظر القلب فيغريه به، ثم ينسيه العواقب وينسيه توبته السابقة فتنطمس البصيرة، ثم يقع في هذا بعد أن يتحول إلى عزيمة، ثم يفيق وهكذا، هذا في غاية الخطورة، فهذا في جانب من جهة الإغراء بالمنكر، وقوع المعاصي والذنوب والجرائم إلى آخره، فكل هذه الشرور من أولها إلى آخرها ترتبط بهذه الأمور التي هي من قبيل الخواطر في أولها، ثم ما تلبث أن تتحول إلى عزيمة، ثم يتبعها الفعل، فتنقاد النفس إليها إما بدافع النفس الشهوانية التي تنطمس معها البصيرة تمامًا فيعمى، أو النفس الغضبية وتنطمس معها البصيرة تمامًا فيعمى لا يرى شيئًا، بل يقوى هذا أحيانًا ويشتد فتنطمس أيضًا عينه الباصرة، فما عاد يبصر يقول: أنا لم أعد أرى شيئًا، فإنه لا يعقل ما قال، يصل به الحال إلى هذا، يسمونه إغلاق العقل، أُغلق العقل تمامًا فهو لا يشعر بما قال، ولربما قيل له: أنت قلت كذا وكذا، وهو لم يشعر بشيء من ذلك، يصل إلى هذا -النفس الغضبية- فيكون ذلك حاجزًا دون العقل، فهنا هذا في جانب الوقوع في المنكر والمعصية والعدوان على الخلق أو التعدي على حدود الله -تبارك وتعالى-، أما ما يتصل بالجانب الآخر وذلك حينما يعجز الشيطان عن إيقاع الإنسان في مثل هذه الموبقات والجرائم، وما أشبه ذلك فإنه يبدأ يقلقه بإلقاء الخواطر السيئة في نفسه، وتشكيكه فيما هو عليه من أعمال ونيات ومقاصد وما إلى ذلك، فيبدأ يقلق دائمًا أن نيته مدخولة، وأنه منافق، وأنه غير مخلص لله -عز وجل-، وأنه مُراءٍ، ولماذا يعمل، ولماذا يجتهد، ولماذا يجدّ في طاعة الله وأعماله غير مقبولة، وهكذا أيضًا يشغله بالخواطر السيئة المتعلقة بذات الله -عز وجل-، فيلبس عليه، وإذا قرأ القرآن دخل بينه وبين قراءته، وهكذا إذا أراد أن يصلي أو يتوضأ أو يعمل شيئًا من العبادات أشغله بالخواطر والوساوس بثوب الناصح الذي يريد إيقاع العبادة على أكمل الوجوه وأحسنها بزعمه أنه يصحح له طهارته، وأنه لربما لم يبلغ الوضوء مبلغه، وأن صلاته لربما لم تكن على وجه التمام؛ لأنه أخل بالتكبيرة الأولى، أو أخل بالفاتحة، أو بركن من أركانها، فلم يلبث يأمره بالإعادة مرة بعد مرة وثانية وثالثة وعاشرة ومائة حتى يترك الصلاة، قد رأيت من هذا، وأخبرني بعضهم أنه ترك الصلاة تمامًا، وأخبرني بعضهم أنه كان لا يغتسل من جنابة، وأخبرني بعضهم أنه كان يصلي بلا وضوء؛ لشدة ما كان يجد من هذه الصلاة التي هي انشراح، فصارت هذه الصلاة عذاباً وعناء، يخرج الوقت والوقت الذي بعده وهو لم يصلّ الفرض الأول، تعذيب، ويبقى طول اليوم وهو في عناء مع هذه الصلاة، وكرب وشدة، ويعيا به أهله وتتقطع الأسباب التي يمكن أن يتوصل بها إلى حل ومعالجة لهذه المشكلة، فيقفون عنده ويقولون: أنت كبرت التكبيرة، أنت الآن قرأت سورة الفاتحة، أنت الآن

كبرت للركوع، أنت فعلت كذا، وأخبرني بعضهم أنه يضع مسجلاً ثم يسمعه بعد الصلاة، ثم بعد ذلك يعيد المرة بعد المرة فيخرج وقت العصر ويأتي المغرب، ويخرج وقت المغرب، ويأتي العشاء ويخرج وقت العشاء وهو لم يصلِّ العصر بزعمه، يعيدها ويرددها ووراءها صلاة المغرب، وصلاة العشاء، فتأتي الساعة الثانية عشرة من الليل وهو لا يزال يعيد صلاة العصر، فهذا يفعله كما يقول الحافظ ابن القيم حينما يعجز عن إيقاعه في الشرك في الكبائر ونحو هذا، فإن عجز أوقعه في الصغائر، فإن لم يستطع أوقعه في هذه الوساوس وأقلقه وأشغله، فإن لم يستطع سلط عليه جنده يقلقونه، سلط عليه هذا يضلله، وهذا يبدعه، كما يقول ابن القيم، وهذا يكفره، وهذا من أجل أن ينزعج ويقلق ويبقى دائمًا في حال من التأزم، فهذا فعلُ عدوه به، ومن هنا جاءت هذه الاستعاذة بهذه الأسماء الثلاثة **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}** فدل ذلك على أن هذا أشد وطأة من الذي قبله، **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}**، هذا الذي يدور في داخله أعظم وأشد، ومن رأى في أحوال الناس أو جرب في نفسه هذه الوسوسة في العبادة، أو رأى غير ذلك مما يوقعه الشيطان من ألوان الأوهام في نفوس الناس عرف هذا، تجد الإنسان ليس به علة وليس به بأس، ولربما ظن أنه قد نزل به أدواء أهل الأرض وهو ليس به بأس، ولا يستطيع أن ينتفع بعمل لا لآخرة ولا لدنيا، فهو دائم التوجس والتحسس والتوهم أنه عليل، أنه مريض، ولربما بمخاوف يتوقعها من علل وأمراض، أو مِن قِبل الخلق أنهم يصلون إليه بأذى، أنهم يتربصون به، أنهم يريدون به سوءًا، فهو ينظر إلى هؤلاء الناس وإلى هذه الدنيا كما يقال: بمنظار أسود، يتوقع منهم الشرور والمكاره، وأنهم يتربصون به الدوائر، ثم بعد ذلك لا يستطيع أن يعبد الله -عز وجل- كما ينبغي، ويبقى في حال من الحزن، والحسرة، والكآبة، والنفس لها أحوال من القوة والضعف والإقبال والإدبار، فإذا انتابها حال من الضعف إما بسبب مرض حقيقي، أو علة حقيقية حصلت فيأتي الشيطان ويستغل هذا، فيزيد من اعتلاله في أوقات الضعف هذه، فتشتد وطأته عليه فتكثر خواطره ووساوسه، ثم بعد ذلك تضعف نفسه، وتكون أكثر قابلية للمرض الحسي؛ لأنها ضعفت، ومعلوم أن قوة القلب وحسن الفأل تدفع الأمراض الحسية فضلًا عن العلل المعنوية، وهذا أمر مشاهد في أحوال الناس، ويعرفه الأطباء مع أنهم يتعاملون تعاملًا ماديًا -أعني الطب الحديث- مع مثل هذه القضايا، لكنهم يدركون أثر الروح المعنوية في دفع العلة، وكذلك أيضًا لربما حصل له ضعف في أمر آخر يعني ليس من قبيل المرض، وإنما من قبيل الضعف البشري الذي ينتاب النفس في حال تحليقها أحيانًا، ثم بعد ذلك تهبط معنويات الإنسان؛ لموقف، لفشل عرض له، إخفاق، ما قُبل في جهة كان يؤملها، ما حصل له كذا، فيأتي الشيطان وتشتد وطأته عليه، فيدخل عليه فأحيانًا تكون هذه مِفرقاً في حياته، فيجد أن أحواله بدأت بالتدهور، وأنه قد أصابه أمور لا يدري ما هي، وحينما يُسأل عن تاريخ هذا المرض، عن تاريخ هذه العلة تجد أن المِفْصل كان هو هذا، هي فترة ضعف، وقت ضعف مر به فاستغل الشيطان هذا، شدّ عليه، ثم بعد ذلك استجاب لهذه الخواطر وصار يتشربها، فأثقلت نفسه، فحصل له بسبب ذلك من أنواع الضعف المبنية على أوهام لا حقيقة لها، تجد هذا الإنسان يقول: بعدما كنت منطلقًا في غاية النشاط والهمة والحيوية والمرح أصبحت بعد ذلك في غاية الفتور والضعف، لا تنهض نفسي بعمل صالح، أو بعمل أنتفع به في أمور الدنيا ولا أمور الآخرة، فيذهب إلى عمله على مضض

وتثاقل وتكرّه، ولا يجد إقبالًا على مخالطة الناس والجلوس معهم، وينعزل، فكلما انعزل تسلط عليه الشيطان أكثر، وإذا تراجع عن دراسته وعن عمله وقال: أنا آخذ أجازة، أغيّر، أرتاح، لعلّي.. ازدادت الوطأة، ثم بعد ذلك يحبسه في مكان في زاوية ضيقة يأخذ بخناقه ويتسلط عليه، ويكون قد انفرد به عن الناس، ثم بعد ذلك يفعل به فعله، وهذه أمور تكون على من ابتلي بها -نسأل الله العافية للجميع- أمثال الجبال، يتمنى الموت، بعدما كانت له آمال، وله طموحات كما يقال وما إلى ذلك أصبح لا يطمح لشيء، وصار الموت أفضل عنده من الحياة، وأن هذه الحياة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا طعم، ولا يلتذ مثل هذا لا بأكل ولا بشرب، ولا بمخالطة الناس، ولا بأي أمر من هذه الأمور، حتى في أموره الخاصة من معاشرة الزوجة ونحو ذلك، مثل هذا الإنسان يحصل عنده انقباض، ويقبل على هذا بتكرّه شديد حرجًا من هذه المسكينة، ولربما كان بعد أربعة أشهر أو أكثر كما سمعت من بعضهم يحمل النفس على ذلك بغاية الصعوبة؛ لأن ذلك ليس كالأكل الذي يمضغه؛ لأنه لا يجد من نفسه أصلًا إقبالًا، ومن ثَمّ هو يتوقع الإخفاق كما هو معلوم، فالمقصود أن الأمر ليس بالشيء السهل، وأكثر ما يعرقل هؤلاء الناس، ويقعدهم عن كثير من الخيرات والمنافع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل الصالح، ونصر الدين هي أوهام قد كبل الشيطان بها أيديهم وأرجلهم، فيقرب لهم المكروه ويجعله أمام ناظر الواحد منهم يترقبه ويتوقعه في كل لحظة، ومن ثَم يقعده عن العمل الصالح، يقعده عن الدعوة، يقعده عن نفع الناس، عن الخير، عن نصر الدين، والسعي في إعزازه، حتى يشعر الإنسان أنه لا يصلح، وأنه لا شيء، ولا يستطيع أن يقدم شيئًا لنفسه فضلًا عن الآخرين، ولا يزال الشيطان به حتى يفشل فشلًا كاملًا من كل وجه، ومن هنا كان لابدّ من هذه الاستعاذة، والتحرز من فعل هذا الشيطان الذي يوسوس، **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ}** بالفتح، بعضهم يقول: الوَسواس اسم للشيطان، **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}** يعني المقصود به الشيطان، فالوَسواس اسم، والوِسواس يقولون: مصدر، هكذا قال بعضهم كالفراء، وبعضهم يقول: إنه صفة -يعني الوَسواس-، أما القول بأنه مصدر فقد رده ابن القيم -رحمه الله- من وجوه متعددة -يعني الوَسواس هكذا بالفتح-، فالمقصود به الموسوس في صدور الناس، وتكرار الحروف كما هو معلوم باللغة يدل على التكرر، فإذا قلت مثلًا: زلزلة: حركة مترددة، جلجل، خلخل، زعزع كل هذا يدل على تكرر وتردد في الشيء، فإذا قلنا: وسوسة هذا يدل على أن القضية لم تقع مرة واحدة ألقى خاطرة وانتهى الأمر، لا، هو يعود ثانية وثالثة ورابعة، ولا يفتر ولا ييأس، يكرر ذلك ويعاوده مع الإنسان؛ لهذا قيل له: الوسواس، وهو لا ينتهي معه إلى حد محدود، ويقال ذلك أيضًا لحديث النفس، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}** [سورة ق:١٦]، فالنفس تحدث صاحبها كما هو معلوم، تحدثه بالخير وتحدثه بالشر، ولهذا فإن أصل الوسوسة هو الصوت الخفي، يقال له: وسوسة، ولهذا يقال: وسوسة الحلي وهو الصوت الذي يصدر منه حينما تحرك المرأة أطرافها فيظهر صوت الحلي، فيقال له: وسواس، فالمقصود **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}** أنه هنا فُسر الوسواس الخناس بالشيطان كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، بصرف النظر عما سيأتي من قوله: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}**، هل هذا تفسير لهذا الوسواس أنه يكون من الجن ويكون من الإنس فيلقون الوساوس في صدور الناس، أو أن الذي يوسوس المقصود به هنا هو الشيطان، **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ}** قال: **{الْخَنَّاسِ}** هنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: وهو الشيطان الموكل بالإنسان،

{الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} الذي يصدق عليه هذا الوصف هو شيطان الجن وليس بشيطان الإنس، وهذا يمكن أن يكون قرينة في الآية على أن المقصود بالوسواس الخناس هنا هو الشيطان؛ لأنه هو الذي يخنس إذا استعاذ منه الإنسان، هنا الوسواس يعني ذي الوسواس، الخناس كثير الخنوس، وهو يخنس كثيرًا حينما يستعاذ منه، وأصل ذلك يقال للتأخر، خنس يعني تأخر، وقد يكون هذا التأخر من قبيل التأخر الخاص، أي تأخرٌ مع ضمور مع تلاشٍ مع ضعف، تقول: خنس، الشيطان إذا استعاذ منه الإنسان خنس، وإذا لعنه الإنسان يتعاظم ويكبر كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، تقول: خنس يخنُس إذا تأخر، وهكذا حينما يستعاذ منه، وإذا ذكر العبد ربه خنس الشيطان وانقبض كما يقول مجاهد، فإذا غفل عن ذكر الله -عز وجل- انبسط الشيطان على القلب، ومضى الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [سورة التكوير:١٥] سواء قيل: إنها البقر الوحشية ونحو ذلك؛ لأنها تخنس في الغيطان، أو إنها النجوم حيث تغرب وتخنس في النهار، هذا قد مضى الكلام عليه، وإذاً {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} المقصود به هنا الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس.

وقوله تعالى: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبًا، وقال ابن جرير: وقد استُعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

يعني هنا {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} الوسواس الخناس هو الشيطان يوسوس في صدور الناس، هل المراد بالناس هنا الإنس فقط، أو يدخل فيهم الجن؟، هذا يكون أولًا بالنظر إلى صحة الإطلاق في اللغة، يعني هل يقال للجن ناس، أو لا يقال لهم: ناس؟ فإذا كان لا يقال لهم ناس فمن البداية يقال: إن هذا أصلًا لا وجه له؛ لأنهم ليسوا أصلًا من الناس، فهم لا يدخلون تحت هذه اللفظة، فالعلماء الذين قالوا: إن الناس هم البشر لاحظوا هذا أولًا كابن القيم -رحمه الله-، قالوا: إن الناس إنما هم الإنس فقط والجن لا يقال لهم: ناس، إلى غير ذلك من الوجوه التي ردوا بها هذا، يعني مثلًا ابن القيم -رحمه الله- يقول: الآن لو قيل بأنه {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} هذا الذي يوسوس في صدور الناس جن وإنس {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، يعني يوسوس في صدور الناس الجن منهم والإنس، يوسوس في صدور الجن والإنس على القول الآخر في قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} أن هذا الذي يوسوس في صدور الناس الجن والإنس على هذا القول {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، يعني أن الموسوس من الجن ومن الإنس يقول: هذا تكرار خارج عن بلاغة القرآن يعني يقول: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} يعني الجن والإنس مَن هذا الموسوس؟ موسوس من الجن وموسوس من الناس، يقول كيف يفسر الناس بالناس؟ الذي يوسوس في صدور الناس من هم الناس؟ الجن والإنس، من هذا الموسوس؟ تارة يكون من الجن، وتارة يكون من الإنس على هذا المعنى في قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، فهو يقول: لو قيل: {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} جناً وإنسًا {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} لصار تكرارًا، والذين قالوا: إن قوله: {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} المقصود بهم الإنس قالوا: لفظ الناس لا يقال للجن، والذين قالوا: الجن يدخلون فيه قالوا كما قال ابن جرير: إن الله قال في الجن: رجال، واحتجوا ببعض الآثار التي ذُكر فيها لفظ ناس من الجن ثم ناقشوا لفظة الناس من أين أخذت، هل هي من

كون الإنسان يأنس، أو أن ذلك مأخوذ من النَّوْس أي الحركة، يتحركون ويختلطون وما إلى ذلك، أو غير ذلك مما يمكن أن يقول به بعضهم؟، وليس هذا من الأمور التي نحتاج إلى بسط الكلام فيها من أين أخذ لفظ الناس، لكن هل العرب تطلق الناس على الجن أو لا؟

بعض العلماء أنكره، ومن ثَم قالوا: إن المقصود هنا بالناس هم الإنس، يوسوس في صدور الناس يعني الإنس، وقالوا: ما عندنا دليل على أن الشيطان يوسوس في صدور الجن، فالله أعلم هل يوسوس أو لا يوسوس، لكن هنا الله -تبارك وتعالى- ذكر الناس، **{يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، ولا شك أن المتبادر هم الإنس، هذا هو المتبادر، وقال: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** ليس عندنا حديث مرفوع يبين هذا، ولا آية في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وما ذكره ابن جرير من إطلاق الرجال هذا في القرآن **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ}** [سورة الجن:٦] فإذا قيل لهم: رجال هل هذا يصحح الإطلاق الآخر أنه يقال لهم: ناس؟

الجواب: لا، لكن في الصحيح في البخاري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن"[٣]، بمثل هذا الأثر لو نظرنا إليه من زاوية وهي أن ابن مسعود -رضي الله عنه- عربي قُحٌّ، وفي وقت الاحتجاج، يعني هذه القضية قلّ أن ينظر إليها المفسرون، أو أهل اللغة، يعني لو جاءهم كلام لشاعر مجهول في زمن الاحتجاج، شاعر جاهلي أو في صدر الإسلام إلى زمن الاحتجاج، هم يقولون: توقف ذلك يعني وقت الاحتجاج عند إبراهيم بن هرمة، لا يُحتج بقول الشعراء من بعده، يعتبرونهم من المولدين، لا يحتج بشعرهم في العربية، فالمقصود أن ابن مسعود -رضي الله عنه- بالاتفاق في زمن الاحتجاج وهو عربي قح، فلماذا لا يحتج بكلامه من جهة أن ذلك من إطلاقات العرب، وهذا أولى من الاحتجاج بقول شاعر مجهول، ولا مقارنة؛ فهذا من علماء الصحابة، ومن أعلم الأمة بالقرآن، وهو أيضًا عربي يحتج بكلامه، فلو نظرنا إلى هذا من هذه الناحية فيمكن أن يقال: إن الناس يقال للجن بهذا الاعتبار، لو أنه وُجد كلام شاعر كما قلت ولو كان مجهولًا لرأيت كثيراً من أهل اللغة والمفسرين يوردون هذا البيت ويقولون: يصح أن يقال الناس للجن والإنس، ومنه قول الشاعر كذا، يتتابعون على ذكر هذا، وابن مسعود -رضي الله عنه-؟! فهذا يمكن أن يحتج به من يقول: إن الناس يدخل فيهم الجن، والله أعلم.

وقوله تعالى: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} هل هو تفصيل لقوله: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} ثم بينهم فقال: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} وهذا يقوي القول الثاني.

هذا الذي اختاره ابن جرير، ويقصد بالقول الثاني أن الناس يصدق على الجن والإنس **{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** على هذا التفسير، وهو أحد القولين في الآية، يعني يكون تفسيرًا للناس، من هم الناس الذين يوسوس في صدورهم؟ ينقسمون إلى قسمين: جن وإنس، فيكون ما بعده تفسيرًا له -أي للناس-، هذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، يعني الآن على هذا القول **{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** هذا هو المفعول به من جهة المعنى، يعني يوسوس في صدور الناس، هؤلاء هم

---

٣ - رواه مسلم، ولفظه: ((كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن...))، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}** [سورة الإسراء:٥٧]، برقم (٣٠٣٠).

الموسوَس بهم الذين تُلقَى في صدورهم الخواطر والوساوس من الجن والإنس، يعني الذين يتلقفون الوسواس إنس وجن، من تقع لهم الوسوسة جن وإنس على هذا المعنى، وسيأتي المعنى الآخر.

وقيل: قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام:١١٢].

لاحظ هنا الشياطين لا شك أنهم من الجن والإنس، بل أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الكلب الأسود شيطان[٤]، فالشياطين يكونون من هؤلاء ومن هؤلاء، من الجن ومن الإنس، فالقول الثاني هنا الآن: أن قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} هذا يكون من قبيل البيان لقوله: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}، من هذا الموسوس؟ تارة يكون من الجن وتارة يكون من الإنس، واضح الفرق بين القولين، القول الذي قبله: هؤلاء هم الموسوَس في صدورهم، {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}، مَن هؤلاء الناس الذين تقع عليهم الوسوسة؟ {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} تارة يكون من الجن ومن الإنس، وعلى القول الآخر: أن هؤلاء هم الذين يوسوِسون، الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس هو إما من الجن، وإما من الإنس هذا المعنى الثاني، لكن هل يقال لهذا الذي يوسوس من الإنس: إنه وسواس خناس؟ أو أن الذي يخنس هو الشيطان من الجن إذا ذكر الله واستعيذ منه خنس؟، ابن القيم -رحمه الله- تكلم على معنى هذه الآية بكلام طويل يرجح فيه أن {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} يعني أن هذا الموسوس في صدور الناس يكون من الجن ومن الإنس، وهنا يقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، فشياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض، وهذا الإيحاء والإلقاء هو داخل في الوسوسة؛ لأنه أمر خفي، فشيطان الإنس يوسوس في صدور الناس، وشيطان الجن يوسوس في صدور الناس، شيطان الجن بالإلقاء الخفي، وشيطان الإنس بما هو معلوم يزخرف ويزين ويدعوه علانية إلى المعصية والمنكر بأي ثوب كان، يعني سواء كان بثوب ناصح مشفق، أو كان ذلك بطريق المُكاشَرة فيقول له: دعك من هذا، لماذا أنت تضيع شبابك وتبقى على حال من حبس النفس على الطاعات؟ افعل ما بدا لك ولربما عيّره، ولربما آذاه، فهذا كله من فعل شيطان الإنس، وابن القيم ينتصر لهذا بقوة، وأن شياطين الإنس هؤلاء يزينون المنكر، وأنهم داخلون في ذلك كما قال الله -عز وجل-: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [سورة الأنعام:١١٢]، فقوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} يحتمل هذا، ويحتمل أن يكون متعلقاً بقوله: "يوسوس" يعني يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس، فالحاصل أن قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} هذان القسمان عائدان إلى الموسوس في صدور الناس الذي يوسوس فيهم، يعني الفاعل مَن يصدر منه الوسوسة، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى من تقع عليه الوسوسة، وكلام أهل العلم في هذا كثير جداً ولكن حاصله ما ذكرتُ، والله تعالى أعلم.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، برقم (٥١٠).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني لأحدث نفسي بالشيء لَأن أخرّ من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة))[٥]، ورواه أبو داود والنسائي.

آخر التفسير، ولله الحمد والمنة، والحمد لله رب العالمين

شيخ الإسلام -رحمه الله- له كلام جيد في هاتين السورتين، وكذلك الحافظ ابن القيم، ولكنه كثير جداً، وفيه نفائس، طبعًا يصعب الإتيان عليه كاملًا؛ لأنه كثير جداً، فلا أدري هل تريدون أن نستعرض لكم جملًا منه ولو بالمضمون أو ترجعون إليه أنتم ويُكتفى بما ذُكر؟، لكن الاطلاع عليه على الأقل ولو بطرف أو أطراف منه مهم، لتدرك ماذا قال في هذه القضية، كذلك الحافظ ابن القيم، كلام ابن القيم أكثر بكثير في بدائع الفوائد، نترك المكرر؛ لأن فيه أشياء مكررة من كلام شيخ الإسلام، وأحيانًا استطراد، ففي قوله: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** كل ما فلقه الرب فهو فلَق، فهو يحملها على العموم ولا يخص ذلك بالصبح، ومضى الكلام على هذا، ونقل أقوال السلف في ذلك قول الحسن: الفلق كل ما انفلق من شيء كالصبح والحب والنوى إلى آخره، ونقل كلام الزجاج: إذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر، وأن بعضهم قال: الفلق الخلق كله، يعني أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، أي رب كل شيء من شر كل ذي شر، فيدخل فيه الصبح، وهكذا معنى "وقب" دخل في كل شيء إذا فُسر الغاسق بالليل، يقول: فالقمر آية الليل، وقال: وكذلك النجوم تطلع فتُرى بالليل، فأمره بالاستعاذة من ذلك، وهذا أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلاماته، والدليل مستلزم للمدلول، يعني هو يربط بين من قال: إنه القمر، أو النجم، أو الليل، يقول: هذه كلها متلازمة، لا تحتاج إلى ترجيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عائشة قال: ((استعيذي بالله من شر هذا الغاسق))[٦]، شيخ الإسلام يقول: هذا داخل فيه قطعًا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الأمة بمعاني القرآن، وما ينطق عن الهوى، فهو مما يدخل في هذا العموم، يقول: فإذا كان شر القمر موجودًا فشر الليل موجود، ثم بدأ يتكلم على القمر، وأن الاستعاذة أيضًا حاصلة منه مقصودة، ويكون هذا كقوله عن المسجد حيث ذكر أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرتُ بعضها من كون النبي -صلى الله عليه وسلم- يحمل الآية على معنى، والسياق فيما هو أعم من ذلك، فيكون المعنى الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- يدخل فيها دخولًا أوليًا، يقول: فالقمر أحق ما يكون بالليل من الاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة؛ ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار،

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، برقم (٥١١٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٩٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٣٢٣)، وقال محققوه: "حديث حسن من أجل الحارث وهو ابن عبد الرحمن القرشي، خال ابن أبي ذئب، فقد تفرد بالرواية عنه ابن أبي ذئب، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن سعد: كان قليل الحديث، وقال ابن معين: هو مشهور، وقال أحمد: لا أرى به بأساً، وانفرد علي بن المديني بتجهيله، ولم يتابعه على ذلك أحد".

فيتوسلون بالقمر وبدعوته، ويقول: والقمر وعبادته، وذكر عن أبي معشر البلخي أن له مصحف القمر، يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه، فشيخ الإسلام يقول: القمر مقصود، والليل كذلك، وكل هذا داخل فيه، يقول: فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عمومًا، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب، يقول: وهو الزمان الذي يعمّ شره، ثم خص بالذكر السحر والحسد، فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة، لكن بالاستعانة بالأشياء كالنفث في العقد، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضًا إما بالعين، وإما بالظلم، وباللسان، واليد، يعني قد لا يكون عائنًا ولكن حسده يفرغه بالظلم، باليد، بالعدوان، بالسطو، وبالكلام والوقيعة في الأعراض، والانتقاص ونحو ذلك، يقول: وخص من السحر النفاثات في العقد وهنّ النساء، والحاسد الرجال في العادة، ويكون من الرجال ومن النساء، والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء هو شر منفصل عن الإنسان، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس، يعني هذه التي في سورة الفلق أشياء منفصلة خارجة عنه، يقول: وفي سورة الناس ذكر الوسواس الخناس فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان، يعني أن مبدأ ذلك من الوسوسة، يقول: ففيها -يعني الناس- الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه؛ لأن النفس توسوس، يقول: وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عمومًا وخصوصًا؛ ولهذا قيل فيها: برب الفلق، وقيل في هذه: برب الناس، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، لاحظ هنا المناسبة على قول من قال: إنه الصبح، المناسبة بين الصبح وبين الشر، الشر يكون غالبًا في الظلام، هناك ارتباط بين الظلام والشر، كما أن هناك ارتباطاً بين الصبح والخير وانتشار الخير، يقول: **{إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}** [سورة الأنعام:٩٥] بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، لاحظ هذا الارتباط، فالق الحب والنوى يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، يعني هذا في غاية المناسبة لرقية المسحور، يقول: وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحّه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، الذي فلق الخلق قادر على إزالة هذا الضيق عند هذا، يقول: وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق، هنا يربط بين هذه الألفاظ، المستعاذ به مع المستعاذ منه، يعني وجه المناسبة، يقول: والرب الذي خلق للناس ما تحصل به منافعهم يُستعاذ به مما يضر الناس، فيُطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام المقدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الله -عز وجل- الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع، يقول أيضًا: ولا منافاة بين تفسيره بالليل وبالقمر؛ فإن القمر آية الليل، وتكلم على من فسره بأن القمر إذا حصل له شيء من الخسوف ربط بين هذا وبين المعنى المراد، يقول: فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب انتقالًا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأسفل الأقرب، فجعلت أربعة أقسام:

الأول: من شر المخلوقات عمومًا، والثاني: من شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب كالثريا وسلطانه الذي هو القمر، ودخل في ذلك السحر، وذكر نوعًا من السحر الذي هو أعلى السحر وأرفع السحر.

الثالث: شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام.

الرابع: الحاسد وهي النفوس المضرة، يقول: فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور، ثم خص في سورة الناس الشر الصادر من الناس والإنس وهو الأرواح المضرة، يقول: وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخر وهو أن المستعاذ منه هو الشر، كما أن المطلوب هو الخير إما من فعل العبد أو من غيره، ومبدأ فعله للشر هو الوسواس الذي يكون تارة من الجن وتارة من الإنس.

يعني شيخ الإسلام يرى أن الموسوس **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** أن هذا يرجع إلى الوسواس، كقول ابن القيم، يقول: وتارة من الإنس، وحسم الشر بحسم أصله ومادته أجود من دفعه بعد وقوعه، فإذا أعيذ العبد من شر الوسواس الذي يوسوس في الصدور فقد أعيذ من شر الكفر والفسوق والعصيان، يقول: فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد، وأما الشر الصادر من غيره فسورة الفلق، فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عمومًا وخصوصًا، ويقول: القول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن المعنى من شر الموسوس من الجِنة ومن الناس، من شياطين الإنس والجن، يعني **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** أي الذين يوسوسون في الصدور سواء كان جنيًا أو إنسيًا، هذا الموسوس فهو يرجح هذا، يعني أن الاستعاذة من شر الموسوس من الجِنة ومن الناس في صدور الناس، أي أنه أمر بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، ويقول: إن قوله: "من الجنة والناس" لبيان الوسواس أي الذي يوسوس من الجِنة ومن الناس في صدور الناس، فإن الله تعالى قد أخبر بأنه قد جعل **{لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** يقول: وإيحاؤهم هو وسوستهم وليس من شرط الموسوس أن يكون مستترًا عن البصر بل قد يشاهد، قال تعالى: **{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا}** [سورة الأعراف:٢٠]، يقول: يعني أنه جاء لهما بصورة يعرفانها مكشوفة، وليس بخفاء، يقول: وهذا كلام مَن يُعرف قائله، ليس من قبيل الشيء الذي يُلقى في القلب لا يُدرى ممن هو، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، يقصد أن آدم كان يعرف أن الذي قال له هذا هو الشيطان، ويقول أيضًا: والنفوس لها وسوسة كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}** [سورة ق:١٦]، فهذه توسوس به نفسه لنفسه كما يقال حديث النفس، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها..))[٧] الحديث، يقول: فالذي يوسوس في صدور الناس نفسُه وشيطانُ الجن وشيطانُ الإنس، يقول: والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجِنة ووسوسة الإنس وإلا فأي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط مع أن وسوسة النفس وشيطان الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن؟، فالاستعاذة عامة من هؤلاء وهؤلاء، ثم ذكر قول الفراء: إن المراد من شر

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، برقم (١٢٧).

الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس يعني الطائفتين من الجن والإنس، وإنه سمى الجن ناسًا كما سماهم رجالًا، يعني الذين تقع عليهم الوسوسة من الجن ومن الإنس، يقول: وسماهم نفرًا، يقول: فهذا ضعيف، يقول: فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع، يقصد أنه محمول على الظاهر المعروف المتبادر، يقول: وأيضًا فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان وليست وسوسة الجن معروفة عند الناس، وإنما يعرف هذا بخبر ولا خبر هنا، وكون الشيطان يوسوس في صدور الجن شيخ الإسلام يقول كما يقول ابن القيم: لا نعرف هل هو يوسوس في صدورهم أو لا؟، ثم قد قال: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** فكيف يكون لفظ الناس عامًا للجنة والناس؟ وكيف يكون قسيمًا للشيء قسمًا منه؟ فهو يجعل الناس قسيم الجن، ويجعل الجن نوعًا من الناس، وهذا كما يقال: أكرم العرب من العجم والعرب، فهل يقول هذا أحد؟ يعني يقول كما يقول ابن القيم، **{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}** مَن هؤلاء الذين تقع عليهم الوسوسة؟ من الجن والإنس، فيقول: كيف يقول: يوسوس في صدور الناسِ الناسُ والجنُّ، يعني يفسر الناس بالناس؟ يقول: هذا لا يتأتى وإذا سماهم الله رجالًا لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناسًا، ردَّ على ابن جرير ومن قال بقوله، يقول: وإن قدِّر أنه يقال: جاء ناس من الجن –يشير إلى الأثر عن ابن مسعود –رضي الله عنه– فذاك مع التقييد، يعني يقصد ناساً من الجن، أما إذا أطلق الناس فلا يكونوا إلا الإنس، يقول: كما يقال: إنسان من طين وماء دافق، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس، وقد قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}** [سورة النساء:١]، فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء مع أنه يخاطب الجن والإنس، يقول: والرسول –صلى الله عليه وسلم– مبعوث إلى الجنسين لكن لفظ الناس لم يتناول الجن، لذا يقول: "يا معشر الجن والإنس"، وكذلك قول الزجاج: إن المعنى من شر الوسواس الذي هو الجنة ومن شر الناس فيه ضعف، وإن كان أرجح من الأول؛ لأن شر الجن أعظم من شر الإنس، فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ولا يستعيذ إلا من بعض الجن؟ ما معنى قول الزجاج؟ الزجاج يقول: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ}** كأنه راعى المعنى الذي ذكرتُ لكم أن الوسواس الخناس هو الجن، الجن هو الذي يخنس إذا ذكر الله، فالزجاج يقول: من شر الوسواس الخناس من الجِنة ثم تقف، ثم: والناس، يعني أنت تستعيذ من شر الوسواس الخناس من الجن، وتستعيذ من شرور الإنس، يعني شرور الإنس هي عائدة إلى ما قبلها –الوسواس الخناس–، وإنما هذا يفسره ما بعده من قوله: "من الجنة" ففصل بين الجنة والناس، يعني أنت تستعيذ من شر الوسواس الخناس من الجن وتستعيذ من شرور الناس، يعني كأنه يحتاج إلى تقدير.

يقول: لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ولا يستعيذ إلا من بعض الجن، يعني فقط الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، استعاذ من كل الإنس –"والناس"– لكن الجن فقط ما استعاذ من كل شرورهم، قد تكون شرورهم غير الوسوسة، فهو استعاذ فقط بنوع من شرورهم، هذا على قول الزجاج ورد عليه يقول: كيف يستعيذ من كل الناس والجن فقط بنوع وهو الوسواس الخناس؟، يقول: وما دام هؤلاء عندهم شرور وهؤلاء عندهم شرور استعذ منهم كلهم، من الجن والإنس، يقول: ويكفي

أن المسلمين كلهم يقرءون هذه السورة من زمن نبيهم ولم يُنقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة، أي قول الزجاج، والقول الآخر الذي رده من أن "من الجنة والناس" هؤلاء هم من تقع عليهم الوسوسة، يقول: والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا، وإنما فيها القول الذي نصرناه كما في تفسير معمر عن قتادة **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}**، قال: إن في الجن شياطين، وإن في الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فبيّن قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، ونقل أيضًا عن زيد بن أسلم يقول: قال: الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس، فبيّن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين، وكان يقول: شياطين الإنس أشدّ على الناس من شياطين الجن، شيطان الجن يوسوس ولا تراه، وهذا يعاينك معاينة، إلى أن قال: والوسواس أصل كل شر يضرهم؛ لأنه مبدأ الكفر والفسوق والعصيان، وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم، وإذا لم يكن لأحدهم ذنب فكل ما يصيبه نعمة في حقه وإذا ابتُلي بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته ويأجره، وإذا قدر عدم الذنب مطلقًا لكن هذا ليس بواقع منهم، فإن كل بني آدم خطاء إلخ، يقول: فكان الوسواس مبدأ كل شر، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم وملكهم وإلههم من شره فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم، فهو جزاء على أعمالهم كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس، وكما يحصل من العقوبات السماوية، وهم لا يستعيذون من شر المخلوقات مطلقًا كما استعاذوا في سورة الفلق، بل من الشر الذي يكون مبدؤه في نفوسهم، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس -هنا العبارة فيها شيء- يعني أنهم يستعيذون به ليعيذهم، الشاهد أنه ذكر كلامًا في هذا يرجع إلى ما سبق، يقول: فإن قيل: فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس فإنه تابع لوسواس الجن، قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجن ونوع من نفوس الإنس، يقول: وقد قيل: إنما خص الناس بالذكر؛ لأنهم مستعيذون، -أي هنا لماذا قال: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**؟- قيل: لأنهم مستعيذون، أو لأنهم المستعاذ من شرهم، ذكرهما أبو الفرج، وليس لهما وجه؛ فإن وسواس الجن أعظم، ولم يذكره بل ذكر الناس؛ لأنهم المستعيذون، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته، لاحظ هنا لماذا هذه الأسماء الثلاثة؟ مستعاذ به، يقول: ويستعيذون أيضًا من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم ومن الجنة، فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم، والذي يرد عليهم، يقول: وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلها، فإن الوسواس أصل كل كفر وعصيان، يقول: وهو أصل الشر كله، فمتى وُقي الإنسان شره وقي عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال؛ فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس، ووُقي عذاب الله في الدنيا والآخرة، فإنه إنما يعذب على الذنوب وأصلها من الوسواس، ثم إنْ دخل في الآية الوسواس وغيره بحيث يكون قوله: **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ}** استعاذة من الوسواس الذي يعرض له والذي يعرض للناس بسببه فقد وُقي ظلمه، وإن كان إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه، يقول: والوسواس من جنس الحديث والكلام، ويقول: وهو نوعان: خبر، وإنشاء، فالخبر إما عن

ماض وإما عن مستقبل، يعني الوساوس التي يلقيها الشيطان إما في أشياء ماضية سابقة، وإما في أشياء يترقبها في المستقبل، يقول: فالماضي يذكّره به، والمستقبل يحدثه بأن يفعل أمورًا، أو أن أمورًا ستكون بقدر الله، أو يكون ذلك من فعل غيره، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة، هذا في الأخبار، والإنشاء أمر ونهي وإباحة، والشيطان تارة يُحدث وسواس الشر، وتارة ينشئ الخير –هنا خطأ في العبارة، والظاهر أنها ينسيه الخير–، وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس، يعني يجعل هذا الإنسان ينشغل بحديث النفس عما هو بصدده مثلًا فيسهو في صلاته، ينسيه أمورًا كان ينبغي أن يفعلها، **{وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}** [سورة الكهف:٦٣]، وينسيه الخير، **{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى}** [سورة الأنعام:٦٨]، فهنا يغفل الإنسان، فقد يقع في موقف كان ينبغي ألا يكون منه، ونحو ذلك، يقول: وثبت في الصحيحين عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط))[٨]، يعني حتى لا يسمع التأذين، وأن الشيطان يحول بين المرء ونفسه، ويقول له: اذكر كذا في الصلاة، فينسيه كم صلى، ويقول: ويذكره بأمور ماضية يحدث بها نفسه، مما كان في نفسه، من أفعاله ومن غير أفعاله، فينسى المصلى كم صلى، فيشغله بأمور أخرى، يقول: وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد، والأماني فكما قال الله –تبارك وتعالى– عن قول الشيطان لما قضي الأمر: **{إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}** [سورة إبراهيم:٢٢] فهذا وعد الشيطان في أمور مستقبلة، يقول: **{وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ}** [سورة النساء:١١٩-١٢٠] في المستقبل، وقال: **{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء}** [سورة البقرة:٢٦٨]، ويقول: وقد قال غير واحد من الصحابة كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه عن اجتهادهم: إن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، يعني أن الشيطان يلقي في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة، يعني يقع الإنسان في الخطأ بسبب الشيطان، وإن لم يكن صاحب هذه الاعتقادات آثمًا؛ لأنه استفرغ وسعه، كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان، ولا مما يحدث به نفسه، وكما قال الله: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [سورة البقرة:٢٨٦]، قال الله: قد فعلت، والنسيان للحق من الشيطان، والخطأ من الشيطان، ويقول: ولما نام النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لأصحابه: ((ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه الشيطان))[٩]، وقال: ((إن الشيطان أتى بلالًا فجعل يُهدِّئه كما يُهدَّأ الصبي حتى نام))[١٠]، وقيل: النعاس في مجلس الذكر من الشيطان، وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان، والنائم لا قلم عليه، وذكر الرؤيا وأنها ثلاثة، وأن بعضها من الشيطان، وقولَه: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ}** [سورة الأعراف:٢٠١]، فالحاصل أنه يتكلم على هذه المعاني وأثر الشيطان فيها، فيقول هنا: قد عَرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر، فلا يقبله بل يعاقبه على ذلك، فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلته.. إلخ.

---

٨ – رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، برقم (٦٠٨)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، برقم (٣٨٩).

٩ – رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم (٦٨٠).

١٠ – رواه مالك في الموطأ مرسلاً، برقم (٢٦)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٦٨٧).

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير))[11]، يقول: وقد قال الله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [سورة آل عمران:١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة، فشيطان الإنس الذي يخوِّف من العدو فيُرجف ويخذِّل، يعني يضخم أولياء الشيطان من الإنس ويخوِّف منهم، يقول: عكس هذا {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ} [سورة الأنفال:١٢]، وقال: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [سورة إبراهيم:٢٧] يعني هذا من الله، وقد يكون بواسطة الملائكة، أما الشيطان فإنه يلقي المخاوف والوساوس والخواطر السيئة، يقول: والتثبيت يعني يثبت الذين آمنوا فيجعل الإنسان ثابتًا لا مرتابًا إلى آخره.

هذا كلام شيخ الإسلام -رحمه الله-، وكان مما قال: "فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة، فإن كان مما ألقي في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو الوسواس المذموم، وهذا فرق مطرد لا ينتقض"[12].

سؤال: كيف نوفق بين ضعف الشيطان "إن كيد الشيطان كان ضعيفًا" وشدة وطأة الوسوسة على الناس؟

{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [سورة النساء:٧٦]؛ ولهذا كان خناساً فهو يخنس إذا ذكر الله -تبارك وتعالى-، وهذا يدل على ضعفه، فلا يكون الخلاص من ذلك إلا باللجأ إلى الله -تبارك وتعالى- والتوكل عليه، وقوة الصلة به، فإذا ضعفت هذه الصلة، وحصلت الغفلة قوي سلطانه وكيده للعبد، أو على العبد، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، فإذا أسلم إليه قياده تمكن منه، وتسلط عليه فاشتدت وطأته على هذا الإنسان، أما من كان معتصمًا بالله -عز وجل- يستعيذ به، ويلجأ إليه، وصلته بربه قويه فـ{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ} [سورة النحل:٩٩]؛ ولهذا في القتال أتباع الشيطان من هؤلاء الكفار والمشركين الله -عز وجل- قال: {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [سورة النساء:٧٦]، فهذا يدخل فيه هؤلاء الأتباع، فهم مهما كان عندهم من القوة والإمكانات والقُدَر والسلاح إلى آخره يبقى أنهم لا يثبتون أمام أهل الإيمان حقًا الذين فعلوا ما أمرهم الله به من الصبر والتوكل عليه والاستعداد ما استطاعوا واجتماع الكلمة، ولهذا قال: {وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} [سورة آل عمران:١١١] كيده ضعيف، وأولياء الشيطان مثله لا يثبتون، إذا كان هؤلاء الذين يمثلون عصابات تقاتل -وهم أوزاع متفرقة- أرعبوا من بأقطارها، انظر إلى حالهم في بلاد الشام هنا وهناك، عصابات متفرقة كيف لو كان هؤلاء عندهم جيش واحد، وعندهم سلاح، وعندهم قوة مادية؟، ستتطاير هذه الدول التي يسمونها الدول العظمى وغير العظمى مثل الكرتون، لا يمكن أن يثبت عند الله -عز وجل- أحد، ولكن إنما يؤتون من قبل أنفسهم، فهذا الرعب الذي يعلنه أعداء الله صباح مساء من أهل الإيمان على قلتهم وضعفهم والظلم والواقع عليهم هذا يدل على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[13]، إذا كان هؤلاء يخافون من أعداد قليلة، وقليلة العدة، ومتفرقة، متشتتة ويخافون منها هذا الخوف، كيف لو وُجدت قوة فعلًا

---

١١ - سبق تخريجه.

١٢ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٥٢٩).

١٣ - رواه البخاري، أول كتاب التيمم، برقم (٣٣٥)، ومسلم، أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٣).

متحدة عندها مقومات؟، لا يبقى أمامها أحد لا من الرافضة، ولا من اليهود، ولا من النصارى ولا من غيرهم، هذا معنى كون كيد الشيطان ضعيفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية في معاني سورة الفلق

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، أما بعد:

"فهذه اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية في معاني سورة الفلق.

{الْفَلَقِ}: فَعَل بمعنى: مفعول، كالقبْض بمعنى: المقبوض، فكل ما فلقه الرب فهو: فلق، وفي الفلق أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص، فإنه فسر بالخلق عمومًا، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى، وهو غالب الخلق، وفسر بالفجر.

ومن قال بأنه وادٍ في جهنم، أو أنه اسم من أسماء جهنم فهذا أمر لا تعرف صحته، لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقلٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأما تفسيره بالنار أو بجب أو شجرة فيها فهذا مرجعه إلى التوقيف.

{مِن شَرِّ مَا خَلَقَ} شر المخلوقات عمومًا.

{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، **{غَاسِقٍ}** هو: الزمان الذي يعم شره، ووجَّه حديث عائشة[1]: أن القمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل، فأمْرُه بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل، ودليله، وعلاماته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجودًا فشر الليل موجود.

ظاهر كلام الشيخ في معنى **{غَاسِقٍ}**: أنه يرى الغاسق هو: الليل، ومن هنا يأتي ليشرح دلالة أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عائشة الاستعاذة من القمر، وتسميته له: غاسقًا، وربط ذلك بالليل، وذكر الحكمة من تخصيص الاستعاذة من شر الليل دون النهار، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة؛ ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار.

{إِذَا وَقَبَ} هو: دخول الظلام، ويدخل في **{شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** ما يؤثِّر من العلويات في السفليات من الليل، وما فيه من الكواكب كالثريا، وسلطانه الذي هو: القمر، ودخل في ذلك سحر التَمَرْسُحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه.

---

١ - رواه الترمذي، في أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة المعوذتين، برقم: (٣٣٦٦)، ولفظه: عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إلى القمر، فقال: ((يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب))، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم: (٢٤٣٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٧٩١٦).

{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، النفاثات في العقد هن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام، {النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، خص من السحر {النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} وهن النساء، والحاسد: الرجال في العادة، ويكون من الرجال ومن النساء.

{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، هي: النفوس المضرة سفهًا، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة، إما بالعين، وإما بالظلم وباللسان واليد.

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، رب الناس الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره، وهو رب العالمين كلهم، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم.

{مَلِكِ النَّاسِ}: الذي يأمرهم وينهاهم، فإن الملك يتصرف بالكلام، والجماد لا مُلك له؛ فإنه لا يعقل الخطاب، لكن له مالك، وإنما المُلك لمن يفهم، والحيوان يفهم بعضه بعضًا.

{الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}: يتناول وسوسة الجن، ووسوسة الإنس، وإلا فأي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن؟.

{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}: لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}: الذي يوسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، القول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن معنى الآيات: من شر الموسوِس {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} من شياطين الإنس والجن، الصحيح: أن الاستعاذة من شر الموسوِس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فأمر بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن الذي يوسوس في صدور الناس، نفسه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس.

قول من قال: إن المعنى: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ومن الناس، وإنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس...".

يعني هذا القول الآخر في المسألة: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [سورة الناس:١-٥]، من هم الناس على هذا القول؟، الذين يُوسوَس في صدورهم -الجنة والناس-، فيكون {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} تفسيرًا للناس الذي قبلها.

هذا الذي رده شيخ الإسلام، ورده ابن القيم، وقال: لا معنى له.

"وإنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس، فسماهم ناسًا كما سماهم رجالاً: قول ضعيف.

وكذلك قول من قال: إن المعنى من شر الموسوِس في صدور الناس من الجن، ومن شر الناس مطلقًا، قول ضعيف.

يعني: على الوقف، {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ}، فاستعاذ من الموسوس الذي يوسوس في صدور الناس من الجن، الشيطان من الجن، ثم قال: {وَالنَّاسِ} يعني: أعوذ أيضًا، كما أعوذ من الشيطان الموسوس إلى آخره، استعاذ من الإنس عمومًا وليس فيما يتصل بالوسوسة، يعني: والناس أعوذ بك منهم.

"ولم يُنقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة.

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} أصل الاستعاذة مأخوذ من الستر، ومأخوذ من لزوم المجاورة، وأصلها: أعْوُذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين، وتسكين الواو.

{الْفَلَقِ}: الصبح والنور، {الْفَلَقِ} هو: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، واعلم أن الخلق كله فلق؛ وذلك أن فلقًا فَعَلٌ بمعنى مفعول.

{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}، الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، ولذا كانت استعاذات النبي -صلى الله عليه وسلم- جميعًا مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه.

{مَا} هنا موصولة ليس إلا، وفيها عموم تقييدي".

يعني: ليست مصدرية، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}، ليست بمعنى: من شر خلقه على أنها مصدرية، يقول: هنا موصولة، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}: من شر الذي خلق.

"وفيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى.."

ما معنى عموم تقييدي؟ العموم التقييدي هو الذي يسميه الشاطبي: العموم الاستعمالي، يعني: لِمَا يصلح له، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}: فهنا عموم؛ الاسم الموصول يفيد العموم، {شَرِّ مَا خَلَقَ}، يعني: شر كل ما خلق، الله خلق الجنة فهل فيها شر؟ الله خلق الملائكة فهل فيهم شر؟.

الجواب: لا.

الحور العين هل فيها شر؟.

لا، إذًا هذا غير داخل، طيب هو من جملة ما خلق الله، يقال: هذا عموم تقييدي، وليس بعموم إطلاقي، هو العموم الاستعمالي الذي يذكره الشاطبي، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف: ٢٥]، يعني: كل شيء مما جاءت لتدميره، لم تدمر السموات ولا الأرض ولا الجبال ولا البيوت أيضًا، فبقيت بيوتهم، وهكذا في مكة {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص: ٥٧]، مع أن هناك ثمرات في الدنيا لا تجبى إلى مكة، لا في ذلك الوقت، ولا الآن، لكن ما اعترض المشركون وقالوا: كيف وهناك ثمرات لا تجبى؟، وهكذا في قول الله -تعالى- عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل: ٢٣]، قالوا: ما أوتيت ملك سليمان مثلاً، ولا لحية سليمان، وإنما أوتيت من كل شيء يصلح لملكها، يسمونه العموم الاستعمالي.

س: هل يمكن أن يسمى يا شيخ عمومًا عرفيًّا؟.

ج: هو لا يسمى عموماً عرفياً؛ لأن القضية ليس لها علاقة بالعرف، وإنما يمكن أن يقال: العام المراد به الخصوص مثلاً، وليس العام المخصوص؛ لأن الأصوليين يقولون: إنه عام مخصوص، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥]، خصصه الحس، نرى السموات والأرض ما دمرت، والجبال، الحس خصص، {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧]، يعني: خصصه الحس، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الزمر:٦٢]، يقولون: ذاته ليست داخلة بهذا قطعًا، فهو خالق وليس بمخلوق، قالوا: خصصه العقل، فيجعلون العقل مخصصًا، والحس مخصصاً.

ويرِد عليهم الشاطبي، ويقول لهم: العقل لا يخصص، والحس لا يخصص، إنما هذا تعرفه العرب من خطاب من خاطبها بحسب السياق، وبحسب المقام، وتحمل كلامه على هذا؛ ولذلك لا يعترضون.

فالشاطبي لا يرى أن تكثر هذه المخصصات، وهذا كلام مهم؛ لأن هؤلاء –أعني: المتكلمين الذين يكثرون من هذه المخصصات– هم يُوَهِّنُون ويضعفون العام، ثم يقولون: أكثر النصوص من قبيل العمومات، فدخلها التخصيص؛ ولهذا يقولون: عامة النصوص العامة دخلها تخصيص؛ فإذا دخلها تخصيص أضعفها، يعني: لم تبقَ على عمومها، هذا كلامهم هم.

إذًا: هذه العمومات دخلها التخصيص فأضعفها، ومن ثَمَّ يقولون: إنها تفيد الظن من حيث الدلالة، غير الثبوت، يعني: حتى لو كانت متواترة من القرآن.

طبعًا الرد عليهم أنواع، فمن الوجوه التي تقال في الرد: إنه غير صحيح أن أكثر العمومات مخصصة، وابن القيم يسرد نصوصًا كثيرة جدًّا، حشدًا من النصوص، يقول: أين التخصيص؟ مثل: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [سورة الزمر: ٦٢]، **{وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [سورة آل عمران: ١٨٩]، ونحو ذلك، وهم يقولون: العام الباقي على عمومه نادر، هذا كلام المتكلمين، فيفضي إلى الطعن في النصوص، ومن ثَمَّ العقل عندهم هو المعول عليه في العقائد، يريدون أن يصلوا إلى هذا.

"وفيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى: من كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد: الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، والشر مسند في الآية إلى المخلوق، إلى المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما، فدخل في قوله: **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}** الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر، من حيوان أو غيره، إنسيًّا كان أو جنيًّا، أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة، وأي نوع كان من أنواع البلاء

{غَاسِقٍ}: الليل، ولا منافاة بين من قال: سمي غاسقًا؛ لظلمته، أو من البرد".

البرد هذا قال به بعض أصحاب المعاني، كما سبق، مع أنه بعيد، وإن كان له وجه في اللغة، والمشهور أنه لظلمته، لكن شيخ الإسلام لديه القدرة على الجمع بين الأقوال، حتى لو كان في بعضها بُعد، وانظر طريقته في الجمع:

"فإن الليل بارد مظلم، إلا أن الظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى من الاستعاذة من البرد الذي في الليل.

وأما تسمية النبي –صلى الله عليه وسلم– القمر غاسقًا فذلك حق، ولا يناقض التفسير الأول؛ بل يوافقه ويشهد لصحته، فالقمر هو آية الليل وسلطانه فيه، فهو أيضًا غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب.

وأما تخصيص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما فهذا يحتمل أن يدخل اللفظ عليه بفحواه، ومقصودٌ، وتنبيهٌ".

يعني: من باب دلالة الإيماء والتنبيه مثلاً، فهو ينبه، كون هذا النجم إلى الثريا أو غير ذلك، هذه النجوم كالقمر إنما تظهر في الليل، يعني: بهذا الاعتبار، يعني: تحتاج إلى معالجة حتى تدخل في المراد،

يعني: ليست هي المعاني المتبادرة، المعنى الأساس، المعنى القريب، وإنما تحتاج إلى شيء من المعالجة يعني: ورشة، والأصل: أن مثل هذه المعاني يمكن أن تضم إلى المعنى الأساس، لكن أن يقال: هي المرادة هنا الإشكال.

"وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

{إِذَا وَقَبَ}، الوقوب هو: الدخول، من قولهم: وقبت العين: إذا غارت، وركيّة وقْباء: غار ماؤها فدخل في أعماق التراب، ومنه الوقب للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوبًا: إذا دخل.

وأما تفسير **{وقب}** بمعنى: إذا دخل القمر في الخسوف، أو غاب خاسفًا فقول ضعيف، ولا نعلم به سلفًا".

مع أن شيخ الإسلام يقول هذا، لكن هو أيضًا يقول: يمكن أن يدخل تحت المعنى، بمعنى أنه إذا خسف فإن خسوفه منذر لعقوبة، وآية يخوف الله بها عباده، فإذا خسف فمعنى ذلك هذه أمارة للخوف؛ فيفزع الناس إلى الصلاة.

"النفث هو: النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما".

بعض من فسر "النفث" قالوا: النفخ، وذكرت لكم عندها أنه ليس كما ذكروا، هو أعلى من مجرد النفخ، النفث مع ريق، هذه أعلى مراتب الرقية.

"**{النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر".

لاحظ أن الكثيرين أو أن البعض فسره بالنفوس السواحر، يعني: ما يختص بالنساء، شيخ الإسلام يقول: النساء السواحر، طبعًا لا ينفي عن الرجال، لكن لما كان السحر في النساء أكثر خُص النساء.

"فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلِمَ خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟.

فالجواب المحقق: أن النفاثات هنا: الأرواح والأنفس النافثات، لا النساء النافثات".

هذا غير الكلام الأول: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، يعني النساء السواحر، وبعد ذلك أورد هذا السؤال: لماذا خص الإناث؟ فجاء الجواب غير مطابق لما قبله، يعني: كان الأصل أن يقال: إنه خص النساء لكثرة وقوع السحر منهن، كما أجاب أهل العلم في مثل هذا السؤال لمن فسره بالنساء النفاثات، هنا جاء الجواب غير مطابق لما قرر قبله، قال: هن الأرواح والأنفس النافثات.

فالجواب المحقق: أن النفاثات هنا الأرواح والأنفس النافثات، لا النساء النافثات.

يعني: هذا الجواب يصلح أن يكون سؤالاً على النحو الآتي: أن يقال: لماذا جاء التأنيث في النفاثات؟ لا أن يفسر النفاثات بالنساء، ثم يقال: المقصود النفوس النفاثات، لا، لكن أحيانًا النساخ لربما، وأحيانًا يسبق القلم، وأحيانًا الذهن، وهذا يحصل للإنسان، الإنسان عرضة، ابن جرير ذكرت لكم في بعض المناسبات أني كنت أريد أن أختصر تفسيره، ليس أختصر؛ لكن أقتصر على المعنى الإجمالي الذي يذكره؛ لأنه دائمًا يذكر المعنى الإجمالي بعد الآية، بحيث يصلح أن يقرأ في المساجد، تفسير إجمالي حرفيًّا لابن جرير، لكن ما منعني من هذا –سنوات وأنا أقلب النظر فيه، حتى ظهر اختصار الدكتور بشار عواد معروف في سبعة مجلدات– أن ابن جرير –رحمه الله– رأيته في بعض المواضع يقرر في المعنى

الإجمالي معنى، ثم يذكر الأقوال والآثار، ثم يقول: قال أبو جعفر، يرجح بين الأقوال، ثم يذكر معنى غير الذي قرره في المعنى الإجمالي، فتحيرت في هذا، هل أقر المعنى الأعلى، أو المعنى الجديد الآخر؟ هذا في بعض المواضع، هذا كبير المفسرين ابن جرير، فالإنسان الله يريه من عجزه ومن ضعفه أشياء عجيبة، أنا أحيانًا إذا سمعت درسًا أو كلمة أو محاضرة قبل أن تخرج أستغرب أحيانًا كيف قلت هذا الكلام؟ كيف نطقت هذه العبارة؟ كيف أخطأت في هذه الآية؟.

"لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها؛ فلهذا ذكرت **{النفاثات}** هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم.

{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، أصل الحسد هو: بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها.

{إِذَا حَسَدَ} بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل؛ لأن الرجل قد يكون في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود، لاهٍ عنه".

يعني: النفوس فيها حسد كامن، فالاستعاذة هنا حينما تتحرك دواعيه، تنبعث النفس بهذا الداء، وإلا فكما يقول شيخ الإسلام في موضع آخر: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه -يعني: يدفعه-، واللئيم يبديه.

"فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله؛ فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، وقد يكون الرجل عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

جاء ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابدّ، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن".

يعني: هذا الحاسد الذي يحسد الإنسان قد لا يكون عائنًا، يعني: قد يحسده ثم بعد ذلك يبدأ يفتح له "هشتاج" يسمونه في "تويتر"، ثم بعد ذلك يبدأ يطعن فيه، ويسب فيه، ويشتم فيه، وينتقصه، ويتتبع عيوبه وعثراته، وهكذا في المجالس يظلمه، ويأخذ ماله، وغير ذلك، من شر الحاسد، قد لا يكون بالعين.

"**{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** يعم الحاسد من الجن والإنس، والوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس والحسد يعمهما".

يعني: "الأخص" ليس المقصود أنه يختص به، وإنما أعلق به فقط، وإلا فكما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجارية التي رأى في وجهها سوادًا: ((إن بها النظرة))[٢]، ففسرت النظرة بأنها: عين الجن، فالجن يصيبون بالعين، لكن غالب ما يصيب الناس إنما هو من الإنس، والوسوسة غالبًا ما تكون من الجن، وقد تكون من الإنس أيضًا.

"والوسواس والحسد يعمهما، فكلا الشيطانين حاسد موسوس، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعًا.

---

٢ - رواه البخاري، في كتاب الطب، باب رقية العين، برقم: (٥٧٣٩).

الحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو مِن أمر خارج عنه، وأما الوسواس فإنما يؤذي العبد من داخلٍ بواسطة مساكنته له".

يعني سورة الناس، وسورة الفلق.

فالفلق: أشياء خارجة عنه، الشرور التي في العالم، الغاسق، الظلمة، الشرور التي تنتشر فيها، **{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**: السواحر، ومن شر هؤلاء الحسدة.

بينما سورة الناس: **{الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، فهذا في داخل النفس.

"وأما الوسواس فإنما يؤذي العبد من داخلٍ بواسطة مساكنته له، وقبوله منه".

قبوله منه يعني: إذا وجد المحل القابل أثرت هذه الوسوسة، سواء كانت في العبادة، في الطهارة، في الصلاة، في غير ذلك، أو كانت في أمور أخرى، أوهام يلقيها في قلبه، فيضيق صدره، وتتحسر الآمال في عينه، يترقب، يتخوف، إلى آخره.

"ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس الذي تقترن به الأفعال والعزم الجازم؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر؛ فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة".

يعني: بمعنى أن الإنسان إذا استقبل هذه الوساوس والخواطر كما هي في أولها، ثم بعد ذلك ساكنها حتى صار ذلك عزيمة مصممة فإنه يؤاخذ على هذا العزم، فكيف لو تحول إلى فعل في الخارج؟! فتبدأ خواطر، ثم بعد ذلك تكون إرادات، ثم بعد ذلك تتحول إلى عزيمة، ثم الفعل.

"**{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}**، رب الناس: فيه إضافة الربوبية المتضمنة لخلقه، وتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، ذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

{مَلِكِ النَّاسِ}: فيه إضافة المُلك، فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق، الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم، ومعاذهم، وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام لهم إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا داهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

{إِلَهِ النَّاسِ} فيه إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يَشْرَكه في ربوبيته ولا في ملكه أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه، كرر الاسم الظاهر الناس ولم يوقع المضمر موقعه تحقيقًا لهذا المعنى، وتقوية له".

يعني: قال: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ}** ما قال: ملكهم، إلههم، وإنما قال: **{مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ}**، والأصل: أن العرب تكني بالضمير اختصارًا.

"تحقيقًا لهذا المعنى، وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو؛ لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، الوسواس: فَعْلال من وسوس، وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس، فيحترز منه، فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد، ومن هذا وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر -والله أعلم- أنها سميت وسوسة؛ لقربها، وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس، وهو الأذن، فقيل: وسوسة الحلي؛ لأنه صوت مجاور للأذن، كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في آذان من يوسوس له، ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها".

هنا يتكلم على تكرار الحروف.

"فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ؛ ليفهم منه تكرير مسماه، فلما كان الموسوس يكرر وسوسته، ويتابعها قيل: وسوس.

الوسواس المستعاذ منه في الآية هو: الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، يرى أن الوسواس وصف للشيطان لا مصدر لفعل الوسوسة، وساق الأدلة على ذلك".

لأن بعض أهل العلم يقول: هو مصدر، **{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ}** يعني: الوسوسة التي تقع في صدور الناس، هو يقول: لا، هو وصف للشيطان.

"**{الْخَنَّاسِ}** هو: فعّال من خنس يخنس، إذا توارى واختفى، وحقيقة اللفظ: اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، الخناس مأخوذ من هذين المعنيين: الاختفاء والرجوع، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه من أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به انخنس وانقبض، كما ينخنس الشيء؛ ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمُّعٌ ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معًا".

كلام ابن عباس السابق الذي استشكلناه في البداية، ثم جاء كلام ابن جرير يوافقه: أنه يدل على الرجوع وأيضًا الانقباض، خنس بمعنى: انقبض، وكذلك رجع، كيف رجع؟ هو يوسوس ثم يرجع، يلقي الوساوس ثم يرجع، وإذا استعاذ انقبض، وهنا ظاهر كلام ابن القيم أنه جمع بين الأمرين؛ لكن كأنه يميل إلى أن رجوعه بسبب الاستعاذة، إذا استعاذ تراجع، كلام ابن عباس وكلام ابن جرير: أنه يلقي الوساوس ثم يرجع، يعني: يكرر كرة بعد كرة.

"جيء من هذا الفعل بوزن فعّال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس؛ إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذل عند ذكر الله أحيانًا".

يعني: ليس ذلك قليلا أو نادرًا، وإنما كثير الخنوس.

"بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر.

تأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه: **{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}** ولم يقل: من شر وسوسته؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: **{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ}** يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته، وأشدها شرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي: الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة".

يعني هنا لم يقل: من شر وسوسته، بل قال: **{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، ذكر أسوأ صور هذه الوسوسة التي هي في صدور الناس، فهي أكثر تأثيرًا وإفسادًا.

"**{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**: صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانيًا، وأنها في صدور الناس ثالثًا.

تأمل السر في قوله تعالى: **{يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} لم يقم دليل على أن الجنيَّ يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي".

يعني هنا يرد على الذين قالوا: إن قوله: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** تفسير للناس في قوله تعالى: **{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، من هؤلاء الناس؟ جن وإنس، فمن وجوه الرد التي يرد بها ابن القيم على هذا القول: أنه ما عندنا دليل على أن هذا الوسواس يدخل في صدور الجن، ويوسوس لهم، هذا أحد الوجوه.

"تقسيم الناس إلى الجن والإنس قول ضعيف، وساق وجوه ضعف القول".

هذا وجه آخر في الرد على هذا القول، هو طبعًا قاله بعض أهل اللغة، لكن يقول: هذا ضعيف، يقول: نعم رجال من الجن، صحيح، هذا ثابت في القرآن، لكن الناس يصدق على الجن، لا.

طيب وأثر ابن مسعود "ناس من الجن"؟، يناقِش هذا على كل حال.

"**{النَّاسِ}** اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم".

يعني ابن القيم في مثل: "جاء ناس من الجن"، إلى آخره، يقول: هذا بقيد، لكن إذا أطلق الناس فهم البشر، إذا قيل للجن: ناس فيقال: ناس من الجن، أما عند الإطلاق فلا يكون إلا الإنس، هذا جوابه على أثر ابن مسعود –رضي الله عنه.

"**{النَّاسِ}**: اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم.

{الْجِنَّةِ}: لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، لا أصلاً ولا اشتقاقًا ولا استعمالاً، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجن سموا جنًّا من الاجتنان وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر؛ فسموا جنًّا لذلك.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينها اشتقاق أوسط، وهو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد".

تعرفون الاشتقاق: أكبر وأصغر، ابن القيم هنا يذكر الأوسط كجبذ وجذب، لاحظ الحروف نفسها، ذاك صار فيها تقديم وتأخير، نفس الحروف: جبذ وجذب، وأحيانًا يكون بتغيير شيء من هذه الحروف: الناس من الأُنْس مثلاً، فهذا يحتمل كالناس والأُنْس، أو أنه من ناس ينوس بمعنى: الحركة.

"لا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس.

الإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله تعالى: **{آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا}**، أي: رآها، ومنه: **{فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا}** أي: أحسستموه ورأيتموه، فالإنسان سمي إنسانًا؛ لأنه يونس أي: بالعين يُرى، فالناس من النوس، وهو: الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة، فأصل ناس: نَوَس، تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا.

القول بأن الناس مقلوب من أنس بعيد، والأصل عدم القلب.

القول بأنه من النسيان، وسمي الإنسان إنسانًا؛ لنسيانه، وكذلك الناس سموا ناسًا؛ لنسيانهم: ليس بشيء.

الصواب: أن قوله: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس في صدور الإنس، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس".

هذه الاختيارات؛ لكن هذا لا يغني عن الرجوع إلى الأصل، وهذا يغنيك ببيان ما رجحه شيخ الإسلام وابن القيم في هذا الكلام الطويل الممتد، كما قلت: مجموع كلام الشيخين في نحو مائة وأربعين صفحة، لكن الكلام والتعليقات الجميلة، والهدايات، وكذا فهذا شأن آخر، لاسيما في كلام ابن القيم.